البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، مقرونة وموضحة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدد من النسخ المطبوعة، مفهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

البداية والنهاية

الإمام الحافظ المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي
الشهير بابن كثير
(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، معنونة وواضحة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدد من النسخ المطبوعة، مفهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

الجزء الأول

اعتنى به
حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

بيت الأفكار الدولية
INTERNATIONAL IDEAS HOME

● الأردن

هاتف +962 6 566 0201
فاكس +962 6 566 0209
ص.ب 927435 عمان 11190 الأردن

● السعودية

هاتف +966 1 404 2555
فاكس +966 1 403 4238
ص.ب 220705 الرياض 11311 السعودية

المؤتمن للتوزيع

هاتف +966 1 243 5423
فاكس +966 1 243 5421
ص.ب 69786 الرياض 11557 السعودية

فروع المؤتمن

السعودية

مكة المكرمة	02 5742532
المدينة المنورة	04 8344355
جدة	02 6873547
الدمام	03 8264282
القصيم	06 3260350
أبها	07 2296615

الأمارات العربية المتحدة

هاتف +971 6 574 8455
فاكس +971 6 574 8466
ص.ب 32920 الشارقة

www.afkar.ws
e-mail:ideashome@afkar.ws

مقدمة الطبعة

إن الحمد للّه نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللّه من شرور أنفسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالنا، مَنْ يهدِهِ اللّه فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللّه وحدَه لا شريكَ لـهُ، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا، اتَّقُوا اللّه حَقَّ تُقاتِه، ولا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلمون﴾.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا، اتّقوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زوجَها وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا اللّه الذي تساءلونَ به والأرحامَ، إنَّ اللّه كانَ عليْكُم رقيباً﴾.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا اللّه وقولوا قولاً سديداً يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويغفِرْ لكم ذنوبَكُم ومَنْ يُطِعِ اللّه ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ علمَ التاريخ دُوِّنَ قديماً من القرن الثاني، موزَّعاً ومجموعاً، ولم ينتظم في نقدٍ واضحٍ عند مَنْ كتبَ من المتقدمين، كما لم ينتظم علم الحديث والرواية بقواعد واضحة قبلَ مجيء النقاد من مثلِ البخاري وأبي حاتم في آخرين. ونُلاحظُ أنَّ السرعةَ كانت أكبر في تنظيم قواعد الحديث ومعرفة ما صحَّ وضَعُفَ، ولم يكن لغيره مثل هذه الأهمية ككتب التاريخ واللغة ونحوهمامن التي اعتنت بالأسانيد في ذكرِ أخبارِها وأشعارها. والسببُ في ذلك هو أنَّ علمَ الحديث علمٌ يقومُ عليه الشريعةُ من حلالٍ أو حرامٍ، فلا يمكن أن يبقى هَمَلاً دونَ أن تصنَعَ فيه يد بشرية وعقلٌ واعٍ في توضيحِ معالم عليها ينتظمُ البشرُ، ولم يكن هذا واضحاً في التاريخ واللغة والتفسير، فتأخَّرَ التعاملُ معَها، وانتشرَ بعدُ إعادةُ صياغة كتابتها بطريق علمية عندهم، وصارَ فيها التقديسُ لقدمِ المادةِ، لا أنَّ المادة في ذاتها صحيحة.

ومعَ بعد الشّقةِ بين الأحداثِ وزمانِنا هذا صارَ هناك كثيرٌ من الحواجز والموانع حالت دونَ تحقيق كثير من الأمور إلاَّ بقواعد أقلّ تقريباً مما لو كان ذلك في السابقِ. ولكن يمكنُ عملُ شيءٍ ما من تحقيق التاريخ واللغة، مع الاحتمالِ للخطأ بين الحين والآخر لعدم الإمكان من التثبت منَ الأحداثِ من خلالِ الإسناد والسياقِ نفسِه.

ونحنُ إذا نظرنا في كتاب الطبري الذي يُعَدُّ عمدةً في الموسوعيةِ والإحالة إلى الأسانيد التي ذكرها لم نجد فيها تمييزاً بين ما صحَّ وضَعُفَ، وكذا جاء ابن الأثير فأهمل مصادره ونقولـه وصاغ التاريخ بطريقةٍ تستميلُ القارئ لسهولةِ عباراتِه، واستطرادِه. وكذا ابن خلدون أهملَ مصادرَه واكتفى في تقديمه لهذا التاريخ أنه حاوَلَ الإجادةَ فيه. فلم نستفد من تاريخه غير مقدمته وغير الحقبة التي كان شاهداً فيها.

أمَّا هذا الكتابُ فكان الكتاب الأولَ الذي حاوَلَ أن يكون موضوعياً في نقوله وعباراته ونقداتِه، وامتازَ على غيرِهِ بالكثير، في حين امتازَ الآخرونَ عليه بأقلَّ من ذلك. ويمكن تفصيلُ ميزاته في تاريخه بالآتي:

١ - أنَّه أفادَ من علمه في الحديث والرواية، فحاوَلَ الحكم على كثيرٍ من الرواياتِ بانقطاعٍ وضعفٍ وصحةٍ، وهذا مما لم يكن في كتب التاريخ الأخرى، وأخصُّ من هذا بالذكرِ أكثرَ فترة السيرة النبوية والخلفاء الراشدين.

٢ - وقد نقلَ في الحديث عن بداية الخلقِ وقصص الأنبياء والسابقين كثيراً من المنقولِ عن بني اسرائيل، منبهاً في مقدمةِ كتابِه أنَّه لم يذكُرها إلاَّ للاعتبار، إذْ قد تصحُّ وقد

تُكَذِّبُ، وذلك بعد أن استبعد قسمين آخرين من الإسرائيليات، القسم المصدَّق وهذا يُغني عنه غيرُه من نصوص الآيات والأحاديث النبوية، والقسم المكذَّب، وهذا لا حاجةَ لنا به.

وقد نبَّه عند بعض الأحاديث المرفوعة أنَّها إسرائيليات، مرجحاً ذلك من الإسناد والمتن، كما فعل في قصة خلق التربة يوم السبت، وقصة الفُتون.

٣- ويمتازُ ابنُ كثير أيضاً بتوثيق النصوص من أصحابها، فهو حينما يوردُ الأحاديث والآثار ينقل ذلك بإسنادِه إلى صاحب الكتاب الحديثي أو التاريخي، وقد استفدنا من هذا الإيراد أنه جاءَ ببعض الأخبار التي لم تصل إلينا مسندةً من الكتاب الأصل، لفقدانه أو أنه لم يُطبع.

وهذا التوثيقُ وهذه الإحالةُ امتازَ بها ابن كثير عن المؤرخين، فابن الأثير وابن خلدون والمسعودي ونحوهم لم يذكروا مصادرَ نقولِهم، وإن ذكروا فبالكاد مصادر معدودة نادراً.

وكذا الطبري إنما اعتمدَ على أسانيده وهي معدودة كما نبهنا عليها في مقدمة كتابِه، إذْ على نحوِ عشرة أسانيد يقومُ معظمُ الكتابِ، ولم نجد فيه ذاك التنويع في المصادر كما فعل ابن كثير، لذا نجدُ لأحد الكتابين ميزة لا نجدها في الآخر، معَ الاعترافِ بأصالةِ الطبري في روايته، وتبعية ابن كثير في النقل.

٤- وامتازَ أيضاً بأنه أوردَ جُملةَ موسوعاتٍ في كتابه قد تُعَدُّ في خارجِ التاريخ، كما فعل في شمائل النبي ﷺ، ودلائل نبوته، وأشراط الساعة ونحوها.

٥- وامتازَ أيضاً بالإفادة من كبار المؤرخين فنقلَ عنهم الكثير، كما فعل في أبي شامة، والذهبي، والبرزالي، فقد نقل عنهم الكثير منسوباً إليهم.

٦- وعمل بطريقة الذهبي رحمه الله في إيراده السنة لبيان أحداثها ووقائعها، ثم يذكر التراجمَ لمن توفي في هذه السنة مستقياً أكثر ذلك من كتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي. ويتركُ منهم غيرَ المشتهرين.

وأحالَ كثيراً من التراجم في القرنين الأولين وبعد ذلك بقليل إلى كتابٍ آخرَ له في الرجال، جمعَ فيه الكثير من الرواة في الأسانيد، وسيأتي ذكره في مؤلفاته.

٧- وامتازَ أيضاً بذكرِ نحو خمسين سنة من الوقائع التي كانَ شاهداً عليها، لا سيَّما أخبار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ومحبيه.

ميزة الطبعة:

١- قوبلت الطبعةُ على ثلاثِ نُسخٍ مطبوعةٍ، كانَ أفضلَها طبعة الدكتور التركي، وأتممتُ هذه النسخةَ من مجموعِ النسخِ المذكورة، لأني وجدتُ في كلٍّ منها نصوصاً لم أجدها في الأخرى. فخرجت هذه الطبعةُ تامَّةً إذا وجدتُ الزيادةَ متسقةً مع النصّ والسياق، أما إذا كانت الزيادة واضحةً من الناسخ فإني لم أعتبرها إلاَّ إذا كانَ هناك فائدة من ذكرها مع التنبيه.

٢- خُرِّجت النصوص والأحاديث، واستُفيد أكثرُ ذلك من النسخ التي اعتمدتُ عليها

٣- جاءَ الكتابُ متتابعاً، وأحياناً يُذكرُ فيه كتاب كذا وكذا، ولم يكن واضحاً في بعض المواضع، فآثرتُ أن أقسمه تقسيماً يُفهم الكتابَ، وجعلتُ ذلك واضحاً في الترويسة، وهذه التقسيماتُ هي.

(بدء الخلق، قصص الأنبياء، أخبار الماضين، أخبار العرب، سيرة رسول الله ﷺ، زوجات النبي وخواصُه، شمائل النبي ﷺ، دلائل النبوة، التاريخ على السنوات من سنة ١١).

٤-كانَ في الأصل عناوين غير واضحة مثل (فصل)، وأخبارٌ كثيرةٌ غير مُعنونة، وتداخل في العناوين، وعناوين فرعية كانَ يجبُ أن تكونَ أساساً، والعكس.. مما جَعَلَ

تقسيم الكتاب وعناوينه غير متناسقة وغير مفهومة الترابط، فتصرفت فيها وحذفتُ بعضاً وزدتُ آخرَ ليتناسقَ الكتابُ، وسيشعرُ بحسنِ ذلك الصنيع من اطلعَ على طبيعةِ النسخ المطبوعة الأخرى، وسيجدُ الجهد المبذولَ في الكتاب.

وأكثر العناوين التي زدتها وبينتها كانت من بداية الكتاب إلى نهاية كتاب دلائل النبوة، فأكثر ذلك من العناوين متصرّفٌ بها، وقد وضعت لها أرقاماً متسلسلة في كلِّ كتاب منها، ووضعت رقم السنة عند كل حدث من السنوات(١-١١).

أمّا بعد ذلك فإنما هي عناوين الكتاب إلا ما جعلت بين قوسين في التراجم فهو زيادة أو أشياء يسيرة جداً في العنوان.

وقد اضطررت أحياناً أن أجعل بعض النص عنواناً، ولاسيما في الوفيات.

٥- فصَّلتُ فقراتِ الكتاب ووزعتُه توزيعاً يوضحُ للقارئ معالِمَهُ، فوَضَحَ فيه كل قولٍ وتخريجٍ وترجمةٍ وحدثٍ وتعليقٍ ونحوها. في حين أنَّ النسخ جميعاً لم يأتِ فيها هذا التفصيل، نعم جاءَ بعضُ ذلك، ولم يُفصل جلُّ الكتابِ فيها، مما جعلَ عُسراً في متابعة النصّ إلاّ بقراءةٍ كاملة للموضوع.

٦- وضحتُ التراجم بطريقة تسهلُ على الباحثِ البحثَ عنها، وجعلتُ ذلك بحرفٍ مميّزٍ وأمامَه مربَّعٌ أسودُ، للفتِ النظر إليه مباشرةً، وجعلتُ ذلك المربعَ أمام الاسم مباشرةٍ أو الشهرة دون الكنية أو اللقب إذا كانا تابعين للاسم، ولم يكونا مشهورين.

٧-ترجمتُ للإمام ابن كثير ترجمة مطولة مستقصياً ذلك من خلالِ كتابه وما كُتب عنه.

٨- اعتنيتُ بالإخراج الفني للكتابِ من حيثُ الترويسةُ والتوزيعُ والطباعة.

٩- ألحقتُ به مجموعة من الفهارس:

فهرساً للآيات وفهرساً للأحاديث والآثار، كلاهما معزوٌّ إلى أرقام الصفحات.

وفهرساً للأعلام المترجَمين عزوتُ مواضعها للسنة التي جاءت الترجمة فيها، وذلك لإفادة كثير من الباحثين عن التراجم من أجل معرفة سنة الوفاة، ونلاحظ أن اضطراباً وقع عند ابن كثير في الوفيات لأمرين،

الأول: وهم في بعض التراجم فكان يذكر الترجمة في موضع ويخطئ حين النقل فيضعه في موضع آخر، أو يكون نقل ذلك خطأ من مصدر وقع فيه الناسخ بالخطأ، وذلك كسيبويه، فإنه أورده في وفيات سنة (١٨٠)، ثم أورده سنة (٢٨٠).

الأمر الثاني: أنّ هناك خلافاً في تعيين سنة الوفاة، فكان مرّة يذكره هنا ومرة هناك.

وفهرسا للموضوعات بما فيه من عموم وتفصيل.

١٠- أمّا كتابُ «النهاية» المتعلق بأشراط الساعة فقد كنا عازمين أن نضعَه في هذه الطبعة، ولكن أرجأنا ذلك ليكونَ في مجلدٍ وحدَه فيما بعدُ إن شاء اللّه تعالى، لأمور: منها أن لا يكبرَ حجم الكتاب، ولأنَّ موضوعَه خارج عن التاريخ، ولأنَّ طالبه يقتضيه منفرداً أكثر من أن يكون مجموعاً إلى غيرِه.

وأسأل اللّه تعالى أن يكون هذا الكتابُ مخدوماً بما نَرَى، والحمدُ للهِ ربّ العالمين.

حسان عبد المنان

١٧/ربيع الثاني/ ١٤٢٥

٧/ حزيران/ ٢٠٠٤

ترجمة الحافظ ابن كثير

تمهيد:

لم تكنْ تلكَ الحقبةُ من الزمنِ طبيعيَّةً، وكان الناسُ في شدَّةٍ من أمرهم بسببِ اجتياح التتار لَهُم وانقضاضِ الفرنج عليهم تارةً وظهورِ الخلافِ الشديد بين الأمراءِ والسلاطين تارةً أخرى، حتى كانَ يُغيِّرُ العشراتُ منهم في فترةٍ وجيزة تَتْبعُ تأثُراً سياسيّاً واضحاً في البلاد.

ولكنَّ الشامَ وما حولها من أهمِّ البِقاعِ التي عليها الأعينُ، ولكونِها قلبَ العالمِ، تَسَلَّطَ عليها الناهبونَ من كُلِّ مكانٍ، فكم من آلافٍ شُرِّدُوا، وأكثرُ منهم قُتلوا، وأكثرُ منهم قِيدوا للعبودية، وجمعٌ كبيرٌ يشهَدُ التاريخُ أنَّهم لم يجدوا ما يأكلون، فماتوا جوعاً.

ولا شَكَّ أنَّ مثلَ هذه الانشغالاتِ إذا دَبَّتْ في أُمَّةٍ أصابتْها بإعياءٍ وتخلُّفٍ عن الواقعِ، وعدمِ كبيرِ التفاتٍ إلى ما يَحلُّ بهم، وقد كانت الفرصة للتفكير آنذاك أقلَّ من أن تُستغلَّ في جمعٍ من الأحداث كبيرٍ، لا تَسْمَحُ معَه النظراتُ والاعتقاداتُ إلى مصيرِ الأُمَمِ.

أهلكتهُم أراجيفُ التتار الذين أبادوا مئاتِ الآلافِ دونَ حسابٍ، وتعرَّضَ جميعُ الناسِ للفناءِ والجوعِ والقحطِ والفيضانات...في تلك الأثناء تَسَلَّمَ قازان بنُ أرغون ملكاً على التتارِ، وأقنعَه نائبه بالإسلامِ، فدخل فيه وتلفَّظَ بالشهادتين، وفشا الإسلامُ فيهم، وكان سنة (٦٩٤).

ولم يكن هذا مانعاً بعدُ من مزاولة أعمالهم في النَّهبِ والدَّمار، ففي سنة (٦٩٩هـ) عَلِمَ قازان بقتلِ صاحب مصرَ ونائبِهِ واضطراب الأمورِ، فأقبلَ في جيشٍ عظيم قاصداً الشام، فانتصر عليهم ودَخلَ دمشقَ. وشرعوا في المصادرةِ والعَسفِ، ونهبوا الصالحيةَ، وسبوا أهلَها، وأتعبوا الخلقَ... وجرَتِ الأحداثُ إلى حرقِ جامع العُقَيبة، ودار السعادة، ودارِ الحَديثِ، والعادليةِ، والنُّوريةِ... وخربت تلك الناحيةُ كلُّها، وهرب أهلُها.

ثمَّ أذِنَ قازانُ ـ وكانَ نازلاً بالمَرْجِ ـ لجيشه في نهب دمشق، وباتَ الخلقُ في ليلة اللّه بها عليمٌ، إلى أن أمَرَ بالكَفِّ عنهم، وحَمَلَ التتارُ المكاسبَ والغنائمَ، ورحلوا من دمشق، وجعلوا قبجق نائبهم بدمشق ومعهُ السِّلحدارُ.

ثم رجعَ السلطانُ محمدُ بن قَلاوون المهزومُ أمامَ التتار، فأرسلَ جَيْشه مَعَ سَلاَّر، فَدَخلَ في خدمته قُبجُقُ، وبكتمر السلحدار والبكى، فصفحَ عنهم السلطانُ.

وفي سنة (٧٠٠) كثُرت الأراجيفُ بمجيءِ التتار، وانجفلَ الناسُ واشتدَّ الأمر، ووصلَ السلطان العَريشَ، ووصَلَ قازان إلى حلبَ، والناسُ في حال لا يعلمُها إلا اللّه، فنادوا: مَنْ قَدَرَ على السفر فليُبادر... وهكذا في سلسلةٍ من المآسي والأضاحي، تناوَلَت الناسَ من كُلِّ جانب، يطولُ شرحُها وبيانُها، ولكن يمكنُ أن نُلَخِّصَ أحداثَ ذاك القرن بجملةِ أمورٍ:

١ ـ اجتياحُ التتار، وتعاون الفرنج على إزالة معالمِ الدولةِ الإسلامية، وتحطيم رمزِ الخلافة ووَحْدةِ البلاد، ولم يتغير كبيرُ شيءٍ عند التتار بإسلامهم، بل كانوا كغيرهم يقاتلونَ ملوك الروم حيناً، ويُحالفونَهم حيناً آخر في وجهِ الدولة المملوكية، ثم يتبادلون الهدايا.

٢ ـ متابعةُ تطهيرِ البلادِ من آثار الحملاتِ الصليبية، فحرَّرَ الظاهرُ بيبرس قيساريةَ، وأرسونَ، ويافا، والشقيفَ، وأنطاكيةَ، وطبريةَ، والقصيرَ، وحصن الأكرادِ، وحصنَ عكَّا، وصافيا... وناصفَهم على المرقبِ، وبانياسَ، وبلادِ انطرسوسَ، كما حرَّرَ سيفُ الدين قلاوون مدينةَ طرابلسَ. وحرَّرَ الأشرف خليلُ بن قلاوون عكا، كما سُلِّمت صور وصيدا قيادتُهما إلى الأشرف، فتحرَّرَ الساحلُ بالجملةِ من الفِرنْجِ.

٣ ـ نهايةُ التتار عام (٧٣٦هـ) بموتِ ملكِهم خربندا بنِ أرْغونَ، فاختلفوا من بعدِهِ، وتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ، ويصفُ ابنُ كثير بأنه كانَ من خيارِ ملوك التتار وأحسنهم طريقةً، وأثبتِهم على السُّنَّةِ، وأقومهم بها. وقَدْ عَزَّ أهلُ السنةِ بزمانِه، وذلَّت الرافضةُ بخلافِ دولةِ أبيه.

٤ ـ قامَت أحلافٌ بين المسلمين بسببِ نزاعاتهم تَمَّتْ على الشكلِ الآتي:

الحلف الأول: الفرنج والصالحُ إسماعيلُ صاحب دمشق، والناصرُ داودُ صاحب الكَرَكِ، والمنصورُ صاحبُ حمص. وضَمَّ الحلفُ الثاني: الخُوارَزْميةَ والصالح أيوبَ صاحبَ مصر. ودارت الدائرةُ على الفِرنجِ وحلفائهم من المسلمين.

وفي فترةٍ ثانية انقلَبتِ التحالفاتُ، فضَمَّ الحلفُ الأولُ: الفِرنجَ

والجيشَ المصري. وضمَّ الحلفُ الثاني: صاحبَ الشام، والخليفةَ العباسي في بغداد. فأرسلَ الخليفةُ نجم الدين البادرائي بينَ صاحب مصر وصاحب الشام، وأصلحَ بينَ الجيشين، وكانت الحربُ قد اشتدَّت بَينهُم، وقد مالأَ الجيشُ المصريُّ الفرنجَ ووعَدَهم أن يُسَلِّمَ إليهم بيتَ المقدسِ إنْ نصروهم على الشاميِّين.

٥- كثرةُ الفتنِ والمِحنِ بين المسلمين أنفُسِهم بسببِ اختلافِ مدارسِهم الفقهية، والعقيدية، فنجدُ أنَّ الوُشاة والحُسَّاد يكثُرُ نشاطُهم للإيقاعِ ببعضِ الأئمةِ، لحيازة المناصبِ عندَ الدولةِ، وإيقاء التلاميذ في جانبِهم، وقد أورَدَ ابن كثير من هذا كثيراً من الأمثلةِ في كتابه «البداية والنهاية»...

٦- حدوثُ بعضِ الزلازل والكوارثِ الطبيعية من فيضانات وسيول... فزادت النكباتُ أُخرى...

وهذا كلُّه سَبَّبَ ضَعْفا في التجارةِ، وغَلاءً في الأسعار، وتدنِّياً في المعيشةِ... على خلافِ هذه الأوضاع في قصورِ السلاطين.

في خِضَمِّ هذه الأجواء وُلِدَ مترجَمُنا، يعاني أحوالاً سادَتْ قبلَه، ومصائبَ حَلَّت في زمنِه... رحمهُ اللّه وأئمةَ عصرِه رحمةً واسعة[١].

اسمُه ونسبُه:

هو الإمام الحافظ إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرِ بن ضَوْء بن كَثير بن زَرع البُصْرَويُّ، القرشيُّ، الدمشقيُّ، الشافعيُّ، الفقيهُ المُفسِّرُ المؤرِّخ المحدِّثُ، عمادُ الدين ابنُ الخطيبِ، شهاب الدين، المعروفُ بابنِ كَثير.

وقَد ينسب إلى جدِّه، فيقال: إسماعيلُ بن كَثير[٢]. وقالَ النُعيمي بعد «ابن كثير» الأولى: ابن عَنونَى[٣]. وزادَ ابن ناصر، وابنُ قاضي شُهبةَ، والداوودي، وابنُ كثير بعد «ابن كثير» الأخيرة: ابن ضَوْء[٤].

ولم يذكر النُعَيْميُّ: «ابن كثير» الأخيرة[٥]. واختلفوا في «زَرع»، ففي مطبوعاتِ ابن ناصر، وابن قاضي شُهبةَ: «ذرع»[٦]. وفي مطبوعة «البداية»، و «طبقات المفسرين»: «درع»[٧].

وزاد الحُسَيني، والداوودي، وابنُ ناصر: «أبو الفداء»، وهو كذلك في مقدمة «اختصار علوم الحديث». للمؤلف[٨]. وزادَ ابنُ حجر: «القيسيّ»[٩]. وزاد الفاسيُّ: «الأُمويُّ»[١٠].

وُلِدَ في قريةٍ شرقيِّ بُصرى، تُدعى «مجيدل»[١١]، سنةَ إحدى وسبعِ مئةٍ.

وقالَ ابنُ العماد: سنة سبع مئة[١٢]. وقال الذهبيُّ: وُلِدَ بعدَ السبعِ مئةٍ أو فيها[١٣].

سببُ تسميته:

كانَ والدُه قد تزوَّجَ من والِدة المترجَم، ومِن أخرى قبلَها أنجبت إسماعيلَ -وهو أكبرهم- ثم يونُس وإدريسَ، وأنجبت والدةُ ابن كثير: عبدَ الوهاب، وعبدَ العزيز، ومحمداً، وأخواتٍ عدةً، ثم المترجَم وهو أصغرُهم.

قال ابنُ كثير: وسُمِّيتُ باسم الاخ إسماعيلَ، لأنه كانَ قد قَدِمَ دمشقَ فاشتغلَ بها بعدَ أنْ حفظَ القرآنَ على والِدِه، وقرأ مقدمةً في النحوِ، وحَفِظَ «التنبيه» وشرحه على العلامةِ تاجِ الدين الفَزاريِّ،

---

(١) انظر «مقدمة البداية والنهاية» للمحققين، «دول الإسلام» للذهبي، «العبر» له أيضاً، «البداية والنهاية» للمؤلف.

(٢) كما في «طبقات الشافعية» لابن قاضي شُهبة ٣/ ٨٥.

(٣) «الدارس في تاريخ المدارس» ١/ ٣٦.

(٤) «الردّ الوافر» ص١٦٢، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٥، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١، «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣.

(٥) «الدارس» ١/ ٣٦.

(٦) «الرد الوافر» ص١٦٢، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٥.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١.

(٨) «ذيل التذكرة» ص٥٧، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١، «الردّ الوافر» ص١٦٢

(٩) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٣، وكأنه خطأ.

(١٠) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧١.

(١١) كذا في «البداية» ١٤/ ٣٣، و «الرد الوافر» ص١٦٢: وعند الحُسيني ص٥٧: «مجدل».

(١٢) «شذرات الذهب» ٦/ ٢٣١.

(١٣) «تذكرة الحفّاظ» ٤/ ١٥٠٨.

وحَصَّلَ المنتخبَ في أصولِ الفقه. قالَه لي شيخُنا ابنُ الزملكاني. ثُمَّ إنَّه سَقَطَ من سطح الشاميةِ البرانية، فمكثَ أياماً وماتَ، فَوَجَدَ الوالدُ عليه وَجْداً كثيراً ورثاه بأبياتٍ كثيرةٍ. فلمَّا وُلِدْتُ له أنا بعدَ ذلك سَمَّاني باسمِه، فأكبرُ أولادِه إسماعيلُ، وأصغرُهم إسماعيلُ»[١].

ترجمة والد المؤلف:

هو الخطيبُ شهابُ الدين أبو حفص عمرُ بنُ كثير بن ضَوْء بن كثير القُرشيُّ من بني حصيلة، وهم ينتسبونَ إلى الشرقِ وبأيديهم نَسَبٌ، وَقَفَ على بعضها الشيخُ المِزِّيُّ فأعجبَه ذلك وابتهجَ به. قالَ ابنُ كثير: فصارَ يُكتبُ في نَسبِي بسبب ذلك: القُرشيُّ.

من قريةٍ يُقالُ لها «الشركوين» غربيَّ بُصرى، بينَها وبينَ أذرعات. وُلِدَ في حدود سنة أربعين وستِّ مئةٍ، واشتغل بالعلم عند أخوالِه بني عقبة ببُصرى. قرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفةَ، وحَفِظَ «جُمَلَ الزجاجي»، وعُنِيَ بالنحوِ والعربيةِ، واللغةِ، وحَفِظَ أشعارَ العرب، حتى كانَ يقولُ الشعرَ الجيدَ الفائقَ الرائقَ في المدح والمراثي وقليل من الهجاء، وقرَّرَ بمدارس بصرى بمنزل الناقةِ شماليَّ البلدِ حيثُ يُزارُ، وهو المبركُ المشهورُ عندَ الناسِ، واللّه أعلمُ بصحةِ ذلك.

ثم انتقلَ إلى خطابة القريةِ شرقي بُصرى، وتمذهَبَ للشافعي، وأخذَ عن النواوي والشيخ تقيِّ الدين الفَزاريِّ، وكانَ يكرمُه ويحترمُه.

فأقامَ بها نحواً من اثنتي عشرةَ سنة، ثُمَّ تحوَّلَ إلى خطابةِ «مجيدل» القرية التي منها الوالدة. فأقاما بها مدةً طويلةً في خيرٍ وكفاية وتلاوةٍ كثيرة، وكانَ يخطبُ جيداً، وله مقبولٌ عندَ الناس، ولكلامِه وَقْعٌ لديانتِه وفصاحتِه وحلاوتِه. وكانَ يُؤْثِرُ الإقامةَ في البلادِ لِما يَرَى فيها من الرفقِ وجودِ الحلالِ له ولعيالِه.

تُوفي -رحمه اللّه- في شهر جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وسبعِ مئةٍ، في قرية «مجيدل» ودُفِنَ بمقبرتِها الشمالية عندَ الزيتون.

قال ابنُ كثير: وكنتُ إذْ ذاكَ صغيراً ابن ثلاثِ سنين أو نحوها، لا أدركُه إلاَّ كالحُلم.

ومن شعره ما أنشدَ لنفسه سنةَ سبعٍ وثمانين وستِّ مئة:

نأى النومُ عن جفني فبتُّ مُسَهَّداً ... أخا كَلَفٍ حلفَ الصبابةِ موجدا
سميرَ الثريَّا والنجومِ مدلهاً ... فمِنْ ولهي خلتُ الكواكبَ رُكَّدا
طريحاً على فرشِ الصبابةِ والأسى ... فما ضَرَّكم لو كنتُم لي عُوَّدا
تُقَلِّبُني أيدي الغرامِ بلوعةٍ ... أرى النارَ من تلقائها لي أبردا
ومَزَّقَ صبري بعد جيران حاجزٍ ... سعيرُ غرامٍ باتَ في القلب موقدا
فأمطرتُه دمعي لعلَّ زفيرَهُ ... يَقِلُّ فزادتهُ الدموعُ توقُّداً

وعدتُها ثلاثة وعشرون بيتاً[٢].

نشأتُه وطلبُه للعلم:

بعدَ موت أبيه -رحمهما اللّه- تَوَلَّى رعايتَه أخوهُ كمالُ الدين عبد الوهاب، فقدمَ به دمشقَ سنةَ سبعٍ وسبع مئةٍ[٣]، وقيل: سنةَ ستٍّ وسبع مئة[٤].

قالَ ابنُ كثير: وقد كانَ لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرتْ وفاتُه إلى سنةِ خمسين، فاشتغلتُ على يديه في العلم، فيسَّرَ اللّه تعالى منه ما يَسَّرَ، وسَهَّلَ منه ما تَعَسَّرَ[٥].

فسمعَ الكثيرَ مِنَ المشايخ، وأقبلَ على حفظِ المتونِ (كالتنبيهِ، ومختصرِ ابن الحاجب) ومعرفةِ الأسانيدِ والعللِ والرجالِ والتاريخِ، حتى بَرَعَ في ذلك وهو شابٌّ. وصَنَّفَ في صغرِه كتابَ الأحكام على أبوابِ التنبيه. ووقَفَ عليه شيخُه برهانُ الدين وأعجبَه[٦].

شيوخُه:

١- الشيخُ العالم، بقيةُ السلف، برهانُ الدين أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ شيخ الشافعية العلاَّمةِ تاجِ الدين أبي محمدٍ عبد الرحمن بن إمام الرواحية أبي إسحاقَ إبراهيم بن سباعٍ بن ضياء الفَزاريُّ، المصريُّ الأصلِ، الشافعيُّ. (٦٦٠- ٧٢٩).

سمعَ الحديث واشتغل على أبيه، وأعادَ في حلقتِه، وبرع وسادَ أقرانَه وسائرَ أهلِ زمانه في درايةِ المذهبِ ونقله وتحريره، ثم كانَ في منصبِ أبيه في التدريس بالبادرائية، وأشغلَ الطلبةَ بالجامع الأُمويِّ،

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣- ٣٥.

(٣) كذا في «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٤.

(٤) كذا في «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، و «الشذرات»٦/ ٢٣١.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٤.

(٦) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥ «الشذرات»٦/ ٢٣١، و «طبقات المفسرين»١/ ١١٢.

فانتفعَ به المسلمون، وقد عُرضت عليه المناصبُ الكبارُ فأباها. سمعَ منه ابنُ كَثير «صحيحَ مسلم» وغيرَه، وله تعليقٌ على التنبيهِ، فيه من الفوائد ما ليس في غيرِه، وله مصنفاتٌ كبارٌ..[١].

٢- الشيخُ الحافظ علمُ الدين أبو محمد القاسمُ بن محمد بن البرزاليُّ، مؤرّخ الشام، الشافعيُّ، (٦٦٥- ٧٣٩). وقد كَتَبَ تاريخاً ذُيّلَ به على الشيخِ شهاب الدين من حين وفاتِه ومولِد البرزالي إلى أن توفي سنةَ (٧٣٩) وهو مُحرِمٌ.

وسمع الكثير أزيدَ من ألفِ شيخٍ. وخرَّجَ له المحدِّث شمسُ الدين بنُ سعد مشيخةً لم يكملها، وقرأ شيئاً كثيراً. وكانَ متواضعاً مُحبَّباً إلى الناس. ذكره ابنُ كثير كثيراً في كتبه، فكانَ يقول: «قالَ شيخُنا»[٢].

٣- العالمُ الحافظُ شيخُ المحدثين شرفُ الدينِ أبو محمد عبدُ المؤمنِ بن خلف أبي الحسن بن شرفِ بن الخضر بن موسى الدِّمياطيُّ (٦١٣- ٧٠٥)، حاملُ لواء هذا الفَنِّ - أعني صناعةَ الحديث وعلم اللغة - في زمانه معَ كبر السنِّ والقدرِ، وعلوُّ الإسناد، وكثرةِ الروايةِ، وجودةِ الدرايةِ، وحسنِ التأليف. وترَدَّدَ الطلبةُ إليه من سائرِ الآفاقِ. وصنَّفَ ونشَر العلم، وجمعَ معجماً لمشايخه الذين لقيَهُم بالشام والحجازِ والجزيرةِ والعراقِ وديارِ مصر على ألفٍ وثلاث مئة شيخ. ولم يَزَلْ في إسماعِ الحديث إلى أن أدركته وفاتُه وهو صائمٌ، في مجلسِ الأمراء، بالقاهرة، دُفِنَ بمقابر باب النصر.[٣]

٤- الشيخُ نجمُ الدين موسى بنُ علي بن محمد الجيليُّ، ثم الدمشقيُّ، الكاتبُ الفاضل المعروف بابنِ البصيصِ (٦٥١- ٧١٦) شيخُ صناعةِ الكتابةِ في زمانه لا سيَّما في المزوجِ والمثلثِ، وقد أقامَ يُكتبُ الناسَ خمسين سنة.

قال ابنُ كثير: وأنا مِمَّنْ كتبَ عليه أثابه اللّه. وكان شيخاً حسناً بهيَّ المنظرِ يشعر جيداً. دُفن بمقابر الباب الصغير.[٤]

٥- الشيخ القاضي أبو زكريا محيي الدين يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليلِ بن فارس الشيبانيُّ الشافعيُّ (٦٤٨- ٧٢٤)، اشتغلَ على النواويِّ، ولازمَ ابن المَقْدسيِّ، وولي الحكمَ بزرعٍ وغيرِها، ثم قامَ بدمشق يشتغلُ في الجامع، ودَرَّسَ في الصارميَّةِ، وأعادَ في مدارسَ عدةٍ، إلى أن تُوفي ودُفن بقاسيون وقد قاربَ الثمانين رحمه اللّه. قالَ ابن كثير: وسمعَ كثيراً، وخَرَّجَ له الذهبيُّ شيئاً وسمعنا عليه الدارقطنيَّ وغيرَه».[٥]

٦- الشيخ المعمَّرُ القاسمُ بنُ مُظَفَّرِ بنِ نجم الدين بن أبي الثناء محمود بن تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بنِ الحسن بن هبة اللّه بن عبدِ اللّه بنِ الحسينِ بن عساكر الدمشقيُّ، الطبيبُ (٦٢٩- ٧٢٣). سمعَ حضوراً وسماعاً على الكثيرِ من المشايخ. قال ابن كثير: وقد خرَّج له الحافظُ عَلَمُ الدين البرْزالي مشيخةً سمعناها عليه في سنةِ وفاته. ووقفَ آخرَ عمره داره دار حديث، وخصَّ الحافظَ البرزالي والمزيَّ بشيءٍ مِن برِّه. ودُفِن بقاسيونَ.[٦]

٧- الشيخُ الأصيلُ شمسُ الدين أبو نصرِ بن محمد بن عماد الدين أبي الفضلِ محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة اللّه بن محمد بن يحيى بن بُندار بن مميل الشِّيرازيُّ (٦٢٩- ٧٢٣). سمعَ الكثيرَ وأسمعَ وأفادَ في عليةِ الشيخِ المِزِّي، قرأ عليه عدةَ أجزاءٍ بنفسِهِ. وكانَ شيخاً حسناً خيِّراً مباركاً متواضعاً، لم يتدنَّس بشيءٍ من الولاياتِ، ولا تدنَّسَ بشيءٍ من وظائفِ المدارس ولا الشهاداتِ، إلى أنْ تُوفيَ يومَ عَرَفَةَ ببستانِه من المِزّة.[٧]

٨- الشيخُ العلامةُ الزاهدُ ركنُ الدين أبو يحيى زكريا بنُ يوسفَ بنِ سليمان بن حماد البجَليُّ الشافعي (٦٥٠- ٧٢٢) نائب الخطابةِ، ومدرسُ الطيبية والأسديةِ، وله حلقة للاشتغال بالجامعِ،

---

(١) «البداية والنهاية»١٤/ ١٥٢، «العبر» ٤/ ٨٥- ٨٦، «معجم الشيوخ» للذهبيِّ ١/ ١٣٨- ١٣٩، «الدارس»١/ ٣٦، «ذيل التذكرة»ص٥٧، «طبقات الشافعية»٣/ ٨٥، «شذرات الذهب»٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٩٦- ١٩٧، «العبر» ٤/ ١١٤- ١١٥، «معجم الشيوخ» للذهبيِّ ٢/ ١١٥، «الشذرات» ٦/ ١٢٢، «الدُّرر الكامنة» ٣/ ٢٣٧- ٢٣٩.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٤٢، «العبر» ٤/ ١٣، «الدرر الكامنة» ٢/ ٤١٧.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٢، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٧٦.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٩، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٦٨- ٣٦٩، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤١٤.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٢، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ١١٧، «درة الحجال» ٣/ ٢٧٣، «العبر» ٤/ ٦٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٣٩- ٢٤٠.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٣، «العبر» ٤/ ٦٨- ٦٩.

يحضر بها عنده الطلبة. كانَ يشتغلُ في الفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك. ودُفِنَ قريباً من شيخه تاج الدين الفَزاريِّ رحمهما اللّه.(١)

٩- الشيخُ عفيفُ الدين إسحاقُ بنُ يحيى بنِ إسحاقَ بن إبراهيم بن إسماعيلَ الآمديُّ، ثم الدمشقي الحنفيُّ شيخُ دارِ الحديث الظاهرية (٦٤٢- ٧٢٥). سمعَ الحديثَ على جماعةٍ كثيرين منهم مجدُ الدين ابنُ تيمية صاحب الأحكام. وكان شيخاً حسناً بهيَّ المنظر، سهلَ الإسماع، يحبُّ الروايةَ ولديه فضيلة. توفي في رمضان، ودُفِنَ بقاسيون.(٢)

١٠- الشيخُ الصالحُ ضياءُ الدين أبو الفداء إسماعيلُ بنُ رضي الدين أبي الفضل المسلم بنِ الحسن بن نصرِ الدمشقيُّ، المعروفُ بابنِ الحَمَويِّ (٦٣٥- ٧٢٧). كانَ هو وأبوه وجدُّه من الكتابِ المشهورين المشكورين، وكانَ هو كثيرَ التلاوةِ والصلاةِ والصيامِ...سمعَ الحديثَ الكثير. قال ابن كثير: خَرَّجَ له البِرْزاليُّ مشيخةً سمعناها عليه وكانَ من صدور أهل دمشق. دُفِنَ بباب الصغير.(٣)

١١- الملكُ الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمدُ بنُ الملك السعيد فتحِ الدين عبدِ الملك بن السلطان الملك الصالح إسماعيلَ أبي الجيش بن الملك العادل أبي بكر بن أيوبَ، أحدُ أكابر الأمراء وأبناء الملوك (٦٥٣- ٧٢٧). كانَ من محاسنِ البلد ذكاءً وفطنةً وحسنَ عشرةٍ ولطافةَ كلامٍ، بحيثُ يسردُ كثيراً من الكلام بمنزلةِ الأمثال من قوةِ ذهنِه وحذاقةِ فهمِهِ، وكانَ رئيساً من أجود الناس. قال ابنُ كثيرٍ: كانَ له سماعٌ كثير سمعنا عليه منه، وكانَ يحفظُ تاريخاً جيداً.(٤)

١٢- شيخ الإسلام الإمامُ العَلاَّمةُ الفقيهُ المجاهدُ، القُدوةُ، تقيُّ الدين أبو العباس أحمدُ بن المفتي شهابِ الدين أبي المحاسنِ عبدِ الحليم بنِ الشيخ أبي البركات عبد السلام بن عبد اللّه بن أبي القاسمِ محمدِ بن الخضر... ابن تيميةَ الحَرَّانيُّ ثم الدمشقيُّ (٦٦١- ٧٢٨) ماتَ بقلعةِ دمشق مُعتَقَلاً، ومُنِع قبلَ وفاته بخمسة أشهر من الدواةِ والورق. بَرَعَ في التفسير، والاختلافِ، والأصلين، وكانَ يتوقَّدُ ذكاءً، ومُصنَّفاتُه تُذْكَرُ في أكثر من مئتي مجلدٍ، وكانَ رأساً في الكلامِ والشجاعةِ، قانعاً باليسيرِ، شَيَّعَه نَحوٌ من خمسين ألفاً، وحُمِلَ على الرؤوس. رحمه اللّه.(٥)

١٣- قاضي القضاة علاءُ الدين ابو الحسن عليُّ بن إسماعيلَ بنِ يوسفَ القونويُّ التبريزيُّ الشافعي. (٦٦٨- ٧٢٩) قدمَ دمشقَ سنة (٦٩٣)، وهو معدودٌ من الفُضلاء فازدادَ بها اشتغالاً، وسمعَ الحديث وتصدَّرَ للاشتغال بجامعها، ودَرَّسَ بالإقباليةِ، ثم سافرَ إلى مصرَ، فَدَرَّسَ بها في عدةِ مدارس كبار، وولي مشيخةَ الشيوخِ بها وبدمشق. وله تصانيفُ في الفقه وغيرِهِ، وكان يحرزُ علوماً كثيرة منها النحو، والتصريف، والأصلان، والفقه، وله معرفةٌ جيدة بكشّافِ الزمخشريِّ وفهمِ الحديث.. قال ابنُ كثير: وخَرَّجَت له مشيخةً سمعناها عليه، وكانَ يتواضَعُ لشيخِنا المزيِّ كثيراً. دُفِنَ بسفح قاسيون.(٦)

١٤- الصاحبُ عزُّ الدين أبو يعلى حمزةُ بنُ مؤيِّدِ الدين أبي المعالي أسعدَ بنِ عزِّ الدين أبي غالب المظفرِ بنِ الوزير مؤيِّدِ الدين أبي المعالي بنِ أسعد بنِ العميدِ أبي يعلى بنِ حمزةَ بنِ أسد بن علي بن محمد التميميُّ الدمشقيُّ، ابنُ القلانسيِّ، أحدُ رؤساء دمشق الكبار (٦٤٩- ٧٢٩) قال ابنُ كثير: سمعَ الحديث من جماعةٍ، ورواه وسمعنا عليه، وله رياسةٌ باذخةٌ، وأصالةٌ كثيرة، وأملاكٌ هائلة كافية لما يحتاجُ إليه من أمور الدنيا. ولم يزل معة صناعةٌ للوظائف إلى أن أُلزِمَ بوكالةِ بيت السلطان، ثم الوزارةِ في سنة عشر، كما تقدم، ثم عزل. وقد صُودِرَ في بعض الأحيان، وكانت له مكارمُ على الخواصِ والكبارِ. ودُفن بتربته بسفحِ قاسيون، وله في الصالحيةِ رباطٌ حسنٌ بمئذنةٍ، وفيه دار حديث وبرٍّ وصدقة، رحمه اللّه.(٧)

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٠٧، «الدررُ الكامنة» ٢/ ١١٥.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٢٤، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٥٨، «الوافي بالوفيات» ٨/ ٤٣٠، «معجم الشيوخ للذهبي» ١/ ١٦٨، «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٥، «العبر» ٤/ ٨١.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٦، «الوافي بالوفيات» ٤/ ٤٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٤١- ١٤٥، «العبر» ٤/ ٨٤ وكتب كثيرة، وأُفرِدَ بالترجمة من قِبَل عدة.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٣، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤- ٢٨، «العبر» ٤/ ٨٧.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٣- ١٥٤، «الدرر الكامنة» ٢/ ٧٥- ٧٦، «العبر» ٤/ ٨٧.

١٥ – الشيخُ الصالح، العابد الناسك الخاشعُ، شمسُ الدين أبو عبد الله محمدُ بن الشيخِ الصالح العابد شرفِ الدين أبي الحسن حصنِ بن غَيْلانَ البَعْلَبَكي الحَنْبَليُّ، إمامُ مسجد السلالين بدارِ البطيخ العتيقة (٦٦٨ – ٧٣٠). سمعَ الحديث وأسمعَه، وكانَ يُقرئ القرآنَ طَرَفي النهار، قال ابنُ كثير: وعليه ختمتُ القرآنَ في سنةِ إحدى عشرة وسبع مئة، وكان من الصالحين الكبار والعبادِ الأخيار. ودُفنَ بباب الصغير، وكانت جنازتُه حافلة.(١)

١٦ – الشيخُ الكبيرُ المعمَّرُ الرحلةُ، شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بنِ نعمةَ بنِ حسن بن علي بنِ رَبْيانَ الديرمُقْرني، ثم الصالحي الحَجاز، المعروف بابن الشِّحنةِ (نحو٦٢٣ – ٧٣٠). ظَهَرَ سماعُه سنةَ ستٍّ وسبع مئة، ففرحَ بذلك المحدِّثون، وأكثروا السماعَ عليه، فقُرئَ البخاريُّ عليه نحواً من ستين مرةً وغيرُه. قالَ ابنُ كثير: وسمعنا عليه بدارِ الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسِ مئةِ جزء بالإجازاتِ والسماع. وقد سمعَ عليه السلطانُ الملك الناصر، وخَلَعَ عليه وألبسه الخلعةَ بيدِه، وسمعَ عليه من أهلِ الديارِ المصرية والشامية أُمَمٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً، وانتفعَ الناسُ بذلك. وكانَ شيخاً حسناً بهيَّ المنظر، سليمَ الصدر، ممتعاً بحواسِّه وقواه. دُفِنَ بتربةٍ له عند زاويةِ الدومي، بجوارِ جامع الأفرم، وكانت جنازته حافلةً رحمه الله.(٢)

١٧ – قاضي القُضاةِ جمالُ الدين أبو الربيع سُليمانُ بنُ الخطيبِ مجدِ الدين سالمِ بنِ عمر بن عثمان الأذرعيُّ الزُّرَعيُّ الشافعيُّ (٤٥ – ٧٣٤). اشتغلَ بدمشقَ فحصَّلَ، ونابَ في الحُكم بزُرْعِ مدةً، فعُرِف بالزُّرعي لذلك، وإنَّما هو من أذرعات، وأصلُهُ من بلاد المغرب. ثم نابَ بدمشقَ، ثم انتقلَ إلى مصر فنابَ في الحكم بها، ثم استقلَّ بولاية القضاء بها نحواً من سنة. وَلِيَ قضاءَ الشام مدةً معَ مشيخة الشيوخ نحواً من السنة، ثم عُزِل وبقيَ على مشيخة الشيوخ نحواً من سنةٍ معَ تدريس الأتابكة، ثم تحوَّلَ إلى مصر فولِيَ بها التدريسَ وقضاءَ العسكر. كانَ قويَّ النَّفسِ مَهيباً صلباً في الأحكامِ تامَّ النزاهةِ والعِفَّةِ، ولكنه كانَ قليلَ العلمِ.

قالَ ابنُ كَثير: قد خَرَّجَ له البِرْزالي مشيخةً سمعناها عليه وهو بدمشقَ عن اثنين وعشرين شيخاً.(٣)

١٨ – الشيخُ الإمام ذو الفنون تاجُ الدين أبو حفص عمرُ بن علي بنِ سالمِ بن عبد الله اللخميُّ الإسكندرانيُّ، المعروفُ بابن الفاكهاني (٦٥٤ – ٧٣٤). سمعَ الحديثَ واشتغَلَ بالفقه على مذهب مالك، وبرعَ وتقدمَ بمعرفةِ النحو وغيره، وله مصنفاتٌ في أشياءَ متفرقةٍ. قدم دمشقَ في سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة في أيام الأخنائي. قال ابنُ كثير: فأنزله في دار السعادةِ وسمعنا عليه ومعَه. وحَجَّ من دمشق عامئذٍ وسُمِعَ عليه في الطريق، ورجعَ إلى بلادِه.(٤)

١٩ – الشيخُ الإمامُ العالم العابدُ، شمسُ الدين أبو محمد عبدُ الله بن العفيفِ محمد بنِ الشيخ تقي الدين يوسفَ بنِ عبد المنعم بن نعمةَ المقدسيُّ النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة بها (٦٤٧ – ٧٣٧) سمعَ الكثير، وكانَ كثير العبادةِ حسنَ الصوتِ، عليه البهاءُ والوقارُ، حسنَ الشكلِ والسمتِ. قال ابنُ كثير: قرأتُ عليه عامَ ثلاثة وثلاثين وسبعِ مئة مرجعَنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد، وهو والدُ صاحبِنا الشيخِ جمالِ الدين يوسفَ، أحد مُفتيةِ الحنابلة وغيرِهم، والمشهورين بالخير والصلاح.(٥)

٢٠ – الشيخُ الحافظ البارعُ محدِّثُ الإسلام جمالُ الدين أبو الحجّاج يوسفُ بنُ الشيخِ المقرئ زكيُّ الدين عبدِ الرحمن بن يوسفَ، الكَلْبيُّ، القُضاعيُّ المِزّيُّ الدمشقي الشافعيُّ (٦٥٤ – ٧٤٢). نشأ بالمِزّةِ، وقرأ القرآن، وتفقه قليلاً، ثم طلبَ هذا الشأن سنة خمسٍ سبعين وستِّ مئة، وهَلُمَّ جرّاً، فما وَنَى وما فتَر، ولا لهَا ولا قصرَ. وعنيَ بهذا الشأنِ أتمَّ عناية. وقرأ العربيةَ، وأكثرَ من اللغةِ والتصريفِ، وصنّفَ وأفادَ. وسَمِعَ من خلائق، وكتبَ الكثيرَ ورواه، معَ السَّمتِ الحَسَنِ والاقتصادِ والتواضُعِ والحِلْمِ وعدمِ الشرِّ.(٦)

(١) «البداية والنهاية» ١٤ – ١٥٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٢٢.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٧، «الدرر الكامنة» ١/ ١٤٢ – ١٤٣، «درة الحجال» ١/ ٢٨ – ٢٩، «معجم الشيوخ» للذهبي ١/ ١١٨، «العبر» ٤/ ٨٨، «ذيل التقييد» ١/ ٣١٧.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٧٦، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٥٩ – ١٦٢، «معجم الشيوخ» للذهبيّ ١/ ٢٧١ – ٢٧٢، «الوافي بالوفيات» ١٥/ ٤١٦، «العبر» ٤/ ٩٨.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٧٧، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٧٨ – ١٨٩.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٩٠، «الدررالكامنة» ٢/ ٣٠٤ (وفيه ولادته سنة ٦٤٩)، «العبر» ٤/ ١٠٧...

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢٠٣، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٥٧ – ٤٦١، «درة الحجال» ٣/ ٣٤٧، «ذيل العبر» للحُسيني ٤/ ١٢٦ – ١٢٧،

صَنَّفَ كتباً غايةً في الدقةِ كتهذيبِ الكمالِ، وتُحفةِ الأشرافِ.

وكان الحافظ ابنُ كثير قريباً منه، وقد تزوّجَ بابنتِهِ، وسيأتي التنبيهُ عليه.

٢١- الشيخ عمرُ بنُ أبي بكر بنِ معالي بن إبراهيم بن زيدٍ الحمصيُّ، زينُ الدين الميهنيُّ البسطيُّ، التاجرُ الدمشقي (٦٦٤- ٧٤٢)، كانَ رجلاً صالحاً كثيرَ التلاوةِ والصلاة والصدقة، وحضور مجالس الذكر والحديث، لَه همة وصَوْلَةٌ على الفقراء المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم، سمعَ الحديثَ من الشيخِ فخرِ الدين بن البخاريِّ وغيره، قال ابنُ كثير: وقرأتُ عليه عن ابنِ البُخاريِّ «المشيخة»، ولازمَ مجالسَ الشيخِ تقي الدينِ ابنِ تيمية رحمه اللّه، وانتفعَ به. ودُفنَ بمقابرِ باب الصغير.[1]

٢٢- الشيخُ الحافظ الإمامُ العلاَّمة، مؤرِّخُ الشام ومحدِّثه ومفيدُه، شمسُ الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التُّركمانيُّ الفارقيُّ الأصلِ، الدمشقي المعروفُ بالذهبيِّ الشافعي (٦٧٣- ٧٤٨). صنَّفَ كتابَ «تاريخ الإسلام»، و «سير أعلام النبلاء»، و«الميزان»، و «العبر» وغيرها من أمهات الكتب. وسمعَ الحديثَ في سنةِ اثنتين وتسعين وهَلُمَّ جرًا.. وخَرَّجَ لجماعةٍ من شيوخه، وخَرَّجَ وعَدَّلَ، وفرَّعَ وأصَّلَ، وصحَّحَ وعلَّلَ، واستدركَ وأفادَ وانتقى واختصر كثيراً من تواليف المتقدمين والمتأخرين، وصَنَّفَ الكتبَ المفيدةَ السائرة في الآفاق، وخطَبَ بكفر بطنا مدةً، ثم وليَ مشيخةَ الحديث بأماكن، ولمْ يزَلْ يكتبُ ويدأبُ حتى أضَرَّ في سنة إحدى وأربعين[2] . وهو ممَّن أكثرَ عنهم الحافظُ ابن كثير، واستشهَدَ به في كتبِهِ.

٢٣- الشيخُ الأصوليُّ شمسُ الدين أبو الثناء محمودُ بن عبد الرحمن بن أحمدَ بنِ محمد أبي بكر علي الأصبهانيُّ، كانَ ينتسبُ إلى علاءِ الدولة الهَمَذانيِّ (٦٧٤- ٧٤٩) ولِدَ بأصبهان، واشتغلَ في بلادِهِ، ومَهرَ، وتقدَّمَ في الفنونِ، قدمَ دمشق سنة (٧٢٥) وسمعَ كلامَ الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ تيميةَ، فبالغَ في تعظيمه، وكانَ يلازمُ الجامعَ الأمويَّ ليلاً نهاراً، مُكبًا على التلاوةِ وشغل الطلبةِ. ودَرَّسَ بعدَ الزَّملكاني بالرواحية. صَنَّفَ شرحَ مختصر ابن الحاجب وغيره وكانت وفاتُهُ بالطاعون[3].

وذكره في مشايخ ابن كثير: ابنُ حجر، وابنُ قاضي شُهبة، والنعيميُّ، وابنُ العماد، والداووديُّ[4].

٢٤- الشيخُ الصالحُ المُعَمَّر الرحلة شرفُ الدين عيسى بنُ عبد الرحمن بنِ معالي بن أحمدَ بنِ إسماعيلَ بن عطَّافِ بنِ مبارك بن علي بن أبي الجيش المقدسيُّ، المطعم(٦٤٥- ٧١٩) راوي صحيحِ البخاري وغيره، وقد سمعَ الكثيرَ من مشايخ عدة، وترجمه الشيخ البرزالي، وكانَ عامياً أُمياً. دُفنَ بالساحة بالقرب من تُربة الموهلين.

سمعَ منه ابنُ كَثيرٍ «مسند الدرامي» كما ذكرَ الفاسي في «ذيل التقييد»[5].

٢٥- محمدُ بنُ إبراهيم بن طَرْخان بنِ محمد بن ريان (!)، الشيخُ الرئيس بدرُ الدين ابنُ عزِّ الدين السُّويديُّ، من سلالة سعدِ بن مُعاذٍ السُّويدي، من سُويداء حوران (٦٣٥-٧١١) سمعَ الحديث، وبَرَعَ في الطب، وكانَ رئيسَ الأطباء، وولي استيفاء الأوقاف وغير ذلك، وشيوخُه فوقَ المئة. تُوفِّي ببستانه بقرب الشبلية.

ذكره في شيوخ ابنِ كثير: أبو المحاسن الحُسيني[6].

٢٦- شيخُ الشافعية بالشام كمالُ الدين أبو المعالي محمدُ بنُ عليِّ بنِ عبد اللّه الواحد بن عبد الكريم بنِ خَلَفِ بن نبهانَ، الأنصاريُّ الشافعيُّ، ابنُ خطيبِ زَمْلَكا، ويُعرفُ بابن الزَّمْلَكاني

«معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٨٩- ٣٩٠، «شذرات الذهب» ٦/ ١٣٦- ١٣٧..

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢١٠، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٥٧.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤- ٢٠١ و٢٣٦، و «ذيل العبر» للحسيني ٤/ ١٤٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٦، «ذيل التقييد» ١/ ٥٣، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٥٥- ٥٧، الوافي بالوفيات ٢/ ١٦٣، «البدر الطالع» ٢/ ١١٠ وغيرها الكثير من المصادر.

(٣) «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٢٧- ٣٢٨، «ذيل العبر» للحسيني ٤/ ١٠٥، «شذرات الذهب» ٦/ ١٦٥، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٧١- ٧٢، للسبكي ٦/ ٢٤٧.

(٤) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، «الطبقات» ٣/ ٨٥، «الدارس» ١/ ٣٦، «الشذرات»، ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين»، ١/ ١١٢.

(٥) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢و ٢/ ٢٦٢، «البداية والنهاية»١٤/ ٩٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٠٤ «معجم شيوخ الذهبي» ٢/ ٨٥- ٨٦. «الشذرات» ٦/ ٥٢.

(٦) في «ذيل التذكرة» ص٥٨. والترجمة في «البداية والنهاية» ١٤/ ٦٥، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٩٤.

(٦٦٧ - ٧٢٧). سمعَ الحديثَ وطلبه بنفسِهِ، وكتبَ الطباق بخطِّه، وقرأ الفقهَ والأصولَ والنحو. وبرَعَ وحصَّلَ وسادَ أقرانَه من أهلِ مذهبِهِ، ودَرَّس بعدة مدارسَ بدمشق، وباشَرَ عدة جهات كبار، كنظرِ الخِزانةِ، ونظرِ المارستان النوري، وديوان الملك السعيد، ووكالةِ بيت المال. وله تعاليقُ مُفيدة واختياراتٌ حميدةٌ سديدة. قال ابنُ كثير: وأمَّا دروسهُ في المحافلِ فلم أسمَعْ أحداً من الناس دَرَّسَ أحسنَ منها، ولا أحلى من عبارته، وحسنِ تقريره، وجودة احترازاته، وصحةِ ذهنِهِ. وذكَره ابن كثير في «البداية» في مواضعَ فقال: قالَ شيخُنا ابنُ الزَّمْلَكاني. توفي بمدينة بلبيسَ، وحُمِلَ إلى القاهرة، ودُفِنَ بالقرافةِ جوارَ قُبَّةِ الشافعي[1].

٢٧- يوسفُ بنُ عمرَ بنِ حسين بن أبي بكر الخَتَني، جمالُ الدين أبو المحاسنِ، الحنفيُّ، المصري، المعمَّرُ، وقالَ ابنُ حجر وغيره: بدرُ الدين (٦٤٥- ٧٣١). سمعَ من ابنِ رواجٍ، وهو خاتمةُ أصحابه، ومن صالح المُدْلجيِّ، وابنِ اللمطي وأبي علي البكْريِّ، والمرسي، والزكيُّ المُنذريُّ وغيرهم، وتفرَّدَ بأشياء. وخرَّجت له مشيخةٌ من نيِّفٍ وستين شيخاً، وأكثر عنه الطلبةُ. قال البدرُ النابلسيُّ: كانَ في أسماعِهِ صعوبةٌ، وكان لا يُسمعُ إلاَّ بالأُجرةِ، لأنهُ كانَ مُقلاً وكانت زوجتُهُ تشترطُ عليه ذلك.

ذَكر القاضي أبو الطيب الفاسي في «ذيل التقييد»: أنَّ يوسفَ الختني أجازَ لابنِ كثير[2].

٢٨- عليُّ بن أبي بكر الوانيُّ الخلاطيُّ المصري، الصُّوفي، نورُ الدين، الدين، أبو الحسن (٦٣٧- ٧٢٧). سمعَ من ابنِ الرواجِ، والسِّبطِ، والمرسي.. وتفرَّدَ بعوالٍ. وكانَ صالحاً سَهْلَ القِيادِ. أضرَّ بأخرة، ثم عولجَ فأبصرَ.

ذكره الفاسيُّ فيمن أجاز للحافظ ابن كثير[3].

٢٩- محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أحمد بن أبي الهَيْجاء بن أبي المعالي الصالحيُّ، المعروفُ بابنِ الزرَّاد، شمسُ الدين أبو عبد اللّه الحَريريُّ (٦٤٦- ٧٢٦) أسمعهُ أبوه الكثير على مشيخة وقته: اليَلْدانيُّ، والبَلخيُّ، والبَكريُّ.. وخرَّجَ له الذهبيُّ جزءاً ضَخْماً عن مئةِ شيخ رواه مرَّاتٍ، وروى كتباً كِباراً تفرَّدَ بها. وكان خَيِّراً متواضعاً حسنَ البِشْرِ، له مشاركةٌ في العلم، ثم كَبِرَ وعَجَزَ وافتقر وتغير واستولى عليه التعلُّلُ والبَلْغَم[4].

ذكَره في شيوخ ابنِ كثير: الفاسيُّ، وابنُ حجرٍ، والذهبيُّ.[5]

٣٠- الشيخُ الإمامُ العالم كمالُ الدين أبو محمد عبدُ الوهّاب بن ذُؤَيبٍ، الأسديُّ الشُّهبيُّ الشافعي (٦٥٣- ٧٢٦). وُلِدَ بحورانَ، وقدمَ دمشق، واشتغلَ على الشيخ تاجِ الدين الفَزاري، ولازمهُ وانتفعَ به، وكذلك لازم أخاه شرفَ الدين، وأخَذَ عنه النحوَ واللغةَ، وكانَ بارعاً في الفقهِ والنحوِ، له حلقةٌ يُشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، وكانَ يعتكفُ جميعَ شهر رمضانَ، ولم يتزوّج قطُّ، كانَ حسنَ الهيئةِ والشيبة، حسنَ العيش والمَلْبسِ. وكانَ يتورَّعُ عن الإفتاء، وقد سمعَ الكثير. توفي بالمدرسةِ المجاهدية، ودُفِنَ بمقابرِ باب الصغير[6].

ذكره في شيوخ ابنِ كثير: ابنُ حجر، وابنُ قاضي شُهبةَ، والنُعيميُّ، وابنُ العماد، والداووديُّ[7].

٣١- الشيخُ ضياءُ الدين عبد اللّه الدِّرِّنْديُّ النحويُّ (٧٢٣)، كانَ قد اضطربَ عقلُه، فسافرَ من دمشقَ إلى القاهرةِ، فأشارَ شيخُ الشيوخ القُونَوي أن يودَعَ بالمارستان فلم يوافقْ، ثم دَخَلَ إلى القلعةِ وبيده سيفٌ مسلولٌ نصرانياً، فحُمِلَ إلى السلطانِ وظنُّوه جاسوساً فأمرَ بشنقِهِ فشُنِقَ. قال ابن كثير: وكنت ممَّن اشتغلَ عليه في النحو[8].

٣٢- الشيخ شمس الدين محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣و ١٣٦- ١٣٧، «الدرر الكامنة» ٤/ ٧٤- ٧٦، «ذيل التقييد» ١/ ١٨٢، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٢٤٤، «الشذرات» ٦/ ٧٨- ٧٩...

(٢) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢و ٢/ ٣٢٦، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٦٦- ٤٦٧، «الشذرات» ٦/ ٩٧، «العبر» ٤/ ٨٩.

(٣) «ذيل التقييد» ٢/ ٢٠٤- ٢٠٥، «الدرر الكامنة» ٣/ ٩٠، «العبر» ٤/ ٨٠، «الشذرات» ٦/ ٧٨.

(٤) «ذيل التقييد» ١/ ٨٤، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٧٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ١٦٩- ١٧٠، «درة الحجال» ٢/ ٢٥٦..

(٥) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤، «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٥٠٨.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣١- ١٣٢.

(٧) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٢/ ٨٥، الدارس ١/ ٣٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٨) «البداية والنهاية» ط تركي ١٨/ ٢٢٩-٢٣٠.

سالم بن بركات بن سعد بن سعد بن كامل بن عبد اللّه بن عمر، من ذرية عبادة بن الصامت، وعُرفَ بابن الخباز الحنبلي (٦٦٩-٧٥٦) حضر الكثير على ابن الدائم وغيره، وسمع من المسلم بن علان المسند بكماله. وأجازه عمر الكرماني والشيخ محيي الدين النووي، وخرج له البرزلي مشيخةً وذكر له أكثر من مئة وخمسين شيخاً، وسمع منه المزي والذهبي والسبكي وابن جماعة وابن رافع وابن كثير والحسيني والمقرئ وابن رجب وابن العراقي وغيرهم. وكان رجلاً جيداً صدوقاً مأموناً صبوراً على الإسماع، محباً للحديث وأهله مع كونه يكتب بيده في حال السماع، وحدث مع أبيه وعمره عشرون سنة، وتوفي يوم الجمعة ثالث رمضان بدمشق عن سبع وثمانين سنة وشهرين، ودفنَ بباب الصغير[1].

٣٣- الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش (٧٢٤)، ويُقال له: اللبّاد، ويُعرف بالمُوَلَّه، كانَ يقرئ الناسَ بالجامع نحواً من أربعينَ سنة وقد قرأت عليه شيئاً من القُرآن، وكانَ يُعَلِّمُ الصغارَ الحروفَ المُشِقَّةَ كالراء ونحوها، وكان متقللاً من الدنيا لا يقتني شيئاً وليس له بيت ولا خزانةٌ، إنما كان يأكُلُ في السوقِ وينامُ في الجامع. دُفن بباب الفراديس[2].

٣٤- الشيخ عفيفُ الدين أحمد بن محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي ثم الدمشقي (٧٢٥) إمامُ مسجد الرأس، آخر من حدَّثَ عن ابن الصلاح ببعض «سنن البيهقي»، قال ابن كثير: سمعنا عليه شيئاً منها[3].

٣٥- الشيخ القاضي المعمَّرُ الفقيهُ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني اشتغلَ على النواوي، ولازمَ المقدسيَّ، وولي الحكمَ بزُرَع وغيرها، ثم أقام بدمشقَ يشتغل في الجامع، ودرَّس في الصارمية وأعادَ في مدارس عدة إلى أن تُوفي. ودفن بقاسيون، قال ابن كثير: وخرَّج له الذهبي شيئاً وسمعنا عليه الدارقطني وغيرَه[4].

٣٦- الشيخُ أبو الفتح الدبوسيُّ.

(١) شذارت الذهب ٦/ ١٨١.

(٢) البداية والنهاية ط تركي ١٨/ ٢٤٦.

(٣) البداية والنهاية ط تركي ١٨/ ٢٥٨.

(٤) البداية والنهاية ط التركي ١٨/ ٢٤٨.

ذكره ابنُ حَجَرٍ والفاسيُّ فيمن أجازَ لابن كثير[5].

٣٧- الشيخ ابنُ الرضيّ

ذكره ابنُ حجر في شيوخ ابن كثير[6].

٣٨- أبو موسى الغرافيُّ. ذكره محمد عبد الرزاق حمزة في ترجمةِ المؤلف[7].

٣٩- الحُسينيُّ. ذكره محمد عبد الرزاق حمزة في ترجمة المؤلف[8].

قلت: ولعلّه الغَرافي نفسُه[9].

جوانب من حياته (مع شيخيه وزوجته)

بعد أن اطلعنا على شيءٍ من سيرته في ولادته ونشأته، والأحوالِ التي سَادت حينها، وتفوُّقِه في حفظ المتون، واطلاعه على موادِّ الحديث والتفسير والتاريخ... وطبيعة مشايخه الذين تَلْمَذَ على أيديهم أو سمعَ منهم أو أُجيزَ من قِبَلِهم... نجدُ أنَّهُ تَعَلَّقَ بحُبِّ الشيخين الجليلين: شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، وشيخ المحدِّثين أبي الحجّاج المزّي.

١- أمَّا شيخُ الإسلام[10] رحمه اللّه، فقد كانت للمؤلفِ خصوصيةٌ به ومناضلةٌ عنه، واتباعٌ له في كثيرٍ من آرائه وكانَ يُفتي برأيِهِ في مسألةِ الطلاقِ، وامتُحنَ بسببِ ذلك وأوذي. وقد أكثرَ المؤلفُ من ذكر أحداثِ شيخه في «تاريخه»، مُبَجِّلاً له، مبهوراً بعلمِهِ، ووصفَه في كتابِهِ بأوصافٍ قَلَّ أنْ تتفقَ لأحدٍ، حتى إنَّه عَزَمَ على أن يُفردَ ترجمته في رسالة وجيزة، يذكرُ فيها مناقبَه، وفضائلَه، وشجاعتَه، وكرمَه، ونُصحَه، وزهادتَه، وعبادتَه، وعلومَه المتنوعةَ الكثيرة المجوَّدة، وصفاتِه الكبارَ والصغارَ...

وقالَ ناقلاً في صفتِه: ما قَطَعَ في مجلسٍ ولا تكلَّم معهُ فاضلٌ في فَنٍّ من الفنونِ إلاَّ ظَنَّ أنَّ ذلك الفَنَّ فَنُّه، ورآه عارفاً به متقناً له.

(٥) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤ «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٦) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.

(٧) في «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» ص١٣.

(٨) المصدر السابق.

(٩) انظر مقارنة «ذيل التقييد» ١/ ٤١٤.

(١٠) «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦، «البداية والنهاية» ١٤/ ١٤١-١٤٥.

ومِن شدةِ حُبِّهِ لهُ، كان يُبرزُ شخصيةَ شيخِ الإسلام في كثيرٍ من التراجم، ليُظْهِرَ فضلَه عليهم، وأنهم كانوا من الذين تخرَّجُوا على يديه واستفادوا منه. كما كانَ يُشيرُ عند ذكرِ مُبغضيه أنهم لا يؤثرونَ فيه، فما مثالُهم إلاَّ مثالُ سَاقيةٍ ضعيفةٍكَدِرَةٍ، لاطَمَتْ بحراً عظيماً صافياً، أو رملةٍ أرادَتْ زوال جَبَلٍ[1]. وكأن من لوازمِ كتابِه أن يذكُر شيخَ الإسلام أصلاً في تراجمه: مَنْ لَزِمَه، وصَحِبَه، وكانَ معاوناً له... ومَنْ عاندَه وحسدَه وحاوَلَ الإيقاعَ به.

ومع هذا فقد كانَ لطيفَ العبارةِ أحياناً معَ مَنْ ناصبَه العِدَاءَ، ويدعو لهم بالمسامحةِ والغُفرانِ، وكان مهتماً بذكرِ مَنْ كانت له علاقةٌ بشيخِهِ، أو كانت له مواقفُ بطوليةٌ معَه، كما في ترجمةِ شرفِ الدين محمد بن محمد، المعروف بابنِ النجيحِ الحرَّانيِّ.

قال ابنُ كثير: «وقد كان شرفُ الدين بنُ نجيحٍ هذا قد صَحِبَ شيخَنا العلامةَ تقيَّ الدين ابن تيميَّةَ، وكان معهَ في مواطن صَعْبَةٍ لا يستطيعُ الإقدامَ عليها إلاَّ الأبطالُ الخُلَّصُ الخواصُ، وسُجِنَ معه، وكانَ من أكبرِ خُدَّامِه وخواصُ أصحابه، ينالُ فيه الأذى وأوذِيَ بسببه مرَّاتٍ....»[2].

وقال ابنُ كثير: في ترجمة الحَكيم بهاءِ الدين عبد السيد بن المُهذَّبِ إسحاقَ الطبيب الكحَّال: «أسلمَ على بصيرةٍ، وأسلمَ على يديه خلقٌ كثير من قومه وغيرهم كانَ قبلَ ذلك ديَّانَ اليهودِ، وأسلمَ على يدي شيخِ الإسلام ابنِ تيمية لَمَّا بيَّنَ له بُطلانَ دينهم وما هُم عليه وما بدَّلوه من كتابهم...»[3].

وقال: في ترجمة المحدث النَّحْوي ابنِ عرفة صاحب التذكرة الكندية: «وكان يلوذُ بشيخِ الإسلام ابنِ تيميةَ»[4].

وقال في ترجمةِ الشيخ ابن الوكيل: «وكانَ ينصبُ العداوةَ للشيخ ابنِ تَيميَّةَ ويناظرُه في كثيرٍ من المحافلِ والمجالس، وكان يعترفُ للشيخ تقيِّ الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنَّه كانَ يُجاحفُ عن مذهبِهِ وناحيته وهواه...»[5].

وقالَ في ترجمة أحدِ الزهَّاد محمدِ بن عمر بن أبي بكر بن قوام البالسيِّ: «كانَ يومَ قازان في جُملةِ مَنْ كانَ معَ الشيخ تقيُّ الدين بنِ تيميةَ لما تكلَّمَ معَ قازانَ، فحكى عن كلامِ شيخ الإسلام تقيُّ الدين لقازان وشجاعتِه وجُرأتِه عليه» وذكر قصته مع قازان...[6]

إلى غير هذا من التراجم التي زَجَّ فيها أقوالَ شيخِ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- وذلك يُنْبِئُ عن عظيم قدره وعلوُّ منزلته عنده. بل كانَ أحياناً يذكُرُ له مواقفَ تَدُلُّ من قريبٍ أو بعيدٍ أنه لم يَرَ مثلَ الشيخ في كُلِّ فَنٍّ يُعْرفُ.

ومن الأمثلة على رجوعِ الناس إليه في كثيرٍ من الأحوالِ، واهتمام ابنِ كثيرٍ في إيرادِه ما ذكرَ في حوادثِ سنةِ سبعَ عشرةَ وسبعِ مئة، قال: « وفي صفر شُرِعَ في عِمارة الجامعِ الذي أنشأه ملكُ الأمراء تنكز نائبُ الشام ظاهرَ بابِ النصر، تجاهَ حكرِ السماق على نهر: بانياس بدمشقَ، وتردَّدَ القضاةُ والعلماءُ في تحرير قبلتهِ، فاستقرَّ الحالُ في أمرِها على ما قالهُ الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ تيمية»[7].

ولَمَّا تَعرَّضَ إلى وفاته، طَوَّلَ في عرضِها على غير العادة، ووَصفَ الدقائقَ التي صاحبت جنازتَه ناقلاً كبيرَ ذلك من تاريخ علم الدين القاسم بن محمد البرازليِّ.

ولا شَكَّ أنَّ مثلَ هذا العرض يُبينُ شيئاً مما انتهجَه ابنُ كثير -رحمه الله- وسببَ اهتمامِهِ بكثيرٍ من القضايا السلفية، والرجوع إلى الأدلة، وتركِ المذهب إنْ خالف ما عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، لذا نجدُه يكرِّرُ في «تفسيره»[8]. مثل هذه العبارة: «وإنَّ الدليل إذا دَلَّ على شيءٍ وَجَبَ اتباعهُ»...، كما نُلاحظُ أنَّه التزمَ عقيدةَ السلف التي بيَّنَها شيخُه شيخُ الإسلام، فقالَ في مواضعَ مثلَ هذه العبارة: «وأنَّ المَسْلَكَ الأسلمَ في ذلك طريقةُ السلفِ: إمرارُ ما جاءَ في ذلك من الكتاب والسنةِ من غير تَكْييفٍ ولا تحريفٍ، ولا تَشْبيهٍ ولا تَعْطيلٍ ولا تَمْثيلٍ»[9].

٢- أمَّا الجانبُ الآخر الذي كان سبباً في تحوُّل الحافظِ ابنِ كثيرٍ إلى العناية بمتونِ الأحاديث وأسانيدها، وأسماء الرواةِ فيها،

(١) كما في «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٨.
(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٤.
(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٨.
(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨١.
(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٣.
(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١-٩٢.
(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٣.
(٨) ٥/ ٨٥.
(٩) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٢٦٨.

ومعرفةِ المناكيرِ والإسرائيليات منها، فهو تـأثُّرُهُ بشيخهِ حـافظِ زمانـه جمال الديـن أبـي الحجَّاج يوسـف المِزِّي الـذي تَعَلَّقَ بِحُـبُّ شيـخِ الإسلام ابنِ تيميَّة أيضاً، ودافع عنه وعن أُطروحاتِهِ.

وقربُ المؤلِّفِ من الحافظ المِزِّيِّ يعودُ إلى ثلاثةِ أمـور: أنَّـهُ كـانَ من المخلصين لشيخِ الإســلام ابنِ تيميَّـة[1] وكـانَ مـن المُبدعيـن في عصرِه فلم يُلحَقْ في علمِ الأسانيدِ ومعرفتِها والتصنيفِ فيها. وزوَّجَه ابنَته زينبَ فكان ابن كثيرٍ صِهْرَه.

لذا نجدُه قد صحبَه في مجالسَ كثيرةٍ ينقُلُ عنه، ويطلُبُ مشورتَه، وإذا وَجَدَ شيئاً مـن المُعْضِـلاتِ رَجَـعَ إليـه، فأبـانَ عـن غموضِهـا، وأوجدَ الكلامَ المناسبَ فيها. وهـذا مـا نجدهُ في تفسـيره، فقـد أكـثر النقولَ عن شيخه المِزِّيِّ بما لا تجدهُ في كتـبِ المِزِّيِّ ولا فيمـا دَوْنَـه، لأنَّها كانت مسائلَ شفويةً لم تُحرَّرْ بَعْدُ.

وقد كانَ المِزِّيُّ ـ رحمه اللّه ـ في نشـأةٍ وبيئـةٍ علميـة، نتحـدثُ عنها لإيضاحِ أهمية ارتباطِ ابن كثير به:

أمَّا زوجةُ المِزِّيِّ فهي أمُّ فاطمةَ عائشةُ بنتُ إبراهيمَ بن صديـق، تُوفِّيت سنة (٧٤١) قبل وفاةِ زوجِها بعـامٍ، ودُفنت بمقـابرِ الصوفيـة غربيَّ قبرِ الشيخ تقيِّ الدين ابن تيميـة رحمهـم اللّـه. وكـانت عديمـةَ النظيرِ في نساء زمانِهـا لكـثرةِ عبادتهـا وتلاوتِهـا وإقرائهـا القُـرآنَ ـ وكانت قد ختمت القُرآنَ عند الشيخة الصالحة أم زينب فاطمـةَ بنـتِ عباس بنِ أبي الفتح بن محمـد البغداديـةِ بظـاهرِ القـاهرةِ ـ فكـانت زوجةُ المِزِّيِّ تَقرأُ القرآنَ بفصاحةٍ وبلاغةٍ وأداءٍ صحيحٍ، يعجـزُ كثـيرٌ من الرجالِ عن تجويده، وَختَّمَـت نسـاءً كثـيرات، وقـرأ عليهـا مـن النسـاء خَلْـقٌ، وانتفعـنَ بهـا وبصلاحِهـا ودينهـا وزُهدِهـا في الدنيـا، وتقللها منها، معَ طولِ العمر، بلغت ثمانين سنَة أنفقتْها في طاعةِ اللّه صلاةً وتلاوةً. وكانَ الشيخُ المِزيُّ رحمه اللّـه محسناً إليهـا مُطيعـاً، لا يكادُ يُخالفُها لحبِّه لها طَبعاً وشرعاً..[2]

وأمَّا ابنتُهُ أَمَةُ الرحيم زينبُ، فقد زَوَّجَها لتلميذِهِ النجيبِ الحافظ ابنِ كثير، وكانت على شاكلةِ أمِّها، فطلبـتِ العلـمَ، وقـرأتِ القـرآنَ عند الشيخة أم زينب البَغْداديَّةِ، التي سبقَ ذكرُها.

وقد شاركَ ابنَ كثـير في مصـاهرةِ الشـيخ المِزِّي: المحـدِّثُ تقـيُّ الدين محمدُ بن صدر الدين سليمانَ الجَعْبَريُّ.

فتزوَّجَ ابنَته الأخرى. وكانَ ودوداً لابـنِ كثـير. قـال المؤلـفُ في وصفِهِ: «والد شرفِ الدين عبدِ اللّه، وجمالِ الدين إبراهيمَ وغيرِهم. كانَ فقيهاً بالمدارس، وشاهداً تحتَ الساعاتِ وغيرِها، وعنده فضيلـةٌ جيدة في قراءةِ الحديث وشـيء مـن العربيـة، ولـه نظمٌ مستحسـنٌ، انقطعَ يومين وبعـض الثـالث، وتُـوفي ليلـة الاثنيـن عاشـر جُمـادى الآخرة من سنة (٧٤٥) في وسط الليل، وكنتُ عنده وقـتَ العشـاء الآخرة ليلتَئذٍ، وحَدَّثني وضاحكني، وكانَ خَفيفَ الـروح رحمـه اللّـه عَزَّ وجَلَّ. ثم تُوفي في بقيـة ليلتِـه رحمـه اللّـه، وكـان أشـهدني عليـه بالتوبة من جميع ما يُسخطُ اللّـه عـز وجـلَّ، وأنـه عـازمٌ علـى تـركِ الشهودِ أيضاً رحمه اللّه، صُلِّي عليه ظهرَ يـوم الاثنيـن، ودُفِـنَ بمقـابر باب الصغير عند أبويه رحمهم اللّه»[3] .

نشاطُه العلمي في المدارس:

كانَ لعلماء الشام مكانةٌ عند ذوي السُّلطة، لذا كَثُرت المـدارسُ التي تُظهر اتجاهاتٍ عـدةً ونواحيَ مختلفـة عندهـم، فكـان فيهـا دورٌ للقرآن، وأخرى للحديث، وأُخرى للفقـهِ بـاختلاف أئمتـه، فكـانت مدارسُ للشافعية، وأخـرى للأحنـافِ، وأُخـرى للحنابلـةِ، وأخـرى للمالكيَّةِ، وكانت هذه المدارس موضـعَ نـزاعٍ وتنـافُسٍ بـينَ العلمـاء وشيوخ المذاهب. وقَلَّ أنْ تجـدَ إماماً منهـم إلا وقـد تسـلَّمَ وباشـرَ مشيخةَ إحدى هذه الدور والمدارس، فإذا ماتَ الشيخُ خَلَفَهُ أنجبُ أصحابِهِ، ليُتَمِّمَ الرسالةَ في تعليم طلبة العلم، والاهتمام بهم..

وتذكُرُ لنا المصادرُ أنَّ الإمامَ ابنَ كثـير حَظِيَ بالمشيخةِ في عـدة مدارس ودور، منها:

١ ـ دارُ القرآنِ والحديث التنكزية: ذكره أبو المحاسن الحُسيني[4]. وتَقَعُ هذه الدارُ شرقيَّ حمام نور الدين الشهيد بسوق البزوريـة،

---

(١) واوذي الحافظ المزي بسبب ذلك، واتَّخذَ أعـداءُ ابـن تيميـة منـه موقفاً نازعوه فيه، لذا نجد أنه لما تسـلَّمَ التدريـس في دار الحديـث الأشـرفية عوضاً عن كمال الدين ابن الشريشي، لم يحضر عنـده كبـيرُ أحـدٍ، لمـا في نفوس بعض الناس من ولايته لذلك، مَع أنه لم يتولَّها أحدٌ قبلـه أحـقُّ بهـا منه، ولا أحفظ منه، وما عليه منهم إذ لم يحضروا عنده فإنـه لا يوحشـه إلا حضورُهم عنده، بعدُهم عنه أُنسٌ. انظر «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٥و ٢٠٠-٢٠١.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢٢٥.

(٤) في «ذيل تذكرة الحفاظ» ص٥٨.

وتجاهَ دار الذهب، كانت هذه الدارُ حمّاماً يُعرفُ بحمام سُويد، فهدمَه نائبُ السلطنة تنكز الملكـي النـاصري، وجَعَلَـه دارَ قُـرآنٍ وحديـث، وجاءت في غاية الحسن، ورتَّبَ فيها الطلبةَ والمشايخ[1].

١٢- دارُ الحديثِ الأشرفية: ذكره النُّعيمي، والداوودي[2].

باشرَ ابنُ كثير مشيختَها فترةً وجيزةً، ثُمَّ أُخِذَتْ منه، وهي تَقَـعُ بجوار باب القلعـةِ الشـرقيِّ، غربيُّ العصرونيـة، وشمـاليُّ القيمازيـةِ الحنفية. وقد كانت دارُ الحديث هذا داراً للأمير صـارم الديـن قايمـاز بن عبد الله النجمي واقف القيمازية، وله بها حَمَّام، فاشـترى ذلـك الملكُ الأشرفُ مظفر الدين موسى بن العـادل. وبناهـا دار حديـث، وأخربَ الحمَّامَ، وبناهُ سكناً للشيخ المدرِّس بها[3].

وقد وليَ مشيخة هذه الدار قبـلَ ابـنِ كثـير جماعـةٌ مـن العلمـاء الأفـاضل، منهـم: تقـيُّ الديـن ابـنُ الصـلاح، وعمـادُ الديـن ابـنُ الحَرَسْتاني، وأبو شامةَ، ومحيي الدين النوويُّ، وزين الديـن الفـارقيُّ، وصدرُ الدين ابنُ الوكيل، والكمالُ ابن الزَّمْلَكاني، وابن الشَّريشـي، وجمالُ الدين المِزِّيُّ، وتقيُّ الدين السُّبكي.

وبعدَ موتِ السُّبكي تسلَّمها ابنُ كثير كما قالَ الداوودي[4].

وكان الشيخُ شمس الدين الذهبيُّ أرادَ أنْ يليَ هـذه الـدار بعـدَ موت المِزِّيِّ، فلَم يُمكِّنْ مـن ذلـك لفقـدِ شـرطِ الواقـفِ في اعتقـاد الشيخ فيه[5].

٣- مشيخة أم الصالح: ذكـره ابـنُ قـاضي شُـهبةَ، والنُّعيمـيُّ، والداوودي[6].

وهـي المدرسـةُ الصالحيَّـةُ بتُربـة أمِّ الصـالح، غربـيَّ الطيبـة، والجَوْهريَّة الحنفيـة، وقبلـيَّ الشـامية الجُوَّانيـة بشـرق، وقفهـا الملـك الصالحُ أبو الجيش إسماعيلُ بنُ الملكِ العادل سيفِ الدين أبي بكر، المتوفى سنة (٦٤٨)، ودُفِنَ في تُربةِ أم الصـالح: ابنـةُ الملـكُ السـعيدُ فتحُ الدين عبد الملك، وابنةُ الملك الكامل محمدٌ، وخاتونُ بنتُ الملـكِ الصالح[7] ...

وقد وليها ابنُ كثيرٍ عقبَ الذهبيِّ، وكـانَ الشـمسُ الذهبيُّ قـد باشَرَ فيها عوضاً عـن كمـالِ الديـن الشَّريشـي الـذي تُوفِّي بطريـقِ الحجاز سنة (٧١٨) وقد كان له في مشيختها ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً.[8]

تلامذته:

لا شَـكَّ أن تلـكَ الفـترةَ مليئـةٌ بـالتلاميذِ امتـلاءَ المـدارس وانتشارَها، وكتـبُ السـماعات والإجازات والتواريـخ مليئـةٌ بذكـرِ تراجمهم، لكنها مختصرة، لم يُذكر من شيوخهم إلا ما يكـونُ كالمثـال، وقَلَّ أنْ يُذكَرَ في ترجمةِ الشيخ تلاميذُه أو بعضُهم، لعدمِ كبيرِ جدوى في هذه الإطالة، فمن أرادَ فلينظُر كتب المشيخات، الـتي قـد تتجاوزُ فيه المشيخةُ الواحدة أكثر من ألفِ شيخ كما في « مَشْيخةِ الذهبي » وغيرها مما أفاض بذكره الحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنهاية».

وأثناء تَجوالي في كتب التراجم، عثرتُ على بعض تلامـذة ابـنِ كثير - واستقصاء ذلك يطول - فأذكُرُ ثلاثةً منهم على سبيل المثال:

١- أحمدُ بنُ حجي بنِ موسى بنِ أحمدَ بنِ سعد بن غشـم بـنِ غَزْوان بن علي بن مسرورِ بنِ تركي، شـهاب الديـن، أبـو العبـاس، والحُسبانيُّ الدمشقيُّ الشافعي، الحافظ، المؤرِّخ (٧٥١-٨١٦) سمـعَ الحديثَ من خلائقَ، وأجازَ له خَلْقٌ مـن بـلاد دمشـق، وقرأ بنفسـه الكثيرَ، وكتـبَ الكثـيرَ، واستفاد مـن مشـايخ العصـر كـالأذرعي، والحُسْباني، وابنِ قاضي الزَّبداني، وابـنِ خطيـب يَـبرودَ، والغَـزيِّ، والتـاجِ السُّـبكيِّ، وشمـسِ الديـن المَوْصِلـيِّ... وتَخَـرَّجَ في علـوم الحديث بالحافظين ابن كثيرٍ وابن رافع. وكتب ذيلاً على تـاريخِ ابـن كثير وغيره، بدأ فيه مـن سنة إحـدى وأربعـين يذكُـرُ فيـه حـوادثَ الشهر، ثم مَنْ تُوفِّي فيه، وهو مفيدٌ جدًّا، كتبَ فيه ستَّ سـنين. ثـم بدأ من سنةِ تسع وسـتين، فكتـبَ إلى قُبيـل وفاتـه بيسـير. قـال ابنُ قاضي شُهبةَ: وكانَ قد أوصـاني بتكميـل الخَرْمِ المذكور، فأكملتُهُ، وأخذتُ التاريخ المذكور، وزدتُ عليه حوادثَ من تواريخ المصريـين وغيرهم بقدر ما ذكره الشيخُ، كانَ ابنُ حجي: حسنَ الشَّكلِ، ديِّنـاً، خيِّراً، وعنده أدبٌ كثير، وحِشْمةٌ، وحسنُ معاشرة: انتهـت المشيخةُ

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٨- ١٣٩، «الدارس» ١/ ١٢٣.

(٢) «الدارس» ١/ ٣٦، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٣) «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٦، «الدارس» ١/ ١٩.

(٤) انظر «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢، «الدارس» ١/ ١٩-٤٧.

(٥) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٥٦.

(٦) «طبقـات الشـافعية» ٣/ ٨٦، «الـدارس» ١/ ٣٦، «طبقـات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٧) «الدارس في تاريخ المدارس» ١/ ٣١٦-٣١٨.

(٨) «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١، «الدارس» ١/ ٣٢٥- ٣٢٦.

في البلادِ الشامية إليه[١]

٢- سعدُ بنُ يوسفَ بنِ إسماعيل بن يوسفَ بنِ يعقوبَ بن سرور، سعدُ الدينِ بنُ صدر الدين النَّوويُّ، ثم الخليليُّ الشافعي، نزيلُ دمشق (٧٢٩-٨٠٥) قَدِمَ دمشق بعد الأربعين وسمعَ من عبدِ الرحيم بنِ أبي اليسر، والشمسِ بن نُباتة، والذهبيِّ، وتفقَّه على الشيخ شمس الدين بنِ قاضي شُهبة، وقرأ على الشيخ ابن كثير «مختصره في علوم الحديث» الذي ألَّفه وأذِنَ له بالفتوى. واشتغل بالجامع الأموي، وأعادَ بالناصرية والقَيمريَّة، وكتب في الإجازات، وعلى الفتاوى، ونابَ في القضاء.[٢]

٣- جمالُ الدين محمدُ بنُ أحمد بنِ محمد بن محمود الكازَرونيُّ المَدَنيُّ. أجازَ له ابنُ كثير فيما ذكرَ الفاسي، وهو تلميذُ الكازَرونيِّ.[٣]

٤- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان الحريري الدمشقي المعروف بالسلاوي الشافعي (٧٣٨-٨١٣) سمع من ابن رافع وابن كثير.

ولي قضاء بعلبك ثم المدينة ثم صفد ثم غزة والقدس وغيرها وكان كثير العيال[٤].

٥- وسمعَ منه أيضاً من أقرانه أبو المحاسن الحُسَيني.[٥]

وقد أجازَ الحافظُ ابنُ كثير أيضاً لِمن أدركَ حياتَه[٦].

أقوال العلماء فيه:

١- قال تلميذه الحافظ شهابُ الدين بن حجي:

كانَ أحفظَ مَنْ أدركناه لمتونِ الأحاديث، وأعرفهم بجرحِها، ورجالها، وصحيحها، وسقيمها. وكان أقرانُه وشيوخُه يعترفون له بذلك، وكان يستحضرُ شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ، قليلَ النِّسيان. وكانَ فقيهاً جيِّدَ الفهم، صحيح الذهن، يَستحضرُ شيئاً كثيراً، ويحفظُ «التنبيه» إلى آخر وقتٍ، ويُشاركُ في العربية مشاركةً جيدة، وينظُمُ الشعرَ، وما أعرفُ أني اجتمعتُ به على كثرةِ تردُّدي إليه إلاّ وَأفدتُ منه[٧].

٢- وقال العلامةُ بدرُ الدين العَيْنيُّ (٨٥٥):

كانَ قدوةَ العلماء والحفّاظ. وعمدةَ أهلِ المعاني والألفاظ، وسمعَ وجَمَعَ وَصنَّفَ وَدرسَ وحَدَّثَ وألَّفَ، وكانَ له اطلاعٌ عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبطِ والتحرير. وانتهى إليه علمُ التاريخ والحديث والتفسير، وله مُصنَّفات عديدة مُفيدة[٨].

٣- وقالَ المحدِّث الحافظُ شمس الدين الذهبيُّ (٧٤٨):

وسمعتُ معَ الفقيهِ المحدِّث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيلَ بنِ عمر بن كثير البُصْرَويُّ.. وله عنايةٌ بالرجالِ والتفقُّهِ، خرَّجَ وألَّفَ وناظرَ وصنَّفَ وفسَّرَ وتقدَّمَ[٩].

وقال في «المعجم المختص»: فقيهٌ مُتَفَنِّنٌ، ومُحدِّثٌ متقن، ومفسِّرٌ نقَّاد[١٠].

٤- وقالَ ابنُ حبيب:

إمامُ ذوي التسبيح والتهليل، زعيم أرباب التأويل، وسمعَ وجَمَعَ وصنَّفَ وأطرب الأسماعَ بقولِه وشنَّفَ، وحَدَّث وأفادَ، وطارت أوراقُ فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسةُ العلم في التاريخ والحديث والتفسير[١١].

٥- وقالَ ابنُ حجر العَسْقلانيُّ (٨٥٢):

كانَ كثيرَ الاستحضار، حسنَ المفاكهةِ، سارَتْ تصانيفهُ في البلاد في حياته، وانتفعَ بها الناسُ بعدَ وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٤/ ١٢-١٤، «إنباء الغمر» ٧/ ١٢١- ١٢٤، «الشذرات» ٧/ ١١٦- ١١٨، «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد ص٢٤٧-٢٥٠، «الضوء اللامع» ١/ ٢٦٩، «الدارس» ١/ ١٣٨

(٢) «الضوء اللامع» ٣/ ٢٥٤، «الدارس» ١/ ٣٢٠، «إنباء الغمر» ٥/ ١٠١.

(٣) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٤) «شذرات الذهب» ٧/ ١٠٠-١٠١.

(٥) في «ذيل التذكرة» ص٥٩.

(٦) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦ -٤٧.

(٧) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٦، الدارس ١/ ٣٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٨) «النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٨.

(٩) «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٥٠٨.

(١٠) «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢، «إنباء الغمر» ١/ ٤٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١.

(١١) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦.

في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من مُحدِّثي الفُقهاء[١].

٦- وقالَ أبو المحاسن الحُسيني (٧٦٥):

أفتى ودَرَّسَ وناظَرَ في الفقه والتفسير والنحو، وأمعَنَ النظر في الرجال والعِلَلِ[٢].

٧- ووصفَه بحفظ المتونِ وكثرة الاستحضار جماعةٌ منهم الحُسيني والعراقيُّ و... نقلَه ابن حجر، وعنه ابنُ العماد[٣].

وفاته رحمه الله:

ماتَ في خامس عشر شعبان بدمشق فيما ذكَر ابن حجر وغيرُه[٤]. وقالَ الفاسيُّ: سادس عشر[٥] وقالَ ابنُ تغري بردي: سادس عشرين[٦].

ودُفِنَ بوصيةٍ منه في تربةِ شيخِ الإسلام ابن تيمية بمَقْبُرةِ الصوفية[٧]. وكانَ أضَرَّ في أواخرِ عمرِه[٨].

رثاؤه من طلبته

وصلنا من ذلك بيتان، رثاه بهما بعضُ طلبته فيما ذكر ابنُ تَغْري بَرْدي:

لِفَقْدِكَ طُلَّابُ العلومِ تأسَّفُوا وجادوا بدَمْعٍ لا يَبِيدُ غزيرِ
ولَوْ مَزَجوا ماءَ المدامعِ بالدِّما لكانَ قليلاً فيك يا ابنَ كثيرِ[٩]

كتبُهُ:

١- «جامع المسانيد والسنن»: كما عند ابن حجر وغيره.

(١) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.

(٢) «ذيل التذكرة» ص٥٨.

(٣) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١

(٤) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦

(٥) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٦) «النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٨، «الدليل الشافي على المنهل الصافي» ١/ ١٢٧.

(٧) «الردّ الوافر» ص١٦٢، «الدارس» ١/ ٣٧، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦.

(٨) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.

(٩) «النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٩، «الدليل الشافي» ١/ ١٢٧.

وسمَّاه أبو المحاسن الحسيني وغيرُه: «الهدي والسُّنن في أحاديث المسانيد والسُّنن» أحمدُ، والبزارُ، وأبو يَعْلَى، وابنُ أبي شيبة، والستةُ.

وسمَّاه ابنُ قاضي شُهبةَ، والداووديُّ، وابنُ العماد: «المسانيد العشرة».

وأصلُ الكتاب: أنَّ الحافظَ شمسَ الدين ابن المحبِّ المعروف بالصامت رَتَّبَ «مسند أحمد» على ترتيب حروف المعجم، حتى في التابعين المكثرين عن الصحابة، فأعجب ابنَ كثير، واستحسَنَه، وقال ابنُ حجر: ورأيتُ النسخةَ بدمشق بخَطِّ ولدِه عمرَ. فألحقَ ابنُ كثير ما استحسنه في الهوامش من الكتب الستة ومُسنديْ أبي يعلى، والبَزَّار، ومعجَمَي الطبراني ما ليس في المسند، وسَمَّى الكتاب «جامع المسانيد والسنن». وكُتبت عنه عدةُ نُسَخٍ نُسِبَتْ إليه، وهو الآنَ في أوقافِ المدرسة المحمودية، المتنُ ترتيبُ ابنِ المُحبِّ، والإلحاقاتُ بخطِّ ابنِ كثير في الهوامش والعصافير. وقد كنت رأيتُ منه نُسْخَةً بَيَّضَها عمرُ بنُ العماد بن كثير مما في المتن والإلحاق، وكُتبَ عليه الاسم المذكور.[١٠]

قلت: وقد طُبِعَ الكتاب بتمامٍ له.

٢- «البداية والنهاية»:

وهوَ كتابٌ مبسوط، يبدأ من خلق العرش، والكرسي، والسموات والأرض، ثم الملائكةِ، والجن والشياطين، ثم خلق آدم عليه السلام، وقَصصِ الأنبياء، ثم أيام بني إسرائيل، والجاهلية، ثم السيرةِ النبويةِ، ثم الشمائلِ المحمديَّةِ، ثم الأحداث من وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان بعض التراجم المهمة في أحداث كُلِّ سنة ممَّن ماتَ فيها، وانتقى تاريخَه هذا من الطبريِّ وغيره، وانتهى به من تاريخ البرزاليِّ سنة (٧٣٨). ويمتازُ تاريخُهُ بإيرادِ الآيات والأحاديث النبوية واعتمادها في القسم الأول، والإشارة إلى بعض الإسرائيلياتِ، ونَقْدِ بعض الأحاديث وبيانِها، ويؤاخذُ بخَلَلٍ في مادةِ التراجم، إذ إنه قد يترك ذكرَ بعض المشاهير، فلا يُترجم لهم وهذا الذي ذكرتُ، مطبوعٌ بكامله عدةَ طبعاتٍ.

ويتلوه قسمٌ في الفتن والملاحمِ وأشراطِ الساعة والبعث والنشور وأهوالِ القيامة، وصفة الجنة والنار، طُبعَ مستقلاً عن الكتاب - وهو منه كما نَبَّهَ المؤلِّفُ عليه في المقدمة - باسم «النهاية

(١٠) «إنباء الغمر» ١/ ٤٧.

في الفتن والملاحم».

٣ـ « التفسير »: وقد أوردَه للمؤلفِ معظمُ مَـنْ ترجـمَ لـه، كابن حجر، وابنِ قاضي شُـهبةَ، وابـن تَغْـري بـردي، والـداوودي.. وجعلوه من أهمِّ ما كتبَ وألَّفَ، لأنهُ أبرزَ فيه جملةً من العلـوم مـن حيثُ اللغةُ، والقراءات، والفقهُ، والتفسيرُ، والتاريخُ، والحديثُ، ونقدُ الرجال، ومعرفةُ الإسرائيلياتِ ونحوُها.

٤ـ «التكميل» : سمَّاه الفاسي وغيره: « التكميـل في معرفـة الثقاتِ والضعفاء والمجـاهيل». وسمَّـاه حـاجي خليفـة: «التكملـة في أسماء الثقات والضعفاء ».

وهو كتابٌ جمعَ فيه بين ما اختصـره مـنْ «تهذيـب الكمـال » ، ومالم يُذكر فيه من « ميزان الاعتدال »، وزياداتٍ أخرى ليست فيهما في الجرح والتعديلِ.

٥ـ «طبقات الشافعية »: كما عند الحُسيني، وابن حَجَر، وابـنِ قاضي شُهبةَ، وابنِ العماد، والداووديُّ. وسمَّـاه ابـنُ تَغْـري بَـردي: «طبقات الفقهاء »، وفي «كشف الظنـون »: «طبقـات عمـاد الديـن ابن كثير». وسمَّاه البغدادي «طبقات العلماء»[1] .

قالَ ابن قاضي شهبة: رَتَّبَهَ على الطبقات، لكنّه ذكرَ فيه خلائـقَ ممّن لا حاجةَ لطلبةِ العلم إلى معرفةِ أحوالهم، فلذلـك جَمَعْنا هـذا الكتاب.[2]

٦ـ «كتاب كبير في الأحكام » : ذكَـره ابـنُ حجر، وابـنُ قاضي شُهبةَ، والداووديُّ، وابنُ العِمادِ. وهو كتـابٌ لم يكمُـلْ، وقـد أكثر المؤلّفُ من النقلِ عنه والإحالةِ إليه في كتابه التفسير، وذكرَ ابـنُ قاضي شُهبةَ أنه وَصَلَ فيه إلى الحَجِّ!!

٧ـ « شرحُ صحيح البخاريّ »: ذكره ابنُ قاضي شُهبةَ، وابنُ حجر، وابنُ تغري بردي، وابنُ العماد، والداووديُّ، وحاجي خليفة.

وقالوا: إنّه لم يُكمله، أو شرَعَ فيـه، أو شَـرَحَ قطعـةً منه. وقـد أحال إلى هذا الكتاب في مواضعَ من كتابِه التفسير.

٨ـ « أحكام التنبيه »: ذكره أبو المحاسن الحُسيني. وقـال ابـنُ قاضي شُهبةَ والداووديُّ: إنه شَرَح قطعة من «التنبيه».

٩ـ «تخريجُ أدلة التنبيه »: ذكره ابنُ حَجَرٍ في «الدرر».

١٠ ـ «تخريجُ أحاديث مختصرِ ابن الحاجب »: ذكـرَه ابـنُ حجر، وابنُ قاضي شهبة، وابنُ تغري بدري، والداوودي، وقال ابـنُ قاضي شُهبةَ: وكتبَ رفيقُه الشيخُ تقيُّ الديـن ابـنُ رافـع لنفسِـه منـه نُسخةً. قلت: وقد طُبعَ.

١١ ـ «الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بـن إدريـس »: كما في «كشف الظنون ». وذكره ابنُ تغري بردي والـدووديُّ باسـمِ مناقب الإمام الشافعي.

١٢ ـ «اختصارُ علوم الحديث »: ذكَره جمعٌ، وقد قرأَه عليه تلاميذُهُ. وهو تهذيبٌ لمقدمـةِ ابـنِ الصَّلاح في مُصطلـحِ الحديـث، اختصَرَها وزادَ عليها بعـض التعقُّبات والفوائـدِ المُهمَّـة. وقـد طُبِـعَ بشرحِ أحمد شاكر رحمه اللّه، وسمَّاه: «الباعثَ الحثيثَ شرحَ اختصار علوم الحديث ».

١٣ ـ «الاجتهادُ في طلب الجهاد »: ذكـره حـاجي خليفـة ١/ ١٠.

وهو رسالة كتَبها المؤلفُ تلبيةً لرغبة نائب الشام الأمـير منجـك بنِ عبد اللّه سيفِ الدين اليوسُفي المتوفَّى سنة (٧٧٦) يحكـي فيهـا أحداثَ الصراع بين المسلمين والصليبيين خلالَ القرنَ الثامن (الفـترة التي عاشها ابنُ كثير). بدأ فيه المؤلِّفُ بمقدمةٍ ذكر فيهـا الآيـات الـتي تَحُضُ على الجهـاد في سـبيل اللّـه، ثـم أوردَ بعـضَ مـا جـاء في الأحاديث النبوية، فسَرَدَ ثلاثةَ عشرَ حديثاً، ثم شرعَ في الحديث عـن الصِّراع بين المسلمين والصليبيين، فذكر ما كـانَ مـن هجـومِ الفرنـج على ثغـر الإسـكندرية، وتصـدي المسـلمين لهـم، ثـم يذكُـرُ جهـودَ المسلمين المستمرّةِ للجهاد في سبيل اللّـه في بـلادِ الشـام على عهـد الرسولِ وخلافة الراشدين، ومن جاءَ بعدهم، كما تعرَّضَ لاسـتيلاء الفرنج على بيـت المقـدس، وتصـديُّ صـلاح الديـن الأيوبي لهـم، وانتزاعِه من أيديهم، واسترجاع البلاد المجاورة مثـلِ: غَـزَّة، ونـابلس، وعَجْلون، والكَـرَكِ، والغَـوْرِ، والشَّـوبكِ، وصَفَـدَ. كـذا ذكـر محقِّـقُ «البداية والنهاية ».

١٤ ـ «سيرةٌ صغيرة »: ذكرها ابنُ قاضي شهبة، والـداوودي، وابنُ العماد.

١٥ ـ «الأحكامُ الصُّغرى في الحديث »: ذكره حـاجي خليفـة

---

(١) هدية العارفين ٢/ ٢١٥.

(٢) « طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦.

١/ ١٩.

١٦ـ «الكواكب الدَّراري»: انتخبة من تاريخِهِ الكبير. ذكره حاجي خليفة (٢/ ١٥٢١).

١٧ـ «مختصر كتاب المُدْخَلِ للبيهقي»: ذكره المؤلفُ في مقدمة كتابه «اختصار علوم الحديث» ص١٧.

١٨ـ «مسندُ الشيخين»: ذكره المؤلف في «البداية والنهاية» ٧/ ١٨، وكأنّه من «جامع المسانيد».

١٩ـ «مسألةُ السماع»: ذكره حاجي خليفة ٢/ ١٠٠١.

٢٠ـ «الفصولُ في سيرةِ الرسول»: ذكره حاجي خليفة ٢/ ١٩٤. وهو قسم من «البداية والنهاية». طُبِعَ غيرَ مرَّةٍ، وكذا طبع «الشمائل المحمدية» و«قصصُ الأنبياء». وهما من «البداية».

٢١ـ «فضائل القرآن» وهو مطبوعٌ.

مصادر الترجمة

١ـ «إنباء الغمر بأبناء العُمر» لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) ـ عالم الكتب.

٢ـ «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر ـ ٢/ ١٩٤.

٣ـ «الباعث الحَثِيث شرح اختصار علوم الحديث» لأحمد شاكر ـ دار الفكر.

٤ـ «البداية والنهاية»، لابن كثير (٧٧٤) ـ دار الكتب العلمية، بتحقيق جماعة.

٥ـ «البدر الطالع بمحاسن مَنْ بَعْدَ القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠) ـ دار المعرفة.

٦ـ «تذكرة الحُفّاظ» للإمام الذهبي (٧٤٨) ـ دار الفكر العربي.

٧ـ «تفسير ابن كثير» ـ ط الشعب ـ مصر.

٨ـ «الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٢٧) ـ تحقيق جعفر الحسني.

٩ـ «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) ـ مُصَوَّرة إحياء التراث..

١٠ـ «درة الحجال في أسماء الرجال» لأبي العباس ابن القاضي ـ تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التراث..

١١ـ «الدليل الشافي على المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٨٧٤) ـ جامعة أم القُرى.

١٢ـ «دول الإسلام» للذهبي (٧٤٨) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣ـ «ذيل تذكرة الحفاظ» لأبي المحاسن الحُسيني (٧٦٥) ـ دار الفكر العربي.

١٤ـ «ذيل العِبَر» لأبي المحاسن الحسيني ـ دار الكتب العلمية.

١٥ـ «ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد» لمحمد بن أحمد الفاسي المكي المالكي (٨٣٢) ـ تحقيق كمال الحوت ـ العلمية.

١٦ـ «الردّ الوافر على مَنْ زَعَمَ بأنَّ مَنْ سَمَّى ابنَ تيمية شيخَ الإسلام كافر» لابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢). تحقيق زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي.

١٧ـ «شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذَهَبَ» لابن العماد الحنبلي (١٠٨٩) ـ دار الفكر.

١٨ـ «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي (٩٠٢) ـ دار مكتبة الحياة.

١٩ـ «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٨٥١) ـ عالم الكتب.

٢٠ـ «طبقات المفسرين» لشمس الدين محمد بن علي الداوودي (٩٤٥) ـ العلمية.

٢١ـ «العبر في خبر مَنْ غَبَر» للذهبي (٧٤٨) ـ دار الكتب العلمية.

٢٢ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة (١٠٦٧) ـ دار الفكر ١/ ١٠و١٩ و٢٢٨و٤٣٩ و٤٧١ و٥٥٠ و٥٧٣ و ٢و /١٠٠١و١١٠٥و١١٦٢و١٥٢١و١٨٤٠.

٢٣ـ «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ». لابنَ فهد (٨٧١) ـ دار الفكر العربي.

٢٤ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري

بردي (٨٧٤) ـ دار الكتب العلمية.

٢٥ـ «هديةُ العارفين من كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر.

٢٦ـ «الوافي بالوفيات» للصفدي (٧٦٤). دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ـ بيروت.

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الأول الآخر، الباطن الظاهر، الذي هـو بكـل شـيء عليـم، الأول فليس قبله شيء، الآخر فليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، الباطن فليس دونه شـيء، الأزلي القديـم الـذي لم يـزل موجـوداً موصوفـاً بصفات الكمال، ولا يـزال دائمـاً مستمرا باقيـا سـرمديا بـلا انقضـاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، علـى الصخرة الصمـاء، في الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلي الكبير المتعال، العلي العظيم الذي ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان: ٢]

و﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.[الرعد: ٢]، وزينها بالكواكب الزاهرات، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾.[الفرقان: ٦١] وسـوى فوقهـن سـريرا، شرجعا عاليا منيفا متسعا مقببا مستديرا. وهو العرش العظيـم ـ لـه قوائـم عظام، تحمله الملائكة الكرام، وتحفـه الكروبيـون عليهـم الصـلاة والسـلام، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم. وكذا أرجاء السماوات مشحونة بالملائكـة، ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفا إلى البيـت المعمـور بالسـماء السـابعة لا يعودون إليه، آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم.

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَـا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّـائِلِينَ﴾.[فصلت: ١٠] قبل خلق السماء، وأثبت فيها من كل زوجين اثنين دلالة للألباء مـن جميـع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم، ولكل ما يحتـاجون إليـه ويملكونـه من حيوان بهيم.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧]، و﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُـلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[السجدة: ٨]، في قرار مكين فجعله سميعا بصيرا، بعـد أن لم يكن شيئا مذكورا. وشرفه بالعلم والتعليم. خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد لـه ملائكتـه، وخلـق منـه زوجـه حواء أم البشر فآنس بها وحدته، وأسكنهما جَنَّته، وأسبغ عليهما نعمته. ثم أهبطهما إلى الأرض لما سـبق في ذلـك مـن حكمـة الحكيـم. وبـث منهمـا رجالا كثيرا ونساء، وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعاة، وفقـراء وأغنيـاء، وأحراراً وعبيداً، وحرائر وإماء. وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعـرض، وجعلهم خلائـف فيهـا يخلـف البعـض منهـم البعـض، إلى يـوم الحسـاب والعرض على العليم الحكيم. وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطـار، تشـق الأقاليم إلى الأمصار، ما بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار، وأنبع لهم العيون والآبار. وأرسل عليهم السـحائب بالأمطـار، فـأنبت لهـم سائر صنوف الزروع والثمار. وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقـال لهم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[النحل: ١٨] ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]: فسبحان الكريم الغني العظيم الحليم.

وكان من أعظم نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهـم ويسر لهم السبيل وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم: مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبـدأ والمعـاد إلى يوم القيامة.

فالسعيد مـن قـابل الأخبـار بـالتصديق والتسـليم، والأوامر بالانقيـاد والنواهي بالتعظيم. ففـاز بـالنعيم المقيـم، وزحـزح عـن مقـام المكذبيـن في الجحيم ذات الزقوم والحميم، والعذاب الأليم.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيـه يمـلأ أرجـاء السـماوات والأرضيـن، دائماً أبد الآبدين، ودهـر الداهريـن، إلى يـوم الديـن، في كـل سـاعة وأوان ووقت وحين، كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم ووجهه الكريم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، ولا ولد له ولا والد لـه، ولا صاحبة له، ولا نظير له ولا وزير له ولا مشير له، ولا عديد ولا نديـد ولا قسيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم، خاتم الأنبياء، وصاحب الحوض الأكبر الرواء، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه اللـه المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليـل إبراهيـم صلـى اللـه عليه وعلى سائر إخوانه من النبين والمرسلين وسلم وشـرف وكـرم أزكـى صلاة وتسليم، وأعلى تشريف وتكريم. ورضي الله عن جميع أصحابه الغرّ الكرام، السادة النجباء الأعـلام، خلاصـة العـالم بعـد الأنبيـاء. مـا اختلـط الظلام بالضياء، وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم.

أما بعد: فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقـه مـا يسـره اللـه تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات، مـن خلـق العـرش والكرسـي والسماوات والأرضين وما فيهنّ وما بينهنّ من الملائكة والجانّ والشـياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين، وما جـرى مجـرى ذلـك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات اللّه وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فنشفي الصدور والغليل، ونزيح الداء عن العليل. ثم نذكرُ ما بعدَ ذلك إلى زماننا، ونذكرُ الفِتَنَ والمَلاحِـمَ، وأشراطَ السَّاعةِ، ثم البعثَ والنُّشُورَ وأهوالَ القيامةِ، ثم صفَةَ ذلك، وما في ذلك اليوم، وما يقعُ فيه مِن الأمورِ الهائِلةِ، ثم صفةَ النارِ، ثم صفةَ الجِنانِ، وما فيها من الخَيْراتِ الحِسانِ، وغيرَ ذلك، وما يتعلَّقُ به، وما ورَد في ذلـكَ من الكتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ والأخبارِ المنقولةِ المقبولةِ عندَ العلمـاءِ ووَرَثـةِ الأنبياءِ، الآخِذينَ مِن مِشكاةِ النُّبُوَّةِ المُصْطَفَوِيَّةِ المحمديَّةِ، على مَـن جـاءَ بهـا أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله ممـا لا يخـالف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، ممـا فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا علـى سـبيل الاحتيـاج إليـه والاعتمـاد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسـول اللـه ﷺ، مـا صح نقله أو حسـن ومـا كـان فيـه ضعـف نبينـه. وباللـه المستعان وعليـه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ [طه: ٩٩] وقد قص الله على نبيه ﷺ خـبر مـا مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمـم المـاضين، وكيـف فعـل بأوليائـه، وماذا أحل بأعدائه. وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمتـه بيانـاً شـافياً، سـنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه صلوات الله وسلامه عليه من ذلـك تلـو الآيات الواردات في ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمـه طوائـف مـن علمـاء أهـل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس. وقـد يسـتوعب نقلـه طائفـة مـن علمائنا أيضاً، ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحـو نحوهـم ولا نذكـر منهـا إلا

القليل على سبيل الاختصار. ونبيّن ما فيه حق منها يوافق ما عندنا، وما خالفه فوقع فيه الإنكار.

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه [٣٤٦١ دون قوله: وحدثوا عني ولا تكذبوا عليّ] عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وحَدِّثُوا عَن بني إِسْرَائِيلَ ولاحَرَجَ، وحَدِّثُوا عنّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا.

فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته، إلا على سبيل الإنكار والإبطال فإذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع وبكتابه عن سائر الكتب.

فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما قد وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير. فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال علي بن أبي طالب (كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله) [ت (٢٩٠٦)، أحمد ٩١/١ مرفوعاً].

وقال أبو ذر، رضي الله عنه: (لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرَنَا منه عِلماً) [أحمد: ١٥٣/٥، ١٢٦ المجمع: ٢٦٣/٨، ٢٦٤].

وقال البُخاريُّ في كتابِ بَدْءِ الخَلْقِ[٣١٩٢]: ورَوَى عيسى بنُ موسى غُنْجَارٌ، عن رَقَبَةَ، عن قيسِ بنِ مسلمٍ، عن طارقِ بنِ شهابٍ، قال: سمعتُ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ مَقاماً، فأخبرنا عن بَدْءِ الخَلْقِ حتى دخَلَ أهلُ الجنةِ منازلَهم، وأهلُ النارِ منازلَهم، حفِظَ ذلكَ مَن حفِظَهُ، ونَسِيَهُ مَن نَسِيَه. قال أبو مسعودٍ الدِّمَشْقِيُّ في «أطرافِهِ»: هكذا قال البخاريُّ، وإنما رواه عيسى غُنْجارٌ عن أبي حَمْزَةَ، عن رَقَبَةَ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده [٣٤١/٥]: حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت، حدثنا علباء بن أحمر اليشكري، حدثنا أبو زيد الأنصاري، قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر. ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا».

انْفَرد بإخراجه مسلمٌ[٢٨٩٢]، فرواه في كتابِ الفِتَنِ من «صحيحِه»، عن يعقوبَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقيِّ، وحَجّاجِ بنِ الشاعرِ، جميعاً عن أبي عاصمٍ الضَّحَّاكِ بنِ مَخْلَدٍ النَّبيلِ، عن عَزْرَةَ، عن عِلْبَاءَ، عن أبي زيدٍ عمرو بنِ أخْطَبَ بنِ رِفاعةَ الأنصاريِّ، رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ بنَحْوِه.

وقال الإمامُ أحمدُ[١٩/٣]: حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ وعفّانُ، قالا: حدّثنا حمّادُ بنُ سَلَمَةَ، أخبرنا عليُّ بنُ زَيْدٍ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ قال: خطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً بعدَ العصرِ إلى مُغَيْرِبانِ الشمسِ، حَفِظَهَا مَنْ حَفِظَهَا، ونَسِيَها من نَسِيَها - قال عفّانُ: قال حمّادٌ: وأكثرُ حِفْظِي أنه قال: بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامَةِ - فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثمّ قال: «أمّا بعدُ، فإنّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وإنّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فناظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، ألا فاتّقُوا الدُّنيا واتّقُوا النِّساءَ». وذكَرَ تمامَ الخُطْبةِ إلى أن قال: فلمّا كان عِنْدَ مُغَيْرِبانِ الشمسِ قال: «ألا إنّ مِثْلَ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيا فِيمَا مَضَى مِنْهَا مثلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ».

ثُمّ قال الإمامُ أحمدُ[٦١/٣]: ثنا عبدُ الرَّزّاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عَليِّ بنِ زَيدِ بن جُدْعانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيدٍ، قال: صَلّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ العَصْرِ ذَاتَ يَوْمٍ نَهَاراً، ثُمَّ قامَ فخطَبَنا إلى أنْ غَابَتِ الشَّمْسُ، فلم يدَعْ شَيْئاً مِمَّا يَكونُ إلى يوم القِيامَةِ إلاّ حَدَّثَنَاهُ، حفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَه ونَسِيَ ذلكَ مَنْ نَسِيَهُ، فكان مِمّا قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إنّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وإنّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كيفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا واتَّقُوا النِّساءَ» وذكَرَ تَمَامَهَا إلى أنْ قال: ثمّ دَنَتِ الشَّمْسُ أنْ تَغْرُبَ، فقال: «وإنّ ما بَقِيَ مِن الدُّنْيا فيما مَضَى منها مِثْلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هذا فيما مَضَى مِنه». وهذا هو المَحْفُوظُ، واللهُ أعلَمُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

١- كتاب بدء الخلق

١- بداية الخلق

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له، مربوب مدبَّر، مكوَّن بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه. فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى، وما بين ذلك من جماد وناطق الجميع خلقه، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيته ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤].

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الحكيم.

واختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون؟ على قولين كما بينا ذلك في التفسير [٤٢٢/٣]، وسنتعرض لإيراده في موضعه.

واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما:

فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض.

وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر لقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]الآية.

وفي حديث عمران بن حصين [خ (٣١٩١) مطولاً، وعنده فيه «شيء غيره» بدلاً من «قبله شيء»] كما سيأتي «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ».

وقال الإمام أحمد بن حنبل [١٢/٤]: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حُدس عن عمه أبي رَزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال: «يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ».

ورواه عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به. ولفظه: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ وباقيه سواء.

وأخرجه الترمذي [٣١٠٩] عن أحمد بن منيع وابن ماجه [١٨٢] عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي: حسن.

٢- أول المخلوقاتِ

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً؟.

فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير [تاريخ: ٣٤/١] وابن الجوزي [المنتظم: ١٢٠/١، ١٢١] وغيرهما.

قال ابن جرير [تاريخ: ٣٧/١]: وبعد القلم السحاب الرقيق.

واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣١٧/٥]، وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» لفظ أحمد.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك وهذا هو الذي رواه ابن جرير [تاريخ: ٣٩/١] من طريق الضحاك عن ابن عباس. كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣).

حيث قال: حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السماوات وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال وعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير.

وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجمهور.

ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. ويؤيد هذا ما رواه البخاري [٧٤١٨] عن عمران بن حصين: قال: قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: «جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» وفي رواية «معه»، [٣١٩١] وفي رواية «غيره» وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السماوات والأرضَ» وفي لفظ: "ثم خلق السماوات والأرض". فسألوه عن ابتداء خلق السماوات والأرض. ولهذا قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فأجابهم عما سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم.

قال ابن جرير [تاريخ: ٣٩/١] وقال آخرون: "بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش".

ورواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: قالوا: (إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء).

وحكى ابن جرير [تاريخ: ٣٤/١] عن محمد بن إسحاق أنه قال: (أول ما خلق الله عز وجل النور والظُّلمة ثم ميز بينهما فجعل الظُّلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً)

قال ابن جرير [تاريخ ٣٩/١] وقد قيل: "إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسيُّ. ثم خلق بعد الكرسيِّ العرشَ. ثم خلق بعد ذلك الهواءَ والظُّلمةَ. ثم خلق الماءَ فوضع عرشه على الماء"، والله سبحانه وتعالى أعلم.

روى الحافظ ابن القاسم بن عساكر في ترجمة علي بن الحسن بن محمد بن أحمد بن جميع الغساني الصيداوي من طريق الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي عنه، عن أبيه عن جده محمد بن أحمد بن جميع: حدثنا محمد بن المعالي الصدوق، حدثنا محمد بن خلف حدثنا محمد بن يوسف عن سفين عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو مما خلق الخلق قال: (من النور والظلمة والماء والثرى) فقال:

إيت ابن عباس فسله فأتاه فسأله فقال له مثل ذلك فقال: ارجع إليه فاسأله مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله فتلا: قال ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] علي بن الحسن قال، قال ابن معين: لم يرو الفريابي حديثا أقرب من هذا.

قلت: غالب هذه الموقوفات من الأخبار الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب إلا بإقامة دليل على صدق بعضها أو كذبه والله أعلم.

٣- خلق العرش

قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: الآية ١٥]

وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٦]

وقال الله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: الآية ٢٦]

وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: الآية ١٤، ١٥]

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية ٥]

وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: الآية ٣]

في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: الآية ٧]

وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧٥]

وفي الدعاء المروي في الصحيح [خ: ٦٣٤٥، م: ٢٧٣٠] في دعاء الكرب «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش الكريم. لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم».

وقال الإمام أحمد [٢٠٦/١]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد، حدثني سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن عباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قال: قلنا: السحاب قال: «والمزن» قال قلنا: والمزن قال: «والعَنان» قال: فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مَسيرة خمسمائة سَنَةٍ ومن كل سماء إلى سماء مَسيرة خمسمائة سَنَةٍ، وكِثَفُ كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بَحْر بين أسفَله وأعلاه كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال بين رُكَبِهن وأظلافِهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يَخفى عليه من أعمال بَني آدم شيء» هذا لفظ الإمام أحمد.

ورواه أبو داود [٤٧٢٣] والترمذي [٣٣٢٠]، وابن ماجه [١٩٣] من حديث سماك بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبي داود «وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا لا ندري قال: «بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاثة وسبعون سنة» والباقي نحوه.

وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار، وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا: حدثنا وهب بن جرير. قال أحمد: كتبناه من نسخته وهذا لفظه.

قال: حدثنا أبي قال سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جُبَيْر بن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يارسول الله جُهِدت الأنفسُ وجَاعَت العيالُ ونُهِكَت الأموالُ وهَلَكَت الأنعامُ. فاسْتَسق الله لنا فإنَّا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: «ويْحَك أتدري ما تقول» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويْحَك إنَّه لا يُستشفَع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سَمواته لَهكذا - وقال بأصابعه مثل القُبَّة عليه - وإنه لَيَئِط به أطيطَ الرَّحل بالرَّاكب». قال ابن بشار في حديثه: «إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته» وساق الحديث.

وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجُبير بن محمد بن جُبير، عن أبيه، عن جده. والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح. وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن مَعين وعلي بن المديني.

ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني. تفرد بإخراجها أبو داود [٤٧٢٦].

وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث. سماه "بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط" واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن يَسَار راويه. وذكر كلام الناس فيه.

ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق، فرواه عبد بن حُميد وابن جرير في تفسيريهما [طبري: ١٠/٣، ١١] وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنة لهما، والبزار في مسنده والحافظ الضياء المقدسي في مختاراته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة قال: فعظم الربُّ تباركَ وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السماوات والأرض وإن له أطيطا كأطيطِ الرحْلِ الجديد من ثقله». عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور. وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه موقوفا ومرسلاً، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم.

وثبت في صحيح البخاري [٢٧٩٠ مطولاً] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِردوسَ فإنه أعلَى الجنة وأوسط الجنة وفوقَه عرش الرحمن»، يروى وفوقه بالفتح على الظرفية، وبالضم.

قال شيخنا الحافظ المزي: وهو أحسن، أي: وأعلاها عرش الرحمن.

وقد جاء في بعض الآثار (أن أهل الفردوس يسمعون أطيطَ العرش وهو تسبيحه وتعظيمه) وما ذاك إلا لقربهم منه.

وفي الصحيح [خ: ٣٨٠٣، م٢٤٦٦] أن رسول الله ﷺ قال: «لقد اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعَاذٍ».

وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة

العرش» عن بعض السلف (أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مَسيرة خمسين ألف سنة) وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وأن اتساعه خمسون ألف سنة.

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير. وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل، وأيضا فإنه فوق الجنة والجنة فوق السماوات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك.

وأيضا فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣]. وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك. والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات. قال اللّه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: الآية ٧] وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية، وفوق ظهورهن العرش، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]

وقال شهر بن حوشب: (حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على حِلمك بعد عِلمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قُدرتك).

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١/٢٥٦] حدثنا عبد اللّه بن محمد وهو أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول اللّه ﷺ صدق أمية ابن أبي الصلت في شيء من شعره فقال:

رَجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينه ... والنسرُ للأخرى وليثٌ مرصدُ

فقال رسول اللّه ﷺ «صدق» فقال:

والشمسُ تطلع كل آخر ليلةٍ ... حمراءَ يُصبح لونها متوردُ
ليست بطالعة لهم في رسلها ... إلا معذبةً وإلا تجلدُ

فقال رسول اللّه ﷺ «صَدَق». فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فيعارضه حديث الأوعال. اللّهم إلا أن يقال: إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم. واللّه أعلم.

ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله:

مجّدوا اللّه فهو للمجدِ أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بَهَر النا ... سَ وسوّى فوقَ السماء سريرا
شَرْجعاً لا يناله بَصَرُ العيـ ... ـنِ ترى حوله الملائكَ صورا

صُور: جمع أَصْور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو.

والشَّرْجَع: هو العالي المنيف.

والسرير: هو العرش في اللغة.

ومن شعر عبد اللّه بن رواحة رضي اللّه عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدتُ بأن وعدَ اللّه حقّ ... وأن النارَ مثوى الكافرينا
وأن العرشَ فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإله مسوّمينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة.

وقال أبو داود [٤٧٢٧] حدثنا أحمد بن حفص بن عبد اللّه، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طَهمان عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد اللّه أن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة اللّه عز وجل من حَمَلة العرش أن ما بين شَحْمة أُذُنِهِ إلى عاتِقِه مَسيرة سَبعمائة عام». ورواه ابن أبي حاتم ولفظه مَخْفِقُ الطير مسيرة سبعمائة عام.

وقال محمد بن عثمان ابن أبي شيبة: حدثنا يوسف بن يعقوب الصفّار حدثنا ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن بن عبد المجيد، عن هشام بن الغاز، عن مكحول، عن أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: اللّهم إني أصبحت أشهد لك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك بأنك أنت اللّه لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك أعتق اللّه ربعه من النار، فإن قالها أربع مرات أعتقه اللّه من النار» [د (٥٠٦٩)].

طريق أخرى: ثم قال ابن أبي شيبة أيضاً: حدثنا محمد بن يعيش، حدثنا أبو حباب. حدثنا حُمَيد مولى ابن عَلقمة المكي حدثنا ابن أبي رباح عن أبي هريرة حدثني سلمان بن الإسلام قال: قال رسول ﷺ: «من قال اللّهم إني أشهدك وأشهد الملائكة وحملة العرش والسماوات ومن فيهن والأرض ومن فيهن وأشهد جميع خلقك بأنك أنت اللّه لا إله إلا أنت وأكفر من أبى ذلك من الأولين والآخرين، وأشهد أنَّ محمداً عبدك ورسولك، من قالها مَرَّة أعتق اللّه ثُلثه من النار، ومن قالها مرتين، أعتق اللّه ثُلثيه، ومن قالها ثلاثاً أعتقه اللّه من النار» [الطبراني: ٦/٦٠٦١، ٦٠٦٢].

طريق أخرى، عن صحابي آخر قال ابن أبي شيبة: حدثنا عبد اللّه بن يحيى بن الربيع عن أبي راشد، حدثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن أبي سعيد أن رسول اللّه ﷺ قال: «ما من عبد يقول أربع مرات: اللّهم إني أُشهدك وكَفى بك شهيداً وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خَلْقك وأناً أشهد أن لا إله إلا أنتَ وحدك لا شريك لك وأنَّ محمداً عبدك ورسولك إلا كتب اللّه له فِكَاكاً من النار».

٤ ـ صفة الكرسي

وأما الكرسيّ فروى ابن جَرير [في تفسيره: ٣/١٠] من طريق جُوَيْبر ـ وهو ضعيف ـ عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش؛ وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غير العرش.

وعن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] أي: علمه.

والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه [٢٨٨/٢]. وقال: إنه على شرط الشيخيْن ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمّار الدّهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدّر قدره إلا اللّه عزّ وجلّ.

وقد رواه شجاع بن مخلَد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل، عن الثوري فجعله مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وحكاه ابن جرير [في تفسيره: ٣/ ١٠] عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ومسلم البطين.

وقال السدي عن أبي مالك: «الكُرْسِيُّ تحت العرش».

وقال السُّديُّ: «السماوات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش».

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «لو أن السماوات السبع والأرَضِينَ السبع بُسِطْن ثم وصِلْنَ بَعضهن إلى بَعضٍ ما كنَّ في سَعَة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المَفَازة».

وقال ابن جرير [في تفسيره: ٣/ ١٠] حدثني يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السّبع في الكرسيِّ إلا كَدَرَاهِمَ سبعةٍ أُلقيت في تُرْس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلا كَحَلقة من حديد أُلقيت بين ظَهرَيْ فَلاةٍ من الأرض» أول الحديث مرسل وعن أبي ذر منقطع.

وقد روي عنه من طريق أخرى موصولاً. فقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في تفسيره [كما في الدر المنثور: ١/ ٣٢٨]: أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، أنبأنا عبد الله بن وهيب الغَزِّي أنبأنا محمد بن أبي سري، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذرٍّ الغفاري أنه سأل رسول اللّه ﷺ عن الكرسيِّ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «والَّذي نفسي بيده ما السماوات السَّبعُ والأرَضُون السَّبعُ عند الكرسيِّ إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإنّ فضل العرش على الكرسيِّ كفضل الفلاة على تلك الحلَقة».

رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» عن الحسن بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أحمد بن علي الأسدي، عن المختار بن عساكر، حدثني عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، أيُّ آية أنزلت عليك أفضل؟ قال: «آية الكرسيِّ، كَفَضل تلك الفَلاة على تلك الحَلْقة».

وقال ابن جرير في تاريخه [١/ ٤٠]: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا أبي عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير: قال سئل ابن عباس عن قوله عز وجل ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. قال: والسماوات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي.

وروى: عن وهب بن منبه نحوه.

وفسّر وهب الهيكل فقال: شيء من أطراف السماوات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط.

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أنّ الكرسيّ عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمّونه فلك الكواكب الثوابت. وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير كما ورد به الحديث المتقدم أنّ نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك.

فإن قال قائلهم: فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكاً فنقول: الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف إن الكرسي بين يدي العرش كالمرقاة إليه. ومثل هذا لا يكون فلكاً. ومن زعم منهم أن الكواكب الثوابت مرصَّعة فيه لا دليل لهم عليه. هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم.

٥- خلق اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير: ١٢٥١١]: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدَّثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير، عن أبيه، عن ابن عباس أن نبيّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله خلق لَوحاً محفوظاً من دُرَّة بيْضاء صَفَحَاتها من يَاقُوتة حمراء، قَلَمُه نور وكِتَابه نور لله فيه في كلِّ يوم ستُّون وثلاثُمائة لَحظة يَخلُق ويَرْزق ويُميت ويحيي ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويفعل ما يشاء».

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: «إنَّ في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة».

قال: «واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدُّر والياقوت ودَفَّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك».

وقال أنس بن مالك، وغيره من السلف: «اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل» [طبري في تفسيره: ٣٠/ ١٤٠].

وقال مقاتل: «هو عن يمين العرش».

٦- خلق السماوات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: الآية ٥٩] في غير ما آية من القرآن.

وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين.

فالجمهور على أنها كأيامنا هذه.

وعن ابن عبّاس، ومجاهد والضحّاك، وكعب الأحبار: إنَّ كلَّ يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهنّ ابن جرير [تاريخ: ١/ ٥٩، ٦٠]، وابن أبي حاتم.

واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي ردّ فيه على الجهمية، واختاره ابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم. وسيأتي ما يدلُّ على هذا القول.

وروى ابن جرير [تاريخه: ١/ ٤٢] عن الضحّاك بن مزاحم، وغيره أنَّ أسماء الأيام الستة. «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت»

وحكى ابن جرير في أول الأيام ثلاثة أقوال:

فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال: «يقول أهل التوراة: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ: ابتدأ الله الخلق يوم السبت».

وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من

الفقهاء من الشافعية، وغيرهم. وسيأتي فيه حديث أبي هريرة «خلق اللّه التُّربةَ يوم السَّبت» [م (٢٧٨٩)، أحمد ٣٢٧/٢].

والقول بأنه الأحد: رواه ابن جرير [تاريخه: ٤٧/١] عن السدّي عن أبي مالك، وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة.

ورواه أيضاً عن عبد اللّه بن سلام، واختاره ابن جرير [تاريخه: ٤٥/١]. وهو نص التوراة، ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء. وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة، فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل اللّه عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء اللّه.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٩]

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت: الآيات ٩-١٢].

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً. وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [النبأ: الآيتان ٦-٧] إلى أن قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ: الآيتان ١٢-١٣].

وقال ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]

أي: فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون والأنهار، وانتعش الحيوان. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢] أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت، والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسماوات كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: الآيتان ١٠٥-١٠٦]

فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: الآيات ٢٧-٣٣] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض، فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دَحْيَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء. وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: الآية ١٠] أي هيّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار.

ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج [منها] ما كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار، ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: الآيتان ٣٠-٣١] وقوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: الآية ٣٢] أي: قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ. وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآيات ٤٧-٤٩]:

بأيد أي بقوة. وإنا لموسعون، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها. ولهذا كان الكرسي أعلى من السماوات. وهو أوسع منهن كلهن. والعرش أعظم من ذلك كله بكثير.

وقوله بعد هذا ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي بسطناها وجعلناها مهداً أي: قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم. ولهذا قال ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ والواو لا يقتضي الترتيب في الوقوع. وإنما تقتضي الإخبار المطلق في اللغة واللّه أعلم.

وقال البخاري [٣١٩١]: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا جامع بن شدّاد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال: «دخلت على النّبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشّرتنا فأعطنا مرّتين.

ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول اللّه، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «كان اللّه ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر كلّ شيء وخلق السماوات والأرض» فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السّراب، فواللّه لوددت أني كنت تركتها». هكذا رواه ها هنا.

وقد رواه في كتاب المغازي [برقم (٤٣٦٥) و(٤٣٨٦)] وكتاب التوحيد [خ (٧٤١٨)] وفي بعض ألفاظه «ثم خلق السماوات والأرض» وهو لفظ النسائي [كبرى (١١٢٤٠)] أيضاً.

٧- حديثُ «خلق اللّهُ التربةَ يوم السبت»

وقال الإمام أحمد بن حنبل [٣٢٧/٢]: حدثنا حجّاج حدثني ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد اللّه بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول اللّه ﷺ بيدي فقال: «خلق اللّه التّربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشّجَر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النّور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدّواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى اللّيل».

وهكذا رواه مسلم [٢٧٨٩] عن شريح بن يونس وهارون بن عبد اللّه.

والنسائي [كبرى (١١٠١٠)] عن هارون ويوسف بن سعيد، ثلاثتهم عن حجّاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء.

وقد رواه النّسائي في التفسير [كبرى (١١٣٩٢)] عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، عن محمد بن الصّبّاح، عن أبي عبيدة الحدّاد، عن

الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «يا أبا هريرة إنّ الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العَرش يوم السابع، وخلق التُّربة يوم السبت» وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج.

وقد تكلم في هذا الحديث علي ابن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ.

قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح. يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بما يصدّقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأكد رفعه بقوله: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي». ثم في متنه غرابة شديدة. فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام. وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السماوات في يومين من دخان. وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زَبَده الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[البقرة: الآية ٢٩] قالوا: إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين،(الأحد والاثنين).

وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال الله تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: الآية ١] والحوت في الماء والماء على صفات والصفات على ظهر مَلك والمَلك على صخرة والصخرة في الريح. وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرَّت.

وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة. وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها.

ثم قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره. ثم زيّن السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش.

وهذا الإسناد يذكر به السّدي أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل لكنّ كثيراً ما يقع فيما يرويه غلط وليس منه، ولكنه من الكتب التي ينقل عنها؛ لأنها قد دخلها غلط كبير وخطأ كثير.

وقد روى البخاري في صحيحه [٧٣٦١] عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول في كعب الأحبار «وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب» أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم.

ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين: عنهم. ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان

٨- السماوات السبع والأرضون السبع

قال البخاري [٧٥٥٣]: حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى اللهُ الخلقَ كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمَتِي غَلَبت غَضَبِي» وكذا رواه مسلم [٢٧٥١] والنسائي [كبرى (٧٧٥٠)] عن قتيبة به. ثم قال البخاري:

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[الطلاق: الآية١٢].

ثم قال [٣١٥٩]: حدثنا علي بن عبد الله، أخبرنا ابن عُليّة، عن علي بن المبارك، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك. فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «من ظَلَم قِيْد شِبر طُوِّقَهُ من سَبْع أرَضين»

ورواه أيضاً في كتاب المظالم [٢٤٥٣] ومسلم [١٦١٢] من طرق عن يحيى بن كثير به.

ورواه أحمد [٧٩/٦، ٢٥٢] من حديث محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة به، ورواه أحمد أيضاً [٦٤/٦، ٢٥٩] عن يونس عن أبان، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن عائشة بمثله.

ثم قال البخاري [٣١٩٦]: حدثنا بشر بن محمد قال: أخبرنا عبد الله، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقّه خُسِف به يوم القيامة إلى سَبْع أرَضين»

ورواه في المظالم [٢٤٥٤] أيضاً عن مسلم بن إبراهيم، عن عبد الله، هو ابن المبارك، عن موسى بن عقبة به، وهو من أفراده.

وذكر البخاري ها هنا [٣١٩٧] حديث محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الزمان قد استَدار كَهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثني عشَرَ شَهْراً» الحديث.

ومراده، والله أعلم، معنى تقرير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: الآية ١٢] أي في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول، فهذه مطابقة في الزمان كما أن تلك مطابقة في المكان.

ثم قال البخاري [٣١٩٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل أنه خاصمته أروى في حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان، فقال سعيد رضي الله عنه: أنا انتقص من حقّها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظُلماً فإنَّهُ يُطَوَّقه يوم القيامة من سبع أرَضين» [ورواه

البخاري]

وقال الإمام أحمد [٣٩٦/١، ٣٩٧]: حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن لهيعة، حدثنا عبيد الله بن أبي جعفر، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن ابن مسعود قال: «قلت: يا رسول الله أيُّ الظلم أعظم قال: «ذِرَاع من الأرض ينتقِصُه المَرء المسلم من حق أخيه فليس حَصَاة من الأرض يأخذها أحد إلا طُوِّقها يوم القيامة إلى قَعْر الأرض، ولا يَعلم قَعْرَهَا إلا الذي خَلَقَها» تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد [٣٨٨/٢]: حدثنا عفَّان، حدثنا وهيب حدثنا سهيل، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقّه طُوِّقَهُ من سبع أرَضين» تفرّد به أيضاً من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: [٤٣٢/٢] حدثنا يحيى عن ابن عجلان، حدثني أبي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطَعَ شبراً من الأرض بغير حقّه طُوِّقَهُ يوم القيامة إلى سبع أرَضين» تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: أيضاً [٣٨٧/٢] حدثنا عفّان حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أخذ من الأرض شبراً بغير حقّه طُوِّقَهُ من سبع أرضين». تفرّد به أيضاً.

وقد رواه الطّبراني من حديث معاوية بن قرة، عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها، وفي وسطها المركز وهو نقطة مقدرة متوهمة. وهو محط الأثقال، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع.

واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل، أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين، وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً.

والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢]

وقال الإمام أحمد: [٣٧٠/٢] حدثنا سُريج حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال: «أتدرون ما هذه؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «العَنان وزَوَايا الأرض يسوقه اللهُ إلى من لا يشكُرونه من عباده ولا يدعونه، أتدرون ما هذه فوقكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «الرَّقِيع مَوج مَكفُوف وسَقْف محفوظ، أتدرون كم بينكم وبينها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مسيرة خمسمائة عام.» ثم قال: «أتدرون ما الذي فوقها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «سماءٌ أخرى، أتدرون كم بينها وبينها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مسيرة خمسمائة عام حتى عدّ سبع سموات»، ثم قال: «أتدرون ما فوق ذلك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: العرش، أتدرون كم بينه وبين السّماء السّابعة؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «مسيرة خمسمائة عام.» ثم قال: «أتدرون ما هذه تحتكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «أرض، أتدرون ما تحتها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «أرض أخرى، أتدرون كم بينهما؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «مسيرة سبعمائة عام» حتى عد سبع أرضين، ثم قال: «وايم الله، لو دَلَّيتُم أحدكم إلى الأرضِ السُّفلى السابعة لَهَبَطَ» ثم قرأ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ٣]».

ورواه الترمذي [٣٢٩٨] عن عبد بن حميد، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب، عن شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، قال: حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بُعْد ما بين كل أرضين خمسمائة عام، وذكر في آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد - ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره

ورواه ابن جرير في تفسيره [٢١٦/٢٧] عن بشر، عن يزيد، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً. وقد يكون هذا أشبه والله أعلم.

ورواه الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذرّ الغفاري عن النبي ﷺ بنحوه، ولكن لا يصح إسناده والله أعلم.

وقد تقدّم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له. وفيه: «وبُعد ما بين كل سماءين خمسُمائة عام، وكِثَفُها أي: سُمْكُهَا خمسُمائة عام».

وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث «طُوِّقَهُ من سَبْع أرضين» أنها سبعة أقاليم. فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مع ما ذكرنا من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة.

ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم.

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصحّ سنده إلى معصوم؛ فهو مردود على قائله.

وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال: «في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم» فهذا ذكره ابن جرير [في تفسيره: ١٥٣/٢٨] مختصراً واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات [٣٨٩، ٣٩٠] وهو محمول إن صح نقله عنه على أنّ ابن عباس رضي الله عنه أخذه عن الإسرائيليات والله أعلم.

٩- خلق الجبال

وقال الإمام أحمد: [١٢٤/٣] حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جَعَلت تَميدُ فخلق الجبالَ فألقاها عليها فاستقرت فتَعَجَّبت الملائكةُ من خلق الجبال فقالت: يا ربِّ هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحَديد. قالت: يا ربِّ فهل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم النار. قالت: يا ربِّ فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا ربِّ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الماء؟ الرِّيح. قالت: يا ربُّ فهل من خلقك شيء أشد من الرِّيح قال: نعم ابن آدم يَتصدَّقُ بيمينِهِ يُخفيهَا من شِمَالِهِ» تفرّد بإخراجه أحمد.

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً

وغرباً، وذكروا أطوالها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

قال ابن عباس وغير واحد: الجُدد: الطَّرَائِق.

وقال عكرمة وغيره الغَرَابِيبُ: الجبال الطوال السُّود.

وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة نصف يوم، وهو أخضر؛ لأن فيه شجراً من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها: قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسِّرين والله أعلم.

وذكر تعالى طور سيناء وقد ذكر الحافظ البهاء ابن عساكر في كتابه «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» في ترجمة الجبال المقدسة، من طريق عمرو بن بكر، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: أقسم ربنا عزّ وجلّ بأربعة أجبل فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣] فالتين طور ربّنا مسجد بيت المقدس، والزيتون طور ربّنا، وطور سنين وهذا البلد الأمين جبل مكة وقال قتادة: التين جبل عليه دمشق والزيتون جبل عليه بيت المقدس.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٤٨/٢، ٣٤٩] عن كعب الأحبار أنه قال: أربعة أجبل يوم القيامة: جبل الخليل ولبنان، والطور، والجودي يكون كل واحد منهن يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء ما بين السماء والأرض يرجعن إلى بيت المقدس حتى تجعل في زواياه نوراً ويضع عليها كرسيه حتى يقضي بين أهل الجنة والنار ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومن طريق الوليد بن مسلم ثنا عثمان بن أبي عاتكة عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: أوحى الله إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك لجبل بيت المقدس، قال: ففعل، فأوحى الله إليه: أما إذا فعلت فإني سأبني لي في حضنك بيتا قال: عبد الرحمن، قال الوليد: في حضنك، أي: في وسطه، وهو هذا المسجد يعني مسجد دمشق أُعبدُ فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك قال: فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع.

وعن خليل بن دعلج أن صفية زوج النبي ﷺ أتت طرف بيت المقدس فصلت فيه وصعدت إلى طور ربنا فصلت فيه وباتت على طرف الجبل فقالت: من هاهنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار.

٩- خلق البحار والأنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ [الفرقان: ٥٣]

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].

فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج، والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد، قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة [تفسير الطبري: ٢٤/١٩ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ. إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

فامتن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبثق منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مُرّ، وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات العظام فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم وفساد معايشهم فاقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة. ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال: «هو الطَّهور ماؤُه الحِلُّ مَيْتَتُهُ» [د (٨٣)، ت (٦٩)، س (٥٩) و(٣٣١) ج (٣٨٦ - ٣٨٨)].

وأما الأنهار فاقتضت الحكمة أ ن يكون ماؤها حلواً عذباً جارياً فراتاً سائغاً للشاربين. وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى اخرى رزقا للعباد. ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة.

وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتسيير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهي مسيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] فيه قولان:

أحدهما: أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال. وأنه فوق السماوات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس.

والثاني: أن البحر اسم جنس يعمّ سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور.

واختلفوا في معنى البحر المسجور:

فقيل: المملوء.

وقيل: يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير [٤٠٥/٧] عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم.

وقيل: المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا. رواه الوالبي عن ابن عبّاس وهو قول السّديّ وغيره.

ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٤٣/١]: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يُشْرِف فيها ثلاث مرّات يَستأذن اللّه عزّ وجلّ أن ينفضِخَ عليهم فيكفُّه اللّه عزّ وجلّ».

ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هارون، عن العوّام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرس لم يخرج أحد من الحرس غيري فأتيت الميناء، فصعدت فجعل يخيل إليّ أن البحر يشرف يحاذي برؤوس الجبال فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يُشرف ثلاث مرّات يستأذن اللّه أن ينفضخ عليهم فَيَكُفُّهُ اللّه عزّ وجلّ». في إسناده رجل مبهم واللّه أعلم.

وهذا من نعمة اللّه تعالى على عباده أن كفّ شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخّره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم وبما خلق لهم فيه حلية يلبسونها من اللآلئ والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]

وقال النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميته».

وفي الحديث الآخر: «أُحِلَّت لنا مَيْتتان ودَمَان السَّمَك والجَرَاد والكَبد والطِّحَال» رواه أحمد [٩٧/٢] وابن ماجه [٣٢١٨ و٣٣١٤] وفي إسناده نظر.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار في مسنده [كشف الأستار: (١٦٦٩)]: «وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال «كلّم اللّهُ هذا البحرَ الغربيَّ وكلّم البحرَ الشّرقيَّ فقال للغربيِّ: إني حَامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم. قال: بَأسُك في نَواحيك وحَرَّمَهُ الحِلية والصَّيد، وكلّم هذا البحرَ الشّرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أحْمِلُهم على يدي، وأكونُ لهم كالوالدةِ لولَدِها، فأثابه الحِلية والصَّيدَ ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عمرو هو منكر الحديث.

قال: وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عيّاش عن عبد اللّه بن عمرو موقوفاً.[الخطيب في تاريخ بغداد: ٢٣٣/١٠]

قلت: الموقوف على عبد اللّه بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود.

فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء، وقد سمعت منه ثم مزّقت حديثه كان كذّاباً وأحاديثه مناكير.

وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التسيير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات قالوا: الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وينبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ. فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣]

قالوا: المعمور من هذا البادي منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً. وهو خمس وستون درجة.

قالوا: فالبحر المحيط الغربي ويقال له: أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درجات مسافة شهر تقريباً وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة هيجه واغتلامه وما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر ويقال: جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء، ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبي الأرض وفيه هناك جزائر الزّنج وعلى سواحله خراب كثير. ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند. ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة. وهناك بلاد الصين. ثم ينعطف في شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين. ويسامت سد يأجوج ومأجوج. ثم ينعطف ويستدير على أرض غير معلومة الأحوال. ثم يمتد مغرباً في شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوباً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الزقاق الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب. ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة، حتى إنه يقال: إن في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم.

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهما وفيها فجاج تسلك المراكب بينها يسيرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلها في البر أيضاً قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء: ٣١].

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند في كتابه المسمى بالمجسطي الذي عرب في زمان المأمون، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً. فمنها ما هو واحد، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القلزم. والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة. وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم

وبحر بنطش وبحر الأزرق، مدينة على ساحله وهو بحر القرم أيضاً ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحر الروم وتبطيء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لاستقبالها جريان الماء. وهذا من العجائب في الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه.

قال أهل الهيئة: وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو. وقيل: إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد. ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر.

وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح.

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث. وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: ٣٢-٣٤].

ففي الصحيحين [خ (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) م (١٦٤)] من طريق قتادة عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال: «فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. فأما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفُرات».

وفي لفظ للبخاري [٧٥١٧]: وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعمتهما وليس في الدنيا مما في الجنة الأسماء.

وفي صحيح مسلم [٢٨٣٩] من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سَيْحَان وجَيْحَان والفُرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنة».

وقال الإمام أحمد: [٢/٢٦٠، ٢٦١] حدثنا ابن نمير ويزيد، أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «فُجِّرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسَيْحان وجَيْحان» وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها.

كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي [٢٠٦٦] وصحّحه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العَجْوة من الجنة وفيها شفاء من السُّمّ» أي: تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك، فتعين أن المراد غيره.

وكذا قوله ﷺ: «الحُمّى من فَيْح جهنم فأبْرِدُوها بالماء» [خ (٣٢٦٣، ٣٢٦٤، ٥٧٢٥)، م (٢٢٠٩ - ٢٢١٢)] وكذا قوله: «شدَّةُ الحر من فَيْح جهنم» [خ (٥٣٣)، م (٦١٥ -٦١٧)]. وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض.

أما النيل، وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القمر أي البيض، ومنهم من يقول جبال القمر بالإضافة إلى الكوكب وهي في غربي الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبي. ويقال: إنها حمر تنبع من بينها عيون. ثم تجتمع من عشر مسيلات متباعدة. ثم تجتمع كل خمسة منها في بحر. ثم تخرج منها أنهار ستة. ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى. ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان بالحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر. وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها وما اجترف من ترابها وهي محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهي من أحق الأراضي بدخولها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾[السجدة: ٢٧]

ثم يتجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربي منهم على رشيد ويصب في البحر المالح.

وأما الشرقي فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب في البحر والشرقية منهما تمر على أشمون طناح فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط. يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط. وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه. ولهذا كان ألطف المياه.

قال ابن سينا: له خصوصيات دون مياه سائر الأرض:

فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه.

ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال.

ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحّة مزاجه وحلاوته ولطافته.

ومنها أن زيادته تكون في أيام نقصان سائر الأنهار. ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة وأن الذي اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين.

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجّاج، عمن حدثه قال: «لما فتحت مصر أتى أهلُها عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤونة من أشهر العجم (القبطية) فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها! فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً.

وفي رواية: فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى ثلاثة أشهر والنيل لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه

عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر:

أما بعد، فإن كنت تجري من قِبَل نفسك فلا تجري وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يُجريك فنسأل الله أن يجريك» فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله سبحانه النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنَّة عن أهل مصر إلى اليوم.

وأما الفرات فأصلها من شمالي أرزن الروم فتمر إلى قرب ملطيه ثم تمر على سميساط. ثم على إلبيرة قبليّها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر ثم إلى الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة، ثم تخرج إلى فضاء العراق وتصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها وتخرج منها أنهار كبار معروفة تصبُّ في بحر البصرة.

وأما سيحان ويقال له: سيحون أيضا فاوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرمن التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها من الأعداء فتغلب نقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا فملكوها. والله المسؤول عودها إلينا بحوله وقوته. ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في بحر الروم بين إياس وطرسوس.

وأما جيحان ويقال له: جيحون أيضا وتسميه العامة جاهان. وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب وهو نهر يقارب الفرات في القدر ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم.

١٠- مخلوقات أخرى

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٢-٤]

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٦٠-٦١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل: ١٠-١٣]

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه الأبرار والفجار وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]

وقد روى الحافظ أبو يعلى [التفسير: ٤/٢٣٩] عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد، عن محمد بن عيسى بن كيسان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله ألف أُمَّة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجَرَاد فإذا هلك تتابعت مثْلَ النِّظام إذا قُطِعَ سِلكُه».

عبيد بن واقد: أبو عباد البصري: ضعّفه أبو حاتم.

وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه.

قال الفلاس والبخاري: منكر الحديث.

وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يحدث عنه.

وضعفه ابن حبان والدارقطني وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨].

١١- خلق الشمس والقمر والكواكب

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٩]

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت ٩-١٢]

وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[النازعات: ٢٧-٣٠].

وقد اجبنا عن قوله ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فإن الدحي غير الخلق وهو بعد خلق السماء.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ

خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ: ١٢ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [نوح: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[الطلاق: ١٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[الفرقان: ٦١-٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾[الحجر: ١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٣٧-٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤].

والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير.

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السماوات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[الذاريات: ٧] أي: الخلق الحسن.

وقال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك: ٣-٤] أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي: كليل ضعيف ولو نظر حتى يعيى ويكلّ ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: النجوم.

وقيل: محالُ الحرس التي يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ولا منافاة بين القولين.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[الحجر: ١٦-١٧] فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات (الشمس والقمر والنجوم الزاهرات) وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى.

فقال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾.[الصافات: ٦-٨]

قال البخاري في كتاب بدء الخلق [فتح الباري: ٢٥٩/٦] وقال قتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به.

وهذا الذي قاله قتادة مصرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: ٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٩٧] فمن تكلف غير هذه الثلاث أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث أرضية فقد أخطأ. وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة.

وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً أي: واحدة فوق واحدة.

واختلف أصحاب الهيئة هل هنَّ متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء؟ على قولين:

والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف، عن العباس في حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال «بينهما مسيرة خمسمائة عام. ومن كلّ سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكِثَفُ كلّ سماء خمسمائة سنة». الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه [تقدم في ص١٤].

وفي الصحيحين [خ (٣٥٧٠، ٧٥١٧)، م (١٦٢ - ١٦٤)] من حديث أنس في حديث الإسراء قال فيه: «ووجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام. وقال: مرحباً وأهلاً بابني نعم الابنُ أنت. إلى أن قال: ثمّ عرج إلى السماء الثانية». وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فدل على التفاضل بينها لقوله: «ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل: من هذا؟» الحديث. وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم.

وقد حكى ابن حزم وابن المنادي وأبو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السماوات كرة مستديرة. واستدل على ذلك بقوله ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال الحسن: يدورون.

وقال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل.

قالوا: ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق، كما قال أميّة بن أبي الصلْت.

والشمسُ تطلُع كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبِحُ لونها يتورَّدُ
ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها ... إلا معذَّبةً وإلا تُجلَدُ

فأما الحديث الذي رواه البخاري [٣١٩٩] حيث قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّها تذهب حتّى تسجُدَ تحت العرش فتستأذِنُ فيؤذَنُ لها ويوشك أن تسجد فلا يُقبلُ منها وتستأذن فلا يُؤذن لها. يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربهَا فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾» [يس: ٣٨].

هذا لفظه في بدء الخلق [٣١٩٩] ورواه في التفسير [٤٨٠٢]. وفي التوحيد [٧٤٢٤] من حديث الأعمش أيضا.

ورواه مسلم في الإيمان [١٥٩] من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد

وأبو داود [٤٠٠٢] من طريق الحكم بن عتيبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه، عن أبي ذرّ به نحوه.

وقال الترمذي [٢١٨٦، ٣٢٢٧]: حسن صحيح.

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السماوات على أشهر القولين ولا يدل على كُرِّية العرش كما زعمه زاعمون. قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السماوات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش، بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التسيير. وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه، فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلا في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي، فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبّب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا، فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من المشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية:

ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذّبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها فيه من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء إنها تسجد أيضا ثم تستاذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير [٥٦٢/٦]، فتقول: يا ربّ إنّ الفجر قد اقترب وإنّ المدى بعيد فيقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً. وذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨].

قيل: لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها.

وقيل: مستقرّها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش.

وقيل: منتهى سيرها وهو آخر الدنيا.

وعن ابن عباس أنه قرأ «والشمس تجري لا مُستَقرّ لها» أي ليست تستقر، فعلى هذا تسجد وهي سائرة. ولهذا قال تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] أي لا تدرك الشمسُ القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضاً، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب الليل جاء النهار في إثره متعقباً له كما قال في الآية الأخرى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]

أي: يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل اللّيل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» [خ (١٩٥٤)، م (١١٠٠)] فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما. ولهذا قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] أي: يولج من هذا في هذا، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهارقصيراً فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع. ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص إلى آخر فصل الربيع، ثم يتراجع الأمر وينعكس الحال فيشرع النهار يتناقص والليل في ازدياد حتى يعتدلا أيضاً في اول فصل الخريف. ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف. ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا، وهكذا في كل عام. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]

أي: هو المتصرف في ذلك كله، الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السماوات والنجوم والليل والنهار: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] أي العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب، العليم بكل شيء، فقدر كل شيء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٨٢٦)، م (٢٢٤٦)] من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» وفي رواية «فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره».

قال العلماء كالشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام [غريب الحديث: ١٤٥/٢ - ١٤٨] وغيرهما يسب الدهر أي: يقول: فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر، أيتم الأولاد، أرمل النساء. قال تعالى: «وأنا الدهر». أي أنا الدهر الذي يعنيه، فإنه فاعل ذلك الذي سنده إلى الدهر والدهر مخلوق، وإنما الذي فعل هذا هو الله الخالق فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر. والله هو الفاعل لذلك، الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال: «وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره» وكما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧]

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ.﴾ [يونس: ٥-٦] أي: فاوت بين الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نوراً أي: أضعف من

برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها وقدره منازل، أي: يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها، فبقدر مقابلته يكون نوره ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة. ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر. ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدا في أول الشهر الثاني. فيه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنون والأعوام ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[الإسراء: ١٢]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير. فالكواكب التي في السماء منها سيارات وهي المتحيرة في اصطلاح علماء التسيير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى ما لا دليل عليه وهي سبعة:

القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة. وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين.

وقال آخرون: بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض. وقد يستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وبقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]

فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم.

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات في اليوم والليلة دورة كلية من الشرق إلى الغرب، وعندهم أنّ كلّ واحد من الكواكب السيارات يدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق. فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة. فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة.

قد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به.

وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة. يعبدون كل واحد في هيكله، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم. وذكره صاحب كتاب «السر المكتوم» في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وهو خرافات لا يلتفت إليها وغيره من علماء الحرنانيين فلاسفة حران في قديم الزمان وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]

وقال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرُونَ. ولله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠]

وقال تعالى: ﴿ولله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤]

والآيات في هذا كثيرة جداً.

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السماوات والأرض هي الكواكب وأشرقهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان إلهية شيء منهن. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦]

أي الغائبين ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧ ـ ٧٩]

فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف. وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]

وثبت في الصحيحين [خ (١٠٤٠ ـ ١٠٤٤)، م (٩٠١)] في صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة

أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وقال البخاري في بدء الخلق [٣٢٠٠]: حدثنا مسدد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناج، حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة». انفرد به البخاري.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق، فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد مسجد الكوفة، وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة» فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: وما ذنبهما!

ثم قال البزار: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدي، حدثنا أبو أسامة عن مجالد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً.

فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقهما الله لما أراد. ثم يفعل فيهما ما يشاء، وله الحجة الدامغة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب.

وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك.

قال ابن هشام [السيرة: ٢٢٧/١. ديوان أمية ص٣٨، ٣٩] هي لأمية بن أبي الصلت:

إلى اللّه أهدي مدحتي وثنائيا ... وقولا رصيناً لايني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... إلـه ولا ربٌّ يكون مدانيا
الا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفي من اللّه خافيا
وإياك لا تجعل مع اللّه غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك إنْ الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهي ربنا ورجائيا
رضيت بك اللّهم ربّاً فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك اللّه ثانيا
وأنت الذي من فضل منٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: يا اذهب وهارون فادعوا ... إلى اللّه فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له: ءأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: ءأنت رفعت هذه ... بلا عمد، أرفق إذاً بك بانيا
وقولا له ءأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنّه الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبّه في رؤوسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا
وإني لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيباً ورحمة ... عليّ وبارك في بنيّ وماليا

فإذا علم هذا فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]

وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة حسناء فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته، فرفعت كوكباً إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخبر به كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل [تفسير عبد الرزاق: ٥٣/١، ٥٤. ابن جرير ٤٥٦/١، ٤٥٧].

وقد روى الإمام أحمد [١٣٤/٢] وابن حبان في صحيحه [٦١٨٦] في ذلك حديثا رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها. وفيه «فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها» وذكر القصة.

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره [٥٣/١] عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار به.

وهذا أصح وأثبت.

وقد روى الحاكم في مستدركه [٢٦٦/٢ مختصراً] وابن أبي حاتم في تفسيره [٣٠٥/١] عن ابن عباس فذكره وقال فيه: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب. وذكر تمامه.

وهذا أحسن لفظ روي في هذه القصة والله أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٩٠٣)]: حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

وحدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلاً فقال: «كان عشاراً ظلوماً فمسخه الله شهاباً» ثم قال: لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث. وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين.

قلت: أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة. فقد ضعفه الجميع.

وقال فيه الإمام أحمد والدارقطني: كان يضع الحديث ويكذب.

وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف باتفاقهم.

قال فيه أحمد والنسائي: متروك.

وقال ابن معين: ليس بثقة وليس بشيء.

وقال البخاري: سكتوا عنه.

وقال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث ضعيف الحديث.

ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية. وإذا أحسنا الظن قلنا هذا

من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم.

فصل في الكلام على المجرّة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٠٥٩١)]: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه. قال: فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال: إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا! من لهذا؟ قيل: ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه «أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق. والمجرة باب السماء الذي تنشق منه. وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل».

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني [المعجم الكبير (١٧٥٤)]: حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج، حدثنا إبراهيم بن مخلد، حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل: هي لعاب حية تحت العرش»؛ فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري. ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدث بالأباطيل.

وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث جدا.

وقال ابن عدي: لا يتابع على أحاديثه لا متنا ولا إسنادا في الكامل في الضعفاء.

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

وروى الإمام أحمد [٥/٤٣٥] عن يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك».

وروى موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم أنه قال: إن نطقه الرعد وضحكه البرق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام، عن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له اربعة وجوه وجه: إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذلك البرق.

وقد روى الإمام أحمد [٢/١٠٠] والترمذي [٣٤٥٠] والنسائي [١٠٧٦٣] والبخاري في كتاب الأدب [الأدب المفرد ٧٢١] والحاكم في مستدركه [٤/٢٨٦] من حديث الحجاج بن أرطاة حدثني أبو مطر عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك».

وروى ابن جرير [في تفسيره ١٣/١٢٤] من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه: كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده».

وعن علي أنه كان يقول: «سبحان من سبحت له».

وكذا عن ابن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم.

وروى مالك [الموطأ: ٢/٩٩٢] عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول: «إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض».

وروى الإمام أحمد [٢/٣٥٩] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد».

وروى الطبراني [المعجم الكبير (١١٣٧١)] عن ابن عباس مرفوعاً: «إذا سمعتم الرعدَ فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً».

وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة.

١٣- خلْق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآيات ٢٦ - ٢٩]

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الشورى: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: الآيتان ٧ - ٨]

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٩ - ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ - ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا

بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: الآية ٦٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١٠ -١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ [المدثر: ٣١]

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: الآيتان ٢٣ - ٢٤]

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ١]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ [الفرقان: الآيتان ٢٥ - ٢٦]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً. يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ [الفرقان: الآيتان ٢١ - ٢٢]

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦]

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآيات [هود: الآيتان ٧٧ - ٧٨].

فذكرنا في التفسير [١٠٩/٦] ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها. له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين: مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض. ومرة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. وهو قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: الآيات ٥ - ٨]

أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة. منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٩ - ١٠] أي إلى عبد الله محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: الآيات ١٣ - ١٧].

وكل ذلك المراد به جبريل. وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة. وفي رواية في السادسة أي: أصلها وفروعها في السابعة ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾. قيل: غشيها نور الرب جل جلاله.

وقيل: غشيها فراش من ذهب.

وقيل: غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة.

وقيل: غشيها الملائكة مثل الغربان.

وقيل: غشيها من الله أمرٌ فلا يستطيع أحد أن ينعتها. أي من حسنها وبهائها.

ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة.

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال: «ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال».

وفي رواية: «كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. فأما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران فالنيل والفرات» [تقدم].

وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار. وفيه: «ثم رفع لي البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم» وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض.

وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال «هو مسجد في السماء يقال: له الضُّراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها. حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون فيه أبداً». وهكذا روى عليّ بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله [تفسير الطبري: ١٦/٢٧، ١٧].

وقال الطبراني [١٢١٨٥]: أنبأنا الحسن بن علّويه القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت المعمور في السماء يقال له: الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط، فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة». يعني في الأرض.

وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد [تفسير الطبري: ١٧/٢٧].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الحن من قبيلة إبليس لعنه الله كان يقول: سدنته وخدامه منهم والله أعلم.

وقال آخرون: في كل سماء بيت يعمره ملائكتها بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي: حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد «أن الحرم حرام مناه «يعني قدره من السماوات» السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض».

ثم روى مجاهد قال: مناه أي: مقابله وهو حرف مقصور.

ثم قال: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول: «إن الحرم محرم في السماوات السبع مقداره من الأرض - وإن بيت المقدس مقدس في السماوات السبع مقداره من الأرض» كما قال بعض الشعراء:

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنَى لنا بَيْتاً دَعائِمُهُ أشدُّ وأطْوَلُ

واسم البيت الذي في السماء الدنيا بيت العزة. واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل.

فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه. «آخر ما عليهم» «أي لا تحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر» يكونون من سكان السماء السابعة وحدها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: الآية ٣١]

وقال الإمام أحمد [١٧٣/٥]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل» فقال أبو ذر: «والله لوددت أني شجرة تعضد».

ورواه الترمذي [٢٣١٢] وابن ماجه [٤١٩٠] من حديث إسرائيل.

وقال الترمذي: حسن غريب ويروى عن أبي ذر [الحاكم في المستدرك: ٥٧٩/٤] موقوفاً.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٧٥١)]: حدثنا حسين بن عرفة المصري حدثنا عروة بن مروان الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً».

فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السماوات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة. منهم من هو قائم أبداً ومنهم من هو راكع أبداً، ومنهم من هو ساجد أبداً، ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها.

وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ - ١٦٦].

وقال ﷺ: «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها». قالوا: وكيف يصفون؟ قال: «يُتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف» [م: ٤٣٠]. وقال: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» [م: ٥٢٢].

وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر: الآية ٢٢].

ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ: الآية ٣٨]

والمراد بالروح هاهنا: بنو آدم؛ قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

وقيل: ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش.

وقيل: جبريل. قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك.

وقيل: ملك يقال له: الروح بقدر جميع المخلوقات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً.

وقال ابن جرير [٢٢/٣٠]: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا روّاد بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة هو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا وحده.

وهذا غريب جداً

وقال الطبراني [المعجم الكبير (١١٤٧٦)]: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكا لو قيل له التقم السماوات والأرضين بلقمة واحدة لفعل. تسبيحه: سبحانك حيث كنت».

وهذا أيضاً حديث غريب جداً. وقد يكون موقوفاً.

وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

رواه أبو داود [٤٧٢٧] وابن أبي حاتم ولفظه: «مخفق الطير سبعمائة عام».

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: الآية ٥] قالوا: كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك. رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ اي خلق حسن وبهاء وسناء، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: الآية ٤٠، والتكوير: الآية ١٩] أي: جبريل رسول من الله.

﴿كَرِيمٍ﴾ أي حسن المنظر ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ اي له قوة وبأس شديد ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانه ومنزلة عالية رفيعة عند الله، ذي العرش المجيد، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي مطاع في الملأ الأعلى ﴿أَمِينٍ﴾ أي ذي أمانة عظيمة.

ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحي. فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة. وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه في صفات متعددة كما قدمنا. وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين. له ستمائة جناح كما روى البخاري [٤٨٥٧] عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني قال: سألت زراً عن قوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: الآيتان ٩ - ١٠].

قال حدثنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له

ستمائة جناح.

وقال الإمام أحمد [١/٣٩٥ من طريق اخرى]: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم».

وقال أحمد أيضاً [١/٤٦٠]: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: الآية ١٣] قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت.»

وقال أحمد [١/٤٠٧]: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين، حدثني عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح» فسألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد.

وقال أحمد [١/٤٠٧]: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني حصين، حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل في خَضْر تعلق به الدر». إسناده صحيح.

وقال ابن جرير [تفسير الطبري ٢٧/٤٩]: حدثنا ابن بزيع البغدادي قال: حدثنا إسحاق بن منصور، قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: الآية ١١] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. إسناد جيد قوي.

وفي الصحيحين [خ (٤٨٥٥)، م (١٧٧)] من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: الآية ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: الآية ١٣] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض».

وقال البخاري [٣٢١٨]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن ذر «ح» وحدثني يحيى بن جعفر، حدثنا وكيع عن عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ لجبريل «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» قال فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: الآية ٦٤] الآية.

وروى البخاري [١٩٠٢، ٤٩٩٧]: من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وقال البخاري [٣٢٢١]: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ فقال عمر: أعلم ما تقول يا عروة قال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه» يحسب بأصابعه خمس صلوات.

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثاً. أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه. والصور قرن ينفخ فيه. كل دارة منه كما بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث، فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث، فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر، كما سيأتي تفصيله في موضعه.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له!» قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا». رواه أحمد [١/٣٢٦] والترمذي [٢٤٣١] من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري.

وقال الإمام أحمد [٣/٩، ١٠]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي، عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال: «عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٢٠٦١)]: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمر بن أبي ليلى، حدثني أبي عن ابن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس. قال بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذا انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل، فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا محمد إن الله يامرك ان تختار بين نبي عبد أو ملك نبي» قال «فأشار جبريل إلي بيده: (أن تواضع) فعرفت أنه لي ناصح فقلت: عبد نبي، فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت: يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل؟» فقال: هذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح، فإذا اذن الله في شيء من السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر، فإن كان من عملي أمرني به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به. «قلت: يا جبريل وعلى أي شيء أنت؟» قال: على الريح والجنود. قلت: «وعلى أي شيء ميكائيل؟» قال: على النبات والقطر «قلت: وعلى أي شيء ملك الموت» قال: على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة».

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

في صحيح مسلم [٧٧٠] عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللّهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.».

وفي حديث الصور [الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)] أن إسرافيل أول

من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور.

وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ. حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والأعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام) [ص٥٧].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]

عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره.

وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين.

وقد قال الإمام أحمد [٢٢٤/٣]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا ابن عياش، عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلى يقول: «سمعت ثابتاً البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط!» فقال: «ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار».

فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصحاح هم المذكورون في الدعاء النبوي [م (٧٧٠)] «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم.

وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله.

وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقدرها في موضعها من الأرض وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور. والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور، ويجازي الكفور، فذاك ذنبه مغفور، وسعيه مشكور. وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور، وهو يدعو بالويل والثبور.

فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى. وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق. وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء.

وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]

وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلفوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقي بها إلى الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١ ـ ٦٢]

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أنهم قالوا: إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء [تفسير الطبري: ٩٧/٢١، ٩٨، ٢١٧/٩].

وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمناً أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح. وإن كان كافراً فبالضد من ذلك. عياذاً بالله العظيم من ذلك.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر قال: سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن» فقال ملك الموت: يا محمد طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق. واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها».

قال جعفر بن محمد وهو جعفر الصادق بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت، فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في تلك الحال العظيمة.

هذا حديث مرسل وفيه نظر.

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاص عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ (الحديث) بطوله. وفيه: «ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول: يا رب قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت. فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: يا ربِّ بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل. فيقول: ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول: يا رب يموت جبريل وميكائيل فيقول: اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله: لتمت حملة عرشي فيموتون ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل.

ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت أنا فيقول الله: أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. كان آخراً كما كان أولاً».

وذكر تمام الحديث بطوله، رواه الطبراني [الأحاديث الطوال (٣٦)] وابن جرير [في تفسيره: ٣٣٠/٢، ٣٣١، ٦١/٢٤، ١٨٦/٣٠ ـ ١٨٨] والبيهقي [في البعث والنشور: ٦٦٨، ٦٦٩] ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الطوالات) وعنده زيادة غريبة وهي قوله: «فيقول الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لا تحيى بعده أبداً»

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن: هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف. وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات.

وروى الإمام أحمد [١٣٤/٢] حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه [الإحسان (٦١٨٦)]. وفي صحته عندي نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما

سيأتي بيانه والله أعلم.

وفيه: «أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر».

وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضاً [تفسير الطبري: ١/٤٥٦] أن الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً.

وروى الحاكم في مستدركه [٢/٤٤٢] عن ابن عباس قال: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة.

ثم قيل: كان أمرهما وقصتهما في زمان إدريس، وقيل: في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير:

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق في تفسيره [١/٥٣، ٥٤] عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة.

وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالاً والله أعلم.

ثم قد قيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قبيلان من الجان، قاله ابن حزم [الفصل: ٣/٢٦١] وهذا غريب وبعيد من اللفظ.

ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين من أهل فارس، قاله الضحاك [تفسير الطبري: ١/٤٥٩].

ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة، لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي تقريره.

ومن الملائكة المسمين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة، أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين.

وقال البخاري [٣٢٣١]: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن وهب، حدثني يونس عن ابن شهاب، حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً». ورواه مسلم [١٧٩٥] من حديث ابن وهب به.

١٤- أقسامُ الملائكة

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام:

فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم.

ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش. وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. [النساء: ١٧٢]

ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩]

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة ويدعون كما ثبت في الحديث [م (٢٧٣٢، ٢٧٣٣)] عن الصادق المصدوق أنه قال: «إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل»

ومنهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

فمنهم الراكع دائماً والقائم دائماً والساجد دائماً.

ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وخازن الجنة ملك يقال له: رضوان جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث.

ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية. ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ - ٧٨]

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ. وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠ - ٣١]

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٠ - ١١] الآيات.

قال الوالبي عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهي الملائكة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال أبو أمامة: «ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له»

وقال أبو مجلز [تفسير الطبري: ١١٩/١٣]: «جاء رجل إلى علي فقال: إن نفراً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنة حصينة»

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الانفطار ١٠-١٢]

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن مرثد عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بعيره أو ليستره أخوه».

هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار في مسنده [كشف الأستار: ٣١٧] من طريق حفص بن سليمان القارئ. وفيه كلام

عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالاتٍ الغائط والجنابة والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره».

ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم.

ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح [خ (٣٢٢٧)، م (٢١٠٦، ٢١٠٧)، ت (٢٨٠٤) اخرجوه دون ذكر الجنب] والسنن [د (٢٢٧) و(٤١٥٢)، س (٢٦١) و(٤٢٩٢)] والمسانيد [أحمد: ٨٣/١، ١٠٧، ١٣٩، ١٥٠] من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

وفي رواية [أحمد: ١٦٤/١] عن عاصم بن ضمرة عن علي «ولا بول».

وفي رواية [ت (٢٨٠٥)] رافع عن أبي سعيد مرفوعاً «لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال».

وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال» [د (٤٨٥٨)، ت (٢٨٠٦)، س (٥٣٨٠)]

وفي رواية ذكوان أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس» [م (٢١١٣)].

ورواه زرارة بن أوفى عنه «لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس» [أحمد: ٣٨٥/٢، ٤١٤].

وقال البزار [كشف الأستار (٣٢١٤)]: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالفلوسي. حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن ملائكة الله يعرفون بني آدم «وأحسبه قال» ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان. وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه. وقالوا: هلك فلان الليلة».

ثم قال البزار: سلام هذا أحسبه سلاّماً المدائني وهو لين الحديث.

وقد قال البخاري [٣٢٢٣]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر. ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم - فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون. وأتيناهم وهم يصلون.».

هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه. وقد أخرجاه في الصحيحين [خ (٧٤٢٩)، م (٦٣٢)] في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به.

وقال البزار [كشف الأستار (٣٢٥٢)]: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن - يعني البصري - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة».

ثم قال تفرد: به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث.

قلت: وقد وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع.

وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره.

والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل. وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال يكتب حسناته، وكاتب الشمال يكتب سيئاته، فأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال له صاحب اليمين: أمهله لعله أن يتوب أو يستغفر. وإذا عمل حسنة، كتبها صاحب اليمين من غير توقف ولا استمار من صاحب الشمال. كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٨٥/١]. حدثنا أسود بن عامر. حدثنا سفيان، حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم [٢٨١٤] من حديث منصور به.

فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الإنسان وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يالوه جهداً في الخبال والإضلال. والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان.

وقال البخاري: [٣٢١١] حدثنا أحمد بن يونس حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر».

وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه وهو في الصحيحين [خ (٩٢٩)، م (٨٥٠)] من وجه آخر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

﴿الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾. [الإسراء: ٧٨]

وقال الإمام أحمد [٤٧٤/٢]: حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. ورواه الترمذي [٣١٣٥] والنسائي [كبرى: ١١٢٩٣] وابن ماجه [٦٧٠] من حديث أسباط.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: وهو منقطع.

وقال البخاري [٤٧١٧] وقال: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة. ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

وقال البخاري [٣٢٣٧]: حدثنا مسدد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح».

تابعه شعبة وأبو حمزة وابن داود وأبو معاوية عن الأعمش.

وثبت في الصحيحين [خ (٧٨٠)، م (٤١٠)] أن رسول الله ﷺ قال «إذا أمن الإمام فأمنوا. فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي لفظ [خ (٩٨٠)، م (٤١٠)] «إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول في السماء آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي صحيح البخاري [٣٢٢٨] حدثنا إسماعيل، حدثني مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: (اللهم ربنا ولك الحمد) فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك، عن سُمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة [م (٤٠٩)، د (٨٤٨)، ت (٢٦٧)، س (١٠٦٢)].

وقال الإمام أحمد [٢٥١/٢، ٢٥٢]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد هو شك (يعني الأعمش) قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفّون بهم إلى السماء الدنيا فيقول: الله أي شيء تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول: وهل رأوني؟ فيقولون: لا فيقول: كيف لو رأوني فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكرا. قال: فيقول: فأي شيء يطلبون؟ فيقولون: يطلبون الجنة فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا فيقول: وكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً قال: فيقول: من أي يتعوذون؟ فيقولون من النار فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها هربا وأشد منها خوفاً. قال: فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم. قال فيقولون: إن فيهم فلاناً الخطاء لم يردهم، إنما جاء لحاجة فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»

وهكذا رواه البخاري [٦٤٠٨] عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به. وقال: رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه. ورفعه سهيل عن أبيه.

وقد رواه أحمد [٢٥٢/٢، ٣٨٢] عن عفان عن وهيب، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

كما ذكره البخاري معلقاً عن سهيل.

ورواه مسلم [٢٦٨٩] عن محمد بن حاتم، عن بهز بن أسد، عن وهب به.

وقد رواه الإمام أحمد [٢٥٢/٢] أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان (هو الأعمش) عن أبي صالح، عن أبي هريرة ولم يرفعه نحوه كما أشار إليه البخاري رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: [٢٥٢/٢] حدثنا أبو معاوية. حدثنا الأعمش وابن نمير. أخبرنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. ومن يسّر على معسّر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس به علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وكذا رواه مسلم [٢٦٩٩] من حديث أبي معاوية.

وقال الإمام أحمد [٩٤/٣]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن أبي إسحاق، عن الأغر (أبي مسلم) عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال «ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وتغشتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده.»

وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه [٤٧٤/٢، ٣٣/٣، ٤٩، ٩٢].

ورواه مسلم [٢٧٠٠] من حديث شعبة والترمذي [٣٣٧٨] من حديث الثوري وقال: حسن صحيح.

ورواه ابن ماجه [٣٧٩١] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن رزيق عن أبي إسحاق بإسناده نحوه. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وفي مسند الإمام أحمد [١٩٦/٥] والسنن [د (٣٦٤١)، ت (٢٦٨٢)] عن أبي الدرداء مرفوعاً «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع» أي تتواضع له كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]

وقال الإمام أحمد [٤٤١/١]: حدثنا وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي السلام».

وهكذا رواه النسائي [١٢٨١] من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به.

وقال الإمام أحمد [١٦٨/٦]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت

الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نـار، وخلـق آدم مما وصـف لكم».

ورواه مسلم [٢٩٩٦] عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به.

وكذلك الحديث الذي روى أن للملك لَمَّةً بقلب العبد، وللشـيطان لمة بقلبه، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إيعاد بـالفقر - وفي رواية: بالشر - وتكذيب بـالحق». وكذلـك الحديـث الـذي روى: «إذا أصبح العبد ابتـدره الشـيطان والملـك، فيقـول الملـك: افتـح بخير. ويقـول الشيطان: افتح بشر. فإذا ذكر الله وحمده تولاه الملك وطرد عنه الشيطان إلى الليل، فإذا جاء الليل قال الملك: اختِمْ بخير. ويقول الشـيطان: اختـمْ بشـرٍ. فإن ختَم نَهاره بخير تولاَّه الملك حتى يصبح، وطرد عنه الشيطان». وكذلك إذا خرج العبد من منزله فقال: «بسم الله توكلت على اللـه ولا حـول ولا قوة إلا بالله. قـال لـه الملـك: هُديـتَ وكُفيـتَ ووُقيـتَ. ثـم يتنحَّى عنـه الشيطان»..... إلى آخره.

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً. وقد ذكرنا ما يسـره اللـه تعالى وله الحمد.

١٥- الخلاف في تفضيل الملائكة على البشر

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال:

فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم.

وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عسـاكر في تاريخه [٣٠٣/٩، ٣٠٤] في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنـه حضـر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: «ما أحد أكرم على الله مـن كريـم بـني آدم» واستـدل بقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]

ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بـن مـالك: «ما أحد أكرم على اللّـه مـن ملائكته: هـم خدمـة داريـه ورسـله إلى أنبيائه» واستدل بقوله تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: «ما تقول أنت يا أبا حمزة؟ فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسـجد لـه الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة» فوافـق عمـر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله.

وأضعف دلالة ما صرح به مـن الآيـة وهـو قولـه: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ مضمونه أنهـا ليسـت بخاصة بالبشـر. فـإن اللّـه قـد وصف الملائكة بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وكذلك الجان: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا﴾ [الجن: ١٣] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾.

قلت: وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمـان بـن سـعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال: «لما خلق الله الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هـذه نـأكل منهـا ونشـرب، فـإنك خلقـت الدنيا لبني آدم فقال الله: لن أجعل صالح ذريـة مـن خلقـت بيـدي كمـن قلت له: كن فكان» [أخرج نحوه البيهقي في «الأسماء والصفات» ٣١٧، وعبد الرزاق في «تفسيره» ٣٨٢/٢].

١٦- خلق الجان وقصّة الشيطان

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَـقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤ -١٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِـن صَلْصَـالٍ مِّـنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ -٢٧]

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قالوا: من طرف اللّهب.

وفي رواية من خالصه وأحسنه [تفسير الطبري: ١٢٦/٢٨، ١٢٧].

وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهري عن عروة عـن عائشـة قـالت: قـال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلـق آدم مما وصف لكم» رواه مسلم [٢٩٩٦].

قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السـلام وكـان قبلهم في الأرض الجِنُّ والبِنُّ، فسلط الله الجن عليهـم فقتلوهـم وأجلوهـم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم بسبب ما أحدثوا.

وذكر السدي في تفسيره عـن أبي مـالك عـن أبي صـالح عـن ابـن عباس؛ وعن مرة عن ابن مسعود وعــن نـاس مـن أصحـاب رسـول اللّـه ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى علـى العـرش فجعـل إبليـس على ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكـة يقـال لهـم الجـن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وذكر الضحاك عـن ابـن عبـاس: أن الجـن لمـا أفسـدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعـه جنـد مـن الملائكـة فقتلوهـم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور [تاريخ الطبري: ٨٤/١].

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد، عن عطـاء، عـن طـاوس عـن ابـن عباس: كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل. وكان من سـكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان من حي يقال لهـم: الجن [تاريخ الطبري: ٨٦/١].

وروى ابن أبي حاتم [في تفسيره: ١٢٢/١] عن سعيد بن جبير عنه: كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة.

وقال سنيدٌ عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازناً على الجنان؛ وكـان لـه سـلطان سماء الدنيا. وكان له سلطان الأرض [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس: كان يسوس ما بـين السـماء والأرض روّاه ابن جرير [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كـان إبليـس رئيـس ملائكـة سمـاء الدنيا [تاريخ الطبري: ٨٦/١].

وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر [تفسير الطبري: ٢٦٠/١٥].

وقال شهر بن حوشب وغيره: كان إبليس من الجـن الذيـن طردوهـم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء. رواه ابن جريـر [تاريخ الطبري: ٨٧/١].

قالوا: فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته مـن بعـده وصور جثته منها جعل إبليس وهـو رئيـس الجـان وأكـثرهم عبـادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمـالك.

وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك، فلما أن نفخ الله في آدم من روحه، كما سيأتي، وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله الناري ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣ - ٧٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤوماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٥]

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام.

والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون. ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً. وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً. وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً. وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً. وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً. وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً. وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً. وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ [الجن: ١ - ١٧]

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف. وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك. وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفي بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته. ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال: «كلم عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً وكل روثة علف لدوابكم» [مسلم: ٤٥٠] ونهى النبي ﷺ أن يستنجي بهما وقال «إنهما زاد إخوانكم الجن». ونهى عن البول في السرب لأنها مساكن الجن [أبو داود: ٢٩]. وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. وقد أثنى عليهم النبي ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا. فقال: «الجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد». رواه الترمذي [٣٢٩١] عن جابر وابن جرير [تفسير الطبري: ٢٧/١٢٤] والبزار [كشف الأستار: ٢٢٦٩] عن ابن عمر.

١٧- الخلافُ في جزاء مؤمني الجنّ

وقد اختلف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة؟ أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط؟

على قولين: الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن. ولعموم قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٤٧]

فامتن تعالى عليهم بذلك، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم من النعم. وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة والله أعلم.

وقال البخاري: [٣٢٩٦] حدثنا قتيبة عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه: أن أبا سعيد الخدري قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»

قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم.

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته. وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم. كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ

الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٤٤]

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص. وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد. وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله.

والمقصود أن إبليس أنظره الله وأخره وأمره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. [سبأ: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢ ـ٢٣].

١٨- عرش إبليس

فإبليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن. وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦] وكان اسمه قبل معصيته العظيمة: عزازيل.

قال النقاش: وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: «ما ترى؟» قال أرى عرشا على الماء فقال له النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» [خ (١٣٥٤)، م (٢٩٢٥، ٢٩٣٠)] فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر. ولهذا قال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» أي: لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة.

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٥٤/٣]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني ماعز التميمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس».

وقال أحمد [٣٨٤/٣]: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة» تفرد به من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣٨٨/٣]: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: «ما ترى؟». قال: أرى عرشاً على الماء أو قال: على البحر حوله حيات قال ﷺ: «ذاك عرش إبليس». هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيد [٩٧/٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد: «ما ترى؟» قال: أرى عرشا على البحر حوله الحيات. فقال رسول الله ﷺ «صدق ذاك عرش إبليس»

وروى الإمام أحمد [٣٥٤/٣، ٣٦٦] من طريق ماعز التميمي وأبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم».

وروى الإمام مسلم [٢٨١٣] من حديث الأعمش عن أبي سفيان، طلحة بن نافع، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة. يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت».

يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام. وبكسرها أي: نعم منك.

وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]

يعني أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك. فالذي ذمه الله يمدحه والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله.

١٩- شرُّ الشياطين

وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته. ولا سيما سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. وثبت في الصحيحين عن أنس [هو عند مسلم (٢١٧٤) ولم يخرجه خ].

وفي صحيح البخاري [٢٠٣٥] عن صفية بنت حيي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم»

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي [٤٣٠١]: حدثنا محمد بن بحر، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياد النميري، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس».

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناسي كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]

وقال فتى موسى ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]

وقال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] يعني الساقي لما

قال له يوسف ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك. وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولهذا قال بعده: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]

أي: تذكر قول يوسف له: اذكرني عند ربك. بعد مدة. وقرئ «بعد أمَهٍ» أي: نسيان. وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررناه في التفسير والله أعلم.

قال الإمام أحمد [٥٩/٥]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت: تعس الشيطان فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته وإذا قلت: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب». تفرد به أحمد وهو إسناد جيد.

وقال أحمد [٣٣٠/٢]: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا الضحاك بن عثمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبسَّ به كما يُبسُّ الرجل بدابته فإذا سكن له زنقه أو ألجمه». قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك.

أما المزنوق فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلا الله. وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٤٣٩/٢]: حدثنا ابن نمير حدثنا ثور، يعني ابن يزيد، عن مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم».

وقال الإمام أحمد [٢٣٥/١]: حدثنا وكيع عن سفيان، عن منصور، عن ذر بن عبد الله الهمداني، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به» فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

ورواه أبو داود [٥١١٢] والنسائي [كبرى: ١٠٥٠٤، ١٠٥٠٥] من حديث منصور؛ زاد النسائي والأعمش: كلاهما عن أبي ذر به.

وقال البخاري: [٣٢٧٦] حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول: من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته». وهكذا رواه مسلم [١٣٤] من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠]

وروى الإمام أحمد [٥٠/٣] وأهل السنن [د (٧٧٥)، ت (٢٤٢)] من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه».

وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أمامة الباهلي [أحمد (٨٠/٤، ٨٣)، د (٧٦٤) و(٧٦٥)، ج (٨٠٧) من رواية جبير، وأخرجه من رواية ابن مسعود: أحمد (٤٠٣/١، ٤٠٤)، ج (٨٠٨)، ومن رواية أبي أمامة: أحمد ٢٥٣/٥].

وتفسيره في الحديث قال: «فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع. ونفخه الكبر. ونفثه الشعر».

وثبت في الصحيحين [خ (١٤٢) و(٦٣٢٢)، م (٣٧٥)] عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث».

قال كثير من العلماء: استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم

وروى الإمام أحمد [٣٧١/٢] عن سُريج عن عيسى بن يونس، عن ثور، عن الحصين عن أبي سعد الخير وكان من أصحاب عمر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيباً فليستدبره، فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج». ورواه أبو داود [٣٥] وابن ماجه [٣٣٧] من حديث ثور بن يزيد به.

وقال البخاري [٦١١٥]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن عدي بن ثابت قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فجعل أحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ فقال: إني لست بمجنون. ورواه أيضاً مسلم [٢٦١٠] وأبو داود [٤٧٨١] والنسائي [كبرى (١٠٢٢٤) و(١٠٢٢٥)] من طرق عن الأعمش.

وقال الإمام أحمد [٨٠/٢]: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو في الصحيح [م (٢٠١٩) و(٢٠٢٠)] من غير هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد [٧٧/٦] من حديث إسماعيل بن أبي حكيم، عن عروة، عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان».

وقال الإمام أحمد [٣٠٣/١]: حدثنا محمد بن جعفر، أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان، سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له: «قه» قال: لم؟ قال: «أيسرك أن يشرب معك الهر؟». قال: لا قال: «فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أيضاً [٢٨٣/٢]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لاستقاء».

قال: وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري.

وقال الإمام أحمد [٣٤٦/٣]: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، أنه سأل جابراً، سمعت النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر

اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا. وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال: أدركتم المبيت. وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء قال: نعم».

وقال البخاري [٣٢٧٢]: حدثنا محمد، حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان» أو «الشياطين» لا أدري أي ذلك قال هشام.

ورواه مسلم [(٨٢٨) و(٨٢٩)] والنسائي [٥٧٠، وفي الكبرى (١٥٥٠)] من حديث هشام به.

وقال البخاري [٣٢٧٩]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: «ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه.

وفي السنن [د (٤٨٢١) و(٤٨٢٢)، ج (٣٧٢٢)] أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشمس والظل.

وقال: «إنه مجلس الشيطان» [أحمد ٤١٣/٣، ج (٣٧٢٢)].

وقد ذكروا في هذا معاني. من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته في نفسه مشوّهة وهذا مستقر في الأذهان. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم. فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاهدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]

وقال البخاري [٣٢٨٠]: حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا ابن جريج، أخبرني عطاء عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إذا استجنح» أو «كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً».

ورواه أحمد [٣١٩/٣] عن يحيى عن ابن جريج به؛ وعنده «فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً».

وقال الإمام أحمد [٣٠١/٣]: حدثنا وكيع عن فطر عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله: «أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفئوا سرجكم، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء، وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله» يعني الفارة.

وقال البخاري [٣٢٨٣]: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: اللّهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه».

وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله.

ورواه أيضاً [٣٢٧١] عن موسى بن إسماعيل، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن كريب عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله اللّهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولداً لم يضره الشيطان».

وقال البخاري [٣٢٦٩]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي عن سليمان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد: يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان» هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال البخاري [٣٢٩٥]: حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثني ابن أبي حازم، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن محمد بن إبراهيم، عن عيسى بن طلحة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه»

ورواه مسلم [٢٣٨] عن بشر بن الحكم عن الدراوردي.

والنسائي [٩٠] عن محمد بن زنبور، عن عبد العزيز بن أبي حازم، كلاهما عن يزيد بن الهاد به.

وقال البخاري [٣٢٧٠]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: «ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه» أو قال «في أذنه».

ورواه مسلم [٧٧٤] عن عثمان وإسحاق كلاهما عن جرير به.

وأخرجه البخاري [١١٤٤] أيضاً والنسائي [كبرى: ١٣٠٢] وابن ماجه [١٣٣٠] من حديث منصور بن المعتمر به.

وقال البخاري [٣٢٨٥]: حدثنا محمد بن يوسف، أنبأنا الأوزاعي، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه. فيقول: اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتي السهو».

هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [١٥٤/٣]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا جعفر، يعني الأحمر، عن عطاء بن السائب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلل». وقال أحمد [٢٦٠/٣، ٢٨٣]: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول «راصوا صفوفكم وقاربوا بينهما وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفس محمد بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف»

وقال البخاري [٣٢٧٤]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن حميد بن هلال، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان».

ورواه أيضا مسلم [٥٠٥] وأبو داود [٧٠٠] من حديث سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال به.

وقال الإمام أحمد [٨٢/٣، ٨٣]: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مسرّة بن معبد، حدثنا أبو عبيد صاحب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني.

ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي

صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لُعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وروى أبو داود [٦٦٩] منه «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن أبي سريج، عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن الزبيري به.

وقال البخاري [٣٢٨٤]: حدثنا محمود، حدثنا شبابة، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة الصبح فقال: «إن الشيطان عرض لي فشدَّ علي يقطع الصلاة عليَّ فأمكنني الله منه» فذكر الحديث.

وقد رواه مسلم [٥٤١] والنسائي [١١٤٤٠] من حديث شعبة به مطولاً.

ولفظ البخاري [٤٨٠٨] عند تفسير قوله تعالى إخبارا عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص الآية ٣٥] من حديث روح وغندر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تفلت عليَّ البارحة أو- كلمة نحوها - ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾» قال روح فرده خاسئاً.

وروى مسلم [٥٤٢] من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثا. وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك! فقال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

وقال تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: الآية ٣٣] يعني الشيطان

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: الآية ٦] فالشيطان لا يألو الإنسان خبالاً جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته، كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً في ذلك سماه "مصائد الشيطان" وفيه فوائد جمة.

وفي سنن أبي داود [١٥٥٢] أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت».

وروينا في بعض الأخبار [مسند أحمد: ٢٩/٣، ٤١] أنه قال: «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

وقال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل.

وقد روى الترمذي [٢٩٨٨] والنسائي [١١٠١٥] وابن حبان في صحيحه [الإحسان: ٩٩٧] وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة. فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق. وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله. ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾».

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وذكرنا في فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

وقال البخاري [٣٢٩٣]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك».

وأخرجه مسلم [٢٦٩١] والترمذي [٣٤٦٨] وابن ماجه [٣٧٩٨] من حديث مالك. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البخاري [٣٢٨٦]: أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال ﷺ «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب». تفرد به من هذا الوجه.

وقال البخاري [٣٢٨٩]: حدثنا عاصم بن علي، حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها. ضحك الشيطان».

ورواه أحمد [٤٢٨/٢] وأبو داود [٥٠٢٨] والترمذي [٢٧٤٧] وصححه النسائي [١٠٠٤٣] من حديث ابن أبي ذئب به.

وفي لفظ [مسلم (٢٩٩٤، ٢٩٩٥)] «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل».

وقال الإمام أحمد [٢٦٥/٢]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فإذا قال أحدكم: هاها، فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه».

ورواه الترمذي [٢٧٤٦] والنسائي [١٠٠٤٥] من حديث محمد بن عجلان به.

وقال البخاري [٣٢٩١]: حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن أشعث، عن أبيه، عن مسروق قال: «قالت عائشة: سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم».

وكذا رواه أبو داود [٩١٠] والنسائي [١١٩٥] من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه، عن مسروق به.

وروى البخاري [٣٢٩٢] من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه

فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره».

وقال الإمام أحمد [٣١٧/٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمشينَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار».

أخرجاه [خ (٢٠٧٢)، م (٢٦١٧)] من حديث عبد الرزاق.

٢٠- رجمُ الشياطين

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى. وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠، ٢١٢]

وقال تعالى إخباراً عن الجان: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ [الجن: ٨، ٩].

وقال البخاري [٣٢٨٨]: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال، أن أبا الأسود أخبره عن عروة، عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة». هكذا رواه في صفة إبليس معلقاً عن الليث به.

ورواه في صفة الملائكة [٣٢١٠] عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة بنحوه.

تفرد بهذين الطريقين دون مسلم.

وروى البخاري في موضع آخر [٧٥٦١] ومسلم [٢٢٢٨] من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه قال: (قالت عائشة: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء». فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً! فقال ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فَيُقَرْقِرُهَا في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري [٤٨٠٠]: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان. فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض».

ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه. «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا. فيصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» انفرد به البخاري.

٢١- القرين

وروى مسلم [٢٢٢٩] من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين، عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار، عن النبي ﷺ نحو هذا.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[الزخرف: ٣٦، ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية.

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١١٢، ١١٣]

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد [٣٨٥/١] ومسلم [٢٨١٤] من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، واسمه رافع، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير».

وقال الإمام أحمد [٢٥٧/١]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن قابوس عن أبيه، واسمه حصين بن جندب. وهو أبو ظبيان الجنبي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم». تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد [١١٥/٦] حدثنا هارون، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني أبو صخر، عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته «أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، قالت: فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «العلك يا عائشة أغرت»؟ قالت: فقلت: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك! فقال رسول الله ﷺ «أفاخذك شيطانك» قالت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم». وهكذا رواه مسلم [٢٨١٥] عن هارون وهو ابن مسعود الأيلي، بإسناده نحوه.

وقال الإمام أحمد [٣٨٠/٢]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر».

تفرد به أحمد من هذا الوجه؛ ومعنى «لينضي شيطانه»: ليأخذ بناصيته

فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه.

٢٢- غواية الشياطين

وقوله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف الآيتان: ١٦ - ١٧].

قال الإمام أحمد [٤٨٣/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي فاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: «فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل. فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟» قال: «فعصاه وجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة. وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

وقال الإمام أحمد [٢٥/٢]: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي».

قال وكيع: يعني الخسف.

ورواه أبو داود [٥٠٧٤] والنسائي [٥٥٤٤، ٥٥٤٥] وابن ماجه [٣٨٧١] وابن حبان [الإحسان: ٩٦١] والحاكم [المستدرك: ٥١٧/١] من حديث عبادة بن مسلم به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

٢- كتاب قصص الأنبياء

١- خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٠-٣٩]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. [الحجرات: ١٣]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١١-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر: ٢٦-٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٥]

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[الكهف: ٥٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[طه: ١١٥-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ. قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٦٧ ـ ٨٨].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن. وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير.

ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان.

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه جهلة المفسرين. قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن؛ قاله قتادة [عبد الرزاق في تفسيره: ٤٢/١].

وقال عبد الله بن عمرو: كانت الجنُّ والبنُّ قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور [ابن أبي حاتم في تفسيره: ١٠٩/١]. وعن ابن عباس نحوه [الحاكم في «المستدرك» ٢٦١/٢].

وعن الحسن ألهموا ذلك.

وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له: السجل. رواه ابن أبي حاتم [تفسيره: ١١٢/١] عن أبي جعفر الباقر.

وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد. فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وفي رواية: علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية [ابن أبي حاتم في تفسيره ١١٥/١، تفسير الطبري: ٢١٥/١].

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء.

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته.

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما [انظر الأقوال كلها «تفسير الطبري»: ٢١٥/١، ٢١٦].

وذكر البخاري [٤٤٧٦] هنا ما رواه هو ومسلم [١٩٣] من طريق سعيد وهشام عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء» وذكر تمام الحديث.

ثم عرضهم على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

قال الحسن البصري: لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير [١٠٥/١].

قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك كما قال ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] أي: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهذا ما أبدوه [البقرة: ٣٠] وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس وما أسرَّه وكتمه في نفسه من الكبر والعداوة لآدم عليه السلام، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير [تفسيره: ٢٢٢/١].

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

فهذه أربع تشريفات: خَلْقُه له بيده الكريمة، ونفخه فيه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي «أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء». وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال في الآية الأخرى. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١ـ١٢]

قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس. رواهما ابن جرير [تفسيره: ١٣١/٨].

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه

أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود.

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار. ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو؛ والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه؛ ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥].

استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته النارية الخبيثة أحوج ما كان إليها، فإنه مخلوق من نار كما قال: وكما قدّمنا في «صحيح مسلم» [٢٩٩٦] عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون. كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا.

قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل.

وفي رواية عنه: الحارث.

قال النقاش: وكنيته أبو كردوس.

قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

وقال في سورة ص ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٧١ - ٨٥].

وقال في سورة الأعراف ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٦ - ١٧] أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه.

كما قال الإمام أحمد [٤٨٣/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل، هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه» وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس.

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم.

أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور.

أو المراد بهم ملائكة الأرض. كما رواه ابن جرير [١٨٥/٢٣] من طريق الضحاك عن ابن عباس. وفيه انقطاع. وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه، ولكن الأظهر من السياقات الأول ويدل عليه الحديث «وأسجد لك ملائكته» [م (٢٦٥٢) وأصله عند البخاري (٣٤٠٩)] وهذا عموم أيضاً والله أعلم.

وقوله تعالى لإبليس ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] و﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨] دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فأهبط إلى الأرض مذؤوماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٦-١١٩].

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهذا قد صرح به ابن إسحاق بن يسار وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وَحْشاً ليس له فيها زوج يسكن

إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة. خلقها اللّه من ضلعه. فسألها من أنت؟ قالت: امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي [تفسير الطبري: ٢٢٩/١].

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً.

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية [تفسير الطبري: ٢٢٤/٤، ٢٢٥] وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

وفي الصحيحين [خ (٣٣٣١)، م (١٤٦٨)] من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي، عن أبي حازم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» لفظ البخاري.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩]

فقيل: هي الكرم.

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدي في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال: وتزعم يهود أنها الحنطة.

وهذا مروي عن ابن عباس والحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبي مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

قال وهب: والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال الثوري عن أبي حصين، عن أبي مالك ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] هي النخلة.

وقال ابن جريج عن مجاهد: هي التينة.

وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو العالية: كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث [انظر تفسير الطبري: ٢٣١/١ ـ ٢٣٣].

وهذا الخلاف قريب. وقد أبهم اللّه ذكرها وتعيينها. ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن.

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أسكنها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى.

وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة» الحديث كما سيأتي الكلام عليه [سيأتي بطرقه ص٥٧ ـ ٦٠].

وروى مسلم في صحيحه [١٩٥] من حديث أبي مالك الأشجعي، واسمه: سعد بن طارق، عن أبي حازم سلمة بن دينار، عن أبي هريرة وأبي مالك عن ربعي عن حذيفة قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «يجمع اللّه الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم» وذكر الحديث بطوله. وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة؛ ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبد اللّه بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في «المعارف» [ص٥١] والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره، وأفرد له مصنفاً على حدة. وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم اللّه. ونقله أبو عبد اللّه محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره [تفسير الرازي: ٣/٣] عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني؛ ونقله القرطبي في تفسيره [٣٠٢/١] عن المعتزلة والقدرية.

وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في «الملل والنحل» [٨٢/٤ ـ ٨٣] وأبو محمد بن عطية في تفسيره [٢٣٦/١] وأبو عيسى الرماني في تفسيره وحكى عن الجمهور الأول وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال: واختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين:

أحدهما أنها جنة الخلد.

الثاني: جنة أعدها اللّه لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها اللّه دار جزاء.

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها؛ وهذا قول الحسن.

والثاني: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن جبير وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم، واللّه أعلم بالصواب من ذلك. هذا كلامه.

فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة.

ولهذا حكى أبو عبد اللّه الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي. ورابعها الوقف ورجّح القول الأول، واللّه أعلم. وحكي القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي.

وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب فقالوا: لا شك أن اللّه سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾ [الأعراف: ١٨] وقال ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة، وأيّاً ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون بعد هذا في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه

بقوله له ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وبقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] الآية

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظر. والله أعلم.

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة: ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات [١٣٦/٥] عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن عُتَي، هو ابن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب قال: «إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه؛ فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه. وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم» وسيأتي الحديث بسنده. وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلمٌ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام، فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون في الأرض، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

قالوا: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظي، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء بل هو كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] الآية، وإنما كان في السفينة حين استقرت على «الجودي» ونضب الماء عن وجه الأرض، أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: ﴿اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية.

وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري.

﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس. ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من المقابلة.

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ [الإسراء: ١٠٤] ومعلوم أنهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القول مفرّعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما، فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتي إيرادها في موضعها، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] أي: عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] أي: من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أي: ولو أكلتما منها لصرتما كذلك

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] أي: حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] كما قال في الآية الأخرى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود أن قوله ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ التي إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد [٤٦٢/٢]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن أبي الضحاك، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد».

وكذا رواه أيضاً [٤٥٥/٢] عن غندر وحجاج عن شعبة.

ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٥٤٧] عن شعبة أيضاً به.

قال غندر: قلت لشعبة: هي شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هي.تفرد به الإمام أحمد.

وقوله ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]

كما قال في [طه: ١٢١] ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حَدَتْهُ على أكلها، والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري [٣٣٣٠]: حدثنا بشر بن محمد، حدثنا عبد الله، أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها».

تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٣٩٩)، م

(١٤٧٠)] من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، به.

ورواه أحمد [٢/٣٠٤، ٣١٥، ٣٤٩] ومسلم [١٤٧٠] عن هارون بن معروف، عن أبي وهب، عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر.

وفيها: أنهما كانا عريانين.

وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها [تفسير الطبري: ٨/١٤٣].

هذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً؛ فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى.

وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] فهذا لا يرد لغيره من الكلام، والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم [في تفسيره: ١/١٢٩]: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرةٌ فنازعها فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء».

وقال الثوري عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] قال: ورق التين [تفسير الطبري: ٨/١٤٢].

وهذا إسناد صحيح إليه، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك، وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٤] من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً كثير الشعر مواري العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك والله يا رب مما جئت به».

ثم رواه [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٥] من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن عُتَي بن ضمرة، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ بنحوه.

وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أبياً.

ثم أورده أيضاً [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٤] من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي، عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني، عن آدم بن أبي إياس، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف ٢٢ ـ ٢٣]

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[الأعراف ٢٤] وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس قيل والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين.

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال«ما سالمناهن منذ حاربناهن» [أحمد: ١/٢٣٠، ٢/٢٤٧، ٤٣٢، ٥٢٠، أبو داود (٥٢٤٨)].

وقوله في سورة [طه: ١٢٣] ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هو أمر لآدم وإبليس وما تناسل منهما عداوة مستمرة، واستتبع آدم حواء وإبليس الحية.

وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء ٧٨]

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدَّعى عليه قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٣٦ ـ ٣٩]

فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا.

وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف لقوله في الأول ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم.

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٩] عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو، فقال الله سبحانه: فراراً مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي

وقال الأوزاعي عن حسان، هو ابن عطية: «مكث آدم في الجنة مائة عام.

وفي رواية: ستين عاماً. وبكى على الجنة سبعين عاما وعلى خطيئته سبعين عاما وعلى ولده حين قتل أربعين عاما» رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم [التفسير: ١٣٢/١]: «حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له: «دحنا» بين مكة والطائف».

وعن الحسن قال: «أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية بأصبهان».

رواه ابن أبي حاتم أيضاً [التفسير: ١٣٢/١].

وقال السدي: «نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك» [تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٣/١].

وعن ابن عمر قال: «أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة». رواه ابن أبي حاتم أيضاً [التفسير: ١٣١/١].

وقال عبد الرزاق [التفسير: ٤٣/١ ـ ٤٤]: قال معمر: أخبرني عوف عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري قال: وإن اللّه حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم في مستدركه [٥٤٢/٢]: أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو عن زائدة، عن عمار بن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم [٨٥٤] من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»

وفي الصحيح من وجه آخر«وفيه تقوم الساعة».

وقال أحمد [٥٤٠/٢]: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار، عن عبد اللّه بن فروخ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعه فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة» وإسناده على شرط مسلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤١٣/٧] من طريق أبي القاسم البغوي:

حدثنا محمد بن جعفر الوركاني، حدثنا سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «اهبط آدم وحواء عريانين جميعاً عليهما ورق الجنة، فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواء قد أذاني الحر! قال: فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج».

قال: «كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة».

قال: «وكان كل واحد منهما ينام على حدة، ينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فامره أن يأتي أهله».

قال: «وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة».

فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً. وقد يكون من كلام بعض السلف؛ وسعيد بن ميسرة هذا هو: أبو عمران البكري البصري. قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات. وقال ابن عدي: مظلم الأمر

وقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٣٧] قيل: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

روي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [تفسير الطبري: ٢٤٣/١ ـ ٢٤٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]

وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «الكلمات: اللّهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللّهم لا إله إلاأنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين، اللّهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم» [تفسير الطبري: ٢٤٤/١ ـ ٢٤٥].

وروى الحاكم في مستدركه [٥٤٥/٢] من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]

قال: قال آدم: «يا رب ألم تخلقني بيدك. قيل له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى، وعطستُ فقلتَ: يرحمك اللّه وسبقت رحمتك غضبك قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضاً [المستدرك: ٦١٥/٢] والبيهقي [الدلائل: ٤٨٨/٥] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٣٧/٧] من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي» فقال اللّه: «فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال اللّه: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك».

قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف واللّه أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١ـ١٢٢]

٢ ـ احتجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام

قال البخاري [٤٧٣٨]: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم. قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه

أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره علي قبل أن يخلقني. - قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

وقد رواه مسلم [٢٦٥٢] عن عمرو الناقد والنسائي [كبرى: ١١٣٢٩] عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن أيوب بن النجار به.

قال أبو مسعود الدمشقي: ولم يخرجا عنه في الصحيحين سواه [انظر تحفة الأشراف: ١١/٦٥].

وقد رواه أحمد [٢/٣١٤] عن عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة.

ورواه مسلم [٢٦٥٢] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٦٤]: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن أبو شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدِّر علي قبل أن أخلق!».

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحجّ آدم موسى» مرتين.

قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري [٣٤٠٩] ومسلم [٢٦٥٢] من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٩٨]: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: قال «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة قال: «فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل لم أعمله كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «فحج آدم موسى».

وقد رواه الترمذي [٢١٣٤] والنسائي [١١٤٤٣] جميعا عن يحيى بن حبيب بن عربي عن معتمر بن سليمان، عن أبيه عن الأعمش به.

قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش.

قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن هريرة، وقال: وقد رواه بعضهم عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار: ٢١٤٧، ٢١٤٨] عن محمد بن مثنى، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسى، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد.

ورواه البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو أبي سعيد، عن النبي ﷺ فذكر نحوه.

وقال أحمد [٢/٢٤٨]: حدثنا سفيان عن عمرو، سمع طاوساً سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه» وقال مرة: «برسالته وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة». قال: «حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى»

وهكذا رواه البخاري [٦٦١٤] عن علي بن المديني: حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو عن طاوس قال: سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» هكذا ثلاثاً.

قال سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله.

وقد رواه الجماعة [خ (٦٦١٤)، م (٢٦٥٢)، د (٤٧٠١)، س (كبرى: ١١١٨٧)، ج (٨٠)] إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد [٢/٤٦٤]: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد، عن عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ثم فعلت؟ فقال: أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر؟ قال: لا بل الذكر؛ فحج آدم موسى».

قال أحمد [٢/٤٦٤]: وحدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وحميد عن الحسن، عن رجل قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى» فذكر معناه. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد [٢/٣٩٢]: حدثنا حسين، حدثنا جرير، هو ابن حازم، عن محمد، هو ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقي آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة؟. قال: نعم. قال: فهل تجده مكتوباً علي قبل أن أخلق؟ قال نعم». قال: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب، وهشام عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد. وهشام عن محمد بن سيرين. وهذا على شرطهما من هذه الوجوه [تاريخ دمشق: ٧/٤٤٨، ٤٤٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذُباب، عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى. فقال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيّاً؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال: قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى».

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ

وقد رواه مسلم [٢٦٥٢] عن إسحاق بن موسى الأنصاري، عن أنس بن عياض، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز والأعرج، كلاهما عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد [٢/٢٦٨]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم

وموسى فقال موسى لآدم: يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار. فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة، فهل وجدت أن أهبط؟. قال: نعم» قال: «فحجه آدم»

وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وفي قوله «أدخلت ذريتك النار» نكارة.

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة.

رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاوس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبي عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده [٢٤٣] من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

حدثنا الحارث بن مسكين المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام. فقال: أنت آدم؟. فقال له آدم: نعم قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك الأسماء كلها؟. قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟. قال: نعم. قال: تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل؟» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

ورواه أبو داود [٤٧٠٢] عن أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب به.

قال أبو يعلى [٢٤٤]: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي، حدثنا عمران. عن الرديني بن أبي مجلز، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر قال أبو محمد أكثر ظني أنه رفعه. قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم: أنت أبو الناس أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته. قال آدم: يا موسى أما تجده علي مكتوباً؟. قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به والله اعلم.

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث [ص٥٨] عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد. ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن رجل. قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ: «لقي آدم موسى» فذكر معناه.

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق.

واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادي الرأي حيث قال: «فحج آدم موسى» لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتي الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له

وقيل: إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم.

وقيل: لأنه أبوه.

وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.

وقيل: لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

والتحقيق: أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى. وفيه نظر.

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة والذي رتب ذلك وقدره وكتبه عليَّ قبل أن أخلق هو الله عز وجل فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي أكثر مما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه وله الحكمة في ذلك؛ فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً.

ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا. ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً فهو بعيد من اللفظ والمعنى. وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية.

وفيما قالوه نظر من وجوه.

أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦]؛ الآية.

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود، ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة؛ فلهذا قال من قال من العلماء بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم بالصواب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

٣- الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد [٤٠٠/٤]: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك».

ورواه أيضاً [٤٠٦/٤] عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

وكذا رواه أبو داود [٤٦٩٣] والترمذي [٢٩٥٥] وابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٦٠)] من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «فبعث

اللَّه عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ باللَّه منك أن تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال: رب إنها عاذت بك فاعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذها فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ باللَّه أن ارجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به فَبَلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً، واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض. ثم قال للملائكة ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص ٧١ - ٧٢] فخلقه اللَّه بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذي يريد اللَّه عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة: قل الحمد للَّه فقال: الحمد للَّه فقال له اللَّه: رحمك ربك؛ فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول اللَّه تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر ٣٠] وذكر تمام القصة [تفسير الطبري: ٢٠٣/١].

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات:

فقال الإمام أحمد [١٥٢/٣]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللَّه آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك».

وقال ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٦٥)]: حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد للَّه رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك اللَّه».

وقال الحافظ أبو بكر البزار [لم نجده في «كشف الأستار» وأخرجه بنحوه مطولاً الترمذي (٣٣٦٨)]: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد اللَّه، عن حبيب، عن حفص، هو ابن عاصم بن عبيد اللَّه بن عمر بن الخطاب، عن أبي هريرة رفعه قال: «لما خلق اللَّه آدم عطس فقال: الحمد للَّه فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم».

وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه.

وقال عمر بن عبد العزيز: «لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل فأثابه اللَّه أن كتب القرآن في جبهته» رواه ابن عساكر

وقال الحافظ أبو يعلى [٦٥٨٠]: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد عن إسماعيل بن رافع، عن المقبري، عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار» قال: «فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم. ثم نفخ اللَّه فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه اللَّه رحمة ربه فقال اللَّه: يرحمك ربك. ثم قال اللَّه: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم [السلام عليكم] فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته. فقال: يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك قال: يا رب وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم قال: أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين، وبسط كفه، فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور، فإذا رجل يعجب آدم نوره قال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة؛ ففعل اللَّه ذلك وأشهد على ذلك، فلما نفد عمر آدم بعث اللَّه ملك الموت فقال آدم: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود فجحد ذلك، فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته»

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي [٣٣٦٨] والنسائي في «اليوم والليلة» [١٠٤٦] من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وقال النسائي: هذا حديث منكر.

وقد رواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي سعيد عن عبد اللَّه بن سلام.

وقد رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» [الإحسان (٦١٦٧)] فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح، عطس فقال: الحمد للَّه، فحمد اللَّه بإذن اللَّه، فقال له: يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فسلم عليهم فقال: السلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام ورحمة اللَّه، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال اللَّه ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه وإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو: من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب: ما هذا؟ قال: ابنك داود. وقد كتب اللَّه عمره أربعين سنة قال: أي رب! زِدْ في عمره قال: ذاك الذي كُتب له قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك أسكن الجنة؛ فسكن الجنة ما شاء اللَّه، ثم أهبط منها، وكان آدم يعدُّ لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلتَ قد كتب لي ألف سنة قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة؛ فجحد آدمُ فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته. فيومئذ أمر بالكتاب والشهود». هذا لفظه.

وقال الترمذي [٣٠٧٦]: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما خلق اللَّه آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟

قال: هؤلاء ذريتك؛ فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة.

فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال فجحد فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته».

ثم قال الترمذي: حسن صحيح. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

ورواه الحاكم في مستدركه [٣٢٥/٢] من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره، وفيه: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك؛ وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم: يا رب لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي». ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً.

وقال الإمام أحمد في مسنده [٤٤١/٦]: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذرُّ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم. فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي. وقال للذي في كفّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي».

وقال ابن أبي الدنيا [كتاب الشكر: ١٦٥]: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا الحكم بن سنان، عن حوشب، عن الحسن قال: «خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فالقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلي. فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أردت أن أشكر»

وهكذا روى عبد الرزاق [في تفسيره: ٢٤٢/٢] عن معمر، عن قتادة، عن الحسن بنحوه.

وقد قال البخاري [٣٣٢٦]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً. ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يُحيُّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان [٦٢٢٧] عن يحيى بن جعفر. ومسلم [٢٨٤١] عن محمد بن رافع، كلاهما عن عبد الرزاق، به.

وقال الإمام أحمد [٥٣٥/٢]: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً». انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٢٥١/١]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم! إن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قال: أي رب كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أي رب زد في عمره قال: لا إلا أن أزيده من عمرك؛ وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاماً. فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة.

فلما احتضر آدم أتته الملائكة لتقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً. فقيل: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت؛ وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة».

وقال أحمد [٢٩٩/١]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم - قالها ثلاث مرات - إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أي رب زد في عمره قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك؛ فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة.

فلما أراد أن يقبض روحه قال: بقي من أجلي أربعون سنة فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود» قال: «فجحد» قال: «فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة».

تفرد به أحمد؛ وعلي بن زيد في حديثه نكارة.

ورواه الطبراني [في الكبير (١٢٩٢٨)] عن علي بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم» ثلاثاً وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه [٣٩٨/٢، ٨٩٩] عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٤٤/١، ٤٥] وأبو داود [٤٧٠٣] والترمذي [٣٠٧٥] والنسائي [١١١٩٠] وابن جرير [تاريخه: ١٣٥/١] وابن أبي حاتم وأبو حاتم. ابن حبان في صحيحه [الإحسان ٦١٦٦] من طرق عن الإمام مالك به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع عمر.

وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة.

وقد رواه أبو داود [٤٧٠٤] عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر بن جُعثم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية؛ فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطني [العلل: ٢٢١/٢، ٢٢٢]: وقد تابع عمر بن جُعثم أبو فروة يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال: وقولهما أولى

بالصواب من قول مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال «هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي».

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية فلم يجئ في الأحاديث الثابتة.

وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك. وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها. فمن أراد تحريره فليراجعه ثم والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٧٢/١]: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير، يعني ابن حازم، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه. ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ إلى قوله ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]

فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم.

رواه النسائي [١١١٩١] وابن جرير [في تفسيره: ١١٠/٩، ١١١] والحاكم في مستدركه [٥٤٤/٢] من حديث حسين بن محمد المروذي به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر، فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً.

وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا.

وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله. وهذا أكثر وأثبت والله أعلم.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح [انظر الأقوال بجميع طرقها تفسير الطبري: ١١٠/٩ - ١١٦].

واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما:

قال الإمام أحمد [١٢٧/٣، ١٢٩]: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه [خ (٣٣٣٤)، م (٢٨٠٥)] من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية والتي بعدها.

قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتابي.

قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب لو سويت بين عبادك فقال: إني أحببت أن أشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: ٧] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي ذلك قال ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ [النجم].

وفي ذلك قال ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف ١٠٢]

رواه الأئمة: عبد الله بن أحمد [١٣٥/٥] وابن أبي حاتم وابن جرير [في تفسيره: ١١٥/٩] وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر.

وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث [تفسير الطبري: ١١٥/٩ - ١١٧]

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهي وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

وقد قال الإمام أحمد [٤٣٣/٢ - ٣٤٣]: حدثنا وكيع ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار».

ورواه مسلم [٨١] من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش، به.

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها.

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا وقد قدمنا ما رواه مسلم [٢٧٨٩] عن أبي هريرة مرفوعاً: «وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة» وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه (يعني) يوم الجمعة «خلق آدم وفيه أخرج منها» [٨٥٤].

فإن كان اليوم الذي خلق فيه فيه أخرج وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه. وفي هذا نظر، وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، واختاره ابن جرير [تاريخه: ١٧/١] فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير [تاريخه: ١١٨/١، ١١٩]: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق [المصنف: ٩٠٩٠] عن هشام بن حسان، عن

سوار خبر عطاء بن أبي رباح: أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلى ستين ذراعاً [قوله: «فحطه.... ذراعا» اخرجها في تفسيره ٣٤/٢] [تاريخ الطبري: ١٢٤/١]. وقد روى عن ابن عباس نحوه.

وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)]. وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ١٢٤/١] عن ابن عباس: «إن الله قال: يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي؛ وأرسل الله له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك؛ وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك».

وعنه [تاريخه: ١٢٨/١، ١٢٩]: «أن أول طعام أكله آدم في الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابذره في الأرض فبذره، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزّاه ثم غزلاه، فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً.

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد:

فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض.

وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه والآخر بالأخرى وهلم جراً ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

٤- قصّة ابني آدم قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة ٢٧ - ٣١]

قد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك.

فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل. وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قرباناً، وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السماوات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب آدم قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال: إنما يتقبل الله من المتقين [تفسير الطبري: ١٨٨/٦ - ١٩٣].

وروي عن ابن عباس من وجوه أخر، وعن عبد الله بن عمرو.

وقال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده [تفسير الطبري: ١٨٨/٦ - ١٩٣].

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقا شديدا وعضا كما تفعل السباع فمات والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في الصحيحين [خ (٦٨٧٥)، م (٢٨٨٨)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه.

﴿أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك؛

قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض الناس، فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك [تفسيره: ١٩٣/٦].

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» فلا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً، ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل، كما ثبت به الحديث الصحيح [م (٢٥٨١)] في سائر المظالم والقتل من أعظمها والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد [(١٨٥/١] وأبو داود [٤٢٥٧] والترمذي [٢١٩٤] عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل

علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني قال: «كن كابن آدم».

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وقال: «كن كخير ابني آدم».

وروى مسلم [لم يخرجه م] وأهل السنن [د (٤٢٦١)، ج (٣٩٥٨)] إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد [١/٣٨٣، ٤٣٠]: حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل».

ورواه الجماعة [خ (٦٨٦٧)، م (١٦٧٧)، ت (٢٦٧٣)، س (٣٩٩٦)، ج (٢٦١٦)] سوى أبي داود من حديث الأعمش به.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي: أنهما قالا مثل هذا سواء [تفسير الطبري: ٦/١٩٤].

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب، فالله أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥/١٧٧] في ترجمة أحمد بن كثير وقال: إنه كان من الصالحين: أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء؛ فأجابه إلى ذلك وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة.

وقال آخرون: حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.

قال السدي بإسناده عن الصحابة: أخوين فتقاتلا، فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض فحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١] ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير: أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً وأنه قال في ذلك شعراً، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد [تاريخ الطبري: ١/١٤٥]:

تغيرتِ البلادُ ومَن عليها ... فوجهُ الأرض مغبرٌ قبيحُ

تغيّر كلُّ ذي لونٍ وطعم ... وقلَّ بشاشةُ الوجه المليح

فأجيب آدم:

أبا هابيلَ قد قُتلا جميعاً ... وصارَ الحيُّ كالميْتِ الذبيح

وجاء بشرةٍ قد كان منها ... على خوفٍ فجاء بها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه إقواء والله أعلم.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة هابيل من تاريخه القصة بتمامها وأورد هذا الشطر بسنده من طريق أبي بكر الخطيب بسنده إلى عبد العزيز بن الرماح عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما قتل ابن آدم أخاه قال آدم عليه السلام:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

قتل قابيل هابيلا أخاه ... فوا أسفا على الوجه المليح

قال: فأجابه أبليس لعنه الله.

تنح عن البلاد وساكنيها ... فبي الأرض ضاق بل الفسيح

وكنت بها وزوجك في رخاء ... وقلبك من ورى الدنيا مريح

فما انفكت مكابدتي ومكري ... إلى أن فاتك الثمن الربيح

فلولا رحمة الجبار أضحى ... بكفك من جنان الخلد ريح

هكذا أورد ابن عساكر ولم ينبه على نكارته ولا غرابته وكان خليقاً وجديراً بذلك.

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [أحمد: ٥/٣٦ من حديث أبي بكرة].

وذكر إسحاق بن بشر الكاهلي في كتاب المبتدأ فبعث الله ملكاً فضم رجله اليمنى إلى إليته اليسرى ورجله اليسرى إلى إليته اليمنى ثم علقه في عين الشمس وتحاط سبع حظاير من حظاير النار فإذا كان أيام الصيف كان من أشد الناس حراً وإذا كان أيام الشتاء كان من أشد الناس زمهريراً فعذبه الله بذلك ثمانين سنة ثم ألقاه إلى الأرض وعليه تلك الحظاير، وأوحى الله إلى الأرض أن أخفي به قال، فأخذته الأرض إلى كعبيه فقال: يا رب ارحمني فقال تعالى: إنما أرحم كل رحيم خنيه، فأخذته إلى ركبتيه ثم أخذته إلى وسطه فقال يا رب إن كنت عصيتك فقد عصاك منه هو خير مني، أبي وقد خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك قال: فكيف رأيتني فعلت به؟ أخرجته من ملكوت السماء إلى هوان الأرض ثم قال: خنيه فأخذته إلى صدره فقال: يا رب إن آدم أخبرني أنك خلقت مائة رحمة فقسمت منها رحمة واحدة بين خلقك وادخرت تسعة وتسعين في خزائن عرشك فإذا كان يوم القيامة ضمت هذه إلى تلك فرحمت بها عبادك حتى إن إبليس الأبالسة ليتطاول لها رجاء أن تناله منها شيء، فلا يجتني منها، فقال الله كيف أرحمك ولم ترحم أخاك وقال للأرض. خنيه فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة].

٥- ذريةُ آدم

والذي رأيته في الكتاب [سفر التكوين، الأصحاح ٤/١٦] الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره، وأنه سكن في أرض (نود) في شرقي عدن وهم يسمونه (قينن) وأنه ولد له خنوخ والخنوخ عندر ولعندر محواويل ولمحواويل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين: عدا وصلا فولدت (عدا) ولدا اسمه (إبل) وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضاً (توبل) وهو أول من أخذ في

ضرب الونج والصنج وولدت (صلا) ولدا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتاً اسمها (نعمى).

وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه (شيث) وقالت: من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل وولد لشيث أنوش.

قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمس سنين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش.

فولد لأنوش (قينان) وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات، فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له (يرد) وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له (خنوخ) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له (متوشلخ) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له (لامك) وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنتين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له (نوح) وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة. وولد له بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون (سام وحام ويافث).

هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً [سفر التكوين: الأصحاح الرابع والخامس].

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك، والظاهر أنها مقحمة فيها. ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير. وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه [١٤٥/١] عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، قاله ابن إسحاق، وسماهم والله تعالى أعلم.

وقيل: مائة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أمة المغيث.

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، الآيات.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ [النساء: ١] الآية.

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعين ألف نسمة [انظر تاريخ الطبري: ١٦٧/١، ومروج الذهب ٤٨/١] والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف ١٨٩، ١٩٠] الآيات.

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١١/٥]:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وهكذا رواه الترمذي [٣٠٧٧] وابن جرير [تفسيره: ١٤٦/٩] وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية من سورة الأعراف وأخرجه الحاكم في مستدركه [٥٤٥/٢] كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات.

وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقىً عن كعب الأحبار ومَن دونه والله أعلم.

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا. فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره والله أعلم.

وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه والله تعالى أعلم. وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير [٥٢٧/٣ ـ ٥٣١] ولله الحمد.

٦ـ آدمُ أبو البشر (مزاياه)

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا. فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير». قلت: يا رسول الله من كان أولهم. قال: «آدم». قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً».

وقال الطبراني [في الكبير (١١٣٦١)]: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع بن هرمز، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل الملائكة: جبريل، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان، وأفضل الليالي ليلة القدر، وأفضل النساء مريم بنت عمران».

وهذا إسناد ضعيف، فإن نافعاً أبا هرمز هذا كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم.

وقال كعب الأحبار [ابن عساكر: ٣٨٩/٧]: ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم. لحيته سوداء إلى سرته. وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد.

وقد روى ابن عدي [الكامل في الضعفاء: ١٣٦٨/٤] من طريق شيخ ابن أبي خالد عن حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد».

ورواه ابن عدي أيضاً [الكامل في الضعفاء: ٢٣٠٣/٦] من حديث علي بن أبي طالب، وهو ضعيف من كل وجه، والله أعلم.

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين [خ (٣٤٩) و(٣٣٤٢)، م (١٦٣)] «أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا قال له: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح» قال: «وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه. فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى»

هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن» [م (١٦٢)].

قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام. وهذا مناسب. فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً «إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون. فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» [حديث ابن عمرو المرفوع أخرج نحوه البيهقي في الأسماء والصفات (٣١٧) من حديث عروة بن رويم الأنصاري وأخرج الموقوف ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٢)].

وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين [خ (٣٣٢٦)، م (٢٦١٢) و(٢٨٤١)] وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته». وفي غير الصحيحين: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن عز وجل» [البيهقي «الأسماء والصفات» ص٢٩١] وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها والله أعلم

[وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد ربه بن صالح القرشي الدمشقي يروي عن. مكحول وغيره، وعن الوليد ومسروق الماطاطري وسليمان بن عبد الرحمن وهشام بن عمار، وهشام بن خالد وروى من طريق هشام بن عمار عنه سمع عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله عن النبي ص قال: لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان». وقد روى عثمان بن سعيد الدارمي مثله عن عبد الله بن عمرو وموقوفاً فالله أعلم].

٧- وفاة آدم ووَصيّته إلى ابنه شيث

ومعنى: «شيث»: هبة الله وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل.

قال أبو ذر في حديثه [الإحسان (٣٦١)] عن رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف. على شيث خمسين صحيفة».

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك [تاريخ الطبري: ١٥٢/١، ١٥٣].

قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث. وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم.

ولما توفي آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة. وعزوا فيه ابنه ووصيه شيث عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن [تاريخ الطبري: ١٥٢/١، ١٥٣].

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد [١٣٦/٥]: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن عُتَي، هو ابن ضمرة السعدي، قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب. فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة.

قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون، أو ما تريدون وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم: ارجعوا فقد قُضي قضاء أبوكم فجاؤوا، فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال: إليك عني، فإني إنما أتيت من قبلك فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه. ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره. ثم حثوا عليه. ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم.

إسناد صحيح إليه.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٨/٧] من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كبّرت الملائكة على آدم أربعاً، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً، وكبر عمر على أبي بكر أربعاً، وكبر صهيب على عمر أربعاً».

قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا في موضع دفنه:

فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند.

وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة.

ويقال: إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في

تابوت فدفنهما ببيت المقدس.

حكى ذلك ابن جرير [تاريخه: ١٦١/١].

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٨/٧] عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً [مسند أحمد: ٢٩٩/١]: «أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة».

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير [تاريخه: ١١٩/١] وغيره فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٩/٧]

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبيا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر مرفوعاً: «أنه أنزل عليه خمسون صحيفة».

فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينن. ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذي تزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار. وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان، وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة.

فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٨- إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم ٥٦ - ٥٧]

فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ، هذا وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب. وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين [تاريخ الطبري: ١٧١/١ مختصراً].

وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: «إنه كان نبي يخط به، فمن وافق خطه فذاك» [م (٥٣٧)، د (٩٣٠)].

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ هو كما ثبت في الصحيحين [خ (٣٢٠٧)، م (١٦٢)] في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٩٦/١٦] عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلّم ملك الموت فليؤخّرني حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري فقال ملك الموت: فالعجب بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها. وعنده: فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت: كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس، فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة!.

وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى [تفسير الطبري: ٩٦/١٦]. إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيّاً إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك.

والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد [تفسير الطبري: ٩٧/١٦].

وقال الحسن البصري ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إلى الجنة.

وقال قائلون: رفع في حياة أبيه «يرد ابن مهلاييل» [تاريخ الطبري: ١٧٠/١] والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال له: «مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح» ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال له. وهذا لا يدل ولا

بد على ذلك لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً. أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم يتنصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

٩- قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام.

كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير [تاريخ الطبري: ١/١٧٤] وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٩٠)]:

حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام، سمعت أبا سلام، سمعت أبا أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مكلم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون».

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفي صحيح البخاري [هو في المستدرك للحاكم ٢/٤٤٢، ٥٤٦. ولم يخرجه البخاري] عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

فإن كان المراد بالقرن: مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن: الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤].

وكقوله عليه السلام: «خير القرون قرني» الحديث [خ (٦٤٢٩)، م (٢٥٣٥)].

فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة. فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة [خ (٣٣٤٠)]. وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جرير [تاريخ الطبري: ١/١٧٤، ١٧٩] وغيره.

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث:

فقيل: كان ابن خمسين سنة.

وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير [تاريخ الطبري: ١/١٧٩] وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز.

ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٩ - ٦٤]

وقال في سورة يونس ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ. فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس ٧١ - ٧٣]

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ. وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ. وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ

عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود ٢٥ - ٤٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء ٧٦، ٧٧].

وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ - ٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء ١٠٥ - ١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت ١٤، ١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات ٧٥ - ٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ. فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ. وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر ٩ - ١٧].

وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً. مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً. قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً. مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [نوح ١ - ٢٨].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار.

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه، فقال تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء ١٦٣ - ١٦٥].

وقال في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام ٨٣ - ٨٧] الآيات.

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ

فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم ٩]

وقال في سورة سبحان ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]

وقال فيها أيضاً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]

وقال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ [ص ١٢ - ١٤]

وقال في سورة غافر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ. وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر]

وقال في سورة الشورى شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى في سورة ق ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ. وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق ١٢ - ١٤].

وقال في الذاريات ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال في النجم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]

وتقدمت قصته في سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]

وقال تعالى في سورة الحديد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]

وقال تعالى في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري [أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٤٢/٢، ٥٤٦، وتقدم ص٧٠].

وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أنْ آلَ الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري [٤٩٢٠] من حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد [خ (٤٩٢٠)].

وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٩٩/٢٩].

وقال ابن جرير في تفسيره [٩٨/٢٩، ٩٩]: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر، هو الباقر، وهو قائم يصلي يزيدَ بنَ المهلب قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله. قال: ذكر وَدّاً قال: كان رجلاً صالحاً وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله.

قال: فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله؛ ليكون له في بيته فتذكرونه؟. قالوا: نعم قال: فمثّل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به.

قال: وتناسلوا ودرس أمرُ ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله وَدٌّ الصنم الذي سموه وَدّاً.

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسّدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل. ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير [٢٦١/٨، ٢٦٢] ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٢٧)، م (٥٢٨)] عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرنا من حسنها وتصاوير فيها قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل».

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٤٠)، م (١٩٤)] من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة،

ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؛ فيقول: ربِّي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي».

وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]

وقال فيه وفي إبراهيم ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته. وكذلك إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]

وقال: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦].

وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]

وقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً. مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح ١٢ ـ ١٤] الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: السادة الكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠] أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين، اي الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أي: فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم. وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل: «وهم أتباع الرسل» [خ (٧)، م (١٧٧٣)] وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذي ذمُّوهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصِّديق: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم» [سيرة ابن هشام: ١/٢٥٢] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» [م (٢٣٨٧)، أحمد: ١٤٤/٦] رضي الله عنه.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به. ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود ٢٧، ٢٨]

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا منه

يقول لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: النبوة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾أي: أنغصبكم بها ونجبركم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله ﴿وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ﴾ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل؛ ولهذا قال ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف.

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء

الله ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني من أتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قالوا في الموضع الآخر ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء ١١١ ـ ١١٥]

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصَّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق؛ ولهذا قال ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧] ولهذا قالوا ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود ٣٢، ٣٣] أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن فيكون ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن وتسلية له عمّا كان منهم إليه ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب فلبّى الله دعوته وأجاب طلبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات ٧٥، ٧٦]

وقال تعالى: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ١١٧ ـ ١١٨]

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٥ ـ ٢٧]

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك؛ وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم من اللهِ رسول.

كما قال البخاري [٣٣٣٩]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته؛ فتشهد أنه قد بلغ» وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط: العدل.

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يَدَعْ شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذّرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم، كما قال البخاري [٣٣٣٧]: حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهري قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله. ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»

وهذا الحديث في الصحيحين [خ (٣٣٣٨)، م (٢٩٣٦)] أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه، إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه» لفظ البخاري.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم [تاريخ الطبري: ١/١٨٠ ـ ١٨٣].

قال محمد بن إسحاق عن الثوري: وكانت من خشب الساج. وقيل: من الصنوبر [تاريخ الطبري: ١/١٨٠ ـ ١٨٣].

وهو نص التوراة.

قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً.

وهذا الذي في التوراة على ما رأيته.

وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلثمائة.

وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع.

وقيل: كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٦ ـ٢٧] أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله أي: أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم، أي إلا من كان كافراً، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمرَه أن لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعّال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض؛ أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار.

وعن ابن عباس: التنور عين في الهند.

وعن الشعبي: بالكوفة.

وعن قتادة: بالجزيرة.

وقال علي بن أبي طالب: المراد بالتنور: فَلَق الصبح وتنوير الفجر؛ أي إشراقه وضياؤه؛ أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين [تاريخ الطبري: ١/١٨٦، ١٨٧].

وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]

هذا أمر ثان عند حلول النقمة بهم، أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفي كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين: ذكراً وأنثى؛ وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق: ﴿اثْنَيْنِ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به. وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف، فلا تنافي والله أعلم.

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدُرَّة، وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار. ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار [تفسير الطبري: ١٢/٣٦، ٣٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف نطمئن؟ أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض. ثم شكوا الفارة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفارة منها».

هذا مرسل.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي من استجبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة، والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة:

فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم.

وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً.

وقيل: كانوا عشرة.

وقيل: إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلك غير عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل [انظر الأقوال جميعها: تفسير الطبري: ١٢/٤٢، ٤٣].

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]

وقيل: كانوا سبعة.

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام، وتسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذي قد غرق و«عابر» وقد مات قبل الطوفان. قيل: إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩] أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠]

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: وذو عقاب اليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا

به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٠ - ١٣] والدسر: المسامير. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] أي: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١/١٨٩] وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حمارة القيظ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل الأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب.

وقيل: ثمانين ذراعاً.

وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها. ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف. ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز

رواهما ابن أبي حاتم.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣] وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث.

وقيل: اسمه «كنعان». وكان كافراً عاملاً غير صالح، فخالفاً أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

أي: لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: نقص عما كان ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤] أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أي نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢]

وقال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]

وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥-١٧]

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٥-٢٧].

وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما [تفسير الطبري: ١٢ - ٣٥] من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن فائد مولى عبد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره، أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ: «مكث عليه السلام في قومه ألف سنة (يعني إلا خمسين عاماً) وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر كيف تجري؟ قال: سوف تعلمون.

فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي».

وهذا حديث غريب.

وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة. وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم.

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج ابن عنق ويقال: بن عناق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى.

ويقولون: كان كافرا متمرداً جبارا عنيداً.

ويقولون: كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيعة التي لك ويستهزئ به.

ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً، إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها. ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال: عناق، وهو

أظلم وأطغى على ما ذكروا!

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا؟!

وأما المنقول: فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦] وقال ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦] ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)] عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جراً إلى يوم القيامة.

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها! فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة الكذبة عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة! وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك، أي الذين وعدت بنجاتهم، أي أما قلنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [هود: ٤٠] فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره؛ ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر «جبل الجودي». وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾[هود: ٤٨] أي: اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحدٍ مِمَّنْ كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: «سام وحام ويافث».

قال الإمام أحمد [٩/٥]: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذي [٣٢٣١] عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً نحوه.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر [القصد والأمم: ص ١٠، ١١] وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله [تاريخ الطبري: ٢٠٩/١].

قال: والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: ولد نوح ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة، فولد سام: العرب، وفارس والروم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام: القبط والسودان والبربر.

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار: ٢١٨]: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي، حدثني أبي عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد ليافث: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم. وولد لحام القبط والبربر والسودان»

ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه. تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه. ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد.

قلت: وهذا الذي ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله.

وهكذا روي عن وهب بن منبه مثله [تاريخ الطبري: ٢٠١/١] والله أعلم.

ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل: إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة «كنعان» الذي غرق و«عابر» مات قبل الطوفان.

والصحيح أن أولاده الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة.

وقد ذكر أن «حاماً» واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان.

وقيل: بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته [سفر التكوين، الأصحاح: ٩/٢١ ـ ٢٦].

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير [تفسير الطبري: ٣٥/١٢] من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. فقال له عيسى عليه السلام: هكذا هلكت! قال: لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل؛ فغمزه فوقع منه خنزير

وخنزيرة فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت.

قال فقالوا: يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال: كيف يتبعكم من لا رزق؟! له. قال: فقال له: عد بإذن الله فعاد تراباً.

وهذا أثر غريب جداً.

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى «الجودي» فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب، فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم [تاريخ الطبري: ١/١٩٠].

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٢/٤٧] خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٥٩]: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبيل، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: «ما هذا من الصوم؟» فقالوا: هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم». وقال لأصحابه: «من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه».

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح [خ (٢٠٠٤)] من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم.

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انبهرت من الضياء بعدما كانوا في ظلمة السفينة؛ فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال.

فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم يجد لرجليها موضعاً فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضت سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض.

ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك [تفسير الطبري: ١٢/٤٨، ٤٩].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولتنموا ولتكثروا في الأرض، فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل، وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكار الميثاق إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق [المعجم الكبير (١٠٥٩١)].

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر من لدن كيومرث - يعنون آدم - إلى زماننا هذا [تاريخ الطبري: ١/١٩٢ وفيه عنده «جيومرث» بدلاً من «كيومرث»].

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسماوات

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

١٠- ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد [٣/١١٧]: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»

وكذا رواه مسلم [٢٧٣٤] والترمذي [١٨١٦] والنسائي [كبرى (٦٨٩٩)] من حديث أبي أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّبا

ذكر صومه عليه السلام:

وقال ابن ماجه [١٧١٤]: «باب صيام نوح عليه السلام»: حدثنا سهل بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحى».

هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبراني [عزاه الهيثمي في المجمع ١٩٥/٣، وذكره ابن عساكر في مختصره ٢١٤/٢٦]: حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج، حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قنّان عن يزيد بن رباح أبي فراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر».

ذكر حجّة نوح عليه السلام:

وقال الحافظ أبو يعلى [هو عند أحمد ٢٣٣/١]: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي عن زمعة، هو ابن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال: هذا وادي عسفان قال: «لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر، خطمهم الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق».

فيه غرابة.

١١- وصيته لولده عليه الصلاة السلام

قال الإمام أحمد [١٦٩/٢، ١٧٠]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية وعليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس - أو قال يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع».

قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل». ثم قال: «إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصّ عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهنّ لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر» قال: قلت (أو) قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: «أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا». قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمص الناس».

وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

ورواه أبو القاسم الطبراني [ذكره الهيثمي في المجمع ٢٢٠/٤ وعزاه إلى أحمد والطبراني] من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين،» فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزار [كشف الأستار (٣٠٦٩)] عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضرير، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ بنحوه.

والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني، والله أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد: وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة [تاريخ الطبري: ١٧٩/١، ١٨٠].

وفي هذا القول نظر. ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض، فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك

فإن كان ما ذكر عن ابن عباس محفوظاً من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير [لم نعثر عليه فيهما] والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً: أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك وأوقفت عليه أوقات فيما ذكر، والله أعلم بالصواب.

١٢- موضع قبر نوح

إن قال قائل: هل ورد في تعيين قبر نوح عليه الصلاة والسلام شيء من الآثار؟ فالجواب نعم ورد في ذلك حديث مرسل وأورده الإمام أبو محمد بن جرير الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] عزو فإنه قال وقيل: أن الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية هي مكة. حدثنا أبو حميد حدثنا جرير عن عطاء عن ابن سابط اسمه عبد الرحمن أن النبي ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به وهي الأرض التي قال الله

تعالى: ﴿فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]» وقال النبي: «إذا هلك قومه ونجت هو والصالحون أتاها هو ومن معه فيتعبدوا الله بها حتى يموتوا فإن قبر هود ونوح وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام».

ورواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه من طريق أبي البرتي عن المفضل بن محمد عن عبد الله بن أبي غسان عن جرير عن عطاء، عن عبد الرحمن بن سابط قال: إن قبر نوح، وهود، وشعيب، وصالح بين زمزم وبين الركن والمقام. فجعله موقوفاً على ابن سابط من كلامه.

وفي.. في موضع آخر قبر نوح عليه السلام غيره ومداره على عطاء بن السائب الخراساني وفيه ضعف. ولو صح هذا لأفادنا ضعف ما يتداوله أهل هذه الأمصار من أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه مقبور بهذه البلدة التي اشتهر اضافتها إليه وهي كرك نوح وهي بأرض البقاع غربي دمشق وكذلك ما يزعمه بعض من صنف في فضائل الشام من أن هوداً عليه السلام مقبور في الحائط القبلي من جامع دمشق قريباً من المأذنة الشرقية. وثم علامة عليه تعرف، وقيل: أن قبر هود عليه السلام بحضرموت. رواه البخاري في تاريخه الكبير من حديث ابن إسحاق:

١٣- بناء المسجد الحرام وذكر المساجد الثلاث

حدثني محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل سمعت علياً يقول ذلك في كلام طويل ذكره في ترجمة محمد هذا ولو صح هذا الخبر المتقدم أيضاً لدل أن مكة والبيت عمرا قبل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وقد نقل ذلك بعض المفسرين عن عبد الله بن عباس وغيره ولكن بلا إسناد ولا يصح وهو مخالف لظاهر الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً﴾ [البقرة: ١٢٦] وكذا قوله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهذا سياق الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عباس في قصة بناء إبراهيم عليه السلام البيت الحرام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] وليس المراد بأنه أول بناء وضع على وجه الأرض كما يقوله من زعم أن آدم من أول من وضعه أو أن الملائكة أول من بناه، وإنما المراد أنه أول بيت وضع مباركاً للعبادة وهذا معنى ما رواه شعبة وأبو عوانة عن سماك عن خالد بن عرعرة عن علي رضي الله عنه. وهكذا قال الحسن البصري ومطر الوراق وسعيد بن جبير وهو الذي رجحه ابن جرير في تفسيره، وهو الذي لا شك فيه لأن الحال في قوله: ﴿مُبَارَكاً﴾ [آل عمران: ٩٦] دال على ذلك كأنه قال: أول بيت وضع على البركة: أي حال كونه مباركاً للذي ببكة، وهذا لا ينفي أن يكون وضع قبله بيوت كثيرة للمسلمين وغير ذلك فدل ذلك على أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام.

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أولا: قال: «المسجد الحرام» قلت ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». فظهر لك من سياق الآيات المذكورة مع هذا الحديث أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام وهذا أشهر من أن يحتاج إلى بسط أكثر من هذا ولهذا أشكل هذا الحديث على كثير من العلماء لما رأوا أن إبراهيم هو أول من بنى المسجد الحرام.

وفي سنن النسائي، وصحيح أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله إن سليمان بن داود بني مسجد بيت المقدس. وفي حديث أبي ذر أن بينهما أربعين سنة وقد علم كل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أزيد من ذلك بأكثر من الف سنة. فشرع أبو حاتم محمد بن حبان البستي يوهن حديث أبي ذر المذكور فاخطأ في صنيعه ذلك، لأنه مخرج في الصحيحين بإسناد لا يشك في صحته والإشكال الذي وقف عليه سأذكر حله إن شاء الله تعالى. فرد حديث أبي ذر هذا كما ذكرت لك وقد أخرج في صحيحه حديثه المطول الذي تفرد به إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني الدمشقي وقد تكلم فيه الأئمة وكذبه أبو زرعة الرازي وغيره رحمهم الله. وفيه ما في الأول وزيادة، فهذا تناقض والإشكال ليس بلازم قطعاً فإنه ليس في الحديث أن سليمان عليه السلام هو ابتدأ بناء بيت المقدس. قيل: أنه بناه وقد كان بيت المقدس قبل ذلك كهفاً ومؤئلا لبني إسرائيل قبله وقد كانوا بعد خروجهم من التيه وموت هارون ثم موسى عليهما السلام آووا إلى بيت المقدس ونصبوا على الصخرة قبة العهد التي كان الله أمر موسى عليه السلام بصنعتها، فكانوا يصلون إليها في التيه، ثم لما نصبت على الصخرة استمروا يصلون إليها فلما ذهبت استمروا يصلون إلى الصخرة وهذا مضمون ما ذكره غير واحد من أئمة العلماء.

وقد رواه أبو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ وخروجهم من التيه كان مع يوشع بن النون خليفة موسى عليه السلام في النبوة صلوات الله وسلامه عليهما.

فدل هذا كله على أن البيت المقدس كان موجوداً قبل نبي الله سليمان عليه السلام والحديث ليس يدل على أنه ابتدأ بناءه قطعاً فهو محمول على أنه جدد مصالحه أو بناه بناء مستأنفاً على هياة لم تكن. فإن قيل: فمن أول من وضعه؟ فالجواب قد ذكر غير واحد من الأئمة من علماء هذه الأمة أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه هو الذي بناه أولا وهذا هو الذي يزعمه أهل الكتاب وهو صحيح لأنه قد دل عليه تاريخ الحديث المذكور عن أبي ذر في الصحيحين والخبر الكتابي إذ شهد الشرع بصحته قبل.

فإن قيل: حديث أبي ذر دل على أن المسجد الحرام قبل بيت المقدس بأربعين سنة فسلمنا أن إبراهيم هو الذي وضع البيت الحرام لما تقدم فلم قلت أن يعقوب هو الذي وضع بيت المقدس؟ لم لا يجوز أن يكون وضعه غيره بعد بناء إبراهيم المسجد بأربعين سنة؟ فالجواب: دلت قرائن على صدق ذلك، وذلك أن يعقوب عليه السلام ولد في حياة إبراهيم كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] ويعقوب كنا مقيماً بأرض بيت المقدس بعد موت إبراهيم وما كان أحد في ذلك الحين يضع مسجداً لله غيره وغير أبيه إسحاق لأن أحداً لم يكن نبياً ذلك الحين غيرهما ولا يفتئت أحد على الأنبياء في استباق الخيرات، بل هم أسبق البشر في ذلك ولم يقل أحد أن الذي وضعه إسحاق فلزم أنه يعقوب عليه السلام، وأيضاً فإن هذه المساجد الثلاث وهي: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة إنما شرفت على سائر مساجد الأرض لأن كل واحد منها بناه نبي، ولهذا: «لا تشد الرحال بالسفر الطويل إلى مسجد معين من الأرض يراد التقرب بإعمال المطي إليه إلا إلى هذه

المساجد الثلاثة، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس».

ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري وفي بعض ألفاظه: «لا تشدوا الرحال» بصيغة النهي واللفظ الأول خبر لفظاً وهو نهي معنى وهذا معلوم.

ورواه النسائي وغيره من حديث أبي هريرة عن أبي نصرة عن النبي ﷺ ولهذا جاء في تضعيف ثواب الصلاة في هذه المساجد الثلاثة على غيرها من المساجد أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها ولها أحكام تمتاز بها عن غيرها من المساجد كثيرة لو تقصيناها لطال الفصل والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٤- قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن سام بن نوح.

ويقال: هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير [تاريخه: ٢١٦/١].

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عُمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: «الشحر» واسم واديهم «مغيث».

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧] أي عاد إرم وهم عاد الأولى.

وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧، ٨] أي مثل القبيلة. وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول كما بيناه في التفسير.

ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه.

وفي صحيح ابن حبان [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر».

ويقال: إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية.

وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها.

وقال غيره: أول من تكلم بها نوح.

وقيل: آدم وهو الأشبه. وقيل غير ذلك والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة وهم قبائل كثيرة: منهم عاد. وثمود. وجرهم. وطسم. وجديس. وأميم. ومدين. وعملاق. وعبيل. وجاسم. وقحطان. وبنو يقطن. وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان. وكان أصنامهم ثلاثة: صدٌّ وصمودٌ وهرا.

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال الله تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢]

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ. قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠]

وقال تعالى في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١]

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ

الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠]

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ - ١٦]

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥]

قال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢].

وقال تعالى في النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى. وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٥]

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ. تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢]

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير، ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١].

قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات. ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] أي ليس الأمر كما تظنون ولاما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه؛ ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] أي: ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع؛ ولهذا قال مؤمن يس: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١ - ٢٢].

وقال قوم هود له فيما: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣ -٥٤] يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]

وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرؤٌ من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر وأنه جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما

تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أنتم وهي جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين، فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقاً سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٣]

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ - ٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]

لهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] أي ليس هذا بعجيب، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٩] استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً وقالوا ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي: بعيد بعيد هذا الوعد ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة؛ وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩] يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾[الفجر: ٦-٨] فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] قيل: هي القصور. وقيل: بروج الحمام. وقيل: مآخذ الماء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠ - ١٣٥]

وقالوا فيما مما قالوا ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه. فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨].

أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين، أي أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين [تفسير الطبري: ١٩/٩٧]. هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين.

وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.

وقال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]

وقال تعالى ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢ - ٢٥]

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠].

وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وقال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩ - ١٤٠]

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

كان هذا أول ما ابتداهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي من وقوع العذاب وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] ومثلها في الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار قال: فلما أبو إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك. قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبري.

قال: فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر تغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرّض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إنّ عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل ابن عتر فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد: اخترت رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً. لا والداً تترك ولا ولداً. إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية المهدا.

قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عتر بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥] أي تهلك كل شيء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها مهد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك.

قال: واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة [تفسير الطبري: ٢١٧/٨ - ٢٢٠، وتاريخه: ٢١٩/١ - ٢٢٤].

وقد روى الإمام أحمد [٤٨٢/٣] حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل، عن الحارث وهو ابن حسان ويقال: ابن يزيد البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال: فجلست. قال: فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء»؟ فقلت: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت. قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: فقلت: إن مثلي ما قال الأول: (معزى حملت حتفها) حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال: «هيه وما وافد عاد»؟ وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه.

قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما

مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فنادى: اللّهم إنك تعلم أني لم أجىء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه. اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً قال فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد.

وهكذا رواه الترمذي [٣٢٧٤] عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به.

ورواه النسائي [كبرى (٨٦٠٧) مختصراً] من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة.

ومن طريقه رواه ابن ماجه [٢٨١٦ من طريق عاصم بن بهدلة ولم يذكر أبا وائل].

وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير [تفسيره: ٨/٢٢٠، ٢٢١، وتاريخه: ١/٢١٧، ٢١٨] وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكراً لمكة ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر.

وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٧] أي كوامل متتابعات [تفسير الطبري: ٢٩/٤٩]. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] اي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال في الآية الأخرى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة، وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد في أيام نحسات، أي: عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي التي لا تنتج خيراً فإن الريح المفردة لا تثير سحابا ولا تلقح شجراً بل هي عقيم لا نتيجة خير لها؛ ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (١٠٣٥)، م (٩٠٠)] من حديث شعبة عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

وأما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة، فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي من العذاب، ثم فسره بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً كما ذكره غير واحد، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضل عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة».

وقد رواه الطبراني [المعجم الكبير (١٢٤١٦)] عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا» قال: «عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب».

قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب.

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر. ثم اختلف فيه على مسلم الملائي وفيه نوع اضطراب والله أعلم.

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغةً: السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه [٨٩٩] حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: «إذا

عصفت الريح قال: اللّهم إنـي أسـألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت بـه» قـالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه وخـرج ودخل وأقبل وأدبر، فـإذا أمطرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قـال قـوم عـاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـذَا عَـارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: ٢٤].

رواه الترمذي [٣٤٤٩] والنسائي [١٠٧٧٦، ٠٧٧٧] وابن ماجه [٣٨٩١] من حديث ابن جريج.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد [٦٦/٦]: حدثنا هارون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو، وهو ابن الحارث، أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته، إنما كـان يتبسم. وقـالت: كـان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قـالت: يـا رسـول اللـه، النـاس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوم نوح بالريح. وقد رأى قوم عاد العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا».

وهكذا رواه مسلم [٨٩٩] عن هارون ابن معروف.

وأخرجه البخاري [٤٨٢٨] وأبو داود [٥٠٩٨] من حديث ابن وهب.

فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً.

فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية. وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب. وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنـه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن [المستدرك: ٥٦٤/٢].

وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم.

١٥- قصة صالح نبي ثمود عليه الصلاة والسلام

وهم قبيلة مشهورة يقال لهم: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك. وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كـأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عُبيد بن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا بـه شيئاً، فـآمنت بـه طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ - ٧٩]

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ. قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ. وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ. فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾[هود: ٦١ - ٦٨]

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ - ٨٤].

وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. [الشعراء: ١٤١ - ١٥٩]

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ. وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ. وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥٣]

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ. فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ. سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ. إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣٢]

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥]

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿ق﴾ و﴿النجم﴾ و﴿الْفَجْرِ﴾.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٨- ٩] الآية.

الظاهر ان هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام. وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مستقصاً ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة؛ ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٨] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٩ ـ ١٥٢].

وقال لهم أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] أي: اقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَٰذَا﴾ [هود: ٦١- ٦٢] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٢، ٦٣] وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ماذا يكون عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي من المسحورين، يعنون: مسحوراً لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد.

وهذ القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين: المسحورين.

وقيل ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ممن له سَحْرٌ. وهي الرئة كأنهم يقولون: إنما أنت بشر له سَحْر؛ والأول أظهر؛ لقولهم بعد هذا ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٥] وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] سألوه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥- ١٥٦] وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الاسراء: ٥٩]

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح ـ عليه السلام ـ فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة كوماء عشراء على الوجه الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا بها ولم يتبعوا

الحق بسببها أي أكثرهم.

وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن مخلاة بن لبيد بن جواس. وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام فصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلهس ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن النميل رحمه الله شعراً:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذئابا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق قصيراً وكان يقال: إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو من رجل يقال له: صيبان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

وذكر ابن جرير [٢٢٦/٨ - ٢٢٩] وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: صدوق بنت المحيا بن زهير بن المحيا، وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى: عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزاً كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها مصدع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء نساء القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها. وهو فصيلها. فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً.

وروى عبد الرزاق [تفسيره: ٢٣١/٢] عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: يا رب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضاً قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ أي: احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾.

قال الإمام أحمد [١٧/٤]: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - هو أبو عروة - عن أبيه عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]: «انبعث لها رجل عارمٌ عزيز منيع في رهطه: مثل أبي زمعة».

أخرجاه [خ (٤٩٤٢)، م (٢٨٥٥)] من حديث هشام به.

عارم أي شهم عزيز، أي: رئيس منيع، أي: مطاع في قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد بن كعب، عن محمد بن خثيم عن يزيد، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته» [سيرة ابن هشام: ٦٠٠/١].

رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] وفي آية: ﴿عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٥٦] وفي الأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] والكل حق.

والثاني استعجالهم على ذلك.

ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات؛ فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم

نجحدنّ قتله وننكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣] وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل. وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ جُثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها. قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السلق. ويقال لها الزُّرَيعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت. قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد [٢٩٦/٣]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضاً [تفسيره: ٢٣٢/٢].

قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية، أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «هذا قبر أبي رغال؛ رجل من ثمود كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب» فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن.

قال عبد الرزاق [تفسيره: ٢٣٢/٢] قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه. وقد جاء من وجه آخر متصلاً، كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة [لم نجده] عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «إن هذا قبر أبي رغال. وهو أبو ثقيف. وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب. إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه» فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن.

وهكذا رواه أبو داود [٣٠٨٨] من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية.

قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم في رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه والله أعلم.

قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل، فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» [خ (٣٩٨٠)، م (٩٣٢)].

قال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم» فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا! فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون» وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

ويقال: إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات [تاريخ الطبري: ٢٣٢/١].

قال الإمام أحمد [٢٣٢/١]: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا»؟ قال: وادي عسفان، قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات حُمر خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق». إسناد حسن.

وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني [لم يروه الطبراني] وفيه نوح وهود وإبراهيم.

١٦- ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد [١١٧/٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وقال أحمد أيضاً [١٧٤/٢]: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

أخرجاه في الصحيحين [خ (٤٣٣)، م (٢٩٨٠)] من غير وجه.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين.

وفي رواية: «فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم». صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد [٢٣١/٤]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري، عن أبيه واسمه: عمرو بن سعد ويقال: عامر بن سعد رضي الله عنه قال: لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم»؟ فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال.

وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهراً طويلاً، وانقرض جيل وأتي جيل آخر.

فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام.

فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام وجاءهم باكياً عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا.

فيقال: إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ثم تحمر وجوههم في الثاني وفي اليوم الثالث تسود وجوههم.

فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٧- قصّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام

هو إبراهيم بن تارخ «٢٥٠» بن ناحور «١٤٨» بن ساروغ «٢٣٠» بن راغو «٢٣٩» بن فالغ «٤٣٩» ابن عابر «٤٦٤» بن شالخ «٤٣٣» بن أرفخشد «٤٣٨» بن سام «٦٠٠» بن نوح عليه السلام.

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه [تاريخ دمشق: ١٦٥/٦] عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم إبراهيم أميلة. ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة.

وقال الكلبي [طبقات ابن سعد: ٤٦/١]: اسمها بونا بنت كرنبا بن كوثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٣/٦] من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان.

قالوا: ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوط.

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦٤/٦] بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها: برزة في جبل يقال له: قاسيون.

ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة أخيه.

قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن ابنه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران فمات

فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة؛ وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين. وهي بلاد بيت المقدس فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال اللّه به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال، فإن اللّه سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] أي: كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ. أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ. وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

وكان أول دعوته لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً. قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

يذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة. وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر.

ثم قال منبهاً على ما أعطاه اللّه من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ [مريم: ٤٣] أي: مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال.

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ [مريم: ٤٦] أي واقطعني وأطل هجراني فعندها قال له إبراهيم ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم من ناحيتي وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ [مريم: ٤٧].

قال ابن عباس وغيره [تفسير الطبري: ٩٢/١٦]: أي لطيفاً يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [مريم: ٤٨].

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته. فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال البخاري [٣٣٥٠]: حدثنا إسماعيل بن عبد اللّه، حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول اللّه: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً.

وقال في التفسير [خ ٤٧٦٨]: وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وهكذا رواه النسائي [كبرى ١١٣٧٥] عن أحمد بن حفص بن عبد اللّه، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان به.

وقد رواه البزار؟ من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. وفي سياقه غرابة.

ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون: تارخ بالخاء المعجمة فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير [تفسيره: ٢٤٤/٧] والصواب أن اسمه: آزر. ولعل له اسمين علمين أو أحدهما لقب والآخر علم؛ وهذا الذي قاله محتمل واللّه أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. [الأنعام: ٧٥-٨٣]

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب. قيل: هو الزهرة لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها. ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨] أي: طالعة. ﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأنعام: ٧٨-٨٠] أي لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً كما ذكره ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ١/٢٣٤] وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق.

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

قال في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٣]

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨]

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال: ﴿مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

قال قتادة [تفسير الطبري: ٢٢/٧٠] فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] يقولون هذا الكلام الذي تقوله لنا وتتنقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]. يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء فاطر السماوات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه [تفسير الطبري: ٣٧/١٧].

وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال: إني سقيم كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩] عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾. أي: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها ﴿فَقَالَ﴾ لها على سبيل التهكم والازدراء ﴿أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي حطاماً؛ كسرها كلها ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار [تفسير الطبري: ٣٨/١٧، ٣٩].

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها.

وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] أي: في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢- ٦٣].

قيل: معناه هو الحامل لي على تكسيرها وإنما عرض لهم في القول ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] أي: فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

قال السدي [تفسير الطبري: ٤٢/١٧]: أي ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي: فاطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها! فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧] كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤].

قال مجاهد [تفسير الطبري: ٧٤/٢٢]: يسرعون.

قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وسواء كانت «ما» مصدرية أو بمعنى الذي، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧-٩٨] عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠] وذلك أنهم شرعوا يجمعوا حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم.

ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: هيزن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة [تفسير الطبري: ٤٣/١٧].

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك [تفسير الطبري: ٤٥/١٧].

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخاري [٤٥٦٣] عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قيل له ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] الآية.

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك».

وذكر بعض السلف [ذكر هذا وما يليه الطبري في تفسيره ٤٤/١٧، ٤٥] أن جبريل عرض عليه في الهواء فقال: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر

يقول: متى أومر فأرسل المطر، فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال ﴿وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لأذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السدي: كان معه أيضاً ملك الظل. وصار إبراهيم عليه السلام في مثل الجونة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٨٤/٦] عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك فقال: نعم! فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار. فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو [تفسير الطبري: ٤٤/٧] أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها، صلوات الله وسلامه عليه، فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبو فغلبوا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] وفي الآية الأخرى ﴿الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال، هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ [الفرقان: ٦٦]

قال البخاري [٣٣٥٩]: حدثنا عبيد الله بن موسى أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «كان ينفخ على إبراهيم».

ورواه مسلم [٢٢٣٧] من حديث ابن جريج.

وأخرجاه [خ (٣٣٠٧)، م (٢٢٣٧)] والنسائي [٣٨٦٨] وابن ماجه [٣٢٢٨] من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة، به.

وقال أحمد [٢٠٠/٦]: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعاً مولى ابن عمر، أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» قال: فكانت عائشة تقتلهن.

وقال أحمد [٢١٧/٦]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ «أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه».

تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد [٨٣/٦]: حدثنا عفان، حدثنا جرير، حدثنا نافع، حدثتني السائبة مولاة للفاكه بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا موضوعاً فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

ورواه ابن ماجه [٣٢٣١] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن جرير بن حازم، به.

١٨- مناظرة إبراهيم والنمرود

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح؛ قاله مجاهد.

وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح ابن أرفخشد بن سام بن نوح؛ قال مجاهد وغيره.

وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان. والكافران: النمرود وبختنصر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٢٥/٣ - ٢٧]: يعني أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لابد من استنادها إلى وجوده ضرورة وعدم قيامها بنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إماتتها؛ ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: أنا أحي وأميت، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدة فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض

الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل امتنع وسكت، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٥٨]

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق [تفسيره: ١/١٠٥، ١٠٦] عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام. فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً.

فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به؛ فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم [تفسير الطبري: ٣/٢٥] وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بالية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخريه أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها والله تعالى أعلم.

١٩- هجرة إبراهيم إلى الشام ومصر والأرض المقدسة

قال الله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧]

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط ابن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه، والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عز وجل: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم [انظر هذه الرواية وما يليها من الروايات تفسير الطبري: ١٧/٤٥ ـ ٤٧].

وروى العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

وزعم كعب الأحبار أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها.

رواه ابن جرير وهو غريب.

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي [الروض الأنف: ١/٨٧، ٨٨] عن القتبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل.

ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم.

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى اليمن وأنه كان جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها: قولي أنا أخته وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقد قال البخاري [٣٣٥٨]: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ فقال: أختي فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه

ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت، فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم! فقالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن عبد الوهاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً فأتي الجبار فقيل له: إنه قد نزل هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها فقال: إنها أختي، فلما رجع إليها قال: إن هذا سألني عنك فقلت: إنك أختي وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك وإنك أختي فلا تكذبيني عنده فانطلق بها.

فلما ذهب يتناولها أخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها. فقال: ادع الله لي ولا أضرك فدعت فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه فقال: إنك لم تأتني بإنسان لكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فجاءت وإبراهيم قائم يصلي فلما أحس بها انصرف فقال: مهيم! فقالت: كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر».

وأخرجاه [خ (٥٠٨٤)، م (٢٣٧١) من غير طريق هشام] من حديث هشام. ثم قال البزار: لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام ورواه غيره موقوفاً.

وقال الإمام أحمد [٤٠٣/٢، ٤٠٤]: حدثنا علي بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله لسارة «إنها أختي».

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي قال: فأرسل بها قال: فأرسل بها إليه وقال: لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر قال: فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يقال: هي قتلته قال: فأرسل قال: ثم قام إليها قال: فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يقل هي قتلته قال: فأرسل قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر. قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة.

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط صحيح.

وقد رواه البخاري [٢٢١٧] عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به مختصراً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقال ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي».

فقوله في الحديث: هي أختي أي في دين الله وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كان معهم وهو نبي عليه السلام.

وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم معناه ما الخبر فقالت: إن الله رد كيد الكافر» وفي رواية «الفاجر» وهو الملك وأخدم جارية.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضاً كلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام.

والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهداً لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها.

ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملاً لأخيه على مصر.

ويقال كان اسمه: سنان بن علوان بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح.

وذكر ابن هشام في التيجان أن الذي أرادها عمرو بن امرئ القيس بن بايلبون بن سبأ وكان على مصر؛ نقله السهيلي [الروض الأنف: ٩١/١] فالله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل يأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية. يؤيد ذلك قول رسول اللّه ﷺ [م (٢٨٨٩)]: «إن اللّه زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها».

قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل عليه السلام سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء اللّه ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام إبراهيم المنسوب إليه ببرزة اليوم إنما سمي لأنه كان موضع موقف جيش الخليل واللّه أعلم.

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات اللّه وسلامه عليه.

٢٠- ذكر مولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام من هاجر

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل اللّه ذرية طيبة، وأن اللّه بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشر سنين، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد أحرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل اللّه يرزقني منها ولداً. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه، قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها، وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن اللّه جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً، وأمرها بالرجوع. وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل. ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت اللّه عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وآتاها اللّه من العلم النافع والعمل الصالح ما لم يؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، ويمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام، قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة.

ولما ولد إسماعيل أوحى اللّه إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر للّه ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كبيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً. وأجعله رئيساً لشعب عظيم، وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة.

وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال: «يكون اثنا عشر أميراً» ثم قال كلمة لم أفهمها فسألت أبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» أخرجاه في الصحيحين [خ (٧٢٢٢)، م (١٨٢١)].

وفي رواية: [الطبراني (١٨٧٦)] «لا يزال هذا الأمر قائماً».

وفي رواية: [م (١٨٢١) بلفظ مقارب] عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً. ومنهم بعض بني العباس، وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً بل لا بد من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين. والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور. وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: آللّه أمرك بهذا قال: نعم، قالت: فإذاً لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه اللّه في كتاب النوادر: أن سارة تغضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٩١/١]: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنيها منهن، وأول من طولت ذيلها.

٢١- هجرة إبراهيم بإسماعيل وهاجر

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمّه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق

قال البخاري [٣٣٦٤] قال عبد اللّه بن محمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنا لك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت: إذاً لا يضيعنا.

ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما.»

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها. ثم تسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو تفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم اللّه أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت اللّه يبني هذا الغلام وأبوه وإن اللّه لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريًّا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا: نعم.

قال عبد اللّه بن عباس: قال النبي ﷺ «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم ما شاء اللّه.

ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على اللّه فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللّهم بارك لهم في اللحم والماء».

قال النبي ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب. ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال: ذاك أبي وأنت العتبة وأمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء اللّه ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل إن اللّه أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك به ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن اللّه أمرني أن أبني هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]»

ثم قال البخاري [٣٣٦٥]: حدثنا عبد اللّه بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء.

وذكر تمامه بنحو ما تقدم.

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات.

وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك. وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره اللّه بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر اللّه عز وجل في أهله فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب؛ ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر في موضعه.

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري [٣٣٥٦]: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم».

تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد وتابعه عجلان عن أبي هريرة.

ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

وهكذا رواه مسلم [٢٣٧٠] عن قتيبة به.

وفي بعض الألفاظ [خ (٦٢٩٨)، المسند: ٣٢٢/٢]: اختتن إبراهيم بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم والقدوم هو الآلة وقيل: موضع. وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين. واللّه أعلم لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته

عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال «اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة» رواه ابن حبان في

صحيحه [الإحسان (٦٢٠٥)].

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل ولم يذكر فيه قد مات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم. وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له.

وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة.!

وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات.

٢٢- قصّة الذبيح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.[الصافات: ٩٩-١١٣].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل.

وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره.

وقوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه.

قال مجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

فلما كان هذا أري إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا.

وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً [الطبراني في «الكبير»: (١٢٣٠٢) موقوفاً على ابن عباس] «رؤيا الأنبياء وحي.» قاله عبيد ابن عمير أيضاً [خ (١٣٨) و(٨٥٩)].

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وامه في بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل امر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل امره وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. [الصافات: ١٠٢].

وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾. [الصافات: ١٠٣] قيل: أسلما أي: استسلما لأمر الله وعزما على ذلك.

وقيل: هذا من المقدم والمؤخر والمعنى ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك.

وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض ﴿أَسْلَمَا﴾ أي سمّى إبراهيم وكبر وتشهد وسلّم الولد للموت.

قال السدي وغيره: أمرّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً.

ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله عز وجل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. [الصافات: ١٠٤-١٠٥] أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. [الصافات: ١٠٦] أي الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. [الصافات: ١٠٧] أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطاً بسمرة في ثبير.

قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً [تفسير الطبري: ٨٧/٢٣]

وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر [تفسير الطبري: ٨٧/٢٣].

وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه.

رواه ابن أبي حاتم.

قال مجاهد: فذبحه بمنى.

وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام.

فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً.

وعن الحسن: أنه كان تيساً من الأروى. واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات. وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدي بذبح عظيم وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً.

قال الإمام أحمد [٦٨/٥]: حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله مسافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي».

قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وهذا روي عن ابن عباس: أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة. وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو اسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. [الصافات: ١١٢] ومن جعله حالا فقد تكلف ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة «بكره إسحاق» فلفظة «إسحاق» هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وإنما الوحيد البكر إسماعيل. وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم. وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له! هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي [التعريف والإعلام ص٢٧٤ - ٢٧٥] على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١] جملة تامة وقوله: ﴿وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] جملة أخرى ليست في حيز البشارة قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال: مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال: ومن بعده بعمرو.

وقال: فقوله: ﴿وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر. ورجح أنه إسحاق واحتج بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي!

وهذا أيضاً فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله أعلم.

فممن حكي القول عنه بأن الذبيح إسحاق كعب الأحبار.

وروي عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بزة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير [تفسيره: ٨٥/٢٣] وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام.

قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل عليه السلام

وقال ابن جرير [تفسيره: ٨٥/٢٣]: حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمر بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: المَفْدِيُّ إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن الذبيح فقال: الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

وحكاه البغوي [تفسيره: ٢٧/٦] أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء.

قلت: وروي عن معاوية وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ [تفسير الطبري: ٨٥/٢٣، المستدرك: ٥٥٤/٢].

وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق ابن يسار.

وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا.

وقال محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٨٤/٢٣، ٨٥] عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني استدلاله بقوله بعد القصة ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم قال: فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير [٢٧/٧ - ٣٠] ولله الحمد والمنة.

٢٣- مولد إسحاق عليه الصلاة والسلام

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾. [الصافات: ١١٢- ١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ.

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩-٧٣]

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراهِيمَ. إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ. قَالُواْ لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ. قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ.﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦]

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ. فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات ٢٤ - ٣٠].

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكر منهم أمرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. أي لننذر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً للّه عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال اللّه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي بشرتها الملائكة بذلك.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي في صرخة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩] أي كما يفعل النساء عند التعجب ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ [هود: ٧٢] أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي ﴿شَيْخاً﴾ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣].

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤ - ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه. فبشروهما ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وهو إسحاق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر.

وقال في الآية الأخرى ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١] وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يامر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ وهو المشوي رغيفاً من مَلّة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن. وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض.

وقيل: كانوا يورون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء. وعندهم أن اللّه تعالى قال لإبراهيم أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه يعني ساجداً وضحك قائلاً في نفسه أبعد مائة سنة يولد لي غلام أو سارة تلد؟ وقد أتت عليها تسعون سنة!

وقال إبراهيم للّه تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك فقال اللّه لإبراهيم: بحقي إن امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل وأواثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه من بعده وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جدّاً كبيراً ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيساً لشعب عظيم.

وقد تكلمنا على هذا بما تقدم واللّه أعلم.

فقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثم من بعده يولد ولده يعقوب أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده.

ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بمولده كما سُرا بمولد أبيه من قبله.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]

وهذا إن شاء اللّه ظاهر قوي ويؤيده ما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٦٦)، م (٥٢٠)] من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول اللّه أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟قال: «أربعون سنة» قلت: ثم أي؟قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد».

وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا وهو مسجد بيت المقدس شرفه اللّه.

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء.

وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء. الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

وما جاء في الحديث [س (٦٩٢)، ج (١٤٠٨)] من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل اللّه خلالاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] وكما سنورده في قصته.

فالمراد من ذلك واللّه أعلم أنه جدد بناءه لِمَا تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد: إن بين سليمان؛ وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن

حبان في تقاسيمه وأنواعه [الإحسان (٦٢٢٨)] وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه والله تعالى أعلم بالصواب.

٢٤- ذكر بناء البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ -٢٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ -٩٧]

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أي أرشده إليه ودله عليه.

وقد روينا [تاريخ الطبري: ٢٥١/١] عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل. وقد قدمنا في صفة خلق السماوات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السماوات السبع. كما قال بعض السلف إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض كما ثبت في الصحيحين [خ (١٥٨٧)، م (١٣٥٣) واللفظ لمسلم]: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.

ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام. ومن تمسك في هذا بقوله ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقدّر في قدره، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة. وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. [آل عمران: ٩٦]أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكة. قيل: مكة وقيل: محلّة الكعبة ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾. [آل عمران: ٩٧] أي على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.[آل عمران: ٩٧] أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل [خ (٣٣٦٤)]. وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها في قوله لرسوله ﷺ [خ (٤٤٨٣)]: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. [البقرة: ١٢٥].

وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة [سيرة ابن هشام: ٢٧٢/١ - ٢٨٠]:

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق ليرقى في حراء ونازل
وبالبيت حقّ البيت من بطن مكة ... وبالله إنّ الله ليس بغافل
وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوهُ بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيمَ في الصّخرِ رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. [البقرة: ١٢٧] أي في حال قولهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. [البقرة: ١٢٧] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٢٨]

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أفضل البقاع في واد غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية بسعادة الأولى والآخرة.

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا وأي رسول ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة.

وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه وكمال ما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة أهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور.

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بنائه البيت وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه ثم ولله الحمد.

فمن ذلك ما قال السدي [تاريخ الطبري: ٢٥٢/١]: لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحاً يقال له: الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[الحج: ٢٦].

فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا. قال: يا أبت، إني كسلانُ تعبٌ. قال: عليَّ ذلك. فانطلق وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس [الترمذي (٧٧٧) مرفوعاً]، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقال: يا أبتي من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الله ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وذكر ابن أبي حاتم [تفسيره: ٣٨٠/١] أنه بناه من خمسة أجبل وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال: من أمركما بهذا؟ فقال إبراهيم الله: أمرنا به فقال: وما يدريني بما تقول؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق.

وذكر الأزرقي [أخبار مكة: ٣٩/١] أنه طاف مع الخليل بالبيت، وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم.

وفي الصحيحين [خ (١٥٨٣)، م (١٣٣٣)] من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر ابن عمر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أنّ قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم» فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم فقال: «لولا حدثان قومك «وفي رواية» [م (١٣٣٣)]: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية «أو قال: «بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر».

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية كما هو مشاهد اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك.

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم.

٢٥- ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام. وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثني من نيلها الظالمون واختص بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[العنكبوت: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٨٤ ـ ٨٧].

فالضمير في قوله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائد على إبراهيم على المشهور.

ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليباً.

وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] الآية.

فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته. وهذه خلعة سَنية لا تضاهى ومرتبة عليَّه لا تباهى. وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة؛ وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى؛ ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم [٨٢٠] كما ستورده أنه قال: «سأقوم مقاماً يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم». فمدح إبراهيم أباه مدحة

عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

وقال البخاري [٣٣٧١]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق. أعوذ بكلمات الله التامة. من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

ورواه أهل السنن [د (٤٧٣٧)، ت (٢٠٦٠)، س (كبرى ١٠٨٤٤، ١٠٨٤٥)، ج (٣٥٢٥)] من حديث منصور به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير [١/٤٦٥ – ٤٦٧]. وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فامره أن يعمد إلى أربعة من الطيور. واختلفوا في تعينها على أقوال:

والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض. ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء: كن فيكون فاتين إليه سعياً ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً.

ويقال: إنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فتلقاه رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ. هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ٦٥ – ٦٨].

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم فبراه الله منهم وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ولهذا قال ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فبين أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الإخلاص والانحراف وعمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ. قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ. أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ – ١٤٠]

فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿وَهَـذَا النَّبِيُّ﴾. يعني محمداً ﷺ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً قبله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ – ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ –١٢٣].

وقال البخاري [٣٣٥٢]: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: «قاتلهم الله والله إن يستقسما بالأزلام قط» لم يخرجه مسلم.

وفي بعض ألفاظ البخاري [١٦٠١، ٤٢٨٨]: «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

فقوله ﴿أُمَّةً﴾ أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير يقتدي به فيه.

﴿قَانِتاً لِلّهِ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته.

﴿حَنِيفاً﴾ أي مخلصاً على بصيرة.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله.

﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اختاره الله لنفسه، واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلاً وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط

المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] ولهذا اتخذه الله خليلاً؛ والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم:

قد تخللت مسلكَ الروحِ مني وبذا سُمي الخليلُ خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي [م (٥٣٢)] وعبد الله بن عمرو [ج (١٤١)] وابن مسعود [م (٢٣٨٣)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». أخرجاه [خ (٣٦٥٤)، م (٢٣٨٢)] من حديث أبي سعيد.

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير [خ (٣٦٥٨)] وابن عباس [خ (٣٦٥٦، ٣٦٥٧)] وابن مسعود [م (٢٣٨٣)].

وروى البخاري في صحيحه [٤٣٤٨]: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾. فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، بمكة حدثنا عبد الله الحنفي، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله. وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً. وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته. وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى كليمه وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا وإني حبيب الله ولا فخر ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر».

هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم.

وروى الحاكم في مستدركه [٦٥/١] من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟!

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد السُلمي، حدثنا الوليد عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى إنْ كان خفقان قلبه ليسمع من بُعْد كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

وقال عبيد بن عمير: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً فقال: يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتها بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فو الله إن أخبرتني به. ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم قال: فبم اتخذني ربي خليلاً؟ قال: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

رواه ابن أبي حاتم.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً، منها خمسة عشر في البقرة وحدها وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: ٧] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] الآية.

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء [خ (٧٥١٧)] من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة. فمما انتقد على شريك في هذا الحديث والصحيح الأول.

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم».

رواه مسلم [٨٢٠] من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» ثم ذكر إستشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» الحديث [خ (٣٣٤٠)، م (١٩٤)].

قال البخاري [٣٣٥٣]: حدثنا عليّ بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبيد الله حدثني سعيد عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك،قال: «فعن معادن العرب تسألوني؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر ومسلم والنسائي [خ (٣٤٩٠)، م (٢٣٧٨)، س (١١٢٤٩)] من طرق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به.

ثم قال البخاري [٣٣٥٣]: قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

قلت: وقد أسنده [خ (٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩)] في موضع آخر من حديثهما وحديث عبدة بن سليمان والنسائي [١١٢٤٩] من حديث محمد بن بشر اربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولم يذكروا أباه.

وقال أحمد [٣٣٢/٢]: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله». تفرد به أحمد.

وقال البخاري [٣٣٩٠]: حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد

الرحمن،عن أبيه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم». تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١/٢٢٣]: حدثنا يحيى عن سفيان حدثني مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فأخرجاه في الصحيحين [خ (٤٦٢٥)، م (٢٨٦٠)] من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قبلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد [٣/١٧٨]: حدثنا وكيع وأبو نعيم، حدثنا سفيان هو الثوري عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية فقال: «ذاك إبراهيم» فقد رواه مسلم [٢٣٦٩] من حديث الثوري، وعبد الله بن إدريس، وعلي بن مسهر، ومحمد بن فضيل،أربعتهم عن المختار بن فلفل.

وقال الترمذي [٣٣٥٢]: حسن صحيح.

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء» وقال: «لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور» [خ (٣٤١٤)، م (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة].

وهذا كله لا ينافي في ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم [٨٢٠]: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم».

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٧٠)، م (٤٠٦)] من حديث كعب بن عجرة وغيره قال: قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قالوا: وفَّى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق [تفسيره: ١/٧٥]: أنبأنا معمر، عن ابن طاوس،عن أبيه، عن ابن عباس ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس، وخمس في الجسد أما التي في الرأس: قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس أما التي في الجسد: تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

رواه ابن أبي حاتم [١/٣٥٩]. وقال: وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك

قلت: وفي الصحيحين [خ (٥٨٨٩)، م (٢٥٧)] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط».

وفي صحيح [٢٦١] مسلم وأهل السنن [د (٥٣)، ت (٢٧٥٧)، س (٥٠٥٥) وفي (كبرى ٩٢٨٦)، ج (٢٩٣)] من حديث وكيع عن زكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي عن طلق بن حبيب العنزي عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت: قال: رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء». يعني الاستنجاء.

وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ؛ فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

٢٦- ذكر قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: (٢٣٤٦)]: حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قالا: حدثنا يزيد بن هارون،حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً ـ أحسبه قال ـ: من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهي أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلاً».

قال البزار: وحدثنا أحمد بن جميل المروزي،حدثنا النضر بن شميل،حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفاً.

قلت: لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه.

٢٧- ذكر صفة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

قال الإمام أحمد [٣/٣٣٤]: حدثنا يونس وحجين قالا: حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عرض عليَّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم ـ يعني نفسه ﷺ ـ ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمد [١/٢٩٦]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن عثمان يعني ابن المغيرة عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم». قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «انظروا إلى صاحبكم» يعني نفسه.

وقال البخاري [٣٣٥٥]: حدثنا بيان بن عمرو، حدثنا النضر، أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال بين عينيه كافر أو (ك ف ر) فقال: لم أسمعه ولكنه قال ﷺ أما: «إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه انحدر في الوادي».

وهكذا رواه البخاري أيضا ومسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به. وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحج [١٥٥٥] وفي اللباس [٥٩١٣] ومسلم [١٦٦] جميعاً عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به.

٢٨- ذكر وفاة إبراهيم الخليل عليه السلام وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه [٢٣٣/١] أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل: الضحاك الملك المشهور الذي يقال: إنه ملك ألف سنة وكان في غاية الغشم والظلم.

وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا.

وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود. فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه. فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شباباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل: ببابل وقيل: بالسواد من ناحية كوثى.

وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران، ثم إلى أرض الشام، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا.

وولد له إسماعيل وإسحاق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بني حيث يقال له: عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال فضة ودفن فيها سارة هنالك.

قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه رفقا بنت تبويل بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل.

قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح.

وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٥٢/٦ ـ ٣٥٨] عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها.

وقد قيل: إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين.

ودفن في المغارة المذكورة امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي [تاريخ الطبري: ٣١٢/١].

وقد قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢٠٤)]: أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة، حدثنا علي بن زياد اللحجي، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة».

وقد رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٩٨/٦، ١٩٩] من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبي هريرة موقوفاً.

ثم قال ابن حبان [الإحسان (٦٢٠٥)]: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم:

أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد بِبُست، حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واختتن بقدوم».

وقد رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٩٧/٦] من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «وقد أتت عليه ثمانون سنة».

ثم روى ابن حبان [الإحسان: ٨٥/١٤]؟ عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية.

قلت: الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة.

وفي رواية: وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم.

وقال محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي راوي تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات: حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: «كان إبراهيم أول من تسرول وأول من فرق وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة وأول من قرى الضيف وأول من شاب».

هكذا رواه موقوفاً [تاريخ دمشق: ١٩٩ بنحوه] وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان والله أعلم.

وقال مالك [الموطأ: ٩٢٢/٢] عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله: وقار» فقال: يا رب زدني وقاراً.

وزاد غيرهما: وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل.

فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقاً.

فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم

السلام تحتها.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٥٨/٦] بسنده إلى وهب بن منبه قال: وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة.

ألهى جهولاً أمله ... يموتُ مَن جاء أجلُه

ومَن دنا مِن حتفه ... لم تُغنِ عنه حِيَلُه

وكيف يبقى آخِرُه ... مَن ماتَ عنه أولُه

والمرءُ لا يصحبه ... في القبر إلا عملُه

٢٩- ذكر أولاد إبراهيم الخليل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام

أول من ولد له إسماعيل من هاجر القبطيه المصرية ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس.

ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين فولدت له خمسة: كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والإعلام [ص١٣٩، ١٤٠].

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام، وما حل بهم من النقمة العميمة.

وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا.

ويقال: إن هاران هذا هو الذي بنى حران وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم.

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية وأردئهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين؛ ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين:

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

وقال تعالى في سورة هود ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ. وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ. قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ. قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ. إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ. قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ. قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ. فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ. قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ. وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ. وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ. وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ. قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ. قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ. قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ. رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨]

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ. وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ. فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧].

وقال في سورة الانشقاق ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ. نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ. وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ. وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ. فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السورة في التفسير.

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود. والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعاً من الآيات والآثار وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا غاية المدح ذما يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعدما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا. ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مُجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من ناقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلاً فأخذهم الله أخذاً وبيلاً وقالوا له فيما قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥-٧٦] أي: أعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ اي قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ٢٩٧/١، ٢٩٨]: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فأربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: فاربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا.

قال ابن إسحاق إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا،قال: إن فيها لوطاً ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢] الآية.

وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً! فقال الله: لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل إلى عشرة فقال الله: لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان؛ اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره من القوم الفاسقين وحسبهم بشراً من الناس و﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٨٢/١٢، ٨٣]: شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بغيرهم معهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ولكن رأى من

لا يمكن الحيد عنه.

وذكر قتادة [تاريخ الطبري: ١/٢٩٩]: أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوه فاستحيى منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات.

قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي [تاريخ الطبري: ١/٢٩٩، ٣٠٠]: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم فلقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى أريثا والصغرى دغوثا، فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم.

فرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه.

وقوله ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث [تفسير الطبري: ١٢/٦٤. أبو داود (٨)] وكما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وفي قراءة بعض الصحابة والسلف «وهو أب لهم».

وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء ١٦٥ ـ ١٦٦].

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ١٢/٨٤، ٨٥] وهو الصواب

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كما أخطأوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين وأنهم تعشوا عنده.

وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً.

وقوله: ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] نهيٌ لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل رشيدٌ له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أعتياء. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه: عليهم لعنة الله الحميد المجيد. مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم؛ ولهذا قال عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا: «نحن أحق بالشك من إبراهيم ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» [خ (٣٣٧٢)، م (١٥١)].

ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة [خ (٣٣٧٥)].

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه» [أحمد: ٢/٣٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ. قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر ٦٧ ـ ٧١].

فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون. ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون. وصبيحة ليلتهم منتقلون؛ ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ. وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦ ـ ٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب.

فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان. ويتوعدون رسول الرحمن. ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٧ ـ ٣٨].

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه؛ وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم.

وقوله: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١] على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾. [هود: ٨١] كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك. أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم؛ ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم.

قال السهيلي: واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة.

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد.

ويقال: إن امرأته خرجت معه فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد. ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب.

فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس غور زغر فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

قالوا [تفسير الطبري: ٩٧/١٢]: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم يقال: إنهم كانوا أربع مائة ألف نسمة.

وقيل أربعة آلاف ألف نسمة. وما معهم من الحيونات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها.

قال مجاهد [تفسير الطبري: ٩٧/١٢]: فكان أول ما سقط منها شرفاتها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي.

﴿مَّنضُودٍ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه كما قال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾. [الشعراء: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤] يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسوَّمة مرقوم على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] أي خانتاهما في الدين فلم تتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا. فإن الله لا يقدر على نبيه أن تبغي امرأته.

كما قال ابن عباس وغيره [ابن عساكر: ٦٣٦/١٤ مخطوط] من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط.

ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا. قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥ ـ ١٦] أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله هاهنا ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم. ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصناً أو لا.

نص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد [٣٠٠/١] وأهل السنن [د (٤٤٦٢)، ت (١٤٥٦)، ج (٢٥٦١)] من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه. ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات. وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر ٧٣ ـ ٧٧] أي: من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة. هالكة غامرة.

كما روى الترمذي [٣١٢٧] وغيره مرفوعاً: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وقوله ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٧] أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط «ومن تشبه بقوم فهو منهم» [أحمد: ٥٠/٢، د (٤٠٣١)] وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال. والجواري من السراري ذوات الجمال. وإياه أن يتبع كل شيطان مريد. فيحق عليه الوعيد. ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. [هود: ٨٣]

٣٠- قصّة مدين قوم شعيب عليه الصلاة والسّلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ. وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ. قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ. وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ. وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ. قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ. وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ - ٧٩]

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. [الشعراء: ١٧٦-١٩١]

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط. وكانوا بعدهم بمدة قريبة.

ومدين قبيلة عرفت بهم المدينةوهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل علية الصلاة والسلام وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ذكره ابن إسحاق [تفسير الطبري: ٢٣٧/٨].

قال: ويقال له: بالسريانية؛ بثرون وفي هذا نظر.

ويقال: شعيب بن يشجن بن لاوي بن يعقوب.

ويقال: شعيب بن ثويب بن عبقا بن مدين بن إبراهيم ويقال: شعيب بن صيفور بن عبقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. وقيل غير ذلك في نسبه.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧٠/٢٣]: ويقال: جدته ويقال: أمه بنت لوط عليه السلام [تاريخ الطبري: ٣٢٥/١] وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق.

وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وبلعم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة [المعارف: ص٤١].

وفي هذا كله نظر أيضاً والله أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٦٤٤ في ترجمة سلمة بن سعيد العنزي: قدم على رسول الله ﷺ فاسلم وانتسب إلى عنزة فقال: «نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون قوم شعيب وأختان موسى».

فلو صح هذا لدلّ على أن شعيبا صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم: عنزة لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان [الإحسان (٣٦١)] في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر».

وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء» [المستدرك: ٥٦٨/٢].

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد. وهو الولي

الحميد كما قال تعالى:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً:

﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال:

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] أي طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل.

قال السدي في تفسيره عن الصحابة [تفسير الطبري: ٢٣٨/٨]: ﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق يبخسون الناس - يعني يعشرونهم - وكانوا أول من سن ذلك.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ [الأعراف: ٨٦] فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦] ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى ﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٥ ـ ٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصري ﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير [تفسيره: ١٠٠/١٢، ١٠١]: ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

قال: وقد روي هذا عن ابن عباس وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قُلّ» رواه أحمد [٣٩٥/١] أي: إلى قلة.

وقال رسول الله ﷺ: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما» [خ (٢٠٧٩)، م (١٥٣١)].

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري. ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلواتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير [تفسيره: ١٠٣/١٢]: يقولون ذلك قول أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون ﴿إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ﴾ أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ يعني النبوة والرسالة يعني وعمّى عليكم معرفتها فأي حيلة لي بكم. وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواءً.

وقوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدها هي المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون.

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وذكرنا عندها في الصحيح [خ (٣٢٦٧)، م (٢٩٨٩)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه - أي تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه».

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب فحالهم كما قال نبي الله شعيب ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي في جميع أحوالي ﴿إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قيل: معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل: معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان.

وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿وَدُودٌ﴾ وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام.

﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾.

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري [المستدرك ٥٦٨/٢، تاريخ دمشق: ٧١/٢٣، تفسير الطبري: ١٠٥/١٢] أنهم قالوا: كان ضرير البصر.

وقد روي في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره. وقال يا شعيب أتبكي خوفاً من النار أو من شوقك إلى الجنة؟ فقال: بل من محبتك فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي، فأوحى الله إليه هنيئاً لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي.

رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بندار عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق الرملي، عن هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد، عن شداد بن أمين عن النبي ﷺ بنحوه وهذا غريب جداً وقد ضعفه الخطيب البغدادي.

وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهمه ولا نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وقولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ [هود] أي مضطهداً مهجوراً.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ أي جانب الله وراء ظهوركم.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار. ومن يحل عليه الهلاك والبوار.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي في الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وهذا كقوله ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧ ـ ٨٩].

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطراراً مكرهين وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ولا يريد أحد أن يزول عنه ولا محيد لأحد منه. ولهذا قال ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا في جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي الحاكمين فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه وبرسوله خالفوه. ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون. وبه مستمسكون.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثتهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي جهلوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة. وكان ذلك

إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا. فإنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٨].

قال الله تعالى وهو السميعُ العليمُ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومن زعم من المفسرين كقتادة [تفسير الطبري: ٨٤/١٤] وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف؛ وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما أنه قال ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾. والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٦/٨] في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شقيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام» فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر في كل موضع ما يناسب ذلك الخطاب.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه أرسلها الله عليهم ترميهم بشرر وشهب من نار ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا في مقابلة قولهم ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾.

ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: أعرضَ عنهم مولياً عن مَحلّتِهم بعد هلاكهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي قد أديت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أي أحزن.

﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، أي لاتقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا تلتفون إليه فحل عليهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه.

وقد ذكر الحافظ بن عساكر في تاريخه [٨٠/٢٣] عن ابن عباس أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عيه السلام.

وعن وهب بن منبه أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم.

٣١- باب ذكر ذرّية إبراهيم عليه الصلاة والسلام

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط. وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قريتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة.

يذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا فذكرناها تبعاً لها إقتداء بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن في الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي أرسل بعده فمن ولده.

٣٢- ذكر إسماعيل عليه السّلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل.

ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل الذين بدلوا وحرفو وأولوا التوراة والإنجيل وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل. فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر. وفي رواية الوحيد وأيّاً ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ففي نص كتابهم إن اسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة.

وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة.

أما في الصورة فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة

وأما أنه وحيد في المعنى فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل فوضعهما في وهاد جبال فاران وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه.

فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى ولكن أين من يتفطن لهذا السر وأين من يحل بهذا المحل والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل. وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١٠٢] فطاوع أباه على ما إليه دعاه. ووعده بأن سيصبر فوفى بذلك وصبر.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥]

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية.

وقال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية.

ونظيرتها من السورة الأخرى.

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] الآية.

فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون. وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون.

وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل [الأوائل للعسكري: ١٨٢/٢].

وكانت قبل ذلك وحوشاً فآنسها وركبها.

وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا شيخ من قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا الخيل واعتبقوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل».

وكانت هذه العراب وحشاً فدعا لها بدعوته التي كان أعطي فأجابته وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموي: حدثني علي بن المغيرة حدثنا أبو عبيدة حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة».

فقال له يونس: صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جري حدثني.

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها.

قال الأموي: هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي. ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي.

وقيل هذه ثالثة فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً. وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت وقيذر وأذبل وميشى ومسمع وماش ودوما وادر ويطور ونبش وطيما وقيذما.

وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم. وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيما المبشر بهم المتقدم ذكرهم. وكذبوا في تأويلهم ذلك وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه.

ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم. ويقال لهم بنو الأصفر لصفرة كانت في العيص.

وولدت له اليونان في أحد الأقوال. ومن ولد العيص الأشبان، وقيل منهما أيضاً. وتوقف ابن جرير [تاريخ الطبري: ٣١٤/١، ٣١٧] رحمه الله.

ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة.

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى الله إليه أني سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذي تدفن فيه تجري عليك روحها إلى يوم القيامة [تاريخ الطبري: ٣١٤/١، ٣١٥].

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار. وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى بن مريم خاتم أنبيائهم ومحقق أنبائهم.

ثم نذكر ما كان في زمن بني إسرائيل. ثم ما وقع في أيام الجاهلية ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم.

٣٣- ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصَّلاة والتسليم

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة. وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.

وقدمنا في حديث أبي هريرة [أحمد: ٣٣٢/٢] عن رسول الله ﷺ: «أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت ثبوائيل في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما: سموه «عيصو» وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم. والثاني: خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل قالوا: وكان إسحاق يحب العيص أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به من قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك.

فلما جاءه به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك؛ فضمه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجس والثياب فالعيص.

فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده يقرّبه إليه فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعام الذي اشتهيته فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك فقال: لا والله. وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً.

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم. فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته. وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له.

ففعل فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه أخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به وسمي ذلك الموضع: بيت إيل أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى «ليا» واسم الصغرى «راحيل» فخطب إليه راحيل وكانت أحسنهما وأجملهما فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين.

فلما مضت المدة على خاله لابان طعاماً وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر.

فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا فقال لخاله: لم غدرت بي وأنت إنما خطبت إليك راحيل؟ فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغاً في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة.

وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم. ووهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب لليا جارية اسمها: «زلفى» ووهب لراحيل جارية اسمها «بلهى».

وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب «روبيل» ثم «شمعون» ثم «لاوي» ثم «يهوذا» فغارت عند ذلك راحيل وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلاماً سمته: «دان» وحملت وولدت غلاماً آخر سمته: «يفثالي» فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام فولدت له «جاد» و«أشير» غلامين ذكرين.

ثم حملت ليا أيضا فولدت غلاماً خامساً منها وسمته: أيساخر.

ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته «زابلون» ثم حملت وولدت بنتاً سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعائها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته: «يوسف».

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله: إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت فقال: تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز فقال: نعم فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم.

قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ودلب فكان يقشرها بلقاء ويضعها في مساقي الغنم من المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحمل بأهله وماله وسرقت راحيل أصنام أبيها.

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ولم أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه فأنكر أن يكونوا أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الجمل وهي تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية أحدهما ذاهباً إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من

الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم.

فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل فخشي يعقوب من ذلك ودعا الله عزو جل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذي وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون لقحة وأربعون بقرة وعشرة من الثيران وعشرون أتاناً وعشرة من الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت ولمن هذه معك؟ فليقل: لعبدك يعقوب أهداها لسيدي العيص وليقل الذي بعده كذلك وكذا الذي بعده ويقول كل منهم وهو جائي بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدا له ملك من الملائكة في صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال يعقوب قال: لا ينبغي أن تدعي بعد إليوم إلا إسرائيل فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما أسمك؟ فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد أخوة يوسف وأبواه له كما سيأتي.

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت ليا وبنوها فسجدوا له ودنت راحيل وابنها يوسف آخراً فسجدا له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعير.

فلما مر بساحورا ابتنى له بيتاً ولدوابه ظلالاً ثم مر على أورشليم قرية سحيم فنزل قبل القرية واشترى مزرعة بني حمور أبي سحيم بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثم مذبحاً فسماه إيل إله إسرائيل وأمر الله ببنائه ليستعلن فيه. وهو بيت المقدس إليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهماالسلام وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب من ليا وما كان من أمرها مع سحيم بن حمور الذي قهرها على نفسها وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها فقال إخوتها: لا نفعل إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم.

فلما كان إليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا سحيماً وأباه حموراً لقبيح ما صنعوا إليهم مضافاً إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من أصنامهم؛ فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة. والله أعلم.

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً وهو بنيامين إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب في أفراث وهي بيت لحم وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى إليوم.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن ليا روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وأيساخر وزابلون ومن راحيل يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفثالي ومن أمة ليا جاد وأشير عليهم السلام وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم.

ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا [تاريخ الطبري: ١/٣٣٠]. والله سبحانه أعلم بذلك.

٣٣- قصة يوسف عليه السلام

ذكر مَا وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل عليه السلام فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم اللـه الرحمن الرحيم ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٣] قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم.

وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح بين واضح جلي يفهمه كل عاقل ذكي زكي فهو أشرف كتاب نزل من السماء أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان. بأفصح لغة وأظهر بيان.

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه ورده وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكماً وأعدل حكماً فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] يعني صدقاً في الأخبار عدلاً في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً. خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء

﴿لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه: ٩٩- ١٠١] يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي مرفوعاً وموقوفاً: «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

وقال الإمام أحمد ٣/ ٣٨٧: حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبي عن جابر: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» إسناد صحيح.

ورواه أحمد ٣/ ٤٧٠، ٤٧١ من وجه آخر عن عمر وفيه فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين».

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف.

وفي بعضها: أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته: «أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون». ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤ - ٦].

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسميناهم وإليهم ينتسب أسباط بني إسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره وباقي إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم.

[وقد اختار هذا القول الزمخشري وحكاه فخر الدين عن طائفة ويدل عليه كلام القاضي عياض بن موسى السبتي في كتابه الشفاء حيث قال: وأما قصة يوسف وإخوته فليس عن يوسف فيها تعقب وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم فيلزم الكلام على أفعالهم وذكر الأسباط وعدهم في القرآن ذكر الأنبياء فقال المفسرون: يريد من نبي من أبناء الأسباط وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صغار الأسنان ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به ولهذا قالوا أرسل معنا أخانا نرتع ونلعب وإن ثبت لهم نبوة بعد هذا والله أعلم انتهى ما ذكره.]

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نصَّ على نبوته والإيحاء إليه في غير ما آية من كتابه العزيز، ولم يَنُصَّ على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد [٢/ ٩٦]: حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم» انفرد به البخاري [٣٣٩٠، ٤٦٨٨].

ورواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة.

قال المفسرون [تفسير الطبري: ١٢/ ١٥١] وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. وهذا يدل على ما ذكرناه.

ولهذا جاء في بعض الآثار [الطبراني في الكبير (١٨٣) والأوسط (٢٤٧٦) والصغير (٤٠٨)]: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً وهو غلط منهم.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي بالوحي إليك.

﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» [خ (٣٣٧٤)، م (٢٣٧٨)]

وقد روى ابن جرير [في تفسيره: ١٢/ ١٥١] وابن أبي حاتم في تفسيريهما وأبو يعلى والبزار [كشف الأستار: (٢٢٢٠)] في مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال: «أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له: بستانة اليهودي فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها قال: فبعث إليه رسول الله فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها»؟ قال: نعم فقال: «هي جريان والطارق والذيال وذو الكنفات وقابس ووثاب وعمودان والفيلق والمصبح والصروح وذو الفرع والضياء والنور» فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.

وعند أبي يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله

والشمس أبوه والقمر أمه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ. إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ. قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠]

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات.

ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بتقديمه حبهما علينا. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال مجاهد هو شمعون [تفسير الطبري: ١٥٦/١٢].

وقال السدي: هو يهودا [تفسير الطبري: ١٦٠/١٢].

وقال قتادة ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبيل [تفسير الطبري: ١٥٦/١٢].

﴿لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك قالوا.

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ﴿إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ أي عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم فضلّ عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ. قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ. وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٥ ـ ١٨].

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلا أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على إلقائه في غيابت الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهو الذي يتزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح.

فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك وهم لا يشعرون.

قال مجاهد وقتادة: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه ذلك [تفسير الطبري: ١٦١/١٢]. وعن ابن عباس: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير [تاريخه: ٣٣٣/١] عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغَدرهم لا لعُذرهم.

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا.

وقوله ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا في هذا! فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدقين عندك فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب مفتعل؛ لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب [تفسير الطبري: ١٦٣/١٢].

قالوا: ونسوا أن يخرقوه وآفة الكذب النسيان.

ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته.

ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينه جاؤوا وهم يتباكون وعلى ما تمالؤوا عليه يتواطؤن ولهذا ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة.

فلما جاء روبيل من آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده فصاح وشق ثيابه وحزن، وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه ولطخوا من دمه جبة يوسف.

فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس متزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة.

وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير.

﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى

أن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٢].

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: مسافرون.

قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾ أي: يا بشارتي ﴿هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأرض مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي قليل نزر وقيل هو الزيف.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي باعوه بعشرين درهماً اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق أربعون درهماً [تفسير الطبري: ١٧٢/١٢ - ١٧٣] فالله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي أحسني إليه.

﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي الخزائن مسلمة إليه.

قال ابن إسحاق: واسمه اطفير بن روحيب.

قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق.

قالوا: واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل [تفسير الطبري: ٣٣٥/١].

وقال غيره: كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها.

وقيل: فكا بنت ينوس؛ رواه الثعلبي عن أبي هشام الرفاعي.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس: كان اسم الذي باعه بمصر - يعني الذي جلبه إليها - مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: أكرمي مثواه؛ والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما [تفسير الطبري: ١٧٦/١٢].

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً.

وقيل: بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً. فالله أعلم.

وقوله ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي فهمها. وتعبير الرؤيا من ذلك.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد. وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين.

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد:

فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي: هو الحلم.

وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة.

وقال الضحاك: عشرون سنة.

وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة.

وقال السدي: ثلاثون سنة.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاثة وثلاثون سنة.

وقال الحسن: أربعون سنة. ويشهد له قوله تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة [انظر الأقوال: تفسير الطبري: ٨٥/٨، ١٧٧/١٢].

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

يذكر تعالى ما كان من أمر مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير.

قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء فعصمه ربه عن الفحشاء. وحماه عن مكر النساء. فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء. المذكورين في الصحيحين [خ (٦٦٠)، م (١٠٣١)] عن خاتم الأنبياء. في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل. ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه. ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه. ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وشاب نشأ في عبادة الله. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله».

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني: زوجها صاحب المنزل سيدي.

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده.

﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وقد تكلمنا على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير.

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا. والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها. ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته في أثره.

﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها؛ فلهذا قال يوسف عليه السلام ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كان صغيراً في المهد قاله ابن عباس.

وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير [تفسيره: ١٢/١٩٣ ـ ١٩٥].

وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ووقفه غيره عنه.

وقيل: كان رجلاً قريباً إلى أطفير بعلها.

وقيل: قريباً إليها.

وممن قال: إنه كان رجلاً: ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم.

فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك؛ وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه. ثم اتهمته بالباطل ثم أضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا﴾ أي لا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالإستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك. ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه؛ لأنها رات ما لا صبر لها على مثله إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٢٩ ـ ٣٤].

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة يعني: مصر من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها وحبها الشديد له يعنين وهو لا يساوي هذا؛ لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا؛ ولهذا قلن ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والملمة بحب مولاها وعشق فتاها فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها. وأعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة. فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقد جاء في حديث الإسراء [م (١٦٢)]: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن».

قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان في غاية نهايات الحسن البشري؛ ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ويوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه.

وقال غيره: كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس؛ ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾ أي امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء. ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ودعا فقال في دعائه لرب العالمين ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وحطتني بحولك وقوتك؟.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ. وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٤ - ٤١].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأخمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلماً وعدواناً. وكان هذا مما قدر الله له. ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي أن من العصمة أن لا تجد.

قال الله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل بنو. والآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه وهو الذي يقول له الترك (الجاشنكير) واسمه فيما قيل: مجلث كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه [تفسير الطبري: ٢١٤/١٢].

قال أهل التفسير: رأيا في ليلة واحدة.

أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة قد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه.

ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرهما خبير بأمرهما و﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. قيل: معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول [تفسير الطبري: ٢١٧/١٢]. وقيل: معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضاً كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به موحد له متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل وصغر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أي هو المتصرف في خلقه الفعال لما يريد الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أي وحده لا شريك له ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم والصراط القويم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ قالوا: وهو الساقي ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ قالوا: وهو الخباز

﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على كل حالة؛ ولهذا جاء في الحديث [أحمد (١٠/٤)، د (٥٠٢٠)، ت (٢٢٧٨)، ج (٣٩١٤)] «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت».

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا: لم نر شيئاً فقال لهما ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ. وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤١ - ٤٢].

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقي ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك.

وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب. ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب.

وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام.

قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد [تفسير الطبري: ٢٢٤/١٢] وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى التسع [ت (٣١٩١) مرفوعاً من حديث ابن عباس].

وقيل: إلى السبع.

وقيل: إلى الخمس. وقيل: ما دون العشرة. حكاها الثعلبي [قصص الأنبياء ص١٠٩].

ويقال: بضع نسوة وبضعة رجال.

ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر قال: وإنما يقال: نيف.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهذا رد لقوله.

قال الفراء: ويقال: بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ولا يقال: بضع ومائة وبضع وألف.

وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال: بضعة وعشرون إلى تسعين.

وفي الصحيح [خ (٩)، م (٣٥)]: «الإيمان بضع وستون» وفي رواية [م (٣٥)]: «وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

ومنقال: إن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة والحديث الذي رواه ابن جرير [تفسيره: ٢٢٣/١٢] في هذا الموضع ضعيف من كل وجه. تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي وهو متروك.

ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ولا سيما ههنا بطريق الأولى والأحرى والله أعلم.

فأما قول ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢٠٦)] ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث:

أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي حدثنا مسدد بن مسرهد حدثنا خالد بن عبد الله حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن ما لبث ورحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال: فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه».

فإنه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها.

والذي في الصحيحين [خ (٣٣٧٢)، م (١٥١)] يشهد بغلطها والله أعلم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩].

هذا كله من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كانه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً.

ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة وإذا سبع أخر دقاق يابسات تأكلهن فاستيقظ مذعوراً.

فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل ﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾.

فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا. وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك.

فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ أي تذكر.

﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين.

وقرأ بعضهم كما حكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك «وادكر بعد أَمَه» أي: بعد نسيان [تفسير الطبري: ١٢/٢٢٨ - ٢٢٩].

وقرأها مجاهد ﴿بَعْدَ أَمْهٍ﴾ بإسكان الميم وهو النسيان أيضاً. يقال أمه الرجل يأمَهُ أمهاً وأمْهاً: إذا نسي قال الشاعر:

أمهتُ وكنت لا أنسى حديثاً ... كذاك الدهر يُردي بالعقول

فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساجي استدعاه إلى حضرته وقص عليه ما رآه ففسره له.

وهذا غلط والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن لا ما عرّبه هؤلاء الجهلة الثيران من قرائىَ وربان. فبذل يوسف عليه السلام ماعنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعاً بل أجابهم إلى ما سألوا وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبر لهم. وعلى الخير دلهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله إلا ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل. وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ. قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً.

﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قيل: معناه أن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي أي فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد.

فلما سئلن عن ذلك اعرفن بما وقع من خطأ الأمر وما كان منه من الأمر الحميد ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وهي زليخا ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر وتبين ووضح والحق احق أن يتبع ﴿أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما يقوله من أنه بريء وأنه لم يراودني وأنه حبس ظلماً وعدواناً وزوراً وبهتاناً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف [تفسير الطبري: ١٢/٢٣٨] أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب.

وقيل: إنه من تمام كلام زليخا أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: إنه من كلام يوسف وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف ٥٤ ـ ٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي.

فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي ذو مكانة وأمانة.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه ﴿عَلِيمٌ﴾ بضبط الأشياء ومصالح الإهراء.

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً وسلطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ونودي بين يديه أنت رب أي: مالك ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسي.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبي [قصص الأنبياء: ص١١٢] أنه عزل قطفيرعن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل: إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرائيم ومنشا [تاريخ الطبري: ٣٤٧/١].

قال: واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء.

وحكى [قصص الأنبياء: ص١١١] أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنه فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل. ولهذا قال: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

ويقال: إن أطفير زوج زليخا كان قد مات، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدق.

وذكر محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٦/١٣] أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدي يوسف عليه السلام فالله أعلم.

وقد قال بعضهم:

وراءَ مضيقِ الخوفِ يتسع الأمن ... وأولُ مفروحٍ بـه آخر الحزن

فلا تيأسن فاللّه ملّك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ. فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ. قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف ٥٨ ـ ٦٢].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً وذلك بعد إتيان سني الجدب، وعمومها على سائر البلاد والعباد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمورالديار المصرية ديناً ودنيا. فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة؛ فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب [تاريخ الطبري: ٣٤٨/١]: أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم وأراد أن لا يعرفوه، فأغلظ لهم في القول وقال: أنتم جواسيس، جئتم لتأخذوا خبر بلادي. فقالوا: معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ونحن بنو أب واحد من كنعان. ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد وصغيرنا عند أبينا، فقال: لا بد أن أستعلم أمركم.

وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام، ثم أخرجهم واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر.

وفي بعض هذا نظر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته في إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم فقالوا: كنا اثني عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا، فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به، ثم رهبهم إن لم يأتوه به.

قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدى إليهم أولاً، فاجتهد في إحضاره معهم لينيل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى

أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم.

وقيل: خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية.

وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها.

وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من ورق [تفسير الطبري: ١٣/ ٧ ـ ٩] وهو أشبه والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ. قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف ٦٣ ـ ٦٨].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم.

وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: أيّ شيء تريد وقد ردت إلينا بضاعتنا.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نمتار لهم، ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر.

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه، فلهذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدر. ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة.

قيل: أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك [تفسير الطبري: ١٣/١٣].

وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأيسر شيء؛ قاله إبراهيم النخعي والأول أظهر.

ولهذا قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب انه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأولى وعرضاً آخر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ. قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ. قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ. فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ. قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ. قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف ٦٩ ـ ٧٩].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته. وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام من عزته في متاع بنيامين.

ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادي لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم و﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه؛ ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر.

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء﴾ أي في العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه، فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين.

﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف.

قيل: كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره [تفسير الطبري: ١٣/٢٩].

وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما ارادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له.

وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء.

وقيل غير ذلك.

فلهذا ﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهي كلمته بعدها.

وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ﴾ اجابهم سراً لا جهراً حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً فدخلوا معه في الترقق والتعطف فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾ أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء. هذا ما لا نفعله ولا نسمع به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف تعرف إليهم حينئذ.

وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيداً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ. قَالُواْ تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف ٨٠ ـ ٨٧].

يقول تعالى مخبراً عنهم: أنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم.

قال كبيرهم وهو روبيل ﴿أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ﴾ وقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ اي لا ازال مقيماً ههنا ﴿حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في القدوم عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ اي اخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به من أخذهم اخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ اي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس بسجية له ولاخلقه وإنما سولت لكم انفسكم أمراً فصبر جميل.

قال ابن إسحاق وغيره [تفسير الطبري: ٣٨/١٣]: لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف، قال لهم ما قال.

وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة بعدها.

ثم قال ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ اي أعرض عن بنيه.

﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامناً كما قال بعضهم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر:

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال اتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي من كثرة البكاء.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مكمد من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق قالوا له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: لاتزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكوه إلى الله عز وجل وأعلم ان الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.﴾ أي: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ. قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف ٨٨ ـ ٩٣].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ اي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا.

قيل: كانت دراهم رديئة.

وقيل: قليلة.

وقيل: حب الصنوبر، وحب البطم ونحو ذلك.

وعن ابن عباس: كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قيل:

بقبولها؛ قاله السدي.

وقيل: برد أخينا إلينا؛ قاله ابن جريج.

وقال سفيان بن عيينة: إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية؛ رواه ابن جرير [تفسيره: ٥٤/١٣].

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم. وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون منه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ. قَالُواْ﴾ وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم.

وقوله: ﴿وَهَـذَا أَخِي﴾ تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وأعملوا في أمرهما من الاحتيال.

ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعته وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا.

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا﴾ أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾. أي فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك.

﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا.

ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ومن زعم أن الوقف على قوله ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ﴾ وابتدأ بقوله ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ﴾ فقوله ضعيف والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه فإنه إليه بصره بعدما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدَّعَة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ. قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ. فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف ٩٤ ـ ٩٨].

قال عبد الرزاق [تفسيره: ٣٢٩/٢]: أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل سمعت ابن عباس يقول: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به [تفسير الطبري: ٥٧/١٣، ٥٨].

وقال الحسن البصري وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة [تفسير الطبري: ٥٨/١٣].

وقوله: ﴿لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تقولون: إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تسفهون.

وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون.

﴿قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ.﴾ قال قتادة والسدي: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً.

وقال لبنيه عند ذلك ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني؛ فعند ذلك ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾. طلبوا إليه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه. ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلاً ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

قال ابن جرير [تفسيره: ٦٤/١٣]: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمٌّ لي يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول: «اللّهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي» قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وثبت في الصحيحين [خ (١١٤٥)، م (٧٥٨)] عن رسول الله ﷺ قال «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له».

وقد ورد في حديث أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة.

قال ابن جرير [تفسيره: ٦٥/١٣]: حدثني المثنى. حدثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه.

وهذا غريب من هذا الوجه. وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ. وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف ٩٩ ـ ١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل: إنها ثمانون سنة [تفسير الطبري: ٦٩/١٣ ـ ٧١].

وقيل: ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن.

وقيل: خمس وثلاثون سنة.

قال قتادة وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة.

قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره.

ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم. وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين. وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين فجاؤوا كلهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ اجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ﴿وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾.

قيل: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه. وضعفه ابن جرير [تفسيره: ١٣/٦٥، ٦٦] وهو معذور.

وقيل بل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام. ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿وَقَالَ﴾ ادخلوا مصر ﴿إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ قاله السدي.

ولو قيل: إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً وإنه ضمن قوله ﴿ادْخُلُواْ﴾ معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها ﴿إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً.

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم.

وقد ذكر جماعة من المفسرين [تفسير الطبري: ١٣/٣٦] أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو إسرائيل، أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيماً لنبي الله إسرائيل، وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم.

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنساناً.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن عبد الله بن شداد: كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً [تفسير الطبري: ١٣/٧٢].

وقال أبو إسحاق عن مسروق: دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً.

قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ست مئة ألف مقاتل.

وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم.

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة.

قال بعض المفسرين: فأحياها الله تعالى.

وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخالة بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير [تفسيره: ١٣/٦٧] وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا قوي والله أعلم.

ورفعهما ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً﴾ أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً، وكان هذا مشروعاً لهم ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي بعد الهم والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت.

﴿وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل.

﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك؛ فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبي [قصص الأنبياء: ص١١٣] أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار.

قال: فمن ثم اقتدى به الملوك الأخيار في ذلك.

قلت: وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقرُّ بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان. وما بعد التمام إلا النقصان. فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله. وسأله منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه أي حين يتوفاه على الإسلام. وأن يلحقه بعباده الصالحين. وهذا كما يقال في الدعاء «اللّهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين» أي حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: «اللّهم في الرفيق الأعلى ثلاثاً ثم قضى» [خ (٥٦٧٤)، م (٢١٠٩١)].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة منه وسلامة، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم.

كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف [تفسير الطبري: ١٣/٧٣].

فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد [٥/٢٤٣]: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين».

وفي الحديث الآخر [٤٢٧/٥]: «ابن آدم الموت خير لك من الفتنة».

وقالت مريم عليها السلام ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ [مريم: ٢٣].

وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال.

وتمنى ذلك البخاري أبو عبد اللّه صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال، ولقي من مخالفيه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما [خ (٥٦٧١)، م (٢٦٨٠)] من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب ولكن ليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

والمراد بالضر ههنا ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه.

والظاهر أن نبي اللّه يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٣٦٤/١] عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق.

قال السدي فصبره وسيَّره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام [تفسير الطبري: ٧٥/١٣].

وعند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة.

وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة.

ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة.

هذا نص كتابهم وهو غلط، إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا! وقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذي بعث اللّه به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب، وهو عيسى بن مريم واللّه أعلم.

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر.

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي.

قالوا: فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين.

هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير [تاريخه: ٣٤٦/١] أيضاً.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة. ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة [تفسير الطبري: ٧١/١٣].

وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا [قصص الأنبياء للثعالبي: ص١٢٥] صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى الأنبياء أجمعين.

٣٤- قصّة أيّوب عليه السلام

قال ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٣٢٢/١]: كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رغويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب.

وقيل غير ذلك في نسبه.

وحكى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥٨/١٠] أن أمه بنت لوط عليه السلام.

وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار فلم تحرقه.

والمشهور الأول؛ لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ الآيات [الأنعام: ٨٤] من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل اسمها: ليا بنت يعقوب.

وقيل: رحمه بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب.

وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا. ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء اللّه وبه الثقة وعليه التكلان.

قال اللّه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥٨/١٠، ٥٩] من طريق الكلبي أنه قال: أول نبي بعث إدريس. ثم نوح. ثم إبراهيم. ثم إسماعيل. ثم إسحاق. ثم يعقوب. ثم يوسف. ثم لوط ثم هود. ثم صالح. ثم شعيب. ثم موسى وهارون. ثم إلياس. ثم اليسع. ثم عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. ثم يونس بن متى من بني يعقوب. ثم أيوب بن رازح بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

وفي بعض هذا الترتيب نظر فإن هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم والله أعلم.

قال علماء التفسير [انظر تفسير الطبري: ٥٩/١٧] والتاريخ [تاريخ دمشق: ٥٩/١٠] وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنية من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه. يذكر الله عز وجل بهما وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ومايختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت في الصحيح [هو في مسند أحمد: ١٧٢/١، والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)] أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء. ثم الصالحون. ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه».

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روي عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده والله أعلم بصحته [انظر تفسير الطبري: ٥٧/١٧ ـ ٦٥].

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري.

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال:

فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص [تفسير الطبري: ٦٦/١٧]. وقال أنس: ابتلي سبع سنين وأشهراً وألقي على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه.

وقال حميد: مكث في بلواه ثماني عشرة سنة.

وقال السدي: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة. فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره فقالت: خدمت به أناساً.

فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عميرقال: كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله قال: (اللّهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان) ثم قال: (اللّهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان) ثم قال: (اللّهم بعزتك) وخر ساجداً فقال: (اللّهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني)فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير [تفسيره: ١٦٧/٢٣] جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين! قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به.

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فارجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق».

قال: وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال: فإني أنا هو.

قال: وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت أحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض.

هذا لفظ ابن جرير

وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٢٨٩٨)] عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به.

وهذا غريب رفعه جدّاً. والأشبه أن يكون موقوفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال: ويحك أنا أيوب قالت: أتسخر مني يا عبد الله! فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي.

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه. أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع! قال: يارب ومن يشبع من رحمتك».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٢/٣٠٤، ٤٩٠ من طريق الطيالسي، ومن طريق عبد الصمد: ٢/٣٤٧] عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد عن همام عن قتادة به.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢٣٠)] عن عبد الله بن محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به.

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٤٣]: حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل: يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: أي رب ومن يستغني عن فضلك. هذا موقوف.

وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً [٢/٣٠٤].

وقال الإمام أحمد [٢/٣١٤]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى! قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك».

رواه البخاري [٣٣٩١] من حديث عبد الرزاق به

وقوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عيناً باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى صب له من المال صبا مطراً عظيما جراداً من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فقيل: أحياهم الله بأعيانهم.

وقيل: آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة.

وقوله ﴿رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾ أي رفعنا عنه شدته.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحساناً.

﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال: هي رحمة من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع.

وقال الضحاك عن ابن عباس: رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرون ولداً ذكراً.

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط.

فقيل: حلفه ذلك لبيعها ضفائرها.

وقيل: لأنه اعترضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها بمائة سوط.

فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضي الله عنها.

ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب. وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١/٣٢٤، ٣٢٥] وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة.

وقيل: إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء.

رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٠/٨٢] بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم.

ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين. ولنذكر ههنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه

٣٥- وهذه قصة ذي الكفل الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٥: ٨٦].

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ﴾ [٤٥ ـ ٤٨].

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور.

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً.

وتوقف ابن جرير [تفسيره: ٧٣/١٧] في ذلك فالله أعلم.

وروى ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد: أنه لم يكن نبيّاً وإنما كان رجلاً صالحاً وكان قد تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمرهم ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل.

وروى ابن جرير [تفسيره: ٧٤/١٧] وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن مجاهد: أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال: من يتقبل لي بثلاث أستخلفه. يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ قال: فقام رجل تزدريه العين فقال: أنا فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم.

قال: فردهم ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلفه قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان؛ فأعياهم ذلك فقال: دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال: إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا وجعل يطوِّل عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة وقال: إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك؛ فانطلق وراح. فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه.

فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه.

فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتني؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال: فانطلق فإذا رحت فأتني.

قال: ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق عليّ النوم.

فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك وراءك فقال: إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان ألم آمرك؟ قال: أما من قبلي والله لم تؤت فانظر من أين أتيت قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال: أعدو الله! قال: نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك؛ فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به.

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق.

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا [تفسير الطبري: ٣٥٨/٥ - ٣٥٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري - يعني أبا موسى رضي الله عنه - وهو على هذا المنبر يقول: «ما كان ذو الكفل نبيّاً ولكن كان رجلاً صالحاً يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل».

ورواه ابن جرير [تفسيره: ٧٥/١٧، ٧٦] من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة.

قال: قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٣/٢]: حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرار ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال لها: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟! ثم نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله للكفل». ورواه الترمذي [٢٤٩٦] من حديث الأعمش به. وقال حسن.

وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر فإن سعداً هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا فالله أعلم.

وإن كان محفوظا فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن فالله أعلم بالصواب.

٣٦- باب ذكر أممٍ أهلكوا بعامّة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

كما رواه ابن جرير [تفسيره: /٨] وابن أبي حاتم والبزار [٢٢٤٧ موقوفاً] من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة.

ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ ورفعه البزار في رواية له. والأشبه والله أعلم وقفه فدل على أن كل أمة اهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام.

فمنهم أصحاب الرس قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً. وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ [الفرقان ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى في سورة ق ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق ١٢ - ١٤]

وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك.

وهذا يرد اختيار ابن جرير [تفسيره: ١٤/٢٠] من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج؛ لأن أولئك عند ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤/١ - ٣٦] وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضاً.

وروى ابن جرير [تفسيره: ١٣/١٩] قال: قال ابن عباس: أصحاب

الرس أهل قرية من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه [١٣،١٢/١] عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرداذبة وغيره: أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث الله إليهم نبياً يقال له: حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها وفشوا مع ذلك في الأرض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسماها: جيرون وهي إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد إلى عاد - يعني أولاد عاد - بالأحقاف فكذبوه وأهلكهم الله عز وجل.

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال: الرس بئر بأذربيجان.

وقال الثوري عن أبي بكير عن عكرمة قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها.

وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب ياسين.

وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة

قلت: فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة قال الله تعالى في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس ٢٩].

وستأتي قصتهم بعد هؤلاء وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضاً وتبروا.

وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير!

وقد ذكر أبو بكر محمد ابن الحسن النقاش أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعاً وكان لهم ملك عادل حسن السيرة فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال: إني لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه وأخبرهم أنه لا يموت أبداً فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه فبعث الله فيهم نبياً وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ونهاهم عن عبادته وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السهيلي [التعريف والإعلام: ص٢١٥ - ٢١٨]: وكان يوحى إليه في النوم وكان اسمه: حنظلة بن صفوان فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة وبعد الاجتماع بالفرقة وهلكوا عن آخرهم وسكن في مساكنهم الجن والوحوش فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع.

فأما ما رواه - أعني ابن جرير [تفسيره: ١٤/١٩،١٥] عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود؛ وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود. ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم.

قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً ثم يأتي به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلي إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت.

قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون.

ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام إلا ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع.

ثم إنه ذهب إلى الحفرة إلى موضعها الذي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه.

قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له: ما ندري حتى قبض الله النبي عليه السلام وأهب الأسود من نومه بعد ذلك فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة.».

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر. ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي والله أعلم.

ثم قد رده ابن جرير [تفسيره: ١٥/١٩] نفسه وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن.

قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم.

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم وقد صرح بهلاك أصحاب الرس والله أعلم.

٣٧- قصّة قوم يس وهم أصحاب القرية

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ. إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ. وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ١٣ - ٢٩]

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه [تفسير الطبري: ١٥٦/٢٢].

وكذا روي عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا: وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام فبعث اللّه إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من اللّه عز وجل.

وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح.

وكذا قال ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جدًّا؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ولهذا كانت احدى المدن الأربع التي تكون فيها بطاركة النصارى وهن أنطاكية والقدس وأسكندرية ورومية ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم اللّه ثم عمرت بعد ذلك

فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا واللّه أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند اللّه.

قال اللّه تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني المدينة.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم يستبعدون أن يبعث اللّه نبياً بشرياً فأجابوهم بأن اللّه يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الأنتقام.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما علينا ان نبلغكم ما ارسلنا به إليكم واللّه هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشائمنا بما جئتمونا به.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال.

ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي بسبب انا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة.

ثم دعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن تركت عبادة اللّه وعبدت معه ما سواه.

ثم قال مخاطباً للرسل ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل: فاسمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم.

وقيل: معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسل اللّه جهرة. فعند ذلك قتلوه. قيل: رجماً. وقيل: عضاً وقيل: وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحاق [تفسير الطبري: ١٦١/٢٢] عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبه.

وقد روى الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز: كان اسم هذا الرجل: حبيب بن مري.

ثم قيل: كان نجاراً وقيل: حبالاً. وقيل إسكافاً. وقيل: قصاراً وقيل: كان يتعبد في غار هناك فاللّه أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة قتله قومه [تفسير الطبري: ١٥٩/٢٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله اللّه الجنة فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي.

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

رواه ابن أبي حاتم.

وكذلك قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً.

لما عاين ما عاين من كرامة اللّه قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى واللّه ان يعلم قومه بما عاين من كرامة اللّه وما هجم عليه.

قال قتادة: فلا واللّه ما عاتب اللّه قومه بعد قتله ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم. هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود [تفسير الطبري: ١/٢٣، ٢].

قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جند أي رسالة أخرى.

قال ابن جرير [تفسير الطبري: ١/٢٣، ٢]: والأول أولى

قلت: وأقوى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا.

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قال المفسرون: بعث اللّه إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي قد اخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء اهلكوا بتكذيبهم رسل اللّه إليهم وأهل أنطاكيه آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني [المعجم الكبير (١١١٥٢)] من حديث حسين الأشقري عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «السُّبَّقُ ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمد علي ابن أبي طالب».

فإنه حديث لا يثبت لأن حسيناً هذا متروك وشيعي من الغلاة وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية واللّه أعلم.

٣٨- قصّة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]

وقال تعالى في سورة الصافات ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨]

وقال تعالى في سورة نون ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠]

قال أهل التفسير [انظر تفسير الطبري: ٧٦/١٧]: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ورغت الإبل وفصلانها وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما انقذهم من العذاب الدنيوي على قولين:

الأظهر من السياق نعم إن شاء الله، والله أعلم

كما قال تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[الصافات: ١٤٧-١٤٨] وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة واختلفوا في الزيادة:

فعن مكحول عشرة آلاف.

وروى الترمذي [٣٢٢٩] وابن جرير [تفسيره: ١٠٤/٢٣] وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية حدثني أبي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب.

وعن ابن عباس: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً.

وعنه: وبضعة وثلاثين ألفاً.

وعنه: وبضعة وأربعين ألفاً.

وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً [تفسير الطبري: ١٠٤/٢٣].

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هي مبسوطة في التفسير.

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك.

ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا تأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها.

وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه.

قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال: يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه.

فقال مجالد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية.

وقال قتادة: مكث فيه ثلاثاً وقال جعفر الصادق: سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنتَ بفضلٍ منكَ نجّيتَ يُونساً وقدْ باتَ في أضعافِ حُوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يوماً؛ والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجي فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى.

فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع

الأصوات وإن ضعفت وعالم الخفيات وإن دقت ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نضيق.

وقيل: معناه نقدِّر من التقدير وهي لغة مشهورة قَدَر وقدّر كما قال الشاعر:

فَلا عائدٌ ذاكَ الزمانُ الّذي مضَى تباركْتَ ما تَقْدِرُ يكُن فلَكَ الأمر

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل [تفسير الطبري: ٨٠/١٧].

وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ـ١٤٤].

قيل: معناه لولا أنه سبح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه [تفسير الطبري: ٨١/١٧]. وقيل: معناه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً.

قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير [تفسيره: ٩٩/٢٣].

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد [١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧] وبعض أهل السنن [ت (٢٥١٦)] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لي: «يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»

وروى ابن جرير في تفسيره [٨١/١٧] والبزار في مسنده [كشف الأستار (٢٢٥٤)] من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً.

فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر.

قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً.

ثم قال البزار: لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد كذا قال. وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللّهمّ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال: عبدي يونس قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملٌ متقبّلٌ ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى؛ فأمر الحوت فطرحه في العراء.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ١٠٠/٢٣] عن يونس عن ابن وهب به.

زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا: يا أبا هريرة: وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال: هشاش الأرض. قال: فتتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقال أمية ابن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فأنبَتَ يقطيناً عَليهِ برحمةٍ منَ اللّهِ لولا اللّهُ أُلفِيَ ضاحِيا

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه ويزيد الرقاشي ضعيف ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم كما يتقوى ذاك بهذا والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي ضعيف البدن.

قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش [مصنف ابن أبي شيبة: ٥٤١/١١، ٥٤٢].

قال ابن عباس والسدي وابن زيد: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس ليس عليه شيء.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾. قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب ابن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد: هو القرع [تفسير الطبري: ١٠٢/٢٣، ١٠٣].

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمة:

منها أن ورقه في غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيئاً ومطبوخاً وبقشره وببزره أيضاً.

وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وهذا صنيعنا بكل مؤمن دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير [تفسيره: ٨٢/١٧]: حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك وهو ابن أبي وقاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى» قال:

فقلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها.» ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب. قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد. قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس استجيب له» قال أبو سعيد الأشج: يريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذان طريقان عن سعد. وثالث أحسن منهما.

قال الإمام أحمد [١٧٠/١]: حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثني والدي محمد عن أبيه سعد وهو ابن أبي وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا إلا أني مررت بعثمان آنفا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟

قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى حتى حلف وحلفت.

قال ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشّى بصري وقلبي غشاوة قال سعد: فأنا أنبئك بها: إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال قلت: نعم يا رسول الله قال: «فمه» قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة. ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذي [٣٥٠٥] والنسائي [كبرى (١٠٤٩١، ١٠٤٩٢)] من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به.

٣٩- ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد [٩٢/١]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

ورواه البخاري [٣٤١٢، ٤٦٠٣] من حديث سفيان الثوري به.

وقال البخاري أيضاً [٣٤١٣]: حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه.

ورواه أحمد [٣٤٢/١] ومسلم [٢٣٧٦] وأبو داود [٤٦٦٩] من حديث شعبة به.

قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه: لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد [٢٥٤/١] عن عفان بن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «وما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» تفرد به أحمد

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١١١٢٢)]: حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان حدثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متى» إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال البخاري [٣٤١٦]: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

وكذا رواه مسلم [٢٣٧٦] من حديث شعبة به.

وفي البخاري [٣٤١٤، ٣٤١٥] ومسلم [٢٣٧٣] من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على العالمين.

قال البخاري في آخره: «ولا أقول: إن أحداً خير من يونس بن متى» أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس. وفي رواية: «لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى» كما ورد في بعض الأحاديث «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى».

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

٤٠- ذكر قصة موسى الكليم
عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا. وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١- ٥٣].

ذكره بالرسالة والنبوة والإخلاص والتكليم والتقريب، ومنّ عليه بأن جعل أخاه هارون نبياً.

وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن. وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة ومتوسطة ومختصرة، وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ

مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦].

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه سبحانه يتلو على نبيه خبر ﴿مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي كان سامعه مشاهد للامر معاين له.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ أي قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلط الله عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما كانوا يأثرونه عن إبراهيم الخليل عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ما جرى من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون في مجلس مسامرته مع أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ولن يغني حذر من قدر.

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كان ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك فقال له الكهنة: هذا غلام يولد من بني إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ وهم بنو إسرائيل.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي: سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية [تفسير الطبري: ٣٨٨/١].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٨ ـ ٥٩] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن فرعون احترز كل الأحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بذبح الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم.

وفي هذا نظر بل هو باطل وإنما وقع هذا بعد بعثة موسى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ﴾ [غافر: ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى.

هذا والقدر يقول يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحي إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور خشوا أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان يليه بنو إسرائيل من الأعمال الشاقة فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاما فولد هارون عليه السلام في عام المسامحة عن قتل الأبناء وولد موسى عليه السلام في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ما حبلت به ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل.

فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً فربطته في حبل وكانت دارهما متاخمة للنيل فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧ ـ ٩].

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد.

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩] الآية.

وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم [الفصل: ١٧/٥، ١٨] وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي [التعريف والإعلام ص٢٣٩]: واسم أم موسى: ياوخ. وقيل: أياذخت.

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً يعلي كلمته في الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أمرت به

فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾.

قال بعضهم: هذه لام العاقبة وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾.

وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً صارت اللام معللة لغيرها والله أعلم.

ويقوي هذا التفسير الثاني قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ المتابعين لهما ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف.

وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى.

وقيل: بل كانت عمته؛ حكاه السهيلي [التاريخ والإعلام ص٢٣٩] فالله أعلم.

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة.

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً.

فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لي فلا. أي لا حاجة لي به والبلاء موكل بالمنطق.

وقولها: ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد أنالها الله ما رجت من النفع أما في الدنيا فهداها الله به وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن لهما ولد.

قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده.

وعند أهل الكتاب أن الذي التقطت موسى وربّته ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكرٌ بالكلّيّة. وهذا من غلطهم على كتاب الله، عز وجل. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠ ـ ١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من أمر موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي صبّرناها وثبتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَتْ لأُخْتِهِ﴾ وهي ابنتها الكبيرة ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره واطلبي له خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾.

قال مجاهد: عن بعد.

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده.

ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل. كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به اخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قال ابن عباس [س كبرى (١١٣٢٦)،تفسير الطبري: ١٦/١٦٥]: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته فاطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقد امتن الله بهذا على موسى ليلة كلمه فقال له فيما قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى. إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وذلك أنه لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف: أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني وذلك كله بحفظي وكلائتي لك فيما صنعت بك لك وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠].

وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤ ـ ١٧].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده إليها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخَلْق والخُلُق وهو سن الأربعين في قول الأكثرين آتاه الله حكماً وعلماً وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حيث قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي: وذلك نصف النهار. وفي رواية عن ابن عباس: بين العشائين [تفسير الطبري: ٤٤/٢٠].

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أي إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي قبطي؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أي من الرضاعة.

فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَزَهُ﴾.

قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه.

وقال قتادة: بعصا كانت معه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي من العز والجاه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ. وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٧ - ٢١].

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر ﴿خَائِفاً﴾ أي من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفت فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته. قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكره كثير من الناس سواه.

ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيلي فقال ما قال من باب الظن والفراسة أن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فارسل في طلبه وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ ساعياً إليه مشفقا عليه فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أي: من هذه البلده ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: فيما أقوله لك.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلاً ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٢ - ٢٤].

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: اتجه له طريق يذهب فيه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. وكذا وقع أوصلته إلى مقصود وأي مقصود ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وكانت بئراً يستقون منها.

ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام. وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء.

ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات. وهذا أيضاً من الغلط ولعله كان له سبع، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن.

وهذا الجمع ممكن إن كان ذلك محفوظاً وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي لا نقدر على ورد الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس.

فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده. ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الصخرة كما كانت.

قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة [مصنف ابن ابي شيبة: ٥٣٠/١١].

وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما. ثم تولى إلى الظل.

قالوا: وكان ظل شجرة من السمر.

وروى ابن جرير [تفسيره: ٥٨/٢٠] عن ابن مسعود أنه رآها خضراء

ترف ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة [تفسير الطبري: ٥٩/٢٠].

قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة [تفسير الطبري: ٥٩/٢٠].

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل فذهبتا إلى أبيهما فقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مشي الحرائر.

قال عمر رضي الله عنه: تستر وجهها بكمّ درعها [تفسير الطبري: ٦٠/٢٠] ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة. وهذا من تمام حيائها وصيانتها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها ﴿قَالَ لَهُ﴾ ذلك الشيخ ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟

فقيل: هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين.

وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس.

وجاء مصرحاً به في حديث ولكن في إسناده نظر.

وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام عاش عمراً طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبي صاحب مدين.

وقيل: إنه ابن أخي شعيب.

وقيل: ابن عمه.

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقيل: رجل اسمه يثرون هكذا هو في كتب أهل الكتاب يثرون؛ كاهن مدين أي كبيرها وعالمها.

قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون.

زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب.

زاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت: إحدى البنتين لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي لرعي غنمك ثم مدحته بأنه ﴿قَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة. وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال: كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾. وصاحبة موسى حين قالت ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب [المستدرك: ٩٠/٣، تفسير الطبري: ١٧٦/١٢].

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾.

وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه [٢٤٤٤] مترجماً في كتابه (باب استئجار الأجير على طعام بطنه): حدثنا محمد بن المصفّى الحمصي حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن النُّدّر يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿طسم﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه».

وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده.

ولكن قد روى من وجه آخر:

فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكيرحدثني ابن لهيعة وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدّر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه».

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨].

يقول: إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل علي وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامه.

قال البخاري [٢٦٨٤]: حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل.

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقد رواه النسائي [كبرى (١١٣٢٦)] في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير به.

وقد رواه ابن جرير [تفسيره: ٦٨/٢٠] عن أحمد بن محمد الطوسي.

وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدي عن سفيان بن عيينة: حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أتمهما وأكملهما.» وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث.

وقد رواه البزار [كشف الأستار (٢٢٤٥)] عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره

وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلاً أن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال: أبرهما وأوفاهما [تفسير الطبري: ٦٨/٢٠، ٦٩].

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلاً.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ٦٨/٢٠] من طريق محمد ابن كعب أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأتمهما»

وقد رواه البزار [كشف الأستار (٢٢٤٤)] وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما» قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما

وقد رواه البزار [كشف الأستار (٢٢٤٦)] وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عتبة بن النُّدّر أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه.» فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله أي الأجلين؟ قال «أبرهما وأوفاهما».

فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداً حساناً فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها. ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال: فأتأمت وأثلثت ووضعت كلها قوالب الوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كمشة تفوت الكف قال النبي ﷺ: «لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية.»

قال ابن لهيعة: الفشوش واسعة الشخب والضبوب طويلة الضرع تجره والعزوز ضيقة الشخب والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين والكمشة التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره.

وفي صحة رفع هذا الحديث نظر. وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير [تفسيره: ٦٩/٢٠] حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال: «لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه: كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها فعمد فوضع خيالاً على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن ذلك العام».

وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم.

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ. اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[القصص: ٢٩ - ٣٢].

تقدم أن موسى قضى اتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾.

وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي من عند صهره ذاهباً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه.

قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يوري شيئاً واشتد الظلام والبرد فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فقال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ولا تصلح رؤيتها لكل أحد.

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩ - ١٠] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق.

وجمع الكل في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر! ووجد عندها هدى وأي هدى! واقتبس منها نوراً وأي نور!

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال تعالى في النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ

أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١١ - ١٦]

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجباً وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي عن يمينه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

وكان موسى في واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفاً على بصره ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ أي أنا الله رب العالمين الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بد من كونها ووجودها ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أي من خير وشر.

وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه.

ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء الذي يقول للشيء: كن فيكون. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ أي: أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾. أي بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾. وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب سأل برهاناً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل: ما هذه التي في يدك؟ قال عصاي قال: ألقها إلى الأرض ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات. يقال له: الجان والجنان وهو لطيف ولكنه سريع الاضطراب والحركة جداً.

فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ أي هارباً منها لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت ﴿فناداه ربه﴾ قائلاً له: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها. ﴿قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ [طه: ٢١] فيقال: إنه هابها شديداً فوضع يده في كم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها.

وعند أهل الكتاب بذنبها.

فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصاً ذات شعبتين فسبحان القدير العظيم رب المشرقين ورب المغربين. ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه. ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء أي من غير برص ولا بهق. ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]

قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك وهذا وإن كان خاصاً به إلا أن بركة الإيمان به حق الإيمان ينتفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢] أي هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الأسراء: ١٠١ - ١٠٢].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ. وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣].

كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه.

وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات فإن التسع من آيات الله القدرية والعشر من كلماته الشرعية وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣ - ٣٥]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي؛ ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون﴾ أي اجعله معي معيناً وردا ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً.

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ أي برهاناً ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا.

وقيل: ببركة آياتنا.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٤ - ٢٨].

قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة.

ولهذا بقيت في لسانه بقية؛ ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم أنه يعيب به الكليم ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده ويعبر عما في ضميره وفؤاده.

ثم قال موسى عليه السلام ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦] أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت؛ وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ [مريم: ٥٣].

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمنّ على أخيه؟ فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه أن يكون نبياً يوحي إليه قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ [مريم: ٥٣]

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ. وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ. وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ. قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ. فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء ١٠ - ١٩].

تقدير الكلام: فأتياه فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلتما به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه، فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر، وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين وأن الذي بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قبل أن يوحى إلي وينزل علي ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إلي وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ.﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى. وزعم أنه الإله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤]

وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ١٤].

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم رب أرسله ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يعني رب العالمين خالق السماوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾. يعني كلامه هذا، قال موسى مخاطباً له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾. أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه، ولا أمه، ولم يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ.﴾ [الشعراء ٢٧، ٢٨] أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة. المسيرة للأفلاك الدائرة. خالق الظلام والضياء. ورب الأرض والسماء ورب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٩ - ٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما: العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم، الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم واحد، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة، فانعكس عليه الحال.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا عادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى. قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه ٤٠ - ٤٦].

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾ أي مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي.

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ يعني ولا تفترا في ذكري إذ قدمتما عليه، ووفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجة عليه.

وقد جاء في بعض الأحاديث [ت (٣٥٨٠)] يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه».

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.﴾ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦].

قال الحسن البصري: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾ أعذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال وهب بن منبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

وقال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه.

﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى.﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى، فقال: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى.﴾ [طه: ٤٧ - ٤٨].

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولايعذبهم.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد.

﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ تقييد مفيد بليغ عظيم.

ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى.﴾ أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السدي وغيره [تاريخ الطبري: ٤٠٣/١] أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هارون، وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما. ثم قال: يا هارون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته، فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزؤون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل.

وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما فالله أعلم [انظر تاريخ الطبري: ٤٠٥/١].

ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون، وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوي - يعني الذي من نسل لاوي بن يعقوب - سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات. وقال له: سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه.

فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون، فلما بلغاه رسالة الله قال: من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل.

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي

النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٤٩ - ٥٥].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق علمه فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى.﴾ [الأعلى: ١ - ٣] أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه.

قال ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى.﴾ يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه فلم عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى.﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرزاق. وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَاناً سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى.﴾ [طه: ٥٦ - ٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم، ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم، ومجتمع لهم.

﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كيما يروّج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى. قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى. فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾. [طه: ٦٠ - ٦٤]

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة، فضلاء في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كان مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير.

فقيل: كانوا ثمانين ألفاً، قاله محمد بن كعب.

وقيل: سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بزة.

وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً.

وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفاً.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفاً.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً.

وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر، ولهذا قالوا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين.

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى. فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر فالله أعلم الله.

وأسروا التناجي بهذه وغيره ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ يقولون: إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى.﴾. وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصلوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء أنى يعارض البهتان. والسحر والهذيان. خوارق العادات التي أجراها الديّان. على يدي عبده الكليم. ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار، وتحار فيه العقول والأذهان.

وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً﴾ أي جملة واحدة، ثم حضّ بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ

أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.﴾ [طه: ٦٥ - ٦٦].

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم، قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً، يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها. وإنما تتحرك بسبب ذلك. فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى.﴾ أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ - ٨٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢].

وذلك أن موسى عليه السلام لما تقدم وألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها، وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها.

وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم. فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: آمنا برب موسى وهارون.

كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى. قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٠ - ٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بَزّة والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا، ذكروا موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان في كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصدّ عن سبيل الله، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي، ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب، فأبعد قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهذا الذي قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر. ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ. وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٢٦].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ فِرْعَوْنُ

ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ. فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٨٢].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ. فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ. فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩ ـ ٥١].

والمقصود أن فرعون كذب وافترى، وكفر غاية الكفر في قوله ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه.

و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ليجعلهم مثلة ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته، ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني في الدنيا ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قيل: معطوف. وقيل: قسم.

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣] أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب.

﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي وأدوم من هذه الدار الفانية.

وفي الآية الأخرى ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم.

﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ يقولون له: فإياك أن تكون منهم فكان منهم.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي المنازل العالية ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم. ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح الذميم اللئيم ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة [تفسير الطبري: ٢٤/٩].

ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

٤١- فصل في تحريض كبراء القبط لفرعون على أذية موسى بعد إسلام السحرة

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غُلبه فرعون وقوعه من القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق.

قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ. قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ومقابلته ببذل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى.

فقالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم الله.

وقرأ بعضهم «ويذرَك وإلهَتَك» أي وعبادتك ويحتمل شيئين:

أحدهما: ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى.

الثاني: ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي غالبون.

﴿وقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي إذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم.

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي فكونوا أنتم من المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦]

وقولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٤].

وكان فرعون الملك وهامان الوزير. وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملئه وكان ذا مال جزيل جداً كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملإ بني إسرائيل لئلا تكون لهم شوكة يمتنعون بها أو يصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك ولم يردّ عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦].

ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: «صار فرعون مذكّراً». وهذا منه فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] أي عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بجنابه من أن يسطو فرعون أو غيره عليّ بسوء.

وقوله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء. ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨ - ٢٩]

هذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه.

وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى [انظر تفسير الطبري: ٢٤/٥٧، ٥٨] والله أعلم.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم.

قال الدارقطني: لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلي [التعريف والإعلام ص٢٤١].

وفي تاريخ الطبراني [١/٤٠٧] أن اسمه: جبر فالله أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال كلمة الحق على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث [د (٤٣٤٤)، ت (٢١٧٤)، ج (٤٠١١) من حديث أبي سعيد الخدري] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر.»

وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لا يكون أشد جوراً منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة دم نبي.

ويحتمل أنه شارّ لهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر والله أعلم.

قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعني لأنه ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿وَإِن يَكُ صَادِقاً﴾ وقد تعرضتم له ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم.

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام.

وقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين.

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي عالين على الناس حاكمين عليهم.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم عليه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولا ردَّ عنا بأس مالك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي في جواب هذا كله ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق ويعلم في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى حقٌّ من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً.

قال الله تعالى إخباراً عن موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الأسراء: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ - ١٤]

وأما قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. فقد كذب أيضاً فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبال، وكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال. ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب تعالى الله

ذو الجلال والإكرام.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦]

وقال تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٠ ـ ٢٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[هود: ٩٦ ـ ٩٩]

والمقصود بيان كذبه في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾.

وفي قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٥].

يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء بما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة وهو ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]

وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ ـ ٣٦].

وقرأ بعضهم «يوم التنادّ» بتشديد الدال أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ. لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢ ـ ١٣].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحداً من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان أنّ من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي وكذبتم في هذا ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي يردُّون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه إلا بلا برهان فإن الله يطبع عليها أي يختم عليها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال ههنا: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ويحتمل هذا معنيين.

أحدهما: وإني لأظنه كاذبا في قوله إن للعالم ربّاً غيري.

والثاني في دعواه أن الله أرسله.

والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أي فأسأله هل أرسله أم لا.

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أي في دعواه ذلك. وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وقرئ «وَصَدَّ عن السبيل».

قال ابن عباس ومجاهد: يقول: إلا في خسار [تفسير الطبري: ٢٤/٦٦].

أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً أعني السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السماوات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وذكر غير واحد من المفسرين [تفسير الطبري: ٢٠/٧٧] أن هذا الصرح وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وأنه كان مبنياً من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً﴾

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية.

ولهذا قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ﴾ فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٠].

يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه. القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه الذي يعطي على القليل كثيراً ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها.

وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التي لا تبيد. والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ. لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤١ - ٤٦].

كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون؛ ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾. ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار! وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي لبسوا بها على عوامهم وطغامهم.

ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساء على النار.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣]

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع.

وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ والخصب ونحوه ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول إنه بركتهم وحسن مجاورتهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي مهما جئتنا به من الآيات وهي الخوارق للعادات فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية.

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أما الطوفان: فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار.

وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك.

وعن ابن عباس وعطاء: هو كثرة الموت.

وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال.

وعن ابن عباس أمر طاف بهم [أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره: ٣٠/٩، ٣١].

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٣١/٩] وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة عن النبي ﷺ: «الطوفان الموت» وهو غريب.

وأما الجراد فمعروف.

وقد روى أبو داود [٣٨١٣] عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال: سئل رسول الله عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه».

وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب [خ (٥٥٣٦)، م (١٩٤٣)] وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث [خ

(٨٥٥)، م (٥٦٤)] لما ثبت في الصحيحين [خ (٥٤٩٥)، م (١٩٥٢)] عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد. وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير.

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زروعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً.

وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة.

وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له.

وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة.

وقال سعيد بن جبير والحسن: هو دواب سود صغار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي البراغيث.

وحكى ابن جرير عن أهل العربية أنها الحمنان وهو صغار القردان (فوق القمقامة) فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف [تفسير الطبري: ٣٢/٩، ٣٣]. وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة.

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل.

قال محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٣٧/٩] فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مفلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات. فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد. لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلم لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار.

فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرعاف، رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [١٣٤ - ١٣٦].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عياناً وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً وكلما شهدوا آية وعاينوها وجهدتهم وأضنكتهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون. ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل. ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم.

ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإعذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

وقال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ. وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦ - ٥٦].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عمّاهم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون وعن الحق يحيدون فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً وكل آية أكبر من أختها التي تتلوها؛ لأن المؤكّد أبلغ مما قبله.

﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها. وهي الخلجان التي يكسرونها أمام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى!.

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء في الحديث [أحمد: ٩٦/٥، د (٣٦٤١)، ت (٢٦٨٢)]: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع».

فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم.

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات.

﴿وَمَثَلاً﴾ أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ. وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٦ ـ ٤٢].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار بل كل قد غرق فدخل النار وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين.

٤٢- ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليل.

قيل: ثلاثة وهم: امرأة فرعون ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ومؤمن آل فرعون الذي تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فالضمير في قوله: ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه.

وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير. وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي جبار عنيد مستعل بغير الحق.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في جميع أموره وشؤونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه فائتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض.

وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل: مساجد.

وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها؛ قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم [تفسير الطبري: ١٥٣/١١ ـ ١٥٥].

ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في

مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه.

والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني. أيضاً والله أعلم.

وقال سعيد بن جبير ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي متقابلة [د (١٣١٩)].

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨- ٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ يعني قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه

﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾:

قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة.

وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة [أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره: ١٩/١٥٧ ـ ١٥٨].

وقال أيضاً صارت أموالهم كلها حجارة.

ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتني بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد قُطِّع، قد حوِّل حجارة. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

قال ابن عباس: أي اطبع عليها.

وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[نوح: ٢٦ـ٢٧].

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٨٩]

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم.

وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام.

فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ. فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢ـ٦٨].

قال علماء التفسير [تفسير الطبري: ١٩/٧٤] لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل: كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم.

وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وست وعشرون سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه. وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده وهم منه في غايةالخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه؛ فقال لهم الرسول الصادق المصدوق ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول: ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى. ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف.

ويقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله أههنا أمرت. فيقول: نعم.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] فلما ضربه به يقال: إنه قال له: انفلق بإذن الله ويقال: إنه كناه بأبي خالد [تاريخ الطبري:

١/٤١٣ ـ ٤١٥]؛ فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣].

ويقال: إنه انفلق اثني عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى قيل: إنه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً. وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه.

وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة عن الذي يقول للشيء كن فيكون وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾[طه: ٧٧ـ٧٩].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين.

فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه. ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يسترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق في المقال:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ. فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ. فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ. وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ. كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ. وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ. وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٧ـ٣٣].

فقوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ أي: ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة.

قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم [تفسير الطبري: ١٢١/٢٥ـ ١٢٢].

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون. فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدي. وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات.

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدّى في صورة فارس راكب على رمكة حائل فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله فحمحم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعاً؛ هذا وفرعون لا يملك من نفسه ولا نفسه ضراً ولا نفعاً.

فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه؛ فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه ﷺ فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان: قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٦٥ـ٦٨].

أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ـ٩٢]

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم.

فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ـ٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ـ٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملإه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم.

﴿فَلا يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما ـ أي لموسى وهارون ـ حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٠٩/١] حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قال: «قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة».

ورواه الترمذي [٣١٠٧] وابن جرير [تفسيره: ١٦٣/١١] وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة.

وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي [٢٦١٨]: حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت

وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة»

ورواه الترمذي [٣١٠٨] وابن جرير [تفسيره: ١١/١٦٣ مرفوعاً، ١١/١٦٤ موقوفاً] من حديث شعبة وقال الترمذي: حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ١١/١٦٤] من حديث أبي خالد به.

وقد رواه ابن جرير [تفسيره: ١١/١٦٣] من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف.

وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له». يعني فرعون.

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران ويقال: إن الضحاك بن قيس خطب به الناس [تفسير الطبري: ١١/١٦٣، ١٦٤].

وفي بعض الروايات: إن جبريل قال: ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال: إنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال.

وقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم: إنه لا يموت؛ فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع.

قيل: على وجه الماء.

وقيل: على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه.

ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ﴾ أي أنت آية.

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي من بني إسرائيل دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف «لتكون لمن خلقك آية».

ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً درعك ليكون درعك علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت؛ والله أعلم.

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء. كما قال الإمام البخاري في صحيحه [٤٦٨٠]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبي ﷺ: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا».

وأصل هذا الحديث في الصحيحين [خ (٢٠٠٤)، م (١١٣٠)] وغيرهما [س كبرى (٢٨٣٤) و(٢٨٣٥)، ج (١٧٣٤)] والله أعلم.

٤٣- ما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ. وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ. وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[الأعراف: ١٣٦-١٤١].

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص: ٥].

وقال ههنا: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أي أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر [ص٢٨] أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا.

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئاً ولا يكسروا له عظماً ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم وكان ذلك في فصل الربيع فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم وليأكلوا بسرعة قياماً. ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار.

وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها فإذا نسخت

بطل شرعها وقد وقع.

قالوا: وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف الليل وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت إلا وفيه عويل. وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم. وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة. هذا نص كتابهم.

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ ولهم عيد الفطير وعيد الحمل وهو أول السنة.

وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم.

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف. وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطئ اليمّ، فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحبُّ إلينا من الموت بهذه البرية.

وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا.

قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس. وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم.

لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح؛ وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم.

قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا: «نسبح الرب البهي الذي قهر الجنود ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود» وهو تسبيح طويل.

قالوا: وأخذت مريم النبية أخت هارون دفاً بيدها وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر.

هكذا رأيته في كتابهم.

ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هارون وموسى مع قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾. وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ؛ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم» رواه مسلم [٢١٣٥].

وقولهم: النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها.

وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع لمن قبلنا ضرب الدف في العيد. وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف في أيام منى ورسول الله ﷺ مضطجع مولّى ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ! فقال: «دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» [خ (٩٤٩)، م (٨٩٢)].

وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً أجاجاً لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى عليه السلام فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه، وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً، ووصاه وصايا كثيرة.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.﴾.

قالوا: هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً. قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون:

﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجابهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً. وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً.﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد [٢١٨/٥]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال نبي ﷺ: «الله أكبر! هذا كما قالت بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم».

ورواه النسائي [كبرى (١١١٨٥)] عن محمدبن رافع عن عبد الرزاق به.

ورواه الترمذي [٢١٨٠] عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به. ثم قال حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٩/٤٥، ٤٦] من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان لكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.﴾».

والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. [المائدة: ٢٠-٢٦].

يذكرهم نبي الله نعمة الله إليهم إحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ أي تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم.

﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ أي عتاة كفرة متمردين.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أكثر تجبراً من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً.

حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله وهم اثنا عشر رجلا فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه.

وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها.

وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل وشيئا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم [انظر تفسير الطبري: ١٧٤/٦] وهذا ليس بصحيح.

وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع.

هكذا ذكره البغوي وغيره [قصص الأنبياء للثعلبي: ص٢١٣ - ٢١٥] وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)].

قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يروى هذا عن نوف البكالي ونقله ابن جرير [تاريخه: ٤٣١/١] عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر.

ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحيحها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام. ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا.

قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد [تفسير الطبري: ١٧٦/٦، ١٧٧].

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله.

وقرأ بعضهم «يُخافون» أي: يُهابون.

﴿أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة.

﴿ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير.

فيقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهارون سجدا - عليهما السلام - إعظاما لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

قال ابن عباس اقض بيني وبينهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً.

ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا لـه كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول: «أشيروا عليّ» حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن يلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك [تفسير الطبري: ٩/١٨٥، ١٨٦، وأصله في م (١٧٧٩)].

وقال الإمام أحمد [٣١٤/٤]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسي عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: «يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون».

وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى.

قال أحمد [٣٨٩/١]: حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدُل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين قال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك.

فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك.

رواه البخاري في التفسير [٤٦٠٩] والمغازي [٣٩٥٢] من طرق عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا علي بن الحسن بن علي حدثنا أبو حاتم الرازي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك.

رواه الإمام أحمد [١٨٨/٣] عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به

ورواه النسائي [كبرى (١١١٤١)] عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٤٧٢١)] عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن حميد عن أنس به نحوه.

٤٤- قصة دخول بني إسرائيل التِّيه

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة.

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه من عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام.

وعندهم أن يثرون كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلماً ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه.

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرِّشا والخيانة فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ورؤوس مئين ورؤوس خمسين ورؤوس عشرة فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم؛ ففعل ذلك موسى عليه السلام.

قالوا ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم وهي أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يديه وقبضته وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقترين أحد منهم إليه فمن دنا منه قتل حتى ولا شيء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا.

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً وخرجوا فقاموا في سفح الجبل وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ويأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب

وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة.

فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك فامره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد. ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فامره حينئذ بالعشر كلمات.

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى: بلِّغنا أنت عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال: هذه العشر الكلمات وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والنهي عن الحلف بالله كاذباً. والأمر بالمحافظة على السبت.

ومعناه: تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة. وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت.

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك الله ربك لا

تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور. لا تمد عينك إلى بيت صاحبك. ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك.

ومعناه النهي عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ١٥٣].

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة كانت فزالت وعمل بها حيناً من الدهر.

ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها وأولوها. ثم بعد ذلك كله سُلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعدما كانت مشروعة مكملة فللّه الأمر من قبل ومن بعد وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين.

وقد قال اللّه تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى. كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى. وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٠ـ٨٢].

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم كليمه إلى ﴿جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ أي منهم ليتزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد. ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم.

وإذا كان فصل الصيف ظلل اللّه عليهم الغمام وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر.

كما قال اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠ـ٤١].

إلى أن قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٤٩ـ ٥٧].

إلى أن قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة ٦٠ـ٦١]

يذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينزل اللّه المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس. ثم تتفجر ماءاً زلالاً فيستقون ويشربون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر.

وهذه نعم من اللّه عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها.

ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكني لست أجيبكم إلى سؤالكم ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١] أي فقد هلك وحق له واللّه الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾. [طه: ٨٢]

٤٤- سؤال بني إسرائيل الرّؤية

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ

تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١٤٢-١٤٧]

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجة [تفسير الطبري: ٩/٤٧، ٤٨].

فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً يقال: إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله «أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة.

ولهذا ثبت في الحديث [خ (١٨٩٤)، م (١١٥١)] أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره ونهاه وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه.

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه.

وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه في الدنيا والأخرى.

ولما أعطي هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾. ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى؛ لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمان ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده.

وفي الصحيحين [هو عند م (١٧٩) وج (١٩٦)] عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حجابه النور».

وفي رواية: «النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال مجاهد: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً. فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد [٣/٢٠٩] والترمذي [٣٠٧٤] وصححه، وابن جرير [تفسيره: ٩/٥٣] والحاكم [٢/٥٧٧] من طريق حماد بن سلمة عن ثابت. زاد ابن جرير: وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال هكذا بأصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل.

لفظ ابن جرير.

وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس: ما تجلى يعني من العظمة إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكاً قال: ترابا.

﴿وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾ أي مغشياً عليه [تفسير الطبري: ٩/٥٢، ٥٣].

وقال قتادة: ميتاً.

والصحيح الأول لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي.

قال ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية.

﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٦٣٨، ٦٩١٧)، م (٢٣٧٤)] من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور».

لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاريُّ حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء».

وفي الصحيحين [خ (٢٤١١)، م (٢٣٧٣)] من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وفيه: «لا تخيروني على موسى» وذكر تمامه.

وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف.

ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ففي قوله نظر؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر متأخراً فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله أعلم ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيهم.

وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» [م (٢٢٧٨)، د (٤٦٧٣)، ت (٣١٤٨، ٣٦١٥)].

ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون

الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم.

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش - أي آخذاً بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور» دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش.

قال الصادق المصدوق: «لا أدري أصعق فأفاق قبلي» [د (٤٦٧١)]. أي كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق.

«أو جوزي بصعقة الطور» يعني فلم يصعق بالكلية وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية. ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه. ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: «لا والذي اصطفى موسى على البشر» قد يحصل في نفوس بعض المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ أي في ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ولا ما بعده؛ لأن محمداً ﷺ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء وكما ثبت [م (٨٢٠)] أنه قال: «سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق حتى إبراهيم».

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت الألواح من جوهر نفيس

ففي الصحيح [خ (٦٦١٤)، م (٢٦٥٢)] أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم ونية صادقة قوية.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها.

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذبين لرسلي.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أي: عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها.

﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها.

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ أي لا يسلكوه ولا يتبعوه.

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها والتفكر في معناها وترك العمل بمقتضاها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٤٥- قصة عِبادتهم العجل

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ. وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ. وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً. وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى. قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً. إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [طه: ٨٣-٩٨]

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له: السامري فأخذ ما كان استعاروه من الحلي فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي [تاريخ الطبري: ٤٢٥/١].

ويقال: إنه استحال ﴿عِجْلاً جَسَداً﴾ أي لحماً ودماً حياً يخور.

قاله قتادة وغيره [تفسير الطبري: ٢٠٠/١٦] وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون [قصص الأنبياء للثعلبي: ص١٨٦].

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته.

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً وشيطاناً رجيماً ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً ولا يملك ضراً ولا نفعاً ولا يهدي إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على ما صنعوا.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف: ١٤٩].

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها فيقال: إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين.

وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١/٢١٥، ٢٧١] وابن حبان [الإحسان (٦٢١٣)] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة».

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ تحرجوا من تملك حلي آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار.

ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً لهما ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا؟ فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ أي لا هذا العجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فيما أقول لكم ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام - وكفى بالله شهيداً - أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ما حملك على ما صنعت ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من أثر فرس جبريل.

وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكان كلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه.

هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ﴾ وقرئ «لن تُخْلِفَهُ».

﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ قال: فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قتادة وغيره. وقيل: بالمبارد كما قاله علي وابن عباس وغيرهما [تفسير الطبري: ١٦/٢٠٨، ٢٠٩] وهو نص أهل الكتاب.

ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل: بل اصفرت ألوانهم.

ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وهكذا وقع.

وقد قال بعض السلف ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة.

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

فيقال: إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه. ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم.

فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ استدل بعضهم بقوله ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ على أنها تكسرت وفي هذا الاستدلال نظر وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف. ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٥-١٥٧].

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل.

فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين [تفسير الطبري: ١/٣٦٧] وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٧٥] وليس هذا بلازم لقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[التوبة: ٦] أي مبلغاً.

وهكذا هؤلاء سمعوه مبلّغاً من موسى عليه السلام.

وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٥٥، ٥٦] وقال ههنا ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾[الأعراف: ١٥٥] الآية

قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيِّر فالخير. وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم.

فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا.

وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمر وينهاه افعل ولا تفعل.

فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فافتلتت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برآء مما عملوا [تفسير الطبري: ١/٢٩١].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف.

يعني أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما قال لهم هارون من قبل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي اختبرتم به ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته. لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا. قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك في اللغة.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ثبت في الصحيحين [خ (٣١٩٤)، م (٢٧٥١)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الآية.

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه. وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى: يا رب أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد. قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً، لم يعطه أحداً من الأمم. قال: رب اجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد قال: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها. وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيهم لفقيركم. قال: رب فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت لي عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال: رب اجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد.

قال: قتادة فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللّهم اجعلني من أمة أحمد [تفسير الطبري: ٩/٦٥].

٤٦- ما كان من مناجاة موسى عليه السلام

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢١٦)]: ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة:

أخبرنا عمر بن سعيد الطائي بمنبج حدثنا حامد بن يحيى البلخي حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان سمعنا الشعبي يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ: «إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال: ادخل الجنة فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم فيقال له: ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان للملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أي رب فيقال: لك هذا ومثله ومثله فيقول: أي رب رضيت فيقال له: إن لك هذا وعشرة أمثاله. فيقول: أي ربّ رضيت، فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك.

وسأل ربه: أي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: سأحدثك عنهم غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية [السجدة: ١٧].»

وهكذا رواه مسلم [١٨٩] والترمذي [٣١٩٨] كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان وهو ابن عيينة به.

ولفظ مسلم«فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فيقول في الخامسة: رضيت رب فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت رب قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال: ومصداقه من كتاب الله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.»

وقال الترمذي: حسن صحيح. قال: ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه [م (١٨٩) موقوفاً] والمرفوع أصح.

وقال ابن حبان [الإحسان (٦٢١٧)]: ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع:

حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها.

قال: يارب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفر قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص».

قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه. وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه».

قال ابن حبان: قوله «صاحب منقوص» يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل.

وقد رواه ابن جرير في تاريخه [٣٧١/١] عن ابن حميد عن يعقوب القُمي عن هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه قال: أي رب فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني؟ قال: نعم الخضر فسأل السبيل إليه فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله وبه الثقة.

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد [٨١/٣]: حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن موسى قال: أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا قال: ففتح له باب من الجنة فنظر إليها قال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال موسى: يارب وعزتك وجلالك لوكان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط قال: ثم قال: أي رب عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا. قال: ففتح له باباً إلى النار فيقول: يا موسى هذا ما أعددت له فقال: أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط».

تفرد به أحمد من هذا الوجه. وفي صحته نظر والله أعلم.

وقال ابن حبان [الإحسان (٦٢١٨)]: «ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به».

حدثنا ابن سلم، حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «قال موسى: يارب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به قال: قل: يا موسى لا إله إلا الله قال: يارب كل عبادك يقول هذا. قال: قل: لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئاً تخصني به. قال: يا موسى لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله».

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة [ت (٢٦٣٩)، ج (٤٣٠٠)] وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن [ت (٣٥٨٥)] عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيُّون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية. حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدّشتكي، حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك. قال: وأنزل الله على رسوله آية الكرسي».

وقال ابن جرير [تفسيره ٧/٣، ٨]: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل فأرسل الله إليه ملكاً فارقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال: فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما

على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان قال: ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض».

وهذا حديث غريب رفعه. والأشبه أن يكون موقوفاً. وأن يكون أصله إسرائيلياً.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]

قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها فقال: بل اقبلوها بما فيها.

فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي غمامة على رؤوسهم. وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم فصارت سنة لليهود إلى اليوم يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال: فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه [تفسير الطبري: ١٠٩/٩].

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم وإنزال الكتاب عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

٤٧ ـ قِصّة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ. قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ. وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣]

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ فقال: موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا:

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي اعوذ بالله ان اقول عنه غير ما أوحى إلي. وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم وقد ورد فيه حديث مرفوع. وفي إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم. وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير.

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة والبكر وهي الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة.

ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي مشرب بحمرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. وهذا اللون عزيز.

ثم شددوا أيضاً: فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه «لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا» وفي صحته نظر والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالسانية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ وهي الصحيحة التي لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة.

وقوله: ﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدي بوزنها ذهبا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ اي وهم يترددون في أمرها. ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها. قيل بلحم فخذها. وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف. وقيل بالبضعة التي بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبي الله من قتلك؟ قال قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتا كما كان قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ اي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] الآية.

٤٨ ـ قِصّة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ

الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً. فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً. قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً. قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً. وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢]

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي. ويقال: إنه دمشقي وكانت أمه زوجة كعب الأحبار. والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل. قال البخاري: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ: «يقول إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال: أنا! فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى يارب وكيف لي به؟. قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم». فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سربا. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر: وإني بأرضك السلامقال: إنا موسى قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ قال له الخضر ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول.

فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسيانا» قال: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر» ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾ قال وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾ قال مائل فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ قال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين.

ثم رواه البخاري أيضا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه. وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام قال سفيان وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا﴾ وساق الحديث وقال: «ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الخضر لموسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره» وذكر تمام الحديث. وقال البخاري: حدثنا إبراهيم ابن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه. وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال: سلوني فقلت: أي أبا عباس جعلني الله فداك بالكوفة رجل قاصّ يقال له:: نوف يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل أما عمرو فقال لي قال: قد كذب عدو الله وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله

قال: ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل بلى قال: أي رب فأين: قال: بمجمع البحرين قال: أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به» قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت وقال لي يعلى قال: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت قال: ما كلفت كبيراً فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون. ليست عن سعيد بن جبير قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت وموسى نائم فقال فتاه: لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره وتضرّب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر قال لي عمرو: وهكذا كان أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليان ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا الخضر قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد: مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال: هل بأرض من سلام من أنت؟ قال: أنا موسى قال: موسى بني إسرائيل قال: نعم قال: فما شأنك؟ قال: جئتك ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي سيأتيك يا موسى إن لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح. قال: فقلنا لسعيد: ﴿خضر﴾ قال: نعم. لا نحمله بأجر ﴿فخرقها﴾ ووتد فيها وتدا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهد: منكرا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كانت الأولى نسيانا والوسطى شرطاً والثالثة عمداً ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قال يعلى: قال سعيد: وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لم تعمل بالخبث. ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكيا ﴿فَانطَلَقَا﴾ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ قال: بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيد: أجرا نأكله ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم. ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فإذا هي مرت به يدعها بعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ لقوله اقتلت نفساً زكية ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر. وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد إنها جارية. وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خطب موسى بني إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فأمر أن يلقي هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضا ورواه العوفي عنه موقوفا

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقياه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا قال: نعم وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد. وقوله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال السهيلي وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قيل كان ذهبا قال عكرمة وقيل علما قاله: ابن عباس والأشبه أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه علم قال البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحارث بن عبد الله الحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن ابن حجيرة عن أبي ذر رفعه قال: إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت. عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله. وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق. نحو هذا وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي وقيل رسول وقيل: ولي. وأغرب من هذا من قال: كان ملكا.

قلت: وقد أغرب جدا من قال: هو ابن فرعون وقيل: إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة. قال ابن جرير: والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ويقال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل. وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن. وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل وقيل إسمه ملكان وقيل أرميا بن خلقيا وقيل كان نبيا في زمن سباسب بن لهراسب قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب قال ابن جرير: والصحيح أنه كان في زمن أفريدون واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى في زمن منو شهر الذي هو من ولد ابرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلا وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل في كل قرية دهقانا وكانت مدة ملكه قريبا من مائة وخمسين سنة ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكليم النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ﴾ الآية.

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها

جبريل وسادات من الملائكة وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملكا فيما ذكر وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته فكيف أن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه [المستدرك: ٥٨/٣]؛ فإسناده ضعيف والله أعلم. وسنفرد للخضر ترجمة على حده بعد هذا.

٤٩- حديث الفتون وفيه سرد لقصة موسى

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه [كبرى (١١٣٢٦)] عند قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠].

(حديث الفتون) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا اصبع بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ فسأله عن الفتون ما هو فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً.

فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال:

تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأو أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فيقلُّ نباتهم ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم.

فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة.

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد فأوحى الله إليها أن: ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]

فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة تستقي منها جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن: إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه إليها فلما فتحته رأت فيه غلاماً فألقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط وأصبح ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾. من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت لهم: أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن الله حرمه ذلك» فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبن تختار ظئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل.

وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحي ابني أم أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أخته ﴿عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم هل تعرفونه حتى شكوا في ذلك. وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئاً حبه قط قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت فإني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجزٌ موعوده فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أريني ابني فوعدتها يوماً تريها إياه فيه وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون.

فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه. ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحله وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، أنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير.

بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فتوناً.

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: الا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المراة: الا ترى؟ فصرفه اللّه عنه بعدما كان هم به وكان اللّه بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان احدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل، وحفظه لهم لا يَعْلَمُ الناس إلا أنَّه من الرضاع إلا أم موسى، إلا ان يكون اللّه أطْلعَ موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا اللّه عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ فأتي فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله من يشهد عليه فإن الملك وإن كان صفوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين أن يكون إياه اراد، ولم يكن اراده، إنما أراد الفرعوني فخاف الإسرائيلي. وقال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى.

أخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة،فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره. وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢-٢٣].

يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأناً! فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وأمانته؟ فقالت: اما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه. وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسُرِّي عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت فقال له: هل لك

﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

ففعل فكانت على نبي اللّه موسى ثمان سنين واجبة وكانت السنتان عدة منه فقضى اللّه عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد بن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا وأنا يومئذ لا أدري فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي اللّه واجبة لم يكن نبي اللّه لينقص منها شيئا وتعلم أن اللّه كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللّه عليك في القرآن فشكا إلى اللّه تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردأ ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فأتاه اللّه عز وجل سؤله وحلّ عقدة من لسانه وأوحى اللّه إلى هارون فامره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا: إنا رسولا ربك فقال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص اللّه عليك في القرآن قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال: أريد أن تؤمن باللّه وترسل معي بني إسرائيل فأبى عليه وقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي حيّة عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص. ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ [طه: ٦٣] يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات: قالوا: فلا واللّه ما أحد من الأرض يعمل بالسحر بالحيات

والحبال والعصي الذي نعمل وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم فتواعدوا ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٩]

قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبون يعنون موسى وهارون استهزاء بهما فقالوا: يا موسى - بقدرتهم بسحرهم ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[الأعراف: ١١٥] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه: أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جُرَزاً على الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته.

فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم تبلغ من سحرنا كل هذا ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة متبذّلة تدعو لله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف من موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً.

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة فأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثني عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه. ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله عز وجل.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثني عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى.

فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان قال: يارب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك ارجع فصم عشراً ثم ائتني ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فيها مثل ذلك وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير. ثم أوقد عليه النار فأحرقه فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون: يا سامري ألا تلقي ما في يديك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال: أريد أن تكون عجلاً فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح له خوار.

قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقاً فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذّب بهذا حتى يرجع إلينا موسى فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق. وأُشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به فقال لهم هارون عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ليس هذا قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يوما قد مضت فقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده فرجع إلى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه وألقى الألواح من الغضب ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له فانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[طه: ٩٦] وفطنت لها وعُمِّيت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[طه: ٩٦-٩٧] ولو كان إلهاً لم نخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون فقالوا جماعتهم: يا موسى

سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفّر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت: إن رحمتك كتبتها لقوم غير قومي فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف لا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ونتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم يُصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم.

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر وذكر من ثمارهم أمراً عجيباً من عِظَمها فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم - من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهما من قوم موسى فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك؛ لما رأى منهم من المعصية وإساءاتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مَنْقَلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ وصدّق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟

فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره.

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي.

وأخرجه ابن جرير [تفسيره: ١٦/١٦٤] وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه والله أعلم أنه موقوف وكونه مرفوعاً فيه نظر وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام وفي بعض ما فيه نظر ونكارة والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك والله أعلم.

٥٠- ذكر بناء قبّة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره.

ويعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفاً وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق في أربع زواياه ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب؛ يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صنعه رجل اسمه بصليال وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعان وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب خَرْزُه مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً واعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة واصنع منارة من ذهب دلي فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاث. على كل قصبة ثلاث سرج وليكن في المنارة أربع قناديل ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً وهو الذي عمل المذبح أيضاً ونصب هذه القبة أول يوم من ستهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً.

وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته.

وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجدا لله عز وجل ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيّين.

فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم - أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ - في معبدهم وعند مصلاهم.

فأما ما في شريعتنا فلا بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ فقال للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس [خ معلقاً قبل (٤٤٦)].

وقال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم [خ معلقاً قبل (٤٤٦)، د (٤٤٨)].

وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام.

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه.

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه.

فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر. وقيل: سبعة عشر شهراً.

ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر [انظر خ (٤٠)، م (٥٢٥)] وقيل: الظهر كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] إلى قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

٥١- قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ. تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى.

وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث.

قال ابن جرير [تفسيره: ٢٠/١٠٥]: وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى.

ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى.

قال قتادة: وكان يسمى المنوَّر لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه.

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى إن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد.

وقد قيل: إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فإنه خير وأبقى ومع هذا.

﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال.

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك.

﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: ولا تسئ إليهم ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فما كان جوابه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه وأني أهل له ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى راداً عليه ما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون: ٥٥-٥٦]

وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾.

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾:

ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله.

فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى.

قال الله تعالى: ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده.

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾:

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ كما روي البخاري [٣٤٨٥، ٥٧٩٠] من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم رواه البخاري [٥٧٩٠] من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد ذكر ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا فيقال: إنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين. ثم أقبل عليها فاستحلفها مَنْ ذَلَّك على ذلك وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون فأوحى الله إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك [تفسير الطبري: ١١٧/٢٠] فالله أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بأيام الله فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه فدعا موسى عليه السلام فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عليّ ولأدعون عليك.

فخرج وخرج قارون في قومه فقال له موسى: تدعو أو أدعوا؟ قال: ادعو أنا فدعى قارون فلم يجب في موسى فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم فأوحى الله إليه: إني قد فعلت فقال موسى: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض.

وقد روي عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[الطارق: ١٠].

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتي وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا: ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وقد تكلمنا على لفظ «ويك» في التفسير.

وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى ألم تَرَ أنّ؛ وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم.

ثم أخبر تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ وهي دار القرار وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هي معدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر.

والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان وقد تكون بعد ذلك في التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام كما قال عنترة:

يا دارَ عبلةَ بالجَواء تكلّمي وعمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

والله أعلم.

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود، ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٣٩-٤٠].

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد [١٦٩/٢]: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو

عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف».

انفرد به أحمد رحمه الله.

٥٢- فضائل موسى عليه السلام وشمائله

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً. وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾[مريم: ٥١-٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[الأعراف: ١٤٤].

وتقدم في الصحيحين [خ (٣٤١٤)، م (٢٣٧٣)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

وقدمنا أن هذا من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[النساء: ١٦٣، ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[الأحزاب: ٦٩]

قال الإمام أبو عبد الله البخاري [٣٤٠٤]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا روح بن عبادة عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أدرة وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر. ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً.

قال فذلك قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[الأحزاب: ٦٩].

وقد رواه الإمام أحمد [٣٢٤/٢] من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه [٣١٥/٢] عن أبي هريرة به.

وهو في الصحيحين [خ (٢٧٨)، م (٣٣٩)] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به.

ورواه مسلم [١٥٦] من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه.

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾[مريم: ٥٣]

ثم قال البخاري [٣٤٠٥]: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن الأعمش: سألت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله! فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه. ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وكذا رواه مسلم [١٠٦٢] من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به.

وقال الإمام أحمد [٣٩٥/١، ٣٩٦]: حدثنا حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبي زائد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

قال: وأتي رسول الله ﷺ مال فقسمه قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة فتثبت حتى سمعت ما قالا. ثم أتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله: إنك قلت لنا: لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه. ثم قال: «دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر».

وهكذا رواه أبو داود [٤٨٦٠] والترمذي [٣٨٩٦] من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به

وفي رواية للترمذي [٣٨٩٧] ولأبي داود [٤٨٦٠] من طريق الحسين بن محمد عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقد ثبت في الصحيح [في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره].

ورواه مسلم [٢٣٧٥] عن أنس.

وفي الصحيحين [خ (٣٢٠٧)، م (١٦٤)] من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة فقال له جبريل: هذا موسى فسلم عليه قال: فسلمت عليه فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

وذكر إبراهيم في السماء السابعة. وهذا هو المحفوظ.

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذي عليه الجادة أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة فمر بموسى قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة وإن أمتك اضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه في كل مرة حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة وقال الله تعالى: هي خمس وهي خمسون [خ (٣٤٩)].

أي بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى

عليه السلام خيراً.

وقال البخاري [٥٧٥٢]: حدثنا مسدد حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال: «عرضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل: هذا موسى في قومه».

هكذا روي البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً.

وقد رواه الإمام أحمد [٢٧١/١] مطولاً فقال: حدثنا سُريج حدثنا هشيم، حدثنا حصين بن عبد الرحمن. قال كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا ثم قلت: إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت. قال: وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت. قال: وما حملك على ذلك؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة فقال: سعيد يعني ابن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي معه الرجل والرجلين والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي؟ فقيل: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم. ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا قط وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟» فأخبروه بمقالتهم فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم». ثم قال آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «سبقك بها عكاشة».

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو في الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه بليغاً. وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه كما قال في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]

وقال تعالى: ﴿الم. اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ. مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ. وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢].

فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً.

وقال تعالى في آخرها ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إلى ان قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٤٧، ٤٨].

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم وقصورهم في علومهم ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة؛ ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ. وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨-٤٩].

فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام.

وقالت الجن لقومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] قال: سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران [خ (٣، ٣٣٩٢)، م (١٦٠)].

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء. لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله. وبه الثقة وعليه التكلان.

٥٣- ذكر حجّ موسى عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد [١/٢١٥، ٢١٦]: حدثنا هشيم، حدثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟» قالوا: وادي الأزرق. قال: «كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية» حتى أتى على ثنية هرشاء. فقال: «أي ثنية هذه؟» قالوا: هذه ثنية هرشاء قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة - قال هشيم: يعني ليفاً - وهو يلبي».

أخرجه مسلم [١٦٦] من حديث داود بن أبي هند به.

وروى الطبراني [الكبير (١٢٥١٠)] عن ابن عباس مرفوعاً: «أن موسى حج على ثور أحمر»، وهذا غريب جداً.

وقال الإمام أحمد [١/٢٧٦، ٢٧٧]: حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال: إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال: ما يقولون؟ قال: يقولون: مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال: ما تقولون؟ قال: يقولون: مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك ولكن قال: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم. وأما موسى فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي» قال هشيم الخلبة الليف.

ثم رواه الإمام أحمد [١/٢٩٦] عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم».

قالوا: فإبراهيم قال: «انظروا إلى صاحبكم».

وقال الإمام أحمد [١/٢٥٤]: حدثنا يونس حدثنا شيبان قال: حدث قتادة عن أبي العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالا جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس».

وأخرجاه [خ (٣٢٣٩، ٣٣٩٦)، م (١٦٥)] من حديث قتادة به.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٨٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حين أسري به لقيت موسى» فنعته فقال رجل: قال: حسبته قال: مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة. ولقيت عيسى» فنعته رسول الله ﷺ فقال: «ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» يعني حماماً. قال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به» الحديث.

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

٥٤- ذكر وفاته عليه السّلام

قال البخاري في صحيحه [١٣٣٩، ٣٤٠٧ موقوفاً ومرفوعاً]: (وفاة موسى عليه السلام).

حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن قال: فسأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر.

قال أبو هريرة فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

قال: وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد روى مسلم [٢٣٧٢] الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به.

ورواه الإمام أحمد [٢/٣١٩] من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة مرفوعا وسيأتي.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٥١]: حدثنا الحسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس يعني سليم بن جبير عن أبي هريرة - قال الإمام أحمد: لم يرفعه -. قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال: أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت. قال: وقد فقأ عيني قال: فرد الله عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت قال: فالآن يا رب من قريب.

تفرد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ.

وقد رواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢٢٣)] من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال معمر: وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً، وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن.

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق [الإحسان (٦٢٢٤)] عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه فقال له: أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه..» وذكر تمام الحديث - كما أشار إليه البخاري - ثم تأوله على أنه لمّا رفع يده ليلطمه قال له: أجب ربك.

وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله: أجب ربك. بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له: وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم؛ لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق في قدر الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة [تفسير الطبري: ٦/١٨٢، ١٨٤، ١٨٥].

وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين. ومما يدل على

ذلك قوله لما اختار الموت: رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر. ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رميةً بحجر ولهذا قال سيد البشر. ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر» [خ (١٣٣٩، ٣٤٠٧) موقوفاً ومرفوعاً].

وقال الإمام أحمد [٢٤٨/٣]: حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر».

ورواه مسلم [٢٣٧٥] من حديث حماد بن سلمة به.

وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوفٍ هارون فائت به جبل كذا وكذا.

فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها وإذا هم ببيت مبني وإذا هم بسرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه. قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير. قال له موسى: فنم عليه قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ. قال له: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم. قال: يا موسى، بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً.

فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتني فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: فإن موسى قتل هارون وحسده حُبَّ بني إسرائيل له. وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى وكان في موسى بعض الغلظة عليهم.

فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم كان أخي أفتروني أقتله.

فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض. ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع.

فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبي الله؟! فقال: لا والله ما قتلته ولكنه استُلّ مني. فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام. فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى أنا قد رفعناه إلينا فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح [تاريخ الطبري: ٤٣٢/١].

وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم.

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم.

وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً فلم يُر أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه [تاريخ الطبري: ٤٣٣/١، ٤٣٤].

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة.

وقد قال الإمام أحمد [٥٣٣/٢]: حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يونس رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال: «كان ملك الموت يأتي الناس عياناً قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعَنُفْتُ عليه».

وقال يونس: «لشققت عليه». «قال له: اذهب إلى عبدي. فقل له فليضع يده على جلد أو مَسْك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت قال: فالآن» قال: «فشمه شمة فقبض روحه». قال يونس: فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية».

وكذا رواه ابن جرير [تاريخ الطبري: ٤٣٤/١] عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضاً.

٥٥- نبوة يوشع بعد موسى وهارون

هو يوشع بن نون بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

وأهل الكتاب يقولون: يوشع بن عم هود.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٢].

وقدمنا ما ثبت في الصحيح [خ (٤٧٢٧)] من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون؛ لأنه مصرح به في التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير [تاريخه: ٤٣٣/١] وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي حتى قال له: يا كليم الله إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت.

ففي هذا نظر؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله تعالى إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ولم يزل معززاً مكرماً مدللاً وجيهاً عند الله كما قدمنا في الصحيح [خ (١٣٣٩، ٣٤٠٧) موقوفاً ومرفوعاً] من قصة فقئه عين ملك الموت ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها قال: ثم ماذا؟ قال: الموت قال: فالآن يا رب. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة أن الوحي لم يزل ينزل على

موسى في كل أمر يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان.

وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميراً وهو النقيب وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة.

ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام، كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ولما جهز رسول الله جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيّم بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم لما لَمَّ شَعَثَ جزيرة العرب وما كان وَهَى من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ففتح الله لهم ومكّن لهم وبهم وملكهم نواصي أعدائهم كما سنورده عليك في موضعه إذا انتهينا إليه مفصلاً إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده.

وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة: ١٢]

وقال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك.

كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ١٦]

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم. وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم منهم وهو أليصور بن شديثورا.

السبط الثاني: سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة. ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي.

السبط الثالث: سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة. ونقيبهم نحشون بن عميناداب.

السبط الرابع: سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر.

السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون.

السبط السادس: سبط ميشا وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور.

السبط السابع: سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون.

السبط الثامن: سبط جاد وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ونقيبهم إلياساف بن رعوئيل.

السبط التاسع: سبط أشير وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن.

السبط العاشر: سبط دان وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ونقيبهم اخيعزر بن عمشداي.

السبط الحادي عشر: سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة. ونقيبهم أخيرع بن عين.

السبط الثاني عشر: سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم ألباب بن حيلون.

هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم.

وليس منهم بنو لاوي فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وخزنها ونصبها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك.

وهم في أنفسهم قبائل إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمينها وشمالها ووراءها.

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف واحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون.

لكن قالوا: فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً سوى بني لاوي.

وفي هذا نظر فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التي ذكروها والله أعلم.

فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل ورأس الميسرة بنو دان وبنو نفتالي يكونون ساقه.

وقرر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم ناداب وهو بكره وأبيهو والعازر ويثمر.

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس [تفسير الطبري: ١٨٣/٦].

وقاله قتادة وعكرمة.

ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة [تفسير الطبري: ١٨٢/١، ١٨٣].

حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً.

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٧].

وقد ذكرنا قصته في التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم، فلما ألحوا عليه ركب حمارة له.

ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له: يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم. فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان. ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره وقال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة.

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون في الزنا فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم.

ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستي برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم. يقال: إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل فجعل يجوس فيهم الموت.

فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون أخذ حربته وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك.

ورفع الله الطاعون فكان جملة من مات منهم في تلك الساعة سبعين ألفاً والمقلل يقول: عشرين ألفاً. وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة القبة والذراع واللحي ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف.

لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن إسحاق ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم.

ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس كما صرح به السدي [تفسير الطبري: ١٨٢/٦، ١٨٤، ١٨٥]. والله أعلم.

وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو سنتين. وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام.

فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ [تاريخ الطبري: ٤٤١/١، ٤٤٢] أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر.

ثم إنهم أحاطوا بها يوما وضربوا بالقرون يعني الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكا كثيرة.

ويقال: إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام.

وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر. فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي. فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد وأمر القمر فوقف عند الطلوع. وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر، والأول وهو قصة الشمس مذكوره في الحديث الذي سأذكره.

وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر والأشبه والله أعلم ان هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم وفتح أريحا كان وسيلة إليه والله أعلم.

قال الإمام أحمد [٣٢٥/٢]: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس».

انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري.

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا.

وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته فسأل رسول الله ان يردها عليه حتى يصلي العصر فرجعت [الطبراني في الكبير (٣٨١)].

وقد صححه أحمد بن صالح المصري ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعي على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن، ولا آخر

قد بني بنياناً ولم يرفع سقفها ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو يتظر أولادها فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور اللّهم احبسها علي شيئا فحبست عليه حتى فتح اللّه عليه فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول ولتبايعني قبيلتك فبايعته قبيلته فلصق بيد رجلين أو ثلاثة فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن اللّه رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا». انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد اللّه عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. قال: ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا أي ركعا متواضعين شاكرين للّه عز وجل على ما منّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان اللّه وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم حطة أي حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا. ولهذا لما دخل رسول اللّه ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته وهو متواضع حامد شاكر حتى أن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضعاناً للّه عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول اللّه ﷺ، ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء. وقيل إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى. وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا دخلوا الباب يزحفون على استاههم يقولون حبة في شعرة وفي رواية حنطة في شعرة. وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤوا به كما قال تعالى حاكيا عنهم في سورة الأعراف وهي مكية: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢].

وقال في سورة البقرة وهي مَدَنِيَّة مخاطباً لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. وقال الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وادخلوا الباب سجدا قال: ركعاً من باب صغير. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم.

وكذا روى العوفي عن ابن عباس وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهد والسدي والضحاك والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أمروا به وهذا لا ينافي قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على استاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم. وقوله وقولوا حطة الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجدا في حال قولكم حطة.

قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع أمروا أن يستغفروا. قال البخاري: حدثنا: محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة».

وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً.

وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول اللّه ﷺ: «قال اللّه لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم فقالوا حبة في شعرة». ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قال: دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة في شعيرة. وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[البقرة: ٥٩] قال قالوا: (هطي سقاثا أزمة مزبا) فهي في العربية (حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء) وقد ذكر اللّه تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم» وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول اللّه ﷺ: «الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم» وقال الضحاك عن ابن عباس الرجز العذاب. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة وقال أبو العالية هو الغضب. وقال الشعبي الرجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جبير هو الطاعون. ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي اللّه يوشع يحكم بينهم بكتاب اللّه التوراة حتى قبضه اللّه إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة فكان مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

٥٦- قصةُ الخضر عليه السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني وقص اللّه من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف وذكرنا في تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك ههنا إن شاء اللّه وبحوله وقوته. قال الحافظ ابن عساكر: يقال: إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ثم روى من طريق الدارقطني حدثنا محمد بن الفتح القلانسي حدثنا العباس بن عبد اللّه

الرومي حدثنا رواد بن الجراح حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال وهذا منقطع وغريب. وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: إن أطول بني آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم قال وذكر ابن إسحاق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة وأن يدفنوه في مكان عيّنه لهم. فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك. وقال: إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه وأنجز الله ما وعده فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيى.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا. ويقال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. وقال إسماعيل بن أبي أويس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمر بن مالك بن عبدان بن نصر بن لازد. وقال غيره: هو خضرون بن عمايل بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال هو: أمريا بن طبقا فالله أعلم. وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جداً. قال ابن الجوزي: رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان. وقيل: إنه ابن مالك. وهو أخو إلياس قاله السدي كما سيأتي. وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين. وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه وقيل: كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون ابن اثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام. وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال الخضر أمه رومية وأبوه فارسي.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً. قال أبو زرعة في دلائل النبوة: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة فقال: «يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟» قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها. وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل وكان ممره براهب في صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوّجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً وكان لا يقرب النساء ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال قد رأيت العزقيل ومن رآه معك قال: فلان. فسئل فكتم وكان من دينهم أنه من كذب قتل فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة.

قال: فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس فرعون! فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا فقال: إني قاتلكما فقالا: إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد فجعلهما في قبر واحد فقال: وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة.

وقد تقدمت قصه ماثلة بنت فرعون [بل ستأتي ص٢٠٨] وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبي بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم.

وقال بعضهم [الأسماء واللغات للنووي: ١٦٧/١] كنيته أبو العباس. والأشبه والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه.

قال البخاري [٣٤٠٢] رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء».

تفرد به البخاري

وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به [الترمذي (٣١٥١) من طريق عبد الرزاق].

ثم قال عبد الرزاق: الفروة الحشيش الأبيض وما أشبهه يعني الهشيم اليابس.

وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها. وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ومنه قيل: فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعي:

ولقد ترى الحبشي حول بيوتنا جذلاً إذا ما نال يوماً مأكلا
صَعِداً أصك كأن فروة رأسه بذرت فأنبت جانباه فُلفلا

قال الخطابي: إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه.

قلت: هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح فإن كان ولابد من التعليل بإحدهما فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى بل لا يلتفت إلى ما عداه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦/٤٠١، ٤٠٢] هذا الحديث أيضاً من طريق أبي إسماعيل حفص بن عمر الأيلي حدثنا عثمان وأبو جزي وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء».

وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهدقال: إنما سمي الخضر؛ لأنه كان إذا صلى اخضرٌ ما حوله [تاريخ دمشق: ١٦/٤٠٢].

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر وهو مسجّى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه فسلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال: أنّى بأرضك السلام من أنت؟ قال: أنا موسى قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[الكهف: ٦٥].

الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً. قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠].

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ولم يرد على موسى هذا الرد بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً ولم يكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضي حقباً من الزمان قيل: ثمانين سنة ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه دل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم.

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحي إليه فيه من الملك العلام. وهذا دليل مستقل على نبوته. وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق.

ولما أقدم الخضر على قتل الغلام الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته.

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه. وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضاً.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلّى قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي بل أمرت به وأوحي إلي فيه.

فدلت هذه الوجوه على نبوته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قال آخرون.

وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً.

وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه.

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا:

فالجمهور على أنه باق إلى اليوم.

قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة.

وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيي.

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وهذه وصيته لموسى حين ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]

روي في ذلك آثار منقطعة كثيرة.

قال البيهقي [تاريخ دمشق لابن عساكر من طريق البيهقي: ٦/٤١٥، ٤١٦] أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو حدثنا أبو عبد الله الصفار حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير حدثني أبو عبد الله الملطي قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى: أوصني قال: كن نفاعاً ولا تكن ضراراً. كن بشاشاً ولا تكن غضبان. ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة.

وفي رواية [تاريخ دمشق: ١٦/٤١٦] من طريق أخرى زيادة «ولا تضحك إلا من عجب».

وقال وهب بن منبه: قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها [تاريخ دمشق: ١٦/٤١٦].

وقال بشر بن الحارث الحافي: قال موسى للخضر: أوصني فقال: يسر الله عليك طاعته [تاريخ دمشق: ١٦/٤١٦، ٤١٧].

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦/٤١٤، ٤١٥] من طريق زكرياء بن يحيى الوقار إلا أنه من الكذابين الكبار. قال: قرئ على عبد الله بن وهب وأنا أسمع قال الثوري: قال مجالد: قال أبو الوداك: قال أبو سعيد الخدري: قال عمر بن الخطاب: قال: قال رسول الله ﷺ: «قال أخي موسى يا رب ذكر كلمته فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها فقال: السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران إن ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى: هو السلام وإليه السلام والحمد لله رب العالمين الذي لا أحصي نعمه ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته. ثم قال موسى: أريد أن توصيني بوصية ينفعني الله بها بعدك. فقال الخضر: يا طالب العلم إن القائل أقل ملامة من المستمع فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك. فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار. وإنما جعلت بلغةً للعباد والتزود منها ليوم المعاد. ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم. يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له. ولا تكن مكثاراً بالمنطق مهداراً فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوئ السخفاء. ولكن عليك بالاقتصاد فإن ذلك من التوفيق والسداد. وأعرض عن الجهال وباطلهم واحلم عن السفهاء فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً، وجانبه حزماً. فإن ما بقي من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم.

يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً. فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف. يا ابن عمران لا تفتحن باباً لا تدري ما غلقه ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه. يا ابن عمران من لا تنتهي من الدنيا نهمته ولا تنقضي منها رغبته كيف يكون عابداً، ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً؟!

هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه.

يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره.

يا موسى بن عمران اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضي ربك واعمل خيراً فإنك لابد عامل سوءاً؛ قد وعظت إن حفظت».

قال: فتولى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي.

لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقار المصري كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني [تاريخ دمشق من طريق أبي نعيم:

٤١٧/١٦، ٤١٨] حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي حدثنا بقية بن الوليد عن محمد بن زياد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا أحدثكم عن الخضر؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال: تصدق علي بارك الله فيك فقال: الخضر: آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ما عندي من شيء أعطيكه فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت علي فإني نظرت إلى السماء في وجهك ورجوت البركة عندك فقال الخضر: آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي بعني.

قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء فقال له: إنك إنما ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف. قال: ليس تشق علي. قال: فانقل هذه الحجارة. وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة. فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه.

ثم عرض للرجل سفر فقال: إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة قال: فأوصني بعمل، قال: إني أكره أن أشق عليك قال: ليس تشق علي قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك فمضى الرجل لسفره فرجع وقد شيد بناءه، فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟ فقال: سألتني بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية سأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع. فقال الرجل: آمنت بالله شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت. فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله احكم في أهلي ومالي بما أراك الله أو أخيرك فأخلي سبيلك فقال: أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي فخلى سبيله. فقال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها».

وهذا حديث رفعه خطأ والأشبه أن يكون موقوفاً وفي رجاله من لا يعرف فالله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» من طريق عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك عن بقية.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤١٨/١٦، ٤٢٠] بإسناده إلى السدي أن الخضر وإلياس كانا أخوين وكان أبوهما ملكاً فقال إلياس لأبيه: إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لي في النساء فإن شئت أطلقت سراحك وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عليّ سري فقالت: نعم وأقامت معه سنة.

فلما مضت السنة دعاها الملك فقال: إنك شابة وابني شاب فأين الولد؟ فقالت: إنما الولد من عند الله إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها فأجابت إلى الإقامة عنده.

فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقالت إن ابنك لا حاجة له في النساء فتطلبه أبوه فهرب فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه. فيقال: إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره فهرب من أجل ذلك وأطلق سراح الأخرى فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول: بسم الله فقالت له: أنى لك هذا الاسم؟ فقال: إني من أصحاب الخضر فتزوجته فولدت له أولاداً.

ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت: بسم الله فقالت ابنة فرعون: أبي؟ فقالت: لا ربي وربك ورب أبيك الله فأعلمت أباها فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها فألقيت فيه فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها فقال لها ابن معها صغير: يا أمه اصبري فإنك على الحق فألقت نفسها في النار فماتت رحمها الله.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٣/١٦، ٤٢٤] عن أبي داود الأعمى نفيع وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك. ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضاً عن أبيه عن جده: أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ كلامه وهو يدعو ويقول: «اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه».

فبعث إليه رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال: قل له: إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره. الحديث.

وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً كيف لا يتمثل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلما ومتعلما وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتي إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي بعد إيراده حديث أنس هذا: وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي [دلائل النبوة: ٢٦٩/٧] قائلاً: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر وانصرف فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي: نعم هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام.

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به.

وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢٦٩/٧]: عباد بن عبد الصمد ضعيف وهذا منكر بمرة.

قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو أبو معمر البصري. روى عن أنس نسخة. قال ابن حبان [المجروحين: ١٧١/٢] والعقيلي [الضعفاء الكبير: ١٣٩/٣]: أكثرها موضوع.

وقال البخاري [التاريخ الكبير: ٤١/٦] منكر الحديث. وقال أبو حاتم [الجرح والتعديل: ٨٢/٦]: ضعيف الحديث جداً منكره. وقال بن عدي [الكامل في الضعفاء: ١٦٤٨/٤]: عامة ما يرويه في فضائل علي وهو ضعيف غال في التشيع.

وقال الشافعي في مسنده [٢١٦/١]: أخبرنا القاسم بن عبد اللّه بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال: لما توفي رسول اللّه ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في اللّه عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت فباللّه فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب.

قال علي بن الحسين: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر.

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك.

قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: يكذب. زاد أحمد: ويضع الحديث. ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا واللّه أعلم.

وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن علي [دلائل النبوة للبيهقي: ٢٦٧/٧]، ولا يصح.

وقد روى عبد اللّه بن وهب عمن حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول: لا تسبقنا يرحمك اللّه فانتظره حتى لحق بالصف فذكر دعاءه للميت إن تعذبه فكثيراً عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. ولما دفن قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفاً أو جابيا أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو. قال: فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع. فقال عمر: هذا واللّه الخضر الذي حدثنا عنه رسول اللّه ﷺ [تاريخ دمشق: ٤٢٤/١٦، ٤٢٥].

وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ بن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٦/١٦] عن الثوري عن عبد اللّه بن محرّر عن يزيد بن الأصم عن علي بن أبي طالب قال: دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يمنعه سمع عن سمع ويا من لا تغلطه المسائل ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال: فقلت: أعد علي ما قلت فقال لي: أوَ سمعته؟ قلت: نعم فقال لي: والذي نفس الخضر بيده قال: وكان هو الخضر لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر اللّه له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها اللّه له.

وهذا ضعيف من جهة عبد اللّه بن المحرر فإنه متروك الحديث؛ ويزيد بن الاصم لم يدرك علياً ومثل هذا لا يصح واللّه أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي [تاريخ دمشق: ٤١٦/١٦ من طريق أبي إسماعيل]: حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبي الأسود عن محفوظ بن عبد اللّه الحضرمي عن محمد بن يحيى قال: بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا يغلطه السائلون ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال؛ فقال له علي: يا عبد اللّه أعد دعاءك هذا قال: وقد سمعته؟ قال: نعم قال: فادع به في دبر كل صلاة فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين.

وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يعرف واللّه أعلم.

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه. ثم قال: وهذا إسناد مجهول منقطع وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٦/١٦، ٤٢٧]: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد أنبأنا أبو إسحاق المزكي حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملّه علينا بعبادان أنبأنا عمرو بن عاصم حدثنا الحسن بن رزين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبي ﷺ قال: «يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: بسم اللّه ما شاء اللّه لا يسوق الخير إلا اللّه ما شاء اللّه لا يصرف الشر إلا اللّه ما شاء اللّه ما كان من نعمة فمن اللّه ما شاء اللّه لا حول ولا قوة إلا باللّه».

قال: وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات آمنه اللّه من الغرق والحرق والسرق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب.

قال الدارقطني في الأفراد: هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه - يعني الحسن بن رزين هذا.

وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي ليس بالمعروف.

وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ.

وقال أبو الحسين بن المنادي: هو حديث واهن بالحسن بن رزين الحسن بن زريق.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٧/١٦] نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي وهو كذاب عن ضمرة بن حبيب المقدسي عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيري عن عبد اللّه بن الحسن عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال: «يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر».

وذكر حديثاً طويلا موضوعاً تركنا إيراده قصداً وللّه الحمد.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٨/١٦] من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني عن ابن أبي رواد قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ويحجان في كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من قابل.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٠٢/١٦، ٤٠٣] أن الوليد بن عبد الملك بن مروان باني جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلة في المسجد فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء فقال للقومة: ألم آمركم أن تخلوه! فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ههنا.

وقال ابن عساكر أيضاً [تاريخ دمشق: ٤٣٢/١٦]: أنبأنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبري أنبأنا أبو الحسين بن الفضل أنبأنا عبد اللّه بن جعفر حدثنا يعقوب هو ابن سفيان الفسوي حدثني محمد بن عبد العزيز حدثنا ضمرة عن السري بن يحيى عن رياح بن عبيدة قال: رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه فقلت في نفسي: إن هذا الرجل حافٍ قال: فلما انصرف من الصلاة قلت: من الرجل الذي كان معتمداً على يديك آنفاً؟ قال: وهل رأيته يا رياح؟ قلت: نعم قال ما

أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر بشرني أني سالي وأعدل.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: الرملي مجروح عند العلماء. وقد قدح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة والسري ورياح.

ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر وضعفها كلها.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦/٤٢٩، ٤٣٣] أيضاً: أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم.

وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد. وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره لأنه يجوز عليه الخطأ والله أعلم.

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٨٢٤)] أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال وقال فيما يحدثنا: «يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيرهم فيقول: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ بحديثه فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحيى: والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن قال: فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه».

قال معمر: بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين [خ (١٨٨٢، ٧١٣٢)، م (٢٩٣٨)] من حديث الزهري به.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم: الصحيح أن يقال: إن هذا الرجل الخضر. وقول معمر وغيره بلغني ليس فيه حجة.

وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث فيأتي بشاب ممتلئ شباباً فيقتله [م (٢٩٣٧)، ت (٢٢٤٠)، ج (٤٠٧٥)].

وقوله: الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر.

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد.

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتابا سماه "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر" فيحتج لهم بأشياء كثيرة.

منها قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصُرُنه.

ذكره البخاري عنه فالخضر إن كان نبياً أو وليّاً فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حيا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره إن وصل أحد من الأعداء إليه لأنه إن كان وليّاً فالصديق أفضل منه وإن كان نبيا فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده [٣/٣٨٧] حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني».

وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة.

وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعاً له وتحت أوامره وفي عموم شرعه.

كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك.

هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل ومعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل واستنصره واستفتحه على من كفره: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض» [م (١٧٦٣)، ت (٣٠٨١)، أحمد (٢/٣٠، ٣٢)].

وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال: إنه أفخر بيت قالته العرب:

وببدر إذ يرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمدُ

فلو كان الخضر حيّاً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته.

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض أصحابنا عن الخضر: هل مات؟ فقال: نعم.

قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال: وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ، نقله ابن الجوزي في العجالة.

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه.

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات. ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته.

ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار. وجوبه الفيافي والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهُّم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين [خ (٦٠١)، م (٢٥٣٧)] وغيرهما [د (٤٣٤٨)، ت (٢٢٥١)، س (كبرى ٥٨٧١)] عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد». وفي رواية [مشكل الآثار: ١٦١/١ من حديث أبي مسعود] «عين تطرف».

قال ابن عمر: فَوَهِلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه.

قال الإمام أحمد [٨٨/٢] حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري قال: أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة أن عبد الله بن عمر قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد».

وأخرجه البخاري [١١٦، ٥٦٤] ومسلم [٢٥٣٧] من حديث الزهري.

وقال الإمام أحمد [٣٠٥/٣، ٣٠٦]: حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «ما من نفس منفوسة» أو «ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية».

وقال أحمد [٣٤٥/٣]: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر «يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة».

وهكذا رواه مسلم [٢٥٣٨] من طريق أبي نضرة وأبي الزبير كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه.

وقال الترمذي [٢٢٥٠]: حدثنا هنّاد، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة» وهذا أيضاً على شرط مسلم.

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر.

قالوا فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والإعلام [١٩٠/١] عن البخاري وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر.

ورجح السهيلي بقاءه وحكاه عن الأكثرين.

قال: وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت فمروي من طرق صحاح ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه [التعريف والإعلام: ١٩٥/١ - ١٩٨] ولم يورد أسانيدها والله أعلم.

٥٧- قصة إلياس عليه السلام

أمَّا إلياس عَلَيْه السَّلام فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

قال علماء النسب: هو إلياس بن تسبي.

ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون.

وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران.

قالوا: وكان أرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلاً.

وقيل: كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح.

ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم.

قال أبو يعقوب الأذرعي عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولي غيره فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم [تاريخ دمشق: ٣٠٥/٩].

وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة أو قال: أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه [أخرجه من طريق ابن أبي الدنيا ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٢٠٦/٩].

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال: أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران ثم إلياس بن تسبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام [طبقات ابن سعد: ٥٤/١، ٥٥ مطولاً].

هكذا قال: وفي هذا الترتيب نظر.

وقال مكحول عن كعب: أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض إلياس والخضر واثنان في السماء إدريس وعيسى [تاريخ دمشق: ٢٠٧/٦].

وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل.

وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة وبينا أنه لم يصح شيء من ذلك وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليهما السلام.

وما ذكره وهب بن منبه وغيره [تفسير الطبري: ٢٣/٩٣، ٩٤ عن ابن إسحاق مطولاً] أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشاً وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً وأوصى إلى اليسع بن أخوطب ففي هذا نظر وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٥/٤٢١]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني ببخارى حدثنا عبد الله بن محمود حدثنا عبدان بن سنان حدثني أحمد بن عبد الله البرقي حدثنا يزيد بن يزيد البلوي حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي عن مكحول عن أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول: اللّهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المثاب لها قال فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: فأين هو؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك قال: فأته فأقرئه السلام وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم. ثم قعدا يتحادثان فقال له: يا رسول الله إني ما آكل في سنة إلا يوماً وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس فأكلا وأطعماني وصلينا العصر ثم ودعه ورأيته مر في السحاب نحو السماء.

فقد كفانا البيهقي أمره وقال: هذا حديث ضعيف بمرة والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين وهذا مما يستدرك به على المستدرك فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه. ومعناه لا يصح أيضاً فقد تقدم في الصحيحين [خ (٦٢٢٧)، م (٢٨٤١)] أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء» إلى أن قال: «ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه.

وهذا لا يصح لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء.

وفيه أنه يأكل في السنة مرة وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر.

وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى [تاريخ دمشق: ٩/٢١٢، ٢١٤] واعترف بضعفها وهذا عجب منه كيف تكلم عليه فإنه أورده من طريق خير بن عرفة عن هانئ بن الحسن عن بقية عن الأوزاعي عن مكحول عن واثلة بن الأسقع فذكر نحو هذا مطولاً. وفيه: أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان قالا: فإذا هو أعلى جسماً منّا بذراعين أو ثلاثة واعتذر بعدم قدومه لئلا تنفر الإبل.

وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة وقال: إن لي في كل أربعين يوماً أكلة وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث.

وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال: عهدي به عام أول وقال لي: إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام.

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة وهذا لا يسوغ شرعاً وهذا موضوع أيضاً.

وقد أورد ابن عساكر طرقاً [تاريخ دمشق: ٩/٢١٤ ـ ٢١٧] فيمن اجتمع بإلياس من العباد وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها.

ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا [من طريقه تاريخ دمشق: ٩/٢١٦ ـ ٢١٧]: حدثني بشر بن معاذ حدثنا حماد بن واقد عن ثابت قال: كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطاً أصلي فيه ركعتين فافتتحت ﴿حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ١-٣].

فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لي: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي. وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فقل: يا قابل التوب تقبل توبتي. وإذا قلت: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني. وإذا قلت: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ فقل: يا ذا الطول تطول علي برحمة.

فالتفت فإذا لا أحد وخرجت فسألت: مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية؟ فقالوا: ما مر بنا أحد فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي للعذاب إما في الدنيا والآخرة وإمّا في الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي إلا من آمن منهم وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي سلام على إلياس. العرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين وإلياس وإلياسين.

ومن قرأ «سلام على آل ياسين» أي على آل محمد.

وقرأ ابن مسعود وغيره «سلام على إدراسين».

ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم بالصواب.

ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام:

قال ابن جرير في تاريخه [١/٤٥٧]: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا ـ يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام ـ وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

قال ابن جرير [تاريخه: ١/٤٥٧]: ثم من بعده كان القائم بأمور بني

إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو الذي دعا الله فأحيا ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

٥٨- قصة حزقيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. [البقرة: ٤٣]

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو ابن العجوز وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [تفسير الطبري: ٥٨٧/٢، ٥٨٨].

قال ابن إسحاق: فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله: موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد [تاريخ دمشق: ٤٦٠/١].

وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قالوا: كانت قرية يقال لها: دار وردان قبل واسط وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير.

فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبي يقال له: حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه فأوحى الله إليه: تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم.

وإنما كان تفكر أنه تعجب من قدرة الله عليهم فقيل له: ناد فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام ثم أوحى الله إليه أن ناد: يا أيتها العظام ان الله يأمرك أن تكتسي لحماً. فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها. ثم قيل له: ناد فنادى: أيتها الأجساد ان الله يأمرك أن تقومي فقاموا.

قال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد: أنهم قالوا حين أحيوا: (سبحانك ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت) فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد كفناً دسماً حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم [تفسير الطبري: ٥٨٧/٢].

وعن ابن عباس: أنهم كانوا أربعة آلاف.

وعنه: ثمانية آلاف.

وعن أبي صالح: تسعة آلاف.

وعن ابن عباس أيضاً: كانوا أربعين ألفاً.

وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات.

وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثلٌ يعني أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حذر من قدر.

وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع.

وقد روى الإمام أحمد [١٩٤/١] وصاحبا الصحيح [خ (٥٧٢٩)، م (٢٢١٩)] من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام؛ فذكر الحديث؛ يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف.

وقال الإمام أحمد [١٩٣/١]: حدثنا حجاج ويزيد، المعنى، قالا: حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري عن سالم عن عبدالله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»

قال: فرجع عمر من الشام.

وأخرجاه [خ (٥٧٣٠، ٦٩٧٣)، م (٢٢١٩)] من حديث مالك عن الزهري بنحوه.

قال محمد بن إسحاق: ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل. ثم إن الله قبضه إليه. فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبلونه من الأصنام صنم يقال له: بعل؛ فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران [تاريخ الطبري: ٤٦٠/١، ٤٦١].

قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر؛ لأنهما يقرنان في الذكر غالباً ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه [تاريخ الطبري: ٤٦٤/١] قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه إليسع بن أخطوب عليه السلام وهذه:

٥٩- قصة إليسع عَلَيه السّلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة: أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام فمكث ماشاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه.

ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء. وكان فيهم ملك جبار عنيد طاغ، ويقال: إنه الذي

تكفل له ذو الكفل إن هو تاب وراجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل.

قال محمد بن إسحاق: هو إليسع بن أخطوب [تاريخ الطبري: ١/٤٦٢].

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في حرف الياء من تاريخه [١٧/١٠٩]: إليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

ويقال: هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام.

ويقال: كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده.

ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه.

قال: وقال غيره كان الأسباط بانياس.

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ «الليسع»، وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء.

قلت: قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام؛ لأنه قد قيل: إنه ابن أيوب فالله أعلم.

فصل:

قال ابن جرير [تاريخه: ١/٤٦٤ ـ ٤٦٦] وغيره: ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت فيهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم عليه وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له: شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه.

قال ابن جرير [تاريخه: ١/٤٦٥]: فكان بين وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة.

ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً.

٦٠- قصّة شمويل وبعض أمر داود عليهما السّلام

هو شمويل ويقال: أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن أليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا [انظر تاريخ الطبري: ١/٤٦٧].

قال مقاتل: هو من ذرية هارون.

وقال مجاهد: هو أشمويل بن هلفاقا. ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا فالله أعلم.

حكى السدي [تاريخ الطبري: ١/٤٦٧، ٤٦٨] بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم: أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوي ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً فسمته أشمويل، ومعناه بالعبرانية إسماعيل أي: سمع الله دعائي.

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته، فكان عنده.

فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد، فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه، فسأله: أدعوتني؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم نم. فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة، فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك.

فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١]

قال أكثر المفسرين: كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل.

وقيل: شمعون.

وقيل: هما واحد.

وقيل: يوشع؛ وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه [١/٤٦٥] أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ أي: وأي شيء يمنعنا من القتال.

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ يقولون: نحن محروبون موتورون فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهوبين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾.

قال الثعلبي [عرائس المجالس: ص٢٣٥]: وهو طالوت بن قيس بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال عكرمة والسدي: كان سقاء.

وقال وهب بن منبه: كان دباغاً. وقيل غير ذلك فالله أعلم.

ولهذا ﴿قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾.

وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي وأن الملك كان في سبط يهوذا فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا: نحن أحق بالملك منه وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكاً! ﴿قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

قيل: كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أي بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم وقال لهم: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ قيل: في أمر الحروب وقيل: بل مطلقا.

﴿وَالْجِسْمِ﴾ قيل: الطول وقيل: الجمال.

والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام.

﴿وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر

﴿وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء.

وقيل: السكينة مثل الريح الخجوج [تفسير الطبري: ٦١١/٢].

وقيل: صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ قيل: كان فيه رضاض الألواح وشيء من المن الذي كان ينزل عليهم بالتيه.

﴿تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة.

وقيل: كان فيه التوراة أيضاً فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم فوضعوه تحته فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم فأخذهم داء في رقابهم.

فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة.

والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله أعلم.

وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾

قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الاردن وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أن من شرب من هذا النهر اليوم فلا يصحبني في هذه الغزوة ولا يصحبني إلا من لم يطعمه إلا غرفة في يده.

قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً فتبقّى معه أربعة آلاف كذا قال.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل [٣٩٥٨] وزهير [٣٩٥٧] والثوري [٣٩٥٩] عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة.

وقول السدي أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر؛ لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ﴾ أي استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني ثبتهم الشجعان منهم. والفرسان أهل الايمان والإيقان الصابرون على الجلاد والجدال والطعان.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أي يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الإبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا.

ولهذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ﴾ أي بحول الله لا بحولهم وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ

مِمَّا يَشَاءُ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الايمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه. ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

وقد ذكر السدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول: من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته في ملكي وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهو المقلاع رمياً عظيماً، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر: أن: خذني فإن بي تقتل جالوت فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإني أكره قتلك فقال: لكني أحب قتلك. وأخذ تلك الأحجار الثلاثة من مِخْلاتِهِ فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً. ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إليه وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل. ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكي حتى يبل الثرى بدموعه فنودي ذات يوم من الجبانة: أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة فقيل له: وهل أبقيت عالماً؟ حتى دل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام.

قالوا: فدعت الله فقام يوشع من قبره فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة؟ فقال: نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل. ثم عاد ميتاً، فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا فذلك قوله: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه [١/٤٧٢ - ٤٧٥] من طريق السدي بإسناده. وفي بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو إليسع بن أخطوب حكاه ابن جرير [تاريخه: ١/٤٧٥] أيضاً.

وذكر الثعلبي [عرائس المجالس: ٢٤٣] أنها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور وهذا أنسب. ولعله إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حيا فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي وتلك المرأة لم تكن نبية والله أعلم.

وقال ابن جرير [تاريخه: ١/٤٧٥]: وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده كانت أربعين سنة فالله أعلم.

٦١- قصّةُ داود عليه السلام

هو داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس.

قال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ١/٤٧٦] عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب نقيه.

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/٨٠] عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خيري الدنيا والآخرة. وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمع في داود هذا.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي لولا إقامه الملوك حكاما على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم. ولهذا جاء في بعض الآثار: «السلطان ظل الله في أرضه» [السنة لابن أبي عاصم (١٠١٧) (١٠٢٤)].

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) وقد ذكر ابن جرير في تاريخه [١/٤٧٨]: أن جالوت لما بارز طالوت فقال له: اخرج إلي واخرج اليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت.

قال وهب بن منبه: فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم: إنه ولاه قبل الوقعة.

قال ابن جرير [تاريخه: ١/٤٧٨]: والذي عليه الجمهورأنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/٨٠] عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقال تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ. وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. [الأنبياء: ٧٩-٨٠]

اعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم.

قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة وغيرهم.

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.

قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت في الحديث الصحيح [خ (٢٠٧٢)]: «إنَّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده».

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ. وَشَدَدْنَا

مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].

قال ابن عباس ومجاهد: الأيد: القوة في الطاعة يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح.

قال قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام.

قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (١١٣١)، م (١١٥٩)] أن رسول اللّه ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود وأحب الصيام إلى اللّه صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر اذا لاقى».

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ كما قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أي: سبحي معه قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان اللّه تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرَجِّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً صلوات اللّه وسلامه عليه.

وقال الأوزاعي: حدثني عبد اللّه بن عامر قال: أعطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى إن الانهار لتقف.

وقال وهب بن منبه: كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً

وقال أبو عوانة الإسفراييني: حدثنا أبو بكر ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسي سمعت صبيحاً أبا تراب (ح) قال أبو عوانة: وحدثني أبو العباس المرِّي، حدثنا محمد بن صالح العدوي حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك قال: كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذاري؛ وهذا غريب.

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج: سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال: وما بأس بذلك سمعت عبيد بن عمير يقول: كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك: أن يبكي ويُبكي.

وقال الإمام أحمد [٦/١٦٧]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: سمع رسول اللّه ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود» وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه

وقال أحمد [٢/٣٥٤]: حدثنا حسن حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود» على شرط مسلم.

وقد روينا عن أبي عثمان النهدي أنه قال لقد سمعت البربط والمزمار فما سمعت صوتا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري.

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام أحمد [٢/٣١٤]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «خفف على داود القراءة فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل الا من عمل يديه».

وكذلك رواه البخاري [٣٤١٧] منفرداً به عن عبد اللّه بن محمد عن عبد الرزاق به ولفظه: «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه.»

ثم قال البخاري: ورواه موسى ابن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه [١٧/٨٩، ٩٠] من طرق عن إبراهيم ابن طهمان عن موسى بن عقبة. ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به.

والمراد بالقرآن هنا الزبور الذي أنزله اللّه عليه وأوحاه إليه وذكر دوابّه أشبه أن يكون محفوظاً فإنه كان ملكاً له أتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع صلوات اللّه وسلامه عليه وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [الإسراء: ٥٥].

والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد [٤/١٠٧] وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو مشهور معروف لمن نظر فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] أي أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا.

روى ابن جرير [تفسيره ٢٣/١٣٨، ١٣٩] وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المدعي عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى اللّه إليه أن يقتل المدعي فلما أصبح قال له داود إن اللّه قد أوحى إلي أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا؟ قال: واللّه يا نبي اللّه إني لمحق فيما ادعيت عليه ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فقتلته فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعا عظيما.

قال ابن عباس وهو قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم: فصل الخطاب الشهود والأيمان؛ يعنون بذلك البينة على المدعي واليمين على من أنكر.

وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير.

وهذا لا ينافي ما روي عن أبي موسى أنه قول: أما بعد.

وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطي داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل اليها فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند السلسلة تناولها المدعي فلما قيل للآخر: خذها بيدك. عمد إلى العكاز فأعطاه المدعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال اللّهم: إنك تعلم أني دفعتها إليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بني إسرائيل. ثم رفعت سريعاً من بينهم [عرائس المجالس: ٢٤٦].

ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين.

وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ. إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴿س﴾. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٥]

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدة "ص" هل هي من عزائم السجود أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين.

قال البخاري [٣٤٢١]: حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة ﴿ص﴾ فقال سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وقد قال الإمام أحمد [٣٦٠/١]: حدثنا إسماعيل هو ابن علية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجود في «ص» ليست من عزائم السجود. وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

وكذا رواه البخاري [٣٤٢٢] وأبو داود [١٤٠٩] والترمذي [٥٧٧] والنسائي [كبرى (١١١٧٠)] من حديث أيوب وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال النسائي [٩٥٦]: أخبرني إبراهيم بن الحسن المقسمي حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في "ص" وقال: «سجدها داود توبة ونسجدها شكراً».

تفرد به أحمد ورجاله ثقات.

وقال أبو داود [١٤١٠]: حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزَّن الناس للسجود فقال: «إنما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشزَّنتم» فنزل وسجد.

تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد [٧٨/٣]: حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عمر وأبو الصديق الناجي أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب "ص" فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال: فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد.

تفرد به أحمد.

وروى الترمذي [٥٧٩] وابن ماجه [١٠٥٣] من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج: حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدتُ فسجدتْ الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً واجعلها لي عندك ذخراً وضع عني بها وزراً واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود»

وقال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة. ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً.

وقاله مجاهد والحسن وغيرهما [تفسير الطبري: ١٤٨/٢٣ ـ ١٥٠].

وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي [تفسير الطبري: ١٥٠/٢٣ ـ ١٥١] وهو ضعيف متروك الرواية.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. [ص: ٢٥] أي وإن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في الحديث [م (١٨٢٧)] «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا».

وقال الإمام أحمد في مسنده [٢٢/٣]: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر» وهكذا رواه الترمذي [١٣٢٩] من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به. وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قال: يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أرده عليك اليوم قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]

هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد: ولاة الامور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك. وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا تمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلا ونهاراً كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا إسمعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا صالح المري عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد قال: قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحي: "أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يارب قال: فإني أرضى بذلك منك".

وقال البيهقي [شعب الإيمان (٤٤١٦)]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا

أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن يونس القرشي حدثنا روح بن عبادة حدثني عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال: قال داود: "الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله, فأوحى الله إليه أنك أتعبت الحفظة يا داود".

ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا [كتاب الشكر ص١٩] عن علي بن الجعد عن الثوري مثله.

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد [ص٣١٣]: أنبأنا سفيان الثوري عن رجل عن وهب بن منبه قال: إن في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه. وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث: زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة في غير محرَّم.

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا [كتاب الصمت (٣١)] عن أبي بكر بن أبي خيثمة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره.

ورواه أيضاً عن علي بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره.

وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته.

قال ابن عساكر وقال عبد الرزاق [المصنف (١١٧٩٠)]: أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له: أبو عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه؛ فذكر مثله.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم. واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.

وروي بسند غريب مرفوعاً قال داود: يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها.

وعن داود عليه السلام أنه قال [المصنف لابن أبي شيبة (٢٠٣/١٣)]: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت.

وقال أيضاً: ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى.

وقال: انظرما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت.

وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٠٢/٨]: أنبأنا محمد بن عمر الواقدي حدثني هشام بن سعد عن عمر مولى غفرة قال: قالت يهود لما رات رسول الله ﷺ يتزوج النساء: انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا: لو كان نبياً ما رغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] يعني بالناس: رسول الله ﷺ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥٤] يعني ما أتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهيرة وثلاثمائة سرية وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ.

وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية.

وروى الحافظ في تاريخه [تاريخ دمشق: ٤٧/٢٤] في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشقي أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديث كان عندي في التخت مخزوناً إن شئت انبأتك بصوم داود فإنه كان صواماً قواماً وكان شجاعا لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يُلوِّن فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهموم والمحموم.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح وكان رامياً لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم.

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين.

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول: «إن ذلك صوم الدهر» وقد رواه الإمام أحمد [٣١٤/١] عن أبي النصر عن فرج بن فضالة عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود.

٦٢- عمرُ داود ووفاته

قد تقدم في ذكر الاحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلا يزهر فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قال: أي رب كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أي رب زد في عمره قال: لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فاتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة. رواه أحمد [٢٥١/١] عن ابن عباس والترمذي [٣٠٧٦] وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان [الإحسان (٦١٧٦)]. وقال الحاكم [٣٢٥/٢]: على شرط مسلم.

وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٨٥/١]: وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعا وسبعين سنة.

قلت: هذا غلط مردود عليهم. قالوا: وكان مدة ملكه أربعين سنة وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده [٤١٩/٢]: حدثنا

قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود النبي عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع.

قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمتنع مني شيء فقال داود: أنت والله ملك الموت فمرحباً بأمر الله فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فُرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أظلي على داود فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض فقال لها سليمان: اقبضي جناحا جناحاً قال: قال أبو هريرة: يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير. وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية.

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات.

ومعنى قوله وغلبت عليه يومئذ المضرحية أي: وغلبت على التظليل عليه المضرحيه، وهي: الصقور الطوال الاجنحة واحدها مضرحي.

قال الجوهري: وهو الصقر الطويل الجناح.

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: مات داود عليه السلام فجأة وكان يسبت وكانت الطير تظله.

وقال السدي أيضاً عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة.

وقال أبو السكن الهجري: مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين رواه ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ١٤٠/٨].

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له: دعني أنزل أو أصعد فقال: يا نبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق. قال: فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال: إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال: وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون الف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود قال: فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعجل عليهم لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها فأظلت الناس قال: فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم فخرج سليمان فنادى الطير: أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح ففعلت فكان الناس في ظل وتهبُّ عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوا من ملك سليمان [مختصر تاريخ دمشق: ١٤٠/٨، ١٤١].

وقال الحافظ أبو يعلى [الإحسان من طريق أبي يعلى (٦٢٣٦)]: حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثني الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة».

هذا حديث غريب وفي رفعه نظر والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث والله أعلم.

٦٣- قصّة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٣٠/٢٢]: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عميناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الربيع نبي الله ابن نبي الله.

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق.

قال ابن ماكولا [الإكمال: ٥٢/٧]: فارص بالصاد المهملة.

وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد وراثة المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم ولأنه قد ثبت في الصحاح [خ (٣٠٩٣)، م (١٧٥٩) من حديث أبي بكر] من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

وفي لفظ: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورث» [أحمد: ٤٦٣/٢].

فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا علي بن حمشاذ حدثنا إسمعيل بن قتيبة حدثنا علي بن قدامة حدثنا أبو جعفر الاسواني يعني محمد بن عبد الرحمن عن أبي يعقوب القُمّيّ حدثني أبو مالك قال: مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبي الله؟ قال: يخطبها إلى نفسه ويقول: زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت. قال سليمان عليه السلام: لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب.

رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٣٢/٢٢] عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به.

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات.

ثم قال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي من بارئ البريات وخالق

الأرض والسماوات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ - ١٩]

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جَرَسَ رسا وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب.

وفي هذا كله نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره؛ إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني وارشدني.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن يسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له.

والمراد بوالديه أبوه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما:

قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة». رواه ابن ماجه [١٣٣٢] عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه.

وقال عبد الرزاق [تاريخ دمشق: ٢٨٨/٢٢] عن معمر عن الزهري أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٨/٢٢] وقد روي مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان.

ثم ساقه [تاريخ دمشق: ٢٨٨/٢٢] من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة».

وقال السدي: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول: «اللّهم إنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك» قال: فصب الله عليهم المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٢٠ - ٣٧]

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك.

وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره [تفسير الطبري: ١٤٣/١٩] أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم.

فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي.

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ توعده بنوع من العذاب. اختلف المفسرون فيه: والمقصود حاصل على كل تقدير.

﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة تنجيه من هذه

الورطة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر صادق.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم.

وذكر الثعلبي [عرائس المجالس ص٢٧٨، ٢٧٩ مطولاً] وغيره [الكامل لابن الأثير: ١/٢٣٠ - ٢٣٣] أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت البشرخ وهو الهدهاذ وقيل: شراحيل بن ذي جدن بن البشرخ بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال: إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت الشكر فولدت له هذه المرأة واسمها بلعمة ويقال لها: بلقيس.

وقد روى الثعلبي [عرائس المجالس: ص٢٧٨] من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كان أحد أبوي بلقيس جنياً».

وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف.

وقال الثعلبي [عرائس المجالس: ص٢٧٩]: أخبرني أبوعبدالله بن قبحونة حدثنا أبو بكر بن جرجة حدثنا ابن أبي الليث حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بكرة قال: ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف.

وقد ثبت في صحيح البخاري [٤٤٢٥، ٧٠٩٩] من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

ورواه الترمذي [٢٢٦٢] والنسائي [كبرى (٥٩٣٧)] من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الترمذي: حسن صحيح

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلىء والذهب والحلي الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي واقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة.

فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له.

فذكر غير واحد من المفسرين [تفسير الطبري: ١٩/١٥٢] وغيرهم [عرائس المجالس ص٢٨٠] أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها وأولي مشورتها.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تعني ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنون: لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الابطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلي ولم تكن الحدة الشديدة والسطوة البليغة إلا علي.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم - والحالة هذه - صرفاً ولا عدلاً؛ لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

يقول: ارجع بهديتك التي قدمت بها الى من قد منّ بها فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخيرمن هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين. فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ. قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٤]

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان.

وقيل: هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم.

وقيل: رجل من بني إسرائيل من علمائهم.

وقيل: إنه سليمان. وهذا غريب جداً. وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام.

قال: وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل [التعريف والإعلام ص٢٣٧]

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل معناه: قبل أن تبعث رسولاً إلى اقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود اليك.

وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس.

وقيل: قبل أن يكلّ طرفك إذا ادمت النظر به قبل أن تطبق جفنك.

وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته [انظر ما سلف من الأقوال تفسير الطبري: ١٩/١٦٣، ١٦٤] وهذا أقرب ما قيل.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ﴾ أي فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين.

﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكّر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال:

﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم ان احداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله تعالى اخباراً عن سليمان وقومه ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفاً من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها وخشوا أن يتزوجها؛ لأن أمها من الجان فتسلط عليهم معه.

وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة [تفسير الطبري: ١٩/١٦٨، ١٦٩].

وهذا ضعيف. وفي الأول أيضاً نظر والله أعلم.

إلا أن سليمان قيل: إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال: اوه من عذاب الله اوْهِ اوْهِ قبل أن لا ينفع أوْه. رواه الطبراني مرفوعاً [عزاه الهيثمي في «المجمع» ١/٢٧٩، ٨/٢٠٧ للطبراني في الكبير والأوسط] وفيه نظر.

وقد ذكر الثعلبي [عرائس المجالس: ٢٨٦] وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا لها ثلاثة قصور باليمن غمدان وسالحين وبينون فالله أعلم.

وقد روى ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ١/٤٩٤، ٤٩٥] عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر واظهر والله أعلم.

وقال تعالى في سورة ص ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ. وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ. هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. [ص: ٣٠ - ٤٠]

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله عليه تعالى فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع مطيع لله.

ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات - وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة - الجياد وهي المضمرة السراع.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس. وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف.

وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول.

فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس.

روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره [تفسير الطبري: ٢٣/١٥٥].

والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللّهم إلا أن يقال: إنه كان سائغاً في شريعتهم تأخير الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك.

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعي وغيره.

وقال مكحول والأوزاعي: بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف.

وقال آخرون: بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم.

وأما من قال: الضمير في قوله ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ عائد على الخيل وإنه لم تفته وقت صلاة.

وإن المراد بقوله ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير [تفسيره: ٢٣/١٥٥، ١٥٦].

ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق [تفسير الطبري: ٢٣/١٥٦].

ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها.

وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم.

وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها؛ وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بموته.

وقد قيل: إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل: كانت عشرة آلاف فرس.

وقيل: كانت عشرين ألف فرس.

وقيل: كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة [تفسير الطبري: ٢٢/١٥٤].

وقد روى أبو داود في سننه [٤٩٣٢] حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبي مريم أنبأنا يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال: «ما هذا يا عائشة؟» فقالت: بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس قال: «وما الذي عليه هذا؟» قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كان غدوها شهراً ورواحها شهراً كما سيأتي الكلام عليها.

كما قال الإمام أحمد [٥/٧٨، ٧٩]: حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال: «إنك لا تَدَع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه».

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾. ذكر ابن جرير. وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة.

ومضمون ما ذكروه: أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكماً.

وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام. كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» [خ (٣٣٦٦)، م (٥٢٠)].

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله بيت المقدس:

كما قال الإمام أحمد [٢/١٧٦] والنسائي [٦٩٢] وابن ماجه [١٤٠٨] وابن خزيمة [١٣٣٤] وابن حبان [الإحسان (١٦٣٣)] والحاكم [المستدرك: ١/٣٠] بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه وسأله إيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها».

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف [تفسير الطبري: ١٧/٥٠ ـ ٥٤] أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين أي رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال: بما حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم الكرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين [خ (٣٤٢٧)، م (١٧٢٠)] من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال: ائتوني

بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها».

ولعل كلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ولكن ما قاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ. وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾. [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾. [الأنبياء: ٨١ ـ٨٢]

وقال في سورة ص: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ. هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. [ص: ٣٦ ـ ٤٠].

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]أي حيث أراد من أي البلاد.

كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار.

ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ ـ١٣].

قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر [تفسير الطبري: ٦٩/٢٢].

قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الأقوال.

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد: هو النحاس.

قال قتادة: وكانت باليمن أنبعها الله له.

قال السدي: ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها [أخرج هذه الأقوال المتقدمة الطبري في تفسيره: ٦٩/٢٢].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس.

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغا في شريعتهم وملتهم.

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾. قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض.

وعنه: كالحياض.

وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم [تفسير الطبري: ٧١/٢٢، ٧٢].

وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء كما قال الأعشى:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقي تفهق

وأما القدور الراسيات:

فقال عكرمة: أثافيها منها يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن.

وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨].

يعني أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود.

هذا كله من جملة ماهيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن أيضاً لمن كان قبله

وقد قال البخاري [٣٤٢٣]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبيصلي الله عليه وسلم قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] فرددته خاسئاً».

وكذا رواه مسلم [٥٤١] والنسائي [كبرى (١١٤٤٠)] من حديث شعبة.

وقال مسلم [٥٤٢]: حدثنا محمد بن سلمة المرادي حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك! قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات

ثم قلت: ألعنك بلعنة اللّه التامة فلم يستأخر ثلاث مرات. ثم أردت أخذه واللّه لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة.»

وكذا رواه النسائي [١٢١٤] عن محمد بن سلمة به.

وقال أحمد [٨٢/٣]: حدثنا أبو أحمد حدثنا مسرّة بن معبد حدثنا أبو عبيد صاحب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول اللّه ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل.»

روى أبو داود [٦٩٩] منه «فمن استطاع» إلى آخره. عن أحمد ابن سريج عن أبي أحمد الزبيري به.

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري وقيل: بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء [تاريخ الطبري: ٤٨٧/١]. وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً.

قال البخاري [٣٤٢٤]: حدثنا خالد بن مخلد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل اللّه فقال له صاحبه: إن شاء اللّه فلم يقل فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه» فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل اللّه.»

وقال شعيب وابن أبي الزناد: تسعين. وهو أصح تفرد به البخاري من هذا الوجه

وقال أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا يزيد أنبانا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل اللّه. ولم يقل: إن شاء اللّه فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان» فقال رسول اللّه ﷺ: «لو قال: إن شاء اللّه لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل اللّه عز وجل.» إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٢٢٩/٢]: حدثنا هشيم حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال سليمان بن داود: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل اللّه ولم يستثن فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان» قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل اللّه عز وجل» تفرد به أحمد أيضاً.

وقال الإمام أحمد [٢٧٥/٢]: حدثنا عبد الرزاق أنبانا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل اللّه. قال: ونسي أن يقول: إن شاء اللّه فأطاف بهن قال: فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان» فقال رسول اللّه ﷺ: «لو قال: إن شاء اللّه لم يحنث وكان دركاً لحاجته».

وهكذا أخرجاه في الصحيحين [خ (٥٢٤٢)، م (١٦٥٤)] من حديث عبد الرزاق به مثله.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة: أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوماً: لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل اللّه ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان» فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو استثنى فقال: إن شاء اللّه لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل اللّه عز وجل.» [أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق إسحاق بن بشر: ٢٥٨/٥].

وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح.

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه اللّه أحداً بعده كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

وقد أعطاه اللّه ذلك بنص الصادق المصدوق.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فإن اللّه قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يعطي أحدا ولا يمنع أحداً إلا بإذن اللّه له في ذلك. وقد خير نبينا محمد صلوات اللّه وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً [أحمد: ٢٣١/٢].

وفي بعض الروايات [الطبراني في الكبير (١٣٣٠٩)] أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات اللّه وسلامه عليه. وقد جعل اللّه الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة [خ (٣١١٦)، م (١٠٣٧)]، فللّه الحمد والمنة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠]

٦٤- ذكر وَفاته ومدّة ملكه وحياته

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. [سبأ: ١٤]

روى ابن جرير [تفسيره: ٧٤/٢٢] وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان نبي اللّه عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول كذا فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كُتبت، فبينما هو

يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك؟ قالت: الخروب قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت فقال سليمان: اللَّهم عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين.»

قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك.

قال: فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء. لفظ ابن جرير وعطاء الخراساني في حديثه نكارة.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٢/٢٩٦، ٢٩٧] من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً. وهو أشبه بالصواب والله أعلم.

وقال السدي في خبر ذكره [تفسير الطبري: ٢٢/٧٥] عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود. وعن أناس من الصحابة: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فادخله في المرة التي توفي فيها.

فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت: نبتُّ دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة فقال: ولأي شيء نبت؟ فقالت: نبت لخراب هذا المسجد فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له.

ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوىً بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة. ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهي قراءة ابن مسعود فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملا فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له؛ وذلك قول الله عز وجل: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

يقول: تبينَ أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم.

ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين.

قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت.

قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين شكراً لها.

وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

وقال أبو داود في كتاب القدر: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني قال: ما أنا بأعلم بذلك منك إنما هي كتب تلقى إليَّ فيها تسمية من يموت.

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال سليمان لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لم سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت.

قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي قال: فبعث الله دابة الأرض يعني إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [تفسير الطبري: ٢٢/٧٥، ٧٦]. [سبأ: ١٤]

قال أصبغ: ويلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خر.

وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم.

قال إسحاق بن بشر [تاريخ دمشق: ٢٢/٢٩٩] عن محمد إبن إسحاق عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة.

وقال إسحاق أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس: أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم.

وقال ابن جرير [تاريخه: ١/٥٠٣] فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر [تاريخه: ١/٥٠٣] ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير [تاريخه: ١/٥١٧].

قال: ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل.

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام:

٦٥- قصةُ شعيا بن أمصيا

فمنهم: شعيا بن أمصيا.

قال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ١/٥٣٢ ـ ٥٣٥]: وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام وكان في زمانه ملك اسمه: صديقة على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة. وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب.

قال ابن إسحاق: في ستمائة ألف راية وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً وقال الملك للنبي شعيا: ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوح إلي فيهم بشيء بعد.

ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك صديقة زقيا بأن يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء فإنه قد اقترب أجله.

فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر: «اللّهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعلمي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي سري وإعلاني لك».

قال: فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شعيا يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب.

فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده: «اللّهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين».

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ.

ففعل ذلك فشفي وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ثم أودعهم السجن وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم.

فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وانبيائهم فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به.

ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين.

قال ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ١/٥٣٦، ٥٣٧]: ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج امرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٦٦- قصة أرميا بن حلقيا

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب:

وقد قيل: إنه الخضر؛ رواه الضحاك عن ابن عباس [تاريخ الطبري: ١/٣٦٥، ٣٦٦].

وهو غريب وليس بصحيح.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٨/٢٨]: جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال: أيها الدم فتنت الناس فاسكن. فسكن ورسب حتى غاب.

وقال ابو بكر بن أبي الدنيا: حدثني علي بن أبي مريم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: قال أرميا: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذكراً الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق. الذين لا تعرض لهم وساوس الفَنَاء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء. الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلَوه واذا زوي عنهم سروا بذلك. أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم.

٦٧- ذكر خراب بيت المقدس في عهد أرميا

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً. ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً. وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً. فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً. عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [الإسراء: ٢ - ٨].

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له:: أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون وأعيناً ولا يبصرون وآذاناً ولا يسمعون وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم فسلهم كيف وجدوا غب طاعتي وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي؟ وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي.

إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها.

أما أحبارهم فأنكروا حقي وأما قراؤهم فعبدوا غيري. وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا وأما ولاتهم فكذبوا علي وعلى رسلي. خزنوا المكر في قلوبهم وعودوا الكذب ألسنتهم، وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجن عليهم جيولاً لا يفقهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ومواكب كأمثال العجاج كأن خفقان راياته طيران النسور وكأن حمل فرسانه كر العقبان يعيدون العمران خراباً ويتركون القرى وحشة فيا ويل إيلياء وسكانها كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السِّباء وأعيد بعد لجب الأعراس صراخاً وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب وبعد شرافات القصور مساكن السباع وبعد ضوء السرج وهج العجاج وبالعز الذُّل وبالنعمة العبودية وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشي على الزرابي الخبب ولأجعلن أجسادهم زبلا للأرض وعظامهم ضاحية للشمس ولأدوسنهم بألوان العذاب ثم لآمرن السماء فلتكونن طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس فإن أمطرت لم تنبت الأرض وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم. ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة فإن دعوني لم أجبهم وإن سألوا لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم.

رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٩/٨، ٣٠] بهذا اللفظ.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء طمع بختنصر فيهم وقذف الله في قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً. وقال: يارب وددت أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي.

فقيل له: ارفع رأسك. فرفع رأسه فبكى ثم قال: يا رب من تسلط عليهم؟ قال: عبدة النيران لا يخافون عقابي ولا يرجون ثوابي قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل. من قبل أن اخلقك اخترتك. ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ومن قبل أن تبلغ نباتك ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك فقم مع الملك تسدده وترشده.

فكان مع الملك يرشده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله من عدوهم سنحاريب وجنوده.

فأوحى الله إلى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي عليهم وعرفهم أحداثهم فقال أرميا: "يارب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخطئ إن لم تسددني مخذول إن لم تنصرني ذليل إن لم تعزني" فقال الله تعالى: أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي وأن الخلق والأمر كله لي وأن القلوب والألسنة كلها بيدي فأقلبها كيف شئت فتطيعني فأنا الله الذي ليس شيء مثلي. قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي. وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لي ولا يعلم ما عندي غيري وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي وأمرتها ففعلت أمري وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي وتأتي بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدي ألبستها مذلة لطاعتي وخوفا واعترافا لأمري وإني معك ولن يصل إليك شيء معي وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وإن تُقصرْ عنها، تستحقَّ بذلك وِزْرَ من تركته في عمايةٍ، ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم: إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم يا معشر أبناء الأنبياء، كيف وجد آباؤكم مغبة طاعتي وكيف وجدتم مغبة معصيتي؟ وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي؟ وهل علموا أحدا أطاعني فشقي بطاعتي؟

إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذي به أكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها.

أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خولاً يتعبدونهم ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وسنتي وغرُوهم عني فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي فهم يطيعونهم في معصيتي.

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتي وأمنوا مكري وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي فهم يحرفون كتابي ويفترون على رسلي جراءة منهم عليَّ وغرة بي فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني! هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي؟ وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي؟

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني! ويطيعونهم في معصيتي ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي فهم جهلة بما يعلمون، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي.

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصري آباءهم والكرامة التي أكرمتهم بها ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم في أمري حتى اغتر المغترون وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني ويرجعون فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون.

وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية واظهرهم على العدو ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني فحتى متى هذا؟

ابي يسخرون؟ أم بي يتحرشون؟ أم إياي يخادعون؟ أم علي يجترئون؟ فإني أقسم بعزتي لأتيحن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم. له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان يعيدون العمران خراباً والقرى وحشا ويعيثون في الأرض فساداً ويتبرون ما علوا تتبيراً قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقُون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها. فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبي وقدسي ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال.

ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب وبعد البروج المشيدة مساكن السباع وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب وبعد ضوء السراج دخان الحريق وبعد الأنس الوحشة والقفار. ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السموم.

ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه إني إنما أكرم من أكرمني وإنما أهين من هان عليه أمري.

ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقا من حديد ولآمرن الارض فلتكونن سبيكة من نحاس فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت. فإن أمطرت خلال ذلك شيئا سلطت عليه الآفة فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة وإن دعوني لم أجبهم وإن سألوني لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم

وإن تضرعوا إلي صرفت وجهي عنهم. وإن قالوا: اللّهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك وذلك بإنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا في البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً فأنت أوفى المنعمين فلا تغيرْ وإن غيرنا. ولا تبدل وإن بدلنا وإن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك فإن قالوا ذلك قلت لهم: إني ابتدئ عبادي برحمتي ونعمتي. فإن قبلوا اتممت وإن استزادوا زدت وإن شكروا ضاعفت وإن بدّلوا غيرت وإذا غيروا غضبت. وإذا غضبت عذبت وليس يقوم شيء لغضبي.

قال كعب: فقال أرميا: برحمتك أصبحت أتكلم بين يديك وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكير ولا تغيير مني فإن تعذبني فبذنبي وإن ترحمني فذلك ظني بك.

ثم قال: يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك!.

يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك!.

يارب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتك هذه الامة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك!.

يا رب أي القرى تأمن عقوبتك بعد أورشليم! وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران.

قال الله تعالى: "يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتداركهم برحمتي"

قال أرميا: يا رب اتخذت إبراهيم خليلا وحفظتنا به وموسى قربته نجيا فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا.

فأوحى الله إليه "يا أرميا إني قدستك في بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشا ينطح بعضها بعضا فيا ويلهم ثم يا ويلهم إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعا فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجت السماء إلي منهم وعجت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب"

قال: فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطلٌ أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون.

فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

قال: فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق محسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة وسأل عن دانيال الذي كان كتب له الكتاب فوجدوه قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر ميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب.

وكان دانيال بن حزقيل خلفا من دانيال الأكبر ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم.

فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالى ابني يعقوب وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب وألفين من سبط رايلون بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر: قال وهب بن منبه: فلما فعل ما فعل قيل له: كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له: أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم. قال: فإني علمت ذلك قال: أرسلني الله إليهم فكذبوني قال: كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم قال: بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك؟ قال له أرميا: إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان.

فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيلياء [تاريخ دمشق: ٣٤/٨ ـ ٤١].

وهذا سياق غريب. وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة.

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان بختنصر أصفهبذاً لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب وكان قد بنى مدينة بلخ التي تلقب بالحسناء وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيل بالشام.

فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق.

وقد قيل: إن الذي بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم [تاريخ

الطبري: ١/٥٣٨ ـ ٥٣٩].

وقد روى ابن جرير [تفسير الطبري: ١٥/٢٩، ٣٠] عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب: أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كياً يعني القمامة فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب.

وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به.

قال هشام بن الكلبي: ثم قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع. فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة. وقتل المقاتلة وسبى الذرية.

قال: وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه فقال بخت نصر: بئس القوم قوم عصوا رسول الله. وخلى سبيله وأحسن إليه. واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا: إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا فادع الله أن يقبل توبتنا فدعا ربه فأوحى إليه أنه غير فاعل فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة. فأخبرهم ما أمره الله تعالى به فقالوا: كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها! فأبوا أن يقيموا.

قال ابن الكلبي: ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادي القرى وذهبت شرذمة منهم إلى مصر فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم. ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية.

قال: ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال.

قلت: والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ماذكره وهب بن منبه والله أعلم.

٦٨- خبر دانيال عليه السّلام

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندي عن عبد الله بن أبي الهذيل.

قال: ضرّى بخت نصر أسدين فألقاهما في جب وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال فقال: يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ففعل وأرسل الله إليه من حمله وحمل ما أعد حتى وقف على رأس الجب فقال: دانيال، دانيال، فقال: من هذا؟ قال: أنا أرميا فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك. قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره. والحمد لله الذي لا يخيّب من رجاه. والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره. والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً. والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة. والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا. والحمد لله الذي ثقتنا حين يسوء ظننا بأعمالنا والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعربية. فأنا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعرات من قفاه إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري [٣٤٤٢] والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة.

وقيل: ستمائة.

وقيل: ستمائة وعشرون سنة.

وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر فإنه قد يكون رجلا آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم.

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر.

وعن أنس ابن مالك بإسناد جيد: أن طول أنفه ذراع.

فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم.

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبور: حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأشعث الأحمري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد».

فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده وقد كان رسول الله ﷺ قال: «من دل على دانيال فبشروه بالجنة» فكان الذي دل عليه رجل يقال له:: حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة.

وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظا نظر والله أعلم.

ثم قال ابن ابي الدنيا: حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله عن

عنبسة بن سعيد وكان عالما قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك ودراهم وخاتمه فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم وأما الخاتم فقد نفلناكه.

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله. وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالا موضوعا قريباً من عشرة آلاف درهم وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعة فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه.

وروي عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني إبراهيم بن عبد الله حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل.

قال أبو بردة: هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه.

قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في اجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ.

قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

إسناد حسن.

٦٩- عمارة بيت المقدس بعد خرابها

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

قال هشام بن الكلبي: ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغني: أني عامر بيت المقدس فاخرج اليها فانزلها فخرج حتى قدمها وهي خراب فقال في نفسه: سبحان الله أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فمتى يعمرها؟! ومتى يحييها الله بعد موتها؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بختنصر في دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وإن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابا.

فلما نظر إليها عامرة آهلة «قال أعلم أن الله على كل شيء قدير».

قال: فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف. ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصارى عليهم.

هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه [٥٣٩/١، ٥٤٠] عنه.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٥٤٠/١، ٥٤١] أن لهراسب كان ملكا عادلا سائسا لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وإنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل.

ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلا كان اسمه: زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زردشت فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه - لعنه الله - فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم. ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلا قبحه الله.

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام.

قاله وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما [تفسير الطبري: ٢٩/٣] وهو قوي من حيث السياق المتقدم.

وقد روي عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عزير [تفسير الطبري: ٢٨/٣]. وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم.

٧٠- قِصَّة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٠١/١١، ٦٠٢]: هو عزير بن حيوة ويقال: بن سوريق بن عرنا بن أيوب بن درثنا بن عرى بن تقي بن السبوع بن فنحاص بن إلعازر بن هارون بن عمران.

ويقال: عزير بن شروخا.

جاء في بعض الآثار [تاريخ دمشق: ٣٢٣/٢ - ٣٢٥] أن قبره بدمشق.

ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود ابن عمرو عن حبان ابن علي عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعا: «لا أدري ألُعن تُبّع أم لا ولا أدري أكان عزير نبيا أم لا».

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن ابي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعا نحوه.

ثم روى من طريق إسحاق بن بشر وهو متروك عن جويبر ومقاتل

عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث فلما بلغ اربعين سنة أعطاه اللّه الحكمة.

قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه.

قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى اللّه اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر.

وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر واللّه أعلم.

وقال إسحاق بن بشر بن سعيد عن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد اللّه بن سلام أن عزيراً هو العبد الذي أماته اللّه مائة عام ثم بعثه [تاريخ دمشق: ١١/٦٠٣].

وقال إسحاق بن بشر [تاريخ دمشق: ١١/٦٠٣، ٦٥]: أنبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس. وعبد اللّه بن إسماعيل السدي عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه قال إسحاق: كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم:

إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فلم يشك أن اللّه يحييها ولكن قالها تعجباً فبعث اللّه ملك الموت فقبض روحه فأماته اللّه مائة عام. فلما أتت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث.

قال: فبعث اللّه الى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل به، وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي اللّه الموتى. ثم ركّب خلقه وهو ينظر ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً فقال له الملك: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم وذلك أنه كان نام في صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب فقال: أو بعض يوم ولم يتم لي يوم فقال له الملك ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعني لم يتغير. وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك انظر إلى حمارك فنظر فإذا حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركّبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت فذلك قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضا في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحماً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إحياء الموتى وغيره.

قال: فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمةً لهم فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة. فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم هذا منزل عزير فبكت وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس قال: فإني أنا عزير كان اللّه أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت: سبحان اللّه! فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر قال: فإني أنا عزير قالت: فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فادع اللّه أن يرد عليَّ بصري حتى أراك فإن كنت عزيراً عرفتك. قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن اللّه فأطلق اللّه رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد عليَّ بصري وأطلق رجلي وزعم أن اللّه أماته مائة سنة ثم بعثه.

قال: فنهض الناس فاقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لا يعرفه أحد غير عزير فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب.

قال: وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل.

فمن ثم قالت اليهود عزير ابن اللّه ـ جلّ اللّه وعزّ ـ للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل. والقرية التي مات فيها يقال لها: سايراباذ.

قال ابن عباس: فكان كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني لبني إسرائيل.

وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن اربعين سنة فبعثه اللّه شاباً كهيئته يوم مات.

قال ابن عباس: بعث بعد بختنصر.

وكذلك قال الحسن.

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني [تاريخ دمشق: ١١/٦٠٥، ٦٠٦] في معنى ما قاله ابن عباس:

وأسودُ رأسٍ شابَ من قبلهِ ابنهُ ... ومن قبلهِ ابنُ ابنهِ فهو أكبرُ
يرى ابنَ ابنه شيخاً يدبُّ على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقرُ
وما لابنهِ حَيْلٌ ولا فضلُ قوةٍ ... يقومُ كما يمشي الصبيُّ فيعثرُ
يعدُّ ابنه في الناسِ تسعين حِجَّة ... وعشرين لا يجري ولا يَتَبَختَرُ
وعمرُ أبيهِ اربَعُون أمرّها ... ولابن ابنه تسعونَ في الناس غُبَّرُ
فما هُو في المعقولِ إن كنتَ دارياً ... وإن كنتَ لا تدري فبالجهل تُعذَرُ

فصل:

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل كما.

قال وهب بن منبه [تاريخ دمشق: ٦٠٦/١١]: أمر الله ملكا فنزل بمغرفة من نور فقذفها في في عزير فنسخ التوراة حرفا بحرف حتى فرغ منها.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٠٦/١١ - ٦٠٨] عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] لم قالوا: ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله.

ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير، وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وفيما رواه إسحاق ابن بشر [تاريخ دمشق: ٦١٤/٦] عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ومقاتل عن عطاء ابن أبي رباح قال: كان في الفترة تسعة أشياء: بختنصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع.

وقال إسحاق بن بشر [تاريخ دمشق: ٦١٤/١١، ٦١٥] انبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: كان أمر عزير وبختنصر في الفترة.

وقد ثبت في الصحيح [خ (٣٤٤٢)] أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي».

وقال وهب بن منبه [تاريخ دمشق: ٦١٥/١١] كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦١٤/١١] عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له - يعني لما كان من سؤاله عن القدر - وإنه انصرف وهو يقول مائة موتة أهون من ذل ساعة.

وفي معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء:

قَد يَصْبر الحرُ على السَّيفِ ويأنَفُ الصبرَ على الحَيْفِ
ويؤثرُ الموتَ على حَالةٍ يعجزُ فيها عن قِرى الضَّيفِ

فأما ما روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦١١/١١ - ٦١٣] وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحي اسمه من ذكر الأنبياء.

فهو منكر وفي صحته نظر وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات.

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء فقيل له: أعرض عن هذا فعاد فقيل له: لتعرضنّ عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون وهذا. لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محي اسمه والله أعلم.

وقد روى الجماعة [خ (٣٣٠٩)، م (٢٢٤١)، د (٥٢٦٦)، س (٤٣٦٩)، ج (٣٢٢٥)] سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة. وكذلك رواه شعيب [تاريخ دمشق: ٦١٣/١١] عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار فأوحى الله إليه فهلاً نملة واحدة».

فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير.

وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري [تاريخ دمشق: ٦٠٩/١١] أنه عزير فالله أعلم.

٧١- قصّة زكريّا ويحيى عليهما السّلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً. يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً. قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً. يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً. وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً. وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً. وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ [مريم: ١ - ١٥]

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٣٧ - ٤١]

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠]

وقال تعالى ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥]

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل [٤٨/١٩]: زكريا بن برخيا.

ويقال: زكريا بن دان.

ويقال: زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوق بن محمان بن داود بن

سليمان بن مسلم بن صديقة بن برحية بن ملقاطية بن ناحور بن سلوم بن بهفاشا بن حاش بن أبي بن خثعم بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل.

دخل البثنية من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى. وقيل: إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم.

وقد قيل غير ذلك في نسبه ويقال فيه: زكريا بالمد وبالقصر. ويقال: زكري أيضا.

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنت أيضا حتى لا ييئس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾. [مريم: ٢-٣]

قال قتادة عند تفسيرها [تفسير الطبري: ١٦/٤٥]: إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي.

وقال بعض السلف قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافة فقال: يارب يا رب يا رب فقال الله لبيك لبيك لبيك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف وخار من الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته.

إما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجا
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا
وآض روض اللهو يبساً ذاويا من بعد ما قد كان مجاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهراً.

وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. أي ماعودتني فيما أسالك إلا الإجابة.

وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ولا في آوانها وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي﴾ قيل: المراد بالموالي العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقيا مرضيا ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك.

﴿وَلِيًّا. يَرِثُنِي﴾ أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل.

﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير [تفسيره: ١٦/٤٧، ٤٨] ههنا وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه.

أحدها: ما قدمنا عند قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح [خ (٣٠٩٣)، م (١٧٥٩) من حديث أبي بكر] والمسانيد [مسند أحمد: ١/٤، ٦، ٩، ١٠، ٤٧، ٤٩، ٦٠، ٢٠٨] والسنن [د (٢٩٧٦، ٢٩٧٧)، ت (١٦١٠)، س (٤١٥٩)] وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف اليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم.

الثاني: أن الترمذي [١٦١٠] رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» وصححه.

الثالث أن الدنيا كانت أحقر عند الانبياء من أن يكتزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثا له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له يخلفه من بعده؛ وهذا أمر بين واضح لكل من تامله بتدبر وتفهم إن شاء الله.

قال الإمام أحمد [٢/٢٩٦]: حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً».

وهكذا رواه مسلم [٢٣٧٩] وابن ماجه [٢١٥٠] من غير وجه عن حماد بن سلمة به.

وقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾. وهذا مفسر بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل: كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة.

والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك.

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد والله أعلم.

كما قال الخليل ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤].

وقالت سارة: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣].

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر

ربه ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي هذا سهل يسير عليه.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً كبيراً.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل: في لسانها شيء أي بذاءة.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج معتدل البنية.

وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. والوحي ههنا هو الأمر الخفي إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدي أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة [تفسير الطبري: ١٦/٥٣ ـ ٥٤].

قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة: اعتقل لسانه من غير مرض.

وقال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد [تفسير الطبري: ١٦/٥٤].

وقوله: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه.

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب فقال: ما للعب خلقنا.

قال: وذلك قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [تفسير الطبري: ١٦/٥٥].

وأما قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فروى ابن جرير [تفسيره: ١٦/٥٦] عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الحنان.

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد [تفسير الطبري: ١٦/٥٥، ٥٦].

وعن عكرمة ﴿وَحَنَانًا﴾ أي: محبة عليه.

ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

وأما الزكاة فهو طهارة القلب وسلامته من النقائص والرذائل.

والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره. ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

ثم قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الانسان فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين مجبور ومكسور وفريق في الجنة وفريق في السعير. ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

وَلَدتكَ أُمكَ باكياً مستصرخاً ... والناسُ حولَك يَضحكونَ سُروراً

فاحرصْ لنفسِك أن تكونَ إذا بَكَوا ... في يومِ موتِك ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني فقال له الآخر: استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك فعرف والله فضلها [تفسير الطبري: ١٦/٥٩].

وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقيل: المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء.

وقيل: غير ذلك وهو أشبه لقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

وقد قال الإمام أحمد [١/٢٥٤]: حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى.»

علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث.

وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً.

ثم قال ابن خزيمة: وليس على شرطنا.

وقال ابن وهب: حدثني ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل: "موسى كليم الله" وقال قائل: "عيسى روح الله وكلمته" قائل يقول: "إبراهيم خليل الله" فخرج النبي ﷺ وهم يذكرون ذلك فقال: «أين الشهيد أين الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب»

قال ابن وهب: يريد يحيى بن زكريا.

وقد رواه محمد ابن إسحاق وهو مدلس عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا».

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا.

ثم قال قد رواه عبد الرزاق [تفسيره: ٢/٦] عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلاً.

ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري.

ثم قد رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق:

حدثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد

عن سعيد بن المسيب عن عبد اللّه بن عمرو قال: «ما أحد إلا يلقى اللّه بذنب إلا يحيى بن زكريا». ثم تلا: ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ ثم رفع شيئاً من الأرض فقال: «ما كان معه إلا مثل هذا ثم ذبح ذبحاً».

وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً اصح من رفعه واللّه أعلم.

وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر:

من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر وهو ضعيف عن عثمان بن ساج، عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه.

وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعم عن أبيه عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام».

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني [الحلية: ٢٦٨/٩، ٢٦٩] حدثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم ين يوسف حدثنا أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول: خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى: يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدا قال: وما هي يا ابن خالة؟ قال: امرأة صدمتها. قال: واللّه ما شعرت بها. قال سبحان اللّه بدنك معي فأين روحك؟ قال: معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمئن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت اللّه طرفة عين.

فيه غرابة وهو من الاسرائيليات.

وقال إسرائيل عن أبي حصين عن خيثمةقال: كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه أينما جنهما الليل أويا فلما اراد أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني قال: لا تغضب قال: لا أستطيع إلا أن اغضب قال: لا تقتن مالا قال: أما هذه فعسى.

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه:

هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً.

على روايتين:

فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال: هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ فأوحى اللّه إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين [تاريخ دمشق: ٥٤/١٩، ٥٥].

وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء اللّه.

وروى ابن إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال: الذي انصدعت له الشجرة هو أشعيا فأما زكريا فمات موتاً [تاريخ دمشق: ٥٦/١٩]؛ فاللّه اعلم.

وقال الإمام أحمد [١٣٠/٤]: حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن اللّه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات ان تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبلغهن وإما أن ابلغهن فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي.

قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد اللّه وأثنى عليه ثمقال: إن اللّه عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. أولهن أن تعبدوا اللّه لا تشركوا به شيئا فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وإن اللّه خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وآمركم بالصلاة فإن اللّه ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر اللّه عز وجل كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في إثره فاتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر اللّه عز وجل»

قال: وقال رسول اللّه ﷺ: «وأنا آمركم بخمس: اللّه أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل اللّه فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثاء جهنم» قالوا: يا رسول اللّه وإن صام وصلى قال: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم اللّه عز وجل المسلمين المؤمنين عباد اللّه عز وجل»

وهكذا رواه أبو يعلى [مسنده (١٥٧١)] عن هدبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير به.

وكذلك رواه الترمذي [٢٨٦٣، ٢٨٦٤] من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به.

ورواه ابن ماجه [لم يخرجه ابن ماجه] عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به.

ورواه الحاكم [المستدرك: ١١٨/١] من طريق مروان ابن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به.

ثم قال: تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام.

قلت: وليس كما قال.

ورواه الطبراني [المعجم الكبير (٣٤٣٠)] عن محمد بن عبدة عن أبي توبة الربيع بن نافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري؛ فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام من هذه الرواية

ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد اللّه بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول اللّه ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم.

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى

بالجراد في بعض الأحيان ويقول: من أنعم منك يايحيى.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥٤/١٩] أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل.

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا العشب وإن كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم.

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه فقال: يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه؟ فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين؟ فقال له: ابك يابني. فبكيا جميعا.

وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه.

وروى ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل. ثم قال: كم بين النعيمين وكم بينهما.

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه.

٧٢- بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً كثيرة:

من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه.

فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعثت من قتله وأحضر اليها رأسه ودمه في طست.

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٥٥/١٩، ٥٦ من طريق إسحاق بن بشر، به] حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له: «يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان ولم قتلك بنو إسرائيل؟» قال: يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً وكان كما قال الله تعالى ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغية فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها وأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب.

قال: فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك: سليني فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك قالت: أريد دم يحيى بن زكريا قال لها: سليني غيره قالت: هو ذاك قال: هو لكِ قال: فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي قال: فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فما بلغ من صبرك؟» قال: ما انفتلت من صلاتي قال: فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه.

فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا.

قال: فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم وابليس أمامهم يدلهم علي فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت: إلي إليّ وانصدعت لي ودخلت فيها.

قال: وجاء ابليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره فقالوا: نحرق هذه الشجرة فقال إبليس: شقوه بالمنشار شقاً. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار فقال له النبيصلى الله عليه وسلم: «هل وجدت له مسّاً أو وجعاً» قال: «لا إنما وجدت ذلك الشجرة، جعل الله روحي فيها».

هذا سياق غريب وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ما ينكر على كل حال: ولم نر في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث.

وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء. فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى [م (١٦٢)] وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران.

وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره على قولين:

فقال الثوري عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام.

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: قدم بخت نصر دمشق فإذا هو بدم يحيى ابن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفا فسكن.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤١/٢] من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير.

وفي رواية: كأنما قتل الساعة.

وذكر في بناء مسجد دمشق [تاريخ دمشق: ٢٤٢/٢] أنه جعل تحت

العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في «المستقصى في فضائل الأقصى» من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قسيم مولى معاوية قال: كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هداد وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا.

قلت: وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة.

قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثا. ثم إنه اراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له: لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره فاخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك.

فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً.

قال سعيد بن عبد العزيز: وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم.

٧٣- قصّة عيسى بن مريم عليه السّلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا أن لله ولدا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدعون بزعمهم إن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له: كن فكان سبحانه وتعالى.

وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما ستكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته فقال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧]

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ثم خصص فقال: وآل إبراهيم فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق.

ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران والمراد بعمران هنا والد مريم عليها السلام.

قال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ٥٨٥/١، ٥٨٦]: وهو عمران بن باشم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن موثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن يهفاشاط بن أيش بن أبان بن رحبعام بن سليمان ابن داود.

وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن اليعازر ابن اليود بن أجين بن صادوق بن عيازور بن الياقيم بن أبيود بن زربائيل بن شالتان بن يوحنيا بن برسنيا بن آمون بن ميشا بن حزقيل بن أجاز بن يوثام بن عزريا بن بورام بن بوسافاط بن أسا بن أبيا بن رخيعم بن سليمان بن داود عليه السلام وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن إسحاق ولا خلاف انها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور وقيل: زوج خالتها أشياع فالله أعلم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٢٣٥/٣] وغيره: أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخا له فاشتهت الولد فنذرت لله أن حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً في خدمة بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وقرىء بضم التاء.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ أي في خدمة بيت المقدس وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم.

وقولها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد وكما ثبت في الصحيحين [خ (٥٤٧٠)، م (٢١٤٤)] عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله.

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: «كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه».

رواه أحمد [١٢/٥، ١٧، ٢٢] وأهل السنن [د (٢٨٣٧، ٢٨٣٨)، ت (١٥٢٢)، س (٤٢٣١)، ج (٣١٦٥)] وصححه الترمذي.

وجاء في بعض ألفاظه «ويُدمّى» بدل «ويسمى» وصححه بعضهم والله أعلم.

وقولها ﴿وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها فقال الإمام أحمد [٢٧٤/٢]:

حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا الشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها».

ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم: ﴿وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أخرجاه [خ (٤٥٤٨)، م (٢٣٦٦)] من حديث عبد الرزاق.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ٢٤٠/٣] عن أحمد بن الفرج عن بقية عن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد أيضاً [٢/٢٨٨]: حدثنا إسماعيل ابن عمر حدثنا ابن أبي ذئب عن عجلان مولى المشمعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بأصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى».

تفرد به من هذا الوجه.

ورواه مسلم [٢٣٦٦] عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد [٢/٣٦٨]: حدثنا هشيم حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان بحضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «فذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه» وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه.

ورواه قيس [تفسير الطبري: ٣/٢٣٩، ٢٤٠] عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

وكذا رواه محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٣/٢٣٩] عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بأصل الحديث.

وقال الإمام أحمد [٢/٥٢٣]: حدثنا عبد الملك حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الحزامي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذكر كثير من المفسرين [تفسير الطبري: ٣/٢٤٣] أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبّاد الذين هم مقيمون به وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها.

والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته اختها أو خالتها على القولين فشاحُّوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. [آل عمران: ٤٤].

قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها فظهر قلم زكريا عليه السلام فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الاقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة:

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانا شريفاً من المسجد لا يدخله سواها فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتقول ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي رزق رزقنيه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسنّ وكبر:

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

قال بعضهم [تفسير الطبري: ٢/٢٤٨ وعزاه لإسحاق بن بشر] قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه. فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ. ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ. وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٥١]

يذكر الله تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكذلك في حال كهولته فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها.

وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة.

فيقال: إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها فقول الملائكة ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك واجتباك.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة.

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكقوله عن بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمداً ﷺ أفضل منهما وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم [الفصل في الملل والنحل: ١٧/٥ ـ ١٩] وغيره فلا يمتنع على هذا أن يكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن.

وقد روى الإمام أحمد [٨٤/١، ١١٦، ١٣٢] والبخاري [٣٤٣٢، ٣٨١٥] ومسلم [٢٤٣٠] والترمذي [٣٨٧٧] والنسائي [كبرى (٨٣٥٤)] من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد.»

وقال الإمام أحمد [١٣٥/٣]: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»

ورواه الترمذي [٣٨٧٨] عن أبي بكر بن زنجويه عن عبد الرزاق به وصححه.

ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبي جعفر الرازي عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله»

وقال الإمام أحمد [٢٧٥/٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب قال: كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده».

قال أبو هريرة: ولم تركب مريم بعيراً قط.

وقد رواه مسلم في صحيحه [٢٥٢٧] عن محمد بن رافع وعبد ابن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به.

وقال أحمد: حدثنا زيد ابن الحباب حدثني موسى بن علي سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرأفه بزوج على قلة ذات يده» قال أبو هريرة وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل.

تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة.

وقال أبو يعلى الموصلي [مسنده (٢٧٢٢)]: حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي الفرات عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال: «اتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

ورواه النسائي [كبرى (٨٣٦٤)] من طرق عن داود بن أبي الفرات.

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث حدثنا يحيى بن حاتم العسكري نبأنا بشر بن مهران بن حمدان حدثنا محمد بن دينار عن داود ابن أبي هند عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين: فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران»

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا وهب بن منبه حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة: ارأيت حين أكببتِ على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: اخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ثم أكببت عليه فاخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت.

واصل هذا الحديث في الصحيح [م (٢٤٥٠)]. وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه: أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: [٨٠/٣] حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن يزيد هو ابن ابي زياد عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران» إسناد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه.

وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف.

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع. ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول.

فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر:

أنبأنا أبو الحسن بن الفرّاء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا قالوا: أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا أبو طاهر المخلّص حدثنا أحمد بن سليمان حدثنا الزبير هو ابن بكار حدثنا محمد بن الحسن عن عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون».

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـ «ثم» التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي [من طريقه ابن عساكر: تاريخ دمشق من تراجم النساء ص٣٧٤] عن داود الجعفري عن عبد العزيز ابن محمد وهو

الدراوردي عن إبراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعاً؛ فذكره بواو العطف لا بـ «ثم» الترتيبية فخالفه إسناداً ومتناً فالله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود [خ (٣٤١١)، م (٢٤٣١)، ت (١٨٣٤)، س كبرى (٨٣٥٣، ٨٣٥٦)، ج (٣٢٨٠)، مسند أحمد ٤/٣٩٤، ٤٠٩] من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره.

فآسية كفلت موسى الكليم ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها.

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على اخواتها؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ.

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا: فأنزل براءتها من فوق سبع سموات وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين والأحسن الوقوف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدى المذكورات والله أعلم.

والمقصود ههنا ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها.

ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا.

وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم.

وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] قال: فالثيب آسية. ومن الإبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم فالله أعلم.

قال الطبراني [الكبير (٥٤٨٥)]: حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفي حدثنا أبي أنبأنا عمي الحسين حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة هو العوفي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.»

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا إبراهيم بن عرعرة حدثنا عبد النور بن عبد الله حدثنا يونس بن شعيب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى».

رواه أبو جعفر العقيلي [الضعفاء الكبير: ٤/٤٥٩] من حديث عبد النور به؛ وزاد فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله.

ثم قال العقيلي: وليس بمحفوظ.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبي روّاد قال دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: «بالكره مني ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً: أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون؟» قالت: وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قالت: بالرفاء والبنين.

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي حدثنا العباس بن بكار حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال: «يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فاقرئيهن مني السلام»قالت: يا رسول الله وهل تزوجت قبلي؟ قال: «لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى».

وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد: حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد عن ابن عمر قال: نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل: من هذه يا محمد؟ قال «هذه صديقة أمتي» قال جبريل: معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب» قالت: الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ما ذلك البيت الذي من قصب؟ قال: «لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم وهما من أزواجي يوم القيامة».

وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب في الصحيح [خ (٣٨٢٠)، م (٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة] ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً.

وكل هذه الأحاديث في أسانيدها نظر.

وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار: أن معاوية سأله عن الصخرة يعني صخرة بيت المقدس فقال: الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة.

ثم رواه من طريق إسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله.

وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع.

ثم قد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمان عن ابن عابد أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره.

قال الحافظ ابن عساكر: وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه.

قلت: وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه والله أعلم.

٧٤- ميلاد عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً. فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً. فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً. وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً. وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً. وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ. وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ. فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم ١٦ - ٣٧]

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر في سورة آل عمران قرن بينهما في سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ. وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٨٩ - ٩١]

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات وظهر عليها من الاحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبانه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات فتعجبت من وجود ولد من غير والد لأنها لا زوج لها ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

فاستكانت لذلك وانابت وسلمت لأمر الله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد من استقاء ماء أو تحصيل غذاء.

فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و﴿انتَبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى اذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾.

فلما رأته ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾.

قال ابو العالية: علمت أن التقي ذو نهية.

وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي فإن هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي خاطبها الملك قائلاً: إنما أنا رسول ربك، أي: لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك

﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾ أي ولدا زكياً

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فاجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا:

﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن يبغين

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفوليته وكهوليته بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾. يحتمل ان يكون هذا من تمام كلام جبريل معها يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره.

وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير [تفسيره: ٦٢/١٦] ولم يحك سواه والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[التحريم: ١٢].

فذكر غير واحد من السلف [تفسير الطبري: ٦٢/١٦] أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.

ومن قال: إنه نفخ في فمها أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما روي عن

أُبي بن كعب [انظر تفسير الطبري: ٣٦/٦، ٦٨/١٦] ولا في صدرها كما رواه السدي [تاريخ الطبري: ٥٩٩/١] بإسناده عن بعض الصحابة ولهذا قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي حملت ولدها.

﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها فذكر غير واحد من السلف منهم:

وهب بن منبه [تفسير الطبري: ٦٤/١٦، ٦٥] أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول! ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول! ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى قال لها: فاخبريني خبرك فقالت: إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦].

ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم.

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها: أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضاً أني حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك؛ وذلك قوله: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

وقال ابن القاسم: قال مالك: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: أني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص.

رواه ابن أبي حاتم.

وروي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبح في بطني.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة: أنها حملت به ثمانية أشهر.

وعن عباس: ما هو إلا أن حملت به فوضعته [انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري: ٢٦٦/٤].

قال بعضهم: حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً. فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه [خ (٣٢٠٨)، م (٢٦٤٣)].

قال محمد بن إسحاق: ثم شاع أمرها واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل فما دخل على أهل بيت مادخل على آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد وتوارت عنهم مريم.

واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً.

وقوله: ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي [٤٤٩] بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي [الدلائل: ٣٥٥/٢ - ٣٥٧] بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ أي لم تخلق بالكلية.

وقوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾.

وقرئ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على الخفض.

وفي المضمر قولان:

أحدهما أنه جبريل؛ قاله العوفي عن ابن عباس.

قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم [تفسير الطبري: ٦٨/١٦].

وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة [تفسير الطبري: ٦٧/١٦، ٦٨].

وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية هو ابنها عيسى واختاره ابن جرير [تفسيره: ٦٨/١٦].

وقوله: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ قيل: النهر وإليه ذهب الجمهور.

وجاء فيه حديث رواه الطبراني [المعجم الكبير (١٣٣٠٣)] لكنه ضعيف واختاره ابن جرير [تفسيره: ٧١/١٦] وهو الصحيح.

وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم [تفسير الطبري: ٧٠/١٦، ٧١] أنه ابنها والصحيح الأول لقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾.

ثم قيل: كان جذع النخلة يابساً.

وقيل: كانت نخلة مثمرة فالله أعلم.

ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ [مريم: ٢٥].

قال عمرو بن ميمون [تفسير الطبري: ٧٢/١٦]: ليس شيء خيراً للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمي حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس شيء من

الشجر يلقح غيرها».

وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الوُلَّد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران.»

وكذا رواه أبو يعلى في مسنده [٤٥٥] عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيد.

وفي رواية مسرور بن سعد. والصحيح مسرور بن سعيد التميمي أورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي به، ثم قال: وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث.

وقال ابن حبان [في كتاب المجروحين: ٤٤/٣] يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها.

وقوله: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً﴾ أي: صمتاً.

وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام قاله قتادة والسدي وابن أسلم [تفسير الطبري: ٧٤/١٦، ٧٥، ٧٦].

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ أي أمراً عظيماً منكراً.

وفي هذا الذي قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوله آخره؛ وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله.

قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت من نفاسها بعد أربعين يوماً.

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة وكان اسمه هارون [تفسير الطبري: ٧٧/١٦].

وقيل: شبهوها برجل فاجر في زمانهم اسمه هارون.

قاله سعيد بن جبير.

وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة [تفسير الطبري: ٧٨/١٦].

وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسباً فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع, وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجا الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه فاعتقد أن هذه هي هذه.

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح [خ (٩٤٩)، م (٨٩٢)] مع نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولا ولله الحمد والمنة.

وقد ورد الحديث الصحيح [م (٢١٣٥)] الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها والله اعلم.

قال الإمام احمد [٥٢/٤]: حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

وكذا رواه مسلم [٢١٣٥] والنسائي [١١٣١٥] والترمذي [٣١٥٥] من حديث عبد الله بن إدريس. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وفي رواية «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمّون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم».

وذكر قتادة وغيره [تفسير الطبري: ٧٧/١٦] أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل: إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير؛ ولهذا قالوا:

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ أي لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء.

فذكر ابن جرير في تاريخه [٦٠٠/١، ٦٠١] أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا [تاريخ دمشق: ٥٤/١٩، ٥٥].

ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار فلما ضاق الحال والحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذي الجلال ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه. فعندها قال من كان منهم جباراً شقياً:

﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ أي كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين محض وزبده وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولا نطقيا بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً فعندها

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً. وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ هذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته.

ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله:

﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ [النساء: ١٥٦]

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنىً في زمن الحيض لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلا أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله

وحده لا شريك لـه ونـزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد لـه سواها فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[مريم: ٣٤- ٣٥].

كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ. إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. [آل عمران: ٥٨ ـ ٦٣]

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة: هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه.

فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم أنه ما لاعنَ قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم ان فعلتم فإن كنتم قد أبيتم إلا إلْفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلا أميناً فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح قال لرسوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ولهذا قال:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يَكْرِثُه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه.

فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانية واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال البخاري [٣٤٣٥]: حدثنا صدقة بن الفضل أنبأنا الوليد حدثنا الأوزاعي حدثني عمير بن هانئ حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله اللّه الجنة على ماكان من العمل».

قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة وزاد «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء».

وقد رواه مسلم [٢٨] عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به.

ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به.

٧٥- بيان أن الله تعالى مُنزَّهٌ عن الولد

قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٨٩] أي شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزورا ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٥].

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السماوات والأرض عبيده وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٣].

فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عديل له فلا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]

فتقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

﴿الصَّمَدُ﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يوجد منه ولد.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو فقطع النظير المداني والأعلى والمساوي فانتفى أن يكون له ولد إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُواْ ثَلاثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً. لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال: بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً وتكريما. وسمي عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. [البقرة: ١١٦ - ١١٧]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. [التوبة: ٣٠].

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً وزعموا أن له ولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر.

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منهما الملائكة تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ. أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. أَفَلا تَذَكَّرُونَ. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ. فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾. [الصافات: ١٤٩ - ١٦٠]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا. قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً. مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾. [الكهف: ١ - ٥]

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٧٠].

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيراً.

ولما كانت النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾. [النساء: ٨٢] فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب.

فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى.

وطائفة قالوا: هو ابن الله عز الله.

وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة جل الله.

قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ

ابنَ مَريمَ وأُمَّهُ ومَن في الأرضِ جميعاً ولله مُلْكُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما يخلقُ ما يشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾. [المائدة: ١٧]

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه. وقال في أواخرها: ﴿لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ قُلْ فمَن يملكُ من اللهِ شيئاً إنْ أرادَ أن يُهلكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأُمَّهُ ومَن في الأرضِ جميعاً ولله مُلْكُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما يخلقُ ما يشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وقالتِ اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤهُ قُلْ فلِمَ يُعذّبُكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممّن خلقَ يغفرُ لمن يشاءُ ويُعذّبُ من يشاءُ ولله مُلْكُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما وإليهِ المصيرُ. يا أهلَ الكتابِ قد جاءَكم رسولُنا يُبيّنُ لكم على فترةٍ من الرسلِ أن تقولوا ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ فقد جاءَكم بشيرٌ ونذيرٌ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وإذ قالَ موسى لقومهِ يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جعلَ فيكم أنبياءَ وجعلكم مُلوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمينَ. يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدّسةَ التي كتبَ اللهُ لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرينَ. قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارينَ وإنّا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلونَ. قالَ رجلانِ من الذين يخافونَ أنعمَ اللهُ عليهما ادخلوا عليهمُ البابَ فإذا دخلتموهُ فإنّكم غالبونَ وعلى اللهِ فتوكّلوا إن كنتم مؤمنينَ. قالوا يا موسى إنّا لن ندخلَها أبداً ما داموا فيها فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنّا هاهنا قاعدونَ. قالَ ربِّ إنّي لا أملكُ إلّا نفسي وأخي فافرقْ بيننا وبينَ القومِ الفاسقينَ. قالَ فإنّها مُحرّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يتيهونَ في الأرضِ فلا تأسَ على القومِ الفاسقينَ. واتلُ عليهم نبأَ ابنَيْ آدمَ بالحقِّ إذ قرّبا قُرباناً فتُقبّلَ من أحدهما ولم يُتقبّلْ من الآخرِ قالَ لأقتلنّكَ قالَ إنّما يتقبّلُ اللهُ من المتقينَ. لئن بسطتَ إليّ يدكَ لتقتلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليكَ لأقتلكَ إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ. إنّي أريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمكَ فتكونَ من أصحابِ النارِ وذلكَ جزاءُ الظالمينَ. فطوّعتْ لهُ نفسُهُ قتلَ أخيهِ فقتلَهُ فأصبحَ من الخاسرينَ. فبعثَ اللهُ غُراباً يبحثُ في الأرضِ ليُريَهُ كيفَ يُواري سوءةَ أخيهِ قالَ يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغُرابِ فأُواريَ سوءةَ أخي فأصبحَ من النادمينَ. من أجلِ ذلكَ كتبنا على بني إسرائيلَ أنّهُ من قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناسَ جميعاً ولقد جاءتهم رُسُلُنا بالبيّناتِ ثمّ إنّ كثيراً منهم بعدَ ذلكَ في الأرضِ لمُسرفونَ. إنّما جزاءُ الذين يُحاربونَ اللهَ ورسولَهُ ويسعونَ في الأرضِ فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّعَ أيديهم وأرجلُهم من خلافٍ أو يُنفَوا من الأرضِ ذلكَ لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ. إلّا الذين تابوا من قبلِ أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ. يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وابتغوا إليهِ الوسيلةَ وجاهدوا في سبيلهِ لعلّكم تُفلحونَ. إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرضِ جميعاً ومثلَهُ معهُ ليفتدوا بهِ من عذابِ يومِ القيامةِ ما تُقُبّلَ منهم ولهم عذابٌ أليمٌ. يُريدونَ أن يخرجوا من النارِ وما هم بخارجينَ منها ولهم عذابٌ مُقيمٌ. والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كسبا نكالاً من اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ. فمن تابَ من بعدِ ظلمهِ وأصلحَ فإنّ اللهَ يتوبُ عليهِ إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ. ألم تعلمْ أنّ اللهَ لهُ مُلْكُ السماواتِ والأرضِ يُعذّبُ من يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ. يا أيّها الرسولُ لا يحزنكَ الذين يُسارعونَ في الكفرِ من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبُهم ومن الذين هادوا سمّاعونَ للكذبِ سمّاعونَ لقومٍ آخرينَ لم يأتوكَ يُحرّفونَ الكلِمَ من بعدِ مواضعهِ يقولونَ إن أُوتيتم هذا فخذوهُ وإن لم تُؤتَوهُ فاحذروا ومن يُردِ اللهُ فتنتَهُ فلن تملكَ لهُ من اللهِ شيئاً أولئكَ الذين لم يُردِ اللهُ أن يُطهّرَ قلوبَهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ. سمّاعونَ للكذبِ أكّالونَ للسُّحتِ فإن جاؤوكَ فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم وإن تُعرضْ عنهم فلن يضرّوكَ شيئاً وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسطِ إنّ اللهَ يُحبُّ المقسطينَ. وكيفَ يُحكّمونكَ وعندهمُ التوراةُ فيها حكمُ اللهِ ثمّ يتولّونَ من بعدِ ذلكَ وما أولئكَ بالمؤمنينَ. إنّا أنزلنا التوراةَ فيها هُدًى ونورٌ يحكمُ بها النبيّونَ الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّونَ والأحبارُ بما استُحفظوا من كتابِ اللهِ وكانوا عليهِ شهداءَ فلا تخشَوُا الناسَ واخشَونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرونَ. وكتبنا عليهم فيها أنّ النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذُنَ بالأذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجروحَ قصاصٌ فمن تصدّقَ بهِ فهوَ كفّارةٌ لهُ ومن لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الظالمونَ. وقفّينا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مُصدّقاً لما بينَ يديهِ من التوراةِ وآتيناهُ الإنجيلَ فيهِ هُدًى ونورٌ ومُصدّقاً لما بينَ يديهِ من التوراةِ وهُدًى وموعظةً للمتقينَ. وليحكمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ اللهُ فيهِ ومن لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الفاسقونَ. وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدّقاً لما بينَ يديهِ من الكتابِ ومُهيمناً عليهِ فاحكم بينهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتّبعْ أهواءَهم عمّا جاءكَ من الحقِّ لكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً ولو شاءَ اللهُ لجعلكم أُمّةً واحدةً ولكن ليبلوَكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيراتِ إلى اللهِ مرجعُكم جميعاً فيُنبّئكم بما كنتم فيهِ تختلفونَ. وأنِ احكم بينهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتّبعْ أهواءَهم واحذرهم أن يفتنوكَ عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليكَ فإن تولّوا فاعلم أنّما يُريدُ اللهُ أن يُصيبَهم ببعضِ ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناسِ لفاسقونَ. أفحكمَ الجاهليّةِ يبغونَ ومن أحسنُ من اللهِ حُكماً لقومٍ يوقنونَ. يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ومن يتولّهم منكم فإنّهُ منهم إنّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ. فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يُسارعونَ فيهم يقولونَ نخشى أن تُصيبنا دائرةٌ فعسى اللهُ أن يأتيَ بالفتحِ أو أمرٍ من عندهِ فيُصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمينَ. ويقولُ الذين آمنوا أهؤلاءِ الذين أقسموا باللهِ جهدَ أيمانهم إنّهم لمعكم حبطتْ أعمالُهم فأصبحوا خاسرينَ. يا أيّها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينهِ فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحبّهم ويُحبّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ يُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومةَ لائمٍ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيهِ من يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ. إنّما وليُّكمُ اللهُ ورسولُهُ والذين آمنوا الذين يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهم راكعونَ. ومن يتولَّ اللهَ ورسولَهُ والذين آمنوا فإنّ حزبَ اللهِ هم الغالبونَ. يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا الذين اتّخذوا دينكم هُزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتابَ من قبلكم والكفّارَ أولياءَ واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنينَ. وإذا ناديتم إلى الصلاةِ اتّخذوها هُزُواً ولعباً ذلكَ بأنّهم قومٌ لا يعقلونَ. قُلْ يا أهلَ الكتابِ هل تنقمونَ منّا إلّا أن آمنّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ من قبلُ وأنّ أكثرَكم فاسقونَ. قُلْ هل أُنبّئكم بشرٍّ من ذلكَ مثوبةً عندَ اللهِ من لعنهُ اللهُ وغضبَ عليهِ وجعلَ منهمُ القردةَ والخنازيرَ وعبدَ الطاغوتَ أولئكَ شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواءِ السبيلِ. وإذا جاؤوكم قالوا آمنّا وقد دخلوا بالكفرِ وهم قد خرجوا بهِ واللهُ أعلمُ بما كانوا يكتمونَ. وترى كثيراً منهم يُسارعونَ في الإثمِ والعدوانِ وأكلهمُ السُّحتَ لبئسَ ما كانوا يعملونَ. لولا ينهاهمُ الربّانيّونَ

وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٥]

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى بن مريم قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار ولهذا قال:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

ثم قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

قال ابن جرير [تفسيره: ٣١٣/٦] وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد ثم توعدهم وتهددهم فقال:

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال:

﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ثم بين حال المسيح وأمه وانه عبد رسول ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله.

وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً.

وقال السدي وغيره [تفسير الطبري: ٣١٤/٦]: المراد بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ زعمهم في عيسى وأمه انهما إلهان مع الله؛ يعني كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى بن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله او أنه شريكه تعالى الله عما يقولون فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي تعاليت أن يكون معك شريك.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ حين ارسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم.

ثم فسر ما قال لهم بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي رفعتني إليك حين ارادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك: ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم قال علي وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد [١٤٩/٥] عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وقال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة

إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً»

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ. وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ٢٠]

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر ٤ - ٥]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ. سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢]

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الأسراء: ١١١]

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]

وثبت في الصحيح [خ (٤٩٧٤، ٤٩٧٥)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»

وفي الصحيح [خ (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، م (٢٨٠٤)] أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم»

ولكن ثبت في الصحيح [خ (٤٦٨٦)، م (٢٥٨٣)] أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]

وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق: ١٧]

٧٦- نشأة عيسى وبدء الوحي

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس [س (٤٤٩) عن انس مرفوعاً].

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وإن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينها وبين الإكاف شيء.

وهذا لا يصح.

والحديث الذي تقدم ذكره [س (٤٤٩) عن انس مرفوعاً] دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ومهما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه [تاريخ الطبري: ١/٥٩٤ - ٥٩٨]: أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها وإن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجده في حجر أمه والملائكة محدقة به وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى.

فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه.

فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك.

فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت بها حتى بلغ عمره ثنتي عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره. فذكر منها:

أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالا من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذه وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به فقال: إني لا أستطيع ذلك فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابا يعني خمراً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئاً فشق ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب. فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبي نضرة عن أبي سعيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال:

إن عيسى بن مريم اول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يَدَع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال: (اللهم أنت القريب في علوك المتعال في دنوك الرفيع على كل شيء من خلقك. أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجبن وهن دخان من فرقك فاتين طائعات لأمرك فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران فتباركت اللهم في مفطور سمواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال الماء المتطاهر التظاهر فذل لطاعتك صعبها واستحيى لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها فتفجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار. ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتادا على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلمودها

فتباركت اللّهم فمن يبلغ بنعته نعتك؟ أمنْ يبلغ بصفته صفتك؟

تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب لا إله إلا أنت سبحانك سترت السماوات عن الناس لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس نشهد أنك لست بإله استحدثناك ولا رب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء يقضون معك فندعوهم ونذرك ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفوا أحد)

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس: إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه اللّه بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ [النساء: ١٥٦]

قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب فجعل لا يعلمه المعلم شيئا إلا بدره إليه فعلمه أبا جادٍ فقال عيسى: ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدري فقال عيسى: كيف تعلمني مالا تدري؟ فقال المعلم: إذاً فعلمني فقال له عيسى: فقم من مجلسك فقام فجلس عيسى مجلسه فقال: سلني فقال المعلم: ما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء اللّه، والباء بهاء اللّه والجيم بهجة اللّه وجماله. فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول اللّه ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة كلّمه بحديث طويل موضوع لا يُشكُّ فيه ولا يُتَمارى.

وهكذا روى ابن عدي [الكامل: ٢٩٩/١] من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود وعن مِسْعَر بن كدام عن عطية عن أبي سعيد رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد وهو مطول لا يفرح به.

ثم قال ابن عدي: وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لم يروِه غير إسماعيل.

وروى ابن لهيعة عن عبد اللّه بن هبيرة قال: كان عبد اللّه بن عمرو يقول: «كان عيسى بن مريم وهوغلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم فيقول: خبأت لك كذا وكذا فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها: أطعميني ما خبأت لي فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا فتقول له: من أخبرك؟ فيقول: عيسى بن مريم فقالوا: واللّه لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا: إنما هؤلاء قردة وخنازير فقال: اللّهم كذلك فكانوا كذلك رواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: وكان عيسى يُري العجائب في صباه إلهاماً من اللّه ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه فأوحى اللّه إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر اللّه من صفتها أنها ذات قرار ومعين وهذه صفة غريبة الشكل وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يُقَرُّ عليه وارتفاعه متسع ومع علوه فيه عين الماء معين وهو الجاري السارح على وجه الأرض.

فقيل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو محلّة بيت المقدس ولهذا ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف.

وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق.

وقيل: ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم واللّه أعلم.

وقيل: هي الرملة.

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره اللّه أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا.

قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث اللّه له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى اللّه ففشا فيهم أمره.

٧٧- نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام

قال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا عبد اللّه بن صالح حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال: أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان

ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان. وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة.

وأنزل الإنجيل على عيسى بن مريم في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما

وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان.

وقد ذكرنا في التفسير عند قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير في تاريخه [٥٩٨/١]: أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

وقال إسحاق بن بشر: وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال: أوحى اللّه عز وجل إلى عيسى بن مريم: يا عيسى جدَّ في أمري ولا تهن واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول انك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين إياي فاعبد وعلي فتوكل خذ الكتاب بقوة فسِّر لأهل السريانية بلِّغ من بين يديك إني أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج - وهي العمامة - والمدرعة والنعلين والهراوة - هي القضيب - الأنجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين الجعد الرأس الكث اللحية المقرون الحاجبين الأقنى الأنف المفلّج الثنايا البادي العنفقة

الذي كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره شثن الكف والقدم إذا التفت التفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة الطيب الريح نكاح النساء ذا النسل القليل إنما نسله من مباركة لها بيت يعني في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب تُكفّله يا عيسى في آخر الزمان كما كفّل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر. كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه.

قال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال: غرس شجرة أنا غرستها بيدي فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

قال عيسى: يا رب اسقني منها قال: «حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي.

قال: يا عيسى أرفعك إلي؟ قال: رب ولم ترفعني؟ قال: أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم.

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أن عيسى قال: يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة قال: أمة أحمد هم علماء حكماء كأنهم أنبياء يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله.

يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم.

رواه ابن عساكر

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي عن عبد الله بن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: أنزلني من نفسك كهمك واجعلني ذخراً لك في معادك وتقرب إليَّ بالنوافل أحبك ولا تولَّ غيري فأخذلك اصبر على البلاء وارض بالقضاء وكن لمسرتي فيك فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى وكن مني قريباً وأحي ذكري بلسانك ولتكن مودتي في صدرك تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة وكن لي راغباً راهباً وأمت قلبك في الخشية لي وراع الليل لحق مسرتي وأظم نهارك ليوم الري عندي نافس في الخيرات جهدك وأعرف بالخير حيث توجهت وقم في الخلائق بنصيحتي واحكم في عبادي بعدلي فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ولا تكن حَلِساً كأنك مقبوض وأنت حي تنفس.

يا عيسى بن مريم ما آمنت بي خليقة إلا خشعت ولا خشعت لي إلا رجت ثوابي فأُشهدك أنها آمنةٌ من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي.

يا عيسى بن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار حذار ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال واكحل عينك بِمُلْمُول الحزن إذا ضحك البطالون وكن في ذلك صابرا محتسباً وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين رج من الدنيا بالله يوماً بيوم وذق مذاقه ما قد هرب منك أين طعمه وما لم يأتك كيف لذته فَرِجٌ من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجشيب، قد رأيت إلى ما تصير اعمل على حساب فإنك مسؤول لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك.

وقال أبو داود في كتاب القدر: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن طاووس عن أبيه قال: لقي عيسى بن مريم إبليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك؟ قال إبليس: فارق بذروة هذا الجبل فتردَّ منه فانظر هل تعيش أم لا؟ فقال ابن طاووس عن أبيه. فقال عيسى: أما علمت أن الله قال: «لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت».

وقال الزهري: إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده.

قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبدة أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاووس قال: أتى الشيطان عيسى بن مريم فقال: أليس تزعم أنك صادق فأت هذه فألق نفسك قال: ويلك أليس قال «يا ابن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء».

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا حسين بن طلحة سمعت خالد بن يزيد قال: تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين أقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان: «أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي؟ قال: إني لست بالذي أبتلي ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني» وعرف أنه الشيطان ففارقه.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا سُريج بن يونس حدثنا علي بن ثابت عن الخطاب ابن القاسم عن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه بليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر قال: نعم قال: ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدرٌ عليٌّ فقال: يا لعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

وقال أيضاً: حدثنا الفضل بن موسى البصري حدثنا إبراهيم بن بشار سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقي عيسى بن مريم إبليس فقال له إبليس: يا عيسى بن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً. ولم يتكلم فيه أحد قبلك قال: بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى قال: بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت من أحييت ثم يحييه قال: والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض قال: فصكه جبريل صكة بجناحيه فما تناها دون قرون الشمس ثم صكه أخرى بجناحيه فما تناها دون العين الحامية ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه. وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول: ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم.

وقد رُوي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر:

فقال الحافظ أبو بكر الخطيب: أخبرني أبو الحسن بن رزقويه أنبأنا أبو بكر أحمد بن سندي حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار أنبأنا علي بن عاصم حدثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال: صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له: إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على

أن يتخلص منه فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول: لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبدا قال: فاستغاث عيسى بربه فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف فلما استقرا معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي قال: فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك فقال لعيسى: قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً إن غضبك ليس بغضب عبد وقد رأيت مالقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك إلى أمر هو لك آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك أما إنني لا أقول أن تكون إلها ليس معه إله ولكن الله يكون إلها في السماء وتكون أنت إلها في الأرض.

فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ومر عيسى وهو بمكانه فقال: يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً فرمى به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال: فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه في تلك الحمأة قال: والله ما عاد إليه بعد.

قال: وحدثنا إسماعيل العطار حدثنا أبو حذيفة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: سيدنا قد لقيت تعباً؟ قال: إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل وسأضل به بشراً كثيراً وأبثُّ فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله.

قال: وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآنا ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال:

﴿يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني إذ قويتك بروح القدس يعني جبريل

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعوانا ترضى بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة فذلك فاعلم خُلُقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي وسيقول لك بنو إسرائيل: صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم يقبل صلاتنا وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاءنا فقل لهم: ولم ذلك وما الذي يمنعني؟ أن ذات يدي قلّت؟

أو ليس خزائن السماوات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء أو أنّ البخل يعتريني أو لست أجود من سئل وأوسع من أعطى أو أن رحمتي ضاقت! وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي.

ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى بن مريم عذّوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثرة على الآخرة لعرفوا من أين أتوا وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام! وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوني ويستحلون محارمي؟! وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها؟!

يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ازددت عليهم غضباً.

ياعيسى وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزيّن بالفحش ولا قوال بالخنا أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل التقوى ضميره والحكمة معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته اسمه أحمد أهدي به بعد الضلالة وأعلّم به بعد الجهالة وأُغني به بعد العائلة وأرفع به بعد الضيعة أهدي به وافتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة أجعل أمته خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل أُلهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسُجّداً ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً قرباتهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم رهبان بالليل ليوث في النهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة.

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي دخل حديث بعضهم في بعض.

قالوا: لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل الكافرون والمنافقون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا. وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها: مالك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم قالوا: فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى: يافلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي قال: فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكاً فركب خلقي ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إلي روحي ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون علي كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً

وقدمنا في عقيب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى له، فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً [تفسير الطبري: ٣٥/١٢].

وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر

ذكره وفيه: أن ملكا من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظرا عجيباً قال الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١٠ ـ ١١١]

يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله

﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال:

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الخط والفهم نص عليه بعض السلف ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾ أي بأمري يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ قال بعض السلف وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته

﴿والأَبْرَصَ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وانقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

وقيل: المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣]

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ. وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥٤]

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه فكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا ممن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره وهذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد صلى الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسوره وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين اظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون كما قال تعالى:

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٦ - ٩] إلى أن قال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم وإحسانا من الله إليهم كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/١٦٦]: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام.»

وقد روي عن العرباض بن سارية [تفسير الطبري: ١/٥٥٦] وأبي أمامة [أحمد: ٥/٢٦٢] عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى».

وذلك إن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية.

ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من يساعدني في الدعوة إلى الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾

وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسموا النصارى بذلك قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر فكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلاً ثلاثة: أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورين في سورة يس كما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية [تفسير الطبري: ٢٢/١٥٦].

وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [آل عمران: ٥٥].

فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه.

ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به.

ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله. والله تعالى أعلم.

٧٨- خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف.

ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم فوعظهم عيسى - عليه السلام - في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. ويقال: وخل. ويقال: ورمان وثمار لها رائحة عظيمة جداً قال الله لها: كوني فكانت ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا: لا نأكل حتى تأكل فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك.

ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون

الأغنياء فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير [في تفسيره: ١٣٤/٧] جميعاً: حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير».

ثم رواه ابن جرير [تفسيره: ١٣٤/٧] عن بندار عن ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفا وهذا أصح.

وكذا رواه [تفسيره: ١٣٤/٧] من طريق سماك عن رجل من بني عجل عن عمار موقوفاً وهو الصواب والله أعلم.

وخلاس عن عمار منقطع فلو صح هذا الحديث مرفوعا لكان فيصلاً في هذه القصة فإن العلماء اختلفوا في المائدة هل نزلت أم لا:

فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولاسيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم.

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ١٣٥/٧] بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري أنهما قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ولهذا قيل: إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً في كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعي على نقله والله أعلم. وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك. ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ولله الحمد والمنة.

٧٩- من أقوال عيسى عليه السلام وأفعاله

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا رجل سقط اسمه حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو هلال محمد ابن سليمان عن بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم - قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم -: ألا أجيء إليك يا نبي الله؟ قال: بلى قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه غرقت يانبي الله! فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء.

ورواه أبو سعيد بن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه.

ثم قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن الحسن ابن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياض قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت قال: فامشوا إذاً.

قال: فمشوا معه في الموج فغرقوا فقال لهم عيسى: مالكم؟ فقالوا: خفنا الموج قال: ألا خفتم رب الموج؟ قال: فأخرجهم ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر أو حصى فقال: أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب قال: فإنهما عندي سواء.

وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف: أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد.

قال بعضهم: كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت.

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر حدثنا جعفر بن برقان: أن عيسى كان يقول: "اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتهناً بعملي فلا فقير أفقر مني اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تسلط علي من لا يرحمني"

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد: كان عيسى يقول: «لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا».

قال الفضيل: وكان عيسى يقول: «فكرت في الخلق فوجدت من لم يُخلَق اغبط عندي ممن خُلِقَ».

وقال إسحاق بن بشر عن هشام ابن حسان عن الحسن قال: «إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة».

قال: وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى.

قال: «وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئا من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا! فقام عيسى فقال: فأخذ الحجر فرمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا».

وقال معتمر بن سليمان: «خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيا باكيا شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال: السلام عليكم يا بني إسرائيل أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟ قال: بيتي المساجد وطيبي الماء وإدامي الجوع وسراجي القمر بالليل وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس وريحاني بقول الأرض ولباسي الصوف وشعاري خوف رب العزة وجلسائي الزمنى والمساكين أصبح وليس لي شيء وأمسي وليس لي شيء وأنا طيب النفس غني مكثر، فمن أغنى مني وأربح». رواه ابن عساكر.

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري حدثنا هانئ بن المتوكل الإسكندراني عن حيوة بن شريح حدثني الوليد بن أبي الوليد عن شفي بن ماتع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أوحى الله تعالى إلى عيسى أنْ يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك اربعمائة عام.»

وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفاً من رواية شُفي بن ماتع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب

قال: قال عيسى للحواريين: «كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا».

وقال قتادة: قال عيسى عليه السلام: «سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي».

وقال إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال عيسى للحواريين: «كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين لحقٌّ ما أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين لحقٌّ ما أقول لكم: إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله».

ورُوي نحوه عن أبي هريرة.

وقال أبو مصعب عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول: «يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره».

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول: «اعبروا الدنيا ولا تعمروها».

وكان يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع في القلب الشهوة».

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد «ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً».

وعن عيسى عليه السلام: «يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت وكن في الدنيا ضيفاً واتخذ المساجد بيتا وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة».

وعنه عليه السلام أنه قال: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً».

وفي هذا يقول سابق البربري.

لكم بيوتٌ بمستَنّ السيولِ وهَلْ يبقى على الماءِ بيتٌ أُسّه مَدَرُ

وقال سفيان الثوري: قال عيسى بن مريم: «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء».

وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد عن أبي عبد الله الصوفي قال: قال عيسى: «طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشاً حتى يقتله».

وعن عيسى عليه السلام: «إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزيينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات».

وقال الأعمش عن خيثمة: كان عيسى يصنع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: «هكذا فاصنعوا بالقرى».

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك. فقال: «طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه».

وعنه «طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته».

وعنه: «طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم».

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها فقال: «ما أبيض أسنانها». لينهاهم عن الغيبة.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا [ذم الدنيا (٤٤٩)]: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا بن عدي قال: قال عيسى بن مريم: يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا.

قال زكريا [ذم الدنيا (٤٥٠)] وفي ذلك يقول الشاعر:

أرى رجالاً بأدنى الدينِ قد قَنِعوا ولا أراهُم رَضوا في العيشِ بالدّونِ
فاستغنِ بالدينِ عنْ دنيا الملوكِ كما استغنَى الملوكُ بدُنياهُم عنِ الدِّينِ

وقال أبو مصعب عن مالك: قال قال عيسى بن مريم عليه السلام: لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية.

وقال الثوري: سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي قال: قال عيسى لأصحابه: بحق أقول لكم: من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير.

وقال مالك بن دينار: قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فإن قلتم: نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد الله عن يزيد ابن ميسرة قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه قال: آمين آمين بحق أقول لكم: لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه: أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي أخبرتنا عائشة بنت الحسن ابن إبراهيم الوركانية قالت: حدثنا أبو محمد عبدالله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاء حدثنا الوليد بن أبان إملاء حدثنا أحمد بن جعفر الرازي حدثنا سهل بن إبراهيم الحنظلي حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فاعجبه البنيان فقال: أي رب مر هذه المدينة أن تجيبني؟ فأوحى الله إلى المدينة أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى قال: فنادت المدينة عيسى حبيبي وما تريد مني؟ قال: ما فعل أشجارك؟ وما فعل أنهارك؟ وما فعل قصورك؟ وأين سكانك؟ قالت: حبيبي جاء وعد ربك الحق فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني. قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني. لله ميراث السماوات والأرض. قال: فنادى عيسى عليه السلام: فعجبت من ثلاث أناس: طالب الدنيا والموت يطلبه وباني القصور والقبر منزله ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه! ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع تجمع مالك لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك».

هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثوري عن أبيه عن إبراهيم التيمي قال: قال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه».

وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال قال عيسى بن مريم: «من تعلم وعلَّم وعمل دعي عظيما في ملكوت السماء».

وقال أبو كريب: روي أن عيسى عليه السلام قال: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي.

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً «أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل».

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال قال عيسى: لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لايصنع باللؤلؤ شيئاً ولا تعطوا الحكمة من لايريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لايريدها شر من الخنزير.

وكذا حكى وهب وغيره عنه.

وعنه أنه قال لأصحابه: أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم وإن فيكم خصلتين من الجهل: الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر.

وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم فإن العالم إذا زل زلّ بزلته عالم كثير.

وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها.

وقال وهب قال عيسى: ياعلماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا أنتم تدخلوها ولاتدعون المساكين يدخلونها إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه.

وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يا ابن خالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت؟. فقال له عيسى: مالي أراك عابساً كأنك قد يئست. فأوحى الله إليهما إنّ أحبكما إلي أبشكما بصاحبه.

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسع وسع.

وقال أبو عمر الضرير: بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً.

والآثار في مثل هذا كثيرة جداً. وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر والله الموفق للصواب.

٨٠- رفع عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٥]

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً. وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٩].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ١٤/٦]: كان اسمه: داود بن يورا، فأمر بقتله وصلبه فحصروه في دار ببلد بيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً وأخبر تعالى بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء وكما سنورد ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال.

وهذا ذكر ما ورد من الآثار في صفة رفعه إلى السماء:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: أنت هو ذاك فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطُّلَب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة: كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ماشاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً

حتى بعث الله محمداً ﷺ. قال ابن عباس وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم.

ورواه النسائي [كبرى (١١٥٩١)] عن أبي كريب عن ابي معاوية به نحوه.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ٩٢/٢٨] عن سَلْم ابن جنادة عن أبي معاوية.

وهكذا ذكر غير واحد من السلف.

وممن ذكر ذلك مطولا محمد بن إسحاق بن يسار [تفسير الطبري: ١٤/٦، ١٥] قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله.

قيل: وكان عنده من الحواريين اثني عشر رجلاً بطرس ويعقوب بن زبدي ويحنس أخو يعقوب وأندراوس وفليبس وابرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن حلقيا وتداوس وفتاتيا يودس زكريا يوطا وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى.

قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذي ألقي شبه المسيح عليه فصلب عنه [تفسير الطبري: ١٥/٦].

قال: وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقي عليه شبهه يودس زكريا يوطا والله أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباس استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس زكريا يوطا الذي ألقي عليه الشبه.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم قال: سمعت الفراء يقول في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ قال: إن عيسى غاب عن خالته زمانا فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ثم خرج إلى أصحابه فقال: لم أره ومعه سيف مسلول فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

وقال ابن جرير [تفسيره: ١٢/٦، ١٣]: حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه: من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة؟ فقال رجل: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

قال ابن جرير [تفسيره: ١٣/٦]: وحدثنا المثنى حدثنا إسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من رد علي شيئا الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي.

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها، فقالوا: والله ما ندري مالنا والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمراً وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال: يذهب بالراعي وتتفرق الغنم وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه.

ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه.

ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ماتجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون: أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً.

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فابرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال: على ما تبكيان؟ قالتا: عليك فقال: إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير وإن هذا شيء شبه لهم فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه فقال: لو تاب لتاب الله عليه.

ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له: يوحنا فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم.

وهذا إسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعه فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب.

وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه: أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام وهي تحسب أنه ابنها ان ينزل جسده فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك فقالت مريم لأم يحيى: الا تذهبين بنا نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت: وممن استتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذي هو عند القبر فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحدا فرجت مريم أن يكون جبريل وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح وأُسلّم عليه وأحدث عهداً به فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ولكن هذا الفتى الذي أُلقي شبهه عليه وصلب وقتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به، فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت

غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح.

قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة.

فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة، فلما رآها أسرع إليها فأكبَّ عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل وقال: يا أمه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت.

قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصري: كان عُمْر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة.

وفي الحديث [ت (٢٥٤٥)] «إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين».

وفي الحديث الآخر [المعجم الكبير للطبراني ٢٠/٢٥٦] على ميلاد عيسى وحُسن يوسف.

وكذا قال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه [المعرفة والتاريخ: ٣/٣١٦] عن سعيد بن أبي مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان: أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته: أن عائشة كانت تقول: أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها «أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله».

وأنه أخبرني «أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين.»

هذا لفظ الفسوي فهو حديث غريب.

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر وإنما أراد به مدة مقامه في أمته.

كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: قالت فاطمة: قال لي رسول الله ﷺ: «إن عيسى بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة» وهذا منقطع.

وقال جرير والثوري عن الأعمش: عن إبراهيم: مكث عيسى في قومه أربعين عاماً.

ويروى عن أمير المؤمنين علي: أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان وتلك الليلة في مثلها توفي عليٌّ بعد طعنه بخمسة أيام.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهي تنظر إليه وألقى إليها عيسى برداً له وقال: هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته إلى شمعون وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها وكانت تحبه حبا شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً.

قال بعض الشعراء:

وكنتُ أرى كالموتِ من بينِ ساعةٍ ... فكيفَ ببينٍ كانَ موعدَه الحشرُ

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبر: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان فقيل له: إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفعل العجائب فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فتابعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظمت النصارى الصليب ومن ههنا دخل دين النصرانية في الروم.

وفي هذا نظر من وجوه.

أحدها: أن يحيى ابن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق.

الثاني: أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة وذلك في زمان قسطنطين بن قسطس باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره.

الثالث: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفي فالله أعلم أكان هذا أم لا؟ وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلا صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها لعنهم الله. وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها.

ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو الأقصى.

٨١- صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]

قيل: سمي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام.

وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين [خ (٤٥٤٨)، م (٢٣٦٦)] «ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

وتقدم حديث عمير بن هانئ عن جنادة عن عبادة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «من شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد اللّه ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله اللّه الجنة على ما كان من العمل» رواه البخاري [٣٤٣٥] وهذا لفظه ومسلم [٢٨].

وروى البخاري [٣٤٤٦] ومسلم [١٥٤] من حديث الشعبي عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران» هذا لفظ البخاري. وقال البخاري [٣٤٣٧]: حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا هشام عن معمر (ح) وحدثني محمود حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى قال: فنعته فإذا رجل حسبته قال: مضطرب رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة».

قال «ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» يعني الحمام.

«ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به» الحديث.

وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى.

ثم قال [خ (٣٤٣٨)]: حدثنا محمد بن كثير أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر. وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط» تفرد به البخاري.

وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال: قال عبد اللّه بن عمر: ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال: «إن اللّه ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رَجِل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح بن مريم. ثم رأيت رجلا وراءه جعد قطط أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قَطن واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح الدجال.» [خ (٣٤٣٩)].

ورواه مسلم [١٦٩] من حديث موسى ابن عقبة.

ثم قال البخاري: تابعه عبيد اللّه بن نافع.

ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم عن ابن عمر قال الزهري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية [٣٤٤١].

فبين صلوات اللّه وسلامه عليه صفة المسيحين، مسيح المهدي ومسيح الضلالة ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون.

وقال البخاري [٣٤٤٤]: حدثنا عبد اللّه بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذي لا إله إلا هو فقال عيسى: آمنت باللّه وكذبت عيني».

وكذا رواه مسلم [٢٣٦٨] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق.

وقال أحمد [٢/٣٨٣]: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة قال: ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى رجلا يسرق فقال: يا فلان أسرقت؟ فقال: لا واللّه ما سرقت قال: آمنت باللّه وكذبت بصري».

وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل وظن أن أحداً لا يحلف بعظمة اللّه كاذبا على ما شاهده منه عياناً فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: «آمنت باللّه» أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك.

وقال البخاري [٣٤٤٧]: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غُرْلاً.» ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فأول الخلق يُكسى إبراهيم ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابي فيقال: إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ – ١١٨] تفرد به دون مسلم من هذا الوجه.

وقال أيضاً [٣٤٤٥] حدثنا عبد اللّه بن الزبير الحميدي حدثنا سفيان سمعت الزهري يقول: أخبرني عُبيد اللّه بن عبد اللّه عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد اللّه ورسوله»

وقال البخاري [٣٤٣٦]: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج يصلي إذ جاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللّهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقيل لها: ممن؟ قالت: من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي، قالوا: أنبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللّهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللّهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه».

قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه «ثم مر بأمة فقالت: اللّهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها فقال: اللّهم اجعلني مثلها فقالت: لم ذلك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت وزنيت ولم تفعل.»

وقال البخاري [٣٤٤٢]: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي».

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٩٥)] من حديث أبي داود

الحفري عن الثوري عن أبي الزناد، عن الأعرج عن أبي سلمة عن أبي هريرة

وقال أحمد [٤٦٣/٢]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثوري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات وليس بيني وبين عيسى نبي».

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وأخرجه أحمد [٣١٩/٢] عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وأخرجه ابن حبان [الإحسان (٦١٩٤)] من حديث عبد الرزاق به، بنحوه.

وقال أحمد [٤٣٧/٢]: حدثنا يحيى عن ابن أبي عروبة حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى. وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصَّرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

ثم رواه أحمد [٤٠٦/٢] عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال:

«فيمكث أربعين سنة. ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون.».

ورواه أبو داود [٤٣٢٤] عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه.

وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فيمكث في الأرض أربعين سنة».

وسيأتي بيان نزوله عليه السلام في آخر الزمان في «كتاب الملاحم» كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الآية [الزخرف: ٦١].

وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصل، فيقول: لا! بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة.

وفي رواية فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه. ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة.

وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام.

وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لِثنيتهما ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه.».

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً: أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية؛ ولكن لا يصح إسناده.

وقال أبو عيسى الترمذي [٣٦١٧]: حدثنا زيد بن أخزم الطائي حدثنا أبو قتيبة سَلْم بن قتيبة حدثني أبو مودود المدني حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال: مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهما السلام يدفن معه.

قال أبو مودود: وقد بقي من البيت موضع قبر.

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. كذا قال! والصواب الضحاك بن عثمان المدني.

وقال البخاري [التاريخ الكبير (٢٦٣/١)] هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه.

وروى البخاري [٣٩٤٨] عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة.

وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة [تفسير عبد الرزاق: ١٨٦/٢].

وقيل: خمسمائة وأربعون سنة.

وعن الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة [تفسير الطبري: ١٦٧/٦].

والمشهور ستمائة سنة.

ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة بالقمرية فتكون ستمائة بالشمسية والله أعلم.

وقال ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٢٣٦)]: ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه:

حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو همام حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة».

وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان.

وذكر ابن جرير [تفسيره: ٦٠٢/١، ٦٠٣] عن محمد ابن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم.

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى.

وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما: متى ويوحنا ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا فالله أعلم.

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له: ضينا وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولص اليهودي وكان ظالماً غاشما مبغضاً للمسيح ولما جاء به - وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد - ثم رجمه

حتى مات رحمه الله.

ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه. فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره فقال: اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبدالله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت في الزمان الذي سنورده إن شاء الله تعالى.

وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في كتابه "الرد على النصارى" لبعضهم يرد عليهم في قولهم: نصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود مع دعواهم أنه ابن الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا:

عجبا للمسيح بين النصارى	وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقا	وصحيحا فأين كان أبوه
حين خلى ابنه رهين الأعادي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه؟
فلئن كان راضيا فاحمدوهم	لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطا فاتركوه	واعبدوهم لأنهم غلبوه

٨٢- اختلاف أصحاب المسيح فيه

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء.

وقال آخرون: هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله [تفسير الطبري: ٢٨/٩٢].

فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم كما قال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى. اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا الملائكة ودحض من عداهم وأبعدهم وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملائكة الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي.

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح وبنت أمه هيلانة والقمامة يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح.

وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى. ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حول الى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل [انظر م (٥٢٥)].

وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لأبث على ما فيها ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة:

نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السماوات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين.

٣- كتاب أخبار الماضين

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة سوى أيام العرب وجاهليتهم فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾[طه: ٩٩].

وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. [يوسف: ٣]

١- خبر ذي القرنين

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. فَأَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً. قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً. فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ [الكهف: ٨٣ ـ٩٨].

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل وأنه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم وقهر أهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط.

والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين.

وقيل: كان نبياً. وقيل: كان رسولاً.

وأغرب من قال: كان ملكاً من الملائكة.

وقد حكي هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإنه سمع رجلا يقول لآخر: ياذا القرنين فقال: مه ما كفاكم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة [تفسير الطبري: ١٧/١٦] ذكره السهيلي [الروض الأنف: ١٨١/٣].

وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: كان ذو القرنين نبياً [تاريخ دمشق: ٣٣٧/١٧ من طريق وكيع].

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٣٧/١٧] من حديث أبي محمد بن أبي نصر عن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبي ثابت، حدثنا محمد بن حماد أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أدري أتُبَّعٌ كانَ لعيناً أمْ لا ولا أدري الحُدُودُ كفاراتٌ لأهلِهَا أمْ لا ولا أدري ذُو القرنينِ كانَ نبياً أم لا».

وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال إسحاق بن بشر [تاريخ دمشق: ٣٣٩/١٧] عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصوراً وكان الخضر وزيره.

وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في اصطلاح الناس اليوم.

وقد ذكر الأزرقي [أخبار مكة: ص٣٩] وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام.

وروي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه وأن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد والله أعلم [تاريخ دمشق: ٣٤٠/١٧، ٣٤١].

واختلفوا في السبب الذي سمي به ذا القرنين:

فقيل: لأنه كان في رأسه شبه القرنين.

وقال وهب بن منبه: كان له قرنان من نحاس في رأسه. وهذا ضعيف.

وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك فارس والروم [تفسير الطبري: ٩/١٦].

وقيل: لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً، وملك ما بينهما من الأرض. وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهري [تاريخ دمشق: ٣٣٦/١٧].

وقال الحسن البصري: كانت له غديرتان من شعر يطأ فيهما فسمي ذا القرنين [تاريخ دمشق: ٣٣٦/١٧].

وقال إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه. ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذا القرنين [تاريخ دمشق: ٣٣٦/١٧].

وروي الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحَ اللّه فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين [تفسير الطبري: ٩/١٦].

وهكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي به [تفسير الطبري: ٩/١٦].

وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن علي قال: لم يكن نبياً ولا رسولا ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً [تاريخ دمشق: ٣٤٣/١٧، ٣٣٥].

وقد اختلف في اسمه:

فروي الزبير بن بكار عن ابن عباس كان اسمه عبدالله بن الضحاك بن معد [تاريخ دمشق: ٣٣١/١٧].

وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان.

وقد جاء في حديث [تاريخ دمشق: ٣٣٢/١٧] أنه كان من حمير وأمه رومية وأنه كان يقال له: ابن الفيلسوف لعقله. وقد أنشد بعض الحميريين في ذلك شعراً يفخر بكونه أحد أجداده فقال:

قَد كانَ ذو القرنَينِ جدِّي مُسْلماً   مَلِكاً تدينُ له الملوكُ وتَحشدُ

بلغَ المشارقَ والمغاربَ يَبتغي   أسبابَ أمرٍ مِنْ حَكيمٍ مُرشِدِ

فرأى مغيبَ الشمْسِ عنـدَ غُروبِهـا ... في عيْـنِ ذي خلـبٍ وثـأطٍ حرْمـدِ
مِـن بعـدِهِ بلقيـسُ كـانتْ عمـتي ... مَلَكَتْهُـمُ حتـى أتاهـا الهدهـدُ

قال السهيلي [الروض الأنف: ١٧٨/٣] وقيل: كان اسمه: مرزبى بن مرذبة.

ذكره ابن هشام [السيرة: ٣٠٧/١].

وذكر في موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذي مرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع [الروض الأنف: ١٧٩/٣].

وقيل: إنه أفريدون ابن أسفيان الذي قتل الضحاك [تاريخ الطبري: ٢١١/١].

وفي خطبة قس: يا معشر إياد، أين الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر ألفين. ثم كان ذلك كلحظة عين.

ثم أنشد ابن هشام للأعشى.

والصَّعْبُ ذو القرنَيْنِ أصبحَ ثاوياً ... بالحنو في جَـدَثٍ أُميـمَ مقيمـاً

وذكر الدارقطني وابن ماكولا [الإكمال: ٥٥٩/١، ٥٦٠] أن اسمه هرمس.

ويقال: هرديس بن فيطون بن رومي بن لنطي ابن كسلوجين بن يونان بن يافث بن نوح فالله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام [تاريخ دمشق: ٣٣٣/١٧].

فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس بن مضريم بن هرمس بن هرديس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نونة بن سرحون بن رومة بن ثرنط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه [٣٣٠/١٧].

المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم.

وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير.

فإن الأول كان عبداً مؤمنا صالحاً وملكا عادلا وكان وزيره الخضر وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا.

وأما الثاني فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفاً وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة.

فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم: سلوه عن رجل طواف في الأرض وعن فتية خرجوا لا يدرى ما فعلوا فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين [تفسير الطبري: ١٩١/١٥].

ولهذا قال: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾ أي من خبره وشأنه.

﴿ذِكْراً﴾ أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله فقال:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي وسعنا مملكته في البلاد وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة.

قال قتيبة عن أبي عوانة عن سماك عن حبيب بن حماز قال: كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين: كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سخّر له السحاب ومدّت له الأسباب وبسط له في النور.

وقال: أزيدك فسكت الرجل وسكت علي رضي الله عنه [تاريخ دمشق: ٣٣٣/١٧].

وعن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية يقول: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود عليهما السلام. وذو القرنين ورجل من أهل حلوان. ورجل آخر. فقيل له: الخضر؟ قال: لا [تاريخ دمشق: ٣٣٦/١٧].

وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران سليمان النبي وذو القرنين ونمرود وبخت نصر [تاريخ دمشق: ٣٣٦/١٧].

وهكذا قال سعيد بن بشير سواء [تاريخ دمشق: ٣٣٧/١٧].

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود وكان من قصته أنه كان رجلا مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب مد الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال وفتح المدائن وقتل الرجال وجال في البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قول الله: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾ أي خبراً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي علماً بطلب أسباب المنازل [تاريخ دمشق: ٣٣٩/١٧].

قال إسحاق: وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله [تاريخ دمشق: ٣٤٠/١٧].

وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدي وقتادة والضحاك: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ يعني علماً [تفسير الطبري: ٩/١٦].

وقال قتادة ومطر الوراق: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني تعليم الألسنة كان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم [تفسير الطبري: ٩/١٦، ١٠].

والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر.

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وفي كل هذه المدة نظر والله أعلم.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٢٩٥/٦، ٢٩٦] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٣٨/١٧] حديثاً متعلقا بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ مطولا جداً وهو منكر جداً. وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي وهو متهم فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي طريقاً

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ يعني من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال على

أحد قولي أرباب الهيئة والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمنا. وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته، ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا﴾ أي في نظره ولم يقل: فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة.

قال كعب الأحبار: وهو الطين الأسود. وقرأه بعضهم حامية [تفسير الطبري: ١٦/ ١١، ١٢]. فقيل: يرجع إلى الأول. وقيل: من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها.

وقد روى الإمام أحمد [٢/ ٢٠٧] عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثني مولى لعبد الله ابن عمرو عن عبد الله. قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «في نَارِ اللَّهِ الحَامِيَةِ لوْلا مَا يَزَعُهَا مِنْ أمْرِ اللَّهِ لأحْرَقَتْ مَا عَلَى الأرضِ».

فيه غرابة وفيه رجل مبهم لم يسم ورفعه فيه نظر وقد يكون موقوفا من كلام عبد الله بن عمرو فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منهما؛ والله أعلم.

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة فقد أخطأ وأبعد النجعة. وقال ما يخالف العقل والنقل.

وقد ذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/ ٣٤٦ ـ ٣٥١] من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين خبراً مطولا جداً فيه:

أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل فسأله ذو القرنين: هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ فذكر له صفة مكانها. فذهب ذو القرنين في طلبها وجعل الخضر على مقدمته فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها.

وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به. وقال: هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً. والله أعلم.

ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية:

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً. قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾[الكهف: ٨٦ ـ ٨٧].

أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه. وهذا هو العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق فيقال إنه رجع في ثنتي عشرة سنة

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾ أي ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس.

قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها.

وقد روي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حج ماشياً فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقاه فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا ويقال: إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل فسخر الله له السحاب وبشره إبراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد [تاريخ دمشق: ١٧/ ٣٤٠، ٣٤١ بنحوه].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ يعني غتماً.

يقال: إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج. فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السبل عليهم وبذلوا له حملا وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم فامتنع من أخذ الخراج اكتفاءً بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبني بينهم وبينهم سداً وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب.

وقيل: الرصاص والصحيح الأول.

فجعل بدل اللبن حديداً وبدل الطين نحاساً ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي﴾ أي الوقت الذي قدر الله خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿جَعَلَهُ دَكَّاء﴾ أي مساويا للأرض ولابد من كون هذا ولهذا قال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ كما قال تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦ـ٩٧].

ولذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني يوم فتح السد على الصحيح.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ وقد أوردنا الأحاديث المروية في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير وسنوردها إن شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته.

قال أبو داود الطيالسي عن الثوري: بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية: إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئاً فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه فقالت لهن: سبحان الله كلكن ثكلى؟ فقلن: أي والله ما منا إلا من أثكلت فكان ذلك تسلية لأمه [تاريخ دمشق: ١٧/ ٣٥٨].

وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظته أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة [تاريخ دمشق: ٣٥٩/١٧].

وهذا غريب.

قال ابن عساكر[تاريخ دمشق: ٣٦١/١٧]: وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة.

وقيل: كان عمره ثنتين وثلاثين سنة. وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة.

وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة.

وكان ملكه ست عشرة سنة [تاريخ دمشق: ٣٣٠/١٦، ٣٦١].

وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على اسكندر الثاني لا الأول وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ والله أعلم.

وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً ورد قوله رداً شنيعاً وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا.

قال: ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذي القرنين تشبهاً بالأول [الروض الأنف: ١٨٠/٣] والله أعلم.

٢- ذكر أمتي يأجوج ومأجوج وصفاتهم

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه.

ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٤٨)، م (٢٢٢)] من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ: «يقولُ اللَّهُ تعالَى يومَ القيامةِ: يَا آدمُ قمْ فابعثْ بعثَ النَّارِ منْ ذريتكَ فيقولُ: يا ربِّ وما بعثُ النَّارِ؟ فيقولُ: منْ كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النَّارِ وواحدٌ إلى الجنَّةِ فحينئذٍ يشيبُ الصغيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قالوا: يا رسول الله أينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: أَبْشِرُوا فإنَّ مِنْكُمْ وَاحِداً ومِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفاً».

وفي رواية [ت (٣١٦٩)، (س كبرى: ١١٣٤٠)] فقال: «أَبْشِروا فَإنَّ فيكم أمَّتينِ مَا كَانَتَا فِي شيءٍ إلا كَثَّرَتَاهُ» أي غلبتاه كثرة.

وهذا يدل على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة.

ثم هم من ذرية نوح؛ لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وتقدم في الحديث المروي في المسند [٩/٥] والسنن [ت (٣٢٣٠، ٣٢٣١، ٣٩٣١)] أن نوحاً ولد له ثلاثة، وهم سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك.

فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم.

وقد قيل: إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه، فلهذا قيل لهم الترك.

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وأنهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوي في شرح مسلم [٩٨/٣] وغيره وضعفوه وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن.

وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً. فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو غاية في القصر. ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى؛ فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان.

والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ وطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ثم لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ» [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)]. وهذا فيصل في هذا الباب وغيره.

وما قيل: من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً فإن صح في خبر قلنا به وإلا فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضاً قد يرشد إليه والله أعلم.

بل قد ورد حديث مصرح بذلك إن صح.

قال الطبراني [عزاه الهيثمي في «المجمع» ٦/٨ للطبراني في الكبير والأوسط] حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إنَّ يَأْجُوجَ من وَلَدِ آدَمَ ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ولن يموت منهم رجلٌ إلا تركَ من ذريّته ألفاً فصاعداً. وإن مِن ورائهم ثلاث أمم تاويل وتاريس ومنسك».

وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف. وفيه نكارة شديدة.

وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في تاريخه [٧٠/١] أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته وأنه دعا تلك الأمم التي هناك (تاريس وتاويل ومنسك) فأجابوه فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث والله أعلم.

فإن قيل: فكيف دلّ الحديث المتفق عليه [خ (٣٣٤٨)، م (٢٢٢)] أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم في النار ولم يبعث إليهم رسل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]؟

فالجواب: أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ فإن كانوا في زمن الذي قبل بعثة محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم في حكم أهل الفترة. ومن لم تبلغه الدعوة.

وقد دل الحديث المروي من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ: «أنْ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُمْتَحَنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامةِ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الجنَّةَ وَمَنْ أَبَى دَخَلَ النَّارَ» وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه تفسيرنا [تفسير ابن كثير: ٥٠/٥ ـ ٥٤] عند قوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم ولا ينافي الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار؛

لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد لـه فهـم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها؛ لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً في الدنيا فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا والله أعلم. كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم ٣٨].

وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح.

وأما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم.

قال البخاري: وقال رجل للنبي ﷺ: رأيت السد قال: «وكَيفَ رَأَيْتَهُ؟» قال: مثل البرد المحبر فقال: «رَأَيْتَهُ».

ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم [بعد (٣٣٤٥)] ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه غير أن ابن جرير رواه في تفسيره [٢٣/١٦] مرسلا فقال:

حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انْعَتْهُ لِيَ» قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال: «قَدْ رَأَيْتَهُ».

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين وعلى أي صفة فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيماً وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك.

وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية.

ويقال: إن بلادهم متسعة جداً وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم.

فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ وبين الحديث الذي رواه البخاري [٣٣٤٦] ومسلم [٢٨٨٠] عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول «لا إله إلا اللهُ ويلٌ للعربِ مِن شرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يَأْجوجَ ومَأجوجَ مِثلُ هذِهِ» وحلق تسعين قلت: يا رسولَ اللهِ أنهلكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: نعَمْ إذَا كثُرَ الخَبثُ».

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٣٤٧)، م (٢٨٨١)] من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُتِحَ اليومَ مِن ردمِ يأجُوجَ ومأجُوجَ مِثْلُ هذِهِ» وعقد تسعين.

فالجواب: أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن وأن هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا إشكال.

وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا إشكال أيضاً لأن قوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي في ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الأجل وينقضي الأمد المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا وهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده [٥١٠/٢] قالا: حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ ليحفِرُونَ السدَّ كلَّ يوم حتىٰ إذَا كادوا يرونَ شعاعَ الشمسِ قالَ الذي عليهِمْ: ارجعُوا فستحفِرُونهُ غداً فيعودُونَ إليهِ كأشدِّ مَا كانَ حتَّى إذَا بلغَتْ مدتُهُمْ وأرادَ اللهُ أنْ يَبعثَهُمْ على الناسِ حفرُوا حتَّى إذَا كادُوا يرونَ شُعاعَ الشمسِ قالَ الذِي عليهِمْ: ارجعُوا فستحفرونه غداً إنْ شاءَ اللهُ ويستثني فيَعُودونَ إليْهِ وهُوَ كهيئتِهِ حينَ يومِ تركُوهُ فيحفِرُونهُ ويخْرُجُونَ علَى الناسِ فينشِفون المياهَ ويتحصَّنُ الناسُ منهم في حصونِهِم فيَرْمُونَ بسِهامِهِمْ إلَى السَّماء فترْجعُ وعليْهَا كهيئةِ الدمِ فيقولُونَ: قهرْنَا أهلَ الأرضِ وعَلَوْنا أهلَ السَّماء فيبعثُ اللهُ عليهِمْ نغفاً في أقْفائِهِمْ فيقتُلهُمْ بهَا». قال رسول الله ﷺ: «والذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ إنَّ دوابَّ الأرضِ لَتسْمَنُ شكراً مِن لحومِهِم ودمائِهِم».

ورواه أحمد [٥١١/٢] أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به.

وهكذا رواه ابن ماجه [٤٠٨٠] من حديث سعيد عن قتادة إلا أنه قال حدثَ أبو رافع.

ورواه الترمذي [٣١٥٣] من حديث أبي عوانة عن قتادة به. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كلَّ يوم يَلحسُونهُ حتَّى كادوا يَنظرُونَ شُعاعَ الشَّمسِ مِن ورائِهِ لرقته فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة وإن كان محفوظاً فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار أو يكون المراد بقوله: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي نافذاً منه فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة: «فُتحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وعقد تسعين أي: فتح فتحاً نافذاً فيه والله أعلم.

٣- قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً. هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً. وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً. إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً. وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً. سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً. وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً. وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ٩ -٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة [سيرة ابن هشام: ٣٠١/١، ٣٠٢] وغيره [تفسير الطبري: ١٩١/١٥] أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدرى ما صنعوا، وعن رجل طواف في الأرض، وعن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الاسراء ٨٥] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[الكهف: ٨٣].

وقال مهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة.

والكهف هو الغار في الجبل.

قال شعيب الجبائي [تفسير الطبري: ١٩٩/١٥]: واسم كهفهم حيزم.

وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما المراد به.

وقيل: هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره.

وقيل: هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم.

قال ابن عباس وشعيب الجبائي: واسمه بناجلوس.

وقيل: هو اسم واد عند كهفهم.

وقيل: اسم قرية هنالك والله أعلم.

قال شعيب الجبائي: واسم كلبهم حمران [تفسير الطبري: ١٩٩/١٥].

واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى.

والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام.

قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا في زمن ملك يقال له: دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر.

وقيل: من أبناء الملوك.

واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ويقال: إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري [٣٣٣٦] «الأرواحُ جُنُودٌ مُجندةٌ فَما تَعارَفَ مِنهَا ائتَلَفَ ومَا تَناكَرَ مِنهَا اختَلَفَ».

فكل منهم سأل الآخرين أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور.

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً. هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾.

أي بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[الزخرف: ٢٦-٢٧].

وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم: إذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شراً ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ أي يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء في الحديث «اللَّهُمَّ أحسِنْ عاقِبَتَنا في الأُمُورِ كُلِّهـا وأجِرنـا مِـن خِزْيِ الدُّنيَا ومِن عَذَابِ الآخِرَةِ» [أحمد: ١٨١/٤].

ثم ذكر تعالى صفة الغار الذي آووا إليه وإن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ وقرئ: «تَزْوَرُّ» ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فأخبر أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي ثم تشرع في الخروج منه قليلا قليلا وهو ازورارها ذات اليمين فترتفع في جو السماء وتتقلص عن باب الغار ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا إلى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلا من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قال بعضهم: لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل: في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال شعيب الجبائي: اسم كلبهم

حمران.

وقال غيره: الوصيد اسكفة الباب.

والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولما كانت التبعية مؤثرة حتى في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم لأن من أحب قوماً سعد بهم فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام.

وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلا أكثره متلقى من الإسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه.

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف:

فقال كثيرون: هو بأرض أيلة.

وقيل: بأرض نينوى. وقيل: بالبلقاء.

وقيل: ببلاد الروم وهو أشبه والله أعلم.

ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كان السامع راه والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم في ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. قال:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ أي لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا لخصوصية الرسول ر كقوله﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[التين: ٧] أي أيها الإنسان؛ وذلك لأن طبيعته البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ولهذا قال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾.

ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء في الحديث [مسند أحمد: ٢١٥/١، ٢٧١، الإحسان (٦٢١٣)] لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب.

ثم ذكر تعالى انه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاث مائة سنة وتسع سنين فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي بدراهمكم هذه يعني التي معهم إلى المدينة ويقال: كان اسمها دفسوس.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أي أطيب مالاً

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم وورعهم.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي في دخوله إليها

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً. إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ أي أن عدتم في ملتهم بعد إذا أنقذكم الله منها وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلاث مائة سنة وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم.

ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس فيما قيل وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من رآه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه فيقال: إنهم حملوه إلى متوليهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة يخشون من مضرتها فيقال: إنه هرب منهم ويقال: بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا من قدرة الله فيقال: إنهم استمروا راقدين ويقال: بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمى الله عليهم أمرهم.

ويقال: لم يستطيعوا دخوله حساً.

ويقال مهابة لهم.

واختلفوا في أمرهم فقائلون يقولون: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً﴾ أي سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم.

وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ أي معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين. وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين [خ (١٣٣٠)، م (٥٢٩)] عن رسول الله ر أنه قال: «لَعَنَ اللّٰهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخذُوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجد» يحذر ما فعلوا.

وأما قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فمعنى «أعثرنا» أطلعنا على أمرهم الناس.

قال كثير من المفسرين: ليعلم الناس أن المعاد حق وأن الساعة لا ريب فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاث مائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

هذا ويحتمل عود الضمير في قوله «ليعلموا» إلى أصحاب الكهف، إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم، ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فذكر اختلاف الناس في كميتهم، فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرر الثالث فدل على أنه الحق. إذ لو قيل غير ذلك لحكاه، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه فدل على ما قلناه. ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ر إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول: الله أعلم. ولهذا قال:

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي من الناس

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ أي سهلا ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال، ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال، ولهذا أبهم تعالى عدتهم في أول القصة فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ولو كان في تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾.

أدب عظيم أرشد الله تعالى إليه وحث خلقه عليه وهو ما إذا قال أحدهم: إني سأفعل في المستقبل كذا فيشرع له أن يقول: إن شاء الله، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه لأن العبد لا يعلم ما في غد، ولا يدري أهذا

الذي عزم عليه مقدّر أم لا، وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو تحقيقي، ولهذا قال ابن عبّاس: إنه يصح إلى سنة، ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ولهذا، كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام حين قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل اللّه، فقيل له: قل: إن شاء اللّه، فلم يقل، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول اللّه ر: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء اللّه لم يحنث وكان دركاً لحاجته» [خ (٣٤٢٤)].

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان، فذكر اللّه يطرده عن القلب، فيذكر ما كان قد نسيه.

وقوله ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ أي إذا اشتبه أمر وأشكل حال والتبس أقوال الناس في شيء، فارغب إلى اللّه ييسره لك، ويسهله عليك، ثم قال:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾. لما كان في الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلاث مائة شمسية، فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقل فرد الأمر في ذلك إلى اللّه عز وجل.

﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه. ثم قال:

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ أي: بل هو المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له.

٤- قصّة الرجلين المؤمن والكافر

قال اللّه تعالى في سورة الكهف بعد قصة أصحاب الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً. لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً. فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً. هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

قال بعض الناس: هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً. والجمهور أنه أمر قد وقع.

وقوله ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء، وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصّة موسى عليه السلام.

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً.

ويقال: إنه كان لكل منهما مال فأنفق المؤمن ماله في طاعة اللّه ومرضاته ابتغاء وجهه.

وأما الكافر فإنه اتخذ له بستانين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور. فيهما أعناب ونخل تحف تلك الأعناب والزروع في خلال ذلك، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزه، وقد استوسقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الأنهار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير، قائلاً له:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أي وأمنع جناباً، ومراده أنه خير منه، ومعناه ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه، كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي وهو على غير طريقة مرضية ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارّة لكثرة مياهها. ثم قال:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال:

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ أي ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدن هناك خيراً من هذا وذلك لأنه اغتر بدنياه، واعتقد أن اللّه لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له، وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل فيما قص اللّه من خبره وخبر خباب بن الأرت في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم اللّه عليه ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠] قال اللّه تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] أي لعلم اللّه فيّ أني استحقه قال اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصة موسى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ولما اغتر هذا الجاهل بما خوّله اللّه به في الدنيا فجحد الآخرة، وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن

الله خلقك من تراب. ثم من نطفة ثم طوّرك أطواراً حتى صرت رجلا سوياً سميعاً بصيراً، تعلم وتبطش وتفهم، فكيف أنكرت المعاد، والله قادر على البداءة

﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ اي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ اي لا أعبد سواه وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الأموات، ويجمع العظام الرفات، واعلم أن الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا إله غيره.

ثم ارشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله، أن يقول كذلك، وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر:

قال أبو يعلى الموصلي [ذكره ابن حجر في المطالب العالية ٣/٣٥٠ وعزاه لأبي يعلى] حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت» وكان يتأول هذه الآية ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس، لا يصح.

ثم قال المؤمن للكافر: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾ اي في الدار الآخرة

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة: أي عذاباً من السماء [تفسير الطبري: ١٥/٢٤٩].

والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ وهو ضد المعين السارح ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ يعني فلا تقدر على استرجاعه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ اي جاءه امر احاط بجميع حواصله، وخرب جنته ودمرها.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي خربت بالكلية، فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمّل حيث قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً. هُنَالِكَ﴾ اي لم يكن احد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وقوله: ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ومنهم من يبتدئ بقوله ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وهو حسن أيضاً كقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ [الفرقان: ٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق.

ومنهم من رفع «الحق» جعله صفة لـ «الولاية» وهما متلازمان.

وقوله ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ اي معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ وهو العاقبة في الدنيا والآخرة.

وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده.

وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وإن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة.

وفيها أن الندامه لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم، والله المستعان وعليه التكلان..

٥ ـ قصّة أصحاب الجنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ. فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ. كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

قال ابن عباس: هم كفار قريش.

فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تُجدّ وهو الصرام، ولهذا قال:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اي ليجدنها وهو الاستغلال

﴿مُصْبِحِينَ﴾ اي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً، فحلفوا على ذلك، ولم يستثنوا في يمينهم، فعجزهم الله، وسلط عليها الآفة التي أحرقتها، وهي السفعة التي اجتاحتها، ولم تبق بها شيئاً ينتفع به، ولهذا قال:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالليل الأسود المنصرم من الضياء، وهذه معاملة بنقيض المقصود

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي فاستيقظوا من نومهم، فنادى بعضهم بعضاً قائلين: ﴿اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار، ويكثر السؤال

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين: ﴿لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي اتفقوا على هذا، واشتوروا عليه

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه مصمّمين مصرّين على هذه النية الفاسدة.

وقال عكرمة والشعبي: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي غضب على المساكين.

وأبعد السدي في قوله أن اسم حرثهم حرد

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي وصلوا إليها ونظروا إلى ما حل بها، وما قد صارت

إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة، فانقلبت بسبب النية الفاسدة، فعند ذلك قالوا:

﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي قد تُهنا عنها وسلكنا غير طريقها، ثم قالوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أعدلهم وخيرهم [تفسير الطبري: ٣٤/٢٩].

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قيل: تستثنون، قاله مجاهد والسدي وابن جريج.

وقيل: تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾. فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع.

وقد قيل: إن هؤلاء كانوا إخوة، وقد ورثوا هذه الجنة عن أبيهم، وكان يتصدق منها كثيراً فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً، فعاقبهم الله هذه العقوبة، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحث على ذلك يوم الجداد، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ثم قيل: كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان.

وقيل: من أهل الحبشة والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي أعظم وأطمُّ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

قيل: هذا مثل مضروب لأهل مكة.

وقيل: هم أهل مكة انفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم، ولا ينافي ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

٦- قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

وقال تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدّي وغيرهم: هم أهل أيلة [تفسير الطبري: ٩٠/٩، ٩١].

زاد ابن عباس: بين مدين والطور [تفسير الطبري: ٣٣٠/١، ٩٠/٩].

قالوا: وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة في مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر، فتأتي من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المتقدم، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص، وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا ذلك فرقتين:

فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان.

وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يقولون لهم: ما الفائدة في نهيكم هؤلاء، وقد استحقوا العقوبة لا محالة، فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقوم به خوفا من عذابه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع، فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع.

﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ثم فسر العذاب الذي أصابهم بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

وسنذكر ما ورد من الآثار في ذلك.

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين، وسكت عن الساكتين.

وقد اختلف فيهم العلماء على قولين:

فقيل: إنهم من الناجين.

وقيل: إنهم من الهالكين.

والصحيح الأول عند المحققين وهو الذي رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين وذلك عند مناظرة مولاه عكرمة، فكساه من أجل ذلك حلة سنية

تكرمة.

قلت: وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة، إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها الإنكار بالجنان، فلما لم يذكَروا لم يُذكَروا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروا.

وقد روى عبد الرزاق [في تفسيره: ٢/٢٤١، ٢٤٢] عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس.

وحكى مالك [تفسير الطبري: ٩/٩٦، ٩٧] عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخراساني ما مضمونه:

إن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ونهاهم من نهاهم منهم، فلم يقبلوا فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها، وارتفع النهار واشتد الضحاء، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم، فلما أشرف عليهم إذا هم قردة لها أذناب يتعاوون ويتعادون، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم، ولا تعرفهم قراباتهم، فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون: ألم ننهكم عن صنيعكم؟ فتشير القردة برؤوسها أن نعم.

ثم بكى عبد الله بن عباس وقال: إنا لنرى منكرات كثيرة ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً!

وقال العوفي عن ابن عباس: صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير [تفسير الطبري: ٩/١٠١].

وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس: أنهم لم يعيشوا إلا فواقاً ثم هلكوا ما كان لهم نسل [تفسيره: ١/٢٠٩].

وقال الضحاك عن ابن عباس: أنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام. ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا.

وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورتي البقرة والأعراف. ولله الحمد والمنة.

وقد روى ابن أبي حاتم [تفسيره: ١/٢٠٩] وابن جرير [تفسيره: ١/٣٣٢] من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

وهذا صحيح إليه وغريب منه جداً ومخالف لظاهر القرآن ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم.

٧- قصة أصحاب القرية

﴿إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام.

٨- قصة سبأ

سيأتي ذكرها في أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

٨- قصة قارون وقصة بلعام

تقدمتا في قصة موسى وهكذا قصة الخضر وقصة فرعون والسحرة كلها في ضمن قصة موسى. وقصة البقرة تقدمت في قصة موسى. وقصة﴿الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ في قصة حزقيل. وقصة ﴿الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ في قصة شمويل وقصة ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ في قصة عزير.

٩- قصّة لقمان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢-١٩].

هو لقمان بن عنقاء بن سدون. ويقال: لقمان بن ثاران حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي.

قال السهيلي: وكان نوبياً من أهل أيلة.

قلت: وكان رجلاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة.

ويقال: كان قاضياً في زمن داود عليه السلام فالله أعلم.

وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان عبداً حبشياً نجاراً [الطبري: ٢١/٦٧، دون قوله: نجاراً].

وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم في شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النوبة [الدر المنثور: ٥/١٦٠].

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة [تفسير الطبري: ٢١/٦٧].

وقال الأوزاعي: حدثني عبدالرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومهجع مولى عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر [تفسير الطبري: ٢١/٦٧].

وقال الأعمش عن مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقّق القدمين [تفسير الطبري: ٢١/٦٧].

وفي رواية: مصفّح القدمين.

وقال عمر بن قيس: كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدّثهم فقال له: ألست الذي كنت ترعى

معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني.

رواه ابن جرير [في تفسيره: ٦٨/٢١] عن ابن حميد عن الحكم عنه به.

وقال ابن أبي حاتم حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا صفوان، حدّثنا الوليد، حدّثنا عبد الرحمن بن أبي يزيد بن جابر قال: إن اللّه رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال: ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى غنمي بالأمس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدرُ اللّه وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني.

وقال ابن وهب: أخبرني عبد اللّه بن عياش القتباني عن عمر مولى عفرة قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان؟ أنت عبد بني النحّاس؟ قال: نعم، قال: فأنت راعي الغنم الأسود؟ قال: أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة مطعمي، وحفظي فرجي، وقيامي بعدتي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني كما ترى.

وقال ابن أبي حاتم [تفسير ابن كثير: ٢٧٣/٦، الدر المنثور: ١٦٢/٥ وعزياه إلى ابن أبي حاتم]: حدّثنا أبي، حدّثنا ابن نفيل، حدّثنا عمرو بن واقد، عن عبدة بن رباح، عن ربيعة عن أبي الدرداء أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال: ما أوتي عن أهل، ولا مال، ولا حسب، ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صمصامة سكيتاً طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق، ولا يتنحنح، ولا يبول، ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج، وولد له أولاد فماتوا، فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي.

ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها، فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه. وفي هذا نظر واللّه أعلم.

وهذا مروي عن قتادة كما سنذكره.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجعفي عن عكرمة أنه قال: كان لقمان نبياً.

وهذا ضعيف لحال الجعفي [الدر المنثور: ١٦١/٥، ١٦٢ وعزاه إلى ابن أبي حاتم، تفسير الطبري: ٦٨/٢١].

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً، وقد ذكره اللّه تعالى في القرآن فأثنى عليه، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه وهو أشفق الناس عليه فكان من أول ما وعظ به أن قال: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. فنهاه عنه وحذره منه.

وقد قال البخاري [خ (٤٧٧٦، ٦٩١٨)]: حدّثنا قتيبة، حدّثنا جرير عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد اللّه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم-: «إنه ليس بذاك، ألم تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

ورواه مسلم [م (١٢٤)] من حديث سليمان بن مهران الأعمش به.

ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكده وأمر بالإحسان اليهما حتى ولو كانا مشركين ولكن لايطاعان على الدخول في دينهما إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل فإن اللّه يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب، ويضعها في الميزان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة، ولو كان في جوف صخرة صمّاء لا باب لها ولا كوة، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرضين، أو السماوات في اتساعها وامتداد أرجائهما، لعلم اللّه مكانها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: علمه دقيق، فلا يخفى عليه الذر مما تراءى للنواظر أو توارى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقد زعم السدي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة: الصخرة التي تحت الأرضين السبع [تفسير الطبري: ٧٢/٢١].

وهكذا حكى عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمر وغيرهم.

وفي صحة هذا القول من أصله نظر. ثم في أن هذا هو المراد نظر آخر فإن هذه الآية نكرة غير معرفة، فلو كان المراد بها ما قالوه لقال: فتكن في الصخرة، وإنما المراد: فتكن في صخرة أي صخرة كانت.

كما قال الإمام أحمد [٢٨/٣] حدثنا حسن بن موسى، حدّثنا ابن لهيعة، حدّثنا دراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول اللّه - ﷺ- أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان».

ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أي: أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها، وما شرع فيها، واجتنب ما نهي عنه فيها.

ثم قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي: بجهدك وطاقتك، إن استطعت باليد فباليد، وإلا فبلسانك، فإن لم تستطع فبقلبك، ثم أمره بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يعادي وينال منه، ولكن له العاقبة، ولهذا أمره بالصبر على ذلك، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ اي إنّ أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وصبرك على الأذى من عزائم الأمور التي لا بد منها ولا محيد عنها.

وقوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء وغير واحد: معناه لا تتكبر على الناس، وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم، والازدراء لهم [تفسير الطبري: ٧٤/٢١].

قال أهل اللغة: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها فتلتوى

رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر الذي يميل وجهه إذا كلّم الناس، أو كلّموه على وجه التعاظم عليهم.

قال أبو طالب في شعره [سيرة ابن هشام: ٢٦٩/١]:

وكنّا قديماً لا نقرّ ظلامة إذا ما ثنوا صُعْر الخدود نُقيمها

وقال عمرو بن حنيّ التغلبي:

وكنّا إذا الجبّار صَعَّر خدّه أقمنا له من مَيْلِه فتقوّما

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ينهاه عن التبختر في المشية على وجه العظمة والفخر على الناس.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الأسراء: ٣٧]. يعني: لست بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه، ولست بدقك الأرض برجلك تخسف الأرض بوطئك عليها، ولست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك.

وقد ثبت في الحديث: [م (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة]. «بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وفي الحديث الآخر [د (٤٠٨٤)]: «إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله» كما قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

ولما نهاه عن الاختيال في المشي، أمره بالقصد فيه، فإنه لا بد له أن يمشي، فنهاه عن الشر، وأمره بالخير، فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: لا تتباطأ مفرطاً، ولا تسرع إسراعاً مفرطاً، ولكن بين ذلك قواماً كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم قال: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يعني: إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك، فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٠٣)، م (٢٧٢٩) مطلقاً دون ذكر الليل، وما جاء مقيداً بذكر الليل أخرجه: د (٥١٠٣)، أحمد (٣٠٦/٣، ٣٥٥)] الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل فإنها رأت شيطاناً ولهذا نهي عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه، ولا سيما عند العطاس، فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه، كما ثبت به الحديث [ت (٢٧٤٥)، د (٥٠٢٩)] من صنيع رسول الله ـ ﷺ ـ.

فأما رفع الأصوات بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال، وعند الإهلال ونحو ذلك، فذلك مشروع.

فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر، وقد وردت آثار كثيرة من أخباره ومواعظه، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بـ «حكمة لقمان» ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى.

قال الإمام أحمد [٨٧/٢]: حدّثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا سفيان، أخبرني نَهْشل بن مجمّع الضبي، عن قزعة، عن ابن عمر، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه».

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد الأشج، حدّثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذلة بالنهار» [الدر المنثور: ١٦٢/٥ وعزاه لابن أبي حاتم].

وقال أيضاً: حدّثنا أبي، حدّثنا عمرو بن عثمان، حدّثنا ضمرة، حدّثنا السري بن يحيى قال: قال لقمان لإبنه: يابني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

وحدثنا أبي، حدّثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن المسعودي عن عون بن عبدالله قال: قال لقمان لابنه: «يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام يعني: السلام، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم.

وحدثنا أبي، حدّثنا عمرو بن عثمان حدّثنا ضمرة عن حفص بن عمر، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل فقال: يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه.

وقال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١١٤٨٢)]: حدّثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدّثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي حدثنا أبين بن سفيان المقدسي، عن خليفة بن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن».

قال الطبراني: يعني الحبشة.

وهذا حديث غريب بل منكر.

وقد ذكر له الإمام أحمد ترجمة في كتاب الزهد ذكر فيها فوائد مهمة جمة، فقال: حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان عن رجل، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [الزهد: ص٤٨، ٤٩] قال: الفقه والإصابة في غير نبوة.

وكذا روي عن وهب بن منبه.

وحدثنا وكيع، حدّثنا سفيان عن أشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً [الزهد: ص٤٩].

وحدثنا أسود، حدّثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب: أن لقمان كان خياطاً.

وحدثنا سيار حدّثنا جعفر، حدّثنا مالك يعني: ابن دينار. قال: قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة» [الزهد: ص٤٩].

وحدثنا يزيد، حدّثنا أبو الأشهب، عن محمد بن واسع، قال: كان لقمان يقول لابنه: يا بني اتق الله ولا تر الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر [الزهد: ص٤٩].

وحدثنا يزيد بن هارون ووكيع قالا: حدّثنا أبوالأشهب عن خالد الربعي، قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له سيده: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال: ائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، فقال: أما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ قال: لا، قال: فسكت عنه ما سكت، ثم قال له: اذبح لي شاة فذبح له شاة، فقال له: وألق أخبثها مضغتين، فرمى باللسان والقلب، فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب، فقال: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا [الزهد: ص٤٩].

وحدثنا داود بن رشيد، حدّثنا ابن المبارك، حدّثنا معمر عن أبي عثمان رجل من أهل البصرة، يقال له: الجعد أبو عثمان قال: قال لقمان لابنه: لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك [الدر المنثور: ١٦٣/٥، وعزاه لأحمد في الزهد].

وحدثنا داود بن رشيد حدّثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمي عن عبد اللّه بن زيد قال: قال لقمان: ألا إن يد اللّه على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ما هيّأ اللّه له.

وحدثنا عبد الرزاق سمعت ابن جريج قال: كنت أقنع رأسي بالليل فقال لي عمرو: أما علمت أن لقمان قال: القناع بالنهار مذلة معذرة - أو قال: معجزة - بالليل، فلم تقنع رأسك بالليل؟ قال: قلت له: إن لقمان لم يكن عليه دين [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لعبد اللّه بن احمد في زوائده].

وحدثني حسن بن الجنيد، حدّثنا سفيان: قال لقمان لابنه: يا بني ما ندمت على السكوت قط، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب [الزهد: ص٤٩].

وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا: حدّثنا أبو الأشهب عن قتادة: أن لقمان قال لابنه: يا بني اعتزل الشر يعتزلك، فإن الشر للشر خلق [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لأحمد، وانظر الزهد: ص٤٩].

وحدثنا أبو معاوية حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: مكتوب في الحكمة: يا بني إياك والرغب فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحلم كما يزيل الطرب. يا بني إياك وشدة الغضب، فإن شدة الغضب محقة لفؤاد الحكيم [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لأحمد].

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي حدّثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة، عن عبيد بن عمير قال: قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه اللّه عز وجل، فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك، وإن تك غبياً يعلموك، وإن يطلع اللّه عليهم برحمة تصيبك معهم. يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر اللّه فيه فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك غبياً يزيدوك غباءً، وإن يطلع اللّه إليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم. يابني لا تغبطن امرءاً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين، فإن له عند اللّه قاتلاً لا يموت [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لأحمد].

وحدثنا أبومعاوية حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه. قال: مكتوب في الحكمة: «بني لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء».

وقال: مكتوب في الحكمة أو في التوراة: «الرفق رأس الحكمة».

وقال: مكتوب في التوراة: كما ترحمون تُرحمون.

وقال: مكتوب في الحكمة: كما تزرعون تحصدون.

وقال: مكتوب في الحكمة: أحب خليلك وخليل أبيك» [الزهد: ص٤٩، ٥٠].

وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال: قيل للقمان: أي الناس أصبر؟ قال صبر لا يتبعه أذى. قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: من ازداد من علم الناس إلى علمه.

قيل: فأي الناس خير؟ قال: «الغني». قيل: الغني من المال؟ قال: لا ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وجد وإلا أغنى نفسه عن الناس [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لأحمد].

وحدثنا سفيان - هو ابن عيينة - قال: قيل للقمان: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً [الزهد: ص٥٠].

وحدثنا أبو الصمد عن مالك بن دينار قال: وجدت في بعض الحكمة: يبدد اللّه عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس ووجدت فيها: لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم، ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى [الزهد: ص٥٠].

وقال عبد اللّه بن أحمد: حدّثنا الحكم بن أبي زهير وهو الحكم بن موسى، حدّثنا الفرج بن فضالة عن أبي سعيد، قال: قال لقمان لابنه: يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء [الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لعبد اللّه بن أحمد في زوائده].

وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذا المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا واللّه أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا العباس بن الوليد، حدّثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، حدّثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال: خير اللّه لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة قال: فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة، قال: فأصبح ينطق بها [الدر المنثور: ١٦٤/٥، تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٣، ٣٣٨، وعزياه إلى ابن أبي حاتم].

قال سعيد: فسمعت قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة، وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إلي.

وهذا فيه نظر لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه.

والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ قال: يعني الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه [تفسير الطبري: ٦٧/٢١، الدر المنثور: ١٦٤/٥، وعزاه لابن أبي حاتم].

وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس [تفسير الطبري: ٦٧/٢١، ٦٨] واللّه أعلم.

١٠- قصّة أصحاب الأخدود

قال اللّه تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

قد تكلمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة وللّه الحمد.

وقد زعم محمد بن إسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله.

وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين، ولكن هؤلاء المذكورون في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع، وأثر أورده ابن إسحاق وهما متعارضان وها نحن نوردهما لتقف عليهما.

قال الإمام أحمد [١٦/٦، ١٧]: حدثنا عفان، حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن صهيب، أن رسول اللّه ﷺ قال:

«كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سني وحضر أجلي فادفع إلي غلاماً فلأعلمه السحر فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر، وكان بين الملك وبين الساحر راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر» قال: «فبينا هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب».

قال: «فأخذ حجراً فقال: اللّهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها. ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ.

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، ويشفيهم وكان جليس للملك، فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك. فآمن فدعا الله فشفاه

ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، قال: أنا؟ قال: لا ربي وربك، الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم ربي وربك الله.

فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فأتي به فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، قال: فأخذه أيضاً بالعذاب، ولم يزل به حتى دلّ على الراهب فأتي بالراهب فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه.

فذهبوا به فلما علوا الجبل قال: اللّهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه في البحر فلججوا به البحر فقال الغلام: اللّهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون.

وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي. ثم قل: بسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فخددت فيها الاخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها» قال: «فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق».

كذا رواه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن سلمة [م (٣٠٠٥)، النسائي في الكبرى (١١٦٦١)].

زاد النسائي: وحماد بن زيد.

كلاهما عن ثابت به.

ورواه الترمذي [ت (٣٣٤٠)] من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن ثابت، بإسناده نحوه، وحرر إيراده.

كما بسطنا ذلك في التفسير.

وقد أورد محمد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤/١] هذه القصة على وجه آخر فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب.

وحدثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها، أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قريه من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد ـ ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيميون ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه لي ابن منبه، قالوا: رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر.

فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه، وقال له: يا ابن أخي إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه، الثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي قد كتمه، فقال: وماهو؟ قال: كذا وكذا، قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، قال: أي ابن أخي قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال: يا عبدالله أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو الله فيشفى حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال: أفسدت على أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي لأمثلن بك قال: لا تقدر على ذلك فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ما به بأس وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك فيلقي به فيها فيخرج ليس به بأس.

فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت عليّ فقتلتني. قال: فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه

بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر. وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر فالله أعلم أي ذلك كان. قال فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل فخدّ الأخدود، وحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[البروج: ٤-٥] الآيات.

وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم.

وقد زعم بعضهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا أبو اليمان، أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير قال: كان الأخدود في اليمن زمان تُبّع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، واتخذ أتوناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل في زمان بختنصر حين صنع الصنم، وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

وقال أسباط عن السدي في قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قال: كان الأخدود ثلاثة: خد بالشام وخد بالعراق وخد باليمن رواه ابن أبي حاتم.

وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في تفسير سورة البروج من كتابنا «التفسير»، ولله الحمد والمنة.

١١- الإذن في الرواية عن بني إسرائيل

قال الإمام أحمد [٤٦/٣]: حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا همام حدّثنا زيد عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وقال أيضاً [المسند: ٥٦/٣]:

حدثنا عفان، حدّثنا همام، أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه» وقال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، حدثوا عني ولا تكذبوا علي» قال: «ومن كذب علي» قال همام: أحسبه قال: «متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وهكذا رواه مسلم [م (٣٠٠٤)] والنسائي من حديث همام.

ورواه أبو عوانة الإسفراييني عن أبي داود السجستاني، عن هدبة، عن همام، عن زيد بن أسلم به، ثم قال: قال أبو داود: أخطأ فيه همام، وهو من قول أبي سعيد كذا قال.

وقد رواه الترمذي [ت (٢٦٦٥)] عن سفيان، عن وكيع، عن سفيان بن عيينة، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فالله أعلم.

قال الإمام أحمد [١٥٩/٢]: حدّثنا الوليد بن مسلم، أنبأنا الأوزاعي، حدّثنا حسان بن عطية، حدثني أبو كبشة السلولي أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ - يعني يقول -: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ورواه أحمد [٢٠٢/٢] أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق كلاهما عن الأوزاعي به.

وهكذا رواه البخاري [خ (٣٤٦١)] عن أبي عاصم النبيل عن الأوزاعي به.

وكذا رواه الترمذي [ت (٢٦٦٩)] عن بندار، عن أبي عاصم.

ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن حسان بن عطية به [ت (٢٦٦٩)]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر البزار [كشف الأستار (٢٣٠)]: حدّثنا محمد بن المثنى أبو موسى، حدّثنا معاذ بن هشام، حدّثنا أبي عن قتادة، عن أبي حسان عن عبدالله بن عمرو قال: كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل حتى يصبح، ما يقوم فيها إلا لعظم صلاةٍ.

ورواه أبو داود [د (٣٦٦٣)] عن محمد بن المثنى.

ثم قال البزار [كشف الأستار (٢٢٣)]: حدّثنا محمد بن المثنى حدّثنا عفان حدّثنا أبو هلال عن قتادة عن أبي حسان عن عمران بن حصين قال: كان رسول الله ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظم صلاةٍ.

قال البزار: وهشام أحفظ من أبي هلال يعني: أن الصواب عن عبد الله بن عمرو، لا عن عمران بن حصين والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٤٧٤/٢]: حدّثنا يحيى هو القطان، عن محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» إسناد صحيح ولم يخرجوه.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدّثنا أبوخيثمة، حدّثنا وكيع، حدّثنا ربيع بن سعد الجعفي عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب» [ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٦٧٨)].

ثم أنشأ يحدث ﷺ قال: «خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم فقالوا: لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل فيخرج لنا رجلاً قد مات نسائله يحدثنا عن الموت، ففعلوا فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور رجل بين عينيه أثر السجود فقال: يا هؤلاء ما أردتم إليّ فقد مت منذ مائة عام فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن فادعوا الله أن يعيدني كما كنت»، وهذا حديث غريب.

إذا تقرر جواز الرواية عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن يعتقد صحته لما رواه البخاري قائلاً [خ (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢)]: حدّثنا محمد بن بشار، حدّثنا عثمان بن عمر، حدّثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد [١٣٦/٤] من طريق الزهري عن أبي نملة

الأنصاري، عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول اللّه ﷺ إذ جاء رجل من اليهود فقال: يا محمد هل تكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «اللّه أعلم» فقال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول اللّه ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا باللّه وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم» تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٣/٣٨٧]: حدّثنا شُريح بن النعمان، حدّثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي، عن جابر بن عبد اللّه أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب وقال: «أمُتهوكُونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي به لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم.

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرفوها وأوّلوها ووضعوها على غير مواضعها، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً، وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها، ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير، ووهم كثير، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير، واللّه المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.

هذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه، وما أبدوه وما أخفوه، وكيف يصوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب، باطلة من حيث معناها وألفاظها.

وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئاً عن كتب أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفاً لقلبه فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري [خ (٧٣٦١)]: وقال أبو اليمان: حدّثنا شعيب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة. وذَكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري [خ (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٣)] من حديث الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه، عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل اللّه على رسوله أحدث الكتب باللّه تقرؤونه محضاً لم يُشب؟ وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب اللّه وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند اللّه ليشتروا به ثمناً قليلاً ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا واللّه ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وروى ابن جرير [تفسير الطبري: ٣/٢١] عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل واللّه أعلم.

١٢- قصّة جريج أحد عُبّاد بني إسرائيل

قال الإمام أحمد [٢/٣٠٧]: حدّثنا وهب بن جرير حدثني أبي سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم» قال: «وكان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جريج، فابتنى صومعة وتعبد فيها» قال: «فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأفتننه، فقالوا: قد شئنا ذلك» قال: «فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأمكنت نفسها من راع كان يأوي غنمه إلى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: إنك زنيت بهذه البغي فولدت غلاماً فقال: وأين هو؟ قالوا: هو ذا» قال: «فقام فصلّى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بأصبعه فقال: باللّه يا غلام من أبوك؟ فقال: أنا ابن الراعي، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه وقالوا: نبني صومعتك من ذهب قال: لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت».

قال: «وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مر بها راكب ذو شارة فقالت اللّهم اجعل ابني مثل هذا» قال: «فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللّهم لا تجعلني مثله» قال: «ثم عاد إلى ثديها فمصه». قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول اللّه ﷺ يحكي صنيع الصبي ووضع أصبعه في فيه يمصها. «ثم مُرَّ بأمةٍ تُضرب فقالت: اللّهم لا تجعل ابني مثلها». قال: «فترك ثديها وأقبل على الأمَةِ فقال: اللّهم اجعلني مثلها» قال: «فذاك حين تراجعا الحديث. فقالت: حلقي مر الراكب ذو الشارة فقلت: اللّهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللّهم لا تجعلني مثله ومر بهذه الأمَةِ فقلت: اللّهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللّهم اجعلني مثلها، فقال: يا أمتاه إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة، وإن هذه الأمة يقولون: زنت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق. وهي تقول حسبي اللّه».

وهكذا رواه البخاري في أحاديث الأنبياء [٢/٥٢٣، ٥٢٤]، وفي المظالم [(٢٤٨٢)] عن مسلم بن إبراهيم، ومسلم في كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هارون كلاهما عن جرير بن حازم به [م (٢٥٥٠)].

طريق أخرى، وسياق آخر:

قال الإمام أحمد [٢/٤٣٣]: حدّثنا يحيى بن سعيد، حدّثنا سليمان بن المغيرة، حدّثنا حميد بن هلال عن أبي رافع، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان جريج يتعبد في صومعته» قال: «فأتته أُمّه فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني» قال: وكان أبو هريرة يصف كما كان رسول اللّه ﷺ يصفها وضع يده على حاجبه الأيمن قال: «فصادفته يصلي قال: يارب أمي وصلاتي فاختار صلاته، فَرَجَعت ثمّ أتته فصادفته يصلّي فقالت: يا جريج أنا أمّك فكلّمني فقال: يا رب أمّي وصلاتي فاختار صلاته، فقالت: اللّهم هذا جريج وإنه ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني اللّهم فلا تمته حتى تريه المؤمسّات. ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن».

قال: «وكان راع يأوي إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعي. فولدت غلاماً، فقيل: ممن هذا؟ فقالت: هو من صاحب الدير، فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره، فنزل إليهم فقالوا: سل هذه المرأة» قال: «أراه تبسم»، قال: «ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك؟ قال: راعي الضأن، قالوا: يا جريج نبني ما

هدمنا من ديرك بالذهب والفضة؟ قال: لا ولكن أعيدوه كما كان ففعلوا».

ورواه مسلم [م (٢٥٥٠)] في الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به.

سياق آخر:

قال الإمام أحمد [٢/٣٨٥]: حدّثنا عفان، حدّثنا حماد، أنبأنا ثابت عن أبي رافع، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج. كان يتعبد في صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت: أي جريج أي بُنَيَّ أشرف عليّ أكلمك، أنا أمك أشرف علي. فقال: أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته، ثم عادت فنادته مراراً فقالت: أي جريج أي بني أشرف علي فقال: أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته فقالت: اللّهم لا تمته حتى تريه المومسة.

وكانت راعية ترعى غنماً لأهلها، ثم تأوي إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأخذت. وكان من زنى منهم قتل، فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج صاحب الصومعة. فجاؤوا بالفؤوس والمرور فقالوا: أي جريج أي مراء انزل، فأبي وأقبل على صلاته يصلي، فأخذوا في هدم صومعته فلما رأى ذلك نزل فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً، فجعلوا يطوفون بهما في الناس، فوضع أصبعه على بطنها فقال: أي غلام من أبوك؟ فقال: أبي فلان راعي الضأن، فقبلوه وقالوا: إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة، قال أعيدوها كما كانت».

وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه.

فهؤلاء ثلاثة تكلّموا في المهد عيسى ابن مريم عليه السلام وقد تقدم الكلام على قصته، وصاحب جريج ابن البغي من الراعي كما سمعت، والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه، فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة، فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه، وهي تقول: حسبي اللّه ونعم الوكيل.

كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقد رواه الإمام أحمد [٢/٣٩٥]: عن هوذة، عن عوف الأعرابي، عن خلاس، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع وهو إسناد حسن.

وقال البخاري [خ (٣٤٦٦)]: حدّثنا أبو اليمان، حدّثنا شعيب، حدّثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج، حدثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول اللّه ﷺ قال: «بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهي ترضعه فقالت: اللّهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا، فقال: اللّهم لا تجعلني مثله. ثم رجع في الثدي ومر بامرأة تجر ويلعب بها، فقالت: اللّهم لا تجعل ابني مثل هذه. فقال: اللّهم اجعلني مثلها، فقال: أما الراكب فإنه كافر. وأما المرأة فإنهم يقولون لها: تزني وتقول: حسبي اللّه، ويقولون: تسرق وتقول: حسبي اللّه».

وقد ورد في من تكلم في المهد أيضاً شاهد يوسف، كما تقدم، وابن ماشطة آل فرعون فاللّه أعلم.

١٣- قصّة برصيصا

وهي عكس قصة جريج، فإن جريجاً عُصم وذلك فتن. قال ابن جرير [تفسير الطبري: ٢٨/٤٩]: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، حدثنا أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش عن عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد اللّه بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

قال ابن مسعود: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها إخوة أربعة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجر بها، فحملت فأتاه الشيطان، فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها، ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها، ثم دفنها في مكان كذا وكذا.

فلمات أصبحوا قال رجل منهم: واللّه لقد رأيت البارحة رؤيا ما ادري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا بل قصها علينا، قال: فقصها فقال الآخر: وأنا واللّه لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا واللّه لقد رأيت ذلك. قالوا: فواللّه ما هذا إلا لشيء، فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه. ثم انطلقوا به، فأتاه الشيطان فقال: إنّي أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل.

وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بسياق آخر فقال ابن جرير [تفسير الطبري: ٢٨/٤٩]: حدّثنا خلاد بن أسلم، حدّثنا النصر بن شميل، أنبأنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت عبد اللّه بن نهيك، سمعت علياً يقول: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها قال: فجاؤوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة، فسجد له قال: إني بريء منك إني أخاف اللّه رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾

١٤- قصّة الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم

قال الإمام البخاري [خ (٣٤٦٥)]: حدّثنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر، عن عبيد اللّه بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه واللّه يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق. فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللّهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه وأني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق، فساقها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللّهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران،

وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي فابطأت عنهما ليلة فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللّهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا»، رواه مسلم عن سويد بن سعيد، عن علي بن مسهر به [م (٢٧٤٣)].

وقد رواه الإمام أحمد [١١٦/٢] منفرداً به عن مروان بن معاوية، عن عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ بنحوه.

ورواه الإمام أحمد [٢٧٤/٤] من حديث وهب بن منبه، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق وفيه زيادات.

ورواه البزار من طريق أبي إسحاق عن رجل من بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله [قال الهيثمي في المجمع ١٤٢/٨: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط والكبير، والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات].

ورواه البزار في مسنده [كشف الأستار (١٨٦٧)] من حديث أبي حنش، عن علي ابن أبي طالب عن النبي ﷺ بنحوه.

١٥- خبر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخاري [خ (٣٤٦٤، ٦٦٥٣)] ومسلم [م (٢٩٦٤)] من غير وجه عن همام بن يحيى، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثةً في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا للّه أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال له: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس» قال: «فمسحه فذهب عنه فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل» - أو قال: «البقر» - هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل وقال الآخر: البقر - «فأعطي ناقة عشراء فقال: يبارك لك فيها».

قال: «وأتى الأقرع فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس فمسحه فذهب وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملاً وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس» قال: «فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم».

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله عز وجل؟ فقال لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال:

قد كنت أعمى فرد الله إليّ بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك».

هذا لفظ البخاري في أحاديث بني إسرائيل.

١٦- حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد [٣٤٨/٢]: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي كان أجله، فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر. ثم قال: اللّهم إنك قد علمت أني استسلفت من فلان ألف دينار، فسألني كفيلاً قلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بذلك وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي له فلم أجد مركباً، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف ينظر وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة.

ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بالفك راشداً.

هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً.

وقد علقه البخاري [خ معلقاً (١٤٩٨، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٤٣٠، ٢٧٣٤، ٦٢٦١)] في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه [خ مسنداً (٢٠٦٣)].

والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن ملرك عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. ثم قال: لا يروى إلا من هذا

الوجه بهذا الإسناد.

١٧- قصةُ المشتري للعقار وفيه ذهبٌ

قال البخاري [خ (٣٤٧٢)]: حدّثنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقاراً له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرةً فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية. قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدقا».

هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم [م (١٧٢١)] عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به.

وقد روي أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين. وقد كان قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة واللّه أعلم.

قال إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن الحسن إن ذا القرنين كان يتفقد امور مُلكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. قال: فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن، فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومة، فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي، وهم بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي إني اشتريت من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: ما دفنت ولا علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أجبت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه! ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي: هل لكما في أمر أنصف مما دعوتماني إليه؟ قالا: نعم. قال للمدعي: ألك ابن؟ قال: نعم، وقال للآخر: ألك ابنة؟ قال: نعم. قال: اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزوهما من هذا المال، وادفعوا فضل ما بقي اليهما يعيشان به فتكونا قد صليتما بخيره وشره. فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحد يفعل مثل هذا، أو قاض يقضي بمثل هذا. فقال القاضي وهو لا يعرفه: وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين: نعم، قال القاضي: فهل يمطرون في بلادهم؟ فعجب ذو القرنين من ذلك، وقال: بمثل هذا قامت السماوات والأرض.

١٨- قصةُ من قتل تسعاً وتسعين نفساً

قال البخاري [خ (٣٤٧٠)]: حدّثنا محمد بن بشار، حدّثنا محمد بن أبي عدي عن شعبة، عن قتادة، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله فقال: هل من توبة؟ قال: لا فقتله فجعل يسأل فقال له رجل: ائتِ قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى اللّه إلى هذه ان تقربي، وأوحى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له». هكذا رواه ههنا مختصراً.

وقد رواه مسلم [م (٢٧٦٦)] عن بندار به، ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولاً.

١٩- بقرةٌ وذئبٌ يتكلمان

قال البخاري [خ (٣٤٧١)]: حدّثنا علي بن عبد اللّه، حدّثنا سفيان حدّثنا أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: صلى رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح، ثم اقبل على الناس فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث». فقال الناس: سبحان اللّه بقرة تكلَّم فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر - وما هما ثم - وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب: هذا استنقذتها مني! فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري؟» فقال الناس: سبحان اللّه ذئب يتكلم! قال: «فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر» وما هما ثَمَّ.

قال: وحدثنا علي قال: حدّثنا سفيان عن مسعر، عن سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بمثله.

وقد أسنده البخاري [خ (٣٤٧١)] في المزارعة عن محمد بن بشار.

ومسلم [م (٢٣٨٨)] عن محمد بن عبادٍ عن سفيان بن عيينة.

وأخرجاه [خ (٢٣٢٤)، م (٢٣٨٨)] من طريق شعبة كلاهما عن سعد به.

وقال الترمذي [ت (٣٦٧٧)]: حسن صحيح.

وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد به [م (٢٣٢٤)].

٢٠- فيمن قبلكم محدَّثون

قال البخاري [خ (٣٤٦٩)]: حدّثنا عبد العزيز بن عبد اللّه، حدّثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب».

لم يخرجه مسلم من هذا الوجه.

وقد روى عن إبراهيم بن سعد، عن أبيه سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن عائشة رضي اللّه عنها [م (٢٣٩٨)].

٢١- ما اتخذه نساءُ بني إسرائيل

قال البخاري [خ (٣٤٦٨)]: حدّثنا عبد اللّه بن مسلمة عن مالك، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن سفيان عام حج على المنبر، فتناول قُصة من شعر كانت في يدي حرسيّ فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول اللّه ﷺ ينهي عن مثل هذه، ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم».

وهكذا رواه مسلم [م (٢١٢٧)] وأبو داود [د (٤١٦٧)] من حديث مالك.

وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه.

وقال الترمذي [ت (٢٧٨١)]: حديث صحيح.

وقال البخاري [خ (٣٤٨٨، ٥٩٣٨)]: حدّثنا آدم، حدّثنا شعبة، حدّثنا عمرو بن مرة قال: سمعت سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها، فخطبنا فأخرج من كمه كبة شعر فقال: ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود إن النبي ﷺ سماه الزور. يعني: الوصال في الشعر.

تابعه غندر عن شعبة.

والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر، عن شعبة به. [م (١٢٣، ٢١٢٧)] ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب [م (١٢٤، ٢١٢٧)].

٢٢- بغيٌّ تسقي كلباً

قال البخاري [خ (٣٤٦٧)]: حدّثنا سعيد بن تليد، حدّثنا ابن وهب قال: أخبرني جرير بن حازم عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته فغفر لها به».

ورواه مسلم [م (٢٢٤٥)] عن أبي الطاهر بن السرح عن ابن وهب به.

٢٣- امرأةٌ عُذِّبت في هرَّةٍ

قال البخاري [خ (٣٤٨٢)]: حدّثنا عبد الله بن أسماء، حدّثنا جويرية عن نافع، عن عبدالله بن عمر. أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وكذا رواه مسلم [م (٢٢٤٢)] عن عبد الله بن محمد بن أسماء به.

٢٤- امرأة تصنع رجلين من خشب

قال الإمام أحمد [٤٠/٣]: حدّثنا عثمان بن عمر، حدّثنا المستمر بن الريان، حدّثنا أبو نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة، فصنعت رجلين من خشب، فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتماً من ذهب وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه».

ورواه مسلم [م (٢٢٥٢)] من حديث المستمر وخليد بن جعفر كلاهما عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً منه.

وقال الترمذي [ت (٩٩١)]: حديث حسن صحيح.

٢٥- من كلامِ النبوةِ

قال البخاري [خ (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠)]: حدّثنا آدم، حدّثنا شعبة عن منصور، سمعت ربعي بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

تفرد به البخاري دون مسلم.

وقد رواه بعضهم عن ربعي بن حراش، عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً [مسند الإمام أحمد: ٣٨٣/٥، أبو نعيم في الحلية: ٣٧٠/٤]. والله أعلم.

٢٦- امتلاء التنور

قال الإمام أحمد [٤٢١/٢]: حدّثنا هاشم بن القاسم، حدّثنا عبد الحميد يعني: ابن بهرام، حدّثنا شهر بن حوشب قال: قال أبو هريرة «بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسبغة شديدة فقال لامرأته: أعندك شيء؟ قالت: نعم، أبشر أتاك رزق الله فاستحثها فقال: ويحك ابتغي إن كان عندك شيء؟ قالت: نعم هنية نرجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه الطوى، قال: ويحك قومي فابتغي إن كان عندك خبز فأتيني به فإني قد بلغت وجهدت. فقالت: نعم الآن ينضج التنور فلا تعجل، فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضاً أن يقول لها قالت هي من عند نفسها: لو قمت فنظرت إلى تنوري، فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم، ورحييها تطحنان فقامت إلى الرحى فنفضتها وأخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم».

قال أبو هريرة: فو الذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ: «لو أخذت ما في رحييها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة».

وقال أحمد [٥١٣/٢]: حدّثنا ابن عامر، حدّثنا أبو بكر عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللّهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً. قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم من ربنا.

قام إلى الرحى فرفعها فذكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة».

شهدت النبي ﷺ وهو يقول: «والله لأن يأتي أحدكم صبيراً ثم يحمله فيبيعه فيستعفف منه خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله».

٢٧- قِصّة الملكين التائبين

قال الإمام أحمد [٤٥١/١]: حدّثنا يزيد بن هارون، حدّثنا المسعودي عن سماك بن حرب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته فتفكر فعلم أن ذلك منقطع عنه وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه، فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره فأصبح في مملكة غيره، وأتى ساحل البحر، وكان به يضرب اللبن بالأجر فيأكل ويتصدق بالفضل، ولم يزل كذلك حتى رقي أمره إلى ملكهم وعبادته وفضله، فأرسل ملكهم إليه أن يأتيه فأبى أن يأتيه فأعاد ثم أعاد إليه فأبى أن يأتيه، وقال: ما له وما لي؟ قال: فركب إليه الملك، فلما رآه الرجل ولّى هارباً فلما رأى ذلك الملك، ركض في أثره فلم يدركه، قال: فناداه يا عبد الله إنه ليس عليك مني بأس، فقام حتى أدركه، فقال له:

من أنت رحمك الله؟ فقال: أنا فلان بن فلان صاحب ملك كذا وكذا، تفكرت في أمري فعلمت أن ما أنا فيه منقطع، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي عز وجل، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي، فقال له: ما أنت بأحوج لما صنعت مني، قال: ثم نزل عن دابته فسيبها ثم تبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً قال: فماتا. قال عبد الله: فلو كنت برميلة مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذي نعت لنا رسول الله ﷺ.

٢٨- رجلٌ يطلب من بنيه أن يُحرق بعد موته

قال البخاري [خ (٣٤٧٨)]: حدّثنا أبو الوليد، حدّثنا أبو عوانة عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ «إن رجلاً كان قبلكم رغسه الله مالاً فقال لبنيه لما حضر: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في يوم عاصف. ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال: ما حملك؟ فقال: مخافتك، فتلقاه برحمته».

ورواه في مواضع أخر [خ (٦٤٨١، ٧٥٠٨)]، ومسلم [م (٢٧٥٧)] من طرق عن قتادة به.

ثم رواه البخاري ومسلم من حديث ربعي بن حراش عن حذيفة، عن النبي ﷺ بنحوه [خ (٣٤٥٢، ٣٤٧٩، ٦٤٨٠)]. ولم يروه مسلم من هذا الوجه.

ومن حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه [خ (٣٤٨١)، م (٢٧٥٦)].

٢٩- التجاوز عن المعسر

قال البخاري [خ (٣٤٨٠)]: حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدّثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا» قال: «فلقي الله فتجاوز عنه».

وقد رواه في مواضع أخر [خ (٢٠٧٨)] ومسلم [م (١٥٦٢)] من طريق الزهري به.

٣٠- الطاعون رجسٌ أرسلَ على طائفة من بني إسرائيل

قال البخاري [خ (٣٤٧٣)]: حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني مالك عن محمد بن المنكدر، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل - أو على من كان قبلكم - فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

قال أبو النضر: «لا يخرجكم إلا فراراً منه».

ورواه مسلم [م (٢٢١٨)] من حديث مالك، ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به:

حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا داود بن أبي الفرات، حدّثنا عبدالله بن بريدة عن يحيى بن يعمر، عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون «فأخبرني أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده وأن الله جعله رحمةً للمؤمنين ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلاّ كان له مثل أجر شهيد.

تفرد به البخاري [خ (٣٤٧٤)] عن مسلم من هذا الوجه.

٣١- إذا سرقَ فيهم الشريفُ

قال البخاري [خ (٣٤٧٥)]: حدّثنا قتيبة، حدّثنا ليث عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال: رسول الله ﷺ «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنما أهلك الذين من قبلكم. أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به [م (١٦٨٨)، د (٤٣٧٣)، ت (١٤٣٠)، س (٤٩١٤)، ج (٢٥٤٧)].

٣٢- لا تختلفوا كما اختلفَ السابقون

وقال البخاري [خ (٣٤٧٦)]: حدّثنا آدم حدّثنا شعبة، حدّثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النزال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

تفرد به البخاري دون مسلم.

٣٣- مخالفة أهل الكتاب في الصباغةِ

قال البخاري [خ (٣٤٦٢)]: حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدّثنا إبراهيم بن سعد عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم».

تفرد به دون مسلم.

وفي سنن أبي داود [د (٦٥٢)] «صلوا في نعالكم، خالفوا اليهود».

٣٤- بيع اليهود للشحومِ

قال البخاري [خ (٣٤٦٠)]: حدّثنا علي بن عبد الله، حدّثنا سفيان عن عمرو، عن طاوس، عن ابن عباس سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».

رواه مسلم [م (١٥٨٢)] من حديث ابن عيينة. ومن حديث عمرو بن

دينار به.

ثم قال البخاري: تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ [فتح الباري ٤٩٨/٦].

ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتي في باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله وبه الثقة.

٣٥- مخالفة أهل الكتاب في الجمع للصلاةِ

قال البخاري [خ (٦٠٣، ٣٤٥٧)]: حدّثنا عمران بن ميسرة، حدّثنا عبد الوارث، حدّثنا خالد عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك قال: ذكروا النار والناقوس فذكروا اليهود والنصارى فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة.

وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي به [م (٣٧٨)، د (٥٠٨، ٥٠٩)، ت (١٩٣)، س (٦٢٦)، ج (٧٢٩، ٧٣٠)].

والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة بغير دعوة إليها. ثم أمر من ينادي فيهم وقت الصلاة: الصلاة الجامعة. ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس، فقال قائلون: نضرب بالناقوس، وقال آخرون: نوري ناراً، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتابين، فاري عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري في منامه الأذان، فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالا فنادى به كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان في كتاب الأحكام.

٣٦- اتخاذُ أهل الكتاب قبورَ أنبيائهم مساجد

قال البخاري [خ (٣٤٥٣، ٣٤٥٤)]: حدّثنا بشر بن محمد، أخبرنا عبد الله، أخبرني معمر ويونس عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

وهكذا رواه في غير موضع، ومسلم من طرق عن الزهري به [خ (٤٣٥، ٤٣٦، ٥٨١٥ - ٥٨١٧)، م (٥٣١)].

٣٧- اتباع سنن من قبلكم

قال البخاري [خ (٣٤٥٦)]: حدّثنا سعيد بن أبي مريم، حدّثنا أبو غسان قال، حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال النبي ﷺ: «فمن؟» وهكذا رواه مسلم [م (٢٦٦٩)] من حديث زيد بن أسلم به.

والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهي عنها شرعاً، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا، فإن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً، لكنه تشبه بفعله في الظاهر من فعلهم. كما نهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا يشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكلية.

وهكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]. فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه: راع نا أي: انظر إلينا ببصرك، واسمع كلامنا. ويقصدون بقولهم: راعنا من الرعونة، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً.

فقد روى الإمام أحمد [٥٠/٢] والترمذي من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعثتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

فليس للمسلم أن يتشبه بهم لا في عباداتهم، ولا في مواسمهم، ولا في أعيادهم لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة وعيسى ابن مريم الذي أنزل عليه الإنجيل حيين لم يكن لهما شرع متبع، بل لو كانا موجودين، بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهّرة المشرّفة المكرّمة المعظّمة، فإذا كان الله تعالى قد من علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل، قد بدّلوا دينهم وحرّفوه وأوّلوه، حتى صار كأنه غير ما شرّع لهم أولاً.

ثم هو بعد ذلك كله منسوخ والتمسك بالمنسوخ حرام، لايقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً ولا فرق بينه وبين ما لم يشرع بالكلية والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٣٨- مثلُ اليهود والنصارى

قال البخاري [خ (٣٤٥٩)]: حدّثنا قتيبة، حدّثنا الليث عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء! قال الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال: فإنه فضلي أوتيه من أشاء من شئت».

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها، لقوله ﷺ «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس». فالماضي لا يعلمه إلا الله كما أن الآتي لا يعلمه إلاهو، ولكنه قصير بالنسبة إلى ما سبق ولا اطلاع لأحد على تحديد ما بقي إلا الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿لا

﴿يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٣].

وما يذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه عليه السلام لا يؤلف تحت الأرض فليس له أصل في كتب الحديث.

وورد فيه حديث: «أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة» [عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٥ لابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً، ولابن أبي الدنيا عن سعيد بن جبير].

وفي صحته نظر.

والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل ولا قلته بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى، وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير.

هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها، وهؤلاء أصحاب محمد ر أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه من تمر، وهذا رسول الله ر بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور، وقد برز في هذه المدة - التي هي ثلاث وعشرون سنة - في العلوم النافعة، والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله، حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

فهذه الامة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

٣٩- كثرةُ أخبار بني إسرائيل

وأخبار بني إسرائيل كثيرة جداً في الكتاب والسنة النبوية، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الباب، ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وأنموذج لهذا الباب والله أعلم.

وأما الأخبار الإسرائيلية مما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين فكثيرة جداً، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع، وكثير منها - بل أكثرها - مما يذكره القصاص مكذوب مفترى، وضعه زنادقتهم وضلالهم، وهي ثلاثة أقسام: منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ر، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ومنها ما يحتمل الصدق والكذب. فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه، لما ثبت في الصحيح [خ (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢)]: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم». وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم:

«وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» [المسند ٢/١٥٩، ٢/٢٠٢، خ (٣٤٦١)، ت (٢٦٦٩)].

٤٠- ذكر تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ [الانعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الانبياء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧-١١٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدلوا حكم الرجم، والتحميم مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع.

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون: بأنها جميعها بدلت وقال آخرون: لم تبدل واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] وقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وبقوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وبقصة الرجم فإنهم كما ثبت في الصحيحين [خ (١٣٢٩، ٣٦٣٥، ٤٥٥٦، ٦٨١٩، ٦٨٤١، ٧٣٣٢، ٧٥٤٣)، م (١٦٩٩)] عن ابن عمر وفي صحيح مسلم [م (١٧٠٠، ١٧٠١)] عن البراء بن عازب. وجابر بن عبد الله.

وفي السنن [د (٤٤٥٠، ٤٤٥١)] عن أبي هريرة وغيره، لما تحاكموا إلى رسول الله ر في قصة اليهودي واليهودية الذين زنيا فقال لهم: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فأمرهم رسول الله ر بإحضار التوراة، فلما جاؤوا بها وجعلوا يقرؤونها ويكتمون آية الرجم التي فيها، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم. وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له رسول الله ر: «ارفع يدك يا أعور» فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فأمر رسول الله ر برجمهما. وقال: «اللهم إني أول من أحيى أمرك إذ أماتوه».

وعند أبي داود [د (٤٤٤٩)] أنهم لما جاؤوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها، وقال: «آمنت بك وبمن أنزلك».

وذكر بعضهم أنه قام لها ولم أقف على إسناده والله أعلم.

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم: أن التوراة انقطع تواترها في زمن بختنصر، ولم يبق من يحفظها إلا العزير، ثم إن العزير إن كان نبياً فهو معصوم والتواتر إلى المعصوم يكفي، اللهم إلا أن يقال: إنها لم تتواتر إليه، لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة، فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون.

ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم - وأنهم مأمورون حتماً - إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ، وهم يعاندون ما جاء به، لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً، قالوا: إن حكم لكم بالجلد والتحميم، فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم، فاحذروا أن تقبلوا منه فأنكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنما حملهم عليه الغرض الفاسد، وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ الآية. ولهذا لما حكم بالرجم، قال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» وسألهم ما حملهم على هذا؟ ولم تركوا أمر الله الذي بأيديهم؟ فقالوا: إن الزنا قد كثر في أشرافنا، ولم يمكنا أن نقيمه عليهم، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا، فقلنا: تعالوا إلى أمر نَصف نفعله مع الشريف والوضيع، فاصطلحنا على الجلد والتحميم، فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل، وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم، كما دل عليه الحديث المتفق عليه.

فلهذا قال من قال هذا من الناس: إنه لم يقع تبديلهم إلا في المعاني، وإن الألفاظ باقية وهي حجّة عليهم إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ الآية [المائدة: ٦٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨].

وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها حكاه البخاري [خ (٧٥٤١)] عن ابن عباس في آخر كتابه «الصحيح»، وقرر عليه ولم يرده وحكاه العلامة الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره [التفسير الكبير ٣/١٣٤، ١٣٥] عن أكثر المتكلمين.

وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث وحكاه الحناطي في فتاويه عن بعض أصحاب الشافعي وهو غريب جداً.

وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط في هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فقال: أما من ذهب إلى أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلا بدلوه، فهذا بعيد وكذا من قال: لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضاً، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص، كما تصرفوا في معانيها وهذا معلوم عند التأمل، ولبسطه موضع آخر والله أعلم.

كما في قولهم في قصة الذبيح: اذبح ابنك وحيدك، وفي نسخة: بكرك إسحاق، فلفظة «إسحاق» مقحمة مزيدة بلا مرية لأن الوحيد - وهو البكر - إسماعيل لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق؟! وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون أبوهم هو الذبيح فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراء على الله وعلى رسوله ﷺ.

وقد اغترّ بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف، ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق والصحيح أن الذبيح إسماعيل كما قدمنا والله أعلم.

وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة، الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى.

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً، فيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه والله أعلم.

قلت: وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة، فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح، وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شيء كثير جداً، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطلاع لنا عليه، والمظنون بهم أنهم كذبة خونة يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه.

وأما النصارى: فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتّى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادة ونقصاً، وأفحش تفاوتا من التوراة، وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرعوه لأنفسهم، فمن ذلك: صلاتهم إلى الشرق ليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة وهكذا تصويرهم كنائسهم وتركهم الختان، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع وزيادتهم إلى خمسين يوماً، وأكلهم الخنزير ووضعهم الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الصغيرة الحقيرة والرهبانية، وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الاساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر.

فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطس باني القسطنطينية، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران، وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين، فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور تعلم الفلسفة ومهر فيها، وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها فعظم القائمين بها بعض الشيء، وهو على اعتقاد الفلاسفة، فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة سار في رعيته سيرة عادلة، فأحبه الناس وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة، وعظم شأنه وكان أول القياصرة.

ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ومنازعة وقعت بين بطريق الإسكندرية إكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له: عبد الله بن أريوس، فذهب إكصندروس إلى أن عيسى ابن الله، تعالى الله عن قوله، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله، واتبعه على هذا طائفة من النصارى، وأصفق الأكثرون الأخسرون على قول بطريقهم، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه، فذهب يستعدي على

إكصندروس وأصحابه إلى الملك قسطنطين، فسأله الملك عن مقالته فعرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله واحتج على ذلك، فمال إليه وجنح إلى قوله، فقال له قائلون: فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه، فأمر الملك بإحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف، وكل من عنده في دين النصرانية، وجمع البطارقة الأربعة من القدس وأنطاكية ورومية والإسكندرية، فيقال إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف، فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جداً.

فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها، فهؤلاء خمسون على مقالة. وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى. وهؤلاء عشرة على مقالة، وأربعون على أخرى، ومائة على مقالة، ومائتان على مقالة، وطائفة على مقالة ابن أريوس، وجماعة على مقالة أخرى، فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة إكصندروس، ولم يجد طائفة بلغت عدتهم، فقال: هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثر الفرق، فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه اليهم، وقال: إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه، فأنا أنصرها وأذهب إليها فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام، وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة، وأن يصوّروا في كنائسهم صوراً لها جثث، فصالحوه على أن تكون في الحيطان. فلما توافقوا إلى ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم وأمر ببناء الكنائس على دينهم، وهم الملكية نسبة إلى دين الملك، فبني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من ثنتي عشرة ألف كنيسة، واعتنى الملك ببناء بيت لحم. يعني على مكان مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة عقلهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام.

ويقال: إنه قتل من عدا أولئك وخدّ لهم الأخاديد في الأرض، وأجج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه في تفسير سورة البروج.

وعظّم دين النصرانية، وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين، وقد أفسده عليهم فساداً لا صلاح له، ولا نجاح معه ولا فلاح عنده، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم، وتفاقم كفرهم وغلظت مصيبتهم، وتخلد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهد الله قلوبهم، ولا أصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمال عن الاستقامة حالهم.

ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين في قضية النسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى، وتعتقد تخليدهم في نار جهنم، ولا ترى مجامعتهم في المعابد والكنائس، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الأبن، وأقنوم الكلمة، ولكن بينهما اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت، هل تدرعه أو حل فيه أو اتحد به، واختلافهم في ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ، وكلّهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس: إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، كما يقول المسلمون فيه سواء، ولكن لما استقرّ أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلّط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلّوا، فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما نعلم والله أعلم.

٤١- الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وقد روى ابن حبان في صحيحه وابن مردويه في تفسيره وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن يحيى الغساني الشامي - وقد تكلموا فيه - حدثني أبي عن جدي عن أبي إدريس عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً، ثم قال: «يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر. وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك».

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال: حدّثنا محمد بن عوف حدّثنا أبو المغيرة، حدّثنا معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله: كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً» [الدر المنثور ٢/٢٤٦. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم].

وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف، فيه ثلاثة من الضعفاء معان وشيخه وشيخ شيخه.

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدّثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري، حدّثنا مكي بن إبراهيم، حدّثنا موسى بن عبيدة الربذي عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف إلى بني إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس» [مسند أبي يعلى (٤١٣٢)] موسى وشيخه ضعيفان.

وقال أبو يعلى أيضاً: حدّثنا أبو الربيع، حدّثنا محمد بن ثابت العبدي، حدّثنا معبد بن خالد الأنصاري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا» [مسند أبي يعلى (٤٠٩٢)] يزيد الرقاشي ضعيف.

وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبي

شيبة: حدّثنا أحمد بن طارق، حدّثنا مسلم بن خالد، حدّثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت على إثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل» [أبو نعيم في الحلية ١٦٢/٣] وهذا إسناد لا بأس به، لكني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا، فالله أعلم.

٤٢- ختمُ النبوةِ، وبلاءُ الأنبياء

قال عبد الله ابن الإمام أحمد [٧٩/٣]: وجدت في كتاب أبي بخطه: حدثني عبد المتعال بن عبد الوهاب، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدّثنا مجالد عن أبي الوداك قال: قال أبو سعيد: هل تقر الخوارج بالدجال؟ قال: قلت: لا، فقال رسول الله ﷺ: «إني خاتم ألف نبي أو أكثر ما بعث نبي يُتبع إلا وحذر أمته الدجال، وإني قد بين لي من أمره ما لم يبين لأحد، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمني عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء، يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن» وهذا حديث غريب.

وقد روي عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدّثنا عمرو بن علي، حدّثنا يحيى بن سعيد، حدّثنا مجالد عن الشعبي، عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لخاتم ألف نبي أو أكثر وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال وإنه قد تبين لي فيه ما لم يتبين لأحد منهم وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور» [كشف الأستار (٣٣٨٠)]. وهذا إسناد حسن، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء لكن في الحديث الآخر: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال» [م (٢٩٣٣)، ت (٢٢٤٥)، وأحمد ١٧٣/٣] فالله أعلم.

وقال البخاري [خ (٣٤٥٥)]: حدّثنا محمد بن بشار، حدّثنا محمد بن جعفر، حدّثنا شعبة عن فرات. قال: سمعت أبا حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «فُوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

وكذا رواه مسلم [م (١٨٤٢)] عن بندار ومن وجه آخر عن فرات به نحوه.

وقال البخاري [خ (٣٤٧٧، ٦٩٢٩)]: حدّثنا عمرو بن حفص، حدّثنا أبي، حدّثني الأعمش، حدثني شقيق قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وكذلك رواه مسلم [م (١٧٩٢)] من حديث الأعمش به نحوه.

وقال الإمام أحمد [٩٤/٣] حدّثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم، عن رجل عن أبي سعيد الخدري قال: وضع رجل يده على النبي ﷺ فقال: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حمّاك، فقال النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر إن كان النبي من الأنبياء يبتلي بالقَمْل حتى يقتله وإن كان النبي من الأنبياء ليُبتلي بالفقر حتى يأخذ العباءة فيحويها وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء».

هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل، عن أبي سعيد.

وقد رواه ابن ماجه [ج (٤٠٢٤)] عن دحيم، عن ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد فذكره.

وقال الإمام أحمد [١٧٢/١]: حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء. ثم الصالحون. ثم الأمثل فالأمثل من الناس يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض وما عليه خطيئة».

ورواه الترمذي [ت (٢٣٩٨)] والنسائي [س (٧٤٨١)] وابن ماجه [ج (٤٠٢٣)] من حديث عاصم بن أبي النجود به.

وقال الترمذي حسن صحيح.

وتقدم في الحديث «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى».

والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونسخ بعضها بعضاً، حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين، إلا أن كل نبي بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية [النحل: ٣٦].

فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً، والأمهات متفرقات، فالأب بمنزلة الدين، وهو التوحيد والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها. كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]. وقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] على أحد القولين في تفسيرها.

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية [المائدة: ٤٤].

فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك، الوقت المأمور به ولهذا لا يقبل الله من أحد عملاً بعد أن بعث محمداً ﷺ إلا على ما شرعه له كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾[هود: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود».

قيل: أراد العرب والعجم. وقيل الإنس والجن، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم».

والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

والمقصود أن إخوة العلات أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى، مأخوذ من شرب العلل بعد النهل. وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى. وأخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي الحديث الآخر «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة» وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم، ولأن توكلهم على الله عز وجل في ذراريهم أعظم وأشد، وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم - من بعدهم - مالاً يستأثرون به عن الناس، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس، ومحاويجهم وذو خلتهم.

وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب «الأحكام الكبير» حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالإمام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

وقال الإمام أحمد [٢/١٦١]: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظل الكعبة فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً فمنا من يضرب خباءه، ومنا من هو في جشره، ومنا من ينتضل إذ نادى مناديه: الصلاة جامعة، قال فاجتمعنا قال: فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا دل أمته على ما يعلمه خيراً لهم ويحذرهم ما يعلمه شراً لهم، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور تنكرونها، تجيء فتن يرقق بعضها لبعض، تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف. ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه. ثم تنكشف فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر. وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

قال: فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت: أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: فأشار بيده إلى أذنيه وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. قال: فقلت: هذا ابن عمك - يعني: معاوية - يأمرنا بأكل أموالنا بيننا بالباطل، وأن نقتل أنفسنا وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

قال: فجمع يديه فوضعهما على جبهته، ثم نكس هنية. ثم رفع رأسه فقال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله عز وجل.

ورواه أحمد [١/١٩١]: أيضاً عن وكيع عن الأعمش به وقال فيه: «أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذرهم ما يعلمه شراً لهم» وذكر تمامه بنحوه.

وهكذا رواه مسلم [م (١٨٤٤)] وأبو داود [د (٤٢٤٨)] والنسائي [س (٤٢٠٢)] وابن ماجه [ج (٣٩٥٦)] من طرق عن الأعمش به. ورواه مسلم [م (١٨٤٤)] أيضاً من حديث الشعبي عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ بنحوه.

٤- كتاب أخبار العرب

١- ذكر أخبار العرب

قيل: إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله وكل هؤلاء كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام وفي زمانه أيضاً.

فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم. قاله ابن ماكولا. وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة: قحطان وقاحط ومقحط وفالغ، وقحطان بن هود. وقيل: هو هود. وقيل: هود أخوه وقيل: من ذريته وقيل: إن قحطان من سلالة إسماعيل عليه الصلاة والسلام حكاه ابن إسحاق وغيره فقال بعضهم: هو قحطان بن الهميسع بن تيمن بن قيذر بن نبت بن إسماعيل. وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل والله أعلم.

وقد ترجم البخاري [خ (٣٥٠٧)] في «صحيحه» على ذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام:

حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن يزيد بن أبي عبيد حدثنا سلمة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: «ارموا بني إسماعيل وأنا مع بني فلان». لأحد الفريقين فأمسكوا بأيديهم فقال: «ما لكم؟»قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

انفرد به البخاري وفي بعض ألفاظه«ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع ابن الأدرع» فأمسك القوم فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

قال البخاري: وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم كما سيأتي بيانه وكانت الأوس والخزرج منهم. وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام: «ارموا بني إسماعيل» فدل على أنهم من سلالته وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب لكنه تأويل بعيد إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان: سبأ وحضرموت. والعدنانية شعبان أيضاً: ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان والشعب الخامس وهم قضاعة مختلف فيهم فقيل: إنهم عدنانيون. قال ابن عبد البر وعليه الأكثرون

ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر، وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيري وابن هشام.

وقد ورد في حديث قضاعة بن معد ولكن لا يصح. قاله ابن عبد البر وغيره. ويقال: إنهم لم يزالوا في جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان فلما كان في زمن خالد بن يزيد بن معاوية وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان فقال في ذلك أعشى بن ثعلبة في قصيدة له:

أبلغ قضاعة في القرطاس أنهم ... لولا خلائف آل الله ما عُتقوا
قالت قضاعة إنا من ذوي يمن ... والله يعلم ما بَرّوا وما صَدقوا
قد ادّعوا والداً ما نال أمُّهم ... قد يعلمون ولكنْ ذلكَ الفَرَقُ

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي أيضاً من شعر العرب ما فيه إبداع في تفسير قضاعة في انتسابهم إلى اليمن والله أعلم.

والقول الثاني أنهم من قحطان وهو قول ابن إسحاق والكلبي وطائفة من أهل النسب.

قال ابن إسحاق: وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد قال بعض شعرائهم وهو عمرو بن مرة ـ صحابي له حديثان ـ:

يا أيها الداعي ادعُنا وأبشِرِ ... وكنْ قُضاعياً ولا تَستَزّرِ
نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهرِ ... قضاعةَ بنِ مالكِ بنِ حِمْيرِ
النسبُ المعروفُ غيرُ المنكَرِ ... في الحجَرِ المنقوشِ تحتَ المِنبرِ

قال بعض أهل النسب: هو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن حمير.

وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبي عشانة حي بن يؤمن عن عقبة بن عامر قال: قالت: يا رسول الله أما نحن من معدّ؟ قال: «لا» قلت: فممن نحن؟ قال: «أنتم قضاعة بن مالك بن حمير».

قال أبو عمير بن عبد البر: ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن سود بن أسلم بن عمران بن إلحافِ بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهني.

فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ.

وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاعة ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير.

وزعم بعضهم أنه كان حملاً فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه. والله أعلم.

وقال محمد بن سلام البصري النسابة: العرب ثلاثة جراثيم: العدنانية والقحطانية وقضاعة. قيل له: فأيهما أكثر العدنانية أو القحطانية؟ فقال: ما شاءت قضاعة إن تيامنت فالقحطانية أكثر وإن تمعددت فالعدنانية أكثر. وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم.

فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

قال علماء النسب: يقال شعوب. ثم قبائل ثم عمائر. ثم بطون. ثم أفخاذ. ثم فصائل. ثم عشائر. والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء.

فصل في فوائد ملتقطة من كتاب «القصد والأمم في معرفة العرب والعجم» للشيخ أبي عمر بن عبد البر رحمه الله قال:

أجمعوا أن العرب كلها من ولد سام وكذلك بنوا إسرائيل والروم الآخرة وهم بنو الأصفر وأجمعوا أن الروم الأولى وهم اليونان من ولد

يونان بن يافث بن نوح. وقالت طائفة أن الفرس من ولد سام، ثم روي من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعد عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فولد سام العرب، والروم وفارس، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وولد حام القبط والسودان والبربر وكذلك قال: وهذين منه أن العرب من ولد سام وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم قال: يعني الروم الأولى قال: وفي حديث عمران بن حصين مثله قال: وكان سام وصى أبيه نوح وجعل الله في ذريته النبوة والكتاب وولد سام ارفخشد وهو أبو العرب العاربة والمستعربة ولاود وهو أبو الفرس والبرجان وطسم وجديس وعمليق.

ومنهم كانت الجبابرة بالشام الكنعانيون وغيرهم والفراعنة بمصر وأهل البحرين ونجد وأهل يثرب وأمة يسمون جاسم وأهل الحجاز والطائف وولد لسام أيضاً أسود وغويلم وارم. قال: ولم يعقب. قال: ومن ولد يافث الترك والخزر والديلم! وفي الديلم اختلاف قال: وأما حام فإن أهل الأثر رووا أن نوحاً دعا عليه بتشويه الخلق وإن يكون ولده عبيداً لأولاد سام. فولد لحام كنعان وولد لكنعان بنون منهم: كوش وجاء أسود فهمّ كنعان بقتل امرأته فمنعه سام.

وقال علي بن كيسان النسابة: ولد حام قوط وقفط وكنعان وكوش ومصريم ومن ولد قوط أوقفط بربر وقال غيره: من ولد حام البربر والزنج والحبشة والنوبة والسند وأجناس لا يحصيها إلا الذي خلقها فالنوبة من ولد نوبا بن قوط بن مصر بن حام والكرد من ولد كرد بن كنعان بن كوش بن كنعان بن حام والحبشة من ولد حبشة بن كوش بن كنعان وشرفن بن حام وهم أكبر ملوك السودان وقد تنصروا في آخر الزمان قال: وبقية السودان على اختلاف أصنافهم يعبدون الأصنام الخشب والطيور والدواب الغريبة.

قال أبو عمر: وأما البربر فالاختلاف فيهم كبير وأثبت ما قيل فيهم أنهم من ولد قفط بن حام وقد نزل قفط مصر فخرج ولده بربر فنزل بلاد المغرب ومنهم لواتة وهوادة وقرقشانة وكتانة وصنهاجة وقد قيل إن كتانة وصنهاجة من حمير وقيل من لخم وزويلة تزعم أنها من جرهم وهوادة تزعم أنهم من عاملة قال وقد انتسب بعضهم يعني البربر في حمير وأنكر ذلك أكثر الناس قال: وقد انتسب طائفة من البربر إلى قيس غيلان وقال شاعرهم:

قبائل بر بن قيس بن خندف ... في عزها المتطاول

وقالت... أخت بر بن قيس ترثيه:

لتبكي كل باكية أخاها ... كما أبك على بن قيس
تحمل عن عشيرته فاضحى ... ودون لقائه أيضاً غيسي

وذكر لها غير ذلك من المراثي فيه ثم قال: وأنكر أكثر العلماء بالنسب وأيام العرب أن يكون لقيس بن غيلان بن تسمي براً وقال: البربر كلها من ولد حالوت وهو من ذرية شكلوحيم بن مصريم بن حام بن نوح الذي قتله داود عليه السلام.

قال: والحبشة الذين ببلاد النجاشي يزعمون أنهم من ولد حبش بن سعد بن طي بن أود ومنهم من يتنسب في رعين ومنهم من يتنسب في كلاع وقيل من مدلج وقيل من لخم وقيل من بني تميم وقيل غير ذلك قال: وقوم من الروم يزعمون أنهم من رياد دخلوا مع هرقل في دينهم حين فهرهم وأسرهم وكانوا سبعين ألفاً فنزلوا أنقرة وقد ذكر ذلك الأسود بن يعفر في شعره حيث يقول:

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء ... الفرات بسيل من أطواد

قال: ومن بني حام الذين لا تختلف فيهم ملوك مصر وفراعنتها ولهم أربعة أصول في بني حام: قبط واشمن وأنزيب وصال أولاد مصر بن حام ولكل واحد من هؤلاء الأربعة مدينة بناها وحيز يختص به من نواحي مصر وكورها وكان في كل كورة كاهن يجلس على سرير من ذهب ويوبا وهو بيت الحكمة قال أبو عمر: وأما يافث فكان فيما ذكروا أكثر بني نوح ذرية قالوا: أن له من ظهره سبعة وثلاثون ولد الكل واحد ذرية ولغة على حدة ولهم سبعون سهماً من مائة وعشرون سهماً من الأرض فمنهم الأشبان والبرجان والترك والصقالبة والأفرنج ويأجوج ومأجوج والروم الأولى ولكل والاتفردة وغيرهم وفيهم سحرة ونصارى ومجوس وزنادقة وغير ذلك والروم الأولى هم بنوا الروم بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح وكان منهم ذو القرنين وهم الذين بنوا دمشق وما حولها وكان في حكماء اليونان علم النجامة والحساب والهندسة والطب وصناعة المنطق والصناعات العجيبة اللطيفة قال أبو عمر: وكانت الأندلس وما جاورها يدينون طاغيتهم إلى أن غلب على بلادهم الروم الثانية وهم بنو الأصفر رومي بن لبطا وابطاس وعيصو بن إسحاق بن الخليل وهؤلاء هم الذين بنوا رومية ومن حكماء اليونان سقراط وبقراط الأول وبقراط الثاني وافلاطون وارساطاليس واقليدس وبطليموس المنجّم وجماعة وقد ملك منهم خلق كثير حتى كان آخرهم فلونطرة بنت مطليوس صاحب الحكمة والطلسمان وكتاب الخليل حين غلب على اليونان الروم الثانية وهم من بني الأصفر بن عيصو بن إسحاق كما تقدم وذهب ذكر أولئك بالكلية قلت يقال إن ذلك كان قبل البعثة المحمدية وبعد العيسوية وكانوا أول نصرهم على يدي قسطنطين بن قسطس قبل البعثة بثلثمائة سنة وهذا الملك هو الذي بنى القسطنطينية وتنسب الطائفة الملكية إليه وبنى لهم اثني عشر الف كنيسة في مدة قريبة حتى استحوذت اليد الإسلامية على جميع الممالك الشامية والجزيرة أيضاً. واقتصرت يد ملكهم على القسطنطينية وما حولها فقط وانلغت عن الشام والجزيرة ولهذا لا يسمى قيصراً ابداً لفوات الشرط اللغوي والشرعي أيضاً إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده قال أبو عمر: وأما الفرس فالصحيح أنهم من ولد عامور بن يافث بن نوح قال: وهم ينكرون ذلك ويزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا الطوفان قلت وهم في ذلك ناساً جاهلون أو مكابرون قالوا: وكان أول ملوكهم بعد الطوفان أوشك بن أبرح بن عامور بن يافث وأنه ملكهم ألف سنة وكان أول من لبس تاجاً وجلس على سرير من ذهب وبعده كيومرث وبعده حم وقد ملكهم ألف سنة أيضاً وزعموا أنه صعد إلى السماء وبعده لهراسب ثم أفريدون ثم منوشهر ثم غلب عليهم الإسكندر دادا ودبت ملوك الطوائف ثم ملكت الأكاسرة فكان أولهم اردشير بن بابك ويقال إنه أول من شرع نكاح الأمهات والأخوات أتاه به شيطانه وذكر له أن آدم زوّج بناته من بنيه قالوا: فالأم أحق بالبر لأن النكاح عندهم إحسان وقد قيل إن الفرس من نسل سام بن نوح وكان دين الفرس الصابئة ثم تمجسّوا وبنوا بيوت النيران وكان فيهم رياسة وسياسة ومعرفة بالحرب وفيهم الترسل والخطابة والنظافة ومعرفة الأطعمة والطيب واللباس ومن كتبهم اشتمل الناس رسوم الملك قال: وأما الأكراد فيقال إنهم من نسل عمرو بن عامر مرتقباً نزلوا بأرض العجم وتناسلوا وكثر عددهم فسموا الكرد وأما البرجان فمن نسل يونان بن يافث ومملكتهم

متسعة وهم يحاربون الترك والصقالبة والخزر والروم وأما الديلم فالمشهور أنهم من سلاسلة البرجان وقيل إن أصلهم من العرب من ذرية عدنان بن أد ولهذا يشبهون العرب في أشكالهم وحروبهم وعاداتهم وإنما صاروا إلى تلك الناحية فأقاموا بها فالله أعلم. وأما الترك فمن ذرية يافث بنص الحديث وهم طوائف كثيرة ومنهم من يسكن المدن والحصون ومنهم من يسكن البراري ورؤوس الجبال ويقتاتون بالصيد ويأكلون الميتة والدم والغربان والرخم وغيرها وليس لهم دين ومنهم من تمجّس وتهوّد وفيهم بأس شديد وسحر ومكر وهم بنو عم يأجوج ومأجوج وملكهم الذي يقال له ألعان كثير الاحتجاب وقد قيل إن أصلهم من ذرية حمير دخلوا إلى بلاد العجم فاستعجموا. قال أبو عمر: وأما بلاد الأندلس فسكنها قوم من اليونان وكان بها أربع وعشرون مدينة يملكهم رجل واحد وكانوا يعبدون الكواكب ثم غلب على تلك النواحي الروم الأخرة بنو عيصو بن إسحاق فتنصروا معهم وكان في ملكهم بيت كلما ملك منهم رجل وضع عليه قفلا حتى ملكهم زرذيق ففتح ذلك الباب قهراً وقد كان عليه أربعة وعشرون قفلا فوجد فيه صور العرب عليهم عمائم حمر على خيل شهب ففتحت الأندلس في تلك السنة سنة ثنتين وتسعين في أيام الوليد بن عبد الملك فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير فقتل زرذيق وأخذ من ذلك البيت مائدة سليمان بن داود وكانت من ذهب مطوقة بالجواهر ووجد المرآة التي ينظر منها إلى الأقاليم السبعة ووجد فيه اثنين وعشرين مصحفاً مجلا بالذهب منها ومصحف فيه منافع الأحجار والأشجار والعجيبة الصبحية ومصحف فيه عمل الصنعة وصنعة اليواقيت ووجد قفاعة من حجر أخضر مملوءة أكسير الكيما مختومة بذهب فأرسل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك قال: ثم ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في سنة ثمان وثلاثين ومائة واستمر الملك في ذريته بها إلى حدود سنة أربعمائة فباد ملكهم على يدي البربر قال ثم ضعفوا حتى صاروا يؤدون إلى النصارى أضعاف ما كان المسلمون يأخذون منهم قال: ثم لم يبق مع المسلمين من مدائنها إلا القليل وتغلب على أكثرها الفرنج فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

قال: وأما الصقالبة فبلادهم من ناحية الشمال بعيدة من الشمس فليس عندهم بحر مالح ولكن لهم بحر حلو تجري فيه السفن من الشمال إلى الجنوب ولهم أنهار كبيرة ولهم مدن كبار وحصون وكنائس تضرب فيها النواقيس وأكثرهم مجوس وفيهم أيضاً ولهم سبعة أعياد في السنة على أسماء الكواكب وما وراءهم من ناحية الشمال بلاد ولا تسكن لشدة بردها وزلازلها وأما بلاد الصين فيقال إن فيها ثلثمائة مدينة ونيفاً ولا يمكن الخلوص إليها حتى تقطع سبعة أبحر وأولها عين فارس وفي الصين عجائب كبيرة قال والأصل في عمارتها أن قوماً من بني عامور بن يافث وكان أبوهم عامور قد عمل ملكاً حكى به سفينة جده نوح ثم ركبه بمن معه من أولاده فدخلوا بلد الصين فبنوا المدائن وعملوا دقائق الصناعة واستخرجوا معادن الذهب وملكهم ثلثمائة سنة وملك بعدهم صبائن مائتي سنة وبه سميت الصين ثم بنوا معابد الصائبين وصوروا ملوكهم وصالحيهم فيها وعبدوهم ثم اقتفوا بالهنود في عبادة البدو وأكثر مدائنهم الصنور بينها وبين حالقوا التي تبدا فيها البحار ثلاثون يوماً وأهل الصين بيض إلى الصفرة يبيحون الزنا ويورثون الأنثى أكثر من الذكر ويتخذون عيداً عند نزول الشمس الحمل يشربون الخمر سبعة أيام والذهب عندهم لكثرته كالنحاس عند غيرهم منه أوانيهم وغيرها ويلبسون الحرير وأشرف حليتهم من وفوق الكركند ووراء صين الصين أمم عراة عول ليس لهم بيوت إنما لهم معابد يأوون إليها من الحر وليس لهم مأكل إلا السمك ونبات يشبه الكماة وخشاش الأرض ويتسافدون كالبهائم وأما يأجوج ومأجوج فهم يسكنون الزاوية الشرقية الشمالية من الأرض وأرضهم متسعة جداً وهم من سلالة يافث طائفة من الترك وهم أمم لا يحصون كثرة وأشكالا ولغات قلت وبالحقيقة لولا أخبار الله تعالى بهم لما كان لكثير من الناس علم بوجودهم دع عددهم وأشكالهم وأكثر ما يذكر من ذلك ليس عليه أدلة وهم يخرجون على الناس في آخر الزمان بإذن الله تعالى القدري وذلك بعد نزول عيسى ابن مريم كما ذكرنا ذلك مستقصياً في كتابنا «التفسير» وفي «البداية والنهاية» ولله الحمد والمنة.

فصل: وقد تكلم أبو عمرو رحمه الله في هذا الكتاب على اختلاف لغات بني آدم فذكر أن الناس كانوا بعد الطوفان مجتمعين بأرض بابل لغتهم واحدة وهي السريانية إلى زمان فالغ بن عامر بن أرفخشد بن سام بن نوح ثم اجتمع رأيهم على بناء صرح شامخ يكون حصناً لهم من الطوفان والبلاء وكان إبليس هو الذي شادّ بذلك وقد كان يتبدا لهم في صورة ظاهرة ونهاهم فالغ عن ذلك فعصوه وبنوا الصرح من الحجارة والرصاص واللبان والشمع والكلس وكانوا يومئذ اثنين وسبعين بيتاً فأرسل الله على ذلك الصرح سيمة فهدته واطبقت عليهم ظلمة شديدة وهبت عليهم ريح قوية فتفرقوا على ثنتين وسبعين طريقاً وتبلبلت ألستهم على ثنتين وسبعين لغة وصار كل قوم إلى قطر من الأرض يسكنوه وعمروه وذكر أبو عمر تفصيل ذلك ثم ذكر الخلاف في أول من تكلم بالعربية وبالسريانية وأول من كتب قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وذلك يقتضي أنواع اللغات والأسماء والحساب والأيام والشهور والسنين وقد جاءت الآثار بأنه تكلم بالعربية وغيرها قال: وقد روينا أن شيث رثى أباه آدم بقوله: تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح ثم قال وليس هذا من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة إليه وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه.

وقد روي أن كلام أهل الجنة عربي فالله أعلم ثم أسند من طريق محمد بن عبد الرحمن القشيري من بيت المقدس عن محمد بن إسحاق عن شهر بن عبد الرحمن بن تميم عن أبي ذر مرفوعاً: «أول من خطّ بالقلم إدريس».

وروي من طريق من مجالد عن الشعبي قال: أول من كتب من العرب حرب بن أمية بن عبر شمس تعلم ذلك من أهل الحيرة وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار وقال غيره: أول من كتب من العرب عبد بن قصي تعلم ذلك من أهل اليمن ولم يعقب عبد بن قصي فالله أعلم].

ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقد قال البخاري [خ (٣٥١٧)]: باب ذكر قحطان:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه».

وكذا رواه مسلم [م (٢٩١٠)] عن قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد به.

قال السهيلي: وقحطان أول من قيل له: أبيت اللعن وأول من قيل له:

أنعم صباحاً.

وقال الإمام أحمد [٩١/٤]: حدثنا أبو المغيرة عن حريز حدثني راشد بن سعد المقرائي عن أبي حي عن ذي مخبر أن رسول الله ﷺ قال: «كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم فجعله في قريش» (و س ي ع ود إ ل ي هـ م) قال عبد الله: وكذا كان في كتاب أبي مقطع وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء. يعني: وسيعود اليهم.

٢- قِصّة سَبَأ

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩]

قال علماء النسب منهم محمد بن اسحاق [سيرة ابن هشام ١٠/١]: اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا: وكان أول من سبى في العرب فسمي سبأ لذلك. وكان يقال له: الرائش لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه.

قال السهيلي: ويقال: إنه أول من تتوج.

وذكر بعضهم أنه كان مسلماً وكان له شعر بشّر فيه بوجود رسول الله ﷺ فمن ذلك قوله:

سيملكُ بعدنا ملكاً عظيماً	نبي لا يرخّص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوكٌ	يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوكٌ	يصير الملكُ فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي	تقيٌ مُخْبِتٌ خيرُ الأنام
يُسمى أحمداً يا ليتَ أني	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضدُه وأحبوه بنصري	بكل مدجّج وبكلّ رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه	ومَنْ يلقاهُ يُبلغه سلامي

حكاه ابن دحية في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير».

وقال الإمام أحمد [٣١٦/١]: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة السبائي عن عبد الرحمن بن وعلة: سمعت عبد الله بن العباس يقول: إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو؟ ارجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة. فأما اليمانيون: فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير. وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان».

وقد ذكرنا في «التفسير» أن فروة بن مسيك الغطيفي هو السائل عن ذلك كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ولله الحمد.

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن واحدهم تبع وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك وكانت العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تبعاً كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ومن ملك الفرس كسرى ومن ملك مصر فرعون ومن ملك الحبشة النجاشي ومن ملك الهند بطليموس. وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة وثمار وزروع كثيرة وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار.

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبياً [تفسير الطبري: ٧٨/٢٢]. وزعم السدّي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي [الدر المنثور: ١٠٥/٥] فالله أعلم.

والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦]

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم [انظر تفسير الطبري: ٧٩/٢٢] أن سد مأرب كان صنعته أن المياه تجري من بين جبلين فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة وزرعوا الزروع الكثيرة ويقال: كان أول من بناه سبأ بن يعرب وسلط إليه سبعين وادياً يفد إليه وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ومات ولم يكمل بناؤه فكملته حمير بعده وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلئ من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فنائهم [تفسير الطبري: ٧٧/٢٢] كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦].

قال غير واحد [تفسير الطبري: ٨٠/٢٢]: أرسل الله على أصل السد الفار وهو الجرذ ويقال: الخلد. فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لا وزر فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار ومادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار كما قال العزيز الجبار: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو الأراك وثمره البرير وأثل وهو الطرفاء [تفسير الطبري: ٨١/٢٢، ٨٢]. وقيل يشبهه. وهو حطب لا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلاً مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال في المثل: لحم

جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا في غور البلاد ونجدها أيدي سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم الحجاز وهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة وكان من أمرهم ما سنذكره ومنهم المدينة النبوية اليوم فكانوا أول من سكنها ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم وكان من أمرهم ما سنذكره ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم: غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٤/١]: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة وهو ميمون بن قيس:

وفي ذاكَ للمؤتَسي أسوة ومأرب عفى عليها العَرِم
رُخامٌ بَنَتْه لهم حِمير إذا جاءَ مَوّارُه لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسِم
فصاروا أيادِيَ لا يقدرو نَ منه على شُربِ طفلٍ فُطِمْ

وقد ذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٣/١] في كتاب «السيرة» أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي. ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ويقال: لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ. قاله ابن هشام [سيرة ابن هشام ١٢/١]. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٣/١]: وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل في ولده وولد ولده وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالاً ففي ذلك قال عباس بن مرداس:

وعكّ بن عدنانَ الَّذين تلعبوا بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطرد

قال: فارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزل الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مراً ونزلت أزد السراة السراة ونزلت أزد عمان عمان ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات وقد روي عن السدي قريب من هذا [الدر المنثور: ٢٣١/٥، ٢٣٢] وعن محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٨٦/٢٢. وعنده عمران بن عامر بدلاً من عمرو بن عامر] في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً. وقال غيره: كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلط على سدهم ففعلوا ما فعلوا والله أعلم.

وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» [الدر المنثور: ٢٣٢/٥].

فصل:

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد فتفرقوا في البلاد وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس [أحمد: ٣٠٦/١] أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن بل إنما تشاءم منهم أربعة وبقي باليمن ستة وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط نحواً من سبعين سنة ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصلاً قريباً إن شاء الله تعالى: وبه الثقة وعليه التكلان.

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن علياً وخالد بن الوليد ثم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق ﷺ كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى.

٣- قِصّة رَبيعة بن نصر بن اللخمي

كذا ذكره ابن إسحاق [انظر تاريخ الطبري: ١١١/٢] وقال السهيلي [الروض الأنف ١٣٠/١]: ونساب اليمن تقول: نصر بن ربيعة. وهو ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم. وقال الزبير بن بكار: ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ولخم أخو جذام وسمي لخماً لأنه لخم أخاه أي لطمه فعضه الآخر في يده فجذمها فسمي جذاماً.

وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة وخبره من شق وسطيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ أما سطيح فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان وأما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار بن نزار. ومنهم من يقول: أنمار بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

ويقال: إن سطيحاً كان لا أعضاء له وإنما كان مثل السطيحة ووجهه في صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس وكان شق نصف إنسان. ويقال: إن خالد بن عبد الله بن القسري كان من سلالته.

وذكر السُّهيلي [الروض الأنف ١٣٥/١] أنهما ولدا في يوم واحد وكان يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ويقال: إنها تفلت في فم كل منهما فورث الكهانة عنها. وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٥/١ - ١٨]: وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة فرأى رؤيا هالته وفظع بها فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبروني بها وبتأويلها.

فقالوا: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها فقال: إني إن أخبرتكم بهـا لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بهـا فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح فإنـه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه.

فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له: إنـي قـد رأيت رؤيـا هالتني وفظعت بها فأخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها فقال: أفعل رأيت حممة خرجت من ظلمة. فوقعت بأرض تهمة. فأكلت منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: مـا أخطـأت منهـا شيئاً يـا سـطيح فمـا عنـدك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من حنـش لتهبطـن أرضكـم الحبـش. فليملكن ما بين أبين إلى جرش فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنـا لغائظ موجع فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ فقال: لا بل بعده بحـين. أكثر مـن ستين أو سبعين. يمضين من السنين قـال: أفيـدوم ذلـك مـن سلطانهم أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضع وسبعين من السـنين ثـم يقتلـون ويخرجون منها هاربين قال: ومن يلي ذلك مـن قتلهـم وإخراجهـم؟ قـال: يليهم إرم ذي يزن. يخرج عليهم من عدن. فلا يـترك منهـم أحـداً بـاليمن. قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي. يأتيه الوحي من قبل العلـيّ قـال: وممـن هـذا النـبي؟ قـال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملـك في قومـه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم يوم يجمـع فيـه الأولـون والآخرون. يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخـبرني؟ قال: نعم. والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق.

قال: ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح وكتمـه مـا قـال سـطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان قال: نعم رأيت حممة خرجت من ظلمـة. فوقعـت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة. فلمـا قـال لـه ذلـك عـرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد إلا أن سطيحاً قال: وقعـت بـأرض تهمـة فأكلت منها كل ذات جمجمة. وقال شق: وقعت بين روضة وأكمة فـأكلت منها كل ذات نسمة فقال له الملك: ما أخطأت يا شق منها شيئاً فما عنـدك في تأويلها؟ فقـال: أحلـف بمـا بـين الحرتـين مـن إنسـان. ليـنزلن أرضكـم السودان فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين إلى نجران فقـال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا بل بعـده بزمـان. ثـم يسـتنقذكم منهـم عظيـم ذو شـأن. ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال: غلام ليـس بدنـي ولا مدن يخرج عليهم من بيت ذي يزن. قال: أفيـدوم سـلطانه أم ينقطـع؟ قال بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل من أهـل الديـن والفضـل يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قـال: ومـا يـوم الفصـل؟ قـال: يـوم تُجزى فيه الـولاة يدعـى فيـه مـن السـماء بدعـوات يسـمع منهـا الأحيـاء والأموات ويجمع الناس فيه للميقات يكون فيه لمن اتقى الفـوز والخـيرات. قال: أحق ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض. وما بينهما مـن رفـع وخفض. إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض [سيرة ابن هشام: ١٨/١]. قال ابـن اسحق [سيرة ابن هشام: ١٨/١]: فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق وكتب لهم إلى ملك من ملـوك فـارس يقـال لـه: سابور بن خرزاذ فأسكنهم الحيرة.

قال أبو القاسم السهيلي: ليس في ملـوك الفـرس مـن اسمـه: خـرزاذ فإنهم من ولد أردشير بن بابك وهو أولهم إلى يزجرد يعني ابن شهريار بـن ابرويز بن هرمز بن انوشروان بن قباد وأسماؤهم محفوظة ليـس فيهـم مـن اسمه خرزاذ ولعل أن خرزاذ هذا نائب لهم أو ملك مـن ملـوك الطوائـف فإن زمـان ربيعة بـن نصـر كـان في زمـانهم والله أعلـم. وكـانت ملـوك الطوائف في زمان المسيح وقبله وبعده وكان الذي فرق شملهم اسكندر بن فيلبس المقدوني لما قـدم على دارا بـن دارا وتـزوج ابنتـه مـن بعـد فمـزّق شملهم كيلا ينتظم لواحد منهم أمر فكان كل ملك على طائفة من النـاس على قطر من الأرض منهم عرب ومنهـم فـرس وغيرهم واستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة ثم قام بعدهم بنو ساسان بـن، فكـان أولهـم اردشير وبعده ابنه سابور الذي خرّب الحضر وأخذه [من الساطرون].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩/١]: فمـن بقيـة ولـد ربيعـة بـن نصـر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بـن عـدي بـن ربيعـة بـن نصر يعني الذي كان نائباً على الحيرة للملوك الأكاسرة وكـانت العـرب تفـد إليه وتمتدحه.

وهذا الذي قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سـلالة ربيعة بن نصر، قاله أكثر الناس.

وقد روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢/١] أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر، سأل جبير بن مطعم عنـه: ممـن كان؟ قال: من أشلاء قنص بن معد بن عدنـان. قـال ابـن إسـحاق: فاللـه أعلم أي ذلك كان.

٤- قِصة تُبّع أبي كرب ملك اليمن وكيف أراد غزو البيت الحرام، ثم شرّفه وعظمه

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩/١، ٢٠]: فلما هلك ربيعة بن نصـر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد أبي كرب وتبان أسـعد تبـع الآخر ابن كلكيكرب بن زيد وزيد تبع الأول ابن عمـرو ذي الأذعـار بـن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغـر بـن كعـب - كهف الظلم - بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهـير بـن أنـس بن الهميسع بن العرنجج والعرنجج: هو حمير بن سبأ الأكبر بـن يعـرب بـن يشجب بن قحطان. قال عبد الملك بن هشام: سبأ بن يشـجب بـن يعـرب بن قحطان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠/١]: وتبـان أسـعد أبـو كَـرب هـو الذي قدم المدينة وساق الحبرين من اليهود إلى اليمـن وعمـر البيـت الحـرام وكساه وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر وكـان قـد جعـل طريقـه حـين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة وكان قد مر بها في بدأته فلم يهـج أهلها وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمهـا وهـو مجمـع لإخرابهـا واستئصال أهلها وقطع نخلها فجمع له هذا الحـي مـن الأنصـار ورئيسـهم عمرو بن طلّة أخو بني النجار ثم أحد بني عمرو بن مبذول واسـم مَبْـذول عامر بن مالك بن النجار واسم النجار تيم اللّـه بـن ثعلبـة بـن عمـرو بـن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر.

وقال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢١/١] عمرو بن طلّة هـو عمـرو بـن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار وطلة أمه وهـي بنـت عـامر بن زريق الخزرجية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١/١]: وقد كان رجل من بني عدي

بن النجار يقال له أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عذقاً له فضربه بمنجله فقتله وقال: إنما التمر لمن أبره فزاد تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول: والله إن قومنا لكرام.

وحكى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٣/١] عن الأنصار أن تبعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه.

قال السهيلي [الروض الأنف ١٦١/١]: ويقال: إنه إنما جاء لنصرة الأنصار - أبناء عمه - على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١/١]: فبينا تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة ابن إسحاق: - وقريظة والنضر والحام وعمرو وهو هدل بنو الخزرج بن الصريع بن اليونان بن السبط ابن اليسع بن سعد بن ولاي بن صير بن النحام بن سحوم بن حاذر بن عازار بن هارون بن عمران بن مصعب بن فاهث بن ولاي بن يعقوب وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم بن خليل الرحمن قال: عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فقال لهما: ولم ذلك؟ قالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره فتناهي ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١/١]: وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عسفان وامج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له: أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر غفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال بلى قالوا: بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً. قال: فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذل له حتى تخرج من عنده قال فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك أو كما قالا له فعرف نصحهما وصدق حديثهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأري في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف ثم أري في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل فكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دماً ولا ميتة ولا مثلاة وهي المحايض وجعل له باباً ومفتاحاً ففي ذلك قالت سبيعة بنت الأحب - تذكر ابنها خالد به عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وتنهاه عن البغي بمكة وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها -:

أبـنيَّ لا تَظلِـمْ بمكَّـةَ ... لا الصغيرَ ولا الكبيرَ
واحفَـظْ محارِمَهـا بُـنيَّ ... ولا يغرنْـك الغَـرورُ
أبـنيَّ مَـن يَظلِـمْ بمكـةَ ... يلـقَ أطـراف الشُّـرور
أبـنيَّ يُضـرَبْ وجهُـه ... ويَلُـحْ بخدَّيـهِ السَّـعير
أبني قـد جرَّبتُهـا فوجـدتُ ... ظالمَهـا يَبـور
اللـهُ أمنَهـا ومـا ... بُنيتْ بعَرْصتِهـا قُصـور
واللـهُ أمـنَ طَيرَهـا ... والعصـمُ تـأمَنُ في ثَبـير
ولقـد غَزاهـا تُبَّـع ... فكَسـا بنيتهـا الحبيـر
وأذلَّ ربـي مُلْكَـه ... فيهـا فـأوفى بالنُّذُور
يمشـي إليهـا حافيـاً ... بفنائهـا ألفـا بعيـر
ويظـلُّ يُطعِـمُ أهلَهـا ... لحـمَ المهـارَى والجَـزور
يسقيهمُ العسَـلَ المصفَّـى ... والرحيـضَ مـن الشَّـعير
والفيـلُ أُهلِـكَ جيشُـه ... يُرمـون فيهـا بالصّخور
والملْـك في أقصَـى البـلادِ ... وفي الأعـاجم والخزيـر
فـاسمع اذا حُدِّثْـتَ ... وافهـم كيف عاقبة الأمـور

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٦/١]: ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧/١]: حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي قال: سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله يحدث أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا: لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال: إنه خير من دينكم قالوا: فحاكمنا إلى النار؟ قال: نعم قال: وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينه فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧/١]: وقد حدثني محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا: من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها ودنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وتنكص عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما والله أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧/١]: وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبع: إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه قال: فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمين كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليه.

وقد ذكرنا في «التفسير» الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم» [أحمد ٥/٣٤٠].

قال السهيلي [الروض الأنف ١/١٦٤]: وروى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسا الكعبة»

قال السهيلي [الروض الأنف ١/١٦٣]: وقد قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً:

شَهِدْتُ على أحمدٍ أنه ... نبيٌّ من اللّه باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عم
وجاهدت بالسيف أعداءَه ... وفرّجتُ عن صدره كلَّ هم

قال: ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه.

قال السهيلي [الروض الأنف ١/١٦٣]: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب وفيه: هذا قبر لميس وحُبَّى ابنتي تبع ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبان أسعد وهو أخو اليمامة الزرقاء التي صلبت على باب مدينة جو فسميت من يومئذ اليمامة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٨]: فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم فكلموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه في جيشه فقالوا له: اقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذارُعَيْن الحميري فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان:

ألا مَن يشتري سَهَراً بنوم ... سعيدٌ مَن يبيتُ قريرَ عَين
فأما حِميرٌ غدرتْ وخانَت ... فمعذرةُ الإله لِذي رُعَين

ثم استودعها عمراً. فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فسأل الأطباء والحزاة من الكهان والعرافين عما به فقيل له: إنه واللّه ما قتل رجل اخاه قط أو ذا رحمه بغياً إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه فلما خلص إلى ذي رعين قال له: إن لي عندك براءة قال: وما هي؟ قال: الكتاب الذي دفعته إليك فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا.

٥- وثوب لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٢٩ - ٣١. وتاريخ الطبري ٢/١١٧ - ١١٩]: فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له: لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم وكان مع ذلك امرءاً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ مسواكاً فجعله في فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه حتى بعث إلى زرعة ذي نواس بن تبان أسعد أخي حسان وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ثم شب غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه فأخذ سكيناً حديداً لطيفاً فخبأه بين قدميه ونعله ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ثم حز رأسه فوضعه في الكوة التي كان يشرف منها ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس فقالوا له: ذا نواس أرطب أم يباس؟ فقال سل نخماس [سيرة ابن هشام: ١/٣١].

استرطبان ذو نواس استرطبان لا باس [الروض الأنف ١/١٩٠، ١٩١] فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لخنيعة مقطوع فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه فقالوا: ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه عليهم واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمّى يوسف فأقام في ملكه زماناً، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام على الإنجيل أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له: عبد اللّه بن الثامر.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٣١ - ٣٤. تاريخ الطبري ٢/١١٩ - ١٢١] سبب دخول أهل نجران في دين النصارى وأن ذلك كان على يدي رجل يقال له: فيميون كان من عباد النصارى بأطراف الشام وكان مجاب الدعوة وصحبه رجل يقال له: صالح فكانا يتعبدان يوم الأحد ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء وكان يدعو للمرضى والزمنى وأهل العاهات فيشفون ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب فباعوهما بنجران فكان الذي اشترى فيميون يراه إذا قام في مصلاه بالبيت الذي هو فيه - في الليل - يمتلئ عليه البيت نوراً فأعجبه ذلك من أمره وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلي نسائهم ويعكفون عندها فقال فيميون لسيده: أرأيت إن دعوت اللّه على هذه الشجرة فهلكت أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل؟ قال: نعم فجمع له أهل نجران وقام فيميون إلى مصلاه فدعا اللّه عليها فأرسل اللّه عليها قاصفاً فجعفها من أصلها ورماها إلى الأرض فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤ - ٣٦. وتاريخ الطبري ٢/١٢١ - ١٣٢] قصة عبد اللّه بن الثامر حين تنصر على يدي فيميون وكيف قتله وأصحابه ذو نواس وخدّ لهم الأخدود - وقال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ١/٣٦]: وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق - وأجج فيه النار وحرقهم بها وقتل آخرين حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل وكما هو مستقصى في تفسير سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ من كتابنا «التفسير» وللّه الحمد.

٦- ذكر خروج الملك باليمن من حمير وصيرورته إلى الحبشة السودان

كما أخبر بذلك شِق وسَطيح الكاهنان وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له: دوس ذو ثعلبان [سيرة ابن هشام ١/٣٧. وتاريخ الطبري ٢/١٢٤، ١٢٥] على فرس له، فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس

وجنوده وأخبره بما بلغ منهم، وذلك لأنه نصراني على دينهم. فقال له: بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك. فكتب إليه يامره بنصره والطلب بثأره. فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له: أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن. فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمرة فادخله فيها فكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن وملكها.

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة [سيرة ابن هشام ٣٨/١ - ٤٠. وتاريخ الطبري ١٢٥/٢ - ١٢٧] وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة وبالله المستعان.

٧- ذكرخروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤١/١، ٤٢. وتاريخ الطبري ١٢٨/٢ - ١٣٠]: فأقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ثم نازعة أبرهة حتى تفرقت الحبشة عليهما. فانحاز إلى كل منهما طائفة ثم سار أحدهما إلى الآخر. فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط: إنك لا تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً، فابرز لي وأبرز لك فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط: أنصفت فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيماً وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حربة له. وخلف أبرهة غلام يقال له: عتودة يمنع ظهره فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهه يريد يافوخه. فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمي أبرهة الأشرم. وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله. وانصرف جند أرياط إلى أبرهة. فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى أبرهة أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشي - ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن - غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ثم كتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك وكل طاعته لك إلا أنني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه. وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فيَّ. فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري فأقام أبرهة باليمن.

٨- ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة

كما قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

قيل: أول من ذلل الفيلة أفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحاك. قاله الطبري وهو أول من اتخذ للخيل السروج [تاريخ الطبري: ٢١٤/١]. وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ويقال إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام [الروض الأنف ٢٩١/١] ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم.

ويقال: إن الفيل مع عظم خلقه يفرق من الهر [الأوائل لأبي هلال العسكري ١٨٢/٢]. وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود بإحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة [الروض الأنف ٢٩١/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤٣/١. وتاريخ الطبري ١٣٠/٢]: ثم إن أبرهة بنى القُلَّيس بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها - في زمانها - بشيء من الأرض ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السهيلي [الروض الأنف ٢٤٥/١ - ٢٤٧] أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعا من السخر. وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة. وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة. وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من تعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء. وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين، كعيب وامرأته، وكان طول كل منهما ستون ذراعا. فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤٣/١. وتاريخ الطبري ١٣٠/٢]: فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤٥/١ - ٤٧. وتاريخ الطبري ١٣٠/٢ - ١٣٢]: فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيه أي أحدث حيث لا يراه احد ثم خرج فلحق بارضه فاخبر أبرهة بذلك. فقال: من صنع هذا. فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيه اي أنه ليس لذلك بأهل. فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فاعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض

له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم وهما: شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم - شهران وناهس - بالسمع والطاعة. فخلى سبيله وخرج به معه يدله. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف. وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧/١]: واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال: فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس. فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس [تاريخ الطبري: ١٣٢/٢]. وقد تقدم في قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلاً منهم وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه «وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب» فحفروا فوجدوهما قال: وهو أبو ثقيف.

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله أعلم.

وقد قال جرير:

إذا مات الفرزدقُ فارجموه ... كرجمكمُ لقبرِ أبي رُغَالِ

الظاهر أنه الثاني.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤٨/١ - ٥٠. وتاريخ الطبري ١٣٢/٢ - ١٣٤]: فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة. فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها - فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه فقال له حناطة: فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً، حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي. فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. قال أفعل. فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال فأذن له عليك فليكلمك في حاجته فأذن له أبرهة.

قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه قل له: حاجتك. فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٠/١، ٥١. وتاريخ الطبري ١٣٤/٢، ١٣٥]: ويقال: إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. وقال عبد المطلب - وهو آخذ بحلقة باب الكعبة -:

لاهُمَّ إنَّ العبدَ يمـ ... ـنع رَحْلَه فامنَعْ حلالك

لا يَغلبنَّ صليبُهم ... ومحالُهم غدْواً محالَك

إن كنتَ تاركَهم وقبلتَنا ... فأمرٌ ما بدا لك

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٥١/١]: هذا ما صح له منها. وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٢/١، ٥٣. وتاريخ الطبري ١٣٥/٢، ١٣٦]: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبّى جيشه، وكان اسم الفيل محموداً فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت. فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه. فبرك الفيل.

قال السهيلي [الروض الأنف ٢٦٩/١]: أي سقط إلى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك وقد قيل: إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك.

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل

طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا. ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل في ذلك:

ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَينا ... نَعِمْناكم مع الإصباحِ عَيْنا
ردينةُ لو رأيتِ فلا تَرَيه ... لدى جنبِ المحصَّبِ ما رأينا
إذن لعذرْتِني وحمِدتِ أمري ... ولم تأسي على ما فاتَ بينا
حَمِدتُ اللّه إذْ أبصرتُ طيراً ... وخِفتُ حجارةً تُلقَى علَينا
وكلُّ القومِ يسألُ عن نفيلٍ ... كأنَّ عليَّ للحُبْشانِ دَيْنا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٤/١. وتاريخ الطبري ١٣٦/٢، ١٣٧]: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مِدَّة تَمِثُ قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٤/١. وتاريخ الطبري ١٣٦/٢، ١٣٧. وتفسيره ٣٠٣/٣٠]: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رئي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٤/١، ٥٥]: فلما بعث اللّه محمداً ﷺ كان مما يعد اللّه على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها [سيرة ابن هشام ٥٥/١ - ٥٧] وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا «التفسير» بما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى وله الحمد والمنة.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٥٥/١]: الأبابيل: الجماعات ولم يتكلم العرب بواحد علمناه. قال: وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب.

قال: وزعم بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وأنها «سنج» و«جِلّ» فالسنج: الحجر والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين. قال: والعصف ورق الزرع الذي لم يقصب.

وقال الكسائي [تفسير الطبري: ٢٩٦/٣٠]: سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل إبيل وقال كثير من السلف [تفسير الطبري: ٢٩٧/٣٠. دلائل النبوة للبيهقي ١٢٣/١]: الأبابيل الفرق من الطير التي يتبع بعضها بعضاً من ههنا وههنا.

وعن ابن عباس: كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب.

وعن عكرمة: كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً.

وقال عبيد بن عمير: كانت سوداء بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة. وعن ابن عباس: كانت أشكالها كعنقاء مغرب وعن ابن عباس [الروض الأنف ٢٧٠/١]: كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ومنها ما هو كالإبل.

وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق وقيل: كانت صغاراً واللّه أعلم.

وقال ابن أبي حاتم [الدر المنثور: ٣٩٥/٦]: حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد اللّه بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد اللّه بن عمير قال: لما أراد اللّه أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزّعة حجرين في رجليه وحجراً في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها. فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره. ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر. وبعث اللّه ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال: وليس كلهم أصابته الحجارة يعني: بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال. وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه اللّه.

وروى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٧/١. ودلائل النبوة للبيهقي ١٢٥/١]: قال: حدثني عبد اللّه بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيساً فأما قائده فلم يُسمَّ واللّه أعلم.

وذكر النقاش في «تفسيره» أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر [الروض الأنف ٢٧٠/١]. قال السهيلي [الروض الأنف ٢٧٠/١]: وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين.

قلت: وفي عامها ولد رسول اللّه ﷺ على المشهور. وقيل: كان قبل مولده بسنين [تفسير القرطبي: ١٩٤/٢٠، ١٩٥] كما سنذكر إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٥٧/١ - ٦١] ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر اللّه فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب من مشركي قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ.

فمن ذلك ما قاله عبد اللّه بن الزبعري السهمي:

فتنكّلوا عن بطنِ مكّةَ إنها ... كانت قديماً لا يُرام حَرِيمُها
لم تُخلَقِ الشِّعرى ليالِيَ حُرِّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنامِ يرومها
سائلْ أميرَ الجيشِ عنها ما رأى ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها
ستّون ألفاً لم يؤوبوا أرضَهم ... بلْ لم يعشْ بعدَ الإيابِ سَقيمُها
كانتْ بها عادٌ وجُرهم قبلَهم ... واللّهُ من فوقِ العبادِ يُقيمها

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني:

ومنْ صُنعهِ يومَ فيلِ الحُبو ... شِ إذْ كلمّا بعثُوه رَزَم
محاجنُهم تحتَ أقرابِه ... وقدْ شَرَّموا أنفَه فانخرَم
وقدْ جعلوا سوْطَه مِغْولاً ... إذا يَمَّمُوه قَفاهُ كُلِم
فولّى وأدْبَر أدراجَه ... وقدْ باءَ بالظلم مَن كان ثَمّ

فأرسل من فوقهم حاصباً فلفّهم مثل لفّ القُزُم
تحضّ على الصّبر أحبارُهم وقد ثأجوا كثُؤاج الغَنَم

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي - قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٦٠/١]: ويروى لأمية ابن أبي الصلت:

إن آياتِ ربّنا ثاقبات ما يُماري فيهنّ إلا الكَفُور
خَلق الليلَ والنهارَ فكلٌّ مستبينٌ حسابُهُ مقدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم بمهاةٍ شعاعها منشور
حبسَ الفيلَ بالمغمّس حتى صار يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجِران كما قُطِّر من صخرِ كبكبٍ محدوسر
حولَه من ملوك كِندة أبطال ملاويث في الحروب صقور
خلّفوه ثم ابذعرُّوا جميعاً كلهم عَظْمُ ساقه مكسور
كل دينٍ يومَ القيامة عند اللّه إلا دينَ الحنيفةِ بُورُ

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت أيضاً:

فقوموا فَصلّوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمُ منهُ بلاء مصدّق غداة أبي يكسومَ هادي الكتائب
كتيبته بالسهلِ تُمسي ورَجلُهُ على القاذفاتِ في رؤوسِ المناقب
فلما أتاكم نصر ذِي العرش ردهم جنود المليكِ بين سافٍ وحاصبِ
فولوا سِراعاً هاربين ولم يَؤُب إلى أهله مِلْحَبْش غيرُ عصائبِ

ومن ذلك قول عبيد اللّه بن قيس الرقيات [ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ص١٩٢] في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء:

كاده الأشرم الذي جاء بالفيـ ـلِ فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجنـ ـدَلِ حتى كأنه مرجوم
ذاك مَنْ يغزه من الناس يرجع وهو فلٌّ من الجيوشِ ذميم

قال ابن إسحاق وغيره [سيرة ابن هشام ٦١/١، ٦٢. تاريخ الطبري ١٣٩/٢، ١٤٢]: فلما هلك أبرهة ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم. ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم. وهو الذي انتزع سيف بن ذي يزن الحميري الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسرى أنو شروان كما سيأتي بيانه.

وكانت قصة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين وهو الثاني إسكندر بن فلبس المقدوني الذي يؤرخ له الروم ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن هجر القليس الذي كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله وقلة عقله. وأصبح يباباً لا أنيس به. وكان قد بناه على صنمين وهما كعيب وامرأته وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء وكانا مصحوبين من الجان ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شيء من بناء القليس وأمتعته إلا أصابوه بسوء. فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح أول خلفاء بني العباس فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن فبعث إليه من خربه حجراً حجراً وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل هكذا ذكره السهيلي [الروض الأنف ٢٤٦/١، ٢٤٧] واللّه أعلم.

٩- ذكرخروج المُلْكِ عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن

قال محمد بن إسحاق رحمه اللّه [سيرة ابن هشام ٦١/١ - ٦٥. تاريخ الطبري ١٣٩/٢ - ١٤٢]: فلما هلك أبرهة ملك الحبشة يكسوم بن أبرهة وبه كان يكني فلما هلك يكسوم ملك اليمن في الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة. قال: فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري - وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج، وهو حميرين سبأ وكان سيف يكنى أبا مرة - حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هو فيه وساله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكه.

فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان: إن لي على كسرى وفادة في كل عام فأقم عندي حتى يكون ذلك ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل العظيم فيما يزعمون يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك، وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا برك هيبةً له.

فلما دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك: إن هذا الأحمق يدخل عليَّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسه. فقيل ذلك لسيف فقال: إنما فعلت هذا لهمي لأنه يضيق عنه كل شيء. ثم قال: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة. قال كسرى: أي الأغربة الحبشة أم السند؟ قال: بل الحبشة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك فقال له كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب لا حاجة لي بذلك، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر ذلك الورق للناس، فبلغ ذلك الملك فقال: إن لهذا لشأناً ثم بعث إليه فقال: عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس! قال وما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة يرغبه فيها، فجمع كسرى مرازبته فقال لهم: ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له؟ فقال قائل: أيها الملك إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم وإن ظفروا كان ملكاً أزددته، فبعث معه كسرى من كان في سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً فخرجوا في ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له: رجلي ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً فقال له وهرز: أنصفت.

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنده فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز فزاده ذلك حنقاً عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم. قال وهرز: أروني ملكهم فقالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء؟ قال:

نعم. قالوا: ذلك ملكهم فقال: اتركوه قال: فوقفوا طويلاً ثم قال: علام هو؟ قالوا: قد تحول على الفرس. قال: اتركوه فتركوه طويلاً ثم قال: علام هو؟ قالوا: على البغلة قال وهرز: بنت الحمار ذل وذل ملكه إني سأرميه فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم فإني قد أخطأت الرجل وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاثوا فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم.

ثم وتر قوسه وكانت - فيما يزعمون - لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه وتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به، وحملت عليهم الفرس وانهزموا فقتلوا وهربوا في كل وجه، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل رايتي منكسة أبداً هدموا هذا الباب فهدم، ثم دخلها ناصباً رايته فقال سيف بن ذي يزن الحميري:

يظن الناسُ بالملكيـ ... ـن أنهما قد التأما
ومن يسمعْ بلأيهما ... فإن الخطب قد فَقِما
قتلنا القَيْلَ مسروقاً ... وروينا الكثيبَ دما
وإن القيلَ قيلَ النا ... سِ وهرزُ مُقسِم قَسَما
يذوق مشعشَعاً حتى ... نفيءَ السبي والنَّعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه. فكان من جملة من وفد عليه قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فبشره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم من أمره [انظر الدلائل لأبي نعيم ١/٩٥ - ٩٩] وسيأتي ذلك مفصلاً في باب البشارات به عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٦٥، ٦٦]: وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي - قال ابن هشام: وتروى لأمية بن أبي الصلت -:

ليطلبِ الوترَ أمثالُ ابن ذي يَزَنٍ ... رَيَّم في البحرِ للأعداءِ أحوالا
يمّمَ قيصرَ لما حانَ رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرةٍ ... من السنين يهين النفسَ والمالا
حتى أتى ببني الأحرارِ يحملهم ... إنك عَمري لقد أسرعتَ قِلقالا
للّه درُّهمُ من عصبةٍ خرجوا ... ما إن أرى لهمُ في الناسِ أمثالا
غُلباً مرازبةً بيضاً أساورةً ... أسداً تُربِّبُ في الغَيضاتِ أشبالا
يرمُون عن سُدُفٍ كأنها غبط ... بزَمْخَرٍ يُعجل المرمي إعجالا
أرسلتَ أُسداً على سود الكلابِ فقد ... أضحى شريدُهم في الأرض فُلالا
فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفقاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
واشربْ هنيئاً فقد شالتْ نعامتهم ... وأسبلِ اليومَ في بُردَيك إسبالا
تلكَ المكارمُ لا قعبانِ من لبنٍ ... شِيباً بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

يقال: إن غمدان قصر باليمن [معجم البلدان ٣/٨١١] بناه يعرب بن قحطان وأكمله بعده واحتله وائلة بن حمير بن سبأ [الروض الأنف ١/٣٠٦] ويقال: كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٦٧، ٦٨]: وقال عدي بن زيد الحميري وكان أحد بني تميم:

ما بعدَ صنعاءَ كان يعمُرها ... ولاة ملكٍ جزْلٍ مَواهبُها
رفَّعها من بنى لذي قَزَعِ الـ ... ـمزْنِ وتندى مسكاً محاربُها
محفوفةً بالجبال دون عرى الـ ... ـكائدِ ما يُرتقى غواربُها
يأنس فيها صوتُ النهام إذا ... جاوبَها بالعشي قاصبها
ساقتْ إليها الأسبابُ جندَ بني الأحـ ... ـرارِ فرسانُها مواكبُها
وفوِّزتْ بالبغال توسَقُ بالحتـ ... ـفِ وتسعى بها توالبُها
حتى رآها الأقوالُ من طرفِ المـ ... ـنقل مخضرةً كتائبها
يومَ ينادون آل بربر والـ ... ـيكسومَ لا يفلحنْ هاربُها
فكان يوماً باقي الحديثِ وزالتْ ... إمةُ ثابتٌ مراتبها
وبُدّل الفَيْجُ بالزرافة والـ ... أيام خُونٌ جَمٌّ عجائبُها
بعدَ بني تُبَّعٍ نخاورةٌ ... قد اطمأنّتْ بها مَرازبها

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/٦٨]: وهذا الذي عنى سطيح بقوله: يليه إرم ذي يزن يخرج عليهم من عدن، فلايترك منهم أحداً باليمن. والذي عنى شِقٌّ بقوله: غلام ليس بدني ولا مُدَنّ يخرج من بيت ذي يزن.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٦٨، ٦٩]: وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم. وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة: أرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق ابن أبرهة.

١٠ - ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/٦٩]: ثم مات وهرز فأمّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان ثم مات فأمر ابن التينجان، ثم عزله عن اليمن وأمر عليها باذان وفي زمنه بعث رسول الله ﷺ.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/٦٩]: فبلغني عن الزهري أنه قال: كتب كسرى إلى باذان: إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلي برأسه، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ «إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا وكذا من شهر كذا».

فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر وقال: إن كان نبياً فسيكون ما قال فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/٦٩]: على يدي ابنه شيرويه.

قلت: وقال بعضهم: بنوه تمالئوا على قتله، وكسرى هذا هو أبرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباز، وهو الذي غلب الروم [الروض الأنف ١/٣٠٠، ٣١٥] في قوله تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ كما سيأتي بيانه.

قال السهيلي [الروض الأنف ١/٣١٥]: وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادي الأولى سنة تسع من الهجرة. وكان والله أعلم لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فغضب ومزق كتابه كتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال. وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال

لرسول باذان «إن ربي قد قتل الليلة ربك» [أحمد ٤٣/٥] فكان كما قال رسول الله ﷺ، قتل تلك الليلة بعينها، قتله بنوه لظلمه بعد عدله، بعد ما خلعوه وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه إلا ستة أشهر أو دونها. وفي هذا يقول خالد بن حق الشيباني:

وكسري إذ تقسّمه بنوه ... بأسياف كما اقتُسم اللحام
تمخضت المنون له بيوم ... أنى ولكل حاملةٍ تمام

قال الزهري: فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل: إلى من نحن يا رسول الله. قال «أنتم منا وإلينا أهل البيت». قال: الزهري ومن ثم قال رسول الله ﷺ «سلمان منا أهل البيت» [الحاكم في المستدرك ٥٩٨/٣. والبيهقي في الدلائل ٤١٨/٣، والطبري في المعجم الكبير (٦٠٤٠)].

قلت: والظاهر أن هذا كان بعدما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عز وجل، فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل. ودانت اليمن وأهلها للإسلام ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبأ وأخذ زوجته - كما سيأتي بيانه - وأجلى عن اليمن نواب رسول الله ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها.

وقال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٧٠/١]: وهذا هو الذي عنى به سطيح بقوله: نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي. والذي عنى شق بقوله: بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٠/١]: وكان في حجر باليمن فيما يزعمون كتاب بالزبور كتب بالزمان الأول: لمن ملك ذمار؟ لحِمْيرَ الأخيار؟ لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار؟ لمن ملك ذمار؟ لفارس الأحرار؟ لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار. وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي [مروج الذهب ٦٣/٢]:

حين شيدت ذِمارٌ قيلَ لمنْ أنتِ ... فقالت لحِمْيَرَ الأخيار
ثم سيلت من بعدِ ذاك فقالت ... أنا للحُبْشِ أخبثِ الأشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنتِ ... فقالت لفارسِ الأحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنت ... فقالت إلى قريش التجار

ويقال: إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار. ويقال: كان مكتوباً على منبر هود أيضاً وهو من كلامه عليه السلام حكاه السهيلي [الروض الأنف ٣٢١/١] والله أعلم.

١١- قصّة الساطرون صاحب الحَضْر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام [سيرة ابن هشام ٧١/١ - ٧٣] لأجل ما قاله بعض علماء النسب: إن النعمان بن المنذر الذي تقدم ذكره في ورود سيف بن ذي يزن عليه وسؤاله في مساعدته في رد ملك اليمن إليه إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضر وقد قدمنا عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٩/١] أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر وأنه روى عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قُنُص بن معد بن عدنان فهذه ثلاثة أقوال في نسبه. فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر. والحضر: حصن عظيم بناه هذا الملك وهو الساطرون على حافة الفرات وهو منيف مرتفع البناء، واسع الرحبة والفناء، دوروه بقدر مدينة عظيمة وهو في غاية الإحكام والبهاء والحسن والسناء، وإليه يجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء. واسم الساطرون الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم من بني سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة كذا نسبه ابن الكلبي. وقال غيره: كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٧١/١]: وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحضر. وقال غير ابن هشام [الروض الأنف ١٤٥/١، ٣٢٨]: إنما الذي غزا صاحب الحضر سابور بن أزدشير بن بابك أول ملوك بني ساسان أذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكاسرة. وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم ذكره السهيلي.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٧١/١]: فحصره سنتين وقال غيره: أربع سنين، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور في غيبته بأرض العراق فأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها النضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جيلاً، فدست إليه: أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال: نعم. فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب. ويقال: بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه إلى الحضر، ويقال: بل دلتهم على طلسم كان في الحضر وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ففعل ذلك فانفتح الباب، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس. فقال لها سابور: أهذا الذي أسهرك؟ قالت: نعم. قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني المخ ويسقيني الخمر. قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنت إلي بذلك أسرع ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها. ففيه يقول أعشى بن ثعلبة [ديوان الأعشى ص٤٣، سيرة ابن هشام ٧٢/١، الروض الأنف ٣٣٥/١]:

ألم تَرَ للحضْر إذْ أهلُه ... بنعمى وهل خالد مَن نَعِم
أقامَ به شاهبورُ الجنو ... دَ حولَين تضربُ فيه القُدُم
فلمّا دعا ربّه دعوةً ... أنابَ إليه فلم ينتقم
فهل زادَه ربه قوةً ... ومثل مجاوره لم يُقِم
وكانَ دعا قومَه دعوةً ... هلموا إلى أمركم قد صُرم
فموتوا كِراماً بأسيافكم ... أرى الموتَ يجشَمه من جَشِم

وقال عدي بن زيد في ذلك [سيرة ابن هشام ٧٣/١]:

والحضر صابت عليه داهية ... من فوقه أيد مناكبها
ربيّة لم توق والدَها ... لحينها إذ أضاعَ راقبها

إذ غبقتــه صهبــاء صافيــة ... والخمــر وَهْــلٌ يَهيــم شــاربُها
فاســلمتْ أهلَهــا بليلتهــا ... تظــنّ أن الرئيــسَ خاطبُهــا
فكانَ حظَّ العروسِ إذ جشَرَ الـ ... ـصبح دمــاء تجــري ســبائبها
وخُــرِّبَ الحضــر واســتبيح وقــد ... أُحــرقَ في خدرهــا مشــاجبُها

وقال عدي بن زيد [الروض الأنف ٣٣٢/١] أيضاً:

أيهــا الشــامت المعــيِّر بالدهر ... أأنــت المــبرَّأ الموفــور
أم لديــك العهــد الوثيــق مــن الأ ... يام بــل أنــت جاهــل مغــرور
مــن رأيــت المنــون خلَّــدن أم مــن ... ذا عليــه مــن أن يضــام خفــير
أيــن كسرى كسرى الملوك أنوشــروان ... أم أيــن قبلــه ســابور
وبنــو الأصفــر الكــرام ملــوك الــروم ... لم يبــقَ منهــم مذكــور
وأخــو الحضــر إذ بنــاه وإذ دجلــة ... تُجبــى إليــه والخــابور
شــاده مرمــراً وجلَّلــه ... كلســاً فللطــير في ذراه وكــور
لم يهبــه ريــبُ المنــون فبــا ... نَ الملــك عنــه فبابــه مهجــور
وتذكّــر ربُّ الخورنــق إذ ... أشــرف يومــاً وللهــدى تفكــير
ســرَّه مالُــه وكــثرة مــا يملــك ... والبحــر مُعْرِضــاً والســدير
فــارعوى قلبــه وقــال ومــا غِبْطــة ... حــيٍّ إلى المــمات يصــير
ثــم أضحَــوا كــأنهم ورق جــف ... فــألْوت بــه الصبَــا والدبــور

قلت: ورب الخورنق الذي ذكره في شعره رجل من الملوك المتقدمين وعظه بعض علماء زمانه في أمره الذي كان قد أسرف فيه وعتا وتمرد فيه وأتبع نفسه هواها ولم يراقب فيها مولاها فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد وأنه ما صار إليه عن غيره إلا وهو منتقل عنه إلى من بعده، فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه، وفكر في يومه وأمسه، وخاف من ضيق رمسه. فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس زي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات وعصيان رب السماوات.

وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسي رحمه الله في كتاب «التوابين» [٣٩ - ٤٢] وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب «الروض الأنف» [٣٢٩/١ - ٣٣٢] المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين.

١٢- خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر وهو ساطرون فقد تقدم أنه كان مقدماً علىٰ سائر ملوك الطوائف وكان من زمن إسكندر بن فيلبس المقدوني اليوناني وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذل مملكته وخرب بلاده واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزق شمل الفرس شذر مذر عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ولا يلتئم لهم أمر فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها فاستمر كل ملك منهم يحمي حوزته ويحفظ حصته ويستغل محلته فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة حتى كان أزدشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمتها إليه وأزال ممالك ملوك الطوائف ولم يبق منهم تالد ولا طارف وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم إذ كان رئيسهم ومقدمهم فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور فحاصره حتى أخذه كما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٣- باب ذكر بني إسماعيل وما كان من أمور الجاهلية الى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فأسكنهما بوادي مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس وكان إسماعيل رضيعاً ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر ووكاء فيه ماء فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زمزم التي هي طعام طعم وشفاء سقم كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري رحمه الله.

ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به فاستأنست هاجر بهم وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين يقال: إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه ثم لما ترعرع الغلام وشب وبلغ مع أبيه السعي كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ثم فارقها وتزوج غيرها وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وجاءته بالبنين الاثني عشر كما تقدم ذكرهم وهم: نابت، وقيذر، وادبل، وميشا، ومسمع، وماشي، ودما، وأذر، ويطور، ونبش، وطيما، وقيذما. هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره [سيرة ابن هشام ٤/١، ٥. تاريخ الطبري ٣١٤/١. طبقات ابن سعد ٥١/١] عن كتب أهل الكتاب وله ابنة واحدة اسمها نسمة وهي التي زوجها من ابن أخيه العيص بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم واليونان والأشبان أيضاً في أحد القولين.

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل [سيرة ابن هشام ١١١/١] وهو ابن أخت الجرهميين، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هين بن نبت بن جرهم.

وجرهم بن قحطان ويقال: جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الجرهمي. وكان نازلاً بأعلى مكة بقعيقعان وكان السميدع سيد قطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً إلى مكة. ثم وقع بين جرهم وقطوراء فاقتتلوا فقتل السميدع واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذلك لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام [سيرة ابن هشام ١١٢/١، ١١٣].

ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث ثم إلى عمرو بن الحارث ثم بغت

جرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكر أن رجلاً منهم يقال له: إساف بن بغي وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة فكان منه إليها الفاحشة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عُبدا من دون الله في زمن خزاعة كما سيأتي بيانه في موضعه. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما: إساف ونائلة.

فلما كثرت جرهم البغي بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم. وقيل: إن خزاعة من بني إسماعيل فالله أعلم.

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان وأجلوهم عن البيت فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي - وهو سيدهم - إلى غزالي الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن - وهو الحجر الأسود - وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها في زمزم وعلم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن. وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض:

وقائلةٍ والدمعُ سكْبٌ مبادر ... وقد شرقَتْ بالدمع منها المحاجر
كأنْ لم يكن بين الحجُون إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يسمُر بمكّة سامر
فقلتُ لها والقلبُ مني كأنما ... يُلجلجُه بين الجناحَيْن طائر
بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثر
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابتٍ ... نَطوفُ بذاك البيت والخيرُ ظاهر
ونحن ولينا البيتَ من بعد نابتٍ ... بعزٍّ فما يحظَى لدينا المُكاثر
ملَكنا فعززنا فأعظمْ بمُلْكنا ... فليس لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخر
ألم تُنكحوا من خير شخصٍ علمتُه ... فأبناؤه منا ونحنُ الأصاهر
فإن تنثني الدنيا علينا بحالها ... فإنَّ لها حالاً وفيها التشاجر
فأخرجَنا منها المليكُ بقدرةٍ ... كذلك يا للناسِ تجري المقادر
أقولُ إذا نام الخليُّ ولم أنم ... أذا العرشِ لا يبعد سهيلٌ وعامر
وبُدِّلتُ منها أوجُهاً لا أحبها ... قبائل منها حِمْيرٌ ويحابر
وصرْنا أحاديثاً وكُنّا بغبطةٍ ... بذلك عضَّتْنا السنونُ الغوابر
فسحَّتْ دموعُ العين تبكي لبلدةٍ ... بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعر
وتبكي لبيت ليس يؤذَى حَمامه ... يظلّ به أمناً وفيه العصافر
وفيه وحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ ... إذا خرجت منه فليست تغادر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١١٦]: وقال عمرو بن الحارث بن مضاض - أيضاً - يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة:

يا أيها الناسُ سيروا إن قَصرَكم ... أن تصبحوا ذاتَ يوم لا تسيرونا
حُثوا المطيَّ وأرخوا من أزمَّتها ... قبلَ المماتِ وقضّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيَّر ... نا دهر فأنتم كما صرنا تصيرونا

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/١١٦]: هذا ما صح له منها وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يسم قائلها.

وذكر السهيلي [الروض الأنف ٢/٢٦] لهذه الأبيات إخوة وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة. قال: وزاد أبو الوليد الأزرقي في كتابه «فضائل مكة» على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض:

قد مالَ دهرٌ علينا ثم أهلكَنا ... بالبغي فينا وبزَّ الناسَ ناسونا
إن التفكر لا يجدي بصاحبه ... عند البديهة في علم له دونا
قضوا أموركم بالحزم إن لها ... أمور رشد رشدتم ثم مسنونا
واستخبروا في صنيع الناس قبلَكم ... كما استبانَ طريقٌ عنده الهونا
كنا زماناً ملوكَ الناس قبلَكم ... بمسكنٍ في حَرامِ الله مسكونا

١٤- قصّة خزاعة وخبر عمرو بن لُحي وعبادة العرب للأصنام

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١١٧]: ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مناة، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني وقريش إذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة.

قالوا [سيرة ابن هشام ١/٩١، ٩٢]: وإنما سميت خزاعة خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به. قال عون بن أيوب الأنصاري ثم الخزرجي في ذلك:

فلمّا هبطْنا بطنَ مرٍّ تخزّعت ... خُزاعةُ منّا في حلولٍ كراكر
حمتْ كل وادٍ من تِهامةَ واحتمت ... بصُمّ القَنا والمرهَفاتِ البواتر

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي:

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت ... خزاعةُ دارَ الآكل المتحامل
فحلت أكاريساً وشتّت قنابلا ... على كل حيٍّ بين نجد وساحل
نفَوا جرهماً عن بطن مكّة واحتَبوا ... بعزٍّ خزاعيٍّ شديدِ الكواهل

فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي الذي تزوج قصي بن كلاب ابنته حُبّى فولدت له بنيه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبداً، ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة وقيل: خمسمائة سنة والله أعلم. وكانوا مشؤومين في ولايتهم وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي لعنه الله فإنه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مال جزيل جداً. يقال: إنه فقأ أعين عشرين بعيراً وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها لأنه يدفع بذلك العين عنها. وممن ذكر ذلك الأزرقي [أخبار مكة ص٥٨] وذكر السهيلي [الروض الأنف ١/٣٥٧]: أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق. قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع

المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٧٧/١]: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال: ولد عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٧/١]: ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه.

وفي «صحيح البخاري» [٤٣٧٦] عن أبي رجاء العطاردي. قال: كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٧/١، ٧٨]: واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده. يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] أي: ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي.

وقد ذكر السهيلي [الروض الأنف ٣٥٧/١، ٣٥٨] وغيره: أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك.

وثبت في «الصحيح» [م (١١٨٥)] أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون: لبيك لا شريك لك يقول: «قد قد» أي حسب حسب.

وقد قال البخاري [خ (٣٥٢٠)]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عمرو بن لُحَيِّ بن قَمَعَةَ بن خندف أبو خزاعة». تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال عبد الله بن أحمد [أحمد ٤٤٦/١]: قرأت على أبي؛ حدثك عمرو بن مُجَمِّع، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام، أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجر أمعاءه في النار». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وهذا يقتضي أن عمرو بن لحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكمالها كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩١/١] وغيره ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك بل كالنص ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه فقال البخاري [خ (٣٥٢١)]: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري. قال: سمعت سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة، التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة. قال النبي ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار. كان أول من سيب السوائب».

وهكذا رواه البخاري [٤٦٢٣] أيضاً ومسلم [٢٨٥٦] من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به. ثم قال البخاري: ورواه ابن الهاد عن الزهري.

قال الحاكم [تحفة الأشراف ٣٢/١٠]: أراد البخاري: ورواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا قال.

وقد رواه أحمد [٣٦٦/٢] عن عمرو بن سلمة الخزاعي عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت عمرو بن عامر يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة». ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم فالله أعلم.

وقال أحمد أيضاً [٢٧٥/٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وهو أول من سيب السوائب». وهذا منقطع من هذا الوجه. والصحيح: الزهري عن سعيد عنه كما تقدم.

وقوله في هذا الحديث والذي قبله: الخزاعي يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسب إليها مع ما وقع في الرواية من قوله: أبو خزاعة تصحيف من الراوي من: أخي خزاعة أو أنه كان يكنى بأبي خزاعة ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٦/١]: حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: «يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه». فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله قال: «لا إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي». ليس في الكتب من هذا الوجه.

وقد رواه ابن جرير [تفسير الطبري: ٨٧/٧] عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله وليس في الكتب أيضاً.

وقال البخاري [(٤٦٢٤)]: حدثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب». تفرد به البخاري.

وروى الطبراني [المعجم الكبير (١٠٨٠٨)] من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك.

والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً بيناً فظيعاً شنيعاً وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَالٌ وَهَـٰذَا

حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً وبينا اختلاف السلف في تفسير ذلك. فمن أراده فليأخذه من ثم ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَقَالُواْ هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ. وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

قال البخاري في «صحيحه» [خ (٣٥٢٤)]: باب جهل العرب:

حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي قبحه الله مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم وهو كاذب مفتر في ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه بل قد تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له وتحريم الشرك وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ولا دليل صحيح ولا ضعيف واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين وشابهوا قوم نوح وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ولهذا بعث الله إليهم نوحاً وكان أول رسول بعث ينهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه في قصة نوح ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ الآية [نوح: ٢٣-٢٤].

قال ابن عباس: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم [خ (٤٩٢٠)].

وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته ههنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٧٨ - ٨٠] وغيره: ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل فكان وَدٌّ لبني كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكان منصوباً بدومة الجندل وكان سُواع لبني هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكان منصوباً بمكان يقال له: رهاط. وكان يغوث لبني أنعم من طيء ولأهل جرش من مذحج وكان منصوباً بجرش. وكان يعوق منصوباً بأرض همدان من اليمن لبني خيوان بطن من همدان. وكان نسر منصوباً بأرض حمير لقبيلة يقال لهم: ذو الكُلاع.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٨٠، ٨١]: وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له: عميانس يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله فيما يزعمون فما دخل في حق عميانس من حق الله الذي قسموه له تركوه له وما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه وفيهم أنزل الله ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الآية.

قال: وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له: سعد صخرة بفلاة من أرضهم طويلة فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم فلما رأته الإبل وكانت مرعية لا تركب وكان الصنم يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت في كل وجه وغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به ثم قال: لا بارك الله فيك نفرت عليّ إبلي ثم خرج في طلبها فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعدٍ ليجمعَ شملنا ... فشتّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعد
وهل سعدُ إلا صخرةٌ بتنوفةٍ ... من الأرض لا يدعو لغيٍّ ولا رُشْد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٨١]: وكان في دوس صنم لعمرو بن حيمة الدوسي. قال وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له: هبل وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحي لعنه الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٨٢]: واتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما ثم ذكر أنهما كانا رجلاً وامرأة فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين.

ثم قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة أنها قالت: سمعت عائشة تقول: ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله عز وجل حجرين والله أعلم.

وقد قيل [الروض الأنف ١/٣٦٤]: إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها بل مسخهما قبل ذلك فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة فلما كان عمرو بن لحي نقلهما فوضعهما على زمزم وطاف الناس بهما وفي ذلك يقول أبو طالب [سيرة ابن هشام ١/٨٣]:

وحيثُ يُنيخُ الأشعرونَ ركابهم ... بمفضى السيولِ من إسافٍ ونائلِ

وقد ذكر الواقدي [المغازي: ٢/٨٤١]: أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور.

وقد ذكر السهيلي [الروض الأنف ١/٣٧١، ٣٧٢]: أن أجأ وسلمى وهما جبلان بأرض الحجاز إنما سميا باسم رجل اسمه أجأ بن عبد الحي فجر بسلمى بنت حام فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما قال: وكان بين أجأ وسلمى صنم لطيء يقال له: فلس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٨٣]: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله. قال: فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٨٣]: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب،

وتهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها. وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده. فكانت لقريش وبني كنانة العُزّى بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي.

قال [سيرة ابن هشام ٨٣/١، ٨٤]: وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابها بني معتب من ثقيف وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي.

قال [سيرة ابن هشام ٨٥/١]: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد وقد خربها أبو سفيان أيضاً وقيل: علي بن أبي طالب كما سيأتي.

قال [سيرة ابن هشام ٨٦/١]: وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة وكان يقال له [الروض الأنف ٣٧٥/١]: الكعبة اليمانية، ولبيت مكة: الكعبة الشامية وقد خربه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتي.

قال [سيرة ابن هشام ٨٧/١]: وكان فلس لطيء ومن يليها بجبلي طيء بين أجأ وسلمى، وهما جبلان مشهوران كما تقدم.

قال [سيرة ابن هشام ٨٧/١]: وكان رئام بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود.

قال [سيرة ابن هشام ٨٧/١، ٨٨]: وكانت رُضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب:

ولقد شددت على رضاء شدةً ... فتركتُها قفراً بقاع أسحما
وأعان عبد الله في مكروهها ... وبمثل عبد الله أغشى المحرما

ويقال: إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذي يقول:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها ... وعُمِرتُ من عدد السنين مئينا
مائةً حدتْها بعدها مائتان لي ... وازددتُ من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي إلا كما قد فاتنا ... يوم يمرّ وليلة تحدونا

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٨٨/١]: ويروى لزهير بن جناب بن هبل.

قال السهيلي [الروض الأنف ٣٧٨/١]: ومن المعمرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة زهير هذا وعبيد بن شرية ودغفل بن حنظلة النسابة والربيع بن ضبع الفزاري وذو الأصبع العدواني ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان، وكان قد اسودّ شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد انحنائه.

قال [سيرة ابن هشام ٨٨/١]: وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:

بينَ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والبيتِ ذي الشرُفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة [الروض الأنف ٣٨١/١]:

ولقد علمتُ وإنْ تطاولَ بي المدى ... أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوادِ
ماذا أؤمّل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمُ ... ماءُ الفرات يجيء من أطواد
أرض الخورنقِ والسديرِ وبارق ... والبيتِ ذو الكعبات من سَنْداد

جرَت الرياحُ على محلّ ديارهم ... فكأنّما كانوا على ميعاد
وأرى النعيمَ وكلَّ ما يُلهى به ... يوماً يَصيرُ إلى بلى ونَفاد

قال السهيلي [الروض الأنف ٣٨٠/١]: الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده، وبناه رجل يقال له: سنمار في عشرين سنة ولم يُر بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله ففي ذلك يقول الشاعر:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه ... جزاءَ سِنمّار وما كانَ ذا ذنْب
سوى رصْفهِ البنيانَ عشرين حجّةً ... يعدّ عليه بالقراميد والسكب
فلما انتهى البنيانُ يوماً تمامه ... وآضَ كمثل الطود والباذخ الصعْب
رمى بسنّمار على حُقّ رأسه ... وذاك لعمر الله مِن أقبح الخطب

قال السهيلي [الروض الأنف ٣٨١/١]: أنشده الجاحظ في كتاب «الحيوان» [٢٣/١، ٢٤] والسنمار من أسماء القمر.

والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت. لما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه سرايا تخربه وإلى تلك الأصنام من كسرها حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها وعُبد الله وحده لا شريك له كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

١٥ – خبر عدنان جَدّ عرب الحجاز

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة فأكثر ما قيل: أربعون أبا وهو الموجود عند أهل الكتاب أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا على ما سنذكره وقيل: بينهما ثلاثون وقيل: عشرون وقيل: خمسة عشر وقيل: عشرة وقيل: تسعة وقيل: سبعة وقيل: إن أقل ما قيل في ذلك أربعة لما رواه موسى بن يعقوب [تاريخ الطبري ٢٧١/٢. الدلائل للبيهقي ١٧٧/١، ١٧٨] عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَعَدُّ بن عدنان بن أدد بن زند بن يرى بن اعراق الثرى». قالت: أم سلمة: فزند هو الهميسع واليرى هو نبت وأعراق الثرى هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم وإبراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثرى قال الدارقطني [الروض الأنف ٦٧/١]: لا نعرف زنداً إلا في هذا الحديث وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر.

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي [الروض الأنف ٦٧/١ – ٦٩] وغيره [الطبري في تاريخه ٥٥٩/١، ٥٦٠] من الأئمة: مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بختنصر ثنتي عشرة سنة.

وقد ذكر أبوجعفر الطبري وغيره أن الله تعالى أوحى في ذلك الزمان إلى أرمياء بن حلقيا: أن اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أني قد سلطته على العرب وأمر الله أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه النقمة فيهم فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل ففعل أرميا ذلك واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب وكان رخيا كاتب أرمياء قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرمياء فيحفظ نسب معد كذلك والله

أعلم.

ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان.

قال السهيلي [الروض الأنف ٨٣/١، ٨٤]: وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يري ذلك ولم يكرهه كابن إسحاق والبخاري والزبير بن بكار والطبري وغيرهم من العلماء، وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك، وقال له: من أين له علم ذلك؟ فقيل له: فإلى إسماعيل فأنكر ذلك أيضاً. وقال: ومن يخبره به؟ وكره أيضاً أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان هكذا ذكره المعيطي في كتابه.

قال: وقول مالك هذا نحو مما روي عن عروة بن الزبير [الطبقات لابن سعد ٥٨/١] أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل.

وعن ابن عباس أنه قال [الدر المنثور ٧٢/٤ وقد عزاه إلى أبي عبيد وابن المنذر]: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون.

وروي عن ابن عباس [الطبقات لابن سعد ٥٦/١] أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول: كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً والأصح عن ابن مسعود مثله [تفسير الطبري: ١٨٧/١٣].

وقال عمر بن الخطاب: إنما ننتسب إلى عدنان.

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه «الإنباه في معرفة قبائل الرواه»: روى ابن لهيعة عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصاً.

وقال أبو الأسود [الطبقات لابن سعد ٤٨/١]: سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة - وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم - يقول: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم.

قال أبو عمر [الإنباه ص٤٩]: وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قالوا: كذب النسابون.

قال أبو عمر رحمه الله: والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا والمراد: أن من ادعى إحصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها واختلفوا في بعض فروع ذلك.

قال أبو عمر: والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا: عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في «السيرة» [سيرة ابن هشام ٧/١، ٨].

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٨/١]: ويقال: عدنان بن أد يعني: عدنان بن أد بن أدد ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام. وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً لا يتمارى فيها اثنان والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف والأصل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله:

مدحت رسول الله أبغي بمدحه ... وفور حظوظي من كريم المآرب
مدحت امرءاً فاق المديح موحداً ... بأوصافه عن مبعد ومقارب
نبياً تسامى في المشارق نوره ... فلاحت هواديه لأهل المغارب
أتتنا به الأنباء قبل مجيئه ... وشاعت به الأخبار في كل جانب
وأصبحت الكهان تهتف باسمه ... وتنفي به رجم الظنون الكواذب
وأنطقت الأصنام نطقاً تبرأت ... إلى الله فيه من مقال الأكاذب
وقالت لأهل الكفر قولاً مبيناً ... أتاكم نبي من لؤي بن غالب
ورام استراق السمع جن فزيلت ... مقاعدهم منها رجوم الكواكب
هدانا إلى ما لم نكن نهتدي له ... لطول العمى من واضحات المذاهب
وجاء بآيات تبين أنها ... دلائل جبار مثيب معاقب
فمنها انشقاق البدر حين تعممت ... شعوب الضيا منه رؤوس الأخاشب
ومنها نبوع الماء بين بنانه ... وقد عدم الوراد قرب المشارب
فروى به جماً غفيراً وأسلهت ... بأعناقه طوعاً أكف المذانب
وبئر طغت بالماء من مس سهمه ... ومن قبل لم تسمح بمذقة شارب
وضرع مراه فاستدر ولم يكن ... به درة تصغي إلى كف حالب
ونطق فصيح من ذراع مبينة ... لكيد عدو للعداوة ناصب
وإخباره بالأمر من قبل كونه ... وعند بواديه بما في العواقب
ومن تلكم الآيات وحي أتى به ... قريب المآتي مستجم العجائب
تقاصرت الأفكار عنه فلم يطع ... بليغاً ولم يخطر على قلب خاطب
حوى كل علم واحتوى كل حكمة ... وفات مرام المستمر الموارب
أتانا به لا عن روية مرتئ ... ولا صحف مستمل ولا وصف كاتب
يواتيه طوراً في إجابة سائل ... وإفتاء مستفت ووعظ مخاطب
وإتيان برهان وفرض شرائع ... وقص أحاديث ونص مآرب
وتصريف أمثال وتثبيت حجة ... وتعريف ذي جحد وتوقيف كاذب
وفي مجمع النادي وفي حومة الوغى ... وعند حدوث المعضلات الغرائب
فيأتي على ما شئت من طرقاته ... قويم المعاني مستدر الضرائب
يصدق منه البعض بعضاً كأنما ... يلاحظ معناه بعين المراقب
وعجز الورى عن أن يجيئوا بمثل ما ... وصفناه معلوم بطول التجارب
تأبى بعبد الله أكرم والد ... تبلج منه عن كريم المناسب
وشيبة ذي الحمد الذي فخرت به ... قريش على أهل العُلا والمناصب
ومن كان يستسقى الغمام بوجهه ... ويصدر عن آرائه في النوائب
وهاشم الباني مشيد افتخاره ... بغر المساعي وامتنان المواهب
وعبد مناف وهو علم قومه ... اشتطاط الأماني واحتكام الرغائب
وإن قصياً من كريم غراسه ... لفي منهل لم يدن من كف قاضب
به جمع الله القبائل بعدما ... تقسمها نهب الأكف السوالب
وحل كلاب من ذرى المجد معقلاً ... تقاصر عنه كل دان وغائب
ومرة لم يحلل مريرة عزمه ... سفاه سفيه أو محوبة حائب
وكعب علا عن طالب المجد كعبه ... فنال بأدنى السعي أعلى المراتب
وألوى لؤي بالعداة فطوعت ... له همم الشم الأنوف الأغالب

وفي غالب بأس أبي البأس دونهم ... يدافع عنهم كل قرن مغالب
وكانت لفهر في قريش خطابة ... يعوذ بها عند اشتجار المخاطب
وما زال منهم مالك خير مالك ... وأكرم مصحوب وأكرم صاحب
وللنضر طول يقصر الطرف دونه ... بحيث التقى ضوء النجوم الثواقب
لعمري لقد أبدى كنانة قبله ... محاسن تأبى أن تطوع لغالب
ومن قبله أبقى خزيمة حمده ... تليد تراث عن حميد الأقارب
ومدركة لم يدرك الناس مثله ... أعف وأعلى عن دني المكاسب
وإلياس كان اليأس منه مقارناً ... لأعدائه قبل اعتداد الكتائب
وفي مضر يستجمع الفخر كله ... إذا اعتركت يوماً زحوف المقانب
وحل نزار من رياسة أهله ... محلاً تسامى عن عيون الرواقب
وكان مَعَدٌّ عدة لوليه ... إذا خاف من كيد العدو المحارب
وما زال عدنان إذا عد فضله ... توحد فيه عن قرين وصاحب
وأد تأدى الفضل منه بغاية ... وإرث حواه عن قروم أشايب
وفي أدد حلم تزين بالحجا ... إذا الحلم أزهاه قطوب الحواجب
وما زال يستعلي هميسع بالعلى ... ويتبع آمال البعيد المراغب
ونبت بنته دوحة العز وابتنى ... معاقله في مشمخر الأهاضب
وحيزت لقيدار سماحة حاتم ... وحكمة لقمان وهمة حاجب
هم نسل إسماعيل صادق وعده ... فما بعده في الفخر مسعى لذاهب
وكان خليل الله أكرم من عنت ... له الأرض من ماش عليها وراكب
وتارح ما زالت له أريحية ... تبين منه عن حميد المضارب
وناحور نحار العدى حفظت له ... مآثر لما يحصها عد حاسب
وأشرع في الهيجاء ضيغم غابة ... يقد الطلى بالمرهفات القواضب
وأرغو ناب في الحروب محكم ... ضنين على نفس المشح المغالب
وما فالغ في فضله تلو قومه ... ولا عابر من دونهم في المراتب
وشالخ وأرفخشذ وسام سمت بهم ... سجايا حمتهم كل زار وعائب
وما زال نوح عند ذي العرش فاضلاً ... يعدده في المصطفين الأطايب
ولمك أبوه كان في الروع رائعاً ... جريئاً على نفس الكمي المضارب
ومن قبل لمك لم يزل متوشلخ ... يذود العدى بالذائدات الشوارب
وكانت لإدريس النبي منازل ... من الله لم تقرن بهمة راغب
ويارد بحر عند آل سراته ... أبي الخزايا مستدق المآرب
وكانت لمهلاييل فهم فضائل ... مهذبة من فاحشات المثالب
وقينان من قبل اقتنى مجد قومه ... وفادت بشأو الفضل وخد الركائب
وكان أنوش ناش للمجد نفسه ... ونزهها عن مرديات المطالب
وما زال شيث بالفضائل فاضلاً ... شريفاً بريئاً من ذميم المعائب
وكلهم من نور آدم أقبسوا ... وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
وكان رسول الله أكرم منجب ... جرى في ظهور الطيبين المناجب
مقابلة آباؤه أمهاته ... مبرأة من فاضحات المثالب
عليه سلام الله في كل شارق ... ألاح لنا ضوءاً وفي كل غارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر [الإنباه ص٥٠ - ٥٥] وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في «تهذيبه» [تهذيب الكمال ١/١٧٧ - ١٨٠] من شعر الأستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشىء المعروف بابن شرشير أصله من الأنبار ورد بغداد ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين وكان متكلماً معتزلياً يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه «المقالات» فيما يحكي عن المعتزلة وكان شاعراً مطبقاً حتى إن من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني فينظم في مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة والألفاظ البليغة حتى نسبه بعضهم إلى التهوس والاختلاط.

وذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١٠/٩٢، ٩٣] أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا.

قلت: وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه وحسن لفظه واطلاعه واضطلاعه واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه.

١٦- ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان معد وعك. قال السهيلي [الروض الأنف ١/٩٩، ١٠٠]: ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث وآخر يقال له: المُذهب. قال وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحاك.

وقيل: إن الضحاك ابن لمعد لا ابن عدنان.

قال: وقيل: إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان حكاه الطبري [تاريخ الطبري: ٢/٢٧٠]. فتزوج عك في الأشعريين وسكن في بلادهم من اليمن فصارت لغتهم واحدة فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم فيقولون: عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث ويقال: عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الأسد ويقال: الريث بدل الذيب والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان. قال عباس بن مرداس [سيرة ابن هشام ١/٩، ١٠]:

وعكّ بن عدنان الذين تلقبوا ... بغسّان حتى طُرِّدوا كلّ مَطرد

وأما معد فولد له أربعة: نزار وقضاعة وقنص وإياد وكان قضاعة بكره وبه كان يكنى وقد قدمنا الخلاف في قضاعة ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

وأما قنص فيقال: إنهم هلكوا ولم يبق لهم بقية إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة كان من سلالته على قول طائفة من السلف وقيل: بل كان من حمير كما تقدم والله أعلم.

وأما نزار فولد له ربيعة ومضر وأنمار. قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ١/٧٤]: وإياد ابن نزار كما قال الشاعر:

وفتوٌ حَسَنٌ أوجههم ... من إياد بن نزار بن معدّ

قال: وإياد ومضر شقيقان أمهما سودة بنت عك بن عدنان وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان. ويقال: جمعة بنت عك بن عدنان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٧٤]: فأما أنمار فهو والد خثعم وبجيلة

قبيلة جرير بن عبد الله البجلي قال: وقد تيامنت فلحقت باليمن.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٧٤/١]: وأهل اليمن يقولون: أنمار بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

قلت: والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا والله أعلم.

قالوا: وكان مضر أول من حدا وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره فوثبت يده فجعل يقول: وايدياه وايدياه فأعنقت الإبل لذلك [الروض الأنف ٣٤٠/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٥/١، ٧٦]: فولد مضر بن نزار رجلين إلياس وغيلان وولد لإلياس مدركة وطابخة وقمعة وأمهم خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٧٥/١، ٧٦]: وكان اسم مدركة عامراً واسم طابخة عمراً ولكن اصطادا صيداً فبينا هما يطبخانه إذ نفرت الإبل فذهب عامر في طلبها حتى أدركها وجلس الآخر يطبخ فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك فقال لعامر: أنت مدركة وقال لعمرو: أنت طابخة قال: وأما قمعة فيزعم نساب مضران خزاعة من ولد عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس.

قلت: والأظهر أنه منهم لا والدهم وأنهم من حمير كما تقدم والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٢/١، ٩٣]: فولد مدركة رجلين خزيمة وهذيلاً وأمهما امرأة من قضاعة وولد خزيمة كنانة وأسداً وأسدة والهون، قال: وولد كنانة النضر ومالكاً وعبد مناة وملكان.

وزاد أبو جعفر الطبري [تاريخ الطبري ٢٦٥/٢] في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث والنضير وغنماً وسعداً وعوفاً وجرولاً والحدال وغزوان.

١٧- الكلام على قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٣/١]: وأم النضر برة بنت مرّ بن أد بن طابخة وسائر بنيه لامرأة أخرى وخالفه ابن هشام فجعل برة بنت مر أم النضر ومالك وملكان. وأم عبد مناة هالة بنت سويد بن الغطريف من أزد شنوءة.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٣/١]: النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وقال: ويقال: فهر بن مالك هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ أبي عمر بن عبد البر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد.

قال أبو عبيد وابن عبد البر: والذي عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة لحديث الأشعث بن قيس.

قلت: وهو الذي نص عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه. ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك ثم حكى اختيار هذا القول عن الزبير بن بكار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان. قال: وإليهم المرجع في هذا الشأن وقد قال الزبير بن بكار: وقد أجمع نساب قريش وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك والذي عليه من أدركت من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قرشي وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لمآثرهم.

وقد روى البخاري [خ (٣٤٩١، ٣٤٩٢)] من حديث كليب بن وائل قال: قلت لربيبة النبي ﷺ - يعني زينب في حديث ذكره -: أخبريني عن النبي ﷺ: أكان من مضر؟ قالت: فممن كان إلا من مضر من بني النضر بن كنانة.

وقال الطبراني [الكبير (٢١٩٠)]: ثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن الجفشيش الكندي قال: جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أنت منا وادعوه، فقال: «لا نقفو أمّنا، ولا ننتفي من أبينا نحن ولد النضر بن كنانة».

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد [الإصابة للحافظ ٤٩٢/١]: ثنا أبي ثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: جاء رجل من كندة يقال له: الجفشيش الجشيش إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نزعم أن عبد مناف منا فأعرض عنه ثم عاد فقال مثل ذلك فقال النبي ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا» فقال الأشعث: ألا كنت سكت من المرة الأولى فأبطل ذلك من قولهم على لسان نبيه ﷺ وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه والكلبي ضعيف والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد [٢١٢/٥]: حدثنا بهز وعفان قالا: ثنا حماد بن سلمة. ثني عقيل بن طلحة. وقال عفان: عقيل بن طلحة السلمي عن مسلم بن الهيصم عن الأشعث بن قيس أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد من كندة. قال عفان: لا يروني أفضلهم قال: فقلت: يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا قال: فقال رسول الله ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا». قال: فقال الأشعث: فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد.

وهكذا رواه ابن ماجه [ج (٢٦١٢)] من طرق عن حماد بن سلمة به وهذا إسناد جيد قوي وهو فيصل في هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم.

وقد قال جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان [سيرة ابن هشام ٩٣/١]:

فما الأمّ التي ولدت قريشاً بمُقرِفَة النِّجارِ ولا عقيم
وما قَرْمٌ بأنجبَ من أبيكم ولا خالٌ بأكرمَ من تميم

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٣/١]: يعني أم النضر بن كنانة وهي برة بنت مرّ أخت تميم بن مر.

وأما اشتقاق قريش فقيل: من التقرش؟ التجمع بعد التفرق وذلك في زمن قصي بن كلاب فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه وقد قال حذافة بن غانم العدوي:

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدعى مُجمِّعاً به جمّع اللهُ القبائلَ من فِهر

وقال بعضهم: كان قصي يقال له: قريش قيل: من التجمع والتقرش: التجمع كما قال أبو خلدة اليشكري [سيرة ابن هشام ٩٤/١]:

إخوة قرّشوا الذنوبَ علينا في حديثٍ من دهرِنا وقديم

وقيل: سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة حكاه ابن

هشام رحمه الله [سيرة ابن هشام ٩٣/١].

وقال الجوهري [مقدمة الصحاح ١٠١٦/٣]: القرش: الكسب والجمع وقد قرش يقرش.

قال الفراء. وبه سميت قريش وهي قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة فكل من كان من ولده فهو قرشي دون ولد كنانة فما فوقه.

وقيل: من التفتيش.

قال هشام بن الكلبي: كان النضر بن كنانة تسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله والتقرش هو التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً.

وقد قال الحارث بن حلزة [شرح المعلقات السبع ص٤٥٣] في بيان أن التقرش التفتيش:

أيها الناطقُ المقرِّش عنّا عندَ عمروٍ فهل له إبقاء

حكى ذلك الزبير بن بكار، وقيل: قريش تصغير قرش وهو دابة في البحر قال بعض الشعراء [المقتضب ٣٦٢/٣]:

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ـرَ بها سُمِّيت قريشٌ قريشا

قال البيهقي [دلائل النبوة ١٨٠/١، ١٨١]: أخبرنا أبو نصر بن قتادة ثنا أبو الحسن علي بن عيسى المالِيني حدّثنا محمد بن الحسن بن الخليل النسوي أن أبا كريب حدثهم حدّثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي ركانة العامري أن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه يقال لها: القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته. قال فأنشدني في ذلك شيئاً فأنشده شعر الجمحي إذ يقول:

وقريشٌ هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا

تأكلُ الغثَّ والسمينَ ولا تترك منها لذي الجناحين ريشا

هكذا في البلادِ حي قريش يأكلون البلادَ أكلاً كميشا

ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ يُكثرُ القتلَ فيهم والخموشا

وقيل: سموا بقريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة وكان دليل بني النضر وصاحب ميرتهم فكانت العرب تقول: قد جاءت عير قريش قالوا: وابنه بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله أعلم.

ويقال في النسبة إلى قريش: قرشي وقريشي قال الجوهري: وهو القياس.

قال الشاعر:

بكلِّ قريشيٍّ عليهِ مهابةٌ سريعٌ إلى داعي الندا والتكرم

قال: فإذا أردت بقريش الحي صرفته وإن أردت القبيلة منعته قال الشاعر في ترك الصرف:

وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

وقد روى مسلم في «صحيحه» [م (٢٢٧٦)] من حديث أبي عمرو الأوزاعي قال: حدثني شداد أبو عمار حدثني واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم».

قال أبو عمر بن عبد البر [الإنباه ص٦٩]: يقال: بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ وبنو هاشم فخذه وبنو عبد مناف بطنه وقريش عمارته وبنو كنانة قبيلته ومضر شعبه. صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٤/١]: فولد النضر بن كنانة مالكاً ويخلد.

قال ابن هشام: والصلت وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظرب العدواني.

قال كثير بن عبد الرحمن وهو كثير عزّة أحد بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة:

أليس أبي بالصَّلتِ أم ليس إخوتي لكلِّ هجانٍ من بني النضر أزهرا

رأيت ثيابَ العصب مختلطَ السَّدى بنا وبهمْ والحضرميَّ المخصَّرا

فإن لم تكونوا من بني النضر فاتركوا أراكاً بأذنابِ الفوائجِ أخضرا

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٥/١]: وبنو مليح بن عمرو يعزون إلى الصلت بن النضر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٥/١]: فولد مالك بن النضر فهر بن مالك وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الأصغر وولد فهر غالباً ومحارباً والحارث وأسداً وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٥/١]: وأختهم لأبويهم جندلة بنت فهر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٥/١]: فولد غالب بن فهر لؤي بن غالب وتيم بن غالب وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعي.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٦/١]: وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي وهي أم لؤي وتيم ابني غالب.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٦/١]: فولد لؤي بن غالب أربعة نفر: كعباً وعامراً وسامة وعوفاً.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٦/١]: ويقال: والحارث وهم جشم بن الحارث في هزان من ربيعة وسعد بن لؤي وهم بنانة في شيبان بن ثعلبة وبنانة حاضنة لهم وخزيمة بن لؤي وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٧/١] خبر سامة بن لؤي وأنه خرج إلى عمان فكان بها وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر فأخافه عامر فخرج عنه هارباً إلى عمان وأنه مات بها غريباً وذلك أنه كان يرعى ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال إنه كتب بأصبعه على الأرض:

عينُ فابكي لسامةَ بنِ لؤيّ عَلِقَتْ ما بسامة العَلاَّقه

لا أرى مثلَ سامةَ بن لؤي يومَ حلّوا به قتيلاً لناقه

بلِّغا عامراً وكعباً رسولاً أن نفسي إليهما مشتاقه

إن تكن في عُمانَ داري فإني غالبيٌّ خرجتُ من غير فاقه

رُبَّ كأسٍ هرقتَ يا بن لؤي حَذَرَ الموتِ لم تكن مهراقه

رُمتَ دفعَ الحتوف يابن لؤي ما لمن رامَ ذاك بالحتف طاقه

وخروسَ السُّرى تركتَ رذيّاً بعد جدٍّ وجدّةٍ ورشاقه

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام ٩٨/١]: وبلغني أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي فقال له رسول الله ﷺ «آلشاعر؟» فقال له بعض أصحابه كأنك يا رسول الله أردت قوله:

ربَّ كأسٍ هرقتَ يابن لؤي حذَرَ الموتِ لم تكنْ مهراقه

فقال: «أجل».

وذكر السهيلي [الروض الأنف ٤٠٧/١] عن بعضهم أنه لم يعقب. وقال الزبير: ولد أسامة بن لؤي غالباً والنبيت والحارث. قالوا: وكانت له ذرية بالعراق يبغضون علياً ومنهم علي بن الجعد كان يشتم أباه لكونه سماه علياً ومن بني سامة بن لؤي محمد بن عرعرة بن البرند شيخ البخاري.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٨/١]: وأما عوف بن لؤي فإنه خرج - فيما يزعمون - في ركب من قريش حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به فانطلق من كان معه من قومه فأتاه ثعلبة بن سعد وهو أخوه في نسب بني ذبيان فحبسه وزوجه والتاطه وآخاه فشاع نسبه في ذبيان وثعلبة فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٩٩/١]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين أن عمر بن الخطاب قال: لو كنت مدعياً حياً من العرب أو ملحقهم بنا لادعيت بني مرة بن عوف إنا لنعرف فيهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع يعني: عوف بن لؤي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٠٠/١]: وحدثني من لا أتهم أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بني مرة: إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٠١/١]: وكان القوم أشرافاً في غطفان هم سادتهم وقادتهم قوم لهم صيت في غطفان وقيس كلها فأقاموا على نسبهم. قال: وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم: ما ننكره وما نجحده وإنه لأحب النسب إلينا ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٠٢/١]: وفيهم كان البسلُ وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمّنونهم أيضاً.

قلت: وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم واختلفت ربيعة ومضر في الرابع وهو رجب فقالت مضر: هو الذي بين جمادي وشعبان وقالت ربيعة: هو الذي بين شعبان وشوال. وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧)، م (١٦٧٩)] عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[التوبة: ٣٦] فهذا رد على بني عوف بن لؤي في جعلهم الأشهر الحرم ثمانية فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه. وقوله في الحديث: «ثلاث متواليات» رد على أهل النسيء الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر. وقوله فيه: «ورجب مضر» ردّ على ربيعة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٠٣/١]: فولد كعب بن لؤي ثلاثة، مرة، وعدياً، وهصيصاً وولد مرة، ثلاثة أيضاً كلاب بن مرة، وتيم بن مرة، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث. قال: وولد كلاب رجلين قصي بن كلاب وزهرة بن كلاب وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل أحد الجَدَرة من جعثمة الأسد من اليمن حلفاء بني الدُّئِل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وفي أبيها يقول الشاعر [سيرة ابن هشام ١٠٥/١]:

ما نرى في الناس شخصاً واحداً ... مَن علمناه كسعد بن سيل
فارساً أضبط فيه عسرة ... وإذا ما واقف القِرنَ نزل
فارساً يستدرج الخيلَ كما اسـ ... ـتدرجَ الحر القطاميُّ الحجل

قال السهيلي [الروض الأنف ٤٢٨/١]: سيل اسمه خير بن حمالة وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٠٥/١]: وإنما سمو الجدرة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جعثمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمي وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت فبنى للكعبة جداراً فسمي عامر بذلك الجادر فقيل لولده: الجدرة لذلك.

١٨- خبر قصي بن كلاب

وما كان من أمره في ارتجاعه ولاية البيت إلى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة واجتماع قريش الى الحرم الذي جعله الله أمناً للعباد بعد تفرقها في البلاد وتمزقها في الجبال والمهاد وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعة بن حرام من عذرة وخرج بها وبه إلى بلاده ثم قدم قصي مكة وهو شاب فتزوج حُبَّى ابنة رئيس خزاعة حليل بن حبشية. فأما خزاعة فتزعم أن حليلاً أوصى إلى قصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نسله من ابنته وقال: أنت أحق بذلك مني.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١١٨/١]: ولم نسمع ذلك إلا منهم وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استجاش بأخوته من أمه - وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة - وإخوة إخوته وبني كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم فأجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت إلا أن إجازة الحجيج كانت إلى صوفة وهم بنو الغوث بن مر ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ولا ينفرون من منى حتى ينفروا فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم فكان أولهم صفوان بن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام وهو كرب بن صفوان. وكانت الإجازة من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم وهو أبو سيارة عميلة بن الأعزل وقيل: اسمه العاص بن خالد وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء مكث يدفع عليها في الموقف أربعين سنة وهو أول من جعل الدية مائة وأول من كان يقول: أشرق ثبير كيما نغير. حكاه السهيلي [الروض الأنف ٤١/٢ - ٤٣].

وكان عامر بن الظرب العدواني لا يكون بين العرب نائرة إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضي به فتحاكموا إليه مرة في ميراث خنثى فبات ليلته ساهراً يتروى ماذا يحكم به فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سخيلة فقالت له: ما لك - لا أبا لك - الليلة ساهراً؟ فذكر لها ما هو مفكر فيه وقال: لعلها يكون عندها في ذلك شيء فقالت: أتبع القضاء المبال فقال: فرجتها والله يا سخيلة وحكم بذلك.

قال السهيلي [الروض الأنف ٥١/٢]: وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات وله أصل في الشرع قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[يوسف: ١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه وقال تعالى:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٧].

وفي الحديث [المسند ١/٢٣٩، د (٢٢٥٦)] «أنظروها فإن جاءت به أورق جعداً جمالياً فهو للذي رميت به».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٤٣]: وكان النسيء في بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/٤٤]: وكان أول من نسأ الشهور على العرب القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي ثم قام بعده ابنه عباد ثم قلع بن عباد ثم أمية بن قلع ثم عوف بن أمية ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة وهو القلمّس فعلى أبي ثمامة قام الإسلام وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم وجعل مكانه صفراً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله، فيقول: اللّهم إني أحللت أحد الصفرين الصفر الأول وأنسأت الآخر للعام المقبل فتتبعه العرب في ذلك ففي ذلك يقول عمير بن قيس أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ويعرف عمير بن قيس هنا بجذل الطعان:

لقد علمتْ معدٌ أن قومي　　كرامُ الناس أن لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر　　وأي الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئينَ على معدٍّ　　شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما

وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت الحرام وتسليمه إلى قصي فكان بينهم قتال كثيرة ودماء غزيرة ثم تداعوا إلى التحكيم فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة وأن يخلّى بين قصي وبين مكة والكعبة فسمي يعمر يومئذ الشدّاخ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١٢٤]: فولي قصي البيت وأمر مكة وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه إلا أنه أقر للعرب على ما كانوا عليه لأنه يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره فأقرّ آل صفوان وعدوان والنسأة ومرّة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله.

قال: فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكاً أطاع له به قومه وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.

قلت: فرجع الحق إلى نصابه، وردّ شارد العدل بعد إيابه، واستقرت بقريش الدار، وقضت من خزاعة المراد والأوطار، وتسلمت بيتهم العتيق القديم لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها وأنزل قصي قبائل قريش أباطح مكة وأنزل طائفة منهم ظواهرها فكان يقال: قريش البطاح وقريش الظواهر فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سمّاها دار الندوة إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلا بها ولا تبلغ جارية أن تدرع فتدرع إلا بها وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بني عبد الدار فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم فلامه على بيعها معاوية، وقال: بعت مكرمة قومك وشرفهم بمائة ألف؟ فقال إنما الشرف اليوم بالتقوى والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر وها أنا قد بعتها بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله فأيّنا المغبون؟ [الروض الأنف ٢/٥٥. وأخرجه الطبراني (٣٠٧٣)] ذكره الدارقطني في «أسماء رجال الموطأ».

وكانت إلى قصي سقاية الحجيج فلا يشربون إلا من ماء حياضه وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ولا يهتدون إلى موضعها.

قال الواقدي: وكان قصي أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات. وأول من أحدث الرفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١٣٠]: وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج.

قلت: ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبل القاصدين إلى الحج وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أجل ما فيه والأولى أن يكون من جوالي الذمة لأنهم لا يحجون البيت العتيق وقد جاء في الحديث «من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» [ت (٨١٢)].

وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه:

قصيٌّ لعمري كان يدعى مجمّعاً　　به جمع اللّه القبائلَ من فهر
همو ملؤوا البطحاء مجداً وسؤدداً　　وهم طردوا عنا غُواة بني بكر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١٢٦]: ولما فرغ قصي من حربه انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه وإخوته من أبيه الثلاثة وهم حُن ومحمود وجلهمة. قال رزاح في إجابته قصياً [سيرة ابن هشام ١/١٢٦]:

ولما أتى من قصيٍّ رسولٌ　　فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقودُ الجيادَ　　ونطرح عنا الملولَ الثقيلا
نسير بها الليلَ حتى الصباح　　ونكمي النهارَ لئلا نزولا
فهنّ سراعٌ كوِردِ القطا　　يُجبْنَ بنا من قصيٍّ رسولا
جمعنا من السر من أشمذين　　ومن كل حيٍّ جمعنا قبيلا
فيالك حلبة ما ليلة　　تزيد على الألف سيباً رسيلا
فلما مررْنَ على عسجر　　وأسهلنَ من مستناخ سبيلا

وجـاوزنَ بـالركن مـن ورقـانَ	وجـاوزن بـالعرج حيـاً حلـولا
مـررن علـى الحِـلِّ مـا ذُقنـه	وعـالجن مـن مـرٍّ ليـلاً طويـلا
نُدنـي مـن العُـوذِ أفلاءهـا	إرادةَ أن يسـترقن الصهيـلا
فلمـا انتهينـا إلى مكـةٍ	أبحنـا الرجـالَ قبيـلاً قبيـلا
نعـاورهم ثـمَّ حـدَّ السيـوف	وفي كـل أوْبٍ خلسنـا العقـولا
نخـبِّزهم بصِـلابِ النسـو ر	خبـز القـويِّ العزيـز الذليـلا
قتلنـا خزاعـةَ في دارهـا	وبكـراً قتلنـا وجيـلاً فجيـلا
نفينـاهمُ مـن بـلاد المليـ	ـكِ كما لا يحلّون أرضـاً سهولا
فـأصبح سَـبْيُهم في الحديـ	ـدِ ومن كل حيٍّ شفَيْنا الغليلا

قال ابن إسحاق: فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حنا، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم [سيرة ابن هشام: ١٢٩/١].

قال ابن إسحاق: وقال قصي بن كلاب في ذلك [سيرة ابن هشام ١٢٨/١]:

أنـا ابـن العـاصمينَ بـني لـؤي	بمكـة مـنزلي وبهـا ربيـت
إلى البطحـاء قـدْ علمـتْ معـدٌّ	ومروتُهـا رضيـتُ بهـا رضيـت
فلسـتُ لغـالبٍ إنْ لم تـأثّل	بهـا أولادُ قيـدرَ والنبيـت
رزاحٌ نـاصري وبـه أُسـامي	فلستُ أخـافُ ضيمـاً مـا حييـت

وقد ذكر الأموي عن الأثرم عن أبي عبيدة عن محمد بن حفص: أن رزاحاً إنما قدم بعدما نفى قصي خزاعة والله أعلم.

١٩- خبر أولاد قُصَيّ وذريته

ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار وكان أكبر ولده. وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته عبد مناف وعبد العُزّى وعبداً كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم وبلغوا في قوتهم شرفاً كبيراً فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد فخصصه بذلك فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك وقالوا: إنما خصص قصي عبدالدار بذلك ليلحقه بإخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه.

وقال بنو عبد الدار: هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به واختلفوا اختلافاً كثيراً وانقسمت بطون قريش فرقتين ففرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفتهم على ذلك ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيبين. وكان منهم من قبائل قريش بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر وكان مع بني عبد الدار بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي واعتزلت بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر الجميع فلم يكونوا مع واحد منهما ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار فانبرم الأمر على ذلك واستمر.

وحكى الأموي عن الأثرم عن أبي عبيدة قال: وزعم قوم من خزاعة أن قصياً لما تزوج حُبّى بنت حليل ونقل حليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حبى واستناب عنها أبا غبشان سليم بن عمرو بن بؤي بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وقعود فكان يقال: أخسر من صفقة أبي غبشان. ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصي فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان ثم فوض قصي هذه الجهات التي كانت إليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار - كما سيأتي تفصيله وإيضاحه - وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عدوان وأقر النسيء في بني فقيم وأقر الإجازة - وهو النفر - في صوفة كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك [تاريخ الطبري ٢٥٦/٢].

قال ابن إسحاق: فولد قصي أربعة نفر وامرأتين عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبداً وتخمر وبرة، وأمهم كلهم حُبّى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ومن يده أخذ البيت قصي بن كلاب [سيرة ابن هشام ١٠٥/١].

قال ابن إسحاق: فولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر هاشماً وعبد شمس والمطلب - وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال - ونوفل بن عبد مناف وأمه واقدة بنت عمرو المازنية [سيرة ابن هشام ١٠٦/١].

قال ابن هشام [السيرة ١٠٧/١]: وولد لعبد مناف أيضاً أبو عمرو وتماضر وقلابة وحية وريطة وأم الأخثم وأم سفيان.

قال ابن هشام [السيرة ١٠٨/١]: وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة: عبد المطلب وأسداً وأبا صيفي ونضلة والشفاء وخالدة وضعيفة ورقية وحية فأم عبد المطلب ورقية سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار من المدينة وذكر أمهات الباقين قال: وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة وهم: العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب - واسمه عبد مناف لا عمران - والزبير والحارث - وكان بكر أبيه وبه كان يكنى - وجحل ومنهم من يقول: حجل وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره والمقوم وضرار وأبو لهب - واسمه عبد العزى - وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة وذكر أمهاتهم إلى أن قال: وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء إلا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قال: فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ثم ذكر أمهاتها فاغرق إلى أن قال: فهو أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقد تقدم حديث الأوزاعي عن شدّاد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم». رواه مسلم [٢٢٧٦].

وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر جُمَلٍ من الأحداث الواقعة في زمن الجاهليّة:

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بني إسماعيل طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصي وبنيه واستمرار

ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فاقر تلك الوظائف على ما كانت عليه.

باب ذكر جماعة كانوا مشهورين في زمن الجاهلية

٢٠- خبر خالد بن سنان العبسي الذي كان في زمن الفترة

وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً والله أعلم.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير ١٢٢٥٠]: حدّثنا أحمد بن زهير التستري حدّثنا يحيى بن المعلّى بن منصور الرازي حدّثنا محمد بن الصلت حدّثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: «بنت نبي ضيعه قومه».

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس، قال: ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال: «ذاك نبي ضيعه قومه» [كشف الأستار: ٢٣٦١]. ثم قال: ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها والله أعلم.

قال البزار [كشف الأستار: ٢٣٦١]: وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلاً.

وقال الحافظ أبو يعلي الموصلي: حدّثنا المعلى بن مهدي الموصلي قال: حدّثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من عبس يقال له: خالد بن سنان قال لقومه: إني أطفئ عنكم نار الحدثان فقال له رجل من قومه: والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقاً فما شأنك وشأن نار الحدثان تزعم أنك تطفئها؟ فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد فأتوها فإذا هي تخرج من شق جبل فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها فقال: إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول: بدا بدا كل هدى مردا زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تَنْدَى حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد: والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد قالوا: فادعوه باسمه. قال: فقالوا: إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه فقال: ألم أنهكم أن تدعوني باسمي فقد والله قتلتموني فادفنوني فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فانبشوني فإنكم تجدوني حياً فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر فقلنا: انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه فقال لهم عمارة: لا تنبشوه لاوالله لا تحدث مضر أنا ننبش موتانا وقد كان قال لهم خالد: إن في عِكْم امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فإنكم ستجدون ما تسألون عنه قال: ولا يمسهما حائض فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما فأخرجتهما إليهم وهي حائض فذهب ما كان فيهما من علم.

قال أبو يونس: قال سماك بن حرب: سئل عنه النبي ﷺ فقال: «ذاك نبي أضاعه قومه» قال: أبو يونس: قال سماك بن حرب: إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال: «مرحباً بابن أخي» [الطبراني في الكبير: ١١٧٩٣. الحاكم في المستدرك: ٥٩٨/٢] فهذا السياق موقوف على ابن عباس وليس فيه أنه كان نبياً والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها هاهنا والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في «صحيح البخاري» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم إنه ليس بيني وبينه نبي». وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣].

وقد قال غير واحد من العلماء: إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعاً وبشرت به الأنبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به عيسى ابن مريم عليه السلام وبهذا المسلك بعينه يُردّ ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له: شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين وبعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صفوان فكذبوهما فسلط الله على العرب بختنصر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل وذلك في زمن معد بن عدنان.

والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم.

وقد تقدم ذكر عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف في أخبار خزاعة بعد جرهم.

٢١- ذكر حاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن احزم بن أبي أخزم واسمه هزومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ أبو سفانة الطائي والد عدي بن حاتم الصحابي كان جواداً ممدحاً في الجاهلية وكذلك كان ابنه في الإسلام وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه يطول ذكرها ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة وإنما كان قصده السمعة والذكر.

قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار: ٩٢]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا عبيد بن واقد القيسي حدّثنا أبو مضر هو الناجي عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: ذكر حاتم عند النبي ﷺ فقال: «ذاك أراد أمراً فأدركه» حديث غريب.

قال الدارقطني: تفرد به عبيد بن واقد عن أبي مضر الناجي ويقال: إن اسمه حمّاد.

قال ابن عساكر [تاريخ ابن عساكر ٣٦٢/١١]: وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي مضر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يسم الناجي ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شبية الناجي والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣٧٩/٤]: حدّثنا مؤمل بن إسماعيل حدّثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مرى بن قطري عن عدي بن حاتم قال: قلت يا رسول الله ﷺ: إن أبي كان يصل الرحم ويفعل ويفعل فهل له في ذلك؟ يعني: من أجر قال: «إن أباك طلب أمراً فأصابه».

وهكذا رواه أبو يعلي عن القواريري عن غندر عن شعبة عن سماك به. وقال: «إن أباك أراد أمراً فأدركه» يعني الذكر [تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٦٠/١١]. وهكذا رواه أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة به سواء [تاريخ دمشق: ٣٦١/١١].

وقد ثبت في الصحيح [م (١٩٠٥)] في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم منهم الرجل الذي ينفق ليقال: إنه كريم فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا وكذا في العالم والمجاهد.

وفي الحديث الآخر في الصحيح [م (٢١٤)] أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فقالوا له: كان يقري الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك؟ فقال «إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعمين في السنين الممحلة والأوقات المرملة.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العماني حدّثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي حدّثنا ضرار بن صرد حدّثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمن بن جندب عن كميل بن زياد النخعي قال: قال علي بن أبي طالب: يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس في خير عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاح. فقام إليه رجل وقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خير منه لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية حمراء لعساء ذلفاء عيطاء شماء الأنف معتدلة القامة والهامة درماء الكعبين خدلجة الساقين لفاء الفخذين خميصة الخصرين ضامرة الكشحين مصقولة المتنين. قال: فلما رأيتها أعجبت بها وقلت: لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيئي فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط وأنا ابنة حاتم طيء. فقال النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله تعالى يحب مكارم الأخلاق». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، والله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق» [دلائل النبوة: ٥/٣٤١].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمن الطائي - هو الهيثم بن عدي - عن ملحان بن عركي بن حلبس الطائي عن أبيه عن جده - وكان أخا عدي بن حاتم لأمه - قال: قيل لنوار امرأة حاتم: حدثينا عن حاتم قالت: كل أمره كان عجباً أصابتنا سنة حصت كل شيء فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء وضنت المراضع على أولادها وراحت الإبل حدباء حدابير ما تبض بقطرة وحلق المال وإنا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغى الأصبية من الجوع عبد الله وعدي وسفانة فوالله إن وجدنا شيئاً نعللهم به فقام إلى أحد الصبيين فحمله وقمت إلى الصبية فعللتها فوالله إن سكتا إلا بعد هدأة من الليل ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت وما كاد ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا ثم أقبل عليّ يعللني لأنام وعرفت ما يريد فتناومت فقال: مالك أنمت؟ فسكت فقال: ما أراها إلا قد نامت وما بي نوم فلما أدلهم الليل وتهورت النجوم وهدأت الأصوات وسكنت الرِّجل إذ جانب البيت قد رفع فقال: من هذا؟ فولى حتى إذا قلت: قد أسحرنا أو كدنا عاد فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة يا أبا عدي ما وجدت على أحد معولاً غيرك أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع قال: أعجليهم عليّ قالت النوار: فوثبت فقلت: ماذا صنعت؟! والله لقد تضاغى أصبيتك فما وجدت ما تعللهم به فكيف بهذه وبولدها؟ فقال: أسكتي فوالله لأشبعنك وإياهم إن شاء الله قالت: فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها فقام إلى فرسه فوجأ بحربته في لبته ثم قدح زنده وأورى ناره ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال: دونك ثم قال: ابعثي صبيانك فبعثتهم ثم قال: سوءة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم؟ فجعل يطوف فيهم حتى هبوا واقبلوا عليه والتفع في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا والله ما ذاق مزعة وإنه لأحوجهم إليه فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم أو حافر [تاريخ دمشق لابن عساكر: ١١/٣٦٥، ٣٦٦].

وقال الدارقطني: حدثني القاضي أبو عبد الله المحاملي حدّثنا عبد الله بن أبي سعد حدثني غنم بن ثوابة بن حميد الطائي عن أبيه عن جده قال: قالت امرأة حاتم لحاتم: يا أبا سفانة أشتهي أن آكل أنا وأنت طعاما وحدنا ليس عليه أحد فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ وأمر بالطعام فهيئ وهي مرخاة ستورها عليه وعليها فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال [ديوان حاتم: ١٧٢]:

فلا تطبخي قِدري وسترك دونها ... عليَّ إذنْ ما تطبخين حَرام

ولكنْ بهذا اليفاعِ فأوقدي ... بجزلٍ إذا أوقدتِ لا بضرام

قال: ثم كشف الستور وقدم الطعام ودعي الناس فأكل وأكلوا فقالت: ما أتممت لي ما قلت فأجابها: فإني لا تطاوعني نفسي ونفسي أكرم عليّ من أن يثنى على هذا وقد سبق لي السخاء [تاريخ ابن عساكر: ١١/٣٦٦] ثم أنشأ يقول:

أمارسُ نفسَ الجود حتى أعزّها ... وأتركُ نفسَ البخل ما أستشيرها

ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنها ... إذا غاب عنها بعلُها لا أزورها

سيبلغُها خيري ويرجع بعلُها ... إليها ولم تقصَر عليَّ ستورها

ومن شعر حاتم [ديوان حاتم: ٢٢٢، ٢٢٣]:

إذا ما بتّ أشربُ فوق ريِّي ... لسكرٍ في الشراب فلا رويت

إذا ما بت أختِلُ عرسَ جاري ... ليخفيني الظلامُ فلا خفيت

أأفضح جارتي وأخونُ جاري ... فلا والله أفعلُ ما حييت

ومن شعره أيضاً [تاريخ دمشق: ١١/٣٧٤]:

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره ... أن لا يكونَ لبابهِ سِتر

أُغضي إذا ما جارتي بَرزَت ... حتى يواريَ جارتي الخِدْر

ومن شعر حاتم أيضاً [ديوان حاتم: ١٥٩]:

وما من شيمتي شتمُ ابنِ عمي ... وما أنا مُخْلِفٌ مَن يرتجيني

وكَلْمة حاسدٍ من غير جرم ... سمعتُ فقلت مرّي فانفذيني

وعابوها عليَّ فلم تَعِبْني ... ولم يعرقْ لها يوماً جبيني

وذي وجهين يلقاني طليقاً ... وليس إذا تغيَّب يأتليني

ظفرتُ بعيبه فكففْتُ عنه ... محافظةً على حَسَبي وديني

ومن شعره: [ديوان حاتم: ٣٠٠]

سلي البائسَ المقرورَ يا أمّ مالكٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

أَبسطُ وجهي أنه أولُ القِرى وأبذلُ معروفي لـه دون مُنكَري

وقال أيضاً: [ديوان حاتم: ١٨٣]

وإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤلَه وفرجَك نالا منتهى الذمّ أجمعا

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريري: حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي حدّثنا أبو العباس المبرد أخبرني الثوري عن أبي عبيدة. قال لما بلغ حاتم طيئ قول المتلمس: [ديوان المتلمس: ١٧٢، ١٧٣]

قليلُ المال تُصلحُه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفَساد

وحِفظُ المال خيرٌ من فَناه وعسفٍ في البلادِ بغير زاد

قال: ما له؟ قطع الله لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال:

فلا الجودُ يُفني المال قبلَ فنائه ولا البخلُ في مال الشحيح يزيد

فلا تلتمسْ مالاً بعيش مقتّرٍ لكلّ غدٍ رزقٌ يعود جديد

ألم تَرَ أنّ المال غادٍ ورائح وأنّ الذي يُعطيك غيرُ بعيد

قال القاضي أبو الفرج: ولقد أحسن في قوله: وأن الذي يعطيك غير بعيد. ولو كان مسلماً لرُجي له الخير في معاده وقد قال الله في كتابه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] [تاريخ دمشق لابن عساكر: ٣٧١/١١، ٣٧٢].

وعن الوضاح بن معبد الطائي قال: وفد حاتم الطائي على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ثم زوده عند انصرافه حملين ذهباً وورقاً غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيئ. فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك بالغنى وأتينا من عند أهالينا بالفقر فقال حاتم: هلم فخذوا ما بين يدي فتوزعوه فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته فقالت له: اتق الله وابق على نفسك، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً [تاريخ دمشق: ٣٦٧/١١، ٣٦٨] فأنشأ يقول: [ديوان حاتم: ٣٠٢]

قالت طريفةُ ما تَبقى دراهمُنا وما بنا سَرَفٌ فيها ولا خَرَق

إن يفنَ ما عندنا فالله يرزقنا ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق

ما يألف الدرهمُ الكاري خِرقَتنا إلا يمرّ عليها ثم ينطلق

إنا إذا اجتمعت يوماً دراهمُنا ظلّت إلى سُبُلِ المعروفِ تستبق

وقال أبو بكر بن عياش: قيل لحاتم: هل في العرب أجود منك؟ فقال: كل العرب أجود مني ثم أنشأ يحدث. قال: نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة وكانت له مائة من الغنم فذبح لي شاة منها وأتاني بها فلما قرب إليّ دماغها قلت: ما أطيب هذا الدماغ قال: فذهب فلم يزل يأتيني منه حتى قلت: قد اكتفيت، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقي لا شيء له؟ فقيل: فما صنعت به؟ فقال: ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء؟ فقال: على كل حال؟ فقال: أعطيته مائة ناقة من خيار إبلي. [تاريخ دمشق: ٣٦٨/١١]

وقال محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب «مكارم الأخلاق»: حدّثنا العباس بن الفضل الربعي، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني حماد الرواية ومشيخة من مشيخة طيئ، قالوا: كانت غنية بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس أم حاتم طيئ، لا تمسك شيئاً سخاء وجوداً؛ وكان إخوتها يمنعونها فتأبى. وكانت امرأة موسرة، فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع. ثم أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق، فدفعوا إليها صرمة من مالها، وقالوا: استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن - وكانت تغشاها - فسألتها فقالت: دونك هذه الصرمة فقد والله مسني من الجوع ما آليت أن لا أمنع سائلاً شيئاً. [تاريخ دمشق ٣٧٠/١١، ٣٧١] ثم أنشأت تقول: [ديوان حاتم: ١٠]

لَعَمري لقِدماً عضّني الجوعُ عضة فآليتُ أن لا أمنعَ الدهرَ جائعا

فقولا لهذا اللائمي اليومَ أعفِني وإن أنتَ لم تفعل فعضّ الأصابعا

فماذا عسيتم أن تقولوا لأختِكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

ومهما ترونَ اليومَ إلا طبيعةً فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا

وقال الهيثم بن عدي، عن ملحان بن عركي بن عدي بن حاتم عن أبيه عن جده، قال: شهدت حاتماً يكيد بنفسه، فقال لي: أي بني، إني أعهد من نفسي ثلاث خصال: والله ما خاتلت جارة لريبة قط، ولا أؤتمنت على أمانة إلا أديتها، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء [تاريخ دمشق: ٣٧٧/١١].

وقال أبو بكر الخرائطي: حدّثنا علي بن حرب، حدّثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوي، حدّثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي مسكين - يعني: جعفر بن المحرز بن الوليد - عن المحرر بن أبي هريرة، قال: مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيئ فنزلوا قريباً منه فقام إليه بعضهم - يقال له: أبو الخيبري - فجعل يركض قبره برجله. ويقول: يا أبا الجعراء اقرنا، فقال له بعض أصحابه: ما تخاطب من رمة وقد بليت؟ وأجنهم الليل، فناموا. فقام صاحب القول فزعاً يقول: يا قوم! عليكم بمطيكم؛ فإن حاتماً أتاني في النوم وأنشدني شعراً، وقد حفظته يقول: [ديوان حاتم: ١٧٦، ١٧٧]

أبا خيبريٍّ وأنتَ امرؤ ظلومُ العشيرة شتّامُها

أتيتَ بصحبك تبغي القِرى لدى حفرةٍ صخبٍ هامُها

أتبغي لي الذنبَ عندَ المبيـ ـتِ وحولَك طيئٌ وأنعامها

وإنا سنشبع أضيافنا ونأتي المطيّ فنعتامُها

قال: وإذا ناقة صاحب القول تكوس عقيراً فنحروها، وقاموا يشتوون ويأكلون. وقالوا: والله لقد أضافنا حاتم حياً وميتاً. قال: وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملاً ويقود آخر. فقال: أيكم أبو الخيبري؟ قال: أنا، قال: إن حاتماً أتاني في النوم فأخبرني أنه قرى أصحابك ناقتك، وأمرني أن أحملك، وهذا بعير فخذه؛ ودفعه إليه [تاريخ دمشق: ٣٧٧/١١].

٢٢- ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جُدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة سيد بني تيم وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمستين، وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً، وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيله، وأبغضوه حتى أبوه.

فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً، فرأى شقاً في جبل فظن أن يكون به شيئاً يؤذي، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه. فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغني شيئاً، فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم، ومنهم الحارث بن

مضاض الذي طالت غيبته فلا يُدرى أين ذهب، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة شيء كثير، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلّم باب الغار ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم، وجعل يطعم الناس، وكلما قل ما في يده، ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع.

فممن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب «التيجان» وذكره أحمد بن عمار في كتاب «ري العاطش وأنس الواحش». وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق.

وذكر ابن قتيبة [غريب الحديث: ١/٤٥٥] وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كنت استظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَي» أي: وقت الظهيرة.

وفي حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة في ركبته، فإني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت، فأثرها باقٍ في ركبته» فوجدوه كذلك [دلائل النبوة للبيهقي: ٣/٨٤ - ٨٦].

وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن، حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت: [ديوان أمية: ٢٣]

ولقدْ رأيتُ الفاعلين وفعلَهم ... فرأيتُ أكرمَهم بني الديّان
البُرّ يلبكُ بالشهادِ طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن: هلموا إلى جفنة ابن جدعان. فقال أمية في ذلك: [ديوان أمية: ١٩]

له داعٍ بمكةَ مشمعلٌ ... وآخرُ فوق كعبتها ينادي
إلى رُدُحٍ من الشيزى ملاءٍ ... لبابَ البر يُلْبَكُ بالشهاد

ومع هذا كله فقد ثبت في الصحيح لمسلم [م (٢١٤)] أن عائشة قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: «لا إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»

٢٣- ذكر امرئ القيس بن حجر الكندي صاحب إحدى المعلّقات

وهي أفخرهن وأشهرهن التي أولها: [ديوان امرئ القيس: ٨]
قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

قال الإمام أحمد [٢/٢٢٨]: حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار».

وقد روى هذا الحديث عن هشيم جماعة كثيرون منهم بشر بن الحكم، والحسن بن عرفة، وعبد الله بن هارون - أمير المؤمنين - المأمون أخو الأمين ويحيى بن معين [تاريخ دمشق: ٩/٢٣٥ - ٢٣٧].

وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزهري به، وهذا منقطع [الكامل: ٤/١٤٠٤].

وروي من وجه آخر عن أبي هريرة [تاريخ دمشق: ٩/٢٣٧ - ٢٣٩] ولا يصح من غير هذا الوجه.

وقال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٩/٢٢٢]: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر، آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة أبو يزيد، ويقال: أبو وهب ويقال: أبو الحارث الكندي. كان بأعمال دمشق وقد ذكر مواضع منها في شعره؛ فمن ذلك قوله:

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسِقْطِ اللّوى بينَ الدَّخول فحَوْمَلِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمُها ... لما نسجَتْها من جَنوبٍ وشمْأل

قال: وهذه مواضع معروفة بحوران.

ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي حدثني فروة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب، عن أبيه، عن جده. قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن، فقالوا: يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس. قال: «وكيف ذاك؟» قالوا: أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء، فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر، ليموت كل رجل منا في ظل شجرة، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير، فلما رآه بعضنا قال - والراكب يسمع -:

ولما رأتْ أنّ الشريعةَ هَمُّها ... وأن البياضَ منْ فَرائصِها دامي
تَيمَّمَتِ العينَ التي عند ضارجٍ ... يَفيءُ عليها الظلُ عَرْمَضُها طامي

فقال الراكب: ومن يقول هذا الشعر؟ - وقد رأى ما بنا من الجهد - قال: قلنا: امرؤ القيس بن حُجر قال: والله ما كذب هذا ضارج عندكم فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو من خمسين ذراعاً فحبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، شريف في الدنيا خامل في الآخرة، بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار» [تاريخ دمشق: ٩/٢٢٤، ٢٢٥].

وذكر الكلبي: أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه فمر بتبالة وبها ذو الخلَصة وهو صنم وكانت العرب تستقسم عنده فاستقسم فخرج القدح الناهي ثم الثانية ثم الثالثة كذلك فكسر القداح وضرب بها وجه ذي الخلصة وقال: عضضت بأير أبيك لو كان أبوك المقتول لما عوقتني. ثم أغار على بني أسد فقتلهم قتلاً ذريعاً. قال ابن الكلبي: فلم يستقسم عند ذي الخلصة حتى جاء الإسلام [تاريخ دمشق: ٩/٢٣٩].

وذكر بعضهم [تاريخ دمشق: ٩/٢٤٥] أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده فلم يجد ما يؤمله عنده فهجاه بعد ذلك فيقال: إنه سقاه سماً فقتله فألجاه الموت إلى جنب قبر امرأة عند جبل يقال له: عسيب فكتب هنالك:

أجارتَنا إن المزارَ قريبُ ... وإني مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ
أجارتَنا إنا غريبان ههنا ... وكلّ غريبٍ للغريب نسيبُ

وقد ذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع.

فالأولى لامرئ القيس بن حجر الكندي كما تقدم وأولها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل … بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والثانية للنابغة الذبياني: واسمه زياد بن معاوية ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها:

يا دارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسَّند … أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبد

والثالثة لزهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزني وأولها:

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تَكلَّم … بحَوْمانةِ الدرّاج فالمتَثَلَّم

والرابعة لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها:

لخَولةَ أطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَد … تلوحُ كباقي الوشْم في ظاهر اليد

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعة بن عبس العبسي، وأولها:

هل غادرَ الشعراءُ من مُتردَّمِ … أم هل عَرفْتَ الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي … وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

دار لآنسة غضيض طرفها … طوع العناق لذيذة المتبسم

حييت من طلل تقادم عهده … أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

ومنها:

وإذا سكرت فإنني مستهلك … مالي وعرضي وافر لم يلثم

وإذا صحوت وعاودتني همتي … فكما علمت شجاعتي وتكرمي

[وهو عربي... وإنما كانت أمه حبشية فكان أسمر اللون كأمه فتوهم العامة أنه كان عبداً رقيقاً وسمموا أمه زبية، ويقولون: عنتر ويجعلون له أخاً اسمه: شيبوب ولم أر ذلك في شيء من التواريخ وإنما كان له أخاً اسمه: عبيد فيما ذكره ابن خالوية في شرح المعلقات الست قال: كان أبوه من الشجعان أيضاً وكان يعرف بفارس حروة: اسم فرس له وكان عنترة من أشد الناس بأساً وأسمحهم يداً وكانت له مقامات في الحرب وكان أبوه يعترف له بذلك ويشكره على ذلك وقد فاخره رجل فقال له عنترة: ويلك والله إني لأحضر الناس وأوفي المقام وأعف عند الغنيمة وأفضل الشجعان: فقال له الرجل، أنا أشعر منك فقال: له عنترة ستعلم ذلك فعمل قصيدته هذه يذكر فيها قتل معاوية أحد نب نزال ويتغزل بمعشوقته عبلة بنت أم الهيثم وله غيرها ولكن هذه القصيدة هي أول ما قاله من الشعر فيما ذكره ابن خالويه ومن شعره قوله:

يا عبل أين عن المنية مهربي … إن كان ربي في السماء قضاها

وقد ذكر له الأصمعي وأبو عبيد شيئاً يسيراً من سيرته فزاد عليها القصاص وجهلة الناس أشياء كثيرة مكذوبة وحروباً كانت بين رستم واسفنديار ملكين من ملوك الفرس كانت بينهما حرب طويلة فساقوا كثيراً منها في حروب عنترة ووضعوا لها أشعاراً ركيكة لا يناسب وقد قيل لشيخنا العلامة ابن تيمية: إن العامة يجلسون يستمعون سيرة عنترة ويأكلون من الترمس والباقلا المقلي فقال: هؤلاء ممن الله في أمثالهم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾] [المائدة: ٤٢].

والسادسة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم، وأولها:

طحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ … بُعيد الشباب عصرَ حانَ مشيب

والسابعة - ومنهم من لا يثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره - وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر، وأولها:

عفتِ الديارُ مَحلُّها فَمُقامُها … بمنى تأبد غَوْلُها فَرِجامُها

فأما القصيدة التي لا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرد وغيرهم فهي قوله:

هل بالطلول لسائلٍ ردّ … أم هل لها بتكلُّمٍ عهدُ

وهي مطولة وفيها معاني حسنة كثيرة.

٢٤- من أخبار أميّة بن أبي الصّلت الثقفي

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٥٥/٩]: هو أمية بن أبي الصلت عبد الله ابن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان ويقال: أبو الحكم الثقفي.

شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام وقيل: إنه كان مستقيماً وإنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه وإنه هو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قال الزبير بن بكار: فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبي الصلت واسم أبي الصلت ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف [تاريخ دمشق: ٢٥٥/٩].

وقال غيره: كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم.

وقال عبد الرزاق [تفسير عبد الرزاق: ٢٤٣/٢]: قال الثوري: أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] هو أمية بن أبي الصلت.

وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الشافعي عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود قال: إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فقال: هل تدرون من هو؟ فقال بعضهم: هو صيفي بن الراهب. وقال آخر: بل هو بلعم رجل من بني إسرائيل قال: لا. قال: فمن هو؟ قال: هو أمية بن أبي الصلت [تاريخ دمشق: ٢٦٥/٩].

وهكذا قال أبوصالح والكلبي وحكاه قتادة عن بعضهم [تاريخ دمشق: ٢٦٦/٩].

وقال الطبراني [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٢٥٧/٩ - ٢٦٠ - من طريق سليمان بن أحمد وهو الطبراني به]: حدّثنا علي بن عبد العزيز حدّثنا عبد الله بن شبيب الربعي حدّثنا محمد بن سلمة بن هشام المخزومي حدّثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي حدثني أبي عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه، قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه وأهدوا له وأكرموه وذهب معهم إلى بيوتهم ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟ قلت: لا أرب لي فيه والله

لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه.

قال: فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل علي فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه قال: وإن فإنك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا ولكن قرشي. قال: فما يمنعك من الشيخ؟ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم. قال: فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غبوقه على صبوحه ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحَلُ؟ قلت: وهل بك من رحيل؟ قال: نعم! قال: فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين من همه ثم قال في الليلة الثالثة: ألا تحدث يا أبا سفيان؟ قلت: وهل بك من حديث؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك قال: أما إن ذلك لشيء لست فيه إنما ذلك لشيء وجلت به من منقلبي قلت: وهل لك من منقلب؟ قال: أي والله لأموتن ثم لأحيين قال: قلت: هل أنت قابل أمانتي؟ قال: على ماذا؟ قلت: على أنك لا تبعث ولا تحاسب قال: فضحك ثم قال: بلى! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق النار.

قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك؟ قال: لا علم لصاحبي بذلك لا فيّ ولا في نفسه قال: فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بِيَعِهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأةٍ من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه.

ثم قال: ألا ترحل؟ قلت: بلى إن شئت فرحلنا كذلك من بثه وحزنه ليالي. ثم قال لي: يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا؟ قلت: هل لي فيه قال: فسِرْ فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال: هيا صخر قلت: ما تشاء؟ قال: حدثني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم قلت: إي والله قال: ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله قال: وكريم الطرفين وسط في العشيرة؟ قلت: نعم قال: فهل تعلم قرشياً أشرف منه؟ قلت: لا والله لا أعلم قال: أمحوج هو؟ قلت: لا، بل هو ذو مال كثير قال: وكم أتى عليه من السن؟ فقلت: قد زاد على المائة قال: فالشرف والسن والمال أزرين به؟ قلت: ولم ذاك يزري به؟ لا والله بل يزيده خيراً قال: هو ذاك. هل لك في المبيت؟ قلت: هل لي فيه.

قال: فاضطجعنا حتى مر الثقل قال: فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ثم ارتحلنا منه فلما كان الليل قال لي: يا أبا سفيان قلت: ما تشاء؟ قال: هل لك في مثل البارحة؟ قلت: هل لي فيه. قال: فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال: هيا صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة قال: قلت: هيهاً فيه قال: أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله إنه ليفعل قال: وذو مال؟ قلت: وذو مال قال: أتعلم قرشياً أسود منه؟ قلت: لا والله ما أعلمه. قال: كم أتى له من السن؟ قلت: قد زاد على المائة قال: فإن السن والشرف والمال أزرين به؟ قلت: كلا والله ما أزرى به ذاك وأنت قائل شيئاً فقله. قال: لا تذكر حديثي حتى يأتي منه ما هو آت.

ثم قال: فإن الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر قال: هو رجل من العرب قلت: قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب قلت: وفينا بيت تحجه العرب قال: هو من إخوانكم من قريش فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه قلت: فإذا كان ما كان فصفه لي قال: رجل شابٌ حين دخل في الكهولة. بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده الملائكة قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها مصيبة وبقيت رجفة عامة فيها مصائب.

قال أبو سفيان: فقلت: هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلا مسناً شريفاً. قال أمية: والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول: إن قول النصراني حق. هل لك في المبيت؟ قلت: هل لي فيه قال: فبتنا حتى جاءنا الثقل ثم خرجنا حتى إذا كنا بيننا وبين مكة ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فإذا هو يقول: أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة. قال أبو سفيان. فأقبل عليّ أمية فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟ قلت: أرى والله وأظن أن ما حدّثك به صاحبك حق.

قال أبو سفيان: فقدمنا مكّة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً، فكنت بها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلّمون عليّ ويسألون عن بضائعهم، حتى جاءني محمد بن عبد الله، وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلّم عليّ ورحّب بي، وسألني عن سفرق ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام. فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته. فقالت لي هند: وما علمت شأنه؟ قلت وفزعت: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله.

فوقذتني وتذكّرت قول النصراني فوجمت حتى قالت لي هند: ما لك؟ فانتبهت فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا. قالت: بلى والله إنه ليقولنّ ذلك، ويُواتى عليه، وإنّ له لصحابة على دينه، قلت: هذا الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت لقيته، فقلت له: إنّ بضاعتك قد بلغت كذا وكذا، وكان فيها خير فأرسل فخذها، ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى علي وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إليّ بضاعته فأخذها، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره. ولم أنشب أن خرجت إلى اليمن، فقدمت الطائف، فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقلت له: يا أبا عثمان. قال: ما تشاء قلت: هل تذكر قول النصراني.؟ قال: أذكره فقلت: فقد كان. قال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: فالله يعلم لتصبّب عرقاً. ثم قال: والله يا أبا سفيان لعلّه إن صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأبلينّ الله عزّ وجلّ في نصره عذراً.

قال: ومضيت إلى اليمن، فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعت، قال: قد كان لعمري، قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً.

قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة

فوجدت أصحابه يُضربون ويُحقّرون، قال أبو سفيان: فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة، قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة.

وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب «الدلائل» [١١٦/٢، ١١٧] من حديث إسماعيل بن طريح به، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتمّ وأطول والله أعلم.

وقال الطبراني [الكبير: ٧٢٦٢]: حدّثنا بكر بن أحمد بن مقبل حدّثنا عبد الله بن شبيب حدّثنا يعقوب بن محمد الزهري حدّثنا مجاشع بن عمرو الأسدي حدّثنا ليث بن سعد عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبي سفيان عن أبي سفيان بن حرب: أن أمية بن أبي الصلت كان بغزة أو بإيلياء، فلما قفلنا قال لي أمية: يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفقة فتحدث؟ قلت نعم قال: ففعلنا فقال لي: يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة قال: كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم؟ قلت: نعم. قال: وشريف مسن؟ قلت: وشريف مسن قال: السن والشرف أزريا به. فقلت له: كذبت ما ازداد سناً إلا ازداد شرفاً. قال: يا أبا سفيان إنها كلمة ما سمعت أحداً يقولها لي منذ تبصرت فلا تعجّل عليّ حتى أخبرك قال: قلت: هات قال: إني كنت أجد في كتبي نبياً يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا أشك أني أنا هو فلما دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة فلما أخبرتني بسنه عرفت إنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه.

قال أبو سفيان: فضرب الدهر من ضربه فأوحي إلى رسول الله ﷺ وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت له كالمستهزئ به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته قال: أما إنه حق فاتبعه قلت: ما يمنعك من إتباعه؟ قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف. ثم قال أمية: وكأني بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد.

وقال عبد الرازق [تفسيره: ٣٤٣/٢]: أخبرنا معمر عن الكلبي قال: بينا أمية راقد ومعه ابنتان له إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه فقال لها: ما شأنك؟ قالت: رأيت نسرين كشطا سقف البيت فنزل أحدهما إليك فشق بطنك والآخر واقف على ظهر البيت فناداه فقال: أوَعَى؟ قال وعى. قال: أزكا؟ قال لا فقال: ذاك خير أريد بأبيكما فلم يقبله.

وقد روي من وجه آخر بسياق آخر فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكانت ذات لب وعقل وجمال وكان رسول الله ﷺ بها معجباً فقال لها ذات يوم: «يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟» فقالت نعم وأعجب منه ما قد رأيت. قالت: كان أخي في سفر فلما انصرف بدأبي فدخل على فرقد على السرير وأنا أحلق أديماً في يدي إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين فوقع على الكوة إحدهما ودخل الآخر فوقع عليه فشق الواقع عليه ما بين قصّه إلى عانته ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفه ثم شمه فقال له الطائر الآخر: أوَعَى قال: وعى قال: أزكا؟ قال: أبى ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين ثم ذهبا فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته فقلت: هل تجد شيئاً؟ قال: لا إلا توهيناً في جسدي - وقد كنت ارتعبت مما رأيت - فقال: ما لي أراك مرتاعة؟ قالت: فأخبرته الخبر فقال: خير أريد بي ثم صرف عني. ثم أنشأ يقول: [ديوان أمية: ٥٠، ٥١]

باتت همومي تسري طوارقها ... أكفّ عيني والدمعُ سابقُها
مما أتاني من اليقين ولم ... أوتَ براءةً يقص ناطقها
أم من تلظّى عليه واقدة ... النار محيطٌ بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التي وعد ... الأبرار مصفوفة نمارقها
لا يستوي المنزلان ثَمّ ولا ... الأعمالُ لا تستوي طرائقُها
هما فريقان فرقةٌ تدخلُ ... الجنّة حفّتْ بهم حدائقها
وفرقةٌ منهم قد أُدخلت ... النارَ فساءتهمْ مرافقها
تعاهدتْ هذه القلوبُ إذا ... همت بخيرٍ عاقتْ عوائقُها
وصدّها للشقاء عن طلب ... الجنة دنيا اللّهُ ماحقُها
عبدٌ دعا نفسَه فعاتَبها ... يعلم أنّ البصير رامقُها
ما رَغْبةُ النفس في الحياة ... وإن تحيى قليلاً فالموتُ لاحقها
يوشِكُ منْ فرّ من منيّته ... يوماً على غرّةٍ يوافقها
مَنْ لم يمتْ غبطةً يمتْ هرماً ... للموتِ كأسٌ والمرء ذائقها

قالت: ثم انصرف إلى رحله فلم يلبث إلا يسيراً حتى طعن في جنازته فأتاني الخبر فانصرفت إليه فوجدته منعوشاً قد سجي عليه فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته. وقال:

لبيكما لبيكما ... ها أنا ذا لديكما

لا ذو مال فيفديني ولا ذو أهل فتحميني.

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقلت: قد هلك الرجل. فشق بصره نحو السقف فرفع صوته. فقال:

لبيكما لبيكما ... ها أنا ذا لديكما

لا ذو براءة فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأنتصر.

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف. فقال:

لبيكما لبيكما ... ها أنا ذا لديكما
بالنعم محفود ... وبالذنب محصود

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة. فقال:

لبيكما لبيكما ... ها أنا ذا لديكما
إنْ تغفرِ اللّهُمّ تغفر جمّا ... وأي عبدٍ لكَ لا ألمّا

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال: [ديوان أمية: ٥٥]

كل عيشٍ وإن تطاول دهراً ... صائرٌ مرّةً إلى أن يزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما قدْ بدا لي ... في قلالِ الجبالِ أرعى الوعولا

قالت: ثم مات. فقال رسول الله ﷺ: «يا فارعة فإن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾» الآية [تاريخ دمشق: ٢٨٢/٩ - ٢٨٤].

وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٥/٩ - ٢٨٧] عن الزهري أنه قال: قال أمية ابن أبي الصلت: [ديوان أمية: ٤٦]

ألا رسولٌ لنا منّا يخبّرنا ... ما بعدَ غايتنا منْ رأسِ مجرانا

قال ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين وتنبأ رسول اللّه ﷺ وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ثم قدم الطائف فقال لهم: ما يقول محمد بن عبد اللّه؟ قالوا: يزعم أنه نبي فهو الذي كنت تتمنى. قال: فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه. فقال: يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول؟ قال «أقول: إني رسول اللّه وأن لا إله إلا هو». قال: إني أريد أن أكلمك فعدني غداً قال: «فموعدك غداً» قال: فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «أي ذلك شئت». قال فإني آتيك في جماعة فأت في جماعة.

قال: فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش قال: وغدا رسول اللّه ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة. قال: فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر حتى إذا فرغ قال: أجبني يا ابن عبد المطلب. فقال رسول اللّه ﷺ: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[يس: ١، ٢] حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه قال: فتبعته قريش يقولون: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق. فقالوا: هل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره قال: ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول اللّه ﷺ المدينة فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً ثم ترحل يريد رسول اللّه ﷺ فقال قائل: يا أبا الصلت ما تريد؟ قال: أريد محمداً قال: وما تصنع؟ قال: أؤمن به وألقي إليه مقاليد هذا الأمر. قال: أتدري من في القليب؟ قال: لا قال: فيه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال: فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول: [طبقات فحول الشعراء: ٢٦٣/١]

مـا ذا ببـدر فالعقنـ ـقل من مرازبة حجاجح

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بدر إن شاء اللّه. ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام. ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم وأنشد شعره عند الوفاة:

كـل عيش وإن تطاول دهـراً صـائرٌ مـرةً إلى أن يـزولا
ليتني كنت قبلَ مـا قـد بـدا لي في قِلال الجبال أرعى الوعـولا
فاجعل الموتَ نصْبَ عينيك واحذر غَوْلَةَ الدهـر إنَّ للدهـر غـولا
نائلاً ظفرُها القساورَ والصدعـان والطفـلَ في المنـار الشـكيلا
وبغـاثَ النيـاف واليعفـر النـا فرَ والعوهجَ البرامَ الضئيلا

فقوله: القساور جمع قسورة وهو الأسد. والصدعان: ثيران الوحش واحدها صدع. والطفل الشكل: من حمرة العين، والبغاث: الرخم، والنياف: الجبال، واليعفر: الظبي، والعوهج: ولد النعامة. يعني: أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ولا الرخم الساكنة في رؤوس الجبال ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره. وقد تكلم الخطابي وغيره على غريب هذه الأحاديث.

وقد ذكر السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام» [١١٣، ١١٤] أن أمية بن أبي الصلت أول من قال: باسمك اللّهم، وذكر عند ذلك قصة غريبة وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان قال: فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها فذهبت وشردت كل مذهب وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردوها فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل فذهبوا في طلبها فلما أعياهم ذلك قالوا: واللّه هل عندك لما نحن فيه من مخرج؟ فقال: لا واللّه ولكن سأنظر في ذلك.

قال: فساروا في تلك المحلة لعله يجد أحداً يسأله عما قد حل بهم من العناء إذا نار تلوح على بعد فجاءها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً وإذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة فسلموا عليه فسألهم عما هم فيه فقال: إذا جاءتكم فقل: باسمك اللّهم فإنها تهرب فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية: باسمك اللّهم فشردت ولم يقر لها قرار لكنَ عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية فقبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ففي ذلك يقول الجان:

وقـبرُ حـربٍ بمكـان قفـرٍ وليس قُـربَ قـبرِ حـربٍ قـبرُ

وذكر بعضهم: أنه كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوانات فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه: إن هذا يقول كذا وكذا فيقولون: لا نعلم صدق ما يقول حتى مروا على قطيع غنم قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها فالتفتت إليه فثغت كأنها تستحثه. فقال: أتدرون ما تقول له؟ قالوا: لا قال: إنها تقول: أسرع بنا لا يجيء الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول فأسرعوا حتى سألوا الراعي: هل أكل له الذئب عام أول حملاً بتلك البقعة فقال: نعم. قال: ومر يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو. فقال: إنه يقول لها إنك رحلتيني وفي الحداجة مخيط فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال [تاريخ دمشق: ٢٧٢/٩، ٢٧٣].

وذكر ابن السكيت: أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب. فقال له: بفيك التراب مرتين. فقيل له: ما يقول؟ فقال: إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذي في يدك ثم تتكئ فتموت. ثم نعب الغراب مرة أخرى فقال: إنه يقول: وآية ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم في حلقي فأموت. ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات. فقال أمية: أما هذا فقد صدق في نفسه ولكن سأنظر هل يصدق في أم لا. ثم شرب ذلك الكأس الذي في يده ثم اتكأ فمات.

وقد ثبت في «الصحيح» [خ (٦١٤٧)، م (٢٢٥٦)] من حديث ابن مهدي عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل. وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

وقال الإمام أحمد [٣٨٩/٤]: حدّثنا روح حدّثنا زكريا بن إسحاق حدّثنا إبراهيم بن ميسرة إنه سمع عمرو بن الشريد يقول: قال الشريد: كنت ردفاً لرسول اللّه ﷺ فقال لي: «أمعك من شعر أمية ابن أبي الصلت شيء؟» قلت نعم. قال: «فأنشدني» فأنشدته بيتاً فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً: «إيه» حتى أنشدته مائة بيت. قال: ثم سكت النبي ﷺ وسكتُ.

وهكذا رواه مسلم [م (٢٢٥٥)] من حديث سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة به.

ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ. وفي بعض الروايات [خ (٣٨٤١، ٦١٤٧)، م (٢٢٥٥)، المسند: ٣٨٨/٤] فقال رسول اللّه: «إن كاد يسلم.»

وقال يحيى بن محمد بن صاعد: حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدّثنا أبو أسامة حدّثنا حاتم ابن أبي صغيره عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع عن الشريد الهمداني ـ وأخواله ثقيف ـ قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في حجة الوداع فبينا أنا أمشي ذات يوم إذا وقع ناقة

خلفي فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فقال «الشريد؟» فقلت: نعم: قال: «الا احملك؟» قلت: بلى وما بي إعياء ولا لغوب ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ فحملني فقال: «أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت؟» قلت: نعم. قال: «هات» فأنشدته ـ قال: أظنه قال ـ مائة بيت فقال: «عند الله علم أمية بن أبي الصلت» [تاريخ دمشق: ٩/٢٦٨، ٢٦٩].

ثم قال ابن صاعد: هذا حديث غريب.

فأما الذي يروى أن رسول الله ﷺ قال في أمية: «آمن شعره وكفر قلبه». فلا أعرفه والله أعلم [تاريخ دمشق: ٩/٢٧٢].

وقال الإمام أحمد [١/٢٥٦]: حدّثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدّثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره قال:

رجلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينه ... والنَّسرُ للأخرى وليثٌ مرصد

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». وقال:

والشمس تطلع كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبح لونها يتورّد

تأبى فما تَطلُعْ لنا في رِسلها ... إلا معذّبةً وإلا تُجلد

فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وفي رواية أبي بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقول لها: اطلعي اطلعي فتقول: لاأطلع على قوم يعبدونني من دون الله فإذا همّت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها فتطلع بين قرنيه وتحرقه فإذا تضيفت للغروب غربت على السجود لله عز وجل فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود فتغرب من قرنيه وتحرقه. أورده ابن عساكر مطولاً [تاريخ دمشق: ٩/٢٧٢].

ومن شعره في حملة العرش:

فمن حاملٍ إحدى قوائم عرشِه ... ولولا إلهُ الخلقِ كلّوا وبلّدوا

قيامٌ على الأقدام عانونَ تحته ... فرائصهم من شدّة الخوف تُرعد

رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٩/٢٧٩، ٢٨٠].

وروي عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية:

مجّدوا اللّه فهو للمجدِ أهلٌ ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سَبَق الناس ... وسوّى فوقَ السماء سريرا

شرجعاً لا يناله بصرُ العين ... ترى دونه الملائكَ صورا

ثم يقول الأصمعي: الملائك جمع ملك والصور جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش [تاريخ دمشق: ٩/٢٧٧].

ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمي:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤكَ إن شيمتك الحياءُ

وعلمُك بالحقوق وأنتَ فرعٌ ... لك الحسَبُ المهذّبُ والسناء

كريمٌ لا يغيّره صباحٌ ... عن الخُلُق الجميل ولا مساء

يباري الريحَ مكرمةً وجوداً ... إذا ما الكلبُ أجحره الشتاء

وأرضُك أرضُ مَكرمةٍ بنتها ... بنو تَيْم وأنتَ لها سماء

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه من تعرّضه الثناء

وله فيه مدائح أُخر.

وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدحين المشهورين وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها، وكان يملأها لباب البر يلبك بالشهد والسمن، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب.

وقد سألت عائشة عنه النبي ﷺ: أينفعه ذلك؟ فقال: «إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

ومن شعر أمية البليغ:

لا ينكِثون الأرض عند سؤالهم ... كتطلّب العِلات بالعيدان

بل يُسفِرون وجوهَهم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان

وإذا المقلّ أقام وسْط رحالهم ... ردّوه ربَّ صواهلٍ وقيان

وإذا دعوتهمُ لكلّ مُلمّةٍ ... سدّوا شعاعَ الشمسِ بالفرسان

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت.

٢٥- بَحِيرى الراهب

الذي توسم في رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة فرأى الغمامة تظله من بينهم. فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتي بيان ذلك في السيرة.

وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك.

وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرى ولم يورد ما رواه الترمذي وهذا عجب.

وذكر ابن عساكر أن بحيرى كان يسكن قرية يقال لها: الكفر بينها وبين بصرى ستة أميال وهي التي يقال لها: دير بحيرى. قال: ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها: منفعة بالبلقاء وراء زيرا والله أعلم.

٢٦- ذكر قُسّ بن ساعدة الإيادي

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب «هواتف الجان: حدّثنا داود القنطري حدّثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو عبد الله المشرقي عن أبي الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلي عن عبادة بن الصامت. قال: لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: «يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادي؟» قالوا: هلك يا رسول الله. قال: «لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه».

فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: فسر النبي ﷺ بذلك قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ أقسم قس بالله قسماً لا ريب فيه. إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأوليـ ... ـن من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ موارداً ... للموت ليس لها مصادر

ورأيــتُ قومــي نحوهـــا … يمضـــي الأصـــاغرُ والأكـــابر
لا مَـــن مضـــى يـــأتي إليـــ … ـــك ولا مـــن البـــاقين غـــابر
أيقنــتُ أنـــي لا محالـــةَ … حيـــثُ صـــار القـــومُ صـــائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه [دلائل النبوة للبيهقي: ٢/١٠١].

وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه المعجم الكبير [(١٢٥٦١)]: حدّثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي حدّثنا محمد بن حسان السمتي حدّثنا محمد بن الحجاج عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس. قال: قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال: «أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادي؟» قالوا: كلنا يعرفه يا رسول اللّه قال: «فما فعل؟» قالوا هلك قال: «فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. أقسم قس قسماً حقاً لئن كان في الأمر رضى ليكون بعده سخط. إن للّه لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تركوا فناموا!» ثم قال رسول اللّه ﷺ «أفيكم من يروي شعره؟» فأنشده بعضهم:

في الذاهبـــين الأوليـــ … ـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر
لمـــا رأيـــتُ مـــوارداً … للمـــوت ليـــس لهـــا مصـــادر
ورأيـــتُ قومـــي نحوهـــا … يســـعى الاصـــاغرُ والأكـــابر
لا يرجـــع المـــاضي إلي … ولا مـــن البـــاقين غـــابر
أيقنـــتُ أنـــي لا محالـــةَ … حيـــثُ صـــار القـــومُ صـــائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» [٢/١٠٤] من طريق محمد بن حسان السمتيّ به.

وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد اللّه بن جعفر بن درستويه في أخبار قس قال: حدّثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعاقولي عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج وهو إبراهيم الواسطي نزيل بغداد ويعرف بصاحب الفريسة الهريسة به.

وقد كذبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي والدارقطني واتهمه غير واحد منهم ابن عدي بوضع الحديث. وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا [كشف الأستار (٢٧٥٩). دلائل النبوة للبيهقي: ٢/١٠٤].

ورواه ابن درستويه وأبو نعيم [الدلائل: ٥٥] من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهذا الطريق أمثل من التي قبلها وفيه أن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدي رسول اللّه ﷺ:

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الحطمي: حدّثنا علي بن الحسين بن محمد المخزومي حدّثنا أبو حاتم السجستاني حدّثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: قدم وفد بكر بن وائل على رسول اللّه ﷺ فقال لهم: «ما فعل حليف لكم يقال له: قس بن ساعدة الأيادي؟» وذكر القصة مطولة

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً قال: أجاز لنا جعفر بن علي الهمداني قال: أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي سماعاً.

وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد اللّه الذهبي أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً قال: أنا جعفر بن علي سماعاً قال: أنا السلفي سماعاً أنا أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي أنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي أنا أبو القاسم عبيد اللّه بن أحمد بن علي المقرئ حدّثنا أبو محمد عبد اللّه بن جعفر بن درستويه النحوي قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدي - قاضي فارس - حدّثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي - من أهل حران - حدّثنا أبو عمرو سعيد بن بزيع عن محمد بن إسحاق حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال: كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها عالماً بسير الفرس وأقاويلها بصيراً بالفلسفة والطب ظاهر الدهاء والأدب كامل الجمال ذا ثروة ومال وإنه قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي آراء وأسنان وفصاحة وبيان وحجج وبرهان فلما قدم على النبي ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول:

يـا نبـيَّ الهُـدى أتتـك رجـالٌ … قطعــت فدفــداً وآلاً فــآلا
وطوتْ نحـوك الصحـاصحَ تهـوي … لا تعـدُّ الكـلالَ فيـك كـلالا
كـل بهمـاء قصّـر الطـرفُ عنهـا … أرقلتْهـا قِلاصُنـا إرقـالا
وطوتهـا العتـاقُ يجمـح فيهـا … بكُمـاةٍ كـأنجم تتـلالا
تبتغي دفـع بـأسِ يـومٍ عظيـمٍ … هـائلٍ أوجـعَ القلـوبَ وهـالا
ومـزاداً لمحشـر الخلـق طُـراً … وفراقـاً لمـن تمـادى ضـلالا
نحـو نـورٍ مـن الإلـه وبرهـانٍ … وبـرٍّ ونعمـةٍ أن تنـالا
خصّكَ اللّـه يـا ابـن آمنـة الخيـر … بهـا إذ أتـت سـجالاً سـجالا
فـاجعلِ الحظ منكَ يـا حجـة اللـ … ـه جزيـلاً لا حـظَّ خُلْـفٍ أحـالا

قال فأدناه النبي ﷺ وقرب مجلسه وقال له: «يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك.» فقال الجارود: فداك أبي وأمي أما من تأخر عنك فقد فاته حظه وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحوب؟ ويرضي الرب عن المربوب؟ فقال له رسول اللّه ﷺ: «أنا ضامن لك ذلك وأخلص الآن للّه الوحدانيه ودع عنك دين النصرانية.».

فقال الجارود: فداك أبي وأمي مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لاشريك له وأشهد أنك محمد عبده ورسوله. قال: فأسلم وأسلم معه أناس من قومه فسر النبي ﷺ بإسلامهم، وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به.

ثم اقبل عليهم رسول اللّه ﷺ فقال: «أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادي؟» فقال الجارود: فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره.

كان قس يا رسول اللّه سبطاً من أسباط العرب عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار يضج بالتسبيح على مثال المسيح لا يقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار. كان يلبس الأمساح ويفوق السياح، ولا يفتر من رهبانيته يتحسى في سياحته بيض النعام ويأنس بالهوام، ويستمتع بالظلام، يبصر فيعتبر، ويفكر فيزدجر، فصار لذلك واحداً

تضرب بحكمته الأمثال، وتكشف به الأهوال. أدرك رأس الحواريين سمعان.

وهو أول رجل تألّه من العرب ووحّد، وأقر وتعبد وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوء المآب، وأمر بالعمل قبل الفوت، ووعظ بالموت وسلم بالقضا، على السخط والرضا، وزار القبور، وذكر النشور، وندب بالأشعار، وفكر في الأقدار، وأنبأ عن السماء والنماء، وذكر النجوم وكشف الماء، ووصف البحار، وعرف الآثار، وخطب راكباً، ووعظ دائباً، وحذّر من الكرب، ومن شدة الغضب، ورسّل الرسائل وذكر كل هائل، وأرغم في خطبه، وبين في كتبه، وخوف الدهر، وحذر الأزر، وعظم الأمر، وجنب الكفر، وشوق إلى الحنيفية، ودعا إلى اللاهوتية.

وهو القائل في يوم عكاظ: شرق وغرب، ويتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وأقمار ورياح وأمطار، وليل ونهار، وإناث وذكور، وأبرار وفجور، وحب ونبات، وآباء وأمهات وجمع وأشتات، وآيات في إثرها آيات، ونور وظلام، ويسر وإعدام، ورب وأصنام، لقد ضل الأنام، نشوء مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقير وغني، ومحسن ومسيء، تباً لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل أمله، كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، رب الآخرة والأولى.

أما بعد: فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له معاد يقسم قُس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التناد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير. وهو القائل:

ذكّر القلبَ من جواه ادّكارُ ... وليالٍ خلا لهنّ نهار
وسجال هواطل من غمام ... ثرن ماء وفي جواهنّ نار
ضوءها يطمس العيون وإرعاد ... شداد في الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخير ... وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات ... وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح في ظلم الليل ... نراها في كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الليل ... وكل متابع موّار
وصغير وأشمط وكبير ... كلهم في الصعيد يوماً مزار
كثير مما يقصر عنه ... حدسه الخاطر الذي لا يحار
فالذي قد ذكرت دل على الله ... نفوساً لها هدى واعتبار

قال فقال رسول الله ﷺ: «مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس: اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبر وآثام، إن في السماء خبراً، وإن في الأرض عبراً، يحار فيهن البصرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تفور، ومنايا دوان، ودهر خوان، كحد النسطاس، ووزن القسطاس. أقسم قس قسماً، لا كاذباً فيه ولا آثماً، لئن كان في هذا الأمر رضى، ليكونن سخط. ثم قال: أيها الناس إن للّه ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه. ثم قال: ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا!».

والتفت رسول اللّه ﷺ إلى بعض أصحابه فقال: «أيكم يروي شعره لنا؟» فقال أبو بكر الصديق: فداك أبي وأمي أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... يمضي الأصاغرُ والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ... ولا من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالةَ ... حيثُ صار القومُ صائر

قال: فقام إلى رسول اللّه ﷺ شيخ من عبد القيس عظيم الهامة، طويل القامة، بعيد ما بين المنكبين فقال: فداك أبي وأمي وأنا رأيت من قس عجباً. فقال له رسول اللّه ﷺ: «ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس؟» فقال: خرجت في شبيبتي أربع بعيراً لي فقرّ مني فذهبت أقفو أثره في تنائف قفاف ذات ضغابيس وعرصات جثجاث بين صدور جذعان، وغمير حوذان، ومهمه ظلمان، ورصيع أيهقان، فبينا أنا في تلك الفلوات أجول بسبسبها وأرنق فدفدها إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كباث مخضوضلة وأغصانها متهدلة كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة، وشجرة عارمة، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب.

فدنوت منه وقلت له: أنعم صباحاً. فقال: وأنت فنعم صباحك. وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذي بيده. وقال: اصبر حتى يشرب الذي قبلك فذعرت من ذلك ذعراً شديداً، ونظر إليّ فقال: لا تخف.

وإذا بقبرين بينهما مسجد فقلت: ما هذان القبران؟ قال: قبرا أخوين كانا يعبدان اللّه عز وجل بهذا الموضع فأنا مقيم بين قبريهما أعبد اللّه حتى ألحق بهما فقلت له: أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم؟ فقال لي: ثكلتك أمك أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول:

خليليَّ هُبّا طالما قد رقَدْتُما ... أجِدَّكما لا تَقضيان كَراكُما
أرى النومَ بين الجلد والعَظْم منكما ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما
أمِن طول نومٍ لا تُجيبان داعياً ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما
ألم تعلما أني بنجرانَ مفرَداً ... وما لي فيه من حبيبٍ سواكما
مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً ... إيابَ الليالي أو يجيبَ صَداكما
أأبكيكما طولَ الحياة وما الذي ... يردّ على ذي لوعةٍ أن بكاكما
فلو جُعلتْ نفس لنفس امرئ فدً ... لجُدتُ بنفسي أن تكونَ فداكما
كأنكما والموتُ أقربُ غايةٍ ... بروحيَ في قَبريكما قد أتاكما

قال فقال رسول اللّه ﷺ: «رحم اللّه قُساً أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة.».

وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود والله أعلم.

وقد رواه البيهقي [دلائل النبوة: ١٠٥/٢]: والحافظ أبو القاسم ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٢٨/٣] من وجه آخر من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن سعيد القرشي الأخباري: ثنا أبي ثنا علي بن سليمان عن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. قال: قدم الجارود بن عبد الله فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال: فبت في واد لا آمن فيه حتفي، ولا أركن إلى غير سيفي، فبت أرقب الكوكب، وأرمق الغيهب، حتى إذا الليل عسعس، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف بي هاتف يقول:

يـا أيهـا الراقـدُ في الليـلِ الأجـمْ ... قـد بعـثَ اللّـه نبيـاً في الحَـرَمْ
مـن هاشـم أهـلِ الوفـاء والكـرمْ ... يجلـو دُجُنّـات الديـاجي والبهـمْ

قال: فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً، قال: فأنشأت أقول:

يـا أيهـا الهـاتفُ في داجـي الظُّلَـم ... أهلاً وسهلاً بك من طيـفٍ ألَـمّ
بيّـن هَـداك اللّـهُ في لحـنِ الكلِـم ... مـاذا الـذي تدعـو إليـه يُغتنـم

قال: فإذا أنا بنحنحة وقائلٍ يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً بالحبور، صاحب النجيب الأحمر، والتاج والمغفر، والوجه الأزهر، والحاجب الأقمر، والطرف الأحور صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله فذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر ثم أنشأ يقول:

الحمـدُ للّـه الـذي ... لم يخلـقِ الخلـقَ عبـثْ
لم يُخلِنـا يومـاً سُـدًى ... من بعدِ عيسى واكـترث
أرسـلَ فينـا أحمـداً ... خـيرَ نـبيٍّ قـد بُعـث
صلـى عليـه اللّـه مـا ... حـجّ لـه ركـبٌ وحـثّ

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة:

يـا نـاعيَ المـوتِ والملحـودِ في جـدثٍ ... عليهـمُ مـن بقايـا بزّهـم خِـرَقُ
دعهـم فـإنّ لهـم يومـاً يصـاح بهـم ... فهـم إذا انتبهـوا مـن نومهـم أرقـوا
حتـى يعـودوا بحـالٍ غـيرِ حـالهمُ ... خلقاً جديداً كما مـن قبلـه خُلقـوا
منهـم عُـراة ومنهـم في ثيـابهمُ ... منهـا الجديـدُ ومنهـا المنهجُ الخَلَـقُ

ثم رواه البيهقي [الدلائل: ١٠٢/٢] عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهاني: حدثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الإخميمي بمكة ثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

فذكر القصة وذكر الإنشاد قال: فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها:

يـا نـاعيَ المـوتِ والأمـوات في جـدثٍ ... عليهـمُ مـن بقايـا ثوبهـم خِـرَقُ
دعهـم فـإنّ لهـم يومـاً يصـاح بهـم ... كمـا يُنبـه مـن نوماتـه الصعِـق
منهـم عُـراة وموتـى في ثيـابهمُ ... منهـا الجديـدُ ومنهـا الأزرق الخَلَـق

فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث».

وأصله مشهور، وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة وقد تكلم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذه الأحاديث.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٠١/٢]: أنا أبو سعد بن محمد بن أحمد الشعيثي ثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمد اباذي لفظاً ثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأبيوردي ثنا أبي ثنا سعيد بن هبيرة ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس ابن مالك قال: قدم وفد إياد على النبي ﷺ فقال: «ما فعل قس بن ساعدة؟»، قالوا: هلك. قال «أما إني سمعت منه كلاماً أرى أني لا أحفظه».

فقال بعض القوم: نحن نحفظه يا رسول الله قال «هاتوا»: فقال قائلهم: إني واقف بسوق عكاظ فقال: يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرسية وأنهار مجرية إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركو فناموا؟ أقسم قس قسماً بالله لا إثم فيه، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ثم أنشأ يقول:

في الذاهبـيـن الأوليـ ... ـن من القرون لنا بصائر
لمـا رأيـتُ مـوارداً ... للموت ليس لهـا مصـادر
ورأيـتُ قومـي نحوهـا ... يمضي الأكـابر والأصـاغر
أيقنـتُ أنـي لا محـا ... لةَ حيثُ صار القومُ صائر

ثم ساقه البيهقي من طرق أخر قد نبهنا عليها فيما تقدم ثم قال بعد ذلك كله: وقد روي هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان.

وروي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً.

وروي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة.

قلت: وعبادة بن الصامت - كما تقدم - وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم في كتاب «الدلائل» عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره.

وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبي وقاص.

ثم قال البيهقي: وإذا روي الحديث من أوجه أخر وإن كان بعضها ضعيفاً دل على أن للحديث أصلاً والله أعلم.

٢٧- زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي.

وكان الخطاب - والد عمر بن الخطاب - عمه وأخاه لأمه. وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه وكان لها من نفيل أخوه الخطاب قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق [تاريخ دمشق: ٤٩٤/١٩، ٤٩٥].

وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم وكان لا يأكل الا ما ذبح على اسم الله وحده.

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل

مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللّهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته.

وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به [تاريخ دمشق: ١٩/٥٠٥].

وزاد: وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم.

وكان يحيي الموؤدة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها ادفعها إليّ أكفلها فإذا ترعرعت قال: إن شئت فخذها وإن شئت فادفعها. أخرجه النسائي [(٨١٨٧)] من طريق أبي أسامة.

وعلقه البخاري [(٣٨٢٨)] فقال: وقال الليث: كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [السيرة: ٩٥، ٩٦]: وقد كان نَفَر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة. وأمه أميمة بنت عبد المطلب. وأخته زينب بنت جحش - التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتي بيانه - حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا: تصادقوا وليكتم بعضهم على بعض. فقال قائلهم: تعلمن والله ما قومكم على شيء لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم.

فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها يسألونهم الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب.

ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل شأناً من زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه باداهم بالفراق لما هم فيه. قال [سيرة ابن إسحاق: ٩٧]: وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم فقال: لا تتركوه يدخل مكة فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم أو يتابعه أحد على ما هو عليه.

وقال موسى بن عقبة: سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض لم تذبحوها على غير اسم الله؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

وقال يونس عن ابن إسحاق: وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكة يضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فقال له الراهب: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظلك خروج نبي وهذا زمانه.

وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقه يرثيه:

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما ... تجنبتَ تنوراً من النار حاميا
بدينكَ رباً ليس ربٌّ كمثلهِ ... وتركك أوثانَ الطواغي كما هيا
وقد تُدرك الإنسانَ رحمةُ ربه ... ولو كان تحتَ الأرض ستين واديا

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة: حدثنا أحمد بن طارق الوابشي ثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل: أنه كان يتأله في الجاهلية فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود فقال له: أحب أن تدخلني معك في دينك. فقال له اليهودي: لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله. فقال: من غضب الله أفر.

فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له: أحب أن تدخلني معك في دينك، فقال: لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة. فقال: من الضلالة أفر. قال له النصراني: فإني أدلك على دين إن تبعته اهتديت. قال: أي دين؟ قال: دين إبراهيم قال: فقال: اللّهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه أحيى وعليه أموت.

قال: فذكر شأنه للنبي ﷺ فقال: «هو أمة وحده يوم القيامة» [تاريخ دمشق: ١٩/٤٩٨].

وقد روي موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا [خ (٣٨٢٧)].

وقال محمد بن سعد: حدثنا علي بن محمد بن عبد الله بن سيف القرشي عن إسماعيل بن مجالد عن الشعبي عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشام وما والاه حتى أتيت راهباً في صومعة فوقفت عليه فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية. فقال لي: أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة إنك لتطلب ديناً ما يوجد اليوم أحد يدين به وهو دين أبيك إبراهيم كان حنيفاً لم يكن يهودياً ولا نصرانياً كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية وهو أكرم الخلق على الله [تاريخ دمشق: ١٩/٤٩٨].

وقال يونس عن ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٩٦، سيرة ابن هشام: ١/٢٣٠]: حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل: إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم، إذ قال:

أنفي لك اللّهمّ عانٍ راغمُ ... مهما تُجشّمني فإني جاشمُ

البر أبغي لا الخال، ليس مهجر كمن قال.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند الطيالسي: ٢٣٤]: حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عن أبيه عن جده أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو: من أين أقبلتيا صاحب البعير؟ فقال: من بنية إبراهيم، فقال: وما تلتمس؟ قال ألتمس الدين، قال: ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك. قال:

فأما ورقة فتنصر وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول:

لبيكَ حقّاً حقّاً تعبُّداً ورقّا
البر أبغي لا الخال فهل مهجِّر كمَن قال

آمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول:

أنفي لكَ اللّهمّ عانٍ راغمُ مهما تُجشِّمْني فإني جاشمُ

ثم يخر فيسجد.

قال وجاء ابنه يعني سعيد بن زيد أحد العشرة ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له، قال: «نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحدة».

قال: وأتى زيد بن عمرو على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما، فدعواه لطعامهما فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي أنا لا آكل مما ذبح على النصب.

وقال محمد بن سعد: حدّثنا محمد بن عمر حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبي مليكة عن حجير بن أبي إهاب. قال: رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعد ما رجع من الشام وهو يراقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام وأنا أصلي إلى هذا البيت حتى أموت.

وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لا شريك لك ولا ند لك ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول: لبيك متعبداً مرقوقاً [طبقات ابن سعد: ٣٧٩/٣، ٣٨٠].

وقال الواقدي: حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ فإن طالت بك مدة فرأيته فاقرئه مني السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك.

قلت: هلم قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليست تفارق عينه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك ويقولون: لم يبق نبي غيره.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام فردّ عليه السلام وترحّم عليه وقال: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً» [تاريخ دمشق: ٥٠٤/١٩]

وقال البخاري في صحيحه [(٣٨٢٦ - ٣٨٢٨)]: ذكر زيد بن عمرو بن نفيل:

حدثنا محمد بن أبي بكر حدّثنا فضيل بن سليمان حدّثنا موسى بن عقبة حدثني سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدّمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها. ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه. وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ثم يذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك واعظاماً له.

قال موسى بن عقبة: وحدثني سالم بن عبد الله - ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر - أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفرّ إلا من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيعه فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال زيد: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من الضلالة من لعنة الله قال: ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ولا استطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللّهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم.

قال: وقال الليث: كتب إلي هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري.

وكان يحيي الموؤدة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها انتهى ما ذكره البخاري.

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥٠٥/١٩] من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسى بن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن أسماء فذكر نحوه.

وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء قالت: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا فإنه يورث الفقر [تاريخ دمشق: ٥١٢/١٩، ٥١٣].

وقد ساق ابن عساكر ههنا أحاديث غريبة جداً وفي بعضها نكارة شديدة [تاريخ دمشق: ٤٨٢/١٩ - ٥١٦].

ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يبعث يوم القيامة أمة وحدة».

فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدّثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول: إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم ويسجد. فقال رسول الله ﷺ «يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم» [تاريخ دمشق: ٥١١/١٩].

إسناده جيد حسن.

وقال الواقدي: حدثني موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل فقال: توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين، ولقد نزل به وإنه ليقول: أنا على دين إبراهيم.

فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله ﷺ.

وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: «غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم».

قال: فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب: رحمه الله وغفر له [تاريخ دمشق: ٥١٢/١٩].

وقال محمد بن سعد عن الواقدي: حدثني زكريا بن يحيى السعدي عن أبيه قال: مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء.

وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له: ميفعة. والله أعلم [طبقات ابن سعد: ٣٨١/٣].

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج عن أبي معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين» [تاريخ دمشق: ٥١٢/١٩].

وهذا إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب.

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة:

إلى الله أُهدي مِدْحتي وثنائيا ... وقولاً رضيّاً لا يني الدهرَ باقيا
إلى الملكِ الأعلى الذي ليس فوقَه ... إلـهٌ ولا ربٌ يكونُ مدانيا

وقد قيل: إنها لأمية بن أبي الصلت والله أعلم.

ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق [السيرة: ٩٧] والزبير بن بكار [تاريخ دمشق: ٥١٦/١٩ من طريق الزبير بن بكار] وغيرهما:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقالا
دَحاها فلمّا استوتْ شدّها ... سواءً وأرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المزنُ تحملُ عَذباً زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدةٍ ... أطاعتْ فصبّت عليها سِجالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريحُ تُصرّف حالاً فحالا

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ٩٦، ٩٧]: حدثني هشام بن عروة قال: روى أبي أن زيد بن عمرو قال:

أربّاً واحداً أم ألفَ رب ... أدينُ إذا تقسّمتِ الأمور
عزلتُ اللاتَ والعزّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبور
فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها ... ولا صنمَيْ بني عمروٍ أزور
ولا هُبلاً أدين وكان ربّاً ... لنا في الدهرِ إذْ حِلمي يسير
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ ... وفي الأيامِ يعرفُها البصير
بأنّ اللهَ قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنُهمُ الفُجور
وأبقى آخرين ببِرّ قوم ... فَيربلُ منهمُ الطفلُ الصغير
وبينا المرءُ يعثرُ ثاب يوماً ... كما يتروّح الغُصنُ المطيرُ
ولكنْ أعبدُ الرحمنَ ربي ... ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفور
فتقوى اللهِ ربكمُ احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارُهم جِنانٌ ... وللكفارِ حاميةً سعير
وخزيٌ في الحياةِ وإن يموتوا ... يُلاقوا ما تضيقُ به الصدور

هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة.

وقد رواه أبو القاسم البغوي [تاريخ دمشق: ٥١٤/١٩، ٥١٥] عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال: قال هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال زيد بن عمرو بن نفيل:

عزلتُ الجنَّ والجِنّانَ عني ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني طَسْم أدير
ولا غُنْماً أدينُ وكان ربّاً ... لنا في الدهر إذ حِلمي صغير
أربّاً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تُقسّمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى ... رجالاً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببِرّ قوم ... فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً ... كما يتروح الغصن النضير

قالت: فقال ورقة بن نوفل:

رشدتَ وأنعمتَ ابن عمرو وإنما ... تجنبتَ تنوراً من النار حاميا
لدينك ربّاً ليس رب كمثله ... وتركِك جنان الجبال كما هيا
أقولُ إذا أُهبطتُ أرضاً مخوفةً ... حنانيْكَ لا تُظهر عليّ الأعاديا
حنانيكَ إن الجن كانت رجاءَهم ... وأنتَ إلهي ربنا ورجائيا
لتدركنّ المرءَ رحمةُ ربه ... وإن كان تحتَ الأرض سبعين واديا
أدين لربٍ يستجيبُ ولا أرى ... أدينُ لما لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليتُ في كل بِيعة ... تباركتَ قد أكثرتُ باسمك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش فتنصروا إلا زيداً فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه.

وأما ورقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث.

وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر.

وله خبر عجيب ذكره الأموي [تاريخ دمشق: ٨١/١١، ٨٢] ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكا إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً.

وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عبيد الله بن جحش فرجع إلى مكة وكان في جملة من أسلم وهاجر إلى الحبشة ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ثم عاد إلى النصرانية بأرض الحبشة فتنجد الله ومات هناك فخلف على زوجته بعده رسول الله ﷺ كما سيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

شيء من الحوادث في زمن الفترة فمن ذلك بنيان الكعبة:

٢٧- بنيان الكعبة

وقد قيل: إن أول من بناه آدم وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبد

الله بن عمرو وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف [دلائل النبوة للبيهقي: ٢/٤٥].

وأقوى الأقوال: أن أول من بناه الخليل عليه السلام. كما تقدم وكذلك رواه سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب قال: ثم تهدم فبنته العمالقة ثم تهدم فبنته جرهم ثم تهدم فبنته قريش.

قلت: سيأتي بناء قريش له وذلك قبل المبعث بخمس سنين وقيل: بخمس عشرة سنة.

وقال الزهري: كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم. وسيأتي ذلك كله في موضعه إن شاء الله وبه الثقة.

٢٨- ذكر كعب بن لؤي

روى أبو نعيم [الدلائل: ٤٦] من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن محمد بن طلحة التيمي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة. قال: كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة وكانت قريش تسمى يوم الجمعة العروبة فيخطبهم فيقول: أما بعد فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى والذكر والروح وما يهيج إلى بلى فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم. فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حرمكم زينوه وعظموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم؛ وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول:

نهارٌ وليلٌ كلّ يوم بحادثٍ ... سواءٌ علينا ليلُها ونهارُها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوّبا ... وبالنِعَم الضافي علينا ستورها
على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمد ... فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل، لتنصبت فيها تنصب الجمل، ولأرقلت فيها إرقال الفحل ثم يقول:

يا ليتني شاهدٌ نجواءَ دعوته ... حينَ العشيرةُ تبغي الحقَّ خِذلانا

قال: وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله ﷺ خمسمائة عام وستون سنة.

٢٩- ذكر تجديد حفر زمزم

على يدي عبد المطلب بن هاشم التي كان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ص٣ - ٥، سيرة ابن هشام: ١/١٤٢ - ١٤٥]: ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر أُتي فأمر بحفر زمزم وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الله بن زرير الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها.

قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي احفر طيبة. قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال: احفر برة. قال: قلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال: احفر المضنونة قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

قال: فلما بين لي شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صُدق غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولد غيره فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطي كبّر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته. فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم قال: نعم وكانت بأشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه وركب من كل قبيلة من قريش نفر فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً. فقالوا: نعم ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لعجز فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد.

فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملؤوا أسقيتهم ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فجاؤوا فشربوا واستقوا كلهم ثم قالوا لعبد المطلب: قد والله قضي لك علينا والله ما نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم قال ابن إسحاق: وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم:

ثم ادع بالماء الروّي غير الكدر ... يسقي حجيجَ الله في كل مبر
ليسَ يُخافُ منه شيء ما عَمَرْ

قال: فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش فقال: تعلموا أني قد أمرت أن أحفر زمزم قالوا: فهل بُيِّن لك أين هي؟ قال: لا قالوا: فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقاً من الله يبين لك وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك فرجع ونام فأُتي فقيل له: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم. وهي تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبداً ولا تُذم تسقي الحجيج الأعظم. مثل نعام حافل لم يقسم. ينذر فيها ناذر لمنعم. تكون ميراثاً وعقداً محكم. ليست كبعض ما قد تعلم. وهي بين الفرث والدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/١٤٦]: فزعموا أن عبد المطلب حين

قيل له ذلك قال: وأين هي؟ قيل له: عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً. فالله أعلم أي ذلك كان.

قال: فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره - زاد الأموي: ومولاه أصرم - فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت إليه قريش فقالوا: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذد عني حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به.

فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطي فكبر وعرف أنه قد صُدق فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب اللتين كانت جرهم قد دفنتهما ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعاً.

فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق قال: لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح قالوا: وكيف نصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصفت. فجعل للكعبة قدحين أصفرين وله أسودين ولهم أبيضين ثم أعطوا القداح للذي يضرب عند هبل وهبل أكبر أصنامهم ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل يعني هذا الصنم.

وقام عبد المطلب يدعو الله. وذكر يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦] أن عبد المطلب جعل يقول:

اللَّهم أنتَ الملِكُ المحمود ... ربيّ فأنتَ المبدِئ المعيد
وممسك الراسيةِ الجلمودِ ... من عندك الطارفُ والتليد
إن شئت ألهمتَ كما تريد ... لموضع الحليةِ والحديد
فبين اليوم لما تريد ... إني نَذَرْتُ العاهدَ المعهود
اجعله لي ربِّ فلا أعودُ

قال: وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالتين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزالتين من ذهب فكان أول ذهب حليته للكعبة فيما يزعمون. ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٤٧/١ - ١٥٠] وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب ثم عددها ابن إسحاق وسماها وذكر أماكنها من مكة وحافريها إلى أن قال: فعفت زمزم على البئار كلها وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ما سواها من المياه ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» [(٢٤٧٣)] في حديث إسلام أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال في زمزم: «إنها لطعام طُعم، وشفاء سُقم.».

وقال الإمام أحمد [٣٧٢/٣]: حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب منه.».

وقد رواه ابن ماجه [(٣٠٦٢)] من حديث عبد الله بن المؤمل وقد تكلموا فيه ولفظه «ماء زمزم لما شرب له.».

ورواه سويد بن سعيد عن عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبي الموال عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له.» [البيهقي في شعب الإيمان: ٤١٢٨] ولكن سويد بن سعيد ضعيف والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد الله بن المؤمل كما تقدم.

وقد رواه الحاكم [المستدرك: ٤٧٣/١] عن ابن عباس مرفوعاً: «ماء زمزم لما شرب له» وفيه نظر والله أعلم.

وهكذا روى ابن ماجه أيضاً [(٣٠٦٢)] والحاكم [المستدرك: ٤٧٢/١] عن ابن عباس أنه قال لرجل: إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة واذكر اسم الله وتنفس ثلاثاً وتضلع منها فإذا فرغت فاحمد الله فإن رسول الله ﷺ قال: «إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم».

وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال: اللَّهم إني لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل [البيهقي في الدلائل: ٨٧/١].

وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه فإنه هو الذي جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم [المغني لابن قدامة: ٣٠/١].

وقد قال الأموي في «مغازيه»: حدثنا أبو عبيد أخبرني يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم قال: لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبلّ [غريب الحديث لأبي عبيد: ٢٦/٤].

وذلك أنه جعل لها حوضين حوضاً للشرب، وحوضاً للوضوء. فعند ذلك قال: لا أحلها لمغتسل لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه.

قال أبو عبيد [غريب الحديث: ٢٧/٤]: قال الأصمعي: قوله: وبل إتباع قال أبو عبيد: والإتباع لا يكون بواو العطف وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان: إن «بل» بلغة حمير: مباح.

ثم قال أبو عبيد [غريب الحديث: ٢٦/٤] حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود أنه سمع زراً أنه سمع العباس يقول: لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل.

وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة أنه سمع ابن عباس يقول ذلك [غريب الحديث لأبي عبيد: ٢٦/٤].

وهذا صحيح إليهما، وكأنهما يقولان ذلك في أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها فلا ينافي ما تقدم والله أعلم.

وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدة ثم اتفق أنه أملق في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر وصرفها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلق بالسقاية فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء فقال لأخيه العباس: أسلفني أربعة عشر ألفا أيضاً إلى العام المقبل أعطيك جميع مالك فقال له العباس: بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي أكفكها فقال: نعم.

فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطي العباس فترك له السقاية فصارت إليه ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ثم إلى علي بن عبد الله بن عباس ثم إلى داود بن علي ثم إلى سليمان بن علي ثم إلى عيسى بن علي ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين ذكره الأموي [انظر أنساب الأشراف: ٥٧/١].

٣٠- ذكر نذر عبد المطلب ذبح أحد ولده

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ١٠ - ١٢، سيرة ابن هشام: ١/١٥١]: وكان عبد المطلب - فيما يزعمون - نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم: الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله. جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك فاطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني ففعلوا ثم أتوه.

فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة وكانت هبل على بئر في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاؤوه فاستقسموا بها فما أمرتهم به أونهتهم عنه امتثلوه.

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغر ولده واحبهم إليه، فاخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا.

وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ١٢]: أن العباس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه فيقال: إنه شج وجهه شجاً لم يزل في وجهه إلى أن مات ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ثم أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه فاذبحه وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته.

فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهي سجاح - فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق - بخيبر فركبوا حتى جاؤوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فاسأله فرجعوا من عندها فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل وكانت كذلك قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب وهو قائم عند هبل يدعو الله: قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب. فزعموا أنه قال: لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ١/١٥٥]: ويقال: ولا سبع.

ويقال: إنه لما بلغت الإبل مائة خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب والصحيح الأول والله أعلم.

وقد روى ابن جرير [تاريخ الطبري: ٢/٢٣٩] عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب.

وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف. فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال: إنهما لم يصيبا الفتيا ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل، وأخذ الناس بقول مروان في ذلك، والله أعلم.

٣١- ذكر تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/١٥٥، ١٥٦]: ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله فمر به - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي وهي أم قتّال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهي عند الكعبة فنظرت إلى وجهه فقالت: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي قالت: لك مثل الأبل التي نحرت عنك وقعْ علي الآن. قال أنا مع أبي ولا استطيع خلافه ولا فراقه.

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذ سيدة نساء قومها فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت منه برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها: مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت عليّ بالأمس؟ قالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة.

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كائن في هذه الأمة نبي فطمعت أن يكون منها فجعله الله تعالى في أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وسنذكر المولد مفصلاً.

ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذي رامته وذلك فيما رواه البيهقي [الدلائل: ١/١٠٣، ١٠٤] من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله:

عليكَ بآلِ زهرةَ حيثُ كانوا ... وآمنةَ التي حَمَلَت غلاما
ترى المهديَّ حينَ نزا عليها ... ونوراً قد تقدّمه أماما

إلى أن قالت:

فكلُّ الخَلْقِ يرجوهُ جميعاً ... يسودُ الناسَ مهتدياً إماما
براه اللّهُ من نورٍ صَفّاهُ ... فأذهبَ نورُه عنا الظلاما
وذلكَ صُنْعُ ربكَ إذ حَبَاهُ ... إذا ما سارَ يوماً أو أقاما

فيهدي أهلَ مكةَ بعدَ كفر ... ويفرضُ بعدَ ذلكمُ الصياما

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي [تاريخ دمشق: ٣/٤٠٤ من طريق الخرائطي به]: حدّثنا علي بن حرب حدّثنا محمد بن عمارة القرشي حدّثنا مسلم بن خالد الزنجي حدّثنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب، يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت: يافتي هل لك أن تقع علي الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال عبد الله:

أما الحرامُ فالمماتُ دونَهُ ... والحل لا حِل فأستبينه

فكيفَ بالأمر الذي تبغِيْنَه ... يحمي الكريمُ عِرضَه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فأقام عندها ثلاثاً. ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت: ما صنعت بعدي؟ فأخبرها. فقالت: والله ما أنا بصاحبة ريبة ولكني رأيت في وجهك نوراً فاردت أن يكون في، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد. ثم أنشأت فاطمة تقول:

إني رأيتُ مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم القَطْر

فلمأتُها نوراً يضيء له ... ما حولَه كإضاءةِ البدر

ورجوتُها فخراً أبوءُ به ... ما كل قادح زنده يُوري

للّه ما زُهريةٌ سلبت ... ثوبيك ما استَلبتْ وما تدري

وقالت فاطمة أيضاً:

بني هاشم قد غادرتْ من أخيكُم ... أمينةُ إذ للباهِ يعتركان

كما غادرَ المصباحَ عند خُموده ... فتائلُ قد ميثت له بدهان

وما كل ما يحوي الفتى من تِلاده ... بحزمٍ ولا ما فاتَه لِتَواني

فأجملْ إذا طالبتَ أمراً فإنه ... سيكفيكَه جَدّان يعتلجان

سيكفيكه إما يدٌ مُقْفعِلّةٌ ... وإما يدٌ مبسوطةٌ ببنان

ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخراً ما لذلك ثان

وروى أبو نعيم الحافظ في كتاب «دلائل النبوة» [(٧١)] من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن أبي عون عن المِسْوَر بن مخرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس قال: إن عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود قال: فقال لي رجل من أهل الزبور، يعني أهل الكتاب: يا عبد المطلب أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك؟ قال: نعم ما لم يكن عورة. قال: ففتح إحدى منخري فنظر فيه ثم نظر في الآخر فقال: أشهد أن في إحدى يديك ملكاً وفي الأخرى نبوّة وأنا نجد ذلك في بني زهرة فكيف ذلك؟ قلت: لا أدري قال: هل لك من شاعة؟ قلت: وما الشاعة؟ قال: الزوجة. قلت: أما اليوم فلا قال: فإذا رجعت فتزوج فيهم. فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ﷺ فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة: فلج. أي فاز وغلب عبد الله على أبيه عبد المطلب.

٥- كتاب سيرة رسول الله ﷺ

١- ذكر نسبه الشريف

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤] ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب قال: كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها [خ (٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣)] يعني في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة صلوات الله عليهم أجمعين.

فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة. أبو القاسم. وأبو إبراهيم. محمد. وأحمد. والماحي الذي يُمحى به الكفر. والعاقب الذي ليس بعده نبي. والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه. والمقفّي. ونبي الرحمة. ونبي التوبة. ونبي الملحمة. وخاتم النبيين. والفاتح. وطه. ويس. وعبد الله.

قال البيهقي [دلائل النبوة: ١٦٠/١]: وزاد بعض العلماء فقال: سماه الله في القرآن رسولاً. نبياً. أمياً. شاهداً. مبشراً. نذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. ورؤوفاً رحيماً. ومذكراً. وجعله رحمة ونعمة وهادياً.

وسنورد الأحاديث المروية في أسمائه عليه الصلاة والسلام في باب نعقده بعد فراغ السيرة فإنه قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران أبو بكر البيهقي [دلائل النبوة: ١٥١/١ - ١٦١] وأبو القاسم بن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/٣ - ٣٤].

وأفرد الناس في ذلك مؤلفات حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم.

وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربي المالكي شارح «الترمذي» بكتابه الذي سماه «الأحوذي» [٢٨١/١٠] فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسماً والله أعلم.

وهو ابن عبد الله وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل كما تقدم.

قال الزهري [تاريخ الطبري: ٢٤٦/٢]: وكان أجمل رجال قريش وهو أخو الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبي طالب، واسمه عبد مناف، وأبي لهب، واسمه عبد العزى، والمقوم، واسمه عبد الكعبة، وقيل: هما اثنان وحجل واسمه المغيرة والغيداق وهو كثير الجود، واسمه نوفل، ويقال: إنه حجل والعباس.

فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام. وعماته ست وهن: أروى. وبرة. وأميمة. وصفية. وعاتكة. وأم حكيم، وهي البيضاء، وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى. فهؤلاء أولاد عبد المطلب - واسمه شيبة - يقال لشيبة كانت في رأسه ويقال له: شيبة الحمد لجوده. وإنما قيل له: عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة في تجارته إلى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الخزرجي النجاري وكان سيد قومه فاعجبته ابنته سلمى فخطبها إلى أبيها فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده وقيل: بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة.

فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة فلما خرج في تجارة أخذها معه وهي حبلى فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة فأقام عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة.

فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة قالوا: من هذا معك؟ فقال: عبدي ثم جاؤوا فهنؤوه به وجعلوا يقولون له: عبد المطلب لذلك فغلب عليه وساد في قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورئاستهم. فكان جماع أمرهم إليه وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب وهو الذي جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم وهو أول من حلّى الكعبة بذهب في أبوابها من تينك الغزالتين اللتين من ذهب وجدهما في زمزم مع تلك الأسياف القلعية.

قال ابن هشام [السيرة: ١٠٧/١]: وعبد المطلب أخو أسد ونَضْلَةَ وأبي صيفي وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة. كلهم أولاد هاشم واسمه عمرو وإنما سمي هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته: هي لعبد الله بن الزعبري:

عمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومه ... قومٍ بمكة مُسْنِتِين عجافُ
سُنّتْ إليه الرحلتان كلاهما ... سَفَرُ الشتاء ورحلةُ الأصيافِ

وذلك لأنه أول من سن رحلتي الشتاء والصيف وكان أكبر ولد أبيه.

وحكى ابن جرير [تاريخ الطبري: ٢٥٢/٢] أنه كان توأم أخيه عبد شمس وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس فما تخلصت حتى سال بينهما دم فقال الناس: بذلك يكون بين أولادهما حروب فكانت وقعة بني العباس مع بني أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة.

وشقيقهم الثالث المطلب وكان المطلب أصغر ولد أبيه وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال. ورابعهم نوفل من أم أخرى وهي واقدة بنت عمرو المازنية وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة وكان يقال لهم: المجبرون وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التجارات إلى بلادهم فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبد شمس من النجاشي الأكبر ملك الحبشة، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة، وأخذ لهم المطلب أماناً من ملوك حمير. ولهم يقول الشاعر:

يا أيها الرجلُ المحوِّلُ رحلَه ... ألا نزلتَ بآلِ عبدِ منافِ

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوي القربى، وقد كانوا شيئاً واحداً في حالتي الجاهلية والإسلام، لم يفترقوا، ودخلوا معهم في الشعب، وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل. ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته:

جزى الله عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً ... عُقوبةَ شرٍّ عاجلاً غيرَ آجلِ

ولا يُعرف بنو أب تباينوا في الوفاة مثلهم، فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام، وعبد شمس مات بمكة، ونوفلاً مات بسلمان من أرض العراق، ومات المطلب - وكان يقال له: القمر لحسنه - بردمان من طريق اليمن. فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم: هاشم، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب. ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو واسمه عبد، وأصل اسمه عبد قصي. فقال الناس: عبد بن قصي درج ولا عقب له. قاله الزبير بن بكار وغيره [تاريخ الطبري: ٢٥٤/٢]. وأخوات ست وهن، تماضر، وحية، وريطة، وقلابة، وأم الأخثم، وأم سفيان. كل هؤلاء أولاد عبد مناف ومناف اسم صنم.

وأصل اسم عبد مناف المغيرة، وكان قد رأس في زمن والده، وذهب به الشرف كل مذهب، وهو أخو عبد الدار الذي كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصى بالمناصب كما تقدم.

وعبد العزى وعبد وبرة وتخمر وأمهم كلهم حُبّى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم، وكلهم أولاد قصي واسمه زيد. وإنما سمي بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حرام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمي قصياً لذلك. ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد، وأزاح يد خزاعة عن البيت، وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه وصار رئيس قريش على الإطلاق وكانت إليه الرفادة وهو سنّها والسقاية والسدانة والحجابة واللواء وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله. ولهذا قال الشاعر: [تاريخ الطبري: ٢٥٦/٢ ونسبه لمطرود]

قُصَيٌّ، لعَمري كان يُدعى مجمِّعاً ... به جمعَ اللهُ القبائلَ من فِهرِ

وهو أخو زهرة كلاهما ابنا كلاب أخي تيم ويقظة أبي مخزوم ثلاثتهم أبناء مرة أخي عدي وهصيص وهم أبناء كعب وهو الذي كان يخطب قومه كل جمعة ويبشرهم بمبعث رسول الله ﷺ وينشد في ذلك أشعاراً كما قدمنا، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف سبعتهم أبناء لؤي أخي تيم الأدرم وهما أبناء غالب أخي الحارث ومحارب ثلاثتهم أبناء فهر وهو أخو الحارث وكلاهما ابن مالك، وهو أخو الصلت ويخلد، وهم بنو النضر الذي إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم كلهم أولاد كنانة أخي أسد وأسدة والهون أولاد خزيمة، وهو أخو هذيل وهما ابنا مدركة - واسمه عمرو أخو طابخة - واسمه عامر وقمعة ثلاثتهم أبناء إلياس وأخو إلياس هو عيلان والد قيس كلها وهما ولدا مضر أخي ربيعة. ويقال لهما: الصريحان من ولد إسماعيل وأخواهما أنمار وإياد تيامناً، اربعتهم أبناء نزار أخي قضاعة - في قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية - وقد تقدم بيانه كلاهما أبناء معد بن عدنان.

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣] لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم [تفسير الطبري: ٢٣/٢٥].

وصدق ابن عباس رضي الله عنه فيما قال وأزيد مما قال، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات أيضاً كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مما يطول ذكره.

وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر وقد ذكرنا في ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه وأنه من ولد إسماعيل لا محالة وإن اختلف في كم بينهما أباً؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم والله أعلم.

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم وأوردنا قصيدة أبي العباس الناشئ المتضمنة ذلك، كل ذلك في أخبار عرب الحجاز ولله الحمد.

وقد تكلم الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في أول «تاريخه» على ذلك كلاماً مبسوطاً جيداً محرراً نافعاً.

وقد ورد حديث في انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر ولكن الله أعلم بصحته كما قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ١٧٤/١]: أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرئ - ببغداد - حدّثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار حدّثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سعيد - إملاء سنة ست وتسعين ومائتين - حدّثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسي حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي حدّثنا مالك بن أنس عن الزهري عن أنس وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قالا: بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم فقال: «إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب إذا قدما المدينة ليأمنا بذلك. وإنا لن نتنفي من آبائنا، نحن بنو النضر بن كنانة»: قال: وخطب النبي ﷺ فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية. وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً، وخيركم أباً».

وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك. تفرد به القدامي وهو ضعيف. ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر.

فمن ذلك قوله: «خرجت من نكاح لا من سفاح».

قال عبد الرزاق [في تفسيره: ٢٩١/١]: أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية قال: وقال رسول الله ﷺ: «إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وهذا مرسل جيد.

وهكذا رواه البيهقي [شعب الإيمان (١٣٩٦)] عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصاغاني عن يحيى بن أبي بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أخرجني من النكاح ولم يخرجني من السفاح».

وقد رواه ابن عدي موصولاً فقال: حدّثنا أحمد بن حفص حدّثنا محمد بن أبي عمر العدني المكي حدّثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء» [تاريخ دمشق: ٤٠٢/٣].

وهذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح.

وقال هشيم: حدّثنا المديني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من نكاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام».

وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٠٠/٣] ثم أسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناده ضعف والله أعلم.

وقال محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ٦١/١]: أخبرنا محمد بن عمر حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ولدت من نكاح غير سفاح».

ثم أورد ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٠١/٣] من حديث أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً. ورواه عن عطاء [تاريخ دمشق: ٤٠٢/٣].

وقال محمد بن سعد: أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية.

وثبت في «صحيح البخاري» [(٣٥٥٧)] من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

وفي «صحيح مسلم» [(٢٢٧٦)] من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم».
وقال الإمام أحمد [١/٢١٠]: حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» صلوات الله وسلامه عليه دائما أبداً إلى يوم الدين.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ١/٢٩٥، ٤٩٧]: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت يا رسول الله إن قريشاً إذا التقوا لقي بعضهم بعضاً بالبشاشة، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله» فقلت يا رسول الله: إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم لما فرقهم قبائل جعلني في خيرهم قبيلة. ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً».

ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال: بلغ النبي ﷺ. فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس [الدلائل للبيهقي: ١/١٦٨، ١٦٩].

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ١/٤٩٨]: حدثني يحيى بن عبد الحميد حدثني قيس بن عبد الله عن الأعمش عن عباية بن ربعي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب».

وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة.

وروى الحاكم [المستدرك: ٤/٧٣] والبيهقي [الدلائل: ١/١٧١، ١٧٢] من حديث محمد بن ذكوان خال حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال: إنا لقعود بفناء النبي ﷺ إذ مرت به امرأة، فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن. فانطلقت المرأة فاخبرت النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب. فقال: «ما بال أقوال تبلغني عن أقوام إن الله خلق السماوات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

وهذا أيضاً حديث غريب.

وثبت في «الصحيح» [م (٢٢٧٨) بدون لفظة: «ولا فخر»] أن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر».

وروى الحاكم والبيهقي [الدلائل: ١/١٧٦] أيضاً من حديث موسى بن عبيدة: حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهري عن أبي أسامة - أو أبي سلمة - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم».

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١/١٧٦]: وهذه الأحاديث وإن كان في رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضاً ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع والله أعلم.

قلت: وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبي ﷺ:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

قال أبو السكين زكريا بن يحيى الطائي في الجزء المنسوب إليه المشهور: حدثني عم أبي زحر بن حصن عن جده حميد بن منهب قال: قال جدي خريم بن أوس: هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك، فاسلمت فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يارسول الله إني اريد أن امتدحك، فقال رسول الله ﷺ: «قل لا يفضض الله فاك» فأنشأ يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي الـ ـنور وسُبُلِ الرشادِ نخترق

وقد روي هذا الشعر لحسان بن ثابت فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٠٨/٣، ٤٠٩] من طريق أبي الحسن بن أبي الحديد: أخبرنا أبو محمد بن أبي نصر أنا عبد السلام بن أحمد بن محمد القرشي حدّثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمي حدّثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراساني حدثني إسحاق بن إبراهيم بن بنان حدّثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني حدّثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت: فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنة قال: فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: «كنت في صلبه وركب بي السفينة في صلب أبي نوح وقذف بي في صلب أبي إبراهيم لم يلتق أبواي على سفاح قط لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفتي مهدي لا ينشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام عهدي وبشر في التوراة والإنجيل ذكري وبين كل نبي صفتي تشرق الأرض بنوري والغمام لوجهي وعلمني كتابه روى بي سحابه وشق لي اسماً من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد ووعدني أن يحبوني بالحوض والكوثر وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع ثم أخرجني من خير قرن لأمتي، وهم الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»

قال ابن عباس: فقال حسان بن ثابت في النبي ﷺ:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع يوم يخصف الورق
ثم سكنت البلاد لا بشر ... أنت ولا نطفة ولا علق
مطهر تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من أصلب إلى رحم ... إذا مضى طبق بدا طبق

فقال النبي ﷺ: «يرحم الله حسان». فقال علي بن أبي طالب: وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة.

ثم قال الحافظ ابن عساكر: هذا حديث غريب جداً.

قلت: بل منكر جداً.

قال: [ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٠٩/٣] والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضي الله عنه ثم أوردها من حديث أبي السكين زكريا بن يحيى الطائي كما تقدم.

قلت: ومن الناس من يزعم أنها للعباس بن مرداس السلمي فالله أعلم.

تنبيه: قال القاضي عياض، في كتابه «الشفاء» [٣١٣/١، ٣١٤]: وأما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك. وكذلك محمد لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد. فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وهم: محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي. ومحمد بن سلمة الأنصاري. ومحمد بن البراء البكري. ومحمد بن سفيان بن مجاشع. ومحمد بن حمران الجعفي. ومحمد بن خزاعي السلمي لا سابع لهم.

ويقال: إن أول من سمي محمداً: محمد بن سفيان بن مجاشع. واليمن تقول: بل محمد بن اليحمد من الأزد.

ثم إن الله حمى كل من تسمّى به أن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السِّمتان له ﷺ لم ينازع فيهما. هذا لفظه.

٢- باب مولد رسول الله ﷺ

ولد صلوات الله عليه وسلامه يوم الاثنين. لما رواه مسلم في «صحيحه» [(١١٦٢)] من حديث غيلان بن جرير عن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة أن أعرابياً قال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذاك يوم ولدت فيه وأُنزِل علي فيه».

وقال الإمام أحمد [٢٧٧/١]: حدّثنا موسى بن داود حدّثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين.

تفرد به أحمد ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد: ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [تاريخ دمشق: ٦٧/٣].

وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به وزاد أيضاً: وكانت وقعة بدر يوم الاثنين [تاريخ دمشق: ٦٨/٣، ٦٩].

وممن قال هذا يزيد بن أبي حبيب. وهذا منكر جداً.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٩/٣]: والمحفوظ أن بدراً ونزول ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يوم الجمعة. وصدق ابن عساكر.

وروى عبيد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين [تاريخ دمشق: ٦٨/٣].

وهكذا روي من غير هذا الوجه عن ابن عباس أنه ولد يوم الاثنين [تاريخ دمشق: ٦٧/٣، ٦٨].

وهذا مما لا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين. وأبعد بل أخطأ من قال: ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب «إعلام الورى بأعلام الهدى» لبعض الشيعة. ثم شرع ابن دحية في تضعيفه وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص. ثم الجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول فقيل: لليلتين خلتا منه قاله ابن عبد البر في «الاستيعاب» [٣٠/١]. ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني. وقيل لثمان خلون منه حكاه الحميدي عن ابن حزم [تاريخ دمشق: ٧٠/٣].

ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم.

ونقل ابن عبد البر [الاستيعاب: ٣٠/١] عن أصحاب الزيج أنهم صححوه.

وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير» وقيل: لعشر خلون منه نقله ابن دحية في كتابه.

ورواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧٥/٣] عن أبي جعفر الباقر ورواه مجالد عن الشعبي كما مر. وقيل: لثنتي عشرة خلت منه. نص عليه ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٥٨/١] ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وفيه بعث وفيه

عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات. وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم.

وقيل لسبع عشرة خلت منه كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة. وقيل لثمان بقين منه نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع ابن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه. والصحيح عن ابن حزم الأول أنه لثمان مضين منه كما نقله عنه الحميدي وهو اثبت.

والقول الثاني أنه ولد في رمضان نقله ابن عبد البر [الاستيعاب: ٣٠/١] عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحي إليه في رمضان بلا خلاف وذلك على رأس أربعين سنة من عمره فيكون مولده في رمضان وهذا فيه نظر والله أعلم.

وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطي عن المعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين في ربيع الأول وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين في أول شهر ربيع الأول وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول وهاجر إلى المدينة في ربيع الأول، وتوفي يوم الاثنين في ربيع الأول.

وهذا غريب جداً رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٨/٣].

قال الزبير بن بكار: حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى. وولد بمكة بالدار المعروفة لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان [الاستيعاب: ٣٠/١].

ورواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦٦/٣] من طريق محمد بن عثمان عن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال: حمل برسول الله ﷺ في يوم عاشوراء المحرم وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل.

وذكر غيره أن الخيزران وهي أم هارون الرشيد لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً [تاريخ الطبري: ١٥٦/٢]. فهو يعرف بها اليوم.

وذكر السهيلي [الروض الأنف: ١٥٩/٢] أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان.

وهذا أعدل الأزمان والفصول وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج. وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدي وكان المشترى وزحل مقترنين في ثلاث درج من العقرب وهي درجة وسط السماء. وكان موافقاً من البروج الحمل وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل نقله كله ابن دحية والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٥٨/١]: وكان مولده عليه الصلاة السلام عام الفيل وهذا هو المشهور عن الجمهور.

قال إبراهيم بن المنذر الحزامي: وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل. وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٧٥/١] من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٥٩/١]: حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، كنا لِدَين. قال: وسأل عثمان رضي الله عنه قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد. ورأيت خَذْقَ الفيل أخضر محيلاً.

ورواه الترمذي [(٣٦١٩)] والحاكم [المستدرك: ٤٥٦/٣] من حديث محمد بن إسحاق به.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٢٥]: وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة.

وقال ابن إسحاق: كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة. وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمس عشر سنة، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين [تاريخ دمشق: ٧٣/٣. عن محمد بن إسحاق به].

وقال محمد بن جبير بن مطعم: كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة [تاريخ دمشق: ٧٤/٣].

وروى الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ٧٨/١] من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المديني: حدّثنا الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني ثم الليثي: يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه. ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقفت بي أمي على روث الفيل مُحيلاً أعقله. وتُنُبِّئ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة. وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ ٢٥٣/٣]: حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدّثنا نعيم يعني ابن ميسرة، عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال: أنا لِدة رسول الله ﷺ ولدت عام الفيل.

قال البيهقي [الدلائل: ٧٩/١] وقد روي عن سويد بن غفلة أنه قال: أنا أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين.

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٥١/٣] حدثنا إبراهيم بن المنذر حدّثنا عبد العزيز بن أبي ثابت حدثني عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان النوفلي عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم. قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل.

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور فقيل: بعده بشهر، وقيل: بأربعين يوماً، وقيل: بخمسين يوماً، وهو أشهر.

وعن أبي جعفر الباقر: كان قدوم الفيل للنصف من المحرم، ومولد رسول الله ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة [تاريخ دمشق: ٧٥/٣].

وقال آخرون: بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله ﷺ بعشر سنين. قاله ابن أبزى [تاريخ دمشق: ٧٦/٣].

وقيل: بثلاث وعشرين سنة رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم [تاريخ دمشق: ٦٦/٣].

وقيل: بعد الفيل بثلاثين سنة. قاله موسى بن عقبة عن الزهري رحمه الله [الدلائل للبيهقي: ٧٨/١].

واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله [تاريخ دمشق: ٧٦/٣].

وقال أبو زكريا العجلاني: بعد الفيل بأربعين عاماً، رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧٦/٣] وهذا غريب جداً.

وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط [تاريخ خليفة بن خياط ١١/١]: حدثني شعيب بن حيان عن عبد الواحد بن أبي عمرو عن الكلبي عن أبي

صالح عن ابن عباس، قال: ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً.

قال خليفة بن خياط: [تاريخ خليفة بن خياط ١٠/١]: والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل.

٣- صفة مولده الشريف ﷺ

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى لما كان قدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه، فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة في قريش آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ، وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ، وأنه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه.

قال بعضهم: ليتزوّجها وهو أظهر والله أعلم فامتنع عليها فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه. فتعرض لها لتعاوده. فقالت: لا حاجة لي فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ. وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ فإنه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ولدت من نكاح لا من سفاح» [تفسير عبد الرزاق: ٢٩١/١].

والمقصود أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور.

قال محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ٩٩/١]: حدّثنا محمد بن عمر، هو الواقدي، حدّثنا موسى بن عبيدة الربذي، عن محمد بن كعب وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة. قالا: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض.

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث. فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل. ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.

قال الواقدي: هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا [طبقات ابن سعد: ٩٩/١].

قال الواقدي: وحدثني معمر عن الزهري أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات [طبقات ابن سعد: ٩٩/١].

قال محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ١٠٠/١]: وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه وعن عوانة بن الحكم. قالا: توفي عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرين شهراً ويقال: سبعة أشهر.

وقال محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ١٠٠/١]: والأول أثبت أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ. قال: توفي عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين، ومات جده وهو ابن ثمان سنين، فأوصى به إلى عمه أبي طالب [تاريخ دمشق: ٧٨/٣].

والذي رجحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ٩٩/١، ١٠٠] أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه.

وقد تقدم في الحديث: «ورؤيا أمي التي رأت حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٢] فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، في كل بر عامد وكل عبد رائد، نُزول غير زائد، فإنه عبد الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد. وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمداً. فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد. وهذا وذاك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك في المنام والله أعلم.

وقال محمد بن سعد [طبقات ابن سعد: ١٠١/١، ١٠٢]: أنبأنا محمد بن عمر، هو الواقدي، حدّثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري. قال الواقدي: وحدّثنا موسى بن عبيدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي ح وحدثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسور عن أبيها. ح وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المدني وزياد بن حشرج عن أبي وجزة ح. وحدثنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ح. وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض - أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به - تعني رسول الله ﷺ - فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وقال بعضهم: وقع جاثياً على ركبتيه، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى، رافعاً رأسه إلى السماء.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ١١٠/١، ١١١] أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ أنبأنا محمد بن إسماعيل أنبأنا محمد بن إسحاق حدّثنا أبو بشر مبشر بن الحسن حدّثنا يعقوب بن محمد الزهري حدّثنا عبد العزيز بن عمران حدّثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته، قالت: فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول:

ليفعن عليّ.

وذكر القاضي عياض [الشفاء ٥١٩/١] عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلاً يقول: يرحمك الله، وأنه سطع منه نور رُئيت منه قصور الروم.

قال محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٢]: فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها - وقد هلك أبوه وهي حبلى - ويقال: إن عبد الله هلك والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً فالله أعلم أي ذلك كان - فقالت: قد ولد لك الليلة غلام فانظر إليه، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه. فأخذه عبد المطلب فأدخله على هبل في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عز وجل ويقول:

الحمدُ للّـهِ الـذي أعطاني ... هـذا الغـلامَ الطيِّـبَ الأردانِ
قـد سـادَ في المهدِ على الغِلمانِ ... أعيـذُه باللّـهِ ذي الأركـانِ
حتـى يكـونَ بُلغـةَ الفتيـانِ ... حتـى أراه بـالغَ البنيـانِ
أعيـذه مـن كـلِ ذي شـنآنِ ... مـن حاسـدٍ مضطـرب العنـانِ
ذي هِمَّـةٍ ليـس لـه عيـانِ ... حتـى أراه رافـعَ اللسـانِ
أنـتَ الـذي سمِّيـتَ في الفرقـانِ ... في كتـبٍ ثابتـةِ المثـاني
أحمد مكتوبـاً علـى اللسـانِ

وقال البيهقي [الدلائل: ١١٤/١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الداربجرديُّ - بمرو - حدّثنا أبو عبد الله البوشنجي حدّثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائري حدّثنا يونس بن عطاء عن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائي - بمصر - حدّثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. قال: ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، قال: فأعجب جده عبد المطلب وحظي عنده. وقال: ليكونن لابني هذا شأن فكان له شأن.

وهذا الحديث في صحته نظر.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤١٣/٣] من حديث سفيان بن محمد المصيصي عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس. قال: قال رسول الله ﷺ: «من كرامتي على الله أني ولدت مختوناً ولم ير سوأتي أحد».

ثم أورده [تاريخ دمشق: ٤١٤/٣] من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به. ثم أورده [تاريخ دمشق: ٤١٤/٣] من طريق محمد بن محمد بن سليمان - هو الباغندي - حدّثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصي حدّثنا موسى بن أبي موسى المقدسي حدثني خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر. قال: ولد رسول الله ﷺ مسروراً مختوناً.

وقال أبو نعيم [الدلائل لأبي نعيم: ٩٢]: حدّثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي حدّثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكي حدّثنا سليمان بن سلمة الخبائري حدّثنا يونس بن عطاء حدّثنا الحكم بن أبان حدّثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس. قال: ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظي عنده، وقال: ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن.

وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر وفي هذا كله نظر.

ومعنى مختوناً أي مقطوع الختان، ومسروراً أي مقطوع السرة من بطن أمه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤١٠/٣] من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصري حدّثنا علي بن محمد المدائني السلمي حدّثنا سلمة بن محارب بن سلم بن زياد عن أبيه عن أبي بكرة: أن جبريل ختن النبي ﷺ حين طهر قلبه. وهذا غريب جداً. وقد روي [زاد المعاد لابن القيم: ٨١/١، ٨٢] أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ١١٣/١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأني أحمد بن كامل القاضي - شفاهاً - أن محمد بن إسماعيل حدثه - يعني السلمي - حدّثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي الحكم التنوخي. قال: كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء. فأتاهن عبد المطلب فقلن له: ما رأينا مولوداً مثله وجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء. فقال: احفظنه فإني أرجو أن يكون له شأن، أو أن يصيب خيراً، فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال سميته محمداً، قالوا: فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض قال أهل اللغة: كل جامع لصفات الخير يسمي محمداً كما قال بعضهم:

إليك أبيتَ اللعنَ أعملتُ ناقتي ... إلى الماجدِ القَرْمِ الكريمِ المحمَّدِ

وقال بعض العلماء: ألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمىّ في الصورة والمعنى، كما قال عمه أبو طالب ويروى لحسان:

وشقَّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرشِ محمود وهذا محمد

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله وهي صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة ودلائل نبوته وفضائل منزلته في آخر السيرة إن شاء الله.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٤١/٢]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا أحمد بن شيبان الرملي حدّثنا أحمد بن إبراهيم الحلبي حدّثنا الهيثم بن جميل حدّثنا زهير عن محارب بن دثار عن عمرو بن يثربي عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بأصبعك، فحيث اشرت إليه مال قال: «إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش». ثم قال: تفرد به الحلبي وهو مجهول.

٤- ما وقع من الآيات ليلة مولده ﷺ

قد ذكرنا في باب هواتف الجان ما تقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ لوجوهها وسقوطها عن أماكنها، وما رآه النجاشي ملك الحبشة، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد، وما كان من

سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ودنو النجوم منهم وغير ذلك.

حكى السهيلي [الروض الأنف: ١٤٩/٢] عن «تفسير» بقي بن مخلد الحافظ: أن إبليس رن أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد رسول الله ﷺ، وحين أنزلت الفاتحة.

قال محمد بن إسحاق: وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت: كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه فقال: الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس انظروا واحفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس. لا يرضع ليلتين وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع.

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً فالتقى القوم فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودي؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فاخبروه الخبر. قال: فاذهبوا معي حتى أنظر إليه. فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقال: أخرجي إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا له عن ظهره. فرأى تلك الشامة. فوقع اليهودي مغشياً عليه. فلما أفاق قالوا له: ما لك ويلك! قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، أفرحتم به يا معشر قريش. أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٥٩/١]: حدثني صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت. قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين - أو ثمان سنين- أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود فاجتمعوا إليه - وأنا أسمع - فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

وروى الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» [(٤٠)] من حديث أبي بكر بن عبد الله العامري عن سليمان بن سحيم وربيح بن عبد الرحمن كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال: سمعت أبي مالك بن سنان يقول: جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له: أحمد يخرج من الحرم. فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي، كالمستهزئ به: ما صفته؟ فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره. قال: فرجعت إلى قومي بني خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع فأسمع رجلاً منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده؟! كل يهود يثرب يقولون هذا. قال أبي مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي ﷺ. فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي وظهوره ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره. قال أبو سعيد: فلما قدم النبي ﷺ أخبره أبي هذا الخبر فقال رسول الله ﷺ: «لو أسلم الزبير وذووه من رؤساء اليهود إنما هم له تبع».

وقال أبو نعيم: حدثنا عمر بن محمد حدثنا إبراهيم بن السندي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع سمعت زيد بن ثابت يقول: كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده. واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا.

وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم في كتابه [دلائل النبوة (٣٥، ٣٦، ٣٩)] من طرق أخرى ولله الحمد.

وقال أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد، قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لي حبر من أحبار الشام: قد خرج في بلدك نبي، أو هو خارج، قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه.

٥- ذكر ارتجاس إيوان كسرى وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب «هواتف الجان» [رواه الطبري في تاريخه: ١٦٦/٢ - ١٦٨، والبيهقي في الدلائل: ١٢٦/١ - ١٢٩]: حدثنا علي بن حرب حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران - من آل جرير بن عبد الله البجلي - حدثني مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه - وأتت عليه خمسون ومائة سنة - قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبّر عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده. قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال الموبذان: وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون في ناحية العرب - وكان أعلمهم من أنفسهم - فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر؛ أما بعد: فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقيلة الغساني، فلما ورد عليه قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال: ليخبرني أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم أخبرته وإلا أخبرته بمن يعلم. فأخبره بالذي وجه به إليه فيه. قال: علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له: سطيح قال: فائته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتني بتفسيره.

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح. فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً فانشأ يقول:

أصُمُّ أم يسمع غِطريفُ اليمنْ ... أم فادَ فازْلَمَّ بهِ شأوُ العَنَنْ

يا فاصلَ الخطة أعْيَتْ مَنْ ومَنْ ... وكاشِفَ الكُرْبَةِ عن وجه غَضَنْ

أتاكَ شيخُ الحيِّ من آلِ سَنَنْ وأمُّه من آلِ ذئبِ بنِ حجَنْ
أزرقُ بَهْمُ النابِ صَرَّارُ الأذنْ أبيضُ فضفاضُ الرِّداءِ والبدَنْ
رسولُ قَيْلِ العُجْمِ يَسْري للوَسَنْ لا يَرْهبُ الرَّعدَ ولا رَيبَ الزمنْ
وتجوبُ بي الأرضَ عَلَنْداةٌ شَزَنْ ترفعني وَجْناً وتَهْوي بي وَجَنْ
حتى أتى عاري الجآجي والقطن تَلُفُّه في الريحِ بوغاءُ الدِّمَنْ
كأنما حُثْحِثَ من حِضْنَيْ ثَكَنْ

قال: فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح، على جمل مشيح، إلى سطيح وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات وكلما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول:

شَمِّرْ فإنك ماضي العزمِ شِمِّيرُ لا يُفزعَنَّك تفريقٌ وتغييرُ
إن يُمسِ ملكُ بني ساسانَ أفرطهم فإنَّ ذا الدهرَ أطوارٌ دهاريرُ
فربما ربما أضحوا بمنزلةٍ يخافُ صَولَهُمُ الأُسْدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصَّرحِ بهرامٌ وإخوتُه والهرمُزانُ وسابورٌ وسابورُ
والناسُ أولادُ علَّاتٍ فمن عَلِموا أنْ قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
وربَّ قومٍ لهم صحبانُ ذي أذنٍ بدتْ تلهِّيهمُ فيه المزاميرُ
وهم بنو الأمِّ إمّا إن رأوا نَشَباً فذاك بالغيبِ محفوظٌ ومنصورُ
والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ فالخيرُ متَّبَعٌ والشرُّ محذورُ

قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه.

ورواه البيهقي [دلائل النبوة: ١/١٢٦ - ١٢٩] من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه.

قلت: كان آخر ملوكهم - الذي سلب منه الملك - يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الإيوان في زمانه. وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة. وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح.

أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر في «تاريخه»: هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن الأزد. ويقال: الربيع بن مسعود وأمه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجوري وذكر غير ذلك في نسبه.

قال: وكان يسكن الجابية ثم روى عن أبي حاتم السجستاني قال: سمعت المشيخة منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: وكان من بعد لقمان بن عاد. ولد في زمن سيل العرم وعاش إلى مُلك ذي نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً وكان مسكنه البحرين وزعمت عبد القيس أنه منهم وتزعم الأزد أنه منهم وأكثر المحدثين يقولون: هو من الأزد ولا ندري ممن هو غير أن ولده يقولون: إنه من الأزد.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً إنما كان لحماً على وضم ليس فيه عظم ولا عصب إلا في رأسه وعينيه وكفيه وكان يُطوى الثوب من رجليه إلى عنقه. ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه.

وقال غيره: إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس.

ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائها منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصي فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عما يكون في آخر الزمان، فقال: خذوا مني ومن إلهام الله إياي: أنتم الآن يا معشر العرب في زمان الهرم سواه بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم، ويطلبون الغنم.

ثم قال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد ليخرجن من ذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشد، يرفض يغوث والفند، يبرأ عن عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، وفي رد الحقوق لا خرق ولا نزق، ثم يلي أمره الحنيف، مجرِّب غطريف، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف.

ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية ثم بني العباس. وما بعد ذلك من الفتن والملاحم ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله.

وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها ثم ما يكون في بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول حتى يعود إلى سيف بن ذي يزن فقال له: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي قال: وممن هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون قال: أحق ما تخبرني؟ قال: نعم والشفق والغسق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك عليه لحق. ووافقه على ذلك شق سواء بسواء بعبارة أخرى كما تقدم. ومن شعر سطيح قوله:

عليكم بتقوى اللهِ في السرِّ والجهْرِ ولا تَلْبسوا صدْقَ الأمانةِ بالغَدْرِ
وكونوا لجارِ الجَنْبِ حِصناً وجُنَّةً إذا ما عَرَتْهُ النائباتُ منَ الدهرِ

وروى ذلك الحافظ ابن عساكر ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريري فقال: وأخبار سطيح كثيرة وقد جمعها غير واحد من أهل العلم. والمشهور أنه كان كاهناً وقد أخبر عن النبي ﷺ وعن نعته ومبعثه. وروي لنا بإسناد الله به أعلم أن النبي ﷺ سئل عن سطيح فقال: «نبي ضيعه قومه».

قلت: أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلاً. ويروى مثله في خبر خالد بن سنان العبسي ولا يصح أيضاً وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح وفيها روائح التصديق لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريري. فإنه قد ذكرنا في هذا الأثر أنه قال لابن أخته: يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك وملكات، على عدد

الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه. وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر - أو شُيْعة - أي: أقل منه - وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلي أرض العراق. فالله أعلم بأمره وما صار إليه.

وذكر ابن طرار الجريري أنه عاش سبعمائة سنة. وقال غيره: خمسمائة سنة، وقيل: ثلاثمائة سنة فالله أعلم.

وقد روى ابن عساكر أن ملكاً سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه فأخبره على الجلية في كلام طويل مليح فصيح. فقال له الملك: يا سطيح ألا تخبرني عن علمك هذا؟ فقال: إن علمي هذا ليس مني ولا بجَزْمس ولا بظن ولكن أخذته عن أخ لي جنّي قد سمع الوحي بطور سيناء. فقال له: أرأيت أخاك هذا الجني أهو معك لا يفارقك؟ فقال: إنه ليزول حيث أزول، ولا أنطق إلا بما يقول.

وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر ولدا في يوم واحد، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميرية فتَفَلَت في أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها. وكان نصف إنسان ويقال: إن خالد بن عبد الله القسري من سلالته، وقد مات شق قبل سطيح بدهر.

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغساني النصراني فكان من المعمرين وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» وقال: هو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة وذكر له معه قصة طويلة وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء لأنه لما أخذه قال: بسم الله وبالله رب الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه أذى. ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضي الله عنه وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم.

وقال أبو نعيم: حدّثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبه حدّثنا عقبة بن مكرم حدّثنا المسيب بن شريك حدّثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده. قال: كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفّراً بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم. وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقى الناس ويقول:

إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته وتالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف إلا في طلبه وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول: ما جاء بعد. فيقال له: فصفه فيقول: لا. ويكتم ذلك للذي قد علم أنه لاق من قومه مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً.

ولما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله بن عبد المطلب حتى أتى عيصاً فوقف في أصل صومعته ثم نادى: يا عيصا. فناداه: من هذا؟ فقال: أنا عبد الله فأشرف عليه فقال: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ويبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين قال: فإنه قد ولد لي مع الصبح مولود. قال: فما سميته؟ قال: محمداً قال: والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال بها نعرفه منها: أن نجمه طلع البارحة وأنه ولد اليوم وأن اسمه محمد. انطلق إليه فإن الذي كنت أحدثكم عنه ابنك. قال: فما يدريك أنه ابني ولعله أن يولد في هذا اليوم مولود غيره؟ قال: قد وافق ابنك الاسم ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فإنه حجة. وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكي أياماً ثلاثة، يظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافي. فاحفظ لسانك فإنه لم يُحسد أحد حسده قط ولم يبغ على أحد كما يبغي عليه. إن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو لظهر لك من قومك ما لا تحتمله إلا على صبر وعلى ذل فاحفظ لسانك ودار عنه قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين، يموت في وتر دونها من الستين في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل امته. قال: وحمل برسول الله ﷺ في عاشوراء المحرم. وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل [تاريخ دمشق: ٣/٤٢٦، ٤٢٧] هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة.

٦- ذكر حواضنه ومراضعه ﷺ

كانت أم أيمن واسمها بركة تحضنه، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد رضي الله عنهم. وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاه عمه أبي لهب ثويبة قبل حليمة السعدية.

أخرج البخاري [(٥١٠١، ٥١٠٧، ٥٣٧٢)] ومسلم [(١٤٤٩)] في «صحيحهما» من حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أنها قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان - ولمسلم: عزة بنت أبي سفيان - فقال رسول الله ﷺ: «أو تحبين ذلك؟» قلت: نعم! لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة - وفي رواية: درة بنت أبي سلمة - قال: «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم قال «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي. إنها لابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأبا سلمة ثويبة. فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن» زاد البخاري: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة. فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيراً غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة. وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وذكر السهيلي وغيره: أن الرائي له هو أخوه العباس. وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر. وفيه أن أبا لهب قال للعباس: إنه ليخفف عليّ في مثل يوم الاثنين. قالوا: لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك.

٧- ذكر رضاعه ﷺ من حليمة السعدية

قال محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٥]: واستُرضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب، واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر، واسم أبي رسول الله ﷺ الذي أرضعه - يعني زوج حليمة - الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن. وإخوته عليه الصلاة والسلام -

يعني من الرضاعة - عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة بنت الحارث وهي الشيماء وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٢٦ - ٢٨]: حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث بن حاطب، وكان يقال له: مولى الحارث بن حاطب. قال: حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: حدثت عن حليمة ابنة الحارث أنها قالت: قدمت مكة في نسوة وذكر الواقدي [الطبقات لابن سعد: ١/١١٠، ١١١] بإسناده أنهن كن عشرة نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء من بني سعد نلتمس بها الرضعاء وفي سنة شهباء فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمّت بالركب ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة. وما نام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً.

فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل: إنه يتيم تركناه وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع. لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن. فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي. وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا. فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة. ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه. فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي فيقلن والله إن لها لشأناً. حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فتحلب ما شئنا وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم - أو لرعيانهم - ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فيريحون أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا.

فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه فكان يشب شباباً لا تشبّه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة. فلما رأته أمه قلنا لها: ياظئر دعينا نرجع بابنتا هذه السنة الأخرى فانا نخشى عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت: فنعم.

فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينا هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال: ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه. فاعتنقه أبوه وقال: يا بني ما شأنك؟ قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان» فرجعنا به معنا فقال أبوه: ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت حليمة: فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به. فقدمنا به عليها فقالت: ما ردكما به فقد كنتما عليه حريصين؟ فقلنا: لا والله ياظئر إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذي علينا وقلنا: نخشى الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله. فقالت: ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى. قالت:

حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما.

وهذا الحديث قد روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

وقال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: خرجت حليمة تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر! فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً. رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع [الطبقات لابن سعد: ١/١٥٢].

وقال ابن إسحاق [السيرة: ٢٨]: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فالقياها. ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم».

وهذا إسناد جيد قوي.

وقد روى أبو نعيم الحافظ في «الدلائل» [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣/٤٦٩ - ٤٧٣] من طريق عمر بن الصبح وهو أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس.

هذه القصة مطولة جداً ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع. فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به.

ثم قال: وحدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن نفير حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد أنه حدثه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً فقلت: يا أخي اذهب فاتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما

لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فاقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه. فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي ثم قال: ائتني بالسكينة فذرها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه: حُصْه فحاصه وختم على قلبي بخاتم النبوة. فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر علي بعضهم. فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم.

ثم انطلقا وتركاني وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت فأشفقت أن يكون قد التُبس بي فقالت: أعيذك بالله. فرحلت بعيراً لها وجعلتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها. وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام» [الدلائل للبيهقي: ٧/٢، ٨. وتاريخ دمشق: ٤٦٤/٣ ـ ٤٦٦ من طريق بقية بن الوليد] ورواه أحمد [١٨٤/٤، ١٨٥] من حديث بقية بن الوليد به.

وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به.

وقد رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٦٠/٣، ٤٦١] من طريق أبي داود الطيالسي: حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي أخبرني عمر بن عروة بن الزبير. قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو. قال: فزنه برجل فوزنت برجل فرجحته» وذكر تمامه، وذكر شق صدره وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه قال: «فما هو إلا أن وليا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة».

ثم أورد ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٦٢/٣ ـ ٤٦٤] عن أبي بن كعب بنحو ذلك. ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك [تاريخ دمشق: ٤٦٦/٣ ـ ٤٧٣]. وثبت في «صحيح مسلم» [(١٦٢)] من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

وقد رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٦٠/٣] من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البناني عن أنس أن الصلاة فرضت بالمدينة، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته في طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم كبسا جوفه حكمة وعلماً.

ومن طريق ابن وهب أيضاً [في تاريخ دمشق: ٤٦١/٣] عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ ثلاث ليال قال: خذوا خيرهم وسيدهم، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ثم أتي بتور من ذهب فغسل جوفه ثم ملئ حكمة وإيماناً.

وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس [م (١٦٢)].

وفي الصحيحين [خ (٧٥١٧)، م (١٦٢)] من طريق شريك بن أبي نمر عن أنس.

وعن الزهري عن أنس عن أبي ذر [خ (٣٤٩، ١٦٣٦، ٣٣٤٢)، م (١٦٣)].

وقتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث الإسراء [خ (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، م (١٦٤)].

كما سيأتي قصة شرح الصدر ليلتئذ وأنه غسل بماء زمزم، ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٦٧/١]: وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر». وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٦٧/١]: أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه مرت به على ركب من النصارى فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقلبوه وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد. وذكر أنها لما ردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده فجاء جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة في طلبه، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة.

وذكر الأموي من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ـ وهو ضعيف ـ عن الزهري عن سعيد بن المسيب قصّة مولده عليه الصلاة والسلام ورضاعه من حليمة على غير سياق محمد بن إسحاق. وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جدّه في كل عام فلما كان من شق صدره عندهم ما كان ردته إليهم فأقام عند أمه حتى كان عمره ثماني سنين ماتت فكفله جده عبد المطلب فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين فكفله عماه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب، فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن. فذكر أنهم رأوا منه آيات في تلك السفرة منها: أن فحلاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق في واد عرُهم عليه فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام. ومنها: أنه خاض بهم سيلاً عرمرماً فأيبسه الله تعالى له حتى جاوزوه ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب.

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم، وذلك بعد فتح مكة بشهر. فمتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم كما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام ٤٨٨/٣، ٤٨٩] في وقعة هوازن: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما

مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين. ثم أنشد:

امننْ علينـا رسـولَ اللّـه في كَـرَم … فـإنك المـرءُ نرجـوهُ وندّخـر
امنـنْ علـى بيضـةٍ قـد عاقَها قَـدَر … ممـزّق شـمْلُها في دهرهـا غِـيَرُ
أبقت لنا الدهـرُ هتّافاً علـى حَـزَن … علـى قلوبهـم الغمّـاءُ والغُمَـر
إن لم تَداركْهـا نعمـاءُ تنشـرُها … يا أرجحَ الناسِ حِلماً حين يُختبر
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضعُها … إذ فـوكَ يملـؤه مـن مخضها درر
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعها … وإذ يُريبـك مـا تـأتي ومـا تـذَر
لا تجعلنّـا كمـن شـالت نَعامتُـه … واستبقِ منّا فإنا معشـرٌ زُهُـر
إنـا لنشـكر للنُّعمـى وإن كُفِـرتْ … وعندنا بعـدَ هـذا اليـوم مدّخـر

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبي الرملي عن زياد بن طارق الجشمي عن أبي صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال: لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه:

امننْ علينـا رسـولَ اللّـه في دعـة … فـإنك المـرءُ نرجـوهُ وننتظـر
امنـنْ علـى بيضـةٍ قـد عاقَها قَـدَر … ممـزّق شـمْلُها في دهرهـا غِـيَرُ
أبقت لنا الحربُ هتّافاً علـى حَـزَن … علـى قلوبهـم الغمّـاءُ والغُمَـر
إن لم تَداركْهـا نعمـاءُ تنشـرُها … يا أرجحَ الناسِ حِلماً حين يُختبر
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضعُها … إذ فـوكَ تملـؤه مـن مخضها الـدّرر
إذ أنت طفل صغير كنتَ تَرْضعُها … وإذ يُريبـك مـا تـأتي ومـا تـذَر
لا تجعلنّـا كمـن شـالت نَعامتُـه … واستبقِ منّا فإنا معشـرٌ زُهُـر
إنـا لنشـكر للنُّعمـى وإن كُفِـرتْ … وعندنا بعـدَ هـذا اليـومِ مدّخـر
فألبسِ العفو مَن قد كنتَ تَرْضَعُه … من أمهاتِكَ إن العفـوَ مشـتَهر
إنّـا نؤمّـل عفـواً منـك تُلبسـه … هـذي البريّـةَ إذ تعفـو وتنتصـر
فـاغفر عفـا اللّـه عمـا أنـتَ راهبُـه … يـومَ القيامـة إذ يُهـدى لـك الظَّفَـر

قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو للّه ولكم» فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو للّه ولرسوله ﷺ.

وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاماً وأناسي كثيراً. حتى قال أبو الحسن بن فارس: فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذٍ خمسمائة ألف ألف درهم. فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة.

٨- رجوعُ النبيِّ ﷺ إلى امِّه

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/١٦٨]: بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له فكان رسول اللّه ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وجده عبد المطلب في كلاءة اللّه وحفظه، ينبته اللّه نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٤٢، سيرة ابن هشام: ١/١٦٨]: حدثني عبد اللّه بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أم رسول اللّه ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم. فماتت وهي راجعة به إلى مكة. وذكر الواقدي بأسانيده [من طريق الواقدي اخرجه ابن سعد في الطبقات: ١/١١٦] أن النبي ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعه أم أيمن وله ست سنين، فزارت أخواله.

قالت أم أيمن: فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لي: أخرجي إلينا أحمد ننظر إليه، فنظرا إليه وقلباه فقال أحدهما لصاحبه: هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم. فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به، فماتت بالأبواء وهي راجعة. وقد قال الإمام أحمد [٥/٣٥٦، ٣٥٧]: حدّثنا حسين بن محمد حدّثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ حتى إذا كنا بوَدّان قال «مكانكم حتى آتيكم» فانطلق ثم جاءنا وهو سقيم، فقال: «إني أتيت قبر أم محمد فسألت ربي الشفاعة ـ يعني لها ـ فمنعنيها، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام فكلوا وأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن الأشربة في هذه الأوعية فاشربوا فيما بدا لكم».

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ١/١٨٩] من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله كثير، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى فاستقبله رضي اللّه عنه عمر فقال: ما يبكيك يا رسول اللّه؟ قال: «هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى علي، وأدركتني رقتها فبكيت». قال: فما رأيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة. تابعه محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ١/١٨٩، ١٩٠] عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد اللّه بن وهب حدّثنا ابن جريج عن أيوب بن هانئ عن مسروق بن الأجدع عن عبد اللّه بن مسعود. قال: خرج رسول اللّه ﷺ ينظر في المقابر وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم ارتفع نحيب رسول اللّه ﷺ باكياً فبكينا لبكاء رسول اللّه ﷺ ثم إن رسول اللّه ﷺ أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه ما الذي أبكاك؟ لقد أبكانا وأفزعنا. فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائي؟» فقلنا نعم يا رسول اللّه فقال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فيه واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه، ونزل عليّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤] فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني».

غريب ولم يخرجوه.

وروى مسلم [(٩٧٦)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: «استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت».

وروى مسلم [(٢٠٣)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان عن حماد

بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفّى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار».

وقد روى البيهقي [الدلائل: ١/١٩١، ١٩٢] من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه. قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال إن أبي كان يصل الرحم، وكان، وكان، فأين هو؟ قال: «في النار» قال فكأن الأعرابي وجد من ذلك، فقال يا رسول الله أين أبوك؟ قال: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» قال فأسلم الأعرابي بعد ذلك. فقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار. غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد حدّثنا أبو عبد الرحمن حدّثنا سعيد - هو ابن أبي أيوب - حدّثنا ربيعة بن سيف المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو. قال بينما نحن نمشي مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: «ما أخرجك من بيتك يا فاطمة؟» فقالت أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم ميتهم وعزيتهم. قال: «لعلك بلغت معهم الكدى» قالت معاذ الله أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر. قال: «لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك» ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافري الصنمي الإسكندري وقد قال البخاري: عنده مناكير. وقال النسائي: ليس به بأس وقال مرة: صدوق، وفي نسخة ضعيف. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يخطىء كثيراً. وقال الدارقطني: صالح. وقال ابن يونس في تاريخ مصر: في حديثه مناكير توفي قريباً من سنة عشرين ومائة، والمراد بالكدى القبور - وقيل النوح.

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية خلافاً لفرقة الشيعة فيه وفي ابنه أبي طالب على ما سيأتي في وفاة أبي طالب، وقد قال البيهقي - بعد روايته هذه الأحاديث في كتابه دلائل النبوة: وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة في الآخرة وقد كانوا يعبدون الوثن، حتى ماتوا ولم يدينوا دين عيسى ابن مريم عليه السلام، وكفرهم لا يقدح في نسبه عليه الصلاة والسلام لأن أنكحة الكفار صحيحة. ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام وبالله التوفيق. انتهى كلامه.

قلت: وإخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة، كما بسطناه سنداً ومتناً في تفسيرنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب. فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة ولله الحمد والمنة.

وأما الحديث الذي ذكره السهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما وآمنا به، فإنه حديث منكر جداً. وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى. لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه والله أعلم.

٩- مقامه مع جدّه عبد المطلب ثم عمّه أبي طالب

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم - يعني بعد موت أمه آمنة بنت وهب - فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه. فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه. فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

وقال الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله. وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمي عن المنذر بن جهم. وحدثنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث. وحدثنا ابن أبي سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير - دخل حديث بعضهم في بعض - قالوا: كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا نام. وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك دعوا ابني إنه يؤنس ملكاً.

وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام منه. فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء! فكان أبو طالب يحتفظ به. وقال عبد المطلب لأم أيمن - وكانت تحضنه -: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة. وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول علي بابني فيؤتى به إليه.

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون.

وقال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين هلك جده عبد المطلب بن هاشم. ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه. وهن: أروى وأميمة، وبرة، وصفية، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء وذكر أشعارهن وما قلن في رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح. وبسط القول في ذلك. وقد قال ابن هشام: ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٤٧]: فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولي زمزم والسقاية بعده ابنه العباس، وهو من أحدث إخوته سناً فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وأقرها في يده رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب مع عمه أبي طالب لوصية عبد المطلب له به، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. قال: فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ وكان إليه ومعه.

وقال الواقدي [أخرجه ابن سعد في طبقاته ١/١١٩، ١٢٠ عن الواقدي به]: أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. وحدثنا معاذ بن محمد الأنصاري عن عطاء عن ابن عباس. وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة - دخل حديث بعضهم في حديث بعض - قالوا: لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له وكان يحبه حباً شديداً لا

يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه. وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط. وكان يخصه بالطعام وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا. فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ابني. فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا علي بن ثابت عن طلحة بن عمرو سمعت عطاء بن أبي رباح سمعت ابن عباس يقول: كان بنو أبي طالب يصبحون غمصاً رمصاً ويصبح رسول الله ﷺ صقيلاً دهيناً وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول البكرة، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله ﷺ يده لا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة [تاريخ دمشق: ٨٤/٣].

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٧٩/١، ١٨٠]: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه أن رجلاً من لهب كان عائفاً فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال: فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه قال: فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء. فلما فرغ قال: الغلام علي به. فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول: ويلكم ردوا علي الغلام الذي رأيته آنفاً فوالله ليكونن له شأن. قال وانطلق به أبو طالب.

١٠- قصته ﷺ مع الراهب بحيرى

في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٥٣ ـ ٥٥، سيرة ابن هشام: ١٨٠/١ ـ ١٨٣]: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام. فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب به رسول الله ﷺ ـ فيما يزعمون ـ فرق له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً ـ أو كما قال ـ فخرج به معه. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له. وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب ـ فيما يزعمون ـ يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام.

فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك ـ فيما يزعمون ـ عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حين أقبلو وغمامة تظله من بين القوم. ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع. ثم أرسل إليهم. فقال: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحُركم. فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟.

قال له بحيري: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا: يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سناً فتخلف في رحالنا. قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤماً بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لا تسألني باللات والعزى. فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما». فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره. فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به قال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٥٥، سيرة ابن هشام: ١٨٣/١]: فزعموا ـ فيما روى الناس ـ أن زُريراً، وتماماً، ودريسا ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه فردهم عنه بحيرى. فذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه.

وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق [السيرة: ٥٥ ـ ٥٧] أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد. هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه.

وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدثنا عباس بن محمد بن الدوري حدثنا قراد أبو نوح حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم قال: فنزل وهم يحلون رحالهم. فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين [تاريخ دمشق: ٦/٣، ٧].

وفي رواية البيهقي زيادة [الدلائل: ٢٤/٢]: هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرة ولا حجر إلا خَرّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم

رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - فقال: أرسلوا إليه فأقبل وغمامة تظله. فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه. قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه فالتفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا. قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا عنده. قال فقال الراهب: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر وبلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت.

هكذا رواه الترمذي [(٣٦٢٠)] عن أبي العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبي نوح به.

والحاكم [المستدرك: ٦١٥/٢] والبيهقي [الدلائل: ٢٤/٢ - ٢٦] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥/٣] من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدوري به.

وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بقراد. سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ومع هذا في حديثه هذا غرابة، قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه. وقال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده. حكاه البيهقي [الدلائل: ٢٦/٢] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٥/٣].

قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة. ولا يُلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل. فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

الثاني: أن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا.

الثالث: أن قوله: وبعث معه أبو بكر وبلالاً إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر، وعمر بلال أقل من ذلك، فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب اللّهم إلا أن يقال إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبير. إما بأن يكون سفره بعد هذا أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير محفوظ، فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا الواقدي.

وحكى السهيلي [الروض الأنف: ٢٢١/٢] عن بعضهم أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم.

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين. قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرى. فقال لأبي طالب في السر ما قال. وأمره أن يحتفظ به فرده معه أبو طالب إلى مكة.

وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى. ما رؤي ملاحياً ولا ممارياً أحداً، حتى سماه قومه الأمين. لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات [الطبقات لابن سعد: ١٢٠/١، ١٢١].

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١٢٠/١]: أخبرنا خالد بن خداش حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب - أو أبا طالب شك خالد - قال: لما مات عبد الله عطف على محمد فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه، وأنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأتاه فيه راهب. فقال: إن فيكم رجلاً صالحاً ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ قال فقال: ها أنا ذا وليه - أو قيل: هذا وليه - قال: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام إن اليهود حسّد وإني أخشاهم عليه. قال: ما أنت تقول ذاك، ولكن الله يقوله. فرده وقال: اللّهم إني أستودعك محمداً ثم إنه مات.

حكى السهيلي [الروض الأنف: ٢٢٠/٢] عن سير الزهري أن بحيرى كان حبراً من أحبار يهود.

قلت: والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم.

وعن المسعودي [مروج الذهب: ٨٩/١] أنه كان من عبد القيس وكان اسمه سَرْجِس.

وفي كتاب «المعارف» لابن قتيبة [ص: ٥٨]: سمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة، بحيرى، ورئاب الشَّنّي والثالث المنتظر. وكان الثالث المنتظر هو الرسول ﷺ قال ابن قتيبة: وكان قبر رئاب الشني وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش، وهو المطر الخفيف.

١١- نشأة النبي ﷺ

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٨٣/١]: فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة وكان رسول الله ﷺ - فيما ذكر لي - يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك». قال: «فأخذته فشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي».

وهذه القصة شبيهة بما في «الصحيح» عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها والله أعلم.

قال عبد الرزاق [الدلائل للبيهقي: ٣٢/٢ من طريق عبد الرزاق به]: أخبرنا ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة. فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: «إزاري» فشد عليه إزاره.

أخرجاه في الصحيحين [خ (٣٨٢٩)، م (٣٤٠)] من حديث عبد الرزاق.

وأخرجاه أيضاً [خ (٣٦٤)، م (٣٤٠)] من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣٢/٢، ٣٣]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا محمد بن إسحاق الصاغاني حدّثنا محمد بن بكير الحضرمي حدّثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي حدّثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال: وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة، وكانت النساء تنقل الشيد. قال: فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس اتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي قال: فخر وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره وقال: «إني نهيت أن أمشي عُرياناً». قال: وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا: مجنون.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣٣/٢، ٣٤] من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال: بلى. قال: فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر. ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة. فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته».

وهذا حديث غريب جداً وقد يكون عن علي نفسه ويكون قوله في آخره: «حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته» مقحماً والله أعلم.

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في «الثقات» [٨٢/٩]. وزعم بعضهم أنه من رجال «الصحيح». قال شيخنا في «تهذيبه» [تهذيب الكمال: ٥٣٣/٢٥، ٥٣٤ حاشية (٤)] ولم أقف على ذلك والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٤/٢]: حدثني أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا الحسن بن علي بن عفان العامري حدّثنا أبو أسامة حدّثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة. قال: كان صنم من نحاس يقال له: إساف أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا. فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنه؟».

قال البيهقي: زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى: «لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما»

فأما الحديث الذي قاله الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٣٥/٢] أخبرنا أبو سعد الماليني. أنبأنا أبو أحمد ابن عدي الحافظ حدّثنا إبراهيم بن أسباط حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا جرير عن سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم قال: فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ. قال: كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام قُبيل؟. قال: فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم.

فهو حديث أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة حتى قال الإمام أحمد فيه [ميزان الاعتدال: ٣٦/٣]: لم يكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا.

وقد حكى البيهقي [الدلائل: ٣٦/٢] عن بعضهم أن معناه: أنه شهد مع من يستلم الأصنام وذلك قبل أن يوحى إليه والله أعلم.

وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته. وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بعرفات كما قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن عمه نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير. قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقاً من الله عز وجل [الدلائل للبيهقي: ٣٧/٢].

قال البيهقي [الدلائل للبيهقي: ٣٧/٢]: معنى قوله: على دين قومه ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً.

قلت: ويُفهم من قوله هذا أيضاً أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه. وهذا توفيق من الله له ورواه الإمام أحمد [٨٢/٤] عن يعقوب عن أبيه عن محمد بن إسحاق به. ولفظه رأيت رسول الله ﷺ قبل أن يُنزّل عليه وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله. وقال الإمام أحمد [٨٠/٤]: حدّثنا سفيان عن عمرو بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف فقلت: إن هذا من الحُمس ما شأنه ههنا؟ وأخرجاه [خ (١٦٦٤)، م (١٢٢٠)] من حديث سفيان بن عيينة به.

١٢- ذكر شهوده ﷺ حرب الفِجَار

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٨٦/١، ١٨٧]: هاجت حرب الفجار

ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وإنما سمي يوم الفجار، بما استحل هذان الحيان - كنانة وقيس عَيْلان - فيه من المحارم بينهم. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس. وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة. حتى إذا كان وسط النهار في كان الظفر لكنانة على قيس.

وقال ابن هشام [السيرة: ١٨٤/١ - ١٨٦]: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة - فيما حدثني به أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء - هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان. وكان الذي هاجها أن عروة الرحال ابن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجار لطيمة - أي تجارة - للنعمان بن المنذر. فقال له البراض بن قيس - أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة - أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته. حتى إذا كان بتيمَن ذي ظلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفجار، وقال البراض في ذلك:

وداهيةٍ تهمّ الناسَ قبلي ... شددتُ لها بني بَكْرٍ ضلوعي
هدمتُ بها بيوتَ بني كلابٍ ... وأرضعتُ المواليَ بالضروع
رفعتُ له بذي ظلالَ كفّي ... فخرَّ يَميد كالجِذْع الصريع

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب:

وأبلغ إن عرضتَ بني كلابٍ ... وعامرَ والخطوبُ لها موالي
وأبلغ إن عرضتَ بني نُمَيْرٍ ... وأخوالَ القتيلِ بني هلال
بأنَّ الوافدَ الرحّالَ أمسى ... مقيماً عند تَيْمَنَ ذي ظلال

قال ابن هشام [السيرة: ١٨٦/١]: فأتى آت قريشاً فقال: إن البراض قد قتل عروة، وهو في الشهر الحرام بعكاظ. فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم. ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم. فاقتتلوا حتى جاء الليل فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم. قال: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم. أخرجه أعمامه معهم وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ أنبِّل على أعمامي» أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

قال ابن هشام [السيرة: ١٨٧/١]: وحديث الفجار أطول مما ذكرت وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله ﷺ.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٢٣٣/٢]: والفجار بكسر الفاء على وزن قتال. وكانت الفجارات في العرب أربعة ذكرهن المسعودي. وآخرهن فجار البراض هذا. وكان القتال فيه في أربعة أيام، يوم شمطة، ويوم العبلاء، وهما عند عكاظ، ويوم الشرب - وهو أعظمها يوماً - وهو الذي حضره رسول الله ﷺ وفيه قيدا - رئيس قريش وبني كنانة وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان - أنفسهما لئلا يفرا. وانهزمت يومئذ قيس إلا بني نصر فإنهم ثبتوا. ويوم الحريرة عند نخلة ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ. فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ونادى: يا معشر مضر علام تقاتلون؟ فقالت له هوازن: ما تدعو إليه؟ قال: الصلح، قالوا: وكيف؟ قال: ندي قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها، ونعفو عن دمائنا. قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: أنا، قالوا: ومن أنت؟ قال: عتبة بن ربيعة: فوقع الصلح على ذلك وبعثوا إليهم أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن دمائهم وانقضت حرب الفجار.

وقد ذكر الأموي حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولاً فيما رواه عن الأثرم. وهو المغيرة بن علي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى فذكر ذلك.

١٣- شهوده ﷺ حلف الفضول

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٧/٢، ٣٨]: أخبرنا أبو سعد الماليني أنبأنا أبو أحمد بن عدي الحافظ حدّثنا يحيى بن علي بن هاشم الخفاف حدّثنا أبو عبد الرحمن الأذرمي حدّثنا إسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. قال: قال رسول الله ﷺ: «شهدت مع عمومتي حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه - أو كلمة نحوها - وأن لي حُمْر النَّعم» قال: وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن. قال: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة حدّثنا أبو عمرو بن مطر حدّثنا أبو بكر بن داود السِّمناني حدّثنا معلى بن مهدي حدّثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته» قال: والمطيبون هاشم، وأمية، وزهرة، ومخزوم.

قال البيهقي: كذا روي هذا التفسير مدرجاً في الحديث ولا أدري قائله، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول وأن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين.

قلت: هذا لا شك فيه، وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصي وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار من السقاية، والرفادة، واللواء، والندوة، والحجابة، ونازعهم فيه بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا. فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت. فسموا المطيبين كما تقدم وكان هذا قديماً ولكن المراد بهذا الحلف: حلف الفضول وكان في دار عبد الله بن جدعان كما رواه الحميدي [ذكره السهيلي في الروض الأنف: ٧١/٢] عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يَعُزَّ ظالم مظلوماً». قالوا: وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر. وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمح وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه - أي انتهروه - فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة - فنادى بأعلى صوته:

يا آلَ فِهْرٍ لمظلومٍ بضاعتُه ... ببطنِ مكةَ نائي الدارِ والنَّفَرِ
ومحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرتَه ... يا للرجال وبين الحِجرِ والحَجَرِ

إنّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرامَ لثوبِ الفاجر الغُدَرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتعاهدوا بالله: ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة. وما رسا ثبير وحراء مكانهما. وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

حلفتُ لَنعقِدَنْ حِلْفاً عليهم وإنْ كُنّا جميعاً أهلَ دار
نسمّيهِ الفُضولَ إذا عقدْنا يعز بهِ الغريبُ لذي الجوار
ويعلمُ مَن حوالي البيتِ أنّا أباةُ الضيم نمنعُ كلَّ عار

وقال الزبير أيضاً:

إن الفضولَ تعاقدوا وتحالفوا ألا يُقيم ببطنِ مكةَ ظالم
أمرٌ عليهِ تعاقَدوا وتواثقوا فالجارُ والمُعْتَرُّ فيهمْ سالم

وذكر قاسم بن ثابت في «غريب الحديث» [وذكره السهيلي في الروض الأنف: ٧٣/٢، ٧٤ عنه] أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً - أو معتمراً - ومعه ابنة له يقال لها: القتول من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نُبيه بن الحجاج وغيبها عنه. فقال الخثعمي: من يُعديني على هذا الرجل؟ فقيل له: عليك بحلف الفضول. فوقف عند الكعبة ونادى: يا لحلف الفضول. فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتضوا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث فما لك؟ فقال: إن نبيهاً ظلمني في بنتي وانتزعها مني قسراً فساروا معه حتى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم فقالوا له: أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه، فقال: أفعل، ولكن متعوني بها الليلة، فقالوا: لا والله ولا شَخْبَ لِقْحة فأخرجها إليهم وهو يقول:

راحَ صحبي ولم أحيّي القَتولا لم أودّعهمُ وداعاً جميلا
إذ أجدّ الفضولُ أنْ يمنعوها قد أراني ولا أخافُ الفُضولا
لا تخالي أنّي عشيةَ راحَ الركْـ ـبُ هُتم علي أنْ لا أقولا

وذكر أبياتاً أخر غير هذه. وقد قيل: إنما سمي هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه. وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل، وهم: الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضيل بن الحارث. هذا قول ابن قتيبة [ذكره السهيلي في الروض الأنف: ٧٠/٢ عن ابن قتيبة]. وقال غيره: هم الفضيل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاعة وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله.

قال محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ١٣٣/١، ١٣٤]: وتداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه. وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة. فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣٤/١]: فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣٤/١، ١٣٥]: وحدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادي الليثي أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - والوليد يومئذ أمير المدنية، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان - منازعة في مال كان بينهما بذي المروة فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول. قال فقال عبد الله بن الزبير - وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال - وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً. قال: وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك. وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

١٤- تزويجه ﷺ خديجة بنت خويلد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٥٩ - ٦١، سيرة ابن هشام: ١٨٧/١]: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار. مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة. فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ثم باع رسول الله ﷺ سلعته - يعني تجارته - التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري.

ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامتها. فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له - فيما يزعمون - يا ابن عم أني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِكَ في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً. كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ١٩٠/١]: فأصدقها عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦١، سيرة ابن هشام: ١٩٠/١]: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم - إلا إبراهيم -: القاسم وكان به يكنى، والطيب والطاهر، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

قال ابن هشام: أكبرهم القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال البيهقي [الدلائل: ٧٠/٢، ٧١] عن الحاكم: قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال: أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية. وكان أول من مات من ولده القاسم، ثم عبد الله. وبلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويقال: خمسين. وهو أصح.

وقال غيره [الدلائل للبيهقي: ٦٩/٢]: بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ثم مات بعد النبوة.

وقيل: مات وهو رضيع فقال رسول الله ﷺ: «إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه» [الروض الأنف للسهيلي: ٢٤٣/٢] والمعروف أن هذا في حق إبراهيم.

وقال يونس بن بكير: حدثنا إبراهيم بن عثمان عن الحكم مقسم عن ابن عباس قال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة: القاسم، وعبدالله، وفاطمة، وأم كلثوم، وزينب، ورقية [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ١٤٠/٣].

وقال الزبير بن بكار [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ١٣١/٣]: عبدالله هو الطيب وهو الطاهر، سمي بذلك لأنه ولد بعد النبوة قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٠/١]: فأما القاسم والطيب والطاهر فماتوا قبل البعثة. وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام وهاجرن معه ﷺ.

قال ابن هشام [السيرة: ١٩١/١]: وأما إبراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من حَفْن من كورة أنصنا وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن هشام [السيرة: ١٨٧/١]: وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم، عن أبي عمرو المدني.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٣٢٦/٣]: كتبت عن إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر الموصلي حدثني غير واحد أن عمرو بن أسد زوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمس وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة.

وهكذا نقل البيهقي [الدلائل: ٧٢/٢] عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين. وقيل: خمساً وعشرين سنة.

وقال البيهقي [الدلائل: ٦٥/٢]: باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن عبد الله أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد القرشي عن جده سعيد عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط» رواه البخاري [(٢٢٦٢)] عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٦٥/٢، ٦٦] من طريق الربيع بن بدر - وهو ضعيف - عن أبي الزبير عن جابر. قال قال رسول الله ﷺ: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص». وروى البيهقي [الدلائل: ٧٣/٢] من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس: أن أبا خديجة زوّج رسول الله ﷺ وهو - أظنه قال - سكران. ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان قال: حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر الموصلي حدثني عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل أن عبد الله بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول:

أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له ترباً وكنت له إلفاً وخدناً. وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله ﷺ. فقالت:

أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقي خمراً فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً. فقال: ما هذه الحلة وهذه النقيعة وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً: هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوّجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاؤوه فكلموه. فقال: أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوّجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال: إن كنت زوّجته فسبيل ذاك وإن لم أكن فعلت فقد زوّجته.

وقد ذكر الزهري في «سيره» أن أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاه السهيلي [الروض الأنف: ٢٣٩/٢، ٢٤٠].

قال الموصلي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجحه السهيلي [الروض الأنف: ٢٣٨/٢]. وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت: وكان خويلد قد مات قبل الفجار، وهو الذي نازع تُبَّعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما روعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٣/٤]: في آخر «السيرة» أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها رسول الله ﷺ فالله أعلم.

١٥- موقف ورقة بن نوفل من النبي ﷺ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٣/٤]: وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه

كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه. أو كما قال. فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى؟ وقال في ذلك:

لجِجت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبّرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويُظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خساراً ... ويلقى من يساله فلوجا
فياليتي إذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا
ولوجاً في الذي كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجّي بالذي كرهوا جميعاً ... إلى ذي العرش إن سلفوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار مَنْ سمّك البروجا
فإن يبقوا وأبق يكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه: [سيرة ابن إسحاق: ٩٤، ٩٥]

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبّرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذي وجّهت يا خير حرة ... بغور وبالنجدين حيث الصحاصح
إلى سوق بصرى في الركاب التي غدت ... وهن من الأحمال قعص دوالح
فيخبرنا عن كل خير بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يُبعث صادقاً ... كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يُرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيا لؤي وغالب ... شبابهم والأشيبون الجحاجح
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره ... فإني به مستبشر الود فارح
وإلا فإني يا خديجة فاعلمي ... عن أرضك في الأرض العريضة سائح

وزاد الأموي:

فمتّبعٌ دينَ الذي أسس البنا ... وكانَ له فضلٌ على الناسِ راجح
وأسّسَ بنياناً بمكّةَ ثابتاً ... تلألأ فيه بالظلام المصابح
مَثاباً لأفناء القبائل كلّها ... تخبُّ إليه اليَعْمَلات الطلائح
حراجيجُ أمثال القِداح من السُّرى ... يعلّق في أرساغهنّ السرايح

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلي في «روضه»: [الروض الأنف: ٢٥٠/٢]

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم ... أنا النذيرُ فلا يغرركُمُ أحَدُ
لا تعبدُنّ إلهاً غيرَ خالقِكم ... فإن دعَوكم فقولوا بيننا حَدَد
سُبحانَ ذي العرشِ سبحاناً يدومُ له ... وقبلَنا سبّح الجوديّ والجُمُد
مسخّرٌ كلّ ما تحتَ السماءِ له ... لا ينبغي أن يناوي ملكَه أحد
لا شيءَ مما نَرى تبقى بَشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويودي المالُ والولد
لم تُغنِ عن هرْمزٍ يوماً خزائنه ... والخُلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانُ إذ تجري الرياحُ به ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها مَرَد
أينَ الملوكُ التي كانت لعزّتها ... من كلّ أوبٍ إليها وافدٌ يَفِد
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كَذِبٍ ... لا بدّ من وردِه يوماً كما وردوا

ثم قال: هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة، قال: وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبي الصلت.

قلت: وقد رُوِّينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يستشهد في بعض الأحيان بشيء من هذه الأبيات والله أعلم.

١٦- تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقي [الدلائل: ٤٣/٢] بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة. والمشهور أن بناء قريش الكعبة بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين. ثم شرع البيهقي في ذكر بناء الكعبة في زمن إبراهيم كما قدمناه في قصته، وأورد حديث ابن عباس المتقدم في «صحيح البخاري» وذكر ما ورد من الإسرائيليات في بنائه في زمن آدم ولا يصح ذلك، فإن ظاهر القرآن يقتضي أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرفة في سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٦ -٩٧].

وثبت في «الصحيحين» عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم، وأن المسجد الأقصى أسسه إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام. وفي «الصحيحين» [خ (٥٥٥٠)، م (١٦٧٩)] «أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

وقال البيهقي [الدلائل: ٤٤/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو عبد الله الصفار حدّثنا أحمد بن مهران حدّثنا عبيد الله حدّثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو. قال: كان البيت قبل الأرض بألفي سنة، ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] قال: من تحته مدّاً. قال: وقد تابعه منصور عن مجاهد.

قلت: وهذا غريب جداً وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها وفيهما منكرات وغرائب.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٤٤/٢، ٤٥]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي حدّثنا يحيى بن عثمان بن صالح حدّثنا أبو صالح الجهني حدثني ابن لهيعة عن يزيد عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله

جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل، حتى أجابه الماء نودي من تحته: حسبك يا آدم، فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه».

قال البيهقي: تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً.

قلت: وهو ضعيف، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت والله أعلم.

وقال الربيع [من طريق الربيع أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥/٢]: أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان عن ابن أبي لبيد عن محمد بن كعب القرظي - أو غيره - قال: حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا: بُرَّ نسكك يا آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام.

وقال يونس بن بكير [من طريق يونس أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥/٢، ٤٦] عن ابن إسحاق: حدثني بقية - أو قال: ثقة - من أهل المدينة عن عروة بن الزبير أنه قال: ما من نبي إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح.

قلت: وقد قدمنا حجهما إليه. والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء والله أعلم. ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو في «صحيح البخاري». ثم روى البيهقي [الدلائل: ٥٥/٢، ٥٦] من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال: سأل رجل علياً عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أهو أول بيت بني في الأرض؟ قال: لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. وإن شئت نبأتك كيف بناؤه. إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم: أن ابن لي بيتاً في الأرض فضاق به ذرعاً فأرسل إليه السكينة وهي ريح خجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم حتى إذا بلغ مكان الحجر قال لابنه: أبغني حجراً فالتمس حجراً حتى أتاه به فوجد الحجر الأسود قد ركّب فقال لأبيه: من أين لك هذا؟ قال: جاء به من لا يتكل على بنائك، جاء به جبريل من السماء فأتمه. قال: فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا: يُحكّم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلّهم.

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام كلهم عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي ابن أبي طالب. قال: لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه [الدلائل للبيهقي: ٥٧/٢].

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٥٦/٣، ٢٥٧]: أخبرني أصبغ بن فرج أخبرني ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال: لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه؟ فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه، فكان لا يزداد على السن إلاّ رضاً حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعو لهم فيها.

وهذا سياق حسن، وهو من «سير الزهري»، وفيه من الغرابة قوله: فلما بلغ الحلم. والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله [سيرة ابن إسحاق: ٨٤، ٨٨].

وقال موسى بن عقبة: كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة [الدلائل للبيهقي: ٥٨/٢ - ٦١]. وهكذا قال مجاهد وعروة، ومحمد بن جبير بن مطعم، وغيرهم. فالله أعلم [الدلائل للبيهقي: ٦٢/٢].

وقال موسى بن عقبة: كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة [الدلائل للبيهقي: ٥٨/٢].

قلت: وكان الفجار وحلف الفضول في سنة واحدة إذ كان عمر رسول الله ﷺ عشرون سنة وهذا يؤيد ما قال محمد بن إسحاق والله أعلم.

قال موسى بن عقبة: وإنما حمل قريشاً على بنائها أن السيول كانت تأتي من فوقها، من فوق الردم الذي صنعوه فخرب به فخافوا أن يدخلها الماء. وكان رجل يقال له: مليح سرق طيب الكعبة. فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاؤوا فأعدوا لذلك نفقة وعمالاً. ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الله الذي أرادوا. فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً الوليد بن المغيرة فلما رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك. فلما أرادوا أن يأخذوا في بنيانها أحضروا عمالهم فلم يقدر رجل منهم أن يمضي أمامه موضع قدم. فزعموا أنهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها. فأشفقوا منها شفقة شديدة، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هلكة.

وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم. فلما سُقط في أيديهم والتبس عليهم أمرهم قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فذكر ما كان من نصحه لهم وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها. وأن يقتسموها أرباعاً. وأن لا يدخلوا في بنائها مالاً حراماً. وذكر أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الحية في السماء وتغيبت عنهم ورأوا أن ذلك من الله عز وجل. قال: ويقول بعض الناس: إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد [الدلائل للبيهقي: ٥٨/٢].

وقال محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ١٩٢/١، ١٩٣]: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها. وإنما كانت رضماً فوق القامة. فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان في بئر في جوف الكعبة. وكان الذي وجُد عنده الكنز دويكاً مولى لبني مليح بن عمرو بن خزاعة. فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم. فتحطمت. فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها.

قال الأموي: كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومي إلى الكنيسة

التي أحرقها الفرس للحبشة فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٣/١]: وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة - التي كانت يُطرح فيها ما يُهدى إليها كل يوم - فتتشرّق على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية.

وحكى السهيلي [الروض الأنف: ٢٧٧/٢]: عن رزين: أن سارقاً دخل الكعبة في أيام جرهم ليسرق كنزها. فانهار البئر عليه حتى جاؤوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه، ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كرأس الجدي وبطنها أبيض وظهرها أسود فأقامت فيها خمسمائة عام وهي التي ذكرها محمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٤/١]: فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنيانها قام أبو وهب عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم - وقال ابن هشام: عايد بن عمران بن مخزوم - فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً. لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع رباً، ولا مظلمة أحد من الناس. والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ثم رجع ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٤، سيرة ابن هشام: ١٩٤/١] أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو. قال: وكان خال أبي النبي ﷺ وكان شريفاً ممدَّحاً.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٥، سيرة ابن هشام: ١٩٥/١]: ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة. فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم. وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم. وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ولبني عدي بن كعب، وهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها. فأصبح الوليد غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً.

ووقع في «صحيح البخاري» [(١٥٨٦)] عن يزيد بن رومان: كأسنمة الإبل.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢٨١/٢]: وأرى رواية «السيرة» كالألسنة وَهْماً والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٥، سيرة ابن هشام: ١٩٥/١، ١٩٦]: فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها. فانتهوا عن ذلك الأساس.

وقال موسى بن عقبة: وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلاً من قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة وانتهوا إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه وهو لا يدري أنه من الأساس الأول، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل، ونزا الحجر من يده فوقع في موضعه وفزع الرجل والبناة. فلما ستر الحجر عنهم ما تحته عادوا إلى بنيانهم وقالوا: لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٦، وسيرة ابن هشام: ١٩٦/١]: وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو، حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بَكَّة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها - قال ابن هشام: يعني: جبلاها - مبارك لأهلها في الماء واللبن

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٦، وسيرة ابن هشام: ١٩٦/١]: وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه: مكة الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحلها أول من أهلها. قال: وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا في الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة - إن كان ما ذكر حقاً - مكتوباً فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة. تعملون السيئات وتجزون الحسنات! أجل كما لا يُجتنى من الشوك العنب.

وقال سعيد بن يحيى الأموي: حدثنا مُعَمَّر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر عن الزهري، يرفع الحديث إلى النبي ﷺ قال: «وجد في المقام ثلاثة أصفح، في الصفح الأول: إني أنا الله ذو بكة، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء وباركت لأهلها في اللحم واللبن وفي الصفح الثاني: إني أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي. فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته، وفي الصفح الثالث: إني أنا الله ذو بكة، خلقت الخير والشر وقدرته. فطوبى لمن أجريت الخير على يديه وويل لمن أجريت الشر على يديه» [المصنف لعبد الرزاق: ص٩٢١٩].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٨٦ - ٨٨، سيرة ابن هشام: ١٩٦/١ - ١٩٨]: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة. ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى. حتى تحاوزوا وتحالفوا، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً. ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسُمُّوا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكان عامئذ أسن قريش كلها - قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. ففعلوا. فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال رسول الله ﷺ: «هلموا إلي ثوباً» فأتي به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم ارفعوه جميعاً» ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ. ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين.

وقال الإمام أحمد [٤٢٥/٣]: حدثنا عبد الصمد حدثنا ثابت - يعني: أبا زيد - حدثنا هلال - يعني: ابن خباب عن مجاهد عن مولاه - وهو

السائب بن عبد الله ـ أنه حدثه أنه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية قال: وكان لي حجر، أنا نحته أعبده من دون اللّه، قال: وكنت أجيء باللبن الخاثر الذي آنفه على نفسي فأصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول قال: فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد. فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه وقال آخرون: نحن نضعه فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. فقالوا: أول رجل يطلع من الفج. فجاء رسول اللّه ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له فوضعه في ثوب. ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/١٩٨، ١٩٩]: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشرة ذراعاً وكانت تكسى القباطي ثم كسيت بعدُ البرود. وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

قلت: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجْر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ وذلك لما قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم. وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق. وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا. وقد ثبت في «الصحيحين» [م ()، خ (١٥٨٦)] عن عائشة رضي اللّه عنها أن رسول اللّه ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة. ولولا حِدْثان قومك بكفر لنقضتُ الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحجر» ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول اللّه ﷺ فجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل. لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً. يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر. فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصُّوه وأخرجوا منه الحِجْر ورصوا حجارته في أرض الكعبة، فارتفع بابها وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه فلما كان في زمن المهدي ـ أو أبيه المنصور ـ استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير. فقال مالك رحمه اللّه: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة. فتركها على ما هي عليه. فهي إلى الآن كذلك.

وأما المسجد الحرام: فأول من أخّر البيوت من حول الكعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشتراها من أهلها وهدمها، فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه. فلما ولي ابن الزبير أحكم بنيانه، وحسن جدرانه وأكثر أبوابه. ولم يوسعه شيئاً آخر. فلما استبدّ بالأمر عبد الملك بن مروان زاد في ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج. وكان الذي تولى ذلك بأمره الحجاج بن يوسف.

وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة في ذلك في تفسير سورة البقرة عند قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال ابن إسحاق [السيرة: ٨٩]: فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبتُ لِمَا تصوَّبت العقابُ ... إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ
وقد كانتْ يكونُ لها كشيشٌ ... وأحياناً يكونُ لها وثابُ
إذا قُمنا إلى التأسيس شدَّتْ ... تُهَيِّبُنا البناءَ وقد نهابُ
فلما أن خَشينا الزجرَ جاءتْ ... عُقابٌ تتلئبُ لها انصبابُ
فضمَّتْها إليها ثم خلَّتْ ... لنا البنيانَ ليسَ لها حجابُ
فقمنا حاشدينَ إلى بناءٍ ... لنا منهُ القواعدُ والترابُ
غداةَ نُرفِّعُ التأسيسَ منه ... وليسَ على مُساوينا ثيابُ
أعزَّ به المليكُ بني لؤيٍّ ... فليسَ لأصلهِ منهم ذهابُ
وقد حشدتْ هناك بنو عديٍّ ... ومُرَّةُ قد تقدَّمها كِلابُ
فبوَّأنا المليكُ بذاك عزاً ... وعند اللّه يُلتمسُ الثوابُ

وقد قدمنا في فصل ما كان اللّه يحوط به رسوله ﷺ من أقذار الجاهلية، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه نُهي عن خلع إزاره فأعاده إلى سيرته الأولى.

١٧- من حجّ الجاهلية

وذكر ابن إسحاق [السيرة: ٨٠ ـ ٨٢] ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحُمْس، وهو الشدة في الدين والصلابة. وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيماً زائداً بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة. وكانوا يقولون: نحن أبناء الحرم وقطان بيت اللّه. فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة. وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطاً ولا سمناً ولا يسلؤون شحماً وهم حرم. ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إن استظلوا إلا ببيت من أدَم. وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ـ ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا إلا من طعام قريش، ولا يطوفوا إلا في ثياب قريش، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس ـ وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة ـ طاف عرياناً ولو كانت امرأة ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها وتقول:

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه ... وما بدا منه لا أحلُّه

فإن تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي فطاف في ثياب نفسه فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك. وليس له ولا لغيره أن يمسها. وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي قال بعض الشعراء:

كفى حزناً كري عليه كأنه ... لقى بين أيدي الطائفين حريم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٠٣]: فكانوا كذلك حتى بعث اللّه محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه فقال ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] أي: جمهور العرب من عرفات ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقد قدمنا أن رسول اللّه ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن يُنزّل عليه توفيقاً من اللّه له، وأنزل اللّه عليه رداً عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الآية [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢].

وقال زياد البكائي عن ابن إسحاق: ولا أدري أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده.

١٨- مبعث النبي ﷺ وشيء من البشارات

قال محمد بن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن إسحاق: ٩٠، سيرة ابن هشام: ٢٠٤/١]: وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وقال الله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وفي «صحيح البخاري»[ليس منه] عن ابن عباس قال: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه».

يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه.

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النضر حدّثنا الفرج بن فضالة حدّثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

وقد روى محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٨] عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله.

ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل كما تقدم. يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً.

أما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام.

كما قال الإمام أحمد [١٢٧/٤]: حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي حدّثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية. قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين ترين».

وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال: إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام [أحمد في المسند: ١٢٧/٤]. وقال الإمام أحمد أيضاً [٥٩/٥]: حدّثنا عبد الرحمن حدّثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» تفرد بهن أحمد.

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين في كتاب «دلائل النبوة» [١٣٠/٢] من حديث أبي هريرة فقال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز - يعني أبا القاسم البغوي- حدّثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الأوزاعي حدثني يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بين خلق آدم ونفخ الروح فيه».

ورواه من وجه آخر عن الأوزاعي به. وقال: «وآدم منجدل في طينته» [الدر المنثور: ١٨٤/٥].

وروي عن البغوي أيضاً عن أحمد بن المقدام عن بقية عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي هريرة - مرفوعاً - في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» [دلائل النبوة لأبي نعيم: ٣].

ومن حديث أبي مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبي عن ابن عباس: قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الضعفاء الكبير للعقيلي: ١٨٩٩].

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع، إذ كانت لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض ذكر أموره ولا يلقي العرب ذلك فيه بالاً. حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها، فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها، فرموا بالنجوم فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل. قال: وفي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [الجن: ١ - ٢] إلى آخر السورة.

وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في كتابنا التفسير، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠] الآيات، ذكرنا تفسير ذلك كله هناك.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٩٢، ٩٣، وسيرة ابن هشام: ٢٠٦/١، ٢٠٧]: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمي بها هذا الحي من ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أدهى العرب وأنكرها رأياً، فقالوا له: يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها، فهو والله طي الدنيا، وهلاك هذا الخلق وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فانظروا فما هو؟

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٩١، ٩٢، سيرة ابن هشام: ٢٠٨/١]: وحدثني بعض أهل العلم أن امرأة من بني سهم - يقال لها: الغيطلة -

كانت كاهنة في الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالي فـانقض تحتهـا، ثـم قال: أدر ما أدر يوم عقر ونحر، فقالت قريش حين بلغها ذلك: ما يريد؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال: شعوب مـا شـعوب؟ يصـرع فيـه كعب لجنوب. فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا: ماذا يريد؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب فعرفوا أنـه كان الذي جاء به إلى صاحبته.

قـال ابـن إسـحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/١]: وحدثني علي بـن نـافع الجرشي أن جنباً - بطناً من اليمن- كان لهم كاهن في الجاهلية، فلمـا ذكـر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب، قالت له جنب: انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسـفل جبلـه. فـنزل إليهـم حـين طلعـت الشـمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له، فرفـع رأسـه إلى السماء طويـلاً، ثـم جعل ينزو، ثم قال: أيها الناس إن الله أكرم محمـداً واصطفـاه وطهـر قلبـه وحشاه ومكثه فيكم أيها الناس قليل. ثم اشتد في جبله راجعـاً مـن حيـث جاء، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قـارب [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/١، ٢١٠] وقد أخرناها إلى هواتف الجان.

١٩- كلامُ اليهود في المبعث

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهـداه لنـا - مـا كنـا نسمع من رجل من يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثـان، وكـانوا أهـل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا يزال بيننا وبينهـم شـرور فـإذا نلنـا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنـه قـد تقـارب زمـان نـبي يبعـث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعـث اللّـه رسول الله ﷺأجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا مـا كـانوا يتوعدوننـا بـه. فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا بـه ففينـا وفيهـم نزلـت هـذه الآيـة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

وقال ورقاء عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي: كانت اليهـود تقـول: اللّهم ابعث لنـا هـذا النبي يحكـم بيننـا وبـين النـاس يستفتحون بـه، أي يستنصرون به. رواه البيهقي [دلائل النبوة: ٧٦/٢].

ثم روى من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيـه عـن جـده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: كانت اليهود بخيبر تقـاتل غطفـان فكلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهـذا الدعـاء فقـالوا: اللّهـم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

وروى عطية عن ابن عباس نحوه [دلائل النبوة للبيهقي: ٧٧/٢]. وروي عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦٣، ٦٤، سيرة ابن هشام: ٢١٢/١]: وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان من أهل بدر - قال: كان لنا جـار مـن يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف علـى بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سـناً علـى بـردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحسـاب والميزان والجنـة والنار. قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحـاب أوثـان لا يـرون أن بعثـاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يـا فـلان أو تـرى هـذا كائنـاً أن النـاس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قـال: نعـم، والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطيِّنونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً قالوا له: ويحـك يا فلان فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشـار بيـده إلى نحو مكة واليمن قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا مـن أحدثهـم سـناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفـر بـه بغياً وحسداً. قال: فقلنا له: ويحك يا فلان ألسـت بالذي قلـت لنـا فيـه مـا قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به.

رواه أحمد [٤٦٧/٣] عن يعقوب عن أبيه عن ابن إسحاق.

ورواه البيهقي [دلائل النبوة: ٧٨/٢، ٧٩] عن الحاكم بإسناده من طريـق يونس بن بكير.

وروى أبو نعيم في «الدلائل» عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمـود بن لبيد عن محمد بن مسلمة قال: لم يكن في بني عبـد الأشـهل إلا يهـودي واحد يقال له: يوشع، فسمعته يقول - وإني لغلام في إزار -: قـد أظلكـم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيـده إلى بيـت اللّـه - فمـن أدركه فليصدّقه. فبعث رسـول الله ﷺ فأسلمنا وهو بـين أظهرنـا لم يسـلم حسداً وبغياً.

وقد قدمنا حديث أبي سعيد عن أبيه في أخبار يوشع هذا عن خـروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته وأخبار الزبير بن باطـا عـن ظهـور كوكـب مولد رسول الله ﷺ.

٢٠- إسلام ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعية وزيد بن سعنة وغيرهم

قـال ابـن إسـحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦٤، ٦٥. سيرة ابن هشـام: ٢١٣/١، ٢١٤]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بـني قريظـة: قـال لي: هل تدري عم كان إسلام ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيـد - نفر من بني هدل، إخوة بني قريظة كانوا معهـم في جاهليتهم، ثـم كـانوا سادتهم في الإسلام؟ - قال: قلت: لا، قـال: فـإن رجـلاً مـن اليهـود مـن أرض الشام يقال له: ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسـنين فحـل بـين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقـول صاعـاً من تمر، أو مُدَّين من شعير. قال: فنخرجها، ثم يخرج بنـا إلى ظـاهر حرَّتنـا فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السـحاب ونُسـقي. قـد فعـل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث. قال: ثم حضرتـه الوفـاة عندنـا، فلمـا عرف أنه ميت قال: يا معشـر يهـود مـا ترونـه أخرجني مـن أرض الخمـر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: أنت أعلـم قـال: فـإني إنمـا قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانـه، هـذه البلـدة مهـاجره

فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يامعشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه. فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداثاً -: يا بني قريظة والله إنه للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا: ليس به قالوا: بلى والله إنه لهو بصفته. فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود.

قلت: وقد قدمنا في قدوم تُبّع اليماني - وهو أبو كرب تبان أسعد - إلى المدينة ومحاصرته إياها وأنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود فقالا له: إنه لا سبيل لك عليها، أنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فثناه ذلك عنها.

وقد روى أبو نعيم في «الدلائل» [دلائل النبوة: ٤٨] من طريق الوليد بن مسلم حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده. قال عبد الله بن سلام: إن الله لما أراد هُدى زيد بن سُعنة قال زيد: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ، حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. قال: فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فذكر قصة إسلافه للنبي ﷺ مالاً في تمر، قال: فلما حل الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه - وهو في جنازة مع أصحابه - ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل.

قال: فنظر إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير. ثم قال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم. ثم قال: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه. وزد عشرين صاعاً من تمر» فأسلم زيد بن سُعنة رضي الله عنه. وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، وتوفي عام تبوك رحمه الله.

٢١- إسلامُ سليمان الفارسي

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن إسحاق: ٦٦ - ٧٠، سيرة ابن هشام: ٢١٤/١ - ٢٢١]: إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس. قال: حدثني سلمان الفارسي - من فيه - قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها: جَيٌّ وكان أبي دهقان قريته وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري.

قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون. وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم. وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله. فلما جئته قال: أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت له: كلا والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم. فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من افضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك.

قال: ادخل فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً منها كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وابغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع. ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه. فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً قال فصلبوه ورجموه بالحجارة. وجاؤوا برجل آخر فوضعوه مكانه.

قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً. قال: فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله. قال: فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له: إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني به؟.

قال: أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به. قال: فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب الموصل. فقلت: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن الحق بك وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجل على امر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات وغُيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي. فقال: أقم عندي فأقمت عنده. فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به

الموت فلما حُضر قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه. فإن أحببت فائته فإنه على أمرنا. فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم.

قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغُنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله فلما حُضر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغُيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث. ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغُنيمتي هذه قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي.

فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل. وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان قاتل الله بني قيلة. والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك، قال: فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال. قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة. ثم جئته فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليَّ شملتان لي وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه. ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي. فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي

فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول» فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد.

قال سلمان: ثم قال لي رسول الله ﷺ: «كاتب يا سلمان» فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وأربعين أوقية. فقال رسول الله ﷺ، لأصحابه: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشر. يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية. فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي».

قال: ففقرت، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ معي إليها. فجعلنا نقرب إليه الوديّ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأديت النخل وبقي عليّ المال. فأُتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال: «ما فعل الفارسيُّ المكاتب؟» قال: فدعيت له فقال «خذ هذه فأدِّها مما عليك يا سلمان» قال: قلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟ قال: «خذها فإنَّ الله سيؤدِّي بها عنك» قال: فأخذتها فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقّهم وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حُرّاً، ثم لم يفتني معه مشهد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٧١، سيرة ابن هشام: ٢٢١/١]: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال: لما قلت: وأين تقع هذه من الذي عليّ يا رسول الله؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلبها على لسانه ثم قال: «خذها فأوفهم منها» فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٧١، سيرة ابن هشام: ٢٢١/١، ٢٢٢]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال: حدثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ حين اخبره خبره أن صاحب عمورية قال له: ائت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلاً بين غيضتين يخرج كل سنة من هذه الغيضه مستجيزاً يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفي فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغي فهو يخبرك عنه.

قال سلمان: فخرجت حتى جئت حيث وصف لي فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى. فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شفي وغلبوني عليه فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل إلا منكبه. قال فتناولته فقال: من هذا؟ والتفت إليّ قال: قلت: يرحمك الله أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم، قال: إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم.

قد أظلك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فأته فهو يحملك عليه. ثم دخل فقال رسول الله ﷺ لسلمان: «لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم».

هكذا وقع في هذه الرواية. وفيه رجل مبهم وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة. وقد قيل: إنه الحسن بن عمارة ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضي الله عنه وقوله: «لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد

لقيت عيسى ابن مريم» غريب جداً بل منكر. فإن الفترة أقل ما قيل فيها أنها أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة سنة بالشمسية، وسلمان أكثر ما قيل: إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة.

وحكى العباس بن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة. واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة فالله أعلم.

والظاهر أنه قال: «لقد لقيت وصي عيسى ابن مريم» فهذا ممكن إذ قد يكون ذاك عمّر دهراً طويلاً، وسلمان عمّر بعده دهراً آخر. والله أعلم بالصواب.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٢/٢٤٥]: الرجل المبهم هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف وإن صح لم يكن فيه نكارة لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعدما رُفع فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب فأخبرهما أنه لم يقتل وبعث الحواريين بعد ذلك. قال: وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويتزوج حينئذ امرأة من بني جذام وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ.

وقد روى البيهقي في كتاب دلائل النبوة [٢/٩٢ - ٩٧] قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق كما تقدم. ورواها أيضاً [البيهقي في دلائل النبوة: ٢/٨٢ - ٩٢] عن الحاكم عن الأصم عن يحيى بن أبي طالب: حدثنا علي بن عاصم حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن سماك بن حرب عن زيد بن صوحان أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه. فذكر قصة طويلة وذكر أنه كان من رامهرمز وكان له أخ أكبر منه غني وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه، وأن ابن دهقانها كان صاحباً له وكان يختلف معه إلى معلم لهم وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عُبّاد من النصارى في كهف لهم فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم فقال له: إنك غلام وأخشى أن تنمّ عليهم فيقتلهم أبي فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه فذهب به معه فإذا هم ستة - أو سبعة - كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل يأكلون الشجر وما وجدوا فذكر عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات. وقالوا له: يا غلام إن لك رباً وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دين.

ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام إليهم ثم لزمهم سلمان بالكلية ثم أجلاهم ملك تلك البلاد - وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان إليهم - عن أرضه واحتبس الملك ابنه عنده وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه فقال: إني مشتغل بنفسي في طلب المعيشة فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ثم أرادوا أن يتركوني عندهم فأبيت إلا صحبتهم فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عني فيثنون علي خيراً.

وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم فأثنى على الله بما هو أهله وذكر الرسل وما أيدوا به وذكر عيسى ابن مريم وأنه كان عبد الله ورسوله وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر، ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه.

قال: فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد الآخر فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم فمكث على ذلك مدة طويلة، ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه قال: فكان فيما يمشي يلتفت إليّ ويقبل علي فيعظني ويخبرني أن لي رباً وأن بين يدي جنة وناراً وحساباً ويعلمني ويذكرني نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد حتى قال فيما يقول لي:

يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من تهامة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب فأما أنا فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه، قلت له: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال: وإن أمرك فإن الحق فيما يجيء به ورضا الرحمن فيما قال. ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح، فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك ثم خرجا من بيت المقدس فسأله مقعد فقال: يا عبد الله سألتك حين دخلت فلم تعطني شيئاً وها أنا أسألك فنظر فلم يجد أحداً فأخذ بيده وقال: قم بسم الله فقام وليس به بأس ولا قلَبة كأنما نشط من عقال. فقال لي: يا عبد الله احمل عليّ متاعي حتى أذهب إلى أهلي فأبشرهم، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ولم أدر أين ذهب وكلما سألت عنه قوماً قالوا: أمامك حتى لقيني ركب من العرب من بني كلب فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره فحملني خلفه حتى أتوا بي بلادهم. فباعوني فاشترتني امرأة من الأنصار فجعلتني في حائط لها وقدم رسول الله ﷺ. ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة فلما رآه آمن من ساعته.

وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذي جرى له قال: فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فأعتقه، قال: ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال: «لا خير فيهم». قال: فوقع في نفسي من أولئك الذين صحبتهم ومن ذلك الرجل الصالح الذي كان معي ببيت المقدس فدخلني من ذلك أمر عظيم حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فدعاني رسول الله ﷺ فجئت وأنا خائف فجلست بين يديه فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآيات. ثم قال: «يا سلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى كانوا مسلمين».

فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لهو أمرني باتباعك. فقلت له: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال: نعم فأتركه فإنّ الحقّ وما يرضي الله فيما يأمرك.

وفي هذا السياق غرابة كثيرة، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق، وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخاري في «صحيحه» [(٣٩٤٦)] من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي أنه تداوله بضعة عشر، من ربّ إلى ربّ، أي من معلم إلى معلّم ومربّ إلى مثله والله أعلم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢/٣٤٢]: تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد، فالله أعلم.

وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» [(١٩٩)] وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة، وفي بعضها أن اسم سيدته التي كاتبته حُلَيسة. فالله أعلم.

٢٢- أخبارٌ غريبة في المبعث

قال أبو نعيم في «الدلائل»: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدّثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي سوية المنقري حدّثنا عباد بن كسيب عن أبيه عن أبي عتوارة الخزاعي عن سِغْر بن سوادة العامري قال: كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحي، أركب لها الصعب والذلول لا أبقي من البلاد مطرحاً أرجو ربحاً في متجر إلا أتيته، فانصرفت من الشام بحُرثة وأثاث أريد به كبة الموسم ودهماء العرب، فدخلت مكة بليل مسدف فأقمت حتى تعرّى عني قميص الليل فرفعت رأسي فإذا قباب مسامتة شعف الجبال، مضروبة بأنطاع الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون: ألا عجلوا ألا عجلوا، وإذا رجل يجهر على نشز من الأرض، ينادي: يا وفد الله ميلوا إلى الغداء. وأنيسان على مدرجة يقول: يا وفد الله من طعم فليرح إلى العشاء.

فجهرني ما رأيت فأقبلت أريد عميد القوم، فعرف رجل الذي بي، فقال: أمامك، وإذا شيخ كأن في خديه الأساريع، وكان الشعرى توقد من جبينه، قد لاث على رأسه عمامة سوداء قد أبرز من ملاثها جمة فينانة كأنها سماسم - قال في بعض الروايات: تحته كرسي سماسم - ومن دونها نمرقة بيده قضيب يتخصر به حوله مشايخ جلّة نواكس الأذقان ما منهم أحد يفيض بكلمة. وقد كان نمي إليّ حبر من أحبار الشام أن النبي الأمي هذا أوان نجومه، فلما رأيته ظننته ذلك. فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: مه مه، كلا وكأن قد وليتني إياه فقلت: من هذا الشيخ؟ فقالوا: هذا أبو نضلة، هذا هاشم بن عبد مناف، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد لامجد آل جفنة. يعني ملوك عرب الشام من غسان كان يقال لهم: آل جفنة. وهذه الوظيفة التي حكاها عن هاشم هي الرفادة يعني: إطعام الحجيج زمن الموسم. [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤١٣/٢٠]

وقال أبو نعيم [دلائل النبوة: ٥١]: حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدّثنا محمد بن يحيى حدّثنا سعيد بن عثمان حدّثنا علي بن قتيبة الخراساني حدّثنا خالد بن إلياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده. قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال: بينا أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش وعلي مطرف خز وجمتي تضرب منكبي فلما نظرت إليّ عرفت في وجهي التغير وأنا يومئذ سيد قومي فقالت: ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء؟ فقلت لها: بلى! وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ولم أفعل لأني كبير قومي. فجلست فقلت: إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً. ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها. فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم. فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً، فمنعني الشاب فقلت: لمن النصيب؟ فقال: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت مذعوراً فزعاً فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثم قالت: لئن صدق رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس.

ثم قال - يعني: عبد المطلب - لأبي طالب، لعلك تكون هذا المولود قال: فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعدما ولد رسول الله ﷺ وبعدما بعث. ثم قال: كانت الشجرة - والله أعلم - أبا القاسم الأمين، فيقال لأبي طالب: ألا تؤمن؟ فيقول: السبة والعار.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا محمد بن زكريا الغلابي حدّثنا العباس بن بكار الضبي حدّثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس. قال: قال العباس: خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب، منهم أبو سفيان بن حرب، فقدمت اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً وأنصرف بأبي سفيان وبالنفر ويصنع أبو سفيان يوماً، ويفعل مثل ذلك، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه: هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إليّ غداءك؟ فقلت: نعم. فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إلى الغداء فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني فقال: هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله؟ فقلت: أي بني أخي؟ فقال أبو سفيان: إياي تكتم؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلا رجل واحد؟ قلت: وأيهم على ذلك؟ قال: هو محمد بن عبد الله، فقلت: قد فعل؟ قال: بلى قد فعل.

وأخرج كتاباً من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه: أخبرك أن محمداً قام بالأبطح فقال: «أنا رسول أدعوكم إلى الله عز وجل» فقال العباس: قلت: لعله يا أبا حنظلة صادق. فقال: مهلاً يا أبا الفضل فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا، إني لا أخشى أن يكون عليّ ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب، إنه والله ما برحت قريش تزعم أن لكم هنة وهنة، كل واحدة منهما غاية.

لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك؟ قلت: نعم قد سمعت. قال: فهذه والله شؤمتكم. قلت: فلعلها يمنتنا قال: فما كان بعد ذلك إلا ليال حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اليمن، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود، فقال له اليهودي: ماهذا الخبر؟ بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال؟ قال أبو سفيان: صدقوا وأنا عمه، فقال اليهودي: أخو أبيه؟ قال: نعم. قال: فحدثني عنه قال: لا تسألني ما أحب أن يدعي هذا الأمر أبداً، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه. فرأى اليهودي أنه لا يُغمِض عليه ولايحب أن يعيبه. فقال اليهودي: ليس به لا بأس على اليهود، وتوراة موسى.

قال العباس: فناداني الحبر، فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله ﷺ فأخبرك أنه عمه، وليس بعمه. ولكن ابن عمه وأنا عمه وأخو أبيه. قال: أخو أبيه؟ قلت: أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال صدق؟ قال: نعم صدق، فقلت: سلني فإن كذبت فليرد علي، فأقبل علي فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان، وإن كان اسمه عند قريش الأمين. قال: فهل كتب بيده؟ قال العباس: فظننت أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها ثم ذكرت

مكان أبي سفيان أنه مكذبي ورادٌّ علي فقلت: لا يكتب فوثب الحبر ونزل رداؤه وقال: ذبحت يهود، وقتلت يهود.

قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا، قال أبو سفيان: يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك، قلت: قد رأيت ما رأيت، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به، فإن كان حقاً كنت قد سبقت وإن كان باطلاً فمعك غيرك من أكفائك. قال: لا أؤمن به حتى أرى الخيل في كداء، قلت: ما تقول؟ قال: كلمة جاءت على فمي إلا أني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء.

قال العباس: فلما استفتح رسول الله ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء، قلت: يا أبا سفيان تذكر الكلمة؟ قال: إي والله إني لذاكرها فالحمد لله الذي هداني للإسلام.

وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق وإن كان في رجاله من هو متكلم فيه والله أعلم.

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت، وهو شبيه بهذا الباب وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور.

وسيأتي أيضاً قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله ﷺ وأحواله، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته. وقال له: قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ولئن كان ما تقول حقاً ليملكن موضع قدمي هاتين. وكذلك وقع ولله الحمد والمنة.

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب. فأكثر وأطيب وأحسن وأطيب رحمه الله ورضي عنه.

٢٣- قصة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني: حدّثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي حدّثنا عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ حدّثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهني قال: خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية، فرأيت في نومي وأنا بمكة، نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب. وأشعر جهينة. فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء. ثم أضاء إضاءة أخرى، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعاً فقلت لقومي:

والله ليحدثن لهذا الحي من قريش حدث. وأخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا إلى بلادنا جاءني رجل يقال له: أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت. فقال: «يا عمرو بن مرة أنا النبي المرسل إلى العباد كافة. أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله ورفض الأصنام، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثني عشر شهراً. فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فآمن بالله يا عمرو يؤمّنك الله من هول جهنم» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله آمنت بما جئت من حلال وحرام، وإن رغم ذلك كثيراً من الأقوام. ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به. وكان لنا صنم. وكان أبي سادناً له فقمت إليه فكسرته. ثم لحقت بالنبي ﷺ وأنا أقول:

شهدتُ بأن الله حقٌ وأنني ... لآلهة الأحجار أولُ تارك
وشمّرتُ عن ساق الإزار مُهاجراً ... إليكَ أجوبُ القفرَ بعد الدكادك
لأصحبَ خيرَ الناس نفساً ووالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائك

فقال النبي ﷺ: «مرحباً بك يا عمرو بن مرة» فقلت: يا رسول الله ابعثني إلى قومي، لعل الله يمن عليهم بي كما منَّ علي بك. فبعثني إليهم. وقال: «عليك بالرفق والقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً» فذكر أنه أتى قومه، فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلموا كلهم. إلا رجلاً واحداً منهم، وإنه وفد بهم إلى رسول الله ﷺ فرحب بهم وحياهم. وكتب لهم كتاباً هذه نسخته «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الله على لسان رسول الله ﷺ، بكتاب صادق، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد: إن لكم بطون الأرض وسهولها، وتلاع الأودية وظهورها، تزرعون نباته وتشربون صافيه، على أن تقروا بالخمس، وتصلوا صلاة الخمس وفي التبيعة والصريمة إن اجتمعتا شاتان وإن تفرقتا شاة شاة، ليس على أهل الميرة صدقة، ولا على الواردة لبقة.» [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٠٨/١٣].

وشهد على نبينا ﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس. وذكر شعراً قاله عمرو بن مرة في ذلك كما هو مبسوط في «المسند الكبير» وبالله الثقة وعليه التكلان.

٢٤- متى كتبت نبوةُ النبيِّ ﷺ

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] قال كثيرون من المفسرين: لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً، وأكد مع هؤلاء الخمسة أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» [ص: ٨] من طرق عن الوليد بن مسلم حدّثنا الأوزاعي حدّثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سئل النبي ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بين خلق آدم ونفخ الروح فيه».

وهكذا رواه الترمذي [(٣٦٠٩)] من طريق الوليد بن مسلم. وقال: حسن غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبي حدّثنا أبو جعفر النفيلي حدّثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحي. قال: قال عمر: يا رسول الله، متى جعلت نبياً؟ قال: «وآدم منجدل في الطين» [الخصائص للسيوطي: ٤/١].

ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الخصائص للسيوطي: ٤/١].

وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم حين استخرج الله من صلبه ذريته خص الأنبياء بنور بين أعينهم. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كان على

قدر منازلهم ورتبهم عند الله. وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم. وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره.

وفي هذا المعنى الحديث الذي قال الإمام أحمد [١٢٧/٤]: حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي حدّثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية. قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يرين».

ورواه الليث [المسند لأحمد: ١٢٧/٤] وابن وهب [من طريق ابن وهب اخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٩٩/٢١] وعبد الرحمن بن مهدي [الدلائل للبيهقي: ٨١/١]، وعبد الله بن صالح [تاريخ دمشق: ٩٩/٢١، الدلائل للبيهقي: ١٣٠/٢] عن معاوية بن صالح وزاد «إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام» وقال الإمام أحمد [٥٩/٥]: حدّثنا عبد الرحمن حدّثنا منصور بن سعد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كُتبت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» إسناده جيد أيضاً.

وهكذا رواه إبراهيم بن طهمان وحماد بن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به.

ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الخصائص للسيوطي: ٣/١].

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة»: حدّثنا أبو عمرو بن حمدان حدّثنا الحسن بن سفيان حدّثنا هشام بن عمار حدّثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» [الدر المنثور: ١٨٤/٥].

ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن بقية عن سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً مثله [الدلائل لأبي نعيم: ٣].

وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله. وهذا أثبت وأصح والله أعلم.

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملأ الأعلى وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السماوات والأرض لا محالة فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه من الأعلام به في الملإ الأعلى والله أعلم.

وقد أورد أبو نعيم [الدلائل: ١١] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه [خ (٢٣٨)، م (٨٥٥)]: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم».

وزاد أبو نعيم في آخره: فكان ﷺ آخرهم في البعث وبه ختمت النبوة. وهو السابق يوم القيامة. لأنه أول مكتوب في النبوة والعهد. ثم قال: ففي هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم. ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق في علمه وقضائه من بعثته له في آخر الزمان.

وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه ولله الحمد.

وروى الحاكم في «مستدركه» [٦١٥/٢] من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - وفيه كلام - عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم أنه لأحب الخلق إليّ وإذ قد سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك».

قال البيهقي [الدلائل: ٤٨٩/٥]: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران ٨١ - ٨٢]

قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان، وإنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين. وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره، وجلى مجده ومولده وبلده إبراهيم الخليل في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء.

٢٥- نبوة أضاءت لها أرضُ بُصرى الشام

ولهذا قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النضر حدّثنا الفرج - يعني ابن فضالة - حدّثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله ما كان بدء أمرك؟ قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» تفرد به الإمام أحمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب «المولد» من طريق بقية عن صفوان بن عمرو عن حجر بن حجر عن أبي مريم أن أعرابياً قال: يا رسول الله اي شيء كان أول أمر نبوتك؟ فقال: «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم. ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام».

وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى. ورأت أمي حين

حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام».

إسناده جيد أيضاً. وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى أنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوة، ولله الحمد والمنة ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كما سيأتي بيانه.

وقد قدمها رسول الله ﷺ مرتين في صحبة عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة وكانت عندها قصة بحيرى الراهب كما بيناه. والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها. وبها مبرك الناقة التي يقال لها: إنّ ناقة رسول الله ﷺ بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر. ثم نقل وبني عليه مسجد مشهور اليوم. وهي المدينة التي أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التي خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ في قوله: «تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى» [خ (٢٩٠٢، ٧١١٨)].

وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

٢٦- صفةُ النبي ﷺ عند أهل الكتاب

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية.

قال الإمام أحمد [٤١١/٥]: حدّثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي: حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ. فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعنّ منه. قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم. فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم».

ثم ولي كفنه والصلاة عليه. وهذا إسناد جيد وله شواهد في «الصحيح» [خ (١٣٥٦، ٥٦٥٧)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال أبو القاسم البغوي: حدّثنا عبد الواحد بن غياث - أبو بحر - حدّثنا عبد العزيز بن مسلم حدّثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الفلتان بن عاصم وذكر أنه خاله قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان. قال: فجعل النبي ﷺ يكلمه وهو يقول: يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «أتشهد أني رسول الله؟» قال: لا. قال رسول الله ﷺ: «أتقرأ التوراة؟» قال: نعم قال: «أتقرأ الإنجيل؟» قال: نعم. قال: والقرآن لو تشاء قرأته. فقال النبي ﷺ: «فبم تقرأ التوراة والإنجيل، أتجدني نبياً؟» قال: إنا نجد نعتك ومخرجك. فلما خرجت رجونا أن تكون فينا. فلما رأيناك عرفنا أنك لست به. قال رسول الله ﷺ: «ولم يا يهودي؟» قال: إنا نجده مكتوباً، يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً. فقال رسول الله ﷺ: «إن أمتي لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً» [تاريخ دمشق: ٤١٥/٣].

هذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه.

وقال محمد بن إسحاق عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ يهود فقال: «أخرجوا أعلمكم» فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه، وما أنعم الله به عليهم، وأطعمهم من المنّ والسلوى، وظللهم به من الغمام «أتعلمني رسول الله؟» قال: اللهم نعم. وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكنهم حسدوك. قال: «فما يمنعك أنت؟» قال: أكره خلاف قومي. وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم [تاريخ دمشق: ٤١٧/٣، ٤١٨].

وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤٤/١، ٥٤٥] عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صاحب موسى، وأخيه، والمصدق بما جاء به موسى، ألا إن الله قال لكم: يا معشر يهود وأهل التوراة، وإنكم تجدون ذلك في كتابكم: إن محمداً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٢٩] وإني أنشدكم بالله وبالذي أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله إلا أخبرتمونا: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغي. وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه ﷺ»

وقد ذكر إسحاق بن بشر في كتاب «المبتدأ» عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار، وروي غيره [الخصائص للسيوطي: ٢٣/١، ٢٤] عن وهب بن منبه أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بني إسرائيل بسبع سنين رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته فجمع الكهنة والحزاة، وسألهم عن رؤياه تلك. فقالوا: ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها. فقال: إني أنسيتها، وإن لم تخبروني بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم. فذهبوا خائفين وجلين من وعيده. فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو في سجنه. فقال للسجان: اذهب إليه فقل له: إن ههنا رجلاً عنده علم رؤياك وتأويلها. فذهب إليه فأعلمه فطلبه، فلما دخل عليه لم يسجد له. فقال له: ما منعك من السجود لي؟ فقال: إن الله آتاني علماً وأمرني أن لا أسجد لغيره. فقال له بختنصر: إني أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود. فأخبرني عن رؤياي. قال له دانيال: رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة، وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار، فبينا أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء. فوقع على قمة رأسه حتى طحنه واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره حتى تخيل إليك أنه لو اجتمع جميع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك.

ونظرت إلى الحجر الذي قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ

الأرض كلها فصرت لا ترى إلا الحجر والسماء. فقال له بختنصر: صدقت هذه الرؤيا التي رأيتها فما تأويلها؟ فقال دانيال: أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره؛ وأما الحجر الذي قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان فيظهره عليها فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدي به أهل الضلالة ويعلم به الأميين ويقوي به الضعفة ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين.

وذكر تمام القصة في إطلاق بختنصر بني إسرائيل على يدي دانيال عليه السلام.

وذكر الواقدي بأسانيده عن المغيرة بن شعبة في قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبي سفيان صخر بن حرب، وذكر أنه سأل أساقفة النصارى في الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك وهي قصة طويله ذكرها الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» [ص: ٤٥].

وثبت في «الصحيح» [خ (٣١٦٧، ٦٩٤٤، ٧٣٤٨)] أن رسول الله ﷺ مرّ بمدراس اليهود فقال لهم: «يا معشر اليهود أسلموا فوالذي نفسي بيده إنكم لتجدون صفتي في كتبكم» الحديث.

وقال الإمام أحمد [١٧٤/٢]: حدّثنا موسى بن داود حدّثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾، وحرزاً للأميين، وأنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكل لا فظّ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

ورواه البخاري [(٢١٢٥)] عن محمد بن سنان العوفي عن فليح به.

ورواه [خ (٤٨٣٨)] أيضاً عن عبد الله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن علي به ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة.

ورواه ابن جرير [التفسير: ٨٣/٩] من حديث فليح عن هلال عن عطاء وزاد: قال عطاء: فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً.

وقال [خ (٢١٢٥)] في البيوع. وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٣٧٦/١]: أخبرناه أبو الحسين بن الفضل القطان حدّثنا عبد الله بن جعفر حدّثنا يعقوب بن سفيان حدّثنا أبو صالح حدّثنا الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي السيئة بمثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن أقبضه حتى يقيم الملّة العوجاء بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

قال عطاء بن يسار: وأخبرني الليثي أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام [الدلائل للبيهقي: ٣٧٦/١].

قلت: وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث عنهما كثيراً، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب فهي عندهم أعم من التي أنزلها الله على موسى وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث [المسند لأحمد: ١٧٤/٢].

وقال يونس عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن أم الدرداء قالت: قلت لكعب الأحبار: كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: نجده محمد رسول الله اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق وأعطي المفاتيح فيبصر الله به أعينا عوراً ويسمع آذانا وقراً ويقيم به ألسنا معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعين به المظلوم ويمنعه [الدلائل للبيهقي: ٣٧٦/١، ٣٧٧].

وقد روي عن كعب من غير هذا الوجه [الدلائل للبيهقي: ٣٧٧/١].

وروى البيهقي [الدلائل: ٣٨١/١] عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان: حدّثنا عقبة بن مكرم حدّثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدّثنا حمزة الزيات عن سليمان الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] قال: نودوا يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني. وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور: يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء. إلى أن قال: يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها [الدلائل للبيهقي: ٣٨٠/١].

والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة وقد دل على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكلمنا عليها في مواضعها ولله الحمد. فمن ذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٣] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨].

أي إن كان وعد ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء الذي لا يعجزه شيء.

وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وفي قصة النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي شواهد كثيرة لهذا المعنى ولله الحمد والمنة.

وذكرنا في تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته في قصة موسى وشعيا وأرميا ودانيال وغيرهم وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى ابن مريم أنه قام في بني إسرائيل خطيباً قائلاً لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وفي الإنجيل البشارة بالبارقليط والمراد به محمد ﷺ.

وروى البيهقي [الدلائل للبيهقي: ١/٣٧٧، ٣٧٨] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مكتوب في الإنجيل: لا فظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيّئة مثلها بل يعفو ويصفح».

وقال يعقوب بن سفيان: حدّثنا فيض البجلي حدّثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: جُدَّ في أمري واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول، أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين فإياي فاعبد فبين لأهل سوران بالسريانية، بلغ من بين يديك أني أنا الحق القائم الذي لا أزول صدّقوا بالنبي الأمّي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة - وهي التاج - والنعلين والهراوة - وهي القضيب - الجعد الرأس الصلت الجبين المقرون الحاجبين الأنجل العينين الأهدب الأشفار الأدعج العينين الأقنى الأنف الواضح الخدين الكث اللحية عرقه في وجهه كاللؤلؤ ريح المسك ينضح منه كأن عنقه إبريق فضة وكأنّ الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيره شثن الكف والقدم إذا جاء مع الناس غمرهم وإذا مشى كأنما يتقلع من الصخر ويتحدر من صبب ذو النسل القليل- وكأنه أراد الذكور من صلبه - هكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» [١/٣٧٨، ٣٧٩] من طريق يعقوب بن سفيان. وروى البيهقي [الدلائل: ١/٣٨٢، ٣٨٣] عن عمر بن الحكم بن رافع بن سنان حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية حتى جاء الله بالإسلام وهي عندهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها مكتوب فيها: بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب. هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يُسبِّلون أطرافهم ويأتزرون على أوساطهم ويخوضون البحور إلى أعدائهم فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، وفي عاد ما أهلكوا بالريح، وفي ثمود ما أهلكوا بالصيحة: بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب. ثم ذكر قصة أخرى قال: فعجب رسول الله ﷺ لما قرات عليه لما فيها.

وذكرنا عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ قصة هشام بن العاص الأموي حين بعثه الصديق في سرية إلى هرقل يدعوه إلى الله عز وجل. فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء في رَبْعة من آدم إلى محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين على النعت والشكل الذي كانوا عليه. ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له. ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصورة؟ فقال: إن آدم سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين، فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي وأني كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرّحنا. فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم. رواه الحاكم بطوله فليكتب ها هنا من التفسير. ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» [١/٣٨٥ - ٣٩٠].

وقال الأموي: حدّثنا عبد الله عن زياد عن ابن إسحاق. قال: وحدثني يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال: قدمت برقيق من عند النجاشي أعطانيهم فقالوا لي: يا عمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا، فمر أبو بكر فقلت: أهو هذا؟ قالوا: لا، فمر عمر فقلت: أهو هذا؟ قالوا: لا فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادوني: يا عمرو هذا رسول الله ﷺ فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم.

وقد تقدم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله ﷺ في شعر أسلفناه في ترجمته فأغنى عن إعادته، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليماني حين حاصر أهل المدينة: إنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبي ﷺ.

٢٧- قصة سيف بن ذي يزن الحميري وبشارته بالنبي الأمي

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه «هواتف الجان»: حدّثنا علي بن حرب حدّثنا أحمد بن عثمان بن حكيم حدّثنا عمرو بن بكر - هو ابن بكار القعنبي - عن أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس. قال: لما ظهر سيف بن ذي يزن - قال ابن المنذر: واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه، وأتاه فيمن أتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان، وخويلد بن أسد في أناس من وجوه قريش فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية بن أبي الصلت:

واشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفعاً ... في رأسِ غُمدانَ داراً منك محلالا

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك، فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزّت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمد من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشفك الكرب الذي قد فدحنا، وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال: وأيهم أنت أيها المتكلّم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم. قال: ابن أختنا؟ قال: نعم، قال: ادن فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً.

قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم، ثم أنهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد

المطلب إني مفض إليك من سر علمي ما أن لو يكون غيرك لم أبح به. ولكني رأيتك معدنه فاطلعتك طليعه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: أيها الملك مثلك سَرَّ وبر، فما هو؟ فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر قال: إذا ولد مولود بتهامة، غلام به علامة بين كتفيه شامة كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أُبت بخير ما آب به وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من سارِّه إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد واسمه محمد. يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمّه. ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، ويعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، عزّ جَدُّك وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك. فهذا نجاري فهل الملك سارَّني بإفصاح فقد وضح لي بعض الإيضاح.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب، فخر عبد المطلب ساجداً فقال: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟ فقال: أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب فجاءت بغلام سميته محمداً فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل فهم فاعلون أو أبناؤهم ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير يثرب دار مُلكي فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت - على حداثة سنه - أمره ولأوطأت على أسنان العرب عقبه، ولكني صادف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك. قال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له: إذا حال الحول فأتني.

فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه، فإذا قيل له: متى ذلك؟ قال: سيعلم ولو بعد حين [تاريخ دمشق: ٣/٤٤١ - ٤٤٥] قال: وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جَلبْنا النُّصحَ تحقُبه المطايا ... على أكوار أجمالٍ ونُوقِ

مُغلغِلةً مراتِعُها تَعالى ... إلى صنعاءَ من فجٍّ عميقِ

تؤمُّ بنا ابنَ ذي يَزَنٍ ويفري ... بذاتِ بُطونها ذمّ الطريقِ

وترعى من مَخَائله بُروقاً ... مُواصِلةَ الوميضِ إلى بُروقِ

فلمّا واقعت صَنعاءَ حلَّتْ ... بدارِ المُلكِ والحَسَبِ العتيقِ

وهكذا رواه الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» [ص: ٥٠] من طريق عمرو بن بكر بن بكار القعنبي به ثم.

قال أبو نعيم: أخبرت عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن الصقر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن حدثني أبي أبو يزن إبراهيم حدّثنا عمي أحمد بن محمد أبو رجاء حدّثنا عمي محمد بن عبد العزيز حدثني عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذي يزن الحميري قال: لما ظهر جدي سيف بن ذي يزن على الحبشة. وذكره بطوله.

وقال أبو بكر الخرائطي: حدّثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسي حدّثنا العلاء بن الفضل بن أبي سوية أخبرني أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية عن جده أبي سوية عن أبيه خليفة قال: سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت: كيف سماك أبوك محمداً؟ فقال: سألت أبي عما سألتني عنه، فقال: خرجت رابع أربعة من بني تميم أنا منهم، وسفيان بن مجاشع بن دارم، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات فتحدثنا فسمع كلامنا راهب، فأشرف علينا فقال: إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد قلنا: نعم نحن قوم من مضر، قال: من أي المضرين؟ قلنا: من خندف قال: أما إنه سيبعث وشيكاً نبيٌّ خاتم النبيين، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا. فقلنا له: ما اسمه؟ قال: اسمه محمد. قال: فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً. يعني أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا النبي المبشر به ولده.

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد حدّثنا حازم بن عقال بن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبي الحصين بن السموال بن عادياء حدثني جابر بن حيران بن جميع بن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموأل بن عادياء. قال: لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الوفاة اجتمع إليه قومه من غسان فقالوا: إنه قد حضر من أمر الله ماترى وقد كنا نأمرك بالتزوج في شبابك فتأبى وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين، وليس لك ولد غير مالك فقال: لن يهلك هالك ترك مثل مالك إن الذي يخرج النار من الوثيمة قادر أن يجعل لمالك نسلاً ورجالاً بسلاً وكل إلى الموت ثم أقبل على مالك وقال: أي بني المنية ولا الدنية، العقاب ولا العتاب، التجلد ولا التلدد القبر خير من الفقر، إنه من قل ذل، ومن كر فر، ومن كرم الكريم الدفع عن الحريم. والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر، ليس يفلت منهما الملك المتوج، ولا اللئيم المعلهج، سلم ليومك حيال ربك، ثم أنشأ يقول:

شَهِدتُ السبايا يومَ آل محرِّقٍ ... وأدركَ عمري صيحةَ الله في الحِجْرِ

فلم أرَ ذا مُلكٍ من الناسِ واحداً ... ولا سُوقةً إلا إلى الموتِ والقبرِ

فعلَّ الذي أردى ثَموداً وجُرهماً ... سيعقِبُ لي نَسْلاً على آخر الدهرِ

تقرّ بهم من آل عمرو بن عامر عيونٌ لدى الداعي إلى طَلَب الوَتْر
فإن لم تكُ الأيام أبلينَ جدّتي وشيّبن راسي والمشيبُ مع العُمر
فإنّ لنا رباً علا فوقَ عرشه عليماً بما يأتي من الخير والشر
ألم يأتِ قومي أن للّه دعوةً يفوزُ بها أهلُ السعادة والسبر
إذا بُعثَ المبعوثُ من آل غالبٍ بمكّةَ فيما بين مكّة والحِجْر
هنالك فابغوا نَصْرَهُ ببلادكم بني عامرٍ إن السعادةَ في النصر

قال: ثم قضى من ساعته [تاريخ دمشق: ٤٥٦/٣، ٤٥٧].

٢٨- هواتف الجانّ وكلام الكُهّان في المبعث

[وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بوجود رسول الله ﷺ، رسول ذكي يأتي إليه الوحي من قبل العلي. وسيأتي في المولد قول سطيح لعبد المسيح: إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه مفصلاً.]

قال البخاري [(٣٨٦٦)]: حدّثنا يحيى بن سليمان الجعفي حدثني ابن وهب حدثني عمر - وهو ابن محمد بن زيد - أن سالماً حدثه عن عبد اللّه بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: إني لأظنه إلا كان كما يظن. بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، عليّ الرجل، فدعي به فقال له ذلك فقال: ما رأيت كاليوم استُقبل به رجلاً مسلماً. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا في السوق يوماً جاءتني أعرف فيها الفزع. فقالت:

ألم ترَ الجنّ وإبلاسَها ويأسَها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر: صدق بينا أنا نائم عند آلهتهم جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جَليح أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا اللّه فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا. ثم نادى: يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا اللّه، فقمت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. تفرد به البخاري.

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي. ويقال: السدوسي من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة.

قال أبو حاتم وابن منده: روى عنه سعيد بن جبير، وأبو جعفر محمد بن علي. وقال البخاري [التاريخ الكبير: ٢٠٢/٤]: له صحبة.

وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعي الحافظ، والدارقطني، وغيرهما.

وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري: سواد بن قارب بالتخفيف.

وقال عثمان الرقاصي عن محمد بن كعب القرظي: كان من أشراف أهل اليمن.

ذكره أبو نعيم في «الدلائل».

وقد روي حديثه من وجوه أخر مطولة بأبسط من رواية البخاري.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/١، ٢١٠]: حدثني من لا أتهم عن عبد اللّه بن كعب مولى عثمان بن عفان أنه حدث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول اللّه ﷺ إذ أقبل رجل من العرب داخل المسجد يريد عمر بن الخطاب. فلما نظر إليه عمر قال: إن الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد أو لقد كان كاهناً في الجاهلية فسلم عليه الرجل ثم جلس، فقال له عمر: هل أسلمت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فهل كنت كاهناً في الجاهلية؟ فقال الرجل: سبحان اللّه يا أمير المؤمنين، لقد خلت فيّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت. فقال عمر: اللّهم غفراً قد كنا في الجاهلية على شرّ من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا اللّه برسوله وبالإسلام. قال: نعم واللّه يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً في الجاهلية قال: فأخبرني ما جاء به صاحبك. قال: جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه فقال:

ألم تر إلى الجن وإبلاسها وإياسها من دينها
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال ابن إسحاق: هذا الكلام سجع وليس بشعر.

قال عبد اللّه بن كعب:

فقال عمر عند ذلك يحدث الناس: واللّه إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلاً، فنحن ننتظر قسمه أن يقسم لنا منه، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أشد منه، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول: يا ذريح أمر نجيح رجل يصيح يقول: لا إله إلا اللّه.

قال ابن هشام [السيرة: ٢١١/١]: ويقال: رجل يصيح بلسان فصيح يقول: لا إله إلا اللّه قال: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر:

عجبتُ للجنّ وإبلاسِها وشدّها العيسَ بأحلاسِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنو الجنّ كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدّثنا يحيى بن حجر بن النعمان السامي حدّثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي. قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل. فقيل: يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار؟ قال: ومن هذا؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول اللّه ﷺ قال: فأرسل إليه عمر. فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: أنت الذي أتاك رئيك بظهور النبي ﷺ؟ قال: نعم، قال: فأنت على ما كنت عليه من كهانتك؟ قال: فغضب. وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا سبحان اللّه ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك، فأخبرني بإتيانك رئيك بظهور رسول اللّه ﷺ قال: نعم يا أمير المؤمنين بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيي فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى اللّه وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عجبت للجنّ وتطلابها وشدّها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادق الجنّ ككذابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ليس قُداماها كأذنابها

قال قلت: دعني أنام فإني أمسيت ناعساً. قال: فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي، واعقل إن

كنت تعقل، إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبتُ للجنّ وتخيارها ... وشدِّها العيسَ بأكوارها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... بينَ رَوابيها وأحجارها

قال قلت: دعني أنام، فإني أمسيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله. وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عجبتُ للجنّ وتحساسها ... وشدِّها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ... ما خيِّرُ الجنّ كأنجاسها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... واسمُ بعينيكَ إلى رأسها

قال: فقمت وقلت: قد امتحن الله قلبي، فرحّلت ناقتي ثم أتيت المدينة - يعني مكة - فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه فدنوت فقلت: اسمع مقالتي يا رسول الله. قال: هات فأنشأت أقول:

أتاني نجيّي بعدَ هدْءٍ ورقدةٍ ... ولم يكُ فيما قد تلوْتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ ... أتاكَ رسولٌ من لؤيّ بنِ غالبِ
فشمّرتُ عن ذيلي الإزارَ ووسّطتْ ... بيَ الذعلبُ الوجْناءُ غُبْرَ السباسبِ
فأشهدُ أنّ اللهَ لا شيءَ غيره ... وأنكَ مأمونٌ على كلّ غالبِ
وأنكَ أدنى المرسَلين وسيلةً ... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرمين الأطايبِ
فَمُرْنا بما يأتيك يا خيرَ من مشى ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذوائبِ
وكنْ لي شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ ... سِواكَ بمغنٍ عن سوادِ بنِ قاربِ

قال: ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً، حتى رئي الفرح في وجوههم. قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه وقال: قد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك فهل يأتيك رئيك اليوم؟ قال: أما منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله من الجن [الدلائل للبيهقي: ٢/٢٥٢].

ثم قال عمر: كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم: آل ذريح وقد ذبحوا عجلاً لهم والجزّار يعالجه إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل، ولا نرى شيئاً، قال: يا آل ذريح، أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلا الله.

وهذا منقطع من هذا الوجه ويشهد له رواية البخاري [(٣٨٦٦)] وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل هو عمر بن الخطاب والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذي جمعه في هواتف الجان: حدّثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدّب حدّثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حدّثنا سعيد بن عبيد الله الوصافي عن أبيه عن أبي جعفر محمد بن علي قال: دخل سواد بن قارب السدوسي على عمر بن الخطاب ﷺ فقال: نشدتك بالله يا سواد بن قارب، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً؟ فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به! قال: سبحان الله يا سواد ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك، والله

يا سواد لقد بلغني عنك حديث إنه لعجب من العجب، قال: إي والله يا أمير المؤمنين إنه لعجب من العجب. قال: فحدثنيه قال: كنت كاهناً في الجاهلية، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني نجيي فضربني برجله. ثم قال: يا سواد اسمع أقل لك، قلت: هات قال:

عجبتُ للجنّ وإنجاسها ... ورَحْلِها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنوها مثلَ أرجاسها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشم ... واسمُ بعينيكَ إلى رأسها

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً، فلما كان الليلة الثانية أتاني فضربني برجله ثم قال لي: قم يا سواد بن قارب اسمع أقل لك، قلت: هات. قال:

عجبتُ للجنّ وتَطلابها ... وشدِّها العيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما صادقُ الجنّ ككذّابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ... ليس المقاديمُ كأذنابها

قال: فحرك قوله مني شيئاً ونمت فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله ثم قال: يا سواد بن قارب أتعقل أم لا تعقل؟ قلت: وما ذاك؟ قال: ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربه فالحق به، اسمع أقل لك. قلت: هات قال:

عجبتُ للجنّ وتنفارها ... ورحلها العيسَ بأكوارها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... بينَ رَوابيها وأحجارها

قال: فعلمت أن الله قد أراد بي خيراً. فقمت إلى بردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت رجلي في غرز ركاب الناقة. وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض عليّ الإسلام فأسلمت، وأخبرته الخبر فقال: «إذا اجتمع المسلمون فأخبرهم» فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت:

أتاني نجيي بعدَ هَدْءٍ ورَقدةٍ ... ولم يكُ فيما قد بَلَوتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ ... أتاك رسول من لؤيّ بنِ غالب
فشمرتُ عن ساقي الإزار ووسَّطت ... بيَ الذعلبُ الوجناءُ غُبْرَ السباسب
واعلمُ أن اللهَ لا ربَّ غيرُه ... وأنك مأمونٌ على كل غالب
وأنك أدنى المرسَلين وسيلةً ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خيرَ مرسَل ... وإن كانَ فيما جاءَ شَيْبُ الذوائب

قال: فسر المسلمون بذلك، فقال عمر: هل تحسن اليوم منها بشيء؟ قال: أما مذ علمني الله القرآن فلا [الخصائص للسيوطي: ١/١٠٣].

وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص. قال لما ورد سواد بن قارب على عمر قال: يا سواد بن قارب ما بقي من كهانتك؟ فغضب وقال: ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا، فلما رأى ما في وجهه من الغضب، قال: انظر سوّاد للذي كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم. ثم قال: يا سواد حدّثني حديثاً كنت أشتهي أسمعه منك، قال: نعم.

بينا أنا في إبل لي بالسراة ليلاً وأنا نائم وكان لي نجي من الجن أتاني فضربني برجله فقال لي: قم يا سواد بن قارب فقد ظهر بتهامة نبي يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فذكر القصة كما تقدم وزاد في آخر الشعر:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو قرابة ... سواك بمغنٍ عن سواد بن قارب

فقال رسول الله ﷺ: «سر في قومك وقل هذا الشعر فيهم»

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربي عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبير قال: أخبرني سواد بن قارب الأزدي. قال: كنت نائماً على جبل من جبال السراة فأتاني آت فضربني برجله. وذكر القصة أيضاً [وأخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٢٥٣].

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء. قال قال سواد بن قارب: كنت نازلاً بالهند فجاءني رئيي ذات ليلة فذكر القصة. وقال بعد إنشاد الشعر الأخير: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «أفلحت يا سواد» [الدلائل للبيهقي: ٢/٢٤٨].

وروى الحافظ أبو نعيم [الدلائل: ٥٦] من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال: إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول الله ﷺ أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن، فجاء في صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم، فقالت له: لم لا تنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك، وتخبرنا ونخبرك؟ فقال لها: إنه قد بعث نبي بمكة حرم الزنا ومنع منا القرار.

وقال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري عن علي بن الحسين. قال: إن أول خبر قدم المدينة عن رسول الله ﷺ أن امرأة تدعى فاطمة كان لها تبع، فجاءها ذات يوم، فقام على الجدار فقالت: ألا تنزل؟ فقال: لا إنه قد بعث الرسول الذي حرم الزنا [الطبقات لابن سعد: ١/١٦٧].

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة، ثم لما قدم عاتبته فقال: إني جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا فعليك السلام.

وقال الواقدي: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة. قال: قال عثمان بن عفان: خرجنا في عير إلى الشام، قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، فلما كنا بأفواه الشام - وبها كاهنة - فتعرضتنا، فقالت: أتاني صاحبي فوقف على بابي، فقلت: ألا تدخل؟ فقلت: لا سبيل إلى ذلك، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عزّ وجل [الدلائل لأبي نعيم: ٥٨].

وقال الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري. قال: كان الوحي يسمع فلما كان الإسلام منعوا وكانت امرأة من بني أسد يقال لها: سعيرة لها تابع من الجن، فلما رأى الوحي لا يستطاع أتاها فدخل في صدرها فضج في صدرها فذهب عقلها فجعل يقول من صدرها: وضع العناق ومنع الرفاق وجاء أمر لا يطاق وأحمد حرّم الزنا [الطبقات لابن سعد: ١/١٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن محمد البلوي - بمصر - حدّثنا عمارة بن زيد حدّثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عمن حدثه عن مرداس بن قيس الدوسي قال: حضرت النبي ﷺ - وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه - فقلت: يا رسول الله قد كان عندنا من ذلك شيء أخبرك أن جارية منا يقال لها: الخلصة لم يعلم عليها إلا خيراً، إذ جاءتنا فقالت: يا معشر دوس العجب العجب لما أصابني، هل علمتم إلا خيراً؟ قلنا: وما ذاك؟ قالت: إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كحس الرجل مع المرأة فقد خشيت أن أكون قد حبلت. حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف له أذنان كأذني الكلب فمكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول: يا ويلة يا ويلة، يا عولة يا عولة، يا ويل غنم، يا ويل فهم، من قابس النار الخيل والله وراء العقبة، فيهن فتيان حسان نجبة.

فركبنا وأخذنا الأداة وقلنا: يا ويلك ما ترى؟ فقال: هل من جارية طامث؟ فقلنا: ومن لنا بها؟ فقال: شيخ منا: هي والله عندي عفيفة الأم فقلنا: فعجلها فأتي بالجارية وطلع الجبل وقال للجارية: اطرحي ثوبك واخرجي في وجوههم، وقال للقوم: اتبعوا أثرها، وقال لرجل منا يقال له: أحمر بن حابس: يا أحمر بن حابس عليك أول فارس. فحمل أحمر فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم. قال: فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه ذا الخلصة، وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله قال لنا يوماً: يا معشر دوس نزلت بنوا الحارث بن كعب فاركبوا فركبنا فقال لنا: أكدسوا الخيل كدساً، احشوا القوم رمساً، القوهم غدية واشربوا الخمر عشية.

قال: فلقيناهم فهزمونا وغلبونا فرجعنا إليه فقلنا: ما حالك وما الذي صنعت بنا؟ فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ومكثنا بعد ذلك حيناً ثم دعانا فقال: هل لكم في غزوة تهب لكم عزاً وتجعل لكم حرزاً ويكون في أيديكم كنزاً؟ فقلنا: ما أحوجنا إلى ذلك فقال: اركبوا فركبنا فقلنا: ما تقول فقال: بنو الحارث بن مسلمة، ثم قال: قفوا فوقفنا ثم قال: عليكم بفهم، ثم قال: ليس لكم فيهم ذم، عليكم بمضر هم أرباب خيل ونعم ثم قال: لا، رهط دريد بن الصمة قليل العدد وفي الذمة ثم قال: لا، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة واشكروها صنيعة عامر بن صعصعة فليكن بهم الوقيعة.

قال: فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا وقلنا: ويلك ماذا تصنع بنا قال: ما أدري كذبني الذي كان يصدقني اسجنوني في بيتي ثلاثاً ثم ائتوني. ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثالثة ففتحنا عنه فإذا هو كأنه جمرة نار، فقال: يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء قلنا: أين؟ قال بمكة وأنا ميت فادفنوني في رأس جبل فإني سوف أضطرم ناراً وإن تركتموني كنت عليكم عاراً فإذا رأيتم اضطرامي وتلهبي فاقذفوني بثلاثة أحجار ثم قولوا مع كل حجر: بسمك اللّهم فإني أهدأ وأطفأ.

قال: وإنه مات فاشتعل ناراً ففعلنا به ما أمر وقذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر: بسمك اللّهم فخمد وطفئ وأقمنا حتى قدم علينا الحاج فأخبرونا بمبعثك يارسول الله [تاريخ دمشق: ٣/٤٥١].

غريب جداً.

وروى الواقدي عن ابن أبي ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلي عن أبيه. قال: خرجنا في عير لنا إلى الشام فلما كنا بين الزرقاء ومعان قد عرسنا من الليل فإذا بفارس يقول وهو بين السماء والأرض: أيها النيام هبوا فليس هذا بحين رقاد قد خرج أحمد وطردت الجن كل مطرد ففزعنا ونحن رفقة حزاورة كلهم قد سمع بهذا فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش في نبي قد خرج فيهم من بني عبد المطلب اسمه أحمد [الطبقات لابن سعد: ١/١٦١].

ذكره أبو نعيم [في دلائل النبوة: ٥٩].

وقال الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن محمد البلوي - بمصر - حدّثنا عمارة بن زيد حدثني عبيد الله بن العلاء حدثني يحيى بن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وزيد

بن عمرو بن نفيل وعبيد الله بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك. فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكس إن هذا لأمر قد حدث وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ فجعل عثمان يقول:

أيا صنمَ العيدِ الذي صُفَّ حولَه ... صَناديدُ وفدٍ من بعيدٍ ومن قُرْبِ
تكوست مغلوباً فما ذاكَ قلْ لنا ... أتاكَ سفيه أم تكوست للعَتْبِ
فإن كانَ من ذنبٍ أتينا فإننا ... نَبوءُ بإقرارٍ ونلوي عنِ الذنْبِ
وإن كنتَ مغلوباً تكوست صاغراً ... فما أنتَ في الأوثانِ بالسيِّد الربِّ

قال: فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول:

تردّى لمولودٍ أنارتْ بنوره ... جميعُ فِجاجِ الأرض في الشرْق والغربِ
وخرّت له الأوثانُ طُرّاً وأرعدتْ ... قلوبُ ملوكِ الأرض طُرّاً من الرعْبِ
ونارُ جميع الفُرْس باختْ وأظلمتْ ... وقد بات شاهُ الفرس في أعظم الكَرْبِ
وصدّتْ عن الكهان بالغيبِ جنها ... فلا مخبرٌ عنهم بحقٍ ولا كِذْبِ
فيالَ قصيٍّ ارجعوا عن ضلالكم ... وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

قال: فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا فقال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض فقالوا: أجل، فقال لهم ورقة بن نوفل: تعلمون - والله - ما قومكم على دين ولقد أخطؤوا الحجة وتركوا دين إبراهيم ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين. قال: فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة فلقي بها راهباً عالماً فأخبره بالذي يطلب فقال له الراهب: إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية فلما قال له ذلك رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً [تاريخ دمشق: ٤٢٣/٣].

تقدم في ترجمة زيد بن عمر بن نفيل له شاهد.

وقد قال الخرائطي: حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق حدثنا عمرو بن عثمان حدثني أبي حدثنا عبد الله بن عبد العزيز حدثني محمد بن عبد العزيز عن الزهري عن عبد الرحمن بن أنس السلمي عن العباس بن مرداس أنه كان بغمرة في لقاح له نصف النهار إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بيض مثل اللبن فقال: يا عباس بن مرداس ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها، وأن الحرب تجرعت أنفاسها، وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذي نزل بالبر والتقوى، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء، صاحب الناقة القصوا قال: فرجعت مرعوباً قد راعني ما رأيت وسمعت حتى جئت وثناً لنا يدعى الضِّمار وكنا نعبده ونكلم من جوفه فكنست ما حوله ثم تمسحت به وقبلته فإذا صائح من جوفه يقول:

قلْ للقبائل من سليمٍ كلّها ... هلكَ الضِّمار وفازَ أهلُ المسجد
هلك الضِّمار وكان يُعبَدُ مرّةً ... قبلَ الكتاب مع النبيِّ محمد
إن الذي ورثَ النبوّة والهدى ... بعد ابنِ مريمَ من قريشٍ مهتد

قال: فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومي فقصصت عليهم القصة وأخبرتهم الخبر وخرجت في ثلاثمائة من قومي من بني حارثة إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة فدخلنا المسجد فلما رآني رسول الله ﷺ قال لي: «يا عباس كيف كان إسلامك؟» فقصصت عليه القصة. قال: فسر بذلك وأسلمت أنا وقومي [تاريخ دمشق: ٤١٠/٢٦].

ورواه الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» من حديث أبي بكر بن أبي عاصم عن عمرو بن عثمان به.

ثم رواه [ص: ٦٦] أيضاً من طريق الأصمعي حدثني الوصافي عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعي عن العباس بن مرداس السلمي. قال: أول إسلامي أن مرداساً أبي لما حضرته الوفاة أوصاني بصنم له يقال له: ضمار فجعلته في بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة فلما ظهر النبي ﷺ سمعت صوتاً مرسلاً في جوف الليل راعني فوثبت إلى ضمار مستغيثاً وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول:

قل للقبيلة من سليم كلها ... هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
أودى ضمار وكان يُعبد مرة ... قبل الكتاب إلى النبي محمد
إن الذي ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال: فكتمته الناس فلما رجع الناس من الأحزاب بينا أنا في إبلي بطرف العقيق من ذات عرق راقداً سمعت صوتاً وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول: النور الذي وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء في ديار إخوان بني العنقاء، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول:

بَشِّرِ الجنَّ وإبلاسَها ... أن وضَعتِ المطيَّ أحلاسَها
وكَلأتِ السماءَ أحراسُها

قال فوثبت مذعوراً وعلمت أن محمداً مرسل، فركبت فرسي واحتثثت السير حتى انتهيت إليه فبايعته ثم انصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه:

لعمرُكَ إنّي يومَ أجعلُ جاهلاً ... ضماراً لِربِّ العالمين مشاركا
وتركي رسولَ اللّه والأوسَ حولَه ... أولئك أنصارٌ له ما أولئكا
كتاركِ سهلِ الأرض والحَزْنِ يبتغي ... ليسلكَ في وعْثِ الأمورِ المسالكا
فآمنتُ باللّه الذي أنا عبدُهُ ... وخالفتُ مَن أمسى يريد المهالكا
ووجّهتُ وجهي نحو مكة قاصداً ... أبايع نبيَّ الأكرمين المبارَكا
نبيٌّ أتانا بعدَ عيسى بناطقٍ ... من الحقِّ فيه الفصلُ فيه كذلكا
أمينٌ على الفرقانِ أولُ شافعٍ ... وأولُ مبعوثٍ يجيبُ الملائكا
تلافَى عُرى الإسلام بعدَ انتقاضِها ... فأحكمَها حتى أقام المناسكا
عنيتُكَ يا خيرَ البريّة كلِّها ... توسطتَ في الفرعَين والمجدِ مالكا
وأنتَ المصفّى من قريشٍ إذا سَمَتْ ... على ضُمرها تبقى القرون المباركا
إذا انتسبَ الحيّان كعبٌ ومالكٌ ... وجدناك محضاً والنساءَ العوارِكا

قال الخرائطي: وحدثنا عبد الله بن محمد البلوي بمصر حدّثنا عمارة بن زيد حدّثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من الأنصار يقال له: عبد الله بن محمود من آل محمد بن مسلمة قال: بلغني أن رجالاً من خثعم كانوا يقولون: إن مما دعانا إلى الإسلام أنا كنا قوماً نعبد الأوثان فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا إذ أقبل نفر يتقاضون إليه يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم إذ هتف بهم من الصنم فجعل يقول:

يـا أيهـا النـاس ذوو الأجسـام ... مـن بـين أشـياخ إلى غـلام

مـا أنتـم وطـائشُ الأحـلام ... ومسـندُ الحُكـم إلى الأصنـام

أكلُّكـم في حـيرةِ النيـام ... أم لا تـرون مـا أرى أمـامي

مِـن ساطع يجلـو دُجـى الظـلام ... قـد لاحَ للنـاظر مـن تِهَـام

ذاك نـبيٌّ سـيّدُ الأنـام ... قـد جـاء بعـد الكفـر بالإسـلام

أكرَمـه الرحمـنُ مـن إمـام ... ومـن رسـولٍ صـادق الكـلام

أعـدلَ ذي حكـم مـن الأحكـام ... يـأمرُ بـالصلاة والصيـام

والـبر والصِّـلات للأرحـام ... ويزجـرُ النـاسَ عـن الآثـام

والرجـسِ والأوثـان والحـرام ... مـن هاشـم في ذروة السَّـنام

مسـتعلناً في البلـد الحـرام

قال: فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه وأتينا النبي ﷺ فأسلمنا [تاريخ دمشق: ٣/٤٥٠].

وقال الخرائطي: حدّثنا عبد الله البلوي حدّثنا عمارة حدثني عبيد الله بن العلاء حدّثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير أن رجلاً من بني تميم يقال له: رافع بن عمير. وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل، وأهجمهم على هول، وكانت العرب تسميه لذلك دُعموص العرب لهدايته وجراءته على السير، فذكر عن بدء إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت عن راحلتي وأنختها وتوسدت ذراعها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن من أن أوذى أو أهاج. فرأيت في منامي رجلاً شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها، فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلم ثم عدت فغفوت فرأيت في منامي مثل رؤياي الأولى فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً وإذا ناقتي ترعد، ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول:

يـا مـالكُ بـنَ مُهلهـلِ بـن دثـارِ ... مهـلاً فـدى لـك مـئزري وإزاري

عَن ناقـةِ الإنسـيِّ لا تعـرضْ لهـا ... واختَرْ بهـا مـا شـئت مـن أثـواري

ولقـد بَـدا ليَ منـكَ مـا لم أحتَسِـبْ ... الا رعيـتَ قَرابـتي وذِمـاري

تسـمو إليـهِ بحَربـةٍ مسـمومة ... تبـاً لِفِعْلـكَ يـا أبـا الغفـار

لـولا الحيـاءُ وأنَّ أهلَـكَ جـيرةٌ ... لعلمـتَ مـا كشّـفتَ مـن أخبـاري

قال: فأجابه الشاب وهو يقول:

أأردتَ أن تعلـو وتخفـضَ ذِكرَنـا ... في غـير مُزريـةٍ أبـا العـيزار

مـا كـانَ فيهـمْ سـيد فيمـا مضـى ... إن الخيـارَ هُمـو بنـو الأخيـار

فـاقصِدْ لقصـدِك يـا مُعكـبرُ إنمـا ... كـان الجـيرُ مُهلهـلَ بـنَ دثـار

قال: فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى: قم يا ابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف.

ثم التفت إلي الشيخ فقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها قال: فقلت له: ومن محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الاثنين. قلت: وأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل. قال: فركبت راحلتي حين برق لي الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت. قال سعيد بن جبير: وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ [الجن: ٦] [الدر المنثور للسيوطي: ٦/٢٧٢].

وروى الخرائطي من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عبّاس عن علي. قال: إذا كنت بواد تخاف السبع فقل: أعوذ بدانيال والجب، من شر الأسد.

وروى البلوي عن عمارة بن زيد عن إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عن ابن عباس قصة قتال علي الجن بالبئر ذات العلم التي بالجحفة حين بعثه رسول الله ﷺ يستقي لهم الماء فأرادوا منعه وقطعوا الدلو فنزل إليهم.

وهي قصة مطولة منكرة جداً والله أعلم.

وقال الخرائطي: حدثني أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقي وغيره حدّثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقي حدّثنا عبد القدوس بن الحجاج حدّثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن رجل قال: كنت في مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون فضائل القرآن فقال بعضهم: خواتيم سورة النحل، وقال بعضهم: سورة يس، وقال علي: فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسي؟ أما إنها خمسون كلمة في كل كلمة سبعون بركة.

قال: وفي القوم عمرو بن معدي كرب لا يحير جواباً، فقال: أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال عمر: حدّثنا يا أبا ثور. قال: بينا أنا في الجاهلية إذ جهدني الجوع فأقحمت فرسي في البرية فما أصبت إلا بيض النعام، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربي في خيمة، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له، فقلت له: استأسر ثكلتك أمك. فرفع رأسه إليّ وقال: يا فتى إن أردت قرى فانزل وإن أردت معونة أعناك. فقلت له: استأسر فقال:

عَرضْنـا عَليـكَ الـنُّزْلَ منّـا تكرُّمـاً ... فلـم ترعـوي جَهْـلاً كفِعـل الأشـائم

وَجئـتَ بِبُهتـان وزورٍ ودونَ مـا ... تَمنّيتَـهُ بـالبيضِ حـزُّ الحلاقـم

قال: ووثب إليّ وثبة وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. فكأني مثلت تحته. ثم قال: أقتلك أم أخلي عنك؟ قلت: بل خل عني قال: فخلى عني. ثم إن نفسي حدثتني بالمعاودة. فقلت: استأسر ثكلتك أمك فقال:

بِبِسـمِ اللّـهِ والرَّحمـنِ فُزنـا ... هُنـالكَ والرحيـمِ بـه قَهَرْنـا

ومـا تُغـني جَـلادةُ ذي حِفـاظٍ ... إذا يومـاً لمعركـةٍ بَرَزْنـا

ثم وثب إلي وثبة كأني مثلت تحته. فقال: أقتلك أم أخلي عنك؟ قال: قلت: بل خلِّ عني. فخلى عني فانطلقت غير بعيد. ثم قلت في نفسي: يا عمرو أيقهرك هذا الشيخ. والله للموت خير لك من الحياة، فرجعت إليه

فقلت له: استأسر ثكلتك أمك. فوثب إلي وثبة وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم فكأني مثلت تحته، فقال: أقتلك أم أخليّ عنك؟ قلت: بل خلِّ عني فقال: هيهات، يا جارية ائتيني بالمدية فأتته بالمدية فجز ناصيتي.

وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته، فكنت معه أخدمه مدة. ثم إنه قال: يا عمرو أريد أن تركب معي البرية وليس بي منك وجل، وإني ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق قال: فسرنا حتى أتينا وادياً أشباً مهولاً مغرِّلاً. فنادى بأعلى صوته: بسم الله الرحمن الرحيم. فلم يبق طير في وكره إلا طار. ثم أعاد الصوت فلم يبق سبع في مربضه إلا هرب، ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشي قد خرج علينا من الوادي كالنخلة السحوق، فقال لي: يا عمرو إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل: غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم. قال: فلما رأيتهما قد اتحدا قلت: غلبه صاحبي باللات والعزى فلم يصنع الشيخ شيئاً، فرجع إليّ وقال: قد علمت أنك قد خالفت قولي. قلت: أجل ولست بعائد، فقال: إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل: غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، فقلت: أجل فلما رأيتهما قد اتحدا قلت: غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، قال: فاتكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق جوفه فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود ثم قال يا عمرو هذا غِشه وغله. ثم قال: أتدري من تلك الجارية؟ قلت: لا، قال: تلك الفارعة بنت السليل الجرهمي وكان أبوها من خيار الجن. وهؤلاء أهلها وبنو عمها يغزونني منهم كل عام رجل ينصرني الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: قد رأيت ما كان مني إلى الحبشي وقد غلب عليَّ الجوع فائتني بشيء آكله، فـأقحمت بفرسي البرية فما أصبت إلا بيض النعام، فأتيته به فوجدته نائماً، وإذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين، فاستوى على فقار ظهره وهو يقول: قاتلك الله ما أغدرك يا غدار. قال عمر: ثم ماذا صنعت؟ قلت: فلم أزل أضربه بسيفي حتى قطعته إرباً إرباً. قال: فوجم لذلك ثم أنشأ يقول:

بالغدرِ نلْتَ أخا الإسلام عـن كَثَـب ... ما إنْ سمعتُ كذا في سالفِ العرَب
والعُجْمُ تـأنف ممـا جئتَـه كَرَمـاً ... تبـاً لمـا جئتـه في السيِّد الأرب
إنـي لأعجَـبُ أنّـى نلـتَ قِتْلَتَـهُ ... أم كيفَ جازاك عند الذَّنبِ لم تُتَب
قِرمٌ عفا عنكَ مـرّاتٍ وقـد عَلِقـت ... بالجسمِ منكَ يـداهُ موضـعَ العَطَب
لـو كنتَ آخذ في الإسلام ما فعلـوا ... في الجاهليّة أهلُ الشِّـرك والصُلُـب
إذاً لنـالَتْك مـن عدلـي مُشَـطَّبَة ... تدعـو لذائقهـا بـالويْل والحـرَب

قال: ثم ما كان من حال الجارية؟ قلت: ثم إني أتيت الجارية. فلما رأتني قالت: ما فعل الشيخ؟ قلت: قتله الحبشي، فقالت: كذبت بل قتلته أنت بغدرك ثم أنشأت تقول:

عـينُ جُـودي للفـارسِ المغـوارِ ... ثـم جُـودي بواكفـاتٍ غِـزار
لا تمَلّـي البكـاءَ إذْ خـانكِ الدهـ ... ـرُ بـواف حقيقـةً صبَّـار
وتقـيٍّ وذي وقـارٍ وحِلْـم ... وعديـلِ الفخـار يـومَ الفخـار
لهفَ نفسـي علـى بقـائك عمـرو ... أسـلمتْكَ الأعمـارُ للأقـدار
ولعمـري لـو لم ترمْـهُ بغـدر ... رُمـتَ ليثـاً بصـارمٍ بتّـار

قال: فأحفظني قولها فاستللت سيفي ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر في الخيمة أحداً فاستقت الماشية وجئت إلى أهلي.

وهذا أثر عجيب. والظاهر أن الشيخ كان من الجان وكان ممن أسلم وتعلم القرآن، وفيما تعلمه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ﴾. وكان يتعوذ بها.

وقال الخرائطي: حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثنا عمارة بن زيد قال: حدثني عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكة، قالا: فلما دخلنا عليه قال لنا: أصدقاني أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة؟ قلنا: نعم. قال: فهل لكما علم به ما فعل؟ قلنا: تزوج امرأة يقال لها: آمنة بنت وهب تركها حاملاً وخرج قال: فهل تعلمان ولد أم لا؟ قال ورقة بن نوفل: أخبرك أيها الملك أني ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به، ونعبده إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول:

ولِـد النـبيُّ فذلَّـتِ الأمـلاكُ ... ونـأى الضَّلالُ وأدبـر الإشـراك

ثم انتكس الصنم على وجهه. فقال زيد بن عمرو بن نفيل: عندي كخبره أيها الملك. فقال: هات قال: إني في مثل هذه الليلة التي ذكر فيها حديثه خرجت من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبي قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابني إذ رأيت رجلاً ينزل من السماء له جناحان اخضران، فوقف على أبي قبيس ثم أشرف على مكة فقال: ذل الشيطان وبطلت الأوثان وولد الأمين. ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب فرأيته قد جلل ما تحت السماء وسطع نور كاد أن يختطف بصري وهالني ما رأيت. وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة. فسطع له نور أشرقت له تهامة. وقال: ذكت الأرض وأدت ربيعها. وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت كلها.

قال النجاشي: ويحكما أخبركما عما أصابني، إني لنائم في الليله التي ذكرتما في قبة وقت خلوتي، إذ خرج علي من الأرض عنق ورأس، وهو يقول: حل الويل بأصحاب الفيل، رمتهم طير أبابيل، بحجارة من سجيل هلك الأشرم المعتدي المجرم، وولد النبي الأمي، المكي الحرمي، من أجابه سعد، ومن أباه عَنَد.

ثم دخل الأرض فغاب فذهبت أصيح فلم أطق الكلام، ورمت القيام فلم أطق القيام، فصرعت القبة بيدي فسمع بذلك أهلي فجاؤوني فقلت: احجبوا عني الحبشة فحجبوهم عني ثم أطلق عن لساني ورجلي.

وروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» [١١/٤٨٩] في ترجمة الحارث بن هانئ بن المدلج بن المقداد بن زمل بن عمرو العذري عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذري قال: كان لبني عذرة صنم يقال له: حمام وكانوا يعظمونه وكان في بني هند بن حرام بن ضِنّة بن عبد بن كثير بن عذرة وكان سادنه رجلاً يقال له: طارق وكانوا يعترون عنده. فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول: يا بني هند بن حرام. ظهر الحق وأودى حمام ودفع الشركَ الإسلام. قال: ففزعنا لذلك وهالنا فمكثنا أياماً.

ثم سمعنا صوتاً وهو يقول: يا طارق يا طارق. بعث النبي الصادق، بوحي ناطق، صدع صادع بأرض تهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة. قال زمل: فوقع الصنم لوجهه. قال زمل: فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي ﷺ مع نفر من قومي وأنشدته شعراً قلته:

إليكَ رسـولَ اللّـه أعملـتُ نصَّهـا ... وكلّفتُها حَزْنـاً وقـوزاً مـن الرمـل

لأنصرَ خيرَ النـاس نصـراً مـؤزّراً وأعقـدَ حبـلاً من حبالك في حبلـي
وأشـهدَ أن اللّـه لا شـيءَ غـيره اديـنُ بـه مـا أثقلـتْ قدمـي نعلـي

قال: فأسلمت وبايعته. وأخبرناه بما سمعنا فقال: «ذاك من كلام الجن». ثم قال: «يا معشر العرب إني رسول الله إلى الأنام كافة، أدعوهم إلى عبادة الله وحده، وأني رسوله وعبده، وأن يحجوا البيت ويصوموا شهراً من اثني عشر شهراً وهو شهر رمضان فمن أجابني فله الجنة نـزلاً، ومن عصاني كانت النار له منقلباً».

قال: فأسلمنا وعقد لنا لواء. وكتب لنا كتاباً نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لزمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة إني بعثته إلى قومه عامداً فمن أسلم ففي حزب الله ورسوله. ومن أبى فله أمان شهرين. شهد علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري».

ثم قال ابن عساكر: غريب جداً.

وقال أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» [ص: ٦٣]: حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدّثنا عبد الرحمن بن الحسن حدّثنا علي بن حرب حدّثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد الله العماني. قال: كان منا رجل يقال له: مازن بن العضوبة يسدن صنماً بقرية يقال لها: سمايا، من عُمان، وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة وهم أخوال مازن. أمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن حويص أحد بني غمران.

قال مازن: فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة، وهي الذبيحة، فسمعت صوتاً من الصنم يقول: يا مازن اسمع تسر، ظهر خير وبطن شر، بعث نبي من مضر، بدين الله الأكبر، فدع نحيتاً من حجر. تسلم من حرّ سَقَر. قال ففزعت لذلك فزعاً شديداً. ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتاً من الصنم يقول: أقبل إلي أقبل، تسمع ما لا تجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منزل، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشعل وقودها الجندل.

قال مازن: فقلت: إن هذا لعجب وإن هذا لخير يراد بي وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت: ما الخبر وراءك؟ فقال: ظهر رجل يقال له: أحمد، يقول لمن أتاه: «أجيبوا داعي الله»، فقلت: هذا نبأ ما سمعت، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدري للإسلام، فأسلمت، وقلت:

كسَرتُ بَـاجرَ أجـذاذاً وكـانَ لنـا رَبّـاً نُطيـفُ بـه ضـلاً بتضـلال
بالهـاشميّ هَدانـا مـن ضَلالتنـا ولم يكـن دينُـهُ منّـي علـى بـال
يـا راكبـاً بلّغـن عَمـراً وإخوتـه إنـي لِمـنْ قـالَ ربـي بـاجرٌ قـال

يعني بعمرو الصامت وإخوته حطامة، فقلت: يا رسول الله إني امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر. وألحت علينا السنون فأذهبن الأموال وأهزلن السراري وليس لي ولد، فادع الله أن يذهب عني ما أجد ويأتينا بالحيا، ويهب لي ولداً فقال النبي ﷺ: «اللّهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال وبالإثم وبالعهر عفة وآته بالحيا وهب له ولداً» قال: فأذهب الله عني ما أجد وأخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر وحفظت شطر القرآن، ووهب الله لي حيان بن مازن وأنشأ يقول:

إليـكَ رسـولَ اللّـه خبّـت مطيـتي تجوبُ الفيافي من عُمـان إلى العـرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصى فيغفـر لي ربـي فـأرجعَ بـالفلج
إلى معشـرٍ خـالفتُ في اللّـه دينهـم فلا رأيهم رأيي ولا شَرْجهم شرجي
وكنـتُ امـرأً بـالخمر والعهـرِ مولعـاً شبابيَ حتـى آذنَ الجسـمُ بـالنهج

فبدّلـني بـالخمر خوفـاً وخشـيةً وبالعهر إحصانـاً فحصّـن لي فرجـي
فـأصبحت همـي في الجهـاد ونيّـتي فللّـهِ مـا صومـي وللّـه مـا حجّـي

قال: فلما أتيت قومي أنّبوني وشتموني، وأمروا شاعراً لهم فهجاني، فقلت: إن رددت عليه فإنما أهجو نفسي. فرحلت عنهم فأتتني منهم زلفة عظيمة وكنت القيّم بأمورهم فقالوا: يا ابن عم: عبنا عليك أمراً وكرهنا ذلك فإن أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به. فرجعت معهم وقلت:

لَبغضكُـم عندَنـا مـرٌّ مذاقتُـه وبغضنـا عندكـمْ يـا قومَنـا لَبَـنُ
لا يفطـن الدهـرُ إن بثـت معـائبكم وكلـم حـين يُثنـى عيبُنـا فَطِـن
شـاعرنا مفحـم عنكـم وشـاعركم في حدبنـا مبلـغ في شـتمنا لَسِـن
ما في القلـوب عليكـم فـاعلموا وغِرٌ وفي قلوبكـمُ البغضـاءُ والإحَـن

قال مازن: فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً.

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في «مغازيه»: حدّثني محمد بن سعيد - يعني عمه - قال: قال محمد بن المنكدر: إنه ذكر لي عن ابن عباس قال: هتف هاتف من الجن على أبي قبيس فقال:

قبّـحَ اللّـه رأيكـم آلَ فهـرٍ مـا أرقَّ العقـولَ والأفهـام
حِـينَ تَعصي لِمَـن يعيبُ عَلَيها دِيـنَ آبائِهـا الحمـاةِ الكـرام
حالفَ الجنّ جنّ بُصرى عليكم ورجـالَ النّخيـلِ والآطـام
توشِكُ الخيلُ أن تروهـا تَهـادى تقتـلُ القـومَ في حَـرام بهـام
هَلْ كريـم منكـمُ لَـهُ نفـسُ حـرٍّ مـاجد الوالدَيْـن والأعمـام
ضـاربٌ ضربـةً تكـونُ نَكـالاً ورَواحـاً مـن كُربـةٍ واغتمـام

قال ابن عباس: فأصبح هذا الشعر حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول الله ﷺ: «هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان يقال له: مسعر، والله مخزيه».

فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول:

نحـنُ قتلنـا في ثـلاثٍ مِسْـعرا إذ سـفّهَ الجـنَّ وسـنَّ المنكَـرا
قنّعتـه سَـيفاً حُسـاماً مُشْـهرا بشـتمِهِ نبيّنـا المطهَّـرا

فقال رسول الله ﷺ: «هذا عفريت من الجن اسمه سمج آمن بي سميته عبد الله أخبرني أنه في طلبه ثلاثة أيام» فقال عليّ: جزاه الله خيراً يا رسول الله [وأخرجه أبو نعيم في الدلائل: ٦٠].

وقد روى الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدّثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي حرب الصفّار. حدّثنا عباس بن الفرج الرياشي حدّثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت عن أبيه عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى حضرموت في حاجة قبل الهجرة، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل فسمعت هاتفا يقول:

أبـا عَمـرو تنـاوبني السُّـهودُ وراحَ النـومُ وامتنـعَ الهجـودُ
لذكْـرِ عِصابـةٍ سَـلفوا وبـادوا وكـلُّ الخلـقِ قَصْرُهـم يبيـد
تولَّـوا واردِيـنَ إلى المنايـا حِياضـاً ليـسَ منهلهـا الـورود
مضَـوا لسـبيلهمْ وبقيـتُ خَلفـاً وحيـداً ليـسَ يُسـعفني وحيـد

سُدى لا أستطيع علاجَ أمرٍ ... إذا ما عالج الطفلُ الوليد
فلأياً ما بقيتُ إلى أناسٍ ... وقد باتت بمهلكها ثمود
وعادٌ والقرونُ بذي شعوبٍ ... سَواءٌ كلُّهم إرَمٌ حصيد

قال: ثم صاح به آخر: يا خرعب ذهب بك العجب. إن العجب كل العجب بين زهرة ويثرب قال: وما ذاك يا شاحب؟ قال: نبي السلام، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام، فاخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام. قال: ما هذا النبي المرسل والكتاب المنزل، والأميّ المفضّل؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. قال: هيهات فات عن هذا سني، وذهب عنه زمني لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمي غرضاً واحداً، ونشرب حلباً بارداً، ولقد خرجت به من دوحة في غداة شبمة وطلع مع الشمس وغرب معها، يروي ما يسمع ويثبت ما يبصر. ولئن كان هذا من ولده لقد سل السيف وذهب الخوف، ودحض الزنا، وهلك الربا.

قال: فأخبرني ما يكون؟ قال: ذهبت السَّراء والمجاعة، والشدة والشجاعة، إلا بقية في خزاعة. وذهبت الضراء والبؤس، والخلق المنقوس إلا بقية من الخزرج والأوس. وذهبت الخيلاء والفخر، والنميمة والغدر، إلا بقية في بني بكر. يعني بكر بن هوازن. وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم، إلا بقية في خثعم. قال: أخبرني ما يكون؟ قال: إذا غلبت البرة، وكظمت الحرة، فأخرج من بلاد الهجرة، وإذا كف السلام، وقطعت الأرحام فأخرج من البلد الحرام. قال: أخبرني ما يكون؟ قال: لولا أذن تسمع، وعين تلمع لأخبرتك بما يفزع. ثم قال:

لا منامٌ هدأتَه بنعيمٍ ... يا ابنَ غوطٍ ولا صباحٌ أتانا

قال: ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عظاية وثعبان ميتان. قال: فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث.

ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن علي عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عبادة. قال: لما بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة خرجت إلى حضرموت لبعض الحاجة، قال: فقضيت حاجتي ثم أقبلت حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت، ففزعت من الليل بصائح يقول:

أبا عمرو تناوبني السُّهودُ ... وراحَ النومُ وانقطعَ الهجودُ

وذكر مثله بطوله.

وقال أبو نعيم: حدّثنا عمرو بن محمد بن جعفر حدّثنا إبراهيم بن علي حدّثنا النضر بن سلمة حدّثنا أبو غزية محمد بن موسى عن العطاف بن خالد الوابصي عن خالد بن سعيد عن أبيه قال: سمعت تميماً الداري يقول: كنت بالشام حين بعث النبي ﷺ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل. فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة. قال: فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمناد ينادي، لا أراه: عُذْ بالله فإن الجن لا تجير أحداً على الله فقلت: أيم الله تقول؟ فقال: قد خرج رسول الأميين رسول الله وصلينا خلفه بالحجون. فأسلمنا واتبعناه وذهب كيد الجن ورميت بالشهب. فانطلق إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم.

قال تميم: فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب فسألت راهباً وأخبرته الخبر. فقال الراهب: قد صدقوك يخرج من الحرم ومهاجره الحرم وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه. قال تميم: فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت [تاريخ دمشق: ٧٣/١١].

وقال حاتم بن اسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلي [من طريقة موصولاً في طبقات ابن سعد: ١٦٨/١] عن عبد الله بن ساعدة الهذلي عن أبيه قال: كنا عند صنمنا سواع، وقد جلبنا إليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جرب، فادنيناها منه لنطلب بركته فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادي: قد ذهب كيد الجن ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد. قال: فقلت: غويت والله. فصرفت وجه غنمي منجداً إلى أهلي فلقيت رجلاً. فخبرني بظهور النبي ﷺ.

ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً ثم قال [دلائل النبوة: ٦٨]: حدّثنا عمر بن محمد بن جعفر حدّثنا إبراهيم بن السندي حدّثنا النضر بن سلمة حدّثنا محمد بن مسلمة المخزومي حدّثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفري - من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه - عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه قال: كان الصنم الذي يقال له: سواع بالمعلاة من رهاط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع.

قال راشد: فألقيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع، فإذا صارخ يصرخ من جوفه: العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام. وحرست السماء ورمينا بالشهب العجب كل العجب. ثم هتف صنم آخر من جوفه: ترك الضمار وكان يعبد، خرج أحمد، نبي يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام، والبر والصلات للأرحام. ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول:

إن الذي ورثَ النبوةَ والهدى ... بعد ابنِ مريمَ من قريشٍ مهتد
نبيٌ يخبر بما قد سبق ... وبما يكون من الغد

قال راشد: فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى له، ثم يعرِّجان عليه ببولهما، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه:

أربٌ يبولُ الثُّعلبانُ برأسِه ... لقد ذَلّ من بالتْ عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبي ﷺ ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به فخرج راشد حتى أتى النبي ﷺ المدينة ومعه كلب له، واسم راشد يومئذ: ظالم، واسم كلبه: راشد فقال النبي ﷺ: «ما اسمك؟» قال: ظالم. قال: «فما اسم كلبك؟» قال: راشد، قال: «اسمك راشد، واسم كلبك ظالم» وضحك النبي ﷺ. وبايع النبي ﷺ وأقام بمكة معه ثم طلب من رسول الله ﷺ. قطيعة برهاط - ووصفها له - فأقطعه رسول الله ﷺ بالمعلاة من رهاط شأو الفرس، ورميته ثلاث مرات بحجر، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له: «فرغها في أعلى القطيعة ولا تمنع الناس فضولها» ففعل فجعل الماء معيناً يجري إلى اليوم فغرس عليها النخل. ويقال: إن رهاطاً كلها تشرب منه فسماها الناس ماء الرسول ﷺ. وأهل رهاط يغتسلون بها وبلغت رمية راشد الركيب الذي يقال له: ركيب الحجر، وغدا راشد على سواع فكسره.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي حدّثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن عبد الله بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ حدّثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل أن باه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر أن أباه ياسر حدّثه عن عمرو بن مرة الجهني أنه كان يحدث قال: خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية. فرأيت في المنام وأنا بمكة نوراً ساطعاً

من الكعبة حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر جهينة. فسمعت صوتاً في النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء، ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن. فسمعت صوتاً في النور وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعاً، فقلت لقومي: والله ليحدثن في هذا الحي من قريش حدث وأخبرتهم بما رأيت.

فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلاً يقال له: أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت فقال: «يا عمرو بن مرة إني المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله ورفض الأصنام، وحج البيت. وصيام شهر رمضان شهر من اثني عشر شهراً، فمن أجاب فله الجنة. ومن عصى فله النار، فآمن يا عمرو بن مرة يؤمنك الله من نار جهنم» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به وكان لنا صنم وكان أبي سادناً له فقمت إليه فكسرته ثم لحقت النبي ﷺ وأنا أقول:

شهدتُ بأنّ اللّه حقٌ وأنني ... لآلهةِ الأحجار أولُ تاركِ
فشمَّرتُ عن ساقي إزار مهاجرٍ ... إليكَ أدبّ الغَوْرَ بعدَ الدكادكِ
لأصحبَ خيرَ الناس نَفْساً ووالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ

فقال النبي ﷺ: «مرحباً بك يا عمرو بن مرة». فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ابعث بي إلى قومي، لعل الله أن يمن بي عليهم كما من بك علي، فبعثني إليهم وقال: «عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً» فأتيت قومي فقلت لهم: يا بني رفاعة ثم يا بني جهينة إني رسول من رسول الله إليكم أدعوكم إلى الجنة، وأحذركم النار، وآمركم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الله، ورفض الأصنام، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، شهر من إثني عشر شهراً. فمن أجاب فله الجنة. ومن عصى فله النار.

يامعشر جهينة إن الله - وله الحمد - جعلكم خيار من أنتم منه وبغض إليكم في جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث، لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل على امرأة أبيه، والتراث في الشهر الحرام. فأجيبوا هذا النبي المرسل ﷺ من بني لؤي بن غالب. تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة، سارعوا سارعوا في ذلك تكن لكم فضيلة عند الله. فأجابوا إلا رجلاً منهم قام فقال: يا عمرو بن مرة أمر الله عليك عيشك، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو هذا القرشي من أهل تهامة؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة، ثم أنشأ يقول:

إنّ ابنَ مُرَّةَ قد أتى بمقالةٍ ... ليستْ مقالةَ من يُريدُ صَلاحا
إنِّي لأحسَبُ قولَه وفَعالَهُ ... يوماً وإنْ طالَ الزمانُ رياحا
أتُسَفّهُ الأشياخَ ممن قد مضى ... مَن رامَ ذلكَ لا أصابَ فَلاحا

فقال عمرو بن مرة: الكاذب مني ومنك امر الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه بصره. قال عمرو بن مرة: والله ما مات حتى سقط فوه وكان لا يجد طعم الطعام، وعمي وخرس. وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ، فرحب بهم وحياهم وكتب لهم كتاباً هذه نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله بكتاب صادق، وحق ناطق، مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد إن لكم بطون الأرض وسهولها، وتلاع الأودية وظهورها، ترعون نباته وتشربون صافيه. على أن تقروا بالخمس وتصلوا الصلوات الخمس، وفي التبعة والصريمة شاتان إن اجتمعتا، وإن تفرقتا فشاة شاة ليس على أهل الميرة صدقة، ولا على الواردة لبقة. وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضي الله عنهم. وذلك حين يقول عمرو بن مرة:

ألم تَـرَ أنّ اللّـهَ أظهرَ دينَه ... وبيَّنَ برهانَ القُرانِ لعامرِ
كتابٌ منَ الرحمنِ نورٌ لجمعِنا ... وأحلافِنا في كلِّ بادٍ وحاضرِ
إلى خيرِ من يمشي على الأرضِ كلِّها ... وأفضلِها عند اعتكارِ الضرائرِ
أطعنا رسولَ اللّهِ لما تقطّعتْ ... بطونُ الأعادي بالظُّبى والخواطرِ
فنحنُ قَبيلٌ قد بُني المجدُ حولَنا ... إذا اجتُلبت في الحربِ هامُ الأكابرِ
بنو الحربِ نفْريها بأيدٍ طويلةٍ ... وبيضٍ تلألأُ في أكفِّ المغاورِ
ترى حولَه الأنصارَ تحمي أميرَهم ... بسُمرِ العوالي والصِّفاحِ البواترِ
إذا الحربُ دارتْ عندَ كلِّ عظيمةٍ ... ودارتْ رحاها بالليُوثِ الهواصرِ
تبلّجَ منهُ اللونُ وازدادَ وجهُه ... كمِثلِ ضياءِ البدرِ بينَ الزواهرِ

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي في «مغازيه»: حدّثنا عبد الله حدّثنا أبو عبد الله حدّثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبي حدثني شيخ من جهينة قال: مرض منا رجل مرضاً شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره فأغمي عليه ثم فتح عينيه وأفاق فقال: أحفرتم لي؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل الفضل؟ - وهو ابن عم له - قلنا: صالح مر آنفاً يسأل عنك، قال: أما إنه يوشك أن يجعل في حفرتي إنه أتاني آت حين أغمي علي فقال: ابك هبل، أما ترى حفرتك تُنْتَثل، وأمك قد كادت تثكل؟ أرأيتك إن حولناها عنك بالمحول، ثم ملأناها بالجندل، وقذفنا فيها الفضل، الذي مضى فأجزاك، وظن أن لن يفعل. أتشكر لربك، وتصل وتدع دين من أشرك وضل؟ قال: قلت: نعم. قال: قم قد برئت. قال: فبرئ الرجل ومات الفضل فجعل في حفرته. قال الجهني: فرأيت الجهيني بعد ذلك يصلي ويسب الأوثان ويقع فيها.

وقال الأموي: حدّثنا عبد الله قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلس يتحدثون عن الجن، فقال خريم بن فاتك الأسدي: ألا أحدثك كيف كان إسلامي؟ قال: بلى، قال: إني يوماً في طلب ذود لي منها على أثر تنصب وتصعد، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتي وقلت: أعوذ بعظيم هذه البلدة أعوذ برئيس هذا الوادي، فإذا بهاتف يهتف بي:

ويحكَ، عُذْ باللّه ذي الجلالِ ... والمجدِ والعلياءِ والإفضالِ
ثم اتلُ آياتٍ منَ الأنفالِ ... ووحِّدِ اللّهَ ولا تبالي

قال: فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسي فقلت:

يا أيها الهاتفُ ما تقولُ ... أرَشَدٌ عندكَ أم تضليلُ
بيِّنْ هداكَ اللّهُ ما الحويلُ

قال: فقال:

هذا رسولُ اللّهِ ذو الخيراتِ ... بيثربٍ يدعو إلى النَّجاةِ
يأمرُ بالبِرِّ وبالصلاةِ ... ويَزَعُ الناسَ عن الهَنَاتِ

قال: قلت له: والله لا أبرح حتى آتيه وأومن به، فنصبت رجلي في غرز راحلتي وقلت:

أرشِدْني أرشِدْني هُديتَا ... لا جعتَ ما عشتَ ولا عَريتَا
ولا برحتَ سيداً مقيتَا ... لا تؤثرِ الخيرَ الذي أُتيتَا

على جميع الجنّ ما بقيتا

فقال:

صاحبكَ اللّهُ وأدى رَحْلكا وعظَّمَ الأجرَ وعافى نفسَكا

آمِنْ به افلجَ ربي حقَّكا وانصرْه أعزَّ ربي نصرَكا

قال: قلت: من أنت عافاك الله، حتى أخبره إذا قدمت عليه؟ فقال: أنا مالك بن مالك، وأنا نقيبه على جن نصيبين. وكفيت إبلك حتى أضمّها إلى أهلك إن شاء الله. قال: فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس أرسال إلى المسجد والنبي ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس، فقلت: أنيخ على باب المسجد حتى يصلي وأدخل عليه فاسلّم وأخبره عن إسلامي، فلما أنخت خرج إلي أبو ذر فقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً قد بلغنا إسلامك، فادخل فصل، ففعلت، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بإسلامي. فقلت: الحمد لله. قال: «أما إن صاحبك قد وفّى لك وهو أهل ذلك، وأدى إبلك إلى أهلك»

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من «معجمه الكبير» [٤١٦٥] قائلاً: حدّثنا الحسين بن إسحاق اليسيري حدّثنا محمد بن إبراهيم الشامي حدّثنا عبد الله بن موسى الإسكندري حدّثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامي؟ قال: بلى. فذكره غير أنه قال: فخرج إلي أبو بكر الصديق فقال: ادخل، فقد بلغنا إسلامك، فقلت: لا أحسن الطهور، فعلمني فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ كأنه البدر وهو يقول: «ما من مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة» فقال لي عمر: لتأتيني على هذا ببينة أو لأنكلن بك، فشهد لي شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته.

ثم رواه [المعجم الكبير: ٤١٦٦] عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن تسنيم عن محمد بن خليفة عن الحسن بن محمد عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك: حدثني بحديث يعجبني. فذكر مثل السياق الأول سواء.

وقال أبو نعيم [دلائل النبوة: ٦٩]: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي الدمشقي حدّثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل حدّثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي قال: أتى رجل ابن عباس فقال: بلغنا أنك تذكر سطيحاً تزعم أن الله خلقه، لم يخلق من ولد آدم شيئاً يشبهه؟ قال: نعم إن الله خلق سطيحاً الغساني لحماً على وَضَم ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة، والكفان. وكان يُطوى من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه. فلما أراد الخروج إلى مكة حُمل على وضمه فأتي به مكة، فخرج إليه أربعة من قريش عبد شمس، وهاشم ابنا عبد مناف بن قصي، والأحوص بن فهر، وعقيل بن أبي وقاص فانتموا إلى غير نسبهم وقالوا: نحن أناس من جُمح أتيناك بلغنا قدومك، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية، وصعدة ردينية، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا، أهل يراها سطيح أم لا. فقال: يا عقيل ناولني يدك فناوله يده فقال:

يا عقيل والعالم الخفية، والغافر الخطية، والذمة الوفية، والكعبة المبنية، إنك لجاء بالهدية، الصفيحة الهندية، والصعدة الردينية. قالوا: صدقت يا سطيح، فقال: والآتي بالفرح، وقوس قزح، وسائر الفرح، واللطيم المنبطح، والنخل والرطب والبلح، إن الغراب حيث مرّ سنح، فأخبر أن القوم ليسوا من جُمح، وأن نسبهم من قريش ذي البطح قالوا: صدقت يا سطيح نحن أهل البيت الحرام، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك. فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا وما يكون بعده فلعل أن يكون عندك في ذلك علم قال:

الآن صدقتم، خذوا مني من إلهام الله إياي، أنتم يا معشر العرب في زمان الهرم، سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم، فيكسرون الصنم، ويبلغون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم، قالوا: يا سطيح فمن يكون أولئك؟ فقال لهم: والبيت ذي الأركان، والأمن والسكان لينشؤنّ من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان، وينكرون عبادة الشيطان، ويوحدون الرحمن وينشرون دين الديان، يشرفون البنيان، ويستفتون الفتيان، قالوا: يا سطيح من نسل من يكون أولئك؟ قال: وأشرف الأشراف، والمفضي للإسراف، والمزعزع الأحقاف، والمضعف الأضعاف، لينشؤن الألاف من عبد شمس وعبد مناف، نشوءاً يكون فيه اختلاف. قالوا: يا سوأتاه يا سطيح فما تخبرنا من العلم بأمرهم ومن أي بلد يخرج أولئك؟ فقال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذا البلد، فتى يهدي إلى الرشد يرفض يغوث والفند، يبرأ من عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله محموداً، من الأرض مفقوداً، في السماء مشهوداً.

ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، في رد الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف، ويترك قول العنيف. قد ضاف المضيف. وأحكم التحنيف. ثم يلي أمره داعياً لأمره مجرباً، فيجتمع له جموعاً وعصباً، فيقتلونه نقمة عليه وغضباً، فيؤخذ الشيخ فيذبح أرباً فيقوم به رجال خطباء ثم يلي أمره الناصر يخلط الرأي برأي الناكر يظهر في الأرض العساكر ثم يلي بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده. ويأخذ المال ويأكل وحده، ويكثر المال لعقبه من بعده، ثم يلي من بعده عدة ملوك لا شك الدم فيهم مسفوك، ثم يلي من بعدهم الصعلوك يطويهم كطي الدرنوك. ثم يلي من بعده عظهور يقصي الخلق ويدني مضر يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً، ثم يلي قصير القامة، بظهره علامة يموت موتاً وسلامة. ثم يلي قليلاً باكر، فيترك الملك بائر ثم يلي أخوه بسنته سابر، يختص بالأموال والمنابر ثم يلي من بعده أهوج، صاحب دنيا ونعيم مخلج، يتشاوره معاشره وذووه، ينهضون إليه يخلعونه بأخذ الملك ويقتلونه، ثم يلي أمره من بعده السابع، يترك الملك محلاً ضائع، بنوه في ملكه كالمشّوه جائع، عند ذلك يطمع في الملك كل عريان، ويلي أمره اللّهفان. يرضي نزاراً جمع قحطان، إذا التقيا بدمشق جمعان بين بنيان ولبنان، يصنف اليمن يومئذ صنفان. صنف المسرة، وصنف المخذول. لا ترى إلا حباء محلول. وأسيراً مغلول. بين القراب والخيول.

عند ذلك تخرب المنازل وتسلب الأرامل، وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل، وتطلب الخلافة وائل، فتغضب نزار فتدني العبيد والأشرار، وتقصي الأمثال والأخيار. وتغلو الأسعار في صفر الأصفار يغلُّ كل جبار منه، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار، تظهر الأخيار فلا ينفعهم نوم ولا قرار. حتى يدخل مصراً من الأمصار، فيدركه القضاء والأقدار. ثم يجيء الرماة تلف مشاة، لقتل الكماة، وأسر الحماة ومهلك الغواة هنالك يدرك في أعلى المياه. ثم يبور الدين، وتقلب الأمور، وتكفر الزبور، وتقطع الجسور، فلا يفلت إلا من كان في جزائر البحور، ثم تبور الحبوب، وتظهر الأعاريب ليس فيهم

معيب على أهل الفسوق والريب في زمان عصيب، لو كان للقوم حياء، وما تغني المنى.

قالوا: ثم ماذا يا سطيح؟ قال: ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن، يذهب الله على رأسه الفتن.

وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم. وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة بن نصر ملك اليمن، وكيف بشرا بوجود رسول الله ﷺ وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبدالمسيح حين أرسله ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشريعته سائر الأديان.

٢٩- باب كيف بدأ الوحي

كان ذلك وله ﷺ من العمر أربعون سنة. وحكى ابن جرير [تاريخه: ٢٩٢/٢] عن ابن عباس وسعيد بن المسيب: أنه كان عمره إذ ذاك ثلاثاً وأربعين سنة.

قال البخاري [٦٩٨٢/٣]: حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها. أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق ١-٥] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد. فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان نُزّل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً، إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مُخرِجيَّ هُمْ؟» فقال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يَنْشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة. حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه.

فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك. فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. هكذا وقع مطولاً في باب التعبير من البخاري.

قال ابن شهاب [خ (٤)]: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال - وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه -: «بينَا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري فإذا المَلَكُ الذي جاءَني بحراء جالسٌ على كرسي بينَ السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زملوني، زملوني فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] فحميَ الوحي وتتابع».

ثم قال البخاري [٣٣٩٢، ٤٩٢٦]: تابعه عبد الله بن يوسف، وأبو صالح، يعني عن الليث، وتابعه هلال بن رداد عن الزهري.

وقال يونس [٤٩٥٣] ومعمر [٤٩٥٦، ٦٩٨٢]: بوادره. وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري [٣، ٤٩٥٥] رحمه الله في كتابه في مواضع منه، وتكلمنا عليه مطولاً في أول شرح البخاري في كتاب بدء الوحي إسناداً ومتناً ولله الحمد والمنة.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» [١٦٠] من حديث الليث به، ومن طريق يونس ومعمر عن الزهري كما علقه البخاري [٤٩٥٣، ٤٩٥٦] عنهما، وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مسلم ورواياته ولله الحمد وانتهى سياقه إلى قول ورقة: أنصرك نصراً مؤزراً.

فقول أم المؤمنين عائشة. أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، يقوي ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ٢٣٦/١] عن عبيد بن عمير الليثي أن النبي ﷺ قال: «فجاءَني جبريلُ وأنَا نائمٌ بنمطٍ من ديباج فيه كتابٌ. فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أقرأ؟ فغتَّني، حتى ظننتُ أنه الموتُ، ثمَّ أرسلني» وذكر نحو حديث عائشة سواء فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرّحاً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة.

وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة»: حدّثنا محمد بن أحمد بن الحسن حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدّثنا منجاب بن الحارث حدثنا عبد الله بن الحارث حدّثنا عبد الله بن الأجلح عن إبراهيم عن علقمة بن قيس، قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد.

وهذا من قِبَل علقمة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما قبله ويؤيده ما بعده.

٣٠- ذكر عمره ﷺ ووقت بعثته وتاريخها وما جرى له فيها

قال الإمام أحمد: حدّثنا محمد بن أبي عدي عن داود بن أبي هند عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة عشراً بمكة وعشراً بالمدينة. فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

فهذا إسناد صحيح إلى الشعبي وهو يقتضي أن إسرافيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل.

وأما الشيخ شهاب الدين أبو شامة فإنه قد قال: وحديث عائشة لا ينافي هذا فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا. ثم وكل به إسرافيل في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراء فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ولا يقيم معه تدريجاً له وتمريناً إلى أن جاءه جبريل. فعلمه بعدما غطه ثلاث مرات، فحكت عائشة ما جرى له مع جبريل ولم تحك ما جرى له مع إسرافيل اختصاراً للحديث، أو لم تكن وقفت على قصة إسرافيل.

وقال الإمام أحمد [١/٢٢٨]: حدثنا يحيى عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين فمكث بمكة عشراً وبالمدينة عشراً. ومات وهو ابن ثلاث وستين.

وهكذا روى يحيى بن سعيد وسعيد بن المسيب [تاريخ الطبري: ٢/٢٩٢].

ثم روى أحمد [١/٢٣٦، ٢٤٩]: عن غندر ويزيد بن هارون كلاهما عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس قال: بُعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه القرآن، وهو ابن أربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين. ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال الإمام أحمد [١/٢٧٩]: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: أقام النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة سبع سنين يرى الضوء ويسمع الصوت وثماني سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشر سنين.

قال أبو شامة: وقد كان رسول الله ﷺ يرى عجائب قبل بعثته فمن ذلك ما في «صحيح مسلم» [٢٢٧٧] عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرفُ حجراً بمكّةَ كانَ يُسلّمُ عَليَّ قبلَ أنْ أُبعثَ. إنّي لأعرفُه الآنَ» انتهى كلامه.

وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه، لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر محمد بن إسحاق [السيرة: ١٠٠، ١٠١] عن عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية، قال: وكان واعية، عن بعض أهل العلم قال: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسّك فيه - وكان من نسُك قريش في الجاهلية - يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وهكذا روي عن وهب بن كيسان أنه سمع عبيد بن عمير يحدث عبد الله بن الزبير مثل ذلك.

وهذا يدل على أن هذا كان من عادة المتعبدين في قريش أنهم يجاورون في حراء للعبادة ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثورٍ ومَن أرْسَى ثَبيراً مَكانَه وراقٍ لبِرٍ في حِراءٍ ونازلِ

هكذا صوبه على رواية هذا البيت كما ذكره السهيلي [الروض الأنف: ٣/٩٠] وأبو شامة وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمهم الله، وقد تصحف على بعض الرواة فقال فيه:

وراقٍ ليرقى في حراءٍ ونازلِ

وهذا ركيك ومخالف للصواب والله أعلم.

وحراء يقصر ويمدّ ويصرف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منى، له قلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية.

وما أحسن ما قال رؤبة بن العجاج:

فلا وربِّ الآمِناتِ القُطَّنِ وربِّ رُكنٍ من حِراءٍ مُنْحَني

وقوله في الحديث: والتحنّث التعبّد، تفسير بالمعنى، وإلا فحقيقة التحنّث من حيث البنية فيما قاله السهيلي [الروض الأنف: ٢/٣٩٠] الدخول في الحنث ولكن سمعت ألفاظ قليلة في اللغة معناها الخروج من ذلك الشيء فتحنث أي خرج من الحنث وتحوّب وتحرّج وتأثّم وتهجّد وهو ترك الهجود وهو النوم للصلاة وتنجس وتقذر أوردها أبو شامة.

وقد سئل ابن الأعرابي عن قوله: يتحنّث أي يتعبد. فقال: لا أعرف هذا إنما هو يتحنف من الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

قال ابن هشام [١/٢٣٥]: والعرب تقول: التحنث والتحنف يبدلون الفاء من الثاء، كما قالوا: جدث وجدف كما قال رؤبة:

لوْ كانَ أحجاري معَ الأجدافِ

يريد الأجداث.

قال: وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول فُمّ في موضع ثُمّ.

قلت: ومن ذلك قول بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ أن المراد ثُومها.

وقد اختلف العلماء في تعبّده عليه السلام قبل البعثة هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل: شرع نوح وقيل: شرع إبراهيم. وهو الأشبه الأقوى. وقيل: موسى، وقيل: عيسى وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به، ولبسط هذه الأقوال ومناسباتها مواضع أخر في أصول الفقه والله أعلم.

وقوله: حتى فجئه الحق وهو بغار حراء أي: جاء بغتة على غير موعد كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] الآية. وقد كان نزول صدر هذه السورة الكريمة وهي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥] وهي أول ما نزل من القرآن - كما قررنا ذلك في التفسير وكما سيأتي أيضاً - في يوم الاثنين كما ثبت في «صحيح مسلم» [١١٦٢] عن أبي قتادة: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «ذاكَ يومٌ ولدتُ فيه، ويومٌ أنزلَ عليَّ فيه».

وقال ابن عباس: [تاريخ الطبري: ٢/٢٩٣] ولد نبيكم محمد ﷺ يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين.

وهكذا قال عبيد بن عمير وأبو جعفر الباقر وغير واحد من العلماء: إنه عليه الصلاة والسلام أوحي إليه يوم الاثنين، وهذا ما لا خلاف فيه بينهم.

ثم قيل: كان ذلك في شهر ربيع الأول، كما تقدم عن ابن عباس وجابر أنه ولد عليه السلام، في الثاني عشر من ربيع الأول يوم الاثنين وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء.

والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان، كما نص على ذلك عبيد بن عمير ومحمد بن إسحاق [السيرة: ١٠٩] وغيرهما [تاريخ الطبري: ٢/٣٠٠].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٣٩، ٢٤٠]: مستدلاً على ذلك بما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فقيل: في ثاني عشره.

وروى الواقدي بسنده عن أبي جعفر الباقر أنه قال: كان ابتداء الوحي إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان وقيل: في الرابع والعشرين منه [الطبقات لابن سعد: ١/١٩٤].

قال الإمام أحمد [٤/١٠٧]: حدّثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدّثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أُنزلتْ صحفُ إبراهيمَ في أول ليلةٍ من رمضانَ، وأُنزلتِ التوراةُ لستٍ مضيْنَ من رمضانَ، والإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلتْ من رمضانَ، وأُنزلَ القرآنُ لأربعٍ وعشرينَ خلتْ من رمضانَ».

وروى ابن مردويه في «تفسيره» عن جابر بن عبد الله مرفوعاً نحوه.

ولهذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، إلى أن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين.

وأما قول جبريل: اقرأ. فقال: «ما أنَا بِقارئٍ» فالصحيح أن قوله «ما أنَا بِقارئٍ» نَفْي أي: لست ممن يحسن القراءة.

وممن رجحه النووي وقَبْلَه الشيخ أبو شامة.

ومن قال إنها استفهامية فقوله بعيد لأن الباء لا تزاد في الإثبات.

ويؤيد الأول رواية أبي نعيم من حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه: فقال رسول الله ﷺ - وهو خائف يرعد - «ما قرأتُ كِتاباً قطُّ ولا أُحسِنُه وما أكتُبُ وما أقرأُ» فأخذه جبريل فَغَتّه غتاً شديداً. ثم تركه فقال له: اقرأ. فقال محمد ﷺ: «ما أرَى شيئاً أقرَأُه، وما أقرأُ، وما أكتُبُ» [تاريخ دمشق: ١٧/٧٦٢، ٧٦٣].

يروى: «فغطني» كما في الصحيحين [خ (٣، ٤٩٥٣)، م (١٦٠)] «وغتني».

ويروى: «قد غتني» أي خنقني. «حتّى بلغَ منّي الجَهْدَ» يروى بضم الجيم وفتحها وبالنصب وبالرفع. وفعل به ذلك ثلاثاً.

قال أبو سليمان الخطابي: وإنما فعل ذلك به ليبلو صبره ويحسن تأديبه فيرتاض لاحتمال ما كلّفه به من أعباء النبوّة، ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم وتأخذه الرحضاء أي البهر والعرق.

وقال غيره: إنما فعل ذلك لأمور منها: أن يستيقظ لعظمة ما يلقى إليه بعد هذا الصنيع المشق على النفوس. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥].

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا جاءه الوحي يحمر وجهه ويغط كما يغط البكر من الإبل ويتفصّد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد.

وقوله: فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة يرجف فؤاده.

وفي رواية [خ (٤٩٥٣)]: بوادره، جمع بادرة.

قال أبو عبيدة: وهي لحمة بين المنكب والعنق.

وقال غيره: هي عروق تضطرب عند الفزع.

وفي بعض الروايات: ترجف بأدله واحدتها بادلة. وقيل: بادل، وهو ما بين العنق والترقوة وقيل: أصل الثدي. وقيل: لحم الثديين وقيل غير ذلك.

فقال: «زمّلوني زمّلوني» فلما ذهب عنه الروع قال لخديجة: «مَا لِي؟ أيُّ شيءٍ عرضَ لِي؟» وأخبرها ما كان من الأمر. ثم قال: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» وذلك لأنه شاهد أمراً لم يعهده قبل ذلك، ولا كان في خلده.

ولهذا قالت خديجة: أبشر، كلا والله لا يخزيك الله أبداً.

قيل: من الخزي، وقيل: من الحزن، وهذا لعلمها - بما أجرى الله به جميل العوائد في خلقه - أن من كان متصفاً بصفات الخير لا يخزى في الدنيا ولا في الآخرة ثم ذكرت له من صفاته الجليلة ما كان من سجاياه الحسنة. فقالت: إنك لتصل الرحم وتَصْدُقُ الحديث - وقد كان مشهوراً بذلك صلوات الله وسلامه عليه عند الموافق والمفارق - وتحمل الكلّ. أي عن غيرك تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤنة عياله، وتكسب المعدوم أي تسبق إلى فعل الخير فتبادر إلى اعطاء الفقير فتكسب حسنته قبل غيرك. ويسمى الفقير معدوماً لأن حياته ناقصة. فوجوده وعدمه سواء كما قال بعضهم:

ليسَ مَن ماتَ فاستراحَ بمَيْتٍ ... إنما الميتُ ميّتُ الأحياءِ

وقال أبو الحسن التهامي، فيما نقله عنه القاضي عياض في «شرح مسلم»:

عَدُّ ذا الفقرِ مَيْتاً وكساهُ ... كَفَناً بالياً ومأواهُ قبرا

وقال الخطابي: الصواب: وتكسب المعدم. أي: تبذل إليه أو يكون وتكسب المعدوم تعطيه مالاً يعيش به.

واختار شيخنا الحافظ أبو الحجّاج المزي أن المراد بالمعدوم ههنا المال المعطى أي يعطي المال لمن هو عادمه.

ومن قال: إن المراد أنك تكسب باتجارك المال المعدوم، أو النفيس القليل النظير، فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وتكلف ما ليس له به علم، فإن مثل هذا لا يمدح به غالباً، وقد ضعّف هذا القول عياض والنووي وغيرهما والله أعلم.

وتقري الضيف، أي: تكرمه في تقديم قراه، وإحسان مأواه. وتعين على نوائب الحق.

ويروى الخير، أي: إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها، وقمت مع صاحبها حتى يجد سداداً من عيش أو قواماً من عيش.

وقوله: ثم أخذتْه فانطلقتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

وقد قدّمنا طرفاً من خبره مع ذكر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله. وأنه كان ممن تنصّر في الجاهلية ففارقهم وارتحل إلى الشام، هو وزيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش فتنصّروا كلهم، لأنهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحق، إلا زيد بن عمرو بن نفيل فإنه رأى فيه دخلاً وتخبيطاً وتبديلاً وتحريفاً وتأويلاً. فأبت فطرته الدخول فيه أيضاً، وبشّروه الأحبار والرهبان بوجود نبي قد أزف زمانه واقترب أوانه فرجع يتطلّب ذلك، واستمرّ على فطرته وتوحيده. لكن اخترمته المنيّة قبل البعثة المحمدية. وأدركها ورقة بن نوفل وكان يتوسّمها في رسول الله ﷺ كما قدمنا بما كانت خديجة تنعته له وتصفه له، وما هو منطو عليه من الصفات الطاهرة الجميلة وما ظهر عليه من الدلائل والآيات.

ولهذا لما وقع ما وقع أخذت بيد رسول الله ﷺ وجاءت به إليه فوقفت به عليه. وقالت: ابن عم اسمع من ابن أخيك؟ فلما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى قال ورقة: سبُّوح سبُّوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ولم يذكر عيسى وإن كان متأخراً بعد موسى، لأنه كانت شريعته متممة ومكملة لشريعة موسى عليهما السلام، ونسخت بعضها على الصحيح من قول العلماء. كما قال ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾. [آل عمران: ٥٠].

وقول ورقة هذا كما قالت الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

ثم قال ورقة: يا ليتني فيها جذعاً أي يا ليتني أكون اليوم شاباً متمكناً من الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح. يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك يعني حتى أخرج معك وأنصرك فعندها قال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخرجيَّ هُمْ؟».

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢/٤٢١] وإنما قال ذلك، لأن فراق الوطن شديد على النفوس، فقال: نعم! إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدْرِكني يومك أنصرك نصراً مؤزراً أي: أنصرك نصراً عزيزاً أبداً.

وقوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي. أي توفي بعد هذه القصة بقليل رحمه الله ورضي عنه، فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد وإيمان بما حصل من الوحي ونيّة صالحة للمستقبل.

وقد قال الإمام أحمد [٦/٦٥]: حدّثنا حسن عن ابن لهيعة حدثني أبو الأسود عن عروة عن عائشة. أن خديجة سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: «قَدْ رأيتُهُ فرأيتُ عليهِ ثِيابَ بياضٍ فأحسبُهُ لوْ كانَ مِن أهلِ النّارِ لَمْ يكنْ عليه ثيابٌ بياضٍ».

وهذا إسناد حسن لكن رواه الزهري وهشام عن عروة مرسلاً فالله أعلم.

وروى الحافظ أبو يعلى [في مسنده: ٢٠٤٧] عن شريح بن يونس عن إسماعيل عن مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: «أبصرْتُهُ في بُطْنَانِ الجَنّةِ وعليهِ السُّنْدُسُ» وسئل عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: «يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ». وسئل عن أبي طالب فقال: «أَخْرَجْتُهُ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ جَهَنَّمَ إِلَى ضَحْضَاحٍ مِنْهَا» وسئل عن خديجة لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن، فقال: «أَبصرْتُهَا عَلَى نَهْرٍ فِي الجَنَّةِ فِي بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ».

إسناد حسن ولبعضه شواهد في «الصحيح» [خ (١٧٩٢، ٣٨١٩)] والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ٢٧٥٠، ٢٧٥١]: حدّثنا عبيد بن إسماعيل حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا ورقةَ فإنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ».

وكذا رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/٧٦٧] من حديث أبي سعيد الأشج عن أبي معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة.

وهذا إسناد جيد. وروي مرسلاً وهو أشبه.

وروى الحافظان البيهقي [٢/١٥٨] وأبو نعيم في كتابيهما «دلائل النبوة» من حديث يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إنّي إذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً، وقَدْ خَشِيتُ واللهِ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَمْرٌ». قالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدُق الحديث.

فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ بيده أبو بكر. فقال: انطلق بنا إلى ورقة قال: «ومَنْ أَخْبَرَكَ؟» قال خديجة فانطلقنا إليه فقصّا عليه. فقال رسول الله ﷺ: «إنّي إذَا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَنْطَلِقُ هَارِباً فِي الأَرْضِ». فقال له: لا تفعل. إذا أتاك فاثبت، حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتني فأخبرني. فلما خلا ناداه: يا محمد قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر. فأنا أشهد إنك الذي بشّر بك ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا. ولئن أدركني ذلك لأجاهدنّ معك.

فلما توفي. قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ القِسَّ في الجَنّةِ عَلَيْهِ ثِيَابُ الحَرِيرِ، لأنهُ آمنَ بي وصدَّقني» يعني ورقة.

هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل.

وقد قدمنا من شعره ما يدل على إضماره الإيمان وعقده عليه وتأكده عنده، وذلك حين أخبرته خديجة ما كان من أمره مع غلامها ميسرة وكيف كانت الغمامة تظلله في هجير القيظ. فقال ورقة في ذلك أشعاراً قدمناها قبل هذا، منها قوله:

[بأنَّ محمداً سيسودُ قوماً ... ويخصمُ من يكونُ لهُ حجيجا]
لجِجتُ وكنت في الذِّكرى لجوجاً ... لأمرٍ طالما بعثَ النَّشيجا
ووصفٍ من خديجةَ بعدَ وصفٍ ... فقد طالَ انتظاري ياخديجا
ببطنِ المكَّتينِ على رجائي ... حديثَكِ أن أرى منهُ خروجا
بما خبرتنا من قولِ قسٍّ ... من الرهبانِ أكره أن يَعوجا
بأنَّ محمداً سيسودُ قوماً ... ويخصم مَن يكونُ له حجيجا
ويظهرُ في البلادِ ضياءُ نورٍ ... يقيم به البريّةَ أنْ تموجا
فيلقى من يحاربُهُ خَساراً ... ويَلقى من يُسالمُهُ فلوجا
فيا ليتي إذا ما كانَ ذاكم ... شَهدتُ وكنتُ أولهم ولوجا
ولُوجاً في الذي كرهتْ قريشٌ ... ولو عَجَّتْ بمكّتِها عَجيجاً
ارجّي بالّذي كرهوا جَميعاً ... إلى ذي العرشِ إذ سَفَلوا عروجا
فإن يَبقوا وأبقَ يكنْ أمورٌ ... يَضِجُّ الكافرونَ لها ضجيجا

وقال أيضاً في قصيدته الأخرى:

وأخبارَ صدقٍ خبِّرتْ عن محمدٍ ... يخبِّرها عنهُ إذا غابَ ناصحُ
بأنَّ ابنَ عبدِ اللّهِ أحمدَ مرسلٌ ... إلى كلِّ من ضُمَّتْ عليه الأباطح
وظني به أنْ سوفَ يُبعثُ صادقاً ... كما أُرسِلَ العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيمُ حتى يُرى له ... بهاءٌ ومنشورٌ من الذِّكرِ واضح
ويتبعُه حيّا لؤي بنِ غالبٍ ... شبابُهُم والأشيَبونُ الجحاجح
فإن أبقَ حتى يدركَ الناسُ دهرَهُ ... فإني به مستبشرُ الودِّ فارح
وإلا فإني يا خديجةُ فاعلمي ... عن أرضكِ في الأرضِ العريضةِ سائح

وقال يونس من بكير عن ابن إسحاق [السيرة: ١٠٣، ١٠٤] قال ورقة:

فإن يكُ حقاً يا خديجةُ فاعلمي ... حديثُكِ إيّانا فأحمدُ مرسَلُ
وجبريلُ يأتيه وميكالُ معْهما ... من اللهِ وحيٌ يشرحُ الصدرَ مُنْزَلُ
يفوزُ به مَن فازَ فيها بتوبةٍ ... ويشقى به العاتي الغريرُ المضلَّلُ
فريقانِ منهمْ فرقةٌ في جنانِهِ ... وأُخرى بأحواز الجحيمِ تُغلَّلُ

إذا ما دَعوا بالويل فيها تتابعتْ ... مقامعُ في هاماتهمْ ثمّ تُشْعَل
فسُبحانَ من تَهوي الرياحُ بأمره ... ومن هو في الأيام ما شاء يفعل
ومَن عرشُه فوق السمواتِ كلِّها ... وأقضاؤه في خَلْقِه لا تُبدَّل

وقال ورقة أيضاً:

يا للرجال وصَرْفِ الدهر والقدر ... وما لشيء قضاهُ اللّهُ من غِيَر
حتى خديجةُ تدعوني لأخبرَها ... وما لها بخفيِّ الغيب من خبر
جاءت لتسألني عنه لأخبرَها ... أمراً أراه سيأتي الناسَ من أُخَر
فخبَّرتْني بأمرٍ قد سمعتُ به ... فيما مضى من قديم الدهر والعُصُر
بأنَّ أحمد يأتيه فيخبرُه ... جبريلُ أنكَ مبعوثٌ إلى البشر
فقلتُ علَّ الذي ترجين يُنجِزُه ... لكِ الإلهُ فرجّي الخيرَ وانتظري
وأرسليه إلينا كي نُسائلَه ... عن أمرِهِ ما يرى في النوم والسَّهَر
فقال حين أتانا مَنطِقاً عجباً ... يقِفُّ منه أعالي الجلدِ والشَّعَر
إني رأيتُ أمينَ اللّه واجَهَني ... في صورةٍ أُكملتْ من أعظم الصور
ثم استمر فكاد الخوفُ يَذْعَرُني ... مما يسلِّم مِنْ حولي من الشجر
فقلتُ ظنّي وما أدري أيصدُقني ... أن سوف يُبعَثُ يتلو مُنزَّل السُّور
وسوف أُبليك إن أعلنت دعوتَهم ... من الجهادِ بلا منٍّ ولا كَدَر

هكذا أورد ذلك الحافظ البيهقي من «الدلائل» [٢/١٥٠، ١٥١] وعندي في صحتها عن ورقة نظر والله أعلم.

وقال ابن إسحاق [السيرة: ١٠٠، ١٠١، وسيرة ابن هشام: ١/٢٣٤] حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي - وكان واعية - عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتداه بالنبوّة كان إذا خرج لحاجة أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكّة وبطون أوديتها فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. قال: فيلتفت حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاء من كرامة الله وهو بحراء في رمضان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٣٥، ٢٣٨]: وحدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل قال: فقال عبيد - وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس -: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كل سنة شهراً قال: وكان ذلك مما تحنّث به قريش في الجاهلية.

والتحنث التبرر فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك الشهر رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به جاءه جبريل بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمطٍ من ديباج فيه كتابٌ فقال: اقرأ. قلتُ: ما أقرأ. قال: فغتني حتى ظننتُ أنه الموتُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ قلتُ: ما أقرأ. قال: فغتني حتى ظننتُ أنه الموتُ ثم أرسلني، فقال: اقرأ قلتُ: ما أقرأ. قال: فغتني حتى ظننتُ أنه الموتَ ثم أرسلني. فقال: اقرأ قلتُ: ماذا أقرأ؟ ما أقولُ ذلكَ إلا افتداءً منه أن يعودَ لي بمثل ما صنع بي فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال: فقرأتها ثم انتهى وانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبَ في قلبي كتاباً.

قال: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال: فرفعت رأسي إلى السماء فأنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ ثم حدثتها بالذي رأيت. فقالت: أبشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة».

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة وقولي له: فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

وهذا الذي ذكره عبيد بن عمير كما ذكرناه كالتوطئة لما جاء بعده من اليقظة كما تقدم من قول عائشة رضي الله عنها: فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذ ويحتمل أنه كان بعده بمدة والله أعلم.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: وكان فيما بلغنا أول ما رأى - يعني رسول الله ﷺ - أن الله تعالى أراه رؤيا في المنام فشق ذلك عليه فذكرها لامرأته خديجة فعصمها الله عن التكذيب وشرح صدرها للتصديق فقالت: أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا خيراً.

ثم إنه خرج من عندها ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شق ثم غسل وطهر ثم أعيد كما كان قالت: هذا والله خير فأبشر ثم استعلن له جبريل وهو بأعلى مكة فأجلسه على مجلس كريم معجب كان النبي ﷺ يقول: «أجلسني على بساطٍ كهيئةِ الدرنوكِ فيه الياقوتُ واللؤلؤُ» فبشرهُ برسالةِ اللهِ عز وجل حتى اطمأنّ رسول الله ﷺ فقال له جبريل: اقرأ فقال: «كيف أقرأ؟» فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال: ويزعم ناس أن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول سورة نزلت عليه والله أعلم.

قال: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه واتبع ما جاءه به جبريل من عند الله فلما انصرف منقلباً إلى بيته جعل لا يمرُّ على شجر ولا حجر إلا سلم عليه فرجع إلى أهله مسروراً موقناً أنه قد رأى أمراً عظيماً فلما دخل على خديجة قال: «أرأيتكِ الذي كنتُ أحدثتك أني رأيتُهُ في المنام؟ فإنه جبريلُ استعلنَ إليّ أرسلَهُ إليّ ربّي عزّ وجلّ» وأخبرها بالذي جاءه من الله وما سمع منه فقالت: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً واقبل الذي جاءك من أمر الله فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله ﷺ حقاً.

ثم انطلقت من مكانها فأتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانيا من أهل نينوى يقال له: عداس فقالت له: يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتني هل عندك علم من جبريل؟ فقال عداس: قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان. فقالت: أخبرني بعلمك فيه. قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام.

فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النبي ﷺ وما ألقاه إليه جبريل. فقال لها ورقة: يا بنية أخي ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وأقسم بالله لئن كان إياه ثم أظهر دعاءه وأنا حي لأبلين الله في طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصبر والنصر. فمات ورقة رحمه الله [الدلائل للبيهقي: ١٤٢/٢ ـ ١٤٥]. قال الزهري فكانت خديجة أول من آمن بالله وصدق رسول الله ﷺ.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٤٦/٢]: بعد إيراده ما ذكرناه: والذي ذكر فيه من شق بطنه يحتمل أن يكون حكاية منه لما صنع به في صباه يعني: شق بطنه عند حليمة ويحتمل أن يكون شق مرة أخرى ثم ثالثة حين عرج به إلى السماء والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة ورقة بإسناده إلى سليمان بن طرخان التيمي. قال: بلغنا أن الله تعالى بعث محمداً رسولاً على رأس خمسين سنة من بناء الكعبة وكان أول شيء اختصه به من النبوة والكرامة رؤيا كان يراها فقص ذلك على زوجته خديجة بنت خويلد فقالت له: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً فبينما هو ذات يوم في حراء وكان يفر إليه من قومه إذ نزل عليه جبريل فدنا منه فخافه رسول الله ﷺ مخافة شديدة فوضع جبريل يده على صدره ومن خلفه بين كتفيه. فقال: اللهمَّ احطط وزرهُ، واشرحْ صدرهُ، وطهرْ قلبهُ يا محمدُ أبشرْ! فإنكَ نبيُّ هذه الأمةِ. اقرأ. فقال له نبي الله: وهو خائف يرعد: «ما قرأتُ كتاباً قطُّ ولا أُحسنُهُ وما أكتُبُ وما أقرأُ» فأخذه جبريل فغته غتاً شديداً ثم تركه ثم قال له اقرأ فأعاد عليه مثله فأجلسه على بساط كهيئة الدرنوك فرأى فيه من صفائه وحسنه كهيئة اللؤلؤ والياقوت وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات ثم قال له: لا تخف يا محمد إنك رسول الله ثم انصرف.

وأقبل على رسول الله ﷺ همه فقال: «كيف أصنع وكيف أقول لقومي؟» ثم قام رسول الله ﷺ وهو خائف فأتاه جبريل من أمامه في صورة نفسه فأبصر رسول الله ﷺ أمراً عظيماً ملأ صدره فقال له جبريل: لا تخف يا محمد جبريل رسول الله إلى أنبيائه ورسله فأيقن بكرامة الله فإنك رسول الله.

فرجع رسول الله ﷺ لا يمر على شجر ولا حجر إلا هو ساجد يقول: السلام عليك يا رسول الله. فاطمأنت نفسه وعرف كرامة الله إياه فلما انتهى إلى زوجته خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعها ذلك، فقامت إليه فلما دنت منه جعلت تمسح عن وجهه وتقول: لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم فقال: «يا خديجةُ أرأيتِ الذي كنتُ أرى في المنامِ والصوتَ الذي كنتُ أسمعُ في اليقظةِ وأهالُ منه؟ فإنّه جبريلُ قدْ استعلنَ لي وكلّمني وأقرأني كلاماً فزعتُ منه ثمّ عاد إليّ فأخبرني أنّي نبيُّ هذه الأمةِ فأقبلتُ راجعاً فأقبلتُ على شجرٍ وحجارةٍ فقلنَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ».

فقالت خديجة: أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً وأشهد أنك نبي هذه الأمة الذي تنتظره اليهود قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيرى الراهب وأمرني أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة. فلم تزل برسول الله ﷺ حتى طعم وشرب وضحك ثم خرجت إلى الراهب وكان قريباً من مكة فلما دنت منه وعرفها. قال: مالك يا سيدة نساء قريش؟ فقالت: أقبلت إليك لتخبرني عن جبريل فقال: سبحان الله ربنا القدوس ما بال جبريل يذكر في هذه البلاد التي يعبد أهلها الأوثان؟ جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله وهو صاحب موسى وعيسى. فعرفت كرامة الله لمحمد.

ثم أتت عبداً لعتبة بن ربيعة يقال له: عداس فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها به الراهب وأزيد. قال: جبريل كان مع موسى حين أغرق الله فرعون وقومه، وكان معه حين كلمه الله على الطور، وهو صاحب عيسى ابن مريم الذي أيده الله به.

ثم قامت من عنده فأتت ورقة بن نوفل فسألته عن جبريل فقال لها مثل ذلك ثم سألها: ما الخبر؟ فأحلفته أن يكتم ما تقول له فحلف لها فقالت له: إن ابن عبد الله ذكر لي ـ وهو صادق أحلف بالله ما كَذب ولا كُذب ـ أنه نزل عليه جبريل بحراء وأنه أخبره أنه نبي هذه الأمة وأقرأه آيات أرسل بها. قال: فذعر ورقة لذلك وقال: لئن كان جبريل قد استقرت قدماه على الأرض لقد نزل على خير أهل الأرض وما نزل إلا على نبي وهو صاحب الأنبياء والرسل يرسله الله إليهم وقد صدقتك عنه فأرسلي إلى ابن عبد الله أسأله وأسمع من قوله وأحدثه فإني أخاف أن يكون غير جبريل فإن بعض الشياطين يتشبه به ليضل به بعض بني آدم ويفسدهم حتى يصير الرجل بعد العقل الرضي مدلهاً مجنوناً.

فقامت من عنده وهي واثقة بالله أن لا يفعل بصاحبها إلا خيراً فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال ورقة فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات. فقال لها: «كلا والله إنه لجبريل» فقالت له: أحب أن تأتيه فتخبره لعل الله أن يهديه فجاءه رسول الله ﷺ فقال له ورقة: هذا الذي جاءك جاءك في نور أو ظلمة؟ فأخبره رسول الله ﷺ عن صفة جبريل وما رآه من عظمته وما أوحاه إليه. فقال ورقة: أشهد أن هذا جبريل وأن هذا كلام الله فقد أمرك بشيء تبلغه قومك وإنه لأمر نبوة فإن أدرك زمانك أتبعك ثم قال: أبشر ابن عبد المطلب بما بشرك الله به.

قال: وذاع قول ورقة وتصديقه لرسول الله ﷺ فشق ذلك على الملأ من قومه قال: وفتر الوحي فقالوا: لو كان من عند الله لتتابع ولكن الله قلاه فأنزل الله ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بكمالهما.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٥١/٢، ١٥٢]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس عن ابن إسحاق حدثني

إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير أنه حدَّث عن خديجة بنت خويلد أنها قالت لرسول الله ﷺ فيما بينه مما أكرمه الله به من نبوته: يا ابن عم تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ فقال: «نعم» فقالت: إذا جاءك فأخبرني. فبينا رسول الله ﷺ عندها إذ جاء جبريل فرآه رسول الله ﷺ. فقال: «يا خديجةُ هذا جبريلُ» فقالت: أتراه الآن؟ قال: «نعم» قالت: فاجلس إلى شقي الأيمن فتحول فجلس فقالت: أتراه الآن؟ قال: «نعم» قالت: فتحول فاجلس في حجري فتحول فجلس في حجرها فقالت: هل تراه الآن؟قال: «نعم» فتحسرت رأسها فشالت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها فقالت: هل تراه الآن؟ قال: «لا» قالت: ما هذا بشيطان إن هذا الملك يا ابن عم فاثبت وأبشر ثم آمنت به وشهدت أن ما جاء به هو الحق.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١١٤، سيرة ابن هشام: ٢٣٩/١]: فحدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث فقال: قد سمعت أمي فاطمة بنت الحسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام.

قال البيهقي [الدلائل: ١٥٢/٢]: وهذا شيء كانت خديجة تصنعه تستثبت به الأمر احتياطاً لدينها وتصديقاً. فأما النبي ﷺ فقد كان وثق بما قال له جبريل وأراه من الآيات التي ذكرناها مرة بعد أخرى، وما كان من تسليم الشجر والحجر عليه ﷺ تسليماً.

وقد قال مسلم في «صحيحه» [٢٢٧٧]: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا يحيى بن أبي بكير حدّثنا إبراهيم بن طهمان حدثني سماك بن حرب عن جابر بن سمرة ﷺ. أن رسول الله ﷺ قال: «إنّي لأعرفُ حجراً بمكة كانَ يُسلِّمُ عليَّ قبلَ أنْ أُبعثَ إنّي لأعرفُهُ الآنَ».

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا سليمان بن معاذ عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بمكةَ حجراً كانَ يُسلِّمُ عليَّ ليالِيَ بُعثتُ إنّي لأعرفُهُ إذا مررْتُ عليه». وروى البيهقي [الدلائل: ١٥٣/٢] من حديث إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عباد بن عبد الله عن علي بن أبي طالب ﷺ. قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

وفي رواية [الدلائل للبيهقي: ١٥٤/٢]: لقد رأيتني أدخل معه الوادي فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله وأنا أسمعه.

٣١- فتورُ الوحي مدةً

قال البخاري في روايته المتقدمة [(١٤)]: ثم فتر الوحي حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

وفي «الصحيحين» [خ (٤٩٢٥)، م (١٦١)] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يحدث عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال: «فبينمَا أنَا أمشِي سمعتُ صوتاً من السماءِ فرفعتُ بصري فإذَا الملَكُ الذي جاءني بحراءَ قاعدٌ علَى كرسيٍّ بينَ السماءِ والأرضِ فجُئِثْتُ منهُ فرقاً حتَّى هويتُ إلى الأرضِ فجئتُ أهلي فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني» فأنزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال: ثم حمي الوحيُ وتتابعَ فهذا كان أول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي لا مطلقاً ذاك قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وقد ثبت عن جابر أن أول ما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [خ (٤٩٢٤)] واللائق حمل كلامه ما أمكن على ما قلناه فإن في سياق كلامه ما يدل على تقدم مجيء الملك الذي عرفه ثانياً بما عرفه به أولاً إليه.

ثم قوله: يحدث عن فترة الوحي دليل على تقدم الوحي على هذا الإيحاء والله أعلم.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (٤٩٢٢)، م (١٦١) (٢٥٨)] من حديث علي بن المبارك وعند مسلم [(١٦١)(٢٥٧)] والأوزاعي كلاهما عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي جاورتُ بحراءَ شهراً فلمَّا قضيتُ جواري نزلتُ فاستبطنتُ الوادِي فنُوديتُ فنظرتُ بينَ يديَّ وخلفي وعنْ يميني وعن شمالي فلمْ أرَ شيئاً ثُم نظرتُ إلى السماءِ فإذَا هو علَى العرشِ في الهواءِ فأخذتني رعدةٌ - أو قال: وحشةٌ - فأتيتُ خديجةَ فأمرتُهُم فدثروني» فأنزلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ حتى بلغ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. وقال في رواية [خ(٤)، م (١٦١)]: «فإذا الملكُ الذي جاءني بحراءَ جالسٌ على كرسيٍّ بينَ السماءِ والأرضِ فجُئِثْتُ منهُ».

وهذا صريح في تقدم إتيانه إليه وإنزاله الوحي من الله عليه كما ذكرناه والله أعلم.

ومنهم من زعم أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى آخرها. قاله محمد بن إسحاق [السيرة: ١١٥، ١١٦].

وقال بعض القراء: ولهذا كبر رسول الله ﷺ في أولها فرحاً وهو قول بعيد يرده ما تقدم من رواية صاحبي «الصحيح» من أن أول القرآن نزولاً بعد فترة الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ولكن نزلت سورة ﴿وَالضُّحَى﴾ بعد فترة أخرى كانت ليالي يسيرة كما ثبت في «الصحيحين» [خ (١١٢٤)، م (١٧٩٧)] وغيرهما [ت (٣٣٤٥)، س (١١٦٨١)] من حديث الأسود بن قيس عن جندب بن عبد الله البجلي. قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا تركك فأنزل الله ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وبهذا الأمر حصل الإرسال إلى الناس وبالأول حصلت النبوة.

وقد قال بعضهم: كانت مدة الفترة قريباً من سنتين أو سنتين ونصف، والظاهر والله أعلم أنها المدة التي اقترن معه ميكائيل كما قال الشعبي وغيره، ولا ينفي هذا تقدم إيحاء جبريل إليه أولاً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ثم حصلت الفترة التي اقترن معه ميكائيل ثم اقترن به جبريل بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

وثم حمي الوحي بعد هذا وتتابع - أي تدارك شيئاً بعد شيء - وقام

حينئذ رسول الله ﷺ في الرسالة أتم القيام وشمر عن ساق العزم ودعا إلى الله القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، فآمن بـه حينئذ كـل لبيب نجيب سعيد، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد، فكـان أول مـن بـادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الغلمان علـي بـن أبي طالب، ومن النساء خديجة بنـت خويلـد زوجتـه عليـه السـلام، ومـن الموالي مولاه زيد بن حارثـة الكلبـي رضـي اللـه عنهـم وأرضـاهم. وتقـدم الكلام على إيمان ورقة بن نوفل بما وجد من الوحي ومات في الفترة ﷺ.

٣٢- استراق الشياطينِ السمعَ حين أنزلَ القرآن

فكان من رحمة الله وفضله ولطفه بخلقه أن حجبهم عن السماء كما قال الله تعالى إخباراً عنهم في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً. وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ٨ -١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

قال الحافظ أبو نعيم: حدّثنا سليمان بـن أحمـد - وهـو الطبراني - حدّثنا عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم حدّثنا محمد بـن يوسـف الفريابي حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عـن سـعيد بـن جبير عـن ابـن عباس. قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فـإذا سمعـوا الكلمة زادوا فيها تسعاً فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعـوا مقـاعدهم فذكروا ذلـك لإبليـس - ولم تكـن النجوم يرمى بها قبل ذلك - فقال لهم إبليس: هـذا لأمـر قـد حـدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسـول اللـه ﷺ قائماً يصلي بـين جبلـين فأتوه فأخبروه فقال: هذا الأمر الذي قـد حـدث في الأرض [تفسير الطبري: ٣٦/٢٣].

وقال أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قـال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه عامدين إلى سوق عكـاظ وقـد حيـل بـين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشـياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السـماء وأرسـلت علينـا الشـهب فقـالوا: مـا ذاك إلا مـن شـيء حـدث فـاضربوا مشـارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهـو بنخلـة عـامدين إلى سـوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القـرآن استمعوا لـه فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السـماء فرجعـوا إلى قومهـم فقـالوا: ﴿يا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [الجن: ١ -٢] فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾الآية. أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٤٩٢١)، م (٤٤٩)].

وقال أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف: ١٨٣٩١]: حدّثنا محمد بـن فضيـل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: إنـه لم تكـن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع فـإذا نـزل الوحي سمعـت الملائكـة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا قال: فإذا سمعت الملائكة خـروا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل فإذا نزل قال بعضهم لبعض: مـاذا قال ربكم؟ فإن كان مما يكون في السماء قالوا: الحـق وهـو العلي الكبير، وإن كان مما يكون في الأرض من أمر الغيب أو موت أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به فقالوا: يكون كذا وكذا فتسمعه الشياطين فينزلونـه علـى أوليائهم فلما بعث النبي محمد ﷺ دحروا بالنجوم فكان أول من علـم بهـا ثقيف فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه فيذبح كل يوم شـاة وذو الإبـل فينحر كل يوم بعيراً فأسـرع النـاس في أموالهـم فقـال بعضهـم لبعـض: لا تفعلوا فإن كانت النجوم التي يهتدون بها وإلا فإنه لأمر حدث فنظروا فـإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شيء فكفوا وصرف الله الجـن فسمعوا القرآن فلما حضروه قالوا: أنصتوا وانطلقـت الشـياطين إلى إبليـس فأخبروه. فقال: هذا حدثٌ حَدَثَ في الأرض فأتوني من كـل أرض بتربـة فأتوه بتربة تهامة فقال: ههنا الحدث.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢/ ٢٤٠، ٢٤١] والحاكم من طريـق حمـاد بـن سلمة عن عطاء بن السائب.

وقال الواقدي: حدثني أسامه بن زيد بن أسـلم عـن عمـر بـن عبـدان العبسي عن ابن كعب قال: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتـى تنبـأ رسـول الله ﷺ فرمي بها فرأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلـوا يسـيبون أنعـامهم ويعتقون أرقاءهم يظنون أنه الفناء، فبلـغ ذلـك مـن فعلهـم أهـل الطـائف ففعلت ثقيف مثل ذلك فبلغ عبد ياليل بن عمرو ما صنعت ثقيـف. قـال: ولم فعلتم ما أرى؟ قالوا: رمي بالنجوم فرأيناها تهافت من السماء فقال: إن إفادة المال بعد ذهابه شديد فلا تعجلوا وانظروا فإن تكن نجوماً تعرف فهـو عندنا من فناء الناس وإن كانت نجوماً لا تعرف فهو لأمر قد حدث فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال: الأمر فيه مهلة بعد هذا عند ظهـور نـبي. فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم عليهم أبو سفيان بن حرب إلى أمواله فجـاء عبد يا ليل فذاكره أمر النجوم فقال أبو سفيان: ظهـر محمـد بـن عبـد اللـه يدعي أنه نبي مرسل فقال عبد ياليل: فعند ذلك رمي بها. وقال سـعيد بـن منصور عن خالد عن حصين عن عـامر الشـعبي. قـال: كـانت النجـوم لا يرمى بها حتى بعث رسول الله ﷺ فسيبوا أنعامهم وأعتقوا رقيقهم. فقـال عبد ياليل: انظروا فإن كانت النجوم التي تعرف فهو عنـد فنـاء النـاس وإن كانت لا تعرف فهو لأمـر قـد حـدث فنظـروا فـإذا هـي لا تعـرف. قـال: فأمسكوا فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاءهم خروج النبي ﷺ.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢/ ٢٤١] والحاكم من طريق العـوفي عـن ابـن عبّاس، قـال: لم تكـن سمـاء الدنيـا تحـرس في الفـترة بـين عيسـى ومحمّد صلوات الله عليهما وسلامه. فلعل مراد من نفى ذلك أنها لم تكن تحـرس حراسة شديدة، ويجب حمل ذلك علـى هـذا لما ثبت في الحديث [المسند: ٢١٨/١] من طريق عبد الرزّاق عـن معمـر عـن الزهـري عـن علـي بـن الحسين عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: بينـا رسـول اللـه ﷺ جـالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار فقال: «ما كنتـم تقولـون إذا رمـي بهذا؟» قالوا: كنا نقول: مات عظيم، وولـد عظيـم فقـال: «لا ولكـن....». فذكر الحديث. كما تقدّم عند خلق السماء وما فيها مـن الكواكـب في أول بدء الخلق ولله الحمد.

وقد ذكر ابن إسـحاق في «السـيرة» [ابن هشام: ٢٠٦/١] قصة رمـي النجوم وذكر عن كبير ثقيف أنه قـال لهـم في النظر في النجـوم: إن كـانت أعلام السماء أو غيرها ولكن سماه عمرو بن أمية فالله أعلم.

وقال السدي: لم تكن السماء تحـرس إلا أن يكـون في الأرض نـبي أو دين لله ظاهر وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في سمـاء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمـداً ﷺ نبيـاً

رجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف. فقالوا: هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعتقون أرقاءهم، ويسيبون مواشيهم. فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف امسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء وإنما هو من أجل ابن أبي كبشة، وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم وفزعت الشياطين في تلك الليلة فأتوا إبليس فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله أمرهم على نبيه ﷺ.

وقال الواقدي: حدثني محمد بن صالح عن ابن أبي حكيم - يعني إسماعيل - عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: لما بعث رسول الله ﷺ أصبح كل صنم منكساً فأتت الشياطين إبليس فقالوا له: ما على الأرض من صنم إلا وقد أصبح منكساً، قال: هذا نبي قد بعث فالتمسوه في قرى الأرياف فالتمسوه فقالوا: لم نجده فقال: أنا صاحبه فخرج يلتمسه فنودي: عليك بجنبة القلب - يعني مكة - فالتمسه بها فوجده بها عند قرن الثعالب فخرج إلى الشياطين فقال: إني قد وجدته معه جبريل فما عندكم؟ قالوا: نزين الشهوات في عين أصحابه ونحببها إليهم قال: فلا آسى إذاً [الدلائل لأبي نعيم: ١٧٨].

وقال الواقدي: حدثني طلحة بن عمرو عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو قال: لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله ﷺ منعت الشياطين السماء ورموا بالشهب فجاؤوا إلى إبليس فذكروا ذلك له فقال: أمر قد حدث هذا نبي قد خرج عليكم بالأرض المقدسة مخرج بني إسرائيل قال: فذهبوا إلى الشام ثم رجعوا إليه فقالوا: ليس بها أحد فقال إبليس: أنا صاحبه فخرج في طلبه بمكة فإذا رسول الله ﷺ بحراء منحدراً معه جبريل فرجع إلى أصحابه فقال: قد بعث أحمد ومعه جبريل فما عندكم؟ قالوا: الدنيا نحببها إلى الناس قال: فذاك إذاً [الدلائل لأبي نعيم: ١٧٩]. قال الواقدي: وحدثني طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس: قال: كانت الشياطين يستمعون الوحي فلما بعث محمد ﷺ منعوا فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: لقد حدث أمر فرقي فوق أبي قبيس - وهو أول جبل وضع على الأرض - فرأى رسول الله ﷺ يصلي خلف المقام. فقال: أذهب فأكسر عنقه. فجاء يخطر وجبريل عنده، فركضه جبريل ركضة طرحه في كذا وكذا فولّى الشيطان هارباً [الدلائل لأبي نعيم: ١٨٠].

ثم رواه الواقدي وأبو أحمد الزبيري كلاهما عن رباح بن أبي معروف عن قيس بن سعد عن مجاهد فذكر مثل هذا وقال: فركضه برجله فرماه بعدن.

٣٣- كيفية إتيان الوحي

قد تقدم كيفية ما جاءه جبريل في أول مرة، وثاني مرة أيضاً.

وقال مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ. قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مِثْلَ صلصلةِ الجرسِ - وهوَ أشدُّهُ عليَّ - فيفصمُ عنّي وقدْ وعيتُ ما قالَ، وأحياناً يتمثلُ ليَ الملَكُ رجلاً يُكلمنِي فأعي مَا يقولُ».

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٢)، م (٨٧)] من حديث مالك به.

ورواه الإمام أحمد [١٥٨/٦] عن عامر بن صالح عن هشام بن عروة به نحوه.

وكذا رواه عبدة بن سليمان [الطبراني في الكبير (٣٣٤٦/٣)] وأنس بن عياض عن هشام بن عروة.

وقد رواه أيوب السختياني [الطبراني في الكبير (٣٣٤٤/٣) عن أيوب السختياني به] عن هشام عن أبيه عن الحارث بن هشام أنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: كيف يأتيك الوحي؟ فذكره، ولم يذكر عائشة.

وفي حديث الإفك [خ (٢٦٦١)، م (٢٧٧٠)] قالت عائشة: فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه. فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى أنه كان يتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل الوحي الذي نزل عليه.

وقال الإمام أحمد [٣٤/١] حدّثنا عبد الرزاق أخبرني يونس بن سليم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن عروة بن عبد الرحمن بن عبد القاري سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، وذكر تمام الحديث في نزول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وكذا رواه الترمذي [(٣١٧٣)] والنسائي [(١٤٣٩)] من حديث عبد الرزاق.

ثم قال النسائي: منكر لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ولا نعرفه.

وفي صحيح مسلم [(١٦٩٠)] وغيره [س (٧١٤٣، ٧٩٨٠)] من حديث الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت. قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كربه ذلك وتربّد وجهه - وفي رواية: وغمض عينيه - وكنا نعرف ذلك منه.

وفي «الصحيحين» [خ (٢٨٣١)، م (١٨٩٨)] حديث زيد بن ثابت حين نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] فلما شكى ابن أم مكتوم ضرارته نزلت: ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾. قال: وكانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي وأنا أكتب فلما نزل الوحي كادت فخذه ترض فخذي.

وفي صحيح مسلم [(١١٨٠)] من حديث همام بن يحيى عن عطاء عن صفوان بن يعلى بن أمية عن يعلى بن أمية. قال: قال لي عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحي إليه؟ فرفع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه بالجعرانة، فإذا هو محمر الوجه. وهو يغط كما يغط البكر.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٤٧٩٥)، م (٢١٧٠)] من حديث عائشة: لما نزل الحجاب، وأن سودة خرجت بعد ذلك إلى المناصع ليلاً، فقال عمر: قد عرفناك يا سودة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فسألته وهو جالس يتعشى والعرق في يده، فأوحى الله إليه والعرق في يده، ثم رفع رأسه فقال: «إنّه قدْ أُذنَ لَكنَّ أنْ تخرُجْن لحاجتِكنَّ».

فدل هذا على أنه لم يكن الوحي يغيب عنه إحساسه بالكلية، بدليل أنه جالس لم يسقط العرق أيضاً من يده صلوات الله وسلامه دائماً عليه. وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا عباد بن منصور حدّثنا عكرمة عن ابن عباس. قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي تربد لذلك جسده ووجهه

وامسك عن أصحابه ولم يكلمه أحد منهم. وفي مسند أحمد [٢٢٢/٢] وغيره من حديث ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو قلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ قال: «نعَمْ أسمَعُ صلاصِلَ ثمَّ أثبُتُ عندَ ذلكَ، ومَا مِن مرةٍ يُوحى إليَّ إلا ظننتُ أنْ نفسي تفيظ مِنه».

وقال أبو يعلى الموصلي [في مسنده: ١٥٨٣]: حدّثنا إبراهيم بن الحجاج حدّثنا عبد الواحد بن زياد حدّثنا عاصم بن كليب حدّثنا أبي عن خاله الفلتان بن عاصم. قال: كنا عند رسول الله ﷺ وأنزل عليه، وكان إذا أنزل عليه دام بصره مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله عز وجل.

وروى أبو نعيم من حديث قتيبة: حدّثنا علي بن غراب عن الأحوص بن حكيم عن أبي عون عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي صدع وغلف رأسه بالحناء.

هذا حديث غريب جداً.

وقال الإمام أحمد [٤٥٥/٦]: حدّثنا أبو النضر حدّثنا أبو معاوية شيبان عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد. قالت: إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة.

وقد رواه أبو نعيم من حديث الثوري عن ليث بن أبي سليم به.

وقال الإمام أحمد [١٧٦/٢]: أيضاً: حدّثنا حسن حدّثنا ابن لهيعة حدثني حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها.

وروى ابن مردويه من حديث صباح بن سهل عن عاصم الأحول حدثتني أم عمرو عن عمها أنه كان في مسير مع رسول الله ﷺ فنزلت عليه سورة المائدة، فاندق عنق الراحلة من ثقلها.

وهذا غريب من هذا الوجه.

ثم قد ثبت في الصحيحين [خ (٤٨٣٣)، م (١٧٨٦)] نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية، وهو على راحلته، فكان يكون تارة وتارة بحسب الحال والله أعلم.

وقد ذكرنا أنواع الوحي إليه ﷺ في أول شرح البخاري وما ذكره الحليمي وغيره من الأئمة رضي الله عنهم.

٣٤- تلاوةُ النبيّ ﷺ في بادئ الأمر

قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ. فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ -١٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وكان هذا في الابتداء، كان عليه السلام من شدة حرصه على أخذه من الملك ما يوحى إليه عن الله عز وجل ليساوقه في التلاوة، فأمره الله تعالى أن ينصت لذلك حتى يفرغ من الوحي، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر عليه تلاوته وتبليغه، وإن يبينه له، ويفسره ويوضحه ويوقفه على المراد منه. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي وان تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ﴾ أي تلاه عليك الملك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فاستمع له وتدبره ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وهو نظير قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

وفي «الصحيحين» [خ (٥)، م (٤٤٨)] من حديث موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة؛ فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وانصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل.

٣٥- تتابعُ الوحي وإسلام خديجة

قال ابن إسحاق [السيرة: ١١١، سيرة ابن هشام: ٢٤٠/١]: ثم تتابع الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله وتحمل منه ما حمله - على رضا العباد وسخطهم - وللنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستضلع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل، بعون الله وتوفيقه لما يلقون من الناس، وما يرد عليهم مما جاؤوا به عن الله عز وجل فمضى رسول الله ﷺ على ما أمر الله، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١١٢، سيرة ابن هشام: ٢٤٠/١]: وآمنت خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء منه فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبّته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رضي الله عنها وأرضاها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤١/١]: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرتُ أنْ أبشرَ خديجةَ ببيتٍ منْ قصبٍ، لا صخبَ فيهِ ولا نصبَ».

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [خ (٣٨١٨)، م (٢٤٣٤)] من حديث هشام. قال ابن هشام: القصب ههنا اللؤلؤ المجوف.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٣/١]: وجعل رسول الله ﷺ يذكر جميع ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوّة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: كانت خديجة أول من آمن بالله وصدق رسوله، قبل أن تفرض الصلاة [الدلائل للبيهقي: ١٤٣/٢].

قلت: يعني الصلوات الخمس ليلة الإسراء. فأما أصل الصلاة فقد وجب في حياة خديجة رضي الله عنها كما سنبينه.

وقال ابن إسحاق [السيرة: ١١٢، ١١٧، وسيرة ابن هشام: ٢٤٠/١، ٢٤٤]: وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به. ثم إن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين افترضت عليه الصلاة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت له عين من ماء زمزم، فتوضأ جبريل ومحمّد عليهما السلام، ثم صلى ركعتين وسجد أربع سجدات، ثم رجع النبي ﷺ وقد أقر الله عينه، وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله، فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها إلى العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات، ثم كان هو وخديجة يصلّيان سراً.

قلت: صلاة جبريل هذه غير الصلاة التي صلاها به عند البيت مرتين، فبيّن له أوقات الصلوات الخمس، أولها وآخرها، فإن ذلك كان بعد

فرضيتها ليلة الإسراء، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله وبه الثقة، وعليه التكلان.

٣٦- أوَّلُ الناسِ إسلاماً

قال ابن إسحاق [السيرة: ١١٨]: ثم إن علي بن أبي طالب ﷺ جاء بعد ذلك بيوم وهما يصليان فقال علي: يا محمّد ما هذا؟ قال: «دينُ اللّهِ الذي اصطفى لنفسِه، وبعثَ بهِ رسلهُ، فادعوكَ إلى اللّهِ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ، وإلى عبادتِهِ. وكفْر باللاتِ والعزى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يَا عَلِيُّ إذْ لَمْ تُسْلِمْ فَاكتُمْ».

فمكث عليّ تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وتَكْفُرُ باللاتِ والعزى، وتَبْرأُ مِنَ الأنْدادِ» ففعل علي وأسلم، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم عليّ إسلامه ولم يظهره، وأسلم ابن حارثة - يعني زيداً - فمكثا قريباً من شهر يختلف عليّ إلى رسول الله ﷺ، وكان مما أنعم الله به على علي أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٦/١]: حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال: وكان مما أنعم الله به على علي أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس - وكان من أيسر بني هاشم - «يَا عَبَّاسُ إنَّ أَخَاكَ أبَا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ حَتَّى نُخَفِّفَ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ» فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، فلم يزل مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي وآمن به وصدّقه.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [السيرة: ١١٩]: حدثني يحيى بن أبي الأشعث الكندي - من أهل الكوفة - حدثني إسماعيل بن أبي إياس بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف - وكان عفيف أخا الأشعث بن قيس لأمه - أنه قال: كنت امرءاً تاجراً فقدمت منى أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرءاً تاجراً، فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصليّ تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلّي، وخرج غلام فقام يصلي معه. فقلت: يا عبّاس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما ندري ما هو فقال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثانياً.

وتابعه إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق، وقال في الحديث: إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى السماء فلما رآها قد مالت قام يصلي. ثم ذكر قيام خديجة وراءه [الدلائل للبيهقي: ١٦٣/٢].

وقال ابن جرير [في تاريخه: ٣١١/٢]: حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدّثنا سعيد بن خثيم عن أسد بن عبدة البجلي عن يحيى بن عفيف عن عفيف. قال: جئت زمن الجاهلية إلى مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة؛ فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجداً فسجدا معه، فقلت: يا عباس امر عظيم! فقال: أمر عظيم. فقال: أتدري من هذا؟ فقلت: لا، فقال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من الغلام؟ قلت: لا. قال هذا علي بن أبي طالب - ﷺ - أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي. وهذا حدثني أن ربك رب السماء أمره بهذا الذي تراهم عليه، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

وقال ابن جرير [في تاريخه: ٣١٢/٢]: حدثني ابن حميد حدّثنا عيسى بن سوادة بن أبي الجعد حدّثنا محمد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم والكلبي. قالوا: علي أول من أسلم.

قال الكلبي: أسلم وهو ابن تسع سنين. وحدثنا [الطبراني في تاريخه: ٣١٢/٢] ابن حميد حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق. قال: أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدّقه علي بن أبي طالب، وهو ابن عشر سنين وكان علي في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال الواقدي: أخبرنا إبراهيم بن نافع عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال: أسلم علي وهو ابن عشر سنين [تاريخ الطبري: ٣١٤/٢].

قال الواقدي: واجمع أصحابنا على أن علياً أسلم بعد ما تنبأ رسول الله بسنة [تاريخ الطبري: ٣١٤/٢].

وقال محمد بن كعب: أول من أسلم من هذه الأمة خديجة وأول رجلين أسلما أبو بكر وعلي، وأسلم علي قبل أبي بكر، وكان علي يكتم إيمانه خوفاً من أبيه، حتى لقيه أبوه قال: أسلمت؟ قال: نعم! قال: وآزر ابن عمك وانصره. قال: وكان أبو بكر الصديق أول من أظهر الإسلام [الدلائل للبيهقي: ١٦٣/٢].

وروي ابن جرير في «تاريخه» [٣١٠/٢] من حديث شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس. قال: أول من صلى علي.

وحدثنا زكريا بن يحيى الضرير، حدثنا عبد الحميد بن بحر حدّثنا شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر. قال: بعث النبي ﷺ يوم الاثنين وصلي علي يوم الثلاثاء.

وروى [الطبراني في تاريخه: ٣١٠/٢] من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة - رجل من الأنصار - سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب.

قال: فذكرته للنخعي فأنكره. وقال: أبو بكر أول من أسلم.

ثم قال [الطبراني في تاريخه: ٣١٠/٢]: حدّثنا عبيد الله بن موسى حدّثنا العلاء عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله سمعت علياً يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين.

وهكذا رواه ابن ماجه [(١٢٠)] عن محمد بن إسماعيل الرازي عن عبيد الله بن موسى العبسي - وهو شيعي من رجال الصحيح - عن العلاء بن صالح الأسدي الكوفي - وثقوه، ولكن قال أبو حاتم: كان من عتق الشيعة -.

وقال علي بن المديني: روى أحاديث مناكير والمنهال بن عمرو ثقة.

وأما شيخه عباد بن عبد الله ـ وهو الأسدي الكوفي ـ فقد قال فيه علي بن المديني: هو ضعيف الحديث.

وقال البخاري: فيه نظر. وذكره ابن حبان في «الثقات» [١٤١/٥].

وهذا الحديث منكر بكل حال، ولا يقوله علي رضي الله عنه، وكيف يمكن أن يصلي قبل الناس بسبع سنين؟ هذا لا يتصور أصلاً والله أعلم.

وقال آخرون: أول من أسلم من هذه الأمة أبو بكر الصديق.

والجمع بين الأقوال كلها أن خديجة أول من أسلم من النساء وظاهر السياقات، وقبل الرجال أيضاً.

وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب. فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهل البيت. وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم إذ كان صدراً معظماً، ورئيساً في قريش مكرماً، وصاحب مال، وداعية إلى الإسلام. وكان محبباً متألفاً يبذل المال في طاعة الله ورسوله كما سيأتي تفصيله.

قال يونس عن ابن إسحاق [السيرة: ١٢٠]: ثم إن أبا بكر الصديق لقي رسول الله ﷺ فقال: أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آبائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى إنِّي رَسُولُ اللهِ ونَبِيُّهُ، بَعَثَنِي لأُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ وأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ بِالْحَقِّ فَوَاللهِ إِنَّهُ لَلْحَقُّ، أَدْعُوكَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَى اللهِ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، ولَا تَعْبُدْ غَيْرَهُ والمُوَالاةَ عَلَى طَاعَتِهِ» وقرأ عليه القرآن، فلم يقر ولم ينكر. فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٢٠، سيرة ابن هشام: ٢٥٢/١]: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي أن رسول الله ﷺ قال: «ما دَعَوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانَتْ عِنْدَهُ كَبوةٌ وتَرَدّدٌ ونَظرٌ، إلا أبَا بَكْرٍ ما عَكَمَ عنه حينَ ذكرتُهُ، ولَا تَرَدَّدَ فيه» عَكَمَ أي: تلبث.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق في قوله فلم يقر ولم ينكر، منكر فإن ابن إسحاق وغيره ذكروا أنه كان صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن سجيته وكرم أخلاقه، ما يمنعه من الكذب على الخلق. فكيف يكذب على الله؟ ولهذا بمجرد ما ذكر له أن الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم، ولا عكم وقد ذكرنا كيفية إسلامه في كتابنا الذي أفردناه في سيرته وأوردنا فضائله وشمائله وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي ﷺ من الأحاديث، وما روي عنه من الآثار والأحكام والفتاوي، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت في «صحيح البخاري» [(٣٦٦١)] عن أبي الدرداء في حديث ما كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الخصومة وفيه:

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ بَعَثَنِي إليكُمْ فقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وقالَ أبو بكر: صَدَقَ. ووَاسَانِي بنفسِهِ ومالِهِ فهَلْ أَنْتُمْ تارِكُوا لِي صاحِبِي؟» مرتين. فما أوذي بعدها، وهذا كالنص على أنه أول من أسلم رضي الله عنه.

وقد روى الترمذي [(٣٦٦٧)] وابن حبان [الإحسان (٦٨٦٣)] من حديث شعبة عن سعيد الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا؟

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٨/٣٠] من طريق بهلول بن عبيد حدثنا أبو إسحاق السبيعي عن الحارث سمعت علياً يقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق، وأول من صلى مع النبي ﷺ من الرجال علي بن أبي طالب.

وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم قال: أول من صلى مع النبي ﷺ أبو بكر الصديق [مسند أحمد: ٣٦٨/٤، ٣٧١. ت (٣٧٣٥). س (٨١٣٧)].

وقد تقدم رواية ابن جرير [في تاريخه: ٣١٠/٢] لهذا الحديث من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم علي بن أبي طالب.

قال عمرو بن مرة: فذكرته لإبراهيم النخعي فأنكره وقال: أول من أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وروى الواقدي بأسانيده عن أبي أروى الدوسي وأبي سلمة بن عبد الرحمن وجماعة من السلف: أول من أسلم أبو بكر الصديق [الطبقات لابن سعد: ١٧١/٣]. وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٦٣/٣] حدثنا أبو بكر الحميدي حدثنا سفيان بن عيينة عن مالك بن مغول عن رجل قال: سئل ابن عباس: من أول من آمن؟ فقال: أبو بكر الصديق، أما سمعت قول حسان [ديوان حسان: ٢١١، ٢١٢]:

إذا تذكَّرتَ شجْواً من أخي ثقةٍ ... فاذكرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فَعلا
خيرَ البريّةِ أوفاها وأعدَلَها ... بعدَ النبي وأولاها بما حَملا
والتالي الثاني المحمودَ مَشهدُه ... وأولَ الناسِ منهم صدَّقَ الرسُلا
عاشَ حميداً لأمرِ اللهِ متَّبعاً ... بأمرِ صاحبِهِ الماضي وما انتَقلا

وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة [في مصنفه (١٨٤٣٣)] حدثنا شيخ لنا عن مجالد عن عامر قال: سألت ابن عباس ـ أو سئل ابن عباس ـ: أي الناس أول إسلاماً؟ قال: أما سمعت قول حسان بن ثابت فذكره.

وهكذا رواه الهيثم بن عدي عن مجالد عن عامر الشعبي: سألت ابن عباس فذكره [تاريخ دمشق: ٤٠/٣٠، تاريخ الطبري: ٣١٥/٢]. وقال أبو القاسم البغوي: حدثني سريج بن يونس حدثنا يوسف بن الماجشون قال: أدركت مشيختنا منهم محمد بن المنكدر، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وصالح بن كيسان، وعثمان بن محمد لا يشكون أن أول القوم إسلاماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه [تاريخ دمشق: ٤٣/٣٠].

قلت: وهكذا قال إبراهيم النخعي ومحمد بن كعب ومحمد بن سيرين وسعيد بن إبراهيم وهو المشهور عن جمهور أهل السنة.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٧/٣٠] عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أنهما قالا: لم يكن أولهم إسلاماً، ولكن كان أفضلهم إسلاماً.

قال سعد: وقد آمن قبله خمسة.

وثبت في صحيح البخاري [(٣٦٦٠)] من حديث همام بن الحارث عن عمار بن ياسر. قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر.

وروى الإمام أحمد [(٤٠٤/١)] وابن ماجه [(١٥٠)] من حديث عاصم بن أبي النجود عن زر عن ابن مسعود. قال: أول من أظهر الإسلام سبعة رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنه هانت عليه

نفسه في الله، وهان على قومه؛ فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد.

وهكذا رواه الثوري عن منصور عن مجاهد مرسلاً [تاريخ دمشق: ٤٣٨/١٠].

فأما ما رواه ابن جرير [في تاريخه: ٣١٦/٢] قائلاً: أخبرنا ابن حميد حدّثنا كنانة بن جبلة عن إبراهيم بن طهمان عن حجاج عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص. قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ قال: لا! ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين ولكن كان أفضلنا إسلاماً.

فإنه حديث منكر إسناداً ومتناً.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣١٦/٢] وقال آخرون: كان أول من أسلم زيد بن حارثة.

ثم روى من طريق الواقدي عن ابن أبي ذئب سألت الزهري: من أول من أسلم من النساء؟ قال: خديجة. قلت: فمن الرجال؟ قال: زيد بن حارثة.

وكذا قال عروة وسليمان بن يسار وغير واحد: أول من أسلم من الرجال زيد بن حارثة.

وقد أجاب أبو حنيفة رحمه الله بالجمع بين هذه الأقوال بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

قال محمد بن إسحاق [السيرة: ١٢١، سيرة ابن هشام: ٢٤٩/١]: فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه دعا إلى الله عز وجل، وكان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر. وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر. فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا، وكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا في الإسلام فصدقوا رسول الله ﷺ وآمنوا بما جاء من عند الله.

وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان الوالبي عن إبراهيم بن محمد بن طلحة. قال: قال طلحة بن عبيد الله: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل الموسم: أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: قلت: نعم أنا، فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ، فإياك أن تسبق إليه. قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ، وقد اتبعه ابن أبي قحافة. قال: فخرجت حتى قدمت على أبي بكر، فقلت: أتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق فأخبره طلحة بما قال الراهب. فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فسر بذلك. فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية - وكان يدعى أسد قريش - فشدّهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم فلذلك سمي أبو بكر وطلحة القرينين.

وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِنَا شَرَّ ابْنِ العَدَوِيَّةِ» رواه البيهقي [دلائل النبوة: ١٦٧/٢].

وقال الحافظ أبو الحسن خيثمة بن سليمان الأطرابلسي: حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز العمري قاضي المصيصة حدّثنا أبو بكر عبد الله بن عبيد الله بن إسحاق بن محمد بن عمران بن موسى بن طلحة بن عبيد الله حدثني أبي عبيد الله حدثني عبد الله بن محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة حدثني أبي محمد بن عمران عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبو بكر يريد رسول الله ﷺ وكان له صديقاً في الجاهلية، فلقيه فقال: يا أبا القاسم فقدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها. فقال رسول الله ﷺ: «إنِّي رسولُ اللهِ أدعوكَ إلَى اللهِ».

فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر فانطلق عنه رسول الله ﷺ وما بين الأخشبين أحد أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر، ومضى أبو بكر فراح لعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص فأسلموا، ثم جاء الغد بعثمان بن مظعون وأبي عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبي سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا رضي الله عنهم [تاريخ دمشق: ٤٨/٣٠ - ٥١].

قال عبد الله بن محمد: فحدثني أبي محمد بن عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال: «يَا أبَا بَكْرٍ إنَّا قَلِيلٌ» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحّت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن أبي الأرقم.

قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول

الله ﷺ فأمهلنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجنا به يتكئ عليهما حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار.

قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ثم دعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً.

وقد كان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضرب أبو بكر، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ولأبي جهل بن هشام، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس، فكبر رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سمعت بأعلى مكة، وخرج أبو الأرقم - وهو أعمى كافر - وهو يقول: اللّهم اغفر لبني غير الأرقم فإنه كفر.

فقام عمر فقال: يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: «يَا عُمَرُ إِنَّا قَلِيلٌ قَدْ رَأَيْتَ مَا لَقِينَا» فقال عمر: فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مر بقريش وهي تنتظره فقال أبو جهل بن هشام: يزعم فلان أنك صبأت؟ فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

فوثب المشركون إليه، ووثب على عتبة فبرك عليه فجعل يضربه، وأدخل أصبعه في عينيه، فجعل عتبة يصيح فتنحى الناس فقام عمر، فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، حتى أعجز الناس. واتبع المجالس التي كان يجالس فيها فيظهر الايمان، ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم. قال: ما عليك بأبي وأمي والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف، فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت وصلى الظهر معلناً، ثم انصرف إلى دار الأرقم ومعه عمر، ثم انصرف عمر وحده، ثم انصرف النبي ﷺ.

والصحيح أن عمر إنما أسلم بعد خروج المهاجرين إلى أرض الحبشة وذلك في السنة السادسة من البعثة كما سيأتي في موضعه إن شاء الله.

وقد استقصينا كيفية إسلام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في كتاب سيرتهما على انفرادها، وبسطنا القول هنالك ولله الحمد.

وثبت في «صحيح مسلم» [(٨٣٢)] من حديث أبي أمامة عن عمرو بن عبسة السلمي ش قال: أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة، وهو حينئذ مستخفياً، فقلت: ما أنت؟ قال: «أنا نَبِيٌّ»، فقلت: وما النبي؟ قال: «رَسُولُ اللّهِ»، قلت: آلله أرسلك؟ قال: «نعم» قلت: بم أرسلك؟ قال: «بأنْ تَعْبُدَ اللّهَ وحدهُ لا شريكَ لهُ وتكسيرَ الأصنامَ، وتُصلَ الأرحامَ». قال. قلت: نِعْم ما أرسلك به فمن معك على هذا؟ قال: «حُر وعبدٌ» - يعني أبا بكر وبلالاً - قال: فكان عمرو يقول: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام. قال: فأسلمت، قلت: فأتبعك يا رسول الله قال: «لا ولكنْ الحقْ بقومكَ، فإذا أخبرتَ أني قَدْ خرجتُ فاتْبعْني».

ويقال: إن معنى قوله عليه السلام: «حر وعبد» اسم جنس وتفسير ذلك بأبي بكر وبلال فقط فيه نظر، فإنه قد كان جماعة قد أسلموا قبل عمرو بن عبسة وقد كان زيد بن حارثة أسلم قبل بلال أيضاً فلعله أخبر أنه ربع الإسلام بحسب علمه فإن المسلمين كانوا إذ ذاك يستسرون بإسلامهم لا يطلع على أمرهم كثير أحد من قراباتهم دع الأجانب دع أهل البادية من الأعراب والله أعلم.

وفي صحيح البخاري [(٣٨٥٨)] من طريق أبي أسامة عن هاشم بن هاشم عن سعيد بن المسيّب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام.

أما قوله: ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه فسهل.

ويروى: إلا في اليوم الذي أسلمت فيه وهو مشكل، إذ يقتضي أنه لم يسبقه أحد بالإسلام. وقد علم أن الصديق وعلياً وخديجة وزيد بن حارثة أسلموا قبله، كما قد حكى الإجماع على تقدم إسلام هؤلاء غير واحد، منهم ابن الأثير [تاريخ دمشق: ٢٩٨/٢٠].

ونص أبو حنيفة رضي الله عنه على أن كلاً من هؤلاء أسلم قبل أبناء جنسه والله أعلم.

وأما قوله: ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام فمشكل وما أدري على ماذا يوضع عليه إلا أن يكون أخبر بحسب ما علمه والله أعلم.

وقال أبو داود الطيالسي [في مسنده: ٣٥٣]: حدّثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن زر، عن عبد الله - وهو ابن مسعود - قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة. فأتى عليٌّ رسول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا من المشركين - فقال - أو فقالا -: عندكَ يَا غُلامُ لبنٌ تسْقِينَا؟ قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما فقال: هلْ عنْدَكَ منْ جزعه لم ينزُ عليهَا الفحلُ بعْدُ؟ قلت: نعم! فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني ثم قال للضرع: «اقْلِص» فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال: «إنك غلامٌ مُعلَّمٌ» فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

وهكذا رواه الإمام أحمد [(٣٧٩/١، ٤٦٢)] عن عفان عن حماد بن سلمة به.

ورواه الحسن بن عرفة عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود به [الدلائل للبيهقي: ١٧٢/٢].

وقال البيهقي [الدلائل: ١٧٢/٢، ١٧٣]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو عبد الله بن بطة الأصبهاني حدّثنا الحسن بن الجهم حدّثنا الحسين بن الفرج حدّثنا محمد بن عمر حدثني جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير عن أبيه - أو عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان - قال: كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص قديماً وكان أول إخوته أسلم. وكان بدء إسلامه أنه رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به. ويرى في النوم كان آتياً أتاه يدفعه فيها ويرى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه لا يقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق، فلقي أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له، فقال أبو بكر: أريد بك خير هذا رسول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد، فقال: يا محمد إلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى اللهِ وحدهُ لا شريكَ لهُ وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، وتخلعَ ما أنتَ عليهِ من عبادةِ حجر لا يسمعُ، ولا يبصرُ، ولا يضرُّ، ولا ينفعُ، ولا يدري منْ عَبَدَهُ ممنْ لا يَعْبُدُهُ».

قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. فسر رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه فأتي به. فأنبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه. وقال: والله لأمنعنك القوت: فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه ويكون معه.

٣٧- إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [السيرة: ١٥١، ١٥٢، وسيرة ابن هشام: ٢٩١/١، ٢٩٢]: حدثني رجل ممن أسلم - وكان واعية - أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه، فذُكر ذلك لحمزة بن عبد المطلب، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجه منها شجة منكرة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، وقالوا: ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت. قال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنّ الذي يقول حق، فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه. وقال حمزة في ذلك شعراً.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٥٢، ١٥٣]: ثم رجع حمزة إلى بيته فأتاه الشيطان فقال: أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك، للموت خير لك مما صنعت. فأقبل على حمزة بثّه وقال: ما صنعت اللّهم إن كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان، حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخي إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو أرشد هو أم غي شديد؟ فحدثني حديثاً فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني.

فأقبل رسول الله ﷺ فذكره ووعظه، وخوفه وبشره، فألقي الله في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ. فقال: أشهد أنك الصادق شهادة الصدق، فأظهر يا ابن أخي دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء، وأني على ديني الأول. فكان حمزة ممن أعز الله به الدين. وهكذا

رواه البيهقي [الدلائل: ٢١٣/٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير به.

٣٨- إسلام أبي ذر رضي الله عنه

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢١٢/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ حدّثنا الحسين بن محمد بن زياد حدّثنا عبد الله بن الرومي حدّثنا النضر بن محمد حدّثنا عكرمة بن عمار عن أبي زُميل سماك بن الوليد عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال: كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع.

أتيت رسول الله ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ.

هذا سياق مختصر.

وقال البخاري [(٣٨٦١)]: إسلام أبي ذر: حدّثنا عمرو بن عباس حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن المثنى عن أبي جمرة عن ابن عباس. قال: لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء. واسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت. فتزود وحمل شنة فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل اضطجع فرآه عليّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث فعاد علي مثل ذلك فأقام معه فقال: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره. قال: فإنه حق وإنه رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، وإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي. ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه.

فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومكَ فأخبرهُمْ حَتّى يأتيكَ أمري» فقال: والذي بعثك بالحق لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكبّ العباس عليه.

هذا لفظ البخاري. وقد جاء إسلامه مبسوطاً في «صحيح مسلم» وغيره.

فقال الإمام أحمد [٥/١٧٤، ١٧٥]: حدّثنا يزيد بن هارون حدّثنا سليمان بن المغيرة حدّثنا حميد بن هلال عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار - وكان يحلون الشهر الحرام - أنا وأخي أنيس وأمنا فانطلقنا حتى نزلنا على خال لنا ذي مال وذي هيئة فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومه فقالوا له: إنك إذا خرجت عن أهلك خلفك إليهم أنيس. فجاء خالنا فنثا ما قيل له فقلت له: أمّا ما مضى من معروفك فقد كدرته، ولا جماع لنا فيما بعد. قال: فقربنا صرمتنا فاحتملنا عليها وتغطى خالنا بثوبه وجعل يبكي.

قال: فانطلقنا حتى نزلنا حضرة مكة، قال: فنافر أنيس رجلاً عن صرمتنا وعن مثلها فأتيا الكاهن فخير أنيسا. فأتانا بصرمتنا ومثلها، وقد صليت يابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ ثلاث سنين، قال: قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: حيث وجهني الله.

قال: وأصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء حتى تعلوني الشمس قال: فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني حتى آتيك قال: فانطلق فراث عليّ، ثم أتاني فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلاً يزعم أن الله أرسله على دينك، قال: فقلت: ما يقول الناس له؟ قال: يقولون إنه شاعر وساحر، وكان أنيس شاعراً. قال: فقلت: لقد سمعت الكهان فما يقول بقولهم، وقد وضعت قوله على أقراء الشعر فوالله ما

يلتئم لسان أحد أنه شعر، ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

قال: فقلت له: هل أنت كافيّ حتى أنطلق؟ قال: نعم! وكن من أهل مكّة على حذر فإنهم قد شنفوا له وتجهموا له. قال: فانطلقت حتى قدمت مكة فتضعفت رجلاً منهم فقلت: أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟ قال: فأشار إلي قال: الصابئ. فمال أهل الوادي عليّ بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً عليّ، ثم ارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر، فأتيت زمزم فشربت من مائها وغسلت عني الدم ودخلت بين الكعبة وأستارها، فلبثت به يا ابن أخي ثلاثين من بين يوم وليلة ما لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما وجدت على كبدي سخفة جوع قال: فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إضحيان وضرب الله على أشمخة أهل مكة فما يطوف بالبيت غير امرأتين، فأتتا عليّ وهما تدعوان إسافاً ونائلة. فقلت: أنكحا أحدهما الآخر فما ثناهما ذلك، فقلت: وهن مثل الخشبة غير أني لم أكن. قال: فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان ههنا أحد من أنفارنا، قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان من الجبل فقال: مالكما؟ فقالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها قالا: ما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملأ الفم.

قال: وجاء رسول الله ﷺ هو وصاحبه حتى استلم الحجر وطاف بالبيت، ثم صلى. قال: فأتيته فكنت أول من حياه بتحية أهل الإسلام. فقال: «عليكَ السلامُ ورحمةُ اللهِ ممن أنتَ؟» قال: قلت: من غفار، قال: فأهوى بيده فوضعها على جبهته قال: فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار، قال: فأردت أن آخذ بيده فقذفني صاحبه وكان أعلم به مني قال: «مَتَى كُنْتَ هَهُنَا؟» قال: قلت: كنت ههنا منذ ثلاثين من بين ليلة ويوم. قال: «فمنْ كانَ يُطعِمُكَ؟» قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما وجدت على كبدي سخفة جوع.

قال: قال رسول الله ﷺ: «إنهَا مباركةٌ، إنهَا طعامُ طُعْمٍ» قال: فقال أبو بكر: ائذن لي يا رسول الله في طعامه الليلة قال: ففعل قال: فانطلق النبي ﷺ وانطلقت معهما حتى فتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، قال: فكان ذلك أول طعام أكلته بها. فلبثت ما لبثت.

فقال رسول الله ﷺ: «إني قدْ وجهتُ إلَى أرضٍ ذاتِ نخلٍ ولا أحسبُهَا إلا يثربَ، فهلْ أنتَ مبلغٌ عني قومكَ لعلَّ اللهَ ينفعهُمْ بكَ ويأجركَ فيهمْ؟».

قال: فانطلقت حتى أتيت أخي أنيساً، قال: فقال لي: ما صنعت؟ قال: قلت: صنعت أني أسلمت وصدقت، قال: فما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت.

ثم أتينا أمنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت، فتحملنا حتى أتينا قومنا غفاراً، قال: فأسلم بعضهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يؤمهم خفاف بن إيماء بن رخصة الغفاري وكان سيدهم يومئذ.

وقال بقيتهم: إذا قدم رسول الله ﷺ أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ فأسلم بقيتهم قال: وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله إخواننا نسلم على الذي أسلموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «غِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ».

ورواه مسلم [(٢٤٧٣)] عن هدبة بن خالد عن سليمان بن المغيرة به نحوه.

وقد روى قصة إسلامه على وجه آخر وفيه زيادات غريبة فالله أعلم.

وتقدم ذكر إسلام سلمان الفارسي في كتاب البشارات بمبعثه عليه الصلاة والسلام.

٣٩- إسلام ضِمادٍ

روى مسلم [(٨٦٨)] والبيهقي [الدلائل: ٢/٢٢٣، ٢٢٤] من حديث داود بن أبي هند عن عمرو بن سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من سفهاء الناس يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: أين هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي؟ فلقيت محمداً فقلت: إني أرقي من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهلم.

فقال محمد: «إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لَهُ ومنْ يضللْ فلا هاديَ لَهُ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ». ثلاثَ مراتٍ. فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة. وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات فهلم يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه رسول الله ﷺ فقال له: «وعلى قومك؟» فقال: وعلى قومي.

فبعث النبي ﷺ جيشاً فمروا بقوم ضماد. فقال صاحب الجيش للسرية: هل أصبتم من هؤلاء القوم شيئاً؟ فقال رجل منهم: أصبت منهم مطهرة. فقال: ردها عليهم فإنهم قوم ضماد.

وفي رواية [م (٨٦٨)]: فقال له ضماد: أعد عليّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن ناعوس البحر.

وقد ذكر أبو نعيم في «دلائل النبوة» [ص: ١٨٧، ١٩٠ - ١٩٢، ١٩٧ - ١٩٩] إسلام من أسلم من الأعيان فصلاً طويلاً، واستقصى ذلك استقصاءً حسناً رحمه الله وأثابه.

وقد سرد ابن إسحاق [السيرة: ١٢٤، ١٢٥، وسيرة ابن هشام: ١/٢٥٢ - ٢٦٢] أسماء من أسلم قديماً من الصحابة رضي الله عنهم. قال: ثم أسلم أبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر - وهي صغيرة - وقدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلمة بن مخرِّبة التميمية، وخنيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المجلّل وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث بن معمر الجمحي، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف. وامرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم، والنحام واسمه نعيم بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وخالد بن سعيد وأمينة ابنة خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن خزاعة، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة التميمي حليف بني عدي وخالد بن البكير، وعامر بن البكير، وعاقل بن البكير، وإياس بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث.

وكان اسم عاقل غافلاً فسماه رسول الله ﷺ عاقلا، وهم حلفاء بني

عدي بن كعب، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان. ثم دخل الناس أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا أمر الإسلام بمكة وتحدث به.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، وسيرة ابن هشام: ٢٦٢/١، ٢٦٣]: ثم أمر الله رسوله ﷺ بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أمر، وأن يصبر على أذى المشركين. قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم. فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون بشعاب مكة إذ ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحي جمل فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام.

وروى الأموي في «مغازيه» من طريق الوقاصي عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه. فذكر القصة بطولها وفيه أن المشجوج هو عبد الله بن خطل لعنه الله.

٤٠- الأمرُ بتبليغ الرسالة والصبرِ عليه

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

أي إن الذي فرض عليك وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إلى دار الآخرة وهي المعاد، فيسألك عن ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقد تقصينا الكلام على ذلك في كتابنا «التفسير»، وبسطنا من القول في ذلك عند قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وأوردنا أحاديث جمة في ذلك، فمن ذلك:

قال الإمام أحمد [٣٠٧/١]: حدّثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: لما أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادي: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله. فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر، يا بني لؤي أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم! قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

فقال أبو لهب - لعنه الله - تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وأخرجاه [خ (٤٧٧٠)، م (٢٠٨)] من حديث الأعمش به نحوه.

وقال أحمد [٣٦٠/٢]: حدّثنا معاوية بن عمرو حدّثنا زائدة حدّثنا عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة. قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص. فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

ورواه مسلم [(٢٠٤)] من حديث عبد الملك بن عمير.

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٢٧٥٣)، م (٢٠٦)] من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة، وله طرق أخر عن أبي هريرة في «مسند أحمد» [٣٣٣/٢، ٣٦١، ٥١٩] وغيره [خ (٣٥٢٧)، م (٢٠٦)].

وقال أحمد [١٣٦/٦، ١٨٧]: أيضاً حدّثنا وكيع ثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» ورواه مسلم [(٢٠٥)] أيضاً.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في «الدلائل» [١٧٨/٢ - ١٨٠]: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب. قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال رسول الله ﷺ: «عرفت أني إن بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره، فصمتُّ. فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك». قال علي: فدعاني فقال: «يا علي إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام، وأعدَّ لنا عُسَّ لَبَن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب».

ففعلت فاجتمعوا له يومئذ وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت إليهم تلك الجفنة، فأخذ رسول الله ﷺ منها حذية فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال: «كلوا بسم الله» فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يُرى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا عليُّ» فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وايم الله إن كان الرجل ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب لعنه الله فقال: لَهَدَّ ما سحركم صاحبكم، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ.

فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي عُدْ لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم» ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه وايم الله إن كان الرجل ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي» فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله أن يكلمهم، بدره أبو لهب لعنه الله إلى الكلام فقال: لهد ما سحركم صاحبكم! فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ.

فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي عُدْ لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم» ففعلت ثم جمعتهم له. فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه، ثم سقيتهم من ذلك القعب

حتى نهلوا عنه وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها وليشرب مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبدالمطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

هكذا رواه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن شيخ أبهم اسمه عن عبد الله ابن الحارث به.

وقد رواه أبو جعفر بن جرير [في تاريخه: ٣١٩/٢ - ٣٢١] عن محمد بن حميد الرازي عن سلمة بن الفضل الأبرش عن محمد بن إسحاق عن عبد الغفار أبي مريم بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي فذكر مثله.

وزاد بعد قوله: «وإني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»: «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي» وكذا وكذا. قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت - ولأني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً -: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي فقال: «إن هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع!.

تفرد به عبد الغفار بن القاسم أبو مريم وهو كذاب شيعي اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث. وضعفه الباقون.

ولكن روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن أبيه عن الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثي عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث. قال: قال علي: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. قال لي رسول الله ﷺ: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام، وإناء لبناً، وادع لي بني هاشم» فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل، أو أربعون ورجل.

فذكر القصة نحو ما تقدم إلى أن قال: وبدرهم رسول الله ﷺ الكلام. فقال: «أيكم يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي؟» قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله، قال: وسكت أنا لسن العباس. ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس، فلما رأيت ذلك قلت: أنا يا رسول الله، قال: «أنت؟» قال: وإني يومئذ لأسوأهم هيئة، وإني لأعمش العينين، ضخم البطن؛ حمش الساقين.

وهذه الطريق فيها شاهد لما تقدم إلا أنه لم يذكر ابن عباس فيها فالله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» [١١١/١] من حديث عباد بن عبد الله الأسدي وربيعة بن ناجذ عن علي نحو ما تقدم - أو كالشاهد له - والله أعلم.

ومعنى قوله في هذا الحديث: «من يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي» يعني: إذا مت، وكأنه ﷺ خشي إذا قام بإبلاغ الرسالة إلى مشركي العرب أن يقتلوه، فاستوثق من يقوم بعده بما يصلح أهله، ويقضي عنه؛ وقد أمنه الله من ذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية.

والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عنه صاد، يتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم وفي المواسم، ومواقف الحج. يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرع سواء. وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس - من ضعفائهم - الأشداء الأقوياء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية، وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب - واسمه عبد العزى بن عبد المطلب - وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان وخالفه في ذلك عمه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ خلق الله إليه طبعاً، وكان يحنو عليه ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم وعلى خلتهم، إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبّه حباً طبعياً لا شرعياً. فكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولاجترؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربّك يخلق ما يشاء ويختار. وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً، فهذان العمان كافران أبو طالب وأبو لهب. ولكن هذا يكون في القيامة في ضحضاح من نار، وذلك في الدرك الأسفل من النار، وأنزل الله فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواعظ والخطب. تتضمن أنه سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمّالة الحطب.

قال الإمام أحمد [٣٤١/٤]: حدّثنا إبراهيم بن أبي العباس،حدّثنا عبد الرّحمن بن أبي الزناد عن أبيه. قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عبّاد من بني الديل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيّها النّاس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمّه أبو لهب.

ثم رواه هو والبيهقي [الدلائل: ١٨٦/٢] من حديث عبد الرّحمن بن أبي الزناد بنحوه.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٨٥/٢] أيضاً: حدّثنا أبو طاهر الفقيه، حدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسين القطّان، حدّثنا أبو الأزهر، حدّثنا محمّد بن عبد الله الأنصاري، حدّثنا محمّد بن عمرو عن محمّد بن المنكدر، عن ربيعة الديلي. قال: رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرّنّكم هذا عن دينكم ودين آبائكم. قلت: من هذا؟ قيل: هذا أبو لهب.

ثم رواه [البيهقي في الدلائل: ١٨٦/٢] من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيّها النّاس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب، وإذا هو أبو جهل، وإذا هو يقول: يا أيها الناس لا يغرّنّكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

كذا قال أبو جهل، والظاهر أنه أبو لهب، وسنذكر بقية ترجمته عند ذكر وفاته وذلك بعد وقعة بدر إن شاء الله تعالى.

وأما أبو طالب فكان في غاية الشفقة والحنو الطبيعي كما سيظهر من صنائعه، وسجاياه واعتماده فيما يحامي به عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

قال يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن موسى بن طلحة أخبرني عقيل بن أبي طالب. قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد، فانطلقت إليه فاستخرجته من كبس -

أو قال: حِفْش ـ يقول: بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «ترون هذه الشمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة». فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا.

رواه البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير: ٧/٥٠، ٥١] عن محمد بن العلاء عن يونس بن بكير.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢/١٨٦] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عنه به ـ وهذا لفظه ـ.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢/١٨٧] من طريق يونس عن ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث. أن قريشاً حين قالت لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ. فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت. فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك. فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه، وإنه خاذله ومسْلِمة، وضعف عن القيام معه. فقال رسول الله ﷺ: «يا عم لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه».

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، فلما ولّى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ: يا ابن أخي فأقبل عليه فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قال ابن إسحاق: ثم قال أبو طالب في ذلك:

والله لن يَصِلوا إليكَ بجَمْعِهِم حتى أُوَسَّدَ في التراب دَفينا
فامضي لأمرِكَ ما عليكَ غضاضةٌ أبشِرْ وقَرَّ بذاكَ منكَ عيونا
ودعوتَني وعلمتُ أنك ناصحي فلقدْ صدقتَ وكنتَ قِدْمُ أمينا
وعرضتَ ديناً قد عرفتُ بأنه من خيرِ أديانِ البريةِ دينا
لولا الملامةُ أو حِذاري سُبَّةً لوجدتَني سمحاً بذاكَ مُبينا

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢/١٨٨]: وذكر ابن إسحاق [السيرة: ١٣٠، ١٣١] لأبي طالب في ذلك أشعاراً؛ وفي كل ذلك دلالة على أنّ الله تعالى عصمه بعمّه مع خلافه إياه في دينه، وقد كان يعصمه ـ حيث لا يكون عمه ـ بما شاء لا معقب لحكمه.

وقال يونس بن بكير: حدّثني محمد بن إسحاق حدّثني رجل من أهل مصر قديماً منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عبّاس في قصّة طويلة جرت بين مشركي مكّة وبين رسول الله ﷺ فلمّا قام عنهم رسول الله قال أبو جهل بن هشام: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وسبّ آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلمّا أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان قبلته الشام. فكان إذا صلّى صلّى بين الركنين الأسود واليماني، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال من قريش. فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط فهمّ أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل، لو دنا مني لأخذه».

وقال البيهقي [الدلائل: ٢/١٩١]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو النضر الفقيه حدّثنا عثمان الدارمي حدّثنا عبد الله بن صالح حدّثنا الليث بن سعد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبان بن صالح عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عباس بن عبد المطلب. قال: كنت يوماً في المسجد فأقبل أبو جهل ـ لعنه الله ـ فقال: إن لله عليّ إن رأيت محمداً ساجداً أن أطأ على رقبته، فخرجت على رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه فأخبرته بقول أبي جهل، فخرج غضبان حتى جاء المسجد فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم الحائط. فقلت: هذا يوم شر، فاتزرت ثم اتبعته فدخل رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فلما بلغ شأن أبي جهل ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ فقال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم هذا محمّد فقال أبو جهل: ألا ترون ما أرى؟ والله لقد سد أفق السماء عليّ فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد.

وقال الإمام أحمد [١/٣٦٨]: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الكريم عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً».

ورواه البخاري [(٤٩٥٨)] عن يحيى عن عبد الرزاق به.

وقال داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. قال: مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي. فقال: ألم أنهك أن تصلي يا محمّد؟ لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني، فانتهره النبي ﷺ، فقال جبريل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب.

رواه أحمد [١/٢٥٦] والترمذي [(٣٣٤٩)] وصححه النسائي [(١١٦٨٤)] من طريق داود به. وقال الإمام أحمد [١/٢٤٨]: حدّثنا إسماعيل بن يزيد أبو زيد حدّثنا فرات عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عبّاس. قال: قال أبو جهل: لئن رأيت النبي ﷺ عند الكعبة يصلي لآتينّه حتى أطأ عنقه، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً».

وقال أبو جعفر بن جرير [تفسيره: ٣٠/٢٥٦]: حدّثنا ابن حميد حدّثنا يحيى بن واضح حدّثنا يونس بن أبي إسحاق عن الوليد بن العيزار عن ابن عباس. قال: قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتلنّه، فأنزل الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ من الآية ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَه. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾. فجاء النبي ﷺ يصلي فقيل: ما يمنعك؟ قال: قد اسود ما بيني وبينه من الكتائب.

قال ابن عبّاس: والله لو تحرّك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه.

وقال ابن جرير [في تفسيره: ٣٠/٢٥٦]: حدّثنا ابن عبد الأعلى حدّثنا المعتمر عن أبيه عن نعيم بن أبي هند عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم! قال: فقال:

واللات والعزى لئن رأيته يصلّي كذلك لأطأنّ على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل لـه: مـالك؟ قـال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة. قال: فقال رسول اللّـه ﷺ: «لـو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً».

قال: وأنزل الله تعالى ـ لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ـ ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ إلى آخر السورة.

وقد رواه أحمد [٢/٣٧٠] ومسلم [(٢٧٩٧)] والنسائي [(١١٦٨٣)] وابن أبي حاتم والبيهقي [الدلائل: ٢/١٨٩] من حديث معتمر بـن سـليمان بن طرخان التيمي به.

وقال الإمام أحمد [١/٤١٧]: حدّثنا وهب بن جرير حدّثنا شعبة عـن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد اللّه. قال: ما رأيت رسـول اللّـه ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كـان يصلـي ورهـط مـن قريش جلوس، وسلى جزور قريب منه. فقالوا: من يأخذ هذا وسلى فيلقيه علـى ظهره؟ فقال عقبة بن أبي معيط: أنا، فأخذه فألقـاه على ظهره. فلـم يـزل ساجداً حتى جاءت فاطمـة فأخذتـه عـن ظهره. فقـال رسـول اللّـه ﷺ: «اللّهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللّهـم عليك بعتبة بـن ربيعـة، اللّهـم عليك بشيبة بن ربيعة، اللّهم عليك بـأبي جهـل بـن هشـام، اللّهـم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللّهم عليك بأُبيّ بن خلف ـ أو أميـة بـن خلـف ـ» شعبة الشاك.

قال عبد اللّه: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعاً، ثم سحبوا إلى القليـب غير أُبي ـ أو أمية ـ فإنه كان رجلاً ضخماً فتقطع.

وقد رواه البخاري في مواضـع متعـددة مـن «صحيحـه» [(٢٤٠)] ومسلم [(١٧٩٤)] من طرق عن أبي إسحاق به.

والصواب: أمية بن خلف فإنه الذي قتل يوم بدر، وأخوه أُبي إنما قتـل يوم أُحد كما سيأتي بيانه. والسّلَى: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشـيمة لولد المرأة.

وفي بعض ألفاظ الصحيح [خ (٥٢٠)، م (١٧٩٤)]: أنهـم لمـا فعلـوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض، أي يميل هـذا علـى هذا من شدة الضحك لعنهم اللّه.

وفيه أن فاطمة لما ألقته عنه أقبلت عليهم فسبتهم، وأنه ﷺ لما فرغ من صلاته رفع يديه يدعـو عليهـم، فلمـا رأوا ذلـك سـكن عنهـم الضحـك، وخافوا دعوته، وأنه ﷺ دعا على الملأ منهم جملة وعـين في دعائـه سبعة. وقع في أكثر الروايات تسمية ستة منهم وهم: عتبة، وأخوه شيبة ابنا ربيعـة، والوليد بن عتبة، وأبو جهل بن هشـام، وعقبـة بـن أبي معيط وأميـة بـن خلف.

قال أبو إسحاق: ونسيت السـابع [م (١٧٩٤)].

قلت: وهـو عمـارة بـن الوليـد وقـع تسـميته في «صحيـح البخـاري» [(٥٢٠)].

٤١ ـ قصة الإراشي

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [السير: ١٧٦، ١٧٧. وسيرة ابن هشام: ١/٣٨٩، ٣٩٠]: حدّثنا عبد الملك بن أبي سـفيان الثقفي. قـال: قـدم رجل من إراش بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهـل بـن هشـام، فمطلـه بأثمانها. فأقبل الإراشي حتى وقف على نـادي قريـش ورسـول اللّـه ﷺ جالـس في ناحية المسجد. فقال: يا معشر قريش مَنْ رجل يعديني علـى أبـي الحكم بن هشام فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ فقال أهل المجلس: ترى ذلك الرجل؟ ـ وهـم يهـزؤون بـه إلى رسـول اللّـه ﷺ لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة ـ اذهب إليه فهو يؤديك عليـه. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول اللّه ﷺ فذكر ذلك له، فقام معه.

فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممـن معهـم: اتبعـه فـانظر مـاذا يصنـع؟ فخرج رسول اللّه ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه. فقال: من هذا؟ قـال: «محمد فاخرج» فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونـه. فقـال: «أعط هذا الرجل حقه»، فقـال: لا تـبرح حتى أعطيـه الـذي لـه. فدخـل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسـول اللّـه ﷺ وقـال للإراشـي: «الحق لشأنك».

فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جـزاه اللّـه خـيراً، فقد أخذت الذي لي، وجاء الرجل الـذي بعثـوا معـه فقـالوا: ويحـك مـاذا رأيت؟ قال: عجباً من العجب، واللّه ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه فقال: «أعط هذا الرجل حقه». فقال: نعـم! لا تـبرح حتـى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه ثـم لم يلبـث أن جـاء أبـو جهل فقالوا له: ويلك مالك؟ فواللّه ما رأينا مثل ما صنعت؟ فقال: ويحكم واللّه ما هو إلا أن ضرب علي بـابي وسمعـت صوتـه فملئـت رعبـاً، ثـم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبـل مـا رأيـت مثـل هامتـه، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فواللّه لو أبيت لأكلني.

٤١ ـ من فعلِ المشركين بالنبي ﷺ

وقال البخاري [(٣٨٥٦)]: حدّثنا عياش بن الوليد حدّثنـا الوليـد بـن مسلم حدثني الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم التيمـي حدّثني عروة بن الزبير. سألت ابن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشـد شيء صنعه المشركون برسول اللّه؟. قال:

بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بـن أبي معيـط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر ﷺ حتـى أخـذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَـدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] الآية.

تابعه ابن إسحاق [خ معلقاً تحت (٣٨٥٦)] قال: أخبرني يحيى بن عـروة عن أبيه قال: قلت لعبد اللّه بن عمرو.

وقال عبدة [خ معلقاً تحت (٣٨٥٦)]: عـن هشـام عـن أبيـه قـال: قيـل لعمرو بن العاص.

وقال محمد بن عمرو [خ معلقاً تحت (٣٨٥٦)]: عن أبـي سـلمة حدثـني عمرو بن العاص.

قال البيهقـي [الدلائل: ٢/٢٧٦]: وكذلـك رواه سـليمان بـن بـلال عـن هشام بن عروة كما رواه عبدة.

انفرد به البخاري. وقـد رواه في أمـاكن مـن «صحيحـه» [(٣٦٧٨)] وصرّح في بعضها بعبد اللّه بن عمرو بن العاص، وهو أشبه لرواية عـروة عنه، وكونه عن عمرو أشبه لتقدم هذه القصة.

وقد روي البيهقي [الدلائل: ٢/٢٧٥]: عن الحاكم عن الأصم عـن أحمـد

بن عبد الجبار عن يونس عن محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عروة، قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته؟ فقال: لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعاتنا، وسب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ فمضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفتها في وجهه فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فقال: «أتسمعُونَ يا معشرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا والذي نفسي بيدِهِ لقدْ جئتكُمْ بالذَّبحِ».

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول. فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «نَعَمْ أنا الذِي أقُولُ ذلكَ».

ولقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، وقام أبو بكر يبكي دونه ويقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ثم انصرفوا عنه. فإن ذلك لأكثر ما رأيت قريشاً بلغت منه قط.

[ورد فى ذلك من روايه الحكم بن أبى العاص بن أميه بن عبد شمس بن عبد مناف وهو من غرائب الإحاديث قال الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا الحسن بن فرعة حدثنا مسلم بن علقمة عن دواد بن أبى هند عن الشعبي عن قيس عن جرير قال: قالت بنت الحكم: قلت كذا لجدي الحكم ما رأيت قوماً كانوا أعجز ولا... في رسول الله ﷺ منكم يا بني أمية قال لا تلومينا يا بنية إني لا أحدثك إلا ما رأيت بعيني هاتين قلنا والله ما نزال نسمع قريشاً تصلي هذا الصابيء في مسجدنا تواعدوا له حتى نأخذه فتواعدنا له فلما رأيناه سمعنا صوتاً ظننا أنه ما بقي بتهامة جبل إلا بقيت علينا فما عقلنا حتى قضى صلاته ورجع الى أهله ثم تواعدنا ليلة أخرى فلما جاء نهضنا إليه، فرأيت الصفا والمروة التفتا إحداهما بالأخرى فحالتا بيننا وبينه فوالله ما نفعنا ذلك وهذا إسناد جيد رجاله كله ثقات].]

٤٢- محاولة المشركين منعَ عمِّ أبي طالب من نُصرتِهِ

في تأليب الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه واجتماعهم بعمه أبي طالب القائم في منعه ونصرته وحرصهم عليه أن يسلمه إليهم فأبى عليهم ذلك بحول الله وقوته

قال الإمام أحمد [١٢٠/٣]: حدثنا وكيع عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيتُ في اللهِ وما يؤذَى أحَدٌ، وأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ ولَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ وما لِي ولبلال طعام يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا ما يُوارِي إبطُ بِلالٍ».

وأخرجه الترمذي [(٢٤٧٢)] وابن ماجه [(١٥١)] من حديث حماد بن سلمة به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ١٢٩، وسيرة ابن هشام: ٢٦٤/١]: وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لدينه لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبو طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وأبو البختري - واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو جهل - واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، ونبيه ومنبه، ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، والعاص بن وائل بن سعيد بن سهم - قال ابن إسحاق: أو من مشى منهم - فقالوا:

يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شري الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا. وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتوامروا فيه وحض بعضهم بعضاً عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى. فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا - ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٣٥]: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا - للذي - قالوا له - فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خاذله ومسلمة، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: «يَا عَمِّ واللهِ لَوْ وَضعُوا الشَّمسَ في يَمِينِي، والقمر فِي يساري علَى أنْ أتْرُكَ هذَا الأمرَ حتَّى يُظهرهُ اللهُ، أوْ أهلَكَ فيه ما تركتُهُ» قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب. فقال: أقبل يابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ. فقال: اذهب يابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمتك لشيء أبداً.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٣٣]: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوته مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له - فيما بلغني -: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف

دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامنا فنقتله فإنما هو رجل برجل!.

قال: والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً.

قال: فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا.

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك - أو كما قال - فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، ونادى بعضهم بعضاً.

فقال أبو طالب عند ذلك يعرض بالمطعم بن عدي ويعم من خذله من بني عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش، ويذكر ما سألوه وما تباعد من أمرهم:

ألا قُـلْ لعمـرو والوليـد ومُطعـم　　ألا ليتَ حظِّي مـن حيـاطتِكُمْ بكـرُ
مـنَ الخـورِ حبحـاب كثـير رُغـاؤُهُ　　يـرشُ عَلَى السَّاقين مـن بولـه قطـرُ
تخلّفَ خلـفَ الـوردِ ليسَ بلاحـقٍ　　إذَا مـا عـلا الفيفـاءَ قيـل لـهُ وبـرُ
أرَى أخوينـا مـن أبينـا وأُمِّنـا　　إذا سُئلا قـالا إلى غيرنـا الأمـرُ
بَلَـى لهُمـا أمـرٌ ولكـنْ تَجرْجَمَـا　　كَمَا جَرْجَمتْ منْ رأسِ ذي علَقٍ الصخرُ
أخصُّ خصوصاً عبد شمسٍ ونوفلاً　　همـا نبـذَا نـا مِثـل مـا يُنبَـذ الجمـرُ
هُمـا أغمـزَا للقـومِ في أخوَيْهِمـا　　فقـدْ أصبَحـا مِنْهُـم أكفُّهمـا صُفْـرُ
هُما أشرَكا في المجـدِ مَـنْ لا أبـا لـهُ　　مِـن النَّـاسِ إلا أن يُـرسَّ لَـهُ ذكـرُ
وتيـم ومَخـزُوم وزُهـرةُ مِنْهُـمُ　　وكـانُوا لَنـا مَولَـى إذا بُغِـيَ النَّصْـرُ
فواللّـهِ لا تنفـكُّ مِنّـا عـداوة　　ولا مِنكُـمُ مـا دَامَ مِـن نَسلِنا شَـفر

قال ابن هشام [السيرة: ٢٦٨/١]: وتركنا منها بيتين أقذع فيهما.

٤٣- مبالغتهم في الأذية لآحاد المسلمين المستضعفين

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٦٨/١]: ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله منهم رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب. وقد قام أبو طالب - حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون - في بني هاشم وبني عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه - إلا ما كان من أبي لهب عدو الله -.

فقال في ذلك يمدحهم ويحرضهم على ما وافقوه عليه من الحدب والنصرة لرسول الله ﷺ:

إذا اجتمعـت يومـاً قريـش لمفخـر　　فعبـدُ مَنَـافٍ سِـرُّها وصميمُهـا
وإن حُصِّلَت أشـرافُ عبـد مَنَافِهـا　　ففـي هاشـم أشـرافُها وقديمُهـا
وإن فخـرت يومـاً فـإن محمـداً　　هـو المصطفى مـن سرها وكريمهـا
تداعـت قريـش غثُّهـا وسمينُهـا　　علينا فلـم تَظْفَـر وطَاشَتْ حلومهـا
وكنّـا قديمـاً لا نقـر ظلامـةً　　إذا مـا ثنوا صُعـر الرقـاب نقيمهـا
ونحمـي حِمَاهـا كـل يـوم كريهَـةٍ　　ونَضْرِبُ عَـنْ أحجارهـا مـن يَرُومُهـا
بنـا انتعـش العـود الـذواء وإنمـا　　بأكنافنـا تنـدى وتنمـى أرومهـا

٤٤- ما اعترض به المشركون على رسول الله ﷺ وما طلبوا من الآيات

وما تعنتوا عليه في أسئلتهم إياه أنواعاً من الآيات وخرق العادات على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا ولا ما إليه رغبوا، لعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ [الأسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [الأسراء: ٩٠-٩٣].

وقد تكلمنا على هذه الآيات وما يشابهها في أماكنها في «التفسير» ولله الحمد.

وقد روى يونس وزياد عن ابن إسحاق [السيرة: ١٧٨، وسيرة ابن هشام: ٢٩٥/١] عن بعض أهل العلم - وهو شيخ من أهل مصر يقال له: محمد بن أبي محمد - عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس. قال: اجتمع علية من أشراف قريش - وعدّد أسماءهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم. فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف

فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك؛ بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون. ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» - أو كما قال رسول الله ﷺ - فقالوا:

يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا. فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فاسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك» فقالوا: يا محمد ما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب - فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

وهذا المجلس الذي اجتمع عليه هؤلاء الملأ مجلس ظلم وعدوان وعناد، ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك فيعاجلهم بالعذاب.

كما قال الإمام أحمد [٢٥٨/١]: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: «لا بل أستاني بهم» فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية.

وهكذا رواه النسائي [(١١٢٩٠)] من حديث جرير به.

وقال أحمد [٢٤٢/١]: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل، عن عمران أبي حكيم عن ابن عباس. قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً. فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة، قال: «بل باب التوبة والرحمة».

وهذان إسنادان جيدان، وقد جاء مرسلاً عن جماعة من التابعين منهم سعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغير واحد.

وروى الإمام أحمد [٢٥٤/٥] والترمذي [(٢٣٤٧)] من حديث عبد الله بن المبارك: حدثنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ عليّ ربي عز وجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب أشبع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». لفظ أحمد.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث. وقال محمد بن إسحاق: حدثني شيخ من أهل مصر - قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة - عن عكرمة عن ابن عباس. قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً بما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء: ٨٥].

وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير مطولاً فمن أراده فعليه بكشفه من هناك.

ونزل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾.

ثم شرع في تفصيل أمرهم واعترض في الوسط بتعليمه الاستثناء تحقيقاً لا تعليقاً في قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

ثم ذكر قصة موسى لتعلقها بقصة الخضر ثم ذي القرنين ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾ ثم شرح أمره وحكى خبره.

وقال في سورة سبحان: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي خلق عجيب من خلقه، وأمر من أمره، قال لها: كوني فكانت. وليس لكم الاطلاع على كل ما خلقه، وتفسير كيفيته في نفس الأمر يصعب عليكم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٢٥)، م (٢٧٩٤)] أن اليهود سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ بالمدينة، فتلا عليهم هذه الآية ـ فإما أنها نزلت مرة ثانية أو ذكرها جواباً ـ وإن كان نزولها متقدماً ومن قال: إنها إنما نزلت بالمدينة واستثناها من سورة سبحان ففي قوله نظر، والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٧٢]: ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه. فقال:

ولما رأيت القوم لا وُدَّ فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياماً معاً مستقبلين رتاجه ... لدي حيث يقضي حلفه كل نافل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل
موسمة الأعضاد أو قصراتها ... مخيسة بين السديس وبازل
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة كالعثاكل
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق لبرٍّ في حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب ... ومن كل ذي نذر ومن كل راجل
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له ... إلالٌ إلى مفضى الشراج القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشية ... يقيمون بالأيدي صدور الرواحل
وليلة جمع والمنازل من منى ... وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع إذا ما المقربات أجزنه ... سراعاً كما يخرجن من وقع وابل
وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها ... يؤمون قذفاً رأسها بالجنادل
وكندة إذ هم بالحصاب عشية ... تجيز بهم حجاج بكر بن وائل
حليفان شدا عقد ما احتلفا له ... وردا عليه عاطفات الوسائل
وحطمهم سمر الرماح وسرحه ... وشبرقه وخد النعام الجوافل
فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقي الله عاذل
يطاع بنا العدى ووَدُّوا لو أننا ... تسد بنا أبواب ترك وكابل
كذبتهم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركمُ في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم بالحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وحتى نرى ذا الضغن يركب ردعه ... من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا لعمر الله إن جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكفي فتى مثل الشهاب سميدع ... أخي ثقة حامي الحقيقة باسل
شهوراً وأياماً وحولاً مجرَّماً ... علينا وتأتي حجة بعد قابل
وما ترك قوم ـ لا أبا لك ـ سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد أجرى أسيد وبكره ... إلى بغضنا وجزآنا لآكل
وعثمان لم يربع علينا وقنفذ ... ولكن أطاعا أمر تلك القبائل
أطاعا أُبياً وابن عبد يغوثهم ... ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سبيع ونوفل ... وكلٌ تولّى معرضاً لم يجامل
فإن يلفيا أو يمكن الله منهما ... نكل لهما صاعاً بصاع المكايل
وذاك أبو عمرو أبى غير بغضنا ... ليظعننا في أهل شاء وجامل
يناجي بنا في كل ممسى ومصبح ... فناج أبا عمرو بنا ثم خاتل

ويـولي لنـا باللّـه مـا إن يغشـنا — بلـى قـد نـراه جهـرة غـير حـائلِ
أضـاق عليـه بغضنـا كـل تلعـة — مـن الأرض بيـن أخشـب فمجـادلِ
وسـائل أبـا الوليـد مـاذا حبوتنـا — بسـعيك فينـا معرضـاً كالمخـاتلِ
وكنـت امـرءاً ممّـن يعـاش برأيـه — ورحمتـه فينـا ولسـت بجـاهلِ
فعتبـة لا تسـمع بنـا قـول كاشـح — حسـودٍ كـذوب مبغـض ذي دغـاولِ
ومـرّ أبـو سـفيان عنّـي معرضـاً — كمـا مـرّ قيـل مـن عظـام المقـاولِ
يفـرُّ إلى نجـد وبـرد ميـاهـه — ويزعـم أنـي لسـت عنكـم بغـافلِ
ويخبرنـا فعـل المنـاصح أنـه — شـفيق ويُخفـي عارمـات الدّواخـلِ
أمطعـم لم أخذلـك في يـوم نجـدة — ولا معظـم عنـد الأمـور الجلائـلِ
ولا يـوم خصـم إذ أتـوك ألـدّة — أُلي جـدل مـن الخصـوم المسـاجلِ
أمطعـم إن القـوم سـاموك خطّـة — وإنـي متـى أوكـل فلسـت بوائـلِ
جـزى اللّه عنـا عبـد شـمس ونوفـلاً — عقوبـة شـرٌ عـاجلاً غـير آجـلِ
بميـزان قسـط لا يُخِـسُ شـعيرة — لـه شـاهد مـن نفسـه غـير عـائلِ
لقـد سـفهت أحـلام قـوم تبدّلـوا — بـني خلـف قيضـاً بنـا والغيـاطلِ
ونحـن الصميـم مـن ذؤابـة هاشـم — وآل قصـيٍّ في الخطـوب الأوائـلِ
وسـهم ومخـزوم تمـالوا وألّبـوا — علينـا العـدى من كل طمل وخامـلِ
فعبـد منـاف أنتـم خـير قومكـم — فـلا تشـركوا في أمركـم كـل واغـلِ
لعمـري لقـد وهنتـم وعجـزتم — وجئتـم بـأمر مخطـئ للمفاصـلِ
وكنتـم حديثـاً حطـب قـدر وأنتـم — الآن حطـاب أقـدر ومراجـلِ
ليهـن بـني عبـد منـاف عقوقنـا — وخذلاننـا وتركنـا في المعـاقلِ
فـإن نـك قومـا نتّئر مـا صنعتمـوا — وتحتلبوهـا لقحـة غـير بسـاهلِ
وسـائط كـانت في لـؤي بـن غـالب — نفـاهم إلينـا كـل صقـر حلاحـلِ
ورهـط نفيـل شـر من وطـئ الحصـى — وألأم حـاف مـن معـد ونـاعلِ
فـأبلغ قصيّـاً أن سينشـر أمرنـا — وبشّـر قصيّـاً بعدنـا بالتّخـاذلِ
ولـو طرقـت ليـلاً قصيـاً عظيمـة — إذا مـا لجأنـا دونهـم في المداخـلِ
ولـو صدقـوا ضربـاً خـلال بيوتهـم — لكنّـا أسـى عنـد النّسـاء المطـافلِ
فكـل صديـق وابـن أخـت نعـدّه — لعمـري وجدنـا غبّـه غـير طـائلِ
سـوى أنّ رهطـاً من كلاب بن مـرّة — بـراء إلينـا مـن معقّـة خـاذلِ
وهنّـا لهـم حتـى تبـدّد جمعهـم — ويحسـر عنـا كـل بـاغ وجـاهلِ
وكـان لنـا حـوض السـقاية فيهـم — ونحن الكـدى من غـالب والكواهـلِ
شـباب مـن المطيّبـين وهاشـم — كبيـض السـيوف بين أيـدي الصيـاقلِ
فمـا أدركـوا ذحـلاً ولا سـفكوا دمـاً — ولا حـالفوا إلا شـرار القبـائلِ
بضـرب تـرى الفتيـان فيـه كـأنهم — ضـواري أسـود فـوق لحـم خـرادلِ
بـني أمـة محبوبـة هندكيّـة — بـني جمـح عبيـد قيـس بـن عـاقلِ
ولكننـا نسـل كـرام لسـادة — بهـم نعـي الأقـوام عنـد البواطـلِ
ونعـم ابـن أخت القـوم غير مكـذّب — زهـير حسـامـاً مفـرداً مـن حمـائلِ
أشـم مـن الشـم البهـاليل ينتمـي — إلى حسـب في حومـة المجـد فـاضلِ
لعمـري لقـد كلفـت وجـداً بـأحمد — وإخوتـه دأب المحـب المواصـلِ
فمـن مثلـه في النـاس أي مؤمـل — إذا قاسـه الحكـام عنـد التفـاضلِ
حليـم رشـيد عـادل غـير طـائش — يـوالي إلهـاً ليـس عنـه بغـافلِ
كريـم المسـاعي مـاجد وابـن مـاجد — لـه إرث مجـد ثـابت غـير نـاصلِ
وأيـده ربُّ العبـاد بنصـره — وأظهـر دينـاً حقـه غـير زائـلِ
فواللّـه لـولا أن أجـيء بسـبّة — تجـر علـى أشـياخنا في المحـافلِ
لكنـا اتبعنـاه علـى كـل حالـة — من الدهر جداً غير قـول التهـازلِ
لقـد علمـوا أن ابننـا لا مكـذَّب — لدينـا ولا يُعنـى بقـول الأبـاطلِ
فـأصبح فينـا أحمـد في أرومـة — تقصّـر عنهـا سـورة المتطـاولِ
حدبـت بنفسـي دونـه وحميتـه — ودافعـت عنـه بـالذرا والكلاكـلِ

قال ابن هشام [السيرة: ١/٢٨٠]: هذا ما صحّ لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

قلت: هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلّقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً، وقد أوردها الأموي في «مغازيه» مطولة بزيادات أخر والله أعلم.

٤٥- نماذج من تعذيب المشركين للمسلمين

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٧٠، سيرة ابن هشام: ١/٣١٧]: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوه منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبهم ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم، فكان بلال مولى أبي بكر لبعض بني جمح مولداً من مولديهم وهو بلال بن رباح، واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ، وتعبد اللات والعزى فيقول - وهو في ذلك -: أحد أحد.

قال ابن إسحاق: [السيرة: ١٧٠، سيرة ابن هشام: ١/٣١٨] فحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حناناً.

قلت: قد استشكل بعضهم هذا من جهة أن ورقة توفي بعد البعثة في فترة الوحي، وإسلام من أسلم إنما كان بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فكيف يمر ورقة ببلال، وهو يعذب؟ وفيه نظر.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣١٨] مرور أبي بكر ببلال وهو يعذب، فاشتراه من أمية بعبد له أسود فأعتقه وأراحه من العذاب وذكر مشتراه لجماعة ممن أسلم من العبيد والإماء، منهم بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عُبيس وزنّيرة التي أصيب بصرها ثم رده الله تعالى لها، والنهدية وابنتها اشتراهما من بني عبد الدار بعثتهما سيدتهما تطحنان لها فسمعها وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبداً فقال أبو بكر: حلاً يا أم فلان، فقالت حِلاً أنت أفسدتهما فأعتقهما: قال فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال: قد

أخذتهما وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؟ قال: ذلك إن شئتما. واشترى جارية بني مؤمل - حي من بني عدي - كان عمر يضربها على الإسلام.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٧١، سيرة ابن هشام: ٣١٩/١]: فحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن بعض أهله. قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: يا بني إني أراك تعتق ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداء يمنعونك ويقومون دونك. قال: فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد. قال: فيتحدث أنه ما أنزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧] إلى آخر السورة.

وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد [٤٠٤/١] وابن ماجه [(١٥٠)] من حديث عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود. قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد.

ورواه الثوري عن منصور عن مجاهد مرسلاً [تاريخ دمشق: ٤٣٨/١٠ عن الثوري به].

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٧٢، وسيرة ابن هشام: ٣١٩/١]: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة يعذّبونهم برمضاء مكة. فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول - فيما بلغني -: «صبراً آل ياسر موعدكم الجنةَ».

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٢٨٢/٢] عن الحاكم عن إبراهيم بن عصمة العدل: حدّثنا السري بن خزيمة حدّثنا مسلم بن إبراهيم حدّثنا هشام بن أبي عبيد الله عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال: «أبشروا آل عمارٍ وآل ياسرٍ فإن موعِدكمْ الجنة» فأما أمه فقتلوها، تأبى إلا الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد. قال: أول شهيد كان في الإسلام استشهد أم عمار سمية طعنها أبوجهل بحربة في قلبها [دلائل النبوة للبيهقي: ٢٨٢/٢ من طريق الإمام أحمد به].

وهذا مرسل.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٢٠/١]: وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزّاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنّ حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به لعنه الله وقبحه.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٧٢، ١٧٣، وسيرة ابن هشام: ٣٢٠/١]: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله فيقول: نعم! افتداء منهم مما يبلغون من جهدهم.

قلت: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ، أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته.

وقال الإمام أحمد [١١١/٥]: حدّثنا أبو معاوية، حدّثنا الأعمش عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت. قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَم مال وولد فأعطيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ [مريم: ٧٧] إلى قوله ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾.

أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٢٠٩١)، م (٢٧٩٥)] وغيرهما [ت (٣١٦٢)] من طرق عن الأعمش به.

وفي لفظ البخاري [(٢٢٧٥)] كنت قينا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً فجئت أتقاضاه فذكر الحديث.

وقال البخاري [(٣٨٥)]: حدّثنا الحميدي حدّثنا سفيان حدّثنا بيان وإسماعيل. قالا: سمعنا قيساً يقول: سمعت خباباً يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعوا الله؟ فقعد وهو محمر وجهه. فقال: «قدْ كانَ منْ كانَ قبلَكُمْ ليمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ عظامهِ من لحمٍ أو عصبٍ ما يصرفُهُ ذلكَ عن دينهِ، ويوضعُ المنشارُ على مفرقِ رأسهِ فيشقُّ باثنتينِ ما يصرفُهُ ذلكَ عن دينهِ، وليتمنّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتَ ما يخافُ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ». زاد بيان: «والذئبَ على غنمِهِ».

وفي رواية [خ (٣٦١٢)]: «ولكنّكُمْ تستعجلونَ» انفرد به البخاري دون مسلم.

وقد روي من وجه آخر عن خباب وهو مختصر من هذا والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١١٠/٥]: حدّثنا عبد الرحمن عن سفيان ح وابن جعفر، حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن وهب، عن خباب. قال: شكونا إلى النبي ﷺ شدة الرمضاء فما أشكانا - يعني في الصلاة - وقال ابن جعفر: فلم يشكنا.

وقال أيضاً [المسند: ١٠٨/٥]: حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق، قال: سمعت سعيد بن وهب يقول سمعت خبابا يقول: شكونا إلى رسول الله ﷺ الرمضاء فلم يشكنا، قال شعبة: يعني في الظهر.

ورواه مسلم [(٦١٩)] والنسائي [(٤٩٦)] والبيهقي [في السنن الكبرى: ٤٣٨/١، ١٠٤/٢] من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن وهب عن خباب. قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء - زاد البيهقي: في وجوهنا وأكفّنا - فلم يشكنا.

وفي رواية [م (١٨٩/٦١٩)]: شكونا إلى رسول الله ﷺ الصلاة في الرمضاء فلم يشكنا. ورواه ابن ماجه [(٦٧٥)] عن علي بن محمد الطنافسي عن وكيع عن الأعمش عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب العبدي عن خباب. قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا.

والذي يقع لي - والله أعلم - أن هذا الحديث مختصر من الأول وهو أنهم شكوا إليه ﷺ ما يلقون من المشركين من التعذيب بحر الرمضاء، وأنهم يسحبونهم على وجوههم فيتقون بأكفهم، وغير ذلك من أنواع

العذاب كما تقدم عن ابن إسحاق وغيره، وسألوا منه ﷺ أن يدعو الله لهم على المشركين أو يستنصر عليهم فوعدهم ذلك ولم ينجزه لهم في الحالة الراهنة وأخبرهم عمن كان قبلهم أنهم كانوا يلقون من العذاب ما هو أشد مما أصابهم ولا يصرفهم ذلك عن دينهم، ويبشّرهم أن الله سيتم هذا الأمر ويظهره ويعلنه وينشره وينصره في الأقاليم والآفاق حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، «ولكنكم تستعجلون». ولهذا قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء في وجوهنا وأكفنا فلم يشكنا، أي: لم يدع لنا في الساعة الراهنة، فمن استدل بهذا الحديث على عدم الإبراد أو على وجوب مباشرة المصلي بالكف كما هو أحد قولي الشافعي ففيه نظر والله أعلم.

٤٦- مجادلة المشركين للنبيّ وإقامة الحجة عليهم

قال إسحاق بن راهوايه: حدّثنا عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر. قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣] الآيات. هكذا رواه البيهقي [الدلائل: ١٩٨/٢] عن الحاكم [المستدرك: ٥٠٦/٢] عن أبي عبد الله بن محمد بن علي الصنعاني بمكة عن إسحاق به.

وقد رواه حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة مرسلاً [الدلائل للبيهقي: ١٩٩/٢] وفيه أنه قرأ عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال البيهقي [في الدلائل: ١٩٩/٢ ـ ٢٠١]: عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قول بعضكم بعضاً. فقيل: يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقوم به. فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع. فقالوا: نقول كاهن. فقال: ما هو بكاهن فقد رأيت الكهان. فما هو بزمزمة الكهان. فقالوا: نقول مجنون. فقال: ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. فقالوا: نقول شاعر. فقال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا: فنقول هو ساحر. قال: ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا بعقده. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لجني فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: هذا ساحر، فتقولوا: هو ساحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك.

فجعلوا يجلسون للناس حتى قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا لهم أمره وأنزل الله في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ الآيات وفي أولئك النفر: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩١ ـ٩٣].

قلت: وفي ذلك قال الله تعالى إخبارا عن جهلهم وقلة عقلهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] فحاروا ماذا يقولون فيه فكل شيء يقولونه باطل، لأن من خرج عن الحق مهما قاله أخطأ. قال الله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الأسراء: ٤٨].

وقال الإمام عبد بن حميد في «مسنده»: حدثني أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا علي بن مسهر عن الأجلح هو ابن عبد الله الكندي عن الذيال بن حرملة الأسدي، عن جابر بن عبد الله. قال: اجتمع قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا لرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلّمه ولينظر ماذا يرّد عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك فرّقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وإن في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً.

فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم! فقال رسول الله ﷺ: ﴿حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٣] إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلّمونه إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم! ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٢٠٢/٢] وغيره [دلائل النبوة لأبي نعيم: (١٨٢)] عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوري عن يحيى بن معين عن محمّد بن فضيل عن الأجلح به.

وفيه كلام.

وزاد: وإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت وعنده أنه لما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم. فقال أبوجهل: والله يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه.

فأتوه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب وأقسم بالله لايكلم محمداً أبداً. وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته - وقص عليهم القصة - فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة، قرأ ﴿حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢/٢٠٤] عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبدالجبار، عن يونس، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي زياد مولى بني هاشم عن محمد بن كعب، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً حليماً - قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد! فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فيما قال له عتبة وفيما عرض على رسول الله ﷺ من المال والملك وغير ذلك.

وقال زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٢٩٣] فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا: بلى يا أبا الوليد! فقم إليه وكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا الوَلِيدِ اسْمَعْ». قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه. أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال له النبي ﷺ: «أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟» قال: نعم! قال: «فاسمع مني»، قال: افعل! فقال رسول الله ﷺ: ﴿حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه - أو خلف ظهره - معتمداً عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال: «سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟» قال: سمعت. قال: «فأَنْتَ وذَاكَ».

ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي. خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم ذكر يونس عن ابن إسحاق [السيرة: ١٨٩] شعراً قاله أبو طالب يمدح فيه عتبة.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢/٢٠٥]: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني، أخبرنا أبو قتيبة سلمة بن الفضل الأدمي بمكة حدثنا أبو أيوب أحمد بن بشر الطيالسي، حدثنا داود بن عمرو الضبي، حدثنا المثنى بن زرعة عن محمد بن إسحاق، عن نافع عن ابن عمر. قال: لما قرأ رسول الله ﷺ على عتبة بن ربيعة: ﴿حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أتى أصحابه فقال لهم: يا قوم أطيعوني في هذا الأمر اليوم، واعصوني فيما بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذناي كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه.

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢/٢٠٦] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن ابن إسحاق حدثني الزهري. قال: حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه. وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، قال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس بن شريق.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢/٢٠٧]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس حدثنا أحمد حدثنا يونس عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن

المغيرة بن شعبة. قال: إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول اللّه ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يَا أَبَا الحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللّهِ وإِلَى رَسُولِهِ، أَدْعُوكَ إِلَى اللّهِ». فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت؟ فواللّه لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك.

فانصرف رسول اللّه ﷺ. وأقبل عليّ فقال: واللّه إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن شيء. إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا. حتى إذا تحاكّت الركب قالوا: منا نبي، واللّه لا أفعل.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٨٤/٢]: أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ وأبو بكر قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، حدّثنا محمد بن خالد، حدّثنا أحمد بن خالد، حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق. قال: مر النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان، وهما جالسان. فقال أبوجهل: هذا نبيكم يا بني عبد شمس. قال أبو سفيان: وتعجب أن يكون منا نبي؟ فالنبي يكون فيمن أقل منا وأذل. فقال أبوجهل: اعجب ان يخرج غلام من بين شيوخ نبياً، ورسول اللّه ﷺ يسمع.

فأتاهما فقال: «أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، فَمَا للّه ورَسُولِهِ غَضِبْتَ ولَكِنَّكَ حَمِيتَ لِلأَصْلِ. وأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا الحَكَمِ، فَوَاللّهِ لَتَضْحَكَنَّ قَلِيلاً ولَتَبْكِيَنَّ كَثِيراً» فقال: بئسما تعدني يا ابن أخي من نبوتك.

هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

وقول أبي جهل ـ لعنه اللّه ـ كما قال اللّه تعالى مخبراً عنه وعن أضرابه ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١ ـ٤٢].

وقال الإمام أحمد [٢٣/١، ٢١٥]: حدّثنا هشيم، حدّثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. قال: نزلت هذه الآية ورسول اللّه ﷺ متوار بمكة: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوت بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال اللّه تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠].

وهكذا رواه صاحبا «الصحيح» [خ (٤٧٢٢)، م (٤٤٦)] من حديث أبي بشر جعفر بن أبي وحشية به.

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ١٨٦، سيرة ابن هشام: ٣١٣/١، ٣١٤]: حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا جهر بالقرآن ـ وهو يصلي ـ تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول اللّه ﷺ بعض ما يتلو، وهو يصلي، استرق السمع، دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، فإن خفض رسول اللّه ﷺ صوته لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا يسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾.

٤٧ـ هجرةُ الصحابةِ الأرض الحبشة فراراً بدينهم

قد تقدم ذكر أذية المشركين للمستضعفين من المؤمنين، وما كانوا يعاملونهم به من الضرب الشديد. والإهانة البالغة. وكان اللّه عز وجل قد حجزهم عن رسول اللّه ﷺ، ومنعه بعمه أبي طالب، كما تقدم تفصيله وللّه الحمد والمنة.

وروى الواقدي [من طريقه أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٢٠٤/١] أن خروجهم إليها في رجب سنة خمس من البعثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماش وراكب فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة. وهم: عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول اللّه ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة، وامرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة العنزي، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، ويقال: حاطب بن عمرو، وسهيل ابن بيضاء، وعبد اللّه بن مسعود، رضي اللّه عنهم أجمعين.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٣٠/٢]: وقال اخرون: بل كانوا إثنين وثمانين رجلاً، سوى نسائهم وأبنائهم، وعمار بن ياسر. فنشك [أي ابن إسحاق السيرة: ٢١٠].

فإن كان فيهم فقد كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً.

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ١٥٤، سيرة ابن هشام: ٣٢١/١]: فلما رأى رسول اللّه ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من اللّه عز وجل، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا ملكاً لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللّهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول اللّه ﷺ إلى ارض الحبشة مخافة الفتنه، وفراراً إلى اللّه بدينهم. فكانت أول هجرة كانت في الإسلام فكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت رسول اللّه ﷺ.

وكذا روى البيهقي [الدلائل: ٢٩٧/٢] من حديث يعقوب بن سفيان عن عباس العنبري عن بشار بن موسى عن الحسن بن زياد البرجمي: حدّثنا قتادة. قال: أول من هاجر إلى اللّه تعالى بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه سمعت النضر بن أنس يقول: سمعت أبا حمزة ـ يعني أنس بن مالك ـ يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول اللّه ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول اللّه ﷺ خبرهما فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته. قال: «عَلَى أَيِّ حَالٍ رَأَيْتِهِمَا؟» قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة، وهو يسوقها، فقال رسول اللّه ﷺ: «صَحِبَهُما اللّهُ، إِنَّ عُثْمَانَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ».

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٥٦، ١٥٧، ٢٠٥. وسيرة ابن هشام: ٣٢٢/١]: وأبو حذيفة بن عتبة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو ـ وولدت له

بالحبشة محمد بن أبي حذيفة - والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة - وولدت له بها زينب - وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة - حليف آل الخطاب، وهو من بني عنز بن وائل - وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم العامري، وامرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو - ويقال: أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر - وهو أول من قدمها فيما قيل - وسهيل بن بيضاء. فهؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة فيما بلغني.

قال ابن هشام [السيرة: ٣٢٣/١]: وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر بعض أهل العلم.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٢٠٨، سيرة ابن هشام: ٣٢٣/١]: ثم خرج جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وولدت له بها عبد الله بن جعفر. وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة.

وقد زعم موسى بن عقبة [من طريقه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢٨٥/٢] أن الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة كانت حين دخل أبو طالب ومن حالفه مع رسول الله ﷺ إلى الشعب.

وفي هذا نظر والله أعلم.

وزعم أن خروج جعفر بن أبي طالب إنما كان في الهجرة الثانية إليها. وذلك بعد عود بعض من كان خرج أولاً، حين بلغهم أن المشركين أسلموا وصلوا، فلما قدموا مكة - وكان فيمن قدم عثمان بن مظعون - فلم يجدوا ما أخبروا به من إسلام المشركين صحيحاً، فرجع من رجع منهم ومكث آخرون بمكة. وخرج آخرون من المسلمين إلى أرض الحبشة، وهي الهجرة الثانية، كما سيأتي بيانه.

قال موسى بن عقبة: وكان جعفر بن أبي طالب فيمن خرج ثانياً.

وما ذكره ابن إسحاق من خروجه في الرعيل الأول أظهر كما سيأتي بيانه والله أعلم.

لكنه كان في زمرة ثانية من المهاجرين أولاً، وهو المقدم عليهم والمترجم عنهم عند النجاشي وغيره، كما سنورده مبسوطاً.

ثم إن ابن إسحاق [السيرة: ٢٠٥ - ٢٠٨. وسيرة ابن هشام: ٣٢٣/١ - ٢٣٠] سرد الخارجين صحبة جعفر رضي الله عنهم. وهم: عمرو بن سعيد بن العاص، وامرأته فاطمة بنت صفوان ابن أمية بن محرث بن شق الكناني. وأخوه خالد، وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد الخزاعي - وولدت له بها سعيداً، وأمة التي تزوجها بعد ذلك الزبير، فولدت له عمراً وخالداً - قال: وعبد الله بن جحش ابن رئاب، وأخوه عبيد الله، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقيس بن عبد الله من بني أسد بن خزيمة وامرأته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان، ومعيقيب بن أبي فاطمة، وهو من موالي آل سعيد بن العاص.

قال ابن هشام [السيرة: ٣٢٤/١]: وهو من دوس. قال: وأبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس حليف آل عتبة بن ربيعة. - وسنتكلم معه في هذا - وعتبة بن غزوان، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وعمرو بن أمية بن الحارث بن أسد، وطليب بن عمير بن وهب بن أبي كثير بن عبد وسويبط بن سعد بن حرملة، وجهم بن قيس العبدري، ومعه امرأته أم حرملة بنت عبد الأسود بن خزيمة، وولداه عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم، وأبو الروم ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وفراس بن النضر بن الحارث بن كلدة، وعامر بن أبي وقاص أخو سعد والمطلب بن أزهر بن عبد عوف الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة - وولدت له بها عبد الله - وعبد الله بن مسعود، وأخوه عتبة، والمقداد بن الأسود، والحارث بن خالد بن صخر التيمي، وامرأته ريطة بنت الحارث بن جبيلة - وولدت له بها موسى وعائشة وزينب وفاطمة - وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وشماس بن عثمان بن الشريد المخزومي -.

قال [ابن هشام في السيرة: ٣٢٦/١، ٣٢٧]: وإنما سمي شماساً لحسنه وأصل اسمه عثمان بن عثمان - وهبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي، وأخوه عبد الله، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وسلمة بن هشام بن المغيرة، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة، ومعتب بن عوف بن عامر - ويقال له: عيهامة - وهو من حلفاء بني مخزوم.

قال: وقدامة وعبد الله أخوا عثمان بن مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون، وحاطب بن الحارث بن معمر، ومعه امرأته فاطمة بنت المجلل، وابناه منها محمد والحارث، وأخوه خطاب، وامرأته فكيهة بنت يسار، وسفيان بن معمر بن حبيب، وامرأته حسنة، وابناه منها جابر وجنادة، وابنها من غيره، وهو شرحبيل بن عبد الله - أحد الغوث بن مزاحم بن تميم، وهو الذي يقال له: شرحبيل بن حسنة - وعثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة بن جمح، وخنيس بن حذافة بن قيس بن عدي، وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، وهشام بن العاص بن وائل بن سعيد، وقيس بن حذافة بن قيس بن عدي، وأخوه عبد الله، وأبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدي، وإخوته الحارث ومعمر والسائب وبشر وسعيد أبناء الحارث بن قيس بن عدي وأخو بشر بن الحارث بن قيس بن عدي لأمه وهو سعيد بن عمرو التميمي، وعمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم بن سعيد بن سهم، وحليف لبني سهم وهو: محمية بن جزء الزبيدي، ومعمر بن عبد الله العدوي، وعروة بن عبد العزى، وعدي بن نضلة بن عبد العزى، وابنه النعمان، وعبد الله بن مخرمة العامري، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسليط بن عمرو، وأخوه السكران، ومعه زوجته سودة بنت زمعة، ومالك بن زمعة، وامرأته عمرة بنت السعدي، وحاطب بن عمرو العامري، وحليفهم سعد بن خولة - وهو من اليمن - وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وسهيل بن بيضاء - وهي أمه، واسمها دعد بنت جحدم بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر - وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث، وعياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة ويقال: بل ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة، وعثمان بن عبد غنم بن زهير وسعد بن عبد قيس بن لقيط، وأخوه الحارث الفهريون.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٢١٠، سيرة ابن هشام: ٣٣٠/١]: فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً وولدوا بها - ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم، وهو يشك فيه.

قلت: وذكرُ ابن إسحاق أبا موسى الأشعري فيمن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة غريب جداً.

وقد قال الإمام أحمد [٤٦١/١]: حدّثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم عبد الله بن مسعود وجعفر، وعبد الله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى فأتوا النجاشي. وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك، فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه، فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عزّ وجلّ قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً ثم أمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله ﷺ. وأنه الذي نجد في الإنجيل. وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً. وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته.

وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن. وفيه ما يقتضي أن أبا موسى كان ممن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة، إن لم يكن ذكره مدرجاً من بعض الرواة والله أعلم.

وقد روي عن أبي إسحاق السبيعي من وجه آخر. فقال الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» [(١٩٦)]: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدّثنا عبد الله بن رجاء حدّثنا إسرائيل (ح). وحدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا محمد بن زكريا، حدّثنا الحسن بن علوية القطان، حدّثنا عباد بن موسى الختلي، حدّثنا إسماعيل بن جعفر، حدّثنا إسرائيل(ح). وحدّثنا أبو أحمد، حدّثنا عبد الله بن محمد بن شيرويه، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم- هو ابن راهويه - حدّثنا عبيد الله بن موسى حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى. قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي، فبلغ ذلك قريشاً فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، وجمعوا للنجاشي هدية وقدما على النجاشي فأتياه بالهدية، فقبلها وسجدا له ثم قال عمرو بن العاص:

إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا وهم في أرضك. قال لهم النجاشي: في أرضي؟ قالا: نعم! فبعث إلينا، فقال لنا جعفر: لا يتكلم منكم أحد. أنا خطيبكم اليوم، فانتهينا إلى النجاشي، وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه، وعمارة عن يساره. والقسيسون جلوس سماطين - وقد قال لهم عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك - فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله عز وجل. فقال له النجاشي: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث فينا رسولاً، وهو الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر.

فأعجب النجاشي قوله، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص، قال: أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله: هو روح الله وكلمته أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربها بشر ولم يفرضها ولد: فتناول النجاشي عوداً من الأرض فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيدون هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ولا وزن هذه. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشّر به عيسى. ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبّل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة. وقال: ردّوا على هذين هديتهما.

وكان عمرو بن العاص رجلاً قصيراً، وكان عمارة رجلاً جميلاً، وكانا أقبلا في البحر، فشربا ومع عمرو امرأته، فلما شربا قال عمارة لعمرو: مر امرأتك فلتقبلني. فقال له عمرو: ألا تستحي؟ فأخذ عمارة عَمْراً فرمى به في البحر، فجعل عمرو يناشد عمارة حتى أدخله السفينة، فحقد عليه عمرو في ذلك. فقال عمرو للنجاشي: إنك إذا خرجت خلفك عمارة في أهلك، فدعا النجاشي بعمارة فنفخ في إحليله فطار مع الوحش.

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» [(٢٩٩/٢)] من طريق أبي علي الحسن بن سلام السواق عن عبيد الله بن موسى فذكر بإسناده مثله إلى قوله: فأمر لنا بطعام وكسوة.

قال: وهذا إسناد صحيح وظاهره يدل على أن أبا موسى كان بمكة، وأنه خرج مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة، والصحيح عن يزيد بن عبد الله بن أبي بردة عن جدّه أبي بردة عن أبي موسى: أنهم بلغهم مخرج رسول الله ﷺ وهم باليمن فخرجوا مهاجرين في بضع وخمسين رجلاً في سفينة، فألقتهم سفينتهم إلى النجاشي بأرض الحبشة، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فأمرهم جعفر بالإقامة، فأقاموا عنده حتى قدموا على رسول الله ﷺ زمن خيبر. قال [البيهقي في الدلائل: ٣٠٠/٢]: فأبو موسى شهد ما جرى بين جعفر وبين النجاشي، فأخبر عنه. قال: ولعل الراوي وهم في قوله: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق والله أعلم.

وهكذا رواه البخاري [(٣٨٧٦)] في باب هجرة الحبشة: حدّثنا محمد بن العلاء حدّثنا أبو أسامة حدّثنا يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى. قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب ﷺ فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ: «لكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ» وهكذا رواه مسلم [(٢٥٠٢، ٢٥٠٣)] عن أبي كريب وأبي عامر عبد الله بن براد بن يوسف بن أبي بردة بن أبي موسى كلاهما عن أبي أسامة به. ورواه [خ (٣١٣٦، ٤٢٣٠)] في مواضع أخر مطولاً. والله أعلم.

وأما قصة جعفر مع النجاشي فإن الحافظ ابن عساكر رواها في ترجمة جعفر بن أبي طالب من «تاريخه» من رواية نفسه، ومن رواية عمرو بن العاص. وعلى يديهما جرى الحديث، ومن رواية ابن مسعود كما تقدم. وأم سلمة كما سيأتي. فأما رواية جعفر فإنها عزيزة جداً. رواها ابن عساكر عن أبي القاسم السمرقندي، عن أبي الحسين بن النقور، عن أبي طاهر المخلص، عن أبي القاسم البغوي. قال: حدّثنا أبو عبد الرحمن الجعفي عن عبد الله بن عمر بن أبان، حدّثنا أسد بن عمرو البجلي، عن مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن عبدالله بن جعفر، عن أبيه. قال: بعثت قريش

عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية من أبي سفيان إلى النجاشي. فقالوا له - ونحن عنده -: قد صار إليك ناس من سِفلتنا وسفهائنا، فادفعهم إلينا، قال: لا حتى أسمع كلامهم. قال: فبعث إلينا فقال: ما يقول هؤلاء؟ قال: قلنا: إن هؤلاء قوم يعبدون الأوثان، وإن الله بعث إلينا رسولاً فآمنا به وصدّقناه. فقال لهم النجاشي: أعبيد هم لكم؟ قالوا: لا. فقال: فلكم عليهم دَيْن؟ قالوا: لا. قال: فخلوا سبيلهم. قال: فخرجنا من عنده فقال عمرو بن العاص: إن هؤلاء يقولون في عيسى غير ما تقول، قال: إن لم يقولوا في عيسى مثل قولي لم أدعهم في أرضي ساعة من نهار.

فأرسل إلينا فكانت الدعوة الثانية أشد علينا من الأولى، قال: ما يقول صاحبكم في عيسى بن مريم؟ قلنا: يقول: هو روح الله وكلمته ألقاها إلى عذراء بتول، قال: فأرسل فقال: ادعوا لي فلاناً القس، وفلاناً الراهب. فأتاه ناس منهم فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقالوا: أنت أعلمنا، فما تقول؟.

قال النجاشي - وأخذ شيئاً من الأرض - قال: ما عدا عيسى ما قال هؤلاء مثل هذا، ثم قال: أيؤذيكم أحد؟ قالوا: نعم! فنادى مناد: من آذى أحداً منهم فأغرموه أربعة دراهم ثم قال: أيكفيكم؟ قلنا: لا، فأضعفها. قال: فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر بها قلنا له: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل إليه، فزودنا قال: نعم! فحملنا وزودنا. ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله. وقل له يستغفر لي.

قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني، ثم قال: «ما أدري أنا بفتح خيبر أفرحُ أم بقدوم جعفر؟» ووافق ذلك فتح خيبر، ثم جلس فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا؟ فقال: نعم فعل بنا كذا وكذا وحملنا وزودنا، وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وقال لي: قل له يستغفر لي. فقام رسول الله ﷺ فتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات «اللَّهُمَّ اغفِرْ للنَّجاشي» فقال المسلمون: آمين. ثم قال جعفر: فقلت للرسول: انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن عساكر: حسن غريب.

وأما رواية أم سلمة فقد قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [السيرة: ١٩٤ - ١٩٧]: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، عن أم سلمة رضي الله عنها. أنها قالت: لما ضاقت مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمّه لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنّ بأرضِ الحبشةِ ملكاً لا يُظلمُ أحدٌ عندهُ فالحقُوا ببلادهِ حتّى يجعَلَ اللّهُ لكمْ فرجاً ومَخرجاً مِمّا أنتُمْ فيهِ».

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً. فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً، اجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا ليخرجونا من بلاده وليردنا عليهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا هيئوا له هدية على حدة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه فإن استطعتم أن يردّهم عليكم قبل أن يكلّمهم فافعلوا.

فقدما عليه فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدّموا إليه هديته، وكلّموه وقالوا له: إنما قدمنا على هذا الملك في سفهائنا فارقوا أقوامهم في دينهم ولم يدخلوا في دينكم. فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلّمناه فاشيروا عليه بأن يفعل فقالوا: نفعل. ثم قدّموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدون إليه من مكة الأدم -.

وذكر موسى بن عقبة [من حديثه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٢٩٣] أنهم أهدوا إليه فرساً وجبة ديباج - فلما أدخلوا عليه هداياه. قالوا له:

أيها الملك: إن فتية منّا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم، وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عيناً فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم عيناً فإنهم لن يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك. فغضب ثم قال: لا لعمر الله! لا أردهم عليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجئوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عيناً.

وذكر موسى بن عقبة [من حديثه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٢٩٣ - ٢٩٥] أن أمراءه أشاروا عليه بأن يردّهم إليهم. فقال: لا والله! حتى اسمع كلامهم وأعلم على أي شيء هم عليه.

فلما دخلوا عليه سلّموا ولم يسجدوا له. فقال: أيها الرهط الا تحدّثوني ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتانا من قومكم؟ وأخبروني ماذا تقولون في عيسى وما دينكم؟ أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: أفيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فعلى دين قومكم؟ قالوا: لا. قال: فما دينكم؟ قالوا: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قالوا: نعبد الله لا نشرك به شيئاً. قال: من جاءكم بهذا؟ قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له، فصدّقناه وعرفنا كلام الله وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا وعادوا النبي الصادق وكذّبوه وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان، ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا. قال: والله إن هذا لمن المشكاة التي خرج منها أمر موسى.

قال جعفر: وأما التحيّة فإن رسول الله ﷺ اخبرنا أن تحيّةَ أهْلِ الجَنّةِ السّلامُ، وأمرنا بذلك فحييناك بالذي يحيي بعضنا بعضاً. وأما عيسى ابن مريم فعبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وابن العذراء البتول. فأخذ عوداً وقال: والله ما زاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود. فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت الحبشة لتخلعنك. فقال: والله لا اقول في عيسى غير هذا أبداً، وما أطاع الله الناس في حين رد علي ملكي فاطيع الناس في دين الله. معاذ الله من ذلك.

وقال يونس عن ابن إسحاق: فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم ولم يكن شيء أبغض لعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم. فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقالوا: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول؟ نقول والله ما نعرف. وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب ﷺ. فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية، ولا نصرانية. فما هذا

الدين؟ فقال له جعفر: أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحلّ شيئاً ولا نحرمه. فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ونصل الأرحام ونحمي الجوار ونصلي لله عز وجل، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

وقال زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٦/١]: فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قال: فعدوا عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له ولم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال النجاشي: هل معك شيء مما جاء به؟ ـ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله ـ فقال له جعفر: نعم! قال: هلم فاتل علي مما جاء به.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ فبكى والله النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين لا والله لا أردّهم عليكم ولا أنعمكم عيناً.

فخرجنا من عنده وكان أتقى الرجلين فينا عبد الله بن ربيعة. فقال عمرو بن العاص: والله لأتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد ـ عيسى ابن مريم ـ عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً ولهم حقاً. فقال: والله لأفعلن!فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه. فبعث والله إليهم ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله الله فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه.

فدخلوا عليه وعنده بطارقته فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فدلى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عوداً بين أصبعيه فقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العويد. فتناخرت بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله! اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض ـ والسيوم: الآمنون في الأرض ـ من سبكم غُرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ثلاثاً ما أحب أن لي دَبْراً وأني آذيت رجلاً منكم. والدبر بلسانهم: الذهب.

وقال زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٨/١]: ما أحب أن لي دبراً من ذهب.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٣٣٨/١]: ويقال: دَبْرَي وهو الجبل بلغتهم.

ثم قال النجاشي: فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه. ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها. واخرجا من بلادي فخرجا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

قالت: فأقمنا مع خير جار في خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً حزنّا قط هو أشد منه، فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي فخرج إليه سائراً فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: من يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر على من تكون؟ فقال الزبير ـ وكان من أحدثهم سناً ـ: أنا، فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، فجعل يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه. فجائنا الزبير فجعل يلمع لنا بردائه ويقول: ألا فابشروا، فقد أظهر الله النجاشي. قالت: فوالله ما علمنا أننا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة، وأقام من أقام.

قال الزهري [السيرة لابن إسحاق: ١٩٧]: فحدثت هذا الحديث عروة بن الزبير عن أم سلمة. فقال عروة: أتدري ما قوله: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه؟ فقلت: لا! ما حدثني ذلك أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة. فقال عروة: فإن عائشة حدثتني أن أباه كان ملك قومه، وكان له أخ له من صلبه اثنا عشر رجلاً ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي فأدارت الحبشة رأيها بينها فقالوا: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملّكنا أخاه فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك، لبقيت الحبشة عليهم دهراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه فقتلوه وملّكوا أخاه.

فدخل النجاشي لعمه حتى غلب عليه فلا يدّبر أمره غيره، وكان لبيباً حازماً من الرجال، فلما رأت الحبشة مكانه من عمّه قالوا: قد غلب هذا الغلام على أمر عمّه فما نأمن أن يملكه علينا وقد عرف أنا قتلنا أباه، فلئن فعل لم يدع منا شريفاً إلا قتله، فكلموه فيه فليقتله أو ليخرجنه من بلادنا، فمشوا إلى عمّه فقالوا: قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قتلنا أباه وجعلناك مكانه وإنا لا نأمن أن يملك علينا فيقتلنا، فاما أن تقتله وإما أن تخرجه من بلادنا.

قال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم؟ بل أخرجه من بلادكم. فخرجوا به فوقفوه في السوق وباعوه من تاجر من التجار بستمائة درهم أو بسبعمائة فقذفه في سفينة فانطلق به فلما كان العشي هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمّه يتمطر تحتها فاصابته صاعقة فقتلته ففزعوا إلى ولده فإذا هم محمقون ليس في أحد منهم خير فمرج على الحبشة أمرهم. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلح أمركم غيره للذي بعتم الغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب، فخرجوا في طلبه فأدركوه فردوه فعقدوا عليه تاجه وأجلسوه على سريره وملّكوه، فقال التاجر: ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامي، فقالوا: لا نعطيك. فقال: إذاً والله لأكلّمنه فقالوا: وإن. فمشى إليه فكلمه فقال: أيها الملك إني ابتعت غلاماً فقبض مني الذي باعوه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي ولم يردّوا عليّ مالي، فكان أول ما خبر به من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردنّ عليه ماله، أو لتجعلنّ يد غلامه في يده فليذهبن به حيث شاء. فقالوا: بل نعطيه ماله فأعطوه إياه، فلذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة فآخذ الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، وما أطاع الناس

فيّ فاطيع الناس فيه.

وقال موسى بن عقبة [من حديثه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٢٩٥]: كان أبو النجاشي ملك الحبشة، فمات والنجاشي غلام صغير فأوصى إلى أخيه: إن إليك ملك قومك حتى يبلغ ابني، فإذا بلغ فله الملك فرغب أخوه في الملك فباع النجاشي من بعض التجار فمات عمّه من ليلته وقضى، فردّت الحبشة النجاشي حتى وضعوا التاج على رأسه.

هكذا ذكره مختصراً وسياق ابن إسحاق أحسن وأبسط فالله أعلم.

والذي وقع في سياق ابن إسحاق إنما هو ذكر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، والذي ذكره موسى بن عقبة والأموي وغير واحد أنهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة وهو أحد السبعة الذين دعا عليهم رسول الله ﷺ حين تضاحكوا يوم وضع سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو ساجد عند الكعبة.

وهكذا تقدم في حديث ابن مسعود وأبي موسى الأشعري. والمقصود أنهما حين خرجا من مكة كانت زوجة عمرو معه وعمارة كان شاباً حسناً فاصطحبا في السفينة وكان عمارة طمع في امرأة عمرو بن العاص، فألقى عَمراً في البحر ليهلكه فسبح حتى رجع إليها. فقال له عمارة: لو أعلم أنك تحسن السباحة لما ألقيتك، فحقد عمرو عليه فلما لم يقض لهما حاجة في المهاجرين من النجاشي، وكان عمارة قد توصل إلى بعض أهل النجاشي فوشى به عمرو فأمر به النجاشي فسحر حتى ذهب عقله وساح في البرية مع الوحوش.

وقد ذكر الأموي قصته مطولة جداً وأنه عاش إلى زمن إمارة عمر بن الخطاب، وأنه تقصده بعض الصحابة ومسكه فجعل يقول: أرسلني أرسلني وإلا مت فلما لم يرسله مات من ساعته فالله أعلم.

وقد قيل: إن قريشاً بعثت إلى النجاشي في أمر المهاجرين مرتين الأولى مع عمرو بن العاص وعمارة والثانية مع عمرو، وعبد الله بن أبي ربيعة. نص عليه أبو نعيم في «الدلائل» [(١٩٦)] والله أعلم.

وقد قيل: إن البعثة الثانية كانت بعد وقعة بدر - قاله الزهري - لينالوا ممن هناك ثأراً فلم يجبهم النجاشي رضي الله عنه وأرضاه إلى شيء مما سألوا فالله أعلم.

وقد ذكر زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٣٣]: أن أبا طالب لما رأى ذلك من صنيع قريش كتب إلى النجاشي أبياتاً يحضّه فيها على العدل وعلى الإحسان إلى من نزل عنده من قومه:

ألا ليتَ شعري كيفَ في النأي جعفرٌ وعمرو وأعداءُ العدوّ الأقاربُ
وما نالتْ أفعالُ النجاشيّ جعفراً وأصحابَهُ أو عاقَ ذلكَ شاغِبُ
تعلم، أبيتَ اللعنَ أنكَ ماجدٌ كريمٌ فلا يَشقى إليكَ المُجانبُ
تعلم بأنَّ اللَّهَ زادكَ بسطةً وأسبابَ خيرٍ كلُّها بكَ لازبُ

وقال يونس عن ابن إسحاق [السيرة: ١٩٩]: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير. قال: إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان رضي الله عنه، والمشهور أن جعفراً هو المترجم رضي الله عنهم.

وقال زياد البكائي عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٠]: حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. قالت: لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور.

ورواه أبو داود [(٢٥٢٣)] عن محمد بن عمرو الرازي عن سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق به: لما مات النجاشي رضي الله عنه كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور.

وقال زياد عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٠، ٣٤١]: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه. قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفناً. وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم وإن ظفرت فاثبتوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له.

فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى! قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة. قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد. قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله. فقال النجاشي - ووضع يده على صدره على قبائه -: وهو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب، فرضوا وانصرفوا. فبلغ رسول الله ﷺ فلما مات النجاشي صلّى عليه واستغفر له.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٢٤٥)، م (٩٥١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبّر أربع تكبيرات.

وقال البخاري [(٣٨٧٧)]: موت النجاشي: حدّثنا أبو الربيع حدّثنا ابن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن جابر. قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «ماتَ اليومَ رجلٌ صالحٌ فقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أخيكُمْ اصْحَمَةَ».

وروي ذلك من حديث أنس بن مالك وابن مسعود وغير واحد وفي بعض الروايات تسميته أصحمة، وفي رواية: مصحمة وهو أصحمة بن أبجر وكان عبداً صالحاً لبيباً ذكياً عادلاً عالماً رضي الله عنه وأرضاه.

وقال يونس عن ابن إسحاق [السيرة: ٢٠١]: اسم النجاشي مصحمة.

وفي نسخة صححها البيهقي [الدلائل: ٢/٢١٠]: أصحم وهو بالعربية: عطية.

قال وإنما النجاشي اسم الملك: كقولك كسرى وهرقل.

قلت: كذا ولعله يريد به قيصر فإنه علم لكل من ملك الشام مع الجزيرة مع بلاد الروم، وكسرى علم على من ملك الفرس وفرعون علم لمن ملك مصر كافراً، والمقوقس لمن ملك الإسكندرية وتُبّع لمن ملك اليمن والشحر، والنجاشي لمن ملك الحبشة وبطليموس لمن ملك اليونان وقيل: الهند وخاقان لمن ملك الترك.

وقال بعض العلماء إنما صلى عليه لأنه كان يكتم إيمانه من قومه فلم يكن عنده يوم مات من يصلي عليه فلهذا صلى عليه ﷺ: قالوا: فالغائب إن كان قد صُلّي عليه ببلده لا تشرع الصلاة عليه ببلد أخرى؟ ولهذا لم يصل على النبي ﷺ في غير المدينة، لا أهل مكة ولا غيرهم وهكذا أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة لم ينقل أنه صلي على أحد منهم في غير البلدة التي صلى عليه فيها فالله أعلم.

قلت: وشهود أبي هريرة رضي الله عنه الصلاة على النجاشي، دليل على أنه إنما مات بعد فتح خيبر في السنة التي قدم بقية المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يوم فتح خيبر.

ولهذا روي أن النبي ﷺ قال: «واللَّهِ مَا أَدْرِي بأيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ بِفَتْحِ خَيْبَرَ

أمُّ بَقُنُوم جعفر» وقدموا معهم بهدايا وتحف مـن عند النجاشي ﷺ إلى النبي ﷺ وصحبتهم أهل السفينة اليمنية أصحاب أبي موسى الأشعري وقومه من الأشعريين رضي الله عنهم، ومع جعفر وهدايا النجاشي ابن أخي النجاشي ذو مخبر أو ذو مخمر أرسله ليخدم النبي ﷺ عوضاً عن عمه رضي الله عنهما وأرضاهما.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٣/٢٦٢]: تـوفي النجاشي في رجب سنة تسع من الهجرة.

وفي هذا نظر والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢/٣٠٧]: أنبأنا الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطوسي حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا هلال بن العلاء الرقّي حدّثنا أبي العلاء بن هلال حدّثنا أبي، هلال بن عمر عن أبيه عن أبي غالب عن أبي أمامة. قال: قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ فقام يخدمهم، فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال: «إنهم كانوا لأصحابي مُكْرِمِينَ وإنّي أُحِبُّ أنْ أكافئهم».

ثم قال [البيهقي في الدلائل: ٢/٣٠٧]: وأخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني أنبأنا أبو سعيد بن الأعرابي حدّثنا هلال بن العلاء حدّثنا أبي حدّثنا طلحة بن زيد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي قتادة. قال: قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ فقام يخدمهم فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال: «إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمِينَ وإنّي أُحِبُّ أنْ أكافئهم».

تفرد به طلحة بن زيد عن الأوزاعي.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢/٣٠٧]: حدّثنا أبو الحسين بن بشران حدّثنا أبو عمرو بن السماك حدّثنا حنبل بن إسحاق حدّثنا الحميدي حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو. قال: لما قدم عمرو بن العاص من أرض الحبشة جلس في بيته فلم يخرج إليهم، فقالوا: ما شأنه ما له لا يخرج؟ فقال عمرو: إن أصحمة يزعم أن صاحبكم نبي.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٢]: ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ، وردّهم النجاشي بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قريشاً فكان عبدالله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

٤٨- إسلام عمر بن الخطاب

قلت: وثبت في «صحيح البخاري» [(٣٨٦٣)] عن ابن مسعود أنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب.

وقال زياد البكائي: حدثني مسعر بن كدام عن سعد بن إبراهيم. قال: قال ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٢].

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٦٠، وسيرة ابن هشام: ١/٣٤٢، ٣٤٣]: وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

حدثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي خيثمة قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف عليّ وهو على شركه، فقالت: وكنا نلقى منه بلاء، أذى لنا وشدة علينا قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله، قلت: نعم! والله لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

قالت: فقال: صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا قالت: فجاء عامر بحاجته تلك فقلت: له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقّته وحزنه علينا قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم! قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

قلت: هذا يرد قول من زعم أنه كان تمام الأربعين من المسلمين، فإن المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثمانين، اللّهم إلا أن يقال: إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين، ويؤيد هذا ما ذكره ابن إسحاق ههنا في قصة إسلام عمر وحده رضي الله عنه، وسياقها فإنه قال [ابن هشام في السيرة: ١/٣٤٣، ٣٤٤]:

وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ـ وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهم مستخفون بإسلامهم من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام ـ رجل من بني عدي ـ قد أسلم أيضاً مستخفياً بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه فذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ عمّه حمزة وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فاقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي، قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم ـ أو في بعض البيت ـ وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خباب عليهما: فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء

به محمد. وكان عمر كاتباً فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها فلما قرأ منها صدراً. قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب بن الأرت خرج إليه فقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللَّهُمَّ أيدِ الإسلامَ بأبي الحكم بنِ هشامٍ أوْ بعمرَ بنْ الخطاب» فالله الله يا عمر فقال عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة: فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «إئذَنْ لَهُ» فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جذبه جبذة شديدة فقال: «ما جاءَ بكَ يَا ابنَ الخطابِ؟ فواللهِ ما أرَى أن تنتهي حتى يُنْزِلَ اللهُ بك قارعةً»، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٦]: فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر حين أسلم رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٤٦ ـ ٣٤٨]: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي عن أصحابه عطاء ومجاهد وعمن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبّها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها، فخرجت فجئته فلم أجده.

قال: فقلت: لو أني جئت الكعبة فطفت سبعاً أو سبعين، قال: فجئت المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام وكان مصلاه بين الركنين الأسود واليماني، قال: فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمّد الليلة حتى أسمع ما يقول فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه.

فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها فجعلت أمشي رويداً ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي وبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل في مكاني قائماً حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف.

وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين ـ وكان مسكنه في الدار الرقطاء التي كانت بيد معاوية ـ قال عمر: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ودار ابن أزهر أدركته، فلما سمع حسي عرفني فظن أني إنما اتبعته لأوذيه، فنهمني ثم قال: «مَا جاءَ بكَ يَا ابْنَ الخطَّابِ هذه السَّاعةَ؟» قال: قلت: جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قدْ هداكَ اللّـهُ يا عمرُ» ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات ثم انصرفت ودخل رسول الله ﷺ بيته.

قال ابن إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان.

قلت: وقد استقصيت كيفية إسلام عمر رضي الله عنه وما ورد في ذلك من الأحاديث والآثار مطوّلاً في أول سيرته التي أفردتها على حدة ولله الحمد والمنة.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٦٤، وسيرة ابن هشام: ١/٣٤٨، ٣٤٩]: وحدثني نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر. قال: لما أسلم عمر قال: أي قريش انقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ـ وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ـ حتى جاءه فقال له: أعلمت ياجميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعت أبي حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.

قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشّى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا صبأ عمر، قال: فمه! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: ياأبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أي بني العاص بن وائل السهمي.

وهذا إسناد جيد قوي، وهو يدل على تأخر إسلام عمر لأن ابن عمر عرض يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة وكانت أُحد في سنة ثلاث من الهجرة وقد كان مميزاً يوم أسلم أبوه، فيكون إسلامه قبل الهجرة بنحو من أربع سنين، وذلك بعد البعثة بنحو تسع سنين والله أعلم.

٤٩- مساءلةُ نصارى نجران للنبيِّ ﷺ

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٣٠٦]: حدّثنا الحاكم أخبرنا الأصم أخبرنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس عن ابن إسحاق. قال: ثم قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً وهو بمكة ـ أو قريب من ذلك ـ من النصارى حين ظهر خبره من أرض الحبشة فوجدوه في المجلس، فكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عزّ وجلّ وتلا عليهم القرآن.

فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به

وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبوجهل في نفر من قريش فقالوا: خيبكم اللّه من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحمق منكم - أو كما قالوا - قالوا لهم: لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو انفسنا خيراً.

فيقال: إن النفر من نصارى نجران - واللّه أعلم -: إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

٥٠- كتابُ النبيِّ ﷺ إلى النجاشيِّ

قال البيهقي في «الدلائل» [٣٠٨/٢]: باب ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي.

ثم روى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن ابن إسحاق. قال هذا كتاب من النبي ﷺ إلى النجاشي: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ مِن محمد رسول اللّه ﷺ إلى النجاشي الأصحَم عظيمِ الحبشةِ، سلامٌ علَى مَن اتّبعِ الهُدى، وآمَن باللّهِ ورسولهِ وشهدَ أنْ لا إله إلا اللّهُ وحدَه لا شريك لَه. لَم يتّخذْ صاحبةً ولا ولداً، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، وادعُوك بدعايَةِ اللّهِ فإنّي أنا رسولُهُ فاسْلِم تسلَمْ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك».

هكذا ذكره البيهقي بعد قصة هجرة الحبشة.

وفي ذكره ههنا نظر، فإن الظاهر أن هذا الكتاب إنما هو إلى النجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر وأصحابه، وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى اللّه عزّ وجلّ قبيل الفتح كما كتب إلى هرقل عظيم الروم قيصر الشام، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى صاحب مصر، وإلى النجاشي.

قال الزهري: كانت كتب النبي ﷺ إليهم واحدة؛ يعني نسخة واحدة، وكلها فيها هذه الآية وهي من سورة «آل عمران»، وهي مدنية بلا خلاف فإنه من صدر السورة، وقد نزل ثلاث وثمانون آية من أولها في وفد نجران كما قررنا ذلك في التفسير وللّه الحمد والمنة.

فهذا الكتاب إلى الثاني لا إلى الأول، وقوله فيه: «إلى النجاشي الأصحم» لعل الأصحم مقحم من الراوي بحسب ما فهم واللّه أعلم.

وأنسب من هذا ههنا ما ذكره البيهقي أيضاً [في الدلائل: ٣٠٩/٢، ٣١٠] عن الحاكم عن أبي الحسن محمّد بن عبد اللّه الفقيه - بمرو -: حدّثنا حماد بن أحمد حدّثنا محمّد بن حميد حدّثنا سلمة بن الفضل عن محمّد بن إسحاق. قال: بعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً: «بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك اللّه الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

وإني أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول اللّه وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى اللّه عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب النجاشي إلى رسول اللّه ﷺ: بسم اللّه الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول اللّه من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبي اللّه من اللّه ورحمة اللّه وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام فقد بلغني كتابك يا رسول اللّه فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول اللّه صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه للّه رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبي اللّه بأريحا بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول اللّه، فإني أشهد أن ما تقول حق.

٥١- مقاطعةُ قبائل قريش للنبيِّ ﷺ ومناصريه

في ذكر مخالفة قبائل قريش بني هاشم وبني عبد المطلب في نصر رسول اللّه ﷺ وتحالفهم فيما بينهم عليهم، على أن لا يبايعوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول اللّه ﷺ، وحصرهم إياهم في شعب أبي طالب مدة طويلة، وكتابتهم بذلك صحيفة ظالمة فاجرة، وما ظهر في ذلك كله من آيات النبوة ودلائل الصدق

قال موسى بن عقبة [من طريقه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٣١١/٢ - ٣١٤] عن الزهري: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول اللّه ﷺ علانية. فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول اللّه ﷺ شعبهم، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله. فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول اللّه ﷺ، واجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول اللّه ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركوا لهم طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول اللّه ﷺ، وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول اللّه ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً له، فإذا نوّم الناس أمر احد بنيه أو إخوته أو بني عمّه فاضطجع على فراش رسول اللّه ﷺ وأمر رسول اللّه ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم

قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق. ويقال: كانت معلقة في سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب. فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني.

فانطلق يمشي بعصابته من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ. فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها. فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم فوضعوها بينهم. وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكذبني - أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم. فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبداً حتى يموت من عندنا آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم. قالوا: قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها.

فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا وعادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم، والشدة على رسول الله ﷺ وعلى رهطه والقيام بما تعاهدوا عليه.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم طمس الله ما كان فيها من اسمه وما كان فيها من بغي تركه أفنحن السحرة أم أنتم؟.

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم منهم أبو البختري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بني عامر بن لؤي، في رجال من أشرافهم ووجوههم: نحن برآء مما في هذه الصحيفة.

فقال أبو جهل لعنه الله: هذا أمر قضي بليل وأنشأ أبو طالب يقول الشعر في شأن صحيفتهم ويمدح النفر الذين تبرؤوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد ويمتدح النجاشي.

قال البيهقي [الدلائل: ٣١٤/٢]: وهكذا روى شيخنا أبو عبد الله الحافظ - يعني من طريق عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير - يعني كسياق موسى بن عقبة رحمه الله -.

وقد تقدم عن موسى بن عقبة [عنه في الدلائل للبيهقي: ٢٨٥/٢] أنه قال: إنما كانت هجرة الحبشة بعد دخولهم إلى الشعب عن أمر رسول الله ﷺ لهم في ذلك فالله أعلم.

قلت: والأشبه أن أبا طالب إنما قال قصيدته اللامية التي قدمنا ذكرها بعد دخولهم الشعب أيضاً فذكرها ههنا أنسب والله أعلم.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٣١٤/٢، ٣١٥] من طريق يونس عن محمد بن إسحاق قال: لما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه، وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه إلا أنهم أنفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لما قارفه من قومه. فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد، اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة، ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد عليهم البلاء وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً ثم ذكر القصة بطولها في دخولهم شعب أبي طالب وما بلغوا فيه من فتنة الجهد الشديد حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع حتى كره عامة قريش ما أصابهم وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم الظالمة، وذكر أن الله برحمته أرسل على صحيفة قريش الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان فأخبر الله تعالى بذلك رسول الله ﷺ فأخبر بذلك عمه أبا طالب، ثم ذكر بقية القصة كرواية موسى بن عقبة وأتم.

وقال ابن هشام [السيرة: ٣٥٠/١]: عن زياد عن محمد بن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا منه أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل فاجتمعوا وأتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشل بعض أصابعه.

وقال الواقدي: كان الذي كتب الصحيفة طلحة بن أبي طلحة العبدري.

قلت: والمشهور أنه منصور بن عكرمة كما ذكره ابن إسحاق، وهو الذي شلت يده فما كان ينتفع بها وكانت قريش تقول بينها: انظروا إلى منصور بن عكرمة.

قال الواقدي: وكانت الصحيفة معلقة في جوف الكعبة [طبقات ابن سعد: ٢٠٩/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥١/١]: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

وحدثني حسين بن عبد الله: أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً. فقال: يا ابنة عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها؟ قالت: نعم! فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥١/١]: وحدثت أنه كان يقول، في بعض ما يقول: يعدني محمّد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك، ثم ينفخ في يديه فيقول: تباً لكما لا أرى فيكما شيئاً مما يقول محمّد. فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٢/١، ٣٥٣]: فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب:

ألا أبلغا عنّي على ذات بيننا ... لؤياً وخصّا من لؤيّ بني كعبِ
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ... نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتبِ
وأنّ عليه في العباد محبّةً ... ولا خير ممّن خصّه الله بالحبّ
وأنّ الذي ألصقتمُ من كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السّقبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثّرى ... ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذّنبِ
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودّة والقربِ
وتستجلبوا حرباً عواناً وربّما ... أمرّ على من ذاقه حلب الحربِ
فلسنا وربّ البيت نسلم أحمداً ... لعزّاء من عضّ الزّمان ولا كربِ
ولمّا تبن منّا ومنكم سوالف ... وأيد أترّت بالقساسيّة الشّهبِ
بمعترك ضيق ترى كسر القنا ... به والنّسور الطّخم يعكفن كالشّربِ
كأنّ مجال الخيل في حجراته ... ومعمعة الأبطال معركة الحربِ
أليس أبونا هاشم شدّ أزره ... وأوصى بنيه بالطّعان وبالضّربِ
ولسنا نملّ الحرب حتّى تملّنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النّكبِ
ولكنّنا أهل الحفائظ والنّهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرّعبِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٣/١، ٣٥٤]: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ولم يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، وقد كان أبوجهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب فتعلّق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد. فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل قال: فأبى أبو جهل لعنه الله حتى نال أحدهما من صاحبه فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه فشجه ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يري ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً منادياً بأمر الله تعالى لا يتقي فيه أحداً من الناس.

فجعلت قريش - حين منعه الله منها وقام عمّه وقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به - يهمزونه ويستهزؤن به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، من سمّى لنا ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.

فذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٦/١] أبا لهب ونزول السورة فيه، وأمية بن خلف ونزول قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ السورة بكمالها فيه. والعاص بن وائل ونزول قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ [مريم: ٧٧] فيه. وقد تقدم شيء من ذلك. وأبا جهل بن هشام وقوله للنبي ﷺ لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك ونزول قول الله فيه: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]الآية. والنضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة - ومنهم من يقول: علقمة بن كلدة: قاله السهيلي [الروض الأنف: ٣١٦/٣] - وجلوسه بعد النبي ﷺ في مجالسه حيث يتلو القرآن ويدعو إلى الله، فيتلو عليهم النضر شيئاً من أخبار رستم وأسفنديار وما جرى بينهما من الحروب في زمن الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥] وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية ٧].

٥٢- مناقشاتُ النبيّ ﷺ لكبراء قريش

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٨/١ - ٣٦٠]: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ. لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس. فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً أكلُّ من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «كلُّ من أحبَّ أن يُعبدَ من دُونِ اللهِ فهو معَ من عبدَهُ، إنّهم إنّما يعبُدُون الشّياطين ومن أمرَتْهم بعبادتِهِ» فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢] أي: عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى.

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] والآيات بعدها.

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧- ٥٨].

وهذا الجدل الذي سلكوه باطل وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب ومن لغتهم أن «ما» لما لا يعقل، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين لأن اللفظ لا يتناولهم لا لفظاً ولا معنى.

فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل بـاطل كما قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ثـم قـال ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بنبوتنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: دليلاً على تمام قدرتنا على ما نشاء حيث خلقنـاه مـن أنثى بلا ذكر، وقد خلقنا حواء من ذكر بلا أنثى، وخلقنـا آدم لا مـن هـذا ولا من هذا، وخلقنا سائر بني آدم من ذكر وأنثى كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: أمارة ودليـلاً علـى قدرتنـا البـاهرة ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ نرحم بها من نشاء.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابـن هشام: ٣٦٠/١، ٣٦١] الأخنس بـن شـريق ونزول قوله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠] الآيـات، وذكر الوليد بن المغيرة حيث قال: أينزل على محمّد وأُترك وانا كبير قريـش وسيّدها، ويترك أبو مسعود عمرو بـن عمير الثقفي سيد ثقيف؟ فنحـن عظماء القريتين. ونزل قوله تعالى فيه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] والتي بعدها.

وذكر [سيرة ابن هشام: ٣٦١/١، ٣٦٢] أُبي بن خلف حين قـال لعقبـة بن أبي معيط: ألم يبلغني أنك جالست محمّـداً وسمعت منه، وجهي مـن وجهك حرام إلا أن تتفل في وجهه ففعل ذلك عدو الله عقبـة لعنـه اللّه، فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨] والتي بعدها.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦١/١، ٣٦٢]: ومشي أبي بن خلف بعظم بال قـد أرم. فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال: «نَعَم! أنَا أقول ذلك يبعثـه اللّـه وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار» وأنزل الله تعـالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩] إلى آخر السـورة.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦٢/١]: واعترض رسول اللّـه ﷺ - فيما بلغـني وهو يطوف عند باب الكعبة - الأسـود بـن المطلب. والوليد بـن المغيرة وأمية بن خلف، والعاص بن وائل. فقالوا: يا محمد هلـم فلنعبـد مـا تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها.

ولما سمع أبوجهل بشجرة الزقوم. قال: أتـدرون مـا الزقوم؟ هـو تمـر يضرب بالزبد ثم قال: هلموا فلنتزقم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾[الدخان: ٤٣ - ٤٤].

قال [سيرة ابـن هشام: ٣٦٣/١، ٣٦٤]: ووقـف الوليـد بـن المغيرة فكلـم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يكلمه وقد طمع في إسلامه فمر به ابـن أم مكتوم - عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة - الأعمـى فكلـم رسـول اللّـه ﷺ وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك عليه حتى أضجره وذلك أنه شـغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيـه مـن إسـلامه، فلمـا أكـثر عليـه انصرف عنه عابساً، وتركـه فـأنزل اللّـه تعـالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ. أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ إلى قوله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾.

وقد قيل [الروض الأنف: ٣٢٨/٣]: إن الذي كان يحدث رسول اللّـه ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم أمية بن خلف فالله أعلم.

٥٣- سجودُ المشركين لمَّا قرئت سورة النجم

ثم ذكر ابن إسحاق [السيرة: ١٥٧، ١٥٨. وسيرة ابن هشام: ٣٦٤/١ - ٣٦٩] من عاد من مهاجرة الحبشة إلى مكة وذلك حين بلغهم إسلام أهـل مكة وكان النقل ليس بصحيح، ولكـن كـان لـه سبب، وهـو مـا ثبـت في «الصحيح» [خ (١٠٧١)] وغيره [ت (٥٧٥)] أن رسول الله ﷺ جلـس يوماً مع المشركين، وأنزل الله عليه ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يقرؤهـا عليهـم حتـى ختمهـا وسـجد. فسـجد مـن هنـاك مـن المسـلمين والمشركين والجن والإنس.

وكان لذلك سبب ذكره كثير من المفسرين [تفسير الطبري: ١٨٦/١٧ - ١٩٠] عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[سورة الحج: ٥٢].

وذكروا قصة الغرانيق وقد أحببنا الإضـراب عـن ذكرهـا صفحـاً لئـلا يسمعها من لا يضعها على مواضعها، إلا أن أصل القصة في «الصحيح».

قال البخاري [(٤٨٦٢)]: حدّثنا أبو معمر حدّثنـا عبـد الـوارث حدّثنـا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: سـجد النبي ﷺ بـالنجم، وسـجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

انفرد به البخاري دون مسلم.

وقال البخاري [(١٠٦٧)]: حدّثنا محمد بـن بشـار حدّثنـا غنـدر حدّثنـا شعبة عن أبي إسـحاق سمعت الأسـود عـن عبـد اللّـه. قـال: قـرأ النبي ﷺوالنجم بمكة، فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفاً من حصاً - أو تراب - فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيتـه بعـد قتـل كـافراً. ورواه مسـلم [(٥٧٦)] وأبـو داود [(١٤٠٦)] والنسـائي [(٩٥٨)] مـن حديث شعبة.

وقال الإمام أحمد [٤٢٠/٣]: حدّثنا إبراهيم حدّثنا رباح عن معمـر عـن ابن طاووس عن عكرمة بن خالد عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عـن أبيه. قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة «النجم»، فسـجد وسـجد مـن عنده، فرفعت رأسي وأبيت أن أسجد ولم يكن أسلم يومئذ المطلب. فكـان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه.

وقد رواه النسائي [(٩٥٧)] عن عبد الملك بن عبد الحميد عـن أحمد بن حنبل به.

وقد يجمع بين هـذا والـذي قبلـه بـأن هـذا سـجد ولكنـه رفـع رأسـه استكباراً، وذلك الشيخ الذي استثناه ابـن مسـعود لم يسـجد بالكليـة واللّـه أعلم.

والمقصود: أن الناقل لما رأى المشركين قد سجدوا متابعـة لرسـول اللّـه ﷺ اعتقد أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه ولم يبق نزاع بينهم، فطار الخـبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها، فظنوا صحة ذلك فـأقبل منهـم طائفة طامعين بذلك، وثبتت جماعة وكلاهما محسن مصيب فيما فعل.

٥٤- مَنْ رَجَعَ من الحبشةِ لمَّا طارَ الخبرُ

فذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٦٥/١ - ٣٦٦] أسماء مـن رجـع منهم؛ عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفـة بـن عتبة بن ربيعة، وامرأته سهله بنت سهيل، وعبد الله بن جحش بن رئـاب،

وعتبة بن غزوان، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وسويط بن سعد، وطُلَيب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وشماس بن عثمان، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة - وقد حُبسا بمكة حتى مضت بدر وأُحد والخندق - وعمار بن ياسر - وهو ممن شك فيه أخرج إلى الحبشة أم لا - ومعتب بن عوف، وعثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخوان قدامة وعبد الله ابنا مظعون، وخنيس بن حذافة، وهشام بن العاص بن وائل - وقد حبس بمكة إلى بعد الخندق - وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة. وعبد الله بن مخرمة، وعبد الله بن سهيل بن عمرو - وقد حبس حتى كان يوم بدر فانحاز إلى المسلمين فشهد معهم بدراً - وأبو سبرة بن أبي رهم، وامرأته أم كلثوم بنت سهيل، والسكران بن عمرو بن عبد شمس، وامرأته سودة بنت زمعة - وقد مات بمكة قبل الهجرة وخلف على امرأته رسول الله ﷺ - وسعد بن خولة، وأبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن الحارث بن زهير وسهيل بن بيضاء، وعمرو بن أبي سرح فجميعهم ثلاثة وثلاثون رجلاً رضي الله عنهم.

وقال البخاري: هجرة الحبشة وقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر إلى الحبشة إلى المدينة. فيه عن أبي موسى وأسماء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ [فتح الباري: ١٨٦/٧، ١٨٧].

وقد تقدم حديث أبي موسى وهو في «الصحيحين» [خ (٣٨٧٦)، م (٢٥٠٢، ٢٥٠٣)]، وسيأتي حديث أسماء بنت عميس بعد فتح خيبر حين قدم من كان تأخر من مهاجرة الحبشة إن شاء الله وبه الثقة.

وقال البخاري [(٣٨٧٥)]: حدّثنا يحيى بن حمّاد، حدّثنا أبو عوانة عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة عن عبد الله قال: كنا نسلّم على النبي ﷺ وهو يصلي فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلّمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله إنا كنا نسلم عليك فترد علينا. قال: «إن في الصلاة شغلاً» وقد رواه البخاري [(١١٩٩)] أيضاً ومسلم [(٥٢٣)] وأبو داود [(٩٢٤)] والنسائي [(٥٤٠)] من طرق أخر عن سليمان بن مهران عن الأعمش به.

وهو يقوي تأويل من تأول حديث زيد بن أرقم الثابت في «الصحيحين» [خ (١٢٠٠)، م (٥٣٩)]: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

على أن المراد جنس الصحابة فإن زيداً أنصاري مدني، وتحريم الكلام في الصلاة ثبت بمكة، فتعين الحمل على ما تقدم. وأما ذكره الآية وهي مدنية فمشكل ولعله اعتقد أنها المحرمة لذلك وإنما كان المحرم له غيرها معها والله أعلم.

٥٥- دخولُ بعض الصحابة في جوار عثمان بن مظعون وغيره

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٥٨ - ١٥٩ وسيرة ابن هشام: ٣٦٩/١ - ٣٧١]: وكان ممن دخل معهم بجوار عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جوار خاله أبي طالب فإن أمه برة بنت عبد المطلب.

فأما عثمان بن مظعون فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثني عمن حدثه عن عثمان. قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً في جوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كثير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك. قال: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا ولكني أرضى بجوار الله عز وجل، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية.

قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد بن المغيرة: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري. قال: صدق قد وجدته وفياً كريم الجوار ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره. ثم انصرف عثمان رضي الله عنه ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

فقال عثمان: صدقت. فقال لبيد:

وكلُّ نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت! نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري أمرهما فقام إليه ذلك الرجل ولطم عينه فخضّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان. فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة. قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إن شئت إلى جوارك فعد. قال: لا!

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧١/١، ٣٧٢]: وأما أبو سلمة بن عبد الأسد فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة أنه حدثه أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب هذا منعت منا ابن أخيك محمداً فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بي وهو ابن أختي وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

فقام أبو لهب. فقال: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. قال: فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. وكان لهم ولياً وناصراً على رسول الله ﷺ فأبقوا على ذلك فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما يقول ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله ﷺ فقال أبو طالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله ﷺ:

وإن امرأً أبو عتيبة عمه ... لفي روضة ما إن يسام المظالما
أقول له وأين منه نصيحتي ... أبا معتب ثبت سوادك قائما
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها إما هبطت المواسما

وول سبيل العجز غيرك منهم ... فإنك لم تخلق على العجز لازما
وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى ... أخا الحرب يعطي الخسف حتى يسالما
وكيف ولم يجنوا عليك عظيمة ... ولم يخذلوك غانماً أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... وتيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما
بتفريقهم من بعد ود وألفة ... جماعتنا كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نُبزَى محمداً ... ولما تروا يوماً لدى الشعب قائما

قال ابن هشام [السيرة: ١/٣٧٢]: وبقي منها بيت تركناه.

٥٦- عزم الصدّيق على الهجرة إلى الحبشة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٧٢ - ٣٧٤]: وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ كما حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عروة عن عائشة حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر ﷺ مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً - أو يومين - لقيه ابن الدُّغنة أخو بني الحارث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش.

قال الواقدي: اسمه الحارث بن يزيد أحد بني بكر من عبد مناة بن كنانة [طبقات ابن سعد: ٥/٥٧]. وقال السهيلي [الروض الأنف: ٣/٣٥٢]: اسمه مالك. فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ. قال: ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم. ارجع فإنك في جواري. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير. قالت: فكفوا عنه. قالت: وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته.

قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة. فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة ونحو فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

قالت: فمشى ابن الدغنة إليه فقال: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك. وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فاردد عليّ جواري. قال: قد رددته عليك.

قالت: فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم.

وقد روى الإمام البخاري [(٣٩٠٥)] هذا الحديث متفرداً به وفيه زيادة حسنة. فقال: حدثنا يحيى بن بكيرحدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوجة النبي ﷺ. قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ بَرْك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبوبكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرَج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جار ارجع فاعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم. فقالوا:

إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن في الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فانهه فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يردّ إليك ذمّتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إلي ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل.

ثم ذكر تمام الحديث في هجرة أبي بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ كما سيأتي مبسوطاً.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٧٤]: وحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: لقيه - يعني أبا بكر الصديق حين خرج من جوار ابن الدغنة - سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة - أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك. وهو يقول: أي رب ما أحلمك! أي رب ما أحلمك! أي رب ما أحلمك!

فصل: كل هذه القصص ذكرها ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٥١ - ٣٧٤] معترضاً بها بين تعاقد قريش على بني هاشم وبني المطلب وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة وحصرهم إياهم في الشعب، وبين نقض الصحيفة وما كان من أمرها وهي أمور مناسبة لهذا الوقت، ولهذا قال الشافعي رحمه الله [بسنده عن الشافعي أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه: ١/٢١٩]: من أراد المغازي فهو عيال على ابن إسحاق.

٥٧- ذكر نقض الصحيفة

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٧٤ - ٣٧٧]: هذا وبنو هاشم، وبنو المطلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها،

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه فكان ـ فيما بلغني ـ يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبيه فدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بُراً فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب. فقال: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها.

قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا قال له زهير: أبغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيا. قال: من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل تجد أحداً يعين على هذا؟ قال: نعم! قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك. قال: أبغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم ثم سمى القوم. فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تشق. قال زمعه بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل تُشُوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٣٧٧]: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عمِّ إنَّ اللهَ قدْ سلطَ الأرضةَ علَى صحيفةِ قريشٍ فلمْ تدعْ فيها اسماً هو للّه إلا أثبتتهُ فيهَا، ونفتْ منهَا الظلمَ والقطيعةَ والبهتانَ». فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم»! قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وأنزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم: قد رضينا فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٧٨ ـ ٣٨٠]: فلما مزقت وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك القوم الذين قاموا في نقض الصحيفة يمدحهم:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها في رأسها يتردد
وكانت كفاء وقعة بأثيمة ... ليقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكتين فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر ترعد
ويترك حراث يقلب أمره ... أيتهم فيها عند ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدج سهم وقوس ومرهد
فمن ينش من حضار مكة عزه ... فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم نتفكك نزداد خيراً ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد
جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا ... على ملأ يهدي لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد
جريء على جُلّى الخطوب كأنه ... شهاب بكفي قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤي بن غالب ... إذا سيم خسفاً وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد
ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام في جل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيال قصي هل لكم في نفوسكم ... وهل لكم فيما يجيء به غد
فإني وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود

قال السهيلي [الروض الأنف: ٣/٣٦١]: أسود اسم جبل قتل به قتيل ولم يعرف قاتله فقال أولياء المقتول: لديك البيان لو تكلمت أسود، أي: يا أسود لو تكلمت لأبنت لنا عمن قتله.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٨٠، ٣٨١] شعر حسان يمدح

المطعم بن عدي وهشام بن عمرو لقيامهما في نقض الصحيفة الظالمة الفاجرة الغاشمة. وقد ذكر الأموي ههنا أشعاراً كثيرة اكتفينا بما أورده ابن إسحاق.

وقال الواقدي: سألت محمد بن صالح وعبد الرحمن بن عبد العزيز: متى خرج بنو هاشم من الشعب؟ قالا: في السنة العاشرة - يعني من البعثة - قبل الهجرة بثلاث سنين. [طبقات ابن سعد: ١/٢١٠]

قلت: وفي هذه السنة بعد خروجهم توفي أبو طالب عم رسول الله ﷺ، وزوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

٥٨- تنفير قريش أحياء العرب على النبيّ ﷺ

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله بعد إبطال الصحيفة قصصاً كثيرة تتضمن نصب عداوة قريش لرسول الله ﷺ وتنفير أحياء العرب والقادمين إلى مكة - لحج أو عمرة أو غير ذلك - منه، وإظهار الله المعجزات على يديه دلالة على صدقه فيما جاءهم به من البينات والهدى، وتكفينا لهم فيما يرمونه من البغي والعدوان والمكر والخداع، ويرمونه من الجنون والسحر والكهانة والتقول، والله غالب على أمره.

٥٩- قصة الطفيل بن عمرو الدوسي في ذلك

فذكر قصة الطفيل بن عمرو الدوسي مرسلة [سيرة ابن هشام: ١/٣٨٢ - ٣٨٥]، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في دوس، وكان قد قدم مكة فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول!فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا. قال: فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك.

قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليّ القرآن فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. قال: فقال: «اللّهمّ اجعل لهُ آيةً».

قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع بين عيني نور مثل المصباح. قال: فقلت: اللّهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال: فتحوّل فوقع في رأس سوطي. قال: فجعل الحاضرون يتراؤون ذلك النور في رأس سوطي كالقنديل المعلق وأنا أتهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - فقلت: إليك عني ياأبت فلست منك ولست مني، قال: ولم يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ. قال: أي بني ديني دينك. فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني. قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي. قال: قلت: فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك. قال: فقلت: فاذهبي إلى حنى ذي الشَّرَى فتطهري منه، وكان ذو الشرى صنماً لدوس وكان الحمى حمى حموه له به وشل من ماء يهبط من جبل. قالت: بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ قال: قلت لا، أنا ضامن لذلك. قال: فذهبتْ فاغتسَلت ثم جاءت فعرضْتُ عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فابطؤوا علي.

ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة. فقلت: يا رسول الله إنه قد غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم. قال: «اللّهمَّ اهدِ دوساً، ارجعْ إلى قومِكَ فادعهُمْ وارفُقْ بهِمْ». قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر واحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس فلحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين. ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة.

قلت: يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حُممة حتى أحرقه.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٨٥]: فخرج إليه فجعل الطفيل وهو يوقد عليه النار يقول:

يا ذَا الكفَيْنِ لستُ من عُبّادكا ... ميلادُنا أقْدمُ من ميلادِكَا

إنّي حشوتُ النّارَ في فُؤادِكَا

قال ثم رجع رسول الله ﷺ فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ فلما ارتدت العرب خرج الطفيل مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ومن أرض نجد كلها، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه:

إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي، رأيت أن رأسي حلق وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حبس عني؛ قالوا: خيراً قال: أما أنا والله فقد أولتها، قالوا: ماذا؟ قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج منه فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر لي فاغيب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل رحمه الله تعالى شهيداً باليمامة وجرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبل منها ثم قتل عام اليرموك زمن عمر شهيداً رحمه الله.

هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو مرسلة بلا إسناد. ولخبره شاهد في الحديث الصحيح.

قال الإمام أحمد [٤٤٨/٢]: حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال: لما قدم الطفيل وأصحابه على النبي ﷺ قال: إن دوساً قد استعصت قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بِهِمْ».

رواه البخاري [(٤٣٩٢)] عن أبي نعيم عن سفيان الثوري.

وقال الإمام أحمد [٥٠٢/٢]: حدثنا يزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ. قال: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليها. قال أبو هريرة: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقلت: هلكت دوس. فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً، وائْتِ بِهِم».

إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٣٧٠/٢، ٣٧١]: حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا حماد بن زيد عن حجاج الصواف عن أبي الزبير عن جابر. أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة؟ - قال: حصن كان لدوس في الجاهلية - فأبى ذلك رسول الله ﷺ للذي ذخر الله للأنصار.

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص فقطع بها براجمه فشخبت يداه فما رقأ الدم حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه في هيئة حسنة، ورآه مغطياً يديه. فقال له: ما صنع ربك بك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ قال: فما لي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي: لن يصلح منك ما أفسدت. قال: فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ولِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ».

رواه مسلم [(١١٦)] عن أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم كلاهما عن سليمان بن حرب به.

فإن قيل: فما الجمع بين هذا الحديث وبين ما ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٤٦٣)، م (١١٣)] من طريق الحسن عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ فِيمَنْ كانَ قبلَكُم رجلٌ بِهِ جرحٌ فجزِعَ، فأخذَ سكيناً فحزَّ بِهَا يدَهُ فمَا رقأَ الدمُ حتَّى ماتَ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: عبدِي بادرَنِي بنفسِهِ فحرَّمتُ عليْهِ الجنَّةَ».

فالجواب من وجوه أحدها: أنه قد يكون ذاك مشركاً وهذا مؤمن، ويكون قد جعل هذا الصنيع سبباً مستقلاً في دخوله النار وإن كان شركه مستقلاً إلا أنه نبه على هذا لتعتبر أمته.

الثاني: قد يكون هناك عالماً بالتحريم وهذا غير عالم لحداثة عهده بالإسلام.

الثالث: قد يكون ذاك فعله مستحلاً له وهذا لم يكن مستحلاً بل مخطئاً.

الرابع: قد يكون أراد ذاك بصنيعه المذكور أن يقتل نفسه بخلاف هذا فإنه يجوز أنه لم يقصد قتل نفسه وإنما أراد غير ذلك.

الخامس: قد يكون هناك قليل الحسنات فلم تقاوم كبر ذنبه المذكور فدخل النار، وهذا قد يكون كثير الحسنات فقاومت الذنب فلم يلج النار بل غفر له بالهجرة إلى نبيه ﷺ. ولكن بقي الشين في يده فقط وحسنت هيئة سائره فغطى الشين منه فلما رآه الطفيل بن عمرو مغطياً يديه قال له: ما لك؟ قال: قيل لي: لن يصلح منك ما أفسدت.

فلما قصها الطفيل على رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللَّهُمَّ ولِيَدَيْهِ فاغفِرْ». أي: فأصلح منها ما كان فاسداً. والمحقق أن الله استجاب لرسول الله ﷺ في صاحب الطفيل بن عمرو.

٦٠- قصة أعشى بني قيس بن ثعلبة

قال ابن هشام [السيرة: ٣٨٦/١ - ٣٨٨]: حدثني خلاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل عن أهل العلم أن أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام، فقال يمدح النبي ﷺ:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما ... تناسيت قبل اليوم خُلة مهددا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن ... إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
كهولاً وشباناً فقدت وثروة ... فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع ... وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تغتلي ... مسافة ما بين النجير فصرخدا
ألا أيهذا السائلي أين يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فإن تسألي عني فيا رب سائل ... حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدت برجليها نجاءً وراجعت ... يداها خنافاً ليناً غير أحردا
وفيها إذا ما هجرت عجرفية ... إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا
وآليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حفىً حتى تلاقي محمداً
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتلقى من فواضله ندى
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... فليس عطاء اليوم مانعه غداً
أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فترصد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربن حرة كان سرها ... عليك حراماً فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشية والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

قال ابن هشام [السيرة: ٣٨٨/١]: فلما كان بمكة - أو قريباً منها - اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم. فقال له: يا أبا بصير إنه يحرم الزنا. فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب. فقال: يا أبا بصير إنه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في نفسي منها لعلالات ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى النبي ﷺ.

هكذا أورد ابن هشام هذه القصة ههنا وهو كثير المؤاخذات لمحمد بن إسحاق رحمه الله، وهذا مما يؤاخذ به ابن هشام رحمه الله، فإن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد وقعة بني النضير كما سيأتي بيانه فالظاهر أن عزم

الأعشى على القدوم للإسلام إنما كان بعد الهجرة وفي شعره ما يدل على ذلك وهو قوله:

ألا أيهذا السائلي أين يممت فإن لها في أهل يثرب موعدا

وكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ولا يوردها هاهنا والله أعلم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٣٧٨/٣]: وهذه غفلة من ابن هشام ومن تابعه فإن الناس مجمعون على أن الخمر لم يترل تحريمها إلا بالمدينة بعد أحد. وقد قال: وقيل: إن القائل للأعشى هو أبو جهل بن هشام في دار عتبة بن ربيعة.

وذكر أبو عبيدة أن القائل له ذلك هو عامر بن الطفيل في بلاد قيس وهو مقبل إلى رسول الله ﷺ قال: وقوله: ثم آتيه فأسلم. لا يخرجه عن كفره بلا خلاف والله أعلم.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٩/١] ههنا قصة الإراشي وكيف استعدى إلى رسول الله ﷺ من أبي جهل في ثمن الجمل الذي ابتاعه منه، وكيف أذل الله أبا جهل وارغم أنفه حتى أعطاه ثمنه في الساعة الراهنة وقد قدمنا ذلك في ابتداء الوحي وما كان من أذية المشركين عند ذلك.

٦١- قصة مصارعة رُكانة وكيف أراه الشجرة التي دعاها فأقبلت ﷺ

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٠/١، ٣٩١]: وحدثني أبي إسحاق بن يسار قال: وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة فقال له رسول الله ﷺ: «يا رُكانةُ ألا تتقي اللهَ وتقبلُ ما أدعوكَ إليهِ؟» قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك فقال له رسول الله: «أفرأيتَ إنْ صرعتُكَ أتعلمُ أنَّ مَا أقولُ حقٌّ؟».

قال: نعم! قال: «فقم حتى أصارعك». قال: فقام ركانة إليه فصارعه فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً ثم قال: عديا محمد فعاد فصرعه. فقال: يا محمد والله إن هذا للعجب، أتصرعني؟! قال: «وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري» قال: وما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني». قال: ادعها فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ. فقال لها: «ارجعي إلى مكانك» فرجعت إلى مكانها.

قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

هكذا روى ابن إسحاق هذه القصة مرسلة بهذا البيان.

وقد روى أبو داود [(٤٠٧٨)] والترمذي [(١٧٨٤)] من حديث أبي الحسن العسقلاني عن أبي جعفر بن محمد بن ركانة عن أبيه: أن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ.

ثم قال الترمذي: غريب ولا نعرف أبا الحسن ولا ابن ركانة

قلت: وقد روى أبو بكر الشافعي بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يزيد بن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ ثلاث مرات، كل مرة على مائة من الغنم فلما كان في الثالثة قال: يا محمد ما وضع ظهري إلى الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقام عنه رسول الله ﷺ وردّ عليه غنمه.

وأما قصة دعائه الشجرة فأقبلت فسيأتي في كتاب «دلائل النبوة» بعد السيرة من طرق جيدة صحيحة في مرات متعددة إن شاء الله وبه الثقة. وقد تقدم عن أبي الأشدين أنه صارع النبي ﷺ فصرعه رسول الله ﷺ.

ثم ذكر ابن إسحاق قصة قدوم النصارى من أهل الحبشة نحواً من عشرين راكباً إلى مكة فأسلموا عن آخرهم، وقد تقدم ذلك [دلائل النبوة للبيهقي: ٣٠٦/٢] بعد قصة النجاشي ولله الحمد والمنة.

٦٢- النبي ﷺ مع المستضعفين

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٢/١]: وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة، يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب، وأشباههم من المسلمين. هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا. فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٤].

٦٣- قصص أخرى بينَ النبي والمشركين

قال: وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم ذكر نزول سورة «الكوثر» في العاص بن وائل حين قال عن رسول الله ﷺ: إنه أبتر لا عقب له فإذا مات انقطع ذكره. فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي المقطوع الذكر بعده، ولو خلف ألوفاً من النسل والذرية وليس الذكر والصيت ولسان الصدق بكثرة الأولاد والأنسال والعقب، وقد تكلمنا على هذه السورة في التفسير ولله الحمد.

وقد روي عن أبي جعفر الباقر: أن العاص بن وائل إنما قال ذلك حين مات القاسم ابن النبي ﷺ، وكان قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيبة [الروض الأنف: ٤٠٢/٣].

ثم ذكر نزول قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] وذلك بسبب قول أبي بن خلف وزمعة بن الأسود والعاص بن وائل والنضر بن الحارث: لولا أنزل عليك ملك يكلم الناس عنك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٩٥، ٣٩٦]: ومر رسول الله ﷺ فيما بلغنا بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى في ذلك من أمرهم: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قلت: وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

قال سفيان [من طريقه أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٩٨٣)] عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: المستهزؤون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة والحارث بن عيطل السهمي والعاص بن وائل السهمي. فأتاه جبريل فشكاهم إليه رسول الله ﷺ فأراه الوليد فأشار جبريل إلى أبجله وقال: كفيته، ثم أراه الأسود بن المطلب فأومأ إلى عنقه وقال: كفيته، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى رأسه وقال: كفيته، ثم أراه الحارث بن عيطل فأومأ إلى بطنه وقال: كفيته، ومر به العاص بن وائل فأومأ إلى أخمصه وقال: كفيته.

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له فأصاب أبجله فقطعها، وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها، وأما الأسود بن المطلب فعمي. وكان سبب ذلك أنه نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني قد قتلت فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. وجعل يقول: يا بني ألا تمنعون عني قد هلكت، ها هو ذا الطعن بالشوك في عيني. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منها. وأما العاص بن وائل فبينما هو كذلك يوماً إذ دخل في رأسه شبرقة حتى امتلأت منها فمات منها.

وقال غيره في هذا الحديث: فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شبرقة - يعني شوكة - فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته. رواه البيهقي [في الدلائل: ٢/٣١٦ - ٣١٨] بنحو من هذا السياق.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٠٨، ٤٠٩]: وكان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم:

الأسود بن المطلب أبو زمعة دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللّهم أعم بصره وأثكله ولده».

والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن الطلاطلة. وذكر أن الله تعالى أنزل فيهم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر ٩٤ - ٩٦].

وذكر أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبناً ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعبه كان أصابه قبل ذلك بسنين من مروره برجل يريش نبلاً له من خزاعة فتعلق سهم بازاره فخدشه خدشاً يسيراً، فانتقض بعد ذلك فمات. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤١٠ - ٤١٢]: أن الوليد بن المغيرة لما حضره الموت أوصى بنيه الثلاثة وهم خالد وهشام والوليد. فقال لهم: أي بني أوصيكم بثلاث: دمي في خزاعة فلا تُطلُّوه، والله إني لأعلم أنهم منه براء ولكني أخشى أن تسبوا به بعد اليوم. ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعقري عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم به. وكان أبو أزيهر قد زوج الوليد بنتاً له ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات، وكان قد قبض عقرها منه - وهو صداقها - فلما مات الوليد وثبت بنو مخزوم على خزاعة يلتمسون منهم عقل الوليد، وقالوا: إنما قتله سهم صاحبكم، فأبت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعاراً وغلظ بينهم الأمر. ثم أعطتهم خزاعة بعض العقل واصطلحوا وتحاجزوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤١٣، ٤١٤]: ثم عدا هشام بن الوليد على أبي أزيهر وهو بسوق ذي المجاز فقتله، وكان شريفاً في قومه. وكانت ابنته تحت أبي سفيان - وذلك بعد بدر - فعمد يزيد بن أبي سفيان فجمع الناس لبني مخزوم وكان أبوه غائباً، فلما جاء أبو سفيان غاظه ما صنع ابنه يزيد فلامه على ذلك وضربه وودى أبا أزيهر وقال لابنه: أعمدت إلى أن تقتل قريش بعضها بعضاً في رجل من دوس؟ وكتب حسّان بن ثابت قصيدة له يحرِّض أبا سفيان في دم أبي أزيهر، فقال: بئس ما ظن حسان أن يقتل بعضنا بعضاً وقد ذهب أشرافنا يوم بدر. ولما أسلم خالد بن الوليد وشهد الطائف مع رسول الله ﷺ سأله في ربا أبيه من أهل الطائف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤١٤]: فذكر لي بعض أهل العلم أن هؤلاء الآيات نزلن في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وما بعدها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤١٤]: ولم يكن في بني أزيهر ثار نعلمه حتى حجز الإسلام بين الناس، إلا أن ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري خرج في نفر من قريش إلى أرض دوس، فنزلوا على امرأة يقال لها: أم غيلان مولاة لدوس، وكانت تمشط النساء وتجهز العرائس، فأرادت دوس قتلهم بأبي أزيهر فقامت دونه أم غيلان ونسوة كن معها حتى منعتهم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤/١٩]: يقال: إنها أدخلته بين درعها وبدنها.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٤١٥]: فلما كانت أيام عمر بن الخطاب أتته أم غيلان وهي ترى أن ضراراً أخوه فقال لها عمر: لست بأخيه إلا في الإسلام، وقد عرفت منتك عليه فأعطاها على أنها بنت سبيل.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٤١٥]: وكان ضرار بن الخطاب لحق عمر بن الخطاب يوم أحد فجعل يضربه بعرض الرمح ويقول: انج يا ابن الخطاب لا أقتلك فكان عمر يعرفها له بعد الإسلام رضي الله عنهما.

٦٤- دعاءُ النبي ﷺ على قريش لما استعصت عليه

وذكر البيهقي [الدلائل: ٢/٣٢٧] ههنا دعاء النبي ﷺ على قريش حين استعصت عليه بسبع كسَبْع يوسف.

وأورد [البيهقي في الدلائل: ٢/٣٢٧] ما أخرجاه في «الصحيحين» [خ

(٤٨٢٥)، م (٢٧٩٨)] من طريق الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن ابن مسعود. قال: خمس مضين؛ اللزام والروم، والدخان، والبطشة، والقمر. وفي رواية [للبيهقي في الدلائل: ٣٢٤/٢، ٣٢٥] عن ابن مسعود. قال: إن قريشاً، لما استعصت على رسول الله ﷺ وأبطئوا عن الإسلام. قال: «اللّهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف». قال: فأصابتهم سنة فحصَّت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والميتة وحتى أن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع. ثم دعا فكشف الله عنهم، ثم قرأ عبد الله هذه الآية: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] قال: فعادوا فكفروا فأخروا إلى يوم القيامة - أو قال: فأخروا إلى يوم بدر -. قال أبو عبد الله: إن ذلك لو كان يوم القيامة كان لا يكشف عنهم: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] قال: يوم بدر.

وفي رواية عنه [الدلائل للبيهقي: ٣٢٦/٢، ٣٢٧] قال: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً. قال: «اللّهم سبعاً كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام. فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة وأن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فاطبقت عليهم سبعاً فشكا الناس كثرة المطر. فقال: «اللّهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابة عن رأسه فسقي الناس حولهم.

قال: لقد مضت آية الدخان - وهو الجوع الذي أصابهم - وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ وآية الروم، والبطشة الكبرى. وانشقاق القمر، وذلك كله يوم بدر.

قال البيهقي [في الدلائل: ٣٢٧/٢]: يريد - والله أعلم - البطشة الكبرى والدخان وآية اللزام كلها حصلت ببدر.

قال [البيهقي في الدلائل: ٣٢٧/٢] وقد أشار البخاري [(١٠٢٠)] إلى هذه الرواية.

ثم أورد [البيهقي في الدلائل: ٣٢٨/٢، ٣٢٩] من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يستغيث من الجوع لأنهم لم يجدوا شيئاً حتى أكلوا العهن بالدم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

قال: فدعا رسول الله ﷺ حتى فرج الله عنهم.

ثم قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٢٩/٢]: وقد روي في قصة أبي سفيان ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة، ولعله كان مرتين والله أعلم.

٦٥- قصة فارس والروم وهزيمة الروم

ثم أورد البيهقي [في الدلائل: ٣٣٠/٢] قصة فارس والروم ونزول قوله تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ - ٥].

ثم روى [في الدلائل: ٣٣٠/٢، ٣٣١] من طريق سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنهم سيظهرون» فذكر أبو بكر ذلك للمشركين فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً إن ظهروا كان لك كذا وكذا، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلته - أُراه قال - دون العشر» قال: فظهرت الروم بعد ذلك.

وقد أوردنا طرق هذا الحديث في «التفسير» وذكرنا أن المباحث - أي المراهن - لأبي بكر أمية بن خلف وأن الرهن كان على خمس قلائص، وأنه كان إلى مدة، فزاد فيها الصديق عن أمر رسول الله ﷺ وفي الرهن. وأن غلبة الروم على فارس كان يوم بدر - أو كان يوم الحديبية - فالله أعلم.

ثم روي [في الدلائل: ٣٣٤/٢] من طريق الوليد بن مسلم حدثنا أسيد الكلابي أنه سمع العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه. قال: رأيت غلبة فارس الروم. ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم وظهورهم على الشام والعراق، كل ذلك في خمس عشرة سنة.

٦٦- قصةُ الإسراء والمعراج

ذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٨٠/٣ - ٥١٨] أحاديث الإسراء في أوائل البعثة.

وأما ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٦/١ - ٤٠٨] فذكرها في هذا الموطن بعد البعثة بنحو من عشر سنين.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٣٥٤/٢] من طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: أسري برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة. قال: وكذلك ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة.

ثم روى [في الدلائل: ٣٥٥/٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي. أنه قال: فرض على رسول الله ﷺ الخمس ببيت المقدس ليلة أسري به قبل مهاجره بستة عشر شهراً.

فعلى قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة، وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عثمان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس. قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول. وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

فيه انقطاع

وقد اختاره الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في «سيرته» وقد أورد حديثاً لا يصح سنده ذكرناه في فضائل شهر رجب أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب والله أعلم.

ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة ولا أصل لذلك والله أعلم.

وينشد بعضهم في ذلك:

ليلة الجمعة عُرِّجَ بالنبي ليلة الجمعة أوّلَ رجب

وهذا الشعر عليه ركاكة وإنما ذكرناه استشهاداً لمن يقول به. وقد ذكرنا

الأحاديث الواردة في ذلك مستقصاة عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فلتكتب من هناك على ما هي عليه من الأسانيد والعزو، والكلام عليها ومعها ففيها مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة.

ولنذكر ملخص كلام ابن إسحاق رحمه الله [السيرة: ٢٧٤، سيرة ابن هشام: ٣٩٦/١، ٣٩٧] فإنه قال بعد ذكر ما تقدم من الفصول: ثم أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وهو بيت المقدس - من إيلياء وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها. قال: وكان من الحديث - فيما بلغني عن مسراه ﷺ عن ابن مسعود وأبي سعيد وعائشة ومعاوية وأم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنهم والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم - ما اجتمع في هذا الحديث كل يحدث عنه بعض ما ذكر لي من أمره وكان في مسراه ﷺ وما ذكر لي منه بلاء. وتمحيص وأمر من أمر الله وقدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله على يقين، فأسري به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد.

فكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني يقول: أتي رسول الله ﷺ بالبراق وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ثم أتي بثلاثة آنية من لبن وخمر، وماء فذكر أنه شرب إناء اللبن، «فقال لي جبريل: هديت وهديت أمتك».

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٧/١] في سياق الحسن البصري مرسلاً أن جبريل أيقظه ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام فأركبه البراق وهو «دابة أبيض بين البغل والحمار وفي فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طرفه، ثم حملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته».

قلت: وفي الحديث وهو عن قتادة فيما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٨/١] أن رسول الله ﷺ لما أراد ركوب البراق شمس به فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: «ألا تستحي يا براق مما تصنع، فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه. قال: فاستحى حتى ارفض عرقاً ثم قر حتى ركبته».

قال الحسن في حديثه [سيرة ابن هشام: ٣٩٨/١]: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله ﷺ فصلى بهم، ثم ذكر اختياره إناء اللبن على إناء الخمر وقول جبريل له: هديت وهديت أمتك، وحرمت عليكم الخمر.

قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشاً بذلك فذكر [سيرة ابن هشام: ٣٩٨/١، ٣٩٩] أنه كذبه أكثر الناس، وارتدت طائفة بعد إسلامها، وبادر الصديق إلى التصديق وقال: إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشية أفلا أصدقه في بيت المقدس! وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس فذكرها له رسول الله ﷺ قال: فيومئذ سمي أبو بكر الصديق.

قال الحسن [سيرة ابن هشام: ٣٩٨/١، ٣٩٩]: وأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ الآية.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٢/١] فيما بلغه عن أم هانئ. أنها قالت: ما أسري برسول الله ﷺ إلا من بيتي، نام عندي تلك الليلة بعدما صلى العشاء الآخرة فلما كان قبيل الفجر أهبّنا فلما صلى الصبح وصلينا معه. قال: «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة في هذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين» ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فقلت: يا نبي الله لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبونك ويؤذوك. قال: «والله لأحدثنهموه» فأخبرهم فكذّبوه. فقال: «وآية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسّ الدابة فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا مُوجّه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم يصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء». قالت: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل الذي وصف لهم، وسألوهم عن الإناء وعن البعير فأخبروهم كما ذكر صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر يونس بن بكير عن أسباط عن إسماعيل السدّي أن الشمس كادت أن تغرب قبل أن يقدم ذلك العير، فدعا الله عزّ وجلّ فحبسها حتى قدموا كما وصف لهم. قال: فلم تحتبس الشمس على أحد إلا عليه ذلك اليوم وعلى يوشع بن نون. رواه البيهقي [في الدلائل: ٤٠٤/٢].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٣/١]: وأخبرني من لا أتهم عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني فيه صاحبي حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، عليه ملَك من الملائكة يقال له: إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك».

قال: يقول رسول الله ﷺ إذا حدث بهذا الحديث: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾» [المدثر: ٣١]. ثم ذكر بقية الحديث.

وهو مطول جداً وقد سقناه بإسناده ولفظه بكماله في «التفسير» وتكلمنا عليه فإنه من غرائب الأحاديث وفي إسناده ضعف.

وكذا في سياق حديث أم هانئ فإن الثابت في «الصحيحين» [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)] من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس أن الإسراء كان من المسجد من عند الحجر.

وفي سياقه غرابة أيضاً من وجوه قد تكلمنا عليها هناك ومنها قوله: وذلك قبل أن يوحى إليه، والجواب أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى ولم يقل في ذلك: وذلك قبل أن يوحى إليه بل جاءه بعد ما أوحي إليه فكان الإسراء قطعاً بعد الإيحاء إما بقليل كما زعمه طائفة، أو بكثير نحو من عشر سنين كما زعمه آخرون وهو الأظهر، وغسل صدره تلك الليلة قبل الإسراء غسلاً ثانياً - أو ثالثاً - على قول لأنه مطلوب إلى الملأ الأعلى

والحضرة الإلهية ثم ركب البراق رفعةً له وتعظيماً وتكريماً.

فلما جاء بيت المقدس ربطه بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء ثم دخل بيت المقدس فصلّى في قبلته تحيّة المسجد.

وأنكر حذيفة ﷺ دخوله إلى بيت المقدس وربطه الدابة وصلاته فيه [حديث حذيفة أخرجه ت (٣١٤٧)].

وهذا غريب، والنص المثبت مقدم على النافي.

ثم اختلفوا في اجتماعه بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء كما دلّ عليه ما تقدّم أو بعد نزوله منها كما دلّ عليه بعض السياقات وهو أنسب كما سنذكره على قولين فالله أعلم.

وقيل: إن صلاته بالأنبياء كانت في السماء، وهكذا تخيره من الآنية اللبن والخمر والماء هل كانت ببيت المقدس كما تقدم أو في السماء كما ثبت في الحديث الصحيح [خ (٣٨٨٧)، م (١٦٤)].

والمقصود أنه ﷺ لما فرغ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلّم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة. فصعد من سماء إلى سماء في المعراج حتى جاوز السابعة وكلما جاء سماء تلقته منها مقربوها ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء.

وذكر أعيان من رآه من المرسلين كآدم في سماء الدنيا، ويحيى وعيسى في الثانية وإدريس في الرابعة، وموسى في السادسة - على الصحيح - وإبراهيم في السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه صلاةً وطوافاً ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ثم جاوز مراتبهم كلهم حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، ورفعت لرسول الله ﷺ سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر، وغشيها عند ذلك أمور عظيمة ألوان متعددة باهرة وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجر كثرة وفراش من ذهب وغشيها من نور الرب جل جلاله.

ورأى هناك جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٧] أي: ما زاغ يميناً ولا شمالاً ولا ارتفع عن المكان الذي حد له النظر إليه.

وهذا هو الثبات العظيم والأدب الكريم وهذه الرؤيا الثانية لجبريل عليه السلام على الصفة التي خلقه الله تعالى عليها كما نقله ابن مسعود [المسند: ١/٤١٢] وأبو هريرة [م (١٧٥)] وأبو ذر [خ (٣٤٩)، م (١٦٣)] وعائشة [خ (٤٨٥٥)، م (١٧٧)] رضي الله عنهم أجمعين.

والأولى هي قوله تعالى: عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] وكان ذلك بالأبطح، تدلى جبريل على رسول الله ﷺ ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض حتى كان بينه وبينه قاب قوسين أو أدنى، هذا هو الصحيح في التفسير كما دل عليه كلام أكابر الصحابة المتقدم ذكرهم رضي الله عنهم.

فأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)]: ثم دنا الجبّار ربّ العزّة فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فقد يكون من فهم الراوي فأقحمه في الحديث والله أعلم.

وإن كان محفوظاً فليس بتفسير للآية الكريمة بل هو شيء آخر غير ما دلت عليه الآية الكريمة والله أعلم.

وفرض الله سبحانه وتعالى على عبده محمد ﷺ وعلى أمته الصلوات ليلتئذ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربّه عزّ وجلّ حتى وضعها الرب جل جلاله وله الحمد والمنة إلى خمس. وقال: «هي خمس وهي خمسون: الحسنة بعشر أمثالها»، فحصل له التكليم من الربّ عزّ وجلّ ليلتئذ، وأئمة السنّة كالمطبقين على هذا، واختلفوا في الرؤية، فقال بعضهم: رآه بفؤاده مرّتين، قاله ابن عباس وطائفة.

وأطلق ابن عبّاس وغيره الرؤية وهو محمول على التقييد، وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما [ذكره القاضي عياض في الشفا: ١/٢٦٠] وصرّح بعضهم بالرؤية بالعينين[ذكره القاضي عياض في الشفا: ١/٢٦٠]، واختاره ابن جرير وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين.

وممن نصّ على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه [الروض الأنف: ٣/٤٤٥]، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه.

وقالت طائفة: لم يقع ذلك لحديث أبي ذر في «صحيح مسلم» [(١٧٨)]. قلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنّى أراه» وفي رواية: «رأيت نوراً».

قالوا: ولم يمكن رؤية الباقي بالعين الفانية ولهذا قال الله تعالى لموسى فيما روي في بعض الكتب الإلهية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

والخلاف في هذه المسألة مشهور بين السلف والخلف والله أعلم.

ثم هبط رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريماً له وتعظيماً عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة كما هي عادة الوافدين لا يجتمعون بأحد قبل الذي طلبوا إليه، ولهذا كان كلمّا مرّ على واحد منهم يقول له جبريل، عند مَقْدم ذاك للسلام عليه: هذا فلان فسلّم عليه، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده لما احتاج إلى تعرّف بهم مرّة ثانية. ومما يدل على ذلك أنه قال: «فلما حانت الصلاة: أممتهم». ولم يحن وقت إذ ذاك إلا صلاة الفجر فتقدمهم إماماً بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ - فاستفاد بعضهم من هذا أن الإمام الأعظم يقدم في الإمامة على ربّ المنزل حيث كان بيت المقدس محلّتهم ودار إقامتهم - ثم خرج منه فركب البراق وعاد إلى مكة فأصبح بها وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار.

وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها - أو بعضها - غيره لأصبح مندهشاً أو طائش العقل، ولكنه ﷺ أصبح واجماً - أي ساكتاً - يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه، فتلطف بإخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة وذلك أن أبا جهل - لعنه الله - رأى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام وهو جالس واجم. فقال له: هل من خبر؟ فقال: «نعم!» فقال: وما هو؟ فقال: «إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس». قال: إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم!» قال: أرأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟ قال: «نعم!» فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك وأراد رسول الله ﷺ جمعهم ليخبرهم ذلك ويبلغهم.

فقال أبو جهل: هيا معشر قريش فاجتمعوا من أنديتهم فقال: أخبر قومك بما أخبرتني به، فقص عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى وأنه جاء

بيت القدس هذه الليلة وصلّى فيه، فمن بين مصفّق وبين مصفّر تكذيباً له واستبعاداً لخبره وطار الخبر بمكة وجاء الناس إلى أبي بكر ﷺ فاخبروه أن محمداً ﷺ يقول كذا وكذا. فقال: إنكم تكذبون عليه فقالوا: والله إنه ليقوله. فقال: إن كان قاله فلقد صدق. ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وحوله مشركو قريش فسأله عن ذلك فأخبره فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به.

وفي «الصحيح» [م (١٧٢)]: أن المشركين هم الذين سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. قال: «فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس عليّ بعض الشيء، فجلّى الله لي بيت المقدس حتى جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم». فقالوا: أما الصفة فقد أصاب.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٠٢، ٤٠٣] ما تقدم من إخباره لهم بمروره بعيرهم وما كان من شربه ماءهم، فأقام الله عليهم الحجّة واستنارت لهم المحجّة، فآمن من آمن على يقين من ربه وكفر من كفر بعد قيام الحجة عليه. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الأسراء: ٦٠] أي اختباراً لهم وامتحاناً.

قال ابن عبّاس [عنه اخرجه: خ (٣٨٨٨)]: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ.

وهذا مذهب جمهور السلف والخلف من أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه كما دلّ على ذلك ظاهر السياقات من ركوبه وصعوده في المعراج وغير ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾.

والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة فدل على أنه بالروح والجسد والعبد عبارة عنهما وأيضاً فلو كان مناماً لما بادر كفّار قريش إلى التكذيب به والاستبعاد له إذ ليس في ذلك كبير أمر، فدلّ على أنه أخبرهم بأنه أسري به يقظةً لا مناماً.

وقوله في حديث شريك عن أنس [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)]: «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر» معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة كما سيأتي في حديث عائشة رضي الله عنها حين ذهب رسول الله ﷺ الطائف فكذبوه، قال: «فرجعت مهموماً فلم أستفق إلا بقرن الثعالب».

وفي حديث أبي أسيد [خ (٦١٩١)، م (٢١٤٩) كلاهما من حديث سهل بن سعد] حين جاء بابنه إلى رسول الله ﷺ ليحنكه فوضعه على فخذ رسول الله ﷺ واشتغل رسول الله ﷺ بالحديث مع الناس فرفع أبو أسيد ابنه، ثم استيقظ رسول الله ﷺ فلم يجد الصبي فسأل عنه فقالوا: رُفع فسمّاه المنذر.

وهذا الحمل أحسن من التغليط والله أعلم.

وقد حكى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٩٩] فقال: حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه. قال: وحدثني يعقوب بن عتبة: أن معاوية كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٠٠]: فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وكما قال إبراهيم عليه السلام ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وفي الحديث [خ (٣٥٦٩) بلفظ «تنام عيني ولا ينام قلبي»]: «تنام عيني وقلبي يقظان».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٣٩٧]: فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله تعالى على أي حاليه كان نائماً أو يقظان كل ذلك حق وصدق.

قلت: وقد توقف ابن إسحاق في ذلك وجوّز كلاً من الأمرين من حيث الجملة، ولكن الذي لا يشك فيه ولا يتمارى أنه كان يقظانَ لا محالة لما تقدم وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده ﷺ ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناماً كما فهمه ابن إسحاق بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم وركب البراق وجاء بيت المقدس وصعد السموات وعاين ما عاين حقيقة ويقظة لا مناماً. لعل هذا مراد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومراد من تابعها على ذلك. لا ما فهمه ابن إسحاق من أنهم أرادوا بذلك المنام والله أعلم.

تنبيه: ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك، فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناماً قبله ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبت والإيناس والله أعلم.

ثم قد اختلف العلماء في أن الإسراء والمعراج هل كانا في ليلة واحدة أو كل في ليلة على حدة؟.

فمنهم من يزعم أن الإسراء في اليقظة، والمعراج في المنام.

وقد حكى المهلب بن أبي صفرة في «شرحه البخاري» [ذكره عنه السهيلي في الروض الأنف: ٣/٤١٧] عن طائفة أنهم ذهبوا إلى أن الإسراء مرتين؛ مرة بروحه مناماً، ومرة ببدنه وروحه يقظة. وقد حكاه الحافظ أبو القاسم السهيلي [الروض الأنف: ٣/٤١٧] عن شيخه أبي بكر بن العربي الفقيه المالكي. وهذا القول يجمع الأحاديث فإن في حديث شريك عن أنس: وذلك فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه، وقال في آخره: «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر» وهذا منام. ودل غيره على اليقظة.

ومنهم من يدعي تعدد الإسراء في اليقظة أيضاً حتى قال بعضهم: إنها أربع إسراءات، وزعم بعضهم أن بعضها كان بالمدينة.

وقد حاول الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه الله ان يوفّق بين اختلاف ما وقع في روايات حديث الإسراء بالجمع بالتعدد فجعل ثلاث إسراءات، مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط على البراق، ومرة من مكة إلى السموات على البراق أيضاً لحديث حذيفة، ومرّة من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السموات.

فنقول: إن كان إنما حمله على القول بهذه الثلاث اختلاف الروايات فقد اختلف لفظ الحديث في ذلك على أكثر من هذ الثلاث صفات ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فيما جمعناه مستقصىً في كتابنا «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وإن كان إنما حمله أن التقسيم انحصر في ثلاث صفات بالنسبة إلى بيت المقدس وإلى السموات فلا يلزم من الحصر العقلي الوقوع كذلك في الخارج إلا بدليل والله أعلم.

والعجب أن الإمام أبا عبد الله البخاري رحمه الله ذكر الإسراء بعد ذكره موت أبي طالب فوافق ابن إسحاق في ذكره المعراج في أواخر الأمر، وخالفه في ذكره بعد موت أبي طالب، وابن إسحاق أخر ذكر موت أبي طالب على الإسراء، فالله أعلم أي ذلك كان.

والمقصود أن البخاري فرق بين الإسراء وبين المعراج فبوّب لكل منهما باباً على حدة فقال [خ (٣٨٨٦)]: باب حديث الإسراء وقول الله سبحانه

وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾:

حدثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبني قريش كنت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

وقد رواه مسلم [(١٧٠)] والترمذي [(٣١٣٣)] والنسائي [(١١٢٨٢)] من حديث الزهري عن أبي سلمة عن جابر به.

ورواه مسلم [(١٧٢)] والنسائي [(١١٢٨٤)] من حديث عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

ثم قال البخاري [(٣٨٨٧)]: باب حديث المعراج:

حدّثنا هدبة بن خالد حدّثنا همام حدّثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة: أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به. قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقد - قال: وسمعته يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته. «فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءةٍ إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: أنس: نعم! «يضع خطوه عند أقصى طرفه. فحملت عليه.

فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم!. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت إذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزت، بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار؛ نهران ظاهران، ونهران باطنان. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رُفع لي البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن قال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: «أمرت بخمسين صلاة كل يوم». قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك.

فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

هكذا روى البخاري هذا الحديث ههنا.

وقد رواه في مواضع أخر من «صحيحه» [خ (٣٢٠٧)] ومسلم [(١٦٤)] والترمذي [(٣٣٤٦)] والنسائي [(٤٤٧) وفي الكبرى (٣١٣)] من طرق عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة.

ورويناه من حديث أنس بن مالك عن أبي بن كعب. ومن حديث أنس عن أبي ذر. ومن طرق كثيرة عن أنس عن النبي ﷺ. وقد ذكرنا ذلك مستقصى بطرقه وألفاظه في «التفسير»، ولم يقع في هذا السياق ذكر بيت المقدس، وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده.

ومن جعل كل رواية إسراءً على حدة كما تقدّم عن بعضهم، فقد أبعد جداً. وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها تعريفه بهم، وفي كلها يفرض عليه الصلوات. فكيف يمكن أن يدّعى تعدّد ذلك؟ هذا في غاية البعد والاستحالة والله أعلم.

ثم قال البخاري [(٣٨٨٨)]: حدّثنا الحميدي، حدّثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة

أسري به إلى بيت المقدس، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾. قال: هي شجرة الزقوم.

٦٧- فريضة الصلاة

ولما أصبح رسول الله ﷺ من صبيحة ليلة الإسراء جاءه جبريل عند الزوال فبيّن له كيفية الصلاة وأوقاتها، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا وصلى به جبريل في ذلك اليوم إلى الغد والمسلمون يأتمّون بالنبي ﷺ وهو يقتدي بجبريل كما جاء في الحديث عن ابن عباس وجابر: «أمني جبريل عند البيت مرتين». فبين له الوقتين الأول والآخر، وما بينهما الوقت الموسع، ولم يذكر توسعة في وقت المغرب.

وقد ثبت ذلك في حديث أبي موسى وبريدة وعبد الله بن عمرو وكلها في «صحيح مسلم» [(٦١٤، ٦١٣، ٦١٢)]. وموضع بسط ذلك في كتابنا «الأحكام» ولله الحمد.

فأما ما ثبت في «صحيح البخاري» [(١٠٨٩)] من طريق سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرّت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

وكذا رواه الأوزاعي عن الزهري، ورواه الشعبي عن مسروق عنها [حديث الأوزاعي رواه النسائي (٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى ٣٦٣/١. وحديث الشعبي رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣٦٣/١].

وهذا مشكل من جهة أن عائشة كانت تتم الصلاة في السفر، وكذا عثمان بن عفان وقد تكلمنا على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ١٠١].

قال البيهقي [في الدلائل: ٤٠٧/٢]: وقد ذهب الحسن البصري إلى أن صلاة الحضر أول ما فرضت أربعاً كما ذكره مرسلاً من صلاته عليه السلام صبيحة الإسراء الظهر أربعاً، والعصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً يجهر في الأوليين، والعشاء أربعاً يجهر في الأوليين. والصبح ركعتين يجهر فيهما.

قلت: فلعلّ عائشة أرادت أن الصلاة كانت قبل الإسراء تكون ركعتين ركعتين ثم لما فرضت الخمس فرضت حضراً على ما هي عليه، ورخص في السفر أن يصلّي ركعتين، كما كان الأمر عليه قديماً وعلى هذا لا يبقى إشكال بالكلية والله أعلم.

٦٨- آية انشقاق القمر

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١: ٣] وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام. وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها. ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقد تقصينا ذلك في كتابنا «التفسير» فذكرنا الطرق والألفاظ محررة، ونحن نشير ههنا إلى أطراف من طرقها ونعزوها إلى الكتب المشهورة بحول الله وقوّته. وذلك مروي عن أنس بن مالك، وجبير بن مطعم، وحذيفة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.

أما أنس:

فقال الإمام أحمد [١٦٥/٣]: حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين. فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القلم: ١].

ورواه مسلم [(٢٨٠٢)] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به.

وهذا من مرسلات الصحابة، والظاهر أنه تلقاه عن الجم الغفير من الصحابة، أو عن النبي ﷺ، أو عن الجميع.

وقد روى البخاري [(٣٦٣٧)] ومسلم [(٢٨٠٢)] هذا الحديث من طريق شيبان.

زاد البخاري [(٣٦٣٧)]: وسعيد بن أبي عروبة.

وزاد مسلم [(٢٨٠٢)]: وشعبة ثلاثتهم عن قتادة عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. لفظ البخاري.

وأما جبير بن مطعم:

فقال الإمام أحمد [٨١/٤، ٨٢]: حدّثنا محمد بن كثير حدّثنا سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل. فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم. تفرّد به أحمد.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٦/٢٧] من حديث محمد بن فضيل وغيره عن حصين به.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٢٦٨/٢] من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم كلاهما عن حصين بن عبد الرحمن عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده به، فزاد رجلاً في الإسناد.

وأما حذيفة بن اليمان:

فروى أبو نعيم في «الدلائل» من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي. قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق. فلما كانت الجمعة الثانية انطلقت مع أبي إلى الجمعة فحمد الله وقال مثله وزاد: ألا وإن السابق من سبق إلى الجنة. فلما كنا في الطريق قلت لأبي: ما يعني بقوله: غداً السباق؟ قال: من سبق إلى الجنة.

وأما ابن عباس:

فقال البخاري [(٤٨٦٦)]: حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا بكر عن جعفر عن عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عبّاس. قال: إن القمر انشق في زمان النبي ﷺ.

ورواه البخاري أيضاً [(٣٦٣٨)] ومسلم [(٢٨٠٣)] من حديث بكر - وهو ابن مضر - عن جعفر هو ابن ربيعة، عن عراك به.

وقال ابن جرير [في تفسيره: ٨٦/٢٧]: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا

شقيه.

وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو من مرسلاته [تفسير الطبري: ٨٦/٢٧].

وقال الحافظ أبو نعيم [الدلائل: ٢٠٩]: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا بكر بن سهل حدّثنا عبد الغني بن سعيد حدّثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم. فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان.

فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلت تؤمنوا؟» قالوا: نعم! وكانت ليلة بدر، فسأل الله عزّ وجلّ أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر قد مُثّل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم اشهدوا».

ثم قال أبو نعيم: وحدثنا سليمان بن أحمد حدّثنا الحسن بن العباس الرازي عن الهيثم بن النعمان حدّثنا إسماعيل بن زياد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس. قال: انتهى أهل مكة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد قل لأهل مكة أن يحتفلوا هذه الليلة فسيرون آية إن انتفعوا بها. فأخبرهم رسول الله ﷺ بمقالة جبريل فخرجوا ليلة الشق ليلة أربع عشرة، فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا، ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها، ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا. فقالوا: يا محمد ما هذا إلا سحر ذاهب. فأنزل الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ثم روى [أبو نعيم في الدلائل: ٢١٠] عن الضحّاك عن ابن عبّاس. قال: جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أرنا آية حتى نؤمن بها، فسأل ربه فأراهم القمر قد انشقّ فصار قمرين؛ أحدهما على الصفا والآخر على المروة، قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب. فقالوا: هذا سحر مستمر.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [في المعجم الكبير: ١١٦٤٢]: حدّثنا أحمد بن عمرو البزار حدّثنا محمد بن يحيى القطعي حدّثنا محمد بن بكر حدّثنا ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. قال: كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وهذا إسناد جيد وفيه أنه كسف تلك الليلة فلعله حصل له انشقاق في ليلة كسوفه ولهذا خفي أمره على كثير من أهل الأرض ولعلّ ذلك في بعض ليالي الشتاء، حيث يكون أكثر الناس في البيوت، أو ستره غيم عن كثير من الأرض ومع هذا قد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض ويقال: إنه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند، وبني بناء تلك الليلة وأرخ بليلة انشقاق القمر.

وأما ابن عمر:

فقال الحافظ البيهقي [في الدلائل: ٢٦٧/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدّثنا أبو العباس الأصم حدّثنا العباس بن محمد الدوري حدّثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر، في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين؛ فلقةٌ من دون الجبل وفلقةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللّهمّ اشهد». وهكذا رواه مسلم [(٢٨٠١)] والترمذي [(٣٢٨٨)] من طرق عن الأعمش، عن مجاهد به.

قال مسلم [(٢٨٠٠)] كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما عبد الله بن مسعود:

فقال الإمام أحمد [(٣٧٧/١)]: حدّثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقّتين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا».

وهكذا أخرجاه [خ (٣٦٣٦)، م (٢٨٠٠)] من حديث سفيان - وهو ابن عيينة - به.

ومن حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن سخبرة عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر ونحن مع رسول الله ﷺ بمنى، فقال النبي ﷺ: «اشهدوا» وذهبت فرقة نحو الجبل. لفظ البخاري.

ثم قال البخاري [(٣٨٦٩) تعليقاً]: وقال أبو الضحاك عن مسروق عن عبد الله: بمكة. وتابعه محمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله رضي الله عنه.

وقد أسند أبو داود الطيالسي [في مسنده (٢٩٥)] حديث أبي الضحى عن مسروق ذلك في «مسنده» فقال: ثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود. قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار فقالوا ذلك.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢٦٦/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العبّاس حدّثنا العبّاس بن محمّد الدوري حدّثنا سعيد بن سليمان حدّثنا هشيم حدّثنا مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين. فقال كفّار قريش لأهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السفار - قال: وقدموا من كل وجهة - فقالوا: رأينا.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٥/٢٧] من حديث المغيرة، وزاد: فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ورواه أبو نعيم من حديث جرير عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله به.

وقال الإمام أحمد [٤١٣/١]: حدّثنا مؤمل حدّثنا إسرائيل عن سماك عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٥/٢٧] من حديث أسباط عن سمّاك به.

وقال الحافظ أبو نعيم: حدّثنا أبو بكر الطلحي حدّثنا أبو حصين محمد بن الحسين الوادعي حدّثنا يحيى الحمّاني حدّثنا يزيد عن عطاء عن سماك عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين فتوارت، فرقة خلف الجبل فقال النبي ﷺ:

«اشهدوا، اشهدوا» [أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٩) من طريق إبراهيم به].

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا جعفر بن محمد القلانسي حدّثنا آدم بن أبي إياس ثنا الليث بن سعد حدّثنا هشام بن سعد عن عتبة عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. قال: انشق القمر ونحن بمكة، فلقد رأيت أحد شقيه على الجبل الذي بمنى ونحن بمكة.

وحدثنا [القائل أبو نعيم في الدلائل: ٢٠٧] أحمد بن إسحاق حدّثنا أبو بكر بن أبي عاصم حدّثنا محمد بن حاتم أبو سعيد حدّثنا معاوية بن عمرو عن زائدة عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: انشقّ القمر بمكة فرأيته فرقتين.

ثم روى من حديث علي بن سعيد بن مسروق حدّثنا موسى بن عمير عن منصور بن المعتمر عن زيد بن وهب عن عبد اللّه بن مسعود. قال: رأيت القمر واللّه منشقاً باثنتين بينهما حراء [الطبراني في الكبير (٩٩٩٧) من طريق علي بن سعيد به].

وروى أبو نعيم من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: انشق القمر فلقتين. فلقة ذهبت، وفلقة بقيت.

قال ابن مسعود: لقد رأيت جبل حراء من بين فلقتي القمر، فذهبت فلقة. فتعجب أهل مكة من ذلك وقالوا: هذا سحر مصنوع سيذهب.

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: انشق القمر على عهد رسول اللّه ﷺ فصار فرقتين. فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر» وقال المشركون: سحر القمر حتى انشق [تفسير الطبري: ٨٧/٢٧].

فهذه طرق متعدّدة قوية الأسانيد تفيد القطع لمن تأملها وعرف عدالة رجالها. وما يذكره بعض القصّاص من أن القمر سقط إلى الأرض حتى دخل في كم النبي ﷺ وخرج من الكم الآخر فلا أصل له، وهو كذب مفترى ليس بصحيح.

والقمر حين انشق لم يزايل السماء غير أنه حين أشار إليه النبي ﷺ انشق عن إشارته فصار فرقتين، فسارت واحدة حتى صارت من وراء حراء، ونظروا إلى الجبل بين هذه وهذه كما أخبر بذلك ابن مسعود أنه شاهد ذلك.

وما وقع في رواية أنس في «مسند أحمد» [١٦٥/٣]: فانشق القمر بمكة مرتين فيه نظر، والظاهر أنه أراد فرقتين واللّه أعلم.

٦٩- وفاة أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ وذكر الأحاديث فيه

وقيل: بل هي توفيت قبله والمشهور الأول. وهما المشفقان؛ هذا في الظاهر وهذه في الباطن، هذاك كافر وهذه مؤمنة صديقة رضي اللّه عنها وأرضاها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول اللّه ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يسكن إليها، وبهلك عمّه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه. وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول اللّه ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

فحدثني هشام بن عروة عن أبيه. قال: فدخل رسول اللّه ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسله وتبكي، ورسول اللّه ﷺ يقول: «لا تبكي يا بنية فإن اللّه مانعٌ أباك» ويقول بين ذلك: «ما نالتني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»

وذكر ابن إسحاق قبل ذلك [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: أن أحدهم ربما طرح الأذى في برمته ﷺ إذا نصبت له. قال: فكان إذا فعلوا ذلك - كما حدثني عمر بن عبد اللّه عن عروة - يخرج بذلك الشيء على العود فيقف به على بابه ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٧/١]: لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا واللّه ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٧/١]: وحدثني العباس بن عبد اللّه بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس. قال: لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه - وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب - في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب إنك منّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوّفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منّا ليكفّ عنا ولنكفّ عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.

قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات. قال: «تقولون لا إله إلا اللّه وتخلعون ما تعبدون من دونه». قال: فصفّقوا بأيديهم. ثم قالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن أمرك لعجب. قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه واللّه ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم اللّه بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

قال: فقال أبو طالب: واللّه يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً. قال: فطمع رسول اللّه ﷺ فيه فجعل يقول له: «أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة» قال: فلما رأى حرص رسول اللّه ﷺ قال: يا ابن أخي واللّه لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنّما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرّك شفتيه فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال: يا ابن أخي واللّه لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «لم أسمع» قال: وأنزل اللّه تعالى في أولئك الرهط: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١-٢].

وقد تكلمنا على ذلك في «التفسير» وللّه الحمد والمنة.

وقد استدل بعض من ذهب من الشيعة وغيرهم من الغلاة إلى أن أبا طالب مات مسلماً بقول العبّاس هذا الحديث: يا ابن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها. يعني: لا إله إلا اللّه.

والجواب عن هذا من وجوه. أحدها: أن في السند مبهماً لا يعرف حاله وهو قوله: عن بعض أهله وهذا إبهام في الاسم والحال، ومثله يتوقف فيه لو انفرد.

وقد روى الإمام أحمد [١/٢٢٨] والنسائي [(١١٤٣٧)] وابن جرير [في تفسيره: ٢٣/١٢٥] نحواً من السياق من طريق أبي أسامة عن الأعمش حدّثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره ولم يذكر قول العباس.

ورواه الثوري أيضاً عن الأعمش عن يحيى بن عمارة الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بغير زيادة قول العباس.

ورواه الترمذي [٣٢٣٢] وحسنه والنسائي [(١١٤٣٦)] وابن جرير أيضاً [في تفسيره: ٢٣/١٢٥]

ولفظ الحديث من سياق البيهقي [الدلائل: ٢/٣٤٥] فيما رواه من طريق الثوري عن الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش وجاء النبي ﷺ عند رأس أبي طالب، مجلس رجل فقام أبو جهل كي يمنعه ذاك. وشكوه إلى أبي طالب. فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها الجزية العجم، كلمة واحدة». قال: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب! قال: ونزل فيهم ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الآيات إلى قوله ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

ثم قد عارضه - أعني سياق ابن إسحاق - ما هو أصح منه، وهو ما رواه البخاري [٣٨٨٤] قائلا:

حدّثنا محمود حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن ابن المسيّب عن أبيه رضي الله عنه. أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل. فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر ما كلّمهم به: على ملّة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ورواه مسلم [(٢٤)] عن إسحاق بن إبراهيم وعبد عن عبد الرزاق.

وأخرجاه [خ (١٣٦٠)، م (٢٤)] أيضاً من حديث الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبيه بنحوه. وقال فيه: فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى قال آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ: «أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله - يعني بعد ذلك -: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وهكذا روى الإمام أحمد [٢/٤٤١] ومسلم [(٢٥)] والترمذي [(٣١٨٨)] من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمّاه قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وهكذا قال عبد الله بن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله فأبى أن يقولها، وقال: هو على ملّة الأشياخ وكان آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب.

ويؤكد هذا كله ما قال البخاري [(٣٨٨٣)]: حدّثنا مسدد حدّثنا يحيى عن سفيان عن عبد الملك بن عمير حدّثني عبد الله بن الحارث حدّثنا العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمّك فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: «هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل» من النار».

ورواه مسلم في «صحيحه» [(٢٠٩)] من طرق عن عبد الملك بن عمير به.

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٨٨٥)، م (٢١٠)] من حديث الليث حدّثني ابن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمّه فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» لفظ البخاري.

وفي رواية: «تغلي منه أم دماغه».

وروى مسلم [(٢١٢)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفّان عن حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أبي عثمان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، متنعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه».

وفي «مغازي» يونس بن بكير: «يغلي منهما دماغه حتى يسيل على قدميه» ذكره السهيلي [الروض الأنف: ٤/٢٨].

وقال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدّثنا عمر - هو ابن إسماعيل بن مجالد - حدّثنا أبي عن مجالد عن الشعبي عن جابر. قال: سئل رسول الله ﷺ -أو قيل له - هل نفعت أبا طالب؟ قال: «أخرجته من النّار إلى ضحضاح منها» تفرّد به البزار.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤/٢٧]: وإنما لم يقبل النبي ﷺ شهادة العبّاس لأخيه أنه قال الكلمة، وقال: «لم أسمع» لأن العبّاس كان إذ ذاك كافراً غير مقبول الشهادة.

قلت: وعندي أن الخبر بذلك ما صحّ لضعف سنده كما تقدّم. ومما يدل على ذلك أنه سأل النبي ﷺ بعد ذلك عن أبي طالب فذكر له ما تقدم، وبتقدير صحته لعله قال ذلك عند معاينة الملك بعد الغرغرة حين لا ينفع نفساً إيمانها والله أعلم.

وقال أبو داود الطيالسي [في مسنده: ١٢٠]: حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت ناجية بن كعب يقول: سمعت علياً يقول: لما توفي أبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن عمك قد توفي. قال: «اذهب فواره» فقلت: إنه مات مشركاً، فقال: «اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» ففعلت ثم أتيته، فأمرني أن أغتسل.

ورواه النسائي [(١٩٠)] عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة. ورواه أبو داود [(٣٢١٤)] والنسائي [(٢٠٠٥)] من حديث سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي: لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه؟ قال: «اذهب فوار أباك ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» فأتيته فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢/٣٤٩]: أخبرنا أبو سعد الماليني حدّثنا أبو أحمد بن عدي حدّثنا محمد بن هارون بن حميد حدّثنا محمد بن عبد

العزيز بن أبي رزمة حدّثنا الفضل عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: أن النبي ﷺ عارض جنازة أبي طالب فقال: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم». قال [البيهقي في الدلائل: ٣٤٩/٢]: وروي عن أبي اليمان الهوزني عن النبي ﷺ مرسلاً وزاد: ولم يقم على قبره. قال: وإبراهيم بن عبد الرحمن هذا هو الخوارزمي تكلموا فيه.

قلت: قد روى عنه غير واحد منهم الفضل بن موسى السيناني ومحمّد بن سلام البيكندي، ومع هذا قال ابن عدي [في الكامل: ٢٥٩/١]: ليس بمعروف، وأحاديثه عن كل من روى عنه ليست بمستقيمة.

وقد قدمنا ما كان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجة والممانعة عن رسول الله ﷺ والدفع عنه وعن أصحابه وما قاله فيه من الممادح والثناء، وما أظهره له ولأصحابه من المودّة والمحبّة والشفقة في أشعاره التي أسلفناها وما تضمنته من العيب والتنقص لمن خالفه وكذّبه بتلك العبارة الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التي لا تدانى ولا تسامى، ولا يمكن عربياً مقاربتها ولا معارضتها، وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله ﷺ صادق بار راشد، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه. وفرق بين علم القلب وتصديقه كما قررنا ذلك في شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري»، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى في قوم فرعون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وقال موسى لفرعون قَالَ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقول بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ إنها نزلت في أبي طالب حيث كان ينهى الناس عن أذية رسول الله ﷺ وينأى هو عما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق. فقد روي عن ابن عباس، والقاسم بن مخيمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار، ومحمّد بن كعب، وغيرهم، وفيه نظر والله أعلم.

والأظهر ـ والله أعلم ـ الرواية الأخرى عن ابن عباس [تفسير الطبري: ١٧٢/٧]: وهم ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به. وبهذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد ـ وهو اختيار ابن جرير [في تفسيره: ١٧٢/٧، ١٧٣] ـ وتوجيهه أن هذا الكلام سيق لتمام ذم المشركين حيث كانوا يصدّون الناس عن اتباع الحق ولا ينتفعون هم أيضاً به. ولهذا قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥ ـ ٢٦].

وهذا اللفظ وهو قوله ﴿وَهُمْ﴾ يدل على أن المراد بهذا جماعة وهم المذكورون في سياق الكلام وقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يدل على تمام الذم. وأبو طالب لم يكن بهذه المثابة بل كان يصد الناس عن أذية رسول الله ﷺ وأصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال، ونفس ومال. ولكن مع هذا لم يقدر الله له الإيمان لما له تعالى في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه.

٧٠- موتُ خديجة زوج النبيِّ ﷺ وذكر فضائلها

في موت خديجة بنت خويلد وذكر شيء من فضائلها ومناقبها رضي الله عنها وأرضاها، وجعل جنات الفردوس منقلبها ومثواها. وقد فعل ذلك لا محالة بخبر الصادق المصدوق حيث بشرّها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٦٨/٣]: حدّثنا أبو صالح حدّثنا الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب. قال: قال عروة بن الزبير: وقد كانت خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة.

ثم روي [في المعرفة والتاريخ: ٢٦٨/٣] من وجه آخر عن الزهري أنه قال: توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقبل أن تفرض الصلاة.

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٢٧، سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٣٥٢/٢، ٣٥٣]: بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام. ذكره عبد الله بن منده في كتاب «المعرفة»، وشيخنا أبو عبد الله الحافظ.

قال البيهقي [في الدلائل: ٣٥٣/٣]: وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة.

قلت: مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وكان الأنسب بنا أن نذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الإسراء كما ذكره البيهقي وغير واحد، ولكن أخرّنا ذلك عن الإسراء لمقصد سنطلع عليه بعد ذلك فإن الكلام به يتنظم ويتسق السياق كما تقف على ذلك إن شاء الله.

وقال البخاري [(٣٨٢٠)]: حدّثنا قتيبة، حدّثنا محمد بن فضيل بن غزوان عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة. قال: أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

وقد رواه مسلم [(٢٤٣٢)] من حديث محمد بن فضيل به.

وقال البخاري [(٣٨١٩)]: حدّثنا مسدد، حدّثنا يحيى عن إسماعيل. قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: بشر النبي ﷺ خديجة؟ قال: نعم! ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

ورواه البخاري [(١٧٩٢)] أيضاً ومسلم [(٢٤٣٣)] من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد به.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٢٥/٢، ٤٢٦]: وإنما بشرها ببيت في الجنة من قصب ـ يعني: قصب اللؤلؤ ـ لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتعبه يوماً من الدهر فلم تصخب عليه يوماً ولا آذته أبداً.

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٨١٦)، م (٢٤٣٥)] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ـ وهلكت قبل أن يتزوجني ـ لما كنت اسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن. لفظ البخاري.

وفي لفظ له [خ (٣٨١٧)] عن عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه - أو جبريل عليه السلام - أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب. وفي لفظ له [خ (٣٨١٨)] قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة - وما رأيتها - ولكن كان يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

ثم قال البخاري [(٣٨٢١)]: حدّثنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع فقال: «اللّهم هالة».

قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها. وهكذا رواه مسلم [(٢٤٣٧)] عن سويد بن سعيد عن علي بن مسهر به.

وهذا ظاهر في التقرير على أن عائشة خير من خديجة إما فضلاً وإما عشرة. إذا لم ينكر عليها ولا رد عليها ذلك كما هو ظاهر سياق البخاري رحمه الله.

ولكن قال الإمام أحمد [١٥٤/٦]: حدّثنا مؤمل أبو عبد الرحمن حدّثنا حماد - هو ابن سلمة - عن عبد الملك - هو ابن عمير- عن موسى بن طلحة عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ يوماً خديجة فاطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين. قالت: فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة، حتى يعلم رحمة أو عذاب؟.

وكذا رواه [في المسند: ١٥٠/٦] عن بهز بن أسد وعثمان بن مسلم كلاهما عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير به.

وزاد بعد قوله: حمراء الشدقين: هلكت في الدهر الأول. قالت: فتمعرّ وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى ينظر أرحمة أم عذاب؟ تفرّد به أحمد. وهذا إسناد جيد.

وقال الإمام أحمد أيضاً [١١٧/٦، ١١٨]: ثنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله أخبرنا مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء. قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله خيراً منها. قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء» تفرد به أحمد أيضاً. وإسناده لا بأس به ومجالد روى له مسلم متابعة وفيه كلام مشهور والله أعلم.

ولعل هذا - أعني قوله: «ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء» - كان قبل أن يولد إبراهيم بن النبي ﷺ من مارية، وقبل مقدمها بالكلية وهذا متعين. فإن جميع أولاد النبي ﷺ - كما تقدم وكما سيأتي - من خديجة إلا إبراهيم فمن مارية القبطية المصرية رضي الله عنها.

وقد استدل بهذا الحديث جماعة من أهل العلم على تفضيل خديجة على عائشة رضي الله عنهما وأرضاهما.

وتكلم آخرون في إسناده وتأوله آخرون على أنها كانت خيراً عشرة وهو محتمل أو ظاهر. وسببه أن عائشة سمت بشبابها وحسنها وجميل عشرتها، وليس مرادها بقولها: قد أبدلك الله خيراً منها أنها تزكي نفسها وتفضلها على خديجة، فإن هذا أمر مرجعه إلى الله عزّ وجلّ كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] الآية.

وهذه مسألة وقع النزاع فيها بين العلماء قديماً وحديثاً وتجاذبها طرفا نقيض أهل التشيع وغيرهم لا يعدلون بخديجة أحداً من النساء لسلام الربّ عليها، وكون ولد النبي ﷺ جميعهم - إلا إبراهيم - منها. وكونه لم يتزوج عليها حتى ماتت إكراماً لها، وتقدم إسلامها، وكونها من الصدِّيقات ولها مقام صدق في أول البعثة. وبذلت نفسها ومالها لرسول الله ﷺ.

وأما أهل السنة فمنهم من يغلو أيضاً ويثبت لكل واحدة منهما من الفضائل ما هو معروف ولكن تحملهم قوة التسنن على تفضيل عائشة لكونها ابنة الصدّيق، ولكونها أعلم من خديجة فإنه لم يكن في الأمم مثل عائشة في حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها، ولم يكن الرسول يحب أحداً من نسائه كمحبته إياها ونزلت براءتها من فوق سبع سموات وروت بعده عنه عليه السلام علماً جماً كثيراً طيباً مباركاً فيه حتى قد ذكر كثير من الناس الحديث المشهور: «خذوا شطر دينكم عن الحميراء».

والحق أن كلاً منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيّره، والأحسن التوقف في ذلك ورد علم ذلك إلى الله عز وجلّ. ومن ظهر له دليل يقطع به، أو يغلب على ظنه في هذا الباب فذاك الذي يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم ومن حصل له توقف في هذه المسألة أو في غيرها فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول: الله أعلم. وقد روى الإمام أحمد [] والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أي خير نساء زمانهما.

وروى شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قرة بن إياس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» رواه ابن مردويه في «تفسيره». وهذا إسناد صحيح إلى شعبة وبعده.

قالوا: والقدر المشترك بين هذه الثلاث نسوة؛ آسية ومريم وخديجة أن كلاً منهن كفلت نبياً مرسلاً وأحسنت الصحبة في كفالتها وصدقته.

فآسية ربت موسى وأحسنت إليه وصدقته حين بعث، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين أرسل. وخديجة رغبت في تزويج رسول الله ﷺ بها وبذلت في ذلك أموالها كما تقدم وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل.

وقوله: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» هو ثابت في «الصحيحين» من طريق شعبة أيضاً عن عمرو بن مرة عن مرة الطيب الهمداني عن أبي موسى الأشعري. قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد: هو الخبز واللحم جميعاً وهو أفخر طعام العرب كما قال بعض الشعراء:

إذا ما الخبزُ تأدِمُهُ بلحمٍ فذاكَ، أمانةَ اللّهِ، الثريدُ

ويحتمل قوله «وفضل عائشة على النساء» أن يكون عاماً فيعم النساء المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاماً فيما عداهن ويبقى الكلام فيها وفيهن موقوف يحتمل التسوية بينهن فيحتاج مرجِّح واحدة منهن على غيرها إلى دليل من خارج والله أعلم.

٧١- زواجُ النبيّ ﷺ بعائشة وسودة

في تزويجه عليه السلام بعد خديجة رضي الله عنها بعائشة بنت الصديق وسودة بنت زمعة رضي الله عنهما.

والصحيح أن عائشة تزوجها أولاً لما سيأتي. قال البخاري في باب تزويج عائشة [(٣٨٩٥)]: حدّثنا معلى بن أسد حدّثنا وهيب عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «أريتك في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير، ويقول: هذه امرأتك. فاكشف عنها فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه».

وقال البخاري: باب نكاح الأبكار [(٥٠٧٧)]: وقال ابن أبي مليكة: قال ابن عباس لعائشة: لم ينكح النبي ﷺ بكراً غيرك.

حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها. انفرد به البخاري.

ثم قال [خ (٥٠٧٨)]: حدّثنا عبيد بن إسماعيل حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة حرير، فيقول: هذه امرأتك. فأكشِفُها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله، يُمضِه».

ورواه مسلم [(٢٤٣٨)] من طريق هشام بن عروة به.

ورواه البخاري في باب النظر إلى المرأة قبل التزويج [(٥١٢٥)]، ثنا مسدد، ثنا حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يمضه».

وفي رواية: «أريتك في المنام ثلاث ليال».

وعند الترمذي [(٣٨٨٠)] أن جبريل جاءه بصورتها في خرقة من حرير خضراء فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وقال البخاري [(٥٠٨١)] باب تزويج الصغار من الكبار.

حدثنا عبد الله بن يوسف حدّثنا الليث عن يزيد عن عراك عن عروة أن رسول الله ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك. فقال: «أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلال».

هذا الحديث ظاهر سياقه كأنه مرسل وهو عند البخاري والمحققين متصل لأنه من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها، وهذا من أفراد البخاري رحمه الله.

وقال يونس بن بكير [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤١٠] عن هشام بن عروة عن أبيه. قال: تزوج رسول الله ﷺ عائشة بعد خديجة بثلاث سنين وعائشة يومئذ ابنة ست سنين، وبنى بها وهي ابنة تسع. ومات رسول الله ﷺ وعائشة ابنة ثماني عشرة سنة. وهذا غريب.

وقد روى البخاري [(٣٨٩٦)] عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه. قال: توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين، فلبث سنتين - أو قريباً من ذلك - ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين.

وهذا الذي قاله عروة مرسل في ظاهر السياق كما قدمنا ولكنه في حكم المتصل في نفس الأمر.

وقوله: تزوجها وهي ابنة ست سنين وبني بها وهي ابنة تسع ما لا خلاف فيه بين الناس - وقد ثبت في «الصحاح» وغيرها - وكان بناؤه بها عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة.

وأما كون تزويجها كان بعد موت خديجة بنحو من ثلاث سنين ففيه نظر. فإن يعقوب بن سفيان الحافظ قال [المعرفة والتاريخ: ٣/٢٦٨]: حدّثنا الحجاج حدّثنا حماد بن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه من مكة وأنا ابنة سبع - أو ست - سنين، فلما قدمنا المدينة جاءني نسوة وأنا ألعب في أرجوحة وأنا مجممة، فهيّأنني وصنعنني ثم أتين بي إلى رسول الله ﷺ وأنا ابنة تسع سنين.

فقوله في هذا الحديث: «متوفى خديجة» يقتضي أنه على أثر ذلك قريباً، اللّهم إلا أن يكون قد سقط من النسخة: بعد متوفى خديجة فلا ينفي ما ذكره يونس بن بكير وأبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه والله أعلم.

وقال البخاري [(٣٨٩٤)]: حدّثنا فروة بن أبي المغراء حدّثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج. فوعكت فتمزق شعري فوفى لي جميمة فأتتني أمي أم رومان - وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي - فصرخت بي فأتيتها ما أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمنني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وقال الإمام أحمد في مسند عائشة أم المؤمنين [٦/٢١٠، ٢١١]: حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا محمد بن عمرو، حدّثنا أبو سلمة ويحيى. قالا: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «من؟» قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله إليك، عائشة ابنة أبي بكر. قال: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة. قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول قال: «فاذهبي فاذكريهما عَليّ». فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: «ارجعي إليه فقولي له أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي» فرجعت فذكرت ذلك له قال: انتظري، وخرج. قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد وعداً قط فأخلفه - لأبي بكر - فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى. فقالت: يا ابن أبي

قحافة لعلك مصب صاحبنا مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته فزوجها إياه وعائشة يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه. قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له. وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة. فقال: كفؤ كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذاك. قال: ادعيها لي فدعتها قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفؤ كريم، اتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه.

فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج فجعل يحثي على رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: لعمرك إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة. قالت عائشة: فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السنح. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فدخل بيتنا واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمي وأنا لفي أرجوحة بين عذقين ترجح بي فأنزلتني من الأرجوحة ولي جميمة ففرقتها، ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت بي عند الباب وإني لأنهج حتى سكن من نفسي، ثم دخلت بي فإذا رسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستني في حجرة ثم قالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم، وبارك لهم فيك. فوثب الرجال والنساء فخرجوا وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتنا ما نحرت علي جزور، ولا ذبحت علي شاة. حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار إلى نسائه، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين.

وهذا السياق كأنه مرسل وهو متصل لما رواه البيهقي [في الدلائل: ٤١١/٢] من طريق أحمد بن عبد الجبار.

حدثنا عبد الله بن إدريس الأودي عن محمّد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. قال: قالت عائشة: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «ومن؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: «ومن البكر ومن الثيب؟» قالت: أما البكر فابنة أحب خلق الله إليك عائشة، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك. قال: «فاذكريهما علي». وذكر تمام الحديث نحو ما تقدم.

وهذا يقتضي أن عقده على عائشة كان متقدماً على تزويجه بسودة بنت زمعة، ولكن دخوله على سودة كان بمكة، وأما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة في السنة الثانية كما تقدم وكما سيأتي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا شريك عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: لما كبرت سودة وهبت يومها لي، فكان رسول الله ﷺ يقسم لي بيومها مع نسائه. قالت: وكانت أول امرأة تزوّجها بعدي.

وقال الإمام أحمد [٣١٨/١، ٣١٩]: حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، حدثني عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها: سودة وكانت مصبية، كان لها خمسة صبية - أو ست - من بعل لها مات. فقال رسول الله ﷺ: «ما يمنعك مني؟» قالت: والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إليَّ، ولكني أكرمك أن يَضْغُوَ هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية. قال: «فهل منعك مني شيء غير ذلك؟» قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «يرحمك الله إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده».

قلت: وكان زوجها قبله عليه السلام السكران بن عمرو أخو سهيل بن عمرو، وكان ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة كما تقدم، ثم رجع إلى مكة فمات بها قبل الهجرة رضي الله عنه.

فهذه السياقات كلها دالة على أن العقد على عائشة كان متقدماً على العقد بسودة وهو قول عبد الله بن محمد بن عقيل.

ورواه يونس عن الزهري.

واختار ابن عبد البر أن العقد على سودة قبل عائشة وحكاه عن قتادة وأبي عبيد [الاستيعاب: ١٨٦٧/٤]. قال: ورواه عقيل عن الزهري.

٧٢- ما نالَ النبيَّ ﷺ من قريش بعد وفاة عمِّه أبي طالب

قد تقدم ذكر موت أبي طالب عم رسول الله ﷺ وأنه كان ناصراً له وقائماً في صفه ومدافعاً عنه بكل ما يقدر عليه من نفس ومال ومقال وفعال، فلما مات اجترأ سفهاء قريش على رسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه.

كما قد رواه البيهقي [في الدلائل: ٣٥٠/٢] عن الحاكم عن الأصم حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني حدثنا يوسف بن بهلول حدثنا عبد الله بن إدريس حدثنا محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن جعفر. قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: «أي بنية لا تبكين فإن الله مانع أباك» ويقول ما بين ذلك: «ما نالت قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».

وقد رواه زياد البكائي عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١] عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلاً والله أعلم.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣٤٩/٢] أيضاً عن الحاكم وغيره عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب».

ثم رواه [البيهقي في الدلائل: ٣٤٩/٢، ٣٥٠] عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوري، عن يحيى بن معين حدثنا عقبة المجدر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعةً حتى توفي أبو طالب».

وقد روى الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي [المنتظم: ١١/٣، ١٢] بسنده عن ثعلبة بن صعير وحكيم بن حزام أنهما قالا: لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما شهرٌ وخمسة أيام - اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا

تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت.

وسب ابن الغيطلة رسول اللّه ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه، فولّى يصيح: يا معشر قريش صبأ أبو عتبة. فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم. فمكث رسول اللّه ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: «مع قومه». فخرج إليهما فقال: قد سألته فقال: «مع قومه». فقالا: يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار». فقال أبو لهب - لعنه اللّه - واللّه لا برحت لك إلا عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار. واشتدّ عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٥/١، ٤١٦]: وكان النفر الذين يؤذون رسول اللّه ﷺ في بيته أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن الحمراء، وابن الأصداء الهذلي. وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص. وكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول اللّه ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان إذا طرحوا شيئاً من ذلك يحمله على عود ثم يقف به على بابه ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

قلت: وعندي أن غالب ما روي مما تقدم من طرحهم سلى الجزور بين كتفيه وهو يصلي كما رواه ابن مسعود، وفيه أن فاطمة جاءت فطرحته عنه، وأقبلت عليهم فشتمتهم، ثم لما انصرف رسول اللّه ﷺ دعا على سبعة منهم كما تقدم [المسند: ٤١٧/١].

وكذلك ما أخبر به عبد اللّه بن عمرو بن العاص من خنقهم له عليه السلام خنقاً شديداً حتى حال دونه أبو بكر الصديق قائلاً: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي اللّه. وكذلك عزم أبي جهل - لعنه اللّه - على أن يطأ على عنقه وهو يصلي فحيل بينه وبين ذلك، وما أشبه ذلك كان بعد وفاة أبي طالب واللّه أعلم. فذكرها ههنا أنسب وأشبه.

٧٣- دعوة النبيّ ﷺ في الطائف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٩/١]: فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول اللّه ﷺ من الأذى ما لم تكن تناله منه في حياة عمّه أبي طالب، فخرج رسول اللّه ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من اللّه تعالى، فخرج إليهم وحده. فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمّد بن كعب القرظي. قال: لما انتهى رسول اللّه ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف. وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى اللّه وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرُط ثياب الكعبة إن كان اللّه أرسلك. وقال الآخر: أما وجد اللّه أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثالث: واللّه لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من اللّه كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على اللّه ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول اللّه ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.

وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: «إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ» وكره رسول اللّه ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول اللّه ﷺ - فيما ذكر لي - المرأة التي من بني جمح، فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك». فلما اطمأن قال - فيما ذكر لي - «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك». هكذا أورد ابن إسحاق في كتابه «السيرة» هذا الدعاء من غير إسناد، بل ذكره معلقاً بصيغة البلاغ، فقال: فيما ذكر لي.

وقد روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة القاسم بن الليث الرَّسعنيّ، شيخ النسائي والطبراني وغير واحد، بسنده من حديثه، حدثني محمد بن أبي صفوان الثقفي، حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد اللّه بن جعفر، قال: لما توفي أبو طالب، خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه. قال: فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فانصرف إلى ظلّ شجرة فصلى ركعتين، ثم قال: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أرحم الراحمين، أنت أرحم بي، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي، غير أنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

قال ابن إسحاق: فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عداس فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول اللّه ﷺ ثم قال له: كل، فلما وضع رسول اللّه ﷺ يده فيه قال: «بسم اللّه» ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول اللّه ﷺ «ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول اللّه ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى». فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول اللّه ﷺ «ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي».

فأكبّ عداس على رسول اللّه ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه. قال:

يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

وقد ذكر موسى بن عقبة نحواً من هذا السياق إلا أنه لم يذكر الدعاء وزاد: وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء فعمد إلى ظل حَبَلة وهو مكروب وفي ذلك الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله. ثم ذكر قصّة عداس النصراني كنحو ما تقدم [الدلائل للبيهقي: ٢/٤١٤ ـ ٤١٦].

وقد روى الإمام أحمد [٤/٣٣٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة: حدّثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس ـ أو عصى ـ حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقرأ: «والسماء والطارق» حتى ختمها. قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٢٣١)، م (١٧٩٥)] من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»

٧٤- دخول النبي في جوار المطعم بن عديّ

وقد ذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢١، ٤٢٢] سماع الجن لقراءة رسول الله ﷺ، وذلك مرجعه من الطائف حين بات بنخلة وصلى بأصحابه الصبح، فاستمع الجن الذين صرفوا إليه قراءته هنالك.

قال ابن إسحاق: وكانوا سبعة نفر فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قلت: وقد تكلمنا على ذلك مستقصى في «التفسير»، وتقدم قطعة من ذلك فالله أعلم.

ثم دخل رسول الله ﷺ مكة مرجعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي، وازداد قومه عليه حنقاً وغيظاً وجرأة وتكذيباً وعناداً والله المستعان وعليه التكلان.

وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة. فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها. ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي. فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال: نعم! قل له فليأت.

فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة ـ أو سبعة ـ متقلدي السيوف جميعاً فدخلوا المسجد وقال لرسول الله ر: طف واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم. فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذاً لا تخفر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه. وذهب أبو سفيان إلى مجلسه. قال: فمكث أياماً ثم أذن له في الهجرة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة توفي المطعم بن عدي بعده بيسير، فقال حسان بن ثابت: والله لأرثينه فقال فيما قال [ديوان حسان: ٢٤٣، ٢٤٤]:

فلو كان مجد يخلد اليوم واحداً ... من الناس نجّى مجدُه اليوم مُطعما

أجرتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا ... عبادَك ما لبّى مُحِلٌ وأحرما

فلو سئلتْ عنه معدٌّ بأسرها ... وقحطان أو باقي بقية جُرهُما

لقالوا هو الموفي بخُفرةِ جاره ... وذمّتِه يوماً إذا ما تذمّما

وما تطلعُ الشمسُ المنيرةُ فوقهم ... على مثلِه فيهم أعز وأكرما

أبيّاً إذا يأبى وألينَ شيمةً ... وأنومَ عن جارٍ إذا الليلُ أظلما

قلت: ولهذا قال النبي ﷺ يوم أسارى بدر [خ (٣١٣٩)]: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النّتنى لوهبتهم له»

٧٥- عرض النبي ﷺ نفسه على أحياء العرب

في عَرض رسول الله ﷺ نفسه الكريمة على أحياء العرب في مواسم الحج أن يؤووه وينصروه ويمنعوه ممن كذبه وخالفه فلم يجبه أحد منهم لما ذخره الله تعالى للأنصار من الكرامة العظيمة رضي الله عنهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٢]: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم ـ إذا كانت ـ على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٢، ٤٢٣]: فحدثني من أصحابنا من لا أتهم عن زيد بن أسلم عن ربيعة بن عباد الدؤلي ـ أو من حدّثه أبو الزناد عنه. وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد يحدّثه أبي. قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به».

قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه. قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم

من الجن من بني مالك بن أُقَيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمّه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب.

وقد روى الإمام أحمد [٣٤١/٤] هذا الحديث عن إبراهيم بن أبي العباس حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الدئل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب - يتبعه حيث ذهب - فسألت عنه فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عمّه أبو لهب.

ورواه البيهقي [في الدلائل: ١٨٥/٢] من طريق محمد بن عبد الله الأنصاري عن محمد بن عمرو عن محمد بن المنكدر عن ربيعة الدؤلي: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله، ووراءه رجل أحول تقدُ وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرّنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا أبو لهب.

وكذا رواه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق ابن أبي ذئب وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام كلاهما عن محمد بن المنكدر به نحوه [ومن هذين الطريقين رواه أحمد في المسند: ٤٩٢/٢].

ثم رواه البيهقي [في الدلائل: ١٨٦/٢] من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة. قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل وهو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

كذا قال في هذا السياق: أبو جهل. وقد يكون وهماً ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا، وتارة يكون ذا وأنهما كانا يتناوبان على ايذائه ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٤/١]: وحدثني ابن شهاب الزهري أنه عليه السلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له: مليح، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٤/١]: وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين أنه أتى كلباً في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم: «يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم» فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

وحدثني [سيرة ابن هشام: ٤٢٤/١] بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم.

وحدثني [سيرة ابن هشام: ٤٢٤/١، ٤٢٥] الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه. فقال له رجل منهم يقال له: بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء».

قال: فقال له: أفنهدف نُحورَنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه. فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلمّا قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا قال: فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟.

وقال موسى بن عقبة [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤١٤/٢] عن الزهري: فكان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: «لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء».

فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به.

وقد روى الحافظ أبو نعيم من طريق عبد الله بن الأجلح، ويحيى بن سعيد الأموي، كلاهما عن محمّد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن العباس. قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعةً فهل أنت مخرجي إلى السوق غداً حتى تعرفني منازل قبائل الناس؟» وكانت مجمع العرب. قال: فقلت: هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منازل بكر بن وائل، وهذه منازل بني عامر بن صعصعة، فاختر لنفسك.

قال: فبدأ بكندة فأتاهم فقال: «ممن القوم؟» قالوا: من أهل اليمن. قال: «من أي اليمن؟». قالوا: من كندة. قال: «من أي كندة؟» قالوا: من بني عمرو بن معاوية، قال: «فهل لكم إلى خير؟» قالوا: وما هو؟ قال: «تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله».

قال عبد الله بن الأجلح: وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الملك لله يجعله حيث يشاء» فقالوا: لا حاجة لنا فيما جئتنا به.

وقال الكلبي: فقالوا: أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب، الحق بقومك فلا حاجة لنا بك. فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال: «ممن القوم؟» قالوا: من بكر بن وائل. فقال: «من أي بكر بن وائل؟» قالوا: من بني قيس بن ثعلبة. قال: «كيف العدد؟» قالوا: كثير مثل الثرى. قال: «فكيف المنعة؟» قالوا: لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم. قال: «فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم، وتستنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين، وتكبروه أربعاً وثلاثين».

قالوا: ومن أنت؟ قال: «أنا رسول الله». ثم انطلق فلما ولي عنهم قال الكلبي: وكان عمّه أبو لهب يتبعه فيقول للناس: لا تقبلوا قوله، ثم مر أبو لهب فقالوا: هل تعرف هذا الرجل؟ قال: نعم هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا: زعم أنه رسول الله، قال: ألا لا ترفعوا بقولا رأساً، فإنه مجنون يهذي أم رأسه. قالوا: قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر.

قال الكلبي [عنه أخرجه أبو نعيم في الدلائل: ٢١٥]: وأخبرني عبد الرحمن

العامري عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ، فقال: «ممن القوم؟» قلنا: من بني عامر بن صعصعة. قال: «من أي بني عامر بن صعصعة؟» قالوا: بنو كعب بن ربيعة. قال: «كيف المنعة؟» قلنا: لا يرام ما قبلنا، ولا يُصطلى بنارنا. قال: فقال لهم: «إني رسول الله وأتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولا أكره أحداً منكم على شيء» قالوا: ومن أي قريش أنت؟ قال: «من بني عبد المطلب». قالوا: فأين أنت من عبد مناف؟ قال: «هم أول من كذبني وطردني». قالوا: ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك قال: فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بيحرة بن فراس القشيري فقال: من هذا الرجل أراه عندكم أنكره؟ قالوا: محمّد بن عبد الله القرشي. قال: فما لكم وله؟ قالوا: زعم لنا أنه رسول الله ﷺ فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلّغ رسالة ربه قال: ماذا رددتم عليه؟ قالوا: بالترحيب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك ما نمنع به أنفسنا قال بيحرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشرّ من شيء ترجعون به بدأتم لتنابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به، أتعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم. ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك.

قال فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيث بيحرة شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة ابنة عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله ﷺ بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر - ولا عامر لي - أيصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟. فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بيحرة واثنين أعاناه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره ثم علوا وجوههم لطماً، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء».

قال: فأسلم الثلاثة الذين نصروه وقتلوا شهداء وهم: غطيف وغطفان ابنا سهل، وعروة - أو عَزْرة - بن عبد الله بن سلمة رضي الله عنهم. وهلك الآخرون لعناً وهم: بيحرة بن فراس، وحزن بن عبد الله بن سلمة بن قشير، ومعاوية بن عبادة أحد بني عقيل لعنهم الله لعناً كبيراً.

وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته والله أعلم. وقد روى هذا الحديث بتمامه الحافظ سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه عن أبيه به.

وقد روى أبو نعيم [في الدلائل: ٢١٩] له شاهداً من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة بني عامر بن صعصعة وقبيح ردهم عليه.

وأغرب من ذلك وأطول ما رواه أبو نعيم [في الدلائل: ٢١٤] والحاكم والبيهقي [في الدلائل: ٤٢٢/٢] - والسياق لأبي نعيم رحمهم الله - من حديث أبان بن عبد الله البجلي عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، حدّثني علي بن أبي طالب. قال: لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر رضي الله عنه فسلم، وكان أبو بكر مقدّماً في كل خير، وكان رجلاً نسابة فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هامها العظمى. قال أبو بكر: فمن أي هامتها العظمى؟ قالوا: ذهل الأكبر، قال لهم أبو بكر: منكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا قال: فمنكم بسطام بن قيس بن مسعود أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟

قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جسّاس بن مرة بن ذهل حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال لهم أبو بكر رضي اله عنه: فلستم بذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر. قال: فوثب إليه منهم غلام يدعى دغفل بن حنظلة الذهلي، حين بقل وجهه، فأخذ بزمام ناقة أبي بكر وهو يقول:

إنّ على سائِلِنا أن نسألَه ... والعبءُ لا تعرفُهُ أوْ تحمِلَه

يا هذا إنك سألتنا فأخبرناك ولم تكتمك شيئاً، ونحن نريد أن نسألك فمن أنت؟ قال: رجل من قريش. فقال الغلام: بخ بخ أهل السؤدد والرئاسة، وأزمّة العرب وهداتها فمن أنت من قريش؟ فقال له: رجل من بني تيم بن مرّة. فقال له الغلام: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة؟ أفمنكم قصي بن كلاب الذي قتل بمكة المتغلبين عليها، وأجلى بقيتهم وجمع قومه من كل أوب حتى أوطنهم مكة ثم استولى على الدار، ونزّل قريشاً منازلها فسمته العرب بذلك مجمعاً، وفيه يقول الشاعر لبني عبد مناف:

ألَيسَ أبوكم كانَ يُدعى مجمعاً ... به جَمعَ اللّهُ القبائلَ من فِهْرِ

فقال أبو بكر: لا. قال: فمنكم عبد مناف الذي انتهت إليه الوصايا وأبو الغطاريف السادة؟ فقال: أبو بكر: لا. قال: فمنكم عمرو بن عبد مناف هاشم الذي هشم الثريد لقومه ولأهل مكة، ففيه يقول الشاعر:

عَمْرو العُلا هشَمَ الثريدَ لقومِهِ ... ورجالُ مكّةَ مُسْنِتون عِجافُ

سَنُّوا إليه الرحلتَيْنِ كِلَيْهِما ... عندَ الشتاءِ ورحلةَ الأصيافِ

كانت قريشٌ بيضةً فتفلّقتْ ... فالمحُّ خالصةٌ لعبدِ مَنافِ

الرائشين وليس يُعْرف رائشٌ ... والقائلينَ هلُمّ للأضيافِ

والضاربين الكبشَ يَبْرقُ بَيْضُه ... والمانعينَ البِيضَ بالأسيافِ

للّه درّكَ لو نزلتَ بدارِهم ... منعوكَ من أزلٍ ومن إقْرافِ

فقال أبو بكر: لا. قال: فمنكم عبد المطلب شيبة الحمد، وصاحب عير مكة، ومطعم طير السماء والوحوش والسباع في الفلا الذي كأن وجهه قمر يتلألأ في الليلة الظلماء؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الإفاضة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل الرفادة انت؟ قال: لا. قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا. ثم جذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته من يده، فقال له الغلام:

صادفَ درءَ السيلِ درءٌ يدفعُه ... يَهيضه حيناً وحيناً يصدعُه

ثم قال: أما والله يا أخا قريش لو ثبتّ لخبرتك أنك من زمعات قريش ولست من الذوائب. قال: فأقبل إلينا رسول الله ﷺ يتبسّم قال عليٌّ: فقلت له: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. فقال: أجل يا أبا الحسن، إنه ليس من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالقول. قال: ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلم - قال علي: وكان أبو بكر مقدّماً في كل خير - فقال لهم أبو بكر: ممن القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم - وفي رواية: ليس وراء هؤلاء غُرر من قومهم - وهؤلاء غرر

الناس. وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك.

وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بياناً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره. فكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال له: فكيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد. فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا أشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله. يديلنا مرة ويديل علينا مرة لعلّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو هذا فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك.

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال له: إلامَ تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ر فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال ر: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤووني وتمنعوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد».

قال له: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥١].

فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك - لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعو إليه - زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر - وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة - فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به. والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا وإنا إنما نزلنا بين صيرين أحدهما اليمامة، والآخر السَّمامة. فقال له رسول الله ﷺ: «وما هذان الصيران؟» فقال له: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً. ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه». ثم قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه؟».

فقال له النعمان بن شريك: اللّهم وإن ذلك لك يا أخا قريش! فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر.

قال علي: ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «يا علي أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية، ما أشرفها! بها يتحاجزون في الحياة الدّنيا». قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا النبي ﷺ.

قال علي: وكانوا صدقاً صبراً فسرّ رسول الله ﷺ بما رأى من معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنسابهم. قال: فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال: «ادعوا لإخوانكم من ربيعة؛ فقد أحاطتهم اليوم أبناء فارس». ثم دخل منزله، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه، فقال لهم: «احمدوا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس، قتلوا ملوكهم واستباحوا عسكرهم وبي نصروا». قال: وكانت الوقعة بقراقر إلى جنب ذي قار وفيها يقول الأعشى: [ديوان الأعشى الكبير: ٢٥٩]

فدى لبني ذُهْل بن شيبانَ ناقتي وراكبها عند اللقاء وقَلَّت
همُو ضربوا بالحنو حنو قراقر مقدمةَ الهامَرْز حتى تولت
فللهِ عينا من رأى من فوارسٍ كذُهلِ بن شيبان بها حينَ ولّت
فثاروا وثُرنا والمودةُ بيننا وكانت علينا غمرةٌ فتجلَّت

هذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب وقد ورد هذا من طريق أخرى وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بقراقر - مكان قريب من الفرات - جعلوا شعارهم اسم محمد ﷺ فنصروا على فارس بذلك، وقد دخلوا بعد ذلك في الإسلام.

وقال الواقدي [من طريقه أخرجه أبو نعيم في الدلائل: ٢٢٠]: أخبرنا عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جده قال: جاءنا رسول الله ﷺ في منازلنا بمنى ونحن نازلون بإزاء الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف وهو على راحلته مردفاً خلفه زيد بن حارثة، فدعانا فوالله ما استجبنا له ولا خير لنا، قال: وقد كنا سمعنا به وبدعائه في المواسم، فوقف علينا يدعونا فلم نستجب له، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي. فقال لنا: أحلف بالله لو قد صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط بلادنا لكان الرأي. فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ. فقال القوم: دعنا منك لا تعرضنا لما لا قبل لنا به.

وطمع رسول الله ﷺ في ميسرة فكلمه فقال ميسرة: ما أحسن كلامك وأنوره، ولكن قومي يخالفونني وإنما الرجل بقومه فإذا لم يعضدوه فالعدى أبعد فانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم صادرين إلى أهليهم. فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود نسائلهم عن هذا الرجل،

فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفراً لهم فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجتزئ بالكسرة ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالجعد ولا بالسبط، في عينيه حمرة مشرق اللون. فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه فإنا نحسده ولا نتبعه، ولنا منه في مواطن بلاء عظيم ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه وإلا قاتله فكونوا ممن يتبعه.

فقال ميسرة: يا قوم ألا إن هذا الأمر بين، فقال القوم: نرجع إلى الموسم فنلقاه فرجعوا إلى بلادهم وأبى ذلك عليهم رجالهم فلم يتبعه أحد منهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً وحج حجة الوداع لقاه ميسرة فعرفه. فقال: يا رسول الله والله ما زلت حريصاً على اتباعك من يوم أنخت بنا حتى كان ما كان وأبى الله إلا ماترى من تأخر إسلامي، وقد مات عامة النفر الذين كانوا معي فأين مدخلهم يا رسول الله؟.

فقال رسول الله ﷺ: «كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار» فقال: الحمد لله الذي أنقذني. فأسلم وحسن إسلامه، وكان له عند أبي بكر مكان.

وقد استقصى الإمام محمد بن عمر الواقدي [عنه اخرجه أبو نعيم في الدلائل: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، وابن سعد في الطبقات: ٢١٦/١] قصص القبائل واحدة واحدة، فذكر عرضه عليه السلام نفسه على بني عامر وغسان وبني فزارة وبني مرّة وبني حنيفة وبني سليم وبني عبس وبني نضر بن هوازن وبني ثعلبة بن عكابة وكندة وكلب وبني الحارث بن كعب وبني عذرة وقيس بن الخطيم وغيرهم. وسياق أخبارها مطولة وقد ذكرنا من ذلك طرفاً صالحاً ولله الحمد والمنة.

وقال الإمام أحمد [٣٩٠/٣]: حدثنا أسود بن عامر أخبرنا إسرائيل عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله. قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟» فأتاه رجل من همدان فقال: ممن أنت؟ قال الرجل: من همدان. قال: «فهل عند قومك من منعة؟» قال: نعم! ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل! قال: «نعم»! فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب. وقد رواه أهل السنن الأربعة [د (٤٧٣٤)، ت (٢٩٢٥)، س (٧٧٢٧)، ج (٢٠١)] من طرق عن إسرائيل به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

٧٦- وفود الأنصار وبيعتهم

ثم بعد ذلك تحول إليهم رسول الله ﷺ إلى المدينة فنزل.

بين أظهرهم كما سيأتي بيانه وتفصيله إن شاء الله وبه الثقة.

حديث سويد بن صامت الأنصاري وهو سويد بن الصامت بن خالد بن عطية بن حوط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وأمه ليلى بنت عمرو النجارية أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم. فسويد هذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ٤٢٥/١]: وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٥/١ - ٤٢٧]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكّة حاجاً - أو معتمراً - وكان سويد إنما يسميه قومه - فيهم - الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه، وهو الذي يقول:

ألا ربَّ مَن تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالتَهُ بالغيب ساءَكَ ما يَفْري

مقالتُه كالشُهد ما كان شاهداً ... وبالغيبِ مأثورٌ على ثُغْرةِ النَّحر

يسرُّك باديهِ وتحتَ أديمِهِ ... نميمة غِشٍّ تَبْتَري عَقَبَ الظَّهر

تُبين لك العينان ما هو كاتمٌ ... من الغِلِّ والبغضاء بالنظرِ الشُّزر

فَرِشني بخيرٍ طالما قد بَرَيْتَني ... وخيرُ الموالي من يَريشُ ولا يبري

قال: فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلّة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال رسول الله ﷺ: «اعرضها علي»، فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علي هو هدى ونور».

فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج. فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قُتل وهو مسلم. وكان قتله قبل بعاث.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٤١٩/٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق بأخصر من هذا.

٧٧- إسلام إياس بن معاذ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٧/١، ٤٢٨]: وحدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد: قال: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قال: قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب.» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن

قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع

من رسول الله ﷺ ما سمع.

قلت: كان يوم بعاث - وبعاث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

وقد روى البخاري في «صحيحه» [(٣٧٧٧)] عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة. قالت: كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقُتلت سراتهم.

٧٨- إسلام رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء

وقال أبو زرعة الرازي في كتابه «دلائل النبوة»: باب إسلام رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء، حدثنا إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد ابن هانئ الشجري، حدثنا أبي، عن أبي إسحاق، حدثني عبيد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه، عن جده أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، فلما هبطا من الثَّنِيَّة رأيا رجلاً تحت شجرة. قال: وهذا قبل خروج الستة من الأنصار. قال: فلما رأيناه كلمناه، قلنا: نأتي هذا الرجل نستودعه راحلتينا حتى نطوف بالبيت. فجئنا فسلمنا عليه تسليم أهل الجاهلية، فردَّ علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعت بالنبي. قال: فأنكرنا، فقلنا: من أنت؟ قال: «انزلوا». فنزلنا فقلنا: أين هذا الرجل الذي يدَّعي ما يدَّعي، ويقول ما يقول؟ قال: «أنا هو». قلنا: فاعرض علينا الإسلام. فعرض وقال: «من خلق السماوات والأرض والجبال؟» قلنا: خلقهن الله. قال: «من خلقكم؟» قلنا: الله. قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أحقُّ بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا: «الخالق». قال: «فأنتم أحقُّ أن تعبدكم، وأنتم عملتموها، والله أحقُّ أن تعبدوه من شيء عملتموه، وأنا أدعو إلى عبادة الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وإن غضب الناس». فقالا: والله لو كان هذا الذي تدعو إليه باطلاً، لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتينا حتى نأتي البيت. فجلس عنده معاذ بن عفراء. قال رافع: وجئت البيت فطفت وأخرجت سبعة قداح، وجعلت له منها قدحا فاستقبلت البيت فقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قدحه. سبع مرات، فضربت بها سبع مرات فصحت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فاجتمع الناس عليَّ، وقالوا: مجنون، رجل صبأ. فقلت: بل رجل مؤمن. ثم جئت إلى النبي ﷺ بأعلى مكة، فلما رآني معاذ بن عفراء قال: لقد جئت بوجه ما ذهبت به، رافع. فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة «يوسف» و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم خرجنا راجعين إلى المدينة، فلما كنا بالعقيق قال معاذ: إني لم أطرق ليلاً قطُّ، فبت بنا حتى نصبح. فقلت: أبيت ومعي ما معي من الخبر؟! ما كنت لأفعل. وكان رافع إذا خرج سفراً ثم قدم عرض قومه. إسناد حسن وسياق حسن.

٧٩- بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٨، ٤٢٩]: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه. وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم! قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرمَ.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعَّدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدَّقوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٩، ٤٣٠]: وهم فيما ذكر لي ستة نفر كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجّار.

قال أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٦]: وقد قيل: إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج. ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان. وقيل: إن أول من أسلم رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء والله أعلم.

وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار - وهو ابن عفراء - النجاريان، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن زريق الزرقي وقطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج السلمي ثم من بني سواد، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم السلمي أيضاً ثم من بني حرام، وجابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة السلمي أيضاً، ثم من بني عبيد رضي الله عنهم.

وهكذا روي عن الشعبي والزهري وغيرهما أنهم كانوا ليلتئذ ستة نفر من الخزرج [الدلائل لأبي نعيم: ٢٢٦].

وذكر موسى بن عقبة [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٣٠] فيما رواه عن الزهري وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه عليه السلام بهم كانوا ثمانية وهم: معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان - وهو ابن عبد قيس - وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. فأسلموا وواعدوه إلى قابل. فرجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى الإسلام، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً يفقهنا. فبعث إليهم مصعب بن عمير فنزل على أسعد بن زرارة.

وذكر تمام القصة كما سيوردها ابن إسحاق أتم من سياق موسى بن عقبة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣١ - ٤٣٣]: فلما قدموا المدينة إلى

قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة المتقدم ذكره، وعوف بن الحارث المتقدم، وأخوه معاذ وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك المتقدم أيضاً. وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق الزرقي.

قال ابن هشام: وهو أنصاري مهاجري وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وحليفهم أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم البلوي، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج العجلاني، وعقبة بن عامر بن نابي المتقدّم ذكْرُه، وقطبة بن عامر بن حديدة المتقدّم، فهؤلاء عشرة من الخزرج، ومن الأوس اثنان وهما: عويم بن ساعدة وأبو الهيثم مالك بن التيهان.

قال ابن هشام: التيهان يخفف ويثقل كميْت وميِّت.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٩٤/٤، ٩٥]: أبو الهيثم بن التيهان اسمه مالك بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زَعْورا بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس.

قال [في الروض الأنف: ٩٥/٤، ٩٦]: وقيل: إنه إراشي وقيل: بلوي. ولهذا لم ينسبه ابن إسحاق ولا ابن هشام.

قال [في الروض الأنف: ٩٦/٤]: والهيثم فرخ العقاب، وضرب من النبات.

والمقصود أن هؤلاء الاثني عشر رجلاً شهدوا الموسم عامئذ، وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء وهي العقبة الأولى.

وروى أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٦] أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم من قوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إلى آخرها.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٣/١]: حدّثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً. فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وقد روى البخاري [(٣٨٩٣)] ومسلم [(١٧٠٩)] هذا الحديث من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب به نحوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٤/١]: وذكر ابن شهاب الزهري عن عائذ الله بن عبد الله أبي إدريس الخولاني أن عبادة بن الصامت حدثه أنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: أن لا نشرك بالله شيئاً ولانسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأُخذتم بحدِّه في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [خ (١٨)، م (١٧٠٩)] وغيرهما [ت (١٤٣٩)، س (٤١٨٩)] من طرق عن الزهري به نحوه.

وقوله: على بيعة النساء - يعني: على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية - وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة. وليس هذا بعجيب فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن كما بيناه في «سيرته» وفي «التفسير»، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٤/١]: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

وقد روى البيهقي [في الدلائل: ٤٣٧/٢] عن ابن إسحاق قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعباً حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة كما تقدم، إلا أنه جعل المرة الثانية هي الأولى.

قال البيهقي [في الدلائل: ٤٣٣/٢]: وسياق ابن إسحاق أتم.

وقال ابن إسحاق: فكان عبد الله بن أبي بكر يقول: لا أدري ما العقبة الأولى.

ثم يقول ابن إسحاق: بلى لعمري قد كانت عقبة وعقبة.

قالوا كلّهم [ابن هشام في السيرة: ٤٣٤/١ والبيهقي في الدلائل: ٤٣١/٢، ٤٣٧]: فنزل مصعب على أسعد بن زرارة فكان يسمى بالمدينة المقرئ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٤/١، ٤٣٥]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٥/١]: وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة. قال: فمكث حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله. فقلت: يا أبت ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني كان أول من جمع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وقد روى هذا الحديث أبو داود [(١٠٦٩)] وابن ماجه [(١٠٨٢)] من طريق محمد بن إسحاق رحمه الله.

وقد روى الدارقطني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير يأمره بإقامة الجمعة [ذكره السهيلي في الروض الأنف: ١٠١/٤، ١٠٢].

وفي إسناده غرابة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٥/١، ٤٣٦]: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال له: بئر مرق فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به

قال سعد لأسيد: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

وقال موسى بن عقبة: فقال له: علام أتيتنا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد يسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه؟.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٦/١، ٤٣٧]: فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره. قال: أنصفت، قال: ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلّي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن. سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً. قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ قال: وقد قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول «الزخرف».

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهرّ وتطهرّ ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن الحضير.

فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس وهم من الأوس بن حارثة وذلك أنهم كان فيهم أبو قيس بن الأسلت واسمه صيفي.

وقال الزبير بن بكار: اسمه الحارث، وقيل: عبيد الله واسم أبيه الأسلت: عامر بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس.

وكذا نسبه ابن الكلبي أيضاً.

وكان شاعراً لهم قائداً يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق.

قلت: وأبو قيس بن الأسلت هذا ذكر له ابن إسحاق أشعاراً ربانية حسنة تقرب من أشعار أمية بن أبي الصلت الثقفي.

قال ابن إسحاق فيما تقدم [سيرة ابن هشام: ٢٨٢/١]: ولما انتشر أمر رسول الله ﷺ في العرب وبلغ البلدان ذكر بالمدينة ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ - حين ذكر، وقبل أن يذكر - من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود. فلما وقع أمره بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف قال أبو قيس بن الأسلت أخو بني واقف.

٨٠- إسلام أبي قيس بن الأسلت

قال السهيلي [في الروض الأنف: ٣٨٩/٤]: هو أبو قيس صرمة بن أبي أنس واسم أبي أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عمرو بن غنم بن عدي بن النجار، قال: وهو الذي أنزل فيه وفي عمر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٣/١ - ٢٨٦]: وكان يحب قريشاً، وكان لهم صهراً. كانت تحته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي وكان يقيم عندهم السنين بامرأته.

قال قصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريشاً فيها عن الحرب ويذكر فضلهم وأحلامهم ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ:

أيا راكباً إما عرضت فبلغن ... مغلغلةً عني لؤي بن غالب
رسول امرئ قد راعه ذات بينكم ... على النأي محزون بذلك ناصب
وقد كان عندي للهموم معرس ... ولم أقض منها حاجتي ومآربي
نبيتكم شرجين كل قبيلة ... لها أزمل من بين مذك وحاطب
أعيذكم بالله من شرّ صنعكم ... وشر تباغيكم ودس العقارب
وإظهار أخلاق ونجوى سقيمة ... كوخز الأشافي وقعها حق صائب
فذكرهم بالله أول وهلة ... وإحلال إحرام الظباء الشوازب
وقل لهم والله يحكم حكمه ... ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحب
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... هي الغول للأقصين أو للأقارب
تقطع أرحاماً وتهلك أمة ... وتبري السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأتحمية بعدها ... شليلاً وأصداء ثياب المحارب

وبالمسك والكافور غبراً سوابغاً ... كأنَّ قتيريها عيون الجنادب
فإياكم والحرب لا تعلقنكم ... وحوضاً وخيم الماء مر المشارب
تزين للأقوام ثم يرونها ... بعاقبة إذ بينت أم صاحب
تحرق لا تشوي ضعيفاً وتنتحي ... ذوي العزّ منكم بالحتوف الصوائب
ألم تعلموا ما كان في حرب داحس ... فتعتبروا أو كان في حرب حاطب
وكم قد أصابت من شريف مسود ... طويل العماد ضيفه غير خائب
عظيم رماد النار يحمد أمره ... وذي شيمة محض كريم المضارب
وماء هريق في الضلال كأنما ... أذاعت به ريح الصبا والجنائب
يخبركم عنها امرؤ حق عالم ... بأيامها والعلم علم التجارب
فبيعوا الحراب ملمحارب واذكروا ... حسابكم والله خير محاسب
وليُّ امرئ فاختار ديناً فلا يكن ... عليكم رقيب غير رب الثواقب
أقيموا لنا ديناً حنيفاً فأنتمُ ... لنا غاية قد يُهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة ... تؤمون والأحلام غير عوازب
وأنتم إذا ما حُصِّل الناس جوهر ... لكم سرة البطحاء شم الأرانب
تصونون أجساداً كراماً عتيقة ... مهذبة الأنساب غير أشائب
ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم ... عصائب هلكى تهتدي بعصائب
لقد علم الأقوام أن سراتكم ... على كل حال خير أهل الجباجب
وأفضله رأياً وأعلاه سنةً ... وأقوله للحق وسط المواكب
فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء ومَصْدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالسهل تُمسي ورَجْلُه ... على القاذفات في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم ... جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب ... إلى أهله مِلْحُبْش غير عصائب
فإن تهلكوا نهلك وتهلك مواسم ... يعاش بها قول امرئ غير كاذب

وحرب داحس الذي ذكرها أبو قيس في شعره كانت في زمن الجاهلية مشهورة، وكان سببها فيما ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى وغيره: أن فرساً يقال له: داحس كانت لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة الغطفاني. أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو بن جؤية الغطفاني أيضاً يقال لها: الغبراء، فجاءت داحس سابقاً فأمر حذيفة من ضرَب وجهه فوثب مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء، فقام حمل بن بدر فلطم مالكاً، ثم إن أبا جنيدب العبسي لقي عوف بن حذيفة فقتله، ثم لقي رجل من بني فزارة مالكاً فقتله، فشبت الحرب بين بني عبس وفزارة فقتل حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر وجماعات آخرون، وقالوا في ذلك أشعاراً كثيرة يطول بسطها وذكرها.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢٨٧/١]: ويقال: أرسل قيس داحساً والغبراء وأرسل حذيفة الخطار والحنفاء، والأول أصح.

قال: وأما حرب حاطب فيعني حاطب بن الحارث بن قيس بن هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. كان قتل يهودياً جاراً للخزرج، فخرج إليه يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن مالك بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ـ وهو الذي يقال له: ابن فسحم ـ في نفر من بني الحارث بن الخزرج فقتلوه فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان الظفر للخزرج، وقتل يومئذ الأسود بن الصامت الأوسي، قتله المجذر بن ذياد حليف بني عوف بن الخزرج، ثم كانت بينهم حروب يطول ذكرها أيضاً.

والمقصود أن أبا قيس بن الأسلت مع علمه وفهمه لم ينتفع بذلك حين قدم مصعب بن عمير المدينة ودعا أهلها إلى الإسلام، فأسلم من أهلها بشر كثير ولم يبق دار ـ أي محلة ـ من دور المدينة إلا وفيها مسلمون ومسلمات غير دار بني واقف قبيلة أبي قيس ثبطهم عن الإسلام وهو القائل أيضاً:

أربُّ الناس أشياء ألمت ... يلف الصعب منها بالذلول
أربَّ الناس إما إن ضللنا ... فيسرنا لمعروف السبيل
فلولا ربنا كنا يهوداً ... وما دين اليهود بذي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنا خُلقنا إذ خُلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل جيل
نسوق الهدي ترسف مذعنات ... مكشفة المناكب في الجلول

وحاصل ما يقول أنه حائر فيما وقع من الأمر الذي قد سمعه من بعثة رسول الله ﷺ فتوقف الواقفي في ذلك مع علمه ومعرفته وكان الذي ثبطه عن الإسلام أولاً عبد الله بن أبي بن سلول بعد ما أخبره أبو قيس أنه الذي بشر به يهود فمنعه عن الإسلام

قال ابن إسحاق: ولم يسلم إلى يوم الفتح هو وأخوه وَحْوَج. [ذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٤٠/٣].

وأنكر الزبير بن بكار أن يكون أبو قيس أسلم [انظر أسد الغابة: ٤٠/٣، ٤١].

وكذا الواقدي، قال: كان عزم على الإسلام أول ما دعاه رسول الله ﷺ، فلامه عبد الله بن أبي فحلف لا يسلم إلى حول فمات في ذي القعدة [طبقات ابن سعد: ٣٨٥/٤].

وقد ذكر غيره فيما حكاه ابن الأثير في كتابه «أسد الغابة» [٢٥٧/٦] أنه لما حضره الموت دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فسُمع يقول: لا إله إلا الله.

وقال الإمام أحمد [١٥٤/٣]: حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من الأنصار، فقال: «يا خال قل: لا إله إلا الله» فقال: أخال أم عم؟ قال: «بل خال» قال: فخير لي أن أقول: لا إله إلا الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم!» تفرد به أحمد رحمه الله.

وذكر عكرمة وغيره أنه لما توفي أراد ابنه أن يتزوج امرأته كبيشة بنت معن بن عاصم، فسألت رسول الله ﷺ في ذلك فأنزل الله ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] الآية [انظر تفسير الطبري: ٣١٨/٤].

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٠/١]: وسعيد بن يحيى الأموي في «مغازيه»: كان أبو قيس هذا قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب. وقال: أعبد إله إبراهيم حين فارق الأوثان وكرهها، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم فحسن إسلامه، وهو شيخ كبير وكان قوالاً بالحق معظماً لله في جاهليته يقول في ذلك أشعاراً حساناً وهو الذي يقول:

يقول أبو قيس وأصبح غادياً ... ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرئاسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن ناب غرم فادح فارفقوهم ... وما حمّلوكم في الملمات فاحملوا
وإن أنتم أمعرتم فتعففوا ... وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

وقال أبو قيس أيضاً:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان جميعاً ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال
وله الوحش بالفلاة تراها ... في حقاف وفي ظلال الرمال
وله هودت يهود ودانت ... كل دين مخافة من عضال
وله شمّس النصارى وقاموا ... كل عيد لربهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه ... رهن بؤس وكان ناعمَ بال
يا بنيّ الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... وبما يستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم ولياً ... عالماً يهتدي بغير سؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه ... إن مال اليتيم يرعاه والي
يا بني التخوم لا تخزلوها ... إن خزل التخوم ذو عقال
يا بني الأيام لا تأمنوها ... واحذروا مكرها ومر الليالي
واعلموا أن مرّها لنفاد ... الخلق ما كان من جديد وبالي
واجمعوا أمركم على البر والتقوى ... وترك الخنا وأخذ الحلال

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥١٢]: وقال أبو قيس صرمة أيضاً يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام، وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عندهم:

ثوى في قريش بضعَ عشرةَ حجّةً ... يذكّر لو يَلقى صَديقاً مُواتيا

وسيأتي ذكرها بتمامها فيما بعد إن شاء الله وبه الثقة.

٨١- قصة بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٨ - ٤٤١]: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيّه وإعزاز الإسلام وأهله. فحدثني معبد بن كعب بن مالك أن أخاه عبد الله بن كعب - وكان من أعلم الأنصار - حدثه أن أباه كعباً حدثه - وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها - قال: خرجنا في حجّاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء: يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً والله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني الكعبة - وأن أصلي إليها قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه. فقال: إني لمصل إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلّينا إلى الشام وصلّى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة.

قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا فإنه قد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه.

قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ - وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك - فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ قال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم! وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس قال: فدخلنا المسجد وإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلّمنا ثم جلسنا إليه.

فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم! فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا قد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ فصلى معنا إلى الشام، قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا نحن أعلم به منهم.

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً.

وقد روى البخاري [(٣٨٩١)]: حدّثني إبراهيم حدّثنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال عطاء: قال جابر: أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة.

قال عبد الله بن محمد: قال ابن عيينة: أحدهما البراء بن معرور.

حدّثنا علي بن المديني حدّثنا سفيان قال: كان عمرو يقول: سمعت جابر بن عبد الله يقول: شهد بي خالاي العقبة. [خ (٣٨٩٠)]

وقال الإمام أحمد [٣/٣٢٢، ٣٢٣]: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر. قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويُخاف؟ فرحل

إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة».

فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - وفي رواية البيهقي [الدلائل: ٢/٤٤٢، ٤٤٣]: وهو أصغر السبعين إلا أنا - فقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة. فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. قالوا: أمِط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً.

قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة.

وقد رواه الإمام أحمد أيضاً [٣/٣٢٣] والبيهقي [في الدلائل: ٢/٤٤٣، ٤٤٤] من طريق داود بن عبدالرحمن العطار، زاد البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٤٣ - ٤٤٥] عن الحاكم بسنده: إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير به نحوه.

وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه.

وقال البزار [كشف الأستار: ٢/٣٠٨]: ورواه غير واحد عن ابن خثيم ولا نعلمه يُروى عن جابر إلا من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣/٣٩٦]: حدّثنا سليمان بن داود حدّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير عن جابر. قال: كان العباس آخذاً بيد رسول الله ﷺ ورسوله الله يواثقنا، فلما فرغنا قال رسول الله ﷺ: «أخذت وأعطيت».

وقال البزار [كشف الأستار: ٢/٣٠٧]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا قبيصة حدّثنا سفيان - هو الثوري - عن جابر - يعني الجعفي - وداود - هو ابن أبي هند - عن الشعبي عن جابر - يعني ابن عبد الله - قال قال رسول الله ﷺ للنقباء من الأنصار: «تؤووني وتمنعوني؟» قالوا: نعم قالوا: فما لنا؟ قال: «الجنة».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد عن جابر.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤١ - ٤٤٣] عن معبد عن عبد الله عن أبيه كعب بن مالك. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع.

وقد صرح ابن إسحاق [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٥٥] في رواية يونس بن بكير عنه بأسمائهم وأنسابهم.

قلت: وما ورد في بعض الأحاديث أنهم كانوا سبعين، فالعرب كثيراً ما تحذف الكسر.

وقال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة [عنهما بإسنادين أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٥٣، ٤٥٤]: كانوا سبعين رجلاً وامرأة واحدة، قال: منهم أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم قال: وأصغرهم أبو مسعود

وجابر بن عبد الله.

وقول محمد بن إسحاق أنهم خمسة وسبعون أثبت. والله أعلم.

قال كعب بن مالك: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العبّاس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمّداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مّما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول - والبراء يكلّم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلكُ ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. [سيرة ابن هشام: ١/٤٤١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤٣، ٤٤٤]: وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة - المتقدم - وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، ورافع بن مالك بن العجلان - المتقدم - والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، وعبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، وعبادة بن الصامت - المتقدم - وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج.

فهؤلاء تسعة من الخزرج ومن الأوس ثلاثة وهم: أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن

مالك بن الأوس.

قال ابن هشام [في السيرة: ٤٤٥]: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيّهان بدل رفاعة هذا.

وهو كذلك في رواية يونس عن ابن إسحاق [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٤٨].

واختاره السهيلي [في الروض الأنف: ٤/٩٤، ٩٥] وابن الأثير في «الغابة» [٦/٢٣٢].

ثم استشهد ابن هشام [في السيرة: ١/٤٤٥] على ذلك بما رواه عن أبي زيد الأنصاري فيما ذكره من شعر كعب بن مالك في ذكر النقباء الاثني عشر هذه الليلة - ليلة العقبة الثانية - حين قال:

فأبلغ أبيّاً أنه فال رأيه ... وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى اللّه ما منتك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا ... بأحمد نور من هدى اللّه ساطع
فلا ترغبن في حشد أمر تريده ... وألب وجمع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تتابعوا
أباه البراء وابن عمرو كلاهما ... وأسعد يأباه عليك ورافع
وسعد أباه الساعدي ومنذر ... لأنفك إن حاولت ذلك جادع
وما ابن ربيع إن تناولت عهده ... بمسلمه لا يطمعن ثم طامع
وأيضاً فلا يعطيكه ابن رواحة ... وإخفاره من دونه السم ناقع
وفاء به والقوقلي بن صامت ... بمندوحة عما تحاول يافع
أبو هيثم أيضاً وفي بمثلها ... وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع ... فهل أنت عن أحموقة الغي نازع
وسعد أخو عمرو بن عوف فإنه ... ضروح لما حاولت ملأمر مانع
أولاك نجوم لا يغبك منهم ... عليك بنحس في دجى الليل طالع

قال ابن هشام [في السيرة: ١/٤٤٥]: فذكر فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة

قلت: وذكر سعد بن معاذ وليس من النقباء بالكلية في هذه الليلة.

وروى يعقوب بن سفيان [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٥٣] عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن مالك. قال: كان الأنصار ليلة العقبة سبعون رجلاً، وكان نقباؤهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وحدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة وكان أسيد بن حضير أحد النقباء تلك الليلة. رواه البيهقي.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤٦]: فحدثني عبد اللّه بن أبي بكر أن رسول اللّه ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي» قالوا: نعم!.

وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول اللّه ﷺ قال العبّاس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم! قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه فمن الآن فهو واللّه - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو واللّه خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول اللّه إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة» قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه.

قال عاصم بن عمر بن قتادة: وإنما قال العبّاس بن عبادة ذلك ليشد العقد في أعناقهم.

وزعم عبد اللّه بن أبي بكر أنه إنما قال ذلك ليؤخر البيعة تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد اللّه بن أُبي بن سلول سيد الخزرج ليكون أقوى لأمر القوم، فاللّه أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤٧]: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده. وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٧٧]: وحدثني معبد بن كعب عن أخيه عبد اللّه عن أبيه كعب بن مالك قال: فكان أول من ضرب على يد رسول اللّه ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع القوم.

وقال ابن الأثير في «أسد الغابة» [٥/١٤]: وبنو سلمة يزعمون أن أول من بايعه ليلتئذ كعب بن مالك.

وقد ثبت في «صحيح» البخاري [(٣٨٨٩)] ومسلم [(٢٧٦٩)] من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن كعب عن أبيه عن كعب بن مالك في حديثه حين تخلف عن غزوة تبوك. قال: ولقد شهدت مع رسول اللّه ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكَرَ في الناس منها.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٥٠، ٤٥١]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا عمرو بن السماك حدّثنا حنبل بن إسحاق حدّثنا أبو نعيم حدّثنا زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي. قال: انطلق رسول اللّه ﷺ مع العبّاس عمّه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم».

فقال قائلهم - وهو أبو أمامة -: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت. ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على اللّه وعليكم إذا فعلنا ذلك.

قال: «أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «لكم الجنة» قالوا: فلك ذلك.

ثم رواه حنبل [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٥١] عن الإمام أحمد عن يحيى بن زكريا عن مجالد عن الشعبي عن أبي مسعود الأنصاري فذكره قال: وكان أبو مسعود أصغرهم.

وقال أحمد [في المسند: ٤/١٢٠]: عن يحيى عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: فما سمع الشيب والشبان خطبة مثلها. وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٥١، ٤٥٢]: أخبرنا أبو طاهر محمّد بن محمّد بن محمش أخبرنا محمّد بن إبراهيم بن الفضل الفحام أخبرنا محمد بن يحيى الذهلي أخبرنا عمرو بن عثمان الرقي حدّثنا زهير حدّثنا عبد اللّه بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد اللّه بن رفاعة عن أبيه قال: قدمت روايا خمر، فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها وقال: إنا بايعنا رسول اللّه ﷺ على

السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب بما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة. فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها.

وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه.

وقد روى يونس عن ابن إسحاق: حدّثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده عبادة بن الصامت. قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم. [الدلائل للبيهقي: ٢/٤٥٢]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤٧، ٤٤٨] في حديثه عن معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن كعب بن مالك. قال: فلمّا بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط؟ يا أهل الجباجب: - والجباجب المنازل - هل لكم في مذمّم والصُّباة معه قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزبُ العقبة، هذا ابن أزْيب».

قال ابن هشام: ويقال: ابن أُزَيب. «أتسمع أي عدو الله؟ أما والله لأتفرغن لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم» قال: فقال العبّاس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم». قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا.

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا. وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون: ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال: وصدقوا لم يعلموا، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان له جديدان، قال: فقلت له كلمة - كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا - يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعليْ هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي. قال: والله لتنتعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه. قال: قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنّه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٤٨ - ٤٥٠]: وحدّثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أُبي بن سلول فقالوا مثل ما ذكر كعب من القول فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا وما علمته كان. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونفر الناس من منى فتنطس القوم الخبر فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وكلاهما كان نقيباً.

فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمّته - وكان ذا شعر كثير - قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من الرجال، فقلت في نفسي إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن معهم. فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي. وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، فقال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، قال: ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح ليهتف بكما.

قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلق وكان الذي لكَم سعداً سهيل بن عمرو.

قال ابن هشام [في السيرة: ١/٤٥٠]: وكان الذي أوى له أبو البختري بن هشام.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٢٨، ٤٢٩] بسنده عن عبد الحميد بن أبي عبس بن جبر عن أبيه قال: سمعت قريش قائلاً يقول في الليل على أبي قبيس:

فإن يُسْلِم السَّعدانِ يصبح محمدٌ ... بمكةَ لا يخشى خِلافَ الْمُخَالِف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السعدان؟ أسعد بن بكر أم سعد بن هذيم؟ فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول:

أيا سعدُ سعدَ الأوسِ كُن أنتَ ناصراً ... ويا سعدُ سعدَ الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا ... على اللهِ في الفردوسِ مُنيةَ عارف

فإنَّ ثوابَ اللهِ للطالبِ الهدى ... جنانٌ من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة

٨٢- قصة عمرو بن الجموح

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٥٢]: فلما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها. وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم: عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنماً من خشب في داره يقال له: مناة كما كانت الأشراف يصنعون يتخذه إلهاً يعظمه ويطهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة؛ ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدَوا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه.

ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدَوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن ... أنتَ وكلبٌ وسطَ بئرٍ في قَرَن

افٍ لملقاكَ إلهاً مستدَنْ ... الآن فتّشناك عن سوء الغَبَن

الحمدُ للّه العلي ذي المِنَن ... الواهبِ الرزاقِ ديانِ الدِّيَن

هو الذي أنقذني من قبلِ أن ... أكونَ في ظُلمةِ قبرٍ مرتهن

٨٣- فصل يتضمن أسماء من شهد بيعة العقبة الثانية

وجملتهم على ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٤/١ - ٤٦٧] ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فمن الأوس أحد عشر رجلاً؛ أسيد بن حضير أحد النقباء، وأبو الهيثم بن التيهان بدري أيضاً، وسلمة بن سلامة بن وقش بدري أيضاً، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن نيار بدري، ونهير بن الهيثم بن نابي بن مجدعة بن حارثة، وسعد بن خيثمة أحد النقباء بدري وقتل بها شهيداً ورفاعة بن عبد المنذر بن زُنْبر نقيب بدري، وعبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن البرك بدري، وقتل يوم أحد شهيداً أميراً على الرماة، ومعن بن عدي بن الجد بن عجلان بن الحارث بن ضبيعة البلوي حليف للأوس شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة شهيداً، وعويم بن ساعدة شهد بدراً وما بعدها.

ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً؛ أبو أيوب خالد بن زيد وشهد بدراً وما بعدها ومات بأرض الروم زمن معاوية شهيداً، ومعاذ بن الحارث وأخواه عوف ومعوذ وهم بنو عفراء بدريون، وعمارة بن حزم شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة، وأسعد بن زرارة أبو أمامة أحد النقباء مات قبل بدر، وسهل بن عتيك بدري، وأوس بن ثابت بن المنذر بدري، وأبو طلحة زيد بن سهل بدري، وقيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن كان أميراً على الساقة يوم بدر، وعمرو بن غزية، وسعد بن الربيع أحد النقباء شهد بدراً وقتل يوم أحد.

وخارجة بن زيد شهد بدراً وقتل يوم أحد، وعبد الله بن رواحة أحد النقباء شهد بدراً وأحداً والخندق، وقتل يوم مؤتة أميراً، وبشير بن سعد بدري، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الذي أرى النداء وهو بدري، وخلاد بن سويد بدري أُحُدي خندقي وقتل يوم بني قريظة شهيداً طرحت عليه رحى فشدخته فيقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر شهيدين».

وأبو مسعود عقبة بن عمرو البدري - قال ابن إسحاق: وهو أحدث من شهد العقبة سناً ولم يشهد بدراً - وزياد بن لبيد بدري، وفروة بن عمرو بن ودفة بدري، وخالد بن قيس بن مالك بدري، ورافع بن مالك أحد النقباء، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق، وهو الذي يقال له: مهاجرّي أنصاريّ لأنه أقام عند رسول الله ﷺ بمكة حتى هاجر منها وهو بدري قتل يوم أحد.

وعباد بن قيس بن عامر بن خالد بن عامر بن زريق بدري، وأخوه الحارث بن قيس بن عامر بدري أيضاً، والبراء بن معرور أحد النقباء وأول من بايع فيما تزعم بنو سلمة وقد مات قبل مقدم النبي ﷺ المدينة وأوصى له بثلث ماله فرده رسول الله ﷺ على ورثته، وابنه بشر بن البراء وقد شهد بدراً وأحداً والخندق ومات بخيبر شهيداً من أكله مع رسول الله ﷺ من تلك الشاة المسمومة رضي الله عنه.

وسنان بن صيفي بن صخر بدري، والطفيل بن النعمان بن خنساء بدري، قتل يوم الخندق، ومعقل بن المنذر بن سرح بدري، وأخوه يزيد بن المنذر بدري ومسعود بن زيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بدري، ويزيد بن خذام بن سبيع، وجبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد بدري، والطفيل بن مالك بن خنساء بدري، وكعب بن مالك، وسليم بن عمرو بن حديدة بدري وقطبة بن عامر بن حديدة بدري، وأخوه أبو المنذر يزيد بدري أيضاً، وأبو اليسر كعب بن عمرو بدري، وصيفي بن سواد بن عباد، وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي بدري واستشهد بالخندق، وأخوه عمرو بن غنمة بن عدي، وعبس بن عامر بن عدي بدري، وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي، وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة.

وعبد الله بن عمرو بن حرام أحد النقباء بدري واستشهد يوم أحد، وابنه جابر بن عبد الله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح بدري وثابت بن الجذع بدري وقتل شهيداً بالطائف، وعمير بن الحارث بن ثعلبة بدري، وخديج بن سلامة حليف لهم من بليّ، ومعاذ بن جبل شهد بدراً وما بعدها ومات بطاعون عمواس في خلافة عمر بن الخطاب وعبادة بن الصامت أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها.

والعباس بن عبادة بن نضلة وقد أقام بمكة حتى هاجر منها فكان يقال له: مهاجريّ أنصاريّ أيضاً وقتل يوم أحد شهيداً، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم حليف لهم من بليّ، وعمرو بن الحارث بن لبدة، ورفاعة بن عمرو بن زيد بدري، وعقبة بن وهب بن كلدة حليف لهم بدري وكان ممن خرج إلى مكة فأقام بها حتى هاجر منها فهو ممن يقال له: مهاجريّ أنصاريّ أيضاً، وسعد بن عبادة بن دليم أحد النقباء، والمنذر بن عمرو نقيب بدري أحدي وقتل يوم بئر معونة أميراً وهو الذي يقال له: أعنق ليموت.

وأما المرأتان: فأم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار المازنية النجارية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٨/١]: وقد كانت شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت معها أختها وزوجها زيد بن عاصم بن كعب، وابناها حبيب وعبد الله، وابنها حبيب هذا هو الذي قتله مسيلمة الكذاب حين جعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يديه لا يزيده على ذلك، فكانت أم عمارة ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مسيلمة ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً من بين طعنة وضربة رضي الله عنها وأرضاها.

والأخرى أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن

سواد بن غنم بن كعب بن سلمة رضي الله عنها.

٨٤- بدء الهجرة من مكة إلى المدينة

قال الزهري عن عروة عن عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين رواه البخاري [(٢٢٩٧)].

وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب».

وهذا الحديث قد أسنده البخاري في مواضع أخر بطوله [(٣٦٢٢)].

ورواه مسلم [(٢٢٧٢)] كلاهما عن أبي كريب.

زاد مسلم: وعبد الله بن برّاد كلاهما عن أبي أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن جده أبي بردة عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ الحديث بطوله.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [في الدلائل: ٤٥٨/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ إملاءً أخبرنا أبو العبّاس القاسم بن القاسم السياري بمرو حدّثنا إبراهيم بن هلال حدّثنا علي بن الحسن بن شقيق حدّثنا عيسى بن عبيد الكندي عن غيلان بن عبد الله العامري عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير أن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليّ: أي هؤلاء البلاد الثلاث نزلت فهي دار هجرتك؛ المدينة أو البحرين، أو قنّسرين».

قال أهل العلم: ثم عزم له على المدينة فأمر أصحابه بالهجرة إليها.

هذا حديث غريب جداً.

وقد رواه الترمذي في المناقب من «جامعه» [(٣٩٢٣)] منفرداً به عن أبي عمّار الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عيسى بن عبيد عن غيلان بن عبد الله العامري عن أبي زرعة بن عمر بن جرير عن جرير. قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ: أي هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك؛ المدينة، أو البحرين، أو قنسرين». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الفضل تفرّد به أبو عمّار.

قلت: وغيلان بن عبد الله العامري هذا ذكره ابن حبان في «الثقات» [٣١١/٧] إلا أنه قال: روى عن أبي زرعة حديثاً منكراً في الهجرة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٧/١، ٤٦٨]: لما أذن الله تعالى في الحرب بقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠] الآية. فلما أذن الله في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له، ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

فخرجوا أرسالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم، أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة حين آذته قريش مرجعه من الحبشة فعزم على الرجوع إليها ثم بلغه أن بالمدينة لهم إخواناً فعزم إليها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٩/١، ٤٧٠]: فحدثني أبي عن سلمة عن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدّته أم سلمة قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره ثم حملني عليه وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرّق بيني وبين ابني وبين زوجي. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريباً منها - حتى مرّ بي رجل من بني عمّي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: فرد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله.

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وابني هذا، فقال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله ثم استأخر عني وقال: اركبي فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعاً إلى مكّة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

أسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معاً، وقتل يوم أحد أبوه وإخوته؛ الحارث وكلاب ومسافع، وعمه عثمان بن أبي طلحة. ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمّه شيبة والد بني شيبة مفاتيح الكعبة أقرها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٠/١، ٤٧١]: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة العدوية ثم عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن

صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بني أمية بن عبد شمس احتمل بأهله وبأخيه عبد بن أبي أحمد - اسمه عبد كما ذكره ابن إسحاق وقيل: ثمامة. قال السهيلي [الروض الأنف: ١٦٢/٤]: والأول أصح - وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم. فغُلِقت دار بني جحش هجرة، فمرّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يباباً ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء وقال:

وكلُّ دارٍ وإن طالتْ سلامتها ... يوماً ستدركُها النُّكباء والحُوبُ

قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي داود الإيادي في قصيدة له.

قال السهيلي [الروض الأنف: ١٦٣/٤]: واسم أبي داود حنظلة بن شرقي وقيل: جارية. ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قل بن قل ثم قال - يعني للعباس - هذا من عمل ابن أخيك هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧١/١ - ٤٧٤]: فنزل أبو سلمة وعامر بن ربيعة وبنو جحش بقباء على مبشر بن عبد المنذر ثم قدم المهاجرون أرسالاً قال: وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة هجرة رجالهم ونساؤهم عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو وربيعة بن أكثم. والزبير بن عبيدة، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجدامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم.

قال أبو أحمد بن جحش في هجرتهم إلى المدينة:

ولما رأتني أم أحمد غادياً ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لا بد فاعلاً ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها ما يثرب بمظنة ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقم ... إلى الله يوماً وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وتراً نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابٌ لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين أما منهما فموفق ... على الحق مهدي وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة ... ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب
فأي ابن أخت بعدنا يأمنتكم ... وأية صهر بعد صهري ترقب

ستعلم يوماً أينا إذ تزيلوا ... وزيل أمر الناس للحق أصوب

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٤/١ - ٤٧٦]: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة حتى قدما المدينة. فحدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه. قال: اتَّعدت لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص؛ التناضب من أضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحبس هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلّماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: فقال: أبر قسم أمي ولي هنالك مال فآخذه قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه قال: بلى. فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطاً، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال عمر: فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة. وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ. وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

قال عمر: فكتبتها وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت: اللهم فهمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

وذكر ابن هشام [في السيرة: ٤٧٦/١] أن الذي قدم بهشام بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة إلى المدينة؛ الوليد بن الوليد بن المغيرة سرقهما من مكة وقدم بهما يحملهما على بعيره وهو ماش معهما، فعثر فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبعٌ دَميتِ ... وفي سبيل الله ما لَقيتِ

وقال البخاري [(٣٩٢٤)]: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبه أنبأنا أبو إسحاق سمع البراء. قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار وبلال.

وحدثني [القائل البخاري: ٣٩٢٥] محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء بن عازب. قال: أول من قدم علينا

مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ثم قدم النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ: فما قدم حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور من المفصل.

ورواه مسلم في «صحيحه» من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب بنحوه.

وفيه التصريح بأن سعد بن أبي وقاص هاجر قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة.

وقد زعم موسى بن عقبة عن الزهري أنه إنما هاجر بعد رسول الله ﷺ [البيهقي في الدلائل: ٢/٤٦١].

والصواب ما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٧٦، ٤٧٧]: ولما قدم عمر بن الخطاب المدينة هو ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمي زوج ابنته حفصة وابن عمّه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وواقد بن عبد الله التميمي حليف لهم وخولي بن أبي خولي ومالك بن أبي خولي حليفان لهم من بني عجل وبنو البكير إياس وخالد وعاقل وعامر وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، فنزلوا على رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر في بني عمرو بن عوف بقباء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٧٧]: ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم فنزل طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسنح. ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة.

قال ابن هشام [في السيرة: ١/٤٧٧]: وذكر لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقد قال البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٢٢، ٥٢٣]: حدّثنا الحافظ أبو عبد الله - إملاء - أخبرنا أبو العبّاس إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال أخبرنا عبدان الأهوازي حدّثنا زيد بن الحريش حدّثنا يعقوب بن محمد الزهري حدّثنا حصين بن حذيفة بن صيفي بن صهيب حدّثني أبي وعمومتي عن سعيد بن المسيب عن صهيب. قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر أو تكون يثرب».

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه - ولم أكن شاكياً - فناموا. فخرجت ولحقني منهم ناس بعد ما سرت بريداً ليردوني فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي وتوفوا لي ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين.

وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحوّل منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع». ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٧٨]: ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن الحصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة، وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف بقباء، وقيل: على سعد بن خيثمة، وقيل: بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة والله أعلم.

قال: ونزل عبيدة بن الحارث وأخواه الطّفيل وحصين ومسطح بن أثاثة وسويبط بن سعد بن حريملة أخو بني عبد الدار وطليب بن عمير أخو بني عبد بن قصي وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخي بلعجلان بقباء ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبي رهم على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة دار بني جحجبي ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ ونزل أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولاه على - شك ابن إسحاق، وقال الأموي: على خبيب بن إساف أخي بني حارثة - ونزل عتبة بن غزوان على عباد بن بشر بن وقش في بني عبد الأشهل، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٠]: ونزل العُزّاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزباً والله أعلم أي ذلك كان.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٣/٢٧٣]: حدّثني أحمد بن أبي بكر بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف حدّثنا عبد العزيز بن محمد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه قال: قدمنا من مكة فنزلنا العصبة، عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة. فكان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً.

٨٥- سبب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء أن يجعل له مما هو فيه فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة النبوية حيث الأنصار والأحباب، فصارت له داراً وقراراً، وأهلها له أنصاراً.

قال أحمد بن حنبل [١/٢٢٣] وعثمان بن أبي شيبة [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٥١٦] عن جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ بمكة، فأمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

قال قتادة: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: الهجرة من مكة ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: كتاب الله وفرائضه وحدوده.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٠]: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة

فيقول له: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكونه.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٠/١ - ٤٨٣]: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر عن عبد الله بن عباس. وغيره ممن لا أتهم عن عبد الله بن عباس. قال: لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ جليل عليه تبٌّ له فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل فادخل.

فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش: عتبة وشيبة وأبو سفيان وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم بن عدي والحارث بن عامر بن نوفل والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف ومن كان منهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم - قيل: إنه أبو البختري بن هشام - : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً. فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال: يقول الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل هذا الرأي ولا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق قد رواها الواقدي [عنه أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٢٢٧/١] بأسانيده عن عائشة وابن عباس وعلي وسراقة بن مالك بن جعشم وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض فذكر نحو ما تقدم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٣/١]: فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي. قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل قال، وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك أنت أحدهم» وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩].

ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته! أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٤/١]: فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا اجمعوا له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠ - ٣١].

قال ابن إسحاق: فأذن الله لنبيه ﷺ عند ذلك بالهجرة.

٨٦- هجرة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق

وذلك أول التاريخ الإسلامي كما اتفق عليه الصحابة في الدولة العمرية كما بيناه في سيرة عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

قال البخاري [(٣٩٠٢)]: حدثنا مطر بن الفضل حدثنا روح حدثنا هشام حدثنا عكرمة عن ابن عباس. قال: بعث النبي ﷺ لأربعين سنة،

فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام وذلك في يوم الاثنين.

كما رواه الإمام أحمد [١/٢٧٧] عن ابن عباس أنه قال: ولد نبيكم يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٤]: وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له: «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً»؛ قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه، فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

قال الواقدي: اشتراهما بثمانمائة درهم [الطبقات لابن سعد: ١/٢٢٨ عن الواقدي].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٤، ٤٨٥]: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث!.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج عني من عندك» قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة».

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة» قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي. ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أرقط - قال ابن هشام [في السيرة: ١/٤٨٨]: ويقال: عبد الله بن أريقط. رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٥]: ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر، وأما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٥]: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته.

وقد روى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق. قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله يريد المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً، اللهم أعني على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري. واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني ولك فذللني. وعلى صالح خلقي فقومني، وإليك رب فحببني، وإلى الناس فلا تكلني، رب المستضعفين وأنت ربي أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل علي غضبك، وتنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك. لك العتبى عندي خير ما استطعت، لا حول ولا قوة إلا بك». [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٢٣٤)].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٥، ٤٨٦]: ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار. فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا. فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفي عليه.

وسيأتي في سياق البخاري ما يشهد لهذا.

وقد حكى ابن جرير [في تاريخه: ٢/٣٧٤] عن بعضهم أن رسول الله ﷺ سبق الصديق في الذهاب إلى غار ثور، وأمر علياً أن يدله على مسيره ليلحقه، فلحقه في أثناء الطريق. وهذا غريب جداً وخلاف المشهور من أنهما خرجا معاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٦، ٤٨٧]: وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، قالت أسماء: ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٨]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه عن جدته أسماء قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم - أو ستة آلاف درهم - فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة -وقد ذهب بصره- فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وقال ابن هشام [في السيرة: ١/٤٨٦]: وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري. قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية، يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

وهذا فيه انقطاع من طرفيه.

وقد **قال** أبو القاسم البغوي [عنه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣٠/٨١] حدثنا داود بن عمرو الضبي حدثنا نافع بن عمر الجمحي عن

ابن أبي مليكة: أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرّة، وخلفه مرّة. فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك. حتى إذا انتهى إلى الغار من ثور قال أبو بكر: كما أنت حتى أدخل يدي فأحسّه وأقصّه فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك.

قال نافع: فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ.

وهذا مرسل. وقد ذكرنا له شواهد أخر في سيرة الصديق رضي الله عنه.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٧٦/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق أنا موسى بن الحسن بن عباد حدّثنا عفان بن مسلم حدّثنا السري بن يحيى حدّثنا محمّد بن سيرين. قال: ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر. فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه. حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم! والذي بعثك بالحق.

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ. فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل. ثم قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٤٧٦/٢، ٤٧٧] من وجه آخر عن عمر وفيه: أن أبا بكر جعل يمشي بين يدي رسول الله ﷺ تارة، وخلفه أخرى، وعن يمينه وعن شماله. وفيه: أنه لما حفيت رجلا رسول الله ﷺ حمله الصديق على كاهله، وأنه لما دخل الغار سدد تلك الأجحرة كلها وبقي منها جحر واحد، فألقمه كعبه فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل. فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».

وفي هذا السياق غرابة ونكارة.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٨٠/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصمّ حدّثنا عبّاس الدوري حدّثنا أسود بن عامر شاذان حدّثنا إسرائيل عن الأسود عن جندب بن عبد الله. قال: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر فقال:

إنْ أنتِ إلا أصبعٌ دَميتِ وفي سبيلِ اللهِ ما لَقيتِ

وقال الإمام أحمد [٣٤٨/١]: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات عليٌ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ. فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم. فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري. فاقتصُّوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد القاضي في «مسند أبي بكر» [(٧٣)]: حدّثنا بشّار الخفّاف حدّثنا جعفر بن سليمان حدّثنا أبو عمران الجوني حدّثنا المعلى بن زياد عن الحسن البصري. قال: انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار. وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا».

وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن بحاله من الشاهد، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار.

وقد كان عليه السلام إذا حزَبَه أمر صلى.

وروى هذا الرجل - أعني أبا بكر أحمد بن علي القاضي - عن عمرو الناقد عن خلف بن تميم عن موسى بن مطير عن أبيه عن أبي هريرة أن أبا بكر قال لابنه: يا بني إذا حدث في الناس حدث فأت الغار الذي اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه فإنه سيأتيك رزقك فيه بكرة وعشياً.

وقد نظم بعضهم هذا في شعره حيث يقول:

نسجُ داودَ ما حمى صاحبَ الغارِ وكانَ الفَخارُ للعنكبوتِ

وقد ورد أن حمامتين عشّشتا على بابه أيضاً، وقد نظم ذلك الصرصري في شعره حيث يقول:

فغمّى عليه العنكبوتُ بنسجه وظلّ على البابِ الحمامُ يبيض

والحديث بذلك رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن محمد بن صاعد حدّثنا عمرو بن علي حدّثنا عون بن عمرو أبو عمرو القيسي - ويلقب «عوين» - [من طريقه أخرجه ابن سعد في طبقاته: ٢٢٨/١، ٢٢٩ مطولاً] حدّثني أبو مصعب المكي. قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك، يذكرون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله شجرة فخرجت في وجه النبي ﷺ تستره، وأن الله بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ﷺ وأمر الله حمامتين وحشيتين فاقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل، معهم عصيّهم وقسيّهم وهراواتهم، حتى إذا كانوا من رسول الله ﷺ قدر مائتي ذراع قال الدليل - وهو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي -: هذا الحجر ثم لا أدري أين وضع رجله. فقال الفتيان: أنت لم تخطئ منذ الليلة. حتى إذا أصبحنا قال: انظروا في الغار، فاستقدم القوم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر خمسين ذراعاً، فإذا الحمامتان فرجع فقالوا: ما ردك أن تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد. فسمعها النبي ﷺ فعرف أن الله قد درأ عنهما بهما، فسمت عليهما - أي برّك عليهما - وأحدرهما الله إلى الحرم فأفرخا كما ترى.

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه.

وقد رواه الحافظ أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٩] من حديث مسلم بن إبراهيم وغيره عن عون بن عمرو - وهو الملقب بعوين - بإسناده مثله.

وفيه: أن جميع حمام مكة من نسل تينك الحمامتين، وفي هذا الحديث أن القائف الذي اقتفى لهم الأثر سراقة بن مالك المدلجي.

وقد روى الواقدي عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه أن الذي اقتفى لهم الأثر كرز بن علقمة.

قلت: ويحتمل أن يكونا جميعاً اقتفيا الأثر والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول تعالى مؤنباً لمن تخلف عن الجهاد مع الرسول ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أنتم فإن الله ناصره ومؤيده ومظفره كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة هارباً ليس معه غير صاحبه وصديقه أبي بكر ليس معه غيره ولهذا قال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي وقد لجأ إلى الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما كما تقدم ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما - أو أحدهما - مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم. وكان الذي يقتص الأثر لقريش سراقة بن مالك بن جعشم كما تقدم، فصعدوا الجبل. الذي هما فيه وجعلوا يمرون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم لباب الغار ولا يرونهما، حفظاً من الله لهما.

كما قال الإمام أحمد [٤/١]: حدّثنا عفان حدّثنا همام أنا ثابت عن أنس بن مالك أن أبا بكر حدّثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» [خ (٣٦٥٣)، م (٢٣٨١)] من حديث همام به.

وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ: «لو جاؤونا من هنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه.

وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا، ولكن ما صحّ أو حسن سنده قلنا به والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار [كشف الأستار: ١١٧٨]: حدّثنا الفضل بن سهل حدّثنا خلف بن تميم حدّثنا موسى بن مطير القرشي عن أبيه عن أبي هريرة أن أبا بكر قال لابنه: يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية. ثم قال البزّار: لا نعلم يرويه غير خلف بن تميم.

قلت: وموسى بن مطير هذا ضعيف متروك، وكذّبه يحيى بن معين [التاريخ ليحيى بن معين: ٥٩٦/٢] فلا يقبل حديثه والله أعلم.

وقد ذكر يونس بن بكير [عنه مطولاً أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٨٥/٣٠ - ٨٧] عن محمد بن إسحاق أن الصديق قال في دخولهما الغار، وسيرهما بعد ذلك وما كان من قصّة سراقة كما سيأتي شعراً. فمنه قوله:

قال النبي ولم أجزع يوقّرني ... ونحنُ في سُدَفٍ من ظلمة الغار
لا تخشَ شيئاً فإنّ اللّه ثالثُنا ... وقد توكّل لي منهُ بإظهار

وقد روى أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٧] هذه القصيدة من طريق زياد عن محمد بن إسحاق فذكرها مطولة جداً، وذكر معها قصيدة أخرى والله أعلم.

وقد روى ابن لهيعة [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٦٥/٢] عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. قال فمكث رسول الله ﷺ بعد الحج - يعني الذي بايع فيه الأنصار - بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً، ثم إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، أو يحبسوه، أو يخرجوه فاطلعه الله على ذلك فأنزل عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. فأمر علياً فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر، فلما أصبحوا ذهبوا في طلبهما في كل وجه يطلبونهما.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة في «مغازيه»، وأن خروجه هو وأبو بكر إلى الغار كان ليلاً [الدلائل للبيهقي: ٤٦٦/٢].

وقد تقدّم عن الحسن البصري فيما ذكره ابن هشام التصريح بذلك أيضاً.

وقال البخاري: [(٣٩٠٥)] حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن عقيل. قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فذكرت ما كان من رده لأبي بكر إلى مكة وجواره له كما قدمناه عند هجرة الحبشة، إلى قوله: فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وارضى بجوار الله.

قالت: والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» وهما الحرتان. فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع بعض من كان هاجر قبل الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر مهاجراً قبل المدينة. فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر.

وذكر بعضهم أنه علفهما ستة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: «فإنه قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت وأمي، قال النبي ﷺ «نعم»! قال أبو بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فلذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، لا يسمع أمراً

يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً - والخريت الماهر بالهداية - قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ليال. وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب [خ (٣٩٠٦) معلقاً]: فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي - وهو ابن أخي سراقة - أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم. يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديّة كل واحد منهما لمن قتله أو أسره.

فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس. فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تُقرّب بي حتى دنوت منهم.

فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت الأزلام فخرج الذي أكره؛ فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع. فلم يرزآني ولم يسألاني إلا ان قال: «أخفِ عنا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم. ثم مضى رسول الله ﷺ.

وقد روى محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٩، ٤٩٠] عن الزهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمّه سراقة فذكر هذه القصة، إلا أنه ذكر أنه استقسم بالأزلام أول ما خرج من منزله فخرج السهم الذي يكره لا يضره، وذكر أنه عثر به فرسه أربع مرات، وكل ذلك يستقسم بالأزلام ويخرج الذي يكره لا يضره. حتى ناداهم بالأمان. وسأل أن يكتب له كتاباً يكون أمارة ما بينه وبين رسول الله ﷺ، قال: فكتب لي كتاباً في عظم - أو رقعة أو خرقة - وذكر أنه جاء به إلى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف، فقال له: «يوم وفاء وبر، ادنه» فدنوت منه وأسلمت.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٤٩١]: هو عبد الرحمن بن الحارث بن مالك بن جعشم وهذا الذي قاله جيد.

ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وقال: كفيتم هذا الوجه، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة. جعل سراقة يقصّ على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضيّة جواده، واشتهر هذا عنه. فخاف رؤساء قريش معرته، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم، وكان سراقة أمير بني مدلج ورئيسهم، فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم:

بني مدلج إني أخافُ سفيهَكم ... سُراقةَ مستغوٍ لنَصْرِ محمد
عليكم به ألا يفرق جمعكم ... فيصبحَ شتّى بعد عزٍ وسؤدُد

قال: فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا:

أبا حكم والله لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسُوخ قوائمه
عَجِبْتَ ولم تشكك بأن محمداً ... رسولٌ وبرهانٌ فمن ذا يقاومه
عليكَ بكفِّ القوم عنه فإنني ... إخالُ لنا يوماً ستبدو معالمه
بأمرٍ تودُّ النصرَ فيه فإنهم ... وإنّ جميعَ الناسِ طراً مُسالمه

وذكر هذا الشعر الأموي في «مغازيه» بسنده عن أبي إسحاق.

وقد رواه أبو نعيم [في دلائل النبوة: ٢٣٧] بسنده من طريق زياد عن ابن إسحاق، وزاد في شعر أبي جهل لعنه الله أبياتاً تتضمن كفراً بليغاً.

وقال البخاري [(٣٩٠٦)] بسنده إلى ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما اطالوا انتظارهم.

فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على اطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه. فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته وصار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين. وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجرأسعد بن زرارة. فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما. ثم بناه مسجداً. فطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه، وهو يقول حين ينقل اللبن:

«هذا الحِمالُ لاحِمالُ خَيْبر ... هذا أبرُّ ربَّنا وأطهر»

ويقول:

«اللّهم إن الأجرَ أجرُ الآخره فارحم الأنصارَ والمهاجِره»

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لي.

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات.

هذا لفظ البخاري وقد تفرد بروايته دون مسلم، وله شواهد من وجوه أخر وليس فيه قصة أم معبد الخزاعية، ولنذكر هنا ما يناسب ذلك مرتباً أولاً فأولاً.

قال الإمام أحمد [٢/١، ٣]: حدّثنا عمرو بن محمد أبو سعيد العنقزي حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب. قال: اشترى أبو بكر من عازب سرجاً بثلاثة عشر درهماً فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى منزلي. فقال: لا حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه.

فقال أبو بكر: خرجنا فادلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فضربت بصري هل أرى ظلاً نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها فإذا بقية ظلها، فسويته لرسول الله ﷺ وفرشت له فروة وقلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب فإذا أنا براعي غنم، فقلت لمن أنت ياغلام؟ فقال: لرجل من قريش - فسمّاه فعرفته - فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم! قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم فأمرته فاعتقل شاه منها ثم أمرته فنفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار، ومعي إداوة على فمها خرقة فحلب لي كثبة من اللبن فصببت - يعني الماء - على القدح حتى برد أسفله ثم أتيت رسول الله ﷺ فوافيته وقد استيقظ.

فقلت: اشرب يا رسول الله فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل آن الرحيل؟ فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. قال: «لا تحزن إن الله معنا» حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين - أو قال: رمحين أو ثلاثة - قلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. وبكيت قال: «لم تبكي؟» قال: قلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك. فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللّهم اكفناه بما شئت» فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد ووثب عنها وقال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي بموضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها» قال: ودعا له رسول الله ﷺ فأطلق ورجع إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق على الأجاجير واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد، قال: وتنازع القوم أيهم ينزل عليه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك».

فلما أصبح غدا حيث أمر. قال البراء: أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار، ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أحد بني فهر، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً، فقلنا: ما فعل رسول الله؟ قال: هو على أثري، ثم قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر معه. قال البراء: ولم يقدم رسول الله ﷺ حتى قرأت سوراً من المفصل.

أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٦٥٢)، م (٢٠٠٩)] من حديث إسرائيل بدون قول البراء: أول من قدم علينا... إلخ. فقد انفرد به مسلم فرواه من طريق إسرائيل به.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٦/١]: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن رده عليهم، فلما مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام، فحلت نطاقها فجعلته عصاماً ثم علقتها به. فكان يقال لها: ذات النطاق لذلك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٦/١]: فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ثم قال: اركب فداك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيراً ليس لي» قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال: «لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟» قال: كذا وكذا قال: «أخذتها بذلك» قال: هي لك يا رسول الله.

وروى الواقدي بأسانيده إنه عليه السلام أخذ القصواء، قال وكان أبو بكر اشتراهما بثمانمائة درهم [طبقات ابن سعد: ٢٢٧/١، ٢٢٨].

وروى ابن عساكر من طريق أبي أسامة [من طريقه أخرجه خ (٤٠٩٣)] عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: وهي الجدعاء.

وهكذا حكى السهيلي [في الروض الأنف: ٢٠٥/٤] عن ابن إسحاق أنها الجدعاء والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٧/١]: فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق فحدثت عن أسماء أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل فذكر ضربه لها على خدها لطمة طرح منها قرطها من أذنها كما تقدم. قالت: فمكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجْه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى اللّه ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلا خيمتي أمّ مَعْبَدِ

هما نزلا بالبر ثم تروَّحا فأفلحَ من امسى رفيقَ محمد

ليهن بني كعبٍ مكانُ فتاتهم ومقعدُها للمؤمنينَ بمرصد

قالت أسماء: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٨/١]: وكانوا أربعة؛ رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقد.

كذا يقول ابن إسحاق، والمشهور: عبد الله بن أريقط الدئلي، وكان إذ ذاك مشركاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩١/١]: ولما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقد سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم أجاز بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفاً،

ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تِعْهن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما القاحة ثم هبط بهما العرج.

وقد أبطأ عليهم بعض ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له: أوس بن حجر على جمل يقال له: ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له: مسعود بن هنيدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة - ويقال: ثنية الغائر فيما قال ابن هشام - حتى هبط بهما بطن ريم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل.

وقد روى أبو نعيم من طريق الواقدي [من طريقه أخرجه ابن سعد في الطبقات: ١/٢٣٢، ٢٣٣] نحواً من ذكر هذه المنازل، وخالفه في بعضها والله أعلم.

قال أبو نعيم: حدّثنا أبو حامد بن جبلة حدّثنا محمد بن إسحاق هو السراج حدّثنا محمّد بن عباد بن موسى العجلي حدّثني أخي موسى بن عباد حدّثني عبد الله بن سيّار حدّثني إياس بن مالك بن الأوس الأسلمي عن أبيه قال: لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: «لمن هذه الإبل؟» فقالوا: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله» فقال: «ما اسمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله». قال: فأتاه أبي فحمله على جمل يقال له: ابن الرداء.[أسد الغابة لابن الأثير: ٥/١٢]

قلت: وقد تقدم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين. والظاهر أن بين خروجه عليه السلام من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يوماً لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام، ثم سلك طريق الساحل وهي أبعد من الطريق الجادة واجتاز في مروره على أم معبد بنت كعب من بني كعب بن خزاعة، قاله ابن هشام [السيرة: ١/٤٨٧].

وقال يونس [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٩٣] عن ابن إسحاق: اسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم.

وقال الأموي: هي عاتكة بنت تبيع حليف بني منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حُبشية بن كعب بن عمرو، ولهذه المرأة من الولد معبد ونضرة وحنيدة بنو أبي معبد، واسمه أكثم بن عبد العزى بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس، وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً.

وهذه قصة أم معبد الخزاعية: قال يونس [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٩٣] عن ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ بخيمة أم معبد واسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم فأرادوا القرى فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله وحلب في العسّ حتى أرغى وقال: «اشربي يا أم معبد» فقالت: اشرب فأنت أحق به فرده عليها فشربت، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك بها فشربه، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى دليله، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى عامراً، ثم تروح.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوا عنه فقالوا: أرأيت محمداً؟ من حليته كذا كذا، فوصفوه لها. فقالت: ما أدري ما تقولون، قد ضافني حالب الحائل. قالت قريش: فذاك الذي نريد.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ١٧٤٢]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا يعقوب بن محمد حدّثنا عبد الرحمن بن عقبة بن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله حدّثنا أبي عن أبيه عن جابر. قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر مهاجرين فدخلا الغار، إذا في الغار جحر فألقمه أبو بكر عقبه حتى أصبح مخافة أن يخرج على رسول الله ﷺ منه شيء فأقاما في الغار ثلاث ليال ثم خرجا حتى نزلا بخيمات أم معبد فأرسلت إليه أم معبد: إني أرى وجوهاً حساناً، وإن الحي أقوى على كرامتكم مني، فلما أمسوا عندها بعثت مع ابن لها صغير بشفرة وشاة. فقال رسول الله ﷺ: «أردد الشفرة وهات لنا فرقاً» يعني: القدح فأرسلت إليه أن لا لبن فيها ولا ولد. قال: «هات لنا فرقاً» فجاءت بفرق فضرب ظهرها فاجترت ودرت فحلب فملأ القدح فشرب وسقى أبا بكر، ثم حلب فبعث به إلى أم معبد.

ثم قال البزار: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. وعبد الرحمن بن عقبة لا نعلم أحداً حدث عنه إلا يعقوب بن محمد وإن كان معروفاً في النسب.

وروى الحافظ البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٩١] من حديث يحيى بن زكريا بن أبي زائدة حدّثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حدّثنا عبد الرحمن بن الأصبهاني سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى يحدث عن أبي بكر الصديق. قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت متنحياً فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة فقالت: يا عبد الله إنما أنا امرأة وليس معي أحد فعليكما بعظيم الحي إن أردتم القرى، قال: فلم يجبها وذلك عند المساء.

فجاء ابن لها بأعنز يسوقها فقالت: يا بني انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: تقول لكما أمي: اذبحا هذه وكلا وأطعمانا، فلما جاء قال له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجئني بالقدح» قال: إنها قد عزبت وليس بها لبن، قال: «انطلق»، فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال: «انطلق به إلى أمك»، فشربت حتى رويت، ثم جاء به فقال: «انطلق بهذه وجئني بأخرى». ففعل بها كذلك ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك، ثم شرب النبي ﷺ فبتنا ليلتنا، ثم انطلقنا. فكانت تسميه المبارك. وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر فرآه ابنها فعرفه فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله. قالت: فأدخلني عليه. قال: فأدخلها فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها.

زاد ابن عبدان في روايته: قالت: فدلني عليه، فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب. قال: فكساها وأعطاها. قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت.

إسناد حسن.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٩٢]: هذه القصة شبيهة بقصة أم معبد، والظاهر أنها هي والله أعلم.

وقال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي [من طريقه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣/٣١٩ - ٣٢٢]. قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا الحسن بن مكرم حدّثني أبو أحمد بشر بن محمد السكري حدّثنا عبد الملك بن وهب المذحجي حدّثنا الحُرُّ بن الصياح

عن أبي معبد الخزاعي أن رسول الله ﷺ خرج ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي. فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك. وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، وإذا القوم مرملون مسنتون. فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «تأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: إن كان بها حلب فاحلبها.

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها وذكر اسم الله ودعا بإناء لها يربض الرهط فتفاجت واجترت فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء فسقاها وسقى أصحابه فشربوا عللاً بعد نهل، حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم» ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء فغادره عندها ثم ارتحلوا قال: فقلَّ ما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلى لا نقي بهن مخهن قليل فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاء عازب؟ فقالت: لا والله إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

فقال: صفيه لي فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق مليح الوجه لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة قسيم وسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل. أحور أكحل أزج أقرن في عنقه سطع وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره. محفود محشود لا عابس ولا مفنّد فقال - يعني بعلها -: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه، ولأجهدنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، قال: وأصبح صوت بمكة عال بين السماء والأرض يسمعونه ولا يرون من يقول وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيال قصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرة رهناً لديها لحالب ... يدر لها في مصدر ثم مورد

قال: وأصبح الناس - يعني بمكة - وقد فقدوا نبيهم، فأخذوا على خيمتي أم معبد حتى لحقوا برسول الله ﷺ قال: وأجابه حسان بن ثابت: [ديوان حسان بن ثابت: ٣٧٦، ٣٧٧].

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فزالت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمى وهداة يهتدون بمهتد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
ويهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمسلمين بمرصد

قال - يعني عبد الملك بن وهب - فبلغني أن أبا معبد أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ.

وهكذا روى الحافظ أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٨] من طريق عبد الملك بن وهب المذحجي فذكر مثله سواء وزاد في آخره: قال عبد الملك: بلغني أن أم معبد هاجرت وأسلمت ولحقت برسول الله ﷺ. ثم رواه أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٨] من طرق عن مكرم بن محرز الكعبي الخزاعي عن أبيه محرز بن مهدي عن حزام بن هشام بن حبيش بن خالد عن أبيه عن جده حبيش بن خالد صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة خرج منها مهاجراً هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهما عبد الله بن أريقط الليثي فمروا بخيمة أم معبد وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، وذكر مثل ما تقدم سواء.

قال: وحدثناه - فيما أظن - محمد بن أحمد بن علي بن مخلد حدّثنا محمد بن يونس بن موسى - يعني الكديمي - حدّثنا عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز مولى العبّاس بن عبد المطلب [من طريقه أخرجه الطبراني في الكبير: ٦٥١٠] حدّثنا محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري حدّثني أبي عن أبيه سليط البدري. قال: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق، مر بأم معبد الخزاعية وهي لا تعرفه فقال لها: «يا أم معبد هل عندك من لبن؟» قالت: لا والله إن الغنم لعازبة قال: «فما هذه الشاة؟» قالت: خلفها الجهد عن الغنم. ثم ذكر تمام الحديث كنحو ما تقدم.

ثم قال البيهقي [في الدلائل: ٤٩٢/٢]: يحتمل أن هذه القصص كلها واحدة، ثم ذكر قصة شبيهة بقصة شاة أم معبد الخزاعية فقال: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ - إملاء - حدّثنا أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب أخبرنا محمد بن غالب حدّثنا أبو الوليد حدّثنا عبيد الله بن إياد بن لقيط حدّثنا إياد بن لقيط عن قيس بن النعمان. قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين، مروا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء وقد أخدجت وما بقي لها من لبن فقال: «ادع بها» فدعا بها.

فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب. فقال الراعي: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. قال: «أو تراك تكتم عليّ حتى أخبرك؟» قال: نعم! قال: «فإني محمد رسول الله».

فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟ قال: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي وأنا متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا».

ورواه أبو يعلى الموصلي عن جعفر بن حميد الكوفي عن عبيد الله بن إياد بن لقيط به. وقد ذكر أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٣] ههنا قصة عبد الله بن مسعود فقال: حدّثنا عبد الله بن جعفر حدّثنا يونس بن حبيب حدّثنا أبو داود حدّثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود.

قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى رسول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا من المشركين - فقال: «يا غلام عندك لبن تسقينا؟» فقلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم! فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا فحفل الضرع وجاء أبو بكر بصخرة منقعرة فحلب فيها. ثم شرب هو وأبو بكر وسقياني، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص.

فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال رسول الله ﷺ: «إنك غلام معلم» فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

فقوله في هذا السياق: وقد فرا من المشركين ليس المراد منه وقت الهجرة، إنما ذلك في بعض الأحوال قبل الهجرة. فإن ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ورجع إلى مكة كما تقدّم، وقصته هذه صحيحة ثابتة في «الصّحاح» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩/٧٥)] وغيرها [المسند: ٣٧٩/١، ٤٦٢] والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٧٤/٤]: حدّثنا عبد الله بن مصعب بن عبد الله - هو الزبيري - حدّثني أبي عن فائد مولى عبادل قال: خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن سعد حتى إذا كنا بالعرج أتى ابن سعد - وسعد هو الذي دل رسول الله ﷺ على طريق ركوبة - فقال إبراهيم: أخبرني ما حدّثك أبوك؟ قال ابن سعد: حدّثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر - وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة - وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة، فقال له سعد: هذا الغائر من ركوبة وبه لصان من أسلم يقال لهما: المهانان. فإن شئت أخذنا عليهما، فقال النبي ﷺ: «خذ بنا عليهما» قال سعد: فخرجنا حتى إذا أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه: هذا اليماني. فدعاهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان. فقال: «بل أنتما المكرمان» وأمرهما أن يقدما عليه المدينة فخرجنا حتى إذا أتينا ظاهر قباء فتلقاه بنو عمرو بن عوف فقال رسول الله ﷺ: «أين أبو أمامة أسعد بن زرارة؟» فقال سعد بن خيثمة. إنه أصاب قبلي يا رسول الله أفلا أخبره ذلك؟ ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا طلع على النخل فإذا الشرب مملوء، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر هذا المنزل. رأيتني أنزل إلى حياض كحياض بني مدلج» انفرد به أحد.

٨٧- دخولُ النبي ﷺ المدينة ومنزله بها

قد تقدم فيما رواه البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أن النبي ﷺ دخل المدينة عند الظهيرة.

قلت: ولعل ذلك كان بعد الزوال لما ثبت في «الصحيحين» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩)] من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب عن أبي بكر في حديث الهجرة قال: فقدمنا ليلاً فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك».

وهذا والله أعلم إما أن يكون يوم قدومه إلى قباء فيكون حال وصوله إلى قرب المدينة كان في حرّ الظهيرة وأقام تحت تلك النخلة ثم سار بالمسلمين فنزل قباء وذلك ليلاً، وأنه أطلق على ما بعد الزوال ليلاً، فإن العشي من الزوال، وإما أن يكون المراد بذلك لما رحل من قباء - كما سيأتي - فسار فما انتهى إلى بني النجار إلا عشاء كما سيأتي بيانه والله أعلم.

وذكر البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أنه نزل في بني عمرو بن عوف بقباء وأقام فيهم بضع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء في تلك الأيام، ثم ركب ومعه الناس حتى بركت به راحلته في مكان مسجده، وكان مربداً لغلامين يتيمين وهما سهل وسهيل، فابتاعه منهما واتخذه مسجداً. وذلك في دار بني النجار رضي الله عنهم.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٢/١]: حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة قال: حدّثني رجال من قومي من أصحاب النبي ﷺ قالوا: لما بلغنا مخرج النبي ﷺ من مكة وتوكّفنا قدومه كنا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر النبي ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا - وذلك في أيام حارة - حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذ لم يبق ظل دخلنا بيوتنا وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك: وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك.

وقد تقدم مثل ذلك في سياق البخاري وكذا ذكر موسى بن عقبة في «مغازيه» [انظر الدلائل للبيهقي: ٤٩٨/٢، ٤٩٩].

وقال الإمام أحمد [٢٢٢/٣]: حدّثنا هاشم حدّثنا سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك. قال: إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، قال: حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر.

فكمنا في بعض حِرار المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين.

فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيّهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ.

قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أر يومين مشبهاً بهما.

ورواه البيهقي [في الدلائل: ٥٠٧/٢] عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصغاني عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بنحوه، أو مثله. وفي «الصحيحين» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩)] من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء عن أبي بكر في حديث الهجرة. قال: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله. فلما أصبح انطلق وذهب حيث أمر.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٠٦/٢، ٥٠٧]: أخبرنا أبو عمرو الأديب أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة

يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلــعَ البــدرُ علينــا مِــن ثنيــات الــوداع
وجــبَ الشــكرُ علينــا مــا دعــا للّــه داع

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٣/١]: فنزل رسول الله ﷺ - فيما يذكرون يعني: حين نزل بقباء - على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف ثم أحد بني عبيد، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة.

ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن الهدم: إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن الهدم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزباً لا أهل له، وكان يقال لبيته: بيت العزاب والله أعلم.

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على خبيب بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح وقيل: على خارجة بن زيد بن أبي زهير أخي بني الحارث بن الخزرج.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٣/١، ٤٩٤]: وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده، ثم لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن الهدم فكان علي بن أبي طالب - وإنما كانت اقامته بقباء ليلة أو ليلتين -. يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت انساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه، فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٤/١]: فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده، ثم أخرجه الله من بين اظهرهم يوم الجمعة وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك.

وقال عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق قال: وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه عليه السلام اقام فيهم ثماني عشرة ليلة.

قلت: وقد تقدم فيما رواه البخاري [(٣٩٠٦)] من طريق الزهري عن عروة أنه عليه السلام أقام فيهم بضع عشرة ليلة.

وحكى موسى بن عقبة عن مجمع بن يزيد بن جارية أنه قال: اقام رسول الله ﷺ فينا - يعني في بني عمرو بن عوف بقباء - اثنتين وعشرين ليلة [انظر الدلائل للبيهقي: ٥٠١/٢].

وقال الواقدي: ويقال: أقام فيهم أربع عشرة ليلة. [طبقات ابن سعد: ٢٣٦/١]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٤/١، ٤٩٥]: فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي - وادي رانوناء - فكان أول جمعة صلاها بالمدينة. فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله اقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» لناقته فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها. فانطلقت.

حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار - وهم أخواله دِنْيا أم عبد المطلب، سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم - اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن خارجة في رجال من بني عدي بن النجار فقالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده عليه السلام اليوم، وكان يومئذ مربداً لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حجر معاذ بن عفراء.

قلت: وقد تقدم في رواية البخاري [(٣٩٠٦)] من طريق الزهري عن عروة أنهما كانا في حجر أسعد بن زرارة والله أعلم.

وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مرّ في طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول وهو في بيت. فوقف رسول الله ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل - وهو يومئذ سيد الخزرج في أنفسهم - فقال عبد الله: أنظر الذين دعوك فانزل عليهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد من الله علينا بك يا رسول الله وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملّكه علينا [الدلائل للبيهقي: ٤٩٩/٢، ٥٠٠].

قال موسى بن عقبة: وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شحّاً على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له وكلما مرّ بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل فيقول ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة فإنما أنزل حيث أنزلني الله» فلما انتهت إلى باب أبي أيوب بركت به على الباب فنزل فدخل بيت أبي أيوب حتى ابتنى مسجده ومساكنه. [الدلائل للبيهقي: ٥٠١/٢]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٥/١، ٤٩٦]: لما بركت الناقة برسول الله ﷺ لم يتزل عنها حتى وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ﷺ. فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المربد: «لمن هو؟» فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً، فامر به رسول الله ﷺ أن يبنى ونزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بني مسجده ومساكنه فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون من المهاجرين والأنصار.

وستأتي قصة بناء المسجد قريباً إن شاء الله.

وقال البيهقي في «الدلائل» [(٥٠٨/٢)] وقال أبو عبد الله اخبرنا أبو الحسن علي بن عمرو الحافظ حدّثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد الدوري حدّثنا محمد بن سليمان بن إسماعيل بن أبي الورد حدّثنا إبراهيم بن

صرمة حدّثنا يحيى بن سعيد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما دخلنا جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا يا رسول الله. فقال: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» فبركت على باب أبي أيوب فخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحنُ جوارٍ من بني النجّار يا حبّذا محمّدٌ من جارِ

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «أتحبونني؟» فقالوا: أي والله يا رسول الله. فقال: «وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم».

هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يروه أحد من أصحاب السنن، وقد خرجه الحاكم في «مستدركه» كما ترى.

ثم قال البيهقي: [في الدلائل: ٥٠٨/٢] أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن سليمان النحاس المقرئ ببغداد حدّثنا عمر بن الحسن الحلبي حدّثنا أبو خيثمة المصيصي حدّثنا عيسى بن يونس عن عوف الأعرابي عن ثمامة عن أنس. قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

نحنُ جوارٍ من بني النجّار يا حبّذا محمّدٌ من جارِ

فقال رسول الله ﷺ: «يعلم الله أن قلبي يحبكن».

ورواه ابن ماجه [(١٨٩٩)] عن هشام بن عمار عن عيسى بن يونس به.

وفي «صحيح البخاري» [(٣٧٨٥)] عن أبي معمر عن عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين ـ حسبت أنه قال: من عرس ـ فقام النبي ﷺ ممثلاً فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات.

وقال الإمام أحمد [٢١١/٣]: حدّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدّثني أبي حدّثني عبد العزيز بن صهيب حدّثنا أنس بن مالك. قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف ورسول الله ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال: يا نبي الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعته فرسه ثم قامت تحمحم، ثم قال: يا نبي الله مرني بما شئت. فقال: «قف مكانك لا تتركن أحداً يلحق بنا» قال: فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له.

قال: فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطمئنين. فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر وحفوا حولهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه ويقولون: جاء نبي الله. قال: فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، قال: فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله، وقال نبي الله: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلاً».

فذهب فهيأ لهما مقيلاً ثم جاء فقال يا رسول الله قد هيأت مقيلاً قوما على بركة الله فقيلا، فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق ولقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم.

فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئت بحق أسلموا» فقالوا: ما نعلمه، ثلاثاً.

وكذا رواه البخاري [(٣٩١١)] منفرداً به عن محمد غير منسوب عن عبد الصمد به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٨/١، ٤٩٩]: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن أبي رهم السماعي حدّثني أبو أيوب. قال: لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت».

فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن. فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ـ ما لنا لحاف غيرها ـ ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، قال وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً ـ أو ثوماً ـ فرده رسول الله ﷺ فلم أر ليده فيه أثراً، قال: فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى فأما أنتم فكلوه» قال: فأكلنا ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

وكذلك رواه البيهقي [في الدلائل: ٥١٠/٢] من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الحسن ـ أو أبي الخير ـ مرثد بن عبد الله اليزني عن أبي رهم عن أبي أيوب فذكره.

ورواه أبو بكر بن أبي شيبة [في مصنفه: ٤٥٤١] عن يونس بن محمد المؤدّب عن الليث.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٠٩/٢] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو عمرو الحيري حدّثنا عبد الله بن محمد حدّثنا أحمد بن سعيد الدارمي حدّثنا أبو النعمان حدّثنا ثابت بن يزيد حدّثنا عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث عن أفلح مولى أبي أيوب عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل عليه فنزل في السفل وأبو أيوب في العلو فانتبه أبو أيوب ليلته فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ! فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ ـ يعني في ذلك ـ فقال: «السفل أرفق بنا» فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل.

فكان يصنع لرسول الله ﷺ طعاماً، فإذا جيء به سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابع رسول الله ﷺ فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل ففزع وصعد إليه فقال: أحرام؟ فقال النبي ﷺ: «لا ولكني أكرهه» قال: فإني أكره ما تكره ـ أو ما كرهت ـ قال: وكان النبي ﷺ يُؤتى. يعني: يأتيه الملك.

ورواه مسلم [(٢٠٥٣)] عن أحمد بن سعيد به.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٧٣٥٩)، م (٥٦٤)] عن أنس بن مالك قال: جيء رسول الله ﷺ ببدر - وفي رواية: بقدر - فيه خضروات من بقول، قال: فسأل فأخبر بما فيها من البقول فلما رآه كره أكلها، قال: «كل فإني أناجي من لا تناجي».

وقد روى الواقدي أن أسعد بن زرارة - لما نزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب - أخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ فكانت عنده [طبقات ابن سعد: ١/٢٣٧].

وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن، فقلت: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال: «بارك الله فيك» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد وعراق لحم، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاث والأربعة يحملون الطعام يتناوبون، وكان مقامه في دار أبي أيوب سبعة أشهر.

قال: وبعث رسول الله ﷺ - وهو نازل في دار أبي أيوب - مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان، وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها رسول الله ﷺ. [طبقات ابن سعد: ١٠/٢٣٧، ٢٣٨]

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٠٩]: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا خلف بن عمرو العكبري حدثنا سعيد بن منصور حدثنا عطاف بن خالد حدثنا صديق بن موسى عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فاستناخت به راحلته بين دار جعفر بن محمد بن علي وبين دار الحسن بن زيد، فأتاه الناس فقالوا: يا رسول الله المنزل. فانبعثت به راحلته فقال: «دعوها فإنها مأمورة» ثم خرجت به حتى جاءت موضع المنبر فاستناخت ثم تحللت الناس وثم عريش كانوا يرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه، فنزل رسول الله ﷺ عن راحلته فيه فأوى إلى الظل فأتاه أبو أيوب فقال: يا رسول الله إن منزلي أقرب المنازل إليك فانقل رحلك إلي؟ قال: «نعم» فذهب برحله إلى المنزل، ثم أتاه رجل فقال: يا رسول الله أين تحل؟ قال: «إن الرجل مع رحله حيث كان».

وثبت رسول الله ﷺ في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بني المسجد، وهذه منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه، حيث نزل في داره رسول الله ﷺ.

وقد رُوِّينا من طريق يزيد بن أبي حبيب عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ﷺ أنه لما قدم أبو أيوب البصرة - وكان ابن عباس نائباً عليها من جهة علي بن أبي طالب ﷺ - فخرج له ابن عباس عن داره حتى أنزله فيها كما أنزل رسول الله ﷺ في داره، وملّكه كل ما أغلق عليه بابها. ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس عشرين ألفاً، وأربعين عبداً. وقد صارت دار أبي أيوب بعده إلى مولاه أفلح. فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار وصلح ما وَهَى من بنيانها ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة.

وكذلك نزوله عليه السلام في دار بني النجار واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة لهم وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسول الله ﷺ دار بني مالك بن النجار. [تاريخ دمشق: ١٦/٥٥ من طريق حبيب بن أبي ثابت به]

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٧٨٩)، م (٢٥١١)] من حديث شعبة: سمعت قتادة عن أنس بن مالك عن أبي أسيد رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير» فقال سعد بن عبادة: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضل علينا فقيل: قد فضّلكم على كثير: هذا لفظ البخاري.

وكذلك رواه البخاري [(٣٧٩٠)] ومسلم [(٢٥١١)] من حديث أنس وأبي سلمة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة، ومن حديث عباس بن سهل عن أبي حميد عن النبي ﷺ بمثله سواء.

زاد في حديث أبي حميد: فقال أبو أسيد لسعد بن عبادة: ألم تر أن النبي ﷺ خير الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد النبي ﷺ فقال: يا رسول الله خيّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً؟ قال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟».

بل قد ثبت لجميع من أسلم من أهل المدينة - وهم الأنصار - الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار والناس دثار» [خ (٤٣٣٠)].

وقال: «الأنصار كرشي وعيبتي» [خ (٣٨٠١)].

وقال: «أنا سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم» [المسند: ٣/٤٦٢].

وقال البخاري [٣٧٨٣]: حدثنا حجاج بن منهال حدثنا شعبة حدثني عدي بن ثابت قال: سمعت البراء بن عازب يقول: سمعت رسول الله ﷺ - أو قال: قال رسول الله ﷺ -: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله».

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (٧٥)، ت (٣٩٠٠)، س (٨٣٣٤)، ج (١٦٣)] إلا أبا داود من حديث شعبة به.

وقال البخاري أيضاً [(٣٧٨٤)]: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا شعبة عن عبد الله بن عبد الله بن جبر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ورواه البخاري أيضاً [(١٧)] عن أبي الوليد الطيالسي ومسلم [(٧٤)] من حديث خالد بن الحارث وعبد الرحمن بن مهدي أربعتهم عن شعبة به.

والآيات والأحاديث في فضائل الأنصار كثيرة جداً. وما أحسن ما قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس - المتقدم ذكره أحد شعراء الأنصار - في قدوم رسول الله ﷺ إليهم ونصرهم إياه ومواساتهم له ولأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٢/١]: وقال أبو قيس صِرْمَة بن أبي أنس أيضاً يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصهم به من رسوله عليه السلام:

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى وكان له عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعاً ولو كان الحبيب المواسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا
أقول إذا صليت في كل بيعة حنانيك لا تظهر علينا الأعاديا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخيفةً تباركت إسم الله أنت المواليا
فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة وإنك لا تبقي لنفسك باقيا
فوالله ما يدري الفتى كيف سعيه إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المعيمة ربها إذا أصبحت رياً وأصبح ثاويا

ذكرها ابن إسحاق وغيره [الاستيعاب لابن عبد البر: ٧٣٨/٢]، ورواها عبد الله بن الزبير الحميدي وغيره عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبد الله بن عباس يختلف إلى صرمة بن قيس يروي هذه الأبيات. رواه البيهقي [في الدلائل: ٥١٣/٢، ٥١٤].

٨٨- فضل المدينة

وقد شرفت المدينة أيضاً بهجرته عليه السلام إليها وصارت كهفاً لأولياء الله وعباده الصالحين ومعقلاً وحصناً منيعاً للمسلمين، ودار هدى للعالمين والأحاديث في فضلها كثيرة جداً لها موضع آخر نوردها فيه إن شاء الله.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٨٧٦)، م (١٤٧)] من طريق خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب بن يساف عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

ورواه مسلم [(١٤٦)] أيضاً عن محمد بن رافع عن شبابة عن عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ نحوه. وفي «الصحيحين» [خ (١٨٧١)، م (١٣٨٢)] أيضاً من حديث مالك عن يحيى بن سعيد أنه سمع أبا الحباب سعيد بن يسار سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد».

وقد انفرد الإمام مالك عن بقية الأئمة الأربعة بتفضيلها على مكة.

وقد قال البيهقي [في الدلائل: ٥١٩/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الوليد وأبو بكر بن عبد الله قالا: حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا سعيد بن سعيد حدثني أخي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليّ فأسكني أحب البلاد إليك».

فأسكنه الله المدينة. وهذا حديث غريب جداً.

والمشهور عن الجمهور أن مكة أفضل من المدينة إلا المكان الذي ضم جسد رسول الله ﷺ، وقد استدل الجمهور على ذلك بأدلة يطول ذكرها ههنا ومحلها في كتاب المناسك من «الأحكام» إن شاء الله تعالى.

وأشهر دليل لهم في ذلك ما قال الإمام أحمد [٣٠٥/٤]: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء أخبره أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

ورواه الطبراني [في الأوسط: ٤٥٧] عن أحمد بن خليد الحلبي عن الحميدي عن الدراوردي عن ابن أخي الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدي بن الحمراء به.

فهذه طرق هذا الحديث، وأصحها ما تقدم والله أعلم.

سنة ١- حوادث ووقائع

اتفق الصحابة رضي الله عنهم في سنة ست عشرة - وقيل: سنة سبع عشرة، أو ثماني عشرة - في الدولة العمرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رفع إليه صك - أي حجة - لرجل على آخر وفيه؛ أنه يحل عليه في شعبان. فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية، أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تأريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك.

فقال قائل: أرخوا كتاريخ الفرس فكره ذلك، وكانت الفرس يؤرخون بملوكهم واحداً بعد واحد. وقال قائل: أرخوا بتأريخ الروم. وكانوا يؤرخون بملك إسكندر بن فيلبس المقدوني فكره ذلك. وقال آخرون: أرخوا بمولد رسول الله ﷺ وقال آخرون: بل بمبعثه، وقال آخرون: بل بهجرته، وقال آخرون: بل بوفاته عليه السلام. فمال عمر رضي الله عنه إلى التاريخ بالهجرة لظهوره واشتهاره. واتفقوا معه على ذلك [انظر تاريخ الطبري: ٣٨٨/٢، ٣٨٩].

وقال البخاري في «صحيحه» [(٣٩٣٤)]: التاريخ ومتى أرّخوا التاريخ:

حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز عن أبيه عن سهل بن سعد. قال: ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.

وقال الواقدي: حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه. قال: استشار عمر في التاريخ فأجمعوا على الهجرة.

وقال أبو داود الطيالسي عن قرة بن خالد السدوسي عن محمد بن سيرين قال: قام رجل إلى عمر فقال: أرخوا. فقال: ما أرّخوا؟ فقال: شيء تفعله الأعاجم يكتبون: في شهر كذا من سنة كذا.

فقال عمر: حسن فأرخوا، فقالوا: من أي السنين نبدأ؟ فقالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته، ثم أجمعوا على الهجرة، ثم قالوا: وأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثم قالوا: المحرم فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فاجتمعوا على المحرم [تاريخ الطبري: ٣٨٩/٢].

وقال ابن جرير [في تاريخه: ٢/٣٩٠]: حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا قتيبة حدثنا نوح بن قيس الطاحي عن عثمان بن محصن أن ابن عباس كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو المحرم فجر السنة.

وروي [الطبراني في تاريخه: ٢/٣٩٠] عن عبيد بن عمير. قال: إن المحرم شهر الله وهو رأس السنة يكسى به البيت، ويؤرخ به الناس، ويضرب فيه الورق.

وقال أحمد [من طريقه أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/٣٩٠]: حدثنا روح بن عبادة حدثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار قال: إن أول من أرخ الكتب: يعلى بن أمية باليمن، وإن رسول الله ﷺ قدم المدينة في ربيع الأول وإن الناس أرخوا لأول السنة.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري وعن محمد بن صالح عن الشعبي أنهما قالا: أرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم، ثم أرخوا من بنيان إبراهيم وإسماعيل البيت، ثم أرخوا من موت كعب بن لؤي. ثم أرخوا من الفيل، ثم أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة وذلك سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة [تاريخ الطبري: ٢/٣٩٠].

وقد ذكرنا هذا الفصل محرراً بأسانيده وطرقه في «السيرة العمرية» ولله الحمد.

والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وجعلوا أولها من المحرم فيما اشتهر عنهم وهذا هو قول جمهور الأئمة.

وحكى السهيلي وغيره عن الإمام مالك أنه قال: أول السنة الإسلامية ربيع الأول لأنه الشهر الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ.

وقد استدل السهيلي [الروض الأنف: ٤/٢٥٤ ـ ٢٥٧] على ذلك في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] أي من أول يوم حلول النبي ﷺ المدينة، وهو أول يوم من التاريخ كما اتفق الصحابة على أول سني التاريخ عام الهجرة.

ولا شك أن هذا الذي قاله الإمام مالك رحمه الله مناسب، ولكن العمل على خلافه، وذلك لأن أول شهور العرب المحرم فجعلوا السنة الأولى سنة الهجرة. وجعلوا أولها المحرم كما هو المعروف لئلا يختلط النظام والله أعلم.

فنقول وبالله المستعان: استهلت سنة الهجرة المباركة ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، وقد بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية كما قدمنا في أوسط أيام التشريق وهي ليلة الثاني عشر من ذي الحجة قبل سنة الهجرة.

ثم رجع الأنصار وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة فهاجر من هاجر من أصحابه إلى المدينة حتى لم يبق بمكة من يمكنه الخروج إلا رسول الله ﷺ، وحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه في الطريق كما قدمنا.

ثم خرجا على الوجه الذي تقدم بسطه وتأخر علي بن أبي طالب بعد النبي ﷺ بأمره ليؤدي ما كان عنده عليه السلام من الودائع ثم لحقهم بقباء فقدم رسول الله ﷺ يوم الاثنين قريباً من الزوال وقد اشتد الضحاء.

قال الواقدي وغيره: وذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول [طبقات ابن سعد: ١/٢٣٣].

وحكاه ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٩٢] إلا أنه لم يعرج عليه ورجح أنه لثنتي عشرة ليلة خلت منه، وهذا هو المشهور الذي عليه الجمهور.

وقد كانت مدة إقامته عليه السلام بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة في أصح الأقوال، وهو رواية حماد بن سلمة [من طريقه أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/٣٨٤] عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس. قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة.

وهكذا روى ابن جرير [في تاريخه: ٢/٣٨٥] عن محمد بن معمر عن روح بن عبادة عن زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة.

وتقدم أن ابن عباس كتب أبيات صرمة بن أبي أنس بن قيس:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

وقال الواقدي عن إبراهيم بن إسماعيل عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه استشهد بقول صرمة:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

وهكذا رواه ابن جرير [في تاريخه: ٢/٣٨٦] عن الحارث عن محمد بن سعد عن الواقدي: خمس عشرة حجة.

وهو قول غريب جداً، وأغرب منه ما قال ابن جرير [في تاريخه: ٢/٣٨٧]: حدثت عن روح بن عبادة حدثنا سعيد عن قتادة قال: نزل القرآن على رسول الله ﷺ ثماني سنين بمكة، وعشراً بالمدينة.

وكان الحسن يقول: عشراً بمكة، وعشراً بالمدينة.

وهذا القول الآخر الذي ذهب إليه الحسن البصري من أنه أقام بمكة عشر سنين ذهب إليه أنس بن مالك وعائشة وسعيد بن المسيّب وعمرو بن دينار فيما رواه ابن جرير [في تاريخه: ٢/٢٨٣، ٢٨٤] عنهم.

وهو رواية عن ابن عباس رواها أحمد بن حنبل [١/٢٢٨] عن يحيى بن سعيد عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس. قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين، فمكث بمكة عشراً.

وقد قدمنا عن الشعبي أنه قال: قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين يلقي إليه الكلمة والشيء.

وفي رواية: يسمع حسّه ولا يرى شخصه، ثم كان بعد ذلك جبريل.

وقد حكى الواقدي عن بعض مشايخه أنه أنكر قول الشعبي هذا [تاريخ الطبري: ٢/٣٨٦، ٣٨٧].

وحاول ابن جرير أن يجمع بين قول من قال: إنه عليه السلام أقام بمكة عشراً، وقول من قال: ثلاث عشرة بهذا الذي ذكره الشعبي والله أعلم.

سنة ١ ـ مسجد قباء

ولما حل الركاب النبوي بالمدينة، كان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي قباء كما تقدم فأقام بها ـ أكثر ما قيل: ـ ثنتين وعشرين ليلة، وقيل: ثماني عشرة ليلة. وقيل: بضع عشرة ليلة.

وقال موسى بن عقبة: ثلاث ليال [الدلائل للبيهقي: ٢/٥٠٠].

والأشهر ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٩٤] وغيره أنه عليه السلام أقام فيهم بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة، وقد أسس في هذه المدة المختلف في مقدارها ـ على ما ذكرناه ـ مسجد قباء.

وقد ادعى السهيلي [في الروض الأنف: ٤/٢٥٤، ٢٥٥] أن رسول الله ﷺ أسسه في أول يوم قدم إلى قباء وحمل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

ورد قول من أعربها: مِن تأسيس أول يوم، وهو مسجد شريف فاضل نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ

تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

كما تكلمنا على تقرير ذلك في «التفسير» وذكرنا الحديث الذي في «صحيح مسلم» [(١٣٩٨)] أنه مسجد المدينة والجواب عنه.

وذكرنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٤٢٢/٣] حدّثنا حسين بن محمد حدّثنا أبو أويس حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة أنه حدثه أن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا.

وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» [(٨٣)] وله شواهد أخر.

وروي عن خزيمة بن ثابت ومحمد بن عبد الله بن سلام وابن عباس.

وقد روى أبو داود [(٤٤)] والترمذي [(٣١٠٠)] وابن ماجه [(٣٥٧)] من حديث يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

قلت: ويونس بن الحارث هذا ضعيف والله أعلم.

وممن قال بأنه المسجد الذي أسس على التقوى ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير.

ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وحكي عن الشعبي والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير وعطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم [انظر تفسير الطبري: ٢٧/١١، ٢٨].

وقد كان النبي ﷺ يزوره فيما بعد ويصلي فيه، وكان يأتي قباء كل سبت تارة راكباً وتارة ماشياً [م (١٣٩٩)].

وفي الحديث [ت (٣٢٤)، ج (١٤١١)]: «صلاة في مسجد قباء كعمرة».

وقد ورد في حديث [الطبراني في الكبير: ٣١٧/٢٤، ٣١٨] أن جبريل عليه السلام هو الذي أشار للنبي ﷺ إلى موضع قبلة مسجد قباء.

فكان هذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام بالمدينة، بل أول مسجد جعل لعموم الناس في هذه الملة. واحترزنا بهذا عن المسجد الذي بناه الصديق بمكة عند باب داره يتعبد فيه ويصلي لأن ذاك كان لخاصة نفسه لم يكن للناس عامة والله أعلم.

وقد تقدم إسلام سلمان في البشارات، أن سلمان الفارسي لما سمع بقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ذهب إليه وأخذ معه شيئاً فوضعه بين يديه وهو بقباء قال: هذا صدقة فكف رسول الله ﷺ فلم يأكله وأمر أصحابه فأكلوا منه، ثم جاء مرة أخرى ومعه شيء فوضعه وقال: هذه هدية فأكل منه وأمر أصحابه فأكلوا. تقدم الحديث بطوله.

سنة ١ - إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه

قال الإمام أحمد [٤٥١/٥]: حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا عوف عن زرارة عن عبد الله بن سلام. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب.

فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

ورواه الترمذي [(٢٤٨٥)] وابن ماجه [(١٣٣٤، ٣٢٥١)] من طرق عن عوف الأعرابي عن زرارة بن أبي أوفى به عنه.

وقال الترمذي: صحيح.

ومقتضى هذا السياق يقتضي أنه سمع بالنبي ﷺ ورآه أول قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف.

وتقدم في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس أنه اجتمع به حين أناخ عند دار أبي أيوب بعد ارتحاله من قباء إلى دار بني النجار كما تقدم [المسند: ٢١١/٣].

فلعله رآه أول ما رآه بقباء، واجتمع به بعدما صار إلى دار بني النجار والله أعلم.

وفي سياق البخاري [(٣٩١١)] من طريق عبد العزيز عن أنس قال: فلما جاء النبي ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ. فأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه. فقال لهم: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار. قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاش لله ما كان ليسلم. قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق. فقالوا: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ. هذه لفظه.

وفي رواية [خ (٣٩٣٨)، س (٩٠٧٤)] فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق قالوا: شرّنا وابن شرّنا، وتنقصوه فقال: يا رسول الله هذا الذي كنت أخاف.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٢٨/٢، ٥٢٩]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا الأصم حدّثنا محمد بن إسحاق الصّغاني حدّثنا عبد الله بن أبي بكر حدّثنا حميد عن أنس. قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ - وهو في أرض له - فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؛ ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم!» قال: عدو اليهود من الملائكة. ثم قرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

«أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني. فجاءت اليهود فقال: «أي رجل عبد الله فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

قالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

ورواه البخاري [(٤٤٨٠)] عن عبد الله بن منير عن عبد الله بن بكر به.

ورواه [خ (٣٩٣٨)] عن حامد بن عمر عن بشر بن المفضل عن حميد به.

قال محمد بن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام. قال: كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم - وكان حبراً عالماً - قال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته والذي كنا نتوكف له فكنت مسراً بذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة.

فلما قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف. فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت، قال: قلت لها: أي عمه. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به. قال: فقالت له: يا ابن أخي أهو الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: قلت لها: نعم!قالت: فذاك إذاً.

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامي من اليهود وقلت: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني فيخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن يعلموا بذلك بهتوني وعابوني، وذكر نحو ما تقدم. قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمّتي خالدة بنت الحارث. [الدلائل للبيهقي: ٥٣٠/٢، ٥٣١]

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدّثني عبد الله بن أبي بكر حدّثني محدث عن صفية بنت حيي قالت: لم يكن أحد من ولد أبي وعمي أحب إليهما مني، لم ألقهما في ولد لهما قط أهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ قباء - قرية بني عمرو بن عوف - غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس. فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما نظر إليّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: تعرفه بعينه وصفته؟ قال: نعم والله! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت [الدلائل للبيهقي: ٥٣٣/٢]. وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا ياسر بن أخطب حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعون فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوه فانطلق أخوه حيي بن أخطب - وهو يومئذ سيد اليهود، وهما من بني النضير - فجلس إلى رسول الله وسمع منه، ثم رجع إلى قومه - وكان فيهم مطاعاً - فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً أبداً. فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئت بعده لا تهلك، قال: لا والله لا أطيعك أبداً، واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه [الدلائل للبيهقي: ٥٣٢/٢، ٥٣٣].

قلت: أما أبو ياسر بن أخطب فلا أدري ما آل إليه أمره، وأما حيي بن أخطب والد صفية بنت حيي فشرب عداوة النبي ﷺ وأصحابه، ولم يزل ذلك دأبه لعنه الله حتى قتل صبراً بين يدي رسول الله ﷺ يوم قتل مقاتلة بني قريظة كما سيأتي إن شاء الله.

سنة ١ - أول جمعة صلاها بالمسلمين

ولما ارتحل عليه الصلاة والسلام من قباء وهو راكب ناقته القصواء وذلك يوم الجمعة أدركه وقت الزوال وهو في دار بني سالم بن عوف، فصلّى بالمسلمين الجمعة هنالك، في واد يقال له وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين بالمدينة، أو مطلقاً لأنه - والله أعلم - لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة وما ذاك إلا لشدّة مخالفة المشركين له، وأذيّتهم إياه.

سنة ١ - خطبة النبي ﷺ يومئذ

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٤/٢ - ٣٩٦]: حدّثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.

والذي صدق قوله، وانجز وعده، لا خلف لذلك فإنه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته وتوقي سخطه. وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيٌ عن بينة ولا قوة إلا بالله.

فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

هكذا أوردها ابن جرير وفي السند إرسال.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٢٤، ٥٢٥]: باب، أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدّثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام على رسول الله ﷺ ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل يختار الله ويصطفي فقد سماه خيرته من الأعمال وخيرته من العباد، والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وهذا الطريق أيضاً مرسلة إلا أنها مقوية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ.

سنة ١ - بناء مسجد الشريف

وقد اختلف في مدة مقامه بها، فقال الواقدي: سبعة أشهر [طبقات ابن سعد: ١/٢٣٧].

وقال غيره: أقل من شهر والله أعلم.

قال البخاري [(٣٩٣٢)]: حدّثنا إسحاق بن منصور أخبرنا عبد الصمد قال: سمعت أبي يحدث: حدّثنا أبو التياح يزيد بن حميد الضبعي حدّثنا أنس بن مالك. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب.

قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل، قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع. قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة قال: فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم يقول:

«اللهم إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة ... فانصرِ الأنصارَ والمهاجرة»

وقد رواه البخاري في مواضع أخر [(٤٢٨)] ومسلم من حديث أبي عبد الصمد وعبد الوارث بن سعيد [(٥٢٤)].

وقد تقدم في صحيح البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أن المسجد الذي كان مربداً - وهو بيدر التمر - ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة وهما سهل وسهيل، فساومهما فيه رسول الله ﷺ فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى حتى ابتاعه منهما وبناه مسجداً. قال: وجعل رسول الله ﷺ وهو ينقل معهم التراب يقول:

«هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبرّ ربنا وأطهر»

ويقول:

«اللهم إن الأجر أجر الآخره ... فارحم الأنصار والمهاجره»

وذكر موسى بن عقبة أن أسعد بن زرارة عوضهما منه نخلاً له في بياضة، قال: وقيل: ابتاعه منهما رسول الله ﷺ. [الدلائل للبيهقي: ٢/٥٣٨]

قلت: وذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٩٥] أن المربد كان لغلامين يتيمين في حجر معاذ بن عفراء وهما سهل وسهيل ابنا عمرو فالله أعلم.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٤١، ٥٤٢] من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا حدّثنا الحسن بن حمّاد الضبّي حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن. قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبرّ صدره، فقال «ابنوه عريشاً كعريش موسى» فقلت للحسن: ما عريش موسى؟ قال إذا رفع يديه بلغ العريش، يعني: السقف.

وهذا مرسل.

وروى [البيهقي في الدلائل: ٢/٥٤٢] من حديث حماد بن سلمة عن أبي سنان عن يعلى بن شداد بن أوس عن عبادة أن الأنصار جمعوا مالاً فأتوا به النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابن هذا المسجد وزينه، إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: «ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال أبو داود [(٤٥١)]: حدّثنا محمد بن حاتم حدّثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن فراس عن عطية العوفي عن ابن عمر أن مسجد النبي ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل، أعلاه مظلل بجريد النخل ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر، فبناها بجذوع وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان فبناها بالآجر، فما زالت ثابتة حتى الآن.

وهذا غريب.

وقد قال أبو داود أيضاً [(٤٥١)]: حدّثنا مجاهد بن موسى حدّثني يعقوب بن إبراهيم حدّثني أبي عن صالح حدّثنا نافع عن ابن عمر أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في

بناءه في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. وغيّره عثمان ﷺ وزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقّفه بالساج.

وهكذا رواه البخاري [(٤٤٦)] عن علي بن المديني عن يعقوب بن إبراهيم به.

قلت: زاده عثمان بن عفان ﷺ متأولاً قوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» [ج (٧٣٨)].

ووافقه الصحابة الموجودون على ذلك ولم يغيروه بعده، فيستدل بذلك على الراجح من قولي العلماء أن حكم الزيادة حكم المزيد، فتدخل الزيادة في حكم سائر المسجد من تضعيف الصلاة فيه وشدّ الرحال إليه، وقد زيد في زمان الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، زاده له بأمره عمر بن عبد العزيز حين كان نائبه على المدينة وأدخل الحجرة النبوية فيه كما سيأتي بيانه في وقته، ثم زيد زيادة كثيرة فيما بعد، وزيد من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف المقدمة كما هو المشاهد اليوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٦/١، ٤٩٧]: ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب، حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله ﷺ، ليرغّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبيُّ يعمل		لذاك منّا العمل المضلّل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخره		اللّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة اللّهم ارحم المهاجرين والأنصار» قال: فدخل عمار بن ياسر وقد اثقلوه باللبن فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون: قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده - وكان رجلاً جعداً - وهو يقول: «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية».

وهذا منقطع من هذا الوجه بل هو معضل بين محمد بن إسحاق وبين أم سلمة.

وقد وصله مسلم في «صحيحه» [(٢٩١٦/٧٢)] من حديث شعبة عن خالد الحذاء عن سعيد والحسن - يعني ابني أبي الحسن البصريّ - عن أمهما خيرة مولاة أم سلمة عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية».

ورواه [م (٢٩١٦/٧٣)] من حديث ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أمه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لعمار وهو ينقل الحجارة: «ويح لك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

وقال عبد الرزاق [في مصنفه: ٢٠٤٢٦]: أخبرنا معمر عن الحسن يحدث عن أمه عن أم سلمة قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فمسح ظهره. وقال: «ابن سمية، للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن وتقتلك الفئة الباغية».

وهذا إسناد على شرط «الصحيحين».

وقد أورد البيهقي [في الدلائل: ٥٤٦/٢] وغيره [المسند: ٩٠/٣، ٩١] من طريق جماعة عن خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي سعيد الخدري. قال: كنا نحمل في بناء المسجد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين. فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

لكن روى هذا الحديث الإمام البخاري [(٤٤٧)] عن مسدد عن عبد العزيز بن المختار عن خالد الحذاء.

وعن إبراهيم بن موسى [خ (٢٨١٢)] عن عبد الوهاب الثقفي عن خالد الحذاء به.

إلا أنه لم يذكر قوله: «تقتلك الفئة الباغية».

قال البيهقي [في الدلائل: ٥٤٨/٢]: وكأنه إنما تركها لما رواه مسلم [(٢٩١٥/٧٠)] من طريق عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: أخبرني من هو خير مني أن رسول الله ﷺ قال لعمار حين جعل يحفر الخندق، جعل يمسح رأسه ويقول: «بؤس ابن سمية تقتله فئة باغية».

وقد رواه مسلم أيضاً [(٢٩١٥/٧١)] من حديث شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: حدّثني من هو خير مني - أبو قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار بن ياسر: «بؤساً لك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا وهيب عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ لما حفر الخندق كان الناس يحملون لبنة لبنة، وعمار ناقه من وجع كان به، فجعل يحمل لبنتين لبنتين.

قال أبو سعيد: فحدثني بعض أصحابي أن رسول الله ﷺ كان ينفض التراب عن رأسه ويقول: «ويحك ابن سمية تقتلك الفئة الباغية» [الدلائل للبيهقي: ٥٤٨/٢، ٥٤٩].

قال البيهقي [في الدلائل: ٥٤٩/٢]: فقد فرق بين ما سمعه بنفسه وما سمعه من أصحابه. قال: ويشبه أن يكون قوله: الخندق وَهْماً أو أنه قال له ذلك في بناء المسجد وفي حفر الخندق والله أعلم.

قلت: حمل اللبن في حفر الخندق لا معنى له، والظاهر أنه اشتبه على الناقل والله أعلم.

وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين وعمار مع علي وأهل العراق كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه.

وقد كان علي أحق بالأمر من معاوية. ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم لأنهم وإن كانوا بغاة في نفس الأمر فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال وليس كل مجتهد مصيباً بل المصيب له أجران والمخطئ له أجر.

ومن زاد في هذا الحديث بعد قوله: «تقتلك الفئة الباغية»: لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة. فقد افترى في هذه الزيادة على رسول الله ﷺ؛ فإنه لم يقلها إذ لم تنقل من طريق تقبل والله أعلم.

أما قوله: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» فإن عماراً وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الألفة واجتماع الكلمة. وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به، وأن يكون الناس أوزاعاً على كل قطر إمام برأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكهم، وإن كانوا لا يقصدونه والله أعلم.

وسيأتي تقرير هذه المباحث إذا انتهينا إلى وقعة صفين من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن تأييده وتوفيقه.

والمقصود ههنا إنما هو قصة بناء المسجد النبوي على بانيه أفضل الصلاة والتسليم.

وقد قال الحافظ البيهقي في «الدلائل» [٥٥٣/٢]: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ إملاء حدّثنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا عبيد بن شريك حدّثنا نعيم بن حماد حدّثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حشرج بن نباتة عن سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ. قال: جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه. فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر بعدي».

ثم رواه [البيهقي في الدلائل: ٥٥٣/٢] من حديث يحيى بن عبد الحميد الحماني عن حشرج عن سعيد عن سفينة. قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد وضع حجراً. ثم قال: «ليضع أبو بكر حجراً إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر».

فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء الخلفاء من بعدي» وهذا الحديث بهذا السياق غريب جداً.

والمعروف ما رواه الإمام أحمد [٢٢٠/٥، ٢٢١] عن أبي النضر عن حشرج بن نباتة العبسي وعن بهز وزيد بن الحباب وعبد الصمد عن حماد بن سلمة كلاهما عن سعيد بن جمهان عن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون من بعد ذلك الملك».

ثم قال سفينة: أمسك؛ خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة وخلافة علي ست سنين، هذا لفظ أحمد.

ورواه أبو داود [(٤٦٤٦)] والترمذي والنسائي [(٨١٥٥)] من طرق عن سعيد بن جمهان.

وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه. ولفظه: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً عضوضاً» وذكر بقيته.

قلت: ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بني منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي فلما اتخذ له عليه السلام المنبر كما سيأتي بيانه في موضعه وعدل إليه ليخطب عليه، وجاوز ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحن حنين النوق العشار لما كان يسمع من خطب الرسول عليه السلام عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت.

كما سيأتي تفصيل ذلك من طرق عن سهل بن سعد الساعدي وجابر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وأم سلمة رضي الله عنهم.

وما أحسن ما قال الحسن البصري بعدما روي هذا الحديث عن أنس بن مالك: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟!

سنة ١ - فضل المسجد النبوي

قال الإمام أحمد [٢٣/٣]: حدّثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى حدّثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «في ذلك خير كثير» يعني: مسجد قباء.

ورواه الترمذي [(٣٢٣)] عن قتيبة عن حاتم بن إسماعيل عن أنيس بن أبي يحيى الأسلمي به وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد [٨/٣] عن إسحاق بن عيسى عن الليث بن سعد والترمذي [(٣٠٩٩)] والنسائي [٦٩٦] جميعاً عن قتيبة عن الليث عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، وذكر نحو ما تقدم.

وفي «صحيح مسلم» [١٣٩٨] من حديث حميد الخراط عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عبد الرحمن بن أبي سعيد: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فسألته عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض. ثم قال: «هو مسجدكم هذا».

وقال الإمام أحمد [٣٣١/٥]: حدّثنا وكيع حدّثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد في الذي أسس على التقوى. فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا».

وقال الإمام أحمد [١١٦/٥] حدّثنا أبو نعيم حدّثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد عن أبيّ بن كعب أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا».

فهذه طرق متعددة لعلها تقرب من إفادة القطع بأنه مسجد الرسول ﷺ وإلى هذا ذهب عمر وابنه عبد الله وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير [تفسير الطبري: ٢٨/١١].

وقال آخرون: لا منافاة بين نزول الآية في مسجد قباء - كما تقدم بيانه - وبين هذه الأحاديث. لأن هذا المسجد أولى بهذه الصفة من ذلك لأن هذا أحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها كما ثبت في «الصحيحين» [خ (١١٨٩)، م (١٣٩٧)] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ مسجدي هذا والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس».

وفي «صحيح مسلم» [٩٧٥/٢، ٩٧٦، (٨٢٧)] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وذكرها.

وثبت في «الصحيحين» [خ (١١٩٠)، م (١٣٩٤)] أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وفي «مسند أحمد» [٢٩/٢] بإسناد حسن زيادة حسنة وهي قوله: «فإن ذلك أفضل».

وفي «الصحيحين» [خ (١١٩٦)، م (١٣٩١)] من حديث يحيى القطان عن عبيد الله عن خبيب عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

والأحاديث في فضائل هذا المسجد الشريف كثيرة جداً وسنوردها في كتاب المناسك من كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقد ذهب الإمام مالك وأصحابه إلى أن مسجد المدينة أفضل من المسجد الحرام لأن ذاك بناه إبراهيم، وهذا بناه محمد ﷺ، ومعلوم أن محمداً ﷺ أفضل من إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب الجمهور إلى خلاف ذلك وقرروا أن المسجد الحرام أفضل لأنه في بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وحرّمه إبراهيم الخليل عليه السلام، ومحمّد خاتم المرسلين. فاجتمع فيه من الصفات ما ليس في غيره، ولبسط هذه المسألة موضع آخر وبالله المستعان.

سنة ١- مسكنُ النبي ﷺ في المسجد

وبني لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حجر لتكون مساكن له ولأهله وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء.

قال الحسن بن أبي الحسن البصري - وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة -: لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي [انظر الروض الأنف: ٤/٢٦٧، ٢٦٨].

قلت: إلا أنه قد كان الحسن البصري شكلاً ضخماً طوالاً رحمه الله.

وقال السهيلي في «الروض» [٤/٢٦٧]: كانت مساكنه عليه السلام مبنية من جريد عليه طين بعضها من حجارة مرضومة وسقوفها كلها من جريد.

وقد حكى عن الحسن البصري ما تقدم وقال: وكانت حجره من شعر مربوطة بخشب من عرعر.

قال [السهيلي في الروض: ٤/٢٦٨] وفي «تاريخ البخاري» أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافير.

فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق.

قال [السهيلي في الروض: ٤/٢٦٨]: وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج رسول الله ﷺ إلى المسجد.

قال الواقدي [انظر طبقات ابن سعد: ٨/٦٢، ٦٣، ١٦٥] وابن جرير [في تاريخه: ٢/٤٠٠] وغيرهما: ولما رجع عبد الله بن أريقط الديلي إلى مكة بعث معه رسول الله ﷺ وأبو بكر زيد بن حارثة وأبا رافع موليي رسول الله ﷺ ليأتوا بأهاليهم من مكة وبعثا معهم بجملين وخمسمائة درهم ليشتروا بها إبلاً من قديد، فذهبوا فجاؤوا ببنتي النبي ﷺ فاطمة وأم كلثوم وزوجتيه سودة وعائشة، وأمها أم رومان وأهل النبي ﷺ وآل أبي بكر صحبة عبد الله بن أبي بكر وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق فجعلت أم رومان تقول: واعروساه، وابنتاه.

قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول: أرسلي خطامه. فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله وسلمنا الله عزّ وجلّ. فتقدموا فنزلوا بالسنح. ثم دخل رسول الله ﷺ بعائشة في شوال بعد ثمانية أشهر كما سيأتي، وقدمت معهم أسماء بنت أبي بكر امرأة الزبير بن العوام وهي حامل متم بعبد الله بن الزبير كما سيأتي بيانه في موضعه من آخر هذه السنة.

سنة ١- الوباءُ الذي كانَ في المدينة

قال البخاري [٣٩٢٦]: حدّثنا عبد الله بن يوسف حدّثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئٍ مصبحٌ في أهله ... والموتُ أدنى من شِراكِ نَعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادٍ وحولي إذخر وجليل

وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطَفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة».

ورواه مسلم [١٣٧٦] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبيدة عن هشام مختصراً.

وفي رواية البخاري [١٨٨٩] له عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فذكره وزاد بعد شعر بلال: ثم يقول: اللّهم العن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء.

فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللّهم بارك لنا في صاعها وفي مدها وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة».

وقدمنا إلى المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان بطحان يجري نجلاً - تعني: ماء آجناً -.

وقال زياد عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٨٨، ٥٨٩]: حدّثني هشام بن عروة وعمر بن عبد الله عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ قالت: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى فدخلت عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبه؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ قال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقِهِ ... إن الجبانَ حتفُه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه ... كالثور يحمي جلدَه بِرَوْقه

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول، قالت: وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً ... بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردَنْ يوماً مياه مجنةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطَفيل

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى فقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة» ومهيعة هي الجحفة.

وقال الإمام أحمد [٦/٦٥]: حدّثنا يونس حدّثنا ليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي بكر بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اشتكى أصحابه واشتكى أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وبلال، فاستأذنت عائشة رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن لها، فقالت لأبي بكر: كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وسألت عامراً فقال:

إني وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

وسألت بلالاً فقال:

يا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

فأتت رسول الله ﷺ فأخبرته، فنظر إلى السماء وقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، اللّهم بارك لنا في صاعها وفي مدها، وانقل وباءها إلى مهيعة». وهي الجحفه فيما زعموا.

وكذا رواه النسائي [٧٥١٩] عن قتيبة عن الليث به.

ورواه الإمام أحمد [٦/ ٢٣٩، ٢٤٠] من طريق عبد الرحمن بن الحارث عنها مثله.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/ ٥٦٧]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو. قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله، وواديها بطحان نجل قال هشام: وكان وباؤها معروفاً في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيئاً فأشرف عليه الإنسان قيل له أن ينهق نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادي.

وقد قال الشاعر حين أشرف على المدينة: [ديوان عروة بن الورد: ٩٥]

لعمري لئن عَشَّرْتُ من خيفَة الردى نهيق الحمار إنني لَجَزوع

وروى البخاري [٧٠٣٨] من حديث موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة - وهي الجحفة - فأولْتُ أن وباء المدينة نقل إليها».

هذا لفظ البخاري ولم يخرجه مسلم.

ورواه الترمذي [٢٢٩٠] وصححه والنسائي [٧٦٥١] وابن ماجه [٣٩٢٤] من حديث موسى بن عقبة.

وقد روى حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي وبيئة، فذكر الحديث بطوله إلى قوله: «وانقل حماها إلى الجحفة».

قال هشام: فكان المولود يولد بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى.

ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» [٢/ ٥٦٨].

وقال يونس عن ابن إسحاق: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي وبيئة. فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى أجهدهم ذلك، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ [الدلائل للبيهقي: ٢/ ٥٦٨].

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٦٠٢)، م (١٢٦٦)] عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة - يعني مكة - عام عمرة القضاء. فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قلت: وعمرة القضاء كانت في سنة سبع في ذي القعدة فإما أن يكون تأخّر دعاؤه عليه الصلاة والسلام بنقل الوباء إلى قريب من ذلك، أو أنه رفع وبقي آثار منه قليل، أو أنهم بقوا في خمار ما كان أصابهم من ذلك إلى تلك المدة والله أعلم.

وقال زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٥٩٠]: وذكر ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى كانوا ما يُصلُّون إلا وهم قعود، قال: فخرج رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك فقال لهم: «إعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم» فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل.

سنة ١ - موادعة اليهود

وفصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين الأنصار بالكتاب الذي أمر به فكتب بينهم والمؤاخاة التي أمرهم بها وقررهم عليها وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة

وكان بها من أحياء اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام بخت نصر حين دوخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبري [في تاريخه: ١/ ٥٣٩].

ثم لما كان سيل العرم وتفرقت سبأ شذر مذر نزل الأوس والخزرج المدينة عند اليهود فحالفوهم وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من الفضل في العلم المأثور عن الأنبياء لكن منّ الله على هؤلاء الذين كانوا مشركين بالهدى والإسلام وخذل أولئك لحسدهم وبغيهم واستكبارهم عن اتباع الحق.

وقال الإمام أحمد [٣/ ٢٨١]: حدّثنا عفان حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك. قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك. وقد رواه الإمام أحمد [٣/ ١١١، ١٤٥، ٢٨١] أيضاً والبخاري [٢٢٩٤] ومسلم [٢٥٢٩] وأبو داود [٢٩٢٦] من طرق متعددة عن عاصم بن سليمان الأحول عن أنس بن مالك. قال: حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

وقال الإمام أحمد [٢/ ٢٠٤]: حدّثنا نصر بن باب عن حجاج - هو ابن أرطاة - قال: وحدثنا سريج حدّثنا عبّاد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين.

قال أحمد [١/ ٢٧١]: وحدثنا سريج حدّثنا عباد عن حجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس مثله. تفرد به الإمام أحمد.

وفي «صحيح مسلم» [١٥٠٧] عن جابر قال: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولة.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٥٠١ - ٥٠٤]: كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار بني ساعدة وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت، إلى أن قال: «وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو

ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اغتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلاّ أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد ﷺ، ولا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على ابر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى».

كذا أورده ابن إسحاق بنحوه. وقد تكلم عليه أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب «الغريب» وغيره بما يطول ذكره.

سنة ١ - مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ [النساء: ٣٣].

قال البخاري [٤٥٨٠]: حدّثنا الصلت بن محمد حدّثنا أبو أسامة عن إدريس عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمة للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له.

وقال الإمام أحمد [١١١/٣]: قرئ على سفيان: سمعت عاصماً عن أنس قال: حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا قال سفيان: كأنه يقول: آخى.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٤/١، ٥٠٥]: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: - فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: - «تآخوا في الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ - سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد - وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب - أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله ﷺ - وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ومعاذ بن جبل أخوين.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٠٥/١]: كان جعفر يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٥/١، ٥٠٦]: وكان أبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين، ويقال: بل كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر النجاري أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد وأُبيّ بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين، وعمار وحذيفة بن اليمان العبسي حليف عبد الأشهل أخوين، ويقال: بل كان عمار وثابت بن قيس بن شماس أخوين.

قلت: وهذا أنسب من وجهين.

قال [سيرة ابن هشام: ٥٠٦/١، ٥٠٧]: وأبو ذر برير بن جنادة والمنذر بن عمرو المعنق ليموت أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان وأبو الدرداء أخوين وبلال وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ثم أحد الفزع أخوين. قال فهؤلاء ممن سمي لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه رضي الله عنهم.

قلت: وفي بعض ما ذكره نظر، أما مؤاخاة النبي ﷺ وعلي فإن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة اللّهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي إلى غيره فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب كما تقدم عن مجاهد وغيره. وكذلك يكون

حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار والله أعلم.

وهكذا ذكره لمؤاخاة جعفر ومعاذ بن جبل فيه نظر كما أشار إليه عبد الملك بن هشام، فإن جعفر بن أبي طالب إنما قدم في فتح خيبر في أول سنة سبع كما سيأتي بيانه، فكيف يؤاخي بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه عليه السلام إلى المدينة اللّهم إلا أن يقال: إنه أرصد لإخوته إذا قدم حين يقدم.

وقوله: وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين مخالف لما رواه الإمام أحمد [١٥٢/٣]: حدّثنا عبد الصمد حدّثنا حماد حدّثنا ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة.

وكذا رواه مسلم [٢٥٢٨] منفرداً به عن حجاج بن الشاعر عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وهذا أصح مما ذكره ابن إسحاق من مؤاخاة أبي عبيدة وسعد بن معاذ والله أعلم.

وقال البخاري [فتح الباري: ٢٧٠/٧ والحديث بعده: خ (٣٩٣٧)]: باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه.

وقال عبد الرحمن بن عوف: آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة. وقال أبو جحيفة: آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما.

حدّثنا محمد بن يوسف حدّثنا سفيان عن حميد عن أنس قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئاً من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن؟» قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: «فما سقت فيها؟» قال وزن نواة من ذهب، قال النبي ﷺ: «أولِمْ ولو بشاة».

تفرد به من هذا الوجه.

وقد رواه أيضاً [خ (٢٠٤٩)] في مواضع أخر، ومسلم [١٤٢٧] من طرق عن حميد به.

وقال الإمام أحمد [٢٧١/٣]: حدّثنا عفّان حدّثنا حمّاد حدّثنا ثابت وحميد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي إنّا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلّقها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق. فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن.

ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه رَدْع زعفران فقال رسول الله ﷺ «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة، قال: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب، قال: «أولم ولو بشاة» قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة.

وتعليق البخاري هذا الحديث عن عبد الرحمن بن عوف غريب فإنه لا يعرف مسنداً إلا عن أنس اللّهم إلا أن يكون أنس تلقاه عنه فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢٠٠/٣، ٢٠١]: حدّثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس. قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم».

هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط «الصحيحين» ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه، وهو ثابت في الصحيح من وجه آخر.

وقال البخاري [٢٣٢٥]: أخبرنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب حدّثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». قالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

تفرّد به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رسول الله ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» فقالوا: أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر». قالوا: نعم [انظر تفسير الطبري: ٤١/٢٨، ٤٢].

وقد ذكرنا ما ورد من الأحاديث والآثار في فضائل الأنصار وحسن سجاياهم عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

سنة ١ - أول مَنْ مات في المدينة بعد مقدم النبي ﷺ

في موت أبي أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة على قومه بني النجار، وقد شهد العقبات الثلاث وكان أول من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية في قول وكان شاباً وهو أول من جمع بالمدينة في نقيع الخضمات في هزم النبيت كما تقدم

قال محمّد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١]: وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة والمسجد يبنى أخذته الذبحة، أو الشهقة.

وقال ابن جرير في «التاريخ» [٣٩٨/٢]: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى حدّثنا يزيد بن زريع عن معمر عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة.

رجاله ثقات.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١]: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة. قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقي العرب، يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً».

وهذا يقتضي أنه أول من مات بعد مقدم النبي ﷺ، وقد زعم أبو الحسن بن الأثير في «أسد الغابة» [٨٧/١] أنه مات في شوال بعد مقدم النبي ﷺ بسبعة أشهر فالله أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١، ٥٠٨] عن عاصم بن عمر بن قتادة أن بني النجار سألوا رسول الله ﷺ أن يقيم لهم نقيباً بعد أبي أمامة أسعد بن زرارة فقال: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم».

وكره أن يخص بها بعضهم دون بعض. فكان من فضل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٨٧/١]: وهذا يرد قول أبي نعيم وابن منده في قولهما: إن أسعد بن زرارة كان نقيباً على بني ساعدة، إنما كان على بني النجار.

وصدق ابن الأثير فيما قال.

وقد قال أبو جعفر بن جرير في «التاريخ» [٣٩٧/٢]: كان أول من توفي بعد مقدمه عليه السلام المدينة من المسلمين - فيما ذكر - صاحب منزله كلثوم بن الهدم، لم يلبث بعد مقدمه إلا يسيراً حتى مات، ثم توفي بعده أسعد بن زرارة وكانت وفاته في سنة مقدمه قبل أن يفرغ بناء المسجد بالذبحة أو الشهقة.

قلت: وكلثوم بن الهدم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي وهو من بني عمرو بن عوف وكان شيخاً كبيراً أسلم قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة، ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقباء نزل في منزل هذا في الليل، وكان يتحدث بالنهار مع أصحابه في منزل سعد بن الربيع رضي الله عنهما إلى أن ارتحل إلى دار بني النجار كما تقدم.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٤٩٥/٤]: وقد قيل: إنه أول من مات من المسلمين بعد مقدم رسول الله ﷺ، ثم بعده أسعد بن زرارة. ذكره الطبري.

سنة ١- أول من وُلِدَ في الإسلام وبعد الهجرة

في ميلاد عبد الله بن الزبير في شوال سنة الهجرة فكان أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين كما أن النعمان بن بشير أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة رضي الله عنهما.

وقد زعم بعضهم [انظر تاريخ الطبري: ٤٠١/٢] أن ابن الزبير ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً قاله أبو الأسود.

ورواه الواقدي [انظر تاريخ الطبري: ٤٠١/٢] عن محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه عن جده، وزعموا أن النعمان ولد قبل الزبير بستة أشهر على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة.

والصحيح ما قدمناه.

قال البخاري [٣٩٠٩]: حدّثنا زكريا بن يحيى حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرّك عليه. وكان أول مولود ولد في الإسلام.

تابعه خالد بن مخلد عن علي بن مسهر عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى.

حدّثنا [الكلام للبخاري. (٣٩١٠)] قتيبة عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أول مولود ولد في الإسلام عبد الله بن الزبير، أتوا به النبي ﷺ فأخذ النبي ﷺ تمرة فلاكها ثم ادخلها في فيه فأول ما دخل بطنه ريق النبي ﷺ.

فهذا حجة على الواقدي وغيره لأنه ذكر أن النبي ﷺ بعث مع عبد الله بن أريقط - لما رجع إلى مكة - زيد بن حارثة وأبا رافع ليأتوا بعياله وعيال أبي بكر فقدموا بهم أثر هجرة النبي ﷺ وأسماء حامل متم أي مقرب قد دنا وضعها لولدها، فلما ولدته كبر المسلمون تكبيرة عظيمة فرحاً بمولده لأنه كان قد بلغهم عن اليهود أنهم سحروهم حتى لا يولد لهم بعد هجرتهم ولد، فأكذب الله اليهود فيما زعموا.

سنة ١- بناءُ النبيِّ ﷺ بعائشة

وبنى رسول الله ﷺ بعائشة في شوال من هذه السنة قال الإمام أحمد [٢٠٦/٦]: حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن إسماعيل بن أمية عن عبد الله بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟ وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال.

ورواه مسلم [(١٤٢٣)] والترمذي [(١٠٩٣)] والنسائي [٣٢٣٦، ٣٣٧٧] وابن ماجه [١٩٩٠] من طرق عن سفيان الثوري به.

وقال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سفيان الثوري.

فعلى هذا يكون دخوله بها عليه السلام بعد الهجرة بسبعة أشهر - أو ثمانية أشهر -.

وقد حكى القولين ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٨/٢].

وقد تقدم في تزويجه عليه السلام بسودة كيفية تزويجه ودخوله بعائشة بعدما قدموا المدينة وإن دخوله بها كان بالسنح نهاراً. وهذا خلاف ما يعتاده الناس اليوم.

وفي دخوله عليه السلام بها في شوال رداً لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين خشية المفارقة بين الزوجين وهذا ليس بشيء لما قالته عائشة رادة على من توهمه من الناس في ذلك الوقت: تزوجني في شوال وبنى بي - أي دخل بي - في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟.

فدل هذا على أنها فهمت منه عليه السلام أنها أحب نسائه إليه، وهذا الفهم منها صحيح لما دل على ذلك من الدلائل الواضحة، ولو لم يكن إلا الحديث الثابت في «صحيح البخاري» [٣٦٦٢] عن عمرو بن العاص: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال «أبوها».

سنة ١- صلاة الحضر وصلاة السفر

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٠/٢]: وفي هذه السنة - يعني السنة الأولى من الهجرة - زيد في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين، وذلك بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر في ربيع الآخر لمضي اثنتي عشرة ليلة منه، وقال: وزعم الواقدي أنه لا خلاف بين أهل الحجاز فيه.

قلت: قد تقدم الحديث الذي رواه البخاري [١٠٨٩] من طريق معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

وروي من طريق الشعبي عن مسروق عنها.

وقد حكى البيهقي [في الدلائل: ٤٠٧/٢] عن الحسن البصري أن صلاة الحضر أول ما فرضت فرضت أربعاً والله أعلم.

وقد تكلمنا على ذلك في تفسير سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] الآية.

سنة ١ - مشروعية الأذان

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٨/١، ٥٠٩]: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والإيمان.

وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهمّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذي يدْعون به لصلاتهم ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينا هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك».

فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد». قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٩/١]: فحدثني بهذا الحديث محمد بن إبراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه عن أبيه.

وقد روى هذا الحديث أبو داود [٤٩٩] والترمذي [١٨٩] وابن ماجه [٧٠٦] وابن خزيمة من طرق عن محمد بن إسحاق به، وصحّحه الترمذي وابن خزيمة وغيرهما [انظر الإرواء: ٢٦٥/١].

وعند أبي داود [٤٩٩] أنه علمه الإقامة قال: ثم تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

وقد روى ابن ماجه [٧٠٦] هذا الحديث عن أبي عبيد محمد بن عبيد بن ميمون عن محمد بن سلمة الحراني عن ابن إسحاق كما تقدم. ثم قال: قال أبو عبيد: وأخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد الأنصاري قال في ذلك:

أحمدُ اللّه ذا الجلال وذا الإكرام حمداً على الأذان كثيرا
إذ أتاني به البشيرُ من اللّه فأكرِمْ به لدي بشيرا
في ليالٍ والى بهنّ ثلاثٍ كلما جاءَ زادني توقيرا

قلت: وهذا الشعر غريب وهو يقتضي أنه رأى ذلك ثلاث ليال حتى أخبر به رسول الله ﷺ فالله أعلم.

ورواه الإمام أحمد [٤٢/٤، ٤٣] من حديث محمد بن إسحاق قال: وذكر الزهري عن سعيد بن المسيّب عن عبد الله بن زيد به نحو رواية ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي ولم يذكر الشعر.

وقال ابن ماجه [٧٠٧]: حدّثنا محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي حدّثنا أبي عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ استشار الناس لما يهمهم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى فأري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له: عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب، فطرق الأنصاري رسول الله ﷺ ليلاً فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن به.

قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة، الصلاة خير من النوم مرتين، فأقرها رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله رأيت مثل الذي رأى ولكنه سبقني.

وسيأتي تحرير هذا الفصل في باب الأذان من كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما الحديث الذي أورده السهيلي [الروض الأنف: ٣٨٤/٤، ٣٨٥] بسنده من طريق البزار حدّثنا محمد بن عثمان بن مخلد حدّثنا أبي عن زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب فذكر حديث الإسراء وفيه:

فخرج ملك من وراء الحجاب فأذّن بهذا الأذان وكلما قال كلمة صدّقه الله تعالى، ثم أخذ الملك بيد محمد ﷺ فقدمه فأمّ بأهل السماء وفيهم آدم ونوح.

ثم قال السهيلي: وأخلق بهذا الحديث أن يكون صحيحاً لما يعضده ويشاكله من حديث الإسراء.

فهذا الحديث ليس كما زعم السهيلي أنه صحيح بل هو منكر تفرد به زياد بن المنذر أبو الجارود الذي تنسب إليه الفرقة الجارودية وهو من المتهمين.

ثم لو كان هذا قد سمعه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة في الدعوة إلى الصلاة والله أعلم

قال ابن هشام [في السيرة: ٥٠٩/١]: وذكر ابن جريج. قال: قال لي عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: ائتمر النبي ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينا عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى عمر في المنام: لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة. فذهب عمر إلى النبي ﷺ ليخبره بما رأى وقد جاء النبي ﷺ الوحي بذلك فما راع عمر إلا بلال يؤذن، فقال رسول الله ﷺ حين أخبره بذلك: «قد سبقك بذلك الوحي».

وهذا يدل على أنه قد جاء الوحي بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد بن عبد ربه كما صرح به بعضهم والله تعالى أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٩/١]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار قالت: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة فيأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى ثم قال: اللّهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، قالت: ثم يؤذن، قالت: والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني: هذه الكلمات.

ورواه أبو داود [٥١٩] من حديثه منفرداً به.

سنة ١- سرية حمزة بن عبد المطلب

في سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وزعم الواقدي أن رسول الله ﷺ عقد في هذه السنة في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترض لعيرات قريش وأن حمزة لقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل من قريش فحجز بينهم مجدي بن عمرو ولم يكن بينهم قتال، قال: وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد الغنوي.

سنة ١- سرية عبيدة بن الحارث

في سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وزعم الواقدي أيضاً أن النبي ﷺ عقد في هذه السنة على رأس ثمانية أشهر في شوال لعبيدة بن الحارث لواء أبيض وأمره بالمسير إلى بطن رابغ. وكان لواؤه مع مسطح بن أثاثة فبلغ ثنية المرة وهي بناحية الجحفة في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري وأنهم التقوا هم والمشركون على ماء يقال له: أحياء وكان بينهم الرمي دون المسايفة.

قال الواقدي: وكان المشركون مائتين عليهم أبو سفيان صخر بن حرب وهو المثبت عندنا، وقيل: كان عليهم مكرز بن حفص.

سنة ١- سرية سعد بن أبي وقاص

قال الواقدي [عنه أخرجه الطبري في تاريخه: ٤٠٣/٢]: وفيها - يعني في السنة الأولى في ذي القعدة - عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص إلى الخرار لواء أبيض يحمله المقداد بن الأسود، فحدثني أبو بكر بن إسماعيل عن أبيه عن عامر بن سعد عن أبيه. قال: خرجت في عشرين رجلاً على أقدامنا، أو قال: أحد وعشرين رجلاً، فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا الخرار صبح خامسة، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليّ أن لا أجاوز الخرار، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم.

قال الواقدي [عنه أخرجه الطبري في تاريخه: ٤٠٣/٢]: كانت العير ستين وكان من مع سعد كلهم من المهاجرين.

قال أبو جعفر بن جرير (رحمه الله) [في تاريخه: ٤٠٣/٢]: وعند ابن إسحاق (رحمه الله) أن هذه السرايا الثلاث - التي ذكرها الواقدي - كلها في السنة الثانية من الهجرة من وقت التاريخ.

قلت: كلام ابن إسحاق ليس بصريح - فيما قاله أبو جعفر رحمه الله لمن تأمله - كما ستورده في أول كتاب المغازي في أول السنة الثانية من الهجرة وذلك تلو ما نحن فيه إن شاء الله، إذ يحتمل أن يكون مراده أنها وقعت هذه السرايا في السنة الأولى، وسنزيدها بسطاً وشرحاً إذا انتهينا إليها إن شاء الله تعالى.

والواقدي (رحمه الله) عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرر غالباً فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار وهو صدوق في نفسه مكثار كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بـ «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» ولله الحمد والمنة.

سنة ١- ولادة ابن الزبير

وممن ولد في هذه السنة المباركة - وهي الأولى من الهجرة - عبد الله بن الزبير فكان أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة كما رواه البخاري [٣٩٠٩] عن أمه أسماء وخالته عائشة أم المؤمنين ابنتي الصديق رضي الله عنهما.

ومن الناس من يقول: ولد النعمان بن بشير قبله بستة أشهر.

فعلى هذا يكون ابن الزبير أول مولود ولد بعد الهجرة من المهاجرين.

ومن الناس من يقول: إنهما ولدا في السنة الثانية من الهجرة.

والظاهر الأول كما قدّمنا بيانه ولله الحمد والمنة، وسنشير في آخر السنة الثانية إلى القول الثاني إن شاء الله تعالى.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وقد قيل: إن المختار بن أبي عبيد وزياد بن سمية ولدا في هذه السنة الأولى فالله أعلم.

وممن توفي في هذه السنة الأولى من الصحابة؛ كلثوم بن الهدم الأوسي الذي نزل رسول الله ﷺ في مسكنه بقباء إلى حين ارتحل منها إلى دار بني النجار كما تقدم، وبعده فيها أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار توفي ورسول الله ﷺ يبني المسجد كما تقدم رضي الله عنهما وأرضاهما.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٨/٢]: وفي هذه السنة - يعني الأولى من الهجرة - مات أبو أحيحة بماله بالطائف ومات الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي فيها بمكة.

قلت: وهؤلاء ماتوا على شركهم لم يسلموا لله عز وجل.

سنة ٢- حوادث ووقائع

وقع فيها كثير من المغازي والسرايا ومن أعظمها وأجلها بدر الكبرى التي كانت في رمضان منها، وقد فرق الله بها بين الحق والباطل، والهدى والغي، وهذا أوان ذكر المغازي والبعوث فنقول وبالله المستعان:

سنة ٢- عداوة اليهود للمسلمين

قال الإمام محمّد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة [سيرة ابن هشام: ٥١٤/١] بعد ذكره أحبار اليهود ونصبهم العداوة للإسلام وأهله وما نزل فيهم من الآيات؛ فمنهم حيي بن أخطب وأخواه أبو ياسر وجُدَيّ، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق وهو أبو رافع الأعور، تاجر أهل الحجاز وهو الذي قتله الصحابة بأرض خيبر كما سيأتي، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف وهو من طيّئ ثم أحد بني نبهان وأمه من بني النضير، وقد قتله الصحابة قبل أبي رافع كما سيأتي، وحليفاه الحجاج بن عمرو وكردم بن قيس لعنهم الله فهؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة بن الفِطْيون عبد الله بن صوريا، ولم يكن بالحجاز أحدٌ أعلم بالتوراة منه.

قلت: وقد قيل: إنه أسلم، وابن صلوبا ومخيريق وقد أسلم يوم أحد كما سيأتي وكان حبر قومه.

ومن بني قينقاع زيد بن اللَّصيت، وسعد بن حنيف، ومحمود بن سيحان وعزيز بن أبي عزيز وعبد الله بن صيف، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص وأشيع ونعمان بن أضا، وبحريّ بن عمرو، وشأس بن عدي، وشأس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، ومالك بن صيف وكعب بن راشد، وعازر ورافع بن أبي رافع، وخالد وأزار بن أبي أزار.

قال ابن هشام: ويقال آزر بن آزر، ورافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وعبد الله بن سلام.

قلت: وقد تقدم إسلامه رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: وكان حبرهم وأعلمهم، وكان اسمه الحصين فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٥/١، ٥١٦]: ومن بني قريظة الزبير بن باطا بن وهب، وعزال بن شمويل وكعب بن أسد وهو صاحب عقدهم الذي نقضوه عام الأحزاب وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة، والنحام بن زيد، وقردم بن كعب ووهب بن زيد ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة، وجبل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا.

قال: ومن بني زريق، لبيد بن أعصم وهو الذي سحر رسول الله ﷺ.

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صوريا.

ومن يهود بني عمرو بن عوف: قردم بن عمرو.

ومن يهود بني النجار: سلسلة بن برهام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٦/١]: فهؤلاء أحبار يهود، أهل الشرور والعداوة لرسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، وأصحاب المسألة الذين يكثرون الأسئلة لرسول الله ﷺ على وجه التعنت والعناد والكفر.

قال: وأصحاب النصب لأمر الإسلام ليطفئوه إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق.

ثم ذكر إسلام عبد الله بن سلام وإسلام عمته خالدة [سيرة ابن هشام: ٥١٦/١، ٥١٧] كما قدمناه.

وذكر إسلام مخيريق يوم أحد كما سيأتي وأنه قال لقومه - وكان يوم السبت -: يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه وخرج وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يرى فيها ما أراه الله - وكان كثير الأموال - ثم لحق برسول الله ﷺ فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

قال: فكان رسول الله ﷺ يقول فيما بلغني: «مخيريق خير يهود»

سنة ٢- عداوة المنافقين للمسلمين

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٩/١] من مال إلى هؤلاء الأضداد من اليهود من المنافقين من الأوس والخزرج فمن الأوس زويّ بن الحارث، وجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري وفيه نزل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وذلك أنه قال حين تخلف عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمر.

فنماها ابن امرأته عمير بن سعد إلى رسول الله ﷺ فأنكر الجلاس ذلك وحلف ما قال فنزل فيه ذلك.

قال: وقد زعموا أنه تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير.

قال وأخوه الحارث بن سويد، وهو الذي قتل المجذّر بن زياد البلوي وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد، خرج مع المسلمين وكان منافقاً فلما التقى الناس عدا عليهما فقتلهما ثم لحق بقريش [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/١].

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/١]: وكان المجذّر قد قتل أباه سويد بن الصامت في بعض حروب الجاهلية فأخذ بثأر أبيه منه يوم أحد، كذا قال ابن هشام.

وقد ذكر ابن إسحاق أن الذي قتل سويد بن الصامت إنما هو معاذ بن عفراء قتله في غير حرب قبل يوم بعاث رماه بسهم فقتله.

وأنكر ابن هشام أن يكون الحارث قتل قيس بن زيد.

قال: لأن ابن إسحاق لم يذكره في قتلى أحد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢١/١]: وقد كان رسول الله ﷺ. أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، فبعث الحارث إلى أخيه الجلاس يطلب له التوبة ليرجع إلى قومه، فأنزل الله - فيما بلغني عن ابن عباس - ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] إلى آخر القصة [تفسير الطبري: ٣٣٩/٣ - ٣٤٢].

قال: وبجاد بن عثمان بن عامر، ونبتل بن الحارث وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا» وكان جسيماً أدلم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسفع الخدين، وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ثم ينقله إلى المنافقين وهو الذي قال: إنما محمد أذن، من حدثه بشيء صدقه. فأنزل الله فيه ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية [التوبة: ٦١] [تفسير الطبري: ١٦٨/١].

قال: وأبو حبيبة بن الأزعر وكان ممن بنى مسجد الضرار [تفسير الطبري: ٢٣/١١].

وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ثم نكثا، فنزل فيهما ذلك [تفسير الطبري: ١٩١/١٠ - ١٩٣].

ومعتب هو الذي قال يوم أحد: لوكان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فنزل فيه الآية [تفسير الطبري: ١٣٩/٤ - ١٤٤].

وهو الذي قال يوم الأحزاب: كانّ محمداً يعدنا أنا نأكل كنوز كسرى وقيصر، واحدنا لا يؤمن أن يذهب إلى الغائط فنزل فيه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢] [تفسير الطبري: ١٣٣/٢١].

قال ابن إسحاق: والحارث بن حاطب. قال ابن هشام. ومعتب بن قشير وثعلبة والحارث ابنا حاطب، وهما من بني أمية بن زيد من أهل بدر وليسوا من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم.

قال: وقد ذكر ابن إسحاق ثعلبة والحارث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٢/١]: وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ويخرج وكان ممن بنى مسجد الضرار وعمرو بن خذام وعبد الله بن نبتل، وجارية بن عامر بن العطاف، وابناه يزيد ومجمع ابنا جارية وهم ممن اتخذ مسجد الضرار، وكان مجمع غلاماً حدثا قد جمع أكثر القرآن وكان يصلي بهم فيه، فلما خرب مسجد الضرّار كما سيأتي بيانه بعد غزوة تبوك وكان في أيام عمر سأل أهل قباء عمر أن يصلّي بهم مجمع فقال: لا والله، أو ليس إمام المنافقين في مسجد الضرّار؟ فحلف بالله ما علمت بشيء من امرهم. فزعموا أن عمر تركه فصلى بهم. قال: ووديعة بن ثابت وكان ممن بنى مسجد الضرار وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزل فيه ذلك.

قال: وخذام بن خالد وهو الذي أُخرج مسجد الضرار من داره.

قال ابن هشام مستدركاً على ابن إسحاق في منافقي بني النبيت من الأوس: وبشر ورافع ابنا زيد [سيرة ابن هشام: ٥٢٣/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٣/١ ـ ٥٢٥]: ومربع بن قيظي ـ وكان أعمى ـ وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبياً أن تمر في حائطي وأخذ في يده حفنة من تراب.

ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها. فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر» وقد ضربه سعد بن زيد الأشهلي بالقوس فشجه.

قال: وأخوه أوس بن قيظي وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة. قال الله ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٣].

قال وحاطب بن أمية بن رافع وكان شيخاً جسيما قد عسا في جاهليته، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحمل إلى دار بني ظفر.

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت فجعلوا يقولون: أبشر بالجنة يا ابن حاطب. قال: فنجم نفاق أبيه فجعل يقول: أجل جنة من حرمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسه.

قال: وبشير بن أبيرق أبو طعمة سارق الدرعين الذي أنزل الله فيه ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآيات.

قال: وقزمان حليف لبني ظفر الذي قتل يوم أحد سبعة نفر، ثم لما آلمته الجراحة قتل نفسه وقال: والله ما قاتلت إلا حمية على قومي ثم مات لعنه الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٥٢/١]: ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم إلا أن الضحاك بن ثابت كان يتهم بالنفاق وحب يهود فهؤلاء كلهم من الأوس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٥/١]: ومن الخزرج رافع بن وديعة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل، والجد بن قيس وهو الذي قال: ﴿ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾، وعبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين ورئيس الخزرج والأوس أيضاً، كانوا قد أجمعوا على أن يملكوه عليهم في الجاهلية، فلما هداهم الله للإسلام قبل ذلك شرق اللعين بريقه وغاظه ذلك جداً، وهو الذي قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، وقد نزلت فيه آيات كثيرة جداً، وفيه وفي وديعة ـ رجل من بني عوف ـ ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس وهم من رهطه نزل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ الآيات حين مالوا في الباطن إلى بني النضير [تفسير الطبري: ٤٥/٢٨، ٤٦].

سنة ٢ - من المنافقين

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٧/١، ٥٢٨]: من أسلم من أحبار اليهود على سبيل التقية فكانوا كفارا في الباطن فأتبعهم بصنف المنافقين وهم من شرّهم، سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ «والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك [المغازي للواقدي: ٤٢٣/٢، الدلائل للبيهقي: ٥٩/٤].

قال: ونعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى، ورافع بن حريملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ يوم مات ـ فيما بلغنا ـ: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ورفاعة بن زيد بن التابوت، وهو الذي هبت الريح الشديدة يوم موته عند مرجع رسول الله ﷺ من تبوك فقال: «إنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار» [المغازي للواقدي: ٤٢٢/٢، ٤٢٣، الدلائل للبيهقي: ٥٩/٤ ـ ٦١] فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة قد مات في ذلك اليوم وسلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا فهؤلاء ممن أسلم من منافقي اليهود.

قال: [سيرة ابن هشام: ٥٢٨/١ ـ ٥٢٩] فكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع في المسجد يوماً منهم أناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم إلى بعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً.

فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس أحد بني النجار ـ وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية ـ فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه وهو يقول ـ لعنه الله ـ أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ ثم أقبل أبو أيوب إلى رافع بن وديعة النجاري فلببه بردائه، ثم نتره نتراً شديداً ولطم وجهه فأخرجه من المسجد وهو يقول: أف لك منافقاً خبيثاً.

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ـ وكان طويل اللحية ـ فأخذ بلحيته وقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه جميعاً فلدمه بهما لدمة في صدره خر منها قال: يقول: خدشتني ياعمارة، فقال عمارة: أبعدك الله يا منافق، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ـ وكان بدرياً ـ إلى قيس بن عمرو بن سهل وكان شاباً ـ وليس في المنافقين شاب سواه ـ فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه.

وقام رجل من بني خدرة إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو ـ وكان ذا جمة ـ فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه، فجعل يقول المنافق: قد أغلظت يا أبا الحارث، فقال: إنك أهل لذلك أي عدو الله لما أنزل فيك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث فأخرجه

إخراجاً عنيفاً وأفّف منه وقال: غلب عليك الشيطان وأمره.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٣٠ - ٥٧٢] ما نزل فيهم من الآيات من سورة البقرة وغيرها ومن سورة التوبة، وتكلم على تفسير ذلك فأجاد وأفاد رحمه الله.

سنة ٢- غزوات النبي ﷺ وسراياه (بيانها)

قال البخاري [قبل (٣٩٤٩)] كتاب المغازي. قال ابن إسحاق: أول ما غزا رسول الله ﷺ الأبواء. ثم بواط، ثم العشيرة.

ثم روى [٣٩٤٩] عن زيد بن أرقم أنه سئل كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة شهد منها سبع عشرة أولهن العسيرة - أو العشيرة -. وسيأتي الحديث بإسناده ولفظه والكلام عليه عند غزوة العشيرة إن شاء الله وبه الثقة.

وفي صحيح البخاري [٤٤٧٣] عن بريدة قال: غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة.

ولمسلم [١٨١٤] عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة.

وفي رواية له [١٨١٤ (١٤٧)] عنه أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وقاتل في ثماني منهنّ.

وقال الحسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ غزا سبع عشرة غزوة وقاتل في ثمان؛ يوم بدر، وأُحد، والأحزاب، والمريسيع، وقديد، وخيبر، ومكة، وحنين. وبعث أربعاً وعشرين سرية [الدلائل للبيهقي: ٥/٤٥٩].

وقال يعقوب بن سفيان: حدّثنا محمد بن عثمان الدمشقي التنوخي حدّثنا الهيثم بن حميد أخبرني النعمان عن مكحول أن رسول الله ﷺ غزا ثمانية عشر غزوة، قاتل في ثمان غزوات أولهن بدر، ثم أحد، ثم الأحزاب، ثم قريظة، ثم بئر معونة، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثم غزوة خيبر، ثم غزوة مكة، ثم حنين والطائف [المعرفة والتاريخ: ٣/٣٠٠].

قوله: بئر معونة بعد قريظة فيه نظر، والصحيح أنها بعد أحد كما سيأتي.

قال يعقوب حدّثنا سلمة بن شبيب حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري سمعت سعيد بن المسيّب يقول: غزا رسول الله ﷺ ثماني عشرة غزوة، وسمعته مرة أخرى يقول: أربعاً وعشرين. فلا أدري أكان ذلك وهماً أو شيئاً سمعه بعد ذلك [المعرفة والتاريخ: ٣/٣٠٠، ٣٠١].

وقد روى الطبراني عن الدبري عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري. قال: غزا رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين غزوة [عبد الرزاق في مصنفه (٩٦٥٩) عن معمر به].

وقال عبد الرحمن بن حميد في مسنده حدّثنا سعيد بن سلام حدّثنا زكريا بن إسحاق حدّثنا أبو الزبير عن جابر قال: غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة.

وقد روى الحاكم من طريق هشام عن قتادة أن مغازي رسول الله ﷺ وسراياه كانت ثلاثاً وأربعين.

ثم قال الحاكم: لعله أراد السرايا دون الغزوات، فقد ذكرت في «الإكليل» على الترتيب بعوث رسول الله ﷺ وسراياه زيادة على المائة.

قال: وأخبرني الثقة من أصحابنا ببخارى أنه قرأ في كتاب أبي عبد الله محمد بن نصر؛ السرايا والبعوث دون الحروب نيفاً وسبعين. وهذا الذي ذكره الحاكم غريب جداً، وحمله كلام قتادة على ما قال فيه نظر.

وقد روى الإمام أحمد عن أزهر بن القاسم الراسبي عن هشام الدستوائي عن قتادة أن مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ثلاث وأربعون، أربع وعشرون بعثاً، وتسع عشرة غزوة. خرج في ثمان منها بنفسه؛ بدر، وأُحد، والأحزاب، والمريسيع، وخيبر، وفتح مكة، وحنين.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: هذه مغازي رسول الله ﷺ التي قاتل فيها، يوم بدر في رمضان سنة ثنتين، ثم قال يوم أحد في شوال سنة ثلاث، ثم قاتل يوم الخندق - وهو يوم الأحزاب وبني قريظة - في شوال من سنة أربع، ثم قاتل بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست، ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان، ثم قاتل يوم حنين وحاصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان، ثم حج أبو بكر سنة تسع، ثم حج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر، وغزا ثنتي عشرة غزوة ولم يكن فيها قتال، وكانت أول غزاة غزاها الأبواء.

وقال حنبل بن إسحاق عن هلال بن العلاء عن عبد الله بن جعفر الرقي عن مطرف بن مازن اليماني عن معمر عن الزهري قال: أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الآية بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ يوم بدر يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان.

إلى أن قال: ثم غزا بني النضير، ثم غزا أحداً في شوال - يعني من سنة ثلاث - ثم قاتل يوم الخندق في شوال سنة أربع، ثم قاتل بني لحيان في شعبان سنة خمس، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست، ثم قاتل يوم الفتح في شعبان سنة ثمان، وكانت حنين في رمضان سنة ثمان. وغزا رسول الله ﷺ إحدى عشرة غزوة لم يقاتل فيها، فكانت أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ الأبواء، ثم العشيرة، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة الأبواء ثم غزوة بدر الأولى، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة الحديبية، ثم غزوة الصفراء، ثم غزوة تبوك آخر غزوة.

ثم ذكر البعوث، هكذا كتبته من تاريخ الحافظ ابن عساكر [مختصر ابن عساكر: ٢/١٨٨، ١٨٩] وهو غريب جداً، والصواب ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله مرتباً.

وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به والاعتبار بأمره والتهيؤ له كما رواه محمد بن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن.

قال الواقدي: وسمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٠، ٥٩١] (رحمه الله) في المغازي بعد ذكره ما تقدم مما سقناه عنه من تعيين رؤوس الكفر من اليهود والمنافقين لعنهم الله أجمعين وجمعهم في أسفل سافلين: ثم إن رسول الله ﷺ تهيأ لحربه وقام بما أمره الله به من جهاد عدوه وقتال من أمره به ممن يليه من المشركين.

قال: وقد قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل لثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة، وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة فأقام بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجمادين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة وولّى تلك الحجة المشركون، والمحرم.

ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩١/١]: واستعمل على المدينة سعد بن عبادة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩١/١]: حتى بلغ ودّان وهي غزوة الأبواء.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٠٧/٢]: ويقال لها غزوة ودان أيضاً، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه ذلك. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩١/١]: وهي أول غزوة غزاها عليه السلام.

قال الواقدي: وكان لواؤه مع عمّه حمزة، وكان أبيض [طبقات ابن سعد: ٨/٢].

سنة ٢- سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩١/١، ٥٩٢]: وبعث رسول الله ﷺ في مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين - أو ثمانين - راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرة فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به في سبيل الله في الإسلام. ثم انصرف القوم عن القوم. وللمسلمين حامية وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار.

قال ابن إسحاق: وكان على المشركين يومئذ عكرمة بن أبي جهل.

وروى ابن هشام عن أبي عمرو بن العلاء عن أبي عمرو المدني أنه قال: كان عليهم مكرز بن حفص.

قلت: وقد تقدم عن حكاية الواقدي قولان:

أحدهما أنه مكرز.

والثاني: أنه أبو سفيان صخر بن حرب وأنه رجح أنه أبو سفيان فالله أعلم.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٢/١ - ٥٩٣] القصيدة المنسوبة إلى أبي بكر الصديق في هذه السرية التي أولها:

أمِن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ ... أرقت وأمر في العشيرة حادث

ترى من لؤي فرقةً لا يصدّها ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعث

رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذّبوا ... عليه وقالوا لستَ فينا بماكث

إذا ما دعوناهم إلى الحقّ أدبروا ... وهرُّوا هريرَ المُجْحِرَات اللّواهث

القصيدة إلى آخرها.

وذكر [سيرة ابن هشام: ٥٩٣/١، ٥٩٤] جواب عبد الله بن الزبعرى في مناقضتها التي أولها:

أمن رسم دارٍ أقفرتْ بالعثاعث ... بكيت بعين دمعُها غير لابث

ومن عجبِ الأيام والدهرُ كلُّهُ ... له عَجَبٌ - من سابقات وحادث

لجيش أتانا ذي عَرام يقوده ... عُبيدة يُدعى في الهياج ابنَ حارث

لنترك أصناماً بمكّة عُكّفاً ... مواريثُ موروثٌ كريم لوارث

وذكر تمام القصيدة وما منعنا من إيرادها بتمامها إلا أن الإمام عبد الملك بن هشام رحمه الله - وكان إماما في اللغة - ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكر هاتين القصيدتين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٤/١، ٥٩٥] وقال سعد بن أبي وقاص في رميته تلك فيما يذكرون:

الا هلْ أتى رسولَ اللّه أنّي ... حميْتُ صحابتي بصدورِ نَبْلي

أذودُ بها أوائلَهم ذياداً ... بكل حزونةٍ وبكل سهل

فما يعتدُّ رامٍ في عدوٍّ ... بسهم يا رسول اللّه قبلي

وذلك أن دينك دينُ صدقٍ ... وذو حقٍّ أتيتَ به وفضل

ينجّى المؤمنون به ويجزى ... به الكفّار عندَ مقام مهل

فمهلاً قد غويتَ فلا تعبني ... غوي الحي ويحك يا ابن جهل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لسعد.

قال ابن إسحاق: فكانت راية عبيدة - فيما بلغنا - أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين.

وقد خالفه الزهري وموسى بن عقبة [الدلائل للبيهقي ٨/٣ بسنده إلى موسى بن عقبة والزهري] والواقدي [المغازي: ٢/١] فذهبوا إلى أن بعث حمزة قبل بعث عبيدة بن الحارث والله أعلم.

وسيأتي في حديث سعد بن أبي وقاص أن أول أمراء السرايا عبد الله بن جحش الأسدي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١]: وبعض العلماء يزعم أن رسول الله ﷺ بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة. وهكذا حكى موسى بن عقبة عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٩/٣].

سنة ٢- سرية حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١]: وبعث رسول الله ﷺ في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١، ٥٩٦]: وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك على الناس.

قلت: وقد حكى موسى بن عقبة عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٨/٣، ٩ من طريق موسى بن عقبة] أن بعث حمزة قبل بعث عبيدة بن الحارث، ونص على أن بعث حمزة كان قبل غزوة الأبواء. فلما قفل عليه السلام من الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين من المهاجرين، وذكر نحو ما تقدم.

وقد تقدم عن الواقدي أنه قال: كانت سرية حمزة في رمضان من السنة الأولى، وبعدها سرية عبيدة في شوال منها والله أعلم.

وقد أورد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٦/١] عن حمزة رضي الله عنه شعراً يدل على أن رايته أول راية عقدت في الإسلام، لكن قال ابن إسحاق: فإن كان حمزة قال ذلك فهو كما قال، لم يكن يقول إلا حقاً والله أعلم أي

ذلك كان. فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا فعبيدة أول. والقصيدة هي قوله:

ألا يا لقومي للتحلم والجهل ... وللنقص من رأي الرجال وللعقل
وللراكبينا بالمظالم لم نطأ ... لهم حرمات من سوام ولا أهل
كأنا تبلناهم ولا تبل عندنا ... لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل
وأمر بإسلام فلا يقبلونه ... وينزل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى انتدبت لغارة ... لهم حيث حلوا أبتغي راحة الفضل
بأمر رسول الله أول خافق ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
لواء لديه النصر من ذي كرامة ... إله عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا ... مراجله من غيظ أصحابه تغلي
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا ... مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم: حبل الإله نصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغيا ... فخاب ورد الله كيد أبي جهل
وما نحن إلا في ثلاثين راكبا ... وهم مائتان بعد واحدة فضل
فيال لؤي لا تطيعوا غواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل
فإني أخاف أن يصب عليكم ... عذاب فتدعوا بالندامة والثكل

قال [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٧]: فأجابه أبو جهل بن هشام لعنه الله فقال:

عجبتُ لأسبابِ الحفيظةِ والجهلِ ... وللشاغبينَ بالخلافِ وبالبُطْلِ
وللتاركين ما وجدنا جدودنا ... عليه ذوي الأحساب والسُّودد الجزل

ثم ذكر تمامها.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٥٩٦، ٥٩٨] وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هاتين القصيدتين لحمزة ﷺ ولأبي جهل لعنه الله.

سنة ٢- غزوة بواط من ناحية رضوى

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٨]: ثم غزا رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول - يعني من السنة الثانية - يريد قريشاً.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٨]: واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

وقال الواقدي [طبقات ابن سعد: ٢/٨]: استخلف عليها سعد بن معاذ. وكان رسول الله ﷺ في مائتي راكب، وكان لواؤه مع سعد بن أبي وقاص وكان مقصده أن يعترض لعير قريش وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٨]: حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

ثم غزا قريشاً يعني بذلك الغزوة التي يقال لها: غزوة العشيرة وبالمهملة والعُشير وبالمهملة والعُشيراء وبالمهملة

قال ابن هشام [السيرة: ١/٥٩٨]: واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد. قال الواقدي [طبقات ابن سعد: ٢/٩]: وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب.

قال: وخرج عليه السلام يتعرض لعيرات قريش ذاهبة إلى الشام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٨، ٥٩٩]: فسلك على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها ذات الساق فصلّى عندها فثم مسجده، فصنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فرسوم أثافي البرمة معلوم هنالك، واستُقي له من ماء يقال له المشيرب ثم ارتحل فترك الخلائق بيسار وسلك شعبة عبد الله، ثم صب لليسار حتى هبط يليل، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة ثم سلك فرش ملل حتى لقي الطريق بصخيرات اليمام ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليال من جمادى الآخرة ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وقد قال البخاري [٣٩٤٩] حدّثنا عبد الله حدّثنا وهب حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق. قال: كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له: كم غزا رسول الله ﷺ من غزوة؟ قال: تسع عشرة. قلت: كم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة غزوة، قلت: فأيهن كانت أول؟ قال العشير - أو العسيرة - فذكرت لقتادة فقال: العشيرة.

وهذا الحديث ظاهر في أن أول الغزوات العشيرة، ويقال بالسين وبهما مع حذف التاء، وبهما مع المد اللهم إلا أن يكون المراد غزاة شهدها مع النبي ﷺ زيد بن أرقم العشيرة وحينئذ لا ينفي أن يكون قبلها غيرها لم يشهدها زيد بن أرقم وبهذا يحصل الجمع بين ما ذكره محمد بن إسحاق وبين هذا الحديث والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٩]: ويومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي ما قال فحدثني يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد بن كعب القرظي حدّثني أبو يزيد محمد بن خثيم عن عمار بن ياسر. قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع، فلما نزلها رسول الله ﷺ أقام بها شهراً فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فوادعهم، فقال لي علي بن أبي طالب: هل لك يا أبا اليقظان أن نأتي هؤلاء النفر - من بني مدلج يعملون في عين لهم - ننظر كيف يعملون؟ فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة فغشينا النوم فعمدنا إلى صور من النخل في دقعاء من الأرض فنمنا فيه، فوالله ما أهبنا إلا ورسول الله ﷺ يحركنا بقدمه فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا أبا تراب»؛ لما عليه من التراب، فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال: «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله فقال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع رسول الله ﷺ يده على رأسه - حتى يَبُلَّ منها هذه - ووضع يده على لحيته -».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر في تسمية علي أبا تراب كما في صحيح البخاري [٤٤١، ٦٢٨٠] أن علياً خرج مغاضباً فاطمة، فجاء المسجد فنام فيه فدخل رسول الله ﷺ فسألها عنه فقالت: خرج مغاضباً فجاء إلى المسجد فأيقظه وجعل يمسح التراب عنه ويقول: «قم أبا تراب قم أبا تراب»

سنة ٢- غزوة بدر الأولى

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠١]: ثم لم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من العشيرة إلا ليال قلائل لا تبلغ العشرة حتى أغار

كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحيه بدر، وهي غزوة بدر الأولى، وفاته كرز فلم يدركه.

وقال الواقدي: وكان لواؤه مع علي بن أبي طالب [طبقات ابن سعد: ٩/٢].

قال ابن هشام والواقدي: وكان قد استخلف على المدينة زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٠/١، ٦٠١]: فرجع رسول الله ﷺ فأقام جمادى ورجباً وشعبان وقد كان بعث بين يدي ذلك سعداً في ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز.

قال ابن هشام: ذكر بعض أهل العلم أن بعث سعد هذا كان بعد حمزة ثم رجع ولم يلق كيداً.

هكذا ذكره ابن إسحاق مختصراً.

وقد تقدم ذكر الواقدي لهذه البعوث الثلاثة، أعني بعث حمزة في رمضان، وبعث عبيدة في شوال، وبعث سعد في ذي القعدة كلها في السنة الأولى.

وقد قال الإمام أحمد [١٧٨/١]: حدّثني عبد المتعال بن عبد الوهاب حدّثني يحيى بن سعيد. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وحدثني سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدّثنا أبي حدّثنا المجالد عن زياد بن علاقة عن سعد بن أبي وقاص. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق حتى نأتيك وتؤمنّا، فأوثق لهم فأسلموا.

قال: فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب ولا نكون مائة وأمرنا أن نغير على حي من بني كنانة إلى جنب جهينة فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقال بعضنا: نأتي نبي الله فنخبره، وقال قوم: لا بل نقيم ههنا، وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها. وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له، فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر فقام غضبان محمر الوجه. فقال: «أذهبتم من عندي جميعاً ورجعتم متفرقين! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش» فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير في الإسلام.

وقد رواه البيهقي في الدلائل [١٤/٣] من حديث يحيى بن أبي زائدة عن مجالد به نحوه وزاد بعد قولهم لأصحابه: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقالوا: نقاتل في الشهر الحرام من أخرجنا من البلد الحرام.

ثم رواه [١٥/٣] من حديث أبي أسامة عن مجالد عن زياد بن علاقة عن قطبة بن مالك عن سعد بن أبي وقاص فذكر نحوه فأدخل بين سعد وزياد قطبة بن مالك وهذا أنسب؛ والله أعلم.

وهذا الحديث يقتضي أن أول السرايا عبد الله بن جحش الأسدي وهو خلاف ما ذكره ابن إسحاق أن أول الرايات عقدت لعبيدة بن الحارث بن المطلب [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/٢]، وللواقدي حديث زعم أن أول الرايات عقدت لحمزة بن عبد المطلب [طبقات ابن سعد: ٦/٢] والله أعلم.

سنة ٢- سرية عبد الله بن جحش

باب سرية عبد الله بن جحش التي كانت سبباً لغزوة بدر العظمى وذلك يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠١/١، ٦٠٢]: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وهم أبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن بن حرثان حليف بني أسد بن خزيمة، وعتبة بن غزوان حليف بني نوفل، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وعامر بن ربيعة الوائلي حليف بني عدي، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع التميمي حليف بني عدي أيضاً، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف بني عدي أيضاً، وسهيل بن بيضاء الفهري؛ فهؤلاء سبعة ثامنهم أميرهم عبد الله بن جحش رضي الله عنه.

وقال يونس عن ابن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ١٨/٣ - ٢٠ من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق]: كانوا ثمانية وأميرهم التاسع فالله أعلم وستأتي تسميتهم على خلاف ما قال ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠١/١ - ٦٠٤]: وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم».

فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما في الكتاب. وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

قال ابن هشام: واسم الحضرمي عبد الله بن عباد الصدفي.

قال السهيلي: وقيل غير ذلك في نسبه وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه. فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور الصحابة فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعنّ به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام. فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت القومَ نوفلُ بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ. وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ فيما غنمنا الخمس فعزله

وقسم الباقي بين أصحابه وذلك قبل أن ينزل الخمس.

قال: ولما نزل الخمس نزل كما قسمه عبد الله بن جحش كما قاله [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٥].

قال: ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٣، ٦٠٤]: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان، وقالت يهود تفائل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب وواقد بن عبد الله وقدت الحرب فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٤، ٦٠٥]: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم».

فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ. فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٥]: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٥]: والحديث في ذلك عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٣/٢٠، ٢١ من طريقين عن موسى بن عقبة عن الزهري].

وكذا روى شعيب عن الزهري عن عروة نحواً من هذا وفيه: وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين [البيهقي في الدلائل: ٣/١٧، من طريق شعيب به].

وقال عبد الملك بن هشام [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٥]: هو أول قتيل قتله المسلمون، وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون، وعثمان والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون.

قلت: وقد تقدم فيما رواه الإمام أحمد [المسند: ١/١٧٨] عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: فكان عبد الله بن جحش أول أمير في الإسلام.

وقد ذكرنا في التفسير لما أورده ابن إسحاق شواهد مسندة. فمن ذلك ما رواه الحافظ أبو محمد بن أبي حاتم حدّثنا أبي حدّثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدّثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح. أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا. وقال: «لا تكرهن أحداً على المسير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع منهم رجلان وبقي بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدّي الكبير في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن جماعة من الصحابة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وسهل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه أن سر حتى تنزل بطن نخلة فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار وتخلّف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما فأقاما يطلبانها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعبد الله بن المغيرة. فذكر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي ورجعوا بالغنيمة والأسيرين فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون. وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى.

قال السدي: وكان قتلهم له في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى الآخرة.

قلت: لعل جمادى كان ناقصاً فاعتقدوا بقاء الشهر ليلة الثلاثين، وقد كان الهلال رؤي تلك الليلة فالله أعلم.

وهكذا روى العوفي عن ابن عبّاس أن ذلك كان في آخر ليلة من جمادى، وكانت أول ليلة من رجب ولم يشعروا [تفسير الطبري: ٢/٣٥٠، ٣٥١].

وكذا تقدّم في حديث جندب الذي رواه ابن أبي حاتم.

وقد تقدم في سياق ابن إسحاق أن ذلك كان في آخر ليلة من رجب وخافوا إن لم يتداركوا هذه الغنيمة ويتهزوا هذه الفرصة دخل أولئك في الحرم فيتعذر عليهم ذلك فأقدموا عليهم عالمين بذلك.

وكذا قال الزهري عن عروة رواه البيهقي [دلائل النبوة: ٣/٢١] فالله أعلم أي ذلك كان.

قال الزهري عن عروة: فبلغنا أن رسول الله ﷺ عقل ابن الحضرمي وحرم الشهر الحرام كما كان يحرّمه حتى أنزل الله براءة رواه البيهقي. [دلائل النبوة: ٣/١٨]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٥، ٦٠٦]: فقال أبو بكر الصديق في غزوة عبد الله بن جحش جواباً للمشركين فيما قالوا من إحلال الشهر الحرام. قال ابن هشام هي لعبدالله بن جحش:

تَعدّون قتلاً في الحرام عظيمةً ... وأعظمُ منه لو يرى الرُّشْدَ راشدُ
صُدودُكم عما يقولُ محمدٌ ... وكفرٌ به واللّه راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد اللّه أهلَه ... لئلا يُرى للّه في البيتِ ساجدُ
فإنّا وإن عيّرتمونا بقتله ... وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقَينا من ابنِ الحضرميِّ رماحنا ... بنخلةَ لما أوقدَ الحربَ واقدُ
دماً وابن عبد اللّه عثمان بيننا ... ينازُعه غلٌّ من القيدِ عاندُ

سنة ٢- تحويل القبلة قبل وقعة بدر

قال بعضهم: كان ذلك في رجب من سنة ثنتين وبه قال قتادة وزيد بن أسلم وهو رواية عن محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٢/٣ - ٥].

وقد روى أحمد [١/٢٥٠، ٣٥٠، ٣٥٧] عن ابن عباس ما يدل على ذلك وهو ظاهر حديث البراء بن عازب كما سيأتي والله أعلم. وقيل في شعبان منها.

قال ابن إسحاق بعد غزوة عبد الله بن جحش: ويقال صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة وحكى هذا القول ابن جرير [تاريخه: ٢/٤١٦] من طريق السدي بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.

قال الجمهور الأعظم: إنما صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة. ثم حكى عن محمد بن سعد [تاريخ الطبري: ٢/٤١٦] عن الواقدي أنها حولت يوم الثلاثاء النصف من شعبان، وفي هذا التحديد نظر والله أعلم.

وقد تكلمنا على ذلك مستقصى في التفسير عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وما قبلها وما بعدها من اعتراض سفهاء اليهود والمنافقين والجهلة الطغام على ذلك لأنه أول نسخ وقع في الإسلام هذا وقد أحال الله قبل ذلك في سياق القرآن تقرير جواز النسخ عند قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقد قال البخاري [٤٤٨٦] حدثنا أبو نعيم سمع زهيراً عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً - أو سبعة عشر شهراً - وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأنه صلى أو صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه صلّى فمرعلى أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ورواه مسلم [٥٢٥] من وجه آخر.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء. قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً، وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾. فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤١].

وحاصل الأمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه كما رواه الإمام أحمد [المسند: ١/٣٢٥] عن ابن عباس رضي الله عنه، فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما فصلى إلى بيت المقدس أول مقدمه المدينة واستدبر الكعبة ستة عشر شهراً - أو سبعة عشر شهراً - وهذا يقتضي أن يكون ذلك إلى رجب من السنة الثانية والله أعلم.

وكان عليه السلام يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة قبلة إبراهيم وكان يكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عزّ وجلّ فكان مما يرفع يديه وطرفه إلى السماء سائلا ذلك فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

فلما نزل الأمر بتحويل القبلة خطب رسول الله ﷺ المسلمين وأعلمهم بذلك كما رواه النسائي [الكبرى: ١١٠٤، والمجتبى: ٧٣١] عن أبي سعيد بن المعلى وأن ذلك كان وقت الظهر.

وقال بعض الناس: نزل تحويلها بين الصلاتين قاله مجاهد وغيره.

ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين [خ (٤٠)، م (٥٢٥)] عن البراء أن أول صلاة صلاها عليه السلام إلى الكعبة بالمدينة العصر والعجب أن أهل قباء لم يبلغهم خبر ذلك إلى صلاة الصبح من اليوم الثاني كما ثبت في الصحيحين [خ (٤٠٣)، م (٥٢٦)] عن ابن عمر. قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

وفي صحيح مسلم [٥٢٧] عن أنس بن مالك نحو ذلك.

والمقصود أنه لما نزل تحويل القبلة إلى الكعبة ونسخ به الله تعالى حكم الصلاة إلى بيت المقدس طعن طاعنون من السفهاء والجهلة والأغبياء وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ هذا والكفرة من أهل الكتاب يعلمون أن ذلك من الله لما يجدونه من صفة محمد ﷺ في كتبهم من أن المدينة مهاجره وأنه سيؤمر بالاستقبال إلى الكعبة كما قال ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الآية وقد أجابهم الله تعالى مع هذا كله عن سؤالهم وتعنتهم فقال ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] أي هو المالك المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه الذي يفعل ما يشاء في خلقه ويحكم ما يريد في شرعه وهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ويضل من يشاء عن

الطريق القويم وله في ذلك الحكمة التي يجب لها الرضا والتسليم ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خياراً ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي وكما اخترنا لكم أفضل الجهات في صلاتكم وهديناكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم والد الأنبياء بعد التي كان يصلي بها موسى فمن قبله من المرسلين كذلك جعلناكم خيار الأمم وخلاصة العالم وأشرف الطوائف وأكرم التالد والطارف لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس لإجماعهم عليكم وإشارتهم يومئذ بالفضيلة إليكم كما ثبت في صحيح البخاري [٣٣٣٩] عن أبي سعيد مرفوعاً من استشهاد نوح بهذه الأمة يوم القيامة وإذا استشهد بهم نوح مع تقدم زمانه فمن بعده بطريق الأولى الأحرى.

ثم قال تعالى مبيناً حكمته في حلول نقمته بمن شك وارتاب بهذه الواقعة. وحلول نعمته على من صدق وتابع هذه الكائنة. فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال ابن عباس [تفسير الطبري: ١٣/٢]: إلا لنرى من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي وإن كانت هذه الكائنة العظيمة الموقع كبيرة المحل شديدة الأمر ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي فهم مؤمنون بها مصدقون لها لا يشكون ولا يرتابون بل يرضون ويسلمون ويؤمنون ويعملون لأنهم عبيد للحاكم العظيم القادر المقتدر الحليم الخبير اللطيف العليم.

وقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي بشرعته استقبال بيت المقدس والصلاة إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول استقصاؤها وذلك مبسوط في التفسير وسنزيد ذلك بياناً في كتابنا الأحكام الكبير.

وقد روى الإمام أحمد [المسند: ١٣٤/٦، ١٣٥] حدثنا علي بن عاصم حدثنا حصين بن عبد الرحمن عن عمر بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعني في أهل الكتاب -: «إنهم لم يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين»

سنة ٢ - فريضة شهر رمضان قبل وقعة بدر

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٧/٢]: وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان وقد قيل: إنه فرض في شعبان منها.

ثم حكي [تاريخه: ٤١٧/٢] أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عنه فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى. فقال: «نحن أحق بموسى منكم» فصامه وأمر الناس بصيامه.

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين [خ (٢٠٠٤)، م (١١٣٠)] عن ابن عباس وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥]. وقد تكلمنا على ذلك في التفسير بما فيه كفاية من إيراد الأحاديث المتعلقة بذلك والآثار المروية في ذلك والأحكام المستفادة منه ولله الحمد.

وقد قال الإمام أحمد [المسند: ٢٤٦/٥] حدثنا أبو النضر حدثنا المسعودي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل. قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فذكر أحوال الصلاة. قال: وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فاجزأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حولان.

قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا. ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد جهداً شديداً فقال «مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً» فأخبره.

قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

ورواه أبو داود في سننه [٥٠٧] والحاكم في مستدركه [٢٧٤/٢] من حديث المسعودي نحوه.

وفي الصحيحين [خ (٢٠٠١)، م (١١٢٥)] من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر.

وللبخاري عن ابن عمر [١٨٩٢] وابن مسعود [٤٥٠٣] مثله.

ولتحرير هذا، موضع آخر من التفسير ومن الأحكام الكبير وبالله المستعان.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٨/٢]: وفي هذه السنة أمر الناس بزكاة الفطر، وقد قيل: إن رسول الله ﷺ خطب الناس قبل الفطر بيوم - أو يومين - وأمرهم بذلك.

قال: وفيها صلى النبي ﷺ صلاة العيد وخرج بالناس إلى المصلى فكان أول صلاة عيد صلاها وخرجوا بين يديه بالحربة وكانت للزبير وهبها له النجاشي فكانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ في الأعياد.

قلت: وفي هذه السنة فيما ذكره غير واحد من المتأخرين فرضت الزكاة ذات النصب كما سيأتي تفصيل ذلك كله بعد وقعة بدر إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سنة ٢- غزوة بدر العظمى يوم الفرقان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

وقال الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨] وما بعدها إلى تمام القصة من سورة الأنفال وقد تكلمنا عليها هنالك وسنورد هاهنا في كل موضع ما يناسبه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٦/١] رحمه الله بعد ذكره سرية عبد الله بن جحش:

ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان صخر بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة وفيها ثلاثون رجلا ـ أو أربعون ـ منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص.

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان ذلك بعد مقتل ابن الحضرمي بشهرين.

قال: وكان في العير ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها إلا حويطب بن عبد العزى فلهذا تخلف عن بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٦/١، ٦٠٧]: فحدثني محمد بن مسلم بن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن ابن عباس كل قد حدثني بعض الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر.

قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» فانتدب الناس فخفف بعضهم وثقل بعض وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٧/١ ـ ٦٠٩]: فحدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير. قالا: وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم علي ما أحدثك، قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلا صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مَثَلَ به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة. قال العباس: والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها لا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة ـ وكان له صديقا ـ فذكرها له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قال: قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة! قال: قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون. وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب، قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبير شيء إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، قال: ثم تفرقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غِيَرٌ لشيء مما سمعت؟ قال: قلت: قد والله فعلت ما كان مني إليه من كبير، وايم الله لأتعرضن له فإذا عاد لأكفيكنه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه. قال: فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر، قال: إذا خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: قلت في نفسي: ما له لعنه الله، أكل هذا فرق مني أن أشاتمه؟! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير ذلك.

وذكر موسى بن عقبة رؤيا عاتكة كنحو من سياق ابن إسحاق.

قال: فلما جاء ضمضم بن عمرو على تلك الصفة خافوا من رؤيا عاتكة فخرجوا على الصعب والذلول.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٩/١، ٦١٠]: فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها.

قال ابن إسحاق: وحدثني ابن أبي نجيح أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود وكان شيخاً جليلاً جسيما ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء. قال: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز وخرج مع الناس؛ هكذا قال ابن إسحاق في هذه القصة.

وقد رواها البخاري [٣٩٥٠] على نحو آخر فقال: حدثني أحمد بن

عثمان حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسعود حدث عن سعد بن معاذ أنه كان صديقا لأمية بن خلف وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ قال: هذا سعد. قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة. فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي، قال سعد: دعنا عنك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري؟ ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً فلما رجع إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا ادري. فقال أمية: والله لا اخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس فقال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر.

وقد رواه البخاري في موضع آخر [٣٦٣٢] عن أحمد بن إسحاق عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق به نحوه، تفرد به البخاري.

وقد رواه الإمام أحمد [٤٠٠/١] عن خلف بن الوليد وعن أبي سعيد كلاهما عن إسرائيل وفي رواية إسرائيل قالت له امرأته: والله إن محمداً لا يكذب.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٦١٠/١، ٦١١] ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب. فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا وكانت الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر في ابن لحفص بن الأخيف من بني عامر بن لؤي قتله رجل من بني بكر بإشارة عامر بن يزيد بن عامر بن الملوح، ثم أخذ بثأره أخوه مكرز بن حفص فقتل عامراً وخاض بسيفه في بطنه ثم جاء من الليل فعلقه بأستار الكعبة فخافوهم بسبب ذلك الذي وقع بينهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٢/١]: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة. فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً.

قلت: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: ٤٧ - ٤٨].

غرهم لعنه الله حتى ساروا وسار معهم منزلة منزلة ومعه جنوده وراياته كما قاله غير واحد منهم، فأسلمهم لمصارعهم.

فلما رأى الجد والملائكة تنزل للنصر وعاين جبريل نكص على عقبيه وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فإبليس لعنه الله لما عاين الملائكة يومئذ تنزل للنصر فر ذاهباً فكان أول من هرب يومئذ بعد أن كان هو المشجع لهم المجير لهم كما غرهم ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وقال يونس عن ابن إسحاق: خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين. وذكر المطعمين لقريش يوماً يوماً.

وذكر الأموي أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل نحر لهم عشراً، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعاً، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشراً، ومالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها وأقاموا بها يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشراً، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشرا، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشراً، ونحر لهم الحارث بن عامر بن نوفل تسعاً، ونحر لهم على ماء بدر أبو البختري عشراً، ثم أكلوا من أزوادهم.

قال الأموي: حدثنا أبي حدثنا أبو بكر الهذلي قال: كان مع المشركين ستون فرساً وستمائة درع وكان مع رسول الله ﷺ فرسان وستون درعا.

هذا ما كان من أمر هؤلاء في نفيرهم من مكة ومسيرهم إلى بدر.

وأما رسول الله ﷺ فقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٢/١، ٦١٣]: وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وكان أبيض، وبين يدي رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

قال ابن هشام [السيرة: ٦١٣/١]: كانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ.

وقال الأموي: كانت مع الحباب بن المنذر.

قال ابن إسحاق: وجعل رسول الله ﷺ على الساقة قيس بن أبي صعصعة أخا بني مازن بن النجار.

وقال الأموي: وكان معهم فرسان على إحداهما مصعب بن عمير وعلى الأخرى الزبير بن العوام ومرة سعد بن خيثمة ومرة المقداد بن الأسود.

وقد روى الإمام أحمد [١٢٥/١، ١٣٨] من حديث أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣٩/٣] من طريق ابن وهب عن أبي صخر عن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عليا قال له: ما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود - يعني يوم

بدر -.

وقال الأموي: حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن البهي قال: كان مع رسول الله ﷺ يوم بدر فارسان، الزبير بن العوام على الميمنة، والمقداد بن الأسود على الميسرة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٣/١]: وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، فكان رسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة يعتقبون بعيراً. كذا قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى.

وقد قال الإمام أحمد [٤١٦/١]: حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود. قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله ﷺ. قال: فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما».

وقد رواه النسائي [كبرى: ٨٨٠٧] عن الفلاس عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة به.

قلت: ولعل هذا كان قبل أن يرد أبا لبابة من الروحاء، ثم كان زميلاه علي ومرثد بدل أبي لبابة والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١٥٠/٦]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر، وهذا على شرط الصحيحين.

وإنما رواه النسائي [كبرى: ٨٨٠٩] عن أبي الأشعث عن خالد بن الحارث عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

قال شيخنا الحافظ المزي في الأطراف [تحفة الأشراف: ٤١٠/١١] وتابعه سعيد بن بشير عن قتادة. وقد رواه هشام عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة [كبرى (٨٨١٠)] فالله أعلم.

وقال البخاري [٣٩٥١]: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. تفرد به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٣/١، ٦١٤]: فسلك رسول الله ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ثم على العقيق ثم على ذي الحليفة ثم على أولات الجيش ثم مر على تربان ثم على ملل ثم على غميس الحمام ثم على صخيرات اليمام ثم على السيالة ثم على فج الروحاء ثم على شنوكة وهي الطريق المعتدلة حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله ﷺ قال: أوفيكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم! فسلم عليه ثم قال: لئن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه، قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ «مه أفحشت على الرجل». ثم أعرض عن سلمة ونزل رسول الله ﷺ سجسج وهي بئر الروحاء ثم ارتحل منها حتى إذا كان منها بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً فسلك في ناحية منها حتى إذا جزع واديا يقال له رُحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم انصب منه حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الزغباء حليف بني النجّار إلى بدر يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان صخر بن حرب وعيره.

وقال موسى بن عقبة: بعثهما قبل أن يخرج من المدينة فلمّا رجعا فأخبراه بخبر العير استنفر الناس إليها.

فإن كان ما ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق محفوظاً فقد بعثهما مرّتين والله أعلم.

قال ابن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٦١٤/١]: ثم ارتحل رسول الله ﷺ وقد قدّمهما فلما استقبل الصفراء وهي قرية بين جبلين سأل عن جبليها ما أسماؤهما؟ فقالوا: يقال لأحدهما مسلح وللآخر مخرئ وسأل عن أهلهما فقيل: بنو النار، وبنو حراق، بطنان من غفار فكرههما رسول الله ﷺ والمرور بينهما وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهلهما فتركهما والصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له: ذفران فجزع فيه ثم نزل وأتاه الخبر عن قريش ومسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطّاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجَلْ» قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبرٌ في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

قال: فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم».

هكذا رواه ابن إسحاق رحمه الله. وله شواهد من وجوه كثيرة: فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه [٣٩٥٢]: حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه كان أحب إلي مما عُدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، قال: فرأيت النبي ﷺ

أشرق وجهه وسرّه.

انفرد به البخاري دون مسلم فرواه في مواضع من صحيحه من حديث مخارق به [٤٩٠٦].

ورواه النسائي [كبرى: ١١١٤٠] من حديثه وعنده: وجاء المقداد بن الأسود يوم بدر على فرس فذكره.

وقال الإمام أحمد [١٨٨/٣]: حدثنا عبيدة - هو ابن حميد - عن حميد الطويل عن أنس قال: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله يا معشر الأنصار. فقال بعض الأنصار: يا رسول الله إنّا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك.

وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وقال أحمد [٢٥٧/٣، ٢٥٨] أيضاً: حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، فندب رسول الله ﷺ الناس.

قال: فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول: ما لي علم بأبي سفيان ولكن هذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وأمية بن خلف فإذا قال ذلك ضربوه فإذا ضربوه. قال: نعم! أنا أخبركم هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه قال: ما لي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية في الناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف فقال: «والذي نفسي بيده إنّكم لتضربونَهُ إذا صَدَقَكم وتتركُونَه إذا كَذَبَكُم». قال: وقال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان يضع يده على الأرض ههنا وههنا»، فما أماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

ورواه مسلم [١٧٧٩] عن أبي بكر عن عفان به نحوه.

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه واللفظ له من طريق عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم عن أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها؟» فقلنا: نعم! فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكنا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا: مثل ذلك، فقام المقداد بن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله عز وجل على رسوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥]. وذكر تمام الحديث.

وروى ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه، عن جده. قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بكذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وانزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت. فنزل القرآن على قول سعد ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] الآيات.

وذكره الأموي في مغازيه [انظر سبل الهدى والرشاد ٤٢/٤، ٤٣] وزاد بعد قوله: وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٥/١، ٦١٦]: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدبّة وترك الحنّان بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريبا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه.

قال ابن هشام: هو أبو بكر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٦/١] كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان - حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرْناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم!» قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا. للمكان الذي به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه. قال: يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق؟ قال ابن هشام: يقال لهذا الشيخ سفيان الضمري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٦/١، ٦١٧]: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له كما:

حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير [تاريخ الطبري: ٤٣٦/٢]: فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي فقالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه وسلّم. وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟» قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب العقنقل. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كَمْ القوم؟» قالا:

كثير. قال: «ما عِدَّتهم» قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلَّ يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عَبْدِ وُدّ. قال: فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٧/١، ٦١٨]: وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزَّغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه. ومجدي بن عمرو الجهني على الماء فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر وهما يتلازمان على الماء والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك. قال مجدي: صدقت ثم خلّص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه بما سمعا، وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء. فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شنّ لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النوى. فقال: هذه والله علائف يثرب فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدراً بيسار وانطلق حتى أسرع.

قال: وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا. فقال: إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وفلان وفلان فعدّ رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه قال: فبلغت أبا جهل لعنه الله فقال: هذا أيضا نبي آخر من بني المطلب سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٨/١، ٦١٩]: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزُر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا.

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفيّ - وكان حليفاً لبني زهرة - وهم بالجحفة: يا بني زهرة قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا.

قال: فرجعوا فلم يشهدها زهريّ واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً ولم يكن بقي بطن من قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد.

قال: ومضى القوم وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة. فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع. وقال في ذلك:

لاهُمَّ إما يغزوَنَّ طالبْ ... في عُصبةٍ مُحالِفٌ محاربْ
في مِقنبٍ من هذه المقانبْ ... فليكنِ المسلوب غيرَ السالبْ
وليكنِ المغلوب غيرَ الغالبْ

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٦١٩/١، ٦٢٠] ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل وبطن الوادي وهو يَلْيَل، بين بدر وبين العقنقل الكثيب الذي خلفه قريش، والقليب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يَلْيَل إلى المدينة.

قلت: وفي هذا قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] أي من ناحية الساحل ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] الآيات.

وبعث الله السماء وكان الوادي دَهْساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ماء لبّد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

قلت وفي هذا قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] فذكر أنه طهّرهم ظاهراً وباطناً، وأنه ثبّت أقدامهم وشجّع قلوبهم وأذهب عنهم تخذيل الشيطان وتخويفه للنفوس ووسوسته الخواطر، وهذا تثبيت الباطن والظاهر وأنزل النصر عليهم من فوقهم في قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي على الرؤوس ﴿وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: لئلا يستمسك منهم السلاح ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ -١٤].

قال ابن جرير: [تفسيره: ١٩٤/٩ - ١٩٥] حدثني هارون بن إسحاق حدثنا مصعب بن المقدام ثنا إسرائيل ثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن أبي طالب. قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ - يعني قائماً يصلي - وحرّض على القتال.

وقال الإمام أحمد [١٢٥/١، ١٣٨]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. قال: ما كان فينا فارس يوم بدر إلا المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وسيأتي هذا الحديث مطولاً.

ورواه النسائي [في الكبرى: (١٠٤٤٧)] عن بندار عن غندر عن شعبة به.

وقال مجاهد: أنزل عليهم المطر فأطفأ به الغبار وتلبدت به الأرض وطابت به أنفسهم وثبتت به أقدامهم [تفسير الطبري: ١٩٦/٩].

قلت: وكانت ليلة بدر ليلة الجمعة السابعة عشر من شهر رمضان سنة ثنتين من الهجرة، وقد بات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول: «يا حيُّ يا قيُّوم» يكرِّر ذلك ويلظ به عليه السلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٠]: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٠]: فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن منذر بن الجموح. قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بالرَّأي».

قال الأموي حدثنا أبي قال: وزعم الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: بينا رسول الله ﷺ يجمع الأقباص وجبريل عن يمينه إذ أتاه ملك من الملائكة فقال: يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام فقال رسول الله ﷺ: «هو السَّلام ومنه السَّلام وإليه السلام» فقال الملك: إن الله يقول لك إن الأمر هو الذي أمرك به الحباب بن المنذر. فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل هل تعرف هذا؟» فقال: ما كل أهل السماء أعرف وإنه لصادق وما هو بشيطان فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فعوِّرت، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

وذكر بعضهم أن الحباب بن المنذر لما أشار بما أشار به على رسول الله ﷺ نزل ملك من السماء وجبريل عند النبي ﷺ فقال الملك: يا محمّد ربّك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحباب، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل فقال: «ليس كُلُّ الملائكة أعرفهم وأنَّه مَلَكٌ وليس بشيطان».

وذكر الأموي أنهم نزلوا على القليب الذي يلي المشركين نصف الليل، وأنهم نزلوا فيه واستقوا منه وملؤوا الحياض حتى أصبحت ملاء وليس للمشركين ماء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٠، ٦٢١]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث: أن سعد بن معاذ. قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوامٌ ما نحن بأشدَّ حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش كان فيه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢١]: وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوّب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي. قال: «اللّهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادُّكَ وتكذّب رسولك اللّهم فَنَصْرَكَ الذي وعدتني اللّهم أحنهم الغداة». وقد قال رسول الله ﷺ - وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم وهو على جمل له أحمر: «إن يكن في أحد من القوم خيرٌ فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا».

قال: وقد كان خُفاف بن أيماء بن رحضة أو أبوه إيماء بن رحضة الغفاري، بعث إلى قريش ابناً له بجزائر أهداها لهم. وقال: «إن أحببتم أن نمدَّكم بسلاح ورجال فعلنا» قال: فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم، وقد قضيت الذي عليك، فلعمري إن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، وإن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد فما لأحد بالله من طاقة.

قال: فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُمْ» فما شرب منه رجلٌ يومئذٍ إلا قُتِلَ إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يُقتل. ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر.

قلت: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كما سيأتي بيان ذلك في فصل نعقده بعد الوقعة، ونذكر أسماءهم على حروف المعجم إن شاء الله.

ففي صحيح البخاري [٣٩٥٩] عن البراء. قال: كنّا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضع عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وللبخاري [٣٩٥٦] أيضاً عنه. قال استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين،والأنصار نيفاً وأربعون ومائتان.

وروى الإمام أحمد [١/٢٤٨] عن نصر بن باب عن حجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أنه قال: كان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان المهاجرون ستة وسبعين وكان هزيمة أهل بدر لسبع عشرة مضين يوم الجمعة في شهر رمضان. وقال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣] الآية. وكان ذلك في منامه تلك الليلة.

وقيل: إنه نام في العريش وأمر الناس أن لا يقاتلوا حتى يأذن لهم، فدنا القوم منهم فجعل الصديق يوقظه ويقول: يا رسول الله دنوا منا فاستيقظ، وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً. ذكره الأموي وهو غريب جداً.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤].

فعندما تقابل الفريقان قلّل الله كلاً منهما في أعين الآخرين ليجترئ هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وليس هذا معارض لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٣] فإنّ المعنى في ذلك على أصح القولين أن الفرقة الكافرة ترى الفرقة المؤمنة مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً، وذلك عند التحام الحرب والمسايفة أوقع الله الوهن والرعب في قلوب الذين كفروا فاستدرجهم أولا بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضعف منهم حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قال إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة، عن عبد الله: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى أني لأقول لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. [تفسير الطبري: ١٠/١٣]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٢ - ٦٢٤]: وحدثني أبي إسحاق

بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار قالوا: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزر لنا القوم أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، أو ينقصون ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد. قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فَرَوْا رأيكم يا معشر قريش؟ فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال: قد فعلت أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عقله وما أصيب من ماله. فأت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه - أو ابن خاله - أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعاً له فهو يهيئها فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي. فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه.

قال: فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. فلما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سحره قال: سيعلم مصفّر استه من انتفخ سحره أنا أم هو، ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم رأسه فلما رأى ذلك اعتجر على رأسه ببرد له.

وقد روى ابن جرير [تاريخه: ٤٤٣/٢] من طريق مسور بن عبد الملك اليربوعي عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال: بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل حاجبه فقال: حكيم بن حزام يستأذن، قال: ائذن له فلما دخل قال: مرحباً يا أبا خالد ادن، فحال له عن صدر المجلس حتى جلس بينه وبين الوسادة ثم استقبله فقال: حدثنا حديث بدر. فقال: خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسرها فلم يشهد أحد من مشركيهم بدراً، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة التي قال الله تعالى، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك في أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي وهو حليفك، فتحمل بديته ويرجع الناس. فقال: أنت علي بذلك واذهب إلى ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن خلفه، وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه وهو يقول: فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي اليوم إلى بني مخزوم فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولاً غيرك؟ قلت: لا! ولم أكن لأكون رسولا لغيره. قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الخبر شيء وعتبة متكئ على إيماء بن رحضة الغفاري، وقد أهدى إلى المشركين عشرة جزائر. فطلع أبو جهل والشّر في وجهه فقال لعتبة: انتفخ سحرك؟ فقال له عتبة: ستعلم! فسلّ أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه، فقال إيماء بن رحضة: بئس الفأل هذا! فعند ذلك قامت الحرب. وقد صفّ رسول الله ﷺ أصحابه وعبّاهم أحسن تعبية.

فروى الترمذي [١٦٧٧] عن عبد الرحمن بن عوف. قال: صفّنا رسول ﷺ يوم بدر ليلاً.

وروى الإمام أحمد [٤٢٠/٥] من حديث ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب يقول: صُفِفْنا يوم بدر فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ فقال: «معي معي». تفرد به أحمد وهذا إسناد حسن.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٦/١]: وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيّة حليف بني عدي بن النجار وهو مستنتل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استو يا سواد» فقال: يا رسول الله: أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استقد»، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فاردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقاله.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «غَمْسُهُ يدَه في العدوّ حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره.

وقال ابن إسحاق وغيره [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١، وتاريخ الطبري: ٤٤٩/٢]: وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه واقفاً على باب العريش متقلداً بالسيف ومعه رجال من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ﷺ إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة كما أشار به سعد بن معاذ.

وقد روى البزار في مسنده [كشف الأستار: ١٦١/٣، ١٦٢] من حديث محمد بن عقيل عن علي أنه خطبهم فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه؛ فهذا أشجع الناس.

قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يَجَؤُه، وهذا

يتلله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً. فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويَجأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله. ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلّت لحيته ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

فهذه خصوصية للصدّيق حيث هو مع الرسول ﷺ في العريش كما كان معه في الغار رضي الله عنه وأرضاه. ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ويقول فيما يدعو به: «اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض» وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك» ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبو بكر رضي الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوّي عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال: يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك [م (١٧٦٣) بنحوه من حديث عمر بن الخطاب].

هكذا حكى السهيلي [الروض الأنف: ١٣٠/٥] عن قاسم بن ثابت أن الصديق إنما قال: بعض مناشدتك ربك. من باب الإشفاق لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال: بعض هذا يا رسول الله أي لمَ تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر، وكان رضي الله عنه رقيق القلب شديد الإشفاق على رسول الله ﷺ.

وحكى السهيلي عن شيخه أبي بكر بن العربي بأنه قال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف والصدّيق في مقام الرجاء وكان مقام الخوف في هذا الوقت - يعني أكمل - قال: لأن لله أن يفعل ما يشاء فخاف أن لا يعبد في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة [الروض الأنف: ١٣٠/٥].

قلت: وأما قول بعض الصوفية إن هذا المقام في مقابلة ما كان يوم الغار. فهو قول مردود على قائله إذ لم يتدبّر هذا القائل عَوَرَ ما قال، ولا لازمه ولا ما يترتب عليه والله أعلم.

هذا وقد تواجه الفئتان وتقابل الفريقان وحضر الخصمان بين يدي الرحمن واستغاث بربه سيد الأنبياء وضج الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء. فكان أول من قتل من المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٤/١، ٦٢٥، تاريخ الطبري: ٤٤٥/٢]: وكان رجلاً شرساً سيِّئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد - زَعَمَ - أن يُبِرَّ يمينه واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

قال الأموي: فحمي عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم: عوف ومعوّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، والثالث عبد الله بن رواحة - فيما قيل - فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم من حاجة. وفي رواية فقالوا: أكفاء كرام ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا، ونادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال النبي ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي» وعند الأموي أن النفر من الأنصار لما خرجوا كره ذلك رسول الله ﷺ لأنه أول موقف واجه فيه رسول الله ﷺ أعداءه فأحب أن يكون أولئك من عشيرته فأمرهم بالرجوع وأمر أولئك الثلاثة بالخروج.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٥/١]: فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ - وفي هذا دليل أنهم كانوا مُلَبَّسين لا يُعرفون من السلاح - فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي. قالوا: نعم! أكفاء كرام. فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبةَ، وبارزة حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما رضي الله عنه.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٧٤٣)، م (٣٠٣٣)] من حديث أبي مجلز عن قيس بن عُباد عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر. هذا لفظ البخاري في تفسيرها.

وقال البخاري [٤٧٤٤]: حدثنا حجاج بن منهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي ثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب. أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن عز وجل في الخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

تفرد به البخاري. وقد أوسعنا الكلام عليها في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

وقال الأموي: حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن ابن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهيّ. قال: برز عتبة وشيبة والوليد وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلي. فقالوا: تكلموا نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله أنا حمزة بن عبد المطلب فقال: كفؤ كريم. وقال علي: أنا عبد الله وأخو رسول الله. وقال عبيدة: أنا الذي في الحُلَفاء.

فقام كل رجل إلى رجل فقاتلوهم فقتلهم الله. فقالت هند في ذلك:

أعينيّ جُودا بدمعٍ سَرِبْ ... على خير خندفَ لم ينقلبْ
تداعى له رهطُه غُدوةً ... بنو هاشم وبنو المطَّلبْ
يُذيقونه حدَّ أسيافهم ... يُعلُّونه بعدما قد عُطِبْ

ولهذا نذرت هند أن تأكل من كبد حمزة.

قلت: وعبيدة هذا هو ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ولما جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ أضجعوه إلى جانب موقف رسول الله ﷺ فأشرفه رسول الله ﷺ قدمه فوضع خده على قدمه الشريفة وقال: يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله:

ونُسْلِمه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

ثم مات رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنك شهيدٌ».

رواه الشافعي رحمه الله.

وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة مهجعٌ مولى عمر بن الخطاب رُميَ بسهم فقتله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٧/١]: فكان أول من قتل، ثم رُميَ بعده حارثة بن سراقة أحد بني عديّ بن النجار وهو يشرب من الحوض

بسهم فأصاب نحره فمات.

وثبت في الصحيحين [خ (٢٨٠٩)، ولم يخرجه مسلم] عن أنس: أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر وكان في النظارة أصابه سهم غرب فقتله، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة فإن كان في الجنة صبرت وإلا فليرين الله ما أصنع - يعني من النياح - وكانت لم تحرّم بعد. فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٥/١]: ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض.

وقال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم فانضحوهم عنكم بالنبل».

وفي صحيح البخاري [٣٩٨٤] عن أبي أسيد. قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «إذا أكثبوكم - يعني المشركين - فارموهم واستبقوا نبلكم».

وقال البيهقي [دلائل النبوة: ٧٠/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أبي إسحاق حدثني عبد الله بن الزبير. قال: جعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله وشعار الأوس: يا بني عبيد الله، وسمى خيله: خيل الله.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٤/١]: كان شعار الصحابة يوم بدر: أَحَدٌ أَحَدٌ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٦/١، ٦٢٤]: ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر رضي الله عنه - يعني وهو يستغيث الله عز وجل - كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

قال الإمام أحمد [٣٠/١]: حدثنا أبو نوح قراد حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: «اللّهمّ انجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربّه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وذكر تمام الحديث كما سيأتي.

وقد رواه مسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٢٦٩٠] والترمذي [٣٠٨١] وابن جرير [تفسيره: ١٨٩/٩] وغيرهم من حديث عكرمة بن عمار اليماني وصححه علي بن المديني والترمذي.

وهكذا قال غير واحد عن ابن عباس والسدي وابن جُريج وغيرهم: أن هذه الآية نزلت في دعاء النبي ﷺ يوم بدر.

وقد ذكر الأموي وغيره أن المسلمين عجّوا إلى الله عز وجل في الاستغاثة بجنابه والاستعانة به.

وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ اي ردفاً لكم ومدداً لفئتكم. رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله مجاهد وابن كثير وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم [تفسير الطبري: ١٩٠/٩، ١٩١].

وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ وراء كل ملَكٍ ملَكٌ.

وفي رواية عنه بهذا الإسناد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بعضهم على أثر بعض [تفسير الطبري: ١٩١/٩] وكذا قال أبو ظبيان والضحّاك وقتادة [تفسير الطبري: ١٩١/٩].

وقد روى علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، وكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وهذا هو المشهور [تفسير الطبري: ١٩٥/٩].

ولكن قال ابن جرير [تفسيره: ١٩٢/٩]: حدثني المثنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثني عبد العزيز بن عمران عن الزَّمْعِي عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير عن علي. قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة.

ورواه البيهقي في الدلائل [٥٥/٣] من حديث محمد بن جبير عن علي فزاد: ونزل إسرافيل في ألف من الملائكة وذكر أنه طعن يومئذ بالحربة حتى اختضبت إبطه من الدماء، فذكر أنه نزلت ثلاث آلاف من الملائكة.

وهذا غريب وفي إسناده ضعف ولو صحّ لكان فيه تقوية لما تقدم من الأقوال ويؤيدها قراءة من قرأ «بألفٍ من الملائكة مردَفين» بفتح الدال والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٤٩/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا محمد بن سنان القزاز حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علي الحنفي حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب أخبرني إسماعيل بن عون بن عُبيد الله بن أبي رافع عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال، ثم جئت مسرعا لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل، قال: فجئت فإذا هو ساجد يقول: «يا حيُّ يا قيُّوم يا حيُّ يا قيُّوم» لا يزيد عليها فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضا، فذهبت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضا، حتى فتح الله على يده.

وقد رواه النسائي في اليوم والليلة [الكبرى (١٠٤٤٧) كتاب عمل اليوم والليلة] عن بندار، عن عبيد الله بن عبد المجيد أبي علي الحنفي، به.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود. قال: ما سمعت مناشداً ينشد حقّاً له أشد من مناشدة محمد ﷺ يوم بدر، جعل يقول: «اللّهمّ إنّي أنشدك عهدك ووعدك، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» ثم التفت وكأن شق وجهه القمر. وقال: «كأنّي أنظر إلى مصارع القوم عشيّة» [الدلائل للبيهقي: ٥٠/٣ من طريق الأعمش به نحوه].

رواه النسائي [كبرى (١٠٤٤٢)] من حديث الأعمش به.

وقال: لما التقينا يوم بدر قام رسول الله ﷺ فما رأيت مناشداً ينشد حقا له أشدّ مناشدة من رسول الله ﷺ وذكره.

وقد ثبت إخباره عليه الصلاة والسلام بمواضع مصارع رؤوس المشركين يوم بدر.

في صحيح مسلم [١٧٧٩] عن أنس بن مالك كما تقدم، وسيأتي في صحيح مسلم أيضاً عن عمر بن الخطاب.

ومقتضى حديث ابن مسعود أنه أخبر بذلك يوم الوقعة وهو مناسب،

وفي الحديثين الآخرين عن أنس وعمر ما يدلّ على أنه أخبر بذلك قبل ذلك بيوم ولا مانع من الجمع بين ذلك بأن يخبر به قبل ذلك بيوم وأكثر، وأن يخبر به قبل ذلك بساعة يوم الوقعة والله أعلم.

وقد روى البخاري [٢٩١٥، ٢٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧] من طرق عن خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللّهمّ أنشدك عهدك ووعدك، اللّهمّ إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا» فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألحجت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ـ٤٦].

وهذه الآية مكية وقد جاء تصديقها يوم بدر كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

وروى البخاري [٤٨٧٦] من طريق ابن جريج عن يوسف بن ماهان سمع عائشة تقول: نُزِّل على محمد بمكة ـ وإني لجارية ألعب ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٧/١]: وجعل رسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول «اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد» وأبو بكر يقول: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك، وقد خفق النبي ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع» يعني الغبار.

قال: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم. وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ قال: ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله.

وقال الإمام أحمد [١٣٦/٣]: حدثنا هاشم، ثنا سليمان عن ثابت عن أنس. قال: بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير النبي ﷺ قال: لا أدري ما استثنى من بعض نسائه، قال: فحدثه الحديث. قال فخرج رسول الله فتكلم فقال: «إن لنا طَلِبَةً فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في عُلْوِ المدينة قال: «لا إلا من كان ظهره حاضراً» وانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يتقدمنّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا أُوذنه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم!» قال: بخ بخ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله.

ورواه مسلم [١٩٠١] عن أبي بكر بن النضر وجماعة عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٤٨/٢] أن عميراً قاتل وهو يقول ﷺ:

ركضاً إلى الله بغير زادِ … إلا التُّقى وعمل المعادِ
والصبرِ في الله على الجهادِ … وكلُّ زادٍ عُرضةُ النفادِ
غيرَ التُّقى والبرِّ والرشادِ

وقال الإمام أحمد [١١٧/١]: حدثنا حجاج حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. قال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها وأصابنا بها وعك، وكان رسول الله ﷺ يتخبّر عن بدر فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر ـ وبدر بئر ـ فسبقنا المشركين إليها فوجدنا فيها رجلين منهم؛ رجلاً من قريش ومولى لعقبة بن أبي معيط فأما القرشي فانفلت، وأما المولى فأخذناه فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «كم القوم؟» قال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم. فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى ثم إن النبي ﷺ سأله: «كم ينحرون من الجزر؟» فقال: عشراً كل يوم. فقال النبي ﷺ: «القوم ألفٌ، كلُّ جزور لمائة وتبعها».

ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر فانطلقنا تحت الشجر والحَجَفِ نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «اللّهمّ إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد» فلما طلع الفجر نادى «الصلاةَ عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال ثم قال: «إنّ جمع قريش تحت هذه الضِّلع الحمراء من الجبل» فلما دنا القوم منا وصاففناهم إذا رجلٌ منهم على جمل له أحمر يسير في القوم، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي ناد لي حمزة ـ وكان أقربهم من المشركين ـ مَنْ صاحب الجمل الأحمر» فجاء حمزة فقال: هو عُتْبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم اعصبوها برأسي وقولوا: جَبُن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم. فسمع بذلك أبو جهل فقال: أنت تقول ذلك؟! والله لو غيرك يقوله لأعضضته قد ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً. فقال: إياي تعير يا مصفّر استه؟ ستعلم اليوم أينا الجبان فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار شَبَبَةٌ فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عليُّ، وقم يا حمزة، وقم يا عبيدة بن الحارث بن المطلب» فقتل الله عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا سبعين وجاء رجل من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله والله إن هذا ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: «اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم» قال: فأسرنا من بني عبد المطلب العباس وعقيلاً ونوفل بن الحارث.

هذا سياق حسن وفيه شواهد لما تقدم ولما سيأتي. وقد تفرد بطوله الإمام أحمد.

وروى أبو داود [٢٦٦٥] بعضه من حديث إسرائيل به.

ولما نزل رسول الله ﷺ من العريش وحرض الناس على القتال والناس على مصافهم صابرين ذاكرين الله كثيراً كما قال الله تعالى آمراً لهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ الآية [الأنفال: ٤٥].

وقال الأموي: حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق قال: قال الأوزاعي: كان يقال: قلما ثبت قوم قياماً، فمن استطاع عند ذلك أن يجلس أو يغض طرفه ويذكر الله رجوت أن يسلم من الرياء.

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه: ألا ترونهم - يعني أصحاب النبي ﷺ - جُثياً على الركب كأنهم حرس يتلمظون كما تتلمظ الحيات - أو قال الأفاعي -.

قال الأموي في مغازيه: وقد كان النبي ﷺ حين حرض المسلمين على القتال قد نفّل كل امرئ ما أصاب وقال: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنّة» وذكر قصة عمير بن الحمام كما تقدم.

وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا وحثّا على القتال وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين.

قال الإمام أحمد [٨٦/١]: حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.

ورواه النسائي [كبرى (٨٦٣٩)] من حديث أبي إسحاق عن حارثة عن علي قال: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد [١٤٧/١] حدثنا أبو نعيم حدثنا مسعر عن أبي عون عن أبي صالح الحنفي عن علي. قال: قيل لعلي ولأبي بكر رضي الله عنهما يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل - أو قال: يشهد الصف -.

وهذا يشبه ما تقدم من الحديث [تفسير الطبري: ١٩٢/٩] أن أبا بكر كان في الميمنة ولما تنزل الملائكة يوم بدر تنزيلا كان جبريل على أحد المجنّبتين في خمسمائة من الملائكة، فكان في الميمنة من ناحية أبي بكر الصديق، وكان ميكائيل على المجنبة الأخرى في خمسمائة من الملائكة فوقفوا في الميسرة وكان علي بن أبي طالب فيها.

وفي حديث رواه أبو يعلى [مسنده (٤٨٩)] من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن علي. قال كنت أمتَحُ على القليب يوم بدر فجاءت ريح شديدة ثم أخرى ثم أخرى فنزل ميكائيل في ألف من الملائكة فوقف على يمين رسول الله ﷺ وهناك أبو بكر، وإسرافيل في ألف في الميسرة وأنا فيها، وجبريل في ألف قال: ولقد طعنتُ يومئذ حتى بلغ الدمُ إبطي.

وقد ذكر صاحب العقد [العقد الفريد: ١٠٦/٦] وغيره أن أفخر بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت:

وببدر إذ يكفّ مُطيَّهم جبريلُ تحت لوائنا ومحمد

وقد قال البخاري [٣٩٩٢]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين». أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة. انفرد به البخاري.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي صحيح مسلم [١٧٦٣] من طريق عكرمة بن عمار عن أبي زميل حدثني ابن عباس. قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضرُّ ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذاك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم عمن حدثه عن ابن عباس، عن رجل من بني غفار. قال: حضرت أنا وابن عم لي بدراً ونحن على شركنا، وإنا لفي جبل ننتظر الوقعة على من تكون الدّبرةُ فننتهبُ، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الجبل، سمعنا منها حمحمة الخيل، وسمعنا فارساً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدتُ أن أهلك، ثم انتعشت بعد ذلك.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدراً قال بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى.

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم كروا عليهم.

ولما رأى إبليس الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحرض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نفرق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً.

وقال الواقدي [مغازيه: ٧٩/١]: حدثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس. قال: كان الملك يتصور في صورة من يعرفون، فيقول: إني قد دنوت منهم وسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، ليسوا بشيء. إلى غير ذلك من القول، فذلك قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] الآية.

وروى البيهقي [الدلائل: ٥٣/٣] من طريق سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال أبو أسيد بعدما ذهب بصره ابن أخي والله لو كنت أنا وأنت ببدر، ثم أطلق الله بصري، لأريتك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة من غير شك، ولا تمار.

وروى البخاري [٣٩٩٥] عن إبراهيم بن موسى، عن عبد الوهاب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه وعليه أداة الحرب».

وقال الواقدي [المغازي: ٨١/١]: حدثنا ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، وأخبرني موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه، وحدثني عائذ بن يحيى عن أبي الحويرث، عن عمارة بن أكيمة الليثي، عن حكيم بن حزام، قالوا: لما حضر القتال ورسول الله ﷺ رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده يقول: «اللّهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين». وأبو بكر يقول: والله لينصرنك

الله وليبيضن وجهك، فأنزل الله ألفاً من الملائكة مردفين عند اكتناف العدو. قال رسول الله ﷺ: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم طلع، وعلى ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته».

وروى البيهقي [الدلائل: ٥٦/٣] عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه. قال: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: حدثني والدي حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي قال: إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله.

وقال يونس بن بكير عن عيسى بن عبد الله التيمي، عن الربيع بن أنس. قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سِمَة النار وقد أحرق به.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦٣٣/١]: حدثني من لا أتهم، عن مقسم عن ابن عباس. قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء، قد أرخوها على ظهورهم، إلا جبريل، فإنه كانت عليه عمامة صفراء.

وقد قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون [سيرة ابن هشام: ٦٣٤/١].

وقال الواقدي [المغازي: ٧٦/١]: حدثني عبد الله بن موسى بن أبي أمية، عن مصعب بن عبد الله، عن مولى لسهيل بن عمرو: سمعت سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض مُعْلِمين يقتلون ويأسرون. وكان أبو أسيد يحدث بعد أن ذهب بصره. قال: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أمتري.

قال: وحدثني خارجة بن إبراهيم عن أبيه. قال قال رسول الله ﷺ لجبريل: «من القائل يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم؟ فقال جبريل: يا محمد ما كل أهل السماء أعرف» [مغازي الواقدي: ٧٧/١].

قلت: وهذا الأثر مرسل، وهو يرد قول من زعم أن حيزوم اسم فرس جبريل، كما قاله السهيلي [الروض الأنف: ١٣٨/٥، ١٣٩] وغيره والله أعلم.

وقال الواقدي [المغازي: ٧٨/١]: حدثني إسحاق بن يحيى عن حمزة بن صهيب، عن أبيه قال: [المغازي: ٧٨/١] فما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يَدْمَ كَلْمُها قد رأيتها يوم بدر.

وحدثني محمد بن يحيى عن أبي عقيل، عن رافع بن خديج عن أبي بردة بن نيار قال: جئت يوم بدر بثلاثة أرؤس فوضعتهن بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: أما رأسان فقد قتلتهما، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً ضربه، فتدهْدى أمامه، فأخذت رأسه. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك فلان من الملائكة» [مغازي الواقدي: ٧٨/١، ٧٩].

وحدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه. قال: كان السائب بن أبي حبيش يحدث في زمن عمر يقول: والله ما أسرني أحد من الناس، فيقال: فمن؟ يقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فأدركني رجل أبيض طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً فنادى في العسكر: من أسر هذا؟ حتى انتهى بي إلى رسول الله ﷺ فقال: «من أسرك؟» قلت: لا أعرفه! وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله ﷺ: «أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف بأسيرك» [مغازي الواقدي: ٧٩/١].

وقال الواقدي [المغازي: ٨٠/١]: حدثني عائذ بن يحيى، حدثنا أبو الحويرث عن عمارة بن أكيمة، عن حكيم بن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادي خَلْص بجاد من السماء قد سد الأفق، فإذا الوادي يسيل نملاً، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء، أُيد به محمد فما كانت إلا الهزيمة وهي الملائكة.

وقال إسحاق بن راهويه: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثني أبي عن محمد بن إسحاق، حدثني أبي عن جبير بن مطعم. قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود قد نزل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة فلم يكن إلا هزيمة القوم.

ولما تنزلت الملائكة للنصر، ورآهم رسول الله ﷺ حين أغفى إغفاءة ثم استيقظ، وبشر بذلك أبا بكر وقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل يقود فرسه على ثناياه النقع». يعني من المعركة.

ثم خرج رسول الله ﷺ من العريش في الدرع فجعل يحرض على القتال، ويبشر الناس بالجنة، ويشجعهم بنزول الملائكة، والناس بعد على مصافهم لم يحملوا على عدوهم، حصل لهم السكينة والطمأنينة، وقد حصل النعاس الذي هو دليل على الطمأنينة والثبات والإيمان، كما قال: «إذ يغشاكم النعاس أمنة منه» [الأنفال: ١١].

وهذا كما حصل لهم بعد ذلك يوم أحد بنص القرآن، ولهذا قال ابن مسعود: النعاس في المصاف من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق [تفسير الطبري: ١٤١/٤، ١٩٣/٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

قال الإمام أحمد [٤٣١/٥]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللّهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحِنْه الغداة. فكان هو المستفتح.

وكذا ذكره ابن اسحاق في السيرة [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١].

ورواه النسائي [كبرى (١١٢٠١)] من طريق صالح بن كيسان عن الزهري.

ورواه الحاكم [المستدرك: ٣٢٨/٢] من حديث الزهري أيضاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الأموي: حدثنا أسباط بن محمد القرشي عن مطرِّف، عن عطية، في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ قال: قال أبو جهل: اللّهم انصر أعز الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين. فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] قال: أقبلت عير أهل مكة تريد الشام، فبلغ ذلك أهل المدينة فخرجوا، ومعهم رسول الله ﷺ يريدون العير، فبلغ ذلك أهل مكة فأسرعوا السيرَ إليها لكيلا يغلب عليها النبي ﷺ وأصحابه فسبقت العير رسول الله ﷺ، وكان الله قد وعدهم إحدى الطائفتين، وكانوا يحبون أن يلقوا العير، وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين

يريد القوم، وكره القوم مسيرهم لشوكة القوم. فنزل النبي ﷺ والمسلمون، وبينهم وبين الماء رَمْلَةٌ دِعْصَةٌ فأصاب المسلمون ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم القَنَط يوسوسهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم كذا! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، فأذهب الله عنهم رجز الشيطان، فصار الرمل لَبِداً، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم وأيد الله نبيه والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه رايته، وهم في صورة رجال من بني مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، وقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ فلما اصطف الناس قال أبو جهل: اللّهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً». فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أما زعمت أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة. رواه البيهقي في الدلائل [٧٨/٣، ٧٩].

قال الطبراني [الكبير (٤٥٥٠)]: حدثنا مسعدة بن سعد العطار، ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، ثنا عبد العزيز بن عمران، ثنا هشام بن سعد عن عبد ربه بن سعيد بن قيس الأنصاري، عن رفاعة بن رافع. قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللّهم إني أسألك نظرتك إياي. وخاف أن يخلص القتل إليه. وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نَقْرُنَهم بالحبال، فلا ألفين رجلاً منكم قتل رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. ثم قال أبو جهل متمثلاً:

ما تنقم الحرب الشموس مني ... بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي

وروى الواقدي [المغازي: ٩٥/١] عن موسى بن يعقوب الزمعي عن عمه عن أبي بكر بن أبي سليمان بن أبي حثمة: سمعت مروان بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدر، فجعل الشيخ يكره ذلك، فألح عليه فقال حكيم: التقينا فاقتتلنا فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقعة الحصاة في الطست، وقبض النبي ﷺ القبضة التراب فرمى بها فانهزمنا.

قال الواقدي [المغازي: ٩٥/١]: وحدثنا إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير سمعت نوفل بن معاوية الديلي يقول: انهزمنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى في الطِّساس في أفئدتنا ومن خلفنا، وكان ذلك من أشد الرعب علينا.

وقال الأموي: حدثنا أبي، ثنا ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير، أن أبا جهل حين التقى القوم قال: اللّهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح.

فبينما هم على تلك الحال، وقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم، خفق رسول الله ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته». وأمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم فقال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: «احملوا» فلم تكن إلا الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديدهم، وأسر من أسر منهم.

وقال زياد عن ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: «شدوا» فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١].

وقال السدي الكبير: قال رسول الله ﷺ لعلي يوم بدر: «أعطني حصىً من الأرض» فناوله حصىً عليها تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله في ذلك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] [تفسير الطبري: ٢٠٥/٩].

وهكذا قال عروة وعكرمة ومجاهد ومحمد بن كعب ومحمد بن قيس وقتادة وابن زيد وغيرهم [تفسير الطبري: ٢٠٤/٩، ٢٠٥]: أن هذه الآية نزلت في ذلك، يوم بدر، وقد فعل عليه السلام مثل ذلك في غزوة حنين كما سيأتي في موضعه، إذا انتهينا إليه إن شاء الله وبه الثقة.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١] أن رسول الله ﷺ لما حرض أصحابه على القتال ورمى المشركين بما رماهم به من التراب وهزمهم الله تعالى، صعد إلى العريش أيضاً ومعه أبو بكر، ووقف سعد بن معاذ ومن معه من الأنصار على باب العريش، ومعهم السيوف خيفة أن تكر راجعة من المشركين إلى النبي ﷺ.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١]: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ فيما ذكر لي في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» قال: أجل يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١، ٦٢٩]: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس: أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر: «يا أبا حفص»، قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص، «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال

منها خائفاً، إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه.

سنة ٢ - مقتل أبي البختري بن هشام

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٩/١، ٦٣٠]: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة. كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار فقال له: إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة وهو من بني ليث. قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال: لا والله إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً لا يتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة. وقال أبو البختري وهو ينازل المجذر:

لن يُسلِمَ ابنُ حرةٍ زميلَه ... حتى يموتَ أو يرى سبيلَه

قال: فاقتتلا فقتله المجذر بن زياد وقال في ذلك:

إما جهلت أو نسيتَ نَسَبي ... فأثبت النسبةَ إني من بَلِي
الطاعنينَ برماحِ اليَزَني ... والطاعنينَ الكبش حتى ينحني
بشّر بيتم من أبوه البختري ... أو بشّرنْ بمثلها مني بني
أنا الذي يقال أصلي من بلي ... أطعنُ بالصعدةِ حتى تنثني
وأعبطُ القِرنَ بعَضْبٍ مَشْرَفي ... أُرزِمُ للموتِ كإرْزامِ المَري
فلا يرى مجذراً يَفْري فري

ثم أتى المجذر رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته.

سنة ٢ - مقتل أمية بن خلف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣١/١]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه وحدثنيه أيضاً عبد الله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف. قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت: عبدَ الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ قال: فأقول: نعم! قال: فإني لا أعرف الرحمن فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت قال: فأنت عبد الإله قال: قلت: نعم! قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها فلما رآني. قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله فقلت: نعم! قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك قال: قلت: نعم ها الله قال: فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٢/١]: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. قال: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله لأني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على تَرْكِ الإسلام - فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أبأسيري، قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثم صرخ بأعلا صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة فأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قال: قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً فجعني بأدراعي وبأسيري.

وهكذا رواه البخاري في صحيحه [٢٣٠١] قريباً من هذا السياق فقال في الوكالة: حدثنا عبد العزيز - هو ابن عبد الله - حدثنا يوسف - هو ابن الماجشون - عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته عبد عمرو فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال: أمية بن خلف؟! لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أتوا حتى تبعونا وكان رجلا ثقيلا، فلما أدركونا قلت له: ابرك؛ فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه فكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه.

سمع يوسف صالحاً وإبراهيم أباه. تفرد به البخاري من بينهم كلهم.

وفي مسند رفاعة بن رافع: أنه هو الذي قتل أمية بن خلف.

سنة ٢ - مقتل أبي جهل لعنه الله

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٤/١]: وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز ويقول:

ما تنقم الحرب العوان مني ... بازل عامين حديث سني
لمثل هذا ولدتني أمي

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٤/١، ٦٣٥]: ولما فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، وكان أول من لقي أبا جهل كما حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر أيضاً قد حدثني ذلك قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٥/١، ٦٣٦]: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان. ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء

فضربه حتى أثبته، وتركه وبه رمق. وقاتل معوذ حتى قتل، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني -: «انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أشف منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فجُحش في أحدهما جحشاً لم يزل أثره به».

قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته. فوضعت رجلي على عنقه. قال: وقد كان ضبث بي مرة بمكة فآذاني ولكزني ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ قال: أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٦/١]: وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، قال: ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله. فقال: «الله الذي لا إله غيره؟». وكانت يمين رسول الله ﷺ فقلت: نعم! والله الذي لا إله غيره ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. هكذا ذكر ابن إسحاق رحمه الله.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣١٤١)، م (١٧٥٢)] من طريق يوسف بن يعقوب بن الماجشون عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف. قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أظلع منهما فغمزني أحدهما فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منّا فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبيّ ﷺ فأخبراه فقال: «أيكما قتله؟». قال كل منهما: أنا قتلته. قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا. قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله» وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح - والآخر معاذ بن عفراء.

وقال البخاري [٣٩٨٨]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده. قال: قال عبد الرحمن: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

وفي الصحيحين [خ (٣٩٦٢)، م (١٨٠٠)] أيضاً من حديث أبي سليمان التيمي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال: فأخذ بلحيته قال فقلت: أنت أبو جهل؟ فقال: وهو فوق رجل قتلتموه - أو قال: قتله قومه -.

وعند البخاري [٣٩٦١] عن أبي أسامة عن إسماعيل عن قيس عن ابن مسعود أنه أتى أبا جهل فقال: هل أخزاك الله؟ فقال: هل أعمد من رجل قتلتموه.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع وعليه بيضة ومعه سيف جيد. ومعي سيف رديء فجعلت أنقف رأسه بسيفي وأذكر نقفاً كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده فأخذت سيفه فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة لنا أو علينا ألست رويعينا بمكة؟ قال: فقتلته، ثم أتيت النبي ﷺ فقلت: قتلت أبا جهل، فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فاستحلفني ثلاث مرات ثم قام معي إليهم فدعا عليهم [الطبراني في الكبير: ٨١/٩ (٨٤٧٠)].

وقال الإمام أحمد [٤٤٤/١]: حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر وقد ضربت رجله وهو يذبّ الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله. قال: هل هو إلا رجل قتله قومه، قال: فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل فأصبت يده فندر سيفه فأخذته فضربته حتى قتلته قال ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أُقَلُّ من الأرض فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فرددها ثلاثاً، قال: قلت: الله الذي لا إله إلا هو قال: فخرج يمشي معي حتى قام عليه فقال: «الحمد لله الذي قد أخزاك الله يا عدو الله هذا كان فرعون هذه الأمة».

وفي رواية أخرى [المسند: ٤٤٤/١] قال ابن مسعود: فنفلني سيفه.

وقال أبو إسحاق الفزاري عن الثوري، عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم بدر فقلت: قد قتلت أبا جهل فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فقلت: الله الذي لا إله إلا هو - مرتين أو ثلاثاً - قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «انطلق فأرنيه» فانطلقت فأريته فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» [المسند: ٤٤٤/١].

ورواه أبو داود [٢٧٠٩] والنسائي [كبرى (٨٦٧٠)] من حديث أبي إسحاق السبيعي به.

وقال الواقدي: وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابني عفراء فقال: «رحم الله ابني عفراء فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر» فقيل: يا رسول الله ومن قتله معهما؟ قال: «الملائكة وابن مسعود قد شرك في قتله» رواه البيهقي [الدلائل: ٨٨/٣، ٨٩].

وقال البيهقي [الدلائل: ٨٩/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن عنبسة بن الأزهر عن أبي إسحاق قال: لما جاء رسول الله ﷺ البشير يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلا؟ فحلف له فخر رسول الله ﷺ ساجداً.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٨٩/٣] من طريق أبي نعيم عن سلمة بن رجاء عن الشعثاء - امرأة من بني أسد - عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله ﷺ صلّى ركعتين حين بشّر بالفتح وحين جيء برأس أبي جهل.

وقال ابن ماجه [١٣٩١]: حدثنا أبو بشر بكر بن خلف حدثنا سلمة بن رجاء قال: حدثتني شعثاء عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله ﷺ صلّى يوم بُشر برأس أبي جهل ركعتين.

وقال ابن أبي الدنيا: [الدلائل للبيهقي: ٨٩/٣، ٩٠ من طريق ابن أبي الدنيا به] حدثنا أبي، حدثنا هشيم، أخبرنا مجالد عن الشعبي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إني مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه

رجلٍ بمقمعة معه حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به مثل ذلك مراراً. فقال رسول اللّه ﷺ: «ذاك أبو جهل بن هشام يعذّب إلى يوم القيامة».

وقال الأموي في مغازيه: سمعت أبي حدثنا المجالد بن سعيد عن عامر قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: إني رأيت رجلا جالساً في بدر ورجل يضرب رأسه بعمود من حديد حتى يغيب في الأرض، فقال رسول اللّه ﷺ: «ذاك أبو جهل وكّل به ملك يفعل به كلّما خرج فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وقال البخاري [٣٩٩٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه قال قال الزبير: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بعنزة فطعنته في عينه فمات قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطيت فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسول اللّه ﷺ فأعطاه، فلما قبض رسول اللّه ﷺ أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر بن الخطاب فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل عليّ فطلبها عبد اللّه بن الزبير فكانت عنده حتى قتل.

سنة ٢- ما أُعطي عكاشة بن محصن وقتاله يوم بدر

وقال ابن هشام [السيرة: ٣٣٦/١، ٦٣٧]: حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص - ومر به - إني أراك كأن في نفسك شيئاً أراك تظنّ أني قتلت أباك إنّي لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٧/١]: وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسديّ حليف بني عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول اللّه ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب فقال: «قاتل بهذا يا عُكاشة» فلما أخذه من رسول اللّه ﷺ هزه فعاد سيفاً في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح اللّه على المسلمين وكان ذلك السيف يسمّى العون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول اللّه ﷺ حتى قتله طليحة الأسدي أيام الردة، وأنشد طليحة في ذلك قصيدة منها قوله:

عشيّةَ غادرْتُ ابنَ أقرمَ ثاوياً وعكّاشةَ الغَنْميَّ عندَ مجالِ

وقد أسلم بعد ذلك طليحة كما سيأتي بيانه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٨/١]: وعكاشة هو الذي قال حين بشر رسول اللّه ﷺ أمته بسبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: ادع اللّه أن يجعلني منهم قال: «اللّهم اجعله منهم» وهذا الحديث مخرج في الصحاح [خ (٥٧٠٥)، م (٢٢٠)] والحسان [ت (٢٤٤٦)]، مسند أحمد: ٢٧١/١] وغيرها قال ابن إسحاق: وقال رسول اللّه ﷺ - فيما بلغني - «منا خير فارس في العرب» قالوا: ومن هو يا رسول اللّه؟ قال: «عكاشة بن محصن» فقال ضرار بن الأزور الأسدي: ذاك رجل منا يارسول اللّه؟ قال: «ليس منكم ولكنه منا للحلف».

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٩٩/٣] عن الحاكم من طريق محمد بن عمر الواقدي حدثني عمر بن عثمان الجحشي عن أبيه عن عمته قالت: قال عكاشة بن محصن: انقطع سيفي يوم بدر فأعطاني رسول اللّه ﷺ عوداً فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم اللّه المشركين، ولم يزل عنده حتى هلك.

سنة ٢- قتال سلمة بن الحصين

وقال الواقدي [المغازي: ٩٣/١، ٩٤]: وحدثني أسامة بن زيد عن داود بن الحصين عن رجال من بني عبد الأشهل عدة قالوا: انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر فبقي أعزل لا سلاح معه فأعطاه رسول اللّه ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب فقال: اضرب به فإذا سيف جيّد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد.

سنة ٢- رده عليه السلام عين قتادة

قال البيهقي في الدلائل [٩٩/٣، ١٠٠]: أخبرنا أبو سعد الماليني أخبرنا أبو أحمد بن عدي حدثنا أبو يعلى حدثنا يحيى الحماني حدثنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جدّه قتادة بن النعمان: أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول اللّه ﷺ فقال: «لا» فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لايدري اي عينيه أُصيبت.

وفي رواية: فكانت أحسن عينيه.

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه لما أخبره بهذا الحديث عاصم بن عمر بن قتادة وأنشد مع ذلك:

أنا ابنُ الذي سالتْ على الخد عينُه فرُدَّت بكفِّ المصطفى أيما ردّ

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه عند ذلك منشداً قول أمية بن أبي الصلت في سيف بن ذي يزن فأنشده عمر في موضعه حقاً:

تلكَ المكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

سنة ٢- في قصّة أخرى شبيهة بها

قال البيهقي [الدلائل: ١٠٠/٣]: أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ أخبرنا محمد بن صالح أخبرنا الفضل بن محمد الشعراني حدثنا إبراهيم بن المنذر أخبرنا عبد العزيز بن عمران حدثني رفاعة بن يحيى عن معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبيه رفاعة بن رافع بن مالك، عن أبيه قال: لما كان يوم بدر تجمع الناس على أمية بن خلف، فأقبلت إليه فنظرت إلى قطعة من درعه قد انقطعت من تحت إبطه، قال: فطعنته بالسيف فيها طعنة فقطعته، ورميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني فبصق فيها رسول اللّه ﷺ ودعا لي فما آذاني منها شيء.

وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده جيد ولم يخرجوه.

ورواه الطبراني [في الكبير: ٣٤/٥ (٤٥٣٥)] من حديث إبراهيم بن المنذر.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٨/١]: ونادى أبو بكر ابنه عبد الرحمن وهو يومئذ مع المشركين لم يسلم بعد فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق إلا شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

يعني لم يبق إلا عدة الحرب، وحصان وهو اليعبوب يقاتل عليه شيوخ الضلالة، هذا يقوله في حال كفره.

وقد روينا في مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمشي يوم بدر هو وأبو بكر الصديق بين القتلى ورسول الله ﷺ يقول: «نفلّق هاماً» فيقول الصديق:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

سنة ٢- ذكر طرح رؤوس الكفر في بئر بدر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٨/١، ٦٣٩]: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» قالت: فقال له أصحابه: يا رسول الله أتكلم قوماً موتى؟ فقال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق» قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١]: وحدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: سمع أصحاب النبي ﷺ رسول الله من جوف الليل وهو يقول: «يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام - فعدّد من كان منهم في القليب - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإنّي قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً» فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوما قد جيفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وقد رواه الإمام أحمد [١٠٤/٣] عن ابن أبي عدي عن حميد عن أنس فذكر نحوه. وهذا على شرط الشيخين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١]: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم! كذّبتموني وصدقني النّاس، وأخرجتموني وآواني النّاس، وقاتلتموني ونصرني النّاس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً»

قلت: وهذا مما كانت عائشة رضي الله عنها تتأوّله من الأحاديث كما قد جمع ما كانت تتأوله من الأحاديث في جزء وتعتقد أنه معارض لبعض الآيات، وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] وليس هو بمعارض له والصواب قول الجمهور من الصحابة ومن بعدهم للأحاديث الدالة نصاً على خلاف ما ذهبت إليه رضي الله عنها وأرضاها.

وقال البخاري [٣٩٧٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذكر عند عائشة أن ابن عمر رفع إلى النبي ﷺ «أن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله» فقالت: وَهِلَ رحمه الله، إنما قال رسول الله ﷺ: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن».

قالت [خ (٣٩٧٩)]: وذاك مثل قوله: إن رسول الله ﷺ قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال، قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» وإنما قال: «إنهم الآن ليعلمون إنما كنت أقول لهم حق»، ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠] ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] تقول: حين تبوؤوا مقاعدهم من النار. وقد رواه مسلم [٩٣٢] عن أبي كريب عن أبي أسامة به.

وقد جاء التصريح بسماع الميت بعد دفنه في غير ما حديث كما سنقرر ذلك في كتاب الجنائز من الأحكام الكبير إن شاء الله.

ثم قال البخاري [٣٩٨٠، ٣٩٨١]: حدثني عثمان حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم» وذكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية.

وقد رواه مسلم [٩٣٢] عن أبي كريب عن أبي أسامة. وعن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع كلاهما عن هشام بن عروة.

وقال البخاري [٣٩٧٦]: حدثنا عبد الله بن محمد سمع روح بن عبادة حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طويٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان ابن فلان ويا فلان بن فلان أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (٢٨٧٥)، د (٢٦٩٥)، ت (١٥٥١)، س (كبرى ٨٦٥٧)] إلا ابن ماجه من طرق عن سعيد بن أبي عروبة.

ورواه الإمام أحمد [١٤٥/٣] عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك فذكر مثله.

فلم يذكر أبا طلحة وهذا إسناد صحيح، ولكن الأول أصح وأظهر والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢٨٧/٣]: حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جيّفوا، ثم أتاهم فقام عليهم فقال: «يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» قال: فسمع عمر صوته فقال: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون؟ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

ورواه مسلم [٢٨٧٤] عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١، ٦٤٠] وقال حسان بن ثابت:

عرفت ديار زينب بالكثيب — كخط الوحي في الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون — من الوسمي منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقاً وأمست — يباباً بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكر كل يوم — ورد حرارة القلب الكئيب
وخبر بالذي لا عيب فيه — بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر — لنا في المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء — بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع — كأسد الغاب مردان وشيب
أمام محمد قد وازروه — على الأعداء في لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات — وكل مجرب خاظي الكعوب
بنو الأوس الغطارف وازرتها — بنو النجار في الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعاً — وعتبة قد تركنا بالجبوب
وشيبة قد تركنا في رجال — ذوي حسب إذا نسبوا حسيب
يناديهم رسول الله لما — قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقاً — وأمر الله يأخذ بالقلوب؟
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا — صدقت وكنت ذا رأي مصيب!

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٠/١، ٦٤١]: ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلقوا في القليب أخذ عتبة بن ربيعة فسحب في القليب فنظر رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال: «يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء» ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ فقال: لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

وقال البخاري [٣٩٧٧]: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو عن عطاء عن ابن عباس ﴿الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾ قال: هم والله كفار قريش. قال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: النار يوم بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦٤/١] وقال حسان بن ثابت:

قومي الذين هم آووا نبيهم — وصدقوه وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هم سلف — للصالحين من الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله قولهم — لما أتاهم كريم الأصل مختار
أهلاً وسهلاً ففي أمن وفي سعة — نعم النبي ونعم القسم والجار
فأنزلوه بدار لا يخاف بها — من كان جارهم داراً هي الدار
وقاسموه بها الأموال إذ قدموا — مهاجرين وقسم الجاحد النار
سرنا وساروا إلى بدر لحينهم — لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم — إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال إني لكم جار فأوردهم — شر الموارد فيه الخزي والعار
ثم التقينا فولوا عن سراتهم — من منجدين ومنهم فرقة غاروا

وقال الإمام أحمد [رواية يحيى برقم: ٢٢٨/١، ٢٢٩، ورواية عبد الرزاق: ٣١٤/١]: حدثنا يحيى بن أبي بُكير وعبد الرزاق. قالا: حدثنا إسرائيل عن سماك بن حرب، عن عكرمة عن ابن عباس. قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى قيل له: عليك العير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في الوثاق: إنه لا يصلح لك. قال: «لم؟» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أنجز لك ما وعدك.

وقد كانت جملة من قتل من سراة الكفار يوم بدر سبعين، هذا مع حضور ألف من الملائكة وكان قدر الله السابق فيمن بقي منهم أن سيسلم منهم بشر كثير. ولو شاء الله لسلط عليهم ملكا واحداً فأهلكهم عن آخرهم، ولكن قتلوا من لا خير فيه بالكلية، وقد كان في الملائكة جبريل الذي أمره الله تعالى فاقتلع مدائن قوم لوط وكن سبعاً فيهن من الأمم والدواب والأراضي والمزروعات، وما لا يعلمه إلا الله، فرفعهن حتى بلغ بهن عنان السماء على طرف جناحه ثم قلبهن منكسات وأتبعهن بالحجارة التي سومت لهم كما ذكرنا ذلك في قصة قوم لوط فيما تقدم.

وقد شرع الله جهاد المؤمنين للكافرين وبين تعالى حكمه في ذلك فقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [محمد: ٤].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥] الآية.

فكان قتل أبي جهل على يدي شاب من الأنصار، ثم بعد ذلك يوقف عليه عبد الله بن مسعود ويمسك بلحيته ويصعد على صدره حتى قال له: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم، ثم بعد هذا حز رأسه واحتمله حتى وضعه بين يدي رسول الله فشفى الله به قلوب المؤمنين، كان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه والله أعلم.

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤١/١] فيمن قتل يوم بدر مع المشركين ممن كان مسلماً ولكنه خرج معهم تقية منهم لأنه كان فيهم مضطهدا قد فتنوه عن إسلامه جماعة منهم؛ الحارث بن زمعة بن الأسود وأبو قيس بن الفاكه وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج.

قال: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ٩٧] وكان جملة الأسارى يومئذ سبعين أسيراً كما سيأتي الكلام عليهم فيما بعد إن شاء الله منهم من آل رسول الله ﷺ: عمه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وقد استدل الشافعي والبخاري [كتاب العتق. باب إذا أسر أخو الرجل أو عمه هل يفادى إذا كان شركاً] وغيرهما بذلك على أنه ليس كل من ملك ذا رحم محرم يعتق عليه وعارضوا به حديث الحسن عن ابن سمرة في ذلك [أحمد: ١٥/٥، ١٨، ٢٠، د (٣٩٤٩)، ت (١٣٦٥)، س (كبرى ٤٨٩٨ ـ ٤٩٠٢)] فالله أعلم. وكان فيهم أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس بن أمية زوج زينب بنت النبي ﷺ.

سنة ٢- الحكم في الأسارى

وقد اختلف الصحابة في الأسارى أيقتلون أو يفادون على قولين، كما قال الإمام أحمد [٢٤٣/٣]: حدثنا علي بن عاصم عن حميد عن أنس - وذكر رجلاً - عن الحسن. قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: «إنَّ الله قد أمكنكم منهم» قال: فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، قال: فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». قال: فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي، ثم عاد، النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول نرى أن تعفو عنهم وان تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله تعالى ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٦٨]، انفرد به أحمد.

وقد روى الإمام أحمد [٣٠/١] - واللفظ له - ومسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٢٦٦٠] والترمذي [٣٠٨١] وصحّحه وكذا علي بن المديني وصححه من حديث عكرمة بن عمار: حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة؛ فذكر الحديث كما تقدم إلى قوله فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعليا وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى ان تمكّني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله انه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعدٌ وأبو بكر وإذا هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ «للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» - لشجرة قريبة - وأنزل الله تعالى: «ما كان لنبيّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدُّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم» [الأنفال: ٦٧ - ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم. وذكر تمام الحديث.

وقال الإمام أحمد [٣٨٣/١، ٣٨٤]: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم.

قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قرّبهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً.

قال: فقال العباس: قطعت رحمك قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئا. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدُّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] أنتم عالة فلا ينفلتنّ منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق» قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» قال: فأنزل الله «ما كان لنبيّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدُّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ لولا كتاب من الله سبق لمسكم» إلى آخر الآيتين.

وهكذا رواه الترمذي [١٧١٤] والحاكم [المستدرك: ٢١/٣، ٢٢] من حديث أبي معاوية. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عمر وأبي هريرة بنحو ذلك.

وقد روي عن أبي أيوب الأنصاري بنحوه.

وقد روى ابن مردويه والحاكم في المستدرك [٣٢٩/٢] من حديث عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر أسره رجل من الأنصار قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» قال عمر: أفآتيهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله رضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فخذه، فأخذه عمر فلما صار في يده قال له عمر: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك.

قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم. واستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» الآية.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الترمذي [١٥٦٧] والنسائي [كبرى (٨٦٦٢)] وابن حبان [الإحسان (٤٧٩٥)] من حديث سفيان الثوري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شاؤوا الفداء وإن شاؤوا القتل على أن يقتل عاما قابلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء أو يقتل منا.

وهذا حديث غريب جداً، ومنهم من رواه مرسلاً عن عبيدة والله أعلم.

وقد قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٧٥/١، ٦٧٦] عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس في قوله ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: لولا اني لا أعذّب من عصاني حتى

أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وهكذا روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد [تفسير الطبري: ٤٧/١٠] أيضاً واختاره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٧٦/١] وغيره.

وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدراً.

وهكذا روي عن سعد ابن أبي وقاص وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح.

وقال مجاهد والثوري: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لهم بالمغفرة.

وقال الوالبي عن ابن عباس: سبق في أم الكتاب الأول أن المغانم وفداء الأسارى حلال لكم، ولهذا قال بعده ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

وهكذا روي عن أبي هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة والأعمش، واختاره ابن جرير [تفسيره: ٤٤/١٠].

وقد ترجح هذا القول بما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٥)، م (٥٢١)] عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة».

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا» [ت (٣٠٨٥)].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فاذن الله تعالى في أكل الغنائم وفداء الأسارى.

وقد قال أبو داود: [٢٦٩١] حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن أبي العنبس عن أبي الشعثاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة.

وهذا كان أقل ما فودي به أحد منهم من المال، وأكثر ما فودي به الرجل منهم أربعة آلاف درهم. وقد وعد الله من آمن منهم بالخلف عما أخذ منه في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٧٠].

وقال الوالبي عن ابن عباس: نزلت في العباس ففادى نفسه بالأربعين أوقية من ذهب قال العباس: فآتاني الله أربعين عبداً - يعني كلهم يتجر له - قال وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه. [تفسير الطبري: ٤٩/١٠]

وقال ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٤٦٣/٢]: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق، بات النبي ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله؟ فقال: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فاطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وكان رجلاً موسراً ففادى نفسه بمائة أوقية من ذهب [دلائل النبوة للبيهقي: ١٤١/٣].

قلت: وهذه المائة كانت عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر كما أمره بذلك رسول الله ﷺ حين ادعى أنه كان قد أسلم فقال له رسول الله ﷺ: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك وسيجزيك» فادعى أنه لا مال عنده قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها: إن أصبت في سفري فهذا لبني الفضل وعبد الله وقثم؟» فقال: والله أني لأعلم انك رسول الله إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل.

رواه ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس [الدلائل للبيهقي: ١٤٣/٣].

وثبت في صحيح البخاري [٢٥٣٧] من طريق موسى بن عقبة قال الزهري: حدثني انس بن مالك قال: إن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه. فقال: «لا والله لا تذرون منه درهما».

قال البخاري [٤٢١ معلقاً]: وقال إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس: أن النبي ﷺ أتي بمال من البحرين فقال: «انثروه في المسجد» فكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال: «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: مر بعضهم يرفعه إلي. قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا» فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: مر بعضهم يرفعه إلي قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق. فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٤٠/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن أسباط بن نصر عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي. قال: كان فداء العباس وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كل رجل أربعمائة دينار، ثم توعد تعالى الآخرين فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

سنة ٢- أسارى وقتلى المشركين يوم بدر

والمشهور أن الأسارى يوم بدر كانوا سبعين، والقتلى من المشركين سبعين كما ورد في غير ما حديث مما تقدم وسيأتي إن شاء الله، وكما في حديث البراء بن عازب في صحيح البخاري [٣٩٨٦]: أنهم قتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين.

وقال موسى بن عقبة: قتل يوم بدر من المسلمين من قريش ستة ومن الأنصار ثمانية، وقتل من المشركين تسعة وأربعون، وأسر منهم تسعة وثلاثون.

هكذا رواه البيهقي [الدلائل: ١٤٢/٣] عنه. قال [الدلائل: ١٢٣/٣]: وهكذا ذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة في عدد من استشهد من المسلمين وقتل من المشركين.

ثم قال [الدلائل: ١٢٣/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم أخبرنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق. قال: واستشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً.

وقال في موضع آخر: وكان مع رسول الله ﷺ أربعة وأربعون أسيراً، وكانت القتلى مثل ذلك.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ١٢٣/٣، ١٢٤] من طريق أبي صالح كاتب الليث عن الليث عن عقيل عن الزهري قال: وكان أول قتيل من المسلمين مهجع مولى عمر، ورجل من الأنصار وقتل يومئذ من المشركين زيادة على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

قال: ورواه ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهري عن عروة بن

الزبير.

قال: قال البيهقي - وهو الأصح - فيما رويناه في عدد من قتل من المشركين وأسر منهم.

ثم استدل على ذلك بما ساقه هو والبخاري [٣٩٨٦] أيضا من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: أمّر رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد عبد الله بن جبير، فأصابوا منا سبعين وكان النبي ﷺ وأصحابه قد أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا، وسبعين قتيلا.

قلت: والصحيح أن جملة المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وقد صرح قتادة بأنهم كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وكأنه أخذه من هذا الذي ذكرناه والله أعلم.

وفي حديث عمر المتقدم [مسند أحمد: ٣٠/١] أنهم كانوا زيادة على الألف، والصحيح الأول لقوله عليه السلام: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف».

وأما الصحابة يومئذ فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً كما سيأتي التنصيص على ذلك وعلى أسمائهم إن شاء الله، وتقدم في حديث الحكم عن مقسم عن ابن عباس: أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، وقاله أيضاً عروة بن الزبير وقتادة وإسماعيل السدي الكبير وأبو جعفر الباقر [الدلائل للبيهقي: ١٢٦/٣، ١٢٧].

وروى البيهقي [الدلائل: ١٢٧/٣، ١٢٨] من طريق قتيبة عن جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله بن مسعود في ليلة القدر قال: «تحروها لإحدى عشرة بقين فإن صبيحتها يوم بدر».

قال البيهقي [الدلائل: ١٢٨/٣]: وروي عن زيد بن أرقم: أنه سئل عن ليلة القدر فقال ليلة تسع عشرة ما شك، وقال يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

قال البيهقي [الدلائل: ١٢٨/٣]: والمشهور عن أهل المغازي أن ذلك لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ١٢٨/٣، ١٢٩]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران حدثنا أبو عمرو بن السماك حدثنا حنبل بن إسحاق حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن عثمان سمعت موسى بن طلحة يقول: سئل أبو أيوب الأنصاري عن يوم بدر فقال: إما لسبع عشرة خلت، أو ثلاث عشرة خلت أو لإحدى عشرة بقيت. وإما لسبع عشرة بقيت.

وهذا غريب جداً.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة قباث بن أشيم الليثي من طريق الواقدي وغيره بإسنادهم إليه أنه شهد يوم بدر مع المشركين فذكر هزيمتهم مع قلة أصحاب رسول الله ﷺ قال: وجعلت أقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء والله لو خرجت نساء قريش بأكمتها ردت محمداً وأصحابه. فلما كان بعد الخندق قلت: لو قدمت المدينة فنظرت إلى ما يقول محمد وقد وقع في نفسي الإسلام، قال: فقدمتها فسألت عنه فقالوا: هو ذاك في ظل المسجد في ملأ من أصحابه، فأتيته وأنا لا أعرفه من بين أصحابه فسلمت فقال: «يا قباث بن أشيم أنت القائل يوم بدر ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء؟»، فقلت: أشهد أنك رسول الله فإن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط ولا ترمرت به إلا شيئا حدثت به نفسي، فلولا أنك نبي ما أطلعك الله عليه، هلم أبايعك على الإسلام فأسلمت.

سنة ٢- الحكم في المغانم يوم بدر

وقد اختلفت الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر في المغانم من المشركين يومئذ لمن تكون منهم وكانوا ثلاثة أصناف حين ولى المشركون:

ففرقة أحدقت برسول الله ﷺ تحرسه خوفاً من أن يرجع أحد من المشركين إليه.

وفرقة ساقت وراء المشركين يقتلون منهم ويأسرون.

وفرقة جمعت المغانم من متفرقات الأماكن.

فادعى كل فريق من هؤلاء أنه أحق بالمغنم من الآخرين لما صنع من الأمر المهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٢/١]: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين عن براء، يقول: عن سواء.

وهكذا رواه أحمد [٣٢٢/٥، ٣٢٣] عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به.

ومعنى قوله: على السواء أي ساوى فيها بين الذين جمعوها وبين الذين اتبعوا العدو وبين الذين ثبتوا تحت الرايات لم يخصص بها فريقا منهم ممن ادعى التخصيص بها، ولا ينفي هذا تخميسها وصرف الخمس في مواضعه كما قد يتوهمه بعض العلماء منهم أبو عبيد وغيره والله أعلم. بل قد تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذو الفقار من مغانم بدر.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٧٩/٢]: وكذا اصطفى جملا لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة، وهذا قبل إخراج الخمس أيضا.

وقال الإمام أحمد [٣٢٣/٥، ٣٢٤]: حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، واكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا منها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله على فُوَاق المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع فإذا أقبل راجعا نفل الثلث وكان يكره الأنفال.

وقد روى الترمذي [١٥٦١] وابن ماجه [٢٨٥٢] من حديث الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث.... آخره.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٤٨٥٥)] والحاكم في مستدركه [١٣٥/٢، ١٣٦] من حديث عبد الرحمن، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

وقد روى أبو داود [٢٧٣٧] والنسائي [كبرى (١١١٩٧)] وابن حبان

والحاكم [المستدرك: ٣٢٦/٢، ٣٢٧] من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا»، فتسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنائم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم قال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم ولو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية آثاراً أخر يطول بسطها ههنا ومعنى الكلام أن الأنفال مرجعها إلى حكم الله ورسوله يحكما فيها بما فيه المصلحة للعباد في المعاش والمعاد ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] ثم ذكر ما وقع في قصة بدر وما كان من الأمر حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

فالظاهر أن هذه الآية مبينة لحكم الله في الأنفال الذي جعل مرده إليه وإلى رسوله ﷺ، فبينه تعالى وحكم فيه بما أراد تعالى، وهو قول ابن زيد [تفسير الطبري: ١٧٨/٩].

وقد زعم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله [الأموال: ص٣٨٤] أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر على السواء بين الناس، ولم يخمّسها. ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخا لما تقدم، وهكذا روى الوالبي عن ابن عباس [تفسير الطبري: ١٧٥/٩، ١٧٦].

وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي [تفسير الطبري: ١٧٥/٩، ١٧٦] وفي هذا نظر والله أعلم.

فإن في سياق الآيات قبل آية الخمس وبعدها كلها في غزوة بدر فيقتضي أن ذلك نزل جملة في وقت واحد غير متفاصل بتأخر يقتضي نسخ بعضه بعضا، ثم في الصحيحين [خ (٢٣٧٥)، م (١٩٧٩)] عن علي رضي الله عنه أنه قال في قصة شارفَيْه اللذين اجتبّ أسنمتهما حمزة: إن إحداهما كانت من الخمس يوم بدر ما يرد صريحاً على أبي عبيد أن غنائم بدر لم تخمس والله أعلم. بل خمست كما هو قول البخاري [٣٠٩١] وابن جرير [تفسيره: ١/١٠] وغيرهما وهو الصحيح الراجح والله أعلم.

سنة ٢- رجوعُه من بدر إلى المدينة

وقد تقدم أن الوقعة كانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وثبت في الصحيحين [خ (٣٠٦٥)، م (٢٨٧٥)] أنه كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة أيام، وقد أقام عليه السلام بعرصة بدر ثلاثة أيام كما تقدم وكان رحيله منها ليلة الاثنين، فركب ناقته ووقف على قليب بدر فقرع أولئك الذين سحبوا إليه كما تقدم ذكره، ثم سار عليه السلام ومعه الأسارى والغنائم الكثيرة وقد بعث عليه السلام بين يديه بشيرين إلى المدينة بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وجحده وبه كفر؛ أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعالي المدينة، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة.

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ وكان زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتبس عندها يمرضها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب له رسول الله بسهمه وأجره في بدر.

قال أسامة: فلما قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. قال: قلت: يا أبة أحق هذا؟ قال: أي والله يا بني.

وروى البيهقي [الدلائل: ١٣٠/٣] من طريق حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ خلّف عثمان وأسامة بن زيد على بنت رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامة: فسمعت الهيعة فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى. وضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه.

وقال الواقدي [المغازي: ١١٣/١]: صلى رسول الله ﷺ مرجعه من بدر العصر بالأثيل فلما صلى ركعة تبسم فسئل عن تبسمه فقال: «مرَّ بي ميكائيل وعلى جناحه النقع فتبسم إلي وقال: إني كنت في طلب القوم»، وأتاه جبريل حين فرغ من قتال أهل بدر على فرس أنثى معقود الناصية وقد عصم ثنيَّته الغبار فقال: يا محمد إن ربي بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى هل رضيت؟ قال: «نعم».

قال الواقدي [المغازي: ١١٤/١]: قالوا وقدّم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأثيل فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبد الله بن رواحة زيد بن حارثة من العقيق، فجعل عبد الله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته فقلت: أحقاً يا ابن رواحة؟ فقال: إي والله وغداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين. ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم داراً داراً والصبيان يشتدّون معه يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى إذا انتهى إلى دار بني أمية وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وقتل أمية بن خلف وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير فجعل بعض الناس لا يصدّقون زيداً ويقولون: ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا.

وقدم زيد حين سوينا على رقية بنت رسول الله ﷺ التراب بالبقيع، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه؟ وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون فيه أبداً وقد قتل علية أصحابه وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلاً فقال أبو لبابة: يكذب الله قولك. وقالت اليهود: ما جاء زيد إلا فلاً.

قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي فقلت: أحق ما تقول؟ فقال: إي والله حق ما أقول يا بني فقويت نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه.

قال: فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى رسول الله ﷺ وكان قد

شهد معهم بدراً وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا.

قال الواقدي [المغازي: ١/١١٦، ١١٧]: وهم سبعون في الأصل مجتمع عليه لا شك فيه.

قال: ولقي رسول الله ﷺ إلى الروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه فقال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت. فقال له رسول الله: «صدقت».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٤٣]: ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى وفيهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وقد جعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار. فقال راجز من المسلمين قال ابن هشام يقال: إنه هو عدي بن أبي الزغباء:

أقِمْ لها صدورها يا بسبس ... ليس بذي الطَّلْح لها معرَّس
ولا بصحراء غمير محبَسُ ... إن مطايا القوم لا تُحبَّس
فحملُها على الطريق أكيَس ... قد نصرَ اللّه وفرَّ الأخنس

قال: ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية يقال له سَيَّر إلى سرحة به فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش كما حدثني عاصم بن عمر ويزيد بن رومان: ما الذي تهنئوننا به؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرناها. فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أي ابن أخي أولئك الملأ».

قال ابن هشام [السيرة: ١/٦٤٤]: يعني الأشراف والرؤساء.

سنة ٢- مقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لعنهما الله

قال ابن إسحاق [السيرة: ١/٦٤٤]: حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث قتله عليّ بن أبي طالب كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل مكة، ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط.

قال ابن إسحاق [السيرة: ١/٦٤٤]: فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: «النار» وكان الذي قتله عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح، أخو بني عمرو بن عوف، كما حدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر.

وكذا قال موسى بن عقبة في مغازيه [الدلائل للبيهقي: ٣/١١٧ من طريق موسى بن عقبة]، وزعم أن رسول الله ﷺ لم يقتل من الأسارى أسيراً غيره.

قال: ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت. قال: يا معشر قريش علام أُقتل من بين مَنْ ههنا؟ قال: على عداوتك الله ورسوله.

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «نعم! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

قال ابن هشام [السيرة: ١/٦٤٤]: ويقال بل قتل عقبة علي بن أبي طالب فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم.

قلت: كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفراً وعناداً وبغيا وحسداً وهجاء للإسلام وأهله لعنهما الله وقد فعل.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٤٢]: فقالت قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث في مقتل أخيها:

يا راكباً إن الأُثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحيةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعَبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضِنْءِ كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
والنضر أقرب من أسرت قرابةً ... وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هنالك تُشقَّقُ
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عان موثق

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٤٣]: ويقال والله أعلم إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٤٤]: وقد تلقى رسول الله ﷺ بهذا الموضع أبو هند مولى فروة بن عمرو البياضي حجامه عليه السلام ومعه زق مملوء حيساً - وهو التمر والسويق بالسمن - هدية لرسول الله ﷺ فقبله منه ووصى به الأنصار.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٤٤]: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٤٥]: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار: أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى.

قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

قال أبو عزيز: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها فيردها عليّ ما يمسها.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٦٤٦]: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

قلت: وأبو عزيز هذا اسمه زرارة فيما قاله ابن الأثير في غابة الصحابة

[٢١٣/٦].

وعده خليفة بن خياط في أسماء الصحابة [طبقات خليفة: ٣٣/١]: وكان اخا مصعب بن عمير لأبويه، وكان لهما أخ آخر لأبويهما وهو أبو الروم بن عمير وقد غلط من جعله قتل يوم أحد كافراً ذاك أبو عزة كما سيأتي في موضعه والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٥/١]: حدثني عبد الله بن ابي بكر أن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة. قال: قدم بالأسارى حين قدم بهم وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، قال: وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب.

قال: تقول سودة: والله إني لعندهم إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، قالت: فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل قالت: فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك ان قلت: أي أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، الا متم كراماً؟ فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى الله وعلى رسوله تحرضين» قالت: قلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت.

ثم كان من قصة الأسارى بالمدينة ما سيأتي بيانه وتفصيله فيما بعد من كيفية فدائهم وكميته إن شاء الله.

سنة ٢ - فرح النجاشي بوقعة بدر ﷺ

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٣٣/٣، ١٣٤]: أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله الحرفي ببغداد حدثنا احمد بن سليمان النجاد حدثنا عبد الله بن أبي الدنيا حدثني حمزة بن العباس حدثنا عبدان بن عثمان حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن عبد الرحمن - رجل من أهل صنعاء - قال: أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان ثياب جالس على التراب.

قال جعفر: فاشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما أن رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم. إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله عز وجل قد نصر نبيه وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان. التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة إبله، فقال له جعفر: ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق؟ قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى إن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عند ما يحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله لي نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع.

سنة ٢- في وصول خبر مصاب أهل بدر إلى أهاليهم بمكة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٦/١]: وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام. فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إنْ يعقل هذا! فسلوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالساً في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

قال موسى بن عقبة [دلائل النبوة للبيهقي: ١١٧/٣ من طريق موسى بن عقبة]: ولما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحققوه قطعت النساء شعورهن وعقرت خيول كثيرة ورواحل.

وذكر السهيلي [الروض الأنف: ٢٢٤/٥، ٢٢٥] عن كتاب الدلائل لقاسم بن ثابت أنه قال: لما كانت وقعة بدر سمع أهل مكة هاتفاً من الجن يقول:

أزار الحنيفيون بدراً وقيعة ... سينقضُ منها ركنُ كسرى وقيصرا
أبادت رجالا من لؤي وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حُسَّرا
فيا ويح من أمسى عدو محمد ... لقد جار عن قصد الهدى وتحيّرا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٦/١، ٦٤٧]: وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى ابن عباس قال: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة - وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلا - فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً.

قال: وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ اقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان - واسمه المغيرة - ابن الحارث بن عبد المطلب قد قدم.

قال: فقال أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة.

قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك علي يضربني - وكنت رجلا ضعيفاً - فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته إن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً؛ فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

زاد يونس عن ابن إسحاق: فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن. وكانت قريش تتقي هذه العدسة كما تتقي الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما الا تستحيان أن اباكما قد أنتن في بيته لا

تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلا مكة فأسندوه إلى جدار، ثم رضموا عليه بالحجارة.

قال يونس عن ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين، أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا إلا تسترت بثوبها حتى تجوز.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٧/١، ٦٤٨]: وحدثني يحيى بن عباد عن أبيه قال: ناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

قلت: وكان هذا من تمام ما عذب الله به أحياءهم في ذلك الوقت، وهو تركهم النوح على قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٨/١]: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده، زمعة وعقيل والحارث، وكان يحب أن يبكي على بنيه قال: فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له - وكان قد ذهب بصره - انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - يعني ولده زمعة - فإن جوفي قد احترق، قال: فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، قال: فذاك حين يقول الأسود:

أتبكي أن أضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل ... وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعاً ... وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

سنة ٢- في بعث قريش إلى رسول الله ﷺ فداء أسراهم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٧/١، ٦٤٨]: وكان في الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمي. فقال رسول الله ﷺ: «إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه» فلما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسراكم، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبي وداعة، وهو الذي كان رسول الله ﷺ عنى: صدقتم لا تعجلوا، وانسل من الليل وقدم المدينة، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم فانطلق به.

قلت: وكان هذا أول أسير فدي، ثم بعثت قريش في فداء أسراهم، فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، وكان الذي أسره مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف، فقال في ذلك:

أسرت سهيلاً فلا أبتغي ... أسيراً به من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى ... فتاها سهيل إذا يظلم
ضربت بذي الشفر حتى انثنى ... وأكرهت نفسي على ذي العَلَم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٩/١]: وكان سهيل رجلا أعلم من شفته السفلى.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٩/١]: وحدثني محمد بن عمرو بن عطاء أخو بني عامر بن لؤي، أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً».

قلت: وهذا حديث مرسل بل معضل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٩/١]: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لعمر في هذا: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه».

قلت: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ وارتد من ارتد من العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب الناس وثبتهم على الدين الحنيف، كما سيأتي في موضعه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٩/١، ٦٥٠]: فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذي لنا قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً عندهم، وأنشد له ابن إسحاق في ذلك شعراً، أنكره ابن هشام [السيرة: ٦٥٠/١] فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٠/١]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان صخر بن حرب.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٠/١]: وكانت أمه بنت عقبة بن أبي معيط.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٦٥٠/١]: بل كانت أمه أخت أبي معيط.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٦٥٠/١]: وكان الذي أسره علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٥٠/١، ٦٥١]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: فقيل لأبي سفيان افد عمراً ابنك، قال أيجمع عليَّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفدي عمراً؟ دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.

قال: فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة، إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية معتمراً ومعه مرية له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع فخرج من هنالك معتمراً، ولم يظن أنه يحبس بمكة، إنما جاء معتمراً، وقد كان عهد قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، وقال في ذلك:

ارهط ابن أكال أجيبوا دعاءه ... تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلة ... لئن لم يكفوا عن أسيرهم الكبلا

قال: فأجابه حسان بن ثابت يقول:

لو كان سعد يوم مكة مطلقاً ... لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا
بعضب حسام أو بصفراء نبعة ... تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا

قال: ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبي ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥١/١، ٦٥٢]: وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن أمية ختن رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٦٥١/١، ٦٥٢]: وكان الذي أسره خراش

بن الصمة أحد بني حرام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥١/١، ٦٥٢]: وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً، وأمانة، وتجارة، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، وكانت خديجة هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوجه بابنتها زينب، وكان لا يخالفها، وذلك قبل الوحي، وكان عليه السلام قد زوج ابنته رقية - أو أم كلثوم - من عتبة بن أبي لهب، فلما جاء الوحي قال أبو لهب: اشغلوا محمداً بنفسه، وأمر ابنه عتبة فطلق ابنة رسول الله ﷺ قبل الدخول، فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ، ومشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارق صاحبتك، ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش، شئت، قال: لا والله إذاً لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره فيما بلغني.

قلت: الحديث بذلك في الثناء عليه في صهره، ثابت في الصحيح [خ (٣١١٠)، م (٢٤٤٩)] كما سيأتي.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٥٢/١]: وكان رسول الله ﷺ لا يحل بمكة ولا يحرم مغلوباً على أمره، وكان الإسلام قد فرق بين زينب ابنة رسول الله ﷺ وبين أبي العاص، وكان لا يقدر على أن يفرق بينهما.

قلت: إنما حرم الله المسلمات على المشركين عام الحديبية سنة ست من الهجرة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٥٣/١]: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا». قالوا: نعم! يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٥٣/١]: وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلي سبيل زينب - يعني أن تهاجر إلى المدينة - فوفى أبو العاص بذلك كما سيأتي.

وقد ذكر ذلك ابن إسحاق ههنا فأخرناه لأنه أنسب والله أعلم.

وقد تقدم ذكر افتداء العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ نفسه وعقيلاً ونوفلا ابني أخويه بمائة أوقية من الذهب.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٥٩/١]: فكان ممن سمي لنا ممن مَنَّ عليه رسول الله ﷺ من الأسارى بغير فداء من بني أمية أبو العاص بن الربيع، ومن بني مخزوم المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم أسره بعض بني الحارث بن الخزرج، فترك في أيديهم حتى خلوا سبيله فلحق بقومه.

وقال ابن هشام [السيرة: ٦٥٩/١]: كان الذي أسره أبو أيوب خالد بن زيد.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦٠/١]: وصيفي بن أبي رفاعة بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ترك في أيدي أصحابه، فأخذوا عليه ليبعثن لهم بفدائه، فخلوا سبيله ولم يف لهم. فقال حسان بن ثابت في ذلك.

ما كان صيفي ليوفي أمانة ... قفا ثعلب أعيا ببعض الموارد

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦٠/١]: وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح كان محتاجاً ذا بنات، قال: يا رسول الله لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال، فامنن علي، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمداً ... بأنك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى ... عليك من الله العظيم شهيد

وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة ... لها درجات سهلة وصعود

فإنك من حاربته لمحارب ... شقي ومن سالمته لسعيد

ولكن إذا ذكرت بدراً وأهله ... تأوب ما بي حسرة وقعود

قلت: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم، فلما كان يوم أحد أسر أيضاً، فسأل من النبي ﷺ أن يمن عليه أيضا، فقال النبي ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول: خدعت محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه كما سيأتي في غزوة أحد..

ويقال: إن فيه قال رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» [خ (٦١٣٣)، م (٢٩٩٨)] وهذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦١/١]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٦١/١]: والذي أسره رفاعة بن رافع أحد بني زريق.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦١/١ - ٦٦٣]: فحدثني محمد بن جعفر، عن عروة فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دينٌ عليَّ، ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلَهُم علةً ابني أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليَّ دَيْنك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال: سأفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب، وقد أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف. فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال: «فأدخله علي»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير» فدنا، ثم قال: أنعموا صباحاً. وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير

بالسلام تحية أهل الجنة» قال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، قال: «فما بال السيف في عنقك» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئا؟ قال: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك، قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك» فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما يتزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره» ففعلوا. ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا احب ان تأذن لي فأقدم مكة فادعوهم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فإذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.

وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول: ابشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب، فأخبره عن إسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦٣/١]: فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فاسلم على يديه ناس كثير.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٦٣/١]: وعمير بن وهب ـ أو الحارث بن هشام ـ هو الذي رأى عدو الله إبليس حين نكص على عقبيه يوم بدر، وفر هارباً وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، وكان إبليس يومئذ في صورة سراقة بن مالك بن جعشم أمير مدلج.

سنة ٢- رواية ابن إسحاق في قصة بدر

ثم إن الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تكلم على ما نزل من القرآن في قصة بدر، وهو من أول سورة الأنفال إلى آخرها، فأجاد وأفاد [السيرة: ٦٦٦/١ ـ ٦٧٧].

وقد تقصينا الكلام على ذلك في كتابنا التفسير، فمن أراد الاطلاع على ذلك فلينظره ثَمَّ ولله الحمد والمنة.

سنة ٢- تسمية من شهد بدراً من المسلمين

ثم شرع ابن إسحاق في تسمية من شهد بدراً من المسلمين، [السيرة: ٦٧٧/١ ـ ٧٠٦] فسرد أسماء من شهدها من المهاجرين أولا، ثم أسماء من شهدها من الأنصار: أوسها وخزرجها إلى ان قال:

فجميع من شهد بدراً من المسلمين من المهاجرين والأنصار من شهدها ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون، ومن الأوس أحد وستون رجلا. ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا. وقد سردهم البخاري في صحيحه [كتاب المغازي ـ باب تسمية من سُمّي من أهل بدر بعد ح٤٠٢٧] مرتبين على حروف المعجم بعد البداءة برسول الله ﷺ، ثم بأبي بكر، وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وهذه تسمية من شهد بدراً من المسلمين مرتبين على حروف المعجم، وذلك من كتاب الأحكام الكبير للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي، وغيره بعد البداءة باسم رئيسهم وفخرهم وسيد ولد آدم محمد رسول الله ﷺ.

حرف الألف:

أبي بن كعب النجاري سيد القراء، الأرقم بن أبي الأرقم وأبو الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي، أسعد بن يزيد بن الفاكه بن يزيد بن خلدة بن عامر بن العجلان، أسود بن زيد بن ثعلبة بن عبيد بن غنم.

كذا قال موسى بن عقبة.

وقال الأموي: سواد بن رزام بن ثعلبة بن عبيد بن عدي شك فيه.

وقال سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق [السيرة: ٦٩٨/١]: سواد بن زريق بن ثعلبة.

وقال ابن عائذ: سواد بن زيد، أسير بن عمرو الأنصاري أبو سليط.

وقيل: أسير بن عمرو بن أمية بن لوذان بن سالم بن ثابت الخزرجي، ولم يذكره موسى بن عقبة، أنس بن قتادة بن ربيعة بن خالد بن الحارث الأوسي.

كذا سماه موسى بن عقبة، والأموي وسمّاه في السيرة أُنيساً.

قلت: وأنس بن مالك خادم النبي ﷺ لما روى عمر بن شبة النميري: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه، عن ثمامة بن أنس قال: قيل لأنس بن مالك: أشهدت بدراً؟ قال: وأين أغيب عن بدر لا أم لك؟!.

وقال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، ثنا أبي عن مولى لأنس بن مالك، أنه قال لأنس: شهدت بدراً؟ قال: لا أم لك وأين أغيب عن بدر؟.

قال محمد بن عبد الله الأنصاري: خرج أنس بن مالك مع رسول الله ﷺ إلى بدر وهو غلام يخدمه.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيبه [٣٦٨/٣]: هكذا قال الأنصاري، ولم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي: أنس بن معاذ بن أنس بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار.

أنسة الحبشي: مولى رسول الله ﷺ.

أوس بن ثابت بن المنذر النجاري، أوس بن خولي بن عبد الله بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج الخزرجي.

وقال موسى بن عقبة: أوس بن عبد الله بن الحارث بن خولي، أوس بن الصامت الخزرجي، أخو عبادة بن الصامت.

إياس بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكر حليف بني عدي بن كعب.

حرف الباء:

بجير بن أبي بجير حليف بني النجار.

بحاث بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم بن عمرو بن عمارة البلوي، حليف الأنصار.

بسبس بن عمرو بن ثعلبة بن خرشة بن زيد بن عمرو بن سعيد بن ذبيان بن رشدان بن قيس بن جهينة الجهني، حليف بني ساعدة، وهو أحد العينين هو وعدي بن أبي الزغباء كما تقدم.

بشر بن البراء بن معرور الخزرجي، الذي مات بخيبر من الشاة المسمومة.

بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي، والد النعمان بن بشير، ويقال: إنه أول من بايع الصديق.

بشير بن عبد المنذر أبو لبابة الأوسي رده عليه الصلاة والسلام من الروحاء، واستعمله على المدينة وضرب له بسهمه وأجره.

حرف التاء:

تميم بن يعار بن قيس بن عدي بن أمية بن جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج.

تميم مولى خراش بن الصمة.

تميم مولى بني غنم بن السلم.

وقال ابن هشام [السيرة: ٦٩٠/١]: وهو مولى سعد بن خيثمة.

حرف الثاء:

ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان.

ثابت بن ثعلبة، ويقال لثعلبة هذا: الجذع بن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة.

ثابت بن خالد بن النعمان بن خنساء بن عسيرة بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار النجاري.

ثابت بن خنساء بن عمرو بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار النجاري.

ثابت بن عمرو بن زيد بن عدي بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار النجاري.

ثابت بن هزال الخزرجي.

ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن الأوس.

ثعلبة بن عمرو بن عبيد بن مالك النجاري

ثعلبة بن عمرو بن محصن الخزرجي.

ثعلبة بن عنمة بن عدي بن نابي السُلَمي.

ثقف بن عمرو من بني حجر آل بني سليم، وهو من حلفاء بني كثير بن غنم بن دودان بن أسد.

حرف الجيم:

جابر بن خالد بن مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار بن النجار النجاري.

جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سَلِمة السُلَمي، أحد الذين شهدوا العقبة.

قلت: فأما جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام السُلَمي أيضاً فذكره البخاري فيهم في مسند [انظر التاريخ الكبير: ٢٠٧/٢ عن مسدد عن أبي عوانة عن الأعمش، به] عن سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال: كنت أميح لأصحابي الماء يوم بدر.

وهذا الإسناد على شرط مسلم، لكن قال محمد بن سعد: ذكرت لمحمد بن عمر يعني الواقدي هذا الحديث فقال: هذا وهم من أهل العراق، وأنكر أن يكون جابر شهد بدراً.

وقال الإمام أحمد بن حنبل [٣٢٩/٣]: حدثنا روح بن عباد، ثنا زكريا بن إسحاق، ثنا أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، ولم أشهد بدرا ولا أحداً، منعني أبي فلما قتل أبي يوم أحد، لم أتخلف عن رسول الله ﷺ عن غزاة.

ورواه مسلم [٢٨١٣] عن أبي خيثمة عن روح.

جبار بن صخر السلمي.

جبر بن عتيك الأنصاري.

جبير بن إياس الخزرجي.

حرف الحاء:

الحارث بن أنس بن رافع الخزرجي. الحارث بن أوس بن معاذ بن أخي سعد بن معاذ الأوسي، الحارث بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن الأوس رده عليه السلام من الطريق، وضرب له بسهمه وأجره.

الحارث بن خزمة بن عدي بن أبي غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، حليف لبني زعور ابن عبد الأشهل، الحارث بن الصمة الخزرجي، رده عليه السلام لأنه كسر من الطريق، وضرب له بسهمه وأجره.

الحارث بن عرفجة الأوسي، الحارث بن قيس بن خالد أبو خالد الخزرجي، الحارث بن النعمان بن أمية الأنصاري،حارثة بن سراقة النجاري أصابه سهم غرب وهو في النظارة فرفع إلى الفردوس. حارثة بن النعمان بن رافع الأنصاري.

حاطب ابن أبي بلتعة اللخمي، حليف بني أسد بن عبد العزى بن قصي، حاطب بن عمرو بن عبيد ابن أمية الأشجعي من بني دهمان، هكذا ذكره ابن هشام [السيرة: ٦٨٨/١] عن غير ابن إسحاق.

وقال الواقدي [المغازي: ١٥٦/١]: حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبلود، وكذا ذكره ابن عائذ في مغازيه.

وقال ابن أبي حاتم: حاطب بن عمرو بن عبد شمس، سمعته من أبي، وقال: هو رجل مجهول.

الحباب ابن المنذر الخزرجي، ويقال: كان لواء الخزرج معه يومئذ، حبيب بن أسود مولى بني حرام من بني سلمة.

وقال موسى بن عقبة: حبيب بن سعد بدل أسود.

وقال ابن أبي حاتم: حبيب بن أسلم مولى آل جشم بن الخزرج، أنصاري بدري.

حريث بن زيد بن ثعلبة ابن عبد ربه الأنصاري، أخو عبد الله بن زيد الذي أري النداء، الحصين بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله ﷺ.

حرف الخاء:

خالد بن البكير أخو إياس المتقدم، خالد بن زيد أبو أيوب النجاري، خالد بن قيس بن مالك بن العجلان الأنصاري.

خارجة بن الحمير حليف بني خنساء من الخزرج، وقيل: اسمه حمزة بن الحمير، وسماه ابن عائذ خارجة فالله أعلم.

خارجة بن زيد الخزرجي صهر الصديق.

خباب بن الأرت حليف بني زهرة وهو من المهاجرين الأولين وأصله من بني تميم ويقال: من خزاعة.

خباب مولى عتبة بن غزوان من المهاجرين الأولين.

خراش بن الصمة السلمي، خبيب بن إساف بن عنبة الخزرجي.

خريم بن فاتك ذكره البخاري [التاريخ الكبير: ٢٢٤/٣] فيهم.

خليفة بن عدي الخزرجي، خليد بن قيس بن النعمان ابن سنان بن عبيد الأنصاري السلمي.

خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي السهمي، قتل يومئذ، فتأيمت منه حفصة بنت عمر بن الخطاب.

خوات بن جبير الأنصاري، ضرب له بسهمه وأجره، لم يشهدها بنفسه.

خولي بن أبي خولي العجلي حليف بني عدي من المهاجرين الأولين.

خلاد بن رافع، وخلاد بن سويد، وخلاد بن عمرو بن الجموح الخزرجيون.

حرف الذال:

ذكوان بن عبد قيس الخزرجي، ذو الشمالين بن عبد بن عمرو بن نضلة من غبشان بن سليم بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، حليف لبني زهرة، قتل يومئذ شهيداً.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٨١/١]: واسمه عمير وإنما قيل له ذو الشمالين لأنه كان أعسر.

حرف الراء:

رافع بن الحارث الأوسي.

رافع بن عنجدة قال ابن هشام [السيرة: ٦٨٨/١]: هي أمه.

رافع بن المعلى بن لوذان الخزرجي قتل يومئذ.

ربعي بن رافع بن الحارث بن زيد بن حارثة بن الجد بن عجلان بن ضبيعة.

وقال موسى بن عقبة: ربعي بن أبي رافع.

ربيع بن إياس الخزرجي.

ربيعة بن أكثم بن سخبرة بن عمرو بن لكيز بن عامر بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف لبني عبد شمس بن عبد مناف، وهو من المهاجرين الأولين.

رخيلة بن ثعلبة بن خالد بن ثعلبة بن عامر بن بياضة الخزرجي.

رفاعة بن رافع الزرقي، أخو خلاد بن رافع.

رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر الأوسي أخو أبي لبابة.

رفاعة بن عمرو ابن زيد الخزرجي.

حرف الزاي:

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه.

زياد بن عمرو.

وقال موسى بن عقبة: زياد بن الأخرس بن عمرو الجهني.

وقال الواقدي: زياد بن كعب بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن كليب بن مودوعة بن عدي بن عمرو بن الرُّبعة بن رشدان بن قيس بن جهينة.

زياد بن لبيد الزرقي، زياد بن المزين بن قيس الخزرجي.

زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي بن عجلان بن ضبيعة، زيد بن حارثة بن شراحيل مولى رسول الله ﷺ رضي الله عنه.

زيد بن الخطاب بن نفيل، أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، زيد بن سهل بن الأسود بن حرام النجاري أبو طلحة رضي الله عنه.

حرف السين:

سالم بن عمير الأوسي، سالم بن غنم بن عوف الخزرجي، سالم ابن معقل مولى أبي حذيفة.

السائب بن عثمان بن مظعون الجمحي شهد مع أبيه.

سبيع بن قيس بن عائذ الخزرجي.

سبرة بن فاتك ذكره البخاري [التاريخ الكبير: ١٨٧/٤].

سراقة بن عمرو النجاري، سراقة بن كعب النجاري أيضاً.

سعد بن خولة مولى بني عامر بن لؤي، من المهاجرين الأولين، سعد بن خيثمة الأوسي قتل يومئذ شهيداً، سعد بن الربيع الخزرجي الذي قتل يوم أحد شهيداً، سعد بن زيد بن مالك الأوسي سعد بن زيد بن الفاكه الخزرجي، سعد بن سهيل بن عبد الأشهل النجاري، سعد بن عبيد الأنصاري، سعد بن عثمان بن خلدة الخزرجي، أبو عبادة.

وقال ابن عائذ: أبو عبيدة.

سعد بن معاذ الأوسي كان لواء الأوس معه، سعد بن عبادة بن دليم الخزرجي.

ذكره غير واحد منهم عروة والبخاري [التاريخ الكبير: ٤٤/٤] وابن أبي حاتم [الجرح والتعديل: ٨٨/٤] والطبراني [الكبير: ١٧/٦ (٥٣٥٢)] فيمن شهدا بدراً.

ووقع في صحيح مسلم [١٧٧٩] ما يشهد بذلك حين شاور النبي ﷺ في ملتقى النفير من قريش، فقال سعد بن عبادة: كأنك تريدنا يا رسول الله الحديث.

والصحيح أن ذلك سعد بن معاذ، والمشهور أن سعد بن عبادة رده من الطريق، قيل: لاستنابته على المدينة، وقيل: لذعته حية، فلم يتمكن من الخروج إلى بدر، حكاه السهيلي [الروض الأنف: ٢٦٩/٥] عن ابن قتيبة [المعارف: ص٢٥٩] فالله أعلم.

سعد بن أبي وقاص، مالك بن أهيب الزهري أحد العشرة، سعد بن

مالك أبو سهل، قال الواقدي [المغازي: ١٠١/١]: تجهز ليخرج فمرض، فمات قبل الخروج.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب، يقال: قدم من الشام بعد مرجعهم من بدر، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

سفيان بن بشر بن عمرو الخزرجي.

سلمة بن أسلم بن حريش الأوسي، سلمة بن ثابت بن وقش بن زغبة، سلمة بن سلامة بن وقش بن زغبة.

سليم بن الحارث النجاري، سليم بن عمرو السلمي، سليم بن قيس بن قهد الخزرجي، سليم بن ملحان أخو حرام بن ملحان النجاري.

سماك بن أوس بن خرشة أبو دجانة، ويقال سماك بن خرشة، سماك بن سعد بن ثعلبة الخزرجي، وهو أخو بشير بن سعد المتقدم.

سهل بن حنيف الأوسي، سهل بن عتيك النجاري، سهل بن قيس السلمي.

سهيل بن رافع النجاري الذي كان له ولأخيه موضع المسجد النبوي كما تقدم، سهيل بن وهب الفهري، وهو ابن بيضاء وهي أمه.

سنان بن أبي سنان محصن بن حرثان من المهاجرين حليف بني عبد شمس بن عبد مناف، سنان بن صيفي السلمي.

سواد بن زريق بن زيد الأنصاري، وقال الأموي: سواد ابن رزام، سواد بن غزية بن أهيب البلوي.

سويبط بن سعد بن حرملة العبدري.

سويد بن مخشي أو مخشي الطائي، حليف بني عبد شمس، وقيل: اسمه أربد بن حمير.

حرف الشين:

شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي أسد بن خزيمة حليف بني عبد شمس، من المهاجرين الأولين.

شماس بن عثمان المخزومي، قال ابن هشام [السيرة: ٦٨٣/١]: واسمه عثمان بن عثمان، وإنما سمي شماساً لحسنه، وشبهه شماساً كان في الجاهلية.

شقران مولى رسول الله ﷺ، قال الواقدي [المغازي: ١٥٣/١]: لم يسهم له، وكان على الأسرى، فأعطاه كل رجل ممن له في الأسرى شيئاً، فحصل له أكثر من سهم.

حرف الصاد:

صهيب بن سنان الرومي من المهاجرين الأولين.

صفوان بن وهب بن ربيعة الفهري أخو سهيل بن بيضاء، قتل شهيداً يومئذ.

صخر بن أمية بن خنساء السلمي.

حرف الضاد:

ضحاك بن حارثة بن زيد السلمي، ضحاك بن عبد عمرو النجاري.

ضمرة بن عمرو الجهني، وقال موسى بن عقبة: ضمرة بن كعب بن عمرو حليف الأنصار وهو أخو زياد بن عمرو.

حرف الطاء:

طلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة، قدم من الشام بعد مرجعهم من بدر، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

طفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف من المهاجرين، وهو أخو حصين وعبيدة.

طفيل بن مالك بن خنساء السلمي.

طفيل بن النعمان بن خنساء السلمي، ابن عم الذي قبله.

طليب بن عمير بن وهب بن أبي كثير بن عبد بن قصي؛ ذكره الواقدي [المغازي: ١٥٤/١].

حرف الظاء:

ظهير بن رافع الأوسي ذكره البخاري [٤٠١٢، ٤٠١٣].

حرف العين:

عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، الذي حمته الدبر حين قتل بالرجيع. عاصم بن عدي بن الجد بن عجلان رده عليه السلام من الروحاء وضرب له بسهمه وأجره، عاصم بن قيس بن ثابت الخزرجي.

عاقل بن البكير أخو إياس وخالد وعامر.

عامر بن أمية بن زيد بن الحسحاس النجاري، عامر بن الحارث الفهري، كذا ذكره سلمة عن ابن إسحاق، وابن عائذ.

وقال موسى بن عقبة، وزياد عن ابن إسحاق [السيرة: ٦٨٥/١]: عمرو بن الحارث.

عامر بن ربيعة بن مالك العنزي، حليف بني عدي من المهاجرين، عامر بن سلمة بن عامر بن عبد الله البلوي القضاعي، حليف بني مالك بن سالم بن غنم.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٩٣/١]: ويقال: عمرو بن سلمة.

عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، أبو عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر، أبو عبيدة بن الجرّاح أحد العشرة من المهاجرين الأولين. عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، عامر بن مخلد النجاري.

عائذ بن ماعص بن قيس الخزرجي.

عباد بن بشر بن وقش الأوسي، عباد بن قيس بن عامر الخزرجي، عباد بن قيس بن عيشة الخزرجي، أخو سبيع المتقدم.؟

عبادة بن الخشخاش القضاعي، عبادة بن الصامت الخزرجي، عبادة بن قيس بن كعب بن قيس.

عبد الله بن أمية بن عرفطة، عبد الله بن ثعلبة بن خزمة أخو بحاث المتقدم، عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، عبد الله بن جبير بن النعمان الأوسي، عبد الله بن الجد بن قيس السلمي، عبد الله بن حق بن أوس الساعدي.

وقال موسى بن عقبة والواقدي [المغازي: ١/١٦٨] وابن عائذ: عبد رب بن حق.

وقال ابن هشام [السيرة: ١/٦٩٦]: عبد ربه بن حق.

عبد الله بن الحمير حليف لبني حرام، وهو أخو خارجة بن الحمير من أشجع، عبد الله بن الربيع بن قيس الخزرجي، عبد الله بن رواحة الخزرجي، عبد الله بن زيد بن عبد ربه بن ثعلبة الخزرجي الذي أري النداء، عبد الله بن سراقة العدوي، لم يذكره موسى بن عقبة، ولا الواقدي، ولا ابن عائذ، وذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٩٦] وغيره.

عبد الله بن سلمة بن مالك العجلاني حليف الأنصار، عبد الله بن سهل بن رافع أخو بني زعورا، عبد الله بن سهيل بن عمرو خرج مع أبيه والمشركين، ثم فر من المشركين إلى المسلمين، فشهدها معهم، عبد الله بن طارق بن مالك القضاعي حليف الأوس، عبد الله بن عامر من بلي؛ ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٩٦]، عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، وكان أبوه رأس المنافقين.

عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو سلمة زوج أم سلمة قتل يومئذ، عبد الله بن عبد مناف بن النعمان السلمي، عبد الله بن عبس، عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب أبو بكر الصديق ﷺ، عبد الله بن عرفطة بن عدي الخزرجي، عبد الله بن عمر بن حرام السلمي أبو جابر، عبد الله بن عمير بن عدي الخزرجي، عبد الله بن قيس بن خالد النجاري، عبد اله بن قيس بن صخر بن حرام السلمي، عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار، جعله النبي ﷺ مع عدي بن أبي الزغباء على النقل يوم بدر، عبد الله بن مخرمة بن عبد العزى من المهاجرين الأولين، عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة من المهاجرين الأولين، عبد الله بن مظعون الجمحي من المهاجرين الأولين، عبد الله بن النعمان بن بلدمة السلمي، عبد الله بن أنيسة بن النعمان السلمي، عبد الرحمن بن جبر بن عمرو أبو عبيس الخزرجي، عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة أبو عقيل القضاعي البلوي، عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب الزهري، أحد العشرة رضي الله عنهم، عبس بن عامر بن عدي السلمي.

عبيد بن التيهان أخو أبي الهيثم بن التيهان، ويقال عتيك بدل عبيد، عبيد بن ثعلبة من بني غنم بن مالك، عبيد بن زيد بن عامر بن العجلان بن عمرو بن عامر، عبيد بن أبي عبيد.

عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف أخو الحصين والطفيل، وكان أحد الثلاثة الذين بارزوا يوم بدر، فقطعت يده، ثم مات بعد المعركة ﷺ، عتبان بن مالك بن عمرو الخزرجي.

عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية البهراني، حليف بني أمية ابن لوذان، عتبة بن عبد الله بن صخر السلمي، عتبة بن غزوان بن جابر من المهاجرين الأولين.

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي أمير المؤمنين أحد الخلفاء الأربعة، وأحد العشرة، تخلف على زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ يمرضها حتى ماتت، فضرب له بسهمه وأجره، عثمان بن مظعون الجمحي أبو السائب، أخو عبد الله وقدامة من المهاجرين الأولين.

عدي بن أبي الزغباء الجهني، وهو الذي أرسله رسول الله ﷺ وبسبس بن عمرو بين يديه عيناً.

عصيمة بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان. عصيمة حليف لبني الحارث بن سواد من أشجع، وقيل: من بني أسد بن خزيمة.

عطية بن نويرة بن عامر بن عطية الخزرجي.

عقبة بن عامر بن نابي السلمي، عقبة بن عثمان بن خلدة الخزرجي أخو سعد بن عثمان، عقبة بن عمرو أبو مسعود البدري. وقع في صحيح البخاري [٤٠٠٧] أنه شهد بدراً، وفيه نظر عند كثير من أصحاب المغازي، ولهذا لم يذكروه. عقبة بن وهب بن ربيعة الأسدي، أسد خزيمة، حليف لبني عبد شمس، وهو أخو شجاع بن وهب من المهاجرين الأولين. عقبة بن وهب بن كلدة حليف بني غطفان.

عكاشة بن محصن الغنمي من المهاجرين الأولين، وممن لا حساب عليه.

علي بن أبي طالب الهاشمي أمير المؤمنين أحد الخلفاء الأربعة، وأحد الثلاثة الذين بارزوا يومئذ ﷺ.

عمار بن ياسر العنسي المذحجي من المهاجرين الأولين.

عمارة بن حزم بن زيد النجاري.

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أحد الخلفاء الأربعة، وأحد الشيخين المقتدى بهما رضي الله عنهما. عمر بن عمرو بن إياس، من أهل اليمن، حليف لبني لوذان بن عمرو بن سالم، وقيل: هو أخو ربيع وودْفة.

عمرو بن ثعلبة بن وهب بن عدي بن مالك بن عدي بن عامر أبو حكيم، عمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضَبَّة بن الحارث بن فهر الفهري، عمرو بن سراقة العدوي من المهاجرين، عمرو بن أبي سرح الفهري من المهاجرين. وقال الواقدي [المغازي: ١/١٥٧] وابن عائذ: معمر بدل عمرو، عمرو بن طلق بن زيد بن أمية بن سنان بن كعب بن غنم وهو في بني حرام، عمرو بن الجموح بن حرام الأنصاري، عمرو بن قيس بن زيد بن سواد بن مالك بن غنم، ذكره الواقدي [المغازي: ١/١٦٢] والأموي، عمرو بن قيس بن مالك بن عدي بن عامر أبو خارجة ولم يذكره موسى بن عقبة، عمرو بن عامر بن الحارث الفهري ذكره موسى بن عقبة، عمرو بن معبد بن الأزعر الأوسي، عمرو بن معاذ الأوسي، أخو سعد بن معاذ، عمير بن الحارث بن ثعلبة، ويقال: عمير بن الحارث بن لبدة بن ثعلبة السلمي.

عمير بن حرام بن الجموح السلمي ذكره ابن عائذ والواقدي [المغازي: ٢/١٦٩]، عمير بن الحمام بن الجموح بن عم الذي قبله، قتل يومئذ شهيداً، عمير بن عامر بن مالك بن الخنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن أبو داود المازني، عمير بن عوف، مولى سهيل بن عمرو، وسماه الأموي وغيره عمرو بن عوف، وكذا وقع في الصحيحين [خ (٣١٥٨)، م (٢٩٦١)] في حديث بعث أبي عبيدة إلى البحرين، عمير بن مالك بن أهيب الزهري أخو سعد بن أبي وقاص قتل يومئذ شهيداً.

عنترة مولى بني سليم وقيل: إنه منهم فالله أعلم.

عوف بن الحارث بن رفاعة بن الحارث النجاري، وهو ابن عفراء بنت عبيد بن ثعلبة النجارية، قتل يومئذ شهيداً.

عويم بن ساعدة الأنصاري من بني أمية بن زيد.

عياض بن غنم الفهري من المهاجرين الأولين، رضي الله عنهم أجمعين.

حرف الغين:

غنام بن أوس الخزرجي، ذكره الواقدي [المغازي: ١/١٧٢] وليس بمجمع عليه.

حرف الفاء:

الفاكه بن بشر بن الفاكه الخزرجي، فروة بن عمرو بن ودقة الخزرجي.

حرف القاف:

قتادة بن النعمان الأوسي، قدامة بن مظعون الجمحي من المهاجرين، أخو عثمان وعبد الله، قطبة بن عامر بن حديدة السلمي، قيس بن السكن النجاري، قيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد المازني كان على الساقة يوم بدر، قيس بن محصن بن خالد الخزرجي، قيس بن مخلد بن ثعلبة النجاري.

حرف الكاف:

كعب بن حمار، ويقال جَمّاز، ويقال حمان، وقال ابن هشام [السيرة: ١/٦٩٦]: من غُبشان.

ويقال: كعب بن مالك بن ثعلبة بن جماز، وقال الأموي: كعب بن ثعلبة ابن حبالة بن غنم الغساني، من حلفاء بني الخزرج بن ساعدة، كعب بن زيد بن قيس النجاري، كعب بن عمرو أبو اليسر السلمي، كلفة بن ثعلبة أحد البكائين، ذكره موسى بن عقبة، كناز بن حصين بن يربوع أبو مرثد الغنوي من المهاجرين الأولين.

حرف الميم:

مالك بن الدخشم، ويقال ابن الدخشن الخزرجي، مالك بن أبي خولي الجعفي حليف بني عدي، مالك بن ربيعة أبو أسيد الساعدي، مالك بن قدامة الأوسي، مالك بن عمرو أخو ثقف بن عمرو، وكلاهما مهاجري، وهما من حلفاء بني تميم بن دودان بن أسد، مالك بن مسعود الخزرجي، مالك بن ثابت بن نميلة المزني، حليف لبني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر بن زُنْبَر الأوسي أخو أبي لبابة ورفاعة، قتل يومئذ شهيداً، المجذر بن ذياد البلوي مهاجري، محرز بن عامر النجاري، محرز بن نضلة الأسدي، حليف بني عبد شمس مهاجري، محمد بن مسلمة حليف بني عبد الأشهل، مدلج ويقال: مدلاج بن عمرو أخو ثقف بن عمرو مهاجري، مرثد بن أبي مرثد الغنوي، مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف من المهاجرين الأولين، وقيل: اسمه عوف، مسعود بن أوس الأنصاري النجاري، مسعود بن خلدة الخزرجي، مسعود بن ربيعة القاري حليف بني زهرة مهاجري، مسعود بن سعد، ويقال: ابن عبد سعد - بن عامر بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث، مسعود ابن سعد بن قيس الخزرجي.

مصعب بن عمير العبدري مهاجري، كان معه اللواء يومئذ.

معاذ بن جبل الخزرجي، معاذ بن الحارث النجاري، وهذا هو ابن عفراء أخو عوف ومعوذ، معاذ بن عمرو بن الجموح الخزرجي، معاذ بن ماعص الخزرجي أخو عائذ، معبد بن عباد بن قشير بن الفدم بن سالم بن غنم، ويقال: معبد بن عبادة بن قيس.

وقال الواقدي [المغازي: ١/١٦٧]: قشعر بدل قشير.

وقال ابن هشام [السيرة: ١/٦٩٣]: قشعر أبو خميصة، معبد بن قيس بن صخر السلمي، أخو عبد الله بن قيس.

معتب بن عبيد بن إياس البلوي القضاعي، معتب بن عوف الخزاعي، حليف بني مخزوم من المهاجرين، معتب بن قشير الأوسي.

معقل بن المنذر السلمي، معمر بن الحارث الجمحي من المهاجرين، معن بن عدي الأوسي، معوذ بن الحارث البخاري وهو بن عفراء، أخو معاذ وعوف، معوذ بن عمرو بن الجموح السلمي، لعله أخو معاذ بن عمرو.

المقداد بن عمرو البهراني وهو المقداد بن الأسود، من المهاجرين الأولين، وهو ذو المقال المحمود الذي المتقدم ذكره، وكان أحد الفرسان يومئذ، مليل بن وبرة الخزرجي، المنذر بن عمرو بن خنيس الساعدي، المنذر بن قدامة بن عرفجة الخزرجي، المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري من بني جحجبى، مهجع مولى عمر بن الخطاب أصله من اليمن، وكان أول قتيل من المسلمين يومئذ.

حرف النون:

نصر بن الحارث بن عبد رزاح بن ظفر وهو كعب، نعمان بن عبد عمرو النجاري، وهو أخو الضحاك، نعمان بن عمرو بن رفاعة النجاري، نعمان بن عصر بن الربيع الحارث حليف لبني الأوس، نعمان بن مالك بن ثعلبة الخزرجي، ويقال له: قوقل، نعمان بن يسار مولى لبني نعمان بن سنان بن عبيد، ويقال: نعمان بن سنان، نوفل بن عبد الله بن نضلة الخزرجي.

حرف الهاء:

هانئ بن نيار أبو بردة البلوي، خال البراء بن عازب، هلال بن أمية الواقفي، وقع ذكره في أهل بدر في الصحيحين [خ (٤٤١٨)، م (٢٧٦٩)]، في قصة كعب بن مالك، ولم يذكره أحد من أصحاب المغازي، هلال بن المعلى الخزرجي أخو رافع بن المعلى.

حرف الواو:

واقد بن عبد الله التميمي، حليف بني عدي من المهاجرين، وديعة بن عمرو بن جراد الجهني، ذكره الواقدي [المغازي: ١/١٦٢] وابن عائذ، وَدْقة بن إياس بن عمرو الخزرجي، أخو ربيع بن إياس، وهب بن سعد بن أبي سرح، ذكره موسى بن عقبة وابن عائذ والواقدي في بني عامر بن لؤي، ولم يذكره ابن إسحاق.

حرف الياء:

يزيد بن الأخنس بن جناب بن حبيب بن جُرة السلمي.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٥/٣٠٠]: شهد هو وأبوه وابنه، يعني بدراً،

ولا يعرف لهم نظير في الصحابة، ولم يذكرهم ابن إسحاق، ولا الأكثرون، لكن شهدوا معه بيعة الرضوان، يزيد بن الحارث بن قيس الخزرجي، وهو الذي يقال له ابن فسحم، وهي أمه، قتل يومئذ شهيداً ببدر، يزيد بن عامر بن حديدة أبو المنذر السلمي، يزيد بن المنذر بن سرح السلمي وهو أخو معقل بن المنذر.

باب الكنى:

أبو أسيد مالك بن ربيعة تقدم، أبو الأعور بن الحارث بن ظالم النجاري.

وقال ابن هشام [السيرة: ٧٠٥/١]: أبو الأعور الحارث بن ظالم.

وقال الواقدي [المغازي: ١٦٤/١]: أبو الأعور كعب بن الحارث بن جندب بن ظالم، أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان تقدم، أبو حبة بن عمرو بن ثابت أحد بني ثعلبة بن عمرو بن عوف الأنصاري، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة من المهاجرين، وقيل: اسمه مهشم، أبو الحمراء مولى الحارث بن رفاعة بن عفراء، أبو خزيمة بن أوس بن أصرم النجاري، أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى من المهاجرين، أبو سنان بن محصن بن حرثان أخو عكاشة، ومعه ابنه سنان من المهاجرين، أبو الضياح بن النعمان، وقيل: عمير بن ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة، رجع من الطريق، وقتل يوم خيبر، رجع لجرح أصابه من حجر، فضرب له بسهمه، أبو عرفجة من حلفاء بني جحجبى، أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ، أبو لبابة بشير بن عبد المنذر تقدم، أبو مرثد الغنوي كناز بن حصين تقدم، أبو مسعود البدري عقبة بن عمرو تقدم، أبو مليل بن الأزعر بن زيد الأوسي.

سنة ٢- من تخلف عن بدر، وأسارى المشركين

فكان جملة من شهد بدراً من المسلمين ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا منهم رسول الله ﷺ كما قال البخاري [٣٩٥٧]: حدثنا عمرو بن خالد ثنا زهير ثنا أبو إسحاق سمعت البراء بن عازب يقول: حدثني أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة.

قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن.

ثم رواه البخاري [٣٩٥٨، ٣٨٥٩] من طريق إسرائيل وسفيان الثوري عن أبي إسحاق عن البراء نحوه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٣٢/٢]: وهذا قول عامة السلف: أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا. وقال البخاري [٣٩٥٦] أيضاً: حدثنا محمود، ثنا وهب عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال: استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين.

هكذا وقع في هذه الرواية.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٤٣١/٢]: حدثني محمد بن عبيد المحاربي ثنا أبو مالك الجنبي عن الحجاج - وهو ابن أرطاة - عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: كان المهاجرون يوم بدر سبعين رجلا. وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين رجلاً. وكان حامل راية النبي ﷺ علي بن أبي طالب. وحامل راية الأنصار سعد بن عبادة. وهذا يقتضي أنهم كانوا ثلاثمائة وستة رجال.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٣٢/٢]: وقيل: كانوا ثلاثمائة وسبعة رجال.

قلت: وقد يكون هذا عد معهم النبي ﷺ والأول عدهم بدونه فالله أعلم.

وقد تقدم عن ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٨٨، وانظر [سيرة ابن هشام: ٧٠٦/١] أن المهاجرين كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً. وأن الأوس أحد وستون رجلا. والخزرج مائة وسبعون رجلا وسردهم.

وهذا مخالف لما ذكره البخاري ولما روي عن ابن عباس فالله أعلم.

وفي الصحيح [ذكره الحافظ في الفتح ٢٩٢/٧، وعزاه للإمام أحمد] عن أنس أنه قيل له: شهدت بدراً. فقال: وأين أغيب؟.

وفي سنن أبي داود [٢٧٣١] عن سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام أنه قال: كنت أميح لأصحابي الماء يوم بدر.

وهذان لم يذكرهما البخاري ولا الضياء فالله أعلم.

قلت: وفي الذين عدهم ابن إسحاق في أهل بدر من ضرب له بسهم في مغنمها وأنه لم يحضرها تخلف عنها لعذر أذن له في التخلف بسببها وكانوا ثمانية أو تسعة وهم: عثمان بن عفان تخلف على رقية بنت رسول الله ﷺ يمرضها حتى ماتت فضرب له بسهمه وأجره.

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان بالشام فضرب له بسهمه وأجره.

وطلحة بن عبيد الله كان بالشام أيضاً فضرب له بسهمه وأجره.

وأبو لبابة بشير بن عبد المنذر رده رسول الله ﷺ من الروحاء حين بلغه خروج النفير من مكة فاستعمله على المدينة وضرب له بسهمه وأجره.

والحارث بن حاطب بن عبيد بن أمية رده رسول الله ﷺ أيضا من الطريق وضرب له بسهمه وأجره.

والحارث بن الصمة كسر بالروحاء فرجع فضرب له بسهمه.

زاد الواقدي [المغازي: ١٦٣/١]: وأجره.

وخوات بن جبير لم يحضر الوقعة وضرب له بسهمه وأجره.

وأبو الضياح بن ثابت خرج مع رسول الله ﷺ فأصاب ساقه فصيل حجر فرجع وضرب له بسهمه وأجره.

قال الواقدي [المغازي: ١٦٨/١]: وسعد أبو مالك تجهز ليخرج فمات وقيل: إنه مات بالروحاء فضرب له بسهمه وأجره.

وكان الذين استشهدوا من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا من المهاجرين ستة وهم:

عبيدة بن الحارث بن المطلب قطعت رجله فمات بالصفراء رحمه الله.

وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص الزهري قتله العاص بن سعيد وهو ابن ست عشرة سنة ويقال: إنه كان قد أمره رسول الله ﷺ بالرجوع لصغره فبكى فأذن له في الذهاب فقتل ﷺ، وحليفهم ذو الشمالين بن عبد عمرو الخزاعي، وصفوان بن بيضاء، وعاقل بن البكير الليثي حليف بني عدي، ومهجع مولى عمر بن الخطاب وكان أول قتيل قتل من المسلمين يومئذ.

ومن الأنصار ثمانية، وهم:

حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فمات، ومعوذ وعوف ابنا عفراء، ويزيد بن الحارث - ويقال ابن فسحم - وعمير

بن الحمام، ورافع بن المعلى بن لوذان وسعد بن خيثمة، ومبشر بن عبد المنذر رضي الله عن جميعهم.

وكان مع المسلمين سبعون بعيراً كما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦٦/١]: وكان معهم فرسان على أحدهما المقداد بن الأسود واسمها بعزجة - ويقال سبحة - وعلى الأخرى الزبير بن العوام واسمها اليعسوب وكان معهم لواء يحمله مصعب بن عمير، ورايتان يحمل إحداهما للمهاجرين علي بن أبي طالب، والتي للأنصار يحملها سعد بن عبادة، وكان رأس مشورة المهاجرين أبو بكر الصديق، ورأس مشورة الأنصار سعد بن معاذ.

وأما جمع المشركين فأحسن ما يقال فيهم أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وقد نص عروة وقتادة أنهم كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً.

وقال الواقدي [المغازي: ٣٩/١]: كانوا تسعمائة وثلاثين رجلاً. وهذا التحديد يحتاج إلى دليل وقد تقدم في بعض الأحاديث أنهم كانوا أزيد من ألف [مسند أحمد: ٣٠/١]؛ فلعله عدد أتباعهم معهم والله أعلم.

وقد تقدم الحديث الصحيح عند البخاري [٣٩٨٦] عن البراء أنه قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهذا قول الجمهور، ولهذا قال كعب بن مالك في قصيدة له:

فأقام بالعطن المعطن منهم   سبعون عتبة منهم والأسود

وقد حكى الواقدي [المغازي: ١٤٣/١، ١٤٤] الإجماع على ذلك وفيما قاله نظر، فإن موسى بن عقبة وعروة بن الزبير قالا خلاف ذلك وهما من أئمة هذا الشأن فلا يمكن حكاية الاتفاق بدون قولهما وإن كان قولهما مرجوحا بالنسبة إلى الحديث الصحيح والله أعلم.

وقد سرد أسماء القتلى والأسارى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٠٨/١، ٧١٥] وغيره [مغازي الواقدي: ١٣٨/١، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٢].

وحرر ذلك الحافظ الضياء في أحكامه جيداً وقد تقدم في غضون سياقات القصة ذكر أول من قتل منهم وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وأول من فر وهو خالد بن الأعلم الخزاعي - أو العقيلي - حليف بني مخزوم وما أفاده ذلك فإنه أسر وهو القائل في شعره:

ولسنا على الأعقاب تَدمَى كُلومُنا   ولكنْ على أقدامنا يقطُرُ الدم

فما صدق في ذلك.

وأول من أسروا عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث قتلا صبراً بين يدي رسول الله ﷺ من بين الأسارى، وقد اختلف في أيهما قتل أولا على قولين وأنه عليه الصلاة والسلام أطلق جماعة من الأسارى مجاناً بلا فداء منهم أبو العاص بن الربيع الأموي، والمطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وصيفي بن أبي رفاعة كما تقدم، وأبو عزة الشاعر، ووهب بن عمير بن وهب الجمحي كما تقدم، وفادى بقيتهم حتى عمه العباس أخذ منه أكثر مما أخذ من سائر الأسرى لئلا يحابيه لكونه عمه مع أنه قد سأله الذين أسروه من الأنصار أن يتركوا له فداءه فأبى عليهم ذلك، وقال: «لا تتركوا منه درهماً».

وقد كان فداؤهم متفاوتا فأقل ما أخذ أربعمائة، ومنهم من أخذ منه أربعون أوقية من ذهب. قاله موسى بن عقبة وأخذ من العباس مائة أوقية من ذهب، ومنهم من استؤجر على عمل بمقدار فدائه كما قال الإمام أحمد [٢٤٧/١] حدثنا علي بن عاصم قال: قال داود: حدثنا عكرمة عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء غلام يوما يبكي إلى أبيه فقالت: ما شأنك؟ فقال: ضربني معلمي فقال: الخبيث يطلب بذحل بدر والله لا تأتيه أبداً. انفرد به أحمد وهو على شرط السنن وتقدم بسط ذلك كله ولله الحمد والمنة.

سنة ٢- فضل من شهد بدراً من المسلمين

قال البخاري [٣٩٨٢، ٦٥٥٠] في هذا الباب: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد سمعت أنساً يقول: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يك في الجنة أصبر واحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع فقال: «ويحك أو هبلت أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس» تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقد روي من غير هذا الوجه من حديث ثابت [س كبرى (٨٢٣٢)، احمد: ١٢٤/٣، ٢١٥، ٢٧٢، ٢٨٢] وقتادة [خ (٢٨٠٩)، ت (٣١٧٤) احمد: ٢١٠/٣، ٢٦٠، ٢٨٣] عن أنس وأن حارثة كان في النظارة وفيه «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإن هذا الذي لم يكن في بحبحة القتال ولا في حومة الوغى بل كان من النظارة من بعيد وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس التي هي أعلى الجنان وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعُدداً.

ثم روى البخاري [٣٩٨٣] ومسلم [٢٤٩٤] جميعاً عن إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن إدريس عن حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب قصة حاطب بن أبي بلتعة وبعثه الكتاب إلى أهل مكة عام الفتح، وأن عمر استأذن رسول الله ﷺ في ضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين. فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم».

ولفظ البخاري «أليس من أهل بدر ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو قد غفرت لكم -» فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

وروى مسلم [٢٤٩٥] عن قتيبة عن الليث عن أبي الزبير عن جابر أن عبداً لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت: لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية».

وقال الإمام أحمد [٣٩٦/٣] حدثنا سليمان بن داود حدثنا أبو بكر بن عياش حدثني الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدراً أو الحديبية» تفرد به أحمد وهو على شرط مسلم.

وقال الإمام أحمد [٢٩٥/٢، ٢٩٦] حدثنا يزيد أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

قال: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ورواه أبو داود [٤٦٥٤] عن موسى بن إسماعيل عن حماد. وعن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون عن حماد] عن أحمد بن سنان وموسى بن إسماعيل كلاهما عن يزيد بن هارون به.

وروى البزار في مسنده [كشف الأستار (٢٧٦١)] حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا أبو حذيفة حدثنا عكرمة عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار من شهد بدراً إن شاء الله» ثم قال: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه.

قلت: وقد تفرد البزار بهذا الحديث ولم يخرجوه وهو على شرط الصحيح والله أعلم.

وقال البخاري في باب شهود الملائكة بدراً [٣٩٩٢] حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ماتعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة» انفرد به البخاري.

سنة ٢- هجرة زينب بنت النبي ﷺ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٣/١]: ولما رجع أبو العاص إلى مكة وقد خلي سبيله - يعني كما تقدم - بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار مكانه فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها، فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر - أو شيعه - فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهز.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٣/١، ٦٥٤]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: حدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز لقيتني هند بنت عتبة فقالت: يا ابنة محمد ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عم لا تفعلي إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو بمال تبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك فلا تضطني مني فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، قالت: ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٤/١، ٦٥٥]: فتجهزت فلما فرغت من جهازها قدّم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والفهري فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج وكانت حاملا فيما يزعمون فطرحت وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما فتكركر الناس عنه وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين اظهرنا ان ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك ضعف منا ووهن ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة وما لنا من ثؤرة. ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سرّاً والحقها بأبيها، قال: ففعل.

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٦/١] أن أولئك النفر الذين ردوا زينب لما رجعوا إلى مكة قالت هند تذمهم على ذلك:

أفي السِّلم أعيار جفاء وغِلظة　　وفي الحرب أشباهُ النساءِ العوارِكِ

وقد قيل: إنها قالت ذلك للذين رجعوا من بدر بعد ما قتل منهم الذين قتلوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٦/١]: فأقامت ليال حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدما بها ليلا على رسول الله ﷺ.

وقد روى البيهقي في الدلائل [١٥٦/٣، ١٥٧] من طريق عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير عن عروة عن عائشة فذكر قصة خروجها وردهم لها ووضعها ما في بطنها وأن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة وأعطاه خاتمه لتجيء معه فتلطف زيد فأعطاه راعيا من مكة فأعطى الخاتم لزينب فلما رأته عرفته فقالت: من دفع إليك هذا؟ قال: رجل في ظاهر مكة فخرجت زينب ليلا فركبت وراءه حتى قدم بها المدينة.

قال: فكان رسول الله ﷺ يقول: «هي أفضل بناتي أصيبت فيّ» قال: فبلغ ذلك علي بن الحسين بن زين العابدين فأتى عروة فقال: ما حديث بلغني أنك تحدثه تنتقص فيه فاطمة؟ فقال عروة: والله ما أحب أن لي ما بين المشرق والمغرب وأني أنتقص فاطمة حقا هو لها وأما بعدُ فلَكَ أن لا أحدثه أبداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٥/١، ٦٥٦]: فقال في ذلك عبد الله بن رواحة أو أبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف. قال ابن هشام هي لأبي خيثمة:

أتاني الذي لا يقدر الناس قدره　　لزينب فيهم من عقوق ومأثم
وإخراجها لم يخز فيها محمد　　على مأقط وبيننا عطر منشم
وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم　　ومن حربنا في رغم أنف ومندم
قرنا ابنه عمراً ومولى يمينه　　بذي حلق جلد الصلاصل محكم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب　　سراة خميس من لهام مسوم
نروع قريش الكفر حتى نعلُّها　　بخاطمة فوق الأنوف بميسم
ننزلهم أكناف نجد ونخلة　　وإن يُتْهموا بالخيل والرجل نتهم
يد الدهر حتى لا يعوج سربنا　　ونلحقهم آثار عاد وجرهم
ويندم قوم لم يطيعوا محمدا　　على أمرهم وأي حين تندم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته　　لئن أنت لم تخلص سجود وتسلم
فأبشر بخزي في الحياة معجل　　وسربال قار خالداً في جهنم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٦/١]: ومولى يمين أبي سفيان الذي عناه الشاعر هو عامر بن الحضرمي.

وقال ابن هشام [السيرة: ٦٥٦/١]: إنما هو عقبة بن عبد الحارث بن الحضرمي فأما عامر بن الحضرمي فإنه قتل يوم بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٧/١]: وقد حدثني يزيد بن أبي حبيب عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن سليمان بن يسار عن أبي إسحاق الدوسي عن أبي هريرة. قال: بعث النبي ﷺ سرية أنا فيها فقال: «إن ظفرتم بهبار بن الأسود والرجل الذي سبق معه إلى زينب فحرقوهما

بالنار» فلما كان الغد بعث إلينا فقال: «إني قد كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يحرق بالنار إلا الله عز وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما» تفرد به ابن إسحاق وهو على شرط السنن ولم يخرجوه.

وقال البخاري [٣٠١٦]: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن بكير عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة أنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار» ثم قال حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وأن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموها فاقتلوهما».

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٥٧/١، ٦٥٨] أن أبا العاص أقام بمكة على كفره واستمرت زينب عند أبيها بالمدينة حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش، فلما قفل من الشام لقيته سرية فأخذوا ما معه وأعجزهم هرباً وجاء تحت الليل إلى زوجته زينب فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح وكبر وكبر الناس صرخت من صُفَّة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع فلما سلم رسول الله ﷺ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم الذي سمعت؟» قالوا: نعم! قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم وإنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته زينب فقال «أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له».

قال: وبعث رسول الله ﷺ فحثهم على رد ما كان معه فردوه بأسره لا يفقد منه شيئاً فأخذه أبو العاص فرجع به إلى مكة فأعطى كل إنسان ما كان له ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لافجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني عن الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٦٥٨/١، ٦٥٩] فحدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: رد عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول ولم يحدث شيئا.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد [٢١٧١] وأبو داود [٢٢٤٠] والترمذي [١١٤٣] وابن ماجه [٢٠٠٩] من حديث محمد بن إسحاق، وقال الترمذي: ليس بإسناده بأس ولكن لانعرف وجه هذا الحديث ولعله قد جاء من قبل حفظ داود بن الحصين.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٢٠٠/٥]: لم يقل به أحد من الفقهاء فيما علمت.

وفي لفظ «ردها عليه رسول الله ﷺ بعد ست سنين» [أحمد: ٢٦١/١، د (٢٢٤٠)، ت (١١٤٣)].

وفي رواية «بعد سنتين بالنكاح الأول» [أحمد: ٣٥١/١، د (٢٢٤٠)، ج (٢٠٠٩)].

رواه ابن جرير [تاريخه: ٤٧٢/٢].

وفي رواية «لم يحدث نكاحاً [ت (١١٤٣)].

وهذا الحديث قد أشكل على كثير من العلماء فإن القاعدة عندهم أن المرأة إذا أسلمت وزوجها كافر فإن كان قبل الدخول تُعجَّلت الفرقة وإن كان بعده انتُظِر إلى انقضاء العدة فإن أسلم فيها استمر على نكاحها وإن انقضت ولم يسلم انفسخ نكاحها وزينب رضي الله عنها أسلمت حين بعث رسول الله ﷺ وهاجرت بعد بدر بشهر وحرم المسلمات على المشركين عام الحديبية سنة ست، وأسلم أبو العاص قبل الفتح سنة ثمان.

فمن قال: ردها عليه بعد ست سنين أي من حين هجرتها فهو صحيح.

ومن قال بعد سنتين أي حين حرمت المسلمات على المشركين فهو صحيح أيضا.

وعلى كل تقدير فالظاهر انقضاء عدتها في هذه المدة التي أقلها ستان من حين التحريم أو قريب منها فكيف ردها عليه بالنكاح الأول؟.

فقال قائلون: يحتمل أن عدتها لم تنقض وهذه قصة عين يتطرق إليها الاحتمال.

وعارض آخرون هذا الحديث بالحديث الأول الذي رواه أحمد [٢٠٧/٢، ٢٠٨] والترمذي [١١٤٢] وابن ماجه [٢٠١٠] من حديث الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ رد بنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد.

قال الإمام أحمد: هذا حديث ضعيف واهٍ ولم يسمعه الحجاج من عمرو بن شعيب إنما سمعه من محمد بن عبيد الله العرزمي والعرزمي لا يساوي حديثه شيئا والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول.

وهكذا قال الدارقطني [السنن: ٢٥٣/٣، ٢٥٤]: لا يثبت هذا الحديث والصواب حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ: ردها بالنكاح الأول.

وقال الترمذي: هذا حديث في إسناده مقال والعمل عليه عند أهل العلم أن المرأة إذا أسلمت قبل زوجها ثم أسلم زوجها أنه أحق بها ما كانت في العدة وهو قول مالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق.

وقال آخرون: بل الظاهر انقضاء عدتها، ومن روى أنه جدد لها نكاحاً فضعيف، ففي قضية زينب والحالة هذه دليل على أن المرأة إذا أسلمت وتأخر إسلام زوجها حتى انقضت عدتها، فنكاحها لا ينفسخ بمجرد ذلك، بل تبقى بالخيار، إن شاءت تزوجت غيره، وإن شاءت تربصت وانتظرت إسلام زوجها، أي وقت كان، وهي امرأته ما لم تتزوج.

وهذا القول فيه قوة وله حظ من جهة الفقه والله أعلم.

ويستشهد لذلك بما ذكره البخاري [٥٢٨٦] حيث قال: نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن:

حدثنا إبراهيم بن موسى، ثنا هشام عن ابن جريج، وقال: عن عطاء: عن ابن عباس: كان المشركون على منزلتين من رسول الله ﷺ والمؤمنين، كانو مشركي أهل حرب يقاتلونهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد لا يقاتلهم ولا يقاتلونه، فكان إذا هاجرت امرأة من أهل الحرب لم تخطب حتى تحيض وتطهر، فإذا طهرت حل لها النكاح، فإن هاجر زوجها قبل أن تنكح ردت إليه، وإن هاجر عبد منهم أو أمة فهما حران، ولهما ما للمهاجرين، ثم ذكر من أهل العهد مثل حديث مجاهد.

هذا لفظه بحروفه.

فقوله «فكان إذا هاجرت امرأة من اهل الحرب لم تخطب حتى تحيض وتطهر» يقتضي أنها كانت تستبرئ بحيضة، لا تعتد بثلاثة قروء، وقد ذهب قوم إلى هذا.

وقوله: «فإن هاجر زوجها قبل أن تنكح ردت إليه» يقتضي أنه وإن

هاجر بعد انقضاء مدة الاستبراء والعدة، أنها ترد إلى زوجها الأول ما لم تنكح زوجا غيره، كما هو الظاهر من قصة زينب بنت النبي ﷺ، وكما ذهب إليه من ذهب من العلماء والله أعلم.

سنة ٢- الأشعار في غزوة بدر العظمى

فمن ذلك ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٨، ٩] عن حمزة بن عبد المطلب وأنكرها ابن هشام:

ألم ترى أمراً كان من عجب الدهر … وللحين أسباب مبينة الأمر
وما ذاك إلا أن قوماً أفادهم … فخانوا تواص بالعقوق وبالكفر
عشية راحوا نحو بدر بجمعهم … فكانوا رهوناً للركية من بدر
وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها … فساروا إلينا فالتقينا على قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية … لنا غير طعن بالمثقفة السمر
وضرب ببيض يختلي الهام حدُّها … مشهرة الألوان بينة الأثر
ونحن تركنا عتبة الغي ثاويا … وشيبة في قتلى تجرجم في الجفر
وعمروٌ وثوى فيمن ثوى من حماتهم … فشقت جيوب النائحات على عمرو
جيوب نساء من لؤي بن غالب … كرام تَفَرَّعْنَ الذوائب من فهر
أولئك قوم قتلوا في ضلالهم … وخلوا لواء غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله … فخاس بهم، إن الخبيث إلى غدر
وقال لهم، إذ عاين الأمر واضحا … برئت إليكم ما بي اليوم من صبر
فإني أرى ما لا ترون، وإنني … أخاف عقاب الله والله ذو قسر
فقدمهم للحين حتى تورطوا … وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر
فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا … ثلاث مئين كالمسدمة الزهر
وفينا جنود الله حين يمدنا … بهم في مقام ثم مستوضح الذكر
فشد بهم جبريل تحت لوائنا … لدى مأزق فيه مناياهم تجري

وقد ذكر ابن إسحاق جوابها من الحارث بن هشام أخي أبي جهل عمرو بن هشام، تركناها عمداً. وقال علي بن أبي طالب وأنكرها ابن هشام: [السيرة: ١/١٠، ١١]

ألم تر أن الله أبلى رسوله … بلاء عزيز ذي اقتدار وذي فضل
بما أنزل الكفار دار مذلة … فلاقوا هواناً من إسار ومن قتل
فأمسى رسول الله قد عز نصره … وكان رسول الله أرسل بالعدل
فجاء بفرقان من الله منزل … مبينة آياته لذوي العقل
فآمن أقوام بذاك وأيقنوا … فأمسوا بحمد الله مجتمعي الشمل
وأنكر أقوام فزاغت قلوبهم … فزادهم ذو العرش خبلا على خبل
وأمكن منهم يوم بدر رسوله … وقوما غضابا فعلهم أحسن الفعل
بأيديهم بيض خفاف عصوا بها … وقد حادثوها بالجلاء وبالصقل
فكم تركوا من ناشئ ذي حمية … صريعا ومن ذي نجدة منهم كهل
تبيت عيون النائحات عليهم … تجود بإسبال الرشاش وبالوبل
نوائح تنعى عتبة الغي وابنه … وشيبة تنعاه وتنعى أبا جهل
وذا الرجل تنعى وابن جدعان فيهم … مسلبة حرّى مبينة الثكل
ثوى منهم في بئر بدر عصابة … ذوو نجدات في الحروب وفي المحل
دعا الغي منهم من دعا فأجابه … وللغي أسباب مرمقة الوصل
فأضحوا لدى دار الجحيم بمعزل … عن الشغب والعدوان في أسفل السفل

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٢، ١٣] نقيضها من الحارث بن هشام أيضا تركناها قصدا، وقال كعب بن مالك: [سيرة ابن هشام: ٢/١٤، ١٥]

عجبت لأمر الله والله قادر … على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا … بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم … من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا … بأجمعها كعب جميعا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله … له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه … يمشون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد … لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره … وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها … مقابيس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا … وكان يلاقي الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعا لوجهه … وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرت في الوغى … وما منهما إلا بذي العرش كافر
فأمسوا وقود النار في مستقرها … وكل كفور في جهنم صائر
تلظى عليهم وهي قد شب حميها … بزبر الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا … فولوا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به … وليس لأمر حَمَّه الله زاجر

وقال كعب في يوم بدر: [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥]

ألا هل أتى غسان في نأي دارها … وأخبر شيء بالأمور عليمها
بأن قد رمتنا عن قسي عداوة … معد معاً جهالها وحليمها
لأنا عبدنا الله لم نرج غيره … رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها
نبي له في قومه إرث عزة … وأعراق صدق هذبتها أرومها
فساروا وسرنا فالتقينا كأننا … أسود لقاء لا يرجى كليمها
ضربناهم حتى هوى في مَكَرِّنا … لمنخر سوء من لؤي عظيمها
فولوا ودسناهم ببيض صوارم … سواء علينا حلفها وصميمها

وقال كعب أيضاً: [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥، ٢٦]

لعمرو أبيكما يا ابني لؤي … على زهو لديكم وانتخاء
لما حامت فوارسكم ببدر … ولا صبروا به عند اللقاء
وردناه بنور الله يجلو … دجى الظلماء عنا والغطاء
رسول الله يقدمنا بأمر … من أمر الله أحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدر … وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب … جياد الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روح القدس فيها … وميكال فيا طيب الملاء

وقال حسان بن ثابت: قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٠]، ويقال: هي لعبد

اللّه بن الحارث السهمي:

مستشعري حلق الماذي يقدمهم ... جلد النحيزة ماض غير رعديد
أعني رسول إله الخلق فضّله ... على البرية بالتقوى وبالجود
وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم ... وماء بدر زعمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نسمع لقولكم ... حتى شربنا رَوَاءً غير تصريد
مستعصمين بحبل غير منجذم ... مستحكم من حبال اللّه ممدود
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه ... حتى الممات ونصر غير محدود
واف وماض شهاب يستضاء به ... بدر أنار على كل الأماجيد

وقال حسان بن ثابت أيضاً: [سيرة ابن هشام: ٢/٢١، ٢٢]

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة ... إبارتنا الكفار في ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
قتلنا أبا جهل وعتبة قبله ... وشيبة يكبو لليدين وللنحر
قتلنا سويدا، ثم عتبة بعده ... وطعمة أيضا عند ثائرة القتر
فكم قد قتلنا من كريم مرزأً ... له حسب في قومه نابه الذكر
تركناهمُ للعاويات ينبنهم ... ويصلون نارا بعد حامية القعر
لعمرك ما حامت فوارس مالك ... وأشياعهم يوم التقينا على بدر

وقال عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في يوم بدر في قطع رجله في مبارزته هو وحمزة وعلي، مع عتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأنكرها ابن هشام: [السيرة: ٢/٢٣، ٢٤]

ستبلغ عنا أهل مكة وقعة ... يهب لها من كان عن ذاك نائيا
بعتبة إذ ولى وشيبة بعده ... وما كان فيها بكر عتبة راضيا
فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم ... أرجي بها عيشا من اللّه دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت ... من الجنة العليا لمن كان عاليا
وبعت بها عيشا تعرفت صفوه ... وعاجلته حتى فقدت الأدانيا
فأكرمني الرحمن من فضل منّه ... بثوب من الإسلام غطى المساويا
وماكان مكروها إلي قتالهم ... غداة دعا الأكفاء من كان داعيا
ولم يبغ إذ سالوا النبي سواءنا ... ثلاثتنا حتى حضرنا المناديا
لقيناهم كالأسد تخطر بالقنا ... نقاتل في الرحمن من كان عاصيا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ... ثلاثتنا حتى أزيروا المنائيا

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٦، ١٨]: وقال حسان بن ثابت أيضاً يذم الحارث بن هشام على فراره يوم بدر وتركه قومه لا يقاتل دونهم:

تبلت فؤادك في المنام خريدة ... تشفي الضجيع ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام
نُفُجُ الحقيبة بَوْصُها متنضد ... بلهاء غير وشيكة الأقسام
بنيت على قطن أجمّ كأنه ... فُضُلا إذا قعدت مداك رخام
وتكاد تكسل أن تجيء فراشها ... في جسم خرعبة وحسن قوام
أما النهار فلا أفتّر أذكرها ... والليل توزعني بها أحلامي
أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيب في الضريح عظامي
بل من لعاذلة تلوم سفاهة ... ولقد عصيتُ على الهوى لُوّامي
بكرت عليّ بسحرةٍ بعد الكرى ... وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرءَ يكرب عمره ... عَدَمٌ لمعتكر من الأصرام
إن كنت كاذبةَ الذي حدّثتني ... فنجوتُ منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبةَ أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرّة ولجام
تذر العناجيج الجياد ... بقفرة مرّ الدّموك بمحصدٍ ورجام
ملأت به الفرجين فارمدّت ... به وثوى أحبته بشرّ مقام
وبنو أبيه ورهطُه في معركٍ ... نَصَرَ الإلهُ به ذوي الإسلام
طحنتهمُ واللّه ينفذُ أمره ... حرب يَشب سعيرُها بضرام
لولا الإله وجريها لتركنَهُ ... جَزَرَ السباع ودُسنه بحوام
من بين مأسور يُشدّ وثاقه ... صقرٌ إذا لاقى الأسنة حام
ومجدّل لا يستجيبُ لدعوةٍ ... حتى تزولَ شوامخُ الأعلام
بالعار والذل المبين إذا رأى ... بيضَ السيوف تسوقُ كلَّ همام
بيدي أغرُّ إذا انتمى لم يُخزه ... نَسبُ القِصار سُمَيْدع مقدام
بيض إذا لاقت حديداً صمّمت ... كالبرق تحت ظلال كل غمام

قال ابن هشام: تركنا في آخرها ثلاث أبيات أقذع فيها.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/١٨]: فأجابه الحارث بن هشام أخو أبي جهل عمرو بن هشام فقال:

القوم أعلم ما تركتُ قتالَهم ... حتى حبوا مهري بأشقرَ مُزبد
وعرفتُ أني إن أقاتل واحداً ... أقتل ولا يَنكى عدوّي مَشهدي
فصددتُ عنهم والأحبّةُ فيهمُ ... طَمَعاً لهم بعقاب يوم مفسد

وقال حسان أيضاً: [السيرة: ٢/١٩، ٢٠]

يا حارِ قد عوّلتَ غيرَ معوّل ... عند الهياج وساعةَ الأحساب
إذ تمتطي سُرُحَ اليدين نجيبةً ... مرطي الجِراء طويلة الأقراب
والقومُ خلفك قد تركتَ قتالَهم ... ترجو النّجاء وليس حينَ ذهاب
ألا عطفتَ على ابن أمك إذ ثوى ... قَعْصَ الأسنّة ضائعَ الأسلاب
عَجِلَ المليكُ له فأهلكَ جمعَهُ ... بشنارِ مُخزيةٍ وسوء عذاب

وقال حسان أيضاً: [السيرة: ٢/١٩]

لقد علمتْ قريشٌ يومَ بدرٍ ... غداةَ الأسرِ والقتلِ الشديد
بأنّا حينَ تشتجرُ العوالي ... حماةُ الحربِ يومَ أبي الوليد
قتلنا ابنَي ربيعةَ يومَ سارا ... إلينا في مضاعفةِ الحديد
وفرّ بها حكيمٌ يومَ جالتْ ... بنو النجّار تخطُرُ كالأسود
وولّتْ عندَ ذاك جموعُ فِهْرٍ ... وأسلمَها الحويرثُ من بعيد
لقد لاقيتمُ ذلا وقتلا ... جَهيزاً نافذاً تحت الوريد
وكلُّ القوم قد ولّوا جميعاً ... ولم يَلْووا على الحَسَبِ التليد

وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب ترثي عبيدة بن الحارث بن المطلب: [السيرة: ١/٤١، ٤٢]

لقد ضمّن الصفراءُ مجداً وسُؤدداً ... وحلماً أصيلا وافرَ اللبِّ والعقل
عُبيدةَ فابكيه لأضيافِ غُربةٍ ... وأرملةٍ تهوي لأشعثَ كالجذل

وبكِّيه للأقوام في كل شتوةٍ إذا احمرَّ آفاقُ السماء من المحل
وبكِّيه للأيتام والريحُ زفزفٌ وتشبيبُ قِدرٍ طالما أزبدتْ تغلي
فإن تصبح النيرانُ قد ماتَ ضَوْؤها فقد كان يذكيهنَّ بالحَطَب الجزل
لطارقِ ليلٍ أو لملتمسِ القِرى ومستنبحٍ أضحى لديه على رِسْلِ

وقال الأموي في مغازيه: حدثني سعيد بن قطن قال: قالت عاتكة بنت عبد المطلب في رؤياها التي رأت وتذكر بدراً:

ألَمَّا تكنْ رؤياي حقاً ويأتِكم بتأويلها فلٌّ من القوم هاربُ
رأى فأتاكم باليقين الذي رأى بعينيه ما تفري السيوف القواضب
فقلتم ولم أكذبْ كذبتِ وإنما يكذِّبني بالصِّدق من هو كاذب
وما جاء إلا رهبةَ الموت هاربا حكيمٌ وقد أعيت عليه المذاهب
أقامت سيوفُ الهند دون رؤوسكم وخطِّيةٌ فيها الشَّبا والثعالبُ
كأنَّ حريقَ النار لَمعَ ظُباتها إذا ما تعاطتها الليوثُ المشاغب
ألا بأبي يومَ اللقاء محمداً إذا عضَّ من عُون الحروبِ الغوارب
مَرَى بالسيوف المرهَفات نفوسَكم كفاحاً كما تمري السحابَ الجنائبُ
فكم بردت أسيافُه من مليكةٍ وزُعزِعَ وِردٌ بعد ذلك صالب
فما بال قتلى في القليب ومثلهم لدى ابن أخي أسرى له ما تضارب
فكانوا نساءً أم أتى لنفوسهم من اللّه حَيْنٌ ساق والحَيْن حالب
فكيف رأى عند اللقاء محمداً بنو عمه والحربُ فيها التجارب
ألم يَغْشَكم ضرباً يحارُ لوقعه الجبانُ وتبدو بالنهار الكواكب
حلفتُ لئن عادوا لَنَصْطَليِنَّهم بحاراً تردى مجربتها المقانب
كأنَّ ضياءَ الشمس لَمْعُ ظُباتها لها من شعاع النور قَرْنٌ وحاجب

وقالت عاتكة أيضا فيما نقله الأموي:

هلا صبرتمْ للنبي محمدٍ ببدرٍ ومن يغشى الوغى حقُّ صابرِ
ولم ترجعوا عن مرهَفات كأنها حريقٌ بأيدي المؤمنين بواتر
ولم تصبروا للبيض حتى أخذتمْ قليلا بأيدي المؤمنين المساعر
ووليتموا نفراً وما البطلُ الذي يقاتلُ مِن وقْع السلاح بنافر
أتاكم بما جاء النبيون قبله وما ابنُ أخي البَرُّ الصدوق بشاعر
سيكفي الذي ضيَّعتمُ من نبيكم وينصرُهُ الحيَّان عمرو وعامر

وقال طالب بن أبي طالب يمدح رسول الله ﷺ ويرثي أصحاب القليب من قريش الذين قتلوا يومئذ من قومه وهو بعد على دين قومه إذ ذاك: [السيرة: ٢/٢٦، ٢٧]

ألا إن عيني أنفدت دمعَها سَكْبا تبكِّي على كعب وما إن ترى كعبا
ألا إن كعباً في الحروب تخاذلوا وأرداهمُ ذا الدهرُ واجترحوا ذنبا
وعامرُ تبكي للملمَّات غدوةً فياليتَ شعري هل أرى لهمُ قُربا
فيا أخوينا عبدَ شمسٍ ونوفلا فِدًا لكُما لا تبعثوا بيننا حربا
ولا تُصبحوا من بعد ودٍّ وألفة أحاديثَ فيها كلّكم يشتكي النَّكبا
ألم تعلموا ما كان في حرب داحسٍ وحرب أبي يكسومَ إذ ملؤوا الشِّعبا
فلولا دفاعُ اللّه لا شيء غيره لأصبحتمُ لا تمنعون لكم سِرْبا
فما إن جَنينا في قريش عظيمةً سوى أن حَمَينا خيرَ من وطِئ التربا

أخا ثقةٍ في النائباتِ مُرَزَّءاً كريماً نثاهُ لا بخيلا ولا ذَرِبا
يُطيفُ به العافُون يَغشَونَ بابه يؤمّون نهراً لا نَزُوراً ولا صربا
فواللّه لا تنفك نفسي حزينةً تململ حتى تصدقوا الخزرج الضربا

سنة ٢- المشركون يرثون قتلاهم

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢/٢ ـ ١٦ و٢٧ ـ ٤٣] أشعاراً من جهة المشركين قوية الصنعة يرثون بها قتلاهم يوم بدر فمن ذلك قول ضرار بن الخطاب بن مرداس أخي بني محارب بن فهر وقد أسلم بعد ذلك، والسهيلي في روضه [٣٦٨/٥، ٣٤٧ ـ ٣٨٨] يتكلم على أشعار من أسلم منهم بعد ذلك:

عجبتُ لفخر الأوسِ والحَيْنُ دائر عليهم غداً والدهرُ فيه بصائر
وفخرِ بني النجَّار إن كان معشرٌ أصيبوا ببدرٍ كلّهم ثَمَّ صائر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإنا رجالاً بعدهم سنغادر
وتردي بنا الجرد العناجيج وسطكم بني الأوس حتى يشفي النفس ثائر
ووسطَ بني النجار سوف نَكرُّها لها بالقنا والدارعين زوافر
فنترك صرعى تعصب الطير حولهم وليس لهم إلا الأماني ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا بهن دم ممن يحاربن مائر
فإن تظفروا في يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنَّفرِ الأخيار هم أولياؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر
يُعَدُّ أبو بكر وحمزة فيهم ويدعى علي وسط من أنت ذاكر
أولئك لا مَن نتَّجت في ديارها بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤي بن غالب إذا عُدِّدت الأنساب كعب وعامر
هم الطاعنون الخيل في كل معرك غداة الهياج الأطيبون الأكاثر

فأجابه كعب بن مالك بقصيدته التي أسلفناها وهي قوله:

عجبتُ لأمرِ اللّه واللّهُ قادر على ما أرادَ ليسَ للّه قاهر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٩/٢]: وقال أبو بكر واسمه شداد بن الأسود بن شعوب

قلت: وقد ذكر البخاري [٣٩٢١] أنه خلف على امرأة أبي بكر الصديق حين طلقها الصديق وذلك لما حرم اللّه المشركات على المسلمين واسمها أم بكر:

تحيي بالسلامةِ أمُّ بكرٍ وهل لي بعد قومي من سلام
فماذا بالقليب قليبِ بدرٍ من القَيْنات والشُّربِ الكرام
وماذا بالقليب قليب بدرٍ من الشِّيزى تكلَّلُ بالسنام
وكم لك بالطوي طوي بدرٍ من الحومات والنَّعَم المُسام
وكم لك بالطوي طوي بدرٍ من الغايات والدسع العظام
وأصحابِ الكريم أبي علي أخي الكأس الكريمة والنِّدام
وإنك لو رأيت أبا عقيل وأصحابَ الثنيَّةِ من نعام
إذاً لظللتَ من وجدٍ عليهم كأمِّ السَّقب جائلةَ المَرام

يخبرنا الرسول لسوف نحيا ... وكيف حياةُ أصداء وهام؟

قلت: وقد أورد البخاري بعضها في صحيحه [٣٩٢١] ليعرف به حال قائلها. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠ - ٣٢]: وقال أمية بن أبي الصلت يرثي من قتل من قريش يوم بدر:

ألا بكيتِ على الكرام ... بني الكرام أولي الممادحْ
كبكا الحمام على فروع ... الأيك في الغُصُن الجوانحْ
يبكين حَرّاً مستكيناتٍ ... يَرُحْنَ مع الروائحْ
أمثالُهنّ الباكياتُ ... المعولاتُ من النوائحْ
مَن يبكهم يبكي على ... حُزْنٍ ويصدُقْ كلُّ مادحْ
ماذا ببدر والعقنقلِ ... من مَرازبة جحاجحْ
فمدافع البرقين فالحنّان ... من طَرَفِ الأواشحْ
شُمْطٍ وشُبّانٍ بَهَا ... ليلٍ مغاويرٍ وحاوحْ
ألا ترون لِمَا أرى ... ولقد أبان لكل لامحْ
أنْ قد تغيّر بطنُ مكة ... فهي موحشةُ الأباطحْ
من كل بِطْريقٍ لبطريقٍ ... نقي الودّ واضحْ
دُعْموصِ أبوابِ الملوكِ ... وجائبٍ للخرق فاتحْ
ومن السّراطمة الخلاجمة ... الملاوثة المناجحْ
القائلين الفاعلـ ... ـين الآمرين بكل صالحْ
المطعمين الشحمَ فوقَ الخبز ... شحماً كالأنافحْ
نُقُلَ الجفان مع الجفا ... ن إلى جفان كالمناضحْ
ليست بأصفار لمن ... يعفو ولا رُحٍّ رحارحْ
للضيف ثم الضيف بعد ... الضيف والبُسُط السلاطحْ
وُهُبِ المئين من المئين ... إلى المئين من اللواقحْ
سوق المؤبّل ... للمؤبل صادراتٍ عن بلادحْ
لكرامهم فوق الكرا ... م مزيّةً وزنَ الرواجحْ
كمثاقل الأرطال بالـ ... ـقسطاس بالأيدي الموائحْ
خذلتهمُ فئة وهم يحمـ ... ـون عورات الفضائحْ
الضاربين التقدميّـ ... ـة بالمهنّدة الصفائحْ
ولقد عناني صوتهم ... من بين مستسقٍ وصائحْ
للّه درّ بني عليّ ... أيّمٍ منهم وناكحْ
إن لم يُغيروا غارة ... شعواءَ تجحر كل نابحْ
بالمقربات المبعدات ... الطامحات مع الطوامحْ
مُرداً على جرد إلى ... أُسْدٍ مكالبةٍ كوالحْ
ويُلاقِ قِرنٌ قرنه ... مَشْيَ المُصافح للمصافحْ
بزهاء ألف ثم ... ألفٍ بين ذي بدن ورامحْ

قال ابن هشام: تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ.

قلت: هذا شعر المخذول المعكوس المنكوس الذي حمله كثرة جهله وقلة عقله على أن مدح المشركين وذم المؤمنين واستوحش بمكة من أبي جهل بن هشام وأضرابه من الكفرة اللئام والجهلة الطغام ولم يستوحش بها من عبد الله ورسوله وحبيبه وخليله فخر البشر ومن وجهه أنور من القمر ذي العلم الأكمل والعقل الأشمل ومن صاحبه الصديق المبادر إلى التصديق والسابق إلى الخيرات وفعل المكرمات وبذل الألوف والمئات في طاعة رب الأرض والسموات وكذلك بقية أصحابه الغر الكرام الذين هاجروا من دار الكفر والجهل إلى دار العلم والإسلام رضي الله عن جميعهم ما اختلط الضياء والظلام. وما تعاقبت الليالي والأيام. وقد تركنا أشعاراً كثيرة أوردها ابن إسحاق رحمه الله خوف الإطالة وخشية الملالة وفيما أوردنا كفاية ولله الحمد والمنة.

وقد قال الأموي في مغازيه: سمعت أبي حدثنا سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ عفا عن شعر الجاهلية. قال سليمان فذكر ذلك الزهري فقال: عفا عنه إلا قصيدتين؛ كلمة أمية التي ذكر فيها أهل بدر، وكلمة الأعشى التي يذكر فيها الأحوص. وهذا حديث غريب وسليمان بن ارقم هذا متروك والله أعلم.

سنة ٢- غزوة بني سليم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩٠]: وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر في عقب شهر رمضان - أو في شوال - ولما قدم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/ ٤٣]: واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري - أو ابن أم مكتوم الأعمى -.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٣]: فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى في إقامته تلك جل الأسارى من قريش.

سنة ٢- غزوة السويق

قال السهيلي [الروض الأنف: ٥/ ٤٠٤]: والقرقرة: الأرض الملساء، والكُدر: طير في ألوانها كدرة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩١]: وكان أبو سفيان كما حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ويزيد بن رومان ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان من أعلم الأنصار - حين رجع إلى مكة ورجع فل قريش من بدر نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب من قريش لتبر يمينه فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس.

ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها: العريض فحرقوا في أصوار من نخل بها ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لهما فقتلوهما وانصرفوا راجعين، فنذر بهم الناس فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/ ٤٥]: واستعمل على المدينة أبا لبابة بشير

بن عبد المنذر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩١، ٢٩٢]: فبلغ قرقرة الكدر ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ووجد أصحاب رسول الله ﷺ أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخففون منها وعامتها سويق، فسميت غزوة السويق. قال المسلمون: يا رسول الله أنطمع أن تكون هذه لنا غزوة؟ قال نعم. قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩٢]: وقال أبو سفيان فيما كان من أمره هذا ويمدح سلام بن مشكم اليهودي:

وإني تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم

سقاني فرواني كميتا مدامةً ... على عجل مني سلام بن مشكم

ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لأفرحه أبشر بغزو ومغنم

تأمل فإن القوم سر وإنهم ... صريح لؤي لا شماطيط جرهم

وما كان إلا بعض ليلة راكب ... أتى ساعيا من غير خلة معدم

سنة ٢- زواج علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنهما

وذلك في سنة ثنتين بعد وقعة بدر لما رواه البخاري [٤٠٠٣] ومسلم [١٩٧٩] من طريق الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني شارفاً مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ فلما أردت أن ابتني فاطمة بنت النبي ﷺ واعدت رجلا صوّاغا من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر فأردت أن أبيعه من الصواغين فأستعين به في وليمة عرسي فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال وشارفاي مناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتهما وبقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأت المنظر فقلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب وهو في هذا البيت وهو في شَرْب من الأنصار وعنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزُ للشُرُفِ النِّواءِ

فوثب حمزة إلى السيف فأجب أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي ﷺ وعنده زيد بن حارثة فعرف النبي ﷺ الذي لقيت فقال: «مالك؟» فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم عدا حمزة على ناقتي فأجب أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا في البيت معه شرب فدعا النبي ﷺ بردائه فارتداه ثم انطلق يمشي واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة فاستأذن عليه فأذن له فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ ثم صعّد النظر فنظر إلى ركبتيه ثم صعّد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيداً لأبي. فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى فخرج وخرجنا معه.

هذا لفظ البخاري في كتاب المغازي.

وقد رواه في أماكن أخر من صحيحه [٢٠٨٩، ٢٣٧٥، ٣٠٩١، ٥٧٩٣] بألفاظ كثيرة.

وفي هذا دليل على ما قدمناه من أن غنائم بدر قد خمست لا كما زعمه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال [ص٣٨٤] من أن الخمس إنما نزل بعد قسمتها وقد خالفه في ذلك جماعة منهم البخاري وابن جرير وبينا غلطه في ذلك في التفسير [٥٤٩/٣ - ٥٥١] وفيما تقدم والله أعلم.

وكان هذا الصنع من حمزة وأصحابه رضي الله عنهم قبل أن تحرم الخمر بل قد قتل حمزة يوم أحد كما سيأتي وذلك قبل تحريم الخمر والله أعلم.

وقد يستدل بهذا الحديث من يرى أن عبارة السكران مسلوبة لا تأثير لها لا في طلاق ولا إقرار ولا غير ذلك كما ذهب إليه من ذهب من العلماء كما هو مقرر في كتاب الأحكام.

وقال الإمام أحمد [٨٠/١]: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن أبيه عن رجل سمع علياً يقول: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فقلت: ما لي من شيء فكيف؟ ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه فقال: «هل لك من شيء؟» قلت: لا قال: «فأين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟» قال: هي عندي قال «فأعطنيها» قال: فأعطيتها إياه.

هكذا رواه أحمد في مسنده وفيه رجل مبهم.

وقد قال أبو داود [٢١٢٥]: حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني حدثنا عبدة حدثنا سعيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما تزوج علي فاطمة رضي الله عنهما قال له رسول الله ﷺ «أعطها شيئا» قال: ما عندي شيء. قال: «أين درعك الحُطمية؟».

ورواه النسائي [٣٣٧٦]: عن هارون بن إسحاق عن عبدة بن سليمان عن سعيد بن أبي عروبة عن أيوب السختياني به.

وقال أبو داود [٢١٢٦]: حدثنا كثير بن عبيد الحمصي حدثنا أبو حيوة عن شعيب بن أبي حمزة حدثني غيلان بن أنس من أهل حمص حدثني محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن عليا لما تزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ أراد أن يدخل بها فمنعه رسول الله ﷺ حتى يعطيها شيئا فقال: يا رسول الله ليس لي شيء فقال له النبي ﷺ «أعطها درعك» فأعطاها درعه ثم دخل بها.

وقال البيهقي في الدلائل [١٦٠/٣]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي قال: خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي هل: علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ قلت: لا، قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك، فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك، قال: فوالله مازلت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله ﷺ «ما جاء بك ألك حاجة؟» فسكت فقال: «ما جاء بك، ألك حاجة؟» فسكتُّ فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟»، فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله فقال: «ما فعلتْ درعٌ سلّحْتُكَها» فوالذي نفس علي بيده إنها لحُطَمية ما قيمتها أربعة دراهم فقلت: عندي. فقال: «قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها»، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٣١]: فولدت فاطمة لعلي حسناً وحسيناً ومحسّناً - مات صغيراً - وأم كلثوم وزينب.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ١٦١/٣] من طريق عطاء بن السائب عن أبيه عن علي قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة أدم حشوها إذخر.

ونقل البيهقي [الدلائل: ١٦٢/٣] عن كتاب المعرفة لأبي عبد الله بن منده أن عليا تزوج فاطمة بعد سنة من الهجرة وابتنى بها بعد ذلك بسنة أخرى.

قلت: فعلى هذا يكون دخوله بها في أوائل السنة الثالثة من الهجرة فظاهر سياق حديث الشارفين يقتضي أن ذلك عقب وقعة بدر بيسير فيكون ذلك كما ذكرناه في أواخر السنة الثانية والله أعلم.

سنة ٢- حوادث أخرى

تقدم ما ذكرناه من تزويجه عليه الصلاة والسلام بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وذكرنا ما سلف من الغزوات المشهورة وقد تضمن ذلك وفيات أعيان من المشاهيرمن المؤمنين والمشركين فكان ممن توفي فيها الشهداء يوم بدر وهم أربعة عشر ما بين مهاجري وأنصاري تقدم تسميتهم، والرؤساء من مشركي قريش وقد كانوا سبعين رجلا على المشهور، وتوفي بعد الوقعة بيسير أبو لهب عبدالعزى بن عبد المطلب لعنه الله كما تقدم.

ولما جاءت البشارة إلى المؤمنين من أهل المدينة مع زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بما أحل الله بالمشركين وبما فتح على المؤمنين وجدوا رقية بنت رسول الله ﷺ قد توفيت وساووا عليها التراب. وكان زوجها عثمان بن عفان قد أقام عندها يمرضها بأمر النبي ﷺ له بذلك. ولهذا ضرب له بسهمه في مغانم بدر وأجره عند الله يوم القيامة، ثم زوجه بأختها الأخرى أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ولهذا كان يقال لعثمان بن عفان ذو النورين ويقال: إنه لم يغلق أحد على ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره رضي الله عنه وأرضاه.

وفيها حولت القبلة كما تقدم وزيد في صلاة الحضر على ما سلف.

وفيها فرض الصيام صيام رمضان كما تقدم.

وفيها فرضت الزكاة ذات النصب وفرضت زكاة الفطر.

وفيها خضع المشركون من أهل المدينة واليهود الذين هم بها من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ويهود بني حارثة وصانعوا المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود وهم في الباطن منافقون منهم من هو على ما كان عليه ومنهم من انحل بالكلية فبقي مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما وصفهم الله في كتابه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٨٦/٢]: وفيها كتب رسول الله ﷺ المعاقل وكانت معلقة بسيفه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٨٥/٢، ٤٨٦] وقيل: إن الحسن بن علي ولد فيها.

قال: وأما الواقدي فإنه زعم أن ابن أبي سبرة حدثه عن إسحاق بن عبد الله عن أبي جعفر أن علي بن أبي طالب بنى بفاطمة في ذي الحجة منها.

قال: فإن كانت هذه الرواية صحيحه فالقول الأول باطل.

سنة ٣- حوادث ووقائع

في أولها كانت غزوة نجد ويقال لها: غزوة ذي أَمَر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩٣]: فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان وهي غزوة ذي أَمَرّ.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٦/٢]: واستعمل على المدينة عثمان بن عفان.

قال ابن إسحاق: فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ثم رجع ولم يلق كيداً.

وقال الواقدي [المغازي: ١٩٤/١ - ١٩٦]: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة بن محارب تجمعوا بذي أَمَرّ يريدون حربه، فخرج إليهم من المدينة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فغاب أحد عشر يوما وكان معه أربعمائة وخمسون رجلا، وهربت منه الأعراب في رؤوس الجبال حتى بلغ ماء يقال له ذو أمرّ فعسكر به وأصابهم مطر كثير فابتلت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجف وذلك بمرأى من المشركين، واشتغل المسلمون في شؤونهم، فبعث المشركون رجلا شجاعا منهم يقال له: غورث بن الحارث أو دعثور بن الحارث فقالوا: قد أمكنك الله من قتل محمد، فذهب ذلك الرجل ومعه سيف صقيل حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: «الله». ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟» قال: لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً. فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، مالك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري فعرفت أنه ملك وشهدت أن محمداً رسول الله والله لا أكثر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام. قال: ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية [سورة المائدة: ١١].

قال البيهقي [الدلائل: ١٦٩/٣]: وسيأتي في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه فلعلهما قصتان.

قلت: إن كانت هذه محفوظة فهي غيرها قطعاً لأن ذلك الرجل اسمه غورث بن الحارث أيضاً لم يسلم بل استمر على دينه ولكن عاهد النبي ﷺ أن لا يقاتله. والله أعلم.

سنة ٣- غزوة الفُرع من بُحران

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٤]: فأقام بالمدينة ربيعاً الأول كله أو إلا قليلا منه ثم غزا يريد قريشاً.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٦/٢]: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق: حتى بلغ بُحران وهو معدن بالحجاز من ناحية الفُرُع فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً.

وقال الواقدي [المغازي: ١٩٧/١]: إنما كانت غيبته عليه السلام عن المدينة عشرة أيام. فالله أعلم

سنة ٣- خبر يهود بني قينقاع من أهل المدينة

وقد زعم الواقدي [المغازي: ١٧٦/١] أنها كانت في يوم السبت النصف من شوال سنة ثنتين من الهجرة فالله أعلم وهم المرادون بقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٥].

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٤]: وقد كان فيما بين ذلك من غزو رسول الله ﷺ أمر بني قينقاع.

قال: وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ جمعهم في سوقهم ثم قال: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم». فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٤]: فحدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة عن ابن عباس قال: ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ [سورة آل عمران: ١٢، ١٣] يعني أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ وقريش ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٢- ١٣].

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٥]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٧/٢، ٤٨]: فذكر عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة عن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٥]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء الخزرج قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه قال: فادخل يده في جيب درع النبي ﷺ.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٩/٢]: وكان يقال لها ذات الفضول فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً ثم قال: «ويحك، أرسلني» قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي: أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «هم لك».

قال ابن هشام [السيرة: ٤٩/٢]: واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة في محاصرته إياهم أبا لبابة بشير بن عبد المنذر وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٥، ٢٩٦]: وحدثني أبي عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان من بني عوف لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

قال: وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة من المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ الآيات حتى قوله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يعني عبد الله بن أبي إلى قوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٦] يعني عبادة بن الصامت. وقد تكلمنا على ذلك في التفسير [١٢٣/٣ ـ ١٣١].

سنة ٣- سرية زيد بن حارثة إلى عير قريش صحبة أبي سفيان

قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: وكانت بعد وقعة بدر بستة أشهر.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٦]: وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان ومعه فضة كثيرة وهي عُظم تجارتهم واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يقال له: فرات بن حيان يعني العجلي حليف بني سهم ليدلهم على تلك الطريق.

قال ابن إسحاق: فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقيهم على ماء يقال له القردة من مياه نجد فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بها على رسول الله ﷺ فقال في ذلك حسان بن ثابت:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك

قال ابن هشام [السيرة: ٥١/٢]: وهذه القصيدة في أبيات لحسان وقد أجابه فيها أبو سفيان بن الحارث.

وقال الواقدي [المغازي: ١٩٧/١]: كان خروج زيد بن حارثة في هذه السرية مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة وكان رئيس هذه العير صفوان بن أمية وكان سبب بعثه زيد بن حارثة أن نعيم بن مسعود قدم المدينة ومعه خبر هذه العير وهو على دين قومه واجتمع بكنانة بن أبي الحقيق في بني النضير ومعهم سليط بن النعمان وكان أسلم فشربوا وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر فتحدث بقضية العير نعيم بن مسعود وخروج صفوان بن أمية فيها وما معه من الأموال فخرج سليط من ساعته فأعلم رسول الله ﷺ فبعث من وقته زيد بن حارثة فلقوهم فأخذوا الأموال وأعجزهم الرجال وإنما أسروا رجلا أو رجلين وقدموا بالعير فخمّسها رسول الله ﷺ فبلغ خمسها عشرين ألفاً وقسم أربعة اخماسها على السرية. وكان فيمن أُسر الدليل فرات بن حيّان فأسلم رضي الله عنه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٩١/٢، ٤٩٢]: وزعم الواقدي أن في ربيع من

هذه السنة تزوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وأدخلت عليه في جمادى الآخرة منها.

سنة ٣- مقتل كعب بن الأشرف اليهودي

وكان من بني طيىء، ثم أحد بني نبهان، ولكن أمه من بني النضير. هكذا ذكره ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٧] قبل جلاء بني النضير.

وذكره البخاري [٤٠٣٧] والبيهقي [الدلائل: ١٨٧/٣] بعد قصة بني النضير، والصحيح ما ذكره ابن إسحاق لما سيأتي، فإن بني النضير إنما كان أمرها بعد وقعة أحد، وفي محاصرتهم حرمت الخمر، كما سنبينه بطريقه إن شاء الله.

قال البخاري في صحيحه [٤٠٣٧]: قتل كعب بن الأشرف: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: فأذن لي أن أقول شيئا، قال: «قل» فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وأنه قد عنانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال: وأيضا والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا قال: نعم، ارهنوني، قلت: أي شي تريد: قال: ارهنوني نساءكم فقالوا: كيف نرهنك نساءنا؟ وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة.

قال سفيان يعني السلاح.

فواعده أن يأتيه ليلا فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ وقال غير عمرو: قالت: أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة. إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين - قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمّى بعضهم. قال عمرو: جاء معه برجلين. وقال غيرُ عمرو: أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشرٍ - قال عمرو: جاء معه برجلين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، وقال مرة: ثم أشمكم فنزل إليه متوشحا، وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحا أي أطيب. وقال غير عمرو: قال: عندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب، قال عمرو: فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه ثم أشمَّ أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه.

وقال محمد بن إسحاق [سيرته: ص٢٩٧]: كان من حديث كعب بن الأشرف، وكان رجلا من طيىء ثم أحد بني نبهان، وأمه من بني النضير أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج إلى مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيره السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر، فذكر ابن إسحاق قصيدته التي أولها:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

وذكر جوابها من حسان بن ثابت رضي الله عنه ومن غيره. ثم عاد إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجو النبي ﷺ وأصحابه.

وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أو فيهم قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء، وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك الله، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه، وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ إنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. قال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً. قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً. أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [سورة النساء: ٥١، ٥٢].

قال موسى ومحمد بن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٩٧]: وقدم المدينة فجعل يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب، ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، وجعل يشبب بأم الفضل بنت الحارث وبغيرها من نساء المسلمين حتى آذاهم.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن إسحاق ص٢٩٧] فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة: «من لي بابن الأشرف؟» فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله، قال: «فافعل إن قدرت على ذلك» قال: فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: «لم تركت الطعام والشراب؟» فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا. قال: «إنما عليك الجهد». قال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا أن نقول، قال: «فقولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك». قال: فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل. وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة. قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب سلكان بن سلامة أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرا وكان أبو نائلة يقول الشعر. ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: أفعل. قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السُّبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك، ونحسن في ذلك، قال: ترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحابا لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم ونحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاؤوا بها. فقال: إن في الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٢٩٨، ٢٩٩]: فحدثني ثور بن زيد عن

عكرمة عن ابن عباس قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: «انطلقوا على اسم الله. اللهم أعنهم» ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائما ما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر. قال: يقول لها كعب: لو دعي الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معه ساعة وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فتحدث به بقية ليلتاهذه؟ قال: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده. فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله! فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا. قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بن معاذ بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا، قال: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس، ونزفه الدم فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٩١/٢]: وزعم الواقدي أنهم جاؤوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧/٢]: وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعا ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلا ... إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور

قال ابن هشام: وهذه الأبيات في قصيدة له في يوم بني النضير ستأتي.

قلت: كان قتل كعب بن الأشرف على يدي الأوس بعد وقعة بدر، ثم إن الخزرج قتلوا أبا رافع بن أبي الحقيق بعد وقعة أحد كما سيأتي بيانه إن شاء الله وبه الثقة.

وقد أورد ابن إسحاق شعر حسان بن ثابت: [سيرة ابن هشام: ٥٧/٢، ٥٨]

لله در عصابة لاقيتهم ... يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحا كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكم حتفا ببيض ذفّف
مستبصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف

قال محمد بن إسحاق [سيرته: ص٣٠٠]: وقال رسول الله ﷺ: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه» فوثب عند ذلك محيصة بن مسعود الأوسي على ابن سنينة. رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم. فقتله، كان أخوه حويصة بن مسعود أسن منه ولم يسلم بعد، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أي عدو الله أقتلته؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله. قال محيصة: فقلت: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، قال: فو الله إن كان لأول إسلام حويصة وقال آو الله لو أمرك محمد بقتلي لتقتلني قال: نعم، والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها. قال: فو الله إن دينا بلغ بك هذا لعجب، فأسلم حويصة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨/٢]: حدثني بهذا الحديث مولى لبني حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها. وقال في ذلك محيصة:

يلوم ابن أم لو أمرت بقتله ... لطبقت ذفراه بأبيض قاضب
حسام كلون الملح أخلص صقله ... متى ما أصوبه فليس بكاذب
وما سرني أني قتلتك طائعا ... وأن لنا ما بين بصرى ومأرب

وحكى ابن هشام [السيرة: ٥٩/٢] عن أبي عبيدة عن أبي عمرو المدني، أن هذه القصة كانت بعد مقتل بني قريظة، فإن المقتول كان كعب بن يهوذا، فلما قتله محيصة عن أمر رسول الله ﷺ يوم بني قريظة، قال له أخوه حويصة ما قال فرد عليه محيصة بما تقدم، فأسلم حويصة يومئذ. فالله أعلم.

تنبيه: ذكر البيهقي والبخاري قبله خبر بني النضير قبل وقعة أحد، والصواب إيرادها بعد ذلك كما ذكر ذلك محمد بن إسحاق وغيره من أئمة المغازي، وبرهانه أن الخمر حرمت ليالي حصار بني النضير، وثبت في الصحيح [٢٨١٥، ٤٠٤٤، ٤٦١٨] أنه اصطبح الخمر جماعة ممن قتل يوم أحد شهيدا، فدل على أن الخمر كانت إذ ذاك حلالاً، وإنما حرمت بعد ذلك، فتبين ما قلناه من أن قصة بني النضير بعد وقعة أحد. والله أعلم.

تنبيه آخر: خبر يهود بني قينقاع بعد وقعة بدر كما تقدم، وكذلك قتل كعب بن الأشرف اليهودي على يدي الأوس، وخبر بني النضير بعد وقعة أحد كما سيأتي، وكذلك مقتل أبي رافع اليهودي تاجر أهل الحجاز على يدي الخزرج على المشهور، وخبر يهود بني قريظة بعد يوم الأحزاب، وقصة الخندق كما سيأتي...

سنة ٣- غزوة أحُد

فائدة: ذكرها المؤلف في تسمية أحد قال: سمي أُحُد أُحُداً لتوحده من بين تلك الجبال.

وفي الصحيح [خ (١٤٨٤)، م (١٣٦٥)] «أحدٌ جبلٌ يحبنا ونُحبه» قيل: معناه أهله وقيل: لأنه كان يبشره بقرب أهله إذا رجع من سفره كما يفعل المحب. وقيل على ظاهره كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وفي الحديث [كشف الأستار (١١٩٩)، والأوسط للطبراني ٦٥٠١] عن أبي عبس بن جبر «أحدٌ يحبنا ونحبه وهو على باب الجنة، وعَيرٌ يُبغِضُنا ونُبغِضُه وهو على باب من أبواب النار».

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٤٩/٥] مقوياً لهذا الحديث وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال: «المرء مع من أحب» [خ (٦١٦٨)، م (٢٦٤٠)].

وهذا من غريب صنع السهيلي فإن هذا الحديث إنما يراد به الناس ولا

يسمى الجبل امرأ، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ثلاث.

قاله الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق ومالك.

قال ابن إسحاق: للنصف من شوال.

وقال قتادة: يوم السبت الحادي عشر منه.

قال مالك: وكانت الوقعة في أول النهار وهي على المشهور التي أنزل الله فيها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ الآيات وما بعدها إلى قوله: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١ - ١٧٩].

وقد تكلمنا على تفاصيل ذلك كله في كتابنا التفسير [٢/٩٠ - ١٥١] بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

ولنذكر ههنا ملخص الوقعة مما ساقه محمد بن إسحاق وغيره من علماء هذا الشأن.

قال ابن إسحاق رحمه الله: [سيرته: ص٣٠١] وكان من حديث أحد كما حدثني محمد بن مسلم الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث ببعض هذا الحديث عن يوم أحد وقد اجتمع حديثهم كلهم فيما سقت.

قالوا: أو من قال منهم: لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القَليب ورجع فَلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة.

فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣٠١ - ٣٠٣]: ففيهم كما ذكر لي بعض أهل العلم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٦].

قالوا: فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي قد منّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة وكان في الأسارى، فقال له صفوان بن أمية: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر فأعِنّا بلسانك واخرج معنا فقال: إن محمداً قد منّ علي فلا أريد أن أظاهر عليه. قال: بلى، فأعنّا بنفسك فلك الله إن رجعت أن أُغنِيَكَ وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول:

أيا بَني عبدِ مناةِ الرزامِ ... أنتمْ حُماةٌ وأبوكم حامِ

لا تَعِدُوني نصرَكم بعدَ العامِ ... لا تُسلِموني لا يحلُّ إسلامِ

قال: وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويقول:

يا مالِ مالِ الحَسَبِ المقدَّمِ ... أنشُدُ ذا القُربى وذا التذمُّمِ

من كانَ ذا رحمٍ ومن لم يرحمِ ... الحلفَ وسْطَ البلدِ المحرَّمِ

عِندَ حَطيمِ الكَعْبَةِ المُعظَّمِ

قال: ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق.

قال: فخرجت قريش بحدها وحديدها وجدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا، وخرج أبو سفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته ابنة عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة وخرج عمه الحارث بن هشام بزوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أم ابنه عبد الله بن عمرو وذكر غيرهم ممن خرج بامرأته.

قال: وكان وحشي كلما مر بهند بنت عتبة أو مرت به تقول وَيْهاً أبا دسمة اشف واشتف، يعني تحرضه على قتل حمزة بن عبد المطلب.

قال: فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قال لهم: «إني قد رأيت والله خيراً رأيت بقراً تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلتُ يدي في درع حصينة فأوّلتُها المدينة».

وهذا الحديث رواه البخاري [٣٦٢٢] ومسلم [٢٢٧٢] جميعاً عن أبي كريب عن أبي أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر فإذا هي المدينة يثرب ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها أيضاً بقراً والله خير فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي آتانا اللهُ بعد يوم بدر».

وقال البيهقي [الدلائل: ٣/٢٠٤، ٢٠٥]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا الأصم أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر.

قال ابن عباس: وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً: نخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأُحد. ورجّوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم فالرأي رأيك فقال لهم: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

قال: وكان قال لهم يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «إني رأيت أني في

درع حصينة فأوّلتها المدينة وأني مُردِف كبشاً فأوّلتُه كبش الكتيبة ورأيت أن سيفي ذا الفقار فلّ فأوّلته فلاً فيكم ورأيت بقراً تذبح فبَقَرٌ والله خير».

ورواه الترمذي [١٥٦١] وابن ماجه [٢٨٠٨] من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه به.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣/٢٠٥] من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس مرفوعاً قال: «رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشاً وكأن ظُبَة سيفي انكسرت فأوّلت أني أقتل كبش القوم وأوّلت كسر ظُبَة سيفي قتل رجل من عترتي». فقتل حمزة وقَتل رسول الله ﷺ طلحة وكان صاحب اللواء.

وقال موسى بن عقبة رحمه الله: ورجعت قريش فاستجلبوا من أطاعهم من مشركي العرب وسار أبو سفيان بن حرب في جمع قريش وذلك في شوال من السنة المقبلة من وقعة بدر حتى نزلوا ببطن الوادي الذي قِبَل أحد وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدراً قد ندموا على ما فاتهم من السابقة وتمنوا لقاء العدو ليبلوا ما أبلى إخوانهم يوم بدر فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدراً بقدوم العدو عليهم وقالوا: قد ساق الله علينا أمنيتنا.

ثم إن رسول الله ﷺ أري ليلة الجمعة رؤيا فأصبح فجاءه نفر من أصحابه فقال لهم: «رأيت البارحة في منامي بقراً تذبح والله خير ورأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبَتِه، أو قال: به فلول فكرهته وهما مصيبتان ورأيت أني في درع حصينة وأني مردف كبشاً». فلما أخبرهم رسول الله ﷺ برؤياه، قالوا: يا رسول الله، ماذا أوّلت رؤياك؟ قال: «أولت البقر الذي رأيت نَفَراً فينا وفي القوم وكرهت ما رأيت بسيفي»، ويقول رجال: كان الذي رأى بسيفه الذي أصاب وجهه فإن العدو أصاب وجهه يومئذ وقصموا رباعيته وخرقوا شفته يزعمون أن الذي رماه عتبة بن أبي وقاص وكان البَقَر من قُتل من المسلمين يومئذ.

وقال: «أوّلت الكبش أنه كبش كتيبة العدو يقتله الله وأولت الدرع الحصينة المدينة فامكثوا واجعلوا الذراري في الآطام فإن دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ورُموا من فوق البيوت» وكانوا قد سَكُّوا أزقة المدينة بالبنيان حتى كانت كالحصن. فقال الذين لم يشهدوا بدراً: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرّب المسير وقال رجال من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شِعبنا؟ وقال رجال: ماذا نمنع إذا لم نَمنع الحرثَ يُزرع؟ وقال رجال قولا صدقوا به ومضوا عليه منهم حمزة بن عبد المطلب قال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم. وقال نعمان بن مالك بن ثعلبة وهو أحد بني سالم: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة فوالذي نفسي بيده لأدخلنها. فقال له رسول الله ﷺ: «بم؟» قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف. فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت»، واستشهد يومئذ. وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك ولكن غلب القضاء والقدر وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة.

فلما صلى رسول الله ﷺ الجمعة وعظ الناس وذكرهم وأمرهم بالجد والجهاد ثم انصرف من خطبته وصلاته فدعا بلأمته فلبسها ثم أذن في الناس بالخروج فلما رأى ذلك رجال من ذوي الرأي قالوا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء فقالوا يا رسول الله امكث كما أمرتنا فقال: «ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو وانظروا ما آمركم به فافعلوه».

قال: فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون فسلكوا على البدائع وهم ألف رجل والمشركون ثلاثة آلاف فمضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأحد ورجع عنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلثمائة فبقي رسول الله في سبعمائة. [الدلائل للبيهقي: ٣/٢٠٦ ـ ٢٠٨ عن موسى بن عقبة]

قال البيهقي [الدلائل: ٣/٢٢٠، ٢٢١]: هذا هو المشهور عند أهل المغازي أنهم بقوا في سبعمائة مقاتل.

قال: والمشهور عن الزهري أنهم بقوا في أربعمائة مقاتل.

كذلك رواه يعقوب بن سفيان عن أصبغ عن ابن وهب عن يونس عن الزهري.

وقيل: عنه بهذا الإسناد سبعمائة فالله أعلم.

قال موسى بن عقبة: وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد وكان معهم مائة فرس وكان لواؤه مع عثمان بن طلحة قال: ولم يكن مع المسلمين فرس واحدة ثم ذكر الوقعة كما سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى [الدلائل للبيهقي: ٣/٢٠٩].

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٣، ٦٤]: لما قص رسول الله ﷺ رؤياه على أصحابه قال لهم: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ في أن لا يخرج إليهم فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا فقال عبد الله بن أبي: يا رسول الله لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فلم يزل الناس برسول الله ﷺ حتى دخل فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة وقد مات في ذلك اليوم رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو فصلى عليه ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرَهْنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك فلما خرج عليهم قالوا: يا رسول الله إن شئت فاقعد فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل». فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه.

قال ابن هشام واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي والد جابر بن عبد الله فقال: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه ﷺ.

قلت: وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧] يعني أنهم

كاذبون في قولهم: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، وذلك لأن وقوع القتال أمره ظاهر بين واضح لا خفاء به ولا شك فيه وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ الآية [سورة النساء: ٨٨] وذلك أن طائفة قالت: نقاتلهم وقال آخرون: لا نقاتلهم كما ثبت وبين في الصحيح [خ (٤٥٨٩)، م (٢٧٧٦)].

وذكر الزهري أن الأنصار استأذنوا حينئذ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فقال: «لا حاجة لنا فيهم».

وذكر عروة بن موسى بن عقبة: أن بني سلمة وبني حارثة لما رجع عبد الله بن أبي وأصحابه همَّا أن تفشلا فثبتهما الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٢] قال جابر بن عبد الله: ما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ كما هو ثابت في الصحيحين [خ (٤٠٥١)، م (٢٥٠٥)] عنه.

قال ابن إسحاق: ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك في حرة بني حارثة فذب فرس بذنبه فأصاب كُلاّب سيف فاستله فقال رسول الله ﷺ لصاحب السيف: «شِمْ سيفك - أي اغمده - فإني أرى السيوف ستسل اليوم». ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من كثب - أي من قُرب - من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم حتى سلك به في مال لمربع بن قيظي وكان رجلا منافقاً ضرير البصر فلما سمع حس رسول الله ومن معه من المسلمين قام يحثي في وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل في حائطي.

قال ابن إسحاق: وقد ذكر لي أنه أخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك. فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل قبل نهي رسول الله ﷺ فضربه بالقوس في رأسه فشجه.

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لا يقاتلنّ أحد حتى نأمره بالقتال» وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع كانت بالصمغة من قناة للمسلمين فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال: أتُرعى زروع بني قيلة ولما نضارب؟ وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة رجل وأمر على الرماة يومئذ عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وهو معلم يومئذ بثياب بيض والرماة خمسون رجلا فقال: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك». وسيأتي شاهد هذا في الصحيحين إن شاء الله تعالى.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦/٢]: وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يعني لبس درعاً فوق درع ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار.

قلت: وقد رد رسول الله ﷺ جماعة من الغلمان يوم أحد فلم يمكنهم من حضور الحرب لصغرهم منهم عبد الله بن عمر كما ثبت عنه في الصحيحين [خ (٢٦٦٤)، م (١٨٦٨)] قال: عُرضتُ على النبي ﷺ يوم أحد فلم يُجزني وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني». وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وعَرابة بن أوس بن قيظي. ذكره ابن قتيبة في المعارف [ص٣٣٠]، وأورده السهيلي [الروض الأنف: ٤٥٣/٥]، وهو الذي يقول فيه الشماخ:

إذا ما راية رُفعت لمجد ... تلقّاها عَرابةُ باليمين

ومنهم سعد بن حبتة ذكره السهيلي أيضاً وأجازهم كلهم يوم الخندق وكان قد رد يومئذ سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة فقيل: يا رسول الله إن رافعاً رام فأجازه فقيل: يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعاً فأجازه.

قال ابن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٦٦/٢]. وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل بن هشام وقال رسول الله ﷺ: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به في العدو حتى ينحني». قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه.

هكذا ذكره ابن إسحاق منقطعاً.

وقد قال الإمام أحمد [١٢٣/٣]: حدثنا يزيد وعفان قالا: حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «من يأخذ هذا السيف؟» فأخذه قوم فجعلوا ينظرون إليه فقال: «من يأخذه بحقه» فأحجم القوم فقال أبو دجانة سماك: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين.

ورواه مسلم [٢٤٧٠] عن أبي بكر عن عفان به.

قال ابن إسحاق: وكان أبو دجانة رجلا شجاعاً يختال عند الحرب وكان له عصابة حمراء يُعْلَم بها عند الحرب يعتصب بها فيعلم أنه الناس سيقاتل، قال: فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فاعتصب بها ثم جعل يتبختر بين الصفين.

قال: فحدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم مولى عمر بن الخطاب عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال: قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٧/٢، ٦٨]: وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم على القتال: يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهمُّوا به وتواعدوه وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع. وذلك أراد أبو سفيان. قال فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضن على القتال فقالت هند فيما تقول:

وَيهاً بني عبدِ الدار ... ويهاً حماةَ الأدبارْ

ضرباً بكل بتّارْ

وتقول أيضاً:

إن تُقبلوا نُعانق ... ونفرشُ النمارقْ

أو تُدبروا نفارقْ ... فِراق غيرِ وامقْ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٧/٢]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني ضبيعة وقد كان خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله ﷺ معه خمسون غلاما من الأوس وبعض الناس يقول: كانوا خمسة عشر وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعُبْدان أهل مكة فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. وكان يسمى في الجاهلية الراهب فسماه رسول الله ﷺ الفاسق. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر ثم قاتلهم قتالا شديداً ثم راضخهم بالحجارة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٨/٢]: فاقتتل الناس حتى حميت الحرب وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس.

قال ابن هشام: وحدثني غير واحد من أهل العلم أن الزبير بن العوام قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه وسألته إياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني والله لأنظرن ما يصنع فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحنُ بالسفحِ لدى النخيلِ
أن لا أقومَ الدهرَ في الكَيُّولِ ... أضربْ بسيفِ اللهِ والرسولِ

وقال الأموي: حدثني أبو عبيد في حديث النبي ﷺ أن رجلا أتاه وهو يقاتل، فسأله سيفاً يقاتل به فقال: لعلك إن أعطيتك تقاتل في الكَيُّول؟ قال: لا. فأعطاه سيفاً فجعل يرتجز ويقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... أن لا أقومَ الدهرَ في الكَيُّولِ

وهذا حديث يروى عن شعبة.

ورواه إسرائيل كلاهما عن أبي إسحاق عن هنيدة بن خالد أو غيره يرفعه.

الكيول يعني: مؤخر الصفوف سمعته من عدة من أهل العلم ولم أسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٩/٢]: فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذفف عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشركُ أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضّت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله. ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها قال الزبير: فقلت: الله ورسوله أعلم.

وقد رواه البيهقي في الدلائل [٢٣٢/٣، ٢٣٣] من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام بذلك.

قال ابن إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يُحمِشُ الناس حَمْشاً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ لما عرضه طلبه منه عمر فأعرض عنه ثم طلبه منه الزبير فأعرض عنه فوجدا في أنفسهما من ذلك ثم عرضه الثالثة فطلبه أبو دجانة فدفعه إليه فأعطى السيف حقه.

قال: فزعموا أن كعب بن مالك قال: كنت فيمن خرج من المسلمين فلما رأيت مثل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاورت فإذا رجل من المشركين جمَعَ اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم. قال: وإذا رجل من المسلمين قائم ينتظره وعليه لأمته فمضيت حتى كنت من ورائه ثم قمت أقدُر المسلم والكافر ببصري فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة. قال: فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه وتفرق فرقتين ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة.

سنة ٣- مقتل حمزة ﷺ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٩/٢، ٧٠]: وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، وكذلك قتل عثمان بن أبي طلحة وهو حامل اللواء وهو يقول:

إنَّ على أهلِ اللواءِ حقّا ... أن يَخْضِبُوا الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقَّا

فحمل عليه حمزة فقتله ثم مر به سباع بن عبد العزى الغُبْشاني وكان يكنى بأبي نيار فقال حمزة: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور وكانت أمه أم أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفي وكانت ختانة بمكة فلما التقيا ضربه حمزة فقتله.

فقال وحشي غلام جبير بن مطعم: والله إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ما يُلِيق شيئاً يمرُّ به مثل الجمل الأورق إذ قد تقدمني إليه سباع فقال حمزة: هلم إليَّ يا ابن مقطعة البظور. فضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثُنَّتِهِ حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغُلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر ولم يكن لي بشيء حاجة غيره.

وقال أبو بكر بن أبي عاصم: حدثني عبد الوهاب بن نَجْدة، حدثنا بقية، عن بحير، عن خالد بن مَعْدان، عن أبي بلال، عن عبد الله بن السائب، أن رسول الله ﷺ كان يوم الشعب آخر أصحابه، ولم يكنْ بينه وبينَ العدوِّ غير حمزةَ يقاتل العدوَّ، فرصده وحشيٌّ فقتله، وقد قتل الله بيدِ حمزة من الكفار أحداً وثلاثين، وكان يدعى أسد الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٠/٢ ـ ٧٣] وحدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار أخو بني نوفل بن عبد مناف في زمن معاوية فأدربنا مع الناس فلما مررنا بحمص وكان وحشي مولى جبير قد سكنها وأقام بها فلما قدمناها قال عبيد الله بن عدي: هل لك في أن نأتي وحشياً فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله؟ قال: قلت له: إن شئت.

فخرجنا نسأل عنه بحمص فقال لنا رجل ونحن نسأل عنه: إنكما ستجدانه بفناء داره وهو رجل قد غلبت عليه الخمر فإن تجداه صاحياً تجدا رجلا عربياً وتجدا عنده بعض ما تريدان وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه وإن تجداه وبه بعض ما يكون به فانصرفا عنه ودعاه.

قال: فخرجنا نمشي حتى جئناه فإذا هو بفناء داره على طنفسة له وإذا شيخ كبير مثل البغاث، وإذا هو صاحٍ لا بأس به، فلما انتهينا إليه سلمنا عليه، فرفع رأسه إلى عبيد الله بن عدي فقال: ابنٌ لعدي بن الخيار أنت؟

قال: نعم. قال: أما والله ما رأيتك منذ ناولتك أمك السعدية التي أرضعتك بذي طوى فإني ناولتكها وهي على بعيرها فأخذتك بعرضيك فلمعت لي قدماك حين رفعتك إليها فوالله ما هو إلا أن وقفت عليَّ فعرفتهما.

قال: فجلسنا إليه فقلنا: جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة كيف قتلته؟ قال: أما إني سأحدثكما كما حدثت رسول الله ﷺ حين سألني عن ذلك، كنت غلاماً لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلّما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هداً ما يقوم له شيء فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فلما رآه حمزة قال: هلم إليّ يا ابن مقطعة البظور، قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه، قال: وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثُنّتِهِ حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينوء نحوي فغُلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق.

فلما قدمت مكة عتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فكنت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيَّت علي المذاهب فقلت: ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وشهد شهادة الحق.

قال: فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أشهد شهادة الحق فلما رآني قال: «أوَحشيٌّ؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة؟» قال: فحدثته كما حدثتكما، فلما فرغت من حديثي قال: «ويحك غيِّب عني وجهك فلا أرينك»، قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله عز وجل. فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائما في يده السيف وما أعرفه فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلانا يريده فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه، وشدّ عليه الأنصاري بالسيف فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ وقتلت شر الناس.

قلت: الأنصاري هو أبو دجانة سماك بن خَرَشة كما سيأتي في مقتل أهل اليمامة مع مسيلمة.

وقال الواقدي في الردة [المغازي: ١/٢٦٩]: هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني.

وقال سيف بن عمر: هو عدي بن سهل وهو القائل:

ألم تـــرَ أنـــي ووحشـــيُّهم قتلـــتُ مُـــسيلمَةَ المفتـــنْ
ويـــسألني النـــاسُ عـــن قتلِـــه فقلـــتُ ضَربـــتُ، وهـــذا طعـــنْ

والمشهور أن وحشياً هو الذي بدره بالضربة وذفف عليه أبو دجانة، لما روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٧٣] عن عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن ابن عمر قال: سمعت صارخاً يوم اليمامة يقول: قتله العبد الأسود.

وقد روى البخاري [٤٠٧٢] قصة مقتل حمزة من طريق عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار. فذكر القصة كما تقدم.

وذكر أن عبيد الله بن عدي كان معتجراً عمامة لا يرى منه وحشي إلا عينيه ورجليه فذكر من معرفته له ما تقدم، وهذه قيافة عظيمة كما عرف مجزز المدلجي أقدام زيد وابنه أسامة مع اختلاف ألوانهما.

وقال في سياقته: فلما أن صف الناس للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال له: يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور أتحادّ الله ورسوله؟ ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنّته حتى خرجت من بين وركيه قال: فكان ذلك آخر العهد به.

إلى أن قال: فلما قبض رسول الله ﷺ وخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرج إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة.

قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان قال فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر البيت: وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٧٣]: فبلغني أن وحشياً لم يزل يُحد في الخمر حتى خُلع من الديوان فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أنّ الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.

قلت: وتوفي وحشي بن حرب أبو دسمة ويقال أبو حرب بحمص وكان أول من لبس الثياب المدلوكة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٧٣]: وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً.

قلت: وذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن سعيد بن المسيب أن الذي قتل مصعباً هو أبي بن خلف فالله أعلم.

قال ابن إسحاق: فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: كان اللواء أولا مع علي بن أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ لواء المشركين مع عبد الدار قال: نحن أحق بالوفاء منهم أخذ اللواء من علي بن أبي طالب فدفعه إلى مصعب بن عمير، فلما قتل مصعب أعطى اللواء علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٧٣]: وقاتل علي بن أبي طالب ورجال من المسلمين.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٧٣، ٧٤]: وحدثني مسلمة بن علقمة المازني، قال: لما اشتد القتال يوم أحد جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار وأرسل إلى علي أن قدم الراية فتقدم علي وهو يقول: أنا أبو القصم فناداه أبو سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين: أنْ هل لك يا أبا

القصم في البراز من حاجة؟ قال: نعم فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه ثم انصرف ولم يجهز عليه. فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته فعطفتني عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله، وقد فعل ذلك علي ﷺ يوم صفين مع بسر بن أبي أرطاة لما حمل عليه ليقتله أبدى له عن عورته فرجع عنه. وكذلك فعل عمرو بن العاص حين حمل عليه علي في بعض أيام صفين أبدى عن عورته فرجع علي أيضاً، ففي ذلك يقول الحارث بن النضر:

أتى كلَّ يوم فارسٌ غيرُ منتهٍ ... وعورته وسط العجاجة باديه
يكفُّ لها عنه علي سنانه ... ويضحك منها في الخلاء معاويه

وذكر يونس عن ابن إسحاق أن طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين يومئذ دعا إلى البراز فأحجم عنه الناس فبرز إليه الزبير بن العوام فوثب حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه فأثنى عليه رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبيٍّ حواريّاً وحواريَّ الزبير» [خ (٣٧١٩)] وقال: لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيت من إحجام الناس عنه[الدلائل للبيهقي: ٢٢٧/٣، عن يونس به].

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٤/٢]: قتل أبا سعد بن أبي طلحة سعدُ بن أبي وقاص وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتل مسافع بن أبي طلحة وأخاه الجُلاس كلاهما يشعره سهماً فيأتي أمه سلافة فيضع رأسه في حجرها فتقول: يابني من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلا حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً أبداً ولا يمسّه؛ ولهذا حماه الله منه يوم الرجيع كما سيأتي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٥/٢]: والتقى حنظلة بن أبي عامر واسمه عمرو ويقال: عبد عمرو بن صيفي وكان يقال لأبي عامر في الجاهلية الراهب؛ لكثرة عبادته فسماه رسول الله ﷺ الفاسق لما خالف الحق وأهله. وخرج من المدينة هرباً من الإسلام ومخالفة للرسول عليه السلام وحنظلة الذي يعرف بحنظلة الغسيل؛ لأنه غسلته الملائكة كما سيأتي - هو وأبو سفيان صخر بن حرب فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأوس وهو الذي يقال له ابن شعوب فضربه شداد فقتله فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه» فسئلت صاحبته - قال الواقدي [المغازي: ٢٧٣/١]: هي جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ بن سلول وكانت عروساً عليه تلك الليلة. فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة فقال رسول الله ﷺ: «كذلك غسلته الملائكة».

وقد ذكر موسى بن عقبة: أن أباه ضرب برجله في صدره وقال: ذنبان أصبتهما ولقد نهيتك عن مصرعك هذا، ولقد والله كنتَ وصولا للرحم براً بالوالد.

قال ابن إسحاق وقال شداد بن الأسود في قتله حنظلةَ:

لأحمينَّ صاحبي ونفسي ... بطعنةٍ مثل شعاع الشمسِ

وقال ابن شعوب: [سيرة ابن هشام: ٧٦/٢، ٧٧]

ولولا دفاعي يا ابن حربٍ ومشهدي ... لألفيتَ يوم النَّعف غير مجيب
ولولا مِكرّي المهر بالنعف قرقرتْ ... عليه ضباع أو ضِراء كَليب

وقال أبو سفيان: [سيرة ابن هشام: ٧٥/٢، ٧٦]

ولو شئت نجتني كُميت طِمِرّةٌ ... ولم أحمل النعماء لابن شعوب
وما زال مهري مزجر الكلب منهمُ ... لَدُنْ غدوةٍ حتى دنتْ لغروب
أقاتلهم وأدّعي يا لغالبٍ ... وأدفعهم عني بركنٍ صليب
فبكّي ولا ترعَيْ مقالة عاذلٍ ... ولا تسأمي من عَبرة ونحيب
أباك وإخواناً له قد تتابعوا ... وحق لهم من عبرةٍ بنصيب
وسلّي الذي قد كان في النفس إنني ... قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قَرْماً كريماً ومُصْعباً ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب
فلو أنني لم أشفِ نفسي منهمُ ... لكانت شجىً في القلب ذات نُدوب
فآبوا وقد أودى الجلابيب منهمُ ... بهم خدبٌ من مُعبط وكئيب
أصابهمُ مَنْ لم يكنْ لدمائهم ... كفاءً ولا في خطةٍ بضريب

فأجابه حسان بن ثابت:

ذكرت القُروم الصِّيدَ من آل هاشمِ ... ولستَ لِزُورٍ قُلْتَه بمصيب
أتعجَبُ أن أقصَدْتَ حمزةَ منهمُ ... نجيباً وقد سمَّيْتَه بنجيب
ألم يقتلوا عَمراً وعتبةَ وابنَه ... وشيبة والحجّاجَ وابنَ حبيب
غداةَ دعا العاصي علياً فراعه ... بضربةِ عَضْبٍ بلَّهُ بخضيب

سنة ٣- تمام غزوة أحد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٧/٢ - ٧٩]: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها.

وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلّوا ظهورنا للخيل فأُتينا من خلفنا وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنوا منه أحد منهم.

قال: فحدثني بعض أهل العلم أن اللواء لم يزل صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وكان اللواء مع صؤاب غلام لبني أبي طلحة حبشي وكان آخر من أخذه منهم فقاتل به حتى قطعت يداه ثم برك عليه فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعزرت - يعني اللهم هل أعذرت - فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فَخَرْتُم باللواء وشرُّ فخرٍ ... لواءٌ حين رُدّ إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبدٍ ... وألأم من يطا عَفَرَ التراب
ظننتم، والسفيهُ له ظنونٌ ... وما إنْ ذاكَ مِن أمرِ الصّواب
بأنَّ جلادَنا يومَ التقَيْنا ... بمكة بَيْعكمُ حُمْرَ العياب
أقرَّ العينَ إن عُصبتْ يَداه ... وما إن تُعصبان على خضاب

وقال حسان أيضاً في رفع عمرة بنت علقمة اللواء لهم:

إذا عَضَلٌ سِيقتْ إلينا كأنها ... جَدَايةُ شِركٍ مُعْلَماتِ الحواجب
أقمنا لهم طعناً مُبيراً منكّلا ... وحُزْناهمُ بالضرب من كل جانب
فلولا لواءُ الحارثية أصبحوا ... يُباعون في الأسواق بَيْعَ الجلائب

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٧٩/٢، ٨٠] فانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم اللّه فيه من أكرم بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول اللّه ﷺ فَدُثَّ بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج في وجهه وكلمت شفته وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص:

فحدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج في وجهه وجعل يمسح الدم ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى اللّه» فأنزل اللّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٨].

قال ابن جرير في تاريخه [٥١٩/٢ - ٥٢١]: حدثنا محمد بن الحسين حدثنا أحمد بن المفضل حدثنا أسباط عن السدي قال: أتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسول اللّه ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة وانطلق طائفة فوق الجبل إلى الصخرة وجعل رسول اللّه ﷺ يدعو الناس: «إليّ عباد اللّه، إلي عباد اللّه» فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فجعلوا يسيرون بين يديه فلم يقف أحد إلا طلحة وسهل بن حنيف فحماه طلحة فرمي بسهم في يده فيبست يده وأقبل أبي بن خلف الجمحي وقد حلف ليقتلن النبي ﷺ فقال: «بل أنا أقتله» فقال: يا كذاب أين تفر؟ فحمل عليه فطعنه النبي ﷺ في جيب الدرع فجرح جرحاً خفيفاً فوقع يخور خوار الثور فاحتملوه وقالوا: ليس بك جراحة فما يجزعك؟ قال: أليس قال: «لأقتلنك!» لو كانت بجميع ربيعة ومضر لقتلتهم. فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح وفشا في الناس أن رسول اللّه ﷺ قد قتل فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولا إلى عبد اللّه بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم. فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ اللّهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء؛ ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل وانطلق رسول اللّه ﷺ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة فلما رأوه وضع رجل سهما في قوسه فأراد أن يرميه فقال: «أنا رسول اللّه» ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول اللّه ﷺ وفرح رسول اللّه ﷺ حين رأى أنّ في أصحابه من يمتنع به.

فلما اجتمعوا وفيهم رسول اللّه ﷺ ذهب عنهم الحزن فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فقال اللّه عز وجل في الذين قالوا: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤].

فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه وهمهم أبو سفيان فقال رسول اللّه ﷺ: «ليس لهم أن يعلونا، اللّهم إن تُقتل هذه العِصابة لا تعبدُ في الأرض». ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم فقال أبو سفيان يومئذ: اعلُ هُبل حنظلة بحنظلة ويوم أُحد بيوم بدر. وذكر تمام القصة.

وهذا غريب جداً وفي بعضه نكارة.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٠/٢]: وزعم ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي سعيد أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول اللّه ﷺ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وأن عبد اللّه بن شهاب الزهري شجَّه في جبهته وأن عبد اللّه بن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المِغفر في وجنته ووقع رسول اللّه ﷺ في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عُبَيد اللّه حتى استوى قائماً ومصَّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الدم من وجه رسول اللّه ﷺ ثم ازدرده فقال: «من مسَّ دمه دمي لم تُصبْهُ النار».

قلت: وذكر قتادة أن رسول اللّه ﷺ لما وقع لشقه أغمي عليه فمر به سالم مولى أبي حُذَيفة فأجلسه ومسح الدم عن وجهه فأفاق وهو يقول: «كيف يُفْلِحُ قومٌ فعلوا هذا بنبيِّهم وهو يدعوهم إلى اللّه» فأنزل اللّه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

رواه ابن جرير [تفسيره: ٨٧/٤] وهو مرسل وسيأتي بسط هذا في فصل وحده.

قلت: كان أول النهار للمسلمين على الكفار كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾ الآية [سورة آل عمران: ١٥٢، ١٥٣].

قال الإمام أحمد [٢٨٧/١، ٢٨٨]: حدثنا عبد اللّه حدثني أبي حدثني سليمان بن داود أخبرناعبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد اللّه عن ابن عباس أنه قال: ما نصر اللّه في موطن كما نصر يوم أحد قال: فأنكرنا ذلك فقال: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب اللّه إن اللّه يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ يقول ابن عباس والحس: القتل ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنما عنى بهذا الرماة وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: «احْمُوا ظُهورَنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا».

فلما غنم النبي ﷺ وأباحُوا عسكر المشركين أكبَّ الرماةُ جميعاً فدخلوا في العسكر ينهبون وقد التقت صفوف أصحاب رسول اللّه ﷺ فهم هكذا (وشبك بين أصابع يديه) والتَبسوا فلما أخلّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ فضرب بعضهم بعضاً فالتَبسوا وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير وقد كان لرسول اللّه وأصحابه أولُ النهار حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعةٌ أو تسعة وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا - حيث يقول الناس -: الغار إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قُتل محمدا فلم يشك فيه أنه حق. فما زلنا كذلك ما نشك أنه حق حتى طلع رسول اللّه ﷺ بين السعدين نعرفه بتكفُّئِه إذا مشى قال: ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا.

قال: فرقي نحونا وهو يقول: «اشتدَّ غضبُ اللّهِ على قومٍ دَمَّوْا وجهَ رسول اللّه». ويقول مرة أخرى: «اللّهم إنه ليس لهم أن يَعلونا» حتى انتهى إلينا فمَكثَ ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعلُ هبل، مرتين (يعني آلهته)، أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر بن الخطاب: ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل قال: اللّه أعلى وأجلّ. فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب قد أنعمت عينها، فعاد عنها أو فعال عنها.

فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب؟ فقال

عمر: هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا ذا عمر، قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول وإن الحرب سجال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا. ثم قال أبو سفيان: أما إنكم سوف تجدون في قتلاكم مُثلة ولم يكن ذلك عن رأي سَراتنا. قال: ثم أدركته حمية الجاهلية فقال: إما إنه إن كان ذلك لم نكرهه.

وقد رواه ابن أبي حاتم [تفسيره (١٦٤٤)] والحاكم في مستدركه [٢٩٦/٢، ٢٩٧]، والبيهقي في الدلائل [٢٦٩/٣ ـ ٢٧١] من حديث سليمان بن داود الهاشمي به.

وهذا حديث غريب وهو من مرسلات ابن عباس وله شواهد من وجوه كثيرة سنذكر منها ما تيسر إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان وهو المستعان.

قال البخاري [٤٠٤٣]: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذٍ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: «لا تَبرَحُوا، إن رأيتمونا ظَهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعِينُونا». فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتَدِدْن في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة! فقال عبد الله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرفت وجوههم فأصيب سبعون قتيلا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه». فقال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت ياعدوَّ الله، أبقى الله عليك ما يخزنك. فقال أبو سفيان: اعلُ هُبل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني.

وهذا من أفراد البخاري دون مسلم.

وقال الإمام أحمد [٢٩٣/٤]: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد ـ وكانوا خمسين رجلا ـ عبد الله بن جبير.

قال: ووضعهم موضعاً وقال: «إن رأيتمونا تَخْطَفُنا الطير فلا تبرحوا حتى أُرسلَ إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدوّ وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، قال: فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتدِدن على الجبل وقد بدت أَسْوُقُهنّ وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قوم، الغنيمة. ظهر أصحابكم، فما تنظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: إنا والله لنأتينّ الناس فلنُصيبنّ من الغنيمة! فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أُخراهم، فلم يبقَ مع رسول الله ﷺ غير اثني عشر رجلا فأصابوا منا سبعين رجلا، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد، أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ ثلاثاً، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب، أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابنُ الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كُفِيتُمُوهُم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدوَّ الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذَ يرتجز:

اعلُ هبل، اعل هبل

فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبونه» قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال: إن العزى لنا ولا عزى لكم؟ قال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبونه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

ورواه البخاري [٣٩٨٦، ٤٠٦٧، ٤٥٦١] من حديث زهير وهو ابن معاوية مختصراً، وقد تقدم روايته له مطولة من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق.

وقال الإمام أحمد [٢٨٦/٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت وعلي بن زيد عن أنس بن مالك أن المشركين لما رهقوا النبي ﷺ وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، قال: «من يردُّهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟» فجاء رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل. فلما رهقوه أيضاً قال: «من يردُّهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟»، حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا».

ورواه مسلم [١٧٨٩، وعنده فيه «هدّاب» بدل «هدبة»] عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به.

وقال البيهقي في الدلائل [٢٣٦/٣، ٢٣٧]: بإسناده عن عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال: «ألا أحد لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «كما أنت يا طلحة»، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتل الأنصاري فلحقوه، فقال: «ألا رجل لهؤلاء؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله. فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قتل الأنصاري فلحقوه، فقال: «ألا رجلٌ لهؤلاء؟». فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله. فأذن له. فقاتل مثل قتاله وقتال صاحبه، ورسول الله ﷺ وأصحابه يصعدون ثم قُتل فلحقوه، فلم يزل رسولُ الله ﷺ يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله فيحبسه فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما، فقال رسول الله ﷺ: «من لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأُصيبت أنامله فقال حَسٌ، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت بسم الله أو ذكرتَ اسمَ الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تَلِجَ بك في جو السماء»، ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون.

وروى البخاري [٤٠٦٣] عن أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد.

وفي الصحيحين [خ (٣٧٢٢)، م (٢٤١٤)] من حديث موسى بن إسماعيل عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة وسعد عن حديثهما.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية عن هاشم بن هاشم سمعت سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: نَثَلَ لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال: «ارم فداك أبي وأمي».

وأخرجه البخاري [٤٠٥٥] عن عبد الله بن محمد عن مروان به.

وفي صحيح البخاري [٢٩٠٥] من حديث عبد الله بن شداد عن علي بن أبي طالب قال: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك فإني سمعته يقول يوم أحد: «يا سعد ارم فداك أبي وأمي».

قال محمد بن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٢٣٩/٣، عن محمد بن إسحاق به] حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد بن أبي وقاص أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ. قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل ويقول: «ارم فداك أبي وأمي». حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل فأرمي به.

وثبت في الصحيحين [خ (٤٠٥٤)، م (٢٣٠٦)] من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك ولا بعده. يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقال أحمد [٢٨٦/٣، ٢٨٧]: حدثنا عفان، أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد والنبي ﷺ خلفه يتترّسُ به، وكان رامياً وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه، ويرفع أبو طلحة صدره ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك. وكان أبو طلحة يشور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: إني جَلْدٌ يا رسول الله، فوجِّهني في حوائجك، ومُرني بما شئت.

وقال البخاري [٤٠٦٤]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز عن أنس قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ مجوّب عليه بحَجَفة له، وكان أبو طلحة رجلا رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة. قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يُصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم. ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً.

قال البخاري [٤٠٦٨]: وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد عن قتادة، عن أنس، عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه.

هكذا ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم، ويشهد له قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤، ١٥٥].

قال البخاري [٤٠٦٦]: حدثنا عبدان أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن موهَب قال: جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القعود؟ قال: هؤلاء قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد، قال: نعم. قال: فتعلمه تغيّب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فكبّر.

قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه: أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت النبي ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه فبعث عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان». اذهب بهذا الآن معك.

وقد رواه البخاري [٣٦٩٨] أيضاً في موضع آخر والترمذي [٣٧٠٦] من حديث أبي عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب به.

وقال الأموي في مغازيه عن ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول، وقد كان الناس انهزموا عنه حتى بلغ بعضهم إلى المُنَقَّى دون الأعوص، وفرَّ عثمان بن عفان وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان، رجلان من الأنصار حتى بلغوا الجَلَعْب جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص فأقاموا ثلاثاً، ثم رجعوا، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال لهم: «لقد ذهبتم فيها عريضة».

والمقصود أن أُحُداً وقع فيها أشياء مما وقع في بدر، منها حصول النُعاس حال التحام الحرب، وهذا دليل على طمأنينة القلوب بنصر الله وتأييده وتمام توكلها على خالقها وبارئها. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى في غزوة بدر: «إذ يغشاكم النُعاسَ أَمَنةً منه» الآية [الأنفال: ١١].

وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني المؤمنين الكُمَّل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: النعاس في الحرب من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق. ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ استنصر يوم أحد كما استنصر يوم بدر بقوله: «إن تشأ لا تُعبد في الأرض» كما قال الإمام أحمد [١٥٢/٣]: حدثنا عبد الصمد وعفان قالا: حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول يوم أحد: «اللّهم إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض».

ورواه مسلم [١٧٤٣] عن حجاج بن الشاعر عن عبد الصمد عن حماد بن سلمة به.

وقال البخاري [٤٠٤٦]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيتَ إن قُتلتُ فأين أنا؟ قال: «في الجنة»، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قُتل.

ورواه مسلم [١٨٩٩] والنسائي [٣١٥٤] من حديث سفيان بن عيينة به.

وهذا شبيه بقصة عمير بن الحمام التي تقدمت في غزوة بدر رضي الله عنهما وأرضاهما.

سنة ٣- ما لقي النبي ﷺ يومئذٍ من المشركين

قال البخاري [٤٠٧٣]: ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد:

حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا عبد الرزاق عن معمر، عن همام بن منبه، سمع ﷺ أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدُّ غضبُ اللهِ على قومٍ فعلوا بنبيِّه - يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسولُ الله في سبيل الله».

ورواه مسلم [١٧٩٣] من طريق عبد الرزاق.

حدثنا مخلد بن مالك حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا ابن جريج عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس قال: «اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوا وجه نبيِّ الله» ﷺ [٤٠٧٤].

وقال أحمد [٢٥٣/٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد وهو يسلت الدم عن وجهه وهو يقول: «كيف يُفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيَّهم وكسروا رُباعيته، وهو يدعوهم إلى الله» فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٨].

ورواه مسلم [١٧٩١] عن القعنبي عن حماد بن سلمة به.

ورواه الإمام أحمد [٩٩/٣] عن هشيم ويزيد بن هارون عن حميد، عن أنس أن رسول الله ﷺ كُسرت رَباعيته يوم أُحد وشُج في جبهته حتى سال الدم على وجهه فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيِّهم وهو يدعوهُم إلى ربهم» فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾

وقال البخاري [٤٠٧٥]: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح النبي ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكُب الماء وبما دُووي، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب الماء بالمِجَن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم، وكسرت رباعيته يومئذ وجُرح وجهه وكُسرت البيضة على رأسه.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده [٦]: حدثنا ابن المبارك عن إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله أخبرني عيسى بن طلحة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد بكى ثم قال: ذاك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه وأراه قال: يحميه، قال: فقلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلا من قومي أحب إلي، وبيني وبين المشرق رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه وهو يخطف المشي خطفاً لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ: «عليكُما صاحبَكُما» يريد طلحة وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله قال: وذهبت لأنزع ذاك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، فتركته فكره أن يتناولهما بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزَمّ عليهما بفيه فاستخرج احدي الحلقتين ووقعت ثنيته مع الحلقة وذهبت لأصنع ما صنع فقال أقسمت عليك بحقي لما تركتني. قال: ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة ﷺ من أحسن الناس هتماً. فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار فإذا هو به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه.

وذكر الواقدي [المغازي: ٢٣٧/١، ٢٣٨] عن ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي الحويرث عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلا من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان بن أمية، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع، خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إليه.

قال الواقدي [المغازي: ٢٤٤/١]: والثابت عندنا أن الذي رمى في وجنتي رسول الله ﷺ ابن قمئة، والذي رمى في شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص.

وقد تقدم عن ابن إسحاق نحو هذا وأن الرباعية التي كسرت له عليه الصلاة والسلام هي اليمنى السفلى.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٦/٢]: وحدثني صالح بن كيسان عمن حدثه عن سعد بن أبي وقاص قال: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مبغضاً في قومه، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله».

وقال عبد الرزاق [تفسيره: ١٣١/١، والمصنف: ٢٩٠/٥، ٢٩١]: حدثنا معمر عن الزهري، وعن عثمان الجزري، عن مقسم أن رسول الله ﷺ دعا على عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمى وجهه فقال: «اللهم لا تُحِل عليه الحَولَ حتى يموتَ كافراً» فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار.

وقال أبو سليمان الجوزجاني: حدثنا محمد بن الحسن، حدثني إبراهيم بن محمد، حدثني ابن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن حزم عن أبيه، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ داوى وجهه يوم أحد بعظم بال.

هذا حديث غريب رأيته في أثناء كتاب المغازي للأموي في وقعة أحد.

ولما نال عبد الله بن قمئة من رسول الله ﷺ ما نال رجع وهو يقول: قتلتُ محمداً، وصرخ الشيطان أزبُ العقبةِ يومئذ بأبعد صوت: ألا إن محمداً قد قُتل! فحصل بهتة عظيمة في المسلمين واعتقد كثير من الناس ذلك، وصمموا على القتال عن حوزة الإسلام حتى يموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، منهم أنس بن النضر وغيره ممن سيأتي ذكره.

وقد أنزل الله تعالى التسلية في ذلك على تقدير وقوعه فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ

ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ. وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ. سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤ ـ ١٥١]. وقد تكلمنا على ذلك مستقصى في كتابنا التفسير ولله الحمد.

وقد خطب الصديق ﷺ في أول مقام قامه بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال:

أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية.

قال: فكأن الناس لم يسمعوها قبل ذلك، فما من الناس أحد إلا يتلوها.

وروى البيهقي في دلائل النبوة [٢٤٨/٣، ٢٤٩] من طريق ابن أبي نجيح عن أبيه قال: مرَّ رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه. فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قُتل. فقال الأنصاري: إنْ كان محمد ﷺ قد قتل فقد بلَّغ الرسالة فقاتلوا عن دينكم، فنزل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية.

ولعل هذا الأنصاري هو أنس بن النضر ﷺ وهو عم أنس بن مالك.

قال الإمام أحمد [٢٠١/٣]: حدثنا يزيد، حدثنا حميد عن أنس، أن عمه غاب عن قتال بدر، فقال: غبتُ عن أول قتال قاتله النبي ﷺ للمشركين، لئن أشهدني الله قتالا للمشركين ليرينّ الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال سعد: أنا معك. قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع، فوجد فيه بضع وثمانون من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قال: فكنا نقول: فيه وفي أصحابه نزلت ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ورواه الترمذي [٣٢٠١] عن عبد بن حميد والنسائي [كبرى (١١٤٠٣)] عن إسحاق بن راهويه كلاهما عن يزيد بن هارون به وقال الترمذي: حسن.

قلت: بل على شرط الصحيحين من هذا الوجه.

وقال أحمد [١٩٤/٣]: حدثنا بهز وحدثنا هاشم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس: عمي (قال هاشم: أنس بن النضر) سميت به ولم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر. قال: فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، غبت عنه، ولئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنة أجده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قُتل فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية. قال فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣] قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.

ورواه مسلم [١٩٠٣] عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد.

ورواه الترمذي [٣٢٠٠] والنسائي من حديث عبد الله بن المبارك وزاد النسائي [كبرى (٨٢٩١)] [كبرى (١١٤٠٢)] وأبي داود: حدثنا وحماد بن سلمة أربعتهم عن سليمان بن المغيرة به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ. فلما بلغت رسول الله ﷺ، حلفته قال: «بل أنا أقتله إن شاء الله».

فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنّعاً وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد. فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه فقُتل مصعب بن عمير وابصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فطعنه بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا له: ما أجزعك؟ إنما هو خدش. فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أنا أقتل أبياً»، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون. فمات إلى النار فسُحقاً لأصحاب السعير.

وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب نحوه.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٤/٢]: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب ادركه أبي بن خلف وهو يقول: لا نجوت إن نجوت. فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه!» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة فقال بعض القوم فيما ذُكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وذكر الواقدي [المغازي: ٢٥١/١، ٢٥٢] عن يونس بن محمد، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه نحو ذلك.

قال الواقدي: وكان ابن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل فإذا أنا بنار تأججت فهبتها، وإذا برجل يخرج منها بسلسلة يجتنبها يهيجه العطش، فإذا رجل يقول: لا تسقه، فإنه قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبي بن خلف.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٠٧٣)، م (١٧٩٣)] كما تقدم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدَّ غضبُ اللهِ على رجلٍ يقتلُه رسولُ اللهِ في سبيلِ اللهِ».

ورواه البخاري [٤٠٧٤] من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: «اشتد غضب الله على من قتله رسول الله في سبيل الله».

وقال البخاري [٤٠٨٠] وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابراً قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه،

فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهونني والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: «لا تَبكيه أو ما تبكيه مازالت الملائكة تُظلُّه بأجنحتِها حتى رُفِعَ».

هكذا ذكر هذا الحديث ههنا معلقاً، وقد أسنده في الجنائز عن بندار عن غندر عن شعبة [١٢٤٤].

ورواه مسلم [٢٤٧١] والنسائي [١٨٤٤] من طرق عن شعبة به.

وقال البخاري [٤٠٤٥]: حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله بن المبارك عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف أُتي بطعام وكان صائما فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني كُفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتل حمزة وهو خير مني ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط - أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا - وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

انفرد به البخاري.

وقال البخاري [٤٠٨٢]: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الأعمش عن شقيق عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه فقال لنا النبي ﷺ: «غطُّوا بها رأسَه واجعلُوا على رجليه الإذْخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها».

وأخرجه بقية الجماعة [م (٩٤٠)، د (٢٨٧٦)، ت (٣٨٥٣)، س (١٩٠٢)] إلا ابن ماجه من طرق عن الأعمش به.

وقال البخاري [٤٠٦٥]: حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هُزِمَ المشركون فصرخ إبليس لعنةُ الله عليه: أي عباد الله أخراكم. فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي أبي. قال: قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه. فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله مازال في حذيفة بقية خير حتى لقي الله عز وجل.

قلت: كان سبب ذلك أن اليمان وثابت بن وقش كانا في الآطام مع النساء لكبرهما وضعفهما فقالا: إنه لم يبق من آجالنا إلا ظمء حمار، فنزلا ليحضرا الحرب، فجاء طريقهما ناحية المشركين، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فقتله المسلمون خطأ، وتصدَّق حذيفة بدية أبيه على المسلمين، ولم يعاتب أحداً منهم لظهور العذر في ذلك.

سنة ٣- إصابة عين قتادة في أُحد

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣٠٨]: وأُصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى سقطت على وجنته فردّها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد حتى سالت على خده فردها رسول الله ﷺ مكانها فكانت أحسن عينيه وأحدهما وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

وروى الدارقطني بإسناد غريب عن مالك، عن محمد بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبيه، عن أبي سعيد، عن أخيه قتادة بن النعمان قال: أصيبت عيناي يوم أحد فسقطتا على وجنتي فأتيت بهما رسول الله ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان. والمشهور الأول أنه إنما أُصيبت عينه الواحدة. ولهذا لما وفد بعض ولده على عمر بن عبد العزيز قال له: من أنت؟ فقال له مرتجلا:

أنا ابنُ الذي سالتْ على الخدِّ عينهُ ... فرُدَّت بكفِّ المُصطفى أحسنَ الردِّ
فعادتْ كما كانت لأول أمرِها ... فيا حُسْنَها ما عَيْنٍ ويا حُسْنَ ما خدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارمُ لا قَعبان من لبنٍ ... شِيبًا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته ﷺ.

سنة ٣- دفاعُ أم عمارة وأبي دجانة وغيرهما عن النبي ﷺ

قال ابن هشام [السيرة: ٨١/٢، ٨٢]: وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري: أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي. قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة. ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٢/٢]: وترس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه حتى كثر فيه النبل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٢/٢]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣٠٩]: وحدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخو بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: فما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل وبه سمي أنس بن مالك.

فحدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته. عرفته ببنانه.

قال ابن هشام [السيرة: ٨٣/٢]: وحدثني بعض أهل العلم أن عبد الرحمن بن عوف أصيب فوه يومئذ فهتم وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعرج.

سنة ٣- إشاعة مقتل النبي ﷺ في أحد، ومقتل حمزة وقصة قزمان

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٣/٢، ٨٤]: وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقول الناس: قُتل رسول الله ﷺ - كما ذكر لي الزهري - كعب بن مالك قال: رأيت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إليَّ رسول الله ﷺ أن أنصت.

قال ابن إسحاق: فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف (فذكر قتله عليه الصلاة والسلام أبياً كما تقدم).

قال ابن إسحاق: وكان أبيّ بن خلف، كما حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العودَ - فرساً - أعلفه كل يوم فرَقاً من ذرة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله». فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم فقال: قتلني والله محمد. فقالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك بأس. قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصق علي لقتلني. فمات عدو الله بسرَف وهم قافلون به إلى مكة. قال ابن إسحاق: فقال حسان بن ثابت في ذلك:

لقد ورثَ الضلالةَ عن *** أبيه أبيٌّ يومَ بارزه الرسولُ
أتيتَ إليه تحملُ رِمَّ عَظْمٍ *** وتُوعِده وأنتَ به جهولُ
وقد قتلتْ بنو النجّار منكم *** أميةَ إذ يُغوِّثُ يا عقيلُ
وتبَّ ابنا ربيعةَ إذ أطاعا *** أبا جَهْلٍ لأمِّهما الهبولُ
وأفلتَ حارثٌ لمّا شُغِلْنا *** بأسْرِ القومِ أُسرَتُهُ فَليلُ

وقال حسان بن ثابت أيضاً:

ألا من مبلغ عني أبيّاً *** فقد أُلقيتَ في سُحْقِ السعير
تُمنِّي بالضلالةِ من بعيدٍ *** وتُقسِمُ إنْ قَدَرْتَ مع النذور
تَمنِّيكَ الأماني من بعيدٍ *** وقولُ الكفرِ يرجعُ في غرور
فقد لاقتْك طعنةُ ذي حِفاظٍ *** كريمِ البيتِ ليس بذي فجور
له فضلٌ على الأحياءِ طُراً *** إذا نابتْ مُلِمّاتُ الأمور

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٥/٢]: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب، خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماءً من المهراس، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه ولم يشرب منه وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول: «اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه».

وقد تقدم شواهد ذلك من الأحاديث الصحيحة بما فيه الكفاية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٦/٢]: فبينا رسول الله ﷺ في الشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذ علت عالية من قريش الجبل.

قال ابن هشام: فيهم خالد بن الوليد.

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعْلُونا». فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل، ونهض النبي ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها وقد كان بدَّن رسول الله ﷺ وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها.

فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «أَوْجَبْ طلحة» حين صنع برسول الله ﷺ يومئذ ما صنع.

قال ابن هشام [السيرة: ٨٧/٢]: وذكر عمر مولى غفرة: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التي أصابته وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٢/٢]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: كان فينا رجل أتيٌّ لا يدرى من هو يقال له: قزمان، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: «إنه لَمِن أهل النار» قال: فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً فقتل هو وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار بني ظَفَر قال: فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر. قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. قال: فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه.

وقد ورد مثل قصة هذا في غزوة خيبر كما سيأتي إن شاء الله.

قال الإمام أحمد [٣٠٩/٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن المسيب عن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهلِ النار».

فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديداً فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله الرجل الذي قلت: «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالا شديداً وقد مات فقال النبي ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض القوم أن يرتاب فبينما هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت ولكن به جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأُخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالا فنادى في الناس «إنه لا يَدخلُ الجنةَ إلا نفسٌ مسلمةٌ وإن الله يؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر». وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٠٦٢)، م (١١١)] من حديث عبد الرزاق به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٨٨/٢، ٨٩]: وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق وكان أحد بني ثعلبة بن الفِطيون فلما كان يوم أحد قال: يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل. فقال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «مُخَيريق خيرُ يهود».

قال السهيلي [الروض الأنف: ص٧٦]: فجعل رسول الله ﷺ أموال مخيريق - وكانت سبع حوائط - أوقافاً بالمدينة.

قال محمد بن كعب القرظي: وكانت أول وقف بالمدينة.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٠/٢]: وحدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد عن أبي هريرة أنه كان يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يُصَلِّ قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ فيقول: أُصَيرم بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش، قال الحصين: فقلت لمحمود بن لبيد: كيف شأن الأُصَيرم؟

قال: كان يأبى الإسلام على قومه فلما كان يوم أحد بدا له فأسلم، ثم أخذ سيفه فعدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثبتته الجراحة قال: فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به فقالوا: والله إن هذا للأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث فسألوه فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذت سيفي وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلت حتى أصابني ما أصابني. فلم يلبث أن مات في أيديهم فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه لمن أهل الجنة».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٠/٢، ٩١]: وحدثني أبي عن أشياخ من بني سلمة قالوا: كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا: إن الله قد عذرك. فأتى رسول الله ﷺ وقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنت فقد عَذَرَكَ الله فلا جهادَ عَلَيْكَ» وقال لبنيه: «ما عليكُم أنْ لا تمنعُوه لعل اللَّهَ أنْ يرزقه الشهادة» فخرج معه فقُتل يوم أحد رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣١٢]: ووقعت هند بنت عتبة - كما حدثني صالح بن كيسان - والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يُجدّعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خدماً وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً. وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

وذكر موسى بن عقبة أن الذي بقر عن كبد حمزة وحشي فحملها إلى هند فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩١/٢، ٩٢]: ثم عَلَتْ على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزَيْناكُم بيوم بدرِ ... والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعرِ
ما كانَ عن عُتبةَ لي من صبرِ ... ولا أخي وعمِّه وبكرِ
شفَيْتُ نفسي وقَضَيتُ نَذْري ... شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري
فشكرُ وحشيٍّ عليَّ عُمري ... حتى ترمَّ أعظُمي في قبري

قال: فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب فقالت:

خَزِيتِ في بدرٍ وبعد بدرِ ... يا بنتَ وقَّاعٍ عظيمِ الكفرِ
صبَّحكِ اللَّهُ غداةَ الفجرِ ... ملْهاشميِّين الطوالِ الزُّهرِ
بكلِّ قطَّاعٍ حُسامٍ يفري ... حمزةُ ليثي وعليٌّ صَقْري
إذ رامَ شيبُ وأبوكِ غدري ... فخضَّبا منهُ ضَواحي النَّحرِ
ونذرُكِ السوءَ فشرُّ نذرِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٣/٢]: وكان الحليس بن زبان أخو بني الحارث بن عبد مناة - وهو يومئذ سيد الأحابيش - مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول: ذق عُقَق. فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً. فقال: ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلّة.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣١٢، ٣١٣]: ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمتَ فَعَالِ، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعل هبل (أي أظهر دينك)، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قُمْ يا عمر فأجبه فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» فقال له أبو سفيان: هلم إلي ياعمر. فقال رسول الله ﷺ لعمر: «ائته فانظر ما شأنه». فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللّهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت عندي أصدق عندي من ابن قمئة وأبر.

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣١٣]: ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت، وما نهيت ولا أمرت.

قال: ولما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم هو بيننا وبينك موعد».

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

سنة ٣- دعاء النبي ﷺ بعد الوقعة يوم أحد

قال الإمام أحمد [٤٢٤/٣]: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي عن ابن رفاعة الزرقي عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استوُوا حتى أُثنيَ على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللّهم لك الحمدُ كله، اللّهم لا قابضَ لِمَا بَسطتَ ولا باسطَ لِمَا قَبضتَ ولا هاديَ لِمَن أضللتَ ولا مضلَّ لمن هَديتَ ولا معطيَ لما منعت ولا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُقربَ لما باعدت ولا مبعِّد لما قربت. اللّهم ابسطْ علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك. اللّهم إني أسألُك النعيمَ المُقيمَ الذي لا يحولُ ولا يزول. اللّهم إني أسألك النعيمَ يومَ العَيْلَة والأمنَ يومَ الخوفِ. اللّهم إني عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما مَنعتنا. اللّهم حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ واجعلنا من الرَّاشدين. اللّهمَّ تَوَفَّنا مُسلمين وأَحْيِنا مُسلمين وألْحِقْنا بالصَّالحين غيرَ خزايا ولا مَفْتُونين. اللّهمَّ قَاتِلِ الكفرَةَ الَّذين يُكذِّبون رُسلَك ويَصُدُّون عن سبيلِك، واجعَلْ عليهم رِجْزَكَ وعذَابَك. اللّهم قاتِلِ الكفرَة الذين أُوتُوا الكتابَ إلهَ الحقّ».

ورواه النسائي في اليوم والليلة [كبرى (١٠٤٤٥)] عن زياد بن أيوب عن مروان بن معاوية عن عبد الواحد بن أيمن عن عبيد بن رفاعة عن أبيه به.

سنة ٣- تمثيل قريش بحمزة ومقتل سعد بن الربيع

قال ابن إسحاق [سيرته: ص٣١٣، ٣١٤]: وفرغ الناس لقتلاهم فحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني أخو بني النجار أن رسول الله ﷺ قال: «مَن رجلٌ ينظر لي ما فعلَ سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن

أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات فقال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ماجزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات قال: فجئت النبي ﷺ فأخبرته خبره.

قلت: كان الرجل الذي التمس سعداً في القتلى محمد بن مسلمة فيما ذكره محمد بن عمر الواقدي [المغازي: ٢٩٢/١، ٢٩٣] وذكر أنه ناداه مرتين فلم يجبه فلما قال: إن رسول الله أمرني ان انظر خبرك أجابه بصوت ضعيف وذكره.

وقال الشيخ أبو عمر في الاستيعاب [٥٩٠/٢]: كان الرجل الذي التمس سعداً أبي بن كعب فالله أعلم.

وكان سعد بن الربيع من النقباء ليلة العقبة ﷺ وهو الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٥/٢، ٩٦]: وخرج رسول الله ﷺ فيما بلغني يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه.

فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال حين رأى ما رأى: «لولا أن تحزنَ صفية وتكون سُنَّة من بعدي لتركتُه حتى يكونَ في بطون السِّباع وحواصلِ الطير، ولئن أظهَرَني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلا منهم» فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٦/٢]: فحدثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب، وحدثني من لا أتهم عن ابن عباس أن الله عز وجلّ أنزل في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ الآية. قال: فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة.

قلت: هذه الآيات مكية وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين فكيف يلتئم هذا مع هذا فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٦/٢]: وحدثني حميد الطويل عن الحسن عن سمرة قال: ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه حتى يأمر بالصدقة وينهى عن المثلة.

وقال ابن هشام [السيرة: ٩٦/٢]: ولما وقف النبي ﷺ على حمزة قال: «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلي من هذا» ثم قال: «جاءني جبريلُ فأخبَرَني أنَّ حمزةَ مكتوب في أهلِ السماواتِ السَّبعِ حمزةُ بن عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسولِه».

قال ابن هشام: وكان حمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد أخوي رسول الله ﷺ من الرضاعة أرضعتهم ثلاثتهم ثويبة مولاة أبي لهب.

سنة ٣- الصّلاة على حمزة وقتلى أحد

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٧/٢]: وحدثني من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسُجِّيَ ببردة ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ثم أتي بالقتلى يوضعون إلى حمزة فصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة».

وهذا غريب وسنده ضعيف.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٢/٦، ٤٣]: ولم يقل به أحد من علماء الأمصار.

وقد قال الإمام أحمد [٤٦٣/١]: حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يُجهزن على جرحى المشركين فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرَّ: إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

فلما خالف أصحاب رسول الله وعصوا ما أُمروا به أُفرد رسول الله ﷺ في تسعة - سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم - فلما رهقوه قال: «رحِم الله رجلا ردَّهم عنا» قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه أيضاً قال: «رحم الله رجلاً ردَّهم عنا» فلم يزل يقول ذا حتى قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا»، فجاء أبو سفيان فقال: اعلُ هُبل! فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل»، فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نُساء ويوم نُسر، حنظلة بحنظلة، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لا سواء، أما قتْلانا فأحياء يُرزقون وقتْلاكم في النار يُعذّبون».

قال أبو سفيان: قد كانت في القوم مُثْلَة وإن كانت لعن غير ملأ منا، ما أمرت ولا نهيت ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرني، قال: فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله ﷺ: «أأكلت منه شيئاً؟» قالوا: لا، قال «ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار».

قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصاري وترك حمزة ثم جيء بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فصلى عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة».

تفرد به أحمد وهذا إسناد فيه ضعف أيضاً من جهة عطاء بن السائب فالله أعلم.

والذي رواه البخاري [٤٠٧٩] أثبت حيث قال:

حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن جابر بن عبد الله أخبره أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة». وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ولم يغسلوا.

تفرد به البخاري دون مسلم.

ورواه أهل السنن [د (٣١٣٨، ٣١٣٩)، ت (١٠٣٦)، س (١٩٥٤)، ج (١٥١٤)] من حديث الليث بن سعد به.

وقال أحمد [٢٩٩/٣]: حدثنا محمد يعني ابن جعفر حدثنا شعبة سمعت عبد ربه يحدث عن الزهري عن ابن جابر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال في قتلى أحد: «فإنَّ كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة». ولم يصل عليهم وثبت أنه صلى عليهم بعد ذلك بسنين عديدة قبل وفاته بيسير كما قال البخاري [٤٠٤٢]:

حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا زكريا بن عدي أخبرنا ابن المبارك عن حيوة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمُوَدِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فَرَط وأنا عليكم شهيد وإنَّ موعدكم الحوض وإني لأنظرُ إليه من مقامي هذا وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تَنَافَسُوها». قال: فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ.

ورواه البخاري في مواضع أخر [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠] ومسلم [٢٢٩٦] وأبو داود [٣٢٢٣، ٣٢٢٤] والنسائي [١٩٥٣] من حديث يزيد بن أبي حبيب به نحوه.

وقال الأموي: حدثني أبي حدثنا الحسن بن عمارة عن حبيب بن أبي ثابت قال: قالت عائشة: خرجنا من السحر نخرج رسول الله ﷺ إلى أحد نستطلع الخبر حتى إذا طلع الفجر إذا رجل محتجر يشتد ويقول:

لَبِّثْ قليلاً يَشْهَدِ الهَيْجا حَمَلْ

قالت: فنظرنا فإذا أُسيد بن حضير، ثم مكثنا بعد ذلك فإذا بعير قد أقبل، عليه امرأة بين وسقين قالت: فدنونا منها فإذا هي امرأة عمرو بن الجموح فقلنا لها: ما الخبر؟ قالت: دفع الله عن رسول الله ﷺ واتخذ من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥]. ثم قالت لبعيرها: حل. ثم نزلت، فقلنا لها: ما هذا؟ قالت: أخي وزوجي.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٧/٢]: وقد أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فارجعها لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي. قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنه مُثِل بأخي وذلك في الله فما أرضانا ما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك قال: «خَلِّ سبيلها»، فأتته فنظرت إليه وصلَّت عليه واسترجعت واستغفرت.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٧/٢]: ثم أمر به رسول الله ﷺ فدُفن ودفن معه ابن اخته عبد الله بن جحش وأمه أميمة بنت عبد المطلب وكان قد مُثِل به غير أنه لم يبقر عن كبده رضي الله عنهما.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٤/٦، ٤٥]: وكان يقال له المُجدَّع في الله.

قال: وذكر سعد أنه هو وعبد الله بن جحش دَعيا بدعوة فاستجيبت لهما فدعا سعد أن يلقى فارساً من المشركين فيقتله ويستلبه فكان ذلك ودعا عبد الله بن جحش أن يلقاه فارس فيقتله ويجدع أنفه في الله فكان ذلك.

وذكر الزبير بن بكار: أن سيفه يومئذ انقطع فأعطاه رسول الله ﷺ عرجوناً فصار في يد عبد الله بن جحش سيفاً يقاتل به ثم بيع في تركة بعض ولده بمائتي دينار وهذا كما تقدم لعكاشة في يوم بدر.

وقد تقدم في صحيح البخاري [٤٠٧٩] أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد بل في الكفن الواحد وإنما أرخص لهم في ذلك لما بالمسلمين من الجراح التي يشق معها أن يحفروا لكل واحد واحداً ويقدم في اللحد أكثرهما أخذاً للقرآن وكان يجمع بين الرجلين المتصاحبين في اللحد الواحد كما جمع بين عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وبين عمرو بن الجموح لأنهما كانا متصاحبين ولم يغسلوا بل تركهم بجراحهم ودمائهم كما روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٨/٢] عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير أن رسول الله ﷺ لما أشرف على القتلى يوم أحد قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء إنه ما من جريح يُجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمى جرحه اللونُ لونُ دمٍ والرِّيحُ ريحُ مِسك».

قال: وحدثني عمي موسى بن يسار أنه سمع أبا هريرة يقول: قال أبو القاسم ﷺ: «ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة وجرحه يَدْمى اللون لون الدم والريح ريح المسك».

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين [خ (٢٣٧)، م (١٨٧٦)] من غير هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٢٤٧/١]: حدثنا علي بن عاصم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ يوم أحد بالشهداء أن ينزع عنهم الحديد والجلود وقال: «ادفنوهم بدمائهم وثيابهم».

رواه أبو داود [٣١٣٤] وابن ماجه [١٥١٥] من حديث علي بن عاصم به.

وقال الإمام أبو داود في سننه [٣٢١٥]: حدثنا القعنبي أن سليمان بن المغيرة حدثهم عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر أنه قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقالوا: قد أصابنا قرح وجهد فكيف تأمرنا؟ فقال: «احفروا وأوسعوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد». قيل: يا رسول الله فأيهم يقدم؟ قال: «أكثرهم قرآناً».

ثم رواه من حديث الثوري عن أيوب عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر فذكره وزاد وأعمقوا [د (٣٢١٦)].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٨]: وقد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «ادفنوهم حيث صرعوا».

وقد قال الإمام أحمد [٣٩٦/٣]: حدثنا علي بن إسحاق حدثنا عبد الله وعتاب حدثنا عبد الله حدثنا عمر بن سلمة بن أبي يزيد المديني حدثني أبي سمعت جابر بن عبد الله يقول: استشهد أبي بأحد فارسلني أخواتي إليه بناضح لهن فقلن: اذهب فاحتمل أباك على هذا الجمل فادفنه في مقبرة بني سلمة. قال: فجئته وأعوان لي فبلغ ذلك نبي الله وهو جالس بأُحد فدعاني فقال: «والذي نفسي بيده لا يدفن إلا مع إخوته» فدفن مع أصحابه بأحد. تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٢٩٧/٣]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الأسود بن قيس عن نبيح عن جابر بن عبد الله: أن قتلى أحد حملوا من مكانهم فنادى منادي النبي ﷺ: أن رُدوا القتلى إلى مضاجعهم.

وقد رواه أبو داود [٣١٦٥] والنسائي [٢٠٠٤] من حديث الثوري، والترمذي [١٧١٧] من حديث شعبة.

والنسائي أيضا [٢٠٠٣] وابن ماجه [١٥١٦] من حديث سفيان بن عيينة كلهم عن الأسود بن قيس به.

وقال أحمد [٣٩٧/٣، ٣٩٨]: حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا عن نبيح العنزي عن جابربن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يقاتلهم وقال لي أبي عبدُ الله: يا جابر لا عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي قال: فبينا أنا في النظارين إذ

جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى لتدفنوها في مصارعها حيث قتلت فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا.

فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال: يا جابر بن عبد الله والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغير إلا ما لم يدع القتلُ أو القتيل.

ثم ساق الإمام قصة وفاء دين أبيه كما هو ثابت في الصحيحين [خ (٢١٢٧، ٢٣٩٥)].

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٩١/٣] من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استصرخناهم إليهم فأتيناهم فأخرجناهم فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دماً.

وفي رواية ابن إسحاق [الدلائل: ٢٩١/٣] عن جابر قال: فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس.

وذكر الواقدي [المغازي: ٢٩٧/١]: أن معاوية لما أراد أن يجري العين نادى مناديه: من كان له قتيل بأحد فليشهد، قال جابر: فحفرنا عنهم فوجدت أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته ووجدت جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه فأزيلت عنه فانبعث جرحه دماً، ويقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك رضي الله عنهم أجمعين وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا.

وقد قال البخاري [١٣٥١]: حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا حسين المعلم عن عطاء عن جابر قال: لما حضر أُحد دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله ﷺ وإن علي ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا وكان أول قتيل فدفنت معه آخر في قبره ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هُنَيَّةً غير أذنه.

وثبت في الصحيحين [خ (٤٠٨٠)، م (١٣٠)، (٢٤٧١)] من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه لما قتل أبوه جعل يكشف عنه الثوب ويبكي فنهاه الناس فقال رسول الله: «تبكيه أو لا تبكيه، لم تزل الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه».

وفي رواية أن عمته هي الباكية [خ (١٢٤٤)، م (١٢٩) (٢٤٧١)].

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٩٨/٣]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا فيض بن وثيق البصري حدثنا أبو عبادة الأنصاري عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لجابر: «يا جابر ألا أبشرك؟» قال: بلى بشرك الله بالخير، فقال: «أشعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمنَّ عليَّ عبدي ما شئت أُعطِكَهُ. قال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل مع نبيك وأقتل فيك مرة أخرى، قال: إنه قد سلف مني أنه إليها لا يرجع».

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٩٨/٣، ٢٩٩]: حدثنا أبو الحسن محمد بن أبي المعروف الإسفرايني حدثنا أبو سهل بشر بن أحمد حدثنا أحمد بن الحسين بن نصر حدثنا علي بن المديني حدثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري قال: سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصاري ثم السَّلَمي قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلي رسول الله ﷺ فقال: «مالي أراك مهتماً؟» قال: قلت: يا رسول الله قُتل أبي وترك ديناً وعيالاً، فقال: «ألا أخبرك ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلَّم أباك كِفاحاً وقال له: يا عبدي سلني أعطك. فقال: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال: إنه قد سبق مني: أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩]».

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٠/٢]: وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن محمد بن عقيل سمعت جابراً يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أبشرك يا جابر؟» قلت: بلى، قال: «إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله ثم قال له: ما تحب يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: أي رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى».

وقد رواه أحمد [٣٦١/٣] عن علي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن حجر بن علي بن ربيعة السلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر، وزاد: فقال الله: «إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون».

وقال أحمد [٣٧٥/٣]: حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر أصحاب أحد: «أما والله لوددت أني غودرت مع أصحاب نُحْصِ الجبل» يعني سفح الجبل. تفرد به أحمد.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٢٨٤/٣] من حديث عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة عن قطن بن وهب عن عبيد بن عمير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه فوقف عليه فدعا له ثم قرأ ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣].

قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزُوروهُم والذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رَدُّوا عليه».

وهذا حديث غريب.

وروي عن عبيد بن عمير مرسلاً [الكبير للطبراني: ٣٦٤/٢٠، وعنده «عبد الله بن عمير» بدل «عبيد بن عمير»]. وروى البيهقي [الدلائل: ٣٠٦/٣] من حديث موسى بن يعقوب عن عباد بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء فإذا أتى فُرْضة الشِّعْب قال: «السَّلامُ عَلَيكم بما صَبَرتُم فنِعمَ عُقبى الدَّار» ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله وكان عمر بعد أبي بكر يفعله وكان عثمان بعد عمر يفعله.

قال الواقدي [المغازي: ٣١٣/١]: كان النبي ﷺ يزورهم كل حول فإذا تفوَّه الشعب يقول: «السَّلام عَليكُم بما صَبَرتم فنِعم عُقبى الدَّار» ثم كان أبو بكر يفعل ذلك كل حول ثم عمر ثم عثمان وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم فتبكي عندهم وتدعو لهم، وكان سعد يسلم ثم يقبل على أصحابه فيقول: ألا تسلمون على قوم يردون عليكم. ثم حكى زيارتهم عن أبي سعيد وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وأم سلمة رضي الله عنهم.

وقال ابن أبي الدنيا [كتاب من عاش بعد الموت (٤٠)]: حدثني إبراهيم حدثني الحكم بن نافع حدثنا العطاف بن خالد حدثتني خالتي قالت: ركبت يوماً إلى قبور الشهداء ـ وكانت لا تزال تأتيهم ـ فنزلت عند حمزة فصليت

ما شاء الله أن أصلي وما في الوادي داعٍ ولا مجيب إلا غلاماً قائماً آخذاً برأس دابتي فلما فرغت من صلاتي قلت هكذا بيدي: السلام عليكم. قالت: فسمعت رد السلام علي يخرج من تحت الأرض أعرفه كما أعرف أن الله عز وجل خلقني وكما أعرف الليل منَ النهار فاقشعرّت كل شعرة مني.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١١٩/٢]: عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما أُصيبَ إخوانُكم يومَ أحد جَعلَ اللّه أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنةِ وتأكلُ مِن ثمارِها وتأوي إلى قناديلَ مِن ذهَبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحُسْنَ مقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنَّا أحياء في الجنة نُرزَق لئلا يَنْكُلُوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد؟ فقال اللّه عز وجل: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل اللّه في الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وروى مسلم [١٨٨٧] والبيهقي [الدلائل: ٣٠٣/٣] من حديث أبي معاوية عن الأعمش عن عبد اللّه بن مرة عن مسروق قال: سألنا عبد اللّه بن مسعود عن هذه الآية﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول اللّه ﷺ فقال: «أرواحُهم في جَوفِ طَيرٍ خُضرٍ تَسرَحُ في أيِّها شاءت ثم تأوي إلى قناديلَ معلقةٍ بالعرشِ» قال: «فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربُّك اطلاعة، فقال: سلُوني ما شئتم، فقالوا: يا ربنا وما نسألُك ونحن نسرَح في الجنَّة في أيِّها شئنا، فلمَّا رأوا أن لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا: نسألُك أن تَرُدَّ أرواحَنا إلى أجسادنا في الدنيا نُقتل في سبيلك» قال: فلما رأى أنهم لا يَسألُون إلا هذا تُركوا».

سنة ٣- عدد الشهداء

قال موسى بن عقبة جميع من استشهد يوم أحد من المهاجرين والأنصار تسعة وأربعون رجلاً.

وقد ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري [٣٩٦٨] عن البراء أنهم قتلوا من المسلمين سبعين رجلا فاللّه أعلم.

وقال قتادة عن أنس [خ: ٤٠٧٨]: قتل من الأنصار يوم أحد سبعون ويوم بئر مَعونَة سبعون ويوم اليمامة سبعون.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه كان يقول: يا ربَّ السبعين يوم أحد ويوم بئر معونة ويوم مؤتة ويوم اليمامة.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب: قتل من الأنصار يوم أحد سبعون ويوم اليمامة سبعون ويوم جسر أبي عبيد سبعون.

وهكذا قال عكرمة وعروة والزهري ومحمد بن إسحاق في قتلى أحد [تفسير الطبري: ١٦٥/٤، الدلائل للبيهقي: ٢٧٨/٣، ٢٧٩، سيرة ابن هشام: ١٢٦/٢] ويشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يعني أنهم قَتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين.

وعن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٦/٢] قتل من الأنصار - لعله من المسلمين - يوم أحد خمسة وستون.

وكلامه في السيرة يدل على أنه قتل من المسلمين يومئذ خمسة وستون أربعة من المهاجرين: حمزة وعبد اللّه بن جحش ومصعب بن عمير وشمّاس بن عثمان والباقون من الأنصار وسرد أسماءهم على قبائلهم.

وقد استدرك عليه ابن هشام [السيرة: ١٧٢/٢] زيادة على ذلك خمسة آخرين فصاروا سبعين على قول ابن هشام.

وسرد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٧/٢ - ١٢٩] أسماء الذين قتلوا من المشركين وهم اثنان وعشرون رجلا.

وعن عروة كان الشهداء يوم أحد أربعة أو قال: سبعة وأربعين.

وقال موسى بن عقبة: تسعة وأربعون.

قال موسى: وقتل من المشركين يومئذ ستة عشر رجلا.

وقال عروة: تسعة عشر.

وقال ابن إسحاق: اثنان وعشرون.

وقال الربيع عن الشافعي [الدلائل للبيهقي: ٢٨٠/٣، ٢٨١]: ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي وقد كان في الأسارى يوم بدر فمنَّ عليه رسول اللّه ﷺ بلا فدية واشترط عليه ألا يقاتله فلما أسر يوم أحد قال: يا محمد امنن علي لبناتي وأعاهد أن لا أقاتلك فقال له رسول اللّه ﷺ: «لا أدَعُكَ تمسح عارضَيْك بمكة وتقول: خَدَعتُ محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه.

وذكر بعضهم [خ (٦١٣٣)، م (٢٩٩٨)] أنه يومئذ قال رسول اللّه ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[خ (٦١٣٣)، م (٢٩٩٨)].

سنة ٣- بعضُ من قُتل في أُحد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٨/٢]: ثم انصرف رسول اللّه ﷺ إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش كما ذكر لي فلما لقيت الناس نعي إليها أخوها عبد اللّه بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ زوجَ المرأةِ منها لَبِمَكان» لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

وقد قال ابن ماجه [١٥٩٠]: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا إسحاق بن محمد الفروي حدثنا عبد اللّه بن عمر عن إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن جحش عن أبيه عن حمنة بنت جحش؛ أنه قيل لها: قتل أخوك، فقالت: رحمه اللّه وإنا للّه وإنا إليه راجعون. فقالوا: قتل زوجك قالت: واحزناه. فقال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ لِلزَّوجِ مِن المرأةِ لَشُعبةً ماهيَ لِشيء»

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٩/٢]: وحدثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: مر رسول اللّه ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول اللّه ﷺ بأحد فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول اللّه ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد اللّه كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَل.

قال ابن هشام [السيرة: ٩٩/٢]: الجلل يكون من القليل والكثير وهو ههنا القليل.

قال امرؤ القيس:

لِقَتْلِ بني أسَدٍ ربَّهم ... ألا كُلُّ شيءٍ سِواهُ جَلَل

أي صغير وقليل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٠٠/٢]: فلما انتهى رسول اللّه ﷺ

إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: «اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني في هذا اليوم» وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «لَئِنْ كنتَ صَدقتَ القتالَ لقد صَدَقَهُ معكَ سَهل بن حُنيف وأبو دُجانة».

وقال موسى بن عقبة في موضع آخر [الدلائل للبيهقي: ٢١٥/٣]: ولما رأى رسول الله ﷺ سيف علي مخضباً بالدماء قال: «لئن كنتَ أحسنتَ القتالَ فقد أحْسَنَ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلَح والحارثُ بن الصمَّة وسهل بن حنيف».

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٨٣/٣، ٢٨٤] عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء علي بن أبي طالب بسيفه يوم أحد قد انحنى فقال لفاطمة: هاك السيف حميداً فإنها قد شفتني، فقال رسول الله ﷺ: «لَئِن كنتَ أجدْتَ الضربَ بسيفِكَ لقد أجاده سهل بن حُنيف وأبو دُجانة وعاصم بن ثابت والحارثُ بن الصمَّة».

قال ابن هشام [السيرة: ١٠٠/٢]: وسيف رسول الله ﷺ هذا هو ذو الفقار.

قال: وحدثني بعض أهل العلم عن ابن أبي نجيح قال: نادى منادٍ يوم أحد: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

قال: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «لا يصيبُ المشركون منّا مثلها حتى يفتحَ اللهُ علينا».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٩٩/٢]: ومرّ رسول الله ﷺ بدار بني عبد الأشهل فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال: «لكنَّ حمزةَ لا بواكيَ لهُ».

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ.

فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن بعض رجال بني عبد الأشهل قال: لما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن في باب المسجد يبكين فقال: «ارجعنَ يَرحمكنَّ اللهُ فقد آسيتُن بأنفُسِكنَّ».

قال: ونهى رسول الله ﷺ يومئذ عن النَّوح فيما قال ابن هشام، وهذا الذي ذكره ابن إسحاق منقطع ومنه مرسل.

وقد أسنده الإمام أحمد [٤٠/٢] فقال: حدثنا زيد بن الحباب حدثني أسامة بن زيد حدثني نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد فجعل نساء الأنصار يبكين على من قُتل من أزواجهن قال: فقال رسول الله ﷺ: «ولكنَّ حمزةَ لا بَواكيَ لهُ» قال: ثم نام فاستنبه وهُن يبكين قال: «فهنَّ اليومَ إذاً يَبكينَ يَندُبنَ حَمزةَ».

وهذا على شرط مسلم.

وقد رواه ابن ماجه [١٥٩١] عن هارون بن سعيد عن ابن وهب عن أسامة بن زيد الليثي عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بنساء بني عبد الأشهل يبكين هَلكاهُنَّ يوم أحد فقال رسول الله ﷺ: «لكنَّ حمزةَ لا بَواكيَ لهُ» فجاء نساء الأنصار يبكين حمزة فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «وَيْحهُنَّ ما انقلَبنَ بعدُ؟! مُروهنَّ فَلْيَنقلِبنَ ولا يَبكينَ على هالكٍ بعد اليوم».

وقال موسى بن عقبة: ولما دخل رسول الله ﷺ أزقة المدينة إذا النوح والبكاء في الدور قال: «ماهذا؟» قالوا: هذه نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال: «لكن حمزةَ لا بواكيَ له» واستغفر له فسمع ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وعبد الله بن رواحة فمشوا إلى دورهم فجمعوا كل نائحة باكية كانت بالمدينة فقالوا: والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عم النبي ﷺ فإنه قد ذكر أنه لا بواكي له بالمدينة.

وزعموا أن الذي جاء بالنوائح عبد الله بن رواحة فلما سمع رسول الله ﷺ قال: «ما هذا؟» فأُخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم فاستغفر لهم وقال لهم خيرا وقال: «ما هذا أَرَدْتُ، وما أُحب البكاءَ» ونهى عنه.

وهكذا ذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير سواء [الدلائل للبيهقي: ٣٠٠/٣، ٣٠١، عن ابن لهيعة، به].

قال موسى بن عقبة: وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر والتفريق عن رسول الله ﷺ وتحزين المسلمين وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب ولكنه طالِب مُلك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذي أصابوا منكم فأنزل الله القرآن في طاعة من أطاع ونفاق من نافق وتعزية المسلمين يعني فيمن قُتل منهم فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١] الآيات كلها كما تكلمنا على ذلك في التفسير ولله الحمد والمنة.

سنة ٣- خروج النبي ﷺ وأصحابه في ملاحقة سفيان

قال موسى بن عقبة بعد اقتصاصه وقعة أحد وذكره رجوعه عليه السلام إلى المدينة: وقدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال: نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فأمر رسول الله ﷺ - وأصحابه وبهم أشد القرح - بطلب العدو ليسمعوا بذلك وقال: «لا يَنطلِقنَّ مَعي إلا مَن شَهِدَ القتالَ». فقال عبد الله بن أبي: أنا راكب معك. فقال: «لا». فاستجابوا لله ولرسوله على الذي بهم من البلاء فانطلقوا. فقال الله في كتابه العزيز: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٢].

قال: وأذن رسول الله ﷺ لجابر حين ذكر أن أباه أمره بالمقام في المدينة على أخواته، قال: وطلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد.

وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير سواء [الدلائل للبيهقي: ٣١٣/٣، من طريق ابن لهيعة، به].

وقال محمد بن إسحاق في مغازيه [سيرة ابن هشام: ١٠١/٢]: وكان يوم أُحد يوم السبت النصف من شوال فلمّا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو وأذن مؤذّنه الا يخرجن أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله فاذن له.

قال ابن إسحاق: وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو ليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ١٠١/٢]: فحدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان: أن

رجلاً من بني عبد الأشهل قال: شهدت أحداً أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً منه، فكان إذا غُلب حملته عُقْبَةً ومشى عُقْبَةً حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٠١، ١٠٢]: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/١٠٢]: وقد كان استعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٠٢، ١٠٣]: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نُصح لرسول الله ﷺ بتهامة صَفْقُهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد يومئذ مشرك مرّ برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد فقال: يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا حَدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرّن على بقيتهم فلنفرغن منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر. قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي ... إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ
تُردِي بأُسْدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ ... عند اللقاءِ ولا مِيلٍ معازيلِ
فظلْتُ عَدْواً أظنُّ الأرضَ مائلةً ... لما سَمَوا برئيسٍ غيرِ مخذولِ
فقلتُ: ويلَ ابنِ حربٍ من لقائكمُ ... إذا تَغَطْمَطَتِ البطحاءُ بالجيلِ
إني نذيرٌ لأهلِ البَسْلِ ضاحيةً ... لكلِ ذي إرْبَةٍ منهم ومعقولِ
من جيشِ أحمدَ لا وَخْشٍ قنابلُه ... وليسَ يوصَفُ ما أنذرتُ بالقيلِ

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومرّ به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة؟ قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأُحمّل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: «حَسْبُنا اللّهُ ونِعمَ الوكيلُ». وكذا قال الحسن البصري.

وقد قال البخاري [٤٥٦٣]: حدثنا أحمد بن يونس أراه قال: حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقيَ في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

تفرد بروايته البخاري.

وقد قال البخاري [٤٠٧٧]: حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم؛ الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال: «من يذهب في أثرهم؟». فانتدب منهم سبعون رجلا فيهم أبو بكر والزبير.

هكذا رواه البخاري.

وقد رواه مسلم مختصراً [٢٤١٨] من أوجهٍ عن هشام.

وهكذا رواه سعيد بن منصور [السنن (٥٤٥)] وأبو بكر الحميدي [مسنده (٢٦٣)] جميعاً عن سفيان بن عيينة. وأخرجه ابن ماجه [١٢٤] من طريقه عن هشام بن عروة به.

ورواه الحاكم في مستدركه [٢/٢٩٨، ٣/٢٩] من طريق أبي سعيد المؤدِّب عن هشام بن عروة به.

ورواه من حديث البهيّ عن عروة وقال في كل منهما: صحيح ولم يخرجاه.

كذا قال! وهذا السياق غريب جداً فإن المشهور عند أصحاب المغازي أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد كل من شهد أحداً وكانوا سبعمائة كما تقدم قتل منهم سبعون وبقي الباقون.

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٤/١٧٧] من طريق العوفي عن ابن عباس قال: إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرعب يوم أحد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة وكانت وقعة أحد في شوال وكان التجار يقدمون في ذي القعدة المدينة فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة وإنهم قدموا بعد وقعة أحد وكان أصاب المسلمين القرح واشتكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ واشتد عليهم الذي أصابهم وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين وقال: «إنما ترتحلون الآن فيأتون الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عام قابل» فجاء الشيطان يخوّف أولياءه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه فقال: «إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد» فانتدب معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وابن مسعود وحذيفة في سبعين رجلاً فساروا في طلب أبي سفيان حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذا غريب أيضاً.

وقال ابن هشام [السيرة: ٢/١٠٤]: حدثنا أبو عبيدة: أن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أحد أراد الرجوع إلى المدينة فقال لهم صفوان بن أمية: لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فرجعوا، فقال النبي ﷺ وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة: «والذي نفسي بيده لقد سُوِّمتْ لهم حجارة لو صُبّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب» قال: وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه المدينة معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس جد عبد الملك بن مروان لأمه عائشة بنت معاوية وأبا عزة الجمحي وكان رسول الله ﷺ قد أسره ببدر ثم منّ عليه فقال: يا رسول الله أقلني،

فقال: «لا والله لا تَمسحُ عارِضَيْكَ بمكةَ تقولُ خَدعتُ محمداً مرتَين»، اضرب عُنُقه يا زبير»، فضربَ عُنُقه.

قال ابن هشام [السيرة: ١٠٤/٢، ١٠٥]: وبلغني عن ابن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ لا يُلدغُ مِن جحرٍ مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت» فضرب عنقه.

وذكر ابن هشام [السيرة: ١٠٤/٢، ١٠٥] أن معاوية بن المغيرة بن أبي العاص استأمن له عثمان على أن لا يقيم بعد ثلاث فبعث إليه رسول الله ﷺ بعدها زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: «ستجدانِه في مكان كذا وكذا فاقتُلاه» ففعلا رضي الله عنهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٠٥/٢]: ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان عبد الله بن أبي كما حدثني الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر له شرفاً في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين اظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعَزِّروه واسمعوا له وأطيعوا. ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجراً أن قمت أشدِّد أمره. فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بُجراً أن قمت أشدد أمره. قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ. قال: والله ما ابتغي أن يستغفر لي.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٠٦/٢ - ١٢١] ما نزل من القرآن في قصة أحد من سورة آل عمران عند قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١] قال: إلى تمام ستين آية، وتكلم عليها، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية.

ثم شرع ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٢/٢ - ١٢٧] في ذكر شهداء أحد وتعدادهم بأسمائهم وأسماء آبائهم على قبائلهم كما جرت عادته فذكر من المهاجرين أربعة حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان رضي الله عنهم ومن الأنصار إلى تمام خمسة وستين رجلا. واستدرك عليه ابن هشام [السيرة: ١٢٧/٢] خمسة أخرى فصاروا سبعين على قول ابن هشام. ثم سمى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٧/٢ - ١٢٩] من قتل من المشركين وهم اثنان وعشرون رجلا على قبائلهم أيضاً.

قلت: ولم يُؤسَر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي كما ذكره الشافعي [الدلائل للبيهقي: ٢٨٠/٣، ٢٨١، عن الربيع به] وغيره وقتله رسول الله ﷺ صبراً بين يديه أمر الزبير - ويقال عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح - فضرب عنقه.

سنة ٣- ما قال المؤمنون والكفار من شعر وقعة أحد

وإنما نُورد شعر الكفار لنذكر جوابها من شعر الإسلام ليكون أبلغ في وقعها في الأسماع والأفهام وأقطع لشبهة الكفرة الطّغام.

قال الإمام محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٢٩/٢ - ١٣١] رحمه الله: وكان مما قيل من الشعر يوم أحد قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي وهو على دين قومه من قريش فقال:

ما بالُ هَمٍّ عميدٍ باتَ يطرقني ... بالوُدِّ من هندَ إذ تعدو عَواديها
باتَتْ تُعاتبني هندٌ وتعذِلُني ... والحربُ قد شَغلت عنّي مَواليها
مهلا فلا تَعذليني إنَّ من خُلُقي ... ما قد علمتِ وما إنْ لستُ أُخفيها
مساعفٌ لبني كعبٍ بما كَلِفوا ... حمالُ عبءٍ وأثقالٍ أعانيها
وقد حملتُ سلاحي فوق مُشْتَرِفٍ ... ساطٍ سَبوحٍ إذا يجري يُباريها
كأنه إذ جرى عَيْرٌ بفدفدةٍ ... مكدَّمٌ لاحقٌ بالعُون يَحميها
من آل أعوجَ يرتاحُ النديُّ له ... كجذعِ شعْراءَ مستعلٍ مَراقيها
أعددتُه ورِقاقَ الحدِّ منتخِلا ... ومارِناً لخطوبٍ قد أُلاقيها
هذا وبيضاءَ مثلَ النِّهي مُحكَمةً ... نِيطَت عليَّ فما تبدو مَساويها
سُقْنا كنانةَ من أطراف ذي يَمَنٍ ... عرضَ البلادِ على ما كانَ يُزجيها
قالت كنانةُ أنَّى تذهبونَ بنا؟ ... قلنا النخيلُ فأمُّوها ومن فيها
نحن الفوارسُ يوم الجرِّ من أُحدٍ ... هابتْ معدٌّ فقلْنا نحن نأتيها
هابوا ضِراباً وطعناً صادقاً خَذِماً ... مما يرون وقد ضُمَّتْ قواصيها
ثُمَّتْ رُحنا كأنا عارضٌ بَرِدٌ ... وقام هامُ بني النجّار يبكيها
كأن هامهم عند الوغى فِلَقٌ ... من قَيضِ رُبْدٍ نفَتْه أداحيها
أو حنظلٌ ذعذعَتْه الريحُ في غُصُنٍ ... بالٍ تَعاوَرُه منها سوافيها
قد نبذل المالَ سحّاً لا حسابَ له ... ونطعنُ الخيلَ شَزْراً في مآقيها
وليلةٍ من جُمادى ذاتِ أنديةٍ ... جَرْبى جُماديةٍ قد بتُّ أسريها
وليلةٍ يصطلي بالفرثِ جازرُها ... يختصُّ بالنَّقرى المثرين داعيها
لا ينبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ... من القَريسِ ولا تَسري أفاعيها
أوقدتُ فيها لذي الضرَّاء جاحمةً ... كالبرق ذاكيةَ الأركان أحميها
أورثَني ذلكم عمروٌ ووالدُه ... من قبلِه كان بالمثنى يُغاليها
كانوا يُبارون أنواءَ النجومِ فما ... دَنَتْ عن السُّورةِ العُليا مساعيها

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣١/٢، ١٣٢]: فأجابه حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال - قال ابن هشام: وتروى لكعب بن مالك وغيره.

قلت: وقول ابن إسحاق أشهر وأكثر والله أعلم:

سُقتم كنانةَ جهلا من سفاهتكم ... إلى الرسول فجندُ اللهِ مخزيها
أوردتموها حياضَ الموت ضاحيةً ... فالنارُ موعدُها والقتلُ لاقيها
جمعتُموهم أحابيشاً بلا حَسَبٍ ... أئمةَ الكفرِ غرَّتكم طواغيها
ألا اعتبرتُم بخيلِ اللهِ إذ قَتلتْ ... أهلَ القليبِ ومَنْ ألقينَه فيها
كم من أسيرٍ فككناهُ بلا ثمنٍ ... وجزِّ ناصيةٍ كنّا مواليها

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣٢/٢ - ١٣٥]: وقال كعب بن مالك يجيب هبيرة بن أبي وهب المخزومي أيضاً:

ألا هل أتى غسّانَ عنّا ودُونهم ... منَ الأرضِ خرقٌ سيرُه متنعنع
صحارى وأعلامٌ كأن قتامَها ... من البُعدِ نَقْعٌ هامدٌ متقطع
تظل به البُزْلُ العراميسُ رُزَّحاً ... ويخلو به غيثُ السنين فيمرع
به جِيَفُ الحسرى يلوحُ صَليبها ... كما لاحَ كتّانُ التِّجارِ الموضَّعُ

بـه العـين والآرام يمشـين خِلْفَـةً   وبيـضُ نعـام قيضُـه يتفلّـع
مُجَالَدُنا عـن ديننا كـلُّ فخمـةٍ   مُذَرَّبـةٍ فيهـا القوانِـسُ تلمـع
وكـلُّ صمـوتٍ في الصُّـوان كأنهـا   إذا لُبِسَـتْ نِهْـيٌ مـن المـاء مُـترع
ولكـن ببـدرٍ سـائلوا مـن   لقيتم من الناس والأنباءُ بالغيبِ تنفع
وإنّا بـأرض الخوفِ لـو كـان أهلُها   سِوانا لقـد أجلـوا بليـلٍ فأقشـعوا
إذا جـاء منّـا راكـبٌ كـان قولُـه   أعِدّوا لما يزجي ابنُ حربٍ ويجمـع
فمهمـا يهـمُّ النـاسُ ممـا يَكيدنـا   فنحن له مـن سـائر النـاس أوسـع
فلـو غيرُنـا كـانت جميعـاً تكيـدُه   البريّـةُ قـد أعطـوا يـداً وتوزّعـوا
نُجـالدُ لا تبقـى علينـا   قبيلةٌ من الناس إلا أن يَهابوا ويفظعوا
ولما ابتنَـوا بـالعِرض قـالت سَـراتنا   عـلامَ إذا لم نمنـع العِـرضَ نـزرع
وفينـا رسـولُ اللّـه نتْبَـع   أمرَه إذا قـال فينـا القـولَ لا نتطلّـع
تدلّـى عليـه الـروحُ مـن عنـد ربـه   يُـنزّلُ مـن جـوّ السـماء ويُرفـع
نُشـاوره فيمـا نريـد وقَصرُنـا   إذا مـا اشـتهى أنّـا نطيـع ونسـمع
وقـال رسـولُ اللّـه لمّـا بـدوا لنـا   ذروا عنكُـمُ هَـوْلَ المنيّـات واطمعـوا
وكونـوا كمـن يَشـري الحيـاةَ تقرُّبـاً   إلى مَلِـكٍ يُحيَـا لديـه ويرجـع
ولكـن خـذوا أسـيافَكم وتوكّلـوا   علـى اللّـه إن الأمـرَ للّـه أجمـع
فسِـرْنا إليهـم جهـرةً في رحـالهم   ضُحَيّـاً علينـا البيـضُ لا نتخشّـع
بملمومـةٍ فيهـا السَّـنَوَّرُ والقنـا   إذا ضَربـوا أقدامَهـا لا تـورّع
فجئنـا إلى مـوجٍ مـن البحـر وسـطَه   أحـابيشُ منهـم حاسـرٌ ومُقنّـع
ثلاثـةُ آلافٍ ونحـن نَصيّـةٌ   ثـلاثُ مئـينٍ إن كثُرنـا وأربـع
نُغـاوِرُهم تجـري المنيّـةُ بيننـا   نُشـارعُهم حـوضَ المنايـا ونَشـرع
تَهـادى قِسـيُّ النَّبـعِ فينـا وفيهـمُ   ومـا هـو إلا اليثربـيُّ المقطّـع
ومَنجوفـةٌ حرميّـةٌ صاعديّـةٌ   يُـذرُّ عليهـا السـمُّ سـاعةَ تُصنـع
تَصُـوبُ بـأبدان الرجـال   وتـارةً تمـرُّ بـأعراضِ البِصـار تَقعقـع
وخيـلٌ تراهـا بالفضـاء كأنهـا   جـرادُ صَبـا في قَـرّةٍ يـتريّع
فلمـا تلاقينـا ودارت بنـا الرحـا   وليـس لأمـرٍ حمّـه اللّـهُ مَدفـع
ضربنـاهمُ حتـى تركنـا سَـراتَهم   كـأنهمُ بالقـاع خُشْـبٌ مصـرّع
لـدن غـدوةٍ حتـى اسـتفقنا   عشـيّةً كـأنّ ذَكانـا حـرُّ نـارٍ تلفّـع
وراحـوا سِـراعاً موجعـين كـأنهم   جَهـامٌ هَراقَـتْ مـاءَه الريـحُ مُقلَـع
ورحنـا وأخرانـا بطـاءٌ كأننـا   أسـودٌ علـى لحـمٍ ببيشـةَ ظُلّـع
فنلنـا ونـال القـومُ منّـا وربمـا   فعلنـا، ولكـن مـا لـدى اللّـه أوسـع
ودارت رَحانـا واسـتدارت رحـاهمُ   وقـد جعلـوا كـلٌّ مـن الشـر يشـبع
ونحـن أنـاسٌ لا نـرى القتـلَ سُـبّةً   علـى كـل مـن يحمـي الذِّمـار ويمنـع
جِـلادٌ علـى رَيْـبِ الحـوادث لا نـرى   علـى هـالكٍ عينـاً لنـا الدهـرَ تدمـع
بنـو الحـربِ لا نَعيـا بشـيءٍ نقولُـه   ولا نحـن ممـا جـرّت الحـربُ نَجـزع
بنـو الحـرب إن نظفـرْ فلسـنا بفُحّـشٍ   ولا نحـن مـن أظفارهـا نتوجّـع
وكنّـا شـهاباً يتّقـي النـاسُ حـرَّه   ويَفـرُج عنـه مـن يليـه ويسـفع
فخـرتَ علـى ابـن الزِّبَعـرى وقـد   سرى لكم طلبٌ من آخرِ الليل مُتبع
فسَـلْ عنـك في عُليـا مَعَـدٍّ وغيرهـا   مـن النـاس مـن أخـزى مقامـاً وأشـنع
ومـن هـو لم يتـركْ لـه الحـربُ مفخـراً   ومـن خـدُّه يـومَ الكريهـة أضـرع
شـددنا بحـول اللّـه والنصـرِ شـدّةً   عليكـم وأطـراف الأسـنّة شُـرَّع
تَكِـرُّ القنـا فيكـم كـأنّ فروغَهـا   عـزالي مـزادٍ ماؤهـا يتهـزّع
عمدنـا إلى أهـل اللـواء ومـن   يَطِرْ بذكر اللواء فهو في الحمدِ أسرع
فخـانوا وقـد أعطـوا يـداً وتخـاذلوا   أبـى اللّـهُ إلا أمـرَه وهـو أصنـع

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣٦/٢، ١٣٧]: وقال عبدُ اللّه بن الزِّبَعري في يوم أُحد وهو يومئذ مشرك بعد:

يـا غـرابَ البَـين أسمعـتَ فقـلْ   إنمـا تنطـق شـيئاً قـد فُعـلْ
إن للخـير وللشـر مـدًى   وكـلا ذلـك وجـهٌ وقَبَـلْ
والعطيّـاتُ خِسـاسٌ بينهـم   وسـواءٌ قـبرُ مُثْـرٍ ومُقِـلّ
كـلُّ عيـشٍ ونعيـمٍ زائـلٌ   وبنـاتُ الدهـر يلعـبن بكـلّ
أبلغـنْ حسـانَ عـني آيـةً   فقريـضُ الشـعر يشـفي ذا الغُلَـل
كـم تـرى بـالجرِّ مـن جُمجمـةٍ   وأكـفٍّ قـد أُتِـرّت ورِجِـل
وسـرابيلَ حسـانٍ سُـرِيَتْ   عـن كمـاةٍ أُهلكـوا في المنـتزَل
كـم قتلنـا مـن كريـمٍ سـيّدٍ   مـاجدِ الجدّيـن مِقـدامٍ بطـل
صـادقِ النجـدة قَـرْمٍ بـارعٍ   غـيرِ ملتـاثٍ لـدى وقـعِ الأسـل
فسَـلِ المِهـراسَ مـا سـاكنُه   بـين أقحـافٍ وهـامٍ كالحَجَـل
ليـتَ أشـياخي ببـدرٍ شـهدوا   جَـزَعَ الخـزرج مـن وقـع الأسـل
حـين حكّـت بقُبـاءٍ بَرْكَهـا   واسـتحرَّ القتـلُ في عبـدِ الأشـل
ثـم خفّـوا عنـد ذاكـم رُقّصـاً   رَقَـصَ الحَفّـانِ يعلـو في الجبـل
فقتلنـا الضِّعـفَ مـن أشـرافهم   وعدلنـا مَيْـلَ بـدرٍ فاعتـدل
لا ألـومُ النفـسَ إلا أننـا   لـو كررنـا لفعلنـا المفتعَـل
بسـيوف الهنـد تعلـو هـامَهم   عَلَـلاً تعلوهـمُ بعـدَ نَهَـل

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٣٧/٢، ١٣٨]: فأجابه حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

ذهبـتْ بـابن الزِّبَعـرى وقعـةٌ   كـان منـا الفضـلُ فيهـا لـو عـدل
ولقـد نلتـم ونلنـا منكـمُ   وكـذاك الحـربُ أحيانـاً دُوَل
نضـعُ الأسـيافَ في أكتـافكم   حيـثُ نهـوي عَلَـلاً بعـد نَهَـل
نُخـرجُ الأصبـحَ مـن أسـتاهكم   كسـلاح النِّيـب يـأكلنَ العَصَـل
إذ تولّـون علـى أعقـابكم   هرَبـاً في الشِّـعب أشـباهَ الرَّسَـل
إذ شـددنا شـدّةً صادقـةً   فأجأنـاكم إلى سـفح الجبـل
بخنـاطيلَ كـأمذاقِ المَـلا   مـن يلاقـوهُ مـن النـاس يُهَـل
ضـاقَ عنـا الشِّـعبُ إذ نجزعـهُ   وملأنـا الفَـرْطَ منـهُ والرِّجَـل
برجـالٍ لسـتمُ أمثـالهم   أُيِّـدوا جـبريلَ نصـراً فـنزل
وعلونـا يـومَ بـدرٍ بـالتقى   طاعـةِ اللّـه وتصديـقِ الرُّسُـل
وقتلنـا كـلَّ رأسٍ منهـمُ   وقتلنـا كـلَّ جحجـاحٍ رِفَـل
وتركنـا في قريـشٍ عـورةً   يـومَ بـدرٍ وأحـاديثَ المثَـل

ورسولُ اللّهِ حقاً شاهدٌ ... يومَ بدرٍ والتنابيلِ الهُبُل
في قريشٍ من جموعٍ جُمِّعُوا ... مثل ما يُجمعُ في الخِصبِ الهَمَل
نحنُ لا أمثالكم ولْدُ استِها ... نحضرُ البأسَ إذا البأسُ نزل

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٣٨، ١٣٩] وقال كعب يبكي حمزة ومن قتل من المسلمين يوم أحد رضي الله عنهم:

نشجتَ وهلْ لكَ من منشجِ ... وكنتَ متى تذَّكِرْ تلججِ
تذَكُّرُ قومٍ أتاني لهم ... أحاديثُ في الزمنِ الأعوجِ
فقلبُكَ من ذِكرهم خافقٌ ... من الشوقِ والحزَنِ المُنضِجِ
وقتلاهم في جنانِ النعيمِ ... كرامُ المداخلِ والمخرجِ
بما صبروا تحتَ ظلِّ اللواءِ ... لواءِ الرسولِ بذي الأضوجِ
غداةَ أجابتْ بأسيافِها ... جميعاً بنو الأوسِ والخزرجِ
وأشياعُ أحمدَ إذ شايعوا ... على الحقِّ ذي النورِ والمنهجِ
فما برِحوا يضربونَ الكماةَ ... ويمضونَ في القسطلِ المرهجِ
كذلكَ حتى دعاهُم مليكٌ ... إلى جنةٍ دوحةِ المَولجِ
وكلهم ماتَ حُرُّ البلاءِ ... على ملَّةِ اللّهِ لم يَحْرَجِ
كحمزةَ لما وفى صادقاً ... بذي هبةٍ صارمٍ سَلْجَجِ
فلاقاهُ عبدُ بني نوفلٍ ... يبربرُ كالجملِ الأدعجِ
فأوجَرهُ حربةً كالشهابِ ... تلهَّبُ في اللَّهبِ الموهجِ
ونعمانُ أوفى بميثاقِهِ ... وحنظلةُ الخيرِ لم يُحْنَجِ
عن الحقِّ حتى غدتْ روحُه ... إلى منزلٍ فاخرِ الزبرجِ
أولئكَ لا مَن ثوى منكمُ ... من النارِ في الدركِ المُرْتَجِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٥١ ـ ١٥٥]: وقال حسان بن ثابت يبكي حمزة ومن أصيب من المسلمين يوم أحد وهي على روي قصيدة أمية بن أبي الصلت في قتلى المشركين يوم بدر.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/١٥٥]: ومن أهل العلم بالشعر من ينكر هذه لحسان والله أعلم:

يا ميَّ قُومي فاندُبنْ ... بسُحيرةٍ شجو النوائحِ
كالحاملاتِ الوِقرَ بالثقلِ ... المُلحّاتِ الدوالحِ
المعولاتِ الخامشا ... تِ وجوهَ حُرّاتٍ صحائحِ
وكأنّ سيلَ دموعها الـ ... أنصابُ تخضبُ بالذبائحِ
ينقضنَ أشعاراً لهنّ ... هناكَ باديةَ المسائحِ
وكأنها أذنابُ خيـ ... ـلٍ بالضحى شمسٍ روامحِ
من بينِ مشرورٍ ومجـ ... ـزورٍ يذعذعُ بالبوارحِ
يبكينَ شجواً مسلبا ... تٍ كدّحتهنّ الكوادحِ
ولقد أصابَ قلوبَها ... مجلٌ له جُلَبٌ قوارحِ
إذ أقصدَ الحدثانُ مَنْ ... كنّا نرجّي إذ نشايحِ
أصحابَ أحدٍ غالَهم ... دهرٌ ألمّ له جوارحِ
من كانَ فارسَنا وحا ... مينا إذا بُعثَ المسالحِ
يا حمزَ لا واللّهِ لا ... أنساكَ ما صُرَّ اللقائحِ
لِمُناخِ أيتامٍ وأضـ ... ـيافٍ وأرملةٍ تلامحِ
ولما ينوبُ الدهرُ في ... حربٍ لحربٍ وهي لاقحِ
يا فارساً يا مِدرهاً ... يا حمزَ قد كنتَ المصامحِ
عنا شديداتِ الخطو ... بِ إذا ينوبُ لهم فوادحِ
ذكّرتني أسدَ الرسو ... لِ وذاكَ مدرهُنا المنافحْ
عنا وكانَ يعدُّ إذ ... عُدَّ الشريفونَ الجحاجحِ
يعلو القماقمَ جهرةً ... سبطُ اليدينِ أغرُّ واضحِ
لا طائشٌ رعشٌ ولا ... ذو علّةٍ بالحملِ آنحِ
بحرٌ فليسَ يُغِبُّ جا ... راً منه سيبٌ أو منادحِ
أودى شبابُ أولي الحفا ... ئظِ والثقيلونَ المراجحِ
المطعمونَ إذا المشا ... تي ما يصفقهنّ ناضحِ
لحمَ الجلادِ وفوقَه ... من شحمِه شُطَبٌ شرائحِ
ليدافعوا عن جارِهم ... ما رامَ ذو الضغنِ المكاشحِ
لهفي لشبانٍ رزئـ ... ـناهم كأنهم المصابحِ
شُمٌّ بطارقةٌ غطا ... رفةٌ خضارمةٌ مسامحِ
المشترونَ الحمدَ بالـ ... أموالِ إنّ الحمدَ رابحِ
والجامزونَ بلجمهم ... يوماً إذا ما صاحَ صائحِ
من كانَ يرمى بالنوا ... قرِ من زمانٍ غيرِ صالحِ
ما إن تزالُ ركابُه ... يرسمنَ في غُبْرٍ صحاصحِ
راحتْ تبارى وهو في ... ركبٍ صدورهم رواشحِ
حتى تؤوبَ له المعا ... لي ليسَ من فوزِ السفائحِ
يا حمزَ قد أوحدتني ... كالعودِ شذّبه الكوافحِ
أشكو إليكَ وفوقكَ التُّر ... بُ المكوّرُ والصفائحِ
من جندلٍ يلقيهِ فو ... قكَ إذ أجادَ الضرحَ ضارحِ
في واسعٍ يحشونه ... بالتربِ سوّته المماسحِ
فعزاؤنا أنّا نقو ... لُ وقولُنا برحٌ بوارحِ
من كانَ أمسى وهو عمّا ... أوقعَ الحدثانُ جانحِ
فليأتِنا فلتبكِ عيـ ... ـناهُ لهلكانا النوافحِ
القائلينَ الفاعليـ ... ـنَ ذوي السماحةِ والممادحِ
من لا يزالُ ندى يديـ ... ـهِ له طوالَ الدهرِ مائحِ

قال ابن هشام [السيرة: ٢/١٥٥]: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٥٦ ـ ١٥٨] وقال كعب بن مالك يبكي حمزة وأصحابه:

طرقتْ همومكَ فالرقادُ مسهَّدُ ... وجزعتَ أن سُلِخ الشبابُ الأغيدُ
ودعتْ فؤادكَ للهوى ضمريّةٌ ... فهواكَ غوريٌّ وصحوُكَ منجدُ
فدعِ التماديَ في الغوايةِ سادراً ... قد كنتَ في طلبِ الغوايةِ تُفنَدُ
ولقد أنى لكَ أن تناهى طائعاً ... أو تستفيقَ إذا نهاكَ المرشدُ

ولقد هُدِدْتَ لفقد حمزةَ هدةً ... ظلّتْ بناتُ الجوفِ منها ترعدُ
ولو أنه فُجعتْ حِراء بمثله ... لرأيتَ راسيَ صخرِها يتبدّدُ
قَرْمٌ تمكّنَ في ذؤابة هاشم ... حيثُ النبوّةُ والندى والسؤددُ
والعاقرُ الكومَ الجِلادَ إذا غدت ... ريحٌ يكادُ الماءُ منها يجمدُ
والتاركُ القِرنَ الكميَّ مجدّلاً ... يومَ الكريهةِ والقنا يتقصّدُ
وتراه يرفل في الحديد كأنه ... ذو لبدةٍ شَثْنُ البراثن أربدُ
عمُّ النبي محمدٍ وصفيُّه ... وَرَدَ الحِمامَ فطاب ذاك الموردُ
وأتى المنيّةَ مُعْلِماً في أسرةٍ ... نَصروا النبيَّ ومنهمُ المستشهدُ
ولقد إخالُ بذاك هنداً بُشّرت ... لتُميتَ داخلَ غصّةٍ لا تبردُ
مما صبحْنا بالعقنقل قومَها ... يوماً تغيّبَ فيه عنها الأسعدُ
وببئر بدرٍ إذ يَردُّ وجوههم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ
حتى رأيتُ لدى النبي سراتهم ... قسمين يقتل من نشاءُ ونطردُ
فأقام بالعَطن المعطّن منهم ... سبعون عُتبةُ منهم والأسودُ
وابنَ المغيرة قد ضربْنا ضربةً ... فوقَ الوريد لها رشاشٌ مزبدُ
وأميةُ الجمحيُّ قوَّم مَيْلَه ... عضبٌ بأيدي المؤمنين مهنّدُ
فأتاك فَلُّ المشركين كأنهم ... والخيلُ تَثفِنُهم نَعامٌ شُرّدُ
شتّان من هو في جهنم ثاوياً ... أبداً ومن هو في الجِنان مخلّدُ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٦٢، ١٦٣]: وقال عبد الله بن رواحة يبكي حمزة وأصحابه يوم أحد.

قال ابن هشام: وأنشدنيها أبو زيد لكعب بن مالك فالله أعلم:

بكتْ عيني وحقٌّ لها بكاها ... وما يغني البكاءُ ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيلُ
أُصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد أصيب به الرسولُ
أبا يعلى لك الأركانُ هُدّت ... وأنت الماجدُ البَرُّ الوصولُ
عليك سلامُ ربِّك في جنانٍ ... مُخالطها نعيمٌ لا يزولُ
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صبراً ... فكلُّ فِعالكم حسنٌ جميلُ
رسولُ الله مصطبرٌ كريمٌ ... بأمر الله ينطق إذ يقولُ
ألا من مُبلغٌ عني لؤياً ... فبعد اليوم دائلةٌ تدولُ
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا ... وقائعنا بها يُشفى الغليلُ
نسيتم ضربَنا بقليب بدرٍ ... غداة أتاكم الموتُ العجيلُ
غداة ثوى أبو جهلٍ صريعاً ... عليه الطيرُ حائمةً تجولُ
وعتبةُ وابنُه خرّا جميعاً ... وشيبةُ عضّه السيفُ الصقيلُ
ومَتركُنا أميةَ مُجْلَعِبّاً ... وفي حيزومه لَدْنٌ نبيلُ
وهامَ بني ربيعةَ سائلوها ... ففي أسيافنا منها فُلولُ
ألا يا هندُ فابكي لا تملّي ... فأنت الوالهُ العبرى الهَبولُ
ألا يا هندُ لا تُبدي شماتاً ... بحمزةَ إنّ عزّكم ذليلُ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٦٧]: وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة بن عبد المطلب وهي أم الزبير عمّة النبي ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين:

أسائلةٌ أصحابَ أحدٍ مخافةً ... بناتُ أبي من أعجمٍ وخبيرِ
فقال الخبيرُ إنّ حمزةَ قد ثوى ... وزيرُ رسولِ الله خيرُ وزيرِ
دعاهُ إلهُ الحق ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يحيا بها وسرورِ
فذلك ما كنا نُرجّي ونرتجي ... لحمزة يومَ الحشر خيرَ مصيرِ
فوالله لا أنساك ما هبّت الصبا ... بكاءً وحزناً مَحضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مِدرهاً ... يذودُ عن الإسلام كلَّ كفورِ
فياليت شلوي عند ذاك وأعظُمي ... لدى أضبعٍ تعتادني ونسورِ
أقول وقد أعلى النعيُّ عشيرتي ... جزى اللهُ خيراً من أخٍ ونصيرِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٦٧، ١٦٨]: وقالت نعم امرأة شماس بن عثمان تبكي زوجها:

يا عينُ جودي بفيضٍ غيرِ إبساسِ ... على كريمٍ من الفتيان لَبّاسِ
صعبِ البديهةِ ميمونٍ نقيبتُه ... حمّالِ ألويةٍ ركّابِ أفراسِ
أقول لما أتى الناعي له جزعاً ... أودى الجوادُ وأودى المُطعمُ الكاسي
وقلت لمّا خلت منه مجالسُه ... لا يُبعد اللهُ منا قربَ شمّاسِ

قال: فأجابها أخوها الحكم بن سعيد بن يربوع يعزيها فقال:

اقني حياءكِ في سترٍ وفي كرمٍ ... فإنما كان شماسٌ من الناسِ
لا تقتلي النفسَ إذ حانت منيّتُه ... في طاعة الله يومَ الرَّوعِ والباسِ
قد كان حمزةُ ليثَ الله فاصطبري ... فذاق يومئذٍ من كأس شماسِ

وقالت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان حين رجعوا من أحد:

رجعتُ وفي نفسي بلابلُ جَمّةٌ ... وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
من أصحاب بدرٍ من قريش وغيرهم ... بني هاشم منهم ومنْ أهل يثربِ
ولكنني قد نلتُ شيئاً ولم يكن ... كما كنت أرجو في مسيري ومركبي

وقد أورد ابن إسحاق في هذا أشعاراً كثيرة تركنا كثيراً منها خشية الإطالة وخوف الملالة وفيما ذكرنا كفاية ولله الحمد.

وقد أورد الأموي في مغازيه من الأشعار أكثر مما ذكره ابن إسحاق كما جرت عادته ولا سيما ههنا فمن ذلك ما ذكره لحسان بن ثابت أنه قال: في غزوة أحد فالله أعلم:

طاوَعوا الشيطانَ إذ أخزاهمُ ... فاستبان الخزيُ فيهم والفشلْ
حين صاحوا صيحةً واحدةً ... مع أبي سفيان قالوا اعلُ هُبَلْ
فأجبناهم جميعاً كلُّنا ... ربّنا الرحمنُ أعلى وأجلّ
اثبتوا تُسقَيكموها مُرّةً ... من حياضِ الموتِ والموتُ نَهَلْ
واعلموا أنّا إذا ما نُضِحَتْ ... عن حيالِ الموت قِدْرٌ تَشتَعِلْ

وكان هذه الأبيات قطعة من جوابه لعبد الله بن الزبعرى والله أعلم.

سنة ٣- ومن الأحداث في هذه السنة

فصل: قد تقدم ما وقع في هذه السنة الثالثة من الحوادث والغزوات والسرايا، ومن أشهرها وقعة أحد وكانت في النصف من شوال منها، وقد تقدم بسطها ولله الحمد.

وفيها في أحد توفي شهيداً أبو يعلى ويقال أبو عمارة أيضاً حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ الملقب بأسد الله وأسد رسوله وكان

رضيع النبي ﷺ هو وأبو سلمة بن عبد الأسد أرضعتهم كلهم ثوية مولاة أبي لهب كما ثبت ذلك في الحديث المتفق عليه [خ (٢٦٤٥، ٥١٠٠)، م (١٤٤٧)]، فعلى هذا يكون قد جاوز الخمسين من السنين يوم قتل ﷺ فإنه كان من الشجعان الأبطال ومن الصّديقين الكبار وقتل معه يومئذ تمام السبعين رضي الله عنهم أجمعين.

قال مصعب الزبيري: ولد ليعلى بن حمزة خمسة بنين كلهم انقرضوا وكان له بنت يقال لها عمارة.

قلت: وهي التي تناولها علي وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فاختصم في حضانتها علي وزيد بن حارثة وجعفر فقضى بها النبي ﷺ لخالتها امرأة جعفر وقال: «الخالة بمَنزلةِ الأمّ» [خ (٤٢٥١)].

وفيها عقد عثمان بن عفان على أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية وكان عقده عليها في ربيع الأول منها وبنى بها في جمادى الآخرة منها كما تقدم فيما ذكره الواقدي [تفسير ابن جرير: ٤٩١/٢، ٤٩٢ من طريق الواقدي]

وفيها قال ابن جرير [تاريخه: ٥٣٧/٢]: ولد لفاطمة بنت رسول الله ﷺ الحسن بن علي بن أبي طالب.

قال: وفيها علقت بالحسين رضي الله عنهم.

سنة ٤ - حوادث ووقائع

في المحرم منها كانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى طليحة الأسدي فانتهى إلى ماء يقال له قَطَن.

قال الواقدي [المغازي: ٣٤٠/١ - ٣٤٤]: حدثنا عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعيد اليربوعي عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة وغيره قالوا: شهد أبو سلمة أحداً فجرح جرحاً على عضده فأقام شهراً يداوى فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة دعاه رسول الله ﷺ فقال: «اخرج في هذه السريّة فقد استعملتُك عليها» وعقد له لواء وقال: «سِرْ حتى تأتيَ أرض بني أسد فاغِر عليهم»، وأوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة فانتهى إلى أدنى قطن وهو ماء لبني أسد وكان هناك طليحة الأسدي وأخوه سلمة ابنا خويلد وقد جمعا خلقاً من بني أسد ليقصدوا حرب النبي ﷺ فجاء رجل منهم إلى النبي ﷺ فأخبره بما تمالؤوا عليه فبعث معه أبا سلمة في سريته هذه.

فلما انتهوا إلى أرضهم تفرقوا وتركوا نعما كثيراً لهم من الإبل والغنم فأخذ ذلك كله أبو سلمة وأسر منهم معه ثلاثة مماليك وأقبل راجعاً إلى المدينة فأعطى ذلك الرجل الأسدي الذي دلهم نصيباً وافراً من المغنم، وأخرج صفيَّ النبي ﷺ عبداً وخمس الغنيمة وقسمها بين أصحابه ثم قدم المدينة.

قال عمر بن عثمان: فحدثني عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن عمر بن أبي سلمة قال: كان الذي جرح أبي أبو أسامة الجشمي فمكث شهراً يداويه فبرأ فيما نرى وبعثه رسول الله ﷺ في المحرم يعني من سنة أربع إلى قطن فغاب بضع عشرة ليلة، فلما دخل المدينة انتقض به جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى.

قال عمر: واعتدت أمي حتى خلت أربعة أشهر وعشر ثم تزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها في ليال بقين من شوال فكانت أمي تقول: ما بأس بالنكاح في شوال والدخول فيه وقد تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وأعرس بي فيه. قال: وماتت أم سلمة في ذي القعدة سنة تسع وخمسين.

رواه البيهقي [الدلائل: ٢١٩/٣ - ٢٢٢].

قلت: سنذكر في أواخر هذه السنة في شوالها تزويج النبي ﷺ بأم سلمة وما يتعلق بذلك من ولاية الابن أمه في النكاح ومذاهب العلماء في ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

سنة ٤ - غزوة الرجيع

قال الواقدي [المغازي: ٣٥٤/١]: وكانت في صفر يعني سنة أربع بعثهم رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ليخبروه قال: والرجيع على سبعة أميال من عسفان.

قال البخاري [٤٠٨٦]: حدثني إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر عن الزهري عن عمرو بن أبي سفيان الثقفي عن أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ سرية عينا وأمّر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللّهم أخبر عنا رسولك. فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر؛ فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسىً من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها فأعارته.

قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرةٌ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقا رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت. فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً. ثم قال:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أي شقّ كانَ في اللّه مصرعي
وذلك في ذاتِ الإلـه وإنْ يشـأ يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزّعِ

قال: ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظلة من الدّبْر فحمته من رُسلهم فلم يقدروا منه على شيء.

ثم قال البخاري [٤٠٨٧]: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن

عمرو سمع جابر بن عبد الله يقول: الذي قتل خبيباً هو أبو سِرْوَعة قلت: واسمه عقبة بن الحارث وقد أسلم بعد ذلك وله حديث في الرضاع [٢٠٥٢].

وقد قيل: إن أبا سروعة وعقبة أخوان فالله أعلم.

هكذا ساق البخاري في كتاب المغازي من صحيحه قصة أصحاب الرجيع.

ورواه أيضاً في التوحيد [٧٤٠٢] وفي الجهاد [٣٠٤٥] من طرق عن الزهري عن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي حليف بني زهرة ومنهم من يقول عمر بن أبي سفيان والمشهور عمرو.

وفي لفظ للبخاري [٣٠٤٥]: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وساق نحوه.

وقد خالفه محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير في بعض ذلك ولنذكر كلام ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٦٩/٢، ١٧٣] ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن وغير مدافع كما قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق. [تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٢١٩/١]

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٦٩/٢]: حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عَضَل والقَارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب - قال ابن إسحاق وهو أمير القوم - وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف وخبيب بن عدي أخو بني جَحْجَبى بن كلفة بن عمرو بن عوف وزيد بن الدثنة أخو بني بياضة بن عامر وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر رضي الله عنهم.

هكذا قال ابن إسحاق أنهم كانوا ستة.

وكذا ذكر موسى بن عقبة وسماهم كما قال ابن إسحاق.

وعند البخاري [٣٠٤٥] أنهم كانوا عشرة. وعنده إن كبيرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٦٩/٢، ١٧٠] فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهُذيل بناحية الحجاز من صدور الهداة غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، وقال عاصم بن ثابت:

مـا علّتي وأنـا جَلْـدٌ نـابلُ ... والقـوسُ فيهـا وتـرٌ عنـابلُ
تـزلُ عـن صفحتِهـا المعـابلُ ... المـوتُ حـقٌ والحيـاةُ بـاطلُ
وكـلُ مـا حـمَّ الإلـهُ نـازل ... بـالمرء والمـرءُ إليـه آيـل
إنْ لم أقـاتلكم فـأمي هـابل

وقال عاصم أيضاً:

أبـو سـليمانَ وريـشُ المقعـدِ ... وضالـةٌ مثـلُ الجحيـمِ الموقَـدِ
إذا النَّواحـي افترشـتْ لم أُرعَـدِ ... ومُجْنـأً مـن جلـد ثـورٍ أجْـردِ
ومؤمـنٌ بمـا علـى محمـد

وقال أيضاً:

أبـو سـليمانَ ومثلـي رامـا ... وكـانَ قومـي مَعْشـراً كِرامـا

قال: ثم قاتل حتى قتل وقتل صاحباه.

فلما قتل عاصم أرادت هُذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربنّ في قحفه الخمر فمنعته الدَّبْر.

هكذا ذكره البخاري [٣٠٤٥] بعد وصول خبيب وزيد بن الدثنة إلى مكة.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق أنسب.

قال: فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصما فذهب به. وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا تنجساً فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبداً في حياته فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧١/٢]: وأما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القِرَان ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة.

قال ابن هشام: فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧١/٢، ١٧٢]: فابتاع خبيباً حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ليقتله بأبيه.

قال: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه فبعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجه من الحرم ليقتله واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً قال: ثم قتله نسطاس.

قال: وأما خبيب بن عدي فحدثني عبد الله ابن أبي نجيح أنه حدث عن ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب، وكانت قد أسلمت، قالت: كان خبيب عندي حبس في بيتي فلقد اطلعت عليه يوما وإن في يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل!.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٢/٢، ١٧٣]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي نجيح إنهما قالا: قالت: قال لي حين حضره القتل: ابعثي إلي بحديدة أتطهر بها للقتل. قالت: فأعطيت غلاماً من الحي الموسى فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيتَ فقالت: فوالله إن هو إلا أن ولى الغلام بها إليه فقلت: ماذا صنعتُ؟ أصاب والله الرجل

ثأره بقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلي. ثم خلى سبيله.

قال ابن هشام: ويقال إن الغلام ابنها.

قال ابن إسحاق: قال عاصم: ثم خرجوا بخبيب حتى جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه، وقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة.

قال: فكان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

قال: ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللّهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً ثم قتلوه وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقا من دعوة خبيب وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زلّت عنه.

فائدة: قال السهيلي [الروض الأنف: ١٩٢/٦]: وإنما صارت الركعتان سنة - يعني عند القتل - لأنها فعلت في زمن النبي ﷺ فأقر عليها واستحُسنت من صنيعه.

قال: وقد صلاها زيد بن حارثة في حياة النبي ﷺ.

ثم ساق بإسناده من طريق أبي بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد قال: بلغني أن زيد بن حارثة استأجر من رجل بغلاً من الطائف واشترط عليه المُكري أن ينزله حيث شاء، فمال به إلى خربة فإذا بها قتلى كثيرة، فلما هم بقتله قال له زيد: دعني حتى أصلي ركعتين. فقال: صل ركعتين لطالما صلى هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئا. قال: فصليت ثم جاء ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين، فإذا صارخ يقول لا تقتله، فهاب وذهب ينظر فلم ير شيئا، ثم جاء ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين، فسمع أيضاً الصوت يقول: لا تقتله، فذهب لينظر ثم جاء، فقلت: يا أرحم الراحمين، فإذا أنا بفارس على فرس في يده حربة في رأسها شعلة من نار فطعنه بها حتى أنفذه فوقع ميتاً، ثم قال: لما دعوت الله في المرة الأولى كنتُ في السماء السابعة ولما دعوته في المرة الثانية كنت في السماء الدنيا ولما دعوته في الثالثة أتيتك.

قال السهيلي [الروض الأنف: ١٩٠/٦، ١٩١]: وقد صلاها حجر بن عدي بن الأدبر حين حمل إلى معاوية من العراق ومعه كتاب زياد بن أبيه وفيه: أنه خرج عليه وأراد خلعه، وفي الكتاب شهادة جماعة من التابعين منهم الحسن وابن سيرين، فلما دخل على معاوية قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال: أو أنا أمير المؤمنين؟ وأمر بقتله. فصلى ركعتين قبل قتله رحمه الله.

قال: وقد عاتبت عائشة معاوية في قتله فقال: إنما قتله من شهد عليه، ثم قال: دعيني وحجراً فإني سألقاه على الجادة يوم القيامة. قالت: فأين ذهب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: حين غاب عني مثلك من قومي.

وفي مغازي موسى بن عقبة: أن خبيبا وزيد بن الدثنة قتلا في يوم واحد، وأن رسول الله ﷺ سمع يوم قتلا وهو يقول: «وعليكما أو عليك السلام خبيب قتلته قريش».

وذكر أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه فما زاده إلا إيمانا وتسليما.

وذكر عروة وموسى بن عقبة: أنهم لما رفعوا خبيبا على الخشبة نادوه يناشدونه أتحبُّ أن محمدا مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه فضحكوا منه.

وهذا ذكره ابن إسحاق في قصة زيد بن الدثنة فالله أعلم.

قال موسى بن عقبة: زعموا أن عمرو بن أمية دفن خبيبا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٣/٢]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث قال: سمعته يقول: والله ما أنا قتلت خبيبا لأني كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار، أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٣/٢، ١٧٤]: وحدثني بعض أصحابنا قال: كان عمر بن الخطاب استعمل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهري القوم، فذكر ذلك لعمر وقيل: إن الرجل مصاب، فسأله عمر في قدمة قدمها عليه فقال: يا سعيد ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من باس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل، وسمعت دعوته، فو الله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غشي علي فزادته عند عمر خيراً.

وقد قال الأموي: حدثني أبي قال: قال ابن إسحاق: وبلغنا أن عمر قال: من سره أن ينظر إلى رجل نسيج وحده فلينظر إلى سعيد بن عامر.

قال ابن هشام [السيرة: ١٧٤/٢]: أقام خبيب في أيديهم حتى انسلخت الأشهر الحرم، ثم قتلوه.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٣٣١/٣، ٣٣٢] من طريق إبراهيم بن إسماعيل، حدثني جعفر بن عمرو بن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه، عن جده عمرو بن أمية: أن رسول الله ﷺ كان بعثه عينا وحده، قال: جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون، فأطلقته فوقع إلى الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا، ثم التفت فلم أر شيئا، فكأنما ابتلعته الأرض، فلم تذكر لخبيب رِمَّةٌ حتى الساعة.

ثم روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٤/٢] عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: لما قتل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٤] وما بعدها. وأنزل الله في أصحاب السرية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٦/٢، ١٧٧]: وكان مما قيل من الشعر في هذه الغزوة قول خبيب حين أجمعوا على قتله: - قال ابن هشام: ومن الناس من ينكرها له -:

لقد جمّع الأحزابُ حولي وألّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجمع

وكلُّهم مبدي العداوةَ جاهدٌ ... عليَّ لأني في وثاقٍ مُضيَّع

وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذعٍ طويلٍ ممنَّع

إلى الله أشكو غُربتي ثم كُربتي ... وما أرصدَ الأعداءُ لي عند مَصرعي

فذا العرش صبَّرني على ما يُراد بي فقد بَضَّعُوا لحمي وقد يأسَ مَطعمي
وذلك في ذات الإله وإن يَشأ يبارك على أوصال شِلوٍ مُمزع
وقد خيروني الكفر والموتُ دونه وقد هملتْ عيناي مِن غير مجزع
وما بي حذارُ الموت إني لَميِّتٌ ولكن حذاري جَحْمُ نارٍ ملفَّع
فوالله ما أرجو إذا متّ مُسلماً على أي جنْب كان في الله مَضجعي
فلستُ بمبدٍ للعدوّ تَخشُّعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

وقد تقدم في صحيح البخاري [٣٠٤٥] بيتان من هذه القصيدة وهما قوله:

فلستُ أبالي حين أقتل مُسلماً على أي شقٍ كان في الله مَصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلوٍ ممزع

وقال حسان بن ثابت يرثي خبيباً فيما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٧/٢]:

ما بالُ عينكَ لا تَرقا مدامعها سَحّاً على الصدر مثلَ اللؤلؤ القلق
على خبيبٍ فتى الفتيان قد علموا لا فَشِلٍ حينَ تلقاه ولا نَزِق
فاذهب خبيبُ جزاك الله طيِّبة وجنّةَ الخلد عند الحور في الرُفُق
ماذا تقولون إن قال النبي لكم حين الملائكة الأبرار في الأفق
فيم قتلتمْ شهيدَ الله في رجلٍ طاغٍ قد أوْعثَ في البلدان والرُفَق

قال ابن هشام: تركنا بعضها لأنه أقذع فيها.

وقال حسان يهجو الذين غدروا بأصحاب الرجيع من بني لحيان فيما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٧٩/٢، ١٨٠]:

إن سرّكَ الغدرُ صِرفا لا مزاج له فأت الرجيعَ فَسَلْ عن دارِ لَحيانِ
قومٌ تواصوا بأكل الجار بينهم فالكلب والقردُ والإنسانُ مثلانِ
لو ينطق التيس يوماً قام يخطبهم وكان ذا شرف فيهم وذا شانِ

وقال حسان بن ثابت أيضاً يهجو هُذيلا وبني لحيان على غدرهم بأصحاب الرجيع رضي الله تعالى عنهم أجمعين:

لعمري لقد شانت هُذيل بنَ مدركٍ أحاديثُ كانت في خبيب وعاصم
أحاديثُ لحيان صَلَوا بقبيحها ولحيانُ جرّامون شرَّ الجرائم
أناسٌ هم من قومهم في صَميمهم بمنزلة الزمعان دُبْرَ القوادم
هم غدروا يوم الرجيع وأسلمت أمانتهم ذا عفّة ومكارم
رسولَ رسول الله غدراً ولم تكن هذيل توقّى منكرات المحارم
فسوف يرون النصرَ يوماً عليهم بقتل الذي تحميه دون الحرائم
أبابيلُ دَبْرٌ شُمّسٌ دون لحمه حَمتْ لحم شَهّادٍ عظامَ الملاحم
لعل هذيلا أن يروا بمُصابه مصارع قتلى أو مقاماً لمِـأتم
ونُوقِـعُ فيها وقعة ذاتَ صولةٍ يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسم
بأمر رسول الله إن رسوله رأى رأي ذي حزمٍ بلحيان عالم
قُبيِّلةٌ ليس الوفاء يهمُّهم وإن ظُلموا لم يدفعوا كفَّ ظالم
إذا الناس حلّوا بالفضاء رأيتهم بمجرى مسيل الماء بين المخارم
محلهم دارُ البوار ورأيهم إذا نابهم أمرٌ كرأي البهائم

وقال حسان رضي الله عنه أيضاً يمدح أصحاب الرجيع ويسميهم في شعره كما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٨٣/٢] رحمه الله تعالى:

صلى الإلهُ على الذين تتابعُوا يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأسُ السرية مرثد وأميرهم وابن البكير إمامهم وخبيب
وابنٌ لطارق وابنُ دثنة منهم وافاه ثم حِمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجيعهم كسب المعالي إنه لكسوب
منع المَقادة أن ينالوا ظهره حتى يُجالد إنه لنجيب

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان.

سنة ٤- سَرية عمرو بن أمية الضمري على إثر مقتل خبيب

قال الواقدي [الدلائل للبيهقي: ٣٣٣/٣ - ٣٣٧ من طريق الواقدي به]: حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه وعبد الله بن أبي عبيدة عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري وعبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أبي عون (وزاد بعضهم على بعض) قالوا: كان أبوسفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة: ما أحد يغتال محمداً فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا. فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله وقال له: إن أنت قوّيتني خرجت إليه حتى أغتاله، فإني هاد بالطريق خرِّيت، معي خنجر مثل خافية النسر. قال: أنت صاحبنا. وأعطاه بعيراً ونفقة وقال: اطو أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد.

قال: قال العربي: لا يعلمه أحد. فخرج ليلاً على راحلته فسار خمساً وصبح ظهر الحرّة صبح سادسه ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى أتى المصلى فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل فخرج الأعرابي يقود راحلته حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل فعقل راحلته ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده. فدخل، فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إن هذا الرجلَ يريد غدراً والله حائلٌ بينه وبين ما يُريدُه». فوقف وقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أنا ابنُ عبد المطلب» فذهب يُجنئُ على رسول الله ﷺ كأنه يُساره فجبذه أُسيد بن حضير وقال: تنح عن رسول الله ﷺ وجذب بداخلة إزاره فإذا الخنجر فقال: يا رسول الله هذا غادر فأُسقط في يد الأعرابي وقال: دمي دمي يا محمد. وأخذه أسيد بن حضير يلببه فقال له النبي ﷺ: «اصدُقني ما أنت وما أقدمك فإن صدقتني نفعك الصدق وإن كذبتني فقد أُطلعتُ على ما هَمَمْت به». قال العربي: فأنا آمِنٌ؟ قال: «فأنتَ آمن». فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير ثم دعا به من الغد فقال: «قد آمنتُك فاذهبْ حيث شئتَ أوَخير لك من ذلك؟» قال: وما هو؟ قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك أنت رسول الله والله يا محمد ما كنت أفرق من الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي، ثم اطّلعت على ما هممتُ به فما سبقت به الركبان ولم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان. فجعل النبي ﷺ يتبسم وأقام أياماً ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ولم يسمع له بذكر.

وقال رسول الله ﷺ لعمرو بن أمية الضمري ولسلمة بن أسلم بن حريش اخرجا حتى تأتيا أباسفيان بن حرب فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه.

قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج فقيدنا بعيرنا وقال لي صاحبي: يا عمرو هل لك في أن نأتي مكة فنطوف بالبيت أسبوعاً ونصلي ركعتين فقلت: إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق وإنهم إن رأوني عرفوني، وأنا أعرف أهل مكة؛ إنهم إذا أمسوا انفجعوا بأفنيتهم. فأبى علي فانطلقنا فأتينا مكة فطفنا أسبوعاً وصلينا ركعتين فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني وقال: عمرو بن أمية وأخبر أباه.

فنذر بنا أهل مكة فقالوا: ماجاء عمرو في خير. وكان عمرو فاتكاً في الجاهلية. فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة وخرجوا في طلبهما واشتدوا في الجبل. قال عمرو: فدخلت غاراً فتغيبت عنهم حتى أصبحت وباتوا يطلبوننا في الجبل وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحلتنا فلما كان ضحوة الغد أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي يختلي لفرسه حشيشاً فقلت لسلمة بن أسلم: إذا أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أقصروا عنا فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا، قال: فخرجت إليه فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري فسقط وصاح فأسمعَ أهل مكة فأقبلوا بعد تفرقهم ودخلت الغار وقلت لصاحبي: لا تتحرك، فأقبلوا حتى أتوه وقالوا: من قتلك؟ قال: عمرو بن أمية الضمري. فقال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت لخير. ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا فإنه كان بآخر رمق فمات وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم فحملوه فمكثنا ليلتين في مكاننا حتى خرجنا فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية: هل لك في خبيب بن عدي ننزله؟ فقلت له: أين هو؟ قال: هو ذاك مصلوب حوله الحرس. فقلت: أمهلني وتنح عني فإن خشيت شيئاً فانح إلى بعيرك فاقعد عليه فأت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ودعني فإني عالم بالمدينة. ثم اشتددتُ عليه حتى وجدته فحملته على ظهري فما مشيت به إلا عشرين ذراعاً حتى استيقظوا فخرجوا في أثري فطرحت الخشبة فما أنسى وَقْعَها دَبٌ - يعني صوتها - ثم أهلت عليه التراب برجلي فأخذت طريق الصفراء فأعيوا ورجعوا وكنت لا أدرك مع بقاء نفس فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه وأتى النبي ﷺ فأخبره وأقبلت حتى أشرفت على الغميم، غميم ضجنان فدخلت في غار معي قوسي وأسهمي وخنجري فبينما أنا فيه إذ أقبل رجل من بني الديل بن بكر أعور طويل، يسوق غنماً ومعزى فدخل الغار وقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من بني بكر فقال: وأنا من بني بكر ثم اتكأ ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

فلستُ بمسلم مادمتُ حياً ... ولستُ أدينُ دينَ المسلمينا

فقلت في نفسي: والله إني لأرجو أن أقتلك. فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلتُها أحداً قط ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثهما قريش يتجسسان الأخبار فقلت: استأسرا فأبى أحدهما فرميته فقتلته فلما رأى ذلك الآخر استأسر فشددته وثاقاً ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ.

فلما قدمت المدينة أتى صبيانٌ وهم يلعبون وسمعوا أشياخهم يقولون: هذا عمرو؛ فاشتد الصبيان إلى النبي ﷺ فأخبروه وأتيته بالرجل قد ربطت إبهامه بوتر قوسي فلقد رأيت النبي ﷺ وهو يضحك ثم دعا لي بخير.

وكان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام رواه البيهقي.

وقد تقدم أن عمراً لما اهبط خبيباً لم ير له رمة ولا جسداً فلعله دفن مكان سقوطه والله أعلم.

وهذه السرية إنما استدركها ابن هشام على ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٣٢ - ٦٣٥] وساقها بنحو من سياق الواقدي لما لكن عنده أن رفيق عمرو بن أمية في هذه السرية جبار بن صخر. فالله أعلم ولله الحمد.

سنة ٤- سرية بئر معونة

وقد كانت في صفر منها وأغرب مكحول رحمه الله حيث قال: إنها كانت بعد الخندق [المعرفة والتاريخ: ٣/٣٠٠].

قال البخاري [٤٠٨٨]: حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز عن أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القُراء فعرض لهم حيّان من بني سُليم رِعْل وذكوان عند بئر يقال لها: بئر معونة فقال القوم: والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت.

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بنحوه. ثم قال البخاري [٤٠٩٠]: حدثنا عبد الأعلى بن حماد حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك: أن رِعْلاً وذكوان وعُصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو فأمدَّهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى إذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ النبي ﷺ فقنت شهراً يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب؛ على رِعل وذكوان وعُصية وبني لحيان.

قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً ثم إن ذلك رفع «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».

ثم قال البخاري [٤٠٩١]: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا همام عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك: أن النبي ﷺ بعث خاله (أخاً لأم سُليم) في سبعين راكباً وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خير رسول الله ﷺ بين ثلاث خصال فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر أو أكون خليفتك أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف فطُعن عامر في بيت أم فلان فقال: غدّة كغدة البَكر في بيت امرأة من آل فلان، ائتوني بفرسي. فمات على ظهر فرسه فانطلق حرام أخو أم سليم وهو رجل أعرج ورجل من بني فلان فقال: كونا قريباً حتى آتيهم فإن آمنوني كنتم قريباً وإن قتلوني أتيتم أصحابكم فقال: أتؤمنوني حتى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم وأومؤوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه - قال همام: أحسبه قال: حتى أنفذه بالرمح فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة فلحق الرجل فقتلوا كلهم غير الأعرج وكان في رأس جبل فأنزل الله علينا ثم كان من المنسوخ «إنا لقد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا» فدعا النبي ﷺ عليهم ثلاثين صباحاً على رعل وذكوان وبني لحيان وعُصية الذين عصوا الله ورسوله.

وقال البخاري [٤٠٩٢]: حدثنا حبّان حدثنا عبد الله أخبرني معمر حدثني ثمامة بن عبد الله بن أنس انه سمع أنس بن مالك يقول: لما طعن حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدم هكذا؛ فنضحه على وجهه ورأسه وقال: فزت ورب الكعبة.

وروى البخاري [٤٠٩٣] عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام بن عروة: أخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة قال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى

السماء حتى أني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع فأتى النبي ﷺ خبرهم فنعاهم فقال: «إنَّ أصحابكم قد أُصيبوا وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا فأخبرهم عنهم».

وأصيب يومئذ فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسمي عروة به ومنذر بن عمرو وسمي به منذراً.

هكذا وقع في رواية البخاري مرسلاً عن عروة.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٣٥٢/٣، ٣٥٣] من حديث يحيى بن سعيد عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة؛ فساق من حديث الهجرة وأدرج في آخره ما ذكره البخاري ههنا فالله أعلم.

وروى الواقدي [المغازي: ٣٤٧/١ - ٣٤٩] عن مصعب بن ثابت عن أبي الأسود وعن عروة؛ فذكر القصة وشأن عامر بن فهيرة وأخبار عامر بن الطفيل أنه رُفع إلى السماء وذكر أن الذي قتله جبار بن سلمى الكلابي قال: ولما طعنه بالرمح قال: فزت ورب الكعبة ثم سأل جبار بعد ذلك: ما معنى قوله «فزت»؟ قالوا: يعني بالجنة فقال: صدق والله. ثم أسلم جبار بعد ذلك لذلك.

وفي مغازي موسى بن عقبة عن عروة أنه قال: لم يوجد جسد عامر بن فهيرة يرون أن الملائكة وارته.

وقال يونس عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ يعني بعد أحد بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ثم بعث أصحاب بئر معونة في صفر على رأس أربعة أشهر من أحد:

فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ بالمدينة فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد». فقال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المعنق ليموت في أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين فيهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدي بن النجار وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر في رجال من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر في الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم - عُصيَّة ورعلاً وذكوان والقارة - فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا أسيافهم ثم قاتلوا القوم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار فإنهم تركوه به رمق فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف، فلم يُنبئهما بمصاب القوم إلا الطير تحوم حول العسكر فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر فقال الأنصاري: لكني لم أكن لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لأخبر عنه الرجال. فقاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو أسيراً. فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم.

قال: وخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا في ظل هو فيه وكان مع العامريين عهدٌ من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما وقتلهما وهو يرى أن قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره بالخبر فقال رسول الله ﷺ: «لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنَّهما» ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء، قد كنتُ لهذا كارهاً متخوِّفاً» فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره.

فقال حسان بن ثابت في إخفار عامر أبا براء ويحرض بني أبي براء على عامر:

بني أم البنين ألم يرُعْكم ... وأنتم من ذوائب أهل نَجْدِ
تهكُّمُ عامرٍ بأبي براء ... ليخفره وما خطأٌ كعَمْدِ
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثتَ في الحَدَثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالك ماجدٌ حَكَم بن سعد

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ١٨٨/٢]: أم البنين أم أبي براء وهي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

قال: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه في فخذه فأشواه ووقع عن فرسه وقال: هذا عمل أبي براء، إن أمُت فدمي لعمي فلا يُتْبَعنَّ به، وإن أعش فسأرى رأيي.

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري نحو سياق محمد بن إسحاق، قال موسى: وكان أمير القوم المنذر بن عمرو. وقيل: مرثد بن أبي مرثد.

وقال حسان بن ثابت يبكي قتلى بئر معونة - فيما ذكره ابن إسحاق رحمه الله - والله أعلم [سيرة ابن هشام: ١٨٩/٢]:

على قتلى معونة فاستهِلِّي ... بدمع العين سَحّاً غير نَزْرِ
على خيل الرسول غداة لاقوا ... ولاقتهم مَنَاياهم بقَدْرِ
أصابهمُ الفناءُ بعقد قوم ... تُخُوِّنَ عقدُ حبلهمُ بغدرِ
فيا لَهَفي لمنذر إذ تولى ... وأعنق في منيته بصبرِ
وكائنْ قد أُصيب غداة ذاكم ... من أبيضَ ماجدٍ من سرِّ عمرو

سنة ٤- غزوة بني النضير

وفي صحيح البخاري [٤٠٢٩، ٤٨٨٣] عن ابن عباس أنه كان يسميها سورة بني النضير.

وحكى البخاري [معلقاً قبل (٤٠٢٨)] عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت بنو النضير بعد بدر بستة أشهر قبل أحد.

وقد أسنده ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه عن عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري به.

وهكذا روى حنبل بن إسحاق عن هلال بن العلاء عن عبد الله بن

جعفر الرَّقي عن مطرف بن مازن اليماني عن معمر عـن الزهـري [مغازي الزهري: ص١٠٥] فذكر غزوة بدر في سابع عشر من رمضان سنة ثنتين.

قال: ثم غزا بني النضير ثم غزا أحداً في شوال سنة ثلاث ثم قاتل يوم الخندق في شوال سنة أربع.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣/٣٥٤]: وقد كان الزهري يقول: هي قبل أحد.

قال: وذهب آخرون إلى أنها بعدها وبعد بئر معونة أيضاً.

قلت: هكذا ذكر ابن إسحاق كمـا تقدم فإنه بعد ذكره بئر معونة ورجوع عمـرو بـن أمية وقتله ذينك الرجلين مـن بـني عـامر ولم يشـعر بعهدهما الذي معهما من رسول الله ﷺ ولهذا قال لـه رسـول اللّـه ﷺ: «لقد قتلت رجلين لأدِيَنَّهما».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٩٠]: ثم خرج رسول اللّـه ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين مـن بـني عـامر اللذيـن قتلهمـا عمرو بن أمية للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما وكان بين بـني النضـير وبـين بني عامر عهد وحلف فلما أتاهم ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (ورسول اللّه ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد) فمَن رجـلٌ يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمـرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كمـا قـال ورسول اللّه ﷺ في نفر من أصحابـه فيهـم أبـو بكـر وعمـر وعلـي فـأتى رسول اللّه الخبر من السماء بما أراد القـوم فقـام وخـرج راجعـاً إلى المدينـة فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينـة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلا المدينة.

فأقبل أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى انتهـوا إليـه فأخبرهـم الخـبر بمـا كانت يهود أرادت من الغدر به.

قال الواقدي [المغازي: ١/٣٦٦ ـ ٣٧٠]: فبعث رسول اللّه ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهـم ويحرِّضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم وحمي حيي بن أخطـب وبعثوا إلى رسـول اللّـه ﷺ أنهـم لا يخرجـون ونـابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

قال الواقدي [المغازي: ١/٣٧٤]: فحاصروهم خمس عشرة ليلة.

وقال ابـن إسـحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٩٠]: وأمـر النـبي ﷺ بـالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم.

قال ابن هشـام [السيرة: ٢/١٩٠، ١٩١]: واسـتعمل علـى المدينـة ابـن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول.

قال ابـن إسـحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٩١]: فسـار حتـى نـزل بهـم فحاصرهم ست ليال، ونزل تحريم الخمر حينئذ، وتحصنوا في الحصون فأمر رسول اللّه ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه: أن يا محمد قـد كنـت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه فما بال قطع النخيـل وتحريقهـا؟ قـال: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبـد اللّـه بـن أبي ووديعـة ومالك وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتـوا وتمنّعوا فإنـا لـن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف اللّه في قلوبهم الرعب فسـألوا رسـول اللّـه ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهـم إلا الحلقة.

وقال العوفي عن ابن عباس: أعطى كل ثلاثـة بعيراً يعتقبونـه وسِقاءً رواه البيهقي [الدلائل: ٣/٣٦٠].

وروى من طريق يعقوب بن محمد عن الزهري عن إبراهيم بن جعفـر بن محمود بن محمد بن مسلمة عن أبيه عن جده عن محمـد بـن مسـلمة أن رسول اللّه ﷺ بعثه إلى بـني النضـير وأمـره أن يؤجلهـم في الجـلاء ثـلاث ليال.

وروى البيهقي [السنن الكبرى: ٦/٢٨] وغيره [الحاكم في المستدرك: ٢/٥٢] أنه كـانت لهـم ديـون مؤجلـة فقـال رسـول اللّـه ﷺ: «ضَعـوا وتعجَّلوا».

وفي صحته نظر واللّه أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٩١، ١٩٢]: فاحتملوا مـن أموالهـم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيتـه عـن نجـاف بابـه فيضعـه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجـوا إلى خيـبر ومنهـم مـن سـار إلى الشـام فكان من أشراف من ذهب منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بـن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها.

فحدثني عبد اللّه بن أبي بكر أنه حدث أنهم استُقبلوا بالنسـاء والأبنـاء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهـم بزهـاء وفخـر مـا رئي مثله لحي من الناس في زمانهم.

قال: وخلّوا الأمـوال لرسـول اللّـه ﷺ ـ يعـني النخيـل والمزارع ـ فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولـين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقراً فأعطاهما، ـ وأضاف بعضهم إليهما الحارث بن الصمة حكاه السهيلي [الروض الأنف: ٦/٢٣٣].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٩٢]: ولم يُسْلِم من بني النضير إلا رجلان وهما: يامين بن عمير بن كعب ابن عم عمـرو بـن جحـاش وأبـو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين: أن رسول اللّه ﷺ قال ليامين: «ألم ترَ ما لقيتُ من ابن عمك وما هم به من شأني؟» فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله لعنه اللّه.

قال ابن إسحاق: فأنزل اللّه فيهم سورة الحشر بكمالها يذكـر فيهـا مـا أصابهم به من نقمته وما سلط عليهم به رسوله وما عمل به فيهم.

ثم شرع ابن إسحاق يفسـرها وقـد تكلمنا عليهـا بطولهـا مبسـوطة في كتابنا التفسير وللّه الحمد.

قال اللّه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ. وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة الحشر: ١ـ٥].

سبح سبحانه وتعالى نفسه الكريمة وأخبر أنه يسـبح لـه جميع مخلوقاته العلوية والسفلية وأنه العزيز وهو منيع الجناب فـلا تـرام عظمته وكبرياؤه وأنه الحكيم في جميع ما خلق وجميـع مـا قـدر وشـرع، فمـن ذلـك تقديره وتدبيره وتيسـيره لرسـول اللّـه ﷺ وعباده المؤمنين في ظفرهـم بـأعدائهم اليهود الذين شاقوا اللّه ورسـوله وجـانبوا رسوله وشرعه ومـا كـان مـن

السبب المقتضي لقتالهم كما تقدم حتى حاصرهم المؤيد بالرعب والرُّهب مسيرة شهر ومع هذا فأسرهم بالمحاصرة بجنوده ونفسه الشريفة ست ليال فذهب بهم الرعب كل مذهب حتى صانعوا وصالحوا على حقن دمائهم وأن يأخذوا من أموالهم ما استقلت به ركابهم على أنهم لا يستصحبون شيئاً من السلاح إهانة لهم واحتقاراً فجعلوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

ثم ذكر تعالى أنه لو لم يصبهم الجلاء وهو التسيير والنفي من جوار الرسول ﷺ من المدينة لأصابهم ما هو أشد منه من العذاب الدنيوي وهو القتل مع ما ادخر لهم في الآخرة من العذاب الأليم المقدر لهم.

ثم ذكر تعالى حكمة ما وقع من تحريق نخلهم وترك ما بقي لهم وأن ذلك كله سائغ فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ وهو جيد التمر ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إن الجميع قد أذن فيه شرعاً وقدراً فلا حرج عليكم فيه ولنعم ما رأيتم من ذلك وليس هو بفساد كما قاله شرار العباد إنما هو إظهار للقوة وإخزاء للكفرة الفجَرة.

وقد روى البخاري [٤٨٨٤] ومسلم [١٧٤٦] جميعاً عن قتيبة عن الليث عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وعند البخاري [٢٣٢٦، ٤٠٣٢] من طريق جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخيل بني النضير وقطع وهي البويرة ولها يقول حسان بن ثابت:

وهانَ على سُراةِ بني لؤيٍّ ... حريقٌ بالبُويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام اللّه ذلك من صنيعٍ ... وحرّق في نواحيها السعير
ستعلم أيّنا منها بنُزْهٍ ... وتعلم أيّ أرضينا نضير

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٨/٢ ـ ٢٠٠]: وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف فالله أعلم.

لقد خزيتْ بغدرتها الحبور ... كذاك الدهرُ ذو صَرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب ... عظيم أمره أمرٌ كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً ... وجاءهم من اللّه النذير
نذيرٌ صادق أدّى كتاباً ... وآياتٍ مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فقال بلى لقد أديت حقاً ... يُصدّقني به الفَهِمُ الخبير
فمن يتبعه يُهد لكلّ رُشدٍ ... ومن يكفُر به يُجزَ الكفُور
فلما أُشربوا غدراً وكفراً ... وجدّ بهم عن الحق النُّفور
أرى اللّهُ النبيَّ برأي صدق ... وكان اللّهُ يحكم لا يجور
فأيّده وسلّطه عليهم ... وكان نصيره نعم النصير
فغُودر منهم كعبٌ صريعاً ... فذلّت بعد مصرعه النضير
على الكفّين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمدٍ إذ دسّ ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسير
فما كَرُهُ فأنزله بمكر ... ومحمودٌ أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء ... أبارهم بما اجترموا المبير
غداة أتاهم في الزحف رَهْواً ... رسولُ اللّه وهو بهم بصير
وغسّانُ الحماةُ موازروه ... على الأعداء وهو لهم وزير
فقال السِّلم ويحكم فصَدُّوا ... وخالف أمرَهم كذب وزور
فذاقوا غِبَّ أمرهم وبالاً ... لكل ثلاثة منهم بعير
وأُجلوا عامدين لقَيْنُقاع ... وغُودِرَ منهم نخل ودور

وقد ذكر ابن إسحاق جوابها لسمّالٍ اليهودي، فتركناها قصداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٥/٢، ١٩٦]: وكان مما قيل في بني النضير قول ابن لُقَيم العبسي، ويقال: قالها قيس بن بحر بن طريف الأشجعي:

أهلي فداء لامرئ غير هالك ... أحلَّ اليهود بالحسيِّ المزنَّم
يَقيلون في جمر الغَضاة وبدّلوا ... أُهيضب عُودى بالوَديِّ المكمَّم
فإن يك ظني صادقاً بمحمدٍ ... تروا خيله بين الصلا ويَرَمْرَم
يؤم بها عمرو بن بهثة إنهم ... عدوٌ وما حيٌّ صديق كمجرم
عليهن أبطال مساعير في الوغى ... يَهُزُّون أطراف الوشيج المُقَوَّم
وكلُّ رقيق الشَّفرتين مهنّدٍ ... توورثن من أزمان عادٍ وجُرهم
فمن مُبلغ عني قريشاً رسالة ... فهل بعدهم في المجد من متكرم
بأن أخاهم فاعلَمُنَّ محمداً ... تليد الندى بين الحَجون وزمزم
فدينوا له بالحق تَجسُمْ أموركم ... وتسمو من الدنيا إلى كل مُعْظَم
نبي تلاقته من اللّه رحمة ... ولا تسألوه أمر غيب مُرجَّم
فقد كان في بدر لعمري عبرةٌ ... لكم يا قريشاً والقَليب المُلَمَّم
غداة أتى في الخزرجية عامداً ... إليكم مطيعاً للعظيم المُكَرَّم
مُعاناً بروح القدس يُنكي عدُوَّه ... رسولا من الرحمن حقا بمَعلَم
رسولا من الرحمن يتلو كتابه ... فلما أنار الحقُّ لم يَتلعثَم
أرى أمره يزداد في كل موطن ... علوّاً لأمر حمّه اللّه محكم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢، ١٩٧] وقال علي بن أبي طالب ـ وقال ابن هشام: قالها رجل من المسلمين ولم أر أحداً يعرفها لعلي ـ:

عرفتُ ومن يعتدلْ يعرفِ ... وأيقنتُ حقاً ولم أصدِفِ
عن الكَلِم المحكم الآي من ... لدى اللّه ذي الرأفة الأرأف
رسائلُ تُدرس في المؤمنين ... بهن اصطفى أحمدَ المصطفى
فأصبح أحمد فينا عزيزاً ... عزيزَ المُقامة والموقف
فيا أيها الموعِدوه سفاهاً ... ولم يأت جوراً ولم يَعنُف
ألستم تخافون أدنى العذاب ... وما آمِنُ اللّه كالأخوَف
وأن تُصرعوا تحت أسيافه ... كمصرع كعب أبي الأشرف
غداة رأى اللّه طغيانه ... وأعرض كالجمل الأجنف
فأنزل جبريل في قتله ... بوحي إلى عبده مُلطَف
فدسّ الرسول رسولا له ... بأبيضَ ذي هَبّةٍ مرهَف
فباتت عيونٌ له مُعوِلات ... متى يُنعَ كعب لها تذرف
وقلن لأحمد ذَرنا قليلاً ... فإنا من النَّوح لم نَشتَف

فخلاّهم ثم قال: اظعنوا دُحوراً على رَغْم الأنُف
وأجلى النضير إلى غُربة وكانوا بدار ذوي زُخرف
إلى أذرعات رُدافاً وهم على كل ذي دَبَر أعجف

وتركنا جوابها أيضاً من سماك اليهودي قصداً.

ثم ذكر تعالى حكم الفيء وأنه حكم بأموال بني النضير لرسول الله ﷺ وملكها له فوضعها رسول الله ﷺ حيث أراه الله تعالى كما ثبت في الصحيحين [خ (٢٩٠٤، ٤٨٨٥)، م (١٧٥٧)] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خاصة فكان يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله عز وجل.

ثم بين تعالى حكم الفيء وأنه للمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان على منوالهم وطريقتهم ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر: ٧].

قال الإمام أحمد [٣/٢١٩]: حدثنا عارم وعفان قالا: حدثنا معتمر سمعت أبي يقول: حدثنا أنس بن مالك عن نبي الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير.

قال: فجعل يرد بعد ذلك.

قال: وإن أهلي أمروني أن آتي نبي الله ﷺ فاسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه وكان نبي الله ﷺ أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله.

قال: فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول: كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يُعطيكهن وقد أعطانيهن. أو كما قالت. فقال النبي ﷺ: «لك كذا وكذا» وتقول: كلا والله. قال: ويقول: «لك كذا وكذا» وتقول: كلا والله قال: ويقول: «لك كذا وكذا» حتى أعطاها ـ حسبت أنه قال ـ عشرة أمثاله أو قال: قريباً من عشرة أمثاله أو كما قال.

أخرجاه [خ (٣١٢٨)، م (١٧٧١)] بنحوه من طرق عن معتمر به.

ثم قال تعالى ذاماً للمنافقين الذين مالوا إلى بني النضير في الباطن كما تقدم ووعدوهم النصر فلم يكن من ذلك شيء بل خذلوهم أحوج ما كانوا إليهم وغروهم من أنفسهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ [سورة الحشر: ١١، ١٢].

ثم ذمهم تعالى على جبنهم وقلة علمهم وخفة عقلهم النافع ثم ضرب لهم مثلاً قبيحاً شنيعاً بالشيطان حين قال للإنسان ﴿اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الحشر: ١٦، ١٧].

سنة ٤ـ قصّة عمرو بن سُعدى القرظي حين مر على ديار بني النضير وقد صارت يَبابا ليس بها داع ولا مجيب

وقد كانت بنو النضير أشرف من بني قريظة حتى حداه ذلك على الإسلام وأظهر صفة رسول الله ﷺ من التوراة.

قال الواقدي: حدثنا إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: لما خرجت بنو النضير من المدينة أقبل عمرو بن سعدى فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها وفكر ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا فقال الزبير بن باطا: يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم لم نَرَكَ؟ وكان لا يفارق الكنيسة وكان يتأله في اليهودية، قال: رأيت اليوم عبراً قد عُبِّرنا بها، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل ولا والتوراة ما سُلّط هذا على قوم قط لله بهم حاجة وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذي عزهم ثم بيَّته في بيته آمنا وأوقع بابن سُنَينة سيدهم وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم أهل جد يهود وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم وكُلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب. يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً والله إنكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبو عمير وابن حراش وهما أعلم يهود جاءانا يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه جاءانا من بيت المقدس وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا هذه، فأسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، ثم أعاد هذا الكلام ونحوه وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء.

فقال الزبير بن باطا: قد والتوراة قرأت صفته في كتاب باطا التوراة التي نزلت على موسى ليس في المثاني الذي أحدثنا.

قال: فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت قال كعب: فلم والتوراة ما حلت بينك وبينه قط؟! قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سعدى على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعبٌ ما عندي في أمره إلا ما قلت: ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً. رواه البيهقي [الدلائل: ٣/٣٦١، ٣٦٢].

سنة ٤ـ غزوة بني لِحيان التي صلّى فيها صلاة الخوف بعسفان

مهنا ذكرها البيهقي في الدلائل [٣/٣٦٤ ـ ٣٦٨]، وإنما ذكرها ابن إسحاق فيما رأيته من طريق ابن هشام عن زياد عنه في جمادى الأولى من سنة ثنتين من الهجرة بعد الخندق وبني قريظة وهو أشبه مما ذكره البيهقي والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣/٣٦٤ ـ ٣٦٨]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: لما أصيب خبيب وأصحابه خرج رسول الله ﷺ طالباً بدمائهم ليصيب من بني لحيان غرّة، فسلك طريق الشام ليرى أنه لا يريد بني لحيان، حتى نزل بأرضهم

فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنا هَبطْنا عُسْفانَ لرأتْ قريشٌ أنّا قد جئنا مكةَ».

فخرج في مائتي راكب حتى نزل عُسْفان ثم بعث فارسين حتى جاءا كُراع الغميم ثم انصرفا، فذكر أبو عياش الزرقي أن رسول الله ﷺ صلّى بعسفان صلاة الخوف.

وقد قال الإمام أحمد [٥٩/٤، ٦٠]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن منصور عن مجاهد عن أبي عياش قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرّتهم. ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح فصففنا خلفه صفين ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ثم سجد بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء قال: ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبيُّ ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلّم عليهم ثم انصرف.

قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة عسفان ومرة بأرض بني سليم.

ثم رواه أحمد [٦٠/٤] عن غندر عن شعبة عن منصور به نحوه. وقد رواه أبو داود [١٢٣٦] عن سعيد بن منصور عن جرير بن عبد الحميد.

والنسائي [١٤٥٨، ١٤٥٩] عن الفلاس عن عبد العزيز بن عبد الصمد وعن محمد بن المثنى وبندار عن غندر عن شعبة ثلاثتهم عن منصور به.

وهذا إسناد على شرط الصحيحين ولم يخرجه واحد منهما.

لكن روى مسلم [(٨٤٠) (٣٠٨)] من طريق أبي خيثمة زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جُهينة فقاتلوا قتالاً شديداً فلما أن صلى الظهر قال المشركون: لو مِلنا عليهم مَيلة لاقتطعناهم فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك وذكر لنا رسول الله ﷺ قال: «وقالوا إنه ستأتيهم صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من الأولاد» فذكر الحديث كنحو ما تقدم.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٧٣٨)]: حدثنا هشام عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: «صلّى رسولُ الله ﷺ بأصحابه الظهر بنخل فهمّ به المشركون ثم قالوا: دعوهم فإن لهم صلاةً بعد هذه الصلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم، قال: فنزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره فصلى بأصحابه صلاة العصر فصفّهم صفين بين أيديهم رسول الله والعدوّ بين يدي رسول الله ﷺ فكبّر وكبّروا جميعاً وركعوا جميعاً ثم سجد الذين يَلُونَه والآخرون قيام فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون ثم تقدم هؤلاء وتأخر هؤلاء فكبّروا جميعاً وركعوا جميعاً ثم سجد الذين يلونهم والآخرون قيام فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون.

وقد استشهد البخاري في صحيحه [٤١٣٠] برواية هشام هذه عن أبي الزبير عن جابر.

وقال الإمام أحمد [٥٢٢/٢]: حدثنا عبد الصمد حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وهي العصر فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة. وإن جبريل أتى رسول الله ﷺ فأمره أن يُقسم أصحابه شطرين فيصلي ببعضهم ويقدم الطائفة الأخرى وراءهم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ثم تأتي الأخرى فيصلون معه ويأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم ليكون لهم ركعة ركعة مع رسول الله ﷺ ولرسول الله ﷺ ركعتان.

ورواه الترمذي [٣٠٣٥] والنسائي [١٩٣٢] من حديث عبد الصمد به وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: إن كان أبو هريرة شهد هذا فهو بعد خيبر وإلا فهو من مرسلات الصحابي ولا يضر ذلك عند الجمهور والله أعلم.

ولم يذكر في سياق حديث جابر عند مسلم ولا عند أبي داود الطيالسي أمر عسفان ولا خالد بن الوليد لكن الظاهر أنها واحدة. بقي الشأن في أن غزوة عسفان قبل الخندق أو بعدها، فإن من العلماء منهم الشافعي من يزعم أن صلاة الخوف إنما شرعت بعد يوم الخندق فإنهم أخّروا الصلاة يومئذ عن ميقاتها لعذر القتال ولو كانت صلاة الخوف مشروعة إذ ذاك لفعلوها ولم يؤخروها.

ولهذا قال بعض أهل المغازي [سيرة ابن هشام: ٢٧٩/٢، مغازي الواقدي: ٥٣٥/٢، تاريخ الطبري: ٥٩٥/٢]: إن غزوة بني لِحيان التي صلى فيها صلاة الخوف بعسفان كانت بعد بني قريظة.

وقد ذكر الواقدي [المغازي: ٧٤٥/٢، ٧٤٦] بإسناده عن خالد بن الوليد قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية لقيته بعسفان فوقفت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا فاطلعه الله على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف.

قلت: وعمرة الحديبية كانت في ذي القعدة سنة ست بعد الخندق وبني قريظة كما سيأتي.

وفي سياق حديث أبي عياش الزرقي ما يقتضي أن آية صلاة الخوف نزلت في هذه الغزوة يوم عسفان فاقتضى ذلك أنها أول صلاة خوف صلاها والله أعلم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى كيفية صلاة الخوف واختلاف الروايات فيها في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

سنة ٤- غزوة ذات الرقاع

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٣/٢، ٢٠٤]: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهري ربيع وبعض جمادى ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان واستعمل على المدينة أبا ذر.

قال ابن هشام: ويقال عثمان بن عفان.

قال ابن إسحاق: فسار حتى نزل نخلا وهي غزوة ذات الرقاع.

قال ابن هشام: لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال لشجرة هناك اسمها ذات الرقاع.

وقال الواقدي [المغازي: ٣٩٥/١]: بجبل فيه بقع حمر وسود وبيض، وفي حديث أبي موسى [خ (٤١٢٨)، م (١٨١٦)]: إنما سميت بذلك لما كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق من شدة الحر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٤/٢، ٢٠٥]: فلقي بها جمعاً من

غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول اللّه ﷺ بالناس صلاة الخوف.

وقد أسند ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢/٢٠٤، ٢٠٥] حديث صلاة الخوف ههنا عن عبد الوارث بن سعيد التنوري عن يونس بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد اللّه وعن عبد الوارث عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر وعن عبد الوارث عن أيوب عن نافع عن ابن عمر. ولكن لم يذكر في هذه الطرق غزوة نجد ولا ذات الرقاع ولم يتعرض لزمان ولا مكان وفي كون غزوة ذات الرقاع ـ التي كانت بنجد لقتال بني محارب وبني ثعلبة بن غطفان ـ قبل الخندق نظر.

وقد ذهب البخاري [قبل (٤١٢٥)] إلى أن ذلك كان بعد خيبر واستدل على ذلك بأن أبا موسى الأشعري شهدها كما سيأتي.

وقدومه إنما كان ليالي خيبر صحبه جعفر وأصحابه وكذلك أبو هريرة وقد قال: صليت مع رسول اللّه ﷺ في غزوة نجد صلاة الخوف [د (١٢٤٠)، س (١٥٤٢)].

ومما يدل على أنها بعد الخندق: أن ابن عمر إنما أجازه رسول اللّه ﷺ في القتال أول ما أجازه يوم الخندق.

وقد ثبت عنه في الصحيح [خ (٢٦٦٤)، م (١٨٦٨)] أنه قال: غزوت مع رسول اللّه ﷺ قِبَلَ نجد فذكر صلاة الخوف.

وقول الواقدي [المغازي: ١/٣٩٦]: إنه عليه السلام خرج إلى ذات الرقاع في أربعمائة ويقال: سبعمائة من أصحابه ليلة السبت لعشر خلون من المحرم سنة خمس. فيه نظر، ثم لا يحصل به نجاة من أن صلاة الخوف إنما شرعت بعد الخندق لأن الخندق كان في شوال سنة خمس على المشهور، وقيل: في شوال سنة أربع، فتحصل على هذا القول مخلص من حديث ابن عمر، فأما حديث أبي موسى وأبي هريرة فلا.

سنة ٤ـ قصّة غورث بن الحارث

قال ابن إسحاق في هذه الغزوة [سيرة ابن هشام: ٢/٢٠٥، ٢٠٦]: حدثني عمرو بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد اللّه أن رجلاً من بني محارب يقال له غورث قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. قال: فأقبل إلى رسول اللّه ﷺ وهو جالس، وسيف رسول اللّه ﷺ في حجره. فقال: يا محمد، أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: «نعم»، فأخذه ثم جعل يهزه ويهم فيكبته اللّه. ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟ قال: «لا، ما أخاف منك؟» قال: أما تخافني وفي يدي السيف. قال: «لا، يمنعني اللّه منك». ثم عمد إلى سيف النبي ﷺ فرده عليه فأنزل اللّه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المائدة: ١١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٠٦]: وحدثني يزيد بن رومان أنها إنما أنزلت في عمرو بن جحاش أخي بني النضير وما هَمَّ به.

هكذا ذكر ابن إسحاق قصة غورث هذا عن عمرو بن عبيد القدري رأس الفرقة الضالّة وهو وإن كان لا يُتهم بتعمد الكذب في الحديث إلا أنه ممن لا ينبغي أن يروى عنه لبدعته ودعائه إليها، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه وللّه الحمد.

فقد أورد الحافظ البيهقي ههنا طرقاً لهذا الحديث من عدة أماكن، وهي ثابتة في الصحيحين [خ (٢٩١٠) من حديث سنان، خ (٤١٣٥)، م (٨٤٣) من حديث سنان وأبي سلمة معاً] من حديث الزهري عن سنان بن أبي سنان وأبي سلمة عن جابر: أنه غزا مع رسول اللّه ﷺ غزوة نجد فلما قفل رسول اللّه ﷺ أدركته القائلة في واد كثير العِضَاهِ فتفرق الناس يستظلون بالشجر وكان رسول اللّه ﷺ تحت ظل شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة فإذا رسول اللّه ﷺ يدعونا فأجبناه وإذا عنده أعرابي جالس فقال رسول اللّه ﷺ: «إن هذا اخترَطَ سَيفي وأنا نائم فاستيقظتُ وهو في يده صلتاً فقال: مَن يمنعك مني؟ قلت: اللّه». فقال: من يمنعك مني؟ قلت: اللّه. فشام السيف وجلس» ولم يعاقبه رسول اللّه ﷺ وقد فعل ذلك.

وقد رواه مسلم [٨٤٣] أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان عن أبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: أقبلنا مع رسول اللّه ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع، وكنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول اللّه ﷺ فجاءه رجل من المشركين وسيف رسول اللّه ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف رسول اللّه فاخترَطَه وقال لرسول اللّه ﷺ: تخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «اللّه يمنعني منك» قال: فتهدَّده أصحاب رسول اللّه ﷺ فأغمد السيف وعلقه. قال: ونودي بالصلاة فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين قال: فكانت لرسول اللّه ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان.

وقد علقه البخاري [٤١٣٦] بصيغة الجزم عن أبان به.

قال البخاري [٤١٣٦]: وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر أن اسم الرجل غورث بن الحارث.

وأسند البيهقي [الدلائل: ٣/٣٧٥، ٣٧٦] من طريق أبي عوانة عن أبي بشر عن سليمان بن قيس عن جابر قال: قاتل رسول اللّه ﷺ محارب خَصَفَةَ بنخل فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول اللّه ﷺ بالسيف وقال: من يمنعك مني؟ قال: «اللّه» فسقط السيف من يده فأخذ رسول اللّه ﷺ السيف وقال: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ. قال: «تشهد أن لا إله إلا اللّه؟» قال: لا ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

ثم ذكر صلاة الخوف وأنه صلى أربع ركعات بكل طائفة ركعتين.

وقد أورد البيهقي [الدلائل: ٣/٣٧٦، ٣٧٧] هنا طرق صلاة الخوف بذات الرقاع عن صالح بن خوات بن جبير عن سهل بن أبي حثمةَ، وحديث الزهري عن سالم عن أبيه في صلاة الخوف بنجد وموضع ذلك كتاب الأحكام. واللّه أعلم.

سن ٤ـ قصّة الذي أُصيبت امرأته في هذه الغزوة

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٠٨، ٢٠٩]: حدثني عمي صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر بن عبد اللّه قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فلما انصرف رسول اللّه ﷺ قافلاً، أتى زوجها وكان غائباً، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد دماً فخرج يتبع أثَرَ رسول اللّه ﷺ فنزل رسول اللّه ﷺ منزلاً فقال: «من رجل يَكلَؤنا ليلتَنا؟» فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار. فقالا: نحن يا رسول اللّه، قال: «فكونا بفم الشعب من الوادي»، وهما عمار بن ياسر

وعباد بن بشر فلما خرجا إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه؛ أوله أم آخره؟ قال: بلى اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل، فلما رأى شخصَ الرجلِ عرف أنه ربيئة القوم فرمى بسهم فوضعه فيه فانتزعه ووضعه وثبت قائماً. قال: ثم رمى بسهم آخر فوضعه فيه. فنزعه فوضعه وثبت قائماً قال: ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه فقال: اجلس فقد أُثْبِتُّ، قال: فوثب الرجل فلما رآهما الرجلُ عرف أنه قد نُذِرا به فهرب قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك وايم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها.

هكذا ذكره ابن إسحاق في المغازي.

وقد رواه أبو داود [١٩٨] عن أبي توبة عن عبد الله بن المبارك عن ابن إسحاق به.

وقد ذكر الواقدي [المغازي: ٣٩٦/١، ٣٩٧] عن عبد الله العمري عن أخيه عبيد الله عن القاسم بن محمد عن صالح بن خوات عن أبيه حديث صلاة الخوف بطوله قال: وكان رسول الله ﷺ قد أصاب في محالهم نسوة، وكان في السبي جارية وضيئة وكان زوجها يحبها فحلف ليطلبن محمداً ولا يرجع حتى يصيب دماً أو يخلص صاحبته؛ ثم ذكر من السياق نحو ما أورده محمد بن إسحاق.

قال الواقدي [المغازي: ٣٩٨/١]: وكان جابر بن عبد الله يقول: بينا أنا مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه بفرخ طائر ورسول الله ﷺ ينظر إليه فأقبل إليه أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه فرأيت أن الناس عجبوا من ذلك فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبُون مِن هذا الطائرِ؟! أخذتُم فَرخَه فطرَح نفسَه رحمةً لفرخِه فواللَّه لربُّكم أرحمُ بكم مِن هذا الطائرِ بفَرْخِه».

سنة ٤ - قصّة جمل جابر في هذه الغزوة

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٦/٢، ٢٠٧]: حدثني وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: «مالك يا جابر؟» قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال: «أَنِخْهُ»، قال: فأنخته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك» أو «اقطع عصا من شجرة» ففعلت، فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال: «اركبْ» فركبت فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة. قال: وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال: «أَتبيعُني جملَك هذا يا جابر؟» قال: قلت: بل أَهبه لك قال: «لا ولكن بعنيه»، قال: قلت: «فسُمْنيه»، قال: «قد أخذتُه بدرهم»، قال: قلت: لا إذاً تغبنني يا رسول الله، قال: «فبدرهمين»، قال: قلت: لا، قال: فلم يَزلْ يرفعُ لي رسولُ الله ﷺ حتى بلغَ الأوقية، قال: فقلت: أفقد رضيت؟ قال: «نعم»، قلت: «فهو لك»، قال: قد أخذته ثم قال: «يا جابر هل تزوَّجت بعد؟»، قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «أثيباً أم بكراً»، قال: قلت: بل ثيباً، قال: «أفلا جاريةً تُلاعِبها وتُلاعِبُك؟»، قال: قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن فتقوم عليهن. قال: «أصبتَ إنْ شاء الله، أما إنَّا لو جئْنا صراراً أمرنا بجزور فنُحرت فأقمنا عليها يومنا ذلك وسَمِعت بنا فَنَفَضَت نمارقها»، قال: فقلت: والله يا رسول الله مالنا نمارق، قال: «إنها ستكون فإذا أنت قدمت فاعملْ عملا كيِّساً».

قال: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم. فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا. قال: فحدثت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسمع وطاعة.

فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريباً منه، قال: وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: «ما هذا»، قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر، قال: «فأين جابر»، فدعيت له، قال: فقال: «يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك»، قال: ودعا بلالا فقال: اذهب بجابر فأعطه أوقية، قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً، قال: فوالله ما زال ينمي عندي ويرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا، يعني يوم الحرة.

وقد أخرجه صاحبا الصحيح [خ (٢٠٩٧)، م (٧١٥)] من حديث عبيد الله بن عمر العمري عن وهب بن كيسان عن جابر بنحوه.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢٤٨/٦، ٢٤٩]: في هذا الحديث إشارة إلى ما كان أخبر به رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله «أن الله أحيا والده وكلمه فقال له: تمنَّ عليَّ» وذلك أنه شهيد وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ وزادهم على ذلك في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ ثم جمع لهم بين العوض والمعوَّض فرد عليهم أرواحهم التي اشتراها منهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩] والروح للإنسان بمنزلة المطية كما قال ذلك عمر بن عبد العزيز.

قال: فلذلك اشترى رسول الله ﷺ من جابر جمله وهو مطيته فأعطاه ثمنه ثم رده عليه وزاده مع ذلك.

قال: ففيه تحقيق لما كان أخبره به عن أبيه.

وهذا الذي سلكه السهيلي ههنا إشارة غريبة وتخيل بديع والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ترجم الحافظ البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) [٣٨١/٣] على هذا الحديث في هذه الغزوة فقال: باب ما كان ظهر في غزاته هذه من بركاته وآياته في جمل جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وهذا الحديث له طرق عن جابر وألفاظ كثيرة وفيه اختلاف كثير في كمية ثمن الجمل وكيفية ما اشترط في البيع. وتحرير ذلك واستقصاؤه لائق بكتاب البيع من الأحكام والله أعلم.

وقد جاء تقييده بهذه الغزوة وجاء تقييده بغيرها كما سيأتي ومستبعد تعداد ذلك والله أعلم.

سنة ٤ - غزوة بدر الآخِرة

وهي بدر الموعد التي تواعدوا إليها من أحد كما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/٢]: ولما رجع رسول الله ﷺ

إلى المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجباً ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/٢]: واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٠٩/٢]: فنزل رسول الله ﷺ بدراً وأقام عليه ثمانياً ينتظر أبا سفيان. وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران. وبعض الناس يقول: قد بلغ عسفان ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

قال: وأتى مَخشي بن عمرو الضمري وقد كان وادع النبي ﷺ في غزوة وَدّان على بني ضمرة فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم يا أخا بني ضمرة وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك وجَالَدْنَاكَ حتى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد مالنا بذلك من حاجة.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٠/٢، ٢١١]: وقد قال عبد الله بن رواحة - يعني في انتظارهم أبا سفيان ورجوعه بقريش عامه ذلك -
قال ابن هشام: وقد أنشدنيها أبو زيد لكعب بن مالك:

وعَدْنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسم لو لاقيتنا فلقيتنا ... لأبتَ ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه ... وعمراً أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أفٍّ لدينكم ... وأمركم السيْء الذي كان غاويا
فإني وإن عنّفتموني لقائلٌ ... فِدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نَعدِلْه فينا بغيره ... شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١١/٢، ٢١٢]: وقال حسان بن ثابت في ذلك:

دعوا فَلَجاتِ الشام قد حال دونها ... جلادٌ كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سلكتْ للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك
أقمنا على الرسِّ النزوع ثمانيا ... بأرعنَ جرّارٍ عريض المبارك
بكل كُمَيْتٍ جَوْزُه نصف خَلْقِه ... وقُبٍّ طِوال مشرفات الحوارك
ترى العرفج العاميَّ تَذْري أصوله ... مناسمُ أخفاف المطيِّ الرواتك
فإن تلقَ في تَطوافنا والتماسنا ... فرات بن حيان يكنْ رهْنَ هالك
وإن تلقَ قيس بن امرئ القيس بعده ... يزِدْ في سواد لونه لون حالك
فأبلغ أبا سفيان عني رسالةً ... فإنك من غرّ الرجال الصعالك

قال [سيرة ابن هشام: ٢١٢/٢، ٢١٣]: فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد أسلم فيما بعد ذلك:

أحسانُ إنا يا ابن آكلة الفَغَا ... وجدِّك نغتال الخُروق كذلك
خرجنا وما تنجو اليعافيرُ بيننا ... ولو وَأَلتْ منا بشد مُدارك
إذا ما انبعثنا من مُناخٍ حسبته ... مُدَمَّنَ أهل الموسم المتعارك
أقمت على الرسِّ النَّزوع تريدنا ... وتتركنا في النخل عند المدارك
على الزرع تمشي خيلنا وركابنا ... فما وطئت ألصقنه بالدكادك
أقمنا ثلاثاً بين سَلْعٍ وفارع ... بجُرْدِ الجياد والمطيِّ الرواتك
حسبتم جِلاد القوم عند قِبابكم ... كمأخذكم بالعين أرطال آنُك
فلا تبعث الخيلَ الجياد وقل لها ... على نحو قول المعصم المتماسك
سَعِدتم بها وغيركم كان أهلَها ... فوارس من أبناء فهر بن مالك
فإنك لا في هجرة إن ذكرتها ... ولا حُرماتِ دينها أنتَ ناسك

قال ابن هشام [السيرة: ٢١٣/٢]: تركنا منها أبياتاً لاختلاف قوافيها.

وقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري وابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ استنفر الناس لموعد أبي سفيان وانبعث المنافقون في الناس يثبطونهم فسلم الله أولياءه، وخرج المسلمون صحبة رسول الله ﷺ إلى بدر وأخذوا معهم بضائع وقالوا: إن وجدنا أبا سفيان وإلا اشترينا من بضائع موسم بدر، ثم ذكر نحو سياق ابن إسحاق في خروج أبي سفيان إلى مجنة ورجوعه وفي مقاولة الضمري، وعَرْض النبيِّ ﷺ المنابذة فأبى ذلك.

قال الواقدي [المغازي: ٣٨٧/١]: خرج رسول الله ﷺ إليها في ألف وخمسمائة من أصحابه واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة. وكان خروجه إليها في مستهل ذي القعدة يعني سنة أربع.

والصحيح قول ابن إسحاق أن ذلك في شعبان من هذه السنة الرابعة ووافق قول موسى بن عقبة أنها في شعبان لكن قال: في سنة ثلاث؛ وهذا وهم فإن هذه تواعدوا إليها من أحد وكانت أحد في شوال سنة ثلاث كما تقدم والله أعلم.

قال الواقدي [المغازي: ٣٨٤/١]: فأقاموا ببدر مدة الموسم الذي كان يعقد فيها ثمانية أيام فرجعوا وقد ربحوا من الدرهم درهمين.

وقال غيره [هو قول ابن عباس ومجاهد والسدي، انظر تفسير الطبري: ١٨٣/٤]: فانقلبوا كما قال الله عز وجل: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٤].

سنة ٤- أحداث أخرى

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٥٥/٢]: وفي جمادى الأولى من هذه السنة مات عبد الله بن عثمان بن عفان رضي الله عنه - قلت: من رقية بنت رسول الله ﷺ وهو ابن ست سنين فصلى عليه رسول الله ﷺ ونزل في حفرته والده عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قلت: وفيه توفي أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي وأمه بَرّة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وكان رضيع رسول الله ﷺ ارتضعا من ثويبة مولاة أبي لهب وكان إسلام أبي سلمة وأبي عبيدة وعثمان بن عفان والأرقم بن أبي الأرقم قديماً في يوم واحد، وقد هاجر هو وزوجته أم سلمة إلى أرض الحبشة ثم عاد إلى مكة وقد ولد لهما بالحبشة أولاد، ثم هاجر من مكة إلى المدينة وتبعته أم سلمة إلى المدينة كما تقدم، وشهد بدراً وأحداً ومات من آثار جرح جُرِحَه بأحد رضي الله عنه وأرضاه، له حديث واحد في الاسترجاع عند المصيبة سيأتي في سياق تزويج رسول الله ﷺ بأم سلمة قريباً.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري: ٢/٥٥٥]: وفي ليال خلون من شعبان ولد الحسين بن علي من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم.

قال [تاريخ الطبري: ٢/٥٤٥]: وفي شهر رمضان من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية.

وقد حكى أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ٤/١٨٥٣] عن علي بن عبد العزيز الجرجاني أنه قال: كانت أخت ميمونة بنت الحارث. ثم استغربه وقال: لم أره لغيره. وهي التي يقال لها: أم المساكين لكثرة صدقاتها عليهم وبرّها لهم وإحسانها اليهم، وأصدقها ثنتي عشرة أوقية ونشاً ودخل بها في رمضان وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها.

قال أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ٤/١٨٥٣] عن علي بن عبد العزيز الجرجاني: ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

قال ابن الأثير في الغابة [٧/١٢٩]: وقيل: كانت تحت عبد الله بن جحش فقُتل عنها يوم أحد.

قال أبو عمر [الاستيعاب: ٤/١٨٥٣]: ولا خلاف أنها ماتت في حياة رسول الله ﷺ وقيل: لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة حتى توفيت رضي الله عنها.

وقال الواقدي [المغازي: ١/٣٤٤]: في شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبي أمية.

قلت: وكانت قبله عند زوجها أبي أولادها أبي سلمة بن عبد الأسد وقد كان شهد بدراً وأحداً كما تقدم، وجرح يوم أحد فداوى جرحه شهراً حتى برئ، ثم خرج في سرية فغنم منها نعماً ومغنماً جيداً، ثم أقام بعد ذلك سبعة عشر يوماً ثم انتقض عليه جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، فلما حلّت في شوال خطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها بنفسه الكريمة وبعث إليها عمر بن الخطاب في ذلك مرراً فتذكر أنها امرأة غَيْرَى أي: شديدة الغيرة وأنها مُصْبِيَة أي: لها صبيان يشغلونها عنه ويحتاجون إلى مؤنة تحتاج معها أن تعمل لهم في قوتهم، فقال: «أما الصبية فإلى الله وإلى رسوله - أي نفقتهم - ليس إليك، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها»، فأذنت في ذلك وقالت لعمر آخر ما قالت له: قم فزوّج النبي ﷺ.

تعني: قد رضيت وأذنت.

فتوهم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان إذ ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد، وقد جمعت في ذلك جزءاً مفرداً بينت فيه الصواب في ذلك ولله الحمد والمنة. وإن الذي ولي عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة وهو أكبر ولدها وساغ هنا لأن أباه ابن عمها فللابن ولاية أمه إذا كان سبباً لها من غير جهة البنوة بالإجماع، وكذا إذا كان معتقاً أو حاكماً، فأما محض البنوة فلا يلي بها عقد النكاح عند الشافعي وحده وخالفه الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله ولبسط هذا موضع آخر يذكر فيه وهو كتاب النكاح من الأحكام الكبير إن شاء الله.

قال الإمام أحمد [٤/٢٧، ٢٨]: حدثنا يونس حدثنا ليث يعني ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا فسرُرت به، قال: «لا يُصيب أحداً من المسلمين مُصيبةٌ فَيسترجعُ عند مُصيبَتِه ثُم يقولُ اللّهم آجِرني في مُصيبَتِي واخلف لي خيراً مِنها إلا فَعَلَ به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللّهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال. فقال: «أمَّا ما ذكرتِ مِن الغَيرة فسيُذهبها الله عنكِ وأمَّا ما ذكرت مِن السِّن فقد أصابني مثلُ الَّذي أصابكِ، وأمَّا ما ذكرتِ مِن العيال فإنَّما عِيالُك عيالي»، فقالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه رسول الله ﷺ. وقد رواه الترمذي والنسائي من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن بن أبي سلمة عن أمه أم سلمة عن أبي سلمة به. وقال الترمذي حسن غريب. وفي رواية للنسائي عن ثابت عن ابن عمر بن أبي سلمة عن أبيه. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون عن عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن عمر بن أبي سلمة به.

وقال ابن إسحاق: ثم انصرف رسول الله ﷺ - يعني من بدر الموعد - راجعاً إلى المدينة فأقام بها حتى مضى ذو الحجة وولي تلك الحجة المشركون وهي سنة أربع. وقال الواقدي: وفي هذه السنة يعني سنة أربع امر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود. قلت: فثبت عنه في الصحيح أنه قال: تعلمته في خمسة عشر يوماً والله أعلم.

سنة ٥- غزوة دومة الجندل

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٣]: ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل. قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٣]: في ربيع الأول، - يعني من سنة خمس - واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٣]: ثم رجع إلى المدينة قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً، فأقام بالمدينة بقية سنته، هكذا قال ابن إسحاق.

وقد قال محمد بن عمر الواقدي [المغازي: ١/٤٠٢ -٤٠٤] بإسناده عن شيوخه عن جماعة من السلف قالوا: أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له: إن ذلك مما يفزع قيصر، وذكر له أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مر بهم، وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له: مذكور هادٍ خريت، فلما دنا من دومة الجندل أخبره دليله بسوائم بني تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله ﷺ، فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال الواقدي [المغازي: ١/٤٠٢]: وكان خروجه عليه السلام إلى دومة الجندل في ربيع الآخر سنة خمس.

قال: وفيه توفيت أم سعد بن عبادة وابنها مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة.

وقد قال أبو عيسى الترمذي في «جامعه» [(١٠٣٨)]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب: أن أم سعد ماتت والنبي ﷺ غائب، فلما قدم صلى عليها وقد مضى لذلك شهر.

وهذا مرسل جيد، وهو يقتضي أنه عليه السلام غاب في هذه الغزوة شهراً فما فوقه على ماذكره الواقدي رحمه الله.

سنة ٥- غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب

وقد أنزل الله تعالى فيها صدر سورة «الأحزاب» فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً. قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً. أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً. لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ [سورة الأحزاب: ٩ ٢٧] وقد تكلمنا على كل من هذه الآيات الكريمات في «التفسير» ولله الحمد والمنة، ولنذكر ههنا ما يتعلق بالقصة إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقد كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة نص على ذلك ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٤] وعروة بن الزبير وقتادة والبيهقي [الدلائل: ٣/٣٩٤، ٣٩٥] وغير واحد من العلماء سلفاً وخلفاً.

وقد روى موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: ثم كانت وقعة الأحزاب في شوال سنة أربع. وكذلك قال الإمام مالك بن أنس فيما رواه أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عنه.

قال البيهقي [الدلائل: ٣/٣٩٥]: ولا اختلاف بينهم في الحقيقة لأن مرادهم أن ذلك بعد مضي أربع سنين وقبل استكمال خمس، ولا شك أن المشركين لما انصرفوا عن أحد واعدوا المسلمين إلى بدر العام القابل، فذهب النبي ﷺ وأصحابه كما تقدم في شعبان سنة أربع ورجع أبو سفيان بقريش لجدب ذلك العام فلم يكونوا ليأتوا إلى المدينة بعد شهرين، فتعين أن الخندق في شوال من سنة خمس والله أعلم.

وقد وصرح الزهري بأن الخندق كانت بعد أحد بسنتين ولا خلاف أن أحداً في شوال سنة ثلاث إلا على قول من ذهب إلى أن أول التاريخ من محرم السنة التالية لسنة الهجرة، ولم يعدوا الشهور الباقية من سنة الهجرة من ربيع الأول إلى آخرها كما حكاه البيهقي [الدلائل: ٣/٣٩٦، ٣٩٧].

وبه قال يعقوب بن سفيان الفسوي [المعرفة والتاريخ: ٣/٢٨٦] وقد صرح بأن بدراً في الأولى، وأحداً في سنة ثنتين، وبدراً الموعد في شعبان سنة ثلاث، والخندق في شوال سنة أربع. وهذا مخالف لقول الجمهور فإن المشهور أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جعل أول التاريخ من محرم سنة الهجرة.

وعن مالك: من ربيع الأول سنة الهجرة، فصارت الأقوال ثلاثة والله أعلم.

والصحيح قول الجمهور أن أحداً في شوال سنة ثلاث، وأن الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة والله أعلم.

فأما الحديث المتفق عليه في «الصحيحين» [خ (٢٦٦٤)، م (١٨٦٨)] من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه قال: عرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقد أجاب عنه جماعة من العلماء منهم البيهقي [الدلائل: ٣/٣٩٦] بأنه عرض يوم أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الأحزاب في أواخر الخامسة عشرة.

قلت: ويحتمل أنه أراد أنه لما عرض عليه في يوم الأحزاب كان قد استكمل خمس عشرة سنة التي يجاز لمثلها الغلمان، فلا يبقى على هذا زيادة عليها. ولهذا لما بلّغ نافعٌ عمر بن عبد العزيز هذا الحديث قال: إن هذا لفرق بين الصغير والكبير، ثم كتب به إلى الآفاق واعتمد على ذلك جمهور العلماء والله أعلم.

وهذا سياق القصة مما ذكره ابن إسحاق وغيره.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٤ - ٢١٦]: ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس. فحدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم من علمائنا وبعضهم يحدث مالا يحدث بعض. قالوا:

إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا:

إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر

يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خيرٌ أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [سورة النساء: ٥١] الآيات.

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٢٤]: يقال إن الذي أشار به سلمان.

قال الطبري [في تاريخه: ١/٣٧٩] والسهيلي [الروض: ٦/٣٠٦]: أول من حفر الخنادق منوشهر بن إيرج بن أفريدون وكان في زمن موسى عليه السلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٦]: فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون، وتخلف طائفة من المنافقين يعتذرون بالضعف، ومنهم من يتسلل خفية بغير إذنه ولا علمه عليه الصلاة والسلام.

وقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٦٢-٦٤].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢١٧]: فعمل المسلمون فيه حتى أحكموه، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له: جعيل سماه رسول الله ﷺ عَمْراً، فقالوا فيما يقولون:

سمَّاه من بعد جُعيلٍ عَمْراً ... وكان للبائس يوماً ظَهراً

وكانوا إذا قالوا عمْراً قال معهم رسول الله ﷺ: «عمراً»، وإذا قالوا: ظهراً قال لهم: «ظهراً».

وقد قال البخاري [٢٨٣٤]: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد سمعت أنساً قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيشَ عيشُ الآخرة، فاغفرْ للأنصار والمهاجرة». فقالوا مجيبين له:

نحنُ الذين بايعوا محمَّدا ... على الجهادِ مَابقينا أبدا

وفي «الصحيحين» [خ (٣٧٩٥)، م (١٢٧، ١٨٠٥)] من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس نحوه.

وقد رواه مسلم [١٣٠/١٨٠٥: رواية حماد عن ثابت عن أنس] من حديث حماد بن سلمة عن ثابت وحميد عن أنس بنحوه.

وقال البخاري [٢٨٣٥]: حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

قال: يقول النبي ﷺ يجيبهم: «اللَّهم إنه لا خيرَ إلا خير الآخرة، فبارِكْ في الأنصار والمهاجرة» قال: يؤتون بملء كفي من الشعير فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم والقوم جياع وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن.

وقال البخاري [٤٠٩٨]: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار».

ورواه مسلم [١٨٠٤] عن القعنبي عن عبد العزيز به.

وقال البخاري [٤١٠٤]: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغمر بطنه - أو اغبر بطنه - يقول:

واللَّه لولا اللَّهُ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا

فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا

إنَّ الألى قد بَغَوْا علينا ... إذا أرادوا فِتنةً أَبَيْنَا

ورفع بها صوته: أبينا، أبينا.

ورواه مسلم [١٨٠٣] من حديث شعبة به.

ثم قال البخاري [٤١٠٦]: حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا شريح بن مسلمة حدثني إبراهيم بن يوسف حدثني أبي عن أبي إسحاق عن البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فأنزلن سَكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

إنَّ الألى قد بَغَوا علينا ... إذا أرادوا فِتنةً أبينا

ثم يمد صوته بآخرها. وقال البيهقي في الدلائل [٣/٤١٤]: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا إسماعيل بن الفضل البجلي حدثنا إبراهيم بن يوسف البلخي حدثنا المسيب بن شريك عن زياد بن أبي زياد عن أبي عثمان عن سلمان: أن رسول الله ﷺ ضرب في الخندق وقال:

بسم اللَّه وبه هُدينا ... ولو عبدْنا غيرَه شَقينا

يا حبَّذا ربًّا وحبَّ دِينا

وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٢١٠/٣]: حدثنا سليمان حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال وهم يحفرون الخندق: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فأصلح الأنصار والمهاجرة».

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٦٤١٣)، م (١٨٠٥)] من حديث غندر عن شعبة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٧/٢، ٢١٨]: وقد كان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله تعالى عبرة في تصديق رسول ﷺ وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون. فمن ذلك أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كُدْيَة، فشكوها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب ما ترد فأساً ولا مسحاة. هكذا ذكره ابن إسحاق منقطعاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وقد قال البخاري رحمه الله [٤١٠١]: حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: أتيت جابراً فقال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل». ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيَلَ أو أهْيَمَ.

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.

قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي»، فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم فقال: «ادخلوا ولا تَضَاغطُوا»، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية قال: «كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة». تفرد به البخاري.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٠٠/٣، ٣٠١] عن وكيع عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه أيمن الحبشي مولى بني مخزوم عن جابر بقصة الكدية وربط الحجر على بطنه الكريم.

ورواه البيهقي في «الدلائل» [٤١٥/٣، ٤١٦] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر بقصة الكدية والطعام وطوله أتم من رواية البخاري قال فيه:

لما علم النبي ﷺ بمقدار الطعام قال للمسلمين جميعاً: «قوموا إلى جابر» فقاموا، قال: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله وقلت: جاء بالخلق على صاع من شعير وعناق. ودخلت على امرأتي أقول: افتضحت! جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فكشفت عني غماً شديداً، قال: فدخل رسول الله ﷺ فقال: «خذي ودعيني من اللحم». وجعل رسول الله ﷺ يثرد ويغرف اللحم ويخمر هذا ويخمر هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ: «كُلي وأهدي» فلم تزل نأكل ونهدي يومنا أجمع.

وقد رواه كذلك أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر به وأبسط أيضاً، وقال في آخره: وأخبرني أنهم كانوا ثمانمائة أو قال: ثلاثمائة.

وقال يونس بن بكير عن هشام بن سعد عن أبي الزبير عن جابر. فذكر القصة بطولها في الطعام فقط وقال: وكانوا ثلاثمائة.

ثم قال البخاري: [٤١٠٢] حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو عاصم حدثنا حنظلة بن أبي سفيان أخبرنا سعيد ابن ميناء سمعت جابر بن عبد الله قال: لما حفر الخندق رأيت من النبي ﷺ خمصاً فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً فأخرجت إليّ جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه.

فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح رسول الله ﷺ فقال: «يا أهلَ الخندق إنَّ جابراً قد صنعَ سوراً فحيَّ هلاً بكم»، فقال رسول الله ﷺ «لاتُنزِلُنَّ بُرمَتَكُم ولا تَخبِزُنَّ عجينَكم حتى أجيءَ». فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت. فأخرجت لنا عجيناً فبصق فيه وبارك ثم قال: «ادعُ خبّازة فلتخبز معك واقدَحي مِن بُرمتك ولا تُنزِلوها» وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا كما هو.

ورواه مسلم [٢٠٣٩] عن حجاج بن الشاعر عن أبي عاصم به نحوه.

وقد روى محمد بن إسحاق هذا الحديث وفي سياقه غرابة من بعض الوجوه فقال [سيرة ابن هشام: ٢١٨/٢، ٢١٩]: حدثني سعيد بن ميناء عن جابر بن عبد الله قال: عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وكانت عندي شُويهة غير جد سمينة قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ قال: وأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق قال: وكنا نعمل فيه نهاراً، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا قال: فقلت: يا رسول الله أني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير فأنا أحب أن تنصرف معي إلى منزلي قال: وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده. قال: فلما أن قلت ذلك قال: «نعم» ثم أمر صارخاً فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله. قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال: فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه فجلس وأخرجناها إليه قال: فبرّك وسمّى الله تعالى ثم أكل وتواردها الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها.

والعجب أن الإمام أحمد إنما رواه من طريق سعيد بن ميناء عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق عنه عن جابر مثله سواء.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٨/٢]: وحدثني سعيد بن ميناء أنه قد حدث أن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. قالت فأخذتها

وانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي فقال: «تعالي يابُنية ما هذا معك؟» قالت: قلت يا رسول الله هذا تمر بعثتني بـه أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبـد الله بـن رواحة يتغديانه. فقـال: «هاتيـه» قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبسط لـه ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثـم قـال لإنسـان عنـده: «اصرخْ في أهلِ الخندق أنْ هلمّ إلى الغداء».

فاجتمعَ أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صـدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب. هكـذا رواه ابـن إسـحاق وفيه انقطاع.

وهكذا رواه الحافظ البيهقي [الدلائـل: ٤٢٧/٣] من طريقه ولم يـزد. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٩/٢]: وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ورسـول اللّـه ﷺ قريب مني فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المِعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ثم ضـرب بـه ضربـة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى قال: ثـم ضـرب بـه الثالثـة فلمعـت برقـة أخرى.

قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوَقد رأيتَ ذلك ياسلمان؟» قال: قلت: نعم. قال: «أمّا الأولى فإن الله فتح عليّ بها باب اليمن وأمـا الثانيـة فـإن اللّـه فـتـح عليّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق».

قال البيهقي: وهذا الذي ذكره ابن إسحاق قد ذكره موسـى بـن عقبـة في «مغازيه»، وذكره أبو الأسود عن عروة.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٤١٨/٣ ـ ٤٢٠] مـن طريـق محمـد بـن يونس الكديمي وفي حديثه نظر.

لكن رواه ابن جرير في «تاريخه» [٥٦٧/٢ ـ ٥٧٠] عن محمد بن بشّار بندار، كلاهما عن محمد بن خالد بن عثمة عن كثير بن عبد الله بن عمـرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده فذكر حديثاً فيه أن رسول الله ﷺ خـط الخندق بين كل عشرة أربعين ذراعاً قال: واحتـقّ المهـاجرون والأنصـار في سلمان فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهـل البيـت». قـال عمـرو بـن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا بلغنا الندى ظهرت لنا صخـرة بيضـاء مـروة فكسرت حديدنا وشقت علينا، فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ وهـو في قبة تركية، فأخبره عنها فجاء فأخذ المعـول مـن سـلمان فضـرب الصخـرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيهـا ـ يعـني المدينـة ـ حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسـول اللّـه ﷺ تكبير فتـح وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية فكذلك، ثم الثالثة فكذلك.

وذكر ذلك سلمان والمسـلمون لرسـول اللّـه ﷺ وسـألوه عـن ذلـك النور، فقال: «لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائـن كسـرى كأنهـا أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

ومن الثانيـة أضـاءت القصـور الحمـر مـن أرض الـروم كأنهـا أنيـاب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

ومن الثالثة أضـاءت قصـور صنعـاء كأنهـا أنيـاب الكـلاب وأخـبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا».

واستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعود صادق. قال: ولما طلعـت الأحزاب قال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصـدق اللّـه ورسـوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. وقال المنافقون: يخبركم أنه يبصـر مـن يـثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنهـا تفتـح لكـم وأنتـم تحفـرون الخنـدق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل فيهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [سورة الأحزاب: ١٢] وهذا حديث غريب.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هارون بن ملـول حدثنـا أبـو عبد الرحمن حدثنا عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن يزيـد عـن عبداللّـه بن عمرو قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالخندق فخندق على المدينة قالوا: يا رسول الله إنا وجدنا صفاة لا نستطيع حفرها، فقام النبي ﷺ وقمنـا معـه فلما أتاها أخذ المعول فضرب به ضربة وكبر فسمعت هدّة لم أسـمع مثلهـا قط فقال: «فُتحت فارس»، ثم ضرب أخرى فكبر فسمعت هـدّة لم أسمـع مثلها قط فقال: «فتحت الروم»، ثم ضرب أخري فكـبر فسـمعت هـدّة لم أسمع مثلها قط فقال: «جاء الله بحمير أعواناً وأنصاراً».

وهذا أيضا غريب من هـذا الوجـه وعبـد الرحمـن بـن زيـاد بـن أنعـم الأفريقي فيه ضعف فالله أعلم.

وقال الطبراني أيضـاً [المعجم الكبير: ٣٧٦/١١ (١٢٠٥٢)]: حدثنـا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبـو تميلـة حدثنا نعيم بن سعيد العبدي أن عكرمة حدث عن ابن عباس قال: احتفـر رسول الله ﷺ الخندق، وأصحابه قد شـدوا الحجـارة علـى بطونهـم مـن الجوع فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال: «هل دَلِلتم على رجـلٍ يُطعمنـا أكلة؟» قال رجل: نعم. قال: «إما لا فتقدم فدُلّنا عليه». فـانطلقوا إلى بيـت الرجل فإذا هو في الخندق يعالج نصيبه منه فأرسـلت امرأتـه أن جـئ فـإن رسول الله ﷺ قد أتانا فجاء الرجل يسعى وقال: بـأبي وأمـي ولـه معـزة ومعها جديها فوثـب إليهـا فقـال النبي ﷺ: الجـدي مـن ورائهـا» فذبـح الجدي.

وعمدت المرأة إلى طحينة لها فعجنتها وخبزت فأدركت القـدر فـثردت قصعتها فقربتهـا إلى رسـول اللّـه ﷺ وأصحابه فوضـع رسـول اللّـه ﷺ أصبعه فيها وقال: «بسم الله اللّهم بارِكْ فيها اطْعَمُـوا» فـأكلوا منهـا حتـى صدروا ولم يأكلوا منها إلا ثلثها وبقي ثلثاها فسـرح أولئـك العشـرة الذيـن كانوا معه أن اذهبوا وسرحوا إلينـا بعدتكـم فذهبـوا فجـاء أولئـك العشـرة فأكلوا منها حتى شبعوا ثم قام ودعا لربة البيت وسمت عليها وعلى أهـل بيتها، ثم مشوا إلى الخندق فقال: «اذهبوا بنا إلى سلمان»، وإذا صخـرة بـين يديه قد ضعف عنها.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابـه: «دعوني فـأكون أول مـن ضربهـا». فقال: «بسم الله». فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: «الله أكبر قصورُ الشامِ وربِّ الكعبةِ»، ثم ضرب أخرى فوقعـت فلقـة فقـال: «اللّـه أكـبر قصـور فارس ورب الكعبة». فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسـنا وهـو يعدنا قصور فارس والروم.

ثم قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٢١/٣]: أخبرنا علي بـن أحمـد بـن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا محمد بن غالب بن حرب حدثنـا هوذة حدثنا عوف عن ميمون بن أستاذ الزهري حدثني البراء بـن عـازب الأنصاري قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنـا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول فشـكوا ذلـك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول وقال: «بسم الله» وضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: «اللّـه أكـبر أُعطيـتُ مفـاتيحَ الشـام واللّـه إنـي لأبصـرُ

قصورها الحُمر إن شاء الله».

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر أُعطيتُ مفاتيحَ فارس والله إني لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيض».

ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن والله إني لأبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني الساعةَ».

وهذا حديث غريب أيضاً تفرد به ميمون بن أستاذ هذا وهو بصري روى عن البراء وعبد الله بن عمرو وعنه حميد الطويل والجريري وعوف الأعرابي.

قال أبو حاتم عن إسحاق بن منصور عن ابن معين: كان ثقة وقال علي بن المديني: كان يحيى بن سعيد القطان لا يحدث عنه.

وقال النسائي [٣١٧٦]: حدثنا عيسى بن يونس حدثنا ضمرة عن أبي زرعة السيباني عن أبي سكينة - رجل من المحررين - عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: لما أمر رسول الله بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر فقام النبي ﷺ وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال: «وتَمَّت كلماتُ ربِّك صدقاً وعَدلاً لا مبدِّل لكلماتِه وهو السميعُ العليمُ» فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر فبرق مع ضربة رسول الله ﷺ برقة ثم ضرب الثانية وقال: «وتَمَّت كلماتُ ربِّك صدقاً وعَدلاً لا مبدِّل لكلماتِه وهو السميعُ العليمُ» فندر الثلث الآخر وبرقة برقة فرآها سلمان ثم ضرب الثالثة وقال: «وتَمَّت كلماتُ ربِّك صدقاً وعَدلاً لا مبدِّل لكلماتِه وهو السميعُ العليمُ» فندر الثلث الباقي وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس.

قال سلمان: يا رسول الله رأيتك حين ضربت لا تضرب ضربة إلا كانت معها برقة قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان رأيت ذلك؟» قال: أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله قال: «فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني فقال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ونخرب بأيدينا بلادهم فدعا بذلك قال: «ثم ضربت الضربة الثانية فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني» قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ونخرب بأيدينا بلادهم فدعا ثم قال: «ثم ضربت الضربة الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني». ثم قال رسول الله ﷺ: «دَعُوا الحبشة ما وَدَعُوكم واتركوا التُرك ما تَركوكم».

هكذا رواه النسائي مطولاً وإنما روى منه أبو داود [٤٣٠٢] «دَعُوا الحبشة ما وَدَعُوكم واتركوا التُرك ما تَركوكم» عن عيسى بن محمد الرملي عن ضمرة بن ربيعة عن أبي زرعة يحيى بن أبي عمرو السيباني به.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٩/٢]: وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

وهذا من هذا الوجه منقطع أيضاً وقد وصل من غير وجه ولله الحمد.

فقال الإمام أحمد [٤٥٥/٢]: حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعثتُ بجوامعِ الكَلِم ونُصرتُ بالرُّعب وبينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيحِ خزائنِ الأرضِ فوُضِعَتْ في يدي».

وقد رواه البخاري منفرداً به عن يحيى بن بكير [٢٩٧٧] وسعد بن عفير [٧٠١٣] كلاهما عن الليث به وعنده قال أبو هريرة: فذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها.

وقال الإمام أحمد [٥٠١/٢، ٥٠٢]: حدثنا يزيد حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصرت بالرُّعب وأُوتيتُ جوامعَ الكَلِم وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً وبينا أنا نائمٌ أُتيت بمفاتيحِ خزائنِ الأرض فَتُلَّت في يدي».

وهذا إسناد جيد قوي على شرط مسلم ولم يخرجوه.

وفي الصحيحين: [خ (٣١٢٠)، م (٢٩١٨)] «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وفي الحديث الصحيح [م (٢٨٨٩)، د (٤٢٥٢)، ت (٢١٧٦)، ج (٣٩٥٢)]: «إن الله زَوى لي الأرضَ مشارقَها ومغاربَها وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُوي لي منها».

سنة ٥- نقض اليهود للعهود في غزوة الخندق، وأحداث أخرى

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢١٩/٢، ٢٢٠]: ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابه في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أُحد وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا فوق الآطام.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قلت: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب: ١٠]

قال البخاري [٤١٠٣]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ قالت: ذلك يوم الخندق.

قال موسى بن عقبة: ولما نزل الأحزاب حول المدينة أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٢٠/٢، ٢٢١]: وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه: ويحك يا كعب افتح لي. قال: ويحك ياحيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً. قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها.

فاحفظ الرجل ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبحر طام قال: وما ذاك؟ قال: جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم

بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

وقد تكلم عمرو بن سعد القُرظي فأحسن فيما ذكره موسى بن عقبة ذكرهم ميثاق رسول الله ﷺ وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢١]: فلم يزل حيي بكعب يفتل في الذروة والغارب حتى سمح له - يعني في نقض عهد رسول الله ﷺ وفي محاربته مع الأحزاب - على أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن ادخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

قال موسى بن عقبة: وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم يعني لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمدا، قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم. فنازلهم حيي على ذلك. فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعية أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢١، ٢٢٢]: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير فقال: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتَنْظُروا أحقٌ ما بلَغنا عنهم فإنْ كان حقاً فالحَنوا لي لحناً أعرفُه ولا تَفُتّوا في أعضادِ المسلمين وإنْ كانوا على الوفاءِ فاجهَروا به للناس». قال: فخرجوا حتى أتوهم.

قال موسى بن عقبة: فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم؟ يريدون بني النضير ونالوا من رسول الله ﷺ فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا ولما بيننا أكبر من المشاتمة. ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يابني قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرٌ منه. فقالوا: أكلت أير أبيك. فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٢]: نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم لما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة أي كغدرهم بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أكبرُ أبشروا يا معشر المسلمين».

قال موسى بن عقبة: ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة فاضطجع ومكث طويلاً فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع وعرفوا انه لم يأته عن بني قريظة خير. ثم إنه رفع رأسه وقال: «أبشروا بفتح الله ونصره».

فلما أن أصبحوا دنا القوم بعضهم من بعض وكان بينهم رمي بالنبل والحجارة قال سعيد بن المسيب: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم إني أسألُك عهدَك ووعدَك اللَّهم إن تشأ لا تعبد».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٢]: وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وحتى قال أوس بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو - وذلك عن ملأ من رجال قومه - فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج من المدينة.

قلت: هؤلاء وأمثالهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً. وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾[الأحزاب ١٢].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٢، ٢٢٣]: فأقام رسول الله ﷺ - يعني مُرابطاً - وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بينهم حرب إلا الرِّمِّيا بالنبل، فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم عن الزهري إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه. فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابد من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيءٌ أصنعُه لكم، والله ما أصنعُ ذلك إلا لأني رأيتُ العرب رَمَتْكم عن قَوسٍ واحدةٍ وكالَبوكم من كل جانب فأردت أن أكْسِر عنكم من شَوكتِهم إلى أمرٍ ما». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٤، ٢٢٥] فأقام النبي ﷺ وأصحابه محاصرين ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ بن أبي قيس أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بني محارب بن فهر، تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيئوا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم.

ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمّموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق

وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ودّ قد قاتل يوم بدر حتى أثبته الجراحة فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لايدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال: أجل. قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال. قال له: لم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك. قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي رضي الله عنه وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٥]: وقال علي بن أبي طالب في ذلك:

نَصرَ الحِجارةَ مِن سفاهةِ رأيِهِ ... ونَصرتُ ربَّ محمدٍ بصَوابِ
فصَدَدْتُ حين تركتُه متجدِّلاً ... كالجذعِ بين دكادِكٍ وروابي
وعففتُ عن أثوابِهِ ولو انني ... كنتُ المقطَّرَ بَزَّني أثوابي
لا تحسبنَّ اللهَ خاذلَ دينِهِ ... ونبيِّهِ يا معشرَ الأحزابِ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلي. قال ابن هشام: وألقى عكرمة رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو فقال في ذلك حسان بن ثابت [ديوان حسان: ٢٦١، ٢٦٢]:

فرَّ وألقى لنا رُمحَهُ ... لعلَّكَ عكرمَ لم تفعلِ
ووليتَ تعدو كعدوِ الظَّليمِ ... ما ان تَجُورَ عن المَعدِلِ
ولم تُلقِ ظَهرَكَ مستأنساً ... كأنَّ قفاكَ قفا فُرْعُلِ

قال ابن هشام: الفراعل صغار الضباع.

وذكر الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» [٣/٤٣٨، ٤٣٩] عن ابن إسحاق في موضع آخر غير «السيرة» قال: خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مقنع بالحديد فنادى: من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال: إنه عمرو، اجلس». ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قُتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال: «اجلس». ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بَحَحْتُ من النداء ... بجمعكم هل من مبارِزْ
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ ... موقفَ القِرنِ المُناجِزْ
ولذاك إني لم أزلْ ... متسرِّعاً قَبْلَ الهَزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفتى ... والجودَ من خيرِ الغرائزْ

قال فقام علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا. فقال: «إنه عمرو». فقال: وإن كان عمراً. فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تَعْجَلنَّ فقد أتاكَ ... مجيبُ صوتِكَ غيرُ عاجزْ
في نيَّةٍ وبصيرةٍ ... والصدقُ مَنجَى كلِّ فائزْ
إني لأرجو أن أُقيمَ ... عليكَ نائحةَ الجنائزْ
من ضربةٍ نجلاءَ ... يبقى ذكرُها عندَ الهَزاهزْ

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: غيرك يا ابن أخي ومن أعمامك من هو أسن منك فإنني أكره أن أهريق دمك؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن علياً قد قتله. فثمّ علي يقول:

أعليَّ تقتحمُ الفوارسُ هكذا ... عنّي وعنهم أخّروا أصحابي
اليومَ تَمنعُني الفرارَ حفيظتي ... ومُصمِّمٌ في الرأسِ ليس بنابي

إلى أن قال:

عَبَدَ الحجارةَ من سَفاهةِ رأيِهِ ... وعبدتُ ربَّ محمدٍ بصوابِ

إلى آخرها. قال ثم أقبل علي نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: ضربته فاتقاني بسوءته فاستحييت ابن عمي أن أسلبه، قال: وخرجت خيوله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق.

وذكر ابن إسحاق فيما حكاه عنه البيهقي [الدلائل: ٣/٤٣٨] أن علياً طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال: «هو لكم لا نأكلُ ثمنَ الموتى».

وقال الإمام أحمد [١/٢٤٨]: حدثنا نصر بن باب حدثنا حجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أنه قال: قتل المسلمون يوم الخندق رجلاً من المشركين فأعطوا بجيفته مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفتَه فإنه خبيثُ الدِّيةِ»، فلم يقبل منهم شيئاً. وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٣/٤٤٠] من حديث حماد بن سلمة عن حجاج هو ابن أرطاة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس: أن رجلاً من المشركين قتل يوم الأحزاب فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث الينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفا فقال رسول الله ﷺ: «لا خيرَ في جسدِه ولا في ثمنِه».

وقد رواه الترمذي [١٧١٥] من حديث سفيان الثوري عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس وقال: غريب.

وقد ذكر موسى بن عقبة أن المشركين إنما بعثوا يطلبون جسد نوفل بن عبد الله المخزومي حين قتل وعرضوا عليه الدية فقال: «إنه خبيثٌ خبيثُ الدِّيةِ فلعنه اللهُ ولعن ديته. فلا أربَ لنا في ديَتِه ولَسْنا نمنعُكم أنْ تَدفنوه».

وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: وخرج نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يسأل المبارزة فخرج إليه الزبير بن العوام فضربه فشقه باثنتين حتى فلّ في سيفه فلاً وانصرف وهو يقول:

إني امرؤٌ أحمي وأحتمي ... عن النبي المصطفى الأمي

وقد ذكر ابن جرير [في تاريخه: ٢/٥٧٤] أن نوفلاً لما تورط في الخندق رماه الناس بالحجارة فجعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب. فنزل إليه علي فقتله وطلب المشركون رمته من رسول الله ﷺ بالثمن فأبى عليهم أن يأخذ منهم شيئاً ومكّنهم من أخذه إليهم.

وهذا غريب من وجهين.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٣/٤٣٩، ٤٤٠] من طريق حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: جُعلت يوم

الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ومعي عمر بن أبي سلمة فجعل يطاطئ لي فأصعد على ظهره فأنظر قال: فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرةً ههنا ومرة ههنا فما يرتفع له شيء إلا أتاه فلما أمسى جاءنا إلى الأطم قلت: يا أبت رأيتك اليوم وما تصنع قال: ورأيتني يابني؟ قلت: نعم قال: فدى لك أبي وأمي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٦، ٢٢٧]: وحدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري أخو بني حارثة أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق وكان من أحرز حصون المدينة قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن. قالت عائشة: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب. قالت: فمر سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يرقد بها ويقول:

لَبِّثْ قليلاً يشهدِ الهيجا حَمَلْ ... لا بأسَ بالموتِ إذا حانَ الأجل

فقالت له أمه: الحق بني فقد والله أخرت، قالت عائشة لها: يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي. قالت: وخفت عليه حيث أصاب السهم منه. فرُمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٧]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: رماه حبان بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تقرعيني من بني قريظة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٧، ٢٢٨]: وحدثني من لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك أنه كان يقول: ما أصاب سعداً يومئذ إلا أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم، وقد قال أبو أسامة في ذلك شعراً قاله لعكرمة بن أبي جهل:

أعكرمُ هلا لُمتني إذ تقولُ لي ... فداك بآطام المدينة خالد
ألستُ الذي ألزمت سعداً مُرِشَّةً ... لها بين أثناء المرافق عاند
قضى نحبه منها سعيدٌ فأعْوَلَتْ ... عليه مع الشُّمطِ العذارى النَّواهد
وأنت الذي دافعتَ عنه وقد دعا ... عبيدةُ جَمْعاً منهم إذ يكابدُ
على حين ما هُم جائرٌ عن طريقه ... وآخرُ مرعوبٌ عن القصد قاصد

قال ابن إسحاق: والله أعلم أي ذلك كان. قال ابن هشام: ويقال: إن الذي رمى سعداً خفاجة بن عاصم بن حبان.

قلت: وقد استجاب الله دعوة وليه سعد بن معاذ في بني قريظة أقر الله عينه فحكم فيهم بقدرته وتيسيره وجعلهم هم الذين يطلبون ذلك كما سيأتي بيانه فحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم حتى قال له رسول ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوقَ سبعةِ أرْقعة».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٨]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت قالت: وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله.

قال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل فاستلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب.

حكى السهيلي [الروض الأنف: ٦/٣٢٤] عن بعضهم أنه قال: كان حسان جباناً شديد الجبن قال: وأنكر آخرون ذلك وطعنوا في هذا الخبر فقالوا: هو منقطع قالوا: وقد كان يهاجي المشركين من الشعراء كابن الزبعرى وضرار بن الخطاب وغيرهما فلم يعيره واحد منهم بالجبن قال: وممن أنكر ذلك الشيخ أبو عمر النمري قالوا: وبتقدير صحة هذا الخبر لعله كان متقطعاً في الآطام لعلة عارضة ومال إلى هذا السهيلي والله أعلم

قال موسى بن عقبة: وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن بين كتائبهم فحاصروهم قريباً من عشرين ليلة وأخذوا بكل ناحية حتى لا يدري أتم صلاته أم لا قال: ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلوهم يوماً إلى الليل فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا فانكفأت الكتيبة مع الليل فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «شَغلونا عن صلاةِ العصرِ مَلأ اللّه بطونَهم وقلوبَهم - وفي رواية: وقبورَهم - ناراً».

فلما اشتد البلاء نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح فلما رأى رسول الله ﷺ ما بالناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول: «والذي نفسي بيده ليُفرِّجَنَّ عنكم ما تَرونَ من الشدة وإني لأرجو أنْ أطوفَ بالبيتِ العتيقِ آمناً وأنْ يدفعَ اللّهُ إليَّ مفاتيحَ الكعبةِ وليُهلِكنَّ اللّه كِسرى وقيصر ولتُنفِقُنَّ كنوزَهما في سبيل اللّه».

وقد قال البخاري [٤١١١]: حدثنا إسحاق حدثنا روح حدثنا هشام عن محمد عن عبيدة عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملأ اللّه عليهم بُيوتَهم وقبورَهم ناراً كما شَغلُونا عن الصلاةِ الوُسطى حتى غابتِ الشمس».

وهكذا رواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي به [م (٦٢٧/٢٠٢)، د (٤٠٩)].

ورواه مسلم [٦٢٧/٢٠٣] والترمذي [٢٩٨٤] من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي حسان الأعرج عن عبيدة عن علي به.

وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال البخاري [٤١١٢]: حدثنا المكي بن إبراهيم حدثنا هشام عن يحيى عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش وقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب قال النبي ﷺ: «والله ما صلَّيْتُها» فنزلنا مع رسول الله ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

وقد رواه البخاري [٥٩٦] أيضاً ومسلم [٦٣١] والترمذي [١٨٠] والنسائي [١٣٦٥] من طرق عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة به.

وقال الإمام أحمد [١/٣٠١]: حدثنا عبد الصمد حدثنا ثابت حدثنا هلال عن عكرمة عن ابن عباس قال: قاتل النبي ﷺ عدواً فلم يفرغ منهم

حتى أخَّر العصر عن وقتها فلما رأى ذلك قال: «اللَّهم مَن حَبَسَنَا عن الصلاةِ الوُسطى فاملأ بُيوتَهم ناراً واملأ قبورَهم ناراً» ونحو ذلك.

تفرد به أحمد وهو من رواية هلال بن خباب العبدي الكوفي وهو ثقة يصحح له الترمذي وغيره.

وقد استدل طائفة من العلماء بهذه الاحاديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر كما هو منصوص عليه في هذه الأحاديث.

وألزم القاضي الماوردي مذهب الشافعي بهذا لصحة الحديث وقد حررنا ذلك نقلاً واستدلالاً عند قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقد استدل طائفة بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي.

وقد بوب البخاري ذلك واستدل بهذا الحديث وبقوله ﷺ يوم أمرهم بالذهاب إلى بني قريظة - كما سيأتي - «لا يُصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قُريظة» وكان من الناس من صلى العصر في الطريق ومنهم من لم يصل إلا في بني قريظة بعد الغروب ولم يعنف واحداً من الفريقين واستدل بما ذكره عن الصحابة ومن معهم في حصار تستر سنة عشرين في زمن عمر حيث صلوا الصبح بعد طلوع الشمس لعذر القتال واقتراب فتح الحصن.

وقال آخرون من العلماء وهم الجمهور منهم الشافعي: هذا الصنيع يوم الخندق منسوخ بشرعية صلاة الخوف بعد ذلك فإنها لم تكن مشروعة إذ ذاك فلهذا أخروها يومئذ.

وهو مشكل فإنَّ ابن إسحاق وجماعة ذهبوا إلى أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بعسفان وقد ذكرها ابن إسحاق وهو إمام في المغازي قبل الخندق وكذلك ذات الرقاع ذكرها قبل الخندق فالله أعلم.

وأما الذين قالوا: إن تأخير الصلاة يوم الخندق وقع نسياناً.

كما حكاه شراح مسلم عن بعض الناس فهو مشكل إذ يبعد أن يقع هذا من جمع كبير مع شدة حرصهم على المحافظة على الصلاة كيف وقد روي أنهم تركوا يومئذ الظهر والعصر والمغرب حتى صلوا الجميع في وقت العشاء.

قال الإمام أحمد [٦٧/٣، ٦٨]: حدثنا يزيد وحجاج قالا: حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا وذلك قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥]. قال: فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمره فأقام فصلى الظهر كما كان يصليها في وقتها ثم أقام العصر فصلاها كذلك ثم أقام المغرب فصلاها كذلك ثم أقام العشاء فصلاها كذلك وذلك قبل أن يُنزل - قال حجاج: في صلاة الخوف -: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد رواه النسائي [٦٦٠] عن الفلاس عن يحيى القطان عن ابن أبي ذئب به. قال: شغلنا المشركون يوم الخندق عن صلاة الظهر حتى غربت الشمس فذكره.

وقال أحمد [٣٧٥/١]: حدثنا هشيم حدثنا أبو الزبير عن نافع بن جبير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ يوم الخندق عن أربع صلوات حتى ذهب من الليل ماشاء الله.

قال: فأمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ٣٦٥]: حدثنا محمد بن معمر حدثنا مؤمل يعني ابن إسماعيل حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن عبد الكريم يعني ابن أبي المخارق عن مجاهد عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ شُغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء ثم قال: «ما على وجهِ الأرض قومٌ يذكرونَ الله في هذه الساعة غيركم».

تفرد به البزار، وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد رواه بعضهم عن عبد الكريم، عن مجاهد عن أبي عبيدة عن عبد الله.

سنة ٥- دعاءُ النبي ﷺ على الأحزاب

وكيف صرفهم الله بحوله وقوته استجابة لرسوله ﷺ وصيانة لحوزته الشريفة فزلزل قلوبهم ثم أرسل عليهم الريح الشديدة فزلزل أبدانهم.

قال الإمام أحمد [٣/٣]: حدثنا أبو عامر حدثنا الزبير - يعني ابن عبد الله - حدثنا ربيح بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، قال: «نعم. اللَّهم استُر عَوْرَاتِنا وآمِن روعاتِنا» قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح.

وقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن أبيه عن أبي عامر - وهو العقدي - عن الزبير بن عبد الله مولى عثمان بن عفان عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي سعيد فذكره وهذا هو الصواب.

وقال الإمام أحمد [٣٩٣/٣]: حدثنا حسين عن ابن أبي ذئب عن رجل من بني سلمة عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ أتى مسجد الأحزاب فوضع رداءه وقام ورفع يديه مَدّاً يدعو عليهم ولم يصل. قال: ثم جاء ودعا عليهم وصلى.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٢٩٣٣)، م (١٧٤٢)] من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللَّهم مُنزل الكتابِ سريعَ الحسابِ اهزِم الأحزابَ، اللَّهم اهزمهُم وزلزِلهُم».

وفي رواية: [خ (٢٩٦٦)، م (١٧٤٢/٢٠)] «اللَّهم اهزمهُم وانصُرنا عليهم».

وروى البخاري [٤١١٤] عن قتيبة عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه أعزَّ جندَه ونَصَرَ عبدَه وغَلَبَ الأحزابَ وحدَه فلا شيءَ بَعدَه».

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٢٩/٢ - ٢٣١]: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم. قال [سيرة ابن هشام: ٢٢٩/٢ - ٢٣١]: ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ، فخَذِّل عنَّا إن استَطعتَ، فإنَّ الحربَ خدعةٌ».

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية

فقال لهم: يابني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني. قالوا: نفعل قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال: فاكتموا عني قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقٌّ. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت اليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقٌّ. ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة نعيم بن مسعود أحسن مما ذكره موسى بن عقبة.

وقد أورده عنه البيهقي في «الدلائل» [٣/٤٠٤، ٤٠٥] فإنه ذكر ما حاصله أن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث، فاتفق أنه مرَّ برسول الله ﷺ ذات يوم عشاء، فأشار إليه أن تعال، فجاء فقال: «ما وراءك؟» فقال: إنه قد بعثت قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك، فقالت قريظة: نعم فأرسلوا إلينا بالرهن.

وقد ذكر فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «إني مُسرٌّ إليك شيئاً فلا تذكرْه»، قال: «إنهم قد أرسلوا إليَّ يدعونني إلى الصلح وأرد بني النضير إلى دورهم وأموالهم»، فخرج نعيم بن مسعود عامداً إلى غطفان وقال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة وعسى أن يصنعَ اللهُ لنا».

فأتى نعيم غطفان وقريشاً فأعلمهم، فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه واتفق ذلك ليلة السبت يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم فاعتلت اليهود بالسبت، ثم أيضاً طلبوا الرهن توثقة فأوقع الله بينهم واختلفوا.

قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣١ ـ ٢٣٣]: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣١ ـ ٢٣٣]: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجتهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا، قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت الينا فقال: «مَن رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعلَ القومُ ثمَّ يَرجِعُ» فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة «أسألُ اللهَ أنْ يكونَ رفيقي في الجنَّةِ».

فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد، فلما لم يقم أحد دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفةُ اذهبْ فادخلْ في القومِ فانظرْ ماذا يَفعلون ولا تُحدثَنَّ شيئاً حتى تأتينا»، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء.

فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَن جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ: «لا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مراجل فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليَّ طرف المرط ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، وهذا منقطع من هذا الوجه.

وقد روى هذا الحديث مسلم بن الحجاج في «صحيحه» [١٧٨٨] من حديث الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة؟» فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله. ثم قال: «يا حُذيفةُ قُم فأتِنا بخبر القوم».

فلم أجد بُداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تَذعَرْهم عليّ». قال: فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تَذْعَرهم عليّ»، ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله ﷺ فأصابني البرد حين رجعت، وقُررت فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قُم يا نَومَان»!

وقد روى الحاكم والحافظ البيهقي في «الدلائل» [٣/٤٥١ ـ ٤٥٣] هذا الحديث مبسوطاً من حديث عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي عن عبد العزيزابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنّا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا فقال حذيفة: لا تمنَّوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقُريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليّ وما عليّ جُنةٌ من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي.

قال: فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، فقال: «حذيفة!» فتقاصرت بالأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم قال: «قم» فقمت فقال: «إنه كائنٌ في القوم خبرٌ فأْتني بخبر القوم». قال: وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قراً.

قال: فخرجت فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفَظْه من بَين يَدَيه ومن خَلفه وعَن يَمينه وعن شِماله ومن فوقِه ومن تَحتِه» قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد فيه شيئاً. قال: فلما وليت قال: «يا حُذيفة لا تُحدثن في القوم شيئا حتى تأتيَني».

قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيديه على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل! ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار فذكرت قول رسول الله ﷺ «لا تُحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيَني»، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: ياآل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها.

ثم خرجت نحو رسول الله ﷺ فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه.

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلّي فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرقف فأومأ إلي رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي فدنوت منه فأسبل علي شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى. فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون قال: وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٩] يعني الآيات كلها إلى قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥] أي صرف الله عنهم عدوهم بالريح التي أرسلها عليهم والجنود من الملائكة وغيرهم التي بعثها الله إليهم: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم، بل صرفهم القويّ العزيز بحوله وقوته.

لهذا ثبت في «الصحيحين» [خ (٤١١٤)، م (٢٧٢٤)] عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إلهَ إلا الله وحدَه صَدق وعده ونَصر عبدَه وأعزَّ جندَه وهزم الأحزابَ وحدَه فلا شيءَ بَعده».

وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبينهم.

وهكذا وقع ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، كما قال محمد بن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٤]: فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزُوَكم قريشٌ بعد عامكم ولكنَّكم تغزُونهم». قال: فلم تغزهم قريش بعد ذلك وكان يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله عليه مكة وهذا بلاغ من ابن إسحاق.

وقد قال الإمام أحمد [٤/٢٦٢]: حدثنا يحيى عن سفيان حدثني أبو إسحاق سمعت سليمان بن صرد ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «الآن نغزُوهم ولا يغزُونا».

وهكذا رواه البخاري [٤١٠٩] من حديث إسرائيل وسفيان الثوري كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي عن سليمان بن صرد به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٢، ٢٥٣]: واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة، ثلاثة من بني عبد الأشهل وهم: سعد بن معاذ ـ وسيأتي وفاته مبسوطة ـ وأنس بن أوس بن عتيك بن عمرو وعبد الله بن سهل والطفيل بن النعمان وثعلبة بن غنمة الجشميان السلميان وكعب بن زيد النجاري أصابه سهم غرب فقتله.

قال: وقتل من المشركين ثلاثة وهم: منبه بن عثمان بن عبيد بن السبّاق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة اقتحم الخندق بفرسه فتورط فيه فقتل هناك وطلبوا جسده بثمن كبير كما تقدم وعمرو بن عبد ود العامري قتله علي بن أبي طالب.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٥٣]: وحدثني الثقة أنه حدث عن الزهري أنه قال: قتل علي يومئذ عمرو بن عبد وُدّ وابنه حِسل بن عمرو.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٥٤]: يقال: عمرو بن عبد ود ويقال: عمرو بن عبد.

سنة ٥- غزوة بني قريظة

وما أحلّ الله تعالى بهم من البأس الشديد مع ما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب الأليم وذلك لكفرهم ونقضهم العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ ومُمالأتهم الأحزاب عليه فما أجدى ذلك عنهم شيئاً وباؤوا بغضب من الله ورسوله والصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً. وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥. ٢٧].

قال البخاري [٤١١٦]: حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا عبد الله حدثنا موسى بن عقبة عن سالم ونافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو والحج والعمرة يبدأ فيكبر ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٣، ٢٣٤]: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ كما حدثني الزهري معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يامرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فاذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلا في بني قريظة.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٣٤]: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وقال البخاري [٤١١٧]: حدثني عبد الله بن أبي شيبة حدثنا ابن نُمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعناه! فاخرج إليهم، قال: «فإلى أين؟» قال: ههنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ.

وقال أحمد [٦/٢٨٠]: وحدثنا حسن حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاء جبريل فرأيته من خلل الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: ما وضعنا أسلحتنا بعد انهَدْ إلى بني قريظة.

ثم قال البخاري [(٤١١٨)]: حدثنا موسى حدثنا جرير بن حازم عن حميد بن هلال عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة.

ثم قال البخاري [٩٤٦]: حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء حدثنا جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة» فادرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي العصر حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

وهكذا رواه مسلم [١٧٧٠] عن عبد الله بن محمد بن أسماء به.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤/٧، ٨]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن خالد بن خلّي حدثنا بشر بن شعيب عن أبيه حدثنا الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عمه عبيد الله أخبره أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب وضع عنه اللأمة واغتسل واستجمر، فتبدّى له جبريل عليه السلام فقال: عذيرك من محارب ألا أراك قد وضعت اللأمة وما وضعناها بعد، قال: فوثب النبي ﷺ فزعاً فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا بني قريظة. قال: فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس فاختصم الناس عند غروب الشمس، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي بني قريظة فإنما نحن في عزيمة رسول الله ﷺ، فليس علينا إثم، وصلى طائفة من الناس احتساباً، وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس، فصلوها حين جاؤوا بني قريظة احتساباً، فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٤/٨ ـ ١٠] من طريق عبد الله العمري عن أخيه عبيد الله، عن القاسم بن محمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان عندها، فسلم علينا رجل ونحن في البيت، فقام رسول الله ﷺ فزعاً، وقمت في أثره فإذا بدحية الكلبي، فقال: «هذا جبريل أمرني أن أذهب إلى بني قريظة وقال: قد وضعتم السلاح لكنا لم نضع، طلبنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأسد» وذلك حين رجع رسول الله ﷺ من الخندق.

فقام رسول الله ﷺ فزعاً وقال لأصحابه: «عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة»، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله ﷺ لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا، وقالت طائفة: والله إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من إثم، فصلت طائفة إيماناً واحتساباً، وتركت طائفة إيماناً واحتساباً، ولم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين.

وخرج رسول الله ﷺ فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة فقال: «هل مرّ بكم أحد؟» فقالوا: مرّ علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج، فقال: «ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب».

فحاصرهم النبي ﷺ وأمر أصحابه أن يستروه بالجحف حتى يسمعهم كلامه، فناداهم: «يا إخوة القردة والخنازير». فقالوا: يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً، فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكانوا حلفاءه فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم.

ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها.

وقد اختلف العلماء في المصيب من الصحابة يومئذ من هو؟ بل الإجماع على أن كلا الفريقين مأجور ومعذور غير معنف. فقالت طائفة من العلماء: الذين أخروا الصلاة يومئذ عن وقتها المقدر لها حتى صلوها في بني قريظة هم المصيبون، لأن أمرهم يومئذ بتأخير الصلاة خاص، فيقدم على عموم الأمر بها في وقتها المقدر لها شرعاً.

قال أبومحمد بن حزم الظاهري في كتابه «السيرة» [١٩٢]: وعلم الله أنا لو كنا هناك لم نصل العصر إلا في بني قريظة ولو بعد أيام. وهذا القول منه ماش على قاعدته الأصلية في الأخذ بالظاهر.

وقالت طائفة أخرى من العلماء: بل الذين صلوا الصلاة في وقتها لما

أدركتهم وهم في مسيرهم، هم المصيبون لأنهم فهموا أن المراد إنما هو تعجيل السير إلى بني قريظة، لا تأخير الصلاة، فعملوا بمقتضى الأدلة الدالة على أفضلية الصلاة في أول وقتها، مع فهمهم عن الشارع ما أراد، ولهذا لم يعنفهم ولم يأمرهم بإعادة الصلاة في وقتها التي حولت إليه يومئذ، كما يدعيه أولئك، وأما أولئك الذين أخروا فعذروا بحسب ما فهموا، وأكثر ما كانوا يؤمرون بالقضاء وقد فعلوه.

وأما على قول من يجوّز تأخير الصلاة لعذر القتال، كما فهمه البخاري [٩٤٦] حيث احتج على ذلك بحديث ابن عمر المتقدم في هذا، فلا إشكال على من أخّر، ولا على من قدّم أيضاً والله أعلم.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٤]: وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ومعه رايته وابتدرها الناس.

وقال موسى بن عقبة في «مغازيه» عن الزهري: فبينما رسول الله ﷺ في مغتسله كما يزعمون قد رجّل أحد شقيه أتاه جبريل على فرس عليه لأمته حتى وقف بباب المسجد، عند موضع الجنائز، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له جبريل: غفر الله لك أو قد وضعت السلاح؟ قال: «نعم». فقال جبريل: لكنا لم نضعه منذ نزل بك العدو ومازلت في طلبهم حتى هزمهم الله.

ويقولون: إن على وجه جبريل لأثر الغبار. فقال له جبريل: إن الله قد أمرك بقتال بني قريظة فأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل بهم الحصون فاخرج بالناس.

فخرج رسول الله ﷺ في أثر جبريل فمر على مجلس بني غنم وهم ينتظرون رسول الله ﷺ فسألهم فقال: «مرّ عليكم فارس آنفاً؟» قالوا: مرّ علينا دحية الكلبي على فرس أبيض تحته نمط أو قطيفة ديباج عليه اللأمة، فذكروا أن رسول الله ﷺ قال: «ذاك جبريل».

وكان رسول الله ﷺ يشبه دحية الكلبي بجبريل، فقال: «الحقوني بني قريظة فصلوا فيهم العصر»، فقاموا ومن شاء الله من المسلمين فانطلقوا إلى بني قريظة، فحانت صلاة العصر وهم بالطريق، فذكروا الصلاة فقال بعضهم لبعض: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ أمركم أن تصلوا العصر في بني قريظة؟

وقال آخرون: هي الصلاة، فصلى منهم قوم وأخّرت طائفة الصلاة حتى صلوها في بني قريظة بعد أن غابت الشمس.

فذكروا لرسول الله ﷺ من عجل منهم الصلاة ومن أخرها، فذكروا أن رسول الله ﷺ لم يعنف واحداً من الفريقين. قال: فلما رأى علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ مقبلاً تلقاه وقال: ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود.

وكان علي قد سمع منهم قولاً سيئاً لرسول الله ﷺ وأزواجه رضي الله عنهن فكره عليٌّ أن يسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لم تأمرني بالرجوع؟» فكتمه ما سمع منهم فقال: «أظنك سمعت لي منهم أذى فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت».

فلما نزل رسول الله ﷺ بحصنهم، وكانوا في أعلاه نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال: «أجيبوا يا معشر يهود يا إخوة القردة، قد نزل بكم خزي الله عز وجل»، فحاصرهم رسول الله ﷺ بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة ورد الله حيي بن أخطب حتى دخل حصن بني قريظة وقذف الله في قلوبهم الرعب، واشتد عليهم الحصار فصرخوا بأبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاء الأنصار ـ فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «قد أذنت لك»، فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه وقالوا: يا أبا لبابة ماذا ترى وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمرّ عليه أصابعه، يريهم أنما يراد بهم القتل.

فلما انصرف أبو لبابة سقط في يده ورأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة فقال: والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ حتى أحدث لله توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسي، فرجع إلى المدينة فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد. وزعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة، فقال رسول الله ﷺ كما ذُكر حين راث عليه أبو لبابة: «أما فرغ أبو لبابة من حلفائه»، قالوا: يا رسول الله، قد والله انصرف من عند الحصن، وما ندري أين سَلَك. فقال رسول الله ﷺ: «قد حَدَث لأبي لبابةَ أمرٌ، ما كان عليه». فأقبل رجلٌ من عند المسجد فقال: يا رسول الله، قد رأيت أبا لبابة ارْتَبَط بحبلٍ إلى جذعٍ من جُذُوعِ المسجد. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصابته بعدي فتنة ولو جاءني لاستغفرت له وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه حتى يقضي الله فيه ما يشاء».

وهكذا رواه ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة.

وكذا ذكره محمد بن إسحاق في «مغازيه» [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٤ ـ ٢٣٧] في مثل سياق موسى بن عقبة عن الزهري ومثل رواية أبي الأسوْد عن عروة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٣٤ ـ ٢٣٧]: ونزل رسول الله ﷺ على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم يقال لها: بئر أنّا فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها. قالوا: وما هُنّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فالليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ.

فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً. ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ نستشيره في أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبولبابة: فوالله ما

زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت. وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

قال ابن هشام [السيرة: ٢٣٧/٢]: وأنزل الله فيما قال سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧].

قال ابن هشام [السيرة: ٢٣٨/٢]: أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي، ثم يرتبط حتى نزلت توبته في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٠٢].

وقول موسى بن عقبة: إنه مكث عشرين ليلة مرتبطاً به أشبهُ والله أعلم.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٣٧/٢]: أن الله أنزل توبته على رسوله من آخر الليل، وهو في بيت أم سلمة، فجعل يبتسم، فسألته أم سلمة فأخبرها بتوبة الله على أبي لبابة، فاستأذنته أن تبشره، فأذن لها فخرجت فبشرته، فثار الناس إليه يبشرونه، وأرادوا أن يحلوه من رباطه، فقال: والله لا يحلني منه إلا رسول الله ﷺ.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر حله من رباطه ﷺ وأرضاه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٣٨/٢، ٢٣٩]: ثم إن ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد وهم نفر من بني هدل ليسوا من بني قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم، أسلموا في تلك الليلة التي نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعدى القرظي، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة تلك الليلة فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سعدى - وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمدٍ أبداً - فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللّهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام.

ثم خلى سبيله فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا.

فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه». وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة، فأصبحت رمته ملقاة، ولم يدر أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة والله أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٣٩/٢]: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن أبي كما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٣٩/٢، ٢٤٠]: فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى. قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ»، وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة في مسجده، وكانت تداوي الجرحى، فلما حكمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل اليهم سعد عن كلمته التي سمع منه. فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم».

فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد الأنصار وأما الأنصار فيقولون: قد عم رسول الله ﷺ المسلمين، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ههنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال سعد: فإني احكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٠/٢]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي، قال: قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

وقال ابن هشام [السيرة: ٢٤٠/٢]: حدثني من أثق به من أهل العلم أن علي بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان وتقدم هو والزبير بن العوام، وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو أقتحم حصنهم، فقالوا: يا محمد نتزل على حكم سعد بن معاذ.

وقد قال الإمام أحمد [٢٢/٣]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم، سمعت أبا أمامة بن سهل، سمعت أبا سعيد الخدري، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: «قوموا لسيدكم. أو: خيركم». ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «قضيت بحكم الله». وربما قال: «قضيت بحكم الملك» وفي رواية: «الملك». أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٠٤٣)، م (١٧٦٨)] من طرق عن شعبة.

وقال الإمام أحمد [٣٥٠/٣]: حدثنا حجين ويونس قالا: حدثنا الليث بن سعد عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أنه قال: رمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده، فنزفه فحسمه أخرى فانتفخت يده، فنزفه فلما رأى ذلك قال: اللّهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل اليه فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم، يستعين بهم المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: «أصبت حكم الله فيهم». وكانوا أربعمائة. فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات.

وقد رواه الترمذي [١٥٨٢] والنسائي [٨٦٧٩] جميعاً عن قتيبة، عن الليث به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٥٦/٦]: حدثنا ابن نمير، عن هشام أخبرني أبي عن

عائشة، قالت: لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وعلى رأسه الغبار فقال: قد وضعت السلاح! فوالله ما وضعتها! اخرج إليهم. قال رسول الله ﷺ: «فأين؟» قال: ههنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج رسول الله ﷺ إليهم.

قال هشام: فأخبرني أبي أنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ فرد الحكم فيهم إلى سعد قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية وتقسم أموالهم.

قال هشام: قال أبي: فأخبرت أن رسول الله ﷺ قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله».

وقال البخاري [٤١٢٢]: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام عن أبيه، عن عائشة، قالت، أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعته اخرج إليهم.

قال النبي ﷺ: «فأين؟» فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم.

قال هشام: فأخبرني أبي عن عائشة: أن سعداً قال: اللّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه، اللّهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها. فانفجرت من لبته فلم يرعهم، وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً فمات منها.

وهكذا رواه مسلم [١٧٦٩/٦٥] من حديث عبد الله بن نمير به.

قلت: كان دعا أولاً بهذا الدعاء قبل أن يحكم في بني قريظة، ولهذا قال فيه: ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستجاب الله له، فلما حكم فيهم وأقر الله عينه أتم قرار، دعا ثانياً بهذا الدعاء، فجعلها الله له شهادة رضي الله عنه وأرضاه. وسيأتي ذكر وفاته قريباً إن شاء الله.

وقد رواه الإمام أحمد [١٤١/٦، ١٤٢] من وجه آخر عن عائشة مطولاً جداً، وفيه فوائد فقال: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص، قال: أخبرتني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبِّثْ قليلاً يدرك الهيجا حَمَل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة له تعني المغفر فقال عمر: ما جاء بك، والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز، فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر

ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله عز وجل. قالت: ويرمي سعداً رجل من قريش يقال له: ابن العرقة وقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه.

فدعا الله سعد فقال: اللّهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقأ كلمه، وبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من أدم، فضربت على سعد في المسجد.

قالت: فجاء جبريل وإن على ثناياه لنقع الغبار فقال: أقد وضعت السلاح؟لا والله ما وضعت الملائكة السلاح بعد! اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته وأذن في الناس بالرحيل، أن يخرجوا، فمر على بني غنم، وهم جيران المسجد حوله فقال: «من مرّ بكم؟» قالوا: مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه السلام - فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد حصرهم، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ»، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف، قد حمل عليه، وحف به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية، ومن قد علمت، قالت: ولا يرجع إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم.

قالت: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» قال عمر: سيدنا الله، قال: «أنزلوه»، فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم»، فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله، وحكم رسوله»، ثم دعا سعد فقال: اللّهم إن كنت أبقيت على نبيك ﷺ من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك.

قالت: فانفجر كلمه وكان قد برئ حتى لا يرى منه إلا مثل الخرص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال علقمة: فقلت: يا أُمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته.

وهذا الحديث إسناده جيد وله شواهد من وجوه كثيرة، وفيه التصريح بدعاء سعد مرتين، مرة قبل حكمه في بني قريظة، ومرة بعد ذلك، كما قلناه أولاً، ولله الحمد والمنة.

وسنذكر كيفية وفاته ودفنه وفضله في ذلك رضي الله عنه وأرضاه بعد فراغنا من القصة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٠/٢، ٢٤١]: ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، قلت: هي نسيبة بنت الحارث بن كرز بن حبيب بن عبد شمس، وكانت تحت

مسيلمة الكذاب، ثم خلف عليها عبد الله بن عامر بن كريز، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، فخرج بهم إليه أرسالاً، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة. والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة.

قلت: وقد تقدم فيما رواه الليث عن أبي الزبير عن جابر: أنهم كانوا أربعمائة فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤١]: وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل. فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم، وأتي بحيي بن أخطب وعليه حلة له فقاحية قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل.

فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخذل الله يُخذل. ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة، كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال الثعلبي:

لعمرُك ما لامَ ابنُ أخطب نفسه ... ولكنه من يَخذلِ الله يُخذلِ
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كلَّ مقلقلِ

وقد وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٢، ٢٤٣] قصة الزبير بن باطا وكان شيخاً كبيراً، وكان قد منَّ يوم بعاث على ثابت بن قيس بن شماس، وجز ناصيته، فلما كان هذا اليوم أراد أن يكافئه فجاءه فقال: هل تعرفني يا أبا عبد الرحمن؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك، فقال له ثابت: أريد أن أكافئك فقال: إن الكريم يجزي الكريم، فذهب ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلقه فأطلقه له ثم جاءه فأخبره فقال: شيخ كبير لا أهل ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فذهب إلى رسول الله ﷺ فاستطلق له امرأته وولده، فأطلقهم له ثم جاءه فأخبره فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلق مال الزبير بن باطا، فأطلقه له، ثم جاءه فأخبره. فقال له: يا ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحيّ؟ يعني كعب بن أسد؟ قال: قتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا: عزال بن شموأل؟ قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان؟ - يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة - قال: ذهبوا قتلوا، قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فيلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة.

فقدمه ثابت فضربت عنقه، فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: ألقى الأحبة. قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلدا.

قال ابن إسحاق: «فيلة» بالفاء والياء المثناة من أسفل.

وقال ابن هشام: بالقاف والباء الموحدة.

وقال ابن هشام: الناضح: البعير الذي يستقي عليه الماء لسقي النخل.

وقال أبو عبيدة: معناه إفراغه دلو.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٤]: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كل من أنبت منهم. فحدثني شعبة بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي قال: كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً فوجدوني لم أنبت، فخلوا سبيلي.

ورواه أهل السنن الأربعة [د (٤٤٠٤، ٤٤٠٥)، ت (١٥٨٤)، س (٨٦٢٠، ٨٦٢١)، ج (٢٥٤١، ٢٥٤٢)] من حديث عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي نحوه.

وقد استدل به من ذهب من العلماء إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل على البلوغ، بل هو بلوغ في أصح قولي الشافعي.

ومن العلماء من يفرق بين صبيان أهل الذمة، فيكون بلوغاً في حقهم دون غيرهم، لأن المسلم قد يتأذى بذلك المقصد.

وقد روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٤] عن أيوب بن عبد الرحمن: أن سلمى بنت قيس أم المنذر استطلقت من رسول الله ﷺ رفاعة بن سموال، وكان قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فأطلقه لها، وكانت قالت: يارسول الله إن رفاعة يزعم أنه سيصلي، ويأكل لحم الجمل. فأجابها إلى ذلك فأطلقه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٢]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة، عن عائشة قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتل! قلت: ولمِ؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقها، وكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٦/٢٧٧] عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق به. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٢]: هي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، يعني فقتلها رسول الله ﷺ به. قاله ابن إسحاق في موضع آخر وسماها نباتة امرأة الحكم القرظي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٤]: ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد ما أخرج الخمس، وقسم للفارس ثلاثة أسهم، سهمين للفرس وسهماً لراكبه، وسهماً للراجل، وكانت الخيل يومئذ ستاً وثلاثين.

قال: وكان أول فيء وقعت فيه السهمان وخمس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٥]: وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد بسبايا من بني قريظة إلى نجد، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً. وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، وكان عليها حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك، فسر رسول الله ﷺ بإسلامها، وقد عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فاختارت أن تستمر على الرق ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفي عليه الصلاة والسلام.

ثم تكلم ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٤٥ - ٢٥٠] على ما نزل من الآيات في قصة الخندق من أول سورة الأحزاب، وقد ذكرنا ذلك مستقصى في تفسيرها ولله الحمد والمنة.

وقد قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٤]: واستشهد من المسلمين يوم بني قريظة خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو الخزرجي، طرحت عليه رحاً فشدخته شدخاً شديداً، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر

شهيدين».

قلت: كان الذي ألقى عليه الرحى تلك المرأة التي لم يقتل من بني قريظة امرأة غيرها كما تقدم والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٤]: ومات أبو سنان بن محصن بن حرثان من بني أسد بن خزيمة ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة فدفن في مقبرتهم اليوم.

سنة ٥- وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه

قد تقدم أن حبان بن العرقة لعنه الله رماه بسهم فأصاب أكحله، فحسمه رسول الله ﷺ كياً بالنار فاستمسك الجرح، وكان سعد قد دعا الله أن لا يميته حتى يقر عينه من بني قريظة، وذلك حين نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهود والمواثيق والذمام، ومالوا عليه مع الأحزاب، فلما ذهب الأحزاب وانقشعوا عن المدينة وباءت بنو قريظة بسواد الوجه، والصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، وسار إليهم رسول الله ﷺ ليحاصرهم كما تقدم.

فلما ضيق عليهم وأخذهم من كل جانب أنابوا إلى أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فيحكم فيهم بما أراه الله فرد الحكم فيها إلى رئيس الأوس، وكانوا حلفاءهم في الجاهلية، وهو سعد بن معاذ فرضوا بذلك، ويقال: بل نزلوا ابتداء على حكم سعد، لما يرجون من حنوه عليهم، وإحسانه وميله إليهم، ولم يعلموا بأنهم أبغض إليه من أعدادهم من القردة والخنازير، لشدة إيمانه وصديقيته رضي الله عنه وأرضاه، فبعث إليه رسول الله ﷺ وكان في خيمة في المسجد النبوي، فجيء به على حمار تحته إكاف قد وطئ تحته لمرضه، ولما قارب خيمة الرسول ﷺ أمر عليه السلام من هناك بالقيام له، قيل: لينزل من شدة مرضه، وقيل: توقيراً له بحضرة المحكوم عليهم، ليكون أبلغ في نفوذ حكمه والله أعلم.

فلما حكم فيهم بالقتل والسبي وأقر الله عينه وشفى صدره منهم، وعاد إلى خيمته من المسجد النبوي صحبة رسول الله ﷺ، دعا الله عز وجل أن تكون له شهادة، واختار الله له ما عنده، فانفجر جرحه من الليل، فلم يزل يخرج منه الدم حتى مات رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٠، ٢٥١]: فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات منه شهيداً. حدثني معاذ بن رفاعة الزرقي، قال: حدثني من شئت من رجال قومي: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات رضي الله عنه، هكذا ذكره ابن إسحاق رحمه الله.

وقد قال الحافظ البيهقي في «الدلائل» [٤/٢٩]: حدثنا أبوعبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبي وشعيب بن الليث قالا: حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد، عن معاذ بن رفاعة عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش؟ قال: فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ، قال: فجلس رسول الله ﷺ على قبره وهو يدفن، فبينما هو جالس إذ قال: «سبحان الله» مرتين، فسبح القوم، ثم قال: «الله أكبر الله أكبر» فكبر القوم، ثم قال رسول الله ﷺ: «عجبتُ لِهذا العبدِ الصالحِ شُدِّدَ عليهِ في قبرِه حتى كان هذا حينَ فُرِّجَ لَهُ».

وروى الإمام أحمد [٣/٣٢٧] والنسائي [٨٢٢٤] من طريق يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد ويحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لسعد يوم مات وهو يدفن: «سبحان الله لِهذا العبد الصالح الذي تَحَرك له عرش الرحمن وفُتِحَتْ له أبوابُ السماء شُدِّدَ عليه ثم فَرَّجَ اللهُ عنهُ». وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥١، ٢٥٢]: حدثني معاذ بن رفاعة عن محمود بن عبد الرحمن بن عمرو بن الجموح عن جابر بن عبد الله قال: لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ سبح رسول الله ﷺ فسبح الناس معه، ثم كبر فكبر الناس معه فقالوا: يا رسول الله مِمَّ سبحت؟ قال: «لَقَد تَضَايَقَ عَلَى هـذَا العَبْد الصالِحِ قبرُهُ حَتى فَرَّجَ اللهُ عَنهُ».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٣/٣٦٠، ٣٧٧] عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق به.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٥٢]: ومجاز هذا الحديث قول عائشة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ».

قلت: وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد [٦/٥٥]: حدثنا يحيى عن شعبة عن سعد بن إبراهيم، عن نافع، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة ولو كان أحد ناجياً منها لنجا سعد بن معاذ».

وهذا الحديث سنده على شرط «الصحيحين» إلا أن الإمام أحمد رواه عن غندر عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن إنسان عن عائشة به.

ورواه الحافظ البزار [كشف الأستار: ٢٦٩٩] عن نافع، عن ابن عمر قال: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا داود عن عبد الرحمن، حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هبط يوم مات سعد بن معاذ سبعون ألف ملك إلى الأرض لم يهبطوا قبل ذلك، ولقد ضمه القبر ضمة». قال: ثم بكى نافع.

وهذا إسناد جيد، لكن قال البزار: رواه غيره عن عبيد الله، عن نافع مرسلاً.

ثم رواه البزار [كشف الأستار: ٢٦٩٨] عن سليمان بن سيف، عن أبي عتاب، عن مسكين بن عبدالله بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك ما وطئوا الأرض قبلها» وقال حين دفن: «سبحان الله لو انفلت أحد من ضغطة القبر لانفلت منها سعد».

قال البزار [كشف الأستار: ٢٦٩٧]: حدثنا إسماعيل بن حفص حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب عن مجاهد، عن ابن عمر قال: اهتز العرش لحب لقاء الله سعد بن معاذ، قال: فقيل: إنما يعني السرير ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، قال: تفسخت أعواده. قال: ودخل رسول الله ﷺ قبره فاحتبس، فلما خرج قيل له: يا رسول الله ما حبسك؟ قال: «ضُمَّ سعد في القبر ضمة فدعوت الله فكشف عنه».

قال البزار: تفرد به عطاء بن السائب.

قلت: وهو مُتكلَّم فيه.

وقد ذكر البيهقي رحمه الله [الدلائل: ٤/٣٠] بعد روايته ضمة سعد رضي الله عنه في القبر أثراً غريباً، فقال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس عن ابن إسحاق حدثني

أمية بن عبد الله: أنه سأل بعض أهل سعد: ما بلغكم من قول رسول الله ﷺ في هذا؟ فقالوا: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك فقال: «كان يقصِّر في بعض الطهور من البول».

وقال البخاري [٣٨٠٣]: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الفضل بن مساور، حدثنا أبو عوانة عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ».

وعن الأعمش: حدثنا أبو صالح عن جابر، عن النبي ﷺ مثله، فقال رجل لجابر: فإن البراء بن عازب يقول: اهتز السرير فقال: إنه كان بين هذين الحيين ضغائن، سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

ورواه مسلم [٢٤٦٦] عن عمرو الناقد، عن عبد الله بن إدريس، وابن ماجه [١٥٨] عن علي بن محمد، عن أبي معاوية كلاهما عن الأعمش به.

وليس عندهما زيادة قول الأعمش عن أبي صالح، عن جابر.

وقال أحمد [٢٩٥/٣، ٢٩٦]: حدثنا عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: «اهتز لها عرش الرحمن».

ورواه مسلم [٢٤٦٦] عن عبد بن حميد والترمذي [٣٨٤٨] عن محمود بن غيلان كلاهما عن عبد الرزاق به، وقال الإمام أحمد [٢٣/٣، ٢٤]: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا أبو نضرة، سمعت أبا سعيد عن النبي ﷺ: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ».

ورواه النسائي [٨٢٢٥] عن يعقوب بن إبراهيم، عن يحيى به.

وقال أحمد [٢٣٤/٣]: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد قال قتادة: حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال وجنازته موضوعة: «اهتز لها عرش الرحمن».

ورواه مسلم [٢٤٦٧] عن محمد بن عبد الله الرُّزِّي، عن عبد الوهاب به.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٢٨/٤] من حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن البصري قال: اهتز عرش الرحمن فرحا بروحه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا زهير بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن قتادة، عن أنس قال لما حملت جنازة سعد قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه في بني قريظة، فسئل رسول الله ﷺ فقال: «لا ولكن الملائكة كانت تحمله» إسناد جيد.

فائدة: قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ٦٠٤/٢]: حديث اهتزاز العرش ثابت متواتر.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٣٤٠/٦، ٣٤١]: رواه جماعة من الصحابة منهم: جابر وأبو سعيد وأسيد بن حضير ورميثة بنت عمرو قال: وهو محمول على الحقيقة لأن العرش لا يمتنع عليه الحركة والاهتزاز. قال: وما روي عن مالك من تضعيفه لهذا الحديث وتوهينه للتحدث به فلعله لم يصح عنه ذلك والله أعلم.

وقال البخاري [٣٨٠٢]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق: سمعت البراء بن عازب يقول: أهديت للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه لمناديل سعد بن معاذ خير منها، أو الين».

ثم قال: رواه قتادة والزهري، سمعنا أنساً عن النبي ﷺ.

وقال أحمد [٢٣٤/٣]: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد هو ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن أكيدر دومة أهدى إلى رسول الله ﷺ جبة. وذلك قبل أن يُنهى عن الحرير، فلبسها فعجب الناس منها فقال: «والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد في الجنة أحسن من هذه».

وهذا إسناد على شرط الشيخين ولم يخرجوه وإنما ذكره البخاري تعليقاً [٢٦١٦] وقال أحمد [١٢١/٣، ١٢٢]: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ - قال محمد: وكان واقد من أحسن الناس وأعظمهم وأطولهم - قال: دخلت على أنس بن مالك فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ، فقال: إنك بسعد لشبيه، ثم بكى وأكثر البكاء، وقال: رحمة الله على سعد كان من أعظم الناس وأطولهم، ثم قال: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى أكيدر دومة، فأرسل إلى رسول الله ﷺ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب، فلبسها رسول الله ﷺ فقام على المنبر أو جلس، فلم يتكلم ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون منها، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون»!.

وهكذا رواه الترمذي [١٧٢٣] والنسائي [٥٣١٧] من حديث محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٥٢/٢]: بعد ذكر اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ: وفي ذلك يقول رجل من الأنصار:

وما اهتز عرشُ اللّه من موتِ هالكٍ سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

قال: وقالت أمه - يعني كبيشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن ثعلبة الخدرية الخزرجية - حين احتمل سعد على نعشه تندبه:

ويلُ أم سعد سعدا صرامةً وحدّا
وسؤدداً ومجدا وفارساً مُعدّا
سُدَّ به مسدّا يَقُدُّ هاماً قدّا

قال: يقول رسول الله ﷺ: «كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ».

قلت: كانت وفاته بعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة، وكان قدوم الأحزاب في شوال سنة خمس كما تقدم، فأقاموا قريباً من شهر، ثم خرج رسول الله ﷺ لحصار بني قريظة فأقام عليهم خمساً وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم سعد، فمات بعد حكمه عليهم بقليل، فيكون ذلك في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة من سنة خمس والله أعلم.

وهكذا قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧٩/٢]: إن فتح بني قريظة كان في ذي القعدة، وصدر ذي الحجة قال: وولي تلك الحجة المشركون.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ رضي الله عنه:

لقد سجمت من دمع عيني عبرة وحق لعيني أن تفيض على سعد
قتيل ثوى في معرك فجعت به عيون ذواري الدمع دائمة الوجد
على ملّة الرحمن وارث جنّة مع الشهداء وفدها أكرم الوفد
فإن تك قد ودّعتنا وتركتنا وأمسيت في غبراء مظلمة اللحد
فأنت الذي يا سعد أبت بمشهد كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك في حيي قريظة بالذي قضى الله فيهم ما قضيت على عمد

فوافق حكم اللّه حكمك فيهم   ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد
فإن كان ريبُ الدهر امضاك في الألى   شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دعوا   إلى اللّه يوماً للوجاهة والقصد

سنة ٥- قيل من الأشعار في الخندق وبني قريظة

قال البخاري [٤١٢٣]: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا شعبة، حدثنا عدي بن ثابت: أنه سمع البراء بن عازب قال: قال النبي ﷺ لحسان: «اهجهم -أوهاجهم- وجبريل معك».

قال البخاري [٤١٢٤]: وزاد إبراهيم بن طهمان عن الشيباني عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: قال النبي ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن جبريل معك».

وقد رواه البخاري أيضاً [٣٢١٣] ومسلم [٢٤٨٦] والنسائي [٦٠٢٤، ٦٠٢٥] من طرق عن شعبة بدون الزيادة التي ذكرها البخاري يوم بني قريظة.

قال ابن إسحاق رحمه اللّه [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٤، ٢٥٥]: وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر في يوم الخندق - قلت: وذلك قبل إسلامه -:

ومشفقة تظن بنا الظنونا   وقد قدنا عرندسة طحونا
كأن زهاءها أُحد إذا ما   بدت أركانه للناظرينا
ترى الأبدان فيها مسبغات   على الأبطال واليلب الحصينا
وجرداً كالقداح مسوماتٍ   نؤم بها الغواة الخاطئينا
كأنهم إذا صالوا وصُلنا   بباب الخندقين مصافحونا
أناسٌ لا نرى فيهم رشيداً   وقد قالوا ألسنا راشدينا
فأحجرناهم شهراً كريتاً   وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يوم   عليهم في السلاح مدججينا
بأيدينا صوارم مرهفات   نقدُ بها المفارق والشؤونا
كأن وميضهن معريات   إذا لاحت بأيدي مصلتينا
وميض عقيقةٍ لمعتْ بليلٍ   ترى فيها العقائق مستبينا
فلولا خندقٌ كانوا لديه   لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهمُ وكانوا   به من خوفنا متعوذينا
فإن نرحل فإنا قد تركنا   لدى أبياتكم سعداً رهينا
إذا جن الظلام سمعت نَوْحى   على سعدٍ يرجِّعن الحنينا
وسوف نزوركم عمّا قريبٍ   كما زرناكمُ متوازرينا
بجمع من كنانة غير عزلٍ   كأسد الغاب إذ حمت العرينا

قال [ابن إسحاق في سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٥]: فأجابه كعب بن مالك أخو بني سلمة ﷺ فقال:

وسائلة تسائل ما لقينا   ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى للّه عِدلاً   على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزير صدقٍ   به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقّوا   وكانوا بالعداوة مرصدينا
نعالجهم إذا نهضوا إلينا   بضرب يُعجِل المتسرعينا
ترانا في فضافض سابغات   كغدران الملا متسربلينا
وفي أيماننا بيض خفاف   بها نشفي مِراح الشاغبينا
بباب الخندقين كأن أسداً   شوابكهن يحمين العرينا
فوارسنا إذا بكروا وراحوا   على الأعداء شوساً معلمينا
لننصر أحمداً واللّه حتى   نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا   وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن اللّه ليس له شريك   وأن اللّه مولى المؤمنينا
فإما تقتلوا سعداً سَفاهاً   فإنَّ اللّه خيرُ القادرينا
سيدخله جناناً طيبات   تكون مُقامةً للصالحينا
كما قد ردكم فَلاً شريداً   بغيظكمُ خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثَمَّ خيراً   وكدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبت عليكم   فكنتم تحتها متكمِّهينا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٦ - ٢٥٨]: وقال عبد اللّه بن الزِّبَعْرَى السهمي في يوم الخندق - قلت: وذلك قبل أن يسلم -:

حيِّ الديار محا معارف رسمها   طولُ البِلى وتراوحُ الأحقاب
فكأنما كتب اليهود رسومها   إلا الكنيف ومعقد الأطناب
قفراً كأنك لم تكن تلهوا بها   في نعمةٍ بأوانس أتراب
فاترك تذكُّر ما مضى من عيشةٍ   ومحلة خلق المقام يباب
واذكر بلاء معاشر واشكرهمُ   ساروا بأجمعهم من الأنصاب
أنصاب مكة عامدين ليثرب   في ذي غياطل جحفل جبجاب
يدَعُ الحزون مناهجاً معلومةً   في كل نشزٍ ظاهرٍ وشعاب
فيها الجياد شوازب مجنوبة   قُبُّ البطون لواحق الأقراب
من كل سلهبةٍ وأجرد سلهب   كالسيد بادر غفلة الرُّقْباب
جيشٌ عيينةُ قاصدٌ بلوائه   فيه وصخرٌ قائد الأحزاب
قرمان كالبدرين أصبح فيهما   غيث الفقير ومعقلُ الهُراب
حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا   للموت كل مجرَّب قضَّاب
شهراً وعشراً قاهرين محمداً   وصحابه في الحرب خيرُ صحاب
نادوا برحلتهم صبيحة قلتم   كدنا نكون بها مع الخياب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم   قتلى لطيرٍ سُغَّب وذئاب

قال [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٨، ٢٥٩]: فأجابه حسان بن ثابت ﷺ فقال:

هل رسْمُ دارسة المقام يباب   متكلم لمحاور بجواب
قفرٌ عفا رِهَمُ السحابِ رسومه   وهبوبُ كل مُطِلَّةٍ مرباب
ولقد رأيت بها الحُلولَ يزينهم   بيضُ الوجوه ثواقب الأحساب
فدعِ الديار وذكْر كلّ خريدة   بيضاء آنسة الحديث كعاب
واشكُ الهموم إلى الإلهِ وما ترى   من معشر ظلموا الرسول غضاب
ساروا بجمعهمُ إليه وألَّبوا   أهلَ القرى وبوادي الأعراب
جيشٌ عيينةُ وابنُ حربٍ فيهم   متخمطون بحلبةِ الأحزاب

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا … قتل الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم … ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم … وجنود ربك سيد الأرباب
فكفى الإله المؤمنين قتالهم … وأثابهم في الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم … تنزيل نصر مليكنا الوهاب
وأقر عين محمد وصحابه … وأذل كل مكذب مرتاب
عاتي الفؤاد موقع ذي ريبة … في الكفر ليس بطاهر الأثواب
علق الشقاء بقلبه ففؤاده … في الكفر آخر هذه الأحقاب

قال [سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٩، ٢٦٠]: وأجابه كعب بن مالك رضي الله عنه أيضاً فقال:

أبقى لنا حدث الحروب بقية … من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرفة الذرى ومعاطناً … حم الجذوع غزيرة الأحلاب
كاللوب يبذل جمها وحفيلها … للجار وابن العم والمنتاب
ونزائعاً مثل السراج نمى بها … علف الشعير وجزة المقضاب
عري الشوى منها وأردف نحضها … جرد المتون وسائر الآراب
قوداً تراح إلى الصياح إذا غدت … فعل الضراء تراح للكلاب
وتحوط سائمة الديار وتارة … تردي العدا وتئوب بالأسلاب
حوش الوحوش مطارة عند الوغى … عبس اللقاء مبينة الإنجاب
علفت على دعة فصارت بدناً … دخس البضيع خفيفة الأقصاب
يغدون بالزغف المضاعف شكه … وبمترصات في الثقاف صياب
وصوارم نزع الصياقل علبها … وبكل أروع ماجد الأنساب
يصل اليمين بمارن متقارب … وكلت وقيعته إلى خباب
وأغر أزرق في القناة كأنه … في طخية الظلماء ضوء شهاب
وكتيبة ينفي القران قتيرها … وترد حد قواحز النشاب
جأوى ململمة كأن رماحها … في كل مجمعة ضريمة غاب
تأوي إلى ظل اللواء كأنه … في صعدة الخطي فيء عقاب
أعيت أبا كرب وأعيت تبعاً … وأبت بسالتها على الأعراب
ومواعظ من ربنا نهدى بها … بلسان أزهر طيب الأثواب
عرضت علينا فاشتهينا ذكرها … من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكماً يراها المجرمون بزعمهم … حرجاً ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربها … فليغلبن مغالب الغلاب

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٢٦١]: حدثني من أثق به، حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال له لما سمع منه هذا البيت: «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا».

قلت: ومراده بسخينة قريش وإنما كانت العرب تسميهم بذلك لكثرة أكلهم الطعام السخن الذي لا يتهيأ لغيرهم غالباً من أهل البوادي فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٦١ ـ ٢٦٣]: وقال كعب بن مالك أيضاً:

من سره ضرب يمعمع بعضه … بعضاً كمعمعة الأباء المحرق
فليأت مأسدة تسن سيوفها … بين المذاد وبين جزع الخندق
دربوا بضرب المعلمين وأسلموا … مهجات أنفسهم لرب المشرق
في عصبة نصر الإله نبيه … بهم وكان بعبده ذا مرفق
في كل سابغة تخط فضولها … كالنهي هبت ريحه المترقرق
بيضاء محكمة كأن قتيرها … حدق الجنادب ذات شك موثق
جدلاء يحفزها نجاد مهند … صافي الحديدة صارم ذي رونق
تلكم مع التقوى تكون لباسنا … يوم الهياج وكل ساعة مصدق
نصل السيوف إذا قصرن بخطونا … قدماً ونلحقها إذا لم تلحق
فترى الجماجم ضاحياً هاماتها … بله الأكف كأنها لم تخلق
نلقى العدو بفخمة ملمومة … تنفي الجموع كقصد رأس المشرق
ونعد للأعداء كل مقلص … ورد ومحجول القوائم أبلق
تردي بفرسان كأن كماتهم … عند الهياج أسود طل ملثق
صدق يعاطون الكماة حتوفهم … تحت العماية بالوشيج المزهق
أمر الإله بربطها لعدوه … في الحرب إن الله خير موفق
لتكون غيظاً للعدو وحيطاً … للدار إن دلفت خيول النزق
ويعيننا الله العزيز بقوة … منه وصدق الصبر ساعة نلتقي
ونطيع أمر نبينا ونجيبه … وإذا دعا لكريهة لم نسبق
ومتى ينادِ إلى الشدائد نأتها … ومتى نر الحومات فيها نعنق
من يتبع قول النبي فإنه … فينا مطاع الأمر حق مصدق
فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا … ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق
إن الذين يكذبون محمداً … كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٦٣]: وقال كعب بن مالك أيضاً:

لقد علم الأحزاب حين تألبوا … علينا وراموا ديننا ما نوادع
أضاميم من قيس بن عيلان أصفقت … وخندف لم يدروا بما هو واقع
يذودوننا عن ديننا ونذودهم … عن الكفر والرحمن راء وسامع
إذا غايظونا في مقام أعاننا … على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله … علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا … ولله فوق الصانعين صنائع

قال ابن هشام: وهذه الأبيات في قصيدة له. يعني: طويلة. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧١]: وقال حسان بن ثابت في مقتل بني قريظة [ديوان حسان: ٢٤٥]:

لقد لقيت قريظة ما سآها … وما وجدت لذل من نصير
أصابهم بلاء كان فيه … سوى ما قد أصاب بني النضير
غداة أتاهم يهوي إليهم … رسول الله كالقمر المنير
له خيل مجنبة تعادى … بفرسان عليها كالصقور
تركناهم وما ظفروا بشيء … دماؤهم عليها كالعبير
فهم صرعى تحوم الطير فيهم … كذاك يدان ذو العند الفجور

فـأنذر مثلهـا نصحـاً قريشـاً ... مـن الرحمـن إن قبلـت نذيـري

قال [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٢]: وقال حسان بن ثابت أيضاً في بني قريظة [ديوان حسان: ٢٥٣]:

تفـاقد معشـر نصـروا قريشـاً ... وليـس لهـم ببلدتهـم نصـير
هـم أوتـوا الكتـاب فضيعـوه ... وهـم عمـي مـن التـوراة بـور
كفـرتم بـالقرآن وقـد أتيتـم ... بتصديـق الـذي قـال النذيـر
فهـان علـى سـراة بـني لـؤي ... حريـقٌ بـالبويرة مسـتطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال:

أدام اللّـه ذلـك مـن صنيـع ... وحـرق في طوائفهـا السـعير
سـتعلم أينـا منهـا بـنزهٍ ... وتعلـم أي أرضينـا تضـير
فلـو كـان النخيـل بهـا ركابـاً ... لقـالوا لا مقـام لكـم فسـيروا

قلت: وهذا قاله أبو سفيان بن الحارث قبل أن يسلم، وقد تقدم في «صحيح البخاري» بعض هذه الأبيات.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٢، ٢٧٣] جواب حسان في ذلك لجبل بن جوال الثعلبي تركناه قصداً. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٠، ٢٧١]: وقال حسان بن ثابت أيضاً يبكي سعداً وجماعة ممن استشهد يوم بني قريظة [ديوان حسان: ٢٤١، ٢٤٢]:

ألا يـا لقومـي هـل لمـا حـم دافـعٌ ... وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تذكرت عصراً قـد مضـى فتهـافتت ... بنـات الحشـا وانهـل مـني المدامـع
صبابـة وجـد ذكرتـني إخـوة ... وقتلـى مضـى فيهـا طفيـل ورافـع
وسعدٌ فأضحوا في الجنان وأوحشـت ... منـازلهم فـالأرض منهـم بلاقـع
وفـوا يـوم بـدر للرسـول وفوقهـم ... ظـلال المنايـا والسـيوف اللوامـع
دعـا فأجـابوه بحـق وكلهـم ... مطيـعٌ لـه في كـل أمـر وسـامع
فمـا نكلـوا حتـى توالـوا جماعـة ... ولا يقطـعُ الآجـال إلا المصـارع
لأنهـم يرجـون منـه شـفاعة ... إذا لم يكـن إلا النبيـون شـافع
فذلـك يـا خـير العبـاد بلاؤنـا ... إجابتنـا للّـه والمـوت نـاقع
لنـا القـدم الأولى إليـك وخلفنـا ... لأولنـا في ملـة اللّـه تـابع
ونعلـم أن الملـك للّـه وحـده ... وأن قضـاء اللّـه لابـد واقـع

سنة ٥- مقتل أبي رافع

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٣]: ولما انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة، وكان سلام بن أبي الحقيق - وهو أبو رافع - فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٣ - ٢٧٥]: فحدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار: الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله ﷺ إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام. فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك.

قال: ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا مَن رجلٌ لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف. فذكروا ابن أبي الحقيق، وهو بخيبر فاستأذنوا الرسول ﷺ في قتله، فأذن لهم، فخرج إليه من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود، حليف لهم من أسلم، فخرجوا وأمّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً، فلم يدعوا بيتاً في الدار حتى أغلقوه على أهله.

قال: وكان في علّية له إليها عجلة قال: فأسندوا اليها حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا فخرجت إليهم امرأته، فقالت: من أنتم؟ قالوا: أناس من العرب نلتمس الميرة. قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه.

قال: فلما دخلنا أغلقنا علينا وعليه الحجرة تخوفاً أن يكون دونه مجاولة تحول بيننا وبينه. قال: فصاحت امرأته فنوهت بنا فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة. قال: فلما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل.

قال: فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول: قطني قطني أي: حسبي حسبي. قال: وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيء البصر، قال: فوقع من الدرجة فوثئت يده وثئاً شديداً، وحملناه حتى نأتي به منهراً من عيونهم فندخل فيه، فأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطلبونا، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم، فاكتنفوه وهو يقضي.

قال: فقلنا: كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات؟ قال: فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم. فانطلق حتى دخل في الناس قال: فوجدتها - يعني امرأته - ورجال يهود حوله، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول: أما والله قد سمعت صوت ابن عتيك، ثم أكذبت نفسي وقلت: أنى ابن عتيك بهذه البلاد؟ ثم أكبّت عليه تنظر في وجهه فقالت: فاظ وإله يهود، فما سمعت كلمة كانت ألذ على نفسي منها.

قال: ثم جاءنا فأخبرنا الخبر فاحتملنا صاحبنا، وقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده في قتله كلنا يدّعيه.

قال فقال: «هاتوا أسيافكم». فجئنا بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس: «هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٦]: فقال حسان بن ثابت في ذلك:

للّـه درُّ عصابـةٍ لاقيتهـم ... يا ابن الحقيـق وأنت يـا ابن الأشرف
يسـرون بـالبيض الخفـاف إليكـم ... مُرَحـاً كأُسـد في عريـنٍ مغـرف
حتـى أتوكـم في محـلّ بلادكـم ... فسـقوكم حتفـاً بيبـضٍ ذُفّـف
مسـتبصرين لنصـر ديـن نبيهـم ... مسـتصغرين لكـل أمـر مجحـف

هكذا أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله.

وقد قال الإمام أبو عبد اللّـه البخاري [٤٠٣٨]: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن أبي زائدة عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: بعث النبي ﷺ رهطاً إلى أبي رافع فدخل عليه

عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله.

ثم قال البخاري [٤٠٣٩]: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق متلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب.

فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، وفتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، فقلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله.

فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، قلت: أبا رافع. قال: من هذا؟. فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة حتى انطلقت، حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال: «ابسط رجلك» فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم اشتكها قط».

ثم قال البخاري [٤٠٤٠]: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي، حدثنا شريح، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، سمعت البراء قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبة في ناس معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك: امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر، قال: فتلطفت حتى أدخل الحصن ففقدوا حماراً لهم فخرجوا بقبس يطلبونه قال: فخشيت أن أُعرف قال: فغطيت رأسي وجلست كأني أقضي حاجة، فقال البواب: من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه. فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن، فتعشوا عند أبي رافع، وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم.

فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة، خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة، فأخذته ففتحت به باب الحصن، قال: قلت: إن نذر بي القوم انطلقت على مهل، ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدت إلى أبي رافع في سلَّم، فإذا البيت مظلم قد طفئ سراجه، فلم أدر أين الرجل، فقلت: يا أبا رافع قال: من هذا؟ فعمدت نحو الصوت فأضربه، وصاح فلم تغن شيئاً. قال: ثم جئته كأني أغيثه، فقلت: ما لك يا أبا رافع؟ وغيرت صوتي، قال: ألا أعجبك لأمك الويل! دخل علي رجل فضربني بالسيف، قال: فعمدت إليه أيضاً فأضربه أخرى فلم تغن شيئاً فصاح وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف في بطنه ثم أنكفئ عليه حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل، فأسقط منه، فانخلعت رجلي فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجل، فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية.

فلما كان في وجه الصبح، صعد الناعية فقال: أنعي أبا رافع، قال: فقمت أمشي ما بي قَلَبَة فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ فبشرته.

تفرد به البخاري بهذه السياقات من بين أصحاب الكتب الستة.

قلت: يحتمل أن عبد الله بن عتيك لما سقط من تلك الدرجة انفكت قدمه، وانكسرت ساقه، ووثئت رجله ويده فلما عصبها استكن ما به لما هو فيه من الأمر الباهر، ولما أراد المشي أعين على ذلك لما هو فيه من الجهاد النافع، ثم لما وصل إلى رسول الله ﷺ واستقرت نفسه، ثاوره الوجع في رجله، فلما بسط رجله ومسح رسول الله ﷺ، ذهب ما كان بها من بأس في الماضي، ولم يبق بها وجع يتوقع حصوله في المستقبل، جمعاً بين هذه الرواية والتي تقدمت والله أعلم.

هذا وقد ذكر موسى بن عقبة في مغازيه مثل سياق محمد بن إسحاق، وسمي الجماعة الذين ذهبوا إليه كما ذكره ابن إسحاق.

ثم قال: قال الزهري، قال ابن كعب: فقدموا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر، فقال: «أفلحت الوجوه» قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، قال: «أقتلتموه؟» قالوا: نعم قال: «ناولني السيف» فسله، فقال: «أجل هذا طعامه في ذباب السيف».

سنة ٥- مقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي

ذكره الحافظ البيهقي في «الدلائل» [٤٠/٤ - ٤٣] تلو مقتل أبي رافع.

قال الإمام أحمد [٤٩٦/٣]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبد الله بن أنيس، عن أبيه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعُرَنَة فأته فاقتله». قال قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه. قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة»، قال: فخرجت متوشحاً سيفي حتى وقعت عليه، وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي للركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب، سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك. قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني، حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: «أفلح الوجه». قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت» قال: ثم قام معي رسول الله

ﷺ فدخل في بيته، فأعطاني عصاً فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس». قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أو لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ».

قال: فقرنها عبدالله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمت في كفنه، ثم دفنا جميعاً.

ثم رواه الإمام أحمد [٤٩٦/٣] عن يحيى بن آدم، عن عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن بعض ولد عبد الله بن أنيس - أو قال: عن عبد الله بن عبد الله بن أنيس - عن عبد الله بن أنيس فذكر نحوه.

وهكذا رواه أبو داود [١٢٤٩] عن أبي معمر، عن عبد الوارث، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر، عن ابن عبد الله بن أنيس، عن أبيه، فذكر نحوه.

ورواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٢/٤، ٤٣] من طريق محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبد الله بن عبد الله بن أنيس، عن أبيه فذكره.

وقد ذكر نحوه عروة بن الزبير وموسى بن عقبة في «مغازيهما» مرسلة فالله أعلم.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٢٠/٢، ٦٢١]: وقال عبد الله بن أنيس في قتله خالد بن سفيان:

تركتُ ابن ثور كالحوار وحوله	نوائح تفري كل جيب مقدد
تناولته والظعن خلفي وخلفه	بأبيض من ماء الحديد مهند
عجوم لهام الدارعين كأنه	شهاب غضى من ملهب متوقد
أقول له والسيف يعجم رأسه	أنا ابن أنيس فارس غير قعدد
أنا ابن الذي لم ينزل الدهر قِدره	رحيب فناء الدار غير مزند
وقلت له خذها بضربة ماجدٍ	حنيف على دين النبي محمد
وكنت إذا همّ النبي بكافر	سبقت إليه باللسان وباليد

قلت: عبد الله بن أنيس بن أسعد بن حرام أبو يحيى الجهني، صحابي مشهور، كبير القدر، كان فيمن شهد العقبة، وشهد أحداً والخندق، وما بعد ذلك، وتأخر موته بالشام إلى سنة ثمانين على المشهور، وقيل: توفي سنة أربع وخمسين والله أعلم.

وقد فرق علي بن المديني وخليفة بن خياط بينه وبين عبد الله بن أنيس أبي عيسى الأنصاري الذي روى عن النبي ﷺ أنه دعا يوم أحد بإداوة فيها ماء، فخنث فمها وشرب منها، كما رواه أبو داود [٣٧٢١] والترمذي [١٨٩١] من طريق عبد الله العمري، عن عيسى بن عبد الله بن أنيس عن أبيه.

ثم قال الترمذي: وليس إسناده يصح، وعبد الله العمري ضعيف من قبل حفظه.

سنة ٥ - قصّة عمرو بن العاص مع النجاشي بعد وقعة الخندق وإسلامه على يديه

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧٦/٢ - ٢٧٨]: بعد مقتل أبي رافع: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس، حدثني عمرو بن العاص من فيه قال: لما انصرفنا يوم الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا، كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير.

قالوا: إن هذا لرأي. قلت: فاجمعوا لنا ما نهدي له، فكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه.

قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع. فقال: مرحباً بصديقي، هل أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك قد أهديت لك أدماً كثيراً. قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه. ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

قال: فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فرقاً منه. ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قال: قلت: أيها الملك أكذاك هو؟ قال: ويحك ياعمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى بن عمران على فرعون وجنوده.

قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت على أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ فقال: والله لقد استقام الميسم، وإن الرجل لنبي أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ماجئت إلا لأسلم.

قال: فقدمنا المدينة على النبي ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر.

قال: فقال: رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها». قال: فبايعته ثم انصرفت.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧٨/٢]: وقد حدثني من لا أتهم،

أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما، أسلم حين أسلما، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي:

أنشد عثمانَ بن طلحةَ حلفنا ... وملقى نعال القوم عند المقبل
وما عقد الآباءُ من كلِّ حِلفة ... وما خالد من مثلها بمحلل
أمفتاح بيت غير بيتك تبتغي ... وما تبتغي من بيت مجد مؤثل
فلا تأمنن خالداً بعد هذه ... وعثمان جاءا بالدهيم المعضل

قلت: كان إسلامهم بعد الحديبية، وذلك أن خالد بن الوليد كان يومئذ في خيل المشركين كما سيأتي بيانه، فكان ذكر هذا الفصل في إسلامهم بعد ذلك أنسب، ولكن ذكرنا ذلك تبعاً للإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى، لأن أول ذهاب عمرو بن العاص إلى النجاشي كان بعد وقعة الخندق، الظاهر أنه ذهب بقية سنة خمس. والله أعلم.

سنة ٥- تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة

ذكر البيهقي [الدلائل: ٤٥٩/٣] بعد وقعة الخندق من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [سورة الممتحنة: ٧] قال هو تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٤٦٠/٣]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا علي بن عيسى حدثنا أحمد بن نجدة، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، أنبأنا ابن المبارك عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن أم حبيبة: أنها كانت عند عبيد الله بن جحش، وكان رحل إلى النجاشي، فمات، وأن رسول الله ﷺ تزوج بأم حبيبة وهي بأرض الحبشة، وزوجها إياه النجاشي، ومهرها أربعة آلاف درهم، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهزها من عنده، وما بعث إليها رسول الله ﷺ بشيء. قال: وكان مهور أزواج النبي ﷺ أربعمائة.

قلت: والصحيح أن مهور أزواج النبي ﷺ كانت ثنتي عشرة أوقية، ونشاً والوقية أربعون درهماً والنش النصف، وذلك يعدل خمسمائة درهم.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٤٦٠/٣] من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة أن عبيد الله بن جحش مات بالحبشة نصرانياً فخلف على زوجته أم حبيبة رسول الله ﷺ زوجها منه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قلت: أما تنصر عبيد الله بن جحش فقد تقدم بيانه، وذلك على أثر ما هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة، استزله الشيطان فزين له دين النصارى، فصار إليه حتى مات عليه لعنه الله، وكان يلقى المسلمين فيقول لهم: أبصرنا وصأصأتم.

وقد تقدم شرح ذلك في هجرة الحبشة.

وأما قول عروة: إن عثمان زوجها منه فغريب، لأن عثمان كان قد رجع إلى مكة قبل ذلك، ثم هاجر إلى المدينة، وصحبته زوجته رقية كما تقدم والله أعلم.

والصحيح ما ذكره يونس عن محمد بن إسحاق قال: بلغني أن الذي ولي نكاحها ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص.

قلت: وكان وكيل رسول الله ﷺ في قبول العقد أصحمة النجاشي ملك الحبشة، كما قال يونس عن محمد بن إسحاق: حدثني أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وساق عنه أربعمائة دينار.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن زهير، عن إسماعيل بن عمرو: أن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال لها: أبْرهة كانت تقوم على ثيابه ودُهْنِه، فاستأذنت علي فأذنت لها، فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجكه فقلت: بشرك الله بالخير، وقالت: يقول لك الملك وكلي من يزوجك.

قالت: فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة وخلعتين من فضة كانتا علي وخواتيم من فضة كانت في كل أصابع رجلي، سروراً بما بشرتني به.

فلما أن كان من العشي، أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان هناك من المسلمين أن يحضروا، وخطب النجاشي وقال: الحمد لله الملك القدوس المؤمن المهيمن، العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم. أما بعد، فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله أحمده وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

قلت: فلعل عمرو بن العاص لما رأى عمرو بن أمية خارجاً من عند النجاشي بعد الخندق، إنما كان في قضية أم حبيبة فالله أعلم.

لكن قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٦٢/٣]: ذكر أبو عبد الله بن منده أن تزويجه عليه السلام بأم حبيبة كان في سنة ست، وإن تزويجه بأم سلمة كان في سنة أربع.

قلت: وكذا قال خليفة وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن البرقي: إن تزويج أم حبيبة كان في سنة ست.

وقال بعض الناس: سنة سبع.

قال البيهقي [الدلائل: ٤٦٢/٣]: وذهب ابن إسحاق إلى أنه عليه السلام تزوج بأم حبيبة قبل أم سلمة.

قال البيهقي: هو أشبه.

قلت: قد تقدم تزويجه عليه السلام بأم سلمة في أواخر سنة أربع، وأما أم حبيبة فيحتمل أن يكون قبل ذلك، ويحتمل أن يكون بعده، وكونه بعد الخندق أشبه لما تقدم من ذكر عمرو بن العاص أنه رأى عمرو بن أمية عند النجاشي، فهو في قضيتها والله أعلم.

وقد حكى الحافظ ابن الأثير في «الغابة» [١١٦/٧] عن قتادة: أن أم حبيبة لما هاجرت من الحبشة إلى المدينة خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها. وحكي عن بعضهم أنه تزوجها بعد إسلام أبيها بعد الفتح، واحتج هذا القائل بما رواه مسلم [٢٥٠١] من طريق عكرمة بن عمار اليمامي، عن أبي زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول

اللّه ثلاث أعطنيهن. قال: «نعم». قال: تؤمِّرني على أن أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها. الحديث بتمامه.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ١١٦/٧]: وهذا الحديث مما أنكر على مسلم، لأن أبا سفيان لما جاء يجدد العقد قبل الفتح دخل على ابنته أم حبيبة فثنت عنه فراش النبي ﷺ، فقال: واللّه ما أدري أرغبت بي عنه أو به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول اللّه ﷺ، وأنت رجل مشرك. فقال: واللّه لقد أصابك بعدي يابنية شر.

وقال ابن حزم: هذا الحديث وضعه عكرمة بن عمار، وهذا القول منه لا يتابع عليه.

وقال آخرون: أراد أن يجدد العقد لما فيه بغير إذنه من الغضاضة عليه.

وقال بعضهم: لأنه اعتقد انفساخ نكاح ابنته بإسلامه.

وهذه كلها ضعيفة، والأحسن في هذا أنه أراد أن يزوجه ابنته الأخرى عزّة لما رأى في ذلك من الشرف له واستعان بأختها أم حبيبة كما في «الصحيحين» [خ (٥١٠١)، م (١٤٤٩)]، وإنما وهم الراوي هنا بتسميته أم حبيبة، وقد أفردنا لذلك جزءاً مفرداً.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: توفيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين، وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: توفيت قبل معاوية بسنة، وكانت وفاة معاوية في رجب سنة ستين.

سنة ٥- تزويجُ النبي ﷺ بزينب بنت جحش

تزويجه عليه السلام بزينب بنت جحش بنت رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدية أم المؤمنين.

وهي بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول اللّه ﷺ وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قال قتادة والواقدي وبعض أهل المدينة: تزوجها عليه السلام سنة خمس، زاد بعضهم: في ذي القعدة.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٦٧/٣]: تزوجها بعد بني قريظة.

وقال خليفة بن خياط وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن منده: تزوجها سنة ثلاث.

والأول أشهر، وهو الذي سلكه ابن جرير وغير واحد من أهل التاريخ.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين والفقهاء وأهل التاريخ في سبب تزويجه إياها عليه السلام، حديثاً ذكره أحمد بن حنبل في «مسنده» [١٤٩/٣، ١٥٠] تركنا إيراده قصداً، لئلا يضعه من لا يفهم على غير موضعه.

وقد قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً. مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧، ٣٨].

وقد تكلمنا على ذلك في «التفسير» بما فيه كفاية، فالمراد بالذي أنعم اللّه عليه ههنا زيد بن حارثة مولى رسول اللّه ﷺ، أنعم اللّه عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول اللّه ﷺ بالعتق، وزوجه بابنة عمته زينب بنت جحش.

قال مقاتل بن حيان: وكان صداقه لها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً وملحفة ودرعاً وخمسين مداً من طعام وعشرة أمداد من تمر فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زوجها يشكوها إلى رسول اللّه ﷺ فجعل ﷺ يقول له: «اتق اللّه وأمسك عليك زوجك». قال اللّه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

قال علي بن الحسين زين العابدين والسدي: كان اللّه قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، فهو الذي كان في نفسه عليه السلام. وقد تكلم كثير من السلف ههنا بآثار غريبة وبعضها فيه نظر تركناها قصداً.

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وذلك أن زيداً طلقها، فلما انقضت عدتها بعث إليها رسول اللّه ﷺ يخطبها إلى نفسها، ثم تزوجها، وكان الذي زوجها منه رب العالمين تبارك وتعالى، كما ثبت في «صحيح البخاري» [٧٤٢٠] عن أنس بن مالك: أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوّجكن أهاليكن وزوجني اللّه من فوق سبع سماوات.

وفي رواية [خ (٧٤٢١)، س (١١٤١١)] من طريق عيسى بن طهمان عن أنس قال: كانت زينب تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول: أنكحني اللّه من السماء. وفيها أنزلت آية الحجاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[سورة الأحزاب: ٥٣] الآية.

وروى البيهقي [الدلائل: ٤٦٥/٣] من حديث حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: جاء زيد يشكو زينب فجعل رسول اللّه ﷺ يقول: «اتق اللّه وامسك عليك زوجك»، قال أنس: فلو كان رسول اللّه ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوّجكن أهليكن، وزوجني اللّه من فوق سبع سماوات.

ثم قال: رواه البخاري [٧٤٢٠] عن أحمد عن محمد بن أبي بكر المقدّمي، عن حماد بن زيد.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٤٦٦/٣] من طريق عفان، عن حماد بن زيد، عن ثابت عن أنس قال: جاء زيد يشكو إلى رسول اللّه ﷺ من زينب بنت جحش فقال النبي ﷺ: «امسك عليك أهلك» فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

ثم قال: رواه البخاري [٤٧٨٧] عن محمد بن عبد الرحيم عن معلى بن منصور عن حماد مختصراً.

وقال ابن جرير [التفسير: ١٤/٢٢]: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: أن جدي وجدك واحد - تعني عبد المطلب فإنه أبو أبي النبي ﷺ وأبو أمها أميمة بنت عبد المطلب - وإني أنكحنيك اللّه عز وجل من السماء، وأن السفير جبريل عليه السلام. وقال الإمام أحمد [١٩٥/٣، ١٩٦]: حدثنا هاشم - يعني ابن القاسم أبا النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال النبي ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها علي»، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطيع أن أنظر إليها،

أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي. وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

قال أنس: ولقد رأيتنا حين دخل عليها رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أنّ القوم قد خرجوا أو أخبر.

قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية.

وكذا رواه مسلم [١٤٢٨] والنسائي [٣٢٥١] من طرق سليمان بن المغيرة.

سنة ٥- نزول آية الحجاب صبيحة عرسها الذي ولي الله عقد نكاحه

فناسب نزول الحجاب في هذا العرس صيانة لها ولأخواتها من أمهات المؤمنين، وذلك وفق الرأي العمري.

قال البخاري [٤٧٩٠]: حدثنا محمد بن عبدالله الرقاشي، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت أبي حدثنا أبو مجلز عن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، وجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم أنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد رواه البخاري [٦٢٣٩] في مواضع أخر ومسلم [١٤٢٨/٩٢] والنسائي [١١٤٢٠] من طرق عن معتمر.

ثم رواه البخاري [٤٧٩٢] منفردا به، من حديث أيوب عن أبي قلابة، عن أنس نحوه.

وقال البخاري [٤٧٩٣]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه. قال: «فارفعوا طعامكم».

وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته»، قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، ويقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري آخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا، فخرج حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب، تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ثم رواه منفرداً به أيضاً عن إسحاق، هو ابن منصور، عن عبد الله بن بكر السهمي، عن حميد عن أنس بنحو ذلك، وقال: رجلان. بدل ثلاثة فالله أعلم.

قال البخاري [٥١٦٣]: وقال إبراهيم بن طهمان عن الجعد أبي عثمان، عن أنس فذكر نحوه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفر بن سليمان عن الجعد أبي عثمان اليشكري، عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً، ثم وضعته في تور، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن هذا منا له قليل، قال أنس: والناس يومئذ في جهد، فجئت به فقلت: يا رسول الله بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعته في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً» فسمى رجالاً كثيراً، قال: «ومن لقيت من المسلمين»، فدعوت من قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصُّفة والحجرة ملأى من الناس. فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلاثمائة. قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جيء به» فجئت به إليه، فوضع يده عليه ودعا وقال: «ما شاء الله» ثم قال: «ليتحلق عشرة عشرة، ويسموا وليأكل كل إنسان مما يليه».

فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه» قال: فجئت فأخذت التور فنظرت فما أدري أهو حين وضعته أكثر أم حين رفعته، قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزاً.

فقام رسول الله ﷺ فسلم على حجره، وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ابتدروا الباب، فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً، وأنزل الله القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً. إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣، ٥٤].

قال أنس فقرأهن عليّ قبل الناس وأنا أحدث الناس بهن عهداً.

وقد رواه مسلم [١٤٢٨/٩٤] والترمذي [٣٢١٨] والنسائي [١١٤١٧] جميعاً عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان به.

وقال الترمذي حسن صحيح ورواه مسلم أيضاً [١٤٢٨/٩٥] عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الجعد أبي عثمان به.

وقد روى هذا الحديث البخاري [٥١٧٠] والترمذي [٣٢١٩] والنسائي [١١٤١٧] من طرق عن بيان أبي بشر الأحمسي الكوفي، عن

أنس بنحوه.

ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي نضرة العبدي عن أنس بنحوه ولم يخرجوه.

ورواه ابن جرير [التفسير: ٢٢/٣٧، ٣٨] من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري عن أنس بنحو ذلك.

قلت: كانت زينب بنت جحش رضي الله عنها من المهاجرات الأول، وكانت كثيرة الخير والصدقة، وكان اسمها أولاً برة فسماها النبي ﷺ زينب، وكانت تكنى بأم الحكم.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم وأعظم أمانة وصدقة [م (٢٤٤٢)].

وثبت في «الصحيحين» [خ (٤٧٥٠)، م (٢٧٧٠)] كما سيأتي في حديث الإفك عن عائشة أنها قالت: وسأل رسول الله ﷺ عني زينب بنت جحش وهي التي كانت تساميني من نساء النبي ﷺ فعصمها الله بالورع فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً.

وقال مسلم بن الحجاج في «صحيحه» [٢٤٥٢]: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى السيناني، حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً» قالت: فكنا نتطاول أينا أطول يداً، قالت: فكانت زينب أطولنا يداً لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. انفرد به مسلم.

قال الواقدي وغيره من أهل السير والمغازي والتواريخ: توفيت سنة عشرين من الهجرة وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودفنت بالبقيع وهي أول امرأة صنع لها النعش.

سنة ٦ - حوادث ووقائع

قال البيهقي [الدلائل: ٧٨/٤]: يقال: في المحرم منها كانت سرية محمد بن مسلمة قبل نجد، وأسروا فيها ثمامة بن أثال اليمامي.

قلت: لكن في سياق ابن إسحاق عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة أنه شهد ذلك، وهو إنما هاجر بعد خيبر فتؤخر إلى ما بعدها والله أعلم.

وهي السنة التي كان في أوائلها غزوة بني لحيان على الصحيح.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧٩/٢]: وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة وصدر من ذي الحجة، وولي تلك الحجة المشركون يعني في سنة خمس كما تقدم. قال: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهري ربيع، وخرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح بني قريظة إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة. قال ابن هشام [السيرة: ٢٧٩/٢]: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، والمقصود أنه عليه السلام لما انتهى إلى منازلهم هربوا من بين يديه، فتحصنوا في رؤوس الجبال، فمال إلى عسفان فلقي بها جمعاً من المشركين وصلى بها صلاة الخوف. وقد تقدم ذكر هذه الغزوة في سنة أربع، وهنالك ذكرها البيهقي، والأشبه ما ذكره ابن إسحاق أنها كانت بعد الخندق، فإنَّ صلاة الخوف على المشهور إنما فعلت بعد يوم الخندق، وقد ثبت أنه صلى بعسفان يوم بني لحيان، فلتكتب ههنا وتحول من هناك اتباعاً لإمام أصحاب المغازي في زمانه وبعده.

كما قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق. وقد قال كعب بن مالك في غزوة بني لحيان:

لو أن بني لحيان كانوا تناظروا ... لقوا عصباً في دارهم ذات مصدق
لقوا سرعاناً يملأ السرب روعه ... أمام طحون كالمجرة فيلق
ولكنهم كانوا وباراً تتبعت ... شعاب حجاز غير ذي متنفق

سنة ٦ - غزوة ذي قَرَد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨١/٢]: ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلم يقم بها إلا ليالي قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في خيل من غطفان على لقاح النبي ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار ومعه امرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨١/٢، ٢٨٢]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك - كل قد حدث في غزوة ذي قرد بعض الحديث - أنه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله، معه فرس له يقوده، حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سلع ثم صرخ: واصباحاه! ثم خرج يشتد في آثار القوم، وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم، فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى:

خُذها وأنا ابن الأكوع ... اليوم يوم الرضَّع

فإذا وجهت الخيل نحوه، انطلق هارباً، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى ثم قال:

خُذها وأنا ابن الأكوع ... اليوم يوم الرضَّع

قال فيقول قائلهم: أويكعنا هو أول النهار. قال: وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: «الفزع الفزع». فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ، فكان أول من انتهى إليه من الفرسان المقداد بن الأسود، ثم عباد بن بشر، وسعد بن زيد، وأسيد بن ظهير - يشك فيه - وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة أخو بني أسد بن خزيمة، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، أخو بني سلمة، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت، أخو بني زريق، قال: فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمر عليهم سعد بن زيد ثم قال: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس».

وقد قال النبي ﷺ لأبي عياش فيما بلغني عن رجال من بني زريق: «يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلاً هو أفرس منك فلحق بالقوم»، قال أبو عياش: فقلت يا رسول الله: أنا أفرس الناس. ثم ضربت الفرس فوالله ما جرى بي خمسين ذراعاً حتى طرحني، فعجبت من ذلك، فزعم رجال من بني زريق أن رسول الله ﷺ أعطى فرس أبي عياش معاذ بن ماعص، أبو عائذ بن ماعص بن قيس بن خلدة، وكان ثامناً.

قال [سيرة ابن هشام: ٢٨٢/٢، ٢٨٣]: وبعض الناس يعد سلمة بن الأكوع ثامناً، ويطرح أسيد بن ظهير فالله أعلم أي ذلك كان. قال: ولم يكن سلمة بن الأكوع يومئذ فارساً، وقد كان أول من لحق بالقوم على رجليه. قال: فخرج الفرسان حتى تلاحقوا، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة وكان يقال له: الأخرم ويقال له: قمير وكانت الفرس التي تحته لمحمود بن مسلمة، وكان يقال

للفرس: ذو اللمة، فلما انتهى إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بني اللكيعة حتى يلحق بكم مَن وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار قال: فحمل عليه رجل منهم فقتله، وجال الفرس فلم يقدر عليه حتى وقف على أرية من بني عبد الأشهل أي رجع إلى مربطه الذي كان فيه بالمدينة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٣/٢]: ولم يقتل يومئذ من المسلمين غيره.

قال ابن هشام: وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنه قد قتل معه أيضاً وقاص بن مجزز المدلجي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٤/٢]: وحدثني بعض من لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك أن محرزاً كان على فرس لعكاشة بن محصن يقال لها: الجناح فقتل محرز واستلبت الجناح فالله أعلم.

قال [سيرة ابن هشام: ٢٨٤/٢، ٢٨٥]: ولما تلاحقت الخيل قتل أبو قتادة حبيب بن عيينة وغشاه برده، ثم لحق بالناس، وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فإذا حبيب مسجى ببرد أبي قتادة فاسترجع الناس، وقالوا: قتل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأبي قتادة ولكنه قتيل لأبي قتادة، ووضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه».

قال: وأدرك عكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعاً، واستنقذوا بعض اللقاح، قال: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوماً وليلة، وقال له سلمة بن الأكوع: يا رسول الله لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم، فقال رسول الله ﷺ فيما بلغني: «إنهم الآن ليغبقون في غطفان»، فقسم رسول الله ﷺ في أصحابه في كل مائة رجل جزوراً، وأقاموا عليها، ثم رجع قافلاً حتى قدم المدينة.

قال: وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل النبي ﷺ حتى قدمت عليه المدينة فأخبرته الخبر، فلما فرغت قالت: يا رسول الله إني قد نذرت الله أن أنحرها إن نجاني الله عليها، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله».

قال ابن إسحاق: والحديث في ذلك عن أبي الزبير المكي عن الحسن البصري.

هكذا أورد ابن إسحاق هذه القصة بما ذكر من الإسناد والسياق.

وقد قال البخاري رحمه الله [٤١٩٤] بعد قصة الحديبية وقبل خيبر غزوة ذي قرد، وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث. حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم عن يزيد بن أبي عبيد، سمعت سلمة بن الأكوع يقول: خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح النبي ﷺ ترعى بذي قرد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخذت لقاح النبي ﷺ، فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان.

قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم، وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت رامياً، وأقول: أنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع. وأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة.

قال: وجاء النبي ﷺ والناس، فقلت: يا رسول الله قد حميت القوم الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال: «يا ابن الأكوع، ملكت فأسجح» ثم رجعنا ويردفني رسول الله ﷺ على ناقة حتى قدمنا المدينة.

وهكذا رواه مسلم [١٨٠٦] عن قتيبة به.

ورواه البخاري [(٣٠٤١) من طريق مكي بن إبراهيم] عن أبي عاصم النبيل، عن يزيد بن أبي عبيد، عن مولاه سلمة بنحوه.

وقال الإمام أحمد [٥٢/٤ ـ ٥٤]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثني إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: قدمنا المدينة زمن الحديبية مع رسول الله ﷺ، فخرجت أنا ورباح غلام النبي ﷺ بظهر رسول الله ﷺ، وخرجت بفرس لطلحة بن عبيد الله، كنت أريد أن أنديه مع الإبل، فلما كان بغلس أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله ﷺ فقتل راعيها، وخرج يطردها هو وأناس معه في خيل، فقلت: يا رباح اقعد على هذا الفرس فألحقه بطلحة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه قد أغير على سرحه.

قال: وقمت على تل فجعلت وجهي من قبل المدينة، ثم ناديت ثلاث مرات: يا صباحاه! قال: ثم اتبعت القوم معي سيفي ونبلي، فجعلت أرميهم وأعقر بهم، وذلك حين يكثر الشجر فإذا رجع إلي فارس جلست له في أصل شجرة ثم رميت، فلا يقبل عليّ فارس إلا عقرت به، فجعلت أرميهم وأنا أقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

قال: فألحق برجل منهم فأرميه وهو على راحلته فيقع سهمي في الرجل حتى انتظم كتفه فقلت:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فإذا كنت في الشجر أحرقتهم بالنبل، فإذا تضايقت الثنايا علوت الجبل فرديتهم بالحجارة، فما زال ذاك شأني وشأنهم أتبعهم وأرتجز، حتى ما خلق الله شيئاً من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري فاستنقذته من أيديهم، ثم لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة، يستخفون منها، ولا يلقون من ذلك شيئاً إلا جعلت عليه حجارة وجمعت على طريق رسول الله ﷺ، حتى إذا امتد الضحى أتاهم عيينة بن بدر الفزاري مدداً لهم، وهم في ثنية ضيقة، ثم علوت الجبل، فأنا فوقهم.

فقال عيينة: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح ما فارقنا بسحر حتى الآن، وأخذ كل شيء في أيدينا، وجعله وراء ظهره. فقال عيينة: لولا أن هذا يرى أن وراءه طلباً لقد ترككم، ليقم إليه نفر منكم. فقام إليه نفر منهم أربعة، فصعدوا في الجبل فلما أسمعتهم الصوت قلت: أتعرفونني؟ قالوا: ومن أنت؟ قلت: أنا ابن الأكوع، والذي كرم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيدركني، ولا أطلبه فيفوتني.

فقال رجل منهم: إن أظن. قال: فما برحت مقعدي ذلك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، وإذا أولهم الأخرم الأسدي، وعلى أثره أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ، وعلى أثر أبي قتادة المقداد بن الأسود الكندي، فولى المشركون مدبرين، وأنزل من الجبل فآخذ عنان فرسه، فقلت: يا أخرم أنذر القوم - يعني احذرهم - فإني لا آمن أن يقتطعوك، فاتئد حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه. قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحل

بني وبين الشهادة. قال: فخليت عنان فرسه، فيلحق بعبد الرحمن بن عيينة ويعطف عليه عبد الرحمن، فاختلفا طعنتين، فعقر الأخرم بعبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، فتحول عبد الرحمن على فرس الأخرم فيلحق أبو قتادة بعبد الرحمن، فاختلفا طعنتين فعقر بأبي قتادة وقتله أبو قتادة، وتحول أبو قتادة على فرس الأخرم.

ثم إني خرجت أعدو في أثر القوم حتى ما أرى من غبار صحابة النبي ﷺ شيئاً، ويعرضون قبل غيبوبة الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له: ذو قرد، فأرادوا أن يشربوا منه فأبصروني أعدو وراءهم، فعطفوا عنه واشتدوا في الثنية، ثنية ذي بئر وغربت الشمس، وألحق رجلاً فأرميه فقلت:

خذها وأنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

قال: فقال: يا ثكل أم أكوع بكرة. فقلت: نعم أي عدو نفسه. وكان الذي رميته بكرة، وأتبعته سهماً آخر فعلق به سهمان، ويخلفون فرسين، فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي أجليتهم عنه ذو قرد، وإذا بنبي الله ﷺ في خمسمائة، وإذا بلال قد نحر جزوراً مما خلفت، فهو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله خلّني فأنتخب من أصحابك مائة فآخذ على الكفار بالعشوة، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته.

فقال: «أكنت فاعلاً ذلك يا سلمة؟» قال: قلت: نعم والذي أكرمك. فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيت نواجذه في ضوء النار، ثم قال: «إنهم يقرون الآن بأرض غطفان». فجاء رجل من غطفان فقال: مروا على فلان الغطفاني فنحر لهم جزوراً، فلما أخذوا يكشطون جلدها، رأوا غبرة فتركوها وخرجوا هراباً، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجّالتنا سلمة»، فأعطاني رسول الله ﷺ سهم الفارس والراجل جميعاً، ثم أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، فلما كان بيننا وبينها قريب من ضحوة وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يسبق جعل ينادي: هل من مسابق؟ ألا رجل يسابق إلى المدينة؟ فأعاد ذلك مراراً، وأنا وراء رسول الله ﷺ مردفي فقلت له: أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي خلّني فلأسابق الرجل. قال: «إن شئت».

قلت: اذهب إليك فطفر عن راحلته، وثنيت رجلي فطفرت عن الناقة، ثم إني ربطت عليه شرفاً أو شرفين، يعني استبقيت من نفسي، ثم إني عدوت حتى ألحقه فأصك بين كتفيه بيدي، قلت: سبقتك والله أو كلمة نحوها، قال: فضحك وقال: إن أظن. حتى قدمنا المدينة.

وهكذا رواه مسلم [١٨٠٧] من طرق عن عكرمة بن عمار بنحوه، وعنده: سبقته إلى المدينة، فلم نلبث إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر. ولأحمد هذا السياق.

ذكر البخاري والبيهقي هذه الغزوة بعد الحديبية وقبل خيبر، وهو أشبه مما ذكره ابن إسحاق والله أعلم.

فينبغي تأخيرها إلى أوائل سنة سبع من الهجرة، فإن خيبر كانت في صفر منها.

وأما قصة المرأة التي نجت على ناقة النبي ﷺ ونذرت نحرها لنجاتها عليها، فقد أوردها ابن إسحاق بروايته عن أبي الزبير عن الحسن البصري مرسلاً. وقد جاء متصلاً من وجوه أخر.

قال الإمام أحمد [٤٣٠/٤]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أبي المهلب، عن عمران بن حصين قال: كانت العضباء لرجل من بني عقيل، وكانت من سوابق الحاج فأسر الرجل، فأخذت العضباء معه، قال: فمر به رسول الله ﷺ وهو في وثاق، ورسول الله ﷺ على حمار عليه قطيفة، فقال: يا محمد علام تأخذوني وتأخذون سابقة الحاج؟ فقال رسول الله ﷺ: «نأخذك بجريرة حلفائك ثقيف» قال: وكانت ثقيف قد أسروا رجلين من أصحاب النبي ﷺ.

وقال فيما قال: وإني مسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»، قال: ومضى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني جائع فأطعمني، وإني ظمآن فاسقني، فقال رسول الله ﷺ: «هذه حاجتك»، ثم فُدي بالرجلين وحبس رسول الله ﷺ العضباء لرحله.

قال: ثم إن المشركين أغاروا على سرح المدينة، فذهبوا به، وكانت العضباء فيه قال: وأسروا امرأة من المسلمين. قال: وكانوا إذا نزلوا أراحوا إبله بأفنيتهم، قال: فقامت المرأة ذات ليلة بعدما نوموا فجعلت كلما أتت على بعير رغا، حتى أتت على العضباء فأتت على ناقة ذلول مجرسة، فركبتها ثم وجهتها قبل المدينة.

قال: ونذرت إن الله أنجاها عليها لتنحرنها، فلما قدمت المدينة عرفت الناقة، فقيل: ناقة رسول الله ﷺ، قال: وأُخبر رسول الله ﷺ بنذرها أو أتته فأخبرته، فقال: «بئس ما جزيتيها»، أو: «بئس ما جزتها أن أنجاها الله عليها لتنحرنها». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم».

ورواه مسلم [١٦٤١] عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد، به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٥/٢، ٢٨٦]: وكان مما قيل من الأشعار في غزوة ذي قرد قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لولا الذي لاقتْ ومسَّ نسورها ... بجنوب ساية أمس في التقواد
للقينكم يحملن كل مدجج ... حامي الحقيقة ماجد الأجداد
ولسرَّ أولاد اللقيطة أننا ... سِلْمٌ غداة فوارسِ المقداد
كنّا ثمانيةً وكانوا جحفلاً ... لجباً فشكوا بالرماح بداد
كنّا من القوم الذين يلونهم ... ويقدمون عنان كلِّ جواد
كلا وربِّ الراقصات إلى مِنىً ... يَقطعن عرضَ مخارمِ الأطواد
حتى نُبيل الخيل في عرصاتكم ... ونؤوب بالملكات والأولاد
رَهواً بكلِّ مُقلِّصٍ وطمرَّةٍ ... في كلِّ معتركٍ عَطَفْنَ ورَاد
أفنى دوابرها ولاحَ مُتُونها ... يومٌ تقادُ به ويومُ طراد
فكذاك إن جيادنا ملبونةٌ ... والحربُ مُشْعَلَةٌ بريح غواد
وسيوفنا بيض الحدائد تجتلي ... جُنَنَ الحديدِ وهامةَ المرتاد
أخذَ الإلهُ عليهمُ لحرامه ... ولعزّةِ الرحمن بالأسداد
كانوا بدارِ ناعمين فُبدِّلوا ... أيامَ ذي قَرَدٍ وجوهَ عِناد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٧/٢]: فغضب سعد بن زيد أمير سرية الفوارس المتقدمين أمام رسول الله ﷺ على حسان، وحلف لا يكلمه أبداً، وقال: انطلق إلى خيلي وفوارسي فجعلها للمقداد. فاعتذر إليه حسان بأنه وافق الروي اسم المقداد، ثم قال أبياتاً يمدح بها سعد بن زيد:

إذا أردتمُ الأشدَّ الجلدا ... أو ذا غناءٍ فعليكم سعدا
سعدُ بنُ زيدٍ لا يُهدُّ هدّاً

قال: فلم تقع منه بموقع. وقال حسان بن ثابت في يوم ذي قرد:

أظن عيينة إذ زارها ... بأن سوف يهدم فيها قصورا

فأكذبت ما كنت صدقته ... وقلتم سنغنم أمراً كبيرا

فعفت المدينة إذ زرتها ... وآنست للأسد فيها زئيرا

وولوا سراعا كشد النعام ... ولم يكشفوا عن ملط حصيرا

أمير علينا رسول المليك ... احبب بذاك إلينا أميرا

رسول يصدق ما جاءه ... ويتلو كتاباً مضيئاً منيرا

وقال كعب بن مالك في يوم ذي قرد يمدح الفرسان يومئذ من المسلمين: [سيرة ابن هشام: ٢/٢٨٧، ٢٨٨]

أيحسب أولادُ اللقيطة أننا ... على الخيل لسنا مثلهم في الفوارس

وإنّا أناسٌ لا نرى القتلَ سُبّةً ... ولا ننثني عند الرماح المداعس

وإنا لنقري الضيف من قمع الذرى ... ونضربُ رأسَ الأبلخ المتشاوس

نردّ كماة المُعلمين إذا انتخوا ... بضربٍ يسلّي نخوةَ المتقاعس

بكل فتى حامي الحقيقة ماجدٍ ... كريم كسرحان الغضاة مخالس

يذودون عن أحسابهم وتلادهم ... ببيضٍ تقدُّ الهامَ تحت القوانس

فسائل بني بدرٍ إذا ما لقيتهم ... بما فعل الإخوانُ يوم التمارس

إذا ما خرجتم فاصدقوا من لقيتمُ ... ولا تكتموا أخباركم في المجالس

وقولوا زللنا عن مخالب خادرٍ ... به وحَرٌ في الصدر ما لم يمارس

سنة ٦- غزوة بني المصطلق من خزاعة

قال البخاري [فتح الباري: ٧/٤٢٨]: وهي غزوة المريسيع.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٨٩]: وذلك في سنة ست.

وقال موسى بن عقبة: سنة أربع.

وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

هكذا، حكاه البخاري عن مغازي موسى بن عقبة، أنها كانت في سنة أربع.

والذي حكاه البيهقي: [الدلائل: ٤/٤٥] عنه وعن عروة أنها كانت في شعبان سنة خمس.

وقال الواقدي [المغازي: ١/٤٠٤]: كانت لليلتين من شعبان سنة خمس في سبعمائة من أصحابه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ٢/٢٨٩]: بعدما أورد قصة ذي قرد: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجباً، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال نميلة بن عبد الله الليثي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٠]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، أبو جويرية بنت الحارث، التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد هذا، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه.

وقال الواقدي [المغازي: ١/٤٠٤ - ٤٠٧]: خرج رسول الله ﷺ لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس من الهجرة في سبعمائة من أصحابه إلى بني المصطلق، وكانوا حلفاء بني مدلج، فلما انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويقال: إلى عمار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، ثم أمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس أن قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم.

فأبوا فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة، وأسر سائرهم، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٢٥٤١)، م (١٧٣٠)] من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فقال: قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، فأصاب يومئذ - أحسبه قال: - جويرية بنت الحارث. وأخبرني عبد الله بن عمر بذلك وكان بذلك الجيش.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٠]: وقد أصيب رجل من المسلمين يقال له: هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار، وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٣، ٢٩٤] أن أخاه مقيس بن صبابة قدم من مكة مظهراً للإسلام، فطلب دية أخيه هشام من رسول الله ﷺ لأنه قتل خطأ، فأعطاه ديته، ثم مكث يسيراً ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ورجع مرتداً إلى مكة وقال في ذلك:

شفى النفسَ أن قد باتَ بالقاعِ مسنداً ... يضرّجُ ثوبيه دماءُ الأخادع

وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تُلمُّ فتحميني وطاءَ المضاجع

حللتُ به وِتْري وأدركت ثؤرتي ... وكنتُ إلى الأوثان أولَ راجع

ثأرت به فهراً وحملتُ عقلهُ ... سراةَ بني النجّار أربابَ فارع

قلت: ولهذا كان مقيس هذا من الأربعة الذين أهدر رسول الله ﷺ يوم الفتح دماءهم، وإن وجدوا معلقين بأستار الكعبة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٠ - ٢٩٢]: فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا

تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن أذّن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفاً عظيماً.

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل حدباً على ابن أبي ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه وقال: يا رسول الله والله لقد رُحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها. فقال له رسول الله ﷺ: «أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي». قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل».

قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع، يقال له بقعاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة فآذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخوفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار».

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع، وكان عظيماً من عظماء اليهود، وكهفاً للمنافقين، مات ذلك اليوم.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة والواقدي [المغازي: ٢/٤١٥ - ٤٢٠].

وروى مسلم [٢٧٨٢] من طريق الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر نحو هذه القصة، إلا أنه لم يسم الذي مات من المنافقين، قال: هبت ريح شديدة والنبي ﷺ في بعض أسفاره، فقال: «هذه لموت منافق»، فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات عظيم من عظماء المنافقين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٢]: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي، ومن كان على مثل أمره، فأخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: «هذا الذي أوفى اللهُ بأذُنِه».

قلت: وقد تكلمنا على تفسيرها بتمامها في كتابنا «التفسير» بما فيه كفاية عن إعادته ههنا، وسردنا طرق هذا الحديث عن زيد بن أرقم ولله الحمد والمنة، فمن أراد الوقوف عليه أو أحب أن يكتبه ههنا، فليطلبه من هناك وبالله التوفيق. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٢، ٢٩٣]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن ابنه عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أبي ابن سلول عند مضيق المدينة فقال: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٤]: وأصيب يومئذ من بني المصطلق ناس وقتل علي بن أبي طالب منهم رجلين: مالكاً وابنه.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٤]: وكان شعار المسلمين: يا منصور أمت أمت.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٤]: وكان رسول الله ﷺ أصاب منهم سبياً كثيراً فقسمهم في المسلمين.

وقال البخاري [٤١٣٨]: حدثنا قتيبة بن سعيد، أخبرني إسماعيل بن جعفر عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن ابن محيريز أنه قال: دخلت المسجد فرأيت أبا سعيد الخدري، فجلست إليه فسألته عن العزل، فقال أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سبياً من سبي العرب، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزوبة، وأحببنا العزل، وقلنا: نعزل ورسول الله ﷺ بين أظهرنا قبل أن نسأله، فسألناه عن ذلك فقال: «ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة». وهكذا رواه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٤، ٢٩٥]: وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة، عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك». قالت: نعم يا رسول الله قال: «قد فعلت». قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما بأيديهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٢٩٧ - ٣٠٧] قصة الإفك بتمامها في هذه الغزوة، وكذلك البخاري [٤١٤١] وغير واحد من أهل العلم، وقد حررت طرق ذلك كله في تفسير سورة النور فليلحق بكماله إلى ههنا وبالله المستعان.

وقال الواقدي [المغازي: ١/٤١١، ٤١٢]: حدثنا حرام عن هشام بن

عروة، عن أبيه قال: قالت جويرية بنت الحارث: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال، كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر به أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ، فلما سُبينا رجوت الرؤيا قالت: فأعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني، والله ما كلمته في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدت الله تعالى.

قال الواقدي [المغازي: ٤١٢/١]: ويقال: إن رسول الله ﷺ جعل صداقها عتق كل أسير من بني المصطلق. ويقال: جعل صداقها عتق أربعين من بني المصطلق.

وذكر موسى بن عقبة عن بني المصطلق أن أباها طلبها وافتداها، ثم خطبها منه رسول الله ﷺ فزوجه إياها.

سنة ٦- قصّة الإفك

وهذا سياق محمد بن إسحاق لحديث الإفك:

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٩٧/٢]: حدثني الزهري عن علقمة بن وقاص، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال الزهري: كل قد حدثني بهذا الحديث، وبعض القوم كان أوعى له من بعض، وقد جمعت كل الذي حدثني القوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٩٧/٢ - ٣٠٢]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، عن عائشة وعبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة عن نفسها حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا، فكل قد دخل في حديثها عن هؤلاء جميعاً، يحدث بعضهم ما لم يحدث صاحبه، وكل كان عنها ثقة، فكلهم حدث عنها بما سمع.

قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق لم يُهَيِّجْهُنَّ اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين كانوا يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير وقد كانوا فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرُجع إلي. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليّ وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة في ثيابي. قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته. ثم قرب إلي البعير فقال: اركبي واستأخر عني.

قالت: فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، وارتج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك، ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغني من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك فأنكرت ذلك منه.

كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: «كيف تِيكُمْ؟» لا يزيد على ذلك، قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله - حين رأيت ما رأيت من جفائه لي - لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: «لا عليك»، قالت: فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنّا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نخرج في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم خالة أبي بكر الصديق.

قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح. ومسطح لقب واسمه عوف. قالت: فقلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين، وقد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر، قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي.

قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئا؟ قالت: أي بنية خفضي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن، وكثر الناس عليها، قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس فخطبهم، ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، ولا يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي».

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها، فشقيت بذلك، فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً فقال:

كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا! فقال أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر، ونزل رسول الله ﷺ فدخل علي قالت: فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى علي خيراً، وقاله: ثم قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها قالت: فقام إليها علي فضربها ضرباً شديداً ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ. قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده». قالت: فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبويَّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما. قالت وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من ان ينزل الله في قرآناً يقرأ به ويصلى به، ولكني كنت ارجو أن يُرى النبي ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً، وأما قرآناً ينزل في فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما: الا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه. قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما استعجما علي استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني.

قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت، وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك».

قالت: قلت: الحمد لله. ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدّهم.

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [خ (٢٦٦١)، م (٥٦/٢٢٧٠)] عن الزهري.

وهذا السياق فيه فوائد جمة. وذكر حد القذف لحسان ومن معه، رواه أبو داود في «سننه» [٤٧٧٥]. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٧/٢]: وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه:

لقد ذاق حسانُ الذي كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا برجم الغيب زوجَ نبيِّهم ... وسخطةَ ذي العرش الكريم فأترحوا
وآذوا رسول الله فيها فجُلِّلوا ... مخازي تبقى عُمِّموها وفضِّحوا
وصُبَّتْ عليهم محصداتٌ كأنها ... شآبيبُ قطرٍ من ذرا المزن تسفح

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٤/٢، ٣٠٥] أن حسان بن ثابت قال شعراً يهجو فيه صفوان بن المعطل وجماعة من قريش ممن تخاصم على الماء من أصحاب جهجهاه كما تقدم أوله:

أمسى الجلابيبُ قد عزُّوا وقد كثروا ... وابنُ الفريعةِ أمسى بَيْضَةَ البَلَد
قد ثكلتْ أمه مَن كنتَ صاحبه ... أو كان منتشباً في بُرْثُنِ الأسد
ما لقتيلي الذي أغدو فآخذه ... من دية فيه يُعطاها ولا قَوَد
ما البحر حين تهبُّ الريح شاميةً ... فيغطئل ويرمي العِبْرَ بالزبد
يوماً بأغلبَ مني حين تُبصرني ... مِلْغَيْظِ أفري كفَرْي العارض البرد
أما قريش فإني لا أسالمها ... حتى يُنيبوا من الغيَّات للرشَد
ويتركوا اللات والعزى بمعزلةٍ ... ويسجدوا كلُّهم للواحد الصمد
ويشهدوا ان ما قال الرسول لهم ... حقٌ فيوفوا بحق الله والوكد

قال: فاعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف وهو يقول:

تلقَّ ذُبابَ السيف عني فإنني ... غلامٌ إذا هوجيت لست بشاعر

وذكر [سيرة ابن هشام: ٣٠٥/٢، ٣٠٦] أن ثابت بن قيس بن شماس أخذ صفوان حين ضرب حسان فشدّه وثاقاً، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ما هذا؟ فقال: ضرب حسان بالسيف. فقال عبد الله: هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت؟ قال: لا. فاطلقه.

ثم أتوا كلهم رسول الله ﷺ فقال ابن المعطل: يا رسول الله آذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ: «يا حسان أتشوَّهت على قومي إذ هداهم الله». ثم قال: «أحسن يا حسان فيما أصابك». فقال: هي لك يا رسول الله. فعوضه منها بيرحاء التي تصدق بها أبو طلحة وجارية قبطية، يقال لها: سيرين، جاءه منها ابنه عبد الرحمن. قال: وكانت عائشة تقول: سئل عن ابن المعطل فوُجد رجلاً حصوراً ما يأتي النساء. ثم قتل بعد ذلك شهيداً رضي الله عنه.

وقد ترجمه الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في تاريخه [١٥٨/٢٤ ـ ١٧٦]، وروى عنه شيئاً من الحديث، وذكر أنه توفي شهيداً في فتح سُمَيْساط، سنةَ ستين. وقيل: إنه توفي في بعض الفتوحات عند ذلك بعد العشرين. وهذا أشبه. والله أعلم.

وقال الطبراني [المعجم الكبير: ٦٦/٦ (٤٥٩٥)]: حدثنا عليُّ بن عبد العزيز، حدثنا عمر بن عبد الوهاب الرياحي، حدثنا عامر بن صالح بن رستم، عن أبيه، عن الحسن، عن سعد مولى أبي بكر قال: شكا رجلٌ إلى رسول الله ﷺ صفوان بن المُعَطَّل، وكان يقول هذا الشِّعْرَ، فقال: يا رسول الله، إنَّ صفوان هجاني. فقال رسول الله ﷺ: «دعوا صفوان؛ فإنَّ صفوان خبيث اللسان، طيب القلب». حديث غريب جداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٦/٢]: ثم قال حسان بن ثابت [ديوان حسان: ٢٢٨، ٢٢٩] يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة:

حَصَانٌ رزانٌ ما تُـزَنُّ بريبـة … وتُصبحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل
عقيلة حيٍّ من لؤي بن غالب … كرام المساعي مجدُهم غيرُ زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها … وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنتُ قد قلت الذي قد زعمتم … فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي
فكيف وودِّي ما حييت ونصرتي … لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس كلهم … تقاصر عنه سَوْرة المتطاول
فإنَّ الذي قد قيل ليس بلائطٍ … ولكنه قول امرئ بي ماحل

وقد زاد يونس بن بكير في روايته عن ابن إسحاق قبل البيت الأول:

رأيتك وليغفر لك الله حرة … من المحصنات غير ذات غوائل
حَصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبَةٍ … وتُصبحُ غَرْثَى مِن لحوم الغَوافلِ
وإن الذي قد قيل ليس بلائط … بك الدهر بل قيل امرئ متحامل
فإن كنت أهجوكم كما بلغوكم … فلا رجعت سوطي إلي أناملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي … لآل رسول الله زين المحافل
وإن لهم عزاً يرى الناس دونه … قصاراً وطال العز كل التطاول

ولتكتب ههنا الآيات من سورة النور وهي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة النور: ١١-٢٦] وما أوردناه هنالك من الأحاديث والطرق والآثار عن السلف والخلف، وبالله التوفيق.

سنة ٦- غزوة الحديبية

وقد كانت في ذي القعدة سنة ست بلا خلاف. وممن نص على ذلك الزهري ونافع مولى ابن عمر، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق بن يسار وغيرهم. وهو الذي رواه ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة سنة ست.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٨٧/٣]: حدثنا إسماعيل بن الخليل عن علي بن مسهر، أخبرني هشام بن عروة عن أبيه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت الحديبية في شوال. وهذا غريب جداً عن عروة.

وقد روى البخاري [٤١٤٨] ومسلم [١٢٥٣] جميعاً عن هدبة عن همام عن قتادة أن أنس بن مالك أخبره: أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة، إلا العمرة التي مع حجته، عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة في ذي القعدة، حيث قسم غنائم حنين، وعمرة مع حجته. وهذا لفظ البخاري.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢]: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة رمضان وشوالاً، وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢]: واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢]: واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٨/٢ - ٣١٠]: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، وكانت كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة.

قال الزهري: وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم.

قال فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة» ثم قال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٠٩/٢، ٣١٠]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رجلاً من أسلم قال: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين، فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ: «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا ذلك، فقال: «والله إنها للحِطَّة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها».

قال ابن شهاب: فأمر رسول الله ﷺ الناس، فقال: «اسلكوا ذات اليمين» بين ظهري الحمض في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت فقال: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». ثم قال للناس: «انزلوا». قيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء نتزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه، فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٠/٢]: فحدثني بعض أهل العلم عن رجال من أسلم، أن الذي نزل في القليب بسهم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب سائق بدن رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١١/٢]: وقد زعم بعض أهل العلم أن البراء بن عازب كان يقول: أنا الذي نزلت بسهم رسول الله ﷺ فالله أعلم أي ذلك كان.

ثم استدل ابن إسحاق للأول بأن جارية من الأنصار جاءت البئر وناجية في أسفله يميح فقالت:

يـا أيهـا المـائحُ دلـوي دونكـا إنـي رأيـتُ النـاس يحمدونكـا
يُثنـون خـيراً ويمجدونكـا

فأجابها فقال:

قـد علمـت جاريـةٌ يمانيـه أنـي أنـا المـائح واسمـي ناجيـه
وطعنـة ذات رشـاش واهيـه طعنتهـا عنـد صـدور العاديـه

قال الزهري في حديثه: فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته. ثم قال لهم نحو ما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت.

فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

قال الزهري: وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة. قال: ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر».

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان، وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه».

فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. قال: فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٢/٢]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. قالوا: مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

قال الزهري في حديثه: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد - وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

قال: وأبو بكر الصديق ﷺ خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه قال: والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: فجعل يقرع يده إذ تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، قال: فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك. قال: فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، قال: أي غُدَر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟.

قال ابن هشام [السيرة: ٣١٣/٢، ٣١٤]: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

قال الزهري: فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٤/٢]: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٤/٢، ٣١٥]: وحدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً فأتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين بلغ رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٥/٢، ٣١٦]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح

حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، وكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر من الناس. ثم أتي رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل.

قال ابن هشام [السيرة: ٣١٦/٢]: فذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي.

قال ابن هشام [السيرة: ٣١٦/٢]: وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له عن ابن أبي مليكة عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وهذا الحديث الذي ذكره ابن هشام بهذا الإسناد الضعيف، ثابت في «الصحيحين».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٦/٢ ـ ٣١٩]: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا: ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غَرْزَه فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى» قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني».

فكان عمر ؓ يقول: مازلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيراً. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ؓ، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، قال: فقال: رسول الله ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم»، فكتبها، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

قال: فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا، وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت» فجعل ينتره بتلبيبه ويجره يعني ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. قال: ويدني قائم السيف منه. قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه. قال: فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب، أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين، ورجالاً من المشركين: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص ـ وهو يومئذ مشرك ـ وعلي بن أبي طالب، وكتب وكان هو كاتب الصحيفة.

وكان رسول الله مضطرباً في الحل، وكان يصلي في الحرم، فلما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وكان الذي حلقه في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي، فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣١٩/٢]: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله! قال: «والمقصرين» قالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: «لم يشكُّوا».

وقال عبد الله بن أبي نجيح: حدثني مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة، ليغيظ بذلك المشركين.

هذا سياق محمد بن إسحاق رحمه الله لهذه القصة، وفي سياق البخاري ـ كما سيأتي ـ مخالفة في بعض الأماكن لهذا السياق كما ستراها إن شاء الله وبه الثقة. ولنوردها بتمامها ونذكر ما في الأحاديث الصحاح والحسان ما فيه شاهد في كل موطن بحسبه إن شاء الله تعالى وعليه التكلان وهو المستعان.

قال البخاري [٤١٤٧]: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله، عن زيد بن خالد قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فقال: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنجم كذا، فهو مؤمن بالكوكب كافر بي».

وهكذا رواه في غير موضع من «صحيحه» [خ (٨٤٦)].

ومسلم من طرق [٧١/١٢٥، ٧٢/١٢٦]، وقد روى [م (٧٢/١٢٦)] عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة.

وقال البخاري [٤١٥٠]: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض، ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا. انفرد به البخاري.

وقال ابن إسحاق في قوله تعالى [سيرة ابن هشام: ٣٢٢/٢]: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: ٢٧]: صلح الحديبية.

قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس، كلم بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل - شيئاً - إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٣٢٢/٢]: والدليل على ما قاله الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل في قول جابر، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

وقال البخاري [٤١٥٢]: حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا ابن فضيل، حدثنا حصين عن سالم، عن جابر قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: «مالكم؟» قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا ما نشرب إلا ما في ركوتك. قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال: فشربنا وتوضأنا. فقلنا لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وقد رواه البخاري [٣٥٧٦] أيضاً ومسلم [١٨٥٦/٧٣] من طرق عن حصين عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر به.

وقال البخاري [٤١٥٣]: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة قلت لسعيد بن المسيب: بلغني أن جابر بن عبد الله كان يقول: كانوا أربع عشرة مائة. فقال لي سعيد: حدثني جابر: كانوا خمس عشرة مائة، الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية.

تابعه أبو داود: حدثنا قرة عن قتادة. تفرد به البخاري.

ثم قال البخاري [٤١٥٤]: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، قال عمرو: سمعت جابراً قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

وقد روى البخاري [٤٨٤٢] أيضاً ومسلم [١٨٥٦/٧١] من طرق عن سفيان بن عيينة به.

وهكذا رواه الليث بن سعد عن أبي الزبير، عن جابر قال: إن عبداً لحاطب جاء يشكوه فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار. فقال رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها، شهد بدراً والحديبية» رواه مسلم [٢٤٩٥/١٦٢]. وعند مسلم [٢٤٩٦/١٦٣] أيضا من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها». فقالت حفصة: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم: ٧١] فقال رسول الله ﷺ: قد قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧٢] قال البخاري [٤١٥٥]: وقال عبيد الله بن معاذ: حدثنا أبي، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة، حدثني عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة، وكانت أسلم ثُمن المهاجرين.

تابعه محمد بن بشار: حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة. هكذا رواه البخاري معلقا عن عبيد الله. وقد رواه مسلم [١٨٥٧/٧٥] عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه، عن شعبة. وعن محمد بن المثنى عن أبي داود، عن إسحاق بن إبراهيم، عن النضر بن شميل، كلاهما عن شعبة به.

ثم قال البخاري [٤١٥٧]: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن مَخْرَمة قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بذي الحُليفة قلد الهدي وأشعر وأحرم منها. تفرد به البخاري وسيأتي هذا السياق بتمامه.

والمقصود أن هذه الروايات كلها مخالفة لما ذهب إليه ابن إسحاق من أن أصحاب الحديبية كانوا سبع مائة، وهو والله أعلم إنما قال ذلك تفقهاً من تلقاء نفسه من حيث إن البُدن كن سبعين بدنة، وكل منها عن عشرة على اختياره، فيكون المهلّون سبعمائة، ولا يلزم أن يهدي كلهم ولا أن يحرم كلهم أيضاً، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ بعث طائفة منهم فيهم أبو قتادة، ولم يحرم أبو قتادة حتى قتل ذلك الحمار الوحشي فأكل منه هو وأصحابه، وحملوا منه إلى رسول الله ﷺ في أثناء الطريق، فقال: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟» قالوا: لا، قال: «فكلوا ما بقي من لحمها» [خ (١٨٢٤)، م (١١٩٦)].

وقد قال البخاري [١٨٢٢]: حدثنا سعيد بن الربيع، حدثنا علي بن المبارك عن يحيى، عن عبد الله بن أبي قتادة أن أباه حدثه قال: انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم.

وقال البخاري [٤١٦٢]: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا شبابة بن سوار الفزاري، حدثنا شعبة عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لقد رأيت الشجرة، ثم أتيتها بعد فلم أعرفها.

حدثنا [خ (٤١٦٤)] موسى، حدثنا أبو عوانة، حدثنا طارق عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: أنه كان فيمن بايع تحت الشجرة، فرجعنا إليها العام المقبل فعميت علينا.

وقال البخاري أيضاً [٤١٦٣]: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها.

ثم قال سعيد: إن أصحاب محمد لم يعلموها، وعلمتموها أنتم! فأنتم أعلم!.

ورواه البخاري [٤١٦٤] ومسلم [٧٧، ١٨٥٩/٧٨] من حديث الثوري وأبي عوانة وشبابة عن طارق.

وقال البخاري [٤١٦٧]: حدثنا إسماعيل، حدثني أخي عن سليمان، عن عمرو بن يحيى، عن عباد بن تميم قال: لما كان يوم الحرة والناس يبايعون لعبد الله بن حنظلة، فقال ابن زيد: على ما يبايع ابن حنظلة الناس؟ قيل له: على الموت فقال: لا أبايع على ذلك أحداً بعد رسول الله ﷺ، وكان شهد معه الحديبية.

وقد رواه البخاري [٢٩٥٩] أيضاً ومسلم [١٨٦١] من طرق عن عمرو بن يحيى به.

وقال البخاري [٤١٦٩]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

ورواه مسلم [١٨٦٠] من حديث يزيد بن أبي عبيد.

وفي «صحيح مسلم» عن سلمة أنه بايع ثلاث مرات في أوائل الناس ووسطهم وأواخرهم [١٨٠٧]. وفي «صحيح مسلم» [١٨٥٨] عن معقل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس، وكان أول من بايع رسول الله ﷺ يومئذ أبو سنان، وهو وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن، وقيل: سنان بن أبي سنان.

وقال البخاري [٤١٨٦]: حدثني شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد، حدثنا صخر بن الربيع، عن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة. قال: فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي التي تحدّث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر.

وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع عن ابن عمر: أن الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية، تفرقوا في ظلال الشجرة، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ؟ فوجدهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع، تفرد به البخاري [٤١٨٧] من هذين الوجهين.

سنة ٦- ذكر سياق البخاري لعمرة الحديبية

قال في كتاب المغازي [خ (٤١٧٨)]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، سمعت الزهري حين حدث هذا الحديث حفظت بعضه، وثبتني معمر عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه، قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

فقال: «أشيروا أيها الناس علي أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين وإلا تركناهم محروبين». قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا نريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله». هكذا رواه ههنا ووقف ولم يزد شيئاً على هذا.

وقال في كتاب الشهادات [خ (٢٧٣١)]: حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، أخبرني الزهري، أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حل، فألحت. فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها».

ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن وقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة - وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة - فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن أمر الله».

قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أوَلستُ بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده

لولا يد كانت لك عندي، لم أجزك بها لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البُدن فابعثوها له». فبعثت له واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آته. قالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللّهم»، ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب إنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً. فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ - وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - فقال عمر ﵁: فأتيت رسول الله فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تحدثنا إنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال: قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ فقلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها مالقي من الناس. فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنة ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً. فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه فضربه حتى برد وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول.

فجاءه أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: «ويل امّه مسعر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ

تناشده لله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[الفتح: ٢٤-٢٦] وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

فهذا السياق فيه زيادات وفوائد حسنة ليست في رواية ابن إسحاق عن الزهري، فقد رواه عن الزهري، جماعة منهم: سفيان بن عيينة ومعمر، ومحمد بن إسحاق، كلهم عن الزهري، عن عروة، عن مروان ومسور، فذكر القصة [خ (١٦٩٤)].

وقد رواه البخاري [٢٧١١] في أول كتاب الشروط عن يحيى بن بكير، عن الليث بن سعد، عن عقيل عن الزهري، عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة عن أصحاب رسول الله ﷺ فذكر القصة. وهذا هو الأشبه، فإن مروان ومسوراً كانا صغيرين يوم الحديبية، والظاهر أنهما أخذاه عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وقال البخاري: حدثنا الحسن بن إسحاق، حدثنا محمد بن سابق، حدثنا مالك بن مِغْوَل سمعت أبا حُصين قال: قال أبو وائل: لما قدم سهل بن حنيف من صفين أتيناه نستخبره فقال: اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت، والله ورسوله أعلم، وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه، قبل هذا الأمر ما نسدُّ منهما خصماً إلا انفجر علينا خصم ما ندري كيف نأتي له.

وقال البخاري [٤١٧٧]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن.

فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [الفتح: ١].

قلت: وقد تكلمنا على سورة «الفتح» بكمالها في كتابنا «التفسير» بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة، ومن أحب أن يكتب ذلك هنا فليفعل.

سنة ٦- ذكر السرايا والبعوث

وتلخيص ذلك ما أورده الحافظ البيهقي عن الواقدي قال:

في ربيع الأول منها أو الآخر، بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن في أربعين رجلاً إلى غمر مرزوق، ماء لبني أسد فهربوا منه ونزل على مياههم وبعث في آثارهم، وأخذ منهم مائتي بعير فاستاقها إلى المدينة.

وفيها كان بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في أربعين رجلاً أيضاً، فساروا ليلتهم مشاة حتى أتوها في عماية الصبح، فهربوا منه في رؤوس الجبال فأسر منهم رجلاً، فقدم به على رسول الله ﷺ فأسلم.

وبعث محمد بن مسلمة في عشرة نفر، فكمن القوم لهم حتى ناموا، فقتل أصحاب محمد بن مسلمة كلهم وأفلت هو جريحاً.

وفيها كان بعث زيد بن حارثة بالجموم، فأصاب امرأة من مزينة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا منها نعماً وشاء وأسرى وكان فيهم زوج حليمة هذه، فوهبها رسول الله ﷺ لزوجها وأطلقهما.

وفيها كان بعث زيد بن حارثة أيضاً في جمادى الأولى إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فهربت منه الأعراب، فأصاب من نعمهم عشرين بعيراً ثم رجع بعد أربع ليال.

وفيها خرج زيد بن حارثة في جمادى الأولى إلى العيص.

قال: وفيها أخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع، فاستجار بزينب بنت رسول الله ﷺ فأجارته.

وقد ذكر ابن إسحاق - كما تقدم - قصته حين أخذت العير التي كانت معه، وقتل أصحابه وفر هو من بينهم حتى قدم المدينة، وكانت امرأته زينب بنت رسول الله ﷺ قد هاجرت بعد بدر، فلما جاء المدينة استجار بها فأجارته بعد صلاة الصبح، فأجاره لها رسول الله ﷺ، وأمر الناس برد ما أخذوا من عيره، فردوا كل شيء كانوا أخذوه منه حتى لم يفقد منه شيئاً، فلما رجع بها إلى مكة وأدى إلى أهلها ما كان لهم معه من الودائع، أسلم وخرج من مكة راجعاً إلى المدينة، فردّ عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب بالنكاح الأول، ولم يحدث نكاحاً ولا عقداً، كما تقدم بيان ذلك.

وكان بين إسلامه وهجرتها ست سنين ويروى سنتين. وقد بينا أنه لا منافاة بين الروايتين، لأن إسلامه تأخر عن وقت تحريم المؤمنات على الكفار بسنتين، وكان إسلامه في سنة ثمان في سنة الفتح، لا كما يُفهم من كلام الواقدي من أنه سنة ست فالله أعلم.

وذكر الواقدي في هذه السنة أن دحية بن خليفة الكلبي أقبل من عند قيصر، وقد أجازه بأموال وخلع، فلما كان بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق، فلم يتركوا معه شيئاً، فبعث إليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة أيضا رضي الله عنه.

قال الواقدي [المغازي: ٥٦٢/٢]: حدثني عبد الله بن جعفر عن يعقوب بن عتبة قال: خرج علي رضي الله عنه في مائة رجل إلى أن نزل إلى حي من بني سعد بن بكر، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم بالليل، وكمن بالنهار وأصاب عيناً لهم، فأقر له أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر.

قال الواقدي رحمه الله تعالى [المغازي: ٥٦١/٢]: وفي سنة ست في شعبان منها كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، وقال له رسول الله ﷺ: «إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم»، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن بنت ملكهم تماضر بنت الأصبغ الكلبية وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

قال الواقدي [المغازي: ٥٦٨/٢]: في شوال سنة ست كانت سرية كرز بن جابر الفهري إلى العُرَنيين الذين قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا النعم، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم كرز بن جابر في عشرين فارساً، فردوهم.

فكان من أمرهم ما أخرجه البخاري [٤١٩٢] ومسلم [١٦٧١/١٣] من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك أن رهطاً من عكل وعرينة - وفي رواية [خ (٢٣٣)، م (١٦٧١/١١)]: من عكل أو عرينة -

أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا أناس أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، فاستوخمنا المدينة. فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم، فبعث النبي ﷺ في طلبهم، فأمر بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا وهم كذلك.

قال قتادة: فبلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب بعد ذلك حضّ على الصدقة ونهى عن المثلة.

وهذا الحديث قد رواه جماعة عن قتادة [خ (١٥٠١)، م (١٣/١٦٧١)، د (٤٣٦٨)، المسند: ٣/١٦٣، ١٧٧، ٢٨٧] ورواه جماعة عن أنس بن مالك [خ (٢٣٣)، م (٩ – ١٤/١٦٧١)، د (٤٣٦٧)، ت (٧٢، ١٨٤٥، ٢٠٤٢)، س (٤٠٤٠ – ٤٠٤٣، ٤٠٤٦)، ج (٢٥٧٨، ٣٥٠٣)].

وفي رواية مسلم [١٣/١٦٧١] عن معاوية بن قرة عن أنس، أن نفراً من عرينة أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وبايعوه، وقد وقع في المدينة الموم – وهو البرسام – فقالوا: هذا الوجع قد وقع يا رسول الله، فلو أذنت لنا فرجعنا إلى الإبل. قال: «نعم، فاخرجوا فكونوا فيها». فخرجوا فقتلوا الراعيين وذهبوا بالإبل. وعنده شباب من الأنصار قريب من عشرين، فأرسلهم إليهم وبعث معهم قائفاً يقتص أثرهم، فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم.

وفي «صحيح البخاري» [٢٣٣] من طريق أيوب عن أبي قلابة، عن أنس أنه قال: قدم رهط من عكل فأسلموا واجتووا المدينة، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «الحقوا بالإبل واشربوا من أبوالها وألبانها». قال: فذهبوا فكانوا فيها ما شاء الله، فقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فجاء الصريخ إلى رسول الله ﷺ فأرسل في طلبهم فلم ترتفع الشمس حتى أتي بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكواهم بها، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم في الحرة يستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا ولم يحسمهم.

وفي رواية عن أنس قال [خ (٦٨٥٥)]: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش. قال أبو قلابة: فهؤلاء قتلوا وسرقوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله ﷺ.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٤/٨٨] من طريق عثمان بن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن سليمان، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي الزبير، عن جابر أن رسول الله ﷺ لما بعث في آثارهم قال: «اللهم عمّ عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مسك جمل». قال: فعمى الله عليهم السبيل، فأدركوا فأتي بهم رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم. وفي «صحيح مسلم» [١٤/١٦٧١] إنما سملهم لأنهم سملوا أعين الرعاء.

سنة ٦– أحداث أخرى

أعني سنة ست من الهجرة فيها نزل فرض الحج كما قرره الشافعي رحمه الله زمن الحديبية في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[سورة البقرة: ١٩٦] ولهذا ذهب إلى أن الحج على التراخي لا على الفور، لأنه ﷺ لم يحج إلا في سنة عشر. وخالفه الثلاثة مالك وأبو حنيفة وأحمد، فعندهم أن الحج يجب على كل من استطاعه على الفور، ومنعوا أن يكون الوجوب مستفاداً من قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وإنما في هذه الآية الأمر بالإتمام بعد الشروع فقط، واستدلوا بأدلة قد أوردنا كثيراً منها عند تفسير هذه الآية من كتابنا «التفسير» ولله الحمد والمنة بما فيه كفاية.

وفي هذه السنة حرّمت المسلمات على المشركين تخصيصاً لعموم ما وقع به الصلح عام الحديبية، على أنه: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته علينا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[سورة الممتحنة: ١٠]

وفي هذه السنة كانت غزوة المريسيع التي كانت فيها قصة الإفك ونزول براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما تقدم.

وفيها كانت عمرة الحديبية وما كان من صد المشركين رسول الله ﷺ، وكيف وقع الصلح بينهم على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيهن الناس بعضهم بعضاً، وعلى أنه لا إغلال ولا إسلال، وقد تقدم كل ذلك مبسوطاً في أماكنه ولله الحمد والمنة، وولي الحج في هذه السنة المشركون.

قال الواقدي: وفيها في ذي الحجة منها، بعث رسول الله ﷺ ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة – شهد بدراً – إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، يعني ملك عرب النصارى، بالشام، ودحيّة بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وهو هرقل ملك الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك النصارى بالحبشة وهو أصحمة بن أبجر.

سنة ٧– غزوة خيبر في أولها

قال شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال: خيبر.

وقال موسى بن عقبة: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية مكث بالمدينة عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر وهي التي وعده الله إياها.

وحكى موسى عن الزهري أن افتتاح خيبر في سنة ست، والصحيح أن ذلك في أول سنة سبع كما قدمنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٢٨]: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمسور قالا: انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة، فقدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم فنزل بالرجيع واد بين خيبر وغطفان، فتخوف أن تمدهم غطفان فبات حتى أصبح فغدا إليهم.

قال البيهقي [الدلائل: ٤/١٩٧]: وبمعناه رواه الواقدي [المغازي: ٢/٦٣٤ – ٦٣٨] عن شيوخه في خروجه في أول سنة سبع من الهجرة.

وقال عبد الله بن إدريس عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر قال: لما كان افتتاح خيبر في عقب المحرم وقدم النبي ﷺ في آخر صفر.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٣٢٨]: واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله

الليثي.

وقد قال الإمام أحمد [٣٤٥/٢، ٣٤٦]: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خثيم يعني ابن عراك، عن أبيه: أن أبا هريرة قدم المدينة في رهط من قومه، والنبي ﷺ في خيبر وقد استخلف سباع بن عرفطة - يعني الغطفاني - على المدينة، قال: فانتهيت إليه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأولى بـ ﴿كهيعص﴾، وفي الثانية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فقلت في نفسي: ويل لفلان إذا اكتال اكتال بالوافي وإذا كال كال بالناقص قال: فلما صلى زودنا شيئاً حتى أتينا خيبر وقد افتتح النبي ﷺ خيبر، قال: فكلم المسلمين فأشركونا في سهامهم.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ١٩٨/٤، ١٩٩] من حديث سليمان بن حرب عن وهيب عن خثيم بن عراك، عن أبيه، عن نفر من بني غفار قالوا: إن أبا هريرة قدم المدينة فذكره.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٠/٢]: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر فبني له فيها مسجداً، ثم على الصهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغني أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهليهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

وقال البخاري [٤١٩٥]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن بشير: أن سويد بن النعمان أخبره أنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصهباء - وهي من أدنى خيبر - صلى العصر، ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثري فأكل وأكلنا ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى ولم يتوضأ.

وقال البخاري [٤١٩٦]: حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

لا هُمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فاغفرْ فداءً لك ما اتقينا ... وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا

والقِيَنْ سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله». فقال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به. فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة. ثم إن الله فتحها عليهم، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم، أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟» قالوا: على لحم. قال: «على أي لحم؟» قالوا: لحم الحمر الإنسية، قال النبي ﷺ: «أهريقوها واكسروها» فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها؟ فقال: «أو ذاك».

فلما تصاف الناس كان سيف عامر قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه فيرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبة عامر، فمات منه، فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي، قال: «ما لك؟» قلت: فداك أبي وأمي زعموا أن عامراً حبط عمله، قال النبي ﷺ: «كذب من قاله إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد قلّ عربي مشى بها مثله».

ورواه مسلم [١٨٠٢/١٢٣] من حديث حاتم بن إسماعيل وغيره عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة به نحوه. ويروى [خ (٤١٩٦)]: «نشأ بها مثله».

قال السهيلي [الروض الأنف: ٥٧٤/٦]: ويروى: «قلَّ عربي مشابهاً مثله». ويكون منصوباً على الحالية من نكرة، وهو سائغ؛ إذا دلّت على تصحيح معنىً، كما جاء في الحديث: «فصلى وَرَاءَه رجالٌ قياماً».

وقد روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٢٨/٢، ٣٢٩] قصة عامر بن الأكوع من وجه آخر فقال: حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي، أن أباه حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع: «انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هناتك» فقال: فنزل يرتجز لرسول الله ﷺ فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

إنا إذا قوم بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك ربك». فقال عمر بن الخطاب: وجبت يا رسول الله لو أمتعتنا به، فقتل يوم خيبر شهيداً. ثم ذكر صفة قتله كنحو ما ذكره البخاري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٢٩/٢]: وحدثني من لا أتهم عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن أبي معتب بن عمرو أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: «قفوا»، ثم قال: «اللّهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله».

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه.

وقد رواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٠٣/٤، ٢٠٤] عن الحاكم، عن الأصم عن العطاردي عن يونس بن بكير، عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن صالح بن كيسان، عن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريباً، وأشرفنا عليها قال رسول الله ﷺ للناس: «قفوا» فوقف الناس، فقال: «اللّهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله الرحمن الرحيم»

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٢٩/٢، ٣٣٠]: وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار، فنزلنا خيبر ليلاً فبات رسول الله ﷺ حتى إذا أصبح، لم يسمع أذاناً فركب وركبنا معه، وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ،

واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس معاً فأدبروا هراباً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٠/٢]: حدثنا هارون عن حميد عن أنس بمثله.

وقال البخاري [٤١٩٧]: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك أن رسول الله أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس! فقال رسول الله ﷺ: «خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، تفرد به دون مسلم.

وقال البخاري [٤١٩٨]: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا ابن عيينة، حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين، عن أنس بن مالك قال: صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحي فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس! فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». قال: فأصبنا من لحوم الحمر فنادى منادي النبي ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس. تفرد به البخاري دون مسلم.

وقال الإمام أحمد [١٦٤/٣]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن قتادة، عن أنس قال: لما أتى النبي ﷺ خيبر فوجدهم حين خرجوا إلى زرعهم ومعهم مساحيهم، فلما رأوه ومعه الجيش، نكصوا فرجعوا إلى حصنهم فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». تفرد به أحمد وهو على شرط «الصحيحين».

وقال البخاري [٤٢٠٠]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت، عن أنس بن مالك قال صلى النبي ﷺ الصبح قريباً من خيبر بغلس، ثم قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». فخرجوا يسعون في السكك، فقتل النبي ﷺ المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها.

قال عبد العزيز بن صهيب لثابت: يا أبا محمد آلنت قلت لأنس: ما أصدقها؟ فحرك ثابت رأسه تصديقاً له، تفرد به دون مسلم.

وقد أورد البخاري [٣١٥٥] ومسلم [١٩٣٧/٢٦] النهي عن لحوم الحمر الأهلية من طرق تذكر في كتاب «الأحكام».

وقد قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٠٤/٤]: أنبأنا أبو طاهر الفقيه، أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسي، حدثنا محمد بن حماد الأبيوردي، حدثنا محمد بن الفضيل عن مسلم الأعور الملائي، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، وكان يوم قريظة والنضير على حمار، ويوم خيبر على حمار مخطوم برسن ليف وتحته إكاف من ليف.

وقد روى هذا الحديث بتمامه الترمذي [١٠١٧] عن علي بن حجر عن علي بن مسهر، وابن ماجه [٢٢٩٦، ٤١٧٨] عن محمد بن الصباح، عن سفيان وعن عمرو بن رافع عن جرير كلهم عن مسلم وهو ابن كيسان الملائي الأعور الكوفي عن أنس به.

وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديثه وهو يضعف.

قلت: والذي ثبت في «الصحيح» عند البخاري [٣٧١] عن أنس: أن رسول الله ﷺ أجرى في زقاق خيبر حتى انحسر الإزار عن فخذه، فالظاهر أنه كان يومئذ على فرس لا على حمار. ولعل هذا الحديث - إن كان صحيحاً - محمول على أنه ركبه في بعض الأيام وهو محاصرها والله أعلم.

وقال البخاري [٤٢٠٨]: حدثنا محمد بن سعيد الخزاعي، حدثنا زياد بن الربيع عن أبي عمران الجوني قال: نظر أنس إلى الناس يوم الجمعة فرأى طيالسة فقال: كأنهم الساعة يهود خيبر.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا حاتم عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع قال: كان علي بن أبي طالب تخلف عن رسول الله ﷺ في خيبر، وكان رمداً فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ؟ فلحق به. فلما بتنا الليلة التي فتحت خيبر قال: «لأعطين الراية غداً - أو ليأخذن الراية غداً - رجل يحبه الله ورسوله يفتح عليه». فنحن نرجوها. فقيل: هذا عليٌّ فأعطاه ففتح عليه. ورواه البخاري [٢٩٧٥] أيضاً ومسلم [٢٤٠٧] عن قتيبة عن حاتم به.

ثم قال البخاري [٤٢١٠]: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن أبي حازم قال: أخبرني سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

وقد رواه مسلم [٢٤٠٦] والنسائي [٨١٤٩، ٨٥٨٧] جميعاً عن قتيبة به.

وفي «صحيح مسلم» [٢٤٠٥] والبيهقي [الدلائل: ٢٠٦/٤] من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله عليه»، قال عمر: فما أحببت الإمارة قط إلا يومئذ، فدعا علياً فبعثه ثم قال: «اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت». قال علي: على ما أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». لفظ البيهقي.

وقال الإمام أحمد [١٦/٣]: حدثنا مصعب بن المقدام وحجين بن المثنى قالا: حدثنا إسرائيل حدثنا عبد الله بن عصمة العجلي، سمعت أبا سعيد الخدري ﷺ يقول: أن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزها ثم قال: «من يأخذها بحقها؟» فجاء فلان فقال: أنا، قال: «أمِطْ»، ثم جاء رجل آخر فقال: «أمِطْ»، ثم قال النبي ﷺ: «والذي كرم وجه محمد لأعطينها رجلاً لا يفر، هاك يا علي». فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك وجاء بعجوتهما وقديدهما.

تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به، وفيه غرابة.

وعبد الله بن عصمة ويقال: ابن عُصم هذا يكنى بأبي علوان العجلي

وأصله من اليمامة سكن الكوفة وقد وثقه ابن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: شيخ. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يخطئ كثيراً وذكره في «الضعفاء»، وقال: يحدث عن الأثبات مما لا يشبه حديث الثقات حتى يسبق إلى القلب أنها موهومة أو موضوعة.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن أبيه عن سلمة بن عمرو بن الأكوع ﷺ قال: بعث النبي ﷺ أبا بكر ﷺ إلى بعض حصون خيبر فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد. ثم بعث عمر ﷺ فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح. فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار». قال سلمة: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ وهو يومئذ أرمد فتفل في عينيه ثم قال: «خذ الراية وامض بها حتى يفتح الله عليك»، فخرج بها والله يأنح يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب فقال اليهودي: غلبتم وما أنزل على موسى، فما رجع حتى فتح الله على يديه.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢١٠/٤]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا العطاردي عن يونس بن بكير، عن الحسين بن واقد، عن عبد الله بن بريدة أخبرني أبي قال: لما كان يوم خيبر أخذ اللواء أبو بكر فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلمة ورجع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «لأدفعن لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، لن يرجع حتى يُفتح له»، فبتنا طيبة نفوسنا أن الفتح غداً، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الغداة ثم دعا باللواء وقام قائماً فما منا من رجل له منزلة من رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل حتى تطاولت أنا لها ورفعت رأسي لمنزلة كانت لي منه، فدعا علي بن أبي طالب وهو يشتكي عينيه، قال: فمسحها ثم دفع إليه اللواء ففتح له، فسمعت عبد الله بن بريدة يقول: حدثني أبي أنه كان صاحب مرحب.

قال يونس: قال ابن إسحاق: كان أول حصون خيبر فتحاً حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة ألقيت عليه رحى منه فقتلته.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢١٠/٤ - ٢١٢] عن يونس بن بكير عن المسيب بن مسلمة الأزدي حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة فيلبث اليوم واليومين لا يخرج فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، وإن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ثم رجع، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يأخذها عنوة». وليس ثمّ عليّ، فتطاولت لها قريش، ورجا كل رجل منهم أن يكون صاحب ذلك، فأصبح وجاء علي بن أبي طالب على بعير له حتى أناخ قريباً، وهو أرمد قد عصب عينه بشقة برد قطري، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك؟» قال: رمدت بعدك، قال: «ادنُ مني» فتفل في عينه، فما وجعها حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية، فنهض بها وعليه جبة أرجوان حمراء قد أخرج خملها، فأتى مدينة خيبر، وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحبُ ... شاكِ سلاحي بطلٌ مجرّبُ

إذا الليوث أقبلتْ تَلهَّبُ ... وأحجمت عن صولة المغلَّبِ

فقال علي ﷺ:

أنا الذي سمّتني أمي حَيْدَرَه ... كليث غاباتٍ شديد القسوره

أكيلكم بالصاع كيل السندره

قال فاختلفا ضربتين، فبدره علي بضربة فقدّ الحجر والمغفر ورأسه ووقع في الأضراس، وأخذ المدينة.

وقد روى الحافظ البزار [كشف الأستار: ٢٥٤٥] عن عباد بن يعقوب عن عبد الله بن بكير عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قصة بعث أبي بكر ثم عمر يوم خيبر، ثم بعث علي فكان الفتح على يديه.

وفي سياقه غرابة ونكارة وفي إسناده من هو متهم بالتشيع والله أعلم.

وقد روى مسلم [١٨٠٧] والبيهقي [الدلائل: ٢٠٧/٤ - ٢٠٩] واللفظ له من طريق عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه فذكر حديثاً طويلاً وذكر فيه رجوعهم من غزوة بني فزارة.

قال: فلم نمكث إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر.

قال: وخرج عامر فجعل يقول:

واللّه لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا

ونحن من فضلك ما استغنينا ... فأنزلن سكينة علينا

وثبّت الأقدام إن لاقينا

قال: فقال رسول الله ﷺ: «من هذا القائل؟» فقالوا: عامر. فقال: «غفر لك ربك». قال: وما خصَّ رسول الله ﷺ قط أحداً به إلا استشهد.

فقال عمر: وهو على جمل: لولا متعتنا بعامر. قال: فقدمنا خيبر، فخرج مَرْحب وهو يخطر بسيفه ويقول:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحب ... شاكي السلاحِ بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: فبرز له عامر ﷺ وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر فذهب يسفل له، فرجع على نفسه فقطع أكحله وكانت فيها نفسه.

قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقال: «ما لك؟» فقلت: قالوا: إن عامراً بطل عمله. فقال: «من قال ذلك؟» فقلت: نفر من أصحابك. فقال: «كذب أولئك بل له الأجر مرتين».

قال: وأرسل رسول الله ﷺ إلى علي ﷺ يدعوه وهو أرمد وقال: «لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله». قال: فجئت به أقوده قال: فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرأ فأعطاه الراية، فبرز مرحب وهو يقول:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحب ... شاكي السلاحِ بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: فبرز له علي وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كليث غاباتٍ كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

قال: فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله. وكان الفتح.

هكذا وقع في هذا السياق أن علياً هو الذي قتل مرحباً اليهودي لعنه الله.

وقال أحمد [١١١/١]: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثني ابن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن جده عن علي قال: لما قتلت مرحباً جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ.

وقد روى موسى بن عقبة عن الزهري: أن الذي قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة.

وكذلك قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٣/٢]: حدثني عبد الله بن سهل أحد بني حارثة، عن جابر بن عبد الله قال: خرج مرحب اليهودي من حصن خيبر وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحياناً وحيناً أضرب ... إذا الليوث أقبلت تحرّبُ

إن حماي للحمى لا يقرب

قال: فأجابه كعب بن مالك:

قد علمت خيبر أني كعب ... مفرّج الغما جريٌ صلب

إذ شبت الحرب تلتها الحربُ ... معي حُسامٌ كالعقيق عضب

يطأكمو حتى يذل الصعب ... نعطي الجزاء أو يفيء النهب

بكف ماضٍ ليس فيه عَتْب

قال: وجعل مرحب - وهو ابن حمير - يرتجز ويقول: هل من مبارز؟ فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا؟». فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر قتلوا أخي بالأمس. فقال: «قم إليه اللّهم أعنه عليه».

قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمْرية من شجر العُشَر، فجعل كل واحد منهما يلوذ من صاحبه بها كلما لاذ بها أحدهما اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن، ثم حمل على محمد بن مسلمة فضربه فاتقاه بالدرقة فوقع سيفه فيها فعضت به، فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٨٥/٣] عن يعقوب بن إبراهيم عن أبيه عن ابن إسحاق بنحوه.

قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن محمداً ارتجز حين ضربه وقال:

قد علمت خيبر أني ماضِ ... حُلوٌ إذا شئت وسمٌ قاضِ

وهكذا رواه الواقدي [المغازي: ٦٥٦/٢، ٦٥٧] عن جابر وغيره من السلف، أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحباً، وذكر الواقدي أن محمداً قطع رجلي مرحب فقال له: أجهز عليّ. فقال: لا، ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة. فمر به علي وقطع رأسه، فاختصما في سلبه إلى رسول الله ﷺ، فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ورمحه ومغفره وبيضته. قال: وكان مكتوباً على سيفه:

هذا سيفُ مرحب ... من يذقه يعطب

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٤/٢]: أن أخا مرحب وهو ياسر خرج بعده وهو يقول: هل من مبارز؟ فزعم هشام بن عروة أن الزبير خرج له فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله؟ فقال: «بل ابنك يقتله إن شاء الله». فالتقيا فقتله الزبير. قال: فكان الزبير إذا قيل له: والله إن كان سيفك يومئذ لصارماً يقول: والله ما كان صارماً ولكني أكرهته.

وقال يونس عن ابن إسحاق عن بعض أهله، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل منهم من يهود فطرح ترسه من يده فتناول علي باب الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

وفي هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر.

ولكن روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢١٢/٤] والحاكم من طريق مطلب بن زياد عن ليث بن أبي سليم، عن أبي جعفر الباقر عن جابر: أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها، وإنه جرّب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً.

وفيه ضعف أيضاً.

وفي رواية ضعيفة عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً وكان جهدهم أن أعادوا الباب.

وقال البخاري [٤٢٠٦]: حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر فقال الناس: أصيب سلمة. فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت حتى الساعة.

ثم قال البخاري [٤٢٠٧]: حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا ابن أبي حازم عن أبيه، عن سهل قال: التقى النبي ﷺ والمشركون في بعض مغازيه فاقتتلوا، فمال كل قوم إلى عسكرهم، وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة إلا اتّبعها فضربها بسيفه، فقيل: يا رسول الله ما أجزأ منا أحد ما أجزأ فلان. قال: «إنه من أهل النار». فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: لأتبعنه، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه، حتى جرح فاستعجل الموت فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه.

فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وما ذاك؟» فأخبره فقال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وأنه من أهل الجنة».

رواه أيضاً عن قتيبة عن يعقوب عن أبي حازم عن سهل فذكر مثله أو نحوه.

وقال البخاري [٢٨٩٨]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة حتى كاد بعض الناس يرتاب. فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: «قم يا فلان فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وأن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر».

وقد روى موسى بن عقبة قصة العبد الأسود الذي رزقه الله الإيمان والشهادة في ساعة واحدة. وكذلك رواها ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة قالا: وجاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم قال: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي. فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ، فأقبل بغنمه حتى عمد لرسول الله ﷺ فقال: إلى ما تدعو؟ قال: «أدعوك إلى الإسلام؛ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن لا تعبد إلا الله».

قال: فقال العبد: فماذا يكون لي إن شهدت بذلك وآمنت بالله؟ قال رسول الله ﷺ: «الجنة إن مت على ذلك». فأسلم العبد فقال: يا نبي الله إن هذه الغنم عندي أمانة. فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء فإن الله سيؤدي عنك أمانتك» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم.

فقام رسول الله ﷺ فوعظ الناس فذكر الحديث في إعطائه الراية علياً، ودنوه من حصن اليهود، وقتله مرحباً وقتل مع علي ذلك العبد الأسود فاحتمله المسلمون إلى عسكرهم، فأدخل في الفسطاط، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم اطلع على أصحابه فقال: «لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير قد كان الإسلام من نفسه حقاً وقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين».

وقد روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٢١/٤] من طريق ابن وهب عن حيوة بن شريح، عن ابن الهاد عن شرحبيل بن سعد، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر فخرجت سرية فأخذوا إنساناً معه غنم يرعاها، فذكر نحو قصة هذا العبد الأسود وقال فيه: قتل شهيداً وما سجد لله سجدة.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢٢١/٤]: حدثنا محمد بن محمد بن محمش الفقيه، حدثنا أبو بكر القطان، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني رجل أسود اللون قبيح الوجه منتهن الريح لا مال لي، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال: «نعم» فتقدم فقاتل حتى قتل، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال: «لقد حسن الله وجهك وطيب ريحك وكثر مالك». وقال: «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين يتنازعان جبته عنه يدخلان فيما بين جلده وجبته».

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢٢٢/٤] من طريق ابن جريج، أخبرني عكرمة بن خالد عن ابن أبي عمار عن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء رسول الله ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك. فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ فقسمه وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت فأدخل الجنة. فقال: «إن تصدق الله يصدقك». ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأتي به رسول الله ﷺ يحمل وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟» قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه». وكفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك قتل شهيداً أنا عليه شهيد».

وقد رواه النسائي [١٩٥٢] عن سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك عن ابن جريج به نحوه.

سنة ٧- حكم لحوم الحمر الأهلية والمتعة في خيبر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٠/٢، ٣٣١]: وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً ويفتتحها حصناً حصناً، وكان أول حصونهم فتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه رحى منه فقتلته، ثم القموص حصن بني أبي الحقيق. وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وبنتا عم لها، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، وكان دحية بن خليفة قد سأل رسول الله ﷺ صفية فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتي عمها.

قال: وفشت السبايا من خيبر في المسلمين، وأكل الناس لحوم الحمر، فذكر نهي رسول الله ﷺ إياهم عن أكلها.

وقد اعتنى البخاري بهذا الفصل فأورد النهي عنها من طرق جيدة، وتحريمها مذهب جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وقد ذهب بعض السلف - منهم ابن عباس - إلى إباحتها، وتنوعت أجوبتهم عن الأحاديث الواردة في النهي عنها، فقيل: لأنها كانت ظهراً يستعينون بها في الحمولة، وقيل: لأنها لم تكن خمست بعد، وقيل: لأنها كانت تأكل العذرة يعني جلالة، والصحيح أنه نُهي عنها لذاتها فإن في الأثر الصحيح [خ (٥٥٢٨)] أنه نادى منادي رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس، فأكفئوها والقدور تفور بها. وموضع تقرير ذلك في كتاب «الأحكام».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣١/٢]: حدثني سلام بن كركرة عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله - ولم يشهد جابر خيبر - أن رسول الله ﷺ حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم في لحوم الخيل. وهذا الحديث أصله ثابت في «الصحيحين» [خ (٤٢١٩)، م (١٩٤١/٣٦)] من حديث حماد بن زيد عن عمرو بن دينار، عن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر، ورخص في الخيل. لفظ البخاري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣١/٢]: وحدثنا عبد الله بن أبي نجيح عن مكحول: أن النبي ﷺ نهاهم يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من النساء، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم. وهذا مرسل.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣١/٢، ٣٣٢]: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن أبي مرزوق مولى تجيب، عن حنش الصنعاني قال: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها: جربة، فقام فينا خطيباً فقال: أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره» يعني إتيان الحبالى من السبي- «ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يُقسم، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب

دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه».

وهكذا روى هذا الحديث أبو داود [٢١٥٨، ٢١٥٩] من طريق محمد بن إسحاق به.

ورواه الترمذي [١١٣١] عن عمرو بن حفص الشيباني، عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب، عن ربيعة بن سليم عن بسر بن عبيد الله، عن رويفع بن ثابت مختصراً، وقال: حسن.

وفي «صحيح البخاري» [٤٢١٥] عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وعن أكل الثوم.

وقد حكى ابن حزم [المحلى: ٤/٦٧] عن علي وشريك بن الحنبل أنهما ذهبا إلى تحريم البصل والثوم النيء.

والذي نقله الترمذي [١٨٠٨، ١٨٠٩] عنهما الكراهة فالله أعلم.

وقد تكلم الناس في الحديث الوارد في «الصحيحين» [خ (٤٢١٦)، م (١٤٠٧)] من طريق الزهري عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما، عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر وعن لحوم الحمر الأهلية.

هذا لفظ «الصحيحين» من طريق مالك وغيره عن الزهري.

وهو يقتضي تقييد تحريم نكاح المتعة بيوم خيبر، وهو مشكل من وجهين:

أحدهما: أن يوم خيبر لم يكن ثم نساء يتمتعون بهن إذ قد حصل لهم الاستغناء بالسباء عن نكاح المتعة.

الثاني: أنه قد ثبت في «صحيح مسلم» [١٤٠٦] عن الربيع بن سبرة بن معبد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أذن لهم في المتعة زمن الفتح ثم لم يخرج من مكة حتى نهى عنها، وقال: «إن الله قد حرمها إلى يوم القيامة». فعلى هذا يكون قد نهى عنها ثم أذن فيها ثم حرمت، فيلزم النسخ مرتين وهو بعيد.

ومع هذا فقد نص الشافعي على أنه لا يعلم شيئاً أبيح ثم حرم ثم أبيح ثم حرم غير نكاح المتعة، وما حداه على هذا رحمه الله إلا اعتماده على هذين الحديثين كما قدمناه.

وقد حكى السهيلي [الروض الأنف: ٦/٥٥٧] وغيره عن بعضهم أنه ادّعى أنها أبيحت ثلاث مرات وحرمت ثلاث مرات.

وقال آخرون: أربع مرات، وهذا بعيد جداً والله أعلم.

واختلفوا أي وقت أول ما حرمت فقيل: في خيبر، وقيل: في عمرة القضاء، وقيل: في عام الفتح وهو الذي يظهر، وقيل: في أوطاس وهو قريب من الذي قبله، وقيل: في تبوك، وقيل: في حجة الوداع رواه أبو داود [٢٠٧٢].

وقد حاول بعض العلماء أن يجيب عن حديث علي رضي الله عنه بأنه وقع فيه تقديم وتأخير.

وإنما المحفوظ فيه ما رواه الإمام أحمد [١/٧٩]: حدثنا سفيان عن الزهري، عن الحسن وعبد الله ابني محمد عن أبيهما - وكان حسن أرضاهما في أنفسهما - أن علياً قال لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر. قالوا: فاعتقد الراوي أن قوله «خيبر» ظرف للمنهي عنهما وليس كذلك، إنما هو ظرف للنهي عن لحوم الحمر، فأما نكاح المتعة فلم يذكر له ظرفاً، وإنما جمعه معه لأن علياً رضي الله عنه بلغه أن ابن عباس أباح نكاح المتعة ولحوم الحمر الأهلية كما هو المشهور عنه، فقال له أمير المؤمنين علي: إنك امرؤ تائه، إن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة ولحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، فجمع له النهي ليرجع عما كان يعتقده في ذلك من الإباحة. وإلى هذا التقرير كان ميل شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي تغمده الله برحمته آمين.

ومع هذا ما رجع ابن عباس عما كان يذهب إليه من إباحة الحمر والمتعة، أما النهي عن الحمر فتأوله بأنها كانت حمولتهم، وأما المتعة فإنما كان يبيحها عند الضرورة في الأسفار، وحمل النهي على ذلك في حال الرفاهية والوجدان، وقد تبعه على ذلك طائفة من أصحابه وأتباعهم، ولم يزل ذلك مشهوراً عن علماء الحجاز إلى زمن ابن جريج وبعده.

وقد حُكي عن الإمام أحمد بن حنبل رواية كمذهب ابن عباس وهي ضعيفة، وحاول بعض من صنف في الخلاف نقل رواية عن الإمام أحمد بمثل ذلك، ولا يصح أيضاً والله أعلم. وموضع تحرير ذلك في كتاب «الأحكام» وبالله المستعان.

سنة ٧- تتمة ما جرى في خيبر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٣٢]: ثم جعل رسول الله ﷺ يتدنى الحصون والأموال، فحدثني عبد الله بن أبي بكر، أنه حدثه بعض أسلم، أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: والله يا رسول الله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئاً يعطيهم إياه فقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنى وأكثرها طعاماً وودكاً». فغدا الناس ففتح عليهم حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٣٢]: ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنهم الوطيح والسلالم، وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشر ليلة.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٣٣٣]: وكان شعارهم يوم خيبر: يا منصور أمت أمت.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٣٥، ٣٣٦]: وحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي عن بعض رجال بني سلمة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو قال: إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم، ونحن محاصروهم فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟» قال أبو اليسر فقلت: أنا يا رسول الله قال: «فافعل».

قال: فخرجت أشتد مثل الظليم، فلما نظر إليّ رسول الله ﷺ مولياً قال: «اللهم أمتعنا به» قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولها الحصن، فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدي، ثم جئت بهما أشتد كأنه ليس معي شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ فذبحوهما فأكلوهما، فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتاً، وكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال: أُمتعوا بي لعمري حتى كنت من آخرهم.

وقال الحافظ البيهقي في «الدلائل» [٤/٢٤٢]: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني، حدثنا أبو سعيد بن الأعرابي، حدثنا سعدان بن

نصر، حدثنا أبو معاوية عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي أو عن أبي قلابة قال: لما قدم النبي ﷺ خيبر قدم والثمرة خضرة قال: فأسرع الناس فيها فحمُّوا فشكوا ذلك إليه فأمرهم أن يقرسوا الماء في الشنان ثم يَحْدِروا عليهم بين أذاني الفجر ويذكرون اسم الله عليه، ففعلوا ذلك فكأنما نشطوا من عقل.

قال البيهقي: ورويناه عن عبد الرحمن بن رافع موصولاً، وعنه: بين صلاتي المغرب والعشاء.

وقال الإمام أحمد [٨٦/٤]: حدثنا يحيى وبهز قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، حدثنا عبد الله بن مغفل قال: دُلي جراب من شحم يوم خيبر فالتزمته، فقلت: لا أعطي أحداً منه شيئاً، قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ يتبسم.

وقال أحمد [٥٥/٥]: حدثنا عفان، حدثنا شعبة عن حميد بن هلال عن عبد الله بن مغفل قال: كنا محاصرين قصر خيبر فألقي إلينا جراب فيه شحم، فذهبت آخذه فرأيت النبي ﷺ فاستحييت.

وقد أخرجه صاحبا «الصحيح» [خ (٣١٥٣)، م (١٧٧٢/٧٣)] من حديث شعبة.

ورواه مسلم [١٧٧٢/٧٢] أيضاً عن شيبان بن فروخ، عن سليمان بن المغيرة.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٩/٢]: وحدثني من لا أتهم عن عبد الله بن مغفل المزني قال: أصبت من فيء خيبر جراب شحم، قال: فاحتملته على عنقي إلى رحلي وأصحابي، قال: فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها، فأخذ بناحيته وقال: هلم هذا حتى نقسمه بين المسلمين، قال: وقلت: لا والله لا أعطيكه، قال: وجعل يجاذبني الجراب، قال: فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك فتبسم ضاحكاً.

ثم قال لصاحب المغانم: «لا أبا لك خل بينه وبينه». قال: فأرسله فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه.

وقد استدل الجمهور بهذا الحديث على الإمام مالك في تحريمه شحوم ذبائح اليهود - ما كان حراماً عليهم - على غيرهم من المسلمين، لأن الله تعالى قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال: لكم. قال: وليس هذا من طعامهم.

فاستدلوا عليه بهذا الحديث وفيه نظر، وقد يكون هذا الشحم مما كان حلالاً لهم والله أعلم. وقد استدلوا بهذا الحديث على أن الطعام لا يخمس.

ويعضد ذلك ما رواه الإمام أبو داود [٢٧٠٤]: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن محمد بن أبي مجالد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قلت: هل كنتم تخمسون الطعام في عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبنا طعاماً يوم خيبر، وكان الرجل يجيء فيأخذ منه قدر ما يكفيه، ثم ينصرف. تفرد به أبو داود وهو حسن.

سنة ٧- قصة صفية بنت حيي بن أخطب النضرية رضي الله عنها

وكان من شأنها أنه لما أجلى رسول الله ﷺ يهود بني النضير من المدينة كما تقدم، فذهب عامتهم إلى خيبر، وفيهم حيي بن أخطب وبنو أبي الحقيق، وكانوا ذوي أموال وشرف في قومهم، وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ، ثم لما تأهلت للتزويج تزوجها بعض بني عمها، فلما زفت إليه وادخلت عليه بنى بها، ومضى على ذلك ليال، رأت في منامها كأن قمر السماء قد سقط في حجرها، فقصت رؤياها على ابن عمها، فلطم وجهها وقال: أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك، فما كان إلا مجيء رسول الله ﷺ وحصاره إياهم، فكانت صفية في جملة السبي، وكان زوجها في جملة القتلى.

ولما اصطفاها رسول الله ﷺ وصارت في حوزه وملكه كما سيأتي، وبنى بها بعد استبرائها وحلها، وجد أثر تلك اللطمة في خدها، فسألها: «ما شأنها؟»، فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضي الله عنها وأرضاها.

قال البخاري [٤٢٠٠]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: صلى النبي ﷺ الصبح قريباً من خيبر بغلس، ثم قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، فخرجوا يسعون في السكك، فقتل النبي ﷺ المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي، ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها.

ورواه مسلم أيضاً [٨٤، ٨٥، ٨٧، ١٣٦٥/٨٨] من حديث حماد بن زيد - وله طرق - عن أنس.

وقال البخاري [٤٢٠١]: حدثنا آدم عن شعبة، عن عبد العزيز بن صهيب قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سبى النبي ﷺ صفية فأعتقها وتزوجها. قال ثابت لأنس: ما أصدقها؟ قال: أصدقها نفسها فأعتقها، تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال البخاري [٤٢١١]: حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن. ح وحدثنا أحمد بن عيسى، حدثنا ابن وهب، أخبرني يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن عمرو مولى المطلب، عن أنس بن مالك قال: قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغ بها سُدَّ الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لي: «آذن من حولك» فكانت تلك وليمته على صفية.

ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب. تفرد به دون مسلم.

وقال البخاري [٤٢١٣]: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني حميد أنه سمع أنساً يقول: أقام رسول الله ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يُبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبسطت فألقى عليها التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ فقالوا: إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه. فلما ارتحل وطأ لها خلفه ومد الحجاب. انفرد به البخاري.

وقال أبو داود [٢٩٩٦]: حدثنا مسدد، حدثنا حماد بن زيد عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: صارت صفية لدحية الكلبي، ثم صارت لرسول الله ﷺ.

وقال أبو داود [٢٩٩٨]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا ابن علية عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: جمع السبي - يعني بخيبر - فجاء دحية فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي قال: «اذهب فخذ جارية». فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية - قال يعقوب: - صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك، قال: «ادع بها»، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «خذ جارية من السبي غيرها» وإن رسول الله ﷺ أعتقها وتزوجها. وأخرجاه [خ (٣٧١)، م (١٣٦٥/٨٤)] من حديث ابن علية.

وقال أبو داود [٢٩٩٧]: حدثنا محمد بن خلاد الباهلي، حدثنا بهز بن أسد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت عن أنس قال: وقع في سهم دحية جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أم سُلَيم تصنعها وتهيئها. قال حماد: وأحسبه قال: وتعتد في بيتها صفية بنت حيي. تفرد به أبو داود.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٦/٢]: فلما افتتح رسول الله ﷺ القموص حصن بني أبي الحقيق، أتى بصفية بنت حيي بن أخطب وأخرى معها، فمر بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أعزبوا عني هذه الشيطانة». وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

وقال رسول الله ﷺ لبلال - فيما بلغني - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما». وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً. فلطم وجهها لطمة خضر عينها منها. فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه، فسألها: «ما هذا؟» فأخبرته الخبر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٦/٢، ٣٣٧]: وأتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه. فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود فقال لرسول الله ﷺ: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟» قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال: «عذبه حتى تستأصل ما عنده». وكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

سنة ٧- مصالحة أهل خيبر على النصف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٧/٢]: وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنيهم: الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل، وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق والنطاة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل، وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أخو بني حارثة. فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. وعامل أهل فدك بمثل ذلك.

سنة ٧- فتح حصون خيبر وقَسْمِ أرضها

قال الواقدي [المغازي: ٦٦٦/٢ - ٦٦٨]: لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير، حاصرهم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له: غزّال فقال: يا أبا القاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة، وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك؟ قال: فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله، فقال له اليهودي: إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك، إن لهم تحت الأرض دبولاً يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم. فأمر رسول الله ﷺ بقطع دبولهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من اليهود عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ، وكان آخر حصون النطاة.

وتحول إلى الشق وكان به حصون ذوات عدد، فكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبي، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها: سموان، فقاتل عليها أهل الحصن أشد القتال، فخرج منهم رجل يقال له: عزول، فدعا إلى البراز، فبرز إليه الحباب بن المنذر، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه، ووقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً، فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه، وبرز منهم آخر فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي، فنهض إليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه، وأحجموا عن البراز فكبر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه وأمامهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجدر كأنهم الظباء حتى صاروا إلى حصن النّزار بالشق، وتمنعوا أشد الامتناع، فزحف إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه، فتراموا ورمى معهم رسول الله ﷺ بيده الكريمة حتى أصاب نبلهم ثيابه عليه الصلاة والسلام، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصا ورمى حصنهم بها، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد.

قال الواقدي [المغازي: ٦٧٠/٢، ٦٧١]: ثم تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصني ابن أبي الحقيق، وتحصنوا أشد التحصن، وجاء إليهم كل فلّ كان قد انهزم من النطاة والشق فتحصنوا معهم في القموص وهو في الكتيبة، وكان حصناً منيعاً، وفي الوطيح والسلالم، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم، فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً، نزل إليه ابن أبي الحقيق فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، وعلى البز إلا ما كان على ظهر الإنسان يعني لباسهم، فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئاً»، فصالحوه على ذلك.

قلت: ولهذا لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة، تبين أنه لا عهد لهم، فقتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب

نقض العهود منهم والمواثيق.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤/٢٢٩ - ٢٣١]: حدثني أبو الحسن علي بن محمد المقرئ الإسفراييني، حدثنا الحسن بن محمد بن إسحاق، حدثنا يوسف بن يعقوب، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا عبيد الله بن عمر - فيما يحسب أبو سلمة - عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء، ويخرجون منها، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، وكان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

فقال رسول الله ﷺ لعمِّ حُيي: «ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟» فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة ههنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، وأراد إجلاءهم منهما.

فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل، وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ.

وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم.

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. قال: فرأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: «ياصفية ما هذه الخضرة؟» فقالت: كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا نائمة فرأيت كأن قمراً وقع في حجري فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب؟ قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إليّ، قتل زوجي وأبي فما زال يعتذر إلي ويقول: «إن أباك ألب عليّ العرب» وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي.

وكان رسول الله ﷺ يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقاً من تمر كل عام، وعشرين وسقاً من شعير، فلما كان في زمان عمر غشوا المسلمين وألقوا ابن عمر من فوق بيت، ففدعوا يديه فقال عمر: من كان له سهم بخيبر فليحضر حتى نقسمها، فقسمها بينهم. فقال رئيسهم: لا تخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراني سقط عني قول رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً ثم يوماً؟». وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية.

وقد رواه أبو داود [٣٠٠٦] مختصراً من حديث حماد بن سلمة.

قال البيهقي [الدلائل: ٤/٢٣١]: عقله البخاري في كتابه فقال: ورواه حماد بن سلمة.

قلت: ولم أره في الأطراف فالله أعلم.

وقال أبو داود [٣٠٠٨]: حدثنا سليمان بن داود المهري، حدثنا ابن وهب، أخبرني أسامة بن زيد الليثي عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: لما فتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم على أن يعملوا على النصف مما خرج منها، فقال رسول الله ﷺ: «أقركم فيها على ذلك ما شئنا»، فكانوا على ذلك، وكان التمر يقسم على السهمان من نصف خيبر، ويأخذ رسول الله ﷺ الخمس، وكان أطعم كل امرأة من أزواجه من الخمس مائة وسق من تمر وعشرين وسقاً من شعير. فلما أراد عمر إخراج اليهود أرسل إلى أزواج النبي ﷺ فقال لهن: من أحب منكن أن أقسم لها نخلاً بخرصها مائة وسق فيكون لها أصلها وأرضها وماؤها، ومن الزرع مزرعة عشرين وسقاً من شعير فعلنا، ومن أحب أن نعزل الذي لها في الخمس كما هو فعلنا.

وقد روى أبو داود [٣٠٠٧] من حديث محمد بن إسحاق: حدثني نافع عن عبد الله بن عمر: أن عمر قال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أن يخرجهم إذا شاء، فمن كان له مال فليلحق به فإني مخرج يهود. فأخرجهم.

وقال البخاري [٤٢٢٩]: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن يونس، عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب: أن جبير بن مطعم أخبره قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة منك. فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد».

قال جبير بن مطعم: ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس وبني نوفل شيئاً.

تفرد به دون مسلم.

وفي لفظ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني هاشم وبني عبد المطلب شيء واحد، إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام».

قال الشافعي: دخلوا معهم في الشعب وناصروهم في إسلامهم وجاهليتهم.

قلت: وقد ذم أبو طالب بني عبد شمس وبني نوفل حيث يقول:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً عقوبة شرٍّ عاجلاً غير آجل

وقال البخاري [٤٢٢٨]: حدثنا الحسن بن إسحاق، حدثنا محمد بن سابق، حدثنا زائدة عن عبيد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر قال: قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهماً. قال: فسره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، وإن لم يكن معه فرس فله سهم.

وقال البخاري [٤٢٣٥]: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني زيد عن أبيه، أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر الناس بباناً ليس لهم شيء ما فتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ خيبر، ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها.

وقد رواه البخاري أيضاً [٤١٢٥] من حديث مالك وأبو داود [٣٠٢٠] عن أحمد بن حنبل، عن ابن مهدي عن مالك، عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر به.

وهذا السياق يقتضي أن خيبر بكمالها قسمت بين الغانمين.

وقد قال أبو داود [٣٠١٨]: حدثنا ابن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب قال: بلغني أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال.

وبهذا قال الزهري: خمس رسول الله ﷺ خيبر، ثم قسم سائرها على من شهدها.

وفيما قاله الزهري نظر، فإن الصحيح أن خيبر جميعها لم تقسم، وإنما قسم نصفها بين الغانمين كما سيأتي بيانه، وقد احتج بهذا مالك ومن تابعه على أن الإمام مخير في الأراضي المغنومة، إن شاء قسمها، وإن شاء أرصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم بعضها وأرصد بعضها لما ينوبه في الحاجات والمصالح.

قال أبو داود [٣٠١٠]: حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا، حدثني سفيان عن يحيى بن سعيد، عن بشير بن يسار، عن سهل بن أبي حثمة قال: قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين، نصفاً لنوائبه، ونصفاً بين المسلمين، قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً.

تفرد به أبو داود.

ثم رواه أبو داود [٣٠١٣] من حديث بشير بن يسار مرسلاً، فعين نصف النوائب الوطيح والكتيبة والسلالم وما حيز معها، ونصف المسلمين الشق والنطاة وما حيز معهما، وسهم رسول الله ﷺ فيما حيز معهما.

وقال أيضاً [د (٣٠١٣)]: حدثنا حسين بن علي، حدثنا محمد بن فضيل عن يحيى بن سعيد، عن بشير بن يسار مولى الأنصار، عن رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر فقسمها على ستة وثلاثين سهماً، جمع كل سهم مائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وعزل النصف الثاني لمن نزل به من الوفود والأمور ونوائب الناس.

تفرد به أبو داود.

قال أبو داود [٣٠١٥]: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا مجمع بن يعقوب بن مجمع بن يزيد الأنصاري، سمعت أبي يعقوب بن مجمع يقول عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري، عن عمه مجمع بن حارثة الأنصاري - وكان أحد القراء الذين قرؤوا القرآن - قال: قسمت خيبر على أهل الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً.

تفرد به أبو داود.

وقال مالك عن الزهري: أن سعيد بن المسيب أخبره أن النبي ﷺ افتتح بعض خيبر عنوة.

رواه أبو داود [٣٠١٧].

ثم قال أبو داود: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا شاهد أخبركم ابن وهب، حدثني مالك بن أنس عن ابن شهاب، أن خيبر بعضها كان عنوة، وبعضها صلحاً، والكتيبة أكثرها عنوة وفيها صلح.

قلت لمالك: وما الكتيبة؟ قال: أرض خيبر وهي أربعون ألف عذق.

قال أبو داود: والعذق: النخلة. والعذق: العرجون.

ولهذا قال البخاري [٤٢٤٢]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، حدثنا عمارة عن عكرمة، عن عائشة قالت: فلما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر.

حدثنا [خ (٤٢٤٣)] الحسن، حدثنا قرة بن حبيب، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه، عن ابن عمر قال: ما شبعنا - يعني من التمر - حتى فتحنا خيبر.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٩/٢، ٣٥٠]: كانت الشق والنطاة في سهمان المسلمين، الشق ثلاثة عشر سهماً، ونطاة خمسة أسهم، قسم الجميع على ألف وثمانمائة سهم، ودفع ذلك إلى من شهد الحديبية من حضر خيبر ومن غاب عنها، ولم يغب عن خيبر ممن شهد الحديبية إلا جابر بن عبد الله، فضرب له بسهمه.

قال: وكان أهل الحديبية ألفاً وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فصرف إلى كل مائة رجل سهم من ثمانية عشر سهماً، وزيد المائتا فارس أربعمائة سهم لخيولهم.

وهكذا رواه البيهقي من طريق سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد عن صالح بن كيسان: أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة ومائتا فرس.

قلت: وضرب رسول الله ﷺ معهم بسهم، وكان أول سهم من سهمان الشق مع عاصم بن عدي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٩/٢ - ٣٥٧]: وكانت الكتيبة خمساً لله تعالى، وسهم النبي ﷺ، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطعمة أزواج النبي ﷺ، وطعمة أقوام مشوا في صلح أهل فدك، منهم محيصة بن مسعود، أقطعه رسول الله ﷺ ثلاثين وسقاً من تمر، وثلاثين وسقاً من شعير.

قال: وكان واديا اللذان قسمت عليه يقال لهما: وادي السرير ووادي خاص.

ثم ذكر ابن إسحاق تفاصيل الإقطاعات منها، فأجاد وأفاد رحمه الله.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٥٧/٢]: وكان الذي ولي قسمتها وحسابها جبار بن صخر بن أمية بن خنساء أخو بني سلمة، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما.

قلت: وكان الأمير على خرص نخيل خيبر عبد الله بن رواحة فخرصها سنتين، ثم لما قتل ﷺ - كما سيأتي في يوم مؤتة - ولي بعده جبار بن صخر ﷺ.

وقد قال البخاري [٤٢٤٤]: حدثنا إسماعيل، حدثني مالك عن عبدالمجيد بن سهيل، عن سعيد بن المسيب، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أكل تمر خيبر هكذا؟» قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال: «لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً».

قال البخاري [٤٢٤٦]: وقال الدراوردي عن عبد المجيد، عن سعيد بن المسيب: أن أبا سعيد وأبا هريرة حدثاه: أن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي من الأنصار إلى خيبر وأمره عليها، وعن عبد المجيد عن أبي صالح السمان، عن أبي سعيد وأبي هريرة مثله.

قلت: كان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين مما قسم بخيبر وفدك بكمالها - وهي طائفة كبيرة من أرض خيبر، نزلوا من شدة رعبهم منه صلوات الله وسلامه عليه فصالحوه - وأموال بني النضير المتقدم ذكرها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة، ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله يصرفه في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه اعتقدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ - أو أكثرهن - أن

هذه الأراضي تكون موروثة عنه، ولم يبلغهن ما ثبت عنه من قوله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة» ولما طلبت فاطمة وأزواج النبي ﷺ والعباس نصيبهم من ذلك، وسألوا الصديق أن يسلمه إليهم، ذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» وقال: أنا أعول من كان يعول رسول الله ﷺ، والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي. وصدق رضي الله عنه وأرضاه، فإنه البار الراشد في ذلك التابع للحق، وطلب العباس وعلي - على لسان فاطمة إذ قد فاتهم الميراث - أن ينظرا في هذه الصدقة، وأن يصرفا ذلك في المصارف التي كان النبي ﷺ يصرفها فيها، فأبى عليهم الصديق ذلك، ورأى أن حقاً عليه أن يقوم فيما كان يقوم فيه رسول الله ﷺ، وأن لا يخرج من مسلكه ولا عن سننه.

فتغضبت فاطمة رضي الله عنها عليه في ذلك، ووجدت في نفسها بعض الموجدة، ولم يكن لها ذلك. والصديق من قد عرفت هي والمسلمون محله ومنزلته من رسول الله ﷺ، وقيامه في نصرة النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، فجزاه الله عن نبيه وعن الإسلام وأهله خيراً، وتوفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر، ثم جدد علي البيعة بعد ذلك.

فلما كان أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوض أمر هذه الصدقة إلى علي والعباس، وثقلوا عليه بجماعة من سادات الصحابة، ففعل عمر رضي الله عنه ذلك، وذلك لكثرة أشغاله واتساع مملكته وامتداد رعيته، فتغلب على علي عمه العباس فيها، ثم تساوقا يختصمان إلى عمر، وقدما بين أيديهما جماعة من الصحابة، وسألا منه أن يقسمها بينهما، فينظر كل منهما فيما لا ينظر فيه الآخر.

فامتنع عمر من ذلك أشد الامتناع، وخشي أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث، وقال: انظرا فيها وأنتما جميع فإن عجزتما عنها فادفعاها إلي، والذي تقوم السماء والأرض بأمره لا أقضي فيها قضاء غير هذا. فاستمرا فيها ومن بعدهما من ولدهما إلى أيام بني العباس، تصرف في المصارف التي كان رسول الله ﷺ يصرفها فيها، أموال بني النضير وفدك وسهم رسول الله ﷺ من خيبر.

سنة ٧- توزيع الأسهم في خيبر

وأما من شهد خيبر من العبيد والنساء فرضخ لهم رسول الله ﷺ شيئاً من الغنيمة ولم يسهم لهم.

قال أبو داود [٢٧٣٠]: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا بشر بن المفضل عن محمد بن زيد، حدثني عمير مولى آبي اللحم قال: شهدت خيبر مع سادتي فكلموا في رسول الله ﷺ، فأمر بي فقلدت سيفاً، فإذا أنا أجره، فأخبر أني مملوك، فأمر لي بشيء من خُرْثيّ المتاع.

ورواه الترمذي [١٥٥٧] والنسائي [٧٥٣٥] جميعاً عن قتيبة عن بشر بن المفضل به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه ابن ماجه [٢٨٥٥] عن علي بن محمد عن وكيع عن هشام بن سعد عن محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ عن عمير به.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٢/٢]: وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء، فرضخ لهن ولم يضرب لهن بسهم. حدثني سليمان بن سحيم عن أمية بنت أبي الصلت، عن امرأة من بني غفار قد سماها لي قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار، فقلنا: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: «على بركة الله». قالت: فخرجنا معه، قالت: وكنت جارية حدثة السن، فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ، ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني، وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «مالك؟ لعلك نفست» قالت: قلت: نعم، قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها، وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً. وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها.

قالت: وكانت لا تطهر من حيضها إلا جعلت في طهورها ملحاً، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٣٨٠/٦] وأبو داود [٣١٣] من حديث محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي في «أطرافه» [تحفة الأشراف: ١٢٣/١٣]: ورواه الواقدي [المغازي: ٦٨٥/٢، ٦٨٦] عن أبي بكر بن أبي سبرة، عن سليمان بن سحيم عن أم علي بنت أبي الحكم، عن أمية بنت أبي الصلت عن النبي ﷺ به.

وقال الإمام أحمد [٣٧١/٦]: حدثنا حسن بن موسى: حدثنا رافع بن سلمة الأشجعي، حدثني حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خيبر وأنا سادسة ست نسوة، قالت: فبلغ النبي ﷺ أن معه نساء، قالت: فأرسل إلينا فدعانا. قالت: فرأينا في وجهه الغضب فقال: «ما أخرجكن وبأمر من خرجتن؟» قلنا: خرجنا نناول السهام، ونسقي السويق، ومعنا دواء للجرحى، ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله، قال: «قمن فانصرفن»، قالت: فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاماً كسهام الرجال، فقلت لها: يا جدة وما الذي أخرج لكن؟ قالت: «تمراً».

قلت: إنما أعطاهن من الحاصل، فأما أنه أسهم لهن في الأرض كسهام الرجال فلا! والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٤٢/٤، ٢٤٣]: وفي كتابي عن أبي عبد الله الحافظ: أن عبد الله الأصبهاني أخبره حدثنا الحسين بن الجهم، حدثنا الحسين بن الفرج، حدثنا الواقدي، حدثني عبد السلام بن موسى بن جبير، عن أبيه عن جده، عن عبد الله بن أنيس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ومعي زوجتي وهي حبلى فنفست في الطريق، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال لي: «انقع لها تمراً فإذا انغمر بَلَّه فامرثه لتشربه» ففعلت، فما رأت شيئاً تكرهه، فلما فتحنا خيبر أجدى النساء ولم يسهم لهن، فأجدى زوجتي وولدي الذي ولد. قال عبد السلام: لست أدري غلام أو جارية.

سنة ٧- قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة

قال البخاري [٤٢٣٠ ـ ٤٢٣٢]: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، حدثنا بريد بن عبدالله بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهم أبو بردة والآخر أبو رهم - إما قال: في بضع وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي - فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فكان أناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة - سبقناكم بالهجرة.

ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر: حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت للنبي ﷺ وأسأله، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا قال: «فما قلت له؟» قالت: قلت كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني.

وقال أبو بردة عن أبي موسى قال النبي ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم إذا لقي العدو - أو قال: الخيل - قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم» [خ (٤٢٣٢)].

وهكذا رواه مسلم [٢٥٠٢، ٢٥٠٣] عن أبي كريب وعبد الله بن براد عن أبي أسامة به.

ثم قال البخاري [٤٢٣٣]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قدمنا على النبي ﷺ بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا.

تفرد به البخاري دون مسلم.

ورواه أبو داود [٢٧٢٥] والترمذي [١٥٥٩] وصححه من حديث بريد به.

وقد ذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٩/٢] أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي يطلب منه من بقي من أصحابه بالحبشة، فقدموا صحبة جعفر، وقد فتح النبي ﷺ خيبر، قال ابن هشام: وذكر سفيان بن عيينة عن الأجلح عن الشعبي: أن جعفر بن أبي طالب قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر».

وهكذا رواه سفيان الثوري عن الأجلح عن الشعبي مرسلاً.

وأسند البيهقي [الدلائل: ٢٤٦/٤] من طريق حسن بن حسين العُرَني عن الأجلح عن الشعبي عن جابر قال: لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر قدم جعفر من الحبشة، فلتقاه وقبل جبهته، وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر».

ثم قال: البيهقي [الدلائل: ٢٤٦/٤]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو الحسين بن أبي إسماعيل العلوي، حدثنا أحمد بن محمد البيروتي، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي طيبة، حدثني مكي بن إبراهيم الرعيني، حدثنا سفيان الثوري عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة، تلقاه رسول الله ﷺ، فلما نظر جعفر إليه حجل - قال مكي: يعني مشى على رجل واحدة إعظاماً لرسول الله ﷺ - فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه.

ثم قال البيهقي: في إسناده من لا يعرف إلى الثوري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٩/٢ ـ ٣٦٢]: وكان الذين تأخروا مع جعفر من أهل مكة إلى أن قدموا معه خيبر ستة عشر رجلاً، وسرد أسماءهم وأسماء نسائهم وهم: جعفر بن أبي طالب الهاشمي، وامرأته أسماء بنت عميس، وابنه عبد الله ولد بالحبشة، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وامرأته أُمينة بنت خلف بن أسعد، وولداه سعيد، وأمه بنت خالد ولدا بأرض الحبشة، وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص، ومعيقيب بن أبي فاطمة وكان إلى آل سعيد بن العاص، قال: وأبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس حليف آل عتبة بن ربيعة، وأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد الأسدي، وجهم بن قيس بن عبد شرحبيل العبدري، وقد ماتت امرأته أم حرملة بنت عبد الأسود بأرض الحبشة، وابنه عمرو، وابنته خزيمة ماتا بها رحمهم الله، وعامر بن أبي وقاص الزهري، وعتبة بن مسعود حليف لهم من هذيل، والحارث بن خالد بن صخر التيمي، وقد هلكت بها امرأته ريطة بنت الحارث رحمها الله، وعثمان بن ربيعة بن أهبان الجمحي، ومحمية بن جزء الزبيدي حليف بني سهم، ومعمر بن عبد الله بن نضلة العدوي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس، ومالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس العامريان، ومع مالك هذا امرأته عمرة بنت السعدي، والحارث بن عبد قيس بن لقيط الفهري..

قلت: ولم يذكر ابن إسحاق أسماء الأشعريين الذين كانوا مع أبي موسى الأشعري، وأخويه أبا بردة وأبا رهم وعمه أبا عامر، بل لم يذكر من الأشعريين غير أبي موسى، ولم يتعرض لذكر أخويه وهما أسن منه كما تقدم في «صحيح البخاري». وكأن ابن إسحاق رحمه الله لم يطلع على حديث أبي موسى في ذلك والله أعلم.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦٢/٢]: وقد كان معهم في السفينتين نساء من نساء من هلك من المسلمين هنالك، وقد حرر ههنا شيئاً كثيراً حسناً.

قال البخاري [٤٢٣٧]: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان سمعت الزهري وسأله إسماعيل بن أمية قال: أخبرني عنبسة بن سعيد أن أبا هريرة

أتى رسول الله ﷺ فسأله - يعني أن يقسم له - فقال بعض بني سعيد بن العاص: لا تعطه! فقال أبو هريرة: هذا قاتل ابن قوقل فقال: واعجبا لوبر تدلى من قدوم الضأن. تفرد به دون مسلم.

قال البخاري [٤٢٣٨]: ويذكر عن الزبيدي عن الزهري أخبرني عنبسة بن سعيد أنه سمع أبا هريرة يخبر سعيد بن العاص قال: بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة قبل نجد، قال أبو هريرة: فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعد ما افتتحها، وإن حزم خيلهم لليف.

قال أبو هريرة: فقلت: يا رسول الله لا تقسم لهم، فقال أبان: وأنت بهذا يا وبر تحدر من رأس ضأل؟ فقال النبي ﷺ: «يا أبان اجلس» ولم يقسم لهم.

وقد أسند أبو داود [٢٧٢٣] هذا الحديث عن سعيد بن منصور، عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن الوليد الزبيدي به نحوه.

ثم قال البخاري [٤٢٣٩]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد، أخبرني جدي - وهو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص -: أن أبان بن سعيد أقبل إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال أبو هريرة: يا رسول الله هذا قاتل ابن قوقل، فقال أبان لأبي هريرة: واعجباً لك وبر تردى من قدوم ضال، تنعى علي امرءاً أكرمه الله بيدي، ومنعه أن يهينني بيده؟ هكذا رواه منفرداً به ههنا.

وقال [خ (٢٨٢٧)] في الجهاد: حدثنا الحميدي عن سفيان عن الزهري عن عنبسة بن سعيد، عن أبي هريرة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعد ما افتتحها، فقلت: يا رسول الله أسهم لي، فقال بعض آل سعيد بن العاص: لا تقسم له، فقلت: يا رسول الله هذا قاتل ابن قوقل الحديث.

قال سفيان: حدثنيه السعيدي - يعني عمرو بن يحيى بن سعيد - عن جده عن أبي هريرة بهذا.

ففي هذا الحديث التصريح من أبي هريرة بأنه لم يشهد خيبر، وتقدم في أول هذه الغزوة. رواه الإمام أحمد [٣٤٥/٢، ٣٤٦] من طريق عراك بن مالك عن أبي هريرة، وأنه قدم على رسول الله ﷺ بعد ما افتتح خيبر، فكلم المسلمين فأشركونا في أسهامهم.

وقال الإمام أحمد [٥٣٥/٢]: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن عمار بن أبي عمار قال: قال أبو هريرة: ما شهدت مع رسول الله ﷺ مغنماً قط إلا قسم لي، إلا خيبر فإنها كانت لأهل الحديبية خاصة.

قلت: وكان أبو هريرة وأبو موسى جاءا بين الحديبية وخيبر.

وقد قال البخاري [٤٢٣٤]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق عن مالك بن أنس، حدثني ثور، حدثني سالم مولى عبد الله بن مطيع أنه سمع أبا هريرة يقول: افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبد له يقال له: مدعم، أهداه له بعض بني الضبيب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ، إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد. فقال الناس: هنيئاً له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً» فجاء رجل حين سمع ذلك من رسول الله ﷺ بشراك أو شراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار».

سنة ٧- قصة الشاة المسمومة

قال البخاري: رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ. ثم قال [٤٢٤٩]: حدثنا عبدالله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني سعيد عن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُم. هكذا أورده ههنا مختصراً.

وقد قال الإمام أحمد [٤٥١/٢]: حدثنا حجاج، حدثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود» فجمعوا له فقال رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان» قالوا: صدقت وبررت فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «والله لا نخلفكم فيها أبداً»، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقي عن شيء سألتكم؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟» فقالوا: نعم! قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

وقد رواه البخاري [٣١٦٩] في الجزية عن عبد الله بن يوسف، وفي المغازي أيضاً [٥٧٧٧] عن قتيبة كلاهما عن الليث به.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٥٩/٤، ٢٦٠]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس الأصم حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين، عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن امرأة من اليهود أهدت لرسول الله ﷺ شاة مسمومة، فقال لأصحابه: «أمسكوا فإنها مسمومة» وقال لها: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك. قال: فما عرض لها رسول الله ﷺ.

رواه أبو داود [٤٥٠٩] عن هارون بن عبد الله عن سعيد بن سليمان به.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢٦٠/٤] عن طريق عبد الملك بن أبي نضرة، عن أبيه عن جابر بن عبد الله نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد [٣٠٥/١، ٣٠٦]: حدثنا سُريج، حدثنا عباد عن هلال - هو ابن خباب - عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة من اليهود أهدت لرسول الله ﷺ شاة مسمومة فأرسل إليها فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: أحببت - أو أردت - إن كنت نبياً فإن الله سيطلعك عليه، وإن لم تكن نبياً أريح الناس منك. قال: فكان رسول الله ﷺ إذا وجد من ذلك شيئاً احتجم، قال: فسافر مرة، فلما أحرم وجد من ذلك شيئاً فاحتجم.

تفرد به أحمد وإسناده حسن.

وفي «الصحيحين» [خ (٢٦١٧)، م (٢١٩٠)] من حديث شعبة عن هشام بن زيد عن أنس بن مالك: أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك. قالت: أردت لأقتلك. فقال: «ما كان الله ليسلطك علي» أو قال: «على

ذلك» قالوا: ألا نقتلها قال: «لا» قال أنس: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وقال أبو داود [٤٥١٠]: حدثنا سليمان بن داود المهري، حدثنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب قال: كان جابر بن عبد الله يحدث أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم».

وأرسل رسول الله ﷺ إلى المرأة فدعاها فقال لها: «أسممت هذه الشاة؟» قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه التي في يدي» وهي الذراع، قالت: نعم قال: «فما أردت بذلك؟» قالت: قلت إن كنت نبياً فلن تضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك. فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم النبي ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقرن والشفرة، وهو مولى لبني بياضة من الأنصار.

ثم قال أبو داود [٤٥١١]: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ أهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية. نحو حديث جابر، قال: فمات بشر بن البراء بن معرور، فأرسل إلى اليهودية فقال: «ما حملك على الذي صنعت؟» فذكر نحو حديث جابر، فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت، ولم يذكر أمر الحجامة.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٦٢/٤، ٢٦٣]: ورويناه من حديث حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة. قال: ويحتمل أنه لم يقتلها في الابتداء، ثم لما مات بشر بن البراء أمر بقتلها.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٦٠/٤، ٢٦١] من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن امرأة يهودية أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية بخيبر فقال: «ما هذه؟» قالت: هدية، وحذرت أن تقول: صدقة فلا يأكل، قال: فأكل وأصحابه ثم قال: «أمسكوا» ثم قال للمرأة: «هل سممت هذه الشاة؟» قالت: من أخبرك هذا؟ قال: «هذا العظم» لساقها وهو في يده، قالت: نعم قال: «لم؟» قالت: أردت إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم رسول الله ﷺ على الكاهل، وأمر أصحابه فاحتجموا. ومات بعضهم.

قال الزهري: فأسلمت فتركها النبي ﷺ.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٦٢/٤]: هذا مرسل، ولعله قد يكون عبد الرحمن حمله عن جابر بن عبد الله ﷺ.

وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة، وكذلك موسى بن عقبة عن الزهري قالوا: لما فتح رسول الله ﷺ خيبر وقتل منهم من قتل، أهدت زينب بنت الحارث اليهودية - وهي ابنة أخي مرحب - لصفية شاة مصلية وسمتها، وأكثرت في الكتف والذراع، لأنه بلغها أنه أحب أعضاء الشاة إلى رسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور، وهو أحد بني سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله ﷺ الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً فانتهش منه، فلما استرط رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر بن البراء ما في فيه، فقال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أني نعيت فيها» فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمتك أن أنغصك طعامك، فلما أسغت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نعي، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان، وماطله وجعه حتى كان لا يتحول حتى يُحوَّل.

قال الزهري: قال جابر: واحتجم رسول الله ﷺ يومئذ، حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة وبقي رسول الله ﷺ بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال: «مازلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عداداً حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٧/٢، ٣٣٨]: فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية، وقد سألت: أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع. فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم» ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟» قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان كذاباً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٨/٢]: وحدثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد بن المعلى قال: كان رسول الله ﷺ قد قال في مرضه الذي توفي فيه - ودخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور -: «يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر».

قال ابن هشام: الأبهر: العرق المعلق بالقلب، قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ٢٤٢٤]: حدثنا هلال بن بشر وسليمان بن سيف الحراني قالا: حدثنا أبو عتّاب سهل بن حماد، حدثنا عبد الملك بن أبي نضرة، عن أبيه عن أبي سعيد الخدري: أن يهودية أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة سميطاً، فلما بسط القوم أيديهم قال رسول الله ﷺ: «أمسكوا فإن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة» فأرسل إلى صاحبتها: «أسممت طعامك؟» قالت: نعم قال: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أحببت إن كنت كاذباً أن أريح الناس منك، وإن كنت صادقاً علمت أن الله سيطلعك عليه. فبسط يده وقال: «كلوا بسم الله» قال: فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم يضر أحداً منا. ثم قال: لا يروى عن عبد الملك بن أبي نضرة إلا من هذا الوجه.

قلت: وفيه نكارة وغرابة شديدة والله أعلم.

وذكر الواقدي [المغازي: ٦٧٥/٢، ٦٧٦]: أن عيينة بن حصن قبل أن يسلم رأى في منامه رؤيا ورسول الله ﷺ محاصر خيبر، فطمع من رؤياه أن يقاتل رسول الله ﷺ فيظفر به، فلما قدم على رسول الله ﷺ خيبر وجده قد افتتحها، فقال: يا محمد اعطني ما غنمت من حلفائي - يعني أهل خيبر - فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت رؤياك» وأخبره بما رأى، فرجع عيينة فلقيه الحارث بن عوف فقال: ألم أقل إنك توضع في غير شيء؟ والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، وإن يهود كانوا يخبروننا بهذا، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، إنه لمرسل، ويهود لا تطاوعني على

هذا، ولنا منه ذبحان، واحد بيثرب وآخر بخيبر، قال الحارث: قلت لسلام يملك الأرض؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحب أن تعلم يهود بقولي فيه.

سنة ٧- بناء النبي ﷺ بصفية، وأخبار أخرى في خيبر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٣٨/٢، ٣٣٩]: فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهلها ليالي، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة. ثم ذكر من قصة مدعم وكيف جاءه سهم غارب فقتله، وقال الناس: هنيئاً له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً».

وقد تقدم في «صحيح البخاري» [٤٢٣٤] نحو ما ذكره ابن إسحاق والله أعلم. وسيأتي ذكر قتاله عليه السلام بوادي القرى.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان، عن أبي عمرة عن زيد بن خالد الجهني: أن رجلاً من أشجع من أصحاب رسول الله ﷺ توفي يوم خيبر، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغير وجوه الناس من ذلك، فقال: «إن صاحبكم غلّ في سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود ما يساوي درهمين.

وهكذا رواه أبو داود [٢٧١٠] والنسائي [١٩٥٨] من حديث يحيى بن سعيد القطان - زاد أبو داود: وبشر بن المفضل - وابن ماجه [٢٨٤٨] من حديث الليث بن سعد ثلاثتهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري به.

وقد ذكر البيهقي [الدلائل: ٢٤٨/٤، ٢٤٩] أن بني فزارة أرادوا أن يقاتلوا رسول الله ﷺ مرجعه من خيبر وتجمعوا لذلك، فبعث إليهم يواعدهم موضعاً معيناً، فلما تحققوا ذلك هربوا كل مهرب، وذهبوا من طريقه كل مذهب، وتقدم أن رسول الله ﷺ لما حلت صفية من استبرائها دخل بها بمكان يقال له: سد الصهباء في أثناء طريقه إلى المدينة، وأولم عليها بحيس، وأقام ثلاثة أيام يبنى عليه بها، وأسلمت فأعتقها وتزوجها وجعل عتاقها صداقها، وكانت إحدى أمهات المؤمنين كما فهمه الصحابة لما مد عليها الحجاب وهو مردفها وراءه رضي الله عنها.

وذكر محمد بن إسحاق في «السيرة» [سيرة ابن هشام: ٣٣٩/٢، ٣٤٠] قال: لما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر - أو ببعض الطريق - وكانت التي جلتها إلى رسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، وبات بها رسول الله ﷺ في قبة له، وبات أبو أيوب متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة حتى أصبح، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانه قال: «مالك يا أبا أيوب؟» قال: خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

ثم قال [سيرة ابن هشام: ٣٤٠/٢]: حدثني الزهري عن سعيد بن المسيب فذكر نومهم عن صلاة الصبح مرجعهم من خيبر، وأن رسول الله ﷺ كان أولهم استيقاظاً، فقال: «ماذا صنعت بنا يا بلال؟» قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: «صدقت» ثم اقتاد ناقته غير كثير، ثم نزل فتوضأ وصلى كما كان يصليها قبل ذلك.

وهكذا رواه مالك عن الزهري عن سعيد مرسلاً [الموطأ: ٢٥]، وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقد قال أبو داود [٤٣٥]: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، فسار ليلة حتى إذا أدركنا الكرى عرس وقال لبلال: «اكلأ لنا الليل» قال: فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ النبي ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، وكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظا، ففزع رسول الله ﷺ وقال: «يابلال» قال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: فاقتادوا رواحلهم شيئاً ثم توضأ رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فأقام لهم الصلاة وصلى بهم الصبح، فلما أن قضى الصلاة قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه: ١٤]».

قال يونس: وكان ابن شهاب يقرأها كذلك.

وهكذا رواه مسلم [٦٨٠] عن حرملة بن يحيى، عن عبد الله بن وهب به. وفيه أن ذلك كان مرجعهم من خيبر.

وفي حديث شعبة عن جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة عن ابن مسعود: أن ذلك كان مرجعهم من الحديبية، ففي رواية عنه [د (٤٤٧)، س (٨٨٥٣)، المسند ٣٨٦/١] أن بلالاً هو الذي كان يكلؤهم.

وفي رواية [المسند ٣٩١/١، س (٨٨٥٤)] أنه هو الذي كان يكلؤهم.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٧٥/٤]: فيحتمل أن ذلك كان مرتين. قال: وفي حديث عمران بن حصين وأبي قتادة: نومهم عن الصلاة. وفيه حديث الميضأة، فيحتمل أن ذلك إحدى هاتين المرتين أو مرة ثالثة.

قال: وذكر الواقدي في حديث أبي قتادة أن ذلك كان مرجعهم من غزوة تبوك.

قال: وروى زافر بن سليمان عن شعبة عن جامع بن شداد، عن عبد الرحمن عن ابن مسعود: أن ذلك كان مرجعهم من تبوك فالله أعلم.

ثم أورد البيهقي [الدلائل: ٢٧٧/٤ - ٢٧٩] ما رواه صاحب «الصحيح» [خ (٣٤٤)] من قصة عوف الأعرابي عن أبي رجاء عن عمران بن حصين في قصة نومهم عن الصلاة وقصة المرأة صاحبة السطيحتين، وكيف أخذوا منهما ماء روى الجيش بكماله، ولم ينقص ذلك منه شيئاً.

ثم ذكر ما رواه مسلم [٦٨١] من حديث ثابت البناني عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة وهو حديث طويل وفيه نومهم عن الصلاة وتكثير الماء من تلك الميضأة.

وقد رواه عبد الرزاق [المصنف: ٢٠٥٣٨] عن معمر عن قتادة.

وقال البخاري [٤٢٠٥]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد عن عاصم، عن أبي عثمان عن أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ - أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال: «يا عبد الله بن قيس» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «ألا

ادلك على كلمة من كنز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمي قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقد رواه بقية الجماعة [م (٢٧٠٤)، د (١٥٢٦ ـ ١٥٢٨)، ت (٣٤٦١)، س (٧٦٧٩ ـ ٧٦٨١، ٨٨٢٣، ٨٨٢٤، ١٠٣٧١، ١٠٣٧٢، ١١٤٢٧)، ج (٣٨٢٤)] من طرق عن عبد الرحمن بن مل أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري.

والصواب أنه كان مرجعهم من خيبر فإن أبا موسى إنما قدم بعد فتح خيبر كما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٠/٢، ٣٤١]: وكان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ قد أعطى ابن لقيم العبسي حين افتتح خيبر ما بها من دجاجة أو داجن، وكان فتح خيبر في صفر، فقال ابن لقيم في فتح خيبر:

رُميتْ نطاة من الرسول بفيلق ... شهباء ذات مناكب وفقار
واستيقنت بالذل لما شُيعت ... ورجال أسلم وسطها وغفار
صبحت بني عمرو بن زرعة غدوة ... والشق أظلم أهله بنهار
جرَّت بأبطحها الذيول فلم تدع ... إلا الدجاج تصيح بالأسحار
ولكل حصن شاغل من خيلهم ... من عبد الأشهل أو بني النجار
ومهاجرين قد أعلموا سيماهم ... فوق المغافر لم ينوا لفرار
ولقد علمت ليغلبن محمد ... وليثوين بها إلى أصفار
فرت يهود عند ذلك في الوغى ... تحت العجاج غمائم الأبصار

سنة ٧- من استشهد بخيبر من الصحابة

فصل من استشهد بخيبر من الصحابة على ما ذكره ابن إسحاق بن يسار رحمه الله وغيره من أصحاب المغازي [سيرة ابن هشام: ٣٤٣/٢، ٣٤٤] رضي الله عنهم

فمن خير المهاجرين: ربيعة بن أكثم بن سخبرة الأسدي مولى بني أمية، وثقيف بن عمرو ورفاعة بن مسروح حلفاء بني أمية، وعبد الله بن الهبيب بن أهيب بن سحيم بن غيرة من بني سعد بن ليث حليف بني أسد وابن أختهم.

ومن الأنصار: بشر بن البراء بن معرور من أكلة الشاة المسمومة مع رسول الله ﷺ كما تقدم، وفضيل بن النعمان السلمياني، ومسعود بن سعد بن قيس بن خلده بن عامر بن زريق الزرقي، ومحمود بن مسلمة الأشهلي، وأبو ضياح بن ثابت بن النعمان العمري، والحارث بن حاطب، وعروة بن مرة بن سراقة، وأوس الفائد وأنيف بن حبيب، وثابت بن أثلة وطلحة، وعمارة بن عقبة رمي بسهم فقتله، وعامر بن الأكوع أصابه طرف سيفه في ركبته فقتله رحمه الله كما تقدم، والأسود الراعي. وقد أفرد ابن إسحاق ههنا قصته وقد أسلفناها في أوائل الغزوة ولله الحمد والمنة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٤/٢]: وممن استشهد بخيبر ـ فيما ذكره ابن شهاب ـ من بني زهرة: مسعود بن ربيعة حليف لهم من القارة، ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف أوس بن قتادة رضي الله عنهم أجمعين.

سنة ٧- خبر الحجاج بن علاط البهزي رضي الله عنه

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٥/٢ ـ ٣٤٧]: ولما فتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ الحجاج بن علاط السلمي ثم البهزي فقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ـ وكانت عنده له منها معرِّض بن الحجاج ـ ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة، فأذن لي يا رسول الله، فأذن له فقال: إنه لابد لي يا رسول الله من أن أقول، قال: «قل»، قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان، فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط ـ قال: ولم يكونوا علموا بإسلامي ـ عنده والله الخبر أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز.

قال: قلت: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فالتبطوا بجنبي ناقتي يقولون: إيه يا حجاج. قال: قلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقد قتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأُسر محمد أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة، وعلى غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك.

قال: فقاموا فجمعوا لي ما كان لي كأحث جمع سمعت به، قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي ـ وكان عندها مال موضوع ـ فلعلي ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار، قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيم التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك حفظ لما وضعت عندك؟ قال: نعم! قال: قلت: فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى أفرغ، قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس فقلت: احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت قال: أفعل قلت: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم ـ يعني صفية بنت حيي ـ وقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه.

قال: ما تقول يا حجاج؟! قال: قلت: أي والله فاكتم عني ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي فرقاً من أن اغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب، قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له، وتخلق وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة! قال: كلا والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبحت له ولأصحابه! قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه، فقالوا: يالعباد الله انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، قال: ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.

هكذا ذكر ابن إسحاق هذه القصة منقطعة.

وقد أسند ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال [١٣٨/٣، ١٣٩]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، سمعت ثابتاً يحدث عن أنس قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم أفأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء. فأتى امرأته حين قدم فقال: اجمعي لي ما كان عندك فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم، قال: وفشى ذلك بمكة فانقمع المسلمون وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس فعقر، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يقال له: قثم واستلقى ووضعه على صدره وهو يقول:

حَـي قُثَـمْ حـيٌ قُثَـمْ
شَبيه ذي الأنـف الأشَـمْ
نَـبيٌ ذي النِّعَـمْ
يُرغـمُ مَـن رغـمْ

قال ثابت عن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج بن علاط: ويلك ما جئت به، وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، فقال الحجاج بن علاط لغلامه: أقرئ على أبي الفضل السلام، وقل له: فليخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاء غلامه فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحاً حتى قبل بين عينيه، فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه، قال: ثم جاءه الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي واتخذها لنفسه، وخيرها أن يعتقها وتكون زوجه أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته.

قال: ولكني جئت لمال كان ههنا أردت أن اجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف علي ثلاثاً ثم اذكر ما بدا لك. قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعته ودفعته إليه، ثم استمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزنك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل لا يخزني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسوله، وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقاً. قال: فإني صادق والأمر على ما أخبرتك، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال: لم يصبني إلا خير بحمد الله.

أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها الله على رسوله، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن اخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتى العباس فأخبرهم الخبر، فسر المسلمون ورد الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

وهذا الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي [٨٦٤٦] عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق به نحوه.

ورواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٦٨/٤] من طريق محمود بن غيلان عن عبد الرزاق.

ورواه أيضاً [البيهقي في الدلائل: ٢٦٦/٤، ٢٦٧] من طريق يعقوب بن سفيان عن زيد بن المبارك عن محمد بن ثور عن معمر به نحوه.

وكذلك ذكر موسى بن عقبة في «مغازيه» أن قريشاً كان بينهم تراهن عظيم وتبايع، منهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه، ومنهم من يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر، وكان الحجاج بن علاط السلمي ثم البهزي قد أسلم وشهد مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، وكان تحته أم شيبة أخت بني عبد الدار بن قصي، وكان الحجاج مكثراً من المال، وكانت له معادن أرض بني سليم، فلما ظهر رسول الله ﷺ على خيبر استأذن الحجاج رسول الله ﷺ في الذهاب إلى مكة يجمع أمواله فأذن له فذكر نحو ما تقدم والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٤٧/٢]: ومما قيل من الشعر في غزوة خيبر قول حسان: [ديوان حسان: ٢٥٠]

بئس ما قاتلت خيابر عما ... جمعوا من مزارع ونخيل
كرهوا الموت فاستبيح حماهم ... وأقروا فعل اللئيم الذليل
أمِنَ الموت يهربون فإن المو ... ت موت الهزال غير جميل

وقال كعب بن مالك فيما ذكره ابن هشام [السيرة: ٣٤٨/٢، ٣٤٩] عن أبي زيد الأنصاري:

ونحن وردنا خيبراً وفروضه ... بكل فتى عاري الأشاجع مذود
جواد لدى الغايات لا واهن القوى ... جريء على الأعداء في كل مشهد
عظيم رماد القدر في كل شتوة ... ضروب بنصل المشرفي المهند
يرى القتل مدحاً إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها وفوزاً بأحمد
يذود ويحمي عن ذمار محمد ... ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريبه ... يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالإنباء بالغيب مخلصاً ... يريد بذاك العز والفوز في غد

سنة ٧- مروره عليه السلام بوادي القُرى ومحاصرته قوما من اليهود ومصالحة يهود تيماء

قال الواقدي [المغازي: ٧٠٩/٢، ٧١٠]: حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجذامي قد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له: مدعم وكان يرحل لرسول الله ﷺ، فلما نزلنا بوادي القرى انتهينا إلى يهود، وقدم إليها ناس من العرب، فبينا مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ وقد استقبلتنا يهود بالرمي حين نزلنا ولم نكن على تعبية، وهم يصيحون في آطامهم، فيقبل سهم عائر فأصاب مدعماً فقتله، فقال الناس: هنيئاً له بالجنة. فقال النبي ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً».

فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بشراك أو شراكين. فقال النبي ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار».

وهذا الحديث في «الصحيحين» [خ (٤٢٣٤)، م (١١٥)] من حديث مالك عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

قال الواقدي [المغازي: ٧١/٢، ٧١]: فعبى رسول اللّه ﷺ للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على اللّه، قال: فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه عليّ فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً كلما قتل منهم رجل دعا من بقي منهم إلى الإسلام، ولقد كانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلي رسول اللّه ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى اللّه عز وجل ورسوله، وقاتلهم حتى أمسوا وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنمهم اللّه أموالهم، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وأقام رسول اللّه ﷺ بوادي القرى أربعة أيام فقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخيل في أيدى اليهود وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول اللّه ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول اللّه ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم، فلما كان عمر أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، ومن وراء ذلك من الشام.

قال: ثم انصرف رسول اللّه ﷺ راجعاً إلى المدينة بعد أن فرغ من خيبر ووادي القرى وغنمه اللّه عز وجل.

قال الواقدي [المغازي: ٧١٢/٢، ٧١٣]: حدثني يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد اللّه بن كعب عن أم عمارة قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ بالجرف وهو يقول: «لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء» قالت: فذهب رجل من الحي فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيله ولم يهجه، وضن بزوجته أن يفارقها وكان له منها أولاد وكان يحبها، فعصى رسول اللّه ﷺ فرأى ما يكره.

سنة ٧- الجزية في خيبر، أو المصالحة

ثبت في «الصحيحين» [خ (٢٢٨٥)، م (١، ٢، ١٥٥١/٣)] أن رسول اللّه ﷺ لما افتتح خيبر عامل يهودها على شطر ما يخرج منها من تمر أو زرع. وقد ورد في بعض ألفاظ هذا الحديث: على أن يعملوها من أموالهم، وفي بعضها: وقال لهم النبي ﷺ: «نقركم فيها ما شئنا». وفي «السير» أنه كان يبعث عليهم عبد اللّه بن رواحة يخرصها عليهم عند استواء ثمارها، ثم يضمنهم إياه، فلما قتل عبد اللّه بن رواحة بمؤتة بعث جبار بن صخر كما تقدم. وموضع تحرير ألفاظه وبيان طرقه كتاب المزارعة من كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء اللّه وبه الثقة.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٦/٢، ٣٥٧]: سألت ابن شهاب: كيف كان إعطاء رسول اللّه ﷺ يهود خيبر نخلهم؟ فأخبرني أن رسول اللّه ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال وكانت خيبر مما أفاء اللّه عليه، خمسها وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال، فدعاهم رسول اللّه ﷺ فقال: «إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم فأقركم ما أقركم اللّه».

فقبلوا وكانوا على ذلك يعملونها، وكان رسول اللّه ﷺ يبعث عبد اللّه بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص، فلما توفى اللّه نبيه ﷺ أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول اللّه ﷺ حتى توفي، ثم أقرهم عمر بن الخطاب صدراً من إمارته، ثم بلغ عمر أن رسول اللّه ﷺ قال في وجعه الذي قبضه اللّه فيه: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود فقال: إن اللّه قد أذن لي في إجلائكم. وقد بلغني أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا يجتمعن في جزيرة العرب دينان» فمن كان عنده عهد من رسول اللّه ﷺ فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول اللّه ﷺ.

قلت: قد ادعى يهود خيبر في أزمان متأخرة بعد الثلاثمائة أن بأيديهم كتاباً من رسول اللّه ﷺ فيه أنه وضع الجزية عنهم، وقد اغتر بهذا الكتاب بعض العلماء حتى قال بإسقاط الجزية عنهم، من الشافعية الشيخ أبو علي بن خيرون، وهو كتاب مزور مكذوب مفتعل لا أصل له، وقد بينت بطلانه من وجوه عديدة في كتاب مفرد، وقد تعرض لذكره وإبطاله جماعة من الأصحاب في كتبهم كابن الصباغ في «شامله»، والشيخ أبي حامد في «تعليقته»، وصنف فيه ابن المسلمة جزءاً منفرداً للرد عليه، وقد تحركوا به بعد السبعمائة وأظهروا كتاباً فيه نسخة ما ذكره الأصحاب في كتبهم، وقد وقفت عليه فإذا هو مكذوب، فإن فيه شهادة سعد بن معاذ وقد كان مات قبل زمن خيبر، وفيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يومئذ، وفي آخره: وكتبه علي بن أبو طالب وهذا لحن وخطأ، وفيه وضع الجزية ولم تكن شرعت بعد، فإنها إنما شرعت أول ما شرعت وأخذ من أهل نجران. وذكروا أنهم وفدوا في حدود سنة تسع واللّه أعلم.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٧/٢]: وحدثني نافع مولى عبد اللّه بن عمر عن ابن عمر قال: خرجت أنا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا، قال: فعدي علي تحت الليل وأنا نائم على فراشي، ففدعت يداي من مرفقي، فلما استصرخت على صاحبي فأتياني فسألاني: من صنع هذا بك؟ فقلت: لا أدري فأصلحا من يدي، ثم قدما بي على عمر، فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس إن رسول اللّه ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد اللّه بن عمر ففدعوا يديه كما بلغكم مع عدوتهم على الأنصاري قبله لا نشك أنهم كانوا أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال من خيبر فليلحق به فإني مخرج يهود فأخرجهم.

قلت: كان لعمر بن الخطاب سهمه الذي بخيبر، وقد كان وقفه في سبيل اللّه، وشرط في الوقف ما أشار به رسول اللّه ﷺ كما هو ثابت في «الصحيحين» [خ (٢٧٣٧)، م (١٦٣٢، ١٦٣٣)]، وشرط أن يكون النظر فيه للأرشد فالأرشد من بناته وبنيه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «الدلائل» [٢٩٠/٤]: جماع أبواب السرايا

التي تذكر بعد فتح خيبر وقبل عمرة القضية، وإن كان تاريخ بعضها ليس بالواضح عند أهل المغازي.

سنة ٧- سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة

قال الإمام أحمد [٤٦/٤]: حدثنا بهز، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إياس بن سلمة، حدثني أبي قال: خرجنا مع أبي بكر بن أبي قحافة، وأمره رسول الله ﷺ علينا، فغزونا بني فزارة، فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا، فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة فقتلنا على الماء من قتلنا.

قال سلمة: ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو في آثارهم فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل، قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، قال: فنفلني أبو بكر بنتها، قال: فما كشفت لها ثوباً حتى قدمت المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوباً، قال: فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة» قال: فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، قال: فسكت رسول الله ﷺ وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: «ياسلمة هب لي المرأة لله أبوك» قال: فقلت: يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً وهي لك يا رسول الله، قال: فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة وفي أيديهم أسارى من المسلمين ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة.

وقد رواه مسلم [١٧٥٥] والبيهقي [الدلائل: ٢٩٠/٤، ٢٩١] من حديث عكرمة بن عمار به.

سنة ٧- سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة من أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال

ثم أورد البيهقي [الدلائل: ٢٩٢/٤] من طريق الواقدي بأسانيده أن رسول الله ﷺ بعث عمر بن الخطاب ﷺ في ثلاثين راكباً ومعه دليل من بني هلال وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، فلما انتهوا إلى بلادهم هربوا منهم وكر عمر راجعاً إلى المدينة، فقيل له: هل لك في قتال خثعم؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يأمرني إلا بقتال هوازن في أرضهم.

سنة ٧- سرية عبد الله بن رواحة إلى يُسَيْر بن رِزام اليهودي

ثم أورد من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ومن طريق موسى بن عقبة عن الزهري أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً فيهم عبد الله بن أنيس إلى يسير بن رزام اليهودي حتى أتوه بخيبر، وبلغ رسول الله ﷺ أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، فلما بلغوا قرقرة ثبار، وهي من خيبر على ستة أميال، ندم يسير بن رزام فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله بن أنيس فزجر بعيره ثم اقتحم يسوق بالقوم حتى استمكن من يسير ضرب رجله فقطعها، واقتحم يسير وفي يده مخرش من شوحط فضرب به وجه عبد الله بن أنيس فشجه شجة مأمومة، وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شداً ولم يصب من المسلمين أحد، وبصق رسول الله ﷺ في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح ولم تؤذه حتى مات.

سنة ٧- سرية أخرى مع بشير بن سعد

روى [البيهقي في الدلائل: ٢٩٥/٤] من طريق الواقدي بإسناده أن رسول الله ﷺ بعث بشير بن سعد في ثلاثين راكباً إلى بني مرة من أرض فدك فاستاق نعمهم، فقاتلوه وقتلوا عامة من معه، وصبر هو يومئذ صبراً عظيماً، وقاتل قتالاً شديداً، ثم لجأ إلى فدك فبات بها عند رجل من اليهود، ثم كر راجعاً إلى المدينة.

قال الواقدي [المغازي: ٧٢٣/٢ ـ ٧٢٥]: ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله، ومعه جماعة من كبار الصحابة فذكر منهم أسامة بن زيد، وأبا مسعود البدري، وكعب بن عجرة. ثم ذكر مقتل أسامة بن زيد لمرداس بن نهيك حليف بني مرة، وقوله حين علاه بالسيف: لا إله إلا الله، وأن الصحابة لاموه على ذلك حتى سُقط في يده وندم على ما فعل.

وقد ذكر هذه القصة يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن شيخ من بني سلمة عن رجال من قومه أن رسول الله ﷺ بعث غالب بن عبد الله الكلبي إلى أرض بني مرة فأصاب مرداس بن نهيك حليفاً لهم من الحرقة قال: فقتله أسامة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٢/٢، ٦٢٣]: فحدثني محمد بن أسامة بن محمد بن أسامة عن أبيه عن جده أسامة بن زيد قال: أدركته أنا ورجل من الأنصار ـ يعني مرداس بن نهيك ـ فلما شهرنا عليه السلاح قال: أشهد أن لا إله إلا الله فلن ننزع عنه حتى قتلناه. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ اخبرناه فقال: «يا أسامة من لك بلا إله إلا الله» فقلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل، قال: «فمن لك يا أسامة بلا إله إلا الله» فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها علي حتى تمنيت أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني أسلمت يومئذ ولم أقتله. فقلت: إني أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال: «بعدي يا أسامة» فقلت: بعدك.

قال الإمام أحمد [٢٠٠/٥]: حدثنا هشيم بن بشير أنبأنا حصين عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يحدث قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحناهم وكان منهم رجل إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا، وإذا أدبروا كان حاميتهم، قال: فغشيته أنا ورجل من الأنصار، فلما تغشيناه قال: لا إله إلا الله فكف عنه الأنصاري وقتلته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟» قال قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً من القتل، قال: فكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

وأخرجه البخاري ومسلم من حديث هشيم به نحوه.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٩/٢ - ٦١١]: حدثني يعقوب بن عتبة عن مسلم بن عبد الله الجهني عن جندب بن مكيث الجهني قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي كلب ليث إلى بني الملوح بالكديد وأمره أن يغير عليهم، وكنت في سريته، فمضينا حتى إذا كنا بالقديد لقينا الحارث بن مالك بن البرصاء الليثي فأخذناه فقال: إني إنما جئت لأسلم، فقال له غالب بن عبد الله: إن كنت إنما جئت لتسلم فلا يضيرك رباط يوم وليلة، وإن كنت على غير ذلك استوثقنا منك، قال: فأوثقه رباطاً وخلف عليه رويجلاً أسود كان معنا وقال: امكث معه حتى نمر عليك فإن نازعك فاحتز رأسه. ومضينا حتى أتينا بطن الكديد فنزلنا عشية بعد العصر، فبعثني أصحابي إليه فعمدت إلى تل يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه وذلك قبل غروب الشمس، فخرج رجل منهم فنظر فرآني منبطحاً على التل فقال لامرأته: إني لأرى سواداً على هذا التل ما رأيته في أول النهار فانظري لا تكون الكلاب اجترت بعض أوعيتك؟ فنظرت فقالت: والله ما أفقد منها شيئاً، قال: فناوليني قوسي وسهمين من نبلي فناولته فرماني بسهم في جبيني - أو قال: في جنبي فنزعته فوضعته ولم أتحرك، ثم رماني بالآخر فوضعه في رأس منكبي فنزعته فوضعته ولم أتحرك، فقال لامرأته: أما والله لقد خالطه سهماي ولو كان ربيئة لتحرك فإذا أصبحت فابتغي سهمي فخذيهما لا تمضغهما علي الكلاب.

قال: فأمهلنا حتى إذا راحت روايحهم، وحتى احتلبوا وعطنوا وسكنوا وذهبت عتمة من الليل، شننا عليهم الغارة فقتلنا واستقنا النعم، ووجهنا قافلين به وخرج صريخ القوم إلى قومهم بقربنا، قال: وخرجنا سراعاً حتى نمر بالحارث بن مالك بن البرصاء وصاحبه، فانطلقنا به معنا وأتانا صريخ الناس، فجاءنا مالا قبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي من قديد بعث الله من حيث شاء ماء ما رأينا قبل ذلك مطراً ولا حالاً، وجاء بما لا يقدر أن يقدم عليه، فلقد رأيتهم وقوفا ينظرون إلينا ما يقدر أحد منهم أن يقدم عليه، ونحن نحدُّ بها أو نحدوها - شك النفيلي - فذهبنا سراعاً حتى أسندنا بها في المسلك، ثم حدرنا عنه حتى أعجزنا القوم بما في أيدينا.

وقد رواه أبو داود [٢٦٧٨] من حديث محمد بن إسحاق فقال: في روايته: عبد الله بن غالب، والصواب غالب بن عبد الله كما تقدم.

وذكر الواقدي [المغازي: ٧٢٦/٢، ٧٢٧] هذه القصة بإسناد آخر وقال فيه: وكان معه من الصحابة مائة وثلاثون رجلاً.

ثم ذكر البيهقي [الدلائل: ٣٠١/٤، ٣٠٢] من طريق الواقدي سرية بشير بن سعد أيضا إلى ناحية خيبر فلقوا جمعاً من العرب وغنموا نعماً كثيراً، وكان بعثه في هذه السرية بإشارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان معه من المسلمين ثلاثمائة رجل، ودليله حسيل بن نويرة وهو الذي كان دليل النبي ﷺ إلى خيبر قاله الواقدي.

سنة ٧- سرية أبي حدرد إلى الغابة

قال يونس عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٩/٢ - ٦٣١]: كان من حديث قصة أبي حدرد وغزوته إلى الغابة ما حدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم عن أبي حدرد قال: تزوجت امرأة من قومي فأصدقتها مائتي درهم، قال: فأتيت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحي فقال: «كم أصدقت؟» فقلت: مائتي درهم، فقال: «سبحان الله والله لو كنتم تأخذونها من واد ما زاد، والله ما عندي ما أعينك به» فلبثت أياما ثم أقبل رجل من جشم بن معاوية يقال له: رفاعة بن قيس - أو قيس بن رفاعة - في بطن عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم وشرف في جشم، قال: فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين فقال: «اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم». وقدم لنا شارفاً عجفاء، فحمل عليه أحدنا فوالله ما قامت به ضعفاً حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت، وقال: «تبلغوا على هذه» فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر مع غروب الشمس فكمنت في ناحية وأمرت صاحبي فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبرت وشددت في العسكر فكبرا وشدا معي، فوالله إنا كذلك ننتظر أن نرى غرة أو نرى شيئاً وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء، وقد كان لهم راع قد سرح في ذلك البلد فأبطأ عليهم وتخوفوا عليه، فقام صاحبهم رفاعة بن قيس فأخذ سيفه فجعله في عنقه فقال: والله لأتيقنن أمر راعينا ولقد أصابه شر، فقال نفر ممن معه: والله لا تذهب نحن نكفيك، فقال: لا يذهب إلا أنا، قالوا: نحن معك. فقال: والله لا يتبعني منكم أحد.

وخرج حتى يمر بي فلما أمكنني نفحته بسهم فوضعته في فؤاده، فوالله ما تكلم فوثبت إليه فاحتززت رأسه ثم شددت ناحية العسكر وكبرت وشد صاحباي وكبرا، فوالله ما كان إلا النجاء ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم وما خف معهم من أموالهم، واستقنا إبلاً عظيمة وغنماً كثيرة فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ وجئت برأسه أحمله معي، فأعطاني من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً في صداقي فجمعت إلى أهلي.

سنة ٧- السرية التي قتل فيها محلّم بن جثّامة عامر بن الأضبط

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٦/٢، ٦٢٧]: حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط عن ابن عبد الله بن أبي حدرد، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم في نفر من المسلمين منهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع له ووطب من لبن، فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر فنزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [سورة النساء: ٩٤].

وهكذا رواه الإمام أحمد [١١/٦] عن يعقوب، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد، عن أبيه فذكره.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٧/٢]: حدثني محمد بن جعفر: سمعت زياد بن ضميرة بن سعد الضمري يحدث عن عروة بن الزبير عن أبيه وجده قال - وكانا شهدا حنيناً - قال: فصلى رسول الله ﷺ صلاة

الظهر فقام إلى ظل شجرة فقعد فيه، فقام إليه عيينة بن بدر يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعي وهو سيد قيس، وجاء الأقرع بن حابس يرُدُّ عن مُحلم بن جثَّامة وهو سيد خندف، فقال رسول الله ﷺ لقوم عامر: «هل لكم أن تأخذوا منا الآن خمسين بعيراً وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟» فقال عيينة بن بدر: والله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحزن مثل ما أذاق نسائي.

فقام رجل من بني ليث يقال له: ابن مكيتل وهو قصد من الرجال فقال: يا رسول الله ما أجد لهذا القتيل مثلاً في غرة الإسلام إلا كغنم وردت فرميت أولاها فنفرت أخراها اسنن اليوم وغير غداً، فقال رسول الله ﷺ: «هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيراً الآن وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟» فلم يزل بهم حتى رضوا بالدية، فقال قوم محلم بن جثامة: ائتوا به حتى يستغفر له رسول الله ﷺ قال: فجاء رجل طوال ضرب اللحم في حلة قد تهيأ فيها للقتل، فقام بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «اللهم لا تغفر لمحلم» قالها ثلاثاً، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه.

قال محمد بن إسحاق: زعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك.

وهكذا رواه أبو داود [٤٥٠٣] من طريق حماد بن سلمة عن ابن إسحاق.

ورواه ابن ماجه [٢٦٢٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر، عن زيد بن ضميرة، عن أبيه وعمه فذكر بعضه.

والصواب كما رواه ابن إسحاق عن محمد بن جعفر عن زياد بن سعد بن ضميرة، عن أبيه وجده.

وهكذا رواه أبو داود من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن محمد بن جعفر عن زياد بن سعد بن ضميرة، عن أبيه وجده، بنحوه كما تقدم.

وقال ابن إسحاق: حدثني سالم أبو النضر أنه قال: لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس فخلا بهم وقال: يا معشر قيس سألكم رسول الله ﷺ قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس فمنعتموه إياه، أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله ﷺ فيغضب الله لغضبه، أو يلعنكم رسول الله ﷺ فيلعنكم الله بلعنته لكم والله لتسلمنه إلى رسول الله ﷺ أو لآتين بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتيل كافر، ما صلى قط، فلأطلن دمه، فلما قال ذلك لهم أخذواالدية.

وهذا منقطع معضل.

وقد روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/٢] عمن لا يتهم عن الحسن البصري: أن محلماً لما جلس بين يديه عليه الصلاة والسلام قال له: «أمته بالله ثم تلته؟» ثم دعا عليه.

قال الحسن: فوالله ما مكث محلم إلا سبعاً حتى مات فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، فرضموا عليه من الحجارة حتى واروه فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم بما أراكم منه».

وقال ابن جرير [التفسير: ٢٢٢/٥]: حدثنا وكيع حدثنا جرير عن ابن إسحاق، عن نافع عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ محلم بن جثامة مبعثاً، فلقيهم عامر بن الأضبط فحياهم بتحية الإسلام - وكانت بينهم حِنَة في الجاهلية - فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ فتكلم فيه عيينة والأقرع فقال الأقرع: يا سول الله سن اليوم وغير غداً. فقال عيينة: لا والله حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نسائي، فجاء محلم في بردين فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لا غفر الله لك» فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، فدفنوه فلفظته الأرض.

فجاؤوا النبي ﷺ فذكروا ذلك له فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم من حرمتكم» ثم طرحوه بين صدفي جبل فألقوا عليه من الحجارة ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [سورة النساء: ٩٤].

وقد ذكره موسى بن عقبة عن الزهري، ورواه شعيب عن الزهري عن عبد الله بن موهب، عن قبيصة بن ذؤيب نحو هذه القصة إلا أنه لم يسم محلم بن جثامة ولا عامر بن الأضبط.

وكذلك رواه البيهقي [الدلائل: ٣٠٩/٤، ٣١٠] عن الحسن البصري بنحو هذه القصة، وقال: وفيه نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

قال: وقد تكلمنا على سبب نزول هذه الآية ومعناها في «التفسير» بما فيه الكفاية ولله الحمد والمنة.

سنة ٧- سرية عبد الله بن حذافة السهمي

ثبت في «الصحيحين» [خ (٤٣٤٠)، م (١٨٤٠) (٤٠)] من طريق الأعمش عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال: فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى قال: فادخلوها قال: فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، قال: فسكن غضبه وطفئت النار، فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا ذلك له فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

وهذه القصة ثابتة أيضاً في «الصحيحين» [خ (٤٥٨٤)، م (١٨٣٤)] من طريق يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وقد تكلمنا على هذه الآية بما فيه كفاية في «التفسير» ولله الحمد والمنة.

سنة ٧- عمرة القضاء

ويقال: القصاص ورجحه السهيلي [الروض الأنف: ٢٥/٧] ويقال: عمرة القضية فالأول قضاء عما كان أحصر عام الحديبية والثاني من قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ والثالث من المقاضاة التي كان قاضاهم عليها على أن يرجع عنهم عامه هذا، ثم يأتي في العام القابل ولا يدخل مكة إلا في جلبان السلاح، وأن لا يقيم أكثر من ثلاثة أيام، وهذه العمرة هي المذكورة في قوله تعالى في سورة «الفتح» المباركة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾ الآية.

وقد تكلمنا عليها مستقصى في كتابنا «التفسير» بما فيه كفاية، وهي

الموعود بها في قوله عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب حين قال له: ألم تكن تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به» وهي المشار إليها في قول عبد الله بن رواحة حين دخل بين يدي رسول الله ﷺ مكة يوم عمرة القضاء وهو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله — اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله

أي هذا تأويل الرؤيا التي كان رآها رسول الله ﷺ جاءت مثل فلق الصبح.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٠/٢]: فلما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وجمادين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالاً يبعث فيما بين ذلك سراياه، ثم خرج من ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدوه عنها.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدئلي ويقال لها: عمرة القصاص لأنهم صدوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتص رسول الله ﷺ منهم فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع، بلغنا عن ابن عباس أنه قال: فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

وقال معتمر بن سليمان عن أبيه في «مغازيه»: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر أقام بالمدينة وبعث سراياه حتى استهل ذو القعدة فنادى في الناس أن يتجهزوا للعمرة، فتجهزوا وخرجوا إلى مكة.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٠/٢]: وخرج معه المسلمون ممن كان صُد معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧١/٢]: فحدثني من لا أتهم عن عبد الله بن عباس قال: صفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة» ثم استلم الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها.

فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش، للذي بلغه عنهم حتى حج حجة الوداع فلزمها فمضت السنة بها.

وقال البخاري [٤٢٥٦]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد - هو ابن زيد - عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال أبو عبد الله: وزاد ابن سلمة - يعني حماد بن سلمة - عن أيوب عن سعيد عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا» ليرى المشركون قوتكم والمشركون من قبل قعيقعان.

ورواه مسلم [١٢٦٦] عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد.

وأسند البيهقي [الدلائل: ٣٢٦/٤] طريق حماد بن سلمة.

وقال البخاري [٤٢٥٥]: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين، ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ، وسيأتي بقية الكلام على هذا المقام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧١/٢]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العمرة، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله — خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إني مؤمن بقيله — أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله — كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله

قال ابن هشام [السيرة: ٣٧١/٢، ٣٧٢]: نحن قتلناكم على تأويله إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم، يعني يوم صفين.

قاله السهيلي [الروض الأنف: ٢٨/٧]: قال ابن هشام [السيرة: ٣٧١/٢، ٣٧٢]: والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقروا بالتنزيل، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل.

وفيما قاله ابن هشام نظر فإن الحافظ البيهقي روى من غير وجه [الدلائل: ٣٢٢/٤، ٣٢٣] عن عبد الرزاق، عن معمر عن الزهري عن أنس قال: لما دخل النبي ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفي رواية: وهو آخذ بغرزه وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله — قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله — نحن قتلناكم على تأويله

وفي رواية بهذا الإسناد بعينه [دلائل النبوة للبيهقي: ٣٢٣/٤]:

خلوا بني الكفار عن سبيله — اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله
يارب إني مؤمن بقيله

وقال يونس بن بكير عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ دخل عام القضية مكة، فطاف بالبيت على ناقته، واستلم الركن بمحجنه - قال هشام: من غير علة - والمسلمون يشتدون حوله، وعبد الله بن رواحة يقول:

بسم الذي لا دين إلا دينه — بسم الذي محمدٌ رسوله
خلوا بني الكفار عن سبيله

قال موسى بن عقبة عن الزهري: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام القابل من عام الحديبية معتمراً في ذي القعدة سنة سبع، وهو الشهر الذي صده المشركون عن المسجد الحرام، حتى إذا بلغ يأجج وضع الأداة كلها الحجف والمجان والرماح والنبل، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف، وبعث رسول الله ﷺ بين يديه جعفر بن أبي طالب إلى ميمونة بنت الحارث العامرية، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس، وكان تحته أختها أم الفضل بنت الحارث، فزوجها العباس رسول الله ﷺ.

فلما قدم رسول الله ﷺ أمر أصحابه فقال: «اكشفوا عن المناكب

واسعوا في الطواف» ليرى المشركون جلدهم وقوتهم، وكان يكايدهم بكل ما استطاع، فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ متوشحاً بالسيف وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله ... في صحف تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

قال: وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحنقاً ونفاسة وحسداً. وخرجوا إلى الخندمة، فقام رسول الله ﷺ بمكة وأقام ثلاث ليال، وكان ذلك آخر القضية يوم الحديبية، فلما أن أصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب بن عبد العزى: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك، ليس بأرضك ولا بأرض آبائك، والله لا يخرج.

ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلاً وحويطباً فقال: «إني قد نكحت فيكم امرأة، فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا؟» فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذن بالرحيل، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل ببطن سرف، وأقام المسلمون وخلف رسول الله أبا رافع ليحمل ميمونة، وأقام بسرف حتى قدمت عليه ميمونة، وقد لقيت ميمونة ومن معها عناء وأذى من سفهاء المشركين ومن صبيانهم، فقدمت على رسول الله ﷺ بسرف فبنى بها، ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة، وقدر الله أن يكون موت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين، فماتت حيث بنى بها رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة ابنة حمزة إلى أن قال: وأنزل الله عز وجل في تلك العمرة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فاعتمر رسول الله ﷺ في الشهر الحرام الذي صد فيه.

وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحواً من هذا السياق.

ولهذا السياق شواهد كثيرة من أحاديث متعددة، ففي «صحيح البخاري» [٤٢٥٢] من طريق فليح بن سليمان عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ولا يحمل سلاحاً إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج فخرج.

وقال الواقدي: حدثني عبد الله بن نافع عن أبيه، عن ابن عمر قال: لم تكن هذه عمرة قضاء، وإنما كانت شرطاً على المسلمين أن يعتمروا من قابل في الشهر الذي صدهم فيه المشركون.

وقال أبو داود [١٨٦٤]: حدثنا النفيلي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن ميمون: سمعت أبا حاضر الحميري يحدث أبي ميمون بن مهران قال: خرجت معتمراً عام حاصر أهل الشام ابن الزبير بمكة، وبعث معي رجال من قومي بهدي، قال: فلما انتهينا إلى أهل الشام منعونا أن ندخل الحرم، قال: فنحرت الهدي مكاني ثم أحللت ثم رجعت، فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضي عمرتي، فأتيت ابن عباس فسألته فقال: أبدل الهدي فإن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يبدلوا الهدي الذي نحروا عام الحديبية في عمرة القضاء.

تفرد به أبو داود من حديث أبي حاضر عثمان بن حاضر الحميري، عن ابن عباس فذكره.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣١٩/٤، ٣٢٠]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني عمرو بن ميمون قال: كان أبي يسأل كثيراً: هل كان رسول الله ﷺ أبدل هديه الذي نحر حين صده المشركون عن البيت؟ ولا يجد في ذلك شيئاً، حتى سمعته يسأل أبا حاضر الحميري عن ذلك فقال له: على الخبير سقطت، حججت عام ابن الزبير في الحصر الأول، فأهديت هدياً فحالوا بيننا وبين البيت، فنحرت في الحرم ورجعت إلى اليمن، وقلت: لي برسول الله ﷺ أسوة.

فلما كان العام المقبل حججت فلقيت ابن عباس، فسألته عما نحرت: علي بدله أم لا؟ قال: نعم فأبدل، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه قد أبدلوا الهدي الذي نحروا عام صدهم المشركون، فأبدلوا ذلك في عمرة القضاء، فعزت الإبل عليهم، فرخص لهم رسول الله ﷺ في البقر.

وقال الواقدي [المغازي: ٧٣٢/٢، ٧٣٣]: حدثني غانم بن أبي غانم عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: جعل رسول الله ﷺ ناجية بن جندب الأسلمي على هديه يسير بالهدي أمامه يطلب الرعي في الشجر معه أربعة فتيان من أسلم، وقد ساق رسول الله ﷺ في عمرة القضية ستين بدنة.

فحدثني محمد بن نعيم المجمر عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كنت مع صاحب البدن أسوقها.

قال الواقدي [المغازي: ٧٣٤/٢ - ٧٣٦]: وسار رسول الله ﷺ يلبي والمسلمون معه يلبون، ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فيجد بها نفراً من قريش، فسألوا محمد بن مسلمة؟ فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله، ورأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذي رأوا من السلاح والخيل، ففزعت قريش وقالوا: والله ما أحدثنا حدثاً وإنا على كتابنا وهدنتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه؟ ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم.

وبعثت قريش مكرز بن حفص بن الأحنف في نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج، ورسول الله ﷺ في أصحابه، والهدي والسلاح قد تلاحقوا، فقالوا: يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف في القرب؟ فقال النبي ﷺ: «إني لا أدخل عليهم السلاح» فقال مكرز بن حفص: هذا الذي تعرف به البر والوفاء.

ثم رجع سريعاً بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم. فلما أن جاء مكرز بن حفص بخبر النبي ﷺ، خرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال، وخلوا مكة، وقالوا: لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه، فأمر رسول الله ﷺ بالهدي أمامه حتى حبس بذي طوى، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه وهو على ناقته القصواء وهم محدقون به يلبون، وهم متوشحون السيوف، فلما انتهى إلى ذي طوى وقف على ناقته القصواء والمسلمون حوله، ثم دخل الثنية التي

تطلعه على الحجون على راحلته القصواء وابن رواحة آخذ بزمامها وهو يرتجز بشعره ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله.

إلى آخره.

وفي «الصحيحين» [خ (٤٢٥٦)، م (١٢٦٦)] من حديث ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة - يعني من ذي القعدة سنة سبع - فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفدٌ قد وهنتهم حمى يثرب، فأمر رسول الله ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وقال الإمام أحمد [١/٣٠٥]: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل بن زكريا عن عبد الله بن عثمان، عن أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل مر الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العجف، فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا فأكلنا من لحمه، وحسونا من مرقه أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة.

فقال: «لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوادكم» فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا، وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميزة» فاستلم الركن ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما يرضون بالمشي أما إنهم لينقزون نقز الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أطواف فكانت سُنة.

قال أبو الطفيل: وأخبرني ابن عباس أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

قال أبو داود [١٨٨٥]: حدثنا أبو سلمة موسى، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أنبأنا أبو عاصم الغنوي عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: يزعم قومك أن رسول الله ﷺ قد رمل بالبيت وأن ذلك سنة. فقال: صدقوا وكذبوا.

قلت: ما صدقوا وما كذبوا؟ قال: صدقوا رمل رسول الله ﷺ، وكذبوا ليس بسنة، إن قريشاً قالت: زمن الحديبية دعوا محمداً وأصحابه حتى يموتوا موت النغف، فلما صالحوه على أن يجيئوا من العام المقبل فيقيموا بمكة ثلاثة أيام، فقدم رسول الله ﷺ والمشركون من قبل قعيقعان، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ارملوا بالبيت ثلاثاً» قال: وليس بسنة.

وقد رواه مسلم [(٢٣٧، ١٢٦٤/٢٣٨)، (١٢٦٥)] من حديث سعيد الجريري وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، وعبد الملك بن سعيد بن أبجر، ثلاثتهم عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن ابن عباس به نحوه.

وكون الرمل في الطواف سنة مذهب الجمهور، فإن رسول الله ﷺ رمل في عمرة القضاء، وفي عمرة الجعرانة أيضاً.

كما رواه أبو داود [١٨٩٠] وابن ماجه [٢٩٥٣] من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الطفيل عن ابن عباس فذكره.

وثبت في حديث جابر عند مسلم [١٢١٨] وغيره [د (١٩٠٥)، س (٢٩٣٩، ٢٩٤٤، ٢٩٦١، ٢٩٦٢، ٢٩٧٤، ٢٩٨٢، ٢٩٨٣)، ج (٣٠٧٤)] أنه عليه السلام رمل في حجة الوداع في الطواف.

ولهذا قال عمر بن الخطاب: فيم الرملان وقد أطأ الله الإسلام؟ ومع هذا لا نترك شيئاً فعله رسول الله ﷺ [د (١٨٨٧)، ج (٢٩٥٢)، المسند: ١/٤٥] وموضع تقرير هذا كتاب «الأحكام».

وكان ابن عباس في المشهور عنه لا يرى ذلك سنة كما ثبت في «الصحيحين» [خ (١٦٤٩)، م (١٢٦٦) (٢٤١)] من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوته. لفظ البخاري.

وقال الواقدي [المغازي: ٢/٧٣٧، ٧٣٨]: لما قضى رسول الله ﷺ نسكه في القضاء دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة، وكان رسول الله ﷺ أمره بذلك، فقال عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول!! وقال صفوان بن أمية: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا. وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال ابن أم بلال ينهق فوق الكعبة. وأما سهيل بن عمرو ورجال معه لما سمعوا بذلك غطوا وجوههم.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤/٣٢٩]: قد أكرم الله أكثرهم بالإسلام.

قلت: كذا ذكره البيهقي [الدلائل: ٤/٣٢٨، ٣٢٩] من طريق الواقدي، أن هذا كان في عمرة القضاء، والمشهور أن ذلك كان في عام الفتح والله أعلم.

سنة ٧- وأما قصة تزويجه ﷺ بميمونة

فقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٢]: حدثني أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح، عن عطاء ومجاهد، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٣٧٢]: كانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس، فزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عنه أربعمائة درهم.

وذكر السهيلي [الروض الأنف: ٧/٢٩] أنه لما انتهت إليها خطبة رسول الله ﷺ لها وهي راكبة بعيراً قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ.

قال: وفيها نزلت الآية: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٠].

وقد روى البخاري [٤٢٥٨] من طريق أيوب عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، وماتت بسرف.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٧/٣٠]: وروى الدارقطني [السنن: ٣/٢٦٣] من طريق أبي الأسود يتيم عروة، ومن طريق مطر الوراق عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو حلال. قال: وتأولوا رواية ابن عباس الأولى أنه كان محرماً أي في شهر حرام كما قال الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً فدعا فلم أر مثله مخذولا

أي في شهر حرام.

قلت: وفي هذا التأويل نظر، لأن الروايات متظافرة عن ابن عباس بخلاف ذلك، ولا سيما قوله: تزوجها وهو محرم، وبنى بها وهو حلال،

وقد كان في شهر ذي القعدة أيضا وهو شهر حرام.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا عبد الرزاق قال: قال لي الثوري: لا تلتفت إلى قول أهل المدينة. أخبرني عمرو عن أبي الشعثاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج وهو محرم، قال أبو عبد الله: قلت لعبد الرزاق: روى سفيان الحديثين جميعاً عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس، وابن خثيم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس؟ قال: نعم.

أما حديث ابن خثيم فحدثنا ههنا - يعني باليمن - وأما حديث عمرو فحدثنا ثَم - يعني بمكة - وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٥١١٤)، م (١٤١٠)] من حديث عمرو بن دينار به.

وفي «صحيح البخاري» [١٨٣٧] من طريق الأوزاعي: أنبأنا عطاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم.

فقال سعيد بن المسيب: وهِلَ ابن عباس وإن كانت خالته، ما تزوجها إلا بعد ما أحل.

وقال يونس عن ابن إسحاق: حدثني ثقة عن سعيد بن المسيب أنه قال: هذا عبد الله بن عباس يزعم أن رسول الله ﷺ نكح ميمونة وهو محرم فذكر كلمته: إنما قدم رسول الله ﷺ مكة فكان الحل والنكاح جميعاً، فشبه ذلك على ابن الناس.

وروى مسلم [١٤١١] وأهل السنن [د (١٨٤٣)، ت (٨٤٥)، س (٥٤٠٤)، ج (١٩٦٤)] من طرق عن يزيد بن الأصم العامري عن خالته ميمونة بنت الحارث قالت: تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف.

لكن قال الترمذي: روى غير واحد هذا الحديث عن يزيد بن الأصم مرسلاً أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو حلال.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٣٦/٤]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني الزاهد، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا مطر الوراق عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن سليمان بن يسار، عن أبي رافع قال: تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حلال وبنى بها وهو حلال، وكنت الرسول بينهما.

وهكذا رواه الترمذي [٨٤١] والنسائي [٥٤٠٢] جميعاً عن قتيبة، عن حماد بن زيد به.

ثم قال الترمذي: حسن. ولا نعلم أحداً أسنده غير حماد، عن مطر.

ورواه مالك عن ربيعة عن سليمان مرسلاً.

ورواه سليمان بن بلال عن ربيعة مرسلاً.

قلت: وكانت وفاتها بسرف سنة ثلاث وستين، ويقال: سنة ستين رضي الله عنها.

سنة ٧- ذكر خروجه عليه السلام من مكة بعد قضاء عمرته

قد تقدم ما ذكره موسى بن عقبة أن قريشاً بعثوا إليه حويطب بن عبد العزى بعد مضي ثلاثة أيام ليرحل عنهم كما وقع به الشرط، فعرض عليهم أن يعمل وليمة عرسه بميمونة عندهم، وإنما أراد تأليفهم بذلك، فأبوا عليه، وقالوا: بل اخرج عنا، فخرج وكذلك ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٢/٢].

وقال البخاري [٤٢٥١]: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله».

ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح: رسول الله» قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً أراد أن يقيم بها، فلما دخل ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل.

فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فحملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة، قال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة».

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقد روى الواقدي [المغازي: ٧٣٨/٢، ٧٣٩] قصة ابنة حمزة فقال: حدثني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عمارة ابنة حمزة بن عبد المطلب، وأمها سلمى بنت عميس كانت بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ كلم علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال: علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين؟ فلم ينه النبي ﷺ عن إخراجها، فخرج بها، فتكلم زيد بن حارثة، وكان وصي حمزة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين، فقال: أنا أحق بها ابنة أخي، فلما سمع بذلك جعفر قال: الخالة والدة، وأنا أحق بها لمكان خالتها عندي أسماء بنت عميس، وقال علي: ألا أراكم تختصمون هي ابنة عمي وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين. وليس لكم إليها سبب دوني، وأنا أحق بها منكم.

فقال النبي ﷺ: «أنا أحكم بينكم، أما أنت يازيد فمولى الله ومولى رسول الله، وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي وأما أنت يا جعفر فتشبه خَلْقي وخُلُقي، وأنت يا جعفر أولى بها، تحتك خالتها ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها» فقضى بها لجعفر.

قال الواقدي: فلما قضى بها لجعفر قام جعفر فحجل حول رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا جعفر؟» فقال: يا رسول الله كان النجاشي إذا أرضى أحداً قام فحجل حوله، فقال للنبي ﷺ: تزوجها فقال: «ابنة أخي من الرضاعة» فزوجها رسول الله ﷺ سلمة بن أبي سلمة، فكان النبي ﷺ يقول: «هل جزيت سلمة؟»

قلت: لأنه ذكر الواقدي وغيره أنه هو الذي زوج رسول الله ﷺ بأمه أم سلمة، لأنه كان أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة، والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٢/٢، ٢٧٣]: ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة، وتولى المشركون تلك الحجة.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٣٧٢/٢، ٢٧٣]: وأنزل الله في هذه

العمرة فيما حدثني أبو عبيدة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [سورة الفتح: ٢٧] يعني: خيبر.

سنة ٧- سرية ابن أبي العوجاء

ذكر البيهقي [الدلائل: ٣٤١/٤، ٣٤٢] ههنا سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم، ثم ساق بسنده عن الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري قال: لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضية، رجع في ذي الحجة من سنة سبع، فبعث ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلاً، فخرج إلى بني سُلَيم، وكان عينٌ لبني سُلَيم معه، فلما فصل من المدينة، خرج العين إلى قومه فحذرهم وأخبرهم، فجمعوا جمعاً كثيراً، وجاءهم ابن أبي العوجاء والقوم معدون، فلما ان رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا جمعهم دعوهم إلى الإسلام، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم، وقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه، فرموهم ساعة وجعلت الأمداد تأتي حتى أحدقوا بهم من كل جانب، فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء بجراحات كثيرة، فتحامل حتى رجع إلى المدينة بمن بقي معه من أصحابه في أول يوم من شهر صفر سنة ثمان.

سنة ٧- أحداث أخرى

قال الواقدي: في المحرم من هذه السنة - يعني سنة سبع - رد رسول الله ﷺ ابنته زينب على زوجها أبي العاص بن الربيع - وقد قدمنا الكلام على ذلك - وفيها قدم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس، ومعه مارية وسيرين، وقد أسلمتا في الطريق، وغلام خصي.

قال الواقدي: وفيها اتخذ رسول الله ﷺ منبره درجتين ومقعده، قال: والثبت عندنا أنه عمل في سنة ثمان.

سنة ٨- إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

قد تقدم طرف من ذلك فيما ذكره ابن إسحاق بعد مقتل أبي رافع اليهودي، وذلك في سنة خمس من الهجرة.

وإنما ذكره الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٤٣/٤ - ٣٤٦] ههنا بعد عمرة القضاء، فروي من طريق الواقدي: أنبأنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: قال عمرو بن العاص: كنت للإسلام مجانباً معانداً، حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، قال: فقلت في نفسي: كم أوضع والله ليظهرن محمد على قريش، فلحقت بمالي بالوهط وأقللت من الناس - أي من لقائهم - فلما حضر الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ في الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول: يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شيء خير من الخروج، وأنا بعد ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي وكانوا يرون رأيي ويسمعون مني ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا، ومدرهنا في يمن نقيبة وبركة أمر.

قال: قلت: تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي، فنكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا: هذا الرأي. قال: قلت: فاجمعوا ما نهديه له - وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم - فجمعنا أدما كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية ولو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سررت قريشاً وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول رسول محمد.

فدخلت على النجاشي فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك أهديت لك أدماً كثيراً ثم قدمته فأعجبه وفرق منه شيئاً بين بطارقته وأمر بسائره فادخل في موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله.

فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي فجعلت أتلقى الدم بثيابي فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فرقا منه، ثم قلت: أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك، قال: فاستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟ قال عمرو: فغير الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟ ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو فأطعني واتبعه فوالله إنه لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم وكساني ثياباً - وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها - ثم خرجت على أصحابي فلما رأوا كسوة النجاشي سروا بذلك وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة وقلت: أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت. قال: ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع السفن فأجد سفينة قد شحنت تدفع.

قال: فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلاً وأحدهما داخل في الخيمة والآخر يمسك الراحلتين.

قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قال: قلت: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا الله قد أردت محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فتزلنا جميعاً في المنزل. ثم ترافقنا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عنبة يصيح: يا

رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ بقدومنا فكانت كما ظننت، وأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى اطّلعنا عليه، وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي إليه حياء منه.

قال: فبايعته على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر، فقال: «إن الإسلام يجبُّ ما كان قبله والهجرة تجب ما كان قبلها» قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب.

قال عبد الحميد بن جعفر شيخ الواقدي: فذكرت هذا الحديث ليزيد بن أبي حبيب فقال: أخبرني راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن مولاه حبيب عن عمرو بن العاص نحو ذلك.

قلت: كذلك رواه محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٧٦/٢ - ٢٧٨] عن يزيد بن أبي حبيب، عن راشد عن مولاه حبيب قال: حدثني عمرو بن العاص من فيه، فذكر ما تقدم في سنة خمس بعد مقتل أبي رافع. وسياق الواقدي أبسط وأحسن.

قال الواقدي عن شيخه عبد الحميد: فقلت ليزيد بن أبي حبيب: وقّت لك متى قدم عمرو وخالد؟ قال: لا إلا أنه قال: قبل الفتح، قلت: فإن أبي أخبرني أن عمراً وخالداً وعثمان بن طلحة قدموا لهلال صفر سنة ثمان.

وسيأتي عند وفاة عمرو من «صحيح مسلم» ما يشهد لسياق إسلامه وكيفية حُسن صحبته لرسول الله ﷺ مدة حياته، وكيف مات وهو يتأسف على ما كان منه في مدة مباشرته الإمارة بعده عليه الصلاة والسلام، وصفة موته ﷺ.

سنة ٨- طريق إسلام خالد بن الوليد

قال الواقدي [المغازي: ٧٤٥/٢ - ٧٤٩]: حدثني يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت أبي يحدث عن خالد بن الوليد قال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سَنَن خيلنا وأخذ ذات اليمين.

فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعاً، فأقيم في داري بمن بقي؟ فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية، فتغيبت ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إلي كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله عنك وقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به، فقال: «ما مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره» فاستدرك يا أخي ما قد فاتك فقد فاتك مواطن صالحة.

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه إنما نحن أكَلَةُ رأس وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف. فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً، فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية، قلت: فاكتم علي، قال: لا أذكره.

فخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي فأسرع الإجابة، وقال: إني غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفخ مناخة.

قال: فاتعدت أنا وهو يأجِجَ إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فادلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة، فنجد عمرو بن العاص بها.

قال: مرحباً بالقوم فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا، فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي: فقال أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم.

فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال يتبسم إلي حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «تعال» ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير» قلت: يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله» قلت: يا رسول الله على ذلك، قال: «اللّهم

اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك». قال خالد: وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ، قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، قال: فوالله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه.

سنة ٨- سرية شُجاع بن وهب الأسدي إلى نفر من هوازن

قال الواقدي [المغازي: ٧٥٣/٢، ٧٥٤]: حدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن عمر بن الحكم قال: بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن وأمره أن يغير عليهم، فخرج وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبّحهم غارين، وقد أوعز إلى أصحابه أن لا تمعنوا في الطلب، فأصابوا نعماً كثيرة وشاء فاستاقوا ذلك حتى إذا قدموا المدينة فكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً كل رجل.

وزعم غيره أنهم أصابوا سبياً أيضاً، وأن الأمير اصطفى منه جارية وضيئة ثم قدم أهلوهم مسلمين فشاور النبي ﷺ أميرهم في ردهن إليهم، فقال: نعم فردوهن وخيرٌ التي عنده فاختارت المقام عنده [مغازي الواقدي: ٧٥٤/٢].

وقد تكون هذه السرية هي المذكورة فيما رواه الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ بعث سرية قبل نجد فكان فيهم عبد الله بن عمر، قال: فأصبنا إبلاً كثيراً فبلغت سهامنا إثني عشر بعيراً ونفلنا رسول الله ﷺ بعيراً بعيراً.

أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣١٣٤)، م (١٧٤٩) (٣٥)] من حديث مالك، ورواه مسلم [(١٧٤٩) (٣٦، ٣٧)] أيضاً من حديث الليث ومن حديث عبد الله كلهم عن نافع عن ابن عمر بنحوه.

وقال أبو داود [٢٧٤٣]: حدثنا هناد، حدثنا عبدة عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى نجد، فخرجت فيها فأصبنا نعماً كثيراً، فنفلنا أميرنا بعيراً بعيراً لكل إنسان، ثم قدمنا على رسول الله ﷺ فقسم بيننا غنيمتنا فأصاب كل رجل منا اثني عشر بعيراً بعد الخمس، وما حاسبنا رسول الله ﷺ بالذي أعطانا صاحبنا ولا عاب عليه ما صنع، فكان لكل منا ثلاثة عشر بعيراً بنفله.

سنة ٨- سرية كعب بن عمير إلى بني قُضاعة من أرض الشام

قال الواقدي [المغازي: ٧٥٢/٢، ٧٥٣]: حدثنا محمد بن عبد الله عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قُتلوا، فأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما أن برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ، فهم بالبعثة إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر.

سنة ٨- غزوة مؤتة

وهي سرية زيد بن حارثة في نحو من ثلاثة آلاف إلى أرض البلقاء من أرض الشام.

قال محمد بن إسحاق بعد قصة عمرة القضية [سيرة ابن هشام: ٣٧٣/٢]: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذي الحجة - وولي تلك الحجة المشركون - والمحرم وصفراً وشهري ربيع وبعث في جمادى الأولى بعثه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة.

فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس» فتجهز الناس، ثم تهيؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف.

وقال الواقدي [المغازي: ٧٥٥/٢، ٧٥٦]: حدثني ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم، عن أبيه قال: جاء النعمان بن فنحص اليهودي فوقف على رسول الله ﷺ مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم». فقال النعمان: أبا القاسم إن كنت نبياً فلو سميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا الرجل على القوم فقالوا: إن اصيب فلان ففلان، فلو سموا مائة أصيبوا جميعاً، ثم جعل اليهودي يقول لزيد: اعهد فإنك لا ترجع أبداً إن كان محمد نبياً، فقال زيد: أشهد أنه نبي صادق بار. رواه البيهقي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٣/٢، ٣٧٤]: فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾ [سورة مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٤/٢]: ثم أن القوم تهيؤوا للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودعه ثم قال:

فثبّت الله ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا
إني تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أني ثابت البصر
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٤/٢]: ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، حتى إذا ودعهم وانصرف، قال عبد الله بن رواحة:

خلّفَ السلام على امرئ ودعته ... في النخل خير مشيع وخليل

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا أبو خالد الأحمر، عن الحجاج، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث إلى مؤتة فاستعمل زيداً، فإن قتل زيد فجعفر، فإن قتل جعفر فابن رواحة، فتخلف ابن رواحة، فجمَّع مع النبيِّ ﷺ، فرآه فقال: «ما خلَّفك؟» فقال: أُجمِّع معك. قال: «الغَدوةُ أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها».

وقال أحمد [١/٢٢٤]: حدثنا أبو معاوية حدثنا الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة قال: فقدم أصحابه وقال: أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم ألحقهم قال: فلما صلى رسول الله ﷺ رآه فقال: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال: فقال: أردت أن أصلي معك الجمعة ثم ألحقهم قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت غدوتهم»

وهذا الحديث قد رواه الترمذي [٥٢٧] من حديث أبي معاوية، عن الحجاج - وهو ابن أرطاة - ثم علَّله الترمذي بما حكاه عن شعبة أنه قال: لم يسمع الحكم عن مقسم إلا خمسة أحاديث، وليس هذا منها.

قلت: والحجاج بن أرطاة في روايته نظر والله أعلم

والمقصود من إيراد هذا الحديث أنه يقتضي أن خروج الأمراء إلى مؤتة كان في يوم جمعة والله أعلم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٥، ٣٧٦]: ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي، ثم أحد إراشة يقال له: مالك بن زافلة.

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق: فبلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة.

وقيل: كان الروم مائتي ألف ومن عداهم خمسون ألفا.

وأقل ما قيل: إن الروم كانو مائة ألف ومن العرب خمسون ألفا حكاه السهيلي [الروض الأنف: ٧/٤١]، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة في محبسهم ذلك:

جلبنا الخيل من أجا وفرع　　تغر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتاً　　أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان　　فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات　　تنفس في مناخرها السموم
فلا وأبي مآب لنأتينها　　وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت　　عوابس والغبار لها بريم
بذي لجب كأن البيض فيه　　إذا برزت قوانسها النجوم
فراضية المعيشة طلقتها　　أسنتنا فتنكح أو تئيم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٦]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن زيد بن أرقم قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أديتني وحملت رحلي　　مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم　　ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني　　بأرض الشام مشتهيَ الثواء
وردك كل ذي نسب قريب　　إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل　　ولا نخل أسافلها رواء

قال: فلما سمعتهن منه بكيت، فخفقني بالدرة وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل؟ ثم قال عبد الله بن رواحة في بعض سفره ذلك وهو يرتجز:

يا زيدُ زيدَ اليعملات الذبل　　تطاول الليل هديت فانزل

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٧]: ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة فالتقى الناس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له: قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عباية بن مالك.

وقال الواقدي [المغازي: ٢/٧٦٠]: حدثني ربيعة بن عثمان عن المقبري عن أبي هريرة قال: شهدت مؤتة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ قلت: نعم! قال: إنك لم تشهد معنا بدراً، إنا لم ننصر بالكثرة. رواه البيهقي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٨]: ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٧٨]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مرة بن عوف وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها　　طيبةً وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها　　كافرة بعيدة أنسابها
علي إن لاقيتها ضرابها

وهذا الحديث قد رواه أبو داود [٢٥٧٣] من حديث ابن إسحاق ولم يذكر الشعر، وقد استدل به من جوز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير ويخشى من لحوق العدو لها وانتفاعهم بها أنها تذبح وتحرق ليحال بينهم وبين ذلك والله أعلم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٧/٣٦]: ولم ينكر أحد على جعفر، فدل

على جوازه إذا خيف أخذ العدو له ولا يدخل ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثا.

قال ابن هشام [السيرة: ٣٧٨/٢]: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء.

ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه بنصفين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٩/٢، ٣٨٠]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مرة بن عوف قال: فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتُكرهنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال أيضاً:

يا نفس إن لا تُقتلي تموتي ... هذا حِمام الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فِعْلَهما هُديتِ

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً، ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة. ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ.

قال: ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان. فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٠/٢]: ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ - فيما بلغني -: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً»، قال: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: «ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً»، ثم قال: «لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى».

هكذا ذكر ابن إسحاق هذا منقطعاً.

وقد قال البخاري [٤٢٦٢]: حدثنا أحمد بن واقد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن حميد بن هلال عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

تفرد به البخاري ورواه [خ (٢٧٩٨)] في موضع آخر وقال فيه وهو على المنبر: «وما يسرهم أنهم عندنا».

وقال البخاري [٤٢٦١]: حدثنا أحمد بن أبي بكر، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن المخزومي - وليس بالحزامي - عن عبد الله بن سعيد، عن نافع عن عبد الله بن عمر قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة».

قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية. تفرد به البخاري أيضاً.

وقال البخاري أيضاً [٤٢٦٠]: حدثنا أحمد حدثنا ابن وهب عن عمرو عن ابن أبي هلال - هو سعيد بن أبي هلال الليثي - قال: وأخبرني نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره.

وهذا أيضاً من أفراد البخاري.

ووجه الجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أن ابن عمر رضي الله عنهما اطلع على هذا العدد، وغيره اطلع على أكثر من ذلك، أو أن هذه في قبله أصيبها قبل أن يقتل، فلما صرع إلى الأرض ضربوه أيضاً ضربات في ظهره، فعد ابن عمر ما كان في قبله وهو في وجوه الأعداء قبل أن يقتل ﷺ.

ومما يشهد لما ذكره ابن هشام من قطع يمينه وهي ممسكة اللواء ثم شماله ما رواه البخاري [٣٧٠٩]:

حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عمر بن علي عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عامر قال: كان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين.

ورواه أيضا في المناقب [خ (٣٧٠٩)] والنسائي [٨١٥٨] من حديث يزيد بن هارون عن إسماعيل بن أبي خالد به.

وقال البخاري [٤٢٦٥]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن إسماعيل عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

ثم رواه [خ (٤٢٦٦)] عن محمد بن المثنى، عن يحيى عن إسماعيل: حدثني قيس سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة يمانية. انفرد به البخاري.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٣٦٧/٤، ٣٦٨]: حدثنا أبو نصر بن قتادة حدثنا أبو عمرو بن مطر حدثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال: قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصاري وكانت الأنصار تفقهه، فغشيه الناس فغشيته فيمن غشيه فقال: حدثنا أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال: «عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة»، قال: فوثب جعفر وقال: يا رسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل زيداً علي قال: «امض فإنك لا تدري أي ذلك خير»، فانطلقوا فلبثوا ما شاء الله فصعد رسول الله ﷺ المنبر فأمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس على رسول الله ﷺ فقال: «أخبركم عن جيشكم هذا، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيداً - فاستغفر له - ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل

شهيداً - شهد له بالشهادة واستغفر له - ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً - فاستغفر له - ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه».

ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» فمن يومئذ سمي خالد سيف الله.

ورواه النسائي [٨١٥٩] من حديث عبد الله بن المبارك عن الأسود بن شيبان به نحوه.

وفيه زيادة حسنة وهو أنه عليه الصلاة والسلام لما اجتمع إليه الناس قال: «ثاب خبر، ثاب خبر» وذكر الحديث.

وقال الواقدي [المغازي: ٧٦١/٢، ٧٦٢]: حدثني عبد الجبار بن عمارة بن غزية، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال: لما التقى الناس بمؤتة جلس رسول الله ﷺ على المنبر وكشف الله له ما بينه وبين الشام فهو ينظر إلى معتركهم، فقال: «أخذ الراية زيد بن حارثة فجاء الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت، وحبب إليه الدنيا فقال: الآن استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إلي الدنيا؟ فمضى قدماً حتى استشهد» فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال: «استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسعى».

قال الواقدي [المغازي: ٧٦١/٢، ٧٦٢]: وحدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «لما قتل زيد أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا؟ ثم مضى قدماً حتى استشهد» فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال: «استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة وهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء من الجنة».

قال: «ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فاستشهد ثم دخل الجنة معترضاً» فشق ذلك على الأنصار فقيل: يا رسول الله ما اعتراضه؟ قال: «لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فتشجع واستشهد فدخل الجنة» فسري عن قومه.

قال الواقدي [المغازي: ٧٦٤/٢]: وحدثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال: لما أخذ خالد بن الوليد الراية قال رسول الله ﷺ: «الآن حمي الوطيس».

قال الواقدي [المغازي: ٧٦٤/٢]: فحدثني العطاف بن خالد قال: لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته، قال: فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا: قد جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا منهزمين، قال: فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم.

وهذا يوافق ما ذكره موسى بن عقبة رحمه الله في مغازيه فإنه قال بعد عمرة الحديبية: ثم صدر رسول الله ﷺ إلى المدينة فمكث بها ستة أشهر ثم إنه بعث جيشاً إلى مؤتة وأمّر عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن أصيب فجعفر بن أبي طالب أميرهم، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة أميرهم»، فانطلقوا حتى إذا لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة وبها جموع من نصارى العرب والروم بها تنوخ وبهراء فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام، ثم خرجوا فالتقوا على زرع أحمر فاقتتلوا قتالاً شديداً، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقتل، ثم أخذه جعفر فقتل، ثم أخذه عبد الله بن رواحة فقتل ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومي فهزم الله العدو وأظهر المسلمين قال: وبعثهم رسول الله ﷺ في جمادى الأولى، يعني سنة ثمان.

قال موسى بن عقبة: وزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «مرّ عليّ جعفر في الملائكة يطير كما يطيرون له جناحان». قال: وزعموا - والله أعلم - أن يعلى بن أمية قدم على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة فقال له رسول الله ﷺ:

«إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرك»، قال: أخبرني يا رسول الله قال: فأخبرهم رسول الله ﷺ خبرهم كله ووصفه لهم، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم».

فهذا السياق فيه فوائد كثيرة ليست عند ابن إسحاق، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق من أن خالد إنما حاشى بالقوم حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى فقط. وموسى بن عقبة والواقدي مصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم، وهو ظاهر الحديث المتقدم عن أنس مرفوعاً: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه»، رواه البخاري [خ (٤٢٦٢)] وهذا هو الذي رجحه ومال إليه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٧٥/٤] بعد حكاية القولين لما ذكره من الحديث.

قلت: ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين، وهو أن خالداً لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة كما ذكره الواقدي توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله والله أعلم.

وقد قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٢/٢]: حدثني محمد بن جعفر عن عروة قال: لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قال: ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر» فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه قال: وجعل الناس يحثون عليهم بالتراب ويقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى».

وهذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق فظن أن هذا لجمهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين وهو على المنبر في قوله: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه»، فما كان المسلمون ليسمونهم فراراً بعد ذلك وإنما تلقوهم إكراماً لهم وإعظاماً، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هنالك، وقد كان فيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الإمام أحمد [٧٠/٢]: حدثنا حسن، حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا.

فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» قال: فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين»، قال:

فأتيناه حتى قبلنا يده.

ثم رواه [المسند: ٨٦/٢] غندر عن شعبة عن يزيد بن أبي زياد عن ابن أبي ليلى عن ابن عمر قال: كنا في سرية ففررنا فأردنا أن نركب البحر، فأتينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون، فقال: «لا بل أنتم العكارون».

ورواه أبو داود [٢٦٤٧، ٥٢٢٣] والترمذي [١٧١٦] وابن ماجه [٣٧٠٤] من حديث يزيد بن أبي زياد وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه. وقال أحمد [١١٠/٢، ١١١]: حدثنا إسحاق بن عيسى وأسود بن عامر قالا: حدثنا شريك عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فلما لقينا العدو انهزمنا في أول غادية، فقدمنا المدينة في نفر ليلاً فاختفينا ثم قلنا: لو خرجنا إلى رسول الله ﷺ واعتذرنا إليه، فخرجنا إليه فلما لقيناه قلنا: نحن الفرارون يا رسول الله قال: «بل أنتم العكارون وإنا فئتكم».

قال الأسود: «وأنا فئة كل مسلم».

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٢/٢، ٣٨٣]: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن بعض آل الحارث بن هشام وهم أخواله: أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: ما يستطيع أن يخرج كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ما يخرج، وكان في غزاة مؤتة.

قلت: لعل طائفة منهم فروا لما عاينوا كثرة جموع الروم، وكانوا أكثر منهم أضعاف مضاعفة، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ثلاثة آلاف وكان العدو على ما ذكروه مائتي ألف ومثل هذا يسوغ الفرار على ما قد تقرر، فلما فر هؤلاء ثبت باقيهم وفتح الله عليهم وتخلصوا من أيدي أولئك وقتلوا منهم مقتلة عظيمة كما ذكره الواقدي وموسى بن عقبة من قبله، ويؤيد ذلك ويشاكله بالصحة ما رواه الإمام أحمد [٢٧/٦، ٢٨]: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه عن عوف بن مالك الأشجعي قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة من المسلمين في غزوة مؤتة، ورافقني مددي من اليمن ليس معه غير سيفه فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددي طائفة من جلده فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرقة.

ومضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب، فجعل الرومي يغري بالمسلمين، وقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ من السلب، قال عوف: فأتيته فقلت: يا خالد أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ولكني استكثرته، فقلت: لتردنه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد رد عليه ما أخذت منه» قال عوف: فقلت: دونك يا خالد ألم أف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» فأخبرته فغضب رسول الله ﷺ وقال: «يا خالد لا ترد عليه هل أنتم تاركو لي أمرائي لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره».

قال الوليد: سألت ثوراً عن هذا الحديث فحدثني عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن عوف بنحوه، ورواه مسلم وأبو داود من حديث جبير بن نفير عن عوف بنحوه.

ورواه مسلم [١٧٥٣] وأبو داود [٢٧١٩] من حديث جبير بن نفير، عن عوف بن مالك به نحوه.

وهذا يقتضي أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم.

وقد تقدم فيما رواه البخاري [٤٢٦٦] أن خالداً رضي الله عنه قال: اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية.

وهذا يقتضي أنهم اثخنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم.

وهذا هو اختيار موسى بن عقبة والواقدي والبيهقي، وحكاه ابن هشام عن الزهري.

قال البيهقي رحمه الله [الدلائل: ٣٧٥/٤]: أنه اختلف أهل المغازي في فرارهم والانحيازهم، فمنهم من ذهب إلى ذلك ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا على المشركين وأن المشركين انهزموا. قال: وحديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «ثم أخذها خالد ففتح الله عليه» [خ (٤٢٦٢)] يدل على ظهورهم عليهم والله أعلم.

قلت: وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨١/٢] أن قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافلة - قال ابن هشام: ويقال: رافلة، بالراء وهو أمير أعراب النصارى فقتله وقال يفتخر بذلك:

طعنتُ ابن رافلة بن الإراش ... برمح مضى فيه ثم انحطم

ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السَّلم

وسُقنا نساءَ بني عمه ... غداة رقوقين سوق النَّعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه لأن من عادة أمير الجيش إذا قتل أن يفر أصحابه، ثم إنه صرح في شعره بأنهم سبوا من نسائهم وهذا واضح فيما ذكرناه والله أعلم.

وأما ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٣/٢] فإنه ذهب إلى أنه لم يكن إلا المخاشاة والتخلص من أيدي الروم وسمى هذا نصراً وفتحاً أي باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم وتراكمهم وتكاثرهم وتكاثفهم عليهم، فكان مقتضى العادة أن يصطلموا بالكلية، فلما تخلصوا منهم وانحازوا عنهم كان هذا غاية المرام في هذا المقام، وهذا محتمل لكنه خلاف الظاهر من قوله عليه الصلاة والسلام: «ففتح الله عليهم».

والمقصود أن ابن إسحاق يستدل على ما ذهب إليه فقال [سيرة ابن هشام: ٣٨٣/٢]: وقد قال - فيما كان أمر الناس وأمر خالد بن الوليد ومخاشاته بالناس وانصرافه بهم قيس بن المحسر - اليعمري يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس يقول:

فوالله لا تنفكُّ نفسي تلومني ... على موقفي والخيلُ قابعة قبل

وقفتُ بها لا مستجيراً فنافذاً ... ولا مانعاً من كان حُمَّ له القتل

على أنني آسيت نفسي بخالد ... ألا خالدٌ في القوم ليس له مثل

وجاشت إلي النفس من نحو جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابلَ النبل

وضم إلينا حجزتيهم كليهما ... مهاجرة لا مشركون ولا عُزل

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٣/٢]: فبين قيس ما اختلف فيه

الناس من ذلك في شعره أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقق انحياز خالد بمن معه. قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٣٨٣/٢]: وأما الزهري فقال - فيما بلغنا عنه - أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم، وكان عليهم حتى رجع إلى المدينة.

سنة ٨- نعي جعفر بن أبي طالب ومَنْ معه

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٠/٢، ٣٨١]: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن أم عيسى الخزاعية عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب عن جدتها أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين منّاً وعجنت عجيني وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم قالت: فقال رسول الله ﷺ: «ائتيني ببني جعفر» فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله: بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم».

قالت: فقمت أصيح واجتمع إلي النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٣٧٠/٦] من حديث ابن إسحاق ورواه ابن ماجه [١٦١١] من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن أم عيسى عن أم عون بنت محمد بن جعفر عن أسماء فذكر الأمر بعمل الطعام، والصواب أنها أم جعفر وأم عون. وقال الإمام أحمد [٢٠٥/١]: حدثنا سفيان، حدثنا جعفر بن خالد عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر قال: لما جاء نعي جعفر حين قتل قال النبي ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم أمر يشغلهم». أو: «أتاهم ما يشغلهم».

وهكذا رواه أبو داود [٣١٣٢] والترمذي [٩٩٨] وابن ماجه [١٦١٠] من حديث سفيان بن عيينة، عن جعفر بن خالد بن سارة المخزومي المكي عن أبيه عن عبد الله بن جعفر وقال الترمذي: حسن.

ثم قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨١/٢]: حدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن. قالت: فدخل عليه رجل فقال: يا رسول الله إن النساء عنيننا وفتننا، قال: «ارجع إليهن فأسكتهن» قالت: فذهب ثم رجع فقال له مثل ذلك، قالت: وربما ضر التكلف. يعني أهله قالت: قال: «فاذهب فأسكتهن فإن أبين فاحث في أفواههن التراب» قالت: وقلت في نفسي: أبعدك الله فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله ﷺ.

قالت: وعرفت أنه لا يقدر على أن يحثي في أفواههن التراب. انفرد به ابن إسحاق من هذا الوجه وليس في شيء من الكتب.

وقال البخاري [٤٢٦٣]: حدثنا قتيبة حدثنا عبد الوهاب سمعت يحيى بن سعيد قال: أخبرتني عمرة قالت: سمعت عائشة تقول: لما قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة جلس رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الحزن، قالت عائشة: وأنا أطلع من صائر الباب - شق - فأتاه رجل فقال: أي رسول الله إن نساء جعفر وذكر بكاءهن، فأمره أن ينهاهن قالت: فذهب الرجل ثم أتى فقال: والله لقد غلبننا، فزعمت أن رسول الله ﷺ قال: «فاحث في أفواههن من التراب».

قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: أرغم الله أنفك، فوالله ما أنت تفعل وما تركت رسول الله ﷺ من العناء.

وهكذا رواه مسلم [٩٣٥] وأبو داود [٣١٢٢] والنسائي [١٨٤٦] من طرق عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عمرة عنها.

وقال الإمام أحمد [٢٠٤/١، ٢٠٥]: حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت محمد بن أبي يعقوب يحدث عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر قال: بعث رسول الله ﷺ جيشاً استعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن قتل زيد أو استشهد فأميركم جعفر، فإن قتل أو استشهد فأميركم عبد الله بن رواحة».

فلقوا العدو فأخذ الراية زيد فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عليه وأتى خبرهم النبي ﷺ فخرج إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: «إن أخوانكم لقوا العدو، وإن زيداً أخذ الراية فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه».

قال: ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» قال: فجيء بنا كأننا أفرخ، فقال: «ادعوا لي الحلاق» فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخُلُقي» ثم أخذ بيدي فأشالها وقال: «اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاث مرات.

قال: فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجعلت تفرح له فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟».

ورواه أبو داود [٤١٩٢] ببعضه، والنسائي [٨٦٠٤] في السير بتمامه من حديث وهب بن جرير به.

وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام أرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام ثم نهاهم عنه بعدها.

ولعله معنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٤٣٨/٦] من حديث الحكم عن عبد الله بن شداد عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال لها لما أصيب جعفر: «تسلبي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت» تفرد به أحمد.

فيحتمل أنه أذن لها في التسلب وهو المبالغة في البكاء وشق الثياب ويكون هذا من باب التخصيص لها بهذا لشدة حزنها على جعفر أبي أولادها، وقد يحتمل أن يكون أمراً لها بالتسلب وهو المبالغة في الإحداد ثلاثة أيام، ثم تصنع بعد ذلك ما شاءت مما يفعله المعتدات على أزواجهن من الإحداد المعتاد والله أعلم.

ويروى: «تسلي ثلاثاً» أي تصبّري ثلاثاً وهذا بخلاف الرواية الأخرى والله أعلم.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد [٣٦٩/٦]: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن طلحة ثنا الحكم بن عتيبة عن عبد الله بن شداد عن أسماء بنت عميس قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ اليوم الثالث من قتل جعفر فقال: لا تحدي بعد يومك هذا». فإنه من أفراد أحمد أيضاً وإسناده لا بأس به، ولكنه مشكل إن حمل على ظاهره لأنه قد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٢٨٠)، م (١٤٨٦)] أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميتها أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة

أشهر وعشراً».

فإن كان ما رواه الإمام أحمد محفوظاً فتكون مخصوصة بذلك أو هو أمر بالمبالغة في الإحداد هذه الثلاثة أيام كما تقدم والله أعلم.

قلت: ورثت أسماء بنت عميس زوجها بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى في الهياج واصبرا

ثم لم تنشب أن انقضت عدتها فخطبها أبو بكر الصديق ﷺ فتزوجها فأولم وجاء الناس للوليمة فكان فيهم علي بن أبي طالب، فلما ذهب الناس استأذن علي أبا بكر رضي الله عنهما في أن يكلم أسماء من وراء الستر فأذن له، فلما اقترب من الستر نفحه ريح طيبها فقال لها علي، على وجه البسط: من القائلة في شعرها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

قالت: دعنا منك يا أبا الحسن فإنك امرؤ فيك دعابة. فولدت للصديق محمد بن أبي بكر، ولدته بالشجرة بين مكة والمدينة، ورسول الله ﷺ ذاهب إلى حجة الوداع، فأمرها أن تغتسل وتهل وسيأتي في موضعه، ثم لما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولاداً ﷺ وعنها وعنهم أجمعين.

سنة ٨- كُرّار وليسوا فُرّاراً

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٢/٢]: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: فلما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال: ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر» فأتي بعبد الله بن جعفر فحمله بين يديه، قال: وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله! قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله» وهذا مرسل.

وقد قال الإمام أحمد [٢١٣/١]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عاصم، عن مورّق العجْلي، عن عبد الله بن جعفر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سَفر تلقّى بالصبيان من أهل بيته، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه. قال: فحملني بين يديه. قال: ثم جيء بأحد ابني فاطمة، إما حسن وإما حسين، فأردفه خلفه، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة. وقد رواه مسلم [٢٤٢٨] وأبو داود [٢٥٦٦] والنسائي [٤٢٤٦] وابن ماجه [٣٧٧٣] من حديث عاصم الأحول، عن مورّق به.

وقال الإمام أحمد [٢٠٥/١]: حدثنا روح حدثنا ابن جريج حدثنا جعفر بن خالد بن سارة أن أباه أخبره أن عبد الله بن جعفر قال: لو رأيتني وقثم وعبيد الله ابني العباس ونحن صبيان نلعب إذ مر النبي ﷺ على دابة فقال: «ارفعوا هذا إليّ» فحملني أمامه وقال لقثم: «ارفعوا هذا إليّ» فجعله وراءه، وكان عبيد الله أحب إلى عباس من قثم فما استحى من عمه أن حمل قثم وتركه.

قال: ثم مسح على رأسه ثلاثاً وقال كلما مسح: «اللّهم اخلف جعفراً في ولده» قال: قلت لعبد الله: ما فعل قثم؟ قال: استشهد قال: قلت: الله ورسوله أعلم بالخير. قال أجل.

ورواه النسائي [١٠٩٠٥] في «اليوم والليلة» من حديث ابن جريج به.

وهذا كان بعد الفتح فإن العباس إنما قدم المدينة بعد الفتح.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٠٣/١]: حدثنا إسماعيل حدثنا حبيب بن الشهيد عن عبد الله بن أبي مليكة قال: قال عبد الله بن جعفر لابن الزبير: أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم فحملنا وتركك.

هكذا رأيته في المسند وكأنه غلط في النسخة فإنه من مسند عبد الله بن جعفر فصوابه: قال: قال عبد الله بن الزبير لعبد الله بن جعفر: أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم فحملنا وتركك.

وبهذا اللفظ أخرجه البخاري [٣٠٨٢] ومسلم [٢٤٢٧] من حديث حبيب بن الشهيد وهذا يعد من الأجوبة المسكتة، ويروى أن عبد الله بن عباس أجاب به ابن الزبير أيضاً [المسند ٢٤٠/١] وهذه القصة قصة أخرى كانت بعد الفتح كما قدمنا بيانه والله أعلم.

سنة ٨- فضلُ زيد بن حارثة

أما زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيلة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة الكلبي القضاعي مولى رسول الله ﷺ. وذلك أن أمه ذهبت تزور أهلها فأغارت عليهم خيل بلقين فأخذوه فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، وقيل: اشتراه رسول الله ﷺ لها فوهبته من رسول الله ﷺ قبل النبوة، فوجده أبوه فاختار المقام عند رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه، فكان يقال له: زيد بن محمد.

وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً، وكان أول من أسلم من الموالي، ونزل فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٤] وقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠] وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧] الآية.

أجمعوا أن هذه الآيات أنزلت فيه، ومعنى ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق، وقد تكلمنا عليها في «التفسير».

والمقصود أن الله تعالى لم يسم أحداً من الصحابة في القرآن غيره، وهداه إلى الإسلام وأعتقه رسول الله ﷺ وزوجه مولاته أم أيمن واسمها بركة فولدت له أسامة بن زيد، فكان يقال له: الحِبّ ابن الحِبّ، ثم زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش وآخى بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب، وقدمه في الإمرة على ابن عمه جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة كما ذكرناه.

وقد قال الإمام أحمد [٢٢٦/٦، ٢٢٧] والإمام الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف: ١٨٨٢٤] ـ وهذا لفظه ـ: حدثنا محمد بن عبيد عن وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة كانت تقول: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمّره عليهم، ولو بقي بعده لاستخلفه.

ورواه النسائي [٨١٨٢] عن أحمد بن سليمان عن محمد بن عبيد الطنافسي به.

وهذا إسناد جيد قوي على شرط الصحيح وهو غريب جداً والله أعلم. وقال الإمام أحمد [١١٠/٢]: حدثنا سليمان حدثنا إسماعيل أخبرني ابن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليّ وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده».

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٦٦٢٧)، م (٢٤٢٦)] عن قتيبة عن إسماعيل - هو ابن جعفر بن أبي كثير المدني - عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر فذكره.

ورواه البخاري [٤٤٦٨] من حديث موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه.

ورواه البزار من حديث عاصم بن عمرو عن عبيد الله بن عمر العمري، عن نافع عن ابن عمر. ثم استغربه من هذا الوجه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ٢٦٧٥]: حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: لما أصيب زيد بن حارثة وجيء بأسامة بن زيد فأوقف بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فأخر ثم عاد من الغد فوقف بين يديه فقال: «الاقي منك اليوم ما لقيت منك أمس».

وهذا الحديث فيه غرابة والله أعلم.

وقد تقدم في «الصحيحين» [خ (٢٧٩٨)] أنه لما ذكر مصابهم وهو عليه السلام فوق المنبر جعل يقول: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله عليه» قال: وإن عينيه لتذرفان، وقال: «وما يسرهم أنهم عندنا».

وفي الحديث الآخر أنه شهد لهم بالشهادة فهم ممن يقطع لهم بالجنة.

وقد قال حسان بن ثابت يرثي زيد بن حارثة وابن رواحة [سيرة ابن هشام: ٣٨٧/٢، ٣٨٨]:

عينُ جُودي بدمعك المنزور	واذكري في الرخاء أهل القبور
واذكري مؤتة وما كان فيها	يوم راحوا في وقعة التغوير
حين راحوا وغادروا ثَمّ زيداً	نعم مأوى الضريك والمأسور
حِبُّ خير الأنام طراً جميعاً	سيد الناس حبه في الصدور
ذاكم أحمد الذي لا سواه	ذاك حزني له معاً وسروري
إن زيداً قد كان منّا بأمر	ليس أمر المكذّب المغرور
ثم جودي للخزرجي بدمع	سيداً كان ثَمّ غير نزور
قد أتانا من قتلهم ما كفانا	فبحزن نبيت غير سرور

سنة ٨- فضل جعفر بن أبي طالب

وأما جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم فهو ابن عم رسول الله ﷺ وكان أكبر من أخيه علي بعشر سنين، وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين، وكان طالب أسن من عقيل بعشر سنين، أسلم جعفر قديماً وهاجر إلى الحبشة، وكانت له هناك مواقف مشهورة، ومقامات محمودة، وأجوبة سديدة، وأحوال رشيدة، وقد قدمنا ذلك في هجرة الحبشة ولله الحمد.

وقد قدم على رسول الله ﷺ يوم خيبر فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أدري بأيهما أنا أسر، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟» وقام إليه واعتنقه وقبل بين عينيه، وقال له يوم خرجوا من عمرة القضية: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» فيقال: إنه حجل عند ذلك فرحاً كما تقدم ذلك في موضعه ولله الحمد والمنة.

ولما بعثه إلى مؤتة جعله في الإمرة مصلياً - أي ثانياً - لزيد بن حارثة، ولما قتل وجدوا فيه بضعاً وتسعين ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، وهو في ذلك كله مقبل غير مدبر، وكانت قد قطعت يده اليمنى ثم اليسرى وهو ممسك اللواء، فلما فقدهما احتضنه حتى قتل وهو كذلك. فيقال: إن رجلاً من الروم ضربه بسيف فقطعه باثنتين رضي الله عن جعفر ولعن قاتله.

وقد أخبر عنه رسول الله ﷺ بأنه شهيد، فهو ممن يقطع له بالجنة، وجاء بالأحاديث تسميته بذي الجناحين.

وروى البخاري [٣٧٠٩] عن ابن عمر: أنه كان إذا سلم على ابنه عبد الله بن جعفر يقول: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين، وبعضهم يرويه عن عمر بن الخطاب نفسه، والصحيح ما في «الصحيح» عن ابن عمر. قالوا: لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين في الجنة وقد تقدم بعض ما روي في ذلك.

قال الحافظ أبو عيسى الترمذي [٣٧٦٣]: حدثنا علي بن حجر حدثنا عبد الله بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة».

وتقدم في حديث أنه رضي الله عنه قتل وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وقال ابن الأثير في «الغابة» [٣٤٤/١]: كان عمره يوم قتل إحدى وأربعين، قال: وقيل: غير ذلك

قلت: وعلى ما قيل: إنه كان أسن من علي بعشر سنين يقتضي أن عمره يوم قتل تسع وثلاثون سنة لأن علياً أسلم وهو ابن ثمان سنين على المشهور فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر وعمره إحدى وعشرون سنة، ويوم مؤتة كان في سنة ثمان من الهجرة والله أعلم.

وقد كان يقال لجعفر بعد قتله: الطيار لما ذكرنا، وكان كريماً جواداً ممدحاً، وكان لكرمه يقال له في حياته: أبو المساكين لإحسانه اليهم.

قال الإمام أحمد [٤١٣/٢، ٤١٤]: وحدثنا عفان ثنا وهيب، حدثنا خالد عن عكرمة عن أبي هريرة قال: ما احتذى النعال ولا انتعل، ولا ركب المطايا ولا لبس الثياب من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب.

وهذا إسناد جيد إلى أبي هريرة وكأنه إنما يفضله في الكرم، فأما في الفضيلة الدينية فمعلوم أن الصديق والفاروق بل وعثمان بن عفان أفضل منه، وأما أخوه علي رضي الله عنهما فالظاهر أنهما متكافئان أو علي أفضل منه.

وإنما أراد أبو هريرة تفضيله في الكرم بدليل ما رواه البخاري [٣٧٠٨]: حدثنا أحمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن إبراهيم بن دينار أبو عبد الله الجهني عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة: أن الناس كانوا

يقولون: أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحرير ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، وكان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها. تفرد به البخاري.

وقال حسان بن ثابت يرثي جعفراً: [سيرة ابن هشام: ٣٨٦/٢، ٣٨٧]

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر	حِب النبي على البرية كلها
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لي	من للجلاد لدى العقاب وظلها
بالبيض حين تُسل من أغمادها	ضرباً وإنهال الرماح وعلّها
بعد ابن فاطمة المبارك جعفر	خير البرية كلها وأجلها
رُزءاً وأكرمها جميعاً محتداً	وأعزّها متظلماً وأذلها
للحق حين ينوب غير تنحل	كذباً وأنداها يداً وأقلها
فحشاً وأكثرها إذا ما يجتدى	فضلاً وأبذلها ندىً وأبلها
بالعرف غير محمد لا مثله	حيٌ من أحياء البرية كلها

سنة ٨- فضل عبد الله بن رواحة

وأما ابن رواحة فهو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج أبو محمد - ويقال: أبو رواحة، ويقال: أبو عمرو - الأنصاري الخزرجي وهو خال النعمان بن بشير، أخته عمرة بنت رواحة أسلم قديماً وشهد العقبة، وكان أحد النقباء ليلتئذ لبني الحارث بن الخزرج وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر، وكان يبعثه ﷺ على خرصها كما قدمنا وشهد عمرة القضاء، ودخل يومئذ وهو ممسك بزمام ناقة رسول الله ﷺ - وقيل: بغرزها. يعني الركاب - وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله

الأبيات كما تقدم. وكان أحد الأمراء الشهداء يوم مؤتة كما تقدم، وقد شجع المسلمين للقاء الروم حين اشتوروا في ذلك وشجع نفسه أيضاً حتى نزل بعد ما قتل صاحباه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالشهادة فهو ممن يقطع له بدخول الجنة. ويروى أنه لما أنشد النبي ﷺ شعره حين ودعه الذي يقول فيه:

فثبت الله ما آتاك من حسنٍ تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

قال له رسول الله ﷺ: «وأنت فثبتك الله».

قال هشام بن عروة: فثبته الله حتى قتل شهيداً ودخل الجنة.

وروى حماد بن زيد عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن عبد الله بن رواحة أتى رسول الله ﷺ وهو يخطب فسمعه يقول: «اجلسوا» فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبي من خطبته، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله».

وقال البخاري في «صحيحه» [فتح الباري: ٤٥/١]: وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة.

وقد ورد الحديث المرفوع في ذلك عن عبد الله بن رواحة بنحو ذلك.

فقال الإمام أحمد [٢٦٥/٣]: حدثنا عبد الصمد عن عمارة، عن زياد النميري عن أنس قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: تعال نؤمن بربنا ساعة، فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء فقال: يا رسول الله، ألا ترى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة! فقال النبي ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة» وهذا حديث غريب جداً.

وقال البيهقي [شعب الإيمان: ٧٥/١]: حدثنا الحاكم، حدثنا أبو بكر، حدثنا محمد بن أيوب حدثنا أحمد بن يونس حدثنا شيخ من أهل المدينة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار: أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له: تعال حتى نؤمن ساعة. قال: أو لسنا بمؤمنين؟ قال: بلى ولكنا نذكر الله فنزداد إيماناً.

وقد روى الحافظ أبو القاسم اللالكائي من حديث أبي اليمان عن صفوان بن سليم، عن شريح بن عبيد: أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول: قم بنا نؤمن ساعة فنجلس في مجلس ذكر.

وهذا مرسل من هذين الوجهين، وقد استقصينا الكلام على ذلك في أول «شرح البخاري» ولله الحمد والمنة.

وفي «صحيح البخاري» [١٩٤٥] عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في حر شديد وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وقد كان من شعراء الصحابة المشهورين، ومما نقله البخاري [١١٥٥] من شعره في رسول الله ﷺ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أنّ ما قال واقع

وقال البخاري [٤٢٦٧]: حدثنا عمران بن ميسرة، حدثنا محمد بن فضيل عن حصين، عن عامر عن النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي، واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟.

حدثنا قتيبة حدثنا عبثر عن حصين، عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة، بهذا. فلما مات لم تبك عليه.

وقد قدمنا ما رثاه به حسان بن ثابت مع غيره.

وقال شاعر من المسلمين ممن رجع من مؤتة مع من رجع رضي الله عنهم: [سيرة ابن هشام: ٣٨٨/٢]

كفى حزناً أني رجعت وجعفر	وزيد وعبد الله في رمس أقبرِ
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم	وخُلّفت للبلوى مع المتغبر

وسيأتي إن شاء الله تعالى بقية ما رُثي به هؤلاء الأمراء الثلاثة من شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك رضي الله عنهما وأرضاهما.

سنة ٨- من استشهد يوم مؤتة من المسلمين

فمن المهاجرين: جعفر بن أبي طالب، ومولاهم زيد بن حارثة الكلبي، ومسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة العدوي، ووهب بن سعد بن أبي سرح، فهؤلاء أربعة نفر. ومن الأنصار: عبد الله بن رواحة، وعباد بن

قيس الخزرجيان، والحارث بن النعمان بن إساف بن نضلة النجاري، وسراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء المازني، أربعة نفر. فمجموع من قتل من المسلمين يومئذ هؤلاء الثمانية على ما ذكره ابن إسحاق.

لكن قال ابن هشام [السيرة: ٣٨٨/٢، ٣٨٩]: وممن استشهد يوم مؤتة فيما ذكره ابن شهاب الزهري: أبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول المازنيان وهما شقيقان لأب وأم، وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى فهؤلاء أربعة من الأنصار أيضاً فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلاً، وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف مقاتل، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير.

هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف وما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟! دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن. وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان وفي كل أوان. وهذا مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾.

سنة ٨- حديث فيه فضيلة عظيمة لأمراء هذه السرية

وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.

قال الإمام العالم الحافظ أبو زرعة عبد الله بن عبد الكريم الرازي نضر الله وجهه في كتابه «دلائل النبوة» - وهو كتاب جليل -: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا ابن جابر. (ح) وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي حدثنا الوليد وعمرو - يعني ابن عبد الواحد - قالا: حدثنا ابن جابر سمعت سليم بن عامر الخبائري يقول: أخبرني أبو أمامة الباهلي سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بينا أنا نائم إذا أتاني رجلان فأخذا بضبعي فأتيا بي جبلاً وعراً فقالا: اصعد، فقلت: لا أطيقه، فقالا: إنا سنسهله لك قال: فصعدت حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة فقلت: ما هؤلاء الأصوات؟ فقالا: عواء أهل النار.

ثم انطلقا بي فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دماً فقلت: ما هؤلاء؟ فقالا: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم»، فقال: خابت اليهود والنصارى. قال سليم: لا أدري أسمعه من رسول الله ﷺ أم من رأيه؟ «ثم انطلقا بي فإذا قوم أشد شيء انتفاخاً وأنتن شيء ريحاً كأن ريحهم المراحيض قلت: من هؤلاء؟ قالا: هؤلاء قتلى الكفار.

ثم انطلقا بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتن شيء ريحاً كأن ريحهم المراحيض قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني.

ثم انطلقا بي فإذا بنساء تنهش ثديهن الحيات فقلت: ما بال هؤلاء؟ قالا: هؤلاء اللاتي يمنعن أولادهن ألبانهن.

ثم انطلقا بي فإذا بغلمان يلعبون بين بحرين قلت: من هؤلاء؟ قالا: هؤلاء ذراري المؤمنين.

ثم أشرفا بي شرفاً فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم فقلت: من هؤلاء؟ قالا: هذا جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفا بي شرفاً آخر فإذا أنا بنفر ثلاثة فقلت: من هؤلاء؟ قالا: هذا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهم ينتظرونك».

سنة ٨- ما قيل من الأشعار في غزوة مؤتة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٣/٢ - ٣٨٥]: وكان مما بُكي به أصحاب مؤتة قول حسان:

تأوبني ليل بيثرب أعسر ... وهمٌّ إذا ما نوَّم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لي عبرة ... سفوحاً وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المسلمين تواردوا ... شعوباً وخلفاً بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبيٌّ إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد ... بمعترك فيه القنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد ... وفاء وأمراً حازماً حين يأمر
وما زال في الإسلام من آل هاشم ... دعائم عز لا يُزلن ومفخر
همُ جبل الإسلام والناس حولهم ... رضام إلى طود يروق ويبهر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه ... علي ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهمُ ... عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللأواء في كل مأزق ... عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: [سيرة ابن هشام: ٣٨٥/٢، ٣٨٦]

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحّاً كما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت عليَّ همومها ... طوراً أحن وتارة أتململ
واعتادني حزنٌ فبتّ كأنني ... ببنات نعش والسِّماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشا ... مما تأوبني شهاب مدخل
وجْداً على النفر الذين تتابعوا ... يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فنقٌ عليهن الحديدُ المرفل

إذ يهتدون بجعفر ولوائه … قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر … حيث التقى وعث الصفوف مجدل
فتغير القمر المنير لفقده … والشمس قد كسفت وكادت تأفل
قَرم علا بنيانه من هاشم … فرعاً أشم وسؤدداً ما ينقل
قومٌ بهم عصم الإله عباده … وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضَلوا المعاشر عزّة وتكرماً … وتغمدت أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاه حُباهُمُ … ويُرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون أكفّهم … تندى إذا اعتذر الزمان الممحل
وبهديهم رضي الإله لخلقه … وبجدهم نُصر النبي المرسل

سنة ٨- كتاب بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق وكتبه إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل

ذكر الواقدي أن ذلك كان في آخر سنة ست في ذي الحجة بعد عمرة الحديبية.

وذكر البيهقي [الدلائل: ٣٧٦/٤ - ٣٩٦] هذا الفصل في هذا الموضع بعد غزوة مؤتة والله أعلم.

ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية لقول أبي سفيان لهرقل حين سأله: هل يغدر؟ فقال: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها.

وفي لفظ للبخاري [٧] وذلك في المدة التي ماد فيها أبو سفيان رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن إسحاق: كان ذلك ما بين الحديبية ووفاته عليه السلام. ونحن نذكر ذلك ههنا وإن كان قول الواقدي محتملاً والله أعلم.

وقد روى مسلم [١٧٧٤] عن يوسف بن حماد المعني عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كتب قبل موته إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه.

سنة ٨- إرساله ﷺ إلى هرقل

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عباس حدثني أبو سفيان بن فيه إلى فِيَّ قال: كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت الهدنة - هدنة الحديبية - بيننا وبين رسول الله ﷺ لم نأمن إن وجدنا أمناً، فخرجت تاجراً إلى الشام مع رهط من قريش فوالله ما علمت بمكة امرأة ولا رجلاً إلا وقد حملني بضاعة، وكان وجه متجرنا من الشام غزة من أرض فلسطين فخرجنا حتى قدمناها وذلك حين ظهر قيصر صاحب الروم على من كان في بلاده من الفرس فأخرجهم منها ورد عليه صليبه الأعظم وقد كان استلبوه إياه، فلما أن بلغه ذلك وقد كان منزله بحمص من أرض الشام فخرج منها يمشي متشكراً إلى بيت المقدس ليصلي فيه تبسط له البسط ويطرح عليها الرياحين، حتى انتهى إلى إيلياء فصلى بها.

فأصبح ذات غداة وهو مهموم يقلب طرفه إلى السماء، فقالت له بطارقته: أيها الملك لقد أصبحت مهموماً. فقال: أجل، فقالوا: وما ذاك؟ فقال: أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر، فقالوا: والله ما نعلم أمة من الأمم تختتن إلا اليهود وهم تحت يديك وفي سلطانك فإن كان قد وقع هذا في نفسك منهم فابعث في مملكتك كلها فلا يبقى يهودي إلا ضربت عنقه، فتستريح من هذا الهم، فإنهم في ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاهم رسول صاحب بصرى برجل من العرب قد وقع إليهم، فقال: أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاة والإبل يحدثك عن حدث كان ببلاده فاسأله عنه.

فلما انتهى إليه قال لترجمانه: سله ما هذا الخبر الذي كان في بلاده؟ فسأله فقال: هو رجل من العرب من قريش خرج يزعم أنه نبي، وقد اتبعه أقوام وخالفه آخرون، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن، فخرجت من بلادي وهم على ذلك.

فلما أخبره الخبر قال: جردوه فإذا هو مختون فقال: هذا والله الذي قد أريت لا ما تقولون، أعطه ثوبه،انطلق لشأنك. ثم إنه دعا صاحب شرطته فقال له: قلب لي الشام ظهراً لبطن حتى تأتي برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه.

قال أبو سفيان: فوالله إني وأصحابي لبغزّة إذ هجم علينا فسألنا: ممن أنتم؟ فأخبرناه فساقنا إليه جميعاً فلما انتهينا إليه قال أبو سفيان: فوالله ما رأيت من رجل قط أزعم أنه كان أدهى من ذلك الأغلف - يريد هرقل - قال: فلما انتهينا إليه قال: أيكم أمس به رحماً؟ فقلت: أنا، قال: ادنوه مني، قال: فأجلسني بين يديه ثم أمر أصحابي فأجلسهم خلفي وقال: إن كذب فردوا عليه.

قال أبو سفيان: فلقد عرفت أني لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرم وأستحي من الكذب، وعرفت أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني ثم يتحدثوا به عني بمكة فلم أكذبه، فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم، فزهدت له شأنه وصغرت له أمره، فوالله ما التفت إلى ذلك مني وقال: أخبرني عما أسألك عنه من أمره فقلت: سلني عما بدا لك؟ فقال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: محضاً من أوسطنا نسباً، قال: فأخبرني هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به؟ فقلت: لا قال: فأخبرني هل كان له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه؟ فقلت: لا قال: فأخبرني عن أتباعه من هم؟ فقلت: الأحداث والضعفاء والمساكين فأما أشرافهم وذوو الأسنان فلا.

قال: فأخبرني عمن يصحبه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ قلت: ما صحبه رجل ففارقه قال: فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه؟ فقلت: سجال يدال علينا وندال عليه. قال: فأخبرني هل يغدر؟ فلم أجد شيئاً أغره به إلا هي قلت: لا ونحن منه في مدة ولا نأمن غدره فيها. فوالله ما التفت إليها مني قال: فأعاد علي الحديث، فقال: زعمت أنه من أمحضكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه، وسألتك هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به فقلت: لا، وسألتك هل كان له ملك فاسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه فقلت: لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الأحداث والمساكين والضعفاء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان.

وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أنه قل من يصحبه فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك

كيف الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال يدال عليكم وتدالون عليه، وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر فلئن كنت صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل عن قدميه.

ثم قال: الحق بشأنك؟ قال: فقمت وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: يا عباد الله لقد أمِر أمْرَ ابن أبي كبشة، أصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في سلطانهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري قال: حدثني أسقف من النصارى قد أدرك ذلك الزمان قال: قدم دحية بن خليفة على هرقل بكتاب رسول الله ﷺ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن إثم الأكارين عليك». قال: فلما انتهى إليه كتابه وقرأه أخذه فجعله بين فخذه وخاصرته، ثم كتب إلى رجل من أهل رومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يخبره عما جاء من رسول الله ﷺ فكتب إليه: إنه النبي الذي ينتظر لا شك فيه فاتبعه، فأمر بعظماء الروم فجمعوا له في دسكرة ملكه ثم أمر بها فأشرجت عليهم واطلع عليهم من علية له وهو منهم خائف فقال:

يا معشر الروم إنه قد جاءني كتاب أحمد وإنه والله النبي الذي كنا ننتظر، ونجد ذكره في كتابنا نعرفه بعلاماته وزمانه، فأسلموا واتبعوه تسلم لكم دنياكم وآخرتكم، فنخروا نخرة رجل واحد وابتدروا أبواب الدسكرة فوجدوها مغلقة دونهم، فخافهم وقال: ردوهم علي، فردوهم عليه، فقال لهم: يا معشر الروم إني إنما قلت لكم هذه المقالة أختبركم بها لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فلقد رأيت منكم ما سرني فوقعوا له سجداً، ثم فتحت لهم أبواب الدسكرة فخرجوا.

وقد روى البخاري قصة أبي سفيان مع هرقل بزيادات أخر أحببنا أن نوردها بسندها وحروفها من «الصحيح» ليعلم ما بين السياقين من التباين، وما فيهما من الفوائد.

قال البخاري قبل الإيمان من «صحيحه» [٧]: حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره، إن أبا سفيان أخبره، أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان، وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بالترجمان فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، قال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.

ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه فوالله لولا أن يأثروا عني كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فإذا فيه.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام قال، وكان ابن الناطور - صاحب إيلياء وهرقل - سقفاً على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك؟ قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود.

فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسّان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا مُلك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي،

فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم، فتبايعوا لهذا النبي.

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي. وقال: إني إنما قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

قال البخاري: ورواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهري.

وقد رواه البخاري في مواضع كثيرة في «صحيحه» [٢٩٤١، ٥١] بألفاظ يطول استقصاؤها.

وأخرجه بقية الجماعة [م (١٧٧٣)، د (٥١٣٦)، ت (٢٧١٧)، س (١١٠٦٤)] إلا ابن ماجه من طرق عن الزهري.

وقد تكلمنا على هذا الحديث مطولاً في أول شرحنا «الصحيح البخاري» بما فيه كفاية، وذكرنا فيه من الفوائد والنكت المعنوية واللفظية ولله الحمد والمنة.

وقال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة قال: خرج أبو سفيان بن حرب إلى الشام تاجراً في نفر من قريش، وبلغ هرقل شأن رسول الله ﷺ، فأراد أن يعلم ما يعلم من أمر رسول الله ﷺ، فأرسل إلى صاحب العرب الذي بالشام في ملكه فأمره أن يبعث إليه برجال من العرب يسألهم عنه، فأرسل إليه ثلاثين رجلاً منهم أبو سفيان بن حرب، فدخلوا عليه في كنيسة إيلياء التي في جوفها.

فقال هرقل: أرسلت اليكم لتخبروني عن هذا الذي بمكة ما أمره؟ قالوا: ساحر كذاب وليس بنبي، قال: فأخبروني بأعلمكم به وأقربكم منه رحماً؟ قالوا: هذا أبو سفيان ابن عمه وقد قاتله، فلما أخبروه ذلك أمر بهم فأخرجوا عنه، ثم أجلس أبا سفيان فاستخبره، قال: أخبرني يا أبا سفيان؟ فقال: هو ساحر كذاب، فقال هرقل: إني لا أريد شتمه ولكن كيف نسبه فيكم؟ قال: هو والله من بيت قريش، قال: كيف عقله ورأيه؟ قال: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قط.

قال هرقل: هل كان حلافاً كذاباً مخادعاً في أمره؟ قال: لا والله ما كان كذلك، قال: لعله يطلب ملكاً أو شرفاً كان لأحد من أهل بيته قبله؟ قال أبو سفيان: لا، ثم قال: من يتبعه منكم هل يرجع إليكم منهم أحد؟ قال: لا، قال هرقل: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا إلا أن يغدر مدته هذه. فقال هرقل: وما تخاف من مدته هذه؟ قال: إن قومي امدوا حلفاءهم على حلفائه وهو بالمدينة، قال هرقل: إن كنتم أنتم بدأتم فأنتم أغدر، فغضب أبو سفيان وقال: لم يغلبنا إلا مرة واحدة وأنا يومئذ غائب - وهو يوم بدر - ثم غزوته مرتين في بيوتهم نبقر البطون ونجدع الآذان والفروج، فقال هرقل: أكاذباً تراه أم صادقاً؟ فقال: بل هو كاذب، فقال: إن كان فيكم نبي فلا تقتلوه، فإن أفعل الناس لذلك اليهود. ثم رجع أبو سفيان.

ففي هذا السياق غرابة وفيه فوائد ليست عند ابن إسحاق ولا البخاري.

وقد أورد موسى بن عقبة في «مغازيه» قريباً مما ذكره عروة بن الزبير، والله أعلم.

وقال ابن جرير في «تاريخه» [٢/٦٥٠، ٦٥١]: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم قال: إن هرقل قال لدحية بن خليفة الكلبي حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم فهو والله في الروم أعظم مني وأجوز قولاً عندهم مني، فانظر ماذا يقول لك؟ قال: فجاء دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل وبما يدعو إليه، فقال ضغاطر: صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا باسمه، ثم دخل وألقى ثياباً كانت عليه سوداً ولبس ثياباً بياضاً ثم أخذ عصاه فخرج على الروم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله.

قال: فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه قال: فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت: لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني.

وقد روى الطبراني [المعجم الكبير: ٤/٢٦٦ (٤١٩٨)] من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن عبد الله بن شداد عن دحية الكلبي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قيصر صاحب الروم بكتاب فقلت: استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ، فأتي قيصر فقيل له: إن على الباب رجلاً يزعم أنه رسول رسول الله ففزعوا لذلك وقال: أدخله فأدخلني عليه وعنده بطارقته فأعطيته الكتاب فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم» فنخر ابن أخ له أحمر أزرق سبط فقال: لا تقرأ الكتاب اليوم فإنه بدأ بنفسه، وكتب صاحب الروم ولم يكتب ملك الروم، قال: فقرئ الكتاب حتى فرغ منه ثم أمرهم فخرجوا من عنده ثم بعث إلي فدخلت عليه فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف فدخل عليه - وكان صاحب أمرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله - فلما قرأ الكتاب قال الأسقف:

هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظر، قال قيصر: فما تأمرني؟ قال الأسقف: أما أنا فإني مصدقه ومتبعه، فقال قيصر: أعرف أنه كذلك ولكن لا أستطيع أن أفعل إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم.

وبه قال محمد بن إسحاق عن خالد بن يسار عن رجل من قدماء أهل الشام قال: لما أراد هرقل الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية لما بلغه من أمر النبي ﷺ جمع الروم فقال: يا معشر الروم إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما أردت بها؟ قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فقالوا: نحن نكون تحت أيدي العرب ونحن أعظم الناس ملكاً، وأكثرهم رجالاً وأقصاهم بلداً؟! قال: فهلم أعطيه الجزية كل سنة أكسرعني شوكته وأستريح من حربه بما أعطيه إياه، قالوا: نحن نعطي العرب الذل والصغار بخرج يأخذونه منا ونحن أكثر الناس عدداً، وأعظمهم ملكاً، وأمنعهم بلداً، لا والله لا نفعل هذا أبداً، قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعني وأرض الشام، قال: وكانت أرض سورية: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض سورية، وما كان وراء الدرب عندهم فهو الشام. فقالوا: نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سُرَّة الشام؟ لا نفعل هذا أبداً، فلما أبوا عليه قال: أما والله لتودن أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم. قال: ثم جلس على بغل له، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام، ثم قال: السلام عليك يا أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية والله أعلم.

سنة ٨- إرساله ﷺ إلى ملك العرب من النصارى الذين بالشام

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب أخا بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق.

قال الواقدي: وكتب معه: «سلام على من اتبع الهدى وآمن به، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك». فقدم شجاع بن وهب فقرأه عليه فقال: ومن ينتزع ملكي؟ إني سأسير إليه.

سنة ٨- بعثه ﷺ إلى كسرى ملك الفرس

وروى البخاري [٧٢٦٤] من حديث الليث عن يونس عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه مع رجل إلى كسرى وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه.

قال: فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.

وقال عبد الله بن وهب، عن يونس عن الزهري: حدثني عبد الرحمن بن عبد القاري: أن رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال: «أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم فلا تختلفوا علي كما اختلفت بنو إسرائيل على عيسى بن مريم».

فقال المهاجرون: يا رسول الله إنا لا نختلف عليك في شيء أبداً فمرنا وابعثنا، فبعث شجاع بن وهب إلى كسرى، فأمر كسرى بإيوانه أن يزين ثم أذن لعظماء فارس، ثم أذن لشجاع بن وهب فلما أن دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله ﷺ أن يقبض منه، فقال شجاع بن وهب: لا حتى أدفعه أنا إليك كما أمرني رسول الله ﷺ، فقال كسرى: ادنه فدنا فناوله الكتاب ثم دعا كاتباً له من أهل الحيرة فقرأه فإذا فيه:

«من محمد عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس». قال: فأغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه، وصاح وغضب ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بشجاع بن وهب فأخرج، فلما رأى ذلك قعد على راحلته ثم سار ثم قال: والله ما أبالي على أي الطريقين أكون إذ أديت كتاب رسول الله ﷺ.

قال: ولما ذهب عن كسرى سورة غضبه بعث إلى شجاع ليدخل عليه فالتمس فلم يوجد، فطلب إلى الحيرة فسبق، فلما قدم شجاع على النبي ﷺ أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه لكتاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مزق كسرى ملكه».

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال: «مزق ملكه».

وقال ابن جرير [تاريخ الطبري: ٦٥٤/٢ - ٦٥٧]: حدثنا أحمد بن حميد، حدثنا سلمة حدثنا ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

قال: فلما قرأه شقه وقال: يكتب إلي بهذا وهو عبدي؟! قال: ثم كتب كسرى إلى باذام وهو نائبه على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث باذام قهرمانه - وكان كاتباً حاسباً - بكتاب فارس، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: خرخرة، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لأباذويه: ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره.

فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف فسألوه عنه فقال: هو بالمدينة، واستبشر أهل الطائف - يعني وقريش بهما - وفرحوا. وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه أباذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذام يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما وقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟» قالا: أمرنا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ: «ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي» ثم قال: «ارجعا حتى تأتياني غداً».

قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله. قال: فدعاهما فأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا فنكتب عنك بهذا ونخبر الملك باذام؟ قال: «نعم أخبراه ذاك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء».

ثم أعطى خُرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذام فأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا، فلم ينشب باذام أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد، فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق الى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذام قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن. قال: وقد قال باذويه لباذام: ما كلمت أحداً أهيب عندي منه فقال له باذام: هل معه شرط؟ قال: لا.

قال الواقدي رحمه الله: وكان قتل كسرى على يدي ابنه شيرويه ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع من الهجرة لست ساعات مضت منها.

قلت: وفي شعر بعضهم ما يرشد أن قتله كان في شهر حرام وهو قول بعض الشعراء:

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يُمتَّع بكفن

وقال بعض شعراء العرب:

وكسرى إذ تقاسمه بنوه بأسياف كما اقتسم اللحام
تمخضت المنون له بيوم أتى ولكل حاملة تمام

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٩٠/٤] من حديث حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن أبي بكرة أن رجلاً من أهل فارس أتى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إن ربي قد قتل الليلة ربك» قال: وقل له - يعني النبي ﷺ -: إنه قد استخلف ابنته فقال: «لا يفلح قوم تملكهم امرأة».

قال البيهقي [الدلائل: ٣٩٠/٤، ٣٩١]: وروي في حديث دحية بن خليفة أنه لما رجع من عند قيصر وجد عند رسول الله ﷺ رسل عامل كسرى، وذلك أن كسرى بعث يتوعد صاحب صنعاء ويقول له: ألا تكفيني أمر رجل قد ظهر بأرضك يدعوني إلى دينه؟ لتكفينه أو لأفعلن بك، فبعث فقال لرسله: «أخبروه أن ربي قد قتل ربه الليلة» فوجدوه كما قال.

قال [البيهقي في الدلائل: ٣٩١/٤]: وروى داود بن أبي هند عن عامر الشعبي نحو هذا.

ثم روى البيهقي [البيهقي في الدلائل: ٣٩١/٤] من طريق أبي بكر بن عياش عن داود بن أبي هند عن أبيه عن أبي هريرة قال: أقبل سعد إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن في وجه سعد خبراً» فقال: يا رسول الله هلك كسرى فقال: «لعن الله كسرى أول الناس هلاكاً فارس ثم العرب»

قلت: الظاهر أنه لما أخبر رسول الله ﷺ بهلاك كسرى لذينك الرجلين يعني الأميرين اللذين قدما من نائب اليمن باذام، فلما جاء الخبر بوفق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام وشاع في البلاد وكان سعد بن أبي وقاص أول من سمع جاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بوفق إخباره عليه السلام وهكذا بنحو هذا التقدير ذكره البيهقي رحمه الله [البيهقي في الدلائل: ٣٩١/٤].

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٣٩١/٤، ٣٩٢] من غير وجه عن الزهري: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه بلغه أن كسرى بينما هو في دسكرة ملكه بعث له - أو قيض له - عارض يعرض عليه الحق فلم يفجأ كسرى إلا برجل يمشي وفي يده عصاً فقال: يا كسرى هل لك في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ فقال كسرى: نعم لا تكسرها، فولى الرجل فلما ذهب أرسل كسرى الى حجابه فقال: من أذن لهذا الرجل علي؟ فقالوا: ما دخل عليك أحد، فقال: كذبتم، قال: فغضب عليهم وتهددهم ثم تركهم.

قال: فلما كان رأس الحول أتى ذلك الرجل ومعه العصا قال: يا كسرى هل لك في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ قال: نعم لا تكسرها، فلما انصرف عنه دعا حجابه فقال لهم كالمرة الأولى، فلما كان العام المستقبل أتاه ذلك الرجل معه العصا فقال له: هل لك يا كسرى في الإسلام قبل أن أكسر العصا فقال: لا تكسرها. فكسرها، فأهلك الله كسرى عند ذلك.

وقال الإمام الشافعي: أنبأنا ابن عيينة عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

أخرجه مسلم [٢٩١٨/٧٥] من حديث ابن عيينة وأخرجاه [خ (٣٦١٨)، م (٢٩١٨/٧٥)] من حديث الزهري به.

قال الشافعي: ولما أتى كسرى بكتاب رسول الله ﷺ مزقه، فقال رسول الله ﷺ: «تمزق ملكه».

وحفظنا أن قيصراً أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه في مسك، فقال رسول الله ﷺ: «ثبت ملكه».

قال الشافعي وغيره من العلماء [البيهقي في الدلائل: ٣٩٤/٤]: ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة فأسلم من أسلم منهم، شكوا خوفهم من ملكي العراق والشام إلى رسول الله ﷺ فقال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» قال: فباد ملك الأكاسرة بالكلية، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية، وإن ثبت لهم ملك في الجملة ببركة دعاء رسول الله ﷺ لهم حين عظموا كتابه والله أعلم.

قلت: وفي هذا بشارة عظيمة بأن ملك الروم لا يعود أبداً إلى أرض الشام. وكانت العرب تسمي قيصر لمن ملك الشام مع الجزيرة من الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، والنجاشي لمن ملك الحبشة، والمقوقس لمن ملك الإسكندرية، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، وبطليموس لمن ملك الهند، ولهم أعلام أجناس غير ذلك وقد ذكرناها في غير هذا الموضع والله أعلم.

وروى مسلم [٢٩١٩/٧٨] عن قتيبة وغيره عن أبي عوانة، عن سماك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى في القصر الأبيض».

وروى أسباط عن سماك، عن جابر بن سمرة مثل ذلك، وزاد: وكنت أنا وأبي فيهم فأصابنا من ذلك ألف درهم.

سنة ٨- بعثه ﷺ إلى المقوقس صاحب مدينة الإسكندرية واسمه جريج بن مينا القبطي

قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن عبد القاري: أن رسول الله ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فمضى بكتاب رسول الله ﷺ إليه، فقبل الكتاب وأكرم حاطباً وأحسن نزله وسرحه إلى النبي ﷺ، وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين إحداهما أم إبراهيم وأما الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن قيس العبدي. رواه البيهقي [الدلائل: ٣٩٥/٤].

ثم روى [البيهقي في الدلائل: ٣٩٥/٤، ٣٩٦] من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: حدثنا يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب بن أبي بلتعة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال: فجئته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلني في منزله وأقمت عنده، ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته وقال: إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني قال: قلت: هلم قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبياً؟ قلت: بلى هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلت عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال: بلى قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم هذه هدايا أبعث بها

معك إلى محمد وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك.

قال: فأهدى إلى رسول الله ﷺ ثلاث جوار منهن أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لأبي جهم بن حذيفة العدوي، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت الأنصاري، وأرسل إليه بطرف من طرفهم.

وذكر ابن إسحاق أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ أربع جوار إحداهن مارية أم إبراهيم والأخرى سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان.

قلت: وكان في جملة الهدية غلام أسود خصي اسمه مابور وخفان ساذجان أسودان وبغلة بيضاء اسمها الدلدل، وكان مابور هذا خصياً ولم يعلموا بأمره بادئ الأمر فصار يدخل على مارية كما كان من عاداتهم ببلاد مصر، فجعل بعض الناس يتكلم فيهما بسبب ذلك ولا يعلمون بحقيقة الحال وأنه خصي حتى قال بعضهم: إنه الذي أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتله فوجده خصياً فتركه، والحديث في صحيح مسلم [٢٧٧١].

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو بن عبد ود أخا بني عامر بن لؤي إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي، أخي بني عبد القيس، صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر بن الجلندي وعمار بن الجلندي الأزديين صاحبي عمان.

سنة ٨- غزوة ذات السلاسل

ذكرها الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٩٧/٤ - ٤٠٣] ههنا قبل غزوة الفتح، فساق من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير قالا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلي وعبد الله ومن يليهم من قضاعة - قال عروة بن الزبير: بنو بلي أخوال العاص بن وائل - فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين، فانتدب أبو بكر وعمر في جماعة من سراة المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، وأمّر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح.

قال موسى بن عقبة فلما قدموا على عمرو قال: أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك وأبوعبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو: إنما أنتم مدد أمددته، فلما رأى ذلك أبو عبيدة - وكان رجلاً حسن الخلق لين الشيمة قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا» وإنك إن عصيتني لأطيعنك. فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بلي فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يتألفهم بذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له: السلاسل - وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل - قال: فلما كان عليه وخاف، بعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: «لا تختلفا».

فخرج أبوعبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مدداً إليّ، فقال له أبوعبيدة: لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه. وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً، هيناً عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: أنت مددي فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قد قال لي: «لا تختلفا» وإنك إن عصيتني أطعتك، فقال له عمرو: فإني أمير عليك وإنما أنت مدد لي، قال: فدونك. فصلى عمرو بن العاص بالناس.

وقال الواقدي: حدثني ربيعة بن عثمان عن يزيد بن رومان أن أبا عبيدة لما آب إلى عمرو بن العاص فصاروا خمسمائة فساروا الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلي ودوّخها، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا بك تفرقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة، وتراموا بالنبل، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة وأصيب ذراعه، وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرقوا، ودوخ عمرو ما هناك وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن لهم غنائم تقسم.

وقال أبو داود [٣٣٤]: حدثنا ابن المثنى حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يحيى بن أيوب يحدث عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، قال: فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قال: فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٩] فضحك نبي الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

حدثنا محمد بن سلمة حدثنا ابن وهب حدثنا ابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان على سرية. فذكر الحديث بنحوه.

قال: فغسل مغابنه وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم فذكر نحوه ولم يذكر التيمم.

قال أبو داود: وروى هذه القصة عن الأوزاعي عن حسان بن عطية وقال فيه: فتيمم.

وقال الواقدي: حدثني أفلح بن سعيد عن ابن عبد الرحمن بن رقيش، عن أبي بكر بن حزم قال: كان عمرو بن العاص حين قفلوا احتلم في ليلة باردة كأشد ما يكون من البرد، فقال لأصحابه: ما ترون؟ قد والله احتلمت فإن اغتسلت مت، فدعا بماء فتوضأ وغسل فرجه وتيمم ثم قام فصلى بهم، فكان أول من بعث عوف بن مالك بريداً.

قال عوف: فقدمت على رسول الله ﷺ في السحر وهو يصلي في بيته فسلمت عليه فقال رسول الله ﷺ: «عوف بن مالك؟» فقلت: عوف بن مالك يا رسول الله، قال: «صاحب الجزور؟» قلت: نعم. ولم يزد على هذا بعد ذلك شيئاً ثم قال: «أخبرني» فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان من أبي عبيدة وعمرو ومطاوعة أبي عبيدة، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح».

قال: ثم أخبرته أن عمراً صلى بالناس وهو جنب ومعه ماء لم يزد

على أن غسل فرجه وتوضأ، فسكت رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو على رسول الله ﷺ سأله عن صلاته، فأخبره فقال: والذي بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت لم أجد برداً قط مثله. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قال: فضحك رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه قال شيئاً.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٥/٢، ٦٢٦]: حدثني يزيد بن أبي حبيب عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنت في الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص وهي غزوة ذات السلاسل، فصحبت أبا بكر وعمر فمررت بقوم وهم على جزور قد نحروها وهم لا يقدرون على أن يُعَضُّوها، وكنت امرءاً جازراً، فقلت لهم: تعطوني منها عشيراً على أن أقسمها بينكم؟ قالوا: نعم، فأخذت الشفرة فجزأتها مكاني وأخذت منها جزءاً فحملته إلى أصحابي فاطَّبخناه وأكلناه.

فقال أبو بكر وعمر: أنى لك هذا اللحم ياعوف؟ فأخبرتهما فقالا: لا والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما منه، فلما أن قفل الناس من ذلك السفر كنت أول قادم على رسول الله ﷺ فجئته وهو يصلي في بيته فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال: «أعوف بن مالك؟» فقلت: نعم بأبي أنت وأمي فقال: «صاحب الجزور؟» ولم يزدني على ذلك شيئاً.

هكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن عوف بن مالك وهو منقطع بل معضل.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٠٥/٤]: وقد رواه ابن لهيعة وسعيد بن أبي أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط، عن مالك بن هدم أظنه عن عوف بن مالك فذكر نحوه إلا أنه قال: فعرضته على عمر فسألني عنه فأخبرته فقال: قد تعجلت أجرك ولم يأكله.

ثم حكى عن أبي عبيدة مثله، ولم يذكر فيه أبا بكر وتمامه كنحو ما تقدم. وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٠٠/٤، ٤٠١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا علي بن عاصم حدثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، قال: فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة» قلت: إني لست أسألك عن أهلك، قال: «فأبوها» قلت: ثم من؟ قال: «عمر» قلت: ثم من؟ حتى عدد رهطاً قال: قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا.

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [خ (٣٦٦٢)، م (٢٣٨٤)] من طريق خالد بن مهران الحذاء عن أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مل، حدثني عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب» فعدد رجالاً. وهذا لفظ البخاري.

وفي رواية [خ (٤٣٥٨)]: قال عمرو: فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم.

سنة ٨- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر

قال الإمام مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة، قال جابر: وأنا فيهم، فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد فأتوا أبا عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع كله فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ولم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، قال: فقلت: وما تغني تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت.

قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب، قال: فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشر ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ثم مرت تحتها فلم تصبهما.

أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٢٤٨٣)، م (١٩٣٥/٢١)] من حديث مالك بنحوه.

وهو في «الصحيحين» أيضاً [خ (٤٣٦١)، م (١٩٣٥/١٨)] من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن جابر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في ثلاثمائة راكب، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط قال: ونحر رجل ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ثم ثلاثاً فنهاه أبو عبيدة، قال: وألقى البحر دابة يقال لها: العنبر فأكلنا منها نصف شهر وادّهنا حتى ثابت إلينا أجسامنا وصلحت، ثم ذكر قصة الضلع.

فقوله في الحديث: نرصد عيراً لقريش دليل على أن هذه السرية كانت قبل صلح الحديبية والله أعلم.

والرجل الذي نحر لهم الجزائر هو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤٠٨/٤، ٤٠٩]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن إسحاق حدثنا إسماعيل بن قتيبة، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو خيثمة وهو زهير بن معاوية عن أبي الزبير، عن جابر قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط، ثم نبله بالماء فنأكله.

قال: فانطلقنا إلى ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا به دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولقد كنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور أو كقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشرة رجلاً فأقعدهم في عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه، فأقامها ثم رحل أعظم بعير منها فمر تحتها، وتزودنا من لحمها وشائق.

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شيء من لحمه تطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكل منه.

ورواه مسلم [١٩٣٥/١٧] عن يحيى بن يحيى وأحمد بن يونس.

وأبو داود [٣٨٤٠] عن النفيلي، ثلاثتهم عن أبي خيثمة زهير بن معاوية الجعفي الكوفي عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي عن جابر بن عبد الله الأنصاري به.

قلت: ومقتضى أكثر هذه السياقات أن هذه السرية كانت قبل صلح الحديبية، ولكن اوردناها ههنا تبعا للحافظ البيهقي رحمه الله، فإنه أوردها بعد مؤتة وقبل غزوة الفتح والله أعلم.

وقد ذكر البخاري [٤٣٦٩] بعد غزوة مؤتة سرية أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة فقال: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا هشيم، أنبأنا حصين بن جندب، حدثنا أبو ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وقد تقدم هذا الحديث والكلام عليه فيما سلف.

ثم روى البخاري [٤٢٧٠] من حديث يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات علينا مرة أبو بكر ومرة أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ثم ذكر الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤/٤١٠ - ٤١٢] ههنا موت النجاشي - صاحب الحبشة - على الإسلام، ونعي رسول الله ﷺ له إلى المسلمين وصلاته عليه.

فروي من طريق مالك عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ نعى إلى الناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر أربع تكبيرات.

أخرجاه [خ (١٢٤٥)، م (٩٥١/٦٢)] من حديث مالك.

وأخرجاه أيضا [خ (١٣٢٧)، م (٩٥١/٦٣)] من حديث الليث عن عقيل عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة بنحوه.

وأخرجاه [خ (١٣٢٠)، م (٩٥٢/٦٥)] من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مات اليوم رجل صالح». فصلوا على أصحمة وقد تقدمت هذه الأحاديث أيضاً والكلام عليها ولله الحمد.

قلت: والظاهر أن موت النجاشي كان قبل الفتح بكثير، فإن في «صحيح مسلم» [١٧٧٤] أنه لما كتب إلى ملوك الآفاق كتب إلى النجاشي وليس هو بالمسلم.

وزعم آخرون كالواقدي أنه هو والله أعلم.

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤/٤١٢] من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن موسى بن عقبة عن أبيه، عن أم كلثوم قالت: لما تزوج النبي ﷺ أم سلمة قال: «قد أهديت إلى النجاشي أواقي من مسك وحلة وإني لا أراه إلا قد مات، ولا أرى الهدية إلا سترد علي فإن ردت علي - أظنه قال - قسمتها بينكن» أو «فهي لك» قال: فكان كما قال رسول الله ﷺ، مات النجاشي وردت الهدية، فلما ردت عليه أعطى كل امرأة من نسائه أوقية، من ذلك المسك، وأعطى سائره أم سلمة، وأعطاها الحلة والله أعلم.

سنة ٨- غزوة الفتح الأعظم وكانت في رمضان

وقد ذكرها الله تعالى في القرآن في غير موضع فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحديد: ١٠] الآية. وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

وكان سبب الفتح بعد هدنة الحديبية ما ذكره محمد بن إسحاق: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعاً قالا: كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له: الوتير وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ، وأن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبر الخبر وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشدها إياه:

لاهُمَّ إني ناشدٌ محمداً ... حلفَ أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... فهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: «انصرت يا عمرو بن سالم» فما برح حتى مرت بنا عنانة في السماء فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

قال بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٨٩]: وكان السبب الذي هاجهم أن رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد من حلفاء الأسود بن رزن، خرج تاجراً فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن الديلي - وهم منخر بني كنانة وأشرافهم، سلمى وكلثوم وذؤيب - فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٣٩٠، ٣٩١]: وحدثني رجل من الدئل قال: كان بنو الأسود بن رزن يودون في الجاهلية ديتين ديتين.

قال ابن إسحاق: فبينا بنوبكر وخزاعة على ذلك إذ حجز بينهم الإسلام، فلما كان يوم الحديبية ودخل بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وكانت الهدنة اغتنمها بنو الدئل من بني بكر

وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأراً بأولئك النفر، فخرج نوفل بن معاوية الدئلي في قومه وهو يومئذ سيدهم وقائدهم وليس كل بني بكر تابعه، فبيت خزاعة وهم على الوتير - ماء لهم- فأصابوا رجلاً منهم وتحاوزوا واقتتلوا ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ ولجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء بمكة وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع. وقد قال الأخزر بن لعط الدئلي في ذلك [سيرة ابن هشام: ٢/٣٩٢، ٣٩٣]:

ألا هل أتى قصوى الأحابيش أننا ... رددنا بني كعب بأفوق ناصل
حبسناهم في دارة العبد رافع ... وعند بديل محبساً غير طائل
بدار الذليل الآخذ الضيم بعدما ... شفينا النفوس منهم بالمناصل
حبسناهم حتى إذا طال يومهم ... نفخنا لهم من كل شعب بوابل
نذبحهم ذبح التيوس كأننا ... أسود تبارى فيهم بالقواصل
هم ظلمونا واعتدوا في مسيرهم ... وكانوا لدى الأنصاب أول قاتل
كأنهم بالجزع إذ يطردونهم ... قفا ثور حفان النعام الجوافل

قال: فأجابه بديل بن عبد مناة بن سلمة بن عمرو بن الأجب وكان يقال له: بديل بن أم أصرم فقال:

تعاقد قومٌ يفخرون ولم ندع ... لهم سيداً يندوهم غير نافل
أمن خيفة القوم الأولى تزدريهم ... تجيز الوتير خائفاً غير آيل
وفي كل يوم نحن نحبو حباءنا ... لعقلٍ ولا يُحبى لنا في المعاقل
ونحن صبحنا بالتلاعة داركم ... بأسيافنا يسبقن لوم العواذل
ونحن منعنا بين بيضٍ وعتود ... إلى خيف رضوى من مجر القنابل
ويوم الغميم قد تكفت ساعياً ... عبيس فجعناه بجلد حلاحل
أأن أجرت في بيتها أمُّ بعضكم ... بجعموسها تنزون إن لم نقاتل
كذبتم وبيت الله ما إن قتلتمُ ... ولكن تركنا أمركم في بلابل

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد في العقد ويزيد في المدة».

قال ابن إسحاق: ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ يشد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا للذي صنعوا.

فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ فقال: سرت فيخزاعة في هذا الساحل في بطن هذا الوادي. قال: فعمد أبو سفيان إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني؟ فقالت: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراشه، فقال: يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر ثم خرج فأتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يردَّ عليه شيئاً.

ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها حسن غلام يدب بين يدهما، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ؟ فقال: ويحك أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: والله ما بلغ بنيَّ ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على النبي ﷺ، فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني؟ قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك فقال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة فوالله ما وجدت فيه خيراً، ثم جئت عمر فوجدته أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم وقد أشار علي بأمر صنعته فوالله ما أدري هل يغني عنا شيئاً أم لا؟ قالوا: بماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويحك ما زادك الرجل على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت، فقال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

فائدة ذكرها السهيلي [الروض الأنف: ٧/٨٥، ٨٦] تكلم على قول فاطمة في هذا الحديث: وما يجير أحد على رسول الله ﷺ على ما جاء في الحديث: «ويجير على المسلمين أدناهم» [د (٢٧٥١، ٤٥٣١)، ج (٢٦٨٥)، المسند: ٢/٣٦٥، ٤/١٩٧، ٥/٢٥٠، ٦/١٩٠، ٣١٥].

قال: وجه الجمع بينهما بأن المراد بالحديث من يجير واحداً أو نفراً يسيراً، وقول فاطمة فمن يجير عدواً من غزو الإمام إياهم فليس له ذلك.

قال: كان سحنون وابن الماجشون يقولان: إن أمان المرأة موقوف على إجازة الإمام لقوله ﷺ لأم هانئ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

قال: ويروى هذا عن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

وقال أبو حنيفة: لا يجوز أمان العبد وفي قوله عليه السلام: «ويجير عليهم أدناهم» ما يقتضي دخول العبد والمرأة والله أعلم.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٥/١٣] من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قالت بنو كعب:

لاهُمَّ إني ناشدٌ محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

وقال موسى بن عقبة في فتح مكة: ثم إن بني نفاثة من بني الدئل أغاروا على بني كعب وهم في المدة التي بين رسول الله ﷺ وبين قريش، وكانت بنو كعب في صلح رسول الله ﷺ، وكانت بنو نفاثة في صلح

قريش، فأعانت بنو بكر بني نفاثة وأعانتهم قريش بالسلاح والرقيق، واعتزلتهم بنو مدلج ووفوا بالعهد الذي كانوا عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، وفي بني الدئل رجلان هما سيداهم، سَلْمُ بن الأسود وكلثوم بن الأسود.

ويذكرون أن ممن أعانهم صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو، فأغارت بنو الدئل على بني عمرو وعامتهم - زعموا - نساء وصبيان وضعفاء الرجال فألجؤوهم وقتلوهم حتى أدخلوهم إلى دار بديل بن ورقاء بمكة، فخرج ركب من بني كعب حتى أتوا رسول الله ﷺ فذكروا له الذي أصابهم وما كان من قريش عليهم في ذلك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ارجعوا فتفرقوا في البلدان».

وخرج أبو سفيان من مكة إلى رسول الله ﷺ وتخوف الذي كان، فقال: يا محمد اشدد العقد وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: «ولذلك قدمت؟ هل كان من حدث قبلكم؟» فقال: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل.

فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتى أبا بكر فقال: جدد العقد وزدنا في المدة. فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله ﷺ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم.

ثم خرج فأتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال عمر بن الخطاب: ما كان من حلفنا جديداً فأخلقه الله. وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله. فقال له أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً.

ثم دخل على عثمان فكلمه فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثم اتبع أشراف قريش يكلمهم فكلهم يقول: عقدنا في عقد رسول الله ﷺ، فلما يئس مما عندهم دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكلمها فقالت: إنما أنا امرأة وإنما ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لها: فأمري أحد ابنيك، فقالت: إنهما صبيان ليس مثلهما يجير، قال: فكلمي علياً، فقالت: أنت فكلمه، فكلم علياً فقال له: يا أبا سفيان إنه ليس من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات على رسول الله ﷺ بجوار، وأنت سيد قريش وأكبرها وأمنعها فأجر بين عشيرتك، قال: صدقت وأنا كذلك.

فخرج فصاح: ألا إني قد أجرت بين الناس ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد، ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجرت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد ولا يرد جواري؟ فقال: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة» فخرج أبو سفيان على ذلك فزعموا - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ قال حين أدبر أبو سفيان: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة».

وقدم أبو سفيان مكة فقالت له قريش: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد؟ قال: لا والله لقد أبى علي وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له، غير أن علي بن أبي طالب قد قال لي: لم تلتمس جوار الناس على محمد ولا تجير أنت عليه وعلى قومك وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لا يخفر جواره؟ فقمت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أني قد أجرت بين الناس وقلت: ما أظن أن تخفرني؟ فقال: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟». فقالوا - مجيبين له -: رضيت بغير رضاً، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً وإنما لعب بك علي لعمر الله ما جوارك بجائز وإن إخفارك عليهم لهين، ثم دخل على امرأته فحدثها الحديث فقالت: قبحك الله من وافد قوم فما جئت بخير.

قال: ورأى رسول الله ﷺ سحاباً فقال: «إن هذه السحاب لتبض بنصر بني كعب» فمكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث بعدما خرج أبو سفيان، ثم أخذ في الجهاز وأمر عائشة أن تجهزه وتخفي ذلك، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد أو إلى بعض حاجاته، فدخل أبو بكر على عائشة فوجد عندها حنطة تنسف وتنقى، فقال لها: يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت فقال: أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت فقال يريد بني الأصفر؟ - وهم الروم - فصمتت قال: فلعله يريد أهل نجد؟ فصمتت قال: فلعله يريد قريشاً؟ فصمتت.

قال: فدخل رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله ﷺ أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال: «نعم» قال: فلعلك تريد بني الأصفر؟ قال: «لا» قال: أتريد أهل نجد؟ قال: «لا»، قال: فلعلك تريد قريشاً؟ قال: «نعم»، قال أبو بكر: يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة؟ قال: «ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟»!

قال: وأذن رسول الله ﷺ في الناس بالغزو، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش وأطلع الله رسوله ﷺ على الكتاب وذكر القصة كما سيأتي.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر عن عروة عن عائشة أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم فتجهز، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً غير أنه قد أمرنا بالجهاز.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٧/٢، ٣٩٨]: ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

فتجهز الناس فقال حسان يحرض الناس ويذكر مصاب خزاعة: [ديوان حسان: ٣٣٠، ٣٣١]

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة ... رجال بني كعب تحز رقابها

بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم ... وقتلى كثير لم تجن ثيابها

ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي ... سهيل بن عمرو حرها وعقابها

وصفوان عود حز من شفر استه ... فهذا أوان الحرب شد عصابها

فلا تأمننا يا ابن أم مجالد ... إذا احتلبت صرفاً وأعصل نابها

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا ... لها وقعة بالموت يفتح بابها

سنة ٨- قصة حاطب بن أبي بلتعة

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٨/٢، ٣٩٩]: حدثني محمد بن جعفر عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قالوا: لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة - زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة، وزعم لي غيره أنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب - وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن

أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لـه مـن أمرهـم» فخرجـا حتى أدركاها بالخليقة خليقة بني أبي أحمد فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا فيه شيئاً.

فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كـذب رسـول اللـه ﷺ ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه قالت: أعرض فأعرض، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه، فـأتى به رسول الله ﷺ.

فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملـك علـى هـذا؟» فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكنني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصـل ولا عشـيرة وكـان لي بـين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلـع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

وأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَـدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِـالْمَوَدَّةِ وَقَـدْ كَفَرُوا بِمَا جَـاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِـي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى آخر القصة.

هكذا أورد ابن إسحاق هذه القصة مرسلة.

وقد ذكر السهيلي [الروض الأنف: ٨٦/٧] أنه كان في كتـاب حـاطب: إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم باللـه لـو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده.

قال: وفي «تفسير ابن سلام» أن حاطباً كتب: إن محمـداً قـد نفـر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر.

وقد قال البخاري [٤٢٧٤]: ثنا قتيبة ثنا سفيان عـن عمـرو بـن دينـار أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبيد اللـه بـن أبي رافـع سمعـت علياً يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتـى تـأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخـذوه منهـا» فانطلقنـا تعـادى بنـا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثيـاب. قـال: فأخرجتـه من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخـبرهم ببعـض أمـر رسـول اللـه ﷺ فقـال: «يـا حاطب ما هذا؟» فقال: يا رسـول اللـه لا تعجـل علـي إنـي كنـت امـرءاً ملصقاً في قريش - يقول: كنت حليفاً ولم أكـن مـن أنفسـها - وكـان مـن معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهـم، فـأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بهـا قرابتـي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول اللـه دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدراً ومـا يدريـك لعـل الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفـرت لكـم» فأنزل اللـه السـورة: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَدُوَّكُـمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وأخرجه بقيـة الجماعـة [م (٢٤٩٤)، د (٢٦٥٠)، ت (٣٣٠٥)، س (١١٥٨٥)] إلا ابن ماجه من حديـث سـفيان بـن عيينـة وقـال الـترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٣٥٠/٣]: حدثنا حجين ويونس قـالا: حدثنـا ليـث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله: أن حـاطب بـن أبـي بلتعـة كتب إلى أهل مكة يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فدل رسول اللـه ﷺ على المرأة التي معها الكتـاب فأرسـل إليهـا فـأخذ كتابهـا مـن رأسـها وقال: «يا حاطب أفعلت؟» قال: نعم، قال: أما إني لم أفعله غشـاً لرسـول الله ﷺ ولا نفاقاً. قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره غـير أنـي كنت عزيراً بين ظهريهم وكانت والدتي معهم فأردت أن أتخذ هذا عندهم، فقال له عمر: ألا أضرب رأس هذا؟ فقال: «أتقتل رجلاً من أهل بدر وما يدريك لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم».

تفرد بهذا الحديث من هذا الوجه الإمـام أحمـد، وإسناده علـى شـرط مسلم ولله الحمد.

سنة ٨- الصيامُ في غزوةِ الفتحِ

قال ابـن إسـحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٩/٢، ٤٠٠]: فحدثـني محمـد بـن مسلم بن شهاب الزهري عن عبيد الله بـن عبـد اللـه بـن عتبـة عـن ابـن عباس قال: ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف علـى المدينـة أبـا رهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخـرج لعشـر مضـين من شهر رمضان فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معـه، حتـى إذا كـان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر، ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين - وقال عروة بن الزبير: كان معه اثنا عشر ألفـاً. وكـذا قال الزهري وموسى بن عقبة - فسبعت سليم وبعضهم يقول: ألفت سليم وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مـع رسـول اللـه ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد.

وروى البخاري [٤٢٧٦] عن محمود عن عبد الرزاق عن معمر، عـن الزهري نحوه. وقد روى البيهقي [الدلائل: ٢١/٥] من حديث عـاصم بـن علي عن الليث بن سعد عن عقيل عن الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح في رمضان. قـال: وسمعت سعيد بن المسيب يقول مثل ذلـك، لا أدري أخـرج في ليـال مـن شعبان فاستقبل رمضان، أو خرج في رمضان بعدمـا دخـل؟ غـير أن عبيـد الله بن عبد الله أخبرني أن ابن عباس قال: صـام رسـول اللـه ﷺ حتـى بلغ الكديد - الماء الذي بين قديد وعسفان - أفطر، فلم يـزل يفطـر حتـى انصرم الشهر.

ورواه البخاري [٤٢٧٥] عن عبد الله بن يوسف عن الليث، غير أنـه لم يذكر الترديد بين شعبان ورمضان.

وقال البخاري [٤٢٧٩]: ثنا علي بن عبد الله حدثنا جرير عن منصور، عن مجاهد، عن طاوس عن ابن عبـاس قـال: سـافر رسـول اللـه ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بإنـاء فشـرب نهـاراً لـيراه النـاس، فأفطر حتى قدم مكة. قال: وكان ابن عباس يقول: صام رسـول اللـه ﷺ في السفر وأفطر، فمن شاء صام، ومن شاء أفطر.

وقال يونس عن ابن إسحاق عن الزهري، عن عبيد الله بن عبـد اللـه عن ابن عباس قال: مضى رسول الله ﷺ لسـفرة الفتـح واسـتعمل علـى المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام وصام الناس معه حتى أتـى الكديـد - مـاء بـين عسـفان وأمـج - فأفطر، ودخل مكة مفطراً، فكان الناس يرون أن آخر الأمرين مـن رسـول

الله ﷺ الفطر، وأنه نسخ ما كانت قبله.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٠/٥]: فقوله خرج لعشر من رمضان مدرج في الحديث، وكذلك ذكره عبد الله بن إدريس عن ابن اسحاق.

ثم روى [الدلائل: ٢٠/٥، ٢١] من طريق يعقوب بن سفيان، عن حامد بن يحيى عن صدقة عن ابن إسحاق، أنه قال: خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من رمضان سنة ثمان.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢٣/٥] من حديث أبي إسحاق الفزاري، عن محمد بن أبي حفصة، عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: كان الفتح لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان.

قال البيهقي: وهذا الإدراج وهْم إنما هو من كلام الزهري.

ثم روى [الدلائل: ٢٣/٥، ٢٤] من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح - فتح مكة - فخرج من المدينة في رمضان ومعه من المسلمين عشرة آلاف، وذلك على رأس ثماني سنين ونصف سنة من مقدمة المدينة. وافتتح مكة لثلاث عشرة بقين من رمضان.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢١/٥، ٢٢] من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج في رمضان ومعه عشرة آلاف من المسلمين، فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر. فقال الزهري: وإنما يؤخذ بالأحدث فالأحدث.

قال الزهري: فصبح رسول الله ﷺ مكة لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، ثم عزاه في «الصحيحين» [خ (٤٢٧٦)، م (١١١٣/٨٨)] من طريق عبد الرزاق والله أعلم.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٤/٥] من طريق سعيد بن عبد العزيز التنوخي عن عطية بن قيس عن قزعة بن يحيى عن أبي سعيد الخدري قال: آذننا رسول الله ﷺ بالرحيل عام الفتح لليلتين خلتا من رمضان فخرجنا صواماً حتى بلغنا الكديد، فأمرنا رسول الله ﷺ بالفطر، فأصبح الناس شرجين منهم الصائم ومنهم المفطر، حتى إذا بلغنا المنزل الذي نلقى العدو فيه أمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعون.

وقد رواه الإمام أحمد [٨٧/٣] عن أبي المغيرة، عن سعيد بن عبد العزيز، حدثني عطية بن قيس عمن حدثه عن أبي سعيد الخدري قال: آذننا رسول الله ﷺ بالرحيل عام الفتح لليلتين خلتا من رمضان، فخرجنا صواماً حتى بلغنا الكديد، فأمرنا رسول الله بالفطر، فأصبح الناس منهم الصائم ومنهم المفطر، حتى إذا بلغ أدنى منزل تلقاء العدو أمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعون.

قلت: فعلى ما ذكره الزهري من أن الفتح كان يوم الثالث عشر من رمضان، وما ذكره أبو سعيد من أنهم خرجوا من المدينة في ثاني شهر رمضان، يقتضي أن مسيرهم كان بين مكة والمدينة في إحدى عشرة ليلة.

ولكن روى البيهقي [الدلائل: ٢٤/٥] عن أبي الحسين بن الفضل عن عبد الله بن جعفر، عن يعقوب بن سفيان، عن الحسن بن الربيع، عن ابن إدريس، عن محمد بن إسحاق عن الزهري ومحمد بن علي بن الحسين، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعمرو بن شعيب، وعبدالله بن أبي بكر وغيرهم قالوا: كان فتح مكة في عشر بقيت من شهر رمضان سنة ثمان.

قال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود: ١٦٦٧]: ثنا وهيب عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر عن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائماً حتى أتى كراع الغميم والناس معه مشاة وركباناً وذلك في شهر رمضان، فقيل: يا رسول الله إن الناس قد اشتد عليهم الصوم، وإنما ينظرون كيف فعلت. فدعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء فرفعه فشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأفطر البعض حتى أخبر النبي ﷺ أن بعضهم صائم فقال رسول الله ﷺ: «أولئك العصاة».

وقد رواه مسلم [١١١٤] من حديث الثقفي، والدراوردي عن جعفر بن محمد.

وروى الإمام أحمد [٢٦١/١] من حديث محمد بن إسحاق: حدثني بشير بن يسار عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عام الفتح في رمضان فصام وصام المسلمون معه، حتى إذا كان بالكديد دعا بماء في قعب، وهو على راحلته فشرب والناس ينظرون، يعلمهم أنه قد أفطر، فأفطر المسلمون، تفرد به أحمد.

سنة ٨- إسلام العباس وأبي سفيان بن الحارث وآخرين قبيل الفتح

في إسلام العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخي أم سلمة أم المؤمنين وهجرتهم إلى رسول الله ﷺ فوجدوه في أثناء الطريق وهو ذاهب إلى فتح مكة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٠/٢، ٤٠١]: وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق.

قال ابن هشام: لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض، فيما ذكره ابن شهاب الزهري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٠/٢، ٤٠١]: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية قد لقيا رسول الله ﷺ أيضاً بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة والتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك قال: «لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال».

قال: فلما خرج إليهما الخبر بذلك، ومع أبي سفيان بُني له فقال: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض، حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ ذلك النبي ﷺ رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما، وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذر إليه مما كان مضى منه:

لعمرك إني يوم أحملُ رايةً ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أُهدى وأهتدي
هداني هاد غير نفسي ونالني ... مع الله من طردت كل مطرد
أصدُّ وأنأى جاهداً عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هُمُ ما هُمُ من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فقل لثقيف لا أريد قتالها ... وقل لثقيف تلك غيري أوعدي

فما كنت في الجيش الذي نال عامراً وما كان عن جرًا لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلادٍ بعيدة نزائع جاءت من سهام وسردد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠١/٢]: فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ:

ونــــالني...................... مع اللّه مَن طردت كل مطرَّد

ضرب رسول اللّه ﷺ بيده في صدره وقال: «أنت طردتني كل مطرد».

سنة ٨- المسيرُ إلى فتح مكة

ولما انتهى رسول اللّه ﷺ إلى مر الظهران نزل فيه، فأقام كما روى البخاري [٣٤٠٦] عن يحيى بن بكير عن الليث، ومسلم [٢٠٥٠] عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، كلاهما عن يونس، عن الزهري عن أبي سلمة، عن جابر قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ بمر الظهران نجتني الكباث، وإن رسول اللّه ﷺ قال: «عليكم بالاسود منه فإنه أطيب» قالوا: يا رسول اللّه أكنت ترعى الغنم؟ قال: «نعم وهل من نبي إلا وقد رعاها؟».

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٩/٥]: عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير عن سنان بن إسماعيل عن أبي الوليد سعيد بن مينا قال: لما فرغ أهل مؤتة ورجعوا أمرهم رسول اللّه ﷺ بالمسير إلى مكة، فلما انتهى إلى مر الظهران نزل بالعقبة، فأرسل الجناة يجتنون الكباث، فقلت لسعيد: وما هو؟ قال: ثمر الأراك قال: فانطلق ابن مسعود فيمن يجتني، قال: فجعل أحدهم إذا أصاب حبة طيبة قذفها في فيه، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقي ابن مسعود وهو يرقي في الشجرة فيضحكون فقال رسول اللّه ﷺ: «تعجبون من دقة ساقيه؟ فوالذى نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد».

وكان ابن مسعود ما اجتنى من شيء جاء به وخياره فيه إلى رسول اللّه ﷺ فقال في ذلك:

هـذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وفي «الصحيحين» [خ (٢٥٧٢)، م (١٩٥٣)] عن أنس قال: أنفجنا أرنباً ونحن بمر الظهران فسعى القوم فلغبوا فأدركتها فأخذتها له فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، وبعث إلى رسول اللّه ﷺ بوركها أو فخذيها فقبله.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٠/٢]: ونزل رسول اللّه ﷺ مر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول اللّه ﷺ ولا يدرون ما رسول اللّه ﷺ فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به.

وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة: أن رسول اللّه ﷺ بعث بين يديه،خيلاً يقتصون العيون وخزاعة لا تدع أحداً يمضي وراءها، فلما جاء أبو سفيان وأصحابه أخذتهم خيل المسلمين وقام إليه عمر يجأ في عنقه حتى أجاره العباس بن عبد المطلب وكان صاحباً لأبي سفيان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٢/٢]: وقال العباس حين نزل رسول اللّه ﷺ مر الظهران: قلت: وا صباح قريش واللّه لئن دخل رسول اللّه ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر،

قال: فجلست على بغلة رسول اللّه ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول اللّه ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال: فواللّه إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذا سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. قال: يقول بديل: هذه واللّه خزاعة حمشتها الحرب.

قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة. فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ قال: قلت: نعم، قال: ما لك فدى لك أبي وأمي؟ قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول اللّه ﷺ في الناس واصباح قريش واللّه، قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: واللّه لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول اللّه ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه. وقال عروة: بل ذهبا إلى النبي ﷺ فأسلما وجعل يستخبرهما عن أهل مكة.

وقال الزهري وموسى بن عقبة: بل دخلوا مع العباس على رسول اللّه ﷺ.

قال ابن إسحاق: قال: فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول اللّه ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول اللّه ﷺ على بغلة رسول اللّه ﷺ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو اللّه ' الحمد للّه الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

وزعم عروة بن الزبير أن عمر وجأ في رقبة أبي سفيان وأراد قتله فمنعه منه العباس.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن عيون رسول اللّه ﷺ أخذوهم بأزمة جمالهم فقالوا: من أنتم؟ قالوا: وفد رسول اللّه ﷺ فلقيهم العباس فدخل بهم على رسول اللّه فحادثهم عامة الليل ثم دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه فشهدوا وأن محمداً رسول اللّه فشهد حكيم وبديل وقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك ثم أسلم بعد الصبح ثم سألوه أن يؤمن قريشاً فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - وكانت بأعلى مكة - ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن - وكانت بأسفل مكة - ومن أغلق بابه فهو آمن».

قال العباس [سيرة ابن هشام: ٤٠٢/٢، ٤٠٣]: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول اللّه ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، قال: فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول اللّه ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول اللّه هذا أبو سفيان قد أمكن اللّه منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه. قال: قلت: يا رسول اللّه إني قد أجرته.

ثم جلست إلى رسول اللّه ﷺ فأخذت برأسه فقلت: واللّه لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه قال: قلت: مهلاً يا عمر فواللّه أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس فواللّه لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول اللّه ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال رسول الله: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به» قال: فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم إني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا. قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». زاد عروة: «ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن».

وهكذا قال موسى بن عقبة عن الزهري «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا سفيان وبديلاً وحكيم بن حزام كانوا وقوفاً مع العباس عند خطم الجبل، وذكر أن سعداً لما قال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل الحرمة، فشكى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام فدخل بها من أعلا مكة وغرزها بالحجون، ودخل خالد من أسفل مكة فلقيه بنو بكر وهذيل فقتل من بني بكر عشرين ومن هذيل ثلاثة أو أربعة وانهزموا فقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد.

قال العباس [سيرة ابن هشام: ٤٠٤/٢، ٤٠٥]: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، قال: ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: سليم فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته قال: ما لي ولبني فلان.

حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم،فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وذكر عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لما مر بأبي سفيان قال له: إني لأرى وجوها كثيرة لا أعرفها لقد كثرت هذه الوجوه علي.

فقال له رسول الله: «أنت فعلت هذا وقومك إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتموني ونصروني إذ أخرجتموني» ثم شكى إليه قول سعد بن عبادة حين مر عليه فقال: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فقال رسول الله ﷺ: «كذب سعد بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة».

وذكر عروة أن أبا سفيان لما أصبح صبيحة تلك الليلة التي كان عند العباس، ورأى الناس يجشحشون للصلاة وينتشرون في استعمال الطهارة خاف وقال للعباس: ما بالهم؟ قال: إنهم سمعوا النداء فهم ينتشرون للصلاة، فلما حضرت الصلاة ورآهم يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال: يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه! قال: نعم والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه.

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أنه لما توضأ رسول الله ﷺ جعلوا يتكففون، فقال: يا عباس ما رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصر.

وقد روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٢/٥ - ٣٥] عن الحاكم وغيره عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس فذكر هذه القصة بتمامها كما أوردها زياد البكائي عن ابن إسحاق منقطعة فالله أعلم.

على أنه قد روى البيهقي [الدلائل: ٣١/٥، ٣٢] من طريق أبي بلال الأشعري عن زياد البكائي عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال: جاء العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ قال: فذكر القصة إلا أنه ذكر أنه أسلم من ليلته قبل أن يصبح بين يدي رسول الله ﷺ، وأنه لما قال له رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» قال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال: «ومن دخل الكعبة فهو آمن» قال: وما تسع الكعبة؟ فقال: «ومن دخل المسجد فهو آمن» قال: وما يسع المسجد؟ فقال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

وقال البخاري [٤٢٨٠]: حدثنا عبيد بن إسماعيل ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه قال: لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح فبلغ ذلك قريشاً خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ كأنها نيران عرفة! فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك.

فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع رسول الله ﷺ تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار قال: ما لي ولغفار ثم مرت جهينة فقال مثل ذلك، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك، ومرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها فقال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية.

فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية رسول الله ﷺ مع

الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ فقال: «ما قال؟» قال: كذا وكذا فقال: «كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة» وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون.

قال عروة: وأخبرني نافع بن جبير بن مطعم قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: ههنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال: نعم، قال: وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلا مكة من كداء ودخل رسول الله ﷺ من كُدى فقُتل من خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان: حبيش بن الأشعر وكرز بن جابر الفهري.

وقال أبو داود [٣٠٢١]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا يحيى بن آدم ثنا ابن إدريس عن محمد بن إسحاق،عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ عام الفتح، جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب، فأسلم بمر الظهران، فقال له العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئا؟ قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

سنة ٨- صفة دخوله ﷺ مكة

ثبت في «الصحيحين» [خ (٤٢٨٦)، م (١٣٥٧)] من حديث مالك عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاءه رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال: «اقتلوه» قال مالك ولم يكن رسول الله ﷺ فيما نرى والله أعلم محرماً.

وقال أحمد [٣٦٣/٣]: ثنا عفان ثنا حماد أنبأ أبو الزبير عن جابر: أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء.

ورواه أهل السنن الأربعة [د (٤٠٧٦)، ت (١٧٣٥)، س (٩٧٥٧)، ج (٢٨٢٢، ٣٥٨٥)] من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه مسلم [١٣٥٨] عن قتيبة ويحيى بن يحيى عن معاوية بن عمار الدهني عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام.

وروى مسلم [١٣٥٩/٤٥٣] من حديث أبي أسامة عن مساور الوراق عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة حرقانية سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه.

وروى مسلم في «صحيحه» [١٣٥٨/٠٠٠] والترمذي [١٦٧٩] والنسائي [٥٣٦٠] من حديث عمار الدهني عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء.

وروى أهل السنن الأربعة [د (٢٥٩٢)، ت (١٦٧٩)، س (٢٨٦٦)، ج (٢٨١٧)] من حديث يحيى بن آدم عن شريك القاضي عن عمار الدهني عن أبي الزبير عن جابر قال: كان لواء رسول الله ﷺ يوم دخل مكة أبيض.

وقال ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عائشة قالت: كان لواء رسول الله ﷺ يوم الفتح أبيض ورايته سوداء تسمى العُقاب، وكانت قطعة من مرط مرجل.

وقال البخاري [٤٢٨١]: ثنا أبو الوليد ثنا شعبة عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة «الفتح» يرجِّع وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعت كما رجَّع.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٥/٢]: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٦٨/٥، ٦٩]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا دعلج بن أحمد ثنا أحمد بن علي الأبار ثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحله متخشعاً.

وقال [الدلائل: ٦٩/٥] أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو بكر بن بالويه ثنا أحمد بن صاعد ثنا إسماعيل بن أبي الحارث ثنا جعفر بن عون ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن ابن مسعود أن رجلا كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال النبي ﷺ: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

قال: وهكذا رواه محمد بن سليمان بن فارس وأحمد بن يحيى بن الزهير عن إسماعيل بن أبي الحارث موصولاً.

ثم رواه عن أبي زكريا المزكي عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب، عن محمد بن عبد الوهاب،عن جعفر بن عون، عن إسماعيل عن قيس مرسلاً قال: وهو المحفوظ.

وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود - أي ركع - يقولون: حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعيرة.

وقال البخاري [٤٢٩٠]: حدثنا [الهيثم] بن خارجة ثنا حفص بن ميسرة عن هشام بن عروة عن أبيه: أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة، وتابعه أبو أسامة ووهيب: في كداء.

حدثنا [خ (٤٢٩١)] عبيد بن إسماعيل ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه: دخل رسول الله ﷺ عام الفتح من أعلى مكة من كداء وهو أصح.

إن أراد أن المرسل أصح من المسند المتقدم انتظم الكلام وإلا فكداء بالمد هي المذكورة في الروايتين وهي في أعلى مكة وكُدى مقصوراً في أسفل مكة وهذا هو المشهور والأنسب وقد تقدم أنه عليه السلام بعث خالد بن الوليد من أعلى مكة ودخل هو عليه السلام من أسفلها من كُدى وهو في «صحيح البخاري» والله أعلم.

وقد قال البيهقي [الدلائل: ٦٦/٥]: أنبأنا أبو الحسن بن عبدان أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا عبد الله بن الصقر عن إبراهيم بن المنذر الحزامي ثنا معن ثنا عبد الله بن عمر بن حفص عن نافع عن ابن عمر قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل فتبسم إلى أبي بكر وقال: «يا أبا بكر كيف قال حسان؟» فأنشده أبو بكر رضي الله عنه:

عدمت بنيتي إن لم تروْها ... تُثير النقع من كتفي كداء
ينازعْنَ الأعنة مسرجاتٍ ... يلطمُهنَّ بالخُمُر النساء

فقال رسول الله ﷺ: «ادخلوها من حيث قال حسان». وقال محمد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٥/٢، ٤٠٦]: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أي بنية اظهري بي على أبي قبيس، قالت: وقد كف بصره، قالت: فأشرفت به عليه فقال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال: أي بنية ذلك الوازع - يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها - ثم قالت: قد والله انتشر السواد، فقال: قد والله إذن دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي فانحطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، قالت: وفي عنق الجارية طوق من ورق فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه. قال: مقالت: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال: «أسلم» فأسلم، قالت: ودخل به أبو بكر وكان رأسه كالثغامة بياضاً فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا من شعره» ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي؟ فلم يجبه أحد قالت: فقال: أي أخيه احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة في الناس اليوم القليل. يعني الصديق ذلك اليوم على التعيين لأن الجيش فيه كثرة ولا يكاد أحد يلوي على أحد مع انتشار الناس ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٩٦/٥]: ثنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس الأصم ثنا بحر بن نصر ثنا ابن وهب أخبرني ابن جريج،عن أبي الزبير،عن جابر: أن عمر بن الخطاب أخذ بيد أبي قحافة فأتى به النبي ﷺ، فلما وقف به على رسول الله ﷺ قال: «غيروه ولا تقربوه سواداً».

قال ابن وهب: وأخبرني عمر بن محمد عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٦/٢]: فحدثني عبد الله بن أبي نجيح أن رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذي طوى أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدى، وكان الزبير على المجنبة اليسرى، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٦/٢، ٤٠٧]: فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة فسمعها رجل.

قال ابن هشام: يقال: إنه عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله أتسمع ما يقول سعد بن عبادة؟ ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله ﷺ لعلي: «أدركه فخذ الراية منه فكن أنت تدخل بها».

قلت: وذكر غير محمد بن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٣٨/٥] أن رسول الله ﷺ لما شكى إليه أبو سفيان قول سعد بن عبادة حين مر به، وقال: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة - يعني الكعبة - فقال النبي ﷺ: «بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة» وأمر بالراية - راية الأنصار - أن تؤخذ من سعد بن عبادة كالتأديب له، ويقال: إنها دفعت إلى ابنه قيس بن سعد.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: دفعها إلى الزبير بن العوام فالله أعلم.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة يعقوب بن إسحاق بن دينار ثنا عبد الله بن السري الأنطاكي ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد. وحدثني موسى بن عقبة عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: دفع رسول الله ﷺ الراية يوم فتح مكة إلى سعد بن عبادة فجعل يهزها ويقول: اليوم يوم الملحمة يوم تستحل الحرمة. قال: فشق ذلك على قريش وكبر في نفوسهم.

قال: فعارضت امرأة رسول الله ﷺ في مسيره وأنشأت تقول:

يا نبي الهدى إليك لجا ... حيّ قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ... ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو ... م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهـ ... ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ ... ـظ رمانا بالنسر والعواء
فانهينه فإنه الأسد الأسـ ... ـود والليث والغ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى ... يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش ... بقعة القاع في أكف الإماء
إنه مصلت يريد لها القا ... ي صموت كالحية الصماء

قال: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر دخله رحمة لهم ورأفة بهم، وأمر بالراية فأخذت من سعد بن عبادة ودفعت إلى ابنه قيس بن سعد.

قال: فيروى أنه عليه الصلاة والسلام أحب أن لا يخيبها إذا رغبت إليه واستغاثت به، وأحب أن لا يغضب سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٧/٢]: وذكر ابن أبي نجيح في حديثه أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد فدخل من الليط أسفل مكة في بعض الناس، وكان خالد على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة فضربت له هنالك قبته.

وروى البخاري [١٥٨٨] من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع؟» ثم قال: «لا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المؤمن».

ثم قال البخاري [٤٢٨٤]: حدثنا أبو اليمان، ثنا شعيب، ثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «منزلنا - إن شاء الله إذا فتح الله - الخيف حيث تقاسموا على الكفر».

وقال الإمام أحمد [٣٥٣/٢]: حدثنا يونس ثنا إبراهيم - يعني ابن سعد - عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».

ورواه البخاري [٤٢٨٥] من حديث إبراهيم بن سعد به نحوه.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٧/٢، ٤٠٨]: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحاً قبل قدوم رسول الله ﷺ ويصلح منه، فقالت له امرأته: لما تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله

ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فما لي علة ... هذا سلاح كامل وألّه
وذو غرارين سريع السّلّه

قال: ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوشوهم شيئاً من قتال فقتل كرز بن جابر أحد بني محارب بن فهر وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليف بني منقذ وكانا في جيش خالد، فشذا عنه فسلكا غير طريقه فقتلا جميعاً، وكان قبل كرز قتل خنيس قالا: وقتل من خيل خالد أيضاً سلمة بن الميلاء الجهني وأصيب من المشركين قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر ثم انهزموا فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ثم قال لامرأته: أغلقي علي بابي، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

قال ابن هشام [السيرة: ٤٠٩/٢]: وتروى هذه الأبيات للرعاش الهذلي.

قال: وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله.

وقال الطبراني [المعجم الأوسط: ٣٨٧٨] ثنا علي بن سعيد الرازي ثنا أبو حسان الزيادي ثنا شعيب بن صفوان عن عطاء بن السائب عن طاوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض وصاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام وأنه لا يحل لأحد قبلي وإنما حل لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان» فقيل له: هذا خالد بن الوليد يقتل؟ فقال: «قم يا فلان فأت خالد بن الوليد فقل له فليرفع يديه من القتل».

فأتاه الرجل فقال: إن النبي ﷺ يقول: اقتل من قدرت عليه، فقتل سبعين إنساناً فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأرسل إلى خالد فقال: «ألم أنهك عن القتل؟» فقال: جاءني فلان فأمرني أن أقتل من قدرت عليه، فارسل إليه: «ألم آمرك؟» قال أردت أمراً وأراد الله أمراً فكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذي كان. فسكت عنه النبي ﷺ فما رد عليه شيئاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٩/٢]: وقد كان رسول الله ﷺ عهد إلى أمرائه أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم غير أنه أهدر دم نفر سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه فر إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله» فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بالإشارة».

وفي رواية [د (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)]: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

قال ابن هشام [السيرة: ٤٠٩/٢]: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان

قلت: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاتها في بيته كما سيأتي بيانه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٩/٢، ٤١٠]: وعبد الله بن خطل رجل من بني تيم بن غالب.

قلت: ويقال: إن اسمه عبد العزى بن خطل ويحتمل أنه كان كذلك ثم لما أسلم سمي عبد الله ولما أسلم بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له فغضب عليه غضبة فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان له قينتان: فرتنى وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين، فلهذا أهدر دمه ودم قينتيه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة، اشترك في قتله أبو برزة الأسلمي وسعيد بن حريث المخزومي وقتلت إحدى قينتيه واستؤمن للأخرى.

قال [سيرة ابن هشام: ٤١٠/٢، ٤١١]: والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي وكان ممن يؤذي رسول الله بمكة، ولما تحمل العباس بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة يلحقهما برسول الله ﷺ أول الهجرة نخس بهما الحويرث هذا الجمل الذي هما عليه فسقطتا إلى الأرض، فلما أهدر دمه قتله علي بن أبي طالب.

قال: ومقيس بن صبابة لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعد ما أخذ الدية ثم ارتد مشركاً، قتله رجل من قومه يقال له: نميلة بن عبد الله.

قال: وسارة مولاة لبني عبد المطلب ولعكرمة بن أبي جهل لأنها كانت تؤذي رسول الله ﷺ وهي بمكة.

قلت: وقد تقدم عن بعضهم أنها التي تحملت الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة وكأنها عفي عنها أو هربت ثم أهدر دمها والله أعلم. فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ فأمنها فعاشت إلى زمن عمر فأوطأها رجل فرساً فماتت.

وذكر السهيلي [الروض الأنف: ١١١/٧] أن فرتنى أسلمت أيضاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٠/٢]: وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام واستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمنه فذهبت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٥٩/٥، ٦٠]: أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الفقيه أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنبأنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر الهمداني قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين. وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة» وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

فأما عبد الله بن خطل فادرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً وكان أشب الرجلين فقتله.

وأما مقيس فادركه الناس في السوق فقتلوه.

وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم قاصف فقال أهل السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينج في البحر إلا الإخلاص فإنه لا ينجي في البر غيره، اللهم إن

لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً.

فجاء فأسلم، وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث،ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هـذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك؟ فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

ورواه أبو داود [٢٦٨٣] والنسائي [٤٠٧٨] من حديث أحمد بن المفضل به نحوه.

وقال البيهقي [الدلائل: ٦٠/٥، ٦١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ،أنبأنا أبو العباس الأصم، أنبأنا أبو زرعة الدمشقي، ثنا الحسن بن بشر الكوفي، ثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة،عن أنس بن مالك قال: أمن رسول الله ﷺ الناس يوم فتح مكة إلا أربعة: عبد العزى بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأم سارة.

فأما عبد العزى بن خطل فإنه قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قال: ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إذا رآه وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة فأتى به رسول الله ﷺ ليشفع له، فلما بصر به الأنصاري اشتمل على السيف،ثم أتاه فوجده في حلقة رسول الله ﷺ فجعل يتردد ويكره أن يقدم عليه، فبسط النبي ﷺ يده فبايعه، ثم قال للأنصاري: «قد انتظرتك أن توفي بنذرك» قال: يا رسول الله هبتك أفلا أومضت إلي؟ قال: «إنه ليس للنبي أن يومض».

وأما مقيس بن صبابة فذكر قصته في قتله رجلاً مسلماً بعد إسلامه ثم ارتداده بعد ذلك.

قال: وأما أم سارة فكانت مولاة لقريش، فأتت النبي ﷺ فشكت إليه الحاجة،فأعطاها شيئاً، ثم بعث معها رجل بكتاب إلى أهل مكة فذكر قصة حاطب بن أبي بلتعة.

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن مقيس بن صبابة قتل أخوه هشام يوم بني المصطلق، قتله رجل من المسلمين وهو يظنه مشركاً فقدم مقيس مظهراً للإسلام ليطلب دية أخيه، فلما أخذها عدا على قاتل أخيه فقتله ورجع إلى مكة مشركاً، فلما أهدر رسول الله ﷺ دمه قتل وهو بين الصفا والمروة.

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٩٣/٢، ٢٩٤] والبيهقي [الدلائل: ٦١/٥] شعره حين قتل قاتل أخيه وهو قوله:

شفى النفس من قد بات بالقاع مسنداً ... يضرج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تُلمُّ وتنسيني وطاء المضاجع
قتلت به فهراً وغرمت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارع
حللت به نذري وأدركت ثؤرتي ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

قلت: وقيل إن القينتين اللتين أهدر دمهما كانتا لمقيس بن صبابة هذا، وإن ابن عمه قتله بين الصفا والمروة. وقال بعضهم: قتل ابن خطل الزبير بن العوام رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١١/٢]: حدثني سعيد بن أبي هند، عن أبي مرة مولى عقيل بن أبي طالب أن أم هانئ ابنة أبي طالب قالت: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

قال ابن إسحاق: وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل علي أخي علي بن أبا طالب فقال: والله لأقتلهما فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إليّ فقال: «مرحباً وأهلاً بأم هانئ ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ، فقال: «قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا يقتلهما»

قال البخاري [٤٢٩٢]: حدثنا أبو الوليد، ثنا شعبة،عن عمرو بن مرة، عن ابن أبي ليلى قال: ما أخبرنا أحد أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى غير أم هانئ فإنها ذكرت أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، ثم صلى ثماني ركعات، قالت: ولم أره صلى صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود.

وفي «صحيح مسلم» [٣٣٦/٧١] من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعيد بن أبي هند: أن أبا مرة مولى عقيل حدثه، أن أم هانئ بنت أبي طالب حدثته، أنه لما كان عام الفتح فرّ إليها رجلان من بني مخزوم فأجارتهما، قالت: فدخل عليٌّ عليٌّ فقال: أقتلهما، فلما سمعته أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فلما رآني رحّب وقال: «ما جاء بك؟» قلت: يا نبي الله كنت أمنت رجلين من أحمائي فأراد عليّ قتلهما، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» ثم قام رسول الله ﷺ إلى غسله فسترت عليه فاطمة، ثم أخذ ثوباً فالتحف به ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى.

وفي رواية [خ (٣٥٧)، م (٣٣٦/٨٢)] أنها دخلت عليه وهو يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، فقال: «من هذه؟» قالت: أم هانئ، قال: «مرحبا بأم هانئ» قالت: يا رسول الله زعم ابن أمي عليّ بن أبي طالب أنه قاتل رجلين قد أجرتهما؟ فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» قالت: ثم صلى ثماني ركعات وذلك ضحى، فظن كثير من العلماء أن هذه كانت صلاة الضحى.

وقال آخرون: بل كانت هذه صلاة الفتح، وجاء التصريح بأنه كان يسلم من كل ركعتين.

وهو يرد على السهيلي [الروض الأنف: ١٠٨/٧] وغيره ممن يزعم أن صلاة الفتح تكون ثمانياً بتسليمة واحدة، وقد صلى سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن في إيوان كسرى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين ولله الحمد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١١/٢، ٤١٢]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبدالله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد.

وقال موسى بن عقبة: ثم سجد سجدتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها ودعا بماء فشرب منها وتوضأ، والناس يَبْتَدرون وَضوءَه، والمشركون يتعجَّبون من ذلك، ويقولون: ما رأينا ملكاً

قطُّ ولا سمعنا به - يعني مثل هذا -. وأخّر المقام إلى مقامه اليوم وكان ملْصَقاً بالبيت.

قال محمد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٢/٢]: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ الآية كلها.

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء».

وقال الإمام أحمد [١١/٢]: حدثنا سفيان عن ابن جدعان عن القاسم بن ربيعة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو على درج الكعبة: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن قتيل العمد الخطأ بالسوط أو العصا فيه مائة من الإبل» وقال مرة أخرى: «مغلظة فيها أربعون خلفة في بطونها أولادها، ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية ودم ودعوى» وقال مرة: «ومال تحت قدمي هاتين إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت فإني أمضيتهما لأهلهما على ما كانت».

وهكذا رواه أبو داود [٤٥٤٩] والنسائي [٤٨١٣] وابن ماجه [٢٦٢٨] من حديث علي بن زيد بن جدعان عن القاسم بن ربيعة بن جوشن الغطفاني عن ابن عمر به.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٣/٢]: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، ورأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال: «قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ما شأن إبراهيم والأزلام؟ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾» [سورة آل عمران: ٦٧] ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

وقال الإمام أحمد [٣٩٦/٣]: حدثنا سليمان، أنبأ عبد الرحمن عن موسى بن عقبة، عن أبي الزبير عن جابر قال: كان في الكعبة صور فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يمحوها، فبل عمر ثوباً ومحاها به. فدخلها رسول الله ﷺ وما فيها منها شيء.

وقال البخاري [٤٢٨٧]: حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».

وقد رواه مسلم من حديث ابن عيينة [١٧٨١].

وروى البيهقي [الدلائل: ٧١/٥، ٧٢] عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم فأخذ قضيبه فجعل يهوي به إلى الصنم وهو يهوي حتى مر عليها كلها.

ثم من طريق سويد [البيهقي في الدلائل: ٧٢/٥] عن القاسم بن عبد الله عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة وجد بها ثلاثمائة وستين صنماً فأشار إلى كل صنم بعصا وقال: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً». فكان لا يشير إلى صنم إلا ويسقط من غير أن يمسه بعصاه، ثم قال: وهذا وإن كان ضعيفاً فالذي قبله يؤكده.

وقال حنبل بن إسحاق: أنبأنا أبو الربيع عن يعقوب القمي، حدثنا جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبزى قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقال رسول الله ﷺ: «تلك نائلة أيست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً».

وقال ابن هشام [السيرة: ٤١٦/٢، ٤١٧]: حدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول الكعبة أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

وفي «صحيح مسلم» [١٧٨٠] عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة في حديث فتح مكة قال: وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل إلى الحجر فاستلمه وطاف بالبيت، وأتى إلى صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه وفي يد رسول الله ﷺ قوس وهو آخذ بسيتها فلما أتى على الصنم جعل يطعن في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت فرفع يديه وجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو.

وقال البخاري [٤٢٨٨]: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الصمد ثنا أبي حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط» ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل. تفرد به البخاري دون مسلم.

وقال الإمام أحمد [٣١١/١]: حدثنا عبد الصمد حدثنا همام حدثنا عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وفيها ست سوار، فقام إلى كل سارية فدعا ولم يصل فيه.

ورواه مسلم [١٣٣١] عن شيبان بن فروخ، عن همام بن يحيى العوذي عن عطاء به.

وقال الإمام أحمد [٢٧٧/١]: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث: أن بكيراً حدثه عن كريب عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ حين دخل البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال: «أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه

صورة هذا إبراهيم مصوراً فما باله يستقسم؟».

وقد رواه البخاري [٣٣٥١] والنسائي [٩٧٧٢] من حديث ابن وهب به.

وقال الإمام أحمد [٥٠/٢]: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري: أنه سمع مقسماً يحدث عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ البيت فدعا في نواحيه ثم خرج فصلى ركعتين. تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٥٠/٢]: حدثنا إسماعيل، أخبرنا ليث عن مجاهد عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى في البيت ركعتين.

قال البخاري [٤٢٨٩]: وقال الليث: حدثنا يونس، أخبرني نافع عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد فأمره أن يأتي بمفتاح الكعبة، فدخل ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة فمكث فيه نهاراً طويلاً ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله أين صلى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه قال عبد الله: ونسيت أن أسأله كم صلى من سجدة.

ورواه الإمام أحمد [٣/٢] عن هشيم، حدثنا غير واحد وابن عون عن نافع عن ابن عمر قال: دخل رسول الله ﷺ البيت ومعه الفضل بن عباس وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة وبلال فأمر بلالاً فأجاف عليهم الباب فمكث فيه ما شاء الله ثم خرج.

قال ابن عمر: فكان أول من لقيت منهم بلالاً، فقلت: أين صلى رسول الله ﷺ؟ قال: ههنا بين الأسطوانتين.

قلت: وقد ثبت في «صحيح البخاري» [٥٠٥] وغيره [د (٢٠٢٣، ٢٠٢٤)، س (٧٤٨)] أنه ﷺ صلى في الكعبة تلقاء وجهة بابها من وراء ظهره فجعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه»، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، وكان بينه وبين الحائط الغربي مقدار ثلاثة أذرع.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٣/٢]: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لأتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ما أطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني والدي حدثني بعض آل جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة أمر بلالاً فعلا على الكعبة على ظهرها فأذن عليها بالصلاة، فقال بعض بني سعيد بن العاص: لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن أيوب قال: قال ابن أبي مليكة: أمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن يوم الفتح فوق الكعبة، فقال رجل من قريش للحارث بن هشام: ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد؟ فقال: دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره.

وقال يونس بن بكير وغيره [تاريخ دمشق: ٤٦٦/١٠] عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ أمر بلالاً عام الفتح فأذن على الكعبة ليغيظ به المشركين.

وقال محمد بن سعد، عن محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق: أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جمعاً؟ فإنه ليحدث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذاً يخزيك الله» قال: فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة.

قال البيهقي [الدلائل: ١٠٢/٥]: وقد أخبرنا أبو عبد الله الحافظ - إجازة - أنبأنا أبو حامد أحمد بن علي بن الحسن المقرىء أنبأنا أحمد بن يوسف السلمي حدثنا محمد بن يوسف الفريابي حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر عن ابن عباس قال: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه. فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده في صدره فقال: «إذاً يخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوهت به.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ١٠٢/٥، ١٠٣] من طريق ابن خزيمة وغيره عن أبي حامد بن الشرقي عن محمد بن يحيى الذهلي حدثنا محمد بن موسى بن أعين الجزري حدثنا أبي عن إسحاق بن راشد عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهند: أتري هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله.

قال: ثم أصبح أبو سفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «قلت لهند: أترين هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله» فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند.

وقال البخاري [٤٣١٣]: حدثنا إسحاق حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج أخبرني حسن بن مسلم عن مجاهد: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلل لي إلا ساعة من الدهر لا ينفر صيدها ولا يعضد شوكها ولا يختلى خلاها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد».

فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد منه للقين والبيوت. فسكت ثم قال: «إلا الإذخر فإنه حلال».

وعن ابن جريج أخبرني عبد الكريم - هو ابن مالك الجزري - عن عكرمة عن ابن عباس بمثل هذا أو نحو هذا.

ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. تفرد به البخاري [١١٢] من الوجه الأول وهو مرسل، ومن الوجه الثاني أيضا.

وبهذا الحديث وأمثاله استدل من ذهب إلى أن مكة فتحت عنوة، وللوقعة التي كانت في الخندمة كما تقدم. وقد قتل فيها قريب من عشرين نفساً من المسلمين والمشركين وهي ظاهرة في ذلك وهو مذهب جمهور العلماء، والمشهور عن الشافعي أنها فتحت صلحاً لأنها لم تقسم، ولقوله ﷺ ليلة الفتح: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الحرم فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وموضع تقرير هذه المسألة في كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله تعالى.

وقال البخاري [٤٢٩٥]: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا الليث عن

المقبري عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجراً فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

فقيل لأبي شريح: ماذا قال لك عمرو؟ قال: قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة.

ورواه البخاري أيضاً [١٨٣٢] ومسلم [١٣٥٤] عن قتيبة عن الليث بن سعد به نحوه.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٤/٢، ٤١٥] أن رجلاً يقال له: ابن الأثوع قتل رجلاً في الجاهلية من خزاعة يقال له: احمر بأساً، فلما كان يوم الفتح قتلت خزاعة ابن الأثوع وهو بمكة قتله خراش بن أمية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل لقد كثر القتل إن نفع لقد قتلتم رجلاً لأدينه».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٥/٢]: وحدثني عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي عن سعيد بن المسيب قال: لما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خراش بن أمية قال: «إن خراشاً لقتال».

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٥/٢، ٤١٦]: وحدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي قال: لما قدم عمرو بن الزبير مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير جئته فقلت له: يا هذا إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام الله إلى يوم القيامة فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجراً، لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، الا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامي هذا فاهله بخير النظرين إن شاؤوا فدم قاتله وإن شاؤوا فعقله».

ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة. فقال عمرو لأبي شريح: انصرف أيها الشيخ فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا خالع طاعة، ولا مانع جزية، فقال أبو شريح: إني كنت شاهداً وكنت غائباً وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا، وقد أبلغتك فانت وشأنك.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٦/٢]: وبلغني أن أول قتيل وداه رسول الله ﷺ يوم الفتح جنيدب بن الأكوع قتله بنو كعب فوداه رسول الله ﷺ بمائة ناقة.

وقال الإمام أحمد [١٧٩/٢]: حدثنا يحيى عن حسين، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لما فتحت مكة على رسول الله ﷺ قال: «كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر» فاذن لهم حتى صلى العصر ثم قال: «كفوا السلاح».

فلقي رجل من خزاعة رجلاً من بني بكر من غد بالمزدلفة فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال - فرأيته وهو مسند ظهره إلى الكعبة قال -: «إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم، أو قتل غير قاتله أو قتل بذحول الجاهلية». وذكر تمام الحديث وهذا غريب جداً.

وقد روى أهل السنن بعض هذا الحديث [د (٤٥٠٤، ٣٥٤٦، ٤٥٦٢، ٤٥٦٦)، ت (١٣٩٠، ١٥٨٥)، س (٢٥٣٩، ٣٧٦٦، ٤٨٦٥، ٤٨٦٦)، ج (٢٦٥٥)].

فأما ما فيه من أنه رخص لخزاعة أن تأخذ بثأرها من بني بكر إلى العصر من يوم الفتح فلم أره إلا في هذا الحديث وكأنه - إن صح - من باب الاختصاص لهم مما كانوا أصابوا منهم ليلة الوتير والله أعلم.

وروى الإمام أحمد [٤١٢/٣] عن يحيى بن سعيد وسفيان بن عيينة ويزيد بن هارون ومحمد بن عبيد كلهم عن زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي عن الحارث بن مالك بن البرصاء الخزاعي: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكة: «لا تغزى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة».

ورواه الترمذي [١٦١١] عن بندار عن يحيى بن سعيد القطان به وقال: حسن صحيح.

قلت: فإن كان نهياً فلا إشكال، وإن كان نفياً فقال البيهقي [الدلائل: ٧٥/٥]: معناه: على كفر أهلها.

وفي «صحيح مسلم» [١٧٨٢] من حديث زكريا بن أبي زائدة، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مطيع، عن أبيه مطيع بن الأسود العدوي قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لا يقتل قرشي صبراً بعد اليوم إلى يوم القيامة» والكلام عليه كالأول سواء.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٦/٢]: وبلغني أن رسول الله ﷺ حين افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو الله وقد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم».

وهذا الذي علقه ابن هشام قد أسنده الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» [٥٣٨/٢] فقال: حدثنا بهز وهاشم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت. وقال هاشم: حدثني ثابت البناني، حدثنا عبد الله بن رباح قال: وفدت وفود إلى معاوية أنا فيهم وأبو هريرة وذلك في رمضان، فجعل بعضنا يصنع لبعض الطعام، قال: وكان أبو هريرة يكثر ما يدعونا - قال هاشم: يكثر أن يدعونا - إلى رحله، قال: فقلت: الا أصنع طعاماً فادعوهم إلى رحلي؟ قال: فأمرت بطعام يصنع فلقيت أبا هريرة من العشاء، قال: قلت: يا أبا هريرة الدعوة عندي الليلة قال: أسبقتني؟ قال هاشم: قلت: نعم قال: فدعوتهم فهم عندي. قال: فقال أبو هريرة: ألا أعلمكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار؟ قال: فذكر فتح مكة.

قال: أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة، قال: فبعث الزبير على أحد المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسّر، وأخذوا بطن الوادي ورسول الله ﷺ في كتيبته، وقد وبشت قريش أوباشها، قال: قالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطيناه الذي سئلنا.

قال أبو هريرة: فنظر فرآني فقال: «يا أبا هريرة» فقلت: لبيك رسول

اللّه، فقال: «اهتف لي بالأنصار، ولا يأتيني إلا أنصاري» فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا برسول اللّه ﷺ، قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟» ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى: «احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا».

قال: فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، قال: فقال أبو سفيان: يا رسول اللّه أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

قال: فغلق الناس أبوابهم، قال: وأقبل رسول اللّه ﷺ إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت. قال: وفي يده قوس آخذ بسية القوس، قال: فأتى في طوافه على صنم إلى جنب البيت يعبدونه قال: فجعل يطعن بها في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» قال: ثم أتى الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه فجعل يذكر اللّه بما شاء أن يذكره ويدعوه، قال: والأنصار تحته قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي وكان إذا جاء لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول اللّه ﷺ حتى يقضي.

قال هاشم: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار أقلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟»، قالوا: قلنا ذلك يا رسول اللّه، قال: «فما أسمى إذاً؟ كلا إني عبد اللّه ورسوله، هاجرت إلى اللّه وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم» قال: فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: واللّه ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّن باللّه ورسوله، قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم».

وقد رواه مسلم [٨٤، ١٧٨٠/٨٥] والنسائي [١١٢٩٨] من حديث سليمان بن المغيرة زاد النسائي: وسلام بن مسكين، ورواه مسلم أيضاً [١٧٨٠/٨٦] من حديث حماد بن سلمة ثلاثتهم عن ثابت، عن عبد اللّه بن رباح الأنصاري نزيل البصرة، عن أبي هريرة به نحوه.

وقال ابن هشام [السيرة: ٤١٧/٢]: وحدثني يعني بعض أهل العلم أن فضالة بن عمير بن الملوح يعني الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول اللّه ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول اللّه، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر اللّه، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر اللّه» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: واللّه ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق اللّه شيء أحب إلي منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث. فقال: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك اللّه والإسلام
أوَ ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين اللّه أضحى بيِّناً ... والشِّرك يغشى وجهه الإظلام

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٧/٢، ٤١٨]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة قال: خرج صفوان بن أمية يريد جُدَّة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي اللّه إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه يا رسول اللّه صلى اللّه عليك فقال: «هو آمن» فقال: يا رسول اللّه فأعطني آية يعرف بها أمانك. فأعطاه رسول اللّه ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي اللّه اللّه في نفسك أن تهلكها هذا أمان من رسول اللّه ﷺ وقد جئتك به، قال: ويلك اعزب عني فلا تكلمني قال: أي صفوان فداك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك. قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم.

فرجع معه حتى وقف على رسول اللّه ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال: «صدق» قال: فاجعلني بالخيار فيه شهرين. قال: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

ثم حكى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٨/٢] عن الزهري أن فاختة بنت الوليد امرأة صفوان وأم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة بن أبي جهل، أسلمتا وقد ذهبت وراءه إلى اليمن فاسترجعته فأسلم فلما أسلما أقرهما رسول اللّه ﷺ تحتهما بالنكاح الأول.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٨/٢، ٤١٩]: وحدثني سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت قال: رمى حسان ابن الزبعرى وهو بنجران ببيت واحد مازاد عليه:

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه ... نجران في عيش أحذّ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلى رسول اللّه ﷺ فأسلم وقال حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أباري الشيطان في سنن الغـ ... ـي ومن مال ميله مثبور
آمن اللحم والعظام لربي ... ثم قلبي الشهيد أنت النذير
إنني عنك زاجرٌ ثم حياً ... من لؤي وكلهم مغرور

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٩، ٤٢٠]: وقال عبد اللّه بن الزبعرى أيضاً حين أسلم:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانةٌ سُرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة ... سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني ... أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما ... زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من عِلْم المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفاً وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حقٌ وأنك في العباد جسيم
واللّه يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبل في الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم ... فرعٌ تمكن في الذرا وأروم

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له.

قلت: كان عبد الله بن الزبعرى السهمي من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم مَنَّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه.

سنة ٨- عدد من شهد فتح مكة من المسلمين

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢١/٢]: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من بني سليم سبعمائة ويقول بعضهم: ألف ومن بني غفار أربعمائة ومن أسلم أربعمائة ومن مزينة ألف وثلاثة نفر وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.

وقال عروة والزهري وموسى بن عقبة: كان المسلمون يوم الفتح الذين مع رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً فالله أعلم.

سنة ٨- ما قيل من شعر في يوم الفتح

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢١/٢ - ٤٢٤]: وكان مما قيل من الشعر في يوم الفتح قول حسان بن ثابت [ديوان حسان: ٧١ - ٧٧]:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن خبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً ... فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جنداً ... هم الأنصار عُرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من مَعَدٍّ ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

قال ابن هشام [السيرة: ٤٢٤/٢]: قالها حسان قبل الفتح.

قلت: والذي قاله متوجه لما في أثناء هذه القصيدة مما يدل على ذلك وأبو سفيان المذكور في البيت هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٢٤/٢]: وبلغني عن الزهري أنه قال: لما رأى رسول الله ﷺ النساء يلطمن الخيل بالخمر تبسم إلى أبي بكر رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٤/٢، ٤٢٥]: وقال أنس بن زنيم الدئلي يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي - يعني لما جاء يستنصر عليهم كما تقدم -:

أأنت الذي تهدى معدٌّ بأمره ... بل الله يهديهم وقال لك اشهد
وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد
أحث على خير وأسبغ نائلاً ... إذا راح كالسيف الصقيل المهند
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله ... وأعطى لرأس السابق المتجرد
تعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم رسول الله أنك قادر ... على كل صرم متهمين ومنجد
تعلم بأن الركب ركب عويمر ... هموا الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبوا رسول الله أني هجوته ... فلا حملت سوطي إلي إذن يدي
سوى أنني قد قلت ويل أم فتية ... أصيبوا بنحس لا بطلق وأسعد
أصابهمُ من لم يكن لدمائهم ... كفاء فعزت عبرتي وتبلدي
وإنك قد أخفرت أنك ساعياً ... بعبد بن عبد الله وابنة مهود
ذؤيب وكلثوم وسلمى تتابعوا ... جميعاً فإن لا تدمع العين أكمد
وسلمى وسلمى ليس حي كمثله ... وإخوته وهل ملوك كأعبد
فإني لا ديناً فتقت ولا دماً ... هرقت تبين عالم الحق واقصد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٥/٢، ٤٢٦]: وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم الفتح:

نفى أهل الحبلق كل فج ... مزينة غدوة وبنو خفاف
ضربناهم بمكة يوم فتح النـ ... ـبي الخير بالبيض الخفاف
صبحناهم بسبع من سليم ... وألف من بني عثمان واف
نطا أكتافهم ضرباً وطعناً ... ورشقاً بالمريشة اللطاف
ترى بين الصفوف لها حفيفاً ... كما انصاع الفواق من الرصاف
فرحنا والجياد تجول فيهم ... بأرماح مقومة الثقاف
فأبنا غانمين بما اشتهينا ... وآبوا نادمين على الخلاف
وأعطينا رسول الله منا ... مواثقنا على حسن التصافي
وقد سمعوا مقالتنا فهمّوا ... غداة الروع منا بانصراف

وقال ابن هشام [السيرة: ٢/٤٢٦، ٤٢٧]: وقال عباس بن مرداس السلمي في فتح مكة:

منا بمكة يوم فتح محمد ... ألف تسيل به البطاح مسوّم
نصروا الرسول وشاهدوا آياته ... وشعارهم يوم اللقاء مقدم
في منزل ثبتت به أقدامهم ... ضنك كأن الهام فيه الحنتم
جرّت سنابكها بنجد قبلها ... حتى استقام لها الحجاز الأدهم
الله مكنه له وأذله ... حكم السيوف لنا وجَدٌّ مزحم
عود الرياسة شامخ عرنينه ... متطلع ثُغَر المكارم خِضرم

وذكر ابن هشام [السيرة: ٢/٤٢٧] في سبب إسلام عباس بن مرداس أن أباه كان يعبد صنماً من حجارة يقال له: ضمار فلما حضرته الوفاة أوصاه به، فبينما هو يوماً يخدمه إذ سمع صوتاً من جوفه وهو يقول:

قل للقبائل من سليم كلها ... أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتدي
أودى ضمار وكان يُعبد مرةً ... قبل الكتاب الى النبي محمد

قال: فحرق عباس ضماراً ثم لحق برسول الله ﷺ فأسلم، وقد تقدمت هذه القصة بكمالها في باب هواتف الجان مع أمثالها وأشكالها ولله الحمد والمنة.

سنة ٨- بعثه ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة من كنانة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٢٨، ٤٢٩]: فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب سليم بن منصور ومدلج بن مرة فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٢٩]: وحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة قال: لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل منا - يقال له: جحدم -: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً. قال: فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم لقول خالد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٢٩]: فحدثني حكيم بن حكيم عن أبي جعفر قال: فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللّهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد».

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٤٢٩، ٤٣٠]: حدثني بعض أهل العلم أنه انفلت رجل من القوم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ: «هل أنكر عليه أحد؟» فقال: نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله. وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٣٠]: فحدثني حكيم بن حكيم عن أبي جعفر قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطياً لرسول الله ﷺ مما لا نعلم ولا تعلمون.

ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: «أصبت وأحسنت» ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول: «اللّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرات.

قال ابن إسحاق: وقد قال بعض من يعذر خالداً: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي وقال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٤١٣]: قال أبو عمرو المديني: لما أتاهم خالد بن الوليد قالوا: صبأنا صبأنا وهذه مرسلات ومنقطعات.

وقد قال الإمام أحمد [٢/١٥٠، ١٥١]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني - أحسبه قال - جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا وجعل خالد بهم أسراً وقتلاً، قال: ودفع إلى كل رجل منا أسيراً حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره.

قال ابن عمر: فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل أحد من أصحابي أسيره، قال: فقدموا على النبي ﷺ فذكروا صنيع خالد فقال النبي ﷺ ورفع يديه: «اللّهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد» مرتين.

ورواه البخاري [٧١٨٩] والنسائي [٨٥٩٦] من حديث عبد الرزاق به نحوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٣١، ٤٣٢]: وقد قال لهم جحدم لما رأى ما يصنع خالد: يا بني جذيمة ضاع الضرب قد كنت حذرتكم مما وقعتم فيه.

قال ابن إسحاق: وقد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف - فيما بلغني - كلام في ذلك فقال له عبد الرحمن: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام؟ فقال: إنما ثأرت بأبيك، فقال عبد الرحمن: كذبت قد قتلت قاتل أبي، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أُحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته».

ثم ذكر ابن إسحاق قصة الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم خالد بن الوليد في خروجه هو وعوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة ومعه ابنه عبد الرحمن وعفان بن أبي العاص بن أمية بن

عبد شمس ومعه ابنه عثمان في تجارة إلى اليمن ورجوعهم ومعهم مال لرجل من بني جذيمة كان هلك باليمن فحملوه إلى ورثته فادعاه رجل منهم يقال له: خالد بن هشام ولقيهم بأرض بني جذيمة فطلبه منهم قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا عليه فقاتلهم فقاتلوه حتى قتل عوف والفاكه، وأخذت أموالهما.

وقتل عبد الرحمن قاتل أبيه خالد بن هشام، وفر منهم عفان ومعه ابنه عثمان إلى مكة، فهمت قريش بغزو بني جذيمة، فبعث بنو جذيمة يعتذرون إليهم بأنه لم يكن عن ملأ منهم، وردوا لهم القتيلين وأموالهما، ووضعوا الحرب بينهم.

يعني فلهذا قال خالد بن الوليد لعبد الرحمن: إنما ثارت بأبيك، يعني حين قتله بنو جذيمة، فأجابه بأنه قد أخذ ثأره، وقتل قاتله، ورد عليه بأنه إنما ثار بعمه الفاكه بن المغيرة حين قتلوه، وأخذوا أمواله، والمظنون بكل منهما أنه لم يقصد شيئاً من ذلك، وإنما يقال هذا في وقت المخاصمة، فإنما أراد خالد بن الوليد نصرة الإسلام وأهله، وإن كان قد أخطأ في أمر واعتقد أنهم ينتقصون الإسلام بقولهم: صبأنا صبأنا، ولم يفهم عنهم أنهم أسلموا، فقتل طائفة كثيرة منهم، وأسر بقيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً، ومع هذا لم يعزله رسول الله ﷺ بل استمر به أميراً، وإن كان قد تبرأ منه في صنيعه ذلك، وودى ما كان جناه خطأ في دم أو مال، ففيه دليل لأحد القولين بين العلماء في أن خطأ الإمام يكون في بيت المال لا في ماله والله أعلم.

ولهذا لم يعزله الصديق حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه، واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن في سيفه رهقاً فقال الصديق: لا أغمد سلّه سيفاً سله الله على المشركين.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٣/٢، ٤٣٤]: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس عن الزهري، عن ابن أبي حدرد الأسلمي قال: كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد فقال فتى من بني جذيمة وهو في سني، وقد جمعت يداه إلى عنقه برمة، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى فقلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هذه النسوة حتى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد، فتصنعوا بي ما بدا لكم؟ قال: قلت: والله ليسير ما طلبت، فأخذت برمته فقدته بها حتى وقفته عليهن فقال: اسلمي حبيش على نفد العيش:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم	بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهلاً أن ينول عاشق	تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا معاً	أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى	وينأى الأمير بالحبيب المفارق
فإني لا ضيعت سرُّ أمانة	ولا راق عيني عنك بعدك رائق
سوى أن ما نال العشيرة شاغل	عن الود إلا أن يكون التوامق

قالت: وأنت فحييت عشراً وتسعاً وتراً وثمانياً تترى. قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبو فراس بن أبي سنبلة الأسلمي عن أشياخ منهم عمن كان حضرها منهم قالوا: فقامت إليه حين ضربت عنقه فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده.

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ١١٦/٥، ١١٧] من طريق الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق أنه سمع رجلاً من مزينة يقال له: ابن عصام عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية قال: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحداً» قال: فبعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا بذلك فخرجنا قبل تهامة فأدركنا رجلاً يسوق بظعائن فقلنا له: أسلم، فقال: وما الإسلام؟ فأخبرناه به فإذا هو لا يعرفه، قال: أفرأيتم إن لم افعل ما أنتم صانعون؟ قال: قلنا: نقتلك، فقال: فهل أنتم منظري حتى أدرك الظعائن؟ قال: قلنا: نعم ونحن مدركوك، قال: فأدرك الظعائن فقال: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش. فقالت الأخرى: اسلم عشراً وتسعاً وتراً وثمانياً تترى ثم ذكر الشعر المتقدم إلى قوله: وينأى الأمير بالحبيب المفارق، ثم رجع إلينا فقال: شأنكم قال: فقدمناه فضربنا عنقه قال: فانحدرت الأخرى من هودجها فحنت عليه حتى ماتت.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ١١٧/٥، ١١٨] من طريق أبي عبد الرحمن النسائي: حدثنا محمد بن علي بن حرب المروزي حدثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل، فقال لهم: إني لست منهم إني عشقت امرأة فلحقتها فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، قال: فإذا امرأة أدماء طويلة فقال لها: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش، ثم ذكر البيتين بمعناهما. قال: فقالت: نعم فديتك، قال: فقدموه فضربوا عنقه فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال: «أما كان فيكم رجل رحيم؟».

سنة ٨- بعث خالد بن الوليد لهدم العزّى

قال ابن جرير [تاريخ الطبري: ٦٥/٣]: وكان هدمها لخمس بقين من رمضان عامئذ. قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٦/٢، ٤٣٧]: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى وكانت بيتاً بنخلة يعظمه قريش وكنانة ومضر، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، فلما سمع حاجبها السلمي بمسير خالد بن الوليد إليها علق سيفه عليها ثم اشتد في الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

أيا عُزُّ شدي شدة لا شوى لها	على خالد ألقي القناع وشمري
أيا عزُّ إن لم تقتلي المرءَ خالداً	فبوئي بإثم عاجل أو تنصّري

قال: فلما انتهى خالد إليها هدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ.

وقد روى الواقدي [المغازي: ٨٧٣/٣، ٨٧٤] وغيره [طبقات ابن سعد: ١٤٥/٢، ١٤٦] أنه لما قدمها خالد لخمس بقين من رمضان فهدمها ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «ما رأيت؟» قال: لم أر شيئاً، فأمره بالرجوع فلما رجع خرجت إليه من ذلك البيت امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول فعلاها بالسيف وجعل يقول:

يا عُزُّ كفرانك لا سبحانك	إني رأيت الله قد أهانك

ثم خرب ذلك البيت الذي كانت فيه وأخذ ما كان فيه من الأموال رضي الله عنه وأرضاه، ثم رجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «تلك العزى ولا تعبد أبداً».

وقال البيهقي [الدلائل: ٧٧/٥]: أنبأنا محمد بن أبي بكر الفقيه أنبأنا محمد بن أبي جعفر أنبأنا أحمد بن علي حدثنا أبو كريب عن ابن فضيل عن

الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة وهم حجابها أمعنوا هرباً في الجبل وهم يقولون: يا عزى خبليه يا عزى عوريه وإلا فموتي برغم، قال: فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها ووجهها فعممها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى».

سنة ٨- مدة إقامته عليه السلام بمكة

لا خلاف أنه عليه الصلاة والسلام أقام ببقية شهر رمضان يقصر الصلاة ويفطر، وهذا دليل من قال من العلماء: إن المسافر إذا لم يجمع الإقامة فله أن يقصر ويفطر إلى ثماني عشر يوماً في أحد القولين وفي القول الآخر كما هو مقرر في موضعه.

قال البخاري [٤٢٩٧]: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان (ح) وحدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن يحيى بن أبي إسحاق عن أنس بن مالك قال: أقمنا مع رسول الله ﷺ عشراً نقصر الصلاة.

وقد رواه بقية الجماعة [م (٦٩٣)، د (١٢٣٣)، ت (٥٤٨)، س (١٤٣٧، ١٤٥١)، ج (١٠٧٧)] من طرق متعددة عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي البصري عن أنس به نحوه.

قال البخاري [٤٢٩٨]: حدثنا عبدان حدثنا عبد الله أنبأنا عاصم عن عكرمة عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين.

ورواه البخاري [١٠٨٠] أيضاً من وجه آخر - زاد البخاري: وحصين كلاهما - وأبو داود [١٢٣٠] والترمذي [٥٤٩] وابن ماجه [١٠٧٥] من حديث عاصم بن سليمان الأحول عن عكرمة عن ابن عباس به.

وفي لفظ لأبي داود: سبع عشر يوماً.

وحدثنا [خ (٤٢٩٩)] أحمد بن يونس حدثنا أبو شهاب عن عاصم عن عكرمة عن ابن عباس قال: أقمنا مع رسول الله ﷺ في سفر تسع عشرة نقصر الصلاة. وقال ابن عباس: فنحن نقصر ما بيننا وبين تسع عشرة، فإذا زدنا أتممنا.

وقال أبو داود [١٢٢٩]: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا ابن علية حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن عمران بن حصين قال: غزوت مع رسول الله ﷺ وشهدت معه الفتح فأقام ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين يقول: «يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا سفر».

وهكذا رواه الترمذي [٥٤٥] من حديث علي بن زيد بن جدعان وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ثم روى أبو داود من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ عام الفتح خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة. ثم قال: رواه غير واحد عن ابن إسحاق لم يذكروا ابن عباس.

وقال ابن إدريس عن محمد بن إسحاق عن الزهري ومحمد بن علي بن الحسين وعاصم بن عمرو بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر وعمرو بن شعيب وغيرهم قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة.

سنة ٨- ما حكم ﷺ من الأحكام في مكة

قال البخاري [٤٣٠٣]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ (ح).

وقال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة قالت: كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد أن يقبض ابن وليدة زمعة، وقال عتبة: إنه ابني، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح أخذ سعد بن أبي وقاص ابن وليدة زمعة فأقبل به إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه عبد بن زمعة فقال سعد بن أبي وقاص: هذا ابن أخي عهد إلي أنه ابنه، قال عبد بن زمعة: يا رسول الله هذا أخي هذا ابن زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى ابن وليدة زمعة فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراشه» وقال رسول الله ﷺ: «احتجبي منه ياسودة» لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص.

قال ابن شهاب: قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

قال ابن شهاب: وكان أبو هريرة يصرح بذلك.

وقد رواه البخاري أيضاً [٢٢١٨] ومسلم [١٤٥٧] وأبو داود [(٢٢٧٣) من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري به] والترمذي جميعاً عن قتيبة عن الليث به. وابن ماجه من حديثه [(٢٠٠٤) من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري به].

وانفرد البخاري [٢٧٤٥] بروايته له من حديث مالك عن الزهري.

ثم قال البخاري [٤٣٠٤]: حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا عبد الله أنا يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه.

قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال: «أتكلمني في حد من حدود الله؟» فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت.

قالت عائشة: كانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

وقد رواه البخاري [٢٦٤٨] في موضع آخر ومسلم [١٤٠٦/٢٨] من حديث ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة به.

وفي «صحيح مسلم» [١٤٠٦/٢٢] من حديث سبرة بن معبد الجهني قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخل مكة ثم لم يخرج حتى نهانا عنها.

وفي رواية فقال [م (١٤٠٦/٢٨)]: «ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة».

وفي رواية في «مسند أحمد» [٤٠٤/٣، ٤٠٥] و«السنن» [د

(٢٠٧٢)، س (٥٥٤١)، ج (١٩٦٢)] أن ذلك كان في حجة الوداع فالله أعلم.

وفي صحيح مسلم [١٤٠٥/١٨] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن عبد الواحد بن زياد عن أبي العميس عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه أنه قال: رخص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في متعة النساء ثلاثاً ثم نهانا عنه.

قال البيهقي [الدلائل: ٨٩/٥]: وعام أوطاس هو عام الفتح فهو وحديث سبرة سواء.

قلت: من أثبت النهي عنها في غزوة خيبر قال: إنها أبيحت مرتين وحرمت مرتين، وقد نص على ذلك الشافعي وغيره. وقد قيل: إنها أبيحت وحرمت أكثر من مرتين فالله أعلم.

وقيل: إنها إنما حرمت مرة واحدة وهي هذه المرة في غزوة الفتح، وقيل: إنها إنما أبيحت للضرورة فعلى هذا إذا وجدت ضرورة أبيحت وهذا رواية عن الإمام أحمد.

وقيل: بل لم تحرم مطلقاً وهي على الإباحة هذا هو المشهور عن ابن عباس وأصحابه وطائفة من الصحابة وموضع تحرير ذلك في «الأحكام».

سنة ٨– البيعةُ يومَ الفتح

قال الإمام أحمد [٤١٥/٣]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا ابن جريج أنبانا عبد الله بن عثمان بن خثيم: أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح، قال: جلس عند قرن مسقلة فبايع الناس على الإسلام والشهادة قال: قلت: وما الشهادة؟ قال: أخبرني محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. تفرد به أحمد.

وعند البيهقي [الدلائل: ٩٤/٥]: فجاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة. وقال ابن جرير [تاريخ الطبري: ٦١/٣، ٦٢]: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام فجلس لهم – فيما بلغني – على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

قال: فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحديثها لما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال: «بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً» فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال. قال: «ولا تسرقن» فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟.

فقال أبو سفيان – وكان شاهداً لما تقول – أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك. ثم قال: «ولا تزنين» فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن» قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يلوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب ثم قال: «ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن» فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل ثم قال: «ولا تعصينني» فقالت: في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم» فبايعهن عمر وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٤٨٩١)، م (١٨٦٦)] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط.

وفي رواية [ت (١٥٩٧)، س (٤١٩٢)، المسند (٣٥٧/٦)] ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة».

وفي «الصحيحين» [خ (٢٢١١)، م (١٧١٤)] عن عائشة: أن هنداً بنت عتبة امرأة أبي سفيان أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني فهل علي من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ قال: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك».

وروى البيهقي [الدلائل: ١٠٠/٥] من طريق يحيى بن بكير عن الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: أن هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله ما كان مما على وجه الأرض أخباء أو أهل خباء – الشك من أبي بكير – أحب إلي من أن يذلوا من أهل أخبائك – أو خبائك – ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل أخباء – أو خباء – أحب إلي من أن يعزوا من أهل أخبائك – أو خبائك – فقال رسول الله ﷺ: «وأيضاً والذي نفس محمد بيده».

قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج أن أطعم من الذي له؟ قال: «لا إلا بالمعروف».

ورواه البخاري [٦٦٤١] عن يحيى بن بكير بنحوه وتقدم ما يتعلق بإسلام أبي سفيان.

سنة ٨– لا هجرة بعد الفتح

وقال أبو داود [٢٤٨٠]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

ورواه البخاري [١٨٣٤] عن عثمان بن أبي شيبة ومسلم [١٣٥٣/٨٥] عن يحيى بن يحيى عن جرير.

وقال الإمام أحمد [٤٠١/٣، ٤٦٥/٦، ٤٦٦]: حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا ابن طاوس عن أبيه عن صفوان بن أمية: أنه قيل له: إنه لا يدخل الجنة إلا من هاجر فقلت له: لا أدخل منزلي حتى آتي رسول الله ﷺ فأسله فأتيته فذكرت له فقال: «لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» تفرد به أحمد.

وقال البخاري [٤٣٠٧]: حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا عاصم عن أبي عثمان النهدي عن مجاشع بن مسعود قال: انطلقت بأبي معبد إلى النبي ﷺ ليبايعه على الهجرة فقال: «مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام والجهاد» فلقيت أبا معبد فسألته فقال: صدق مجاشع. وقال خالد عن أبي عثمان عن مجاشع أنه جاء بأخيه مجالد.

وقال البخاري [٤٣٠٥]: حدثنا عمرو بن خالد حدثنا زهير حدثنا عاصم عن أبي عثمان قال: حدثني مجاشع قال: أتيت رسول الله بأخي بعد يوم الفتح فقلت: يا رسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقلت على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد».

فلقيت أبا معبد بعد وكان أكبرهما سناً فسألته فقال: صدق مجاشع.

وقال البخاري [٤٣٠٩]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن مجاهد قال: قلت لابن عمر: أريد أن أهاجر إلى الشام. فقال: لا هجرة ولكن جهاد انطلق فأعرض نفسك فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت.

وقال أبو النضر: أنا شعبة أنا أبو بشر سمعت مجاهداً قال: قلت لابن عمر: فقال: لا هجرة اليوم - أو بعد رسول الله ﷺ - مثله.

حدثنا [خ (٤٣١١)] إسحاق بن يزيد حدثنا يحيى بن حمزة حدثني أبو عمرو الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد بن جبر: أن عبد الله بن عمر قال: لا هجرة بعد الفتح.

وقال البخاري [٤٣١٢]: حدثنا إسحاق بن يزيد أنا يحيى بن حمزة أنا الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير فسألها عن الهجرة فقالت: لا هجرة اليوم. كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث يشاء ولكن جهاد ونية.

وهذه الأحاديث والآثار دالة على أن الهجرة - إما الكاملة أو مطلقاً - قد انقطعت بعد فتح مكة لأن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وظهر الإسلام وثبتت أركانه ودعائمه فلم تبق هجرة اللهم إلا أن يعرض حال يقتضي الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب وعدم القدرة على إظهار الدين عندهم فتجب الهجرة إلى دار الإسلام وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح، كما أن كلاً من الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع ومرغب فيه إلى يوم القيامة ولكن ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحديد: ١٠] الآية.

سنة ٨- نزول سورة الفتح

وقد قال الإمام أحمد [٢٢/٣]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي البختري الطائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال لما نزلت هذه السورة الكريمة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال: «الناس حيِّز وأنا وأصحابي حيِّز» وقال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رأيا ذلك. قالا: صدق. تفرد به أحمد.

وقال البخاري [٤٩٧٠]: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رُئيت أنه أدخلني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ قال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري.

وهكذا روي من غير وجه عن ابن عباس أنه فسر ذلك بنعي رسول الله ﷺ في أجله، وبه قال مجاهد وأبو العالية والضحاك وغير واحد كما قال ابن عباس وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد [٢١٧/١]: حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعيت إليَّ نفسي» بأنه مقبوض في تلك السنة.

تفرد به الإمام أحمد وفي إسناده عطاء بن أبي مسلم الخراساني وفيه ضعف تكلم فيه غير واحد من الأئمة وفي لفظه نكارة شديدة وهو قوله بأنه مقبوض في تلك السنة، وهذا باطل فإن الفتح كان في سنة ثمان في رمضان منها كما تقدم بيانه وهذا ما لا خلاف فيه. وقد توفي رسول الله ﷺ في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة بلا خلاف أيضاً.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله [المعجم الكبير: ٣٦٩/١٠ (١٠٧٣٦)]: حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عمر الوكيعي حدثنا أبي حدثنا جعفر بن عون عن أبي العميس عن أبي بكر بن أبي الجهم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

فيه نكارة أيضاً وفي إسناده نظر أيضاً ويحتمل أن يكون أنها آخر سورة نزلت جميعها كما قال والله أعلم.

وقد تكلمنا على تفسير هذه السورة الكريمة بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

وقال البخاري [٤٣٠٢]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن عمرو بن سلمة - قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه فتسأله فلقيته فسألته- قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله وأوحى إليه كذا. فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يغرى في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي حقاً. قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً»، فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. تفرد به البخاري دون مسلم.

سنة ٨- غزوة هوازن يوم حنين

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ

جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّـهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ــ ٢٧].

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه [سيرة ابن هشام: ٤٣٧/٢]: أن خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن بعد الفتح في خامس شوال سنة ثمان، وزعم أن الفتح كان لعشر بقين من شهر رمضان قبل خروجه إليهم خمس عشرة ليلة.

وهكذا روى عن ابن مسعود وبه قال عروة بن الزبير واختاره ابن جرير في تاريخه [٥٦/٣].

وقال الواقدي [المغازي: ٨٨٩/٣، ٨٩٢]: خرج رسول اللّه ﷺ إلى هوازن لست خلون من شوال فانتهى إلى حنين في عاشره. وقال أبو بكر الصديق: لن نغلب اليوم من قلة!! فانهزموا فكان أول من انهزم بنو سليم ثم أهل مكة ثم بقية الناس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٧/٢ ــ ٤٣٩]: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة جمعها ملكها مالك بن عوف النصري فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء.

وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب ولم يشهدها منهم أحد له اسم وفي بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخاً مجرّباً، وفي ثقيف سيدان لهم، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري.

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة في شجار له يقاد به، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس قال: نعم مجال الخيل لا حَزْنٌ ضَرِسٌ ولا سَهْلٌ دَهِسٌ، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قالوا: هذا مالك. ودعي له، قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، قال: فانقض به، ثم قال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قال: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحد والجد لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر قال: ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ثم قال دريد لمالك بن عوف: ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعُليا قومهم ثم ألق الصُّبَّة على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك، قال: والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك، ثم قال مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ــ وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي ــ فقالوا: أطعناك فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني:

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع كأنها شاةٌ صدع

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٩/٢]: وحدثني أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أنه حدَّث أن مالك بن عوف بعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضاً على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٩/٢، ٤٤٠]: ولما سمع بهم نبي اللّه ﷺ بعث إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً» فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك» قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول اللّه ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

هكذا أورد هذا ابن إسحاق من غير إسناد.

وقد روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه، وعن عمرو بن شعيب والزهري وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم وغيرهم قصة حنين فذكر نحو ما تقدم.

وقصة الأدراع كما تقدم وفيه: أن ابن أبي حدرد لما رجع فأخبر رسول الله ﷺ خبر هوازن كذبه عمر بن الخطاب، فقال له ابن أبي حدرد: لئن كذبتني يا عمر فربما كذبت بالحق، فقال عمر: ألا تسمع ما يقول يا رسول الله؟ فقال: «قد كنت ضالاً فهداك الله».

وقد قال الإمام أحمد [٤٠٠/٣، ٤٠١، ٤٦٥/٦]: حدثنا يزيد بن هارون أنبأ شريك عن عبد العزيز بن رفيع عن أمية بن صفوان بن أمية عن أبيه أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين أدراعاً فقال: أغصباً يا محمد؟ فقال: «بل عارية مضمونة» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول اللّه ﷺ أن يضمنها له فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب.

ورواه أبو داود [٣٥٦٢] والنسائي [كبرى (٥٧٧٩)] من حديث يزيد بن هارون به.

وأخرجه النسائي [كبرى (٥٧٨٠)] من رواية إسرائيل عن عبد العزيز بن رفيع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن صفوان بن أمية: أن رسول الله ﷺ استعار من صفوان دروعاً فذكره.

ورواه [كبرى (٥٧٧٨)] من حديث هشيم عن حجاج عن عطاء: أن رسول الله ﷺ استعار من صفوان أدراعاً وأفراساً؛ وساق الحديث.

وقال أبو داود [٣٥٦٣]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عبد العزيز بن رفيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان: أن رسول الله ﷺ قال: «يا صفوان هل عندك من سلاح؟» قال: عارية أم غصباً، قال: «لا، بل عارية» فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعاً، وغزا رسول الله ﷺ حنيناً، فلما هزم المشركون جمعت دروع صفوان ففقد منها أدراعاً، فقال رسول الله ﷺ لصفوان: «قد فقدنا من أدراعك أدراعاً فهل نغرم لك؟» قال: لا يا رسول الله إن في قلبي اليوم ما لم يكن فيه يومئذ.

وهذا مرسل أيضاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٠/٢]: ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه؛ ففتح الله بهم مكة فكانوا اثني عشر ألفاً.

قلت: وعلى قول عروة والزهري وموسى بن عقبة يكون مجموع الجيشين اللذين سار بهما إلى هوازن أربعة عشر ألفاً، لأنه قدم باثني عشر ألفاً إلى مكة على قولهم وأضيف ألفان من الطلقاء.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٧/٢] أنه خرج من مكة في خامس شوال.

قال: واستخلف على أهل مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي.

قلت: وكان عمره إذا ذاك قريباً من عشرين سنة.

قال: ومضى رسول الله ﷺ يريد لقاء هوازن وذكر قصيدة العباس بن مرداس السلمي في ذلك منها قوله:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... مني رسالة نصح فيه تبيان
إني أظن رسول الله صابحكم ... جيشاً له في فضاء الأرض أركان
فيهم سليم أخوكم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته ... وفي مقدمه أوس وعثمان

قال ابن إسحاق: أوس وعثمان قبيلا مزينة.

قال [سيرة ابن هشام: ٤٤٢/٢]: وحدثني الزهري عن سنان بن أبي سنان الدئلي عن أبي واقد الليثي أن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى حنين.

قال: وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم».

وقد روى هذا الحديث الترمذي [٢١٨٠] عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان.

والنسائي [كبرى (١١١٨٥)] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق عن معمر كلاهما عن الزهري.

كما رواه ابن إسحاق عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً.

وقال أبو داود [٢٥٠١]: حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام عن السلولي أنه حدثه سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير حتى كان عشية، فحضرت صلاة الظهر عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» ثم قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال: فاركب فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نغرن من قبلك الليلة».

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: يا رسول الله ما أحسسنا، فثوب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلي ويلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلا هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا إلا مصليا أو قاضي حاجة فقال له رسول الله ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها».

وهكذا رواه النسائي [كبرى (٨٨٧٠)] عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحراني عن أبي توبة الربيع بن نافع به.

سنة ٨- ما كان في أول الأمر من الفرار ثم كانت العاقبة للمتقين

قال يونس بن بكير وغيره عن محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله ﷺ إليها فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أين أيها الناس؟ هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله» قال: فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً.

فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس ومعه رهط من أهل بيته علي بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، والفضل بن العباس وقيل الفضيل بن أبي سفيان وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد، ومن الناس من يزيد فيهم قثم بن العباس ورهط من المهاجرين منهم أبو بكر وعمر والعباس آخذ بحكمة بغلته البيضاء وهو عليها قد شجرها.

قال: ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن وهوازن خلفه إذ أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس

رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه.

قال: فبينما هو كذلك إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتي علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله.

قال: واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ.

ورواه الإمام أحمد [٣/٣٧٦، ٣٧٧] عن يعقوب بن إبراهيم الزهري عن أبيه عن محمد بن إسحاق قال ابن إسحاق: والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان ممن صبر يومئذ وكان حسن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثفر بغلة رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟» قال: ابن أمك يا رسول الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٤٣، ٤٤٤]: ولما انهزم الناس تكلم رجال من جفاة الأعراب بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان صخر بن حرب - وكان إسلامه بعد مدخولا وكانت الأزلام معه يومئذ - قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية - يعني لأمه - وهو مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك فوالله لئن يربُّني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٧٩]: حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأ إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك: أن هوازن جاءت يوم حنين بالنساء والصبيان والإبل والغنم فجعلوها صفوفاً يكثرون على رسول الله ﷺ فلما التقوا ولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» ثم قال: «يا معشر الأنصار أنا عبد الله ورسوله» قال: فهزم الله المشركين ولم يضرب بسيف ولم يطعن برمح. قال وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «من قتل كافراً فله سلبه» قال: فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا وأخذ أسلابهم، وقال أبو قتادة: يا رسول الله إني ضربت رجلا على حبل العاتق وعليه درع له فأجهضت عنه فانظر من أخذها قال: فقام رجل فقال: أنا أخذتها فأرضه منها وأعطنيها.

قال: وكان رسول الله ﷺ لا يسأل شيئا إلا أعطاه أو سكت، فسكت رسول الله ﷺ. فقال عمر: والله لا يُفيئُها الله على أسد من أسد الله ويعطيكها، فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر» قال: ولقي أبو طلحة أم سليم ومعها خنجر فقال أبو طلحة: ما هذا؟ فقالت: إن دنا مني بعض المشركين أن أبعج به بطنه، فقال أبو طلحة: أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك رسول الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله أقتل من بعدها من الطلقاء انهزموا بك، فقال: «إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم».

وقد روى مسلم [١٨٠٩] منه قصة خنجر أم سليم، وأبو داود [٢٧١٨] قوله: «من قتل قتيلا فله سلبه» كلاهما من حديث حماد بن سلمة به.

وقول عمر في هذا مستغرب والمشهور أن ذلك أبو بكر الصديق.

وقال الإمام أحمد [٣/١٥١]: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبي، حدثنا نافع أبو غالب، شهد أنس بن مالك قال: فقال العلاء بن زياد العدوي: يا أبا حمزة بسنِّ أي الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بعث؟ فقال: ابن أربعين سنة، قال: ثم كان ماذا؟ قال: ثم كان بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين فتمت له ستون سنة، ثم قبضه الله إليه، قال: بسنِّ أي الرجال هو يومئذ؟ قال: كأشب الرجال وأحسنه وأجمله وألحمه، قال: يا أبا حمزة وهل غزوت مع رسول الله ﷺ؟ قال: نعم غزوت معه يوم حنين فخرج المشركون بكرة فحملوا علينا حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا وفي المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمنا، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ نزل فهزمهم الله فولوا، فقام رسول الله ﷺ حين رأى الفتح فجعل يجاء بهم أسارى رجل رجل فيبايعونه على الإسلام، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: إن علي نذراً لئن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه، قال: فسكت رسول الله ﷺ وجيء بالرجل فلما رأى نبي الله ﷺ قال: يا نبي الله تبت إلى الله؟ قال: وأمسك نبي الله ﷺ أن يبايعه ليوفي الآخر نذره، قال: وجعل ينظر إلى النبي ﷺ ليأمره بقتله ويهاب رسول الله ﷺ، فلما رأى النبي ﷺ أنه لا يصنع شيئا بايعه فقال: يا نبي الله نذري؟ قال: «لم أمسك عنه منذ اليوم إلا لتوفي نذرك» فقال: يا رسول الله ألا أومأت إلي؟ قال: «إنه ليس لنبي أن يومئ».

تفرد به أحمد [أخرج د (٣١٩٤) بعضه من طريق عبد الوارث، به].

وقال أحمد [٣/١٢١]: حدثنا يزيد، حدثنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ يوم حنين: «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض بعد اليوم» إسناده ثلاثي على شرط الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاري [٤٣١٧]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها وهو يقول: «أنا النبي لا كذب»، ورواه البخاري [٤٣١٦] عن أبي الوليد عن شعبة به وقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قال البخاري [٤٣١٧]: وقال إسرائيل وزهير عن أبي إسحاق عن البراء: ثم نزل عن بغلته.

ورواه مسلم [١٦٧٦] والنسائي [كبرى (٨٦٣٨)] عن بندار. زاد مسلم، وأبي موسى كلاهما عن غندر به.

وروى مسلم [١٦٧٦] من حديث زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحاق عن البراء قال: ثم نزل فاستنصر وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

«اللهم نزل نصرك».

قال البراء: ولقد كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع الذي يحاذي به.

وروى البيهقي [الدلائل: ٥/١٣٥، ١٣٦] من طرق أن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «أنا ابن العواتك».

وقال الطبراني [الكبير: ٧/٢٠١]: حدثنا عباس بن الفضل الأسفاطي حدثنا عمرو بن عوف الواسطي حدثنا هشيم، أنبأ يحيى بن سعيد عن عمرو بن سعيد بن العاص، عن سَيَابة بن عاصم السلمي أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «أنا ابن العواتك».

وقال البخاري [٤٣٢١]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأ مالك عن

يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلح، عن أبي محمد مولى أبي قتادة عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع وأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني فلحقت عمر، فقلت: ما بال الناس؟ فقال: أمر الله، عز وجل، ثم رجعوا وجلس رسول الله ﷺ فقال: «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه» فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست فقال رسول الله ﷺ مثله، فقلت من يشهد لي؟ ثم جلست فقال رسول الله ﷺ مثله، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال رسول الله ﷺ مثله فقمت فقال: «مالك يا أبا قتادة؟» فأخبرته فقال رجل: صدق سلبه عندي فأرضه مني، فقال أبو بكر: لاها الله إذاً يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه؟! فقال النبي ﷺ: «صدق فاعطه» فأعطانيه فابتعت به مَخْرفاً في بني سلمة فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام.

ورواه بقية الجماعة [م (١٧٥١)، د (٢٧١٧)، ت (١٥٦٢)، ج (٢٨٣٧)] إلا النسائي من حديث يحيى بن سعيد به.

قال البخاري، [٤٣٢٢] وقال الليث بن سعد: حدثني يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلح، عن أبي محمد مولى أبي قتادة أن أبا قتادة قال: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين وآخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع يده ليضربني فأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضما شديداً حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل فدفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيل قتَلَه فله سلبه» فقمت لألتمس بينة على قتيلي فلم أر أحداً يشهد لي فجلست، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي فأرضه مني، فقال أبو بكر: كلا لا يعطيه أُصَيْبِعَ من قريش ويدع أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله. قال: فقام رسول الله فأداه إلي فاشتريت به خرافاً فكان أول مال تأثلته.

وقد رواه البخاري في مواضع أخر [٧١٧٠] ومسلم [١٧٥١] كلاهما عن قتيبة عن الليث بن سعد به.

وقد تقدم من رواية نافع أبي غالب عن أنس أن القائل لذلك عمر بن الخطاب فلعله قاله متابعة لأبي بكر الصديق ومساعدة وموافقة له، أو قد اشتبه على الراوي والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٢٩/٥]: أنبأنا الحاكم، أنبأ الأصم، أنبأ أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين حين رأى من الناس ما رأى: «يا عباس ناد: يا معشر الأنصار يا أصحاب الشجرة» فأجابوه لبيك لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار، ثم جعلت آخراً بالخزرج، وكانوا صُبُراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس» قال: فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله ﷺ أموالهم وأبناءهم.

وقال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة. وذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما فتح الله عليه مكة وأقر بها عينه، خرج إلى هوازن وخرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحداً ركباناً ومشاة حتى خرج النساء يمشين على غير دين نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون مع ذلك أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ وأصحابه.

قالوا: وكان معه أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرق بينهما.

قالوا: وكان رئيس المشركين يومئذ مالك بن عوف النصري ومعه دريد بن الصمة يرعش من الكبر، ومعه النساء والذراري والنعم، فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد عيناً، فبات فيهم فسمع مالك بن عوف يقول لأصحابه: إذا أصبحتم فاحملوا عليهم حملة رجل واحد واكسروا أغماد سيوفكم واجعلوا مواشيكم صفاً ونساءكم صفاً.

فلما أصبحوا اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة وصف الناس بعضهم لبعض وركب رسول الله ﷺ بغلة له شهباء فاستقبل الصفوف فأمرهم وحضهم على القتال وبشرهم بالفتح - إن صبروا - فبينما هم كذلك حمل المشركون على المسلمين حملة رجل واحد، فجال المسلمون جولة ثم ولوا مدبرين، فقال حارثة بن النعمان: اني لقد حزرت من بقي مع رسول الله ﷺ حين أدبر الناس فقلت: مائة رجل، قالوا: ومر رجل من قريش بصفوان بن أمية فقال: ابشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجتبرونها أبدا، فقال له صفوان: تبشرني بظهور الأعراب فوالله لَرَبٌّ من قريش أحبُّ إلي من ربٍّ من الأعراب، وغضب صفوان لذلك.

قال موسى: وبعث صفوان غلاماً له فقال: اسمع لمن الشعار؟ فجاءه فقال: سمعتهم يقولون: يا بني عبد الرحمن يا بني عبد الله، يا بني عبيد الله، فقال: ظهر محمد وكان ذلك شعارهم في الحرب.

قالوا: وكان رسول الله ﷺ لما غشيه القتال قام في الركابين وهو على البغلة فرفع يديه إلى الله يدعوه يقول: «اللهم إني أنشدك ما وعدتني اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا» ونادى أصحابه وذمَّرَهُم: «يا أصحاب البيعة يوم الحديبية الله الله الكرَّةُ على نبيكم».

ويقال: حرضهم فقال: «يا أنصار الله وأنصار رسوله يا بني الخزرج يا أصحاب سورة البقرة» وأمر من أصحابه من ينادي بذلك.

قالوا: وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواحِيَهم كلها وقال: «شاهت الوجوه» وأقبل أصحابه إليه سراعاً يبتدرون، وزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «الآن حمي الوطيس» فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصبهم منها، واتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنمهم الله نساءهم وذراريَّهم، وفر مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف هو وأناس من أشراف قومه، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصرَ اللهِ رسولَه ﷺ وإعزازه دينه.

رواه البيهقي [دلائل النبوة: ١٢٩/٥].

وقال ابن وهب: أخبرني يونس عن الزهري، أخبرني كثير بن العباس بن عبد المطلب، قال: قال العباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث لا نفارقه. ورسول الله ﷺ على بغلة

بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى الناس ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار.

قال العباس: وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس ناد أصحاب السمرة» قال: فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيكاه يا لبيكاه، قال: فاقتتلوا هم والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشرَ الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج؛ فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال: «هذا حين حمي الوطيس» ثم أخذ ﷺ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار، ثم قال: «انهزَموا وربِّ محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله ﷺ بحصياته فما زلت أرى حدَّهم كليلا، وأمرَهم مدبراً.

ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب به نحوه [(١٧٧٥) (٧٦)].

ورواه أيضا عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق، عن معمر عن الزهري نحوه [(١٧٧٥) (٧٧)].

وروى مسلم [١٧٧٧] من حديث عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلوا ثنية فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم، وتوارى عني فما دريت ما صنع ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة رسول الله ﷺ فولى أصحاب رسول الله ﷺ وأرجع منهزما وعلي بردتان متزرا بإحداهما مرتديا بالأخرى.

قال: فاستطلق إزاري فجمعتها جمعاً ومررت على النبي ﷺ وأنا منهزم وهو على بغلته الشهباء، فقال: «لقد رأى ابن الأكوع فزعاً» فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض واستقبل به وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فما خَلَقَ الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، فهزمهم الله وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده [١٣٧١]: حدثنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن عبد الله بن يسار، عن أبي عبد الرحمن الفهري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في حنين فسرنا في يوم قايظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال السَّمُر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي فأتيت رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قد حان الرواح يا رسول الله؟ قال: «أجل» ثم قال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا بلال» فثار من تحت سمرة كأنَّ ظلَّه ظلُّ طائر فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك؟ فقال: «أسرج لي فرسي» فأتاه بدفتين من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر. قال: فركب فرسه فسرنا يومنا فلقينا العدو وتشامت الخيلان فقاتلناهم فولّى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» واقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه.

وحدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من التراب فحثى بها وجوه العدو وقال: «شاهت الوجوه».

قال يعلى بن عطاء: فحدثنا أبناؤهم عن آبائهم قالوا: ما بقي أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الجديد، فهزمهم الله عز وجل.

ورواه أبو داود السجستاني في سننه [٥٢٣٣] عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة به نحوه.

وقال الإمام أحمد [٤٥٣/١، ٤٥٤]: حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصيرَة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال عبد الله بن مسعود: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلا من المهاجرين والأنصار، فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة.

قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قدما، فحادت به بغلته فمال عن السرج فقلت له: ارتفع رفعك الله فقال: «ناولني كفاً من تراب» فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا قال: «أين المهاجرين والأنصار؟» قلت: هم أولاء قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم.

تفرد به أحمد.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٤٢/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الحسين محمد بن أحمد بن تميم القنطري، حدثنا أبو قلابة، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، أخبرني عبد الله بن عياض بن الحارث الأنصاري عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أتى هوازن في اثني عشر ألفاً فقتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر، قال: وأخذ رسول الله ﷺ كفّاً من حصى فرمى بها في وجوهنا فانهزمنا.

ورواه البخاري في تاريخه [التاريخ الكبير: ١٩/٧] ولم ينسب عياضاً.

وقال مسدد: حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوف، ثنا عبد الرحمن مولى أم برثن عمن شهد حنينا كافرا قال: لما التقينا نحن ورسول الله ﷺ والمسلمون لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول الله ﷺ حتى إذ غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه فقالوا: شاهت الوجوه فارجعوا، فهزمنا من ذلك الكلام.

رواه البيهقي [الدلائل: ١٤٣/٥].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو سفيان، حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني محمد بن عبد الله الشُّعيثي عن الحارث بن بدل النصري عن رجل من قومه شهد ذلك يوم حنين وعمرو بن سفيان الثقفي قال: انهزم المسلمون يوم حنين فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا عباس وأبو سفيان بن الحارث، قال: فقبض رسول الله ﷺ قبضة من الحصباء فرمى بها في وجوههم، قال: فانهزمنا فما خُيِّل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا.

قال الثقفي: فأعجزت على فرسي حتى دخلت الطائف [المعرفة والتاريخ: ٣٢٧/١ والدلائل للبيهقي: ٣٢٧/١].

وروى يونس بن بكير في مغازيه عن يوسف بن صهيب عن عبد الله أنه لم يبق مع رسول الله ﷺ يوم حنين إلا رجل واحد اسمه زيد.

وروى البيهقي [الدلائل: ١٤٣/٥، ١٤٤] من طريق الكديمي حدثنا موسى بن مسعود حدثنا سعيد بن السائب بن يسار الطائفي عن السائب بن يسار عن يزيد بن عامر السوائي أنه قال: عند انكشافة انكشفها المسلمون يوم حنين فتبعهم الكفار وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من الأرض، ثم أقبل على المشركين فرمى بها وجوههم، وقال: «ارجعوا شاهت الوجوه» فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى في عينيه.

ثم روى، من طريقين آخرين عن أبي حذيفة: حدثنا سعيد بن السائب بن يسار الطائفي، حدثني أبي السائب بن يسار سمعت يزيد بن عامر السوائي - وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد - قال: فنحن نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين كيف كان؟ قال: فكان يأخذ لنا بحصاة فيرمي بها في الطست فيطن، قال: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا [الدلائل: ٥/١٤٤].

وقال البيهقي [الدلائل: ٥/١٤٥، ١٤٦]: أنبأ أبو عبد الله الحافظ ومحمد بن موسى بن الفضل قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس عن محمد بن بكير الحضرمي، حدثنا أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكن أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله إني أرى خيلا بلقاً، فقال: «يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده في صدري ثم قال: «اللّهم اهد شيبة» ثم ضربها الثانية فقال: «اللّهم اهد شيبة» ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللّهم اهد شيبة» قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه.

ثم ذكر الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين.

وقال البيهقي [الدلائل: ٥/١٤٥]: أنبأ أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المزني، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري من رسول الله ﷺ، قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة ينكشف عنها العجاج، فقلت: عمه ولن يخذله.

قال: ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذله، قال: ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف إذ رُفع شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يمحشني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبُ يا شيبُ، ادن مني، اللّهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيب قاتل الكفار».

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٤٤]: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار قلت: اليوم أدرك ثأري - وكان أبوه قد قتل يوم أحد - اليوم أقتل محمداً، قال: فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك وعلمت أنه ممنوع مني.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٤٩]: وحدثني والدي إسحاق بن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٥/١٤٦، ١٤٧] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق به. وزاد فقال خديج بن العوجا النصري - يعني في ذلك -:

ولما دنونا من حنين ومائه ... رأينا سواداً منكر اللون أخصفا
بململمة شهباء لو قذفوا بها ... شماريخ من عروى إذاً عاد صفصفا
ولو أن قومي طاوعتني سراتهم ... إذاً ما لقينا العارض المتكشفا
إذاً ما لقينا جند آل محمد ... ثمانين ألفاً واستمدوا بخندفا

وقد ذكر ابن إسحاق من شعر مالك بن عوف النصري رئيس هوازن يوم القتال وهو في حومة الوغا يرتجز ويقول:

أقدم محاج إنه يوم نكر ... مثلي على مثلك يحمي ويكر
إذا أضيعَ الصفُ يوماً والدُبر ... ثم احزألّت زُمر بعد زمر
كتائب يكل فيهن البصر ... قد أُطعن الطعنة تقذي بالسُبر
حين يذم المُستكين المُنْجَحر ... وأطعن النجلاء تعوي وتهر
لها من الجوف رشاش منهمر ... تفهق تارات وحيناً تنفجر
وثعلبُ العامل فيها منكسر ... يا زَيْنُ يا ابن همهم أين تفر
قد نَفِدَ الضرس وقد طال العمر ... قد علم البيض الطويلات الخمر
أني في أمثالها غير غمر ... إذ تخرج الحاضن من تحت السُتر

وذكر البيهقي [الدلائل: ٥/١٤٧] من طريق يونس بن بكير عن أبي إسحاق أنه أنشد من شعر مالك أيضاً حين ولى أصحابه منهزمين وذلك قوله بعد ما أسلم وقيل: هي لغيره:

أذكر مسيرهم والناس كلهم ... ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالكٌ مالك ما فوقه أحد ... يوم حنين عليه التاج يأتلق
حتى لقوا الناس حين البأس يقدمهم ... عليهم البيض والأبدان والدرق
فضاربوا الناس حتى لم يروا أحداً ... حول النبي وحتى جَنّه الغسق
حتى تنزل جبريل بنصرهم ... فالقوم منهزم منا ومعتلق
منا ولو غير جبريل يقاتلنا ... لمنّعتنا إذاً أسيافنا الفُلق
وقد وفى عمر الفاروق إذ هزموا ... بطعنة بلّ منها سرجه العلق

قال ابن إسحاق: ولما هزم المشركون وأمكن الله رسوله منهم قالت امرأة من المسلمين:

قد غلبت خيل الله خيل ... اللات والله أحق بالثبات

قال ابن هشام: وقد أنشدنيه بعض أهل الرواية للشعر:

غلبت خيل الله خيل ... اللات وخيله أحقّ بالثبات

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٤٩، ٤٥٠]: فلما انهزمت هوازن استحر القتل من ثقيف في بني مالك، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم وكانت مع ذي الخمار، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب فقاتل بها حتى قتل، فأخبرني عامر بن وهب بن الأسود أن رسول الله ﷺ لما بلغه قتله قال: «أبعده الله فإنه كان يبغض قريشاً».

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٥٠] عن يعقوب بن عتبة أنه قتل مع عثمان هذا غلام له نصراني، فجاء رجل من الأنصار ليسلبه فإذا هو أغرل، فصاح بأعلا صوته: يا معشر العرب يعلم الله إن ثقيفاً غرل، قال المغيرة بن شعبة الثقفي: فأخذت بيده وخشيت أن تذهب عنا في العرب، فقلت: لا تقل كذلك فداك أبي وأمي إنما هو غلام لنا نصراني، ثم جعلت أكشف له القتلى فأقول له ألا تراهم مختتنين كما ترى؟.

قال ابن إسحاق: وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين، رجل من بني غيرة يقال له: وهب ورجل من بني كبة يقال له الجلاح، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قتل الجلاح: «قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة» يعني الحارث بن أويس.

قال ابن إسحاق: فقال العباس بن مرداس: يذكر قارب بن الأسود وفراره من بني أبيه وذا الخمار وحبسه نفسه وقومه للموت:

ألا من مبلغ غيلان عني ... وسوف أخال يأتيه الخبير
وعروة إنما أهدي جواباً ... وقولاً غير قولكما يسير
بأن محمداً عبدٌ رسول ... لِربٍّ لا يضل ولا يجور
وجدناه نبياً مثل موسى ... فكل فتى يخايره مخير
وبئس الأمر أمر بني قسي ... بوَجٍّ إذا تقسمت الأمور
أضاعوا أمرهم ولكل قوم ... أمير والدوائر قد تدور
فجئنا أسد غابات إليهم ... جنود الله ضاحية تسير
نؤم الجمع جمع بني قسي ... على حنق نكاد له نطير
وأقسم لو هُمُوا مكثوا لسرنا ... إليهم بالجنود ولم يغوروا
فكنا أُسْدَ لِيَّةَ ثَمَّ حتى ... أبحناها وأسلمت النصور
ويومٌ كان قبل لدى حنين ... فأقلع والدماء به تمور
من الأيام لم تسمع كيوم ... ولم يسمع به قوم ذكور
قتلنا في الغبار بني حطيط ... على راياتها والخيل زور
ولم يك ذو الخمار رئيس قوم ... لهم عقل يعاقب أو نكير
أقام بهم على سنن المنايا ... وقد بانت لمبصرها الأمور
فأفلت من نجا منهم جريضاً ... وقتل منهم بشرٌ كثير
ولا يغني الأمورَ أخو التواني ... ولا الغلقُ الصُّرَيِّرة الحصور
أحانهم وحان وملكوه ... أمورهم وأفلتت الصقور
بنو عوف تميح بهم جياد ... أهين لها الفصافص والشعير
فلولا قارب وبنو أبيه ... تقسمت المزارع والقصور
ولكن الرياسة عمموها ... على يُمْنٍ أشار به المشير
أطاعوا قارباً ولهم جدود ... وأحلام إلى عزٍّ تصير
فإن يهدوا إلى الإسلام يلفوا ... أنوف الناس ما سَمَرَ السمير
فإن لم يسلموا فهموا أذان ... بحرب الله ليس لهم نصير
كما حكَّت بنو سعد وحرب ... برهط بني غزية عنقفير
كأن بني معاوية بن بكر ... إلى الإسلام ضائنة تخور
فقلنا أسلموا إنا أخوكم ... وقد برأت من الإحن الصدور
كأن القوم إذ جاؤوا إلينا ... من البغضاء بعد السلم عور

سنة ٨- مع ملك هوازن

ولما انهزمت هوازن وقف ملكهم مالك بن عوف النصري على ثنية مع طائفة من أصحابه فقال: قفوا حتى تجوز ضعفاؤكم وتلحق أخراكم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٦/٢]: فبلغني أن خيلا طلعت ومالك وأصحابه على الثنية فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوما واضعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم، فقال: هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوماً عارضي رماحهم أغفالا على خيلهم، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سليم، ثم طلع فارس فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ فقالوا: نرى فارساً طويل الباد واضعاً رمحه على عاتقه عاصباً رأسه بملاءة حمراء، قال: هذا الزبير بن العوام وأقسم باللات ليخالطنكم فاثبتوا له، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها.

سنة ٨- غنائم هوازن

وأمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت من الإبل والغنم والرقيق وأمر أن تساق إلى الجعرانة فتحبس هناك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٩/٢]: وجعل رسول الله ﷺ على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري

سنة ٨- النهي عن قتل الولدان والنساء في الغزو

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٧/٢، ٤٥٨]: وحدثني بعض أصحابنا أن رسول الله ﷺ مر يومئذ بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون عليها فقال لبعض أصحابه: «أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً».

هكذا رواه ابن إسحاق منقطعاً.

وقد قال الإمام أحمد [٤٨٨/٣]: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد، حدثني المرقع بن صيفي عن جده رباح بن ربيع أخي حنظلة الكاتب أنه أخبره أنه خرج رسول الله ﷺ في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها ويتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله ﷺ فقال: «ما كانت هذه لتقاتل» فقال لأحدهم: «الحق خالداً فقل له: لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً».

وكذلك رواه أبو داود [٢٦٦٩] والنسائي [كبرى (٨٦٢٥، ٨٦٢٦)] وابن ماجه [٢٨٤٢] من حديث المرقع بن صيفي به نحوه.

سنة ٨- سرية أوطاس

وكان سببها أن هوازن لما انهزمت ذهبت فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف النصري فلجؤوا إلى الطائف فتحصنوا بها، وسارت فرقة فعسكروا بمكان يقال له أوطاس، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سرية من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري فقاتلوهم فغلبوهم، ثم سار رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة فحاصر أهل الطائف كما سيأتي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٣/٢]: ولما انهزم المشركون يوم حنين أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا.

قال: فأدرك ربيعة بن رفيع بن أهبان السلمي ويعرف بابن الدُّغُنَّة - وهي أمه - دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة وذلك أنه في شجار لهم، فإذا برجل فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا دريد بن الصمة ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا، قال: بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في الشجار ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة فرب والله يوم منعت فيه نساءك.

فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القراطيس من ركوب الخيل أعراء، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً.

ثم ذكر ابن إسحاق ما رثت به عمرة بنت دريد أباها فمن ذلك قولها:

قالوا قتلنا دريداً قلت قد صدقوا ... فظلَّ دمعي على السِّربال منحدر
لولا الذي قهر الأقوام كلهم ... رأتْ سليمٌ وكعبٌ كيف تأتمر
إذنْ لصبحهم غِبّاً وظاهرةً ... حيثُ استقرت نواهم جَحْفَلٌ ذَفِر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٤/٢، ٤٥٥]: وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال فرمي أبو عامر فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن عمه فقاتلهم ففتح الله عليه وهزمهم الله عز وجل، ويزعمون أن سلمة بن دريد هو الذي رمى أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله وقال:

إن تسألوا عني فإني سلمه ... ابن سماديرَ لمن توسمه
أضرب بالسيف رؤوس المسلمه

قال ابن هشام [السيرة: ٤٥٧/٢]: وحدثني من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه أن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرة أخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللّهم اشهد عليه فقتله أبو عامر، ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللّهم اشهد عليه؛ فقتله أبو عامر، ثم جعلوا يحملون عليه وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة وبقي العاشر فحمل على أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللّهم اشهد عليه، فقال الرجل: اللّهم لا تشهد علي فكف عنه أبو عامر فأفلت فأسلم بعد فحسن إسلامه، فكان النبي ﷺ إذا رآه قال: «هذا شريد أبي عامر» قال: ورمي أبا عامر، إخوان العلاء وأوفى أبناء الحارث من بني جشم بن معاوية فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه، وولي الناس أبا موسى فحمل عليهما فقتلهما، فقال رجل من بني جشم يرثيهما:

وإن الرزية قتل العلا ... ء وأوفى جميعاً ولم يسندا
هما القاتلان أبا عامرٍ ... وقد كان ذا هَبَّةٍ أربدا
هما تركاه لدى معركٍ ... كأن على عطفه مجسدا
فلم يُرَ في الناس مثليهما ... أقل عثاراً وأرمى يدا

وقال البخاري [٤٣٢٣]: حدثنا محمد بن العلاء، وحدثنا أبو أسامة، عن بُرَيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه.

قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرمي أبو عامر في ركبته رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، قال: فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له فلحقته فلما رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت؟ فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم فنزعته فنزا منه الماء. قال: يا ابن أخي أقرئ رسول الله ﷺ السلام وقل له: استغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات فرجعت فدخلت على رسول الله ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقوله: قل له: استغفر لي قال: فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: «اللّهم اغفر لعبيد أبي عامر» ورأيت بياض إبطيه ثم قال: «اللّهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك - أو من الناس» فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريماً» قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى رضي الله عنهما.

ورواه مسلم [٢٤٩٨] عن أبي كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن برّاد عن أبي أسامة به نحوه.

وقال الإمام أحمد [٧٢/٣]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأ سفيان - هو الثوري - عن عثمان البتي عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النساء: ٢٤] قال: فاستحللنا بها فروجهن.

وهكذا رواه الترمذي [١١٣٢] والنسائي [كبرى (١١٠٩٧)] من حديث عثمان البتي به. وأخرجه مسلم في صحيحه [(١٤٥٦) (٣٥)] من حديث شعبة، عن قتادة عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري.

وقد رواه الإمام أحمد [٨٤/٣] ومسلم [(١٤٥٦) (٣٣)] وأبو داود [٢١٥٥] والنسائي [٣٣٣٣] من حديث سعيد بن أبي عروبة.

زاد مسلم وشعبة والترمذي [٣٠١٦] من حديث همام بن يحيى ثلاثتهم عن قتادة، عن أبي الخليل، عن أبي علقمة الهاشمي، عن أبي سعيد: أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأثموا من غشيانهن، فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

وهذا لفظ أحمد بن حنبل فزاد في هذا الإسناد أبا علقمة الهاشمي وهو ثقة، وكان هذا هو المحفوظ والله أعلم.

وقد استدل جماعة من السلف بهذه الآية الكريمة على أن بيع الأمة طلاقها.

وروي ذلك عن ابن مسعود وأبي بن كعب وجابر بن عبد الله وابن

عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصري [تفسير الطبري: ٥/٣، ٤].

وخالفهم الجمهور مستدلين بحديث بريرة حيث بيعت ثم خيرت في فسخ نكاحها أو إبقائه، فلو كان بيعها طلاقاً لها لما خيرت، وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير بما فيه كفاية، وسنذكره إن شاء الله في الأحكام الكبير.

وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذا الحديث في سبايا أوطاس.

وخالفهم الجمهور وقالوا: هذه قضية عين، فلعلهن أسلمن أو كن كتابيات، وموضع تقرير ذلك في الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى.

سنة ٨- من استشهد يوم حنين وبسرية أوطاس

أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله ﷺ وهو أيمن بن عبيد، وزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، جمح به فرسه الذي يقال له الجناح فمات، وسراقة بن مالك بن الحارث بن عدي الأنصاري من بني العجلان، وأبو عامر الأشعري أمير سرية أوطاس، فهؤلاء أربعة رضي الله عنهم.

سنة ٨- ما قيل من الأشعار في غزوة هوازن

فمن ذلك قول بجير بن زهير بن أبي سلمى:

لولا الإله وعبده وليتم ... حين استخف الرعب كلَّ جبان
بالجزع يومَ حبَا لنَا أقراننا ... وسوابحٌ يكبون للأذقان
من بين ساعٍ ثوبه في كفه ... ومقطرٍ بسنابك ولبان
واللّه أكرمنا وأظهر ديننا ... وأعزنا بعبادة الرحمن
واللّه أهلكهم وفرق جمعهم ... وأذلهم بعبادة الشيطان

قال ابن هشام: ويروي فيها بعض الرواة:

إذ قام عمّ نبيكم ووليُّه ... يدعون يا لكتيبة الإيمان
أين الذين هم أجابوا ربهم ... يوم العريض وبيعة الرضوان

وقال عباس بن مرداس السلمي:

فإني والسوابحُ يومَ جمعٍ ... وما يتلو الرسول من الكتاب
لقد أحببتُ ما لقيتْ ثقيفٌ ... بجنب الشّعب أمس من العذاب
هم رأس العدو من أهل نجدٍ ... فقتلهم ألذُّ من الشراب
هزمنا الجمع جمعَ بني قسي ... وحكّت بركها ببني رئاب
وصرماً من هلال غادرتهم ... بأوطاس تعفّر بالتراب
ولولا قينُ جمعِ بني كلاب ... لقام نساؤهم والنقع كابي
ركضنا الخيل فيهم بين بسٍّ ... إلى الأورال تنحط بالنهاب
بذي لجبٍ رسول اللّه فيهم ... كتيبتُه تَعَرَّضُ للضّراب

وقال عباس بن مرداس أيضاً:

يا خاتم النبآء إنك مرسلٌ ... بالحق كلّ هُدى السبيل هداكا
إن الإلهَ بنى عليك محبة ... في خلقه ومحمداً سمّاكا
ثم الذين وفوا بما عاهدتهم ... جندٌ بعثتَ عليهم الضحاكا
رجلا به ذَرَبُ السلاح كأنه ... لمّا تكنَّفه العدو يراكا
يغشى ذوي النسبِ القريب وإنما ... يبغي رضا الرحمن ثم رضاكا
أنبيك أني قد رأيت مَكَرَّه ... تحت العجاجةِ يدمغُ الإشراكا
طوراً يعانق باليدين وتارةً ... يفري الجماجم صارماً بتّاكا
يغشى به هامَ الكُماةِ ولو ترى ... منه الذي عاينتُ كان شفاكا
وبنو سليم مُعْنِقون أمامه ... ضرباً وطعناً في العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم ... أسدُ العرين أردْن ثَمَّ عِراكا
ما يرتجون من القريب قرابةً ... إلا لطاعةِ ربِّهم وهواكا
هذي مشاهدنا التي كانت لنا ... معروفة ووليُّنا مولاكا

وقال عباس بن مرداس أيضاً:

عفا مجدلٌ من أهله فمُتَالعُ ... فمطلا أريك قد خلا فالمصانع
ديارٌ لنا يا جُمْلُ إذ جُلُّ عيشنا ... رخي وصَرْفُ الدهر للحي جامع
حُبَيِّبةٌ ألوتْ بها غُربةُ النوى ... لبينٍ فهل ماضٍ من العيش راجع
فإن تبتغي الكفّارُ غيرَ ملومةٍ ... فإني وزيرٌ للنبي وتابع
دعانا إليه خيرُ وفدٍ علمتُم ... خزيمةُ والمَرّارُ منهم وواسع
فجئنا بألف من سليم عليهم ... لبوسٌ لهم من نَسْجِ داودَ رائع
نبايعه بالأخشبيْن وإنما ... يد اللّه بينَ الأخشبين نُبايع
فجسنا مع المهدي مكة عنوة ... بأسيافنا والنقع كابٍ وساطع
علانيةً والخيلُ يغشى متونها ... حميمٌ وآنٍ من دم الجوف ناقع
ويوم حنينٍ حين سارت هوازن ... إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحّاك لا يستفزُّنا ... قِراعُ الأعادي منهمُ والوقائع
أمامَ رسولِ اللّه يخفِقُ فوقنا ... لواءٌ كخذروفِ السَّحابةِ لامع
عشية ضحاكُ بنُ سفيان معتصٍ ... بسيفِ رسولِ اللّه والموتُ كانع
نذودُ أخانا عن أخينا ولو نرى ... مَصَالا لكنّا الأقربين نتابع
ولكنّ دين اللّه، دينَ محمد ... رضينا به فيهِ الهدى والشرائع
أقام به بعدَ الضلالة أمرنا ... وليس لأمرٍ حمّه اللّه دافع

وقال عباس أيضاً:

تقطّع باقي وصلِ أم مؤمّلِ ... بعاقبةٍ واستَبْدلتْ نيةً خُلْفا
وقد حلفتْ باللّه لا تقطع القوى ... فما صدقتْ فيه ولا بَرّتِ الحلْفا
خفافيةٌ بطنُ العقيقِ مصيفُها ... وتحتلُّ في البادينَ وجرةَ فالعرفا
فإن تتبع الكفّار أمُّ مؤمل ... فقد زوّدتْ قلبي على نأيها شَغْفا
وسوف ينبّيها الخبيرُ بأننا ... أبينا ولم نطلب سوى ربنا حلفا
وإنا مع الهادي النبي محمدٍ ... وفينا ولم يستوفها معشرٌ ألفا
بفتيان صدقٍ من سليم أعزّةٍ ... أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
خفافٌ وذكوانٌ وعوفٌ تخالهم ... مصاعبُ زافتْ في طَروقتها كلفا
كأن نسيجَ الشُّهب والبيضِ ملبسٌ ... أسوداً تلاقت في مراصدها غضفا
بنا عزَّ دين اللّه غير تنحُّلٍ ... وزدنا على الحي الذي معه ضِعْفا

بمكة إذ جئنا كأنّ لواءنا ... عُقابٌ أرادتْ بعد تحليقها خطفا
على شُخُص الأبصار تحسبُ بينَها ... إذا هي جالتْ في مراودها عزفا
غداة وطئنا المشركين ولم نجدْ ... لأمر رسول الله عدْلاً ولا صرْفا
بمعتَرَكٍ لا يسمع القومُ وسطهُ ... لنا زَجمةً إلا التذامُر والنقفا
ببيضٍ تطير الهامُ عن مُستقرّها ... وتقطفُ أعناق الكماة بها قطفا
فكائن تركنا من قتيلٍ ملحبٍ ... وأرملةٍ تدعو على بعلها لهفا
رضا الله ننوي لا رضا الناس نبتغي ... ولله ما يبدو جميعاً وما يخفى

وقال عباس بن مرداس أيضاً رضي الله عنه:

ما بالُ عينك فيها عائرٌ سَهِرُ ... مثل الحماطة أغضى فوقها الشُّفُرُ
عينٌ تأوبها من شجوها أرقٌ ... فالماء يغمرها طوراً وينحدر
كأنه نظم درٍّ عند ناظمه ... تقطع السِّلك منه فهو منتثر
يا بعد منزل من ترجو مودته ... ومن أتى دونه الصّمّان فالحفر
دعْ ما تقدّمَ من عهد الشباب فقد ... ولّى الشباب وزار الشّيب والزّعَر
واذكُرْ بلاءَ سليمٍ في مواطنها ... وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قومٌ هموا نصروا الرحمن واتبعوا ... دينَ الرسول وأمرُ الناس مشتجر
لا يغرسون فسيلَ النخل وسْطهم ... ولا تخاوَرُ في مشتاهمُ البقَرُ
إلا سوابحَ كالعُقبان مُقْرَبَةً ... في دارةٍ حولها الأخطارُ والعَكَرُ
تدعى خفافٌ وعوفٌ في جوانبها ... وحيُّ ذكوان لا ميلٌ ولا ضُجُر
الضاربون جنود الشرك ضاحيةً ... ببطن مكةَ والأرواحُ تُبْتَدَر
حتى دَفعنا وقتلاهم كأنهمُ ... نخلٌ بظاهرة البطحاء منقعر
ونحن يومَ حنينٍ كان مشهدنا ... للدين عزاً وعند الله مدّخَر
إذ نركبُ الموتَ مخضرّاً بطائنه ... والخيلُ ينجاب عنها ساطع كدر
تحتَ اللواء مع الضحاك يَقْدُمُنا ... كما مشى الليثُ في غاباته الخدر
في مأزقٍ من مجرّ الحرب كلكلها ... تكاد تأفلُ منه الشمسُ والقمر
وقد صبرنا بأوطاسٍ أسنّتنا ... لله ننصرُ من شئنا وننتصر
حتى تأوّبَ أقوامٌ منازلهم ... لولا المليكُ ولولا نحن ما صدروا
فما ترى معشراً قلوا ولا كثروا إلا ... قد أصبح منا فيهمُ أثر

وقال عباس أيضاً رضي الله عنه:

يا أيها الرجلُ الذي تهوي به ... وجناء مجمرة المناسم عِرْمِسُ
إمّا أتيتَ على النبي فقلْ له ... حقاً عليك إذا اطمأن المجلس
يا خير من ركب المطيّ ومن مشى ... فوق التراب إذا تُعَدُّ الأنفس
إنّا وفينا بالذي عاهدتنا ... والخيلُ تَقْدَعُ بالكُماة وتضرس
إذ سال من أفناء بهثةَ كلّها ... جَمْعٌ تظَلُّ به المخارمُ تَرْجُس
حتى صبّحْنا أهل مكة فيلقاً ... شهباء يقدُمُها الهمامُ الأشوس
من كل أغلبَ من سليم فوقَه ... بيضاءُ محكمَةُ الدِّخَال وقونَس
يروي القناةَ إذا تجاسر في الوغى ... وتخالُهُ أسداً إذا ما يعبس
يغشى الكتيبةَ مُعلِماً وبكفّه ... عضبٌ يقد به ولدنٌ مدعس
وعلى حنينٍ قد وفى من جمعنا ... ألفٌ أمدَّ به الرسول عرندس
كانوا أمام المؤمنين دريئةً ... والشمس يومئذ عليهم أشمُس
نمضي ويحرسنا الإلهُ بحفظه ... والله ليسَ بضائع من يحرس
ولقد حُبِسْنا بالمناقب مَحْبِساً ... رضيَ الإله به فنعم المحبس
وغداة أوطاس شددنا شدةً ... كفتِ العدو وقيل منها يا احبسوا
تدعو هوازن بالإخاوة بيننا ... ثديٌ تمدُّ به هوازنُ أيبس
حتى تركنا جمعهم وكأنه ... عيرٌ تعاقبه السّباع مفرّس

وقال أيضاً رضي الله عنه:

فمن مبلغ الأقوام أن محمداً ... رسولُ الإله راشدٌ حيث يمما
دعا ربّه واستنصر الله وحده ... فأصبح قد وفّى إليه وأنعما
سرينا وواعدْنا قديداً محمداً ... يؤم بنا أمراً من الله محكما
تماروا بنا في الفجر حتى تبينوا ... مع الفجر فتياناً وغاباً مقوما
على الخيل مشدوداً علينا دروعنا ... ورَجْلاً كدُفّاع الأتيّ عرمرما
فإن سراة الحي إن كنت سائلا ... سليم وفيهم منهمُ من تسلما
وجندٌ من الأنصار لا يخذلونه ... أطاعوا فما يعصونه ما تكلما
فإن تك قد أمّرتَ في القوم خالداً ... وقدمتَه فإنه قد تقدما
بجندٍ هداهُ اللهُ أنتَ أميره ... تصيبُ به في الحقّ من كان أظلما
حلفتُ يميناً برةً لمحمد ... فأكملتها ألفاً من الخيل ملجما
وقال نبي المؤمنين تقدموا ... وحُبٌّ إلينا أن نكون المقدما
وبتنا بنهي المستدير ولم يكن ... بنا الخوف إلا رغبةً وتحزما
أطعناك حتى أسلم الناس كلهم ... وحتى صبحنا الجمعَ أهل يلملما
يظل الحصان الأبلق الورد وسطه ... ولا يطمئن الشيخ حتى يسوّما
سمونا لهم ورد القَطا زفّه ضُحى ... وكلٌّ تراه عن أخيه قد احجما
لدنْ غدوةٍ حتى تركنا عشيةً ... حنيناً وقد سالتْ دوافعُه دما
إذا شئت من كلٍّ رأيت طِمِرّةً ... وفارسها يهوي ورمحاً محطما
وقد أحرزتْ منا هوازن سربها ... وحبٌّ إليها أن نخيب ونُحْرما

هكذا أورد الإمام محمد بن إسحاق هذه القصائد من شعر عباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه، وقد تركنا بعض ما أورده من القصائد خشية الإطالة وخوف الملالة، ثم أورد من شعر غيره أيضا، وقد حصل ما فيه كفاية من ذلك والله أعلم.

سنة ٨- غزوة الطائف

قال عروة وموسى بن عقبة عن الزهري: قاتل رسول الله ﷺ يوم حنين وحاصر الطائف في شوال سنة ثمان.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٨/٢ - ٤٨٠]: ولما قدم فل ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال، ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور، قال: ثم سار رسول الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين فقال كعب بن مالك في ذلك:

قضينا من تهامة كل ريبٍ ... وخيبر ثم أجْمَمْنا السيوفا

نُخبِّرها ولـو نطقـت لقـالت ... قواطِعُهـن دوسـاً أو ثقيفـا
فلسـتُ لحـاضنٍ إن لم تروهـا ... بسـاحة داركـم منـا ألوفـا
وننـتزع العـروش ببطـن وجٍّ ... وتصبحُ دوركـم منكـم خلوفـا
ويـأتيكم لنـا سـرعانُ خيـلٍ ... يغـادر خلفـه جمعـاً كثيفـا
إذا نزلـوا بسـاحتكم سمعتـم ... لهـا ممـا أنـاخَ بهـا رجيفـا
بـأيديهم قواضـبُ مرهفـاتٌ ... يـزرْنَ المصطلـينَ بهـا الحتوفـا
كأمثـال العقـائق أخلصتْهـا ... قيـونُ الهنـد لم تضـرب كتيفـا
تخـال جديـة الأبطـال فيهـا ... غـداةَ الزحـف جاديّـاً مدوفـا
أجدّهـمُ أليـسَ لهـم نصيـحٌ ... مـن الأقـوام كـان بنـا عريفـا
يخـبرهم بأنـا قـد جمعنـا ... عتـاقَ الخيـل والنُّجُـبَ الطروفـا
وأنـا قـد أتينـاهم بزحـفٍ ... يحيـطُ بسـورِ حصنهـم صفوفـا
رئيسُـهم النـبي وكـان صُلبـاً ... نقـيَّ القلـبِ مصطـبراً عزوفـا
رشـيد الأمـر ذا حكـم وعلـم ... وحِلـم لم يكـن نَزِقـاً خفيفـا
نطيـع نبينـا ونطيـع ربـاً ... هـو الرحمـن كـان بنـا رؤوفـا
فـإن تلقـوا إلينـا السـلم نقبـلْ ... ونجعلكـم لنـا عضُـداً وريفـا
وإن تـأبوا نجـاهدكم ونصـبر ... ولا يـكُ أمرنـا رعِشـاً ضعيفـا
نجـالد مـا بقينـا أو تنيبـوا ... إلى الإسـلام إذعانـاً مضيفـا
نجـاهدُ لا نبـالي مـا لقينـا ... أأهلكنـا التِّـلادَ أم الطريفـا
وكـم مـن معشـر ألبـوا علينـا ... صميـم الجـذم منهـم والحليفـا
أتونـا لا يـرون لهـم كفـاءً ... فجدَّعْنـا المسـامعَ والأنوفـا
بكـلّ مهنـدٍ لَيِّـنٍ صقيـلٍ ... نسـوقهم بهـا سَـوْقاً عنيفـا
لأمـرِ اللّـه والإسـلام حتـى ... يقـومَ الديـن معتـدلا حنيفـا
وتُنسـى الـلات والعـزى وودٌّ ... ونسـلبها القلائـد والشـنوفا
فأمسـوا قـد أقـروا واطمـأنوا ... ومـن لا يمتنـع يَقْبـلْ خسـوفا

وقال ابن إسحاق: فأجابه كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفي:

قلت: قد وفد على رسول الله ﷺ بعد ذلك في وفد ثقيف فأسلم معهم. قاله موسى بن عقبة وابن إسحاق وأبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ١٣٣٠/٣] وابن الأثير [أسد الغابة: ٥٠٠/٤] وغير واحد، وزعم المدائني أنه لم يسلم بل صار إلى بلاد الروم فتنصر ومات بها:

فمـن كـان يبغينـا يريـد قتالنـا ... فإنـا بـدار معلـم لا نريمهـا
وجدنا بهـا الآباء من قبل ما ترى ... وكـانت لنـا أطواؤهـا وكرومهـا
وقد جرَّبتنا قبل عمرو بـن عـامر ... فأخبرهـا ذو رأيهـا وحليمهـا
وقد علمـتْ إن قـالت الحق أننـا ... إذا مـا أبتْ صُعْـر الخـدودِ نقيمهـا
نقومهـا حتـى يلـين شريسُـها ... ويعـرف للحـق المبـين ظلومهـا
علينـا دلاصٌ مـن تـراثِ محـرِّقٍ ... كلـون السـماء زينتهـا نجومهـا
نرفّعهـا عنّـا ببيـضٍ صـوارمٍ ... إذا جُـرِّدت في غمـرةٍ لا نشيمهـا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨١/٢، ٤٨٢]: وقال شداد بن عارض الجشمي في مسير رسول الله ﷺ إلى الطائف:

لا تنصروا اللات إن اللّـه مهلكهـا ... وكيف ينصر من هـو ليـس ينتصـر
إن الـتي حُرِّقـت بالسُّـدِّ فاشتعلت ... ولم تقـاتل لـدى أحجارهـا هـدر
إن الرسـول متـى يَـنزلْ بلادكـم ... يظعنْ وليـس بهـا مـن أهلهـا بشـر

قال ابن إسحاق: فسلك رسول الله ﷺ - يعني من حنين إلى الطائف - على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية فابتنى بها مسجدا فصلى فيه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٢/٢]: فحدثني عمرو بن شعيب أنه عليه الصلاة والسلام أقاد يومئذ ببحرة الرغاء حين نزلها بدم وهو أول دم أقيد به في الإسلام رجل من بني ليث قتل رجلا من هذيل فقتله به، وأمر رسول الله ﷺ وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم.

قال ابن إسحاق: ثم سلك في طريق يقال لها: الضيقة فلما توجه رسول الله ﷺ سأل عن اسمها فقال: ما اسم هذه الطريق فقيل: الضيقة فقال: بل هي اليسرى، ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: إما أن تخرج إلينا وإما أن نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه.

وقال ابن إسحاق: عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو، سمعت رسول اللّـه ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال رسول الله ﷺ: «هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يُدْفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه» قال: فابتدره الناس فاستخرجوا معه الغصن [الدلائل للبيهقي: ٢٩٧/٦، من طريق ابن إسحاق، به].

ورواه أبو داود [٣٠٨٨] عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه عن محمد بن إسحاق به.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢٩٧/٦] من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن إسماعيل بن أمية به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٢/٢، ٤٨٣]: ثم مضى رسول اللّـه ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف فضرب به عسكره فقتل ناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فتأخروا إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام اليوم بالطائف الذي بنته ثقيف بعد إسلامها، بناه عمرو بن أمية بن وهب وكانت فيه سارية لا تطلع عليها الشمس صبيحة كل يوم إلا سمع لها نقيض فيما يذكرون، قال: فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة.

قال ابن هشام: ويقال سبع عشرة ليلة.

وقال عروة وموسى بن عقبة عن الزهري: ثم سار رسول الله ﷺ إلى الطائف، وترك السبي بالجعرانة، وملئت عرش مكة منهم، ونزل رسول الله ﷺ بالأكمة عند حصن الطائف بضع عشرة ليلة يقاتلهم ويقاتلونه من وراء حصنهم، ولم يخرج إليه أحد منهم غير أبي بكرة بن مسروح أخي زياد لأمه، فأعتقه رسول الله ﷺ وكثرت الجراح، وقطعوا طائفة من أعنابهم ليغيظوهم بها، فقالت لهم ثقيف: لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم.

وقال عروة: أمر رسول اللّـه ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات أو خمس حُبلات، وبعث مناديا ينادي: من خرج إلينا فهو حر، فاقتحم إليه نفر منهم فيهم أبو بكرة بن مسروح أخو زياد بن أبي

سفيان لأمه فأعتقهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله.

وقال الإمام أحمد [٢٣٦/١]: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعتق من جاءه من العبيد قبل مواليهم إذا أسلموا، وقد أعتق يوم الطائف رجلين.

وقال أحمد أيضاً [٢٤٣/١]: حدثنا عبد القدوس بن بكر بن خنيس، حدثنا الحجاج عن الحكم عن مقسم، عن ابن عباس قال: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، فخرج إليه عبدان فأعتقهما، أحدهما أبو بكرة وكان رسول الله ﷺ يعتق العبيد إذا خرجوا إليه.

وقال أحمد أيضاً [٢٤٨/١]: حدثنا نصر بن باب عن الحجاج، عن الحكم عن مقسم، عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الطائف: «من خرج إلينا من العبيد فهو حر» فخرج عبيد من العبيد فيهم أبو بكرة فأعتقهم رسول الله ﷺ.

هذا الحديث تفرد به أحمد ومداره على الحجاج بن أرطاة وهو ضعيف.

لكن ذهب الإمام أحمد إلى هذا فعنده أن كل عبد جاء من دار الحرب إلى دار الإسلام عتق حكماً شرعياً مطلقاً عاما.

وقال آخرون: إنما كان هذا شرطاً لا حكماً عاماً ولو صح الحديث لكان التشريع العام أظهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» [خ (٤٣٢١)، م (١٧٥١)، د (٢٧١٧)، ت (١٥٦٢)، ج (٢٨٣٧)].

وقد قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن مكدّم الثقفي قال: لما حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، خرج إليه رقيق من رقيقهم أبو بكرة وكان عبداً للحارث بن كلدة والمنبعث، وكان اسمه المضطجع فسماه رسول الله ﷺ المنبعث، ويحنس ووردان في رهط من رقيقهم فأسلموا، فلما قدم وفد أهل الطائف فأسلموا قالوا: يا رسول الله رد علينا رقيقنا الذين أتوك؟ قال: «لا أولئك عتقاء الله» ورد على ذلك الرجل ولاء عبده فجعله إليه.

وقال البخاري [٤٣٢٦]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن عاصم، سمعت أبا عثمان قال: سمعت سعدا ـ وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله وأبا بكرة وكان تسور حصن الطائف في أناس فجاء إلى رسول الله ﷺ ـ قالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام».

ورواه مسلم [(١١٥) (٦٣)] من حديث عاصم به.

قال البخاري [(٤٣٢٧) معلقاً]: وقال هشام: أنبأنا معمر عن عاصم، عن أبي العالية أو أبي عثمان النهدي قال: سمعت سعدا وأبا بكرة عن النبي ﷺ قال عاصم: قلت: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما، قال: أجل أما أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى رسول الله ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٢/٢ ـ ٤٨٤]: وكان مع رسول الله ﷺ امرأتان من نسائه، إحداهما أم سلمة فضرب لهما قبتين فكان يصلي بينهما.

فحاصرهم وقاتلهم قتالا شديداً، وتراموا بالنبل.

قال ابن هشام: ورماهم بالمنجنيق، فحدثني من أثق به أن النبي ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق رمى به أهل الطائف.

وذكر ابن إسحاق أن نفرا من الصحابة دخلوا تحت دبابة، ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف، فأرسلت عليهم ثقيفٌ سكك الحديد محماة فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا، فحينئذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون.

قال: وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فناديا ثقيفاً بالأمان حتى يكلّماهم فأمّنوهما فدعوا نساء من قريش وبني كنانة ليخرجن إليهم وهما يخافان عليهن السباء إذا فتح الحصن، فأبين فقال لهما ابن الأسود بن مسعود: ألا أدلكما على خير مما جئتما له؟ إن مال بني الأسود حيث قد علمتما، وكان رسول الله ﷺ نازلا بواد يقال له العقيق وهو بين مال بني الأسود وبين الطائف، وليس بالطائف مال أبعد رشاء ولا أشد مؤونة ولا أبعد عمارة منه، وإن محمداً إن قطعه لم يعمر أبدا، فكلماه فليأخذه لنفسه أو ليدعه لله وللرحم. فزعموا أن رسول الله ﷺ تركه لهم.

وقد روى الواقدي [المغازي: ٩٢٩/٣] عن شيوخه نحو هذا، وعنده أن سلمان الفارسي هو الذي أشار بالمنجنيق وعمله بيده، وقيل: قدم به وبدبابتين فالله أعلم.

وقد أورد البيهقي [الدلائل: ١٦٣/٥] من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة: أن عيينة بن حصن استأذن رسول الله ﷺ في أن يأتي أهل الطائف فيدعوهم إلى الإسلام فأذن له، فجاءهم فأمرهم بالثبات في حصنهم، وقال: لا يهولكنم قطع ما قطع من الأشجار في كلام طويل، فلما رجع قال له رسول الله ﷺ: «ما قلت لهم؟» قال: دعوتهم إلى الإسلام وأنذرتهم النار وذكرتهم بالجنة، فقال: «كذبت بل قلت لهم كذا وكذا» فقال: صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله وإليك من ذلك.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ١٥٩/٥، ١٦٠] عن الحاكم عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن هشام الدستوائي، عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي نجيح السلمي وهو عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: حاصرنا مع رسول الله ﷺ قصر الطائف فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ بسهم فله درجة في الجنة» فبلغت يومئذ ستة عشر سهماً، وسمعته يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، وأيما رجل أعتق رجلا مسلما فإن الله ـ عز وجل ـ جاعل كل عظم من عظامه وقاء كل عظم بعظم، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله ـ عز وجل ـ جاعل كل عظم من عظامها وقاء كل عظم من عظامها من النار».

ورواه أبو داود [٣٩٦٥] والترمذي [١٦٣٨] وصححه والنسائي [٣١٤٣] من حديث قتادة به.

وقال البخاري [٤٣٢٤]: حدثنا الحميدي سمع سفيان حدثنا هشام عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي مخنث، فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن» قال ابن عيينة وقال ابن جريج: المخنث هيت.

وقد رواه البخاري [٥٢٣٥، ٥٨٨٧] أيضا ومسلم [٢١٨٠] من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه به.

وفي لفظ: وكانوا يرونه من غير أولي الإربة من الرجال.

وفي لفظ قال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلن عليكن هؤلاء» [م (٢١٨١)] يعني إذا كان ممن يفهم ذلك فهو

داخل في قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١] والمراد بالمخنث في عرف السلف الذي لا همة له إلى النساء وليس المراد به الذي يؤتى، إذ لو كان كذلك لوجب قتله حتما كما دل عليه الحديث [مسند أحمد: ١/٣٠٠، د (٤٤٦٢)، ت (١٤٥٦)، ج (٢٥٦١)]، وكما قتله أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ومعنى قوله «تقبل بأربع وتدبر بثمان» يعني بذلك عُكَنُ بطنها فإنها تكون أربعا إذا أقبلت ثم تصير كل واحدة ثنتين إذا أدبرت، وهذه المرأة هي بادية بنت غيلان بن سلمة من سادات ثقيف، وهذا المخنث قد ذكر البخاري عن ابن جريج: أن اسمه هيت، وهذا هو المشهور.

لكن قال يونس عن ابن إسحاق قال: وكان مع رسول الله ﷺ مولى لخالته فاختة بنت عمرو بن عايد مخنث يقال له: ماتع يدخل على نساء رسول الله ﷺ في بيته ولا يرى أنه يفطن لشيء من أمور النساء مما يفطن إليه الرجال، ولا يرى أن له في ذلك إرباً، فسمعه وهو يقول لخالد بن الوليد: يا خالد إن افتتح رسول الله ﷺ الطائف فلا تنفلتن منكم بادية بنت غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال رسول الله ﷺ حين سمع هذا منه: «ألا أرى هذا يفطن لهذا» الحديث. ثم قال لنسائه: «لا يدخلن عليكم» فحجب عن بيت رسول الله ﷺ.

وقال البخاري [٤٣٢٥]: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي العباس الشاعر الأعمى عن عبد الله بن عمرو قال: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئا قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابهم جراح فقال: «إنا قافلون غدا إن شاء الله» فأعجبهم فضحك النبي ﷺ، وقال سفيان مرة: فتبسم.

ورواه مسلم [١٧٧٨] من حديث سفيان بن عيينة به وعنده عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، واختلف في نسخ البخاري، ففي نسخة كذلك، وفي نسخة عن عبد الله بن عمرو بن العاص والله أعلم.

وقال الواقدي [المغازي: ٣/٩٣٦، ٩٣٧]: حدثني كثير بن زيد عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة قال: لما مضت خمس عشرة ليلة من حصار الطائف استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال: «يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟» قال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٨٤، ٤٨٥]: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر ثقيفاً: «يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قعبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فهراق ما فيها» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك» قال: ثم إن خولة بنت حكيم السلمية وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان بن سلمة أو حلي الفارعة بنت عقيل - وكانتا من أحلى نساء ثقيف - فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لها: «وإن كان لم يؤذن في ثقيف يا خويلة» فخرجت خولة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خويلة زعمت أنك قلته؟ قال: «قد قلته» قال: أو ما أذن فيهم؟ قال: لا، قال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: بلى، فأذن عمر بالرحيل.

فلما استقبل الناس نادى سعيد بن عبيد بن أسيد بن أبي عمرو بن علاج: ألا إن الحي مقيم، قال يقول عيينة بن حصن: أجل والله مَجَدَة كراماً، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ فقال: إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها لعلها تلد لي رجلا فإن ثقيفاً مناكير.

وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة قصة خولة بنت حكيم، وقول رسول الله ﷺ ما قال. وتأذين عمر بالرحيل قال: وأمر رسول الله ﷺ الناس أن لا يسرحوا ظهرهم، فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه، ودعا حين ركب قافلا فقال: «اللّهم اهدهم واكفنا مؤنتهم» [البيهقي في «الدلائل»: ٥/١٦٨، ١٦٩ من طريق ابن لهيعة، به].

وروى الترمذي [٣٩٤٢] من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير عن جابر قالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم فقال: اللّهم اهد ثقيفا» ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وروى يونس عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن المكدم عمن أدركوا من أهل العلم قالوا: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريباً من ذلك، ثم انصرفوا عنهم ولم يؤذن فيهم، فقدم المدينة فجاءه وفدهم في رمضان فأسلموا، وسيأتي ذلك مفصلا في رمضان من سنة تسع إن شاء الله.

وهذه تسمية من استشهد من المسلمين بالطائف فيما قاله ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٨٦، ٤٨٧]:

فمن قريش: سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية. وعرفطة بن جنّاب حليف لبني أمية بن الأسد بن الغوث، وعبد الله بن أبي بكر الصديق رمي بسهم فتوفي منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي من رمية رميها يومئذ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة حليف لبني عدي، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي وأخوه عبد الله، وجليحة بن عبد الله من بني سعد بن ليث.

ومن الأنصار ثم من الخزرج ثابت بن الجذع الأسلمي، والحارث بن سهل بن أبي صعصعة المازني، والمنذر بن عبد الله من بني ساعدة.

ومن الأوس رقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لوذان بن معاوية؛ فقط، فجميع من استشهد يومئذ اثنا عشر رجلا سبعة من قريش وأربعة من الأنصار، ورجل من بني ليث رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٨٧، ٤٨٨]: ولما انصرف رسول الله ﷺ راجعاً عن الطائف قال بجير بن زهير بن أبي سلمى يذكر حنيناً والطائف:

كانت عُلالة يوم بطن حنيْن ... وغداة أوطاس ويوم الأبرق
جمعت بإغواء هوازن جمعها ... فتبددوا كالطائر المتمزق
لم يمنعوا منا مقاما واحدا ... إلا جدارهم وبطن الخندق
ولقد تعرضنا لكيما يخرجوا ... فاستحصنوا منا بباب مغلق
ترتد حسرانا إلى رجراجة ... شهباء تلمع بالمنايا فَيْلَق
ملمومةً خضراء لو قذفوا بها ... حَضَنا لظل كأنه لم يخلق
مشي الضراء على الهَرّاس كأننا ... قُدُرٌ تفرّق في القياد وتلتقي
في كل سابغة إذا ما استحصنت ... كالنهي هبتْ ريحه المترقرق
جدل تمسُّ فضولهن نعالنا ... من نسج داود وآل مُحرّق

وقال أبو داود [٣٠٦٧]: حدثنا عمر بن الخطاب أبو حفص، حدثنا

الفريابي، حدثنا أبان، قال عمر: - هو ابن عبد الله بن أبي حازم - حدثنا عثمان بن أبي حازم، عن أبيه عن جده صخر - هو بن العيلة الأحمسي - أن رسول الله ﷺ غزا ثقيفاً، فلما أن سمع ذلك صخر ركب في خيل يمد النبي ﷺ، فوجده قد انصرف ولم يفتح، فجعل صخر حينئذ عهداً وذمة لا أفارق هذا القصر حتى ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، ولم يفارقهم حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وكتب إليه صخر: أما بعد فإن ثقيفاً قد نزلت على حكمك يا رسول الله وأنا مقبل بهم وهم في خيل، فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة فدعا لأحمس عشر دعوات: «اللّهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها». وأتى القوم فتكلم المغيرة بن شعبة فقال: يا رسول الله إن صخرا أخذ عمتي ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، فدعاه فقال: «يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم فادفع إلى المغيرة عمته» فدفعها إليه، وسأل رسول الله ﷺ ماء لبني سليم قد هربوا عن الإسلام وتركوا ذلك الماء فقال: يا رسول الله أنزلنيه أنا وقومي؟ قال: «نعم» فأنزله وأسلم - يعني السُّلميِّين - فأتوا صخرا فسألوه أن يدفع إليهم الماء فأبى فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وأتينا صخرا ليدفع إلينا ماءنا فأبى علينا، فقال: «يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم فادفع إليهم ماءهم» قال: نعم يا نبي الله، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير عند ذلك حمرة حياء من أخذه الجارية وأخذه الماء.

تفرد به أبو داود وفي إسناده اختلاف.

قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه ﷺ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله وكذبوه فرجع مهموماً فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا» فناسب قوله «بل أستأني بهم» أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

سنة ٨- مرجعه من الطائف وقسمة غنائم هوازن

فصل في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الطائف وقسمة غنائم هوازن التي أصابها يوم حنين قبل دخوله مكة معتمرا من الجعرانة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٨/٢]: ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا، حتى نزل الجعرانة فيمن معه من المسلمين، ومعه من هوازن سبي كثير، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله ادع عليهم فقال: «اللّهم اهد ثقيفا وائت بهم» قال: ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء مالا يدري عدته.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٨/٢ - ٤٩٠، ٤٩٢]: فحدثني عمرو بن شعيب، وفي رواية يونس بن بكير عنه قال: حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين، فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة، وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنّ ما في الحظائر من السبايا خالاتك وعمّاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندّخر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير

أبقت لها الحربُ هُتّافا على حَزَن ... على قلوبهم الغماء والغمر

يا خير طفل ومولود ومنتجب ... في العالمين إذا ما حُصّل البشر

إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدُّرَر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منّا فإنا معشر زهر

إنا لنشكر آلاء وإن كُفِرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

قال: فقال رسول الله ﷺ: «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرادس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال: يقول عباس بن مرادس لبني سليم وَهّنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أول فيء نصيبه» فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم.

ثم ركب رسول الله ﷺ وأتبعه الناس يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه فقال: «أيها الناس ردوا عليّ ردائي، فوالذي نفسي في يده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً».

ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وَبَرةً فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها فقال: «أيها الناس والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة» فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله أخذت هذه لأخيط بها برذعة بعير لي دَبِر، فقال رسول الله ﷺ: «أما حقي منها فلك» فقال الرجل: أما إذا بلغ الأمر فيها إلى هذا فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده.

وهذا السياق يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام رد اليهم سبيهم قبل

القسمة، كما ذهب إليه محمد بن إسحاق بن يسار خلافاً لموسى بن عقبة وغيره.

وفي صحيح البخاري [٤٣١٨] من طريق الليث، عن عقيل، عن الزهري، عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوا أن ترد إليهم أموالهم ونساؤهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال؟ وقد كنت استأنيت بكم» وكان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: إنا نختار سبينا.

فقام رسول الله ﷺ في المسلمين وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأنهم قد طيبوا وأذنوا.

فهذا ما بلغنا عن سبي هوازن.

ولم يتعرض البخاري لمنع الأقرع وعيينة وقومها، بل سكت عن ذلك، والمثبت مقدَّم على النافي فكيف الساكت!

وروى البخاري [٢٨٢١، ٣١٤٨] من حديث الزهري: أخبرني عمر بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أخبره جبير بن مطعم أنه بينما هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين، علقت الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ ثم قال: «أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العضاه نَعَماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوباً ولا جباناً».

تفرد به البخاري.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٠/٢]: وحدثني أبو وجزة يزيد بن عبيد السعدي: أن رسول الله ﷺ أعطى علي بن أبي طالب جارية يقال لها: ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة، وأعطى عثمان بن عفان جارية يقال لها: زينب بنت حيان بن عمرو بن حيان، وأعطى عمر جارية فوهبها لابنه عبد الله.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٠/٢]: فحدثني نافع عن عبد الله بن عمر قال: بعثت بها إلى أخوالي من بني جمح ليصلحوا لي منها ويهيئوها حتى أطوف بالبيت ثم آتيهم وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها، قال: فخرجتُ من المسجد حين فرغت فإذا الناس يشتدون فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: رد علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا، قلت: تلكم صاحبتكم في بني جمح فاذهبوا فخذوها فذهبوا إليها فأخذوها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٠/٢]: وأما عيينة بن حصن فأخذ عجوزاً من عجائز هوازن وقال حين أخذها: أرى عجوزاً إني لأحسب لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظم فداؤها، فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض أبى أن يردها، فقال له زهير بن صرد: خذها عنك فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد، ولا درها بماكد فردُّها بستِّ فرائض، قال: فزعموا أنّ عُيينة لقي الأقرع فشكى إليه ذلك، فقال إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة ولا نصفا وثيرة.

قال الواقدي [المغازي: ٩٤٩/٣]: ولما قسم رسول الله ﷺ الغنائم بالجعرانة أصاب كل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة.

وقال سلمة عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر: أن رجلا ممن شهد حنينا قال: والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلي نعل غليظة، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه، فقرع قدمي بالسوط وقال: «أوجعتني فتأخر عني» فانصرفت، فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني قال: قلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس.

قال: فجئته وأنا أتوقع فقال: «إنك أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني فقرعت قدمك بالسوط فدعوتك لأعوضك منها» فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني [تاريخ الطبري: ٩٣/٣].

والمقصود من هذا أن رسول الله ﷺ رد إلى هوازن سبيهم بعد القسمة كما دل عليه السياق وغيره، وظاهر حديث عمرو بن شعيب الذي أورده محمد بن إسحاق عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ رد إلى هوازن سبيهم قبل القسمة، ولهذا لما رد السبي وركب، علقت الأعراب برسول الله ﷺ يقولون له: اقسم علينا فيئنا حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه فقال: «ردوا عليَّ ردائي أيها الناس فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عدد هذه العضّاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جباناً ولاكذاباً».

كما رواه البخاري [٢٨٢١] عن جبير بن مطعم بنحوه.

وكأنهم خشوا أن يرد إلى هوازن أموالهم كما رد إليهم نساءهم وأطفالهم فسألوه قسمة ذلك، فقسمها عليه الصلاة والسلام بالجعرانة كما أمره الله عز وجل، وآثر أناساً في القسمة، وتألف أقواماً من رؤساء القبائل، وأمرائهم فعتب عليه أناس من الأنصار حتى خطبهم وبين لهم وجه الحكمة فيما فعله تطييباً لقلوبهم، وتنقَّد بعض من لا يعلم من الجهلة والخوارج كذي الخويصرة وأشباهه قبحه الله كما سيأتي تفصيله وبيانه في الأحاديث الواردة في ذلك وبالله المستعان.

قال الإمام أحمد [١٥٧/٣، ١٥٨]: حدثنا عارم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت أبي يقول: حدثنا السميط السدوسي عن أنس بن مالك قال: فتحنا مكة ثم إنا غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، فصفت الخيل، ثم صفت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك، ثم صفت الغنم، ثم النعم، قال: ونحن بشر كثير قد بلغنا ستة آلاف، وعلى مجنبة خيلنا خالد بن الوليد، قال: فجعلت خيلنا تلوذ خلف ظهورنا قال: فلم نلبث أن انكشف خيلنا وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس، قال: فنادى رسول الله ﷺ «يا للمهاجرين يا للمهاجرين يا للأنصار، يا للأنصار» ـ قال أنس: هذا حديث عَمِّيَه ـ قال: قلنا لبيك يا رسول الله، قال: وتقدم رسول الله ﷺ قال: وايم الله ما أتيناهم حتى هزمهم الله، قال: فقبضنا ذلك المال، ثم انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة، ثم رجعنا إلى مكة، قال: فنزلنا فجعل رسول الله ﷺ يعطي الرجل المئة، ويعطي الرجل المئة، قال: فتحدث الأنصار بينها أما من قاتله فيعطيه، وأما من لم يقاتله فلا يعطيه!

فرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، ثم أمر بسراة المهاجرين والأنصار أن يدخلوا عليه ثم قال: «لا يدخلن عليَّ إلا أنصاري ـ أو الأنصار» قال: فدخلنا القبة حتى ملأناها قال نبي الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» أو كما

قال: «ما حديث أتاني؟» قالوا: ما أتاك يا رسول الله؟ قال: «ما حديث أتاني؟» قالوا: ما أتاك يا رسول الله؟ قال: «الا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله حتى تدخلوه بيوتكم؟» قالوا: رضينا يا رسول الله، قال: فرضوا أو كما قال.

وهكذا رواه مسلم [(١٠٥٩) (١٣٦)] من حديث معتمر بن سليمان.

وفيه من الغريب قوله: «أنهم كانوا يوم هوازن ستة آلاف»، وإنما كانوا في اثني عشر ألفاً.

وقوله: «إنهم حاصروا الطائف أربعين ليلة»، وإنما حاصروهم قريباً من شهر، أو دون العشرين ليلة، فالله أعلم.

وقال البخاري [٤٣٣١]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا هشام، حدثنا معمر عن الزهري، حدثني أنس بن مالك قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال هوازن: فطفق النبي ﷺ يعطي رجالا المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

قال أنس بن مالك: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة أدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» قال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني لأعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي ﷺ: «فستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض» قال أنس: فلم يصبروا.

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ثم رواه البخاري [٤٣٣٣] ومسلم [(١٠٥٩) (١٣٥)] من حديث بن عون عن هشام بن زيد، عن جده أنس بن مالك قال: لما كان يوم حنين التقى هوازن ومع النبي ﷺ عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله وسعديك لبيك نحن بين يديك، فنزل رسول الله ﷺ فقال: «أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون، فأعطى الطلقاء والمهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئا، فقالوا: فدعاهم فأدخلهم في قُبّةٍ فقال: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله؟» ﷺ؛ قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار».

وفي رواية للبخاري [٤٣٣٧] من هذا الوجه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف والطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده، فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال: «يا معشر الأنصار؟» قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: «يا معشر الأنصار؟» فقالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون وأصاب يومئذ مغانم كثيرة، فقسم بين المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئا، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطي الغنيمة غيرنا، فبلغه ذلك فجمعهم في قبة فقال: «يا معشر الأنصار ما حديث بلغني؟» فسكتوا فقال: «يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟» قالوا: بلى فقال: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار».

قال هشام: قلت: يا أبا حمزة وأنت شاهد ذلك؟ قال: وأين أغيب عنه؟.

ثم رواه البخاري [٤٣٣٤] ومسلم [(١٠٥٩) (١٣٣)] أيضاً من حديث شعبة عن قتادة عن أنس قال: جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إن قريشاً حديثوا عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟» قالوا: بلى، قال: «لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعباً لسلكت وادي الأنصار» أو «شعب الأنصار».

وأخرجاه [خ (٤٣٣٢)، م (١٠٥٩) (١٣٤)] أيضاً من حديث شعبة عن أبي التياح يزيد بن حميد، عن أنس بنحوه وفيه فقالوا: والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا لتقطر من دمائهم والغنائم تقسم فيهم! فخطبهم وذكر نحو ما تقدم.

وقال الإمام أحمد [٢٤٦/٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أعطى أبا سفيان وعيينة والأقرع وسهيل بن عمرو في آخرين يوم حنين، فقالت الأنصار: يا رسول الله سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالمغنم؟ فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم في قبة له حتى فاضت فقال: «فيكم أحد من غيركم؟» قالوا: لا إلا ابن أختنا، قال: «ابن أخت القوم منهم» ثم قال: «أقلتم كذا وكذا؟» قالوا: نعم، قال: «أنتم الشعار والناس الدثار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى دياركم؟» قالوا: بلى، قال: «الأنصار كرشي وعيبتي لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعبهم، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار».

وقال قال حماد: أعطى مائة من الإبل فسمى كل واحد من هؤلاء.

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وقال الإمام أحمد [١٠٤/٣، ١٠٥]: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله بي؟ ألم آتكم متفرقين فجمعكم الله بي؟ ألم آتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «أفلا تقولون: جئتنا خائفاً فأمّناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك؟» قالوا: بل لله المن علينا ولرسوله.

وهذا إسناد ثلاثي على شرط الصحيحين، فهذا الحديث كالمتواتر عن أنس بن مالك. وقد روي عن غيره من الصحابة.

قال البخاري [٤٣٣٠]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا عمرو بن يحيى عن عباد بن تميم، عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا في أنفسهم إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمَنُّ، قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

ورواه مسلم [١٠٦١] من حديث عمرو بن يحيى المازني به.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه.

فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم؟ فقال: «فيم؟» قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال رسول الله ﷺ: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فإذا اجتمعوا فأعلمني» فخرج سعد فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة، فجاء رجالٌ من المهاجرين فأذن لهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم، حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال: يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنُّ لله ولرسوله قال: «أمَا والله لو شئتم لقلتم فصدَقْتم وصُدِّقتم: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك» فقالوا: المنُّ لله ولرسوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ثم انصرف وتفرقوا.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٣/٧٦، ٧٧] من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، وهو صحيح.

وقد رواه الإمام أحمد [٣/٨٩] عن يحيى بن بكير عن الفضل بن مرزوق، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال رجل من الأنصار لأصحابه: أما والله لقد كنت أحدثكم أنه لو استقامت الأمور قد آثر عليكم، قال: فردوا عليه رداً عنيفاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال لهم أشياء لا أحفظها، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «وكنتم لا تركبون الخيل» وكلما قال لهم شيئا قالوا: بلى يا رسول الله، ثم ذكر بقية الخطبة كما تقدم، تفرد به أحمد أيضاً.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٣/٥٧] منفرداً به من حديث الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد بنحوه.

ورواه أحمد [٣/٣٤٧] أيضاً عن موسى، عن ابن لهيعة عن أبي الزبير، عن جابر مختصراً.

وقال سفيان بن عيينة عن عمر بن سعيد بن مسروق، عن أبيه، عن عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج، عن جده رافع بن خديج: أن رسول الله ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من سبي حنين مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائة، وأعطى صفوان بن أمية مائة، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى علقمة بن علاثة مائة، وأعطى مالك بن عوف مائة، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة، ولم يبلغ به أولئك فأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العُبَيْـ ... ـد بين عيينة والأقرعُ
فما كان حصن ولا حابسٌ ... يفوقان مرداس في الجمعُ
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يُرْفَعُ
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرَأٍ ... فلم أعط شيئا ولم أُمنعُ

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة.

رواه مسلم [(١٠٦٠) (١٣٧)] من حديث ابن عيينة بنحوه، وهذا لفظ البيهقي [الدلائل: ٥/١٧٨، ١٧٩].

وفي رواية ذكرها موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن إسحاق [الدلائل: ٥/١٧٩ - ١٨٢] فقال:

كانت نهاباً تلافيتها ... بكرّي على المهر في الأجرع
وإيقاظي الحيّ أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرئ ... فلم أعط شيئا ولم أمنع
إلاّ أفائل أعطيتها ... عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

قال عروة وموسى بن عقبة عن الزهري: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال له: «أنت القائل أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟» فقال أبو بكر: ما هكذا قال يا رسول الله، ولكن والله ما كنت بشاعر وما ينبغي لك. فقال: «كيف قال؟» فأنشده أبو بكر فقال رسول الله ﷺ: «هما سواء ما يضرك بأيهما بدأت» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقطعوا عني لسانه» فخشي بعض الناس أن يكون أراد المثلة به، وإنما أراد النبي ﷺ العطية، قال: وعُبيد: فرسُه.

وقال البخاري [٤٣٢٨]: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة عن بُريد بن عبد الله عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر» فقال: قد أكثرت عليّ مِنْ أبشر! فاقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: «رد البشرى فاقبلا أنتما» قالا: قبلنا! ثم دعا بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه، ثم قال: «اشربا منه وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا» فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة. هكذا رواه.

وقال البخاري [٣١٤٩]: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا مالك عن إسحاق بن عبد الله عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء.

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٢/٢، ٤٩٣] الذين أعطاهم رسول الله ﷺ يومئذ مائة من الإبل وهم: أبو سفيان صخر بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار، وعلقمة بن علاثة، والعلاء بن جارية الثقفي حليف بني زهرة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، ومالك بن عوف النصري، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية، والأقرع بن حابس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٦/٢]: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن قائلا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه: يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكن تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه».

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٣/٢] من أعطاه رسول الله ﷺ دون المائة ممن يطول ذكره.

وفي الحديث الصحيح [م (٢٣١٣)] عن صفوان بن أمية أنه قال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه.

سنة ٨- قدوم مالك بن عوف النصري على رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩١/٢]: وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف «ما فعل؟» فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف فقال ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل» فلما بلغ ذلك مالكا انسل من ثقيف حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة - أو بمكة - فأسلم وحسن إسلامه، فرد عليه أهله وماله، ولما أعطاه مائة فقال مالك بن عوف رضي الله عنه:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدي ... ومتى تشأ يخبرك عمّا في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضَرْب كلِّ مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر في مرصد

قال: واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل ثمالة وسلمة وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

وقال البخاري [٣١٤٥]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا جرير بن حازم، حدثنا الحسن، حدثني عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه فقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجزعهم وأَكِل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب».

قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم.

زاد أبو عاصم عن جرير: سمعت الحسن، حدثنا عمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ أتي بمال - أو سبي - فقسمه.... بهذا.

وفي رواية للبخاري [٩٢٣] قال: أتي رسول الله بمال - أو بشيء - فأعطى رجالا وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد» فذكر مثله سواء. تفرد به البخاري.

وقد ذكر ابن هشام [السيرة: ٤٩٧/٢، ٤٩٨] أن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال فيما كان من أمر الأنصار وتأخرهم عن الغنيمة:

زادتْ همومٌ فماء العين منحدر ... سَحّاً إذا حفلته عبرة درر
وجداً بشماء إذ شماء بهكنةٌ ... هيفاء لا دَنَسٌ فيها ولا خور
دع عنك شماء إذ كانت مودتها ... نزراً وشرُّ وصال الواصل النزر
وائت الرسول وقل يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذ ما عدد البشر
علام تدعى سليمٌ وهي نازحة ... قدام قوم هموا آووا وهم نصروا
سمّاهم اللّه أنصاراً بنصرهم ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا في سبيل الله واعتَرَفوا ... للنائبات وما خانوا وما ضجروا
والناس أُلبٌ علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر
نجالد الناس لا نبقي على أحدٍ ... ولا نضيع ما توحي به السور
ولا تهر جناة الحرب نادينا ... ونحن حين تلظّى نارها سعر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا ... أهل النفاق وفينا ينزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف من أحد ... إذا حزبت بطراً أحزابها مضر
فما ونينا وما خمنا وما خبروا ... منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

سنة ٨- اعتراض بعض الجهلة من أهل الشقاق والنفاق على رسول الله ﷺ في القسمة العادلة بالاتفاق

قال البخاري [٤٣٣٥]: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فتغير وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

ورواه مسلم [(١٠٦٢) (١٤١)] من حديث الأعمش به.

ثم قال البخاري [٤٣٣٦]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير عن منصور، عن أبي وائل عن عبد الله قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسا أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله فقلت: لأخبرن النبي ﷺ، قال: «رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وهكذا رواه مسلم [(١٠٦٢) (١٤٠)] من حديث منصور عن المعتمر به.

وفي رواية للبخاري [٣١٥٠] فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٤٩٦، ٤٩٧]: وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثي حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يطوف بالبيت معلقا نعله بيده، فقلنا له: هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم جاء رجل من بني تميم يقال له: ذو الخويصرة فوقف عليه وهو يعطي الناس، فقال له: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «أجل فكيف رأيت؟» قال: لم أرك عدلت، قال: فغضب النبي ﷺ فقال: «ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟!» فقال عمر بن الخطاب: يا رسولَ الله، ألا نقتله؟ فقال: «لا، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية يُنظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القِدْح فلا يوجد شيء، ثم في الفُوق فلا يوجد شيء سَبَق الفَرْثَ والدمَ».

وقال الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: أتى رجل بالجعرانة النبي ﷺ منصرفه من حنين، وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل قال: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل» فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق؟ فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يُجاوزُ حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية». ورواه مسلم [١٠٦٣] عن محمد بن رمح عن الليث.

وقال أحمد [٣٣٢/٢]: حدثنا أبو عامر، حدثنا قرة عن عمرو بن دينار، عن جابر قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم مغانم حنين إذ قام إليه رجل فقال: اعدل، فقال: «لقد شقيتُ إنْ لم أعدل».

ورواه البخاري [٣١٣٨] عن مسلم بن إبراهيم، عن قرة بن خالد السدوسي به.

وفي الصحيحين [خ (٣٦١٠)، م (١٠٦٤) (١٤٨)] من حديث الزهري عن أبي سلمة، عن أبي سعيد قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما إذ أتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك ومن يعدل إن لم أعدل لقد خبت وخسرت، إنْ لم أعدل» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه - وهو قِدْحُه - فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء قد سبقَ الفَرْثَ والدمَ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت اليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت.

ورواه مسلم [(١٠٦٥) (١٥٠)] أيضاً من حديث القاسم بن الفضل عن أبي نضرة عن أبي سعيد به نحوه.

سنة ٨- مجيء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة وهو بالجعرانة واسمها الشيماء

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٨/٢]: وحدثني بعض بني سعد بن بكر أن رسول الله ﷺ قال يوم هوازن: «إن قدرتم على بجاد - رجل من بني سعد بن بكر - فلا يفلتنكم» وكان قد أحدث حدثا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، قال: فعنفوا عليها في السوق فقالت للمسلمين: تعلّموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؟ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٨/٢]: فحدثني يزيد بن عبيد السعدي - هو أبو وجزة - قال: فلما انتُهي بها إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، قال: «وما علامة ذلك؟» قالت: عضة عَضِضْتَنيها في ظهري وأنا متوركتك، قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها وقال: «إن أحببت فعندي مُحَبَّةً مكرمة، وإن احببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟» قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الأخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

وروى البيهقي [الدلائل: ١٩٩/٥، ٢٠٠] من حديث الحكم بن عبد الملك عن قتادة قال: لما كان يوم فتح هوازن جاءت جارية إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا أختك، أنا شيماء بنت الحارث، فقال لها: «إن تكوني صادقة فإن بك مني أثر لا يبلى» قال: فكشفت عن عضدها فقالت: نعم يا رسول الله حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة، قال: فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه ثم قال: «سلي تعطي واشفعي تشفعي».

وقال البيهقي [الدلائل: ١٩٩/٥]: أنبأنا أبو نصر بن قتادة أنبأنا عمرو بن إسماعيل بن عبد السلمي، حدثنا أبو مسلم، حدثنا أبو عاصم، حدثنا جعفر بن يحيى بن ثوبان، أخبرني عمي عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال: كنت غلاما أحمل عضمَ البعير، ورأيت رسول الله ﷺ يقسم نعما بالجعرانة، قال: فجاءته امرأة فبسط لها رداءه فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

هذا حديث غريب، ولعله يريد أخته وقد كانت تحضنه مع أمها حليمة السعدية، وإن كان محفوظاً فقد عمرت حليمة دهراً، فإن من وقت أرضعت رسول الله ﷺ إلى وقت الجعرانة أزيد من ستين سنة، وأقل ما كان عمرها حين أرضعته ﷺ ثلاثين سنة، ثم الله أعلم بما عاشت بعد ذلك.

وقد ورد حديث مرسل فيه أن أبويه من الرضاعة قدما عليه والله أعلم بصحته.

قال أبو داود في المراسيل [في السنن (٥١٤٥)]: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمرو بن الحارث، أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً فجاءه أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم اقبلت امه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الأخر فجلست عليه، ثم جاءه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه.

وقد تقدم أن هوازن بكمالها متوالية برضاعته من بني سعد بن بكر، وهم شرذمة من هوازن، فقال خطيبهم زهير بن صرد: يا رسول الله إنما في الحظائر أمهاتك وخالاتك وحواضنك فامنن علينا منّ الله عليك وقال فيما قال:

امنُنْ على نسوة قد كنت تَرْضَعُها إذ فوك يملؤه من محضها دِرَرُ
امنن على نسوة قد كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام عليهم قديماً وحديثاً، خصوصاً وعموماً.

وقد ذكر الواقدي عن إبراهيم بن محمد بن شرحبيل عن أبيه قال: كان النضير بن الحارث بن كلدة من أحْلَمِ الناس فكان يقول: الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالإسلام، ومنّ علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، وقتل عليه الإخوة، وبنو العم.

ثم ذكر عداوته للنبي ﷺ، وأنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين وهم على دينهم بعد، قال: ونحن نريد إن كانت دائرة على محمد أن نُعينَ عليه فلم يمكنا ذلك، فلما صار بالجعرانة فوالله إني لعلى ما أنا عليه، إن شعرت إلا برسول الله ﷺ فقال: «أنضير؟» قلت: لبيك قال: «هذا خير مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه؟» قال: فأقبلت إليه سريعاً فقال: «قد آن لك أن تبصر ما كنت فيه توضع» قلت: قد أرى أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم زده ثباتاً» قال النضير: فوالذي بعثه بالحق لكأن قلبي حجر ثباتاً في الدين، وتبصرة بالحق. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداه»

سنة ٨- عمرة الجعرانة في ذي القعدة

قال الإمام أحمد [١٣٤/٣]: حدثنا بهز وعبد الصمد المعنى قالا: حدثنا همام بن يحيى، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك قلت: كم حج رسول الله ﷺ؟ قال: حجة واحدة، واعتمر أربع مرار. عمرته زمن الحديبية وعمرته في ذي القعدة من المدينة، وعمرته من الجعرانة في ذي القعدة، حيث قسم غنيمة حنين، وعمرته مع حجته.

ورواه البخاري [١٧٧٨] ومسلم [١٢٥٣] وأبو داود [١٩٩٤] والترمذي [٨١٥] من طرق عن همام بن يحيى به. وقال الترمذي حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [١٨٠/٢]: حدثنا أبو النضر، حدثنا داود ـ يعني العطار ـ عن عمرو عن عكرمة، عن ابن عباس قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر، عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، والثالثة من الجعرانة، والرابعة التي مع حجته.

ورواه أبو داود [١٩٩٣] والترمذي [٨١٦] وابن ماجه [٣٠٠٣] من حديث داود بن عبد الرحمن العطار المكي، عن عمرو بن دينار به، وحسنه الترمذي.

وقال الإمام أحمد [١٨٠/٢]: حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، حدثنا حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده ـ هو عبد الله بن عمرو بن العاص ـ قال: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر، كل ذلك في ذي القعدة يلبي حتى يستلم الحجر.

غريب من هذا الوجه، وهذه الثلاث عمر اللاتي وقعن في ذي القعدة ماعدا عمرته مع حجته فإنها وقعت في ذي الحجة مع الحجة، وإن أراد ابتداء الإحرام بهن في ذي القعدة فلعله لم يرد عمرة الحديبية لأنه صُدَّ عنها ولم يفعلها والله أعلم.

قلت: وقد كان نافع ومولاه ابن عمر ينكران أن يكون رسول الله ﷺ اعتمر من الجعرانة بالكلية، وذلك فيما:

قال البخاري [٣١٤٤]: حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن نافع عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله إنه كان علي اعتكاف يوم في الجاهلية فأمره أن يفي به، قال: وأصاب عمر جاريتين من سبي حنين، فوضعهما في بعض بيوت مكة قال: فمنَّ رسول الله ﷺ على سبي حنين، فجعلوا يسعون في السكك، فقال عمر: يا عبد الله انظر ما هذا؟ قال: منّ رسول الله ﷺ على السبي، قال: اذهب فأرسل الجاريتين. قال نافع: ولم يعتمر رسول الله ﷺ من الجعرانة، ولو اعتمر لم يخف على عبد الله.

وقد رواه مسلم [(١٦٥٦) (٢٨)] من حديث أيوب السختياني، عن نافع عن بن عمر به.

ورواه مسلم [١٦٥٦] أيضاً عن أحمد بن عبدة الضبي عن حماد بن زيد، عن أيوب عن نافع قال: ذكر عند ابن عمر عمرة رسول الله ﷺ من الجعرانة فقال: لم يعتمر منها.

وهذا غريب جدا عن ابن عمرو عن مولاه نافع في إنكارهما عمرة الجعرانة، وقد أطبق النقلة ممن عداهما على رواية ذلك من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، وذكر ذلك أصحاب المغازي والسِّيَر كلهم.

وهذا أيضاً كما ثبت في الصحيحين [خ (١٧٧٧) مختصراً، م (١٢٥٥) (٢١٩)] من حديث عطاء بن أبي رباح، عن عروة عن عائشة أنها أنكرت على ابن عمر قوله أن رسول الله ﷺ اعتمر في رجب وقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن ما اعتمر رسول الله ﷺ إلا وهو شاهد، وما اعتمر في رجب قط.

وقال الإمام أحمد [١٤٣/٢]: حدثنا ابن نمير حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: سأل عروة بن الزبير ابن عمر: في أي شهر اعتمر رسول الله ﷺ؟ قال: في رجب، فسمعتنا عائشة فسألها ابن الزبير وأخبرها بقول ابن عمر فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن ما اعتمر عمرة إلا وقد شهدها وما اعتمر عمرة قط إلا في ذي القعدة.

وأخرجه البخاري [١٧٧٦] ومسلم [(١٢٥٥) (٢٢٠)] من حديث جرير عن منصور عن مجاهد به نحوه.

ورواه أبو داود [١٩٩٢] والنسائي [كبرى (٤٢١٨)] أيضاً من حديث زهير عن أبي إسحاق عن مجاهد سئل ابن عمر: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين، فقالت عائشة: لقد علم ابن عمر أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثاً سوى التي قرنها بحجة الوداع.

قال الإمام أحمد [١٥٥/٢]: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مفضل عن منصور، عن مجاهد قال: دخلت مع عروة بن الزبير المسجد فإذا ابن عمر مستند إلى حجرة عائشة وأناس يصلون الضحى. فقال عروة: أبا عبد الرحمن ما هذه الصلاة؟ قال: بدعة، فقال له عروة: أبا عبد الرحمن كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعاً إحداهن في رجب، قال: وسمعنا استنان عائشة في الحجرة، فقال لها عروة: إن أبا عبد الرحمن يزعم أن رسول الله اعتمر أربعاً إحداهن في رجب؟ فقالت: يرحم الله أبا عبد

الرحمن ما اعتمر النبي ﷺ إلا وهو معه، وما اعتمر في رجب قط.

وهكذا رواه الترمذي [٩٣٧] عن أحمد بن منيع، عن الحسن بن موسى عن شيبان عن منصور، به. وقال: حسن صحيح غريب.

وقال الإمام أحمد [٤٢٧/٣]: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج أخبرني مزاحم بن أبي مزاحم عن عبد العزيز بن عبد الله عن محرش الكعبي أن رسول الله ﷺ خرج من الجعرانة ليلا حين أمسى معتمراً فدخل مكة ليلا يقضي عمرته، ثم خرج من تحت ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت، حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف، حتى جاء مع الطريق - طريق المدينة - بسرف.

قال محرش: فلذلك خفيت عمرته على كثير من الناس.

ورواه الإمام أحمد [٤٢٦/٣] عن يحيى بن سعيد، عن ابن جريج كذلك وهو من أفراده [بل رواه الترمذي (٩٣٥)، النسائي (٢٨٦٣) من طريق ابن جريج].

والمقصود أن عمرة الجعرانة ثابتة بالنقل الصحيح الذي لا يمكن منعه ولا دفعه ومن نفاها لا حجة معه في مقابلة من أثبتها والله أعلم. ثم هم كالمجمعين على أنها كانت في ذي القعدة بعد غزوة الطائف، وقسم غنائم حنين.

وما رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير [٤٣١/١١ (١٢٢٢٣)] قائلاً: حدثنا الحسن بن إسحاق التستري، حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن الحسن الأسدي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن أبي الزبير عن عمير مولى عبد الله بن عباس عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف نزل الجعرانة فقسم بها الغنائم ثم اعتمر منها، وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

فإنه غريب جداً وفي إسناده نظر والله أعلم.

وقال البخاري [٤٣٢٩]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا إسماعيل حدثنا ابن جريج أخبرني عطاء أن صفوان بن يعلى بن أمية أخبره أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه قال: فبينا رسول الله ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أُظل به معه فيه ناس من أصحابه، إذ جاءه إعرابي عليه جبة متضمخ بطيب، فقال: يا رسولَ الله، كيف ترى في رجل أحرمَ بعمرة في جُبَّة بعدما تمضَّخ بالطِّيب؛ فأشار عمر بن الخطاب إلى يعلى بيده: أن تعال فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا النبي ﷺ محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سري عنه فقال: «أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً؟» فالتمس الرجل فأتي به، قال: «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك».

ورواه مسلم [(١١٨٠) (٨)] من حديث ابن جريج.

وأخرجاه [خ (١٧٨٩)، م (١١٨٠) (٦، ٧، ٩، ١٠)] من وجه آخر عن عطاء كلاهما عن صفوان بن يعلى عن أبيه، به.

وقال الإمام أحمد [٢٠١/٦، ٢٠٢]: حدثنا أبو أسامة أنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: دخل رسول الله ﷺ عام الفتح من كداء من أعلى مكة ودخل في العمرة من كُدًى.

وقال أبو داود [١٨٨٤]: حدثنا موسى أبو سلمة، حدثنا حماد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة فرملوا بالبيت ثلاثا ومشوا أربعاً وجعلوا أرديتهم تحت آباطهم، ثم قذفوها على عواتقهم اليسرى.

تفرد به أبو داود.

ورواه [١٨٩٠] أيضاً وابن ماجه [٢٩٥٣] من حديث ابن خثيم عن أبي الطفيل عن ابن عباس مختصراً.

وقال الإمام أحمد [٩٨/٤]: حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج حدثني الحسن بن مسلم عن طاوس أن ابن عباس أخبره أن معاوية أخبره قال: قصَّرت عن رسول الله ﷺ بمشقص أو قال: رأيته يقصِّر عنه بمشقص عند المروة.

وقد أخرجاه في الصحيحين [خ (١٧٣٠) مختصراً، م (١٢٤٦) (٢١٠)] من حديث ابن جريج به.

ورواه مسلم [(١٢٤٦) (٢٠٩)] أيضاً من حديث سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس عن معاوية به.

ورواه أبو داود [١٨٠٣] والنسائي [٢٩٨٨] أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه به.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد [المسند: ٩٧/٤]: حدثني عمرو بن محمد الناقد حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن ابن عباس عن معاوية قال: قصَّرت عن رأس رسول الله ﷺ عند المروة.

والمقصود أن هذا إنما يتوجه أن يكون في عمرة الجعرانة وذلك أن عمرة الحديبية لم يدخل إلى مكة فيها بل صُدَّ عنها كما تقدم بيانه، وأما عمرة القضاء فلم يكن أبو سفيان أسلم ولم يبق بمكة من أهلها أحد حين دخل رسول الله ﷺ بل خرجوا منها، وتغيبوا عنها مدة مقامه ﷺ بها تلك الثلاثة الأيام، وعمرته التي كانت مع حجته لم يتحلل منها بالاتفاق، فتعين أن هذا التقصير الذي تعاطاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من رأس رسول الله ﷺ عند المروة إنما كان في عمرة الجعرانة كما قلنا والله تعالى أعلم.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٥٠٠/٢]: ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً وأمر ببقاء الفيء فحبس بمِجَنَّة بناحية مَرِّ الظهران.

قلت: الظاهر أنه ﷺ إنما استبقى بعض المغنم ليتألف به من يلقاه من الأعراب فيما بين مكة والمدينة.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٥٠٠/٢] فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن.

وذكر عروة وموسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ خلف معاذا مع عتاب بمكة قبل خروجه إلى هوازن، ثم خلفهما بها حين رجع إلى المدينة.

وقال ابن هشام [السيرة: ٥٠٠/٢]: وبلغني عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما فقام فخطب الناس فقال: أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله ﷺ درهما كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٠/٢]: وكانت عمرة رسول الله ﷺ في ذي القعدة وقدم المدينة في بقية ذي القعدة أو في أول ذي الحجة.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٠٠/٢]: قدمها لست بقين من ذي القعدة فيما قال أبو عمرو المديني.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٠/٢، ٥٠١]: وحج الناس ذلك العام على ما كانت العرب تحج عليه وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن

أسيد وهي سنة ثمان.

قال: وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم ما بين ذي القعدة إلى رمضان من سنة تسع.

سنة ٨- إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى وأبوه هو صاحب إحدى المعلقات السبع الشاعر ابن الشاعر وذكر قصيدته التي سمعها رسول الله ﷺ وهي: بانت سعاد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠١/٢]: ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه لأبويه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش، ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض. وكان كعب قد قال:

ألا بلغا عني بجيراً رسالة   فويحك فيما قلت ويحك هل لكا
فبيّن لنا إن كنت لست بفاعل   على أي شيء غير ذلك دلّكا
على خُلق لم ألْف يوماً أباً له عليه   وما تُلْفي عليه أبا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف   ولا قائل إما عثرت لَعاً لَكا
سقاك بها المأمون كأساً رويةً   فأنهلك المأمون منها وعلّكا

قال ابن هشام [السيرة: ٥٠٢/٢]: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر:

مَن مبلغ عني بجيراً رسالة   فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
شربت مع المأمون كأساً رويةً   فأنهلك المأمونُ منها وعلّكا
وخالفت أسباب الهدى واتبعته   على أي شيء ويبَ غيرك دلّكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه   ولم تُدركْ عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسف   ولا قائلٍ إمّا عثرت لَعاً لَكا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٢/٢]: وبعث بها إلى بجير فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ لما سمع سقاك بها المأمون: «صدق وإنه لكذوب أنا المأمون» ولما سمع «على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه قال: «أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه»

قال: ثم كتب بجير إلى كعب يقول له:

من مبلغ كعباً فهل لك في التي   تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده   فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتٍ   من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهيرٍ وهو لا شيء دينه   ودين أبي سلمى عليَّ محرّم

قال: فلما بلغ كعب الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه وقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بداً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل - كانت بينه وبينه معرفة - من جهينة كما ذكر لي فغدا به إلى رسول الله ﷺ في صلاة الصبح فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: إذاً أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٣/٢ - ٥١٣]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فإنه جاء تائباً نازعاً» قال: فغضب كعب بن زهير على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم؛ وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثْرَها لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ بَرَزَتْ   إلا أغَنُّ غضيضُ الطرف مكحول
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً   لا يشتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ
تجلوا عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت   كأنه منهل بالراح معلول
شُجّت بذي شبم من ماء محنية   صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرَطُه   من صوب غادية بيض يعاليل
فيا لها خلة لو أنها صدقت   بوعدها أَوْلَوْ أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها   فجع وولع وإخلافٌ وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها   كما تلوّن في أثوابها الغول
وما تُمَسِّك بالعهد الذي زعمت   إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت   إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا الأباطيل
ارجو وآمل أن يَعْجلن في أبدٍ   وما لهن إخالُ الدهرَ تعجيل
أمست سعاد بأرض لا تبلّغها   إلاّ العتاق النجيبات المراسيل
ولن يبلغها إلا عُذافرة   فيها على الأين إرقال وتبغيل
من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت   عُرْضتها طامس الأعلام مجهول
ترى النجاد بعيْنَي مفرد لهق   إذا توقّدت الحِزّان والميل
ضخم مقلّدها فعم مقيّدُها   في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
حرف أخوها أبوها من مهجنة   وعمها خالها قوداء شمليل
يمشي القُراد عليها ثم يزلقه   منها لبان وأقراب زهاليل
عيرانة قذفت بالنحض عن عُرُض   مرفقها عن بنات الزور مفتول
قنواء في حُرّتيها للبصير بها   عتق مبين وفي الخدين تسهيل
كأنما فات عينيها ومَذْبحها   من خطمها ومن اللحيين برْطيل
تمر مثل عسيب النخل ذا خُصَل   في غارز لم تخونه الأحاليل
تهوي على يسرات وهي لاهية   ذوابل وقعهن الأرض تحليل
سمر العجايات يتركن الحصى زيماً   لم يقهن سواد اللحم تنعيل
يوما تظل به الحرباء مُرْتَبئاً   كأن ضاحيه بالشمس مَمْلولُ

وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ... ورق الجنادب يركضن الحصا قيلوا
كأن أوب ذراعيها وقد عرقت ... وقد تلفع بالقُور العساقيل
أوبُ يَدَي فاقد شمطاءَ مُعْوِلَةٍ ... قامت فجاوبها نُكْدٌ مثاكيل
نواحة رخوة الضبعين ليس لها ... لما نَعَى بكرها الناعون معقول
تفري اللبان بكفيها ومدرعها ... مشقق عن تراقيها رعابيل
تسعى الغواة جنابيها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكم ... فكل ما قدّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيه مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما قد يسمع الفيل
لظل تُرْعَدُ من وجد بوادِرُه ... إنْ لم يكن من رسول الله تنويل
حتى وضعت يميني ما أنازعه ... في كف ذي نقمات قوله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم بضَراء الأرض مُخْدَرُه ... في بطن عثّر غيل دونه غيل
يغدو فيُلْحِم ضرغامين عيشهما ... لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور قرنا لا يحل له ... أن يترك القِرْنَ إلا وهو مغلول
منه تظل حمير الوحش نافرة ... ولا تمشي بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة ... مضرج البزّ والدرسان مأكول
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عَرَّد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
ليسوا مفاريحَ إن نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم ... ولا لهم عن حياض الموت تهليل

هكذا أورد محمد بن إسحاق هذه القصيدة ولم يذكر لها إسناداً.

وقد رواها الحافظ البيهقي في دلائل النبوة [٥/٢٠٧ - ٢٠٩ بنحوه] بإسناد متصل فقال: أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد الأسدي بهمذان حدثنا إبراهيم بن الحسين حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا الحجاج بن ذي الرقيبة بن عبد الرحمن بن كعب بن زهير بن أبي سلمى عن أبيه عن جده قال: خرج كعب وبجير ابنا زهير حتى أتيا أبرق العَزّاف فقال بجير لكعب: اثبت في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل - يعني رسول الله ﷺ - فأسمع ما يقول فثبت كعب وخرج بجير فجاء رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فأسلم فبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة ... على أي شيء ويب غيرك دلّكا
على خلق لم تُلْفِ أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخا لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية ... وأنهلك المأمون منها وعلكا

فلما بلغت الأبيات رسول الله ﷺ أهدر دمه وقال: «من لقي كعباً فليقتله».

فكتب بذلك بجيرا إلى أخيه وذكر له أن رسول الله ﷺ قد أهدر دمه ويقول له النجاء وما أراك تنفلت.

ثم كتب إليه بعد ذلك: اعلم أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا قبل ذلك منه وأسقط ما كان قبل ذلك فإذا جاءك كتابي هذا فأسلم وأقبل، قال: فأسلم كعب وقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ ثم أقبل حتى أناخ راحلته بباب مسجد رسول الله ﷺ ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ مع أصحابه كالمائدة بين القوم متحلقون معه حلقة خلف حلقة يلتفت إلى هؤلاء مرة فيحدثهم وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم.

قال كعب: فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلتُ المسجدَ، فعرفت رسول الله ﷺ بالصِّفة فتخطَّيتُ حتى جلست إليه فأسلمت وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله الأمان يا رسول الله، قال: «ومن أنت؟» قال: كعب بن زهير، قال: «الذي يقول» ثم التفت رسول الله ﷺ فقال: «كيف قال يا أبا بكر؟» فأنشده أبو بكر:

سقاك أبو بكر بكأسٍ روية ... وأنهلك المأمورُ منها وعلَّكا

قال: يا رسول الله ما قلت هكذا، قال: «فكيف قلت؟» قال: قلت:

سقاك أبو بكر بكأسٍ روية ... وأنهلك المأمونُ منها وعَلَّكا

فقال رسول الله ﷺ «مأمونٌ والله» ثم أنشده القصيدة كلها حتى أتى على آخرها وهي هذه القصيدة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم عندها لم يفد مكبول

وقد تقدم ما ذكرناه من الرمز لما اختلف فيه إنشاد ابن إسحاق والبيهقي رحمهما الله عز وجل.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب [٣/١٣١٤، ١٣١٥] أن كعباً لما انتهى إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

قال: فأشار رسول الله ﷺ إلى من معه أن اسمعوا. وقد ذكر ذلك قبله موسى بن عقبة في مغازيه ولله الحمد والمنة.

قلت: ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ أعطاه بردته حين أنشده القصيدة وقد نظم ذلك الصَّرْصَرِيُ في بعض مدائحه.

وهكذا ذكر ذلك الحافظ أبو الحسن بن الأثير في الغابة [٤/٤٧٧] قال: وهي البردة التي عند الخلفاء.

قلت: وهذا من الأمور المشهورة جداً ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال له لما قال: بانت سعاد: «ومن سعاد؟» قال: زوجتي يا رسول الله، قال: «لم تَبِنْ» ولكن لم يصح ذلك وكأنه على ذلك توهم أن بإسلامه تبين امرأته والظاهر أنه إنما أراد البيونة الحسية لا الحكمية والله تعالى أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٤/٢، ٥١٥]: وقال عاصم بن عمر بن قتادة: فلما قال كعب - يعني في قصيدته -: إذا عَرِّد السودُ التنابيل وإنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به، وخص المهاجرين من قريش بمدحته غضبت عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ويذكر بلاءهم من رسول الله ﷺ وموضعهم من اليَمن:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر ... إن الخيار هُمُ بنو الأخيار
المكرهين السمهري بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار
والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار
والقائدين الناس عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقنا الخطار
يتطهرون يرونه نسكا لهم ... بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية ... غلب الرقاب من الأسود ضواري
وإذا حللت ليمنعوك إليهم ... أصبحت عند معاقل الأغفار
ضربوا عليا يوم بدر ضربة ... دانت لوقعتها جميع نزار
لو يعلم الأقوام علمي كله ... فيهم لصدقني الذين أماري
قوم إذا خوت النجوم فإنهم ... للطارقين النازلين مقاري
في الغر من غسان من جرثومة ... أعيت محافرها على المنقار

قال ابن هشام [السيرة: ٥١٥/٢]: ويقال: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده بانت سعاد: «لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل» فقال كعب هذه الأبيات وهي في قصيدة له.

قال: وبلغني عن علي بن زيد بن جدعان أن كعب بن زهير أنشد رسول الله ﷺ في المسجد بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.

وقد رواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢١١/٥] بإسناده المتقدم إلى إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثني معن بن عيسى حدثني محمد بن عبد الرحمن الأوقص عن ابن جدعان فذكره وهو مرسل.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» [١٣١٣/٣ - ١٣١٧] بعد ما أورد طرفاً من ترجمة كعب بن زهير إلى أن قال: وقد كان كعب بن زهير شاعراً مجوداً كثير الشعر مقدماً في طبقته هو وأخوه بجير وكعب أشعرهما وأبوهما زهير فوقهما ومما يستجاد من شعر كعب بن زهير قوله:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني ... سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... فالنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل ... لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

ثم أورد له ابن عبد البر أشعاراً كثيرة يطول ذكرها ولم يؤرخ وفاته، وكذا لم يؤرخها أبو الحسن بن الأثير في كتاب «الغابة في معرفة الصحابة» [٤/] ولكن حكي أن أباه توفي قبل المبعث بسنة فالله أعلم.

وقال السهيلي [الروض الأنف: ٣٠٤/٧]: ومما أجاد فيه كعب بن زهير قوله يمدح رسول الله ﷺ:

تجري به الناقة الأدماء معتجرا ... بالبرد كالبدر جلَّى ليلة الظلم
ففي عطافيه أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

سنة ٨- أحداث سنة ثمان

فكان في جمادى منها وقعة مؤتة، وفي رمضان غزوة فتح مكة، وبعدها في شوال غزوة هوازن بحنين، وبعده كان حصار الطائف، ثم كانت عمرة الجعرانة في ذي القعدة، ثم عاد إلى المدينة في بقية السنة.

قال الواقدي: رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة لليالي بقين من ذي الحجة في سفرته هذه.

قال الواقدي: وفي هذه السنة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعمرو ابني الجلندي من الأزد، وأخذت الجزية من مجوس بلدهما ومن حولها من الأعراب.

قال: وفيها تزوج رسول الله ﷺ فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة فاستعاذت منه ﷺ ففارقها، وقيل: بل خيَّرها فاختارت الدنيا ففارقها.

قال: وفي ذي الحجة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية فاشتدت غيرة أمهات المؤمنين منها حين رزقت ولداً ذكراً وكانت قابلتها فيه سلمى مولاة رسول الله ﷺ، فخرجت إلى أبي رافع فأخبرته فذهب فبشر به رسول الله ﷺ فأعطاه مملوكا ودفعه رسول الله ﷺ إلى أم بُرْدَة بنت المنذر بن زيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد بن الجعد بن عوف بن مبذول.

وكانت فيها وفاة من ذكرنا من الشهداء في هذه الوقائع.

وقد قدمنا هَدْمَ خالد بن الوليد البيت الذي كانت العزى تعبد فيه بنخلة بين مكة والطائف وذلك لخمس بقين من رمضان منها.

قال الواقدي: وفيها كان هدم سواع الذي كانت تعبده هذيل برهاط، هدمها عمرو بن العاص ﷺ ولم يجد في خزانته شيئاً.

وفيها هُدِمَ مناة بالمُشَلَّل وكانت الأنصار أوسها وخزرجها يعظمونه هدمه سعد بن زيد الأشهلي ﷺ وقد ذكرنا من هذا فصلا مفيدا مبسوطا في تفسير سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم: ١٩ - ٢٠]

قلت: وقد ذكر البخاري بعد فتح مكة قصة تخريب خثعم البيت الذي كانت تعبده ويسمونه الكعبة اليمانية مضاهية للكعبة التي بمكة ويسمون التي بمكة الكعبة الشامية ولتلك - الكعبة اليمانية.

فقال البخاري [٤٣٥٧]: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن جرير قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فقلت: بلى فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده في صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا» قال: فما وقعت عن فرس بعد.

قال: وكان ذو الخلصة بيتا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نُصب تعبد يقال له الكعبة اليمانية.

قال: فأتاها فحرقها في النار وكسَّرها.

قال: فلما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسول الله ﷺ هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك.

قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها وتشهد أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك؟ فكسرها وشهد. ثم بعث جرير رجلا من أحمس يكنى أرطاة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك، قال: فلما أتى رسول

الله ﷺ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال: فبرّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

ورواه مسلم [(٢٤٧٦) (١٣٧)] من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله البجلي بنحوه.

سنة ٩- غزوة تبوك في رجب منها

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٨-٢٩].

روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى أن يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره. قالت قريش: لينقطعن عنا المتاجر والأسواق أيام الحج وليذهبن ما كنا نصيب منها؛ فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. [تفسير الطبري: ١٠/١٠٦ - ١٠٨]

قلت: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[سورة التوبة: ١٢٣].

فلما عزم رسول الله ﷺ على غزو الروم عام تبوك وكان ذلك في حر شديد وضيق من الحال جلّى للناس أمرها ودعى من حوله من أحياء الأعراب للخروج معه فأوعب معه بشر كثير كما سيأتي قريبا من ثلاثين ألفاً وتخلف آخرون فعاتب الله من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين والمقصرين، ولامهم ووبخهم وقرعهم أشد التقريع وفضحهم أشد الفضيحة وأنزل فيهم قرآنا يتلى وبين أمرهم في سورة براءة كما قد بينا ذلك مبسوطاً في التفسير [٤/٩٤، ٩٥] وأمر المؤمنين بالنفر على كل حال فقال تعالى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٤١-٤٢] ثم الآيات بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١٢] فقيل: إن هذه ناسخة لتلك، وقيل: لا، فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥١٥، ٥١٦]: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب - يعني من سنة تسع - ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.

فذكر الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم ابن عمر بن قتادة وغيرهم من علمائنا، كلٌّ يحدث عن غزوة تبوك ما بلغه عنها، وبعض القوم يحدث ما لم يحدث بعض: أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قل ما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد المشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد إليه، ليتأهب الناس لذلك أهبته. فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم. فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة: «يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففي الجد أنزل الله هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٩]

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لاتنفروا في الحر؛ زهادةً في الجهاد، وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول ﷺ، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ. فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٨١-٨٢].

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٥١٧]: حدثني الثقة عمن حدثه عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن، عن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن حارثة، عن أبيه، عن جده قال: بلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي - وكان بيته عند جاسوم - يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا فقال الضحاك في ذلك:

كَادَتْ وَبَيْتُ اللَّـهِ نـارُ مُحمـدٍ ... يَشيطُ بِهَا الضحاكُ وابنُ أُبيرقِ

وَظَلْتُ وقد طَبَّقْتُ كِبس سُويلم ... أنوء على رجلي كسيراً ومرفقي

سلامٌ عليكُم لا أعودُ لِمِثْلِهَا ... أخافُ ومن تشمل به النار يُحرقِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥١٧، ٥١٨]: ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والانكماش وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

قال ابن هشام [السيرة: ٢/٥١٨]: فحدثني من أثق به أن عثمان انفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راضٍ».

وقد قال الإمام أحمد [٥/٦٣]: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم».

ورواه الترمذي [٣٧٠١] عن محمد بن إسماعيل، عن الحسن بن واقع، عن ضمرة به، وقال حسن غريب.

وقاله عبد الله بن أحمد في مسند أبيه [أطراف المسند: ٤/٢٥٧]: حدثني أبو

موسى العنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سكن بن المغيرة حدثني الوليد بن أبي هشام عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خبّاب السلمي. قال: خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا».

وهكذا رواه الترمذي [٣٧٠٠] عن محمد بن بشار، عن أبي داود الطيالسي، عن سكن بن المغيرة أبي محمد، مولى لآل عثمان، به. وقال: غريب من هذا الوجه.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢١٤/٥] من طريق عمرو بن مرزوق، عن سكن بن المغيرة به. وقال: ثلاث مرات، وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال عبد الرحمن: فأنا شهدت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «ما ضر عثمان بعدها - أو قال - بعد اليوم».

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٨٢)]: حدثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمرو بن جاوان، عن الأحنف بن قيس قال: سمعت عثمان بن عفان يقول لسعد بن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة: أنشدكم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز جيش العسرة غفر الله له» فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً؟ قالوا: اللّهم نعم!.

ورواه النسائي [٣٦٠٨] من حديث حصين به.

سنة ٩- تخلف معذوراً من البكائين وغيرهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ. رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ. لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٩٣].

قد تكلمنا على تفسير هذا كله في التفسير [١٣٥/٤ - ١٣٩] بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

والمقصود ذكر البكائين الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليحملهم حتى يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده من الظهر ما يحملهم عليه، فرجعوا وهم يبكون تأسفاً على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله والنفقة فيه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٨/٢]: وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم.

فمن بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعُلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني.

وبعض الناس يقولون: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٨/٢]: فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه، وزودهما شيئا من تمر، فخرجا مع النبي ﷺ.

زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق: وأما علبة بن زيد، فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ثم بكى وقال: اللّهم إنك أمرت بالجهاد ورغّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها؛ في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة؟» فلم يقم أحد، ثم قال: «أين المتصدق؟ فليقم» فقام إليه فاخبره فقال رسول الله ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة».

وقد أورد الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢١٦/٥، ٢١٧] هاهنا حديث أبي موسى الأشعري فقال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الحميد الحارثي، حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان إذ هم معه في جيش العسرة وهو في غزوة تبوك فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «والله لا احملكم على شيء» ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزينا من منع رسول الله ﷺ ومن مخافة أن يكون رسول الله قد وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي فاخبرتهم بالذي قال رسول الله ﷺ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادي: أين عبد الله بن قيس؟ فاجبته فقال: أجب، رسولُ الله ﷺ يدعوك، فلما اتيت رسول الله ﷺ قال: «خذ هذين القرينين وهذين القرينين وهذين القرينين» لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد، فقال: «انطلق بهن إلى أصحابك فقل: إن الله - أو قال: إن رسول الله - يحملكم على هؤلاء فاركبوهم».

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا ادعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ، حين سألته لكم، ومنعه لي في أول مرة، ثم إعطاءه إياي بعد ذلك؛ لا تظنوا أني حدثتكم شيئا لم يقله، فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت، قال: فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ من منعه إياهم، ثم إعطائه بعد، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء.

وأخرجه البخاري [٤٤١٥] ومسلم [(١٦٤٩) (٨)] جميعاً عن أبي كريب عن أبي سامة.

وفي رواية لهما [خ (٣١٣٣)، م (١٦٤٩) (٧، ٩)] عن أبي موسى قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من الأشعريين ليحملنا فقال: «والله ما احملكم وما عندي ما أحملكم عليه» قال: ثم جيء رسول الله ﷺ بنهب إبل، فامر لنا بست ذَوْدٍ غُرِّالذرى فأخذناها، ثم قلنا تغفّلنا رسول الله ﷺ يمينه، والله لا يبارك لنا، فرجعنا له فقال: «ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم»

ثم قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٩/٢]: وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية حتى تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب منهم: كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة، ومرارة بن ربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية أخو بني واقف، وأبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

قلت: أما الثلاثة الأول فستأتي قصتهم مبسوطة قريبا إن شاء الله تعالى، وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] وأما أبو خيثمة فإنه عاد وعزم على اللحوق برسول الله ﷺ كما سيأتي.

سنة ٩- تجييش عسكر المسلمين مع رسول الله صلى عليه وسلم وعددهم ثلاثون ألفاً

قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: ثم استتب برسول الله ﷺ سفره وأجمع السير، فلما خرج يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفا من الناس، وضرب عبد الله بن أبي عدو الله عسكره أسفل منه - وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين - فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب.

قال ابن هشام [السيرة: ٥١٩/٢]: واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري.

قال: وذكر الدراوردي: أنه استخلف عليها عام تبوك سباع بن عرفطة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٩/٢]: وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، على أهله، وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففا منه، فلما قالوا ذلك، أخذ علي سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا فقال: «كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فرجع علي ومضى رسول الله ﷺ في سفره.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/٢]: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعلي هذه المقالة.

وقد روى البخاري [٣٧٠٦] ومسلم [٢٤٠٤] هذا الحديث من طريق شعبة عن سعد بن إبراهيم، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه به.

وقد قال أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٠٩]: حدثنا شعبة عن الحكم، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي».

وأخرجاه [خ (٤٤١٦)، م (٢٤٠٤)] من طرق عن شعبة نحوه. وعلقه البخاري [بإثر (٤٤١٦)] أيضاً من طريق أبي داود عن شعبة.

وقال الإمام أحمد [١٨٥/١]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول له - وخلفه في بعض مغازيه - فقال علي: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «يا علي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي».

ورواه مسلم [(٢٤٠٤) (٣٢)] والترمذي [٣٧٢٤] عن قتيبة: زاد مسلم ومحمد بن عباد. كلاهما عن حاتم ابن إسماعيل به. وقال الترمذي: حسن صحيح، غريب من هذا الوجه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/٢، ٥٢١]: ثم إن أبا خيثمة بعد ما سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما. فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ في الضِّح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف ثم قال: والله لا أدخل عريشَ واحدةٍ منكما حتى الحق برسول الله ﷺ، فهيئا زاداً. ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير ابن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبا فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة» ثم أخبر رسول الله الخبر، فقال خيراً ودعا له بخير.

وقد ذكر عروة بن الزبير وموسى بن عقبة قصة أبي خيثمة بنحو من سياق محمد بن إسحاق، وابسط، وذكر أن خروجه عليه السلام إلى تبوك كان في زمن الخريف [دلائل النبوة للبيهقي: ٢٢٤/٥] فالله أعلم.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٢١/٢] وقال أبو خيثمة واسمه مالك بن قيس في ذلك:

لما رَأيتُ الناس في الدينِ نافقوا ... أتَيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما
وَبَايَعتُ بِاليُمنى يدي لِمحمدٍ ... فلم أكتسب إثماً ولم أغشَ مُحرما
تَرَكتُ خَضيبا في العريش وصرمةً ... صفايا كراما بسرها قد تحمما
وكُنتُ إذا شكَّ المُنافِقُ أسمَحَتْ ... إلى الدين نفسي شطرَهُ حَيثُ يمما

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، عن بريدة، عن سفيان، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن مسعود قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك، جعل لا يزال الرجل يتخلف فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان فيقول: «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» فتلوم أبو ذر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل ماش على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم

قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» قال: فضرب الدَّهْرُ مِن ضَرْبهِ وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه فقال: إذا مت فاغسلاني وكفناني من الليل، ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك، فاطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركابهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر؛ فاستهل ابن مسعود يبكي وقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده»، فنزل فوليه بنفسه حتى أجنه.

إسناده حسن ولم يخرجوه.

قال الإمام أحمد [البيهقي في الدلائل: ٢٢٧/٥، من طريق أحمد بن حنبل، به]: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرنا عبد الله بن محمد بن عقيل في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [سورة التوبة: ١١٧]. قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حر شديد، فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها، فكان ذلك عسرة في الماء، وعسرة في النفقة، وعسرة في الظهر.

قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير، عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العسرة فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، فقال: «أوتحب ذلك؟» قال: نعم! قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلَّت، ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر [الدلائل للبيهقي: ٢٣١/٥، من طريق ابن وهب، به].

إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقد ذكر ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه: أن هذه القضية كانت وهم بالحجر، وأنهم قالوا لرجل معهم منافق: ويحك هل بعد هذا من شيء؟! فقال: سحابة مارة، وذكر أن ناقة رسول الله ﷺ ضلت فذهبوا في طلبها فقال رسول الله ﷺ لعمارة بن حزم الأنصاري - وكان عنده -: «إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها هي في الوادي، قد حبستها شجرة بزمامها» فانطلقوا فجاؤوا بها، فرجع عمارة إلى رحله فحدثهم عما جاء رسول الله ﷺ من خبر الرجل، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة: إنما قال ذلك زيد بن اللصيت وكان في رحل عمارة قبل أن يأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إن في رحلي لداهية وأنا لا أدرى، أخرج عنى يا عدو الله فلا تصحبني، فقال بعض الناس: إن زيداً تاب، وقال بعضهم: لم يزل مصراً حتى هلك.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٣٢/٥]: وقد روينا من حديث ابن مسعود شبيهاً بقصة الراحلة، ثم روى من حديث الأعمش.

وقد رواه الإمام أحمد [١١/٣] عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري - شك الأعمش - قال: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا» فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل ازوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله: «نعم» فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف من ذرة، ويجيء الآخر بكف من التمر، ويجيء الآخر بكسرة،حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

ورواه مسلم [(٢٥) (٢٧)] عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن الأعمش به.

ورواه الإمام أحمد [٤٢١/٢] من حديث سهيل عن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به، ولم يذكر غزوة تبوك، بل قال: كان في غزوة غزاها.

سنة ٨- مروره ﷺ في ذهابه إلى تبوك بمساكن ثمود

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢١/٢]: وكان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مياهها شيئا، ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا».

هكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد.

وقال الإمام أحمد [٦٦/٢]: حدثنا يعمر بن بشر، حدثنا عبد الله - وهو ابن المبارك - أخبرنا معمر عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله عن أبيه: أن رسول الله ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم» وتقنع بردائه وهو على الرحل.

ورواه البخاري [٣٣٨٠، ٤٤١٩] من حديث عبد الله بن المبارك، وعبد الرزاق كلاهما عن معمر بإسناده نحوه.

وقال مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» [البيهقي في «الدلائل»: ٢٣٣/٥، من طريق مالك، به].

ورواه البخاري [٤٣٣، ٣٣٧٨] من حديث مالك، ومن حديث سليمان بن بلال، كلاهما عن عبد الله بن دينار.

ورواه مسلم [٢٩٨٠] من وجه آخر عن عبد الله ابن دينار نحوه.

وقال الإمام أحمد [١١٧/٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر - هو ابن جويرية - عن نافع، عن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك الحجر، عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر، التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

وهذا الحديث إسناده على شرط الصحيحين من هذا الوجه، ولم يخرجوه، وإنما أخرجه البخاري [٣٣٧٩] ومسلم [٢٩٨١] من حديث أنس بن عياض، عن أبي ضمرة، عن عبيد الله بن عمر،عن نافع عن ابن عمر به.

قال البخاري: وتابعه أسامة عن عبيد الله.

ورواه مسلم [٢٩٨١] من حديث شعيب بن إسحاق عن عبيد الله عن نافع به.

وقال الإمام أحمد [٢٩٦/٣]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

إسناده صحيح ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٢٣١/٤]: حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنودي في الناس الصلاة جامعة، قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا».

إسناده حسن ولم يخرجوه.

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن العباس بن سهل بن سعد الساعدي - أو عن العباس عن سهل بن سعد الشك مني - أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر، ونزلها استقى الناس من بئرها، فلما راحوا منها قال رسول الله ﷺ للناس: «لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي ذهب لحاجته، فإنه خنق على مذهبه، وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «ألم أنهكم أن يخرج رجل إلا ومعه صاحب له» ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر فإنه وصل إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من تبوك.

وفي رواية زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٢/٢] أن طيئاً أهدته إلى رسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني عبد الله بن أبي بكر أن العباس بن سهل سمى له الرجلين، لكنه استكتمه إياهما فلم يحدثني بهما. وقد قال الإمام: أحمد [٤٢٤/٥، ٤٢٥] حدثنا عفان، حدثنا وهيب بن خالد، حدثنا عمرو بن يحيى عن العباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبي حميد الساعدي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، حتى جئنا وادي القرى، فإذا امرأة في حديقة لها فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرصوا» فخرص القوم وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق، وقال رسول الله ﷺ للمرأة: «أحصي ما يخرج منها حتى أرجع إليك إن شاء الله».

قال: فخرج حتى قدم تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن فيها رجل، فمن كان له بعير فليوثق عقاله».

قال أبو حميد: فعقلناها، فلما كان من الليل هبت علينا ريح شديدة، فقام فيها رجل فألقته في جبل طيئ، ثم جاء رسول الله ملك أيلة فأهدى لرسول الله بغلة بيضاء وكساه رسول الله برداً وكتب له ببحرهم ثم أقبل وأقبلنا معه حتى جئنا وادي القرى فقال للمرأة: «كم جاءت حديقتك؟» قالت: عشرة أوسق، خرص رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني متعجل فمن أحب منكم أن يتعجل فليفعل» قال: فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه حتى إذا أوفى على المدينة قال: «هذه طابة». فلما رأى أحداً قال «هذا أُحد يحبنا ونحبه، ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني ساعدة، ثم في كل دور الأنصار خير».

وأخرجه البخاري [١٤٨١] ومسلم [١٣٩٢] من غير وجه عن عمرو بن يحيى به نحوه. وقال الإمام مالك رحمه الله [الموطأ: ١٤٣/١، ١٤٤] عن أبي الزبير عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن معاذ بن جبل أخبره أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فكان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، قال: فأخر الصلاة يوما ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعا ثم قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى ضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي» قال: فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئا؟»، قالا: نعم فسبهما! وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً».

وأخرجه مسلم [(٧٠٦) (١٠)] من حديث مالك به.

سنة ٩- ذكر خطبته ﷺ إلى تبوك إلى نخلة هناك

روى الإمام أحمد عن أبي النضر هاشم بن القاسم [٧٣/٣] ويونس بن محمد المؤدب [٤١/٣، ٤٢] وحجاج بن محمد [٥٧/٣، ٥٨] ثلاثتهم عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي الخطاب عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجراً جريئا يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه» ورواه النسائي [٣١٠٦] عن قتيبة عن الليث به وقال: أبو الخطاب لا أعرفه.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٤١/٥، ٢٤٢] من طريق يعقوب بن محمد

الزهري عن عبد العزيز بن عمران: حدثنا عبد الله بن مصعب بن منظور بن جميل بن سنان أخبرني أبي سمعت عقبة بن عامر الجهني يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فاسترقد رسول الله ﷺ فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح، قال: «ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر؟» فقال: يا رسول الله ذهب بي من النوم مثل الذي ذهب بك.

قال: فانتقل رسول الله ﷺ من منزله غير بعيد ثم صلى وسار بقية يومه وليله فأصبح بتبوك، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«أيها الناس أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقوى وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدي ما اتُّبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبراً. ومن الناس من لا يذكر الله إلا هجراً ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وخير ما وقر في القلوب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جُثَى جهنم. والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكل أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع والأمر إلى الآخرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألّ على الله يكذبه، ومن يستغفره يغفر له ومن يعف يعف الله عنه. ومن يكظم يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يبتغي السمعة يسمّع الله به، ومن يصبر يضعّف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله، اللهم اغفر لي ولأمتي» قالها ثلاثا ثم قال: «أستغفر الله لي ولكم».

وهذا حديث غريب وفيه نكارة وفي إسناده ضعف والله أعلم بالصواب.

وقال أبو داود [٧٠٧]: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني وسليمان ابن داود. قالا: أخبرنا ابن وهب أخبرني معاوية عن سعيد بن غزوان عن أبيه: أنه نزل بتبوك وهو حاج فإذا رجل مقعد، فسأله عن أمره فقال: سأحدثك حديثا فلا تحدث به ما سمعتَ أني حيٌّ، إن رسول الله ﷺ نزل بتبوك إلى نخلة فقال: «هذه قبلتنا» ثم صلى إليها، قال: فأقبلت وأنا غلام أسعى حتى مررت بينه وبينها، فقال: «قطع صلاتنا قطع الله أثره». قال: فما قمت عليها إلى يومي هذا.

ثم رواه أبو داود [٧٠٥] من حديث سعيد بن عبد العزيز التنوخي عن مولى ليزيد بن نمران عن يزيد بن نمران. قال: رأيت بتبوك مقعداً فقال: مررت بين يدي رسول الله ﷺ وأنا على حمار وهو يصلي فقال: «اللّهم اقطع أثره» فما مشيت عليها بعد.

وفي رواية [٧٠٦] «قطع صلاتنا قطع الله أثره»

سنة ٩- الصلاة على معاوية بن معاوية إن صح الخبر في ذلك

روى البيهقي [الدلائل: ٢٤٥/٥] من حديث يزيد بن هارون أخبرنا العلاء أبو محمد الثقفي قال: سمعت أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت فيما مضى، فأتى جبريل رسول الله فقال: «يا جبريل ما لي أرى الشمس اليوم طلعت بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت فيما مضى؟!» قال: ذلك أن معاوية بن معاوية الليثي مات بالمدينة اليوم فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه قال: «ومم ذاك؟» قال: بكثرة قراءته ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بالليل والنهار، وفي ممشاه وفي قيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه؟ قال «نعم» قال: فصلى عليه ثم رجع.

وهذا الحديث فيه غرابة شديدة ونكارة، والناس يسندون أمرَه إلى العلاء بن زيد هذا وقد تكلموا فيه.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٢٤٦/٥]: أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا هشام بن علي أخبرنا عثمان بن الهيثم حدثنا محبوب بن هلال عن عطاء بن أبي ميمونة عن أنس قال: جاء جبريل فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزني أفتحب أن تصلي عليه؟ قال «نعم!» فضرب بجناحه فلم يبق من شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت له، قال: فصلى وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك، قال: قلت: «يا جبريل بما نال هذه المنزلة من الله؟» قال بحبه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقرؤها قائما وقاعداً، وذاهبا وجائياً، وعلى كل حال.

قال عثمان: فسألت أبي: أين كان النبي ﷺ؟ قال: بغزوة تبوك بالشام، ومات معاوية بالمدينة، ورفع له سريره حتى نظر إليه وصلى عليه.

وهذا أيضاً منكر من هذا الوجه.

سنة ٩- قدوم رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ بتبوك

قال الإمام أحمد [٤٤١/٣، ٤٤٢]: حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخا كبيراً قد بلغ الفَنَدَ أو قرُب. فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟ فقال: بلى! قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قِسِّيسي الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم؟ وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه ما لنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نُلقي إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخُذن ما تحت قدميَّ فهلمّ فلنتبعه على دينه أو نعطيه مالَنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟!.

فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم، ولم يكد وقال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم ثم دعا رجلا من عرب تجيب كان على نصارى العرب قال: ادع لي رجلا حافظا للحديث عربي

اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إليَّ هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما سمعتَ من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إليَّ بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريبك.

قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبيا على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حِجْره ثم قال: «ممن أنت؟» فقلت: أنا أخو تنوخ قال: «هل لك إلى الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟» قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى ارجع إليهم، فضحك وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فحرقها والله محرقه ومحرق ملكه وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسا ما دام في العيش خير» قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي، فأخذت سهما من جعبتي فكتبته في جنب سيفي ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! أين الليل إذا جاء النهار» قال: فأخذت سهما من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: «إن لك حقاً وإنك رسولٌ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا سَفْرٌ مُرْمِلُون» قال: فناداه رجل من طائفة الناس قال: أنا أجوِّزه، ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري، قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: «أيكم يُنزل هذا الرجل؟» فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله فقال: «تعال يا أخا تنوخ» فأقبلت أهوي إليه حتى كنت قائما في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحل حبوته عن ظهره وقال: «ها هنا امض لما أُمرت به» فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غُضون الكتف مثل الحجمة الضخمة.

هذا حديث غريب وإسناده لا بأس به تفرد به الإمام أحمد.

سنة ٩- مصالحته ﷺ ملك أيلة وأهل جرباء وأذرح وهو مقيم على تبوك قبل رجوعه

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٥/٢]: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب إيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم، فكتب ليحنة بن رؤبه وأهل أيلة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل إيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثنا فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوه ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر».

زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق بعد هذا: «وهذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله» [الدلائل للبيهقي: ٢٤٨/٥، عن يونس بن بكير، به].

قال يونس عن ابن إسحاق: وكتب لأهل جرباء وأذرح:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين».

قال: وأعطى النبي ﷺ أهل أيلة برده مع كتابه أمانا لهم، قال: فاشتراه بعد ذلك أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار. [الدلائل للبيهقي: ٢٤٨/٥، ٢٤٩، عن يونس بن بكير، به]

سنة ٩- بعثه ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٦/٢]: ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا، وقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر».

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته. وباتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟! قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان فركب وخرجوا معه بمطاردهم.

فلما خرجوا تلقتهم خيل النبي ﷺ فأخذته، وقتلوا أخاه وكان عليه قباء من ديباج مخوَّص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه.

قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس بن مالك قال: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٦/٢]: ثم إن خالد بن الوليد لما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ حقن له دمه فصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته، فقال رجل من بني طيئ يقال له بجير بن بجرة في ذلك:

تَبَارَكَ سَائِقُ البَقَرَاتِ إِنِّي ... رَأَيْتُ اللَّهَ يَهْدِي كُلَّ هَادِ
فَمَنْ يَكُ حَائِداً عَنْ ذِي تَبُوكٍ ... فَإِنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالجِهَادِ

وقد حكى البيهقي [الدلائل: ٢٥١/٥]: أن رسول الله ﷺ قال لهذا الشاعر: «لا يَفْضُضِ اللَّهُ فاك» فأتت عليه سبعون سنة ما تحرك له فيها ضرس ولا سن.

وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة: أن رسول الله ﷺ بعث خالداً مرجعه من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر دومة. فذكر نحو ما تقدم إلا أنه ذكر: أنه ماكَرَهُ حتى أنزله من الحصن، وذكر أنه قدم مع أكيدر إلى رسول الله ﷺ ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وذكر أنه لما سمع عظيم أيلة يُوحَنَّة بن رؤبة بقضية أكيدر دومة أقبل قادماً إلى رسول الله ﷺ يصالحه، فاجتمعا

عند رسول الله ﷺ بتبوك؛ فالله أعلم.

وروى يونس بن بكير عن سعد بن أوس عن بلال بن يحيى: أن أبا بكر الصديق كان على المهاجرين في غزوة دومة الجندل، وخالد بن الوليد على الأعراب في غزوة دومة الجندل، فالله أعلم.

سنة ٩- الحديثُ عن المنافقين

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٧/٢]: فأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة بتبوك لم يجاوزها ثم انصرف قافلا إلى المدينة.

قال: وكان في الطريق ماء يخرج من وَشَل، يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: وادي المشقق، فقال رسولُ الله ﷺ: «من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه».

قال: فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئا فقال: «من سبقنا إلى هذا الماء؟» فقيل له: يا رسول الله فلان وفلان، فقال: «أوَلَمْ أنههم أن يستقوا منه حتى آتيه؟»، ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إنَّ له حسّاً كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتم أو من بقي منكم ليسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٧/٢، ٥٢٨]: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن عبد الله بن مسعود كان يحدث قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتَّبعتها انظر إليها، قال: فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وإذا هو يقول: «أدنيا إليّ أخاكما» فدلَّياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه» قال: يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

قال ابن هشام: إنما سمي ذا البجادين لأنه كان يريد الإسلام فمنعه قومه وضيقوا عليه حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجاد - وهو الكساء الغليظ - فشقه باثنتين فاتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم أتى رسول الله ﷺ فسمِّي ذا البجادين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٨/٢، ٥٢٩]: وذكر ابن شهاب الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي أبي رهم الغفاري أنه سمع أبا رهم كلثوم بن الحصين - وكان من أصحاب الشجرة - يقول: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر وألقى الله عليّ النعاس فطفقتُ أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة النبي ﷺ فيفزعني دنوها منه مخافة أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحُوز راحلتي عنه حتى غلبتني عيني في بعض الطريق فزاحمت راحلتي راحلته ورجله في الغرز، فلم أستيقظ إلا بقوله: «حَسّ» فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فقال: «سِرْ» فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلف عنه من بني غفار. فأخبره به. فقال: وهو يسألني: «ما فعل النفر الحمر الطوال الثُطَاطُ الذين لا شعر في وجوههم؟» فحدثته بتخلفهم، قال: «فما فعل النفر السود الجعاد القصار» قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا قال: «بلى الذين لهم نعم بشبكة شدخ» فتذكرتهم في بني غفار، فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا. فقال رسول الله ﷺ: «ما منع أحدَ أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرءاً نشيطا في سبيل الله؟ إنّ أعز أهلي عليّ أن يتخلف عني المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم».

قال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة هَمَّ جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فأخبر بخبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله وأبصر حذيفة غضبه فرجع إليهم ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس، ثم قال رسول الله ﷺ لحذيفة: «هل عرفت هؤلاء القوم؟» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم، ثم قال: «علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟» قالا: لا، فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم لهما واستكتمهما ذلك؟ فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: «أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة بن اليمان وحده وهذا هو الأشبه والله أعلم.

ويشهد له قول أبي الدرداء لعلقمة صاحب ابن مسعود: أليس فيكم - يعني أهل الكوفة - صاحب السواد والوساد؟ - يعني ابن مسعود - أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ - يعني حذيفة - أليس فيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان محمد؟ - يعني عماراً؟ [خ (٣٧٤٢)].

وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لحذيفة: أقسمت عليك بالله أنا منهم؟ قال: لا ولا أبرئ بعدك أحداً - يعني حتى لا يكون مفشيا سرَّ النبي ﷺ -.

قلت: وقد كانوا أربعة عشر رجلا.

وقيل: كانوا اثني عشر رجلاً.

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان فجمعهم له فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم وبما تمالؤوا عليه.

ثم سرد ابن إسحاق أسماءهم قال: وفيهم أنزل الله عز وجل ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[التوبة: ٧٤].

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٦٠/٥، ٢٦١] من طريق محمد بن مسلمة عن أبي إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة - أو أنا أسوق وعمار يقود به - حتى إذا كنا بالعقبة إذا باثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب، قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها» قلنا: يا رسول الله أو لا تبعث إلى

عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تَحدّثَ العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم» ثم قال: «اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة» قلنا: يا رسول الله وما الدُّبَيْلة؟ قال: «هي شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

وفي صحيح مسلم [(٢٧٧٩) (٩)] من طريق شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد. قال: قلت لعمار: أرأيتم صنيعكم هذا فيما كان من أمر علي أرأيٌ رأيتموه أم شيء عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط».

وفي رواية له من وجه آخر عن قتادة «إن في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة، سراج من النار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم» [(٢٧٧٩) (١٠)].

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٦٢/٥]: وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر - أو خمسة عشر - وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثةً أنهم قالوا: ما سمعنا المنادي ولا علمنا بما أراد.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده [٤٥٣/٥، ٤٥٤] قال: حدثنا يزيد - هو ابن هارون - أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ آخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قَدْ قَدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي، فلما هبط ورجع عمار قال: «يا عمار هل عرفت القوم؟» قال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه» قال: فسارّ عمار رجلا من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر، فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

سنة ٩- قصة مسجد الضرار

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

وقد تكلمنا على تفسير ما يتعلق بهذه الآيات الكريمة في كتابنا التفسير [١٤٨/٤ - ١٥٥] بما فيه كفاية ولله الحمد.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٩/٢ - ٥٣٠] كيفية بناء هذا المسجد الظالم أهلُه وكيفية أمر رسول الله ﷺ بخرابه مرجعه من تبوك قبل دخوله المدينة.

ومضمون ذلك: أن طائفة من المنافقين بنوا صورة مسجد قريبا من مسجد قباء وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله ﷺ فيه حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك، فلما رجع منها فنزل بذي أوان - مكان بينه وبين المدينة ساعة - نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ الآية.

أما قوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً﴾ بالله لا للإيمان به، ﴿وَتَفْرِيقاً﴾ للجماعة عن مسجد قباء ﴿وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب الفاسق قبحه الله وذلك أنه لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى عليه؛ ذهب إلى أهل مكة فاستنفرهم، فجاؤوا عام أحد فكان من أمرهم ما قدمناه، فلما لم ينهض أمره ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله ﷺ.

وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين، فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الراهب، ومجمّع لمن هو على طريقتهم من المنافقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾.

ثم قال ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ أي إنما أردنا ببنائه الخير. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى لرسوله ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ فنهاه عن القيام فيه لئلا يقرر أمْره ثم أمره وحثه على القيام في المسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وهو مسجد قباء لما دل عليه السياق والأحاديث الواردة في الثناء على تطهير أهله مشيرة إليه. وما ثبت في صحيح مسلم [(١٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري] من أنه مسجد رسول الله ﷺ لا ينافي ما تقدم لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد الرسول أولى بذلك وأحرى، وأثبت في الفضل منه وأقوى، وقد أشبعنا القول في ذلك في التفسير ولله الحمد.

والمقصود أن رسول الله ﷺ لما نزل بذي أوان دعا مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عدي - أو أخاه عاصم بن عدي - رضي الله عنهما فأمرهم أن يذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فيحرقاه بالنار، فذهبا فحرقاه بالنار، وتفرق عنه أهله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٣٠/٢]: وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا وهم: خذام بن خالد - وفي جنب داره كان بناء هذا المسجد - وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ونبتل بن الحارث، وبحزج وهو إلى بني ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية.

قلت: وفي غزوة تبوك هذه صلى رسول الله ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف صلاة الفجر أدرك معه الركعة الثانية منها، وذلك أن رسول الله

ﷺ ذهب يتوضأ ومعه المغيرة بن شعبة فأبطأ على الناس، فأقيمت الصلاة فتقدم عبد الرحمن بن عوف، فلما سلم الناس أعظموا ما وقع فقال لهم رسول الله ﷺ: «أحسنتم وأصبتم».

وذلك فيما رواه البخاري [(٣٦٣) مختصراً، وأخرجه بتمامه م (٢٧٤) (٨١)] رحمه الله قائلا: حدثنا.

وقال البخاري [٤٤٢٣]: حدثنا أحمد بن محمد حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم» فقالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال «وهم بالمدينة حبسهم العذر».

تفرد به من هذا الوجه.

قال البخاري [٤٤٢٢]: حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان حدثني عمرو بن يحيى عن العباس بن سهل بن سعد عن أبي حميد قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه».

ورواه مسلم [١٣٩٢] من حديث سليمان بن بلال به نحوه.

وقال البخاري [٤٤٢٧]: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: أذكر أني خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك.

ورواه أبو داود [٢٧٧٩] والترمذي [١٧١٨] من حديث سفيان بن عيينة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البيهقي [الدلائل: ٥/٢٦٦]: أخبرنا أبو نصر بن قتادة أخبرنا أبو عمرو بن مطر سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعْ

قال البيهقي: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة لا أنه لما قدم المدينة من ثنيات الوداع عند مقدمه من تبوك والله أعلم. فذكرناه ها هنا أيضا.

سنة ٩- المتخلفون عن تبوك

قال البخاري رحمه الله [٤٤١٨]: حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: حدثني يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومَفازاً، وعدواً كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان -.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيَخْفَى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا فقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتني فعلت - فلم يقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك، قال: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادما فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكَل سرائرهم إلى الله عز وجل، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضَب ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك» فقلت بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر - ولقد أعطيت جدلا - ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت فثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله مازالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي

أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولايكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فاسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي- فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من انباط أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه:

أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء؛ فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربك» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما استأذن هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب ابشر. فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبلَ صاحبي مبشرون، وركض رجل إليّ فرسا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه. قلت: يا رسول الله إن من توبتي أنْ أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي الا أحدِّث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما ابلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ ليس الذي ذكر الله مما خلِّفنا من الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منهم.

وهكذا رواه مسلم [٢٧٦٩] من طريق الزهري بنحوه.

وهكذا رواه محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥٣١ - ٥٣٧] عن الزهري مثل سياق البخاري.

وقد سقناه في التفسير [٤/١٦٥ - ١٦٩] من مسند الإمام أحمد [٣/٤٥٦ - ٤٥٩] وفيه زيادات يسيرة ولله الحمد والمنة.

سنة ٩- أقوام تخلفوا من العصاة غير هؤلاء

قال علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوعه أوثق سبعة منهم انفسهم بسواري المسجد وكان مَمرُّ النبيِّ ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم فلما مر بهم رسول الله قال: «من هؤلاء؟» قالوا: أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم قال: «وأنا اقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عز وجل هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين».

فلما أن بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا. فأنزل الله عز وجل ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية.

و«عسى» من الله واجب. فلما أنزلت أرسل إليهم رسول الله فأطلقهم وعذرهم، فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا

فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: «ما أُمرت أن آخذ أموالكم» فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣ ـ ١٠٦] وهم الذين لم يربطوا أنفسهم بالسواري فأرجئوا حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٨] إلى آخرها.

وكذا رواه عطية بن سعد العوفي عن ابن عباس بنحوه [تفسير الطبري: ١٣/١١، ١٧].

وقد ذكر سعيد بن المسيب ومجاهد ومحمد بن إسحاق قصة أبي لبابة وما كان من أمره يوم بني قريظة وربط نفسه حتى تيب عليه، ثم إنه تخلف عن غزوة تبوك فربط نفسه أيضا حتى تاب الله عليه، وأراد أن ينخلع من ماله كله صدقة فقال له رسول الله ﷺ: «يكفيك من ذلك الثلث».

قال مجاهد وابن إسحاق: وفيه نزل ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية.

قال سعيد بن المسيب: ثم لم ير منه بعد ذلك في الإسلام إلا خيراً رضي الله عنه وأرضاه [الدلائل للبيهقي: ٢٧٠/٥، ٢٧١ بإسنادين عن ابن المسيب ومجاهد، به].

قلت: ولعل هؤلاء الثلاثة لم يذكروا معه بقية أصحابه واقتصروا على أنه كان كالزعيم لهم كما دل عليه سياق ابن عباس والله أعلم.

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٨٣/٥، ٢٨٤] من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن عياض بن عياض عن أبيه عن أبي مسعود قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إن منكم منافقين فمن سمَّيت فليقم قم يا فلان، قم يافلان، قم يا فلان» حتى عد ستة وثلاثين، ثم قال: «إن فيكم ـ أو إن منكم ـ منافقين فسلوا الله العافية».

قال: فمر عمر برجل متقنع وقد كان بينه وبينه معرفة فقال: ما شأنك؟ فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم.

قلت: كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام:

مأمورون مأجورون: كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة، وابن أم مكتوم.

ومعذورون وهم الضعفاء والمرضى.

والمقلون وهم البكاؤون.

وعصاة مذنبون وهم الثلاثة: أبو لبابة وأصحابه المذكورون، وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون.

سنة ٩- ما كان من الحوادث بعد رجوعه ﷺ إلى المدينة ومنصرفه من تبوك

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٦٧/٥]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ إملاء أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو البختري عبد الله بن محمد بن شاكر حدثنا زكريا بن يحيى حدثنا عم أبي زحْر بن حصن عن جده حميد بن منهب قال: سمعت جدي خريم بن أوس بن حارثة بن لام يقول: هاجرت إلى رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك! فقال رسول الله ﷺ: «قل لا يفضض الله فاك» فقال

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق
تُنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خِنْدف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض فضاء بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي ال نور وسبل الرشاد نخترق

ثم رواه البيهقي [الدلائل: ٢٦٨/٥، ٢٦٩] من طريق أخرى عن أبي السُّكين زكريا بن يحيى الطائي وهو في جزء له مروي عنه.

قال البيهقي: وزاد: ثم قال رسول الله ﷺ: «هذه الحيرة البيضاء رفعت لي، وهذه الشيماء بنت بُقيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود» فقلت: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهي لي؟ قال: «هي لك» قال: ثم كانت الردة فما ارتد أحد من طيء وكنا نقاتل من يلينا من العرب على الإسلام فكنا نقاتل قيسا وفيها عيينة بن حصن، وكنا نقاتل بني أسد وفيهم طُليحة بن خويلد، وكان خالد بن الوليد يمدحنا، وكان فيما قال فينا:

جَزَى اللهُ عنَّا طَيِّئاً في ديارِهَا بِمُعْتَرَكِ الأبطالِ خيرَ جزاءِ
هُمُ أهلُ راياتِ السماحةِ والندى إذا ما الصبا ألْوَتْ بكُلِّ خِبَاءِ
هُمُ ضَرَبُوا قَيساً على الدِّينِ بَعْدَمَا أجَابُوا مُنَادِي ظُلْمَةٍ وعَمَاءِ

قال: ثم سار خالد إلى مسيلمة الكذاب فسرنا معه فلما فرغنا من مسيلمة أقبلنا إلى ناحية البصرة فلقينا هرمز بكاظمة في جيش هو أكبر من جمعنا، ولم يكن أحد من الناس أعدى للعرب والإسلام من هرمز، فخرج إليه خالد ودعاه إلى البراز فبرز له فقتله خالد وكتب بخبره إلى الصديق فنفله سلبه فبلغت قلنسوة هرمز مائة ألف درهم وكانت الفرس إذا شرف فيها الرجل جعلت قلنسوته بمائة ألف درهم.

قال: ثم أقبلنا على طريق الطف إلى الحيرة فأول من تلقانا حين دخلناها الشيماء بنت بُقَيْلَة كما قال رسول الله ﷺ «على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود»، فتعلقت بها وقلت: هذه وهبها لي رسول الله ﷺ، فدعاني خالد عليها بالبينة فأتيته بها، وكانت البينة محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاري فسلمها إلي، فنزل إلي أخوها عبد المسيح يريد الصلح فقال: بعنيها، فقلت: لا أنقصها والله عن عشرة مائة درهم فأعطاني ألف درهم وسلمتها إليه، فقيل: لو قلت: مائة ألف لدفعها إليك، فقلت: ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مائة.

سنة ٩- قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان

تقدم أن رسول الله ﷺ لما ارتحل عن ثقيف سئل أن يدعو عليهم فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله ﷺ حين أسلم مالك بن عوف النضري أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول في الإسلام، وتقدم أيضا فيما رواه أبو داود [٣٠٦٧] عن صخر بن العيلة الأحمسي أنه

لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصنهم على حكم رسول الله ﷺ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية بإذن رسول الله ﷺ له في ذلك.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٣٧/٢، ٥٣٨]: وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد من ثقيف، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ـ كما يتحدث قومه ـ: «إنهم قاتلوك» وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محببا مطاعا، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف على عِلِّيّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، فتزعم بنو مالك أنه قتله رجل منهم يقال له أوس بن عوف أخو بني سالم بن مالك، ويزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم من بني عتاب يقال له وهب بن جابر، فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم فدفنوه معهم فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه».

وهكذا ذكر موسى بن عقبة قصة عروة ولكن زعم أن ذلك كان بعد حجة أبي بكر الصديق، وتابعه أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٢٩٩/٥ ـ ٣٠٤ عن موسى بن عقبة] في ذلك.

وهذا بعيد، والصحيح أن ذلك قبل حجة أبي بكر كما ذكره ابن إسحاق والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٣٨/٢، ٥٣٩]: ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، فائتمروا فيما بينهم وذلك عن رأي عمرو بن أمية أخي بني علاج فائتمروا بينهم ثم أجمعوا على أن يرسلوا رجلا منهم فأرسلوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومعه اثنان من الأحلاف وثلاثة من بني مالك؛ وهم الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، وعثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف أخو بني سالم، ونمير بن خرشة بن ربيعة.

وقال موسى بن عقبة: كانوا بضعة عشر رجلا فيهم كنانة بن عبد ياليل ـ وهو رئيسهم ـ وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغر الوفد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٣٩/٢، ٥٤٠]: فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة؛ ألفوا المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رآهم ذهب يشتد ليبشر رسول الله بقدومهم فلقيه أبو بكر الصديق فأخبره عن ركب ثقيف أنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يَشْرُطَ لهم رسول الله شروطا ويكتتبوا كتابا في قومهم، فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا أحدثه، ففعل المغيرة فدخل أبو بكر فأخبر رسول الله ﷺ بقدومهم، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروَّح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، ولما قدموا على رسول الله ضربت عليهم قبة في المسجد وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله. فكان إذا جاءهم بطعام من عنده لم يأكلوا منه حتى يأكل خالد بن سعيد قبلهم، وهو الذي كتب لهم كتابهم.

قال: وكان مما اشترطوا على رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ـ وهي اللات ـ ثلاث سنين، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحدا بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى إلا أن يبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ليهدماها، وسألوه مع ذلك أن لا يصلوا وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم فقال: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه» فقالوا: سنؤتيكها وإن كانت دناءة.

وقد قال الإمام أحمد [٢١٨/٤]: حدثنا عفان حدثنا محمد بن مسلمة عن حميد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا على رسول الله ﷺ أن لا يحشروا ولا يُعْشَروا ولا يُجَبُّوا ولا يستعمل عليهم غيرهم، فقال رسول الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشروا ولا تُجَبُّوا ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير في دين لا ركوع فيه» وقال عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله علمني القرآن واجعلني إمام قومي.

وقد رواه أبو داود [٣٠٢٦] من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة عن حميد به.

وقال أبو داود [٣٠٢٥]: حدثنا الحسن بن الصباح حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثني إبراهيم بن عقيل بن معقل بن منبه، عن أبيه، عن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت قال: اشترطت على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وانه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: «سيتصدَّقون ويجاهدون إذا أسلموا».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٠/٥]: فلما أسلموا وكتب لهم كتابهم أمرَّ عليهم عثمان بن أبي العاص ـ وكان أحدثهم سنا ـ لأن الصديق قال: يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

وذكر موسى بن عقبة: أن وفدهم كانوا إذا أتوا رسول الله خلفوا عثمان بن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله ﷺ فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن، فإن وجده نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق، فلم يزل دأبه حتى فَقُهَ في الإسلام وأحبه رسول الله ﷺ حبّاً شديداً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤١/٥]: حدثني سعيد بن أبي هند عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عثمان بن أبي العاص. قال: كان من آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ حين بعثني إلى ثقيف أنْ قال: «يا عثمان تجوّز في الصلاة، واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة».

وقال الإمام أحمد [٢١/٤]: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجريري عن أبي العلاء عن مطرف عن عثمان بن أبي العاص قال: قلت: يا رسول الله اجعلني إمام قومي قال: «أنت إمامهم فاقتد بأضعفهم واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجراً».

رواه أبو داود [٥٣١] والنسائي [٦٧١] من حديث حماد بن سلمة به.

ورواه ابن ماجه [٩٨٧] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن إسماعيل بن علية عن محمد بن إسحاق كما تقدم.

وروى أحمد [٢١٨/٤] عن عفان عن وهيب وعن معاوية بن عمرو عن زائدة كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن داود بن أبي عاصم عن عثمان بن أبي العاص: أن آخر ما فارقه رسول الله حين استعمله على

الطائف أن قال: «إذا صليت بقوم فخفف بهم حتى وقّت لي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وأشباهها من القرآن.

وقال أحمد [٢٢/٤]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة سمعت سعيد بن المسيب قال: حدث عثمان بن أبي العاص. قال: آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال: «إذا أممتَ قوماً فخفف بهم الصلاة».

ورواه مسلم [(٤٦٨) (١٨٧)] عن محمد بن مثنى وبندار كلاهما عن محمد بن جعفر عن غندر، به.

وقال أحمد [٢١٨/٤]: حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي عن عبد الله بن الحكم: أنه سمع عثمان بن أبي العاص يقول: استعملني رسول الله ﷺ على الطائف، فكان آخر ما عهد إلي أن قال: «خفف عن الناس الصلاة» تفرد به من هذا الوجه.

وقال أحمد [٢١٦/٤]: حدثنا يحيى بن سعيد أخبرنا عمرو بن عثمان حدثني موسى - هو ابن طلحة - أن عثمان بن أبي العاص حدثه: أن رسول الله ﷺ أمره أن يؤم قومه ثم قال: «من أم قوما فليخفف بهم فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة، فإذا صلى وحده ليصل كيف شاء».

ورواه مسلم [(٤٦٨) (١٨٦)] من حديث عمرو بن عثمان به.

وقال أحمد [٢١/٤]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم سمعت أشياخا من ثقيف قالوا: حدثنا عثمان بن أبي العاص أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «وأمّ قومك وإذا أممت قوما فخفف بهم الصلاة فإنه يقوم فيها الصغير والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة».

وقال أحمد [٢١٦/٤]: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن الجريري عن أبي العلاء بن الشخير: أن عثمان قال: يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي، قال: «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أنت حسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني.

ورواه مسلم [٢٢٠٣] من حديث سعيد الجريري به.

وروى مالك [٩٤٢/٢] وأحمد [٢١/٤] ومسلم [٢٢٠٢] وأهل السنن [د (٣٨٩١)، ت (٢٠٨٠)، س: كبرى (١٠٨٣٧ - ١٠٨٤٠)، ج (٣٥٢٢)] من طرق عن نافع بن جبير بن مطعم عن عثمان بن أبي العاص: أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده في جسده فقال له: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

وفي بعض الروايات: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم.

وقال أبو عبد الله بن ماجه [٣٥٤٨]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثني عيينة بن عبد الرحمن - وهو ابن جوشن - حدثني أبي عن عثمان بن أبي العاص. قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ فقال: «ابن أبي العاص؟» قلت: نعم! يا رسول الله! قال: «ما جاء بك؟» قلت: يا رسول الله عرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي قال: «ذاك الشيطان ادْنُه» فدنوت منه فجلست على صدور قدميّ، قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال: «اخرج عدوّ الله» فعل ذلك ثلاث مرات ثم قال: «الحق بعملك». قال: فقال عثمان: فلعمري ما أحسبه خالطني بعد.

تفرد به ابن ماجه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤٠/٢]: وحدثني عيسى بن عبد الله عن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفي عن بعض وفدهم قال: كان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقي من شهر رمضان بفطورنا وسحورنا فيأتينا بالسحور فإنا لنقول: إنا لنرى الفجر قد طلع؟ فيقول: قد تركت رسول الله ﷺ يتسحر لتأخير السحور، ويأتينا بفطرنا وإنا لنقول: ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد، فيقول: ما جئتكم حتى أكل رسول الله ﷺ، ثم يضع يده في الجفنة فيلقم منه.

وروى الإمام أحمد [٩/٤، ٣٤٣] وأبو داود [١٣٩٣] وابن ماجه [١٣٤٥] من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش، ثم يقول: «لا أنسي وكنا مستضعفين مستذلّين بمكة، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا» فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة؟ فقال: «إنه طرأ علي حِزْبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه» قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تُحزّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع وإحدى عشرة، وثلاث عشرة. وحزب المفصل وحده.

لفظ أبو داود.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤١/٢]: فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين؛ بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك عليه أبو سفيان وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذي الهَرْم، فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمعول وقام قومه بني معتب دونه خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود قال: وخرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها ويقلن:

لنبكين دُفّاعْ أسلمها الرُّضّاعْ لم يحسنوا المِصَاعْ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤٢/٢]: ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهاً لكِ إهلاكك، فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ارسل إلى أبي سفيان فقال: إن رسول الله قد أمرنا أن نقضي عن عروة بن مسعود وأخيه الأسود بن مسعود والد قارب بن الأسود دَيْنَهُمَا من مال الطاغية فقضى ذلك عنهما.

قلت: كان الأسود قد مات مشركا ولكن أمر رسول الله بذلك تأليفا وإكراما لولده قارب بن الأسود رضي الله عنه.

وذكر موسى بن عقبة: أن وفد ثقيف كانوا بضعة عشر رجلا، فلما قدموا أنزلهم رسول الله المسجد ليسمعوا القرآن، فسألوه عن الربا والزنا والخمر فحرم عليهم ذلك كله فسألوه عن الرَّبّة ما هو صانع بها؟ قال: «اهدموها» قالوا: هيهات لو تعلم الرَّبّة أنك تريد أن تهدمها قتلتْ أهلها، فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل ما أجهلك، إنما الربة حجر. فقالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، ثم قالوا: يا رسول الله تول أنت هدمها

أما نحن فإنا لن نهدمها أبدا، فقال: «سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها» فكاتبوه على ذلك واستأذنوه أن يسبقوا رسله إليهم.

فلما جاؤوا قومهم تلقوهم فسألوهم: ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن وأنهم إنما جاؤوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف يحكم ما يريد وقد دوخ العرب، قد حرم الربا والزنا والخمر، وأمر بهدم الربة، فنفرت ثقيف وقالوا: لا نطيع لهذا أبدا، قال: فأهبُّوا للقتال وأعِدُّوا السلاح، فمكثوا على ذلك يومين - أو ثلاثة - ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا وقالوا: ارجعوا إليه فشارطوه على ذلك وصالحوه عليه قالوا: فإنا قد فعلنا ذلك ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه، فافهموا ما في القضية واقبلوا عافية الله، قالوا: فلم كتمتمونا هذا أولاً؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم ومكثوا أياما ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ وقد أمّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة، فعمدوا إلى اللات وقد استكفّت ثقيف رجالُها ونساؤها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكِرْزين - يعني المعول - وقال لأصحابه: والله لأضحكنّكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض برجله فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة، وقالوا لأولئك: من شاء منكم فليقترب، فقام المغيرة فقال: والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومَدَرٌ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض، وجعل سادنها يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها. فحفروه حتى أخرجوا ترابها وجمعوا ماءها وبناءها، وبهتت عند ذلك ثقيف، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فقسم أموالها من يومه وحمدوا الله تعالى على اعتزاز دينه ونصرة رسوله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥٤٢، ٥٤٣]: وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين؛ إن عِضَاه وَجّ وصيده لا يُعضد مَن وُجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، وإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيُبلَغُ به النبيَّ محمداً وإن هذا أمر النبي محمد».

وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله.

وقد قال الإمام أحمد [١/٦٥]: حدثنا عبد الله بن الحارث - من أهل مكة مخزومي - حدثني محمد بن عبد الله بن إنسان - وأثنى عليه خيراً - عن أبيه عن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من لِيَّةَ حتى إذا كنا عند السدرة وقف رسول الله ﷺ في طرف القرن حذوها فاستقبل نَخِباً ببصره - يعني واديا - ووقف حتى اتفق الناس كلهم ثم قال: «إنّ صيدَ وَجٍّ وعِضَاهَهُ حَرَم محرَّم لله» وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفا.

وقد رواه أبو داود [٢٠٣٢] من حديث محمد بن عبد الله بن إنسان الطائفي وقد ذكره ابن حبان في ثقاته [الثقات: ٩/٣٣]. وقال ابن معين [أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»: ٧/٢٩٤ عنه]: ليس به بأس. تكلم فيه بعضهم وقد ضعف أحمد والبخاري [التاريخ الكبير: ١/١٤٠] وغيرهما هذا الحديث، وصححه الشافعي [التاريخ الكبير: ١/١٤٠] وقال بمقتضاه والله أعلم.

سنة ٩- ذكر موت عبد الله بن أبيّ، قبحه الله

قال محمد بن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٥/٢٨٥، من طريق ابن إسحاق، به]: حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد. قال: دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي يعوده في مرضه الذي مات فيه، فلما أن عرف فيه الموت قال رسول الله ﷺ: «أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود» فقال: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فمه؟.

وقال الواقدي [المغازي: ٣/١٠٥٧]: مرض عبد الله بن أبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فقال: «قد نهيتك عن حب يهود» فقال: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه؟ ثم قال: يا رسول الله ليس هذا بحين عتاب هو الموت فإنْ مُتُّ، فاحضر غسلي وأعطني قميصك الذي يلي جلدك فكفّني فيه وصلِّ عليّ واستغفر لي. ففعل ذلك به رسول الله ﷺ.

وروى البيهقي [الدلائل: ٥/٢٨٨] من حديث سالم بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحواً مما ذكره الواقدي فالله أعلم.

وقد قال إسحاق بن راهويه: قلت لأبي أسامة: أحدثكم عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ وسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ يصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «إن ربي خيرني فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيد على السبعين» فقال: إنه منافق أتصلي عليه؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] فأقر به أبو أسامة وقال: نعم!.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٤٦٧٠)، م (٢٧٧٤)] من حديث أبي أسامة.

وفي رواية للبخاري وغيره [خ (٤٦٧١)، احمد: ١/١٦، ت (٣٠٩٧)، س (١٩٥٦)] قال عمر: فقلت: يا رسول الله تصلي عليه وقد قال في يوم كذا وكذا، وقال في يوم كذا كذا وكذا!! فقال: «دعني يا عمر فإني بين خيّرتين، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت» ثم صلى عليه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية. قال عمر: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ. والله ورسوله أعلم.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: أتى رسول الله ﷺ قبر عبد الله بن أبي بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه - أو فخذيه - ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه فالله أعلم.

وفي صحيح البخاري [١٣٥٠، ٣٠٠٨] بهذا الإسناد مثله وعنده: أنه إنما ألبسه قميصه مكافأة لما كان كسى العباس قميصا حين قدم المدينة فلم

يجدوا قميصا يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبي.

وقد ذكر البيهقي [الدلائل: ٢٨٩/٥ - ٢٩٢] ها هنا قصة ثعلبة بن حاطب وكيف افتتن بكثرة المال ومنعه الصدقة، وقد حررنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ الآية [التوبة: ٧٥].

سنة ٩- أيام الأنصار

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٥٤/٢]: وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يعدد أيام الأنصار مع رسول الله ﷺ ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه.

قال ابن هشام: وتروى لابنه عبد الرحمن بن حسان:

ألستُ خيرَ مَعَدٍّ كلها نفرا ... ومعشرا إن هُمُ عموا وإن حصلوا
قوم هُمُ شهدوا بدرا بأجمعهم ... مع الرسول فما آلوا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد ... منهم ولم يك في إيمانه دخل
ويوم صبحهم في الشعب من أُحد ... ضرب رصين كحر النار مشتعل
ويوم ذي قرد يوم استثار بهم ... على الجياد فما خاموا وما نكلوا
وذا العُشَيرة جاسوها بخيلهم ... مع الرسول عليها البيض والأسل
ويوم وَدَّان أجلوا أهله رقصا ... بالخيل حتى نهانا الحزن والجبل
وليلةً طلبوا فيها عدوهم ... للّه واللّه يجزيهم بما عملوا
وليلة بحنين جالدوا معه ... فيها يَعُلُّهم في الحرب إذ نهلوا
وغزوة يوم نجد ثم كان لهم ... مع الرسول بها الأسلاب والنفل
وغزوة القاع فرقنا العدو به ... كما تفرق دون المَشْرب الرِّسَلُ
ويوم بويع كانوا أهل بيعته ... على الجلاد فآسوه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا في سريته ... مرابطين فما طاشوا وما عجلوا
ويوم خيبر كانوا في كتيبته ... يمشون كلهم مستبسل بطل
بالبيض ترعش في الأيمان عارية ... تَعْوَجُّ في الضَّرْب أحيانا وتعتدل
ويوم سار رسول اللّه محتسبا ... إلى تبوك وهم راياته الأول
وساسة الحرب إن حرب بدت لهم ... حتى بدا لهم الإقبال فالقفل
أولئك القوم أنصار النبي وهم ... قومي أصير إليهم حين أتصل
ماتوا كراما ولم تنكث عهودهم ... وقتلهم في سبيل اللّه إذ قتلوا

سنة ٩- بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ونزول سورة براءة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤٣/٢]: بعد ذكره وفود أهل الطائف إلى رسول الله ﷺ في رمضان كما تقدم بيانه مبسوطا.

قال: أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، وأهل الشرك على منازلهم من حجهم لم يُصَدُّوا بعد عن البيت ومنهم من له عهد مؤقت إلى أمد.

فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه بمن معه من المسلمين وفصل عن المدينة أنزل الله عز وجل هذه الآيات من أول سورة التوبة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ إلى قوله ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١ - ٣] إلى آخر القصة.

ثم شرع ابن إسحاق يتكلم على هذه الآيات وقد بسطنا الكلام عليها في التفسير [٤٤/٤ - ٦٥] ولله الحمد والمنة.

والمقصود أن رسول الله ﷺ بعث عليا رضي الله عنه بعد أبي بكر الصديق ليكون معه ويتولى عليٌّ بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عن رسول الله ﷺ لكونه ابن عمه من عصبته.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٤٥/٢]: حدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا علي بن أبي طالب فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر «براءة» وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: ألا إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته».

فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر الصديق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ وأجَّل الناسَ أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحدٍ كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ.

وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقد قال البخاري [٤٣٦٣]: باب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس سنة تسع: حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمَّره عليها النبي ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن في البيت عريان.

وقال البخاري في موضع آخر [٤٦٥٦]: حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب أخبرني حميد بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر الصديق في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان.

قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي فأمره أن يؤذن بـ «براءة». قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر بـ «براءة». أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان.

وقال البخاري في كتاب الجهاد [٣١٧٧]: حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر الصديق فيمن يؤذن يوم النحر بمنى؛ لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف

بالبيت عريان. ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: الأكبر من أجل قول الناس: الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك.

ورواه مسلم [١٣٤٧] من طريق الزهري به نحوه.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٩٩]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرَّر بن أبي هريرة عن أبيه. قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ فقال: ما كنتم تنادون؟ قالوا: كنا نادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف في البيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسولُه، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي.

وهذا إسناد جيد لكن فيه نكارة من جهة قول الراوي: إن من كان له عهد فأجله إلى أربعة أشهر.

وقد ذهب إلى هذا ذاهبون ولكن الصحيح ان من كان له عهد فأجله إلى أمده بالغا ما بلغ ولو زاد على أربعة أشهر ومن ليس له أمد بالكلية فله تأجيل أربعة أشهر، بقي قسم ثالث وهو من له أمد يتناهى إلى أقلَّ من أربعة أشهر من يوم التأجيل وهذا يحتمل أن يلتحق بالأول، فيكون أجله إلى مدته وإن قل، ويحتمل أن يقال: إنه يؤجل إلى أربعة أشهر؛ لأنه أولى ممن ليس له عهد بالكلية والله تعالى أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣/٢١٢]: حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة». مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلِّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب.

وقد رواه الترمذي [٣٠٩٠] من حديث حماد بن سلمة وقال: حسن غريب من حديث أنس.

وقد روى عبد الله بن أحمد [المسند: ١/١٥١ مطوّلاً] عن لُوين عن محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي أن رسول الله ﷺ لما أردف أبا بكر بعلي فأخذ منه الكتاب بالجحفة رجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: «لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك».

وهذا ضعيف الإسناد ومتنه فيه نكارة والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١/٧٩]: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن زيد بن يُثَيع - رجل من همدان - قال: سألنا عليا: بأي شيء بعثت؟ - يوم بعثه رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الحجة - قال: بأربع؛ لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا.

وهكذا رواه الترمذي [٨٧١، ٨٧٢، ٣٠٩٢] من حديث سفيان - هو ابن عيينة - عن أبي إسحاق السبيعي عن زيد بن يثيع عن علي به وقال: حسن صحيح.

ثم قال: وقد رواه شعبة عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن أثيل، ورواه الثوري عن أبي إسحاق عن بعض أصحابه عن علي.

قلت: ورواه ابن جرير [تفسيره: ١٠/٦٤] من حديث معمر عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي.

وقال ابن جرير [تفسيره: ١٠/٦٧] حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد أخبرنا حيوة بن شريح أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلي فقال: قم يا علي فادّ رسالة رسول الله ﷺ فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا حتى أتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضورا كلهم خطبة أبي بكر رضي الله عنه يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم.

قال علي: فمن ثم إخال حسبتم أنه يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة.

وقد تقصينا الكلام على هذا المقام في التفسير [٤/٤٤ - ٦٥] وذكرنا أسانيد الأحاديث والآثار في ذلك مبسوطا بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

قال الواقدي [تاريخ الطبري: ٣/١٢٢، عن الواقدي مطولاً]: وقد كان خرج مع أبي بكر من المدينة ثلاثمائة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف، وخرج أبو بكر معه بخمس بدنات، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة ثم أردفه بعلي فلحقه بالعرج فنادى بـ «براءة» أمام الموسم.

سنة ٩- أحداث في السنة التاسعة

كان في هذه السنة - أعني في سنة تسع - من الأمور الحادثة غزوة تبوك في رجب كما تقدم بيانه.

قال الواقدي [تاريخ الطبري: ٣/١٢٢، ١٢٤، عن الواقدي]: وفي رجب منها مات النجاشي صاحب الحبشة ونعاه رسول الله ﷺ إلى الناس.

وفي شعبان منها - أي من هذه السنة - توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب، وقيل غسلها نسوة من الأنصار فيهن أم عطية.

قلت: وهذا ثابت في الصحيحين [خ (١٢٥٣)، م (٩٣٩)].

وثبت في الحديث [خ (١٣٤٢، ١٨٢٥)] أيضا أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى عليها وأراد دفنها قال: «لا يدخله أحد قارف الليلة أهله» فامتنع زوجها عثمان لذلك ودفنها أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

ويحتمل أنه أراد بهذا الكلام من كان يتولى ذلك ممن يتبرع بالحفر والدفن من الصحابة كأبي عبيدة وأبي طلحة ومن شابههم فقال: «لا يدخل قبرها إلا من لم يقارف أهله من هؤلاء» إذ يبعد أن عثمان كان عنده غير أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، هذا بعيد؛ والله أعلم.

وفيها صالح ملك أيلة وأهل جرباء وأذرح وصاحب دومة الجندل كما تقدم إيضاح ذلك كله في مواضعه.

وفيها هدم مسجد الضرار الذي بناه جماعة المنافقين صورة مسجد وهو دار حرب في الباطن فأمر به عليه الصلاة والسلام فحُرِق.

وفي رمضان منها قدم وفد ثقيف فصالحوا عن قومهم ورجعوا إليهم بالأمان وكسرت اللات كما تقدم.

وفيها توفي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لعنه الله في أواخرها، وقبله بأشهر توفي معاوية بن معاوية الليثي - أو المزني - وهو الذي صلى عليه رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك إن صح الخبر في ذلك.

وفيها حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس عن إذن رسول الله ﷺ له

في ذلك.

وفيها كان قدوم عامة وفود أحياء العرب ولذلك تسمّى سنة تسع سنة الوفود، وها نحن نعقد لذلك كتابا برأسه اقتداء بالبخاري وغيره.

سنة ٩- كتاب الوفود الواردين إلى رسول الله ﷺ

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٥٩/٢، ٥٦٠]: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربّص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس، وهاديتهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله - كما قال عز وجل - أفواجاً يضربون إليه من من كل وجه يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ أي فاحمد الله على ما ظهر من دينك واستغفره إنه كان تواباً.

وقد قدمنا حديث عمرو بن سلمةَ [خ (٤٣٠٢)] قال: كانت العرب تلوّم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدَرَ - أي قومي - بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي حقا، قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً»، وذكر تمام الحديث وهو في صحيح البخاري [٤٣٠٢].

قلت: وقد ذكر محمد بن إسحاق ثم الواقدي والبخاري ثم البيهقي بعدهم من الوفود ماهو متقدم تاريخ قومهم على سنة تسع بل وعلى فتح مكة. وقد قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وتقدم قوله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية» [خ (٤٣٠٩)، م (٣٨٩٩) من حديث ابن عمر]؛ فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يعد وفوده هجرة، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعَدَه الله خيراً وحسنى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة والله أعلم.

على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود قد تركوا فيما أوردوه أشياء لم يذكروها ونحن نورد بحمد الله ومنّه ما ذكروه وننبه على ما ينبغي التنبيه عليه من ذلك ونذكر ما وقع لنا مما أهملوه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

سنة ٩- وفد مزينة

وقد قال محمد بن عمر الواقدي: حدثنا كثير من عبد الله المزني عن أبيه عن جده. قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة وذاك في رجب سنة خمس فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم.

ثم ذكر الواقدي عن هشام بن الكلبي بإسناده: أن أول من قدم من مزينة خزاعي بن عبد نهم ومعه عشرة من قومه فبايع رسول الله ﷺ على إسلام قومه، فلما رجع إليهم لم يجدهم كما ظن فيهم فتأخروا عنه. فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يعرض بخزاعي من غير أن يهجوه، فذكر أبياتا فلما بلغت خزاعيا شكى ذلك إلى قومه فَحَمُوا له وأسلموا معه وقدم بهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان يوم الفتح دفع رسول الله ﷺ لواء مزينة - وكانوا يومئذ ألفا - إلى خزاعي هذا، قال: وهو أخو عبد الله ذو البجادين [طبقات ابن سعد: ٢٩١/١ من طريق الواقدي، به].

قال البخاري رحمه الله [٤٣٦٥]: باب وفد بني تميم:

حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي صخرة عن صفوان بن محرز المازني عن عمران بن حصين. قال: أتى نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله قد بشرتنا فأعطنا، فرئي ذلك في وجهه ثم جاء نفر من اليمن فقال: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قبلنا يا رسول الله.

ثم قال البخاري [٤٣٦٧]: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبره عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبرهم: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت.

ورواه البخاري أيضاً من غير وجه عن ابن أبي مليكة بألفاظ أُخَر [٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢]، وقد ذكرنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية [الحجرات: ٢].

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٠/٢ - ٥٦٣]: ولما قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب قدم عليه عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي في أشراف بني تميم؛ منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر التميمي - أحد بني سعد - وعمرو بن الأهتم، والحبحاب بن يزيد، ونعيم بن يزيد وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم أخو بني سعد في وفد عظيم من بني تميم.

قال ابن إسحاق: ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل» فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق

وأكثره عدداً وأيسره عدة. فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنّا نستحي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن الخزرج: «قم فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت فقال: الحمد للّه الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خَلْقِه رسولاً أكرمه نسباً وأصدقه حديثا وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه فكان خيرة اللّه من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول اللّه المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس احسابا، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعالاً. ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب للّه حين دعاه رسول اللّه ﷺ نحن، فنحن أنصار اللّه ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن باللّه ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في اللّه أبداً وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم. فقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هوِيّاً ثم نصطنع
فتنحر الكوم عبطا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فما ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استفادوا وكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٣/٢ ـ ٥٦٥]: وكان حسان بن ثابت غائبا فبعث إليه رسول اللّه ﷺ.

قال حسان: فجاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، قال: فخرجت وأنا أقول:

منعنا رسول اللّه أن حل وسطنا ... على أنف راض من مَعَدٍّ وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
ببيت حريد عزه وثراؤه ... بجابيه الجولان وسط الأعاجم
هل المجد إلا السؤدد والعَوْدُ والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

قال: فلما انتهيت إلى رسول اللّه ﷺ وقام شاعر القوم فقال ما قال عرضت في قوله وقلت على نحو ما قال، فلما فرغ الزبرقان قال رسول اللّه ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال» فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
أعفّةٌ ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحي لم ندبَّ لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هُلُع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية في أرساغها فدع
خذ منهم ما أتوا عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همُّك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم ... شرا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول اللّه شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد في الناس جد القول أو شَمّعوا

وقال ابن هشام [السيرة: ٥٦٥/٢، ٥٦٦]: وأخبرني بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان لما قدم على رسول اللّه ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنّا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنّا نذود المعلمين إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع في كل غارة ... تغير بنجد أو بأرض الأعاجم

قال: فقام حسان فأجابه فقال:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمدا ... على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل بين ديارنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفسا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا للّه ندا وأسلموا ... ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٧/٢]: فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لمؤتّى له لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلا من أصواتنا.

قال: فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول اللّه ﷺ فأحسن جوائزهم، وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في رحالهم وكان أصغرهم منا، فقال قيس بن عاصم ـ وكان يبغض عمرو بن الأهتم ـ: يا رسول اللّه إنه كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث وأزرى به، فأعطاه

رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم.

قال عمرو بن الأهتم حين بلغه أن قيسا قال ذلك يهجوه:

ظَلِلْتَ مفترش الهلباء تشتمني ... عند الرسول فلم تصدق ولم تصب

سدناكم سؤدداً رهواً وسؤددكم ... بادٍ نواجذه مقع على الذنب

وقد روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣١٦/٥] من طريق يعقوب بن سفيان حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن محمد بن الزبير الحنظلي. قال: قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم. فقال لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزبرقان، فأما هذا فلست أسألك عنه» وأراه كان قد عرف قيساً، قال: فقال: مطاع في أذنَيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبرقان: قد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل مما قال، قال: فقال عمرو: والله ما علمتك إلا زَمِرَ المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، ثم قال: يارسول الله قد صدقتُ فيهما جميعا، أرضاني فقلت بأحسن ما أعلم فيه وأسخطني فقلت بأسوء ما أعلم فيه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحراً».

وهذا مرسل من هذا الوجه.

قال البيهقي [الدلائل: ٣١٦/٥، ٣١٧]: وقد روي من وجه آخر موصولا: أنبأنا أبو جعفر كامل بن أحمد المستملي حدثنا محمد بن محمد بن أحمد بن عثمان البغدادي حدثنا محمد بن عبدالله بن الحسين العلاف ببغداد حدثنا علي بن حرب الطائي أنبأنا أبو سعد الهيثم بن محفوظ عن أبي المقوم يحيى بن يزيد الأنصاري عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان فقال:

يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم ذلك - يعني عمرو بن الأهتم - فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أذنَيهِ. فقال الزبرقان: والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيع في العشيرة، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخراً ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعا. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحرا».

وهذا إسناد غريب جداً

وقد ذكر الواقدي سبب قدومهم وهو أنه كانوا قد جهزوا السلاح على خزاعة فبعث إليهم رسول الله ﷺ عيينة بن بدر في خمسين ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فقدم رؤساؤهم بسبب أسرائهم ويقال: قدم منهم تسعين - أو ثمانين - رجلا في ذلك منهم عطارد والزبرقان وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد والأقرع بن حابس ورياح بن الحارث وعمرو بن الأهتم، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله ﷺ ليخرج إليهم فعجل هؤلاء فنادوه من وراء الحجرات فنزل فيهم ما نزل.

ثم ذكر الواقدي خطيبهم وشاعرهم وأنه عليه الصلاة والسلام أجازهم على كل رجل اثنتي عشرة أوقية ونشّاً إلا عمرو بن الأهتم فإنما أعطي خمس أواق لحداثة سنه والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٧/٥]: ونزل فيهم من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ٤ - ٥].

قال ابن جرير [تفسيره: ١٢١/٢٦]: حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزي حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن أبي إسحاق عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن حمدي زين، وذمي شين. فقال: «ذاك الله عز وجل».

وهذا إسناد جيد متصل.

وقد روي عن الحسن البصري وقتادة مرسلا عنهما [تفسير الطبري: ١٢٢/٢٦].

وقد وقع تسمية هذا الرجل فقال الإمام أحمد [٣٩٣/٦، ٣٩٤]: حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله فلم يجبه. فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وأن ذمي لشين. فقال: «ذاك الله عز وجل».

سنة ٩- حديث في فضل بني تميم

قال البخاري [٤٣٦٦]: حدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة. قال: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «هم أشد أمتي على الدجال» وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال: «أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل» وجاءت صدقاتهم فقال: «هذه صدقات قوم - أو قومي -».

وهكذا رواه مسلم [٢٥٢٥] عن زهير بن حرب به.

وهذا الحديث يرد على ما ذكره صاحب «الحماسة» وغيره من شعر من ذمهم حيث يقول:

تَميم بطُرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت طرق الرشاد لضلت

ولو أن برغوثاً على ظهر قملةٍ ... رأته تَميمٌ مِنْ بَعيدٍ لولت

سنة ٩- وفد بني عبد القيس

ثم قال البخاري [٤٣٦٨] بعد وفد بني تميم: باب وفد عبد القيس.

حدثنا إسحاق حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا قرة عن أبي جَمرة قال: قلت لابن عباس: إن لي جرة ينتبذ لي فيها نبيذ فأشربه حلواً في جَرٍّ، إن أكثرت منه فجالست القوم فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح؟ فقال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال: «مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى» فقال: يا رسول الله إنا بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام فحدثنا بجُمَل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعو به من وراءنا. قال: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع؛ الإيمان بالله هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخمس وأنهاكم عن

أربع: ما ينتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت».

وهكذا رواه مسلم [(١٧) (٢٥)] من حديث قرة بن خالد عن أبي جَمرة، به.

وله طرق في الصحيحين [خ (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨،.....)، م (٢٣) و(١٧) (٢٤) و(١٧) (٣٩)] عن أبي جَمرة.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٧٤٧]، حدثنا شعبة عن أبي جَمرة سمعت ابن عباس يقول: إن وفد عبد القيس لما قدم على رسول الله ﷺ قال: «ممن القوم؟» قالوا: من ربيعة. قال: «مرحبا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى» فقالوا: يا رسول الله، إنا حي من ربيعة، وإنا نأتيك من شقة بعيدة، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل ندعوا إليه من وراءنا وندخل به الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس، وأنهاكم عن أربع: عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت - وربما قال والمقير - فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم».

وقد أخرجاه صاحبا الصحيحين [خ (٥٣)، م (١٧)] من حديث شعبة بنحوه.

وقد رواه مسلم [١٨] من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد بحديث قصتهم بمثل هذا السياق، وعنده أن رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل: الحلم والأناة».

وفي رواية: «يحبهما الله ورسوله» [خ في «الأدب المفرد» (٥٨٧) بنحوها] فقال: يا رسول الله أخلقان تخلقتهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «بل جبلك الله عليهما» فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا مطر بن عبد الرحمن سمعت هند بنت الوازع تقول: إنها سمعت الوازع يقول: أتيت رسول الله ﷺ والأشج المنذر بن عامر - أو عامر بن المنذر - ومعهم رجل مصاب فانتهوا إلى رسول الله ﷺ فلما رأوا رسول الله ﷺ وثبوا من رواحلهم فأتوا رسول الله ﷺ فقبلوا يده، ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته ففتحها فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم أتى رواحلهم فعقلها فأتى رسول الله ﷺ فقال: «يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله عز وجل ورسوله؛ الحلم والأناة» فقال: يارسول الله أنا تخلقتهما أو جبلني الله عليهما؟ فقال: «بل الله جبلك عليهما». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله عز وجل ورسوله. فقال الوازع: يا رسول الله إن معي خالا لي مصابا فادع الله له فقال: «أين هو ائتني به» قال فصنعت مثل ما صنع الأشج ألبسته ثوبيه وأتيته فأخذ من ورائه يرفعها حتى رأينا بياض إبطه، ثم ضرب بظهره فقال: «اخرج عدو الله» فولى وجهه وهو ينظر بنظر رجل صحيح.

وروى الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ٥/٣٢٦، ٣٢٧] من طريق هود بن عبد الله بن سعد أنه سمع جده مزيدة العَصَري. قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال لهم: «سيطلع من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق» فقام عمر فتوجه نحوهم فتلقى ثلاثة عشر راكبا، فقال: من القوم؟ فقالوا: من بني عبد القيس، قال: فما أقدمكم هذه البلاد؟ التجارةُ؟ قالوا: لا قال: أما إن النبي ﷺ قد ذكركم آنفا فقال خيراً، ثم مشوا معه حتى أتوا النبي ﷺ فقال عمر للقوم: وهذا صاحبكم الذي تريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم فمنهم من مشى ومنهم من هرول ومنهم من سعى حتى أتوا رسول الله ﷺ فأخذوا بيده فقبلوها، وتخلف الأشج في الركاب حتى أناخها وجمع متاع القوم ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها، فقال النبي ﷺ: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله». قال: جَبْلٌ جُبلت أم تخلُّقٌ مني؟ قال: «بل جبل» فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥٧٥]: وقدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس.

قال ابن هشام: وهو الجارود بن بشر بن المعلى في وفد عبد القيس وكان نصرانياً.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن الحسن قال: لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه فقال: يا محمد إني كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه» قال: فأسلم وأسلم أصحابه، ثم سأل رسول الله ﷺ الحملان فقال: «والله ما عندي ماأحملكم عليه». قال: يا رسول الله إن بيننا وبين بلادنا ضوالاً من ضوال الناس أفتبلغ عليها إلى بلادنا، قال: «لا إياك وإياها فإنما تلك حرق النار».

قال: فخرج الجارود راجعاً إلى قومه وكان حسن الإسلام صلباً على دينه حتى هلك، وقد أدرك الردة فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول مع الغَرُور بن المنذر بن النعمان بن المنذر قام الجارود فتشهد شهادة الحق ودعا إلى الإسلام فقال: أيها الناس إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأكفر من لم يشهد. وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدي فأسلم فحسن إسلامه ثم هلك بعد رسول الله ﷺ قبل ردة أهل البحرين، والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين.

ولهذا روى البخاري [٨٩٢، ٤٣٧١] من حديث إبراهيم بن طهمان عن أبي جمرة عن ابن عباس. قال: أول جمعة جمعت - بعد جُمعة جُمعَت في مسجد رسول الله ﷺ - في مسجد عبد القيس بجُوَاثَى من البحرين.

وروى البخاري [٤٣٧٠] عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ أخر الركعتين بعد الظهر بسبب وفد عبد القيس حتى صلاهما بعد العصر في بيتها.

قلت: لكن في سياق ابن عباس ما يدل على أن قدوم وفد عبد القيس كان قبل فتح مكة لقولهم: وبيننا وبينك هذا الحي من مضر لا نصل إليك إلا في شهر حرام والله أعلم.

سنة ٩- قصة ثمامة ووفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب لعنه الله

قال البخاري [٤٣٧٢]: باب وفد بني حنيفة وقصة ثمامة بن أثال: حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث بن سعد حدثني سعيد بن أبي

سعيد أنه سمع أبا هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى بعد الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا! ولكن أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

وقد رواه البخاري [٤٦٩، ٢٤٢٢] في موضع آخر ومسلم [(١٧٦٤) (٥٩)] وأبو داود [٢٦٧٩] والنسائي [١٨٩، ٧١١] كلهم عن قتيبة عن الليث به.

وفي ذكر البخاري هذه القصة في الوفود نظر وذلك أن ثمامة لم يفد بنفسه وإنما أسر وقدم به في الوثاق فربط بسارية من سواري المسجد ثم في ذكره مع الوفود سنة تسع نظر آخر، وذلك أن الظاهر من سياق قصته أنها قبيل الفتح لأن أهل مكة عيروه بالإسلام وقالوا: أصبوت! فتوعدهم بأنه لايفد إليهم من اليمامة حبة حنطة ميرة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فدل على أن مكة كانت إذ ذاك دار حرب لم يسلم أهلها بعد والله أعلم.

ولهذا ذكر الحافظ البيهقي [الدلائل: ٧٨/٤ - ٨١] قصة ثمامة بن أثال قبل فتح مكة وهو أشبه ولكن ذكرناه هاهنا اتباعا للبخاري رحمه الله.

وقال البخاري [٤٣٧٣، ٤٣٧٤]: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن عبد الله بن أبي حسين حدثنا نافع بن جبير عن ابن عباس. قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وأني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت يجيبك عني» ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ إنك أرى الذي أُريتُ فيه ما أُريتُ»، فأخبرني أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رايت في يدي سوارين من ذهب فاهمني شأنهما، فأوحي إليّ في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدي أحدهما الأسود العنسي والآخر مسيلمة».

ثم قال البخاري [٤٣٧٥]: حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا عبد الرزاق أخبرني معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم أتيت بخزائن الأرض فوضع في كفي سواران من ذهب فكبرا علي فأوحي إلي أن انفخهما، فنفختهما فذهبا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما؛ صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة».

ثم قال البخاري [٤٣٧٨، ٤٣٧٩]: حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن صالح عن ابن عبيدة بن نشيط - وكان في موضع آخر أسمه عبد الله - أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. قال: بلغنا أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة فنزل في دار بنت الحارث وكان تحته بنت الحارث بن كريز وهي أم عبد الله بن الحارث بن كريز فأتاه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وهو الذي يقال له خطيب رسول الله ﷺ، وفي يد رسول الله ﷺ قضيب فوقف عليه فكلمه فقال له مسيلمة إن شئتَ خليتُ بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك. فقال رسول الله ﷺ: «لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما أُريتُ، وهذا ثابت بن قيس بن شماس وسيجيبك عني» فانصرف رسول الله ﷺ.

قال عُبيد اللهِ: سألت ابن عباس عن رؤيا رسول الله ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت أنه وضع في يدي سواران من ذهب ففظعتهما وكرهتهما فأذن لي فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان» فقال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن والآخر مسيلمة الكذاب.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٦/٢]: قدم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب.

وقال ابن هشام: هو مسيلمة بن ثمامة ويكنى: أبا سمامة.

وقال أبو القاسم السهيلي [الروض الأنف: ٤٤٢/٧ - ٤٤٤]: هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هِفّان بن ذهل بن الدُول بن حنيفة ويكنى أبا ثمامة وقيل: أبا هارون وكان قد تسمى بالرحمان فكان يقال له: رحمان اليمامة. وكان عمره يوم قتل مائة وخمسين سنة، وكان يعرف أبوابا من النيرجات فكان يدخل البيضة إلى القارورة وهو أول من فعل ذلك، وكان يقص جناح الطير ثم يصله ويدعي أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنَها.

قلت: وسنذكر أشياء من خبره عند ذكر مقتله لعنه الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٦/٢]: وكان منزلهم في دار بنت الحارث امرأة من الأنصار ثم من بني النجار.

قال السهيلي: هي زينب وقيل: كبشة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس كان مسيلمة تزوجها قديما ثم فارقها فلهذا نزلوا في دارها.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض علمائنا من أهل المدينة أن بني حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثياب ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه معه عسيب من سَعَف النخل في رأسه خوصات، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله فقال له رسول الله ﷺ: «لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٦/٢، ٥٧٧]: وحدثني شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا. وزعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلّفنا صاحبا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا، قال: فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «أما إنه ليس بشركم مكانا» أي لحفظه ضيعة أصحابه ذلك الذي يريد رسول الله ﷺ.

قال: ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ﷺ، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم وقال: إني

قد أشركت في الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: «أما إنه ليس بشركم مكاناً»؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه ثم جعل يسجع لهم السجعات ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا.

وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع هذا يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي. فاصفقت معه بنو حنيفة على ذلك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٧/٢]: فالله أعلم أي ذلك كان.

وذكر السهيلي [الروض الأنف: ٤٤٢/٧] وغيره: أن الرَّجال بن عنفوة - واسمه نهار بن عنفوة - وكان قد أسلم وتعلم شيئاً من القرآن وصحب رسول الله ﷺ مدة، وقد مر عليه رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبي هريرة وفرات بن حيان فقال لهم: «أحدكم ضرسه في النار مثل أحد» فلم يزالا خائفين حتى ارتد الرحال مع مسيلمة وشهد له زوراً أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه، وألقى إليه شيئاً مما كان يحفظه من القرآن فادعاه مسيلمة لنفسه فحصل بذلك فتنة عظيمة لبني حنيفة وقد قتله زيد بن الخطاب يوم اليمامة كما سيأتي.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٤٤/٧، ٤٤٥]: وكان مؤذن مسيلمة يقال له حجير، وكان مدبر الحرب بين يديه محكم بن الطفيل، وأضيف إليهم سجاح وكانت تكنى أم صادر تزوجها مسيلمة وله معها أخبار فاحشة، واسم مؤذنها زهير بن عمرو وقيل: جنبة بن طارق، ويقال: إن شبث بن ربعي أذن لها أيضا ثم أسلم وقد أسلمت هي أيضا أيام عمر بن الخطاب فحسن إسلامها.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: وقد كان مسيلمة بن حبيب كتب إلى رسول الله ﷺ:

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله؛ سلام عليك أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوم يعتدون. فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب فكتب إليه رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال: وكان ذلك في آخر سنة عشر - يعني ورود هذا الكتاب - [الدلائل للبيهقي: ٣٣١/٥ - ٣٣٢، من طريق يونس بن بكير، به مطولاً].

قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: فحدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه يقول لهما: «وأنتما تقولان مثل ما يقول؟» قالا: نعم! فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٢٥١)]: حدثنا المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود. قال: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولين لمسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ. فقال لهما: «أتشهدان أني رسول الله؟» فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «آمنت بالله ورسله، ولو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكما» قال عبد الله بن مسعود: فمضت السنة بأن الرسل لا تقتل. قال عبد الله: فأما ابن أثال فقد كفاه الله، وأما ابن النواحة فلم يزل في نفسي منه حتى أمكن الله منه.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٣٢/٥، ٣٣٣]: أما أسامة بن أثال فإنه أسلم وقد مضى الحديث في إسلامه. وأما ابن النواحة فأخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق المزكي أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا جعفر بن عوف أنبأنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم. قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني مررت ببعض مساجد بني حنيفة وهم يقرؤون قراءة ما أنزلها الله على محمد ﷺ: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً.

قال: فارسل إليهم عبد الله فأتي بهم وهم سبعون رجلا ورأسهم عبد الله بن النواحة، قال: فأمر به عبد الله فقتل ثم قال: ما كنا بمحرزين الشيطان من هؤلاء ولكنا نحوزهم إلى الشام لعل الله أن يكفيناهم.

وقال الواقدي: كان وفد بني حنيفة بضعة عشر رجلا عليهم سلمى بن حنظلة وفيهم الرجال بن عنفوة وطلق بن علي وعلي بن سنان ومسيلمة بن حبيب الكذاب، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث وأجريت عليهم الضيافة فكانوا يؤتون بغداء وعشاء مرة خبزاً ولحماً، ومرة خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً، ومرة خبزاً وسمناً، ومرة تمراً يُنثر لهم.

فلما قدموا المسجد أسلموا وقد خلفوا مسيلمة في رحالهم، ولما أرادوا الانصراف أعطاهم جوائزهم خمس أواق من فضة، وأمر لمسيلمة بمثل ما أعطاهم، لما ذكروا أنه في رحالهم فقال: «أما إنه ليس بشركم مكاناً» فلما رجعوا إليه أخبروه بما قال عنه فقال: إنما قال ذلك لأنه عرف أن الأمر لي من بعده وبهذه الكلمة تشبث قبحه الله حتى ادعى النبوة.

قال الواقدي: وقد كان رسول الله ﷺ بعث معهم بأداوة فيها فضل طهوره وأمرهم أن يهدموا بيعتهم وينضحوا هذا الماء مكانه ويتخذوه مسجداً ففعلوا.

وسيأتي ذكر مقتل الأسود العنسي في آخر حياة رسول الله ﷺ، ومقتل مسيلمة الكذاب في أيام الصديق، وما كان من أمر بني حنيفة إن شاء الله تعالى.

سنة ٩- وفد أهل نجران

قال البخاري [٤٣٨٠]: حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة. قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا أميناً ولا تبعث معنا إلا رجلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ. فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

وقد رواه البخاري [٣٧٤٥] أيضاً ومسلم [٢٤٢٠] من حديث شعبة عن أبي إسحاق به.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٣٨٥/٥ - ٣٩١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا، يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده - قال يونس: وكان نصرانيا فأسلم - أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه ﴿طس﴾ سليمان؛ باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران إن أسلمتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام.

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فُظِعَ به وذعر به ذُعراً شديداً وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة - وكان من أهل همدان ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب - فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي وجهدت لك، فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى شرحبيل فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنح فاجلس فتنحى فجلس ناحية، وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب أحد بني الحماس فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية؛ فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح في الصوامع وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي وجبار بن فيض الحارثي فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

قال: فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانوا يعرفونهما فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس. فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان ولعبد الرحمن رضي الله عنهم: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه، ففعلوا فسلموا فرد سلامهم. ثم قال: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم». ثم ساءلهم وساءلوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا ما تقول في عيسى فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يَسُرُّنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى».

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١]. فأبوا أن يقروا بذلك.

فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً متقوياً فكنا أول العرب طعن في عينه ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة وإنا أدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال: رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً فقالا له: أنت وذاك، قال: فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك فقال: «وما هو»؟ فقال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: «لعل وراءك أحد يثرِّب عليك؟» فقال شرحبيل: سل صاحبي، فسألهما فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فقال رسول الله ﷺ: «كافر- أو قال: جاحد موفق» فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، وذكر تمام الشروط. إلى أن قال: شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة، وكتب حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة من نجران ومع الأسقف أخ له من أمه وهو ابن عمه من النسب يقال له: بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينما هو يقرؤه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كبت ببشر ناقته فتعّس بشر غير أنه لا يكنّي عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف عند ذلك: قد والله تعّست نبياً مرسلاً فقال له بشر: لا جرم والله لا أحل عنها عقداً حتى آتي رسول الله ﷺ، قال: فضرب وجه ناقته نحو المدينة وثنى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهم عني إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه أو رضينا نُصرته أو بَخَعْنا لهذا الرجل بما لم تبخع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم داراً فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً، فضرب بشر ناقته وهو مولّ الأسقف ظهره وارتجز يقول:

إليك تعدو قلقاً وضينها ... معترضاً في بَطْنِهَا جنينها
مخالفاً دين النصارى دينُهَا

حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم ولم يزل معه حتى قتل بعد ذلك.

قال: ودخل الوفد نجران فأتى الراهب ليث بن أبي شمر الزبيدي وهو في رأس صومعته فقال له: إن نبياً بعث بتهامة فذكر له ما كان من وفد

نجران إلى رسول الله ﷺ وأنه عرض عليهم الملاعنة فأبوا وأن بشر بن معاوية دفع إليه فأسلم فقال الراهب: أنزلوني وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة قال: فأنزلوه فأخذ معه هدية وذهب إلى رسول الله ﷺ منها هذا البرد الذي يلبسه الخلفاء وقعب وعصا. فأقام مدة عند رسول الله ﷺ يسمع الوحي ثم رجع إلى قومه ولم يقدر له الإسلام ووعد أنه سيعود فلم يقدّر له حتى توفي رسول الله ﷺ وإن الأسقف أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه فأقاموا عنده يسمعون ما ينزل الله عليه وكتب للأسقف هذا الكتاب ولأساقفة نجران بعده: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي للأسقف أبي الحارث وكلّ أساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير جوار الله ورسوله لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا مما كانوا عليه على ذلك، جوار الله ورسوله أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين» وكتب المغيرة بن شعبة.

وذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٣/١ ـ ٥٧٥، مطولاً] أن وفد نصارى نجران كان ستين راكبا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم وهم العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وأبو حارثة بن علقمة وأوس والحارث وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ويحنس وأمر هؤلاء الأربعة عشر يؤول إلى ثلاثة منهم؛ وهم: العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه والسيد وكان ثمالهم وصاحب رحلهم وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وخيرهم وكان رجل من العرب من بكر بن وائل ولكن دخل في دين النصرانية فعظمته الروم وشرفوه وبنوا له الكنائس وموّلوه وأخدموه لما يعرفون من صلابته في دينهم وكان مع ذلك يعرف أمر رسول الله ﷺ ولكن صده الشرف والجاه من اتباع الحق.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني بريدة بن سفيان عن ابن البيلماني عن كرز بن علقمة. قال: قدم وفد نصارى نجران ستون راكبا منهم أربعة وعشرون رجلا من أشرافهم والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب والسيد وأبو حارثة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وصاحب مدراسهم وكانوا قد شرفوه فيهم وموّلوه وأخدموه، وبسطوا عليه الكرامات وبنوا له الكنائس لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما توجهوا من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره إذ عثرت بغلة أبي حارثة فقال كرز: تعس الأبعد ـ يريد رسول الله ﷺ ـ فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست فقال له كرز: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره فقال له كرز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وموّلونا وأخدمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى قال: فأضمر عليها منه أخوه كرز حتى أسلم بعد ذلك.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧٤/١ ـ ٥٨٤] أنهم لما دخلوا المسجد النبوي دخلوا في تجمل وثياب حسان وقد حانت صلاة العصر فقاموا يصلون إلى المشرق. فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فكان المتكلم لهم أبا حارثة بن علقمة والسيد والعاقب حتى نزل فيهم صدرُ سورة آل عمران والمباهلة فأبوا ذلك وسألوا أن يرسل معهم أمينا فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح كما تقدم في رواية البخاري [٣٧٤٥]؛ وقد ذكرنا ذلك مستقصى في تفسير سورة آل عمران ولله الحمد والمنة.

سنة ٩ـ وفد بني عامر وقصة عامر بن الطفيل وأربد بن قيس لعنهما الله

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٧/٢ ـ ٥٦٩]: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر وجبّار بن سلمى بن مالك بن جعفر وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم وقدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا أبا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأربد: إن قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، فلما قدموا على رسول الله ﷺ. قال عامر بن الطفيل: يا محمد خالني قال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده» قال: يا محمد خالني، قال: وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به فجعل أربد لا يحير شيئا، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال: يا محمد خالني، قال: «لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له» فلما أبى عليه رسول الله ﷺ. قال: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللّهم اكفني عامر بن الطفيل».

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامرٌ لأربد: أين ما كنت أمرتك به والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسي منك، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً. قال: لا أبا لك لا تعجل علي والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفاضربك بالسيف؟!.

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله عز وجل على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر أغُدّةً كغدة البَكْر في بيت امرأة من بني سلول؟.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٦٩/٢]: ويقال: أغدةً كغدة الإبل وموتاً في بيت سلولية؟!

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٢١/٥] من طريق الزبير بن بكار: حدثتني فاطمة بنت عبد العزيز بن مَوْلَةَ عن أبيها عن جدها مَوْلَةَ بن جميل قال: أتى عامر بن الطفيل رسول الله ﷺ فقال له: «يا عامر أسلم» فقال: أسلم على أن لي الوبر ولك المدر؟ قال: «لا» ثم قال: أسلم فقال: أسلم على أن لي الوبر ولك المدر؟ قال: «لا» فولى وهو يقول: والله يا محمد لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مرداً ولأربطنّ بكل نخلة فرسا. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اكفني عامراً واهد قومه».

فخرج حتى إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية فنزل عن فرسه ونام في بيتها فأخذته غدة في حلقه فوثب على فرسه وأخذ رمحه وأقبل يجول وهو يقول: غُدّةٌ كغدة البكر وموت في بيت سلولية.

فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتا.

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب [١٤٨٧/٤] في أسماء الصحابة مَوْلَة هذا فقال هو مَوْلَة بن كُثيف الضبابي الكلابي العامري من بني عامر بن صعصعة أتى رسول الله ﷺ وهو ابن عشرين سنة فأسلم وعاش في الإسلام مائة سنة وكان يدعى ذا اللسانين من

فصاحته، روى عنه ابنه عبد العزيز وهو الذي روى قصة عامر بن الطفيل: غُدّة كغدة البعير وموت في بيت سلولية.

قال الزبير بن بكار: حدثتني ظميا بنت عبد العزيز بن مَوَلة بن كُثيف بن حَمَل بن خالد بن عمرو بن معاوية وهو الضباب بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قالت: حدثني أبي عن أبيه عن مولة أنه أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو ابن عشرين سنة وبايع رسول الله ﷺ ومسح يمينه وساق إبله إلى رسول الله ﷺ فصدّقها بنت لبون ثم صحب أبا هريرة بعد رسول الله ﷺ وعاش في الإسلام مائة سنة وكان يسمى ذا اللسانين من فصاحته.

قلت: والظاهر أن قصة عامر بن الطفيل متقدمة على الفتح، وإن كان ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٧/٢ ـ ٥٦٩] والبيهقي [الدلائل: ٣١٨/٥ ـ ٣٢١] قد ذكرها بعد الفتح وذلك.

لما رواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٢٠/٥] عن الحاكم عن الأصم أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس في قصة بئر معونة وقتل عامر بن الطفيل حرام بن ملحان ـ خال أنس بن مالك ـ وغدره بأصحاب بئر معونة حتى قتلوا عن آخرهم سوى عمرو بن أمية كما تقدم.

قال الأوزاعي قال يحيى: فمكث رسول الله ﷺ يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحا: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت وابعث عليه ما يقتله». فبعث الله عليه الطاعون [البيهقي في «الدلائل»: ٣٢٠/٥، من طريق الأوزاعي، به].

وروى عن همام عن إسحاق بن عبد الله عن أنس في قصة ابن ملحان قال: وكان عامر بن الطفيل قد أتى رسول الله ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال يكون لك أهل السهل ويكون لي أهل الوبر وأكون خليفتك من بعدك أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء، قال: فطُعن في بيت امرأة فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت امرأة من بني فلان ائتوني بفرسي. فركب فمات على ظهر فرسه. [الدلائل: ٣٢٠/٥]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٩/٢]: ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بني عامر شاتين فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا: وما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله الآن فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٦٩/٥ ـ ٥٧٠]: وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه فقال لبيد يبكي أربد:

ما إنْ تُعرّي المنون من أحد ... لا والد مشفق ولا ولد
أخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والأسد
فعين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام النساء في كبد
إن يشغبوا لا يبال شغبهم ... أو يقصدوا في الحكوم يقتصد
حلو أريب وفي حلاوته ... مر لصيق الأحشاء والكبد
وعين هلا بكيت أربد إذ ... ألوت رياح الشتاء بالعضد
وأصبحت لاقحا مصرمة ... حتى تجلت غوابر المدد
أشجع من ليث غابة لحم ... ذو نهمة في العلا ومنتقد
لا تبلغ العين كل نهمتها ... ليلة تمسي الجياد كالقدد
الباعث النوح في مآتمه ... مثل الظباء الأبكار بالجرد
فجعني البرق والصواعق بالفا ... رس يوم الكريهة النجد
والحارب الجابر الحريب إذا ... جاء نكيبا وإن يَعُد يَعُدِ
يعفو على الجهد والسؤال كما ... ينبت غيث الربيع ذو الرصد
كل بني حرة مصيرهم ... قُلٌ وإن كَثُروا من العدد
إن يُغبطوا يُهبطوا وإن أُمِروا ... يوماً فهم للهلاك والنَّفَدِ

قد روى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٧١/٢ ـ ٥٧٣] عن لبيد أشعاراً كثيرة في رثاء أخيه لأمه أربد بن قيس تركناها اختصاراً واكتفاء بما أوردناه والله الموفق للصواب.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٦٩/٣]: وذكر زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: فأنزل الله عز وجل في عامر وأربد.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الرعد: ٨ ـ ١١] يعني: محمداً ﷺ ثم ذكر أربد وقتله فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١١ ـ ١٣]

قلت: وقد تكلمنا على هذه الآيات الكريمات في سورة الرعد ولله الحمد والمنة.

وقد وقع لنا إسناد ما علّقه ابن هشام رحمه الله فروينا من طريق الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير [٣٧٩/١٠ ـ ٣٨١ (١٠٧٦٠)] حيث قال:

حدثنا مسعدة بن سعد العطار حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثني عبد العزيز بن عمران حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: أن أربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر بن كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله ﷺ فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه: فقال عامر بن الطفيل: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لكَ ما للمسلمين وعليك ما عليهم». قال عامر: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك. فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل». قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله ﷺ: «لا» فلما قفا من عنده، قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فقال رسول الله ﷺ: «يمنعك الله».

فلما خرج أربد وعامر قال عامر: يا أربد أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف فإن الناس إذا قتلتَ محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فسنعطيهم الدية، قال أربد: أفعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ فخليا إلى الجدار ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسل أربد السيف فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم

يستطع سل السيف فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما.

فلما خرج أربد وعامر من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة حَرَّةِ واقم نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير فقالا: اشخصا يا عدوَّي الله لعنكما الله، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: أسيد بن حضير الكتائب.

فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته وخرج عامر حتى إذا كان بالحرة أرسل الله قرحة فأخذته فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول فجعل يمس قرحته في حلقه ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية يرغب عن أن يموت في بيتها ثم ركب فرسه فأحضرها حتى مات عليها راجعا فأنزل الله فيهما ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾. قال: المعقِّبات من أمْر اللَّهِ يحفظون محمداً ﷺ. ثم ذكر أربد وما قتله به فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الآية.

وفي هذا السياق دلالة على تقدُّم قصة عامر وأربد؛ وذلك لذكر سعد بن معاذ فيه والله أعلم.

وقد تقدم وفود الطفيل بن عامر الدوسي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بمكة وإسلامه وكيف جعل الله له نوراً بين عينيه ثم سأل الله فحوله له إلى طرف سوطه وبسطنا ذلك هنالك فلا حاجة إلى إعادته هاهنا كما صنع البيهقي [الدلائل: ٣٥٩/٥ ـ ٣٦٢] وغيره.

سنة ٩- قدوم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ وافداً على قومه بني سعد بن بكر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٩/٥ ـ ٣٦٢]: حدثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب عن ابن عباس. قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم إليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه. فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب» فقال: يا محمد قال: «نعم». قال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك. قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك» فقال: أنشدك إلهك الله وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: «اللّهم نعم» قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال: «اللّهم نعم!» قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «اللّهمَّ نعم!».

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص. ثم انصرف إلى بعيره راجعاً. قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة» قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى. فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون. فقال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما.

قال: يقول ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٢٥٠/١] عن يعقوب بن إبراهيم الزهري عن أبيه عن ابن إسحاق فذكره.

وقد روى هذا الحديث أبو داود [٤٨٧] من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن سلمة بن كهيل ومحمد بن الوليد بن نويفع عن كريب عن ابن عباس بنحوه.

وفي هذا السياق ما يدل على أنه رجع إلى قومه قبل الفتح؛ لأن العزى خربها خالد بن الوليد أيام الفتح.

وقد قال الواقدي: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن كريب عن ابن عباس. قال: بعثت بنو سعد بن بكر في رجب سنة خمس ضمام بن ثعلبة وكان جلداً أشعر ذا غدارتين وافداً إلى رسول الله ﷺ فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فسأله فأغلظ في المسألة؛ سأله عمن أرسله وبما أرسله وسأله عن شرائع الإسلام فأجابه رسول الله ﷺ في ذلك كله فرجع إلى قومه مسلما قد خلع الأنداد فأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما وبنوا المساجد وأذنوا بالصلاة.

وقال الإمام أحمد [١٤٣/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان ـ يعني ابن المغيرة ـ عن ثابت عن أنس بن مالك. قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال: «صدق!» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله» قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: «نعم!» قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم!» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم!» قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال: «صدق» قال: ثم ولى فقال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لا أزيد عليهن شيئا ولا أنقص منهنَّ شيئا. فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلن الجنة».

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين [خ (٦٣)، م (١٢)] وغيرهما [د (٤٨٧)، س (٢٠٩١ ـ ٢٠٩٣)، ج (١٤٠٢)] بأسانيد وألفاظ كثيرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد رواه مسلم [(١٢) (١٠)] من حديث أبي النضر هاشم بن

القاسم عن سليمان بن المغيرة.

وعلقه البخاري [بالرقم (٦٣)] من طريقه.

وأخرجه من وجه آخر [المسند: ٣/١٦٨] بنحوه. فقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يقول: بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوساً في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ ورسول الله ﷺ متكئ بين ظهرانيهم قال: فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال الرجل: يا ابن عبد المطلب فقال له رسول الله ﷺ: «قد أجبتك» فقال الرجل: يا محمد إني سائلك فمشتد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك فقال: «سل ما بدا لك». فقال الرجل: أنشدُك بربك ورب من كان قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم نعم» قال: فانشدك الله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ فقال: «اللّهم نعم» قال: فانشدك الله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم نعم» قال: أنشدك الله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم نعم» قال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

وقد رواه البخاري [٦٣] عن عبد الله بن يوسف عن الليث بن سعد عن سعيد المقبري به.

وهكذا رواه أبو داود [٤٨٦] والنسائي [٢٠٩١] وابن ماجه [١٤٠٢] عن الليث به.

والعجب أن النسائي رواه من طريق آخر عن الليث [٢٠٩٢] قال: حدثني ابن عجلان وغيره من أصحابنا عن سعيد المقبري عن شريك عن أنس بن مالك فذكره.

وقد رواه النسائي أيضا من حديث عبيد الله العمري عن سعيد المقبري عن أبي هريرة [٢٠٩٣]، فلعله عن سعيد المقبري من الوجهين جميعاً.

وقد قدمنا ما رواه الإمام أحمد [١/٣٠٢] عن يحيى بن آدم عن حفص بن غياث عن داود بن أبي هند عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قدوم ضماد الأزدي على رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة وإسلامه وإسلام قومه كما ذكرناه مبسوطا بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد والمنة

سنة ٩- وفد طيّئ مع زيد الخيل رضي الله عنه

وهو زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب أبو مكنف الطائي وكان من أحسن العرب وأطوله رجلا وسمي زيد الخيل لخمس أفراس كن له.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٧/٤٤٧]: ولهن أسماء لا يحضرني الآن حفظها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥٧٧، ٥٧٨]: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم فلما انتهوا إليه كلموه وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا فحسن إسلامهم. وقال رسول الله ﷺ كما حدثني من لا أتهم من رجال طيئ «ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يُبلغ كلُّ الذي فيه» ثم سماه رسول الله ﷺ زيد الخير وقطع له فيد وأرضين معه وكتب له بذلك فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعا إلى قومه فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمّى المدينة فإنه».

قال: وقد سماها رسول الله ﷺ باسم غير الحمى وغير أم مَلْدَم لم يثبته.

قال: فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فردة أصابته الحمى فمات بها ولما أحس بالموت قال:

أمرتحل قومي المشارق غُدوةً وأُترك في بيتٍ بفردة منجد
الا رب يوم لو مرضت لعادني عوائد من لم يبر منهن يجهد

قال: ولما مات عمدت امرأته - بجهلها وقلة عقلها ودينها - إلى ما كان معه من الكتب فحرقتها بالنار.

قلت: وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٤٤)، م (١٠٦٤)] عن أبي سعيد أن علي بن أبي طالب بعث إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذُهيبة في تربتها فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: زيد الخيل وعلقمة بن علاثة، والأقرع بن حابس، وعُيينة بن بدر. الحديث. وسيأتي ذكره في بعث علي إلى اليمن إن شاء الله تعالى.

سنة٩- قصة عدي بن حاتم الطائي

قال البخاري في الصحيح [٤٣٩٤]: وفد طيئ وحديث عدي بن حاتم:

حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة حدثنا عبد الملك بن عمير عن عمرو بن حريث عن عدي بن حاتم. قال: أتينا عمر بن الخطاب في وفد فجعل يدعو رجلا رجلا يسميهم. فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا. فقال عدي: لا أبالي إذاً.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٥٧٨ - ٥٨١]: وأما عدي بن حاتم فكان يقول فيما بلغني: ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني أما أنا فكنت امرءاً شريفا وكنت نصرانيا وكنت أسير في قومي بالمرباع وكنت في نفسي على دين وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعيا لإبلي: لا أبا لك أعدد لي من إبلي أجمالا ذللا سمانا فاحتبسها قريبا مني فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني ففعل.

ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. قال: قلت: فقرب إلي أجمالي. فقربها فاحتملت بأهلي وولدى ثم قلت: الحق بأهل ديني من النصارى بالشام فسلكت الجوشية وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر.

فلما قدمت الشام أقمت بها وتخالفني خيل رسول الله ﷺ فتُصيب ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيئ وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام. قال: فجُعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس بها فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه وكانت امرأة جزلة. فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب

الوافد فامنن علي مَنَّ الله عليك. قال: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم قال: «الفار من الله ورسوله؟» قالت: ثم مضى وتركني. حتى إذا كان الغد مر بي فقلت له مثل ذلك وقال لي مثل ما قال بالأمس، قالت: حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست فأشار إليّ رجل خلفه أن قومي فكلميه.

قالت: فقمت إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي منَّ الله عليك. فقال ﷺ: «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني». فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن كلميه فقيل لي علي بن أبي طالب قالت: فاقمتُ حتى قدم ركبٌ من بلي أو قضاعة قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام فجئت فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوّب إلي قومنا قال: فقلت: ابنة حاتم؟ قال: فإذا هي هي فلما وقفت عليّ انسلخت تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك؟ قال: قلت: أي أخية لا تقولي إلا خيراً فوالله ما لي من عذر لقد صنعت ما ذكرت.

قال: ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل، قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكا فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت. قال: قلت: والله إن هذا الرأي قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه. فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، وانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال: «اجلس على هذه» قال قلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: «بل أنت» فجلست وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «إيه يا عدي بن حاتم ألم تَكُ ركوسيًّا؟» قال: قلت: بلى! قال: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع» قال: قلت: بلى! قال: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك» قال: قلت: أجل والله. قال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل ثم قال: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم».

قال: فأسلمت، قال: فكان عدي يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكونن وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذا السياق بلا إسناد وله شواهد من وجوه أخر.

فقال الإمام أحمد [٣٧٨/٤، ٣٧٩]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت سماك بن حرب سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدي بن حاتم. قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرب فأخذوا عمتي وناسا فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قال: فصفُّوا له. قالت: يا رسول الله بأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمُنَّ عليّ مَنَّ الله عليك. فقال: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم قال: «الذي فر من الله ورسوله؟»، قالت: فمَنَّ علي. فلما رجع ورجل إلى جنبه - نرى أنه علي - قال: سليه حملاناً قال: فسألته فأمر لها. قال عدي: فأتتني فقالت: لقد فعلت فَعْلة ما كان أبوك يفعلها! وقالت: إيته راغبا أو راهبا فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه. قال: فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي فذكر قربهم منه فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر. فقال له: «يا عدي بن حاتم ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟! ما أفرك؟ أفرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟»، قال: فأسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال: «إن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود وإن ﴿الضَّالِّينَ﴾: النصارى».

قال: ثم سألوه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فلكم أيها الناس أن تَرْضَخوا من الفضل ارتضخ امرؤ بصاع ببعض صاع بُقبضة ببعض قُبضة» - قال شعبة - وأكثر علمي أنه قال: «بتمرة بشق تمرة - وإنّ أحدكم لاقي الله فقائل ما أقول: ألم أجعلك سميعا بصيراً؟ ألم أجعل لك مالا وولداً؟ فماذا قدمت؟ فينظر من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يجد شيئا فما يتقي النار إلا بوجهه فاتقوا الله ولو بشق تمرة فإن لم تجدوه فبكلمة لينة، إني لا أخشى عليكم الفاقة لينصرنكم الله وليعطينكم أو ليفتحن عليكم حتى تسير الظعينة بين الحيرة ويثرب، أو أكثر، ما تخاف السَّرَق على ظعينتها».

وقد رواه الترمذي [٢٩٥٣م] من حديث شعبة [٢٩٥٤] وعمرو بن أبي قيس [٢٩٥٣م] كلاهما عن سماك ثم قال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك.

وقال الإمام أحمد [٢٥٧/٤] أيضاً: حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة - هو ابن حذيفة - عن رجل. قال: قلت لعدي بن حاتم: حديث بلغني عنك أحب أن أسمعه منك قال: نعم! لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم - وفي رواية حتى قدمت على قيصر - قال: فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه قال: قلت: والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبا لم يضرني وإن كان صادقا علمت.

قال: فقدمت فأتيته فلما قدمت قال الناس: عدي بن حاتم، عديُّ بن حاتم. فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم» ثلاثا قال: قلت: إني على دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلمُ بديني مني؟! قال: «نعم! ألستَ من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى! قال: «هذا لا يحل لك في دينك» قال: نعم! فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها. قال: «أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قال: قلت كسرى ابن هرمز؟» قال: «نعم!

كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

ثم قال أحمد [٤/٣٧٩]: حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن رجل - وقال حماد: عن هشام عن محمد عن أبي عبيدة ولم يذكر: عن رجل - قال: كنت أسأل الناس عن حديث عدي بن حاتم وهو إلى جنبي ولا أسأله قال: فأتيته فسألته فقال: نعم! فذكر الحديث.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٥/٣٤٣، ٣٤٤]: أنبأنا أبو عمرو الأديب أنبأنا أبو بكر الإسماعيلي أخبرني الحسن بن سفيان حدثنا إسحاق بن إبراهيم أنبأنا النضر بن شميل أنبأنا إسرائيل أنبأنا سعد الطائي أنبأنا محل ابن خليفة عن عدي بن حاتم. قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل. قال: «يا عدي بن حاتم هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد انبئت عنها قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل». قال: قلت في نفسي: فإن دُعّار طيئ - الذين سعَّروا البلاد - «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم». قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي: فقد رأيت الظعينة ترتحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله عز وجل، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة سترون ما قال أبو القاسم ﷺ.

وقد رواه البخاري [٣٥٩٥] عن محمد بن الحكم عن النضر بن شميل به بطوله.

وقد رواه من وجه آخر [١٤١٣] عن سعدان بن بشر عن سعد أبي مجاهد الطائي عن محل بن خليفة عن عدي به.

ورواه الإمام أحمد [٤/٢٥٦] والنسائي [٢٥٥١] من حديث شعبة عن سعد أبي مجاهد الطائي به.

وممن روى هذه القصة عن عدي عامر بن شرحبيل الشعبي فذكر نحوه. وقال: لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها [الدلائل للبيهقي: ٥/٣٤٤، ٣٤٥].

وثبت في صحيح البخاري [١٤١٧] من حديث شعبة.

وعند مسلم [(١٠١٦) (٦٦)] من حديث زهير بن معاوية كلاهما عن أبي إسحاق عن عبد الله بن معقل بن مقرن المزني عن عدي بن حاتم. قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

ولفظ مسلم: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل».

طريق أخرى فيها شاهد لما تقدم:

وقد قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٥/٣٤١]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي حدثنا ضرار بن صرد حدثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمن بن جندب عن كميل بن زياد النخعي. قال: قال علي بن أبي طالب: يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس في خير! عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم في الحاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا، فلو كان لا يرجو ثوابا ولايخشى عقابا لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سُبُل النجاح، فقام إليه رجل فقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! وماهو خير منه. لما أُتي بسبايا طيئ وقفت جارية حمراء لعساء ذلفاء عيطاء شماء الأنف معتدلة القامة والهامة درماء الكعبين خَدْلة الساقين لفاء الفخذين خميصة الخصرين ضامرة الكشحين مصقولة المتنين. قال: فلما رأيتها أعجبت بها وقلت: لأطلبن إلى رسول الله ﷺ يجعلها في فيئي. فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها. فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشِ السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيئ فقال رسول الله ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق». فقام أبو بردة بن نيار. فقال: يا رسول الله واللّهُ يحبُّ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل أحد الجنة إلا بحسن الخلق».

هذا حديث حسن المتن غريب الإسناد جدّاً عزيز المخرج.

وقد ذكرنا ترجمة حاتم الطائي أيام الجاهلية عند ذكرنا من مات من أعيان المشهورين فيها وما كان يسديه حاتم إلى الناس من المكارم والإحسان إلا أن نفع ذلك في الآخرة معذوق بالإيمان وهو ممن لم يقل يوما من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وقد زعم الواقدي: أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب في ربيع الآخر من سنة تسع إلى بلاد طيئ فجاء معه بسبايا فيهم أخت عدي بن حاتم وجاء معه بسيفين كانا في بيت الصنم يقال لأحدهما الرسوب والآخر المخذم كان الحارث بن أبي شمر قد نذرهما لذلك الصنم [تاريخ الطبري: ٣/١١١].

قال البخاري رحمه الله [٤٣٩٢]:

سنة ٩- قصة دوس والطفيل بن عَمرو

حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن ذكوان - هو عبد الله أبو الزناد - عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال: جاء الطفيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ فقال: إن دوسا قد هلكت، عصت وأبت فادع الله عليهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اهد دوسا وائت بهم».

انفرد به البخاري من هذا الوجه.

ثم قال [٤٣٩٣]: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل عن قيس عن أبي هريرة قال: لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نَجّتِ

وأبق لي غلام في الطريق.

فلما قدمت على النبي ﷺ وبايعته فبينا أنا عنده إذ طلع الغلام فقال لي

النبي ﷺ: «يا أبا هريرة هذا غلامك» فقلت هو حر لوجه الله عز وجل فأعتقه.

انفرد به البخاري من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم.

وهذا الذي ذكره البخاري من قدوم الطفيل بن عمرو فقد كان قبل الهجرة ثم إن قدر قدومه بعد الهجرة فقد كان قبل الفتح؛ لأن دوسا قدموا ومعهم أبو هريرة وكان قدوم أبي هريرة ورسول الله ﷺ محاصر خيبر ثم ارتحل أبو هريرة حتى قدم على رسول الله ﷺ خيبر بعد الفتح فرضخ لهم شيئا من الغنيمة وقد قدمنا ذلك كله مطولا في مواضعه.

قال البخاري رحمه الله [بعد (٤٣٨٣)]:

سنة ٩- قدوم الأشعريين وأهل اليمن

ثم روى [٤٣٨٨] من حديث شعبة عن سليمان بن مهران الأعمش عن ذكوان أبي صالح السمان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم».

ورواه مسلم [(٥٢) (٩١)] من حديث شعبة.

ثم رواه البخاري [٤٣٩٠] عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قال: «أتاكم أهل اليمن أضعف قلوباً وأرق أفئدة. الفقه يمان، والحكمة يمانية».

ثم روى [٤٣٨٩] عن إسماعيل عن سليمان عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان يمان، والفتنة هاهنا ها هنا يطلع قرن الشيطان».

ورواه مسلم [(٥٢) (٨٩)] عن شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

ثم روى البخاري [٤٣٨٧] من حديث شعبة عن إسماعيل عن قيس عن أبي مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان هاهنا - وأشار بيده إلى اليمن - والجفاء وغلظ القلوب في الفدّادين عند أصول أذناب الإبل من حيث يطلع قرنا الشيطان ربيعة ومضر».

وهكذا رواه البخاري [٣٣٠٢] أيضا ومسلم [(٥١) (٨١)] من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود عقبة بن عمرو.

ثم روى [خ (٤٣٨٦)] من حديث سفيان الثوري عن أبي صخرة جامع بن شداد حدثنا صفوان بن محرز عن عمران بن حصين. قال: جاءت بنو تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا يا بني تميم» فقالوا: أما إذا بشرتنا فأعطنا. فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» فقالوا: قبلنا يا رسول الله.

وقد رواه الترمذي [٣٩٥١] والنسائي [كبرى (١١٢٤٠)] من حديث عبد الرحمن المسعودي، لا سفيان] من حديث الثوري به.

وهذا كله مما يدل على فضل وفود أهل اليمن وليس فيه تعرض لوقت وفودهم، ووفد بني تميم - وإن كان متأخراً قدومهم - لا يلزم من هذا أن يكون مقارنا لقدوم الأشعريين بل الأشعريين متقدم وفدهم على هذا فإنهم قدموا صحبة أبي موسى الأشعري في صحبة جعفر بن أبي طالب وأصحابه من المهاجرين الذين كانوا بالحبشة وذلك كله حين فتح رسول الله ﷺ خيبر كما قدمناه مبسوطا في موضعه، وتقدم قوله ﷺ: «والله ما أدري بأيهما أسر أبقدوم جعفر أو بفتح خيبر» والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال البخاري [٤٣٨٣]:

سنة ٩- قصة عُمان والبحرين

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان سمع محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبد الله يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «لو قد جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا» ثلاثا.

فلم يقدم مال البحرين حتى قبض رسول الله ﷺ. فلما قدم على أبي بكر أمر مناديا فنادى: من كان له عند النبي ﷺ دين أو عِدَة فليأتني.

قال جابر: فجئت أبا بكر فأخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا» ثلاثا قال: فأعطاني قال جابر: فلقيت أبا بكر بعد ذلك فسألته فلم يعطني ثم أتيته فلم يعطني ثم أتيته الثالثة فلم يعطني فقلت له: قد أتيتك فلم تعطني ثم أتيتك فلم تعطني، ثم أتيتك فلم تعطني، فإما أن تعطيني وإما أن تبخل عني قال: أقلت: تبخل عني! قال: وأي داء أدوأ من البخل؛ قالها ثلاثا: ما منعتك من مرة إلا وأنا أريد أن أعطيك.

وهكذا رواه البخاري ها هنا.

وقد رواه مسلم [(٢٣١٤) (٦٠)] عن عمرو الناقد عن سفيان بن عيينة به.

ثم قال البخاري [٤٣٨٣] بعده عن عمرو عن محمد ابن علي سمعت جابر بن عبد الله يقول: جئته فقال لي أبو بكر: عُدَّها فعددتها فوجدتها خمسمائة فقال: خذ مثلها مرتين.

وقد رواه البخاري [٢٢٩٦] أيضاً عن علي بن المديني عن سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن محمد بن علي أبي جعفر الباقر عن جابر كروايته له عن قتيبة

ورواه أيضاً هو [٢٢٩٦] ومسلم [(٢٣١٤) (٦٠)] من طرق أخر عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن محمد بن علي عن جابر بنحوه.

وفي رواية [خ (٣١٣٧، ٣١٦٤)] أخرى له أنه أمره فحثى بيديه من دراهم فعدها فإذا هي خمسمائة. فأضعفها له مرتين يعني فكان جملة ما أعطاه ألفاً وخمسمائة درهم.

سنة ٩- وفود فروة بن مسيك المرادي أحد رؤساء قومه إلى رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨١/٢]: وقدم فروة بن مسيك المرادى مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم، إلى رسول الله ﷺ وقد كان بين قومه مراد وبين همدان وقعة قبيل الإسلام أصابت فيها همدان من قومه حتى أثخنوهم وكان ذلك في يوم يقال له: الردم وكان الذي قاد همدان إليهم الأجدع بن مالك.

قال ابن هشام: ويقال مالك بن خريم الهمداني.

قال ابن إسحاق: فقال فروة بن مسيك في ذلك اليوم:

مررن على لفات وهن خوص ... ينازعن الأعنة يتحينا
فإن نغلبْ فغلابون قدما ... وإن نغلب فغير مغلبينا
وما إن طِبُّنا جبن ولكن ... منايانا وطعمة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال ... تكر صروفه حينا فحينا
فبينا ما نسر به ونرضى ... ولو لبست غضارته سنينا
إذ انقلبت به كرات دهر ... فألفيْتَ في الأولى غبطوا طحينا
فمن يغبط بريب الدهر منهم ... يجد ريب الزمان له خؤونا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا ... ولو بقي الكرام إذاً بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٢/٢]: ولما توجه فروة بن مسيك إلى رسول الله ﷺ مفارقا ملوك كندة قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت ... كالرجل خان الرِّجل عرق نسائها
قربت راحلتي أؤم محمداً ... أرجو فواضلها وحسن ثرائها

قال: فلما انتهى فروة إلى رسول الله ﷺ قال له: - فيما بلغني - «يا فروة هل ساءك ماأصاب قومك يوم الردم؟». فقال: يا رسول الله من ذا الذي يصيب قومه ما أصاب قومي يوم الردم لايسوؤه ذلك فقال له رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً».

واستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

سنة ٩- قدوم عمرو بن معد يكرب في أناس من زبيد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٣/٢، ٥٨٤]: وقد كان عمرو بن معدي كرب قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس إنك سيد قومك وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقال إنه نبي فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه فإن كان نبياً كما تقول فإنه لن يخفى علينا وإذا لقيناه اتبعناه وإن كان غير ذلك علمنا علمه فأبى عليه قيس ذلك وسفَّه رأيه.

فركب عمرو بن معدي كرب حتى قدم على رسول الله ﷺ فاسلم وصدقه وآمن به فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمراً وقال: خالفني وترك أمري ورائي. فقال عمرو بن معدي كرب في ذلك:

أمرتك يوم ذي صنعـ ... ـاء أمراً بادياً رشده
أمرتك باتقاء اللّـ ... ـه والمعروف تتعده
خرجت من المنى مثل ا ... لحميِّر غرّه وتده
تمناني على فرس ... عليه جالساً أسده
عليّ مفاضة كالنّـ ... ـهي أخلص ماءه جدده
ترد الرمح منثني الـ ... ـسنان عوائراً قصده
فلو لاقيتني للقيـ ... ـت ليثاً فوقه لبده
تلاقي شنبثاً شثن الـ ... ـبراثن ناشزاً كتده
يسامي القرن إن قِرْن ... تيمَّمه فيعتضده
فيأخذه فيرفعه ... فيخفضه فيقتصده
فيدمغه فيحطمه ... فيخمضه فيزدرده
ظلوم الشرك فيما أحـ ... ـرزت أنيابه ويده

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٤/٢، ٥٨٥]: فأقام عمرو بن معدي كرب في قومه من بني زبيد وعليهم فروة بن مسيك فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد عمرو بن معدي كرب فيمن ارتد وهجا فروة بن مسيك فقال:

وجدنا ملك فروة شر ملك ... حماراً ساف منخره بثفر
وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحولاء من خبث وغدر

قلت: ثم رجع إلى الإسلام وحسن إسلامه وشهد فتوحات كثيرة في أيام الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما وكان من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين والشعراء المجيدين توفي سنة إحدى وعشرين بعد ما شهد فتح نهاوند وقيل: بل شهد القادسية وقتل يومئذ.

قال أبو عمرو بن عبد البر [الاستيعاب: ١٢٠١/٣، ١٢٠٢]: وكان وفوده إلى رسول الله ﷺ سنة تسع وقيل: سنة عشر فيما ذكره ابن إسحاق والواقدي.

قلت: وفي كلام الشافعي ما يدل عليه [الاستيعاب: ١٢٠٣/٣، ١٢٠٤] فالله أعلم. قال يونس عن ابن إسحاق: وقد قيل: إن عمرو بن معدي كرب لم يات النبي ﷺ وقد قال في ذلك:

إنني بالنبي موقنة نفـ ... ـسي وإن لم أر النّبي عيانا
سيِّد العالمين طراً وأدنا ... هم إلى اللّه حين بان مكانا
جاءنا بالناموس من لدن اللّه و ... كان الأمين فيه المعانا
حكمه بعد حكمة وضياء ... فاهتدينا بنورها من عمانا
وركبنا السبيل حين ركبنـ ... ـاه جديداً بكرهنا ورضانا
وعبدنا الإله حقاً وكنّا ... للجهالات نعبد الأوثانا
وائتلفنا به وكنّا عدواً ... فرجعنا به معاً إخوانا
فعليه السلام والسّلم منّا ... حيث كنا من البلاد وكانا
إن نكن لم نر النّبيّ فإنا ... قد تبعنا سبيله إيمانا

سنة ٩- قدوم الأشعث بن قيس في وفد كندة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٥/٢، ٥٨٦]: وقدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس في وفد كندة:

فحدثني الزهري أنه قدم في ثمانين راكبا من كندة فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده قد رجَّلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة قد كفَّفوها بالحرير فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال لهم: «ألم تسلموا»؟ قالوا: بلى! قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم!» قال: فشقوه منها فألقوه ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار. قال: فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث» وكانا تاجرين إذا شاعا في العرب

فسئلا: ممن أنتما قالا: نحن بنو آكل المرار يعني ينتسبان إلى كندة ليعزا في تلك البلاد؛ لأن كندة كانوا ملوكا، فاعتقدت كندة أن قريشا منهم لقول عباس وربيعة: نحن بنو آكل المرار وهو الحارث بن عمرو بن حُجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندي - ويقال ابن كندة - ثم قال رسول الله ﷺ لهم. «لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أُمنا ولا نتفي من أبينا». فقال لهم الأشعث بن قيس: والله يا معشر كندة لا أسمع رجلا يقولولها إلا ضربته ثمانين.

وقد روي هذا الحديث متصلا من وجه آخر:

فقال الإمام أحمد [٢١٢/٥]: حدثنا بهز وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة حدثني عقيل بن طلحة وقال عفان في حديثه: أنبأنا عقيل بن طلحة السلمي عن مسلم بن هيصم عن الأشعث بن قيس أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة - قال عفان- لا يروني أفضلهم، قال: قلت يا رسول الله: أنا ابن عمّ إنكم منا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولانتفي من أبينا». قال: وقال الأشعث: فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشا من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد.

وقد رواه ابن ماجه [٢٦١٢] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون، وعن محمد بن يحيى عن سليمان بن حرب. وعن هارون بن حيان عن عبد العزيز بن المغيرة ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به نحوه.

وقال الإمام أحمد [٢١١/٥]: حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي حدثنا الأشعث بن قيس. قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي: «هل لك من ولد؟» قلت: غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة جَمْد ولوددت أن مكانه شبع القوم. قال: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا ثم ولئن قلت ذاك إنهم لمجبنة محزنة إنهم لمجبنة محزنة».

تفرد به أحمد وهو حديث حسن جيد الإسناد.

سنة ٩- قدوم أعشى بني مازن على النبي ﷺ

قال عبد الله بن الإمام أحمد [٢٠٢/٢، وهو من زوائد عبد الله]: حدثني العباس بن عبد العظيم العنبري حدثنا أبو سلمة عبيد بن عبد الرحمن الحنفي قال: حدثني الجنيد بن أمين بن ذروة بن نضلة بن طريف بن بُهْصُل الحرمازي حدثني أبي أمين عن أبيه ذروة عن أبيه نضلة: أن رجلا منهم يقال له الأعشى واسمه عبد الله بن الأعور كانت عنده امرأة يقال لها: معاذة خرج في رجب يمير أهله من هجر فهربت امرأته بعده ناشزا عليه فعاذت برجل منهم يقال له: مطرف بن نهشل بن كعب بن قميشع ابن ذلف ابن أهضم بن عبد الله بن الحرماز فجعلها خلف ظهره فلما قدم لم يجدها في بيته وأخبر أنها نشزت عليه وأنها عاذت بمطرف بن نهشل فأتاه فقال: يا ابن عم أعندك امرأتي معاذة فادفعها إلي قال: ليست عندي ولو كانت عندي لم أدفعها إليك قال: وكان مطرف أعز منه قال: فخرج الأعشى حتى أتى النبي ﷺ فعاذ به وأنشأ يقول:

يا سيد الناس وديان العرب ... إليك أشكو ذربةً من الذرب
كالذئبة الغبْساء في ظل السرب ... خرجت أبغيها الطعام في رجب
فخلفتني بنزاع وهربْ ... أخلفت الوعد ولطت بالذنب
وقذفتني بين عصرٍ مؤتشب ... وهن شرُّ غالب لمن غلب

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «وهن شر غالب لمن غلب». فشكى إليه امرأته وما صنعت به وإنها عند رجل منهم يقال له: مطرف بن نهشل فكتب له النبي ﷺ إلى مطرف: «انظر امرأة هذا معاذة فادفعها إليه»، فأتاه كتاب النبي ﷺ فقرئ عليه فقال لها: يا معاذة هذا كتاب النبي ﷺ فيك فأنا دافعك إليه فقالت: خذ لي عليه العهد والميثاق وذمة نبيه أن لا يعاقبني فيما صنعت فأخذ لها ذلك عليه ودفعها مطرف إليه فأنشأ يقول:

لعمرك ما حبي معاذة بالذي ... يغيره الواشي ولا قدم العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزالها ... غواة الرجال إذ يناجونها بعدي

سنة ٩- قدوم صرد بن عبد الله الأزدي في نفر من قومه ثم وفود أهل جُرش بعدهم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٧/٢، ٥٨٨]: وقدم صرد بن عبد الله الأزدي على رسول الله ﷺ في وفد من الأزد فأسلم وحسن إسلامه وأمّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن فذهب فحاصر جُرش وبها قبائل من اليمن وقد ضوت إليهم خثعم حين سمعوا بمسيره إليهم فأقام عليهم قريبا من شهر فامتنعوا فيها منه ثم رجع عنهم حتى إذا كان قريبا من جبل يقال له شكر فظنوا أنه قد ولّى عنهم منهزما فخرجوا في طلبه فعطف عليهم فقتلهم قتلا شديدا وقد كان أهل جرش بعثوا منهم رجلين إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة فبينما هما عنده بعد العصر إذ قال: «بأي بلاد الله شكر؟» فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر وكذلك تسميه أهل جرش فقال: «إنه ليس بكشر ولكنه شكر» قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ فقال: «إنّ بُدْنَ الله لتنحر عنده الآن»، قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان فقال لهما: ويحكما إن رسول الله ﷺ الآن لينعى لكما قومكما فقوما إليه فاسألاه أن يدعو الله فيرفع عن قومكما فقاما إليه فسألاه ذلك فقال: «اللّهم ارفع عنهم» فرجعا فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أخبر عنهم رسول الله ﷺ ثم جاء وفد أهل جرش بمن بقي منهم حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا وحسن إسلامهم وحمى لهم حول قريتهم.

سنة ٩- قدوم رسول ملوك حمير إلى رسول الله ﷺ

قال الواقدي: وكان ذلك في رمضان سنة تسع [تاريخ الطبري: ١٢٠/٣].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٨٨/٢]: وقدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير ورسلهم بإسلامهم مقدمه من تبوك وهم: الحارث بن عبد كُلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قَيْل ذي رُعَيْن ومعافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبي إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قَيْل ذي رُعَين ومعافر وهمدان، أما بعد:

ذلكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلّغ ما أرسلتم به وخبّر ما

قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي ﷺ وصفيَّه وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغَرْب نصف العشر وأن في الإبل في الأربعين ابنة لبون وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذَكَر وفي كل خمس من الإبل شاة وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البَقَر تبيع جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذَكَر أو أنثى حر أو عبد دينارٌ وافٍ من قيمة المعافر أو عِوَضه ثيابا فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعد فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زرعة بن ذي يزن أن إذا أتاك رسلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلي وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا.

أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ثم إن مالك ابن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وإنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل وإن مالكا قد بلَّغ الخبر وحفظ الغيب فآمركم به خيراً وأني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم فآمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد قال الإمام أحمد [٢٢١/٣]: حدثنا حسن حدثنا عمارة عن ثابت عن أنس بن مالك أن مالك ذي يزن أهدى إلى رسول الله ﷺ حلة قد أخذها بثلاثة وثلاثين بعيراً وثلاثة وثلاثين ناقة.

ورواه أبو داود [٤٠٣٤] عن عمرو بن عون الواسطي عن عمارة بن زاذان الصيدلاني عن ثابت البناني عن أنس به.

وقد أورد الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤١٣/٥] هاهنا - حديث كتاب عمرو بن حزم فقال:

أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو العباس الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال:

هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم فكتب له كتابا وعهداً وأمره فيه أمره، فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] عهداً من رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، وأن ينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر، وأن يخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين لهم في الحق ويشتد عليهم في الظلم فإن الله - عز وجل - حرم الظلم ونهى عنه فقال ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٨-١٩] وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس النار وعملها ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه وما أمره الله به والحج الأكبر: الحج والحج الأصغر: العمرة، وأن ينهى الناس أن يصلي الرجل في ثوب واحد صغير، إلا أن يكون واسعاً، فيخالف بين طرفيه على عاتقيه، وينهى أن يحتبي الرجل في ثوب واحد، ويفضي بفرجه إلى السماء، ولا يَنقُضَ شعر رأسه إذا عفى في قفاه، وينهى الناس إن كان بينهم هيج أن يدعو إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله - عز وجل - ودعى إلى العشائر والقبائل فليعطفوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء، وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، وأن يمسحوا رؤوسهم كما أمرهم الله عز وجل، وأمروا بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود، وأن يُغلِّس بالصبح، وأن يهجِّر بالهاجرة حتى تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مُبْدَة، والمغرب حين يقبل الليل، لا تؤخر حتى تبدو النجوم في السماء، والعشاء أول الليل وأمره بالسعي إلى الجمعة إذا نودي بها، والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار فيما سَقَتِ العينُ وفيما سقت السماء العشر، وما سقى القَرْبُ فنصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي عشرين أربع شياه، وفي أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين من الصَّدَقَةِ، فمن زاد فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، فدان دين الإسلام، فإنه من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يغيَّر عنها، وعلى كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار واف، أو عِوَضَه من الثياب، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله ورسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين جميعاً، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٤١٥/٥]: وقد روى سليمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده هذا الحديث موصولا بزيادات كثيرة ونقصان عن بعض ما ذكرناه في الزكاة والديات وغير ذلك.

قلت: ومن هذا الوجه رواه الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي في سننه [٤٨٦٨، ٤٨٦٩] مطولا وأبو داود في كتاب المراسيل [٨٥ مختصراً، ٩٧ مطوّلاً] وقد ذكرت ذلك بأسانيده وألفاظه في السنن [جامع المسانيد والسُّنن: ٥٦٠/٩ - ٥٦٥] ولله الحمد والمنة.

وسنذكر بعد الوفود بعث النبي ﷺ الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس وأخذ صدقاتهم وأخماسهم؛ معاذ بن جبل وأبو موسى وخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

سنة ٩- قدوم جرير بن عبد الله البجلي وإسلامه

قال الإمام أحمد [٣٩٥/٤، ٣٦٠]: حدثنا أبو قطن حدثني يونس عن المغيرة بن شبل. قال: وقال جرير: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حلتي ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! ذكرك بأحسن الذكر بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن، إلا أن على وجهه مسحة مَلَك» قال جرير: فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني.

وقال أبو قطن: فقلت له: سمعته منه أو سمعته من المغيرة بن شبل؟ قال: نعم!

ثم رواه الإمام أحمد عن أبي نعيم [٣٦٠/٤] وإسحاق بن يوسف [٣٦٤/٤].

وأخرجه النسائي [كبرى (٨٣٠٤)] من حديث الفضل بن موسى ثلاثتهم عن يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن المغيرة بن شبل - ويقال ابن شبيل - عن عوف البجلي الكوفي عن جرير بن عبد الله وليس له عنه غيره.

وقد رواه النسائي [كبرى (٨٣٠٢)] عن قتيبة عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بقصته: «يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك» الحديث وهذا على شرط الصحيحين.

وقال الإمام أحمد [٣٥٨/٤]: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا إسماعيل عن قيس عن جرير. قال: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي.

وقد رواه الجماعة [خ (٣٣٥)، م (٢٤٧٥)، ت (٣٨٢٠، ٣٨٢١)، س كبرى (٨٣٠٢)، ج (١٥٩)] إلا أبا داود من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عنه.

وفي الصحيحين [خ (٣٠٣٦)، م (٢٤٧٥) (١٣٥)] زيادة: وشكوت إلى رسول الله ﷺ أني لا أثبت على الخيل فضرب بيده في صدري. وقال: «اللّهم ثبته واجعله هاديا مهديا».

ورواه النسائي [كبرى (٨٣٠٢)] عن قتيبة عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس عنه وزاد فيه -: «يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك» فذكر نحو ما تقدم.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٤٧/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد السماك حدثنا الحسن بن سلام السواق حدثنا محمد بن مقاتل الخراساني حدثنا حصين بن عمر الأحمسي حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله. قال: بعث إليّ رسول الله ﷺ. فقال: «يا جرير لأي شيء جئت؟» قلت: أسلم على يديك يا رسول الله قال: فألقى عليَّ كساء ثم أقبل على أصحابه فقال: «إذا أتاكم كريم قوما فأكرموه» ثم قال: «يا جرير أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن تؤمن بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة» ففعلت ذلك فكان بعد ذلك لا يراني إلا تبسم في وجهي.

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣٦٥/٤]: حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله. قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٥٧)، م (٥٦)] من حديث إسماعيل بن أبي خالد به.

وهو في الصحيحين [خ (٥٨)، م (٥٦) (٩٨)] من حديث زياد بن علاقة عن جرير به.

وقال الإمام أحمد [٣٦٤/٤]: حدثنا أبو سعيد حدثنا زائدة حدثنا عاصم عن شقيق يعني - أبا وائل - عن جرير. قال: قلت: يا رسول الله اشترط عليَّ فأنت أعلم بالشرط قال: «أبايعك على أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتنصح المسلم، وتبرأ من الشرك».

ورواه النسائي [٤١٧٥] من حديث شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن جرير.

وفي طريق أخرى عن الأعمش [٤١٧٦]؛ ومنصور [٤١٧٧] عن أبي وائل عن أبي نخيلة عن جرير به فالله أعلم.

ورواه أيضا [٤١٧٤] عن محمد بن قدامة عن جرير عن مغيرة عن أبي وائل والشعبي عن جرير به.

ورواه عن جرير عبدُ الله بن عَمِيرة رواه أحمد [٣٦٦/٤] منفرداً به وابنه عبيدُ الله بن جرير رواه أحمد أيضاً منفرداً به [٣٥٨/٤].

وأبو جبيلة وصوابه نخيلة ورواه أحمد [٣٦٥/٥] والنسائي [٤١٧٦ و٤١٧٧].

ورواه أحمد أيضاً [٣٥٨/٤] عن غندر عن شعبة عن منصور عن أبي وائل عن رجل عن جرير فذكره، والظاهر أن هذا الرجل هو أبو نخيلة البجلي والله أعلم.

وقد ذكرنا بعث النبي ﷺ له حين أسلم إلى ذي الخلصة بيت كان يعبده خثعم وبجيلة وكان يقال له الكعبة اليمانية يضاهون به الكعبة التي بمكة ويقولون للتي ببكة: الكعبة الشامية ولبيتهم: الكعبة اليمانية فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة» فحينئذ شكى إلى النبي ﷺ أنه لا يثبت على الخيل فضرب بيده الكريمة في صدره حتى أثرت فيه وقال: «اللّهم ثبته واجعله هاديا مهديا». فلم يسقط بعد ذلك عن فرس ونفر إلى ذي الخلصة في خمسين ومائة راكب من قومه من أحمس فخرب ذلك البيت وحرقه حتى تركه مثل الجمل الأجرب، وبعث إلى النبي ﷺ بشيرا يقال له: أبو أرطاة فبشره بذلك فبرك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات والحديث مبسوط في الصحيحين [خ (٣٠٢٠)، م (٢٤٧٦)] وغيرهما كما قدمناه بعد الفتح استطراداً بعد ذكر تخريب بيت العزى على يدي خالد بن الوليد رضي الله عنه.

والظاهر أن إسلام جرير رضي الله عنه كان متأخراً عن الفتح بمقدار جيد.

فإن الإمام أحمد [٣٦٩/٤] قال: حدثنا هشام بن القاسم حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن مجاهد عن جرير بن عبد الله البجلي. قال: إنما أسلمت بعدما أنزلت المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد ما أسلمت.

تفرد به أحمد وهو إسناد جيد اللّهم إلا أن يكون منقطعا بين مجاهد وبينه.

وثبت في الصحيحين [خ (٣٨٧)، م (٢٧٢)] أن أصحاب عبد الله بن مسعود كان يعجبهم حديث جرير في مسح الخف لأن إسلام جرير إنما كان بعد نزول المائدة وسيأتي في حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال له: «استنصت الناس ياجرير» وإنما أمره بذلك لأنه كان صبيا وكان ذا شكل عظيم كانت نعله طولها ذراع وكان من أحسن الناس وجها وكان مع هذا من أغض الناس طرفاً. ولهذا روينا في الحديث الصحيح [م (٢١٥٩)] عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «أطرق بصرك».

سنة ٩- وفادة وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمي أبي هنيد أحد ملوك اليمن على رسول الله ﷺ

قال أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ١٥٦٢/٤، ١٥٦٣]: كان أحد أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم، ويقال: إن رسول الله ﷺ بشر أصحابه قبل قدومه به وقال: «يأتيكم بقية أبناء الملوك» فلما دخل رحب به وأدناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له رداءه. وقال: «اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده» واستعمله على الأقيال من حضرموت وكتب معه ثلاث كتب؛ منها كتاب إلى المهاجر بن أبي أمية، وكتاب إلى الأقيال والعباهلة وأقطعه أرضا وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان. فخرج معه راجلا فشكى إليه معاوية حر الرمضاء فقال: انتعل ظل الناقة فقال: وما يغني عني ذلك لو جعلتني ردفا. فقال له وائل: اسكت فلست من أرداف الملوك ثم عاش وائل بن حجر حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين فعرفه معاوية فرحب به وقربه وأدناه وأذكره الحديث وعرض عليه جائزة سنية فأبى أن يأخذها، وقال: أعطها من هو أحوج إليها مني.

وأورد الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٤٩/٥] بعض هذا وأشار إلى أن البخاري في التاريخ [التاريخ الكبير: ١٧٥/٨، ١٧٦] روى في ذلك شيئا.

وقد قال الإمام أحمد [٣٩٩/٦]: حدثنا حجاج أنبأنا شعبة عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أقطعه أرضا قال: وأرسل معي معاوية أن أعطيها إياه - أو قال: أعلمها إياه - قال: فقال لي معاوية: أردفني خلفك فقلت: لا تكون من أرداف الملوك قال: فقال: أعطني نعلك فقلت: انتعل ظل الناقة قال: فلما استخلف معاوية أتيته فأقعدني معه على السرير فذكرني الحديث - قال سماك - فقال: وددت أني كنت حملته بين يدي.

وقد رواه أبو داود [٣٠٥٨] والترمذي [١٣٨١] من حديث شعبة. وقال الترمذي: صحيح.

سنة ٩- وفادة لقيط بن عامر بن المنتفق أبي رزين العقيلي إلى رسول الله ﷺ

قال عبد الله بن الإمام أحمد [١٣/٤، ١٤]: كتب إليّ إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مصعب بن الزبير الزبيري: كتبت إليك بهذا الحديث وقد عرضته وسمعته على ما كتبت به إليك فحدث بذلك عني. قال: حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي حدثني عبد الرحمن بن عياش السمعي الأنصاري القبائي من بني عمرو بن عوف عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلي عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر قال دلهم: وحدثنيه أبو الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيطاً خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق. قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله ﷺ المدينة انسلاخ رجب فأتينا رسول الله ﷺ فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الناس خطيبا. فقال: «أيها الناس الا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام ألا لأسمعنكم الا فهل من امرئ بعثه قومه» فقالوا: أعلم لنا ما يقول رسول الله الا ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضلال الا إني مسؤول هل بلغت الا اسمعوا تعيشوا ألا اجلسوا الا اجلسوا» قال: فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم أني أبتغي لسقطه. فقال: «ضنّ ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله» وأشار بيده قلت: وما هي؟ قال: «علم المنية قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعِلْمُ المَنِيِّ حين يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمون وعلم ما في غد وما أنت طاعم غداً ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزلين مستين فيظل يضحك قد علم أن غيركم إلى قريب» قال لقيط: قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً «وعلمُ يوم الساعة». قلت: يا رسول الله، علّمنا مما تُعلِّم الناسَ، وما تعلمُ، فأنا من قبيل لا يصدّقون تصديقنا أحد، من مذحج التي تربو علينا وخثعم التي توالينا وعشيرتنا التي نحن منها قال: «تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ثم تلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصائحة لعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك - عز وجلّ - فأصبح ربك عز وجل يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد فأرسل ربك السماء تهضب من عند العرش فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقّت القبر عنه حتى تخلفه من عند رأسه فيستوي جالسا فيقول ربك عز وجل: مهيم؟ - لما كان فيه - فيقول: يارب أمس اليوم فلعهده بالحياة يَحسَبُه حديثاً بأهله». قلت: يا رسول الله كيف يجمعنا بعد ما تمزّقنا الرياح والبلى والسباع؟ فقال: «أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله الأرض أشرفت عليها وهي مدرة بالية فقلت: لاتحيا أبداً ثم أرسل ربك عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أياما حتى أشرفت عليها وهي شرية واحدة فلعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء ومن مصارعكم فتنظرون إليه وينظر إليكم». قال: قلت: يا رسول الله وكيف ونحن ملء الأرض وهو عز وجل شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟! فقال: «أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة لا تضارون في رؤيتهما ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترونه من أن ترونهما ويريانكم لا تضارون في رؤيتهما».

قلت: يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ قال: «تعرضون عليه بادية له صحائفكم لا يخفى عليه منكم خافية فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء فينضح قَبِيلكم بها فلعمر إلهك ما تخطئ وجه أحدكم منها قطرة فأما المسلم فتدع على وجهه مثل الريطة البيضاء وأما الكافر فتخطمه بمثل الحمم الأسود الا ثم ينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون فتسلكون جسراً من النار فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حَسِّ فيقول ربك عز وجل أو أنه فتطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة عليها، ما

رأيتها قط، فلعمر إلهك لا يبسط واحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحداً» قال: قلت: يا رسول الله فبم نبصر؟ قال: «بمثل بصرك ساعتك هذه وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقت الأرض وواجهته الجبال». قال: قلت: يا رسول الله فبم نجزى من سيآتنا وحسناتنا؟ قال: «الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أن يعفو». قال: قلت: يا رسول الله إما الجنة وإما النار؟ قال: «لعمر إلهك إن للنار لسبعة أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما وان للجنة لثمانية أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما». قلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار من عسل مصفّى وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخيرٌ من مثله معه وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله ولنا فيها أزواج أو منهن مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذُّون بهنّ مثل لذاتكم في الدنيا ويلذُّون بكم غير أن لا توالد». قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه؟ فلم يجبه النبي ﷺ قلت: يا رسول الله علام أبايعك؟ فبسط النبي ﷺ يده وقال: «على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال المشرك وأن لا تشرك بالله إلها غيره». قال: قلت: وإن لنا ما بين المشرق والمغرب فقبض النبي ﷺ يده وظن أني مشترط شيئا لا يعطينيه. قال: قلت: نحل منها حيث شئنا ولا يجني منها امرؤ إلا على نفسه، فبسط يده وقال: «ذلك لك تحل حيث شئت ولا تجني عليك إلا نفسُك» قال: فانصرفنا عنه. ثم قال: «إن هذين من أتقى الناس - لعمرُ إلهك - في الأولى والآخرة» فقال له كعب بن الخدارية أحد بني بكر بن كلاب: مَن هم؟ يا رسول الله؟ قال: بنو المنتفق أهل ذلك قال: فانصرفنا وأقبلت عليه فقلت: يا رسول الله هل لأحد ممن مضى خير في جاهليتهم؟ قال: فقال رجل من عرض قريش: والله إن أباك المنتفق لفي النار قال: فلكأنه وقع حر بين جلدتي وجهي ولحمي مما قال، لأبي على رؤوس الناس فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأخرى أجمل فقلت: يارسول الله وأهلك؟ قال: «وأهلي لعمر الله، ما أتيت عليه من قبر عامري أو قرشي من مشرك فقل: أرسلني إليك محمد فأبشرك بما يسوؤك تجر على وجهك وبطنك في النار».

قال: قلت: يا رسول الله ما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه وقد كانوا يحسبون أنهم مصلحون؟ قال: «ذلك بأن الله يبعث في آخر كل سبع أمم - يعني نبيا - فمن عصى نبيه كان من الضالين ومن أطاع نبيه كان من المهتدين».

هذا حديث غريب جدا وألفاظه في بعضها نكارة.

وقد أخرجه الحافظ البيهقي في كتاب البعث والنشور وعبد الحق الأشبيلي في العاقبة والقرطبي في كتاب التذكرة في أحوال الآخرة [١٧٣] وسيأتي في كتاب البعث والنشور إن شاء الله تعالى.

سنة ٩- وفادة زياد بن الحارث الصُّدائي ﷺ

قال الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ٣٥٥/٥ - ٣٥٧]: أنبأنا أبو أحمد الأسداباذي بها، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي، حدثنا أبو علي بشر بن موسى حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، حدثني زياد بن نعيم الحضرمي، سمعت زياد بن الحارث الصدائي يحدث. قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، فأخبرت أنه قد بعث جيشاً إلى قومي فقلت: يا رسول الله اردد الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم. فقال لي: «اذهب فردهم» فقلت: يا رسول الله إن راحلتي قد كلت. فبعث رسول الله ﷺ رجلا فردهم، قال الصدائي: وكتبت إليهم كتابا فقدم وفدهم بإسلامهم فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك» فقلت: بل الله هداهم للإسلام فقال: «أفلا أؤمّرك عليهم؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: فكتب لي كتابا أمّرني فقلت: يا رسول الله مر لي بشيء من صدقاتهم قال: «نعم!» فكتب لي كتابا آخر.

قال الصدائي: وكان ذلك في بعض أسفاره، فنزل رسول الله ﷺ منزلا، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم، ويقولون: أخذنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «أو فعل ذلك؟» قالوا: نعم! فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأنا فيهم فقال: «لا خير في الإمارة لرجل مؤمن».

قال الصدائي: فدخل قوله في نفسي، ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله أعطني، فقال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس عن ظهر غنىً فصداع في الرأس وداء في البطن». فقال السائل: أعطني من الصدقة فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره، حتى حكم هو فيها، فجزأها ثمانية أجزاء،فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» قال الصدائي: فدخل ذلك في نفسي أني غني وأني سألته من الصدقة، قال: ثم إن رسول الله اعتشى من أول الليل، فلزمته وكنت قريبا، فكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون منه، ولم يبق معه أحد غيري، فلما كان أوان صلاة الصبح أمرني فأذّنت، فجعلت أقول: أقيم يا رسول الله؟ فجعل ينظر ناحية المشرق إلى الفجر، ويقول: «لا» حتى إذا طلع الفجر، نزل فتبرز ثم انصرف إليّ وهو متلاحق أصحابه فقال: «هل من ماء يا أخا صداء» قلت: لا إلا شيء قليل لا يكفيك، فقال: «اجعله في إناء ثم ائتني به» ففعلت،فوضع كفه في الماء قال: رأيت بين أصبعين من أصابعه عينا تفور، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أني أستحي من ربي عز وجل لسقينا واستقينا ناد في أصحابي: من له حاجة في الماء؟» فناديت فيهم، فأخذ من أراد منهم شيئا، ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة فأراد بلال أن يقيم، فقال له رسول الله: «إنّ أخا صداء أذّن ومن أذن فهو يقيم».

قال الصدائي: فاقمت، فلما قضى رسول الله الصلاة أتيته بالكتابين، فقلت: يا رسول الله أعفني من هذين. فقال: «ما بدا لك؟» فقلت: سمعتك يا رسول الله تقول: «لا خير في الإمارة لرجل مؤمن»، وأنا أومن بالله وبرسوله. وسمعتك تقول للسائل: «من سأل الناس عن ظهر غنى فهو صداع في الرأس وداء في البطن» وسألتك وأنا غني. فقال: «هو ذاك فإن شئت فاقبل وإن شئت فدع» فقلت: أدع: فقال لي رسول الله: «فدلني على رجل أؤمره عليكم» فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه، فامره عليهم، ثم قلنا: يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا،فقد أسلمنا وكل من حولنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا فيسعنا ماؤها، فنجتمع عليه، ولا نتفرق! فدعا بسبع حصيات فعركهن بيده ودعا فيهن، ثم قال: «اذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة واذكروا الله».

قال الصدائي: ففعلنا ما قال لنا فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها - يعني البئر -.

وهذا الحديث له شواهد في سنن أبي داود [٥١٤] والترمذي [١٩٩] وابن ماجه [٧١٧].

وقد ذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ كان بعث بعد عمرة الجعرانة قيس بن سعد بن عبادة في أربعمائة إلى بلاد صداء فيوطئها، فبعثوا رجلا منهم فقال: جئتك لترد عن قومي الجيش، وأنا لك بهم،ثم قدم وفدهم خمسة عشر رجلا، ثم رأى منهم حجة الوداع مائة رجل.

ثم روى الواقدي عن الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصدائي قصته في الأذان.

سنة ٩- وفادة الحارث بن حسان البكري إلى رسول الله ﷺ

قال الإمام أحمد [٤٨٢/٢]: حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث البكري. قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها. فقالت: ياعبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟» قلت: نعم! وكانت الدائرة عليهم.

ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت. فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت وأخذتها الحمية وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضرك؟ قال: قلت: إن مَثَلي ما قال الأول: معزّى حملت حتفها حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: هيه وما وافد عاد؟ وهي أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه. قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل فمرَّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنّيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللّهم إنك تعلم أنّي لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها: خذها رماداً رمْدِداً، لا تبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلاّ بقدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا قال - أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد.

وقد رواه الترمذي [٣٢٧٤] والنسائي [كبرى (٨٦٠٧)] من حديث أبي المنذر سلام بن سليمان به.

ورواه ابن ماجه [٢٨١٦] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود عن الحارث البكري ولم يذكر أبا وائل.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٤٨١/٣، ٤٨٢] عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث والصواب عن عاصم عن أبي وائل عن الحارث كما تقدم.

سنة ٩- وفادة عبد الرحمن بن أبي عقيل مع قومه

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٣٥٨/٥]: أنبأنا أبو عبد الله إسحاق بن محمد بن يوسف السوسي أنبأنا أبو جعفر محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي أنبأنا علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا أبو خالد يزيد الأسدي حدثنا عون بن أبي جحيفة عن عبد الرحمن بن علقمة الثقفي عن عبد الرحمن بن أبي عقيل. قال: انطلقت في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب وما في الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فلما دخلنا وخرجنا فما في الناس أحب إلينا من رجل دخلنا عليه. قال: فقال قائل منا: يارسول الله ألا سألت ربك مُلْكاً كملك سليمان قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «فلعل لصاحبك عند الله أفضل من ملك سليمان إن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا أعطاه دعوة فمنهم من اتخذها دنيا فأعطيها، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها، وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

سنة ٩- قدوم طارق بن عبد الله وأصحابه

روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٨٠/٥، ٣٨١] من طريق أبي جَنَاب الكلبي عن جامع بن شداد المحاربي حدثني رجل من قومي يقال له: طارق بن عبد الله قال: إني لقائم بسوق ذي المجاز إذ أقبل رجل عليه جبة وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وهو يقول: يا أيها الناس إنه كذاب، فلا تصدّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام من بني هاشم يزعم أنه رسول الله قال: قلت: من هذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى قال: فلما أسْلَم الناس وهاجروا خرجنا من الربذة نريد المدينة نمتار من تمرها فلما دنونا من حيطانها ونخلها قلت: لو نزلنا فلبسنا ثيابا غير هذه إذا رجل في طمرين فسلم علينا وقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة قال: وأين تريدون؟ قلنا: نريد هذه المدينة. قال: ما حاجتكم منها؟ قلنا: نمتار من تمرها. قال: ومعنا ظعينة لنا ومعنا جمل أحمر مخطوم فقال: أتبيعوني جملكم هذا؟ قلنا: نعم! بكذا وكذا صاعا من تمر قال: فما استوضعنا مما قلنا شيئا وأخذ بخطام الجمل وانطلق، فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا والله ما بعنا جملنا ممن يعرف ولا أخذنا له ثمنا قال: تقول المرأة التي معنا: والله لقد رأيت رجل كأن وجهه شقة القمر ليلة البدر أنا ضامنة لثمن جملكم، إذ أقبل الرجل فقال: أنا رسول الله إليكم هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا فاستوفينا ثم دخلنا المدينة فدخلنا المسجد فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول:

تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك إذ أقبل رجل من بني يربوع أو قال رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله لنا في هؤلاء دماء في الجاهلية. فقال: «إنّ أباً لا يجني على ولد - ثلاث مرات -».

وقد روى النسائي [٢٥٣١] فضل الصدقة منه عن يوسف بن عيسى عن الفضل بن موسى عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد عن جامع بن شداد عن طارق بن عبد الله المحاربي ببعضه.

ورواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٨١/٥] أيضا عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يزيد بن زياد عن جامع عن طارق بطوله كما تقدم وقال فيه: فقالت الظعينة: لا تلاوموا فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر ما رأيت شيئا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

سنة ٩- قدوم وافد فروة بن عمرو الجذامي صاحب بلاد معان بإسلامه على رسول الله ﷺ وأظن ذلك إما بتبوك أو بعدها

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩١/٢]: وبعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى اخذه فحبسوه عندهم. فقال في محبسه ذلك:

طرقت سليمى موهنا أصحابي والروم بين الباب والقروان
صد الخيال وساءه ما قد رأى وهممت أن أغفي وقد أبكاني
لا تكحلن العين بعدي إثمدا سلمى ولا تدنن للإتيان
ولقد علمت أبا كبيشة أنني وسط الأعزة لا يُحص لساني
فلئن هلكت لتفقدن أخاكم ولئن بقيت لتعرفن مكاني
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى من جودةٍ وشجاعةٍ وبيان

قال: فلما أجمعت الروم على صلبه على ماء لهم يقال له: عفرى بفلسطين. قال:

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمها مشذبة أطرافها بالمناجل

قال: وزعم الزهري أنهم لما قدموه ليقتلوه قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

قال: ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء رحمه الله ورضي عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

سنة ٩- قدوم تميم الداري على رسول الله ﷺ وإخباره إياه بأمر الجساسة

قال البيهقي [الدلائل: ٤١٦/٥، ٤١٧] أخبرنا أبو عبد الله سهل بن محمد بن نصرويه المروزي بنيسابور أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حبيب، أنبأنا يحيى بن أبي طالب (ح) وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: أنبأنا أبو سهل احمد بن محمد بن زياد القطان حدثنا يحيى بن جعفر بن الزبير أنبأنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت غيلان بن جرير يحدث عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت: قدم على رسول الله ﷺ تميم الداري فأخبر رسول الله ﷺ أنه ركب البحر فتاهت به سفينته فسقطوا إلى جزيرة فخرجوا إليها يلتمسون الماء فلقي إنسانا يجرُّ شعْرَه فقال له: من أنت؟ قال: أنا الجسَّاسة قالوا: فأخبرنا قال: لا أخبركم ولكن عليكم بهذه الجزيرة.

فدخلناها فإذا رجل مقيد فقال: من أنتم؟ قلنا: ناس من العرب قال: ما فعل هذا النبي الذي خرج فيكم؟ قلنا: قد آمن به الناس واتبعوه وصدقوه. قال: ذلك خير لهم قال: أفلا تخبروني عن عين زُغَرَ ما فعلت؟ فأخبرناه عنها فوثب وثبة كاد أن يخرج من وراء الجدار ثم قال: ما فعل نخل بيسان هل أطعَمَ بعدُ؟ فأخبرناه أنه قد أطعَمَ فوثب مثلها ثم قال: أما لو قد أذن لي في الخروج لوطئت البلاد كلها غير طيبة.

قالت: فأخرجه رسول الله ﷺ فحدث الناس فقال: «هذه طيبة وذاك الدجال».

وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد [٣٧٣/٦، ٣٧٤] ومسلم [٢٩٤٢] وأهل السنن [د (٤٣٢٦، ٤٣٢٧)، ت (٢٢٥٣)، س (كبرى ٤٢٥٨)، ج (٤٠٧٤)] من طرق عن عامر بن شراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس.

وقد أورد له الإمام أحمد شاهداً من رواية أبي هريرة وعائشة أم المؤمنين [٣٧٤/٦] وسيأتي هذا الحديث بطرقه وألفاظه في كتاب الفتن.

وذكر الواقدي وفد الدارس من لخم وكانوا عشرة.

سنة ٩- وفد بني أسد

وهكذا ذكر الواقدي: أنه قدم على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع وفد بني أسد وكانوا عشرة؛ منهم ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة بعد ذلك ثم أسلم وحسن إسلامه، ونُقادة بن عبد الله بن خلف. فقال له رئيسهم حضرمي بن عامر: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثا. فنزل فيهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكان فيهم قبيلة يقال لهم: بنو الزِّنْيَةِ فغير اسمهم فقال: أنتم بنو الرِّشدة.

وقد استهدى رسول الله ﷺ من نُقادة بن عبد الله بن خلف ناقة تكون جيدة للركوب وللحلب من غير أن يكون لها ولد معها فطلبها فلم يجدها إلا عند ابن عم له فجاء بها فأمره رسول الله ﷺ بحلبها فشرب منها وسقاه سؤره ثم قال: «اللهم بارك فيها وفيمن منحها». فقال: يا رسول الله وفيمن جاء بها فقال: «وفيمن جاء بها».

سنة ٩- وفد بني عبس

ذكر الواقدي: أنهم كانوا تسعة نفر وسماهم الواقدي فقال لهم النبي ﷺ: «إنا عاشركم» وأمر طلحة بن عبيد الله فعقد لهم لواء وجعل شعارهم: يا عشرة.

وذكر أن رسول الله ﷺ سألهم عن خالد بن سنان العبسي الذي قدمنا ترجمته في أيام الجاهلية فذكروا أنه لا عقب له وذكر أن رسول الله ﷺ بعثهم يرصدون عيراً لقريش قدمت من الشام وهذا يقتضي تقدم وفادتهم على الفتح والله أعلم.

سنة ٩- وفد بني فزارة

قال الواقدي: حدثنا عبد الله بن محمد بن عمر الجمحي عن أبي وجزة السعدي. قال: لما رجع رسول الله من تبوك وكان سنة تسعة قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلا فيهم:

خارجة بن حصن، والحارث بن قيس بن حصن، وهو أصغرهم على ركاب عجاف فجاؤوا مقرين بالإسلام وسألهم رسول الله عن بلادهم. فقال أحدهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جَنَابُنَا وغَرِثَ عيالنا، فادع الله لنا.

فصعد رسول الله المنبر ودعا فقال: «اللّهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت، اللّهم اسقنا غيثا مغيثاً مَرِيئاً مريعاً طبقا وأسعاً عاجلا غير آجل نافعا غير ضار، اللّهم اسقنا سقيًا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللّهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء».

قال: فمطرت فما رأوا السماء سبتاً فصعد رسول الله ﷺ المنبر فدعا فقال: «اللّهم حوالينا ولاعلينا اللّهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» فانجابت السماء عن المدينة انجياب الثوب.

سنة ٩- وفد بني مرة

قال الواقدي: إنهم قدموا سنة تسع عند مرجعه من تبوك وكانوا ثلاثة عشر رجلا رأسُهم الحارث بن عوف، فأجازهم عليه الصلاة والسلام بعشر أواق من فضة وأعطى الحارث بن عوف ثنتي عشرة أوقية، وذكروا أن بلادهم مجدبة فدعا لهم. فقال: «اللّهم اسقهم الغيث». فلما رجعوا إلى بلادهم وجدوها قد مطرت ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ.

سنة ٩- وفد بني ثعلبة

قال الواقدي: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن رجل من بني ثعلبة عن أبيه. قال: لما قدم رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان، قدمنا عليه أربعة نفر فقلنا: نحن رسل مَنْ خلفنا من قومنا وهم يقرون بالإسلام، فأمر لنا بضيافة وأقمنا أياما ثم جئناه لنودعه فقال لبلال: «أجزهم كما تجيز الوفد» فجاء بنُقَر من فضة فأعطى كل رجل منا خمس أواق وقال: «ليس عندنا دراهم» وانصرفنا إلى بلادنا.

سنة ٩- وفد بني محارب

قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح عن أبي وجزة السعدي. قال: قدم وفد محارب سنة عشر في حجة الوداع وهم عشرة نفر فيهم سواء بن الحارث، وابنه خزيمة بن سواء فأنزلوا دار رملة بنت الحارث، وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء فأسلموا وقالوا: نحن على مَنْ وراءنا. ولم يكن احد في تلك المواسم أفظ ولا أغلظ على رسول الله ﷺ منهم، وكان في الوفد رجل منهم فعرفه رسول الله ﷺ فقال: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل» ومسح رسول الله ﷺ وجه خزيمة بن سواء فصارت له غرة بيضاء وأجازهم كما يجيز الوفد وانصرفوا إلى بلادهم.

سنة ٩- وفد بني كلاب

ذكر الواقدي: أنهم قدموا سنة تسع وهم ثلاثة عشر رجلا، منهم: لبيد بن ربيعة الشاعر، وجبار بن سلمى وكان بينه وبين كعب بن مالك خلة فرحب به وأكرمه وأهدى إليه، وجاؤوا معه إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه بسلام الإسلام وذكروا له أن الضحاك بن سفيان الكلابي سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله التي أمره الله بها ودعاهم إلى الله فاستجابوا له وأخذ صدقاتهم من أغنيائهم فصرفها على فقرائهم.

سنة ٩- وفد بني رؤاس من كلاب

ذكر الواقدي: أن رجلا يقال له عمرو بن مالك بن قيس بن بجيد بن رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، قدم على رسول الله ﷺ فأسلم ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الله فقالوا: حتى نصيب من بني عقيل مثل ما أصابوا منا. فذكر مقتلةً كانت بينهم وأن عمرو بن مالك هذا قتل رجلا من بني عقيل. قال: فشددت يدي في غُلٍّ وأتيت رسول الله ﷺ وبلَغه ما صنعتُ فقال: «لئن أتاني لأضرب ما فوق الغل من يده».

فلما جئت سلمت فلم يرد عليّ السلام وأعرض عنّي فأتيته عن يمينه فأعرض عني فأتيته عن يساره فأعرض عني فأتيته من قبل وجهه فقلت: يا رسول الله إن الرب عز وجل ليرتضى فيرضى فارض عني رضي الله عنك. قال: «قد رضيت».

سنة ٩- وفد بني عقيل بن كعب

ذكر الواقدي: أنهم قدموا على رسول الله ﷺ فأقطعهم العقيق - عقيق بني عقيل - وهي أرض فيها نخيل وعيون وكتب لهم بذلك كتابا:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعا ومطرفاً وأنساً، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا ولم يعطهم حقا لمسلم». فكان الكتاب في يد مطرف.

قال: وقدم عليه أيضا لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل وهو أبو رزين فأعطاه ماء يقال له النظيم وبايعه على قومه؛ وقد قدمنا قدومه وقصته وحديثه بطوله ولله الحمد والمنة.

سنة ٩- وفد بني قشير بن كعب

وذلك قبل حجة الوداع، وقبل حنين: فذكر فيهم؛ قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير فأسلم فأعطاه رسول الله ﷺ وكساه برداً وأمره أن يلي صدقات قومه فقال قرة حين رجع:

حَبَاهَا رَسُولُ اللّـهِ إِذْ نَزَلَـتْ بِـهِ ... وأَمْكَنَهَـا مِـنْ نَـائِلٍ غَـيْرِ مُنْفَـدِ
فَأَضحَتْ بِروضِ الخضرِ وهي حثيثةٌ ... وقد أُنجحتْ حَاجَاتِها مِنْ مُحمـدِ
عَلَيْهَا فتى لا يردفُ الذم رحلـه ... تَـرُوكٌ لأمـرِ العـاجز المـتردد

سنة ٩- وفد بني البكاء

ذكر الواقدي أنهم قدموا سنة تسع وأنهم كانوا ثلاثين رجلا؛ فيهم: معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء وهو يومئذ ابن مائة سنة ومعه ابن له يقال له بشر فقال: يا رسول الله إني أتبرك بمسّك وقد كبرت وابني هذا برٌّ بي فامسح وجهه، فمسح رسول الله ﷺ وجهه وأعطاه أعنزاً عفراً وبرّك عليهم فكانوا لا يصيبهم بعد ذلك قحط ولا سنة. وقال: محمد بن بشر بن معاوية في ذلك:

وأبي الذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير والبركات
أعطاه أحمد إذ أتاه أعنزاً عفرا ثَواجلَ لسْنَ باللجّبات
يملأن وفد الحي كل عشيةٍ ويعود ذاك الملْءُ بالغدوات
بوركن من منحٍ وبورك مانحاً وعليه مني ما حييتُ صلاتي

سنة ٩- وفد كنانة

روى الواقدي بأسانيده [المغازي: ١٠٢٨/٣]: أن واثلة بن الأسقع الليثي قدم على رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فصلى معه الصبح ثم رجع إلى قومه فدعاهم وأخبرهم عن رسول الله ﷺ. فقال أبوه: والله لا أُكلّمك أبداً. وسمعت أخته كلامه فأسلمت وجهزته حتى سار مع رسول الله ﷺ إلى تبوك وهو راكب على بعير لكعب بن عجرة، وبعثه رسول الله ﷺ مع خالد إلى أكيدر دومة فلما رجعوا عرض واثلة على كعب بن عجرة ما كان شارطه عليه من سهمه منَ الغنيمة فقال له كعب: إنما حملتك لله عز وجل.

سنة ٩- وفد أشجع

ذكر الواقدي: أنهم قدموا عام الخندق وهم مائة رجل ورئيسهم مسعود بن رُخَيلة فنزلوا شعب سلع فخرج إليهم رسول الله وأمر لهم بأحمال التمر، ويقال: بل قدموا بعد ما فرغ من بني قريظة وكانوا سبع مائة رجل فوادعهم ورجعوا ثم أسلموا بعد ذلك.

سنة ٩- وفد باهلة

قدم رئيسهم مطرف بن الكاهن بعد الفتح فأسلم. وأخذ لقومه أمانا وكتب له كتابا فيه الفرائض وشرائع الإسلام كتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

سنة ٩- وفد بني سُلَيم

قال: وقدم على رسول الله ﷺ رجل من بني سليم يقال له: قيس بن نُشْبة فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله، ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه بني سليم فقال: سمعت ترجمة الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكهان وكلام مقاول حمير فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم، فأطيعوني وخذوا بنصيبكم منه.

فلما كان عام الفتح خرجت بنو سليم فلقوا رسول الله ﷺ بقديد وهم سبع مائة. ويقال: كانوا ألفا وفيهم: العباس بن مرداس وجماعة من أعيانهم فأسلموا وقالوا: اجعلنا في مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مقدّما. ففعل ذلك بهم. فشهدوا معه الفتح والطائف وحنينا وقد كان راشد بن عبد ربه السُّلَمي يعبد صنما فرآه يوما وثعلبان يبولان عليه فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم شد عليه فكسره ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فأسلم وقال له رسول الله ﷺ: «ما اسمك؟» قال: غاوي بن عبد العزى. فقال: «بل أنت راشد بن عبد ربه» وأقطعه موضعا يقال له: رهاط فيه عين تجري يقال لها: عين الرسول. وقال: هو خير بني سليم وعقد له على قومه وشهد الفتح وما بعدها.

سنة ٩- وفد بني هلال بن عامر

ذكر في وفدهم: عبد عوف بن أصرم فأسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقبيصة بن مخارق الذي له حديث في الصدقات، وذكر في وفد بني هلال زياد بن عبد الله بن مالك بن بُجَير بن الهُزَم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر فلما دخل المدينة تيمّم منزل خالته ميمونة بنت الحارث فدخل عليها فلما دخل رسول الله ﷺ منزله رآه فغضب ورجع. فقالت: يا رسول الله إنه ابن أختي فدخل ثم خرج إلى المسجد ومعه زياد فصلى الظهر ثم أدنا زياداً فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه فكانت بنو هلال تقول: ما زلنا نتعرف البركة في وجه زياد. وقال الشاعر لعلي بن زياد:

يا ابن الذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير عند المسجد
أعني زياداً لا أريد سواءه من عابر أو متهم أو منجد
ما زال ذاك النُّورُ في عرنينه حتى تبوأ بيته في ملحد

سنة ٩- وفد بني بكر بن وائل

ذكر الواقدي: أنهم لما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن قس بن ساعدة. فقال: «ليس ذاك منكم ذاك رجل من إياد تحنّف في الجاهلية فوافى عكاظ والناس مجتمعون، فكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه».

قال: وكان في الوفد بشير بن الخصاصية وعبد الله بن مرثد وحسان بن خوط. فقال رجل من ولد حسان:

أنا وحسان بن خوطٍ وأبي رسول بكرٍ كلها إلى النبي

سنة ٩- وفد بني تغلب

ذكر الواقدي أنهم كانوا ستة عشر رجلا مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب، فنزلوا دار رملة بنت الحارث فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية وأجاز المسلمين منهم.

سنة ٩- وفادات أهل اليمن: وفد تُجيب

ذكر الواقدي أنهم قدموا سنة تسع وأنهم كانوا ثلاثة عشر رجلا فأجازهم أكثر ما أجاز غيرهم وأن غلاما منهم قال له رسول الله ﷺ: «ما حاجتك؟» فقال: يا رسول الله ادع الله يغفر لي ويرحمني ويجعل غنائي في قلبي. فقال: «اللّهم اغفر له وارحمه، واجعل غناه في قلبه». فكان بعد ذلك من أزهد الناس.

سنة ٩- وفد خولان

ذكر الواقدي أنهم كانوا عشرة وأنهم قدموا في شعبان سنة عشر وسألهم رسول الله ﷺ عن صنمهم الذي كان يقال له: عَمُّ أنس فقالوا: أبدلنا به خيراً منه ولو قد رجعنا لهدمناه، وتعلموا القرآن والسنن فلما رجعوا هدموا الصنم، وأحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله.

سنة ٩- وفد جعفي

ذكر الواقدي أنهم كانوا يحرموا اكل القلب فلما أسلم وفدهم أمرهم رسول الله ﷺ بأكل القلب وأمر به فشوي وناوله رئيسهم وقال: «لا يتم إيمانكم حتى تأكلوه» فاخذه ويده ترعد فاكله وقال:

على أني أكلت القلب كرها وتُرْعَدُ حين مسَّته بناني

ثم ذكر: وفد كندة وأنهم كانوا بضعة عشر راكبا عليهم: الأشعث بن قيس وأنه أجازهم بعشر أواق وأجاز الأشعث ثنتي عشرة أوقية وقد تقدم.

سنة ٩- وفد الصدف

قدموا في بضعة عشر راكبا فصادفوا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر فجلسوا ولم يسلّموا فقال: «أمسلمون أنتم؟» قالوا: نعم! قال: «فهلا سلمتم» فقاموا قياما فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليكم السلام، اجلسوا» فجلسوا وسألوا رسول الله ﷺ عن أوقات الصلوات.

سنة ٩- وفد خشين

قال: وقدم أبو ثعلبة الخشني ورسول الله ﷺ يجهز إلى خيبر فشهد معه خيبر، ثم قدم بعد ذلك بضعة عشر رجلا منهم فأسلموا.

سنة ٩- وفد بني سعد

ثم ذكر وفد بني سعد هذيم وبلي وبهراء وبني عذرة وسلامان وجهينة وبني كلب والجرميين وقد تقدم حديث عمرو بن سلمة الجرمي في صحيح البخاري.

وذكر: وفد الأزد وغسان والحارث بن كعب وهمدان وسعد العشيرة وعَنْس، ووفد الداريين والرَّهاويِّين وبني غامد والنَّخَع وبجيلة وخثعم وحضرموت. وذكر فيهم وائل بن حجر وذكر فيهم الملوك الأربعة: جَمْداً ومِخْوسا ومِشْرحاً وأبضَعَة.

وقد ورد في مسند أحمد [٣٨٧/٤] نعتهم مع أختهم العَمَرْدَة؛ وتكلم الواقدي كلاما فيه طول.

وذكر وفد أزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحُدّان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان. وبسط الكلام على هذه القبائل بطول جدا، وقد قدمنا بعض ما يتعلق بذلك وفيما أوردناه كفاية والله أعلم. ثم قال الواقدي:

سنة ٩- وافد السباع

حدثني شعيب بن عبادة عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: بينا رسول الله ﷺ جالس بالمدينة في أصحابه أقبل ذئب فوقف بين يديه فعوى. فقال رسول الله ﷺ: «هذا وافد السباع إليكم! فإن أحببتم أن تفرضوا له شيئا لا يعدوه إلى غيره وإن أحببتم تركتموه وتحرزتم منه فما أخذ فهو رزقه». قالوا: يا رسول الله ما تطيب أنفسنا له بشيء فأومأ إليه النبي بأصابعه الثلاث أي خالسهم فولى وله عسلان [طبقات ابن سعد: ٣٥٩/١، عن الواقدي، به].

وهذا مرسل من هذا الوجه ويشبه هذا الذئب الذئب الذي ذكر في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٨٣/٣، ٨٤]: حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا القاسم بن الفضل الحداني عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري. قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبها الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه فقال: الا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ فقال: يا عجبا ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس. فقال الذئب: الا اخبرك باعجب من ذلك؟ محمد رسول الله ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق.

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعةً. ثم خرج فقال للأعرابي: «أخبرهم» فأخبرهم فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنسَ وتكلم الرجل عَذَبَةُ سوطه وشراك نُعله ويُخْبِرُه فخذه بما أحدث أهله بعده».

وقد رواه الترمذي [٢١٨١] عن سفيان بن وكيع بن الجراح عن أبيه عن القاسم بن الفضل به وقال: حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل به وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث وثّقه يحيى وابن مهدي.

قلت: وقد رواه الإمام أحمد [٨٨/٣، ٨٩] أيضا: حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب هو ابن أبي حمزة حدثني عبد الله بن أبي الحسين حدثني شهرٌ أنّ أبا سعيد الخدري حدثه. فذكر هذه القصة بطولها بأبسط من هذا السياق.

ثم رواه أحمد [٨٩/٣]: حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر قال: وحدث أبو سعيد. فذكره.

وهذا السياق أشبه والله أعلم وهو إسناد على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

سنة ٩- قدوم وفد الأزد على رسول الله ﷺ

ذكر أبو نعيم في كتاب «معرفة الصحابة» [حلية الأولياء: ٢٧٩/٩] والحافظ أبو موسى المديني من حديث أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني قال: حدثني علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال: حدثني أبي عن جدي عن سويد بن الحارث. قال: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه فأعجبه ما رأى من سمتنا وزينا فقال: «ما أنتم؟» قلنا: مؤمنون فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟» قال سويد: قلنا: خمس عشرة خصلة؛ خمس منها أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئا. فقال رسول الله ﷺ: «ما الخمسة التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت قال: «وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا. فقال: «وما الخمسة الذي تخلقتم بها في الجاهلية؟» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال رسول الله ﷺ: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال: «وأنا أزيدكم خمسا فتتِمُّ لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون» فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها.

سنة ٩- وفود الجن

وقد تقدم ذكر وفود الجن بمكة قبل الهجرة وقد تقصينا الكلام في ذلك عند قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ فذكرنا ما ورد من الأحاديث في ذلك والآثار وأوردنا حديث سواد بن قارب الذي كان كاهنا فأسلم. وما رواه عن رئيه الذي كان يأتيه بالخبر حين أسلم الرَّئيُّ، حين قال له:

عجبتُ للجن وأنجاسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجن كأرجاسها
فانهض إلى الصَّفوة من هاشم ... واسْمُ بعينيك إلى رأسها

ثم قوله:

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس قُدّامها كأذنابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينيك إلى نابها

ثم قوله:

عجبت للجن وتخبارها ... وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... ما مؤمنو الجن ككفارها

وهذا وأمثاله مما يدل على تكرار وفود الجن إلى مكة وقد قررنا ذلك هنالك بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي ها هنا حديثا غريبا جداً بل منكراً أو موضوعا ولكن مخرجه عزيز أحببنا أن نورده كما أورده والعجب منه فإنه قال في دلائل النبوة [٤١٨/٥ - ٤٢٠]: باب قدوم هامة بن هَيْم بن لاقيس بن إبليس على النبي ﷺ وإسلامه.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي رحمه الله أنبأنا أبو نصر محمد بن حمدويه بن سهل الغازي المروزي حدثنا عبد الله بن حماد الآملي حدثنا محمد بن أبي معشر أخبرني أبي عن نافع عن ابن عمر قال: قال عمر رضي الله عنه: بينا نحن قعود مع النبي ﷺ على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ بيده عصا فسلم على النبي ﷺ فرد عليه النبيُّ ﷺ ثم قال: «نغمة جن وغمغمتهم من أنت؟» قال: أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس. فقال النبي ﷺ: «فما بينك وبين إبليس إلا أبوان فكم أتى لك من الدهر» قال: قد أفنيت الدنيا عمرها إلا قليلا ليالي قتل قابيل هابيل كنت غلاما ابن أعوام أفهم الكلام وأمر بالآكام وآمر بإفساد الطعام وقطيعة الأرحام. فقال رسول الله ﷺ: «بئس عمل الشيخ المتوسِّم، والشاب المتلوِّم» قال: ذرني من الترداد إني تائب إلى الله عز وجل، إني كنت مع نوح في مسجده مع من آمن به من قومه فلم أزل أعاتبه على دعوته على قومه حتى بكى وأبكاني وقال: لا جرم أني على ذلك من النادمين وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال: قلت: يا نوح إني كنت ممن اشترك في دم السعيد الشهيد هابيل بن آدم فهل تجد لي عند ربِّك توبة؟ قال: يا هامُ هُمَّ بالخير وافعله قبل الحسرة والندامة إني قرأت فيما أنزل الله عليّ أنه ليس من عبد تاب إلى الله بالغ أمره ما بلغ إلا تاب الله عليه، قم فتوضأ واسجد لله سجدتين قال: ففعلت من ساعتي ما أمرني به. فناداني: ارفع رأسك فقد نزلت توبتك من السماء فخررت لله ساجداً.

قال: وكنت مع هود في مسجده مع من آمن به من قومه فلم أزل أعاتبه على دعوته على قومه حتى بكى عليهم وأبكاني فقال: لا جرم أني على ذلك من النادمين وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، قال: وكنت مع صالح في مسجده مع من آمن به من قومه فلم أزل أعاتبه على دعوته على قومه حتى بكى عليهم وأبكاني وقال: أنا على ذلك من النادمين وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، وكنت أزور يعقوب، وكنت مع يوسف في المكان الأمين، وكنت ألقى إلياس في الأودية وأنا ألقاه الآن، وأني لقيت موسى بن عمران فعلمني من التوراة وقال: إن لقيت عيسى بن مريم فأقرئه مني السلام. وإني لقيت عيسى بن مريم فأقرأته عن موسى السلام، وإن عيسى قال: إن لقيت محمداً ﷺ فأقرئه مني السلام فأرسل رسول الله ﷺ عينيه فبكى ثم قال: «وعلى عيسى السلام ما دامت الدنيا وعليك السلام يا هام بأدائك الأمانة». قال: يا رسول الله افعل بي ما فعل موسى إنه علمني من التوراة قال: فعلمه رسول الله ﷺ: إذا وقعت الواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وقال: «ارفع إلينا حاجتك يا هامة، ولا تدع زيارتنا». قال عمر: فقبض رسول الله ﷺ ولم يَنْعَهُ إلينا فلا ندري الآن أحي هو أم ميت؟.

ثم قال البيهقي: أبو معشر قد روى عنه الكبار إلا أن أهل العلم بالحديث يضعفونه. وقد روي هذا الحديث من وجه آخر هو أقوى منه والله أعلم.

سنة ١٠- بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٢/٢ - ٥٩٤]: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ كما أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا.

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد النبي رسول الله من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا: يا بني الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين اظهرهم آمرهم بما امرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ، حتى يكتب إلي رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك تُخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم وأقبل، وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب؛ منهم قيس بن الحصين ذو الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد الزيادي، وشداد بن عبيد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي.

فلما قدموا علي رسول الله ﷺ ورآهم قال: «مَن هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟» قيل: يا رسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» ثم قال: «أنتم الذين إذا زُجروا استقْدموا» فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية، ثم الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة. فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله! نحن الذين إذا زُجروا استقْدموا، قالها أربع مرات. فقال رسول الله ﷺ: «لو أن خالداً لم يكتب إلي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم» فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً! قال: «فمن حمدتم؟» قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «صدقتم». ثم قال: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: لم نك نغلب أحداً، قال: «بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم». قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنّا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم». ثم أمّر عليهم قيس بن الحصين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٤/٢]: ثم رجعوا إلى قومهم في بقية شوال أو في صدر ذي القعدة.

قال: ثم بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده وأمره أمرَه.

ثم أورده ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٤/٢ - ٥٩٦]. وقد قدمناه في وفد ملوك حمير من طريق البيهقي، وقد رواه النسائي [٤٨٥٧] نظير ما ساقه محمد بن إسحاق بغير إسناد.

سنة ١٠- بعث رسول الله ﷺ الأمراءَ إلى أهل اليمن قبل حجة الوداع يدعونهم إلى الله عز وجل

قال البخاري [٤٣٤١، ٤٣٤٢]: باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع:

حدثنا موسى، ثنا أبو عوانة، ثنا عبد الملك عن أبي بردة، قال بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان. ثم قال: «يَسِّرا ولا تعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا» وفي رواية [خ (٣٠٣٨)، م (١٧٣٣) (٧)]: «وتطاوعا ولا تختلفا»، وانطلق كل واحد منهما إلى عمله، قال: وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلّم عليه، فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، فإذا هو جالس وقد اجتمع الناس إليه، وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس أيّمَ هذا؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه، قال: لا أنزل حتى يقتل، قال: إنما جيء به لذلك، فانزل. قال: ما أنزل حتى يقتل، فأمر به فقتل ثم نزل. فقال: يا عبد الله كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقاً، قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فاقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

انفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه.

ثم قال البخاري [٤٣٤٣]: ثنا إسحاق، ثنا خالد عن الشيباني، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فسأله عن أشربة تصنع بها، فقال: «ما هي؟» قال: البتع والمزر، فقلت لأبي بردة: ما البتع؟ قال: نبيذ العسل، والمزر نبيذ الشعير. فقال: «كل مسكر حرام».

رواه جرير وعبد الواحد عن الشيباني، عن أبي بردة.

ورواه مسلم [١٧٣٣ مختصراً] من حديث سعيد بن أبي بردة.

وقال البخاري [٤٣٤٧]: حدثنا حبان، أنبأنا عبد الله عن زكريا بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد مولى ابن عباس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم

أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (١٩)، د (١٥٨٤)، ت (٦٢٥ و٢٠١٤)، س (٢٤٣٥)، ج (١٧٨٣)] من طرق متعددة.

وقال الإمام أحمد [٢٣٥/٥]: حدثنا أبو المغيرة، ثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد عن عاصم بن حميد السكوني، عن معاذ بن جبل. قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري»، فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا».

ثم رواه [المسند: ٢٣٥/٥] عن أبي اليمان عن صفوان بن عمرو، عن راشد بن سعد، عن عاصم بن حميد السكوني: أن معاذاً لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته؛ فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري» فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ. فقال: «لا تبك يا معاذ للبكاء أوان، البكاء من الشيطان».

وقال الإمام أحمد [٢٣٥/٥]: حدثنا أبو المغيرة، ثنا صفوان، حدثني أبو زياد يحيى بن عبيد الغساني، عن يزيد بن قطيب، عن معاذ أنه كان يقول: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «لعلك أن تمر بقبري ومسجدي، فقد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم، يقاتلون على الحق مرتين؛ فقاتل بمن أطاعك منهم من عصاك، ثم يفيئون إلى الإسلام حتى تبادر المرأة زوجها والولد والده والأخ أخاه، فانزل بين الحيين السكون والسكاسك».

وهذا الحديث فيه إشارة وظهور وإيماء إلى أن معاذاً رضي الله عنه لا يجتمع بالنبي ﷺ بعد ذلك؛ وكذلك وقع فإنه أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع، ثم كانت وفاته عليه الصلاة والسلام بعد أحد وثمانين يوماً من يوم الحج الأكبر.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد [٢٢٧/٥، ٢٢٨]: حدثنا وكيع عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن معاذ؛ أنه لما رجع من اليمن قال: يا رسول الله رأيت رجالا باليمن يسجد بعضهم لبعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لو كنت آمر بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وقد رواه أحمد [٢٢٨/٥] عن ابن نمير، عن الأعمش، سمعت أبا ظبيان يحدث عن رجل من الأنصار، عن معاذ بن جبل قال: أقبل معاذ من اليمن فقال: يا رسول الله إني رأيت رجالا. فذكر معناه.

فقد دار على رجل مُبْهَم، ومثله لا يحتج به، لا سيما وقد خالفه غيره ممن يعتد به، فقالوا: لما قدم معاذ من الشام كذلك رواه أحمد.

وقال أحمد [٢٤٢/٥]: حدثنا إبراهيم بن مهدي، ثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن معاذ بن جبل. قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله».

وقال أحمد [٢٢٨/٥]: ثنا وكيع، ثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ: أن رسول الله ﷺ قال: «يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» قال وكيع: وجدته في كتابي عن أبي ذر، وهو السماع الأول، وقال سفيان مرة عن معاذ.

ثم قال الإمام أحمد [٢٣٦/٥]: حدثنا إسماعيل عن ليث، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ. أنه قال: يا رسول الله أوصني، فقال: «اتق الله حيثما كنت» قال: زدني قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»، قال: زدني قال: «خالق الناس بخلق حسن».

وقد رواه الترمذي في جامعه [١٩٨٧] عن محمود بن غيلان عن وكيع، عن سفيان الثوري به، وقال: حسن.

قال شيخنا في الأطراف [تحفة الأشراف: ٤١٧/٨ ـ ٤١٨]: وتابعه فضيل بن عياض عن ليث بن أبي سليم، والأعمش، عن حبيب به.

وقال أحمد [٢٣٨/٥]: حدثنا أبو اليمان، ثنا إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي، عن معاذ بن جبل. قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئاً، وإن قتلت وحرقت، ولا تَعُقَّنَّ والدَيْك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمراً فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية يحل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف، وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت، وانفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدباً، وأخفهم في الله عز وجل».

وقال الإمام أحمد [٢٤٣/٥، ٢٤٤]: حدثنا يونس، ثنا بقية عن السري بن ينعم، عن مُرَيح بن مسروق، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن. قال: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

وقال أحمد [٢٣٣/٥]: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي، ثنا أبو بكر ـ يعني ابن عياش ـ ثنا عاصم عن أبي وائل، عن معاذ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأمرني أن آخذ من كل حالم ديناراً، أو عدله من المعافر، وأمرني أن آخذ من كل أربعين بقرة مسنة، ومن كل ثلاثين بقرة تبيعاً حولياً، وأمرني فيما سقت السماء العشر، وما سقي بالدوالي نصف العشر.

وقد رواه أبو داود [١٥٧٦] من حديث أبي معاوية، والنسائي [٢٤٥٣] من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش كذلك.

وقد رواه أهل السنن الأربعة [د (١٥٧٨)، ت (٦٢٣)، س (٢٤٥٣)، ج (١٨٠٣)] من طرق عن الأعمش، عن أبي وائل، عن مسروق، عن معاذ.

وقال أحمد [٢٤٠/٥]: ثنا معاوية عن عمرو وهارون بن معروف، قالا: ثنا عبد الله بن وهب عن حيوة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سلمة بن أسامة، عن يحيى بن الحكم: أن معاذاً قال: بعثني رسول الله ﷺ أصدق أهل اليمن، فأمرني أن آخذ من البقر من كل ثلاثين تبيعاً، قال هارون ـ والتبيع الجذع أو الجذعة ـ ومن كل أربعين مسنة؛ فعرضوا علي أن آخذ ما بين الأربعين والخمسين، وما بين الستين والسبعين، وما بين الثمانين والتسعين، فأبيت ذلك. وقلت لهم: حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقدمت فأخبرت النبي ﷺ فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين تبيعاً ومن كل أربعين مسنة، ومن الستين تبيعين، ومن السبعين مسنة وتبيعاً، ومن الثمانين مسنتين، ومن التسعين ثلاثة أتباع، ومن المائة مسنة وتبيعين، ومن العشرة ومائة مسنتين وتبيعاً، ومن العشرين ومائة ثلاث مسنات أو أربعة أتباع.

قال: وأمرني رسول الله ﷺ أن لا آخذ فيما بين ذلك شيئاً إلا أن

يبلغ مسنة أو جَذَعاً. وزعم أن الأوقاص لا فريضة فيها.

وهذا من أفراد أحمد، وفيه دلالة على أنه قدم بعد مصيره إلى اليمن على رسول الله ﷺ، والصحيح أنه لم ير النبي ﷺ بعد ذلك كما تقدم في الحديث.

وقد قال عبد الرزاق [المصنف (١٥١٧٧)]: أنبأنا معمر عن الزهري، عن أبي بن كعب بن مالك. قال: كان معاذ ابن جبل شاباً جميلاً سمحاً من خير شباب قومه، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، حتى كان عليه دين أغلق ماله، فكلم رسول الله ﷺ في أن يكلم غرماءه ففعل. فلم يضعوا له شيئاً، فلو ترك لأحد بكلام أحد لترك لمعاذ بكلام رسول الله ﷺ، قال: فدعاه رسول الله فلم يبرح أن باع ماله وقسمه بين غرمائه. قال: فقام معاذ ولا مال له، قال: فلما حج رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن ليَجْبُرَه، قال: فكان أول من تجر في هذا المال معاذ.

قال: فقدم على أبي بكر الصديق من اليمن وقد توفي رسول الله ﷺ، فجاء عمر فقال: هل لك أن تطيعني فتدفع هذا المال إلى أبي بكر، فإن أعطاكه فاقبله، قال: فقال معاذ: لم أدفعه إليه وإنما بعثني رسول الله ﷺ ليجبرني، فلما أبى عليه انطلق عمر إلى أبي بكر فقال: أرسل إلى هذا الرجل فخذ منه ودع له. فقال أبو بكر: ما كنت لأفعل إنما بعثه رسول الله ﷺ ليجبره، فلست آخذ منه شيئاً. قال: فلما أصبح معاذ انطلق إلى عمر فقال: ما أراني إلا فاعل الذي قلت إنني رأيتني البارحة في النوم - فيما يحسب عبد الرزاق قال - أجرّ إلى النار، وأنت آخذ بحجزتي قال: فانطلق إلى أبي بكر بكل شيء جاء به، حتى جاءه بسوطه، وحلف له أنه لم يكتمه شيئاً. قال فقال أبو بكر رضي الله عنه: هو لك لا آخذ منه شيئاً.

وقد رواه ابن ثور عن معمر، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، فذكره إلا أنه قال: حتى إذا كان عام فتح مكة بعثه، رسول الله ﷺ على طائفة من اليمن أميراً، فمكث حتى قبض رسول الله ﷺ، ثم قدم في خلافة أبي بكر، وخرج إلى الشام.

قال البيهقي [الدلائل: ٤٠٥/٥]: وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ استخلفه بمكة مع عتاب بن أسيد ليعلم أهلها، وأنه شهد غزوة تبوك؛ فالأشبه أنّ بعْثَه إلى اليمن كان بعد ذلك، والله أعلم.

ثم ذكر البيهقي [الدلائل: ٤٠٦/٥، ٤٠٧] لقصة منام معاذ شاهداً من طريق الأعمش عن أبي وائل، عن عبد الله وأنه كان من جملة ما جاء به عبيد فأتى بهم أبا بكر، فلما ردّ الجميع عليه رجع بهم، ثم قام يصلي فقاموا كلهم يصلون معه، فلما انصرف. قال: لمن صليتم؟ قالوا: لله، قال: فأنتم له عتقاء فأعتقهم.

وقال الإمام أحمد [٢٣٠/٥]: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن أبي عون، عن الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة، عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص، عن معاذ، أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟»، قال: فسنة رسول الله ﷺ قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟»، قال: أجتهد برأيي لا آلو. قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله».

وقد رواه أحمد [٢٤٢/٥] عن وكيع، عن عفان، عن شعبة بإسناده ولفظه.

وأخرجه أبو داود [٣٥٩٢، ٣٥٩٣] والترمذي [١٣٢٧، ١٣٢٨] من حديث شعبة به، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل.

وقد رواه ابن ماجه [٥٥] من وجه آخر عنه إلا أنه من طريق محمد بن سعيد بن حسان - وهو المصلوب أحد الكذابين - عن عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ به نحوه.

وقد روى الإمام أحمد [٢٣٠/٥، ٢٣٦] عن محمد بن جعفر، ويحيى بن سعيد، عن شعبة، عن عمرو بن أبي حكيم، عن عبد الله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر، عن أبي الأسود الدئلي. قال: كان معاذ باليمن فارتفعوا إليه في يهودي مات، وترك أخا مسلماً. فقال معاذ: إنـي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الإسلام يزيد ولا ينقص» فورثه.

ورواه أبو داود [٢٩١٢، ٢٩١٣] من حديث ابن بريدة به.

وقد حكي هذا المذهب عن معاوية بن أبي سفيان ورواه يحيى بن يعمر القاضي، وطائفة من السلف، وإليه ذهب إسحاق بن راهويه، وخالفهم الجمهور، ومنهم الأئمة الأربعة وأصحابهم محتجين بما ثبت في الصحيحين [خ (٤٢٨٢)، م (١٦١٤)] عن أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر».

والمقصود أن معاذاً رضي الله عنه كان قاضياً للنبي ﷺ باليمن، وحاكماً في الحروب، ومصدّقاً إليه تدفع الصدقات كما دل عليه حديث ابن عباس المتقدم، وقد كان بارزاً للناس يصلي بهم الصلوات الخمس، كما قال البخاري [٤٣٤٨]:

حدثنا سليمان بن حرب، ثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون، أن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] فقال رجل من القوم: لقد قرّت عين أمّ إبراهيم. انفرد به البخاري.

ثم قال البخاري [٤٣٤٩]:

سنة ١٠- بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع

حدثنا أحمد بن عثمان، ثنا شريح بن مسلمة، ثنا إبراهيم بن يوسف بن أبي إسحاق، حدثني أبي، عن أبي إسحاق، سمعت البراء بن عازب قال: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، قال: «مر أصحاب خالد مَن شاء منهم أن يعقّب معك فليعقب، ومن شاء فليقبل» فكنت فيمن عقب معه، قال: فغنمت أواقي ذات عدد.

انفرد به البخاري من هذا الوجه.

ثم قال البخاري [٤٣٥٠]: حدثنا محمد بن بشار، ثنا روح بن عبادة، ثنا علي بن سويد بن منجوف عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد بن الوليد ليقبض الخمس، وكنت أبغض علياً فأصبح وقد اغتسل، فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا؟ فلما قدمنا على النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال: «يا بريدة! تبغض علياً؟» فقلت: نعم! فقال: «لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك».

انفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣٥٠/٥، ٣٥١]: حدثنا يحيى بن سعيد، ثنا عبد

الجليل قال: انتهيت إلى حلقة فيها أبو مجلز وابن بريدة فقال عبد الله بن بريدة: حدثني أبي بريدة قال: أبغضت علياً بغضاً لم أبغضه أحداً قط، قال: وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا على بغضه علياً، قال: فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه إلا على بغضه علياً قال: فأصبنا سبياً، قال: فكتب إلى رسول الله ﷺ ابعث إلينا من يخمّسه قال: فبعث إلينا علياً، وفي السبي وصيفة من أفضل السبي. قال: فخمّس وقسّم فخرج ورأسه يقطر فقلنا: يا أبا الحسن ما هذا؟ فقال: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي فإني قسّمت وخمّست فصارت في الخمس، ثم صارت في أهل بيت النبي ﷺ، ثم صارت في آل علي ووقعت بها، قال: فكتب الرجل إلى نبي الله ﷺ فقلت: ابعثني؛ فبعثني مصدّقاً، فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صَدَق، قال: فأمسك يدي والكتاب فقال: «أتبغض علياً؟» قال: قلت: نعم! قال: «فلا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً فوالذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة».

قال: فما كان من الناس أحد بعد قول النبي ﷺ أحب إلي من علي. قال عبد الله بن بريدة: فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي ﷺ في هذا الحديث غير أبي بريدة.

تفرد به بهذا السياق عبد الجليل بن عطية الفقيه أبو صالح البصري، وثقه ابن معين وابن حبان. وقال البخاري: إنما يهم في الشيء بعد الشيء.

وقال محمد بن إسحاق: ثنا أبان بن صالح عن عبد الله بن نيار الأسلمي، عن خاله عمرو بن شاس الأسلمي، وكان من أصحاب الحديبية. قال: كنت مع علي بن أبي طالب في خيله التي بعثه فيها رسول الله ﷺ إلى اليمن، فجفاني علي بعض الجفاء، فوجدت في نفسي عليه، فلما قدمت المدينة اشتكيته في مجالس المدينة وعند من لقيته، فأقبلت يوماً ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، فلما رآني أنظر إلى عينيه، نظر إلي حتى جلست إليه، فلما جلست إليه قال: «إنه والله يا عمرو بن شاس لقد آذيتني» فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون أعوذ بالله والإسلام أن أوذي رسول الله ﷺ. فقال: «من آذى علياً فقد آذاني».

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٥/٣٩٥] من وجه آخر عن ابن إسحاق، عن أبان عن الفضل بن معقل بن سنان، عن عبد الله بن نيار، عن خاله عمرو بن شاس، فذكره بمعناه.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٥/٣٩٦]: أنبانا محمد بن عبد الله الحافظ، أنبانا أبو إسحاق المزكّي، أنبانا أبو عبد الله أحمد بن علي الجوزجاني، ثنا أبو عبيدة بن أبي السفر، سمعت إبراهيم بن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن البراء: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه.

ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالداً إلا رجلا كان ممن مع خالد، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي، ثم صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان السلام على همدان».

قال البيهقي: رواه البخاري [٤٣٤٩] مختصراً من وجه آخر عن إبراهيم بن يوسف.

وقال البيهقي [الدلائل: ٥/٣٩٨، ٣٩٩] أخبرنا أبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل القطان، أنبانا أبو سهل بن زياد القطان، حدثنا أبو إسحاق: إسماعيل بن إسحاق القاضي، ثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أخي عن سليمان بن بلال، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة، عن أبي سعيد الخدري؛ أنه قال: بعث رسول الله علي بن أبي طالب إلى اليمن. قال أبو سعيد: فكنت فيمن خرج معه، فلما أخذ من إبل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح إبلنا وكنا قد رأينا في إبلنا خللا فأبى علينا وقال: إنما لكم فيها سهم كما للمسلمين.

قال: فلما فرغ علي وانطلق من اليمن راجعاً، أمر علينا إنساناً وأسرع هو، فأدرك الحج، فلما قضى حجته قال له النبي ﷺ: «ارجع إلى أصحابك حتى تقدم عليهم» فقال أبو سعيد: وقد كنا سألنا الذي استخلفه ما كان علي منعنا إياه ففعل، فلما عرف في إبل الصدقة أنها قد ركبت، ورأى أثر الراكب ذمّ الذي أمره ولامه. فقلت: أما إن لله علي لئن قدمت المدينة لأذكرن لرسول الله ﷺ، ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق.

قال: فلما قدمنا المدينة غدوت إلى رسول الله ﷺ أريد أن أفعل ما كنت حلفت عليه، فلقيت أبا بكر خارجاً من عند رسول الله ﷺ، فلما رآني وقف معي ورحب بي وساءلني وساءلته. وقال: متى قدمت؟ فقلت: قدمت البارحة، فرجع معي إلى رسول الله ﷺ فدخل، وقال: هذا سعد بن مالك بن الشهيد. فقال «ائذن له» فدخلت فحييت رسول الله ﷺ وحياني وأقبل علي وسألني عن نفسي وأهلي، وأحفى المسألة فقلت: يا رسول الله ما لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق، فانتبذ رسول الله ﷺ وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه، حتى إذا كنت في وسط كلامي ضرب رسول الله ﷺ على فخذي، وكنت منه قريباً وقال «يا سعد بن مالك ابن الشهيد مه بعض قولك لأخيك علي، فو الله لقد علمت أنه أخشَنَ في سبيل الله». قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك سعد بن مالك الا اراني كنت فيما يكره منذ اليوم، وما أدري لا جرم والله لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية.

وهذا إسناد جيد على شرط النسائي، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وقد قال يونس عن محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عبد الله بن أبي عمرة عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة قال: إنما وجد جيش علي بن أبي طالب الذين كانوا معه باليمن لأنهم حين أقبلوا خلف عليهم رجلا، وتعجل إلى رسول الله ﷺ، قال: فعمد الرجل فكسى كل رجل حلة، فلما دنوا خرج علي يستقبلهم، فإذا عليهم الحلل قال علي: ما هذا؟ قالوا: كسانا فلان. قال: فما دعاك إلى هذا قبل أن تقدم على رسول الله ﷺ فيصنع ما شاء، فنزع الحلل منهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ اشتكوه لذلك، وكانوا قد صالحوا رسول الله ﷺ، وإنما بعث علياً إلى جزية موضوعة.

قلت: هذا السياق أقرب من سياق البيهقي، وذلك أن علياً سبقهم لأجل الحج، وساق معه هدياً، وأهل كإهلال النبي ﷺ، فأمره أن يمكث حراماً.

وفي رواية البراء بن عازب أنه قال له: إني سقت الهدي وقرنت.

والمقصود أن علياً لما كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه

إياهم استعمال إبل الصدقة، واسترجاعه منهم الحلل التي أطلقها لهم نائبه، وعلي معذور فيما فعل، لكن اشتهر الكلام فيه في الحجيج. فلذلك والله أعلم لما رجع رسول الله ﷺ من حجته وتفرغ من مناسكه، ورجع إلى المدينة، فمر بغدير خم قام في الناس خطيباً، فبرأ ساحة علي ورفع من قدره، ونبّه على فضله ليزيل ما وقر في نفوس كثير من الناس، وسيأتي هذا مفصلا في موضعه إن شاء الله وبه الثقة.

وقال البخاري [٤٣٥١]: حدثنا قتيبة، ثنا عبد الواحد عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة، حدثني عبد الرحمن بن أبي نعم، سمعت أبا سعيد الخدري يقول: بعث علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تُحصَّل من ترابها. قال: فقسمها بين أربعة؛ بين عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة يعني ابن علاثة وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً». قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله اتق الله! فقال: «ويلك أو لست أحق الناس أن يتقي الله!» قال: ثم ولى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا لعله أن يكون يصلي»، قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»، قال: ثم نظر إليه وهو مقف فقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» ـ أظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود» ـ.

وقد رواه البخاري في مواضع أخر من كتابه [٣٦١٠، ٤٦٦٧، ٥٠٥٨، ٦١٦٣، ٦٩٣١، عن أبي سعيد الخدري]، ومسلم في كتاب الزكاة من صحيحه [(١٠٦٤) (١٤٤ ـ ١٤٦)] من طرق متعددة إلى عمارة بن القعقاع به.

ثم قال الإمام أحمد [٨٣/١]: حدثنا يحيى عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن علي. قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن، قال: فقلت: تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لي بالقضاء. قال: «إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك» قال: فما شككت في قضاء بين اثنين بَعْدُ.

ورواه ابن ماجه [٢٣١٠] من حديث الأعمش به.

وقال الإمام أحمد [١١١/١]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا شريك عن سماك، عن حنش، عن علي. قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء. قال: فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، يا عليّ إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبينّ لك القضاء» قال: فما اختلف عليٌ قضاء بعد ـ أو ما أشكل علي قضاء بعد ـ.

ورواه أحمد [٩٦/١، ١٤٩ ـ ١٥٠] أيضاً وأبو داود [٣٥٨٢] من طرق عن شريك.

والترمذي [١٣٣١] من حديث زائدة، كلاهما عن سماك بن حرب، عن حنش بن المعتمر، وقيل: ابن ربيعة الكناني الكوفي عن علي به.

وقال الإمام أحمد [٣٧٤/٤]: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الأجلح عن الشعبي، عن عبد الله بن أبي الخليل، عن زيد بن أرقم: أن نفراً وطؤوا امرأة في طهر فقال علي لاثنين: أتطيبان نفساً لذا؟ فقالا: لا، فأقبل على الآخرين فقال: أتطيبان نفساً لذا؟ فقالا: لا! فقال: أنتم شركاء متشاكسون. فقال: إني مقرع بينكم، فأيكم قرع أغرمته ثلثي الدية وألزمته الولد، قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «لا أعلم إلا ما قال علي».

وقال: أحمد [٣٧٤/٤] حدثنا سُريج بن النعمان، ثنا هشيم أنبأنا الأجلح عن الشعبي، عن أبي الخليل، عن يزيد بن أرقم: أن علياً أُتي في ثلاثة نفر إذ كان في اليمن اشتركوا في ولد، فأقرع بينهم فضمن الذي أصابته القرعة ثلثي الدية وجعل الولد له.

قال زيد بن أرقم: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بقضاء علي، فضحك حتى بدت نواجذه.

ورواه أبو داود [٢٢٦٩] عن مسدد، عن يحيى القطان.

والنسائي [٣٤٨٩] عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، كلاهما عن الأجلح بن عبد الله، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن الخليل، وقال النسائي في روايته: عبد الله بن أبي الخليل، عن زيد بن أرقم. قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء رجل من أهل اليمن فقال: إن ثلاثة نفر أتوا علياً يختصمون في ولد وقعوا على امرأة في طهر واحد، فذكر نحو ما تقدم. وقال: فضحك النبي ﷺ.

وقد رواه أعني أبا داود [٢٢٧١] والنسائي [٣٤٩٢] من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل، عن الشعبي عن أبي الخليل أو بن الخليل عن علي قوله: فأرسله ولم يرفعه.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٧٣/٤] أيضاً عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن الأجلح، عن الشعبي، عن عبد خير، عن زيد بن أرقم، فذكر نحو ما تقدم.

وأخرجه أبو داود [٢٢٧٠] والنسائي [٣٤٨٨] جميعاً عن خشيش بن أصرم.

وابن ماجه [٢٣٤٨] عن إسحاق بن منصور، كلاهما عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن صالح الهمداني، عن الشعبي، عن عبد خير، عن زيد بن أرقم به.

قال شيخنا في الأطراف: لعل عبد خير هذا هو عبد الله بن الخليل، ولكن لم يضبط الراوي اسمه.

قلت: فعلى هذا يقوى الحديث وإن كان غيره كان أجود لمتابعته له، لكن الأجلح بن عبد الله الكندي فيه كلام ما، وقد ذهب إلى القول بالقرعة في الأنساب الإمام أحمد وهو من أفراده.

وقال الإمام أحمد [٧٧/١]: ثنا أبو سعيد، ثنا إسرائيل، ثنا سماك، عن حنش، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فانتهينا إلى قوم قد بنوا زُبْيَةً للأسد فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلق بآخر، ثم تعلق رجلٌ بآخر حتى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله وماتوا من جراحتهم كلهم. فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر، فأخرجوا السلاح ليقتتلوا، فأتاهم علي على تفئة ذلك، فقال: تريدون أن تقاتلوا ورسول الله ﷺ حيٌّ، إني أقضي بينكم قضاء، إن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجز بعضكم عن بعض حتى تأتوا النبي ﷺ، فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حق له، اجمعوا من قبائل الذين حضروا البئر ربع الدية وثلث الدية ونصف الدية والدية كاملة، فللأول الربع لأنه هلك مَن فَوقَه، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، وللرابع الدية، فأبوا أن يرضوا، فأتوا النبي ﷺ وهو عند مقام

إبراهيم، فقصوا عليه القصة. فقال: «أنا أحكم بينكم»، فقال رجل من القوم: يا رسول الله إن علياً قضى فينا، فقصوا عليه القصة، فأجازه رسول الله ﷺ.

ثم رواه الإمام أحمد [١٢٨/١] أيضاً عن وكيع، عن حماد بن سلمة، عن سماك بن حرب، عن حنش عن علي فذكره.

سنة ١٠ - كتاب حجة الوداع

ويقال لها حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وسميت حجة الإسلام لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحج من المدينة غيرها، ولكن حج قبل الهجرة مرات قبل النبوة وبعدها. وقد قيل: إن فريضة الحج نزلت عامئذ، وقيل: سنة تسع، وقيل: سنة ست، وقيل: قبل الهجرة، وهو غريب، وسميت حجة البلاغ لأنه عليه الصلاة والسلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولا وفعلا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه الصلاة والسلام، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. [المائدة: ٣]. وسيأتي إيضاح لهذا كله.

والمقصود ذكر حجته عليه الصلاة والسلام كيف كانت، فإن النقلة اختلفوا فيها اختلافا كثيراً جداً بحسب ما وصل إلى كل منهم من العلم، وتفاوتوا في ذلك تفاوتاً كثيراً لا سيما من بعد الصحابة رضي الله عنهم، ونحن نورد بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ما ذكره الأئمة في كتبهم من هذه الروايات، ونجمع بينهما جمعاً يثلج قلب من تأمله وانعم النظر فيه، وجمع بين طريقي الحديث وفهم معانيه إن شاء الله، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقد اعتنى الناس بحجة رسول الله ﷺ اعتناءً كثيراً من قدماء الأئمة ومتأخريهم، وقد صنف العلامة أبو محمد بن حزم الأندلسي رحمه الله مجلداً في حجة الوداع أجاد في أكثره، ووقع له فيه أوهام سننبّه عليها في مواضعها وبالله المستعان.

سنة ١٠ - عددُ ما حجَّ النبيُّ ﷺ واعتمر

كما رواه البخاري [١٧٨٠] ومسلم [(١٢٥٣) (٢١٧)] عن هدبة، عن همام، عن قتادة، عن أنس. قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر كلهم في ذي القعدة إلا التي في حجته؛ الحديث.

وقد رواه يونس بن بكير عن عمر بن ذر، عن مجاهد، عن أبي هريرة مثله [الدلائل للبيهقي: ٤٥٦/٥].

وقال سعيد بن منصور عن الدراوردي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. قالت: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر، عمرة في شوال، وعمرتين في ذي القعدة.

وكذا رواه ابن بكير عن مالك، عن هشام بن عروة [الموطأ: ٣٤٢/١].

وروى الإمام أحمد [١٨٠/٢] من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاث عمر كلهم في ذي القعدة.

وقال أحمد [٣٢١/١]: ثنا أبو النضر، ثنا داود - يعني العطار - عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، والثالثة من الجعرانة، والرابعة التي مع حجته.

ورواه أبو داود [١٩٩٣] والترمذي [٨١٦] والنسائي [لم يروه، رواه جـ (٣٠٠٣)] من حديث داود العطار وحسنه الترمذي.

وقد تقدم هذا الفصل عند عمرة الجعرانة. وسيأتي في فصل من قال: إنه عليه الصلاة والسلام حج قارناً وبالله المستعان.

فالأولى؛ من هذه العمرة عمرة الحديبية التي صد عنها.

ثم بعدها عمرة القضاء، ويقال عمرة القصاص، ويقال: عمرة القضية.

ثم بعدها عمرة الجعرانة مرجعه من الطائف حين قسم غنائم حنين، وقد قدمنا ذلك كله في مواضعه.

والرابعة عمرته مع حجته، وسنبين اختلاف الناس في عمرته هذه مع الحجة، هل كان متمتعاً بأن أوقع العمرة قبل الحجة وحل منها، أو منعه من الإحلال منها سوقه الهدي، أو كان قارنا لها مع الحجة كما نذكره من الأحاديث الدالة على ذلك، أو كان مفرداً لها عن الحجة بأن أوقعها بعد قضاء الحجة؟ وهذا هو الذي يقوله من يقول بالإفراد كما هو المشهور عن الشافعي، وسيأتي بيان هذا عند ذكرنا إحرامه ﷺ كيف كان مفرداً أو متمتعاً أو قارناً.

قال البخاري [٤٤٠٤]: حدثنا عمرو بن خالد، ثنا زهير، ثنا أبو إسحاق، حدثني زيد بن أرقم أن النبي ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما هاجر حجة واحدة.

قال أبو إسحاق: وبمكة أخرى.

وقد رواه مسلم من حديث زهير [١٢٥٤] وأخرجاه [خ (٣٩٤٩)، م (١٢٥٤) (١٤٣)] من حديث شعبة. زاد البخاري [٤٤٧١] وإسرائيل ثلاثتهم عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي عن زيد به.

وهذا الذي قال أبو إسحاق من أنه عليه الصلاة والسلام حج بمكة حجة أخرى، أي أراد أنه لم يقع منه بمكة إلا حجة واحدة، كما هو ظاهر لفظه، فهو بعيد. فإنه عليه الصلاة والسلام كان بعد الرسالة يحضر مواسم الحج، ويدعو الناس إلى الله ويقول: «مَنْ رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل» حتى قيض الله له جماعة الأنصار يلقونه ليلة العقبة أي عشية يوم النحر عند جمرة العقبة ثلاث سنين متتاليات، حتى إذا كانوا آخر سنة بايعوه ليلة العقبة الثانية، وهي ثالث اجتماعه لهم به، ثم كانت بعدها الهجرة إلى المدينة كما قدمنا ذلك مبسوطاً في موضعه والله أعلم.

وفي حديث جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله. قال: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس بالحج، فاجتمع بالمدينة بشر كثير، فخرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة أو لأربع، فلما كان بذي الحليفة صلى ثم استوى على راحلته، فلما أخذت به في البيداء لبّى وأهللنا لا ننوي إلا الحج. وسيأتي الحديث بطوله، وهو في صحيح مسلم [(١٢١٨) (١٤٧)]، وهذا لفظ البيهقي [الدلائل: ٤٣٢/٥] من طريق أحمد بن حنبل، عن إبراهيم بن طهمان، عن جعفر بن محمد به.

سنة ١٠ - خروج النبي ﷺ لحجة الوداع

باب تاريخ خروجه عليه الصلاة والسلام من المدينة لحجة الوداع بعدما

استعمل عليها أبا دجانة سماك بن خرشة الساعدي، ويقال: سباع بن عرفطة الغفاري

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٠١]: فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة من سنة عشر تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له:

فحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة.

وهذا إسناد جيد.

وروي الإمام مالك في موطئه [١/٣٩٣] عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة.

ورواه الإمام أحمد [٦/١٩٤] عن عبد الله بن نمير، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمرة عنها.

وهو ثابت في الصحيحين [خ (١٧٠٩)، م (١٢١١) (١٢٥)] وسنن النسائي [٢٨٠٣] وابن ماجه [٢٩٨١]، ومصنف ابن أبي شيبة [ج (٢٩٨١) عن ابن أبي شيبة، به] من طرق عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة. قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة لا نُرَى إلا الحج. الحديث بطوله كما سيأتي.

وقال البخاري [١٥٤٥]: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، ثنا فضيل بن سليمان، ثنا موسى بن عقبة، أخبرني كريب عن ابن عباس. قال: انطلق النبي ﷺ من المدينة بعدما ترجّل وادّهن ولبس إزاره ورداءه، ولم ينه عن شيء من الأردية ولا الأزر [تُلْبَسُ] إلا المزعفرة التي تردع على الجلد فأصبح بذي الحليفة، ركب راحلته حتى استوى على البيداء [أهلَّ هو وأصحابه]، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة، فقدم مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة.

تفرد به البخاري فقوله - وذلك لخمس بقين من ذي القعدة - إن أراد به صبيحة يومه بذي الحليفة صح قول ابن حزم [حجة الوداع: ص٣٧، ٣٩] في دعواه أنه ﷺ خرج من المدينة يوم الخميس، وبات بذي الحليفة ليلة الجمعة، وأصبح بها يوم الجمعة وهو اليوم الخامس والعشرون من ذي القعدة.

وإن أراد ابن عباس بقوله: وذلك لخمس بقين من ذي القعدة يوم انطلاقه عليه الصلاة والسلام من المدينة بعدما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه، كما قالت عائشة وجابر: إنهم خرجوا من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، بَعُدَ قول ابن حزم وتعذر المصير إليه، وتعين القول بغيره، ولم يتطبق ذلك إلا على يوم الجمعة إن كان شهر ذي القعدة كاملا.

ولا يجوز أن يكون خروجه عليه الصلاة والسلام من المدينة، كان يوم الجمعة لما روى البخاري [١٥٥١]: حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا وهيب، ثنا أيوب عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، قال: صلى رسول الله ﷺ ونحن معه الظهر بالمدينة أربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء، حمد الله عز وجل، وسبح وكبَّر ثم أهل بحج وعمرة.

وقد رواه مسلم [(٦٩٠) (١٠)] والنسائي [٤٧٧] جميعاً عن قتيبة عن حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين.

وقال أحمد [٣/١٧٧]: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان، عن محمد - يعني ابن المنكدر - وإبراهيم بن ميسرة، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين.

ورواه البخاري [١٠٨٩] عن أبي نعيم عن سفيان الثوري به.

وأخرجه مسلم [(٦٩٠) (١١)] وأبو داود [١٢٠٢] والنسائي [٤٦٩] من حديث سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر، وإبراهيم بن ميسرة، عن أنس به.

وقال أحمد [٣/٣٧٨]: ثنا محمد بن بكير، ثنا ابن جريج عن محمد بن المنكدر، عن أنس قال: صلى بنا رسول الله ﷺ بالمدينة الظهر أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بذي الحليفة حتى أصبح، فلما ركب راحلته واستوت به أهلّ.

وقال أحمد [٣/٢٣٧]: حدثنا يعقوب، ثنا أبي عن محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن المنكدر التيمي، عن أنس بن مالك الأنصاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر في مسجده بالمدينة أربع ركعات، ثم صلى بنا العصر بذي الحليفة ركعتين، آمناً لا يخاف في حجة الوداع.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين الآخرين، وهما على شرط الصحيح، وهذا ينفي كون خروجه عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة قطعاً، ولا يجوز على هذا أن يكون خروجه يوم الخميس كما قال ابن حزم، لأنه كان يوم الرابع والعشرين من ذي القعدة لأنه لا خلاف أن أول ذي الحجة كان يوم الخميس، لما ثبت بالتواتر والإجماع من أنه عليه الصلاة والسلام وقف بعرفة يوم الجمعة، وهو تاسع ذي الحجة بلا نزاع، فلو كان خروجه يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي القعدة لبقي في الشهر ست ليال، قطعاً ليلة الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، فهذه ست ليال.

وقد قال ابن عباس وعائشة وجابر: أنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة. وتعذر أنه يوم الجمعة لحديث أنس، فتعين على هذا أنه عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة يوم السبت، وظن الراوي أن الشهر يكون تاماً، فاتفق في تلك السنة نقصانه، فانسلخ يوم الأربعاء، واستهل شهر ذي الحجة ليلة الخميس، ويؤيده ما وقع في رواية جابر: لخمس بقين أو أربع. وهذا التقرير على هذا التقدير لا محيد عنه، ولابد منه والله أعلم.

سنة ١٠- صفة خروجه ﷺ من المدينة إلى مكة للحج

قال البخاري [١٥٣٣]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، ثنا أنس بن عياض عن عبيد الله هو ابن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة، ويدخل من طريق المعرَّس وأن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة يصلي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلى بذي الحليفة ببطن الوادي، وبات حتى يصبح.

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: وجدت في كتابي عن عمرو بن مالك، عن يزيد بن زريع، عن هشام، عن عزرة بن ثابت، عن ثمامة، عن أنس؛ أن النبي ﷺ: حج على رحل رثّ وتحته قطيفة، وقال: «حجة لا رياء فيها ولا سمعة».

وقد علقه البخاري في صحيحه [١٥١٧ موصولاً في رواية أبي ذر وابي الوقت]، فقال: وقال محمد بن أبي بكر المقدمي: حدثنا يزيد بن زريع، عن عزرة بن ثابت، عن ثمامة قال: حج أنس على رحل رث، ولم يكن شحيحاً، وحدّث أن رسول الله ﷺ حجَّ على رحل وكانت زاملته.

هكذا ذكره البزار والبخاري معلقاً مقطوع الإسناد من أوله.

وقد أسنده الحافظ البيهقي في سننه [٣٣٢/٤] فقال أنبأنا أبو الحسن بن محمد بن علي المقرئ أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد بن إسحاق، ثنا يوسف بن يعقوب القاضي، ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا يزيد بن زريع؛ فذكره.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده [دلائل البيهقي: ٤٢٤/٥، من طريق أبي يعلى، به] من وجه آخر عن أنس بن مالك. فقال: حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي، عن أنس قال: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة تساوي - أو لا تساوي- أربعة دراهم. فقال: «اللّهم حجة لا رياء فيها».

وقد رواه الترمذي في الشمائل [(٣١٩) وعنده: عن أبي داود الحفري بدل الطيالسي، عن سفيان، وليس عن أبي داود وسفيان معاً] من حديث أبي داود الطيالسي، وسفيان الثوري، وابن ماجه [٢٨٩٠]، من حديث وكيع بن الجراح، ثلاثتهم عن الربيع بن صبيح به.

وهو إسناد ضعيف من جهة يزيد بن أبان الرقاشي فإنه غير مقبول الرواية عند الأئمة.

وقال الإمام أحمد [١٢٠/٢]: حدثنا هاشم، ثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه. قال: صدرت مع ابن عمر، فمرت بنا رفقة يمانية ورحالهم الأدم، وخطم إبلهم الجُرُرُ. فقال عبد الله: من أحب أن ينظر إلى أشبه رفقة وردت العام برسول الله ﷺ وأصحابه، إذ قدموا في حجة الوداع فلينظر إلى هذه الرفقة.

ورواه أبو داود [٤١٤٤] عن هناد، عن وكيع، عن إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه، عن ابن عمر.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ٣٣٢/٤، ٣٣٣]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو طاهر الفقيه، وأبو زكريا بن أبي إسحاق، وأبو بكر بن الحسن، وأبو سعيد بن أبي عمرو قالوا: ثنا أبو العباس هو الأصم، أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأنا سعيد بن بشير القرشي، حدثنا عبد الله بن حكيم الكناني - رجل من أهل اليمن من مواليهم - عن بشر بن قدامة الضبابي. قال: أبصرت عيناي حبيبي رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع الناس على ناقة له حمراء قصواء، تحته قطيفة بولانية وهو يقول: «اللّهم اجعلها حجة غير رئاء ولا هَباء ولا سمعة». والناس يقولون هذا رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد [٣٤٤/٦]: حدثنا عبد الله بن إدريس، ثنا ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه. أن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع النبي ﷺ حجاجاً حتى إذا كنّا بالعرج، نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة رسول الله ﷺ وزمالة أبي بكر واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره. فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة، فقال أبو بكر: بعير واحد تضله! فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المحرم وما يصنع».

وكذا رواه أبو داود [١٨١٨] عن أحمد بن حنبل، ومحمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة.

وأخرجه ابن ماجه [٢٩٣٣] عن أبي بكر بن أبي شيبة، ثلاثتهم عن عبد الله بن إدريس به.

فأما الحديث الذي رواه أبو بكر البزار في مسنده قائلا: حدثنا إسماعيل بن حفص، ثنا يحيى بن اليمان، ثنا حمزة الزيات عن حمران بن أعين، عن أبي الطفيل عن أبي سعيد. قال: حج النبي ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة قد ربطوا أوساطهم ومشيهم خلط الهرولة.

فإنه حديث منكر ضعيف الإسناد، وحمزة بن حبيب الزيات ضعيف، وشيخه متروك الحديث.

وقد قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه، وإن كان إسناده حسناً عندنا، ومعناه أنهم كانوا في عمرة إن ثبت الحديث، لأنه عليه الصلاة والسلام إنما حج حجة واحدة، وكان راكبا وبعض أصحابه مشاة.

قلت: ولم يعتمر النبي ﷺ في شيء من عمره ماشياً لا في الحديبية، ولا في القضاء، ولا الجعرانة، ولا في حجة الوداع، وأحواله عليه الصلاة والسلام أشهر وأعرف من أن تخفى على الناس، بل هذا الحديث منكر شاذ لا يثبت مثله، والله أعلم.

سنة ١٠- القصرُ والطيب للحاجُ

تقدم أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بالمدينة أربعاً، ثم ركب منها إلى الحليفة وهي وادي العقيق، فصلى بها العصر ركعتين، فدل على أنه جاء الحليفة نهاراً في وقت العصر، فصلى بها العصر قصراً، وهي من المدينة على ثلاثة أميال، ثم صلى بها المغرب والعشاء، وبات بها حتى أصبح، فصلى بأصحابه وأخبرهم إنه جاءه الوحي من الليل بما يعتمده في الإحرام؛ كما قال الإمام أحمد [٩٠/٢]:

حدثنا يحيى بن آدم، ثنا زهير عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ: أنه أتى وهو في المعرس من ذي الحليفة، فقيل له: إنك ببطحاء مباركة.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٥٣٥)، م (١٣٤٦)] من حديث موسى ابن عقبة به.

وقال البخاري [١٥٣٤]: حدثنا الحميدي، ثنا الوليد وبشر بن بكر. قالا: ثنا الأوزاعي، ثنا يحيى، حدثني عكرمة أنه سمع ابن عباس أنه سمع عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة».

تفرد به دون مسلم.

فالظاهر أن أمره عليه الصلاة والسلام بالصلاة في وادي العقيق، هو أمر بالإقامة به، إلى أن يصلي صلاة الظهر، لأن الأمر إنما جاءه في الليل، وأخبرهم بعد صلاة الصبح فلم يبق إلا صلاة الظهر، فأمر أن يصليها هنالك، وأن يوقع الإحرام بعدها ولهذا قال: «أتاني الليلة آت من ربي عز وجل، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة»، وقد احتُجَّ به على الأمر بالقران في الحج، وهو من أقوى الأدلة على ذلك كما سيأتي بيانه قريباً.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام أمر بالإقامة بوادي العقيق إلى صلاة الظهر، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، فأقام هنالك، وطاف على نسائه في تلك الصبيحة، وكنّ تسع نسوة، وكلهن خرج معه، ولم يزل هنالك حتى صلى الظهر. كما سيأتي في حديث أبي حسان الأعرج، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة، ثم أشعر بدنته، ثم ركب فأهلّ وهو عند مسلم [١٢٤٣].

وهكذا قال الإمام أحمد [٣/٢٠٧]: حدثنا روح، ثنا أشعث - هو ابن عبد الملك عن الحسن، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صلى الظهر، ثم ركب راحلته، فلما علا شرفَ البيداء أهلّ.

ورواه أبو داود [١٧٧٤] عن أحمد بن حنبل.

والنسائي [٢٦٦٢، ٢٧٥٥] عن إسحاق بن راهويه، عن النضر بن شميل، عن أشعث بمعناه.

وعن أحمد بن الأزهر عن محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أشعث أتم منه [س (٢٩٣١)].

وهذا فيه رد على ابن حزم، حيث زعم أن ذلك في صدر النهار [حجة الوداع ص١٨].

وله أن يعتضد بما رواه البخاري [١٧١٥] من طريق أيوب عن رجل، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة حتى أصبح، فصلى الصبح، ثم ركب راحلته حتى إذا استوت به البيداء أهل بعمرة وحج، ولكن في إسناده رجل مبهم، والظاهر أنه أبو قلابة والله أعلم.

قال مسلم في صحيحه [(١١٩٢) (٤٨)]: حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا خالد - يعني ابن الحارث - ثنا شعبة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، سمعت أبي يحدث عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كنت أطيِّب رسول الله ﷺ ثم يطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً ينضح طيباً.

وقد رواه البخاري [٢٦٧] من حديث شعبة.

وأخرجاه من حديث أبي عوانة [خ (٢٧٠) من حديث أبي عوانة، م (١١٩٢) (٤٧، ٤٩) من حديث أبي عوانة ومسعر وسفيان] زاد مسلم ومسعر وسفيان بن سعيد الثوري، أربعتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر به.

وفي رواية لمسلم [(١١٩٢) (٤٧)] عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه قال: سألت عبد الله بن عمر عن الرجل يتطيب ثم يصبح محرماً. قال: ما أحب أني أصبح محرماً أنضح طيباً، لأن أطَّليَ القطران أحب إليَّ من أن أفعل ذلك. فقالت عائشة: أنا طيبت رسول الله ﷺ عند إحرامه، ثم طاف في نسائه، ثم أصبح محرما.

وهذا اللفظ الذي رواه مسلم يقتضي أنه كان ﷺ يتطيب قبل أن يطوف على نسائه وكأنه ﷺ تطيَّب قبل أن يطوف على نسائه، ليكون ذلك أطيب لنفسه وأحب إليهن، ثم لما اغتسل من الجنابة وللإحرام تطيب أيضاً للإحرام طيباً آخر.

كما رواه الترمذي [٨٣٠] والبيهقي [السنن الكبرى: ٥/٣٢، ٣٣] من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، أنه رأى رسول الله ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد [٦/٧٨]: حدثنا زكريا بن عدي، أنبأنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عروة، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يحرم غسل رأسه بخطمي وأُشنان ودهنه بشيء من زيت غير كثير.

الحديث تفرد به أحمد.

وقال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله [ترتيب مسند الشافعي (٧٧٣)]: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عثمان بن عروة، سمعت أبي يقول: سمعت عائشة تقول: طيبت رسول الله ﷺ لحرمه ولحله، قلت لها: بأي طيب؟ قالت: بأطيب الطيب.

وقد رواه مسلم [(١١٨٩) (٣٦)] من حديث سفيان ابن عيينة.

وأخرجه البخاري [٥٩٢٨] من حديث وهب عن هشام بن عروة، عن أخيه عثمان، عن أبيه عروة، عن عائشة به.

وقال البخاري [١٥٣٩]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه حين يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت.

وقال مسلم [(١١٨٩) (٣٥)]: حدثنا عبد بن حميد، أنبأنا محمد بن بكر، أنبأنا ابن جريج، أخبرني عمر بن عبد الله بن عروة، أنه سمع عروة والقاسم يخبرانه عن عائشة قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريرة في حجة الوداع للحل والإحرام.

وروى مسلم [(١١٨٩) (٣١)] من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين لحرمه حين أحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت.

وقال مسلم [١١٩١] حدثني أحمد بن منيع ويعقوب الدورقي، قالا: ثنا هشيم، أنبأنا منصور عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه عن عائشة قالت: كنت أطيب النبي ﷺ قبل أن يحرم ويوم النحر قبل أن يطوف بالبيت، بطيب فيه مسك.

وقال مسلم [(١١٩٠) (٤١)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب وأبو سعيد الأشج قالا: ثنا وكيع، ثنا الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة قالت: كأني أنظر إلى وبيص المسك في مفرق رسول الله ﷺ وهو يلبي.

ثم رواه مسلم [(١١٩٠) (٤٥)] من حديث الثوري، وغيره عن الحسن بن عبيد الله، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: كأني أنظر إلى وبيص المسك في مفرق رسول الله ﷺ وهو محرم.

ورواه البخاري [١٥٣٨] من حديث سفيان الثوري.

ومسلم [(١١٩٠) (٣٩) (٤٠) من حديث حماد بن زيد، عن منصور والأعمش كلاهما عن إبراهيم، به] من حديث الأعمش، كلاهما عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود عنها.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٢٧١)، م (١١٩٠) (٤٢)] من حديث شعبة عن الحكم بن إبراهيم، عن الأسود عن عائشة.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٢٧٨)]: أنبأنا شعبة عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة. قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب في أصول شعر رسول الله ﷺ وهو محرم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، ثنا حماد بن سلمة عن إبراهيم النخعي، عن الأسود، عن عائشة. قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفرق النبي ﷺ بعد أيام وهو محرم.

وقال عبد الله بن الزبير الحميدي [مسنده (٢١٥)]: حدثنا سفيان بن عيينة، ثنا عطاء بن السائب، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود، عن عائشة قالت: رأيت الطيب في مفرق رسول الله ﷺ بعد ثالثة وهو محرم.

فهذه الأحاديث دالة على أنه عليه الصلاة والسلام تطيَّب بعد الغسل، إذ لو كان الطيب قبل الغسل لذهب به الغسل، ولما بقي له أثر، ولا سيما بعد ثلاثة أيام من يوم الإحرام.

وقد ذهب طائفة من السلف منهم: ابن عمر إلى كراهة التطيب عند الإحرام.

وقد رُوِّينا هذا الحديث من طريق ابن عمر عن عائشة، فقال الحافظ

البيهقي [السنن الكبرى: ٣٥/٥]: أنبأنا أبو الحسين بن بشران - ببغداد - انبأنا أبو الحسن علي بن محمد المصري، ثنا يحيى بن عثمان بن صالح، ثنا عبد الرحمن بن أبي الغمر، ثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن عائشة؛ أنها قالت: طيبت رسول الله ﷺ بالغالية الجيدة عند إحرامه.

وهذا إسناد غريب، عزيز المخرج، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لبَّد رأسه ليكون احفظ لما فيه من الطيب، وأصون له من استقرار التراب والغبار.

قال مالك [الموطا برواية ابي مصعب: ٥٤٠/١] عن نافع عن ابن عمر: أن حفصة زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ قال: «إني لبَّدت رأسي، وقلَّدت هديي، فلا أحل حتى أنحر».

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٥٦٦)، م (١٢٢٩) (١٧٦)] من حديث مالك وله طرق كثيرة عن نافع [خ (١٦٩٧، ٤٣٩٨)، م (١٢٢٩) (١٧٧، ١٧٩)، د (١٨٠٦)، س (٢٦٨٢، ٢٧٨١)، ج (٣٠٤٦)].

قال البيهقي [السنن الكبرى: ٣٦/٥]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا يحيى بن محمد بن يحيى، ثنا عبيد الله بن عمر القواريري، ثنا عبد الأعلى، ثنا محمد بن إسحاق عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ لبد رأسه بالعسل.

وهذا إسناد جيد.

ثم إنه عليه السلام أشعر الهدي وقلده وكان معه بذي الحليفة.

قال الليث عن عقيل، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى، فساق معه الهدي من ذي الحليفة. وسيأتي الحديث بتمامه وهو في الصحيحين [خ (١٦٩١)، م (١٢٢٧) (١٧٤)]، والكلام عليه إن شاء الله.

وقال مسلم [(١٢٤٣) (٠٠٠)]: حدثنا محمد بن المثنى، ثنا معاذ بن هشام، هو الدستوائي، حدثني أبي عن قتادة، عن أبي حسان، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما أتى ذا الحليفة دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسلت الدم، وقلدها نعلين، ثم ركب راحلته.

وقد رواه أهل السنن الأربعة [د (١٧٥٢، ١٧٥٣)، ت (٩٠٦)، س (٢٧٧٢، ٢٧٧٤، ٢٧٨٢، ٢٧٩١)، ج (٣٠٩٧)] من طرق عن قتادة، وهذا يدل على أنه عليه السلام تعاطى هذا الإشعار والتقليد بيده الكريمة في هذه البدنة، وتولى إشعار بقية الهدي وتقليده غيره، فإنه قد كان هَدْي كثير، إما مائة بدنة، أو أقل منها بقليل، وقد ذبح بيده الكريمة ثلاثاً وستين بدنة، وأعطى علياً فنبح ما غبر.

وفي حديث جابر أن علياً قدم من اليمن ببدن للنبي ﷺ، وفي سياق ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٢/٢]: أنه عليه السلام أشرك علياً في بُدْنة والله أعلم.

وذكر غيره أنه ذبح هو وعلي يوم النحر مائة بدنة، فعلى هذا يكون قد ساقها معه من ذي الحليفة، وقد يكون اشترى بعضها بعد ذلك وهو محرم.

سنة ١٠- باب بيان الموضع الذي أهل منه ﷺ واختلاف الناقلين لذلك وترجيح الحق في ذلك

ذكر من قال أنه عليه الصلاة والسلام أحرم من المسجد الذي بذي الحليفة بعد الصلاة:

تقدم الحديث الذي رواه البخاري [١٥٣٤] من حديث الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة».

وقال البخاري [١٥٤١] باب الإهلال عند مسجد ذي الحليفة:

حدثنا علي بن عبد الله، ثنا سفيان، ثنا موسى بن عقبة، سمعت سالم بن عبد الله سمعت ابن عمر. وحدثنا عبد الله بن مسلمة، ثنا مالك عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله، أنه سمع أباه يقول: ما أهل رسول الله ﷺ إلا من عند المسجد - يعني مسجد ذي الحليفة -.

وقد رواه الجماعة [م (١١٨٦)، د (١٧٧١)، ت (٨١٨)، س (٢٧٥٧)] إلا ابن ماجه من طرق عن موسى بن عقبة.

وفي رواية لمسلم [(١١٨٤) (٢٠)] عن موسى بن عقبة، عن سالم ونافع وحمزة بن عبد الله بن عمر، ثلاثتهم عن عبد الله بن عمر فذكره. وزاد فقال: «لبيك اللهم لبيك».

وفي رواية لهما [خ (١٥٤١)، م (١١٨٦) واللفظ لمسلم] من طريق مالك عن موسى بن عقبة، عن سالم قال: قال عبد الله بن عمر: بيداؤكم هذه التي تكذبون على رسول الله ﷺ فيها، ما أهلّ رسول الله إلاّ من عند المسجد.

وقد روي عن ابن عمر خلاف هذا كما يأتي في الشق الآخر، وهو ما أخرجاه في الصحيحين [خ (١٦٦)، م (١١٨٧)] من طريق مالك عن سعيد المقبري، عن عبيد بن جريج، عن ابن عمر، فذكر حديثا فيه أن عبد الله قال: وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله ﷺ يُهل حتى تنبعث به راحلته.

وقال الإمام احمد [٢٦٠/١]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني خصيف بن عبد الرحمن الجزري، عن سعيد بن جبير؛ قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا أبا العباس عجباً لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلال رسول الله ﷺ حين أوجب! فقال: إني لأعلم الناس بذلك، إنما كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا، خرج رسول الله ﷺ حاجاً، فلما صلى في مسجده بذي الحليفة ركعتيه، أوجب في مجلسه، فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه، فسمع ذلك منه قوم فحفظوا عنه، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالا، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل، فقالوا: إنما أهل رسول الله ﷺ حين استقلت به ناقته، ثم مضى رسول الله فلما علا شرف البيداء، أهلَّ وأدرك ذلك منه أقوام، فقالوا: إنما أهل رسول الله حين علا شرف البيداء. وايم الله لقد أوجب في مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا شرف البيداء.

فمن أخذ بقول عبد الله بن عباس أهل في مصلاه إذا فرغ من ركعتيه.

وقد رواه الترمذي [٨١٩] والنسائي [] جميعاً عن قتيبة، عن عبد السلام بن حرب، عن خصيف به نحوه.

وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرف أحد رواه غير عبد السلام كذا قال. وقد تقدم رواية الإمام أحمد له من طريق محمد بن إسحاق عنه.

وكذلك رواه الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٥/ ٣٧] عن الحاكم، عن القطيعي، عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه، ثم قال: خصيف الجزري غير قوي.

وقد رواه الواقدي بإسناد له عن ابن عباس. قال البيهقي: إلا أنه لا ينفع متابعة الواقدي، والأحاديث التي وردت في ذلك عن عمر وغيره أسانيدها قوية ثابتة، والله تعالى أعلم.

قلت: فلو صح هذا الحديث لكان فيه جمع لما بين الأحاديث من الاختلاف، وبسط لعذر من نقل خلاف الواقع، ولكن في إسناده ضعف.

ثم قد روي عن ابن عباس وابن عمر خلاف ما تقدم عنهما كما ستنبه عليه ونبينه؛ وهكذا ذكر من قال: أنه عليه الصلاة والسلام أهل حين استوت به راحلته.

قال البخاري [١٥٤٦]: حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا هشام بن يوسف، أنبأنا ابن جريج، حدثني محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك. قال: صلى النبي ﷺ بالمدينة أربعاً، وبذي الحليفة ركعتين، ثم بات حتى أصبح بذي الحليفة، فلما ركب راحلته واستوت به أهلّ.

وقد رواه البخاري [خ (١٠٨٩)] ومسلم [م (٦٩٠) (١١)] وأهل السنن [د (١٢٠٢)، ت (٥٤٦)، س (٤٦٩)] من طرق عن محمد بن المنكدر، وإبراهيم بن ميسرة عن أنس.

وثابت في الصحيحين [خ (١٦٦)، م (١١٨٧) (٢٥)] من حديث مالك عن سعيد المقبري عن عبيد بن جريج، عن ابن عمر. قال: وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله ﷺ يهل حتى تنبعث به راحلته.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٥١٤)، م (١١٨٧) (٢٩)] من رواية ابن وهب عن يونس، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يركب راحلته بذي الحليفة ثم يهل حين تستوي به قائمة.

وقال البخاري [١٥٥٢]: باب من أهلّ حين استوت به راحلته:

حدثنا أبو عاصم، حدثنا ابن جريج، أخبرني صالح بن كيسان، عن نافع، عن ابن عمر. قال: أهل النبي ﷺ حين استوت به راحلته قائمة.

وقد رواه مسلم [(١١٨٧) (٢٨)] والنسائي [٢٧٥٨] من حديث ابن جريج به.

وقال مسلم [(١١٨٧) (٢٧)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا علي بن مسهر عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر. قال: كان رسول الله ﷺ إذا وضع رجله في الغرز وانبعثت به راحلته قائمة أهلّ من ذي الحليفة.

انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وأخرجاه [خ (٢٨٦٥)، وليس للحديث عند مسلم طريق أخرى] من وجه آخر عن عبيد الله بن عمر، عن نافع عنه.

ثم قال البخاري [١٥٥٣]: باب الإهلال مستقبل القبلة.

قال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب عن نافع. قال: كان ابن عمر إذا صلى الغداة بذي الحليفة أمر براحلته فرحلت، ثم ركب فإذا استوت به استقبل القبلة قائماً، ثم يلبي حتى يبلغ الحرم، ثم يمسك حتى إذا جاء ذا طوى بات به حتى يصبح، فإذا صلى الغداة اغتسل، وزعم أن رسول الله ﷺ فعل ذلك، ثم قال: تابعه إسماعيل عن أيوب في الغسل.

وقد علق البخاري أيضاً هذا الحديث في كتاب الحج [١٧٦٩] عن محمد بن عيسي، عن حماد بن زيد. وأسنده فيه [١٥٧٣] عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي، عن إسماعيل هو ابن علية.

ورواه مسلم عن زهير بن حرب، عن إسماعيل وعن أبي الربيع الزهراني وغيره [هو من رواية أبي الربيع الزهراني عن حماد فقط برقم (١٢٥٩) (٢٢٧)]، عن حماد بن زيد، ثلاثتهم عن أيوب، عن أبي تميمة السختياني به.

ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن إسماعيل بن علية به.

ثم قال البخاري [١٥٥٤]: حدثنا سليمان أبو الربيع، ثنا فليح عن نافع قال: كان ابن عمر إذا أراد الخروج إلى مكة ادّهن بدهن ليس له رائحة طيبة، ثم يأتي مسجد ذي الحليفة فيصلي، ثم يركب، فإذا استوت به راحلته قائمة أحرم، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

تفرّد به البخاري من هذا الوجه.

وروى مسلم [(١١٨٦) (٢٤)] عن قتيبة، عن حاتم بن إسماعيل، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه قال: بيداؤكم هذه التي تكذبون على رسول الله ﷺ، فيها والله ما أهلّ رسول الله ﷺ إلا من عند المسجد حين قام به بعيره.

وهذا الحديث يجمع بين رواية ابن عمر الأولى وهذه الروايات عنه، وهو أن الإحرام كان من عند المسجد، ولكن بعدما ركب راحلته واستوت به على البيداء، يعني الأرض، وذلك قبل أن يصل إلى المكان المعروف بالبيداء.

ثم قال البخاري في موضع آخر [١٥٤٥]: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، ثنا فضيل بن سليمان، ثنا موسى بن عقبة، حدثني كريب عن عبد الله بن عباس قال: انطلق النبي ﷺ من المدينة بعدما ترجّل وادّهن، ولبس إزاره ورداه هو وأصحابه، ولم ينه عن شيء من الأردية والأزر تلبس إلا المزعفرة التي تردع على الجلد، فأصبح بذي الحليفة ركب راحلته حتى استوى على البيداء، أهلّ هو وأصحابه، وقلّد بدنه، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة فقدم مكة لأربع خلون من ذي الحجة. فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل من أجل بدنه، لأنه قلدها، ثم نزل بأعلى مكة عند الحجون، وهو مهل بالحج، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها، حتى رجع من عرفة، وأمر أصحابه أن يطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم يقصروا من رؤوسهم، ثم يحلوا، وذلك لمن لم يكن معه بدنة قلدها، ومن كانت معه امرأته فهي له حلال والطيب والثياب.

انفرد به البخاري.

وقد روى الإمام أحمد [١/ ٢٥٤، ٢٨٠، ٣٣٩، ٣٤٧]: عن بهز بن أسد، وحجاج وروح بن عبادة، وعفان بن مسلم، كلهم عن شعبة، قال: أخبرني قتادة، قال: سمعت أبا حسان الأعرج الأجرد، وهو مسلم بن عبد الله البصري، عن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة، ثم دعا ببدنته فأشعر صفحة سنامها الأيمن، وسلت الدم عنها، وقلدها نعلين، ثم دعا براحلته، فلما استوت على البيداء أهلّ بالحج.

ورواه [١/ ٢١٦] أيضاً عن هشيم، أنبأنا أصحابنا منهم شعبة، فذكر نحوه.

ثم رواه الإمام أحمد [١/ ٣٤٤، ٣٧٢] أيضاً عن روح وأبي داود الطيالسي ووكيع بن الجراح كلهم عن هشام الدستوائي عن قتادة به نحوه.

ومن هذا الوجه رواه مسلم في صحيحه [١٢٤٣] وأهل السنن في كتبهم [د (١٧٥٢، ١٧٥٣)، ت (٩٠٦)، س (٢٧٧٣، ٢٧٧٤، ٢٧٨٢، ٢٧٩١)] فهذه الطرق عن ابن عباس من أنه عليه الصلاة والسلام أهلّ حين استوت به راحلته. أصح وأثبت من رواية خصيف الجزري عن سعيد

بن جبير عنه والله أعلم.

وهكذا الرواية المثبتة المفسرة أنه أهلّ حين استوت به الراحلة، مقدمة على الأخرى لاحتمال أنه أحرم من عند المسجد حين استوت به راحلته، ويكون رواية ركوبه الراحلة فيها زيادة علم على الأخرى، والله أعلم.

ورواية أنس في ذلك سالمة عن المعارض، وهكذا رواية جابر بن عبد الله في صحيح مسلم [١٢١٨] من طريق جعفر الصادق، عن أبيه محمد بن علي أبي الحسين زين العابدين، عن جابر في حديثه الطويل الذي سيأتي: أن رسول الله ﷺ أهلّ حين استوت به راحلته سالمة عن المعارض والله أعلم.

وروى البخاري [١٥١٥] من طريق الأوزاعي: سمعت عطاء عن جابر بن عبد الله: أن إهلال رسول الله ﷺ من ذي الحليفة حين استوت به راحلته؛ فأما الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق بن يسار عن أبي الزناد، عن عائشة بنت سعد. قالت: قال سعد: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ طريق الفُرْع أهلّ إذا استقلت به راحلته، وإذا أخذ طريق أُحدٍ أهلّ إذا علا على شرف البيداء.

فرواه أبو داود [١٧٧٥] والبيهقي [السنن الكبرى: ٥/٣٨، ٣٩] من حديث ابن إسحاق، وفيه غرابة ونكارة، والله أعلم.

فهذه الطرق كلها دالة على القطع، أو الظن الغالب أنه عليه السلام أحرم بعد الصلاة، وبعدما ركب راحلته وابتدأت به السير، زاد ابن عمر في روايته: وهو مستقبل القبلة.

سنة ١٠ - باب بسط البيان لما أحرم به ﷺ في حجته هذه من الإفراد والتمتع أو القرآن

سنة ١٠ - ذكر الأحاديث الواردة بأنه ﷺ كان مفرداً

رواية عائشة أم المؤمنين في ذلك:

قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٩٦٧)]: أنبأنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أفرد الحج.

ورواه مسلم [(١٢١١) (١٢٢)] عن إسماعيل، عن أبي أويس ويحيى بن يحيى، عن مالك.

ورواه الإمام أحمد [٣٦/٦] عن عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك به.

وقال أحمد [١٠٧/٦]: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني المنكدر بن محمد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن القاسم بن محمد، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أفرد الحج.

وقال الإمام أحمد [١٠٧/٦]: حدثنا سُريج، ثنا ابن أبي الزناد عن أبيه، عن عروة، عن عائشة. وعن علقمة بن أبي علقمة عن أمه، عن عائشة. وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أَفْرَدَ الحجّ.

تفرّد به أحمد من هذه الوجوه عنها.

وقال الإمام أحمد [٢٤٣/٦]: حدثني عبد الأعلى بن حماد قال: قرأتُ على مالك بن أنس عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أَفْرَدَ الحج.

وقال [٢٤٣/٦]: حدثنا روح، ثنا مالك عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل - وكان يتيماً في حجر عروة - عن عروة بن الزبير، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أفرد الحج.

ورواه ابن ماجه [٢٩٦٥] عن أبي مصعب، عن مالك كذلك.

ورواه النسائي [٢٧١٥] عن قتيبة، عن مالك، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أهلّ بالحج.

وقال أحمد [٣٦/٦] أيضاً: حدثنا عبد الرحمن عن مالك، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة. قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ فمنّا من أهلّ بالحجّ، ومنّا من أهلّ بالعمرة، ومنّا من أهلّ بالحجّ والعمرة، وأهلّ رسول الله ﷺ بالحج؛ فأما من أهلّ بالعمرة فأحلوا حين طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، وأما من أهلّ بالحجّ أو بالحجّ والعمرة، فلم يحلّوا إلى يوم النحر.

وهكذا رواه البخاري [١٥٦٢] عن عبد الله ابن يوسف، والقعنبي، وإسماعيل بن أبي أويس، عن مالك.

ورواه مسلم [(١٢١١) (١١٨)] عن يحيى بن يحيى، عن مالك به.

وقال أحمد [٣٧/٦]: حدثنا سفيان عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: أهلّ رسول الله ﷺ بالحجّ، وأهلّ ناس بالحج والعمرة، وأهل ناس بالعمرة.

ورواه مسلم [(١٢١١) (١١٤)] عن ابن أبي عمر، عن سفيان بن عيينة به نحوه.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد [٩٢/٦]: حدثنا قتيبة بن سعيد، ثنا عبد العزيز بن محمد، عن علقمة بن أبي علقمة، عن أمه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أمر الناس في حجة الوداع فقال: من أحب أن يبدأ بعمرة قبل الحج فليفعل، وأفرد رسول الله ﷺ الحجّ ولم يَعْتَمِر.

فإنه حديث غريب جداً، تفرد به أحمد ابن حنبل، وإسناده لا بأس به، ولكن لفظه فيه نكارة شديدة، وهو قوله: فلم يعتمر.

فإن أريد بهذا أنه لم يعتمر من الحج ولا قبله، هو قول من ذهب إلى الإفراد، وإن أريد أنه لم يعتمر بالكليّة لا قبل الحج ولا معه ولا بعده، فهذا مما لا أعلم أحداً من العلماء قال به، ثم هو مخالف لما صح عن عائشة وغيرها، من أنه ﷺ اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته. وسيأتي تقرير هذا في فصل القران مستقصى والله أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد قائلا في مسنده [٢٤٣/٦]: حدثنا روح، ثنا صالح بن أبي الأخضر، ثنا ابن شهاب أن عروة أخبره: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: أهل رسول الله بالحج والعمرة في حجة الوداع، وساق معه الهدي، وأهل ناس معه بالعمرة وساقوا الهدي، وأهل ناس بالعمرة ولم يسوقوا هدياً، قالت عائشة: وكنت ممن أهل بالعمرة، ولم أسق هدياً، فلما قدم رسول الله ﷺ قال: «من كان منكم أهل بالعمرة فساق معه الهدي فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، ولا يحل منه شيء حرم منه، حتى يقضي حجّه وينحر هديه يوم النحر، ومن كان منكم أهل بالعمرة ولم يسق معه هديا فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم ليقصر وليحلل، ثم ليهل بالحج وليهد، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله». قالت عائشة فقدّم رسول الله الحج الذي خاف فوته وأخر العمرة.

فهو حديث من أفراد الإمام أحمد، وفي بعض ألفاظه نكارة، ولبعضه شاهد في الصحيح [خ (١٦٩١) من حديث عائشة]، وصالح بن أبي الأخضر

ليس من عِلْية أصحاب الزهري، لا سيما إذا خالفه غيره كما ههنا في بعض ألفاظ سياقه هذا.

وقوله: فقدم الحج الذي يخاف فوته، وأخرّ العمرة، لا يلتئم مع أول الحديث أهل بالحج والعمرة، فإن أراد أنه أهل بهما في الجملة وقدم أفعال الحج، ثم بعد فراغه أهل بالعمرة كما يقوله من ذهب إلى الإفراد، فهو مما نحن فيه ههنا، وإن أراد أنه أخر العمرة بالكليّة بعد إحرامه بها، فهذا لا أعلم أحداً من العلماء صار إليه، وإن أراد أنه اقتضي بأفعال الحج عن أفعال العمرة عن أفعال العمرة، ودخلت العمرة في الحج، فهذا قول من ذهب إلى القران، وهم يؤولون قول من روى أنه عليه الصلاة والسلام أفرد الحج، أي أفرد أفعال الحج، وإن كان قد نوى معه العمرة، قالوا: لأنه قد روى القران كل من روى الإفراد، كما سيأتي بيانه والله تعالى أعلم.

رواية جابر بن عبد الله في الإفراد:

قال الإمام أحمد [٣/٣١٥]: حدثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله. قال: أهل رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالحج.

إسناده جيد على شرط مسلم.

ورواه البيهقي [السنن الكبرى: ٤/٥] عن الحاكم، وغيره عن الأصم، عن أحمد ابن عبد الجبّار، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر. قال: أهلّ رسول الله ﷺ في حجّته بالحجّ ليس معه عمرة.

وهذه الزيادة غريبة جداً، ورواية الإمام أحمد بن حنبل أحفظ والله أعلم.

وفي صحيح مسلم [(١٢١٨) (١٤٧)] من طريق جعفر بن محمّد عن أبيه، عن جابر. قال: وأهللنا بالحجّ لسنا نعرف العمرة.

وقد روى ابن ماجه [٢٩٦٦] عن هشام بن عمّار عن الدراوردي وحاتم بن إسماعيل، كلاهما عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ أفرد الحجّ.

وهذا إسناد جيّد.

وقال الإمام أحمد [٣/٣٠٥]: حدثنا عبد الوهّاب الثقفي، ثنا حبيب - يعني المعلم - عن عطاء، حدثني جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ أهلّ هو وأصحابه بالحجّ ليس مع أحد منهم هدي إلا النبي ﷺ وطلحة؛ وذكر تمام الحديث وهو في صحيح البخاري [١٦٥١] بطوله كما سيأتي عن محمد بن المثنى، عن عبد الوهاب.

رواية عبد الله بن عمر للإفراد:

قال الإمام أحمد [٢/٩٧]: حدثنا إسماعيل بن محمد، ثنا عباد - يعني ابن عباد - حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر. قال: أهللنا مع النبي ﷺ بالحج مفرداً.

ورواه مسلم في صحيحه [١٢٣١] عن عبد الله بن عون، عن عباد بن عباد، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفرداً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن عبد العزيز ومحمد بن مسكين. قالا: ثنا بشر بن بكر، ثنا سعيد بن عبد العزيز عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ أهل بالحج - يعني مفرداً -.

إسناده جيد ولم يخرجوه.

رواية ابن عباس للإفراد:

روى الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٤/٥] من حديث روح بن عبادة، عن شعبة، عن أيوب، عن أبي العالية البراء، عن ابن عباس. أنه قال: أهل رسول الله ﷺ بالحج، فقدم لأربع مضين من ذي الحجة، فصلى بنا الصبح بالبطحاء. ثم قال: «من شاء أن يجعلها عمرة فليجعلها». ثم قال: رواه مسلم [(١٢٤٠) (٢٠١)] عن إبراهيم بن دينار، عن روح.

وتقدم من رواية قتادة عن أبي حسان الأعرج، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة، ثم أتى ببدنة فأشعر صفحة سنامها الأيمن، ثم أتى براحلته فركبها فلما استوت به على البيداء أهل بالحج، وهو في صحيح مسلم أيضاً.

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني [السنن: ٢/٢٣٩]: حدثنا الحسين بن إسماعيل، ثنا أبو هشام، ثنا أبو بكر بن عياش، ثنا أبو حصين عن عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه. قال: حججت مع أبي بكر فجرد، ومع عمر فجرد، ومع عثمان فجرد. تابعه الثوري عن أبي حصين.

وهذا إنما ذكرناه ههنا لأن الظاهر أن هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم، إنما يفعلون هذا عن توقيف، والمراد بالتجريد ههنا الإفراد والله أعلم.

وقال الدارقطني [السنن: ٢/٢٣٩]: حدثنا أبو عبيد الله القاسم بن إسماعيل ومحمد بن مخلد. قالا: ثنا عليّ بن محمد بن معاوية البزاز، ثنا عبد الله بن نافع، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ استعمل عتاب بن أسيد على الحج فأفرد، ثم استعمل أبا بكر سنة تسع فأفرد الحج، ثم حج النبي ﷺ سنة عشر فأفرد الحج، ثم توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، فبعث عمر فأفرد الحج، ثم حج أبو بكر فأفرد الحج، وتوفي أبو بكر واستخلف عمر فبعث عبد الرحمن بن عوف فأفرد الحج، ثم حج عمر سنيه كلّها فأفرد الحج، ثم توفي عمر واستُخلف عثمان فأفرد الحج، ثم حصر عثمان فأقام عبد الله بن عباس للناس فأفرد الحج.

في إسناده عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف لكن قال الحافظ البيهقي: له شاهد بإسناد صحيح.

سنة ١٠- ذكر من قال إنه ﷺ حج متمتعاً

قال الإمام أحمد [٢/١٣٩، ١٤٠]: حدثنا حجاج، ثنا ليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى فساق الهدي من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، وتمتّع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي من ذي الحليفة ومنهم من لم يهد. فلما قدم رسول الله ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقصر وليُحْلِل ثم ليهل بالحج وليهد، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام وسبعة إذا رجع إلى أهله».

وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة، استلم الركن أول شيء، ثم خبّ ثلاثة أشواط من السبع، ومشى أربعة أطواف، ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سلم فانصرف، فأتى الصفا، فطاف بالصفا والمروة، ثم لم يحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر، وأفاض فطاف بالبيت، ثم حلّ من كل شيء حَرُم منه وفعل

مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدي من الناس.

قال الإمام أحمد [١٤٠/٢]: وحدثنا حجاج، ثنا ليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب، عن عروة ابن الزبير: أن عائشة أخبرته عن رسول الله ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، وتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم بن عبد الله، عن عبد الله، عن رسول الله ﷺ.

وقد روى هذا الحديث البخاري [خ (١٦٩١)] عن يحيى بن بكير، ومسلم [١٢٢٧] وأبو داود عن عبد الملك بن شعيب بن الليث، عن أبيه.

والنسائي عن محمد بن عبد الله بن المبارك المخرمي عن حجين بن المثنى، ثلاثتهم عن الليث بن سعد، عن عقيل، عن الزهري، عن سالم عن أبيه، به، وأخرجاه صاحبا الصحيح [خ (١٦٩٢)، م (١٢٢٨) من طريق الليث عن عقيل، عن الزهري] عن عروة، عن عائشة كما ذكره الإمام أحمد رحمه الله.

وهذا الحديث من المشكلات على كل من الأقوال الثلاثة، أما قول الإفراد ففي هذا إثبات عمرة، إما قبل الحج أو معه، وأما على قول التمتع الخاص، فلأنه ذكر أنه لم يحل من إحرامه بعدما طاف بالصفا والمروة. وليس هذا شأن المتمتع، ومن زعم أنه إنما منعه من التحلل سوق الهدي كما قد يفهم من حديث ابن عمر عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك، فقال: «إني لبدت رأسي، وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر».

فقولهم بعيد لأن الأحاديث الواردة في إثبات القِران ترد هذا القول وتأبى كونه عليه الصلاة والسلام إنما أهل أولا بعمرة ثم بعد سعيه بالصفا والمروة أهل بالحج، فإن هذا على هذه الصفة لم ينقله أحد بإسناد صحيح، بل ولا حسن ولا ضعيف.

وقوله في هذا الحديث: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج. إن أريد بذلك التمتع الخاص، وهو الذي يحل منه بعد السعي، فليس كذلك، فإن في سياق الحديث ما يرده، ثم في إثبات العمرة المقارنة لحجه عليه الصلاة والسلام ما يأباه، وإن أريد به التمتع العام دخل فيه القران وهو المراد.

وقوله: وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج. إن أريد به بدأ بلفظ العمرة على لفظ الحج بأن قال: «لبيك اللهم عمرة وحجاً» فهذا سهل ولا ينافي القران، وإن أريد به أنه أهل بالعمرة أولا ثم أدخل عليها الحج بتراخ، ولكن قبل الطواف قد صار قارناً أيضاً، وإن أريد به أنه أهل بالعمرة، ثم فرغ من أفعالها تحلل أو لم يتحلل بسوق الهدي، كما زعمه زاعمون، ولكنه أهل بحج بعد قضاء مناسك العمرة وقبل خروجه إلى منى، فهذا لم ينقله أحد من الصحابة كما قدمنا، ومن ادعاه من الناس فقوله مردود لعدم نقله ومخالفته الأحاديث الواردة في إثبات القران كما سيأتي، بل والأحاديث الواردة في الإفراد كما سبق والله أعلم.

والظاهر والله أعلم أن حديث الليث هذا عن عقيل، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، مرويٌّ من الطريق الأخرى عن ابن عمر حين أراد الحجَّ زمن الحج، محاصرة الحجاج لابن الزبير، فقيل له: إن الناس كائن بينهم شيء فلو أخرت الحج عامك هذا؟ فقال: إذاً أفعل كما فعل النبي ﷺ يعني زمن حُصِرَ عام الحديبية، فأحرم بعمرة من ذي الحليفة، ثم لما علا شرف البيداء قال: ما أرى أمرهما إلا واحداً، فأهل بحج معها، فاعتقد الراوي أن رسول الله ﷺ هكذا فعل سواء، بدأ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، فرووه كذلك، وفيه نظر لما سنبينه.

وبيان هذا في الحديث الذي رواه عبد الله بن وهب: أخبرني مالك بن أنس وغيره أن نافعاً حدثهم أن عبد الله بن عمر خرج في الفتنة معتمراً، وقال: إن صددت عن البيت صنعنا كما صنع رسول الله ﷺ. فخرج فأهل بالعمرة وسار حتى إذا ظهر على ظاهر البيداء التفت إلى أصحابه فقال: ما أمرهما إلا واحد، أشهدكم أني قد أوجبت الحج مع العمرة، فخرج حتى جاء البيت فطاف به وطاف بين الصفا والمروة سبعاً لم يزد عليه، ورأى أن ذلك مجزيءٌ عنه وأهدى.

وقد أخرجه صاحبا الصحيح [خ (١٨٠٦)، م (١٢٣٠) (١٨٠)] من حديث مالك.

وأخرجاه [خ (٤١٨٤)، م (١٢٣٠) (١٨١)] من حديث عبيد الله عن نافع به.

ورواه عبد الرزاق عن عبيد الله، وعبد العزيز بن أبي رواد عن نافع به نحوه؛ وفيه ثم قال في آخره: هكذا فعل رسول الله ﷺ.

وفيما رواه البخاري [١٦٤٠] حيث قال: حدثنا قتيبة، ثنا ليث عن نافع: أن ابن عمر أراد الحج عام نزل الحجاج بابن الزبير، فقيل له: إن الناس كائن بينهم قتال، وإنا نخاف أن يصدوك. قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، إذاً أصنع كما صنع رسول الله ﷺ، إني أشهدكم أني قد أوجبت عمرة. ثم خرج حتى إذا كان بظاهر البيداء قال: ما شأن الحج والعمرة إلا واحداً، أشهدكم أني أوجبت حجاً مع عمرتي، فأهدى هدياً اشتراه بقديد، ولم يزد على ذلك، ولم ينحر، ولم يحل من شيء حرم منه، ولم يحلق، ولم يقصر حتى كان يوم النحر، فنحر وحلق، ورأى أن قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول. وقال ابن عمر: كذلك فعل رسول الله ﷺ.

وقال البخاري [١٦٣٩]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا ابن علية، عن أيوب، عن نافع: أن ابن عمر دخل ابنه عبد الله بن عبد الله وظهره في الدار فقال: إني لا آمن أن يكون العام بين الناس قتال فيصدوك عن البيت، فلو أقمت. قال: قد خرج رسول الله ﷺ فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فإن يحل بيني وبينه أفعل كما فعل رسول الله ﷺ. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، إذاً أصنع كما صنع رسول الله ﷺ إني أشهدكم أني قد أوجبت مع عمرتي حجاً. ثم قدم فطاف لهما طوافاً واحداً.

وهكذا رواه البخاري [١٦٩٣] عن أبي النعمان، عن حماد بن زيد، عن أيوب بن أبي تميمة السختياني، عن نافع به.

ورواه مسلم [(١٢٣٠) (١٨٣)] من حديثهما عن أيوب به.

فقد اقتدى ابن عمر رضي الله عنه برسول الله ﷺ في التحلل عند حصر العدو، والاكتفاء بطواف واحد عن الحج والعمرة، وذلك لأنه كان قد أحرم أولا بعمرة ليكون متمتعاً فخشي أن يكون حَصْر، فجمعهما، وأدخل الحج على العمرة قبل الطواف، فصار قارناً، وقال: ما أرى أمرهما إلا واحداً - يعني لا فرق بين أن يحصر الإنسان عن الحج أو العمرة أو عنهما - فلما قدم مكة اكتفى عنهما بطوافه الأول كما صرح به في السياق الأول الذي أوردناه، وهو قوله: ورأى أن قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول. قال ابن عمر: كذلك فعل رسول الله ﷺ - يعني أنه اكتفى عن الحج والعمرة بطواف واحد - يعني بين الصفا والمروة -.

وفي هذا دلالة على أن ابن عمر روى القران، ولهذا روى النسائي [٢٩٣٢] عن محمد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن أيوب بن

موسى، عن نافع: أن ابن عمر قرن الحج والعمرة فطاف طوافاً واحداً.

ثم رواه النسائي [٢٩٣٣] عن عليّ بن ميمون الرقي، عن سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أمية، وأيوب بن موسى، وأيوب السختياني، وعبيد الله بن عمر أربعتهم عن نافع: أن ابن عمر أتى ذا الحليفة فأهل بعمرة، فخشي أن يصد عن البيت. فذكر تمام الحديث من إدخاله الحج على العمرة وصيرورته قارناً.

والمقصود أن بعض الرواة لما سمع قول ابن عمر: إذاً أصنع كما صنع رسول الله ﷺ، وقوله: كذلك فعل رسول الله ﷺ. اعتقد أن رسول الله ﷺ بدأ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج فادخله عليها قبل الطواف، فرواه بمعنى ما فهم، ولم يرد ابن عمر ذلك وإنما أراد ما ذكرناه والله أعلم بالصواب.

ثم بتقدير أن يكون أهل بالعمرة أولا ثم أدخل عليها الحج قبل الطواف، فإنه يصير قارناً لا متمتعاً التمتع الخاص، فيكون فيه دلالة لمن ذهب إلى أفضلية التمتع، والله تعالى أعلم.

وأما الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه [١٥٧١]: حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا همام عن قتادة، حدثني مطرف عن عمران. قال: تمتعنا على عهد النبي ﷺ ونزل القرآن، قال رجل برأيه ما شاء.

فقد رواه مسلم [(١٢٢٦) (١٧٠)] عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن همام، عن قتادة به.

والمراد به المتعه التي أعم من القران، والتمتع الخاص، ويدل على ذلك ما رواه مسلم [(١٢٢٦) (١٦٨، ١٦٩)] من حديث شعبة وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن مطرف، عن عبد الله بن الشخير، عن عمران بن الحصين: أن رسول الله ﷺ جمع بين حج وعمرة، وذكر تمام الحديث.

وأكثر السلف يطلقون المتعة على القران كما قال البخاري [١٥٦٩]: حدثنا قتيبة، ثنا حجاج بن محمد الأعور عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن المسيب. قال: اختلف عليّ وعثمان رضي الله عنهما وهما بعسفان في المتعة، فقال عليّ: ما تريد إلاّ أن تنهى عن أمر فعله رسول الله ﷺ، فلما رأى ذلك عليّ بن أبي طالب أهل بهما جميعا.

ورواه مسلم [(١٢٢٣) (١٥٩)] من حديث شعبة وأخرجه البخاري [٥٦٣] من حديث شعبة أيضاً عن الحكم بن عيينة، عن عليّ بن الحسين، عن مروان بن الحكم، عنهما به. وقال عليّ: ما كنت لأدع سنّة رسول الله ﷺ لقول أحد من ورواه مسلم [(١٢٢٣) (١٥٨)] من حديث شعبة أيضاً عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عنهما. فقال له عليّ: لقد علمت أنّا تمتعنا مع رسول الله ﷺ؟ قال: أجل! ولكنا كنا خائفين.

وأما الحديث الذي رواه مسلم [(١٢٣٩)] من حديث غندر عن شعبة، وعن عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن شعبة، عن مسلم بن مخراق القرّي، سمع ابن عباس يقول: أهل رسول الله ﷺ بعمرة وأهل أصحابه بحج فلم يحل رسول الله ﷺ ولا من ساق الهدي من أصحابه وحل بقيتهم.

فقد رواه أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٧٦٣]، وروح بن عبادة عن شعبة، عن مسلم القرّي، عن ابن عباس. قال: أهل رسول الله ﷺ بالحج - وفي رواية أبي داود - أهل رسول الله ﷺ وأصحابه بالحج. فمن كان منهم لم يكن له متعة هدي حل، ومن كان معه هدي لم يحل، الحديث.

فإن صححنا الروايتين جاء القران، وإن توقفنا في كل منهما وقف الدليل، وإن رجحنا رواية مسلم في صحيحه في رواية العمرة، فقد تقدم عن ابن عباس أنه روى الإفراد وهو الإحرام بالحج، فتكون هذه زيادة على الحج فيجيء القول بالقران لا سيما وسيأتي عن ابن عباس ما يدل على ذلك.

وروى مسلم [١٢٤١] من حديث غندر ومعاذ بن معاذ عن شعبة، عن الحكم، عن مجاهد عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: هذه عمرة استمتعنا بها، فمن لم يكن معه هدي فليحل الحل كله، فإن العمرة قد دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة.

وروى البخاري [١٥٦٧] عن آدم بن أبي أياس ومسلم [١٢٤٢] من حديث غندر، كلاهما عن شعبة، عن أبي جمرة قال: تمتعت فنهاني ناس، فسألت ابن عباس فأمرني بها، فرأيت في المنام كأن رجلا يقول: حج مبرور ومتعة متقبلة. فأخبرت ابن عباس فقال: الله أكبر سنّة أبي القاسم، صلوات الله وسلامه عليه.

والمراد بالمتعة ههنا القران.

وقال القعنبي وغيره عن مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، أنه حدثه أنه سمع سعد بن أبي وقاص، والضحاك بن قيس عام حج معاوية بن أبي سفيان وهما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحج. فقال الضحاك: لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله. فقال سعد: بئس ما قلت يا ابن أخي، فقال الضحاك: فإن عمر بن الخطاب كان ينهى عنها. فقال سعد: قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه.

ورواه الترمذي [٨٢٣] والنسائي [٢٧٣٣] عن قتيبة عن مالك، وقال الترمذي: صحيح.

وقال عبد الرزاق عن معتمر بن سليمان وعبد الله بن المبارك كلاهما عن سليمان التيمي: حدثني غنيم بن قيس، سألت سعد بن أبي وقاص: عن التمتع بالعمرة إلى الحج قال: فعلتها مع رسول الله ﷺ، وهذا يومئذ كافر في العُرُش - يعني مكة - ويعني به معاوية.

ورواه مسلم [١٢٢٥] من حديث شعبة، وسفيان الثوري ويحيى بن سعيد، ومروان الفزاري، أربعتهم عن سليمان التيمي، سمعت غنيم بن قيس سألت سعداً عن المتعة فقال: قد فعلناها، وهذا يومئذ كافر بالعُرُش.

وفي رواية يحيى بن سعيد - يعني معاوية -.

وهذا كله من باب إطلاق التمتع على ما هو أعم من التمتع الخاص، وهو الإحرام بالعمرة والفراغ منها، ثم الإحرام بالحج ومن القران، بل كلام سعد فيه دلالة على إطلاق التمتع على الاعتمار في أشهر الحج، وذلك أنهم اعتمروا ومعاوية بعد كافر بمكة قبل الحج، أما عمرة الحديبية أو عمرة القضاء وهو الأشبه، فأما عمرة الجعرانة فقد كان معاوية أسلم مع أبيه ليلة الفتح، وروينا أنه قصّر من شعر النبي ﷺ بمشقص في بعض عمره، وهي عمرة الجعرانة لا محالة والله أعلم.

سنة ١٠- ذكر حُجة من ذهب إلى أنه ﷺ كان قارناً وسرد الأحاديث في ذلك

رواية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قد تقدم ما رواه البخاري [١٥٣٤] من حديث أبي عمرو الأوزاعي:

سمعت يحيى بن أبي كثير عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني آتٍ من ربي عز وجل فقال صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة».

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٣/٥]: أنبأنا عليّ بن أحمد بن عمر بن حفص المقرئ ببغداد، أنبأنا أحمد بن سليمان قال: قرئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع: حدثنا أبو زيد الهروي، ثنا عليّ بن المبارك، ثنا يحيى بن أبي كثير، ثنا عكرمة، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبرائيل عليه السلام وأنا بالعقيق فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك ركعتين، وقل: عمرة في حجة، فقد دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

ثم قال البيهقي: رواه البخاري [٧٣٤٣] عن أبي زيد الهروي.

وقال الإمام أحمد [٣٤/١]: حدثنا هُشيم، ثنا سيار عن أبي وائل، أن رجلا كان نصرانياً يقال له الصُّبي بن معبد، فأراد الجهاد فقيل له: ابدأ بالحج فأتى الأشعري فأمره أن يهل بالحج والعمرة جميعاً ففعل، فبينما هو يلبي إذ مرّ بزيد بن صوحان وسلمان بن ربيعة. فقال أحدهما لصاحبه: لهذا أضل من بعير أهله، فسمعها الصُّبي، فكبر ذلك عليه، فلما قدم أتى عمر بن الخطاب فذكر ذلك له. فقال له عمر: هديت لسنة نبيك ﷺ. قال: وسمعته مرة أخرى يقول: وفِّقت لسنة نبيك ﷺ.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٧/١] عن يحيى بن سعيد القطان، عن الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل، عن الصُّبي بن معبد، عن عمر بن الخطاب فذكره. وقال: إنهما لم يقولا شيئاً، هديت لسنة نبيك ﷺ.

ورواه [٣٧/١] عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن منصور، عن أبي وائل به. ورواه [١٤/١] أيضاً عن غندر، عن شعبة، عن الحكم، عن أبي وائل.

وعن سفيان بن عيينة، عن عبدة بن أبي لبابة، عن أبي وائل [المسند: ٢٥/١].

قال: قال الصُّبي بن معبد كنت رجلا نصرانياً فأسلمت فأهللت بحج وعمرة فسمعني زيد بن صوحان وسلمان بن ربيعة وأنا أهل بهما. فقالا: لهذا أضل من بعير أهله، فكأنما حمل عليّ بكلمتهما جبل، فقدمت على عمر فأخبرته، فأقبل عليهما فلامهما، وأقبل عليّ فقال: هديت لسنة النبي ﷺ. قال عبدة: قال أبو وائل: كثيراً ما ذهبت أنا ومسروق إلى الصبي بن معبد نسأله عنه.

وهذه أسانيد جيدة على شرط الصحيح.

وقد رواه أبو داود [١٧٩٨، ١٧٩٩] والنسائي [٢٧١٨، ٢٧١٩، ٢٧٢٠] وابن ماجه [٢٩٧٠] من طرق عن أبي وائل شقيق بن سلمة به.

وقال النسائي في كتاب الحج من سننه [٢٧٣٥]: حدثنا محمد بن عليّ بن الحسن بن شقيق، ثنا أبي عن أبي حمزة السكري، عن مطرف، عن سلمة بن كهيل، عن طاوس، عن ابن عباس، عن عمر. أنه قال: والله إني لأنهاكم عن المتعة وإنها لفي كتاب الله، وقد فعلها النبي ﷺ.

إسناد جيد.

رواية أميري المؤمنين عثمان وعليّ رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد [١٣٦/١]: حدثنا محمد ابن جعفر، ثنا شعبة عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن المسيب. قال: اجتمع عليّ وعثمان بعسفان، وكان عثمان ينهى عن المتعة أو العمرة فقال عليّ: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه. فقال عثمان: دعنا منك.

هكذا رواه الإمام أحمد مختصراً.

وقد أخرجاه في الصحيحين [خ (١٥٦٩)، (١٢٢٣) (١٥٩)] من حديث شعبة عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن المسيب. قال: اختلف عليّ وعثمان وهما بعسفان في المتعة. فقال عليّ: ما تريد إلاّ أن تنهى عن أمر فعله رسول الله ﷺ، فلما رأى ذلك عليّ بن أبي طالب أهل بهما جميعاً، وهكذا لفظ البخاري.

وقال البخاري [١٥٦٣]: ثنا محمد بن بشار، ثنا غندر عن شعبة، عن الحكم، عن عليّ ابن الحسين، عن مروان بن الحكم. قال: شهدت عثمان وعليّاً؛ وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلما رأى عليّ أهل بهما، لبيك بعمرة وحج. قال: ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد.

ورواه النسائي [١٧٢٢] من حديث شعبة به، ومن حديث الأعمش عن مسلم البطين، عن عليّ بن الحسين به [٢٧٢١]. وقال الإمام أحمد [٩٧/١]: ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن قتادة. قال: قال عبد الله بن شقيق: كان عثمان ينهى عن المتعة، وعليّ يأمر بها. فقال عثمان لعليّ: إنك لكذا وكذا. ثم قال: عليّ: لقد علمت أنا تمتعنا مع رسول الله ﷺ. قال: أجل ولكنا كنا خائفين.

ورواه مسلم [(١٢٢٣) (١٥٨)] من حديث شعبة.

فهذا اعتراف من عثمان رضي الله بما رواه عليّ رضي الله عنهما، ومعلوم أن عليّاً رضي الله عنه أحرم عام حجة الوداع بإهلال كإهلال النبي ﷺ، وكان قد ساق الهدي، وأمره عليه الصلاة والسلام أن يمكث حراماً، وأشركه النبي ﷺ في هديه كما سيأتي بيانه.

وروى مالك في الموطأ [٣٣٦/١] عن جعفر بن محمد عن أبيه، أن المقداد بن الأسود دخل على عليّ بن أبي طالب بالسقيا وهو ينجع بكرات له دقيقاً وخبطاً. فقال: هذا عثمان بن عفان ينهى عن أن يقرن بين الحج والعمرة، فخرج عليّ وعلى يده أثر الدقيق والخبط - ما أنسى أثر الدقيق والخبط على ذراعيه - حتى دخل على عثمان. فقال: أنت تنهى أن يقرن بين الحج والعمرة؟ فقال عثمان: ذلك رأيي، فخرج عليّ مغضباً وهو يقول: لبيك اللّهم لبيك بحجة وعمرة معاً.

وقد قال أبو داود في سننه [١٧٩٧]: حدثنا يحيى بن معين، ثنا حجاج، ثنا يونس عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب. قال: كنت مع عليّ حين أمّره رسول الله ﷺ على اليمن، فذكر الحديث في قدوم عليّ. قال عليّ: فقال لي رسول الله ﷺ: «كيف صنعت؟» قال: قلت: إنما أهللت بإهلال النبي ﷺ. قال: إني قد سقت الهدي وقرنت.

وقد رواه النسائي [٢٧٢٤] من حديث يحيى بن معين بإسناده، وهو على شرط الشيخين، وعلله الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٥/٥] بأنه لم يذكر هذا اللفظ في سياق حديث جابر الطويل.

وهذا التعليل فيه نظر لأنه قد روى القران من حدث جابر بن عبد الله كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

وروى ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٧٧٧)] عن عليّ بن أبي طالب. قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة وخرجت أنا من اليمن. وقلت: لبيك بإهلال كإهلال النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: «فإني أهللت بالحج والعمرة جميعاً».

رواية أنس بن مالك رضي الله عنه:

وقد رواه عند جماعة من التابعين ونحن نوردهم مرتبين على حروف المعجم:

بكر بن عبد الله المزني عنه:

قال الإمام أحمد [٩٩/٣]: حدثنا هشيم، ثنا حميد الطويل، أنبأنا بكر بن عبد الله المزني. قال: سمعت أنس بن مالك يحدث، قال: سمعت رسول الله ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً، فحدثت بذلك ابن عمر. فقال: لبى بالحج وحده، فلقيت أنساً فحدثته بقول ابن عمر. فقال: ما تعدُّونا إلا صبياناً! سمعت رسول الله ﷺ يقول: لبيك عمرة وحجاً.

ورواه البخاري [٤٣٥٣] عن مسدد، عن بشر بن المفضل عن حميد به.

وأخرجه مسلم [(١٢٣٢) (١٨٥)] عن سريج بن يونس، عن هشيم به.

وعن أمية بن بسطام عن يزيد بن زريع، عن حبيب بن الشهيد، عن بكر بن عبد الله المزني، به [(١٢٣٢) (١٨٦)].

ثابت البناني عن أنس:

قال الإمام أحمد [١٨٣/٣]: حدثنا وكيع عن ابن أبي ليلى، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لبيك بعمرة وحجة معاً».

تفرد به من هذا الوجه الحسن البصري عنه.

قال: الإمام أحمد [١٤٢/٣]: ثنا روح، ثنا أشعث عن الحسن، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ وأصحابه قدموا مكة وقد لبوا بحج وعمرة. فأمرهم رسول الله ﷺ بعدما طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، أن يحلوا وأن يجعلوها عمرة، فكأن القوم هابوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أني سقت هدياً لأحللت»، فأحل القوم وتمتعوا.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن قزعة، ثنا سفيان بن حبيب، ثنا أشعث عن الحسن، عن أنس: أن النبي ﷺ أهل هو وأصحابه بالحج والعمرة، فلما قدموا مكة طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، أمرهم رسول الله ﷺ أن يحلوا فهابوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «أحلوا فلولا أن معي الهدي لأحللت». فحلوا حتى حلوا إلى النساء.

ثم قال: البزار لا نعلم رواه عن الحسن إلا أشعث بن عبد الملك.

حميد بن تيرويه الطويل عنه:

قال الإمام أحمد [١٨٢/٣]: حدثنا يحيى عن حميد، سمعت أنساً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لبيك بحج وعمرة وحج».

هذا إسناد ثلاثي على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولا أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه.

لكن رواه مسلم [(١٢٥١) (٢١٤)] عن يحيى بن يحيى عن هشيم، عن يحيى بن أبي إسحاق، وعبد العزيز بن صهيب، وحميد، أنهم سمعوا أنس بن مالك. قال: سمعت رسول الله ﷺ أهل بهما جميعاً: «لبيك عمرة وحجاً، لبيك عمرة وحجاً».

وقال الإمام أحمد [٢٦٦/٣]: حدثنا يعمر بن بشر، ثنا عبد الله، أنبأنا حميد الطويل عن أنس بن مالك. قال: ساق رسول الله ﷺ بدناً كثيرة وقال: «لبيك بعمرة وحج»، وإني لعند فخذ ناقته اليسرى.

تفرد به أحمد من هذا الوجه أيضا.

حميد بن هلال العدوي البصري عنه:

قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن المثنى، ثنا عبد الوهاب عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك. وحدثناه سلمة بن شبيب، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن أيوب، عن أبي قلابة وحميد بن هلال عن أنس. قال: إني ردف أبي طلحة، وإن ركبته لتمس ركبة رسول الله ﷺ وهو يلبي بالحج والعمرة.

وهذا إسناد جيد قوي على شرط الصحيح، ولم يخرجوه. وقد تأوله البزار على أن الذي كان يلبي بالحج والعمرة أبو طلحة، قال: ولم ينكر عليه النبي ﷺ.

وهذا التأويل فيه نظر، ولا حاجة إليه لمجيء ذلك من طرق عن أنس، كما مضى وكما سيأتي، ثم عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى، وهو في هذه الصورة أقوى دلالة والله أعلم، وسيأتي في رواية سالم بن أبي الجعد عن أنس صريح الرد على هذا التأويل.

زيد بن أسلم عنه:

قال الحافظ أبو بكر البزار: روى سعيد بن عبد العزيز التنوخي، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ أهل بحج وعمرة.

حدثناه الحسن بن عبد العزيز الجروي، ومحمد بن مسكين. قالا: حدثنا بشر بن بكر عن سعيد بن عبد العزيز، عن زيد بن أسلم، عن أنس.

قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ٩/٥] بأبسط من هذا السياق. فقال: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، قالا: ثنا أبو العباس محمد ابن يعقوب، أنبأنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد، أخبرني أبي، ثنا شعيب بن عبد العزيز عن زيد بن أسلم وغيره، أن رجلا أتى ابن عمر فقال: بمَ أهل رسول الله ﷺ؟ قال ابن عمر: أهل بالحج فانصرف، ثم أتاه من العام المقبل. فقال: بمَ أهل رسول الله ﷺ؟ قال: ألم تأتني عام أول. قال: بلى! ولكن أنس بن مالك يزعم أنه قرن، قال ابن عمر: إن أنس بن مالك كان يدخل على النساء وهن مكشفات الرؤوس، وإني كنت تحت ناقة رسول الله ﷺ يمسني لعابها أسمعه يلبي بالحج.

سالم بن أبي الجعد الغطفاني الكوفي عنه:

قال الإمام أحمد [٢٨٠/٣]: حدثنا يحيى بن آدم، ثنا شريك عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن أنس بن مالك، يرفعه إلى النبي ﷺ: أنه جمع بين الحج والعمرة فقال: «لبيك بعمرة وحجة معاً».

حسن ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٢٨٠/٣]: حدثنا عفان، ثنا أبو عوانة، ثنا عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد، عن سعد مولى الحسن بن عليّ. قال: خرجنا مع عليّ فأتينا ذا الحليفة. فقال علي: إني أريد أن أجمع بين الحج والعمرة، فمن أراد ذلك فليقل كما أقول، ثم لبى قال: لبيك بحجة وعمرة معاً. قال: وقال سالم: وقد أخبرني أنس بن مالك. قال: والله إن رجلي لتمس رجل رسول الله ﷺ، وإنه ليهل بهما جميعا.

وهذا أيضاً إسناد جيد من هذا الوجه، ولم يخرجوه، وهذا السياق يرد على الحافظ البزار ما تأول به حديث حميد بن هلال، عن أنس كما تقدم والله أعلم.

سليمان بن طرخان التيمي عنه:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن حبيب ابن عربي، ثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يحدث عن أنس بن مالك. قال: سمعت النبي ﷺ يلبي بهما جميعاً. ثم قال البزار: لم يروه عن التيمي إلا ابنه

المعتمر، ولم يسمعه إلا من يحيى بن حبيب العربي عنه.

قلت: وهو على شرط الصحيح ولم يخرجوه.

سويد بن حجير عنه:

قال الإمام أحمد [١٧١/٣]: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن أبي قزعة سويد بن حجير، عن أنس بن مالك. قال: كنت رديف أبي طلحة فكانت ركبة أبي طلحة تكاد أن تصيب ركبة رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يهل بهما.

وهذا إسناد جيد تفرد به أحمد، ولم يخرجوه وفيه رد على الحافظ البزار صريح.

عبد الله بن زيد أبو قلابة الجرمي عنه:

قال الإمام أحمد [١٦٤/٣]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس، قال: كنت رديف أبي طلحة وهو يساير النبي ﷺ. قال: فإن رجلي لتمس غرز النبي ﷺ فسمعته يلبي بالحج والعمرة معاً.

وقد رواه البخاري [١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٥١، ١٧١٢، وغيرهما] من طرق عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس قال: صلى النبي ﷺ الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، ثم ركب راحلته حتى استوت به على البيداء حمد الله وسبح وكبر، وأهل بحج وعمرة، وأهل الناس بهما جميعاً.

وفي رواية له [٢٩٨٦]: كنت رديف أبي طلحة، وإنهم ليصرخون بهما جميعاً الحج والعمرة.

وفي رواية له [١٧١٥] عن أيوب، عن رجل، عن أنس. قال: ثم بات حتى أصبح، فصلى الصبح ثم ركب راحلته حتى إذا استوت به البيداء أهل بعمرة وحج.

عبد العزيز بن صهيب:

تقدمت روايته عنه مع رواية حميد الطويل عنه عند مسلم.

عليّ بن زيد بن جدعان عنه:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد، ثنا عليّ بن حكيم عن شريك، عن عليّ بن زيد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ لبى بهما جميعاً.

هذا غريب من هذا الوجه، ولم يخرجه أحد من أصحاب السنن وهو على شرطهم.

قتادة بن دعامة السدوسي عنه:

قال الإمام أحمد [١٣٤/٣]: حدثنا بهز وعبد الصمد المعنى. قالا: أخبرنا همام بن يحيى، ثنا قتادة. قال: سألت أنس بن مالك قلت: كم حج النبي ﷺ؟ قال: حجة واحدة واعتمر أربع مرات، عمرته زمن الحديبية، وعمرته في ذي القعدة من المدينة، وعمرته من الجعرانة في ذي القعدة حيث قسم غنيمة حنين، وعمرته مع حجته.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٧٧٨)، م (١٢٥٣)] من حديث همام بن يحيى به.

مصعب بن سليم الزبيري مولاهم عنه:

قال الإمام أحمد [١٨٣/٣]: حدثنا وكيع، ثنا مصعب ابن سليم، سمعت أنس بن مالك يقول: أهل رسول الله ﷺ بحجة وعمرة.

تفرد به أحمد.

يحيى بن إسحاق الحضرمي عنه:

قال الإمام أحمد [٩٩/٣]: حدثنا هشيم، أنبأنا يحيى بن أبي إسحاق، وعبد العزيز بن صهيب، وحميد الطويل عن أنس، أنهم سمعوه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً يقول: «لبيك عمرة وحجاً، لبيك عمرة وحجاً».

وقد تقدم أن مسلماً رواه عن يحيى بن يحيى، عن هشيم به.

وقال الإمام أحمد أيضاً [١٨٧/٣]: ثنا عبد الأعلى عن يحيى، عن أنس. قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة قال: فسمعته يقول: «لبيك عمرة وحجاً».

أبو أسماء الصيقل عنه:

قال الإمام أحمد [١٤٨/٣]: حدثنا حسن، ثنا زهير. وحدثنا أحمد بن عبد الملك، ثنا زهير عن أبي إسحاق، عن أبي أسماء الصيقل، عن أنس بن مالك. قال: خرجنا نصرخ بالحج، فلما قدمنا مكة أمرنا رسول الله ﷺ أن نجعلها عمرة. وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة، ولكني سقت الهدي» وقرنت الحج بالعمرة.

ورواه النسائي [٢٧٢٩] عن هناد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن أبي أسماء الصيقل، عن أنس بن مالك. قال: سمعت رسول الله ﷺ وسلم يلبي بهما.

أبو قدامة الحنفي، ويقال: إن اسمه: محمد بن عبيد عن أنس:

قال الإمام أحمد [١٤٢/٣]: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة عن يونس بن عبيد، عن أبي قدامة الحنفي. قال: قلت لأنس: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يلبي؟ فقال: سمعته سبع مرات يلبي بعمرة وحجة، بعمرة وحجّة.

تفرد به الإمام أحمد، وهو إسناد جيد قوي ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

وروى ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٩٣١)] عن أنس بن مالك. قال: كان رسول الله ﷺ قرن بين الحج والعمرة، وقرن القوم معه.

وقد أورد الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٩/٥، ١٠] بعض هذه الطرق عن أنس بن مالك، ثم شرع يعلل ذلك بكلام فيه نظر، وحاصله أنه قال:

والاشتباه وقع لأنس لا لمن دونه، ويحتمل أن يكون سمعه رسول الله ﷺ يعلّم غيره كيف يهل بالقران لا أنه يهل بهما عن نفسه والله أعلم.

قال: وقد روي ذلك عن غير أنس بن مالك، وفي ثبوته نظر.

قلت: ولا يخفى ما في هذا الكلام من النظر الظاهر لمن تأمله، وربما كان ترك هذا الكلام أولى منه، إذ فيه تطرق احتمال إلى حفظ الصحابي مع تواتره عنه، كما رأيت آنفاً، وفتح هذا يفضي إلى محذور كبير والله تعالى أعلم.

حديث البراء بن عازب في القران:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ١١/٥]: أنبأنا أبو الحسين ابن بشران، أنبأنا عليّ بن محمد المصري، حدثنا أبو غسان مالك بن يحيى، ثنا يزيد بن هارون، أنبأنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب. قال: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر كلهن في ذي القعدة. فقالت عائشة: لقد علم أنه اعتمر أربع عمر بعمرته التي حج معها. قال

البيهقي: ليس هذا بمحفوظ.

قلت: سيأتي بإسناد صحيح إلى عائشة نحوه.

رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني [السنن: ٢/٢٧٨]: حدثنا أبو بكر بن أبي داود، ومحمد بن جعفر بن رميس، والقاسم بن إسماعيل أبو عبيد، وعثمان بن جعفر اللبان وغيرهم. قالوا: حدثنا أحمد بن يحيى الصوفي، ثنا زيد بن حباب، ثنا سفيان الثوري عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله. قال: حج النبي ﷺ ثلاث حجج؛ حجتين قبل أن يهاجر، وحجة قرن معها عمرة.

وقد روى هذا الحديث الترمذي [٨١٥] وابن ماجه [٣٠٧٦] من حديث سفيان بن سعيد الثوري به.

وأما الترمذي فرواه عن عبد الله بن أبي زياد، عن زيد بن حباب، عن سفيان به. ثم قال: غريب من حديث سفيان، لا نعرفه إلا من حديث زيد بن الحباب. ورأيت عبد الله بن عبد الرحمن - يعني الدارمي - روى هذا الحديث في كتبه عن عبد الله بن أبي زياد، وسألت محمداً عن هذا فلم يعرفه، ورأيته لا يعده محفوظاً. قال: وإنما روى عن الثوري، عن أبي إسحاق، عن مجاهد مرسلاً.

وفي السنن الكبرى للبيهقي [٥/١٢]: قال أبو عيسى الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا حديث خطأ وإنما روي هذا عن الثوري مرسلاً.

قال البخاري: وكان زيد بن الحباب إذا روى حفظاً ربما غلط في الشيء.

وأما ابن ماجه [٣٠٧٦] فرواه عن القاسم بن محمد بن عباد المهلبي عن عبد الله بن داود الخريبي عن سفيان به، وهذه طريق لم يقف عليها الترمذي ولا البيهقي، وربما ولا البخاري، حيث تكلم في زيد ابن الحباب ظاناً أنه انفرد به، وليس كذلك والله أعلم.

طريق أخرى عن جابر:

قال أبو عيسى الترمذي [٩٤٧]: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا أبو معاوية عن حجاج، عن أبي الزبير، عن جابر. أن رسول الله ﷺ قرن الحج والعمرة، وطاف لهما طوافاً واحداً. ثم قال: هذا حديث حسن، وفي نسخة: صحيح.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٨١٩، ٣٩١٤)] عن جابر قال: لم يطف النبي ﷺ إلا طوافاً واحداً لحجه ولعمرته.

قلت: حجاج هذا هو ابن أرطاة. وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة.

ولكن قد روي من وجه آخر عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أيضاً، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

حدثنا مقدم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى بن مقدم، عن عبد الرحمن بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر. أن رسول الله ﷺ قدم فقرن بين الحج والعمرة، وساق الهدي. وقال رسول الله ﷺ: «من لم يقلد الهدي فليجعلها عمرة».

ثم قال البزار: وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

انفرد بهذه الطريق البزار في مسنده وإسنادها غريبة جداً وليست في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه والله أعلم.

رواية أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد [٤/٢٨]: حدثنا أبو معاوية ثنا حجاج - هو ابن أرطاة - عن الحسن بن سعد، عن ابن عباس. قال: أخبرني أبو طلحة أن رسول الله ﷺ جمع بين الحج والعمرة.

ورواه ابن ماجه [٢٩٧١] عن عليِّ بن محمد، عن أبي معاوية بإسناده ولفظه، أن رسول الله ﷺ قرن بين الحج والعمرة.

الحجاج بن أرطاة فيه ضعف والله أعلم.

رواية سراقة بن مالك بن جعشم:

قال الإمام أحمد [٤/١٧٥]: حدثنا مكي بن إبراهيم، ثنا داود - يعني ابن يزيد - سمعت عبد الملك الزراد. يقول: سمعت النزال بن سبرة صاحب عليٍّ يقول: سمعت سراقة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». قال: وقرن رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

رواية سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه تمتع بالحج إلى العمرة وهو القران:

قال الإمام مالك [الموطأ: ١/٣٤٤]: عن ابن شهاب، عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، أنه حدثه أنه سمع سعد بن أبي وقاص، والضحاك بن قيس عام حج معاوية بن أبي سفيان يذكر التمتع بالعمرة إلى الحج. فقال الضحاك: لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله. فقال سعد: بئس ما قلت يا ابن أخي. فقال الضحاك: فإن عمر بن الخطاب كان ينهى عنها، فقال سعد: قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه.

ورواه الترمذي [٨٢٣] والنسائي [٢٧٣٣] جميعا عن قتيبة، عن مالك به. وقال: الترمذي هذا حديث صحيح.

وقال الإمام أحمد [١/١٨١]: ثنا يحيى بن سعيد، ثنا سليمان - يعني التيمي - حدثني غنيم. قال: سألت ابن أبي وقاص عن المتعة فقال: فعلناها، وهذا كافر بالعُرُش - يعني معاوية -.

هكذا رواه مختصراً.

وقد رواه مسلم في صحيحه [١٢٢٥] من حديث سفيان بن سعيد الثوري، وشعبة، ومروان الفزاري، ويحيى بن سعيد القطان، أربعتهم عن سليمان بن طرخان التيمي، سمعت غنيم بن قيس، سألت سعد بن أبي وقاص عن المتعة؟ فقال: قد فعلناها، وهذا يومئذ كافر بالعُرُش.

قال: يحيى بن سعيد في روايته - يعني معاوية - ورواه عبد الرزاق عن معتمر بن سليمان وعبد الله بن المبارك، كلاهما عن سليمان التيمي، عن غنيم بن قيس، سألت سعداً عن التمتع بالعمرة إلى الحج. فقال: فعلتها مع رسول الله ﷺ وهذا يومئذ كافر بالعرش - يعني مكة ويعني به معاوية.

وهذا الحديث الثاني أصح إسناداً، وإنما ذكرناه اعتضاداً لا اعتماداً، والأول صحيح الإسناد، وهو أصرح في المقصود من هذا والله أعلم.

رواية عبد الله بن أبي أوفى:

قال الطبراني [المعجم الأوسط (٣٦٣٣)]: حدثنا سعيد بن محمد بن المغيرة المصري، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا يزيد بن عطاء عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفى. قال: إنما جمع رسول الله ﷺ بين الحج والعمرة لأنه علم أنه لم يكن حاجاً بعد ذلك العام.

رواية عبد الله بن عباس في ذلك:

قال الإمام أحمد [٢٤٦/١]: حدثنا أبو النضر، ثنا داود - يعني العطار - عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، والثالثة من الجعرانة، والرابعة التي مع حجته.

وقد رواه أبو داود [١٩٩٣] والترمذي [٨١٦] وابن ماجه [٣٠٠٣] من طرق عن داود بن عبد الرحمن العطار المكي، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس به وقال الترمذي: حسن غريب.

ورواه الترمذي [بإثر (٨١٦)] عن سعيد بن عبد الرحمن، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة مرسلاً.

ورواه الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٢/٥] من طريق أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز البغوي، عن الحسن بن الربيع، وشهاب بن عباد، كلاهما عن داود بن عبد الرحمن العطار فذكره. وقال: الرابعة التي قرنها مع حجته.

ثم قال أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز: ليس أحد يقول في هذا الحديث عن ابن عباس إلا داود بن عبد الرحمن.

ثم حكى البيهقي [السنن الكبرى: ١٢/٥] عن البخاري أنه قال: داود بن عبد الرحمن صدوق إلا أنه ربما يهم في الشيء.

وقد تقدم ما رواه البخاري [١٥٣٤] من طريق ابن عباس عن عمر، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول بوادي العقيق: «أتاني آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة» فلعل هذا مستند ابن عباس فيما حكاه والله أعلم.

رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قد تقدم فيما رواه البخاري ومسلم من طريق الليث عن عقيل، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر. أنه قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأهدى فساق الهدي من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج.

وذكر تمام الحديث في عدم إحلاله بعد السعي، فعلم كما قررناه أولا إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن متمتعاً التمتع الخاص وإنما كان قارناً لأنه حكى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن متمتعاً، اكتفى بطواف واحد بين الصفا والمروة عن حجه وعمرته. وهذا شأن القارن على مذهب الجمهور كما سيأتي بيانه والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، ثنا يحيى بن يمان عن سفيان، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ طاف طوافاً واحداً لإقرانه لم يحل بينهما، واشترى من الطريق - يعني الهدي -.

وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات، إلا أن يحيى بن يمان وإن كان من رجال مسلم في أحاديثه عن الثوري نكارة شديدة والله أعلم.

ومما يرجح أن ابن عمر أراد بالإفراد الذي رواه أفراد أفعال الحج لا الإفراد الخاص الذي يصير إليه أصحاب الشافعي، وهو الحج، ثم الاعتمار بعده في بقية ذي الحجة، قول الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٩٦٤)]: أنبأنا مالك عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر. أنه قال: لأن أعتمر قبل الحج وأهدي أحب إليّ من أن أعتمر بعد الحج في ذي الحجة.

رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد [٢١٤/٢، ٢١٥]: حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ إنما قرن خشية أن يصد عن البيت، وقال: إن لم تكن حجة فعمرة.

وهذا حديث غريب سنداً ومتناً، تفرد بروايته الإمام أحمد.

وقد قال أحمد في يونس بن الحارث الثقفي هذا: كان مضطرب الحديث، وضعفه، وكذا ضعفه يحيى بن معين في رواية عنه والنسائي.

وأما من حيث المتن فقوله: إنما قرن رسول الله ﷺ خشية أن يصد عن البيت. فمن الذي كان يصده عليه الصلاة والسلام، عن البيت وقد أطد الله الإسلام وفتح البلد الحرام، وقد نودي برحاب منى أيام الموسم في العام الماضي «أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان»، وقد كان معه عليه السلام في حجة الوداع قريب من أربعين ألفاً، وما هذا بأعجب من قول أمير المؤمنين عثمان لعليّ بن أبي طالب حين قال له عليّ: لقد علمت أنا تمتعنا مع رسول الله ﷺ. فقال: أجل ولكنا كنا خائفين [م (١٢٢٣) (١٥٨)]، ولست أدري علام يحمل هذا الخوف من أي جهة كان؟ إلا أنه تضمن رواية الصحابي لما رواه، وحمله على معنى ظنه، فما رواه صحيح مقبول، وما اعتقده فليس بمعصوم فيه، فهو موقوف عليه، وليس بحجة على غيره، ولا يلزم منه رد الحديث الذي رواه: وهكذا قول عبد الله بن عمرو. لو صح السند إليه والله أعلم.

رواية عمران بن حصين رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد [٤٢٧/٤]: حدثنا محمد بن جعفر، وحجاج قالا: ثنا شعبة عن حميد بن هلال، سمعت مطرفاً قال: قال لي عمران بن حصين: إني محدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به: إن رسول الله ﷺ قد جمع بين حجّة وعمرة، ثم لم ينه عنه حتى مات، ولم ينزل قرآن فيه يحرمه، وإنه كان يسلم عليّ، فلما اكتويت أمسك عني فلما تركته عاد إليّ.

وقد رواه مسلم [(١٢٢٦) (٠٠٠)] عن محمد بن المثنى، ومحمد ابن بشار، عن غندر [(١٢٢٦) (٠٠٠)]، عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه [(١٢٢٦) (١٦٧)]، والنسائي [٢٧٢٥] عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد بن الحارث، ثلاثتهم عن شعبة، عن حميد بن هلال، عن مطرف، عن عمران به.

ورواه مسلم [(١٢٢٦) (١٦٨، ١٦٩)] من حديث شعبة وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن عمران بن الحصين، أن رسول الله ﷺ جمع بين حج وعمرة الحديث.

قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني [انظر تحفة الأشراف: ١٩٠/٨] حديث شعبة عن حميد بن هلال، عن مطرف صحيح، وأما حديثه عن قتادة عن مطرف، فإنما رواه عن شعبة كذلك بقية بن الوليد. وقد رواه غندر وغيره عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

قلت: وقد رواه أيضاً النسائي في سننه [٢٧٢٦] عن عمرو بن عليّ الفلاس، عن خالد بن الحارث، عن شعبة، وفي نسخة عن سعيد بدل شعبة، عن قتادة، عن مطرف، عن عمران بن الحصين، فذكره والله أعلم.

وثبت في الصحيحين [خ (١٥٧١)، م (١٢٢٦) (١٧٠)] من حديث همام عن قتادة، عن مطرف، عن عمران بن الحصين قال: تمتعنا على عهد رسول الله ﷺ ثم لم ينزل قرآن يحرمه، ولم ينه عنها حتى مات رسول الله ﷺ.

رواية الهرماس بن زياد الباهلي:

قال عبد الله ابن الإمام أحمد [المسند: ٣/٤٨٥ من رواية الإمام أحمد، وخطأ ذلك الهيثمي في المجمع ٣/٢٣٥]: حدثنا عبد الله بن عمران بن أبي عليّ أبو محمد من أهل الري، وكان أصله أصبهانياً: حدثنا يحيى بن الضريس، حدثنا عكرمة بن عمار عن الهرماس. قال: كنت ردف أبي فرأيت النبي ﷺ وهو على بعير وهو يقول: «لبيك بحجة وعمرة معاً».

وهذا على شرط السنن ولم يخرجوه.

رواية حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها:

قال الإمام أحمد [٦/٢٨٤]: حدثنا عبد الرحمن عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن حفصة أنها قالت للنبي ﷺ: مالك لم تحل من عمرتك؟ قال: «إني لبدت رأسي وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر».

وقد أخرجاه في الصحيحين [خ (١٥٦٦)، م (١٢٢٩) (١٧٦)] من حديث مالك وعبيد الله بن عمر، زاد البخاري [٤٣٩٨] وموسى بن عقبة، زاد مسلم [(١٢٢٩) (١٧٩)] وابن جريج كلهم عن نافع، عن ابن عمر به. وفي لفظهما أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني قلدت هديي ولبدت رأسي فلا أحل حتى أنحر».

وقال الإمام أحمد [٦/٢٨٥] أيضاً: حدثنا شعيب بن أبي حمزة. قال: قال نافع: كان عبد الله بن عمر يقول: أخبرتنا حفصة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر أزواجه أن يحللن عام حجة الوداع. فقالت له فلانة: ما يمنعك أن تحل؟ قال: «إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلست أحل حتى أنحر هديي».

وقال أحمد أيضاً [٦/٢٨٥]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني نافع عن عبد الله بن عمر، عن حفصة بنت عمر أنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ نساءه أن يحللن بعمرة. قلنا: فما يمنعك يا رسول الله أن تحل معنا؟ قال: «إني أهديت ولبدت فلا أحل حتى أنحر هديي».

ثم رواه أحمد [٦/٢٨٥] عن كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن نافع، عن ابن عمر، عن حفصة فذكره.

فهذا الحديث فيه أن رسول الله ﷺ كان متلبساً بعمرة، ولم يحل منها، وقد علم بما تقدم من أحاديث الإفراد أنه كان قد أهل بحج أيضاً فدل مجموع ذلك أنه قارن مع ما سلف من رواية من صرح بذلك والله أعلم.

رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

قال البخاري [١٥٥٦]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فأهللنا بعمرة. ثم قال النبي ﷺ: «من كان معه هدي فليهل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً»، فقدمت مكة وأنا حائض، فلم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج، ودعي العمرة»، ففعلت فلما قضيت الحج أرسلني رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم فاعتمرت. فقال: «هذه مكان عمرتك» قالت: فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم حلوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منىً، وأما الذين جمعوا الحج والعمرة، فإنما طافوا طوافاً واحداً.

وكذلك رواه مسلم [(١٢١١) (١١١)] من حديث مالك، عن الزهري فذكره.

ثم رواه [(١٢١١) (١١٣)] عن عبد بن حميد، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع فأهللت بعمرة، ولم أكن سقت الهدي فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه هدي فليهل بالحج مع عمرته، لا يحل حتى يحل منهما جميعاً»، وذكر تمام الحديث كما تقدم.

والمقصود من إيراد هذا الحديث ههنا قوله ﷺ «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة». ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام قد كان معه هدي فهو أول وأولى من ائتمر بهذا، لأن المخاطب داخل في عموم متعلق خطابه على الصحيح. وأيضاً فإنها قالت: وأما الذين جمعوا الحج والعمرة فإنما طافوا طوافاً واحداً، يعني بين الصفا والمروة. وقد روى مسلم [(١٢١١) (١١١)] عنها: أن رسول الله ﷺ إنما طاف بين الصفا والمروة طوافاً واحداً، فعلم من هذا أنه كان قد جمع بين الحج والعمرة.

وقد روى مسلم [(١٢١١) (١٢١)وليس فيه هذا اللفظ، بل هو لفظ الماجشون] من حديث حماد بن زيد، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: فكان الهدي مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وذوي اليسار.

وأيضا فإنها ذكرت أن رسول الله ﷺ لم يتحلل من النسكين، فلم يكن متمتعاً، وذكرت أنها سألت رسول الله ﷺ أن يعمرها من التنعيم. وقالت: يا رسول الله يرجع الناس بحج وعمرة وأنطلق بحج. فبعثها مع أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر فأعمرها من التنعيم.

ولم يذكر أنه عليه الصلاة والسلام اعتمر بعد حجته فلم يكن مفرداً. فعلم أنه كان قارناً لأنه كان باتفاق الناس قد اعتمر في حجة الوداع والله أعلم.

وقد تقدم ما رواه الحافظ البيهقي من طريق يزيد بن هارون، عن زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب أنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر كلهن في ذي القعدة، فقالت عائشة: لقد علم أنه اعتمر أربع عمر بعمرته التي حج معها.

وقال البيهقي في الخلافيات: أخبرنا أبو بكر بن الحارث الفقيه، أنبأنا أبو محمد بن حبان الأصبهاني، أنبأنا إبراهيم بن شريك، أنبأنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا أبو إسحاق، عن مجاهد، قال: سئل ابن عمر: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين، فقالت عائشة: لقد علم ابن عمر أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثا سوى العمرة التي قرنها مع حجة الوداع.

ثم قال البيهقي: وهذا إسناد لا بأس به، لكن فيه إرسال ـ مجاهد لم يسمع من عائشة في قول بعض المحدثين.

قلت: كان شعبة ينكره، وأما البخاري ومسلم فإنهما أثبتاه والله أعلم.

وقد روي [خ (١٥٦٠)، م (١٢١١) (١١٩ ـ ١٢٤)] من حديث القاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر.

وعروة بن الزبير وغير واحد عن عائشة [خ (٣١٦)، م (١٢١١) (١١١ ـ ١١٨)]: أن رسول الله ﷺ كان معه الهدي عام حجة الوداع.

وفي أعمارها من التنعيم ومصادفتها له منهبطاً على أهل مكة، وبيتوته بالمحصب حتى صلى الصبح بمكة، ثم رجع إلى المدينة. وهذا كله مما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يعتمر بعد حجته تلك، ولم أعلم أحداً من الصحابة نقله.

ومعلوم أنه لم يتحلل بين النسكين، ولا روى أحد أنه عليه السلام بعد

طوافه بالبيت وسعيه بين الصفا والمروة حلق ولا قصر ولا تحلل، بل استمر على إحرامه باتفاق، ولم ينقل أنه أهل بحج لما سار إلى منى، فعلم أنه لم يكن متمتعاً.

وقد اتفقوا على أنه عليه الصلاة والسلام اعتمر عام حجة الوداع، فلم يتحلل بين النسكين ولا أنشأ إحراما للحج، ولا اعتمر بعد الحج فلزم القران، وهذا مما يعسر الجواب عنه والله أعلم.

وأيضاً فإن رواية القران مثبتة لما سكت عنه أو نفاه من روى الإفراد والتمتع، فهي مقدمة عليها كما هو مقرر في علم الأصول، وعن أبي عمران أنه حج مع مواليه. قال: فأتيت أم سلمة فقلت: يا أم المؤمنين إني لم أحج قط، فبأيهما أبدأ بالعمرة أم بالحج؟ قالت: ابدأ بأيهما شئت. قال: ثم أتيت صفية أم المؤمنين فسألتها فقالت لي مثل ما قالت: ثم جئت أم سلمة فأخبرتها بقول صفية فقالت لي أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا آل محمد من حج منكم فليهل بعمرة في حجة».

رواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٩٢٠) و(٣٩٢٢)].

وقد رواه ابن حزم في حجة الوداع [ص٦٨، ٦٩] من حديث الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم عن أبي عمران، عن أم سلمة به.

سنة ١٠- الجمعُ بينَ أحاديث الإفراد والجمع

إن قيل: قد رويتم عن جماعة من الصحابة أنه عليه الصلاة والسلام أفرد الحج، ثم رويتم عن هؤلاء بأعيانهم وعن غيرهم أنه جمع بين الحج والعمرة فما الجمع بين ذلك؟ فالجواب: أن رواية من روى أنه أفرد الحج محمولة على أنه أفرد أفعال الحج، ودخلت العمرة فيه نية وفعلا ووقتاً، وهذا يدل على أنه اكتفى بطواف الحج وسعيه عنه وعنها، كما هو مذهب الجمهور في القارن، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، حيث ذهب إلى أن القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين، واعتمد على ما روي في ذلك عن عليّ بن أبي طالب [السنن للدارقطني: ٢/٢٦٣، ٢٦٥] وفي الإسناد إليه نظر.

وأما من روى التمتع ثم روى القران، فقد قدمنا الجواب عن ذلك بأن التمتع في كلام السلف أعم من التمتع الخاص والقران بل ويطلقونه على الاعتمار في أشهر الحج، وإن لم يكن معه حج. كما قال سعد بن أبي وقاص [م (١٢٢٥)]: تمتعنا مع رسول الله ﷺ وهذا - يعني معاوية - يومئذ كافر بالعرش - يعني بمكة - وإنما يريد بهذا إحدى العمرتين، إما الحديبية أو القضاء فأما عمرة الجعرانة فقد كان معاوية قد أسلم لأنها كانت بعد الفتح، وحجة الوداع بعد ذلك سنة عشر، وهذا بين واضح والله أعلم.

إن قيل: فما جوابكم عن الحديث الذي رواه أبو داود الطيالسي في مسنده. حدثنا هشام عن قتادة، عن أبي شيخ الهنائي، واسمه حَيْوان بن خالد: أن معاوية قال لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن صُفَف النمور، قالوا: اللّهم نعم! قال: وأنا أشهد قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الذهب إلا مقطعاً، قالوا: اللّهم نعم! قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى أن يقرن بين الحج والعمرة، قالوا: اللّهم لا! قال: والله إنها لمعهن.

وقال الإمام أحمد [٤/٩٢]: حدثنا عفان، ثنا همام عن قتادة عن أبي شيخ الهنائي قال: كنت في ملإ من أصحاب رسول الله ﷺ عند معاوية فقال معاوية: أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن جلود النمور أن يركب عليها، قالوا: اللّهم نعم! قال: وتعلمون أنه نهى عن لباس الذهب إلا مقطعا، قالوا: اللّهم نعم! قال: وتعلمون أنه نهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة؟ قالوا: اللّهم نعم! قال: وتعلمون أنه نهى عن المتعة - يعني متعة الحج - قالوا: اللّهم لا! قال: أما إنها معهنّ.

وقال أحمد [٤/٩٩]: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا سعيد عن قتادة، عن أبي شيخ الهنائي، أنه شهد معاوية وعنده جمع من أصحاب النبي ﷺ فقال لهم معاوية: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن ركوب جلود النمور قالوا: نعم! قال: تعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير، قالوا: اللّهم نعم! قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى أن يشرب في آنية الذهب والفضة قالوا: اللّهم نعم! قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن جمع بين حج وعمرة قالوا: اللّهم لا! قال: فوالله إنها لمعهن.

وكذا رواه حماد بن سلمة عن قتادة [د (١٧٩٤)] وزاد: ولكنكم نسيتم.

وكذا رواه أشعث بن نزار، وسعيد بن أبي عروبة [س (٥١٦٦)]، وهمام عن قتادة بأصله.

ورواه مطر الوراق وبَيْهس بن فهدان عن أبي شيخ [س (٥١٧٤)]، في متعة الحج.

فقد رواه أبو داود والنسائي من طرق عن أبي شيخ الهنائي به، وهو حديث جيد الإسناد، ويستغرب منه رواية معاوية رضي الله عنه، النهي عن الجمع بين الحج والعمرة، ولعل أصل الحديث النهي عن المتعة، فاعتقد الراوي أنها متعة الحج، وإنما هي متعة النساء، ولم يكن عند أولئك الصحابة رواية في النهي عنها، أو لعل النهي عن الإقران في التمر كما في حديث ابن عمر [خ (٢٤٥٥)، م (٢٠٤٥)]، فاعتقد الراوي أن المراد القران في الحج وليس كذلك، أو لعل معاوية رضي الله عنه قال: إنما قال أتعلمون أنه نهي عن كذا، فبناه بما لم يسم فاعله، فصرح الراوي بالرفع إلى النبي ﷺ، ووهم في ذلك، فإن الذي كان ينهى عن متعة الحج إنما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن نهيه عن ذلك على وجه التحريم ولا الحتم كما قدمنا، وإنما كان ينهى عنها لتفرد عن الحج بسفر آخر لتكثر زيارة البيت، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهابونه كثيراً، فلا يتجاسرون على مخالفته غالباً، وكان ابنه عبد الله يخالفه فيقال له: إن أباك كان ينهى عنها، فيقول: لقد خشيت أن تقع عليكم حجارة من السماء قد فعلها رسول الله ﷺ افسنّة رسول الله تتبع، أم سنّة عمر بن الخطاب [مسند أحمد: ٢/٩٥].

وكذلك كان عثمان بن عفان رضي الله عنه ينهى عنها، وخالفه عليّ بن أبي طالب كما تقدم. وقال: لا أدع سنّة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس. وقال عمران بن حصين: تمتعنا مع رسول الله ﷺ، ثم لم ينزل قرآن يحرمه، ولم ينه عنها رسول الله ﷺ حتى مات، أخرجاه في الصحيحين [خ (٤٥١٨)، م (١٢٢٦) (١٦٥ - ١٦٧) (١٧٢، ١٧٣)].

وفي صحيح مسلم [١٢٢٥] عن سعد أنه أنكر على معاوية إنكاره المتعة، وقال: قد فعلناها مع رسول الله ﷺ، وهذا يومئذ كافر بالعرش يعني معاوية أنه كان حين فعلوها مع رسول الله ﷺ كافراً بمكة يومئذ.

قلت: وقد تقدم أنه عليه السلام حج قارناً بما ذكرناه من الأحاديث الواردة في ذلك، ولم يكن بين حجة الوداع وبين وفاة رسول الله ﷺ إلا أحد وثمانون يوماً، وقد شهد الحجة ما ينيف على أربعين ألف صحابي قولا منه وفعلا، فلو كان قد نهى عن القران في الحج الذي شهده منه

الناس، لم ينفرد به واحد من الصحابة، ويرده عليه جماعة منهم ممن سمع منه، ومن لم يسمع، فهذا كله مما يدل على أن هذا هكذا ليس محفوظاً عن معاوية رضي الله عنه والله أعلم.

وقال أبو داود [١٧٩٣]: حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني حيوة أخبرني أبو عيسى الخراساني عن عبد الله بن القاسم الخراساني عن سعيد بن المسيب أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ أتى عمر بن الخطاب فشهد أنه سمع رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبض فيه ينهى عن العمرة قبل الحج.

وهذا الإسناد لا يخلو عن نظر ثم إن كان هذا الصحابي هو معاوية فقد تقدم الكلام على ذلك ولكن في هذا النهي عن المتعة لا القران. وإن كان في غيره فهو مشكل في الجملة لكن لا على القران والله أعلم.

سنة ١٠- ذكر مستند من قال: أنه ﷺ أطلق الإحرام ولم يعين حجاً ولا عمرة أولاً، ثم بعد ذلك صرفه إلى معين

وقد حكي عن الشافعي أنه الأفضل، إلا أنه قول ضعيف.

قال الشافعي رحمه الله [ترتيب مسند الشافعي (٩٦٠)]: أنبأنا سفيان، أنبأنا ابن طاوس، وإبراهيم بن ميسرة، سمعا طاوساً يقول: خرج رسول الله ﷺ من المدينة لا يسمي حجاً ولا عمرة، ينتظر القضاء، فنزل عليه القضاء وهو بين الصفا والمروة فأمر أصحابه من كان منهم أهل بالحج، ولم يكن معه هدي أن يجعلها عمرة. وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولكن لبّدت رأسي، وسقت هديي فليس لي محل إلا محل هديي» فقام إليه سراقة بن مالك. فقال: يا رسول الله اقض لنا قضاء قوم كأنما ولدوا اليوم أعمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل للأبد دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» قال: فدخل عليّ من اليمن فسأله النبي ﷺ: «بم أهللت؟» فقال أحدهما عن طاوس: قلت: لبيك إهلال النبي ﷺ، وقال الآخر: لبيك حجة النبيّ ﷺ.

وهذا مرسل طاوس وفيه غرابة، وقاعدة الشافعي رحمه الله أنه لا يقبل المرسل بمجرده حتى يعتضد بغيره، اللّهم إلا أن يكون عن كبار التابعين كما عوّل عليه كلامه في الرسالة، لأن الغالب أنهم لا يرسلون إلا عن الصحابة والله أعلم. وهذا المرسل ليس من هذا القبيل بل هو مخالف للأحاديث المتقدمة، كلها أحاديث الإفراد وأحاديث التمتع، وأحاديث القران وهي مسندة صحيحة، كما تقدم فهي مقدمة عليه ولأنها مثبتة أمراً نفاه هذا المرسل، والمثبت مقدم على النافي لو تكافئا، فكيف والمسند صحيح والمرسل من حيث لا ينهض حجة لانقطاع سنده والله تعالى أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ٥/٦]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا محاضر، حدثنا الأعمش عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة. قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر حجاً ولا عمرة، فلما قدمنا أمرنا أن نحل، فلما كانت ليلة النفر حاضت صفية بنت حُيَيّ. فقال النبي ﷺ: «حلقى عقرى ما أراها إلا حابستكم». قال: «هل كنت طفت يوم النحر؟»

قالت: نعم! قال: «فانفري». قالت قلت: يا رسول الله إني لم أكن أهللت قال: «فاعتمري من التنعيم» قال: فخرج معها أخوها، قالت: فلقينا مدلجاً. فقال: «موعدكِ كذا وكذا».

هكذا رواه البيهقي.

وقد رواه البخاري [١٧٢٧] عن محمد قيل: هو ابن يحيى الذهلي، عن محاضر بن المورع به، إلا أنه قال: قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج، وهذا أشبه بأحاديثها المتقدمة. لكن روى مسلم [(١٢١١) (١٢٩)] عن سويد بن سعيد، عن عليّ بن مسهر، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة. قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر حجاً ولا عمرة. وقد أخرجه البخاري [١٥٦١] ومسلم [(١٢١١) (١٢٨)] من حديث منصور عن إبراهيم، عن الأسود، عنها. قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ ولا نرى إلا أنه الحج.

وهذا أصح وأثبت والله أعلم.

وفي رواية لها [م (١٢١١) (١٢٩)] من هذا الوجه: خرجنا نلبي ولا نذكر حجاً ولا عمرة.

وهو محمول على أنهم لا يذكرون ذلك مع التلبية، وإن كانوا قد سموه حال الإحرام كما في حديث أنس [أحمد: ٣/٩٩]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لبيك اللّهم حجاً وعمرة». وقال أنس: وسمعتهم يصرخون بهما جميعاً.

فأما الحديث الذي رواه مسلم [١٢٤٨] من حديث داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن جابر وأبي سعيد الخدري. قالا: قدمنا مع رسول الله ﷺ ونحن نصرخ بالحج صراخاً. فإنه حديث مشكل على هذا والله أعلم.

سنة ١٠- ذكر تلبية رسول الله ﷺ

قال الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٧٨٩)]: أخبرنا مالك عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أن تلبية رسول الله ﷺ: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لك لا شريك لك» وكان عبد الله بن عمر يزيد فيها: لبيك لبيك وسعديك، والخير في يديك، والرغباء إليك والعمل.

ورواه البخاري [١٥٤٩ دون زيادة ابن عمر] عن عبد الله بن يوسف، ومسلم [(١١٨٤) (١٩)] عن يحيى بن يحيى، كلاهما عن مالك به.

وقال مسلم [(١١٨٤) (٢٠)]: حدثنا محمد بن عباد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله بن عمر ونافع مولى عبد الله بن عمر وحمزة بن عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ: كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهل؛ فقال: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». قالوا: وكان عبد الله يقول: هذه تلبية رسول الله ﷺ. قال نافع: وكان عبد الله يزيد مع هذا لبيك لبيك لبيك، وسعديك والخير بيديك لبيك والرغباء إليك والعمل.

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله أخبرني نافع عن ابن عمر قال: تلقفت التلبية من رسول الله ﷺ فذكر بمثل حديثهم.

حدثني حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب. قال: قال: فإنّ سالم ابن عبد الله بن عمر، أخبرني عن أبيه. قال: سمعت رسول الله ﷺ يهل ملبّداً يقول: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا

شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» لا يزيد علي هؤلاء الكلمات، وإن عبد الله بن عمر كان يقول: كان رسول الله ﷺ يركع بذي الحليفة ركعتين فإذا استوت به الناقة قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهل بهؤلاء الكلمات. وقال عبد الله بن عمر: كان عمر بن الخطاب يهل بإهلال النبي ﷺ من هؤلاء الكلمات وهو يقول: لبيك اللّهم لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك لبيك والرغباء إليك والعمل. هذا لفظ مسلم [(١١٨٤) (٢١)].

وفي حديث جابر من التلبية كما في حديث ابن عمر، وسيأتي مطولا قريباً رواه مسلم منفرداً به.

وقال البخاري [١٥٥٠]: بعد إيراده من طريق مالك عن نافع، عن ابن عمر ما تقدم:

حدثنا محمد بن يوسف، ثنا سفيان عن الأعمش، عن عمارة، عن أبي عطية، عن عائشة. قالت: إني لأعلم كيف كان النبي ﷺ يلبي: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك».

تابعه أبو معاوية عن الأعمش، وقال شعبة: أخبرنا سليمان، سمعت خيثمة عن أبي عطية، سمعت عائشة.

تفرد به البخاري.

وقد رواه الإمام أحمد [١٨١/٦] عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن أبي عطية الوادعي، عن عائشة فذكر مثل ما رواه البخاري سواء.

ورواه أحمد [٢٢٩/٦] عن أبي معاوية، وعبد الله بن نمير عن الأعمش، كما ذكره البخاري سواء.

ورواه أيضاً عن محمد بن جعفر، وروح بن عبادة عن شعبة، عن سليمان بن مهران الأعمش به [١٠٠/٦، ٢٤٣]. كما ذكره البخاري.

وكذلك رواه أبو داود الطيالسي في مسنده [١٥١٣] عن شعبة سواء.

وقال الإمام أحمد [٣٢/٦]: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش عن عمارة بن عمير، عن أبي عطية. قال: قالت عائشة: إني لأعلم كيف كان رسول الله ﷺ يلبي. قال: ثم سمعتها تلبي. فقالت: لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. فزاد في هذا السياق وحده: والملك لا شريك لك.

وقال البيهقي [السنن الكبرى: ٤٥/٥]: أخبرنا الحاكم، أنبأنا الأصم، ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أن عبد الله بن الفضل حدثه عن عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة أنه قال: كان من تلبية رسول الله ﷺ: «لبيك إله الحق».

وقد رواه النسائي [٢٧٥١] عن قتيبة، عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد العزيز بن أبي سلمة.

وابن ماجه [٢٩٢٠] عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعليّ بن محمد، كلاهما عن وكيع، عن عبد العزيز به.

قال: النسائي: ولا أعلم أحداً أسنده عن عبد الله بن الفضل إلا عبد العزيز، ورواه إسماعيل بن أمية مرسلا.

وقال الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٧٩٢)]: أنبأنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج، أخبرني حميد الأعرج عن مجاهد. أنه قال: كان النبي ﷺ يظهر من التلبية لبيك اللّهم لبيك. فذكر التلبية.

قال: حتى إذا كان ذات يوم والناس يصرفون عنه كأنه أعجبه ما هو فيه فزاد فيها: «لبيك إن العيش عيش الآخرة». قال ابن جريج: وحسبت أن ذلك يوم عرفة.

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ٤٥/٥]: أخبرنا عبد الله الحافظ، أخبرني أبو أحمد يوسف بن محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، ثنا نصر بن عليّ الجهضمي، ثنا محبوب بن الحسن، ثنا داود عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خطب بعرفات فلما قال: «لبيك اللّهم لبيك». قال: «إنما الخير خير الآخرة».

وهذا إسناد غريب، وإسناده على شرط السنن، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٣٢٥/٢]: حدثنا روح، ثنا أسامة بن زيد، حدثني عبد الله بن أبي لبيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «أمرني جبرائيل برفع الصوت في الإهلال فإنه من شعائر الحج».

تفرد به أحمد.

وقد رواه البيهقي [السنن الكبرى: ٤٢/٥] عن الحاكم عن الأصم، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الله بن أبي لبيد عن المطلب عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ فذكره.

وقد قال عبد الرزّاق [السنن الكبرى للبيهقي: ٤٢/٥، من طريق عبد الرزاق، به]: أخْبَرَنَا الثوري عن ابن أبي لبيد، عن المطلب بن حنطب، عن خلاد بن السائب، عن زيد بن خالد. قال: جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال: مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها شعار الحج.

وكذا رواه ابن ماجه [٢٩٢٣] عن عليّ بن محمد، عن وكيع، عن الثوري به.

وكذلك رواه شعبة وموسى بن عقبة عن عبد الله بن أبي لبيد به [السنن الكبرى للبيهقي: ٤٢/٥].

وقال الإمام أحمد [١٩٢/٥]: حدثنا وكيع، ثنا سفيان عن عبد الله بن أبي لبيد، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن خلاد بن السائب، عن زيد بن خالد الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبرائيل فقال: يا محمد مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها شعار الحج».

قال شيخنا أبو الحجاج المزي في كتابه الأطراف [٢٣١/٣]: وقد رواه معاوية بن هشام وقبيصة عن سفيان الثوري، عن عبد الله بن أبي لبيد، عن المطلب، عن خلاد بن السائب، عن أبيه، عن زيد بن خالد به.

وقال أحمد [٥٦/٤]: ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الملك بن أبي بكر بن الحارث بن هشام، عن خلاد بن السائب بن خلاد، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبرائيل فقال: مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالإهلال».

وقال أحمد [٥٦/٤]: قرأت على عبد الرحمن بن مهدي عن مالك، وحدثنا روح، ثنا مالك يعني ابن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن خلاد بن السائب الأنصاري، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبرائيل فأمرني أن آمر أصحابي - أو من معي - أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال» - يريد أحدهما.

وكذلك رواه الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٧٩٤)] عن مالك.

ورواه أبو داود [١٨١٤] عن القعنبي عن مالك به.

ورواه الإمام أحمد [٥٦/٤] أيضاً من حديث ابن جريج، والترمذي [٨٢٩]، والنسائي [٢٧٥٢]، وابن ماجه [٢٩٢٢] من حديث سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي بكر به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٤٢/٥]: ورواه ابن جريج قال: كتب إليّ عبد الله بن أبي بكر فذكره، ولم يذكر أبا خلاد في إسناده، قال: والصحيح رواية مالك وسفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الملك، عن خلاد بن السائب، عن أبيه، عن النبي ﷺ كذلك، قال البخاري وغيره كذا قال.

وقد قال الإمام أحمد في مسند السائب بن خلاد بن سويد أبي سهلة الأنصاري [٥٦/٤]: ثنا محمد بن بكر، أنبأنا ابن جريج. وروح، ثنا ابن جريج. قال: كتب إليّ عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن خلاد بن السائب الأنصاري، عن أبيه السائب بن خلاد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبرائيل فقال: إن الله يأمرك أن تأمر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية والإهلال». وقال روح: بالتلبية أو بالإهلال. قال: ولا أدري أينا وَهِلَ أنا أو عبد الله أو خلاد في الإهلال أو التلبية؟

هذا لفظ أحمد في مسنده.

وكذلك ذكره شيخنا في أطرافه [٢٣١/٣] عن ابن جريج كرواية مالك وسفيان بن عيينة فالله أعلم.

سنة ١٠- حديث جابر بن عبد الله ﷺ في حجة رسول الله ﷺ

وهو وحده منسك مستقل رأينا أن إيراده ههنا أنسب لتضمنه التلبية وغيرها مما سلف، وما سيأتي فنورد طرقه وألفاظه ثم نتبعه بشواهده من الأحاديث الواردة في معناه وبالله المستعان.

قال: الإمام أحمد [٣٢٠/٣، ٣٢١]: حدثنا يحيى بن سعيد، ثنا جعفر بن محمد، حدثني أبي قال: أتينا جابر بن عبد الله وهو في بني سلمة، فسألناه عن حجة رسول الله ﷺ فحدثنا أن رسول الله ﷺ مكث في المدينة تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس أن رسول الله ﷺ حاج هذا العام. قال: فنزل المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ ويفعل ما يفعل، فخرج رسول الله ﷺ لعشر بقين من ذي القعدة، وخرجنا معه حتى إذا أتى ذا الحليفة نفست أسماء بنت عميس بمحمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: «اغتسلي ثم استثفري بثوب، ثم أهلّي».

فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا استوت به ناقته على البيداء أهل بالتوحيد: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»، ولبّى الناس، والناس يزيدون ذا المعارج ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يسمع فلم يقل لهم شيئاً فنظرت مدّ بصري بين يدي رسول الله ﷺ من راكب وماش ومن خلفه كذلك وعن يمينه مثل ذلك، وعن شماله مثل ذلك.

قال جابر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملناه، فخرجنا لا ننوي إلا الحج حتى إذا أتينا الكعبة، فاستلم نبي الله ﷺ الحجر الأسود، ثم رمل ثلاثة ومشى أربعة، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال أحمد: وقال أبو عبد الله ـ يعني جعفراً ـ فقرأ فيهما بالتوحيد، وقل يا أيها الكافرون ثم استلم الحجر وخرج إلى الصفا ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]. ثم قال: «نبدأ بما بدأ الله به» فرقي على الصفا حتى إذا نظر إلى البيت كبّر. ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده وصدق وعده وهزم ـ أو غلب ـ الأحزاب وحده. ثم دعا ثم رجع إلى هذا الكلام، ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل حتى إذا صعد مشى، حتى أتى المروة فرقي عليها حتى نظر إلى البيت فقال عليها كما قال على الصفا.

فلما كان السابع عند المروة. قال: «يا أيها الناس إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهَدْي ولجعلتها عمرة، فمن لم يكن معه هَدْي فليحلّ وليجعلها عمرة». فحل الناس كلهم، فقال سراقة بن مالك بن جُعشم وهو في أسفل الوادي: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه فقال: «للأبد» ثلاث مرات. ثم قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

قال: وقدم عليّ من اليمن يهدي وساق رسول الله ﷺ معه من هدي المدينة هدياً، فإذا فاطمة قد حلّت ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت فأنكر ذلك عليٌّ عليها فقالت: أمرني به أبي. قال: قال عليّ بالكوفة ـ قال جعفر: قال أبي هذا الحرف، لم يذكره جابر ـ فذهبت محرشاً أستفتي رسول الله ﷺ في الذي ذكرت فاطمة، قلت: إن فاطمة لبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، وقالت: أمرني به أبي. قال: «صدقت صدقت أنا أمرتها به». وقال جابر، وقال لعليّ: «بم أهللت؟» قال: قلت: اللّهم إني أهل بما أهل به رسولك، قال: ومعي الهدي، قال: «فلا تحل».

قال: وكان جماعة الهدي الذي أتى به عليٌّ من اليمن، والذي أتى به رسول الله ﷺ مائة، فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فأكلا من لحمها وشربا من مرقها. ثم قال رسول الله ﷺ: «قد نحرت ههنا ومنىً كلها منحر»، ووقف بعرفة فقال: «وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف»، ووقف بالمزدلفة وقال: «وقفت ههنا والمزدلفة كلها موقف».

هكذا أورد الإمام أحمد هذا الحديث وقد اختصر آخره جداً.

ورواه الإمام مسلم بن الحجاج في المناسك من صحيحه [(١٢١٨) (١٤٧)] عن أبي بكر بن أبي شيبة، وإسحاق بن إبراهيم، كلاهما عن حاتم بن إسماعيل، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله فذكره.

وقد أعلمنا على الزيادات المتفاوتة من سياق أحمد ومسلم إلى قوله عليه الصلاة والسلام لعليّ «صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟». قال: قلت: اللّهم إني أهل بما أهل به رسولك ﷺ. قال: «فإن معي الهدي فلا تحل» قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليّ من اليمن والذي أتى به رسول الله ﷺ مائة. قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث

قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة له من شعر، فضربت له بنمرةً فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللّهم اشهد اللّهم اشهد» ثلاث مرات. ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئا.

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصوى إلى الصخرات وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا، حتى غاب القرص، وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس! السكينةَ السكينةَ» كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، ودفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل ابن العباس، وكان رجلا حسن الشعر أبيض، وسيماً. فلما دفع رسول الله ﷺ مرت ظعن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر.

حتى إذا أتى بطن محسر، فحرك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها حصى الخذف، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم». فناولوه دلواً فشرب منه.

ثم رواه مسلم [(١٢١٨) (١٤٨، ١٤٩)] عن عمر بن حفص، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر فذكره بنحوه. وذكر قصة أبي سَيَّارة وأنه كان يدفع بأهل الجاهلية على حمار عُري، وأن رسول الله ﷺ قال: «نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف، ووقفت ههنا وجمع كلها موقف».

وقد رواه أبو داود [١٩٠٥] بطوله عن النفيلي وعثمان بن أبي شيبة، وهشام بن عمار، وسليمان بن عبد الرحمن، وربما زاد بعضهم على بعض الكلمة والشيء، أربعتهم عن حاتم بن إسماعيل، عن جعفر بنحو من رواية مسلم، وقد رمزنا لبعض زياداته عليه.

ورواه أبو داود [١٩٠٩] أيضاً والنسائي [٢٧٣٩] عن يعقوب بن إبراهيم، عن يحيى بن سعيد القطان، عن جعفر به.

ورواه النسائي [٢٧١١، ٢٧٤٢] أيضاً عن محمد بن المثنى، عن يحيى بن سعيد ببعضه.

وعن إبراهيم بن هارون البلخي، عن حاتم بن إسماعيل ببعضه [كبرى (٤١٦٧)].

سنة ١٠- الأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ وهو ذاهب من المدينة إلى مكة في عمرته وحجته

قال البخاري [٤٨٣]: باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ:

حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، قال: ثنا فضيل بن سليمان قال: ثنا موسى بن عقبة. قال: رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق فيصلي فيها، ويحدث أن أباه كان يصلي فيها، وأنه رأى النبي ﷺ يصلي في تلك الأمكنة.

وحدثني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان يصلي في تلك الأمكنة، وسألت سالماً فلا أعلمه إلا وافق نافعاً في الأمكنة كلها، إلا أنهما اختلفا في مسجد بشرف الروحاء.

حدثنا إبراهيم ابن المنذر، ثنا أنس بن عياض قال: ثنا موسى بن عقبة عن نافع: أن عبد الله أخبره أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر، وفي حجته حين حج تحت سمرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، وكان إذا رجع من غزو كان في تلك الطريق، أو حج أو عمرة، هبط من بطن واد، فإذا ظهر من بطن واد أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية، فعرّس ثمّ حتى يصبح ليس عند المسجد الذي بحجارة، ولا على الأكمة التي عليها المسجد، كان ثم خليج يصلي عبد الله عنده في بطنه كثب، كان رسول الله ﷺ ثم يصلي، فدحى السيل فيه بالبطحاء حتى دفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلي فيه [خ (٤٨٤)].

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي ﷺ صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي بشرف الروحاء، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذي كان صلى فيه النبي ﷺ يقول: ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى وأنت ذاهب إلى مكة، بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر، أو نحو ذلك [خ (٤٨٥)].

وأن ابن عمر كان يصلي إلى العرق الذي عند منصرف الروحاء، وذلك العرق انتهاء طرفه على حافة الطريق دون المسجد الذي بينه وبين المنصرف، وأنت ذاهب إلى مكة، وقد ابتني ثَمّ مسجد، فلم يكن عبد الله يصلي في ذلك المسجد، كان يتركه عن يساره ووراءه، ويصلي أمامه إلى العرق نفسه.

وكان عبد الله يروح من الروحاء فلا يصلي الظهر حتى يأتي ذلك المكان، فيصلي فيه الظهر، وإذا أقبل من مكة فإن مر به قبل الصبح بساعة أو من آخر السحر، عرس حتى يصلي بها الصبح [خ (٤٨٦)].

وأن عبد الله حدثه أن النبي ﷺ كان ينزل تحت سرحة ضخمة دون الرويثة عن يمين الطريق، ووجاه الطريق في مكان بطح سهل حتى يفضي من أكمة دوينَ بَريد الرويثة بميلين، وقد انكسر أعلاها، فانثنى في جوفها وهي قائمة على ساق، وفي ساقها كثب كثيرة [خ (٤٨٧)].

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي ﷺ صلى في طرف تلعة من وراء العرج وأنت ذاهب إلى هضبة، عند ذلك المسجد قبران أو ثلاثة على القبور رضم من حجارة عن يمين الطريق، عند سلمات الطريق بين أولئك السلمات كان عبد الله يروح من العرج بعد أن تميل الشمس بالهاجرة، فيصلي الظهر في ذلك المسجد [خ (٤٨٨)].

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن رسول الله ﷺ نزل عند سرحات عن يسار الطريق في مسيل دون هرشى ذلك المسيل لاصق بكراع هرشى، بينه وبين الطريق قريب من غلوة، وكان عبد الله يصلي إلى سرحة، هي أقرب السرحات إلى الطريق، وهي أطولهن [خ (٤٨٩)].

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن رسول الله ﷺ كان ينزل في المسيل الذي في أدنى مر الظهران، قبل المدينة حين يهبط من الصفراوات، ينزل في بطن ذلك المسيل عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ليس بين منزل رسول الله ﷺ وبين الطريق إلا رمية بحجر [خ (٤٩٠)].

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي طوى، ويبيت حتى يصبح يصلي الصبح حين يقدم مكة، ومصلى رسول الله ﷺ ذلك على أكمة غليظة ليس في المسجد الذي بُني ثَمَّ ولكن أسفل من ذلك على أكمة غليظة [خ (٤٩١)].

وأن عبد الله حدثه أن رسول الله ﷺ استقبل فرضتي الجبل الذي بينه وبين الجبل الطويل نحو الكعبة، فجعل المسجد الذي بني ثَمَّ يسار المسجد بطرف الأكمة، ومصلى النبي ﷺ أسفل منه على الأكمة السوداء، تدع من الأكمة عشرة أذرع أو نحوها، ثم تصلي مستقبل الفرضتين من الجبل الذي بينك وبين الكعبة [خ (٤٩٢)].

تفرد البخاري رحمه الله بهذا الحديث بطوله وسياقه.

إلا أن مسلماً [(١٢٥٩) (٢٢٨) و(١٢٦٠) (٢٢٩)] روى منه عند قوله في آخره وأن عبد الله بن عمر حدثه أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي طوى.... إلى آخر الحديث عن محمد بن إسحاق المسيبي، عن أنس بن عياض، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر فذكره.

وقد رواه الإمام أحمد [٨٧/٢] بطوله عن أبي قرة موسى بن طارق، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر به نحوه.

وهذه الأماكن لا يعرف اليوم كثير منها أو أكثرها لأنه قد غُيّر أسماء أكثر هذه البقاع اليوم عند هؤلاء الأعراب الذين هناك، فإن الجهل قد غلب على أكثرهم. وإنما أوردها البخاري رحمه الله في كتابه لعل أحداً يهتدي إليها بالتأمل والتفرس والتوسم أو لعل أكثرها أوكثيراً منها كان معلوماً في زمان البخاري والله تعالى أعلم.

سنة ١٠- دخول النبي ﷺ إلى مكة شرّفها الله عز وجل

قال البخاري [١٥٧٤]: حدثنا مسدد، ثنا يحيى عن عُبيد الله، حدثني نافع عن ابن عمر. قال: بات النبي ﷺ بذي طوى حتى أصبح، ثم دخل مكة وكان ابن عمر يفعله.

ورواه مسلم [(١٢٥٩) (٢٢٦)] من حديث يحيى بن سعيد القطان به. وزاد: حتى صلى الصبح، أو قال: حتى أصبح.

وقال مسلم [(١٢٥٩) (٢٢٩)]: ثنا أبو الربيع الزهراني، ثنا حماد عن أيوب، عن نافع: أنّ ابن عمر، كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوى، حتى يصبح ويغتسل، ثم يدخل مكة نهاراً، ويذكر عن النبي ﷺ أنه فعله.

ورواه البخاري [١٧٦٩ معلقاً] من حديث حماد بن زيد عن أيوب به.

ولهما [خ (١٥٥٣) معلقاً، (١٥٧٣)، وأما مسلم فذكره المزي في التحفة: ٦٢/٦ أنه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن علية عن أيوب به] من طريق أخرى عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: كان إذا دخل أدنى الحرم أمسك عن التلبية، ثم يبيت بذي طوى وذكره.

وتقدم آنفاً ما أخرجاه من طريق موسى بن عقبة عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يبيت بذي طوى حتى يصبح، فيصلي الصبح حين يقدم مكة، ومصلى رسول الله ﷺ عند أكمة غليظة، وأن رسول الله ﷺ استقبل فرضتي الجبل الذي بينه وبين الجبل الطويل نحو الكعبة، فجعل المسجد الذي بنى ثم يسار المسجد بطرف الأكمة، ومصلى رسول الله ﷺ أسفل منه على الأكمة السوداء تدع من الأكمة عشرة أذرع أو نحوها، ثم تصلي مستقبل الفرضتين من الجبل الذي بينك وبين الكعبة.

أخرجاه في الصحيحين [خ (٤٩١)، م (١٢٥٩) من حديث ابن عمر].

وحاصل هذا كله أنه عليه الصلاة والسلام لما انتهى في مسيره إلى ذي طوى وهو قريب من مكة، متاخم للحرم، أمسك عن التلبية لأنه قد وصل إلى المقصود، وبات بذلك المكان حتى أصبح فصلى هنالك الصبح في المكان الذي وصفه بين فرضتي الجبل الطويل هنالك. ومن تأمل هذه الأماكن المشار إليها بعين البصيرة عرفها معرفة جيدة، وتعين له المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ.

ثم اغتسل صلوات الله وسلامه عليه لأجل دخول مكة، ثم ركب ودخلها نهاراً جهرة علانية من الثنية العليا التي بالبطحاء. ويقال كَدَاء ليراه الناس ويشرف عليهم، وكذلك دخل منها يوم الفتح كما ذكرناه.

قال مالك عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل مكة من الثنية العليا، وخرج من الثنية السفلى، أخرجاه في الصحيحين [خ (١٥٧٥)، وليس عند مسلم من هذا الطريق من حديثه، ولهما [خ (١٥٧٦)، م (١٢٥٧)] من طريق عبيد الله بن عمر عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ دخل مكة من الثنية العليا التي في البطحاء، وخرج من الثنية السفلى.

ولهما [خ (١٥٧٧)، م (١٢٥٨) (٢٢٤)] أيضاً من حديث هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة مثل ذلك.

ولما وقع بصره عليه الصلاة والسلام على البيت. قال ما رواه الشافعي في مسنده [ترتيب مسند الشافعي (٨٧٤)]: أخبرنا سعيد بن سالم، عن ابن جريج: أن النبي ﷺ كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال: «اللّهم

زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شرّفه وكرمه، ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً».

قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٧٣/٥]: هذا منقطع وله شاهد مرسل عن سفيان الثوري، عن أبي سعيد الشامي، عن مكحول. قال: كان النبي ﷺ إذا دخل مكة فرأى البيت رفع يديه وكبر وقال: «اللّهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام، اللّهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من حجّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً».

وقال الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٨٧٥)]: أنبأنا سعيد بن سالم عن ابن جريج قال: حدثت عن مقسم، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ. قال: «ترفع الأيدي في الصلاة وإذا رأى البيت وعلى الصفا والمروة وعشية عرفة، وبجمع، وعند الجمرتين، وعلى الميت».

قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٧٣/٥]: وقد رواه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، وعن نافع، عن ابن عمر مرة موقوفاً عليهما، ومرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ دون ذكر الميت. قال: وابن أبي ليلى هذا غير قوي. ثم أنه عليه الصلاة والسلام دخل المسجد من باب بني شيبة.

قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٧٢/٥]: روينا عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح قال: يدخل المحرم من حيث شاء. قال: ودخل النبي ﷺ من باب بني شيبة، وخرج من باب بني مخزوم إلى الصفا. ثم قال البيهقي: وهذا مرسل جيد.

وقد استدل البيهقي على استحباب دخول المسجد من باب بني شيبة بما رواه [السنن الكبرى: ٧٢/٥] من طريق أبي داود الطيالسي، ثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام، كلهم عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة، عن عليّ رضي الله عنه. قال: لما انهدم البيت بعد جرهم، بنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة، فأمر رسول الله ﷺ بثوب فوضع الحجر وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه.

وقد ذكرنا هذا مبسوطاً في باب بناء الكعبة قبل البعثة. وفي الاستدلال على استحباب الدخول من باب بني شيبة بهذا نظر والله أعلم.

سنة ١٠- صفة طوافه صلوات الله وسلامه عليه

قال البخاري [١٦١٤]: حدثنا أصبغ بن الفرج عن ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن محمد بن عبد الرحمن. قال: ذكرت لعروة قال: أخبرتني عائشة: أن أول شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ ثم طاف، ثم لم تكن عمرةً، ثم حج أبو بكر وعمر مثله.

ثم حججت مع أبي الزبير، فأول شيء بدأ به الطواف. ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلونه.

وقد أخبرتني أمي أنها أهلت هي وأختها والزبير وفلان وفلان بعمرة، فلما مسحوا الركن حلوا.

هذا لفظه.

وقد رواه في موضع آخر [١٦٤١] عن أحمد بن عيسى ومسلم عن هارون بن سعيد ثلاثتهم عن ابن وهب به.

وقولها: ثم لم تكن عمرة. يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتحلل بين النسكين، ثم كان أول ما ابتدأ به عليه الصلاة والسلام استلام الحجر الأسود قبل الطواف.

كما قال جابر: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً [مسند أحمد: ٣٢٠/٣، ٣٢١].

وقال البخاري [١٥٩٧]: ثنا محمد بن كثير، ثنا سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عابس ابن ربيعة، عن عمر أنه جاء إلى الحجر فقبّله، وقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

ورواه مسلم [(١٢٧٠) (٢٥١)] عن يحيى بن يحيى، وأبي بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب. وابن نمير جميعاً عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عابس بن ربيعة قال: رأيت عمر يقبل الحجر ويقول: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وقال الإمام أحمد [٢٦/١ عن أبي معاوية، ٤٦/١ عن محمد بن عبيد]: حدثنا محمد بن عبيد وأبو معاوية. قالا: حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن عابس بن ربيعة. قال: رأيت عمر أتى الحجر فقال: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك. ثم دنا فقبله.

فهذا السياق يقتضي أنه قال ما قال، ثم قبله بعد ذلك بخلاف سياق صاحبي الصحيح، فالله أعلم.

وقال أحمد [٥٣/١ عن يحيى، ٥٤/١ عن وكيع]: ثنا وكيع ويحيى - واللفظ لوكيع - عن هشام، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب أتى الحجر فقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، وقال: ثم قبله.

وهذا منقطع بين عروة بن الزبير، وبين عمر.

وقال البخاري [١٦٠٥] أيضاً: ثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني زيد بن أسلم عن أبيه، أن عمر بن الخطاب قال للركن: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك. فاستلمه. ثم قال: وما لنا وللرَّمَل، إنما كنا راءينا به المشركين، ولقد أهلكهم الله. ثم قال: شيء صنعه رسول الله ﷺ فلا نحب أن نتركه.

وهذا يدل على أن الاستلام تأخر عن القول.

وقال البخاري [١٦١٠]: حدثنا أحمد بن سنان، ثنا يزيد بن هارون، ثنا ورقاء، حدثنا زيد بن أسلم عن أبيه. قال: رأيت عمر بن الخطاب قبل الحجر، وقال: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وقال مسلم بن الحجاج [(١٢٧٠) (٢٤٨)]: ثنا حرملة، ثنا ابن وهب، أخبرني يونس هو - ابن زيد الأيلي - وعمرو، هو - ابن دينار -. (ح) وحدثنا هارون بن سعيد الأيلي، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو عن ابن شهاب، عن سالم: أن أباه حدثه أنه قال: قبل عمر بن الخطاب الحجر ثم قال: أما والله لقد علمت أنك حجر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

زاد هارون في روايته قال عمرو: وحدثني بمثلها زيد بن أسلم عن أبيه أسلم - يعني - عن عمر به.

وهذا صريح في أن التقبيل تقدّم على القول فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣٤/١]: ثنا عبد الرزاق، أنبأنا عبد الله عن نافع، عن ابن عمر: أن عمر قبل الحجر. ثم قال: قد علمت أنك حجر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك.

هكذا رواه الإمام أحمد.

وقد اخرجه مسلم في صحيحه [(١٢٧٠) (٢٤٩)] عن محمد بن أبي بكر المقدمي، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، أن عمر قبل الحجر وقال: لأني لأقبلك، وإني لأعلم أنك حجر ولكني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك.

ثم قال مسلم [(١٢٧٠) (٢٥٠)]: ثنا خلف بن هشام والمقدمي وأبو كامل وقتيبة، كلهم عن حماد. قال خلف: ثنا حماد بن زيد، عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سرجس. قال: رأيت الأصلع - يعني عمر - يقبل الحجر ويقول: والله إني لأقبلك وإني لأعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك.

وفي رواية المقدمي وأبي كامل: رأيت الأصيلع.

وهذا من أفراد مسلم دون البخاري.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٤/١، ٣٥] عن أبي معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سرجس به.

ورواه أحمد [٥٠/١، ٥١] أيضاً عن غندر، عن شعبة، عن عاصم الأحول به.

وقال الإمام أحمد [٣٩/١]: ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن سويد بن غفلة، قال: رأيت عمر يقبل الحجر ويقول: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولكني رأيت أبا القاسم ﷺ بك حفياً.

ثم رواه أحمد [٥٤/١] عن وكيع،عن سفيان الثوري به. وزاد: فقبله والتزمه، وهكذا رواه مسلم [(١٢٧١) (٠٠٠)] من حديث عبد الرحمن بن مهدي بلا زيادة.

ومن حديث وكيع [(١٢٧١) (٢٥٢)] بهذه الزيادة قبّل الحجر والتزمه. وقال: رأيت رسول الله ﷺ بك حفياً.

وقال الإمام أحمد [٢١/١]: حدثنا عفان، ثنا وهيب، ثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب أكب على الركن وقال: إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أر حبيبي ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك ولا قبلتك ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٢٩)]: ثنا جعفر بن عثمان القرشي من أهل مكة، قال: رأيت محمد بن عباد بن جعفر قبل الحجر، وسجد عليه. ثم قال: رأيت خالك ابن عباس قبله وسجد عليه. وقال ابن عباس: رأيت عمر بن الخطاب قبله وسجد عليه. ثم قال عمر: لو لم أر النبي ﷺ قبله ما قبلته.

وهذا أيضا إسناد حسن، ولم يخرجه إلا النسائي [٢٩٣٨] عن عمرو بن عثمان، عن الوليد بن مسلم، عن حنظلة بن أبي سفيان، عن طاووس، عن ابن عباس، عن عمر فذكر نحوه.

وقد روى هذا الحديث عن عمر الإمام أحمد [٣٧/١، ٤٥] أيضاً من حديث يعلى بن أمية عنه.

وأبو يعلى الموصلي في مسنده [٢٢١] من طريق هشام بن حُبَيش بن الأشعَر عن عمر.

وقد أوردنا ذلك كله بطرقه وألفاظه وعزوه وعلله في الكتاب الذي جمعناه في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة.

وبالجملة فهذا الحديث مروي من طرق متعددة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي تفيد القطع عند كثير من أئمة هذا الشأن، وليس في هذه الروايات أنه عليه الصلاة والسلام سجد على الحجر إلا ما أشعر به، رواية أبي داود الطيالسي عن جعفر بن عثمان، وليست صريحة في الرفع.

ولكن رواه الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٧٤/٥] من طريق أبي عاصم النبيل، ثنا جعفر بن عبد الله. قال: رأيت محمد بن عباد بن جعفر قبل الحجر وسجد عليه، ثم قال: رأيت خالك ابن عباس قبله وسجد عليه. وقال ابن عباس: رأيت عمر قبله وسجد عليه. ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل هكذا ففعلت.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٧٥/٥]: أنبأنا أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عبدان، أنبأنا الطبراني، أنبأنا أبو الزنباع، ثنا يحيى بن سليمان الجعفي، ثنا يحيى بن يمان، ثنا سفيان عن أبي حسين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يسجد على الحجر.

قال الطبراني: لم يروه عن سفيان إلا يحيى بن يمان.

وقال البخاري [١٦١١]: ثنا مسدد، ثنا حماد عن الزبير بن عربي، قال: سأل رجل ابن عمر عن استلام الحجر. قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، قال: أرأيت إن زحمت؟ أرأيت إن غلبت؟ قال: اجعل أرأيت باليمن. رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله.

تفرد به دون مسلم.

وقال البخاري [١٦٠٦]: حدثنا مسدد، ثنا يحيى عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما تركت استلام هذين الركنين في شدة ولا رخاء منذ رأيت رسول الله ﷺ يستلمهما، فقلت لنافع: أكان ابن عمر يمشي بين الركنين؟ قال: إنما كان يمشي ليكون أيسر لاستلامه.

وروري أبو داود [١٨٧٦] والنسائي [٢٩٤٧] من حديث يحيى بن سعيد القطان، عن عبد العزيز ابن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوفة.

وقال البخاري [١٦٠٨]: حدثنا أبو الوليد، ثنا ليث عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه. قال: لم أر النبي ﷺ يستلم من البيت إلا الركنين اليمانيين.

ورواه مسلم [(١٢٦٧) (٢٤٢)] عن يحيى بن يحيى، وقتيبة عن الليث بن سعد به.

وفي رواية عنه أنه قال: ما أرى النبي ﷺ ترك استلام الركنين الشاميين إلا أنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم [خ (٥٨٣)، م (١٣٣٣) (٣٩٩)، د (١٨٧٥)].

وقال البخاري [خ (١٦٠٨) معلقاً]: وقال محمد بن بكر: أنبأنا ابن جريج، أخبرني عمرو بن دينار، عن أبي الشعثاء أنه قال: ومن يتقي شيئاً من البيت؟ وكان معاوية يستلم الأركان فقال له ابن عباس: إنه لا يُستَلَم هذان الركنان، فقال له: ليس من البيت شيء مهجوراً، وكان ابن الزبير يستلمهن كلهن.

انفرد بروايته البخاري رحمه الله تعالى.

وقال مسلم في صحيحه [١٢٦٩]: حدثني أبو الطاهر، ثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن قتادة بن دعامة حدثه أن أبا الطفيل البكري، حدثه أنه سمع ابن عباس يقول: لم أر رسول الله ﷺ يستلم غير الركنين اليمانيين.

انفرد به مسلم.

فالذي رواه ابن عمر موافق لما قاله ابن عباس أنه لا يستلم الركنان الشاميان لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم، لأن قريشاً قَصّرت بهم النفقة، فأخرجوا الحجر من البيت حين بنوه كما تقدم بيانه. وود النبي ﷺ أن لو بناه فتممه على قواعد إبراهيم ولكن خشي من حداثة عهد الناس بالجاهلية فتنكره قلوبهم.

فلما كانت إمرة عبد الله بن الزبير هدم الكعبة وبناها على ما أشار إليه ﷺ كما أخبرته خالته أم المؤمنين عائشة بنت الصديق. فإن كان ابن الزبير استلم الأركان كلها بعد بنائه إياها على قواعد إبراهيم فحسن جداً، وهو والله المظنون به.

وقال: أبو داود [١٨٧٦]: حدثنا مسدد، ثنا يحيى عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوافه.

ورواه النسائي [٢٩٤٧] عن محمد بن المثنى، عن يحيى.

وقال النسائي [كبرى (٣٩٣٤)]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، ثنا يحيى بن سعيد القطان عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد، عن أبيه، عن عبد الله بن السائب. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول بين الركن اليماني والحجر ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ورواه أبو داود [١٨٩٢] عن مسدد، عن عيسى بن يونس، عن ابن جريج به.

وقال الترمذي [٨٥٦]: حدثنا محمود بن غيلان، ثنا يحيى بن آدم، ثنا سفيان عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جابر. قال: لما قدم النبي ﷺ مكة دخل المسجد فاستلم الحجر، ثم مضى على يمينه فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم أتى المقام فقال: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت، ثم أتى الحجر بعد الركعتين فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا أظنه قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم. وهكذا رواه إسحاق بن راهويه عن يحيى بن آدم [م (١٢١٨) (١٥٠)].

ورواه الطبراني [المعجم الأوسط (١٦٨٢)] عن النسائي وغيره، عن عبد الأعلى بن واصل، عن يحيى بن آدم به.

سنة ١٠- ذكرُ رَمَله ﷺ في طوافه واضطباعه

قال البخاري [١٦٠٣]: حدثنا أصبغ بن الفرج، أخبرني ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن سالم عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخب ثلاث أشواط من السبع.

ورواه مسلم [(١٢٦١) (٢٣٢)] عن أبي الطاهر بن السرح، وحرملة كلاهما عن ابن وهب به.

وقال البخاري [١٦٠٤]: حدثنا محمد بن سلام، ثنا شريح ابن النعمان، ثنا فليح عن نافع، عن ابن عمر. قال: سعى النبي ﷺ ثلاثة أشواط، ومشى أربعة في الحج والعمرة.

تابعه الليث. حدثني كثير بن فرقد عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ.

انفرد به البخاري.

وقد رواه النسائي [كبرى (٣٩٣٧)] عن محمد وعبد الرحمن ابني عبد الله بن عبد الحكم، كلاهما عن شعيب بن الليث، عن أبيه الليث بن سعد، عن كثير بن فرقد، عن نافع، عن ابن عمر به.

وقال البخاري [١٦١٦]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، ثنا أبو ضمرة أنس ابن عياض، ثنا موسى بن عقبة، عن نافع، عن عبد الله بن عمر. أن رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين، ثم يطوف بين الصفا والمروة.

ورواه مسلم [(١٢٦١) (٢٣١)] من حديث موسى بن عقبة.

وقال البخاري [١٦١٧]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، ثنا أنس عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر. أن رسول الله ﷺ كان إذا طاف بالبيت الطواف الأول يخب ثلاثة أطواف ويمشي أربعة، وأنه كان يسعى ببطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة.

ورواه مسلم [(١٢٦١) (٢٣٠)] من حديث عبيد الله بن عمر.

قال مسلم [(١٢٦٢) (٢٣٣)]: أنبأنا عبد الله بن عمر بن أبان الجعفي، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر. قال: رمل رسول الله ﷺ من الحجر إلى الحجر ثلاثاً ومشى أربعاً.

ثم رواه [(١٢٦٢) (٢٣٤)] من حديث سليم بن أخضر عن عبيد الله بنحوه.

وقال مسلم [(١٢٦٣) (٢٣٦)] أيضاً: حدثني أبو طاهر، حدثني عبد الله بن وهب، أخبرني مالك وابن جريج عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله. أن رسول الله ﷺ رمل الثلاثة أطواف من الحجر إلى الحجر.

وقال عمر بن الخطاب: فيم الرملان والكشف عن المناكب، وقد أطد الله الإسلام ونفى الكفر وأهله؟! ومع ذلك لا نترك شيئا كنا نفعله مع رسول الله ﷺ.

رواه أحمد [٤٥/١] وأبو داود [١٨٨٧] وابن ماجه [٢٩٥٢] والبيهقي [السنن الكبرى (٧٩/٥)] من حديث هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن أبيه عنه.

وهذا كله رد على ابن عباس ومن تابعه من أن المرسل ليس بسنة، لأن رسول الله ﷺ إنما فعله لما قدم هو وأصحابه صبيحة رابعة - يعني في عمرة القضاء - وقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا خشية الإبقاء عليهم. وهذا ثابت عنه في الصحيحين [خ (١٦٠٢)، م (١٢٦٦) (٢٤٠)] فكان ابن عباس ينكر وقوع الرمل في حجة الوداع. وقد صح بالنقل الثابت كما تقدم بل فيه زيادة تكميل الرمل من الحجر إلى الحجر، ولم يمش ما بين الركنين اليمانيين لزوال تلك العلة المشار إليها وهي الضعف.

وقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن عباس أنهم رملوا في عمرة الجعرانة واضطبعوا وهو رَدٌّ عليه، فإن عمرة الجعرانة لم يبق في أيامها

خوف؛ لأنها بعد الفتح كما تقدم.

رواه حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة، فرملوا بالبيت واضطبعوا ووضعوا أرديتهم تحت آباطهم وعلى عواتقهم [مسند أحمد: ١/٣٠٦، ٣٧١].

ورواه أبو داود [١٨٨٤] من حديث حماد بنحوه.

ومن حديث عبد الله بن خثيم عن أبي الطفيل، عن ابن عباس به [١٨٩٠].

فأما الاضطباع في حجة الوداع فقد قال قبيصة والفريابي عن سفيان الثوري، عن ابن جريج، عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة، عن ابن يعلى بن أمية، عن أبيه. قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت مضطبعاً.

رواه الترمذي [٨٥٩] من حديث الثوري وقال: حسن صحيح.

وقال أبو داود [١٨٨٣]: حدثنا محمد بن كثير، ثنا سفيان عن ابن جريج، عن ابن يعلى، عن أبيه. قال: طاف رسول الله ﷺ مضطبعا ببرداء أخضر.

وهكذا رواه الإمام أحمد [٤/١٢٣] عن وكيع، عن الثوري، عن ابن جريج، عن ابن يعلى، عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم طاف بالبيت وهو مضطبع ببرد له حضرمي.

وقال جابر في حديثه المتقدم: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً. ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت، فذكر أنه صلى ركعتين قرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فإن قيل: فهل كان عليه الصلاة والسلام في هذا الطواف راكباً أو ماشياً؟ فالجواب أنه قد ورد نقلان قد يظن أنهما متعارضان، ونحن نذكرهما ونشير إلى التوفيق بينهما، ورفع اللبس عند من يتوهم فيهما تعارضاً، وبالله التوفيق وعليه الاستعانة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال البخاري [١٦٠٧] رحمه الله: حدثنا أحمد بن صالح، ويحيى بن سليمان قالا: ثنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس. قال: طاف النبي ﷺ على بعيره في حجة الوداع يستلم الركن بمحجن.

وأخرجه بقية الجماعة [م (١٢٧٢)، د (١٨٧٧)، س (٢٩٥٤)، ج (٢٩٤٨)] إلا الترمذي من طرق عن ابن وهب.

قال البخاري: تابعه الدراوردي عن ابن أخي الزهري، عن عمه. وهذه المتابعة غريبة جداً.

وقال البخاري [١٦١٢]: حدثنا محمد بن المثنى، ثنا عبد الوهاب، ثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طاف النبي ﷺ بالبيت على بعير، كلما أتى الركن أشار إليه.

وقد رواه الترمذي [٨٦٥] من حديث عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وعبد الوارث، كلاهما عن خالد بن مهران الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طاف رسول الله ﷺ على راحلته، فإذا انتهى إلى الركن أشار إليه. وقال: حسن صحيح.

ثم قال البخاري [١٦١٣]: حدثنا مسدد، ثنا خالد بن عبد الله، عن خالد الحذاء عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طاف النبي ﷺ بالبيت على بعير، كلما أتى الركن أشار إليه بشيء كان عنده وكبر.

تابعه إبراهيم بن طهمان عن خالد الحذاء. وقد أسند هذا التعليق ها هنا في كتاب الطلاق عن عبد الله بن محمد، عن أبي عامر، عن إبراهيم بن طهمان به [خ (٥٢٩٣)].

وروى مسلم [١٢٧٤] عن الحكم بن موسى، عن شعيب بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ طاف في حجة الوداع حول الكعبة على بعير يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس.

فهذا إثبات أنه عليه الصلاة والسلام طاف في حجة الوداع على بعير، ولكن حجة الوداع كان فيها ثلاثة أطواف:

الأول: طواف القدوم.

والثاني: طواف الإفاضة، وهو طواف الفرض، وكان يوم النحر.

والثالث: طواف الوداع.

فلعل ركوبه ﷺ كان في أحد الآخرين أو في كليهما.

فأما الأول وهو طواف القدوم فكان ماشياً فيه. وقد نص الشافعي [الأم: ٢/١٤٨] على هذا كله والله أعلم وأحكم.

والدليل على ذلك ما قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه السنن الكبير [٥/٧٤]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى، ثنا الفضل بن محمد بن المسيب، ثنا نعيم بن حماد، ثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن إسحاق - هو ابن يسار رحمه الله - عن أبي جعفر، وهو محمد بن عليّ بن الحسين، عن جابر بن عبد الله قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى، فأتى النبي ﷺ باب المسجد، فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء، ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً حتى فرغ، فلما فرغ قبل الحجر ووضع يده عليه ومسح بهما وجهه.

وهذا إسناد جيد.

فأما ما رواه أبو داود [١٨٨١]: حدثنا مسدد، ثنا خالد بن عبد الله، ثنا يزيد بن أبي زياد عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قدم مكة وهو يشتكي، فطاف على راحلته، فلما أتى على الركن استلمه بمحجن، فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين.

تفرد به يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف. ثم لم يذكر أنه في حجة الوداع، ولا ذكر أنه في الطواف الأول من حجة الوداع، ولم يذكر ابن عباس في الحديث الصحيح عنه عند مسلم [(١٢٦٥) من حديث ابن عباس، و(١٢٧٣) (٢٥٤، ٢٥٥) من حديث جابر]. وكذا جابر: أن النبي ﷺ ركب في طوافه لضعفه، وإنما ذكرا كثرة الناس وغشيانهم له، وكان لا يحب أن يضربوا بين يديه كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله.

ثم هذا التقبيل الثاني الذي ذكره ابن إسحاق في روايته بعد الطواف، وبعد ركعتيه أيضاً ثابت في صحيح مسلم [(١٢١٨) (١٤٧)] من حديث جابر. قال فيه بعد ذكر صلاة ركعتي الطواف: ثم رجع إلى الركن فاستلمه.

وقد قال مسلم بن الحجاج في صحيحه [(١٢٦٨) (٢٤٦)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وابن نمير جميعاً، عن أبي خالد، قال أبو بكر: حدثنا أبو خالد الأحمر عن عبيد الله، عن نافع، قال: رأيت ابن عمر يستلم الحجر بيده، ثم قبل يده قال: وما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله.

فهذا يحتمل أنه رأى رسول الله ﷺ في بعض الطوافات أو في آخر استلام فعل هذا كما ذكرنا. أو أن ابن عمر لم يصل إلى الحجر لضعف كان به، أو لئلا يزاحم غيره فيحصل لغيره أذى به.

وقد قال رسول الله ﷺ لوالده ما رواه أحمد في مسنده [١/٢٨]:

حدثنا وكيع، ثنا سفيان عن أبي يعفور العبدي. قال: سمعت شيخاً بمكة في إمارة الحجاج يحدث عن عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا عمر إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله فهلّل وكبر».

وهذا إسناد جيد لكن راويه عن عمر مبهم لم يسم، والظاهر أنه ثقة جليل.

فقد رواه الشافعي [معرفة السنن والآثار للبيهقي: ٤/٦٠، ٦١، من طريق الشافعي، به] عن سفيان بن عيينة، عن أبي يعفور العبدي، واسمه وقدان: سمعت رجلا من خزاعة حين قتل ابن الزبير، وكان أميراً على مكة يقول: قال رسول الله ﷺ لعمر: «يا أبا حفص إنك رجل قوي فلا تزاحم على الركن، فإنك تؤذي الضعيف، ولكن إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فكبر وامض». قال سفيان بن عيينة: هو عبد الرحمن بن الحارث، كان الحجاج استعمله عليها منصرفه منها حين قتل ابن الزبير.

قلت: وقد كان عبد الرحمن هذا جليلا نبيلا، كبير القدر، وكان أحد النفر الأربعة الذين ندبهم عثمان بن عفان في كتابة المصاحف التي نفذها إلى الآفاق، ووقع على ما فعله الإجماع والاتفاق.

سنة ١٠- ذكر طوافه عليه ﷺ بين الصفا والمروة

روى مسلم في صحيحه [(١٢١٨)] عن جابر في حديثه الطويل المتقدم بعد ذكره طوافه عليه الصلاة والسلام بالبيت سبعاً، وصلاته عند المقام ركعتين. قال: ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا،فلما دنا من الصفا قرأ «﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به». فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبّره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم دعا بين ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة، فرقي عليها حتى نظر إلى البيت فقال عليها كما قال على الصفا.

وقال الإمام أحمد [٤/٢٢٣]: حدثنا عمر بن هارون البلخي أبو حفص، ثنا ابن جريج عن بعض بني يعلى بن أمية، عن أبيه. قال: رأيت النبي ﷺ مضطبعا بين الصفا والمروة ببرد له نجراني.

وقال الإمام أحمد [٦/٤٢١]: حدثنا يونس، ثنا عبد الله بن المؤمل، عن عمر بن عبد الرحمن، ثنا عطاء، عن صفية بنت شيبة، عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: دخلت دار أبي حسين في نسوة من قريش والنبي ﷺ يطوف بين الصفا والمروة قالت: وهو يسعى يدور به إزاره من شدة السعي، وهو يقول لأصحابه: «اسعوا إن الله كتب عليكم السعي».

وقال أحمد أيضاً [٦/٤٢١، ٤٢٢]: حدثنا سُريج، ثنا عبد الله بن المؤمل، عن عمر بن عبد الرحمن ثنا عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة، عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: رأيت النبي ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي، يدور به إزاره وهو يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي».

تفرد به أحمد.

وقد رواه أحمد [٦/٤٣٧] أيضا عن عبد الرزاق، عن معمر، عن واصل مولى أبي عيينة، عن موسى بن عبيدة، عن صفية بنت شيبة: أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كتب عليكم السعي فاسعوا».

وهذه المرأة هي حبيبة بنت أبي تجراة المصرح بذكرها في الإسنادين الأولين.

وعن أم ولد شيبة بن عثمان أنها أبصرت النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول: «لا يقطع الأبطح إلا شداً». رواه النسائي [٢٩٨٠].

والمراد بالسعي ها هنا هو الذهاب من الصفا إلى المروة، ومنها إليها، وليس المراد بالسعي ههنا الهرولة والإسراع، فإن الله لم يكتبه علينا حتما بل لو مشى الإنسان على هينة في السبع الطوافات بينهما، ولم يرمل في المسيل أجزاه ذلك عند جماعة العلماء، لا نعرف بينهم اختلافا في ذلك.

وقد نقله الترمذي [بإثر (٨٦٣)] رحمه الله عن أهل العلم. ثم قال: [٨٦٤] ثنا يوسف بن عيسى، ثنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب، عن كثير بن جمهان قال: رأيت ابن عمر يمشي في المسعى، فقلت: أتمشي في السعي بين الصفا والمروة فقال: لئن سعيت، فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى، ولئن مشيت لقد رأيت رسول الله ﷺ يمشي، وأنا شيخ كبير.

ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس نحو هذا.

وقد رواه أبو داود [١٩٠٤] والنسائي [٢٩٧٦] وابن ماجه [٢٩٨٨] من حديث عطاء بن السائب، عن كثير بن جمهان السلمي الكوفي، عن ابن عمر، فقال ابن عمر: إنه شاهد الحالين منه ﷺ يحتمل شيئين:

أحدهما أنه رآه يسعى في وقت ماشيا لم يمزجه برمل فيه بالكلية.

والثاني: أنه رآه يسعى في بعض الطريق ويمشي في بعضه، وهذا له قوة، لأنه قد روى البخاري [١٦٤٤] ومسلم [(١٦٢١) (٢٣٠)] من حديث عبيد الله بن عمر العمري، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة. وتقدم في حديث جابر أنه عليه السلام: نزل من الصفا، فلما انصبت قدماه في الوادي، رمل حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة.

وهذا هو الذي تستحبه العلماء قاطبة، أن الساعي بين الصفا والمروة يستحب له أن يرمل في بطن الوادي في كل طوافه في بطن المسيل الذي بينهما، وحددوا ذلك بما بين الأميال الخضر، فواحد مفرد من ناحية الصفا مما يلي المسجد، واثنان مجتمعان من ناحية المروة مما يلي المسجد أيضاً.

وقال بعض العلماء: ما بين هذه الأميال اليوم أوسع من بطن المسيل الذي رمل فيه رسول الله ﷺ فالله أعلم.

وأما قول محمد بن حزم في الكتاب الذي جمعه في حجة الوداع [حجة الوداع ص٢٠]: ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الصفا فقرأ: «﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به»، فطاف بين الصفا والمروة أيضاً سبعاً راكباً على بعير، يخب ثلاثاً ويمشي أربعاً، فإنه لم يتابع على هذا القول، ولم يتفوه به أحد قبله من أنه عليه الصلاة والسلام خبّ ثلاثة أشواط بين الصفا والمروة، ومشى أربعاً ثم مع هذا الغلط الفاحش لم يذكر عليه دليلا بالكلية، بل لما انتهى إلى موضع الاستدلال عليه، قال: ولم نجد عدد الرَّمَل بين الصفا والمروة منصوصاً، ولكنه متفق عليه [حجة الوداع ص٦٣] هذا لفظه.

فإن أراد أن الرمل في الطوفات الثلاث الأول على ما ذكر متفق عليه، فليس بصحيح بل لم يقله أحد، وإن أراد أن الرمل في الثلاث الأول في الجملة متفق عليه فلا يجدي له شيئا، ولا يحصل له شيئا مقصوداً، فإنهم كما اتفقوا على الرمل في الثلاث الأول في بعضها على ما ذكرناه، كذلك اتفقوا على استحبابه في الأربع الأخر أيضاً.

فتخصيص ابن حزم الثلاث الأول باستحباب الرمل فيها مخالف لما ذكره العلماء والله أعلم.

وأما قول ابن حزم أنه عليه الصلاة والسلام كان راكباً بين الصفا والمروة، فقد تقدم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يسعى بطن المسيل أخرجاه.

وللترمذي عنه: إن أسعى فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى، وإن مشيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يمشي. وقال جابر: فلما انصبت قدماه في الوادي رمل حتى إذا صعد مشى رواه مسلم.

وقالت حبيبة بنت أبي تجراة: يسعى يدور به إزاره من شدة السعي، رواه أحمد [٤٢١/٦]. وفي صحيح مسلم عن جابر كما تقدم أنه رقي على الصفا حتى رأى البيت. وكذلك على المروة. وقد قدمنا من حديث محمد بن إسحاق عن أبي جعفر الباقر، عن جابر: أن رسول الله ﷺ أناخ بعيره على باب المسجد، يعني حتى طاف، ثم لم يذكر أنه ركبه حال ما خرج إلى الصفا، وهذا كله مما يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام سعى بين الصفا والمروة ماشياً.

ولكن قال مسلم [(١٢٧٣) (٢٥٥) و(١٢٧٩) (٠٠٠)]: ثنا عبد بن حميد ثنا محمد - يعني ابن بكر - أنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه: سمع جابر بن عبد الله يقول: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبين الصفا والمروة على بعير ليراه الناس، وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشوه، ولم يطف النبي ﷺ ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً.

ورواه مسلم [(١٢٧٣) (٢٥٥) و(١٢٧٩) (٢٦٥)] أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عليّ بن مسهر، وعن عليّ، بن خشرم، عن عيسى بن يونس، وعن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، كلهم عن ابن جريج به. وليس في بعضها: وبين الصفا والمروة.

وقد رواه أبو داود [١٨٨٠] عن أحمد بن حنبل، عن يحيى بن سعيد القطان، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبين الصفا والمروة.

ورواه النسائي [٢٩٧٥، ٢٩٨٦] عن الفلاس، عن يحيى، وعن عمران بن يزيد، عن شعيب بن إسحاق كلاهما عن ابن جريج به.

فهذا محفوظ من حديث ابن جريج وهو مشكل جداً، لأن بقية الروايات عن جابر وغيره، تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان ماشياً بين الصفا والمروة، وقد تكون رواية أبي الزبير عن جابر لهذه الزيادة، وهي قوله: «وبين الصفا والمروة» مقحمة أو مدرجة ممن بعد الصحابي والله أعلم. أو أنه عليه الصلاة والسلام طاف بين الصفا والمروة بعض الطوفان على قدميه، وشوهد منه ما ذكر، فلما ازدحم الناس عليه وكثروا، ركب كما يدل عليه حديث ابن عباس كالآتي قريبا.

وقد سلم ابن حزم أن طوافه الأول بالبيت كان ماشياً، وحمل ركوبه في الطواف على ما بعد ذلك، وادعى أنه كان راكبا في السعي بين الصفا والمروة قال [حجة الوداع ص٦٢]: لأنه لم يطف بينهما إلا مرة واحدة، ثم تأوّل قول جابر: حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل. بأنه يَصْدُق ذلك، وإن كان راكباً فإنه إذا انصب بعيره فقد انصب كله، وانصبت قدماه مع سائر جسده. قال: وكذلك ذكر الرمل يعني به رمل الدابة براكبها. وهذا التأويل بعيد جدا والله أعلم.

وقال أبو داود حدثنا أبو سلمة موسى، ثنا حماد، أنبانا أبو عاصم الغنوي عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: يزعم قومك أن رسول الله ﷺ قد رمل بالبيت وأن ذلك من سُنّةٍ قال: صدقوا وكذبوا، فقلت: ما صدقوا وما كذبوا؟ قال: صدقوا رمل رسول الله ﷺ، وكذبوا ليس بسنّة: إن قريشاً قالت زمن الحديبية: دعوا محمدا وأصحابه حتى يموتوا موت النغف، فلما صالحوه على أن يحجوا من العام المقبل فيقيموا بمكة ثلاثة أيام، فقدم رسول الله ﷺ والمشركون من قبل قعيقعان فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا ارملوا بالبيت ثلاثاً» وليس بسنة. قلت: يزعم قومك أن رسول الله ﷺ طاف بين الصفا والمروة على بعير وأن ذلك سنة قال: صدقوا وكذبوا، قلت: ما صدقوا وما كذبوا؟ قال: صدقوا قد طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على بعير، وكذبوا ليست بسنة، كان الناس لا يدفعون عن رسول الله ﷺ ولا يصرفون عنه، فطاف على بعير ليسمعوا كلامه، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم.

هكذا رواه أبو داود.

وقد رواه مسلم [(١٢٦٤) (٢٣٧)] عن أبي كامل، عن عبد الواحد بن زياد، عن الجريري، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس فذكر الطواف بالبيت بنحو ما تقدم. ثم قال: قلت لابن عباس: أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة؟ قال: صدقوا وكذبوا. قلت: فما قولك: صدقوا وكذبوا؟ قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون هذا محمد، هذا محمد! حتى خرج العواتق من البيوت، وكان رسول الله لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه الناس ركب. قال ابن عباس: والمشي والسعي أفضل.

هذا لفظ مسلم، وهو يقتضي أنه إنما ركب في أثناء الحال. وبه يحصل الجمع بين الأحاديث والله أعلم.

وأما ما رواه مسلم في صحيحه [١٢٦٥] حيث قال: ثنا محمد بن رافع، ثنا يحيى بن آدم، ثنا زهير عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: أراني قد رأيت رسول الله ﷺ قال: فصفه لي قلت: رأيته عند المروة على ناقة، وقد كثر الناس عليه فقال ابن عباس: ذاك رسول الله ﷺ إنهم كانوا لا يُدَعُّون عنه ولا يكرهون.

فقد تفرد به مسلم، وليس فيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام سعى بين الصفا والمروة راكباً إذ لم يقيد ذلك بحجة الوداع، ولا غيرها، وبتقدير أن يكون ذلك في حجة الوداع، فمن الجائز أنه عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من السعي وجلوسه على المروة، وخطبته الناس، وأمره إياهم من لم يسق الهدي منهم أن يفسخ الحج إلى العمرة، فحل الناس كلهم إلا من ساق الهدي كما تقدم في حديث جابر. ثم بعد هذا كله أتى بناقته فركبها وسار إلى منزله بالأبطح كما سنذكره قريباً. وحينئذ رآه أبو الطفيل عامر بن واثلة البكري، وهو معدود في صغار الصحابة.

لكن قال أبو داود [١٨٧٩] ثنا هارون بن عبد الله ومحمد بن رافع. قالا: ثنا أبو عاصم عن معروف يعني ابن خربوذ المكي، حدثنا أبو الطفيل قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالبيت على راحلته يستلم الركن بمحجنه، ثم

يقبله، زاد محمد بن رافع، ثم خرج إلى الصفا والمروة فطاف سبعاً على راحلته.

وقد رواه مسلم في صحيحه [١٢٧٥] من حديث أبي داود الطيالسي، عن معروف بن خربوذ به، بدون الزيادة التي ذكرها محمد بن رافع.

وكذلك رواه عبيد الله بن موسى عن معروف بدونها، ورواه الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٠١/٥] عن أبي سعيد بن أبي عمرو، عن الأصم، عن يحيى بن أبي طالب،عن يزيد بن أبي حكيم، عن يزيد بن مالك، عن أبي الطفيل، بدونها فالله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٠١/٥]: أنبأنا أبو بكر بن الحسن، وأبو زكريا بن أبي إسحاق قالا: ثنا أبو جعفر محمد بن علي بن دُحيم ثنا أحمد ابن حازم، أنبأنا عبيد الله بن موسى، وجعفر بن عون قالا: أنبأنا أيمن بن نابل عن قدامة بن عبد الله بن عمار، قال: رأيت رسول الله ﷺ يسعى بين الصفا والمروة على بعير، لا ضرب ولا طرد، ولا إليك إليك.

وقال البيهقي: كذا قالا. وقد رواه جماعة عن أيمن فقالوا: يرمي الجمرة يوم النحر، قال: ويحتمل أن يكونا صحيحين.

قلت رواه الإمام أحمد في مسنده [٤١٢/٣، ٤١٣] عن وكيع، وقران بن تمام، وأبي قرّة موسى بن طارق قاضي أهل اليمن، وأبي أحمد محمد بن عبد الله الزبيري، ومعتمر بن سليمان عن أيمن بن نابل الحبشي، أبي عمران المكي نزيل عسقلان، مولى أبي بكر الصديق، وهو ثقة جليل من رجال البخاري، عن قدامة بن عبد الله بن عمار الكلابي: أنه رأى رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر من بطن الوادي، على ناقة صهباء، لا ضرب ولا طرد، ولا إليك إليك.

وهكذا رواه الترمذي [٩٠٣] عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية.

وأخرجه النسائي [٣٠٦١] عن إسحاق بن راهويه، وابن ماجه [٣٠٣٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن وكيع، كلاهما عن أيمن بن نابل، عن قدامة.

كما رواه الإمام أحمد [٤١٢/٣، ٤١٣]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: قد ذهب طائفة من العراقيين كأبي حنيفة وأصحابه والثوري، إلى أن القارن يطوف طوافين، ويسعى سعيين وهو مروي عن عليّ وابن مسعود ومجاهد والشعبي. ولهم أن يحتجوا بحديث جابر الطويل، دلالة على أنه سعى بين الصفا والمروة ماشيا، وحديثه هذا أنه سعى بينهما راكبا على تعداد الطواف بينهما، مرة ماشيا، ومرة راكباً. وقد روى سعيد بن منصور في سننه عن عليّ رضي الله عنه، أنه أهلّ بحجة وعمرة، فلما قدم مكة طاف بالبيت وبالصفا والمروة لعمرته، ثم عاد فطاف بالبيت وبالصفا والمروة لحجته، ثم أقام حراماً إلى يوم النحر هذا لفظه.

ورواه أبو ذر الهرويّ في مناسكه عن عليّ، أنه جمع بين الحج والعمرة، فطاف لهما طوافين، وسعى لهما سعيين، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل.

وكذلك رواه البيهقي والدارقطني [السنن: ٢٦٣/٢] والنسائي في خصائص عليّ.

فقال البيهقي في سننه [١٠٨/٥، ١٠٩] أنبأنا أبو بكر بن الحارث الفقيه، أنبأنا عليّ بن عمر الحافظ، أنبأنا أبو محمد بن صاعد، ثنا محمد بن زنبور، ثنا فضيل بن عياض عن منصور، عن إبراهيم، عن مالك بن الحارث أو منصور، عن مالك بن الحارث، عن أبي نصر قال: لقيت عليا وقد أهللت بالحج وأهل هو بالحج والعمرة، فقلت: هل أستطيع أن أفعل كما فعلت؟ قال: ذلك لو كنت بدأت بالعمرة، قلت: كيف أفعل إذا أردت ذلك؟ قال: تأخذ إداوة من ماء فتفيضها عليك، ثم تهل بهما جميعا، ثم تطوف لهما طوافين، وتسعى لهما سعيين، ولا يحل لك حرام دون يوم النحر.

قال منصور: فذكرت ذلك لمجاهد قال: ما كنا نفيء إلا بطواف واحد، فأما الآن فلا نفعل.

قال الحافظ البيهقي: وقد رواه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري وشعبة عن منصور، فلم يذكر فيه السعي.

قال: وأبو نصر هذا مجهول، وإن صح فيحتمل أنه أراد طواف القدوم، وطواف الزيارة.

قال: وقد روي بأسانيد أخر عن علي مرفوعاً وموقوفاً، ومدارها على الحسن بن عمارة، وحفص بن أبي داود، وعيسى بن عبد الله، وحماد بن عبد الرحمن، وكلهم ضعيف لا يحتج بشيء مما رووه في ذلك والله أعلم.

قلت: والمنقول في الأحاديث الصحاح خلاف ذلك، فقد قدمنا عن ابن عمر في صحيح البخاري أنه أهل بعمرة، وأدخل عليها الحج، فصار قارناً، وطاف لهما طوافاً واحداً بين الحج والعمرة، وقال: هكذا فعل رسول الله ﷺ.

قد روى الترمذي [٩٤٨] وابن ماجه [٢٩٧٥] والبيهقي [السنن الكبرى: ١٠٧/٥] من حديث الدراوردي عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جمع بين الحج والعمرة طاف لهما طوافاً واحداً، وسعى لهما سعياً واحداً». قال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب.

قلت: إسناده على شرط مسلم.

وهكذا جرى لعائشة أم المؤمنين فإنها كانت ممن أهل بعمرة لعدم سوق الهدي معها، فلما حاضت أمرها رسول الله ﷺ أن تغتسل وتهل بحج مع عمرتها، فصارت قارنة، فلما رجعوا من منى طلبت أن يعمرها من بعد الحج، فأعمرها تطيباً لقلبها كما جاء مصرحاً به في الحديث.

وقد قال الإمام أبو عبد الله الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (١٠٠٥)]: أنبأنا مسلم هو ابن خالد الزنجي، عن ابن جريج، عن عطاء أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «طوافك بالبيت وبين الصفا والمروة يكفيك لحجك وعمرتك».

وهذا ظاهره الإرسال، وهو مسند في المعنى بدليل ما قال الشافعي أيضاً [ترتيب مسند الشافعي (١٠٠٦)]: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن عطاء، عن عائشة عن النبي ﷺ - قال الشافعي: وربما قال سفيان: عن عطاء، عن عائشة، وربما قال: عن عطاء: أن النبي ﷺ قال لعائشة؛ فذكره.

قال الحافظ البيهقي: ورواه ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة موصولاً.

وقد رواه مسلم [(١٢١١) (١٣٢)] من حديث وهيب عن ابن طاوس، عن ابن عباس، عن أبيه، عن عائشة، بمثله.

وروى مسلم [(١٢١٣) (٠٠٠)] من حديث ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وهي تبكي فقال: «ما لك تبكين؟» قالت: أبكي أن الناس حلوا ولم أحل، وطافوا

بالبيت ولم أطف، وهذا الحج قد حضر قال: «إن هذا أمر قد كتبه الله على بنات آدم، فاغتسلي وأهلي بحج»، قالت: ففعلت ذلك، فلما طهرت قال: «طوفي بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم قد حللت من حجك وعمرتك». قالت: يا رسول الله إني أجد في نفسي من عمرتي أني لم أكن طفت حتى حججت قال: «اذهب بها يا عبد الرحمن فاعمرها من التنعيم».

وله من حديث ابن جريج [م (١٢١٥)] أيضاً: أخبرني أبو الزبير، سمعت جابراً قال: لم يطف النبي ﷺ وأصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً، وعند أصحاب أبي حنيفة رحمه الله أن النبي ﷺ وأصحابه الذين ساقوا الهدي، كانوا قد قرنوا بين الحج والعمرة كما دل عليه الأحاديث المتقدمة والله أعلم.

وقال الشافعي: أنبأنا إبراهيم بن محمد عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ قال في القارن: يطوف طوافين ويسعى سعياً.

قال الشافعي [السنن الكبرى للبيهقي: ١٠٥/٥] وقال بعض الناس: طوافان وسعيان، واحتج فيه برواية ضعيفة عن علي.

قال [أي البيهقي] جعفر: يروى عن عليٍّ قولنا، ورويناه عن النبي ﷺ.

سنة ١٠- سوق الهدي

قال جابر في حديثه: حتى إذا كان آخر طوافه عند المروة قال: «إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لم أسق الهدي». رواه مسلم [١٢١٨].

ففيه دلالة على من ذهب إلى أن السعي بين الصفا والمروة أربعة عشر، كل ذهاب وإياب، يحسب مرة. قاله جماعة من أكابر الشافعية.

وهذا الحديث رد عليهم، لأن آخر الطواف عن قولهم يكون عند الصفا لا عند المروة، ولهذا قال أحمد في روايته في حديث جابر: فلما كان السابع عند المروة، قال: «أيها الناس إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن لم يكن معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة»، فحل الناس كلهم. وقال مسلم: فحل الناس كلهم وقصروا، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

سنة ١٠- من لم يسق الهدي

روى أمره عليه الصلاة والسلام لمن لم يسق الهدي بفسخ الحج إلى العمرة، خلق من الصحابة يطول ذكرنا لهم ها هنا وموضع سرد ذلك كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله.

وقد اختلف العلماء في ذلك:

فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي: كان ذلك من خصائص الصحابة، ثم نسخ جواز الفسخ لغيرهم، وتمسكوا بقول أبي ذر رضي الله عنه: لم يكن فسخ الحج إلى العمرة إلا لأصحاب محمد ﷺ. رواه مسلم [(١٢٢٤) (٠٠٠)].

وأما الإمام أحمد فرد ذلك. وقال [مسائل الإمام أحمد برواية ابن هانئ: ١٤٧/١، ١٤٨]: قد رواه أحد عشر صحابياً، فاين تقع هذه الرواية من ذلك؟!

وذهب رحمه الله إلى جواز الفسخ لغير الصحابة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما بوجوب الفسخ على كل من لم يسق الهدي، بل عنده أنه يحل شرعاً إذا طاف بالبيت، ولم يكن ساق هدياً صار حلالاً بمجرد ذلك، وليس عنده النسك إلا القران لمن ساق الهدي أو التمتع لمن لم يسق فالله أعلم.

قال البخاري [٢٥٠٥، ٢٥٠٦]: ثنا أبو النعمان، ثنا حماد بن زيد عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء، عن جابر، وعن طاوس، عن ابن عباس. قالا: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبح رابعة من ذي الحجة يهلون بالحج، لا يخلطه شيء، فلما قدمنا أمرنا فجعلناها عمرة، وأن نحل إلى نسائنا، ففشت في ذلك القالة.

قال عطاء: قال جابر: فيروح أحدنا إلى منى وذكره يقطر منياً. قال جابر - بكفّه - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «بلغني أن قوماً يقولون كذا وكذا، والله لأنا أبر وأتقى لله منهم، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت»، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله هي لنا أو للأبد؟ فقال: «لا، بل للأبد».

قال مسلم [١٢١٣]: حدثنا قتيبة، ثنا الليث، هو ابن سعد عن أبي الزبير، عن جابر أنه قال: أقبلنا مهلين مع رسول الله ﷺ بحج مفرد، وأقبلت عائشة بعمرة حتى إذا كنا بسرف عركت حتى إذا قدمنا طفنا بالكعبة والصفا والمروة، وأمرنا رسول الله ﷺ أن يحل منا من لم يكن معه هدي. قال: فقلنا: حِلُّ ماذا؟ قال: «الحل كله»، فواقعنا النساء وتطيبنا بالطيب، ولبسنا ثيابنا وليس بيننا وبين عرفة إلا أربع ليال، فهذان الحديثان فيهما التصريح بأنه عليه الصلاة والسلام قدم مكة عام حجة الوداع لصبح رابعة ذي الحجة، وذلك يوم الأحد حين ارتفع النهار وقت الضحاء، لأن أول ذي الحجة تلك السنة كان يوم الخميس بلا خلاف، لأن يوم عرفة منه كان يوم الجمعة بنص حديث عمر بن الخطاب الثابت في الصحيحين كما سيأتي.

فلما قدم عليه الصلاة والسلام يوم الأحد رابع الشهر بدأ كما ذكرنا بالطواف، بالبيت ثم بالسعي بين الصفا والمروة، فلما انتهى طوافه بينهما عند المروة أمر من لم يكن معه هدي أن يحل من إحرامه حتماً، فوجب ذلك عليهم لا محالة، ففعلوه، وبعضهم متأسف لأجل أنه عليه الصلاة والسلام لم يحل من إحرامه لأجل سوقه الهدي، وكانوا يحبون موافقته عليه الصلاة والسلام، والتأسي به، فلما رأى ما عندهم من ذلك قال لهم: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة». أي لو أعلمُ أن هذا ليشق عليكم لكنت تركت سوق الهدي حتى أحل كما أحللتم.

ومن ها هنا تتضح الدلالة على أفضلية التمتع كما ذهب إليه الإمام أحمد أخذاً من هذا، فإنه قال [فتاوى ابن تيمية: ٨١/٢٦، ١٦٦، ٢٨٣]: لا أشك أن رسول الله ﷺ كان قارناً، ولكن التمتع أفضل لتأسفه عليه

وجوابه: أنه عليه الصلاة والسلام لم يتأسف على التمتع لكونه أفضل من القران في حق من ساق الهدي، وإنما تأسف عليه لئلا يشق على أصحابه في بقائه على إحرامه، وأمره لهم بالإحلال، ولهذا والله أعلم لما تأمل الإمام أحمد هذا السر نص في رواية أخرى عنه على أن التمتع أفضل في حق من لم يسق الهدي، لأمره عليه الصلاة والسلام من لم يسق الهدي من أصحابه بالتمتع، وأن القران أفضل في حق من ساق الهدي، كما اختار الله عز وجل لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه في حجة الوداع، وأمره له بذلك كما تقدم والله أعلم.

سنة ١٠- نزول الأبطح

ثم سار صلوات الله وسلامه عليه بعد فراغه من طوافه بين الصفا والمروة وأمره بالفسخ لمن لم يسق الهدي، والناس معه، حتى نزل بالأبطح شرقي مكة، فأقام هنالك بقية يوم الأحد ويوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء حتى صلى الصبح من يوم الخميس وكل ذلك يصلي بأصحابه هنالك ولم يعد إلى الكعبة من تلك الأيام كلها.

قال البخاري [١٦٢٥]: باب من لم يقرب الكعبة، ولم يطف حتى يخرج إلى عرفة ويرجع بعد الطواف الأول:

حدثنا محمد بن أبي بكر، ثنا فضيل بن سليمان، ثنا موسى بن عقبة قال: أخبرني كريب عن عبد الله بن عباس قال: قدم النبي ﷺ مكة فطاف سبعاً، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها، حتى رجع من عرفة.

انفرد به البخاري.

فصل:

وقدم في هذا الوقت - ورسول الله ﷺ منيخ بالبطحاء خارج مكة - عليّ من اليمن، وكان النبي ﷺ قد بعثه كما قدمنا إلى اليمن أميراً بعد خالد بن الوليد رضي الله عنهما، فلما قدم وجد زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قد حلت كما حل أزواج رسول الله ﷺ والذين لم يسوقوا الهدي، واكتحلت ولبست ثيابا صبيغاً، فقال: من أمرك بهذا؟ قالت أبي، فذهب محرشاً عليها إلى رسول الله ﷺ، فأخبره أنها حلت ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت، وزعمت أنك أمرتها بذلك يا رسول الله فقال: «صدقت صدقت صدقت». ثم قال له رسول الله ﷺ: «بم أهللت حين أوجبت الحج؟» قال: بإهلال كإهلال النبي ﷺ. قال: «فإن معي الهدي فلا تحل»، فكان جماعة الهدي الذي جاء به عليّ من اليمن، والذي أتى به رسول الله ﷺ من المدينة، واشتراه في الطريق مائة من الإبل، واشتركا في الهدي جميعاً.

وقد تقدم هذا كله في صحيح مسلم رحمه الله.

وهذا التقرير يرد الرواية التي ذكرها الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير: ٢٣٠/١١، ٢٣١ (١١٥٨٤)] رحمه الله من حديث عكرمة، عن ابن عباس. أن علياً تلقى النبي ﷺ إلى الجحفة. والله أعلم.

وكان أبو موسى في جملة من قدم مع عليّ، ولكنه لم يسق هديا فأمره رسول الله ﷺ بأن يحل بعدما طاف للعمرة وسعى، ففسخ حجه إلى العمرة، وصار متمتعا، فكان يفتي بذلك في أثناء خلافة عمر بن الخطاب، فلما رأى عمر بن الخطاب أن يفرد الحج عن العمرة، ترك فتياه مهابة لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأرضاه.

وقال الإمام أحمد [٣٠٨/٤]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه. قال: رأيت بلالا يؤذن ويدور وأتتبّع فاه ها هنا وها هنا، وأصبعاه في أذنيه. قال: ورسول الله ﷺ في قبة له حمراء أراها من أدم. قال: فخرج بلال بين يديه بالعنزة فركزها، فصلى رسول الله ﷺ. قال عبد الرزاق: وسمعته بمكة قال: بالبطحاء يمر بين يديه الكلب والمرأة والحمار، وعليه حلة حمراء كأني أنظر إلى بريق ساقيه قال سفيان: نراها حبرة.

وقال أحمد [٣٠٨/٤، ٣٠٩]: ثنا وكيع، ثنا سفيان عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه. قال: أتيت النبي ﷺ بالأبطح وهو في قبة له حمراء، فخرج بلال بفضل وضوئه، فمن ناضح ونائل. قال: فأذن بلال، فكنت أتتبع فاه هكذا وهكذا - يعني يميناً وشمالا - قال: ثم ركزت له عنزة فخرج رسول الله ﷺ وعليه جبة له حمراء، أو حلة حمراء، وكأني أنظر إلى بريق ساقيه، فصلى بنا إلى عنزة الظهر، أو العصر، ركعتين، تمر المرأة والكلب والحمار لا يمنع، ثم لم يزل يصلي ركعتين حتى أتى المدينة. وقال مرة: فصلى الظهر ركعتين، والعصر ركعتين.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٦٣٤)، م (٥٠٣) (٢٤٩)] من حديث سفيان الثوري.

وقال أحمد أيضا [٣٠٩/٤]: ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة وحجاج. ح وأخبرني شعبة عن الحكم، سمعت أبا جحيفة قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ وصلى الظهر ركعتين، وبين يديه عنزة، وزاد فيه عون عن أبيه أبي جحيفة: وكان يمر من ورائها الحمار والمرأة. قال حجاج في الحديث: ثم قام الناس فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم. قال: فأخذت يده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك.

وقد أخرجه صاحبا الصحيح [خ (١٨٧)، م (٥٠٣) (٢٥٢، ٢٥٣)] من حديث شعبة بتمامه.

سنة ١٠- يوم التروية

فأقام عليه الصلاة والسلام بالأبطح كما قدمنا يوم الأحد ويوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقد حل الناس إلا من ساق الهدي، وقدم في هذه الأيام عليّ بن أبي طالب من اليمن بمن معه من المسلمين وما معه من الأموال، ولم يعد عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة بعدما طاف بها، فلما أصبح عليه الصلاة والسلام يوم الخميس صلى بالأبطح الصبح من يومئذ وهو يوم التروية ويقال له: يوم منى لأنه يسار فيه إليها.

وقد روي أن النبي ﷺ خطب قبل هذا اليوم. ويقال للذي قبله فيما رأيته في بعض التعاليق. يوم الزينة، لأنه تزيّن فيه البدن بالجلال ونحوها فالله أعلم.

قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١١١/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أحمد بن محمد ابن جعفر الجلودي، ثنا محمد بن إسماعيل بن مهران، ثنا محمد بن يوسف، ثنا أبو قرة عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر. قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان قبل يوم التروية خطب يوم التروية خطب الناس، فأخبرهم بمناسكهم، فركب عليه الصلاة والسلام قاصداً إلى منى قبل الزوال، وقيل: بعده، وأحرم الذين كانوا قد حلوا بالحج من الأبطح حين توجهوا إلى منى، وانبعثت رواحلهم نحوها.

قال عبد الملك: عن عطاء، عن جابر بن عبد الله: قدمنا مع رسول الله ﷺ فأحللنا حتى كان يوم التروية، وجعلنا مكة منّا بظهر، لبينا بالحج.

ذكره البخاري تعليقا مجزوما [ك ٢٥ باب ٨٢].

وقال مسلم [١٢١٤]: ثنا محمد بن حاتم، ثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج: أخبرني أبو الزبير عن جابر. قال: أمرنا رسول الله ﷺ لما أحللنا أن نحرم إذا توجهنا إلى منى. قال: فأهللنا من الأبطح.

وقال عبيد بن جريج لابن عمر: رأيتك إذا كنت بمكة أهل الناس إذا

رأوا الهلال، ولم تهل أنت حتى يوم التروية! فقال: لم أر النبي ﷺ يهل حتى تنبعث به راحلته. رواه البخاري [١٦٦، ٥٨٥١] في جملة حديث طويل.

قال البخاري [كتاب ٢٥ باب ٨٢]: وسئل عطاء عن المجاور متى يلبي بالحج؟ فقال: كان ابن عمر يلبي يوم التروية إذا صلى الظهر واستوى على راحلته.

قلت: هكذا كان ابن عمر يصنع إذا حج معتمراً يحل من العمرة، فإذا كان يوم التروية لا يلبي حتى تنبعث به راحلته متوجها إلى منى، كما أحرم رسول الله ﷺ من ذي الحليفة بعدما صلى الظهر، وانبعثت به راحلته، لكن يوم التروية لم يصل النبي ﷺ الظهر بالأبطح، وإنما صلاها يومئذ بمنى، وهذا مما لا نزاع فيه.

قال البخاري [١٦٥٣]: باب أين يصلي الظهر يوم التروية:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا إسحاق الأزرق، حدثنا سفيان عن عبد العزيز بن رفيع. قال: سألت أنس بن مالك قلت: أخبرني بشيء عقلتَه من رسول الله ﷺ أين يصلي الظهر والعصر يوم التروية؟ قال: بمنى قلت: فأين صلى العصر يوم النفر؟ قال: بالأبطح. ثم قال: افعل كما يفعل أمراؤك.

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (١٣٠٩)، د (١٩١٢)، ت (٩٦٤)، س (٢٩٩٧)] إلا ابن ماجه من طرق عن إسحاق بن يوسف الأزرق، عن سفيان الثوري به.

وكذلك رواه الإمام أحمد [١٠/٣] عن إسحاق ابن يوسف الأزرق به.
وقال الترمذي: حسن صحيح، يستغرب من حديث الأزرق عن الثوري.

ثم قال البخاري [١٦٥٤]: أنبأنا عليّ سمع أبا بكر بن عياش، ثنا عبد العزيز بن رفيع. قال: لقيت أنس بن مالك، وحدثني إسماعيل بن أبان، ثنا أبو بكر بن عياش عن عبد العزيز. قال: خرجت إلى منى يوم التروية فلقيت أنساً ذاهباً على حمار، فقلت: أين صلى النبي ﷺ هذا اليوم الظهر؟ فقال: انظر حيث يصلي أمراؤك فصل.

وقال أحمد [٢٩٦/١، ٢٩٧، ٣٠٣]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا أبو كدينة عن الأعمش، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ صلى خمس صلوات بمنى.

وقال أحمد أيضاً [٢٩٧/١]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا أبو محياة يحيى بن يعلى التيمي، عن الأعمش، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. أن النبي ﷺ صلى الظهر يوم التروية بمنى، وصلى الغداة يوم عرفة بها.

وقد رواه أبو داود [١٩١١] عن زهير بن حرب، عن أحوص بن جواب، عن عمار بن رزيق، عن سليمان بن مهران الأعمش به. ولفظه: صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم التروية والفجر يوم عرفة بمنى.

وأخرجه الترمذي [٨٨٠] عن الأشج عن عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش بمعناه. وقال: ليس هذا مما عده شعبة فيما سمعه الحكم عن مقسم.

وقال الترمذي [٨٧٩]: ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا عبد الله بن الأجلح عن إسماعيل بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس قال: صلى بنا رسول الله ﷺ بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا إلى عرفات.

ثم قال: وإسماعيل بن مسلم قد تكلّم فيه. وفي الباب عن عبد الله بن الزبير وأنس بن مالك.

وقال الإمام أحمد [٢٦٨/٥] ثنا يزيد بن عبد ربِّه، ثنا الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عمن رأى النبي ﷺ أنه راح إلى منى يوم التروية وإلى جانبه بلال بيده عود عليه ثوب يظلل به رسول الله ﷺ - يعني من الحر -.

تفرد به أحمد.

وقد نص الشافعي على أنه عليه السلام ركب من الأبطح إلى منى بعد الزوال، ولكنه إنما صلى الظهر بمنى فقد يستدل له بهذا الحديث والله أعلم.

وتقدم في حديث جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر [م (١٢١٨)]. قال: فحلَّ الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس. وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعا في بني سعد، فقتلته هذيل -. وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون»؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال: بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللّهم اشهد اللّهم اشهد اللّهم اشهد» ثلاث مرات.

وقال أبو عبد الرحمن النسائي [كبرى (٤٠٠٢)]: أنبأنا عليّ بن حجر قال: أنبأنا جرير عن عن المغيرة، عن موسى بن زياد بن حذيم بن عمرو السعدي، عن أبيه، عن جده. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته يوم عرفة في حجة الوداع: «اعلموا أن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، كحرمة شهركم هذا كحرمة بلدكم هذا».

وقال أبو داود [١٩١٥] باب الخطبة على المنبر بعرفة:

حدثنا هناد عن ابن أبي زائدة، ثنا سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم، عن رجل من بني ضمرة، عن أبيه أو عمه، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر بعرفة.

وهذا الإسناد ضعيف. لأن فيه رجلا مبهماً.

ثم تقدم في حديث جابر الطويل [م (١٢١٨)] أنه عليه الصلاة والسلام خطب على ناقته القصواء.

ثم قال أبو داود [١٩١٦]: حدثنا مسدد، ثنا عبد الله بن داود عن سلمة بن نبيط، عن رجل من الحي، عن أبيه نبيط: أنه رأى رسول الله ﷺ واقفاً بعرفة على بعير أحمر يخطب.

وهذا فيه مبهم أيضاً. ولكن حديث جابر شاهد له.

ثم قال أبو داود [١٩١٧]: حدثنا هناد بن السري، وعثمان بن أبي شيبة، قالا: ثنا وكيع عن عبد المجيد أبي عمرو، قال: حدثني العداء بن خالد بن هوذة، وقال هناد عن عبد المجيد: حدثني خالد بن العداء بن هوذة، قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس يوم عرفة على بعير قائماً في الركابين.

قال أبو داود: رواه ابن العلاء عن وكيع، كما قال هناد. وحدثنا عباس بن عبد العظيم، ثنا عثمان بن عمر، ثنا عبد المجيد أبو عمرو عن العداء بن خالد بمعناه.

وفي الصحيحين [خ (١٨٤١)، م (١١٧٨) (٤)] عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بعرفات: «من لم يجد نعلين فليلبس الخفين، ومن لم يجد إزاراً فليلبس السراويل للمحرم».

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٠٥]: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد. قال: كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف. قال: يقول له رسول الله ﷺ: «قل أيها الناس إن رسول الله يقول: «هل تدرون أي شهر هذا؟»، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: «قل لهم إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة شهركم هذا» ثم يقول: «قل: أيها الناس إن رسول الله يقول: هل تدرون أي بلد هذا؟». وذكر تمام الحديث.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٠٥]: حدثني ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن خارجة. قال: بعثني عتاب بن أسيد إلى رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة في حاجة فبلغته، ثم وقفت تحت ناقته وإن لعابها ليقع على رأسي فسمعته يقول: «أيها الناس إن الله أدى إلى كل ذي حق حقه، وإنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن أدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا».

ورواه الترمذي [٢١٢١] والنسائي [٣٦٤٣] وابن ماجه [٢٧١٢] من حديث قتادة عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن عمرو بن خارجة به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: وفيه اختلاف على قتادة والله أعلم.

وسنذكر الخطبة التي خطبها عليه الصلاة والسلام بعد هذه الخطبة يوم النحر، وما فيها من الحكم والمواعظ والتفاصيل والآداب النبوية إن شاء الله.

قال البخاري [١٦٥٩] باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن محمد بن أبي بكر الثقفي، أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟ فقال: كان يهل منا المهل فلا ينكر عليه، ويكبر المكبر منا فلا ينكر عليه.

وأخرجه مسلم [(١٢٨٥) (٢٧٤، ٢٧٥)] من حديث مالك وموسى بن عقبة، كلاهما عن محمد بن أبي بكر بن عوف بن رياح الثقفي الحجازي، عن أنس به.

وقال البخاري [١٦٦٣]: حدثنا عبد الله بن مسلمة، ثنا مالك عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف أن يأتم بعبد الله بن عمر في الحج فلما كان يوم عرفة، جاء ابن عمر وأنا معه حين زاغت الشمس - أو زالت الشمس - فصاح عند فسطاطه: أين هذا؟ فخرج إليه. فقال ابن عمر: الرواح فقال: الآن؟ قال نعم! فقال: أنظرني حتى أفيض عليّ ماءً، فنزل ابن عمر حتى خرج فسار بيني وبين أبي، فقلت: إن كنت تريد أن تصيب السنة اليوم فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف، فقال ابن عمر: صدق.

ورواه البخاري أيضاً [١٦٦٣] عن القعنبي عن مالك.

وأخرجه النسائي [٣٠٠٥، ٣٠٠٩] من حديث أشهب وابن وهب عن مالك. ثم قال [١٦٦٢ معلقاً] البخاري بعد روايته هذا الحديث. وقال الليث: حدثني عقيل عن ابن شهاب، عن سالم: أن الحجاج عام نزل بابن الزبير سأل عبد الله: كيف تصنع في الموقف؟ فقال سالم: إن كنت تريد السنة فهجر بالصلاة يوم عرفة، فقال ابن عمر: صدق، إنهم كانوا يجمعون بين الظهر والعصر في السُّنة، فقلت لسالم: أفعلَ ذلك رسول الله ﷺ؟ فقال: هل تبتغون بذلك إلا سنة.

وقال أبو داود [١٩١٣]: حدثنا أحمد بن حنبل، ثنا يعقوب، ثنا أبي عن ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر. أن رسول الله ﷺ غدا من منى حين صلى الصبح صبيحة يوم عرفة، فنزل بنمرة وهي منزل الإمام الذي ينزل به بعرفة، حتى إذا كان عند صلاة الظهر راح رسول الله ﷺ مهجراً، فجمع بين الظهر والعصر.

وهكذا ذكر جابر في حديثه [م (١٢١٨)] بعدما أورد الخطبة المتقدمة قال: ثم أذن بلال، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئا.

وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام خطب أولا ثم أقيمت الصلاة، ولم يتعرض للخطبة الثانية.

وقد قال الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٩١١)]: أنبأنا إبراهيم بن محمد وغيره عن جعفر بن محمد، عن أبيه، وعن جابر في حجة الإسلام. قال: فراح النبي ﷺ إلى الموقف بعرفة فخطب الناس الخطبة الأولى، ثم أذن بلال، ثم أخذ النبي ﷺ في الخطبة الثانية ففرغ من الخطبة وبلال من الأذان، ثم أقام بلال فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر.

قال البيهقي: تفرد به إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى.

قال مسلم عن جابر: ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة.

وقال البخاري [١٩٨٩]: حدثنا يحيى بن سليمان عن ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث عن بكير، عن كريب، عن ميمونة: أن الناس شكوا في صيام النبي ﷺ يوم عرفة فأرسلت إليه بحلاب، وهو واقف في الموقف فشرب منه والناس ينظرون.

وأخرجه مسلم [(١١٢٤) (١١٢)] عن هارون بن سعيد الأيلي عن ابن وهب به.

وقال البخاري [١٩٨٨]: أنبأنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن النضر، مولى عمر بن عبيد الله، عن عمير مولى ابن عباس، عن أم الفضل بنت الحارث، أن ناساً تماروا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه.

ورواه مسلم [(١١٢٣) (١١٠)] من حديث مالك أيضاً.

وأخرجاه [خ (١٦٥٨)، م (١١٢٣) (١١١)] من طرق أخر عن أبي النضر به.

قلت: أم الفضل هي أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وقصتهما واحدة والله أعلم. وصح إسناد الإرسال إليهما لأنه من عندهما اللهم إلا

أن يكون بعد ذلك أو تعدد الإرسال من هذه، ومن هذه، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣٥٩/١]: حدثنا إسماعيل، ثنا أيوب قال: لا أدري أسمعته من سعيد بن جبير، أم نُبِّئته عنه. قال: أتيت على ابن عباس وهو بعرفة وهو يأكل رماناً. وقال: أفطر رسول الله ﷺ بعرفة، وبعثت إليه أم الفضل بلبن فشربه.

وقال أحمد [٣٤٤/١]: حدثنا وكيع، ثنا ابن أبي ذئب عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس: أنهم تماروا في صوم النبي ﷺ يوم عرفة، فأرسلت أم الفضل إلى رسول الله ﷺ بلبن فشربه.

وقال الإمام أحمد [٣٦٧/١]: حدثنا عبد الرزاق وابن بكر قالا: أنبأنا ابن جريج قال: قال عطاء: دعا عبد الله بن عباس الفضل بن عباس إلى الطعام يوم عرفة، فقال: إني صائم، فقال عبد الله: لا تصم فإن رسول الله ﷺ قرب إليه حلاب فيه لبن يوم عرفة فشرب منه، فلا تصم فإن الناس مستنون بكم.

وقال ابن بكر وروح: أن الناس يستنون بكم.

وقال البخاري [١٨٥٠]: حدثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد عن أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رجل واقف مع النبي ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته، فوقصته أو قال: فأوقصته، فقال النبي ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين، ولا تمسوه طيباً ولا تخمروا رأسه، ولاتحنطوه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً».

ورواه مسلم [(١٢٠٦) (٩٤)] عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد.

وقال النسائي [المجتبى (٣٠١٦) والكبرى (٤٠١١)]: أنبأنا إسحاق بن إبراهيم هو ابن راهويه، أخبرنا وكيع، أنبأنا سفيان الثوري عن بكير بن عطاء، عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: شهدت رسول الله ﷺ بعرفة وأتاه أناس من أهل نجد، فسألوه عن الحج فقال رسول الله ﷺ: «الحج عرفة» فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه.

وقد رواه بقية أصحاب السنن [د (١٩٤٩)، ت (٨٨٩)، س كبرى (٤١٨٠)، ج (٣٠١٥)] من حديث سفيان الثوري، زاد النسائي وشعبة عن بكير بن عطاء به.

وقال النسائي [كبرى (٤٠١٠)]: أنبأنا قتيبة، أنبأنا سفيان عن عمرو بن دينار، أخبرني عمرو بن عبد الله بن صفوان: أن يزيد بن شيبان قال: كنا وقوفاً بعرفة مكاناً بعيداً من الموقف، فأتانا ابن مربع الأنصاري فقال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم يقول لكم: كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم.

وقد رواه أبو داود [١٩١٩] والترمذي [٨٨٣] وابن ماجه [٣٠١١] من حديث سفيان بن عيينة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولا نعرفه إلا من حديث ابن عيينة عن عمرو بن دينار. وابن مربع اسمه يزيد بن مربع الأنصاري، وإنما يعرف له هذا الحديث الواحد.

قال: وفي الباب عن عليّ وعائشة وجبير بن مطعم، والشريد بن سويد.

وقد تقدم من رواية مسلم عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف» زاد مالك في موطئه وارفعوا عن بطن عُرَنة.

سنة ١٠- دعاءُ النبي ﷺ وهو واقف بعرفة

قد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام أفطر يوم عرفة، فدل على أن الإفطار هناك أفضل من الصيام لما فيه من التقوي على الدعاء، لأنه المقصود الأهم هناك، ولهذا وقف عليه الصلاة والسلام وهو راكب على الراحلة من لدن الزوال، إلى أن غربت الشمس.

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده عن حوشب بن عقيل، عن مهدي الهجري، عن عكرمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة.

وقال الإمام أحمد [٣٠٤/٢]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا حوشب بن عقيل، حدثني مهدي المحاربي، حدثني عكرمة مولى ابن عباس قال: دخلت على أبي هريرة في بيته فسألته عن صوم يوم عرفة بعرفات. فقال: نهى رسول الله ﷺ عن صوم عرفة بعرفات.

وقال عبد الرحمن مرة عن مهدي العبدي: وكذلك رواه أحمد [٤٤٦/٢] عن وكيع، عن حوشب، عن مهدي العبدي، فذكره.

وقد رواه أبو داود [٢٤٤٠] عن سليمان بن حرب عن حوشب.

والنسائي [كبرى (٢٨٣٠، ٢٨٣١)] عن سليمان بن معبد، عن سليمان بن حرب به. وعن الفلاس عن ابن مهدي به.

وابن ماجه [١٧٣٢] عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعليّ بن محمد، كلاهما عن وكيع، عن حوشب.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١١٧/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا أبو أسامة الكلبي، ثنا حسن بن الربيع، ثنا الحارث بن عبيد عن حوشب بن عقيل، عن مهدي الهجري، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نهى النبي ﷺ عن صوم يوم عرفة بعرفة.

قال البيهقي: كذا قال الحارث بن عبيد، والمحفوظ عن عكرمة عن أبي هريرة.

وروى أبو حاتم محمد بن حبان البستي في صحيحه [الإحسان (٣٦٠٤)] عن عبد الله بن عمرو، أنه سئل عن صوم يوم عرفة فقال: حججت مع رسول الله ﷺ فلم يصمه، ومع أبي بكر فلم يصمه، ومع عمر فلم يصمه، وأنا فلا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه.

قال الإمام مالك [الموطأ: ٤٢٢، ٤٢٣] عن زياد بن أبي زياد، مولى ابن عباس، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

قال البيهقي [السنن الكبرى: ١١٧/٥]: هذا مرسل. وقد روي عن مالك بإسناد آخر موصولا وإسناده ضعيف.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي [٣٥٨٥] من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده. أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وللإمام أحمد [٢١٠/٢] أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده. قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وقال أبو عبد الله بن منده: أنبأنا أحمد بن إسحاق بن أيوب

النيسابوري، ثنا أحمد بن داود بن جابر الأحمسي، ثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي، ثنا فرج بن فضالة، عن يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ: «دعائي ودعاء الأنبياء قبلي عشية عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وقال الإمام أحمد [١٦٦/١]: حدثنا يزيد يعني ابن عبد ربه الجرجسي، ثنا بقية بن الوليد، حدثني جبير بن عمرو القرشي عن أبي سعيد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] «وأنا على ذلك من الشاهدين يارب».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في مناسكه: حدثنا الحسن بن مثنى بن معاذ العنبري، ثنا عفان بن مسلم، ثنا قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح، عن خليفة، عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والأنبياء قبلي عشية عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وقال الترمذي في الدعوات [٣٥٢٠]: حدثنا محمد بن حاتم المؤدب، ثنا عليّ بن ثابت ثنا قيس بن الربيع، وكان من بني أسد عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حصين، عن عليّ رضي الله عنه، قال: كان أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ يوم عرفة في الموقف: «اللّهم لك الحمد كالذي نقول وخير مما نقول اللّهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ولك رب تراثي، أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر. اللّهم إني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح».

ثم قال: غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي.

وقد رواه الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١١٧/٥]: من طريق موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر دعاء من كان قبلي ودعائي يوم عرفة أن أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللّهم اجعل في بصري نورا وفي سمعي نورا وفي قلبي نورا. اللّهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، اللّهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج في الليل، وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر».

ثم قال: تفرد به موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وأخوه عبد الله لم يدرك عليًا.

وقال الطبراني في مناسكه [المعجم الكبير: ١٧٤/١١، ١٧٥]: حدثنا يحيى بن عثمان المصري، ثنا يحيى بن بكير، ثنا يحيى بن صالح الأيلي عن إسماعيل بن أمية، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «اللّهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده ورغم لك أنفه. اللّهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين».

وقال الإمام أحمد [٢٠٩/٥]: حدثنا هشيم، أنبأنا عبد الملك، ثنا عطاء. قال: قال أسامة بن زيد: كنت رديف النبي ﷺ بعرفات فرفع يديه يدعو فمالت به ناقته فسقط خطامها قال: فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى.

وهكذا رواه النسائي [٣٠١١] عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم، به.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١١٧/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، ثنا عليّ بن الحسن، ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، ثنا ابن جريج عن حسين بن عبد الله الهاشمي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يدعو بعرفة يداه إلى صدره كاستطعام المسكين.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا عبد القاهر بن السري، حدثني ابن لِكنانة بن العباس بن مرداس عن أبيه، عن جده عباس بن مرداس، أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء، فأوحى الله إليه إني قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضاً، وأما ذنوبهم فيما بيني وبينهم فقد غفرتها، فقال: «يارب إنك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خيراً من مظلمته، وتغفر لهذا الظالم» فلم يجبه تلك العشية، فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء فأجابه الله تعالى: إني قد غفرت لهم. فتبسم رسول الله ﷺ فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله تبسمت في ساعة لم تكن تتبسم فيها! قال: «تبسمت من عدو الله إبليس إنه لما علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي أهوى يدعو بالويل والثبور، ويحثو التراب على رأسه».

ورواه أبو داود السجستاني في سننه [٥٢٣٤] عن عيسى بن إبراهيم البركي وأبي الوليد الطيالسي كلاهما عن عبد القاهر بن السري، عن ابن كنانة بن عباس بن مرداس، عن أبيه، عن جده مختصرا.

ورواه ابن ماجه [٣٠١٣] عن أيوب بن محمد الهاشمي عن عبد القاهر بن السري، عن عبد الله بن كنانة بن عباس، عن أبيه، عن جده به مطولا.

ورواه ابن جرير في تفسيره [٢٩٤/٢] عن إسماعيل بن سيف العجلي، عن عبد القاهر بن السري، عن ابن لكنانة يكنى أبا كنانة، عن أبيه، عن جده العباس بن مرداس فذكره

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عمن سمع قتادة يقول: ثنا خلاّس بن عمرو، عن عبادة بن الصامت. قال: قال رسول الله ﷺ يوم عرفة: «أيها الناس إن الله تطوّل عليكم في هذا اليوم، فغفر لكم إلا التبعات فيما بينكم، ووهب مسيئكم لمحسنكم. وأعطى محسنكم ما سأل. فادفعوا بسم الله». فلما كانوا بجمع قال: «إن الله قد غفر لصالحيكم وشفّع لصالحيكم في طالحيكم، تنزل الرحمة فتعمهم ثم تفرق الرحمة في الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده. وإبليس وجنوده على جبال عرفات ينظرون ما يصنع الله بهم؛ فإذا نزلت الرحمة دعا هو وجنوده بالويل والثبور، يقول: كنت أستفزهم حُقباً من الدهر فجاءت المغفرة فغشيتهم، فيتفرقون يدعون بالويل والثبور».

سنة ١٠- ذكر ما نزل على رسول الله ﷺ من الوحي المنيف في هذا الموقف الشريف

قال الإمام أحمد [٢٢٨/١]: حدثنا جعفر بن عون، ثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب. قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأي آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلت عشية عرفة في يوم جمعة.

ورواه البخاري [٤٥] عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون. وأخرجه [٤٤٠٧] أيضاً ومسلم [٣٠١٧] والترمذي [٣٠٤٣] والنسائي [٣٠٠٢] من طرق عن قيس بن مسلم به.

سنة ١٠- ذكر إفاضته ﷺ من عرفات إلى المشعر الحرام

قال جابر في حديثه الطويل: فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا حين غاب القرص، فأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رجله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة»!! كلما أتى حبلا من الحبال أرخى لها قليلا، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً.

رواه مسلم [١٢١٨].

وقال البخاري [١٦٦٦] باب السير إذا دفع من عرفة:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه. قال: سئل أسامة وأنا جالس: كيف كان النبي ﷺ يسير في حجة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص. قال هشام: والنص فوق العَنَق.

ورواه الإمام أحمد [٢٠٥/٥] وبقية الجماعة [م (١٢٨٦) (٢٨٣) (٢٨٤)، د (١٩٢٣)، س (٣٠٢٣)، ج (٣٠١٧)] إلا الترمذي من طرق عدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسامة بن زيد.

وقال الإمام أحمد [٢٠١/٥، ٢٠٢]: ثنا يعقوب ثنا أبي عن ابن إسحاق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسامة بن زيد. قال: كنت رديف رسول الله ﷺ عشية عرفة. قال: فلما وقعت الشمس دفع رسول الله ﷺ فلما سمع حطمة الناس خلفه. قال: «رويداً أيها الناس عليكم السكينة إن البر ليس بالإيضاع». قال: فكان رسول الله ﷺ إذا التحم عليه الناس أعنق وإذا وجد فرجة نص، حتى أتى المزدلفة فنزل فيها فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة.

ثم رواه الإمام أحمد [٢٠٢/٥] من طريق محمد بن إسحاق، حدثني إبراهيم بن عقبة عن كريب، عن أسامة بن، زيد فذكر مثله.

وقال الإمام أحمد [٢٠٧/٥]: حدثنا أبو كامل، ثنا حماد عن قيس بن سعد، عن عطاء، عن ابن عباس، عن أسامة بن زيد قال: أفاض رسول الله ﷺ من عرفة وأنا رديفه، فجعل يكبح راحلته حتى إن ذفراها ليكاد يصيب قادمة الرحل. ويقول: «يا أيها الناس عليكم السكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل».

وكذا رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به [٢٠١/٥].

ورواه النسائي [٣٠١٨] من حديث حماد بن سلمة به.

ورواه مسلم [(١٢٨٦) (٢٨٢)] عن زهير بن حرب، عن يزيد بن هارون، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن أسامة بنحوه. قال: وقال أسامة: فما زال يسير على هيئته حتى أتى جمعاً.

وقال الإمام أحمد [٢٠٦/٥]: حدثنا أحمد بن الحجاج، ثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب، عن شعبة، عن ابن عباس، عن أسامة بن زيد. أنه ردف رسول الله ﷺ يوم عرفة حتى دخل الشعب، ثم أهراق الماء وتوضأ، ثم ركب ولم يصل.

وقال الإمام أحمد [٢٠٦/٥]: حدثنا عبد الصمد، ثنا همام عن قتادة، عن عزرة، عن الشعبي، عن أسامة بن زيد أنه حدثه. قال: كنت رديف رسول الله ﷺ حين أفاض من عرفات، فلم ترفع راحلته رجلها غادية حتى بلغ جمعاً.

وقال الإمام أحمد [٢٠٠/٥]: حدثنا سفيان عن إبراهيم بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس، أخبرني أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ أردفه من عرفة، فلما أتى الشعب نزل فبال، ولم يقل: أهراق الماء فصببت عليه فتوضأ وضوءاً خفيفاً، فقلت: الصلاة؟ فقال: «الصلاة أمامك».

قال: ثم أتى المزدلفة فصلى المغرب ثم حلوا رحالهم وأعنتُهم ثم صلى العشاء. كذا رواه الإمام أحمد عن كريب، عن ابن عباس، عن أسامة بن زيد فذكره.

ورواه النسائي [٦٠٨] عن الحسين بن حريث عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن عقبة، ومحمد بن أبي حرملة، كلاهما عن كريب، عن ابن عباس، عن أسامة.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي في أطرافه [٤٨/١]: والصحيح كريب عن أسامة.

وقال البخاري [١٦٧٢]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن موسى بن عقبة، عن كريب، عن أسامة بن زيد. أنه سمعه يقول: دفع رسول الله ﷺ من عرفة، فنزل الشعب فبال ثم توضأ، فلم يسبغ الوضوء، فقلت له: الصلاة، فقال: «الصلاة أمامك». فجاء المزدلفة فتوضأ فأسبغ، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت الصلاة فصلى العشاء ولم يصل بينهما.

وهكذا رواه البخاري [١٣٩] أيضاً عن القعنبي، ومسلم [(١٢٨٠) (٢٧٦)] عن يحيى بن يحيى، والنسائي [كبرى (٤٠٢٩)] عن قتيبة، عن مالك، عن موسى بن عقبة به. وأخرجاه [خ (١٨١)، م (١٢٨٠) (٢٧٧)] من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن موسى بن عقبة أيضاً.

ورواه مسلم [(١٢٨٠) (٢٧٩، ٢٨٠)] من حديث إبراهيم بن عقبة ومحمد بن عقبة، عن كريب كنحو رواية أخيهما موسى بن عقبة عنه.

وقال البخاري [١٦٦٩] أيضا: حدثنا قتيبة، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن محمد ابن أبي حرملة عن كريب، عن أسامة بن زيد أنه قال: ردفت رسول الله ﷺ، فلما بلغ رسول الله ﷺ من عرفات، الشعب الأيسر الذي دون المزدلفة، أناخ فبال، ثم جاء فصببت عليه الوضوء فتوضأ وضوءاً

خفيفا. فقلت: الصلاة يا رسول الله؟ قال: «الصلاة أمامك»، فركب رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة، فصلى ثم ردف الفضل رسول الله ﷺ غداة جمع.

قال كريب [خ (١٦٧٠)]: فأخبرني عبد الله بن عباس عن الفضل: أن رسول الله ﷺ لم يزل يلبي حتى بلغ الجمرة.

ورواه مسلم [١٢٨٠] عن قتيبة، ويحيى بن يحيى، ويحيى بن أيوب، وعلي بن حجر، أربعتهم عن إسماعيل بن جعفر به.

وقال الإمام أحمد [٥/٢٠٨]: حدثنا وكيع، ثنا عمر بن ذر عن مجاهد، عن أسامة بن زيد. أن رسول الله ﷺ أردفه من عرفة. قال: فقال الناس: سيخبرنا صاحبنا ما صنع. قال: فقال أسامة: لما دفع من عرفة فوقف كف رأس راحلته حتى أصاب رأسها واسطة الرحل، أو كاد يصيبه، يشير إلى الناس بيده «السكينة السكينة السكينة!!» حتى أتى جمعا، ثم أردف الفضل بن عباس قال فقال الناس: سيخبرنا صاحبنا بما صنع رسول الله ﷺ، فقال الفضل: لم يزل يسير سيراً لينا كسيره بالأمس، حتى أتى على وادي محسر، فدفع فيه حتى استوت به الأرض.

وقال البخاري [١٦٧١]: حدثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا إبراهيم بن سويد، حدثنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، أخبرني سعيد بن جبير مولى والبة الكوفي، حدثني ابن عباس. أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً، وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة! فإن البر ليس بالإيضاع».

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقد تقدم رواية الإمام أحمد ومسلم والنسائي، هذا من طريق عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، عن أسامة بن زيد فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١/٢٥١]: حدثنا إسماعيل بن عمر، ثنا المسعودي عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. قال: لما أفاض رسول الله ﷺ من عرفات أوضع الناس، فأمر رسول الله منادياً ينادي: «يا أيها الناس ليس البر بإيضاع الخيل ولا الركاب». قال: فما رأيت من رافعة يديها غادية حتى نزل جمعاً.

وقال الإمام أحمد [١/٢٧٣]: حدثنا حسين وأبو نعيم. قالا: ثنا إسرائيل عن عبد العزيز بن رفيع، قال: حدثني من سمع ابن عباس يقول: لم ينزل رسول الله ﷺ من عرفات وجمع إلا لُيُهريقَ الماء.

وقال الإمام أحمد [٢/١٣١]: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عبد الملك عن أنس بن سيرين، قال: كنت مع ابن عمر بعرفات: فلما كان حين راح رحت معه، حتى أتى الإمام فصلى معه الأولى والعصر ثم وقف معه وأنا وأصحاب لي حتى أفاض الإمام فأفضنا معه، حتى انتهينا إلى المضيق دون المأزمين، فأناخ وأنخنا، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته.

وقال البخاري [١٦٦٨]: ثنا موسى، ثنا جويرية عن نافع. قال: كان عبد الله بن عمر يجمع بين المغرب والعشاء بجمع، غير أنه يمر بالشعب الذي أخذه رسول الله ﷺ فيدخل فينتقص ويتوضأ ولا يصلي حتى يجيء جمعاً.

تفرد به البخاري رحمه الله من هذا الوجه.

وقال البخاري [١٦٧٣]: ثنا آدم، ثنا ابن أبي ذئب عن الزهري، عن سالم بن عبد الله، عن ابن عمر. قال: جمع النبي ﷺ المغرب والعشاء بجمع كل واحدة منهما بإقامة، ولم يسبّح بينهما ولا على إثر واحدة منهما.

ورواه مسلم [(٧٠٣) (٢٨٦)] عن يحيى بن يحيى، عن مالك، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر. أن رسول الله ﷺ صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعاً.

ثم قال مسلم [(١٢٨٨) (٢٨٧)]: حدثني حرملة حدثني ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، أن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أخبره أن أباه قال: جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع ليس بينهما سجدة، فصلى المغرب ثلاث ركعات، وصلى العشاء ركعتين، فكان عبد الله يصلي بجمع كذلك حتى لحق بالله.

ثم روى مسلم [(١٢٨٨) (٢٨٨، ٢٨٩)] من حديث شعبة عن الحكم، وسلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير: أنه صلى المغرب بجمع والعشاء بإقامة واحدة. ثم حدث عن ابن عمر أنه صلى مثل ذلك. وحدث ابن عمر أن رسول الله ﷺ صنع مثل ذلك.

ثم رواه [م (١٢٨٨) (٢٩٠)] من طريق الثوري عن سلمة عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر. قال: جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع، صلى المغرب ثلاثا، والعشاء ركعتين بإقامة واحدة.

ثم قال مسلم [(١٢٨٨) (٢٩١)]: ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا عبدالله بن نُمير، ثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق. قال: قال سعيد ابن جبير: أفضنا مع ابن عمر حتى أتينا جمعا، فصلى بنا المغرب والعشاء بإقامة واحدة، ثم انصرف، فقال: هكذا صلى بنا رسول الله ﷺ في هذا المكان.

وقال البخاري [١٦٧٤]: حدثنا خالد بن مخلد، ثنا سليمان بن بلال، حدثني يحيى بن سعيد، حدثني عدي بن ثابت، حدثني عبد الله بن يزيد الخطمي، حدثني أبو أيوب الأنصاري: أن رسول الله ﷺ جمع في حجة الوداع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة.

ورواه البخاري أيضاً في المغازي [٤٤١٤] عن القعنبي عن مالك.

ومسلم [١٢٨٧] من حديث سليمان بن بلال والليث بن سعد، ثلاثتهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عدي بن ثابت، به.

ورواه النسائي [كبرى (٤٠٢٣)] أيضاً عن الفلاس، عن يحيى القطان، عن شعبة، عن عدي بن ثابت به.

ثم قال البخاري [١٦٧٥] باب من أذن وأقام لكل واحدة منهما.

حدثنا عمرو بن خالد، ثنا زهير بن حرب، ثنا أبو إسحاق، سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول: حج عبد الله بن مسعود فأتينا المزدلفة حين الأذان بالعتمة، أو قريباً من ذلك، فأمر رجلا فأذن وأقام ثم صلى المغرب، وصلى بعدها ركعتين، ثم دعا بعشائه فتعشى، ثم أمر رجلا فأذن وأقام. قال عمرو: - لا أعلم الشك إلا من زهير، ثم صلى العشاء ركعتين، فلما طلع الفجر قال: إن النبي ﷺ كان لا يصلي هذه الساعة إلا هذه الصلاة في هذا المكان من هذا اليوم.

قال عبد الله: هما صلاتان تُحوّلان عن وقتهما صلاة المغرب بعدما يأتي الناس المزدلفة، والفجر حين يبزغ الفجر. قال: رأيت النبي ﷺ يفعله.

وهذا اللفظ وهو قوله: «والفجر حين يبزغ الفجر» أبين وأظهر من الحديث الآخر الذي رواه البخاري [١٦٨٢] عن حفص بن عمر بن غياث، عن أبيه، عن الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن، عن عبد الله بن مسعود. قال: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة بغير ميقاتها إلا صلاتين جمع بين المغرب والعشاء وصلى الفجر قبل ميقاتها.

ورواه مسلم [١٢٨٩] من حديث أبي معاوية وجرير عن الأعمش

به.

وقال جابر في حديثه: ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. وقد شهد معه هذه الصلاة عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي.

قال الإمام أحمد [١٥/٤]: ثنا هشيم، ثنا ابن أبي خالد وزكريا عن الشعبي، أخبرني عروة بن مضرس. قال: أتيت النبي ﷺ وهو بجمع فقلت: يا رسول الله جئتك من جَبَلَي طيّئ، أتعبت نفسي وأنصبتُ راحلتي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال: «من شهد معنا هذه الصلاة - يعني صلاة الفجر - بجمع، ووقف معنا حتى يفيض منه وقد أفاض قبل ذلك من عرفات ليلا أو نهاراً، فقد تم حجه وقضى تفثه».

وقد رواه الإمام أحمد [١٥/٤، ٢٦١، ٢٦٢] أيضاً وأهل السنن الأربعة [د (١٩٥٠)، ت (٨٩١)، س (٣٠٣٩، ٣٠٤٠)، ج (٣٠١٦)] من طرق عن الشعبي، عن عروة بن مضرس، وقال الترمذي: حسن صحيح

سنة ١٠- تقديم طائفة من أهله من المزدلفة إلى منى

وقد كان رسول الله ﷺ قدم طائفة من أهله بين يديه من الليل، قبل حطمة الناس من المزدلفة إلى منى.

قال البخاري [١٦٧٦]: باب من قدم ضعفة أهله بالليل، فيقفون بالمزدلفة ويدعون، ويقدم إذا غاب القمر.

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن يونس، عن ابن شهاب. قال: قال سالم: كان عبد الله بن عمر يقدم ضعفة أهله فيقفون عند المشعر الحرام بليل، فيذكرون الله ما بدا لهم، ثم يدفعون قبل أن يقف الإمام، وقبل أن يدفع، فمنهم من يقدم منى لصلاة الفجر، ومنهم من يقدم بعد ذلك، فإذا قدموا رموا الجمرة.

وكان ابن عمر يقول: أرخص في أولئك رسول الله ﷺ.

حدثنا سليمان بن حرب: ثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: بعثني رسول الله ﷺ من جمع بليل [١٦٧٧].

وقال البخاري [١٦٧٨]: حدثنا عليّ بن عبد الله ثنا سفيان، أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: أنا ممن قدم النبي ﷺ ليلة المزدلفة في ضعفة أهله.

وروى مسلم [١٢٩٤] من حديث ابن جريج، أخبرني عطاء، عن ابن عباس. قال: بعث بي رسول الله ﷺ من جمع بسحر مع ثقله.

وقال الإمام أحمد [٣١١/١]: ثنا سفيان الثوري، ثنا سلمة بن كهيل عن الحسن العرني عن ابن عباس قال: قدّمنا رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على حمراتنا فجعل يلطح أفخاذنا بيده، ويقول: «أبني لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس». قال ابن عباس: ما أخال أحداً يرمي الجمرة حتى تطلع الشمس.

وقد رواه أحمد [٣٤٣/١] أيضا عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري فذكره.

وقد رواه أبو داود [١٩٤٠] عن محمد بن كثير، عن الثوري به.

والنسائي [٣٠٦٤] عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن سفيان بن عيينة، عن سفيان الثوري به.

وأخرجه ابن ماجه [٣٠٢٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعلي بن محمد، كلاهما عن وكيع، عن مسعر، وسفيان الثوري، كلاهما عن سلمة بن كهيل به.

وقال أحمد [٣٢٦/١]: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس. قال: مر بنا رسول الله ﷺ ليلة النحر وعلينا سواد من الليل، فجعل يضرب أفخاذنا ويقول: «أبني أفيضوا لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس».

ثم رواه الإمام أحمد [٣٢٦/١، ٣٤٤] من حديث المسعودي، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. قال: قدم رسول الله ﷺ ضعفة أهله من المزدلفة بليل، فجعل يوصيهم أن لا يرموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس.

وقال أبو داود [١٩٤١]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا الوليد بن عقبة، ثنا حمزة الزيات بن حبيب عن عطاء، عن ابن عباس. قال: كان رسول الله ﷺ يقدم ضعفة أهله بغلس ويأمرهم - يعني أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس.

وكذا رواه النسائي [٣٠٦٥] عن محمود بن غيلان، عن بشر بن السري، عن سفيان، عن حبيب.

قال الطبراني [المعجم الكبير: ١٣٨/١١]: وهو ابن أبي ثابت عن عطاء، عن ابن عباس، فخرج حمزة الزيات من عهدته، وجاد إسناد الحديث والله أعلم.

وقد قال البخاري [١٦٧٩]: ثنا مسدد عن يحيى، عن ابن جريج، حدثني عبد الله مولى أسماء، عن أسماء، أنها نزلت ليلة جمع عند المزدلفة، فقامت تصلي فصلت ساعة، ثم قالت: يا بني هل غاب القمر؟ قلت: لا، فصلت ساعة، ثم قالت: هل غاب القمر؟ قلت نعم: قالت: فارتحلوا. فارتحلنا فمضينا حتى رمت الجمرة، ثم رجعت فصلت الصبح في منزلها، فقلت لها: يا هنتاه، ما أرانا إلا قد غلسنا فقالت: يا بني إن رسول الله ﷺ أذن للظعن.

ورواه مسلم [١٢٩١] من حديث ابن جريج به.

فإن كانت أسماء بنت الصديق رمت الجمار قبل طلوع الشمس كما ذكر ها هنا عن توقيف، فروايتها مقدمة على رواية ابن عباس، لأن إسناد حديثها أصح من إسناد حديثه، اللّهم إلا أن يقال: إن الغلمان أخف حالا من النساء وأنشط، فلهذا أمر الغلمان بأن لا يرموا قبل طلوع الشمس، وأذن للظعن في الرمي قبل طلوع الشمس، لأنهم أثقل حالا وأبلغ في التستر والله أعلم.

وإن كانت أسماء لم تفعله عن توقيف، فحديث ابن عباس مقدم على فعلها. لكن يقوي الأول قول أبي داود [١٩٤٣]:

ثنا محمد بن خلاد الباهلي، ثنا يحيى عن ابن جريج، أخبرني عطاء، أخبرني مخبر عن أسماء، أنها رمت الجمرة بليل، قلت: إنا رمينا الجمرة بليل، قالت: إنا كنا نصنع هذا على عهد النبي ﷺ.

وقال البخاري [١٦٨١]: حدثنا أبو نعيم، ثنا أفلح بن حميد، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، قالت: نزلنا المزدلفة فاستأذنت النبي ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة بطيئة، فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا نحن حتى أصبحنا، ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إلي من مفروح به.

وأخرجه مسلم [(١٢٩٠) (٢٩٣)] عن القعنبي، عن أفلح بن حميد به.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٦٨٠)، م (١٢٩٠) (٢٩٦)] من

حديث سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة به.

وقال أبو داود [١٩٤٢]: ثنا هارون بن عبد الله، ثنا ابن أبي فديك عن الضحاك - يعني ابن عثمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. أنها قالت: أرسل رسول الله ﷺ بأم سلمة ليلة النحر، فرمت الجمرة قبل الفجر، ثم مضت فأفاضت، وكان ذلك اليوم الذي يكون رسول الله ﷺ.

قال أبو داود - يعني عندها -.

انفرد به أبو داود، وهو إسناد جيد قوي، رجاله ثقات.

سنة ١٠- ذكر تلبيته ﷺ بالمزدلفة

قال مسلم [(١٢٨٣) (٢٦٩)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو الأحوص، عن حصين عن كثير بن مدرك، عن عبد الرحمن بن يزيد. قال: قال عبد الله - ونحن بجمع: سمعت الذي أنزلت عليه سورة البقرة يقول في هذا المقام، «لبيك اللهم لبيك»

سنة ١٠- وقوفه ﷺ بالمشعر الحرام ودفعه من المزدلفة قبل طلوع الشمس وإيضاعه في وادي محسّر

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٨].

وقال جابر في حديثه [م (١٢١٨)]: فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله عز وجل وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، ودفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس وراءه.

وقال البخاري [١٦٨٤]: ثنا حجاج بن منهال، ثنا شعبة عن أبي إسحاق السبيعي. قال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح، ثم وقف، فقال: إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير، وإن رسول الله ﷺ خالفهم، ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس.

وقال البخاري [١٦٨٣]: ثنا عبد الله بن رجاء، ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد. قال: خرجت مع عبد الله إلى مكة، ثم قدمنا جمعاً فصلى الصلاتين، كل صلاة وحدها بأذان وإقامة، والعشاء بينهما، ثم صلى الفجر حين طلع الفجر. قائل يقول: طلع الفجر وقائل يقول: لم يطلع الفجر. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن هاتين الصلاتين حُوِّلتا عن وقتهما في هذا المكان المغرب والعشاء»، فلا يقدم الناس جمعاً حتى يعتموا وصلاة الفجر هذه الساعة ثم وقف حتى أسفر. ثم قال: لو أن أمير المؤمنين أفاض الآن أصاب السنة، فلا أدري أقوله كان أسرع أو دفع عثمان رضي الله عنه، فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة يوم النحر.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٥/٥]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني، ثنا يحيى بن محمد بن يحيى، ثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، ثنا عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج، عن محمد بن قيس بن مخرمة، عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه. قال: خطبنا رسول الله بعرفة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من ها هنا عند غروب الشمس حتى تكون الشمس على رؤوس الجبال، مثل عمائم الرجال على رؤوسها، هدينا مخالف لهديهم. وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها، هدينا مخالف لهديهم».

قال: ورواه عبد الله بن إدريس عن ابن جريج، عن محمد بن قيس بن مخرمة مرسلاً.

وقال الإمام أحمد [٢٣١/١]: حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان، قال: سمعت الأعمش عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أفاض من المزدلفة قبل طلوع الشمس.

وقال البخاري [١٦٨٦، ١٦٨٧]: حدثنا زهير بن حرب، ثنا وهب بن جرير، ثنا أبي عن يونس الأيلي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس: أن أسامة رضي الله عنه كان ردف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى. قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جمرة العقبة.

ورواه ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس [خ (١٦٨٥)].

وروى مسلم [(١٢٨٢) (٢٦٨)] من حديث الليث بن سعد عن أبي الزبير، عن أبي معبد، عن ابن عباس، عن الفضل بن عباس. وكان رديف رسول الله ﷺ أنه قال في عشية عرفة وغداة جمع للناس حين دفعوا: عليكم بالسكينة وهو كافّ ناقته حتى دخل محسراً وهو من منى. قال: عليكم بحصى الخذف الذي يرمى به الجمرة. قال: ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى رمى الجمرة.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٥/٥] باب الإيضاع في وادي محسر:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو عمرو المقرئ وأبو بكر الورّاق، قالا: أنبأنا الحسن بن سفيان، ثنا هشام بن عمار، وأبو بكر بن أبي شيبة. قالا: ثنا حاتم بن إسماعيل، ثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر في حج النبي ﷺ. قال: حتى إذا أتى محسراً، حرك قليلا.

رواه مسلم في الصحيح [١٢١٨] عن أبي بكر بن أبي شيبة.

ثم روى البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٥/٥] من حديث سفيان الثوري عن أبي الزبير، عن جابر. قال: أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة، وأمرهم بالسكينة وأوضع في وادي محسر، وأمرهم أن يرموا الجمار بمثل حصى الخذف. وقال: «خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا».

ثم روى البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٥/٥، ١٢٦] من حديث الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث، عن زيد بن عليّ، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن عليّ: أن رسول الله ﷺ أفاض من جمع، حتى أتى محسراً، فقرّع ناقته حتى جاوز الوادي فوقف، ثم أردف الفضل ثم أتى الجمرة فرماها.

هكذا رواه مختصراً.

وقد قال الإمام أحمد [٧٥/١، ٧٦]: حدثنا أبو أحمد محمد بن عبد الله الزبيري، ثنا سفيان بن عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة، عن زيد بن عليّ، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن عليّ. قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفة فقال: «هذا الموقف، وعرفة كلها موقف»، وأفاض حين غابت الشمس وأردف أسامة فجعل يعنق على بعيره، والناس يضربون يميناً وشمالا يلتفت إليهم. ويقول: «السكينة أيها الناس»،

ثم أتى جمعاً فصلى بهم الصلاتين المغرب والعشاء. ثم بات حتى أصبح، ثم أتى قزح فوقف على قزح فقال: «هذا الموقف، وجمع كلها موقف».

ثم سار حتى أتى محسراً فوقف عليه فقرع دابته فخبت حتى جاز الوادي ثم حبسها، ثم أردف الفضل وسار حتى أتى الجمرة فرماها، ثم أتى المنحر. فقال: «هذا المنحر ومنى كلها منحر».

قال: واستفتته جارية شابة من خثعم. فقالت: إن أبي شيخ كبير قد أفند وقد أدركته فريضة الله في الحج، فهل يجزئ عنه أن أؤدي عنه؟ قال: «نعم! فأدي عن أبيك». قال: ولوى عنق الفضل فقال له العباس: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما».

قال: ثم جاءه رجل فقال: يا رسول الله حلقت قبل أن أنحر. قال: «انحر ولا حرج». ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله إني أفضت قبل أن أحلق، قال: «احلق أو قصر ولا حرج».

ثم أتى البيت فطاف، ثم أتى زمزم فقال: «يا بني عبد المطلب سقايتكم، ولولا أن يغلبكم الناس عليها لنزعت معكم».

وقد رواه أبو داود [١٩٢٢، ١٩٣٥] عن أحمد بن حنبل عن يحيى بن آدم، عن سفيان الثوري.

ورواه الترمذي [٨٨٥] عن بندار، عن أبي أحمد الزبيري.

وابن ماجه [٣٠١٠] عن عليّ بن محمد عن يحيى بن آدم.

وقال الترمذي: حسن صحيح، لا نعرفه من حديث عليّ إلا من هذا الوجه.

قلت: وله شواهد من وجوه صحيحة مخرجة في الصحاح وغيرها، فمن ذلك قصة الخثعمية، وهو في الصحيحين [خ (٥١٣)، م (١٣٣٥)] من طريق الفضل، وتقدمت في حديث جابر، وسنذكر من ذلك ما تيسر.

وقد حكى البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٦/٥، ١٢٧] بإسناد عن ابن عباس أنه أنكر الإسراع في وادي محسر؛ وقال: إنما كان ذلك من الأعراب. قال: والمثبت مقدم على النافي.

قلت: وفي ثبوته عنه نظر والله أعلم.

وقد صح ذلك عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ [انظر: م (١٢١٨) (١٤٧)]، وصح من صنيع الشيخين رضي الله عنهما أبي بكر وعمر أنهما كانا يفعلان ذلك.

فروى البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٦/٥] عن الحاكم عن النجاد وغيره، عن أبي عليّ محمد بن معاذ بن المستهل المعروف بُدرَان، عن القعنبي، عن أبيه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة أن عمر كان يُوضِع ويقول:

إليك تعدوا قلقاً وضينها مخالف دين النصارى دينها

سنة ١٠ - رمي جمرة العقبة

ذكر رميه عليه الصلاة والسلام جمرة العقبة وحدها يوم النحر وكيف رماها ومتى رماها؟ ومن أي موضع رماها؟ وبكم رماها؟ وقطعه التلبية حين رماها

قد تقدم من حديث أسامة والفضل وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، أنه عليه الصلاة والسلام لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة.

وقال البيهقي [السنن الكبرى: ١٣٧/٥]: أنبأنا الإمام أبو عثمان، أنبأنا أبو طاهر بن خزيمة، أنبأنا جدي - يعني إمام الأئمة- محمد بن إسحاق بن خزيمة، ثنا عليّ بن حجر، ثنا شريك عن عامر بن شقيق، عن أبي وائل، عن عبد الله. قال: رمقت النبي ﷺ فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة بأول حصاة.

وبه [السنن الكبرى: ١٣٧/٥] عن ابن خزيمة، ثنا عمر بن حفص الشيباني، ثنا حفص بن غياث، ثنا جعفر بن محمد عن أبيه، عن عليّ بن الحسين،عن ابن عباس، عن الفضل. قال: أفضت مع رسول الله ﷺ من عرفات، فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة، يكبر مع كل حصاة، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة.

قال البيهقي [السنن الكبرى: ١٣٧/٥، ١٣٨]: وهذه زيادة غريبة ليست في الروايات المشهورة عن ابن عباس، عن الفضل، وإن كان ابن خزيمة قد اختارها.

وقال محمد بن إسحاق [السنن الكبرى: ١٣٨/٥]: حدثني أبان بن صالح عن عكرمة. قال: أفضت مع الحسين بن عليّ فما أزال أسمعه يلبي حتى رمى جمرة العقبة، فلما قذفها أمسك. فقلت: ما هذا؟ فقال: رأيت أبي عليّ بن أبي طالب يلبي حتى رمى جمرة العقبة، وأخبرني أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك.

وتقدم من حديث الليث عن أبي الزبير، عن أبي معبد، عن ابن عباس، عن أخيه الفضل: أن النبي ﷺ أمر الناس في وادي محسر بحصى الخذف الذي يرمى به الجمرة.

رواه مسلم [(١٢٨٢) (٢٦٨)].

وقال أبو العالية عن ابن عباس: حدثني الفضل، قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة يوم النحر: «هات فالقط لي حصاً»، فلقطت له حصيات مثل حصى الخذف فوضعهن في يده فقال: «بأمثال هؤلاء بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». رواه البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٧/٥].

وقال جابر في حديثه حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي.

رواه مسلم [١٢١٨].

وقال البخاري [كتاب ٢٥ باب ١٣٤ قبل (١٧٤٦)]: وقال جابر رضي الله عنه: رمى النبي ﷺ يوم النحر ضحى، ورمى بعد ذلك بعد الزوال.

وهذا الحديث الذي علقه البخاري أسنده مسلم [(١٢٩٩) (٣١٤)] من حديث ابن جريج أخبرني أبو الزبير، سمع جابراً. قال: رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد فإذا زالت الشمس.

وفي الصحيحين [خ (١٧٤٧)، م (١٢٩٦) (٣٠٥)] من حديث الأعمش عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد. قال: رمى عبد الله من بطن الوادي فقلت: يا أبا عبد الرحمن إن ناساً يرمونها من فوقها. فقال: والذي لا إله غيره هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة.

لفظ البخاري.

وفي لفظ له [١٧٤٨] من حديث شعبة عن الحكم، عن إبراهيم عن عبد الرحمن، عن عبد الله بن مسعود: أنه أتى الجمرة الكبرى، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ورمى بسبع. وقال: هكذا رمى الذي أنزلت

عليه سورة البقرة.

ثم قال البخاري [قبل (١٧٤٨)] باب من رمى الجمار بسبع يكبر مع كل حصاة، قاله ابن عمر عن النبي ﷺ.

وهذا إنما يعرف في حديث جابر من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر كما تقدم أنه أتى الجمرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف [م (١٢١٨)].

وقد روى البخاري [١٧٥٠] في هذه الترجمة من حديث الأعمش عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة. ثم قال: من ها هنا والذي لا إله غيره قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة.

وروى مسلم [(١٢٩٩) (٣١٣)] من حديث ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، سمع جابر بن عبد الله. قال: رأيت رسول الله ﷺ رمى الجمرة بسبع مثل حصى الخذف.

وقال الإمام أحمد [٢٣٢/١]: حدثنا يحيى بن زكريا، ثنا حجاج عن الحكم، عن أبي القاسم - يعني مقسماً - عن ابن عباس. أن النبي ﷺ رمى الجمرة، جمرة العقبة يوم النحر راكباً.

ورواه الترمذي [٨٩٩] عن أحمد بن منيع، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، وقال: حسن.

وأخرجه ابن ماجه [٣٠٣٤] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، عن الحجاج بن أرطاة به.

وقد روى أحمد [٣٧٩/٥] وأبو داود [١٩٦٦] وابن ماجه [٣٠٢٨، ٣٠٣١] والبيهقي [السنن الكبرى: ١٢٨/٥] من حديث يزيد بن أبي زياد عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أمه أم جندب الأزدية. قالت: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار من بطن الوادي وهو راكب يكبر مع كل حصاة، ورجل من خلفه يستره، فسألت عن الرجل فقالوا: الفضل بن عباس، فازدحم الناس. فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الخذف».

لفظ أبي داود.

وفي رواية له [١٩٦٧، ١٩٦٨] قالت: رأيته عند جمرة العقبة راكباً، ورأيت بين أصابعه حجراً، فرمى ورمى الناس، ولم يقم عندها.

ولابن ماجه [٣٠٢٨] قالت: رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر عند جمرة العقبة وهو راكب على بغلة.

وذكر الحديث، وذكر البغلة ها هنا غريب جداً.

وقد روى مسلم في صحيحه [١٢٩٩] من حديث ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، سمعت جابر بن عبد الله يقول: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة على راحلته يوم النحر، ويقول «لتأخذوا مناسككم فإني لا ادري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

وروى مسلم [(١٢٩٨) (٣١١)] أيضاً من حديث زيد بن أبي أنيسة، عن يحيى بن الحصين، عن جدته أم الحصين، سمعتها تقول: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة وانصرف وهو على راحلته يوم النحر، وهو يقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

وفي رواية [(١٢٩٨) (٣١٢)] قالت: حججت مع رسول الله حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالا أحدهما آخذ بخطام ناقة النبي ﷺ والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة.

وقال الإمام أحمد [٤١٣/٣]: حدثنا أبو أحمد محمد بن عبد الله الزبيري، ثنا أيمن بن نابل، ثنا قدامة بن عبد الله الكلابي: أنه رأى رسول الله ﷺ رمى الجمرة، جمرة العقبة من بطن الوادي يوم النحر، على ناقة له صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك.

ورواه أحمد [٤١٢/٣، ٤١٣] أيضاً عن وكيع ومعتمر بن سليمان وأبي قرة موسى بن طارق الزبيدي، ثلاثتهم عن أيمن بن نائل به.

ورواه أيضاً [٤١٣/٣] عن أبي قرة، عن سفيان الثوري، عن أيمن.

وأخرجه النسائي [٣٠٦١] وابن ماجه [٣٠٣٥] من حديث وكيع به.

ورواه الترمذي [٩٠٣] عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، عن أيمن بن نابل به. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [١٣٨/٢]: ثنا نوح بن ميمون ثنا عبد الله - يعني العمري - عن نافع قال: كان ابن عمر يرمي جمرة العقبة على دابته يوم النحر، وكان لا يأتي سائرها بعد ذلك إلا ماشيا، ذاهباً وراجعاً. وزعم أن النبي ﷺ كان لا يأتيها إلا ماشياً ذاهباً وراجعاً.

ورواه أبو داود [١٩٦٩] عن القعنبي عن عبد الله العمري به.

سنة ١٠- النحر

قال جابر: ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها [م (١٢١٨)]. وسنتكلم على هذا الحديث.

وقال الإمام أحمد بن حنبل [٦١/٤ و٣٧٤/٥]: ثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن حميد الأعرج، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عبد الرحمن بن معاذ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. قال: خطب النبي ﷺ الناس بمنى ونزلهم منازلهم فقال: «لينزل المهاجرون ها هنا»، وأشار إلى ميمنة القبلة، «والأنصار ها هنا» وأشار إلى ميسرة القبلة. «ثم لينزل الناس حولهم». قال: وعلمهم مناسكهم، ففتحت أسماع أهل منى حتى سمعوه في منازلهم. قال: فسمعته يقول: «ارموا الجمرة بمثل حصى الخذف».

وكذا رواه أبو داود [١٩٥١] عن أحمد بن حنبل إلى قوله «ثم لينزل الناس حولهم».

وقد رواه الإمام أحمد [٦١/٤ و٣٧٤/٥] عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن أبيه.

وأبو داود [١٩٥١] عن مسدد عن عبد الوارث.

وابن ماجه [س لا ابن ماجه برقم (١٩٩٦)] من حديث ابن المبارك، عن عبد الوارث، عن حميد بن قيس الأعرج، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي. قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى ففتحت أسماعنا حتى كأنا نسمع ما يقول؛ الحديث.

ذكر جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أشرك علي بن أبي طالب في الهدي، وأن جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي جاء به رسول الله ﷺ مائة من الإبل، وأن رسول الله ﷺ نحر بيده الكريمة ثلاثاً وستين بدنة.

قال ابن حبان [الإحسان: ٢٥٢/٩] وغيره [زاد المعاد: ٢٥٢/٢]: وذلك مناسب لعمره عليه السلام فإنه كان ثلاثا وستين سنة.

وقد قال الإمام أحمد [٣١٤/١]: ثنا يحيى بن آدم ثنا زهير، ثنا محمد بن

عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس. قال: نحر رسول الله ﷺ في الحج مائة بدنة، نحر منها بيده ستين، وأمر ببقيتها فنحرت، وأخذ من كل بدنة بضعة، فجمعت في قدر فأكل منها وحسى من مرقها. قال: ونحر يوم الحديبية سبعين، فيها جمل أبي جهل، فلما صدت عن البيت حنّت كما تحنُّ إلى أولادها.

وقد روى ابن ماجه [٣١٠٠] بعضه عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعلي بن محمد عن وكيع، عن سفيان الثوري عن ابن أبي ليلى به.

وقال الإمام أحمد [٢٦٠/١]: ثنا يعقوب، ثنا أبي عن محمد بن إسحاق، حدثني رجل عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر، عن ابن عباس. قال: أهدي رسول الله ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة نحر منها ثلاثين بدنة بيده، ثم أمر عليا فنحر ما بقي منها. وقال: «اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس، ولا تعطين جزاراً منها شيئاً، وخذ لنا من كل بعير جدية من لحم، واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحسو من مرقها» ففعل.

وثبت في الصحيحين [خ (١٧٠٧)، م (١٣١٧) (٣٤٨)] من حديث مجاهد عن ابن أبي ليلى، عن علي قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنه وأن أتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها وأن لا أعطي الجزار منها شيئا وقال: «نحن نعطيه من عندنا».

وقال أبو داود: [١٧٦٦] ثنا محمد بن حاتم، ثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا عبد الله بن المبارك، عن حرملة بن عمران، عن عبد الله بن الحارث الأزدي، سمعت غرفة بن الحارث الكندي. قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتي بالبدن فقال: «ادع لي أبا حسن»، فدعي له علي. فقال: «خذ بأسفل الحربة» وأخذ رسول الله ﷺ بأعلاها ثم طعن بها في البدن، فلما فرغ ركب بغلته وأردف علياً.

تفرد به أبو داود، وفي إسناده ومتنه غرابة والله أعلم. وقال الإمام أحمد [٢٥٠/١]: حدثنا أحمد بن الحجاج: أنبانا عبد الله، أنبانا الحجاج بن أرطاة، عن الحكم عن أبي القاسم - يعني مقسماً - عن ابن عباس. قال: رمى رسول الله ﷺ جمرة العقبة، ثم ذبح ثم حلق.

وقد ادعى ابن حزم [حجة الوداع ص٢٧، ١٠٣] أنه ضحى عن نسائه بالبقر، وأهدى عنهنّ بقرة، وضحى هو يومئذ بكبشين أملحين.

سنة ١٠- صفة الحلق

قال الإمام أحمد [٣٣/٢، ٨٩]: ثنا عبد الرزاق، أنبانا معمر عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر. أن رسول الله ﷺ حلق في حجته.

ورواه النسائي [كبرى (٤١١٤)] عن إسحاق بن إبراهيم - هو ابن راهويه - عن عبد الرزاق، به.

وقال البخاري [١٧٢٦]: ثنا أبو اليمان، ثنا شعيب، قال: قال نافع: كان: عبد الله بن عمر يقول: حلق رسول الله ﷺ في حجته.

ورواه مسلم [١٣٠٤] من حديث موسى بن عقبة، عن نافع به.

وقال البخاري [١٧٢٩]: ثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، ثنا جويرية بن أسماء، عن نافع أن عبد الله بن عمر. قال: حلق رسول الله ﷺ وطائفة من أصحابه وقصر بعضهم.

ورواه مسلم [(١٣٠١) (٣١٦)] من حديث الليث عن نافع به وزاد [(١٣٠١) (٣١٧)]: قال عبد الله قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين» مرة أو مرتين. قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: «والمقصرين».

وقال مسلم [١٣٠٣] ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا وكيع وأبو داود الطيالسي عن شعبة عن يحيى بن الحصين، عن جدته، أنها سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة، ولم يقل وكيع: في حجة الوداع.

وهكذا روى هذا الحديث مسلم [(١٣٠١) (١٣١٧ - ١٣١٩)] من حديث مالك وعبيد الله عن نافع، عن ابن عمر.

وعمارة عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، والعلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة [(١٣٠٢) (٣٢٠) و(١٣٠٢) (٠٠٠)].

وقال مسلم [(١٣٠٥) (٣٢٣)] ثنا يحيى بن يحيى ثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك. أن رسول الله ﷺ أتى منى فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر. ثم قال للحلاق: «خذ»، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس.

وفي رواية له [(١٣٠٥) (٣٢٤)] أنه حلق شقه الأيمن، فقسمه بين الناس من شعرة وشعرتين، وأعطى شقه الأيسر لأبي طلحة.

وفي رواية له [(١٣٠٥) (٣٢٦)] أنه أعطى الأيمن لأبي طلحة، وأعطاه الأيسر وأمره أن يقسمه بين الناس.

وقال الإمام أحمد [١٣٠/٣]: حدثنا سليمان بن حرب، ثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. قال: رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وقد أطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل.

انفرد به أحمد.

سنة ١٠- بعد الرمي والنحر

ثم لبس عليه الصلاة والسلام ثيابه وتطيب بعدما رمى جمرة العقبة، ونحر هديه، وقبل أن يطوف بالبيت طيبته عائشة أم المؤمنين.

قال البخاري [١٧٥٤]: ثنا علي بن عبد الله بن المديني، ثنا سفيان - هو ابن عيينة - ثنا عبد الرحمن بن القاسم بن محمد، وكان أفضل أهل زمانه. أنه سمع أباه وكان أفضل أهل زمانه يقول: إنه سمع عائشة تقول: طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل قبل أن يطوف. وبسطت يديها.

وقال مسلم [١١٩١] ثنا يعقوب الدورقي وأحمد بن منيع. قالا: ثنا هشيم أنبانا منصور عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة. قالت: كنت أطيب رسول الله ﷺ قبل أن يحرم، ويحل يوم النحر قبل أن يطوف بالبيت، بطيب فيه مسك.

وروى النسائي [٢٦٨٦] من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم، ولحله بعدما رمى جمرة العقبة قبل أن يطوف بالبيت.

وقال الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٧٧٨)]: أنبانا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن سالم. قال: قالت عائشة: أنا طيبت رسول الله ﷺ لحله وإحرامه.

ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري، عن سالم، عن عائشة فذكره.

وفي الصحيحين [خ (٥٩٣٠)، م (١١٨٩) (٣٥)] من حديث ابن جريج: أخبرني عمر بن عبد الله بن عروة أنه سمع عروة والقاسم يخبرا

عن عائشة. أنها قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريرة في حجة الوداع للحل والإحرام.

ورواه مسلم [(١١٨٩) (٣٨)] من حديث الضحاك بن عثمان عن أبي الرجال، عن أمه عمرة، عن عائشة به.

وقال سفيان الثوري [س (٣٠٨٤)، ج (٣٠٤١)] عن سلمة بن كهيل، عن الحسن العُرَني عن ابن عباس. أنه قال: إذا رميتم الجمرة فقد حللتم من كل شيء كان عليكم حراماً إلا النساء، حتى تطوفوا بالبيت. فقال رجل: والطيب يا أبا العباس؟ فقال له: إني رأيت رسول الله ﷺ يضمخ رأسه بالمسك أفطيب هو أم لا؟.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة، عن أبيه وأمه زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة قالت: كانت الليلة التي يدور فيها رسول الله ﷺ ليلة النحر، فكان رسول الله ﷺ عندي، فدخل وهب بن زمعة ورجل من آل أبي أمية متقمصين. فقال لهما رسول الله ﷺ: «أفضتما؟» قال: لا. قال: «فانزعا قميصكما» فنزعاهما. فقال له وهب: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال: «هذا يوم أرخص لكم فيه إذا رميتم الجمرة، ونحرتم هدياً، إن كان لكم فقد أحللتم من كل شيء حرمتم منه، إلا النساء، حتى تطوفوا بالبيت، فإذا أمسيتم ولم تفيضوا صرتم حرماً كما كنتم أول مرة حتى تطوفوا بالبيت».

وهكذا رواه أبو داود [١٩٩٩] عن أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين كلاهما عن ابن أبي عدي، عن ابن إسحاق فذكره.

وأخرجه البيهقي [السنن الكبرى: ١٣٧/٥] عن الحاكم، عن أبي بكر بن إسحاق، عن أبي المثنى العنبري، عن يحيى بن معين، وزاد في آخره: قال أبو عبيدة: وحدثتني أم قيس بنت محصن، قالت: خرج من عندي عكاشة بن محصن في نفر من بني أسد متقمصين عشية يوم النحر، ثم رجعوا إلينا عشاءً وقمصهم على أيديهم يحملونها فسألتهم فأخبروها بمثل ما قال رسول الله ﷺ لوهب بن زمعة وصاحبه.

وهذا الحديث غريب جداً، لا أعلم أحداً من العلماء قال به. والله أعلم.

سنة ١٠ - إفاضته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال جابر: ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم. فقال: «انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»، فناولوه دلواً فشرب منه.

رواه مسلم [١٢١٨].

ففي هذا السياق ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ركب إلى مكة قبل الزوال فطاف بالبيت ثم لما فرغ صلى الظهر هناك.

وقال مسلم أيضا [١٣٠٨]: أخبرنا محمد بن رافع، أنبأنا عبد الرزّاق، أنبأنا عبيد الله بن عمر عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى.

وهذا خلاف حديث جابر، وكلاهما عند مسلم، فإن عملنا بهما أمكن أن يقالَ: إنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمكة، ثم رجع إلى منى فوجد الناس ينتظرونه، فصلى بهم والله أعلم.

ورجوعه عليه الصلاة والسلام إلى منى في وقت الظهر ممكن لأن ذلك الوقت كان صيفاً، والنهار طويل، وإن كان قد صدر منه عليه الصلاة والسلام أفعال كثيرة في صدر هذا النهار، فإنه دفع فيه من المزدلفة بعدما أسفر الفجر جداً، ولكنه قبل طلوع الشمس، ثم قدم منى فبدأ برمي جمرة العقبة بسبع حصيات. ثم جاء، فنحر بيده ثلاثاً وستين بدنة، ونحر علي بقية المائة، ثم أخذ من كل بدنة بضعة ووضعت في قدر وطبخت حتى نضجت، فأكل من ذلك اللحم، وشرب من ذلك المرق. وفي غضون ذلك حلق رأسه عليه الصلاة والسلام وتطيب، فلما فرغ من هذا كله ركب إلى البيت، وقد خطب عليه الصلاة والسلام في هذا اليوم خطبة عظيمة، ولست أدري أكانت قبل ذهابه إلى البيت، أو بعد رجوعه منه إلى منىً فالله أعلم.

والمقصود أنه ركب إلى البيت فطاف به سبعة أطواف راكباً، ولم يطف بين الصفا والمروة كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر وعائشة رضي الله عنهما، ثم شرب من ماء زمزم ومن نبيذ بتمر من ماء زمزم.

فهذا كله مما يقوي قول من قال: أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمكة، كما رواه جابر.

ويحتمل أنه رجع إلى منى في آخر وقت الظهر، فصلى بأصحابه بمنى الظهر أيضاً. وهذا هو الذي أشكل على ابن حزم [حجة الوداع ص: ٢٨] فلم يدر ما يقول فيه وهو معذور لتعارض الروايات الصحيحة فيه والله أعلم.

وقال أبو داود [١٩٧٣]: حدثنا علي بن بحر وعبد الله بن سعيد المعني. قالا: ثنا أبو خالد الأحمر، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع إلى منى فمكث بها ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة.

قال ابن حزم [حجة الوداع ص١٦] فهذا جابر وعائشة قد اتفقا على أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر يوم النحر بمكة، وهما والله أعلم أضبط لذلك من ابن عمر.

كذا قال! وليس بشيء، فإن رواية عائشة هذه ليست ناصة أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمكة، بل محتملة إن كان المحفوظ في الرواية حتى صلى الظهر، وإن كانت الرواية حين صلى الظهر وهو الأشبه، فإن ذلك دليل على أنه عليه الصلاة والسلام صلى الظهر بمنى قبل أن يذهب إلى البيت، وهو محتمل والله سبحانه وتعالى أعلم.

وعلى هذا فيبقى مخالفا لحديث جابر، فإن هذا يقتضي أنه صلى الظهر بمنى قبل أن يركب إلى البيت، وحديث جابر يقتضي أنه ركب إلى البيت قبل أن يصلي الظهر وصلاها بمكة.

وقد قال البخاري [كتاب ٢٥ باب ١٢٩] وقال أبو الزبير عن عائشة وابن عباس: أخر النبي ﷺ - يعني طواف الزيارة إلى الليل.

وهذا والذي علقه البخاري، فقد رواه الناس من حديث أبي حذيفة ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، ونوح بن ميمون، عن سفيان الثوري، عن أبي الزبير، عن عائشة وابن عباس: أن النبي ﷺ أخّر الطواف يوم النحر إلى الليل.

ورواه أهل السنن الأربعة [د (٣٠٠)، ت (٩٢٠)، س كبرى (٤١٦٩) من حديث عبد الرحمن بن مهدي، ج (٣٠٥٩) من حديث يحيى بن سعيد] من حديث سفيان به. وقال الترمذي: حسن.

وقال الإمام أحمد [٥٠/٢] حدثنا محمد بن عبد الله، ثنا سفيان عن

أبي الزبير، عن عائشة وابن عمر: أن رسول الله ﷺ وسلم زار ليلاً.

فإن حمل هذا على أنه أخّر ذلك إلى ما بعد الزوال، كأنه يقول: إلى العشي صحّ ذلك. وأما إن حمل على ما بعد الغروب فهو بعيد جداً، ومخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة المشهورة من أنه عليه الصلاة والسلام طاف يوم النحر نهاراً، وشرب من سقاية زمزم.

وأما الطواف الذي ذهب في الليل إلى البيت بسببه فهو طواف الوداع. ومن الرواة من يعبر عنه بطواف الزيارة كما سنذكره إن شاء اللّه؛ أو طواف زيارة محضة قبل طواف الوداع، وبعد طواف الصدر الذي هو طواف الفرض. وقد ورد حديث سنذكره في موضعه، أن رسول اللّه ﷺ كان يزور البيت كل ليلة من ليالي منى، وهذا بعيد أيضا واللّه أعلم.

وقد روى الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٥/١٤٤] من حديث عمر بن قيس، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول اللّه أذن لأصحابه فزاروا البيت يوم النحر ظهيرة، وزار رسول اللّه ﷺ مع نسائه ليلا.

وهذا حديث غريب جداً أيضاً، وهذا قول طاوس وعروة بن الزبير: أن رسول اللّه ﷺ أخر الطواف يوم النحر إلى الليل.

والصحيح من الروايات، وعليه الجمهور أنه عليه الصلاة والسلام طاف يوم النحر بالنهار، والأشبه أنه كان قبل الزوال ويحتمل أن يكون بعده واللّه أعلم.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم مكة طاف بالبيت سبعاً وهو راكب، ثم جاء زمزم وبنو عبد المطلب يستقون منها ويسقون الناس، فتناول منها دلواً فشرب منه وأفرغ عليه منه.

كما قال مسلم [١٣١٦]: أخبرنا محمد بن منهال الضرير، ثنا يزيد بن زريع، ثنا حميد الطويل، عن بكر بن عبد اللّه المزني، سمع ابن عباس يقول وهو جالس معه عند الكعبة: قدم النبي ﷺ على راحلته، وخلفه أسامة فأتيناه بإناء فيه نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة وقال: «أحسنتم وأجملتم هكذا فاصنعوا». قال ابن عباس: فنحن لا نريد أن نغير ما أمر به رسول اللّه ﷺ.

وفي رواية عن بكر [م (١٣١٦)، د (٢٠٢١)] أن اعرابيا قال لابن عباس: مالي أرى بني عمكم يسقون اللبن والعسل، وأنتم تسقون النبيذ، أمن حاجة بكم أم من بخل؟ فذكر له ابن عباس هذا الحديث.

وقال أحمد [١/٣٧٢] حدثنا روح، ثنا حماد، عن حميد، عن بكر، عن عبد اللّه: أن إعرابيا قال لابن عباس: ما شأن آل معاوية يسقون الماء والعسل، وآل فلان يسقون اللبن، وأنتم تسقون النبيذ. أمن بخل بكم أم حاجة؟ فقال ابن عباس: ما بنا بخل ولا حاجة، ولكن رسول اللّه ﷺ جاءنا ورديفه أسامة بن زيد، فاستسقى فسقيناه من هذا - يعني نبيذ السقاية - فشرب منه وقال: «أحسنتم هكذا فاصنعوا».

ورواه أحمد [١/٣٢٠، ٣٢١] عن روح ومحمد بن بكرعن ابن جريج، عن حسين بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عباس، وداود بن علي بن عبد اللّه بن عباس عن ابن عباس، فذكره.

وروى البخاري [١٦٣٥] عن إسحاق بن شاهين عن خالد عن خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس. أن رسول اللّه ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول اللّه ﷺ بشراب من عندها. فقال: «اسقني»! فقال: يا رسول اللّه إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: «اسقني»! فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها. فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح». ثم قال: «لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه - يعني عاتقه - وأشار إلى عاتقه».

وعنده [١٦٣٥] من حديث عاصم عن الشعبي: أن ابن عباس قال: سقيت النبي ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم. قال عاصم: فحلف عكرمة - ما كان يومئذ إلا على بعير. وفي رواية ناقته.

وقال الإمام أحمد [١/٢١٤، ٢١٥]: حدثنا هشيم، ثنا يزيد بن أبي زياد عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول اللّه ﷺ طاف بالبيت وهو على بعير، واستلم الحجر بمحجن كان معه. قال: وأتى السقاية فقال: «أسقوني»! فقالوا: إن هذا يخوضه الناس، ولكنا نأتيك به من البيت. فقال: «لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب منه الناس».

وقد روى أبو داود [١٨٨١] عن مسدد عن خالد الطحان، عن يزيد بن أبي زياد، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: قدم رسول اللّه ﷺ مكة ونحن نستقي، فطاف على راحلته، الحديث.

وقال الإمام أحمد [١/٣٧٢]: حدثنا روح وعفان. قالا: ثنا حماد عن قيس، وقال عفان في حديثه: أنبأنا قيس عن مجاهد، عن ابن عباس. أنه قال: جاء النبي ﷺ إلى زمزم، فنزعنا له دلواً فشرب، ثم مج فيه ثم أفرغناها في زمزم. ثم قال: «لولا أن تغلبوا عليها لنزعت بيدي».

انفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم.

سنة ١٠- الطوافُ عند المتمتع والقارن

ثم إنه ﷺ لم يعد الطواف بين الصفا والمروة مرة ثانية، بل اكتفى بطوافه الأول. كما روى مسلم في صحيحه [(١٢٧٩) (٢٦٥)] من طريق ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، سمعت جابر بن عبد اللّه يقول: لم يطف النبي ﷺ وأصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً.

قلت: والمراد بأصحابه ها هنا الذين ساقوا الهدي وكانوا قارنين. كما ثبت في صحيح مسلم [(١٢١٣) (٠٠٠)] أن رسول اللّه ﷺ قال لعائشة: - وكانت أدخلت الحج على العمرة فصارت قارنة -: «يكفيك طوافك بالبيت وبين الصفا والمروة لحجّك وعمرتك».

وعند أصحاب الإمام أحمد أن قول جابر وأصحابه عام في القارنين والمتمتعين. ولهذا نص الإمام أحمد علىأن المتمتع يكفيه طواف واحد عن حجّه وعمرته، وإن تحلّل بينهما تحلّل. وهو قول غريب مأخذه ظاهر عموم الحديث واللّه أعلم.

وقال أصحاب أبي حنيفة في المتمتع كما قال المالكية والشافعية، إنه يجب عليه طوافان وسعيان حتى طردت الحنفية ذلك في القارن، وهو من أفراد مذهبهم، أنه يطوف طوافين ويسعى سعيين، ونقلوا ذلك عن عليّ موقوفا. وروي عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وقد قدمنا الكلام على ذلك كله عند الطواف، وبيّنا أن أسانيد ذلك ضعيفة مخالفة للأحاديث الصحيحة واللّه أعلم.

سنة ١٠- الرجوعُ إلى منى

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى منى بعدما صلى الظهر بمكة، كما دل عليه حديث جابر. وقال ابن عمر: رجع فصلى الظهر بمنى، رواهما مسلم كما تقدم قريباً، ويمكن الجمع بينهما بوقوع ذلك بمكة وبمنى واللّه

أعلم.

وتوقف ابن حزم [حجة الوداع ص٢٨] في هذا المقام، فلم يجزم فيه بشيء، وهو معذور لتعارض النقلين الصحيحين فيه فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه،عن عائشة قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع إلى منى فمكث بها ليالي أيام التشريق يرمي الجمرات إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة.

ورواه أبو داود [١٩٧٣] منفرداً به.

وهذا يدل على أن ذهابه عليه الصلاة والسلام إلى مكة يوم النحر كان بعد الزوال. وهذا ينافي حديث ابن عمر قطعاً وفي منافاته لحديث جابر نظر والله أعلم.

سنة ١٠- خطبةُ النبي ﷺ في حجة الوداع

وقد خطب رسول الله ﷺ في هذا اليوم الشريف خطبة عظيمة، تواترت بها الأحاديث، ونحن نذكر منها ما يسره الله عز وجل.

قال البخاري [١٧٣٩] باب الخطبة أيام منى:

حدثنا علي بن عبد الله، ثنا يحيى بن سعيد، ثنا فضيل بن غزوان، ثنا عكرمة عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا بلد حرام. قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا». قال: فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللّهم هل بلغت، اللّهم هل بلغت» قال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته -«فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ورواه الترمذي [٢١٩٣] عن الفلاس،عن يحيى القطان به. وقال: حسن صحيح.

وقال البخاري [١٧٤١] أيضاً حدثنا عبد الله بن محمد ثنا أبو عامر العقدي، ثنا قرة بن خالد، عن محمد بن سيرين، أخبرني عبد الرحمن بن أبي بكرة،عن أبيه، ورجل أفضل في نفسي من عبد الرحمن، حميد بن عبد الرحمن عن أبي بكرة رضي الله عنه. قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر فقال: «أتدرون أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس هذا يوم النحر؟» قلنا: بلى! قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس ذو الحجة؟» قلنا بلى! قال: «أي بلد هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟»قالوا: نعم! قال: «اللّهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ورواه البخاري [خ (٦٧، ١٠٥، ٣١٩٧.....)] ومسلم [١٦٧٩] من طرق عن محمد بن سيرين به.

ورواه مسلم [(١٦٧٩) (٣٠)] من حديث عبد الله بن عون،عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه فذكره. وزاد في آخره: ثم انكفأ إلى كبشين أملحين، فذبحهما وإلى جنيعة من الغنم فقسمها بيننا.

وقال الإمام أحمد [٣٧/٥]: حدثنا إسماعيل،أنبأنا أيوب عن محمد بن سيرين،عن أبي بكرة. أن رسول الله ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثني عشر شهراً، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس هذا يوم النحر؟» قلنا: بلى! ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى! قال: «فإن دماءكم وأموالكم - احسَبُه - قال: وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

هكذا وقع في مسند الإمام أحمد عن محمد بن سيرين عن أبي بكرة.

وهكذا رواه أبو داود [١٩٤٧] عن مسدد؛ والنسائي [٤١٤١] عن عمرو بن زرارة، كلاهما عن إسماعيل - وهو ابن علية - عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي بكرة به.

وهو منقطع لكن صاحبا الصحيح [خ (٦٧)، م (١٦٧٩)] أخرجاه من غير وجه عن أيوب وغيره،عن محمد بن سيرين،عن عبد الرحمن بن أبي بكرة،عن أبيه به.

وقال البخاري [١٧٤٢] أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، ثنا يزيد بن هارون، أنبأنا عاصم بن محمد بن زيد،عن أبيه،عن ابن عمر. قال: قال النبي ﷺ بمنى: «أتدرون أي يوم هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أي بلد هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بلد حرام». قال: «أفتدرون أي شهر هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهر حرام». قال: «فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وقد أخرجه البخاري في أماكن متفرقة من صحيحه [٤٤٠٣، ٦٠٤٣، وغيرهما]. وبقية الجماعة [م (٦٦)، د (٤٦٨٦)، س (٤١٣٦)، ج (٣٩٤٣)] إلا الترمذي، من طرق عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، عن جده عبد الله بن عمر، فذكره.

قال البخاري [١٧٤٢ معلقاً]: وقال هشام بن الغاز: أخبرني نافع عن ابن عمر: وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج بهذا. وقال: «هذا يوم الحج الأكبر»،فطفق النبي ﷺ يقول: «اللّهم اشهد» وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.

وقد أسند هذا الحديث أبو داود [١٩٤٥] عن مؤمل بن الفضل، عن الوليد بن مسلم.

وأخرجه ابن ماجه [٣٠٥٨] عن هشام بن عمار، عن صدقة بن خالد، كلاهما عن هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي أبي العباس الدمشقي به.

وقيامه عليه الصلاة والسلام بهذه الخطبة عند الجمرات يحتمل أنه بعد

رميه الجمرة يوم النحر، وقبل طوافه. ويحتمل أنه بعد طوافه ورجوعه إلى منى ورميه بالجمرات.

لكن يقوي الأول ما رواه النسائي [الكبرى (٤٠٦٦)] حيث قال: حدثنا عمرو بن هشام الحراني، ثنا محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أنيسة، عن يحيى بن حصين الأحمسي عن جدته أم حصين، قالت: حججت في حجة النبي ﷺ فرأيت بلالاً آخذاً بخطام راحلته، وأسامة بن زيد رافع عليه ثوبه يظلله من الحر، وهو محرم حتى رمى جمرة العقبة. ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وذكر قولا كثيراً.

وقد رواه مسلم [(١٢٩٨) (٣١١)] من حديث زيد بن أبي أنيسة، عن يحيى بن الحصين، عن جدته أم الحصين، قالت: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالا أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ، والآخر رافع ثوبه يستر من الحر حتى رمى جمرة العقبة. قالت فقال رسول الله ﷺ قولا كثيراً. ثم سمعته يقول: «إن أُمِّر عليكم عبد مجدع - حسبتها قالت: أسود - يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا».

وقال الإمام أحمد [٣٧١/٣]: حدثنا محمد بن عبيد، ثنا الأعمش عن أبي صالح وهو ذكوان السمان عن جابر. قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: «أي يوم أعظم حرمة؟» قالوا: يومنا هذا. قال: «أي شهر أعظم حرمة؟» قالوا: شهرنا هذا. قال: «أي بلد أعظم حرمة؟» قالوا: بلدنا هذا. قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، هل بلغت؟» قالوا: نعم: قال: «اللّهم اشهد».

انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط الصحيحين.

ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية، عن الأعمش به [مصنف ابن أبي شيبة (١٩٠١٢)].

وقد تقدم حديث جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر في خطبته عليه الصلاة والسلام يوم عرفة فالله أعلم.

قال الإمام أحمد [٨٠/٣]: ثنا علي بن بحر، ثنا عيسى بن يونس عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فذكر معناه.

وقد رواه ابن ماجة [٣٩٣١] عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس به. وإسناده على شرط الصحيحين فالله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٣٣٤٦)]: حدثنا أبو هشام، ثنا حفص عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد. أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

ثم قال البزار: رواه أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو أبي سعيد. وجمعهما لنا أبو هشام عن حفص بن غياث، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد.

قلت: وتقدم رواية أحمد له عن محمد بن عبيد الطنافسي عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله، فلعله عند أبي صالح عن الثلاثة والله أعلم.

وقال هلال بن يساف عن سلمة بن قيس الأشجعي. قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا». قال: فما أنا بأشح عليهن مني حين سمعتهن من رسول الله ﷺ.

وقد رواه أحمد [٣٣٩/٤، ٣٤٠] والنسائي [كبرى (١١٣٧٣)] من حديث منصور عن هلال بن يساف. وكذلك رواه سفيان بن عيينة والثوري عن منصور.

وقال ابن حزم في حجة الوداع [ص١٢٣، ١٢٤]: حدثنا أحمد بن عمر بن أنس العذري، ثنا أبو ذر عبد بن أحمد الهروي الأنصاري، ثنا أحمد بن عبدان الحافظ بالأهواز، ثنا سهل بن موسى بن بشيراز، ثنا موسى بن عمرو بن عاصم، ثنا أبو العوام، ثنا محمد بن جحادة عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك. قال: شهدت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يخطب وهو يقول: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»، قال: فجاء قوم فقالوا: يا رسول الله قتلتنا بنو يربوع فقال رسول الله ﷺ: «لا تجني نفس على أخرى»، ثم سأله رجل نسي أن يرمي الجمار. فقال: «ارم ولا حرج». ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف، فقال: «طف ولا حرج». ثم أتاه آخر حلق قبل أن يذبح قال: «اذبح ولا حرج». فما سألوه يومئذ عن شيء إلا قال: «لا حرج لا حرج». ثم قال: «قد أذهب الله الحرج إلا رجلا اقترض امرأ مسلماً فذلك الذي حَرِجَ وهلك». وقال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم».

وقد روى الإمام أحمد [٢٧٨/٤] وأهل السنن [د (٣٨٥٥)، ت (٢٠٣٨)، س (كبرى ٧٥٥٣)، ج (٣٤٣٦)] بعض هذا السياق من هذه الطريق. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٣٥٨/٤]: حدثنا حجاج، حدثني شعبة عن عليّ بن مدرك، سمعت أبا زرعة يحدث عن جرير، وهو جده، عن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «يا جرير استنصت الناس» ثم قال في خطبته: «لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ثم رواه أحمد [٦٦٣/٤، ٣٦٦] عن غندر وعن ابن مهدي، كل منهما عن شعبة به.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٢١)، م (٦٥)] من حديث شعبة به.

وقال أحمد [٣٦٦/٤]: ثنا ابن نمير، ثنا إسماعيل عن قيس، قال: بلغنا أن جريراً قال: قال رسول الله ﷺ: «استنصت الناس»، ثم قال عند ذلك: «لا أعرفن بعدما أرى ترجعون كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ورواه النسائي [كبرى (٣٤٩٧)] من حديث عبد الله بن نمير به. وقال النسائي [كبرى (٤١٠)]: ثنا هناد بن السري عن أبي الأحوص، عن ابن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه. قال: شهدت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول: «أيها الناس» ثلاث مرات «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم الحج الأكبر. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم، هذا في بلدكم هذا، ألا يجني جان على والده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى، ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية يوضع لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون». وذكر تمام الحديث.

وقال أبو داود [١٩٥٤]: باب من قال خطب يوم النحر:

حدثنا هارون بن عبد الله، ثنا هشام بن عبد الملك، ثنا عكرمة - هو ابن عمار - ثنا الهرماس بن زياد الباهلي قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس على ناقته العضباء يوم الأضحى بمنى.

ورواه أحمد [٤٨٥/٣، ٧/٥] والنسائي [كبرى (٤٠٩٥)] من غير وجه

عن عكرمة بن عمار، عن الهرماس. قال: كان أبي مردفي، فرأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى يوم النحر على ناقته العضباء.

لفظ أحمد وهو من ثلاثيات المسند ولله الحمد.

ثم قال أبو داود [١٩٥٥]: ثنا مؤمل بن الفضل الحراني، ثنا الوليد، ثنا ابن جابر، ثنا سليم بن عامر، سمعت أبا أمامة يقول: سمعت خطبة رسول الله ﷺ بمنى يوم النحر.

وقال الإمام أحمد [٥/٢٦٢]: ثنا عبد الرحمن عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر الكلاعي. سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ وهو يومئذ على الجدعاء، واضع رجليه في الغرز يتطاول ليسمع الناس. فقال بأعلى صوته: «ألا تسمعون؟» فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله ماذا تعهد إلينا؟ فقال: «اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا إذا أمرتم، تدخلوا جنة ربكم» فقلت: يا أبا أمامة مثل من أنت يومئذ؟ قال: أنا يومئذ ابن ثلاثين سنة، أزاحم البعير أزحزحه لرسول الله ﷺ.

ورواه أحمد [٥/٢٥١] أيضاً عن زيد بن الحباب، عن معاوية بن صالح.

وأخرجه الترمذي [٦١٦] عن موسى بن عبد الرحمن الكوفي، عن زيد بن الحباب. وقال: حسن صحيح.

قال الإمام أحمد [٥/٢٦٧]: ثنا أبو المغيرة، ثنا إسماعيل بن عياش، ثنا شرحبيل بن مسلم الخولاني، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله. ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله التابعة إلى يوم القيامة، لا تنفق المرأة من بيتها إلا بإذن زوجها». فقيل: يا رسول الله ولا الطعام؟ قال: «ذلك أفضل أموالنا». ثم قال رسول الله ﷺ: «العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدين مقضي، والزعيم غارم». رواه أهل السنن [د (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)، ت (٢١٢٠)، ج (٢٣٩٨، ٢٧١٣)] الأربعة من حديث إسماعيل بن عياش، وقال الترمذي: حسن.

ثم قال أبو داود [١٩٥٦] رحمه الله باب متى يخطب يوم النحر:

حدثنا عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمشقي، ثنا مروان عن هلال بن عامر المزني، حدثني رافع بن عمرو المزني. قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء، وعليّ يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد.

ورواه النسائي [كبرى (٤٠٩٤)] عن دحيم عن مروان الفزاري به.

وقال الإمام أحمد [٣/٤٧٧] حدثنا أبو معاوية، ثنا هلال بن عامر المزني عن أبيه. قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى على بغلة وعليه برد أحمر. قال: ورجل من أهل بدر بين يديه يعبر عنه. قال: فجئت حتى أدخلت يدي بين قدمه وشراكه. قال: فجعلت أعجب من بردها.

حدثنا محمد بن عبيد، ثنا شيخ من بني فزارة عن هلال بن عامر المزني، عن أبيه. قال: رأيت رسول الله ﷺ على بغلة شهباء وعليّ يعبر عنه [أحمد: ٣/٤٧٧].

ورواه أبو داود [٤٠٧٣] من حديث أبي معاوية عن هلال بن عامر.

ثم قال أبو داود [١٩٥٧] باب ما يذكر الإمام في خطبته بمنى:

حدثنا مسدد، ثنا عبد الوارث عن حميد الأعرج، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي. قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا فطفق يعلمهم مناسكهم حتى بلغ الجمار، فوضع أصبعيه السباحتين ثم قال: حصى الخذف. ثم أمر المهاجرين فنزلوا في مقدم المسجد، وأمر الأنصار فنزلوا من وراء المسجد، ثم نزل الناس بعد ذلك.

وقد رواه أحمد [٤/٦١، ٥/٣٧٤] عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه.

وأخرجه النسائي [٢٩٩٦] من حديث ابن المبارك، عن عبد الوارث كذلك.

وتقدم رواية الإمام أحمد [٤/٦١ و٥/٣٧٤] له عن عبد الرزاق، عن معمر، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عبد الرحمن بن معاذ، عن رجل من الصحابة فالله أعلم.

وثبت في الصحيحين [خ (١٧٣٧)، م (١٣٠٦) (٣٢٩، ٣٣٠)] من حديث ابن جريج عن الزهري، عن عيسى بن طلحة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ بينا هو يخطب يوم النحر، فقام إليه رجل فقال: كنت أحسب أن كذا وكذا، قبل كذا وكذا. ثم قام آخر فقال: كنت أحسب أن كذا وكذا قبل كذا. فقال رسول الله ﷺ: «افعل ولا حرج».

وأخرجاه [خ (٨٣)، م (١٣٠٦) (٣٢٧، ٣٢٨)] من حديث مالك. زاد مسلم ويونس عن الزهري به وله ألفاظ كثيرة ليس هذا موضع استقصائها. ومحله كتاب الأحكام، وبالله المستعان.

ولي لفظ الصحيحين [خ (١٧٣٦)، م (١٣٠٦) (١٢٧)]. قال: فما سئل رسول الله ﷺ في ذلك اليوم عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج».

سنة ١٠- النزولُ بمنى

ثم نزل عليه الصلاة والسلام بمنى حيث المسجد اليوم فيما يقال، وأنزل المهاجرين بميمنته والأنصار بيسرته والناس حولهم من بعدهم.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٥/١٣٩]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا عليّ بن محمد بن عقبة الشيباني بالكوفة، ثنا إبراهيم بن إسحاق الزهري، ثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن يوسف بن ماهك، عن أم مسيكة، عن عائشة. قالت: قيل: يا رسول الله الا نبني لك بمنى بناء يظلك. قال: «لا منى مناخ من سبق».

وهذا إسناد لا بأس به، وليس هو في المسند ولا في الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال أبو داود [١٩٥٨]: ثنا أبو بكر محمد بن خلاد الباهلي، ثنا يحيى عن ابن جريج حدثني حريز أو أبو حريز - الشك من يحيى - أنه سمع عبد الرحمن بن فروخ يسأل ابن عمر قال: إنا نتبايع بأموال الناس فيأتي أحدنا مكة فيبيت على المال، فقال: أما رسول الله ﷺ فبات بمنى وظل.

انفرد به أبو داود.

ثم قال أبو داود [١٩٥٩]: ثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: قال استأذن العباس رسول الله ﷺ ان يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له.

وهكذا رواه البخاري [١٦٣٤، ١٧٤٥] ومسلم [(١٣١٥) (٣٤٦)] من حديث عبد الله بن نمير، زاد البخاري: وأبي ضمرة أنس بن عياض،

زاد مسلم: وأبي أسامة حماد بن أسامة.

وقد علقه البخاري [١٧٤٥] عن أبي أسامة وعقبة بن خالد، كلهم عن عبيد الله بن عمر به.

وقد كان ﷺ يصلي بأصحابه بمنى ركعتين كما ثبت عنه ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود [خ (١٠٨٤)، م (٦٩٥)]، وحارثة بن وهب [خ (١٠٨٣)، م (٦٩٦)] رضي الله عنهما. ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلى أن سبب هذا القصر النسك، كما هو قول طائفة من المالكية وغيرهم. قالوا: ومن قال: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بمنى لأهل مكة: أتموا فإنا قوم سفر، فقد غلط إنما قال: ذلك رسول الله ﷺ عام الفتح، وهو نازل بالأبطح كما تقدم والله أعلم.

وكان ﷺ يرمي الجمرات الثلاث في كل يوم من أيام منى بعد الزوال، كما قال جابر فيما تقدم ماشيا، كما قال ابن عمر فيما سلف، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة. ويقف عند الأولى وعند الثانية يدعو الله عز وجل ولا يقف عند الثالثة.

قال أبو داود [١٩٧٣]: ثنا عليّ بن بحر وعبد الله بن سعيد المعنى قالا: ثنا أبو خالد الأحمر، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع إلى منى فمكث بها ليالي أيام التشريق يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات ويكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى والثانية فيطيل القيام، ويتضرع ويرمي الثالثة ولا يقف عندها. انفرد به أبو داود.

وروى البخاري [(١٧٥١، ١٧٥٢) ومعلقاً برقم (١٧٥٣)] من غير وجه، عن يونس بن يزيد، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر: أنه كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة طويلا، ويدعو ويرفع يديه ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال، فيسهل فيقوم مستقبل القبلة فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه ويقوم طويلا، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف فيقول: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعله.

وقال وبرة بن عبد الرحمن: قام ابن عمر عند العقبة بقدر قراءة سورة البقرة.

وقال أبو مجلز: حزرت قيامه بعد قراءة سورة يوسف، ذكرهما البيهقي [السنن الكبرى: ١٤٩/٥].

وقال الإمام أحمد [٤٥٠/٥]: حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن أبي البدّاح، عن أبيه. أن رسول الله ﷺ رخص للرعاء أن يرموا يوماً ويدعوا يوماً.

وقال أحمد [٤٥٠/٥]: حدثنا محمد بن بكر، أنبأنا روح، ثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو عن أبيه، عن أبي البداح بن عاصم بن عدي، عن أبيه. أن رسول الله ﷺ أرخص للرعاء أن يتعاقبوا فيرموا يوم النحر ثم يدعوا يوماً وليلة ثم يرموا الغد.

وقال الإمام أحمد [٤٥٠/٥]: حد ثنا عبد الرحمن، ثنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه، عن أبي البدّاح بن عاصم بن عدي، عن أبيه. أن رسول الله ﷺ رخص لرعاء الإبل في البيتوتة عن منىً يرمون يوم النحر، ثم يرمون الغد أو من بعد الغد اليومين، ثم يرمون يوم النفر.

وكذا رواه عن عبد الرزاق عن مالك بنحوه [٤٥٠/٥].

وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث مالك [د (١٩٧٥)، ت (٩٥٥)، س (٣٠٦٩)، ج (٣٠٣٧)]، ومن حديث سفيان بن عيينة [د (١٩٧٦)، ت (٩٥٤)، س (٣٠٦٨)، ج (٣٠٣٦)] به. قال الترمذي: ورواية مالك أصح، وهو حديث حسن صحيح.

سنة ١٠- خطب الناس بمنى في اليوم الثاني من أيام التشريق وهو أوسطها

قال أبو داود [١٩٥٢] باب أي يوم يخطب بمنىً:

حدثنا محمد بن العلاء، أنبأنا ابن المبارك عن إبراهيم بن نافع، عن ابن أبي نجيح، عن أبيه، عن رجلين من بني بكر. قالا: رأينا رسول الله ﷺ يخطب بين أوسط أيام التشريق، ونحن عند راحلته، وهي خطبة رسول الله ﷺ التي خطب بمنى.

انفرد به أبو داود.

ثم قال أبو داود [١٩٥٣]: ثنا محمد بن بشار، ثنا أبو عاصم، ثنا ربيعة بن عبد الرحمن بن حصن، حدثتني جدتي سراء بنت نبهان - وكانت ربة بيت في الجاهلية -. قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرؤوس فقال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم! قال: «أليس أوسط أيام التشريق؟».

انفرد به أبو داود. قال أبو داود: وكذلك قال عم أبي حرة الرقاشي أنه خطب أوسط أيام التشريق.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد [٧٢/٥] متصلا مطولا، فقال:

ثنا عفان، ثنا حماد بن سلمة، أنبأنا عليّ بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي عن عمه. قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس. فقال: «يا أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم؟» قالوا: في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه». ثم قال: «اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعا في بني ليث، فقتلته هذيل. ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضوع، وإن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، ثم قرأ ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] «ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم، واتقوا الله - عز وجل - في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم حقاً ولكم عليهن حق، أن لا يوطئن فرشكم أحد غيركم، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه. فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، قال حميد: قلنا للحسن ما المبرّح؟ قال: المؤثّر ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها» وبسط يده

وقال: «الا هل بلغت؟ الا هل بلّغت؟ الا هل بلّغت؟» ثم قال: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أسعد من سامع». قال حميد: قال الحسن: حين بلغ هذه الكلمة: قد والله بلغوا أقواماً كانوا أسعد به.

وقد روى أبو داود في كتاب النكاح من سننه [٢١٤٥] عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن عليّ بن زيد بن جدعان عن أبي حرة الرقاشي - واسمه حنيفة - عن عمه ببعضه في النشوز.

قال: ابن حزم [حجة الوداع ص١٢٥] جاء أنه خطب يوم الرؤوس وهو اليوم الثاني من يوم النحر بلا خلاف عن أهل مكة، وجاء أنه أوسط أيام التشريق، فتحمل على أن أوسط بمعنى أشرف، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وهذا المسلك الذي سلكه ابن حزم بعيد والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (١١٤١)]: حدثنا الوليد بن عمرو بن السُّكين، ثنا أبو همام محمد بن الزبرقان، ثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار، وصدقة بن يسار عن عبد الله بن عمر، قال: نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بمنى وهو في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت له، ثم ركب فوقف للناس بالعقبة فاجتمع إليه ما شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: «أما بعد أيها الناس فإن كل دم كان في الجاهلية فهو هدر، وإن أول دمائكم أهدر دم ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل. وكل ربا في الجاهلية فهو موضوع، وإن أول رباكم أضع ربا العباس بن عبد المطلب، أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض: وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر، منها أربعة حرم رجب - مضر - الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦] ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] كانوا يحلون صفراً عاماً، ويحرمون المحرم عاماً، ويحرمون صفر عاماً، ويحلون المحرم عاماً، فذلك النسيء.

يا أيها الناس من كان عنده وديعة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد ببلادكم آخر الزمان، وقد يرضى عنكم بمحقرات الأعمال، فاحذروه على دينكم محقّرات الأعمال، أيها الناس إن النساء عندكم عوان، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، لكم عليهن حق، ولهن عليكم حق، ومن حقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يعصينكم في معروف، فإن فعلن ذلك فليس لكم عليهن سبيل، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فإن ضربتم فاضربوا ضرباً غير مبرح. ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما طابت به نفسه، أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا، كتاب الله فاعملوا به، أيها الناس أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأيُّ شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة هذا اليوم، في هذا البلد وهذا الشهر، الا ليبلغ شاهدكم غائبكم، لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم»، ثم رفع يديه فقال: «اللّهم اشهد».

سنة ١٠- زيارة البيت أيامَ منى

قال البخاري [كتاب ٢٥ باب ١٢٩] يذكر عن أبي حسان، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يزور البيت في أيام منى.

هكذا ذكره معلقا بصيغة التمريض.

وقد قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ١٤٦/٥]: أخبرناه أبو الحسن بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا العمري، أنبأنا ابن عرعرة قال: دفع إلينا معاذ بن هشام كتابا قال سمعته من أبي، ولم يقرأه قال: فكان فيه عن قتادة، عن أبي حسان، عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ كان يزور البيت كل ليلة ما دام بمنى. قال: وما رأيت أحداً واطاه عليه.

قال البيهقي: وروى الثوري في الجامع عن ابن طاوس، عن طاوس، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفيض كل ليلة - يعني ليالي منى - وهذا مرسل.

سنة ١٠- أحكام في الحجّ

اليوم السادس من ذي الحجة:

قال بعضهم: يقال: له: يوم الزينة لأنه تُزَيَّن فيه البدن بالجلال وغيرها.

واليوم السابع يقال له: يوم التروية لأنهم يتروَّوْنَ فيه من الماء: ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده.

واليوم الثامن يقال له: يوم منى لأنهم يرحلون فيه من الأبطح إلى منى.

واليوم التاسع يقال له: يوم عرفة لوقوفهم فيه بها.

واليوم العاشر يقال له: يوم النحر ويوم الأضحى ويوم الحج الأكبر.

واليوم الذي يليه يقال له: يوم القر لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أول أيام التشريق.

وثاني أيام التشريق يقال له: يوم النفر الأول لجواز النفر فيه، وقيل: هو اليوم الذي يقال له يوم الرؤوس.

واليوم الثالث من أيام التشريق يقال له: يوم النفر الآخِر. قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٣].

فلما كان يوم النفر الآخر، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق، وكان يوم الثلاثاء، ركب رسول الله ﷺ والمسلمون، معه فنفر بهم من منى، فنزل المحصب وهو واد بين مكة ومنى، فصلى به العصر.

كما قال البخاري [١٧٦٣]: حدثنا محمد بن المثنى، ثنا إسحاق بن يوسف، ثنا سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع. قال: سألت أنس بن مالك: أخبرني بشيء عقلته عن رسول الله ﷺ أين صلى الظهر يوم التروية؟ قال بمنى. قلت: فأين صلى العصر يوم النفر؟ قال: بالأبطح، افعل كما يفعل أمراؤك.

وقد روي أنه ﷺ صلى الظهر يوم النفر بالأبطح وهو المحصب؛ فالله أعلم.

قال البخاري [١٧٦٤]: حدثنا عبد المتعال بن طالب، ثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن قتادة حدثه أن أنس بن مالك حدثه عن النبي ﷺ: أنه صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ورقد رقدة بالمحصَّب ثم

ركب إلى البيت فطاف به. قلت - يعني طواف الوداع -.

وقال البخاري [١٧٦٨]: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، ثنا خالد بن الحارث. قال: سئل عبيد الله عن المحصب: فحدثنا عبيد الله عن نافع قال: نزل بها رسول الله ﷺ، وعمر وابن عمر.

وعن نافع: أن ابن عمر كان يصلي بها - يعني المحصب - الظهر والعصر أحسبه قال: والمغرب قال: خالد لا أشك في العشاء، ثم يهجع هجعة، ويذكر ذلك عن النبي ﷺ.

وقال الإمام أحمد [١٣٨/٢]: ثنا نوح بن ميمون أنبأنا عبد الله عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان نزلوا المحصب.

هكذا رأيته في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله العمري، عن نافع.

وقد روى الترمذي [٩٢١] هذا الحديث عن إسحاق بن منصور.

وأخرجه ابن ماجه [٣٠٩٩] عن محمد بن يحيى، كلاهما عن عبد الرزاق، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر. قال: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ينزلون الأبطح.

قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وأبي رافع وابن عباس، وحديث ابن عمر حسن غريب، وإنما نعرفه من حديث عبد الرزاق عن عبيد الله بن عمر به.

وقد رواه مسلم [(١٣١٠) (٣٣٧)] عن محمد بن مهران الرازي عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا ينزلون الأبطح.

ورواه مسلم [(١٣١٠) (٣٣٨)] أيضا من حديث صخر بن جويرية، عن نافع عن ابن عمر: أنه كان يرى التحصيب سُنة. وكان يصلي الظهر يوم النفر بالحصبة. قال نافع: قد حصب رسول الله ﷺ والخلفاء بعده.

وقال الإمام أحمد [١٢٤/٢]: حدثنا يونس، ثنا حماد - يعني ابن سلمة - عن أيوب وحميد عن بكر بن عبد الله، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء، ثم هجع هجعة، ثم دخل - يعني مكة - فطاف بالبيت.

ورواه أحمد [١٠٠/٢] أيضا عن عفان، عن حماد، عن حميد، عن بكر، عن ابن عمر، فذكره؛ وزاد في آخره: وكان ابن عمر يفعله.

وكذلك رواه أبو داود [٢٠١٣] عن أحمد بن حنبل.

وقال البخاري [١٥٩٠]: حدثنا الحميدي، ثنا الوليد، ثنا الأوزاعي، حدثني الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ من الغد يوم النحر بمنى: «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» - يعني بذلك المحصب - الحديث.

ورواه مسلم [(١٣١٤) (٣٤٤)] عن زهير بن حرب، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي؛ فذكر مثله سواء.

وقال الإمام أحمد [٢٠٢/٥، ٢٠٣]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن الزهري، عن عليّ بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد. قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً - في حجته؟ - قال: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟» ثم قال: «نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة - يعني المحصب - حيث قاسمت قريش على الكفر».

وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤوهم - يعني حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. ثم قال عند ذلك: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم» قال الزهري - والخيف - الوادي.

أخرجاه [خ (٣٠٥٨)، م (١٣٥١) (٤٤٠)] من حديث عبد الرزاق.

وهذان الحديثان فيهما دلالة على أنه عليه السلام قصد النزول في المحصب مراغمة، لما كان تمالأ عليه كفار قريش لما كتبوا الصحيفة في مصارمة بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ كما قدمنا بيان ذلك في موضعه. وكذلك نزله عام الفتح، فعلى هذا يكون نزوله سنّة مرغباً فيها، وهو أحد قولي العلماء.

وقد قال البخاري [١٧٦٥]: ثنا أبو نعيم أنبأنا سفيان عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: إنما كان منزلاً ينزله النبي ﷺ ليكون أسمح لخروجه - يعني الأبطح -.

وأخرجه مسلم [(١٣١١) (٣٣٩)] من حديث هشام به.

ورواه أبو داود [٢٠٠٨] عن أحمد بن حنبل، عن يحيى بن سعيد، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: إنما نزل رسول الله ﷺ المحصّب ليكون أسمح لخروجه، وليس بسنة، فمن شاء نزله ومن شاء لم ينزله.

وقال البخاري [١٧٦٦]: حدثنا عليّ بن عبد الله، ثنا سفيان. قال: قال عمرو عن عطاء، عن ابن عباس قال: ليس التحصيب بشيء، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ.

ورواه مسلم [١٣١٢] عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن سفيان - وهو ابن عيينة به.

وقال أبو داود [٢٠٠٩]: حدثنا أحمد ابن حنبل وعثمان بن أبي شيبة ومسدد المعنى قالوا: ثنا سفيان، ثنا صالح بن كيسان عن سليمان بن يسار، قال: قال أبو رافع: لم يأمرني يعني رسول الله ﷺ أن أنزله، ولكن ضربت قبته فنزله. قال مسدد: وكان على ثقل النبي ﷺ وقال عثمان -يعني في الأبطح -.

ورواه مسلم [١٣١٣] عن قتيبة وأبي بكر وزهير بن حرب، عن سفيان بن عيينة به.

والمقصود أن هؤلاء كلهم اتفقوا على نزول النّبيّ ﷺ في المحصب لما نفر من منى، ولكن اختلفوا فمنهم من قال لم يقصد نزوله، وإنما نزله اتفاقا ليكون أسمح لخروجه، ومنهم من أشعر كلامه بقصده عليه الصلاة والسلام نزوله، وهذا هو الأشبه، وذلك أنه عليه السلام أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، وكانوا قبل ذلك ينصرفون من كل وجه كما قال ابن عباس [خ (١٧٥٥)، م (١٣٢٨) (٣٨٠)]، فأمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت - يعني طواف الوداع -. فأراد عليه الصلاة والسلام أن يطوف هو ومن معه من المسلمين بالبيت طواف الوداع، وقد نفر من منى قريب الزوال، فلم يكن يمكنه أن يجيء البيت في بقية يومه ويطوف به ويرحل إلى ظاهر مكة من جانب المدينة، لأن ذلك قد يتعذر على هذا الجم الغفير، فاحتاج أن يبيت قبل مكة، ولم يكن منزل أنسب لمبيته من المحصب الذي كانت قريش قد عاقدت بني كنانة على بني هاشم وبني المطلب فيه، فلم يبرم الله لقريش أمراً بل كبتهم وردهم خائبين، وأظهر الله دينه ونصر نبيه وأعلى كلمته، وأتم له الدين القويم، وأوضح به الصراط المستقيم، فحج بالناس وبين لهم شرائع الله وشعائره، وقد نفر بعد إكمال المناسك، فنزل في الموضع الذي تقاسمت قريش فيه على الظلم والعدوان والقطيعة، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وهجع هجعة، وقد كان بعث عائشة أم المؤمنين مع أخيها عبد الرحمن ليعمرها من التنعيم، فإذا فرغت

أتته، فلما قضت عمرتها ورجعت أذن في المسلمين بالرحيل إلى البيت العتيق.

كما قال أبو داود [٢٠٠٥]: حدثنا وهب بن بقية، ثنا خالد عن أفلح، عن القاسم، عن عائشة قالت: أحرمت من التنعيم بعمرة، فدخلت فقضيت عمرتي وانتظرني رسول الله ﷺ بالأبطح حتى فرغت وامر الناس بالرحيل. قالت: وأتى رسول الله ﷺ البيت فطاف به ثم خرج.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (١٧٨٨)، م (١٢١١) (١٢٣)] من حديث أفلح بن حميد.

ثم قال أبو داود [٢٠٠٦]: ثنا محمد بن بشار، ثنا أبو بكر - يعني الحنفي - ثنا أفلح عن القاسم عنها - يعني عائشة - قالت: خرجت معه، تعني رسول الله ﷺ، في النفر الآخر ونزل المحصب. قال أبو داود: فذكر ابن بشار قصة بعثها إلى التنعيم قالت: ثم جئت سحراً، فأذن في الصحابة بالرحيل، فارتحل فمر بالبيت قبل صلاة الصبح، فطاف به حين خرج، ثم انصرف متوجهاً إلى المدينة.

ورواه البخاري [١٥٦٠ مطوّلاً] عن محمد بن بشار به.

قلت: والظاهر أنه عليه السلام صلى الصبح يومئذ عند الكعبة بأصحابه، وقرأ في صلاته تلك بسورة ﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ١-٦] السورة بكمالها.

وذلك لما رواه البخاري [١٦١٩] حيث قال: حدثنا اسماعيل، حدثني مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، عن عروة بن الزبير، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ. قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، قال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة»، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي حينئذ إلى جنب البيت، وهو يقرأ ﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ﴾ وأخرجه بقية الجماعة [م (١٢٧٦) (٢٥٨)، د (١٨٨٢)، س (٢٩٢٥)، ج (٢٩٦١)] إلا الترمذي من حديث مالك بإسناده نحوه.

وقد رواه البخاري [١٦٢٠] من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال وهو بمكة وأراد الخروج ولم تكن أم سلمة طافت وأرادت الخروج فقال لها: «إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفي على بعيرك والناس يصلون» فذكر الحديث.

فأما ما رواه الإمام أحمد [٢٩١/٦]: حدثنا أبو معاوية، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ: أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة.

فهو إسناد كما ترى على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من هذا الوجه بهذا اللفظ، ولعل قوله «يوم النحر» غلط من الراوي أو من الناسخ، وإنما هو «يوم النفر»، ويؤيده ما ذكرناه من رواية البخاري والله أعلم.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من صلاة الصبح طاف بالبيت سبعاً، ووقف في الملتزم بين الركن الذي فيه الحجر الأسود وبين باب الكعبة فدعا الله عزّ وجلّ وألزق خدّه بجدار الكعبة.

قال الثوري عن المثنى بن الصباح، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. قال: رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم.

المثنى ضعيف. [الكامل لابن عدي: ٢٤١٨/٦]

سنة ١٠- دخول مكة من أعلاها والخروج من أسفلها

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من أسفل مكة كما قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ دخل مكة من أعلاها وخرج من أسفلها. أخرجاه [خ (١٥٧٧)، م (١٢٥٨) (٢٢٤)]. وقال ابن عمر: دخل رسول الله ﷺ: من الثنية العليا التي بالبطحاء، وخرج من الثنية السفلى.

رواه البخاري [١٥٧٥] ومسلم [(١٢٥٧) (٢٢٣)].

وفي لفظ [خ (١٥٧٨)، م (١٢٥٨) (٢٢٥)] دخل من كَدَاء، وخرج من كُدَي.

وقد قال الإمام احمد [٣٠٥/٣]: حدثنا محمد بن فضيل، ثنا أجلح بن عبد الله عن أبي الزبير، عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة عند غروب الشمس، فلم يصل حتى أتى سرف وهي على تسعة أميال من مكة.

وهذا غريب جداً، وأجلح فيه نظر، ولعل هذا في غير حجة الوداع، فإنه عليه الصلاة والسلام كما قدمنا طاف بالبيت بعد صلاة الصبح، فماذا اخره إلى وقت الغروب. هذا غريب جداً، اللّهم إلا أن يكون ما ادعاه ابن حزم صحيحاً من أنه عليه الصلاة والسلام رجع إلى المحصب من مكة بعد طوافه بالبيت طواف الوداع، ولم يذكر دليلا على ذلك إلا قول عائشة حين رجعت من اعتمارها من التنعيم فلقيته مُصعدة، وهو مهبط على أهل مكة، أو منهبطه، وهو مصعد.

قال ابن حزم [حجة الوداع ص١٣٣]: الذي لا شك فيه أنها كانت مصعدة من مكة، وهو منهبط لأنها تقدمت إلى العمرة وانتظرها حتى جاءت، ثم نهض عليه الصلاة والسلام إلى طواف الوداع، فلقيها منصرفه إلى المحصب من مكة.

وقال البخاري: باب من نزل بذي طوى إذا رجع من مكة. وقال محمد بن عيسى: حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه كان إذا أقبل بات بذي طوى حتى إذا أصبح دخل، وإذا نفر مر بذي طوى، وبات بها حتى يصبح، وكان يذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك. [خ (٥٧٣) مسنداً من حديث إسماعيل بن علية م (١٢٥٩) (٢٢٧)]

هكذا ذكر هذا معلقاً بصيغة الجزم، قد أسنده هو ومسلم [١٧٦٩ معلقاً] من حديث حماد بن زيد به، لكن ليس فيه ذكر المبيت بذي طوى في الرجعة فالله أعلم.

فائدة عزيزة: فيها أن رسول الله ﷺ استصحب معه من ماء زمزم شيئا.

قال: الحافظ أبو عيسى الترمذي [٩٦٣]: حدثنا أبو كريب. ثنا خلاد بن يزيد الجعفي، ثنا زهير بن معاوية عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله.

ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال البخاري [٤١١٦]: حدثنا محمد بن مقاتل، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك - ثنا موسى بن عقبة، عن سالم ونافع، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة، يبدأ فيكبر ثلاث مرات، ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا

حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

والأحاديث في هذا كثيرة ولله الحمد والمنة.

سنة ١٠- حديث غدير خُمّ وفضائل علي ﷺ

في إيراد الحديث الدال على أنه عليه الصلاة والسلام خطب بمكان بين مكة والمدينة مرجعه من حجة الوداع قريب من الجحفة - يقال له غدير خم -.

فبين فيها فضل عليّ بن أبي طالب وبراءة عرضه مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلا، والصواب كان معه في ذلك، ولهذا لما تفرغ عليه الصلاة والسلام من بيان المناسك، ورجع إلى المدينة بين ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عامئذ، وكان يوم الأحد بغدير خم تحت شجرة هناك، فبين فيها أشياء. وذكر من فضل عليّ وأمانته وعدله وقربه إليه، ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه. ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة في ذلك ونبين ما فيها من صحيح وضعيف بحول الله وقوته وعونه.

وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه، وساق الغث والسمين والصحيح والسقيم، على ما جرت به عادة كثير من المحدثين، يوردون ما وقع لهم في ذلك الباب من غير تمييز بين صحيحه وضعيفه. وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة. ونحن نورد عيون ما روي في ذلك مع إعلامنا أنه لاحظ للشيعة فيه، ولا متمسك لهم ولا دليل لما سنبينه وننبه عليه، فنقول وبالله المستعان:

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٣/٢] - في سياق حجة الوداع - حدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة. قال: لما أقبل عليّ من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة، تعجل إلى رسول الله ﷺ واستخلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسى كل رجل من القوم حلّة من البز الذي كان مع عليّ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل. قال: ويلك! ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس. قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ. قال: فانتزع الحلل من الناس، فردها في البز، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب - وكانت عند أبي سعيد الخدري - عن أبي سعيد. قال: اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبا، فسمعته يقول: «أيها الناس لا تشكو علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله من أن يشكى».

ورواه الإمام أحمد [٨٦/٣] من حديث محمد بن إسحاق به، وقال: «إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله».

وقال الإمام أحمد [٣٤٧/٥]: حدثنا الفضل بن دكين، ثنا ابن أبي غنية، عن الحكم عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، عن بريدة قال: غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال: «يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله! قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

وكذا رواه النسائي [كبرى (٨٤٦٧)] عن أبي داود الحراني، عن أبي نعيم الفضل بن دكين، عن عبد الملك بن أبي غنية بإسناده نحوه.

وهذا إسناد جيد قوي. رجاله كلهم ثقات.

وقد روى النسائي في سننه [كبرى (٨٤٦٤)] عن محمد بن المثنى، عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم. قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ثم قال: «كأني قد دعيت فاجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»، ثم قال: «الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن»، ثم أخذ بيد عليّ فقال: «من كنت مولاه فهذا وليه، اللّهم وال من ولاه وعاد من عاداه» فقلت لزيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينيه، وسمعه بإذنيه.

تفرد به النسائي من هذا الوجه.

قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: وهذا حديث صحيح.

وقال ابن ماجه [١١٦]: حدثنا عليّ ابن محمد، أنا أبو الحسين، أنبانا حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد بن جدعان، عن عدي ابن ثابت، عن البراء بن عازب. قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ في حجته التي حجّ فنزل في بعض الطريق، فأمر الصلاة جامعة فأخذ بيد عليّ فقال: «ألست بأولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى! قال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى! قال: «فهذا ولي من أنا مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر، عن عليّ بن زيد بن جدعان، عن عدي، عن البراء.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي، والحسن بن سفيان: ثنا هدبة، ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، وأبي هارون، عن عدي بن ثابت، عن البراء. قال: كنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فلما أتينا على غدير خم كُسِح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، ونودي في الناس الصلاة جامعة، ودعا رسول الله ﷺ علياً وأخذ بيده فأقامه عن يمينه فقال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى! قال: «فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه» فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئاً لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

ورواه ابن جرير عن أبي زرعة عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، وأبي هارون العبدي - وكلاهما ضعيف - عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب به.

وروى ابن جرير هذا الحديث من حديث موسى بن عثمان الحضرمي - وهو ضعيف جداً - عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء وزيد بن أرقم. فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٨٤/١]: حدثنا ابن نمير، ثنا عبد الملك عن أبي عبد الرحيم الكندي، عن زاذان أبي عمر قال: سمعت علياً بالرحبة وهو ينشد: الناس من شهد رسول الله ﷺ يوم غدير خم وهو يقول ما قال؟ قال: فقام اثنا عشر رجلا، فشهدوا أنهم سمعوا من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

تفرد به أحمد وأبو عبد الرحيم هذا لا يعرف.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه [١١٨/١]: حدثنا علي بن حكيم الأودي: أخبرنا شريك عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب وعن زيد بن يثيع قال: نشد علي الناس في الرحبة: من سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم إلا قام؟ قال: فقام من قِبَل سعيد ستة، ومن قِبَل زيد ستة، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول لعلي يوم غدير خم: «أليس الله أولى بالمؤمنين؟» قالوا: بلى! قال: «اللّهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

قال عبد الله [المسند: ١١٨/١]: وحدثني علي بن حكيم، أنا شريك عن أبي إسحاق، عن عمرو ذي مُرّ بمثل حديث أبي إسحاق، يعني عن سعيد وزيد وزاد فيه: «وانصر من نصره واخذل من خذله».

قال عبد الله [المسند: ١١٨/١]: وحدثنا علي، ثنا شريك عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مثله.

وقال النسائي في كتاب خصائص علي [٩٨]: حدثنا الحسين بن حُريث، ثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب. قال: قال علي في الرحبة: أنشد بالله رجلا سمع رسول الله ﷺ يوم غديرخم يقول: «إن الله وليّي وأنا وليّ المؤمنين، ومن كنت وليه فهذا وليه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره».

وكذلك رواه شعبة عن أبي إسحاق [س كبرى (٨٤٧١)].

وهذا إسناد جيد.

ورواه النسائي [خصائص علي (٩٩)، السنن الكبرى (٨٤٨٤)] أيضاً من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمرو ذي مُرّ. قال: نشد عليٌّ الناس بالرحبة، فقام أناس فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: «من كنت مولاه فإن علياً مولاه. اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصرمن نصره».

ورواه ابن جرير عن أحمد بن منصور عن عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب، وعبد خير عن علي.

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور عن عبيد الله بن موسى وهو شيعي ثقة، عن فطر بن خليفة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب وزيد بن يثيع، وعمرو ذي مُرّ: أن علياً أنشد الناس بالكوفة. وذكر الحديث.

وقال عبد الله بن أحمد [المسند: ١١٩/١]: حدثني عبيد الله بن عمر القواريري، ثنا يونس بن أرقم، ثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: شهدت علياً في الرحبة ينشد الناس فقال: أشهد الله من سمع رسول الله ﷺ يوم غدير خم يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه». لما قام فشهد. قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر رجلا بدرياً كأني أنظر إلى أحدهم، فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي أمهاتهم»، فقلنا: بلى يا رسول الله! قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

إسناد ضعيف غريب.

وقال عبد الله بن أحمد [المسند: ١١٩/١]: حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي، ثنا زيد بن الحباب، ثنا الوليد بن عقبة بن نزار العَنْسي، أنبأنا سماك بن عبيد بن الوليد العَنْسي قال: دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى، فحدثني أنه شهد علياً في الرحبة قال: أنشد بالله رجلا سمع رسول الله ﷺ وشهده يوم غدير خم إلا قام، ولا يقوم إلا من قد رآه، فقام اثنا عشر رجلا فقالوا: قد رأيناه وسمعناه حيث أخذ بيده يقول: «اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». فقام إلا ثلاثة لم يقوموا، فدعا عليهم فأصابتهم دعوته.

وروي أيضاً عن عبد الأعلى بن عامر الثعلَبيّ وغيره عن عبد الرحمن بن أبي ليلى به.

وقال ابن جرير: ثنا أحمد بن منصور، ثنا أبو عامر العقدي.

(ح) وروى ابن أبي عاصم [السُّنة (١٣٦١)] عن سليمان الغلابي، عن أبي عامر العقدي، ثنا كثير بن زيد، حدثني محمد بن عمر بن علي، عن أبيه، عن علي: أن رسول الله ﷺ حضر الشجرة بخم. فذكر الحديث وفيه: «من كنت مولاه فإن علياً مولاه».

وقد رواه بعضهم عن أبي عامر، عن كثير، عن محمد بن عمر بن علي، عن علي منقطعاً.

وقال إسماعيل بن عمرو البجلي، وهو ضعيف، عن مسعر، عن طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد: أنه شهد علياً على المنبر يناشد أصحاب رسول الله ﷺ من سمع رسول الله ﷺ يوم غديرخم فقام اثنا عشر رجلا منهم أبو هريرة وأبو سعيد وأنس بن مالك فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وقد رواه عبيد الله بن موسى عن هانئ بن أيوب ـ وهو ثقة ـ عن طلحة بن مصرف به.

وقال عبد الله بن أحمد [المسند: ١٥٢/١]: حدثني حجاج بن الشاعر، ثنا شبابة، ثنا نعيم بن حكيم، حدثني أبو مريم ورجل من جلساء عليّ، عن عليّ. أن رسول الله ﷺ قال يوم غديرخم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». قال: فزاد الناس بعد ـ «وال من والاه، وعاد من عاداه». روى أبو داود [٤٧٧٠] بهذا السند حديث المُخْدَج.

وقال الإمام أحمد [٣٧٠/٤]: حدثنا حسين بن محمد وأبو نعيم المعنى. قالا: ثنا فِطْر عن أبي الطفيل. قال: جمع عليّ الناس في الرحبة ـ يعني رحبة مسجد الكوفة ـ فقال: أنشد الله كل من سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام. فقام ثلاثون من الناس. وقال أبو نعيم: فقام ناس كثير، فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس: «أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: نعم! يا رسول الله، قال: «من كنت مولاه فهذا مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال: فخرجت كأن في نفسي شيئاً، فلقيت زيد بن أرقم. فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا. قال: فما تنكر؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له.

هكذا ذكره الإمام أحمد في مسند زيد بن أرقم رضي الله عنه.

ورواه النسائي [كبرى (٨٤٦٤)] من حديث الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت: عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم به وقد تقدم.

وأخرجه الترمذي [٣٧١٣] عن بندار، عن غندر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم ـ شك شعبة ـ. أن رسول الله ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

ورواه ابن جرير عن أحمد بن حازم، عن أبي نعيم، عن كامل أبي العلاء، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى بن جعدة، عن زيد بن أرقم.

وقال الإمام أحمد [٣٧٢/٤]: حدثنا عفان، ثنا أبو عوانة عن المغيرة، عن أبي عبيد، عن ميمون بن أبي عبد الله. قال: قال زيد بن أرقم وأنا أسمع: نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلا يقال له وادي خم، فأمر بالصلاة فصلاها

بهجير. قال: فخطبنا وظُلّل رسول الله ﷺ بثوب على شجرة سَمُر من الشمس. فقال: «ألستم تعلمون - أو ألستم تشهدون - أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى! قال: «فمن كنت مولاه فإن علياً مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

ثم رواه أحمد [٣٧٢/٤، ٣٧٣] عن غندر، عن شعبة، عن ميمون أبي عبد الله، عن زيد بن أرقم إلى قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

قال ميمون: حدثني بعض القوم عن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وهذا إسناد جيد رجاله ثقات على شرط السنن. وقد صحح الترمذي بهذا السند حديثاً في الزيت.

وقال الإمام أحمد [٤١٩/٥]: ثنا يحيى بن آدم، ثنا حنش بن الحارث بن لقيط الأشجعي، عن رياح بن الحارث قال: جاء رهط إلى عليّ بالرحبة فقالوا: السلام عليك يا مولانا، قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟! قالوا: سمعنا رسول الله ﷺ يوم غديرخم يقول: «من كنت مولاه فهذا مولاه». قال رياح: فلما مضوا تبعتهم فسألت: من هؤلاء؟ قالوا: نفر من الأنصار منهم أبو أيوب الأنصاري.

وقال الإمام أحمد [٤١٩/٥]: حدثنا حنش عن رياح بن الحارث. قال: رأيت قوماً من الأنصار قدموا على عليّ في الرحبة فقال: من القوم؟ فقالوا: مواليك يا أمير المؤمنين. فذكر معناه.

هذا لفظه، وهو من أفراده.

وقال ابن جرير: ثنا أحمد بن عثمان أبو الجوزاء، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، ثنا موسى بن يعقوب الزمعي - وهو صدوق - حدثني مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد، سمعت أباها يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الجحفة وأخذ بيد عليّ فخطب فحمد الله وأثنى ثم قال: «أيها الناس إني وليكم!» قالوا: صدقت! فرفع يد عليّ فقال: «هذا وليي والمؤدي عني وإن الله موالي من والاه، ومعادي من عاداه».

قال شيخنا الذهبي: وهذا حديث حسن غريب.

ثم رواه ابن جرير من حديث يعقوب بن جعفر بن أبي كبير، عن مهاجر بن مسمار. فذكر الحديث وأنه عليه الصلاة والسلام وقف حتى لحقه من بعده وأمر برد من كان تقدم فخطبهم. الحديث.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في الجزء الأول من كتاب «غدير خم» - قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: وجدته في نسخة مكتوبة عن ابن جرير - حدثنا محمد بن عوف الطائي، ثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا إسماعيل بن نشيط عن جميل بن عمارة، عن سالم بن عبد الله بن عمر، قال ابن جرير: أحسبه قال: عن عمر، وليس في كتابي -: سمعت رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عليّ: «من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وهذا حديث غريب. بل منكر وإسناده ضعيف.

قال البخاري في جميل بن عمارة هذا: فيه نظر [التاريخ الكبير: ٢١٦/٢، وفيه: جميل بن عامر].

وقال المطلب بن زياد عن عبد الله بن محمد بن عقيل سمع جابر بن عبد الله يقول: كنا بالجحفة بغديرخم، فخرج علينا رسول الله ﷺ من خباء أو فسطاط، فأخذ بيد عليّ. فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

قال شيخنا الذهبي: هذا حديث حسن. وقد رواه ابن لهيعة عن بكر بن سوادة وغيره، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بنحوه.

وقال الإمام أحمد [١٦٤/٤]: حدثنا يحيى بن آدم وابن أبي بكير. قالا: ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن حبشي بن جنادة. قال يحيى بن آدم: وكان قد شهد حجة الوداع. قال: - قال رسول الله ﷺ: «عليّ مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلا أنا أو عليّ».

وقال ابن أبي بكير: «لا يقضي عني ديني إلا أنا أو عليّ».

وكذا رواه أحمد [١٦٥/٤] أيضاً عن أبي أحمد الزبيري عن إسرائيل.

قال الإمام أحمد [١٦٥/٤]: وحدثناه الزبيري، ثنا شريك عن أبي إسحاق، عن حبشي بن جنادة مثله.

قال: فقلت لأبي إسحاق: أين سمعت منه؟ قال: وقف علينا على فرس له في مجلسنا في جبانة السبيع.

وكذا رواه أحمد [١٦٥/٤] عن أسود بن عامر، ويحيى بن آدم عن شريك.

ورواه الترمذي [٣٧١٩] عن إسماعيل بن موسى عن شريك.

وابن ماجه [١١٩] عن أبي بكر بن أبي شيبة، وسويد بن سعيد، وإسماعيل بن موسى، ثلاثتهم عن شريك به.

ورواه النسائي [كبرى (٨٤٥٩)] عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن إسرائيل به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

ورواه سليمان بن قرم - وهو متروك - عن أبي إسحاق، عن حُبشي بن جنادة: سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غديرخم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه». وذكر الحديث.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا شريك عن أبي يزيد الأودي، عن أبيه. قال: دخل أبو هريرة المسجد فاجتمع الناس إليه، فقام إليه شاب. فقال: أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» قال: نعم!

ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن شاذان عن شريك به. تابعه إدريس الأودي عن أخيه أبي يزيد، واسمه داود بن يزيد به.

ورواه ابن جرير أيضاً من حديث إدريس وداود، عن أبيهما، عن أبي هريرة فذكره.

فأما الحديث الذي رواه ضمرة عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة. قال: لما أخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. قال أبو هريرة: وهو يوم غدير خم، من صام يوم ثمان عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً.

فإنه حديث منكر جداً، بل كذب لمخالفته لما ثبت في الصحيحين [خ (٤٤٠٧)، م (٣٠١٧)] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن هذه الآية نزلت في يوم الجمعة يوم عرفة. ورسول الله ﷺ واقف بها كما قدمنا.

وكذا قوله أن صيام يوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم غدير خم يعدل صيام ستين شهراً لا يصح، لأنه قد ثبت ما معناه في الصحيح [م (١١٦٤)] أن صيام شهر رمضان بعشرة أشهر، فكيف يكون صيام يوم واحد يعدل ستين شهراً؟! هذا باطل.

وقد قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي بعد إيراده هذا الحديث: هذا حديث منكر جداً. ورواه حبشون الخلال، وأحمد بن عبد الله بن أحمد

النيري - وهما صدوقان - عن عليّ بن سعيد الرملي، عن ضمرة.

قال: ويروى هذا الحديث من حديث عمر بن الخطاب، ومالك بن الحويرث، وأنس بن مالك، وأبي سعيد وغيرهم بأسانيد واهية.

قال: وصدر الحديث متواتر أتيقن أن رسول الله ﷺ قاله.

وأما «اللهم والِ من والاه» فزيادة قوية الإسناد، وأما هذا الصوم فليس بصحيح، ولا والله ما نزلت هذه الآية إلا يوم عرفة قبل غدير خم بأيام، والله تعالى أعلم.

وقال الطبراني [المعجم الكبير: ٦/١٢٦]: حدثنا عليّ بن إسحاق الوزير الأصبهاني، حدثنا عليّ، حدثنا محمد بن عمر بن عليّ المقدمي، حدثنا عليّ بن محمد بن يوسف بن سنان بن مالك بن مسمع، حدثنا سهل بن يوسف بن سهل بن مالك، أخي كعب بن مالك عن أبيه، عن جده. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من حجة الوداع صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا ذلك له. يا أيها الناس إني عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض، فاعرفوا ذلك لهم.

أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري وأختاني لا يطلبنّكم الله بمظلمة أحد منهم. أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيراً».

سنة ١١- سنة إحدى عشرة من الهجرة

استهلت هذه السنة وقد استقر الركاب الشريف النبوي بالمدينة النبوية المطهرة مرجعه من حجة الوداع، وقد وقعت في هذه السنة أمور عظام؛ من أعظمها خطباً وفاة رسول الله ﷺ، ولكنه عليه الصلاة والسلام نقله الله عز وجل من هذه الدار الفانية إلى النعيم الأبدي في محلة عالية رفيعة، ودرجة في الجنة لا أعلى منها ولا أسنى كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٤-٥].

وذلك بعدما أكمل أداء الرسالة التي أمره الله تعالى بإبلاغها، ونصح أمته ودلهم على خير ما يعلمه لهم، وحذرهم ونهاهم عما فيه مضرة عليهم في دنياهم وأخراهم.

وقد قدمنا ما رواه صاحبا الصحيح [خ (٤٦٠١)، م (٣٠٢١)] من حديث عمر بن الخطاب أنه قال: نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] يوم الجمعة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة.

وروينا [مصنف ابن ابي شيبة (١٦٢٢٥)] من طريق جيد: أن عمر بن الخطاب حين نزلت هذه الآية بكى، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ.

وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى ذلك فيما رواه مسلم [١٢٩٧] من حديث ابن جريج عن أبي الزبير. عن جابر: أن رسول الله ﷺ وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا».

وقدمنا ما رواه الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي [الدلائل: ٥/٤٤٧] من حديث موسى ابن عبيدة الربذي، عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر. قال: نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في اوسط أيام التشريق، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم ذكر خطبته في ذلك اليوم كما تقدم.

وهكذا قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لعمر بن الخطاب حين سأله عن تفسير هذه السورة بمحضر كثير من الصحابة، ليريهم فضل ابن عباس وتقدمه وعلمه حين لامه بعضهم على تقديمه وإجلاسه له مع مشايخ بدر. فقال: إنه من حيث تعلمون، ثم سألهم وابن عباس حاضر عن تفسير هذه السورة إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ١-٣] فقالوا: أمرنا إذا فتح لنا أن نذكر الله ونحمده ونستغفره فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أجل رسول الله ﷺ نعي إليه. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تعلم [خ (٤٩٧٠)].

وقد ذكرنا في تفسير هذه السورة ما يدل على قول ابن عباس من وجوه، وإن كان لا ينافي ما فسرها به الصحابة رضي الله عنهم.

وكذلك ما رواه الإمام أحمد [٢/٤٤٦]: حدثنا وكيع عن ابن أبي ذئب، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ لما حج بنسائه قال: «إنما هي هذه الحجة، ثم الزمن ظهور الحُصُر».

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقد رواه أبو داود في سننه [١٧٢٢] من وجه آخر جيد.

والمقصود أن النفوس استشعرت بوفاته عليه الصلاة والسلام في هذه السنة، ونحن نذكر ذلك ونورد ما روي فيما يتعلق به من الأحاديث والآثار، وبالله المستعان، ولنقدم على ذلك ما ذكره الأئمة محمد بن إسحاق بن يسار، وأبو جعفر بن جرير، وأبو بكر البيهقي في هذا الموضع قبل الوفاة من تعداد حججه وغزواته وسراياه وكتبه ورسله إلى الملوك فلنذكر ذلك ملخصاً مختصراً ثم نتبعه بالوفاة.

سنة ١١- ذكر عدد غزواته وسراياه وبعوثه وعدد حجاته وعمرته

ففي الصحيحين [خ (٤٤٠٤)، م (١٢٥٤)] من حديث أبي إسحاق السبيعي عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وحج بعدما هاجر حجة الوداع، ولم يحج بعدها قال أبو إسحاق: وواحدة بمكة.

كذا قال أبو إسحاق السبيعي.

وقد قال زيد بن الحباب عن سفيان الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ حج ثلاث حجات: حجتين قبل أن يهاجر، وحجة بعدما هاجر معها عمرة، وساق ستاً وثلاثين بدنة، وجاء علي بتمامها من اليمن.

وقد قدمنا عن غير واحد من الصحابة منهم أنس بن مالك في الصحيحين [خ (١٧٧٨)، م (١٢٥٣)]: أنه عليه الصلاة والسلام اعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة، والعمرة التي مع حجة الوداع.

وأما الغزوات فروى البخاري [٤٢٧٢] عن أبي عاصم النبيل، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات يؤمره علينا رسول الله

ﷺ.

وفي الصحيحين [خ (٤٢٧٠)، م (١٨١٥)] عن قتيبة، عن حاتم بن إسماعيل، عن يزيد عن سلمة. قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات وفيما يبعث من البعوث تسع غزوات، مرة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة بن زيد.

وفي صحيح البخاري [٤٤٧٢] من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن زيد بن أرقم قال: غزا رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة.

وفي الصحيحين [خ (٣٩٤٩)، م (١٢٥٤)] من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء: أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وشهد معه منها سبع عشرة، أولها العشير أو العسير.

وروى مسلم [١٨١٤] عن أحمد بن حنبل، عن معتمر، عن كهمس بن الحسن، عن ابن بُريدة، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة.

وفي رواية لمسلم [١٨١٤] من طريق الحسين بن واقد، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل منها في ثمان.

وفي رواية عنه [الدلائل للبيهقي: ٤٥٩/٥] بهذا الإسناد: وبعث أربعاً وعشرين سرية، قاتل يوم بدر وأحد والأحزاب والمريسيع وخيبر ومكة وحنين.

وفي صحيح مسلم [(١٨١٣) وليس فيه (إحدى وعشرين غزوة)] من حديث أبي الزبير عن جابر: أن رسول الله ﷺ غزا إحدى وعشرين غزوة، غزوت معه منها تسع عشرة غزوة، ولم أشهد بدراً ولا أحداً، منعني أبي، فلما قتل أبي يوم أحد، لم أتخلف عن غزاة غزاها.

وقال عبد الرزاق: [المصنف (٩٦٥٩)] أنبأنا معمر عن الزهري. قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: غزا رسول الله ﷺ ثمان عشرة غزوة. قال: وسمعته مرة أخرى يقول: أربعاً وعشرين غزوة، فلا أدري أكان ذلك وهما، أو شيئا سمعه بعد ذلك.

وقال قتادة: غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة، قاتل في ثمان منها، وبعث من البعوث أربعا وعشرين. فجميع غزواته وسراياه ثلاث وأربعون.

وقد ذكر عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق بن يسار، وغير واحد من أئمة هذا الشأن: أنه عليه الصلاة والسلام قاتل يوم بدر في رمضان من سنة اثنتين، ثم في أحد في شوال سنة ثلاث، ثم في الخندق، وبني قريظة في شوال أيضا من سنة أربع، وقيل خمس، ثم في بني المصطلق بالمريسيع في شعبان سنة خمس، ثم في خيبر في صفر سنة سبع ومنهم من يقول سنة ست، والصحيح أنه في أول سنة سبع، وآخر سنة ست، ثم قاتل أهل مكة في رمضان سنة ثمان، وقاتل هوازن، وحاصر أهل الطائف في شوال وبعض ذي القعدة سنة ثمان كما تقدم تفصيله.

وحج في سنة ثمان بالناس عتاب بن أسيد نائب مكة.

ثم في سنة تسع أبو بكر الصديق، ثم حج رسول الله ﷺ بالمسلمين سنة عشر.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٨/٢، ٦٠٩]: وكان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة سبعاً وعشرين غزوة: غزوة ودان وهي غزوة الأبواء، ثم غزوة بواط من ناحية رضوى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى يطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر العظمى الذي قتل الله فيها صناديد قريش، ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب، ثم غزوة غطفان وهي غزوة ذي أمر، ثم غزوة نجران معدن بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان من هذيل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا، فصده المشركون، ثم غزوة خيبر.

ثم عمرة القضاء، ثم غزوة الفتح، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك.

قال ابن إسحاق: قاتل منها في تسع غزوات: غزوة بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف.

قلت: وقد تقدم ذلك كله مبسوطاً في أماكنه بشواهده وأدلته ولله الحمد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٩/٢]: وكانت بعوثه عليه الصلاة والسلام وسراياه ثمانياً وثلاثين من بين بعث وسرية.

ثم شرع رحمه الله في ذكر تفصيل ذلك.

وقد قدمنا ذلك كله أو أكثره مفصلا في مواضعه ولله الحمد والمنة.

ولنذكر ملخص ما ذكره ابن إسحاق: بعث عبيدة بن الحارث إلى أسفل ثنية المرة، ثم بعث حمزة بن عبد المطلب إلى الساحل من ناحية العيص، ومن الناس من يقدم هذا على بعث عبيدة كما تقدم فالله أعلم.

بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخرار، بعث عبد الله بن جحش إلى نخلة، بعث زيد بن حارثة إلى القردة، بعث محمد ابن مسلمة إلى كعب بن الأشرف، بعث مرثد بن أبي مرثد إلى الرجيع، بعث المنذر بن عمرو إلى بئر معونة، بعث أبي عبيدة إلى ذي القصة، بعث عمر بن الخطاب إلى تربة في أرض بني عامر، بعث عليّ إلى اليمن، بعث غالب بن عبد الله الكلبي إلى الكديد فأصاب بني الملوح أغار عليهم في الليل فقتل طائفة منهم، واستاق نعمهم فجاء نفيرهم في طلب النعم، فلما اقتربوا حال بينهم وبينهم واد من السيل، وأسروا في مسيرهم هذا الحارث بن مالك ابن البرصاء.

وقد حرر ابن إسحاق هذا ها هنا، وقد تقدم بيانه.

بعث عليّ بن أبي طالب إلى أرض فدك، بعث أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم أصيب هو وأصحابه.

بعث عكاشة إلى الغمرة.

بعث أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قطن، وهو ماء بنجد لبني أسد، بعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء من هوازن.

بعث بشير بن سعد إلى بني مرة بفدك، وبعثه أيضاً إلى ناحية حنين.

بعث زيد بن حارثة إلى الجموم من أرض بني سليم.

بعث زيد بن حارثة إلى جذام من أرض بني خشين.

قال ابن هشام [السيرة: ٦١٢/٢]: وهي من أرض حسمى وكان سببها فيما ذكره ابن إسحاق وغيره:

أن دحية بن خليفة لما رجع من عند قيصر وقد أبلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الله فأعطاه من عنده تحفاً وهدايا، فلما بلغ وادياً في أرض بني جذام يقال له شنار أغار عليه الهنيد بن عوص وابنه عوص بن الهنيد الضليعيان والضليع بطن من جذام فأخذا ما معه فنفر حي منهم قد أسلموا فاستنقذوا ما كان أخذ لدحية فردوه عليه.

فلما رجع دحية إلى رسول الله ﷺ أخبره الخبر واستسقاه دم الهنيد وابنه عوص، فبعث حينئذ زيد بن حارثة في جيش إليهم، فساروا إليهم من

ناحية الأولاج فأغار بالماقص من ناحية الحرة، فجمعوا ما وجدوا من مال وناس، وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين من بني الأحنف، ورجلا من بني خصيب، فلما احتاز زيد أموالهم وذراريهم اجتمع نفر منهم برفاعة بن زيد. وكان قد جاءه كتاب من رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، فقرأه عليهم رفاعة فاستجاب له طائفة منهم، ولم يكن زيد بن حارثة يعلم ذلك، فركبوا إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة في ثلاثة أيام، فأعطوه الكتاب فأمر بقراءته جهرة على الناس. ثم قال رسول الله ﷺ: كيف أصنع بالقتلى؟» ثلاث مرات. فقال رجل منهم يقال له أبو زيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله من كان حياً ومن قتل فهو تحت قدمي هذه، فبعث معهم رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال عليّ: إن زيداً لا يطيعني، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه علامة، فسار معهم على جمل لهم، فلقوا زيداً وجيشه ومعهم الأموال والذراري بفيفاء الفحلتين فسلمهم عليّ جميع ما كان أخذ لهم لم يفقدوا منه شيئاً.

بعث زيد بن حارثة أيضاً إلى بني فزارة بوادي القرى، فقتل طائفة من أصحابه وارتُثَّ هو من بين القتلى، فلما رجع آلى أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزوهم أيضاً، فلما استبل من جراحه، بعثه رسول الله ﷺ ثانياً في جيش، فقتلهم بوادي القرى وأسر أم قرفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وكانت عند مالك بن حذيفة بن بدر، ومعها ابنة لها، فأمر زيد بن حارثة قيس بن المسحر اليعمري فقتل أم قرفة، واستبقى ابنتها، وكانت من بيت شرف يضرب بأم قرفة المثل في عزها، وكانت بنتها مع سلمة بن الأكوع، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ فأعطاه إياها، فوهبها رسول الله ﷺ لخاله حزن بن أبي وهب، فولدت له ابنه عبد الرحمن.

بعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر مرتين:

إحداهما التي أصاب فيها اليُسَيْر بن رزام، وكان يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في نفر منهم عبد الله بن أنيس، فقدموا عليهم، فلم يزالوا يرغبونه ليقدموه على رسول الله ﷺ فسار معهم، فلما كانوا بالقرقرة على ستة أميال من خيبر ندم اليُسَيْر على مسيره، ففطن له عبد الله بن أنيس - وهو يريد السيف - فضربه بالسيف فأطن قدمه، وضربه اليسير بمخرش من شوحط في رأسه فأمّه، ومال كل رجل من المسلمين على صاحبه من اليهود فقتله إلا رجلا واحداً أفلت على رجليه، فلما قدم ابن أنيس تفل في رأسه رسول الله ﷺ فلم يقح جرحه ولم يؤذه.

قلت: وأظن البعث الآخر إلى خيبر لما بعثه عليه الصلاة والسلام خارصاً على نخيل خيبر والله أعلم.

بعث عبد الله بن عتيك وأصحابه إلى خيبر فقتلوا أبا رافع اليهودي.

بعث عبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان بن نبيح فقتله بعرنة.

وقد روى ابن إسحاق قصته ها هنا مطولة، وقد تقدم ذكرها في سنة خمس والله أعلم.

بعث زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة إلى مؤتة من أرض الشام، فأصيبوا كما تقدم.

بعث كعب بن عمير إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فأصيبوا جميعاً أيضاً.

بعث عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر إلى بني العنبر من تميم، فأغار عليهم فأصاب منهم أناساً، وسَبى منهم أناساً ثم ركب وفدهم إلى رسول الله ﷺ في أسراهم فأعتق بعضاً وفدى بعضاً.

بعث غالب بن عبد الله أيضاً إلى أرض بني مرة، فأصيب بها مرداس بن نهيك حليف لهم من الحرقة، من جهينة قتله أسامة بن زيد، ورجل من الأنصار، أدركاه فلما شهرا السلاح قال: لا إله إلا الله، فلما رجعا لامهما رسول الله ﷺ أشد اللوم، فاعتذرا بأنه ما قال ذلك إلا تعوذاً من القتل. فقال لأسامة: «هلا شققت عن قلبه»، وجعل يقول لأسامة: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: فما زال يكرزها حتى لوددت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك. وقد تقدم الحديث بذلك.

بعث عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من أرض بني عذرة يستنفر العرب إلى أرض الشام، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بلي، فلذلك بعث عمراً يستنفرهم ليكون أنجع فيهم، فلما وصل إلى ماء لهم يقال له: السلسل، خافهم فبعث يستمد رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ سرية فيهم أبو بكر وعمر وعليها أبو عبيدة بن الجراح، فلما انتهوا إليه تأمر عليهم كلهم عمرو وقال: إنما بعثتم مدداً لي فلم يمانعه أبو عبيدة لأنه كان رجلا سهلا ليناً هيناً عليه أمر الدنيا، فسلم له وانقاد معه، فكان عمرو يصلي بهم كلهم، ولهذا لما رجع قال: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها» [خ (٣٦٦٢)، م (٢٣٨٤)].

بعث عبد الله بن أبي حدرد إلى بطن إضَم وذلك قبل فتح مكة، وفيها قصة محلم بن جثامة، وقد تقدم مطولا في سنة سبع.

بعث ابن أبي حدرد أيضا إلى الغابة.

بعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٣١]: حدثني من لا أتهم عن عطاء بن أبي رباح. قال: سمعت رجلا من أهل البصرة يسأل عبد الله بن عمر بن الخطاب عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتمّ. قال: فقال عبد الله: أخبرك إن شاء الله عن ذلك، بعلم؛ أني كنت عاشر عشرة رهط من أصحاب النبي ﷺ في مسجده أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وأبو سعيد الخدري، وأنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل فتى من الأنصار، فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس. فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا». قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم استعداداً له قبل أن ينزل به أولئك الأكياس»، ثم سكت الفتى. وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلن بكم - وأعوذ بالله أن تدركوهن - أنه لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلِنوا عليها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم ما مطروا، وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم، فأخذ بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتحيّروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم».

قال: ثم أمر عبد الرحمن بن عوف أن يتجهز لسرية بعثه عليها، فأصبح وقد اعتم بعمامة من كرابيس سوداء، فأدناه رسول الله ﷺ ثم نقضها، ثم عمّمه بها وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحواً من ذلك. ثم قال: «هكذا يا ابن عوف، فاعتم فإنه أحسن وأعرف»، ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء، فدفعه إليه، فحمد الله وصلى على نفسه ثم قال: «خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله لا تغلُّوا ولا تغدروا ولا

تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيكم فيكم». فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء.

قال: ابن هشام: فخرج إلى دومة الجندل.

بعث أبي عبيدة بن الجراح وأصحابه وكانوا قريبا من ثلاثمائة راكب إلى سيف البحر وتزويده عليه الصلاة والسلام جرابا من تمر، وفيها قصة العنبر وهي الحوت العظيم الذي دسره البحر وأكلهم كلهم منه قريبا من شهر حتى سمنوا وتزودوا منه وشائق - أي شرائح - حتى رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأطعموه منه، فأكل منه كما تقدم بذلك الحديث.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٣/٢]: ومما لم يذكر ابن إسحاق من البعوث - يعني ها هنا - بعث عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان صخر بن حرب بعد مقتل خبيب بن عدي وأصحابه، فكان من أمره ما قدمناه، وكان مع عمرو بن أمية جبار بن صخر، ولم يتفق لهما قتل أبي سفيان، بل قتلا رجلا غيره، وأنزل خبيباً عن جذعه، وبعث سالم بن عمير أحد البكائين إلى أبي عَفَك، أحد بني عمرو بن عوف وكان قد نجم نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث ابن سويد بن الصامت كما تقدم. فقال يرثيه ويذم - قبحه الله - الدخول في الدين:

لقد عشت دهراً وما إن أرى ... من الناس داراً ولا مجمعا
أبرُّ عُهوداً وأوْفى لِمَنْ ... يُعَاقِدُ فيهم إذا ما دَعا
من أَوْلادِ قيلة في جمعِهم ... يَهدُّ الجبالَ ولَمْ يخضعا
فَصَدَّعَهُم رَاكِبٌ جاءَهُمْ ... حَلالٌ حَرامٌ لَشتّى مَعَا
فَلَوْ أن بالعِزِّ صَدَّقتم ... أو المُلكِ تابعتم تُبَّعا

فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟»، فانتدب له سالم بن عمير هذا فقتله فقالت أمامة المريدية في ذلك:

تُكَذِّبُ دِينَ اللّه والمرءَ أحمدا ... لعمرو الذي أمناك بئسَ الذي يمني
حباك حنيف آخرَ الليل طعنةً ... أبا عفك خذها على كبر السن

وبعث عمير بن عدي الخطمي لقتل العصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد، كانت تهجو الإسلام وأهله، ولما قتل أبو عفك المذكور أظهرت النفاق وقالت في ذلك:

باست بني مالك والنبيت ... وعوف وباست بني الخزرج
أطعتم أتاوي من غيركم ... فلا من مراد ولا مذحج
ترجُونه بعد قتل الرؤوس ... كما يرتجى مَرَقُ المنضج
الا أنف يبتغي غرة ... فيقطع من أمل المرتجي

قال: فأجابها حسان بن ثابت فقال:

بنو وائل وبنو واقف ... وخطمة دون بني الخزرج
متى ما دعت سفهاً ويحها ... بعولتها والمنايا تجي
فهزت فتى ماجداً عرقه ... كريم المدخل والمخرج
فضرجها من نجيع الدما ... ء بعد الهدوّ فَلَمْ يحرج

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «ألا آخذ لي من ابنة مروان»، فسمع ذلك عمير ابن عدي، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها فقتلها. ثم أصبح فقال: يا رسول الله قتلتها. فقال: «نصرت الله ورسوله يا عمير». قال: يا رسول الله هل عليّ شيء من شأنها. قال: «لاينتطح فيها عنزان». فرجع عمير إلى قومه وهم يختلفون في قتلها، وكان لها بنون خمسة. فقال: أنا قتلتها فكيدوني جميعاً، ثم لا تنظرون فذلك أول يوم عز الإسلام في بني خطمة، فأسلم منهم بشر كثير لما رأوا من عز الإسلام.

ثم ذكر البعث الذين أسروا ثمامة بن أثال الحنفي، وما كان من أمره في إسلامه. وقد تقدم ذلك في الأحاديث الصحاح.

وذكر ابن هشام أنه هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». لما كان من قلة أكله بعد إسلامه، وأنه لما انفصل عن المدينة، دخل مكة معتمراً وهو يلبي فنهاه أهل مكة عن ذلك، فأبى عليهم وتوعدهم بقطع الميرة عنهم من اليمامة، فلما عاد إلى اليمامة منعهم الميرة حتى كتب إليه رسول الله ﷺ فأعادها إليهم. وقال بعض بني حنيفة:

ومنا الذي لبى بمكة محرماً ... برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

وبعث علقمة بن مجزز المدلجي ليأخذ بثأر أخيه وقاص بن مجزز يوم قتل بذي قرد، فاستأذن رسول الله ﷺ ليرجع في آثار القوم، فأذن له وأمره على طائفة من الناس، فلما قفلوا أذن لطائفة منهم في التقدم، واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة، وكانت فيه دعابة، فاستوقد ناراً وأمرهم أن يدخلوها، فلما عزم بعضهم على الدخول قال: إنما كنت أضحك، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه».

والحديث في هذا ذكره ابن هشام [السيرة: ٦٤٠/٢] عن الدراوردي عن محمد بن عمرو بن علقمة عن عمرو بن الحكم بن ثوبان، عن أبي سعيد الخدري.

وبعث كرز بن جابر لقتل أولئك النفر الذين قدموا المدينة، وكانوا من قيس كُبَّةَ من بجيلة، فاستوخموا المدينة واستوبؤوها فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى إبله فيشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا قتلوا راعيها وهو يسار مولى رسول الله ﷺ، ذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه، واستاقوا اللقاح، فبعث في آثارهم كرز بن جابر في نفر من الصحابة، فجاؤوا بأولئك النفر من بجيلة مرجعه عليه الصلاة والسلام من غزوة ذي قرد، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم، وسملت أعينهم، وهؤلاء النفر إن كانوا هم المذكورين في حديث أنس المتفق عليه، أن نفراً ثمانية من عكل أو عرينة قدموا المدينة. الحديث.

والظاهر أنهم هم، فقد تقدمت قصتهم مطولة وإن كانوا غيرهم فها قد أوردنا عيون ما ذكره ابن هشام والله أعلم.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٤١/٢]: وغزوة عليّ بن أبي طالب إلى اليمن التي غزاها مرتين.

قال أبو عمرو المدني: بعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن، وخالداً في جند آخر. وقال: «إن اجتمعتم فالأمير عليّ بن أبي طالب».

قال: وقد ذكر ابن إسحاق بعث خالد ولم يذكره في عدد البعوث والسرايا، فينبغي أن تكون العدة في قوله تسعاً وثلاثين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤١/٢، ٦٤٢]: وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون.

قال ابن هشام: وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

وقال البخاري [٤٤٦٩]: حدثنا إسماعيل، ثنا مالك عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام النبي ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده».

ورواه الترمذي [٣٨١٦] من حديث مالك. وقال: حديث صحيح حسن.

وقد انتدب كثير من الكبار من المهاجرين الأولين والأنصار في جيشه، فكان من أكبرهم عمر بن الخطاب، ومن قال: إن أبا بكر كان فيهم فقد غلط، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيم بالجرف. وقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس كما سيأتي فكيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول ﷺ من رب العالمين؟ ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، ثم لما توفي عليه الصلاة والسلام استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب فأذن له في المقام عند الصديق، ونفذ الصديق جيش أسامة كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى.

سنة ١١- الآيات والأحاديث المنذرة بوفاة رسول الله ﷺ وكيف ابتدئ رسول الله ﷺ بمرضه الذي مات فيه

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وهذه الآية هي التي تلاها الصديق يوم وفاة رسول الله ﷺ فلما سمعها الناس كأنهم لم يسمعوها قبل ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

قال عمر بن الخطاب وابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ نعي إليه [خ (٣٦٢٧)].

وقال ابن عمر: نزلت أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع فخطب الناس خطبة أمرهم فيها ونهاهم، الخطبة المشهورة كما تقدم.

وقال جابر: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار فوقف. وقال: «لتأخذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا» [م (١٢٩٧)].

وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة كما سيأتي: «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني به العام مرتين، وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلي» [خ (٣٦٢٣، ٣٦٢٤)].

وفي صحيح البخاري [٤٩٩٨ بنحوه و(٢٠٤٤) مختصراً] من حديث أبي بكر بن عياش عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل شهر رمضان عشرة أيام، فلما كان من العام الذي توفي فيه اعتكف عشرين يوماً، وكان يعرض عليه القرآن كل رمضان مرة، فلما كان العام الذي توفي فيه، عرض عليه القرآن مرتين.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٢/٢]: رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع في ذي الحجة فأقام بالمدينة بقيته والمحرم وصفراً، وبعث أسامة بن زيد فبينا الناس على ذلك ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراده الله من رحمته وكرامته في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من ذلك فيما ذكر لي أنه خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل. فاستغفر لهم. ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٢/٢]: وحدثني عبد الله بن عمر عن عبيد بن جبير، مولى الحكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ. قال: بعثني رسول الله من جوف الليل فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي»، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم ياأهل المقابر ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى»، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». قال: قلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدئ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

وإنما رواه أحمد [٤٨٩/٣] عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه عن محمد بن إسحاق به.

وقال الإمام أحمد [٤٨٨/٣]: ثنا أبو النضر، ثنا الحكم بن فضيل، ثنا يعلى بن عطاء عن عبيد بن جبير عن أبي مويهبة. قال: أمر رسول الله ﷺ أن يصلي على أهل البقيع، فصلى عليهم ثلاث مرات، فلما كانت الليلة الثالثة. قال: «يا أبا مويهبة أسرج لي دابتي». قال: فركب ومشيت حتى انتهى إليهم، فنزل عن دابته وأمسكت الدابة فوقف. أو قال - قام عليهم - فقال: «ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس، أتت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضاً، الآخرة أشد من الأولى، فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس». ثم رجع فقال: «يا أبا مويهبة إني أعطيت- أو قال: خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتي من بعدي، والجنة أو لقاء ربي»، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي فاخترنا قال: «لأن تردّ على عقبها ما شاء الله، فاخترت لقاء ربي»، فما لبث بعد ذلك إلا سبعاً أو ثمانياً حتى قبض.

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٠٣٤)]: عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأعطيت الخزائن،

وخيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي، وبين التعجيل، فاخترت التعجيل».

قال البيهقي: وهذا مرسل، وهو شاهد لحديث أبي مويهبة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٢/٢، ٦٤٣]: وحدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن عائشة. قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه. فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه» قالت: ثم قال: «وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟» قالت: قلت: والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استُعزَّ به في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي فأذنَّ له.

قالت: فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر عاصباً رأسه تخط قدماه الأرض حتى دخل بيتي. قال عبيد الله: فحدثت به ابن عباس فقال: أتدري من الرجل الآخر؟ هو علي بن أبي طالب. وهذا الحديث له شواهد ستأتي قريباً.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٦٨/٧، ١٦٩]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة. قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وهو يصدع، وأنا اشكي رأسي فقلت: وارأساه! فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه!» ثم قال: «وما عليك لو مت قبلي، فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك». فقلت: والله إني لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك في بيتي من آخر النهار، فضحك رسول الله ﷺ ثم تمادى به وجعه فاستعز به وهو يدور على نسائه في بيت ميمونة، فاجتمع إليه أهله. فقال العباس: إنا لنرى برسول الله ذات الجنب فهلموا فنلده، فلدوه فأفاق رسول الله ﷺ. فقال: «من فعل هذا؟» فقالوا: عمك العباس تخوف أن يكون بك ذات الجنب. فقال رسول الله ﷺ: «إنها من الشيطان، وما كان الله ليسلطه علي لا يبقى في البيت أحد إلا لددتموه إلا عمي العباس»، فلُدَّ أهل البيت كلهم حتى ميمونة، وإنها لصائمة، وذلك بعين رسول الله ﷺ، ثم استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذنَّ له، فخرج وهو بين العباس ورجل آخر - لم تسمه - تخط قدماه بالأرض. قال عبيد الله: قال ابن عباس: الرجل الآخر علي بن أبي طالب.

قال البخاري [٤٤٤٢]: حدثنا سعيد بن عفير، ثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض بين عباس بن عبد المطلب، وبين رجل آخر. قال عبيد الله فأخبرت عبد الله - يعني ابن عباس - بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟ قال: قلت: لا! قال ابن عباس: هو عليٌّ، فكانت عائشة زوج النبي ﷺ تحدث أن رسول الله لما دخل بيتي واشتد به وجعه. قال: «هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس»، فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. قالت عائشة: ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم.

وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر من صحيحه [١٩٨، ٦٦٥، ٢٥٨٨، ٣٠٩٩، ٥٧١٤. مطولاً ومختصراً]، ومسلم [(٤١٨) (٩١) (٩٢)] من طرق عن الزهري به.

وقال البخاري [٤٤٥٠]: حدثنا إسماعيل، ثنا سليمان بن بلال، قال هشام بن عروة: أخبرني أبي عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها.

قالت عائشة رضي الله عنها: فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي، وقبضه الله وإن رأسه لبين سحري ونحري وخالط ريقه ريقي. قالت: ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ. فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته، ثم مضغته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستن به، وهو مُستَنِدٌ إلى صدري.

انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال البخاري [٤٤٤٦]: أخبرنا عبد الله بن يوسف، ثنا الليث، حدثني ابن الهاد عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: مات النبي ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.

وقال البخاري [٤٤٣٩]: حدثنا حبان، أنبأنا عبد الله، أنبأنا يونس عن ابن شهاب، قال أخبرني عروة أن عائشة أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه.

ورواه مسلم [(٢١٩٢) (٥١)] من حديث ابن وهب عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري به.

وثبت في الصحيحين [خ (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، م (٢٤٥٠) (٩٨)] من حديث أبي عوانة عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده، لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها. فقال: «مرحبا بابنتي»، فأقعدها عن يمينه أو شماله، ثم سارّها بشيء فبكت، ثم سارّها فضحكت فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين، فلما أن قام. قلت لها: أخبريني ما سارك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فلما توفي. قلت لها: أسألك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم! قالت: سارني في الأولى، قال لي: «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني في هذا العام مرتين ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك»، فبكيت. ثم سارني فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة»، فضحكت.

وله طرق عن عائشة.

وقد روى البخاري [٤٤٥٨] عن علي بن عبد الله والفلاس ومسدد ومسلم [(٢٢١٣) (٨٥)] عن محمد بن حاتم، كلهم عن يحيى بن سعيد القطان، عن سفيان الثوري، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة. قالت: لددنا رسول الله ﷺ في مرضه، فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال: «ألم أنهكم أن لا تلدوني؟» قلنا: كراهية المريض للدواء. فقال: «لا يبقى أحد في البيت

إلا لد - وأنا أنظر إلا العباس - فإنه لم يشهدكم». قال البخاري [عقب ح (٤٤٥٨)]: ورواه ابن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ.

وقال البخاري [٤٤٢٨]، وقال يونس عن الزهري، قال عروة، قالت عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».

هكذا ذكره البخاري معلّقا.

وقد أسنده الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٧٢/٧] عن الحاكم، عن أبي بكر محمد بن أحمد ابن يحيى الأشقر، عن يوسف بن موسى، عن أحمد بن صالح، عن عنبسة، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري به.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٧٢/٧]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود. قال: لئن أحلف تسعاً أن رسول الله ﷺ قتل قتلا أحب إليّ من أن أحلف واحدة أنه لم يقتل، وذلك أن الله اتخذه نبياً واتخذه شهيداً.

وقال البخاري [٤٤٤٧]: حدثنا إسحاق أخبرنا بشر بن شعيب بن أبي حمزة، حدثني أبي عن الزهري. قال: أخبرني عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: أن عبد الله ابن عباس أخبره، أن عليّ بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب. فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال عليّ: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها، لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

انفرد به البخاري.

وقال البخاري [٤٤٣١]: ثنا قتيبة، ثنا سفيان عن سليمان الأحول، عن سعيد بن جبير. قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه. فقال: «ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا». ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: ما شأنه يهجر؟ استفهموه، فذهبوا يردون عنه. فقال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه»، فأوصاهم بثلاث. قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة، أو قال: فنسيتها.

ورواه البخاري في موضع آخر [٣٠٥٣، ٣١٦٨]، ومسلم [(١٦٣٧) (٢٠)] من حديث سفيان بن عيينة به.

ثم قال البخاري [٤٤٣٢]: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس. قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا. فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا». قال عبيد الله: قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.

ورواه مسلم [(١٦٣٧) (٢٢)] عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق بنحوه.

وقد أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه [١١٤، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦] من حديث معمر ويونس عن الزهري به.

وهذا الحديث مما قد توهم به بعض الأغبياء من أهل البدع من الشيعة وغيرهم، كل يدّعي أنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمزون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه، وترك المحكم. وأهل السنة يأخذون بالمحكم، ويردون ما تشابه إليه، وهذه طريقة الراسخين في العلم كما وصفهم الله عز وجل في كتابه، وهذا الموضع مما زل فيه أقدام كثير من أهل الضلالات، وأما أهل السنة فليس لهم مذهب إلا اتباع الحق يدورون معه كيفما دار، وهذا الذي كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يكتبه، قد جاء في الأحاديث الصحيحة التصريح بكشف المراد منه.

فإنه قد قال الإمام أحمد [١٠٦/٦]: حدثنا مؤمل، ثنا نافع بن عمرو، ثنا ابن أبي مليكة، عن عائشة. قالت: لما كان وجع رسول الله ﷺ الذي قبض فيه، قال: «ادعوا لي أبا بكر وابنه فليكتب لكي لا يطمع في أمر أبي بكر طامع، ولا يتمناه متمن». ثم قال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون». مرتين. قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون.

انفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد [٤٧/٦]: حدثنا أبو معاوية، ثنا عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة. قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: «ائتني بكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه أحد»، فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم. قال: «أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر».

انفرد به أحمد من هذا الوجه أيضاً.

وروى البخاري [٧٢١٧] عن يحيى بن يحيى، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى متمنون». فقلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون.

وفي صحيح البخاري [٣٦٥٩] ومسلم [(٢٣٨٦) (١٠)] من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه. قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن ترجع إليه. فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول: الموت قال: «إن لم تجديني فأت أبا بكر».

والظاهر والله أعلم أنها إنما قالت ذلك له عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي مات فيه صلوات الله وسلامه عليه، وقد خطب عليه الصلاة والسلام في يوم الخميس قبل أن يقبض عليه الصلاة والسلام بخمس أيام خطبة عظيمة بين فيها فضل الصديق من سائر الصحابة، مع ما كان قد نص عليه أن يؤم الصحابة أجمعين، كما سيأتي بيانه مع حضورهم كلهم. ولعل خطبته هذه كانت عوضاً عما أراد أن يكتبه في الكتاب، وقد اغتسل عليه الصلاة والسلام بين يدي هذه الخطبة الكريمة، فصبوا عليه من سبع قرب، لم تحلل أوكيتهن، وهذا من باب الاستشفاء بالسبع، كما وردت بها الأحاديث في غير هذا الموضع.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل، ثم خرج فصلى بالناس، ثم خطبهم كما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

قال البيهقي [الدلائل: ١٧٧/٧، ١٧٨]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم عن أحمد ابن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أيوب بن بشير؛ أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «أفيضوا عليّ من سبع قرب، من سبع آبار شتى، حتى أخرج فأعهد إلى الناس». ففعلوا فخرج فجلس على المنبر، فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه، ذكر أصحاب أحد، فاستغفر لهم ودعا لهم. ثم قال: «يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس إن عبداً من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله»، ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى. وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا. فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر! انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه».

هذا مرسل له شواهد كثيرة.

وقال الواقدي: حدثني فروة بن زبيد بن طوسا، عن عائشة بنت سعد، عن أم ذَرّة، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ. قالت: خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه بخرقة، فلما استوى على المنبر تحدق الناس بالمنبر. واستكفوا. فقال: «والذي نفسي بيده إني لقائم على الحوض الساعة» ثم تشهد فلما قضى تشهده كان أول ما تكلم به أن استغفر للشهداء الذين قتلوا بأحد. ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار العبد ما عند الله»، فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه. وقال: بأبي وأمي نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا وأموالنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله ﷺ. وجعل رسول الله ﷺ يقول له: «على رسلك!».

وقال الإمام أحمد [١٨/٣] حدثنا أبو عامر ثنا فليح عن سالم أبي النضر عن بسر بن سعيد عن أبي سعيد قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكر. قال: فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به. فقال: رسول الله ﷺ «إن آمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام ومودته، لا يبقى في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر».

وهكذا رواه البخاري [٣٦٥٤] من حديث أبي عامر العقدي به.

ثم رواه الإمام أحمد [١٨/٣] عن يونس، عن فليح، عن سالم أبي النضر، عن عبيد بن حنين، وبسر بن سعيد، عن أبي سعيد به.

وهكذا رواه البخاري [٤٦٦، ٣٩٠٤] ومسلم [٢٣٨٢] من حديث فليح ومالك بن أنس، عن سالم، عن بُسْر بن سعيد، وعبيد بن حنين، كلاهما عن أبي سعيد بنحوه.

وقال الإمام أحمد [٤٧٨/٣ و٢١١/٤، ٢١٢]: حدثنا أبو الوليد هشام، ثنا أبو عوانة عن عبد الملك، عن ابن أبي المعلى عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ خطب يوماً فقال: «إن رجلا خيره ربه بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يعيش فيها، يأكل من الدنيا ما شاء أن يأكل منها، وبين لقاء ربه، فاختار لقاء ربه»، فبكى أبو بكر. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: الا تعجبون من هذا الشيخ أن ذكر رسول الله ﷺ رجلا صالحاً خيره ربه بين البقاء في الدنيا وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه. فكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: بل نفديك بأموالنا وأبنائنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما من الناس أحد أمنّ علينا في صحبته وذات يده من ابن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة، ولكن ود وإخاء وإيمان ولكن ود وإخاء وإيمان - مرتين - وإن صاحبكم خليل الله عز وجل».

تفرد به أحمد [وأخرجه الترمذي (٣٦٥٩)]، قالوا: وصوابه أبو سعيد بن المعلى فالله أعلم.

وقد روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٧٦/٧، ١٧٧] من طريق إسحاق بن إبراهيم - هو ابن راهويه - حدثنا زكريا بن عدي ثنا عبيد الله بن عمرو الرقي، عن زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، حدثني جندب؛ أنه سمع رسول الله ﷺ قبل أن يتوفى بخمس وهو يقول: «قد كان لي منكم أخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وإن ربي اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، وإن قوماً ممن كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

وقد رواه مسلم في صحيحه [(٥٣٢) (٢٣)] عن إسحاق بن راهويه بنحوه.

وهذا اليوم الذي كان قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بخمسة أيام هو يوم الخميس الذي ذكره ابن عباس فيما تقدم. وقد روينا هذه الخطبة من طريق ابن عباس.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٧٦/٧]: أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ، أنبأنا الحسن بن محمد بن إسحاق، حدثنا يوسف بن يعقوب قال: ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا وهب بن جرير، ثنا أبي، سمعت يعلى بن حكيم، يحدث عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: خرج النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «إنه ليس من الناس أحد أمنّ علي بنفسه وماله من أبي بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في المسجد، غير خوخة أبي بكر».

ورواه البخاري [٤٦٧] عن عبد الله بن محمد الجعفي عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه به.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام «سدوا عني كل خوخة» - يعني الأبواب الصغار - إلى المسجد «غير خوخة أبي بكر» إشارة إلى الخلافة أي ليخرج منها إلى الصلاة بالمسلمين.

وقد رواه البخاري [٩٧٢] أيضاً من حديث عبد الرحمن بن سليمان بن حنظلة بن الغسيل، عن عكرمة، عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ خرج في مرضه الذي مات فيه عاصبا رأسه بعصابة دسماء، ملتحفاً بملحفة على منكبيه، فجلس على المنبر فذكر الخطبة، وذكر فيها الوصاة بالأنصار إلى أن قال: فكان آخر مجلس جلس فيه رسول الله ﷺ حتى

قبض - يعني آخر خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام.

وقد روي من وجه آخر عن ابن عباس بإسناد غريب، ولفظ غريب.

فقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٧٩/٧، ١٨٠]: أنبأنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا ابن أبي قماش، وهو محمد بن عيسى، ثنا موسى بن إسماعيل أبو عمران الجُبُلي، ثنا معن بن عيسى القزاز، عن الحارث بن عبد الملك بن عبد الله بن إياس الليثي، عن القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن الفضل بن عباس رضي الله عنه. قال: أتاني رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، وقد عصب رأسه، فقال: «خذ بيدي يا فضل». قال: فأخذت بيده حتى قعد على المنبر. ثم قال: «ناد في الناس يا فضل»، فناديت الصلاة جامعة. قال: فاجتمعوا، فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «أما بعد أيها الناس إنه قد دنى مني حقوق من بين أظهركم، ولن تروني في هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقومه فيكم ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد، ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء من قبل رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من شأني ولا من خلقي، وإن أحبكم إليّ من أخذ حقاً إن كان له علي، أو حللني فلقيت الله عز وجل، وليس لأحد عندي مظلمة». قال: فقام منهم رجل فقال: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم. فقال: «أما أنا فلا أكذب قائلا ولا مستحلفه على يمين فيم كانت لك عندي؟» قال: أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم. قال: «أعطه يا فضل». قال: وأمر به فجلس. قال: ثم عاد رسول الله ﷺ في مقالته الأولى. ثم قال: «يا أيها الناس من عنده من الغلول شيء فليرده»، فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله. قال: «فلم غللتها؟» قال: كنت إليها محتاجاً. قال: «خذها منه يا فضل». ثم عاد رسول الله ﷺ في مقالته الأولى، وقال: «يا أيها الناس من أحس من نفسه شيئاً فليقم أدعو الله له». فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني لمنافق، وإني لكذوب، وإني لنؤوم. فقال عمر بن الخطاب: ويحك أيها الرجل لقد سترك الله، لو سترت على نفسك. فقال رسول الله ﷺ: «مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللّهمّ ارزقه صدقاً وإيماناً، وأذهب عنه النوم إذا شاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «عمر معي وأنا مع عمر، والحق بعدي مع عمر».

وفي إسناده ومتنه غرابة شديدة.

سنة ١١- إمامة أبي بكر في الصلاة معَ حضور النبي ﷺ

ذكر أمره عليه الصلاة والسلام أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أن يصلي بالصحابة أجمعين مع حضورهم كلهم وخروجه عليه الصلاة والسلام فصلى وراءه مقتديا به في بعض الصلوات على ما سنذكره وإماماً له ولمن بعده من الصحابة

قال الإمام أحمد [٣٢٢/٤]: حدثنا يعقوب، ثنا أبي عن ابن إسحاق، قال: وقال ابن شهاب الزهري: حدثني عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبيه، عن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد. قال: لما استُعِزَّ برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين دعا بلال للصلاة فقال: «مروا من يصلي بالناس». قال: فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبا فقلت: قم يا عمر فصل بالناس. قال: فقام فلما كبر عمر سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلا مجهراً فقال رسول الله ﷺ: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون». قال: فبعث إلى أبي بكر فجاء بعدما صلى عمر تلك، الصلاة فصلى بالناس. وقال عبد الله بن زمعة: قال لي عمر: ويحك ماذا صنعت يا ابن زمعة، والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت. قال قلت: والله ما أمرني رسول الله ﷺ أمرك، ولكن حين لم ار أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة.

وهكذا رواه أبو داود [٤٦٦٠] من حديث ابن إسحاق: حدثني الزهري.

ورواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق، حدثني يعقوب بن عتبة عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن زمعة فذكره.

وقال أبو داود [٤٦٦١]: ثنا أحمد بن صالح، ثنا ابن أبي فديك، حدثني موسى بن يعقوب عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن عبد الله بن زمعة أخبره بهذا الخبر. قال: لما سمع النبي ﷺ صوت عمر. قال ابن زمعة: خرج النبي ﷺ حتى أطلع رأسه من حجرته ثم قال: «لا لا لا ليصلّ للناس ابن أبي قحافة»، يقول ذلك مغضباً.

وقال البخاري [٦٦٤]: حدثنا عمر بن حفص، ثنا أبي، ثنا الأعمش عن إبراهيم. قال الأسود: كنا عند عائشة، فذكرنا المواظبة على الصلاة والمواظبة والتعظيم لها. قالت: لما مرض النبي ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأذن بلال. فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة. فقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس». فخرج أبو بكر فصلّى، فوجد النبي ﷺ في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين، كأني أنظر إلى رجليه تخطان الأرض من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك. ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه.

قيل للأعمش: فكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه نعم!.

ثم قال البخاري: رواه أبو داود عن شعبة بعضه، وزاد أبو معاوية: عن الأعمش: جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائماً.

وقد رواه البخاري [٧١٢، ٧١٣] في غير ما موضع من كتابه، ومسلم [(٤١٨) (٩٥) (٩٦)] والنسائي [٨٢٣] وابن ماجه [١٢٣٢] من طرق متعددة عن الأعمش به.

منها ما رواه البخاري [٧١٢، ٧١٣] عن قتيبة ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، ويحيى بن يحيى عن أبي معاوية به.

وقال البخاري [٦٧٩]: ثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «مروا أبا بكر يصلي بالناس». قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك، لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس، فقلت لحفصة: قولي له: إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة،

فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ إنكنَّ لأنتُنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليُصلِّ للنَّاس». فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً. ورواه الترمذي والنسائي، من حديث مالك به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البخاري: ثنا زكريا بن يحيى ثنا ابن نمير ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه فكان يصلي بهم. قال عروة: فوجد رسول الله ﷺ من نفسه خفةً فخج فإذا أبو بكر يـؤُمُّ الناس، فلما رآه أبو بكر استأخَر، فأشار إليه أن كما أنت. فجلس رسول الله ﷺ حذاء أبي بكر إلى جنبه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر رضي الله عنه. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن نمير به.

وفي «صحيح البخاري» من حديث ابن وهب عن يونس، عن الزهري، عن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: لما اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه، قيل له في الصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقالت له عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجلٌ رقيق، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء. فقال: «مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس». فعاودته مثل مقالتها، فقال: «أنتنَّ صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس».

قال ابن شهاب: فأخبرني عبيد الله بن عبد الله عن عائشة أنها قالت: لقد عاودت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على معاودته إلا أني خشيت أن يتشاءم الناس بأبي بكر، وإلا أني علمت أنه لن يقوم مقامه أحد، إلا تشاءم الناس به، فأحببت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر إلى غيره.

وفي صحيح مسلم [(٤١٨) (٩٤)] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري. قال: وأخبرني حمزة بن عبد الله بن عمر، عن عائشة قالت: لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». قالت: قلت: يا رسول الله: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله! ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً. فقال: «ليصلِّ بالناس أبو بكر فإنكنّ صواحب يوسف».

وفي الصحيحين [خ (٦٧٨)، م (٤٢٠) (١٠١)] من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه. قال: مرض رسول الله ﷺ فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق، متى يقم مقامك لا يستطع يصلي بالناس. قال: فقال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس فإنكن صواحب يوسف». قال: فصلى أبو بكر حياة رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد [٥٢/٢ و٢٥١/٦]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، أنبأنا زائدة عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله. قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ قالت: بلى! ثقل رسول الله ﷺ فقال: «أصلى الناس؟» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: «ضعوا لي ماءً في المخضب» ففعلنا، قالت: فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب»، ففعلنا فاغتسل ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلا رقيقاً. فقال: يا عمر صل بالناس، فقال: أنت أحق بذلك، فصلى بهم تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأوما إليه أن لا يتأخر، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائماً ورسول الله ﷺ يصلي قاعداً.

قال عبيد الله: فدخلت على ابن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله ﷺ؟ قال: هات فحدثته فما أنكر منه شيئاً، غير أنه قال: سمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو علي.

وقد رواه البخاري [٦٨٧] ومسلم [(٤١٨) (٩٠)] جميعاً عن أحمد بن يونس، عن زائدة به.

وفي رواية [انظر الدلائل للبيهقي: ١٩٠/٧، ١٩١] فجعل أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ وهو قائم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر ورسول الله ﷺ قاعداً.

قال البيهقي [الدلائل: ١٩١/٧]: ففي هذا أن النبي ﷺ تقدم في هذه الصلاة، وعلق أبو بكر صلاته بصلاته.

قال: وكذلك رواه الأسود وعروة عن عائشة. وكذلك رواه الأرقم بن شرحبيل، عن ابن عباس يعني بذلك.

ما رواه الإمام أحمد [٢٣٠/١، ٢٣١]: حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، حدثني أبي عن أبي إسحاق، عن الأرقم بن شرحبيل، عن ابن عباس. قال: لما مرض النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم وجد خفة فخرج، فلما أحس به أبو بكر أراد أن ينكص، فأومأ إليه النبي ﷺ فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره، واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر رضي الله عنه.

ثم رواه أيضاً [المسند: ٣٥٦/١، ٣٥٧] عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أرقم عن ابن عباس بأطول من هذا.

وقال وكيع مرة: فكان أبو بكر يأتم بالنبي ﷺ والناس يأتمون بأبي بكر.

ورواه ابن ماجه [١٢٣٥] عن علي بن محمد، عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أرقم بن شرحبيل، عن ابن عباس بنحوه.

وقد قال الإمام أحمد [١٥٩/٦]: ثنا شبابة بن سوار، ثنا شعبة عن نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عائشة قالت: صلى رسول الله ﷺ خلف أبا بكر قاعداً في مرضه الذي مات فيه.

وقد رواه الترمذي [٣٦٢] والنسائي [٧٨٥] من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أحمد [١٥٩/٦]: حدثنا بكر بن عيسى، سمعت شعبة بن الحجاج، عن نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عائشة: أنّ أبا بكر صلى بالناس ورسول الله ﷺ في الصف.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٩٢/٧]: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أنبأنا عبد الله بن جعفر، أنبأنا يعقوب بن سفيان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا شعبة عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم عن الأسود، عن عائشة. أن رسول الله ﷺ صلى خلف أبا بكر.

وهذا إسناد جيد، ولم يخرجوه.

قال البيهقي [الدلائل: ١٩٢/٧]: وكذلك رواه حميد عن أنس بن مالك،

ويونس عن الحسن مرسلا.

ثم أسند ذلك من طريق هشيم، أخبرنا يونس عن الحسن. قال هشيم: وأنبأنا حميد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج وأبو بكر يصلي بالناس، فجلس إلى جنبه، وهو في بردة قد خالف بين طرفيها، فصلى بصلاته.

قال البيهقي [الدلائل: ١٩٢/٧]: وأخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا عبيد بن شريك، أنبأنا ابن أبي مريم، أنبأنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد أنه سمع أنساً يقول: آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ مع القوم في ثوب واحد، ملتحفاً به خلف أبي بكر.

قلت: وهذا إسناد جيد على شرط الصحيح، ولم يخرجوه، وهذا التقييد جيد بأنها آخر صلاة صلاها مع الناس صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر البيهقي [الدلائل: ١٩٢/٧، ١٩٣] من طريق سليمان ابن بلال، ويحيى بن أيوب عن حميد، عن أنس: أن النبي ﷺ صلى خلف أبي بكر في ثوب واحد برد مخالفا بين طرفيه، فلما أراد أن يقوم قال: «ادع لي أسامة بن زيد»، فجاء فأسند ظهره إلى نحره فكانت آخر صلاة صلاها.

قال البيهقي [الدلائل: ١٩٢/٧، ١٩٣، ١٩٧]: ففي هذا دلالة أن هذه الصلاة كانت صلاة الصبح من يوم الاثنين يوم الوفاة، لأنها آخر صلاة صلاها لما ثبت أنه توفي ضحى يوم الاثنين.

وهذا الذي قاله البيهقي: أخذه مسلماً من مغازي موسى بن عقبة، فإنه كذلك ذكر.

وكذا روى أبو الأسود عن عروة وذلك ضعيف بل هذه آخر صلاة صلاها مع القوم كما تقدم تقييده في الرواية الأخرى، والحديث واحد فيحمل مطلقه على مقيده، ثم لا يجوز أن تكون هذه صلاة الصبح من يوم الاثنين يوم الوفاة، لأن تلك لم يصلها مع الجماعة، بل في بيته لما به من الضعف صلوت الله وسلامه عليه، والدليل على ذلك:

ما قال البخاري في صحيحه [٦٨٠]: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب عن الزهري، أخبرني أنس بن مالك، وكان تَبِعَ النبي ﷺ وخدمه وصحبه: أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه، ليصل الصف وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر، فتوفي من يومه ﷺ.

وقد رواه مسلم [(٤١٩) (٩٨) (٩٩) (٠٠٠)] من حديث سفيان بن عيينة، وصالح بن كيسان، ومعمر عن الزهري، عن أنس.

ثم قال البخاري [٦٨١]: ثنا أبو معمر، ثنا عبد الوارث، ثنا عبد العزيز، عن أنس بن مالك. قال: لم يخرج النبي ﷺ ثلاثا، فأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدم فقال نبي الله ﷺ: «عليكم بالحجاب»، فرفعه، فلما وضح وجه النبي ﷺ ما نظرنا منظراً كان أعجب إلينا من وجه النبي ﷺ حين وضح لنا. فأومأ النبي ﷺ بيده إلى أبي بكر أن يتقدم، وأرخى النبي ﷺ الحجاب، فلم يقدر عليه حتى مات. ﷺ.

ورواه مسلم [(٤١٩) (١٠٠)] من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه به.

فهذا أوضح دليل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يصل يوم الاثنين صلاة الصبح مع الناس، وأنه كان قد انقطع عنهم، لم يخرج إليهم ثلاثاً.

قلنا: فعلى هذا يكون آخر صلاة صلاها معهم الظهر، كما جاء مصرحا به في حديث عائشة المتقدم، ويكون ذلك يوم الخميس لا يوم السبت، ولا يوم الأحد، كما حكاه البيهقي عن مغازي موسى بن عقبة، وهو ضعيف، لما قدمنا من خطبته بعدها، ولأنه انقطع عنهم يوم الجمعة، والسبت، والأحد، وهذه ثلاثة أيام كوامل.

وقال الواقدي عن أبي بكر بن أبي سبرة: أن أبا بكر صلى بهم سبع عشرة صلاة.

وقال غيره: عشرين صلاة. فالله أعلم.

ثم بدا لهم وجهه الكريم صبيحة يوم الاثنين، فودعهم بنظرة كادوا يفتتنون بها، ثم كان ذلك آخر عهد جمهورهم به، ولسان حالهم يقول كما قال بعضهم:

وَكُنْتُ أُرَى كَالْمَوْتِ مِنْ بَيْنِ سَاعَةٍ ... فَكَيْفَ بِبَيْنٍ كَانَ موعده الحشر

والعجب أن الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٩٧/٧، ١٩٨] أورد هذا الحديث من هاتين الطريقين. ثم قال ما حاصله:

فلعله عليه الصلاة والسلام احتجب عنهم في أول ركعة، ثم خرج في الركعة الثانية، فصلى خلف أبي بكر، كما قال عروة وموسى بن عقبة، وخفي ذلك على أنس بن مالك أو أنه ذكر بعض الخبر وسكت عن آخره.

وهذا الذي ذكره أيضاً بعيد جداً، لأن أنساً قال: فلم يقدر عليه حتى مات.

وفي رواية قال: فكان ذلك آخر العهد به.

وقول الصحابي مقدم على قول التابعي والله أعلم.

والمقصود أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر الصديق إماما للصحابة كلهم في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام العملية.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري [الإبانة: ٢٥١/٢٨ ـ ٢٥٧، ومقالات الإسلاميين: ٣٩/١]: وتقديمه له أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام.

قال: وتقديمه له دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء [م (٦٧٣) (٢٩٠، ٢٩١)، د (٥٨٢ ـ ٥٨٤)، ت (٢٣٥)، س (٧٧٩)، ج (٩٨٠)]. أن رسول الله ﷺ قال: «يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأكبرهم سنا، فإن كانوا في السن سواء فأقدمهم سِلْماً».

قلت: وهذا من كلام الأشعري رحمه الله مما ينبغي أن يكتب بماء الذهب.

ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها في الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وصلاة الرسول ﷺ خلفه في بعض الصلوات كما قدمنا بذلك الروايات الصحيحة لا ينافي ما روي في الصحيح [خ (٦٨٧)، م (٤١٨)]، أن أبا بكر ائتم به عليه الصلاة والسلام، لأن ذلك في صلاة أخرى كما نص على ذلك الشافعي وغيره من الأئمة، رحمهم الله عز وجل.

فائدة: استدل مالك والشافعي وجماعة من العلماء ومنهم البخاري بصلاته عليه الصلاة والسلام قاعداً، وأبو بكر مقتدياً به قائماً، والناس بأبي بكر على نسخ قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه، [خ (٣٧٨)، م (٤١١) و(٤١٣)] حين صلى ببعض أصحابه قاعداً. وقد وقع عن فرس فجحش شقه، فصلوا وراءه قياماً فأشار إليهم أن اجلسوا فلما انصرف قال: «كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم، يقومون على عظمائهم وهم جلوس». وقال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به،

فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون». قالوا: ثم إنه عليه الصلاة والسلام أمهم قاعداً، وهم قيام في مرض الموت، فدل على نسخ ما تقدم والله أعلم.

وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال، على وجوه كثيرة موضع ذكرها كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وملخص ذلك أن من الناس من زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم، وإنما استمر أبو بكر قائماً لأجل التبليغ عنه ﷺ.

ومن الناس من قال: بل كان أبو بكر هو الإمام في نفس الأمر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم. وكان أبو بكر لشدة أدبه مع الرسول ﷺ لا يبادره بل يقتدي به، فكأنه عليه الصلاة والسلام صار إمام الإمام، فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بأبي بكر، وهو قائم ولم يجلس الصديق لأجل أنه إمام، ولأنه يبلِّغهم عن النبي ﷺ الحركات والسكنات والانتقالات، والله أعلم.

ومن الناس من قال: فرق بين أن يبتدأ الصلاة خلف الإمام في حال القيام، فيستمر فيها قائما وإن طرأ جلوس الإمام في أثنائها كما في هذه الحال، وبين أن يبتدئ الصلاة خلف إمام جالس، فيجب الجلوس للحديث المتقدم والله أعلم.

ومن الناس من قال: هذا الصنيع والحديث المتقدم دليل على جواز القيام والجلوس، وأن كلاً منهما سائغ جائزٌ؛ الجلوس لما تقدم، والقيام للفعل المتأخر؛ والله أعلم.

سنة ١١- كيفية احتضاره ووفاته ﷺ

قال الإمام أحمد [١/٣٨١]: حدثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي، عن الحارث ابن سويد، عن عبد الله - هو ابن مسعود -. قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فمسسته. فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً. قال: «أجل! إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم»، قلت: إن لك أجرين. قال: «نعم! والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها».

وقد أخرجه البخاري [٥٦٤٧] ومسلم [٢٥٧١] من طرق متعددة، عن سليمان بن مهران الأعمش به.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم، عن رجل، عن أبي سعيد الخدري. قال: وضعت يدي على النبي ﷺ فقلت: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك. فقال النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان الرجل ليبتلى بالعري حتى يأخذ العباءة فيجوِّبها، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء».

فيه رجل مُبْهَمٌ لا يعرف بالكلية فالله أعلم.

وقد روى البخاري [٥٦٤٦] ومسلم [٢٥٧٠] من حديث سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج زاد مسلم: وجرير، ثلاثتهم عن الأعمش عن أبي وائل، شقيق بن سلمة، عن مسروق، عن عائشة. قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ.

وفي صحيح البخاري [٤٤٤٦] من حديث يزيد بن الهاد عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: مات رسول الله ﷺ بين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.

وفي الحديث الآخر الذي رواه.... في صحيحه قال: قال رسول الله: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في البلاء». [مسند أحمد: ١٧٢/١ بنحوه من حديث سعد بن أبي وقاص]

وقال الإمام أحمد [٥/٢٠١]: حدثنا يعقوب،ثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني سعيد ابن عبيد ابن السباق عن محمد بن أسامة بن زيد، عن أبيه أسامة بن زيد. قال: لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُصْمِتَ فلا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يَصُبُّها على وجهه أعرف أنه يدعو لي.

ورواه الترمذي [٣٨١٧] عن أبي كريب، عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق وقال: حسن غريب.

وقال الإمام مالك في موطئه [٨٩٢/٢] عن إسماعيل بن أبي حكيم: انه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: كان من آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقين دينان بأرض العرب».

هكذا رواه مرسلا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وقد روى البخاري [٤٣٥] ومسلم [٥٣١] من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة وابن عباس. قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه. فقال: وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٠٤/٧]: أنبأنا أبو بكر بن أبي رجاء الأديب، أنبأنا أبو العباس الأصم، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «أحسنوا الظن بالله».

وفي بعض الأحاديث كما رواه مسلم [(٢٨٧٧) (٨١)] من حديث الأعمش عن أبي سفيان طلحة ابن نافع، عن جابر. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى».

وفي الحديث الآخر يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً» [لم يروه مسلم بهذا اللفظ، وانظر الإحسان (٦٤١)].

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٠٤/٧، ٢٠٥]: أنبأنا الحاكم، حدثنا الأصم، ثنا محمد بن إسحاق الصغاني، ثنا أبو خيثمة زهير بن حرب، ثنا جرير عن سليمان التيمي، عن قتادة، عن أنس. قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل يغرغر بها في صدره وما يفيض بها لسانه.

وقال الإمام أحمد [١١٧/٣]: حدثنا أسباط بن محمد، ثنا التيمي عن قتادة، عن أنس بن مالك. قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه.

وقد رواه النسائي [كبرى (٧٠٩٥)] وابن ماجه [٢٦٩٧] من حديث سليمان بن طرخان، وهو التيمي عن قتادة، عن أنس به.

وفي رواية للنسائي [كبرى (٧٠٩٦)] عن قتادة، عن صاحب لـه، عن أنس به.

وقال أحمد [٩٠/١]: حدثنا بكر بن عيسى الراسبي، ثنا عمر بن الفضل، عن نعيم بن يزيد، عن عليّ بن أبي طالب. قال: أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده، قال: فخشيت أن تفوتني نفسه. قال: قلت: إني أحفظ وأعي. قال: «أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم».

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل، ثنا أبو عوانة عن قتادة، عن سفينة، عن أم سلمة قالت: كان عامة وصية رسول الله ﷺ عند موته الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يلجلجها في صدره وما يفيض بها لسانه.

وهكذا رواه النسائي [كبرى (٧٠٩٨)] عن حميد بن مسعدة عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أنّ سفينة حدّث، عن أم سلمة به.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٠٥/٧]: والصحيح ما رواه عفان عن همام، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن سفينة، عن أم سلمة به.

وهكذا رواه النسائي [كبرى (٧١٠٠)] أيضاً وابن ماجه [١٦٢٥] من حديث يزيد بن هارون، عن همام، عن قتادة، عن صالح أبي الخليل، عن سفينة، عن أم سلمة به. وقال أحمد [٦٤/٦]: حدثنا يونس، ثنا الليث عن يزيد بن الهاد، عن موسى بن سرجس، عن القاسم، عن عائشة قالت: رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: «اللّهم أعني على سكرات الموت».

ورواه الترمذي [٩٧٨] والنسائي [كبرى (٧١٠١)] وابن ماجه [١٦٢٣] من حديث الليث به، وقال الترمذي: غريب.

وقال الإمام أحمد [١٣٨/٦]: حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن مصعب بن إسحاق ابن طلحة، عن عائشة عن النبي ﷺ إنه قال: «ليهون علي إني رأيت بياض كف عائشة في الجنة».

تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

وهذا دليل على شدة محبته عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها. وقد ذكر الناس معاني كثيرة في كثرة المحبة، ولم يبلغ أحدهم هذا المبلغ، وما ذاك إلا لأنهم يبالغون كلاما لا حقيقة له، وهذا كلام حق لا محالة ولا شك فيه.

وقال حماد ابن زيد عن أيوب، عن ابن أبي مليكة. قال: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي ويومي وتوفي بين سحري ونحري وكان جبريل يعوّذه بدعاء إذا مرض، فذهبت أدعو به، فرفع بصره إلى السماء وقال: «في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى».

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، وبيده جريدة رطبة، فنظر إليها، فظننت أن له بها حاجة قالت: فأخذتها فنفضتها فدفعتها إليه فاستن بها أحسن ما كان مستناً، ثم ذهب يتناولها فسقطت من يده. قالت: فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة [الدلائل للبيهقي: ٢٠٦/٧].

ورواه البخاري [٤٤٥١] عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد به.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٠٦/٧، ٢٠٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو نصر أحمد بن سهل الفقيه ببخارى، ثنا صالح بن محمد الحافظ البغدادي، ثنا داود بن عمرو بن زهير الضبي، ثنا عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، أنبأنا ابن أبي مليكة: أن أبا عمرو ذكوان مولى عائشة أخبره أن عائشة كانت تقول: إن من نعمة الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في يومي وفي بيتي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند الموت.

قالت: دخل علي أخي بسواك معه، وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدري، فرأيته ينظر إليه. وقد عرفت أنه يحب السواك ويألفه. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أي نعم! فليّنته له فأمرّه على فيه. قالت: وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه. ثم يقول: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»، ثم نصب أصبعه اليسرى وجعل يقول: «في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى»، حتى قبض ومالت يده في الماء.

ورواه البخاري [٤٤٤٩] عن محمد عن عيسى بن يونس.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٤٥٦)]: ثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم، سمعت عروة يحدث عن عائشة قالت: كنا نحدث أن النبي ﷺ لا يموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة. قالت: فلما كان مرض رسول الله ﷺ الذي مات فيه، عرضت له بُحّة، فسمعته يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً». قالت عائشة: فظننا أنه كان يخير.

وأخرجاه [خ (٤٤٣٥)، م (٢٤٤٤) (٨٦)] من حديث شعبة به.

وقال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير في رجال من أهل العلم، أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير». قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت. وقال: «اللّهم الرفيق الأعلى». فعرفت أنه الحديث الذي كان حدثناه وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير».

قالت عائشة: فقلت: إذاً لا تختارنا، قالت عائشة: كانت تلك الكلمة آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ: «الرفيق الأعلى».

أخرجاه [خ (٤٤٦٣)، م (٢٤٤٤) (٨٧)] من غير وجه عن الزهري به.

وقال سفيان: - هو الثوري - عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي بردة، عن عائشة قالت: أغمي على رسول الله ﷺ وهو في حجري، فجعلت أمسح وجهه وأدعو له بالشفاء. فقال: «لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد، مع جبريل وميكائيل وإسرافيل».

رواه النسائي [كبرى (٧١٠٤) و(١٠٩٣٦)] من حديث سفيان الثوري به.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٠٩/٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ وغيره قالوا: ثنا أبو العباس الأصم، ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ثنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن عائشة أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إلى صدرها يقول: «اللّهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى».

أخرجاه [خ (٤٤٤٠)، م (٢٤٤٤) (٨٥)] من حديث هشام بن عروة.

وقال الإمام أحمد [٢٧٤/٦]: حدثنا يعقوب، ثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: سمعت عائشة تقول: مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وفي دولتي، ولم

أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء، وأضرب وجهي.

وقال الإمام أحمد [٤/٦]: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد عن المطلب ابن عبد الله. قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي إلا تقبض نفسه، ثم يرى الثواب، ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه وبين أن يلحق»، فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندته إلى صدري فنظرت إليه حين مالت عنقه، فقلت: قد قضى، فعرفت الذي قال، فنظرت إليه حين ارتفع فنظر. قالت قلت: إذاً والله لا يختارنا فقال: «مع الرفيق الأعلى في الجنة ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾».

تفرد به أحمد ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [١٢١/٦، ١٢٢]: حدثنا عفان، أنبأنا همام، أنبأنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. قالت: قبض رسول الله ﷺ ورأسه بين سحري ونحري، قالت: فلما خرجت نفسه، لم أجد ريحاً قط أطيب منها.

وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢١٣/٧] من حديث حنبل بن إسحاق عن عفان.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢١٩/٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس الأصم، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس عن أبي معشر، عن محمد بن قيس، عن أبي عروة عن أم سلمة قالت: وضعت يدي على صدر رسول الله ﷺ يوم مات، فمرت بي جُمَع آكل، وأتوضأ وما يذهب ريح المسك من يدي.

وقال أحمد [١٣١/٦]: حدثنا عفان وبهز قالا: ثنا سليمان بن المغيرة، ثنا حميد بن هلال، عن أبي بردة. قال: دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما صُنع باليمن، وكساء من التي يدعون الملبدة فقالت: إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين.

وقد رواه الجماعة [خ (٣١٠٨)، م (٢٠٨٠) (٣٤) (٣٥)، د (٤٠٣٦)، ت (١٧٣٣)، ج (٣٥٥١)] إلا النسائي من طرق عن حميد بن هلال به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٢١٩/٦، ٢٢٠]: حدثنا بهز، ثنا حماد بن سلمة، أنبأنا أبو عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس. قال: ذهبت أنا وصاحب لي إلى عائشة فاستأذنا عليها، فألقت لنا وسادة، وجذبت إليها الحجاب. فقال صاحبي: يا أم المؤمنين ما تقولين في العراك؟ قالت: وما العراك؟ فضربت منكب صاحبي. قالت: مه آذيت أخاك. ثم قالت: ما العراك المحيض! قولوا ما قال الله عز وجل ﴿الْمَحِيضِ﴾. ثم قالت: كان رسول الله ﷺ يتوشحني وينال من رأسي، وبيني وبينه ثوب، وأنا حائض. ثم قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مر ببابي مما يلقي الكلمة ينفعني الله بها فمر ذات يوم، فلم يقل شيئاً، ثم مر فلم يقل شيئاً مرتين أو ثلاثاً فقلت: يا جارية ضعي لي وسادة على الباب وعصبت رأسي فمر بي. فقال: «يا عائشة ما شأنك؟» فقلت: أشتكي رأسي. فقال: «أنا وارأساه»، فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتى جيء به محمولاً في كساء، فدخل عليّ وبعث إلى النساء فقال: «إني قد اشتكيت، وإني لا أستطيع أنا أدور بينكن، فائذنَّ لي فلأكن عند عائشة»، فكنت أمرضه، ولم أمرض أحداً قبله، فبينما رأسه ذات يوم على منكبي إذ مال رأسه نحو رأسي، فظننت أنه يريد من رأسي حاجة، فخرجت من فيه نطفة باردة، فوقعت على ثغرة نحري فاقشعر لها جلدي، فظننت أنه غشي عليه، فسجيته ثوباً فجاء عمر والمغيرة بن شعبة، فاستأذنا فأذنت لهما، وجذبت إلي الحجاب، فنظر عمر إليه فقال: واغشياه! ما أشد غشي رسول الله ﷺ، ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسول الله ﷺ، قال: كذبت بل أنت رجل تحوسك فتنة، إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين. قالت: ثم جاء أبو بكر فرفعت الحجاب، فنظر إليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ. ثم أتاه من قبل رأسه فحدّر فاه فقبل جبهته، ثم قال: وانبياه! ثم رفع رأسه فحدر فاه وقبل جبهته ثم قال: واصفياه! ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته وقال: واخليلاه، مات رسول الله ﷺ.

وخرج إلى المسجد وعمر يخطب الناس ويتكلم ويقول: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين. فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله يقول ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] حتى فرغ من الآية، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتى فرغ من الآية.

ثم قال: فمن كان يعبد الله ـ عز وجل ـ فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، فقال عمر: وإنها لفي كتاب الله؟ ما شعرت أنها في كتاب الله. ثم قال عمر: يا أيها الناس هذا أبو بكر، وهو ذو شيبة المسلمين فبايعوه فبايعوه.

وقد روى أبو داود [٢١٣٧] والترمذي في الشمائل [٣٧٤] من حديث مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن أبي عمران الجوني به، ببعضه.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢١٥/٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان، ثنا يحيى بن بكير، ثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة أخبرته: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فيمم رسول الله ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله لا يجمع الله عليك موتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

قال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس.فقال: اجلس يا عمر! فأبى عمر أن يجلس. فقال اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه. فقال: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما سمع بشر من الناس إلا يتلوها [الدلائل للبيهقي: ٢١٥/٧، ٢١٦].

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فَعَقِرْتُ حتى ما تُقِلُّني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

ورواه البخاري [٤٤٥٢ - ٤٤٥٤] عن يحيى بن بكير به.

وروى الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ٢١٧/٧ - ٢١٩] من طريق ابن لهيعة، ثنا أبو الأسود عن عروة بن الزبير في ذكر وفاة رسول الله ﷺ قال: وقام عمر بن الخطاب يخطب الناس ويتوعد من قال: مات بالقتل والقطع ويقول: إن رسول الله ﷺ في غشيته لو قد قام قتل وقطع. وعمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن أم مكتوم في مؤخر المسجد يقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. والناس في المسجد يبكون ويموجون لا يسمعون، فخرج عباس بن عبد المطلب على الناس. فقال: يا أيها الناس هل عند أحد منكم من عهد من رسول الله ﷺ في وفاته، فليحدثنا. قالوا: لا! قال: هل عندك يا عمر من علم؟ قال: لا! فقال العباس: اشهدوا أيها الناس أن أحداً لا يشهد على رسول الله ﷺ بعهد عهده إليه في وفاته، والله الذي لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت.

قال: وأقبل أبو بكر رضي الله عنه من السنح على دابته حتى نزل بباب المسجد، وأقبل مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيت ابنته عائشة، فأذنت له، فدخل ورسول الله ﷺ قد توفي على الفراش والنسوة حوله فخمرن وجوههن، واسترن من أبي بكر، إلا ما كان من عائشة، فكشف عن رسول الله ﷺ فحنى عليه يقبله ويبكي ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله ﷺ والذي نفس بيده رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً. ثم غشاه بالثوب، ثم خرج سريعاً إلى المسجد يتخطى رقاب الناس، حتى أتى المنبر وجلس عمر حين رأى أبا بكر مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر، ونادى الناس فجلسوا، وأنصتوا فتشهد أبو بكر بما علمه من التشهد. وقال: إن الله عز وجل نعى نبيه إلى نفسه، وهو حي بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم وهو الموت حتى لا يبقى أحد، إلا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟! والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم، وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ثم قال: إن الله تعالى عمّر محمداً ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلّغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك، وقد ترككم على الطريقة فلن يهلك هالك إلا من بعد البينة والشفاء، فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه. فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وأن كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء وبه هدى الله محمداً ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدنّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يَبْقِيَنَّ أحد إلا على نفسه.

ثم انصرف وانصرف معه المهاجرون إلى رسول الله ﷺ. فذكر الحديث في غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.

قلت: كما سنذكره مفصلا بدلائله وشواهده، إن شاء الله تعالى.

وذكر الواقدي عن شيوخه. قالوا: ولما شك في موت النبي ﷺ فقال بعضهم: مات! وقال بعضهم: لم يمت، وضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفي رسول الله ﷺ فقالت: قد توفي رسول الله ﷺ، وقد رفع الخاتم من بين كتفيه، فكان هذا الذي قد عرف به موته.

هكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة [٢١٩/٧] من طريق الواقدي، وهو ضعيف وشيوخه لم يسمَّوْا، ثم هو منقطع بكل حال، ومخالف لما صح وفيه غرابة شديدة، وهو رفع الخاتم. فالله أعلم بالصواب.

وقد ذكر الواقدي وغيره في الوفاة أخباراً كثيرة فيها نكارات وغرابة شديدة، أضربنا عن أكثرها صفحاً لضعف أسانيدها، ونكارة متونها، ولا سيما ما يورده كثير من القصاص المتأخرين وغيرهم، فكثير منه موضوع لا محالة، وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة المروية في الكتب المشهورة غنية عن الأكاذيب، وما لا يعرف سنده والله أعلم.

سنة ١١- ذكر أمور مهمة وقعت بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه ﷺ

ومن أعظمها وأجلها وأيمنها بركة على الإسلام وأهله بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لما مات كان الصديق رضي الله عنه قد صلى بالمسلمين صلاة الصبح، وكان إذ ذاك قد أفاق رسول الله ﷺ إفاقة من غمرة ما كان فيه من الوجع، وكشف ستر الحجرة، ونظرا إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة خلف أبي بكر، فأعجبه ذلك وتبسم صلوات الله وسلامه عليه، حتى هم المسلمون أن يتركوا ما هم فيه من الصلاة لفرحهم به، وحتى أراد أبو بكر أن يتأخر ليصل الصف، فأشار إليهم أن يمكثوا كما هم، وأرخى الستارة وكان آخر العهد به عليه الصلاة والسلام.

فلما انصرف أبو بكر رضي الله عنه من الصلاة، دخل عليه وقال لعائشة: ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة - يعني إحدى زوجتيه - وكانت ساكنة بالسنح شرقي المدينة، فركب على فرس له وذهب إلى منزله، وتوفي رسول الله ﷺ حين اشتد الضحى من ذلك اليوم، وقيل: عند زوال الشمس؛ فالله أعلم.

فلما مات واختلف الصحابة فيما بينهم فمن قائل يقول: مات رسول الله ﷺ، ومن قائل: لم يمت، فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السنح، فأعلمه بموت رسول الله ﷺ فجاء الصديق من منزله حين بلغه الخبر، فدخل على رسول الله ﷺ منزله، وكشف الغطاء عن وجهه وقبله، وتحقق أنه قد مات خرج إلى الناس فخطبهم إلى جانب المنبر، وبين لهم وفاة رسول الله ﷺ كما قدمنا، وأزاح الجدل وأزال الإشكال، ورجع الناس كلهم إليه، وبايعه في المسجد جماعة من الصحابة، ووقعت شبهة لبعض الأنصار، وقام في أذهان بعضهم جواز استخلاف خليفة من الأنصار، وتوسط بعضهم بين أن يكون أمير من المهاجرين، وأمير من الأنصار، حتى بين لهم الصديق أن الخلافة لا تكون إلا في قريش، فرجعوا إليه وأجمعوا عليه كما سنبينه وننبه عليه.

سنة ١١- قصة سقيفة بني ساعدة

قال الإمام أحمد [٥٥/١، ٥٦]: حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع، ثنا

مالك بن أنس، حدثني ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أن ابن عباس أخبره، أن عبد الرحمن بن عوف رجع إلى رحله - قال ابن عباس: وكنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف، فوجدني وأنا انتظره - وذلك بمنى في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب، فقال عبد الرحمن بن عوف: إن رجلا أتى عمر بن الخطاب فقال: إن فلاناً يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فقال عمر: إني قائم العشية، إن شاء الله في الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم.

قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وأنهم الذين يغلبون على مجلسك إذا قمت في الناس، فأخشى أن تقول مقالة يطير بها أولئك، فلا يعوها ولا يضعوها مواضعها، ولكن حتى مقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، وتَخْلُصَ بعُلماء الناس وأشرافهم، فتقول ما قلت متمكناً، فيعون مقالتك ويضعونها مواضعها، قال عمر: لئن قدمت المدينة سالماً صالحاً لأكلمن بها الناس في أول مقام أقومه.

فلما قدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، وكان يوم الجمعة، عجَّلت الرَّواحَ صَكَّةَ الأعمى - قلت لمالك: وما صكة الأعمى -؟ قال: إنه لا يبالي أي ساعة خرج لا يعرف الحر والبرد. أو نحو هذا. فوجدت سعيد بن زيد عند ركن المنبر الأيمن قد سبقني، فجلست حذاءه تحك ركبتي ركبته، فلم أنشب أن طلع عمر، فلما رأيته قلت: ليقولن العشية على هذا المنبر مقالة ما قالها عليه أحد قبله. قال: فأنكر سعيد بن زيد ذلك، وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل أحد؟.

فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإني قائل مقالة وقد قدر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن وعاها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب علي، إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله عز وجل، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، ألا وإنا قد كنا نقرأ: لا ترغبوا عن آبائكم، فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم، ألا وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أُطْري عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، وقد بلغني أن قائلا منكم يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترن امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، فتمت. ألا وأنها كانت كذلك، ألا إن الله وقى شرها، وليس فيكم اليوم من تُقطَعُ إليه الأعناق مثل أبي بكر، وأنه كان من خَيْرِنا حين توفي رسول الله ﷺ أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتخلفت عنّا الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلت: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين، فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: وَجِع. فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منّا، وقد دَفَّتْ دافَّةٌ منكم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويَحْضُونا من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، وهو كان أحكم مني وأوقر، فقال أبو بكر: على رِسْلِكَ. فكرهتُ أن أُغضِبَه، وكان أعلمَ مني وأوقرَ والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهته وأفضل حين سكت. فقال: أما بعد فما ذكرتم من خير، فأنتم أهله، وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيّهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدَّم فتضرب عنقي لا يقرِّبني ذلك إلى إثم أحب إليَّ أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، إلا أن تغير نفسي عند الموت، فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيلها المحكَّك، وعُذَيقها المرجَّب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش - فقلت لمالك: ما يعني أنا جُذيلها المحكَّك وعُذَيقها المرجَّب؟ قال: كأنه يقول: أنا داهيتها -.

قال: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعداً، فقلت: قتل الله سعداً. قال عمر: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أرفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه تَغِرَّةً أن يُقتَلا.

قال مالك: فأخبرني ابن شهاب عن عروة: أن الرجلين اللذين لقياهما: عويم بن ساعدة ومعن بن عدي.

قال ابن شهاب: وأخبرني سعيد بن المسيب: أن الذي قال: أنا جُذيلها المحكَّك وعُذيقها المرجَّب هو الحباب ابن المنذر.

وقد أخرج هذا الحديث الجماعة [خ (٢٤٦٢)، م (١٦٩١) (١٥)، د (٤٤١٨)، ت (١٤٣٢)، س كبرى (٧١٥٦ - ٧١٦٠)، ج (٢٥٥٣) مطوّلاً ومختصراً] في كتبهم من طرق عن مالك وغيره، عن الزهري به.

وقال الإمام أحمد [٢١/١]: حدثنا معاوية بن عمرو، ثنا زائدة، ثنا عاصم [٢١/١]، (ح) وحدثني حسين بن علي عن زائدة، عن عاصم [٣٩٦/١]، عن زر عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر فقال: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

ورواه النسائي [٧٧٦] عن إسحاق بن راهويه، وهناد بن السري عن حسين بن علي الجعفي، عن زائدة به.

ورواه علي بن المديني عن حسين بن عليّ، وقال: صحيح لا أحفظه إلا من حديث زائدة عن عاصم.

وقد رواه النسائي [كبرى (٨١٠٩، ١١٢١٩)] أيضاً من حديث سلمة بن نبيط، عن نعيم بن أبي هند، عن نبيط بن شريط، عن سالم بن عبيد عن

عمر مثله.

وقد روي عن عمر بن الخطاب نحوه من طريق أخر [ت في «الشمائل» (٣٧٩) والكبير للطبراني (٦٣٦٧)].

وجاء من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن عمر. أنه قال: قلت: يا معشر المسلمين إن أولى الناس بأمر نبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر السباق المُبين، ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده، ثم ضربت على يده، وتبايع الناس.

وقد روى محمد بن سعد [الطبقات الكبرى: ١٨٢/٣] عن عارم بن الفضل، عن حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد؛ فذكر نحواً من هذه القصة، وسمى هذا الرجل الذي بايع الصديق قبل عمر بن الخطاب. فقال: هو بشير بن سعد، والد النعمان بن بشير.

سنة ١١- اعتراف سعد بن عبادة بصحة ما قاله الصّدّيق يوم السقيفة

قال الإمام أحمد [٥/١]: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة عن داود بن عبد الله الأودي، عن حميد بن عبد الرحمن قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في طائفة من المدينة. قال: فجاء فكشف عن وجهه فقبله. وقال: فدىً أبي وأمي ما أطيبك حياً وميتاً، مات محمد ورب الكعبة. فذكر الحديث.

قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتقاوّدان حتى أتوهم، فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً أنزل في الأنصار، ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره. وقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار». ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال - وأنت قاعد -: «قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرُّ الناس تَبَعٌ لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم». فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء.

وقال الإمام أحمد [٨/١] حدثنا عليّ بن عيّاش، ثنا الوليد ابن مسلم، أخبرني يزيد بن سعيد بن ذي عَصْوان العبسي، عن عبد الملك بن عمير اللخمي، عن رافع الطائي رفيق أبي بكر الصديق في غزوة ذات السلاسل. قال: وسألته عما قيل في بيعتهم. فقال وهو يحدثه عما تقاولت به الأنصار وما كلمهم به. وما كلم به عمر بن الخطاب الأنصار وما ذكرهم به، من امامتي إياهم بأمر رسول الله ﷺ في مرضه، فبايعوني لذلك، وقبلتها منهم، وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة.

وهذا إسناد جيد قوي.

ومعنى هذا أنه رضي الله عنه إنما قبل الإمامة تخوفاً أن تقع فتنة، أربى من تركه قبولها رضي الله عنه وأرضاه.

قلت: كان هذا في بقية يوم الاثنين، فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء، اجتمع الناس في المسجد فتمت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ تسليماً كثيراً.

قال البخاري [٧٢١٩]: أنبأنا إبراهيم بن موسى، ثنا هشام عن معمر، عن الزهري، أخبرني أنس بن مالك، أنه سمع خطبة عمر الأخيرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر صامت لا يتكلم. قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبُرَنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمداً قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين، وإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر.

قال الزهري عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول يومئذ لأبي بكر: اصعد المنبر؛ فلم يزل به حتى صعد المنبر، فبايعه عامة الناس.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦٠/٢، ٦٦١]: حدثني الزهري، حدثني أنس بن مالك. قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر وقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، اطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

وهذا إسناد صحيح.

فقوله رضي الله عنه - «وليتكم ولست بخيركم» - من باب الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الحافظ الإسفراييني، حدثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، وابن إبراهيم بن أبي طالب. قالا: حدثنا بندار، ابن بشار، وحدثنا أبو هشام المخزومي، حدثنا وهيب، حدثنا داود بن أبي هند، حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري، قال: قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ، ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره. قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم! أما لو قلتم على غير هذا لم نتابعكم، وأخذ بيد أبي بكر. وقال: هذا صاحبكم فبايعوه. فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار.

قال: فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم، فلم ير الزبير. قال: فدعا بالزبير فجاء، فقال: قلت: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين. فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فدعا بعليّ بن أبي طالب فجاء. فقال: قلتَ: ابن عم رسول الله ﷺ وختَنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟! قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله. فبايعه. هذا أو معناه.

وقال أبو علي الحافظ: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث، فكتبته له في رقعة وقرأته عليه وقال: هذا حديث يسوّى بدنة بل يسوي بدرة!

وقد رواه البيهقي [السنن الكبرى: ١٤٣/٨] عن الحاكم، وأبي محمد بن أبي حامد المقرئ، كلاهما عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم، عن جعفر بن محمد بن شاكر، عن عفان بن مسلم، عن وهيب به.

ولكن ذكر أن الصديق هو القائل لخطيب الأنصار بدل عمر. وفيه: أن زيد بن ثابت أخذ بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، ثم انطلقوا، فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم يـر علياً، فسأل عنه فقام ناس من الأنصار فأتوا به فذكر نحو ما تقدم، ثم ذكر قصة الزبير بعد عليّ فالله أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد [ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧٨/٣٠ من طريق الإمام احمد عن عفان، به] عن الثقة، عن وهيب مختصراً.

وقد رواه علي بن عاصم عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، فذكر نحو ما تقدم.

وهذا إسناد صحيح محفوظ من حديث أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخُدري.

وفيه فائدة جليلة، وهي مبايعة عليّ بن أبي طالب إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة. وهذا حق، فإن عليّ بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه كما سنذكره، وخرج معه إلى ذي القصة لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة كما سنبينه قريباً، ولكن لما حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ، ولم تعلم بما أخبرها به الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» [خ (٣٠٩٣)، م (١٧٥٩)] فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح، كما سنبين ذلك في موضعه، فسألته أن ينظر عليّ في صدقة الأرض التي بخيبر وفَدَك، فلم يجبها إلى ذلك. لأنه رأى أنّ حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ. وهو الصادق البار الراشد التابع للحق رضي الله عنه، فحصل لها - وهي امرأة من البشر ليست بواجبة العصمة - عتب وتغضب، ولم تكلم الصديق حتى ماتت، واحتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء. فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى عليّ أن يجدد البيعة مع أبي بكر رضي الله عنه كما سنذكره من الصحيحين وغيرهما فيما بعد إن شاء الله تعالى، مع مما تقدم له من البيعة، قبل دفن رسول الله ﷺ.

ويزيد ذلك صحة قول موسى بن عقبة في مغازيه عن سعد بن إبراهيم، حدثني أبي أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير. ثم خطب أبو بكر واعتذر إلى الناس، وقال: ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها في سر ولا علانية. فقبل المهاجرون مقالته. وقال عليّ والزبير: ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلي بالناس وهو حي.

إسناد جيد ولله الحمد والمنة.

سنة ١١- تقديم أبي بكر على غيره

ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة - المهاجرين منهم والأنصار - على تقديم أبي بكر، وظهر برهان قوله عليه الصلاة والسلام: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» [مسند احمد: ١٠٦/٦]. وظهر له أن رسول الله ﷺ لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس، لا لأبي بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعليّ كما يقوله طائفة من الرافضة. ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصدّيق كما قدمنا وكما سنذكره. ولله الحمد.

كما ثبت في الصحيحين [خ (٧٢١٨)، م (١٨٢٣) (١١)] من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب لما طعن قيل له: ألا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني. يعني - أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، يعني - رسول الله ﷺ - قال ابن عمر: فعرفت حين ذكر رسول الله ﷺ أنه غير مستخلِف.

وقال سفيان الثوري عن الأسود بن قيس عن عمرو بن سفيان قال: لما ظهر عليّ على الناس قال: يا أيها الناس يوم الجمل، قال: إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئاً، حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر، فأقام واستقام حتى مضى لسبيله، ثم إن أبا بكر رأى من الرأي أن يستخلف عمر، فأقام واستقام حتى مضى لسبيله - أو قال: حتى ضرب الدين بجرانه - إلى آخره.

وقال الإمام أحمد [١٤٧/١]: ثنا أبو نعيم، ثنا شريك عن الأسود بن قيس، عن عمرو بن سفيان. قال: خطب رجل يوم البصرة حين ظهر عليّ فقال عليّ: هذا الخطيب الشَّحْشَح! - سبق رسول الله ﷺ وصلى أبو بكر وثلَّث عمر، ثم خبطتنا فتنة بعدهم يصنع الله فيها ما يشاء.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٢٣/٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر محمد ابن أحمد المُزَكّي بمرو، ثنا عبد الله بن روح المدائني، ثنا شبابة بن سوار، ثنا شعيب بن ميمون عن حصين بن عبد الرحمن، عن الشعبي عن أبي وائل. قال: قيل لعليّ بن أبي طالب: ألا تستخلف علينا؟ فقال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم.

إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقد قدمنا ما ذكره البخاري [٤٤٤٧] من حديث الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن ابن عباس: أن عباساً وعلياً لما خرجا من عند رسول الله ﷺ، فقال رجل: كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال علي: أصبح بحمد الله بارئاً. فقال العباس: إنك والله بعد ثلاث عبد العصا، إني لأعرف في وجوه بني هاشم الموت، وإني لأرى في وجه رسول الله - ﷺ - الموت فاذهب بنا إليه فنسأله فيمن هذا الأمر؟ فإن كان فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه فوصاه بنا. فقال علي: إني لا أسأله ذلك، والله إن منعناها لا يعطيناها الناس بعده أبداً.

وقد رواه محمد بن إسحاق عن الزهري به فذكره. وقال في آخره: فتوفي رسول الله ﷺ حين اشتد الضحى من ذلك اليوم [سيرة ابن هشام:

٢/٦٥٤].

قلت: فهذا يكون في يوم الاثنين يوم الوفاة، فدل على أنه عليه الصلاة والسلام توفي عن غير وصية في الإمامة.

وفي الصحيحين [خ (١١٤)، م (١٦٣٧) (٢٢)] عن ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب ذلك الكتاب.

وقد قدمنا أنه عليه الصلاة والسلام كان طلب أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عنده قال: «قوموا عني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه» وقد قدمنا أنه قال بعد ذلك: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

وفي الصحيحين [خ (٢٧٤١)، م (١٦٣٦)] من حديث عبد الله بن عوف عن إبراهيم النخعي، عن الأسود. قال: قيل لعائشة: إنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ أوصى إلى عليّ. فقالت: بما أوصى إلى عليّ؟! لقد دعا بطست ليبول فيها وأنا مسندته إلى صدري، فانخنثَ فمات وما شعرت، فيم يقول هؤلاء: إنه أوصى إلى عليّ!!.

وفي الصحيحين [خ (٢٧٤٠)، م (١٦٣٤) (١٦) (١٧)] من حديث مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ قال: لا! قلت: فلم أُمرنا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله عز وجل. قال طلحة بن مصرف، وقال هُزيل بن شرحبيل: أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله ﷺ، ودّ أبو بكر أنه وجد عهداً من رسول الله ﷺ فخزم أنفه بخزامة.

وفي الصحيحين [خ (١٨٧٠)، م (١٣٧٠) (٤٦٧)] أيضاً من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه. قال: خطبنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فقال: من زعم أن عندنا شيئاً نقرأه ليس كتابَ الله وهذه الصحيفة - لصحيفة معلقة في سيفه فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات - فقد كذب.

وفيها قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حَرم ما بين عَير إلى ثور من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً».

وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما [د (٢٠٣٤)، ت (٢١٢٧)] عن عليّ رضي الله عنه، يرد على فرقة الرافضة في زعمهم أن رسول الله ﷺ أوصى إليه بالخلافة، ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة، فإنهم كانوا أطوع لله ولرسوله ﷺ في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه، فيقدموا غير من قدمه، ويؤخروا من قدمه بنصه، حاشا وكلا وكمّا، ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطئ على معاندة الرسول ﷺ ومضادتهم في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام، وكان إراقة دمه أحل من إراقة المُدَام.

ثم لو كان مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نص، فلم لا كان يحتج به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم وإمامته لهم؟ فإن لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز، والعاجز لا يصلح للإمارة، وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن، والخائن الفاسق مسلوب معزول عن الإمارة، وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل. ثم وقد عرفه وعلمه مَنْ بعدَه، فهذا محال وافتراء وجهل وضلال. وإنما يحسن هذا في أذهان الجهلة الطغام والمغترين من الأنام، يزينه لهم الشيطان بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد التحكم والهذيان والإفك والبهتان، عياذاً بالله مما هم فيه من التخليط والخذلان، والتخبيط والكفران، وملاذاً بالله بالتمسك بالسنة والقرآن، والوفاة على الإسلام والإيمان، والموافاة على الثبات والإيقان، وتثقيل الميزان، والنجاة من النيران، والفوز بالجنان، إنه كريم منان رحيم رحمن.

وفي هذا الحديث الثابت في الصحيحين عن عليّ الذي قدمناه رد على متقولة كثير من الطرقية، والقصّاص الجهلة في دعواهم أن النبي ﷺ أوصى إلى عليّ بأشياء كثيرة يسوقونها مطولة: يا عليّ افعل كذا، يا عليّ لا تفعل كذا، يا عليّ من فعل كذا كان كذا وكذا. بألفاظ ركيكة ومعاني أكثرها سخيفة، وكثير منها ضعيفة لا تساوي تسويد الصحيفة، والله أعلم.

وقد أورد الحافظ البيهقي [الدلائل: ٧/٢٢٩] من طريق حماد بن عمرو النصيبي - وهو أحد الكذابين الوضّاعين - عن السري بن خلاد عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ قال: «يا عليّ أوصيك بوصية فاحفظها: فإنك لا تزال بخير ما حفظتها، يا علي إن للمؤمن ثلاث علامات الصلاة والصيام والزكاة».

قال البيهقي فذكر حديثاً طويلاً في الرغائب والآداب، وهو حديث موضوع وقد شرطت في أول الكتاب أن لا أخرج فيه حديثاً أعلمه موضوعاً.

ثم روى [البيهقي في الدلائل: ٧/٢٢٩] من طريق حماد بن عمرو هذا عن زيد بن رفيع، عن مكحول الشامي، قال: هذا ما قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب حين رجع من غزوة حنين وأنزلت عليه سورة النصر.

قال البيهقي: فذكر حديثاً طويلاً في الفتنة، وهو أيضاً حديث منكر ليس له أصل، وفي الأحاديث الصحيحة كفاية وبالله التوفيق.

ولنذكر ها هنا ترجمة حماد بن عمر أبي إسماعيل النصيبي:

روى عن الأعمش وغيره، وعنه إبراهيم بن موسى ومحمد بن مهران وموسى بن أيوب وغيرهم.

قال يحيى بن معين: هو ممن يكذب ويضع الحديث.

وقال عمرو بن علي الفلاس وأبو حاتم: منكر الحديث ضعيف جداً. وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: كان يكذب.

وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو زرعة: واهي الحديث.

وقال النسائي: متروك. وقال ابن حبان: يضع الحديث وضعاً. وقال ابن عدي: عامة حديثه مما لا يتابعه أحد من الثقات عليه.

وقال الدارقطني: ضعيف.

وقال الحاكم أبو عبد الله: يروي عنَ الثقات أحاديث موضوعة، وهو ساقط بمرة.

فأما الحديث الذي قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٧/٢٣١، ٢٣٢]: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا حمزة بن العباس العقبي ببغداد، ثنا عبد الله بن روح المدائني، ثنا سلام بن سليمان المدائني، ثنا سلام بن سليم الطويل، عن عبد الملك بن عبد الرحمن، عن الحسن العُرَني، عن الأشعث بن طليق، عن مرة بن شراحيل، عن عبد الله بن مسعود. قال: لما ثقل رسول الله ﷺ اجتمعنا في بيت عائشة، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فدمعت عيناه، ثم قال لنا: «قد دنا الفراق» ونعى إلينا نفسه، ثم قال:

«مرحباً بكم حياكم الله، هداكم الله، نصركم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، سددكم الله، وقاكم الله، أعانكم الله، قَبِلَكم الله، اوصيكم بتقوى الله، واوصي الله بكم، واستخلفه عليكم، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده. فإن الله قال لي ولكم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[العنكبوت: ٦٨].

قلنا: فمتى أجلك يا رسول الله؟ قال: «قد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله والسدرة المنتهى، والكأس الأوفى، والفرش الأعلى». قلنا: فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال: «رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى، مع ملائكة كثيرة، يرونكم من حيث لا ترونهم». قلنا: ففيم نكفنك يا رسول الله؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم، أو في يمنية أو في بياض مِصْرَ». قلنا: فمن يصلي عليك يا رسول الله؟ فبكى وبكينا. وقال: «مهلاً! غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني وحنطتموني وكفنتموني فضعوني على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي عليّ خليلاي وجليساي جبريل وميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنود من الملائكة عليهم السلام، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي ثم نساؤهم، ثم ادخلوا عليّ أفواجاً وفرادى، ولا تؤذوني بباكية ولا برنّةٍ ولا بصيحةٍ، ومن كان غائباً من أصحابي فأبلغوه عني السلام، وأشهدكم بأني قد سلمت على من دخل في الإسلام ومن تابعني في ديني هذا، منذ اليوم إلى يوم القيامة». قلنا: فمن يدخلك قبرك يا رسول الله؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة، يرونكم من حيث لا ترونهم».

ثم قال البيهقي تابعه أحمد بن يونس عن سلام الطويل. وتفرد به سلام الطويل.

قلت: وهو سلام بن سَلْم، ويقال: ابن سليم، ويقال: ابن سليمان، والأول أصح، التيمي السعدي الطويل. يروي عن جعفر الصادق، وحميد الطويل، وزيد العمي وجماعة. وعنه جماعة أيضا منهم: أحمد بن عبد الله بن يونس، وأسد بن موسى، وخلف بن هشام البزار، وعليّ بن الجعد، وقبيصة بن عقبة.

وقد ضعفه عليّ بن المديني، وأحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين، والبخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والجوزجاني والنسائي وغير واحد، وكذبه بعض الأئمة، وتركه آخرون.

لكن روى هذا الحديث بهذا السياق بطوله الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٨٤٧)] من غير طريق سلام هذا فقال:

حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن ابن الأصبهاني، أنه أخبره عن مرة، عن عبد الله. فذكر الحديث بطوله. ثم قال البزار: وقد روي هذا عن مُرّة من غير وجه بأسانيد متقاربة، وعبد الرحمن بن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة، وإنما هو عمن أخبره عن مرة، ولا أعلم أحداً رواه عن عبد الله غير مُرّة.

سنة ١١- تاريخ وفاة النبي ﷺ وسنه

لا خلاف أنه عليه الصلاة والسلام توفي يوم الاثنين.

قال ابن عباس: ولد نبيكم ﷺ في يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، وخرج من مكة مهاجراً يوم الاثنين، ودخل يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين.

رواه الإمام أحمد [١/٢٧٧] والبيهقي [الدلائل: ٧/٢٣٣].

وقال سفيان الثوري عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي أبو بكر: أي يوم توفي رسول الله ﷺ؟ قلت: يوم الاثنين. فقال: إني لأرجو أن أموت فيه. فمات فيه.

رواه البيهقي [الدلائل: ٧/٢٣٣] من حديث الثوري به.

وقال الإمام أحمد [٤/١١٠]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا هريم، حدثني ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة. قالت: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء.

تفرد به أحمد.

وقال عروة بن الزبير في مغازيه، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه، أرسلت عائشة إلى أبي بكر، وأرسلت حفصة إلى عمر، وأرسلت فاطمة إلى علي، فلم يجتمعوا حتى توفي رسول الله ﷺ، وهو في صدر عائشة وفي يومها؛ يوم الاثنين حين زاغت الشمس لهلال ربيع الأول.

وقد قال أبو يعلى [مسنده (٣٥٤٨)]: حدثنا أبو خيثمة، ثنا ابن عيينة، عن الزهري، عن أنس. قال: آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين كشف الستارة، والناس خلف أبي بكر، فنظرت إلى وجهه كأنه ورقة مصحف، فأراد الناس أن ينحرفوا، فأشار إليهم أن امكثوا وألقى السَّجْفَ، وتوفي من آخر ذلك اليوم.

وهذا الحديث في الصحيح [خ (٨٦٠)، م (٤١٩)]، وهو يدل على أن الوفاة وقعت بعد الزوال والله أعلم.

وروى يعقوب بن سفيان عن عبد الحميد بن بكار، عن محمد بن شعيب، وعن صفوان، عن عمر بن عبد الواحد، جميعاً عن الأوزاعي؛ أنه قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين قبل أن ينتصف النهار.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٣٤]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أحمد بن كامل، ثنا الحسن بن علي البزار، ثنا محمد بن عبد الأعلى، ثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه وهو سليمان بن طرخان التيمي في كتاب المغازي. قال: إن رسول الله ﷺ مرض لاثنتين وعشرين ليلة من صفر، وبدأه وجعه عند وليدة له يقال لها ريحانة، كانت من سبي اليهود، وكان أول يوم مرض فيه يوم السبت، وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول لتمام عشر سنين من مقدمه عليه الصلاة والسلام المدينة.

وقال الواقدي: حدثنا أبو معشر عن محمد بن قيس. قال: اشتكى رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة في بيت زينب بنت جحش، شكوى شديدة، فاجتمع عنده نساؤه كلهن فاشتكى ثلاثة عشر يوما، وتوفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

وقال الواقدي: وقالوا: بدئ رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، وتوفي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

وهكذا جزم به محمد بن سعد كاتبه، وزاد: ودفن يوم الثلاثاء.

قال الواقدي: وحدثني سعيد بن عبد الله بن أبي الأبيض عن المقبري، عن عبد الله بن رافع، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ بدئ في بيت ميمونة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أحمد بن يونس، ثنا أبو معشر عن

محمد بن قيس. قال: اشتكى رسول الله ﷺ ثلاثة عشر يوماً، فكان إذا وجد خفة صلى، وإذا ثقل صلى أبو بكر رضي الله عنه.

وقال محمد بن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٢٣٥/٧]: توفي رسول الله ﷺ لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول في اليوم الذي قدم فيه المدينة مهاجراً، واستكمل رسول الله ﷺ في هجرته عشر سنين كوامل.

قال الواقدي: وهو المثبت عندنا، وجزم به محمد بن سعد كاتبه [الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣١١/٢].

وقال يعقوب بن سفيان عن يحيى بن بكير، عن الليث؛ أنه قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلة خلت من ربيع الأول، وفيه قدم المدينة على رأس عشر سنين من مقدمه.

وقال سعد بن إبراهيم الزهري: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، لتمام عشر سنين من مقدمه المدينة، رواه ابن عساكر.

ورواه الواقدي عن أبي معشر عن محمد بن قيس مثله سواء.

وقاله خليفة بن خياط [تاريخه: ص٦٨] أيضاً: وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين مستهل ربيع الأول سنة إحدى عشرة من مقدمه المدينة.

ورواه ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ٣٨٧/٢] أيضاً.

وقد تقدم قريبا عن عروة، وموسى بن عقبة، والزهري مثله فيما نقلناه عن مغازيهما فالله أعلم.

والمشهور قول ابن إسحاق والواقدي.

ورواه الواقدي عن ابن عباس، عن عائشة رضي الله عنها، فقال: حدثني إبراهيم بن يزيد، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس. وحدثني محمد بن عبد الله عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. قالا: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

ورواه ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبيه مثله - وزاد ودفن ليلة الأربعاء.

وروى سيف بن عمر عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. قال: لما قضى رسول الله ﷺ حجة الوداع ارتحل فأتى المدينة، فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً، ومات يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الأول.

وروى أيضاً عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، وفي حديث فاطمة عن عمرة. عن عائشة مثله، إلا أن ابن عباس قال في أوله: لأيام مضين منه وقالت عائشة: بعدما مضى أيام منه.

فائدة: قال أبو القاسم السهيلي في الروض [٥٧٩/٧] ما مضمونه: لا يتصور وقوع وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام وقف في حجة الوداع سنة عشر يوم الجمعة، فكان أول ذي الحجة يوم الخميس، فعلى تقدير أن تحسب الشهور تامة أو ناقصة أو بعضها تام وبعضها ناقص، لا يتصور أن يكون يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول.

وقد اشتهر هذا الإيراد على هذا القول. وقد حاول جماعة الجواب، عنه ولا يمكن الجواب عنه إلا بمسلك واحد، وهو اختلاف المطالع بأن يكون أهل مكة رأوا هلال ذي الحجة ليلة الخميس، وأما أهل المدينة فلم يروه إلا ليلة الجمعة، ويؤيد هذا قول عائشة وغيرها: خرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة [خ (١٧٠٩)، م (١٢١١) (١٢٥)] - يعني من المدينة - إلى حجة الوداع.

ويتعين كما ذكرناه أنه خرج يوم السبت، وليس كما زعم ابن حزم أنه خرج يوم الخميس [حجة الوداع ص١٧]، لأنه قد بقي أكثر من خمس بلا شك، ولا جائز أن يكون خرج يوم الجمعة، لأن أنساً قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة أربعا والعصر بذي الحليفة ركعتين [خ (١٧١٥)، م (٦٩٠) (١٠)].

فتعين أنه خرج يوم السبت لخمس بقين، فعلى هذا إنما رأى أهل المدينة هلال ذي الحجة ليلة الجمعة، وإذا كان أول ذي الحجة عند أهل المدينة الجمعة، وحسبت الشهور بعده كوامل، يكون أول ربيع الأول يوم الخميس، فيكون ثاني عشرة يوم الاثنين والله أعلم.

وثبت في الصحيحين [خ (٣٥٤٨)، م (٢٣٤٧) (١١٣)] من حديث مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط، ولا بالسبط، بعثه الله عز وجل على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وهكذا رواه ابن وهب عن قُرّة، عن الزهري، عن أنس، وعن قرة عن ربيعة، عن أنس مثل ذلك.

قال الحافظ ابن عساكر: حديث قرة عن الزهري غريب، وأما من رواية ربيعة عن أنس، فرواها عنه جماعة كذلك.

ثم أسند من طريق سليمان بن بلال عن يحيى ابن سعيد وربيعة عن أنس: أن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين.

وكذلك رواه ابن البربري ونافع بن أبي نعيم عن ربيعة، عن أنس به. قال: والمحفوظ عن ربيعة عن أنس: ستون.

ثم أورده ابن عساكر من طريق مالك والأوزاعي، ومسعر وإبراهيم بن طهمان، وعبد الله بن عمر، وسليمان بن بلال، وأنس بن عياض، والدراوردي، ومحمد ابن قيس المدني، كلهم عن ربيعة، عن أنس. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ستين سنة.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٣٧/٧]: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، ثنا أبو عمرو بن السماك، ثنا حنبل بن إسحاق، ثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو، حدثنا عبد الوارث، ثنا أبو غالب الباهلي قال: قلت لأنس بن مالك: بينَّ أيُّ الرجال كان رسول الله - ﷺ - إذ بعث؟ قال: كان ابن أربعين سنة، قال: ثم كان ماذا؟ قال: كان بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، فتمت له ستون سنة يوم قبضه الله عز وجل وهو كأشد الرجال وأحسَنِه وأجمَلِه وألحَمِه.

ورواه الإمام أحمد [٢٣٧/٧] عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه به.

وقد روى مسلم [٢٣٤٨] عن أبي غسان محمد بن عمرو الرازي الملقب بزُنَيج، عن حكام بن سلْم عن عثمان بن زائدة، عن الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وقُبض أبو بكر هو ابن ثلاث وستين وقبض عمر وهو ابن ثلاث وستين.

انفرد به مسلم وهذا لا ينافي ما تقدم عن أنس لأن العرب كثيراً ما تحذف الكسر.

وثبت في الصحيحين [خ (٤٤٦٦)، م (٢٣٤٩) (١١٥)] من حديث الليث بن سعد عن عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: توفي

رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب مثله.

وروى موسى بن عقبة وعقيل ويونس بن يزيد وابن جريج عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. قالت: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين [أخرج رواية موسى بن عقبة ابن حبان كما في الإحسان (٦٣٨٨)، ورواية عقيل خ (٤٤٦٦). م (٢٣٤٩) (١١٥)، وأخرج رواية يونس بن يزيد م (٢٣٤٩) (...)].

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب مثل ذلك.

وقال البخاري [٤٤٦٤، ٤٤٦٥]: ثنا أبو نعيم، ثنا شيبان عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عائشة، وابن عباس: أن رسول الله ﷺ مكث بمكة عشر سنين يُنْزَل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا، لم يخرجه مسلم.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: ثنا شعبة عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد عن جرير بن عبد الله، عن معاوية بن أبي سفيان. قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين. وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين، وعمر وهو ابن ثلاث وستين.

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٥٢) (١٢٠)] من حديث غندر، عن شعبة، وهو من أفراده دون البخاري. ومنهم من يقول: عن عامر بن سعد، عن معاوية، والصواب ما ذكرناه عن عامر بن سعد عن جرير، عن معاوية فذكره.

ورويناه من طريق عامر ابن شراحيل الشعبي، عن جرير بن عبد الله البجلي، عن معاوية فذكره.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق القاضي أبي يوسف، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وتوفي أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين، وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين.

وقال ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان رسول الله ﷺ أكبر من أبي بكر، فتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وتوفي أبو بكر بعده وهو ابن ثلاث وستين.

وقال الثوري عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وهم بنو ثلاث وستين.

وقال حنبل: حدثنا الإمام أحمد: ثنا يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين فأقام بمكة عشرا وبالمدينة عشرا.

وهذا غريب عنه، وصحيح إليه.

وقال أحمد: ثنا هشيم، ثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال: نبئ رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فمكث ثلاث سنين، ثم بعث إليه جبريل بالرسالة، ثم مكث بعد ذلك عشر سنين، ثم هاجر إلى المدينة، فقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل: الثابت عندنا ثلاث وستون [مختصر تاريخ دمشق: ٣٨٩/٢].

قلت: وهكذا روى مجاهد عن الشعبي، ورُوي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عنه.

وفي الصحيحين [خ (٣٩٠٣)، م (٢٣٥١)] من حديث روح بن عبادة عن زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وفي صحيح البخاري [٣٩٠٢] من حديث روح بن عبادة أيضاً عن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ثم مات وهو ابن ثلاث وستين.

وكذلك رواه الإمام [٣٧١/١] أحمد عن روح بن عبادة ويحيى بن سعيد ويزيد بن هارون، كلهم عن هشام بن حسان، عن عكرمة، عن ابن عباس به.

وقد رواه أبو يعلى الموصلي عن الحسن بن عمر بن شقيق، عن جعفر بن سليمان، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس فذكر مثله.

ثم أورده من طرق عن ابن عباس مثل ذلك.

ورواه مسلم [(٢٣٥١) (١١٨)] من حديث حماد بن سلمة، عن أبي حمزة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقد أسند الحافظ ابن عساكر من طريق سَلْم بن جنادة عن عبد الله بن عمر، عن كريب عن ابن عباس. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين.

ومن حديث أبي نضرة عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس مثله.

وهذا القول هو الأشهر، وعليه الأكثر.

وقال الإمام أحمد [٢٢٣/١، ٣٥٩]: ثنا إسماعيل، عن خالد الحذاء، حدثني عمار مولى بني هاشم، سمعت ابن عباس يقول: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

ورواه مسلم [(٢٣٥٣) (١٢٢)] من حديث خالد الحذاء به.

وقال أحمد [٢٦٦/١، ٢٩٤]: ثنا حسن بن موسى، ثنا حماد ابن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة؛ ثمان سنين - أو سبع- يرى الضوء ويسمع الصوت، وثمانياً أو سبعاً يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً.

ورواه مسلم [(٢٣٥٣) (١٢٣)] من حديث حماد بن سلمة به.

وقال أحمد أيضاً [٢٩٠/١]: حدثنا عفان، ثنا يزيد بن زريع، ثنا يونس عن عمار مولى بني هاشم. قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ قال: ما كنت أرى مثلك في قومه يخفى عليك ذلك! قال: قلت: إني قد سألت فاختلف عليَّ فأحببت أن أعلم قولك فيه. قال: أتحسب؟ قلت: نعم! قال: أمسك؛ أربعين بعث لها، وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف، وعشراً مهاجراً بالمدينة.

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٥٣) (١٢١)] من حديث يزيد بن زريع، وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن يونس بن عبيد عن عمار، عن ابن عباس بنحوه.

وقال الإمام أحمد [٢٣٠/١]: ثنا ابن نمير، ثنا العلاء ابن صالح، ثنا المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير: أن رجلا أتى ابن عباس فقال: أنزل على النبي ﷺ عشراً بمكة وعشراً بالمدينة. فقال: من يقول ذلك؟ لقد أنزل عليه بمكة خمس عشرة، وبالمدينة عشراً، خمساً وستين وأكثر.

وهذا من أفراد أحمد إسناداً ومتناً.

وقال الإمام أحمد [٢١٥/١]: ثنا هشيم: ثنا علي بن زيد عن يوسف

بن مهران، عن ابن عباس. قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

تفرد به أحمد.

وقد روى الترمذي في كتاب الشمائل [٣٦٦] وأبو يعلى الموصلي [مسنده (١٥٧٥)] والبيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٠، ٢٤١] من حديث قتادة عن الحسن البصري عن دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة: أن النبي ﷺ قبض وهو ابن خمس وستين.

ثم قال الترمذي: دغفل لا يعرف له سماعاً عن النبي ﷺ، وقد كان في زمانه رجلا.

وقال البيهقي: وهذا يوافق رواية عمار ومن تابعه عن ابن عباس. ورواية الجماعة عن ابن عباس: في ثلاث وستين أصح، فهم أوثق وأكثر، وروايتهم توافق الرواية الصحيحة عن عروة، عن عائشة، وإحدى الروايتين عن أنس، والرواية الصحيحة عن معاوية، وهي قول سعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وأبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهم.

قلت: وعبد الله بن عُتبة والقاسم بن عبد الرحمن والحسن البصري وعلي بن الحسين وغير واحد.

ومن الأقوال الغريبة ما رواه خليفة بن خياط [تاريخه: ٧٠/١] عن معاذ بن هشام: حدثني أبي عن قتادة. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتين وستة.

ورواه يعقوب بن سفيان عن محمد بن المثنى، عن معاذ بن هشام، عن أبيه عن قتادة مثله.

ورواه زيد العمي عن يزيد، عن أنس.

ومن ذلك ما رواه محمد بن عائذ عن القاسم بن حميد، عن النعمان بن المنذر الغساني عن مكحول. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتين وستين سنة وأشهر.

ورواه يعقوب بن سفيان عن عبد الحميد بن بكار، عن محمد بن شعيب، عن النعمان بن المنذر، عن مكحول. قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتين وستين سنة ونصف.

وأغرب من ذلك كله ما رواه الإمام أحمد عن روح، عن سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن. قال: نزل القرآن على رسول الله ﷺ ثماني سنين بمكة، وعشر بعدما هاجر. فإن كان الحسن ممن يقول بقول الجمهور، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أنزل عليه القرآن وعمره أربعون سنة، فقد ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام عاش ثمانياً وخمسين سنة.

وهذا غريب جداً.

لكن روينا من طريق مسدد عن هشام بن حسان، عن الحسن. أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ستين سنة.

وقال خليفة بن خياط [تاريخه: ١١/١]: "حدثنا أبو عاصم عن أشعث، عن الحسن قال: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وأربعين، فأقام بمكة عشراً، وبالمدينة ثمانياً، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين".

وهذا بهذه الصفة غريب جداً والله أعلم.

سنة ١١- صفة غسله ﷺ

قد قدمنا أنهم رضي الله عنهم اشتغلوا ببيعة الصديق بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء، فلما تمهدت وتوطدت وتمت شرعوا، بعد ذلك في تجهيز رسول الله ﷺ مقتدين في كل ما أشكل عليهم بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٦٢/٢]: فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وقد تقدم من حديث ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين ودفن ليلة الأربعاء.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، ثنا أبو بردة عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. قال: لما أخذوا في غسل رسول الله ﷺ ناداهم مناد من الداخل: أن لا تجردوا عن رسول الله ﷺ قميصه.

ورواه ابن ماجه [١٤٦٦] من حديث أبي معاوية، عن أبي بردة - واسمه عمرو بن يزيد التميمي كوفي.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، سمعت عائشة تقول: لما أرادوا غسل النبي ﷺ، قالوا: ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت، لا يدرون من هو: أن غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، فيدلكونه بالقميص دون أيديهم. فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه.

رواه أبو داود [٣١٤١] من حديث ابن إسحاق.

وقال الإمام أحمد [٢٦٠/١]: حدثنا يعقوب، ثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: اجتمع القوم لغسل رسول الله ﷺ وليس في البيت إلا أهله، عمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد ابن حارثة، وصالح مولاه. فلما اجتمعوا لغسله نادى من وراء الباب أوسُ بن خولي الأنصاري أحد بني عوف بن الخزرج - وكان بدرياً - عليَّ بن أبي طالب. فقال: يا عليّ نشدتك الله وحظنا من رسول الله ﷺ. فقال له عليّ: ادخل فدخل، فحضر غسل رسول الله ﷺ، ولم يل من غسله شيئاً، فأسنده عليّ إلى صدره وعليه قميصه، وكان العباس وفضل وقثم يقلبونه مع علي، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاهما يصبان الماء، وجعل علي يغسله ولم ير من رسول الله ﷺ شيئاً مما يراه من الميت. وهو يقول: بأبي وأمي ما أطيبك حياً وميتاً، حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله ﷺ وكان يغسل بالماء والسدر جففوه ثم صنع به ما يصنع بالميت ثم أدرج في ثلاثة أثواب: ثوبين أبيضين وبرد حبرة، قال: ثم دعا العباس رجلين. فقال: ليذهب أحدكما إلى أبي عبيدة بن الجراح - وكان أبو عبيدة يَضْرَحُ لأهل مكة. وليذهب الآخر إلى أبي طلحة بن سهل الأنصاري - وكان أبو طلحة يلحد لأهل المدينة. قال: ثم قال العباس حين سرحهما: اللهم خر لرسولك! قال: فذهبا فلم يجد صاحب أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحد لرسول الله ﷺ.

انفرد به أحمد.

وقال يونس بن بكير عن المنذر بن ثعلبة، عن العلباء بن أحمر قال: كان علي والفضل يغسلان رسول الله ﷺ، فنودي عليٌّ: ارفع طرفك إلى السماء.

وهذا منقطع.

قلت: وقد روى بعض أهل السنن [د (٣١٤٠، ٤٠١٥)، ج (١٤٦٠)] عن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا علي لا تبد فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت».

وهذا فيه إشعار بأمره له في حق نفسه والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٣، ٢٤٤]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا محمد بن يعقوب، ثنا يحيى بن محمد بن يحيى، ثنا مسدد، ثنا عبد الواحد بن زياد ثنا معمر عن الزهري، عن سعيد بن المسيب. قال: قال علي: غسلت رسول الله ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ.

وقد رواه أبو داود في المراسيل [ص٢٠٩]، وابن ماجه [١٤٦٧] من حديث معمر به، زاد البيهقي في روايته: قال سعيد بن المسيب: وقد ولي دفنه عليه الصلاة والسلام أربعة: عليٌ والعباس والفضل وصالح مولى رسول الله ﷺ، لحدوا له لحداً، ونصبوا عليه اللبن نصباً.

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين، منهم عامر الشعبي ومحمد بن قيس وعبد الله بن الحارث وغيرهم، بألفاظ مختلفة يطول بسطها ها هنا.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٤]: وروى أبو عمرو كيسان عن يزيد بن بلال، سمعت علياً يقول: أوصى رسول الله ﷺ أن لا يغسله أحد غيري؛ «فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه». قال علي: فكان العباس وأسامة يناولاني الماء من وراء الستر، قال علي: فما تناولت عضواً إلا كأنه يقلّبه معي ثلاثون رجلا، حتى فرغت من غسله.

وقد أسند هذا الحديث الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار (٨٤٨)] فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، ثنا عبد الصمد بن النعمان، ثنا كيسان أبو عمرو عن يزيد بن بلال. قال: قال عليّ: أوصاني النبي ﷺ أن لا يغسله أحد غيري، «فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه». قال عليّ: فكان العباس وأسامة يناولاني الماء من وراء الستر.

قلت: هذا غريب جداً.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٥]: أنبأنا محمد بن موسى بن الفضل، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا أسيد بن عاصم، ثنا الحسين بن حفص عن سفيان عن عبد الملك بن جريج، سمعت محمد بن علي أبا جعفر. قال: غسل النبي ﷺ بالسدر ثلاثاً، وغسل وعليه قميص، وغسّل من بئر كان يقال لها الغرس بقُباء كانت لسعد بن خيثمة، وكان رسول الله ﷺ يشرب منها، وولي غسله عليّ والفضل محتضنُه، والعباس يصب الماء، فجعل الفضل يقول: أرحني قطعت وتيني إني لأجد شيئاً يترطل علي.

وقال الواقدي: ثنا عاصم بن عبد الله الحكمي عن عمر بن الحكم. قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم البئر بئر غرس هي من عيون الجنة وماؤها أطيب المياه». وكان رسول الله ﷺ يستعذب له منها، وغسل من بئر غرس.

وقال سيف بن عمر، عن محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: لما فرغ من القبر وصلى الناس الظهر، أخذ العباس في غسل رسول الله ﷺ، فضَرّب عليه كِلَّةً من ثياب يمانية صفاق في جوف البيت، فدخل الكِلّة ودعا علياً والفضل، فكان إذا ذهب إلى الماء ليعاطيهما، دعا أبا سفيان بن الحارث فأدخله ورجال من بني هاشم من وراء الكلة، ومن أدخل من الأنصار حيث ناشدوا أبي وسألوه منهم: أوس بن خولي رضي الله عنهم أجمعين.

ثم قال سيف عن الضحاك بن يربوع الحنفي، عن ماهان الحنفي، عن ابن عباس، فذكر ضرب الكلة، وأن العباس أدخل فيها علياً والفضل وأبا سفيان وأسامة، ورجال من بني هاشم من وراء الكلة في البيت، فذكر أنهم ألقي عليهم النعاس فسمعوا قائلا يقول: لا تغسلوا رسول الله فإنه كان طاهراً، فقال العباس: ألا بلى، وقال أهل البيت: صدق فلا تغسلوه، فقال العباس: لا ندع سُنّته لصوت لا ندري ما هو؟ وغشيهم النعاس ثانية، فناداهم أن غسلوه وعليه ثيابه. فقال أهل البيت: ألا لا. وقال العباس: ألا نعم! فشرعوا في غسله وعليه قميص ومِجْوَلٌ مفتوح، فغسلوه بالماء القراح، وطيبوه بالكافور في مواضع سجوده ومفاصله، واعتصر قميصه ومجوله، ثم أدرج في أكفانه، وجمروه عوداً ونَدّاً ثم احتملوه حتى وضعوه على سريره وسجّوه.

وهذا السياق فيه غرابة جداً.

سنة ١١- صفة كفنه ﷺ

قال الإمام أحمد [٦/١٦١]: حدثنا الوليد بن مسلم، ثنا الأوزاعي، حدثني الزهري، عن القاسم، عن عائشة. قالت: أدرج رسول الله ﷺ في ثوب حبرة، ثم أُخذ عنه.

قال القاسم: إن بقايا ذلك الثوب لعندنا بعد.

وهذا الإسناد على شرط الشيخين. وإنما رواه أبو داود [٣١٤٩] عن أحمد بن حنبل والنسائي [كبرى (٧١١٨)]، عن محمد بن مثنى، ومجاهد بن موسى، فرّقهما كلهم عن الوليد بن مسلم به.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي [ترتيب مسند الشافعي (٥٧٤)]: ثنا مالك عن هشام بن عروة، عن، أبيه عن عائشة. قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة.

وكذا رواه البخاري [١٢٧٣] عن إسماعيل بن إدريس، عن مالك.

وقال الإمام أحمد [٦/٤٠]: حدثنا سفيان عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض.

وأخرجه مسلم [(٩٤١) (٤٦)] من حديث سفيان بن عيينة.

وأخرجه البخاري [١٢٧١] عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، كلاهما عن هشام بن عروة به.

وقال أبو داود [٣١٥٢]: ثنا قتيبة، ثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض يمانية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة. قال: فذكر لعائشة قولهم في ثوبين وبرد حبرة، فقالت: قد أتي بالبرد، ولكنهم ردوه ولم يكفنوه فيه.

وهكذا رواه مسلم [(٩٤١) (٤٦)] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن حفص بن غياث به.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٧]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم، ثنا أحمد بن سلمه، ثنا هناد بن السري، ثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحوليه من كرسف، ليس فيها قميص ولاعمامة، فأما الحلة، فإنما شبه على الناس فيها، إنما اشتريت له حلّة ليكفن فيها فتركت. فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها لنفسي

حتى أكفن فيها. ثم قال: لو رضيها الله لنبيه ﷺ لكفنه فيها، فباعها وتصدق بثمنها.

رواه مسلم في الصحيح [(٩٤١) (٤٥)] عن يحيى بن يحيى وغيره، عن أبي معاوية.

ثم رواه البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٧، ٢٤٨] عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة. قالت: كفن رسول الله ﷺ في برد حبرة كانت لعبد الله بن أبي بكر ولف فيها، ثم نزعت عنه، فكان عبد الله بن أبي بكر قد أمسك تلك الحلة لنفسه حتى يكفن فيها إذا مات. ثم قال بعد أن أمسكها: ما كنت أمسك لنفسي شيئا منع الله رسوله ﷺ أن يكفن فيه، فتصدق بثمنها عبد الله.

وقال الإمام أحمد [٦/٢٣١]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض.

ورواه النسائي [١٨٩٦] عن إسحاق بن راهويه، عن عبد الرزاق.

قال الإمام أحمد [٦/٢٦٤]: حدثنا مسكين بن بكير، عن سعيد يعني ابن عبد العزيز، قال: قال مكحول: حدثني عروة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة رياط يمانية.

انفرد به أحمد.

وقال أبو يعلى الموصلي: ثنا سهل بن حبيب الأنصاري، ثنا عاصم بن هلال إمام مسجد أيوب، ثنا أيوب، عن نافع، عن ابن عمر. قال: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية.

وقال سفيان عن عاصم بن عبيد الله، عن سالم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب.

ووقع في بعض الروايات؛ ثوبين صحاريين وبرد حبرة [طبقات ابن سعد: ٢/٢٨٤].

وقال الإمام أحمد [١/٢٢٢]: ثنا ابن إدريس، ثنا يزيد عن مقسم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب في قميصه الذي مات فيه، وحلة نجرانية ـ الحلة ثوبان ـ.

ورواه أبو داود [٣١٥٣] عن أحمد بن حنبل، وعثمان بن أبي شيبة.

وابن ماجه [١٤٧١] عن عليّ بن محمد، ثلاثتهم عن عبد الله بن إدريس، عن يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس بنحوه.

وهذا غريب جداً.

وقال الإمام أحمد [١/٣١٣] أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، ثنا سفيان عن ابن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس. قال: كفن رسول الله ﷺ في ثوبين أبيضين وبرد أحمر.

انفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أبو بكر الشافعي: حدثنا علي بن الحسن، ثنا حميد بن الربيع، ثنا بكر ـ يعني ابن عبد الرحمن ـ ثنا عيسى ـ يعني ابن المختار ـ عن محمد بن عبد الرحمن، هو ابن أبي ليلى، عن عطاء، عن ابن عباس، عن الفضل بن عباس. قال: كفن رسول الله ﷺ في ثوبين أبيضين وبرد أحمر.

وقال أبو يعلى [مسنده (٦٧٢٠)]: حدثنا سليمان الشاذكوني، ثنا يحيى بن أبي الهيثم، ثنا عثمان بن عطاء عن أبيه، عن ابن عباس، عن الفضل. قال: كفن رسول الله ﷺ في ثوبين أبيضين سحوليين، زاد فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى: وبرد أحمر.

وقد رواه غير واحد عن إسماعيل المؤدب، عن يعقوب بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس، عن الفضل. قال: كفن رسول الله ﷺ في ثوبين أبيضين [صحيح ابن حبان كما في الإحسان (٣٠٣٥)]. وفي رواية: سحوليين [صحيح ابن حبان كما في الإحسان (٣٠٣٥)] فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق أبي طاهر المخلص: حدثنا أحمد بن إسحاق بن البهلول، ثنا عباد بن يعقوب، ثنا شريك عن أبي إسحاق. قال: وقعت على مجلس بني عبد المطلب وهم متوافرون، فقلت لهم: في كم كفن رسول الله ﷺ؟ قالوا: في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا قباء ولا عمامة قلت: كم أسر منكم يوم بدر؟ قالوا: العباس ونوفل وعقيل.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٨] من طريق الزهري عن عليّ بن الحسين زين العابدين أنه قال: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب أحدها برد حمراء حبرة.

وقد ساقه الحافظ ابن عساكر من طريق في صحتها نظر، عن عليّ بن أبي طالب. قال: كفنت رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين وبرد حبرة.

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا إبراهيم بن الوليد، ثنا محمد بن كثير، ثنا هشام عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة. قال: كفن رسول الله ﷺ في ريطتين، وبرد نجراني.

وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن هشام وعمران القطان عن قتادة، عن سعيد، عن أبي هريرة به.

وقد رواه الربيع بن سليمان، عن أسد بن موسى: ثنا نصر بن طريف عن قتادة، ثنا ابن المسيب عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب أحدها برد نجراني.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٩]: وفيما روينا عن عائشة بيان سبب الاشتباه على الناس، وأن الحبرة أخرت عنه والله أعلم.

ثم روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٧/٢٤٩] من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة، ثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، عن حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، عن حسن بن صالح، عن هارون بن سعد. قال: كان عند عليّ مسك، فأوصى أن يحنط به، وقال: هو من فضل حنوط رسول الله ﷺ.

ورواه [الدلائل: ٧/٢٤٩] من طريق إبراهيم بن موسى عن حميد، عن حسن، عن هارون، عن أبي وائل، عن عليّ فذكره.

سنة ١١- كيفية الصلاة عليه ﷺ

وقد تقدم الحديث الذي رواه البيهقي [الدلائل: ٧/٢٣١، ٢٣٢] من حديث الأشعث بن طليق، والبزار [كشف الأستار (٨٤٧)] من حديث الأصبهاني، كلاهما عن مرة، عن ابن مسعود: في وصية النبي ﷺ أن يغسله رجال أهل بيته، وأنه قال: «كفنوني في ثيابي هذه، أو في يمنيّة أو بياض مصر»، وأنه إذا كفنوه يضعونه على شفير قبره، ثم يخرجون عنه حتى تصلي عليه الملائكة، ثم يدخل عليه رجال أهل بيته فيصلون عليه، ثم الناس بعدهم فرادى. الحديث بتمامه. وفي صحته نظر كما قدمنا والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٧/٢٥٠]: حدثني الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال فصلوا عليه بغير إمام أرسالا حتى فرغوا، ثم أدخل النساء فصلين عليه، ثم أدخل الصبيان فصلوا عليه، ثم أدخل

العبيد فصلوا عليه أرسالا، لم يأمهم على رسول الله ﷺ أحد.

وقال الواقدي: حدثني أبيُّ بن عياش بن سهل بن سعد، عن أبيه عن جده قال: لما أدرج رسول الله ﷺ في أكفانه وضع على سريره، ثم وضع على شفير حفرته، ثم كان الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء لا يؤمهم أحد.

قال الواقدي: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم قال: وجدت كتاباً بخط أبي فيه أنه لما كفن رسول الله ﷺ ووضع على سريره؛ دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار، بقدر ما يسع البيت. فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وسلَّم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر، ثم صفوا صفوفاً لا يؤمهم أحد. فقال أبو بكر وعمر - وهما في الصف الأول حيال رسول الله ﷺ -: اللّهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل اللّه، حتى أعز اللّه دينه، وتمت كلمته، وأومن به، وحده لا شريك له، فاجعلنا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل معه، وأجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمان بديلا، ولا نشتري به ثمناً أبداً.

فيقول الناس: آمين آمين، ويخرجون ويدخل آخرون حتى صلى الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان.

وقد قيل: إنهم صلوا عليه من بعد الزوال يوم الاثنين إلى مثله من يوم الثلاثاء، وقيل: إنهم مكثوا ثلاثة أيام يصلون عليه، كما سيأتي بيان ذلك قريباً والله أعلم.

وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه، أمر مجمع عليه لا خلاف فيه، وقد اختلف في تعليله. فلو صح الحديث الذي أوردناه عن ابن مسعود، لكان نصاً في ذلك، ويكون من باب التعبد الذي يعسر تعقل معناه. وليس لأحد أن يقول: إنهم إنما صلُّوا عليه كذلك؛ لأنه لم يكن لهم إمام؛ لأنا قد قدمنا أنهم إنما شرعوا في تجهيزه عليه الصلاة والسلام بعد تمام بيعة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه.

وقد قال بعض العلماء: إنما لم يؤمهم أحد ليباشر كل واحد من الناس الصلاة عليه منه إليه، ولتكرّر صلاة المسلمين عليه مرة بعد مرة من كل فرد فرد من آحاد الصحابة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم حتى العبيد والإماء.

وأما السهيلي فقال ما حاصله [الروض الأنف: ٥٨٩/٧]: إن الله قد أخبر أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلِّي عليه فوجب على كل أحد أن يباشر الصلاة عليه منه إليه، والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل. قال: وأيضاً فإن الملائكة لنا في ذلك أئمة فالله أعلم.

وقد اختلف المتأخرون من أصحاب الشافعي في مشروعية الصلاة على قبره لغير الصحابة.

فقيل: نعم! لأن جسده عليه الصلاة والسلام طري في قبره، لأن اللّه قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما ورد بذلك الحديث في السنن [د (١٠٤٧) و(١٥٣١)، س (١٣٧٣)، ج (١٠٨٥)] وغيرها [ابن حبان كما في الإحسان (٩١٠)، مسند أحمد ٨/٤]، فهو كالميت اليوم.

وقال آخرون: لا يفعل لأن السلف ممن بعد الصحابة لم يفعلوه، ولو كان مشروعاً لبادروا إليه ولثابروا عليه والله أعلم.

سنة ١١- صفة دفنه ﷺ، وأين دفن وذكر الخلاف في دفنه ليلا كان أم نهاراً

قال الإمام أحمد [٧/١]: حدثنا عبد الرزاق، ثنا ابن جريج، أخبرني أبي - وهو عبد العزيز بن جريج: أن أصحاب النبي ﷺ لم يدروا أين يقبروا النبي ﷺ. حتى قال أبو بكر: سمعت النبي ﷺ يقول: لم يقبر نبي إلا حيث يموت، فأخروا فراشه وحفروا له تحت فراشه ﷺ.

وهذا فيه انقطاع بين عبد العزيز بن جريج وبين الصديق، فإنه لم يدركه.

لكن رواه الحافظ أبو يعلى [مسنده (٤٥)] من حديث ابن عباس وعائشة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم. فقال: حدثنا أبو موسى الهروي، ثنا أبو معاوية، ثنا عبد الرحمن بن أبي بكر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة. قالت: اختلفوا في دفن النبي ﷺ حين قبض، فقال أبو بكر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يقبض النبي إلا في أحب الأمكنة إليه» فقال: ادفنوه حيث قبض.

وهكذا رواه الترمذي [١٠١٨] عن أبي كريب عن أبي معاوية، عن عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: لما قبض رسول اللّه ﷺ اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر: سمعت من رسول اللّه ﷺ شيئاً ما نسيته. قال: «ما قبض اللّه نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه». ادفنوه في موضع فراشه.

ثم إن الترمذي ضعف المليكي، ثم قال: وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، رواه ابن عباس عن أبي بكر الصديق، عن النبي ﷺ.

وقال الأموي عن أبيه، عن ابن إسحاق، عن رجل حدثه عن عروة، عن عائشة: أن أبا بكر قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنه لم يدفن نبي قط إلا حيث قبض».

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني محمد بن سهل التميمي، ثنا هشام بن عبد الملك الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان بالمدينة حفاران، فلما مات النبي ﷺ قالوا: أين ندفنه؟ فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: في المكان الذي مات فيه، وكان أحدهما يلحد والآخر يشق، فجاء الذي يلحد فلحد للنبي ﷺ.

وقد رواه مالك بن أنس [الموطا: ٢٣١/١] عن هشام بن عروة، عن أبيه منقطعاً.

وقال أبو يعلى [مسنده (٢٢)] حدثنا جعفر بن مهران، ثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق، حدثني حسين بن عبد اللّه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما أرادوا أن يحفروا للنبي ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي كان يحفر لأهل المدينة وكان يلحد، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة. اللّهم خر لرسولك. قال: فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول اللّه ﷺ، فلما فرغ من جهاز رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه. فقال قائل: ندفنه في مسجده. وقال قائل: ندفنه مع أصحابه. فقال أبو بكر: إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض». فرفع فراش رسول اللّه ﷺ الذي توفي فيه فحفروا له تحته، ثم أدخل الناس على رسول اللّه ﷺ يصلون عليه

أرسالا الرجال حتى إذا فرغ منهم، أدخـل النسـاء، حتى إذا فرغ النساء، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد. فدفن رسول الله ﷺ من أوسط الليل ليلة الأربعاء.

وهكذا رواه ابن ماجه [١٦٢٨] عن نصر بـن علـيّ الجهضمي، عـن وهب بن جرير، عن أبيه، عن محمد بن إسحاق فذكر بإسناده مثله. وزاد في آخره ونزل في حفرته عليّ بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا عباس وشقران مولى رسول الله ﷺ.

قال أوس بن خولي ـ وهو أبو ليلى ـ لعليّ بن أبي طـالب: أنشـدك الله! وحظنا من رسول الله ﷺ، قال له عليّ: انـزل وكـان شـقران مـولاه أخذ قطيفة كان رسول الله ﷺ يلبسها، فدفنهـا في القـبر، وقـال: والله لا يلبسها أحد بعدك! فدفنت مع رسول الله ﷺ.

وقد رواه الإمام أحمد [٢٩٢/١] عن حسين بن محمد، عن جريـر بـن حازم، عن ابن إسحاق مختصراً.

وكذلك رواه يونس بن بكير وغيره عن ابن إسحاق به.

وروى الواقدي عن ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر الصديق، عن رسول الله ﷺ: «ما قبض اللـه نبيا إلا دفن حيث قبض».

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٦٠/٧، ٢٦١] عـن الحـاكم، عـن الأصـم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن محمد بـن إسـحاق، عـن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين، أو محمد بن جعفر بن الزبير. قال: لما مات رسول الله ﷺ اختلفـوا في دفنـه فقـالوا: كيـف ندفنـه مـع الناس أو في بيوته؟ فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مـا قبض الله نبيا إلا دفن حيث قبض». فدفن حيث كان فراشه رفـع الفـراش وحفر تحته.

وقال الواقدي: حدثنا عبد الحميد بـن جعفر، عـن عثمـان بـن محمـد الأخنسي، عن عبد الرحمن بن سعيد يعني ابن يربوع قال: لما توفي النبي ﷺ اختلفوا في موضع قبره. فقال قائل: في البقيـع، فقـد كـان يكـثر الاسـتغفار لهم، وقال قائل: عند منبره، وقال قائل: في مصلاه. فجاء أبو بكر فقال: إن عندي من هذا خبراً وعلماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث توفي».

قال الحافظ البيهقي: وهو في حديث يحيى بن سـعيد عـن القاسـم بـن محمد، وفي حديث ابن جريج عن أبيه، كلاهما عن أبي بكر الصديق، عـن النبي ﷺ مرسلا.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٥٩/٧] عن الحاكم، عن الأصـم، عـن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن سلمة بن نبيط بن شريط، عن أبيه، عن سالم بن عبيد وكان من أصحاب الصفـة. قـال: دخـل أبـو بكـر علـى رسول الله ﷺ، حين مات ثم خرج، فقيل له: توفي رسول الله ﷺ قـال: نعم! فعلموا أنه كما قال وقيل له: أتصلي عليه؟ وكيف نصلي عليه؟ قـال: تجيئون عُصباً عُصَباً فتصلون، فعلموا أنه كما قال. قالوا: هل يدفن وأيـن؟ قال: حيث قبض الله روحـه، فإنـه لم يقبـض روحه إلا في مكـان طيـب، فعلموا أنه كما قال.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٦١/٧، ٢٦٢] من حديث سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب. قال: عرضت عائشـة على أبيها رؤيا وكان من أعبر الناس، قالت: رأيت ثلاثـة أقمـار وقعـن في حجري، فقال لهـا: إن صدقـت رؤيـاك دفـن في بيتـك خير أهـل الأرض ثلاثة، فلما قبض رسول الله ﷺ قال: يا عائشة: هذا خير أقمارك.

ورواه مالك [الموطأ: ٢٣٢/١] عن يحيى بن سعيد عن عائشة منقطعاً.

وفي الصحيحيـن [خ (٣١٠٠)، م (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤) واللفـظ للبخاري] عنها أنها قالت: توفي النبي ﷺ في بيتي وفي يومي وبيـن سـحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه في آخر ساعة من الدنيا، وأول ساعة من الآخرة.

وفي صحيح البخـاري [١٣٩٠] من حديث أبي عوانـة عـن هـلال الوزّان، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعـت رسـول اللـه ﷺ في مرضـه الذي مات فيه يقول: «لعن اللـه اليهـود والنصارى اتخذوا قبـور أنبيـائهم مساجد» قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنـه خشـي أن يتخـذ مسجداً.

وقال ابن ماجه [١٥٥٧]: حدثنا محمود بـن غيـلان، ثنـا هاشـم بـن القاسم، ثنا مبارك بن فضالة، حدثني حميد الطويـل، عـن أنـس بـن مـالك. قال: لما توفي رسول الله ﷺ كان بالمدينة رجل يلحد وآخر يضرح، فقالوا: نستخير اللـه ونبعـث إليهمـا، فأيهمـا سـبق تركنـاه، فأرسـل إليهمـا فسـبق صاحب اللحد، فلحدوا للنبي ﷺ.

تفرد به ابن ماجه، وقد رواه الإمـام أحمـد [١٣٩/٣] عـن أبـي النضـر هاشم بن القاسم به.

وقال ابن ماجه [١٥٥٨] أيضا: حدثنا عمر بن شبة بن عبيدة بن زيد، ثنا عبيد بن طفيل، ثنا عبد الرحمن بن أبي مليكة، حدثني ابـن أبـي مليكـة، عن عائشة. قالت: لما مات رسول الله ﷺ اختلفوا في اللحد والشق حتـى تكلموا في ذلك، وارتفعت أصواتهم. فقال عمر: لا تصخبـوا عنـد رسـول الله ﷺ حياً ولا ميتاً ـ أو كلمة نحوهـا ـ فارسـلوا إلى الشـقاق واللاحـد جميعا فجاء اللاحد فلحد رسول الله ﷺ ثم دفن.

تفرد به ابن ماجه.

وقال الإمام أحمد [٢٤/٢ و١٣٦/٦]: حدثنا وكيع، ثنا العمـري، عـن نافع عن ابن عمر، وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيـه، عـن عائشـة: أن رسول الله ﷺ ألحد له لحد.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال الإمام أحمد [٢٢٨/١]: حدثنا يحيى عن شعبة وابـن جعفـر، ثنـا شعبة، حدثني أبو جمرة عن ابن عباس. قال: جعل في قبر النـبي ﷺ قطيفـة حمراء.

وقد رواه مسلم [٩٦٧] والترمذي [١٠٤٨] والنسائي [٢٠١١] من طرق عن شعبة به.

وقد رواه وكيع عن شعبة [م (٩٦٧)].

وقال وكيع: كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ، رواه ابن عساكر.

وقال ابـن سـعد [الطبقـات: ٢٩٩/٢]: أنبأنـا محمـد بـن عبـد اللـه الأنصاري، ثنا أشعث بن عبد الملك الحمراني، عن الحسن: أن رسول اللـه ﷺ بسط تحته سَمَلُ قطيفة حمراء كان يلبسها، قال: وكانت أرضا ندية.

وقال هشيم عن منصور عن الحسن قال: جعل في قبر النبي ﷺ قطيفة حمراء، كان أصابها يوم خيبر قال الحسن: جعلهـا لأن المدينـة أرض سبخة قال: ففُرشت تحته.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٩٩/٢]: ثنا حمـاد بـن خـالد الخيـاط عن عقبة بن أبي الصهباء، سمعت الحسـن يقـول: قـال رسـول اللـه ﷺ: «افرشوا لي قطيفتي في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء».

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٤٣/٧، ٢٤٤] من حديث مسدد: ثنا عبد الواحد، ثنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قال: قال عليّ: غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر إلى ما يكون من الميت فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ قال: وولي دفنه عليه الصلاة والسلام وإجنانه دون الناس أربعة، عليّ والعباس والفضل وصالح مولى النبي ﷺ، ولحد للنبي ﷺ لحداً، ونصب عليه اللبن نصباً.

وذكر البيهقي [الدلائل: ٢٥٢/٧] عن بعضهم: أنه نصب على لحده عليه الصلاة والسلام تسع لبنات.

وروى الواقدي عن ابن أبي سبرة عن عباس بن عبد الله بن معبد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ موضوعاً على سريره من حين زاغت الشمس من يوم الاثنين، إلى أن زاغت الشمس يوم الثلاثاء، يصلي الناس عليه وسريره على شفير قبره. فلما أرادوا أن يقبروه عليه الصلاة والسلام نحّوا السرير قبل رجليه، فادخل من هناك. ودخل في حفرته العباس وعليّ وقثم والفضل وشقران.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٥٤/٧] من حديث إسماعيل السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: دخل قبر رسول الله ﷺ العباس وعليّ والفضل وسوّى لحده رجل من الأنصار، وهو الذي سوّى لحود قبور الشهداء يوم بدر.

قال ابن عساكر: صوابه يوم أحد. وقد تقدم رواية ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦٣/٢] عن حسين بن عبد الله، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: كان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ عليّ والفضل وقثم وشقران، وذكر الخامس وهو أوس بن خولي، وذكر قصة القطيفة التي وضعها في القبر شقران.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٥٥/٧]: أخبرنا أبو طاهر الفقيه، أنا أبو طاهر المحمد ابادي، ثنا أبو قلابة، ثنا أبو عاصم، ثنا سفيان بن سعيد هو الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، قال: حدثني أبو مرحب. قال: كأني انظر إليهم في قبر النبي ﷺ أربعة: أحدهم عبد الرحمن بن عوف.

وهكذا رواه أبو داود [٣٢١٠] عن محمد بن الصباح، عن سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد به.

ثم رواه عن [٣٢٠٩] أحمد بن يونس، عن زهير، عن إسماعيل، عن الشعبي، حدثني مرحب أو أبو مرحب: أنهم أدخلوا معهم عبد الرحمن بن عوف، فلما فرغ عليّ قال: إنما يلي الرجل أهله.

وهذا حديث غريب جداً وإسناده جيد، قوي ولا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد قال أبو عمر بن عبد البر في استيعابه [١٧٥٥/٤]: أبو مرحب اسمه سويد بن قيس، وذكر أبا مرحب آخر وقال: لا أعرف خبره.

قال ابن الأثير في الغابة [٢٨٣/٦]: فيحتمل أن يكون راوي هذا الحديث أحدهما، أو ثالثاً غيرهما ولله الحمد.

سنة ١١- ذكر من كان آخر الناس به عهداً ﷺ

قال الإمام أحمد [١٠١/١]: حدثنا يعقوب، ثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني أبي إسحاق بن يسار، عن مقسم أبي القاسم، مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن مولاه عبد الله بن الحارث. قال: اعتمرت مع عليّ في زمان عمر، أو زمان عثمان، فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عمرته رجع فسُكب له غُسلٌ فاغتسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق فقالوا: يا أبا حسن جئناك نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه. قال: أظن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ، قالوا: أجل! عن ذلك جئنا نسألك. قال: أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن عباس.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقد رواه يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق به مثله سواء إلا أنه قال قبله: عن ابن إسحاق قال: وكان المغيرة بن شعبة يقول: أخذت خاتمي فألقيته في قبر رسول الله ﷺ، وقلت حين خرج القوم: إن خاتمي قد سقط في القبر، وإنما طرحته عمدا لأمس رسول الله ﷺ فأكون آخر الناس عهداً به.

قال ابن إسحاق: فحدثني والدي إسحاق بن يسار، عن مقسم، عن مولاه، عن عبد الله بن الحارث. قال: اعتمرت مع عليّ فذكر ما تقدم.

وهذا الذي ذكر عن المغيرة بن شعبة لا يقتضي أنه حصل له ما أمله، فإنه قد يكون عليّ رضي الله عنه لم يمكنه من النزول في القبر، بل أمر غيره فناوله إياه، وعلى ما تقدم يكون الذي أمره بمناولته له قُثم بن عباس.

وقد قال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. قال: ألقى المغيرة بن شعبة خاتمه في قبر رسول الله ﷺ. فقال عليّ: إنما ألقيته لتقول: نزلت في قبر النبي ﷺ فنزل فأعطاه أو أمر رجلا فأعطاه.

وقد قال الإمام أحمد [٨١/٥]: حدثنا بهز وأبو كامل. قالا: ثنا حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن أبي عسيب، أو أبي عسيم قال بهز: إنه شهد الصلاة على النبي ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟ قال: ادخلوا أرسالا أرسالا، فكانوا يدخلون من هذا الباب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر، قال: فلما وضع في لحده قال المغيرة: قد بقي من رجليه شيء لم تصلحوه، قالوا: فادخل فأصلحه، فدخل وأدخل يده فمس قدميه عليه الصلاة والسلام. فقال: أهيلوا علي التراب، فأهالوا عليه حتى بلغ إلى أنصاف ساقيه، ثم خرج، فكان يقول: أنا أحدثكم عهداً برسول الله - ﷺ -.

سنة ١١- متى وقع دفنه ﷺ

وقال يونس عن ابن إسحاق [الدلائل: ٢٥٦/٧، من طريق يونس بن بكير، به]: حدثتني فاطمة بنت محمد، امرأة عبد الله بن أبي بكر، وأدخلني عليها قال: حتى تسمعه منها عن عمرة، عن عائشة. أنها قالت: ما علمنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوة المساحي في جوف ليلة الأربعاء.

وقال الواقدي: حدثنا ابن أبي سبرة عن الحليس بن هاشم، عن عبد الله بن وهب، عن أم سلمة. قالت: بينا نحن مجتمعون نبكي، لم ننم ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرازين في السحر. قالت أم سلمة: فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى فانتحب، فزادنا حزناً وعالج الناس الدخول إلى قبره فغلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت، إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ.

وقد روى الإمام أحمد [١١٠/٦] من حديث محمد بن إسحاق، عن

عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين ودفن ليلة الأربعاء.

وقد تقدم مثله في غير ما حديث. وهو الذي نص عليه غير واحد من الأئمة سلفاً وخلفاً؛ منهم سليمان بن طرخان التيمي، وجعفر بن محمد الصادق، وابن إسحاق، وموسى بن عقبة وغيرهم.

وقد روى يعقوب بن سفيان عن عبد الحميد بن بكار، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعي. أنه قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين قبل أن ينتصف النهار، ودفن يوم الثلاثاء.

وهكذا روى الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن ابن جريج. قال: أخبرت أن رسول الله ﷺ مات في الضحى يوم الاثنين، ودفن الغد في الضحى.

وقال سعيد بن منصور عن الدراوردي، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن أبي سلمة. قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء.

وقال ابن خزيمة: حدثنا سَلْم بن جنادة، عن أبيه، عن عبيد الله بن عمر، عن كريب، عن ابن عباس. قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء.

وقال الواقدي: حدثني أبي بن عياش بن سهل بن سعيد عن أبيه. قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الثلاثاء.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا عن محمد بن سعد: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ودفن يوم الثلاثاء [الطبقات: ٢٧٣/٢].

وقال عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: ثنا الحسن بن إسرائيل، أبو محمد النهرتيري، ثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد، سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين؛ فلم يدفن إلا يوم الثلاثاء.

وهكذا قال سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو جعفر الباقر [طبقات ابن سعد: ٢٠٥/٢].

وقال يعقوب بن سفيان، حدثنا سعيد بن منصور، ثنا سفيان عن جعفر بن محمد، عن أبيه، وعن ابن جريج، عن أبي جعفر أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين، فلبث ذلك اليوم وتلك الليلة ويوم الثلاثاء إلى آخر النهار.

فهو قول غريب.

والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه منه إنه عليه الصلاة والسلام توفي يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء.

ومن الأقوال الغريبة في هذا أيضاً ما رواه يعقوب بن سفيان عن عبد الحميد بن بكار، عن محمد بن شعيب، عن النعمان، عن مكحول. قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وأوحي إليه يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين لثنتين وستين سنة ونصف، ومكث ثلاثة أيام لايدفن، يدخل عليه الناس أرسالا أرسالا يصلون لا يصفون ولا يؤمهم عليه أحد [الدلائل للبيهقي: ٢٥٥/٧].

فقوله إنه مكث ثلاثة أيام لا يدفن غريب، والصحيح: أنه مكث بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بكماله، ودفن ليلة الأربعاء كما قدمنا والله أعلم.

وضده ما رواه سيف عن هشام، عن أبيه قال: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وغسل يوم الاثنين ودفن ليلة الثلاثاء.

قال سيف: وحدثنا يحيى بن سعيد مرة بجمعيه عن عمرة، عن عائشة مثله.

وهذا غريب جداً.

وقال الواقدي: حدثنا عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون، عن أبي عتيق، عن جابر بن عبد الله. قال: رش على قبر النبي ﷺ الماء رشاً، وكان الذي رشه بلال بن رباح بقربة، بدأ من قبل رأسه من شقه الأيمن حتى انتهى إلى رجليه، ثم ضرب بالماء إلى الجدار لم يقدر على أن يدور من الجدار.

سنة ١١- صفة قبره ﷺ

قد علم بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام دفن في حجرة عائشة التي كانت تختص بها، شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن بعده فيها أبو بكر، ثم عمر رضي الله عنهما.

وقد قال البخاري [عقب ح (١٣٩٠)]: ثنا محمد بن مقاتل، ثنا أبو بكر بن عياش، عن سفيان التمار: أنه حدثه أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنماً.

تفرد به البخاري.

وقال أبو داود [٣٢٢٠]: ثنا أحمد بن صالح، ثنا ابن أبي فديك، أخبرني عمرو بن عثمان بن هانئ، عن القاسم. قال: دخلت على عائشة وقلت لها: يا أمه اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما. فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. النبي ﷺ، أبو بكر رضي الله عنه، عمر رضي الله عنه.

تفرد به أبو داود.

وقد رواه الحاكم [المستدرك: ٣٦٩/١] والبيهقي [الدلائل: ٢٦٣/٧] من حديث ابن أبي فديك، عن عمرو بن عثمان، عن القاسم. قال: فرأيت النبي عليه الصلاة والسلام مقدما، وأبو بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ، وعمر رأسه عند رجل النبي ﷺ.

قال البيهقي: وهذه الرواية تدل على أن قبورهم مسطحة لأن الحصباء لا تثبت إلا على المسطح.

وهذا عجيب من البيهقي رحمه الله، فإنه ليس في الرواية ذكر الحصباء بالكلية، وبتقدير ذلك فيمكن أن يكون مسنماً وعليه الحصباء مغروزة بالطين ونحوه.

وقد روى الواقدي عن الدراوردي عن جعفر بن محمد، عن أبيه. قال: جعل قبر النبي ﷺ مسطحاً.

وقال البخاري [عقب ح (١٣٩٠)]: ثنا فروة بن أبي المغراء، ثنا علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما سقط عليهم الحائط في زمان الوليد بن عبد الملك، أخذوا في بنائه فبدت لهم قدم ففزعوا فظنوا أنها قدم النبي ﷺ فما وجد واحد يعلم ذلك حتى قال لهم عروة: لا والله ما هي قدم النبي ﷺ؛ ما هي إلا قدم عمر.

وعن هشام عن أبيه، عن عائشة: أنها أوصت عبد الله بن الزبير: لا تدفني، معهم وادفني مع صواحبي بالبقيع لا أزكّى به أبداً. [خ (١٣٩١)]

قلت: كان الوليد بن عبد الملك حين ولي الإمارة في سنة ست وثمانين قد شرع في بناء جامع دمشق، وكتب إلى نائبه بالمدينة ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يوسع مسجد المدينة، فوسعه حتى من ناحية الشرق، فدخلت الحجرة النبوية فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر بسنده عن زاذان مولى الفرافصة، وهو الذي بنى المسجد النبوي أيام ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة، فذكر عن سالم بن عبد الله نحو ما ذكره البخاري، وحكى صفة القبور كما رواه أبو داود.

سنة ١١- ذكر ما أصاب المسلمين من المصيبة العظيمة بوفاته ﷺ

قال البخاري [٤٤٦٢]: حدثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد، ثنا ثابت عن أنس. قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب. فقالت فاطمة: واكرب أبتاه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا ابتاه من جنة الفردوس مأواه، يا ابتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟.

تفرد به البخاري رحمه الله.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٠٤]: حدثنا يزيد، ثنا حماد بن زيد، ثنا ثابت البناني. قال أنس: فلما دفن النبي ﷺ قالت فاطمة: يا أنس أطابت أنفسكم أن دفنتم رسول الله ﷺ في التراب ورجعتم؟!.

وهكذا رواه ابن ماجه [١٦٣٠] مختصراً من حديث حماد بن زيد به. وعنده قال حماد: فكان ثابت إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه.

وهذا لا يعد نياحة بل هو من باب ذكر فضائله الحق عليه أفضل الصلاة والسلام، وإنما قلنا هذا لأن رسول الله ﷺ نهى عن النياحة.

وقد روى الإمام أحمد [٥/٦١] والنسائي [١٨٥٠] من حديث شعبة: سمعت قتادة، سمعت مطرفاً يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم، عن أبيه - فيما أوصى به إلى بنيه - أنه قال: ولا تنوحوا عليّ، فإن رسول الله ﷺ لم يُنح عليه.

وقد رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في النوادر، عن عمرو بن مرزوق، عن شعبة به.

ثم رواه عن علي بن المديني، عن المغيرة بن سلمة، عن الصعق بن حزن عن القاسم بن مطيب، عن الحسن البصري، عن قيس بن عاصم به. قال: لا تنوحوا عليّ فإن رسول الله ﷺ لم يُنَحْ عليه،وقد سمعته ينهى عن النياحة.

ثم رواه عن عليّ، عن محمد بن الفضل، عن الصعق، عن القاسم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن عاصم به.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٧٩٦)]: حدثنا عقبة بن سنان، ثنا عثمان بن عثمان، ثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لم ينح عليه.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٦٨]: حدثنا عفان، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا ثابت عن أنس. قال: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء. قال: وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا.

وهكذا رواه الترمذي [٣٦١٨] وابن ماجه [١٦٣١] جميعاً عن بشر بن هلال الصواف، عن جعفر بن سليمان الضبعي به. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب.

قلت: وإسناده على شرط الصحيحين، ومحفوظ من حديث جعفر بن سليمان، وقد أخرج له الجماعة، رواه الناس عنه كذلك.

وقد أغرب الكديمي وهو محمد بن يونس رحمه الله في روايته له حيث قال: حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي، ثنا جعفر بن سليمان الضبعي، عن ثابت، عن أنس.قال: لما قبض رسول الله ﷺ أظلمت المدينة حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها - أو لا يبصرها، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

رواه البيهقي [الدلائل: ٧/٢٦٥] من طريقه كذلك، وقد رواه من طريق غيره من الحفاظ عن أبي الوليد الطيالسي [الدلائل: ٧/٢٦٥] كما قدمنا، وهو المحفوظ والله أعلم.

وقد روى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر من طريق أبي حفص بن شاهين، ثنا حسين بن أحمد بن بسطام بالأبلة، ثنا محمد بن يزيد الرواسي، ثنا مسلمة بن علقمة عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري. قال: لما دخل رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء.

وقال ابن ماجه [١٦٣٣]: ثنا إسحاق بن منصور، ثنا عبد الوهاب بن عطاء العجلي، عن ابن عون، عن الحسن، عن أبي بن كعب. قال: كنا مع رسول الله ﷺ وإنما وجهنا واحد، فلما قبض نظرنا هكذا وهكذا.

وقال أيضا [١٦٣٤]: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، ثنا خالي محمد بن إبراهيم بن المطلب بن السائب بن أبي وداعة السهمي، حدثني موسى بن عبد الله بن أبي أمية المخزومي، حدثني مصعب بن عبد الله عن أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي ﷺ. أنها قالت: كانت الناس في عهد رسول الله ﷺ إذا قام المصلي يصلي لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع قدميه، فتوفي رسول الله ﷺ، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفي أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة، فتوفي عمر وكان عثمان، وكانت الفتنة، فتلفت الناس يميناً وشمالاً.

وقال الإمام أحمد [٣/٢١٢]: حدثنا عبد الصمد، ثنا حماد عن ثابت، عن أنس: أن أم أيمن بكت لما قبض رسول الله ﷺ فقيل لها: ما يبكيك على النبي ﷺ؟ فقالت: إني قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت، ولكني إنما أبكي على الوحي الذي رفع عنا.

هكذا رواه مختصراً.

وقد قال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٦٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن نعيم، ومحمد بن النضر الجارودي. قالا: ثنا الحسن بن علي الحلواني، ثنا عمرو بن عاصم الكلابي، ثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. قال: ذهب رسول الله ﷺ إلى أم أيمن زائراً وذهبت معه، فقربت إليه شراباً. فإما كان صائماً، وإما كان لا يريده فرده. فأقبلت على رسول الله ﷺ تضاحكه. فقال أبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها؛ فلما انتهينا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. قالت: والله ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان.

ورواه مسلم [٢٤٥٤] منفرداً به عن زهير بن حرب، عن عمرو بن عاصم به.

وقال موسى بن عقبة في قصة وفاة رسول الله ﷺ، وخطبة أبي بكر فيها. قال: ورجع الناس حين فرغ أبو بكر من الخطبة، وأم أيمن قاعدة تبكي، فقيل لها: ما يبكيك؟ قد أكرم الله نبيه ﷺ وأدخله جنته، وأراحه من نصب الدنيا. فقالت: إنما أبكي على خبر السماء، كان يأتينا غضاً جديداً كل يوم وليلة، فقد انقطع ورفع، فعليه أبكي، فعجب الناس من قولها.

وقد قال مسلم ابن الحجاج في صحيحه [٢٢٨٨]: وحدثت عن أبي أسامة. وممن روى ذلك عنه إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا أبو أسامة، حدثني بُرَيد بن عبد الله عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ. قال: «إن الله إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً يشهد لها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فاهلكها، وهو ينظر إليها فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره».

تفرد به مسلم إسناداً ومتناً.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٨٤٥)]: حدثنا يوسف بن موسى، ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان عن عبد الله - هو ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام». قال: وقال رسول الله ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم؛ فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».

ثم قال البزار: لم نعرف آخره يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه.

قلت: وأما أوله وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام».

فقد رواه النسائي [١٢٨١] من طرق متعددة عن سفيان الثوري، وعن الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب به.

وقد قال الإمام أحمد [٨/٤]: حدثنا حسين بن علي الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمْتَ - يعني قد بليتَ -. قال: «إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام».

وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن عبد الله [١٠٤٧]، وعن الحسن بن علي [١٥٣١]، والنسائي عن إسحاق بن منصور، ثلاثتهم عن حسين بن علي به.

ورواه ابن ماجه [١٠٨٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن حسين بن علي، عن ابن جابر، عن أبي الأشعث عن شداد بن أوس، فذكره.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي [تحفة الأشراف: ٤/٢] وذلك وهم من ابن ماجه، والصحيح أوس بن أوس وهو الثقفي رضي الله عنه.

قلت: وهو عندي في نسخة جيدة مشهورة على الصواب، كما رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أوس بن أوس.

ثم قال ابن ماجه [١٦٣٧]: حدثنا عمرو بن سواد المصري، ثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن، عن عبادة ابن نُسي، عن أبي الدرداء. قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإن أحداً لن يُصلِّي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام - نبي الله حي يرزق».

وهذا من أفراد ابن ماجه رحمه الله.

وقد عقد الحافظ ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ٤٠٦/٦ - ٤٠٨] ها هنا باباً في إيراد الأحاديث المروية في زيارة قبره الشريف، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وموضع استقصاء ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى.

سنة ١١- ما ورد من التعزية به ﷺ

قال ابن ماجه [١٥٩٩]: حدثنا الوليد بن عمرو بن السكين، ثنا أبو همام وهو محمد بن الزبرقان الأهوازي، ثنا موسى بن عبيدة، ثنا مصعب بن محمد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة. قالت: فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس -أو كشف ستراً - فإذا الناس يصلون وراء أبي بكر، فحمد الله على ما رأى من حسن حالهم رجاء أن يخلفه الله فيهم بالذي رآهم. فقال: «يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي».

تفرد به ابن ماجه.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٦٧/٧، ٢٦٨]: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، ثنا شافع بن محمد، ثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوي، ثنا المزني، ثنا الشافعي عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن رجالا من قريش دخلوا على أبيه علي بن الحسين. فقالا: ألا أحدثكم عن رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى! فحدثنا عن أبي القاسم. قال: لما مرض رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك تكريماً لك وتشريفاً لك، وخاصة لك، أسألك عما هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغموما، وأجدني يا جبريل مكروباً» ثم جاءه اليوم الثاني فقال له ذلك، فرد عليه النبي ﷺ كما رد أول يوم، ثم جاءه اليوم الثالث فقال له كما قال أول يوم ورد عليه كما رد، وجاء معه ملك يقال له إسماعيل على مائة ألف ملك كل ملك على مائة ألف ملك، فاستأذن عليه فسأل عنه، ثم قال جبريل: هذا ملك الموت يستأذن عليك ما استأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك فقال عليه الصلاة والسلام: «ائذن له»، فأذن له فدخل فسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله أرسلني إليك فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضته، وإن أمرتني أن أتركه تركته. فقال رسول الله ﷺ: «أو تفعل يا ملك الموت؟» قال نعم! وبذلك أمرت، وأمرت أن أطيعك. قال: فنظر النبي ﷺ إلى جبريل فقال له جبريل: يا محمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال رسول الله ﷺ لملك الموت: «امض لما أمرت به» فقبض روحه، فلما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت؛ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب. فقال علي رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه الصلاة والسلام.

وهذا الحديث مرسل، وفي إسناده ضعف، بحال القاسم العمري هذا

فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون.

وقد رواه الربيع عن الشافعي، عن القاسم، عن جعفر، عن أبيه، عن جده؛ فذكر منه قصة التعزية - فقط موصولاً - وفي الإسناد العمري المذكور، قد نبهنا على أمره لئلا يغتر به.

على أنه قد رواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٧/٢٦٩] عن الحاكم، عن أبي جعفر البغدادي، حدثنا عبد الله بن الحارث، أو عبد الرحمن بن المرتعد الصنعاني، ثنا أبو الوليد المخزومي، ثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله. قال: لما توفي رسول الله ﷺ عزتهم الملائكة يسمعون الحس ولا يرون الشخص. فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، ودركاً من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٦٩]: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر ويدل على أن له أصلا من حديث جعفر والله أعلم.

وقال البيهقي [دلائل النبوة: ٧/٢٦٩]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ،أنبأنا أبو بكر أحمد بن بالويه، ثنا محمد بن بشر بن مطر، ثنا كامل بن طلحة، ثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك. قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله، واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا، ونظره إليكم في البلايا فانظروا، فإن المصاب من لم يجبر، فانصرف. فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعليّ: نعم! هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر.

ثم قال البيهقي: عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهذا منكر بمرة.

وقد روى الحارث بن أبي أسامة عن محمد بن سعد، أنبانا هاشم بن القاسم، ثنا صالح المري عن أبي حازم المدني: أن رسول الله ﷺ حين قبضه الله عز وجل دخل المهاجرون فوجاً فوجاً يصلون عليه ويخرجون، ثم دخلت الأنصار على مثل ذلك، ثم دخل أهل المدينة حتى إذا فرغت الرجال دخلت النساء، فكان منهن صوت وجزع، كبعض ما يكون منهن، فسمعن هزة في البيت فَتَفَرَّقْنَ فسكتن، فإذا قائل يقول: إن في الله عزاء من كل هالك، وعوض من كل مصيبة، وخلف من كل فات، والمجبور من جبره الثواب والمصاب من لم يجبره الثواب.

سنة ١١- ما روي من معرفة أهل الكتاب بيوم وفاته ﷺ

قال أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف (١٨٨٦٩)]: حدثنا عبد الله بن إدريس عن إسماعيل بن خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله البجلي. قال: كنت باليمن فلقينا رجلين من أهل اليمن ذا كلاع وذا عمرو، فجعلت أحدثهما عن رسول الله ﷺ قال: فقالا لي: إن كان ما تقول حقا فقد مضى صاحبك على أجله منذ ثلاث. قال: فأقبلت وأقبلا معي حتى إذا كنا في بعض الطريق، رفع لنا ركب من قبل المدينة فسألناهم فقالوا: قبض رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر، والناس صالحون. قال: فقالا لي: أخبر صاحبك أنا قد جئنا، ولعلنا سنعود إن شاء الله عز وجل. قال: ورجعا إلى اليمن، فلما أتيت أخبرت أبا بكر بحديثهم، قال: أفلا جئت بهم. فلما كان بعد قال لي ذو عمرو: يا جرير إن بك عليّ كرامة، وإني مخبرك خبراً، إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمرتم في آخر، وإذا كانت بالسيف كنتم ملوكاً تغضبون غضب الملوك وترضون رضى الملوك.

هكذا رواه الإمام أحمد [٤/٣٦٣] والبخاري [٤٣٥٩] عن أبي بكر بن أبي شيبة.

وهكذا رواه البيهقي [الدلائل: ٧/٢٧٠] عن الحاكم عن عبد الله بن جعفر، عن يعقوب بن سفيان عنه.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٧١]: أنبأنا الحاكم أنبأنا علي بن المتوكل ثنا محمد بن يونس ثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي، ثنا زائدة عن زياد بن علاقة عن جرير. قال: لقيني حبر باليمن وقال لي: إن كان صاحبكم نبياً فقد مات يوم الاثنين. هكذا رواه البيهقي.

وقد قال الإمام أحمد [٢/٣٦٤]: حدثنا أبو سعيد ثنا زائدة ثنا زياد بن علاقة عن جرير. قال: قال لي حبر باليمن: إن كان صاحبكم نبياً فقد مات اليوم. قال جرير: فمات يوم الاثنين ﷺ.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٧١، ٢٧٢]: أنبأنا أبو الحسين بن بشران المعدّل ببغداد أنبأنا أبو جعفر محمد بن عمرو ثنا محمد بن الهيثم ثنا سعيد بن كثير بن عفير بن كعب حدثني عبد الحميد بن كعب بن علقمة بن كعب بن عدي التنوخي عن عمرو بن الحارث بن علقمة بن كعب بن عدي التنوخي عن عمرو بن الحارث عن ناعم بن أجيل عن كعب بن عدي. قال: أقبلت في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ﷺ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة النبي ﷺ فارتاب أصحابي وقالوا: لو كان نبيا لم يمت. فقلت: قد مات الأنبياء قبله، وثبتُ على إسلامي ثم خرجت أريد المدينة، فمررت براهب كنا لا نقطع أمراً دونه، فقلت له: أخبرني عن أمر أردته لَقِحَ في صدري منه شيء، فقال: ائت باسم من الأسماء فأتيته بكعب، فقال: ألقه في هذا السِّفر. لسِفْر اخرجه فألقيت الكعب فيه فصفّح فيه فإذا بصفة النبي ﷺ كما رأيته، وإذا هو يموت في الحين الذي مات فيه.

قال: فاشتدت بصيرتي في إيماني، وقدمت على أبي بكر رضي الله عنه فأعلمته وأقمت عنده، فوجهني إلى المقوقس فرجعت، ووجهني أيضاً عمر بن الخطاب، فقدمت عليه بكتابه، فأتيته وقعة اليرموك ولم أعلم بها، فقال لي: أعلمت أن الروم قتلت العرب وهزمتهم؟ فقلت: كلا قال: ولم؟ قلت: إن الله وعد نبيه أن يظهره على الدين كله وليس بمخلف الميعاد. قال: فإن نبيكم قد صدقكم، قتلت الروم والله قتل عاد.

قال: ثم سألني عن وجوه أصحاب رسول الله ﷺ فأخبرته، فأهدى إلى عمر وإليهم. وكان ممن أهدى إليه علي وعبد الرحمن والزبير - وأحسبه ذكر العباس - قال كعب: وكنت شريكاً لعمر في البز في الجاهلية، فلما أن فرض الديوان فرض لي في بني عدي بن كعب.

وهذا أثر غريب، وفيه نبأ عجيب وهو صحيح.

١١- مرحلة ما بعد الوفاة

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٦٥]: ولما توفي رسول الله

ﷺ عَظُمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة، فيما بلغني، تقول: لمّا توفي رسولُ الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم، حتى جمعهم الله على أبي بكر رضي الله عنه.

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك، حتى خافهم عتاب بن أسيد رضي الله عنه فتوارى. فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ، وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس وكفُّوا عما همُّوا به، فظهر عتاب بن أسيد.

فهذا المقام الذي أراد رسول الله ﷺ في قوله لعمر بن الخطاب - يعني حين أشار بقلع ثَنِيَّتِهِ حين وقع في الأساري يوم بدر -: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تَذُمُّهُ».

قلت: وسيأتي عما قريب إن شاء الله ذكر ما وقع بعد وفاة رسول الله ﷺ من الردة في أحياء كثيرة من العرب، وما كان من أمر مسيلمة بن حبيب المتنبئ باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وما كان من أمر الناس حتى فاؤوا ورجعوا إلى الله تائبين نازعين عما كانوا عليه في حال ردتهم من السفاهة والجهل العظيم الذي استفزهم الشيطان به، حتى نصرهم الله وثبتهم وردهم إلى دينه الحق على يدي الخليفة الصديق أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، كما سيأتي مبسوطاً مبيناً مشروحاً إن شاء الله.

سنة ١١- شعر في وفاةِ النبي ﷺ

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره قصائد لحسان بن ثابت رضي الله عنه في وفاة رسول الله ﷺ.

ومن أجلّ ذلك وأفصحه وأعظمه، ما رواه عبد الملك بن هشام [السيرة: ٢/٦٦٦ - ٦٦٩] رحمه الله عن أبي زيد الأنصاري أن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال يبكي رسول الله ﷺ:

بطيبة رسم للرسول ومعهد … منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة … بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم … وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها … من الله نور يستضاء ويوقد
معارفٌ لم تطمس على العهد آيها … أتاها البِلَى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده … وقبراً بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت … عيون ومثلاها من الجن تسعد
يُذكّرن آلاء الرسول ولا أرى … لها محصياً نفسي فنفسي تبلّد
مفجعة قد شفها فَقْدُ أحمدٍ … فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره … ولكن لنفسي بَعْدُ ما قد توجّد
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها … على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت … بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيّباً … عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين … عليه وقد غارت بذلك - أسعد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة … عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم … وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكّون من تبكي السموات يومه … ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك … رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم … وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن من يقتدي به … وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً … معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم … وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله … فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبيناهم في نعمة الله بينهم … دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى … حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يُثَنّي جناحه … إلى كنفٍ يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا … إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً … يبكّيه حقُّ المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها … لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها … فقيد يبكيه بلاط وغرقد
ومسجده فالموحشات لفقده … خلاء له فيه مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت … ديار وعرصات وربع ومولد
فبكي رسول الله يا عين عبرة … ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي … على الناس منها سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع وأعولي … لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمد … ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة … وأقرب منه نائلاً لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالد … إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم حياً في البيوت إذا انتمى … وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات وأثبت في العلا … دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتاً … وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد
رباه وليداً فاستتم تمامه … على أكرم الخيرات رب ممجد
تناهت وصاة المسلمين بكفه … فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند
أقول ولا يلفى لما بقولي عائب … من الناس إلا عازب القول مبعد
وليس هوائي نازعاً عن ثنائه … لعليّ به في جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره … وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد
وليس هوائي نازعاً عن ثنائه … لعلي به في جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره … وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وقال الحافظ أبو القاسم السهيلي في آخر كتابه الروض: وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يبكي رسول الله ﷺ:

أرقت فبات ليلي لا يزول … وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما … أصيب المسلمون به قليل

لقـد عظمـت مصيبتنـا وجلـت عشـية قيـل قـد قبـض الرسـول
وأضحـت أرضنـا مـمـا عراهـا تكـاد بنـا جوانبهـا تميـل
فقدنـا الوحـي والتـنزيل فينـا يـروح بـه ويغـدو جـبرائيل
وذاك أحـق مـا سـالت عليـه نفـوس النـاس أو كربـت تسـيل
نـبي كـان يجلـو الشـك عنـا بمـا يوحـى إليـه ومـا يقـول
ويهدينـا فـلا نخشـى ضـلالا علينـا والرسـول لنـا دليـل
أفـاطم إن جزعـت فـذاك عـذر وإن لم تجزعـي ذاك السـبيل
فقـبر أبيـك سـيد كـل قـبر وفيـه سـيد النـاس الرسـول

سنة ١١- لم يترك درهماً ولا ديناراً

باب بيان أن النبي ﷺ لم يترك ديناراً ولا درهما ولا عبداً ولا أمـة ولا شاة ولا بعيراً ولا شيئاً يورث عنه، بل أرضا جعلها كلهـا صدقـة للّه عـز وجل

فإن الدنيا بحذافيرها كانت أحقر عنده ـ كما هي عنـد اللّـه ـ مـن أن يسعى لها أو يتركها بعده ميراثاً صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى إخوانه من النبين والمرسلين، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين.

قال البخاري: حدثنا، قتيبة ثنا أبو الأحـوص عـن أبي إسـحاق، عـن عمرو بن الحارث. قال: ما ترك رسول اللّه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضـا جعلهـا لابـن السبيل صدقة. انفرد به البخاري دون مسلم، فرواه في أماكن من صحيحه من طرق متعددة عن أبي الأحوص وسفيان الثوري وزهير بـن معاويـة، ورواه الترمذي من حديث إسرائيل والنسائي أيضاً من حديـث يونـس بـن أبي إسحاق،كلهم عن أبي إسحاق عمرو بن عبد اللّه السبيعي عـن عمـرو بن الحارث بن المصطلق بـن أبـي ضـرار أخـي جويريـة بنـت الحـارث، أم المؤمنين رضي اللّه عنهما به. وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاويـة، ثنـا الأعمش، وابن نمير عن الأعمـش عـن شـقيق عـن مسـروق عـن عائشـة. قالت: ما ترك رسول اللّـه ﷺ دينـاراً ولا درهمـا ولا شـاة ولا بعـيراً ولا أوصى بشـيء. وهكـذا رواه مسـلم منفـرداً بـه عـن البخـاري، وأبـو داود والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن سليمان بن مهران الأعمش عـن شقيق بن سلمة أبي وائل، عن مسروق بن الأجدع، عن أم المؤمنين عائشـة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب اللّـه المبرأة مـن فـوق سـبع سمـوات رضي اللّه عنها وأرضاها، وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسـف عن سفيان، عن عاصم عن ذر بن حبيش، عن عائشة. قالت: مـا تـرك رسـول اللّه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا أمة ولا عبـداً ولا شـاة ولا بعـيراً. وحدثنـا عبد الرحمن عن سفيان، عن عاصم، عن ذر، عن عائشة: مـا تـرك رسـول اللّه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. قـال سفيان: وأكـثر علمـي وأشك في العبد والأمة. وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عـن بنـدار، عـن عبد الرحمن بن مهدي به. قال الإمام أحمد. وحدثنا وكيـع، ثنـا مسـعر عـن عاصم بن أبي النجود، عن ذر عن عائشة. قالت: ما ترك رسـول اللّـه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شاة ولا بعـيراً. هكـذا رواه الإمـام احمد من غير شك. وقـد رواه البيهقي عـن أبـي زكريـا بـن أبـي إسـحاق المزكي، عن أبي عبد اللّه محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبد الوهـاب، أنبأنا جعفر بن عون، أنبأنا مسعر عن عاصم، عن ذر. قال: قـالت عائشـة: تسألوني عن ميراث رسول اللّه ﷺ مـا تـرك رسـول اللّـه ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة. قال مسعر: أراه قال: ولا شاةً ولا بعيراً. قـال: وأنبأنا مسعر عن عدي بن ثابت، عن علي بن الحسين. قال: ما ترك رسـول اللّه ﷺ ديناراً ولا درهما ولا عبداً ولا وليدة، وقـد ثبـت في الصحيحـين من حديث الأعمش عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة: أن رسول اللّـه ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل، ورهنه درعاً من حديـد. وفي لفـظ للبخاري رواه عن قبيصة، عن الثوري، عن الأعمـش، عـن إبراهيـم، عـن الأسود، عن عائشة رضى اللّه عنها. قالت: توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونـة عند يهودي بثلاثين. ورواه البيهقي من حديث يزيد بن هارون، عن الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عنها. قالت: توفي النـبي ﷺ ودرعـه مرهونة بثلاثين صاعاً من شعير. ثم قال: رواه البخاري عن محمد بن كثير، عن سفيان. ثم قال البيهقي: أنبأنا علي بن أحمد بن عبدان، انبأنـا أبـو بكـر محمد بن حمويه العسكري، ثنا جعفر بن محمد القلانسي، ثنا آدم، ثنا شـيبان عن قتادة، عن أنس. قال: لقد دعي رسول اللّه ﷺ على خبز شعير وإهالة سنخة. قال أنس ولقد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «والذي نفس محمـد بيده ما أصبح عند آل محمد صاع بر ولا صـاع تمـر». وإن لـه يومئـذ تسـع نسوة، ولقد رهن درعاً له عند يهودي بالمدينة، وأخذ منه طعاما فمـا وجـد وما يَفْتَكُّها به حتى مات ﷺ.

وقد روى ابن [(٤٤٣٧) من حديث هشام الدستوائي، عن قتادة به. وأما حديث شيبان، عن قتادة فقد رواه أحمد في المسند ٢٣٨/٣] ماجـه بعضـه مـن حديث شيبان بن عبد الرحمن النحوي عن قتادة به.

وقال الإمام أحمد [٣٠١/١]: حدثنا عبد الصمد، ثنـا ثابت، ثنـا هـلال عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النـبي ﷺ نظر إلى أُحُد. فقـال: «والـذي نفسي بيده ما يسرني انّ أحداً لآل محمد ذهباً أنفقه في سـبيل اللّـه، أمـوت يوم أموت وعندي منه ديناران إلا أن أُرصدهما لدين». قال: فمـات فمـا ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة، فترك درعـه رهنـاً عنـد يهـودي بثلاثين صاعاً من شعير.

وقد روى آخره ابن ماجه [٢٤٣٩] عن عبد اللّه بن معاويـة الجمحـي عن ثابت بن يزيد، عن هلال بن خباب العبدي الكوفي به.

ولأوله شاهد في الصحيح من حديث أبي ذر رضـي اللّـه عنـه. [مسند أحمد: ١٤٨/٥، ١٤٩. ولم يره (خ) او (م)].

وقد قـال الإمـام أحمـد [٣٠١/١]: حدثنـا عبـد الصمـد وأبـو سعيد وعفان. قالوا: حدثنا ثابت ـ هو ابن يزيد ـ ثنا هلال ـ هو ابن خبـاب ـ عن عكرمة، عن ابن عبـاس: أن النـبي ﷺ دخـل عليـه عمـر وهـو علـى حصير قد أثر في جنبه. فقال: يا نبي اللّه لو اتخذت فراشا أوثـر مـن هـذا؟ فقال: «مـا لي وللدنيـا، ومـا مَثَلي ومَثَـل الدنيا إلا كراكـب سـار في يـوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها».

تفرد به أحمد وإسناده جيد. وله شاهد من حديث ابن عباس عن عمـر [خ (٢٤٦٨)، م (١٤٧٩)] في المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول اللّه ﷺ، وقصة الايلاء. وسيأتي الحديث مع غـيره ممـا شـاكله في بيـان زهـده عليـه الصلاة والسلام وتركه الدنيا، وإعراضه عنها واطراحه لها، وهـو ممـا يـدل على ما قلناه من أنه عليه الصلاة والسلام لم تكن الدنيا عنده ببال.

وقال الإمام أحمد [٢٢٠/١]: حدثنا سفيان، ثنا عبـد العزيز بـن رفيـع. قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس فقال ابن عباس: ما تـرك

رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين. قال: ودخلنا على محمد بن علي فقال مثل ذلك.

وهكذا رواه البخاري [٥٠١٩] عن قتيبة عن سفيان بن عيينة به.

وقال البخاري [٤٤٦٠]: حدثنا أبو نعيم، ثنا مالك بن مغول عن طلحة، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: أأوصى النبي ﷺ؟ فقال لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أوَ أمروا بها؟ قال: أوصى بكتاب الله عز وجل.

وقد رواه البخاري [٢٧٤٠] أيضا ومسلم [١٦٣٤] وأهل السنن [ت (٢١١٩)، س (٣٦٢٢)، ج (٢٦٩٦)] إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

تنبيه: قد وردت أحاديث كثيرة سنوردها قريبا بعد هذا الفصل في ذكر أشياء كان يختص بها صلوات الله وسلامه عليه في حياته من دور، ومساكن نسائه، وإماء وعبيد وخيول وإبل وغنم وسلاح وبغلة وحمار وثياب وأثاث وخاتم وغير ذلك مما سنوضحه بطرقه ودلائله، فلعله عليه الصلاة والسلام تصدق بكثير منها في حياته منجزاً، وأعتق من أعتق من إمائه وعبيده، وأرصد ما أرصده من أمتعته، مع ما خصه الله به من الأرضين من بني النضير وخيبر وفدك في مصالح المسلمين على ما سنبينه إن شاء الله، إلا أنه لم يخلف من ذلك شيئاً يورث عنه قطعاً لما سنذكره قريباً وبالله المستعان.

سنة ١١- بيان أنه ﷺ قال: «لا نُوَرث»

قال الإمام أحمد [٢٤٢/٢]: حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به، وقال مرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة».

وقد رواه البخاري [٢٧٧٦] ومسلم [(١٧٦٠) (٥٥)] وأبو داود [٢٩٧٤] من طرق عن مالك بن أنس، عن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» لفظ البخاري.

ثم قال البخاري [٦٧٣٠]: حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»؟

وهكذا رواه مسلم [(١٧٥٨) (٥١)] عن يحيى بن يحيى، وأبو داود [٢٩٧٦] عن القعنبي، والنسائي [كبرى (٦٣١١)] عن قتيبة، كلهم عن مالك به.

فهذه إحدى النساء الوارثات - إن لو قدّر ميراث - قد اعترفت أن رسول الله ﷺ جعل ما تركه صدقة لا ميراثاً، والظاهر ان بقية أمهات المؤمنين وافقنها على ما روت، وتذكرن ما قالت لهن من ذلك، فإن عبارتها تؤذن بأن هذا أمر مقرر عندهن والله أعلم.

وقال البخاري [٦٧٢٧]: حدثنا إسماعيل بن أبان، ثنا عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة».

وقال البخاري باب قول رسول الله ﷺ [ك (٨٥) باب (٣)] «لا نورث ما تركنا صدقة»:

حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا هشام، أنبأنا معمر عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر رضي الله عنه عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر. فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال». قال أبو بكر: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته، قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت [٦٧٢٥].

وهكذا رواه الإمام أحمد [٤/١] عن عبد الرزاق، عن معمر.

ثم رواه أحمد [٦/١] عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ ميراثها مما ترك مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ. قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» فغضبت فاطمة وهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت. قال: وعاشت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر. وذكر تمام الحديث.

هكذا قال الإمام أحمد.

وقد روى البخاري هذا الحديث في كتاب المغازي من صحيحه [٤٢٤٠، ٤٢٤١] عن يحيى ابن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري عن عروة، عن عائشة كما تقدم، وزاد: فلما توفيت دفنها عليّ ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجهٌ حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر عليّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر: ائتنا ولا يأتينا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر. فقال عمر: والله لا تدخل عليهم وحدك. قال أبو بكر: وما عسى أن يصنعوا بي؟ والله لآتينهم.

فانطلق أبو بكر رضي الله عنه فتشهد عليّ ﷺ وقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنكم استبددتم بالأمر. وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ أن لنا في هذا الأمر نصيباً.

فلم يزل عليّ يذكر حتى بكى أبو بكر رضي الله عنه. وقال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم في هذه الأموال، فإني لم آلُ فيها عن الخير، ولم أترك أمراً صنعه رسول الله ﷺ إلا صنعته. فقال عليٌّ: موعدُك للبيعة عَشيّةً. فلما صلى أبو بكر رضي الله عنه الظهر رقي على المنبر، فتشهد وذكر شأن عليّ وتخلّفه عن البيعة، وعُذره بالذي اعتذر به، وتشهد عليّ رضي الله عنه فعظّم حقّ أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسةً على أبي بكر، ثم قام إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه. فأقبل الناس على عليّ فقالوا: أحسنت. وكان الناس إلى عليّ قريبا حين راجع الأمر بالمعروف.

وقد رواه البخاري [٣٠٩٨٢] أيضاً ومسلم [(١٧٥٨) (٥١) و(١٧٥٩) (٥٢) (٥٣) (٥٤)] وأبو داود [٢٩٦٨، ٢٩٦٩، ٢٩٧٦، ٢٩٧٧] والنسائي [٤١٥٢] من طرق متعددة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة بنحوه.

فهذه البيعة التي وقعت من عليّ رضي الله عنه، لأبي بكر رضي الله

عنه، بعد وفاة فاطمة رضي اللّه عنها، بيعة مؤكِّدة للصلح الذي وقع بينهما، وهي ثانية للبيعة التي ذكرناها أولا يوم السقيفة، كما رواه ابن خزيمة، وصححه مسلم بن الحجاج، ولم يكن عليّ مجانباً لأبي بكر هذه الستة الأشهر، بل كان يصلي راءه ويحضر عنده للمشورة، وركب معه إلى ذي القصة كما سيأتي.

وفي صحيح البخاري [٣٥٤٢، ٣٧٥٠] أن أبا بكر رضي اللّه عنه صلى العصر بعد وفاة رسول اللّه ﷺ بليال، ثم خرج من المسجد فوجد الحسن بن علي يلعب مع الغلمان، فاحتمله على كاهله وجعل يقول: بأبي شَبيهُ النبيِّ، ليس شبيهاً بعلي. وعليّ يضحك.

ولكن لما وقعت هذه البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن علياً لم يبايع قبلها، فنفى ذلك، والمثبت مقدم على النافي كما تقدم، وكما تقرر واللّه أعلم، وأما تغضب فاطمة رضي اللّه عنها وأرضاها على أبي بكر رضي اللّه عنه وأرضاه، فما أدري ما وجهه، فإن كان لمنعه إياها ما سألته من الميراث، فقد اعتذر إليها بعذر يجب قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول اللّه ﷺ أنه قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» وهي ممن تنقاد لنص الشارع الذي خفي عليها قبل سؤالها الميراث، كما خفي على أزواج النبي ﷺ حتى أخبرتهن عائشة بذلك، ووافقنها عليه، وليس يظن بفاطمة رضي اللّه عنها أنها اتهمت الصديق رضي اللّه عنه فيما أخبرها به، حاشاها وحاشاه من ذلك، كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد اللّه، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وعائشة رضي اللّه عنهم أجمعين كما سنبينه قريباً. ولو تفرد بروايته الصديق رضي اللّه عنه، لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته والانقياد له في ذلك، وإن كان غضبها لأجل ما سألت الصديق - إذ كانت هذه الأراضي صدقة لا ميراثاً - أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر بما حاصله أنه لما كان خليفة رسول اللّه ﷺ فهو يرى أن فرضاً عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول اللّه ﷺ، ويلي ما كان يليه رسول اللّه ﷺ، ولهذا قال: وإني واللّه لا أدع أمراً كان يصنعه فيه رسول اللّه ﷺ إلا صنعته، قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت. وهذا الهجران والحالة هذه فتح على فرقة الرافضة شراً عريضاً، وجهلا طويلا، وأدخلوا أنفسهم بسببه فيما لا يعنيهم، ولو تفهموا الأمور على ما هي عليه، لعرفوا للصديق فضله، وقبلوا منه عذره الذي يجب على كل أحد قبوله، ولكنهم طائفة مخذولة، وفرقة مرذولة، يتمسكون بالمتشابه، ويتركون الأمور المحكمة المقرَّرة عند أئمة الإسلام، من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من العلماء المعتبرين في سائر الأعصار والأمصار رضي اللّه عنهم وأرضاهم أجمعين.

سنة ١١- بيان رواية الجماعة لما رواه الصديق وموافقتهم على ذلك

قال البخاري [٦٧٢٨]: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان، وكان محمد بن جبير بن مطعم ذكر لي ذكراً من حديثه ذلك، فانطلقت حتى دخلت عليه فسألته فقال: انطلقت حتى أدخل على عمر، فأتاه حاجبه يرفا فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد؟ قال: نعم! فأذن لهم، ثم قال: هل لك في عليّ وعباس؟ قال: نعم! قال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا، قال: أنشدكم باللّه الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»؟ يريد رسول اللّه ﷺ نفسه؟ قال الرهط: قد قال ذلك. فأقبل على عليّ وعباس فقال: هل تعلمان أن رسول اللّه ﷺ قد قال ذلك؟ قالا: قد قال ذلك، قال عمر بن الخطاب: فإني أحدثكم عن هذا الأمر؛ إن اللّه كان قد خص لرسول اللّه ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، قال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحشر،الآية: ٧] فكانت خالصة لرسول اللّه ﷺ، واللّه ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول اللّه ﷺ ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال اللّه، فعمل بذلك رسول اللّه ﷺ حياته. أنشدكم باللّه هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم! ثم قال لعليّ وعباس: أنشدكما باللّه هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم! فتوفى اللّهُ نبيه ﷺ، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: أنا ولي رسول اللّه ﷺ فقبضها، فعمل بما عمل به رسول اللّه ﷺ، ثم توفى اللّه أبا بكر فقلت: أنا وليُّ وليِّ رسول اللّه ﷺ، فقبضتها سنتين أعمل فيها بما عمل رسول اللّه ﷺ وأبو بكر، ثم جئتماني وكلمتكما واحدة وأمركما جميع، حتى جئتني تسألني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا ليسألني نصيب امرأته من أبيها، فقلت: إن شئتما دفعتها إليكما بذلك، فتلتمسان مني قضاء غير ذلك! فو اللّه الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما فادفعاها إليّ فأنا أكفيكماها.

وقد رواه البخاري في أماكن متفرقة من صحيحه [٣٠٩٤، ٤٠٣٣، ٥٣٥٨، ٧٣٠٥]، ومسلم [(١٧٥٧) (٤٨، ٤٩، ٥٠)] وأهل السنن [د (٢٩٦٣)، ت (١٦١٠)، س (كبرى ٦٣٠٧ - ١٦٣١٠)، ولم يخرجه ج] من طرق عن الزهري به.

وفي رواية في الصحيحين [خ (٧٣٠٥)، م (١٧٥٧) (٤٩)] فقال عمر: فوليها أبو بكر فعمل فيها بما عمل رسول اللّه ﷺ واللّه يعلم أنه صادق بارّ راشد تابع للحق، ثم وليتها فعملت فيها بما عمل رسول اللّه ﷺ وأبو بكر، واللّه يعلم أني صادق بارّ راشد تابع للحق. ثم جئتماني فدفعتها إليكما لتعملا فيها بما عمل رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعملت فيها أنا، أنشدكم باللّه أدفعتها إليهما بذلك؟ قالوا: نعم. ثم قال لهما: أنشدكما باللّه هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالا: نعم، قال: أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك؟! لا والذي بإذنه تقوم السماء والأرض.

وقال الإمام أحمد [١/٢٥، ١٦٢، ١٦٤، ١٩١]: حدثنا سفيان عن عمرو، عن الزهري، عن مالك بن أوس قال: سمعت عمر يقول لعبد الرحمن وطلحة والزبير وسعد: نشدتكم باللّه الذي تقوم السماء والأرض بأمره، أعلمتم أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»؟ قالوا: نعم! على شرط الصحيحين.

قلت: وكل الذي سألاه - بعد تفويض النظر إليهما واللّه أعلم - هو أن يقسم بينهما النظر، فيجعل لكل واحد منهما نظر ما كان يستحقه بالإرث، لو قدر أنه كان وارثا، وكأنهما قدما بين أيديهما جماعة من الصحابة منهم عثمان وابن عوف وطلحة والزبير وسعد، وكان قد وقع بينهما خصومة شديدة بسبب إشاعة النظر بينهما، فقالت الصحابة الذين قدموهم بين أيديهما: يا أمير المؤمنين اقض بينهما، وأرِحْ أحدهما من الآخر. فكأن عمر رضي اللّه عنه تحرج من قسمة النظر بينهما بما يشبه

قسمة الميراث ولو في الصورة الظاهرة محافظة على امتثال قوله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» فامتنع عليهم كلهم وأبى من ذلك أشد الإباء رضي الله عنه وأرضاه.

ثم إن علياً والعباس استمرا على ما كانا عليه ينظران فيها جميعاً إلى زمان عثمان بن عفان، فغلبه عليها عليّ وتركها له العباس بإشارة ابنه عبد الله رضي الله عنهما بين يدي عثمان، كما رواه أحمد في مسنده [١٣/١]. فاستمرت في أيدي العلويين. وقد تقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في مسندي الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فإني ولله الحمد جمعت لكل واحد منهما مجلداً ضخماً مما رواه عن رسول الله ﷺ، ورآه من الفقه النافع الصحيح، ورتبته على أبواب الفقه المصطلح عليها اليوم.

وقد روينا أن فاطمة رضي الله عنها احتجت أولا بالقياس وبالعموم في الآية الكريمة، فأجابها الصديق بالنص على الخصوص بالمنع في حق النبي ﷺ، وأنها سلمت له ما قال. وهذا هو المظنون بها رضي الله عنها.

وقال الإمام أحمد [١٠/١]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن فاطمة قالت لأبي بكر: من يرثك إذا مت؟ قال: ولدي وأهلي، قالت: فما لنا لا نرث رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن النبي لا يورث» ولكني أعول من كان رسول الله ﷺ يعول، وأنفق على من كان رسول الله ﷺ ينفق.

وقد رواه الترمذي في جامعه [١٦٠٨] عن محمد بن المثنى عن أبي الوليد الطيالسي، حدثنا حمّاد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. فذكره، فوصّل الحديث. وقال الترمذي: حسن غريب.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد [٤/١]: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ثنا محمد بن فضيل، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل. قال: لما قبض رسول الله ﷺ أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أأنت ورثت رسول الله أم أهله؟ فقال: لا بل أهله، فقالت: فأين سهم رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله إذا أطعم نبياً طعمة، ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعده» فرأيت أن أرده على المسلمين. قالت: فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ.

وهكذا رواه أبو داود [٢٩٧٣] عن عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل به.

ففي لفظ هذا الحديث غرابة ونكارة، ولعله روي بمعنى ما فهمه بعض الرواة، ومنهم مَن فيه تشيع فليعلم ذلك.

وأحسن ما فيه قولها «أنت وما سمعت من رسول الله ﷺ» وهذا هو المظنون بها، واللائق بأمرها وسيادتها وعلمها ودينها، رضي الله عنها. وكأنها سألته بعد هذا أن يجعل زوجها ناظراً على هذه الصدقة فلم يجبها إلى ذلك لما قدمناه، فتعتّبت عليه بسبب ذلك، وهي امرأة من بني آدم، تأسف كما يأسفون، وليست بواجبة العصمة مع وجود نص رسول الله ﷺ، ومخالفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وقد روينا عن أبي بكر رضي الله عنه: أنه ترضّى فاطمة وتلاينها قبل موتها فرضيت رضي الله عنها.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [السنن الكبرى: ٣٠١/٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، ثنا عبدان بن عثمان العتكي بنيسابور، أنبأنا أبو حمزة عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي. قال: لما مرضت فاطمة أتاها أبو بكر الصديق، فاستأذن عليها، فقال عليّ: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم! فأذنت له فدخل عليها يترضاها فقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت. ثم ترضاها حتى رضيت.

وهذا إسناد جيد قوي، والظاهر أن عامراً الشعبي سمعه من عليّ، أو ممن سمعه من عليّ.

وقد اعترف علماء أهل البيت بصحة ما حكم به أبو بكر في ذلك.

قال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٣٠٢/٦]: أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عبد الله الصفار، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، ثنا نصر بن عليّ، ثنا ابن داود عن فضيل بن مرزوق، قال: قال زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ: أما أنا فلو كنت مكان أبي بكر - رضي الله عنه - لحكمت بما حكم به أبو بكر - رضي الله عنه - في فدك.

سنة ١١- الرد على الرافضة في مقام الميراث ورد ما احتجوا به

وقد تكلمت الرافضة في هذا المقام بجهل، وتكلفوا ما لا علم لهم به، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، وأدخلوا أنفسهم فيما لا يعنيهم، وحاول بعضهم أن يرد خبر أبي بكر رضي الله عنه فيما ذكرناه بأنه مخالف للقرآن، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ الآية [النمل: ١٦]. وحيث قال تعالى إخباراً عن زكريا أنه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم: ٥-٦].

واستدلالهم هذا باطل من وجوه:

أحدها أن قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ إنما يعني بذلك في الملك والنبوة، أي جعلناه قائماً بعده فيما كان يليه من الملك وتدبير الرعايا، والحكم بين بني إسرائيل، وجعلناه نبياً كريماً كأبيه، فكما جمع لأبيه الملك والنبوة كذلك جعل ولده بعده، وليس المراد بهذا وراثة المال لأن داود كما ذكره كثير من المفسرين كان له أولاد كثيرون يقال: مائة ولد. فلمَ اقتصر على ذكر سليمان من بينهم، لو كان المراد وراثة المال؟ إنما المراد وراثة القيام بعده في النبوة والملك، ولهذا قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ وما بعدها من الآيات [النمل: ١٦]. وقد أشبعنا الكلام على هذا في كتابنا التفسير بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة كثيراً.

وأما قصة زكريا فإنه عليه السلام من الأنبياء الكرام، والدنيا كانت عنده أحقر من أن يسأل الله ولداً ليرثه في ماله، كيف؟ وإنما كان نجاراً يأكل من كسب يده كما رواه البخاري [(٢٠٧٢) بذكر داود - عليه السلام - بدل زكريا - عليه السلام - وليس فيه كان نجاراً]، ولم يكن ليدخر منها فوق قوته، حتى يسأل الله ولداً يرث عنه ماله - إن لو كان له مال - وإنما سأل ولداً صالحاً يرثه في النبوة والقيام بمصالح بني إسرائيل، وحملهم على السداد.

ولهذا قال تعالى: ﴿كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ القصة بتمامها [مريم: ١-٦].

فقال: ﴿وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني النبوة كما قررنا ذلك في التفسير ولله الحمد والمنة.

وقد تقدم في رواية أبي سلمة عن أبي هريرة عن أبي بكر. أن رسول الله ﷺ قال: «النبي لا يورث» وهذا اسم جنس يعم كل الأنبياء وقد حسنه الترمذي. وفي الحديث الآخر: «نحن معشر الأنبياء لا نورث».

والوجه الثاني: ان رسول الله ﷺ قد خص من بين الأنبياء بأحكام لا يشاركونه فيها كما سنعقد له بابا مفرداً في آخر السيرة إن شاء الله، فلو قدر أن غيره من الأنبياء يورثون ـ وليس الأمر كذلك ـ لكان ما رواه من ذكرنا من الصحابة الذين منهم الأئمة الأربعة؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ مبيناً لتخصيصه بهذا الحكم دون ما سواه.

والثالث: أنه يجب العمل بهذا الحديث والحكم بمقتضاه كما حكم به الخلفاء، واعترف بصحته العلماء، سواء كان من خصائصه أم لا. فإنه قال: «لا نورث ما تركناه صدقة» إذ يحتمل من حيث اللفظ أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تركنا صدقة» أن يكون خبراً عن حكمه أو حكم سائر الأنبياء معه على ما تقدم وهو الظاهر، ويحتمل أن يكون إنشاء وصيّة كأنه يقول: لا نورث لأن جميع ما تركناه جعلناه صدقة، ويكون تخصيصه من حيث جواز جعله ماله كله صدقة، والاحتمال الأول أظهر. وهو الذي سلكه الجمهور.

وقد يقوى المعنى الثاني بما تقدم من حديث مالك وغيره عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» وهذا اللفظ مخرج في الصحيحين [خ (٢٧٧٦)، م (١٧٦٠) حديث أبي هريرة]، وهو يرد تحريف من قال من الجهلة من طائفة الشيعة في رواية هذا الحديث «ما تركنا صدقة» بالنصب، جعل ـ «ما» ـ نافية، فكيف يصنع بأول الحديث وهو قوله: «لا نورث»؟! وبهذه الرواية: «ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» وما شأن هذا إلا كما حكي عن بعض المعتزلة أنه قرأ على شيخ من أهل السنة ﴿وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ بنصب الجلالة، فقال له الشيخ: ويحك كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والمقصود أنه يجب العمل بقوله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» على كل تقدير احتمله اللفظ والمعنى فإنه مخصص لعموم آية الميراث، ومُخْرِج له عليه الصلاة والسلام منها، إما وحده أو مع غيره من إخوانه الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٦- كتاب زوجات النبي ﷺ وخواصِّه

١- ذكر زوجاته صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهن وأولاده عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً. وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾[الأحزاب: ٣٢-٣٤].

لا خلاف أنه عليه الصلاة والسلام توفي عن تسع وهنّ: عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية، وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموية، وزينب بنت جحش الأسدية، وأم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وسودة بنت زمعة العامرية، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وصفية بنت حيي بن أخطب النضرية الإسرائيلية الهارونية، رضي الله عنهن وأرضاهن.

وكانت له سُرِّيتان وهما: مارية بنت شمعون القبطية المصرية، من كورة أنصنا وهي أم ولده إبراهيم عليه السلام، وريحانه بنت شمعون القرظية أسلمت، ثم أعتقها فلحقت بأهلها. ومن الناس من يزعم أنها حُجِبَت والله أعلم.

وأما الكلام على ذلك مفصلا ومرتبا من حيث ما وقع أولا فأولا مجموعاً من كلام الأئمة رحمهم الله فنقول وبالله المستعان:

روى الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٢٨٨/٧، ٢٨٩] من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. قال: تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة، دخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة، ومات عن تسع، ثم ذكر هؤلاء التسع اللاتي ذكرناهن رضي الله عنهن.

ورواه سيف بن عمر عن سعيد عن قتادة عن أنس والأول أصح.

ورواه سيف بن عمر التميمي عن سعيد عن قتادة عن أنس وابن عباس مثله.

وروي عن سعيد بن عبد الله، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة مثله. قالت: فالمرأتان اللتان لم يدخل بهما فهما: عمرة بنت يزيد الغفارية والشنباء.

فأما عمرة فإنه خلا بها وجردها فرأى بها وضحاً فردها، وأوجب لها الصداق، وحُرِّمت على غيره.

وأما الشنباء فلما أدخلت عليه لم تكن يسيرة، فتركها ينتظر بها اليسر فلما مات ابنه إبراهيم على تَفِئَةِ ذلك قالت: لو كان نبياً لم يمت ابنه، فطلقها وأوجب لها الصداق، وحرمت على غيره.

قالت: فاللاتي اجتمعن عنده؛ عائشة وسودة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش وزينب بنت خزيمة وجويرية وصفية وميمونة وأم شريك.

قلت: وفي صحيح البخاري [٢٦٨] عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه وهن إحدى عشرة امرأة.

والمشهور أن أم شريك لم يدخل بها كما سيأتي بيانه، ولكن المراد بالإحدى عشرة اللاتي كان يطوف عليهن التسع المذكورات، والجاريتان مارية وريحانة.

وروى يعقوب بن سفيان الفسوي عن الحجاج بن أبي منيع، عن جده عبيد الله بن أبي زياد الرصافي، عن الزهري - وقد علّق البخاري في صحيحه [عقب ح (٥٢٥٤)] عن الحجاج هذا.

وأورده له الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٧/٣] طرفاً عنه أن أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، زوجه إياها أبوها قبل البعثة.

وفي رواية [تاريخ دمشق: ١٨٤/٣] قال الزهري: وكان عمر رسول الله ﷺ يوم تزوج خديجة إحدى وعشرين سنة، وقيل: خمساً وعشرين سنة، زمان بنيت الكعبة.

وقال الواقدي وزاد: ولها خمس وأربعون سنة.

وقال آخرون من أهل العلم: كان عمره عليه الصلاة والسلام يومئذ ثلاثين سنة.

وعن حكيم بن حزام. قال: كان عمر رسول الله ﷺ يوم تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة. وعمرها أربعون سنة.

وعن ابن عباس: كان عمرها ثمانياً وعشرين سنة. رواهما ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٩٣/٣، ١٩٤].

وقال ابن جريج: كان عليه الصلاة والسلام ابن سبع وثلاثين سنة، فولدت له القاسم وبه كان يكنى والطيب والطاهر، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة [تاريخ دمشق: ١٨٤/٣].

قلت: وهي أم أولاده كلهم سوى إبراهيم، فمن مارية كما سيأتي بيانه.

ثم تكلم على كل بنت من بنات رسول الله ﷺ ومن تزوجها، وحاصله:

أن زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن أخت خديجة، أمه هالة بنت خويلد، فولدت له ابناً اسمه عليّ، وبنتاً اسمها أمامة بنت زينب، وقد تزوجها عليّ بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومات وهي عنده، ثم تزوجت بعده بالمغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب. وأما رقية فتزوجها عثمان بن عفان فولدت له ابنه عبد الله وبه كان يكنى أولا، ثم اكتنى بابنه عمرو، وماتت رقية ورسول الله ﷺ ببدر، ولما قدم زيد بن حارثة بالبشارة وجدهم قد ساووا التراب عليها، وكان عثمان قد أقام عندها يمرضها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، ثم زوجه بأختها أم كلثوم، ولهذا كان يقال له ذو النورين، فتوفيت عنده أيضاً في حياته رسول الله ﷺ.

وأما فاطمة فتزوجها ابن عمه عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب، فدخل بها بعد وقعة بدر كما قدمنا، فولدت له حسناً وبه كان يكنى، وحسينا وهو المقتول شهيداً بأرض العراق.

قلت: ويقال ومُحَسِّناً.

وقال: وزينب وأم كلثوم، وقد تزوج زينب هذه ابن عمها عبد الله بن جعفر، فولدت له علياً وعوناً وماتت عنده.

وأما أم كلثوم، فتزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فولدت له زيداً، ومات عنها، فتزوجت بعده ببني عمها جعفر واحداً بعد واحد، تزوجت بعون بن جعفر، فمات عنها، فخلف عليها أخوه محمد، فمات عنها، فخلف عليها أخوهما عبد الله بن جعفر فماتت عنده.

قال الزهري: وقد كانت خديجة بنت خويلد تزوجت قبل رسول الله ﷺ برجلين؛ الأول منهما عتيق بن عائذ بن مخزوم فولدت منه جارية وهي أم محمد بن صيفي، والثاني أبو هالة التميمي فولدت له هند بن هند، وقد سماه ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/٦٤٣، ٦٤٤] فقال: ثم خلف عليها بعد هلاك عتيق بن عائذ بن عتيق أبو هالة النباش بن زرارة، أحد بني عمرو بن تميم، حليف بني عبد الدار، فولدت له رجلا وامرأة، ثم هلك عنها، فخلف عليها رسول الله ﷺ فولدت له بناته الأربع، ثم بعدهن القاسم والطيب والطاهر، فذهب الغلمة جميعاً وهم يرضعون.

قلت: ولم يتزوج عليها رسول الله ﷺ مدة حياتها امرأة.

كذلك رواه عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت ذلك [م (٢٤٣٦) (٧٧) عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق، به].

وقد قدمنا تزويجها في موضعه، وذكرنا شيئاً من فضائلها بدلائلها.

قال الزهري: ثم تزوج رسول الله ﷺ بعد خديجة بعائشة بنت أبي بكر، عبد الله بن أبي قحافة، عثمان بن عامر بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولم يتزوج بكراً غيرها.

قلت: ولم يولد له منها ولد، وقيل بل أسقطت منه ولداً سماه رسول الله ﷺ عبد الله، ولهذا كانت تكنى بأم عبد الله، وقيل: إنما كانت تكنى بعبد الله ابن اختها أسماء من الزبير بن العوام رضي الله عنهم.

قلت: وقد قيل: إنه تزوج سودة قبل عائشة، قاله ابن إسحاق وغيره كما قدمنا ذكر الخلاف في ذلك فالله أعلم. وقد قدمنا صفة تزويجه عليه الصلاة والسلام بهما قبل الهجرة، وتأخر دخوله بعائشة إلى ما بعد الهجرة.

قال: وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن حذافة بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، مات عنها مؤمناً.

قال: وتزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم وكانت قبله تحت ابن عمها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

قال: وتزوج سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وكانت قبله تحت السكران ابن عمرو أخي سهيل بن عمرو بن عبد شمس، مات عنها مسلماً بعد رجوعه وإياها من أرض الحبشة إلى مكة رضي الله عنهما.

قال: وتزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش بن رئاب من بني أسد بن خزيمة مات بأرض الحبشة نصرانياً، بعث إليها رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى أرض الحبشة فخطبها عليه فزوجها منه عثمان بن عفان، كذا قال والصواب خالد بن سعيد بن العاص وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وقد قدمنا ذلك كله مطولا ولله الحمد.

قال: وتزوج زينب بنت جحش بن رئاب بن أسد بن خزيمة، وأمها: أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكانت قبله تحت زيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام، وهي أول نسائه لحوقاً به، وأول من عمل عليها النعش، صنعته أسماء بنت عميس عليها، كما رأت ذلك بأرض الحبشة.

قال: وتزوج زينب بنت خزيمة وهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، ويقال لها: أم المساكين، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش بن رئاب، قتل يوم أحد، فلم تلبث عنده عليه الصلاة والسلام إلا يسيراً حتى توفيت رضي الله عنها.

وقال يونس عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن إسحاق ص٢٤١]: كانت قبله عند الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، أو عند أخيه الطفيل بن الحارث.

قال الزهري: وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة قال: وهي التي وهبت نفسها.

قلت: الصحيح أنه ﷺ خطبها وكان السفير بينهما أبو رافع مولاه، كما بسطنا ذلك في عمرة القضاء.

قال الزهري: وقد تزوجت قبله رجلين أولهما ابن عبد ياليل - وقال سيف بن عمر في روايته: كانت تحت عمير، بن عمرو أحد بني عقدة بن ثقيف بن عمرو الثقفي، مات عنها - ثم خلف عليها أبو رهم بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي.

قال: وسبى رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن الحارث بن عامر بن مالك بن المصطلق من خزاعة، يوم المريسيع فأعتقها وتزوجها، ويقال: بل قدم أبوها الحارث، وكان ملك خزاعة فأسلم ثم تزوجها منه ﷺ، وكانت قبله عند ابن عمها صفوان بن أبي الشُفر. قاله قتادة عن سعيد بن المسيب والشعبي ومحمد بن إسحاق وغيرهم. قالوا: وكان هذا البطن من خزاعة حلفاء لأبي سفيان على رسول الله ﷺ. ولهذا يقول حسان:

وحِلف الحارث بن أبي ضرار وحلف قريظة فيكم سواء

وقال سيف بن عمر في روايته عن سعيد بن عبد الله، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: وكانت جويرية تحت ابن عمها مالك بن صفوان بن تولب ذي الشُفْر بن أبي السرح بن مالك بن المصطلق.

قال: وسبى صفية بنت حُيي بن أخطب، من بني النضير يوم خيبر، وهي عروس بكنانة بن أبي الحقيق. وقد زعم سيف بن عمر في روايته أنها كانت قبل كنانة عند سلام بن مشكم فالله أعلم.

قال: فهذه إحدى عشرة امرأة دخل بهن، قال: وقد قسم عمر بن الخطاب في خلافته لكل امرأة من أزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفا، وأعطى جويرية وصفية ستة آلاف ستة آلاف، بسبب أنهما سبيتا. قال الزهري: وقد حجبهما رسول الله ﷺ وقسم لها.

قلت: وقد بسطنا الكلام فيما تقدم في تزويجه عليه الصلاة والسلام كل واحدة من هذه النسوة رضي الله عنهن في موضعه.

قال الزهري: وقد تزوج العالية بنت ظبيان بن عمرو من بني أبي بكر بن كلاب، ودخل بها وطلقها ﷺ.

قال البيهقي: كذا في كتابي، وفي رواية غيره: ولم يدخل بها فطلقها.

وقد قال محمد بن سعد [الطبقات الكبرى: ٨/١٤٣] عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، حدثني رجل من بني أبي بكر بن كلاب أن رسول الله ﷺ تزوج العالية بنت ظبيان بن عمرو بن عوف بن كعب بن عبد بن أبي بكر بن كلاب فمكثت عنده دهراً ثم طلقها.

وقد روى يعقوب بن سفيان عن حجاج بن أبي منيع، عن جده، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن الضحاك بن سفيان الكلابي هو الذي دل رسول الله ﷺ عليها، وأنا أسمع من وراء الحجاب، قال: يا رسول الله هل لك في أخت أم شبيب؟ وأم شبيب امرأة الضحاك.

وبه قال الزهري. وتزوج رسول الله ﷺ امرأة من بني عمرو بن كلاب فأنبئ أن بها بياضاً، فطلقها ولم يدخل بها.

قلت: الظاهر أن هذه هي التي قبلها والله أعلم.

قال: وتزوج أخت بني الجون الكندي وهم حلفاء بني فزارة فاستعاذت منه فقال: «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك» فطلقها ولم يدخل بها.

قال: وكانت لرسول الله ﷺ سرية يقال لها مارية، فولدت له غلاماً اسمه إبراهيم، فتوفي وقد ملأ المهد، وكانت له وليدة يقال لها: ريحانة بنت شمعون من أهل الكتاب من خنافة، وهم بطن من بني قريظة أعتقها رسول الله ﷺ، ويزعمون أنها قد احتجبت.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣/٢٣٣] بسنده عن علي بن مجاهد: أن رسول الله ﷺ تزوج خولة بنت الهذيل بن هبيرة التغلبي، وأمها خرنق بنت خليفة أخت دحية بن خليفة، فحملت إليه من الشام، فماتت في الطريق، فتزوج خالتها شراف بنت فضالة بن خليفة فحملت إليه من الشام فماتت في الطريق أيضاً.

وقال يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ تزوج أسماء بنت كعب الجونية فلم يدخل بها حتى طلقها، وتزوج عمرة بنت زيد، إحدى نساء بني كلاب، ثم من بني الوحيد، وكانت قبله عند الفضل بن عباس بن عبد المطلب، فطلقها ولم يدخل بها [سيرة ابن إسحاق: ص٢٤٨].

قال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٨٧]: فهاتان هما اللتان ذكرهما الزهري ولم يسمهما، إلا أن ابن إسحاق لم يذكر العالية.

وقال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٨٧]: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي قال: وهبن لرسول الله ﷺ نساء أنفسهن، فدخل ببعضهن وأرجى بعضهن، فلم يقربهن حتى توفي، ولم ينكحن بعده، منهن أم شريك، فذلك قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١].

قال البيهقي: وقد روينا عن هشام بن عروة، عن أبيه. قال: كانت خولة - يعني بنت حكيم - ممن وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ.

وقال البيهقي: وروينا في حديث أبي أسيد الساعدي في قصة الجونية التي استعاذت فألحقها بأهلها، أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل، كذا قال.

وقد قال الإمام أحمد [٣/٤٩٨ و٥/٣٣٩]: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، عن حمزة بن أبي أسيد، عن أبيه وعباس بن سهل، عن أبيه قالا: مر بنا النبي ﷺ وأصحاب له، فخرجنا معه حتى انطلقنا إلى حائط يقال له: الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين فجلسنا بينهما، فقال رسول الله ﷺ: «اجلسوا» ودخل هو وقد أتي بالجونية فعزلت في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل ومعها داية لها، فلما دخل عليها رسول الله ﷺ قال: «هبي لي نفسك»؟ قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، وقالت: إني أعوذ بالله منك، قال: «لقد عذت بمعاذ». ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أسيد اكسها رازقيَّتين، وألحقها بأهلها».

وقال غير أبي أحمد: امرأة من بني الجون يقال لها: أمينة.

وقال البخاري [٥٢٥٥]: حدثنا أبو نعيم، ثنا عبد الرحمن بن الغسيل، عن حمزة بن أبي أسيد، عن أسيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له: الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين فجلسنا بينهما فقال: «اجلسوا هاهنا» فدخل وقد أتي بالجونية فأنزلت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها رسول الله ﷺ. قال: «هبي لي نفسك». قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُّوقة؟! قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك. قال: «قد عذت بمعاذ». ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أسيد اكسها رازقيَّتين وألحقها بأهلها».

قال البخاري [(٥٢٥٦، ٥٢٥٧) معلقاً]، وقال الحسين بن الوليد، عن عبد الرحمن بن الغسيل، عن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه، وأبي أسيد. قالا: تزوج النبي ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رزاقيين.

ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا إبراهيم بن أبي الوزير، ثنا عبد الرحمن عن حمزة عن أبيه، وعن عباس بن سهل ابن سعد، عن أبيه بهذا.

انفرد البخاري بهذه الروايات من بين أصحاب الكتب.

وقال البخاري [٥٢٥٤]: ثنا الحميدي، ثنا الوليد، ثنا الأوزاعي: سألت الزهري: أي أزواج النبي ﷺ استعاذت منه؟ فقال: أخبرني عروة عن عائشة، أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك».

وقال: ورواه حجاج بن أبي منيع عن جده، عن الزهري: أن عروة أخبره أن عائشة قالت... الحديث، انفرد به دون مسلم.

قال البيهقي [الدلائل: ٧/٢٨٧، ٢٨٨]: ورأيت في كتاب المعرفة لابن منده أن اسم التي استعاذت منه أميمة بنت النعمان بن شراحيل. ويقال: فاطمة بنت الضحاك.

والصحيح أنها أميمة والله أعلم.

وزعموا أن الكلابية اسمها عمرة وهي التي وصفها أبوها بأنها لم تمرض قط، فرغب عنها رسول الله ﷺ.

وقد روى محمد بن سعد [الطبقات: ٨/١٤١] عن محمد بن عبد الله، عن الزهري. قال: هي فاطمة بنت الضحاك بن سفيان، استعاذت منه فطلقها، فكانت تلقط البعر وتقول: أنا الشقية. قال: وتزوجها في ذي القعدة سنة ثمان، وماتت سنة ستين.

وذكر يونس عن ابن إسحاق فيمن تزوجها عليه الصلاة والسلام ولم يدخل بها: أسماء بنت كعب الجونية، وعمرة بنت يزيد الكلابية.

وقال ابن عباس وقتادة: أسماء بنت النعمان بن أبي الجون فالله أعلم.

قال ابن عباس: لما استعاذت منه خرج من عندها مغضباً، فقال له الأشعث: لا يسوءك ذلك يا رسول الله فعندي أجمل منها، فزوجه أخته

قتيلة [طبقات ابن سعد: ١٤٧/٨].

وقال غيره: كان ذلك في ربيع سنة تسع [طبقات ابن سعد: ١٤٥/٨].

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة، فذكر منهن أم شريك الأنصارية النجارية قال: وقد قال رسول الله ﷺ: «إني لأحب أن أتزوج من الأنصار، ولكني أكره غيرتهن» ولم يدخل بها.

قال: وتزوج أسماء بنت الصلت من بني حرام ثم من بني سليم، ولم يدخل بها، وخطب حمزة بنت الحارث المزنية.

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: تزوج رسول الله ﷺ ثماني عشرة امرأة، فذكر منهن قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس، فزعم بعضهم أنه تزوجها قبل وفاته بشهرين، وزعم آخرون أنه تزوجها في مرضه. قال: ولم يكن قدمت عليه ولا رآها ولم يدخل بها.

قال: وزعم آخرون أنه عليه الصلاة والسلام أوصى أن تخير قتيلة فإن شاءت يضرب عليها الحجاب وتحرم على المؤمنين، وإن شاءت فلتنكح من شاءت، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت، فبلغ ذلك أبا بكر فقال: لقد هممت أن أحرق عليهما. فقال عمر بن الخطاب: ما هي من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها، ولا ضرب عليها الحجاب.

قال أبو عبيدة: وزعم بعضهم أن رسول الله ﷺ لم يوص فيها بشيء، وأنها ارتدت بعده، فاحتج عمر على أبي بكر بارتدادها أنها ليست من أمهات المؤمنين.

وذكر ابن منده أن التي ارتدت هي البَرْصاء من بني عوف بن سعد بن ذبيان.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٢٦/٣، ٢٢٧] من طرق عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تزوج قتيلة أخت الأشعث بن قيس، فمات قبل أن يخيّرها فبرأها الله منه.

وروى حماد بن سلمة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي: أن عكرمة بن أبي جهل لما تزوج قتيلة أراد أبو بكر أن يضرب عنقه، فراجعه عمر بن الخطاب فقال: إن رسول الله ﷺ لم يدخل بها، وإنها ارتدت مع أخيها، فبرئت من الله ورسوله. فلم يزل به حتى كف عنه.

قال الحاكم: وزاد أبو عبيدة في العدد فاطمة بنت شريح، وسنا بنت أسماء بن الصلت السلمية.

هكذا روى ذلك ابن عساكر من طريق ابن منده بسنده عن قتادة فذكره.

وقال محمد بن سعد عن ابن الكلبي مثل ذلك. قال ابن سعد: وهي سبا [الطبقات: ١٤٩/٨].

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٣١/٣]: ويقال سنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن حرام بن سماك بن عوف السلمي.

قال ابن سعد: أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي: حدثني العرزمي عن نافع، عن ابن عمر قال: كان في نساء رسول الله ﷺ سنا بنت سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب.

وقال ابن عمر: إن رسول الله ﷺ بعث أبا أسيد يخطب عليه امرأة من بني عامر يقال لها: عمرة بنت يزيد بن عبيد بن رواس بن كلاب، فتزوجها، فبلغه أن بها بياضاً فطلقها.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١٤٨/٨] عن الواقدي: حدثني أبو معشر. قال: تزوج رسول الله ﷺ مليكة بنت كعب، وكانت تذكر بجمال بارع، فدخلت عليها عائشة فقالت: ألا تستحين أن تنكحي قاتل أبيك؟ فاستعاذت منه فطلقها، فجاء قومها فقالوا: يا رسول الله إنها صغيرة ولا رأي لها، وإنها خدعت فارتجعها، فأبى. فاستأذنوه أن يزوجوها بقريب لها من بني عذرة فأذن لهم، قال: وكان أبوها قد قتله خالد بن الوليد يوم الفتح.

قال الواقدي: وحدثني عبد العزيز الجندعي عن أبيه، عن عطاء بن يزيد قال: دخل بها رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، وماتت عنده. قال الواقدي: وأصحابنا ينكرون ذلك. [طبقات ابن سعد: ١٤٨/٨، ١٤٩]

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٤/٣، ١٧٥]، أنبأنا أبو الفتح يوسف بن عبد الواحد الماهاني أنبأنا شجاع بن عليّ بن شجاع، أنبأنا أبو عبد الله بن منده، أنبأنا الحسن بن محمد بن حليم المروزي، ثنا أبو الموجه محمد بن عمرو بن الموجه الفزاري، أنبأنا عبد الله بن عثمان، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا يونس بن يزيد عن ابن شهاب الزهري قال: تزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد بمكة، وكانت قبله تحت عتيق بن عائذ المخزومي، ثم تزوج بمكة عائشة بنت أبي بكر، ثم تزوج بالمدينة حفصة بنت عمر، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي، ثم تزوج سودة بنت زمعة، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو، أخي بني عامر بن لؤي، ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش الأسدي أحد بني خزيمة، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أمية وكان اسمها هند، وكانت قبله تحت أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد العزى، ثم تزوج ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وتزوج ﷺ العالية بنت ظبيان من بني بكر بن عمرو بن كلاب، وتزوج ﷺ امرأة من بني الجون من كندة، وسَبى جويرية - في الغزوة التي هدم فيها مناة غزوة المريسيع - ابنة الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق من خزاعة، وسَبى صفية بنت حيي بن أخطب، من بني النضير وكانتا مما أفاء الله عليه فقسمَهما له، واستسر مارية جاريته القبطية، فولدت له إبراهيم، واستسرَّ ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها فلحقت بأهلها، واحتجبت وهي عند أهلها، وطلق رسول الله ﷺ العالية بنت ظبيان، وفارق أخت بني عمرو بن كلاب، وفارق أخت بني الجون الكندية من أجل بياض كان بها، وتوفيت زينب بنت خزيمة الهلالية ورسول الله ﷺ حي، وبلغنا أن العالية بنت ظبيان التي طلقت تزوجت قبل أن يحرم الله النساء، فنكحت ابن عم لها من قومها وولدت فيهم.

سقناه بالسند لغرابة ما فيه من ذكره تزويج سودة بالمدينة، والصحيح أنه كان بمكة قبل الهجرة كما قدمناه والله أعلم.

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق؛ قال: فماتت خديجة بنت خويلد قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ بثلاث سنين، لم يتزوج عليها امرأة حتى ماتت هي وأبو طالب في سنة، فتزوج رسول الله ﷺ بعد خديجة سودة بن زمعة، ثم تزوج بعد سودة عائشة بنت أبي بكر لم يتزوج بكراً غيرها، ولم يصب منها ولداً حتى مات، ثم تزوج بعد عائشة حفصة بنت عمر، ثم تزوج بعد حفصة زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، ثم تزوج بعدها أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم تزوج بعدها أم سلمة هند بنت أبي أمية؛ ثم تزوج بعدها زينب بنت جحش، ثم تزوج بعدها جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، قال: ثم تزوج بعد جويرية صفية بنت حيي بن

أخطب، ثم تزوج بعدها ميمونة بنت الحارث الهلالية.

فهذا الترتيب أحسن وأقرب مما رتبه الزهري والله أعلم.

وقال يونس بن بكير، عن أبي يحيى، عن جميل بن زيد الطائي، عن سهل بن زيد الأنصاري قال: تزوج رسول الله ﷺ امرأة من بني غفار، فدخل بها، فأمرها فنزعت ثوبها، فرأى بها بياضاً من برص عند ثدييها، فانماز رسول الله ﷺ وقال: «خذي ثوبك» وأصبح فقال لها: «الحقي بأهلك» فأكمل لها صداقها [السنن الكبرى للبيهقي: ٧/٢٥٦].

وقد رواه أبو نعيم من حديث جميل بن زيد، عن سهل بن زيد الأنصاري، وكان ممن رأى النبي ﷺ قال: تزوج رسول الله ﷺ امرأة من غفار؛ فذكر مثله.

قلت: وممن تزوجها ﷺ ولم يدخل بها أم شريك الأزدية.

قال الواقدي: والمثبت أنها دوسية وقيل: الأنصارية، ويقال: عامرية، وأنها خولة بنت حكيم السلمي.

وقال الواقدي: اسمها غزية بنت جابر بن حكيم.

قال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم، عن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه قال: كان جميع ما تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة، منهن أم شريك الأنصارية وهبت نفسها للنبي ﷺ.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: وتزوج أم شريك الأنصارية من بني النجار. وقال: «إني أحب أن أتزوج من الأنصار لكني أكره غيرتهن» ولم يدخل بها.

وقال ابن إسحاق عن حكيم، عن محمد ابن علي عن أبيه قال: تزوج ﷺ ليلى بنت الخطيم الأنصارية وكانت غيوراً فخافت نفسها عليه فاستقالته فأقالها.

٢- من خطبها ﷺ ولم يعقد عليها

قال اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، عن أم هانئ فاختة بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ خطبها فذكرت أن لها صبية صغاراً فتركها، وقال: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على طفل في صغيره، وأرعاه على زوج في ذات يده» [طبقات ابن سعد: ١٥٢/٨ من طريق إسماعيل بن أبي خالد، به].

وقال عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب أم هانئ بنت أبي طالب فقالت: يا رسول الله إني قد كبرت ولي عيال [م (٣٥٢٧) من طريق عبد الرزاق، به].

وقال الترمذي [٣٢١٤]: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عُبيد الله بن موسى، حدثنا اسرائيل عن السدي، عن أبي صالح، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني. ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٠]. قال: فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر كنت من الطلقاء. ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث السدي.

فهذا يقتضي أن من لم تكن من المهاجرات لا تحل له ﷺ. وقد نقل هذا المذهب مطلقاً القاضي الماوردي في «تفسيره» عن بعض العلماء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي من القرابات المذكورات.

وقال قتادة: ﴿اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي أسلمن معك.

فعلى هذا لا يحرم عليه إلا نساء الكفار، وتحل له جميع المسلمات، فلا ينافي تزوجه من نساء الأنصار إن ثبت ذلك، ولكن لم يدخل بواحدة منهن أصلاً.

وأما حكاية الماوردي عن الشعبي: أن زينب بنت خزيمة أم المساكين أنصارية؛ فليس بجيد. فإنها هلالية بلا خلاف كما تقدم بيانه والله أعلم.

وروى محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٠/٨] عن هشام بن الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس. قال: أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى رسول الله ﷺ وهو مول ظهره إلى الشمس، فضربت على منكبه فقال: «من هذا؟ أكله الأسود» وكان كثيراً ما يقولها. فقالت: أنا بنت مطعم الطير، ومباري الريح، أنا ليلى بنت الخطيم، جئتك لأعرض عليك نفسي تزوجني؟ قال: «قد فعلت» فرجعت إلى قومها فقالت: قد تزوجت النبي ﷺ، فقالوا: بئس ما صنعت، أنت امرأة غيرى، ورسول الله ﷺ صاحب نساء تغارين عليه، فيدعو الله عليك فاستقيليه، فرجعت فقالت: أقلني يا رسول الله. فأقالها. فتزوجها مسعود بن أوس بن سواد بن ظفر فولدت له، فبينما هي يوماً تغتسل في بعض حيطان المدينة إذ وثب عليها ذئب أسود فأكل بعضها، فماتت.

وبه عن ابن عباس: أن ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت تحت عبد الله بن جدعان فطلقها، فتزوجها بعده هشام بن المغيرة، فولدت له سلمة، وكانت امرأة ضخمة جميلة لها شعر غزير يجلل جسمها، فخطبها رسول الله ﷺ من ابنها سلمة، فقال: حتى أستأمرها؟ فاستأذنها فقالت: يا بنيْ أفي رسول الله ﷺ تستأذن؟ فرجع ابنها فسكت ولم يرد جواباً على رسول الله ﷺ وكأنه رأى أنها قد طعنت في السن، وسكت النبي ﷺ عنها.

وبه عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ صفية بنت بشامة بن نضلة العنبري، وكان أصابها سباء فخيرها رسول الله ﷺ فقال: «إن شئت أنا وإن شئت زوجك» فقالت: بل زوجي، فأرسلها فلعنتها بن تميم.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٤/٨]: أنبأنا الواقدي، ثنا موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كانت أم شريك امرأة من بني عامر بن لؤي فوهبت نفسها من رسول الله ﷺ فلم يقبلها، فلم تتزوج حتى ماتت.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٥/٨]: وأنبأنا وكيع عن شريك عن جابر، عن الحكم، عن علي بن الحسين أن رسول الله ﷺ تزوج أم شريك الدوسية.

قال الواقدي: الثبت عندنا أنها من دوس من الأزد.

قال محمد بن سعد: واسمها غزية بنت جابر بن حكيم.

وقال الليث بن سعد: عن هشام بن عروة عن أبيه قال كنّا نتحدث: أن أم شريك كانت وهبت نفسها للنبي ﷺ، وكانت امرأة صالحة.

وممن خطبها ولم يعقد عليها جمرة بنت الحارث بن عوف بن أبي حارثة المزني، فقال أبوها: إن بها سوءاً - ولم يكن بها- فرجع إليها وقد تبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

هكذا ذكره سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

قال: وخطب أمّ حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباها أخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب.

فهؤلاء نساؤه وهن ثلاثة أصناف:

صنف دخل بهن ومات عنهن، وهن التسع المبدأ بذكرهن، وهن حرام على الناس بعد موته عليه الصلاة والسلام بالإجماع المحقق المعلوم من الدين ضرورة، وعدتهن بانقضاء أعمارهن. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وصنف دخل بهن وطلقهن في حياته، فهل يحل لأحد أن يتزوجهن بعد انقضاء عدتهن منه عليه الصلاة والسلام؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: لا لعموم الآية التي ذكرناها.

والثاني: نعم بدليل آية التخيير وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

قالوا: فلولا أنها تحل لغيره أن يتزوجها بعد فراقه إياها لم يكن في تخييرها بين الدنيا والآخر فائدة، إذ لو كان فراقه لها لا يُبيحُها لغيره لم يكن فيه فائدة لها، وهذا قوي والله تعالى أعلم.

وأما الصنف الثالث: وهي من تزوجها وطلقها قبل أن يدخل بها، فهذه يحل لغيره أن يتزوجها، ولا أعلم في هذا القسم نزاعاً، وأما من خطبها ولم يعقد عقدة عليها، فأولى لها أن تتزوج، وأولى. وسيجيء فصل في كتاب الخصائص يتعلق بهذا المقام والله أعلم.

٣- فصل في ذكر سراريه ﷺ

كانت له عليه الصلاة والسلام سُرِّيتان، إحداهما: مارية بنت شمعون القبطية، أهداها له صاحب إسكندرية واسمه جريج بن مينا، وأهدى معها أختها سيرين. وذكر أبو نعيم أنه أهداها في أربع جوار، والله أعلم وغلاما خصيا اسمه مابور، وبغلة يقال لها: الدُّلْدل فقبل هديته، واختار لنفسه مارية، وكانت من قرية ببلاد مصر يقال لها: حفن من كورة أنصنا، وقد وضع عن أهل هذه البلدة معاوية بن أبي سفيان في أيام إمارته الخراج إكراما لها من أجل أنها حملت من رسول الله ﷺ بولد ذكر وهو إبراهيم عليه السلام.

قالوا: وكانت مارية جميلة بيضاء، أعجب بها رسول الله ﷺ وأحبها، وحظيت عنده، ولا سيما بعدما وضعت إبراهيم ولده.

وأما أختها سيرين فوهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان، وأما الغلام الخصي وهو مابور، فقد كان يدخل على مارية وسيرين بلا إذن كما جرت به عادته بمصر، فتكلم بعض الناس فيها بسبب ذلك، ولم يشعروا أنه خصي حتى انكشف الحال على ما سنبينه قريباً إن شاء الله.

وأما البغلة فكان عليه الصلاة والسلام يركبها، والظاهر والله أعلم أنها التي كان راكبها يوم حنين. وقد تأخرت هذه البغلة وطالت مدتها حتى كانت عند عليّ بن أبي طالب في أيام إمارته، ومات فصارت إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكبرت حتى كان يَجُشُّ لها الشعير لتأكله.

قال أبو بكر بن خزيمة: حدثنا محمد بن زياد بن عبيد الله، أنبأنا سفيان بن عيينة عن بشير بن المهاجر، عن عبد الله بن بريدة بن الحُصيب، عن أبيه قال: أهدى أمير القبط إلى رسول الله ﷺ جاريتين أختين، وبغلة فكان يركب البغلة بالمدينة، واتخذ إحدى الجاريتين فولدت له إبراهيم ابنه، ووهب الأخرى.

وقال الواقدي: حدثنا يعقوب بن محمد بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: كان رسول الله ﷺ يعجب بمارية القبطية، وكانت بيضاء جعدة جميلة، فأنزلها وأختها على أم سليم بنت ملحان، فدخل عليهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلمتا هناك، فوطئ مارية بالملك، وحوَّلها إلى مال له بالعالية، كان من أموال بني النضير، فكانت فيه في الصيف، وفي خرافة النخل. فكان يأتيها هناك، وكانت حسنة الدين، ووهب أختها سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن، وولدت مارية لرسول الله ﷺ غلاما سماه إبراهيم، وعق عنه بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، وسماه إبراهيم، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله ﷺ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بأنها قد ولدت غلاما، فجاء أبو رافع إلى رسول الله ﷺ فبشره فوهب له عبداً، وغار نساء رسول الله ﷺ واشتد عليهن حين رزق منها الولد.

وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطني [السنن: ٤/١٣١، ١٣٢] عن أبي عبيد القاسم بن إسماعيل، عن زياد بن أيوب عن سعيد بن زكريا المدائني، عن ابن أبي سارة، عن ابن أبي الحسين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما ولدت مارية قال رسول الله ﷺ: «أعتقها ولدُها».

ثم قال الدارقطني: تفرد به زياد بن أيوب، وهو ثقة.

وقد رواه ابن ماجه [٢٥١٦] من حديث حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، عن عكرمة، عن ابن عباس بمثله. ورويناه من وجه آخر.

وقد أفردنا لهذه المسألة وهي بيع أمهات الأولاد مصنفا مفرداً على حدته، وحكينا فيه أقوال العلماء بما حاصله يرجع إلى ثمانية أقوال، وذكرنا مستند كل قول ولله الحمد والمنة.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق [سيرته ص٢٥٢]، عن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده عليّ بن أبي طالب قال: أكثروا على مارية أم إبراهيم في قبطي ابن عم لها يزورها، ويختلف إليها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ هذا السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله» قال: قلت: يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسِّكَّةِ المحمّاة لا يثنيني شيء حتى أمضي لما أمرتني به، أم الشاهد يرى مالا يرى الغائب؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل الشاهد يرى مالا يرى الغائب» فأقبلت متوحشا السيف فوجدته عندها فاخترطت السيف، فلما رآني عرف أني أريده، فأتى نخلة فرقي فيها ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شال رجليه فإذا به أجب أمسح، ما له مما للرجال، قليل ولا كثير، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «الحمد لله الذي صرف عنا أهل البيت».

وقال الإمام أحمد [١/٨٣]: حدثنا يحيى بن سعيد، ثنا سفيان، حدثني محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، عن عليّ قال: قلت: يا رسول الله إذا بعثتني أكون كالسكّة المحمّاة، أم الشاهد يرى مالا يرى الغائب؟ قال: «الشاهد يرى ما لا يرى الغائب».

هكذا رواه مختصراً. وهو أصل الحديث الذي أوردناه وإسناده رجال ثقات.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحراني، حدثنا أبي، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب وعقيل، عن الزهري، عن أنس قال: لما ولدت مارية إبراهيم كاد أن يقع في النبي ﷺ منه شيء، حتى نزل

جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم.

وقال أبو نعيم: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا محمد بن يحيى الباهلي، حدثنا يعقوب بن محمد عن رجل سماه، عن الليث بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: أهدى ملك من بطارقة الروم يقال له: المقوقس جارية قبطية من بنات الملوك، يقال لها: مارية إلى النبيّ ﷺ، وأهدى معها ابن عم لها شاباً، فدخل رسول الله ﷺ منها ذات يوم مَدْخَلَ خَلْوةٍ، فأصابها فحملت بإبراهيم، قالت عائشة: فلما استبان حملها جزعت من ذلك، فسكت رسول الله ﷺ، فلم يكن لها لبن، فاشترى لها ضائنة لبونا تغذي منها الصبي، فصلُح عليه جسمه وحسن لونه، وصفا لونه، فجاء به ذات يوم يحمله على عُنقهُ فقال: «يا عائشة كيف ترين الشبه؟» فقلت: وأنا غَيْرَي: ما أرى شبهاً، فقال: «ولا اللحم؟» فقلت: لعمري من تغذى بألبان الضأن ليحسن لحمه.

قال الواقدي: ماتت مارية في المحرم سنة ستّ عشرة، فصلى عليها عمر ودفنها في البقيع، وكذا قال المفضل بن غسان الغلابي.

وقال خليفة وأبو عبيدة ويعقوب بن سفيان: ماتت سنة ست عشرة رحمها الله.

ومنهن ريحانةُ بنت زيد من بني النضير ويقال: من بني قريظة.

قال الواقدي [المغازي: ٥٢٠/٢]: كانت ريحانة بنت زيد من بني النضير، ويقال من بني قريظة. وكانت متزوجة في بني قريظة، وكان رسول الله ﷺ قد أخذها لنفسه صفياً، وكانت جميلة فعرض عليها رسول الله ﷺ أن تسلم فأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه، فأرسل إلى ابن سَعْيَة فذكر له ذلك فقال ابن سَعْيَة: فداك أبي وأمي هي تسلم، فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها: لا تتبعي قومك فقد رأيت ما أدخل عليهم حيي بن أخطب فأسلمي يصطفيك رسول الله ﷺ لنفسه، فبينا رسول الله ﷺ في أصحابه إذ سمع وقع نعلين فقال: «إن هاتين لنعلا ابن سَعية يبشرني بإسلام ريحانة» فجاء يقول: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسُرَّ بذلك.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٤٥/٢]: لما فتح رسول الله ﷺ قريظة اصطفى لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خنافة فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، وكان عرض عليها الإسلام ويتزوجها فأبت إلا اليهودية. ثم ذكر من إسلامها ما تقدم.

قال الواقدي [المغازي: ٥٢٠/٢، ٥٢١]: فحدثني عبد الملك بن سليمان عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أيوب بن بشير المعاوي قال: فأرسل بها رسول الله ﷺ إلى بيت سلمى بنت قيس أم المنذر، فكانت عندها حتى حاضت حيضة، ثم طهرت من حيضها، فجاءت أم المنذر فأخبرت رسول الله ﷺ، فجاءها في منزل أم المنذر فقال لها: «إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت، وإن أحببت أن تكوني في ملكي أطأك بالمِلْك فعلتُ» فقالت: يا رسول الله إن أخف عليك وعليّ أن أكون في ملكك.

فكانت في ملك رسول الله ﷺ يطأها حتى ماتت.

قال الواقدي [المغازي: ٥٢١/٢]: وحدثني ابن أبي ذئب. قال: سألت الزهري عن ريحانة فقال: كانت أمة رسول الله ﷺ فأعتقها وتزوجها، فكانت تحتجب في أهلها وتقول: لا يراني أحد بعد رسول الله ﷺ.

قال الواقدي [المغازي: ٥٢١/٢]: وهذا أثبت الحديثين عندنا، وكان زوجها قبله عليه الصلاة والسلام الحكم.

وقال الواقدي [المغازي: ٥٢١/٢]: ثنا عاصم بن عبد الله بن الحكم، عن عمر بن الحكم قال: أعتق رسول الله ﷺ ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، وكانت عند زوج لها، وكان محباً لها مكرماً، فقالت: لا أستخلف بعده أحداً أبداً، وكانت ذات جمال، فلما سبيت بنو قريظة، عرض السبي على رسول الله ﷺ، قالت: فكنت فيمن عرض عليه فأمر بي فعزلت، وكان يكون له صفي في كل غنيمة، فلما عزلت خار الله لي، فأرسل بي إلى منزل أم المنذر بنت قيس أياماً حتى قتل الاسرى وفرق السبي، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فتَحَيَّيْتُ منه حياء، فدعاني فأجلسني بين يديه، فقال: «إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه» فقلت: إني أختار الله ورسوله، فلما أسلمت أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني وأصدقني اثنتي عشرة أوقية ونشّاً كما كان يصدق نساءه، وأعرس بي في بيت أم المنذر، وكان يقسم لي كما يقسم لنسائه، وضرب عليّ الحجاب.

قال: وكان رسول الله ﷺ معجباً بها، وكانت لا تسأله شيئاً إلا أعطاها، فقيل لها: لو كنت سألت رسول الله ﷺ بني قريظة لأعتقهم، فكانت تقول: لم يخل بي حتى فرق السبي، ولقد كان يخلو بها ويستكثر منها، فلم تزل عنده حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع. فدفنها بالبقيع. وكان تزويجه إياها في المحرم سنة ست من الهجرة.

وقال ابن وهب عن يونس بن يزيد، عن الزهري قال: واستسر رسول الله ﷺ ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها فلحقت بأهلها.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كانت ريحانة بنت زيد بن شمعون من بني النضير. وقال بعضهم: من بني قريظة، وكانت تكون في نخل من نخل الصدقة، فكان رسول الله ﷺ يقيل عندها أحياناً، وكان سباها في شوال سنة أربع.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: ثنا أحمد بن المقدام، ثنا زهير عن سعيد، عن قتادة قال: كانت لرسول الله ﷺ وليدتان؛ مارية القبطية ورُبيحة أو ريحانة بنت شمعون بن زيد بن خنافة، من بني عمرو بن قريظة، كانت عند ابن عم لها يقال له: عبد الحكم فيما بلغني، وماتت قبل وفاة النبي ﷺ.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كانت لرسول الله ﷺ أربع ولائد؛ مارية القبطية، وريحانة القرظية، وكانت له جارية أخرى جميلة فكادها نساؤه وخفن أن تغلبهن عليه، وكانت له جارية نفيسة وهبتها له زينب بنت جحش، وكان هجرها في شأن صفية بنت حيي ذا الحجة والمحرم وصفراً، فلما كان شهر ربيع الأول الذي قبض فيه، عليه الصلاة والسلام رضي عن زينب ودخل عليها، فقالت: ما أدري ما أجزيك؟ فوهبتها له ﷺ.

وقد روى سيف بن عمر عن سعيد بن عبد الله، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة. أن رسول الله ﷺ كان يقسم لمارية وريحانة مرة، ويتركهما مرة.

٤ـ ذكره أولاده عليه وعليهم الصلاة والسلام

لا خلاف أن جميع أولاده ﷺ من خديجة بنت خويلد سوى إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ١٣٣/١]: أنبأنا هشام بن الكلبي، أخبرني أبي عن أبي صالح، عن ابن عباس. قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم ـ وهو أول ميت من ولده ـ بمكة، ثم مات عبد الله فقال

العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر،الآيات: ١-٣].

قال: ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، فمات ابن ثمانية عشر شهراً.

وقال أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري: ثنا عبد الباقي بن قانع، ثنا محمد بن زكريا، ثنا العباس بن بكار، حدثني محمد بن زياد والفرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس قال: ولدت خديجة من النبي ﷺ عبد الله بن محمد، ثم أبطأ عليه الولد من بعده، فبينا رسول الله ﷺ يكلم رجلا والعاص بن وائل ينظر إليه إذ قال له رجل: من هذا؟ قال له: هذا الأبتر. وكانت قريش إذا ولد للرجل ولدٌ، ثم أبطأ عليه الولد من بعده، قالوا: هذا الأبتر، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي مبغضك هو الأبتر من كل خير.

قال: ثم ولدت له زينب، ثم ولدت له رقية، ثم ولَدتْ له القاسم، ثم ولدت الطاهر، ثم ولدت المطهر، ثم ولدت الطيب، ثم ولدت المطيب، ثم ولدت أم كلثوم، ثم ولدت فاطمة، وكانت أصغرهم، وكانت خديجة إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه. فلما ولدت فاطمة لم يرضعها أحدٌ غيرها.

وقال الهيثم بن عدي: حدثنا هشام بن عروة عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: كان للنبي ﷺ ابنان؛ طاهر والطيب. وكان يسمى أحدهما عبد شمس، والآخر عبد العزى.

وهذا فيه نكارة والله أعلم.

وقال محمد بن عائذ: أخبرني الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز: أن خديجة ولدت القاسم والطيب والطاهر ومطهراً وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم.

وقال الزبير بن بكار: أخبرني عمي مصعب بن عبد الله قال: ولدت خديجة القاسم والطاهر، وكان يقال له: الطيب، وولد الطاهر بعد النبوة، ومات صغيراً واسمه عبد الله، وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم رضوان الله عليهم أجمعين.

قال الزبير: وحدثني إبراهيم بن المنذر، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود: أن خديجة ولدت القاسم والطاهر والطيب وعبد الله وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم.

وحدثني محمد ابن فضالة عن بعض من أدرك من المشيخة قال: ولدت خديجة القاسم وعبد الله، فأما القاسم فعاش حتى مشى، وأما عبد الله فمات وهو صغير.

وقال الزبير بن بكار: كانت خديجة تذكر في الجاهلية الطاهرة بنت خويلد، وقد ولدت لرسول الله ﷺ القاسم وهو أكبر ولده وبه كان يكنى، ثم زينب، ثم عبد الله وكان يقال له الطيب، ويقال له الطاهر، ولد بعد النبوة ومات صغيراً. ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. هم هكذا الأول فالأول. ثم مات القاسم بمكة - وهو أول ميت من ولده - ثم مات عبد الله، ثم ولدت له مارية بنت شمعون إبراهيم وهي القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية، وأهدى معها أختها سيرين وخصياً يقال له: مأبور، فوهب سيرين لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن. وقد انقرض نسل حسان بن ثابت.

وقال أبو بكر بن البَرْقي: يقال: إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله، ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن، والطاهر والمطهر ولدا في بطن.

وقال المفضل بن غسان أنا أبي، عن أحمد بن حنبل، حدثنا عبد الرزاق، ثنا ابن جريج، عن مجاهد قال: مكث القاسم ابن النبي ﷺ سبع ليال ثم مات.

قال المفضل: وهذا خطأ، والصواب أنه عاش سبعة عشر شهراً.

وقال الحافظ أبو نعيم: قال مجاهد: مات القاسم وله سبعة أيام.

وقال الزهري: وهو ابن سنتين.

وقال قتادة: عاش حتى مشى.

وقال هشام بن عروة: وضع أهل العراق ذكر الطيب والطاهر، فأما مشايخنا فقالوا: عبد العزى وعبد مناف والقاسم، ومن النساء رقية وأم كلثوم وفاطمة.

هكذا رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٢/٣] وهو منكر، والذي أنكره هو المعروف. وسقط ذكر زينب ولا بد منها والله أعلم.

فأما زينب فقال عبد الرزاق عن ابن جريج، قال لي غير واحد: كانت زينب أكبر بنات رسول الله ﷺ، وكانت فاطمة أصغرهن وأحبهن إلى رسول الله ﷺ.

وتزوج زينب أبو العاص بن الربيع فولدت منه عليا وأمامة، وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة، فإذا سجد وضعها. وإذا قام حملها. ولعل ذلك كان بعد موت أمها سنة ثمان من الهجرة على ما ذكره الواقدي وقتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهم [طبقات ابن سعد: ٣٤/٨]، وكأنها كانت طفلة صغيرة فالله أعلم. وقد تزوجها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موت فاطمة على ما سيأتي إن شاء الله.

وكانت وفاة زينب رضي الله عنها في سنة ثمان.

قاله قتادة عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وخليفة بن خياط، وأبو بكر بن أبي خيثمة وغير واحد.

وقال قتادة عن ابن حزم: في أول سنة ثمان.

وذكر حماد بن سلمة عن هشام بن عروة، عن أبيه، أنها لما هاجرت دفعها رجل فوقعت على صخرة فأسقطت حملها، ثم لم تزل وجعة حتى ماتت. فكانوا يرونها ماتت شهيدة.

وأما رقية فكان قد تزوجها أولا ابن عمها عتبة بن أبي لهب كما تزوج أختها أم كلثوم، أخوه عتيبة بن أبي لهب، ثم طلقاهما قبل الدخول بهما بغضة في رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد] فتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، ويقال: إنه أول من هاجر إليها. ثم رجعا إلى مكة كما قدمنا، وهاجرا إلى المدينة وولدت له ابنه عبد الله، فبلغ ست سنين، فنقره ديك في عينيه فمات، وبه كان يكنى أولا، ثم اكتنى بابنه عمرو، وتوفيت وقد انتصر رسول الله ﷺ ببدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان. ولما أن جاء البشير بالنصر إلى المدينة - وهو زيد بن حارثة - وجدهم قد ساووا على قبرها التراب، وكان عثمان قد أقام عليها بمرضها بأمر رسول الله ﷺ وضرب له بسهمه وأجره، ولما رجع ﷺ زوجه بأختها أم كلثوم أيضا، ولهذا كان يقال له: ذو النورين، ثم ماتت عنده في شعبان سنة تسع، ولم تلد له شيئاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كانت عندي ثالثة لزوجتها عثمان» [الطبراني في الكبير: ١٨٤/١٧].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «لو كن عشراً لزوجتهن عثمان» [السنة لابن أبي عاصم (١٢٩١) من حديث أبي هريرة].

وأما فاطمة فتزوجها ابن عمها عليّ بن أبي طالب في صفر سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسناً، وولدت له أم كلثوم وزينب. وقد تزوج عمر بن الخطاب في أيام ولايته بأم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب من فاطمة وأكرمها إكراما زائداً أصدقها أربعين ألف درهم لأجل نسبها من رسول الله ﷺ، فولدت له زيد بن عمر بن الخطاب، ولما قتل عمر ابن الخطاب تزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر فمات عنها، فخلف عليها أخوه محمد فمات عنها، فتزوجها أخوهما عبد الله بن جعفر فماتت عنده.

وقد كان عبد الله بن جعفر تزوج بأختها زينب بنت عليّ من فاطمة، وماتت عنده أيضاً، وقد توفيت فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على أشهر الأقوال.

وهذا الثابت عن عائشة في الصحيح [خ (٤٢٤٠، ٤٢٤١)]، وقاله الزهري أيضاً، وأبو جعفر الباقر [طبقات ابن سعد: ٢٨/٨] وعن الزهري بثلاثة أشهر [طبقات ابن سعد: ٢٨/٨].

وقال أبو الزبير: بشهرين. وقال أبو بريدة: عاشت بعده سبعين من بين يوم وليلة.

وقال عمرو بن دينار: مكثت بعده ثمانية أشهر. وكذا قال عبد الله بن الحارث.

وفي رواية عن عمرو بن دينار بثلاثة أشهر.

وأما إبراهيم فمن مارية القبطية كما قدمنا، وكان ميلاده في ذي الحجة سنة ثمان.

وقد روي عن ابن لهيعة وغيره عن عبد الرحمن بن زياد. قال: لما حبل بإبراهيم أتى جبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، إن الله قد وهب لك غلاماً من أم ولدك مارية، وأمرك أن تسميه إبراهيم، فبارك الله لك فيه، وجعله قرة عين لك في الدنيا والآخرة.

وروى الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: (١٤٩٢)] عن محمد بن مسكين، عن عثمان بن صالح عن ابن لهيعة، عن عقيل ويزيد بن أبي حبيب، عن الزهري، عن أنس قال: لما ولد للنبي ﷺ ابنه إبراهيم وقع في نفسه منه شيء، فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم.

وقال أسباط عن السدي، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن قال: سألت أنس بن مالك قلت: كم بلغ إبراهيم ابن النبي ﷺ من العمر؟ قال: قد كان ملأ مهده، ولو بقي لكان نبياً ولكن لم يكن ليبق لأن نبيكم ﷺ آخر الأنبياء.

وقد قال الإمام أحمد [١٣٣/٣]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا سفيان عن السدي، عن أنس بن مالك قال: لو عاش إبراهيم ابن النبي ﷺ لكان صديقاً نبياً.

وقال أبو عبد الله بن منده: ثنا محمد بن سعد ومحمد بن إبراهيم، ثنا محمد بن عثمان العبسي، ثنا منجاب، ثنا أبو عامر الأسدي، ثنا سفيان عن السدي، عن أنس قال: توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ وهو ابن ستة عشر شهراً. فقال رسول الله ﷺ: «ادفنوه في البقيع فإن له مرضعا يتم رضاعه في الجنة».

وقال أبو يعلى: ثنا أبو خيثمة، ثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن عمرو بن سعيد، عن أنس قال: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل إلى البيت وإنه ليدخن، وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع.

قال عمرو: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة».

وقد روى جرير وأبو عوانة عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن البراء قال: توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وهو ابن ستة عشر شهراً، فقال: «ادفنوه في البقيع فإن له مرضعا في الجنة».

ورواه أحمد [٢٨٣/٤] من حديث جابر عن عامر، عن البراء.

وهكذا رواه سفيان الثوري عن فراس، عن الشعبي، عن البراء بن عازب بمثله.

وكذا رواه الثوري أيضاً عن أبي إسحاق، عن البراء.

وأورد له ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٤٣/٣] من طريق عتاب بن محمد ابن شوذب عن عبد الله ابن أبي أوفى قال: توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يرضع بقية رضاعه في الجنة».

وقال أبو يعلى الموصلي: ثنا زكريا بن يحيى الواسطي، ثنا هشيم عن إسماعيل قال: سألت ابن أبي أوفى - أو سمعته يسأل - عن إبراهيم ابن النبي ﷺ. فقال: مات وهو صغير، ولو قضي أن يكون بعد النبي ﷺ نبي لعاش.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٣٨/٣] من حديث أحمد بن محمد بن سعيد الحافظ، ثنا عبيد بن إبراهيم الجعفي، ثنا الحسن بن أبي عبد الله الفراء، ثنا مصعب بن سلام، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر محمد بن عليّ، عن جابر بن عبد الله. قال: قال رسول الله ﷺ: «لو عاش إبراهيم لكان نبياً».

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٣٩/٣] من حديث محمد بن إسماعيل بن سمرة، عن محمد بن الحسن الأسدي، عن أبي شيبة، عن أنس قال: لما مات إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه» فجاء فانكب عليه وبكى حتى اضطرب لحياه وجنباه ﷺ.

قلت: أبو شيبة هذا لا يتعامل بروايته.

ثم روى [تاريخ دمشق: ١٣٩/٣] من حديث مسلم بن خالد الزنجي عن ابن خثيم، عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: لما توفي إبراهيم بكى رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وعمر: أنت أحق من علمّ لله حقّه، فقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً أشد مما وجدنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

وقال الإمام أحمد [٢٨٣/٤]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا إسرائيل عن جابر، عن الشعبي، عن البراء. قال: صلى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، ومات وهو ابن ستة عشر شهراً. وقال: «إن له في الجنة من يُتِمُّ رضاعه وهو صدِّيق».

وقد روي من حديث الحكم بن عُتيبة عن الشعبي، عن البراء.

وقال أبو يعلى: ثنا القواريري، أنبأنا عَبيد بن القاسم، ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن ابن أبي أوفى قال: صلى رسول الله ﷺ على ابنه، وصليت خلفه، وكبر عليه أربعاً.

وقد روى يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن

طلحة بن يزيد بن ركانة قال: مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً، فلم يصل عليه.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣/١٤٤، ١٤٥] من حديث إسحاق بن محمد الفروي، عن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب، عن أبيه، عن أبي جده عن عليّ رضي اللّه عنه، قال: لما توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ بعث رسول اللّه ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى أمه مارية القبطية وهي في مشربة، فحمله علي في سفط، وجعله بين يديه على الفرس، ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ فغسله وكفنه وخرج به، وخرج الناس معه، فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد، فدخل عليّ في قبره حتى سوى عليه ودفنه، ثم خرج ورش على قبره، وأدخل رسول الله ﷺ يده في قبره، فقال: «أما والله إنه لنبي ابن نبي» وبكى رسول الله ﷺ وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت، ثم قال رسول الله ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون».

وقال الواقدي: مات إبراهيم ابن رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر، وهو ابن ثمانية عشر شهراً في بني مازن بن النجار في دار أم بُرْدة بنت المنذر، ودفن بالبقيع.

قلت: وقد قدمنا أن الشمس كسفت يوم موته، فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم. فخطب رسول اللّه ﷺ فقال في خطبته: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته».

قال الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤/٢٥١].

٥- ذكر عبيده ومواليه وخدامه

باب ذكر عبيده عليه الصلاة والسلام وإمائه وذكر خدمه وكتّابه وأمنائه مع مراعاة الحروف في أسمائهم وذكر بعض ما ذكر من أنبائهم

ولنذكر ما أورده مع الزيادة والنقصان وبالله المستعان.

١- فمنهم: أسامة بن زيد بن حارثة أبو زيد الكلبي، ويقال: أبو يزيد. ويقال: أبو محمد مولى رسول الله ﷺ وابن مولاه، وحِبُّه وابن حبّه، وأمه أم أيمن، واسمها بركة، كانت حاضنة رسول الله ﷺ في صغره، وممن آمن به قديماً بعد بعثته، وقد أمره رسول اللّه ﷺ في آخر أيام حياته، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة، وتوفي ﷺ وهو أمير على جيش كثيف منهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق. وهو قول ضعيف، لأن رسول اللّه ﷺ نصبه للإمامة، فلما توفي عليه الصلاة والسلام وجيش أسامة مخيم بالجرف كما قدمناه، استطلق أبو بكر من أسامة عمر بن الخطاب في الإقامة عنده ليستضيء برأيه، فأطلقه له، وأنفذ أبو بكر جيش أسامة بعد مراجعة كثيرة من الصحابة له في ذلك، وكل ذلك يأبى عليهم ويقول: والله لا أحل راية عقدها رسول اللّه ﷺ، فساروا حتى بلغوا تخوم البلقاء من أرض الشام، حيث قتل أبوه زيد، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فأغار على تلك البلاد وغنم وسبى، وكر راجعاً سالماً مؤيداً كما سيأتي. فلهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يلقى أسامة إلا قال له: السلام عليك أيها الأمير.

ولما عقد له رسول الله ﷺ راية الإمرة، طعن بعض الناس في إمارته، فخطب رسول الله ﷺ فقال فيها: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الخلق إليّ وإنّ هذا لمن أحبِّ الخلق إليّ بعده» وهو في الصحيح [خ (٤٤٦٨)] من حديث موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه.

وثبت في صحيح البخاري [٣٧٣٥] عن أسامة رضي الله عنه، أنه قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني والحسن فيقول: «اللّهم إني أحبهما فأحبهما».

وروي عن الشعبي عن عائشة، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من أحب اللّه ورسوله فليحب أسامة ابن زيد» [أحمد: ٦/١٥٦، ١٥٧].

ولهذا لما فرض عمر بن الخطاب للناس في الديوان، فرض لأسامة في خمسة آلاف. وأعطى ابنه عبد اللّه بن عمر في أربعة آلاف. فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه كان أحب إلى رسول اللّه ﷺ من أبيك.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن أسامة: أن رسول اللّه ﷺ أردفه خلفه على حمار عليه قطيفة حين ذهب يعود سعد ابن عبادة، قبل وقعة بدر. [م (١٧٩٨) من طريق عبد الرزاق به مطولاً]

قلت: وهكذا أردفه وراءه على ناقته حين دفع من عرفات إلى المزدلفة كما قدمنا في حجة الوداع، وقد ذكر غير واحد أنه رضي اللّه عنه لم يشهد مع عليّ شيئاً من مشاهده، واعتذر إليه بما قال له رسول الله ﷺ حين قتل ذلك الرجل، وقد قال: لا إله إلا اللّه، فقال: «من لك بلا إله إلا اللّه يوم القيامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا اللّه؟ من لك بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟!» [م (٩٧)] الحديث.

وذكر فضائله كثيرة رضي اللّه عنه. وقد كان أسود كالليل، أفطس حلواً حسناً كبيراً فصيحاً عالماً ربانياً، رضي اللّه عنه. وكان أبوه كذلك إلا أنه كان أبيض شديد البياض، ولهذا طعن بعض من لا يعلم في نسبه منه. ولما مر مجزز المدلجي عليهما وهما نائمان في قطيفة وقد بدت أقدامهما، أسامة بسواده وأبو زيد ببياضه قال: سبحان اللّه، إن بعض هذه الأقدام لمن بعض. أعجب بذلك رسول اللّه ﷺ. ودخل على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تَرَي أن مجززاً نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض [م (١٤٥٩)]».

ولهذا أخذ فقهاء الحديث كالشافعي وأحمد من هذا الحديث من حيث التقرير عليه والاستبشار به؛ العمل بقول القافة في اختلاط الأنساب واشتباهها كما هو مقرر في موضعه.

والمقصود أنه رضي اللّه عنه توفي سنة أربع وخمسين فيما صححه أبو عمر [الاستيعاب: ١/٧٧].

وقال غيره: سنة ثمان أو تسع وخمسين [أسد الغابة: ١/٨١].

وقيل: مات بعد مقتل عثمان [أسد الغابة: ١/٨١] فاللّه أعلم. وروى له الجماعة في كتبهم الستة.

٢- ومنهم: أَسْلَمُ وقيل: إبراهيم وقيل: ثابت وقيل: هرمز. أبو رافع القبطي أسلم قبل بدر ولم يشهدها لأنه كان بمكة مع سادته آل العباس، وكان ينحت القداح، وقصته مع الخبيث أبي لهب حين جاء خبر وقعة بدر تقدمت ولله الحمد.

ثم هاجر وشهد أحداً وما بعدها، وكان كاتباً، وقد كتب بين يدي عليّ بن أبي طالب بالكوفة، قاله المفضل بن غسان الغلابي [هو من قول مصعب، رواه عنه المفضل، تاريخ دمشق: ٤/٢٥٢].

وشهد فتح مصر في أيام عمر، وقد كان أولا للعباس بن عبد المطلب

فوهبه للنبي ﷺ وأعتقه وزوجه مولاته سلمى، فولدت له أولاداً وكان يكون على ثقل النبي ﷺ.

وقال الإمام أحمد [١٠/٦]: ثنا محمد بن جعفر وبهز قالا: ثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي رافع عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ بعث رجلا من بني مخزوم على الصدقة. فقال لأبي رافع: أصحبني كيما تصيب منها، فقال: لا حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله، فأتى رسول الله ﷺ فسأله فقال: «الصدقة لا تحل لنا، وإن مولى القوم منهم».

وقد رواه الثوري عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم به [٨/٦].

وروى أبو يعلى في مسنده عنه أنه أصابهم برد شديد وهم بخيبر، فقال رسول الله ﷺ: «من كان له لحاف فليلحف من لا لحاف له» قال أبو رافع: فلم أجد من يلحفني معه، فأتيت رسول الله ﷺ فألقى عليّ لحافه، فنمنا حتى أصبحنا، فوجد رسول الله ﷺ عند رجليه حية فقال: «يا أبا رافع أقتلها أقتلها».

وروى له الجماعة في كتبهم، ومات في أيام عليّ رضي الله عنه.

٣- ومنهم: أنسة بن بادة أبو مِسْرح، ويقال: أبو مسروح. من مولدي السُّراة مهاجري شهد بدراً فيما ذكره عروة والزهري وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق والبخاري وغير واحد.

قالوا: وكان ممن يأذن على النبي ﷺ إذا جلس.

وذكر خليفة بن خياط في كتابه [تاريخ خليفة: ٢٠/١] قال: قال عليّ بن محمد عن عبد العزيز بن أبي ثابت عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: استشهد يوم بدر أنسة مولى رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: وليس هذا بثبت عندنا، ورأيت أهل العلم يثبتون أنه شهد أحداً أيضاً وبقي زماناً وأنه توفي في حياة أبي بكر رضي الله عنه أيام خلافته لا رواية له.

٤- ومنهم: أيمن بن عبيد بن زيد الحبشي. ونسبه ابن منده إلى عوف بن الخزرج وفيه نظر، وهو ابن أم أيمن بركة أخو أسامة لأمه.

قال ابن إسحاق: وكان على مطهرة النبي ﷺ، وكان ممن ثبت يوم حنين، ويقال: إن فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[الكهف: ١١٠].

قال الشافعي: قتل أيمن مع النبي ﷺ يوم حنين. قال: فرواية مجاهد عنه منقطعة.

يعني بذلك ما رواه الثوري عن منصور عن مجاهد عن عطاء عن أيمن الحبشي قال: لم يقطع النبي ﷺ السارق إلا في المجن، وكان ثمن المجن يومئذ ديناراً.

وقد رواه أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة عن هارون بن عبد الله عن أسود بن عامر عن الحسن بن صالح عن منصور عن الحكم عن مجاهد وعطاء عن أيمن عن النبي ﷺ نحوه.

وهذا يقتضي تأخر موته عن النبي ﷺ إن لم يكن الحديث مدلساً عنه، ويحتمل أن يكون أريد غيره، والجمهور كابن إسحاق وغيره ذكروه فيمن قتل من الصحابة يوم حنين فالله أعلم، ولابنه الحجاج بن أيمن مع عبد الله بن عمر قصة.

٥- ومنهم: باذام. وسيأتي ذكره في ترجمة طهمان.

٦- ومنهم: ثوبان بن بُجْدُد ويقال: ابن جَحْدر. أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الكريم، ويقال: أبو عبد الرحمن. أصله من أهل السراة مكان بين مكة واليمن، وقيل: من حمير من أهل اليمن وقيل: من ألهان، وقيل من حكم بن سعد العشيرة من مذحج أصابه سباءٌ في الجاهلية. فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه وخيره إن شاء أن يرجع إلى قومه، وإن شاء أن يثبت فإنه منهم أهل البيت. فأقام على ولاء رسول الله ﷺ ولم يفارقه حضراً ولا سفراً حتى توفي رسول الله ﷺ.

وشهد فتح مصر أيام عمر، ونزل حمص بعد ذلك وابتنى بها داراً، وأقام بها إلى أن مات سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة أربع وأربعين - وهو خطأ - وقيل: إنه مات بمصر، والصحيح بحمص كما قدمنا والله أعلم.

روى له البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة.

٧- ومنهم: حنين مولى النبي ﷺ. وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين، وروينا أنه كان يخدم النبي ﷺ ويوضئه، فإذا فرغ النبي ﷺ خرج بفضلة الوضوء إلى أصحابه، فمنهم من يشرب منه، ومنهم من يتمسح به، فاحتبسه حنين فخبأه عنده في جرة حتى شكوه إلى النبي ﷺ، فقال له: «ما تصنع به؟» فقال: أدخره عندي أشربه يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل رأيتم غلاماً أحصى ما أحصى هذا؟» ثم إن النبي ﷺ وهبه لعمه العباس، فأعتقه رضي الله عنهما.

٨- ومنهم: ذكوان. يأتي ذكره في ترجمة طَهْمان.

٩- ومنهم: رافع أو أبو رافع. ويقال له: أبو البهي.

قال أبو بكر بن أبي خيثمة: كان لأبي أحيحة سعيد بن العاص الأكبر فورثه بنوه وأعتق ثلاثة منهم أنصباءهم وشهد معهم بدر، فقُتلوا ثلاثتُهم، ثم اشترى أبو رافع بقية أنصباء بني سعيد مولاه إلا نصيب خالد بن سعيد، فوهب خالد نصيبه لرسول الله ﷺ فقبله وأعتقه. فكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺ، وكذلك كان بنوه يقولون من بعده.

١٠- ومنهم: رباح الأسود: وكان يأذن على النبي ﷺ وهو الذي أخذ الإذن لعمر بن الخطاب حتى دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة يوم آلى من نسائه واعتزلهن في تلك المشربة وحده عليه الصلاة والسلام.

هكذا جاء مصرحاً باسمه في حديث عكرمة بن عمار عن أبي زُمَيل سماك بن الوليد عن ابن عباس عن عمر.

وقال الإمام أحمد [٦٤/٤]: ثنا وكيع ثنا عكرمة بن عمار عن أياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: كان للنبي ﷺ غلام يسمى رباح.

١١- ومنهم: رويفع مولاه عليه الصلاة والسلام. هكذا عده في الموالي مصعب بن عبد الله الزبيري وأبو بكر بن أبي خيثمة قالا: وقد وفد ابنه على عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته ففرض له. قالا: ولا عقب له.

قلت: كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد الاعتناء بموالي رسول الله ﷺ، يحب أن يعرفهم ويحسن إليهم. وقد كتب في أيام خلافته إلى أبي بكر بن حزم عالم أهل المدينة في زمانه: أن يفحص له عن موالي رسول الله ﷺ الرجال والنساء وخدامه. رواه الواقدي.

وقد ذكره أبو عمر [الاستيعاب: ٥٠٤/٢] مختصراً وقال: لا أعلم له رواية، حكاه ابن الأثير في أسد الغابة [٢٤٠/٢].

١٢- ومنهم: زيد بن حارثة الكلبي: وقد قدمنا طرفا من ذكر مقتله بغزوة مؤتة رضي الله عنه، وذلك في جمادى من سنة ثمان قبل الفتح بأشهر، وقد كان هو الأمير المقدم، ثم بعده جعفر ثم بعدهما عبد الله بن رواحة.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمّره عليهم، ولو بقي بعده لاستخلفه.

رواه أحمد.

١٣- ومنهم: زيد أبو يسار:

قال أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة سكن المدينة، روى حديثاً واحداً لا أعلم له غيره:

حدثنا محمد بن عليّ الجوزجاني ثنا أبو سلمة - هو التبوذكي - ثنا حفص بن عمر الطائي ثنا أبو عمر بن مرة سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ، سمعت أبي حدثني عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فرّ من الزحف».

وهكذا رواه أبو داود [١٥١٧] عن أبي سلمة:

وأخرجه الترمذي [٣٥٧٧] عن محمد بن إسماعيل البخاري عن أبي سلمة موسى بن إسماعيل به. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

١٤- ومنهم: سفينة أبو عبد الرحمن ويقال: أبو البختري كان اسمه مهران، وقيل: عبس، وقيل: أحمر، وقيل: رومان، فلقبه رسول الله ﷺ سَفينةَ، لسبب سنذكره، فغلب عليه. وكان مولى لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ حتى يموت، فقبل ذلك. وقال: لو لم تشترطي عليّ ما فارقته. وهذا الحديث في السنن [د (٣٩٣٢)، س كبرى (٤٩٩٥، ٤٩٩٦)، ج (٢٥٢٦)]. وهو من مولدي العرب وأصله من أبناء فارس وهو سفينة بن مارفنَّة.

وقال الإمام أحمد [٢٢١/٥]: حدثنا أبو النضر ثنا حشرج بن نباتة العبسي كوفي حدثنا سعيد بن جمهان حدثني سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملكا بعد ذلك» ثم قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وأمسك خلافة عليّ، ثم قال: فوجدناها ثلاثين سنة. ثم نظرت بعد ذلك في الخلفاء فلم أجده يتفق بهم ثلاثون. قلت لسعيد: أين لقيت سفينة؟ قال: ببطن نخلة في زمن الحجاج، فأقمت عنده ثلاث ليال أسأله عن أحاديث رسول الله ﷺ. قلت له: ما اسمك؟ قال: ما أنا بمخبرك، سماني رسول الله ﷺ سفينة. قلت: ولم سماك سفينة؟ قال: خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فثقل عليهم متاعهم فقال لي: «ابسُط كساءك» فبسطته، فجعلوا فيه متاعهم ثم حملوه عليّ، فقال لي رسول الله ﷺ: «احمل فإنما أنت سفينة» فلو حملت يومئذ وِقْرَ بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل عليّ، إلا أن يَجْفُوا.

وهذا الحديث عند أبي داود [٤٦٤٦، ٤٦٤٧] والترمذي [٢٢٢٦] والنسائي [كبرى (٨١٥٥)]. ولفظه عندهم «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً».

وقال الإمام أحمد [٢٢٢/٥]: حدثنا بهز، ثنا حماد بن سلمة عن سعيد بن جمهان عن سفينة. قال: كنا في سفر، فكان كلما أعيا رجل ألقى عليّ ثيابه، ترساً أو سيفاً حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً، فقال النبي ﷺ: «أنت سفينة».

هذا هو المشهور في تسميته سفينة.

وقد قال أبو القاسم البغوي: ثنا أبو الربيع سليمان بن داود الزهراني ومحمد بن جعفر الوركاني قالا: ثنا شريك بن عبد الله النخعي عن عمران البجلي عن مولى لأم سلمة. قال: كنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بواد - أو نهر - فكنت أُعبِّر الناس، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما كنت منذ اليوم إلا سفينة».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٢٢١/٥] عن أسود بن عامر عن شريك.

وقال أبو عبد الله بن منده: ثنا الحسن بن مكرم ثنا عثمان بن عمر ثنا أسامة بن زيد عن محمد بن المنكدر عن سفينة قال: ركبت البحر في سفينة فكسرت بنا، فركبت لوحاً منها فطرحني في جزيرة فيها أسد، فلم يرعني إلا به، فقلت: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق، ثم همهم فظننت أنه السلام.

وقد رواه أبو القاسم البغوي عن إبراهيم بن هانئ عن عبيد الله بن موسى عن رجل عن محمد بن المنكدر عنه.

ورواه أيضاً عن محمد بن عبد الله المخرمي عن حسين ابن محمد. قال: قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر عن سفينة فذكره.

ورواه أيضا: حدثنا هارون بن عبد الله ثنا عليّ بن عاصم حدثني أبو ريحانة عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: لقيني الأسد فقلت: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: فضرب بذنبه الأرض وقعد.

وروى له مسلم وأهل السنن.

وقد تقدم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٢١/٥] أنه كان يسكن بطن نخلة، وأنه تأخر إلى أيام الحجاج.

١٥- ومنهم: سلمان الفارسي أبو عبد الله مولى الإسلام: أصله من فارس وتنقلت به الأحوال إلى أن صار لرجل من يهود المدينة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلم سلمان وأمره رسول الله ﷺ فكاتب سيده اليهودي، وأعانه رسول الله ﷺ على أداء ما عليه فنسب إليه وقال: «سلمان منا أهل البيت».

وقد قدمنا صفة هجرته من بلده وصحبته لأولئك الرهبان واحداً بعد واحد حتى آل به الحال إلى المدينة النبوية، وذكر صفة إسلامه رضي الله عنه في أوائل الهجرة النبوية إلى المدينة وكانت وفاته في سنة خمس وثلاثين في آخر أيام عثمان - أو في أول سنة ست وثلاثين - وقيل: إنه توفي في أيام عمر بن الخطاب، والأول أكثر.

قال العباس بن يزيد البحراني: وكان أهل العلم لا يشكُون إنه عاش مائتين وخمسين سنة واختلفوا فيما زاد على ذلك إلى ثلاثمائة وخمسين.

وقد ادعى بعض الحفاظ المتأخرين أنه لم يجاوز المائة فالله أعلم بالصواب.

١٦- ومنهم: شقران الحبشي: واسمه صالح بن عدي، ورثه عليه السلام من أبيه.

وقال مصعب الزبيري ومحمد بن سعد [الطبقات: ٤٩/٣، ٥٠]: كان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي ﷺ.

وقد روى أحمد بن حنبل عن إسحاق بن عيسى عن أبي معشر أنه ذكره فيمن شهد بدراً، قال: ولم يقسم له رسول الله ﷺ.

وهكذا ذكره محمد بن سعد فيمن شهد بدراً وهو مملوك، فلهذا لم يسهم له بل استعمله على الأسرى، فجزاه كل رجل له أسير شيئاً، فحصل له أكثر من نصيب كامل.

قال: وقد كان ببدر ثلاثة غلمان غيره: غلام لعبد الرحمن بن عوف، وغلام لحاطب بن أبي بلتعة، وغلام لسعد بن معاذ، فرضخ لهم ولم يقسم.

قال أبو القاسم البغوي: وليس له ذكر فيمن شهد بدراً في كتاب الزهري، ولا في كتاب ابن إسحاق.

وذكر الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم قال: استعمل رسول الله ﷺ شقران مولاه على جميع ما وجد في رحال المريسيع من رثة المتاع والسلاح والنعم والشاه وجمع الذرية ناحية.

وقال الإمام أحمد [٤٩٥/٣]: ثنا أسود بن عامر ثنا مسلم بن خالد عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن شقران مولى رسول الله ﷺ قال: رأيته - يعني النبي ﷺ - متوجهاً إلى خيبر على حمار يصلي عليه، يومئ إيماء.

وفي هذه الأحاديث شواهد أنه رضي الله عنه شهد هذه المشاهد.

وروى الترمذي [١٠٤٧] عن زيد بن أخزم عن عثمان بن فرقد عن جعفر بن محمد أخبرني ابن أبي رافع، قال: سمعت شقران يقول: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: الذي ألحدَ قبر النبي ﷺ أبو طلحة، والذي ألقى القطيفة تحته شقران. ثم قال الترمذي: حسن غريب.

وقد تقدم أنه شهد غسل رسول الله ﷺ ونزل في قبره، وأنه وضع تحته القطيفة التي كان رسول الله ﷺ يصلي عليها وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك.

وذكر الحافظ أبو الحسن بن الأثير في الغابة [٥٢٧/٢] أنه انقرض نسله، فكان آخرهم موتاً بالمدينة في أيام الرشيد.

١٧- ومنهم: ضميرة بن أبي ضميرة الحميري: أصابه سباءٌ في الجاهلية فاشتراه النبي ﷺ فأعتقه ذكره مصعب الزبيري قال: وكانت له دار بالبقيع، وولد.

قال عبد الله بن وهب عن ابن أبي ذئب عن حسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جده ضميرة أن رسول الله ﷺ مر بأم ضميرة وهي تبكي فقال لها: «ما يبكيك؟ أجائعة أنت، أعارية أنت» قالت: يا رسول الله فرق بيني وبين ابني، فقال رسول الله ﷺ: «لا يفرق بين الوالدة وولدها» ثم أرسل إلى الذي عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر.

قال ابن أبي ذئب: ثم أقرأني كتاباً عنده: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، أن رسول الله أعتقهم وأنهم من أهل بيت من العرب، إن أحبوا أقاموا عند رسول الله، وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم، فلا يعرض لهم إلا بحق، ومن لقيهم من المسلمين فليستوص بهم خيراً. وكتب أبي بن كعب.

١٨- ومنهم: طهمان، ويقال: ذكوان. ويقال: مهران، ويقال: ميمون، وقيل: كيسان، وقيل: باذام.

روى عن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهل بيتي، وإن مولى القوم من أنفسهم» رواه البغوي عن منجاب بن الحارث وغيره عن شريك عن عطاء بن السائب عن إحدى بنات عليّ بن أبي طالب، وهي أم كلثوم بنت عليّ قالت: حدثني مولى للنبي ﷺ يقال له: طهمان أو ذكوان. قال: قال رسول الله ﷺ. فذكره.

١٩- ومنهم: عبيد مولى النبي ﷺ.

قال أبو داود الطيالسي عن شعبة عن سليمان التيمي، عن شيخ عن عبيد مولى للنبي ﷺ قال: قلت: هل كان النبي ﷺ يأمر بصلاة سوى المكتوبة؟ قال: صلاة بين المغرب والعشاء.

قال أبو القاسم البغوي: لا أعلم روى غيره.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٧٤/٤، ٢٧٥]: وليس كما قال.

ثم ساق [تاريخ دمشق: ٢٧٤/٤، ٢٧٥] من طريق أبي يعلى الموصلي حدثنا عبد الأعلى بن حماد ثنا حماد بن سلمة عن سليمان التيمي، عن عبيد مولى رسول الله ﷺ: أن امرأتين كانتا صائمتين، وكانتا تغتابان الناس، فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال لهما «قيئا» فقاءتا قيحاً ودماً ولحماً عبيطاً ثم قال: «إن هاتين صامتا عن الحلال وأفطرتا على الحرام».

وقد رواه الإمام أحمد [٤٣١/٥] عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن رجل حدثهم في مجلس أبي عثمان عن عبيد مولى رسول الله ﷺ فذكره.

ورواه أحمد أيضاً [٤٣١/٥] عن غندر عن عثمان بن غياث قال: كنت مع أبي عثمان فقال رجل: حدثني سعيد - أو عبيد - عثمان يشك مولى النبي ﷺ؛ فذكره.

٢٠- ومنهم: فضالة مولى النبي ﷺ:

قال محمد بن سعيد: أنبأنا الواقدي حدثني عتبة بن جبيرة الأشهلي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أن افحص لي عن أسماء خدم رسول الله ﷺ من الرجال والنساء ومواليه، فكتب إليه قال: وكان فضالة مولى له يماني نزل الشام بعده وكان أبو مويهبة مولداً من مولدي مزينة فأعتقه.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٧٧/٤]: لم أجد لفضالة ذكراً في الموالي إلا من هذا الوجه.

٢١- ومنهم: قَفيز أوله قاف وآخره زاي:

قال أبو عبد الله بن منده: أنبأنا سهل بن السري ثنا أحمد بن محمد بن المنكدر، ثنا محمد بن يحيى عن محمد بن سليمان الحراني عن زهير بن محمد عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس عن أنس. قال: كان لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له: قفيز. تفرد به محمد بن سليمان.

٢٢- ومنهم: كِركِرة: كان على ثقل النبي ﷺ في بعض غزواته.

وقد ذكره أبو بكر بن حزم فيما كتب به إلى عمر بن عبد العزيز.

قال الإمام أحمد [١٦٠/٢]: حدثنا سفيان عن عمرو عن سالم بن أبي الجعد عن عبد الله بن عمرو قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات فقال: «هو في النار» فنظروا فإذا عليه عباءة قد غلها، أو كساء قد غله.

رواه البخاري [٣٠٧٤] عن عليّ بن المديني عن سفيان.

قلت: وقصته شبيهة بقصة مِدْعَم الذي أهداه رفاعة من بني الضُّبيب كما سيأتي.

٢٣- ومنهم كيسان:

قال البغوي: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب قال: أتيت أم كلثوم بنت عليّ فقالت: حدثني مولى للنبي ﷺ يقال له كيسان قال له النبي ﷺ في شيء من أمر الصدقة: «إنا أهل البيت نهينا أن نأكل الصدقة، وإن مولانا من أنفسنا فلا تأكل الصدقة».

٢٤- ومنهم: مأبور القبطي الخصي:

أهداه له صاحب إسكندرية مع مارية وسيرين والبغلة. وقد قدمنا من خبره في ترجمة مارية رضي الله عنهما ما فيه كفاية.

٢٥- ومنهم: مدعم: وكان أسود من مولدي حسمى.

أهداه رفاعة بن زيد الجذلامي، قتل في حياة النبي ﷺ، وذلك مرجعهم من خيبر، فلما وصلوا إلى وادي القرى فبينما مدعم يحط عن ناقة رسول

الله ﷺ رحلها، إذ جاءه سهم عائر فقتله. فقال الناس: هنيئاً لـه الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر - لم تصبها المقاسم- لتشتعل عليه ناراً» فلما سمعوا ذلك جاء رجل بشراك - أو شراكين- فقال النبي ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار».

أخرجاه [خ (٤٢٣٤)، م (١١٥) (١٨٣)] من حديث مالك عن ثور بن يزيد عن أبي الغيث، عن أبي هريرة.

٢٦- ومنهم: مهران ويقال: طهمان:

وهو الذي روت عنه أم كلثوم بنت علي في تحريم الصدقة على بني هاشم ومواليهم كما تقدم.

٢٧- ومنهم: ميمون وهو الذي قبله.

٢٨- ومنهم: نافع مولاه:

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤/٢٨٥]: أنبأنا أبو الفتح الماهاني أنبأنا شجاع الصوفي أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا أحمد بن محمد بن زياد حدثنا محمد بن عبد الملك بن مروان ثنا يزيد بن هارون أنبأنا أبو مالك الأشجعي عن يوسف بن ميمون، عن نافع مولى رسول الله ﷺ. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة شيخ زان، ولا مسكين مستكبر، ولا منّان بعمله على الله عز وجل».

٢٩- ومنهم: نفيع، ويقال: مسروح، ويقال: نافع بن مسروح. والصحيح نافع بن الحارث ابن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قسي، وهو ثقيف أبو بكرة الثقفي. وأمه سمية أم زياد. تدلى هو وجماعة من العبيد من سور الطائف، فأعتقهم رسول الله ﷺ وكان نزوله في بكرة فسماه رسول الله ﷺ أبا بكرة.

قال أبو نعيم: وكان رجلا صالحاً آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي برزة الاسلمي.

قلت: وهو الذي صلى عليه بوصيته إليه، ولم يشهد أبو بكرة وقعة الجمل، ولا أيام صفين. وكانت وفاته في سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين.

٣٠- ومنهم: واقد، أو أبو واقد مولى رسول الله ﷺ.

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا أبو عمرو بن حمدان ثنا الحسن بن سفيان ثنا محمد بن يحيى بن عبد الكريم، حدثنا الحسين بن محمد، ثنا الهيثم بن حماد عن الحارث بن غسان، عن رجل من قريش من أهل المدينة، عن زاذان، عن واقد مولى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاع الله فقد ذكر الله. وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله فلم يذكره وإن كثرة صلاته وصيامه وتلاوته القرآن».

٣١- ومنهم: هرمز أبو كيسان، ويقال: هرمز أو كيسان، وهو الذي يقال فيه طهمان كما تقدم.

وقد قال ابن وهب: ثنا عليّ بن عابس عن عطاء بن السائب، عن فاطمة بنت عليّ، أو أم كلثوم بنت عليّ قالت: سمعت مولى لنا يقال له: هرمز، يكنى أبا كيسان. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنا أهل بيت لا تحل لنا الصدقة، وإن موالينا من أنفسنا فلا تأكلوا الصدقة».

وقد رواه الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى، عن ورقاء، عن عطاء بن السائب، قال: دخلت عليّ أم كلثوم فقالت: إن هرمز أو كيسان حدثنا أن رسول الله ﷺ قال: «إنا لا نأكل الصدقة».

وقال أبو القاسم البغوي: ثنا منصور بن أبي مزاحم ثنا أبو حفص الأبار عن ابن أبي زياد، عن معاوية قال: شهد بدراً عشرون مملوكاً، منهم مملوك للنبي ﷺ يقال له هرمز فأعتقه رسول الله ﷺ وقال: «إن الله قد أعتقك، وإن مولى القوم من أنفسهم؛ وإنا أهل بيت لا نأكل الصدقة فلا تأكلها».

٣٢- ومنهم: هشام مولى النبي ﷺ: قال محمد بن سعد: أنبأنا سليمان بن عبيد الله الرقي أنبأنا محمد بن أيوب الرقي عن سفيان عن عبد الكريم عن أبي الزبير عن هشام مولى رسول الله ﷺ. قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي لا تدفع يد لامس، قال: «طلقها» قال: إنها تعجبني، قال: «فتمتع بها».

قال ابن منده: وقد رواه جماعة عن سفيان الثوري عن عبد الكريم، عن أبي الزبير عن مولى بني هاشم عن النبي ﷺ ولم يسمه.

ورواه عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن أبي الزبير عن جابر.

٣٣- ومنهم: يسار، ويقال: إنه الذي قتله العرنيون وقد مَثَّلوا به.

وقد ذكر الواقدي [المغازي: ١/١٨٢، ١٨٣] بسنده عن يعقوب بن عتبة أن رسول الله ﷺ أخذه يوم قرقرة الكدر مع نعم بني غطفان وسليم، فوهبه الناس لرسول الله ﷺ فقبله منهم، لأنه رآه يحسن الصلاة فأعتقه، ثم قسم في الناس النعم فأصاب كل إنسان منهم سبعة أبعرة، وكانوا مائتين.

٣٤- ومنهم: أبو الحمراء مولى النبي ﷺ وخادمه، وهو الذي يقال: إن اسمه هلال بن الحارث، وقيل: ابن ظفر، وقيل: هلال بن الحارث بن ظفر السلمي، أصابه سباءٌ في الجاهلية.

وقال أبو جعفر محمد بن عليّ بن دحيم: ثنا أحمد بن حازم أنبأنا عبيد الله بن موسى والفضل بن دكين عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي داود القاص عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر كيوم، فكان النبي ﷺ يأتي باب عليّ وفاطمة كل غداة فيقول: «الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾» [الأحزاب: ٣٣].

قال أحمد بن حازم: وأنبأنا عبيد الله بن موسى والفضل بن دكين - واللفظ له - عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي داود عن أبي الحمراء قال: مر النبي ﷺ برجل عنده طعام في وعاء فأدخله يده، فقال: «غششته! من غشّنا فليس منا».

وقد رواه ابن ماجه [٢٢٢٥] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي نعيم به. وليس عنده سواه.

وأبو داود هذا هو نفيع بن الحارث الأعمى أحد المتروكين الضعفاء.

قال عباس الدوري عن ابن معين: أبو الحمراء صاحب رسول الله ﷺ اسمه هلال بن الحارث، كان يكون بحمص، وقد رأيت بها غلاماً من ولده.

وقال غيره: كان منزله خارج باب حمص.

وقال أبو الوازع عن سمرة: كان أبو الحمراء من الموالي.

٣٥- ومنهم: أبو سُلمى راعي النبي ﷺ، ويقال: أبو سلام: واسمه حريث.

قال أبو القاسم البغوي: ثنا كامل بن طلحة ثنا عباد بن عبد الصمد، حدثني أبو سُلمى راعي النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لقي الله يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وآمن بالبعث والحساب؛ دخل الجنة». قلنا: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فادخل أصبعيه في أذنيه ثم قال: أنا سمعت هذا منه غير مرة، ولا مرتين

ولا ثلاث، ولا أربع.

لم يورد له ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٩١/٤] سوى هذا الحديث.

وقد روى له النسائي [كبرى (٩٩٩٥)] في اليوم والليلة آخر، وأخرج له ابن ماجه [٣٨٧٠] ثالثا.

٣٦- ومنهم أبو صفية مولى النبي ﷺ:

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا أحمد بن المقدام ثنا معتمر ثنا أبو كعب عن جده بقية عن أبي صفية مولى النبي ﷺ: أنه كان يوضع له نطع ويجاء بزبيل فيه حصى، فيسبح به إلى نصف النهار، ثم يرفع فإذا صلى الأولى سبح حتى يمسي.

٣٧- ومنهم: أبو ضميرة مولى النبي ﷺ: والد ضميرة المتقدم، وزوج أم ضميرة.

وقد تقدم في ترجمة ابنه طرف من ذكرهم وخبرهم في كتابهم.

وقال محمد بن سعد في الطبقات [تاريخ دمشق: ٢٩٣/٤ من طريق ابن سعد، به]: أنبأنا إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس المدني: حدثني حسين بن عبد الله بن أبي ضميرة، أن الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لأبي ضميرة: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، إنهم كانوا أهل بيت من العرب، وكانوا مما أفاء الله على رسوله فأعتقهم. ثم خير أبا ضميرة إن أحب أن يلحق بقومه فقد أذن له، وإن أحب أن يمكث مع رسول الله ﷺ فيكونوا من أهل بيته، فاختار الله ورسوله ودخل في الإسلام، فلا يعرض لهم أحد إلا بخير، ومن لقيهم من المسلمين فليستوص بهم خيراً. وكتب أبي بن كعب.

قال إسماعيل بن أبي أويس: فهو مولى رسول الله ﷺ، وهو أحد حمير. وخرج قوم منهم في سفر ومعهم هذا الكتاب فعرض لهم اللصوص، فأخذوا ما معهم فأخرجوا هذا الكتاب إليهم فأعلموهم بما فيه، فقرؤوه فردوا عليهم ما أخذوا منهم ولم يعرضوا لهم.

قال: ووفد حسين بن عبد الله بن أبي ضميرة إلى المهدي أمير المؤمنين، وجاء معه بكتابهم هذا، فأخذه المهدي فوضعه على بصره، وأعطى حسيناً ثلاثمائة دينار.

٣٨- ومنهم: أبو عبيد مولاه عليه الصلاة والسلام.

قال الإمام أحمد [٤٨٤/٣، ٤٨٥]: حدثنا عفان، ثنا أبان العطار ثنا قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي عبيد أنه طبخ لرسول الله ﷺ قدراً فيها لحم فقال رسول الله ﷺ: «ناولني ذراعها» فناولته فقال: «ناولني ذراعها» فناولته فقال: «ناولني ذراعها» فقال: يا نبي الله كم للشاة من ذراع؟ قال: «والذي نفسي بيده لو سكتَّ لأعطيتني ذراعها ما دعوت به».

ورواه الترمذي في الشمائل [١٦٢] عن بندار عن مسلم بن إبراهيم عن أبان بن يزيد العطار به.

٣٩- ومنهم: أبو عَسيب، ومنهم من يقول: أبو عسيم، والصحيح الأول، ومن الناس من فرق بينهما، وقد تقدم أنه شهد الصلاة على النبي ﷺ؛ وحضر دفنه، وروى قصة المغيرة بن شعبة.

وقال الحارث بن أبي أسامة: ثنا يزيد بن هارون ثنا مسلم بن عبيد أبو نصيرة قال: سمعت أبا عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل بالحمى والطاعون، فأمسكت الحمى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافر».

وكذا رواه الإمام [٨١/٥] أحمد عن يزيد بن هارون.

وقال أبو عبد الله بن منده: أنبأنا محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصاغاني ثنا يونس بن محمد ثنا حشرج بن نباتة حدثني أبو نصيرة البصري عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ليلا فمر بي، فدعاني، فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، ثم انطلق يمشي حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال رسول الله ﷺ لصاحب الحائط: «أطعمنا بسراً» فجاء به فوضعه فأكل رسول الله ﷺ وأكلوا جميعاً ثم دعا بماء فشرب منه، ثم قال: «إن هذا النعيم، لتسألن يوم القيامة عن هذا» فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، ثم قال: يا نبي الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم إلا من ثلاثة! خرقة يستر بها الرجل عورته. أو كسرة يسد بها جوعته، أو جُحْر يدخل فيه» - يعني من الحر والقر -.

ورواه الإمام أحمد [٨١/٥] عن سُريج عن حشرج.

وروى محمد بن سعد في الطبقات [٦١/٧] عن موسى بن إسماعيل: حدثتنا مسلمة بنت أبان القريعية قالت: سمعت ميمونة بنت أبي عسيب قالت: كان أبو عسيب يواصل بين ثلاث في الصيام، وكان يصلي الضحى قائماً فعجز، وكان يصوم أيام البيض. قالت: وكان في سريره جلجل، فيعجز صوته حتى يناديها به، فإذا حركه جاءت.

٤٠- ومنهم: أبو كبشة الأنماري: من أنمار مذحج على المشهور، مولى النبي ﷺ. في اسمه أقوال أشهرها. أن اسمه سليم، وقيل: عمرو بن سعد، وقيل عكسه.

وأصله من مولِّدي أرض دوس، وكان ممن شهد بدراً، قاله موسى بن عقبة عن الزهري.

وذكره ابن إسحاق والبخاري [التاريخ الكبير: ١٣٨/٦] والواقدي ومصعب الزبيري وأبو بكر بن أبي خيثمة.

زاد الواقدي: وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وتوفي يوم استخلف عمر بن الخطاب، وذلك في يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

وقال خليفة بن خياط [تاريخه: ١٥٩/١]: وفي سنة ثلاث وعشرين توفي أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ.

وقد تقدم عن أبي كبشة أن رسول الله ﷺ لما مر في ذهابه إلى تبوك بالحِجْر، جعل الناس يدخلون بيوتهم، فنودي أن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فقال رسول الله ﷺ: «ما يدخلكم على هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم؟» فقال رجل: نعجب منهم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما يكون بعدكم» الحديث.

وقال الإمام أحمد [٦٢/٤]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن أزهر بن سعيد الحرازي سمعت أبا كبشة الأنماري قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في أصحابه، فدخل ثم خرج وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله قد كان شيء؟ قال: «أجل، مرت بي فلانة فوقع في نفسي شهوة النساء فأتيت بعض أزواجي فأصبتها، فكذلك فافعلوا، فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال».

وقال أحمد [٢٣٠/٤]: حدثنا وكيع ثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنماري. قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل اربعة نفر؛ رجل أتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به في ماله وينفقه في حقه، ورجل أتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال

هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول اللّه ﷺ: «فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه اللّه مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته اللّه مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل» قال رسول اللّه ﷺ: «فهما في الوزر سواء».

وهكذا رواه ابن ماجه [٤٢٢٨] عن أبي بكر بن أبي شيبة وعليّ بن محمد كلاهما عن وكيع.

ورواه ابن ماجه [عقب ح (٤٢٢٨)] أيضاً من وجه آخر من حديث منصور عن سالم بن أبي الجعد عن ابن أبي كبشة، عن أبيه. وسماه بعضهم عبد اللّه بن أبي كبشة.

وقال أحمد [٢٣١/٤]: حدثنا يزيد بن عبد ربه، ثنا محمد بن حرب ثنا الزبيدي عن راشد بن سعد عن أبي عامر الهوزني عن أبي كبشة الأنماري، أنه أتاه فقال: أطرقني من فرسك، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من أطرق مسلماً فعقب له الفرس كان كأجر سبعين فرساً حمل عليه في سبيل اللّه عز وجل».

وقد روى الترمذي [٢٣٢٥] عن محمد بن إسماعيل عن أبي نعيم عن عبادة بن مسلم عن يونس بن خباب عن سعيد أبي البختري الطائي، حدثني أبو كبشة أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه؛ ما نقص مال عبد من صدقة، وما ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلا زاده اللّه بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح اللّه عليه باب فقر» الحديث. وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أحمد [٢٣١/٤، عن عبد اللّه بن نمير، عن عبادة بن مسلم به] عن غندر عن شعبة عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عنه. وروى أبو داود [٣٨٥٩] وابن ماجه [٣٤٨٤] من حديث الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان عن أبيه عن أبي كبشة الأنماري، أن رسول اللّه ﷺ كان يحتجم على هامته وبين كتفيه.

وروى الترمذي [١٧٨٢]: حدثنا حميد بن مسعدة ثنا محمد بن حمران عن أبي سعيد - وهو عبد اللّه بن بُسْر - قال: سمعت أبا كبشة الأنماري يقول: كانت كمام أصحاب رسول اللّه ﷺ بطحاً.

٤١ - ومنهم: أبو مويهبة مولاه عليه الصلاة والسلام: كان من مولدي مزينة اشتراه رسول اللّه ﷺ فاعتقه ولا يعرف اسمه رضي اللّه عنه.

وقال مصعب الزبيري: شهد أبو مويهبة المريسيع، وهو الذي كان يقود لعائشة رضي اللّه عنها بعيرها.

وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد [٤٨٨/٣] وبسنده عنه في ذهابه مع رسول اللّه ﷺ في الليل إلى البقيع، فوقف عليه الصلاة والسلام فدعا لهم واستغفر لهم، ثم قال: «ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس، أتت الفتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضا، الآخرة أشد من الأولى، فلينهكم ما أنتم فيه» ثم رجع فقال: «يا أبا مويهبة إني خيرت مفاتيح ما يفتح علىَ أمتي من بعدي والجنة، أو لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي» قال: فما لبث بعد ذلك إلا سبعاً - أو ثمانياً - حتى قبض ﷺ. فهؤلاء عبيده عليه الصلاة والسلام

٦- إماؤه ﷺ

١ - فمنهن: أمة اللّه بنت رَزِينة: الصحيح أن الصحبة لأمها رزينة كما سيأتي.

ولكن وقع في رواية ابن أبي عاصم: حدثنا عقبة بن مكرم ثنا محمد بن موسى حدثتنا عليلة بنت الكميت العتكية قالت: حدثتني أُمي عن أمة اللّه خادم النبي ﷺ. أن رسول اللّه ﷺ سبا صفية يوم قريظة والنضير فاعتقها وامهرها رزينة أم أمة اللّه.

وهذا حديث غريب جداً.

٢- ومنهن: أميمة.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٢٦/٧، ٢٧]: وهي مولاة رسول اللّه ﷺ. روى حديثها أهل الشام روى عنها جبير بن نفير أنها كانت توضئ رسول اللّه ﷺ فأتاه رجل يوماً فقال له: أوصني، فقال: «لا تشرك باللّه شيئاً وإن قطِّعت أو حرِّقت بالنار، ولا تدع صلاة متعمداً، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه ذمة اللّه وذمة رسوله، ولا تشربن مسكراً فإنه رأس كل خطيئة، ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تختلي من أهلك ودنياك».

٣ - ومنهن: بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد بن حارثة:

وهي بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان الحبشية، غلب عليها كنيتها أم أيمن وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشي، ثم تزوجها بعده زيد بن حارثة فولدت له أسامة ابن زيد، وتعرف أيضاً بأم الظباء، وقد هاجرت الهجرتين رضي اللّه عنها، وهي حاضنة رسول اللّه ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وقد كانت ممن ورثها رسول اللّه ﷺ من أبيه، قاله الواقدي.

وقال غيره: بل ورثها من أمه، وقيل: بل كانت لأخت خديجة فوهبتها من رسول اللّه ﷺ. وآمنت قديما وهاجرت، وتأخرت بعد النبي ﷺ.

وتقدم ما ذكرناه من زيارة أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما إياها بعد وفاة النبي ﷺ، وأنها بكت فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند اللّه خير لرسول اللّه ﷺ؟ فقالت: بلى، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فجعلا يبكيان معها [م (٢٤٥٤)].

وقال البخاري في التاريخ [تاريخ دمشق: ٣٠٤/٤ من طريق البخاري، به]، وقال عبد اللّه بن يوسف عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن الزهري قال: كانت أم أيمن تحضن النبي ﷺ حتى كبر، فاعتقها ثم زوجها زيد بن حارثة، وتوفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر، وقيل: ستة أشهر. وقيل: إنها بقيت بعد قتل عمر بن الخطاب.

وقد رواه مسلم [(١٧٧١) (٧٠)] عن أبي الطاهر وحرملة كلاهما عن ابن وهب عن يونس عن الزهري قال: كانت أم أيمن الحبشية. فذكره.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٢٦/٨] عن الواقدي: توفيت أم أيمن في أول خلافة عثمان بن عفان.

قال الواقدي: وأنبأنا يحيى بن سعيد بن دينار عن شيخ من بني سعد بن بكر قال: كان رسول اللّه ﷺ يقول لأم أيمن: «يا أمه» وكان إذا نظر إليها قال: «هذه بقية أهل بيتي».

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: أخبرني سليمان بن أبي شيخ قال: كان النبي ﷺ يقول: «أم أيمن أمي بعد أمي».

وقال الواقدي عن أصحابه المدنيين قالوا: نظرت أم أيمن إلى النبي ﷺ وهو يشرب فقالت: اسقني، فقالت عائشة: يا أم أيمن أتقولين هذا لرسول اللّه ﷺ؟! فقالت: ما خدمته أطول، فقال رسول اللّه ﷺ: «صدقت» فجاء بالماء فسقاها.

وقال المفضل بن غسان: حدثنا وهب بن جرير، ثنا أبي قال: سمعت

عثمان بن القاسم قال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء وهي صائمة، فأصابها عطش شديد حتى جهدها، قال: فدلي عليها دلو من السماء برشاء أبيض فيه ماء، قالت: فشربت فما أصابني عطش بعد، وقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد.

وقال الحافظ أبو يعلى: ثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ثنا مسلم بن قتيبة عن الحسين بن حريث، عن يعلى بن عطاء، عن الوليد بن عبد الرحمن، عن أم أيمن قالت: كان لرسول الله ﷺ فخارة يبول فيها فكان إذا أصبح يقول: «يا أم أيمن صُبي ما في الفخارة» فقمت ليلة وأنا عطشى فغلطت فشربت ما فيها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم أيمن صُبي ما في الفخارة» فقالت: يا رسول الله قمت وأنا عطشى فشربت ما فيها فقال: «إنك لن تشتكي بطنك بعد يومك هذا أبداً».

قال ابن الأثير في الغابة [٢٧/٧، ٢٨]: وروى حجاج بن محمد عن ابن جريج، عن حكيمة بنت أميمة، عن أمها أميمة بنت رقيقة قالت: كان للنبي ﷺ قدح من عيدان فيبول فيه يضعه تحت السرير، فجاءت امرأة اسمها بركة فشربته، فطلبه فلم يجده، فقيل: شربته بركة. فقال: «لقد احتظرت من النار بحظار».

قال الحافظ أبو الحسن بن الأثير [أسد الغابة: ٣٠٣/٧] وقيل: إن التي شربت بوله عليه الصلاة والسلام إنما هي بركة الحبشية التي قدمت مع أم حبيبة من الحبشة. وفرق بينهما فالله أعلم.

قلت: فأما بريرة فإنها كانت لآل أبي أحمد بن جحش فكاتبوها فاشترتها عائشة منهم فأعتقتها فثبت ولاؤها لها كما ورد الحديث بذلك في الصحيحين [خ (٢٧٢٩)، م (١٥٠٤)]، ولم يذكرها ابن عساكر.

٤- ومنهن خضرة: ذكرها ابن منده فقال: روى معاوية بن هشام عن سفيان عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: كان للنبي ﷺ خادم يقال: لها خضرة.

وقال محمد بن سعد عن الواقدي: ثنا فائد مولى عبيد الله عن عبيد الله بن عليّ بن أبي رافع عن جدته سلمى قالت: كان خدم رسول الله ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد، أعتقهن رسول الله ﷺ كلهن رضي الله عنهن.

٥- ومنهن: خليسة مولاة حفصة بنت عمر بن الخطاب:

قال ابن الأثير في أسد الغابة [٨٧/٧ بنحوه]: روت حديثها عليلة بنت الكميت عن جدتها عن خليسة مولاة حفصة في قصة حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحهما معها بأن الدجال قد خرج. فاختبأت في بيت كانوا يوقدون فيه واستضحكتا، وجاء رسول الله ﷺ فقال: «ما شأنكما؟» فأخبرتاه بما كان من أمر سودة، فذهب إليها فقالت: يا رسول الله أخرجَ الدجال؟ فقال: «لا» وكان قد خرج فخرجت وجعلت تنفض عنها بيض العنكبوت.

وذكر ابن الأثير [أسد الغابة: ٨٧] خليسة مولاة سلمان الفارسي وقال: لها ذكر في إسلام سلمان وإعتاقها إياه، وتعويضه عليه الصلاة والسلام لها بأن غرس لها ثلاثمائة فسيلة، ذكرتها تمييزاً.

٦- ومنهن: خولة خادم النبي ﷺ.

كذا قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٩٤/٧، ٩٥]. وقد روى حديثها الحافظ أبو نعيم من طريق حفص بن سعيد القرشي عن أمه عن أمها خولة وكانت خادم النبي ﷺ، فذكر حديثاً في تأخر الوحي بسبب جرو كلب مات تحت سريره عليه الصلاة والسلام ولم يشعروا به، فلما أخرجه جاء الوحي، فنزل قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١ - ٣].

وهذا غريب، والمشهور في سبب نزولها غير ذلك والله أعلم.

٧- ومنهن: رزينة:

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٠٥/٤]: والصحيح أنها كانت لصفية بنت حيي، وكانت تخدم النبي ﷺ.

قلت: وقد تقدم في ترجمة ابنتها أمة الله أنه عليه الصلاة والسلام أمهر صفية بنت حيي أمها رزينة، فعلى هذا يكون أصلها له عليه الصلاة والسلام.

وقال الحافظ أبو يعلى: ثنا أبو سعيد الجشمي حدثتنا عليلة بنت الكميت قالت: سمعت أمي أمينة قالت: حدثتني أمة الله بنت رزينة عن أمها رزينة مولاة رسول الله ﷺ أن، رسول الله ﷺ سبا صفية يوم قريظة والنضير حين فتح الله عليه، فجاء يقودها سبية، فلما رأت النساء قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فأرسلها وكان ذراعها في يده، فأعتقها ثم خطبها وتزوجها وأمهرها رزينة.

هكذا وقع في هذا السياق، وهو أجود مما سبق من رواية ابن أبي عاصم، ولكن الحق أنه عليه الصلاة والسلام اصطفى صفية من غنائم خيبر، وأنه أعتقها وجعل عتقها صداقها. وما وقع في هذه الرواية يوم قريظة والنضير تخبيط فإنهما يومان، بينهما ستان والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل [٢٢٦/٦] أخبرنا ابن عبدان أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا عليّ بن الحسن السكري ثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثتنا عليلة بنت الكميت العتكية عن أمها أمينة، قالت: قلت لأمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله ﷺ: يا أمة الله أسمعت أمك تذكر أنها سمعت رسول الله ﷺ يذكر صوم عاشوراء؟ قالت: نعم، كان يعظمه ويدعو برُضَعائه ورُضعاء ابنته فاطمة فيتفل في أفواههم ويقول لأمهاتهم: «لا ترضعيهم إلى الليل». له شاهد في الصحيح.

٨- ومنهن: رضوى:

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ١١٠/٧]: روى سعيد بن بشير عن قتادة عن رضوى بنت كعب أنها سألت رسول الله ﷺ عن الحائض تختضب، فقال: «ما بذلك بأس». رواه أبو موسى المديني.

٩- ومنهن: ريحانة بنت شمعون القرظية، وقيل: النضرية، وقد تقدم ذكرها بعد أزواجه ﷺ رضي الله عنهن.

١٠- ومنهن: زرينة بتقديم الزاي والصحيح رزينة كما تقدم.

١١- ومنهن: سائبة مولاة رسول الله ﷺ: روت عنه حديثاً في اللقطة، وعنها طارق بن عبد الرحمن روى حديثها أبو موسى المديني. هكذا ذكر ابن الأثير في أسد الغابة [١٣٧/٧].

١٢- ومنهن سَدِيسة الأنصارية: وقيل: مولاة حفصة بنت عمر. روت عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خرّ لوجهه».

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ١٣٩/٧]: رواه عبد الرحمن بن الفضل بن الموفق عن أبيه عن إسرائيل عن الأوزاعي عن سالم عن سديسة.

ورواه إسحاق بن يسار عن الفضل. فقال: عن سديسة عن حفصة عن النبي ﷺ، فذكره. رواه أبو نعيم وابن منده.

١٣- ومنهن: سلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ:

روت عنه حديثاً في فضل الحمل والطلق والرضاع والسهر، فيه غرابة

ونكارة من جهة إسناده ومتنه.

رواه أبو نعيم وابن منده من حديث هشام بن عمار بن نصير خطيب دمشق عن أبيه عمرو بن سعيد الخولاني، عن أنس عنها. ذكرها ابن الأثير.

١٤- ومنهن: سلمى وهي أم رافع امرأة أبي رافع: كما رواه الواقدي عنها أنها قالت: كنت أخدم رسول الله ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد، فأعتقنا رسول الله ﷺ كلنا.

قال الإمام أحمد [٤٦٢/٦]: حدثنا أبو عامر وأبو سعيد مولى بني هاشم،ثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي عن فائد مولى ابن أبي رافع عن علي بن عبيد الله ابن أبي رافع، عن جدته سلمى خادم النبي ﷺ قالت: ما سمعت قط أحداً يشكو إلى رسول الله ﷺ وجعاً في رأسه إلا قال: «احتجم» وفي رجليه إلا قال: «اخضبها بالحناء».

وهكذا رواه أبو داود [٣٨٥٨] من حديث ابن أبي الموالي والترمذي [٢٠٥٤] وابن ماجه [٣٥٠٢] من حديث زيد بن الحباب كلاهما عن فائد عن مولاه عبيد الله بن علي بن أبي رافع،عن جدته سلمى به.

وقال الترمذي: غريب إنما نعرفه من حديث فائد. وقد روت عدة أحاديث عن النبي ﷺ يطول ذكرها واستقصاؤها.

قال مصعب الزبيري: وقد شهدت سلمى وقعة خيبر.

قلت: وقد ورد أنها كانت تطبخ للنبي ﷺ الحريرة فتعجبه، وقد تأخرت إلى بعد موته عليه الصلاة والسلام، وشهدت وفاة فاطمة رضي الله عنها، وقد كانت أولا لصفية بنت عبد المطلب عمته عليه الصلاة والسلام، ثم صارت لرسول الله ﷺ، وكانت قابلة أولاد فاطمة وهي التي قبلت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقد شهدت غسل فاطمة وغسلتها مع زوجها علي ابن أبي طالب، وأسماء بنت عميس امرأة الصديق.

وقد قال الإمام أحمد [٤٦١/٦]: حدثنا أبو النضر، ثنا إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق عن عبيد الله بن علي بن أبي رافع، عن أبيه، عن سلمى قالت: اشتكت فاطمة عليها السلام شكواها الذي قبضت فيها، فكنت أمرضها، فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك، قالت: وخرج علي لبعض حاجته فقالت: يا أمه اسكبي لي غسلا، فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل، ثم قالت: يا أمه أعطني ثيابي الجدد فأعطيتها فلبستها، ثم قالت: يا أمه قدمي لي فراشي وسط البيت، ففعلت واضطجعت، فاستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها ثم قالت: يا أمه إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد، فقبضت مكانها، قالت: فجاء علي فأخبرته.

وهو غريب جدا.

١٥- ومنهن: سيرين، ويقال: شيرين أخت مارية القبطية خالة إبراهيم عليه السلام، وقد قدمنا أن المقوقس صاحب إسكندرية واسمه جريج بن مينا أهداهما مع غلام اسمه مأبور، وبغلة يقال لها: الدُّلدل فوهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان.

١٦- ومنهن: عُنقودة أم صُبيح الحبشية جارية عائشة، كان اسمها عِنَبة فسماها رسول الله ﷺ عنقودة. رواه أبو نعيم. ويقال: اسمها غفيرة.

١٧- فروة ظئر النبي ﷺ - يعني مرضعه - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فرشك فاقرئي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فإنها براءة من الشرك» ذكرها أبو أحمد العسكري.

قاله ابن الأثير في أسد الغابة [٢٣٣/٧، ٢٣٤].

١٨- فأما فضة النوبية: فقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة [٢٣٦/٧] أنها كانت مولاة لفاطمة بنت رسول الله ﷺ. ثم أورد بإسناد مظلم عن محبوب بن حميد البصري عن القاسم بن بهرام عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان: ٨].

ثم ذكر ما مضمونه: أن الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب، فقالوا لعلي: لو نذرت؟ فقال علي: إن بَرِئا مما بهما صمت لله ثلاثة أيام، وقالت فاطمة كذلك، وقالت فضة كذلك، فألبسهما الله العافية فصاموا. وذهب علي فاستقرض من شمعون الخيبري ثلاثة آصع من شعير، فهيئوا منه تلك الليلة صاعا فلما وضعوه بين أيديهم للعشاء وقف على الباب سائل فقال: أطعموا المسكين أطعمكم الله على موائد الجنة، فأمرهم علي فأعطوه ذلك الطعام وطووا، فلما كانت الليلة الثانية صنعوا لهم الصاع الآخر فلما وضعوه بين أيديهم وقف سائل فقال: أطعموا اليتيم فأعطوه ذلك وطووا. فلما كانت الليلة الثالثة قال: أطعموا الأسير فأعطوه وطووا ثلاثة أيام وثلاث ليال. فأنزل الله في حقهم ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ إلى قوله: ﴿لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ١-٩].

وهذا الحديث منكر، ومن الأئمة من يجعله موضوعاً ويسند ذلك إلى ركة ألفاظه، وأن هذه السورة مكية والحسن والحسين إنما ولدا بالمدينة والله أعلم.

١٩- ليلى مولاة عائشة: قالت: يا رسول الله إنك تخرج من الخلاء فأدخل في أثرك فلم أر شيئا إلا أني أجد ريح المسك؟ فقال: «إنا معشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح أهل الجنة، فما خرج منا من نتن ابتلعته الأرض».

رواه أبو نعيم من حديث أبي عبد الله المدني - وهو أحد المجاهيل - عنها.

٢٠- مارية القبطية أم إبراهيم: تقدم ذكرها مع أمهات المؤمنين.

وقد فرق ابن الأثير [أسد الغابة: ٢٦١/٧، ٢٦٢] بينهما وبين مارية أم الرباب، قال: وهي جارية للنبي ﷺ أيضاً.

حديثها عند أهل البصرة رواه عبد الله بن حبيب عن أم سليمان عن أمها، عن جدتها مارية قالت: تطأطأت للنبي ﷺ حتى صعد حائطاً ليلة فر من المشركين. ثم قال: ومارية خادم النبي ﷺ، روى أبو بكر بن عيّاش عن المثنى بن صالح عن جدته مارية - وكانت خادم النبي ﷺ - أنها قالت: ما مسست بيدي شيئاً قط ألين من كف رسول الله ﷺ.

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب [١٩١١/٤]: لا أدري أهي التي قبلها أم لا.

٢١- ومنهن: ميمونة بنت سعد:

قال الإمام أحمد [٤٦٣/٦]: حدثنا علي بن بحر ثنا عيسى - هو ابن يونس - ثنا ثور - هو ابن يزيد - عن زياد بن أبي سودة عن أخيه أن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس؟ قال: «أرض المنشر والمحشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه» قالت: أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: «فليهد إليه زيتا يسرج فيه، فإنه من أهدى له كان كمن صلى فيه».

وهكذا رواه ابن ماجه [١٤٠٧] عن إسماعيل بن عبد الله الرقي عن عيسى بن يونس، عن ثور عن زياد عن أخيه عثمان بن أبي سودة عن ميمونة مولاة النبي ﷺ.

وقد رواه أبو داود [٤٥٧] عن النُّفيلي، عن مسكين بن بكير عن سعيد بن عبد العزيز عن زياد. عن ميمونة. لم يذكر أخاه فالله أعلم.

وقال أحمد [٦/٤٦٣]: حدثنا حسين وأبو نعيم قالا: ثنا إسرائيل عن زيد بن جبير عن أبي يزيد الضبي عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: سئل النبي ﷺ عن ولد الزنا قال: «لا خير فيه، نعلان أجاهد بهما في سبيل الله أحب إلي من أعتق ولد الزنى».

وهكذا رواه النسائي [كبرى (٤٩١٣)] عن عباس الدوري وابن ماجه [٢٥٣١] من حديث أبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن أبي نعيم الفضل بن دكين به.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا المحاربي ثنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة - وكانت تخدم النبي ﷺ - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرافلة في الزينة في غير أهلها، كالظلمة يوم القيامة لا نور لها».

ورواه الترمذي [١١٦٧] من حديث موسى بن عبيدة وقال: لا نعرفه إلا من حديثه وهو يضعفه في الحديث.

وقد رواه بعضهم عنه فلم يرفعه.

٢٢- ومنهن: ميمونة بنت أبي عُنبسة أو بنت عَنبسة: قاله أبو عمرَ وابن منده.

قال أبو نعيم: وهو تصحيف والصواب ميمونة بنت أبي عسيب. كذلك روى حديثها المتجع بن مصعب أبو عبد الله العبدي عن ربيعة بنت يزيد وكانت تنزل في بني قريع عن منبه عن ميمونة بنت أبي عسيب، وقيل: بنت أبي عنبسة مولاة النبي ﷺ أن امرأة من جُرَش أتت النبي ﷺ، فنادت: يا عائشة أغيثيني بدعوة من رسول الله ﷺ تسكّنني بها وتطمئني بها، وأنه قال لها: «ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه، وقولي: بسم الله اللّهم داوني بدوائك، واشفني بشفائك، واغنني بفضلك عمن سواك» قالت ربيعة: فدعوت به فوجدته جيداً. [المعجم الكبير للطبراني: ٣٩/٢٥ من طريق المتجع، به]

٢٣- ومنهن: أم ضميرة زوج أبي ضميرة: قد تقدم الكلام عليهم رضي الله عنهم.

٢٤- ومنهن: أم عياش: بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته رقية تخدمها حين زوجها بعثمان بن عفان.

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا هُدبة، ثنا عبد الواحد بن صفوان، حدثني أبي صفوان، عن أبيه، عن جدته أم عياش - وكانت خادم النبي ﷺ - بعث بها مع ابنته إلى عثمان، قالت: كنت أمغث لعثمان التمر غدوة، فيشربه عشية، وأنبذه عشية فيشربه غدوة، فسألني ذات يوم فقال: تخلطين فيه شيئاً؟ فقلت: أجل قال: فلا تعودي.

فهؤلاء إماؤه رضي الله عنهن.

وقد قال الإمام أحمد [٦/١٣٧]: حدثنا وكيع، ثنا القاسم بن الفضل، حدثني ثمامة ابن حزن، قال: سألت عائشة عن النبيذ فقالت: هذه خادم رسول الله ﷺ فسلها، لجارية حبشية، فقالت: كنت أنبذ لرسول الله ﷺ في سقاء عشاء فأوكيه، فإذا أصبح شرب منه.

ورواه مسلم [(٢٠٠٥) (٨٤)] والنسائي [كبرى (٦٨٤٨)] من حديث القاسم بن الفضل به.

هكذا ذكره أصحاب الأطراف في مسند عائشة، والأليق ذكره في مسند جارية حبشية كانت تخدم النبي ﷺ، وهي إما أن تكون واحدة ممن قدمنا ذكرهن، أو زائدة عليهن، والله تعالى أعلم.

٧- وأما خدّامه ﷺ ورضي الله عنهم الذين خدموه من أصحابه غير مواليه

١- فمنهم أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عاصم بن غنم ابن عدي بن النجار الأنصاري النجاري أبو حمزة المدني نزيل البصرة.

خدم رسول الله ﷺ مدة مقامه بالمدينة عشر سنين، فما عاتبه على شيء أبداً، ولا قال لشيء فعله: لم فعلته، ولا لشيء لم يفعله: ألا فعلته؟

وأمه أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام هي التي أعطته رسول الله ﷺ فقبله، وسألته أن يدعو له فقال: «اللّهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، وأدخله الجنة»، قال أنس: فقد رأيت اثنتين وأنا انتظر الثالثة، والله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو من مائة [م (٢٤٨١)].

وفي رواية [تاريخ دمشق: ٣٤٩/٩]: وإن كرمي ليحمل في السنة مرتين. وإن ولدي لصلبي مائة وستة أولاد.

وقد اختلف في شهوده بدراً، وقد روى الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال: قيل لأنس أشهدت بدراً؟ فقال: وأين أغيب عن بدر لا أم لك!.

والمشهور أن لم يشهد بدراً لصغره. ولم يشهد أحداً أيضاً لذلك. وشهد الحديبية وخيبر وعمرة القضاء والفتح وحنيناً والطائف، وما بعد ذلك.

قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم - يعني أنس بن مالك [ابن سعد في الطبقات: ٢٠/٧] -.

وقال ابن سيرين: كان أحسن الناس صلاة في سفره وحضره [مسند أحمد: ٤٢٩/١].

وكانت وفاته بالبصرة وهو آخر من كان قد بقي فيها من الصحابة، فيما قاله عليّ بن المديني، وذلك في سنة تسعين، وقيل: إحدى، وقيل: اثنتين، وقيل: ثلاثاً وتسعين، وهو الأشهر، وعليه الأكثر.

وأما عمره يوم مات فقد روى الإمام أحمد: في مسنده [١٢٤/٣] حدثنا معتمر بن سليمان عن حميد أن أنساً عمر مائة سنة غير سنة، وأقل ما قيل ست وتسعون، وأكثر ما قيل مائة وسبع سنين، وقيل: ست، وقيل: مائة وثلاث سنين فالله أعلم.

٢- ومنهم: رضي الله عنهم: الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجي.

قال محمد بن سعد: كان اسمه ميمون بن سنباذ.

قال الربيع بن بدر الأعرجي عن أبيه، عن جده، عن الأسلع قال: كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له، فقال ذات ليلة: «يا أسلع قم فارحل» قال: أصابتني جنابة يا رسول الله، قال: فسكت ساعة وأتاه جبريل بآية الصعيد، قال: فتمسَّحت وصليت، فلما انتهيت إلى الماء قال: «يا أسلع قم فاغتسل»، قال: فأراني التيمم فضرب رسول الله ﷺ يديه إلى الأرض ثم نفضهما، ثم مسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه الأرض ثم نفضهما فمسح بهما ذراعيه، باليمنى على اليسرى، وباليسرى على اليمنى، ظاهرهما وباطنهما. قال الربيع: وأراني أبي، كما أراه أبوه، كما أراه الأسلع، كما أراه رسول الله ﷺ.

قال الربيع: فحدثت بهذا الحديث عوف بن أبي جميلة فقال: هكذا

والله رأيت الحسن يصنع.

رواه ابن منده والبغوي في كتابيهما معجم الصحابة من حديث الربيع بن بدر هذا.

قال البغوي: ولا أعلمه روى غيره.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣١٣/٤] وقد روى- يعني هذا الحديث - الهيثم بن رزيق المالكي المدلجي عن أبيه عن الأسلع بن شريك.

٣- ومنهم: رضي الله عنهم أسماء بن حارثة بن سعيد بن عبد الله بن غياث بن سعد بن عمرو بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى الأسلمي.

وكان من أهل الصفة، قاله محمد ابن سعد [الطبقات: ٣٢٢/٤]. وهو أخو هند بنت حارثة، وكانا يخدمان النبي ﷺ.

قال الإمام أحمد [٤٨٤/٣]: حدثنا عفان ثنا وهيب ثنا عبد الرحمن بن حرملة عن يحيى بن هند بن حارثة، وكان هند من أصحاب الحديبية، وكان أخوه الذي بعثه رسول الله ﷺ يأمر قومه بالصيام يوم عاشوراء، وهو أسماء بن حارثة.

فحدثني يحيى بن هند عن أسماء بن حارثة أن رسول الله ﷺ بعثه فقال: «مر قومك بصيام هذا اليوم». قال: أرأيت إن وجدتهم قد طعموا؟ قال: «فليتموا آخر يومهم».

وقد رواه أحمد بن خالد الوهبي عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن حبيب بن هند بن أسماء الأسلمي عن أبيه هند قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قوم من أسلم فقال: «مر قومك فليصوموا هذا اليوم، ومن وجدت منهم أكل في أول يومه فليصم آخره».

قال محمد بن سعد عن الواقدي: أنبأنا محمد بن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما كنت أظن أن هنداً وأسماء ابني حارثة إلا مملوكين لرسول الله ﷺ.

قال الواقدي: كانا يخدمانه لا يبرحان بابه هما وأنس بن مالك.

قال محمد بن سعد: وقد توفي أسماء بن حارثة في سنة ست وستين بالبصرة عن ثمانين سنة.

٤- ومنهم رضي الله عنهم بلال بن رباح الحبشي: ولد بمكة وكان مولى لأمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر منه بمال جزيل لأن أمية كان يعذبه عذاباً شديداً ليرتد عن الإسلام فيأبى إلا الإسلام رضي الله عنه، فلما اشتراه أبو بكر أعتقه ابتغاء وجه الله، وهاجر حين هاجر الناس، وشهد بدراً وأحداً وما بعدهما من المشاهد رضي الله عنه. وكان يعرف ببلال ابن حمامة وهي أمه، وكان من أفصح الناس لا كما يعتقده بعض الناس أن سينه كانت شيناً، حتى إن بعض الناس يروي حديثاً في ذلك لا أصل له عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن سين بلال عند الله شيناً». وهو أحد المؤذنين الأربعة كما سيأتي، وهو أول من أذن كما قدمنا. وكان يلي أمر النفقة على العيال، ومعه حاصل ما يكون من المال.

ولما توفي رسول الله ﷺ كان فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبي بكر أيام خلافته، والأول أشهر.

قال الواقدي: مات بدمشق سنة عشرين وله بضع وستون سنة.

وقال الفلاس: قبره بدمشق، ويقال: بداريا، وقيل: إنه مات بحلب، والصحيح أن الذي مات بحلب أخوه خالد.

قال مكحول: حدثني من رأى بلالاً قال: كان شديد الأدمة نحيفاً أجنأ له شعر كثير، وكان لا يغير شيبه رضي الله عنه.

٥- ومنهم، رضي الله عنهم: بكير بن الشداخ الليثي:

ذكر ابن منده من طريق أبي بكر الهذلي عن عبد الملك بن يعلى الليثي أن بكير بن شداخ الليثي كان يخدم النبي ﷺ، فاحتلم فأعلم بذلك رسول الله ﷺ وقال: إني كنت أدخل على أهلك وقد احتلمت الآن يا رسول الله، فقال: «اللهم صدق قوله، ولقه الظفر».

فلما كان في زمان عمر قتل رجل من اليهود، فقام عمر خطيباً قال: أنشد الله رجلا عنده من ذلك علم؟ فقام بكير فقال: أنا قتلته يا أمير المؤمنين. فقال عمر: بؤت بدمه فأين المخرج؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن رجلا من الغزاة استخلفني على أهله، فجئت فإذا هذا اليهودي عند امرأته وهو يقول:

وأشعث غره الإسلام مني   خلوت بعرسه ليل التمام
أبيت على ترائبها ويمسي   على قود الأعنة والحزام
كأن مجامع الربلات منها   فئام ينهضون إلى فئام

قال: فصدق عمر قوله وأبطل دم اليهودي بدعاء رسول الله ﷺ لبكير بما تقدم.

٦- ومنهم: رضي الله عنهم حبة وسواء ابنا خالد رضي الله عنهما.

قال الإمام أحمد [٤٦٩/٣]: حدثنا أبو معاوية، قال: وثنا وكيع، ثنا الأعمش عن سلام بن شرحبيل، عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه، فقال: «لا تيئسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحيمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله عز وجل».

٧- ومنهم: رضي الله عنهم ذو مخمر، ويقال: ذو مخبر؛ وهو ابن أخي النجاشي ملك الحبشة، ويقال ابن أخته. والصحيح الأول. كان بعثه ليخدم رسول الله ﷺ نيابة عنه.

قال الإمام أحمد [٩٠/٤، ٩١]: حدثنا أبو النضر، ثنا حريز عن يزيد بن صليح عن ذي مخمر - وكان رجلا من الحبشة يخدم النبي ﷺ - قال: كنا معه في سفر فأسرع السير حتى انصرف، وكان يفعل ذلك لقلة الزاد. فقال له قائل: يا رسول الله قد انقطع الناس، قال: فحبس وحبس الناس معه حتى تكاملوا إليه، فقال لهم: «هل لكم أن نهجع هجعة؟» أو قال له قائل فنزل ونزلوا فقالوا: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا جعلني الله فداءك، فأعطاني خطام ناقته فقال: «هاك لا تكونن لكعاً» قال: فأخذت بخطام ناقة رسول الله ﷺ وخطام ناقتي، فتنحيت غير بعيد فخليت سبيلهما ترعيان، فإني في ذلك أنظر إليهما حتى أخذني النوم، فلم أشعر بشيء حتى وجدت حرّ الشمس على وجهي، فاستيقظت فنظرت يميناً وشمالا فإذا أنا بالراحلتين مني غير بعيد، فأخذت بخطام ناقة رسول الله ﷺ وبخطام ناقتي، فأتيت أدنى القوم فأيقظته فقلت: أصليت؟ قال: لا، فأيقظ الناس بعضهم بعضا حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فقال: «يا بلال هل في الميضأة ماء؟» يعني الإداوة، فقال: نعم جعلني الله فداءك، فأتاه بوضوء فتوضأ وضوءاً لم يُلتّ منه التراب، فأمر بلالا فأذن ثم قام النبي ﷺ فصلى الركعتين قبل الصبح وهو غير عجل، ثم أمره فأقام الصلاة فصلى وهو غير عجل، فقال له قائل: يا رسول الله أفرطنا؟ قال: «لا، قبض الله أرواحنا وردها إلينا، وقد صلينا».

٨- ومنهم: رضي الله عنهم ربيعة بن كعب الأسلمي أبو فراس:

قال الأوزاعي حدثني يحيى ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن ربيعة بن كعب، قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوضوئه وحاجته، فكان

يقوم من الليل فيقول: «سبحان ربي وبحمده سبحان ربي وبحمده، سبحان رب العالمين سبحان رب العالمين» الهوِيّ. فقال رسول الله ﷺ: «هل لك حاجة؟» قلت: يا رسول الله مرافقتك في الجنة، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وقال الإمام أحمد [٥٩/٤]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا أبي، ثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن عمرو بن عطاء عن نعيم بن مُجْمِر عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه، نهاري أجمع، حتى يصلي عشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول: لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمع رسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله وبحمده» حتى أملَّ فأرجع، أو تغلبني عيناي فأرقد، فقال لي يوما: - لما يرى من خفَّتي له وخدمتي إياه - «يا ربيعة بن كعب سلني أعطك» قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمك ذلك، قال: ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة وأن لي فيها رزقاً سيكفيني ويأتيني، قال: فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به، قال: فجئته فقال: «ما فعلت يا ربيعة؟» قال: فقلت: نعم يا رسول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار، قال: فقال: «من أمرك بهذا يا ربيعة؟» قال: فقلت: لا واللهِ الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلت: «سلني أعطك» وكنت من الله بالمنزل الذي أنت به نظرت في أمري فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي. قال: فصمت رسول الله ﷺ طويلا ثم قال لي: «إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة أنبأنا يزيد بن هارون، ث مبارك بن فضالة، ثنا أبو عمران الجوني عن ربيعة الأسلمي - وكان يخدم النبي ﷺ - قال: فقال لي ذات يوم: «يا ربيعة ألا تزوج؟» قال قلت: يا رسول الله ما أحب أن يشغلني عن خدمتك شيء. قال: فسكتُّ فلما كان بعدُ قال لي: «يا ربيعة ألا تتزوج؟» قلت لا يا رسول الله ما أحب أن يشغلني عن خدمتك شيء، وما عندي ما أعطي المرأة. قال: فقلت بعد ذلك: رسول الله أعلم بما عندي حتى، يدعوني إلى التزويج، لئن دعاني هذه المرة لأجيبنه، قال: فقال لي: «يا ربيعة ألا تزوج؟» فقلت: يا رسول الله ومن يزوجني؟ ما عندي ما أعطي المرأة. فقال لي: «انطلق إلى بني فلان فقل لهم: إن رسول الله يأمركم أن تزوجوني فتاتكم فلانة» قال: فأتيتهم فقلت: إن رسول الله أرسلني إليكم لتزوجوني فتاتكم فلانة، قالوا: فلانة؟! قال: نعم، قالوا: مرحباً برسول الله ﷺ ومرحباً برسوله، فزوجوني، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أتيتك من خير أهل بيت صدقوني وزوجوني، فمن أين لي ما أعطي صداقي؟ فقال رسول الله ﷺ لبريدة الأسلمي: «اجمعوا لربيعة في صداقه في وزن نواة من ذهب» فجمعوها فأعطوني فأتيتهم فقبلوها، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قبلوا فمن أين لي ما أولم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ لبريدة: «اجمعوا لربيعة في ثمن كبش» قال: فجمعوا وقال لي: «انطلق إلى عائشة فقل لها فلتدفع إليك ما عندها من الشعير» قال: فأتيتها فدفعت إليَّ، فانطلقت بالكبش والشعير فقالوا: أما الشعير فنحن نكفيك، وأما الكبش فمر أصحابك فليذبحوه، وعملوا الشعير فأصبح والله عندنا خبز ولحم، ثم إن رسول الله ﷺ أقطع أبا بكر أرضاً له فاختلفنا، في عذق، فقلت: هو في أرضي. وقال أبو بكر: هو في أرضي، فتنازعنا فقال لي أبو بكر كلمة كرهتها، فندم فأحضرني فقال لي: قل لي كما قلت لك قال: فقلت: لا والله لا أقول لك كما قلت لي، قال: إذا آتي رسول الله. قال: فأتى رسول الله ﷺ وتبعته فجاءني قومي يتبعونني فقالوا: هو الذي قال لك وهو يأتي رسول الله فيشكو؟! قال: فالتفت إليهم فقلت: تدرون من هذا؟ هذا الصديق وذو شيبة المسلمين، ارجعوا لا يلتفت فيراكم فيظن أنكم إنما جئتم لتعينوني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيخبره فيهلك ربيعة. قال: فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني قلت لربيعة كلمة كرهها فقلت له يقول لي مثل ما قلت له فأبى، فقال رسول الله ﷺ: «يا ربيعة ومالك وللصديق؟» قال: فقلت: يا رسول الله لا والله لا أقول له كما قال لي، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل له كما قال لك، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر»

٩- ومنهم: رضي الله عنهم سعد مولى أبي بكر رضي الله عنه، ويقال مولى النبي ﷺ.

قال أبو داود الطيالسي: ثنا أبو عامر عن الحسن عن سعد مولى أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ: قال لأبي بكر - وكان سعد مملوكاً لأبي بكر، وكان رسول الله ﷺ يعجبه خدمته - «أعتق سعداً» فقال: يا رسول الله مالنا خادم ها هنا غيره، فقال: «أعتق سعد أتتك الرجال أتتك الرجال».

وهكذا رواه أحمد [١٩٩/١] عن أبي داود الطيالسي.

وقال أبو داود الطيالسي [المسند: ١٩٩/١، عن الطيالسي، به]: حدثنا أبو عامر عن الحسن، عن سعد قال: قربت بين يدي رسول الله ﷺ تمراً، فجعلوا يقرنون، فنهى رسول الله ﷺ عن القران.

ورواه ابن ماجه [٣٣٣٢] عن بندار عن أبي داود به.

١٠- ومنهم رضي الله عنهم عبد الله بن رواحة: دخل يوم عمرة القضاء مكة وهو يقود بناقة رسول الله ﷺ وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويشغل الخليل عن خليله

كما قدمنا ذلك بطوله.

وقد قتل عبد الله بن رواحة بعد هذا بأشهر في يوم مؤتة كما تقدم أيضا.

١١- ومنهم: رضي الله عنهم عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ أبو عبد الرحمن الهذلي: أحد أئمة الصحابة: هاجر الهجرتين وشهد بدراً وما بعدها، كان يلي حمل نعلي النبي ﷺ، ويلي طهوره، ويرحل دابته إذا أراد الركوب، وكانت له اليد الطولى في تفسير كلام الله تعالى، وله العلم الجم والفضل والحلم، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه - وقد جعلوا يعجبون من دقة ساقيه - فقال: «والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد» [مسند أحمد: ٤٢٠/١، ٤٢١].

وقال عمر بن الخطاب في ابن مسعود: هو كُنَيف ملئ علما [أحمد في فضائل الصحابة (١٥٥٠)].

وذكروا أنه نحيف الخلْق حسن الخلُق.

يقال: إنه كان إذا مشى يسامت الجلوس وكان يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودله وسمته، يعني أنه يشبِّه بالنبي ﷺ في حركاته وسكناته وكلامه ويتشبه بما استطاع من عبادته.

توفي رضي الله عنه في أيام عثمان سنة اثنتين - أو ثلاث - وثلاثين بالمدينة عن ثلاث وستين سنة.

وقيل: إنه توفي بالكوفة والأول أصح.

١٢- ومنهم: رضي الله عنهم عقبة بن عامر الجهني:

قال الإمام أحمد [١٤٤/٤]: ثنا الوليد بن مسلم ثنا ابن جابر عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن عقبة بن عامر قال: بينما أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: «يا عُقيب، ألا تركب؟» قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة، ثم ركب، ثم قال: «يا عُقبة، ألا أعلّمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما. ثم مر بي فقال: «كيف رأيتَ يا عُقَيبُ، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت».

وهكذا رواه النسائي [٥٤٥٢] من حديث الوليد بن مسلم، وعبد الله بن المبارك عن ابن جابر.

ورواه أبو داود [١٤٦٢] النسائي [٥٤٥١] أيضاً من حديث ابن وهب عن معاوية بن صالح عن العلاء بن الحارث عن القاسم أبي عبد الرحمن. عن عقبة به.

١٣- ومنهم: رضي الله عنهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي.

روى البخاري [٧١٥٥] عن أنس قال: كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير.

وقد كان قيس هذا رضي الله عنه من أطول الرجال، وكان كوسجاً، ويقال: إن سراويله كان يضعه على أنفه مَنْ يكون من أطول الرجال فتصل رجلاه الأرض، وقد بعث سراويله معاوية بن أبي سفيان إلى ملك الروم يقول له: هل عندكم رجل تجيء سراويله على طوله؟ فعجب ملك الروم من ذلك.

وذكروا أنه كان كريماً ممدحاً ذا رأي ودهاء، وكان مع عليّ بن أبي طالب أيام صفين.

وقال مسعر عن معبد بن خالد: كان قيس بن سعد لا يزال رافعاً اصبعه المسبِّحة يدعو رضي الله عنه وأرضاه.

وقال الواقدي [طبقات ابن سعد: ٥٣/٦ عن الواقدي] وخليفة بن خياط [تاريخ خليفة: ٢٧٣/١] وغيرهما: توفي بالمدينة في آخر أيام معاوية.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٢٤٤٥)]: ثنا عمر بن الخطاب السجستاني ثنا عليّ بن يزيد الحنفي ثنا سعد بن الصلت عن الأعمش عن أبي سفيان، عن أنس قال: كان عشرون شاباً من الأنصار يلزمون رسول الله ﷺ لحوائجه، فإذا أراد أمراً بعثهم فيه.

١٤- ومنهم: رضي الله عنهم المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنه.

كان بمنزلة السلحدار بين يدي رسول الله ﷺ، كما كان رافعا السيف في يده وهو واقف على رأس النبي ﷺ في الخيمة يوم الحديبية: فجعل كلما أهوى عمه عروة بن مسعود الثقفي حين قدم في الرسيلة إلى لحية رسول الله ﷺ - على ما جرت به عادة العرب في مخاطباتها - يقرع يده بقائمة السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. الحديث كما قدمناه.

قال محمد بن سعد وغيره: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولاه مع أبي سفيان الإمرة حين ذهبا فخربا طاغوت أهل الطائف، وهي المدعُوة بالربَّة، وهي اللات، وكان داهية من دهاة العرب.

قال الشعبي: سمعته يقول: ما غلبني أحد قط.

وقال الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر، لخرج من أبوابها.

وقال الشعبي: القضاة أربعة: عليٌّ وعمر وابن مسعود وأبو موسى، والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة وزياد.

وقال الزهري: الدهاة خمسة: معاوية وعمرو والمغيرة واثنان مع عليّ وهما قيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن بديل بن ورقاء.

وقال الإمام مالك: كان المغيرة بن شعبة رجلا نكاحاً للنساء، وكان يقول: صاحب الواحدة إن حاضت حاض معها، وإن مرضت مرض معها، وصاحب الثنتين بين نارين تشتعلان، قال: فكان ينكح أربعاً جميعاً ويطلقهن جميعاً.

وقال غيره: تزوج ثمانين امرأة، وقيل: ثلاث مائة امرأة، وقيل: أحصن بألف امرأة.

وقد اختلف في وفاته على أقوال أشهرها وأصحها وهو الذي حكى عليه الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٩١/١] الإجماع أنه توفي سنة خمسين.

١٥- ومنهم: رضي الله عنهم المقداد بن الأسود أبو معبد الكندي حليف بني زهرة.

قال الإمام أحمد [٤/٦، ٥]: حدثنا عفان، ثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن المقداد بن الأسود قال: قدمت المدينة أنا وصاحبان لي فتعرضنا للناس فلم يضفنا أحد، فأتينا النبي ﷺ فذكرنا له، فذهب بنا إلى منزله وعنده أربعة أعنز، فقال: «احلبهن يا مقداد، وجزئهن أربعة أجزاء، وأعط كل إنسان جزءاً» فكنت أفعل ذلك فرفعت للنبي ﷺ ذات ليلة فاحتبس واضطجعت على فراشي، فقالت لي نفسي: إن النبي ﷺ قد أتى أهل بيت من الأنصار، فلو قمت فشربت هذه الشربة فلم تزل بي حتى قمت فشربت جزاءه، فلما دخل في بطني وتقارَّ أخذني ما قدُم وما حدث، فقلت: يجيء الآن النبي ﷺ جائعاً ظمآناً فلا يرى في القدح شيئاً. فسجيت ثوباً على وجهي.

وجاء النبي ﷺ فسلم تسليمة يسمع اليقظان ولا توقظ النائم، فكشف عنه فلم ير شيئاً، فرفع رأسه إلى السماء فقال: «اللّهم اسق من سقاني، وأطعم من أطعمني» فاغتنمت دعوته وقمت فأخذت الشفرة فدنوت إلى الأعنز فجعلت أجسهن أيتهن أسمن لأذبحها، فوقعت يدي على ضرع إحداهن فإذا هي حافل، ونظرت إلى الأخرى فإذا هي حافل، فنظرت فإذا هن كلهن حفَّل، فحلبت في الإناء فأتيته به فقلت: اشرب، فقال: «ما الخبر يا مقداد؟» فقلت: اشرب ثم الخبر، فقال: «بعض سوآتك يا مقداد» فشرب ثم قال: «اشرب» فقلت: اشرب يا نبي الله، فشرب حتى تضلّع ثم أخذته فشربته، ثم أخبرته الخبر فقال النبي ﷺ: «هيه» فقلت: كان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «هذه بركة منزلة من السماء، أفلا أخبرتني حتى أسقي صاحبيك؟» فقلت: إذا شربت البركة أنا وأنت فلا أبالي من اخطأت.

وقد رواه الإمام أحمد أيضاً [٣/٦] عن أبي النضر عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن المقداد. فذكر ما تقدم، وفيه أنه حلب في الإناء الذي كانوا لا يطمعون أن يحلبوا فيه، فحلب حتى علته الرغوة. ولما جاء به قال له رسول الله ﷺ: «أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد؟» فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب ثم ناولني فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب ثم ناولني فأخذت ما بقي ثم شربت. فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روي فأصابتني دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض، فقال رسول الله ﷺ: «إحدى سوآتك يا مقداد» فقلت: يا رسول الله كان من أمري كذا، صنعت كذا. فقال: «ما كانت هذه إلا رحمة الله، الا كنت آذنتني نوقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها؟» قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس.

وقد رواه مسلم [(٢٠٥٥) (١٧٤)] والترمذي [٢٧١٩] والنسائي [١٠١٥٥] من حديث سليمان بن المغيرة به.

١٦ـ ومنهم: رضي الله عنهم مهاجر مولى أم سلمة.

قال الطبراني [الكبير: ٣٣٠/٢٠]: حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج، ثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني إبراهيم بن عبد الله، سمعت بكيراً يقول: سمعت مهاجراً مولى أم سلمة قال: خدمت رسول الله ﷺ سنين، فلم يقل لي لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟ وفي رواية [تاريخ دمشق: ٣٢٣/٤]: خدمته عشر سنين أو خمس سنين.

١٧ـ ومنهم: رضي الله عنهم أبو السمح.

قال أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي: حدثنا مجاهد بن موسى ثنا عبد الرحمن بن مهدي ثنا يحيى بن الوليد، حدثني محل بن خليفة حدثني أبو السمح قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، قال: كان إذا أراد أن يغتسل قال: «ناولني إداوتي»، قال: فأناوله واستُره، فأُتي بحسن أو حسين فبال على صدره، فجئت لأغسله فقال: «يُغْسل من بول الجارية، ويُرَشّ من بول الغلام».

وهكذا رواه أبو داود [٣٧٦] والنسائي [٢٢٤] وابن ماجه [٥٢٦، ٦١٣] عن مجاهد بن موسى.

١٨ـ ومنهم رضي الله عنهم: أفضل الصحابة على الإطلاق أبو بكر الصديق رضي الله عنه، تولى خدمته بنفسه في سفرة الهجرة لا سيما في الغار وبعد خروجهم منه حتى وصلوا إلى المدينة كما تقدم ذلك مبسوطاً ولله الحمد والمنة.

٨ـ أما كُتّاب الوحي وغيره بين يديه صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهم أجمعين

فمنهم: الخلفاء الأربعة:

١ ـ أبو بكر

٢ ـ وعمر

٣ ـ وعثمان

٤ ـ وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، وسيأتي ترجمة كل واحد منهم في أيام خلافته إن شاء الله وبه الثقة.

٥ـ ومنهم: رضي الله عنهم أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي الأموي. أسلم بعد أخويه خالد وعمرو، وكان إسلامه بعد الحديبية لأنه هو الذي أجار عثمان حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة يوم الحديبية. وقيل: خيبر لأن له ذكر في الصحيح [خ (٤٢٣٨)] من حديث أبي هريرة في قسمة غنائم خيبر، وكان سبب إسلامه أنه اجتمع براهب وهو في تجارة بالشام فذكر له أمر رسول الله ﷺ فقال له الراهب: ما اسمه؟ قال: محمد، قال: فأنا أنعته لك. فوصفه بصفته سواء وقال: إذا رجعت إلى أهلك فأقرئه السلام. فأسلم بعد مرجعه وهو أخو عمرو بن سعيد الأشدق الذي قتله عبد الملك بن مروان.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ أبي بن كعب، فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت، وكتب له عثمان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد. هكذا قال - يعني بالمدينة - وإلا فالسُّوَر المكية لم يكن أبي بن كعب حال نزولها، وقد كتبها الصحابة بمكة رضي الله عنهم.

وقد اختلف في وفاة أبان بن سعيد هذا فقال موسى بن عقبة ومصعب بن الزبير [نسب قريش: ص١٧٤] والزبير بن بكار وأكثر أهل النسب: قتل يوم اجنادين، يعني في جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة.

وقال آخرون: قتل يوم مرج الصُّفّر سنة أربع عشرة.

وقال محمد بن إسحاق: قتل هو وأخوه عمرو يوم اليرموك لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة.

وقيل: إنه تأخر إلى أيام عثمان وأنه أمره عثمان رضي الله عنه، أن يُمِلَّ المصحف على زيد بن ثابت ثم توفي سنة تسع وعشرين فالله أعلم.

٦ـ ومنهم رضي الله عنهم: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي الأنصاري. أبو المنذر، ويقال: أبو الطفيل، سيد القراء شهد العقبة الثانية وبدراً وما بعدها. وكان ربعة نحيفاً أبيض الرأس واللحية، لا يغير شيبه.

قال أنس: جمع القرآن أربعة- يعني من الأنصار - أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، ورجل من الأنصار يقال له: أبو زيد. أخرجاه [خ (٥٠٠٣)، م (٢٤٦٥)].

وفي الصحيحين [خ (٤٩٥٩ - ٤٩٦١)، م (٧٩٩) (١٢١)] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: وسماني لك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: فذرفت عيناه.

ومعنى «أن أقرأ عليك» قراءة إبلاغ وإسماع لا قراءة تعلُّم منه، هذا لا يفهمه أحد من أهل العلم، وإنما نبهنا على هذا لئلا يعتقد خلافه.

وقد ذكرنا في موضع آخر سبب القراءة عليه وأنه قرأ عليه سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١-٣] وذلك أن أبي بن كعب كان قد أنكر على رجل قراءة سورة على خلاف ما كان يقرأ أُبي، فرفعه أُبي إلى رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ يا أبي» فقرأ فقال: «هكذا أنزلت» ثم قال لذلك الرجل: «اقرأ» فقرأ فقال: «هكذا أنزلت» قال أُبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية، قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدري ففِضْتُ عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً [م (٨٢٠)].

فبعد ذلك تلا عليه رسول الله ﷺ هذه السورة كالتثبيت له والبيان له أن هذا القرآن حق وصدق، وأنه أنزل على أحرف كثيرة رحمة ولطفاً بالعباد.

وقال ابن أبي خيثمة: هو أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ يعني بالمدينة.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٤٩٨/٣]: كان يكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ.

وقد اختلف في وفاته فقيل: في سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: ثلاث وعشرين، وقيل: قبل مقتل عثمان بجمعة فالله أعلم.

٧- ومنهم: رضي الله عنهم أرقم بن أبي الأرقم، واسمه عبد مناف بن أسد بن جندب بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي.

أسلم قديما وهو الذي كان رسول الله ﷺ مستخفيا في داره عند الصفا وتعرف تلك الدار بعد ذلك بالخيزران.

وهاجر وشهد بدراً وما بعدها، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن أنيس، وهو الذي كتب أقطاع عُظَيم بن الحارث المحاربي بأمر رسول الله ﷺ بفخ وغيره، وذلك فيما رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٢٥/٤] من طريق عتيق بن يعقوب الزبيري، حدثني عبد الملك بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، عن عمرو بن حزم.

وقد توفي في سنة ثلاث - وقيل خمس - وخمسين وله خمس وثمانون سنة.

وقد روى الإمام أحمد له حديثين؛

الأول قال أحمد والحسن بن عرفة - واللفظ لأحمد [٤١٧/٣] -: حدثنا عباد بن عباد المهلبي عن هشام بن زياد عن عمار بن سعد عن عثمان بن أرقم بن أبي الأرقم، عن أبيه -وكان من أصحاب النبي ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجارّ قُصْبَه في النار».

والثاني قال أحمد: حدثنا عصام بن خالد، ثنا العطاف بن خالد ثنا يحيى بن عمران عن عبد الله بن عثمان بن الأرقم، عن جده الأرقم: أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «أين تريد؟» قال: أردت يا رسول الله ها هنا، وأومأ بيده إلى حيز بيت المقدس، قال: «ما يخرجك إليه التجارة؟» قال: لا ولكن أردت الصلاة فيه، قال: «الصلاة ها هنا» وأومأ بيده إلى مكة «خير من ألف صلاة» وأومأ بيده إلى الشام. تفرد بهما أحمد.

٨- ومنهم: رضي الله عنهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد. المدني خطيب الأنصار، ويقال له: خطيب النبي ﷺ.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ٣٥٣/١]: أنبأنا عليّ بن محمد المدايني بأسانيده عن شيوخه في وفود العرب على رسول الله ﷺ، قالوا: قدم عبد الله بن عَلَس الثُمالي. ومُسْلِيةُ بن هِرّان الحدّاني على رسول الله ﷺ في رهط من قومهما بعد فتح مكة فأسلموا وبايعوا على قومهم، وكتب لهم كتابا بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم، كتبه ثابت بن قيس بن شماس وشهد فيه سعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم.

وهذا الرجل ممن ثبت في صحيح [١١٩] مسلم أن رسول الله ﷺ بشره بالجنة.

وروى الترمذي في جامعه بإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن جبل، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح».

وقد قتل رضي الله عنه شهيداً يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وله قصة سنوردها إن شاء الله إذا انتهينا إلى ذلك بحول الله وقوته وعونه ومعونته.

٩- ومنهم: رضي الله عنهم حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم التميمي الأسيدي الكاتب، وأخوه رباح صحابي أيضاً، وعمه أكثم بن صيفي كان حكيم العرب.

قال الواقدي: كتب للنبي ﷺ كتاباً.

وقال غيره: بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل الطائف في الصلح، وشهد مع خالد حروبه بالعراق وغيرها وقد أدرك أيام عليّ وتخلف عن القتال معه في الجمل وغيره، ثم انتقل عن الكوفة لما شتم بها عثمان؛ ومات بعد أيام عليّ.

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة [٦٥/٢]، أن امرأته لما مات جزعت عليه فلامها جاراتها في ذلك فقالت:

تعجبت دعد لمحزونة تبكي على ذي شيبة شاحب
إن تسأليني اليوم ما شفّني أخبرك قولا ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به حزن على حنظلة الكاتب

قال أحمد بن عبد الله بن البرقي: كان معتزلا للفتنة حتى مات بعد عليّ، جاء عنه حديثان.

قلت: بل ثلاثة.

قال الإمام أحمد [٢٦٧/٤]: حدثنا عبد الصمد وعفان قالا: ثنا همام، ثنا قتادة عن حنظلة الكاتب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ووضوئهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة» أو قال: «وجبت له».

تفرد به أحمد وهو منقطع بين قتادة وحنظلة والله أعلم.

والحديث الثاني: رواه أحمد [٣٤٦/٤] ومسلم [٢٧٥٠] والترمذي [٢٥١٤]، وابن ماجه [٤٢٣٩] من حديث سعيد الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة: «لو تدومون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعةً وساعةً».

وقد رواه أحمد والترمذي أيضاً من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة عن يزيد بن عبد الله بن الشخير عن حنظلة.

والثالث رواه أحمد [١٧٨/٤] والنسائي [كبرى (٨٦٢٧)] وابن ماجه [٢٨٤٢] من حديث سفيان الثوري عن أبي الزناد عن المرقع بن صيفي بن حنظلة، عن جده في النهي عن قتل النساء في الحرب.

لكن رواه الإمام أحمد [٤٨٨/٣، ٣٤٦/٤] عن عبد الرزاق عن ابن جريج قال: أخبرت عن أبي الزناد عن مرقع بن صيفي بن رياح بن ربيع عن جده رياح بن الربيع أخي حنظلة الكاتب فذكره.

وكذلك رواه أحمد [٤٨٨/٣، ٣٤٦/٤] أيضاً عن حسين بن محمد وإبراهيم بن أبي العباس كلاهما عن ابن أبي الزناد عن أبيه. وعن سعيد بن منصور وأبي عامر العقدي كلاهما عن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن مرقع عن جده رياح.

ومن طريق المغيرة رواه النسائي [كبرى (٨٦٢٦)] وابن ماجه [عقب ح (٢٨٤٢)] كذلك.

وروى أبو داود [٢٦٦٩] والنسائي [كبرى (٨٦٢٥)] من حديث عمر

بن مرقع عن أبيه عن جده رباح فذكره.

فالحديث عن رباح لا عن حنظلة.

ولذا قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان سفيان الثوري يخطئ في هذا الحديث [عند ج عقب (٢٨٤٢)].

قلت: وصح قول ابن البرقي: أنه لم يرو سوى حديثين والله أعلم.

١٠- ومنهم: رضي الله عنهم خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سعيد الأموي.

أسلم قديماً، يقال: بعد الصديق بثلاثة أو أربعة، وأكثر ما قيل خمسة.

وذكروا أن سبب إسلامه أنه رأى في النوم كأنه واقفٌ على شفير جهنم فذكر من سعتها ما الله به عليم.

قال وكأن أباه يدفعه فيها، وكأن رسول الله ﷺ آخذ بيده ليمنعه من الوقوع فيها، فقص هذه الرؤيا على أبي بكر الصديق فقال له: لقد أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه تنج مما خفته. فجاء رسول الله ﷺ فأسلم، فلما بلغ أباه إسلامه غضب عليه وضربه بعصا في يده حتى كسرها على رأسه وأخرجه من منزله ومنعه القوت، ونهى بقية إخوته أن يكلموه، فلزم خالد رسول الله ﷺ ليلا ونهاراً، ثم أسلم أخوه عمرو، فلما هاجر الناس إلى أرض الحبشة هاجرا معهم ثم كان هو الذي ولي العقد في تزويج أم حبيبة من رسول الله ﷺ كما قدمنا، ثم هاجرا من أرض الحبشة بصحبة جعفر فقدما على رسول الله ﷺ بخيبر وقد افتتحها، فأسهم لهما عن مشورة المسلمين، وجاء أخوهما أبان بن سعيد فشهد فتح خيبر كما قدمنا، ثم كان رسول الله ﷺ يوليهم الأعمال.

فلما كانت خلافة الصديق خرجوا إلى الشام للغزو فقتل خالد بأجنادين، ويقال: بمرج الصفر والله أعلم.

قال عتيق بن يعقوب: حدثني عبد الملك بن أبي بكر عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم؛ يعني أن خالد بن سعيد كتب عن رسول الله ﷺ كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله راشد بن عبد ربٍّ السُّلَمي أعطاه غلوتَيْن بسهم وَغَلْوةً بحجر برهاط، فمن حاقَّه فلا حق له وحقُّه حق». وكتب خالد بن سعيد.

وقال محمد بن سعد عن الواقدي: حدثني جعفر بن محمّد بن خالد عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان قال: أقام خالد بن سعيد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة، وكان يكتب لرسول الله ﷺ وهو الذي كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف، وسعى في الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ.

١١- ومنهم: رضي الله عنهم خالد بن الوليد بن المغير بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان المخزومي. وهو أمير الجيوش المنصورة الإسلامية، والعساكر المحمدية، والمواقف المشهودة، والأيام المحمودة. ذو الرأي السديد والبأس الشديد، والطريق الحميد. أبو سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ويقال: إنه لم يكن في جيش فكسر لا في جاهلية ولا إسلام.

قال الزبير بن بكار: كانت إليه في قريش القبة وأعنة الخيل.

أسلم هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة بعد الحديبية وقيل: خيبر، ولم يزل رسول الله ﷺ يبعثه فيما يبعثه أميراً. ثم كان المقدَّم على العساكر كلها في أيام الصديق، فلما ولي عمر بن الخطاب عزله وولى أبو عبيدة أمين الأمة على أن لا يخرج عن رأي أبي سليمان.

ثم مات خالد في أيام عمر وذلك في سنة إحدى وعشرين وقيل اثنتين وعشرين - والأول أصح - بقرية على ميل من حمص.

قال الواقدي: سألت عنها فقيل لي دثرت.

وقال دحيم: مات بالمدينة. والأول أصح. وقد روى أحاديث كثيرة يطول ذكرها.

قال عتيق بن يعقوب: حدثني عبد الملك بن أبي بكر عن أبيه عن جده، عن عمرو بن حزم أن هذه قطايع أقطعها رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المؤمنين أن عِضَاهَ وَجٍّ لا يعضد، وصيده لا يقتل، فمن وُجد يفعل من ذلك شيئاً فإنه يجلد وينزع ثيابه، وإن تعدى ذلك أحد فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي ﷺ، وأن هذا من محمد النبي» وكتب خالد بن الوليد بأمر رسول الله ﷺ فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمره به محمد ﷺ.

١٢- ومنهم: رضي الله عنهم الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أبو عبد الله الأسدي:

أحد العشرة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وحواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وزوج أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه.

روى عتيق بن يعقوب بسنده المتقدم أن الزبير بن العوام هو الذي كتب لبني معاوية بن جرول الكتاب الذي أمره به رسول الله ﷺ أن يكتبه لهم.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٣١/٤] بإسناد عن عتيق به.

أسلم الزبير قديماً رضي الله عنه وهو ابن ست عشرة سنة، ويقال: ابن ثمان سنين، وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله، وقد جمع له رسول الله ﷺ يوم الخندق أبويه وقال: «إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير».

وقد شهد اليرموك وكان أفضل من شهدها، واخترق يومئذ صفوف الروم من أولهم إلى آخرهم مرتين ويخرج من الجانب الآخر سالماً، لكن جرح في قفاه بضربتين رضي الله عنه.

وله فضائل ومناقب كثيرة وكانت وفاته يوم الجمل، وذلك أنه كر راجعاً عن القتال فلحقه عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس ورجل ثالث يقال له نفيع: التميميون، بمكان يقال له وادي السباع، فبدر إليه عمرو بن جرموز وهو نائم فقتله، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة، وقد خلف رضي الله عنه بعده تركة عظيمة فأوصى من ذلك بالثلث بعد إخراج ألفي ألف ومائتي ألف دَيْناً كانت عليه، فلما قضى دينه وأخرج ثلث ماله قسم الباقي على ورثته فنال كلّ امرأة من نسائه - وكن أربعاً - ألف ألف ومائتا ألف، فمجموع ما ذكرناه مما تركه رضي الله عنه تسعة وخمسين ألف ألف وثمان مئة ألف وهذا كله من وجوه حِلٍّ نالها في حياته مما كان يصيبه من الفيء والمغانم، ووجوه متاجر الحلال وذلك كله بعد إخراج الزكاة في أوقاتها، والصِّلات البارعة الكثيرة لأربابها في أوقات حاجتها رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنات الفردوس مثواه - وقد فعل - فإنه قد شهد له سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين بالجنة، ولله الحمد والمنة.

وذكر ابن الأثير في الغابة [٢٥١/٢]: أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، وأنه كان يتصدق بذلك كله. وقال فيه حسان بن ثابت يمدحه

ويفضله بذلك:

أقـام علـى عهـد النبـي وهديـه حواريـه والقـول بـالفعل يُعـدل
أقـام علـى منهاجـه وطريقـه يـوالي وليَّ الحـق والحـق أعـدل
هـو الفـارس المشهور والبطـل الـذي يصـول إذا مـا كـان يـوم محجـل
وإن امـرأ كـانت صفيـة أمـه ومـن أسـد في بيتـه لمُرَفَّـل
لـه مـن رسـول اللّـه قربـى قريبـةٌ ومـن نصـرة الإسـلام مجـد مؤثَّـل
فكـم كربـةٍ ذب الزبـير بسـيفه عن المصطفـى واللّـه يعطـي ويجـزل
إذا كشفت عـن ساقها الحرب حشـها بـأبيض سـبّاقٍ إلى المـوت يُرقِـل
فمـا مثلـه فيهـم ولا كـان قبلـه وليـس يكـون الدهـر مـا دام يذبـل

قد تقدم أنه قتله عمرو بن جرموز التميمي بوادي السباع وهو نائم، ويقال: بل قام من آثار النوم وهو دهش فركب وبارزه ابن جرموز، فلما صمم عليه الزبير أنجده صاحباه فضالة ونُفيع فقتلوه، وأخذ عمرو بن جرموز رأسه وسيفه. فلما دخل بهما على عليّ قال عليّ رضي اللّه عنه لما رأى سيف الزبير: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول اللّه ﷺ.

وقال عليّ فيما قال: بشّر قاتل ابن صفية بالنار.

فيقال: إن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه.

والصحيح أنه عمّر بعد عليّ حتى كانت أيام ابن الزبير فاستناب أخاه مصعباً على العراق، فاختفى عمرو بن جرموز خوفاً من سطوته أن يقتله بأبيه. فقال مصعب: أبلغوه أنه آمن، أيحسب أني أقتله بأبي عبد اللّه؟ كلا واللّه ليسا سواء، وهذا من حلم مصعب وعلوه ورياسته.

وقد روى الزبير عن رسول اللّه ﷺ أحاديث كثيرة يطول ذكرها، ولما قتل الزبير بن العوام بوادي السباع كما تقدم قالت امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ترثيه رضي اللّه عنها وعنه:

غـدر ابـن جرمـوز بفـارس بهمـةٍ يـوم اللقـاء وكـان غـير معـرِّد
يـا عمـرو لـو نبهتـه لوجدتـه لا طائشـاً رعـش الجنـان ولا اليـد
كـم غمـرة قـد خاضهـا لم يثنـه عنها طرادك يـا ابـن فقـع القـردد
ثكلتـك أمـك إن ظفـرت بمثلـه فيمـن مضـى ممـن يـروح ويغتـدي
واللّـه ربـك إن قتلـت لمسـلما حلـت عليـك عقوبـة المتعمـد

١٣- ومنهم رضي اللّه عنهم زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبيد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري النجاري، أبو سعيد ويقال أبو خارجة ويقال أبو عبد الرحمن المدني. قدم رسول اللّه ﷺ المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة فلهذا لم يشهد بدراً لصغره، قيل: ولا أحداً وأول مشاهده الخندق، ثم شهد ما بعدها. وكان حافظاً لبيباً عالماً عاقلا.

ثبت عنه في صحيح البخاري [٧١٩٥ معلقاً] أن رسول اللّه ﷺ أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبي ﷺ إذا كتبوا إليه. فتعلمه في خمسة عشر يوماً.

وقد قال الإمام أحمد [١٨٦/٥]: حدثنا سليمان بن داود، ثنا عبد الرحمن عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد، أن اباه زيداً أخبره أنه لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة قال زيد: ذهب بي إلى رسول اللّه ﷺ فأعجب بي، فقالوا: يا رسول اللّه هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل اللّه عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول اللّه ﷺ وقال: «يا زيد تعلم لي كتاب يهود فإني واللّه ما آمن يهود على كتابي» قال زيد: فتعلمت له كتابهم ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب.

ثم رواه أحمد [١٨٦/٣، ١٩١] عن سُريج بن النعمان عن ابن أبي الزناد، عن أبيه عن خارجة، عن أبيه فذكر نحوه.

وقد علقه البخاري في الأحكام [٧١٩٥ معلقاً] عن خارجة بن زيد بن ثابت بصيغة الجزم، فقال: وقال خارجة بن زيد فذكره.

ورواه أبو داود [٣٦٤٥] عن أحمد بن يونس.

والترمذي [٢٧١٥] عن عليّ بن حجر كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة، عن أبيه به نحوه. وقال الترمذي حسن صحيح.

وهذا ذكاء مفرط جداً. وقد كان ممن جمع القرآن على عهد رسول اللّه ﷺ من القراء كما ثبت في الصحيحين [خ (٣٨١٠)، م (٢٤٦٥)] عن أنس.

وروى [٢٨١/٣] أحمد والنسائي [كبرى (٨٢٤٢)] من حديث أبي قلابة عن أنس، عن رسول اللّه أنه قال: «أرحم امتي بامتي أبو بكر، واشدها في دين اللّه عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاهم عليّ بن أبي طالب، واعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

ومن الحفاظ من يجعله مرسلا إلا ما يتعلق بأبي عبيدة.

ففي صحيح البخاري [٣٧٤٤] من هذا الوجه.

وقد كتب الوحي بين يدي رسول اللّه ﷺ في غير ما موطن، ومن اوضح ذلك ما ثبت في الصحيح [٢٨٣٢، ٤٥٩٢] عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ٩٥]، دعاني رسول اللّه ﷺ فقال: «اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل اللّه» فجاء ابن أم مكتوم فجعل يشكو ضرارته، فنزل الوحي على رسول اللّه ﷺ فثقلت فخذه على فخذي حتى كادت ترضها، فنزل ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ فامرني فألحقتها، فقال زيد: فإني لأعرف موضع ملحقها عند صدع في ذلك اللوح - يعني من عظام - الحديث.

وقد شهد زيد اليمامة وأصابه سهم فلم يضره، وهو الذي أمره الصديق بعد هذا بان يتتبع القرآن فيجمعه، وقال له: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. ففعل ما أمره بن الصديق، فكان في ذلك خير كثير وللّه الحمد والمنة.

وقد استنابه عمر مرتين في حجتين على المدينة، واستنابه لما خرج إلى الشام، وكذلك كان عثمان يستنيبه على المدينة أيضاً، وكان عليّ يحبه، وكان يعظم علياً ويعرف له قدره، ولم يشهد معه شيئاً من حروبه. وتأخر بعده حتى توفي سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة إحدى وقيل: خمس وخمسين، وهو ممن كان يكتب المصاحف الأئمة التي نفذ بها عثمان بن عفان إلى سائر الآفاق اللائي وقع على التلاوة طبق رسمهن الإجماع والاتفاق كما قررنا ذلك في كتاب فضائل القرآن الذي كتبناه مقدمة في أول كتابنا التفسير وللّه الحمد والمنة.

١٤- ومنهم رضي اللّه عنهم: السِّجل، كما ورد به الحديث المروي في ذلك عن ابن عباس - إن صح - وفيه نظر.

قال أبو داود [٢٩٣٥]: حدثنا قتيبة بن سعيد ثنا نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: السجل كاتب للنبي ﷺ.

وهكذا رواه النسائي [كبرى (١١٣٣٥)] عن قتيبة به وعن ابن عباس، أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] السجل الرجل. هذا لفظه.

ورواه أبو جعفر بن جرير في تفسيره [١٧/١٠٠] عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ عن نصر بن عليّ عن نوح بن قيس، وهو ثقة من رجال مسلم. وقد ضعفه ابن معين في رواية عنه. وأما شيخه يزيد بن كعب العَوْذيُّ البصري فلم يرو عنه سوى نوح بن قيس، وقد ذكره مع ذلك ابن حبان في الثقات [٩/٢٧١].

وقد عرضت هذا الحديث على شيخنا الحافظ الكبير أبي الحجاج المزي فأنكره جداً، وأخبرته أن شيخنا العلامة أبا العباس ابن تيمية كان يقول: هو حديث موضوع، وإن كان في سنن أبي داود. فقال شيخنا المزي: وأنا أقوله.

قلت: وقد رواه الحافظ ابن عدي في كامله [٧/٢٦٦٢] من حديث محمد بن سليمان الملقب ببومة عن يحيى بن عمرو بن مالك النكري عن أبيه عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يقال له السِّجلُّ، وهو قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال كما يطوي السجلُّ الكتابَ، كذلك تطوى السماء.

وهكذا رواه البيهقي [السنن الكبرى: ١٠/١٢٦] عن أبي نصر بن قتادة عن أبي عليّ الرفاء عن عليّ بن عبد العزيز عن مسلم بن إبراهيم عن يحيى بن عمرو بن مالك به.

ويحيى هذا ضعيف جداً فلا يصلح للمتابعة والله أعلم.

وأغرب من ذلك أيضا ما رواه الحافظ أبو بكر الخطيب [تاريخ بغداد: ٨/١٧٥] وابن منده من حديث أحمد بن سعيد البغدادي المعروف بحمدان عن ابن نُمير، عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له سجل، فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال ابن منده: غريب تفرد به حمدان. وقال البرقاني: قال أبو الفتح الأزدي: تفرد به ابن نمير - إن صح -.

قلت: وهذا أيضا منكر عن ابن عمر كما هو منكر عن ابن عباس، وقد ورد عن ابن عباس وابن عمر خلاف ذلك: فقد روى الوالبي والعوفي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: قال كطي الصحيفة على الكتاب. وكذلك قال مجاهد [تفسير الطبري: ١٧/١٠٠].

وقال ابن جرير [التفسير: ١٧/١٠٠]: هذا هو المعروف في اللغة أن السجل هو الصحيفة، قال: ولا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وأنكر أن يكون السجل اسم ملك من الملائكة.

كما رواه [تفسير الطبري: ١٧/٩٩] عن أبي كريب عن ابن يمان: ثنا أبو الوفاء الأشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال الله: اكتبها نوراً.

وحدثنا بندار عن مؤمل عن سفيان: سمعت السدي يقول: فذكر مثله [تفسير الطبري: ١٧/١٠٠].

وهكذا قال أبو جعفر الباقر فيما رواه أبو كريب عن ابن المبارك عن معروف بن خربوذ عمن سمع أبا جعفر يقول: السجل الملك.

وهذا الذي أنكره ابن جرير من كون السجل اسم صحابي أو ملك قوي جداً، والحديث في ذلك منكر جداً. ومن ذكره في أسماء الصحابة كابن منده وأبي نعيم الأصبهاني وابن الأثير في الغابة [٢/٣٢٦] إنما ذكره إحساناً للظن بهذا الحديث، أو تعليقا على صحته والله أعلم.

١٥- ومنهم رضي الله عنهم: سعد بن أبي سرح. فيما قاله خليفة بن خياط [تاريخه: ١/٧٧]. وقد وهم إنما هو ابنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

١٦- ومنهم رضي الله عنهم: عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر الصديق.

قال الإمام أحمد [٤/١٧٥، ١٧٦]: حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال: قال الزهري: أخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك أن أباه أخبره أنه سمع سراقة يقول؛ فذكر خبر هجرة النبي ﷺ وقال فيه: فقلت له: إن قومك جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم من أخبار سفرهم وما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزؤني منه شيئاً ولم يسألوني إلا أن أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب موادعة آمن به، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى.

قلت: وقد تقدم الحديث بتمامه في الهجرة.

وقد روي أن أبا بكر هو الذي كتب لسراقة هذا الكتاب فالله أعلم.

وقد كان عامر بن فهيرة - ويكنى أبا عمرو - من مولدي الأزد أسود اللون، وكان أولا مولى للطفيل بن الحارث أخي عائشة لأمها أم رومان، فاسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم التي عند الصفا مستخفياً، فكان عامر يعذب مع جملة المستضعفين بمكة، ليرجع عن دينه فيأبى، فاشتراه أبو بكر الصديق فأعتقه، فكان يرعى له غنماً بظاهر مكة. ولما هاجر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر كان معهما رديفاً لأبي بكر ومعهم الدليل الديلي فقط كما تقدم مبسوطاً، ولما وردوا المدينة نزل عامر بن فهيرة على سعد بن خيثمة، وآخى رسول الله بينه وبين أوس بن معاذ وشهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة كما تقدم وذلك سنة أربع من الهجرة، وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة فالله أعلم.

وقد ذكر عروة وابن إسحاق والواقدي وغير واحد: أن عامراً قتله يوم بئر معونة رجل يقال له: جبار بن سلمى من بني كلاب، فلما طعنه بالرمح قال: فزت ورب الكعبة، ورفع عامر حتى غاب عن الأبصار حتى قال عامر بن الطفيل: لقد رفع حتى رأيت السماء دونه، وسئل عمرو بن أمية عنه فقال: كان من أفضلنا ومن أول أهل بيت نبينا ﷺ. قال جبار: فسألت الضحاك بن سفيان عما قال ما يعني به؟ فقال: يعني الجنة، ودعاني الضحاك إلى الإسلام فأسلمت لما رأيت من قتل عامر بن فهيرة، فكتب الضحاك إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامي وما كان من أمر عامر، فقال: «وارته الملائكة وأنزل عليين».

وفي الصحيحين [خ (٤٠٩٠)، م (٦٧٧) (٢٩٧)] عن أنس أنه قال: قرأنا فيهم قرآناً (أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا).

وقد تقدم ذلك بتمامه في موضعه عند غزوة بئر معونة.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢/١٨٦]: حدثني هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: من رجل منكم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه؟ قالوا: عامر بن فهيرة.

وقال الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: رفع عامر بن فهيرة إلى السماء فلم توجد جثته، يرون أن

الملائكة وارثه.

١٧- ومنهم: رضي الله عنهم عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي: أسلم عام الفتح وكتب للنبي ﷺ.

قال الإمام مالك: وكان ينفذ ما يفعله ويشكره ويستجيده.

وقال سلمة عن محمد بن إسحاق بن يسار عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبد الله بن الزبير: أن رسول الله ﷺ استكتب عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، وكان يجيب عنه الملوك، وبلغ من أمانته أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك فيكتب، ويختم على ما يقرأه لأمانته عنده وكتب لأبي بكر وجعل إليه بيت المال، واقره عليهما عمر بن الخطاب، فلما كان عثمان عزله عنهما.

قلت: وذلك بعدما استعفاه عبد الله بن أرقم، ويقال: إن عثمان عرض عليه ثلاثمائة ألف درهم عن أجرة عمالته فأبى أن يقبلها وقال: إنما عملت لله فأجري على الله عز وجل.

قال ابن إسحاق: وكتب لرسول الله ﷺ زيد بن ثابت، فإذا لم يحضر ابن الأرقم وزيد بن ثابت كتب من حضر من الناس. وقد كتب عمر وعليّ وزيد والمغيرة بن شعبة ومعاوية وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم ممن سمي من العرب.

وقال الأعمش: قلت لشقيق بن سلمة: من كان كاتب النبي ﷺ؟ قال: عبد الله بن الأرقم، وقد جاءنا كتاب عمر بالقادسية وفي أسفله؛ وكتب عبد الله بن الأرقم.

وقال البيهقي [السنن الكبرى: ١٢٦/١٠]: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ثنا محمد بن صالح بن هانئ حدثنا الفضل بن محمد البيهقي ثنا عبد الله بن صالح ثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عبد الواحد بن أبي عون عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر قال: أتى النبي ﷺ كتاب رجل، فقال لعبد الله بن الأرقم: «أجب عني» فكتب جوابه ثم قرأه عليه، فقال: «أصبت وأحسنت، اللهم وفقه» قال: فلما ولي عمر كان يشاوره. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: ما رأيت أخشى لله منه - يعني في العمال- أُضِرَّ رضي الله عنه قبل وفاته.

١٨- ومنهم: رضي الله عنهم عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي، صاحب الأذان: أسلم قديماً فشهد عقبة السبعين، وحضر بدراً وما بعدها، ومن أكبر مناقبه رؤيته الأذان والإقامة في النوم، وعرضه ذلك على رسول الله ﷺ وتقريره عليه، وقوله له: «إنها لرؤيا حق فالقه على بلال، فإنه أندى صوتاً منك» وقد قدمنا الحديث بذلك في موضعه.

وقد روى الواقدي بأسانيده عن ابن عباس: أنه كتب كتاباً لمن أسلم من جرش فيه الأمر لهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإعطاء خمس المغنم.

وقد توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين عن أربع وستين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١٩- ومنهم: رضي الله عنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، القرشي العامري، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة.أرضعت أمُّه عثمان. وكتب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة، فلما فتحها رسول الله ﷺ - وكان قد أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء - فجاء إلى عثمان بن عفان فاستأمن له، فأمنه رسول الله ﷺ كما قدمنا في غزوة الفتح، ثم حسن إسلام عبد الله بن سعد جداً بعد ذلك.

قال أبو داود [٤٣٥٨]: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، ثنا عليّ بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنبي ﷺ، فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﷺ.

ورواه النسائي [٤٠٨٠] من حديث عليّ بن الحسين بن واقد به.

قلت: وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح عمرو مصر سنة عشرين في الدولة العمرية، فاستتاب عمر بن الخطاب عمراً عليها، فلما صارت الخلافة إلى عثمان عزل عنها عمرو بن العاص وولى عليها عبد الله بن سعد سنة خمس وعشرين، وأمره بغزو بلاد أفريقية فغزاها ففتحها، وحصل للجيش منها مال عظيم كان قسم الغنيمة لكل فارس من الجيش ثلاثة آلاف مثقال من ذهب، وللراجل ألف مثقال. وكان معه في جيشه هذا ثلاثة من العبادلة؛ عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، ثم غزا عبد الله بن سعد بعد أفريقية الأساود من أرض النوبة فهادنهم فهي إلى اليوم، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

ثم غزا غزوة الصواري في البحر إلى الروم وهي غزوة عظيمة كما سيأتي بيانها في موضعها إن شاء الله.

فلما اختلف الناس على عثمان خرج من مصر واستناب عليها لينهب إلى عثمان لينصره. فلما قتل عثمان أقام بعسقلان - وقيل بالرملة - ودعا الله أن يقبضه في الصلاة، فصلى يوماً الفجر وقرأ في الأولى منها بفاتحة الكتاب والعاديات، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وسورة، ولما فرغ من التشهد سلم التسليمة الأولى، ثم أراد أن يسلم الثانية فمات بينهما رضي الله عنه، وذلك في سنة ست وثلاثين، وقيل سنة سبع، وقيل: إنه تأخر إلى سنة تسع وخمسين، والصحيح الأول.

قلت: ولم يقع له رواية في الكتب الستة ولا في المسند للإمام أحمد.

٢٠- ومنهم: رضي الله عنهم عبد الله بن عثمان، أبو بكر الصديق. وقد تقدم الوعد بأن ترجمته ستأتي في أيام خلافته إن شاء الله عز وجل وبه الثقة.

وقد جمعت مجلداً في سيرته وما رواه من الأحاديث وما روي عنه من الآثار، والدليل على كتابته ما ذكره موسى بن عقبة عن الزهري، عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم، عن أبيه، عن سراقة بن مالك في حديثه حين اتبع رسول الله ﷺ حين خرج هو وأبو بكر من الغار فمروا على أرضهم، فلما غشيهم - وكان من أمر فرسه ما كان - سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاب أمان، فأمر أبا بكر فكتب له كتاباً ثم ألقاه إليه.

وقد روى الإمام أحمد [١٧٥/٤ مطوّلاً] من طريق الزهري بهذا السند أن عامر بن فهيرة كتبه، فيحتمل أن أبا بكر كتب بعضه ثم أمر مولاه عامراً فكتب باقيه والله أعلم.

٢١- ومنهم: رضي الله عنهم عثمان بن عفان أمير المؤمنين، وستأتي ترجمته في أيام خلافته وكتابته بين يديه عليه الصلاة والسلام مشهورة.

وقد روى الواقدي بأسانيده أن نهشل بن مالك الوائلي، لما قدم على رسول الله ﷺ أمر رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فكتب له كتاباً فيه شرائع الإسلام.

٢٢- ومنهم: رضي الله عنهم عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، وستأتي ترجمته في خلافته.

وقد تقدم أنه كتب الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية أن يأمن الناس، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وعلى وضع الحرب عشر سنين.

وقد كتب غير ذلك من الكتب بين يديه ﷺ.

وأما ما يدعيه طائفة من يهود خيبر أن بأيديهم كتاب من النبي ﷺ بوضع الجزية عنهم وفي آخره وكتب عليّ بن أبي طالب، وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم سعد بن معاذ ومعاوية بن أبي سفيان فهو كذب مفتعل وبهتان مختلق موضوع مصنوع، وقد بين جماعة من العلماء بطلانه، واغتر بعض الفقهاء المتقدمين فقالوا بوضع الجزية عنهم وهذا ضعيف جداً. وقد جمعت في ذلك جزءاً مفرداً بينت فيه بطلانه وأنه موضوع، اختلقوه ووضعوه وهم أهل لذلك، وبينته وجمعت متفرّق كلام الأئمة فيه ولله الحمد والمنة.

٢٣- ومنهم رضي الله عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وستأتي ترجمته في موضعها. وقد أفردت له مجلداً على حدة، ومجلداً ضخماً في الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ والآثار والأحكام المروية عنه رضي الله عنه، وقد تقدم بيان كتابته في ترجمة عبد الله بن الأرقم.

٢٤- ومنهم: رضي الله عنهم العلاء بن الحضرمي واسم الحضرمي عباد، ويقال: عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن عُويف بن مالك بن الخزرج بن إياد بن الصَّدِف بن زيد بن مقنع بن حضرموت بن قحطان، وقيل غير ذلك في نسبه. وهو من حلفاء بني أمية.

وقد تقدم بيان كتابته في ترجمة أبان بن سعيد بن العاص، وكان له من الإخوة عشيرة غيره فمنهم: عمرو بن الحضرمي أول قتيل من المشركين قتله المسلمون في سرية عبد الله بن جحش، وهي أول سرية كما تقدم.

٢٥- ومنهم عامر بن الحضرمي الذي أمره أبو جهل لعنه الله فكشف عن عورته، وناداه واعمراه حين اصطف المسلمون والمشركون يوم بدر، فهاجت الحرب وقامت على ساق وكان ما كان مما قدمناه مبسوطاً في موضعه.

٢٦- ومنهم شريح بن الحضرمي، وكان من خيار الصحابة. قال فيه رسول الله ﷺ: «ذاك رجل لا يتوسد القرآن» [مسند أحمد: ٣/٤٤٩، س (١٧٨٢)] يعني لا ينام ويتركه، بل يقوم به آناء الليل والنهار.

ولهم كلهم أخت واحدة وهي الصعبة بنت الحضرمي أم طلحة بن عبيد الله.

وقد بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، ثم ولاه عليها أميراً حين افتتحها. وأقره عليها الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ولم يزل بها حتى عزله عنها عمر بن الخطاب وولاه البصرة. فلما كان في أثناء الطريق توفي وذلك في سنة إحدى وعشرين.

وقد روى البيهقي عنه وغيره كرامات كثيرة، منها: أنه سار بجيشه على وجه البحر ما يصل إلى ركب خيولهم، وقيل: إنه ما بلّ أسافل نعال خيولهم، وأمرهم كلهم فجعلوا يقولون: يا حليم يا عظيم، وأنه كان في جيشه فاحتاجوا إلى ماء، فدعا الله فأمطرهم قدر كفايتهم، وأنه لما دفن لم ير له أثر بالكلية، وكان قد سأل الله ذلك، وسيأتي هذا في كتاب دلائل النبوة قريباً إن شاء الله عز وجل.

له عن رسول الله ﷺ ثلاثة أحاديث الأول.

قال الإمام أحمد [٩٣٣/٤]: حدثنا سفيان بن عيينة حدثني عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن السائب بن يزيد عن العلاء بن الحضرمي أن رسول الله ﷺ قال: «يمكث المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثاً» وقد أخرجه الجماعة [خ (٣٩٣٣)، م (١٣٥٢)، د (٢٠٢٢)، ت (٩٤٩)، س (١٤٥٣، ١٤٥٤)، ج (١٠٧٣)] من حديثه.

والثاني: قال أحمد [٣٣٩/٤]: حدثنا هشيم، ثنا منصور عن ابن سيرين، عن ابن العلاء بن الحضرمي: أن أباه كتب إلى النبي ﷺ فبدأ بنفسه.

وكذا رواه أبو داود [٥١٤٣] عن أحمد بن حنبل.

والحديث الثالث رواه أحمد [٥٢/٥] وابن ماجه [١٨٣١] من طريق محمد بن زيد عن حبان الأعرج عنه، أنه كتب إلى رسول الله ﷺ من البحرين في الحائط - يعني البستان - يكون بين الإخوة فيُسْلم أحدهم؟ فأمره أن يأخذ العشر ممن أسلم، والخراج - يعني ممن لم يسلم -.

٢٧- ومنهم: العلاء بن عقبة:

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٤٧/٤]: كان كاتباً للنبي ﷺ، ولم أجد أحداً ذكره إلا فيما أخبرنا، ثم ذكر إسناده إلى عتيق بن يعقوب:

حدثني عبد الملك بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده، عن عمرو بن حزم: إن هذه قطائع أقطعها رسول الله ﷺ هؤلاء القوم فذكرها، وذكر فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى النبي محمد عباس بن مرداس السلمي أعطاه مدفوراً فمن حاقّه فيها فلا حق له، وحقُّه حقٌّ»، وكتب العلاء بن عقبة وشهد. ثم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله عوسجة بن حرملة الجهني، من ذي المروة وما بين بلكثة إلى الظبية إلى الجعلات إلى جبل القبلية فمن حاقّه فلا حق له وحقُّه حقٌّ»، وكتبه العلاء بن عقبة.

وروى الواقدي بأسانيده أن رسول الله ﷺ أقطع لبني شَنْخ من جهينة، وكتب كتابهم بذلك العلاء بن عقبة، وشهد.

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة [٧٧/٤] هذا الرجل مختصراً فقال: العلاء بن عقبة كتب للنبي ﷺ، ذكره في حديث عمرو بن حزم، ذكره جعفر أخرجه أبو موسى - يعني المديني - في كتابه.

٢٨- ومنهم: رضي الله عنهم محمد بن مسلمة بن سلمة بن حَريش بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الحارثي الخزرجي أبو عبد الله، ويقال أبو عبد الرحمن، ويقال أبو سعيد المدني حليف بني عبد الأشهل.

أسلم على يدي مصعب بن عمير. وقيل سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وآخى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة عام تبوك.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب [١٣٧٧/٣]: كان شديد السمرة طويلا أصلع ذا جُثّة، وكان من فضلاء الصحابة، وكان ممن اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب. ومات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين على المشهور عند الجمهور، وصلى عليه مروان بن الحكم.

وقد روى حديثاً كثيراً عن النبي ﷺ.

وذكر محمد بن سعد [الطبقات: ٣٥٥/١] عن عليّ بن محمد المدايني بأسانيده أن محمد بن مسلمة هو الذي كتب لوفد مَهْرة كتاباً عن أمر رسول الله ﷺ.

٢٩- ومنهم: رضي الله عنهم معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي وستأتي ترجمته في أيام إمارته إن شاء الله.

وقد ذكره مسلم بن الحجاج في كتّابه عليه الصلاة والسلام.

وقد روى مسلم في صحيحه [(٢٥٠١) (١٦٨)] من حديث عكرمة بن عمار عن أبي زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس أن أبا سفيان قال:

يا رسول الله ثلاث أعطنيهن؟ قال «نعم»؟ قال: تؤمِّرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم»؟ قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم»؟ الحديث.

وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة بسبب ما وقع فيه من ذكر طلبه تزويج أم حبيبة من رسول الله ﷺ، ولكن فيه من المحفوظ تأمير أبي سفيان وتوليته معاوية منصب الكتابة بين يديه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا قدر متفق عليه بين الناس قاطبة.

فأما الحديث الذي قال الحافظ ابن عساكر في تاريخه [٣٤٩/٤] في ترجمة معاوية: هاهنا أخبرنا أبو غالب بن البنا أنبأنا أبو محمد الجوهري أنبأنا أبو عليّ محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الله العطشي حدثنا أحمد بن محمد البوراني ثنا السري بن عاصم ثنا الحسن بن زياد عن القاسم بن بهرام عن أبي الزبير، عن جابر: أن رسول الله ﷺ استشار جبريل في استكتاب معاوية فقال: استكتبه فإنه أمين.

فإنه حديث غريب بل منكر. والسري بن عاصم هذا هو أبو عاصم الهمذاني وكان يؤدب المعتز بالله، كذبه في الحديث ابن خراش.

وقال ابن حبان وابن عدي: كان يسرق الحديث. زاد ابن حبان: ويرفع الموقوفات لا يحل الاحتجاج به.

وقال الدارقطني: كان ضعيف الحديث وشيخه الحسن بن زياد - إن كان اللؤلؤي - فقد تركه غير واحد من الأئمة، وصرح كثير منهم بكذبه، وإن كان غيره فهو مجهول العين والحال.

وأما القاسم بن بهرام فاثنان:

أحدهما يقال له القاسم بن بهرام الأسدي الواسطي الأعرج أصله من أصبهان، روى له النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس حديث الفتون بطوله. وقد وثقه ابن معين وأبو حاتم وأبو داود وابن حبان.

والثاني: القاسم بن بهرام أبو همدان، قاضي هيت. قال ابن معين: كان كذاباً.

وبالجملة فهذا الحديث من هذا الوجه ليس بثابت ولا يغتر به، والعجب من الحافظ ابن عساكر مع جلالة قدره واطلاعه على صناعة الحديث أكثر من غيره من أبناء عصره - بل ومن تقدمه بدهر - كيف يورد في تاريخه هذا وأحاديث كثيرة من هذا النمط ثم لا يبين حالها، ولا يشير إلى شيء من ذلك إشارة لا ظاهرة ولا خفية، ومثل هذا الصنيع فيه نظر والله أعلم.

٣٠- ومنهم رضي الله عنهم: المغيرة بن شعبة الثقفي: وقد تقدمت ترجمته فيمن كان يخدمه عليه الصلاة والسلام من بين أصحابه من غير مواليه، وأنه كان سيافاً على رأس رسول الله ﷺ.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٤٩/٤، ٣٥٠] بسنده عن عتيق بن يعقوب بإسناده المتقدم غير مرة أن المغيرة بن شعبة هو الذي كتب أقطاع حصين بن نضلة الأسدي الذي أقطعه إياه رسول الله ﷺ بأمره.

فهؤلاء كتّابه الذين كانوا يكتبون بأمره بين يديه صلوات الله وسلامه عليه.

٩- أمناءُ النبي ﷺ

وقد ذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٥١/٤] من أمنائه:

١- أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري: أحد العشرة رضي الله عنه.

٢- وعبد الرحمن بن عوف الزهري.

قلت: أما أبو عبيدة فقد روى البخاري [٤٣٨٢] من حديث أبي قلابة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» وفي لفظ [٧٢٥٥] أن رسول الله ﷺ قال لوفد عبد نجران: «لأبعثن فيكم أميناً حق أمين» فبعث معهم أبا عبيدة.

٣- قال: ومنهم معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي مولى بني عبد شمس، كان على خاتمه. ويقال: كان خازنه.

وقال غيره: أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة في الناس، ثم إلى المدينة وشهد بدراً وما بعدها، وكان على الخاتم. واستعمله الشيخان على بيت المال، قالوا: وكان قد أصابه الجذام فأمر عمر بن الخطاب فدووي بالحنظل، فتوقف المرض. وكانت وفاته في خلافة عثمان وقيل: سنة أربعين فالله أعلم.

قال الإمام أحمد [٤٢٦/٣]: حدثنا يحيى بن أبي بكير، ثنا شيبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة؛ حدثني معيقيب أن رسول الله ﷺ قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد قال: «إن كنت لابد فاعلاً فواحدة».

وأخرجاه في الصحيحين من حديث شيبان النحوي [خ (١٢٠٧)، م (٥٤٦) (٤٩)]، زاد مسلم: وهشام، الدستوائي [(٥٤٦) (٤٧، ٤٨)].

زاد الترمذي [٣٨٠] والنسائي [١١٩١] وابن ماجه [١٠٢٦] والأوزاعي ثلاثتهم عن يحيى بن أبي كثير به وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٤٢٦/٣، ٤٢٥/٥]: ثنا خلف بن الوليد، ثنا أيوب عن عتبة عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن معيقيب قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار».

وتفرد به الإمام أحمد.

وقد روى أبو داود [٤٢٢٢] والنسائي [٥٢٢٠] من حديث أبي عتاب سهل بن حماد الدلال عن أبي مَكين نوح بن ربيعة عن إياس بن الحارث بن المعيقيب عن جده - وكان على خاتم النبي ﷺ - قال: كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة، قال: فربما كان في يدي.

قلت: أما خاتم النبي ﷺ فالصحيح أنه كان من فضة، فصُّه منه كما سيأتي في الصحيحين وكان قد اتخذ قبله خاتم ذهب فلبسه حيناً ثم رمى به، وقال: «والله لا ألبسه» ثم اتخذ هذا الخاتم من فضه فصُّه منه، ونقشه محمد رسول الله، محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، فكان في يده عليه الصلاة والسلام ثم كان في يد أبي بكر من بعده ثم في يد عمر ثم كان في يد عثمان فلبث في يده ست سنين ثم سقط منه في بئر أريس فاجتهد في تحصيله فلم يقدر عليه.

وقد صنف أبو داود رحمة الله عليه كتاباً مستقلا في سننه [٤٢١٤ - ٤٢٢٩] في الخاتم وحده، وسنورد منه إن شاء الله قريباً ما نحتاج إليه وبالله المستعان.

وأما لبس معيقيب لهذا الخاتم فيدل على ضعف ما نقل أنه أصابه الجذام، كما ذكره ابن عبد البر [الاستيعاب: ١٤٧٩/٤] وغيره، لكنه مشهور فلعله أصابه ذلك بعد النبي ﷺ، أو كان به وكان مما لا يعدى منه، أو كان ذلك من خصائص النبي ﷺ لقوة توكله، كما قال لذلك المجذوم - ووضع يده في القصعة - «كل ثقة بالله، وتوكلا عليه» رواه أبو داود [٣٩٢٥].

١٠- أمراءُ النبي ﷺ

وقد ثبت في صحيح مسلم [هو في البخاري (٥٧٠٧)] أن رسول الله ﷺ قال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» والله أعلم.

وأما أمراؤه عليه الصلاة والسلام فقد ذكرناهم عند بعث السرايا منصوصاً على أسمائهم ولله الحمد والمنة.

١١- عددُ الصحابة

وأما جملة الصحابة فقد اختلف الناس في عدتهم:

فنقل عن أبي زرعة أنه قال: يبلغون مائة ألف وعشرين ألف.

وعن الشافعي رحمه الله أنه قال: توفي رسول الله ﷺ والمسلمون ممن سمع منه ورآه زهاء عن ستين ألف.

وقال الحاكم أبو عبد الله: يروي الحديث عن قريب من خمسة آلاف صحابي.

قلت: والذي روى عنهم الإمام أحمد مع كثرة روايته واطلاعه واتساع رحلته وإمامته فمن الصحابة تسعمائة وسبعة وثمانون نفساً، ووقع في الكتب الستة من الزيادات على ذلك قريب من ثلاثمائة صحابي أيضاً.

وقد اعتنى جماعة من الحفاظ رحمهم الله بضبط أسمائهم وذكر أيامهم ووفياتهم، من أجلهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري في كتابه الاستيعاب، وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده، وأبو موسى المديني، ثم نظم جميع ذلك الحافظ عز الدين أبو الحسن عليّ بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير، صنف كتابه أسد الغابة في ذلك فأجاد وأفاد، وجمع وحصل، ونال ما رام وأمل، فرحمه الله وأثابه وجمعه والصحابة آمين يا رب العالمين.

٧- كتابُ شمائل النبي ﷺ

١- ذكر الخاتم الذي كان يلبسه ﷺ ومن أي شيء كان من الأجسام

وقد أفرد له أبو داود في كتابه السنن كتاباً على حدة، ولنذكر عيون ما ذكره في ذلك مع ما نضيفه إليه، والمعول في أصل ما نذكره عليه.

قال أبو داود [٤٢١٤]: حدثنا عبد الرحيم بن مطرف الرؤاسي، حدثنا عيسى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى بعض الأعاجم فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا بخاتم، فاتخذ خاتماً من فضة، ونقش فيه: محمد رسول الله.

وهكذا رواه البخاري [٥٨٧٢] عن عبد الأعلى بن حماد عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

ثم قال أبو داود [٤٢١٥]: حدثنا وهب بن بقية، عن خالد، عن سعيد، عن قتادة عن أنس بمعنى حديث عيسى بن يونس زاد: فكان في يده حتى قبض، وفي يد أبي بكر حتى قبض، وفي يد عمر حتى قبض وفي يد عثمان، فبينما هو عند بئر إذ سقط في البئر فأمر بها فنزحت، فلم يقدر عليه.

تفرد به أبو داود من هذا الوجه.

ثم قال أبو داود رحمه الله [٤٢١٦]: حدثنا قتيبة بن سعيد وأحمد بن صالح قالا: أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، قال: حدثني أنس قال: كان خاتم النبي ﷺ من وَرِق فصُّه حبشي.

وقد روى هذا الحديث البخاري [٥٨٦٨] من حديث الليث.

ومسلم [(٢٠٩٤) (٦١، ٦٢)] من حديث ابن وهب، وطلحة بن يحيى الأنصاري، وسليمان بن بلال، زاد النسائي [٥٢٩٢] وابن ماجه [٣٦٤١] وعثمان بن عمر خمستهم عن يونس بن يزيد الأيلي به.

وقال الترمذي [عقب ح (١٧٣٩)]: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

ثم قال أبو داود [٤٢١٧]: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك قال: كان خاتم النبي ﷺ من فضة كله فصُّه منه.

وقد رواه الترمذي [١٧٤٠] والنسائي [٥٢١٥] من حديث زهير بن معاوية الجعفي أبي خيثمة الكوفي به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال البخاري [٥٨٧٤]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: اصطنع رسول الله ﷺ خاتماً، فقال: إنا اتخذنا خاتماً ونقشنا فيه نقشاً فلا ينقش عليه أحد، قال: فإني أرى بريقه في خنصره.

ثم قال أبو داود [٤٢١٨]: حدثنا نصير بن الفرج، حدثنا أبو أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب وجعل فصه مما يلي بطن كفه، ونقش فيه محمد رسول الله، فاتخذ الناس خواتم الذهب فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال: «لا ألبسه أبداً»، ثم اتخذ خاتماً من فضة نقش فيه: محمد رسول الله، ثمّ لبس الخاتم بعده أبو بكر، ثم لبسه بعد أبي بكر عمر، ثم لبسه بعده عثمان حتى وقع في بئر أريس.

وقد رواه البخاري [٥٨٦٦] عن يوسف بن موسى عن أبي أسامة حماد بن أسامة به.

ثم قال أبو داود [٤٢١٩]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أيوب بن موسى، عن نافع، عن ابن عمر في هذا الخبر عن النبي ﷺ فنقش فيه محمد رسول الله، وقال: «لاينقش أحد على خاتمي هذا».

وساق الحديث.

وقد رواه مسلم [٢٠٩١] وأهل السنن الأربعة [ت في الشمائل (٩٧)، س (٥٢٣١)، ج (٣٦٣٩)] من حديث سفيان بن عيينة به نحوه.

ثم قال أبو داود [٤٢٢٠]: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا أبو عاصم، عن المغيرة بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر في هذا الخبر عن النبي ﷺ قال: فالتمسوه فلم يجدوه، فاتخذ عثمان خاتماً ونقش فيه محمد رسول الله، قال: فكان يختم به أو يتختم به.

ورواه النسائي [٥٢٣٢] عن محمد بن معمر عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل به، ثم قال أبو داود [٤٢٢١]:

حدثنا محمد بن سليمان لُوَيْنٌ، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك أنه رأى في يد النبي ﷺ خاتماً من ورق يوماً واحداً، فصنع الناس فلبسوا، وطرح النبي ﷺ فطرح الناس.

ثم قال: رواه عن الزهري زياد بن سعد وشعيب وابن مسافر كلهم قال من ورق.

قلت: وقد رواه البخاري [٥٨٦٨] حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال: حدثني أنس بن مالك أنه رأى في يد النبي ﷺ خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه، فطرح الناس خوّاتيمهم.

ثم علقه البخاري عن إبراهيم ابن سعدّ الزهري المدني وشعيب بن أبي حمزة وزياد بن سَعد الخراساني.

وأخرجه مسلم من حديثه [٢٠٩٣]، وانفرد أبو داود بعبد الرحمن بن خالد بن مسافر كلهم عن الزهري كما قال أبو داود: خاتماً من ورق.

والصحيح أن الذي لبسه يوماً واحداً ثم رمى به، إنما هو خاتم الذهب، لا خاتم الورق، لما ثبت في الصحيحين [خ (٥٨٦٧) ولم يروه مسلم] عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يلبس خاتماً من ذهب، فنبذه وقال: لا ألبسه أبداً، فنبذ الناس خواتيمهم.

وقد كان خاتم الفضة يلبسه كثيراً، ولم يزل في يده حتى توفي صلوات الله وسلامه عليه، و«كان فصه منه» يعني ليس فيه فص ينفصل عنه، ومن روى أنه كان فيه صورة شخص فقد أبعد وأخطأ، بل كان فضة كله وفصُّه منه، ونقشه: محمد رسول الله ثلاثة أسطر: محمد سطر. رسول سطر. الله سطر، وكأنه والله أعلم كان منقوشاً وكتابته مقلوبة ليطبع على الاستقامة كما جرت العادة بهذا، وقد قيل: إن كتابته كانت مستقيمة وتطبع كذلك، وفي صحة هذا نظر، ولست أعرف لذلك إسناداً لا صحيحاً ولا ضعيفاً.

وهذه الأحاديث التي أوردناها أنه عليه الصلاة والسلام كان له خاتم من فضة، ترد الأحاديث التي قدمناها في سنني أبي داود [٤٢٢٤] والنسائي [٥٢٢٠] من طريق أبي عتاب سهل بن حماد الدلال عن أبي مَكين نوح

بن ربيعة عن إياس بن الحارث بن معيقيب بن أبي فاطمة عن جده قال: كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة، ومما يزيده ضعفاً الحديث الذي رواه أحمد [٥/٣٥٩] وأبو داود [٤٢٢٣] والترمذي [١٧٨٥] والنسائي [٥٢١٠] من حديث أبي طيبة عبد الله بن مسلم السلمي المروزي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ وعليه خاتم من شَبَهٍ فقال: «مالي أجد منك ريح الأصنام؟» فطرحه، ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: «مالي أرى عليك حلية أهل النار؟» فطرحه، ثم قال: يا رسول الله من أي شيء اتخذه؟ قال: «اتخذه من ورق، ولا تتمه مثقالاً».

وقد كان عليه الصلاة والسلام يلبسه في يده اليمنى كما رواه أبو داود [٤٢٢٦] والترمذي في الشمائل [٩٢]، والنسائي من حديث شريك [٥٢١٨] القاضي، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حنين، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

قال شريك: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه، وروي في اليسرى.

رواه أبو داود [٤٤٢٣] من حديث عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يساره، وكان فصُّه في باطن كفه.

قال أبو داود: رواه أبو إسحاق وأسامة بن زيد عن نافع في يمينه.

وحدثنا [٤٢٢٨] هناد، عن عبدة، عن عبيد الله،عن نافع: أن ابن عمر كان يلبس خاتمه في يده اليسرى.

ثم قال أبو داود [٤٢٢٩]: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال: رأيت على الصلت بن عبد الله بن نوفل بن عبد المطلب خاتماً في خنصره اليمنى، فقلت: ما هذا؟ فقال: رأيت ابن عباس يلبس خاتمه هكذا وجعل فصه على ظهرها، فقال: ولا يخال ابن عباس إلا قد كان يذكر أن رسول الله ﷺ كان يلبس خاتمه كذلك.

وهكذا رواه الترمذي [١٧٤٢] من حديث محمد بن إسحاق به، ثم قال: قال محمد بن إسماعيل يعني البخاري: حديث ابن إسحاق عن الصلت حديث حسن.

وقد روى الترمذي في الشمائل [٩٣، ٩٤] عن أنس وعن جابر وعن عبد الله بن جعفر أن رسول الله ﷺ كان يتختم في اليمين.

وقال البخاري [٥٨٧٨]: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا أبي، عن ثمامة، عن أنس بن مالك أن أبا بكر لما استخلف كتب له وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر. ورسول سطر. والله سطر.

قال أبو عبد الله: وزادني أحمد: حدثنا الأنصاري حدثني أبي ثنا، ثمامة، عن أنس قال: كان خاتم النبي ﷺ في يده، وفي يد أبي بكر بعده، وفي يد عمر بعد أبي بكر، قال: فلما كان عثمان جلس على بئر اريس، فأخرج الخاتم فجعل الخاتم يعبث به فسقط، قال: فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان فنزح البئر فلم نجده.

فأما الحديث الذي رواه الترمذي في الشمائل [٨٥]، حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ، اتخذ خاتماً من فضة فكان يختم به ولا يلبسه.

فإنه حديث غريب جداً. وفي السنن [د (١٩)، ت (١٧٤٦)، س (٥٢٢٨)، ج (٣٠٣)] من حديث ابن جريج عن الزهري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء نزع خاتمه.

٢- ذكر سيفه ﷺ

قال الإمام أحمد [١/٢٧١]: حدثنا سُريج، حدثنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس قال: تنفَّل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، قال: «رأيت في سيفي ذا الفقار فلاً فأولته فلاً يكون فيكم، ورأيت أني مردف كبشاً، فأولته كبشَ الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة، ورأيت بقراً تذبح، فبقرٌ والله خير فبقر والله خير»، فكان الذي قال رسول الله ﷺ.

وقد رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه به.

وقد ذكر أهل السنن [ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة: ١/٣٦٤ وعزاه لابن عدي] أنه سمع قائل يقول: «لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي».

وروى الترمذي [١٦٩٠] من حديث هود بن عبد الله بن سعد، عن جده مزيدة بن جابر العبدي العصري رضي الله عنه، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة وعلى سيفه ذهب وفضة، الحديث، ثم قال: هذا حديث غريب.

وقال الترمذي في الشمائل [١٠٢]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن قال: كانت قبيعة سيف رسول الله ﷺ من فضة.

وروى أيضاً [الشمائل (١٠٤)] من حديث عثمان بن سعد عن ابن سيرين قال: صنعت سيفي على سيف سمرة، وزعم سمرة أنه صنع سيفه على سيف رسول الله ﷺ وكان حنفياً وقد صار إلى آل علي سيف من سيوف رسول الله ﷺ فلما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء عند الطف كان معه فأخذه علي بن الحسين زين العابدين فقدم معه دمشق حين دخل على يزيد بن معاوية، ثم رجع معه إلى المدينة.

فثبت في الصحيحين [خ (٣١١٠)، م (٢٤٤٩) (٩٥)] عن المسور بن مخرمة أنه تلقاه إلى الطريق، فقال له: هل لك إليّ من حاجة تأمرني بها؟ قال: فقال: لا، فقال: هل أنت معطي سيف رسول الله ﷺ فإني أخشى أن يغلبك عليه القوم، وأيم الله إن أعطيتنيه لا يخلص إليه أحد حتى يبلغ نفسي.

وقد ذكر للنبي ﷺ غير ذلك من السلاح، من ذلك الدروع كما رَوى غير واحد منهم السائب بن يزيد، وعبد الله بن الزبير، أن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أحد بين درعين.

وفي الصحيحين [خ (١٨٤٦)، م (١٣٥٧) (٤٥٠)] من حديث مالك عن الزهري عن أنس، أن رسول الله ﷺ دخل يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه قيل له: هذا ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه».

وعند مسلم [(١٣٥٨) (٤٥١)] من حديث أبي الزبير، عن جابر أن رسول الله ﷺ دخل يوم الفتح وعليه عمامة سوداء.

وقال وكيع عن مساور الوراق عن جعفر بن عمرو بن حريث، عن أبيه، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وعليه عمامة دسماء، ذكرهما الترمذي في الشمائل [١١١، ١١٣].

وله من حديث الدراوردي، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر

قال: كان رسول الله ﷺ إذا اعتم سدلها بين كتفيه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار (٨٤٠)]: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن محمد، حدّثنا مخول بن إبراهيم، حدّثنا إسرائيل، عن عاصم، عن محمد بن سيرين، عن أنس بن مالك أنه كانت عنده عُصَيَّة لرسول الله ﷺ فمات فدفنت معه بين جنبه وبين قميصه. ثم قال البزار: لا نعلم رواه إلا مَخْوَل بن راشد، وهو صدوق فيه شيعية. واحتمل على ذلك.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٧٩/٧] بعد روايته هذا الحديث من طريق مخوّل هذا قال: وهو من الشيعة يأتي بأفراد عن إسرائيل لايأتي بها غيره، والضعف على رواياته بيّن ظاهر.

٣- ذكر نعله التي كان يمشي فيها ﷺ

ثبت في الصحيح [خ (١٦٦) و(٥٨٥١)] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يلبس النعال السبتية، وهي التي لاشعر عليها.

وقد قال البخاري في صحيحه [٥٨٥٨]: حدثنا محمد هو ابن مقاتل، حدثنا عبد الله يعني ابن المبارك، أخبرنا عيسى بن طهمان، قال: خرج إلينا أنس بن مالك بنعلين لهما قبالان، فقال ثابت البناني: هذه نعل النبي ﷺ.

وقد رواه في كتاب الخمس عن عبد الله بن محمد عن أبي أحمد الزبيري عن عيسى بن طهمان عن أنس، قال: أخرج إلينا أنس نعلين جرداوين لهما قبالان. فحدثني ثابت البناني بعد عن أنس أنهما نعلا النبي ﷺ.

وقد رواه الترمذي في الشمائل [٧٥] عن أحمد بن منيع عن أبي أحمد الزبيري به.

وقال الترمذي في الشمائل [٧٤]: حدثنا أبو كريب، حدّثنا وكيع، عن سفيان، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان مثنيٌّ شراكهما.

وقال أيضاً [٧٧]: حدّثنا إسحاق بن منصور، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان.

وقال الترمذي [الشمائل (٨٣)]: حدّثنا محمد بن مرزوق أبو عبد الله: حدّثنا عبد الرحمن بن قيس أبو معاوية، حدّثنا هشام، عن محمد، عن أبي هريرة قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان وأبي بكر وعمر وأول من عقد عقداً واحداً عثمان.

حدثنا أحمد بن منيع، ثنا أبو أحمد، ثنا سفيان، عن السُّدي، حدثني من سمع عمرو بن حريث يقول: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعلين مخصوفين [الشمائل (٧٨)].

قال الجوهري: قبال النعل بالكسر: الزمام الذي يكون بين الأصبع الوسطى والتي تليها.

قلت: واشتهر في حدود سنة ستمائه وما بعدها عند رجل من التجار يقال له: ابن أبي الحدرد، نعل مفردة ذكر أنها نعل النبي ﷺ فسامها الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب منه بمال جزيل فأبى أن يبيعها، فاتفق موته بعد حين، فصارت إلى الملك الأشرف المذكور، فأخذها إليه وعظمها، ثم لما بنى دار الحديث الأشرفية إلى جانب القلعة، جعلها في خزانة منها، وجعل لها خادماً، وقرّر له من المعلوم كل شهر أربعون درهماً، وهي موجودة إلى الآن في الدار المذكورة.

وقال الترمذي في الشمائل [٢٠٩]: حدّثنا محمد بن رافع وغير واحد قالوا: حدّثنا أبو أحمد الزبيري، حدّثنا شيبان، عن عبد الله بن المختار، عن موسى بن أنس، عن أبيه قال: كانت لرسول الله ﷺ سُكَّة يتطيب منها.

٤- صفة قدح النبي ﷺ

قال الإمام أحمد [١٣٩/٢]: حدثنا يحيى بن آدم، حدّثنا شريك، عن عاصم قال: رأيت عند أنس قدح النبي ﷺ فيه ضَبَّة من فضة.

وقال الحافظ البيهقي [السنن الكبرى: ٣٠/١]: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله، أخبرني أحمد بن محمد النسوي، حدّثنا حماد بن شاكر، حدّثنا محمد بن إسماعيل هو البخاري، حدّثنا الحسن بن مدرك، حدثني يحيى بن حماد أخبرنا أبو عوانة، عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك وكان قد انصدع فسلسله بفضة.

قال: وهو قدح جيد عريض من نُضَار.

قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقه من حديد، فأراد أنس أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة فقال له أبو طلحة: لاتغيرن شيئاً صنعه رسول الله ﷺ، فتركه.

وقال الإمام أحمد [١٨٧/٣]: حدثنا روح بن عبادة، حدّثنا حجاج بن حسان قال: كنا عند أنس فدعا بإناء فيه ثلاث ضبات حديد وحلقة من حديد، فأخرج من غلاف أسود وهو دون الربع وفوق نصف الربع، وأمر أنس بن مالك فجعل لنا فيه ماء فأتينا به فشربنا وصببنا على رؤوسنا ووجوهنا وصلينا على النبي ﷺ.

انفرد به أحمد.

٥- اكتحال النبي ﷺ

قال الإمام أحمد [٣٥٤/١]: حدثنا يزيد، أخبرنا عبّاد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كانت لرسول الله ﷺ مكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاثاً في كل عين.

وقد رواه الترمذي [٢٠٤٨] وابن ماجه [٣٤٩٩] من حديث يزيد بن هارون.

قال علي بن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول: قلت لعباد بن منصور: سمعت هذا الحديث من عكرمة، فقال: أخبرنيه ابن أبي يحيى عن داود بن الحصين عنه.

قلت: وقد بلغني أن بالديار المصرية مزاراً فيه أشياء كثيرة من آثار النبي ﷺ اعتنى بجمعها بعض الوزراء المتأخرين، فمن ذلك مكحلة وميلٌ ومشط وغير ذلك فالله أعلم.

٦- البردة

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٨٧/٧]: وأما البرد الذي عند الخلفاء فقد روينا عن محمد بن إسحاق بن يسار في قصة تبوك أن رسول الله ﷺ

أعطى أهل أيلة برده مع كتابه الذي كتب لهم أماناً لهم، فاشتراه أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار - يعني بذلك أول خلفاء بني العباس وهو السفاح رحمه الله - وقد توارث بنو العباس هذه البردة خلفاً عن سلف كان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه، ويأخذ القضيب المنسوب إليه صلوات الله وسلامه عليه في إحدى يديه، فيخرج وعليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب، ويبهر به الأبصار، ويلبسون السواد في أيام الجمع والأعياد، وذلك اقتداء منهم بسيد أهل البدو والحضر، ممن سكن الوبر والمدر، لما أخرجه البخاري [١٨٤٦] ومسلم [(١٣٥٧) (٤٥) مطولاً] إماما أهل الأثر، من حديث عن مالك، عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر.

وفي رواية: [م (١٣٥٨) (٤٥٣)] وعليه عمامة سوداء.

وفي رواية [م (١٣٥٨) (٤٥١)] قد أرخى طرفها بين كتفيه، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قال البخاري [٥٨١٨]: حدّثنا مسدد، حدّثنا إسماعيل، حدّثنا أيوب، عن محمد عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة كساء وإزاراً غليظاً فقالت: قبض روح النبي ﷺ في هذين.

وللبخاري [٥٨١٥، ٥٨١٦] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذّر ما صنعوا.

قلت: وهذه الأثواب الثلاثة لا يدرى ما كان من أمرها بعد هذا، وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام طرحت تحته في قبره الكريم قطيفة حمراء كان يصلي عليها، ولو تقصينا ما كان يلبسه في أيام حياته لطال الفصل وموضعه كتاب اللباس من كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

٧- ذكر أفراسه ومراكيبه ﷺ

قال ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليَزَنيُّ، عن عبد الله بن زُرير، عن علي قال: كان للنبي ﷺ فرس يقال له المرتجز، وحمار يقال له عفير، وبغلة يقال لها دُلْدُل، وسيفه ذو الفقار، ودرعه ذو الفضول.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٢٧٨/٧] من حديث الحكم عن يحيى بن الجزار عن علي نحوه.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٧٨/٧]: وروينا في كتاب السنن أسماء أفراسه التي كانت عند الساعديين، لِزَازاً واللحيف وقيل: اللُّخيف والظَّرب، والذي ركبه لأبي طلحة يقال له المندوب وناقته القصواء والعضباء والجدعاء، وبغلته الشهباء، والبيضاء.

قال البيهقي: وليس في شيء من الروايات أنه مات عنهن إلا ما روينا في بغلته البيضاء، وسلاحه وأرض جعلها صدقة، ومن ثيابه، ونعليه، وخاتمه ما روينا في هذا الباب.

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا زمعة بن صالح عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: توفي رسول الله ﷺ وله جبة صوف في الحياكة.

وهذا إسناد جيد.

وقد روى الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا مجاهد بن موسى، حدّثنا علي بن ثابت، حدّثنا غالب الجزري عن أنس قال: لقد قبض رسول الله ﷺ وإنه لينسج له كساء من صوف.

وهذا شاهد لما قبله.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا سعدان بن نصر، حدّثنا سفيان بن عيينة، عن الوليد بن كثير، عن حسين بن حسين، عن فاطمة بنت الحسين أن رسول الله ﷺ قبض وله بردان في الجُفِّ يعملان.

وهذا مرسل.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدّثنا أبو أمية عمرو بن هشام الحراني، حدّثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن علي بن عروة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء وعمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ سيف قائمته من فضة وقبيعته من فضة، وكان يسمّى ذا الفقار، وكان له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجُمَع وكانت له درع موشحة بالنحاس تسمى ذات الفضول، وكانت له حربة تسمى النَّبعاء، وكان له مجن يسمى الذقن، وكان له ترس أبيض يسمى الموجز، وكان له فرس أدهم يسمى السَّكْب وكان له سرج يسمى الداج، وكان له بغلة شهباء يقال لها دلدل، وكانت له ناقة تسمى القصواء، وكان له حمار يقال له: يعفور، وكان له بساط يسمى الكر، وكان له عَنَزَة تسمى النمر، وكانت له ركوة تسمى الصادر، وكانت له مرآة تسمى المرآة، وكان له مقراض يسمى الجامع، وكان له قضيب شَوْحَطٍ يسمى المشوق.

وهذا غريب جداً.

قلت: قد تقدم عن غير واحد من الصحابة أن رسول الله ﷺ لم يترك ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمة سوى بغلة وأرض جعلها صدقة، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام نجز العتق في جميع ما ذكرناه من العبيد، والإماء، والصدقة في جميع ما ذكر من السلاح، والحيوانات، والأثاث، والمتاع مما أوردناه ومالم نورده.

فأما بغلته فهي الشهباء، وهي البيضاء أيضاً والله أعلم، وهي التي أهداها له المقوقس، صاحب الإسكندرية واسمه جريج بن ميناء فيما أهدى من التحف، وهي التي كان رسول الله ﷺ راكبها يوم حنين وهو في نحور العدو ينوه باسمه الكريم شجاعة وتوكلاً على الله عز وجل، فقد قيل: إنها عمرت بعده حتى كانت عند علي بن أبي طالب في أيام خلافته وتأخرت أيامها حتى كانت بعد علي عند عبد الله بن جعفر فكان يَجُشُّ لها الشعير حتى تأكله من ضعفها بعد ذلك.

وأما حماره يعفور، ويصغر فيقال له عفير، فقد كان عليه الصلاة والسلام يركبه في بعض الأحايين.

وقد روى أحمد [١١١/١] من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليَزَني، عن عبد الله بن زرير، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يركب حماراً يقال له عفير.

ورواه أبو يعلى [مسنده (٥٠٢٦)] من حديث عون بن عبد الله عن ابن مسعود.

وقد ورد في أحاديث عدة أنه عليه الصلاة والسلام ركب الحمار.

وفي الصحيحين [خ (٢٦٩١)، م (١٧٩٨) (١١٦) بنحوه] أنه عليه الصلاة والسلام مر وهو راكب حماراً بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وأخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، فنزل ودعاهم إلى الله عزوجل، وذلك قبل وقعة بدر، وكان قد عزم على عيادة

سعد بن عبادة، فقال له عبد الله: لا أحسن مما تقول أيها المرء فإن كان حقاً فلا تغشنا به في مجالسنا، وذلك قبل أن يظهر الإسلام، ويقال: إنه خمر أنفه لما غشيتهم عجاجة الدابة وقال: لاتؤذنا بنتن حمارك، فقال له عبد الله بن رواحة: والله لريح حمار رسول الله ﷺ أطيب من ريحك. وقال عبد الله: بل يا رسول الله اغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فتشاور الحيان وهمُّوا أن يقتتلوا فسكنهم رسول الله ﷺ ثم ذهب إلى سعد بن عبادة فشكى إليه عبد الله بن أبي. فقال: ارفق به يا رسول الله، فوالذي أكرمك بالحق لقد بعثك الله بالحق، وإنّا لننظم له الخرَزَ لنتوّجُه علينا، فلما جاء الله بالحق الذي بعثك به شرق بريقه.

وقد قدمنا أنه ركب الحمار في بعض أيام خيبر، وجاء أنه اردف معاذاً على حمار، ولو أوردناها بألفاظها وأسانيدها لطال الفصل والله أعلم.

فأما ما ذكره القاضي عياض بن موسى السبتي في كتابه الشفا [٤٤٣/١]، وذكره قبل إمام الحرمين في كتابه الكبير في أصول الدين وغيرهما أنه كان لرسول الله ﷺ حمار يسمى زياد بن شهاب وأن رسول الله ﷺ كان يبعثه ليطلب له بعض أصحابه فيجيء إلى باب أحدهم فيُقَعْقِعَه فيعلم أن رسول الله ﷺ يطلبه، وأنه ذكر للنبي ﷺ أنه سلالة سبعين حماراً كل منها ركبه نبي، وأنه لما توفي رسول الله ﷺ ذهب فتردى في بئر فمات.

فهو حديث لا يعرف له إسناد بالكلية، وقد أنكره غير واحد من الحفاظ منهم عبد الرحمن بن أبي حاتم وأبوه رحمهما الله، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي رحمه الله ينكره غير مرة إنكاراً شديداً.

وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة [٢٨٨]: حدّثنا أبو بكر احمد بن محمد بن موسى العنبري، حدّثنا احمد بن محمد بن يوسف، حدّثنا إبراهيم بن سويد الجذوعي، حدثني عبد الله بن أذينة الطائي، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل قال: أتى النبي ﷺ وهو بخيبر حمار أسود فوقف بين يديه، فقال: «من أنت؟» قال: أنا عمرو بن فلان كنا سبعة إخوة كلنا ركبَنا الأنبياءُ وأنا أصغرهم، وكنت لك فملكني رجل من اليهود، فكنت إذا ذكرتك كبوت به فيوجعني ضرباً. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت يعفور».

هذا حديث غريب جداً.

فصل:

وهذا أوان إيراد ما بقي علينا من متعلقات السيرة الشريفة، وذلك أربعة كتب:

الأول: في الشمائل.

الثاني: في الدلائل.

الثالث: في الفضائل.

الرابع: في الخصائص.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولاحول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

٨- شمائل رسول الله ﷺ وبيان خَلْقه الظاهر وخُلُقه الطاهر

قد صنف الناس في هذا قديماً وحديثاً، كتباً كثيرةً مفردةً وغير مفردة، ومن أحسن من جمع في ذلك فأجاد وأفاد الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله، أفرد في هذا المعنى كتابه المشهور بالشمائل، ولنا به سماع متصل إليه، ونحن نورد عيون ما أورده فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة لايستغني عنها المحدث والفقيه، ولنذكر أولاً بيان حسنه الباهر عليه الصلاة والسلام وجماله الجميل، ثم نشرع بعد ذلك في إيراد الجمل والتفاصيل، فنقول والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٩- حسنه الباهر بعدما تقدم من حَسَبه الطاهر

قال البخاري [٣٥٤٩]: حدّثنا احمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق: قال: سمعت البراء بن عازب يقول: كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنه خَلْقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٣٧) (٩٣)] عن أبي كريب عن إسحاق بن منصور به.

وقال البخاري [٣٥٥١]: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب. قال: كان النبي ﷺ مربوعاً بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة اذنيه، رأيته في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن منه. قال يوسف بن أبي إسحاق عن أبيه: إلى منكبيه.

وقال الإمام أحمد [٢٩٠/٤، ٣٠٠]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: ما رأيت من ذي لمةٍ أحسن في حلةٍ حمراء من رسول الله ﷺ، له شعر يضرب منكبيه بعيد مابين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وقد رواه مسلم [(٢٣٣٧) (٩١)] وأبو داود [٤١٨٣] والترمذي [١٧٢٤، ٣٦٣٥] والنسائي [٥٢٤٨] من حديث وكيع به.

وقال الإمام أحمد [٢٩٥/٤]: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، (ح) وحدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: ما رأيت أحداً من خَلْق الله أحسن في حلةٍ حمراء من رسول الله ﷺ وإن جُمّته لتضرب إلى منكبيه، قال ابن أبي بكير؛ لتضرب قريباً من منكبيه. قال - يعني أبا إسحاق - وقد سمعته يحدث به مراراً ما حدث به قط إلا ضحك.

وقد رواه البخاري [٥٩١٠] في اللباس [٥٩١٠]، والترمذي في الشمائل [٦٢] والنسائي في الزينة [٥٠٧٥] من حديث إسرائيل به.

وقال البخاري [٣٥٥٢]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زهير، عن أبي إسحاق قال: سئل البراء بن عازب: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لابل مثل القمر.

ورواه الترمذي [٣٦٣٦] من حديث زهير بن معاوية الجعفي الكوفي عن أبي إسحاق السبيعي واسمه عمرو بن عبد الله الكوفي عن البراء بن عازب به وقال: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الدلائل [١٩٥/١]: أخبرنا أبو

الحسين بن الفضل القطان ببغداد، أخبرنا عبد الله بن جعفر بن درستويه، أخبرنا أبو يوسف يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو نعيم وعبيد الله، عن إسرائيل، عن سماك أنه سمع جابر بن سمرة قال له رجل: أكان رسول الله ﷺ وجهه مثل السيف؟ قال جابر: لا؛ بل مثل الشمس والقمر مستديراً.

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٤٤) (١٠٩)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبيد الله بن موسى به.

وقد رواه الإمام أحمد [١٠٤/٥] مطولاً فقال: حدثنا عبد الرزاق؛ أخبرنا إسرائيل؛ عن سماك أنه سمع جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ قد شمط مقدَّم رأسه ولحيته؛ فإذا ادهن ومشطهن لم يتبين؛ وإذا شَعِث رأسه تبين؛ وكان كثير الشعر واللحية؛ فقال رجل: وجهه مثل السيف؟ قال: لا؛ بل مثل الشمس والقمر مستديراً؛ قال: ورأيت خاتمه عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٩٦/١]: أخبرنا أبو طاهر الفقيه؛ أخبرنا أبو حامد بن بلال؛ حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي؛ حدثنا المحاربي؛ عن أشعث؛ عن أبي إسحاق؛ عن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضْحِيان وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان في عيني أحسن من القمر.

وهكذا رواه الترمذي [٢٨١١] والنسائي [كبرى (٩٦٤٠)] جميعاً عن هناد بن السري عن عبثر بن القاسم عن أشعث بن سوار؛ قال النسائي: وهو ضعيف؛ وقد أخطأ، والصواب أبو إسحاق عن البراء، وقال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث أشعث بن سوار؛ وسألت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - قلت: حديث أبي إسحاق عن البراء أصح أم حديثه عن جابر؟ فرأى كلا الحديثين صحيحاً.

وثبت في صحيح البخاري [٤٤١٨] عن كعب بن مالك في حديث التوبة قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر؛ وقد تقدم الحديث بتمّامه.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا سعيد، حدثنا يونس بن أبي يعفور العبدي؛ عن أبي إسحاق الهمداني؛ عن امرأة من همدان سماها. قالت: حججت مع رسول الله ﷺ فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن عليه بردان أحمران يكاد يمس منكبَه؛ إذا مر بالحجر استلمه بالمحجن ثم يرفعه إليه فيقبله؛ قال أبو إسحاق: فقلت لها: شبِّهيه. قالت: كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا إبراهيم بن المنذر؛ حدّثنا عبد الله بن موسى التيمي؛ حدثنا أسامة بن زيد؛ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للرُّبيِّع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ؛ قالت: يابني لو رأيته رأيت الشمس طالعة.

ورواه البيهقي [الدلائل: ١٩٩/١] من حديث يعقوب بن محمد الزهري عن عبد الله بن موسى التيمي بسنده فقالت: لو رأيته لقلت الشمس طالعة.

وثبت في الصحيحين [خ (٦٧٧١)، م (١٤٥٩) (٣٨)] من حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه. الحديث.

وقال أبو زرعة الرازي في دلائل النبوة (باب من كان يتبرك بوجه النبي ﷺ ونسبه المبارك): حدثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج، حدثنا عبد الوارث حدثنا عتبة بن عبد الملك السهمي، حدثني كريم بن الحارث بن عمرو السهمي أن الحارث بن عمرو حدثه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بمنى أو بعرفات وقد أطاف به الناس. قال: وتجيء الأعراب فإذا رأوا وجهه قالوا: هذا وجه مبارك.

١٠- صفة لون رسول الله ﷺ

قال البخاري [٣٥٤٧]: حدثنا يحيى بن بكير؛ حدثنا الليث؛ عن خالد هو ابن يزيد، عن سعيد - يعني ابن أبي هلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، قال: سمعت أنس بن مالك يصف النبي ﷺ قال: كان ربعةً من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا بآدم؛ ليس بجعد قططٍ ولا سبط رَجِلٍ؛ أنزل عليه وهو ابن أربعين، فلبث بمكة عشر سنين يُنْزَل عليه وبالمدينة عشرا وتوفي وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، قال ربيعة: فرأيت شعراً من شعره فإذا هو أحمر؛ فسألت فقيل: احمرٌ من الطيب.

ثم قال البخاري [٣٥٤٨]: حدثنا عبد الله بن يوسف؛ أخبرنا مالك بن أنس؛ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير؛ وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم؛ وليس بالجعد القطط؛ ولا بالسبط؛ بعثه الله على رأس أربعين سنة؛ فأقام بمكة عشر سنين؛ وبالمدينة عشر سنين، فتوفَّاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وكذا رواه مسلم [(٢٣٤٧) (١١٣)] عن يحيى بن يحيى عن مالك.

ورواه أيضاً عن قتيبة ويحيى بن أيوب وعليّ بن حجر؛ ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر؛ وعن القاسم بن زكريا؛ عن خالد بن مخلد؛ عن سليمان بن بلال ثلاثتهم عن ربيعة به [(٢٣٤٧) (١١٣) (٠٠٠)].

ورواه الترمذي [٣٦٢٣] والنسائي [كبرى (٩٣١٠)] جميعاً عن قتيبة عن مالك به؛ وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٢٠٣/١]: ورواه ثابت عن أنس فقال: كان أزهر اللون؛ قال: ورواه حميد كما أخبرنا؛ ثم ساق بإسناده عن يعقوب بن سفيان؛ حدثني عمرو بن عون وسعيد بن منصور قالا: حدثنا خالد بن عبد الله؛ عن حميد الطويل؛ عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أسمر اللون.

وهكذا روى هذا الحديث الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٢٣٨٨)] عن الحسن بن عليّ عن خالد بن عبد الله عن حميد عن أنس؛ قال: وحدثناه محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الوهاب؛ قال: حدثنا حميد عن أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل ولا بالقصير؛ وكان إذا مشى تكفأ وكان أسمر اللون؛ ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن حميد إلا خالد وعبد الوهاب؛ ثم قال البيهقي رحمه الله: [الدلائل: ٢٠٤/١]

وأخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا أبو جعفر الرزاز: حدثنا يحيى بن جعفر؛ حدثنا علي بن عاصم، حدثنا حميد سمعت أنس بن مالك يقول؛ فذكر الحديث في صفة النبي ﷺ؛ قال: كان أبيض بياضه إلى السمرة.

قلت: وهذا السياق أصحُ من الذي قبله؛ وهو يقتضي أن السمرة التي كانت تعلو وجهه عليه الصلاة والسلام من كثرة أسفاره وبروزه للشمس، والله أعلم، فقد قال يعقوب بن سفيان الفسوي أيضاً:

حدثني عمرو بن عون وسعيد بن منصور قالا: حدثنا خالد بن عبد

الله عن الجريري؛ عن أبي الطفيل قال: رأيت النبي ﷺ ولم يبق أحد رآه غيري؛ فقلنا له: صف لنا رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض مليح الوجه.

ورواه مسلم [(٢٣٤٠) (٩٨)] عن سعيد بن منصور به.

ورواه أيضاً أبو داود [٤٨٦٤] من حديث سعيد بن إياس الجريري. عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الليثي. قال: كان رسول الله ﷺ أبيض مليحاً، إذا مشى كأنما ينحط في صبوب، لفظ أبي داود.

وقال الإمام أحمد [٥/٤٥٤]: حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الجريري، قال: «كنت أطوف مع أبي الطفيل فقال: ما بقي أحد رأى رسول الله ﷺ غيري. قلت: ورأيته؟ قال: نعم، قال: قلت: كيف كانت صفته؟ قال: كان أبيض مليحاً مقصَّداً».

وقد رواه الترمذي [الشمائل (١٣)] عن بندار وسفيان بن وكيع كلاهما عن يزيد بن هارون به.

وقال البيهقي [الدلائل: ١/٢٠٥]: أنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا عبد الله بن جعفر أو أبو الفضل محمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا واصل بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي جحيفة قال: رأيت رسول الله ﷺ أبيض قد شاب، وكان الحسن بن عليّ يشبهه، ثم قال: رواه مسلم عن واصل بن عبد الأعلى، ورواه البخاري عن عمرو بن علي عن محمد بن فضيل، وأصل الحديث كما ذكر في الصحيحين، ولكن بلفظ آخر كما سيأتي.

وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم، عن أبيه أن سراقة بن مالك قال: أتيت رسول الله ﷺ فلما دنوت منه وهو على ناقته، جعلت أنظر إلى ساقه كأنها جُمَّارة، وفي رواية يونس عن ابن إسحاق: والله لكأني أنظر إلى ساقه في غرزة كأنها جمارة. [الدلائل: ١/٢٠٧، من طريق ابن إسحاق به]

قلت: يعني من شدة بياضها كأنها جمارة طلع النخل.

وقال الإمام أحمد [٣/٤٢٦، ٤/٦٩، ٥/٣٨٠]: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أمية، عن مولى لهم - مزاحم بن أبي مزاحم - عن عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، عن رجل من خزاعة يقال له: محرش أو مخرش، لم يكن سفيان يقف على اسمه، وربما قال: محرش ولم أسمعه أنا، أن النبي ﷺ خرج من الجعرانة ليلاً فاعتمر ثم رجع فأصبح بها كبائت فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة.

تفرد به أحمد [وأخرجه س (٢٨٦٤) من طريق سفيان].

وهكذا رواه يعقوب بن سفيان عن الحميدي عن سفيان بن عيينة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء، حدثني عمرو بن الحارث، حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، أخبرني محمد بن مسلم، عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصف رسول الله ﷺ فقال: كان شديد البياض.

وهذا إسناد جيد، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٥٠]: حدثنا حسن، حدثنا عبد الله بن لهيعة، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير مولى أبي هريرة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في جبهته، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، إنّا لَنُجْهِد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

ورواه الترمذي [٣٦٤٨] عن قتيبة عن ابن لهيعة به وقال: كأن الشمس تجري في وجهه ﷺ، وقال: غريب.

ورواه البيهقي [الدلائل: ١/٢٠٨، ٢٠٩] من حديث عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد المصري، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة، وقال: كأنّ الشمس تجري في وجهه.

وكذلك رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣/٢٦٧] من حديث حرملة عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة فذكره وقال: كأنما الشمس تجري في وجهه.

وقال البيهقي [الدلائل: ١/٢٠٦]: أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا حجاج، حدثنا حماد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن محمد بن علي - يعني ابن الحنفية - عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٧١)]: حدثنا المسعودي، عن عثمان بن عبد الله بن هرمز، عن نافع بن جبير، عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ مشرباً وجهه حمرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا ابن الأصبهاني، حدثنا شريك، عن عبد الملك بن عمير، عن نافع بن جبير، قال: وصف لنا عليٌّ النبي ﷺ فقال: كان أبيض مشرب الحمرة.

وقد رواه الترمذي [٣٦٣٧] بنحوه من حديث المسعودي عن عثمان بن مسلم عن هرمز، وقال: هذا حديث صحيح.

قال البيهقي [الدلائل: ١/٢٠٦]: وقد روي هكذا عن علي من وجه آخر.

قلت: رواه ابن جريج عن صالح بن سُعَيد عن نافع بن جبير، عن عليّ، قال البيهقي: ويقال: إن المشرب منه حمرة ما ضحا للشمس والرياح، وما تحت الثياب فهو الأبيض الأزهر.

١١- صفة وجه رسول الله ﷺ

وذكر محاسنه من فَرْقه وجبينه وحاجبيه وعينيه وأنفه وفمه وثناياه وما جرى مجرى ذلك من محاسن طلعته ومحياه

قد تقدم قول أبي الطفيل: كان أبيض مليح الوجه، وقول أنس: كان أزهر اللون، وقول البراء وقد قيل له: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ - يعني في صقاله - فقال: لا بل مثل القمر، وقول جابر بن سمرة وقد قيل له مثل ذلك، فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر مستديراً، وقول الربيع بنت معوذ: لو رأيته لقلت الشمس طالعة. وفي رواية: لرأيت الشمس طالعة.

وقال أبو إسحاق السبيعي عن امرأة من همدان حجت مع رسول الله ﷺ فسألها عنه فقالت: كان كالقمر ليلة البدر لم أرَ قبله ولا بعده مثله.

وقال أبو هريرة: كان الشمس تجري في وجهه، وفي رواية: في جبهته.

وقال الإمام أحمد [١/١٠١]: حدثنا عفان وحسن بن موسى قالا: حدثنا حماد وهو ابن سلمة، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن محمد بن علي عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ ضخم الرأس عظيم العينين أهدب الأشفار مشرب العينين بحمرة كث اللحية أزهر اللون شثن الكفين والقدمين، إذا مشى كأنما يمشي في صعد، وإذا التفت التفت جميعاً».

تفرد به أحمد.

وقال أبو يعلى [مسنده (٣٧٠)]: حدثنا زكريا بن يحيى الواسطي؛ حدثنا عباد بن العوام، حدثنا الحجاج، عن سالم المكي، عن ابن الحنفية، عن

علي كرم الله وجهه أنه سئل عن صفة النبي ﷺ فقال: كان لا قصيراً ولا طويلاً، حسن الشعر رَجْلِه مشرباً وجهه حمرة، ضخم الكراديس، شَثْنَ الكفين والقدمين، عظيم الرأس، طويل المسرُبة، لم أر قبله ولا بعده مثله، إذا مشى تكفأ كأنما ينزل من صبب.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١/٤١٢، ٤١٣] عن الواقدي: حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه، عن جده، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فإني لأخطب يوماً على الناس وحبر من أحبار يهود واقف في يده سفر ينظر فيه، فلما رآني قال: صف لنا أبا القاسم، فقال علي: رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، هو رجل الشعر أسوده، ضخم الرأس مشرباً لونه حمرة، عظيم الكراديس، شثن الكفين والقدمين، طويل المسربة، وهو الشعر الذي يكون من النحر إلى السرة، أهدب الأشفار، مقرون الحاجبين، صلت الجبين، بعيد ما بين المنكبين إذا مشى تكفا كأنما ينزل من صبب، لم أر قبله مثله، ولا بعده مثله.

قال عليٌّ: ثم سكت فقال لي الحبر: وماذا؟ وقال علي: هذا ما يحضرني، قال الحبر في عينيه حمرة، حسن اللحية، حسن الفم تام الأذنين، يقبل جميعاً ويدبر جميعاً، فقال علي: هذه والله صفته، قال الحبر: وماذا؟ قال علي: وما هو؟ قال الحبر: وفيه جَنَأٌ، قال عليٌّ: هو الذي قلت لك كأنما ينزل من صبب قال الحبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي ونجده يبعث في حرم الله وأمنه وموضع بيته ثم يهاجر إلى حرم يحرِّمه هو ويكون له حرمة كحرمة الحرم الذي حرم الله، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قوماً من ولد عمرو بن عامر أهل نخل وأهل الأرض قبلهم يهود، قال علي: هو هو، وهو رسول الله ﷺ، قال الحبر: فإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس كافة فعلى ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله.

قال: فكان يأتي علياً فيعلمه القرآن ويخبره بشرائع الإسلام، ثم خرج علي والحبر من هنالك حتى مات في خلافة أبي بكر وهو مؤمن برسول الله ﷺ مصدق به.

وهذه الصفة قد وردت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من طرق متعددة سيأتي ذكرها.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده قال: سئل أو قيل لعلي: انعت لنا رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض مشرباً بياضه حمرة وكان أسود الحدقة أهدب الأشفار.

قال يعقوب: وحدثنا عبد الله بن مسلمة وسعيد بن منصور قالا: حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، عن إبراهيم بن محمد من ولد علي قال: كان علي إذا نعت رسول الله ﷺ قال: كان في الوجه تدوير أبيض أدعج العينين أهدب الأشفار.

قال الجوهري: الدعج شدة سواد العين مع سَعَتها.

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى في كتابه «مسانيد الشعر» من طريق البخاري في التاريخ أنه قال: حدثنا عمرو بن محمد الربيعي حدثنا أبو عبيدة معمر بن المثنى، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت قاعدة أغزل، وكان رسول الله ﷺ يخصف نعله قالت: فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً. قالت: فبهت. قالت: فنظر إلي فقال: «ما لك يا عائشة؟» قالت: فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال: «وما يقول أبو كبير؟» قلت يقول:

ومُبَرّأً من كل غُبَّرِ حيضةٍ ... وفساد مرضعة وداء مُغْيِلِ

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

قالت: فوضع رسول الله ﷺ ما كان في يده وقام إلي وقبّل بين عيني، وقال: «يا عائشة ما سررت مني كسروري منك».

أبو عبيدة معمر بن المثنى مولاهم البصري أحد أئمة اللغة والأدب وأيام الناس.

قال الجاحظ: كان عالماً بجميع العلوم.

وقال يعقوب بن شيبة: سمعت علي بن المديني يثني عليه ويصحح روايته.

وقال الدراقطني: لا بأس به ولكنه كان متهماً برأي الخوارج وبالإحداث.

وتوفي سنة عشر ومائتين وقد قارب المائة أو أكملها فالله أعلم وشيخ البخاري لا يُعرف، وإسناد الغرابة إليه أولى من إسنادها إلى أبي عبيدة.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٧٦٥)]: حدثنا شعبة، أخبرني سماك، سمعت جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ أشهل العينين منهوس العقب ضليع الفم.

هكذا وقع في رواية أبي داود عن شعبة أشهل العينين، قال أبو عبيد: والشهلة حمرة في سواد العين، والشكلة حمرة في بياض العين.

قلت: وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه [٢٣٣٩] عن أبي موسى وبندار كلاهما عن غندر عن شعبة به. وقال: أشكل العينين، وهذا هو الصواب، ورواه الترمذي [٣٦٤٦] عن أحمد بن منيع عن أبي قطن عن شعبة به، وقال: أشكل العينين، وقال: حسن صحيح.

ووقع في صحيح مسلم تفسير الشكلة بطول أشفار العينين، وهو من بعض الرواة.

وقول أبي عبيد: «إنها حمرة في بياض العين» أشهر وأصح وذلك يدل على القوة والشجاعة والله تعالى أعلم.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي حدثني الزهري عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصف رسول الله ﷺ فقال: كان مفاض الجبين أهدب الأشفار.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو غسان حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي حدثني رجل بمكة عن ابن لأبي هالة التميمي عن الحسن بن علي عن خاله قال: كان رسول الله ﷺ واسع الجبين أزجَّ الحواجب سوابغ في غير قَرَن بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضب، أقنى العِرْنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلَّج الأسنان.

وقال يعقوب: حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت الزهري، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين وكان إذا تكلم رئي كالنور بين ثناياه.

ورواه الترمذي [الشمائل (١٤)] عن عبد الله بن عبد الرحمن عن إبراهيم بن المنذر به.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عباد بن حجاج عن سماك عن جابر بن سمرة قال: كنت إذا نظرت إلى رسول الله ﷺ قلت: أكحل العينين وليس بأكحل، وكان في ساقي رسول الله حموشةٌ وكان لايضحك إلا تبسماً.

وقال الإمام أحمد [١/١٢٧]: حدثنا وكيع، حدثني مجمع بن يحيى عن عبد الله بن عمران الأنصاري عن علي والمسعودي عن عثمان بن عبد الله بن هرمز عن نافع بن جبير عن علي قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل ضخم الرأس واللحية شثن الكفين والقدمين والكراديس مشرباً وجهه حمرةً طويل المسربة إذا مشى تكفأ كأنما يتقلّع من صخر لم أر قبله ولا بعده مثله.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣/٢٥٩، ٢٦٠]: وقد رواه عبد الله بن داود الخُرَيبي عن مجمِّع فأدخل بين ابن عمران وبين عليّ رجلاً غير مسمًّى.

ثم أسند من طريق عمرو بن عليّ الفلاس عن عبد الله بن داود حدثنا مجمِّع بن يحيى الأنصاري عن عبد الله بن عمران عن رجل من الأنصار قال: سألت عليّ بن أبي طالب وهو محتب بحمالة سيفه في مسجد الكوفة عن نعت رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض اللون مشرباً حمرة أدعج العينين سبط الشعر دقيق المسربة سهل الخد كث اللحية ذا وفرة كأن عنقه إبريق فضة له شعر يجري من لَبَّته إلى سرته كالقضيب ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره شثن الكفين والقدمين إذا مشى كأنما ينحدر من صبب وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وإذا التفت التفت جميعاً ليس بالطويل ولا بالقصير ولا العاجز ولا اللأم كأن عرقه في وجهه اللؤلؤ ولريح عرقه أطيب من المسك الأذفر لم أر مثله قَبْلَه ولا بعدَه.

وقال يعقوب بن سفيان، حدثنا سعيد بن منصور: حدثنا نوح بن قيس الحُدّاني، حدثنا خالد بن خالد التميمي عن يوسف بن مازن المازني أن رجلا قال لعليّ: يا أمير المؤمنين انعت لنا رسول الله ﷺ، قال: كان أبيض مشرباً حمرة ضخم الهامة أغر أبلج أهدب الأشفار.

وقال الإمام أحمد [١/١٣٤]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن ابن عمير قال شريك: قلت له: عمن يا أبا عمير عمَّن حدثه قال: عن نافع بن جبير عن أبيه عن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ ضخم الهامة مشرباً حمرة شثن الكفين والقدمين ضخم اللحية طويل المسربة ضخم الكراديس يمشي في صبب يتكفأ في المشية. لا قصير ولا طويل لم أر قبله مثله ولا بعده.

وقد روي لهذا شواهد كثيرة عن عليّ، وروي عن عمر نحوه.

وقال الواقدي: حدثنا بكير بن مسمار عن زياد مولى سعد قال: سألت سعد بن أبي وقاص: هل خضب رسول الله ﷺ؟ قال: لا ولا همَّ به، كان شيبه في عَنْفَقته وناصيته لو أشاء أن أعدها لعددتها. قلت: فما صفته؟ قال: كان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم ولا بالسبط ولا بالقطط، وكانت لحيته حسنة، وجبينه صلتاً، مشرباً بحمرة، شثن الأصابع، شديد سواد الرأس واللحية.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري، حدثنا بشر بن مهران، حدثنا شريك عن عثمان بن المغيرة عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: إن أول شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ قدمت مكة في عمومة لي فأرشدونا إلى العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه فبينا نحن عنده إذا أقبل رجل من باب الصفا أبيض تعلوه حمرة له وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه أقنى الأنف براق الثنايا أدعج العينين كث اللحية دقيق المسربة شثن الكفين والقدمين عليه ثوبان أبيضان كأنه القمر ليلة البدر.

وذكر تمام الحديث بطوافه عليه الصلاة والسلام بالبيت وصلاته عنده هو وخديجة وعلي بن أبي طالب، وأنهم سألوا العباس عنه فقال: هذا هو ابن أخي محمد بن عبد الله وهو يزعم أن الله أرسله إلى الناس.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤١٩)، م (٤٢٥) (١١٠) (١١١)] عن أنس قال: «إني أراكم من وراء ظهري». فقال بعض العلماء: يعني بعيني قلبه. حتى فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] بذلك وهذا التفسير ضعيف.

وقال آخرون: بل كان هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه كان ينظر من ورائه كما ينظر أمامه. وقد نص على ذلك الحافظ أبو زرعة الرازي في كتابه «دلائل النبوة» فبوب به عليه وأورد الأحاديث الواردة في ذلك من طريق ثابت وحميد وعبد العزيز بن صهيب وقتادة كلهم عن أنس فذكره.

قال: وحدثنا عليّ بن الجعد حدثنا ابن أبي ذئب عن عجلان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأنظر إلى ما ورائي كما انظر إلى ما بين يدي فأقيموا صفوفكم وأحسنوا ركوعكم وسجودكم».

وحدثنا سعيد بن سليمان حدثنا أبو أسامة، حدثنا الوليد بن كثير عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكر حديثا فيه أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي» [م (٤٢٣)].

ورواه من طريق محمد بن إسحاق عن سعيد عن أبيه عن أبي هريرة بمثله.

وهو في الصحيحين [خ (٤١٨)، م (٤٢٤)] من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفى عَلَيَّ خشوعكم ولا ركوعكم ولا سجودكم إني أراكم من وراء ظهري».

ثم روى الحميدي [مسنده (٩٦٢)] عن سفيان عن داود بن سابور وحميد الأعرج وابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه في الصلاة كما يرى من بين يديه.

ثم روى عن عمرو بن عثمان الحمصي وغيره عن بقية، حدثني حبيب بن أبي موسى وهو ابن صالح قال: كان لرسول الله ﷺ عينان في قفاه يبصر بهما من ورائه.

وهذا غريب جداً.

وقال الإمام أحمد [١/٣٦١، ٣٦٢]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف بن أبي جميلة، عن يزيد الفارسي قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم في زمن ابن عباس قال: وكان يزيد يكتب المصاحف، قال: فقلت لابن عباس: إني رأيت رسول الله ﷺ في النوم، قال ابن عباس: فإنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الشيطان لا يستطيع أن يتشبه بي؛ فمن رآني في النوم فقد رآني» فهل تستطيع أن تنعت لنا هذا الرجل الذي رأيت؟ قال: قلت: نعم، رأيت رجلاً بين الرجلين جسمه ولحمه أسمر إلى البياض، حسن المضحك، أكحل العينين، جميل دائرة الوجه، قد ملأت لحيته من هذه إلى هذه، حتى كادت تملأ نحره. قال عوف: لا أدري ما كان مع هذا من النعت، قال: فقال ابن عباس: لو رأيته في اليقظة ما استطعت

أن تنعته فوق هذا.

وقال أبو زرعة الرازي في كتاب «دلائل النبوة» باب من ذكر أن النبي ﷺ كان إذا تكلم رئي النور من بين ثنيّته حدثنا إبراهيم بن المنذر بن عبد الله الحزامي حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ابن أخي موسى بن عقبة عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا تكلم رئي النور من ثنيّتيه.

إسناد جيد.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري قال: سئل أبو هريرة عن صفة رسول الله ﷺ فقال: أحسن الصفة وأجملها كان ربعة إلى الطول أقربَ ما هو بعيد ما بين المنكبين أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العين، أهدب الأشفار، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها، ليس لها أخمص إذا وضع رداءه على منكبيه فكأنه سبيكة فضة، وإذا ضحك كاد يتلألأ في الجُدُر، لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقد رواه محمد بن يحيى من وجه آخر متصل فقال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم - يعني الزبيدي - حدثني عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة فذكر نحو ما تقدم.

ورواه الذهلي عن إسحاق بن راهويه عن النضر بن شميل عن صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر، مفاض البطن، عظيم مشاش المنكبين، يطأ بقدمه جميعاً، إذا أقبل أقبل جميعاً، وإذا أدبر أدبر جميعاً.

ورواه الواقدي: حدثنا عبد الملك عن سعيد بن عبيد بن السباق عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ شثن القدمين والكفين ضخم الساقين عظيم الساعدين ضخم العضدين والمنكبين بعيد ما بينهما، رحب الصدر، رجل الرأس، أهدب العينين، حسن الفم، حسن اللحية، تام الأذنين، ربعة من القوم، لا طويلاً ولا قصيراً، أحسن الناس لوناً، يقبل معاً ويدبر معاً، لم أر مثله ولم أسمع بمثله.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ١/٢٤٨]: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي، حدثنا أبو الحسن المحمودي المروزي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الحافظ، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا حرب بن سريج، صاحب الخُلْقان، حدثني رجل من بلعدوية حدثني جدي قال: انطلقت إلى المدينة... فذكر الحديث في رؤية رسول الله ﷺ قال: فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجُمَّة، دقيق الأنف دقيق الحاجبين وإذا من لدن نحره إلى سرته كالخيط الممدود شعره ورأيته بين طمرين فدنا مني وقال: «السلام عليك».

١٢- ذكر شعره ﷺ

قد ثبت في الصحيحين [خ (٣٥٥٨)، م (٢٣٣٦)] من حديث الزهري عن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم وكان المشركون يفرقون رؤوسهم فسدل رسول الله ﷺ ثم فرق بعد.

وقال الإمام أحمد [٣/٢١٥]: حدثنا حماد بن خالد، حدثنا مالك، حدثنا زياد بن سعد، عن الزهري، عن أنس: (أن رسول الله ﷺ سدل ناصيته ماشاء أن يسدل ثم فرق بعد.

تفرد به من هذا الوجه.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة قالت: أنا فرقت لرسول الله ﷺ رأسه صدعت فرقه عن يافوخه وأرسلت ناصيته بين عينيه [د (٤١٨٩) من طريق ابن إسحاق، به].

قال ابن إسحاق: وقد قال لي محمد بن جعفر بن الزبير وكان فقيهاً مسلماً: ما هي إلا سيما من سيما الأنبياء، تمسكت بها النصارى من بين الناس.

وثبت في الصحيحين [خ (٥٩٠١)، م (٢٣٣٧) (٩٢)] عن البراء. أن رسول الله كان يضرب شعره إلى منكبيه.

وجاء في الصحيح عنه [خ (٣٥٥١)، م (٢٣٣٧) (٩١)] وعن غيره [م (٢٣٣٨) (٩٦) من حديث انس] إلى أنصاف أذنيه.

ولا منافاة بين الحالين، فإن الشعر تارة يطول وتارة يقصر منه فكل حكى بحسب ما رأى.

وقال أبو داود [٤١٨٧]: حدثنا ابن نفيل، حدثنا ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: «كان شعر رسول الله ﷺ فوق الوفرة ودون الجمة».

وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام حلق رأسه في حجة الوداع. وقد مات بعد ذلك بأحد وثمانين يوماً صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبد الله بن مسلمة ويحيى بن عبد الحميد قالا: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم هانىء: قدم النبي ﷺ مكة قدمة وله أربع غدائر - تعني ضفائر - ورواه الترمذي [١٧٨١] من حديث سفيان بن عيينة.

وثبت في الصحيحين [خ (٣٥٤٧)، م (٢٣٤٧)] من حديث ربيعة عن أنس قال بعد ذكره شعر رسول الله ﷺ: «إنه ليس بالسبط ولا بالقطط» قال: «وتوفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء».

وفي صحيح البخاري [٥٨٩٤] من حديث أيوب عن ابن سيرين أنه قال: «قلت لأنس أخضب رسول الله ﷺ؟ قال: إنه لم ير من الشيب إلا قليلاً».

وكذا روى هو [٥٨٩٥] ومسلم [(٢٣٤١) (١٠٢)] من طريق حماد بن زيد عن ثابت عن أنس.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت: «قيل لأنس: هل كان شاب رسول الله ﷺ؟ فقال: ما شانه الله بالشيب ما كان في رأسه إلا سبع عشرة أو ثماني عشرة شعرة).

وعند مسلم [(٢٣٤١) (١٠٤)] من طريق المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس: (أن رسول الله ﷺ لم يختضب إنما كان شمط عند العنفقة يسيراً، وفي الصدغين يسيراً. وفي الرأس يسيراً.

وقال البخاري [٣٥٥٠]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا همام عن قتادة قال: سألت أنساً: هل خضب رسول الله ﷺ؟ قال: لا إنما كان شيء في صدغيه.

وروى البخاري [٣٥٤٦] عن عصام بن خالد عن حريز بن عثمان قال: قلت لعبد الله بن بسر السلمي: رأيت رسول الله ﷺ أكان شيخاً؟ قال: كان في عنفقته شعرات بيض.

وتقدم عن جابر بن سمرة مثله، وفي الصحيحين [خ (٣٥٤٥)، م

(٢٣٤٢) (١٠٦)] من حديث أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: رأيت رسول الله ﷺ هذه منه بيضاء - يعني عنفقته -.

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبدالله بن عثمان عن أبي حمزة السكري، عن عثمان بن عبد الله بن موهب القرشي قال: دخلنا على أم سلمة فأخرجت إلينا من شعر رسول الله ﷺ وإذا هو أحمر مصبوغ بالحناء والكتم.

رواه البخاري [٥٨٩٧] عن موسى بن إسماعيل عن سلام بن أبي مطيع عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن أم سلمة به.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٣٦/١]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل عن عثمان بن موهب قال: كان عند أم سلمة جلجل من فضة ضخم فيه من شعر رسول الله ﷺ فكان إذا أصاب إنساناً الحمى بعث إليها فخضخضته فيه ثم ينضحه الرجل على وجهه، قال: فبعثني أهلي إليها فأخرجته، فإذا هو هكذا - وأشار إسرائيل بثلاث أصابع - وكان فيه خمس شعرات حمر.

رواه البخاري [٥٨٩٦] عن مالك بن إسماعيل عن إسرائيل عن عثمان، به.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو نعيم حدثنا عبيد الله بن إياد، حدثني إياد عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ فلما رأيته قال: هل تدري من هذا؟ قلت: لا قال: «إن هذا رسول الله ﷺ»، فاقشعررت حين قال ذلك، وكنت أظن أن رسول الله ﷺ شيء لا يشبه الناس، فإذا هو بشر ذو وفرة بها ردع من حناء، وعليه بردان أخضران.

ورواه أبو داود [٤٠٦٥، ٤٢٠٦] والترمذي [٢٨١٢] والنسائي [١٥٧١] من حديث عبيد الله بن إياد بن لقيط عن أبيه عن أبي رمثة واسمه حبيب بن حيان، ويقال رفاعة بن يثربي، وقال الترمذي: غريب لانعرفه إلا من حديث ابن إياد. كذا قال!

وقد رواه النسائي [٤٨٤٧، ٥٠٩٩] أيضاً من حديث سفيان الثوري وعبد الملك بن عمير كلاهما عن إياد بن لقيط به ببعضه.

ورواه يعقوب بن سفيان أيضاً عن محمد بن عبد الله المخرمي عن أبي سفيان الحميري عن الضحاك بن حمزة عن غيلان بن جامع عن إياد بن لقيط عن أبي رمثة قال: كان رسول الله ﷺ يخضب بالحناء والكتم، وكان شعره يبلغ كتفيه أو منكبيه.

وقال أبو داود [٤٢١٠]: حدثنا عبد الرحيم بن مطرف أبو سفيان، حدثنا عمرو بن محمد، أخبرنا ابن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يلبس النعال السبتية ويصفر لحيته بالورس والزعفران، وكان ابن عمر يفعل ذلك.

ورواه النسائي [٥٢٥٩] عن عبدة بن عبد الرحيم المروزي عن عمرو بن محمد العنقزي، به.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٢٣٨/١، ٢٣٩]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ: حدثنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسين بن محمد بن زياد، حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، حدثنا يحيى بن آدم، (ح) وأخبرنا أبو الحسين بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا يعقوب بن سفيان، حدثني أبو جعفر محمد بن عمر بن الوليد الكندي الكوفي، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: كان شيب رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شعرة.

وفي رواية إسحاق رأيت شيب رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء في مقدمه.

قال البيهقي [الدلائل: ٢٣٩/١]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أحمد بن سلمان الفقيه، حدثنا هلال بن العلاء الرقي، حدثنا حسين بن عيّاش الرقي، حدثنا جعفر بن برقان، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال: قدم أنس بن مالك المدينة وعمر بن عبد العزيز وال عليها، فبعث إليه عمر وقال للرسول: سله هل خضب رسول الله ﷺ؛ فإني رأيت شعراً من شعره قد لُوِّن؟ فقال أنس: إن رسول الله ﷺ قد مُتّع بالسواد ولو عددت ما أقبل علي من شيبة في رأسه ولحيته ما كنت أزيدهنّ على إحدى عشرة شيبة وإنما هو الذي لون من الطيب الذي كان يطيب به شعر رسول الله ﷺ هو الذي غير لونه.

قلت: ونفي أنس للخضاب معارض بما تقدم عن غيره من إثباته، والقاعدة المقررة أن الإثبات مقدم على النفي لأن المثبت معه زيادة علم ليست عند النافي. وهكذا إثبات غيره لأزيد مما ذكر من الشيب مقدم لا سيما عن ابن عمر الذي المظنون أنه تلقى ذلك عن أخته أم المؤمنين حفصة، فإن اطلاعها أتم من اطلاع أنس لأنها ربما أنها فَلَتْ رأسه الكريم عليه الصلاة والسلام.

١٣- ما ورد في منكبيه وساعديه وإبطيه وقدميه وكعبيه ﷺ

قد تقدم ما أخرج البخاري ومسلم من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ مربوعاً بعيداً ما بين المنكبين.

وقال الزبيدي عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة: كان رسول الله ﷺ بعيد ما بين المنكبين.

وروى البخاري [(٥٩٠٧) وفيه عنده «ضخم اليدين» و«بسط الكفين»] عن أبي النعمان عن جرير عن قتادة عن أنس قال: كان النبي ﷺ ضخم الرأس والقدمين سَبْط الكفين؛ وتقدم من غير وجه أنه عليه الصلاة والسلام كان شثن الكفين والقدمين.

وفي رواية، ضخم الكفين والقدمين.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا آدم وعاصم بن علي قالا: حدثنا ابن أبي ذئب؛ حدثنا صالح مولى التوأمة قال: كان أبو هريرة ينعت رسول الله ﷺ قال: كان شَبْحَ الذراعين بعيد ما بين المنكبين، أهدب أشفار العينين.

وفي حديث نافع بن جبير عن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ شثن الكفين والقدمين ضخم الكراديس طويل المسربة.

وتقدم في حديث حجاج عن سماك عن جابر بن سمرة قال: كان في ساقي رسول الله ﷺ حموشة أي لم يكونا ضخمين.

وقال سراقة بن جعشم: فنظرت إلى ساقيه، وفي رواية قدميه في الغَرْز - يعني الركاب - كأنهما جُمّارة أي جمارة النخل من بياضهما.

وفي صحيح مسلم [٢٣٣٩] عن جابر بن سمرة: كان ضليع الفم - وفسره بأنه عظيم الفم - أشكل العينين - وفسره بأنه طويل شق العينين - منهوس العقب، وفسره بأنه قليل لحم العقب. وهذا أنسب وأحسن في حق الرجال.

وقال الحارث بن أبي أسامة: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا حميد، عن أنس قال: أخذت أم سلمه بيدي مقدم رسول الله ﷺ المدينة فقالت: يا رسول الله هذا أنس غلام كاتب يخدمك، قال: فخدمته تسع سنين فما قال لشيء صنعت: أسأت، ولا بئس ما صنعت؛ ولا مَسِسْتُ شيئاً قط خزاً ولا حريراً ألين من كفي رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

وهكذا رواه معتمر بن سليمان وعلي بن عاصم ومروان بن معاوية الفزاري وإبراهيم بن طهمان، كلهم عن حميد، عن أنس في لين كفه عليه الصلاة والسلام، وطيب رائحته صلاة الله وسلامه عليه.

وفي حديث الزبيدي عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أن رسول الله كان يطأ بقدمه كلها ليس لها أخمص. وقد جاء خلاف هذا كما سيأتي.

وقال يزيد بن هارون: حدثني عبد الله بن يزيد بن مقسم قال: حدثتني عمتي سارة بنت مقسم عن ميمونة بنت كردم قال: رأيت رسول الله ﷺ بمكة وهو على ناقة وأنا مع أبي وبيد رسول الله ﷺ درة كدرة الكتاب فدنا منه أبي فأخذ بقدمه فأقر له رسول الله ﷺ قالت: فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

ورواه الامام أحمد [٣٦٦/٦] عن يزيد بن هارون مطولاً.

ورواه أبو داود [٢١٠٣، ٣٣١٤] من حديث يزيد بن هارون ببعضه. وعن أحمد بن صالح عن عبد الرزاق عن ابن جريج عن إبراهيم بن ميسرة عن خالته عنها بنحوه.

ورواه ابن ماجه [٢١٣١] من وجه آخر عنها والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٤٨/١]: أخبرنا عليّ بن أحمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار؛ حدثنا محمد بن إسحاق أبو بكر، حدثنا سلمة بن حفص السعدي، حدثنا يحيى بن اليمان، حدثنا إسرائيل عن سماك عن جابر بن سمرة قال: كانت إصبع لرسول الله ﷺ خنصره من رجليه متظاهرة.

وهذا حديث غريب

١٤- صفة قوامه ﷺ وطيب رائحته

في صحيح البخاري [٣٥٤٧] من حديث ربيعة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ ربعةً من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير.

وقال أبو إسحاق عن البراء: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير.

أخرجاه في الصحيحين [خ (٣٥٤٩)، م (٢٣٣٧) (٩٣)].

وقال نافع بن جبير عن علي: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله عن عبيد الله، بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير وهو إلى الطول أقرب، وكان عرقه كاللؤلؤ، الحديث.

وقال سعيد عن نوح بن قيس عن خالد بن خالد التميمي عن يوسف بن مازن الراسبي عن عليّ قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالذاهب طولاً وفوق الربعة إذا جاء مع القوم غمرهم وكان عرقه في وجهه كاللؤلؤ، الحديث.

وقال الزبيدي عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ ربعة وهو إلى الطول أقرب، وكان يقبل جميعا ويدبر جميعاً، لم أر قبله ولا بعده مثله.

وثبت في البخاري [٣٥٦١] من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال: ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة أطيب من ريح رسول الله ﷺ.

ورواه مسلم [(٢٣٣٠) (٨١)] من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس به.

ورواه مسلم [(٢٣٣٠) (٨٢)] أيضاً من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، وما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

وقال أحمد [١٠٧/٣]: حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد عن أنس قال: ما مسست شيئاً قط خزاً ولاحريراً إلين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة أطيب من ريح رسول الله ﷺ.

وهذا إسناد ثلاثي على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال يعقوب بن سفيان: أخبرنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد - وأخرجه البيهقي [الدلائل: ٢٥٦/١] من حديث أحمد بن حازم بن أبي غَرَزة عنه، قال: حدثنا أسباط بن نصر عن سماك عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً. قال: وأما أنا فمسح خدي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار.

ورواه مسلم [٢٣٢٩] عن عمرو بن حماد به نحوه.

وقال أبو زرعة الرازي: حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبو تميلة عن أبي حمزة عن جابر عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه قال: كنت أصافح النبي ﷺ أو يمس جلدي جلده فأتعرفه في يدي بعدما نالَتْهُ أطيب رائحة من المسك.

وقال الإمام أحمد [٣٠٩/٤]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، أخبرني شعبة عن الحكم سمعت أبا جحيفة قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ وصلى الظهر ركعتين وبين يديه عنزة، زاد فيه عون عن أبيه: يمر من ورائها الحمار والمرأة.

قال حجاج في الحديث: ثم قام الناس فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم، قال: فأخذت يده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك.

وهكذا رواه البخاري [٣٥٥٣، دون ذكر «الحمار»] عن الحسن بن منصور عن حجاج بن محمد الأعور عن شعبة؛ فذكر مثله سواء. وأصل الحديث في الصحيحين [خ (١٨٧، ٣٧٦)، م (٥٠٣)] أيضاً.

وقال الإمام أحمد [١٦١/٤]: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام بن حسان وشعبة وشريك وشعبة عن يعلى بن عطاء، عن جابر بن يزيد، عن أبيه - يعني يزيد بن الأسود - قال: صلى رسول الله ﷺ الفجر بمنى، فانحرف فرأى رجلين من وراء الناس، فدعا بهما فجيء بهما ترعد فرائصهما، فقال: «مامنعكما أن تصليا مع الناس؟» قالا: يا رسول الله إنا كنا قد صلينا في الرحال،قال: «فلا تفعلا إذا صلى أحدكم في رحله ثم أدرك الصلاة مع الإمام فليصلها معه فإنها له نافلة» قال: فقال أحدهما:

استغفر لي يا رسول الله، فاستغفر له. قال: ونهض الناس إلى رسول الله ﷺ ونهضت معهم، وأنا يومئذ أشب الرجال وأجلده، قال: فما زلت أزحم الناس حتى وصلت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بيده فوضعتها إما على وجهي أو صدري، قال: فما وجدت شيئاً أطيب ولا أبرد من يد رسول الله ﷺ، قال: وهو يومئذ في مسجد الخيف.

ثم رواه أيضاً [المسند: ١٦١/٤] عن أسود بن عامر وأبي النضر عن شعبة عن يعلى بن عطاء سمعت جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه أنه صلى مع رسول الله ﷺ الصبح... فذكر الحديث قال: ثم ثار الناس يأخذون بيده يمسحون بها وجوههم، قال: فأخذت بيده فمسحت بها وجهي، فوجدتها أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك.

وقد رواه أبو داود [٥٧٥، ٥٧٦] من حديث شعبة والترمذي [٢١٩] والنسائي [٨٥٧] من حديث هشيم عن يعلى به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٣١٥/٤]: حدثنا أبو نعيم حدثنا مسعر عن عبد الجبار بن وائل بن حجر قال: حدثني أهلي عن أبي قال: أتي رسول الله ﷺ بدلو من ماء فشرب منه ثم مج في الدلو ثم صب في البئر، أو شرب من الدلو ثم مج في البئر، ففاح منها ريح المسك.

وهكذا رواه البيهقي [الدلائل: ٢٥٧/١] من طريق يعقوب بن سفيان عن أبي نعيم وهو الفضل بن دكين به.

وقال الإمام أحمد [١٣٧/٣]: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها.

ورواه مسلم [(٢٣٢٤) (٧٤)] من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم به.

وقال الإمام أحمد [٢٢١/٣]: حدثنا حجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن أبي سلمة الماجشون - عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأُتيتْ فقيل لها: هذا رسول الله نائم في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ففزع النبي ﷺ فقال: «ماتصنعين يا أم سليم؟» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبت».

ورواه مسلم [(٢٣٣١) (٨٤)] عن محمد بن رافع عن حجين به.

وقال أحمد [١٣٦/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان عن ثابت عن أنس قال «دخل علينا رسول الله ﷺ، فقال عندنا فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب».

ورواه مسلم [(٢٣٣١) (٨٣)] عن زهير بن حرب عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به.

وقال أحمد [٢٣١/٣]: حدثنا إسحاق بن منصور - يعني السلولي - حدثنا عمارة - يعني ابن زاذان - عن ثابت عن أنس قال: (كان رسول الله يقيل عند أم سليم، وكان من أكثر الناس عرقاً فاتخذت له نطعاً وكان يقيل عليه وخطت بين رجليه خطاً وكانت تنشف العرق فتأخذه فقال: «ما هذا يا أم سليم؟» قالت: عرقك يا رسول الله أجعله في طيبي، قال: فدعا لها بدعاء حسن.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد [٢٣٠/٣]: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا حميد عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يأتي بيت أم سليم فينام على فراشها وليست أم سليم في بيتها فتأتي فتجده نائماً وكان رسول الله ﷺ إذا نام ذفّ عرقاً، فتأخذ عرقه بقطنة في قارورة، فتجعله في مسكها»، وهذا إسناد ثلاثي على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولا أحد منهما.

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٥٨/١]: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عمرو المقرئ، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وقال مسلم [(٢٣٣٢) (٨٥)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال حدثنا عفان، ثنا وهيب حدثنا أيوب عن أبي أيوب عن أنس عن أم سليم أن رسول الله ﷺ كان يأتيها فيقيل عندها فتبسط له نطعاً فيقيل عليه وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم ما هذا؟» فقالت: عرقك أدُوف به طيبي.

لفظ مسلم.

وقال أبو يعلى الموصلي في مسنده [٦٢٩٥]: حدثنا بشر، حدثنا حلبس بن غالب، حدثنا سفيان الثوري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني زوجت ابنتي، وأنا أحب أن تعينني بشيء، قال: «ما عندي شيء ولكن إذا كان غد فأتني بقارورة واسعة الرأس وعود شجرة وآية بيني وبينك أن تدق ناحية الباب»، قال فأتاه بقارورة واسعة الرأس وعود شجرة. قال: فجعل يسلت العرق من ذراعيه حتى امتلأت القارورة، قال: «فخذها، ومر ابنتك أن تغمس هذا العود في القارورة وتطيب به»، قال: فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة رائحة ذلك الطيب فسموا بيوت المطيبين.

هذا حديث غريب جداً.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٢٤٧٨)]: حدثنا محمد بن هشام، حدثنا موسى بن عبد الله، حدثنا عمر بن سعيد عن سعيد عن قتادة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب، وقالوا: مر رسول الله ﷺ في هذا الطريق.

وقد رواه أبو زرعة الرازي في دلائل النبوة من حديث عمر بن سعيد الأبحّ عن سعيد عن قتادة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة وجد من ذلك الطريق رائحة المسك فيقولون: مر رسول الله ﷺ اليوم من هذا الطريق.

ثم قال: وهذا الحديث رواه أيضاً معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يعرف بريح الطيب.

قلت: كان رسول الله ﷺ طيباً وريحه طيب وكان مع ذلك يحب الطيب أيضاً.

قال الإمام أحمد [١٩٩/٣]: حدثنا أبو عبيدة عن سلام أبي المنذر عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال: «حبب إلي النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة».

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سلام أبو المنذر القارئ عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «إنما حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة» [المسند: ١٢٨/٣].

وهكذا رواه النسائي [٣٩٤٩] بهذا اللفظ عن الحسين بن عيسى

القومسي عن عفان بن مسلم عن سلام بن سليمان أبي المنذر القارئ البصري عن ثابت عن أنس فذكره.

وقد روي من وجه آخر بلفظ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة».

وليس بمحفوظ بهذا فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا وإنما هي من أهم شؤون الآخرة والله أعلم.

١٥- صفة خاتم النبوة الذي بين كتفيه صلوات الله وسلامه عليه

قال البخاري [٣٥٤١]: حدثنا محمد بن عبيد الله، حدثنا حاتم عن الجعيد قال: سمعت السائب بن يزيد يقول: «ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وَقِعٌ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحَجَلَة».

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٤٥) (١١١)] عن قتيبة ومحمد بن عباد كلاهما عن حاتم بن إسماعيل به.

ثم قال البخاري [بإثر ح (٣٥٤١)]: الحجلة من حُجَل الفرس الذي بين عينيه.

وقال إبراهيم بن حمزة: مثل زر الحجلة قال أبو عبد الله: الرِزُّ الراء قبل الزاي.

وقال مسلم [(٢٣٤٤) (١٠٩)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبيد الله عن إسرائيل عن سماك أنه سمع جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ قد شمط مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين وإذا شعث رأسه تبين، وكان كثير شعر اللحية، فقال رجل: وجهه مثل السيف؟ قال: لا بل كان مثل الشمس والقمر وكان مستديراً، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده.

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سماك سمعت جابر بن سمرة قال: رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام [م (٢٣٤٤) (١١٠)].

وحدثنا ابن نمير، حدثنا عبدالله بن موسى، حدثنا حسن بن صالح عن سماك بهذا الإسناد مثله [م (٢٣٤٤) (٠٠٠)]. وقال الإمام أحمد [٨٢/٥]: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن عبد الله بن سرجس قال: ترون هذا الشيخ - يعني نفسه - كلمت نبي الله ﷺ وأكلت معه ورأيت العلامة التي بين كتفيه وهي في طرف نغض كتفه اليسرى كأنه جمع يعني الكف المجتمع، وقال بيده فقبضها) عليه خيلان كهيئة الثآليل.

وقال أحمد [٨٢/٥]: حدثنا هاشم بن القاسم وأسود بن عامر قالا: حدثنا شريك عن عاصم عن عبد الله بن سرجس قال: رأيت رسول الله ﷺ وسلمت عليه وأكلت من طعامه وشربت من شرابه ورأيت خاتم النبوة، قال هاشم: في نغض كتفه اليسرى كأنه جمع فيه خيلان سود كأنها الثآليل.

ورواه [المسند: ٨٢/٥ مطوّلاً] عن غندر عن شعبة عن عاصم عن عبد الله بن سرجس فذكر الحديث وشك شعبة في أنه هل هو في نغض الكتف اليمنى أو اليسرى.

وقد رواه مسلم [(٢٣٤٦) (١١٢)] من حديث حماد بن زيد وعلي بن مسهر وعبد الواحد بن زياد ثلاثتهم عن عاصم عن عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً أو قال: ثريداً، فقلت: يا رسول الله غفر الله لك، قال: «ولك»، فقلت له: أستغفرَ لك رسول الله ﷺ؟ قال نعم ولكم؛ ثم تلا هذه الآية ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند نغض كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خِيلان كأمثال الثآليل.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٠٧١)]: حدثنا قرة بن خالد، حدثنا معاوية بن قرة، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أرني الخاتم، فقال: «ادخل يدك»، فأدخلت يدي في جُرُبّانه فجعلت ألمس انظر إلى الخاتم فإذا هو على نغض كتفه مثل البيضة فما منعه ذاك أن جعل يدعو لي وإن يدي لفي جربانه.

ورواه النسائي [كبرى (٨٣٠٧)] عن أحمد بن سعيد عن وهب بن جرير عن قرة بن خالد به.

وقال الإمام أحمد [٢٦٣/٤، ٢٢٦/٢]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن إياد بن لقيط السدوسي عن أبي رمثة التيمي قال: خرجت مع أبي حتى أتيت رسول الله ﷺ فرأيت برأسه رَدْعَ حناء ورأيت على كتفه مثل التفاحة فقال أبي: إني طبيب أفلا أبطها لك، قال: «طبيبها الذي خلقها»، قال: وقال لأبي: «هذا ابنك؟» قال: نعم قال: «أما إنه لايجني عليك ولا تجني عليه».

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبيد الله بن إياد، حدثني أبي ربيعة أورمثة، قال: (انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، فنظر إلى مثل السلعة بين كتفيه فقال: يا رسول الله إني كأطبّ الرجال أفأعالجها لك؟ قال: «لا، طبيبها الذي خلقها».

قال البيهقي [الدلائل: ٢٦٥/١]: وقال الثوري عن إياد بن لقيط في هذا الحديث: فإذا كتفيه مثل التفاحة، وقال عاصم بن بهدلة عن أبي رمثة: فإذا في نغض كتفه مثل بعرة البعير أو بيضة الحمامة.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٢٦٦/١] من حديث سماك بن حرب عن سلامة العجلي، عن سلمان الفارسي، قال: أتيت رسول الله ﷺ فألقى رداءه وقال: يا سلمان انظر إلى ما أمرت به، قال: فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة.

وروى يعقوب بن سفيان، عن الحميدي، عن يحيى بن سليم عن ابن خثيم عن سعيد بن أبي راشد، عن التنوخي الذي بعثه هرقل إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك، فذكر الحديث كما قدمناه في غزوة تبوك إلى أن قال: فحل حبوته عن ظهره ثم قال: ههنا امض لما أمرت به، قال: فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن ميسرة، حدثنا عتاب سمعت أبا سعيد يقول: الخاتم الذي بين كتفي النبي ﷺ لحمة ناتئة.

وقال الإمام أحمد [٦٩/٣]: حدثنا سُريج، حدثنا أبو ليلى عبد الله بن ميسرة الخراساني عن غياث البكري قال: كنا نجالس أبا سعيد الخدري بالمدينة فسألته عن خاتم رسول الله ﷺ الذي كان بين كتفيه، فقال بإصبعه السبّابة هكذا لحم ناشز بين كتفيه ﷺ.

تفرد به أحمد من هذا الوجه. حديث غريب جداً رواه أبو حاتم محمد

بن حاتم بن حبان البستي في صحيحه [الإحسان (٦٣٠٢)] قائلاً: أخبرنا نصر بن الفتح بن سالم المُرَبِّعي العابد بسمرقند، حدثنا رجاء بن مرجا الحافظ حدثنا إسحاق بن إبراهيم قاضي سمرقند حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عمر قال: كان خاتم النبوة في ظهر رسول الله ﷺ مثل البندقة من لحم عليه مكتوب: محمد رسول الله.

وهذا حديث سكت عليه ابن حبان وقد دخل على راويه عن ابن جريج الوهم فإن المكتوب عليه محمد ﷺ هو خاتمه الذي كان يلبسه في خنصره من الفضة فأما خاتم النبوة الذي بين كتفيه فلم يرد فيه شيء من الأحاديث وبمثل هذا التفرد لا يقبل من رواية ذلك حتى يرويه الثقات إذ نقل هذا مما تتوفر الدواعي على نقل مثله فلا يقبل فيه تفرد الرواي والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ أبو الخطاب بن دحية المصري في كتابه - التنوير في مولد البشير النذير- عن أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسين بن بشر المعروف بالحكيم الترمذي أنه قال: كان الخاتم الذي بين كتفي رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمامة مكتوب في باطنها الله وحده، وفي ظاهرها توجه حيث شئت فإنك منصور.

ثم قال: وهذا غريب. واستنكره.

قال: وقيل كان من نور، ذكره الإمام أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ في كتابه «تنقل الأنوار»، وحكى أقوالاً غريبة غير ذلك.

ومن أحسن ما ذكره ابن دحية رحمه الله وغيره من العلماء قبله في الحكمة في كون الخاتم كان بين كتفي رسول الله ﷺ إشارة إلى أنه لا نبي بعدك يأتي من ورائك، قال: وقيل: كان على نغض كتفه لأنه يقال: هو الموضع الذي يدخل الشيطان منه إلى بطن الإنسان، فكان هذا عصمة له عليه الصلاة والسلام من الشيطان.

قلت: وقد ذكرنا الأحاديث الدالة على أنه لا نبي بعده عليه الصلاة والسلام ولا رسول، عند تفسير قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠].

١٦- باب جامع لأحاديث متفرقة وردت في صفة رسول الله ﷺ

قد تقدم في رواية نافع بن جبير عن علي بن أبي طالب، أنه قال: لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي وسعيد بن منصور، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، حدثني إبراهيم بن محمد من ولد عليّ، قال: كان عليّ إذا نعت رسول الله ﷺ قال: لم يكن بالطويل الممغط ولا القصير المتردِّد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، كان جعداً رجلاً ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان في الوجه تدوير أبيض مشرباً أدعج العينين أهدب الأشفار جليل المشاش والكتد، أجرد ذا مسربة، شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة، أجود الناس كفاً وأرحب الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقد روى هذا الحديث الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الغريب [غريب الحديث: ٢/٣٠٩].

ثم روى عن الكسائي والأصمعي وأبي عمرو تفسير غريبه، وحاصل ما ذكره مما فيه غرابة:

أن المطهم هو الممتلىء الجسم، والمكلثم شديد تدوير الوجه، يعني لم يكن بالسمين الناهض.

ولم يكن ضعيفاً بل كان بين ذلك، ولم يكن وجهه في غاية التدوير بل فيه سهولة، وهي أحلى عند العرب ومن يعرف.

وكان أبيض مشرباً حمرة وهي أحسن اللون، ولهذا لم يكن أمهق اللون.

والأدعج هو شديد سواد الحدقة.

وجليل المشاش: هو عظيم رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، والكتد الكاهل وما يليه من الجسد.

وقوله: شثن الكفين أي: غليظهما.

وتقلع في مشيته، أي شديد المشية، وتقدم الكلام على الشُكلة والشُهلة والفرق بينهما، والأهدب طويل أشفار العين.

وجاء في حديث أنه كان شبح الذراعين، يعني غليظهما والله تعالى أعلم.

حديث أم معبد في ذلك:

قد تقدم الحديث بتمامه في الهجرة من مكة إلى المدينة حين ورد عليها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الديلي، فسألوها: هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً، وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى وكانوا ممحلين فنظر إلى شاة في كسر خيمتها فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت: خلّفها الجهد، فقال: «أتأذنين أن أحلبها؟» فقالت: إن كان بها حلب فاحلبها، فدعا بالشاة فمسحها وذكر اسم الله؛ فذكر الحديث في حلبه منها ما كفاهم أجمعين ثم حلبها وترك عندها أناءها ملأى وكان يُرْبِض الرهط، فلما جاء بعلها استنكر اللبن وقال: من أين لك هذا يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاء عازب؟ فقالت: لا والله إلاّ إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، فقال: صفيه لي فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب فقالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبه ثُجلة، ولم تُزْر به صعلة، قسيم وسيم، في عينيه دَعَج، وفي أشفاره وَطَف، وفي صوته صَحَل، أحور، أكحل، أزج، أقرن، في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، فَصْل لا نزر ولا هَذَر، كان منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قداً، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود، لا عابس ولا مفنَّد. فقال بعلها: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. قال:

وأصبح صوت بمكة عال بين السماء والارض يسمعونه ولا يرون من يقوله وهو يقول:

جزى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيرِ جَزائِهِ رَفيقَيـنِ حَـلاَّ خَيمَـتي أُمِّ مَعْبَـدِ
هُمَا نَـزَلا بِـالبِرِّ وارْتَحَـلا بِـهِ فَـأَفْلَحَ مَـنْ أَمسَـى رَفيـقَ مُحَمَّـدِ
فَيالَ قُصَـيٍّ مَـا زوى اللَّـهُ عَنْكُـمْ بِـهِ مِـنْ فِعـالٍ لا تُجـارَى وسـؤْدُدِ
سَلُوا أُخْتَكُـم عَـنْ شَـاتِها وإنائِهـا فَـإنَّكُمُ إنْ تَسْـأَلوا الشَّـاةَ تَشْـهَدِ
دَعاهـا بِشَـاةٍ حَـائِلٍ فَتَحَلَّبَـتْ لَـهُ بِصَريـحٍ ضَـرَّةُ الشَّـاةِ مُزْبِـدِ
فَغَـادَرَهُ رَهْنَـاً لَدَيهـا لِحَـالِبٍ يَـدُرُّ لَهـا في مَصْـدَرٍ ثُـمَّ مَـوْرِدِ

وقد قدمنا جواب حسان بن ثابت لهذا الشعر المبارك بمثله في الحسن.

والمقصود أن الحافظ البيهقي روى هذا الحديث [الدلائل: ٢/٤٩٢] من طريق عبد الملك بن وهب المذحجي قال: حدثنا الحسن بن الصباح عن أبي معبد الخزاعي فذكر الحديث بطوله كما قدمناه بألفاظه.

وقد رواه الحافظ يعقوب بن سفيان الفسوي والحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة [٢٣٨]، قال عبد الملك: فبلغني أن أبا معبد أسلم بعد ذلك، وأن أم معبد هاجرت وأسلمت، ثم إن الحافظ البيهقي أتبع هذا الحديث بذكر غريبه وقد ذكرناه في الحواشي فيما سبق ونحن نذكرههنا نكتاً من ذلك.

فقولها: ظاهر الوضاءة، أي ظاهر الجمال.

أبلج الوجه، أي مشرق الوجه مضيئه.

لم تَعِبْه ثُجلة: قال أبو عبيد: هو كبر البطن وقال غيره: كبر الرأس، ورد أبو عبيدة رواية من روى لم تعبه نُحْلَة يعني من النحول وهو الضعف.

قلت: وهذا هو الذي فسر به البيهقي الحديث والصحيح قول أبي عبيد، ولو قيل: إنه كبر الرأس لكان قوياً، وذلك لقولها بعده: ولم تُزْرِ به صعلة وهو صغر الرأس بلا خلاف ومنه يقال لولد النعامة: صَعْل، لصغر رأسه، ويقال له: الظليم.

وأما البيهقي فرواه: لم تَعِبْه نُحلة يعني من الضعف كما فسّره، ولم تزر به صُقْلَة قال: وهو الخاصرة، يريد أنه ضرب من الرجال ليس بمتفخ ولا ناحل. قال: ويروى لم تَعِبْه ثُجْلَة وهو كبر البطن.

ولم تُزْر به صَعْلة وهو صغر الرأس.

وأما الوسيم فهو حسن الخلق وكذلك القسيم أيضاً.

والدَّعَج شدة سواد الحدقة.

والوَطَف طول أشفار العينين، ورواه القتيبي في أشفاره عَطف وتبعه البيهقي في ذلك.

قال: ابن قتيبة [غريب الحديث: ١/٤٧١، ٤٧٢]: ولا أعرف ما هذا وهو معذور لأنه وقع في روايته غلط فحار في تفسيره والصواب ماذكرناه والله أعلم. وفي صوته صَحَل: وهو بُحّة يسيرة وهي أحلى في الصوت من أن يكون حاداً.

قال أبو عبيد: وبالصَّحَل تُوصف الظباء، قال: ومن روى: في صوته صهل فقد غلط فإن ذلك لا يكون إلا في الخيل ولا يكون في الإنسان.

قلت: وهو الذي أورده البيهقي. قال: ويروى صَحَل، والصواب قول أبي عبيد والله أعلم.

وأما قولها: أحور. فمستغرب في صفة النبي ﷺ وهو قَبَلٌ يسير في العين يزينها لا يشينها كالحول.

وقولها: أكحل، قد تقدم له شاهد.

وقولها: أزجُّ، قال أبو عبيد هو المتقوس الحاجبين.

قال: وأما قولها: أقرن فهو التقاء الحاجبين بين العينين قال: ولا يعرف هذا في صفة النبي ﷺ إلا في هذا الحديث.

قال: والمعروف في صفته عليه الصلاة والسلام أنه أبلج الحاجبين، في عنقه سطع: قال أبو عبيد: أي طول، وقال غيره: نور.

قلت: والجمع ممكن بل متعين.

وقولها: إذا صمت فعليه الوقار، أي الهيبة عليه في حال صمته وسكوته.

وإذا تكلم سما أي: علا على الناس. وعلاه البهاء أي في حال كلامه.

حلو المنطق فصل أي فصيح بليغ يفصل الكلام ويبينه.

لا نَزْر ولا هَذَر، أي لا قليل ولا كثير.

كان منطقه خرزات نظم، يعني الدُّرّ من حسنه وبلاغته وفصاحته وبيانه وحلاوة لسانه.

أبهى الناس وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب، أي: هو مليح من بعيد ومن قريب، وذكرت أنه لا طويل ولاقصير بل هو أحسن من هذا ومن هذا، وذكرت أن أصحابه يعظمونه ويكرمونه ويخدمونه ويبادرون إلى طاعته وما ذلك إلا لجلالته عندهم وعظمته في نفوسهم ومحبتهم له.

وأنه ليس بعابس أي: ليس يعبس.

ولا يفنِّد أحداً أي: يهجِّنه ويستقل عقله بل جميل المعاشرة حسن الصحبة صاحبه كريم عليه وهو حبيب إليه ﷺ.

قال أبو زرعةَ في «الدلائل»: ثنا أبو نعيم، ثنا يوسف - يعني ابن صهيب - عن عبد اللَّه بن بُريدة، أن رسول اللَّه، ﷺ، كان أحسن البشر قدماً. وهذا مرسلٌ.

وقال أبو زرعة أيضاً: ثنا إسماعيل بن أبان الأزدي الورَّاق، ثنا عَنْبَسَة بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان، عن أمّ سعد، عن عائشة، رضي اللَّه عنها، قالت: قلت: يا رسول اللَّه، تأتي الخلاء فلا نَرَى منك شيئاً من الأذى؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «أوَ ما عَلِمتِ يا عائشةُ أنَّ الأرض تبتلعُ ما يخرجُ من الأنبياء فلا يرى منه شيء؟» هذا الحديث يُعدُّ من المنكرات. واللَّه أعلم.

حديث هند بن أبي هالة في ذلك:

وهند هذا هو ربيب رسول اللَّه ﷺ أمه خديجة بنت خويلد وأبوه أبو هالة كما قدمنا بيانه واللَّه أعلم.

قال يعقوب بن سفيان الفسوي الحافظ رحمه اللَّه: حدثنا سعيد بن حماد الأنصاري المصري وأبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهدي قالا: حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي، قال: حدثني رجل بمكة عن ابن لأبي هالة التميمي عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصافاً - عن حلية رسول اللَّه ﷺ - وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به - فقال: كان رسول اللَّه ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من المربوع وأقصر من المشذب عظيم الهامة رجل الشعر إذا تفرقت عقيصته فَرَقَ وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذا هو وفّره أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم كث اللحية أدعج سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان دقيق المسربة كأن عنقه جيد دميةٍ في صفاء الفضة معتدل الخَلْق بادن متماسك سواء

البطن والصدر عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراديس أنور المتجرّد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر طويل الزندين رحب الراحة سبط القَصَب شثن الكفين والقدمين سابل الأطراف خمصان الأخمصين مسيح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال قلعاً يخطو تكفياً ويمشي هوناً ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعاً خافض الطَّرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جُلُّ نظره الملاحظة يسوق أصحابه يبدأ من لقيه بالسلام. قلت: صف لي منطقه، قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة لا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير دمث ليس بالجافي ولا المهين يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه ولا يقوم لغضبه إذا تعرض للحق شيء حتى ينتصر له - وفي رواية: لاتغضبه الدنيا وما كان لها فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلّبها، وإذا تحدث يصل بها يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جلُّ ضحكه التبسم ويفترُّ عن مثل حب الغمام. قال الحسن فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه مأذون له في ذلك وكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً للّه وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة والخاصة لا يدخر عنهم شيئاً، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي ويقول: «ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته؛ فإنه من بلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت اللّه قدميه يوم القيامة». لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون عليه زواراً. ويروى: رُواداً» أي طالبين ما عنده ولا يفترقون إلا عن ذَواق. وفي رواية: ولا يتفرقون إلا عن ذوق، ويخرجون أدلة يعني فقهاء.

قال: وسألته عن مخرجه: كيف كان يصنع فيه، فقال: كان رسول اللّه ﷺ يخزن لسانه الا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذَرُ الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه، يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويحسِّن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم،أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

قال: فسألته عن مجلسه كيف كان؟ فقال: كان رسول اللّه ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وَسِعَ الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحُرَم، ولا تُنْثَى فلتاتُه، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير يؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

قال: فسألته عن سيرته في جلسائه فقال: كان رسول اللّه ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيّب فيه قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولايعيره، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه يستحلونه في المنطق ويقول: «إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه»، ولايقبل الثناء إلا من مكافىء ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام.

قال: فسألته كيف كان سكوته؟ قال: كان سكوته على أربع: الحلم والحذر والتقدير والتفكر. فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس. وأما تذكره أو قال: تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له ﷺ الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى، والقيام لهم فيما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة ﷺ.

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه اللّه في كتاب شمائل رسول اللّه ﷺ [٧، ٢١٧، ٣٢١] عن سفيان بن وكيع بن الجراح عن جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي حدثني رجل من ولد أبي هالة زوج خديجة يكنى أبا عبد اللّه سماه غيره يزيد بن عمر عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن عليّ قال: سألت خالي؛ فذكره وفيه حديثه عن أخيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل [١/٢٨٥ - ٢٩٢] عن أبي عبد اللّه الحاكم النيسابوري لفظاً وقراءة عليه: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد اللّه بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب العَقيقي صاحب كتاب النسب ببغداد، حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو محمد بالمدينة سنة ثلاث وستين ومائتين، حدثني عليّ بن جعفر بن محمد عن أخيه موسى بن جعفر عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ عن أبيه محمد بن عليّ عن علي بن الحسين قال: قال الحسن: سألت خالي هند بن أبي هالة فذكره.

ورواه الطبراني [الكبير (٢٢/١٥٥ - ١٦٣)] عن علي بن عبد العزيز عن أبي غسان مالك بن إسماعيل فذكره بإسناده مطولا ثم أورد غريبه.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه اللّه في كتابه الأطراف [تحفة الأشراف: ٧٤/٩] بعد ذكره ما تقدم من هاتين الطريقين:

وروى إسماعيل بن مسلمة بن قعنب القعنبي عن إسحاق بن صالح المخزومي عن يعقوب التيمي عن عبد اللّه بن عباس أنه قال لهند بن أبي هالة - وكان وصافاً لرسول اللّه ﷺ -: صف لنا رسول اللّه ﷺ فذكر بعض هذا الحديث.

وقد روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ١/٢٩٨ - ٣٠٦] من طريق

صبيح بن عبد الله الفرغاني وهو ضعيف عن عبد العزيز بن عبد الصمد عن جعفر بن محمد عن أبيه، وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة حديثاً مطولا في صفة النبي ﷺ قريباً من حديث هند بن أبي هالة. وسرده البيهقي بتمامه وفي أثنائه تفسير ما فيه من الغريب وفيما ذكرناه غنية عنه والله تعالى أعلم.

وروى البخاري [٣٥٤٢] عن أبي عاصم الضحاك عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن ابن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث قال: صلى أبو بكر العصر بعد موت النبي ﷺ بليال فخرج هو وعلي يمشيان، فإذا الحسن بن علي يلعب مع الغلمان، قال: فاحتمله أبو بكر على كاهله وجعل يقول: بأبي شبه النبي ليس شبيهاً بعليّ. وعليّ يضحك منهما رضي الله عنهما.

وقال البخاري [٣٥٤٣]: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا إسماعيل عن أبي جحيفة قال: رأيت رسول الله ﷺ وكان الحسن بن عليّ يشبهه.

وروى البيهقي [الدلائل: ١/٢٠٧] عن أبي علي الروذباري عن عبد الله بن جعفر بن شوذب الواسطي عن شعيب بن أيوب الصريفيني عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانىء عن عليّ رضي الله عنه قال: الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ماكان أسفل من ذلك.

١٧- ذكر أخلاقه وشمائله الطاهرة ﷺ

قد قدمنا طيب أصله ومحتِده، وطهارة نسبه ومولده، وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال البخاري [٣٥٥٧]: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرن حتى كنت من القرن الذي كنت فيه».

وفي صحيح مسلم [٢٢٧٦] عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى قريشاً من بني إسماعيل، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم».

وقال الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤] قال العوفي عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يعني - وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام.

وهكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [تفسير الطبري: ٢٩/١٨].

وقال عطية: لعلى أدب عظيم.

وقد ثبت في صحيح مسلم [(٧٤٦) (١٣٩)] من حديث قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، فقالت: كان خلقه القرآن.

وقد روى الإمام أحمد [٦/٢١٦] عن إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصري قال: سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وروى الإمام أحمد [٦/١٨٨] عن عبد الرحمن بن مهدي.

والنسائي [كبرى (١١١٣٨)] من حديثه، وابن جرير [تفسير: ٢٩/١٩] من حديث ابن وهب كلاهما عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام، مهما أمره به القرآن امتثله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الأخلاق الجبليه الأصلية العظيمة التي لم يكن أحد من البشر ولا يكون على أكمل منها، وشرع له الدين العظيم الذي لم يشرعه لأحد قبله، وهو مع ذلك خاتم النبيين فلا رسول بعده ولا نبي، فكان فيه من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح والرحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يحد ولا يمكن وصفه.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا زيد بن واقد عن بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه.

وقال البيهقي [الدلائل: ١/٣٠٩]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أحمد بن سهل الفقيه ببخارى، أخبرنا قيس بن أنيف، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي عمران عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ثم قالت أتقرأ سورة «المؤمنين» اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى العشر قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

وهكذا رواه النسائي [كبرى (١١٣٥٠)] عن قتيبة.

وروى البخاري [٤٦٤٣، ٤٦٤٤] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال: أمر رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٨١]: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

تفرد به أحمد.

ورواه الحافظ أبو بكر الخرائطي في كتابه [المنتقى من مكارم الأخلاق ص٢٦، بلفظ: «صالح الأخلاق»] فقال: «وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وتقدم ما رواه البخاري من حديث أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً.

وقال مالك عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها [الموطأ: ٢/٩٠٢].

ورواه البخاري [٣٥٦٠] ومسلم [(٢٣٢٧) (٧٧)] من حديث مالك.

وروى مسلم [(٢٣٢٨) (٧٩) بنحوه] عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط لا عبداً ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل

اللّه، ولا نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم اللّه فينتقم للّه عز وجل.

وقال الامام أحمد [٦/٢٣٢]: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «ماضرب رسول اللّه ﷺ بيده خادماً له قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل اللّه، ولا خير بين أمرين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما، حتى يكون إثماً، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات اللّه فيكون هو ينتقم للّه عز وجل».

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٥٢٠)]: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت أبا عبد اللّه الجدلي يقول: سمعت عائشة رضي اللّه عنها وسألتها عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أو قالت: يعفو ويغفر. شك أبو داود.

ورواه الترمذي [٢٠١٦] من حديث شعبة وقال: حسن صحيح.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا آدم وعاصم بن عليّ قالا: حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا صالح مولى التوأمة قال: كان أبو هريرة ينعت رسول اللّه ﷺ قال: كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً بأبي وأمي لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق. زاد آدم: ولم أر مثله قبله ولن أر بعده.

وقال البخاري [٣٥٥٩]: حدثنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن عبد اللّه بن عمرو قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً». ورواه مسلم [(٢٣٢١) (٦٨)] من حديث الأعمش به.

وقد روى البخاري [٢١٢٥] من حديث فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال: إن رسول اللّه ﷺ موصوف في التوراة بما هو موصوف في القرآن، «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غلفاً».

وقد روي عن عبد اللّه بن سلام وكعب الأحبار.

وقال البخاري [٣٥٦٢]: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن شعبة عن قتادة عن عبد اللّه بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها».

حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى وعبد الرحمن قالا: حدثنا شعبة مثله: وإذا كره شيئاً عرف ذلك في وجهه [خ عقب ح (٣٥٦٢)]، ورواه مسلم [(٢٣٢٠) (٦٧)] من حديث شعبة.

وقال الإمام أحمد [٣/١٢٦]: حدثنا أبو عامر، حدثنا فليح عن هلال بن علي عن أنس بن مالك قال: لم يكن رسول اللّه ﷺ سباباً ولا لعاناً ولا فاحشاً، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: «ما له تربت جبينه». ورواه البخاري [٦٠٤٦] عن محمد بن سنان عن فليح.

وفي الصحيحين [خ (٢٨٢٠)، م (٢٣٠٧) (٤٨)] واللفظ لمسلم من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال: كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس وجهاً وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول اللّه ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا لم تراعوا»، قال: «وجدناه بحراً»، أو «إنه لبحر»، قال: وكان فرساً يبطأ.

ثم قال مسلم [(٢٣٠٧) (٤٩)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع عن شعبة عن قتادة عن أنس قال: كان فزع بالمدينة فاستعار رسول اللّه ﷺ فرساً لأبي طلحة يقال له مندوب فركبه فقال: «ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً»، وقال عليٌّ رضي اللّه عنه: كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول اللّه ﷺ.

وقال أبو إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن عليّ بن أبي طالب قال: لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول اللّه ﷺ وكان أشد الناس بأساً. رواه أحمد [١/٨٦، ١٢٦، ١٥٦] والبيهقي [الدلائل: ٣/٦٩].

وتقدم في غزوة هوازن أنه عليه الصلاة والسلام لما فر جمهور أصحابه يومئذ ثبت وهو راكب بغلته وهو ينوه باسمه الشريف يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وهو مع ذلك يركضها إلى نحور الأعداء، وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة العظيمة والتوكل التام صلوات اللّه وسلامه عليه.

وفي صحيح مسلم [(٢٣٠٩) (٥٢)] من حديث إسماعيل بن علية عن عبد العزيز عن أنس قال: لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه إن أنساً غلام كيس فليخدمك قال: فخدمته في السفر والحضر، واللّه ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟

وله [م (٢٣٠٩) (٥٣)] من حديث سعيد بن أبي بردة عن أنس قال: خدمت رسول اللّه ﷺ تسع سنين فما أعلمه قال لي قط: لم فعلت كذا وكذا؟ ولاعاب عليّ شيئاً قط.

وله [م (٢٣١٠) (٥٤)] من حديث عكرمة بن عمار عن إسحاق قال أنس: كان رسول اللّه ﷺ من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوما لحاجة فقلت: واللّه لا أذهب - وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول اللّه ﷺ - فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول اللّه ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال: «يا أنيس ذهبت حيث أمرتك؟» فقلت: نعم أنا أذهب يا رسول اللّه. قال أنس: واللّه لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته: لم صنعت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا؟

وقال الإمام أحمد [٣/٢٣١]: حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر، حدثنا عمران القصير عن أنس بن مالك قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، وإن لامني أحد من أهله إلا قال: «دعوه فلو قدّر - أو قال: قضي - أن يكون كان».

ثم رواه أحمد [٣/٢٣١] عن علي بن ثابت عن جعفر هو ابن برقان عن عمران البصري وهو القصير عن أنس فذكره.

تفرد به الامام أحمد.

وقال الإمام أحمد [٣/٢١٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو التياح، حدثنا أنس قال: كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال: أحسبه قال: فطيماً، قال: فكان إذا جاء رسول اللّه ﷺ فرآه قال: «أبا عمير ما فعل النغير؟»، قال: نُغَرٌ كان يلعب به، قال: فربما تحضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس ثم ينضح ثم

يقوم رسول الله ﷺ ونقوم خلفه يصلي بنا، قال: وكان بساطهم من جريد النخل.

وقد رواه الجماعة [خ (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، م (٦٥٩)، د (٢١٥٠)، ت (٣٣٣، ٩٨٩)، س (كبرى ١٠١٦٥ - ١٠١٦٨)، ج (٣٧٢٠، ٣٧٤٠)] إلا أبا داود من طرق عن أبي التياح يزيد بن حميد عن أنس بنحوه.

وثبت في الصحيحين [خ (٦)، م (٢٣٠٨) (٥٠)] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وقال الإمام أحمد [١٣٣/٣، ١٦٠]: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا سَلْمٌ العلوي، سمعت أنس بن مالك «أن النبي ﷺ رأى على رجل صفرة أو قال: أثر صُفرة، فكرهها قال: فلما قام قال: «لو أمرتم هذا أن يغسل عنه هذه الصفرة». قال: وكان لا يكاد يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه.

وقد رواه أبو داود [٤١٨٢، ٤٧٨٩] والترمذي في الشمائل [٣٣١]، والنسائي في اليوم والليلة [كبرى (١٠٠٦٥)] من حديث حماد بن زيد عن سلم بن قيس العلوي البصري. قال أبو داود: وليس من ولد عليّ بن أبي طالب، وكان يبصر في النجوم، وقد شهد عند عدي بن أرطاة على رؤية الهلال فلم يجز شهادته.

وقال أبو داود [٤٧٨٨]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عبد الحميد الحماني، حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول ولكن يقول: «مابال أقوام يقولون كذا وكذا».

وثبت في الصحيح [د (٤٨٦٠)، ت (٣٨٩٦) (٣٨٩٧)] أن رسول الله ﷺ قال «: لا يبلغني أحد عن أحدٍ شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

وقال مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانيٌّ غليظ الحاشية فادركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ فإذا قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مرْ لي من مال الله الذي عندك، قال: فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء. أخرجاه [خ (٣١٤٩)، م (١٠٥٧) (١٢٨)] من حديث مالك.

وقال الإمام أحمد [٢٨٨/٢]: حدثنا زيد بن الحباب، أخبرني محمد بن هلال القرشي عن أبيه أنه سمع أبا هريرة يقول: «كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد فلما قام قمنا معه فجاء أعرابي فقال: أعطني يا محمد، فقال: «لا وأستغفر الله»، فجذبه بحجزته فخدشه، قال: فهموا به فقال: «دعوه» قال: ثم أعطاه، قال: وكانت يمينه: «لا وأستغفر الله»، وقد روى أصل هذا الحديث أبو داود [٣٢٦٥، ٤٧٧٥] والنسائي [٤٧٧٦] وابن ماجه [٢٠٩٣] من طرق عن محمد بن هلال بن أبي هلال مولى بني كعب عن أبيه عن أبي هريرة بنحوه.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن زيد بن أرقم قال: كان رجل من الأنصار يدخل على رسول الله ﷺ ويأتمنه وأنه عقد له عقداً وألقاه في بئر فصرع ذلك رسول الله ﷺ فأتاه ملكان يعودانه فأخبراه أن فلاناً عقد له عقداً وهي في بئر بني فلان، ولقد اصفرَّ الماء من شدة عقده، فأرسل النبي ﷺ فاستخرج العقد، فوجد الماء قد اصفرَّ فحل العقد ونام النبي ﷺ، فلقد رأيت الرجل بعد ذلك يدخل على النبي ﷺ فما رأيته في وجه النبي ﷺ حتى مات.

رواه الطبراني [الكبير (٢٠١/٥)] من طريق عليّ بن المديني عن جرير عن الأعمش به وقال: لم يعاتبه.

قلت: والمشهور في الصحيح [خ (٣١٧٥)، م (٢١٨٩)]: أن لبيد بن الأعصم اليهودي هو الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومُشاطة في جفّ طَلْعَةِ ذَكَر تحت رَعوفة بئر أروان. وأن الحال استمر نحواً من ستة أشهر حتى أنزل الله سورتي المعوذتين ويقال: إن آياتهما إحدى عشرة آية وإن عُقَد ذلك الذي سحر فيه كان إحدى عشرة عقدة، وقد بسطنا ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية والله أعلم.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمران بن زيد أبو يحيى الملائي، حدثنا زيد العمي عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صافح أو صافحه الرجل لاينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، وإن استقبله بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه، ولا يرى مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له.

ورواه الترمذي [٢٤٩٠] وابن ماجه [٣٧١٦] من حديث عمران بن زيد التغلبي أبي يحيى الطويل الكوفي عن زيد بن الحواري العمي عن أنس به.

وقال أبو داود [٤٧٩٤]: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا أبو قطن حدثنا مبارك بن فضالة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: ما رأيت رجلاً قط التقم أذن النبي ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رسول الله ﷺ أخذ بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده.

تفرد به أبو داود.

قال الإمام أحمد [١٧٤/٣]: وحدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة - قال ابن جعفر في حديثه قال -: سمعت عليّ بن زيد قال قال: أنس بن مالك: إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت.

ورواه ابن ماجه [٤١٧٧] من حديث شعبة.

وقال الامام أحمد [٩٨/٣]: حدثنا هشيم، حدثنا حميد عن أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به في حاجتها.

وقد رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه [٦٠٧٢] معلقاً فقال: وقال محمد بن عيسى هو ابن الطباع: حدثنا هشيم. فذكره.

وقال الطبراني [الكبير: ٤٤١/١٢]: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عطاء بن أبي رباح، سمعت ابن عمر، سمعت رسول الله ﷺ وأتى صاحب بزٍّ فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم فخرج وهو عليه فإذا رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله اكسني قميصاً كساك الله من ثياب الجنة فنزع القميص فكساه إياه ثم رجع إلى صاحب الحانوت فاشترى منه قميصاً بأربعة دراهم وبقي معه درهمان، فإذا هو بجارية في الطريق تبكي فقال: «مايبكيك؟» فقالت: يا رسول الله دفع إليّ أهلي درهمين أشتري بهما دقيقاً فهلكا، فدفع إليها رسول الله ﷺ الدرهمين الباقيين ثم انقلبت وهي تبكي فدعاها فقال

«مايبكيك وقد أخذت الدرهمين؟» فقالت: أخاف أن يضربوني، فمشى معها إلى أهلها فسلم فعرفوا صوته ثم عاد فسلم ثم عاد فسلم ثم عاد فثلث فردوا، فقال: «أسمعتم أول السلام؟» قالوا: نعم ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام فما أشخصك بأبينا وأمنا؟ فقال: «أشفقت هذه الجارية أن تضربوها» فقال صاحبها: هي حرة لوجه الله لممشاك معها، فبشرهم رسول الله ﷺ بالخير والجنة. ثم قال: «لقد بارك الله في العشرة: كسا الله نبيه قميصاً ورجلا من الأنصار قميصاً وأعتق الله منها رقبة وأحمد الله هو الذي رزقنا هذا بقدرته».

هكذا أورده الطبراني وفي إسناده أيوب بن نهيك الحلبي وقد ضعفه أبو حاتم، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال الأزدي: متروك.

وقال الإمام أحمد [٢٨٥/٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس: أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي حاجة، فقال: «يا أم فلان انظري أيَّ الطرق شئت» فقام معها يناجيها حتى قضت حاجتها.

وهكذا رواه مسلم [(٢٣٢٦) (٧٦)] من حديث حماد بن سلمة.

وثبت في الصحيحين [خ (٣٥٦٣)، م (٢٠٦٤) (١٨٧، ١٨٨)] من حديث الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

وقال الثوري عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر قال: أتانا رسول الله ﷺ في منزلنا فذبحنا له شاة فقال: «كأنهم علموا أنا نحب اللحم» [الشمائل للترمذي (١٧٢)] وذكر الحديث.

وقال محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عمر بن عبد العزيز عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس يتحدث كثيراً ما يرفع طرفه إلى السماء [الدلائل للبيهقي: ٣٢١/١].

وهكذا رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه [٤٨٣٧] من حديث محمد بن إسحاق به.

وقال أبو داود [٤٨٤٦]: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن إسحاق بن محمد الأنصاري عن ربيح بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس احتبى بيده.

ورواه البزار في مسنده [كشف الأستار (٢٠٢١)] ولفظه: كان إذا جلس نصب ركبتيه واحتبى بيديه.

ثم قال أبو داود [٤٨٤٧]: حدثنا حفص بن عمر وموسى بن إسماعيل قالا: حدثنا عبد الله بن حسان العنبري، حدثتني جدتاي صفية ودحيبة ابنتا عُلَيبة قال موسى ابنة حرملة وكانتا ربيبتي قيلة بنت مخرمة وكانت جدة أبيهما أنها أخبرتهما أنها رأت رسول الله ﷺ وهو قاعد القرفصاء قالت: فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق.

ورواه الترمذي في الشمائل [١٢٢] وفي الجامع [٢٨١٤] عن عبد بن حميد عن عفان بن مسلم بن عبد الله بن حسان به.

وهو قطعة من حديث طويل قد ساقه الطبراني بتمامه في معجمه الكبير [٧/٥ - ١٠].

وقال البخاري [٣٥٦٧]: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ: كان يحدث حديثاً لو عدَّه العاد لأحصاه.

قال البخاري [٣٥٦٨]: وقال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: ألا أعجبك أبو فلان جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك وكنت أسبح فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم.

وقد رواه أحمد [١١٨/٦] عن عليّ بن إسحاق، ومسلم [(٢٤٩٣) (١٦٠)] عن حرملة، وأبو داود [٣٦٥٥] عن سليمان بن داود كلهم عن ابن وهب عن يونس بن يزيد به، وفي روايتهم: ألا أعجبك من أبي هريرة. فذكر نحوه.

وقال الإمام أحمد [١٣٨/٦]: حدثنا وكيع عن سفيان عن أسامة عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان كلام النبي ﷺ فصلا يفهمه كل أحد لم يكن يسرد سرداً.

وقد رواه أبو داود [٤٨٣٩] عن ابن أبي شيبة عن وكيع.

وقال أبو يعلى: حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، حدثنا عبد الله بن مسعر، حدثني شيخ أنه سمع جابر بن عبد الله - أو ابن عمر - يقول: كان في كلام النبي ﷺ ترتيل أو ترسيل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم بكلمة رددها ثلاثاً وإذا أتى قوماً يسلم عليهم سلم ثلاثاً.

وقال أحمد [٢١٣/٣]: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن المثنى، سمعت ثمامة بن أنس يذكر أن أنساً كان إذا تكلم تكلم ثلاثاً ويذكر أن النبي ﷺ: كان إذا تكلم تكلم ثلاثا، وكان يستأذن ثلاثاً.

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي [٣٦٤٠] عن محمد بن عمر عن مسلم بن قتيبة عن عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه. ثم قال الترمذي حسن صحيح غريب.

وفي الصحيح [(٥٢٣) (٧، ٨) بشطره الأول] أنه قال: «أوتيت جوامع الكلم واختُصرت لي الحكم اختصاراً».

قال الإمام أحمد [٤٥٥/٢] حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعثتُ بجوامعِ الكَلِم ونُصِـرتُ بالرُّعب وبينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خزائنِ الأرضِ فوُضِعَتْ في يدي».

وهكذا رواه البخاري [٢٩٧٧] من حديث الليث.

وقال أحمد [٣٩٥/٢، ٣٩٦]: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي».

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد [٥٠١/٢، ٥٠٢]: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلّت في يدي».

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وثبت في الصحيحين [خ (٤٨٢٨)، م (٨٩٩) (١٦)] من حديث ابن وهب عن عمرو بن الحارث، حدثني أبو النضر عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه

لهواته إنما كان يتبسم.

وقال الترمذي [٣٦٤١]: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن المغيرة عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ.

ثم رواه [٣٦٢٢] من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: ماكان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً. ثم قال: صحيح.

وقال مسلم [٢٣٢٢]: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو خيثمة عن سماك بن حرب قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيراً كان لايقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم رسول الله ﷺ.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٧٧١)]: حدثنا شريك وقيس بن الربيع عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم كان كثير الصمت، قليل الضحك فكان أصحابه ربما يتناشدون الشعر عنده وربما قال الشيء من أمورهم فيضحكون وربما تبسَّم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ١/٣٢٤]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا الليث بن سعد عن الوليد بن أبي الوليد أن سليمان بن خارجة أخبره عن خارجة بن زيد - يعني ابن ثابت - أن نفراً دخلوا على أبيه فقالوا: حدثنا عن بعض أخلاق رسول الله ﷺ، فقال: كنت جاره فكان إذا نزل الوحي بعث إلي فآتيه فأكتب الوحي وكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا فكل هذا نحدثكم عنه.

ورواه الترمذي في الشمائل [٣٢٨] عن عباس الدوري عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن يزيد المقرئ به نحوه.

١٨- ذكر كرمه ﷺ

تقدم ما أخرجاه في الصحيحين [خ (٦)، م (٢٣٠٨)] من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وهذا التشبيه في غاية ما يكون من البلاغة في تشبيه الكرم بالريح المرسلة في عمومها وتواترها وعدم انقطاعها.

وفي الصحيحين [خ (٦٠٣٤)، م (٢٣١١)] من حديث سفيان بن سعيد الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

وقال الإمام أحمد [٣/١٠٧، ١٠٨]: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن موسى بن أنس عن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه، قال: فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، قال: فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء ما يخشى الفاقة.

ورواه مسلم [(٢٣١٢) (٥٧)] عن عاصم بن النضر عن خالد بن الحارث عن حميد به.

وقال أحمد [٣/٢٨٤]: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس أن رجلا سأل النبي ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا؛ فوالله إنّ محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة، فإن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه أو أعز عليه من الدنيا وما فيها.

ورواه مسلم [(٢٣١٢) (٥٨)] من حديث حماد بن سلمة به.

وهذا العطاء ليؤلف به قلوب ضعيفي القلوب في الإسلام، ويتألف آخرين ليدخلوا في الاسلام كما فعل يوم حنين حين قسم تلك الأموال الجزيلة من الإبل والشاء والذهب والفضة في المؤلفة، ومع هذا لم يعط الأنصار وجمهور المهاجرين شيئاً، بل أنفق فيمن كان يحب أن يتالفه على الإسلام، وترك أولئك لما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، وقال مسلياً لمن سأل عن وجه الحكمة في هذه القسمة لمن عتب من جماعة الأنصار: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى رحالكم؟» قالو: رضينا يا رسول الله.

وهكذا أعطى عمه العباس بعدما أسلم حين جاءه ذلك المال من البحرين فوضع بين يديه في المسجد وجاء العباس فقال: يا رسول الله أعطني فقد فاديت نفسي يوم بدر وفاديت عقيلاً، فقال: «خذ»، فنزع ثوبه عنه وجعل يضع فيه من ذلك المال ثم قام ليقلّه فلم يقدر فقال لرسول الله ﷺ: ارفعه عليّ، قال: «لا أفعل»، فقال: مر بعضهم ليرفعه عليّ، فقال: «لا»، فوضع منه شيئاً ثم عاد فلم يقدر فسأله أن يرفعه أو أن يأمر بعضهم يرفعه فلم يفعل فوضع منه ثم احتمل الباقي وخرج به من المسجد ورسول الله ﷺ يتبعه بصره عجباً من حرصه.

قلت: وقد كان العباس رضي الله عنه رجلاً شديداً طويلاً نبيلاً، فأقل ما احتمل شيء يقارب أربعين ألفاً والله أعلم.

وقد ذكره البخاري في صحيحه في مواضع [٤٢١، ٣٠٤٩، ٤٠١٨] معلقاً بصيغة الجزم وهذا يورد في مناقب العباس لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقد تقدم عن أنس بن مالك خادمه عليه الصلاة السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وأشجع الناس [خ (٢٨٢٠)، م (٢٣٠٧)] الحديث. وكيف لا يكون كذلك وهو رسول الله ﷺ والمجبول على أكمل الصفات؛ الواثق بما في يدي الله عز وجل، الذي انزل الله عليه في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] وهو عليه الصلاة والسلام القائل لمؤذنه بلال وهو الصادق المصدوق في الوعد والمقال: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [الكبير للطبراني (١/٣٢٣ - ٣٢٥)].

وهو القائل عليه الصلاة والسلام «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما: اللّهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللّهم أعط ممسكاً تلفاً» [خ (١٤٤٢)، م (١٠١٠) (٥٧)] وفي الحديث الآخر أنه قال لعائشة: «لا توعي فيوعي الله عليكِ، ولا توكي فيوكي الله عليكِ». [د (١٠٠٧)].

وفي الصحيح [خ (٤٦٨٤)، م (٩٩٣)] أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنفق أنفق عليك» فكيف لا يكون أكرم

الناس وأشجع الناس، وهو المتوكل الذي لا أعظم منه في توكله، الواثق برزق الله ونصره، المستعين بربه في جميع أمره؟ ثم قد كان قبل بعثته وبعدها وقبل هجرته، ملجأ الفقراء والأرامل، والأيتام والضعفاء والمساكين، كما قال عمه أبوطالب فيما قدمناه من القصيدة المشهورة.

وَمَا تَـرْكُ قَـوْمٍ لا أَبـالَكَ سَيِّداً ... يَحُـوطُ الذِّمَـارَ غَـيْرَ ذَرْبٍ مواكِـلِ

وَأَبْيَـضَ يُسْتَسْقى الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ... ثِمَـالَ اليَتَـامى عِصمَـةً للأرامِـلِ

يَلُـوذُ بِـهِ الهُـلَّاكُ مِـنْ آلِ هَاشِـمٍ ... فَهُـمْ عِنْـدَهُ في نِعْمَـةٍ وفَواضِـلِ

ومن تواضعه ما روى الإمام أحمد [١٥٣/٣، ٢٤٩] من حديث حماد بن سلمة عن ثابت زاد النسائي ـ وحميد ـ عن أنس أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله».

وفي صحيح مسلم [هو في البخاري (٦٨٣٠) مطولاً ولم يروه مسلم] عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

وقال الإمام أحمد [٤٩/٦]: حدثنا يحيى عن شعبة، حدثني الحكم عن إبراهيم عن الأسود قال: «قلت لعائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».

وحدثنا وكيع ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن الأسود قال: قلت لعائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع إذا دخل بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى». [المسند: ٢٠٦/٦]

ورواه البخاري [٦٧٦] عن آدم عن شعبة.

وقال الإمام أحمد [٢٤١/٦، ٢٤٢]: حدثنا عبدة، حدثنا هشام بن عروة عن رجل قال: سئلت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يرقع الثوب ويخصف النعل أو نحو هذا».

وهذا منقطع من هذا الوجه.

وقد قال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٤٩٢)]: أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة وهشام بن عروة عن أبيه قال: سأل رجل عائشة: هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: نعم، كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته.

رواه البيهقي [الدلائل: ٣٢٨/١، ٣٢٩] فاتصل الإسناد.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣٢٨/١]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا أبو جعفر محمد بن عمرو بن البختري ـ إملاء ـ حدثنا محمد بن إسماعيل السلمي. حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن عمرة قالت: قلت لعائشة: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: كان رسول الله ﷺ بشراً من البشر، يفلّي ثوبه ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

ورواه الترمذي في الشمائل [٣٢٧] عن محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن عمرة قالت: قيل لعائشة: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ الحديث.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٨٣/٣، ٣٨٤] من طريق أبي أسامة عن حارثة بن محمد الأنصاري عن عمرة قالت: قلت لعائشة: كيف كان رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٢١٤٨)]: حدثنا شعبة، حدثني مسلم أبو عبد الله الأعور، سمع أنساً يقول: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو، ويركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولو رأيته يوم خيبر على حمار خطامه من ليف.

وفي الترمذي [١٠١٧] وابن ماجه [٢٢٩٦، ٤١٧٨] من حديث مسلم بن كيسان الملائي عن أنس بعض ذلك.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣٢٩/١]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر محمد بن جعفر الأدمي القارئ ببغداد، حدثنا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، حدثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه قال: سمعت يحيى بن عقيل يقول: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولايستنكف أن يمشي مع العبد، ولا مع الأرملة، حتى يفرغ لهم من حاجاتهم.

ورواه النسائي [١٤١٣] عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة عن الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن يحيى بن عقيل الخزاعي البصري عن ابن أبي أوفى بنحوه.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣٢٩/١، ٣٣٠]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الفقيه بالريّ، حدثنا أبو بكر محمد بن الفرج الأزرق، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان أبو معاوية عن أشعث بن أبي الشعثاء عن أبي بردة عن أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضيف.

وهذا غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه وإسناده جيد.

وروى محمد بن سعد [الطبقات: ٣٦٣/١]، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن موسى بن يعقوب الزمعي عن سهل مولى غنيمة، أنه كان نصرانياً من أهل مريس، وأنه كان في حجر عمه، أو أمه قال: قرأت يوماً في مصحف لعمي، فإذا فيه ورقة بغير الخط وإذا فيها نعت محمد ﷺ: لا قصير ولا طويل أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصاً مرقوعاً، ومن فعل ذلك فقد بريء من الكبر، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد. قال: فلما جاء عمي ورآني قد قرأتها ضربني وقال: ما لك وفتح هذه؟ فقلت: إن فيها نعت أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد.

وقال الإمام أحمد [١١٢/٣]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عمرو عن سعيد عن أنس قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. وذكر الحديث.

ورواه مسلم [٢٣١٦] عن زهير بن حرب عن إسماعيل بن علية به.

وقال الترمذي في الشمائل [١١٥]: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود عن شعبة عن الأشعث بن سليم، قال سمعت عمتي تحدث عن عمها قال: بينا أنا أمشي بالمدينة إذا إنسان خلفي يقول: «ارفع إزارك فإنه أتقى وأبقى»، فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول إنما هي بردة ملحاء، فقال: «أما لك في أسوة» فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه.

ثم قال [الشمائل (١١٥)]: حدثنا سويد بن نصر، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن موسى بن عبيدة عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: كان عثمان بن عفان متزراً إلى أنصاف ساقيه قال: هكذا كانت إزرة صاحبي ﷺ.

وقال أيضاً [الشمائل (٣٢)]: حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا وكيع، حدثنا الربيع بن صبيح، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر القناع، كأن ثوبه ثوب زيات.

وهذا فيه غرابة ونكارة والله أعلم.

وروى البخاري [٦٢٤٧] عن علي بن الجعد عن شعبة عن سيّار أبي الحكم عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ مرَّ على صبيان يلعبون فسلم عليهم.

ورواه مسلم [(٢١٨٦) (١٥)] من وجه آخر عن شعبة.

١٩- ذكر مزاحه ﷺ

وقال ابن لهيعة: حدثني عمارة بن غزية عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع صبي [دلائل البيهقي: ١/٢٣١، من طريق ابن لهيعة، به].

وقد تقدم حديثه في ملاعبته أخاه أبا عمير، وقوله: «أبا عمير ما فعل النغير»، يذكره بموت نُغَر كان يلعب به ليخرجه بذلك كما جرت به عادة الناس من المداعبة مع الأطفال الصغار.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٦٧]: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد بن عبد الله، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله فقال رسول الله ﷺ: «إنا حاملوك على ولد ناقة»، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق».

ورواه أبو داود [٤٩٩٨] عن وهب بن بقية، والترمذي [١٩٩١] عن قتيبة كلاهما عن خالد بن عبد الله الواسطي الطحان به، وقال الترمذي: صحيح غريب.

وقال أبو داود في هذا الباب [٤٩٩٩]: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن العيزار بن حُريث، عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً على رسول الله ﷺ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فجعل النبي ﷺ يحجزه وخرج أبو بكر مغضباً، فقال رسول الله ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيتِ أنقذتك من الرجل؟» فمكث أبو بكر أياماً ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا قد فعلنا».

وقال أبو داود [٥٠٠٠]: حدثنا مؤمل بن الفضل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن العلاء عن بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولاني عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت رسول الله في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فسلمت فرد وقال: «ادخل»، فقلت: أكلي يا رسول الله؟ قال: «كلك»، فدخلت.

وحدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد، ثنا عثمان بن أبي العاتكة إنما قال: أدخل كلي من صغر القبة [د (٥٠٠١)].

ثم قال أبو داود [٥٠٠٢]: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا شريك عن عاصم عن أنس قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا ذا الأذنين».

قلت: ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد [٣/١٦١]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن ثابت عن أنس: أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً وكان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: «إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه»، وكان رسول الله ﷺ يحبه وكان رجلا دميماً فأتاه رسول الله ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟» فقال: يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسدٍ - أو قال: - لكن عند الله أنت غالٍ».

وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيحين ولم يروه إلا الترمذي في الشمائل [٢٣١] عن إسحاق بن منصور عن عبد الرزاق.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٥٧٩٠)].

ومن هذا القبيل ما رواه البخاري من صحيحه [٦٧٨٠] أن رجلا كان يقال له عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يضحك النبي ﷺ، وكان يؤتى به في الشراب، فجيء به يوماً فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

ومن هذا ما قال الإمام أحمد [٣/١٨٧]: حدثنا حجاج، حدثني شعبة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ كان في مسير وكان حادٍ يحدو بنسائه أو سائق، قال: فكان نساؤه يتقدمن بين يديه، فقال: «يا أنجشة ويحك، ارفق بالقوارير».

وهذا الحديث في الصحيحين [خ (٦١٤٩)، م (٢٣٢٣)] عن أنس، قال: كان للنبي ﷺ حاد يحدو بنسائه يقال له أنجشة، فحدا فأعنقت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير».

ومعنى القوارير: النساء وهي كلمة دعابة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

ومن مكارم أخلاقه ودعابته وحسن خلقه: استماعه عليه الصلاة والسلام حديث أم زرع من عائشة بطوله [خ (٥١٨٩)، م (٢٤٤٨)]، ووقع في بعض الروايات [س كبرى (٩١٣٧، ٩١٣٨)] أنه عليه الصلاة والسلام هو الذي قصه على عائشة.

ومن هذا ما رواه الإمام أحمد [٦/١٥٧]: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عقيل - يعني عبد الله بن عقيل الثقفي - ثقة، حدثنا مجالد بن سعيد عن عامر عن مسروق عن عائشة قالت: «حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثا، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرين ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا من عذرة أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهم دهراً طويلا، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة».

وقد رواه الترمذي في الشمائل [٢٤٢] عن الحسن بن الصباح البزار عن أبي النضر هاشم بن القاسم به.

قلت: وهو من غرائب الأحاديث وفيه نكارة ومجالد بن سعيد يتكلمون فيه فالله أعلم.

وقال الترمذي في باب مزاح النبي ﷺ من كتابه الشمائل [٢٣٢]: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع لي أن يدخلني الله الجنة، قال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت العجوز تبكي، فقال «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى

يقول ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ [الواقعة: ٧٥].

وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقال الترمذي [٢٢٩]: حدثنا عباس بن محمد الدوري، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

تداعبنا ـ يعني تمازحنا ـ وهكذا رواه الترمذي في جامعه [١٩٩٠] في باب البر بهذا الإسناد ثم قال: وهذا حديث حسن صحيح.

٢٠- باب زهده ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث:

فقال يعقوب بن سفيان: حدثني أبو العباس حيوة بن شريح، أخبرنا بقية عن الزبيدي عن الزهري عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث أن الله أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة معه جبريل، فقال الملك لرسوله: «إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً وبين أن تكون ملكاً نبياً» فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل إلى رسول الله ﷺ أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: «بل أكون عبداً نبياً»، قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً حتى لقي الله عز وجل».

وهكذا رواه البخاري في التاريخ [التاريخ الكبير: ١/١٢٤] عن حيوة بن شريح، وأخرجه النسائي [كبرى (٦٧٤٣)] عن عمرو بن عثمان كلاهما عن بقية بن الوليد به، وأصل هذا الحديث في الصحيح بنحو من هذا اللفظ.

وقال الإمام أحمد [١/٢٣١]: حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة ـ ولا أعلمه إلا عن أبي هريرة ـ قال: جلس جبريل إلى رسول الله ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك: أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً.

هكذا وجدته بالنسخة التي عندي بالمسند مقتصراً وهو من إفراده من هذا الوجه.

وثبت في الصحيحين [خ (٤٩١٣)، م (١٤٧٩)] من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب في حديث إيلاء رسول الله ﷺ من أزواجه أن لا يدخل عليهن شهراً واعتزل عنهن في عُلّيّة، فلما دخل عليه عمر في تلك العُلّيّة فإذا ليس فيها سوى صُبرة من قرظ، وأهبة معلقة، وصبرة من شعير، وإذا هو ﷺ مضطجع على رُمال حصير قد أثر في جنبه، فهملت عينا عمر، فقال: ما لك؟»، فقلت: يا رسول الله أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هما فيه، فجلس محمراً وجهه فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وفي رواية لمسلم [(١٤٧٩) (٣١)]: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «فاحمد الله عز وجل» ثم لما انقضى الشهر أمره الله عز وجل أن يخير أزواجه وأنزل عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقد ذكرنا هذا مبسوطاً في كتابنا التفسير وأنه بدأ بعائشة، فقال لها: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك»، وتلا عليها هذه الآية، قالت: فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟! فإني أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ورضي عنهن.

وقال مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مَرْمول بالشريط، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، ودخل عليه عمر وناس من الصحابة فانحرف رسول الله ﷺ انحرافة، فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى، فقال له: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: وما لي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى؟! فقال: «يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال: بلى، قال: «هو كذلك» هكذا رواه البيهقي [الدلائل: ١/٣٣٧].

وقال الإمام أحمد [٣/١٣٩، ١٤٠]: حدثنا أبو النضر حدثنا مبارك عن الحسن عن أنس بن مالك قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مضطجع مزمل بشريط وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف فدخل عليه نفر من أصحابه، ودخل عمر فانحرف رسول الله ﷺ انحرافة فلم ير عمر بين جنبه وبين الشريط ثوباً وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ، فبكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: والله ما أبكي إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله من كسرى وقيصر وهما يعيشان في الدنيا فيما يعيشان فيه وأنت يا رسول الله في المكان الذي أرى! فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال: بلى، قال «فإنه كذلك».

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٢٧٧)]: حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ألا آذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه؟ فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

ورواه ابن ماجه [٤١٠٩] عن يحيى بن حكيم عن أبي داود الطيالسي به.

وأخرجه الترمذي [٢٣٧٧] عن موسى بن عبد الرحمن الكندي عن زيد بن الحباب كلاهما عن المسعودي به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد رواه الإمام أحمد [١/٣٠١] من حديث ابن عباس، فقال: حدثنا

عبد الصمد وأبو سعيد وعفان قالوا: حدثنا ثابت، حدثنا هلال عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال: «ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها». تفرد به أحمد.

وفي صحيح البخاري [٦٤٤٥] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لي مثل أحدٍ ذهباً ما سرّني أن تأتي عليّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدَيْن».

وفي الصحيحين [خ (٦٤٦٠)، م (١٠٥٥) (١٢٦)] من حديث عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

فأما الحديث الذي رواه ابن ماجه [٤١٢٦] من حديث يزيد بن سنان عن أبي المبارك عن عطاء عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»، فإنه حديث ضعيف لا يثبت من جهة إسناده لأن فيه يزيد بن سنان أبا فروة الرهاوي وهو ضعيف جداً والله أعلم.

وقد رواه الترمذي [٢٣٥٢] من وجه آخر فقال: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الكوفي، حدثنا ثابت بن محمد العابد الكوفي، حدثنا الحارث بن النعمان الليثي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة حبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة». ثم قال هذا حديث غريب.

قلت: وفي إسناده ضعف وفي متنه نكارة والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٥/٣٣٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو عبد الرحمن ـ يعني ـ عبد الله بن دينار عن أبي حازم عن سهل بن سعد أنه قيل له: هل رأى رسول الله ﷺ النَّقِيَّ بعينه ـ يعني الحُوّارَى ـ فقال له ما رأى رسول الله النقي بعينه حتى لقي الله عز وجل، فقيل له: هل كانت لكم مناخل على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: ما كانت لنا مناخل، فقيل له: فكيف كنتم تصنعون بالشعير؟ قال: ننفخه فيطير ما طار.

وهكذا رواه الترمذي [٢٣٦٤] من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار به. وزاد: ثم نثريه ونعجنه، ثم قال: حسن صحيح. وقد رواه مالك عن أبي حازم.

قلت: وقد رواه البخاري [٥٤١٠] عن سعيد بن أبي مريم عن محمد بن مطرف أبي غسان المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد به.

ورواه البخاري [٥٤١٣] أيضا والنسائي عن شيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن القاري عن أبي حازم عن سهل به.

وقال الترمذي [٢٣٥٩]: حدثنا عباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا جرير بن عثمان عن سليم بن عامر سمعت أبا أمامة يقول: ما كان يفضل عن أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير. ثم قال: حسن صحيح غريب.

وقال الإمام أحمد [٢/٤٣٤]: حدثنا يحيى بن سعيد عن يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم قال: رأيت أبا هريرة يشير باصبعه مراراً: والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

ورواه مسلم [(٢٩٧٦) (٣٢، ٣٣)] والترمذي [٢٣٥٨] وابن ماجه [٣٣٤٣] من حديث يزيد بن كيسان.

وفي الصحيحين [خ (٥٤١٦)، م (٢٩٧٠) (٢٠)] من حديث جرير بن عبد الحميد عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قال: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدموا المدينة ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله.

وقال الإمام أحمد [٦/١٥٦]: حدثنا هشام، حدثنا محمد بن طلحة عن أبي حمزة عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ثلاثاً من خبز بر حتى قبض وما رفع من مائدته كسرة قط حتى قبض.

وقال أحمد [٦/٢٥٥]: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مطيع الغزال عن كردوس عن عائشة قالت: قد مضى رسول الله ﷺ لسبيله وما شبع أهله ثلاثة أيام من طعام بُرّ.

وقال الإمام أحمد [٦/٧١]: حدثنا حسين، حدثنا دُويد عن أبي سهل عن سليمان بن رومان ـ مولى عروة ـ عن عائشة أنها قالت: والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلاً ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قبض. قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أفّ.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وروى البخاري [٥٤٢٣] عن محمد بن كثير عن الثوري عن عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة عن أبيه عن عائشة قالت: إن كنا لنخرج الكُراع بعد خمسة عشر يوماً فنأكله، قلت: ولم تفعلون ذلك؟ فضحكت وقالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرٍّ مادوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل.

وقال أحمد [٦/٥٠]: حدثنا يحيى، حدثنا هشام، أخبرني أبي عن عائشة قالت: كان يأتي على آل محمد الشهر ما يوقدون فيه ناراً ليس إلا التمر والماء إلا أن نؤتى باللحم».

وفي الصحيحين [خ (٦٤٥٨)، م (٢٩٧٢) (٢٦)] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: (إن كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد ناراً إنما هو الأسودان: التمر والماء إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلى رسول الله ﷺ بلبن منائحهم فيشرب ويسقينا من ذلك اللبن.

ورواه أحمد عن يزيد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عنها بنحوه.

وقال الإمام أحمد [٦/٧١، ٨٦]: حدثنا علي بن عياش وحسين بن محمد قالا: حدثنا محمد بن مطرف، حدثنا أبو حازم قال حسين: عن عروة عن عائشة قالت: كان يمر برسول الله ﷺ هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار قلت: يا خالة على أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين التمر والماء.

تفرد به أحمد.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (١٣٨٩)] عن شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن الأسود عن عائشة قالت: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض.

وقد رواه مسلم [(٢٩٧٠) (٢٢)] من حديث شعبة.

وقال الإمام أحمد [٦/٢١٧]: حدثنا إسماعيل حدثني سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: قالت عائشة: بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلا فامسك رسول الله ﷺ وقطعتُ، أو امسكت وقطع. فقال الذي تحدثه: على غير مصباح؟ فقالت لو كان عندنا مصباح لأتدمنا به إن كان

ليأتي على آل محمد الشهر ما يخبزون خبزاً ولا يطبخون قدراً.

وقد رواه أيضاً عن بهز بن أسد عن سليمان بن المغيرة، وفي رواية [المسند ٦/٩٤]: شهرين.

تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٢/٤٠٥]: حدثنا خلف، حدثنا أبو معشر عن سعيد - هو ابن أبي سعيد - عن أبي هريرة قال: كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلال لا يوقدون في بيوتهم النار لا لخبز ولا لطبيخ، قالوا: بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ قال: الأسودان؛ التمر والماء، وكان لهم جيران من الأنصار جزاهم الله خيراً لهم منائح يرسلون إليهم شيئاً من لبن.

تفرد به أحمد.

وفي صحيح مسلم [(٢٩٧٥) (٣٠)] من حديث منصور بن عبد الرحمن الحجبي عن أمه عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ وقد شبع الناس من الأسودين: التمر والماء.

وقال ابن ماجه [٤١٥٠]: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: «أُتيَ رسول الله ﷺ يوماً بطعام سخن فأكل فلما فرغ قال: «الحمد لله» مادخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا».

وقال الإمام أحمد [٣/٢١٣]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمار أبو هاشم صاحب الزعفراني عن أنس بن مالك «أن فاطمة ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز شعير فقال: «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام».

تفرد به أحمد.

وروى الإمام أحمد [١/٢٥٥] عن عفان والترمذي [٢٣٦٠] وابن ماجه [٣٣٤٧] جميعاً عن عبد الله بن معاوية كلاهما عن ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب العبدي الكوفي عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لايجدون عشاء، وكان عامة خبزهم خبز الشعير».

وهذا لفظ أحمد.

وقال الترمذي في الشمائل [١٧٦]: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث عن أبيه عن محمد بن أبي يحيى الأسلمي عن يزيد بن أبي أمية الأعور عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «رأيت رسول الله ﷺ أخذ كسرة من خبز الشعير فوضع عليها تمرة، وقال: «هذه إدام هذه» وأكل.

وفي الصحيح [مسند أحمد: ٦/٣٨، ت (١٨٩٥)] من حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد».

وقال أبو عصام من حديث قتادة، عن أنس قال: ما أعلم رسول الله ﷺ يتنفَّس في الشراب ثلاثاً ويقول: «هو أروى وأبرأ وأمري» [م (٢٠٢٨) (١٢٣)].

وروى البخاري [٦٤٥٧] من حديث قتادة عن أنس قال: ما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله، ولاشاة سميطاً بعينه قط.

وفي رواية له [خ (٥٤١٥)] عنه أيضاً: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، فقلت لأنس: فعلى ما كانوا يأكلون؟ قال: على السُفَر.

وله [خ (٢٠٦٩)] من حديث قتادة أيضاً عن أنس: أنه مشى إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخة ولقد رهن درعه عند يهودي فأخذ لأهله شعيراً، ولقد سمعته ذات يوم يقول: ما أمسى عند آل محمد صاع تمر ولاصاع حب».

وقال الإمام أحمد [٣/٢٧٠]: حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضَفَفٍ.

ورواه الترمذي في الشمائل [٣٦٠] عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن عفان، وهذا الإسناد على شرط الشيخين.

وقال أبو داود الطيالسي [٥٨]: حدثنا شعبة عن سماك بن حرب، سمعت النعمان بن بشير يقول: سمعت عمر بن الخطاب يخطب. فذكر ما فتح الله على الناس، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يلتوي من الجوع ما يجد من الدّقل ما يملأ بطنه.

وأخرجه مسلم [(٢٩٧٨) (٣٦)] من حديث شعبة.

وفي الصحيح [خ (٣٥٧٨)] أن أبا طلحة قال: يا أم سليم، لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ أعرف فيه الجوع. وسيأتي الحديث في دلائل النبوة.

وفي قصة أبي الهيثم بن التيهان: أن أبا بكر وعمر خرجا من الجوع فبينما هما كذلك إذ خرج رسول الله ﷺ، فقال: «ماأخرجكما؟» فقالا: الجوع، فقال: «والذي نفسي بيده لقد أخرجني الذي أخرجكما»، فذهبوا إلى حديقة أبي الهيثم بن التيهان فأطعمهم رطباً وذبح لهم شاة فأكلوا وشربوا الماء البارد، وقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه» [الدلائل للبيهقي: ١/٣٥٩ - ٣٦٢ من طرق، والترمذي (٢٣٦٩) (٢٣٧٠) وأخرجها مسلم (٢٠٣٨) بنحوه ولم يذكر أبا الهيثم بن التيهان].

وقال الترمذي [٢٣٧١]: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا يزيد بن سهل بن أسلم، عن يزيد بن أبي منصور عن أنس عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين، ثم قال: غريب.

وثبت في الصحيحين [خ (٦٤٥٦)، م (٢٠٨٢) (٣٨)] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سئلت عن فراش رسول الله ﷺ فقالت: كان من أدم حشوة ليف.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا عباد بن عباد المهلبي عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوة الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله: فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال «رديه» قالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت: فقال: «رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال من الذهب والفضة».

وقال الترمذي في الشمائل [٣١٤]: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى البصري، حدثنا عبد الله بن ميمون، حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال: سئلت عائشة: ما كان فراش رسول الله ﷺ في بيتك؟ قالت: من أدم حشوه ليف، وسئلت حفصة ما كان فراش رسول الله ﷺ؟ قالت: مسح نثنيه ثنيتين فينام عليه، فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته بأربع ثنيات كان أوطأ له، فثنيناه له بأربع ثنيات، فلما أصبح قال: «ما فرشتموني الليلة؟» قالت: قلنا: هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات قلنا: هو أوطأ لك. قال:

«ردوه لحالته الأولى، فإنه منعتني وطأته صلاتي الليلة».

وقال الطبراني [المعجم الكبير (٢١٦/٣)]: حدثنا محمد بن أبان الأصبهاني، حدثنا محمد بن عبادة الواسطي، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن حكيم بن حزام قال: خرجت إلى اليمن فابتعت حلة ذي يزن فأهديتها إلى النبي ﷺ في المدة التي كانت بينه وبين قريش فقال: «لا أقبل هدية مشرك» فردها، فبعتها فاشتراها فلبسها ثم خرج على أصحابه وهي عليه فما رأيت شيئاً في شيء أحسن منه فيها، فما ملكت نفسي أن قلت:

مَا يَنْظُرِ الحُكَّامُ بِالفَضْلِ بَعْدَمَا ... بَدَا واضحٌ مِنْ غُرَّةٍ وحُجُولِ

إذَا قَايَسُوهُ الجِدّ أَرْبى عَلَيهِمُ ... كَمُسْتَفْرِغٍ مَاءَ الذِّنَابِ سَجِيلِ

فسمعها النبي ﷺ فالتفت إلي يتبسم ثم دخل فكساها أسامة بن زيد.

وقال الإمام أحمد [٣١٤/٦]: حدثني حسين بن علي عن زائدة عن عبد الملك بن عمير قال: حدثني عن ربعي بن خراش عن أم سلمة قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وهو ساهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من وجع، فقلت: يا رسول الله أراك ساهم الوجه، أفمن وجع؟ فقال: «لا، ولكن الدنانير السبعة التي أتينا بها أمس أمسينا ولم ننفقها نسّيتها في خُصْمِ الفراش».

تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [١٠٤/٦]: حدثنا أبو سلمة، قال: أخبرنا بكر بن مضر، حدثنا موسى بن جبير عن أبي أمامة بن سهل قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير يوماً على عائشة فقالت: لو رأيتما نبي الله ﷺ ذات يوم في مرض مرضه؟ قالت: وكان له عندي ستة دنانير، قال موسى: أو سبعة، قالت: فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، قالت: فشغلني وجع نبي الله ﷺ حتى عافاه الله عز وجل، قالت: ثم سألني عنها فقال: «ما فعلت الستة؟» قال: «أو السبعة» قلت: لا والله لقد شغلني عنها وجعك، قالت: فدعا بها ثم صفها في كفه، فقال: «ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده».

تفرد به أحمد.

وقال قتيبة: حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغد. وهذا الحديث في الصحيح [هو في الترمذي (٢٣٦٢) عن قتيبة، به].

والمراد أنه كان لا يدخر شيئا لغد مما يسرع إليه الفساد كالأطعمة ونحوها لما ثبت في الصحيحين [خ (٢٩٠٤)، م (١٧٥٧) (٤٨)] عن عمر أنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب فكان يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عُدّة في سبيل الله عز وجل. ومما يؤيد ما ذكرناه ما:

رواه الإمام أحمد [١٩٨/٣]: حدثنا مروان بن معاوية، قال: أخبرني هلال بن سويد أبو يعلى قال: سمعت أنس بن مالك وهو يقول: أهديت للنبي ﷺ ثلاثة طوائر فأطعم خادمه طائراً فلما كان من الغد أتته به، فقال لها رسول الله ﷺ: «ألم أنهك أن ترفعي شيئاً لغدٍ؛ فإن الله عز وجل يأتي برزق كل غدٍ».

حديث بلال في ذلك:

قال البيهقي: حدثنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا أبو محمد جعفر بن نصير، حدثنا إبراهيم بن عبد الله البصري، حدثنا بكار بن محمد، أخبرنا عبد الله بن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ دخل على بلال فوجد عنده صُبراً من تمر، فقال: «ما هذا يا بلال؟» قال: تمر ادخره، قال: «ويحك يا بلال! أو ما تخاف أن تكون له بخار في النار! أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً».

قال البيهقي [الدلائل: ٣٤٧/١] بسنده عن أبي داود السجستاني وأبي حاتم الرازي كلاهما عن أبي توبة الربيع بن نافع، حدثني معاوية بن سلام عن زيد بن سلام، حدثني عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالا مؤذن رسول الله ﷺ بحلب، فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ فقال: ما كان له شيء من ذلك إلا أنا الذي كنت ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفي، فكان إذا أتاه الإنسان المسلم فرآه عارياً، يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري البردة والشيء فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال، إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة فإذا المشرك في عصابة من التجار، فلما رآني قال: ياحبشي، قال: قلت يا لبيه، فتجهمني، وقال قولا عظيماً أو غليظاً، وقال: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع ليال فآخذك بالذي لي عليك،، فإني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك ولا من كرامة صاحبك، وإنما أعطيتك لتَجبَ لي عبداً فأذرك ترعى في الغنم كما كنت قبل ذلك، قال: فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، فانطلقت فناديت بالصلاة حتى إذا صليت العتمة ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فاستأذنت عليه فأذن لي، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي ذكرت لك أني كنت أتدين منه قد قال كذا وكذا، وليس عندك ما يقضي عني، ولاعندي، وهو فاضحي، فأذن لي أن آتي إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني، فخرجت حتى أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ورمحي ونعلي عند رأسي، فاستقبلت بوجهي الأفق فكلما نمت انتبهت فإذا رأيت عليّ ليلاً نمت حتى انشق عمود الصبح الأول فأردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال أجب رسول الله ﷺ، فانطلقت حتى أتيته، فإذا أربع ركائب عليهن أحمالهن فأتيت رسول الله ﷺ فاستأذنت، فقال لي رسول الله ﷺ: «أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك»، فحمدت الله وقال: «ألم تمر على الركائب المناخات الأربع؟» قال: قلت: بلى، قال: «فإن لك رقابهن وما عليهن» - فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن له عظيم فدك- «فاقبضهن إليك ثم اقض دينك»، قال: ففعلت فحططت عنهن أحمالهن ثم عقلتهن ثم عمدت إلى تأذين صلاة الصبح حتى إذا صلى رسول الله ﷺ خرجت إلى البقيع، فجعلت أصبعي في أذني فناديت فقلت: من كان يطلب من رسول الله ﷺ ديناً فليحضر، فما زلت أبيع وأقضي وأعرض وأقضي حتى لم يبق على رسول الله ﷺ دين في الأرض حتى فضل عندي أوقيتان أو أوقية ونصف، ثم انطلقت إلى المسجد وقد ذهب عامة النهار، فإذا رسول الله ﷺ قاعد في المسجد وحده، فسلمت عليه، فقال لي: «ما فعل ما قِبَلَكَ؟» قلت: قضى الله كل شيء كان على رسول الله ﷺ فلم يبق شيء، قال: «فَضَل شيء؟» قلت: نعم ديناران، قال: «انظر أن تريحني منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما».

قال: فلم يأتنا أحد، فبات في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما

فكسوتهما وأطعمتهما، حتى إذا صلى العتمة دعاني فقال: «ما فعل الذي قِبَلَك؟» قلت: قد أراحك الله منه، فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته، فهذا الذي سألتني عنه.

وقال الترمذي في الشمائل [٣٤٠]: حدثنا هارون بن موسى بن أبي علقمة المديني، حدثني أبي عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال: «ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءني شيء قضيته»، فقال عمر: يا رسول الله قد أعطيته، فما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، وعُرف التبسُّم في وجهه لقول الأنصاري وقال: «بهذا أمرت».

وفي الحديث «ألا إنهم ليسألوني ويأبى الله لِيَ البخل» [مسند احمد: ١٦/٣، بنحوه].

وقال يوم حنين حين سألوه قسم الغنائم: «والله لو أن عندي عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها فيكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً» ﷺ [خ (٢٨٢١، ٣١٤٨)].

وقال الترمذي [٣٤١]: حدثنا علي بن حجر، حدثنا شريك عن عبيد الله بن محمد بن عقيل عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: أتيت رسول الله ﷺ بقناع من رطب وأجرز زُغْب فأعطاني ملء كفه حلياً أو ذهباً.

وقال الإمام أحمد [٧/٣]: حدثنا سفيان عن مطرِّف عن عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر» قال المسلمون: يا رسول الله فما نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا».

ورواه الترمذي [٢٤٣١، ٣٢٤٣] عن ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن مطرف. ومن حديث خالد بن طهمان كلاهما عن عطية وهو ابن سعيد العوفي الجَدَلي، وأبو الحسن الكوفي عن أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي حسن.

قلت. وقد روي من وجه آخر عنه من حديث ابن عباس كما سيأتي في موضعه.

٢١- ومن تواضعه ﷺ

قال أبو عبد الله بن ماجه [٤١٢٧]: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد العنقزي، حدثنا أسباط بن نصر عن السدي عن أبي سعد الأزدي - وكان قارىء الأزد - عن أبي الكنود عن خباب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٢].

قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول رسول الله ﷺ حقروهم، فأتوا فخلوا به فقالوا: إنّا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٥٣].

ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤] قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني عيينة والأقرع ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨]قال: هلاكاً، قال: أمْرُ عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا.

قال خباب: فكنا نقعد مع رسول الله ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي يقوم قمنا وتركناه حتى يقوم.

ثم قال ابن ماجه [٤١٢٨]: حدثنا يحيى بن حكيم حدثنا أبو داود، حدثنا قيس بن الربيع عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد قال: نزلت هذه الآيه فينا ستة، فيَّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال. قال: قالت قريش: يا رسول الله إنا لانرضى أن نكون أتباعاً لهم فاطردهم عنك، قال: فدخل قلبَ رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآيه.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٥١/١]: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي، حدثنا أبو الحسين خلف بن محمد الواسطي كردوس، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا المعلى بن زياد - يعني عن العلاء بن بشير المازني - عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في عصابة من المهاجرين جالساً معهم وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارىء لنا يقرأ علينا، فكنا نسمع إلى كتاب الله فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من امرت أن أصْبِرَ معهم نفسي» قال: ثم جلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بيننا نفسه فينا ثم قال بيده هكذا. قال: فاستدارت الحلقة وبرزت وجوههم، قال: فما عرف رسول الله ﷺ أحداً منهم غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وذلك خمسمائة عام».

وقد روى الإمام أحمد [١٣٢/٣، ١٥١] وأبو داود [لم يخرجه] والترمذي [٢٧٥٤] من حديث حماد بن سلمة عن حميد عن أنس.قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك.

٢٢- عبادته ﷺ واجتهاده في ذلك

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لايصوم [خ (١٩٦٩)، م (١١٥٦)].

وكان لا تشاء تراه من الليل قائماً إلا رأيته، ولا تشاء تراه نائماً إلا رأيته [خ (١١٤١)].

قالت: وما زاد رسول الله ﷺ في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يوتر بثلاث [خ (١١٤٧)، م (٧٣٨)].

قالت: وكان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها [م (٧٣٣)، ت (٣٧٣)، س (١٦٥٧)].

قالت: ولقد كان يقوم حتى أرثي له من شدة قيامه.

وذكر ابن مسعود أنه صلى معه ليلة فقرأ في الركعة الأولى بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع قريباً من ذلك، ورفع نحوه وسجد نحوه [م (٧٧٢)، من حديث حذيفة].

وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قام ليلة حتى أصبح يقرأ هذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] رواه أحمد [١٤٩/٥، ١٥٦، ١٧٠، مطولاً].

وكل هذا في الصحيحين [خ (٤٨٣٦)، م (٢٨١٩)] وغيرهما من الصحاح، وموضع بسط هذه الأشياء في كتاب الأحكام الكبير.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٨٣٦)، م (٢٨١٩)] من حديث سفيان بن عيينة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وتقدم في حديث سلاّم بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «حبب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد [١٩٩/٣] والنسائي [٣٩٤٩].

وقال الإمام أحمد [٢٥٥/١]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة. أخبرني علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن جبريل قال لرسول الله ﷺ: «إنه قد حبب إليك الصلاة فخذ منها ما شئت».

وثبت في الصحيحين [خ (١٩٤٥)، م (١١٢٢)] عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ، وعبد الله بن رواحة.

وفي الصحيحين [خ (١٩٨٧)، م (٧٨٣)] من حديث منصور عن إبراهيم عن علقمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمة. وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟

وثبت في الصحيحين [خ (١٩٦١)، م (١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٥)] من حديث أنس وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم: «أن رسول الله ﷺ كان يواصل ونهى أصحابه عن الوصال وقال: «إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

والصحيح أن هذا الإطعام والسقيا معنويان كما ورد في الحديث الذي رواه ابن ماجه [٣٤٤٤] أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب؛ فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

وما أحسن ما قال بعضهم:

لها أحاديثُ مِنْ ذِكْراكَ تشغَلُها عَنِ الشرابِ وتُلهيها عَنِ الزادِ

وقال النضر بن شميل، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة».

وروى البخاري، عن الفريابي، عن الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحبُّ أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١]. قال: «حَسْبُك». فالتفتُ فإذا عيناه تذرفان.

وثبت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام، كان يجدُ التمرةَ على فراشه فيقول: «لولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتُها».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، ثنا أسامة بن زيد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ وجد تحت جنبه تمرةً من الليل، فأكلها، فلم ينَمْ تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله، أرقتَ الليلة. قال: «إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها، وكان عندنا تمرٌ من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه». تفرد به أحمد. وأسامة بن زيد هو الليثيُّ؛ من رجال مسلم. والذي نعتقد: أن هذه التمرة لم تكن من تمر الصدقة؛ لعصمته، عليه الصلاة والسلام، ولكن من كمال وَرَعه، عليه الصلاة والسلام، أرق تلك الليلة.

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بما أتَّقي». وفي الحديث الآخر أنه قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن مطرِّف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل. وفي رواية: وفي صدره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحى من البكاء.

وروى البيهقي من طريق أبي كريب محمد بن العلاء الهمداني، ثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله أراك شِبتَ. فقال: «شيَّبتْني هود والواقعة والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت».

وفي رواية له، عن أبي كريب، عن معاوية بن هشام، عن شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أسرع إليك الشَّيبُ. فقال: «شيَّبتْني هودٌ وأخواتُها؛ الواقعة، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمسُ كوِّرت».

٢٣- شجاعته ﷺ

ذكرنا في التفسير عن بعض من السلف أنه استنبط من قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤] أن رسول الله ﷺ كان مأموراً أن لا يفر من المشركين إذا واجهوه ولو كان وحده من قوله: ﴿لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه وسلم من أشجع الناس وأصبر الناس وأجلدهم، ما فر قط من مَصَافٍّ ولو تولى عنه أصحابه.

قال بعض الصحابة: كنا إذا اشتدت الحرب وحمي البأسُ، نتقي برسول الله ﷺ. ففي يوم بدر رمى ألف مشرك بقبضة من حصباء فنالتهم أجمعين حين قال: «شاهت الوجوه». وكذلك يوم حنين كما تقدم، وفرَّ أكثر أصحابه في ثاني الحال يوم أحد وهو ثابت في مقامه لم يبرح منه ولم يبق معه إلا اثنا عشر قتل منهم سبعة وبقي الخمسة. وفي هذا الوقت قتَل أُبيَّ بن خلف لعنه الله فعجَّله الله إلى النار.

ويوم حنين ولى الناس كلهم وكانوا يومئذ اثني عشر ألفاً وثبت هو في نحو من مائة من أصحابه وهو راكب يومئذ بغلته وهو يركض بها إلى نحو العدو، وهو ينوه باسمه الكريم ويعلن بذلك قائلاً: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». حتى جعل العباس وعلي وأبوسفيان بن الحارث يتعلقون في تلك البغلة ليبطئوا سيرها خوفاً عليه من أن يصل أحد من الأعداء إليه. وما زال كذلك حتى نصره الله وأيده في مقامه ذلك وما تراجع الناس إلا والأسارى مكبَّلة بين يده صلوات الله عليه وسلامه.

وقال أبو زرعة: حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي، حدثنا مروان - يعني ابن محمد - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «فضّلت على الناس بشدة البطش». [تاريخ بغداد للخطيب (٦٩/٨، ٧٠) وتاريخ دمشق ٢٢/٤، بنحوه]

٢٤- ما يذكر من صفاته ﷺ في الكتب المأثورة عن الأنبياء الأقدمين

قد أسلفنا طرفاً صالحاً من ذلك في البشارات قبل مولده، ونحن نذكر ههنا غرراً من ذلك:

فقد روى البخاري [٢١٢٥] والبيهقي [الدلائل: ٣٧٤/١] واللفظ له من حديث فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجلْ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النَّبيُّ إ نَّا أرسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخِبٍ بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء أن يقولوا: لا إله إلا الله وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صما، وقلوباً غلفاً.

قال عطاء بن يسار: ثم لقيت كعبا الحبر فسألته فما اختلفا في حرف إلا أن كعباً قال: أعيناً عُمُومَى وقلوباً غلوفى وآذاناً صَمُومى.

ورواه البخاري [٤٨٣٨] أيضاً عن عبد الله غير منسوب، قيل: هو ابن رجاء، وقيل: عبد الله بن صالح، وهو الأرجح، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن هلال بن علي به.

قال البخاري [٢١٢٥]: وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام. كذا علقه البخاري.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٣٧٦/١] من طريق يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو صالح - هو عبد الله بن صالح كاتب الليث - حدثني الليث، حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء: بأن يشهد أن لا إله إلا الله نفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً).

قال عطاء بن يسار: وأخبرني الليثي انه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام.

وقد روي عن عبد الله بن سلام من وجه آخر فقال الترمذي [٣٦١٧]: حدثنا زيد بن أخزم الطائي البصري، حدثنا أبو قتيبة - سَلْم بن قتيبة - حدثني أبو مودود المدني، حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال: «مكتوب في التوراة: صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه». فقال أبو مَوْدُود: وقد بقي في البيت موضع قبر.

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن.

هكذا قال: عثمان بن الضحاك. والمعروف الضحاك بن عثمان المدني، وهكذا حكى شيخنا الحافظ المزي في كتابه الأطراف [٣٥٦/٤] عن ابن عساكر أنه قال مثل قول الترمذي، ثم قال: وهو شيخ آخر أقدم من الضحاك بن عثمان ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه فيمن اسمه عثمان، فقد روي هذا عن عبد الله بن سلام، وهو من أئمة أهل الكتاب ممن آمن وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد كان له اطلاع على ذلك من جهة زاملتين كان أصابهما يوم اليرموك، فكان يحدث منهما عن أهل الكتاب، وعن كعب بن ماتع الحبر. وكان بصيراً بأقوال المتقدمين على ما فيها من خلط وغلط، وتحريف وتبديل، فكان يقولها بما فيها من غير نقد، وربما احسن بعض السلف بها الظن فنقلها عنه مسلمة، وفي ذلك من المخالفة لبعض ما بأيدينا من الحق جملةٌ كثيرةٌ، ولكن لا يتفطن لها كثير من الناس.

ثم ليعلم أن كثيراً من السلف يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب سواء كانت هذا الكتاب المتلوّ عندهم، أو أعم من ذلك، كما أن لفظ القرآن يطلق على كتابنا خصوصاً وقد يُستعمل ويراد به غيره، كما في الصحيح [خ (٤٧١٣)]: «خُفِّف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن مقدار ما يفرغ» وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣٧٦/١، ٣٧٧] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن أم الدرداء قالت: قلت لكعب الحبر: كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: نجده محمد رسول الله، اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، وأعطي المفاتيح ليُبصرَ الله به أعيناً عُوراً، ويسمع به آذاناً وُقراً، ويقيم به ألْسناً معوجةً حتى يشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له، يعين المظلوم ويمنعه.

وبه عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حريث عن عائشة: أن رسول الله ﷺ مكتوب في الإنجيل لا فظّ، ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها. بل يعفو ويصفح [الدلائل: ٣٧٧/١، ٣٧٨].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا فَيْضٌ البجلي، حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم. جد في امري ولا تهزل واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول، إني خلقتك من غير فحل، وجعلتك آيه للعالمين، فإياي فاعبد، وعليَّ فتوكل، فبين لأهل سوران بالسُّريانية، بلِّغ من بين يديك أني أنا الحق القائم الذي لا أزول، صدقوا بالنبي العربي، صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والمراوة، الجعد الرأس، الصلت الجبين، المقرون الحاجبين، الأنجل العينين، الأقنى الأنف الواضح الجبين الكث اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، ريحه المسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة، وكأن الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس على صدره ولا بطنه شعر

غيره، شثن الكفّ والقدم، إذا جاء مع الناس غمرهم، وإذا مشى كأنما يتقلع من الصخر وينحدر في صبب ذو النسل القليل.

وروى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٧٩/١] بسنده عن وهب بن منبه اليماني قال: إن الله عز وجل لما قرّب موسى نجياً، قال: رب إني أجد في التوراة أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة هم الآخرون من الأمم، السابقون يوم القيامة، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها، وكان مَن قبلَهم يقرؤون كتبهم نظراً ولا يحفظونها، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة يؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاتلون رؤوس الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون صدقاتهم في بطونهم وكان مَنْ قبلَهم إذا أخرج صدقته بعث الله عليها ناراً فأكلتها فإن لم تقبل لا تقربها النار، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة إذا هَمَّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة وإذا هَمَّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في التوراة أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد.

قال وذكر وهب بن منبه في قصة داود عليه السلام وما أوحي إليه في الزبور: يا داود: إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد، صادقاً سيداً، لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أمته مرحومة، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا لي لكل صلاة، كما افترضت على الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها،أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم: لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان،وكل ذنب ركبوه على غير عمد إن استغفروني منه غفرته لهم، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجّلته لهم أضعافاً مضاعفة ولهم في المذخور عندي أضعاف مضاعفة وأفضل من ذلك، وأعطيتهم على المصائب في البلايا إذا صبروا وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم، فإن دعوني استجبت لهم فإما أن يروه عاجلاً؛ وإما أن أصرف عنهم سوءاً وإما أن أدخره لهم في الآخرة.

يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها، فهو معي في جنتي وكرامتي، ومن لقيني وقد كذب محمداً وكذب بما جاء به، واستهزأ بكتابي صببت عليه في قبره العذاب صباً، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره من قبره، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٨٤/١، ٣٨٥]: أخبرنا الشريف أبو الفتح العمري، حدثنا عبد الرحمن بن أبي شريح الهروي، حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد، حدثنا عبد الله بن شبيب أبو سعيد الربعي حدثني محمد بن عمر بن إبراهيم - يعني ابن محمد بن جبير بن مطعم - قال: حدثتني أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيها عن أبيه قال: سمعت أبي جبير بن مطعم يقول: لما بعث الله نبيه ﷺ وظهر أمره بمكة، خرجت إلى الشام، فلما كنت ببصرى أتتني جماعة من النصارى فقالوا لي: أمن الحرم أنت؟ قلت: نعم، قالوا: فتعرف هذا الذي تنبأ فيكم؟ قلت: نعم، قال: فأخذوا بيدي فأدخلوني ديراً لهم فيه تماثيل وصور، فقالوا لي: انظر هل ترى صورة هذا النبي الذي بعث فيكم؟ فنظرت فلم أر صورته، قلت: لا أرى صورته، فأدخلوني ديراً أكبر من ذلك الدير، فإذا فيه تماثيل وصور أكثر مما في ذلك الدير، فقالوا لي: انظر هل ترى صورته؟ فنظرت فإذا أنا بصفة رسول الله ﷺ وصورته، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله ﷺ، فقالوا لي: هل ترى صفته؟ قلت: نعم، قالوا: أهو هذا؟ - وأشاروا إلى صفة رسول الله ﷺ - قلت: اللّهم نعم، أشهد أنه هو، قالوا: أتعرف هذا الذي آخذ بعقبه؟ قلت: نعم، قالوا: نشهد أن هذا صاحبكم وأن هذا الخليفة من بعده.

ورواه البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير: ١٧٩/١] عن محمد غير منسوب، عن محمد بن عمر هذا بإسناده فذكره مختصراً، وعنده فقالوا: إنه لم يكن نبي إلا بعده نبي إلا هذا النبي.

وقد ذكرنا في كتابنا التفسير عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ذكرنا ما أورده البيهقي وغيره من طريق أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر اجتماعهم به وأن غرفته تنفّضت حين ذكروا الله عز وجل، فأنزلهم في دار ضيافته ثم استدعاهم بعد ثلاث فدعا بشيء نحو الربعة العظيمة فيها بيوت صغار عليها أبواب، وإذا فيها صور الأنبياء ممثلة في قطع من حرير من آدم إلى محمد صلوات الله عليهم أجمعين، فجعل يخرج لهم واحداً واحداً ويخبرهم عنه، وأخرج لهم صورة آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم تعجل إخراج صورة رسول الله ﷺ، قال: ثم فتح باباً آخر فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا والله رسول الله ﷺ، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله، قال: وبكينا، قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كما ننظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم ذكر تمام الحديث في إخراجه بقية صور الأنبياء وتعريفه إياهما بهم، وقال في آخره: قلنا له: من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صُورت عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأنا رأينا صورة نبينا عليه الصلاة والسلام مثله، فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم فكانت في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي وأني كنت عبداً لأشركم مَلَكَةً حتى أموت، قال: ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - حدثناه بما رأينا وما قال لنا وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر فقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم.

وقال الواقدي: حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه، عن عامر بن

ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لايخفى عليك، قلت: هلم، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومُه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تُخدَعَ عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون: لم يبق نبي غيره.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت النبي ﷺ، قول زيد بن عمرو بن نفيل وأقرأته منه السلام، فرد عليه السلام وترحم عليه، وقال: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً».

٨- كتاب دلائل النبوة

١- القرآن العظيم

وهي معنوية وحسية:

فمن المعنوية: إنزال القرآن العظيم عليه، وهو أعظم المعجزات، وأبهر الآيات، وأبين الحجج الواضحات، لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، مع توافر دواعي أعدائه على معارضته. وفصاحتهم وبلاغتهم، ثم تحداهم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله، فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] وهذه الآية مكية.

وقال في سورة الطور وهي مكية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣]: أي إن كنتم صادقين في أنه قاله من عنده فهو بشر مثلكم فأتوا بمثل ما جاء به فإنكم بشرٌ مثله.

وقال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية - معيداً للتحدي - ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣،١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].

فبين تعالى أن الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن، بل عن عشر سور مثله، بل عن سورة منه، وأنهم لا يستطيعون ذلك أبداً كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي: فإن لم تفعلوا في الماضي ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل، وهذا تحدٍ ثان وهو أنه لا يمكن معارضته لهم لا في الحال ولا في المآل ومثل هذا التحدي إنما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الإتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض، فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له، ومعلوم لكل ذي لب أن محمداً ﷺ من أعقل خلق الله بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في نفس الأمر، فما كان ليقدم على هذا الأمر إلا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته، وهكذا وقع، فإنه من لدن رسول الله ﷺ وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه وهذا لا سبيل إليه أبداً، فإنه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فأنى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟ وقول كفار قريش الذي حكاه تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. كذب منهم ودعوى باطلة بلا دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان، ولو كانوا صادقين لأتوا بما يعارضه، بل هم يعلمون كذب أنفسهم، كما يعلمون كذب أنفسهم في قولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥] قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان: ٦] أي أنزله عالم الخفيات، رب الأرض والسموات، الذي يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، فإنه تعالى أوحى إلى عبده ورسوله النبي الأمي الذي كان لا يحسن الكتابة ولا يدريها بالكلية، ولا يعلم شيئاً من علم الأوائل وأخبار الماضين، فقص الله عليه خبر ما كان وما هو كائن على الوجه الواقع سواء بسواء، وهو في ذلك يفصل بين الحق والباطل الذي اختلفت في إيراده جملة الكتب المتقدمة، كما قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً. خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه: ٩٩-١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ. وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٥٢].

فبين الله تعالى أن إنزال هذا الكتاب المشتمل على علم ما كان وما يكون وحكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا النبي الأمي وحده، كاف في الدلالة على صدقه.

وقال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ. وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [يونس: ١٥ - ١٧] يقول لهم: إني لا أطيق تبديل هذا من تلقاء نفسي، وإنما الله عز وجل هو الذي يمحو ما يشاء ويثبت وأنا مبلغ عنه وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به، لأنني نشأت بين أظهركم وأنتم تعلمون نسبي وصدقي وأمانتي، وأني لم أكذب على أحد منكم يوماً من الدهر، فكيف يسعني أن أكذب على الله عز وجل، مالك الضر والنفع، الذي هو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم؟ وأي ذنب عنده أعظم من الكذب عليه، ونسبة ما ليس منه إليه، كما:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أي لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا عنه ويمنعنا منه.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وهذا الكلام فيه الإخبار بأن الله شهيد على كل شيء، وأنه تعالى أعظم الشهداء، وهو مطلع علي وعليكم فيما جئتكم به عنه، وتتضمن قوة الكلام قسماً به أنه قد أرسلني إلى الخلق لأنذرهم بهذا القرآن، فمن بلغه منهم فهو نذير له كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

ففي هذا القرآن من الأخبار الصادقة عن الله وملائكته وعرشه ومخلوقاته العلوية والسفلية كالسموات والأرضين وما بينهما وما فيهن أمور عظيمة كثيرة مبرهنة بالأدلة القطعية المرشدة إلى العلم بذلك من جهة العقل الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].

وفي القرآن العظيم الإخبار عما مضى على الوجه الحق وبرهانه ما في كتب أهل الكتاب من ذلك شاهداً له مع كونه نزل على رجل أمي لا يعرف الكتابة ولم يعان يوماً من الدهر شيئاً من علوم الأوائل ولا أخبار الماضين، فلم يفجأ الناس إلا بوحي إليه عما كان من الأخبار النافعة، التي ينبغي أن تذكر للاعتبار بها من أخبار الأمم مع الأنبياء، وما كان من أمورهم معهم، وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين، بعبارة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها أبد الآبدين، ودهر الداهرين، ففي مكان تقص القصة موجزة في غاية البيان والفصاحة، وتارة تبسط، فلا أحلى ولا أجلى ولا أعلى من ذلك السياق حتى كأن التالي والسامع مشاهد لما كان، حاضر له، معاين للخبر بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى في سورة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢-١٠٤] إلى أن قال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [طه: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢، ٥٣].

وعد تعالى أنه سيظهر آيات: القرآن وصدقه وصدق من جاء به بما يخلقه في الآفاق من الآيات الدالة على صدق هذا الكتاب وفي نفس المنكرين له المكذبين ما فيه حجة عليهم وبرهان قاطع لشبههم، حتى يستبينوا أنه منزل من عند الله على لسان الصادق، ثم أرشد إلى دليل مستقل بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] أي في العلم بأن الله يطلع على هذا الأمر كفاية في صدق هذا المخبر عنه؛ إذ لو كان مفترياً عليه لعاجله بالعقوبة البليغة كما تقدم بيان ذلك.

وفي هذا القرآن إخبار عما وقع في المستقبل طبق ما وقع سواء بسواء، وكذلك في الأحاديث حسب ما قررناه في كتابنا التفسير، وما سنذكره من الملاحم والفتن كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة.

وكذلك قوله تعالى في سورة اقتربت وهي مكية بلا خلاف: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦] وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك. إلى أمثال هذا من الأمور البينة الواضحة، وسيأتي فصل فيما أخبر به من الأمور التي وقعت بعده عليه الصلاة والسلام طبق ما أخبر به.

وفي القرآن الأحكام العادلة أمراً ونهياً، المشتملة على الحكم البالغة التي إذا تأملها ذو الفهم والعقل الصحيح قطع بأن هذه الأحكام إنما أنزلها العالم بالخفيات، الرحيم بعباده، الذي يعاملهم بلطفه ورحمته، وإحسانه، قال تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي.

وقال تعالى ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه.

وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] أي: العلم النافع والعمل الصالح.

وهكذا روي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال لكُمَيْل بن زياد: هو كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، وحكم ما بينكم، ونبأ ما بعدكم [ت (٢٩٠٦) وفيه أنه يوصي الحارث الأعور، لا كميل بن زياد). وقد بسطنا هذا كله في كتاب التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

فالقرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة: من فصاحته، وبلاغته، ونظمه، وتراكيبه، وأساليبه، وما تضمنه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجلية، والتحدي ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب، والتحدي بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة - وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء - يعم جميع أهل الأرض من الملتين أهل الكتابين وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من أصناف بني آدم في سائر الأقطار والأعصار.

وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إمكان ذلك، أو هو سلب قدرهم على ذلك،

فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق، خلقه اللّه في بعض الأجرام، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق، وقولهم: هذا كفر وباطل وليس بمطابق لما في نفس الأمر، بل القرآن كلام اللّه غير مخلوق، تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علواً كبيراً، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ولو تعاضدوا وتظاهروا على ذلك، بل لا تقدر الرسل الذين هم أفصح الخلق وأعلم الخلق وأكملهم، أن يتكلموا بمثل كلام اللّه.

وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول ﷺ عن اللّه، كلام له أسلوب لا يشبه أساليب كلام رسول اللّه ﷺ، وأساليب كلامه عليه الصلاة والسلام المحفوظة عنه بالسند الصحيح إليه لا يقدر أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه في فصاحته وبلاغته، فيما يرومه من المعاني بألفاظه الشريفة، بل وأسلوب كلام الصحابة أعلى من أساليب كلام التابعين، وهلم جرا إلى زماننا، وعلماء السلف أفصح وأعلم، وأقل تكلفاً، في أداء ما يريدونه من المعاني بألفاظهم من علماء الخلف وهذا يشهده من له ذوق بكلام الناس كما يدرك تفاوت ما بين أشعار العرب في زمن الجاهلية، وبين أشعار المولّدين الذين كانوا بعد ذلك.

ولهذا جاء الحديث الثابت في هذا المعنى وهو فيما رواه الامام أحمد [٣٤١/٢، ٤٥١] قائلاً: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه اللّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وقد أخرجه البخاري [٤٩٨١] ومسلم [١٥٢] من حديث الليث بن سعد به.

ومعنى هذا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كل منهم قد أوتي من الحجج والدلائل على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه ما فيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم سواء آمنوا به ففازوا بثواب إيمانهم أو جحدوا فاستحقوا العقوبة.

وقوله: «وإنما كان الذي أوتيت»، أي جله وأعظمه، الوحي الذي أوحاه إليه. وهو القرآن، الحجة المستمرة الدائمة القائمة في زمانه وبعده، فإن البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها، وأما القرآن فهو حجة قائمة كأنما يسمعه السامع من فَلْق رسول اللّه ﷺ؛ فحجة اللّه قائمة به في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته، ولهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، أي لاستمرار ما آتاني اللّه من الحجة البالغة والبراهين الدامغة، فلهذا يكون يوم القيامة أكثر الأنبياء تبعاً.

٢- أخلاقُه الطاهرة

ومن الدلائل المعنوية: أخلاقه عليه الصلاة والسلام الطاهرة، وخلقه الكامل، وشجاعته وحلمه وكرمه وزهده وقناعته وإيثاره وجميل صحبته، وصدقه وأمانته وتقواه وعبادته وكرم أصله وطيب مولده ومنشئه ومرباه كما قدمناه مبسوطاً في مواضعه.

وما أحسن ما ذكره شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه اللّه في كتابه الذي رد فيه على فرق النصارى واليهود وما أشبههم من أهل الكتاب وغيرهم، فإنه ذكر في آخره دلائل النبوة، وسلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتخبة بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه. قال في آخر هذا الكتاب المذكور [الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ٨٠/٤ - ٨٧]:

وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته - أي من دلائل نبوته -. قال: وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمّته من آياته، ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل اللّه في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من ذريته، وجعل اللّه له ابنين: إسماعيل وإسحاق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيه ما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث اللّه فيهم رسولاً منهم. ثم الرسول ﷺ من قريش صفوة إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان رسول اللّه ﷺ من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر ومكارم الاخلاق والعدل وترك الفواحش والظلم وكلّ وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة. ومن آمن به ومن كفر بعد النبوة، ولا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في افعاله ولا في أخلاقه، ولا جرت عليه كذبة قط، ولا ظلم ولا فاحشة.

وقد كان ﷺ خَلْقُه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله، وكان أمياً من قوم أميين لا يعرف هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب؛ التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس، ولاجالس أهلها، ولم يدّع نبوة إلى أن أكمل اللّه له أربعين سنة، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله.

ثم اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذبه أهل الرياسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم، والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم، لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فيجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى اللّه صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود، وقد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي يخبرهم به اليهود، وكانوا سمعوا من أخباره أيضاً ما عرفوا به مكانته فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة، فآمنوا به وبايعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم، وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية، ولا برهبة إلا قليلا من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم.

ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به، ولم يزل قائماً بأمر اللّه على أكمل

طريقة وأتمها، من الصدق والعدل والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه، من حرب وسلم، وأمن وخوف، وغنى وفقر، وقدرة وعجز، وتمكن وضعف، وقلة وكثرة، وظهور على العدو تارة. وظهور العدو تارة.

وهو على ذلك كله لازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معاداً، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح أفضل من هؤلاء. وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم تعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ مع ظهور أمره، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال، مات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، ولا شاة ولا بعيراً، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك وهو في كل وقت يظهر من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء، حتى أكمل الله دينه الذي بعثه به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل: ليته لم ينه عنه، وأحل لهم الطيبات لم يحرم منها شيئاً كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن الملائكة وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، فليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه، وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر له فضلها ورجحانها. وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، وإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبَذْلُهم وسماحة أنفسهم بغيرهم، ظهر أنهم أسخى وأكرم من غيرهم. وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح، عليه السلام، بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومَن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا - لما غيروا دين المسيح- في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، وهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وأمته عليه الصلاة السلام لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يشرعون الدين مالم يأذن به الله، لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم، اعتبروا به، وما حدثهم أهل الكتاب موافقاً لما عندهم صدقوه، ومالم يعلم صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وماعرفوا بأنه باطل كذبوه، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس واليونان أو غيرهم، كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج من ذلك كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، الظاهرين إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» [خ (٣٦٤٠)، م (١٧٤، ١٧٥)].

وقد يتنازع بعض المسلمين مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموما، ودين محمد ﷺ خصوصاً، ومن خالف في هذا الأصل كان عندهم ملحداً مذموماً، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا ديناً ما قام به أكابر علمائهم وعبادهم وقاتل عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء، والله سبحانه أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة، وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علماً وعملاً. ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته، فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد ﷺ، أخذوه عن نبيهم مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل، العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلِّم هو في الأصل المعلِّم، وهذا يقتضي أنه ﷺ كان أكمل الناس علماً وديناً. وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] لم يكن كاذباً مفترياً، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم، إن كان صادقاً، أو من هو من أشر الناس وأخبثهم إن كان كاذباً، وما ذكر من كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل؛ فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] لأن الذي لم يكن صادقاً إما أن يكون متعمداً للكذب او مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً، والثاني يقتضي أنه كان جاهلا ضالا، ومحمد ﷺ كان علمه ينافي جهله، وكمال

دينه ينافي تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق؛ ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم: ١-٤].

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التكوير: ١٩-٢١].

ثم قال عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير: ٢٢-٢٤] أي بمتهم أو بخيل كالذي لا يعلّم إلا بجعل أو لمن يكرمه. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٥-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[الشعراء: ١٩٢-٢٢٣].

بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصّل به غرضه، فإن الشيطان يقصد الشر، وهو الكذب والفجور، ولا يقصد الصدق والعدل، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب - إما عمداً وإما خطأ - وفجوراً أيضاً فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضاً كما قال ابن مسعود لما سئل عن مسألة: أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه [د (٢١١٦)].

فإن رسول الله بريء من تنزل الشياطين عليه في العمد والخطأ، بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان، وإن كان خطؤه مغفوراً له، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئاً، ولا أمر أمر به كان فيه فاجراً علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه ملك كريم، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣]. انتهى ما ذكره، رحمه الله، وهنا عين ما أورده بحروفه.

٣- انشقاق القمر

باب وأما دلائل النبوة الحسيّة - أعني المشاهدة بالأبصار - فسماوية وأرضية

ومن أعظم ذلك كله انشقاق القمر المنير فرقتين، قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ. وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول الله ﷺ، وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة.

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد [١٦٥/٣]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن قتادة عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ورواه مسلم [٢٨٠٢] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق.

وقال البخاري [٣٨٦٨]: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما.

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٦٣٧)، م (٢٨٠٢)] من حديث شيبان عن قتادة، ومسلم [٢٨٠٢] من حديث شعبة عن قتادة.

رواية جبير بن مطعم:

قال أحمد [٨١/٤، ٨٢]: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرَنا محمدٌ، فقالوا: إن كان سحرَنا فإنه لا يستطيع أن يسحرَ الناسَ كلَّهم.

تفرد به أحمد. ورواية ابن جرير [تفسيره: ٨٦/٢٧] والبيهقي [الدلائل: ٢٦٨/٢] من طرق عن حصين بن عبد الرحمن به.

رواية حذيفة بن اليمان:

قال أبو جعفر بن جرير [تفسيره: ٨٦/٢٧]: حدثني يعقوب، حدثني ابن علية، أنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق. فقلت لأبي: أتستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال.

ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرها فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ألا وإنّ الساعة قد اقتربت، ألا وإنّ القمر قد انشقّ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإنّ اليوم المضمار، وإنّ غداً السبّاقُ، ألا وإنّ الغاية النار، والسابق مَن سبقَ إلى الجنة.

ورواه أبو زرعة الرازي في كتاب دلائل النبوة من غير وجه عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن عن حذيفة فذكر نحوه، وقال: ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ.

رواية عبد الله بن عباس:

قال البخاري [٤٨٦٦]: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر عن جعفر عن عراك بن مالك، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ.

ورواه البخاري [٣٦٣٨] أيضا ومسلم [٢٨٠٣] من حديث بكر بن مضر عن جعفر بن ربيعة به.

طريق أخرى عنه:

قال ابن جرير [تفسيره: ٨٦/٢٧]: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه.

وروى العوفي عن ابن عباس نحواً من هذا [تفسير الطبري: ٨٦/٢٧، ٨٧].

وقد روي من وجه آخر عن ابن عباس فقال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١١٦٤٢)]: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القطعي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحرَ القمرَ، فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وهذا سياق غريب. وقد يكون حصل للقمر مع انشقاقه كسوف فيدل على أن انشقاقه إنما كان في ليالي إبداره والله أعلم.

رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٢٦٧/٢]: أنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري: حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين؛ فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

وهكذا رواه مسلم [٢٨٠١] والترمذي [٣٢٨٨] من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود [٢٨٠٠] وقال الترمذي: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود:

قال الإمام أحمد [٣٧٧/١]: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا».

ورواه البخاري [٣٦٣٦] ومسلم [٢٨٠٠] من حديث سفيان بن عيينة.

وأخرجاه [خ (٣٨٦٩)، م (٢٨٠٠)] من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله بن سخبرة عن ابن مسعود به.

قال البخاري [٣٨٦٩ معلقاً]: وقال أبوالضحى عن مسروق عن عبد الله بمكة.

وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٩٥]، فقال: حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق بن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفّار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفّار فقالوا ذلك.

وروى البيهقي [الدلائل: ٢٦٦/٢] عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوري عن سعيد بن سليمان عن هشيم عن مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة انظروا السُّفّار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار -وقدموا من كل وجهة- فقالوا: رأيناه.

ورواه ابن جرير [تفسيره: ٨٥/٢٧] من حديث المغيرة وزاد: فأنزل الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وقال الإمام أحمد [٤١٣/١]: حدثنا مؤمل عن إسرائيل عن سماك عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل بين فُرْجَتَي القمر.

وروى ابن جرير [تفسيره: ٦٨/٢٧] عن يعقوب الدوري عن ابن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن ابن مسعود كان يقول: لقد انشق القمر.

ففي صحيح البخاري [٤٨٢٠] من حديث الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه كان يقول: خمس قد مضين: الروم، واللزام، والبطشة، والدخان، والقمر. في حديث طويل عنه مذكور في تفسير سورة الدخان.

وقال أبو زرعة في الدلائل: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي حدثنا الوليد، عن الأوزاعي عن ابن أبي كثير قال: انشق القمر بمكة والنبي ﷺ بها قبل الهجرة فخر شقتين فقال المشركون: سحره ابن أبي كبشة.

وهذا مرسل من هذا الوجه.

فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة، وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده مع وروده في الكتاب العزيز. وما ذكره بعض القصاص من أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه، ونحو هذا الكلام فليس له أصل يعتمد عليه، والقمر في حال انشقاقه لم يزايل السماء بل انفرق باثنتين وسارت إحداهما حتى صارت وراء جبل حراء، والأخرى من الناحية الأخرى، وصار الجبل بينهما، وكلتا الفرقتين في السماء وأهل مكة ينظرون إلى ذلك، وظن كثير من جهلتهم أن هذا شيء سحرت به أبصارهم، فسألوا من قدم عليهم من المسافرين فأخبروهم بنظير ما شاهدوه، فعلموا صحة ذلك وتيقنوه.

فإن قيل: فلم لم يعرف هذا في جميع أقطار الأرض؟ فالجواب ومن ينفي ذلك؟ ولكن تطاول العهد والكفرة يجحدون بآيات الله، ولعلهم لما اخبروا أن هذا كان آية لهذا النبي المبعوث، تداعت آراؤهم الفاسدة على كتمانه وتناسيه، على أنه قد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلاً بالهند مكتوباً عليه: إنه بني في الليلة التي انشق القمر فيها. ثم لما كان انشقاق القمر ليلا قد يخفى أمره على كثير من الناس لأمور مانعة من مشاهدته في تلك الساعة، من غيوم متراكمة كانت تلك الليلة في بلدانهم، ولنوم كثير منهم، أو لعله كان في أثناء الليل حيث ينام كثير من الناس وغير ذلك من الأمور والله أعلم. وقد حررنا هذا فيما تقدم في كتابنا التفسير.

٤- ردُّ الشمس بعدَ مغيبها

فأما حديث رد الشمس بعد مغيبها: فقد أنبأني شيخنا المسند الرُّحلةُ

بهاء الدين القاسم بن المظفر بن تاج الأمناء بن عساكر إذناً قال: أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عساكر المشهور بالنسابة، كتابةً قال: أنبأنا الحافظ الكبير أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر في كتابه، قال: أخبرنا أبو المظفر بن القشيري وأبو القاسم المستملي قالا: حدثنا أبو عثمان الحيريُّ أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن الدّنْدانْقاني بها، أنا محمد بن أحمد بن محبوب. وفي حديث ابن القشيري: حدثنا أبو العباس المحبوبي، حدثنا سعيد بن مسعود (ح)، قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: وأخبرنا أبو الفتح الماهاني، أخبرنا شجاع بن علي، أخبرنا أبو عبد الله بن منده، أخبرنا عثمان بن أحمد التنيسي، أخبرنا أبو أمية محمد بن إبراهيم قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا فضيل بن مرزوق عن إبراهيم بن الحسن - زاد أبو أمية: بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أسماء بنت عميس قالت: كان رسول الله ﷺ يوحى إليه ورأسه في حجر علي فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «صليت العصر؟» وقال أبو أمية: «صليت ياعليّ؟» قال: لا، قال رسول الله ﷺ - وقال أبو أمية: فقال النبي ﷺ -: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة نبيك» - وقال أبو أمية: «رسولك» - فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت.

وقد رواه الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في «الموضوعات» [١/٣٥٥] من طريق أبي عبد الله بن منده كما تقدم ومن طريق أبي جعفر العقيلي:

حدثنا أحمد بن داود، حدثنا عمار بن مطر، حدثنا فضيل بن مرزوق؛ فذكره.

ثم قال: وهذا حديث موضوع، وقد اضطرب الرواة فيه فرواه سعيد بن مسعود عن عبيد الله بن موسى عن فضيل بن مرزوق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن علي بن الحسن عن فاطمة بنت علي عن أسماء. وهذا تخليط في الرواية [الموضوعات: ١/٣٥٦].

قال: وأحمد بن داود ليس بشيء، قال الدارقطني: متروك كذاب، وقال ابن حبان كان يضع الحديث. وعمار بن مطر قال فيه العقيلي: كان يحدث عن الثقات بالمناكير، وقال ابن عدي: متروك الحديث. قال: وفضيل بن مرزوق قد ضعفه يحيى، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات ويخطىء على الثقات [الموضوعات: ١/٣٥٦].

وبه قال الحافظ ابن عساكر. قال: وأخبرنا أبو محمد بن طاوس، أخبرنا عاصم بن الحسن أخبرنا أبو عمر بن مهدي، أنا أبو العباس بن عقدة، حدثنا أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا عبد الرحمن بن شريك، حدثني أبي عن عروة بن عبد الله بن قشير قال: دخلت على فاطمة بنت علي فرأيت في عنقها خرزة، ورأيت في يديها مَسَكتين غليظتين - وهي عجوز كبيرة - فقلت لها: ما هذا؟ فقالت: إنه يكره للمرأة أن تتشبه بالرجال، ثم حدثتني أن أسماء بنت عميس حدثتها أن علي بن أبي طالب دفع إلى النبي ﷺ وقد أوحي إليه فجلله بثوبه فلم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول: غابت أو كادت أن تغيب، ثم إن نبي الله ﷺ سُرّي عنه فقال: «أصليت يا علي؟» قال: لا، فقال النبي ﷺ: «اللهم ردّ على عليّ الشمس»، فرجعت الشمس حتى بلغت نصف المسجد، قال عبد الرحمن: وقال أبي: حدثني موسى الجهني نحوه.

ثم قال الحافظ ابن عساكر: هذا حديث منكر، وفيه غير واحد من المجاهيل.

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في «الموضوعات» [١/٣٥٦]: وقد روى ابن شاهين هذا الحديث عن ابن عقدة. فذكره، ثم قال: وهذا باطل، والمتهم به ابن عقدة، فإنه كان رافضياً يحدث بمثالب الصحابة.

قال الخطيب: حدثنا علي بن محمد بن نصر، سمعت حمزة بن يوسف يقول: كان ابن عقدة بجامع براثا يملي مثالب الصحابة - أو قال: الشيخين - فتركته [تاريخ بغداد: ٥/٢٢].

وقال الدارقطني: كان ابن عقدة رجل سوء.

وقال ابن عدي: سمعت أبا بكر بن أبي غالب يقول: ابن عقدة لا يتدين بالحديث لأنه كان يحمل شيوخاً بالكوفة على الكذب فيروي لهم نسخاً ويأمرهم أن يرووها، وقد بينا ذلك منه في غير شيخ بالكوفة.

وقال الحافظ أبو بشر الدولابي في كتابه «الذرية الطاهرة»: حدثنا إسحاق بن يونس، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا المطلب بن زياد عن إبراهيم بن حيّان عن عبد الله بن حسين عن فاطمة بنت الحسين عن الحسين قال: كان رأس رسول الله ﷺ في حجر علي وهو يوحى إليه.

فذكر الحديث بنحو ما تقدم. إبراهيم بن حيان هذا تركه الدارقطني وغيره.

وقال محمد بن ناصر البغدادي الحافظ: هذا الحديث موضوع.

قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي: وصدق ابن ناصر.

وقال ابن الجوزي: وقد رواه ابن مردويه من طريق حديث داود بن فراهيج عن أبي هريرة قال: نام رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي ولم يكن صلى العصر حتى غربت الشمس فلما قام رسول الله ﷺ دعا له فردت عليه الشمس حتى صلى ثم غابت ثانية. ثم قال: وداود ضعفه شعبة [الموضوعات: ١/٣٥٧].

ثم قال ابن الجوزي: ومن تغفيل واضع هذا الحديث أنه نظر إلى صورة فضيلة ولم يتلمّح عدمَ الفائدة فإن صلاة العصر بغيبوبة الشمس صارت قضاء فرجوع الشمس لا يعيدها أداءً، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ: «أن الشمس لم تحبس على أحد إلا ليوشع» [مسند أحمد: ٢/٣٢٥].

قلت: هذا الحديث ضعيف ومنكر من جميع طرقه فلا تخلو واحدة منها عن شيعي ومجهول الحال وشيعي ومتروك ومثل هذا الحديث لا يقبل فيه خبر واحد إذا اتصل سنده، لأنه من باب ما تتوفر الدواعي على نقله فلا بد من نقله بالتواتر والاستفاضة لا أقل من ذلك، ونحن لا ننكر هذا في قدرة الله تعالى وبالنسبة إلى جناب رسول الله ﷺ، فقد ثبت في «الصحيح» [خ (٣١٢٤)، م (١٧٤٧) دون ذكر يوشع بن نون أو غيره] أنها ردت ليوشع بن نون، وذلك يوم حاصر بيت المقدس، واتفق ذلك في آخر يوم الجمعة وكانوا لا يقاتلون يوم السبت فنظر إلى الشمس وقد تضيّفت للغروب فقال: إنك مأمورة، وأنا مأمور. اللهم احبسها علي. فحبسها الله عليه حتى فتحوها. ورسول الله ﷺ أعظم جاهاً وأجل منصباً وأعلى قدراً من يوشع بن نون، بل من سائر الأنبياء على الإطلاق ولكن لا نقول إلا ما صح عندنا عنه ولا نسند إليه ما ليس بصحيح، ولو صح لكنا من أول القائلين به، والمعتقدين له وبالله المستعان.

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن حاتم بن زنجويه البخاري في كتابه «إثبات إمامة أبي بكر الصديق» فإن قال قائل من الروافض: إن أفضل فضيلة لأبي الحسن وأدل دليل على إمامته ما روي عن أسماء بنت عميس قالت: كان رسول الله ﷺ يوحى إليه ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «صليت؟» قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في

طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس»، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت.

قيل له: كيف لنا بصحة هذا الحديث لنحتجَّ على مخالفينا من اليهود والنصارى؟! ولكن الحديث ضعيف جداً لا أصل له، وهذا مما كسبت أيدي الروافض، ولو ردت الشمس بعدما غربت لرآها المؤمن والكافر ونقلوا إلينا أن في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا ردت الشمس بعدما غربت. ثم يقال للروافض: أيجوز أن ترد الشمس لأبي الحسن حين فاتته صلاة العصر، ولا ترد لرسول الله ﷺ ولجميع المهاجرين والأنصار وعلي فيهم حين فاتتهم صلاة الظهر والعصر والمغرب يوم الخندق؟!

قال: وأيضاً مرة أخرى عرَّس رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار حين قفل من غزوة خيبر ـ فذكر نومهم عن صلاة الصبح وصلاتهم لها بعد طلوع الشمس ـ قال: فلم يُرَدَّ الليل على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، قال: ولو كان هذا فضلا أعطيَه رسول الله ﷺ وما كان الله ليمنع رسوله شرفاً وفضلا ـ يعني أعطيَه علي بن أبي طالب ـ.

ثم قال: وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: قلت لمحمد بن عبيد الطنافسي: ما تقول فيمن يقول: رجعت الشمس على عليّ بن أبي طالب حتى صلى العصر؟ فقال: من قال هذا فقد كذب.

وقال إبراهيم بن يعقوب: سألت يعلى بن عبيد الطنافسي قلت: إن ناساً عندنا يقولون: إن علياً وَصِيُّ رسول الله ﷺ ورجعت عليه الشمس. فقال: كذب هذا كله.

فصل في إيراد طرق هذا الحديث من أماكن متفرقة:

وقد جمع فيه أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن أحمد الحسكاني جزءاً وسماه «مسألة في تصحيح رد الشمس وترغيم النواصب الشمس»، وقال: قد روي ذلك من طريق أسماء بنت عميس وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري. ثم رواه من طريق أحمد بن صالح المصري، وأحمد بن الوليد الأنطاكي، والحسن بن داود ثلاثتهم عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، وهو ثقة أخبرني محمد بن موسى الفطري المدني وهو ثقة أيضا عن عون بن محمد. قال: وهو ابن محمد بن الحنفية عن أمه أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب عن جدتها أسماء بنت عميس أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالصهباء من أرض خيبر ثم أرسل علياً في حاجة فجاء وقد صلى رسول الله ﷺ العصر فوضع رأسه في حجر علي ولم يحركه حتى غابت الشمس فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عبدك علياً احتبس نفسه على نبيه فرد عليه شرقها»، قالت أسماء: فطلعت الشمس حتى رفعت على الجبال فقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت الشمس [المعجم الكبير: ١٤٤/٢، ١٤٥ من طريق أحمد بن صالح، به].

وهذا الإسناد فيه من يجهل حاله فإن عوناً هذا وأمه لايعرف أمرهما بعدالة وضبط يقبل بسببهما خبرهما فيما هو دون هذا المقام، فكيف يثبت بخبرهما هذا الأمر العظيم الذي لم يروه أحد من أصحاب الصحاح ولا السنن ولا المسانيد المشهورة فالله أعلم. ولا ندري أسمعت أم هذا من جدتها أسماء بنت عميس أم لا.

ثم أورده هذا المصنف من طريق حسين بن الحسن الأشقر وهو شيعي جلد وضعفه غير واحد عن الفضيل بن مرزوق عن إبراهيم بن الحسن بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين الشهيد عن أسماء بنت عميس فذكر الحديث.

قال: وقد رواه عن فضيل بن مرزوق جماعة، منهم عبيد الله بن موسى [المعجم الكبير ١٤٧/٢٤].

ثم أورده من طريق أبي جعفر الطحاوي من طريق عبيد الله. وقد قدمنا روايتنا له من حديث سعيد بن مسعود وأبي أمية الطرسوسي عن عبيد الله بن موسى العبسي، وهو من الشيعة [مشكل الآثار ٨/٢، ٩].

ثم أورده هذا المصنف من طريق أبي جعفر العقيلي [الضعفاء الكبير ٣٢٧/٣] عن أحمد بن داود عن عمار بن مطر عن فضيل بن مرزوق والأغر الرقاشي ـ ويقال: الرؤاسي أبو عبد الرحمن الكوفي مولى بني عنزة ـ.

وثقه الثوري وابن عيينة. وقال أحمد: لا أعلم إلا خيراً وقال ابن معين: ثقة، وقال مرة: صالح ولكنه شديد التشيع، وقال مرة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: صدوق صالح الحديث يهم كثيراً يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال عثمان بن سعيد الدارمي: يقال: إنه ضعيف، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً كان يخطىء على الثقات ويروي عن عطية الموضوعات.

وقد روى له مسلم وأهل السنن الأربعة. فمّن هذه ترجمته لا يتهم بتعمد الكذب ولكنه قد يتساهل ولا سيما فيما يوافق مذهبه فيروي عمن لايعرفه أو يحسن به الظن فيدلس حديثه ويسقطه ويذكر شيخه ولهذا قال في هذا الحديث الذي يجب الاحتراز فيه وتوقي الكذب فيه «عن» بصيغة التدليس، ولم يأت بصيغة التحديث فلعل بينهما من يجهل أمره، على أن شيخه هذا ـ إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ـ ليس بذلك المشهور في حاله ولم يرو له أحد من أصحاب الكتب المعتمدة، ولا روى عنه غير الفضيل بن مرزوق هذا ويحيى بن المتوكل، قاله أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان ولم يتعرضا لجرح ولا تعديل، وأما أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ـ وهي أخت زين العابدين ـ فحديثها مشهور روى لها أهل السنن الأربعة، وكانت فيمن قُدم بها مع أهل البيت بعد مقتل أبيها إلى دمشق، وهي من الثقات ولكن لا يدرى أسمعت هذا الحديث من أسماء أم لا؟ فالله أعلم.

ثم قد رواه هذا المصنف من حديث أبي حفص الكتاني: حدثنا محمد بن عمر القاضي هوالجعابي. حدثني محمد بن القاسم بن جعفر العسكري من أصل كتابه، حدثنا أحمد بن محمد بن يزيد بن سليم، حدثنا خلف بن سالم، حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان الثوري عن أشعث بن أبي الشعثاء عن أمه عن فاطمة ـ يعني بنت الحسين ـ عن أسماء أن رسول الله ﷺ دعا لعلي حتى ردت عليه الشمس.

وهذا إسناد غريب جداً وحديث عبد الرزاق وشيخه الثوري محفوظ عند الأئمة لا يكاد يترك منه شيء من المهمات فكيف لم يرو عن عبد الرزاق مثل هذا الحديث العظيم إلا خلف بن سالم بما قبله من الرجال الذين لايعرف حالهم في الضبط والعدالة كغيرهم؟ ثم إن أم أشعث مجهولة فالله أعلم.

ثم ساقه هذا المصنف من طريق محمد بن مرزوق: حدثنا حسين الأشقر ـ وهو شيعي وضعيف كما تقدم ـ عن علي بن هاشم بن البريد ـ وقد قال فيه ابن حبان: كان غالياً في التشيع يروي المناكير عن المشاهير ـ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن علي بن الحسين بن الحسن عن فاطمة بنت علي عن أسماء بنت عميس فذكره.

وهذا إسناد لايثبت.

ثم أسنده من طريق عبد الرحمن بن شريك عن أبيه عن عروة بن عبد الله عن فاطمة بنت علي عن أسماء بنت عميس. فذكر الحديث كما قدمنا إيراده من طريق ابن عقدة عن أحمد بن يحيى الصوفي عن عبد الرحمن بن شريك بن عبد الله النخعي.

وقد روى عنه البخاري في كتاب الأدب [الأدب المفرد: (٧٩٧)] وحدث عنه جماعة من الأئمة وقال فيه أبو حاتم الرازي: كان واهي الحديث. وذكره ابن حبان في كتاب الثقات [٣٧٥/٨] وقال: ربما أخطأ، وأرخ ابن عقدة وفاته سنة سبع وعشرين ومائتين وقد قدمنا أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال: إنما أتهم بوضعه أبا العباس بن عقدة، ثم أورد كلام الأئمة فيه بالطعن والجرح وأنه كان يسوي النسخ للمشايخ فيرويهم إياها فالله أعلم.

قلت: في سياق هذا الإسناد عن أسماء أن الشمس رجعت حتى بلغت نصف المسجد. وهذا يناقض ما تقدم من أن ذلك كان بالصهباء من أرض خيبر، ومثل هذا يوجب توهين الحديث وضعفه والقدح فيه، ثم سرده من حديث محمد بن عمر القاضي الجعابي:

حدثنا علي بن العباس بن الوليد، حدثنا عباد بن يعقوب الرواجني، حدثنا علي بن هاشم عن صبّاح عن عبد الله بن الحسن - أبي جعفر - عن حسين المقتول عن فاطمة عن أسماء بنت عميس قالت: لما كان يوم شغل علي لمكانه من قسم المغنم حتى غربت الشمس أو كادت،فقال رسول الله ﷺ: «أما صليت؟» قال: لا، فدعا الله فارتفعت حتى توسطت السماء فصلى عليّ، فلما غربت الشمس سمعت لها صريراً كصرير المنشار في الحديد.

وهذا أيضاً سياق مخالف لما تقدم من وجوه كثيرة مع أن إسناده مظلم جداً فإن صباحاً هذا لا يعرف وكيف يروي الحسين بن علي المقتول شهيداً عن واحد عن أسماء بنت عميس؟! هذا تخبيط إسناداً ومتناً، ففي هذا أن عليّاً شغل بمجرد قسم الغنيمة، وهذا لم يقله أحد ولا ذهب إلى جواز ترك الصلاة لذلك ذاهب، وإن كان قد جوز بعض العلماء تأخير الصلاة عن وقتها لعذر القتال كما حكاه البخاري [باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو - تحت حديث (٩٤٤)] عن مكحول والأوزاعي وأنس بن مالك في جماعة من أصحابه بتستر، واحتج له البخاري بقصة تأخير الصلاة يوم الخندق وأمره عليه الصلاة والسلام أصحابه أن لا يصلي أحد منهم العصر إلا في بني قريظة [خ (٩٤٦)]، وذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا نسخ بصلاة الخوف.

والمقصود أنه لم يقل أحد من العلماء إنه يجوز تأخير الصلاة بعذر قسم الغنيمة حتى يسند هذا إلى صنيع علي رضي الله عنه، وهو الراوي عن رسول الله ﷺ أن الوسطى هي العصر، فإن كان هذا ثابتاً على ما رواه هؤلاء الجهلة وكان عليّ متعمداً لتأخير الصلاة لعذر قسم الغنيمة وأقره عليه الشارع صار هذا وحده دليلا على جواز ذلك ويكون أقطع في الحجة مما ذكره البخاري، لأن هذا بعد مشروعية صلاة الخوف قطعاً، لأنه كان بخيبر سنة سبع، وصلاة الخوف شرعت قبل ذلك، وإن كان عليّ ناسياً حتى ترك الصلاة إلى الغروب فهو معذور فلا يحتاج إلى رد الشمس بل وقتها بعد الغروب والحالة هذه إذن كما ورد به الحديث والله أعلم.

وهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث، ثم إن جعلناه قضية أخرى وواقعة غير ما تقدم، فقد تعدد رد الشمس غير مرة ومع هذا لم ينقله أحد من أئمة العلماء ولا رواه أهل الكتب المشهورة، وتفرد بهذه الفائدة هؤلاء الرواة الذين لا يخلو إسناد منها عن مجهول ومتروك ومتهم والله أعلم.

ثم أورده هذا المصنف من طريق أبي العباس بن عقدة: حدثنا يحيى بن زكريا، حدثنا يعقوب بن معبد، حدثنا عمرو بن ثابت قال: سألت عبد الله بن حسن بن حسن بن علي عن حديث رد الشمس على عليّ بن أبي طالب: هل ثبت عندكم؟ فقال لي: ما أنزل الله في كتابه أعظم من رد الشمس، قلت: صدقت جعلني الله فداك ولكني أحب أن أسمعه منك، فقال: حدثني أبي - الحسن - عن أسماء بنت عميس أنها قالت: أقبل علي بن أبي طالب ذات يوم وهو يريد أن يصلي العصر مع رسول الله ﷺ فوافق رسول الله ﷺ قد انصرف ونزل عليه الوحي فأسنده إلى صدره فلم يزل مسنده إلى صدره حتى أفاق رسول الله ﷺ فقال: «أصليت العصر يا عليّ؟» قال: جئت والوحي ينزل عليك فلم أزل مسندك إلى صدري حتى الساعة، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة - وقد غربت الشمس - فقال: «اللّهم إن علياً كان في طاعتك فارددها عليه»، قالت أسماء: فأقبلت الشمس ولها صرير كصرير الرحى حتى كانت في موضعها وقت العصر، فقام عليّ متمكناً فصلى، فلما فرغ رجعت الشمس ولها صرير كصرير الرحى، فلما غابت الشمس اختلط الظلام وبدت النجوم.

وهذا منكر أيضاً إسناداً ومتناً وهو مناقض لما قبله من السياقات، وعمرو بن ثابت هذا هو المتهم بوضع هذا الحديث أو سرقته من غيره، وهو عمرو بن ثابت بن هرمز البكري الكوفي مولى بكر بن وائل، ويعرف بعمرو بن أبي المقدام الحداد، روى عن غير واحد من التابعين وحدث عنه جماعة منهم سعيد بن منصور وأبو داود وأبو الوليد الطيالسيان، تركه عبد الله بن المبارك وقال: لا تحدثوا عنه فإنه كان يسب السلف، ولما مرت به جنازته توارى عنها، وكذلك تركه عبد الرحمن بن مهدي، وقال ابن معين والنسائي: ليس بثقة ولا مأمون ولا يكتب حديثه. وقال مرة أخرى هو وأبو زرعة وأبو حاتم: كان ضعيفاً، زاد أبو حاتم: وكان رديء الرأي شديد التشيع لايكتب حديثه، وقال البخاري: ليس بالقوي عندهم، وقال أبو داود: كان من شرار الناس كان رافضياً خبيثاً رجل سوء قال هنّاد: ولما مات لم أصلِّ عليه لأنه قال لما مات رسول الله ﷺ: كفر الناس إلاخمسة، وجعل أبو داود يذمه.

وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات. وقال ابن عدي: والضعف على حديثه بين. وأرخوا وفاته في سنة سبع وعشرين ومائة.

ولهذا قال شيخنا أبو العباس بن تيمية: وكان عبد الله بن حسن وأبوه أجل قدراً من أن يحدثا بهذا الكذب [منهاج السنة: ١٨٩/٨].

قال هذا المصنِّف لا المُنصِف: وأما حديث أبي هريرة فأخبرنا عقيل بن الحسن العسكري، أخبرنا أبو محمد صالح بن الفتح الشاشي، حدثنا أحمد بن عمير بن جوصاء، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن يزيد بن عبد الملك النوفلي عن أبيه، حدثنا داود بن فراهيج، وعن عمارة بن برد عن أبي هريرة فذكره. وقال: اختصرته من حديث طويل.

وهذا إسناد مظلم ويحيى بن يزيد وأبوه وشيخه داود بن فراهيج كلهم مضعفون، وهذا هو الذي أشار ابن الجوزي إلى أن ابن مردويه رواه من طريق داود بن فراهيج عن أبي هريرة وضعف داود هذا شعبة والنسائي وغيرهما. والذي يظهر أن هذا مفتعل من بعض الرواة، أو قد أدخل على

أحدهم وهو لا يشعر والله أعلم.

قال: وأما حديث أبي سعيد فأخبرنا محمد بن إسماعيل الجرجاني كتابة أن أبا طاهر محمد بن علي الواعظ أخبرهم: أخبرنا محمد بن أحمد بن متيم، أخبرنا القاسم بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: حدثني أبي عن أبيه محمد عن أبيه محمد، عن أبيه عبد الله عن أبيه عمر قال: قال الحسين بن عليّ: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا رأسه في حجر علي وقد غابت الشمس فانتبه النبي ﷺ وقال: «ياعلي صليت العصر؟» قال: لا يا رسول الله ما صليت كرهت أن أضع رأسك من حجري وأنت وجع، فقال رسول الله ﷺ: «ادع يا علي أن ترد عليك الشمس»، فقال علي: يا رسول الله ادع أنت وأؤمن، فقال: «يا رب إن علياً في طاعتك وطاعة نبيك فاردد عليه الشمس»، قال أبو سعيد: فوالله لقد سمعت للشمس صريراً كصرير البكرة حتى رجعت بيضاء نقية.

وهذا إسناد مظلم أيضاً مبتكَر منكر، ومخالف لما تقدمه من السياقات، وكل هذا يدل على أنه موضوع مصنوع مفتعل يسرقه بعض هؤلاء الرافضة من بعض، ولو كان له أصل من رواية أبي سعيد لتلقاه عنه كبار أصحابه كما أخرجا في الصحيحين [خ (٣٣٤٤)، م (١٠٦٤، ١٠٦٥)] من طريقه حديث قتال الخوارج، وقصة المخدج [م (١٠٦٦) (١٥٥) من حديث علي] وغير ذلك من فضائل علي.

قال: وأما حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فأخبرنا أبو العباس الفرغاني، أخبرنا أبو الفضل الشيباني، حدثنا رجاء بن يحيى السامانيّ، حدثنا هارون بن مسلم بن سعدان بسامرا سنة أربعين ومائتين، حدثنا عبد الله بن عمرو بن الأشعث عن داود بن الكميت عن عمه المستهل بن زيد بن سلهب عن جويرية بنت شهر قالت: خرجت مع علي بن أبي طالب فقال: يا جويرية إن رسول الله ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجري. فذكر الحديث.

وهذا الإسناد مظلم وأكثر رجاله لا يعرفون والذي يظهر والله أعلم أنه مركب مصنوع مما عملته أيدي الروافض قبحهم الله ولعن من كذب على رسول الله ﷺ وعجل عليه ما توعده الشارع من العذاب والنكال حيث قال وهو الصادق في المقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [خ (١١٠)، م (٣، ٤)].

وكيف يدخل في عقل أحد من أهل العلم أن يكون هذا الحديث يرويه علي بن أبي طالب وفيه منقبة عظيمة له ودلالة معجزة باهرة لرسول الله ﷺ، ثم لا يروى عنه إلا بهذا الإسناد المظلم المركب على رجال لا يعرفون؟! وهل لهم وجود في الخارج أم لا؟ الظاهر والله أعلم لا. ثم هو عن امرأة مجهولة العين والحال فأين أصحاب عليّ الثقات كعبيدة السلماني وشريح القاضي وعامر الشعبي وأضرابهم، ثم في ترك الأئمة كمالك وأصحاب الكتب الستة وأصحاب المسانيد والسنن والصحاح والحسان رواية هذا الحديث وإيداعه في كتبهم أكبر دليل على أنه لا أصل له عندهم وهو مفتعل مأفوك بعدهم.

وهذا أبو عبد الرحمن النسائي قد جمع كتاباً في خصائص علي بن أبي طالب ولم يذكره، وكذلك لم يروه الحاكم في «مستدركه» وكلاهما ينسب إلى شيء من التشيع ولا رواه من رواه من الناس المعتبرين إلا على سبيل الاستغراب والتعجب، وكيف يقع مثل هذا نهاراً جهرة وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، ثم لا يروى إلا من طرق ضعيفة منكرة وأكثرها مركبة موضوعة وأجود ما فيها ما قدمناه من طريق أحمد بن صالح المصري عن ابن أبي فديك عن محمد بن موسى الفطري عن عون بن محمد عن أمه أم جعفر عن أسماء على ما فيها من التعليل الذي أشرنا إليه فيما سلف. وقد اغتر بذلك أحمد بن صالح رحمه الله ومال إلى صحته، ورجح ثبوته.

قال الطحاوي في كتابه «مشكل الحديث» [مشكل الآثار: ١١/٢]: عن علي بن عبد الرحمن عن أحمد بن صالح المصري أنه كان يقول: لا ينبغي لمن كان سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء في رد الشمس، لأنه من علامات النبوة. وهكذا مال إليه أبو جعفر الطحاوي أيضاً فيما قيل [انظر «الشفاء» للقاضي عياض ١/٤٠١].

ونقل أبو القاسم الحسكاني هذا عن أبي عبد الله البصري المتكلمي المعتزلي أنه قال: عود الشمس بعد مغيبها آكد حالاً فيما يقتضي نقله، لأنه وإن كان فضيلة لأمير المؤمنين فانه من أعلام النبوة وهو مفارق لغيره في فضائله في كثير من أعلام النبوة.

وحاصل هذا الكلام يقتضي أنه كان ينبغي أن ينقل هذا نقلاً متواتراً، وهذا حق لو كان الحديث صحيحاً، ولكنه لم ينقل كذلك فدل على أنه ليس بصحيح في نفس الأمر والله أعلم.

قلت: والأئمة في كل عصر ينكرون صحة هذا الحديث ويردونه ويبالغون في التشنيع على رواته كما قدمنا عن غير واحد من الحفاظ، كمحمد ويعلى ابني عبيد الطنافسيين، وكإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق وكأبي بكر محمد بن حاتم البخاري المعروف بابن زنجويه، وكالحافظ أبي القاسم بن عساكر والشيخ أبي الفرج بن الجوزي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين، وممن صرح بأنه موضوع شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي والعلامة أبو العباس بن تيمية [منهاج السنة: ١٦٥/٨].

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: قرأت على قاضي القضاة أبي الحسن محمد بن صالح الهاشمي: حدثنا عبد الله بن الحسين بن موسى، حدثنا عبد الله بن علي بن المديني قال: سمعت أبي يقول: خمسة أحاديث يروونها ولا أصل لها عن رسول الله ﷺ:

حديث: «لو صدق السائل ما أفلح مَنْ رده».

وحديث «لا وجع إلا وجع العين ولا غمَّ، إلا غمُّ الدين».

وحديث «أن الشمس ردت على عليِّ بن أبي طالب».

وحديث: «أنا أكرم على الله من أن يدعني تحت الأرض مائتي عام».

وحديث «أفطر الحاجم والمحجوم إنهما كانا يغتابان».

والطحاوي رحمه الله وإن كان قد اشتبه عليه أمره فقد رُوي عن أبي حنيفة رحمه الله إنكاره والتهكم بمن رواه.

قال أبوالعباس بن عقدة: حدثنا جعفر بن محمد بن عمر، حدثنا سليمان بن عباد سمعت بشار بن دراع قال: لقي أبو حنيفة محمد بن النعمان فقال: عمن رويت حديث رد الشمس؟ فقال: عن غير الذي رويت عنه: «يا ساريةُ الجبل».

فهذا أبو حنيفة رحمه الله وهو من الأئمة المعتبرين وهو كوفي لا يتهم على حب عليّ بن أبي طالب وتفضيله بما فضله الله به ورسوله وهو مع هذا ينكر هذا على راويه، وقول محمد بن النعمان له ليس بجواب بل مجرد معارضة لا تجدي،أي أنا رويت في فضل عليّ هذا الحديث وهو وإن كان مستغرباً فهو في الغرابة نظير ما رويته أنت في فضل عمر بن الخطاب في قوله: يا سارية الجبل.

وهذا ليس بصحيح من محمد بن النعمان، فإن هذا ليس كهذا لا

إسناداً ولا متناً، وأين مكاشفة إمام قد شهد الشارع له بأنه محدَّث بأمر جزء من رد الشمس طالعة بعد مغيبها الذي هو أكبر علامات الساعة؟! والذي وقع ليوشع بن نون ليس رداً للشمس عليه. بل حبست ساعة قبل غروبها بمعنى أنها تباطأت في سيرها حتى أمكنهم الفتح والله تعالى أعلم.

وتقدّم ما أورده هذا المصنف من طرق هذا الحديث عن علي وأبي هريرة وأبي سعيد وأسماء بنت عميس، وقد وقع في كتاب أبي بشر الدولابي في «الذرية الطاهرة» من حديث الحسين بن علي، والظاهر أنه عنه عن أبي سعيد الخدري كما تقدم والله أعلم.

وقد قال شيخ الرافضة جمال الدين يوسف بن الحسن الملقب بابن المطهرُ الحِلّي في كتابه في الإمامة الذي رد عليه فيه شيخنا العلامة أبو العباس ابن تيمية [منهاج السُّنة: ٨/١٦٤]. قال ابن المطهر: التاسع رجوع الشمس له مرتين إحداهما في زمن النبي ﷺ والثانية بعده، أما الأولى فروى جابر وأبو سعيد: أن رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل يوماً يناجيه من عند الله، فلما تغشاه الوحي توسد فخذ أمير المؤمنين فلم يرفع رأسه حتى غابت الشمس، فصلى عليٌّ العصر بالإيماء فلما استيقظ رسول الله ﷺ قال له: «سل الله أن يرد عليك الشمس فتصلي قائماً. فدعا فردت الشمس فصلى العصر قائماً». وأما الثانية فلما أراد أن يعبر الفرات ببابل اشتغل كثير من الصحابة بتعبير بدوابهم وصلى لنفسه في طائفة من أصحابه العصر وفات كثيراً منهم فتكلموا في ذلك فسأل الله رد الشمس فردت، قال وقد نظمه الحميري فقال:

رُدَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لَمَّا فَاتَهُ ... وقْتُ الصَّلاةِ وقَدْ دَنَت لِلمَغْرِبِ

حتى تَبَلَّجَ نورُهَا في وقتِها ... لِلعصْرِ ثم هَوَتْ هَوِيَّ الكوكَبِ

وَعلَيْهِ قَدْ رُدَّتْ ببَابلَ ... مرَّةً أُخرى ومَا رُدَّتْ لِخَلْقٍ مُعْرِبِ

قال شيخنا أبو العباس ابن تيمية رحمه الله: فضلُ علي وولايته وعلو منزلته عند الله معلوم ولله الحمد بطرق ثابتة افادتنا العلم اليقيني لا يحتاج معها إلى ما لا يعلم صدقه أو يعلم أنه كذب، وحديث رد الشمس قد ذكره طائفة كأبي جعفر الطحاوي والقاضي عياض وغيرهما وعدوا ذلك من معجزات رسول الله ﷺ، لكن المحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث يعلمون أن هذا الحديث كذب موضوع [منهاج السُّنة: ٨/١٦٥].

ثم أورد طرقه واحدة واحدة كما قدمنا وناقش أبا القاسم الحسكاني فيما تقدم، وقد أوردنا كل ذلك وزدنا عليه ونقصنا منه والله الموفق، واعتذر عن أحمد بن صالح المصري في تصحيحه هذا الحديث بأنه اغتر بسنده، وعن الطحاوي بأنه لم يكن عنده نقدٌ جيد للأسانيد كجهابذة الحفاظ، وقال في غضون كلامه:

والذي يُقطع به أنه كذب مفتعل.

قلت: وإيراد ابن المطهر لهذا الحديث من طريق جابر غريب ولكن لم يسنده وفي سياقه ما يقتضي أن علياً هو الذي دعا برد الشمس في الأولى والثانية، وأما إيراده لقصة بابل فليس لها إسناد وأظنه والله أعلم من وضع الزنادقة من الشيعة ونحوهم؛ فإن رسول الله ﷺ وأصحابه يوم الخندق قد غربت عليهم الشمس ولم يكونوا صلوا العصر بل قاموا إلى بطحان وهو واد هناك فتوضؤوا وصلوا العصر بعدما غربت الشمس، وكان علي أيضاً فيهم ولم ترد لهم. وكذلك كثير من الصحابة الذين ساروا إلى بني قريظة فاتهم العصر يومئذٍ حتى غربت الشمس ولم ترد لهم، وكذلك لما نام رسول الله ﷺ وأصحابه عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس صلوها بعد ارتفاع النهار ولم يرد لهم الليل،فما كان الله عز وجل ليعطي علياً وأصحابه شيئاً من الفضائل لم يعطها رسول الله ﷺ وأصحابه.

وأما نظم الحميري فليس فيه حجة بل هو كهذيان ابن المطهر هذا لا يعلم ما يقول من النثر وهذا لا يدري صحة ما ينظم بل كلاهما كما قال الشاعر:

إنْ كُنْتُ أدري فَعَلَيَّ بَدَنَةْ ... مِنْ كَثْرَةِ التَّخليطِ أنِّي مَنْ أنَهْ

والمشهور عن علي في أرض بابل ما رواه أبو داود رحمه الله في سننه [٤٩٠] عن علي أنه مر بأرض بابل وقد حانت صلاة العصر فلم يصل حتى جاوزها، وقال: نهاني خليلي ﷺ أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة.

وقد قال أبو محمد بن حزم في كتابه «الملل والنحل» [٥/٣، ٤] مبطلا لرد الشمس على عليّ بعد كلام ذكره راداً على من ادعى باطلا من الأمر فقال: ولا فرق بين من ادعى شيئاً مما ذكرنا لفاضل وبين دعوى الرافضة رد الشمس على علي بن أبي طالب مرتين حتى ادعى بعضهم أن حبيب بن أوس قال:

فَرُدَّتْ عَلَيْنا الشَّمْسُ واللَّيلُ رَاغِمٌ ... بِشَمْسٍ لَهُم مِنْ جَانبِ الخِدْرِ تَطْلُعُ

نَضَا ضَوْؤُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَى ... لِبَهْجَتِها نُورُ السَّماءِ المُرَجَّعُ

فَوَاللهِ ما أدري عليٌّ ما بَدا لَنا ... فَرُدَّتْ لَهُ أَمْ كَانَ فِي القَومِ يُوشَعُ

هكذا أورده ابن حزم في كتابه، وهذا الشعر تظهر عليه الركة والتركيب وأنه مصنوع والله أعلم.

ومما يتعلق بالآيات السماوية في باب دلائل النبوة:

٥- استسقاؤه لأمته واستصحاؤه

قال البخاري [١٠٠٨]: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه قال: سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثُمَالُ اليَتَامى عِصمةٌ للأرامِلِ

قال البخاري [١٠٠٩ تعليقاً]: وقال أبو عقيل الثقفي عن عمر بن حمزة: حدثنا سالم عن أبيه: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ يستسقي، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب.

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثُمَالُ اليَتَامى عِصمةٌ للأرامِلِ

وهو قول أبي طالب.

تفرد به البخاري وهذا الذي علقه قد أسنده ابن ماجه في سننه [١٢٧٢] فرواه عن أحمد بن الأزهر عن أبي النضر عن أبي عقيل عن عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه.

وقال البخاري [١٠١٣]: حدثنا محمد - هو ابن سلام - حدثنا أبو ضمرة، حدثنا شريك بن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وتقطعت السبل، فادع الله لنا يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا»، قال أنس: ولا والله ما نرى في

السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت،قال: والله ما رأينا الشمس سبْتاً، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب،فاستقبله قائماً، وقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال والظراب والأودية ومنابت الشجر». قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس، قال شريك: فسألت أنساً أهو الرجل الذي سأل أولاً؟ قال: لا أدري.

وهكذا رواه البخاري [١٠١٤] أيضاً ومسلم [(٨٩٧) (٨)] من حديث إسماعيل بن جعفر عن شريك به.

وقال البخاري [١٠١٥]: حدثنا مسدد،حدثنا أبو عوانة، عن قتادة عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم جمعة إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله قحط المطر، فادع اللّهَ أن يسقينا، فدعا فمطرنا فما كدنا أن نصل إلى منازلنا فما زلنا نمطر إلى الجمعة المقبلة، قال: فقام ذلك الرجل أو غيره،فقال: يا رسول الله ادع الله أن يصرفه عنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا»، قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يميناً وشمالا يمطرون ولا يمطر أهل المدينة.

تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال البخاري [١٠١٦]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: هلكت المواشي وتقطعت السبل، فادع الله، فدعا فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة ثم جاء فقال: تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي فادع الله أن يمسكها فقال: «اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر» فانجابت عن المدينة انجياب الثوب.

وقال البخاري [١٠٣٣]: حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا عبد الله، حدثنا الأوزاعي، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، حدثني أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه وما في السماء قزعة، فثار سحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته قال: فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو رجلٌ غيره،فقال: يا رسول الله تهدم البناء، وغرق المال فادع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، قال: فما جعل رسول الله ﷺ يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تفرّجت حتى صارت المدينة في مثل الجوبة حتى سال الوادي وادي قناة شهراً، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود.

ورواه البخاري [٩٣٣] أيضاً في الجمعة ومسلم [(٨٩٧) (٩)] من حديث الوليد عن الأوزاعي.

وقال البخاري [(١٠٢٩) تعليقاً]: وقال أيوب بن سليمان: حدثني أبو بكر بن أبي أويس عن سليمان بن بلال قال: قال يحيى بن سعيد: سمعت أنس بن مالك قال: أتى رجل أعرابي من أهل البدو إلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: يا رسول الله هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس، فرفع رسول الله ﷺ يديه يدعو ورفع الناس أيديهم مع رسول الله ﷺ يدعون قال: فما خرجنا من المسجد حتى مطرنا فما زلنا نمطر حتى كانت الجمعة الأخرى، فأتى الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بَشِق المسافر ومُنع الطريق

قال البخاري [١٠٣٠ تعليقاً]: وقال الأويسي - يعني عبد العزيز بن عبد الله -: حدثني محمد بن جعفر - هو ابن أبي كثير - عن يحيى بن سعيد وشريك، سمعا أنساً عن النبي ﷺ رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه.

هكذا علق هذين الحديثين ولم يسندهما أحد من أصحاب الكتب الستة بالكلية.

وقال البخاري [١٠٢١]: حدثنا محمد بن أبي بكر قال: حدثنا معتمر عن عبد الله بن ثابت عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم جمعة فقام الناس فصاحوا فقالوا: يا رسول الله قحط المطر، واحمرت الشجر، وهلكت البهائم، فادع الله أن يسقينا، فقال: «اللهم اسقنا» مرتين، وايم الله ما نرى في السماء قزعة من سحاب، فنشأت سحابة وأمطرت ونزل عن المنبر فصلى فلما انصرف لم تزل تمطر إلى الجمعة التي تليها، فلما قام النبي ﷺ يخطب صاحوا إليه: تهدمت البيوت وانقطعت السبل فادع الله يحبسها عنا، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فكَشَطت المدينة فجعلت تمطر حولها وما تمطر بالمدينة قطرة، فنظرت إلى المدينة وإنها لفي مثل الإكليل.

وقد رواه مسلم [(٨٩٧) (١٠)] من حديث معتمر بن سليمان عن عبد الله وهو ابن عمر العمري به.

وقد رواه الإمام أحمد [١٠٤/٣]: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد قال: سئل أنس: هل كان رسول الله ﷺ يرفع يديه؟ فقال: قيل له يوم جمعة: يا رسول الله قحط المطر، وأجدبت الأرض، وهلك المال، قال: فرفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه فاستسقى، ولقد رفع يديه وما نرى في السماء سحابة فما قضينا الصلاة حتى أن قريب الدار الشابُّ ليهمه الرجوع إلى أهله، قال: فلما كانت الجمعة التي تليها قالوا: يا رسول الله تهدمت البيوت واحتبس الركبان، فتبسم رسول الله ﷺ من سرعة ملالة ابن آدم وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، قال: فتكشطت عن المدينة.

وهذا إسناد ثلاثي على شرط الشيخين ولم يخرجوه.

وقال البخاري [٣٥٨٢] وأبو داود [١١٧٤] واللفظ له: حدثنا مسدد، حدثنا حماد بن زيد عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك، وعن يونس بن عبيد عن ثابت عن أنس ﷺ قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ، فبينا هو يخطب يوم جمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلكت الكراع، هلكت الشاء، فادع الله أن يسقينا، فمد يديه ودعا. قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ريح، ثم أنشأت سحابةً، ثم اجتمعت، ثم أرسلت السماء عزاليها فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله أن يحبسه. فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «حوالينا ولا علينا» فنظرت إلى السماء والسحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل.

فهذه طرق متواترة عن أنس بن مالك وإنها تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن.

وقال البيهقي [الدلائل: ١٤٠/٦ - ١٤٢] بإسناده من غير وجه إلى أبي معمر سعيد بن خثيم الهلالي عن مسلم الملائي عن أنس بن مالك

قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله والله لقد أتيناك، وما لنا بعير يئط ولا صبي يصيح، وأنشد:

أَتَيْنَاكَ وَالعَذْرَاءُ يَدْمَى لَبَانُهَا ... وَقَدْ شُغِلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفَّيْهِ الفَتَى لاسْتِكَانَةٍ ... مِنَ الجُوعِ ضَعْفاً مَا يُمِرُّ وَلا يُحْلِي
وَلا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا ... سِوَى الحَنْظَلِ العَامِيِّ وَالعِلْهِزِ الفَسْلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلا إِلَيْكَ فِرَارُنَا ... وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلا إِلَى الرُّسْلِ

قال: فقام رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم رفع يديه نحو السماء وقال: «اللّهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً سريعاً غدقاً طبقاً عاجلاً غير رائث، نافعاً غير ضار تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون». قال: فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بأرواقها، وجاء أهل البطانة يضجُّون: يا رسول الله الغرق الغرق، فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللّهم حوالينا ولا علينا»، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «لله در أبي طالب لو كان حياً قرَّتا عيناه من ينشد قوله؟» فقام علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الهُلاَّكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ نُبْزَى مُحَمَّداً ... وَلَمَّا نُقَاتِلْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالحَلائِلِ

قال: وقام رجل من كنانة فقال:

لَكَ الحَمْدُ وَالحَمْدُ مِمَّنْ شَكَرْ ... سُقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ المَطَرْ
دَعَا اللَّهَ خَالِقَهُ دَعْوَةً ... إِلَيْهِ وَأَشْخَصَ مِنْهُ البَصَرْ
فَلَمْ يَكُ إِلا كَلَفِّ الرِّدَاءِ ... وَأَسْرَعَ حَتَّى رَأَيْنَا الدُّرَرْ
دُفَاقَ العَزَالِي عَمَّ البِقَاعَ ... أَغَاثَ بِهِ اللَّهُ عُلْيَا مُضَرْ
وَكَانَ كَمَا قَالَهُ عَمُّهُ ... أَبُو طَالِبٍ أَبْيَضُ ذُو غُرَرْ
بِهِ اللَّهُ يَسْقِي صَوْبَ الغَمَامِ ... وَهَذَا العِيَانُ لِذَاكَ الخَبَرْ
فَمَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَلْقَى المَزِيدَ ... وَمَنْ يَكْفُرِ اللَّهَ يَلْقَى الغِيَرْ

قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن يك شاعر يحسن فقد أحسنت».

وهذا السياق فيه غرابة ولا يشبه ما قدمنا من الروايات الصحيحة المتواترة عن أنس فإن كان هذا هكذا محفوظاً فهو قصة أخرى غير ما تقدم والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٤٣/٦، ١٤٤]: أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهاني، حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا عبد الله بن مصعب، حدثنا عبد الجبار، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا محمد بن أبي ذئب المدني عن عبد الله بن محمد بن عمر بن حاطب الجمحي عن أبي وَجْزة يزيد بن عبيد السُّعدي قال: لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أتاه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس - وهو أصغرهم - ابن أخي عيينة بن حصن، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار، وقدموا على إبل ضعاف عجاف وهم مسنتون، فأتوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقالوا: يا رسول الله، أسنتت بلادنا، وأجدبَ جنابُنا، وعَرِيَتْ عيالنا، وهلكت مواشينا، فادع ربك أن يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربك ويشفع ربك إليك، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! ويلك هذا أنا شفعت إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟! لا إله إلا الله وسع كرسيه السماوات والأرض وهو يئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد». قال رسول الله ﷺ: «إن الله يضحك من شفقتكم وأزلكم وقرب غياثكم»، فقال الأعرابي: ويضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الأعرابي: لن نعدم يا رسول الله من رب يضحك خيراً، فضحك رسول الله ﷺ من قوله، فقام رسول الله ﷺ فصعد المنبر وتكلم بكلام ورفع يديه - وكان رسول الله ﷺ لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء - رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، وكان مما حفظ من دعائه: «اللّهم اسق بلدك وبهائمك، وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت، اللّهم اسقنا غيثا مغيثاً مريئاً مريعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل نافعا غير ضار، اللّهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللّهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء»، فقام أبو لبابة بن عبد المنذر فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اسقنا»، فقام أبو لبابة التمر في المرابد، ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا فيسد ثعلب مربده بإزاره»، قال: فلا والله مافي السماء من قزعة ولا سحاب وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت وهم ينظرون ثم أمطرت، فو الله ما رأوا الشمس سبتاً، وقام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج منه التمر، فقال الرَّجلُ: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل. فصعد النبي ﷺ المنبر فدعا ورفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، ثم قال: «اللّهم حوالينا ولا علينا اللّهم على الآكام والظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر»، فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب.

وهذا السياق يشبه سياق مسلم الملائي عن أنس، ولبعضه شاهد في سنن أبي داود [١١٦٩]؛ وفي حديث أبي رزين العقيلي شاهد لبعضه أيضاً [مسند أحمد ١١/٤، ١٢، ج (١٨١) من حديث أبي رزين]؛ والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل [١٤٤/٦، ١٤٥]: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن علي بن المؤمل، أخبرنا أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، حدثنا محمد بن حماد الظهراني، أخبرنا سهل بن عبد الرحمن المعروف بالسِّندي بن عبدَوَيه عن عبد الله بن عبد الله أبي أويس المدني عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب عن أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري قال: استسقى رسول الله ﷺ يوم جمعة وقال: «اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا»، فقام أبو لبابة فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد، وما في السماء من سحاب نراه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اسقنا»، فقام أبو لبابة فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اسقنا، حتى يقوم أبو لبابة يسد ثعلب مربده بإزاره»، فاستهلت السماء ومطرت وصلى بنا رسول الله ﷺ ثم أطاف الأنصار بأبي لبابة يقولون له: يا أبا لبابة إن السماء والله لن تقلع حتى تقوم عرياناً فتسد ثعلب مربدك بإزارك كما قال رسول الله ﷺ، قال: فقام أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره فأقلعت السماء.

وهذا إسناد حسن ولم يروه أحد ولا أهل الكتب والله أعلم.

وقد وقع مثل هذا الاستسقاء في غزوة تبوك في أثناء الطريق كما قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن

عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستتقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرَّحْل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستتقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فقال: «أو تحب ذلك؟» قال: نعم، قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر [الدلائل للبيهقي: ٢٣١/٥ من طريق ابن وهب، به].

وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه.

وقد قال الواقدي [المغازي: ١٠٠٢/٣ باختلاف في عدد الخيل ودون ذكر عدد العدو]: كان مع المسلمين في هذه الغزوة اثنا عشر ألف بعير ومثلها من الخيل، وكانوا ثلاثين ألفاً من المقاتلة، قال: ونزل من المطر ماء أغدق الأرض حتى صارت الغدران تسكب بعضها في بعض وذلك في حمارَّة القيظ. أي شدة الحر البليغ، فصلوات الله وسلامه عليه. وكم له عليه الصلاة والسلام من مثل هذا في غير ما حديث صحيح ولله الحمد.

وقد تقدم أنه لما دعا على قريش حين استعصت أن يسلط الله عليها سبعاً كسبع يوسف فأصابتهم سنة حصَّت كل شيء حتى أكلوا العظام والكلاب والعلهز، ثم أتى أبو سفيان يشفع عنده في أن يدعو الله لهم، فدعا لهم فرفع ذلك عنهم.

وقد قال البخاري [١٠١٠]: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا أبي عبد الله بن المثنى عن ثمامة بن عبد الله بن أنس عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال: اللّهم أنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

تفرد به البخاري.

فصل: وأما المعجزات الأرضية:

٦- نبع الماء من تحت أصابعه

فمنها ما هو متعلق بالجمادات، ومنها ما هو متعلق بالحيوانات فمن المتعلق بالجمادات تكثيره الماء في غير ما موطن على صفات متنوعة سنوردها بأسانيدها إن شاء الله، وبدأنا بذلك لأنه أنسب باتباع ما أسلفنا ذكره من استسقائه وأجابة الله له.

قال البخاري [٣٥٧٣]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الأناء فأمر الناس أن يتوضؤوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم.

وقد رواه مسلم [(٢٢٧٩) (٥)] والترمذي [٣٦٣١] والنسائي [٧٦] من طرق عن مالك به وقال الترمذي: حسن صحيح

طريق أخرى عن أنس:

قال الإمام أحمد [٢١٦/٣]: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حزم، سمعت الحسن يقول: حدثنا أنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم لبعض مخارجه معه ناس من أصحابه فانطلقوا يسيرون فحضرت الصلاة فلم يجد القوم ما يتوضؤون به فقالوا: يا رسول الله والله ما نجد ما نتوضأ به، ورأى في وجوه أصحابه كراهية ذلك، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير، فأخذ نبي الله فتوضأ منه، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال: «هلموا فتوضؤوا»، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء، قال الحسن: سئل أنس: كم بلغوا؟ قال: سبعين أو نحو ذلك.

وهكذا رواه البخاري [٣٥٧٤] عن عبد الرحمن بن المبارك العنسي عن حزم بن مهران القطيعي به.

طريق أخرى عن أنس:

قال الإمام أحمد [١٠٦/٣]: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد ويزيد قال: أخبرنا حميد المعنى عن أنس بن مالك قال: نودي بالصلاة فقام كل قريب الدار من المسجد وبقي من كان أهله نائي الدار فأتي رسول الله ﷺ بمخضب من حجارة فصغر أن يبسط كفه فيه قال: فضم أصابعه قال: فتوضأ بقيتهم، قال حميد: وسئل أنس: كم كانوا؟ قال: ثمانين أو زيادة.

وقد رواه البخاري [٣٥٧٥] عن عبد الله بن منير عن يزيد بن هارون عن حميد عن أنس بن مالك قال: حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار من المسجد يتوضأ وبقي قوم فأتي رسول الله ﷺ بمخضب من حجارة فيه ماء فوضع كفه فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه فضم أصابعه فوضعها في المخضب فتوضأ القوم كلهم جميعا قلت: كم كانوا؟ قال: كانوا ثمانين رجلاً.

طريق أخرى عنه:

قال الإمام أحمد [١٧٠/٣]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سعيد إملاء عن قتادة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان بالزوراء فأتي بإناء فيه ماء لا يغمر أصابعه فأمر أصحابه أن يتوضؤوا فوضع كفه في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم، قال: فقلت لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا ثلاثمائة.

وهكذا رواه البخاري [٣٥٧٢] عن بندار بن أبي عدي ومسلم [(٢٢٧٩) (٧)] عن أبي موسى عن غندر كلاهما عن سعيد بن أبي عروبة، وبعضهم يقول: عن شعبة، والصحيح سعيد عن قتادة عن أنس قال: «أتي رسول الله ﷺ بإناء وهو في الزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم، قال قتادة. فقلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة.

لفظ البخاري.

حديث البراء بن عازب في ذلك:

قال البخاري [٣٥٧٧]: حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: «كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس رسول الله ﷺ على شفير البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وروت أو صدرت ركائبنا».

تفرد به البخاري إسناداً ومتناً.

حديث آخر عن البراء بن عازب:

قال الإمام أحمد [٢٩٢/٤، ٢٩٧]: حدثنا عفان وهاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، حدثنا يونس - هو ابن عبيدة مولى محمد بن القاسم - عن البراء قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأتينا على ركي ذمة - يعني قليلة الماء - قال: فنزل فيها ستة أنا سادسهم ماحة فأدليت إلينا دلو قال: ورسول الله ﷺ على شفة الركي فجعلنا فيها نصفها أو قراب ثلثيها فرفعت إلى رسول الله ﷺ. قال البراء: فكدت بإنائي هل أجد شيئاً أجعله في حلقي؟ فما وجدت فرفعت الدلو إلى رسول الله ﷺ فغمس يده فيها فقال ما شاء الله أن يقول، وأعيدت إلينا الدلو بما فيها، قال: فلقد رأيت أحدنا أخرج بثوب خشية الغرق قال: ثم ساحت - يعني جرت نهراً».

تفرد به الإمام أحمد، وإسناده جيد قوي، والظاهر أنها قصة أخرى غير يوم الحديبية والله أعلم.

حديث آخر عن جابر في ذلك:

قال الإمام أحمد [٣٤٣/٣]: حدثنا سيّار بن حاتم، حدثنا جعفر - يعني ابن سليمان - حدثنا الجعد أبو عثمان، حدثنا أنس بن مالك عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: اشتكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه العطش قال: فدعا بعُسٍّ فصب فيه شيء من الماء ووضع رسول الله ﷺ فيه يده وقال: «استقوا»، فاستقى الناس قال: فكنت أرى العيون تنبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وفي أفراد مسلم [٣٠١٢ - ٣٠١٤] من حديث حاتم بن إسماعيل عن أبي حزرة يعقوب بن مجاهد عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن جابر بن عبد الله في حديث طويل قال فيه: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا بشجرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمَنْصَف مما بينهما لأمَ بينهما - يعني جمعهما - فقال: «التئما عليَّ بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة، فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً وإذا بالشجرتين قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول الله ﷺ وقفَ وقفةً فقال برأسه هكذا: يميناً وشمالاً، ثم أقبل فلما انتهى إلي قال: «يا جابر هل رأيت مقامي؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصناً فأقبل بهما حتى إذا قمت مقامي فأرسل غصناً عن يمينك وغصناً عن يسارك»، قال جابر: فقمت فأخذت حجراً فكسرته وحسَرْتُه فانذَلَق لي فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصناً، ثم أقبلت أجرُهما حتى قمت مقام رسول الله ﷺ أرسلت غصناً عن يميني وغصناً عن يساري، ثم لحقت فقلت: قد فعلت يا رسول الله، قال: فقلت: فلم ذاك؟ قال: «إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يُرفَّهَ عنهما ما دام الغصنان رطبين»، قال: فأتينا العسكر فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد بوضوء»، فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ قال: قلت: يا رسول الله ما وجدت في الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء في أشجاب له على حمارة من جريد قال: فقال لي: «انطلق إلى فلان الأنصاري فانظر هل في أشجابه من شيء؟» قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها - لو أني أفرغه لشربه يابسه، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أجد فيها إلا قطرة عزلاء شجب منها لو أني أفرغُه لشربه يابسه قال: «اذهب فأتني به»، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيديه ثم أعطانيه فقال: «يا جابر ناد بجفنة»، فقلت: يا جفنة الركب، فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة هكذا فبسطها وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال: «خذ يا جابر فصب عليَّ وقل: بسم الله»، فصببت عليه وقلت: بسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله ﷺ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت فقال: «يا جابر ناد من كانت له حاجة بماء»، قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى. قال: وشكا الناس إلى رسول الله ﷺ الجوع، فقال: «عسى الله أن يطعمكم»، فأتينا سيف البحر فزجر زجرة فألقى دابة فأورينا على شقها النار فطبخنا واشتوينا وأكلنا حتى شبعنا، قال جابر: فدخلت أنا وفلان وفلان - حتى عد خمسة - في حِجاج عينها ما يرانا أحد، حتى خرجنا وأخذنا ضلعاً من أضلاعه فقوسناه ثم دعونا بأعظم رجل في الرَّكْب وأعظم جمل في الركب وأعظم كفل في الركب فدخل تحتها ما يطأطىء رأسه.

وقال البخاري [٣٥٧٦]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا حصين عن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ فجهش الناس نحوه قال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة».

وهكذا رواه مسلم [(١٨٥٦) (٧٣)] من حديث حصين وأخرجاه [خ (٥٦٣٩)، م (١٨٥٦) (٧٤، ٧٥)] من حديث الأعمش. زاد مسلم وشعبة ثلاثتهم عن سالم، عن جابر، وفي رواية الأعمش «كنا أربع عشرة مائة».

وقال الإمام أحمد [٢٩٢/٣]: حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي أن جابر بن عبد الله قال: غزونا أو

سافرنا مع رسول اللّه ﷺ ونحن يومئذ بضع عشر ومائتان فحضرت الصلاة فقال رسول اللّه ﷺ: «هل في القوم من ماء؟» فجاءه رجل يسعى بإداوة فيها شيء من ماء، قال: فصبه رسول اللّه ﷺ في قدح، قال: فتوضأ رسول اللّه ﷺ فأحسن الوضوء ثم انصرف وترك القدح فركب الناس القدح: تمسَّحوا تمسَّحوا، فقال رسول اللّه ﷺ: «على رسلكم» حين سمعهم يقولون ذلك، قال: فوضع رسول اللّه ﷺ كفه في الماء ثم قال رسول اللّه ﷺ: «بسم اللّه»، ثم قال: «أسبغوا الوضوء» قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري لقد رأيت العيون عيون الماء يومئذ تخرج من بين أصابع رسول اللّه ﷺ فما رفعها حتى توضؤوا أجمعون.

وهذا إسناد جيد تفرد به أحمد، وظاهره كأنه قصة أخرى غير ما تقدم.

وفي صحيح مسلم [١٨٠٧ مطولاً] عن سلمة بن الأكوع قال: "قدمنا الحديبية مع رسول اللّه ﷺ ونحن أربع عشرة مائة أو أكثر من ذلك وعليها خمسون رأساً لا يرويها فقعد رسول اللّه ﷺ على جَبَا الركية فإما دعا وإما بصق فيها قال: فجاشت فسقينا واستقينا".

وفي صحيح البخاري [ ] من حديث الزهري عن عروة عن المسور ومروان بن الحكم في حديث صلح الحديبية الطويل فعدل عنهم رسول اللّه ﷺ حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرُّضاً فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول اللّه ﷺ العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فواللّه ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. وقد تقدم الحديث بتمامه في صلح الحديبية، فأغنى عن إعادته.

وروى ابن إسحاق عن بعضهم أن الذي نزل بالسهم ناجية بن جندب سائق البدن، قال وقيل: البراء بن عازب. ثم رجح ابن إسحاق الأول.

حديث آخر عن ابن عباس في ذلك:

قال الإمام أحمد [٢٥١/١، ٣٢٤]: حدثنا حسين الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس، قال: أصبح رسول اللّه ﷺ ذات يوم وليس في العسكر ماء فأتاه رجل فقال: يا رسول اللّه ليس في العسكر ماء، قال: «هل عندك شيء؟» قال: نعم، قال: «فأتني به»، قال: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال: فجعل رسول اللّه ﷺ أصابعه في فم الإناء وفتح أصابعه، قال: فانفجرت من بين أصابعه عيون وأمر بلالا فقال: «ناد في الناس: الوضوءَ المبارك».

تفرد به أحمد، ورواه الطبراني [المعجم الكبير: ٨٧/١٢] من حديث عامر الشعبي عن ابن عباس بنحوه.

حديث عن عبد اللّه بن مسعود في ذلك:

قال البخاري [٣٥٧٩]: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد اللّه قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فقل الماء فقال: «اطلبوا فضلةً من ماء»، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حي على الطهور المبارك والبركة من اللّه عز وجل»، قال: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللّه ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

ورواه الترمذي [٣٦٣٣] عن بندار عن أبي أحمد وقال: حسن صحيح.

حديث عن عمران بن حصين في ذلك:

قال البخاري [٣٥٧١]: حدثنا أبو الوليد، حدثنا سَلْم بن زرير، سمعت أبا رجاء قال: حدثنا عمران بن حصين أنهم كانوا مع رسول اللّه ﷺ في مسير فأدلجوا ليلتهم حتى إذا كان وجه الصبح عرسوا فغلبتهم أعينهم حتى ارتفعت الشمس، فكان أول من استيقظ من منامه أبو بكر، وكان لا يوقظ رسول اللّه ﷺ من منامه حتى يستيقظ، فاستيقظ عمر فقعد أبو بكر عند رأسه فجعل يكبر ويرفع صوته حتى استيقظ النبي ﷺ فنزل وصلى بنا الغداة فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال: «يا فلان ما يمنعك أن تصلي معنا؟» قال: أصابتني جنابة، فأمره أن يتيمم بالصعيد ثم صلى، وجعلني رسول اللّه ﷺ في ركوب بين يديه، وقد عطشنا عطشاً شديداً، فبينما نحن نسير مع رسول اللّه ﷺ إذ نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين فقلنا لها: أين الماء؟ قالت: إنه لا ماء: فقلنا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: يوم وليلة، فقلنا: انطلقي إلى رسول اللّه ﷺ، قالت: وما رسول اللّه؟ فلم نملِّكها من أمرها حتى استقبلنا بها النبي ﷺ، فحدثته بمثل الذي حدثتنا غير أنها حدثته أنها مؤتمة فأمر بمزادتيها فمسح في العزلاوين فشربنا عطاشاً أربعين رجلاً حتى روينا وملأنا كل قربة معنا وإداوة، غير أنه لم نسق بعيراً وهي تكاد تنضُ من الملء، ثم قال: «هاتوا ما عندكم»، فجمع له من الكسر والتمر حتى أتت أهلها، فقالت: لقيت أسحر الناس أو هو نبي كما زعموا، فهدى اللّه ذاك الصرم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا.

وكذلك رواه مسلم [(٦٨٢) (٣١٢)] من حديث سلم بن زرير، وأخرجاه [خ (٣٤٤، ٣٤٨)، م (٦٨٢) (٣١٢)] من حديث عوف الأعرابي، كلاهما عن أبي رجاء العطاردي ـ واسمه عمران بن تيم ـ عن عمران بن حصين به.

وفي رواية لهما [خ (٣٤٤)، م (٦٨٢) (٣١٢)] فقال لها: اذهبي بهذا معك لعيالك واعلمي أنا لم نرزأك من مائك شيئاً غير أن اللّه سقانا». وفيه أنه لما فتح العزلاوين سمى اللّه عز وجل.

حديث عن أبي قتادة في ذلك:

قال الإمام أحمد [٢٩٨/٥]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد اللّه بن رباح عن أبي قتادة قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فقال: «إنكم إن لا تدركوا الماء غداً تعطشوا»، وانطلق سرعان الناس يريدون الماء، ولزمت رسول اللّه ﷺ فمالت برسول اللّه ﷺ راحلته فنعس رسول اللّه ﷺ فدعمته فادَّعم ثم مال فدعمته فادعم، ثم مال حتى كاد أن ينجفل عن راحلته فدعمته فانتبه فقال: «من الرجل؟» فقلت: أبو قتادة، قال: «منذ كم كان مسيرك؟» قلت: منذ الليلة، قال: «حفظك اللّه كما حفظت رسوله» ثم قال: «لو عرسنا»، فمال إلى شجرة فنزل فقال: «انظر هل ترى أحداً؟» قلت: هذا راكب، هذان راكبان، حتى بلغ سبعة. فقال: «احفظوا علينا صلاتنا»، فنمنا فما أيقظنا إلا حر الشمس فانتبهنا فركب رسول اللّه ﷺ فسار وسرنا هنيهة، ثم نزل فقال: «أمعكم

ماء؟» قال: قلت: نعم معي ميضأة فيها شيء من ماء، قال: «ائت بها»، قال: فأتيته بها فقال: «مسُّوا منها مسُّوا منها»، فتوضأ القوم وبقيت جرعة فقال: «ازدهر بها يا أبا قتادة فإنه سيكون لها نبأ»، ثم أذن بلال وصلوا الركعتين قبل الفجر ثم صلوا الفجر، ثم ركب وركبنا فقال بعضهم لبعض: فرطنا في صلاتنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإليّ»، قلنا: يا رسول الله فرطنا في صلاتنا، فقال: «لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة، فإذا كان ذلك فصلوها ومن الغد وقتها»، ثم قال: «ظنوا بالقوم»، قالوا: إنك قلت بالأمس: «إن لا تدركوا الماء غداً تعطشوا»، فالناس بالماء، فقال: «أصبح الناس وقد فقدوا نبيهم، فقال بعضهم لبعض: إن رسول الله ﷺ بالماء. وفي القوم أبو بكر وعمر، فقالا: أيها الناس إن رسول الله ﷺ لم يكن ليسبقكم إلى الماء ويخلفكم، وإن يطع الناس أبا بكر وعمر يرشدوا» قالها ثلاثاً، فلما اشتدت الظهيرة رفع لهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله هلكنا عطشاً، تقطعت الأعناق، فقال: «لا هُلْكَ عليكم»، ثم قال: «يا أبا قتادة ائت بالميضأة»، فأتيته بها، فقال: «احلل لي غُمَري» - يعني قدحه - فحللته فأتيته به، فجعل يصب فيه ويسقي الناس فازدحم الناس عليه فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس أحسنوا الملأ فكلكم سيصدر عن ريّ»، فشرب القوم حتى لم يبق غيري وغير رسول الله ﷺ، فصب لي فقال: «اشرب يا أبا قتادة»، قال: قلت: اشرب أنت يا رسول الله، قال: «إن ساقي القوم آخرهم»، فشربت وشرب بعدي وبقي في الميضأة نحو مما كان فيها، وهم يومئذ ثلاثمائة، قال عبد الله: فسمعني عمران بن حصين وأنا أحدث هذا الحديث في المسجد الجامع فقال: من الرجل؟ قلت: أنا عبد الله بن رباح الأنصاري، قال: القوم أعلم بحديثهم، انظر كيف تحدث فإني أحد السبعة تلك الليلة، فلما فرغت، قال: ماكنت أحسب أحداً يحفظ هذا الحديث غيري.

قال حماد بن سلمة: وحدثنا حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة عن النبي ﷺ بمثله وزاد قال: كان رسول الله ﷺ إذا عرس وعليه ليل توسد يمينه، وإذا عرس الصبح وضع رأسه على كفه اليمنى وأقام ساعده [مسند أحمد: ٢٩٨/٥].

وقد رواه مسلم [٦٨١] عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري بطوله وأخرجه [٦٨٣ مختصراً] من حديث حماد بن سلمة بسنده الأخير أيضاً.

حديث آخر عن أنس يشبه هذا:

روى البيهقي [الدلائل: ١٣٤/٦، ١٣٥] من حديث الحافظ أبي يعلى الموصلي: حدثنا شيبان، حدثنا سعيد بن سليمان الضبعي، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ جهز جيشاً إلى المشركين فيهم أبو بكر وعمر فقال لهم: «أجدُّوا السير فإن بينكم وبين المشركين ماءً إن يسبق المشركون إلى ذلك الماء شق على الناس وعطشتم عطشاً شديداً أنتم ودوابكم»، قال: وتخلف رسول الله ﷺ في ثمانية أنا تاسعهم، وقال لأصحابه: «هل لكم أن نعرس قليلاً ثم نلحق بالناس؟» قالوا: نعم يا رسول الله، فعرسوا فما أيقظهم إلا حر الشمس، فاستيقظ رسول الله ﷺ واستيقظ أصحابه، فقال لهم: «تقدموا واقضوا حاجاتكم»، ففعلوا ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: «هل مع أحدٍ منكم ماء؟» قال رجل منهم: يا رسول الله معي ميضأة فيها شيء من ماء، قال: «فجيء بها»: فجاء بها فأخذها نبي الله ﷺ فمسحها بكفيه ودعا بالبركة فيها وقال لأصحابه: «تعالوا فتوضؤوا»، فجاؤوا وجعل يصب عليهم رسول الله ﷺ حتى توضؤوا كلهم، فأذن رجل منهم وأقام فصلى رسول الله ﷺ بهم وقال لصاحب الميضأة «ازدهر بميضأتك فسيكون لها نبأ»، وركب رسول الله ﷺ قبل الناس وقال لأصحابه: «ما ترون الناس فعلوا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال لهم: «فيهم أبو بكر وعمر وسيرشد الناس»، فقدم الناس وقد سبق المشركون إلى ذلك الماء فشق ذلك على الناس وعطشوا عطشاً شديداً ركابهم ودوابهم، فقال رسول الله ﷺ: «أين صاحب الميضأة؟» قالوا: هو ذا يا رسول الله، قال: «جئني بميضأتك»، فجاء بها وفيها شيء من ماء، فقال لهم: «تعالوا فاشربوا»، فجعل يصب لهم رسول الله ﷺ حتى شرب الناس كلهم وسقوا دوابهم وركابهم وملؤوا ماكان معهم من إداوة وقربة ومزادة، ثم نهض رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المشركين، فبعث الله ريحاً فضرب وجوه المشركين وأنزل الله نصره وأمكن من أدبارهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا أسارى كثيرة، واستاقوا غنائم كثيرة، ورجع رسول الله ﷺ والناس وافرين صالحين.

وقد تقدم قريباً عن جابر ما يشبه هذا وهو في صحيح مسلم.

وقدمنا في غزوة تبوك ما رواه مسلم [(٧٠٦) (١٠)] من طريق مالك عن أبي الزبير عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل. فذكر حديث جمع الصلاة في غزوة تبوك إلى أن قال: وقال - يعني رسول الله ﷺ -: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحي ضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي»، قال: فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملىء جناناً».

وقال الإمام أحمد [١٦٨/٤، ١٦٩]: حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن سوادة عن زياد بن نعيم عن حبان بن بُحٍّ الصدائي صاحب رسول الله ﷺ قال: إن قومي أسلموا فأخبرت أن رسول الله ﷺ جهز إليهم جيشاً، فأتيته فقلت: إن قومي على الإسلام فقال: «أكذلك؟» فقلت: نعم قال: فاتبعته ليلتي إلى الصباح فأذنت بالصلاة لما أصبحت وأعطاني إناء توضأت منه، وجعل رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء فانفجر عيوناً فقال: «من أراد منكم أن يتوضأ فليتوضأ»، فتوضأت وصليت، وأمّرني عليهم وأعطاني صدقاتهم فقام رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله فلان ظلمني فقال النبي ﷺ: «لا خير في الإمرة لمسلم»، ثم جاء آخر فسأل صدقة فقال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة صداع في الرأس وحريق في البطن، أو داء»، قال: فأعطيته صحيفتي أو قال: صحيفة إمرتي وصدقتي فقال: «ما شأنك؟ فقلت: كيف أقبلها وقد سمعت منك ما سمعت؟! فقال: «هو ما سمعت».

وذكرنا في باب الوفود من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن زياد بن نعيم الحضرمي عن زياد بن الحارث الصدائي في قصة وفادته فذكر حديثا طويلا فيه، ثم قلنا: يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء وسعنا

ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا، وكل من حولنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا فيسعنا ماؤها فنجتمع عليه ولا نتفرق، فدعا بسبع حصيات فعركهن بيده ودعا فيهن ثم قال: «اذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة واذكروا الله عز وجل»، قال الصدائي: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها - يعني البئر -.

وأصل هذا الحديث في المسند [١٦٩/٤ مختصراً] وسنن أبي داود [٥١٤] والترمذي [١٩٩] وابن ماجه [٧١٧].

وأما الحديث بطوله ففي دلائل النبوة للبيهقي رحمه الله وقال البيهقي [الدلائل: ١٣٦/٦]: باب ما ظهر في البئر التي كانت بقباء من بركته

أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، حدثنا أبو حامد بن الشرقي، أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، أخبرنا أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يحيى بن سعيد أنه حدثه أن أنس بن مالك أتاهم بقباء فسأله عن بئر هناك، قال: فدللته عليها، فقال: لقد كانت هذه وإن الرجل لينضح على حماره فينزح فنستخرجها فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذنوب فسُقي فإما أن يكون توضأ منه، وإما أن يكون تفل فيه ثم أمر به فأعيد في البئر، قال: فما نزحت بعد، قال: فرأيته بال ثم جاء فتوضأ ومسح على خفّيه ثم صلى.

وقال أبو بكر البزار حدثنا الوليد بن عمرو بن السُّكين، حدثنا محمد بن عبد الله بن مثنى عن أبيه عن ثمامة عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ فنزلنا فسقيناه من بئر لنا في دارنا كانت تسمى النزور في الجاهلية فتفل فيها فكانت لا تنزح بعد. ثم قال: لا نعلم هذا يروى إلا من هذا الوجه.

باب تكثيره عليه الصلاة والسلام الأطعمة للحاجة إليها في غير ما موطن كما سنورده مبسوطاً:

٧- تكثيره اللبن في مواطن أيضاً

قال الإمام أحمد [٥١٥/٢]: حدثنا روح، حدثنا عمر بن ذر عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمر عمر رضي الله عنه فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمر أبو القاسم ﷺ فعرف ما في وجهي وما في نفسي فقال: «أبا هريرة»، قلت له: لبيك يا رسول الله، فقال: «الحق» واستأذنت فأذن لي فوجدت لبناً في قدح فقال: «من أين لكم هذا اللبن؟» فقالوا: أهداه لنا فلان أو آل فلان، قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لي»، قال: وكان أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول الله ﷺ هدية أصاب منها وبعث إليهم منها وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها - قال: وأحزنني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شَرْبة أتقوى بها بقية يومي وليلتي، وقلت: أنا الرسول، فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم، وقلت: ما يبقى لي من هذا اللبن؟! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد، فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: «أبا هر خذ فأعطهم»، فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم، ودفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر إلي وتبسم وقال: «أبا هرّ» فقلت: لبيك رسول الله قال: «بقيت أنا وأنت» فقلت: صدقت يا رسول الله قال: «اقعد فاشرب» قال: فقعدت فشربت ثم قال لي: «اشرب» فشربت، فما زال يقول لي: «اشرب» فأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له فيَّ مسلكاً، قال: «ناولني القدح» فرددت إليه القدح فشرب من الفضلة.

ورواه البخاري [٦٢٤٦، ٦٤٥٢] عن أبي نعيم وعن محمد بن مقاتل عن عبد الله بن المبارك.

وأخرجه الترمذي [٢٤٧٧] عن هناد عن يونس بن بكير ثلاثتهم عن عمر بن ذر وقال الترمذي: صحيح.

وقال الإمام أحمد [٣٧٩/١]: حدثنا أبو بكر بن عياش، حدثني عاصم عن زرّ عن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن؟» قال: قلت: نعم ولكني مؤتمن. قال: «فهل من شاةٍ لم ينز عليها الفحل؟» فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في أناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلِص» فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله، فإنك غُلَيِّمٌ معلَّم».

ورواه البيهقي [الدلائل: ٨٤/٦] من حديث أبي عوانة عن عاصم بن أبي النجود عن زرّ عن ابن مسعود، وقال فيه: فأتيته بعناق جذعة فاعتقلها ثم جعل يمسح ضرعها ويدعو، وأتاه أبو بكر بجَفنة فحلب فيها وسقى أبا بكر ثم شرب، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، فمسح رأسي وقال: «إنك غلام معلَّم» فأخذت عنه سبعين سورة ما نازعنيها بشر.

وتقدم في الهجرة حديث أم معبد وحلبه عليه الصلاة والسلام شاتها، وكانت عجفاء لا لبن لها فشرب هو وأصحابه وغادر عندها إناء كبيراً من لبن حتى جاء زوجها، وتقدم في ذكر من كان يخدمه من غير مواليه عليه الصلاة والسلام حديث المقداد بن الأسود حين شرب اللبن الذي كان قد جاء لرسول الله ﷺ، ثم قام في الليل ليذبح له شاة فوجد لبناً كثيراً فحلب ما ملأ منه اناء كبيراً جداً، الحديث.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زهير عن أبي إسحاق عن ابنة خبّاب أنها أتت رسول الله ﷺ بشاة فاعتقلها وحلبها، فقال: «ائتني بأعظم إناء لكم» فأتيناه بجفنة العجين، فحلب فيها حتى ملأها، ثم قال: «اشربوا أنتم وجيرانكم»

وقال البيهقي [الدلائل: ١٣٧/٦]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران ببغداد، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا محمد بن الفرج الأزرق، حدثنا عصمة بن سليمان الخزاز، حدثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن نافع - وكانت له صحبة - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر وكنا زهاء أربعمائة فنزلنا في موضع ليس فيه ماء فشق ذلك على أصحابه وقالوا: رسول الله ﷺ أعلم، قال: فجاءت شويهة لها قرنان فقامت بين يدي رسول الله ﷺ فحلبها فشرب حتى روى وسقى أصحابه حتى رووا، ثم قال: «يا نافع املكها الليلة وما أراك تملكها»! قال: فأخذتها فوتدت لها وتداً ثم ربطتها بحبل ثم قمت في بعض الليل فلم أر الشاة،

ورأيت الحبل مطروحاً، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته من قبل أن يسألني فقال: «يا نافع ذهب بها الذي جاء بها».

قال البيهقي: ورواه محمد بن سعد عن خلف بن الوليد ـ أبي الوليد الأزدي ـ عن خلف بن خليفة عن أبان بن بشير، عن شيخ بن أهل البصرة، عن نافع، فذكره. وهذا حديث غريب جداً إسناداً ومتناً.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ١٣٨/٦]: أخبرنا أبو سعيد الماليني، أخبرنا أبو أحمد بن عدي، أخبرنا العباس بن محمد بن العباس، حدثنا أحمد بن سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو حفص الرياحي، حدثنا عامر بن أبي عامر الخزاز عن أبيه عن الحسن بن سعد ـ يعني مولى أبي بكر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «احلب لي تلك العنز» قال: وعهدي بذلك الموضع لا عنز فيه، قال: فأتيت فإذا بعنز حافل، قال: فاحتلبتها واحتفظت بالعنز وأوصيت بها، قال: فاشتغلنا بالرحلة ففقدت العنز فقلت: يا رسول الله قد فقدت العنز، فقال: «إن لها رباً».

وهذا أيضاً حديث غريب جداً إسناداً ومتناً وفي إسناده من لا يعرف حاله، وسيأتي حديث الغزالة في قسم ما يتعلق من المعجزات بالحيوانات.

٨- تكثيره ﷺ السمن لأم سليم

قال الحافظ أبو يعلى [مسنده (٤٢١٣)]: حدثنا شيبان، حدثنا محمد بن زياد البرجمي عن أبي الظلال عن أنس عن أمه قال: كانت لها شاة فجمعت من سمنها في عكة فملأت العكة ثم بعثت بها مع ربيبة فقالت: يا ربيبة ابلغي هذه العكة رسول الله ﷺ يأتدم بها، فانطلقت بها ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم، قال: «فرِّغوا لها عكتها» ففرغت العكة فدفعت إليها فانطلقت بها وجاءت وأم سليم ليست في البيت فعلقت العكة على وتد، فجاءت أم سليم فرأت العكة ممتلئة تقطر، فقالت أم سليم: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله؟ فقالت: قد فعلت، فإن لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله ﷺ فانطلقت أم سُليم ومعها ربيبة فقالت: يا رسول الله إني بعثت معها إليك بعكة فيها سمن، قال: «قد فعلت، قد جاءت بها» قالت: والذي بعثك بالحق ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمناً! قال: فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه؟ كلي وأطعمي» قالت: فجئت إلى البيت فقسمت في قعب لنا وكذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا به شهراً أو شهرين.

حديث آخر في ذلك:

قال البيهقي [الدلائل: ١١٥/٦]: أخبرنا الحاكم، أخبرنا الأصم، حدثنا عباس الدوري، حدثنا علي بن بحر القطان، حدثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن يوسف بن خالد عن أوس بن خالد عن أم أوس البهزية قالت: سليت سمناً لي فجعلته في عكة فأهديته لرسول الله ﷺ فقبله وترك في العكة قليلا ونفخ فيه ودعا بالبركة ثم قال: «ردوا عليها عكتها» فردوها عليها وهي مملوءة سمناً، قالت: فظننت أن رسول الله ﷺ لم يقبلها فجاءت ولها صراخ، فقالت: يا رسول الله إنما سليته لك لتأكله، فعلم أنه قد استجيب له، فقال: «اذهبوا فقولوا لها فلتأكل سمنها وتدعو بالبركة» فأكلت بقية عمر النبي ﷺ وولاية أبي بكر وولاية عمر وولاية عثمان حتى كان من أمر علي ومعاوية ما كان.

حديث آخر:

روى البيهقي [الدلائل: ١٢٣/٦، ١٢٤] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن عبد الأعلى بن أبي المساور القرشي عن محمد بن عمرو بن عطاء عن أبي هريرة قال: «كانت امرأة من دوس يقال لها: أم شريك، أسلمت في رمضان، فذكر الحديث في هجرتها وصحبة ذلك اليهودي لها، وأنها عطشت فأبى أن يسقيها حتى تَهَوَّد، فنامت فرأت في النوم من يسقيها فاستيقظت وهي ريانة، فلما جاءت رسول الله ﷺ قصت عليه القصة، فخطبها إلى نفسها فرأت نفسها أقل من ذلك وقالت: بل زوجني من شئت، فزوجها زيداً وأمر لها بثلاثين صاعاً، وقال: «كلوا ولا تكيلوا» وكانت معها عكة سمن هدية لرسول الله ﷺ، فأمرت جاريتها أن تحملها إلى رسول الله ﷺ، ففرغت وأمرها رسول الله ﷺ إذا ردتها أن تعلقها ولا توكئها، فدخلت أم شريك فوجدتها ملأى، فقالت للجارية: ألم آمرك أن تذهبي بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقالت: قد فعلت، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يوكئوها فلم تزل حتى أوكتها أم شريك ثم كالوا الشعير فوجدوه ثلاثين صاعاً لم ينقص منه شيء».

حديث آخر:

قال الطبراني [المعجم الكبير: ١٧٦/٣]: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا يزيد بن يحيى بن يزيد الخزاعي أبو خالد حدثنا أبو بكر بن محمد بن حمزة عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك وكنت على خدمته ذلك السفر فنظرت إلى نِحْيِ السمن وقد قلّ ما فيه وهيأت للنبي ﷺ طعاماً ووضعت النحي في الشمس ونمت فانتبهت بخرير النحي فقمت فأخذت برأسه بيدي فقال رسول الله ﷺ: «لو تركته لسال وادياً سمناً».

حديث آخر في ذلك:

قال الإمام أحمد [٣٤٧/٣]: حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو الزبير عن جابر أن أم مالك البهزية كانت تهدي في عكة لها سمناً للنبي ﷺ فبينما بنوها يسألونها الإدام وليس عندها شيء فعمدت إلى نِحْيِها التي كانت تهدي فيه إلى النبي ﷺ فوجدت فيه سمناً، فما زال يقيم لها إدام بيتها حتى عصرته وأتت النبي ﷺ فقال: «أعصرتيه؟» فقلت: نعم قال: «لو تركتيه ما زال ذلك مقيماً».

ثم روى الإمام أحمد [٣٤٧/٣] بهذا الإسناد عن جابر عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير فما زال الرجل يأكل منه هو وامرأته وضيف لهم حتى كالوه، فقال رسول الله ﷺ: «لو لم تكيلوه لأكلتم منه ولقام لكم» وقد روى هذين الحديثين مسلم [(٢٢٨٠) و(٢٢٨١)] من وجه آخر عن أبي الزبير عن جابر.

٩- تكثير الطعام في ضيافة أبي طلحة

ذكر ضيافة أبي طلحة الأنصاري رسول الله ﷺ وما ظهر في ذلك

اليوم من دلائل النبوة في تكثيره الطعام النَّزْرَ حتى عمَّ مَنْ هنالك من الضيفان وأهل المنزل والجيران.

قال البخاري [٣٥٧٨]: حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: «قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلفَّت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ: «آرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال: «بطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلُمِّي يا أم سليم، ما عندك؟» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم حتى شبعو والقوم سبعون أو ثمانون رجلا.

وقد رواه البخاري في مواضع أخر من صحيحه [٤٢٢، ٣٥٨١، ٦٦٨٨] ومسلم [(٢٠٤٠) (١٤٢)] من غير وجه عن مالك، به.

طريق آخر عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

قال أبو يعلى [مسنده (٤١٥١)]: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا مبارك بن فضالة، حدثنا بكر وثابت البناني عن أنس أن أبا طلحة رأى رسول الله ﷺ طاوياً فجاء إلى أم سليم فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ طاويا فهل عندك من شيء؟ قالت: ما عندنا إلا نحو من مد دقيق شعير قال: فاعجنيه وأصلحيه عسى أن ندعو رسول الله ﷺ فيأكل عندنا، قال: فعجنته وخبزته فجاء قرصاً فقال لي: يا أنس ادع رسول الله ﷺ، فأتيت رسول الله ﷺ ومعه أناس، قال مبارك: أحسبه قال: بضعة وثمانون قال: فقلت: يا رسول الله أبو طلحة يدعوك، فقال لأصحابه: «أجيبوا أبا طلحة» فجئت جزعاً حتى أخبرته أنه قد جاء بأصحابه قال بكر: فَتَفَدَني قَفْدةً. وقال ثابت: قال أبو طلحة: رسول الله أعلم بما في بيتي مني، وقالا جميعاً عن أنس: فاستقبله أبو طلحة فقال: يا رسول الله ما عندنا شيء إلا قرص، رأيتك طاوياً فأمرت أم سليم فجعلت لك قرصاً، قال: فدعا بالقرص ودعا بجفنة فوضعه فيها وقال: «هل من سمن؟» قال أبو طلحة: قد كان في العكة شيء، قال: فجاء بها، قال: فجعل رسول الله ﷺ وأبو طلحة يعصرانها حتى خرج شيء مسح رسول الله ﷺ به سبابته ثم مسح القرص فانتفخ فقال: «بسم الله» فانتفخ القرص فلم يزل يصنع كذلك والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة يَتَميَّع، فقال: «ادع عشرةً من أصحابي» فدعوت له عشرة، قال: فوضع رسول الله ﷺ يده وسط القرص وقال: «كلوا بسم الله» فأكلوا من حوالي القرص حتى شبعوا، ثم قال: «ادع لي عشرةً آخرين» فدعوت له عشرة أخرى، فقال: «كلوا بسم الله» فأكلوا من حوالي القرص حتى شبعوا، فلم يزل يدعو عشرة عشرة يأكلون من ذلك القرص حتى أكل منه بضعة وثمانون من حوالي القرص حتى شبعوا وإن وسط القرص حيث وضع رسول الله ﷺ يده كما هو.

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه فالله أعلم.

طريق أخرى عن أنس بن مالك ﷺ:

قال الإمام أحمد [٢١٨/٣]: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا سعد ـ يعني ابن سعيد بن قيس ـ أخبرني أنس بن مالك قال: بعثني أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ لأدعوه وقد جعل له طعاماً، فأقبلت ورسول الله ﷺ مع الناس، قال: فنظر إلي فاستحييت فقلت: أجب أبا طلحة، فقال للناس: «قوموا» فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما صنعت شيئاً لك قال: فمسها رسول الله ودعا فيها بالبركة، ثم قال: «أدخل نفراً من أصحابي عشرة» فقال: «كلوا» فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا، وقال: «أدخل عشرة» فقال: «كلوا» فأكلوا حتى شبعوا فما زال يدخل عشرةً ويخرج عشرةً حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع ثم هيأها فإذا هي مثلها حين أكلوا منها.

وقد رواه مسلم [(٢٠٤٠) (١٤٣)] عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن عبد الله بن نمير وعن سعيد بن يحيى الأموي عن أبيه كلاهما عن سعد بن سعيد بن قيس الأنصاري.

طريق أخرى:

رواه مسلم في الأطعمة [(٢٠٤٠) (١٤٣)] عن عبد بن حميد عن خالد بن مخلد عن محمد بن موسى عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. فذكر نحو ما تقدم.

وقد رواه أبو يعلى الموصلي [مسنده (١٤٢٦)] عن محمد بن عباد المكي عن حاتم عن معاوية بن أبي مزرِّد عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن أبي طلحة؛ فذكره والله أعلم.

طريق أخرى عن أنس:

قال الإمام أحمد [٢٣٢/٣]: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أنس بن مالك قال: أتى أبو طلحة بمدين من شعير فأمر به فصنع طعاماً ثم قال لي: يا أنس انطلق ائت رسول الله ﷺ فادعه وقد تعلم ما عندنا، قال: فأتيت رسول الله ﷺ وأصحابه عنده فقلت: إن أبا طلحة يدعوك إلى طعامه، فقام وقال للناس: «قوموا» قال: فجئت أمشي بين يديه حتى دخلت على أبي طلحة فأخبرته، قال: فضحتنا، قلت: إني لم أستطع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب قال لهم: «اقعدوا»، ودخل عاشرَ عشرةٍ فلما دخل أتي بالطعام تناول فأكل وأكل معه القوم حتى شبعوا، ثم قال لهم: «قوموا وليدخل عشرة مكانكم» حتى دخل القوم كلهم وأكلوا، قال: قلت: كم كانوا؟ قال: كانوا نيفاً وثمانين، قال: وفَضَل لأهل البيت ما

أشبعهم.

وقد رواه مسلم في الأطعمة [(٢٠٤٠) (٠٠٠)] عن عمرو الناقد عن عبد الله بن جعفر الرقي عن عبد الله بن عمرو عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أنس قال: أمر أبو طلحة أم سليم قال: اصنعي للنبي ﷺ لنفسه خاصة طعاماً يأكل منه. فذكر نحو ما تقدم.

طريق أخرى عن أنس:

قال أبو يعلى: حدثنا شجاع بن مخلد، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت جرير بن زيد يحدث عن عمرو بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ في المسجد مضطجعاً يتقلب ظهراً لبطن، فأتى أم سليم فقال: رأيت رسول الله ﷺ مضطجعاً في المسجد يتقلب ظهراً لبطن، ولا أراه إلا جائعاً فخبزت أم سليم قرصاً، ثم قال لي أبو طلحة: اذهب فادع رسول الله ﷺ، فأتيته وعنده أصحابه فقلت: يا رسول الله يدعوك أبو طلحة، فقام وقال: «قوموا» قال: فجئت أسعى إلى أبي طلحة فأخبرته أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه أصحابه، فتلقاه أبو طلحة، فقال: يا رسول الله إنما هو قرص، فقال: «إن الله سيبارك فيه» فدخل رسول الله ﷺ وجيء بالقرص في قصعة، فقال: «هل من سمن؟» فجيء بشيء من سمن فغوّر القرص بإصبعه هكذا، ورفعها، ثم صب وقال: «كلوا من بين أصابعي» فأكل القوم حتى شبعوا، ثم قال: «أدخل علي عشرةً» فأكلوا حتى شبعوا، حتى أكل القوم فشبعوا وأكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة وأم سليم وأنا حتى شبعنا وفضلت فضلة أهدينا لجيران لنا.

ورواه مسلم في الأطعمة من صحيحه [(٢٠٤٠) (٠٠٠)] عن حسن الحلواني عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه، عن عمه جرير بن زيد عن عمرو بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك. فذكر نحو ما تقدم.

طريق أخرى عن أنس:

قال الامام أحمد [١٤٧/٣]: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد - يعني ابن زيد، عن هشام عن محمد - يعني ابن سيرين - عن أنس - قال حماد: والجعد قد ذكره - قال: عمدت أم سليم إلى نصف مد شعير فطحنته ثم عمدت إلى عكةٍ كان فيها شيء من سمن فاتخذت منه خطيفة قال: ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال: فأتيته وهو في أصحابه فقلت: إن أم سليم أرسلتني إليك تدعوك، فقال: «أنا ومن معي» قال: فجاء هو ومن معه، قال: فدخلت فقلت لأبي طلحة: قد جاء رسول الله ﷺ ومن معه، قال: فخرج أبو طلحة فمشى إلى جنب النبي ﷺ، قال: يا رسول الله إنما هي خطيفة اتخذتها أم سليم من نصف مد شعير، قال: فدخل فأتي به، قال: فوضع يده فيها ثم قال: «أدخل عشرةً» قال: فدخل عشرة فأكلوا حتى شبعوا، ثم دخل عشرة فأكلوا ثم عشرة فأكلوا حتى أكل منها أربعون كلهم أكلوا حتى شبعوا، قال: وبقيت كما هي، قال: فأكلنا.

وقد رواه البخاري في الأطعمة [٥٤٥٠] عن الصلت بن محمد عن حماد بن زيد عن الجعد أبي عثمان عن أنس. وعن هشام بن محمد عن أنس. وعن سنان أبي ربيعة عن أنس: أن أم سليم عمدت إلى مد من شعير جشته وجعلت منه خطيفةً وعمدت إلى عكةٍ فيها شيء من سمن فعصرته ثم بعثتني إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه. الحديث بطوله.

ورواه أبو يعلى الموصلي [مسنده (٢٨٣٠)]: حدثنا عمرو بن الضحاك، حدثنا أبي، سمعت أشعث الحراني قال: قال محمد بن سيرين: حدثني أنس بن مالك أن أبا طلحة بلغه أنه ليس عند رسول الله ﷺ طعام، فذهب فآجر نفسه بصاع من شعير فعمل يومه ذلك فجاء به وأمر أم سليم أن تعمله خطيفة، وذكر الحديث.

طريق أخرى عن أنس رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد [٢٤٢/٣]: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس بن مالك قال: قالت أم سليم: اذهب إلى نبي الله ﷺ فقل: إن رأيت أن تغدى عندنا فافعل، فجئته فبلغته، فقال: «ومن عندي؟» قلت: نعم، قال: «انهضوا» قال: فجئت فدخلت على أم سليم وأنا لدهش لمن أقبل مع رسول الله ﷺ، قال: فقالت أم سليم: ما صنعت يا أنس؟ فدخل رسول الله ﷺ على إثر ذلك فقال: «هل عندك سمن؟» قالت: نعم، قد كان منه عندي عكة فيها شيء من سمن، قال: «فأتيني» قالت: فجئت بها ففتح رباطها ثم قال: «بسم الله اللهم أعظم فيها البركة» قال: فقال: «اقلبيها» فقلبتها فعصرها نبي الله ﷺ وهو يسمي، قال: فأخذت تقع قِدَراً فأكل منها بضع وثمانون رجلاً وفضل فضلة فدفعها إلى أم سليم فقال: «كلي وأطعمي جيرانك».

وقد رواه مسلم في الأطعمة [٢٠٤٠] عن حجاج بن الشاعر عن يونس بن محمد المؤدب به.

طريق أخرى:

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن المديني، حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن يحيى بن عمارة المازني عن أبيه عن أنس بن مالك أن أمه أم سليم صنعت خزيراً فقال أبو طلحة: اذهب يا بني فادع رسول الله ﷺ قال: فجئته وهو بين ظهراني الناس، فقلت: إن أبي يدعوك، قال: فقام رسول الله ﷺ وقال للناس: «انطلقوا» قال: فلما رأيته قام بالناس تقدمت بين أيديهم فجئت أبا طلحة فقلت: يا أبت قد جاءك رسول الله ﷺ بالناس، قال: فقام أبو طلحة على الباب وقال: يا رسول الله إنما كان شيئاً يسيراً، فقال: «هلمه، فإن الله سيجعل فيه البركة» فجاء به فجعل رسول الله ﷺ يده فيه، ودعا الله بما شاء الله أن يدعو، ثم قال: «أدخل عشرة عشرة» فجاءه منهم ثمانون فأكلوا وشبعوا.

ورواه مسلم في الأطعمة [٢٠٤٠] عن عبد بن حميد عن القعنبي عن الدراوردي عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن الأنصاري المازني عن أبيه عن أنس بن مالك بنحو ما تقدم.

طريق أخرى: ورواه مسلم في الأطعمة [٢٠٤٠] أيضاً عن حرملة عن ابن وهب عن أسامة بن زيد الليثي عن يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس كنحو ما تقدم.

قال البيهقي [الدلائل: ٩١/٦]: وفي بعض حديث هؤلاء: ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل أهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم.

فهذه طرق متواترة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه شاهد ذلك على ما فيه من اختلاف عنه في بعض حروفه، ولكن أصل القصة متواتر لا محالة كما ترى، ولله الحمد والمنة. فقد رواه عن أنس بن مالك إسحاق

بن عبد الله بن أبي طلحة وبكر بن عبد الله المزني وثابت بن أسلم البناني والجعد بن عثمان وسعد بن سعيد أخو يحيى بن سعيد الأنصاري وسنان بن ربيعة وعبد الله بن عبد الله بن أبي طلحة وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وعمرو بن عبد الله بن أبي طلحة ومحمد بن سيرين والنضر بن أنس ويحيى بن عمارة بن أبي حسن ويعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة.

وقد تقدم في غزوة الخندق حديث جابر في إضافته ﷺ على صاع من شعير وعَنَاق، فعزم عليه الصلاة والسلام على أهل الخندق بكمالهم، وكانوا ألفاً أو قريباً من ألف، فأكلوا كلهم من تلك العناق وذلك الصاع حتى شبعوا وتركوه كما كان، وقد أسلفناه بسنده ومتنه وطرقه ولله الحمد والمنة.

ومن العجب الغريب ما ذكره الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي المعروف بـ «شكَّر» في كتاب «العجائب الغريبة»، في هذا الحديث فإنه أسنده وساقه بطوله وذكر في آخره شيئاً غريباً فقال:

حدثنا محمد بن علي بن طرخان، حدثنا محمد بن مسرور، أخبرنا هاشم بن هاشم ويكنى بأبي برزة بمكة في المسجد الحرام، حدثنا أبو كعب البداح بن سهل الأنصاري من أهل المدينة من الناقلة الذين نقلهم هارون إلى بغداد، سمعت منه بالمصيصة عن أبيه سهل بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن كعب عن أبيه كعب بن مالك قال: أتى جابر بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فعرف في وجهه الجوع. فذكر أنه رجع إلى منزله فذبح داجناً كانت عندهم وطبخها وثرد تحتها في جفنة وحملها إلى رسول الله ﷺ فأمره أن يدعو له الأنصار فأدخلهم عليه أرسالا فأكلوا كلهم وبقي مثل ما كان، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً، ثم إنه جمع العظام في وسط الجفنة فوضع عليها يده ثم تكلم بكلام لا أسمعه إلا أني أرى شفتيه تتحرك، فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها فقال: «خذ شاتك يا جابر بارك الله لك فيها»، قال: فأخذتها ومضيت، وإنها لتنازعني أذنها حتى أتيت بها البيت، فقالت لي المرأة: ما هذا يا جابر؟ فقلت: هذه والله شاتنا التي ذبحناها لرسول الله ﷺ، دعا الله فأحياها لنا، فقالت: أنا أشهد أنه رسول الله، أشهد أنه رسول الله، أشهد أنه رسول الله.

حديث آخر عن أنس في معنى ما تقدم:

قال أبو يعلى الموصلي [مسنده (٣٤٤٩)] والباغندي: حدثنا شيبان، حدثنا محمد بن عيسى بصري - وهو صاحب الطعام - حدثنا ثابت البناني قلت لأنس بن مالك: يا أنس أخبرني بأعجب شيء رأيته، قال: نعم يا ثابت خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فلم يغيِّر عليَّ شيئاً أسأت فيه وإن نبي الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش قالت لي أمي: يا أنس إن رسول الله ﷺ أصبح عروساً ولا أدري أصبح له غداء فهلم تلك العكة، فأتيتها بالعكة وبتمر فجعلت له حيساً فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى نبي الله ﷺ وامرأته، فلما أتيت رسول الله ﷺ بتور من حجارة فيه ذلك الحيس قال: «ضعه في ناحية البيت وادع لي أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان» ونفراً من أصحابه، «ثم ادع لي أهل المسجد ومن رأيت في الطريق» قال: فجعلت أتعجب من قلة الطعام ومن كثرة ما يأمرني أن أدعو الناس وكرهت أن أعصيه حتى امتلأ البيت والحجرة، فقال: «يا أنس هل ترى من أحد؟» فقلت: لا يا رسول الله، قال: «هات ذلك التور» فجئت بذلك التور فوضعته قدامه، فغمس ثلاث أصابع في التور فجعل التمر يربو فجعلوا يتغدَّون ويخرجون حتى إذا فرغوا أجمعون وبقي في التور نحو ما جئت به، فقال: «ضعه قدام زينب» فخرجت وأسقفت عليهم باباً من جريد، قال ثابت: قلنا: يا أبا حمزة كم ترى كان الذين أكلوا من ذلك التور؟ فقال: أحسب واحداً وسبعين أو اثنين وسبعين.

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه.

حديث آخر عن أبي هريرة في ذلك:

قال جعفر بن محمد الفريابي [دلائل النبوة له (١٣)]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن أنيس بن أبي يحيى عن إسحاق بن سالم عن أبي هريرة قال خرج عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «ادع لي أصحابك من أصحاب الصفة» فجعلت أتتبعهم رجلاً رجلاً فجمعتهم فجئنا باب رسول الله ﷺ فاستأذنا فأذن لنا، قال أبو هريرة: فوضعت بين أيدينا صحفة أظن أن فيها قدر مد من شعير، قال: فوضع رسول الله ﷺ عليها يده وقال: «خذوا بسم الله» قال: فأكلنا ما شئنا ثم رفعنا أيدينا، فقال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحفة: «والذي نفسي بيده ما أمسى في آل محمد طعام ليس ترونه» قيل لأبي هريرة: قدر كم كانت حين فرغتم منها؟ قال: مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع.

وهذه قصة غير قصة أهل الصفة المتقدمة في شربهم اللبن كما قدمنا.

حديث آخر عن أبي أيوب في ذلك:

قال جعفر الفريابي [دلائل النبوة له (١٢)]: حدثنا أبو سلمة يحيى بن خلف، حدثنا عبد الأعلى عن سعيد الجريري عن أبي الورد عن أبي محمد الحضرمي عن أبي أيوب الأنصاري قال: صنعت لرسول الله ﷺ ولأبي بكر طعاما قدر ما يكفيهما فأتيتهما به، فقال رسول الله ﷺ «اذهب فادع لي ثلاثين من أشراف الأنصار» قال: فشق ذلك عليَّ، ما عندي شيء أزيده، قال: فكأني تثاقلت، فقال: «اذهب فادع لي ثلاثين من أشراف الأنصار» فدعوتهم فجاؤوا فقال: «اطعموا» فأكلوا حتى صدروا ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ ثم بايعوه قبل أن يخرجوا ثم قال: «اذهب فادع لي ستين من أشراف الأنصار» قال أبو أيوب: فوالله لأنا بالستين أجود مني بالثلاثين، قال: فدعوتهم، فقال رسول الله ﷺ: «تربعوا» فأكلوا حتى صدروا ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ وبايعوه قبل أن يخرجوا، قال: «فاذهب فادع لي تسعين من الأنصار» قال: فلأنا أجود بالتسعين والستين مني بالثلاثين، قال: فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ وبايعوه قبل أن يخرجوا، قال: فأكل من طعامي ذلك مائة وثمانون رجلا كلهم من الأنصار.

وهذا حديث غريب جداً إسناداً ومتناً. وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٦/٩٤] من حديث محمد بن أبي بكر المقدمي عن عبد الأعلى به.

١٠- قصة أخرى في تكثير الطعام في بيت فاطمة.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سهل بن زنجلة، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني ابن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه

فلم يصب عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بنية عندك شيء آكله فإني جائع؟» فقالت: لا والله بأبي أنت وأمي، فلما خرج من عندها رسول الله ﷺ بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وغطت عليها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شَبْعَةِ طعام، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها، فقالت له: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: «هلمي يا بنية» فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصلت على نبيه ﷺ وقدمته إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه حمد الله وقال: «من أين لك هذا يا بنية؟» قالت: يا أبة هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله وقال: «الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً فسئلت عنه قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواج رسول الله ﷺ وأهل بيته جميعاً حتى شبعوا، قالت: وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت بقيتها على جميع جيرانها، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً.

وهذا حديث غريب أيضاً إسناداً ومتناً، وقد قدمنا في أول البعثة حين نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] حديث ربيعة بن ناجذ عن علي في دعوته عليه الصلاة والسلام بني هاشم - وكانوا نحواً من أربعين - فقدم إليهم طعاماً من مد فأكلوا حتى شبعوا وتركوه كما هو، وسقاهم من عس شراباً حتى رووا وتركوه كما هو ثلاثة أيام متتابعة، ثم دعاهم إلى الله تعالى كما تقدم.

١١- قصة أخرى في بيت رسول الله ﷺ

قال الإمام أحمد [١٢/٥]: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ أتي بقصعة فيها ثريد، قال: فأكل وأكل القوم فلم يزالوا يتداولونها إلى قريب من الظهر، يأكل قوم ثم يقومون ويجيء قوم فيتعاقبونه، قال: فقال له رجل: هل كانت تمد بطعام؟ قال: أما من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تُمَدُّ من السماء.

ثم رواه أحمد [١٨/٥] عن يزيد بن هارون عن سليمان عن أبي العلاء عن سمرة أن رسول الله ﷺ أتي بقصعة فيها ثريد فتعاقبوها إلى الظهر من غدوة، يقوم ناس ويقعد آخرون، قال له رجل: هل كانت تمد؟ فقال له: فمن أيِّ شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ههنا، وأشار إلى السماء.

وقد رواه الترمذي [٣٦٢٥] والنسائي [كبرى ٦٧٤٠] عن بندار عن يزيد بن هارون وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه النسائي أيضاً من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي العلاء واسمه يزيد بن عبد الله بن الشخير عن سمرة بن جندب به.

١٢- قصة قصعة بيت الصديق

ولعلها هي القصعة المذكورة في حديث سمرة بن جندب والله أعلم
قال البخاري [٣٥٨١]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر عن أبيه، حدثنا أبو عثمان أنه حدثه عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وأن النبي ﷺ قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» أو كما قال، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة، وأبو بكر بثلاثة قال: فهو أنا وأبي وأمي. ولا أدري هل قال: امرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ ثم لبث حتى صلى العشاء ثم رجع فلبث حتى تعشى رسول الله ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك أو ضيفك؟ قال: أو ما عشيتيهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء قد عرضوا عليهم فغلبوهم فذهبت فاختبأت فقال يا غنثر فجدَّع وسبَّ وقال: كلوا - في رواية أخرى: لا هنيئاً - وقال: لا أطعمه أبداً، والله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل. فنظر أبو بكر فإذا هي أكثر فقال لامرأته: يا أخت بني فراس؟ قالت: لا وقرة عيني هي الآن أكثر مما قبل بثلاث مرار. فأكل منها أبو بكر وقال: إنما كان الشيطان - يعني يمينه - ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده وكان بيننا وبين قوم عهد فمضى الأجل فتفرقنا اثني عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل غير أنه بعث معهم، قال: فأكلوا منها أجمعون أو كما قال. وغيره يقول: فعرفنا؛ من العِرَافة.

هذا لفظه وقد رواه في مواضع أخر من صحيحه [٦٠٢، ٦١٤٠، ٦١٤١] ومسلم [٢٠٥٧] من غير وجه عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي عن عبد الرحمن بن أبي بكر.

حديث آخر عن عبد الرحمن بن أبي بكر في هذا المعنى:

قال الإمام أحمد [١٩٧/١]: حدثنا عارم، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ومائة فقال النبي ﷺ: «هل مع أحد منكم طعام؟» فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل مشرك مشعانٌ طويل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: «أبيعاً أم عطية؟» أو قال: «أم هدية؟» قال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاة فصنعت وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى، قال: وأيم الله ما من الثلاثين والمائة إلا قد حز له رسول الله ﷺ حزة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه إياه، وإن كان غائباً خبأ له، قال: وجعل منها قصعتين، قال: فأكلنا منهما أجمعون وشبعنا وفضل في القصعتين فجعلناه على البعير، أو كما قال.

وقد أخرجه البخاري [٥٣٨٢] ومسلم [٢٠٥٦] من حديث معتمر بن سليمان.

١٣- حديث آخر في تكثير الطعام في السفر

قال الإمام أحمد [٤٢١/٢، ٤٢٢]: حدثنا فزارة بن عمرو، أخبرنا فليح عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ في غزوة غزاها فأرمل فيها المسلمون واحتاجوا إلى الطعام، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل فأذن لهم، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فجاء فقال: يا رسول الله إبلهم تحملهم

وتبلغهم عدوهم ينحرونها؟! بل ادع يا رسول الله بغُبَّرات الزاد فادع الله عز وجل فيها بالبركة، قال: «أجل»، فدعا بغُبَّرات الزاد فجاء الناس بما بقي معهم، فجمعه ثم دعا الله عز وجل فيه بالبركة ودعاهم بأوعيتهم فملأها وفضل فضل كثير، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبد الله ورسوله ومن لقي الله عز وجل بهما غير شاك دخل الجنة».

وكذلك رواه جعفر الفريابي عن أبي مصعب الزهري عن عبد العزيز بن أبي حازم عن سهيل به.

ورواه مسلم [(٢٧) (٤٤)] والنسائي [كبرى (٨٧٩٤)] جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبيد الله الأشجعي عن مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي [مسنده (١١٩٩)]: حدثنا زهير، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد، أو عن أبي هريرة - شك الأعمش - قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا؟ فقال: «افعلوا» فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة، فدعا رسول الله ﷺ بنطع فبسط ودعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف الذرة والآخر بكف التمر والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع شيء من ذلك يسير، فدعا عليهم بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة. فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

وهكذا رواه مسلم [(٢٧) (٤٥)] أيضاً عن سهل بن عثمان وأبي كريب كلاهما عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة فذكر مثله.

حديث آخر في هذه القصة:

قال الإمام أحمد [٤١٧/٣، ٤١٨]: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا المطلب بن حنطب المخزومي، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، حدثني أبي قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فأصاب الناس مخمصة فاستأذن الناس رسول الله ﷺ في نحر بعض ظهورهم وقالوا: يبلِّغنا الله به، فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قد هم أن يأذن لهم في نحر بعض ظهورهم، قال: يا رسول الله كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً؟ ولكن إن رأيت يا رسول الله أن تدعو لنا ببقايا أزوادهم وتجمعها ثم تدعو الله فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك، أو سيبارك لنا في دعوتك، فدعا النبي ﷺ ببقايا أزوادهم فجعل الناس يجثون بالحثية من الطعام وفوق ذلك، فكان أعلاهم من جاء بصاع من تمر، فجمعها رسول الله ﷺ ثم قام فدعا ما شاء الله أن يدعو ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحتثوا، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤوه، وبقي مثله، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله، لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجبت عنه النار يوم القيامة».

وقد رواه النسائي [كبرى (٨٧٩٣)] من حديث عبد الله بن المبارك بإسناده نحو ما تقدم.

حديث آخر في هذه القصة:

قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٢٤١٩)]: حدثنا أحمد بن المعلى الأدمي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثني أبو بكر - أظنه من ولد عمر بن الخطاب- عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أنه سمع أبا خُنيس الغفاري أنه كان مع رسول الله ﷺ في غزوة تهامة حتى إذا كنا بعسفان جاءه أصحابه فقالوا: يا رسول الله جهدنا الجوع فأذن لنا في الظهر أن نأكله، قال: «نعم»، فأُخبر بذلك عمر بن الخطاب فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله ما صنعت؟ أمرت الناس أن ينحروا الظهر فعلى ما يركبون؟! قال: «فما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: أرى أن تأمرهم أن يأتوا بفضل أزوادهم فتجمعه في ثوب ثم تدعوهم له، فأمرهم فجعلوا فضل أزوادهم في ثوب ثم دعا لهم ثم قال: «ائتوا بأوعيتكم». فملأ كل إنسان وعاءه، ثم أذن بالرحيل، فلما جاوز مطروا فنزل ونزلوا معه وشربوا من ماء السماء فجاء ثلاثة نفر فجلس اثنان مع رسول الله ﷺ وذهب الآخر معرضاً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما واحد فاستحى من الله فاستحى الله منه، وأما الآخر فأقبل تائباً فتاب الله عليه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»

ثم قال البزار: لا نعلم روى أبو خنيس إلا هذا الحديث بهذا الإسناد.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ١٢٢/٦] عن أبي الحسين بن بشران عن أبي بكر الشافعي: حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، أخبرنا ابن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثني أبو بكر بن عمرو بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة أنه سمع أبا خنيس الغفاري. فذكره.

حديث آخر عن عمر بن الخطاب في هذه القصة:

قال الحافظ أبو يعلى [مسنده (٢٣٠)]: حدثنا ابن هشام - محمد بن يزيد الرفاعي - حدثنا ابن فضيل، حدثنا يزيد - وهو ابن أبي زياد - عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم عن أبيه عن جده عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقلنا: يا رسول الله إن العدو قد حضر وهم شباع والناس جياع، فقالت الأنصار: ألا ننحر نواضحنا فنطعمها الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل طعام فليجيء به» فجعل الرجل يجيء بالمد والصاع وأقل وأكثر، فكان جميع ما في الجيش بضعاً وعشرين صاعاً، فجلس النبي ﷺ إلى جنبه فدعا بالبركة، فقال النبي ﷺ: «خذوا ولا تنتهبوا» فجعل الرجل يأخذ في جرابه وفي غرارته، وأخذوا في أوعيتهم حتى إن الرجل ليربط كم قميصه فيملؤه، ففرغوا والطعام كما هو، ثم قال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يأتي بهما عبد محق إلا وقاه الله حر النار».

ورواه أبو يعلى أيضاً عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني عن جرير عن يزيد بن أبي زياد فذكره. وما قبله شاهد له بالصحة كما أنه متابع لما قبله والله أعلم.

حديث آخر عن سلمة بن الأكوع في ذلك:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي القارئ، حدثنا عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر فأمرنا أن نجمع ما في أزوادنا - يعني من التمر - فبسط نطعاً نشرنا عليه أزوادنا قال: فتمطيت فتطاولت فنظرت فحزرته كربضة شاة ونحن أربع عشرة مائة قال: فأكلنا ثم تطاولت فنظرت فحزرته كربضة شاة، وقال رسول الله ﷺ: «هل من وضوء؟» قال: فجاء رجل بنُطفة في إداوة. قال: فقبضها فجعلها في قدح، قال: فتوضأنا كلنا ندغفقها دغفقة ونحن أربع عشرة مائة أي: نسبغ ولا نبقى من الماء. قال: فجاء أناس فقالوا: يا رسول الله ألا وضوء؟ فقال: «قد فرغ الوضوء»

وقد رواه مسلم [١٧٢٩] عن أحمد بن يوسف السلمي عن النضر بن محمد عن عكرمة بن عمار عن إياس عن أبيه سلمة وقال: فأكلنا حتى شبعنا ثم حشونا جربنا.

وتقدم ما ذكره ابن إسحاق في حفر الخندق حيث قال: حدثني سعيد بن ميناء أنه قد حدث أن ابنة لبشر بن سعد - أخت النعمان بن بشير - قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بغدائهما قالت: فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: «تعالي يا بنية، ما هذا معك؟» قالت: قلت: يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه فقال: «هاتيه» قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء» فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

١٤- قصة جابر ودين أبيه وتكثيره ﷺ التمر

قال البخاري في دلائل النبوة [٣٥٨٠]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زكريا، حدثني عامر، حدثني جابر أن أباه توفي وعليه دين فأتيت النبي ﷺ فقلت: «إن أبي ترك عليه ديناً وليس عندي إلا ما يخرج نخلُه ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه فانطلق معي لكيلا يفحش عليَّ الغرماء، فمشى حول بيدر من بيادر التمر فدعا ثُمَّ آخر ثم جلس عليه فقال: «انزعوه» فأوفاهم الذي لهم وبقي مثل ما أعطاهم.

هكذا رواه هنا مختصراً، وقد أسنده من طرق [٢١٢٧، ٢٤٠٥، ٢٧٨١، ٤٠٥٣] عن عامر بن شراحيل الشعبي عن جابر به.

وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ﷺ ودعائه له ومشيه في حائطه وجلوسه على تمره وفَّى الله دين أبيه، وكان قد قتل بأحد، وجابر كان لا يرجو وفاءه في ذلك العام ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر فوق ما كان يؤمله ويرجوه ولله الحمد والمنة.

١٥- قصة سلمان في تكثيره ﷺ تلك القطعة من الذهب لوفاء دينه في مكاتبته

قال الإمام أحمد [٥/٤٤٤]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثني يزيد بن أبي حبيب حدثني رجل من عبد القيس، عن سلمان قال: لما قلت: وأين تقع هذه من الذي عليّ يا رسول الله؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلّبها على لسانه ثم قال: «خذها فأوفهم منها» فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم أربعين أوقية.

١٦- تكثير التمر والشعير ونحوهما عند أبي هريرة وغيره

قال الإمام أحمد [٢/٣٥٢]: حدثنا يونس، حدثنا حماد - يعني ابن زيد - عن المهاجر عن أبي العالية عن أبي هريرة قال: أتيت رسول الله ﷺ يوماً بتمرات فقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة قال: فصفّهن بين يديه ثم دعا فقال لي: «اجعلهن في مزود وأدخل يدك ولا تنثره» قال: فحملت منه كذا وكذا وسقاً في سبيل الله ونأكل ونطعم وكان لا يفارق حقوي. فلما قتل عثمان رضي الله عنه انقطع عن حقوي فسقط.

ورواه الترمذي [٣٨٣٩] عن عمران بن موسى القزاز البصري عن حماد بن زيد عن المهاجر أبي مخلد عن رفيع أبي العالية عنه وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٦/١٠٩، ١١٠]: أخبرنا أبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار، أخبرنا الحسين بن يحيى بن عيّاش القطان، حدثنا حفص بن عمرو، حدثنا سهل بن زياد أبو زياد، حدثنا أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ في غزاة فأصابهم عَوَز من الطعام فقال: «يا أباهريرة عندك شيء؟» قال: قلت: شيء من تمر في مزود لي، قال: «جئ به» قال: فجئت بالمزود، قال: «هات نطعاً» فجئت بالنطع فبسطته، فأدخل يده فقبض على التمر فإذا هو واحد وعشرون تمرة، ثم قال: «بسم الله». فجعل يضع كل تمرة ويسمي حتى أتى على التمر فقال به هكذا فجمعه، فقال: «ادع فلاناً وأصحابه» فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا، ثم قال: «ادع فلاناً وأصحابه» فأكلوا وشبعوا وخرجوا، ثم قال: «ادع فلاناً وأصحابه» فأكلوا وشبعوا وخرجوا، وفضَل، ثم قال لي: «اقعد» فقعدت فأكل وأكلت، قال: وفضل تمر فأدخلته في المزود وقال لي: «يا أبا هريرة إذا أردت شيئاً فأدخل يدك وخذه ولا تكفى فيُكفأ عليك» قال: فما كنت أريد تمراً إلا أدخلت يدي فأخذت منه خمسين وسقاً في سبيل الله، قال: وكان معلقاً خلف رحلي فوقع في زمن عثمان فذهب.

طريق أخرى عن أبي هريرة في ذلك:

روى البيهقي [الدلائل: ٦/١١٠] من طريقين عن سهل بن أسلم العدوي عن يزيد بن أبي منصور عن أبيه عن أبي هريرة قال: أصبت

بثلاث مصيبات في الإسلام لم أصب بمثلهن: موت رسول الله ﷺ وكنت صويحبه، وقتل عثمان، والمزود، قالوا: وما المزود يا أبا هريرة؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال: «يا أبا هريرة أمعك شيء؟» قال: قلت: تمر في مزود، قال: «جيء به» فأخرجت تمراً فأتيته به، قال: فمسه ودعا فيه ثم قال: «ادع عشرة» فدعوت عشرة فأكلوا حتى شبعوا ثم كذلك حتى أكل الجيش كله وبقي من تمر معي في المزود، فقال: «يا أبا هريرة إذا أردت أن تأخذ منه شيئاً فأدخل يدك فيه ولا تكبُّه» قال: فأكلت منه حياة النبي ﷺ، وأكلت منه حياة أبي بكر كلها، وأكلت منه حياة عمر كلها، وأكلت منه حياة عثمان كلها، فلما قتل عثمان انتُهب ما في يدي وانتهب المزود، ألا أخبركم كم أكلت منه؟ أكلت منه أكثر من مائتي وسق.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد [٣٢٤/٢]: حدثنا أبو عامر، حدثنا إسماعيل - يعني ابن مسلم - عن أبي المتوكل عن أبي هريرة قال: أعطاني رسول الله ﷺ شيئاً من تمر فجعلته في مكتل فعلقناه في سقف البيت فلم نزل نأكل منه حتى كان آخره أصابه أهل الشام حيث أغاروا على المدينة.

تفرد به أحمد.

حديث عن العرباض بن سارية في ذلك:

رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمته من طريق محمد بن عمر الواقدي [المغازي: ١٠٣٦/٣، ١٠٣٧].

حدثني ابن أبي سبرة عن موسى بن سعد عن العرباض قال: كنت ألزم باب رسول الله ﷺ في الحضر والسفر، فرأينا ليلة ونحن بتبوك وذهبنا لحاجة فرجعنا إلى رسول الله ﷺ وقد تعشى ومن عنده، فقال: «أين كنت منذ الليلة؟» فأخبرته، وطلع جُعال بن سراقة وعبد الله بن مغفَّل المزني، فكنا ثلاثة كلنا جائع، فدخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة فطلب شيئاً نأكله فلم يجده، فنادى بلالاً: «هل من شيء؟» فأخذ الجُرُب ينفُضُها، فاجتمع سبع تمرات فوضعها في صحفة ووضع عليهن يده وسمى الله وقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا، فأحصيت أربعاً وخمسين تمرة أكلتُها، كلها أعدها ونواها في يدي الأخرى وصاحباي يصنعان ما أصنع، فأكل كل منهما خمسين تمرة، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هن، فقال: «يا بلالُ، ارفعهن في جرابك» فلما كان الغد وضعهن في الصحفة وقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا حتى شبعنا وإنَّا لعشرة ثم رفعنا أيدينا وإنهن كما هن سبع، فقال: «لولا أني أستحي من ربي عز وجل لأكلنا من هذه التمرات حتى نرد المدينة عن آخرنا» فلما رجع إلى المدينة طلع غليِّم من أهل المدينة فدفعهن إلى ذلك الغلام فانطلق يأكلهنّ».

حديث آخر:

روى البخاري [٣٠٩٧، ٦٤٥١] ومسلم [٢٩٧٣] من حديث أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت له: لقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال عليّ فكلته ففني.

حديث آخر روى مسلم في صحيحه [٢٢٨١]، عن سلمة بن شبيب عن الحسن بن أعين عن معقل عن أبي الزبير عن جابر: أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله فأتى النبي ﷺ فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم».

وبهذا الإسناد عن جابر [٢٢٨٠] أن أم مالك كانت تهدي إلى رسول الله ﷺ في عكتها سمناً فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندها شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه إلى رسول الله ﷺ فتجد فيه سمناً فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرتها، فأتت رسول الله ﷺ فقال: «أعصرتيها؟» قالت: نعم، فقال: «لو تركتيها ما زال قائماً».

وقد رواهما الإمام أحمد [٣٤٧/٣] عن موسى عن ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ١١٤/٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو جعفر البغدادي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا حسان بن عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يونس بن يزيد، حدثنا أبو إسحاق عن سعيد بن الحارث عن جده نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أنه استعان رسول الله ﷺ في التزويج فأنكحه امرأة فالتمس شيئاً فلم يجده فبعث رسول الله ﷺ أبا رافع وأبا أيوب بدرعه فرهناها عند رجل من اليهود بثلاثين صاعاً من شعير، فدفعه رسول الله ﷺ إليه، قال: فطعمنا منه نصف سنة ثم كلناه فوجدناه كما أدخلناه، قال نوفل: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو لم تكله لأكلت منه ما عشت»

حديث آخر:

قال الحافظ البيهقي في الدلائل [١٠٥/٦]: أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي، حدثنا عباس بن محمد الدوري، أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا أبو بكر بن عياش عن هشام - يعني ابن حسان - عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: أتى رجل أهله فرأى ما بهم من الحاجة، فخرج إلى البرية فقالت امرأته: اللّهم ارزقنا ما نعتجن ونختبز، قال: فإذا الجفنة ملأى خبزاً والرحا تطحن والتنور ملأى خبزاً وشواء، قال: فجاء زوجها فقال: عندكم شيء؟ قالت: نعم رزق الله، فرفع الرحا فكنس ما حوله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو تركها لدارت إلى يوم القيامة».

وأخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح. حدثني الليث بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة: أن رجلا من الأنصار كان ذا حاجة فخرج وليس عند أهله شيء، فقالت امرأته: لو حركت رحاي وجعلت في تنوري سَعَفات فسمع جيراني صوت الرحا ورأوا الدخان فظنوا أن عندنا طعاماً وليس بنا خصاصة. فقامت إلى تنورها فأوقدته وقعدت تحرك الرحا، قال: فأقبل زوجها وسمع الرحا فقامت إليه لتفتح له الباب، فقال: ماذا كنت تطحنين؟ فأخبرته، فدخلا وإن رحاهما لتدور وتصب دقيقاً، فلم يبق في البيت وعاء إلا ملىء، ثم خرجت إلى تنورها فوجدته مملوءاً خبزاً، فأقبل زوجها فذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: «فما فعلت الرحا؟» قال: رفعتها ونفضتها، فقال رسول الله ﷺ: «لو تركتموها ما زالت لكم حياتي، أو قال: «حياتكم [الدلائل: ١٠٥/٦، ١٠٦]».

وهذا الحديث غريب سنداً ومتناً.

حديث آخر:

وقال: مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة: أن

رسول الله ﷺ ضافه ضيف كافر فأمر له بشاة فحلبت فشرب حلابها، ثم أخرى فشرب حلابها، ثم أخرى فشرب حلابها حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم فأتى رسول الله ﷺ فأمر له بشاة فحلبت فشرب حلابها، ثم أمر له بأخرى فلم يستتمها، فقال رسول الله ﷺ «إن المسلم يشرب في معىً واحدٍ، والكافر يشرب في سبعة أمعاء».

ورواه مسلم [٢٠٦٣] من حديث مالك.

حديث آخر:

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١١٧/٦]: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، حدثنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثني محمد بن الفضل بن جابر، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: ضاف النبي ﷺ أعرابي، قال: فطلب له شيئاً فلم يجد إلا كسرة في كوة قال: فجزأها رسول الله ﷺ أجزاءً ودعا عليها وقال: «كل» قال: فأكل فأفضل. قال: فقال: يا محمد إنك لرجل صالح، فقال له النبي ﷺ: «أسلم» فقال: إنك لرجل صالح.

ثم رواه البيهقي [الدلائل: ١١٧/٦، ١١٨] من حديث سهل بن عثمان عن حفص بن غياث بإسناده نحوه.

حديث آخر:

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ١٢٨/٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، قال: وفيما ذكر عبدان الأهوازي، حدثنا محمد بن زياد البرجمي، حدثنا عبيد الله بن موسى عن مسعر عن زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: أضاف النبي ﷺ ضيف، فأرسل إلى أزواجه يبتغي عندهن طعاماً فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فقال: «اللّهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنه لا يملكها إلا أنت،» قال: فأهديت له شاة مصلية فقال: «هذا من فضل الله ونحن ننتظر الرحمة».

قال أبو علي: حدثنيه محمد بن عبدان الأهوازي عنه. قال [أي البيهقي في الدلائل: ١٢٨/٦، ١٢٩]: والصحيح عن زبيد مرسلاً، حدثناه محمد بن عبدان حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الحارث الأهوازي، أخبرنا عبيد الله بن موسى عن مسعر عن زبيد. فذكره مرسلاً.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ١٢٩/٦ بنحوه]: أخبرنا عبد الرحمن السُلمي، حدثنا أبو عمرو بن حمدان، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا عمرو بن بشر بن السرح، حدثنا الوليد بن سليمان بن أبي السائب، حدثنا واثلة بن الخطاب عن أبيه عن جده واثلة بن الأسقع قال: حضر رمضان ونحن في أهل الصفة فصمنا فكنا إذا أفطرنا أتى كلَّ رجل منا رجلٌ من أهل البيعة فانطلق به فعشاه فأتت علينا ليلة لم يأتنا أحد وأصبحنا صياماً، وأتت علينا القابلة فلم يأتنا أحد، فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه بالذي كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء فما بقيت منهن امرأة إلا أرسلت تقسم ما أمسى في بيتها ما يأكُلُ ذو كبد، فقال لهم رسول الله ﷺ فاجتمعوا فدعا وقال: «اللّهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنهما بيدك لا يملكهما أحد غيرك،» فلم يكن إلا ومستأذن يستأذن فإذا بشاة مصلية ورغف فأمر بها رسول الله ﷺ فوضعت بين أيدينا فأكلنا حتى شبعنا، فقال لنا رسول الله ﷺ: «إنّا سألنا الله من فضله ورحمته فهذا فضله وقد ذُخِّر لنا عنده رحمته»

١٧- حديث الذراع

قال الإمام أحمد [٤٨/٢]: حدثنا إسماعيل، حدثنا يحيى بن أبي إسحاق، حدثني رجل من بني غفار في مجلس سالم بن عبد الله. قال: حدثني فلان أن رسول الله ﷺ أتي بطعام من خبز ولحم فقال: «ناولني الذراع» فنوول ذراعاً - قال يحيى: لا أعلمه إلا هكذا - ثم قال: «ناولني الذراع» فنوول ذراعاً فأكلها ثم قال: «ناولني الذراع» فقال: يا رسول الله إنما هما ذراعان، فقال: «وأبيك لو سكتَّ ما زلت أناوَل منها ذراعاً ما دعوتُ به» فقال سالم: أما هذه فلا، سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم».

هكذا وقع إسناد هذا الحديث وهو عن مبهم عن مثله، وقد روي من طرق أخرى.

قال الإمام أحمد [٣٩٢/٦]: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أبو جعفر - يعني الرازي - عن شرحبيل عن أبي رافع مولى النبي ﷺ، قال: أهديت له شاة فجعلها في القدر فدخل رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا أبا رافع؟» قال: شاة أهديت لنا يا رسول الله فطبختها في القدر، فقال: «ناولني الذراع يا أبا رافع،» فناولته الذراع، ثم قال: «ناولني الذراع الآخر» فناولته الذراع الآخر، ثم قال: «ناولني الذراع الآخر» فقال: يا رسول الله إنما للشاة ذراعان، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو سكت لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكتَّ» ثم دعا بماء فمضمض فاه وغسل أطراف أصابعه ثم قام فصلى ثم عاد إليهم فوجد عندهم لحماً بارداً فأكل ثم دخل المسجد فصلى ولم يمس ماءً.

طريق أخرى عن أبي رافع:

قال الإمام أحمد [٨/٦]: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد،حدثني عبد الرحمن بن أبي رافع عن عمته عن أبي رافع قال: صنع لرسول الله ﷺ شاة مصلية فأتي بها فقال لي: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع،» فقلت: يا رسول الله وهل للشاة إلا ذراعان؟! فقال: «لو سكتَّ لناولتني منها ما دعوتُ به» قال: وكان رسول الله ﷺ يعجبه الذراع.

قلت: ولهذا لما علمت اليهود عليهم لعائن الله بخيبر سمّوه في الذراع في تلك الشاة التي أحضرتها زينب اليهودية فأخبره الذراع بما فيه من السم، لما نهس منه نهسة، كما قدمنا ذلك في غزوة خيبر مبسوطاً.

طريق أخرى:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، عن أبي رافع قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم الخندق بشاة في مكتل فقال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فقلت: يا رسول الله أللشاة إلا ذراعان؟! فقال: «لو سكت ساعة ناولتنيه ما سألتك».

فيه انقطاع من هذا الوجه.

وقال أبو يعلى أيضاً: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا فائد مولى عبيد الله، حدثني عبيد الله أن جدته سلمى

أخبرته: أن النبي ﷺ بعث إلى أبي رافع بشاة، وذلك يوم الخندق فيما أعلم، فصلاها أبو رافع ليس معها خبز ثم انطلق بها، فلقيه النبي ﷺ راجعاً من الخندق فقال: «يا أبا رافع ضع الذي معك» فوضعه ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فقلت: يا رسول الله هل للشاة غير ذراعين؟! فقال: «لو سكت لناولتني ما سألتك».

وقد روي من طريق أخرى عن أبي هريرة:

قال الإمام أحمد [٢/٥١٧]: حدثنا الضحاك، حدثنا ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة: أن شاة طبخت فقال رسول الله ﷺ: «أعطني الذراع»، فناولته إياه، فقال: «أعطني الذراع» فناولته إياه، ثم قال: «أعطني الذراع» فقال: يا رسول الله إنما للشاة ذراعان، قال: «أما إنك لو التمستها لوجدتها».

١٨- تكثير التمر

قال الإمام أحمد [٤/١٧٤]: حدثنا وكيع عن إسماعيل، عن قيس، عن دكين بن سعيد الخثعمي، قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن أربعون وأربعمائة نسأله الطعام، فقال النبي ﷺ لعمر: «قم فأعطهم» فقال: يا رسول الله ما عندي إلا ما يقيظني والصبية - قال وكيع: القيظ في كلام العرب أربعة أشهر - قال: «قم فأعطهم» قال: يا رسول الله سمعاً وطاعة، قال: فقام عمر وقمنا معه فصعد بنا إلى غرفة له فأخرج المفتاح من حجزته ففتح الباب، قال دكين: فإذا في الغرفة من التمر شبيه بالفصيل الرابض، قال: شأنكم، قال: فأخذ كل رجل منا حاجته ما شاء ثم التفت وإني لمن آخرهم فكأنا لم نرزأ منه تمرة.

ثم رواه أحمد [٤/١٧٤] عن محمد ويعلى ابني عبيد عن إسماعيل - وهو ابن أبي خالد - عن قيس - وهو ابن أبي حازم - عن دكين به.

ورواه أبو داود [٥٢٣٨] عن عبد الرحيم بن مطرف الرواسي عن عيسى بن يونس عن إسماعيل به.

حديث آخر:

قال علي بن عبد العزيز: حدثنا أبو نعيم، حدثنا حشرج بن نباتة، حدثنا أبو نضرة، حدثني أبو رجاء قال: خرج رسول الله ﷺ حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار فإذا هو برسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما تجعل لي إن أرويت حائطك هذا؟» قال: إني أجهد أن أرويه فما أطيق ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «تجعل لي مائة تمرة أختارها من تمرك؟» قال: نعم، فأخذ رسول الله ﷺ الغرب، فما لبث أن أرواه حتى قال الرجل: غَرِقَتْ حائطي، فاختار رسول الله ﷺ من تمره مائة تمرة، قال: فأكل هو وأصحابه حتى شبعوا ثم رد عليه مائة تمرة، كما أخذها.

هذا حديث غريب أورده الحافظ ابن عساكر في دلائل النبوة من أول تاريخه [مختصر تاريخ دمشق: ٢/١٥٣، ١٥٤] بسنده عن علي بن عبد العزيز البغوي، كما أوردناه.

وقد تقدم في ذكر إسلام سلمان الفارسي ما كان من أمر النخيل التي غرسها رسول الله ﷺ بيده الكريمة لسلمان فلم يهلك منهن واحدة، بل أنجب الجميع وكن ثلاثمائة، وما كان من تكثيره الذهب حين قلبه على لسانه الشريف حتى قضى منه سلمان ما كان عليه من نجوم الكتابة وعَتَق رضي الله عنه وأرضاه.

١٩- باب انقياد الشجر لرسول الله ﷺ

قد تقدم الحديث الذي رواه مسلم [٣٠١٢ - ٣٠١٤] من حديث حاتم بن إسماعيل عن أبي حزرة يعقوب بن مجاهد عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن جابر بن عبد الله قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء فنظر فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، وقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من اغصانها وقال: «انقادي عليّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لأمَ بينهما - يعني جمعهما - وقال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحسَّ بقربي فيبتعد، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل وإذا الشجرتان قد افترقتا وقامت كل واحدة منهما على ساق، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة وقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً. وذكر تمام الحديث في قصة الماء وقصة الحوت الذي دسره البحر كما تقدم ولله الحمد والمنة.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [٣/١١٣]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن أنس قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء؛ ضربة بعض أهل مكة، قال: فقال له: ما لك؟ فقال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، قال: فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: فقال: «نعم»، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة، فدعاها قال: فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «حسبي».

وهذا إسناد على شرط مسلم ولم يروه إلا ابن ماجه [٤٠٢٨] عن محمد بن طريف عن أبي معاوية.

حديث آخر:

روى البيهقي [الدلائل: ٦/١٣] من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ كان على الحجون كئيباً لما آذاه المشركون، فقال: «اللهم أرني اليوم آية لا أبالي من كذبني بعدها»، قال: فأمر فنادى شجرة من قِبَل عَقَبة أهل المدينة، فأقبلت تَخُدُّ الأرض حتى انتهت إليه، قال: ثم أمرها فرجعت إلى موضعها، قال: فقال: «ما أبالي من كذبني بعدها من قومي».

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٤]: أخبرنا الحاكم وأبو سعيد بن أبي عمرو، قالا: حدثنا الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بعض شعاب مكة وقد دخله من الغم ما شاء الله من تكذيب قومه إياه، فقال: «يا رب أرني ما أطمئن إليه ويذهب عني هذا الغم» فأوحى الله إليه: ادع إليك أي أغصان هذه الشجرة شئت، قال: فدعا غصناً فانتزع من مكانه ثم خدَّ في الأرض حتى جاء رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع إلى مكانك». فرجع الغصن فخَدَّ في الأرض حتى استوى كما كان، فحمد الله رسول الله ﷺ وطابت نفسه ورجع، وكان قد قال

المشركون: أفضلت أباك وأجدادك يا محمد، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ الآيات [الزمر: ٦٤].

قال البيهقي: وهذا المرسل يشهد له ما قبله.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [١/٢٢٣]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي ظبيان - وهو حصين بن جندب - عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ رجل من بني عامر فقال: يا رسول الله أرني الخاتم الذي بين كتفيك فإني من أطب الناس، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا أريك آية؟» قال: بلى، قال: فنظر إلى نخلة فقال: «ادع ذلك العذق»، فدعاه فجاء ينقز حتى قام بين يديه، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع»، فرجع إلى مكانه، فقال العامري: يا آل بني عامر، ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر؛ يعني من هذا. هكذا رواه الإمام أحمد.

وقد أسنده البيهقي [الدلائل: ٦/١٦] من طريق محمد بن أبي عبيدة عن أبيه عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس، قال: جاء رجل من بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي طباً وعلماً فما تشتكي؟ هل يريبك من نفسك شيء؟ إلى ما تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله والإسلام»، قال: فإنك لتقول قولاً، فهل لك من آية؟ قال: «نعم، إن شئت أريتك آية»، وبين يديه شجرة، فقال لغصن منها: «تعال يا غصن»، فانقطع الغصن من الشجرة ثم أقبل ينقز حتى قام بين يديه، فقال: «ارجع إلى مكانك» فرجع، فقال العامري: يا آل عامر بن صعصعة لا ألومك على شيء قلته أبداً.

وهذا السياق يقتضي أنه سلّم الأمر ولم يجب من كل وجه.

وقد قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٦، ١٧]: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا ابن أبي قُماش، حدثنا ابن عائشة عن عبد الواحد بن زياد عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا الذي يقول أصحابك؟ قال: وحول رسول الله ﷺ أعذاق وشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هل لك أن أريك آية؟» قال: نعم، قال: فدعا عذقاً منها فأقبل يخد الأرض ويسجد ويرفع رأسه حتى وقف بين يديه ثم أمره فرجع، قال: فخرج العامري وهو يقول: يا آل عامر بن صعصعة والله لا أكذبه بشيء يقوله أبداً.

طريق أخرى فيها أن العامري أسلم:

قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٥]: أخبرنا أبو نصر بن قتادة، أخبرنا أبو علي حامد بن محمد بن الرَّفّاء، أخبرنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن سعيد بن الأصبهاني، أخبرنا شريك عن سماك عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم. قال: فدعا العذق فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض فجعل ينقز حتى أتى رسول الله ﷺ، ثم قال له: «ارجع» فرجع حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن.

قال البيهقي: رواه البخاري في التاريخ [التاريخ الكبير: ٣/٣] عن محمد بن سعيد ابن الأصبهاني.

قلت: وقد رواه الترمذي في جامعه [٣٦٢٨] عن محمد بن إسماعيل - وهو البخاري إن شاء الله - عن محمد بن سعيد به. وقال: حسن صحيح.

ولعله قال أولاً: إنه سحر ثم تبصر لنفسه فأسلم وآمن لما هداه الله عز وجل والله أعلم.

حديث آخر عن ابن عمر في ذلك:

قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الوراق، أخبرنا الحسن بن سفيان أخبرنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن أبان الجعفي، حدثنا محمد بن فضيل عن أبي حيان عن عطاء عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أين تريد؟» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير؟» قال: ما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: «هذه الشجرة» فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خداً، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال، ثم إنها رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال: إن يتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت إليك وكنت معك.

وهذا إسناد جيد ولم يخوجوه ولا رواه الإمام أحمد والله أعلم. وقد ورد عن ركانه بن عبد يزيد قصة شبيهة والله أعلم.

٢٠- حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله ﷺ وشفقاً من فراقه

وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفا» [١/٤٢٧]: وهو حديث مشهور منتشر متواتر أخرجه أهل الصحيح ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم أبي وجابر وأنس وابن عمر وابن عباس وسهل بن سعد وأبو سعيد وبريدة وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة رضي الله عنهم

الحديث الأول عن أبي بن كعب رضي الله عنه:

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله [ترتيب مسند الشافعي (٤١٧)]: حدثنا إبراهيم بن محمد، قال: أخبرني عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشاً، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة فتسمع الناس يوم الجمعة خطبتك؟ قال: «نعم»، فصنع له ثلاث درجات هن اللاتي على المنبر، فلما صنع المنبر ووضع موضعه الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ، بدا للنبي ﷺ أن يقوم على ذلك المنبر فيخطب عليه، فمر إليه، فلما جاوز ذلك الجذع الذي كان يخطب إليه خار حتى تصدع وانشق، فنزل النبي ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر، فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، فكان عنده حتى بلي وأكلته الأرضة وعاد رفاتاً.

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل [١٣٧/٥] عن زكريا بن عدي عن عبيد الله بن عمرو الرقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل عن أبي بن كعب فذكره. وعنده: فمسحه بيده حتى سكن ثم رجع إلى المنبر، وكان إذا صلى صلى إليه. والباقي مثله.

وقد رواه ابن ماجه [١٤١٤] عن إسماعيل بن عبيد الله الرقي عن عبد الله بن عمرو الرقي به.

الحديث الثاني عن أنس بن مالك ﷺ:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد فيخطب الناس، فجاءه رومي فقال: الا أصنع لك شيئاً تقعد عليه كأنك قائم؟ فصنع له منبراً له درجتان ويقعد على الثالثة، فلما قعد نبي الله ﷺ على المنبر خار الجذع كخوار الثور ارتج لخواره حزناً على رسول الله ﷺ، فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر فالتزمه وهو يخور فلما التزمه سكت ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة حزنا على رسول الله» فأمر به رسول الله ﷺ فدفن».

وقد رواه الترمذي [٣٦٢٧] عن محمود بن غيلان عن عمر بن يونس به وقال: صحيح غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى عن أنس:

قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا هدبة،حدّثنا حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ. وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ. وحبيب بن الشهيد عن الحسن عن النبي ﷺ: أنه كان يخطب إلى جذع نخلة، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن فجاء رسول الله ﷺ حتى احتضنه فسكن، وقال: «لو لم أحتضنه لحنَّ إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه ابن ماجه [١٤١٥] عن أبي بكر بن خلاد عن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. وعن حماد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس به، وهذا إسناد على شرط مسلم.

طريق أخرى عن أنس:

قال الإمام أحمد [٢٢٦/٣]: حدثنا هاشم،حدّثنا المبارك عن الحسن عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة، فلما كثر الناس قال: «ابنوا لي منبراً» - أراد أن يسمعهم - فبنوا له عتبتين، فتحول من الخشبة إلى المنبر، قال: فأخبر أنس بن مالك أنه سمع الخشبة تحن حنين الواله، قال: فما زالت تحن حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فمشى إليها فاحتضنها فسكنت.

تفرد به أحمد.

وقد رواه أبو القاسم البغوي [الجعديات له (٣٢٥٥)] عن شيبان بن فروخ عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس فذكره وزاد: فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

وقد رواه الحافظ أبو نعيم من حديث الوليد بن مسلم عن سالم بن عبد الله الخياط عن الحسن، عن أنس بن مالك. فذكره.

طريق أخرى عن أنس:

قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن خلاد، حدّثنا الحارث بن محمد بن أبي أسامة، حدّثنا يعلى بن عباد، حدّثنا عبد الحكم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فحن الجذع فاحتضنه وقال: «لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة».

الحديث الثالث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد [٣٠٠/٣]: حدثنا وكيع، حدّثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة قال: فقالت امرأة من الأنصار - وكان لها غلام نجار -: يا رسول الله إن لي غلاماً نجاراً أفآمره أن يتخذ لك منبراً تخطب عليه؟ قال: «بلى»، قال: فاتخذ له منبراً، قال: فلما كان يوم الجمعة خطب على المنبر، قال: فأنَّ الجذع الذي كان يقوم عليه كما يئنُّ الصبي، فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر».

هكذا رواه أحمد.

وقد قال البخاري [٣٥٨٤]: حدثنا أبو نعيم حدّثنا عبد الواحد بن أيمن، قال: سمعت أبي عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «إن شئتم» فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمَّها إليه تئنُّ أنين الصبي، الذي يسكَّن: قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها».

وقد ذكره البخاري في غير ما موضع من صحيحه [(٤٤٩) مختصراً، (٢٠٩٥) مطولاً] من حديث عبد الواحد بن أيمن عن أبيه وهو أيمن الحبشي المكي مولى ابن أبي عمرة المخزومي عن جابر به.

طريق أخرى عن جابر:

قال البخاري [٣٥٨٥]: حدّثنا إسماعيل، حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد، حدثني حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت.

تفرد به البخاري.

طريق أخرى عنه:

قال الحافظ أبو بكر البزار، حدّثنا محمد بن المثنى، حدّثنا أبو المساور، حدّثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي صالح - وهو ذكوان - عن جابر بن عبد الله وعن أبي إسحاق عن كريب عن جابر قال: كانت خشبة في المسجد يخطب إليها النبي ﷺ فقالوا: لو اتخذنا لك مثل الكرسي تقوم عليه؟ ففعل فحنَّت الخشبة كما تحن الناقة الخلوج، فأتاها فاحتضنها فوضع يده عليها فسكنت.

قال أبو بكر البزار: وأحسب أنا كلٌّ قد حدثناه عن أبي عوانة عن

الأعمش عن أبي صالح عن جابر، وعن أبي إسحاق عن كريب عن جابر بهذه القصة التي رواها أبو المساور عن أبي عوانة، وحدثناه محمد بن عثمان بن كرامة، حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن أبي كريب عن جابر عن النبي ﷺ بنحوه، والصواب إنما هو سعيد بن أبي كَرِب، وكريب خطأ ولا يعلم يروي عن سعيد بن أبي كَرِب إلا أبا إسحاق.

قلت: ولم يخرجوه من هذا الوجه وهو جيد.

طريق أخرى عن جابر:

قال الإمام أحمد [٢٩٣/٣]: حدّثنا يحيى بن آدم، حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن أبي كَرِب عن جابر بن عبد الله يقال: كان النبي ﷺ يخطب إلى خشبةٍ فلما جعل منبر حنّت حنين الناقة فأتاها فوضع يده عليها فسكنت. تفرد به أحمد.

طريق أخرى عن جابر:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدّثنا محمد بن معمر، حدّثنا محمد بن كثير، حدّثنا سليمان بن كثير عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يقوم إلى جذع قبل أن يجعل له المنبر فلما جعل له المنبر حن الجذع حتى سمعنا حنينه، فمسح رسول الله ﷺ يده عليه فسكن.

قال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري إلا سليمان بن كثير.

قلت: وهذا إسناد جيد رجاله على شرط الصحيح، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو نعيم في الدلائل: ورواه عبد الرزاق [المصنف (٥٢٥٣)] عن معمر عن الزهري عن رجل سماه عن جابر. ثم أورده من طريق عاصم بن علي عن سليمان بن كثير عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن جابر مثله، ثم قال:

حدّثنا أبو بكر بن خلاد، حدّثنا أحمد بن علي الخراز، حدثنا عيسى بن المساور، حدّثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فلما بني المنبر حن الجذع فاحتضنه رسول الله ﷺ فسكن، وقال: «لو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة» [دلائل النبوة لأبي نعيم (٣٠٢)].

ثم رواه من حديث أبي عوانة عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر، وعن أبي إسحاق عن كريب عن جابر مثله [دلائل النبوة (٣٠٤)].

طريق أخرى عن جابر رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد [٢٩٥/٣]: حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج. وروح قال: حدثنا ابن جريج. أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كان النبي ﷺ إذا خطب يستند إلى جذع نخلة من سواري المسجد. فلما صنع له منبره استوى عليه اضطربت تلك السارية كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل إليها رسول الله ﷺ فاعتنقها فسكنت. وقال روح: فسكتت.

وهذا إسناد على شرط مسلم ولم يخرجوه [بل اخرجه مس (١٣٩٥)].

طريق أخرى عن جابر:

قال الإمام أحمد [٣٠٦/٣]: حدّثنا ابن أبي عدي عن سليمان عن أبي نضرة عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يقوم في أصل شجرة، أو قال: إلى جذع، ثم اتخذ منبراً قال: فحن الجذع، قال جابر: حتى سمعه أهل المسجد حتى أتاه رسول الله ﷺ فمسحه فسكن، فقال بعضهم: لو لم يأته لحن إلى يوم القيامة.

وهذا على شرط مسلم ولم يروه إلا ابن ماجه [١٤١٧] عن بكر بن خلف عن ابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قِطعة العبدي البصري عن جابر به.

الحديث الرابع عن سهل بن سعد:

قال أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف (١١٧٩٦)]: حدّثنا سفيان بن عيينة عن أبي حازم قال: أتوا سهل بن سعد فقالوا: من أي شيء منبر رسول الله ﷺ؟ فقال: كان رسول الله ﷺ يستند إلى جذع في المسجد يصلي إليه إذا خطب، فلما اتخذ المنبر فصعد عليه حن الجذع حتى أتاه رسول الله ﷺ فَوَطَنه حتى سكن.

واصل هذا الحديث في الصحيحين [خ (٣٧٧)، م (٥٤٤)] وإسناده على شرطهما.

وقد رواه إسحاق بن راهويه وابن أبي فديك عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده، ورواه عبد الله بن نافع وابن وهب عن عبد الله بن عمر عن عباس بن سهل عن أبيه فذكره. ورواه ابن لهيعة عن عمارة بن غزية عن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه بنحوه.

الحديث الخامس عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد [٢٤٩/١]: حدثنا عفان، حدّثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر، فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حن عليه فأتاه فاحتضنه فسكن، قال: «ولو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة».

وهذا الإسناد على شرط مسلم ولم يروه إلا ابن ماجه [١٤١٥] من حديث حماد بن سلمة.

الحديث السادس عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال البخاري [٣٥٨٣]: حدّثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن كثير أبو غسان، حدّثنا أبو حفص واسمه عمرو بن العلاء ـ أخو أبي عمرو بن العلاء ـ قال: سمعت نافعاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه. وقال عبد الحميد: أخبرنا عثمان بن عمر، أخبرنا معاذ بن العلاء، عن نافع بهذا. ورواه أبو عاصم عن ابن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

هكذا ذكره البخاري.

وقد رواه الترمذي [٥٠٥] عن عمرو بن علي الفلاس عن عثمان بن عمر ويحيى بن كثير أبي غسان العنبري كلاهما عن معاذ بن العلاء به وقال: حسن صحيح غريب.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في «أطرافه» [٦/٢٣٣]: ورواه علي بن نصر بن علي الجهضمي وأحمد بن خالد الخلال وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في آخرين عن عثمان بن عمر عن معاذ بن العلاء قال: وعبد الحميد هذا - يعني الذي ذكره البخاري - يقال: إنه عبد بن حميد والله أعلم.

قال شيخنا [تحفة الأشراف: ٦/٢٣٣]: وقد قيل: إن قول البخاري: عن أبي حفص واسمه عمر بن العلاء، وهم، والصواب معاذ بن العلاء كما وقع في رواية الترمذي.

قلت: وليس هذا ثابتاً في جميع النسخ، ولم أر في النسخة التي كتبت منها تسميته بالكلية والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن رجاء، عن عبيد الله بن عمر، ومن حديث أبي عاصم عن ابن أبي رواد كلاهما عن نافع عن ابن عمر قال: قال تميم الداري: ألا نتخذ لك منبراً؟ فذكر الحديث.

طريق أخرى عن ابن عمر رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل [٢/١٠٩]: حدّثنا حسين، حدّثنا خلف عن أبي خباب - وهو يحيى بن أبي حية - عن أبيه عن عبد الله بن عمر قال: كان جذع نخلة في المسجد يسند رسول الله ﷺ ظهره إليه إذا كان يوم جمعة أو حدث أمر يريد أن يكلم الناس، فقالوا: ألا نجعل لك يا رسول الله شيئاً كقدر قيامك؟ قال: «لا عليكم أن تفعلوا» فصنعوا له منبراً ثلاث مراقي، قال: فجلس عليه، قال: فخار الجذع كما تخور البقرة جزعاً على رسول الله ﷺ فالتزمه ومسحه حتى سكن.

تفرد به أحمد.

الحديث السابع عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

قال عبد بن حميد الكَشّي: حدّثنا علي بن عاصم عن الجريري عن أبي نضرة العبدي، حدثني أبو سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع نخلة، فقال له الناس: يا رسول الله إنه قد كثر الناس - يعني المسلمين - وإنهم ليحبون أن يروك، فلو اتخذت منبراً تقوم عليه ليراك الناس؟ قال: «نعم، من يجعل لنا هذا المنبر؟» فقام إليه رجل فقال: «تجعله؟» قال: نعم، ولم يقل: إن شاء الله، قال: «ما اسمك؟» قال: فلان، قال: «اقعد» فقعد. ثم عاد فقال: «من يجعل لنا هذا المنبر؟» فقام إليه رجل فقال: أنا، قال: «تجعله؟» قال: نعم، ولم يقل: إن شاء الله، قال «ما اسمك؟» قال: فلان، قال: «اقعد» فقعد، ثم عاد فقال: «من يجعل لنا هذا المنبر؟» فقام إليه رجل فقال: أنا، قال: «تجعله؟» قال: نعم، ولم يقل: إن شاء الله، قال: «ما اسمك؟» قال: فلان، قال: «اقعد» فقعد، ثم عاد فقال: «من يجعل لنا هذا المنبر؟» فقام إليه رجل فقال: أنا، قال: «تجعله؟» قال: نعم إن شاء الله، قال: «ما اسمك؟» قال: إبراهيم، قال: «اجعله».

فلما كان يوم الجمعة اجتمع الناس للنبي ﷺ في آخر المسجد فلما صعد رسول الله ﷺ المنبر فاستوى عليه استقبل الناس وحنّت النخلة حتى أسمعتني وأنا في آخر المسجد، قال: فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فاعتنقها، فلم يزل حتى سكنت ثم عاد إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هذه النخلة إنما حنت شوقاً إلى رسول الله، لما فارقها فوالله لو لم أنزل إليها فأعتنقها لما سكنت إلى يوم القيامة».

وهذا إسناد على شرط مسلم، ولكن في السياق غرابة والله تعالى أعلم.

طريق أخرى عن أبي سعيد:

قال الحافظ أبو يعلى [مسنده (١٠٦٧)]: حدّثنا مسروق بن المرزبان، حدّثنا يحيى بن زكريا عن مجالد عن أبي الوداك - وهو جبر بن نوف - عن أبي سعيد قال: كان النبي ﷺ يقوم إلى خشبة يتوكأ عليها يخطب كل جمعة حتى أتاه رجل من الروم فقال: إن شئت جعلت لك شيئاً إذا قعدت عليه كنت كأنك قائم، قال: «نعم»، قال: فجعل له المنبر، فلما جلس عليه حنت الخشبة حنين الناقة على ولدها، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليها، فلما كان الغد رأيتها قد حولت، فقلنا: ما هذا؟ قالوا: جاء رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر البارحة فحولوها.

وهذا غريب أيضاً.

الحديث الثامن عن عائشة رضي الله عنها:

رواه الحافظ البيهقي من حديث علي بن أحمد الجوارابي عن قبيصة عن حبان بن علي عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن عائشة فذكر الحديث بطوله وفيه أنه خيره بين الدنيا والآخرة فاختارالجذع الآخرة وغار حتى ذهب فلم يعرف.

هذا حديث غريب إسناداً ومتناً.

الحديث التاسع عن أم سلمة رضي الله عنها:

روى أبو نعيم من طريق شريك القاضي وعمرو بن أبي قيس ومعلى بن هلال ثلاثتهم عن عمار الدُّهني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أم سلمة قالت: كان لرسول الله ﷺ خشبة يستند إليها إذا خطب، فصنع له كرسي أو منبر فلما فقدته خارت كما يخور الثور، حتى سمعها أهل المسجد، فأتاها رسول الله ﷺ فسكنت.

هذا لفظ شريك، وفي رواية معلى بن هلال: أنها كانت من دَوم.

وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقد روى الإمام أحمد [٦/٢٨٩، ٢٩٢، ٣١٨] والنسائي [٦٩٥] من حديث عمار الدُّهني عن أبي سلمة عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قوائم منبري رواتب في الجنة».

وروى النسائي [كبرى (٤٢٩٠)] أيضاً بهذا الإسناد: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

فهذه الطرق من هذه الوجوه تفيد القطع بوقوع ذلك عند أئمة هذا الفن، وكذا من تأملها وأنعم فيها النظر والتأمل مع معرفته بأحوال الرجال وبالله المستعان.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٦/٦٨]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو أحمد بن أبي الحسن، حدّثنا عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي قال: قال أبي - يعني أبا حاتم الرازي- قال عمرو بن

سواد، قال لي الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال: أعطى محمداً الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هيئ له المنبر، فلما هيئ له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك.

٢١- باب تسبيح الحصى في كفه ﷺ

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٦/٦٤، ٦٥]: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا الكديمي، حدثنا قريش بن أنس، حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن رجل يقال له سويد بن يزيد السلمي، قال: سمعت أبا ذر يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته، كنت رجلاً أتتبع خلوات رسول الله ﷺ فرأيته يوماً جالساً وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه فجاء أبو بكر فسلم، ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ، ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، فقال النبي ﷺ: «هذه خلافة النبوة».

قال البيهقي: وكذلك رواه محمد بن بشار عن قريش بن أنس عن صالح بن أبي الأخضر، وصالح لم يكن حافظاً، والمحفوظ رواية شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلا من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة ذكر له هذا الحديث عن أبي ذر هكذا.

قال البيهقي: وقد قال محمد بن يحيى الذهلي في «الزهريات» التي جمع فيها أحاديث الزهري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلا من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة ذكر أنه بينما هو قاعد يوماً في ذلك المجلس وأبو ذر في المجلس إذ ذكر عثمان بن عفان. يقول السُّلمي: فأنا أظن أن في نفس أبي ذر على عثمان معتبة لإنزاله إياه بالربذة، فلما ذكر له عثمان عرَّض له أهل العلم بذلك، وهو يظن أن في نفسه عليه معتبة، فلما ذكره قال: لا تقل في عثمان إلا خيراً فإني أشهد لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مشهداً لا أنساه حتى أموت، كنت رجلاً ألتمس خلوات النبي ﷺ لأسمع منه أو لآخذ عنه، فهجَّرت يوماً من الأيام، فإذا النبي ﷺ قد خرج من بيته فسألت عنه الخادم فأخبرني أنه في بيت، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكأني حينئذ أرى أنه في وحي، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: «ما جاء بك؟» فقلت: جاء بي الله ورسوله. فأمرني أن اجلس، فجلست إلى جنبه، لا أسأله عن شيء ولا يذكره لي، فمكثت غير كثير، فجاء أبو بكر يمشي مسرعاً فسلم عليه فرد السلام ثم قال: «ما جاء بك؟» قال: جاء بي الله ورسوله. فأشار بيده أن اجلس، فجلس إلى ربوة مقابل النبي ﷺ بينه وبينها الطريق، حتى إذا استوى أبو بكر جالساً فأشار بيده فجلس إلى جنبي عن يميني ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك، وقال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، وجلس إلى جنب أبي بكر على تلك الربوة، ثم جاء عثمان فسلم فرد السلام وقال: «ما جاء بك؟» قال: جاء بي الله ورسوله. فأشار إليه بيده فقعد إلى الربوة ثم أشار بيده فقعد إلى جنب عمر، فتكلم النبي ﷺ بكلمة لم أفقه أولها غير أنه قال: «قليل ما يبقين» ثم قبض على حصيات سبع أو تسع أو قريب من ذلك، فسبحن في يده حتى سمع لهن حنين كحنين النخل في كف النبي ﷺ، ثم ناولهن أبا بكر وجاوزني فسبحن في كف أبي بكر كما سبحن في كف النبي ﷺ ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن فصرن حصاً، ثم ناولهن عمر فسبحن في كفه كما سبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه لنحو ما سبحن في كف أبي بكر وعمر، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن.

قال الحافظ ابن عساكر: رواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهري، فقال: عن رجل يقال له سويد بن يزيد السلمي. وقول شعيب أصح.

وقال أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة [٢٣٨]: وقد روى داود بن أبي هند عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير عن أبي ذر مثله.

ورواه شهر بن حوشب وسعيد بن المسيب عن أبي سعيد، قال: وفيه عن أبي هريرة.

وقد تقدم ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

حديث آخر في ذلك:

روى الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ٦/٧١، ٧٢] من حديث عبد الله بن عثمان بن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص، قال: حدثني أبو أمي مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي عن أبيه عن جده أبي أسيد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: «يا أبا الفضل لا تَرِمْ منزلك غدا أنت وبنوك حتى آتيكم فإن لي فيكم حاجة» فانتظروه حتى جاء بعدما أضحى، فدخل عليهم فقال: «السلام عليكم» فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، قال: «كيف أصبحتم؟» قالوا: أصبحنا بخير نحمد الله، فكيف أصبحت بأبينا وأمنا أنت يا رسول الله؟ قال: «أصبحت بخير أحمد الله» فقال لهم: «تقاربوا تقاربوا يزحف بعضكم إلى بعض»، حتى إذا أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته وقال: «يا رب هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه» وقال: فأمَّنتْ أُسكفَّةُ الباب وحوائط البيت فقالت: آمين آمين آمين.

وقد رواه أبو عبد الله بن ماجه في سننه [٣٧١١] مختصراً عن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حاتم الهروي عن عبد الله بن عثمان بن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص الوقاصي الزهري روى عنه جماعة. وقد قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو حاتم: يروي أحاديث مشْبَهة.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [٥/٨١، ٩٥]: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إبراهيم بن طهمان، حدثني سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

رواه مسلم [٢٢٧٧] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن أبي بكير

به. ورواه أبو داود الطيالسي عن سليمان بن معاذ عن سماك به.

حديث آخر:

قال الترمذي [٣٦٢٦]: حدّثنا عباد بن يعقوب الكوفي، حدّثنا الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عباد بن أبي يزيد عن علي بن أبي طالب قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله».

ثم قال: وهذا حديث حسن غريب، وقد رواه غير واحد عن الوليد بن أبي ثور، وقالوا: عن عباد بن أبي يزيد منهم فروة بن أبي المغراء.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث زياد بن خيثمة عن السدي عن أبي عمارة الخيواني عن علي قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ فجعل لا يمر على شجر ولا حجر إلا سلم عليه.

وقدمنا في المبعث أنه عليه الصلاة والسلام لما رجع وقد أوحي إليه جعل لا يمر بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله، وذكرنا في وقعة بدر ووقعة حنين رميه عليه الصلاة والسلام بتلك القبضة من التراب وأمره أصحابه أن يتبعوها بالحملة الصادقة فيكون النصر والظفر والتأييد عقب ذلك سريعاً، أما في وقعة بدر فقد قال الله تعالى في سياقها في سورة الأنفال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآية [الأنفال: ١٧] وأما في غزرة حنين فقد ذكرناه في الحديث بأسانيده وألفاظه بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة.

حديث آخر:

وذكرنا في غزوة الفتح أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد الحرام فوجد الأصنام حول الكعبة فجعل يطعنها بشيء في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد» وفي رواية: أنه جعل لا يشير إلى صنم منها إلا خر لقفاه، وفي رواية: إلا سقط.

وقال البيهقي [دلائل النبوة: ٨١/٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدّثنا بحر بن نصر وأحمد بن عيسى اللخمي، قالا: حدّثنا بشر بن بكر، أخبرنا الأوزاعي عن ابن شهاب أنه قال: أخبرني القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام فيه صورة فهتكه ثم قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله» قال الأوزاعي: وقالت عائشة: أتي رسول الله ﷺ بترس فيه تمثال عُقاب فوضع عليه يده فاذهبه الله عز وجل.

باب ما يتعلق بالحيوانات من دلائل النبوة:

٢٢- قصة البعير الناد وسجوده له وشكواه إليه صلوات الله وسلامه عليه

قال الإمام أحمد [١٥٨/٣، ١٥٩]: حدثنا حسين، حدّثنا خلف بن خليفة عن حفص هو ابن عمر عن عمه أنس بن مالك قال: «كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: «ليس عليّ منه بأس» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فاخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحةً تنبجسُ بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه».

وهذا إسناد جيد.

وقد روى النسائي [كبرى (٩١٤٧)] بعضه من حديث خلف بن خليفة به.

رواية جابر في ذلك:

قال الإمام أحمد [٣١٠/٣]: حدثنا مصعب بن سلام، حدّثنا الأجلح عن الذيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله قال: «أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه قال: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه ﷺ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا خطاماً» فخطمه ودفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس».

تفرد به الإمام أحمد، وسيأتي عن جابر من وجه آخر بسياق آخر إن شاء الله وبه الثقة.

رواية ابن عباس في ذلك:

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٥٥/١٢)]: حدّثنا بشر بن موسى، حدّثنا يزيد بن مهران أبو خالد الخباز، حدّثنا أبو بكر بن عياش عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عن ابن عباس قال: جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن لنا بعيراً قد ندّ في حائط، فجاء إليه رسول الله ﷺ فقال: «تعال» فجاء مطأطئاً رأسه حتى خطمه وأعطاه أصحابه، فقال له أبو بكر الصديق: يا رسول الله، كأنه علم أنك نبي، فقال رسول الله ﷺ: «ما بين لابتيها أحد إلا يعلم أني نبي الله إلا كفرة الجن والإنس».

وهذا من هذا الوجه عن ابن عباس غريب جداً، والأشبه روايه الإمام أحمد عن جابر، اللهم إلا أن يكون الأجلح قد رواه عن الذيال عن جابر وعن ابن عباس والله أعلم.

طريق أخرى عن ابن عباس:

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير: ٣٥٦/١١، ٣٥٧]: حدّثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدّثنا أبو عون الزيادي، حدّثنا أبو عزة الدباغ عن أبي يزيد المديني عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا من الأنصار كان له فحلان فاغتلما فادخلهما حائطاً فسد عليهما الباب، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فأراد أن يدعو له، والنبي ﷺ قاعد ومعه نفر من الأنصار، فقال: يا نبي الله إني جئت في حاجة فإن فحلين لي اغتلما، وإني

ادخلتهما حائطاً وسددت عليهما الباب، فأحب أن تدعو لي أن يسخرهما الله لي، فقال لأصحابه: «قوموا معنا»، فذهب حتى أتى الباب فقال: «افتح» فأشفق الرجل على النبي ﷺ، فقال: «افتح»، ففتح الباب فإذا أحد الفحلين قريبٌ من الباب، فلما رأى رسول الله ﷺ سجد له، فقال رسول الله ﷺ: «ائتني بشيء أشد رأسه وأمكنك منه»، فجاء بخطام فشد رأسه وأمكنه منه، ثم مشى إلى أقصى الحائط إلى الفحل الآخر، فلما رآه وقع له ساجداً، فقال للرجل: «ائتني بشيء أشد رأسه»، فشد رأسه وأمكنه منه، فقال: «اذهب فإنهما لا يعصيانك»، فلما رأى أصحاب رسول الله ﷺ ذلك قالوا: يا رسول الله هذان فحلان لا يعقلان سجدا لك أفلا نسجد لك؟ قال: «لا آمر أحداً أن يسجد لأحد ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وهذا إسناد غريب ومتن غريب.

ورواه الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد في كتابه «دلائل النبوة» عن أحمد بن حمدان السجزي عن عمر بن محمد بن بجير البجُيري عن بشر بن آدم عن محمد بن عون أبي عون الزيادي به.

وقد رواه أيضاً من طريق مكي بن إبراهيم عن فائد أبي الورقاء عن عبد الله بن أبي أوفى عن النبي ﷺ بنحو ما تقدم عن ابن عباس.

رواية أبي هريرة في ذلك

قال أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه: أخبرنا أحمد بن حمدان، أنا عمر بن محمد بن بجير، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير عن يحيى بن عبيد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال: انطلقنا مع رسول الله ﷺ إلى قُباء فأشرفنا على حائط فإذا نحن بناضح، فلما أقبل الناضح رفع رأسه فبصر برسول الله ﷺ فوضع جرانه على الأرض، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن نسجد لك من هذه البهيمة، فقال: «سبحان الله، أدون الله؟ ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد دون الله، ولو أمرت أحداً أن يسجد لشيء من دون الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

رواية عبد الله بن جعفر في ذلك:

قال الإمام أحمد [٢٠٤/١]: حدثنا يزيد، حدّثنا مهدي بن ميمون عن محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر ح وحدّثنا بهز وعفان قالا: حدّثنا مهدي، حدّثنا محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد – مولى الحسن بن علي– عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إليّ حديثاً لا أخبر به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل، فدخل حائطاً من حيطان الأنصار فإذا جمل قد أتاه فجرْجر وذرفت عيناه، وقال بهز وعفان: فلما رأى رسول الله حنّ وذرفت عيناه، فمسح رسول الله سراته وذفراه فسكن، فقال: «من صاحب الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار قال: هو لي يا رسول الله، فقال: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّككها الله لك؟ إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه».

وقد رواه مسلم من حديث مهدي بن ميمون به.

رواية عائشة أم المؤمنين في ذلك:

قال الإمام أحمد [٧٦/٦]: حدّثنا عبد الصمد وعفان قالا: حدّثنا حماد – هو ابن سلمة– عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان في نفر من المهاجرين والأنصار فجاء بعير فسجد له فقال أصحابه: يا رسول الله تسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: «اعبدوا ربكم وأكرموا أخاكم، ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولو أمرها أن تنقل من جبل أصفر إلى جبل أسود ومن جبل أسود إلى جبل أبيض كان ينبغي لها أن تفعله».

وهذا الإسناد على شرط السنن، وإنما روى ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان عن حماد به: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» إلى آخره.

رواية يعلى بن مرة الثقفي في ذلك، أو هي قصة اخرى:

قال الإمام أحمد [١٧٢/٤]: حدّثنا أبو سلمة الخزاعي، حدّثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن حبيب عن أبي جبيرة عن يعلى بن سيابه قال: كنت مع النبي ﷺ في مسير له فأراد أن يقضي حاجته فأمر وَدِيَّتَيْنِ فانضمت إحداهما إلى الأخرى، ثم أمرهما فرجعتا إلى منابتهما، وجاء بعير فضرب بجرانه إلى الأرض ثم جرجر حتى ابتل ما حوله فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول البعير؟ إنه يزعم أن صاحبه يريد نحره» فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «أواهبه أنت لي؟» فقال: يا رسول الله مالي مال أحب إلي منه، فقال: «استوص به معروفاً» فقال: لا جرم لا أكرم مالاً لي كرامته يا رسول الله. قال وأتى على قبر يعذب صاحبه فقال: «إنه يعذب في غير كبير» فأمر بجريدة فوضعت على قبره، وقال: «عسى أن يخفف عنه ما دامت رطْبةً».

طريق أخرى:

عنه قال الإمام أحمد [٦٨٦/٦، ٦٨٧]: حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حفص عن يعلى بن مرة الثقفي قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله ﷺ: بينا نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يُسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه، فوقف عليه النبي ﷺ فقال «أين صاحب هذا البعير؟» فجاء، فقال: «بعنيه»، فقال: لا بل أهبه لك، فقال: «لا بل بعنيه»، قال: لا بل نهبه لك إنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، قال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره فإنه شكى كثرة العمل وقلة العلف فأحسنوا إليه» قال: ثم سرنا فنزلنا منزلاً فنام رسول الله ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذُكِرَتْ له، فقال: «هي شجرة استأذنت ربها عز وجل في أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها» قال: ثم سرنا فمررنا بماء فأتته امرأة بابن لها به جنة، فأخذ النبي ﷺ بمنخره فقال: «اخرج إني محمد رسول الله» قال ثم سرنا فلما رجعنا من سفرنا مررنا بذلك الماء فأتته امرأة بجَزر ولبن فأمرها أن ترد الجزر وأمر أصحابه فشربوا من اللبن، فسألها عن الصبي فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريباً بعدك.

طريق أخرى عنه:

قال الإمام أحمد [١٧٠/٤، ١٧١]: حدّثنا عبد الله بن نمير، حدّثنا عثمان بن حكيم، أخبرني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن يعلى بن مرة قال: لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي، ولا يراها أحد بعدي: لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها فقالت: يا رسول الله هذا صبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة، قال: «ناولينيه» فرفعته إليه فجعلته بينه وبين واسطة الرحل، ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً وقال: «بسم الله أنا عبد

اللّه، اخسأ عدو اللّه»، ثم ناولها إياه، فقال: «القينا في الرجعة في هذا المكان فأخبرينا ما فعل» قال: فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها شياه ثلاث، فقال: «ما فعل صبيك؟» فقالت: والذي بعثك بالحق ما حَسِسْنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجتزر هذه الغنم، قال: «انزل فخذ منها واحدة ورد البقية» قال: وخرجنا ذات يوم إلى الجبانة حتى إذا برزنا قال: «ويحك انظر هل ترى من شيء يواريني؟» قلت: ما أرى شيئاً يواريك إلا شجرة ما أراها تواريك، قال: «فما بقربها؟» قلت: شجرة مثلها أو قريب منها، قال: «فاذهب إليهما فقل: إن رسول اللّه ﷺ يأمركما أن تجتمعا بإذن اللّه» قال فاجتمعتا فبرز لحاجته ثم رجع فقال: «اذهب إليهما فقل لهما: إن رسول اللّه يأمركما أن ترجع كل واحدة منكما إلى مكانها» فرجعت. قال: وكنت معه جالساً ذات يوم إذ جاءه جمل يَخُبُّ حتى ضرب بجرانه بين يديه ثم ذرفت عيناه فقال: «ويحك انظر لمن هذا الجمل إن له لشأناً» قال: فخرجت ألتمس صاحبه فوجدته لرجل من الأنصار فدعوته إليه فقال: «ما شأن جملك هذا؟» فقال وما شأنه؟ قال: لا أدري واللّه ما شأنه، عملنا عليه ونضحنا عليه حتى عجز عن السقاية فائتمرنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه، قال: «فلا تفعل، هبه لي أو بعنيه»، فقال: بل هو لك يا رسول اللّه، فوسمه بسِمَةِ الصدقة ثم بعث به».

طريق أخرى عنه:

قال الإمام أحمد [١٧١/٤]: حدّثنا وكيع، حدّثنا الأعمش عن المنهال ابن عمرو عن يعلى بن مرة الثقفي عن أبيه ولم يقل وكيع مرة: عن أبيه أن امرأة جاءت إلى رسول اللّه ﷺ معها صبي لها به لمم، فقال رسول اللّه ﷺ: «اخرج عدو اللّه أنا رسول اللّه»، قال: فبرأ، قال: فأهدت إليه كبشين وشيئاً من أقط وشيئاً من سمن، قال: فقال رسول اللّه «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين وردَّ عليها الآخر»، ثم ذكر قصة الشجرتين كما تقدم.

وقال أحمد [١٧٢/٤]: حدّثنا أسود، حدّثنا أبو بكر بن عياش عن حبيب بن أبي عمرة عن المنهال بن عمرو عن يعلى قال: ما أظن أن أحداً من الناس رأى من رسول اللّه ﷺ إلا دون ما رأيت فذكر أمر الصبي والنخلتين وأمر البعير إلا أنه قال: «ما لبعيرك يشكوك؟ زعم أنك اقتنيت شبابه حتى إذا كبر تريد تنحره» قال: صدقت والذي بعثك بالحق قد أردت ذلك، والذي بعثك بالحق لا أفعل.

طريق أخرى عنه:

روى البيهقي [دلائل النبوة: ٢٢/٦، ٢٣] عن الحاكم وغيره عن الأصم: حدّثنا عباس بن محمد الدوري، حدّثنا حمدان بن الأصبهاني حدّثنا شريك عن عمر بن عبد اللّه بن يعلى بن مرة عن أبيه عن جده قال: رأيت من رسول اللّه ﷺ ثلاثة أشياء ما رآها أحد قبلي، كنت معه في طريق مكة فمر بامرأة معها ابن لها به لمم ما رأيت لمماً أشد منه، فقالت: يا رسول اللّه ابني هذا كما ترى، فقال «إن شئت دعوت له»، فدعا له: ثم مضى فمر على بعير مادٌ جرانه يرغو، فقال: «عليّ بصاحب هذا البعير» فجيء به، فقال: «هذا يقول: نتجت عندهم فاستعملوني حتى إذا كبرت عندهم أرادوا أن ينحروني» قال: ثم مضى فرأى شجرتين تفرقتين فقال لي: «إذهب فمرهما فليجتمعا لي»، قال: فاجتمعتا فقضى حاجته، قال: ثم مضى فلما انصرف مر على الصبي وهو يلعب مع الغلمان وقد ذهب ما به وهيأت أمه أكبشاً فأهدت له كبشين، وقالت: ما عاد إليه شيء من اللمم، فقال النبي ﷺ: «ما من شيء إلا ويعلم أني رسول اللّه، إلا كفرة أو فسقة الجن والإنس».

فهذه طرق جيدة متعددة تفيد غلبة الظن أو القطع عن المتبحرين أن يعلى بن مرة حدث بهذه القصة في الجملة.

وقد تفرد بهذا كله الإمام أحمد دون أصحاب الكتب الستة ولم يرو أحد منهم شيئاً سوى ابن ماجه [٣٣٣] فإنه روى عن يعقوب بن حميد بن كاسب عن يحيى بن سليم عن ابن خيثم عن يونس بن خباب عن يعلى بن مرة أن رسول اللّه ﷺ كان إذا ذهب إلى الغائط أبعد.

وقد اعتنى الحافظ أبو نعيم بحديث البعير في كتابه «دلائل النبوة» وطرقه من وجوه كثيرة، ثم أورد حديث عبد اللّه بن قرط الثُمالي قال: جيء رسول اللّه ﷺ بست ذَوْدٍ فجعلن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ.

وقد قدمت الحديث في حجة الوداع.

قلت: قد أسلفنا عن جابر بن عبد اللّه نحو قصة الشجرتين، وذكرنا آنفا عن غير واحد من الصحابة نحواً من حديث الجمل لكن بسياق يشبه أن يكون غير هذا فاللّه أعلم.

وسيأتي حديث الصبي الذي كان يصرع ودعاؤه عليه الصلاة والسلام له وبرؤه في الحال من طرق أخرى.

وقد روى الحافظ البيهقي [دلائل النبوة: ١٨/٦، ١٩] عن أبي عبد اللّه الحاكم وغيره عن أبي العباس الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن إسماعيل بن عبد الملك عن أبي الزبير عن جابر قال: خرجت مع رسول اللّه ﷺ في سفر، وكان رسول اللّه ﷺ إذا أراد البراز تباعد حتى لا يراه أحد، فنزلنا منزلاً بفلاة من الأرض ليس فيها علم ولا شجر، فقال لي: «يا جابر خذ الإداوة وانطلق بنا» فملأت الإداوة ماء وانطلقنا فمشينا حتى لا نكاد نرى، فإذا شجرتان بينهما أذرع، فقال رسول اللّه ﷺ «يا جابر انطلق فقل لهذه الشجرة: يقول لك رسول اللّه: الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما» ففعلت فرجعت فلحقت بصاحبتها، فجلس خلفهما حتى قضى حاجته، ثم رجعنا فركبنا رواحلنا فسرنا كأنما على رؤوسنا الطير تظلنا، وإذا نحن بامرأة قد عرضت لرسول اللّه ﷺ فقالت: يا رسول اللّه، إن ابني هذا يأخذه الشيطان كل يوم ثلاث مرات لا يدعه، فوقف رسول اللّه ﷺ فتناوله فجعله بينه وبين مقدمة الرحل فقال: «اخسأ عدوّ اللّه، أنا رسول اللّه» وأعاد ذلك ثلاث مرات، ثم ناولها إياه، فلما رجعنا وكنا بذلك الماء عرضت لنا تلك المرأة ومعها كبشان تقودهما والصبي تحمله، فقالت: يا رسول اللّه اقبل مني هديتي، فو الذي بعثك بالحق إنْ عاد إليه بعد، فقال رسول اللّه ﷺ: «خذوا أحدهما وردوا الآخر» قال: ثم سرنا ورسول اللّه ﷺ بيننا، فجاء جمل ناد، فلما كان بين السماطين خر ساجداً، فقال رسول اللّه ﷺ: «يا أيها الناس من صاحب هذا الجمل؟» فقال فتية من الأنصار: هو لنا يا رسول اللّه، قال: «فما شأنه؟» قالوا: سنونا عليه منذ عشرين سنة فلما كبرت سنه وكانت عليه شحيمة أردنا نحره لنقسمه بين غلمتنا، فقال رسول اللّه ﷺ «تبيعونيه؟» قالوا: يا رسول اللّه هو لك، قال: «فأحسنوا إليه حتى يأتيه أجله» فقالوا: يا رسول اللّه نحن أحق أن نسجد لك من البهائم، فقال رسول اللّه ﷺ: «لا ينبغي لبشر أن يسجد لبشر، ولو كان ذلك كان النساء لأزواجهن» وهذا إسناد جيد رجاله ثقات.

وقد روى أبو داود [٢] وابن ماجه [٣٣٥] من حديث إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصفراء عن أبي الزبير عن جابر أن رسول اللّه كان إذا ذهب المذهب أبعد.

ثم قال البيهقي [دلائل: ٦/٢٠]: وحدثنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أنا الحسين بن علي بن زياد، حدّثنا أبو حُمَة، حدّثنا أبو قُرَّة عن زمعة عن زياد - هو ابن سعد - عن أبي الزبير أنه سمع يونس بن خباب الكوفي يحدث أنه سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان في سفر إلى مكة فذهب إلى الغائط وكان يبعد حتى لا يراه أحد، قال: فلم يجد شيئاً يتوارى به، فبصر بشجرتين. فذكر قصة الشجرتين وقصة الجمل بنحو من حديث جابر.

قال البيهقي: وحديث جابر أصح.

قال: وهذه الرواية يتفرد بها زمعة بن صالح عن زياد - أظنه ابن سعد - عن أبي الزبير.

قلت: وقد تكون هذه أيضاً محفوظةً، ولا ينافي حديث جابر ويعلى بن مرة، بل يشهد لهما ويكون هذا الحديث عند أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي عن جابر. وعن يونس بن خباب عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه والله أعلم.

وروى البيهقي [دلائل: ٦/٢٤ - ٢٦] من حديث معاوية بن يحيى الصدفي - وهو ضعيف - عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أسامة بن زيد حديثاً طويلاً نحو سياق حديث يعلى بن مرة وجابر بن عبد الله، وفيه قصة الصبي الذي كان يصرع ومجيء أمه بشاة مشوية فقال: «ناولني الذراع» فناولته، ثم قال، «ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «ناولني الذراع» فقلت كم للشاة من ذراع؟ فقال: «والذي نفسي بيده لو سَكَتَّ لناولتني ما دعَوْتُ» ثم ذكر قصة النخلات واجتماعهما وانتقال الحجارة معهم حتى صارت الحجارة رجماً خلف النخلات وليس في سياقه قصة البعير فلهذا لم يورده بلفظه وإسناده وبالله المستعان.

وقد روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٤/١٥٧، ١٥٨] ترجمة غيلان بن سلمة الثقفي بسنده إلى مُعَلّى بن منصور الرازي عن شبيب بن شيبة عن بشر بن عاصم عن غيلان بن سلمة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فرأينا منه عجباً فذكر قصة الأشاءتين واستتاره بهما عند الخلاء، وقصة الصبي الذي كان يصرع، وقوله: «بسم الله أنا رسول الله، اخرج عدو الله» فعوفي.

ثم ذكر قصة البعيرين النادين وأنهما سجدا له بنحو ما تقدم في البعير الواحد، فلعل هذه قصة أخرى، والله أعلم

قد ذكرنا فيما سلف حديث جابر وقصة جمله الذي كان قد أعيا، وذلك مرجعهم من تبوك وتأخره في أخريات القوم، فلحقه النبي ﷺ فدعا له وضربه فسار سيراً لم يسر مثله حتى جعل يتقدم أمام الناس، وذكرنا شراءه عليه السلام منه وفي ثمنه اختلاف كثير وقع من الرواة لا يضر أصل القصة كما بيناه.

وتقدم حديث أنس في ركوبه عليه السلام على فرس أبي طلحة حين سمع الناس صوتاً بالمدينة فركب ذلك الفرس، وكان يبطىء، وركب الفرسان نحو ذلك الصوت، فوجدوا رسول الله ﷺ قد رجع بعدما كشف ذلك الأمر، فلم يجد له حقيقة، وكان قد ركبه عُرْياً لا شيء على الفرس وهو متقلد سيفاً، فرجع وهو يقول: «لن تُراعوا لن تراعوا، ما وجدنا من شيء، وإن وجدناه لبحراً». أي لسابقاً، وكان ذلك الفرس يبطأ قبل تلك الليلة فكان بعد ذلك لا يجارى ولا يكشف له غبار وذلك كله ببركته عليه الصلاة والسلام.

حديث آخر غريب في قصة البعير:

قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه في كتابه «دلائل النبوة» وهو مجلد كبير حافل كثير الفوائد: أخبرني أبو علي الفارسي، حدثنا أبو سعيد عن عبد العزيز بن شهلان القواس، حدثنا أبو عمرو عثمان بن محمد بن خالد الراسبي، حدثنا عبد الرحمن بن علي البصري، حدثنا سلامة بن سعيد بن زياد بن فائد بن زياد بن أبي هند الدّاري، حدثني أبي عن أبيه عن جده، حدثنا تميم بن أوس - يعني الداري - قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبل بعير يعدو حتى وقف على رسول الله ﷺ فزعاً فقال رسول الله ﷺ: «أيها البعير اسكن، فإن تك صادقاً فلك صدقك، وإن تك كاذباً فعليك كذبك، مع أن الله تعالى قد أمَّن عائذنا، ولا يخاف لائذنا» قلنا: يا رسول الله ما يقول هذا البعير؟ قال: «هذا بعير هم أهله بنحره فهرب منهم فاستغاث بنبيكم» فبينا نحن كذلك إذا أقبل أصحابه يتعادون فلما نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله هذا بعيرنا هرب منا منذ ثلاثة أيام فلم نلقه إلا بين يديك، فقال رسول الله ﷺ: «يشكو مُرَّ الشكاية» فقالوا: يا رسول الله ما يقول؟ قال: «يقول إنه رُبِّي في إبلكم حُواراً وكنتم تحملون عليه في الصيف إلى موضع الكلأ فإذا كان الشتاء رحلتم إلى موضع الدِّفَا» فقالوا: قد كان ذلك يا رسول الله، فقال: «ما جزاء العبد الصالح من مواليه؟» قالوا: يا رسول الله فإنا لا نبيعه ولا ننحره، قال فقد استغاث فلم تغيثوه، وأنا أولى بالرحمة منكم؛ لأن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين وأسكنها في قلوب المؤمنين» فاشتراه النبي ﷺ بمائة درهم، ثم قال: «أيها البعير انطلق فأنت حر لوجه الله»، فرغا على هامة رسول الله ﷺ فقال: رسول الله ﷺ: «آمين» ثم رغا الثانية فقال «آمين» ثم رغا الثالثة فقال: «آمين» ثم رغا الرابعة فبكى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ما يقول هذا البعير؟ قال: يقول: «جزاك الله أيها النبي عن الإسلام والقرآن خيراً، قلت آمين، قال: سكَّن الله رعب امتك يوم القيامة كما سكَّنت رُعبي قلت: آمين قال: حقن الله دماء امتك من أعدائها كما حقنت دمي، قلت: آمين، قال: لا جعل الله بأسها بينها، فبكيت وقلت: هذه خصال سألت ربي فأعطانيها ومنعني واحدة وأخبرني جبريل عن الله أن فناء أمتك بالسيف فجرى القلم بما هو كائن».

قلت: هذا الحديث غريب جداً لم ار احداً من هؤلاء المصنفين في الدلائل أورده سوى هذا بالمصنف، وفيه غرابة ونكارة في إسناده ومتنه أيضاً والله اعلم.

٢٣- حديث في سجود الغنم له ﷺ

قال أبو محمد عبد الله بن حامد أيضاً: قال يحيى بن محمد بن صاعد: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثنا عباد بن يوسف الكندي أبو عثمان، حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك قال: دخل النبي ﷺ حائطاً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم فسجدت له، فقال أبو بكر: يا رسول الله كنا نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم، فقال: «إنه لا ينبغي أن يسجد احد لأحد، ولو كان ينبغي لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» غريب وفي إسناده من لا يعرف والله اعلم

٢٤- قصة الذئب وشهادته بالرسالة

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدّثنا القاسم بن الفضل الحداني عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي؟ فقال: يا عجباً ذئب مقع على ذنبه يُكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ يثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فأمر رسول الله ﷺ فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحْدث أهله بعده»، وهذا إسناد على شرط الصحيح وقد صححه البيهقي ولم يروه إلا الترمذي من قوله: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس» إلى آخره، عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن القاسم بن الفضل، ثم قال: وهذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث القاسم وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيى وابن مهدي.

طريق أخرى عن أبي سعيد الخدري ﷺ:

قال الإمام أحمد [٨٨/٣، ٨٩]: حدثنا أبو اليمان، اخبرنا شعيب، حدثني عبد الله بن أبي حسين، حدثني شهر أن أبا سعيد الخدري حدثه عن النبي ﷺ قال: بينا أعرابي في بعض نواحي المدينة في غنم له عدا عليه الذئب فأخذ شاة من غنمه فأدركه الأعرابي فاستنقذها منه وهجهجه فعانده الذئب يمشي ثم أقعى مستذفراً بذنبه يخاطبه فقال: أخذت رزقاً رزقنيه الله، قال: واعجباً من ذئب مقع مستذفر بذنبه يخاطبني! فقال: والله إنك لتترك أعجب من هذا، قال: وما أعجب من هذا؟ قال: رسول الله ﷺ في النخلات بين الحرتين يحدث الناس عن أنباء ما قد سبق وما يكون بعد ذلك، قال: فنعق الأعرابي بغنمه حتى ألجأها إلى بعض المدينة ثم مشى إلى النبي ﷺ حتى ضرب عليه بابه، فلما صلى النبي ﷺ قال: «أين الأعرابي صاحب الغنم؟» فقام الأعرابي، فقال له النبي ﷺ: «حدث الناس بما سمعت وبما رأيت» فحدث الأعرابي الناس بما رأى من الذئب وما سمع منه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «صدق، آيات تكون قبل الساعة، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده» وهذا على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

وقد رواه البيهقي [دلائل: ٤٢/٦، ٤٣] من حديث النفيلي قال: قرأت على معقل بن عبيد الله بن شهر بن حوشب عن أبي سعيد فذكره، ثم رواه الحاكم وأبو سعيد بن عمرو عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد فذكره.

ورواه الحافظ أبو نعيم من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن تميم عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي سعيد فذكره.

حديث أبي هرير في ذلك

قال الإمام أحمد [٣٠٦/٢]: حدثنا عبد الرزاق، أنا معمر عن أشعث بن عبد الملك عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه، قال: فصعد الذئب على تل فأقعى فاستذفر وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله عز وجل انتزعته مني، فقال الرجل: لله إن رأيت كاليوم ذئباً يتكلم، فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم، وكان الرجل يهودياً، فجاء إلى النبي ﷺ فأسلم وخبره فصدقه النبي ﷺ، ثم قال رسول الله: «إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه بما أحدثه أهله بعده».

تفرد به أحمد وهو على شرط السنن ولم يخرجوه، ولعل شهر بن حوشب قد سمعه من أبي سعيد وأبي هريرة أيضاً والله أعلم.

حديث أنس في ذلك:

قال أبو نعيم في «دلائل النبوة»: حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدّثنا محمد بن يحيى بن منده، حدّثنا علي بن الحسن بن سالم، حدّثنا الحسين الرَّفّاءُ عن عبد الملك بن عمير عن أنس (ح)، وحدثنا سليمان - هو الطبراني -: حدّثنا عبد الله بن محمد بن ناجية، حدّثنا هشام بن يونس اللؤلؤي، حدّثنا حسين بن سليمان الرفاء عن عبد الملك بن عمير، عن أنس بن مالك قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فشَدَدتُ عليَّ غنمي، فجاء الذئب فأخذ منها شاة، فاشتد الرعاء خلفه، فقال: طعمة أطعمنيها الله تنزعونها مني؟ قال: فبهت القوم، فقال: ما تعجبون من كلام الذئب وقد نزل الوحي على محمد فمن مصدق ومكذب.

ثم قال أبو نعيم: تفرد به حسين بن سليمان عن عبد الملك.

قلت: الحسين بن سليمان الرفاء هذا يقال له: الطلحي كوفي أورد له ابن عدي عن عبد الملك بن عمير أحاديث ثم قال: لا يتابع عليها.

حديث ابن عمر في ذلك:

قال البيهقي [دلائل: ٤٤/٦]: أخبرنا أبو سعد الماليني، أخبرنا أبو أحمد بن عدي، حدّثنا عبد الله بن أبي داود السجستاني، حدّثنا يعقوب بن يوسف بن أبي عيسى، حدّثنا جعفر بن جَسْر، اخبرني أبو جَسْر، حدّثنا عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المسيب قال: قال ابن عمر: كان راع على عهد رسول الله ﷺ في غنم له إذ جاء الذئب فأخذ شاة ووثب الراعي حتى انتزعها من فيه، فقال له الذئب: أما تتقي الله أن تمنعني طعمة أطعمنيها الله تنزعها مني؟ فقال له الراعي: العجب من ذئب يتكلم، فقال الذئب: أفلا أدلك على ما هو أعجب من كلامي؟ ذلك الرجل في النخل يخبر الناس بحديث الأولين والآخرين أعجب من كلامي، فانطلق الراعي حتى جاء رسول الله ﷺ فأخبره وأسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «حدث به الناس».

قال الحافظ ابن عدي: قال لنا أبو بكر بن أبي داود: ولد هذا الراعي يقال لهم: بنو مُكَلِّم الذئب، ولهم أموال ونعم، وهم من خزاعة، واسم مكلم الذئب أهبان، قال: ومحمد بن أشعث الخزاعي من ولده، قال البيهقي [دلائل: ٤٤/٦]: فدل على اشتهار ذلك، وهذا مما يقوي الحديث.

وقد رُوي من حديث محمد بن إسماعيل البخاري في «التاريخ»، حدثني أبو طلحة، حدثني سفيان بن حمزة الأسلمي، سمع عبد الله بن عامر الأسلمي، عن ربيعة بن أوس، عن أنس بن عمرو عن أُهبان بن أوس قال: كنت في غنم لي فكلمه الذئب فأتى النبي فأسلم.

قال البخاري: إسناده ليس بالقوي.

ثم روى البيهقي [دلائل: ٤٤/٦] عن أبي عبد الرحمن السلمي، سمعت الحسين بن أحمد الرازي، سمعت أبا سليمان المقري يقول: خرجت في بعض البلدان على حمار فجعل الحمار يحيد بي عن الطريق فضربت رأسه ضربات فرفع رأسه إلي وقال لي: اضرب يا أبا سليمان فإنما على دماغك هو ذا تُضْربُ، قال: قلت له: كلمك كلاماً يفهم! قال: كما تكلمني وأكلمك.

حديث آخر عن أبي هريرة في الذئب على وجه آخر:

وقد قال سعيد بن منصور: حدثنا حبان بن علي، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن أبي الأوبر الحارثي عن أبي هريرة قال: جاء الذئب فأقعى بين يدي النبي ﷺ وجعل يبصبص بذنبه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا وافد الذئاب، جاء ليسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئاً» قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجراً فرماه فأدبر الذئب وله عواء. فقال رسول الله ﷺ: «الذئب، وما الذئب؟»

وقد رواه البيهقي [دلائل: ٣٩/٦] عن الحاكم عن أبي عبد الله الأصبهاني عن محمد بن مسلمة عن يزيد بن هارون عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن رجل به.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن رجل عن مكحول عن أبي هريرة فذكره،

وعن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأوبر، عن أبي هريرة قال: صلّى رسول الله ﷺ يوماً صلاة الغداة ثم قال: «هذا الذئب وما الذئب؟ جاءكم يسألكم أن تعطوه أو تشركوه في أموالكم» فرماه رجل بحجر فمرَّ أو ولّى وله عواء.

وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن حمزة بن أبي أسيد قال: خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار بالبقيع فإذا الذئب مفترشاً ذراعيه على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «هذا جاء يستفرض فافرضوا له» قالوا: نرى رأيك يا رسول الله، قال: «من كل سائمة شاة في كل عام» قالوا: كثير، قال: فأشار إلى الذئب أن خالِسْهم، فانطلق الذئب، رواه البيهقي.

وروى الواقدي عن رجل سماه عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: بينا رسول الله ﷺ في المدينة إذ أقبل ذئب فوقف بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا وافد السباع إليكم فإن أحببتم أن تفرضوا له شيئاً لا يعدوه إلى غيره، وإن أحببتم تركتموه واحترزتم منه فما أخذ فهو رزقه» فقالوا: يا رسول الله ما تطيب أنفسنا له بشيء، فأومأ إليه بأصابعه الثلاث أن خالسهم، قال: فولى وله عسلان.

وقال أبو نعيم: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن شِمْر بن عطية عن رجل من مزينة أو جهينة قال: أتت وفود الذئاب قريب من مائة ذئب حين صلّى رسول الله ﷺ فاقعين، فقال رسول الله ﷺ: «هذه وفود الذئاب، جئنكم يسألنكم لتفرضوا لهن من قوت طعامكم وتأمنوا على ما سواه» فشكوا إليه الحاجة، قال: «فأدبروهم» قال: فخرجن ولهن عواء.

وقد تكلم القاضي عياض على حديث الذئب [الشفا ٤٣٦/١ - ٤٣٨] فذكر عن أبي هريرة وأبي سعيد وعن أهبان بن أوس وانه كان يقال له: مكلم الذئب، قال: وقد روى ابن وهب أنه جرى مثل هذا لأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، مع ذئب وجداه أخذ ظبياً فدخل الظبي الحرم فانصرف الذئب فعجبا من ذلك، فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار، فقال أبو سفيان: واللات والعزى لأن ذكرت هذا بمكة لتتركنّها خُلُوفاً.

٢٥- قصة الوحش الذي كان في بيت النبي ﷺ وكان يحترمه عليه السلام ويوقره ويجله

قال الإمام أحمد [١١٢/٦، ١١٣]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس عن مجاهد قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «كان لآل رسول الله ﷺ وحش، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد، وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم ما دام رسول الله ﷺ في البيت كراهية أن يؤذيه».

ورواه أحمد أيضاً عن وكيع وعن قطن كلاهما عن يونس - وهو ابن أبي إسحاق السبيعي - وهذا الإسناد على شرط الصحيح، ولم يخرجوه وهو حديث مشهور والله أعلم.

٢٦- قصة الأسد

وقد ذكرنا في ترجمة سفينة مولى رسول الله ﷺ حديثه حين انكسرت بهم السفينة فركب لوحاً منها حتى دخل جزيرة في البحر فوجد فيها الأسد، فقال له سفينة: يا أبا الحارث إني سفينة مولى رسول الله ﷺ، قال: فضرب منكبي وجعل يحاذيني حتى أقامني على الطريق، ثم همهم ساعة فرأيت أنه يُوَدِّعني.

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٥٤٤)]: حدثنا معمر عن الحجبي عن محمد بن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أسر في أرض الروم، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث إني مولى رسول الله ﷺ، كان من أمري كيت وكيت، فاقبل الأسد يبصبصه حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوتاً أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى جنبه، فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم رجع الأسد عنه، رواه البيهقي [دلائل: ٤٦/٦].

٢٧- حديث الغزالة

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله في كتابه «دلائل النبوة»: حدثنا سليمان بن أحمد - إملاء - حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا عبد الكريم بن هلال الجعفي عن صالح المري، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: مر رسول الله ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية فشدوها على عمود فسطاط، فقالت: يا

رسول الله، إني أُخذت ولي خشفان، فاستأذن لي أُرضعهما وأعود إليهم، فقال: «أين صاحب هذه؟» فقال القوم: نحن يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «خلوا عنها حتى تأتي خشفيها ترضعهما وترجع إليكم» فقالوا: من لنا بذلك؟ قال «أنا» فأطلقوها فذهبت فأرضعت ثم رجعت إليهم فأوثقوها، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «أين صاحب هذه؟» فقالوا: هو ذا نحن يا رسول الله، فقال: «تبيعونها؟» فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقال: «خلوا عنها» فأطلقوها فذهبت.

وقال أبو نعيم: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغِطريفيُّ - من أصله حدّثنا أحمد بن موسى بن أنس بن نصر بن عبيد الله بن محمد بن سيرين بالبصرة، حدّثنا زكريا بن يحيى بن خلاد، حدّثنا حبان بن أغلب بن تميم، حدّثنا أبي عن هشام بن حسان عن الحسن، عن ضبة بن محصن، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: بينا رسول الله ﷺ في صحراء من الأرض إذا هاتف يهتف: يا رسول الله. يا رسول الله، قال: «فالتفت فلم أر أحداً»، قال: «فمشيت غير بعيد فإذا الهاتف: يا رسول الله، يا رسول الله، قال: فالتفت فلم أر أحداً، وإذا الهاتف يهتف بي، فاتبعت الصوت وهجمت على ظبية مشدودة في وثاق، وإذا أعرابي منجدل في شملة نائم في الشمس، فقالت الظبية: يا رسول الله. إن هذا الأعرابي صادني قُبَيلُ، ولي خشفان في هذا الجبل، فإن رأيت أن تطلقني حتى أرضعهما ثم أعود إلى وثاقي؟» قال: «وتفعلين؟ قالت: عذبني الله عذاب العشار إن لم أفعل»، فأطلقها رسول الله ﷺ. فمضت فأرضعت الخشفين وجاءت، قال: فبينا رسول الله ﷺ يوثقها إذا انتبه الأعرابي فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أصبتها قُبيلاً، فلك فيها من حاجة؟ قال: قلت: «نعم»، قال: هي لك، فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجليها في الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

قال أبو نعيم: وقد رواه آدم بن أبي إياس فقال: حدثني ختني الصدوق، نوح بن الهيثم، عن حبان بن أغلب، عن أبيه، عن هشام بن حبان ولم يجاوزه به.

وقد رواه أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه في كتابه «دلائل النبوة» من حديث إبراهيم بن مهدي عن ابن أغلب بن تميم عن أبيه عن هشام بن حبان عن الحسن عن ضبة عن أم سلمة به.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [دلائل: ٣٤/٦]: أنبأني أبو عبد الله الحافظ - إجازة - أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني: حدّثنا أحمد بن حازم بن أبي عروة الغفاري، حدّثنا علي بن قادم، حدّثنا أبو العلاء خالد بن طهمان، عن عطية عن أبي سعيد قال: مر النبي ﷺ بظبية مربوطة إلى خباء فقالت: يا رسول الله خلني حتى أذهب فأرضع خشفي ثم أرجع فتربطني، فقال رسول الله ﷺ: «صيد قوم وربيطة قوم» قال: فأخذ عليها فحلفت له، قال: فحلها، فما مكثت إلا قليلاً حتى جاءت وقد نفضت ما في ضرعها، فربطها رسول الله ﷺ ثم أتى خباء أصحابها، فاستوهبها منهم فوهبوها له فحلها، ثم قال رسول الله ﷺ «لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون، ما أكلتم منها سميناً أبداً»

قال البيهقي [دلائل: ٣٥/٦]: وروي من وجه آخر ضعيف: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، أخبرنا أبو علي حامد بن محمد الهروي، حدّثنا بشر بن موسى، حدّثنا أبو حفص عمر بن علي، حدّثنا يعلى بن إبراهيم الغزالي، حدّثنا الهيثم بن جمّاز عن أبي كثير عن يزيد بن أرقم قال: كنت مع النبي ﷺ في بعض سكك المدينة، قال: فمررنا بخباء أعرابي فإذا ظبية مشدودة إلى الخباء فقالت: يا رسول الله، إن هذا الأعرابي اصطادني، وإن لي خشفين في البرية، وقد تعقد اللبن في أخلافي، فلا هو يذبحني فأستريح، ولا هو يدعني فأرجع إلى خشفي في البرية. فقال لها رسول الله ﷺ: «إن تركتك ترجعين؟» قالت: نعم وإلا عذبني الله عذاب العشار، قال: فأطلقها رسول الله ﷺ فلم تلبث أن جاءت تَلَمِظُ، فشدها رسول الله ﷺ إلى الخباء، وأقبل الأعرابي ومعه قربة فقال له رسول الله ﷺ: «أتبيعُنيها؟» قال: هي لك يا رسول الله، فأطلقها رسول الله ﷺ، قال زيد بن أرقم: فأنا والله رأيتها تسيح في البرية. وهي تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ورواه أبو نعيم [دلائل: ٢٧٣]: حدّثنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن من لفظه، حدّثنا بشر بن موسى فذكره.

قلت: وفي بعضه نكارة والله أعلم، وقد ذكرنا في باب تكثيره عليه السلام اللبن حديث تلك الشاة التي جاءت وهي في البرية، فأمر رسول الله ﷺ الحسن بن سعد مولى أبي بكر أن يحلبها، وأمره أن يحفظها فذهبت وهو لا يشعر، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب بها الذي جاء بها» وهو مروي من طريقين عن صحابيين كما تقدم والله أعلم.

٢٨- حديث الضب على ما فيه من النكارة والغرابة

قال البيهقي [دلائل: ٣٦/٦]: أنا أبو منصور أحمد بن علي الدامغاني من ساكني قرية نامين من ناحية بيهق - قراءة عليه من أصل كتابه - حدّثنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ - في شعبان سنة اثنتين وثلاثمائة - حدّثنا محمد بن علي بن الوليد السلمي، حدّثنا محمد بن عبد الأعلى، حدّثنا مُعتمر بن سليمان، حدّثنا كهمس، عن داود بن أبي هند، عن عامر عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً وجعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال: ما هذا؟ قالوا: هذا الذي يذكر أنه نبي، فجاء فشق الناس فقال: واللات والعزى ما اشتملت النساء على ذي لهجة أبغض إلي منك، ولا أمقت منك، ولو لا أن يسميني قومي عجولاً لعجلتُ عليك فقتلتك فسررت بقتلك الأسود والأحمر والأبيض وغيرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فأقوم فأقتله. قال: «يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟» ثم أقبل على الأعرابي وقال: «ما حملك على أن قلت ما قلت وقلت غير الحق ولم تكرمني في مجلسي؟» فقال: وتكلمني أيضاً؟ - استخفافاً برسول الله ﷺ - واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب - وأخرج الضب من كمه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ - فقال رسول الله ﷺ: «يا ضب» فأجابه الضب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافي القيامة قال: «من تعبد يا ضب؟» قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه، قال: «فمن أنا يا ضب؟» فقال: رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وقد خاب من كذبك، فقال الأعرابي: والله لا أتبع أثراً بعد عين، والله لقد جئتك وما على ظهر الأرض أبغض إلي منك، وإنك اليوم أحب إلي من والدي ومن عيني ومني، وإني لأحبك بداخلي وخارجي، وسري وعلانيتي، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله «الحمد لله الذي هداك بي، إن هذا الدين

يعلو ولا يعلى ولا يُقبل إلا بصلاة، ولا تقبل الصلاة إلا بقرآن» قال: فعلمني، فعلمه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال: زدني فما سمعت في البسيط ولا في الوجيز أحسن من هذا، قال: «يا أعرابي إن هذا كلام اللّه، ليس بشعر، إنك إن قرأت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة كان لك كأجر من قرأ ثلث القرآن، وإن قرأتها مرتين كان لك كأجر من قرأ ثلثي القرآن، وإذا قرأتها ثلاث مرات كان لك كأجر من قرأ القرآن كله» قال الأعرابي: نِعْمَ الإله إلهنا. يقبل اليسير ويعطي الجزيل. فقال رسول اللّه ﷺ: «ألك مال؟» فقال: ما في بني سليم قاطبة رجل هو أفقر مني، فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه. «اعطوه» فأعطوه حتى أبطروه، قال: فقام عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول اللّه، إن له عندي ناقة عشراء، دون البُخْتية وفوق الأعرى، تَلْحق ولا تُلْحق أهديت إليّ يوم تبوك، أتقرب بها إلى اللّه عز وجل فادفعها إلى الأعرابي؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «قد وصفت ناقتك، فأصف مالك عند اللّه يوم القيامة؟» قال: نعم، قال: «لك ناقة من درة جوفاء قوائمها من زبرجد أخضر وعنقها من زبرجد أصفر عليها هودج، وعلى الهودج السندس والاستبرق، وتمر بك على الصراط كالبرق الخاطف. يغبطك بها كل من رآك يوم القيامة» فقال عبد الرحمن: قد رضيت.

فخرج الأعرابي فلقيه ألف أعرابي من بني سليم على ألف دابة، معهم ألف سيف وألف رمح، فقال لهم: أين تريدون؟ قالوا نذهب إلى هذا الذي سفه آلهتنا فنقتله. قال: لا تفعلوا، أنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، وحدثهم الحديث، فقالوا بأجمعهم: لا إله إلا اللّه ومحمداً رسول اللّه، ثم دخلوا، فقيل لرسول اللّه، فتلقاهم بلا رداء، ونزلوا عن ركبهم يقبلون حتى دنوا منه وهم يقولون لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، ثم قالوا: يا رسول اللّه: مُرْنا بأمرك، قال: «كونوا تحت راية خالد بن الوليد»، فلم يؤمن من العرب ولا من غيرهم ألف غيرهم.

قال البيهقي [دلائل: ٣٨/٦]: قد أخرجه شيخنا أبو عبد اللّه الحافظ في المعجزات بالإجازة عن أبي أحمد بن عدي الحافظ.

قلت، ورواه الحافظ أبو نعيم في «الدلائل» (٢٧٥) عن أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ إملاء وقراءة ـ: حدثنا محمد بن علي بن الوليد السلمي البصري قال: ثنا أبو بكر من كتابه.فذكر مثله. ورواه أبو بكر الأسماعيلي عن محمد بن علي بن الوليد السلمي به.

قال البيهقي [دلائل: ٣٨/٦]: وروى في ذلك عن عائشة وأبي هريرة، وما ذكرناه هو أمثل الأسانيد فيه وهو أيضاً ضعيف، والحمل فيه على هذا السلمي، واللّه أعلم.

٢٩- حديث الحمار

وقد أنكره غير واحد من أئمة الحفاظ الكبار فقال أبو محمد عبد اللّه بن حامد: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن حمدان السجزي، حدثنا عمر بن محمد بن بجير، حدثنا أبو جعفر محمد بن مزيد ـ إملاء ـ أنا أبو عبد اللّه محمد بن عقبة بن أبي الصهباء، حدثنا أبو حذيفة عن عبد اللّه بن حبيب الهذلي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي منظور قال: لما فتح اللّه على نبيه ﷺ خيبر أصابه من سهمه أربعة أزواج نعال وأربعة أزواج خفاف، وعشر أواق ذهب وفضة، وحمار أسود، ومكتل، قال: فكلم النبي ﷺ الحمار فكلمه الحمار، فقال له: «ما اسمك؟» قال: يزيد بن شهاب، أخرج اللّه من نسل جدي ستين حماراً كلهم لم يركبهم إلا نبي، ولم يبق من نسل جدي غيري، ولا من الأنبياء غيرك، وقد كنت أتوقعك أن تركبني، قد كنت قبلك لرجل يهودي، وكنت أعثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال النبي ﷺ: «قد سميتك يعفوراً، يا يعفور»، قال: لبيك، قال «أتشتهي الإناث؟» قال: لا، فكان النبي ﷺ يركبه لحاجته، فإذا نزل عنه بعث به إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول اللّه ﷺ، فلما قبض النبي ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى فيها فصارت قبره جزعاً منه على رسول اللّه ﷺ.

٣٠- حديث الحمرة وهي طائر مشهور

قال أبو داود الطيالسي [مسند ابي داود: ٣٣٦]: حدّثنا المسعودي عن الحسن بن سعد، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود، عن عبد اللّه قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فدخل رجل غيضة فأخرج بيضة حمرة فجاءت الحمرة ترف على رأس رسول اللّه وأصحابه، فقال: «أيكم فجع هذه؟» فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضتها، فقال: «ردها ردها رحمة بها».

وروى البيهقي [دلائل: ٣٢/٦، ٣٣] عن الحاكم وغيره عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار: حدّثنا أبو معاوية عن أبي إسحاق الشيباني عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود عن أبيه قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فمررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما، قال: فجاءت الحمرة إلى رسول اللّه ﷺ وهي تعرّض فقال: «من فجع هذه بفرخيها؟» قال: فقلنا: نحن، قال «ردوهما» فرددناهما إلى موضعهما فلم ترجع.

حديث آخر في ذلك وفيه غرابة:

قال البيهقي: أنا أبو عبد اللّه الحافظ ومحمد بن الحسين بن داود العلوي قالا: حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأموي، حدّثنا محمد بن عبيد بن عتبة الكندي. حدّثنا محمد بن الصلت، حدّثنا حبان، حدّثنا أبو سعيد البقال. عن عكرمة، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد، قال: فذهب يوماً فقعد تحت سمرة ونزع خفيه، قال: ولبس أحدهما، فجاء طير فأخذ الخف الآخر فحلّق به في السماء، فانسلت منه أسْود سالخ، فقال رسول اللّه ﷺ: «هذه كرامة أكرمني اللّه بها، اللّهم إني أعوذ بك من شر مَن يمشي على رجليه، ومن شر مَن يمشي على بطنه»

حديث آخر:

قال البخاري [٤٦٥، ٣٦٣٩]: حدّثنا محمد بن المثنى، حدّثنا معاذ، حدثني أبي عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله.

وقال عبد الرزاق [المصنف ٢٠٥٤١]: أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس أن أسيد بن حضير الأنصاري ورجلا آخر من الأنصار تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل ساعة، وهي ليلة شديدة الظلمة حتى خرجا من عند رسول اللّه ﷺ ينقلبان، وبيد كل واحد منهما عصية

فاضاءت عصى أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فصار كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله.

وقد علقه البخاري. فقال: وقال معمر فذكره، وعلقه البخاري أيضاً عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس: أن عباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند النبي ﷺ، فذكر مثله.

وقد رواه النسائي [الكبرى ٨٢٤٥]: عن أبي بكر بن نافع عن بهز بن أسد، وأسنده البيهقي من طريق يزيد بن هارون كلاهما عن حماد بن سلمة به.

حديث آخر:

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، حدّثنا أحمد بن مهران، حدّثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا كامل بن العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء وكان يصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما فوضعهما وضعاً رفيقاً، فإذا عاد عادا، فلما صلى جعل واحداً ههنا وواحداً ههنا، فجئته فقلت: يا رسول الله الا اذهب بهما إلى أمهما؟ قال: «لا» فبرقت برقةٌ فقال: «الحقا بأمكما»، فما زالا يمشيان في ضوئها حتى دخلا.

حديث آخر:

قال البخاري في «التاريخ» [٤٦/٣]: حدثني أحمد بن الحجاج، حدّثنا سفيان بن حمزة، عن كثير بن زيد، عن محمد بن حمزة بن عمرو الأسلمي عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فتفرقنا في ليلة ظلماء دُحْمُسة، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم، وإن أصابعي لَتُنير.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٧٩/٦] من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي. عن سفيان بن حمزة، به.

ورواه الطبراني [المعجم الكبير ١٧٥/٣ (٢٩٩٠)] من حديث إبراهيم بن حمزة الزبيري عن سفيان بن حمزة به.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ٧٨/٦، ٧٩]: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو محمد احمد بن عبد الله المزني، حدّثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدّثنا أبو كريب، حدّثنا زيد بن الحباب، حدّثنا عبد الحميد بن أبي عبس الأنصاري من بني حارثة.، أخبرني ميمون بن زيد بن أبي عبس، أخبرني أبي أن أبا عبس، كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات ثم يرجع إلى بني حارثة، فخرج في ليلة مظلمة مطيرة، فنُوِّر له في عصاه حتى دخل دار بني حارثة، قال البيهقي: أبو عبس ممن شهد بدراً.

قلت: وروينا عن يزيد بن الأسود وهو من التابعين أنه كان يشهد الصلاة بجامع دمشق من جسْرين فربما أضاءت له إبهام قدمه في الليلة المظلمة، وقد قدمنا في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي بمكة قبل الهجرة، أنه سأل رسول الله ﷺ آية يدعو قومه بها، فلما ذهب إليهم وانهبط من الثنية أضاء له نور بين عينيه. فقال: اللّهم لا يقولوا: هو مُثْلة.

فحوّله الله إلى طرف سوطه حتى جعلوا يرونه مثل القنديل.

٣١- حديث آخر فيه كرامة لتميم الداري

روى الحافظ البيهقي [الدلائل: ٨٠/٦] من حديث عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن الجريري عن أبي العلاء عن معاوية بن حرملة قال: خرجت نارٌ بالحرة فجاء عمر إلى تميم الداري فقال: قم إلى هذه النار قال: يا أمير المؤمنين ومن أنا وما أنا؟ قال: فلم يزل به حتى قام معه، قال: وتبعتهما، فانطلقا إلى النار، فجعل تميم يحوشها بيديه حتى دخلت الشعب ودخل تميم خلفها، قال: فجعل عمر يقول: ليس من رأى كمن لم يَرَ، قالها ثلاثاً.

٣٢- حديث فيه كرامة لولي من هذه الأمة

وهي معدودة من المعجزات لأن كل ما ثبت لولي فهو معجزة لنبيه.

قال الحسن بن عرفة: حدّثنا عبد الله بن إدريس عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي سبرة النخعي، قال: أقبل رجل من اليمن فلما كان ببعض الطريق، نفق حماره فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال: اللّهم إني جئت من الدثينة مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك، وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحدٍ عليّ اليوم منة، أطلب إليك اليوم أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه، قال البيهقي: هذا إسناد صحيح، ومثل هذا يكون كرامة لصاحب الشريعة، قال البيهقي: وكذلك رواه محمد بن يحيى الذهلي وغيره من محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي وكأنه عند إسماعيل عنهما والله أعلم.

طريق أخرى:

قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «من عاش بعد الموت» [٢٩]: حدثنا إسحاق بن إسماعيل وأحمد بن بجير وغيرهما قالوا: حدّثنا محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي أن قوماً أقبلوا من اليمن متطوعين في سبيل الله فنفق حمار رجل منهم فأرادوه أن ينطلق معهم فأبى، فقام فتوضأ وصلى ثم قال: اللّهم إني جئت من الدثينة مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور، فلا تجعل لأحد عليّ منةً، فإني أطلب إليك أن تبعث لي حماري ثم قام إلى الحمار فضربه فقام الحمار ينفض أذنيه فأسرجه وألجمه، ثم ركبه وأجراه فلحق بأصحابه، فقالوا له: ما شأنك؟ قال: شأني أن الله بعث حماري، قال الشعبي: فأنا رأيت الحمار بيع أو يباع في الكناسة - يعني بالكوفة - قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني العباس بن هشام عن أبيه عن جده عن مسلم بن عبد الله بن شريك النخعي، أن صاحب الحمار رجل من النخع، يقال له نباتة بن يزيد، خرج في زمن عمر غازياً، حتى إذا كان بشن عميرة نفق حماره فذكر القصة، غير أنه قال فباعه بعد بالكناسة فقيل له: تبيع حمارك وقد أحياه الله لك؟ قال: فكيف أصنع؟ وقد قال رجل من رهطه ثلاثة أبيات فحفظت هذا البيت:

ومنا الذي أحيا الإلهُ حِمَارهُ و قَدْ مَاتَ مِنْهُ كُلُّ عُضْوٍ ومَفْصل

وقد ذكرنا في باب رضاعه عليه الصلاة والسلام، ما كان من حمارة حليمة السعدية وكيف كانت تسبق الركب في رجوعها لما ركب معها عليها رسول الله ﷺ وهو رضيع، وقد كانت أذمت بالركب في مسيرهم إلى مكة. وكذلك ظهرت بركته عليهم في شارفهم - وهي الناقة التي كانوا يحلبونها - وشياههم وسمنها وكثرة ألبانها، صلوات الله وسلامه عليه.

٣٣- قصة أخرى مع قصة العلاء بن الحضرمي

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني خالد بن خداش بن عجلان المهلبي وإسماعيل بن إبراهيم بن بسام قالا: حدّثنا صالح المري عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: عدنا شاباً من الأنصار، فما كان بأسرع من أن مات فأغمضناه ومددناه ومددنا عليه الثوب، وقال بعضنا لأمه: احتسبيه، قالت: وقد مات؟ قلنا: نعم، قالت: أحقّ ما تقولون؟ قلنا: نعم فمدت يديها إلى السماء وقالت: اللّهم إني آمنت بك، وهاجرت إلى رسولك ﷺ، فإذا نزلت بي شدة دعوتك ففرجتها، فأسألك اللّهم ألاّ تحمل عليّ هذه المصيبة. قال: فكشف الثوب عن وجهه فما برحنا حتى أكلنا وأكل معنا.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٦/٥٠] عن أبي سعد الماليني عن ابن عدي عن محمد بن طاهر بن أبي الدميك عن عبيد الله ابن عائشة عن صالح بن بشير المري - أحد زهاد البصرة وعبادها - مع لين في حديثه عن ثابت عن أنس فذكر القصة وفيه أم السائب كانت عجوزاً عمياء.

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٥١ - ٥٣]: وقد روي من وجه آخر مرسل - يعني فيه انقطاع - بين ابن عون وأنس بن مالك، ثم ساقه من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله بن عون عن أنس قال: أدركت في هذه الأمة ثلاثاً لو كانت في بني إسرائيل لما تقاسمها الأمم، قلنا: ما هي يا أبا حمزة؟ قال: كنا في الصُّفّة عند رسول الله ﷺ فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ، فأضاف المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلينا، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قُبض، فغمضه النبي ﷺ وأمر بجهازه، فلما أردنا أن نغسله قال: «يا أنس ائت أمه فأعلمها»، فأعلمتها، قال: فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت: اللّهم إني أسلمت لك طوعاً، وخلعت الأوثان زهداً، وهاجرت لك رغبة، اللّهم لا تشمت بي عبدة الأوثان، ولا تحمّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها، قال: فو الله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله ﷺ، وحتى هلكت أمه، قال: ثم جهز عمر بن الخطاب جيشاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي، قال أنس: وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نذروا بنا فعفوا آثار الماء، والحر شديد، فجهدنا العطش ودوابنا وذلك يوم الجمعة، فلما مالت الشمس لغربها صلى بنا ركعتين ثم مدّ يده إلى السماء، وما نرى في السماء شيئاً. قال. فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً وأفرغت حتى ملأت الغُدُر والشعاب، فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا، ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة، فوقف على الخليج وقال: يا علي، يا عظيم، يا حليم، يا كريم، ثم قال: أجيزوا بسم الله، قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو غِيْلَةً فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج، فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، قال: فلم نلبث إلا يسيراً حتى رمي في جنازته، قال: فحفرنا له وغسلناه ودفناه، فأتى رجل بعد فراغنا من دفنه فقال: من هذا؟ فقلنا: هذا خير البشر، هذا ابن الحضرمي، فقال: إن هذه الأرض تلفظ الموتى، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين، إلى أرض تقبل الموتى، فقلنا: ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله، قال: فاجتمعنا على نبشه، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس فيه، وإذا اللحد مد البصر نور يتلألأ، قال: فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا.

قال البيهقي رحمه الله: وقد روي عن أبي هريرة في قصة العلاء بن الحضرمي في استسقائه ومشيهم على الماء دون قصة الموت بنحو من هذا، وذكر البخاري في «التاريخ» لهذه القصة إسناداً آخر، وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن أبي كريب عن محمد بن فضيل عن الصلت بن مطر العجلي عن عبد الملك ابن أخت سهم عن سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي، فذكره. وقال في الدعاء: يا عليم، يا حليم يا علي، يا عظيم، إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، اسقنا غيثاً نشرب منه ونتوضأ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيباً غيرنا، وقال في البحر: اجعل لنا سبيلاً إلى عدوك، وقال في الموت: اخف جثتي ولا تطلع على عورتي أحداً فلم يُقدر عليه، والله أعلم.

٣٤- قصة أخرى

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٥٣، ٥٤]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل الصفار، حدّثنا الحسن بن علي بن عثمان، حدّثنا ابن نمير عن الأعمش عن بعض أصحابه قال: انتهينا إلى دجلة وهي مادّة والأعاجم خلفها، فقال رجل من المسلمين: بسم الله، ثم اقتحم بفرسه فارتفع على الماء، فقال الناس: بسم الله ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء فنظر إليهم الأعاجم وقالوا: ديوان ديوان، ثم ذهبوا على وجوههم، قال: فما فقد الناس إلا قدحاً كان معلقاً بعَذَبة سرج، فلما خرجوا أصابوا الغنائم فاقتسموها فجعل الرجل يقول: من يبادل صفراء ببيضاء؟.

٣٥- قصة أخرى

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٥٤]: أنا أبو عبد الرحمن السلمي، أنا أبو محمد عبد الله بن محمد السمّذيّ، حدّثنا أبو العباس السراج، حدّثنا الفضل بن سهل وهارون بن عبد الله قالا: حدّثنا أبو النضر، حدّثنا سليمان بن المغيرة أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى الدجلة وهي ترمي الخشب من مدها، فمشى على الماء والتفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعو الله عز وجل؟ قال البيهقي: هذا إسناد صحيح.

قلت: وستأتي قصة أبي مسلم الخولاني - واسمه عبد الله بن ثوب - مع الأسود العنسي حين ألقاه في النار فكانت عليه برداً وسلاماً كما كانت على الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٣٦- قصة زيد بن خارجة وكلامه بعد الموت وشهادته بالرسالة لمحمد ﷺ وبالخلافة لأبي بكر الصديق ثم لعمر ثم لعثمان رضي الله عنهم

قال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل: ٦/٥٥]: أنا أبو صالح بن أبي طاهر العنبري، أنا جدي يحيى بن منصور القاضي، حدّثنا أبو علي محمد بن عمرو بن كشمُرْد، أنا القعنبي، أنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن زيد بن خارجة الأنصاري ثم من بني الحارث بن الخزرج توفي زمن عثمان بن عفان فسُجّي بثوبه، ثم إنهم سمعوا جلجلة في صدره ثم تكلم ثم قال: أحمدُ أحمدُ في الكتاب الأول، صدَق صدَق أبو بكر الصديق الضعيف في نفسه القوي في أمر الله، في الكتاب الأول، صدَق صدَق عمر بن الخطاب القوي الأمين في الكتاب الأول، صدَق صدَق عثمان بن عفان على منهاجهم مضت أربع وبقيت ثنتان أتت الفتن، وأكل الشديد الضعيف وقامت الساعة وسيأتيكم عن جيشكم، خبر بئر أريس، وما بئر أريس؟.

قال يحيى: قال سعيد: ثم هلك رجل من بني خطمة فسُجّي بثوبه، فسُمع جلجلة في صدره، ثم تكلم فقال: إن أخا بني الحارث بن الخزرج صدَق صدَق.

ثم رواه البيهقي [الدلائل: ٦/٥٥، ٥٦] عن الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق عن موسى بن الحسن عن القعنبي فذكره وقال: هذا إسناد صحيح وله شواهد.

ثم ساقه من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي الدنيا في كتاب «من عاش بعد الموت» [الدلائل: ٦/٥٦، ٥٧]: حدثنا أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدّثنا عبد الله بن إدريس عن أسماعيل بن أبي خالد. قال: جاء يزيد بن النعمان بن بشير إلى حلقة القاسم بن عبد الرحمن بكتاب أبيه النعمان بن بشير - يعني إلى أمه -: بسم الله الرحمن الرحيم من النعمان بن بشير إلى أم عبد الله بنت أبي هاشم، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو فإنك كتبت إلي لأكتب إليك بشأن زيد بن خارجة، وإنه كان من شأنه أنه أخذه وجع في حلقه - وهو يومئذ من أصح الناس أو أهل المدينة - فتوفي بين صلاة الأولى وصلاة العصر فأضجعناه لظهره وغشيناه ببردين وكساء، فأتاني آتٍ في مقامي، وأنا أسبح بعد المغرب فقال: إن زيداً قد تكلم بعد وفاته، فانصرفت إليه مسرعاً، وقد حضره قوم من الأنصار، وهو يقول أو يقال على لسانه: الأوسط أجلد الثلاثة الذي كان لا يبالي في الله لومة لائم، كان لا يأمر الناس أن يأكل قويُهم ضعيفَهم، عبد الله أمير المؤمنين صدق صدق كان ذلك في الكتاب الأول. ثم قال: عثمان أمير المؤمنين وهو يعافي الناس من ذنوب كثيرة، خلت اثنتان وبقي أربع، ثم اختلف الناس وأكل بعضهم بعضاً فلا نظام وأبيحت الأحماء ثم ارعوى المؤمنون وقالوا: كتاب الله وقدره، أيها الناس: اقبلوا على أميركم واسمعوا وأطيعوا، فمن تولى فلا يعهدنّ دماً وكان أمر الله قدراً مقدوراً، الله أكبر هذه الجنة وهذه النار، ويقول النبيون والصدّيقون: سلام عليكم: يا عبد الله بن رواحة هل أحسست لي خارجة - لأبيه - وسعداً اللذين قتلا يوم أحد؟ ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ. نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ. وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ - ١٨] ثم خفَتَ صوته، فسألت الرهط عما سبقني من كلامه، فقالوا: سمعناه يقول: أنصتوا أنصتوا، فنظر بعضنا إلى بعض فإذا الصوت من تحت الثياب، قال: فكشفنا عن وجهه فقال: هذا أحمد رسول الله، سلامٌ عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم قال: أبو بكر الصديق الأمين خليفة رسول الله ﷺ كان ضعيفاً في جسمه، قوياً في أمر الله صدق صدق وكان في الكتاب الأول.

ثم رواه الحافظ البيهقي [الدلائل: ٦/٥٧] عن أبي نصر بن قتادة عن أبي عمرو بن نُجَيد عن علي بن الحسين بن الجُنَيد عن المعافى بن سليمان عن زهير بن معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد فذكره وقال: هذا إسناد صحيح.

قال البيهقي: وروي ذلك عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير وذكر بئر أريس، كما ذكرنا في رواية ابن المسيب.

قال البيهقي: والأمر فيها أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر من بعده، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع منه في بئر أريس بعدما مضى من خلافته ست سنين فعند ذلك تغيّرت عُمّاله، وظهرت أسباب الفتن كما قيل على لسان زيد بن خارجة.

قلت: وهي المرادة من قوله: مضت اثنتان وبقي أربع أو: مضت أربع وبقي اثنتان، على اختلاف الرواية والله أعلم.

وقد قال البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير: ٣/٣٨٣]: زيد بن خارجة الخزرجي الأنصاري شهد بدراً، توفي زمن عثمان وهو الذي تكلم بعد الموت.

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٥٨]: وقد روي في التكلم بعد الموت عن جماعة بأسانيد صحيحة والله أعلم.

قال ابن أبي الدنيا: حدّثنا خلف بن هشام البزار، حدّثنا خالد الطحان عن حصين عن عبد الله بن عبيد الأنصاري أن رجلاً من قتلى مسيلمة تكلم فقال: محمد رسول الله ﷺ، أبو بكر الصديق، عثمان اللّيّن الرحيم، قال: ولا أدري أيش قال في عمر، كذا رواه ابن أبي الدنيا في كتابه.

وقد قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٦/٥٨]: أنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدّثنا يحيى بن أبي طالب، أنا علي بن عاصم، أنا حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عبيد الأنصاري قال: بينما هم يُثَوِّرون القتلى يوم صفين أو يوم الجمل، إذ تكلم رجل من الأنصار من القتلى، فقال: محمدرسول الله ﷺ أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان الرحيم ثم سكت.

وقال هشام بن عمار في كتاب «المبعث» [الدلائل: ٦/٤٥٤، ٤٥٥]. باب في كلام الأموات وعجائبهم

حدثنا الحكم بن هشام الثقفي،حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش العبسي قال: مرض أخي الربيع بن حراش فمرّضناه ثم مات فذهبنا لنجهزه، فلما جئنا رفع الثوب عن وجهه ثم قال: السلام عليكم، قلنا: وعليك السلام، ألست قدمِتّ؟ قال: بلى ولكن لقيت بعدكم ربي ولقيني برَوْح وريحان ورب غير غضبان. ثم كساني ثياباً من سندس خضراً، وإني سألته أن يأذن لي فأبشركم فأذن لي، وإن الأمر أيسر مما تذهبون إليه، فسددوا وقاربوا، فبشروا ولا تغتروا، فلما قالها كانت كحصاة وقعت في ماء، ثم أورد أشياء كثيرة في هذا الباب وهي آخر كتابه

٣٧- غلامٌ في المهدِ يشهد للنبي ﷺ النبوة

حديث غريب جداً:

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٩٩]: أنا علي بن أحمد بن عبدان، حدّثنا أحمد بن عبيد الصفار، حدّثنا محمد بن يونس الكديمي، حدّثنا شاصونة بن عبيد أبو محمد اليمامي - وانصرفنا من عدن بقرية يقال لها الحردة - حدثني معرض بن عبد الله بن معرض بن معيقيب اليماني عن أبيه عن جده قال: حججت حجة الوداع فدخلت داراً بمكة فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه مثل دارة القمر، وسمعت منه عجباً، جاءه رجل بغلام يوم وُلِد فقال له رسول الله ﷺ: «من أنا؟» قال: أنت رسول الله، قال: «صدقت، بارك الله فيك»، ثم قال: إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شبَّ، قال أبي: فكنا نسمّيه مُبارك اليمامة، قال شاصونة: وقد كنت أمرّ على معمر فلا أسمع منه.

قلت: هذا الحديث مما تكلم الناس في محمد بن يونس الكديمي بسببه وأنكروه عليه واستغربوا شيخه هذا، وليس هذا مما ينكر عقلاً بل ولا شرعاً، فقد ثبت في «الصحيح» في قصة جريج العابد أنه استنطق ابنَ تلك البَغي، فقال له: بابوسُ، ابنُ مَن أنت؟ قال: ابن الراعي، فعلم بنو إسرائيل براءة عِرض جريج مما كان نسب إليه، وقد تقدم ذلك.

على أنه قد روي هذا الحديث من غير طريق الكديمي إلا أنه بإسناد غريب أيضاً. فقال البيهقي [الدلائل: ٦/٥٩، ٦٠]، أنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزهد، أنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُميع الغساني - بثغر صيدا - حدّثنا العباس بن محبوب بن عثمان بن عبيد أبو الفضل، حدّثنا أبي، حدّثنا جدي شاصونة بن عبيد، حدثني معرض بن عبد الله بن معيقيب عن أبيه عن جده قال: حججت حجة الوداع فدخلت داراً بمكة فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه كدارة القمر، فسمعت منه عجباً أتاه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد وقد لفّه في خرقة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلامُ من أنا؟» قال: أنت رسول الله، فقال له: «بارك الله فيك» ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها.

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٦٠]: وقد ذكره شيخنا أبو عبد الله الحافظ عن أبي الحسن علي بن العباس الورّاق عن أبي الفضل أحمد بن خلف بن محمد المقرئ القزويني عن أبي الفضل العباس بن محمد بن شاصونة به.

قال الحاكم: وقد أخبرني الثقة من أصحابنا عن أبي عمر الزاهد قال: لما دخلت اليمن، دخلت حردة، فسألت عن هذا الحديث فوجدت فيها لشاصونة عقباً، وحُملت إلى قبره فزرته.

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٦٠، ٦١]: ولهذا الحديث أصل من حديث الكوفيين بإسناد مرسل يخالفه في وقت الكلام. ثم أورد من حديث وكيع عن الأعمش عن شمر بن عطية، عن بعض أشياخه أن النبي ﷺ أُتِي بصبي قد شبّ لم يتكلم قط، قال: «من أنا؟» قال: أنت رسول الله. ثم روى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن بعض أشياخه قال: جاءت امرأة بابن لها قد تحرّك فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا لم يتكلم منذ وُلِد، فقال رسول الله ﷺ: «أدنيه منه» فادنته مني، فقال: «من أنا؟» فقال: أنت رسول الله.

٣٨- قصة الصبي الذي كان يصرع فدعا له ﷺ فبرأ

قد تقدم ذلك من رواية أسامة بن زيد وجابر بن عبد الله ويعلى بن مرة الثقفي مع قصة الجمل الحديث بطوله.

وقال الإمام أحمد [١/٢٣٩]: حدثنا يزيد، حدّثنا حماد بن سلمة عن فرقد السبخي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن به لمماً وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثعّ ثعّةً فخرج منه مثل الجرْو الأسود يسعى، تفرّد به أحمد. وفرقد السبخي رجل صالح ولكنه سيّئ الحفظ، وقد روى عنه شعبة وغير واحد واحتُمل حديثه ولما رواه ههنا شاهد مما قدمناه والله أعلم، وقد تكون هذه القصة هي ما سبق إيرادها ويحتمل أن تكون أخرى غيرها والله أعلم.

حديث آخر في ذلك:

قال أبو بكر البزار [كشف الأستار (٧٧٣)]: حدّثنا محمد بن مرزوق، حدّثنا مسلم بن إبراهيم، حدّثنا صدقة - يعني ابن موسى - حدّثنا فرقد وهو السبخي، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة فجاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إن هذا الخبيث قد غلبني، فقال لها: «إن تصبري على ما أنت عليه تجيئي يوم القيامة ليس عليك ذنوب ولا حساب» قالت: والذي بعثك بالحق لأصبرنّ حتى ألقى الله، قالت: إني أخاف الخبيث أن يجرِّدني، فدعا لها فكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتعلّق بها وتقول له: اخسأ، فيذهب عنها. قال البزار: لا نعلمه يُروى بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه، وصدقة ليس به بأس، وفرقد حدّث عنه جماعة من أهل العلم، منهم شعبة وغيره واحتمِل حديثه على سوء حفظه.

طريق أخرى عن ابن عباس:

قال الإمام أحمد [١/٣٤٦، ٣٤٧]: حدثنا يحيى عن عمران أبي بكر، ثنا عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه السوداء أتت رسول الله ﷺ فقالت: إني أصرع وأتكشّف فادع الله لي، قال: «إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله لك أن يعافيك»، قالت: لا بل أصبر فادع الله أن لا أتكشّف أو لا ينكشف عني، قال: فدعا لها.

وهكذا رواه البخاري عن مسدد عن يحيى - وهو ابن سعيد القطان - وأخرجه مسلم عن القواريري عن يحيى القطان وبشر بن المفضّل كلاهما عن عمران بن مسلم أبي بكر القصير البصري عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس فذكر مثله، ثم قال البخاري: حدثنا محمد، حدّثنا مخلد عن ابن جريج قال: أخبرني عطاء أنه رأى أم زفر تلك امرأة طويلة سوداء على ستر الكعبة.

وقد ذكر الحافظ ابن الأثير في «الغابة» أن أم زفر هذه كانت مشّاطة خديجة بنت خويلد قديماً، وأنها عمرت حتى أدركها عطاء بن أبي رباح فالله أعلم.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٦٠]: أنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد، حدّثنا محمد بن يونس، حدّثنا قرة بن حبيب القنوي، حدّثنا إياس بن أبي تميمة عن عطاء عن أبي هريرة قال: جاءت الحمّى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ابعثني إلى أحبّ قومك إليك أو أحب أصحابك إليك، شكّ قرة ـ فقال: «اذهبي إلى الأنصار» فذهبت إليهم فصرعتهم، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله قد أتت الحمى علينا فادع الله لنا بالشفاء فدعا لهم، فكُشِفت عنهم، قال: فاتبعته امرأة فقالت: يا رسول الله ادع الله لي، فإني لمن الأنصار فادع الله لي كما دعوت لهم، فقال: «أيهما أحب إليك أن أدعو لك فيكشف عنك، أو تصبرين وتَجب لك الجنة؟» فقالت: لا والله يا رسول الله بل أصبر ـ ثلاثاً ـ ولا أجعل والله لجنته خطراً، محمد بن يونس الكديمي ضعيف.

وقد قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٥٩]: أنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار، حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدّثنا أبي، حدّثنا هشام بن لاحق ـ سنة خمس وثمانين ومائة ـ حدّثنا عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال: استأذنت الحُمّى على رسول الله ﷺ، فقال: «مَن أنت؟» قالت: أنا الحمى. أبري اللحم، وأمُصّ الدم، قال: «اذهبي إلى أهل قُباء»، فأتتهم فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقد اصفرّت وجوههم، فشكوا إليه الحمّى فقال لهم: «ما شئتم؟ إن شئتم دعوت الله فيكشفها عنكم، وإن شئتم تركتموها فأسقطت ذنوبكم» قالوا: بل ندعها يا رسول الله. وهذا الحديث ليس هو في «مسند الإمام أحمد» ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة. وقد ذكرنا في أول الهجرة دعاءه عليه الصلاة والسلام لأهل المدينة أن يذهب حُمّاها إلى الجُحفة، فاستجاب الله له ذلك فإن المدينة كانت من أوبأ أرض الله فصحّحها الله ببركة حلوله بها، ودعائه لأهلها صلوات الله وسلامه عليه.

٣٩- قصة الضرير الذي برأ

قال الإمام أحمد [٤/١٣٨]: حدّثنا روح، حدّثنا شعبة عن أبي جعفر المديني سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف: «أن رجلا ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يعافيني، فقال: «إن شئت أخرتُ ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئت دعوت لك» قال: لا، بل ادع الله لي، قال: فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ ويصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي هذه فتُقضى وتشفّعني فيه وتشفعه فيّ. قال: فكان يقول هذا مراراً، ثم قال بعد: أحسب أن فيها أن تشفّعني فيه، قال: ففعل الرجل فبرأ.

وقد رواه أحمد أيضاً [٤/١٣٨] عن عثمان بن عمر عن شعبة به. وقال: اللّهم شفّعه فيّ! ولم يقل الأخرى، وكأنها غلط من الراوي والله أعلم.

وهكذا رواه الترمذي [(٣٥٧٨)] والنسائي [س (١٠٤٩٥)] عن محمود بن غيلان، وابن ماجه [ق (١٣٨٥)] عن أحمد بن منصور بن سيار، كلاهما عن عثمان بن عمر، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي جعفر الخطمي، ثم رواه أحمد أيضاً [٤/١٣٨] عن مؤمل عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف فذكر الحديث، وهكذا رواه النسائي [الكبرى (١٠٤٩٤)] عن محمد بن معمر عن حبان عن حماد بن سلمة به.

ثم رواه النسائي عن زكريا بن يحيى عن محمد بن المثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف به [الكبرى (١٠٤٩٦)]، وهذه الرواية تخالف ما تقدم، ولعله عند أبي جعفر الخطمي من الوجهين والله أعلم.

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٦/١٦٨] والحاكم [المستدرك: ١/٥٢٦] من حديث يعقوب بن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد الحبطيّ عن أبيه عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قال: سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ عليّ، فقال رسول الله ﷺ «ائت الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم قل: اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتُجلّي بصري، اللّهم فشفّعه فيّ وشفّعني في نفسي» قال عثمان: فوالله ما تفرقنا، ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط. قال البيهقي: ورواه أيضاً هشام الدستوائي عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل عن عمه عثمان بن حنيف.

حديث آخر:

قال أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف ٣٦١٤]: ثنا محمد بن بشر، حدّثنا عبد العزيز بن عمر، حدثني رجل من بني سلامان بن سعد عن أمه أن خالها حبيب بن فُوَيك حدثها: أن أباه خرج إلى رسول الله ﷺ وعيناه مُبيضّتان لا يبصر بهما شيئاً أصلاً، فسأله: «ما أصابك؟» فقال: كنت أمْري جملاً لي فوقعت رجلي على بيض حية فأصيب بصري، قال: فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، فرأيته وإنه ليدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضّتان.

قال البيهقي: كذا في كتابه، وغيره يقول: حبيب بن مدرك، قال [الدلائل: ٦/١٧٣]: وقد مضى في هذا المعنى حديث قتادة بن النعمان: أنه أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فردّها رسول الله ﷺ إلى موضعها، فكان لا يدري أيهما أصيبت.

قلت: وقد تقدم ذلك في غزوة أُحد، وقد ذكرنا في مقتل أبي رافع مسحه بيده الكريمة على رجل عبد الله بن عتيك ـ وقد انكسر ساقه ـ فبرأ من ساعته.

وذكر البيهقي بإسناده [الدلائل: ٦/١٧٤]: أنه ﷺ مسح يد محمد بن حاطب ـ وقد احترقت يده بالنار ـ فبرأ من ساعته، وأنه عليه الصلاة والسلام نفث في كف شرحبيل الجعفي فذهبت من كفه سلعة كانت به.

قلت: وتقدم في غزوة خيبر تفله في عيني علي وهو أرمد فبرأ.

وروى الترمذي [ت (٣٥٧٠)] عن علي حديثه في تعليمه عليه الصلاة والسلام ذلك الدعاء لحفظ القرآن فحفظه.

وفي «الصحيح» [خ (٢٠٤٧)، م (٢٤٩٢) (١٥٩)] أنه قال لأبي هريرة وجماعة: «من يبسط رداءه اليوم فإنه لا ينسى شيئاً من مقالتي» قال: فبسطته فلم أنس شيئاً من مقالته تلك، فقيل: كان ذلك حفظاً من أبي هريرة لكل ما سمعه منه في ذلك اليوم قيل: وفي غيره فالله أعلم، ودعا

لسعد بن أبي وقاص فبرأ [٢٧٤٤، ٥٦٥٩].

وروى البيهقي [الدلائل: ٦/١٨٤] أنه دعا لعمه أبي طالب في مرضة مرضها وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له ربه فدعا له فبرأ من ساعته، والأحاديث في هذا كثيرة جداً يطول استقصاؤها. وقد أورد البيهقي من هذا النوع كثيراً طيباً أشرنا إلى أطراف منه وتركنا أحاديث ضعيفة الإسناد واكتفينا بما أوردنا عما تركنا وبالله المستعان.

٤٠- اشتداد الجمل أو الفرس بعد إعياء

ثبت في الصحيحين [خ (٢٧١٨)، م ٧١٥ (١٠٩، ١١٠)] من حديث زكريا بن أبي زائدة، زاد مسلم والمغيرة كلاهما عن عامر بن شراحيل الشعبي عن جابر بن عبد الله أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فأراد أن يُسيِّبه، قال: فلحقني رسول الله ﷺ فضربه ودعا لي؛ فسار سيراً لم يسر مثله، وفي رواية: [م ٧١٥ (١١٣)] فما زال بين يدي الإبل قُدّامها حتى كنت أحبس خِطامه فلا أقدر عليه، فقال: «كيف ترى جملك؟» فقلت: قد أصابته بركتك يا رسول الله، ثم ذكر أن رسول الله ﷺ اشتراه منه، واختلف الرواة في مقدار ثمنه على روايات كثيرة، وأنه استثنى حُمْلانه إلى المدينة، ثم لما قدم المدينة جاءه بالجمل فنقده ثمنه وزاده ثم أطلق له الجمل أيضاً، الحديث بطوله.

حديث آخر:

روى البيهقي [الدلائل: ٦/١٥٢، ١٥٣] واللفظ له، وهو في «صحيح البخاري» [٢٩٦٩] من حديث حسن بن محمد المروزي عن جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك، قال: فزع الناس فركب رسول الله ﷺ فرساً لأبي طلحة بطيئاً ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلف رسول الله ﷺ، فقال: «لن تُراعوا إنه لبحر» قال: فوالله ما سُبِق بعد ذلك اليوم.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٥٢، ١٥٣]: أنا أبو بكر القاضي، أنا حامد بن محمد الهروي، حدّثنا علي بن عبد العزيز، حدّثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدّثنا رافع بن سلمة بن زياد، حدثني عبد الله بن أبي الجعد عن جعيل الأشجعي، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، قال: فكنت في أُخريات الناس، فلحقني رسول الله ﷺ، وقال: «سر يا صاحب الفرس» فقلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة، قال: فرفع رسول الله ﷺ مخفقة معه فضربها بها وقال: «اللّهم بارك له فيها» قال: فلقد رأيتني وأنا أمسك برأسها أن تَقَدُم الناس، ولقد بعت من بطنها باثني عشر ألفاً.

ورواه النسائي [الكبرى (٨٨١٨)] عن محمد بن رافع عن محمد بن عبد الله الرقاشي فذكره.

وهكذا رواه أبو بكر بن أبي خيثمة [الدلائل: ٦/١٥٤] عن عبيد بن يعيش عن زيد بن الحباب عن رافع بن سلمة الأشجعي فذكره.

وقال البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير: ٢/٢٤٩]: وقال رافع بن زياد بن الجعد بن أبي الجعد: حدثني أبي عن عبد الله بن أبي الجعد أخي سالم عن جعيل فذكره.

حديث آخر:

قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٥٤]: أنا أبو الحسين بن الفضل القطان ببغداد، أنا أبو سهل بن زياد القطان، حدّثنا محمد بن شاذان الجوهري، حدثنا زكريا بن عدي، حدّثنا مروان بن معاوية عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة، فقال: «هل نظرت إليها فإن في أعينُ الأنصار شيئاً؟» قال: قد نظرتُ إليها، قال: «على كم تزوجتها؟» فذكر شيئاً، قال: «كأنهم ينحتون الذهب والفضة من عُرْض هذه الجبال! ما عندنا اليوم شيء نُعطيكه، ولكن سأبعثك في وجه تصيب فيه»، فبعث بعثاً إلى بني عبس وبعث الرجل فيهم، فأتاه فقال: يا رسول الله أعيتني ناقتي أن تنبعث، قال: فناوله رسول الله ﷺ يده كالمعتمد عليه للقيام، فأتاها فضربها برجله، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد رأيتُها تسبق به القائد، رواه مسلم في «الصحيح» [م ١٤٢٤ (٧٥)] عن يحيى بن معين عن مروان.

حديث آخر

قال البيهقي [الدلائل: ٦/١٥٤، ١٥٥]: أنا أبو زكريا بن أبي إسحاق المزكيّ، أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدّثنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب، أنا جعفر بن عون، أنا الأعمش عن مجاهد أن رجلاً اشترى بعيراً فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني اشتريت بعيراً فادعُ اللّه أن يبارك لي فيه، فقال: «اللّهم بارك له فيه»، فلم يلبث إلا يسيراً أن نفق، ثم اشترى بعيراً آخر فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني اشتريت بعيراً فادع الله أن يبارك لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم بارك له فيه» فلم يلبث حتى نفق، ثم اشترى بعيراً آخر فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد اشتريت بعيرين فدعوتَ الله أن يُبارك لي فيهما فادع الله أن يحملني عليه، فقال: «اللّهم احمله عليه»، فمكث عنده عشرين سنة» قال البيهقي: وهذا مرسل ودعاؤه عليه الصلاة والسلام صار إلى أمر الآخرة في المرتين الأولين.

٤١- قصة الرجل الذي برأ من ضربته

قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٦/١٧٨]: أنا أبو عبد الرحمن السلمي، أنا إسماعيل بن عبد الله الميكاليّ حدّثنا علي بن سعيد العسكري، أنا أبو أمية عبد الله بن محمد بن خلاد الواسطي، ثنا يزيد بن هارون، أنا المستلم بن سعيد، حدّثنا خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب بن أساف عن أبيه عن جده خبيب بن أساف قال: أتيت رسول الله ﷺ، أنا ورجل من قومي في بعض مغازيه فقلنا: إنا نشتهي أن نشهد معك مشهداً، قال: «أسْلَمتم؟» قلنا: لا، قال: «فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» قال: فأسلمنا، وشهدت مع رسول الله ﷺ فأصابتني ضربة على عاتقي فجافتني، فتعلقت يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فتفل فيها وألزقها فالتأمت وبرأت وقتلتُ الذي ضربني، ثم تزوجت ابنة الذي قتلته وضربني، فكانت تقول: لا

عدمتَ رجلاً وشحك هذا الوشاح، فأقول: لا عدمتِ رجلاً أعجل أباك إلى النار» وقد روى الإمام أحمد [٣/٤٥٤] هذا الحديث عن يزيد بن هارون بإسناده مثله ولم يذكر: فتفل فيها فبرات.

٤٢- الدعاء لابن عباس بالفقهِ

ثبت في «الصحيحين» [خ (١٤٣)، م (٢٤٧٧)] من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم عن ورقاء بن عمر اليشكري عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ الخلاء فوضعت له وضوءاً فلما خرج قال: «من وضع هذا؟» قالوا: ابن عباس، قال: «اللّهم فقهه في الدين».

وروى البيهقي [الدلائل: ٦/١٩٢، ١٩٣] عن الحاكم وغيره عن الأصم عن عباس الدوري عن الحسن بن موسى الأشيب عن زهير عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وضع يده على كتفي - أو قال: منكبي، شكّ سعيد - ثم قال: «اللّهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»، وقد استجاب الله لرسوله ﷺ هذه الدعوة في ابن عمه فكان إماماً يُهتدى بهداه ويُقتدى بسَناه في علوم الشريعة ولا سيما في علوم التأويل وهو علم التفسير، فإنه انتهت إليه علوم الصحابة قبله، وما كان عقله من كلام ابن عمه رسول الله ﷺ، وقد قال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عاشره أحد منا، وكان يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، هذا وقد تأخرت وفاة ابن عباس عن وفاة عبد الله بن مسعود ببضع وثلاثين سنة، فما ظنك بما حصله بعده في هذه المدة؟ وقد روِّينا عن بعض أصحابه أنه قال: خطب الناس ابن عباس في عشية عرفة ففسر لهم سورة «البقرة»، أو قال سورة، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا، رضي الله عنه وأرضاه.

٤٣- طول عمر أنس بن مالك

ثبت في «الصحيح» [خ (٦٣٤٤)] أنه عليه الصلاة والسلام دعا لأنس بن مالك بكثرة المال والولد، فكان كذلك حتى روى الترمذي [٣٨٣٣] عن محمود بن غيلان عن أبي داود الطيالسي عن أبي خلدة، قال: قلت لأبي العالية: سمع أنس من النبي ﷺ؟ قال: خدمه عشر سنين ودعا له، وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيه ريحان يجيء منه ريح المسك، وقد روينا في «الصحيح» [خ (١٩٨٢)، م ٢٤٨١ (١٤٣)] أنه ولد له لصلبه قريب من مائة أو ما ينيف عليها، وفي رواية: أنه ﷺ، قال: «اللّهم أطل عمره» فعمرّ مائه، وقد دعا ﷺ لأم سليم ولأبي طلحة في غابر ليلتهما، فولدت له غلاماً سماه رسول الله ﷺ عبد الله، فجاء من صلبه تسعة كلهم قد حفظ القرآن، ثبت ذلك في «الصحيح» [خ (١٣٠١)].

٤٤- إسلام أم أبي هريرة بدعاء النبي ﷺ

وثبت في «صحيح مسلم» [(٢٤٩١] من حديث عكرمة بن عمار عن أبي كثير العنبري عن أبي هريرة أنه سأل من رسول الله ﷺ أن يدعو لأمه فيهديها الله فدعا لها، فذهب أبو هريرة فوجد أمه تغتسل خلف الباب فلما فرغت قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فجعل أبو هريرة يبكي من الفرح، ثم ذهب فأعلم بذلك رسول الله ﷺ، وسأل منه أن يدعو لهما أن يحببهما الله إلى عباده المؤمنين فدعا لهما، فحصل ذلك. قال أبو هريرة: فليس مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبنا، وقد صدق أبو هريرة في ذلك رضي الله عنه وأرضاه، ومن تمام هذه الدعوة أن الله شهر ذكره في أيام الجمع حيث يذكره الناس بين يدي خطبة الجمعة، وهذا من التقييض القدري والتقدير المعنوي.

٤٥- الدعاءُ لسعد بن أبي وقاص بالإجابة والتسديد

وثبت في «الصحيح» [خ (٥٦٥٩)، م ١٦٢٨ (٩٠٨)] أنه عليه الصلاة والسلام، دعا لسعد بن أبي وقاص وهو مريض فعوفي، ودعا له أن يكون مجاب الدعوة، فقال: «اللّهم أجب دعوته، وسدّد رميته»، فكان كذلك، فنعم أمير السرايا والجيوش كان، وقد دعا على أبي سعدة أسامة بن قتادة حين شهد فيه بالزور بطول العمر وكثرة الفقر والتعرض للفتن، فكان ذلك، فكان إذا سئل ذلك الرجل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

٤٦- الدعاء للسائب بن يزيد

وثبت في «صحيح البخاري» [٣٥٤٠] وغيره [الطبراني الكبير ٧/١٩٠ (٦٦٩٣) الأوسط ٤٨٣٨] أنه ﷺ دعا للسائب بن يزيد ومسح بيده على رأسه فطال عمره حتى بلغ أربعاً وتسعين سنة وهو تام القامة معتدل، ولم يشب منه موضع أصابت يد رسول الله ﷺ ومُتّع بحواسه وقواه، وقال أحمد [٤/٧٧]: حدّثنا حرمي بن عمارة عمير، حدّثنا عزرة بن ثابت، حدّثنا عِلباء بن أحمر، حدثني أبو زيد الأنصاري، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ادن مني»، فمسح بيده على رأسي ثم قال: «اللّهم جمّله وأدِم جماله» قال: فبلغ بضعاً ومائة - يعني سنة - وما في لحيته بياض إلا نُبَذٌ يسيرة، ولقد كان منبسط الوجه لم ينقبض وجهه حتى مات.

قال البيهقي: إسناد صحيح موصول، ولقد أورد البيهقي لهذا نظائر كثيرة وأسند روايات كثيرة في هذا المعنى، تشفي القلوب، وتحصِّل المطلوب.

٤٧- مسح وجه قتادة

وقد قال الإمام أحمد [٥/٢٧، ٢٨، ٨١]: حدثنا عارم، حدّثنا معتمر، وقال يحيى بن معين: وابن عبد الأعلى: حدّثنا معتمر - هو ابن سليمان - . قال: سمعت أبي يحدث عن أبي العلاء قال: كنت عند قتادة بن ملحان في مرضه الذي مات فيه، قال: فمر رجل في مُؤخَّر الدار، قال: فرأيته في وجه قتادة، قال: وكان رسول الله ﷺ قد مسح وجهه، قال: وكنت قلّ ما رأيته إلا ورأيت كأن على وجهه الدهان.

٤٨- الدعاء لعبد الرحمن بن عوف بالبركة

وثبت في «الصحيحين» [خ (٥١٥٥)، م ١٤٢٧(٧٩)] أنه عليه الصلاة والسلام دعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة حين رأى عليه ذلك الرّدع من الزعفران لأجل العرس، فاستجاب الله لرسوله ﷺ ففتح له في المتجر والمغانم حتى حصل له مالٌ جزيل بحيث إنه لما مات صولحت امرأة من نسائه الأربع عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً.

٤٩- الدعاء لعروة البارقي بالبركة في البيع

وثبت في الحديث [خ (٣٦٤٢)، د ٣٣٨٤، المسند ٣٧٥/٤] من طريق شبيب بن غرقدة أنه سمع الحي يخبرون عن عروة بن أبي الجعد البارقي، أن رسول الله ﷺ أعطاه ديناراً ليشتري له به شاة فاشترى به شاتين وباع إحداهما بدينار وأتاه بشاة ودينار، فدعا له بالبركة في البيع، فكان لو اشترى التراب لربح فيه. وفي رواية [المسند ٣٧٥/٤، ٣٧٦، ت (١٢٥٨)، ق (٢٤٠٢)]: فقال له: «بارك الله لك في صفقة يمينك».

٥٠- الدعاء لعبد الله بن هشام بالبركة

وقال البخاري [٦٣٥٣]: حدّثنا عبد الله بن يوسف، ثنا ابن وهب، حدّثنا سعيد بن أبي أيوب عن أبي عقيل أنه كان يخرج به جدّه عبد الله بن هشام إلى السوق فيشتري الطعام فيلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان: أشركنا في بيعك فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيُشرِكهم، فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل.

٥١- الدعاءُ بإذهاب البرد

وقال البيهقي [الدلائل: ٢٢٤/٦]: أخبرنا أبو سعد الماليني، أنا ابن عدي حدّثنا علي بن محمد بن سليمان الحلبي، حدّثنا محمد بن يزيد المستملي، حدّثنا شبابة بن عبد الله، حدّثنا أيوب بن سيار عن محمد بن المنكدر عن جابر عن أبي بكر عن بلال قال: أذّنت في غداة باردة فخرج النبي ﷺ فلم ير في المسجد أحداً، فقال: «أين الناس يا بلال؟» فقلت: مَنعهم البرد، فقال: «اللّهم أذهِب عنهم البرْد» فرأيتهم يترّوحون، ثم قال البيهقي: تفرّد به أيوب بن سيار، ونظيره قد مضى في الحديث المشهور عن حذيفة في قصة الخندق.

٥٢- الدعاءُ لزوجين

قال البيهقي [الدلائل: ٢٢٨/٦، ٢٢٩]: أنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني - إملاء - أنا أبو إسماعيل الترمذي محمد بن إسماعيل، حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، حدّثنا علي بن أبي علي اللِّهْبي عن ابن أبي ذئب عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خرج وعمر بن الخطاب معه، فعرضت له امرأة، فقالت: يا رسول الله، إني امرأة مسلمة مُحرمة ومعي زوج لي في بيتي مثل المرأة، فقال لها رسول الله ﷺ: «ادعي لي زوجك» فدعَتْه وكان خرّازاً، فقال له: «ما تقول في امرأتك يا عبد الله؟» فقال الرجل: والذي أكرمك ما جفّ رأسي منها، فقالت امرأته: ما مرة واحدة في الشهر؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «أتُبغضيه؟» قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «أدنيا رؤوسكما» فوضع جبهتها على جبهة زوجها ثم قال: «اللّهم ألّف بينهما وحبِّب أحدهما إلى صاحبه» ثم مرّ رسول الله ﷺ بسوق النمط ومعه عمر بن الخطاب فطلعت المرأة تحمل أدماً على رأسها، فلما رأت رسول الله ﷺ طرحته وأقبلت فقبّلت رجليه، فقال لها رسول الله ﷺ: «كيف أنت وزوجُك؟» فقالت: والذي أكرمك ما طارفٌ ولا تالدٌ ولا والد أحبّ إليّ منه، فقال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أني رسول الله» فقال عمر: وأنا أشهد أنك رسول الله، قال أبو عبد الله: تفرد به علي بن أبي علي اللِّهبي وهو كثير الرواية للمناكير.

قال البيهقي [الدلائل ٢٢٩/٦]: وقد روى يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله - معنى هذه القصة - إلا أنه لم يذكر عمر بن الخطاب.

٥٣- بركة النبي في غلامٍ عليه شعرة في جبهته

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا كامل بن طلحة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي الطفيل أن رجلاً وُلد له غلام فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا له بالبركة وأخذ بجبهته فنبتت شعرة في جبهته كأنها هلبة فرس، فشب الغلام، فلما كان زمن الخوارج أجابهم فسقطت الشعرة عن جبهته، فأخذه أبوه فقيّده وحبسه مخافة أن يلحق بهم، قال: فدخلنا عليه فوعظناه وقلنا له: ألم تر إلى بركة رسول الله ﷺ وقعت؟ فلم نزل به حتى رجع عن رأيهم، قال: فردّ الله تلك الشعرة إلى جبهته إذ تاب.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[الدلائل ٢٣٠/٦، ٢٣١] عن الحاكم وغيره عن الأصم عن أبي أسامة الكلبي عن شريح بن مَسْلمة عن أبي يحيى إسماعيل بن إبراهيم التيمي، حدثني سيف بن وهب عن أبي الطفيل أن رجلاً من بني ليث يقال له: فراس بن عمرو أصابه صُداع شديد فذهب به أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه، وأخذ بجلدة بين عينيه فجذبها حتى تنقّصَتْ فنبتت في موضع أصابع رسول الله ﷺ شعرة، وذهب عنه الصداع فلم يُصدّع. وذكر بقية القصة في الشعرة كنحو ما تقدم.

٥٤- دعاء النبي في نابغة بني جعدة

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا هاشم بن القاسم الحراني، حدثنا يعلى بن الأشدق، سمعت عبد الله بن جَراد العقيلي، حدثني النابغة - يعني الجعدي- قال: أتيت رسول الله ﷺ فأنشدته من قولي:

عَلَوْنا العِباد عفةً وتكرّماً وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهَرا

قال: «أين المظهر يا أبا ليلى؟» قال: قلت: إلى الجنة، قال: «أجل إن شاء الله»، ثم قال: «أنشدني»، فأنشدته من قولي:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يُكدّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال: «أحسنت لا يفضُض اللّهُ فاكَ». هكذا رواه البزار إسناداً ومتناً.

وقد رواه الحافظ البيهقي من طريق أخرى فقال [الدلائل ٦/ ٢٣٢،٢٣٣]: أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد بن عبدان، أنا أبو بكر محمد بن المؤمَّل، حدثنا جعفر بن محمد بن سوّار، حدثنا إسماعيل بن عبد اللّه بن خالد السُّكري الرقي، حدثني يعلى بن الأشدق قال: سمعت النابغة - نابغة بني جعدة - يقول: أنشدت رسول اللّه ﷺ هذا الشعر، فأعجبه:

بلغنا السماء مجدنا وثراؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال: «أين المظهر يا أبا ليلى؟» قلت: إلى الجنة. قال: «كذلك إن شاء اللّه»:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادُر تحمي صفوه أن يُكدّرا

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدَرا

فقال النبي ﷺ: «أجدْت لا يُفْضَض فوكَ»، قال يعلى: فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن. قال البيهقي: ورُوي ذلك عن مجاهد بن سليم عن عبد اللّه بن جراد سمعت نابغة يقول: سمعني رسول اللّه ﷺ وأنا أنشد من قولي:

بلغنا السماء عفةً وتكرماً وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ثم ذكر الباقي بمعناه، قال: فلقد رأيت سِنَّهُ كأنها البرد المُنْهَل ماسقط له سنّ ولا انفلت.

٥٥- الدعاءُ لأهلِ اليمن

قال الحافظ البيهقي [الدلائل ٦/ ٢٣٦]: أنا أبو بكر القاضي وأبو سعيد بن أبي عمرو، قالا: حدّثنا الأصم، حدثنا عباس الدوري، حدثنا علي بن بحر القطان، حدثنا هشام بن يوسف، حدثنا معمر، حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس أن رسول اللّه ﷺ، نظر قِبَل العراق والشام واليمن - لا أدري بأيتهن بدأ - ثم قال: «اللّهم أقبِل بقلوبهم إلى طاعتك وحُطّ من ورائهم».

ثم رواه [الدلائل ٦/ ٢٣٦] عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصاغاني عن عليّ بن بحر بن بَرّيّ فذكره بمعناه.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (٣٤٥)]: حدثنا عمران القطان عن قتادة عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت قال: نظر رسول اللّه ﷺ قِبل اليمن فقال: «اللّهم أقبل بقلوبهم»، ثم نظر قِبل الشام فقال: «اللّهم أقبل بقلوبهم»، ثم نظر قبل العراق فقال: «اللّهم أقبل بقلوبهم، وبارك لنا في صاعنا ومُدِّنا». وهكذا وقع الأمر، وأسلم أهل اليمن قبل أهل الشام، ثم كان الخير والبركة قِبَل العراق، ووعد أهل الشام بالدوام على الهداية والقيام بنصرة الدين إلى آخر الأمر.

وروى أحمد في «مسنده» [٥/ ٢٤٩]: «لا تقوم الساعة حتى يتحوّل خيارُ أهل العراق إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق».

٥٦- من لم يستطع أن يأكل بيمينه

وروى مسلم [٢٠٢١] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب عن عكرمة بن عمار: حدثني إياس بن سلمة بن الأكوع أن أباه حدثه أن رجلاً أكل عند رسول اللّه ﷺ بشماله، فقال له: «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه. وقد رواه أبو الوليد الطيالسي عن عكرمة عن إياس عن أبيه قال: أبصر رسول اللّه ﷺ بشر ابن راعي العير وهو يأكل بشماله فقال: «كُل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، قال: فما وصلت يده إلى فيه بعد.

٥٧- لا أشبع اللّه بطنه

وثبت في «صحيح مسلم» [٩٧/ ٢٦٠٤] من حديث شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الغلمان فجاء رسول اللّه ﷺ فاختبأت منه، فجاءني فحطأني حطأة أو حطأتين وأرسلني إلى معاوية في حاجة، فأتيته وهو يأكل، فقلت: أتيته وهو يأكل، فأرسلني الثانية فأتيته وهو يأكل، فقلت: أتيته وهو يأكل، فقال: «لا أشبع اللّه بطنه».

وقد روى البيهقي [الدلائل ٦/ ٢٤٣] عن الحاكم عن علي بن حمشاذ عن هشام بن علي عن موسى بن إسماعيل: حدثني أبو عوانة عن أبي حمزة: سمعت ابن عباس قال: كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول اللّه ﷺ قد جاء فقلت: ما جاء إلا إليّ، فذهبت فاختبأت على باب، فجاء فحطأني حَطأةً وقال: «اذهب فادع لي معاوية» - وكان يكتب الوحي - قال: فذهبت فدعوته له فقيل: إنه يأكل، فأتيت رسول اللّه ﷺ فقلت: إنه يأكل، فقال: «اذهب فادعه لي»، فأتيته الثانية، فقيل إنه يأكل، فأتيت رسول اللّه ﷺ فأخبرته فقال في الثانية: «لا أشبع اللّه بطنه»، قال: فما شبع بعدها.

قلت: وقد كان معاوية رضي الله عنه لا يشبع بعدها، ووافقته هذه الدعوة في أيام إمارته، فيقال: إنه كان يأكل في اليوم سبع مرات طعاماً بلحم، وكان يقول: واللّه لا أشبع وإنما أعيى.

وقدمنا في غزوة تبوك أنه مر بين أيديهم وهم يصلون غلام فدعا عليه فأقعد فلم يقم بعدها.

وجاء من طرق أوردها البيهقي [الدلائل ٦/ ٢٣٩،٢٤٠] أن رجلا حاكى النبي صلي اللّه عليه وسلم في كلام واختلج بوجهه، فقال رسول اللّه ﷺ: «كن كذلك»، فلم يزل يختلج ويرتعش مدة عمره حتى مات.

٥٨- كن كذلك

وقد ورد في بعض الروايات أنه الحكم بن أبي العاص، أبو مروان بن الحكم فاللّه أعلم.

٥٩- مقتلُ رجلٍ دعا عليه

وقال مالك [الموطأ ٢/ ٩١٠،٩١١]: عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد اللّه قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في غزوة بني أنمار، فذكر الحديث في الرجل الذي عليه ثوبان قد خلقا، وله ثوبان في العيبة، فأمره رسول اللّه ﷺ فلبسهما ثم ولى، فقال رسول اللّه ﷺ: «ماله؟ ضرب اللّه عنقه»، فقال الرجل: في سبيل اللّه، فقال رسول اللّه ﷺ: «في سبيل اللّه»، فقتل

الرجل في سبيل الله.

وقد ورد من هذا النوع كثير. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة بطرق متعددة عن جماعة من الصحابة تفيد القطع كما سنوردها قريباً في باب فضائله ﷺ أنه قال [خ(٦٣٦١)، م(٢٦٠٠-٢٦٠٢)]: «اللهم من سببته أو جلدته أو لعنته وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك قربة له تقربه بها عندك يوم القيامة».

٦٠- دعاؤه على أبي جهلٍ وآخرين

وقد قدمنا في أول البعثة حديث ابن مسعود في دعائه ﷺ على أولئك النفر السبعة، الذين أحدهم أبو جهل بن هشام وأصحابه، حين طرحوا على ظهره عليه الصلاة والسلام سلا الجزور، وألقته عنه ابنته فاطمة، فلما انصرف قال: «اللهم عليك بقريش،اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»، ثم سمى بقية السبعة، قال ابن مسعود: فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهم صرعى في القليب قليب بدر، الحديث. وهو متفق عليه.

٦١- رجل يدفن ثم تنبذه الأرضُ

قال الإمام أحمد [٣/٢٢٢]: ثنا هاشم، حدثنا سليمان - يعني ابن المغيرة - عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كان منا رجل من بني النجار قد قرأ «البقرة» و«آل عمران»، وكان يكتب لرسول الله ﷺ، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه وقالوا: هذا كان يكتب لمحمد، وأعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له وواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له وواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذاً. ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن أبي النضر هاشم بن القاسم به [م(٢٧٨١)].

طريق أخرى عن أنس:

قال الإمام أحمد [٣/٢٢٢]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حميد عن أنس أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ وكان قد قرأ «البقرة»و«آل عمران»، وكان الرجل إذا قرأ «البقرة» و«آل عمران» عز فينا - يعني عظم - فكان رسول الله ﷺ يملي عليه: غفوراً رحيماً، فيكتب: عليماً حكيماً، فيقول له النبي ﷺ: «اكتب كذا وكذا أكتب كيف شئت، ويُملي عليه: عليماً حكيماً، فيقول أكتُبُ سميعاً بصيراً؟ فيقول: «اكتب كيف شئت»، قال: فارتد ذلك الرجل عن الإسلام فلحق بالمشركين، وقال: أنا أعلمكم بمحمد، وإن كنت لأكتب ما شئت، فمات ذلك الرجل، فقال النبي ﷺ: «إن الأرض لا تقبله»، قال أنس: فحدثني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها ذلك الرجل فوجده منبوذاً، فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: قد دفناه مراراً فلم تقبله الأرض. وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجوه.

طريق أخرى عن أنس:

قال البخاري [٣٦١٧]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان رجل نصرانياً فأسلم وقرأ «البقرة» و«آل عمران»، وكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً، وكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابه - لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه - فحفروا له وأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فِعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه.

٦٢- باب المسائل التي سئل عنها رسول الله ﷺ فأجاب فيها بما يطابق الحق الموافق لما تشهد به الكتب المتقدمة الموروثة عن الأنبياء قبله

قد ذكرنا في أول البعثة ما تعنتت به قريش وبعثت إلى يهود المدينة يسألونهم عن أشياء يسألون عنها رسول الله ﷺ، فقالوا: سلوه عن الروح، وعن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدرى ما صنعوا، وعن رجل طواف في الأرض بلغ المشارق والمغارب، فلما رجعوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزوجل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥] وقرأ الأعمش: (وما أوتوا من العلم إلا قليلاً) وأنزل سورة «الكهف» يشرح فيها خبر الفتية الذين فارقوا دين قومهم وآمنوا بالله العزيز الحميد، وأفردوه بالعبادة، واعتزلوا قومهم، ونزلوا غاراً وهو الكهف، فناموا فيه، ثم أيقظهم الله بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وكان من أمرهم ما قص الله علينا في كتابه العزيز، ثم قص خبر الرجلين المؤمن والكافر، وما كان من أمرهما، ثم ذكر خبر موسى والخضر وما جرى لهما من الحكم والمواعظ، ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٨٣]، ثم شرح، خبره وما وصل إليه من المشارق والمغارب، وما عمل من المصالح في العالم، وهذا الإخبار هو الواقع في الواقع، وإنما يوافقه من الكتب التي بأيدي أهل الكتاب، ما كان منها حقاً، وأما ما كان محرفاً مبدلا فذاك مردود، فإن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما اختلفوا فيه من الأخبار والأحكام، قال الله تعالى بعد ذكره التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وذكرنا في أول الهجرة قصة إسلام عبد الله بن سلام، وأنه قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه علمتُ أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «أيها الناس، افشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وثبت في «صحيح البخاري» وغيره من حديث إسماعيل بن علية وغيره عن حميد عن أنس قصة سؤاله رسول الله ﷺ عن ثلاث لا

يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً»، ثم قال: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه».

وقد رواه البيهقي [الدلائل٦/٢٦١،٢٦٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أبي معشر عن سعيد المقبري، فذكر مساءلة عبد الله بن سلام إلا أنه قال: فسأله عن السواد الذي في القمر، بدل أشراط الساعة، فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين» فقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] «فالسواد الذي رأيت هو المحو»، فقال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

حديث آخر في معناه:

قال الحافظ البيهقي [الدلائل٦/٢٦٣،٢٦٤]: أنا أبو زكريا يحيى بن إبراهيم المزكي، أنا أبو الحسن - أحمد بن محمد بن عبدوس - حدثنا عثمان بن سعيد، أنا الربيع بن نافع، أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: أخبرني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان حدثه قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، قال: لم تدفعني؟ قال: قلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ قال: إنما سميته باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي الذي سماني به أهلي محمد»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «ينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت بعود معه، فقال له: «سل»، فقال له اليهودي: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد نون»، قال: وما غذاؤهم على إثره؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا»، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة منيّ الرجل آنثا بإذن الله»، فقال اليهودي: صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال النبي ﷺ: «إنه سألني هو الذي سألني عنه وما أعلم شيئاً منه حتى أتاني الله به».

وهكذا رواه مسلم [٣١٥(٣٤)] عن الحسن بن علي الحلواني عن أبي توبة الربيع بن نافع به، وهذا الرجل يحتمل أن يكون عبد الله بن سلام، ويحتمل أن يكون غيره والله أعلم.

حديث آخر:

قال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود ٢٧٣١]: حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، حدثني ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود يوما عند النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمها إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على نبيه إن أنا حدثتكم بشيء تعرفونه صدقاً لتبايعني على الإسلام»، قالوا: لك ذلك، قال: «سلوا عما شئتم»، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك، أخبرنا عن الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا عن ماء الرجل كيف يكون الذكر منه حتى يكون ذكراً، وكيف تكون أنثى حتى تكون الأنثى، وأخبرنا كيف هذا النبي في النوم، ومن وليك من الملائكة، قال: «فعليكم عهد الله لئن أنا حدثتكم لتبايعني»، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فيه، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمنّ أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الشراب إليه ألبان الإبل، وأحب الطعام إليه لحمان الإبل؟» قالوا: اللّهم نعم، فقال رسول الله: «اللّهم اشهد عليهم»، قال: «فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟» قالوا: اللّهم نعم، قال رسول الله ﷺ: «اللّهم اشهد عليهم»، قال: «وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا، اللّهم نعم، قال: «اللّهم اشهد عليهم»، قالوا: أنت الآن حدثنا من وليك مِنَ الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «وليي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره من الملائكة لبايعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا من الملائكة، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية، فنزل: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] الآية.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [٢٣٩/٤]: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة، سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسّال المرادي، قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأسراء: ١٠١] فقال: لا تقل له نبي، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين، فسألاه. فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة»، أو قال: «لا تفروا من الزحف» - شعبة الشاك - «وأنتم يا معشر يهود عليكم خاصةً أن لا تعدوا في السبت»، قال: فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي، قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟» قالا: إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود».

وقد رواه الترمذي [٢٧٣٣،٣١٤٤] والنسائي [٤٠٨٩] وابن ماجه [٣٧٠٥] وابن جرير [الطبري ١٧٢/١٥] والحاكم [المستدرك ٩/١] والبيهقي [الدلائل٦/٢٦٨] من طرق عن شعبة به، وقال الترمذي: حسن

صحيح، قلت: وفي رجاله من تكلم فيه، وكأنه اشتبه على الراوي التسع الآيات بالعشر الكلمات، وذلك أن الوصايا التي أوصاها الله إلى موسى وكلمه بها ليلة القدر بعدما خرجوا من ديار مصر وشعب بني إسرائيل حول الطور حضور، وهارون ومن معه من العلماء وقوف على الطور أيضاً، وحينئذٍ كلم الله موسى تكليماً آمراً له بهذه العشر كلمات، وقد فسرت في هذا الحديث، وأما التسع الآيات فتلك دلائل وخوارق عادات أيد بها موسى عليه السلام، وأظهرها الله على يديه بديار مصر، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والجدب ونقص الثمرات، وقد بسطنا القول على ذلك في «التفسير» [التفسير ١٢٢/٥] بما فيه الكفاية والله أعلم.

فصل:

وقد ذكرنا في «التفسير» [التفسير ١٨٢/١، ١٨٣] عن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥] ومثلها في سورة الجمعة [التفسير ١٤٤/٨] وهي قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧]

وذكرنا أقوال المفسرين في ذلك وأن الصواب أنه دعاهم إلى المباهلة وأن يدعو بالموت على المبطل منهم أو المسلمين، فنكلوا عن ذلك لعلمهم بظلم أنفسهم، وأن الدعوة تنقلب عليهم، ويعود وبالها إليهم، وهكذا دعا النصارى من أهل نجران حين حاجوه في عيسى ابن مريم، فأمره الله أن يدعوهم إلى المباهلة في قوله [التفسير ٤٠/٢-٥٠]: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] وهكذا دعا على المشركين على وجه المباهلة في قوله [التفسير ٢٥٣/٥، ٢٥٤] ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ [مريم: ٧٥] وقد بسطنا القول في ذلك عند هذه الآيات في كتابنا «التفسير» بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة.

حديث آخر يتضمن اعتراف اليهود بأنه رسول الله ﷺ:

ويتضمن تحاكمهم إليه ورجوعهم إلى ما يحكم به ولكن بقصد منهم مذموم:

وذلك أنهم ائتمروا بينهم أنه إن حكم بما يوافق هواهم تبعوه، وإلا فاحذروا ذلك، وقد ذمهم الله في كتابه العزيز على هذا القصد.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا معمر عن الزهري قال: كنت جالساً عند سعيد بن المسيب وعند سعيد رجل وهو يوقره، وإذا هو رجل من مزينة، كان أبوه شهد الحديبية وكان من أصحاب أبي هريرة، قال: قال أبو هريرة: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، إذ جاء نفر من اليهود - وقد زنى رجل منهم وامرأة - فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن أفتانا حداً دون الرجم فعلناه واحتججنا عند الله حين نلقاه بتصديق نبي من أنبيائه، قال مرة عن الزهري، وإن أمرنا بالرجم عصيناه فقد عصينا الله فيما كتب علينا من الرجم في التوراة، فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجل منا زنى بعدما أحصن؟ فقام رسول الله ﷺ ولم يرجع إليهم شيئاً، وقام معه رجال من المسلمين، حتى أتوا بيت مدارس اليهود فوجدوهم يتدارسون التوراة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة من العقوبة على من زنى إذا أحصن؟» قالوا: نجبيه، والتجبية أن يحملوا اثنين على حمار فيولوا ظهر أحدهما ظهر الآخر، قال: وسكت حبرهم، وهو فتى شاب، فلما رآه رسول الله ﷺ صامتاً ألظ به النشدة، فقال حبرهم: أما إذ نشدتهم فإنا نجد في التوراة الرجم على من أحصن، قال النبي ﷺ: «فما أول ما ترخصتم أمر الله عز وجل؟» فقال: زنى رجل منا ذو قرابة بملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، فزنا بعده آخر في أسرة من الناس فأراد ذلك الملك أن يرجمه فقام قومه دونه، فقالوا: لا والله لا نرجمه حتى يرجم فلاناً ابن عمه، فاصطلحوا بينهم على هذه العقوبة، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أحكم بما في التوراة»، فأمر رسول الله ﷺ بهما فرجما.

قال الزهري: وبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم [التفسير ١٠٩/٣] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وله شاهد في الصحيح [خ(٦٨٤١)] [م(١٦٩٩)] عن ابن عمر.

قلت: وقد ذكرنا ما ورد في هذا السياق من الأحاديث عند قوله تعالى [التفسير ١٠٥/٣-١٠٩]: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] يعني الجلد والتحميم الذي اصطلحوا عليه وابتدعوه من عند أنفسهم، يعني إن حكم لكم محمد بهذا فخذوه، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾، يعني وإن لم يحكم لكم بذلك فاحذروا قبوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى أن قال ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فذمهم الله تعالى على سوء ظنهم وقصدهم بالنسبة إلى اعتقادهم في كتابهم، وأن فيه حكم الله بالرجم، وهم مع ذلك يعلمون صحته، ثم يعدلون عنه إلى ما ابتدعوه من الجلد والتحميم والتجبية.

وقد روى هذا الحديث محمد بن إسحاق عن الزهري قال: سمعت رجلاً من مزينة يحدث سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثهم فذكره، وعنده فقال رسول الله ﷺ لابن صوريا: «أنشدك بالله وأذكرك أيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة؟» فقال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم يعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله ﷺ فأمر بهما فرجما عند باب مسجده في بني غنيم بن مالك بن النجار، قال: ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآيات. [المائدة: ٤١] وقد ورد ذكر عبد الله بن صوريا الأعور في حديث ابن عمر وغيره بروايات صحيحة قد بيناها في «التفسير» [التفسير ١٠٦/٣].

حديث آخر:

قال حماد بن سلمة: حدثنا ثابت عن أنس أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه رسول الله ﷺ يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا يهودي، أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجدون في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟» فقال: لا، فقال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنا نجدك في التوراة نعتك وصفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي لأصحابه: «أقيموا هذا من عند رأسه، ولوا أخاكم». رواه البيهقي من هذا الوجه بهذا اللفظ.

حديث آخر:

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن أبي عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال: إن الله ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة، فدخل النبي ﷺ كنيسة فإذا هو بيهود وإذا يهودي يقرأ التوراة، فلما أتى على صفته أمسك، قال: وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: «ما لكم أمسكتم؟» فقال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة وقال: ارفع يدك، فقرأ حتى أتى على صفته، فقال: هذه صفتك وصفة أمتك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمداً رسول الله، ثم مات، فقال النبي ﷺ: «لوا أخاكم».

حديث آخر:

إن النبي ﷺ: وقف على مدراس اليهود فقال: «يا معشر يهود أسلموا، فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله إليكم» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد» [خ(٣٣٤٨، ٧)، م١٧٦٥(٦١)]

فصل:

فالذي يقطع به من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن حيث المعنى، أن رسول الله ﷺ قد بشرت به الأنبياء قبله، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك، ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه، قال الله تعالى: [التفسير ٤٨١/٣ـ ٤٩٠] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧ـ١٥٨ ـ] وقال تعالى: [التفسير ٣١٥/٣] ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال تعالى: [التفسير ٢٨٠/١، ٢٨١] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى: [التفسير ٢٠/٢] ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] وقال تعالى: [التفسير ٤٤١/٤] ﴿هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى [التفسير ٢٤٦/٤]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وقال تعالى [التفسير ٥٧٨/٦]: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

فذكر تعالى عموم بعثته إلى الأميين وأهل الكتاب وسائر الخلق من عربهم وعجمهم، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار»، رواه مسلم [١٥٣].

وفي الصحيحين [خ(٣٣٥)، م(٥٢١)]: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». وفيهما [م٥٢١/٣]: «بعثت إلى الأسود والأحمر»، قيل: إلى العرب والعجم، وقيل: إلى الإنس والجن، والصحيح أعم من ذلك.

والمقصود أن البشارات به ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة الموروثة عن الأنبياء قبله، حتى تناهت النبوة إلى آخر أنبياء بني إسرائيل، وهو عيسى ابن مريم، وقد قام بهذه البشارة في بني إسرائيل، وقص الله خبره في ذلك فقال تعالى: [التفسير ١٣٥/٨ـ١٣٧] ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فإخبار محمد صلوات الله وسلامه عليه بأن ذكره موجود في الكتب المتقدمة، فيما جاء به من القرآن، وفيما ورد عنه من الأحاديث الصحيحة كما تقدم، وهو مع ذلك من أعقل الخلق باتفاق الموافق والمفارق، يدل على صدقه في ذلك قطعاً، وذلك لأنه لو لم يكن واثقاً بما أخبر به من ذلك، لكان من أشد المنفرات عنه، ولا يقدم على ذلك عاقل، والغرض أنه من أعقل الخلق حتى عند من يخالفه، بل هو أعقلهم في نفس الأمر. ثم إنه قد انتشرت دعوته في المشارق والمغارب، وعمت دولة أمته في أقطار الآفاق عموماً لم يحصل لأمة من الأمم قبلها، فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً، لكان ضرره أعظم من كل أحد، ولو كان كذلك لحذر عنه الأنبياء أشد التحذير، ولنفروا أممهم منه أشد التنفير، فإنهم جميعهم قد حذروا من دعاة الضلالة في كتبهم، ونهوا أممهم عن اتباعهم والاقتداء بهم، ونصوا على المسيح الدجال، الأعور الكذاب، حتى قد أنذر نوح ﷺ ـ وهو أول الرسل ـ قومه، ومعلوم أنه لم ينص نبي من الأنبياء على التحذير من محمد، ولا التنفير عنه، ولا الإخبار عنه بشيء خلاف مدحه، والثناء عليه، والبشارة بوجوده، والأمر باتباعه، والنهي عن مخالفته، والخروج من طاعته، قال الله تعالى: [التفسير ٥٥/٢ـ٥٧] ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليتبعنه، رواه البخاري، وقد وجدت البشارات به ﷺ في الكتب المتقدمة، وهي أشهر من أن تذكر، وأكثر من

أن تحصر، وقد قدمنا قبل مولده عليه السلام طرفاً صالحاً من ذلك، وقررنا في كتاب «التفسير» عند الآيات المقتضية لذلك آثاراً كثيرة، ونحن نورد ههنا شيئاً مما وجد في كتبهم التي يعترفون بصحتها، ويتدينون بتلاوتها، مما جمعه العلماء قديماً وحديثاً ممن آمن منهم، واطلع على ذلك من كتبهم التي بأيديهم، ففي السفر الأول من التوراة التي بأيديهم في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ما مضمونه وتعْريبه: إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما سلمه من نار النمروذ: أن قم فاسلك الأرض مشارقها ومغاربها لولدك، فلما قص ذلك على سارة طمعت أن يكون ذلك لولدها منه، وحرصت على إبعاد هاجر وولدها، حتى ذهب بهما الخليل إلى برية الحجاز وجبال فاران، وظن إبراهيم عليه السلام أن هذه البشارة تكون لولده إسحاق، حتى أوحى الله إليه ما مضمونه: أما ولدك إسحاق فإنه يرزق ذرية عظيمة، وأما ولدك إسماعيل فإني باركته وعظمته، وكثرت ذريته، وجعلت من ذريته ماذ ماذ، يعني محمداً ﷺ، وجعلت في ذريته اثنا عشر إماماً، وتكون له أمة عظيمة، وكذلك بُشِّرَتْ هاجر حين وضعها الخليل عند البيت فعطشت وحزنت على ولدها، وجاء الملك فأنبع زمزم، وأمرها بالاحتفاظ بهذا الولد، فإنه سيولد له منه عظيم، له ذرية عدد نجوم السماء.

ومعلوم أنه لم يولد من ذرية إسماعيل، بل من ذرية آدم، أعظم قدراً ولا أوسع جاهاً، ولا أعلى منزلة، ولا أجل منصباً، من محمد ﷺ، وهو الذي استولت دولة أمته على المشارق والمغارب، وحكموا على سائر الأمم.

وهكذا في قصة إسماعيل من السِّفْر الأول: أن ولد إسماعيل تكون يده على كل الأمم، وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن، وهذا لم يكن لأحد يصدق على الطائفة إلا لمحمد ﷺ.

وأيضاً في السفر الرابع في قصة موسى، أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: أن قل لبني إسرائيل: سأقيم لهم نبياً من أقاربهم مثلك يا موسى، وأجعل وحيي بفيه وإياه يسمعون.

وفي السفر الخامس - وهو سفر الميعاد - أن موسى عليه السلام خطب بني إسرائيل في آخر عمره - وذلك في السنة التاسعة والثلاثين من سني التيه - وذكرهم بأيام الله وأياديه عليهم، وإحسانه إليهم، وقال لهم فيما قال: واعلموا أن الله سيبعث لكم نبياً من أقاربكم مثل ما أرسلني إليكم، يأمركم بالمعروف، وينهاكم عن المنكر، ويحل لكم الطيبات، ويحرم عليكم الخبائث، فمن عصاه فله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وأيضاً في آخر السفر الخامس وهو آخر التوراة التي بأيديهم: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران وظهر من ربوات قدسه، عن يمينه نور، وعن شماله نار، عليه تجتمع الأمم وعليه تجتمع الشعوب. أي جاء أمر الله وشرعه من طور سيناء - وهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده - وأشرق من ساعير وهي جبال بيت المقدس - المحلة التي كان بها عيسى ابن مريم عليه السلام - واستعلن: أي ظهر وعلا أمره من جبال فاران، وهي جبال الحجاز بلا خلاف، ولم يكن ذلك إلا على لسان محمد ﷺ، فذكر تعالى هذه الأماكن الثلاثة على الترتيب الوقوعي، ذكر محلة موسى، ثم عيسى، ثم بلد محمد ﷺ، ولما أقسم تعالى بهذه الأماكن الثلاثة ذكر الفاضل أولاً، ثم الأفضل منه، ثم الأفضل منه، على قاعدة القسم فقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] والمراد بها محلة بيت المقدس حيث كان عيسى عليه السلام ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[التين: ٢] وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[التين: ٣] وهو البلد الذي ابتعث منه محمداً ﷺ، قاله غير واحد من المفسرين في تفسيره هذه الآيات الكريمات.

وفي زبور داود عليه السلام صفة هذه الأمة بالجهاد والعبادة، وفيه مثل ضربه لمحمد ﷺ، بأنه ختام القبة المبنية، كما ورد به الحديث في الصحيحين [خ(٣٥٣٤)، م(٢٢٨٧)]: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطيفون بها ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟» ومصداق ذلك أيضاً في قوله تعالى: [التفسير ٦/٤٢٣، ٤٢٥] ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وفي الزبور صفة محمد ﷺ بأنه ستنبسط نبوته ودعوته وتنفذ كلمته من البحر إلى البحر، وتأتيه الملوك من سائر الأقطار طائعين بالقرابين والهدايا، وأنه يخلص المضطر، ويكشف الضر عن الأمم، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويصلى عليه في كل وقت، ويبارك الله عليه في كل يوم، ويدوم ذكره إلى الأبد. وهذا إنما ينطبق ذكره على محمد ﷺ.

وفي صحف شعيا في كلام طويل فيه معاتبة لبني إسرائيل، وفيه فإني ابعث إليكم وإلى الأمم نبياً أمياً ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا سخاب في الأسواق، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى في ضميره، والحكمة معقوله، والوفاء طبيعته، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى ملته، والإسلام دينه، والقرآن كتابه، أحمد اسمه، أهدي به من الضلالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين القلوب المختلفة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، قرابينهم دماؤهم، أناجيلهم في صدورهم، رهباناً بالليل، ليوثاً بالنهار ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] وفي الفصل العاشر من كلام شعيا: يدوس الأمم كدوس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون قدامه.

وفي الفصل السادس والعشرين منه: ليفرح أرض البادية العطشى، ويعطى أحمد محاسن لبنان، ويرون جلال الله بمهجته.

وفي صحف إلياس عليه السلام: أنه خرج مع جماعة من أصحابه سائحاً، فلما رأى العرب بأرض الحجاز قال لمن معه: انظروا إلى هؤلاء فإنهم هم الذين يملكون حصونكم العظيمة، فقالوا: يا نبي الله فما الذي يكون معبودهم؟ فقال: يعظمون رب العزة فوق كل رابية عالية.

ومن صحف حزقيل: إن عبدي خيرتي أنزل عليه وحيي، يظهر في الأمم عدلي، اخترته واصطفيته لنفسي، وأرسلته إلى الأمم بأحكام صادقة.

ومن كتاب النبوات: أن نبياً من الأنبياء مرّ بالمدينة فأضافه بنو قريظة والنضير، فلما رآهم بكى، فقالوا له: ما الذي يبكيك يا نبي الله؟ فقال: نبي يبعثه الله من الحرة، يخرب دياركم ويسبي حريمكم، قال: فأراد اليهود قتله فهرب منهم.

ومن كلام حزقيل عليه السلام: يقول الله: من قبل أن صورتك في الأحشاء قدستك وجعلتك نبياً، وأرسلتك إلى سائر الأمم.

وفي صحف شعيا أيضاً، مثل مضروب لمكة شرفها الله: افرحي يا عاقر بهذا الولد الذي يهبه لك ربك، فإن ببركته تتسع لك الأماكن، وتثبت أوتادك في الأرض وتعلو أبواب مساكنك، ويأتيك ملوك الأرض عن يمينك وشمالك بالهدايا والتقادم، وولدك هذا يرث جميع الأمم، ويملك سائر المدن والأقاليم، ولا تخافي ولا تحزني فما بقي يلحقك ضيم من عدو أبداً، وجميع أيام ترملك تنسيها.

وهذا كله إنما حصل على يدي محمد ﷺ. وإنما المراد بهذه العاقر مكة، ثم صارت كما ذكر في هذا الكلام لا محالة، ومن أراد من أهل الكتاب أن يصرف هذا ويتأوله على بيت المقدس وهذا لا يناسبه من كل وجه والله أعلم.

وفي صحف أرميا: كوكب ظهر من الجنوب، أشعته صواعق، سهامه خوارق، دكت له الجبال، وهذا المراد به محمد ﷺ.

وفي الإنجيل يقول عيسى عليه السلام: إني مرتق إلى جنات العلى، ومرسل إليكم الفارقليط روح الحق يعلمكم كل شيء، ولم يقل شيئاً من تلقاء نفسه. والمراد بالفارقليط محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كما تقدم عن عيسى أنه قال: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وهذا باب متسع، ولو تقصينا جميع ما ذكره الناس لطال هذا الفصل جداً، وقد أشرنا إلى نبذ من ذلك يهتدي بها من نور الله بصيرته وهداه إلى صراطه المستقيم، وأكثر هذه النصوص يعلمها كثير من علمائهم وأحبارهم، وهم مع ذلك يتكاتمونها ويخفونها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [الدلائل٦/٢٧٣]: أنا أبو عبد الله الحافظ ومحمد بن موسى بن الطفيل قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبيد الله بن أبي داود المنادي، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا صالح بن عمر، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الفلتان بن عاصم قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، إذ شخص بصره إلى رجل فدعاه فأقبل رجل من اليهود مجتمع عليه قميص وسراويل ونعلان، فجعل يقول: يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «أتشهد أني رسول الله؟» فجعل لا يقول شيئاً إلا قال: يا رسول الله، فيقول: «أتشهد أني رسول الله؟» فيأبى، فقال رسول الله ﷺ: «أتقرأ التوراة؟» قال: نعم، قال: «والإنجيل؟» قال: نعم، والفرقان: ورب محمد لو شئت لقرأته، قال: «فأنشدك بالذي أنزل التوراة والإنجيل وأشياء حلفه بها، تجدني فيهما؟» قال: نجد مثل نعتك، يخرج من مخرجك، كنا نرجو أن يكون فينا، فلما خرجت رأينا أنك هو، فلما نظرنا إذا أنت لست به، قال: «من أين؟» قال: نجد من أمتك سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وإنما أنتم قليل، قال: فهلل رسول الله ﷺ وكبر، وهلل وكبر، ثم قال: «والذي نفس محمد بيده إنني لأنا هو، وإن من أمتي لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين وسبعين».

٦٣- حديث في جوابه ﷺ لمن سأل عما سأل قبل أن يسأله عن شيء منه

قال الإمام أحمد [٢٢٨/٤]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنا الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله بن مكرز - ولم يسمعه منه - قال: حدثني جلساؤه وقد رأيته عن وابصة الأسدي، وقال عفان: حدثنا غير مرة ولم يقل: حدثني جلساؤه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، فقالوا: إليك وابصة عن رسول الله، فقلت: دعوني فأدنو منه، فإنه أحب الناس إلي أن أدنو منه، قال: «دعوا وابصة ادن يا وابصة»، مرتين أو ثلاثاً، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: «يا وابصة أخبرك أم تسألني؟» فقلت: لا، بل أخبرني، فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم»، فقلت: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: «يا وابصة استفت قلبك، واستفت نفسك -ثلاث مرات- البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

٦٤- باب ما أخبر به ﷺ من الكائنات المستقبلة في حياته وبعده فوقعت طبق ما أخبر به سواء بسواء

وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها، ولكن نحن نشير إلى طرف منها وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وذلك منتزع من القرآن ومن الأحاديث.

أما القرآن فقال تعالى في سورة «المزمل»: - وهي من أوائل ما نزل بمكة - ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] ومعلوم أن الجهاد لم يشرع إلا بالمدينة بعد الهجرة.

وقال تعالى في سورة «اقتربت»: - وهي مكية - ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤،٤٥] ووقع هذا يوم بدر، وقد تلاها رسول الله ﷺ وهو خارج من العريش ورماهم بقبضة من الحصباء فكان النصر والظفر، وهذا مصداق ذاك.

وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥] فأخبر أن عمه عبد العزى بن عبد المطلب الملقب بأبي لهب سيدخل النار هو وامرأته، فقدر الله عز وجل أنهما ماتا على شركهما لم يسلما، حتى ولا ظاهراً، وهذا من دلائل النبوة الباهرة.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة ٢٣،٢٤] الآية، فأخبر أن جميع الخليقة لو اجتمعوا وتعاضدوا وتناصروا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته، وحلاوته وإحكام أحكامه، وبيان حلاله وحرامه، وغير ذلك من وجوه إعجازه، لما استطاعوا ذلك، ولما قدروا عليه، ولا على عشر سور منه، بل ولا سورة، وأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، «ولن» لنفي التأبيد في المستقبل، ومثل هذا التحدي، وهذا القطع، وهذا الإخبار الجازم، لا يصدر إلا عن واثق بما يخبر به، عالم بما يقوله، قاطع بأن أحداً لا يمكنه أن يعارضه، ولا يأتي بمثل ما جاء به عن ربه عزوجل.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ الآية [النور: ٥٥]، وهكذا وقع سواء بسواء، مكن الله هذا الدين وأظهره، وأعلاه ونشره في سائر الآفاق، وأنفذه وأمضاه، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بخلافة الصديق، ولا شك في دخوله فيها، ولكن لا تختص به، بل تعمه كما تعم غيره، كما ثبت في الصحيح [خ ٣١٢٠] «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»، وقد كان ذلك في زمان الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان

رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وهكذا وقع وعم هـذا الدين، وغلب وعلا علـى سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمته في زمن الصحابة ومن بعدهم، وذلت لهم سائر البلاد، ودان لهم جميع أهلها، على إختلاف أصنافهم، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين، وإما مهادن باذل الطاعة والمال، وإما محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله.

وقد ثبت في الحديث [م ٢٨٨٩]: «إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها».

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ الآية [الفتح: ١٦]، وسواء كان هؤلاء القوم هم هوازن أو أصحاب مسيلمة، أو الروم، فقد وقع ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً. وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١] وسواء كانت هذه الأخرى خيبر أو مكة فقد فتحت وأخذت كما وقع به الوعد سواء بسواء.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧] فكان هذا الوعد في سنة الحديبية عام ست، ووقع إنجازه في سنة سبع عام عمرة القضاء كما تقدم.

وذكرنا هناك الحديث بطوله، وفيه أن عمر قال: يا رسول الله ألم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك تأتيه ومطوف به».

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] وهذا الوعد كان في وقعة بدر لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة ليأخذ عير قريش، فبلغ قريشاً خروجه إلى عيرهم، فنفروا في قريب من ألف مقاتل، فلما تحقق رسول الله ﷺ وأصحابه قلوبهم وعده الله إحدى الطائفتين أن سيظفره بها، إما العير وإما النفير، فود كثير من الصحابة ـ ممن كان معه ـ أن يكون الوعد للعير، لما فيه من الأموال وقلة الرجال، وكرهوا لقاء النفير لما فيه من العَدَدَ والعُدَد، فخار الله لهم وأنجز لهم وعده في النفير، فأوقع بهم بأسه الذي لا يرد، فقتل من سراتهم سبعون، وأسر سبعون وفادوا أنفسهم بأموال جزيلة، فجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] وقد تقدم بيان هذا في غزوة بدر.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠] وهكذا وقع فإن الله عوض من أسلم منهم بخير الدنيا والآخرة.

ومن ذلك ما ذكره البخاري [أن العباس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له: «خذ»، فأخذ في ثوب مقداراً لم يمكنه أن يقله، ثم وضع منه مرة بعد مرة حتى أمكنه أن يحتمله على كاهله، وانطلق به كما ذكرناه في موضعه مبسوطاً، وهذا من تصديق هذه الآية الكريمة.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء﴾ الآية [التوبة: ٢٨]، وهكذا وقع عوضهم الله عما كان يفد إليهم مع حجاج المشركين، بما شرعه لهم من قتال أهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم، وسلب أموال من قتل منهم على كفره، كما وقع بكفار أهل الشام من الروم ومجوس الفرس، بالعراق وغيرها من البلدان التي انتشر الإسلام على أرجائها، وحكم على مدائنها وفيفائها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ الآية [التوبة: ٩٥]، وهكذا وقع، لما رجع ﷺ من غزوة تبوك كان قد تخلف عنه طائفة من المنافقين، فجعلوا يحلفون بالله لقد كانوا معذورين في تخلفهم، وهم في ذلك كاذبون، فأمر الله رسوله أن يجري أحوالهم على ظاهرها، ولا يفضحهم عند الناس، وقد أطلعه الله على أعيان جماعة منهم أربعة عشر رجلاً كما قدمناه لك في غزوة تبوك، فكان حذيفة بن اليمان ممن يعرفهم بتعريفه ﷺ إياه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦] وهكذا وقع، لما اشتوروا عليه ليثبتوه: أو يقتلوه أو يخرجوه من بين أظهرهم، ثم وقع الرأي على القتل، فعند ذلك أمر الله رسوله بالخروج من بين أظهرهم، فخرج هو وصديقه أبو بكر رضي الله عنه، فكمنا في غار ثور ثلاثاً، ثم ارتحلا بعدها كما قدمنا، وهذا هو المراد بقوله: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وهو المراد من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولهذا قال: ﴿وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦] وقد وقع كما أخبر، فإن الملأ الذين اشتوروا على ذلك لم يلبثوا بمكة بعد هجرته ﷺ إلا ريثما استقر ركابه الشريف بالمدينة وتابعه المهاجرون والأنصار، ثم كانت وقعة بدر فقتلت تلك النفوس، وكسرت تلك الرؤوس، وقد كان ﷺ يعلم ذلك قبل كونه من إخبار الله له بذلك، ولهذا قال سعد بن معاذ لأمية بن خلف: أما إني سمعت محمداً ﷺ يذكر أنه قاتلك، فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم، قال: فإنه والله لا يكذب، وسيأتي الحديث في بابه.

وقد قدمنا أنه عليه الصلاة والسلام جعل يشير لأصحابه قبل الوقعة إلى مصارع القتلى، فما تعدى أحد منهم موضعه الذي أشار إليه، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١-٦] وهذا الوعد وقع كما أخبر به، وذلك أنه لما غلبت فارس الروم فرح المشركون، واغتم بذلك المؤمنون، لأن النصارى أقرب إلى الإسلام من المجوس، فأخبر الله رسوله ﷺ بأن الروم ستغلب الفرس بعد هذه المدة بسبع سنين، وكان من

أمر مراهنة الصديق رؤوس المشركين على أن ذلك سيقع في هذه المدة، ما هو مشهور كما قررنا في كتابنا «التفسير» [التفسير ٦/٣٠٣-٣١١]، فوقع الأمر كما أخبر به القرآن، غلبت الروم فارس بعد غلبهم غلباً عظيماً جداً، وقصتهم في ذلك يطول بسطها، وقد شرحناها في «التفسير» بما فيه الكفاية ولله الحمد والمنة، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥١] وكذلك وقع، أظهر الله من آياته ودلائله في أنفس البشر في الآفاق بما أوقعه من الناس بأعداء النبوة، ومخالفي الشرع ممن كذب به من أهل الكتابين، والمجوس والمشركين، ما دل ذوي البصائر والنهى على أن محمداً رسول الله حقاً، وأن ما جاء به من الوحي عن الله صدق، وقد أوقع الله له في صدور أعدائه وقلوبهم رعباً ومهابة وخوفاً، كما ثبت عنه في الصحيحين [خ: ٣٣٥، ٤٣٨] [م: ٥٢١] أنه قال: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، وهذا من التأييد والنصر الذي آتاه الله عز وجل، وكان عدوه يخافه وبينه وبينه مسيرة شهر، وقيل: كان إذا عزم على غزو قوم أرعبوا قبل مجيئه إليهم، ووروده عليهم بشهر، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

فصل:

وأما الأحاديث الدالة على إخباره بما وقع كما أخبر.

فمن ذلك ما أسلفناه في قصة الصحيفة التي تعاقدت فيها بطون قريش، وتمالؤوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يؤووهم ولا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، فدخلت بنو هاشم وبنو المطلب بمسلمهم وكافرهم شعب أبي طالب آنفين لذلك ممتنعين منه أبداً، ما بقوا ودائماً، ما تناسلوا وتعاقبوا، وفي ذلك عمل أبو طالب قصيدته اللامية التي يقول فيها:

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما نقاتل دونه ونناضلِ
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ
وما ترك قوم لا أبا لك سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكلِ
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضلِ

وكانت قريش قد علقت صحيفة التعاقد في سقف الكعبة، فسلط الله عليها الأرضة فأكلت ما فيها من أسماء الله لئلا يجتمع بما فيها من الظلم والفجور، وقيل: إنها أكلت ما فيها إلا أسماء الله عز وجل، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، فجاء أبو طالب إلى قريش فقال: إن ابن أخي قد أخبرني بخبر عن صحيفتكم، بأن الله قد سلط عليها الأرضة فأكلتها إلا ما فيها من أسماء الله، أو كما قال: فأحضروها، فإن كان كما قال وإلا أسلمته إليكم، فأنزلوها ففتحوها فإذا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ فعند ذلك نقضوا حكمها ودخلت بنو هاشم وبنو المطلب مكة، ورجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك، كما أسلفنا ذكره ولله الحمد.

ومن ذلك حديث خباب بن الأرت، حين جاء هو وأمثاله من المستضعفين يستنصرون النبي ﷺ، وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة فيدعو لهم لما هم فيه من العذاب والإهانة، فجلس محمراً وجهه وقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر ولكنكم تستعجلون».

ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة. عنه عن جده أبي بردة عن أبي موسى، أراه عن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي آتانا بعد يوم بدر».

ومن ذلك قصة سعد بن معاذ مع أمية بن خلف حين قدم عليه مكة.

قال البخاري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف، أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت، فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أخبرنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي، ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ، قالت له امرأته: ما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد أن لا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوماً أو يومين، فسار معهم فقتله الله.

وهذا الحديث من أفراد البخاري، وقد تقدم بأبسط من هذا السياق.

ومن ذلك قصة أبي بن خلف [الذي كان يعلف حصاناً له فإذا مر برسول الله ﷺ يقول: إني سأقتلك عليه فيقول له رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فقتله يوم أحد كما قدمنا بسطه.

ومن ذلك إخباره عن مصارع القتلى يوم بدر كما تقدم الحديث في الصحيح [أنه جعل يشير قبل الوقعة إلى محلها ويقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، قال: فوالذي بعثه بالحق ما رام أحد منهم عن مكانه الذي أشار إليه رسول الله ﷺ.

ومن ذلك قوله لذلك الرجل الذي كان لا يترك للمشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها ففراها بسيفه، وذلك يوم أحد، وقيل: خيبر وهو الصحيح، وقيل: في حنين، فقال الناس: ما أغنى أحد اليوم ما أغنى فلان، يقال: إنه قزمان، فقال: «إنه من أهل النار» فقال بعض الناس: أنا صاحبه، فاتبعه فجرح فاستعجل الموت فوضع ذباب سيفه في صدره ثم تحامل عليه حتى أنفذه، فرجع ذلك الرجل فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «وما ذاك؟» فقال: إن الرجل الذي ذكرت آنفاً

كان من أمره كيت وكيت، وذكر الحديث كما تقدم.

ومن ذلك إخباره عن فتح مدائن كسرى وقصور الشام وغيرها من البلاد يوم حفر الخندق، لما ضرب بيده الكريمة تلك الصخرة فبرقت من ضربه، ثم أخرى، ثم أخرى كما قدمنا

ومن ذلك إخباره ﷺ عن ذلك الذراع أنه مسموم، فكان كما أخبر به، اعترف اليهود بذلك، ومات من أكله معه - بشر بن البراء ابن معرور -.

ومن ذلك ما ذكره عبد الرزاق [المصنف١٩٨٩١] عن معمر أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: اللّهم أنج أصحاب السفينة، ثم مكث ساعة، ثم قال: قد استمرت، والحديث بتمامه في «دلائل النبوة» للبيهقي [دلائل٦/ ٢٩٨]، وكانت تلك السفينة قد أشرفت على الغرق وفيها الأشعريون الذين قدموا عليه وهو بخيبر.

ومن ذلك إخباره عن قبر أبي رغال، حين مرّ عليه وهو ذاهب إلى الطائف وأن معه غصناً من ذهب، فحفروه فوجدوه كما أخبر، صلوات الله وسلامه عليه.

رواه أبو داود من حديث ابن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير عن عبد الله بن عمرو به.

ومن ذلك قوله عليه السلام للأنصار، لما خطبهم تلك الخطبة مسلياً لهم عما كان وقع في نفوس بعضهم من الإيثار عليهم في القسمة لما تألف قلوب من تألف من سادات العرب، ورؤوس قريش، وغيرهم، فقال: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى رحالكم؟» [خ: ٤٣٣٣، ٤٣٣٧]. وقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» [خ: ٣١٤٧]. وقال: «إن الناس يكثرون وتقل الأنصار» [خ: ٣٦٢٨]، وقال لهم في الخطبة قبل هذه على الصفا: «بل المحيا محياكم، والممات مماتكم» [م: ٨٦/ ١٧٨٠]، وقد وقع جميع ذلك كما أخبر به سواء بسواء.

وقال البخاري: [خ: ٣٦١٨] حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب قال: وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

ورواه مسلم عن حرملة عن أبي وهب عن يونس به.

ثم قال البخاري [٣٦١٩]: حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة رفعه: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وقال: لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وقد رواه البخاري أيضاً ومسلم [خ: ٣١٢١] [م: ٧٧/ ٢٩١٩] من حديث جرير، وزاد البخاري [٦٦٢٩] وابن عوانة ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير به، وقد وقع مصداق ذلك بعده في أيام الخلفاء الثلاثة أبي بكر، وعمر، وعثمان، استوثقت هذه الممالك فتحاً على أيدي المسلمين، وأنفقت أموال كنوز قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس في سبيل الله، على ما سنذكره بعد إن شاء الله.

وفي هذا الحديث بشارة عظيمة للمسلمين، وهي أن ملك فارس قد انقطع فلا عودة له، وملك الروم للشام قد زال عنها، فلا يملكونه بعد ذلك، ولله الحمد والمنة، وفيه دلالة على صحة خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، والشهادة لهم بالعدل، حيث أنفقت الأموال المغنومة في زمانهم في سبيل الله على الوجه المرضي الممدوح.

وقال البخاري [٣٥٩٥]: حدثنا محمد بن الحكم،حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، حدثنا سعد الطائي، أخبرنا محل بن خليفة عن عدي بن حاتم، قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ما تخاف أحداً إلا الله عز وجل: قلت فيما بيني وبين نفسي: -فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟- «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: ألم أعطك مالاً وولداً وأفضلت عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله عز وجل، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ «يخرج ملء كفه»، ثم رواه البخاري (١٤١٣) عن عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبي شيبة - عن أبي عاصم النبيل عن سعدان بن بشر عن أبي مجاهد - سعد الطائي - عن محل عنه به، وقد تفرد به البخاري من هذين الوجهين، ورواه النسائي [٢٥٥١] من حديث شعبة عن محل عنه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقد رواه البخاري [١٤١٧] من حديث شعبة، ومسلم [(١١٦)(٦٦)] من حديث زهير، كلاهما عن أبي إسحاق عن عبد الله بن مغفل عن عدي مرفوعاً «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

وكذلك أخرجاه في الصحيحين [خ: ٦٥٣٩] [م: ٦٧، ١٠١٦/٦٨] من حديث الأعمش عن خيثمة عن عبد الرحمن عن عدي، وفيهما من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن خيثمة عن عدي به، وهذه كلها شواهد لأصل هذا الحديث الذي أوردناه، وقد تقدم في غزوة الخندق الأخبار بفتح مدائن كسرى وقصوره وقصور الشام وغير ذلك من البلاد.

وقال الإمام أحمد [مسند ٥/ ١٠٩]: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا إسماعيل عن قيس عن خباب قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو في ظل الكعبة متوسداً بردة له، فقلنا: يا رسول الله، ادع الله لنا واستنصره، قال: فاحمرّ لونه أو تغير، فقال: «لقد كان من قبلكم يحفر له الحفرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق ما يصرفه عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون عظم أو لحم أو عصب ما يصرفه عن دينه، وَلَيُتِمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون».

وهكذا رواه البخاري [٦٩٤٣، ٣٦١٢] عن مسدد، ومحمد بن المثنى عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد به، ثم قال البخاري في كتاب علامات النبوة [٣٥٩٦]: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا ليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة عن النبي ﷺ أنه خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «أنا فرطكم، وأنا شهيد عليكم، إني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف بعدي أن تشركوا، ولكني أخاف أن تنافسوا فيها».

وقد رواه البخاري أيضاً من حديث حيوة بن شريح، ومسلم من حديث يحيى بن أيوب، كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب كرواية الليث عنه.

ففي هذا الحديث مما نحن بصدده أشياء، منها أنه أخبر الحاضرين أنه فرطهم، أي المتقدم عليهم في الموت، وهكذا وقع، فإن هذا كان في مرض موته عليه السلام، ثم أخبر أنه شهيد عليهم، وإنْ تقدم وفاته عليهم، وأخبر أنه أعطي مفاتيح خزائن الأرض، أي فتحت له البلاد كما جاء في حديث أبي هريرة المتقدم، قال أبو هريرة: فذهب رسول الله ﷺ وأنتم تفتحونها كفْراً كفْراً، أي بلداً بلداً، وأخبر أن أصحابه لا يشركون بعده.

وهكذا وقع ولله الحمد والمنة، ولكن خاف عليهم أن ينافسوا في الدنيا، وقد وقع هذا في زمان علي ومعاوية رضي الله عنهما ثم من بعدهما، وهلم جرا إلى زماننا هذا.

ثم قال البخاري [٣٦١٣، ٤٨٤٦]: حدثنا علي بن عبد الله، أنا أزهر بن سعد، أنا ابن عون أنبأني موسى بن أنس بن مالك عن أنس أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أعلم لك علمه؟ فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله وهو من أهل النار، فأتى الرجل فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة»، تفرد به البخاري، وقد قتل ثابت بن قيس بن شماس شهيداً يوم اليمامة كما سيأتي تفصيله.

وهكذا ثبت في الحديث الصحيح [خ: ٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤] [م: ١٤٧/ ٢٤٨٣، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ٢٤٨٤] البشارة لعبد الله بن سلام أنه يموت على الإسلام، ويكون من أهل الجنة، وقد مات رضي الله عنه على أكمل أحواله وأجملها، وكان الناس يشهدون له بالجنة في حياته لإخبار الصادق عنه بأنه يموت على الإسلام، وكذلك وقع.

وقد ثبت في الصحيح [خ: ٣٧٠٢] [م: ٢٤٠٥، ٢٤١٥، ٢٤١٧، ٢٤١٩] الإخبار عن العشرة بأنهم من أهل الجنة، بل ثبت أيضاً الإخبار عنه صلوات الله وسلامه عليه بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة [م: ١٦٣/ ٢٤٩٦]، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، ولم ينقل أن أحداً من هؤلاء رضي الله عنه عاش إلا حميداً، ولا مات إلا على السداد والاستقامة والتوفيق، ولله الحمد والمنة، وهذا من أعلام النبوات، ودلالات الرسالة.

٦٥- فصل في الإخبار بغيوب ماضية ومستقبلة

روى البيهقي [دلائل ٦/ ٣٠٢] من حديث إسرائيل عن سماك عن جابر بن سمرة قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن فلاناً مات، فقال: «لم يمت»، فعاد الثانية فقال: إن فلاناً مات، فقال: «لم يمت»، فعاد الثالثة فقال: إن فلاناً نحر نفسه بمشقص عنده، فلم يصلِّ عليه، ثم قال البيهقي تابعه زهير عن سماك، ومن ذلك الوجه رواه مسلم مختصراً في الصلاة [م: ١٠٧/ ٩٧٨].

وقال أحمد [٢٩٤/٥]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هريم بن سفيان عن بيان بن بشر عن قيس بن أبي حازم، عن أبي شهم قال: مرت بي جارية بالمدينة فأخذت بشكحها، قال: وأصبح الرسول ﷺ يبايع الناس،قال: فأتيته فلم يبايعني، فقال: «صاحب الجبيذة؟» قال: قلت: والله لا أعود، قال فبايعني، ورواه النسائي [٧٣٢٩] عن محمد بن عبد الرحمن المخرمي عن أسود بن عامر به، ثم رواه أحمد [٢٩٤/٥] عن سريج عن يزيد بن عطاء عن بيان بن بشر، عن قيس عن أبي شهم فذكره.

وفي صحيح البخاري [٥١٨٧]: عن أبي نعيم عن سفيان عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر قال: كنا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا في عهد رسول الله ﷺ خشية أن ينزل فينا شيء، فلما توفي تكلمنا وانبسطنا.

وقال ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن أبي حازم عن سهل بن سعد أنه قال: والله لقد كان أحدنا يكف عن الشيء مع امرأته وهو وإياها في ثوب واحد تخوفاً أن ينزل فيه شيء من القرآن.

وقال أبو داود: [٣٣٣٢] حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا ابن إدريس، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيت رسول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر: «أوسع من قبل رجليه، أوسع من قبل رأسه»، فلما رجع استقبله داعي امرأة، فجاء وجيء بالطعام فوضع يده فيه ثم وضع القوم أيديهم فأكلوا فنظر آباؤنا رسول الله ﷺ يلوك لقمةً في فيه، ثم قال: «أجد لحم شاةٍ أخذت بغير إذن أهلها»، قال فأرسلت المرأة: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع يشتري لي شاة فلم توجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاةً: أن أرسل بها إليّ بثمنها فلم يوجد، فأرسلت إليّ امرأته فأرسلت إلي بها، فقال رسول الله ﷺ «أطعميه الأسارى».

٦٦- فصل في ترتيب الإخبار بالغيوب المستقبلة بعده ﷺ

ثبت في صحيح البخاري ومسلم [خ: ٦٦٠٤] [م: ٢٣/ ٢٨٩١] من حديث الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان: قال: قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، وقد كنت أرى الشيء قد كنت نسيته فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه.

وقال البخاري [٣٦٠٦]: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا الوليد،حدثني ابن جابر، حدثني بسر بن عبيد الله الحضرمي، حدثني أبو إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ فقال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم تنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

وقد رواه البخاري [٧٠٨٤] أيضاً ومسلم [(١٨٤٧)(٥١)] عن محمد بن

المثنى عن الوليد عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به.

ثم قال البخاري[٣٦٠٧]: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل عن قيس عن حذيفة قال: تعلم أصحابي الخير: وتعلمت الشر، تفرد به البخاري.

وفي صحيح مسلم [٢٤/ ٢٨٩١] من حديث شعبة عن عدي بن ثابت عن عبد الله بن يزيد عن حذيفة قال: لقد حدثني رسول الله ﷺ بما يكون حتى تقوم الساعة، غير أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة منها.

وفي صحيح مسلم [٢٥/٢٨٩٢] من حديث علباء بن أحمر عن أبي زيد - عمرو بن أخطب - قال: أخبرنا رسول الله ﷺ بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة، فأعلمنا أحفظنا، وفي الحديث الآخر [خ: ٣١٩٢]: حتى دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار». وقد تقدم [حديث خباب بن الأرت: «والله ليتمن الله هذا الأمر ولكنكم تستعجلون» وكذا حديث عدي بن حاتم في ذلك، وقال الله تعالى [التفسير: ٤/٧٨، ٧٩]: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وقال تعالى [التفسير٦/ ٨٣-٨٧] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٥] وفي «صحيح مسلم» [٢٧٤٢] من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» وفي حديث آخر [م: ٢٧٤٠، ٢٧٤١] [خ: ٥٠٩٦]: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء».

وفي «الصحيحين» [خ: ٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥] [م: ٦/ ٢٩٦١] من حديث الزهري عن عروة عن المسور عن عمرو بن عوف، فذكر قصة بعث أبي عبيدة إلى البحرين قال: وفيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تنبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم». وفي «الصحيحين» [خ: ٣٦٣١، ٥١٦١] [م: ٢٠٨٣] من حديث سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل لكم من أنماط؟» قال: قلت يا رسول الله: وأنى يكون لنا أنماط؟ فقال: «أما إنها ستكون لكم أنماط». قال: فأنا أقول لامرأتي: نحي عني أنماطك، فتقول: ألم يقل رسول الله: «إنها ستكون لكم أنماط»؟ فأتركها.

وفي «الصحيحين» [خ: ١٨٧٥] [م: ١٣٨٨] «والمسانيد» [مسند الحميدي: ٨٦٥] «والسنن» [الكبرى: ٤٢٦٣، ٤٢٦٤] وغيرها من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبي زهير قال: قال رسول الله ﷺ «تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وتفتح العراق فيأتي قوم يبسُّون فيتحملون بأهليهم ومن أضاعهم والمدينة خير لهم لو كانون يعلمون

كذلك رواه عن هشام بن عروة جماعة كثيرون وقد أسنده الحافظ بن عساكر [تاريخ دمشق ١/ ٣٨٠-٣٨٤] من حديث مالك وسفيان بن عيينة وابن جريج وأبو معاوية ومالك بن سعير بن الخمس وأبو ضمرة أنس بن عياض وعبد العزيز بن أبي حازم وسلمة بن دينار وجرير بن عبد الحميد.

ورواه أحمد [المسند ٥/ ٢٠٠] عن يونس عن حماد بن زيد عن هشام بن عروة [المسند ٥/ ٢٠٠]. وعبد الرزاق عن ابن جريج عن هشام [المسند٥/ ٢٠٠] [مصنف ١٧١٥٩]، ومن حديث مالك [الموطأ ٢/ ٨٨٧، ٨٨٨] عن هشام به بنحوه.

ثم روى أحمد [٥/ ٢١٩، ٢٢٠] عن سليمان بن داود الهاشمي عن إسماعيل بن جعفر: أخبرني يزيد بن خصيفة أن بسر بن سعيد أخبره أنه سمع في مجلس الليثيين يذكرون أن سفيان أخبرهم، فذكر قصة وفيها: أن رسول الله ﷺ قال له: «ويوشك الشام أن يفتح فيأتيه رجال من هذا البلد - يعني المدينة - فيعجبهم ريفه ورخاؤه والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». وأخرجه ابن خزيمة من طريق إسماعيل.

ورواه الحافظ بن عساكر [تاريخ دمشق: ١/ ٣٨٨] من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ بنحوه، وكذا حديث ابن حوالة [تاريخ دمشق: ١/ ٣٨٩، ٣٩٠] ويشهد لذلك: «منعت الشام مديها ودينارها، ومنعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم». وهو في «الصحيح» [٢٨٩٦]، وكذلك حديث: المواقيت لأهل الشام واليمن، وهو في «الصحيحين» [خ: ١٥٢٦-١٥٣١] [م: ١١٨١، ١١٨٢] وعند مسلم [١٨/ ١١٨٣]: ميقات أهل العراق، ويشهد لذلك أيضاً حديث: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده. وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل».

وفي «صحيح البخاري»[٣١٧٦] من حديث أبي إدريس الخولاني عن عوف بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: «اعدد ستاً بين يدي الساعة» فذكر موته عليه السلام، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتاناً - وهو الوباء - ثم كثرة المال، ثم فتنة، ثم هدنة بين المسلمين والروم، وسيأتي الحديث فيما بعد.

وفي صحيح مسلم [م: (٢٥٤٣)(٢٢٦)] من حديث عبد الرحمن بن شماسة عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورَحِماً، فإذا رأيتَ رجلين يختصمان في موضع لبنة فاخرج منها». قال: فمر بربيعة وعبد الرحمن ابني شرحبيل ابن حسنة يختصمان في موضع لبنة فخرج منها - يعني ديار مصر على يدي عمرو بن العاص في سنة عشرين كما سيأتي.

وروى ابن وهب عن مالك والليث عن الزهري عن ابن لكعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا افتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً».

ورواه البيهقي [دلائل ٦/ ٣٢٢] من حديث إسحاق بن راشد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه.

وَحكى أحمد بن حنبل عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن قوله: «ذمة ورحماً»، فقال: من الناس من قال: إن أم إسماعيل - هاجر - كانت قبطية، ومن الناس من قال: أم إبراهيم.

قلت: الصحيح الذي لا شك فيه أنهما قبطيتان كما قدمنا ذكر ذلك. ومعنى قوله: «ذمة»، يعني بذلك هدية المقوقس إليه وقبوله ذلك منه، وذلك نوع «ذمام» ومهادنة، والله تعالى أعلم.

وتقدم] ما رواه البخاري من حديث مُحِل بن خليفة عن عدي بن حاتم في فتح كنوز كسرى وانتشار الأمن، وفيضان المال حتى لا يتقبله أحد، وفي الحديث أن عدياً شهد الفتح ورأى الظعينة ترتحل من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، قال: ولئن طالت بكم حياة لترونَّ ما قال أبو

القاسم ﷺ، من كثرة المال حتى لا يقبله أحد.

قال البيهقي [دلائل٦/٣٢٣]: وقد كان ذلك في زمن عمر بن عبد العزيز.

قلت: ويحتمل أن يكون ذلك متأخراً إلى زمن المهديّ كما جاء في صفته، أو إلى زمن نزول عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال، فإنه قد ورد في «الصحيح» [خ: (٢٢٢٢)] [م: (١٥٥)] أنه يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد والله تعالى أعلم.

وفي «صحيح مسلم» [م: (١٨٢٢)(...)] من حديث ابن أبي ذئب عن مهاجر بن مسمار عن عامر بن سعد عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين قائماً ما كان اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، ثم يخرج كذابون بين يدي الساعة، وليفتحن عصابة من المسلمين كنز القصر الأبيض، قصر كسرى، وأنا فَرَطكم على الحوض». الحديث بمعناه.

وتقدم حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل». أخرجاه.

وقال البيهقي [دلائل٦/٣٢٥]: المراد زوال مُلْك قيصر عن الشام، ولا يبقى كبقاء مُلكه على الروم، لقوله عليه السلام، لما عظّم كتابه: «ثبّت ملكه»، وأما مُلك فارس فزال بالكلّيّة، لقوله له: «مزّق الله مُلكه».

وقد روى أبو داود، عن محمد بن عبيد عن حماد عن يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب، وروِّينا في طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه- لما جيء بفروة كسرى وسيفه ومِنطقته وتاجه وسوارَيْه، ألبس ذلك كله لسراقة بن مالك بن جُعْشُم، وقال: قل الحمد لله الذي ألبس ثياب كسرى لرجل أعرابي من البادية. قال الشافعي: إنما ألبسه ذلك لأن النبي ﷺ قال لسراقة - ونظر إلى ذراعيه -: «كأني بك وقد لبست سواري كسرى»، والله أعلم.

وقال سفيان بن عيينة: عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثِّلت لي الحيرة كأنياب الكلاب وإنكم ستفتحونها» فقام رجل فقال: يا رسول الله هب لي ابنة بُقَيْلة، قال: «هي لك»، فأعطوه إياها، فجاء أبوها فقال: أتبيعها؟ قال: نعم، قال: فبكم؟ احكم ما شئت، قال: ألف درهم، قال: قد أخذتها، فقالوا له: لو قلت ثلاثين ألفاً لأخذها، فقال: وهل عددٌ أكثر من ألف؟

وقال الإمام أحمد [مسند ٢٨٨/٥]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية عن ضمرة بن حبيب أن ابن زُغْب الإيادي حدثه قال: نزل عليّ عبد الله بن حوالة الأزدي فقال لي: بعثنا رسول الله ﷺ حول المدينة على أقدامنا لنغنم، فرجعنا ولم نغنم شيئاً، وعرف الجَهْد في وجوهنا، فقام فينا فقال: «اللّهم لا تكلهم إليّ: فأضعُف، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم»، ثم قال: «لَتُفْتحنّ لكم الشام والروم وفارس- أو: الروم وفارس- وحتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم كذا وكذا، وحتى يعطى أحدكم مائة دينار فيسخطها»، ثم وضع يده على رأسي أو على هامتي فقال: «يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك». ورواه أبو داود [د(٢٥٣٥)] من حديث معاوية بن صالح.

وقال أحمد [المسند: ١١٠/٤]: حدثنا حيوة بن شريح، ويزيد بن عبد ربه قالا: حدّثنا بقية، حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن أبي قتيلة عن ابن حوالة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكون جنود مجندة، جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق»، فقال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك فقال: «عليك بالشام فإنه خيرة الله من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده، فان أبيتم فعليكم بيمنكم واسقوا من غدره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله». وهكذا رواه أبو داود [د(٢٤٨٣)] عن حيوة بن شريح به.

وقد رواه أحمد [المسند٥/٢٨٨] أيضاً عن عصام بن خالد وعلي بن عياش كلاهما عن حريز بن عثمان عن سليمان بن شمير عن عبد الله بن حوالة فذكر نحوه،ورواه الوليد بن مسلم الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول، وربيعة بن يزيد عن أبي إدريس عن عبد الله بن حوالة به.

وقال البيهقي [دلائل ٦/٣٢٧، ٣٢٨]: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثني أبو علقمة - نصر بن علقمة - يرد الحديث إلى جبير بن نفير. قال: قال عبد الله بن حوالة: كنا عند رسول الله ﷺ فشكوْنا إليه العُرْيَ والفقر، وقلة الشيء،فقال: «أبشروا فوالله لأنا بكثرة الشيء اخوفني عليكم من قلته، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله عليكم أرض الشام، -أو قال: أرض فارس- وأرض الروم وأرض حمير، وحتى تكونوا أجناداً ثلاثة، جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن، وحتى يُعطى الرجل المائة فيسخطها»، قال ابن حوالة: قلت: يا رسول الله ومن يستطيع الشام وبه الروم ذوات القرون؟ قال: «والله ليفتحنّها الله عليكم، وليستخلفنكم فيها حتى تظل العصابة البيض منهم، قمُصهم المُلحمة أقفاؤهم قياماً على الرويجل، الأسود منكم المحلوق ما أمرهم من شيء فعلوه» وذكر الحديث، قال أبو علقمة: فسمعت عبد الرحمن بن جبير يقول: فعرف أصحاب رسول الله ﷺ نعت هذا الحديث في جَزْء بن سهيل السلمي، وكان على الأعاجم في ذلك الزمان، فكانوا إذا راحلوا إلى المسجد نظروا إليه وإليهم قياماً حوله فيتحجبون لنعت رسول الله ﷺ فيه وفيهم.

وقال أحمد [المسند: ٢٨٨]: حدثنا حجاج، حدثّنا الليث بن سعد حدثني يزيد بن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط التجيبي عن عبد الله بن حوالة الأزدي: أن رسول الله ﷺ قال: «من نجا من ثلاث فقد نجا»، قالوا: يُعطيه ماذا يا رسول الله؟ قال: «مَوْتي، ومن قتال خليفةٍ مصطبرٍ بالحق يُعطيه، والدجال».

وقال أحمد [المسند ٤/١٠٩، ١١٠]: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا الجريري عن عبد الله بن شقيق عن عبد الله بن حوالة قال: أتيت على رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل دَوْمة، وعنده كاتب له يملي عليه، فقال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله فأعرَض عنّي - وقال إسماعيل مرة في الأولى: «لا نكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: فيم يا رسول الله؟ فأعرض عني وأكبّ على كاتبه يملي عليه، ثم قال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله، فأعرض عني وأكبّ على كاتبه يملي عليه، قال: فنظرت فإذا في الكتاب عمرُ، فقلت: إن عمرَ لا يُكتب إلا في خير، ثم قال: «أنكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: نعم، فقال: «يا ابن حوالة، كيف تفعل في فتنةٍ تخرج في أطراف الأرض كأنها صياصي بقر؟» قلت: لا أدري ما خار اللهُ لي ورسولُه، قال: «فكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها كأن الأولى منها انتفاجة أرنب؟» قلت: لا أدري ما خار اللهُ لي ورسولُه، قال: «اتّبعوا هذا»، قال:

ورجلٌ مُقفٍ حينئذٍ، قال: فانطلقت فسعيتُ وأخذتُ بمنكبه فاقبلت بوجهه إلى رسول الله ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: «نعم»، قال: فإذا هو عثمان بن عفان ﷺ.

وثبت في «صحيح مسلم»[٢٨٩٦] من حديث يحيى بن آدم عن زهير بن معاوية عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُدْيها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم» شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه. وقال يحيى بن آدم وغيره من أهل العلم: هذا من دلائل النبوة حيث أخبر عما ضربه عمر على أرض العراق من الدراهم والقفزان، وعما ضرب من الخَراج بالشام ومصر قبل وجود ذلك، صلوات الله وسلامه عليه، وقد اختلف الناس في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «منعت العراق» إلخ، فقيل: معناه أنهم يُسلمون فيسقط عنهم الخراج، ورجحه البيهقي [دلائل ٦/ ٣٣٠]، وقيل: معناه أنهم يرجعون عن الطاعة ولا يؤدّون الخراج المضروب عليهم، ولهذا قال: «وعدتم من حيث بدأتم»، أي رجعتم إلى ما كنتم عليه قبل ذلك، كما ثبت في «صحيح مسلم» [م: (١٤٥، ١٤٦)]: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء».

ويؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد [المسند: ٣/ ٣١٧]: حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي نضرة قال: كنا عند جابر بن عبد الله فقال: يوشك أهل العراق أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذاك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجيء إليهم دينار ولا مُدْيٌ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل الروم، يمنعون ذاك، قال: ثم سكت هنيهة، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً، لا يَعُدّه عدداً»، قال الجريري: فقلت لأبي نضرة وأبي العلاء: أتريانه عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا.

وقد رواه مسلم [م (٢٩١٣)] من حديث إسماعيل ابن إبراهيم بن علية وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن سعيد بن إياس الجريري عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة العبدي عن جابر كما تقدم، والعجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي احتج به على ما رجحه من أحد القولين المتقدمين، وفيما سلكه نظر، والظاهر خلافه.

وثبت في «الصحيحين» [من غير وجه أن رسول الله ﷺ وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجُحفة، ولأهل اليمن يَلَمْلَمْ.

وفي «صحيح مسلم» [عن جابر: ولأهل العراق ذات عِرْق، فهذا من دلائل النبوة، حيث أخبر عما وقع من حج أهل الشام واليمن والعراق، صلوات الله وسلامه عليه.

وفي «الصحيحين» [خ (٢٨٩٧)] [م (٢٥٣٢)] من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن جابر عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينّ على الناس زمان يغزو فيه فئامٌ من الناس، فيقالُ لهم: هل فيكم مَن صحب رسول الله ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان يغزوا فيه فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من صحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان يغزو فيه فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صحب من صاحبهم؟ فيقال: نعم، فيُفتح لهم».

وثبت في «الصحيحين» [خ(٤٨٩٧)] [م (٢٥٤٦)(٢٣١)] من حديث ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فانزلت عليه سورة «الجمعة»: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] فقال رجل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فوضع يده على سلمان الفارسي وقال: «لو كان الإيمان عند الثُّريا لناله رجالٌ من هؤلاء». وهكذا وقع كما أخبر به عليه الصلاة والسلام.

وروى الحافظ البيهقي [دلائل ٦/ ٣٣٤] من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عرق عن عبد الله بن بُسر قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتفتحن عليكم فارس والروم حتى يكثر الطعام فلا يُذكر عليه اسم الله عز وجل».

وروى الإمام أحمد [٥/ ٣٥٧] والبيهقي [دلائل ٦/ ٣٣٢، ٣٣٣] وابن عدي [الكامل ١/ ٤٠١، ٤٠٢] وغير واحد [الطبراني الكبير ٢/ ٣ (١١٥١)] [الطبراني الأوسط (٨٢١١)] من حديث أوس بن عبد الله بن بريدة عن أخيه سهل عن أبيه عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة بن الحصيب مرفوعاً: «ستبعث بعوث فكُن في بعث خراسان، ثم اسكن مدينة مرو، فإنه بناها ذو القرنين، ودعا لها بالبركة، وقال: لا يصيب أهلها سوء».

وهذا الحديث يعدّ من غرائب «المسند»، [١/ ٦٢١، ٦٢٢] ومنهم من يجعله موضوعاً، فالله أعلم.

وقد تقدم حديث أبي هريرة، من جميع طرقه في قتال الترك، وقد وقع ذلك كما أخبر به سواء بسواء، وسيقع أيضاً.

وفي «صحيح البخاري» [٣٤٥٥] من حديث شعبة عن فرات القزاز عن أبي حازم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وإنه سيكون خلفاء فيكثرون»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

وفي «صحيح مسلم» [٥٠] من حديث أبي رافع عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان نبي إلا كان له حواريّون يهدون بهديه، ويستنون بسنته، ثم يكون من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما ينكرون».

وروى الحافظ البيهقي [دلائل ٦/ ٣٣٩، ٣٤٠] من حديث عبد الله بن الحارث بن محمد بن حاطب الجمحي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بعد الأنبياء خلفاء يعملون بكتاب الله، ويعدلون في عباد الله، ثم يكون من بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر، ويقتلون الرجال، ويصطفون الأموال، فمغيّر بيده. ومغيّر بلسانه ومغيّر بقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء».

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود ٢٢٨]: حدثنا جرير بن حازم، عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبي ثعلبة الخشني، عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمةً، وكائناً خلافة ورحمة، وكائناً ملكاً عضوضاً، وكائناً عزةً وجبريةً وفساداً في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير، ويُنصرون على ذلك، ويُرْزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل»، وهذا كله واقع.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد [المسند: ٥/ ٢٢٠، ٢٢١] وأبو داود [د (٤٦٤٦)] والترمذي [ت (٢٢٢٦)] - وحسنه - والنسائي [الكبرى (٨١٥٥)] من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً»، وفي رواية: «ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»، وهكذا وقع سواء، فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر

سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثني عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين.

قلت: وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحواً من ستة أشهر، حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة، كما سيأتي بيانه وتفصيله.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثني محمد بن فضيل، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلافة نبوة ثلاثون عاماً ثم يؤتي الله المُلك من يشاء»، فقال معاوية: رضينا بالملك.

وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام، في إنكار خلافة علي بن أبي طالب، فإن قيل: فما وجه الجمع بين حديث سفينة هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم [في «صحيح مسلم»: «لا يزال هذا الدين قائماً ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»؟ فالجواب: إن من الناس من قال: إن الدين لم يزل قائماً حتى ولي اثنا عشر خليفة، ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية، وقال آخرون: بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلاً من قريش. وإن لم يوجدوا على الولاء، وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة، ثم قد كان بعد ذلك خلفاء راشدون، فمنهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي رضي الله عنه، وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين. غير واحد من الأئمة، حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، ومنهم من ذكر من هؤلاء المهتدي بأمر الله العباسي، والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضاً بالنص على كونه من أهل البيت، واسمه محمد بن عبد الله، وليس بالمنتظر في سرداب سامراء فإن ذلك ليس بموجود بالكلية، وإنما ينتظره الجهلة من الروافض.

وقد تقدم في «الصحيحين» من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد هممت أن ادعو أباكِ وأخاكِ واكتب كتاباً لئلا يقول قائل، أو يتمنى متمن»، ثم قال رسول الله ﷺ: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وهكذا وقع، فإن الله ولاه وبايعه المؤمنون قاطبة كما تقدم.

وفي «صحيح البخاري»: أن امرأة قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ ـ كأنها تعرض بالموت ـ فقال: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر».

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٦٣٣)] [م (٢٣٩٣)] من حديث ابن عمر وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيتني على قَليب، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذَنوباً أو ذَنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب فاستحالت غَرْباً، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فَريه، حتى ضرب الناس بعَطن». قال الشافعي رحمه الله: رؤيا الأنبياء وحي، وقوله: «وفي نزعه ضعف»، قصر مدته، وعجلة موته، واشتغاله بحرب أهل الردة عن الفتح الذي ناله عمر بن الخطاب في طول مدته.

قلت: وهذا فيه البشارة بولايتهما على الناس، فوقع كما أخبر سواء، ولهذا جاء في الحديث الآخر الذي رواه أحمد [المسند ٥/٣٩٩] والترمذي [ت(٣٦٦٢)(٣٦٦٣)] وابن ماجه [ق (٩٧)] وابن حبان [الإحسان (٦٩٠٢)] من حديث ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللذَين من بعدي، أبي بكر وعمر» رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حسن، وأخرجه الترمذي [ت (٣٨٠٥)] من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ، وتقدم] من طريق الزهري عن رجل عن أبي ذر حديث تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ، ثم يد أبي بكر، ثم يد عمر، ثم عثمان، وقوله عليه الصلاة والسلام: «هذه خلافة النبوة».

وفي «الصحيح» [خ (٣٦٩٣)] [م (٢٤٠٣)] عن أبي موسى قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً فدلّى رجليه في القف فقلت: لأكونن اليوم بواب رسول الله ﷺ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال: افتح، فقلت: من أنت؟ قال: أبو بكر، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «افتح له وبشره بالجنة»، ثم جاء عمر فقال كذلك، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، فدخل وهو يقول: الله المستعان.

وثبت في «صحيح البخاري» [خ (٣٦٧٥)] من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: صعد رسول الله ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فضربه رسول الله ﷺ برجله وقال: «اثبت أُحُد، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان».

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٤١)]: أخبرنا معمر، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد أن حراء ارتج وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، فقال النبي ﷺ: «اثبت ما عليك إلا نبي وصدّيق وشهيدان» قال معمر: قد سمعت قتادة يحدّث عن النبي ﷺ مثله.

وقد روى مسلم [م ٢٤١٧ (٥٠)] عن قتيبة عن الدراوردي، عن سهيل، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة فقال النبي ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيد».

وهذا من دلائل النبوة، فإن هؤلاء كلهم أصابوا الشهادة، واختص رسول الله ﷺ بأعلى مراتب الرسالة والنبوة، واختص أبو بكر بأعلى مقامات الصديقية.

وقد ثبت في «الصحيح» الشهادة للعشرة بالجنة بل لجميع من شهد بيعة الرضوان عام الحديبية، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: وخمسمائة، فكلهم استمر على السداد والاستقامة حتى مات رضي الله عنهم أجمعين.

وثبت في «صحيح البخاري» [خ (٦٥٤١)] البشارة لعكاشة بأنه من أهل الجنة فقتل شهيداً يوم اليمامة.

وفي «الصحيحين» [خ (٦٥٤٢)] [م ٢٠١٦ (٣٦٩)] من حديث يونس عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»، فقام عكاشة بن محصن الأسدي يجر نمرة عليه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال النبي ﷺ: «اللّهم اجعله منهم»، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة تفيد القطع، وسنورده في باب صفة الجنة، وسنذكر في قتال أهل الردة أن طليحة الأسدي قتل عكاشة بن محصن شهيداً رضي الله عنه، ثم رجع طليحة الأسدي عما كان يدعيه من النبوة وتاب إلى الله، وقدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه واعتمر وحسن إسلامه.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٦٢١)] [م (٢٢٧٤)] من حديث أبي

هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت كأنه وُضع في يديّ سواران فقطعتهما، فأوحي إليّ في المنام: أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان، صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة».

وقد تقدم في الوفود عليه الصلاة والسلام أنه قال لمسيلمة حين قدم مع قومه وجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، فوقف عليه رسول الله ﷺ وقال له: «والله لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتُكَه، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت». وهكذا وقع، عقره الله وأهانه وكسره وغلبه يوم اليمامة، كما قُتل الأسود العنسي بصنعاء، على ما سنورده إن شاء الله تعالى.

وروى البيهقي [دلائل ٣٥٩/٦] من حديث مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال: لقي رسول الله ﷺ مسيلمة فقال له مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «آمنت بالله ورسله»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا رجل أُخّر لهلكة قومه».

وقد ثبت في الحديث الآخر أن مسيلمة كتب بعد ذلك إلى النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد فأني قد أشركت في الأمر بعدك، فلك المدر ولي الوبر ولكن قريشاً قوم يعتدون، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد جعل الله العاقبة لمحمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، لأنهم هم المتقون وهم العادلون المؤمنون، لا من عداهم، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق عنه ﷺ في الإخبار عن الردة التي وقعت في زمن الصديق فقاتلهم الصديق بالجنود المحمدية حتى رجعوا إلى دين الله أفواجاً، وعَذُبَ ماء الإيمان كما كان بعدما صار أجاجاً، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]. قال المفسرون [الطبري ٨٢/٦، ٨٣]: هم أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٦٢٣)] [م ٢٤٥٠ (٩٨، ٩٩)] من حديث عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة في قصة مسارّة النبي ﷺ ابنته فاطمة وإخباره إياها بأن جبريل كان يعارضه بالقرآن في كل عام مرة، «وأنه عارضني العام مرتين، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي»، فبكت، ثم سارّها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنها أول أهله لحوقاً به، فكان كما أخبر.

قال البيهقي [دلائل ٣٦٥/٦]: واختلفوا في مكث فاطمة بعد رسول الله ﷺ فقيل: شهران، وقيل: ثلاثة، وقيل: ستة، وقيل: ثمانية، قال: وأصح الروايات رواية الزهري عن عروة عن عائشة قالت: مكثت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر. أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٠٩٣)] [م (١٧٥٩)].

ومن كتاب دلائل النبوة في باب إخباره عليه الصلاة والسلام عن الغيوب المستقبلة:

فمن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٤٦٩)] [م (٢٣٩٨)] من حديث إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه قد كان في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمر بن الخطاب».

وقد قال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو إسرائيل، كوفي، عن الوليد بن العيزار عن عمرو بن ميمون عن عليّ رضي الله عنه، قال: ما كنا ننكر ونحن متوافرون -أصحاب محمد ﷺ- أن السكينة تنطق على لسان عمر. قال البيهقي: تابعه زِرُّ بن حبيش والشعبي عن عليّ.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنا نُحدّث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسان مَلَك.

وقد ذكرنا في «سيرة عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أشياء كثيرة، من مكاشفاته وما كان يُخبر به عن المغيّبات كقصة سارية بن زُنَيم، وما شاكلها ولله الحمد والمنة.

ومن ذلك ما رواه البخاري [خ (١٤٢٠)] من حديث فراس، عن الشعبي، عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها: أن نساء النبي ﷺ اجتمعن عنده فقلن يوماً: يا رسول الله أيّنا أسرع بك لحوقاً؟ فقال: «أطولكن يداً» وكانت سَوْدة أطولنا ذراعاً، فكانت أسرعنا به لحوقاً. هكذا وقع في «الصحيح» عند البخاري أنها سودة، وقد رواه يونس بن بكير عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي فذكر الحديث مرسلاً، وقال: فلما توفيت زينب عَلِمْن أنها كانت أطولهن يداً في الخير والصدقة.

والذي رواه مسلم [م (٢٤٥٢)] عن محمود بن غيلان عن الفضل بن موسى عن طلحة بن يحيى بن طلحة، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها،فذكرت الحديث وفيه: فكانت زينب أطولنا يداً، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدّق. وهذا هو المشهور عن علماء التاريخ أن زينب بنت جحش كانت أول أزواج النبي ﷺ وفاةً.

قال الواقدي: توفيت سنة عشرين، وصلّى عليها عمر بن الخطاب.

قلت: وأما سودة فإنها توفيت في آخر إمارة عمر بن الخطاب أيضاً، قاله ابن أبي خيثمة، ومن ذلك ما رواه مسلم [م (٢٥٤٢)] من حديث أُسير بن جابر عن عمر بن الخطاب في قصة أويس القَرَني، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنه بأنه خير التابعين وأنه كان به بَرَص فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضعاً قدر الدرهم من جسده، وأنه بارٌّ بأمه، وأمْره لعمر بن الخطاب أن يستغفر له، وقد وُجد هذا الرجل في زمان عمر بن الخطاب على الصفة والنعت الذي ذكره في الحديث سواء. وقد ذكرت طرق هذا الحديث وألفاظه والكلام عليه مطولاً في الذي جمعته من «مسند عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ولله الحمد والمنة.

ومن ذلك ما رواه أبو داود [د (٥٩١)]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع، حدثتني جدتي وعبد الرحمن بن خلاّد الأنصاري عن أم ورقة بنت نوفل: أن رسول الله ﷺ لما غزا بدراً قالت: يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم، لعل الله يرزقني الشهادة، فقال لها: «قِرّي في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة»، فكانت تسمى الشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في بيتها فأذِن يؤذن لها، وكانت دبّرت غلاماً لها وجارية، فقاما إليها بالليل فغمّاها في قطيفة لها حتى ماتت وذهبا، فأصبح عمر فقام في الناس وقال: من عنده من هذين علم أو مَن رآهما فليجيء بهما -يعني فجيء بهما- فأمر بهما فصُلبا، وكانا أوّل مصلوبَيْن بالمدينة.

وقد رواه البيهقي [دلائل ٣٨١/٦] من حديث أبي نعيم: حدثنا الوليد بن جُمَيع، حدثتني جدتي، عن أم ورقة بنت عبد اللّٰه بن الحارث وكان رسول اللّٰه ﷺ يزورها ويُسميها الشهيدة، فذكر الحديث وفي آخره: فقال عمر: صدق رسول اللّٰه ﷺ كان يقول: «انطلقوا بنا نزور الشهيدة».

ومن ذلك ما رواه البخاري [خ (٣١٧٦)] من حديث أبي إدريس الخولاني عن عوف بن مالك في حديثه عنه في الآيات الست بعد موته وفيه: «ثم مُوتان يأخذكم كقُعاص الغنم»، وهذا قد وقع في أيام عمر، وهو طاعون عمواس سنة ثماني عشرة، ومات بسببه جماعات من سادات الصحابة، منهم معاذ بن جبل، وأبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو وأبوه، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

وقد قال الإمام أحمد [٢٢٨/٥]: حدثنا وكيع، حدثنا النهاس بن قَهْم، حدثنا شداد أبو عمار، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «ستٌّ من أشراط الساعة، موتي، وفتحُ بيت المقدس، وموتٌ يأخذ في الناس كقُعاص الغنم، وفتنة يدخل حَرَبُها بيتَ كل مسلم، وأن يُعطى الرجل ألف دينار فيسخطها، وأن يغدُر الروم فيسيرون إليكم بثمانين بنداً تحت كل بندٍ اثنا عشر ألفاً».

وقد قال الحافظ البيهقي [دلائل ٣٨٥/٦]: أنا أبو زكريا بن أبي إسحاق، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا بحر بن نصر، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن عبد اللّٰه بن حيان أنه سمع سليمان بن موسى يذكر أن الطاعون وقع بالناس يوم جسر عموسة، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أيها الناس، إنما هذا الوجع رجسٌ فتنحّوا عنه، فقام شرحبيل ابن حسنة فقال: يا أيها الناس، إني قد سمعت قول صاحبكم، وإني واللّٰه لقد أسلمت وصلّيت، وإن عَمْراً لأضلُّ من بعير أهله، وإنما هو بلاءٌ أنزله اللّٰه عز وجل، فاصبروا، فقام معاذ بن جبل فقال: يا أيها الناس، إني قد سمعت قول صاحبَيْكم هذين، وإن هذا الطاعون رحمةُ بكم ودعوة نبيكم ﷺ، وإني قد سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «إنكم ستقدمون الشام فتنزلون أرضاً يقال لها: أرضُ عموسة، فيخرج بكم فيها خُرّجان له ذُباب كذباب الدُّمّل، يستشهد اللّٰه به أنفسكم وذراريكم ويزكي به أموالكم»، اللّهم إن كنتَ تعلم أني قد سمعت هذا من رسول اللّٰه ﷺ فارزق معاذاً وآل معاذ منه الحظ الأوفى ولا تعافه منه، قال: فطُعن في السبّابة فجعل ينظر إليها ويقول: اللّهم بارك فيها، فإنك إذا باركت في الصغير كان كبيراً، ثم طُعن ابنه فدخل عليه فقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وثبت في «الصحيحين» [خ (٧٠٩٦)] [م ١٤٤ (٢٦، ٢٧،...)] من حديث الأعمش وجامع بن أبي راشد، عن شقيق بن سلمة، عن حذيفة قال: كنا جلوساً عند عمر فقال: أيكم يحفظ حديث رسول اللّٰه ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، قال: هات، إنك لجريء، فقلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يُكفّرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: ليس هذا أعني، إنما أعني التي تموج موج البحر، فقلت: يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مُغلقاً، قال: ويحك، أيُفتح الباب أم يكسر؟ قلت: بل يُكسر، قال: إذاً لا يُغلق أبداً، قلت: أجل،فقلنا لحذيفة: فكان عمر يعلمُ مَن الباب؟ قال: نعم، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، قال: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب، فقلنا لمسروق فسأله، فقال عمر. وهكذا وقع من بعد مقتل عمر، وقعت الفتن في الناس، وتأكد ظهورها بمقتل عثمان بن عفان رضي اللّٰه عنهما.

وقد قال يعلى بن عبيد عن الأعمش، عن شقيق عن عَزْرة بن قيس قال: خَطَبنا خالد بن الوليد فقال: إن أمير المؤمنين عمر بعثني إلى الشام فحين ألقى بوانِيَه بَثْنِيّةً وعسلاً أراد أن يُؤثِر بها غيري ويبعثني إلى الهند، فقال رجل من تحته: اصبر أيها الأمير، فإن الفتن قد ظهرت، فقال خالد: أما وابن الخطاب حيٌّ فلا، وإنما ذاك بعده.

وقد روى الإمام أحمد [٨٨/٢، ٨٩]: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: أبصر رسول اللّٰه ﷺ على عمر ثوباً فقال: «أجديدٌ ثوبك أم غسيل؟» قال: بل غسيل، قال: «البس جديداً، وعِش حميداً، ومت شهيداً»، وأظنه قال: «ويرزقك اللّٰه قُرّة عين في الدنيا والآخرة». وهكذا رواه النسائي [الكبرى (١٠١٤٣)] وابن ماجه [ق (٣٥٥٨)] من حديث عبد الرزاق به، ثم قال النسائي: هذا حديث منكر، أنكره يحيى القطان على عبد الرزاق، وقد رُوي عن الزهري من وجه آخر مرسلاً. قال حمزة بن محمد الكناني الحافظ: لا أعلم أحداً رواه عن الزهري غير معمر، وما أحسبه بالصحيح، واللّٰه أعلم.

قلت: رجال إسناده واتصاله على شرط «الصحيحين» وقد قَبِل الشيخان، تفرّد معمر عن الزهري في غير ما حديث.

ثم قد روى البزار [كشف الأستار (٢٥٠٣)] هذا الحديث من طريق جابر الجعفي ـ وهو ضعيف ـ عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد اللّٰه مرفوعاً مثله سواء: وقد وقع ما أخبر به في هذا الحديث، فإنه رضي اللّٰه عنه قُتل شهيداً وهو قائم يصلي الفجر في محرابه من المسجد النبوي، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وقد تقدم حديث أبي ذر في تسبيح الحصا في يد أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، وقوله عليه الصلاة والسلام: «هذه خلافة النبوة».

وقال نعيم بن حماد [الفتن (٢٥٨)]: حدثنا عبد اللّٰه بن المبارك، أخبرنا حَشْرَج بن نُباتة، عن سعيد بن جُمهان عن سفينة قال: «لما بنى رسول اللّٰه ﷺ مسجد المدينة جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه، فقال رسول اللّٰه ﷺ: «هؤلاء يكونون الخلفاء بعدي». وقد تقدم [في حديث عبد اللّٰه بن حوالة قوله ﷺ: «ثلاث من نجا منهن فقد نجا: موتي، وقتل خليفةٍ مصطبر، والدجال»، وفي حديثه الآخر. الأمر باتباع عثمان عند وقوع الفتنة.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٦٧٤)] [م ٢٤٠٣ (٢٩)] من حديث سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نمر عن سعيد بن المسيب عن أبي موسى قال: توضأت في بيتي، ثم خرجت فقلت: لأكونن اليوم مع رسول اللّٰه ﷺ، فجئت المسجد فسألت عنه فقالوا: خرج وتوجه ههنا، فخرجتُ في أثره حتى جئت بئر أريس ـ بابها من جريد ـ فمكثت عند بابها حتى ظننت أن النبي ﷺ قد قضى حاجته وجلس، فجئته فسلّمت عليه وإذا هو قد جلس على قُفِّ بئر أريس فتوسّطه ثم دلّى رجليه في البئر وكشف عن ساقيه، فرجعتُ إلى الباب وقلت: لأكونن بوّاب رسول اللّٰه ﷺ، فلم أنشب أن دَقّ الباب فقلت: من هذا؟ قال: أبو بكر، قلت: على رِسْلك، وذهبت إلى النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللّٰه، هذا أبو بكر يستأذن فقال: «ائذن له وبشّره بالجنة،» قال: فخرجت مُسرعاً حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول اللّٰه ﷺ يُبشرك بالجنة، قال: فدخل حتى جلس إلى جنب النبي ﷺ في القُف على يمينه ودلّى رجليه وكشف عن ساقيه كما صنع النبي

ﷺ، قال: ثم رجعت وقد كنت تركت أخي يتوضأ وقد كان قال لي: أنا على إثرك، فقلت: إن يُرد الله بفلان خيراً يأتِ به، قال: فسمعتُ تحريك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر، قلت: على رِسْلك، قال: وجئت النبي ﷺ، فسلمت عليه وأخبرته، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، قال: فجئت وأذنت له وقلت له: رسول الله ﷺ يبشّرك بالجنة، قال: فدخل حتى جلس مع رسول الله ﷺ على يساره وكشف عن ساقيه ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وأبو بكر، قال: ثم رجعت فقلت: إن يُرد الله بفلان خيراً يأت به -يريد أخاه- فإذا تحريك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عثمان بن عفان، قلت: على رِسْلك، وذهبت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا عثمان يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى أو بلاء يصيبه»، قال: فجئت فقلتُ: رسول الله ﷺ يأذن لك ويبشرك بالجنة مع بلوى أو بلاء يصيبك، فدخل وهو يقول: الله المستعان، فلم يجد في القف مجلساً فجلس وُجاهَهم مِن شِق البئر، وكشف عن ساقيه ودلاّهما في البئر، كما صنع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، قال سعيد بن المسيب: فأوّلتها قبورَهم، اجتمعت وانفرد عثمان.

وقد روى البيهقي [دلائل النبوة ٣٨٩/٦، ٣٩٠] من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور عن إبراهيم بن محمد بن حاطب عن عبد الرحمن بن مُحَيريز عن زيد بن أرقم قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالساً محتبياً فقل: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة، ثم انطلق حتى تأتي الثنية فتلقى عمر راكباً على حمار تلوحُ صلعته، فقل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة،ثم انصرف حتى تأتي عثمان فتجده في السوق يبيع ويبتاع، فقل: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام. ويقول: أبشر بالجنة بعد بلاء شديد»، فذكر الحديث في ذهابه إليهم فوجد كلاً منهم كما ذكر رسول الله ﷺ، وكلاً منهم يقول: أين رسول الله؟ فيقول: في مكان كذا وكذا، فيذهب إليه، وأن عثمان لما رجع قال: يا رسول الله وأي بلاء يصيبني؟ والذي بعثك بالحق ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعتك فأي بلاء يصيبني؟ فقال: «هو ذاك».

ثم قال البيهقي: عبد الأعلى ضعيف، فإن كان حفظ هذا الحديث فيحتمل أن رسول الله ﷺ بعث إليهم زيد بن أرقم فجاءوا وأبو موسى جالس على الباب كما تقدم، وهذا البلاء الذي أصابه هو ما اتفق وقوعه له على يدي من أنكر عليه من رعاع أهل الأمصار بلا علم،فوقع ما سنذكره في دولته إن شاء الله من حصرهم إياه في داره حتى آل الحال بعد ذلك كله إلى اضطهاده وقتله وإلقائه على الطريق أياماً، لا يصلى عليه ولا يلتفت إليه، حتى غُسّل بعد ذلك وصلى عليه ودفن بحش كوكب ـ بستان في طريق البقيع ـ رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنات الفردوس متقلبه ومثواه.

كما قال الإمام أحمد [٥١/٦، ٥٢]، حدثنا يحيى عن إسماعيل بن قيس عن أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي بعض أصحابي». قلت: أبو بكر؟ قال: «لا» قلت: عمر؟ قال: «لا»، قلت: ابن عمك عليّ؟ قال: لا قلت: عثمان؟ قال: «نعم»،فلما جاء عثمان قال: «تنحي»، فجعل يُساره ولون عثمان يتغير، قال أبو سهلة: فلما كان يوم الدار وحضر فيها، قلنا يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وإني صابر نفسي عليه.

تفرد به أحمد، ثم قد رواه أحمد عن وكيع عن إسماعيل عن قيس عن عائشة فذكر مثله، وأخرجه ابن ماجه [١١٣] من حديث وكيع.

وقال نعيم بن حماد في كتابه «الفتن والملاحم»: [الفتن ٢٠٢] حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على رسول الله ﷺ وعثمان بين يديه يناجيه، فلم أدرك من مقالته شيئاً إلا قول عثمان: ظلماً وعدواناً يا رسول الله؟ فما دريت ما هو حتى قتل عثمان، فعلمت أن رسول الله ﷺ إنما عني قتله، قالت عائشة: وما أحببت أن يصل إلى عثمان شيء إلا وصل إليّ مثله غيره أن الله علم أني لم أحب قتله، ولو أحببت قتله لقتلت، وذلك لما رمى هودجها من النبل حتى صار مثل القنفذ.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود ٤٣٩]: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن المطلب عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم».

وقال البيهقي [دلائل ٣٩٢/٦، ٣٩٣]: أنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا علي بن محمد المصري، حدثنا محمد بن إسماعيل السلمي، حدثنا عبد الله بن صالح. حدثني الليث، حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف أنه حدثه أنه جلس يوماً مع شفي الأصبحي فقال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فيكم اثنا عشر خليفة، أبو بكر الصديق، لا يلبث خلفي إلا قليلاً، وصاحب رحى العرب يعيش حميداً ويموت شهيداً» فقال رجل: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «عمر بن الخطاب»، ثم التفت إلى عثمان فقال: «وأنت يسألك الناس أن تخلع قميصاً كساكه الله، والذي بعثني بالحق لئن خلعته لا تدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط».

ثم روى البيهقي [دلائل ٣٩٣/٦] من حديث موسى بن عقبة: حدثني جدي أبو أمي، أبو حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم ستلقون بعدي فتنة واختلافاً»، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ أو ما تأمرنا؟ فقال: «عليكم بالأمين وأصحابه»، وهو يشير إلى عثمان بذلك.

وقد رواه الإمام أحمد [٣٤٤/٢، ٣٤٥] عن عفان عن وهيب عن موسى بن عقبة به، وقد تقدم في حديث عبد الله بن حوالة شاهدان له بالصحة والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣٩٣/١]: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور عن ربعي عن البراء بن ناجية عن عبد الله ـ هو ابن مسعود- عن النبي ﷺ قال: «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من قد هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً». قال: قلت: أمما مضى أو مما بقي؟ «قال: مما بقي».

ورواه أبو داود [د/٤٢٥٤] عن محمد بن سليمان الأنباري عن عبد الرحمن بن مهدي به.

ثم رواه أحمد [٣٩٣/١] عن إسحاق، وحجاج عن سفيان عن منصور عن ربعي عن البراء بن ناجية الكاهلي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن رحى الإسلام ستزول لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن تهلك فسبيل من هلك، وأن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً». قال: قال: عمر: يا رسول الله أبما مضى أو بما بقي؟ قال: «بل بما بقي».

وهكذا رواه يعقوب بن سفيان عن عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن منصور به، فقال له عمر فذكره.

قال البيهقي: وقد تابع إسرائيل الأعمش وسفيان الثوري عن منصور، قال: ويبلغني أن في هذا إشارة إلى الفتنة التي كان فيها قتل عثمان سنة خمس وثلاثين،ثم إلى الفتن التي كانت في أيام عليّ، وأراد بالسبعين ملك بني أمية، فإنه بقي ما بين أن استقر لهم الملك إلى أن ظهرت الدعاة بخراسان وضعف أمر بني أمية ودخل الوهن فيه، نحواً من سبعين سنة.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [١٥٥/٥]: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر عن أبيه عن أم ذر قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت فقال: ما يبكيك؟ فقلت: ومالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض ولا يد لي بدفنك، وليس عندي ثوب يسعك فأكفنك فيه، قال فلا تبكي وأبشري، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين»، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية أو جماعة، وإني أنا الذي أموت بالفلاة، والله ما كذب ولا كذبت. تفرد به أحمد رحمه الله.

وقد رواه البيهقي [دلائل ٤٠١/٦،٤٠٢] من حديث عليّ بن المديني عن يحيى بن سليم الطائفي به مطولا، والحديث مشهور في موته رضي الله عنه بالربذة سنة ثنتين وثلاثين، في خلافة عثمان بن عفان، وكان في النفر الذين قدموا عليه وهو في السياق عبد الله بن مسعود، وهو الذي صلى عليه ثم قدم المدينة فأقام بها عشر ليال ومات رضي الله عنه.

حديث آخر:

قال البيهقي [دلائل ٤٠٣/٦]: أنا الحاكم، أنا الأصم، حدّثنا محمد بن إسحاق الصنعاني، حدّثنا عمر بن سعيد الدمشقي، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبيد الله عن أبي عبد الله الأشعري عن أبي الدرداء. قال: قلت: يا رسول الله بلغني أنك تقول: «ليرتدن أقوام بعد إيمانهم، قال: أجل، ولست منهم». قال: فتوفي أبو الدرداء قبل أن يقتل عثمان.

وقال يعقوب بن سفيان: حدّثنا صفوان حدّثنا الوليد بن مسلم، حدّثنا عبد الله أو عبد الغفار بن إسماعيل بن عبيد الله عن أبيه أنه حدثه عن شيخ من السلف قال: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «إني فرطكم على الحوض، أنتظر من يرد عليّ منكم، فلا ألفين أنازع أحدكم، فأقول: إنه من أمتي، فيقال: هل تدري ما أحدثوا بعدك؟» قال أبو الدرداء: فتخوفت أن أكون منهم، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنك لست منهم». قال فتوفي أبو الدرداء قبل أن يقتل عثمان، وقبل أن تقع الفتن.

قال البيهقي: تابعه يزيد بن أبي مريم عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم عن أبي الدرداء إلى قوله: «لست منهم».

قلت: قال سعيد بن عبد العزيز: [تاريخ أبي زرعة الدمشقي ٢٢٠] توفي أبو الدرداء لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وقال الواقدي وأبو عبيد وغير واحد: توفي سنة ثنتين وثلاثين، رضي الله عنه.

٦٧- ذكر إخباره ﷺ عن الفتن الواقعة في آخر أيام عثمان بن عفان وفي خلافة عليّ رضي الله عنهما

ثبت في «الصحيحين» [خ: ١٨٧٨] [م: ٢٨٨٥] من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد «أن رسول الله ﷺ أشرف على أطم من آطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر».

وروى الإمام أحمد [٣٨٨/٥، ٤٠٧] ومسلم [م: ٢٨٩١] من حديث الزهري عن أبي إدريس الخولاني: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: «والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما ذاك أن يكون رسول الله ﷺ حدثني من ذلك شيئاً أسره إلي لم يكن حدث به غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال: - وهو يحدث مجلساً أنا فيه - سئل عن الفتن وهو يعد الفتن: «فيهن ثلاث لا يذرن شيئاً منهن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار» قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري، وهذا لفظ أحمد.

قال البيهقي [دلائل ٤٠٦/٦]: مات حذيفة بعد الفتنة الأولى بقتل عثمان، وقبل الفتنتين الأخرتين في أيام علي.

قلت: قال العجلي وغير واحد من علماء التاريخ [تاريخ الثقات: ١١١]: كانت وفاة حذيفة بعد مقتل عثمان بأربعين يوماً، وهو الذي قال: لو كان قتل عثمان هدى لاحتلبت به الأمة لبناً، ولكنه كان ضلالة فاحتلبت به الأمة دماً، وقال: لو أن أحداً ارتقص لما صنعتم بعثمان لكان جديراً أن يرقص، وقال الإمام أحمد [٤٢٨/٦]: حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ -قال سفيان اربع نسوة- قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» - وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها - قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث».

هكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة به، وكذلك رواه مسلم [٢٨٨٠ (...)] عن أبي بكر بن أبي شيبة وسعيد بن عمرو الأشعثي وزهير بن حرب وابن أبي عمر كلهم عن سفيان بن عيينة به سواء.

ورواه الترمذي [٢١٨٧] عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد: كلهم عن سفيان بن عيينة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الترمذي: قال الحميدي عن سفيان: حفظتّ من الزهري في هذا الإسناد أربع نسوة.

قلت: وقد أخرجه البخاري [٧٠٥٩] عن مالك بن إسماعيل ومسلم [٢٨٨٠ (١)] عن عمرو الناقد عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن زينب عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش فلم يذكروا حبيبة في الإسناد، وكذلك رواه عن الزهري شعيب وصالح بن كيسان وعقيل ومحمد بن إسحاق ومحمد بن أبي عتيق ويونس بن يزيد فلم يذكروا عنه في الإسناد حبيبة والله أعلم، فعلى ما رواه أحمد ومن تابعه عن سفيان بن عيينة، يكون قد اجتمع في هذا الإسناد تابعيان، وهما الزهري وعروة بن

الزبير، وأربع صحابيات ربيبتان وزوجتان وهذا عزيز جداً.

ثم قال البخاري [٣٥٩٩] بعد رواية الحديث المتقدم: عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري فذكره إلى آخره، ثم قال: وعن الزهري حدثتني هند بنت الحارث أن أم سلمة قالت: استيقظ رسول الله ﷺ فقال: «سبحان الله ماذا أنزل من الخزائن؟! وماذا أنزل من الفتن؟!». وقد أسنده البخاري في مواضع أُخَر من طرق عن الزهري به [١١٥].

ورواه الترمذي [٢١٩٦] من حديث معمر عن الزهري، وقال: حسن صحيح.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (١٩٢)]: حدّثنا الصلت بن دينار، حدّثنا عقبة بن صهبان وأبو رجاء العطاردي قالا: سمعنا الزبير وهو يتلو هذه الآية [التفسير ٥٧٧/٣ـ٥٨٠] ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] قال: لقد تلوت هذه الآية زماناً وما أُراني من أهلها، فأصبحنا من أهلها، وهذا الإسناد ضعيف، ولكن روي من وجه آخر، فقال الإمام أحمد [١٦٧/١]: حدّثنا أسود بن عامر، حدّثنا جرير قال: سمعت الحسن قال: قال الزبير بن العوام: نزلت هذه الآية ونحن متوافرون مع النبي ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ فجعلنا نقول: ما هذه الفتنة؟ وما نشعر أنها تقع حيث وقعت.

ورواه النسائي [السنن الكبرى (١١٢٠٦)] عن إسحاق بن إبراهيم عن ابن مهدي عن جرير بن حازم به. وقد قُتل الزبير بوادي السباع مرجعه من قتال يوم الجمل على ما سنورده في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال أبو داود السجستاني في «سننه» [٤٢٧٧] حدّثنا مسدد، حدّثنا أبو الأحوص ـ سلام بن سليم ـ عن منصور عن هلال بن يساف عن سعيد بن زيد، قال: كنا عند النبي ﷺ فذكر فتنة وعظم أمرها، فقلنا: يا رسول الله لئن أدركتنا هذه لتُهلكنا فقال: «كلاّ إنّ بحسبكم القتل»، قال سعيد: فرأيت إخواني قتلوا. تفرد به أبو داود.

وقال أبو داود السجستاني [٤٦٦٣]: حدّثنا الحسن بن علي، حدّثنا يزيد، أنا هشام عن محمد قال: قال حذيفة: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تضرُّك الفتنة»، وهذا منقطع.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أشعث بن أبي الشعثاء سمعت أبا بردة يحدث عن ثعلبة بن ضبيعة سمعت حذيفة يقول: إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة، فأتينا المدينة فإذا فسطاطٌ مضروب، وإذا محمد بن مسلمة الأنصارى، فسألته فقال: لا أستقرّ بِمِصْرٍ من أمصارهم حتى تنجلي هذه الفتنة عن جماعة المسلمين.

قال البيهقي [دلائل ٤٠٨/٦]: ورواه أبو داود [٤٦٦٤] ـ يعني السجستاني ـ عن عمرو بن مرزوق عن شعبة به.

وقال أبو داود [٤٦٦٥]: حدثنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أشعث بن سليم عن أبي بردة عن ضبيعة بن حصين التغلبي عن حذيفة بمعناه.

قال البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير ٣٤٣/٤، ٣٤٤]: هذا عندي أولى.

وقال الإمام أحمد [٤٩٣/٣]: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي بردة قال: مررت بالربذة فإذا فسطاط، فقلت: لمن هذا؟ فقيل: لمحمد بن مسلمة، فاستأذنت عليه فدخلت عليه فقلت: رحمك الله إنك من هذا الأمر بمكان، فلو خرجت إلى الناس فأمرت ونهيت، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة وفُرقة واختلاف، فإذا كان ذلك فأت بسيفك أُحداً فاضرب به عُرضَه، وكسِّر نَبْلك، واقطع وَتَرك، واجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو يعافيك الله» فقد كان ما قال رسول الله ﷺ، وفعلت ما أمرني به، ثم استنزَلَ سيفاً كان معلقاً بعمود الفسطاط واخترطه فإذا سيف من خشب فقال: قد فعلتُ ما أمرني به واتخذت هذا أُرهب به الناس. تفرد به أحمد.

وقال البيهقي: أخبرنا الحاكم، حدثنا علي بن عيسى الحيري، أخبرنا أحمد بن نجدة القرشي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنا سالم بن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن محمود بن لبيد عن محمد بن مسلمة أنه قال: يا رسول الله كيف أصنع إذا اختلف المُصلّون؟ قال: «اخرج بسيفك إلى الحرّة فتضربُها به ثم تدخل بيتك حتى تأتيك منيةٌ قاضية أو يد خاطئة».

وقال الإمام أحمد [٢٢٦/٤]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا زياد بن مسلم أبو عمر، حدثنا أبو الأشعث الصنعاني قال: بعثنا يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير، فلما قدمت المدينة دخلت على فلان ـ نسي زياد اسمه ـ فقال: إن الناس قد صنعوا ما صنعوا فما ترى؟ قال: أوصاني خليلي أبو القاسم: «إن أدركتَ شيئاً من هذه الفتن فاعمد إلى أُحُد فاكسرْ به حدَّ سيفك ثم اقعد في بيتك، فإن دخل عليك أَحَد البيت فقم إلى المخدع، فإن دخل عليك المخدع فاجثُ على رُكبتيك وقل: بُؤْ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»، فقد كسرت سيفي وقعدت في بيتي. هكذا وقع إيراد هذا الحديث في مسند محمد بن مسلمة عند الإمام أحمد، ولكن وقع إبهام اسمه، وليس هو لمحمد بن مسلمة بل صحابي آخر، فإن محمد بن مسلمة رضي الله عنه لا خلاف عند أهل التاريخ أنه توفي فيما بين الأربعين إلى الخمسين، فقيل سنة ثنتين وقيل: ثلاث، وقيل: سبع وأربعين، ولم يدرك أيام يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير بلا خلاف، فتعيّن أنه صحابي آخر خبره كخبر محمد بن مسلمة.

وقال نعيم بن حماد في «الفتن والملاحم» [الفتن (٢١١)]: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد بن سلمة حدثنا أبو عمرو القسمليّ عن بنت أُهبان الغفاري أن علياً أتى أهبان فقال: ما يمنعك أن تتبعنا؟ فقال: أوصاني خليلي وابن عمك ﷺ: أن: «ستكون فرقة وفتنة واختلاف، فإذا كان ذلك فاكسرْ سيفك واقعدْ في بيتك واتخذ سيفاً من خشب»، وقد رواه أحمد [٦٩/٥] عن عفان وأسود بن عامر ومؤمل ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به، وزاد مؤمل في روايته بعد قوله: «واتخذ سيفاً من خشب»: «واقعد في بيتك حتى تأتيكَ يد خاطئة أو منية قاضية».

ورواه الإمام أحمد [٣٩٣/٦] أيضاً والترمذي [٢٢٠٣] وابن ماجه [٣٩٦٠] من حديث عبد الله بن عبيد الديلي عن عُديسة بنت أهبان بن صيفي عن أبيها به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عُبيد، كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه.

وقال البخاري [٣٦٠١]: حدثنا عبد العزيز الأويسي، حدّثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تشرّف لها تستشرفه، ومَن وجَد ملجأ أو مَعاذاً فليَعذ به».

وعن ابن شهاب [خ (٣٦٠٢)]: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن عبد الرحمن بن مطيع بن الأسود عن نوفل بن معاوية مثل

حديث أبي هريرة هذا.

وقد روى مسلم [٢٨٨٦ (١٠)] حديث أبي هريرة من طريق إبراهيم بن سعد كما رواه البخاري، وكذلك حديث نوفل بن معاوية بإسناد البخاري ولفظه [م ٢٨٨٦ (١١)]، ثم قال البخاري [٣٦٠٣]: حدثنا محمد بن كثير، أخبرني سفيان عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ستكون أثرة وأمور تنكرونها»، فقالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم».

ورواه مسلم [١٨٤٣] من حديث الأعمش به.

وقال الإمام أحمد [٤٨/٥]: حدثنا روح، حدثنا عثمان الشحام، حدثنا مسلم بن أبي بكرة عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنها ستكون فتن ثم تكون فتن، ألا فالماشي فيها خيرٌ من الساعي إليها، والقاعد فيها خيرٌ من القائم فيها، ألا والمضطجع فيها خيرٌ من القاعد، ألا فإذا نزلت فمن كان له غنمٌ فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرضٌ فليلحقْ بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله» فقال رجل من القوم: يا نبي الله جعلني الله فداك، أرأيت من ليست له غنم ولا أرض ولا إبل كيف يصنع؟ قال: «ليأخذ سيفه ثم ليعمد به إلى صخرة، ثم ليدُقَّ على حدّه بحجر، ثم لينجُ إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت»، فقال رجل: يا رسول الله جعلني الله فداك، أرأيت إن أُخذ بيدي مُكرهاً حتى يُنطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين؟ - شك عثمان - فيحذفني رجل بسيفه فيقتُلني، ماذا يكون من شأني؟ قال: «يبوءُ بإثمك وإثمه ويكونُ من أصحاب النار».

وهكذا رواه مسلم [٢٨٨٧] من حديث عثمان الشحام بنحوه، وهذا إخبار عن إقبال الفتن، وقد وردت أحاديث كثيرة في معنى هذا.

وقال الإمام أحمد [٥٢/٦]: حدثنا يحيى عن إسماعيل، حدثنا قيس قال: لما أقبلت عائشة - يعني في مسيرها إلى وقعة الجمل - وبلغت مياه بني عامر ليلاً، نبحت الكلاب فقالت: أيُّ ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، فقالت: ما أظنني إلا راجعةً، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيُصلح الله ذات بينهم، قالت: إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب».

ورواه نعيم بن حماد في «الملاحم» [الفتن (١٨٨)] عن يزيد بن هارون عن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم به.

ثم رواه أحمد [٩٧/٦] عن غندر عن شعبة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أن عائشة لما أتت على الحوأب فسمعت نباح الكلاب فقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ﷺ قال لنا: «أيتكن ينبح عليها كلاب الحوأب»، فقال لها الزبير: ترجعين؟ عسى اللهُ أن يصلح بك بين الناس. وهذا إسناد على شرط «الصحيحين» ولم يخرجوه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٣٢٧٤)]: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عصام بن قدامة البجلي عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تسير حتى تنبحها كلاب الحوأب، يُقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير»، ثم قال: لا نعلمه يُروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد.

وقال الطبراني [المعجم الكبير ٣٧٠/١٠، ٣٧١ (١٠٧٣٨)]: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا نوح بن درّاج عن الأجلح بن عبد الله عن زيد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن ابن عباس قال: لما بلغ أصحاب علي، حين ساروا إلى البصرة، أن أهل البصرة قد اجتمعوا لطلحة والزبير، شقّ عليهم، ووقع في قلوبهم، فقال عليّ: والذي لا إله غيره ليُظهَرَنَّ على أهل البصرة وليُقتَلَنَّ طلحة والزبير وليُخرَجَنَّ إليكم من الكوفة ستة آلاف وخمسمائة وخمسون رجلا، أو خمسة آلاف وخمسمائة وخمسون رجلاً -شك الأجلح- قال ابن عباس: فوقع ذلك في نفسي، فلما أتى الكوفة خرجتُ فقلت: لأنظرن، فإن كان كما يقول فهو أمرٌ سمعه، وإلا فهو خديعة الحرب، فلقيت رجلا من الجيش فسألته، فوالله ما عتّم أن قال ما قال عليّ، قال ابن عباس: وهو ما كان رسول الله ﷺ يخبره.

وقال البيهقي [دلائل ٤١١/٦]: أنا عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الحفيد، حدّثنا أحمد بن نصر، حدّثنا أبو نعيم الفضل، حدثنا عبد الجبار بن الورْد عن عمار الدهنيّ عن سالم بن أبي الجعد عن أم سلمة قالت: ذكر النبي ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة، فقال لها: «انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت» ثم التفتَ إلى عليّ وقال: «يا عليّ إن وُليتَ من أمرها شيئاً فارفقْ بها» وهذا حديث غريب جداً.

وأغرب منه ما رواه البيهقي [دلائل ٤١٢/٦، ٤١٣] أيضاً عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصغانيّ عن أبي نعيم عن عبد الجبار بن العباس الشباميّ عن عطاء بن السائب عن عمر بن الهجنّع عن أبي بكرة قال: قيل له: ما يمنعك أن لا تكون قاتلتَ على بصيرتك يوم الجمل؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم هَلْكى لا يُفلحون، قائدهم امرأة، قائدهم في الجنة»، وهذا منكر جداً.

والمحفوظ ما رواه البخاري [٤٤٢٥] من حديث الحسن البصري عن أبي بكرة قال: نفعني الله بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ - وبلغه أن فارس ملّكوا عليهم امرأة كِسْرى - فقال: «لن يُفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأةً».

وقال الإمام أحمد [٢٦٥/٤]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، سمعت أبا وائل قال: لما بعث عليٌّ عماراً والحسن إلى الكوفة يستنفرهم، خطب عمار فقال: إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، لكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها.

ورواه البخاري [٣٧٧٢] عن بندار عن غندر، وهذا كله وقع في أيام الجمل، وقد ندمت عائشة رضي الله عنها على ما كان من خروجها، على ما سنورده في موضعه، وكذلك الزبير بن العوام أيضاً، تذكّر وهو واقف في المعركة أن قتاله في هذا الموطن ليس بصواب. فرجع عن ذلك.

قال عبد الرزاق: أنا معمر عن قتادة قال: لما ولّى الزبير يوم الجمل بلغ علياً، فقال: لو كان ابن صفية يعلم أنه على حقّ ما ولّى، وذلك أن النبي ﷺ لقيهما في سقيفة بني ساعدة فقال: «أتُحبُّه يا زبير؟» فقال: وما يمنعني؟ قال: «فكيف بك إذا قاتلْته وأنت ظالمٌ له؟» قال: فيرَوْن أنه إنما ولى لذلك، وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد أسنده الحافظ البيهقي من وجه آخر فقال [دلائل ٤١٤/٦، ٤١٥]: أنا أبو بكر - أحمد بن الحسن القاضي - حدثنا أبو عمرو بن مطر، أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن سوّار الهاشمي الكوفي، حدثنا مِنْجاب بن الحارث، حدثنا عبد الله بن الأجلح، حدثنا أبي عن يزيد الفقير عن أبيه قال: وسمعتُ فضل بن فَضالة يحدث أبي عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن أبيه، دخل حديث أحدهما في حديث صاحبه، قال: لما دنا عليٌّ وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج عليٌّ وهو على بغلة رسول الله ﷺ، فنادى: ادْعوا لِيَ الزبيرَ بن العوام، فإني عليٌّ، فدُعيَ له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناقُ دوابهما،

فقال عليٌ: يا زبير ناشدتك بالله أتذكرُ يوم مرَّ بك رسول الله ﷺ مكان كذا وكذا فقال: «يا زبير تحب علياً؟» فقلتَ: ألا أحبُّ ابن خالي وابنَ عمّي وعلى ديني؟ فقال: «يا عليُّ أتحبه؟» فقلت: يا رسول الله ألا أحبُّ ابن عمتي وعلى ديني؟ فقال: «يا زبيرُ، أما واللهِ لتقاتلنّه وأنت ظالمٌ له»، فقال الزبير: بلى، والله لقد نُسِّيتُه منذُ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أُقاتلك، فرجع الزبير على دابته يشقُّ الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير فقال: ما لك؟ فقال: ذكّرني عليٌّ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته وهو يقول: «لتقاتلنّه وأنت ظالمٌ له»، فلا أقاتله، فقال: وللقتال جئت؟ إنما جئتَ تصلحُ بين الناس، ويصلحُ اللهُ هذا الأمر، قال: قد حلفتَ أن لا أقاتِلَه. قال: فأعتقْ غلامك خبر وقفْ حتى تُصلح بين الناس، فأعتقَ غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه.

قال البيهقي [دلائل ٦/٤١٥]: وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنا الإمام أبو الوليد، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا قطن بن نُسَيْر، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عبد الله بن محمد الرقاشي، حدثنا جدي - وهو عبد الملك بن مسلم - عن أبي جَرْوة المازني، قال: سمعت علياً والزبير وعليٌّ يقول له: ناشدتك الله يا زبيرُ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول إنك تقاتلني وأنت لي ظالمٌ؟ قال: بلى ولكني نُسِّيت. وهذا غريب كالسياق الذي قبله.

وقد روى البيهقي [دلائل ٦/٤١٦] من طريق المذيل بن بلال - وفيه ضعف - عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى رجل يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان».

قلت: قُتِل زيدٌ هذا في وقعة الجمل من ناحية علي.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٦٠٩)] [م ١٥٧ (١٧)] من حديث همام بن منبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة».

ورواه البخاري [٧١٢١] أيضاً عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مثله.

ورواه البخاري [٣٦٠٨] أيضاً عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وهاتان الفئتان هما أصحاب الجمل، وأصحاب صفين، فإنهما جميعاً يدعون إلى الإسلام، وإنما يتنازعون في شيء من أمور المُلْك، ومُراعاة المصالح العائد نفعها على الأمة والرعايا، وكان تركُ القتال أولى من فعله، كما هو مذهب جمهور الصحابة كما سنذكره.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو قال: كان أهل الشام ستين ألفاً، فقتل منهم عشرون ألفاً وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً، فقُتل منهم أربعون ألفاً، ولكن كان عليٌّ وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٩١٥ (٧٠، ٧١)] من حديث شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: حدثني مَن هو خير مني - يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»، ورواه أيضاً من حديث ابن علية [م ٢٩١٦ (٧٣)] عن ابن عون عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، وفي رواية [دلائل ٦/٤٢٠]: «وقاتله في النار» وقد تقدم الحديث بطُرقه عند بناء المسجد النبوي في أول الهجرة النبوية، وما يزيده بعض الرافضة في هذا الحديث من قولهم بعد ذلك: لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة، فليس له أصلٌ يعتمد عليه، بل هو من اختلاق الروافض قبّحهم الله.

وقد روى البيهقي [دلائل ٦/٤٢١] من حديث أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن مولاةٍ لعمار قالت: اشتكى عمار شكوى أرق منها، فغُشيَ عليه فأفاق ونحن نبكي حوله، فقال: ما تبكون؟ أتخشون أن أموت على فراشي؟ أخبرني حبيبي ﷺ أنه تقتلني الفئة الباغية وأن آخر زادي من الدنيا مذقةٌ من لبن.

وقال الإمام أحمد [٣١٩/٤]: حدثني وكيع، حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري قال: قال عمار يوم صفين: ائتوني بشربة لبن، فإن رسول الله ﷺ قال: «آخرُ شربةٍ تشربُها من الدنيا شربة لبن»، فشربها ثم تقدم فقُتل، وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن حبيب عن أبي البختري، أن عمار بن ياسر أُتِيَ بشربة لبن فضحك وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: آخر شرابٍ أشربه لبنٌ حين أموت.

وروى البيهقي [دلائل ٦/٤٢٢] من حديث عمار الدهني عن سالم بن أبي الجعد عن ابن مسعود سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلف الناس كان ابن سُمَيةَ مع الحق» ومعلوم أن عماراً كان في جيش عليٍّ يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتْله رجل يقال له أبو الغادية، رجل من أفناد الناس، وقيل: إنه صحابي، وقد ذكره أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب ١٧٢٥/٤] وغيره في أسماء الصحابة وهو أبو الغادية ومسلم وقيل: يسار بن أزيهر الجهني من قُضاعة، وقيل: مزني، وقيل: هما اثنان، سكن الشام ثم صار إلى واسطٍ، روى له أحمد حديثاً وله عند غيره آخر، قالوا: وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يذكُر صفةَ قتله لعمار لا يتحاشى من ذلك، وسنذكر ترجمته عند قتله لعمار أيام معاوية في وقعة صفين، وأخطأ من قال: كان بدرياً.

وقال الإمام أحمد [١٦٤/٢، ١٦٥، ٢٠٦، ٢٠٧]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوام، حدثني ابن مسعود عن حنظلة بن خويلد العنزي قال: بينا أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله بن عمرو: ليَطِبْ به أحدكما نفساً لصاحبه فإني سمعت النبي يقول: «تقتله الفئة الباغية»، فقال معاوية: ألا تُغْني عنا مجنونك يا عمرو! فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه»، فأنا معكم ولست أُقاتِل.

وقال الإمام أحمد [١٦١/٢، ٢٠٦]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: إني لأسير مع معاوية مُنْصَرفه من صفين، بينه وبين عمرو بن العاص، فقال عبد الله بن عمرو: يا أَبَتِ، أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول لعمار: «ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية؟» قال: فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول هذا؟ فقال معاوية: لا يزال يأتينا بهَنَةٍ، أَوَ نحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاؤوا به.

ثم رواه أحمد [٢/ ١٦١، ٢٠٦] عن أبي نعيم عن الثوري عن الأعمش عن عبد الرحمن بن أبي زياد فذكر مثله. فقول معاوية: إنما قتله مَن قدّمه إلى سيوفنا، تأويلٌ بعيد جداً، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يُقتلون في سبيل الله، حيث قدّمهم إلى سيوف الأعداء، وقال عبد الرزاق: أنا ابن عيينة، أخبرني عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نقرأ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] في آخر الزمان، كما جاهدتم

في أوله؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: ومتى ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كان بنو أميةَ الأمراء وبنو المغيرةِ الوزراء، ذكره البيهقي ههنا، وكأنه يستشهد به على ما عقد له الباب بعده من ذكر الحكَمَيْن وما كان من أمرهما، فقال: باب ما جاء في إخباره عن الحكَمين اللذين بُعثا في زمن علي رضي الله عنه.

أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل بن الفضل، حدثنا قتيبة بن سعيد عن جرير عن زكريا بن يحيى عن عبد الله بن يزيد وحبيب بن يَسار عن سويد بن غفلة قال: إني لأمشي مع عليٍّ بشط الفراتِ فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يَزَل اختلافُهم بينهم حتى بَعثوا حكَمَين فَضلاً وأضَلاً، وإن هذه الأمة ستختلفُ فلا يزال اختلافُهم بينهم حتى يبعثوا حكَمَين ضلاً وأضلاً من اتبعهما». هكذا أورده ولم يبين شيئاً من أمره. وهو حديث منكر جداً، وآفته من زكريا بن يحيى هذا - وهو الكندي الحميري الأعمى - قال يحيى بن معين [الجرح والتعديل ٦٠١/٣]: ليس بشيء، والحكَمان كانا من خيار الصحابة، وهما عمرو بن العاص السهمي من جهة أهل الشام، والثاني أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري، من جهة أهل العراق، وإنما نُصبا ليُصلِحا بين الناس ويتَّفقا على أمر فيه رفقٌ بالمسلمين، وحقنٌ لدمائهم، وكذلك وقع ولم يضِلَّ بسببهما إلا فرقةُ الخوارج حيث أنكروا على الأميرَيْن التحكيم، وخرجوا عليهما وكفَّروهما، حتى قاتلهم علي بن أبي طالب، وناظرهم ابن عباس، فرجع منهم شِرذِمةٌ إلى الحق، واستمر بقيتهم حتى قُتِل أكثرهم بالنهروان وغيره من المواقف المرذولة عليهم كما سنذكره.

٦٨- ذكر إخباره ﷺ عن خروج الخوارج وقتالهم وعلاماتِهم

بالرجل المخدج ذي الثُّدَيَّة فوُجد ذلك في خلافة علي بن أبي طالب

قال البخاري [٣٦١٠]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري قال: بينما نحن عن رسول الله ﷺ وهو يقسم قَسْماً، أتاه ذو الخُوَيصرة - وهو رجل من بني تميم - فقال: يا رسول الله اعْدِل، فقال: «ويلك، ومَنْ يعدل؟ إذا لم أعْدِل قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدِلُ»، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: «دعْه فإن له أصحاباً يحقِرُ أحدُكم صلاته مع صلاتِهم وصيامَه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوزُ تَراقيَهم، يمرُقون من الدين كما يمرُقُ السهم مِن الرميَّة، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضِيِّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفَرْثَ والدم، آيتهم رجلٌ أسود، إحدى عضُدَيه مثل ثَدْي المرأة أو مثل البَضْعة تَدَرْدَر، ويخرجون على حين فرقةٍ من الناس»، قال أبو سعيد: فأشهدُ أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتُمِس فأُتِيَ به حتى نظرتُ إليه على نعتِ رسول الله ﷺ الذي نعته.

وهكذا رواه مسلم [١٠٦٤ (١٤٨)] من حديث أبي سعيد.

ورواه البخاري [٦١٦٣] أيضاً من حديث الأوزاعي عن الزهري عن أبي سلمة والضحاك المِشْرَقيِّ عن أبي سعيد.

وأخرجه البخاري [٣٣٤٤] أيضاً من حديث سفيان بن سعيد الثوري عن أبيه.

ومسلم [١٦٠٤ (١٤٣)] عن هنَّاد عن أبي الأحوص سلاَّم بن سُليم عن سعيد بن مسروق عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم عن أبي سعيد الخدري به. وقد روى مسلم في «صحيحه» [١٠٦٥ (١٥٠-١٥٢)] من حديث داود بن أبي هند والقاسم بن الفضل وقتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرُقُ مارقةٌ عند فُرقةٍ من المسلمين يقتُلها أوْلى الطائفتين بالحق». ورواه م[١٠٦٥ (١٥٣)] أيضاً من حديث أبي إسحاق الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد مرفوعاً.

وروى مسلم [١٠٦٨ (١٥٩)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن مسهر عن الشيباني عن يُسَيْر بن عمرو قال: سألتُ سهلَ بن حنيف. هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر هؤلاء الخوارج؟ فقال: سمعته وأشار بيده نحو المشرق - وفي رواية: نحو العراق - «يخرج قومٌ يقرؤون القرآن بألسنتِهم لا يجاوزُ تراقيهم، يَمرقون من الدين كما يَمْرُق السهم من الرميَّة، محلَّقةٌ رؤوسهم».

وروى مسلم [١٠٦٧ (١٥٨)] من حديث حميد بن هلال عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر نحوه وقال: «شر الخلق والخليقة»، وكذلك رواه محمد بن كثير المصيصي عن الأوزاعي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعاً [م ١٦٧ (١٥٨)]، وقال: «سيماهم التحليق، شر الخلق والخليقة».

وفي «الصحيحين» [خ (٣٦١١)] [م١٠٦٦ (١٥٤)] من حديث الأعمش عن خيثمة عن سويد بن غفلة عن علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم في آخر الزمان حُدَثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حَناجرَهم، فأينما لقيتُموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة».

وقد روى مسلم [١٠٦٦ (١٥٥)] عن قتيبة عن حماد عن أيوب عن محمد عن عبيدة عن علي في خبر مُودَن اليد وهو ذو الثدية.

وأسنده [١٠٦٦ (...)] من وجه آخر عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي، وفيه: أنه حلَّف علياً على ذلك فحلف له أنه سمع ذلك من رسول الله ﷺ.

ورواه مسلم [١٠٦٦ (١٥٦)] عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة عن زيد بن وهب عن علي بالقصة مطولة وفيه قصة ذي الثدية.

ورواه [م ١٠٦٦ (١٥٧)] من حديث عبيد الله بن أبي رافع عن علي.

ورواه أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (١٦٩)] عن حماد بن زيد عن جميل بن مرة عن أبي الوَضيء السُّحَيْمي والسحيمي عن علي في قصة ذي الثدية، ورواه الثوري عن محمد بن قيس عن أبي موسى - رجل من قومه - عن علي بالقصة.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ ٤٠٦/٣، ٤٠٧]: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان حدثني العلاء بن أبي العباس أنه سمع أبا الطفيل يحدث عن بكر بن قرواش عن سعد بن أبي وقاص قال: ذكر رسول الله ﷺ ذا الثدية فقال: «شيطان الردهة كراعي الخيل يحتدُره رجل من بجيلة يقال له: الأشهب، أو ابن الأشهب علامةٌ في قوم ظَلَمة» قال سفيان: فأخبرني عمار الدهني أنه جاء به رجل منهم يقال له: الأشهب، أو ابن الأشهب.

قال يعقوب بن سفيان: وحدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة عن أبي إسحاق عن حامد الهمداني سمعت سعد بن مالك يقول: قتل علي بن أبي طالب شيطان الردهة - يعني المُخْدَج - يريد والله أعلم قتله أصحابُ عليٍّ.

وقال علي بن عياش: عن حبيب عن سلمة قال: قال علي لقد علمت عائشة أن جيش المروة وأهل النهروان ملعونون على لسان محمد ﷺ، قال ابن عياش: جيش المروة قتلةُ عثمان، رواه البيهقي.

ثم قال البيهقي [دلائل ٤٢٥/٦]: أنا الحاكم، أنا الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن منكم مَن يُقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله». فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا». فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكن خاصفُ النعل» - يعني عليّاً.

وقال يعقوب بن سفيان عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن عمران بن حُدَير عن لاحق قال: كان الذين خرجوا على علي بالنهروان أربعة آلاف في الحديد، فركبهم المسلمون فقتلوهم ولم يقتلوا من المسلمين إلا تسعة رهط، وإن شئت فاذهب إلى أبي بَرْزة فإنه قد شهد ذلك.

قلت: الأخبارُ بقتال الخوارج متواترةٌ عن رسول الله ﷺ؛ لأن ذلك من طرق تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن، ووقوع ذلك في زمان عليٍّ معلومٌ ضرورةً لأهل العلم قاطبة، وأما كيفية خروجهم وسببه ومناظرة ابن عباس لهم في ذلك ورجوع كثير منهم إليه، فسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

٦٩- إخباره ﷺ بمقتل علي بن أبي طالب

فكان كما أخبر سواءً بسواء

قال الإمام أحمد [٢٦٣/٤]: حدثنا علي بن بحر، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن محمد بن خثيم المحاربي عن محمد بن كعب عن محمد بن خثيم عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي - حين وليَ غزوة العشيرة -: «يا أبا تُراب - لما يَرى عليه من التراب - ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال «أُحَيْمِرُ ثمودَ الذي عقر الناقة والذي يضربُك يا علي على هذه - يعني قَرْنَه - حتى يُبلّ هذه» يعني لحيته.

وروى البيهقي [دلائل ٤٣٨/٦] عن الحاكم عن الأصم عن الحسن بن مكرم عن أبي النضر عن محمد بن راشد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن فضالة بن أبي فضالة الأنصاري - وكان أبوه من أهل بدر - قال: خرجتُ مع أبي عائداً لعلي بن أبي طالب في مرض أصابه ثقل منه، قال: فقال أبي: ما يقيمك بمنزلك هذا؟ فلو أصابك أجلُك لم يَلِكَ إلا أعراب جهينة، تحمَّل إلى المدينة، فإن أصابك أجلك وليك أصحابُك وصلَّوا عليك. فقال علي: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ أن لا أموت حتى أُؤَمَّر ثم تخضبَ هذه - يعني لحيته - من دم هذه، يعني هامته، فقُتل وقُتل أبو فَضالة مع علي يوم صفين.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (١٥٧)]: حدثنا شريك عن عثمان بن المغيرة عن زيد بن وهب قال: جاء رأس الخوارج إلى علي فقال له: اتق الله فإنك ميِّتٌ، فقال: لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسْمة، ولكن مقتولٌ من ضربةٍ عَلى هذه تخضبُ هذه - وأشار بيده إلى لحيته - عهدٌ معهودٌ، وقضاء مقضي، وقد خاب من افترى.

وقد روى البيهقي بإسناد صحيح عن زيد بن أسلم عن أبي سنان الدُّؤَلي عن علي في إخبار النبي ﷺ بقتله.

وروى [دلائل ٤٤٠/٦] من حديث هشيم عن إسماعيل بن سالم عن أبي إدريس الأزدي عن علي قال: إن مما عهد إليّ رسول الله ﷺ: «إن الأمة ستغدرُ بكَ بعدي» ثم ساقه من طريق فطر بن خليفة وعبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت عن ثعلبة بن يزيد الحِمّانيّ قال: سمعت علياً يقول: إنه لعهد النبي ﷺ الأمي إليّ «إن الأمةَ ستغدرُ بك بعدي».

قال البخاري [التاريخ الكبير ١٧٤/٢]: ثعلبة هذا فيه نظر ولا يتابع على حديثه هذا.

وروى البيهقي [دلائل ٤٣٩/٦] عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصغانيُّ عن أبي الجوّاب الأحوص بن جوّاب عن عمار بن رزيق عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن ثعلبة بن يزيد قال: قال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتخضَّبنَّ هذه من هذه -للحيته من رأسه- فما يحبسُ أشقاها؟ فقال عبد الله بن سَبُع: والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلاً فعل ذلك لأبَرْنا عشيرته. فقال: أنشُدكَ بالله أن لا تقتل بي غير قاتلي، قالوا: يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟ قال: لا ولكني أتركُكم كما ترككم رسول الله ﷺ. قالوا: فما تقول لربك إذا تركتنا هملاً؟ قال: أقول: اللّهم استخلفتني فيهم ما بَدا لك، ثم قبضتني وتركْتُك فيهم، فإن شئتَ أصلحتَهم، وإن شئتَ أفسدتَهم.

وهكذا روى البيهقي هذا، وهو موقوف وفيه غرابة من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، ثم المشهور عن علي أنه لما طعنه عبد الرحمن بن مُلْجَم الخارجي وهو خارجٌ لصلاة الصبح عند السدة، فبقيَ عليٌّ يومين من طعنته، وحُبس ابن مُلْجَم، وأوصى علي إلى ابنه الحسن بن علي كما سيأتي بيانه وأمره أن يركب في الجنود، وقال له: لا تَحرُ علي كما تَحرُ الجارية. فلما مات قتل عبد الرحمن بن مُلْجَم قوَداً، وقيل: حَداً، والله أعلم، ثم ركب الحسن بن علي في الجنود وسار إلى معاوية كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

٧٠- إخبارُه عن الحسن بأنه يصلح بين فئتين

ذكر إخباره ﷺ بذلك وسيادة ولده الحسن بن علي في تركه الأمر من بعده وإعطائه ذلك الأمر معاوية وتقليده إياه ما كان يتولاه ويقوم بأعبائه

قال البخاري في دلائل النبوة [خ٣٦٢٩]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا حسين الجعفي عن أبي موسى عن الحسن عن أبي بكرة قال: أخرج النبي ﷺ ذات يوم الحسن بن علي فصعد به على المنبر فقال: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ اللّه أن يصلحَ به بين فئتين من المسلمين»

وقال في كتاب الصلح [خ (٢٧٠٤)]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان عن أبي موسى قال: سمعت الحسن يقول: استقبلَ واللّه الحسنُ بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال. فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تُولّي حتى تقتُل أقرانها. فقال له معاوية، وكان واللّهِ خيرَ الرجلين: أي عمرو إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، مَن لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من

قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سَمُرة، وعبد الله بن عامر بن كُرَيز، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه. فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبْنا من هذا المال، وإن هذه الأمةَ قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به. فصالحه، فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وقال البخاري: قال لي علي بن عبد الله: إنما ثبت لنا سماع الحسن بن أبي بكرة بهذا الحديث.

وقد رواه البخاري [٣٧٤٦] أيضاً في فضل الحسن وفي كتاب الفتن عن علي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن أبي موسى وهو إسرائيل بن موسى -

ورواه أبو داود [د (٤٦٦٢)] والترمذي [٣٧٧٣] من حديث أشعث، وأبو داود أيضاً والنسائي [الكبرى (١٠٠٨٠)] من حديث علي بن زيد بن جدعان كلهم عن الحسن البصري عن أبي بكرة به. وقال الترمذي: صحيح، وله طرق عن الحسن مرسلاً [السنن الكبرى (١٠٠٨٣- ١٠٠٨٥)]، وعن الحسن وعن أم سلمة به، وهكذا وقع الأمر كما أخبر به النبي ﷺ سواء، فإن الحسن بن علي لما صار إليه الأمر بعد أبيه وركب في جيوش أهل العراق، وسار إليه معاوية، فتصافّا بصِفّين على ما ذكره الحسن البصري، فمال الحسن بن علي إلى الصلح، وخطب الناس وخلع نفسه من الأمر وسلمه إلى معاوية، وذلك سنة أربعين، فبايعه الأمراء من الجيشين، واستقل بأعباء الأمة، فسمي ذلك العام عام الجماعة؛ لاجتماع الكلمة فيه على رجل واحد، وسنورد ذلك مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى، وقد شهد الصادق المصدوق ﷺ للفرقتين بالإسلام، فمن كفَّرهم أو واحداً منهم لمجرد ما وقع فقد أخطأ وخالف النص النبوي المحمّدي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وقد تكمل بهذه السنة المدة التي أشار إليها رسول الله ﷺ أنها مدة الخلافة المتابعة بعده، كما تقدم [في حديث سفينة مولاه أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنةً، ثم تكون ملكاً». وفي رواية «عضوضاً»، وفي رواية عن معاوية أنه قال: رضينا بها ملكاً].

وقد قال نعيم بن حماد في كتابه «الفتن والملاحم» [الفتن (٤٢٢)]: سمعت محمد بن فضيل عن السريّ بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن سفيان بن الليل قال: سمعت الحسن بن علي يقول: سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمعَ أمرُ هذه الأمة على رجل واسع السُّرْم، ضخم البُلْعُم، يأكل ولا يشبع وهو معاوية».

هكذا وقع في هذه الرواية، وفي رواية بهذا الإسناد: «لا تذهب الأيام والليالي حتى تجتمع هذه الأمة على معاوية».

وروى البيهقي [دلائل ٤٤٦/٦] من حديث إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر - وهو ضعيف - عن عبد الملك بن عمير قال: قال معاوية: والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ لي: «يا معاوية إن ملكتَ فأحسِنْ».

ثم قال البيهقي [دلائل ٤٤٦/٦، ٤٤٧]: وله شواهد، من ذلك حديث عمرو بن يحيى عن سعيد بن العاص عن جده سعيد أن معاوية أخذ الإداوة فتبع رسول الله ﷺ فنظر إليه فقال: «يا معاوية إن وُلِّيتَ أمراً فاتق الله واعدل». فقال معاوية: فما زلت أظن أني مُبتلىً بعملٍ لقول رسول الله ﷺ.

ومنها حديث الثوري عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد الداري عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم». ثم يقول أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، فنفعه الله بها. رواه أبو داود [٤٨٨٨].

وروى البيهقي [دلائل ٤٤٧/٦] من طريق هُشيم عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بالمدينة والمُلْكُ بالشام».

وقال الإمام أحمد [١٩٨/٥، ١٩٩]: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا يحيى بن حمزة عن زيد بن واقد، حدثني بسر بن عبيد الله، حدثني أبو إدريس الخولاني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان - حين تقع الفتن - بالشام».

رواه البيهقي [دلائل ٤٤٧/٦] من طريق يعقوب بن سفيان عن عبد الله بن يوسف عن يحيى بن حمزة البَتْلَهِيِّ به.

قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح، وروي من وجه آخر، ثم ساقه [دلائل ٤٤٨/٦] من طريق عقبة بن علقمة عن سعيد بن عبد العزيز الدمشقي عن عطية بن قيس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت أن عمود الكتاب انتُزِع من تحت وسادتي فنظرت فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام».

ثم أورده البيهقي [دلائل ٤٤٨/٦] من طريق الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز عن يونس بن ميسرة عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ فذكر نحوه، إلا أنه قال: «فأتبعته بصري حتى ظننت أنه مذهوب به». قال: «وإني أوَّلْتُ أن الفتن إذا وقعت أن الإيمان بالشام».

قال الوليد: وحدثني عفير بن معدان أنه سمع سليم بن عامر يحدث عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ مثل ذلك.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ ٣١١/٢]: حدثني نصر بن محمد بن سليمان الحمصي، حدثنا أبي أبو ضمرة - محمد بن سليمان السلمي - حدثني عبد الله بن أبي قيس، سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عموداً من نور خرج من تحت رأسي ساطعاً حتى استقر بالشام».

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٤٥٥)]: أنا معمر عن الزهري عن عبد الله بن صفوان قال: قال رجل يوم صفين: اللّهم الْعَنْ أهل الشام. فقال له علي: لا تسُبَّ أهل الشام جماً غفيراً، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال.

وقد روي من وجه آخر عن علي.

قال الإمام أحمد [١١٢/١]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني شريح - يعني ابن عبيد الحضرمي - قال: ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق فقالوا: الْعَنْهُم يا أمير المؤمنين. قال: لا؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسْقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب».

تفرد به أحمد وفيه انقطاع؛ فقد نص أبـو حـاتم الـرازي [المراسيل ص٦٠، ٦١] على أن شريح بن عبيد هذا لم يسمع من أبي أمامة ولا من أبي مـالك الأشعري وأن روايته عنهما مرسلة، فما ظنك بروايتـه عـن علـي بـن أبـي طالب، وهو أقدم وفاة منهما.

٧١- إخباره عليه السلام عن غزاة البحر إلى قبرص التي كانت في أيام أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

قال مالك [الموطأ ٢/٤٦٤، ٤٦٥] عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كـان يدخـل علـى أم حـرام بنـت ملحان فتطعمـه، وكـانت تحت عبـادة بـن الصـامت، فدخـل عليهـا يومـاً فأطعمته ثم جلست تفلي رأسه، فنـام رسـول الله ﷺ ثـم اسـتيقظ وهـو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس مـن أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثَبجَ هـذا البحر، ملوكـاً علـى الأسرة، أو «مثل الملوك على الأسرة»، شك إسحاق، فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنـام ثـم اسـتيقظ وهـو يضحك، قالت: قلت ما يضحكك يا رسول الله؟ قـال: «نـاس مـن أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله»، كمـا قـال في الأولى، قـالت: قلـت: يـا رسول الله: ادع الله أن يجعلـني منهـم فقـال: «أنـت مـن الأولـين»، قـال: فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمان معاوية فصرت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.

رواه البخاري عن عبد الله بن يوسـف ومسـلم عـن يحيـى بـن يحيـى كلاهما عن مالك به [خ: ٢٧٧٨] [م ٦٠/١٩١٢]، وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث الليث وحماد بن زيد كلاهما عن يحيى بن سـعيد [خ: ٢٨٩٤] [م ١٦١/١٩١٢]. وعن محمد بن يحيى بن حبان عن أنس بن مالك عـن خالتـه أم حرام بنت ملحان، فذكر الحديث إلى أن قال: فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازية أول ما ركبوا مـع معاويـة، أو أول مـا ركـب المسـلمون البحر مع معاوية بن أبي سفيان، فلما انصرفوا مـن غزاتهـم قـافلين فـنزلوا الشام، فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت.

ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق الفزاري عـن زائـدة عـن أبـي طوالة عبد الله بن عبد الرحمن عن أنس به [خ: ٢٨٧٧]، وأخرجه أبـو داود من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أخت أم سليم.

وقال البخاري [٢٩٢٤]: الرُّمَيْصاء وهي أم حرام، فذكر نحو ما تقدم.

٧٢- باب ما قيل في قتال الروم

حدثنا إسحاق بن يزيد الدمشقي، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثني ثور بـن يزيد عن خالد بن معدان أن عمير بن الأسود العنسي حدثه أنه أتـى عبـادة بن الصامت وهو نازل في ساحة حمص، وهو في فناء لـه، ومعـه أم حـرام، قال عمير: فحدثتنا أم حـرام أنهـا سمعـت رسـول الله ﷺ يقـول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوْجَبوا». قالت أم حرام: فقلت: يا رسـول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». قالت: ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» قلت: أنا فيهم يـا رسـول الله؟ قـال: «لا» تفرد به البخاري دون أصحاب الكتب الستة.

وقد رواه البيهقي في «الدلائل» [٤٥٢/٦] عن الحاكم عـن أبـي عمـرو بن أبي جعفر عن الحسن بن سفيان عن هشام بن عمار الخطيب عن يحيى بن حمزة القاضي به وهو يشبه معنى الحديث الأول.

وفيه من دلائل النبـوة ثـلاث إحداهـا الإخبـار عـن الغـزوة الأولى في البحر وقد كانت في سنة سبع وعشرين مع معاوية بن أبي سفيان حين غـزا قبرص وهو نائب الشام عن عثمان بن عفان، وكانت معهم أم حرام بنت ملحان هذه صحبة زوجها عبادة بـن الصـامت، أحـد النقبـاء ليلـة العقبـة، فتوفيت مرجعهم من الغزو قيل بالشام كما تقدم في الرواية عند البخـاري، وقال ابن زُبْر: توفيت بقبرص سنة سـبع وعشـرين، والغـزوة الثانيـة غـزوة قسطنطينية مع أول جيش غزاها، وكان أميرهـا يزيـد بـن معاويـة بـن أبـي سفيان، وذلك في سنة ثنتين وخمسين، وكان معهم أبو أيوب خالد بـن زيـد الأنصاري، فمات هنالك رضـي الله عنه وأرضـاه، ولم تكـن هـذه المرأة معهم، لأنها كانت قد توفيت قبل ذلك في الغزوة الأولى.

فهذا الحديث فيه ثلاث آيات من دلائل النبوة: الأخبار عن الغزوتـين، والإخبار عن المرأة بأنها من الأولين وليست من الآخريـن، وكذلـك وقـع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

٧٣- الإخبار عن غزوة الهند

قال الإمام أحمد [٢٢٨/٢، ٢٢٩]: حدثنا هشيم عن سيار بـن جَبْر بـن عبيـدة عـن أبي هريرة قـال: وعدنـا رسـول الله ﷺ غزوة الهنـد فـإن استشهدت كنت من خير الشهداء، وإن رجعت فأنا أبو هريرة المحرر.

ورواه النسائي [٣١٧٣] من حديث هشيم وزيـد بـن أبـي أنيسـة عـن سَيار عن جبر -ويقال: جبير- عن أبي هريرة قال: وعدنا رسول الله ﷺ غزوة الهند وذكره.

وقال أحمد [٣٦٩/٢]: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا البراء عن الحسن عن أبي هريرة قال: حدثـني خليلـي الصـادق، رسـول الله ﷺ أنـه قـال: «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فـإن أنـا أدركتـه فاستشـهدت فذاك، وإن أنا فذكر كلمة رجعت فأنا أبو هريرة المُحرر قد أعتقني من النار.

تفرد بـه أحمـد، وقـد غـزا المسـلمون الهنـد في أيـام معاويـة سـنة أربـع وأربعين، وكانت هنالك أمور سيأتي بسطها في موضعها، وقـد غـزا الملـك الكبير الجليل محمود بن سُبُكْتكين، صاحب غزنة، في حدود سنة أربعمائـة، بلاد الهند فوغل فيها وقتـل وأسـر وسـبى وغنـم حتى دخـل السـومنات وكسر البُدَّ الأعظم الذي يعبدونه، واستلب شُنُوفه وقلائده، ثم رجع سـالماً مؤيداً منصوراً كما سيأتي

٧٤- الإخبار عن قتال الترك

كما سنبينه إن شاء الله تعالى وبه الثقة

قال البخاري [٣٥٨٧]: حدثنا أبو اليمان، أنا شعيب، حدثنا أبـو الزنـاد عن الأعرج عن أبي هريـرة عـن النبي ﷺ قـال: «لا تقـوم السـاعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كـأن وجوههم المجان المطرقـة، وتجدون مـن خير النـاس

أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه، والناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله». تفرد به من هذا الوجه.

ثم قال البخاري [٣٥٩٠]: حدثنا يحيى، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر». تابعه غيره عن عبد الرزاق، وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه قال: أخطأ عبد الرزاق في قوله: خوزاً، بالخاء، وإنما هو بالجيم.

قلت: خوزٌ وكرمان، بلدان معروفان بالشرق، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٣٩]: حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة فبلغ به النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر».

وقد رواه الجماعة إلا النسائي من حديث سفيان بن عيينة به [خ: ٢٩٢٩] [م ٢٩١٢(٦٢)] [د٤٣٠٤] [ت٢٢١٥] [ق ٤٠٩٦].

وقال البخاري [٣٥٩١]: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان قال: قال إسماعيل: أخبرني قيس قال: أتينا أبا هريرة رضي الله عنه فقال: صحبت رسول الله ﷺ ثلاث سنين لم أكن في سني أحرص على أن أعي الحديث مني فيهن، سمعته يقول: وقال هكذا بيده: «بين يدي الساعة تقاتلون قوماً نعالهم الشعر».

وهو هذا البارز، وقال سفيان مرة: وهم أهل البازر.

وقد رواه مسلم [٢٩١٢ (٦٦)] عن أبي كريب عن أبي أسامة ووكيع كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر كأن وجوههم المجان المطرقة، حمر الوجوه، صغار الأعين».

قلت: وأما قول سفيان بن عيينة: هم أهل البارز فالمشهور في الرواية تقديم الراء على الزاي، ولعله تصحيف اشتبه على القائل من البازر وهو السوق بلغتهم، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٥/٧٠]: حدثنا عفان، حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن قال: حدثنا عمرو بن تغلب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، أو ينتعلون الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة».

ورواه البخاري عن سليمان بن حرب وأبي النعمان عن جرير بن حازم به [خ: ٢٩٢٧].

والمقصود أن قتال الترك وقع في آخر أيام الصحابة، قاتلوا القان الأعظم، فكسروه كسرة عظيمة على ما سنورده في موضعه إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه.

٧٥- خبر آخر عن عبد الله بن سلام

قال الإمام أحمد [٥/٤٢]: حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق، حدثنا ابن عون عن محمد هو ابن سيرين عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر خشوع فدخل فصلى ركعتين فأوجز فيهما. فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا قال: سبحان الله، والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء - قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع،فجاء مِنْصفٌ - قال ابن عون: وهو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد عليه، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي. قال: فأتيت النبي ﷺ، فقصصتها عليه فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام تموت». قال: وهو عبد الله بن سلام.

ورواه البخاري من حديث عون [٣٨١٣].

ثم قد رواه الإمام أحمد [٥/٤٥٢، ٤٥٣] من حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن المسيب بن رافع عن خرشة بن الحر عن عبد الله بن سلام، فذكره مطولاً، وفيه قال: حتى انتهيت إلى جبل زلق فأخذ بيدي فدحاني، فإذا أنا على ذروته، فلم أتقار ولم أتماسك، وإذا عمود حديد في ذروته حلقة ذهب، فأخذ بيدي فدحاني حتى أخذت بالعروة. وذكر تمام الحديث.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» [٢٤٨٤(١٥٠)] من حديث الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر عن عبد الله بن سلام فذكره وقال: حتى أتى بي جبلاً فقال لي: اصعد، فجعلت إذا أردت أن أصعد خررت على استي، حتى فعلت ذلك مراراً، وأن رسول الله قال له حين ذكر رؤياه: وأما الجبل فهو منزل الشهداء، ولن تناله».

قال البيهقي [دلائل ٦/٤٦٢]: وهذه معجزة ثانية، حيث أخبر أنه لا ينال الشهادة، وهكذا وقع، فإنه مات سنة ثلاث وأربعين فيما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره.

٧٦- الإخبار عن بيت ميمونة بنت الحارث بسرف

قال البخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير ٥/١٢٧، ١٢٨]: أنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن الأصم، حدثنا يزيد بن الأصم قال: ثقلت ميمونة بمكة وليس عندها من بني أخيها أحد، فقالت: أخرجوني من مكة فإني لا أموت بها، إن رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بمكة. فحملوها حتى أتوا بها سرف، إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القبة، فماتت رضي الله عنها.

قلت: وكان موتها سنة إحدى وخمسين على الصحيح.

٧٧- ما روي في إخباره عن مقتل حجر بن عدي وأصحابه

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا ابن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثني الحارث بن يزيد عن عبد الله بن زرير الغافقي قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: يا أهل العراق، سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل

أصحاب الأخدود، فقتل حجر بن عدي وأصحابه، وقال يعقوب بن سفيان: قال أبو نعيم: ذكر زيادا بن سمية علي بن أبي طالب على المنبر فقبض حجر على الحصباء، ثم أرسلها وحصب من حوله زياداً فكتب إلى معاوية يقول: إن حجراً حصبني وأنا على المنبر، فكتب إليه معاوية أن يحمل إليه حجراً، فلما قرب من دمشق بعث من يتلقاهم، فالتقى معهم بعذراء فقتلهم.

قال البيهقي: لا يقول على مثل هذا إلا أنه يكون سمعه من رسول الله ﷺ.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا حرملة حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: دخل معاوية على عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين، إني رأيت قتلهم صلاحاً للأمة، وأن بقاءهم فساداً. فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء».

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن مروان بن الحكم قال: دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالت: يا معاوية قتلت حجراً وأصحابه وفعلت الذي فعلت؛ أما خشيت أن أخبأ لك رجلاً فيقتلك؟ قال: لا، إني في بيت أمان؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» يا أم المؤمنين، كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك؟ قالت: صالح، قال: فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عز وجل.

٧٨- آخركم موتاً في النار

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعشرة من أصحابه: «آخركم موتاً في النار». فيهم سمرة بن جندب.

قال أبو نضرة: فكان سمرة آخرهم موتاً.

قال البيهقي: رواته ثقات إلا أن أبا نضرة العبدي لم يثبت له من أبي هريرة سماع والله أعلم.

ثم روى [دلائل٦/٤٥٨، ٤٥٩] من طريق إسماعيل بن حكيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس بن حكيم قال: كنت أمر بالمدينة فألقى أبا هريرة فلا يبدأ بشيء حتى يسألني عن سمرة، فلو أخبرته بحياته وصحته فرح وقال: إنا كنا عشرة في بيت، وإن رسول الله قام علينا ونظر في وجوهنا وأخذ بعضادتي الباب وقال: «آخركم موتاً في النار». فقد مات منا ثمانية ولم يبق غيري وغيره، فليس شيء أحب إليّ من أن أكون قد ذقت الموت.

وله شاهد من وجه آخر، قال يعقوب بن سفيان: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد قال: كنت إذا قدمت على أبي محذورة سألني عن سمرة، وإذا قدمت على سمرة سألني عن أبي محذورة، فقلت لأبي محذورة: ما لك إذا قدمت عليك تسألني عن سمرة، وإذا قدمت على سمرة سألني عنك؟ فقال: إني كنت أنا وسمرة وأبو هريرة في بيت فجاء النبي ﷺ فقال: «آخركم موتاً في النار» قال: فمات أبو هريرة ثم مات أبو محذورة ثم مات سمرة.

وقال عبد الرزاق: أنا معمر، سمعت ابن طاوس وغيره يقولون: قال النبي ﷺ لأبي هريرة وسمرة بن جندب ولرجل آخر: «آخركم موتاً في النار»، فمات الرجل قبلهما وبقي أبو هريرة وسمرة، فكان الرجل إذا أراد أن يغيظ أبا هريرة يقول: مات سمرة، فإذا سمعه غشي عليه وصعق، ثم مات أبو هريرة قبل سمرة فقتل سمرة بشراً كثيراً. وقد ضعف البيهقي عامة هذه الروايات لانقطاع بعضها وإرساله، ثم قال [دلائل ٦/٤٦٠]: وقد قال بعض أهل العلم: إن سمرة مات في الحريق، ثم قال: ويحتمل أن يورد النار بذنوبه ثم ينجو منها بإيمانه فيخرج منها بشفاعة الشافعين، والله أعلم.

ثم أورد من طريق هلال بن العلاء الرقي أن عبد الله بن معاوية حدثهم عن رجل قد سمّاه أن سمرة استجمر فغفل عن نفسه وغفل أهله عنه حتى أخذته النار، قلت: وذكر غيره أن سمرة بن جندب رضي الله عنه أصابه كُزازٌ شديد، فكان يوقد له على قدر مملوءة ماء حاراً فيجلس فوقها ليتدفأ ببخارها فسقط يوماً فيها فمات رضي الله عنه، وكان موته سنة تسع وخمسين بعد أبي هريرة بسنة، وقد كان ينوب عن زياد ابن سمية في البصرة إذا سار إلى الكوفة، وفي الكوفة إذا سار إلى البصرة، فكان يقيم في كل منهما ستة أشهر من السنة، وكان شديداً على الخوارج، يكثر القتل فيهم، ويقول: هم شر قتلى تحت أديم السماء. وقد كان الحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهما من علماء البصرة يثنون عليه رضي الله عنه.

٧٩- خبر رافع بن خديج حين وقع عليه السهمُ

روى البيهقي [٦/٤٦٣] من حديث مسلم بن إبراهيم عن عمرو بن مرزوق الواشحي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد بن رافع عن جدته: أن رافع بن خديج رمي - قال عمرو: لا أدري أيهما قال يوم أُحد أو يوم خيبر- بسهم في ثندوته، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله انزع لي السهم. فقال له: «يا رافع إن شئتَ نزعتُ السهم والقُطْبة جميعاً، وإن شئت نزعت السهم وتركت القُطْبة وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيدٌ». فقال: يا رسول الله، انزع السهم واترك القُطْبة واشهد لي يوم القيامة أني شهيد، قال: فعاش حتى إذا كان خلافة معاوية انتقض الجرح فمات بعد العصر. هكذا وقع في هذه الرواية أنه مات في إمارة معاوية، والذي ذكره الواقدي وغير واحد أنه مات سنة ثلاث -وقيل: أربع- وسبعين، ومعاوية رضي الله عنه كانت وفاته في سنة ستين بلا خلاف، والله أعلم.

٨٠- ذكر إخباره ﷺ بما وقع من الفتن بعد معاوية من أغيلمة بني هاشم وغير ذلك

قال البخاري [٣٦٠٣]: حدثنا محمد بن كثير، أخبرني سفيان عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ستكون أثرة وأمور تنكرونها» قالوا: يا رسول الله: فما تأمرنا؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم».

وقال البخاري [٣٦٠٤]: حدثنا محمد بن عبد الرحيم أنا أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أبو أسامة، حدثنا شعبة عن أبي التياح عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يهلك الناس هذا الحي من قريش» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم».

ورواه مسلم [٢٩١٧ (٧٤)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة.

وقال البخاري [عقب (٣٦٠٤)]: وقال محمود: حدثنا أبو داود، أخبرنا شعبة عن أبي التياح قال: سمعت أبا زرعة، وحدثنا [خ(٣٦٠٥)] أحمد بن محمد المكي، حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال: كنت مع مروان وأبي هريرة فسمعت أبا هريرة يقول: سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش»، فقال مروان: غلمة؟ قال أبو هريرة: إن شئت أن أسميهم بني فلان وبني فلان. تفرد به البخاري.

وقال أحمد [٣٢٤/٢]: حدثنا روح، حدثنا أبو أمية عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، أخبرني جدي سعيد بن عمرو بن سعيد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هلكة أمتي على يدي غلمة» قال مروان: وهو معنا في الحلقة قبل أن يلي شيئاً، فلعنة الله عليهم غلمة، قال: أما والله لو أشاء أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت. قال: فكنت أخرج مع أبي وجدي إلى بني مروان - بعدما ملكوا - فإذا هم يبايعون الصبيان، ومنهم من يبايع له وهو في خرقة، قال لنا: هل عسى أصحابكم هؤلاء أن يكونوا الذي سمعت أبا هريرة يذكر إن هذه الملوك يشبه بعضها بعضاً.

وقال أحمد [٣٠٤/٢، ٤٨٥]: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن سماك، حدثني عبد الله بن ظالم قال: سمعت أبا هريرة قال: سمعت حِبِّيَ أبا القاسم ﷺ يقول: «إن فساد أمتي على يدي غلمةٍ سفهاء من قريش» ثم رواه أحمد [٢٨٨/٢] عن زيد بن الحباب عن سفيان وهو الثوري عن سماك عن مالك بن ظالم عن أبي هريرة فذكره، ثم روى [المسند ٢٩٩/٢، ٣٢٨] غندر وروح بن عبادة عن شعبة، عن سماك بن حرب عن مالك بن ظالم قال: سمعت أبا هريرة- زاد روح: يحدث مروان بن الحكم- قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول: «هلاك أمتي على رؤوس غلمةٍ أمراء سفهاء من قريش».

وقال الإمام أحمد [٣٨/٣، ٣٩]: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة حدثني بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفٌ من بعد الستين سنة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يَعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمنٌ، ومنافقٌ، وفاجرٌ»، وقال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به. تفرد به أحمد، وإسناده جيد قوي على شرط السنن.

وقد روى البيهقي [دلائل٤٦٦/٦] عن الحاكم عن الأصم عن الحسن بن علي بن عفان عن أبي أسامة عن مجالد عن الشعبي قال: لما رجع علي من صفين قال: أيها الناس، لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنه لو فقدتموه لقد رأيتم الرؤوس تنزو من كواهلها كالحنظل.

ثم روى عن الحاكم وغيره عن الأصم عن العباس بن الوليد بن مزيد عن أبيه عن ابن جابر عن عمير بن هانئ أنه حدثه أنه قال: كان أبو هريرة يمشي في سوق المدينة وهو يقول: اللهم لا تدركني سنة الستين، ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية، اللهم لا تدركني إمارة الصبيان. قال البيهقي: وعلي وأبو هريرة إنما يقولان هذا الشيء سمعاه من رسول الله ﷺ. وقال يعقوب بن سفيان: [المعرفة والتاريخ ٢٩٤/١، ٢٩٥] أنا عبد الرحمن بن عمرو الحزامي، حدثنا محمد بن سليمان عن أبي عُتَيْم البعلبكي عن هشام بن الغاز عن ابن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر معتدلا قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية».

وروى البيهقي [دلائل ٤٦٦/٦، ٤٦٧] من طريق عوف الأعرابي عن أبي خلدة عن أبي العالية عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية».

وهذا منقطع بين أبي العالية وأبي ذر وقد رجحه البيهقي بحديث أبي عبيدة المتقدم، قال: ويشبه أن يكون هذا الرجل هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، والله أعلم.

قلت: الناس في يزيد بن معاوية أقسام فمنهم من يحبه ويتولاه، وهم طائفة من أهل الشام، من النواصب، وأما الروافض فيشنعون عليه ويشنعون ويفترون عليه أشياء كثيرة ليست فيه ويتهمه كثير منهم أو أكثرهم بالزندقة، ولم يكن كذلك، وطائفة أخرى لا يحبونه ولا يسبونه لما يعلمون من أنه لم يكن زنديقاً كما تقوله الرافضة، ولما وقع في زمانه من الحوادث الفظيعة، والأمور المستنكرة البشعة الشنيعة، فمن أنكرها قتل الحسين بن علي بكربلاء، ولكن لم يكن ذلك من علم منه، ولعله لم يرض به ولم يسؤه، وكذلك من الأمور المنكرة جداً، ووقعة الحرة وما كان من الأمور القبيحة بالمدينة النبوية على ما سنورده إذا انتهينا إليه في التاريخ إن شاء الله تعالى.

٨١- الإخبار بمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما

وقد ورد في الحديث بمقتل الحسين فقال الإمام أحمد [٣٦٥/٣]: حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنا عمارة - يعني ابن زاذان - عن ثابت عن أنس قال: «استأذن ملك المطر أن يأتي النبي ﷺ، فأذن له، فقال لأم سلمة: احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن علي، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي ﷺ، فقال له الملك: أتحبه؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»، قال: فإن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، قال: فضرب بيده فأراه تراباً أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها، قال: فكنا نسمع يقتل بكربلاء.

ورواه البيهقي [٤٦٩/٦] من حديث بشر بن موسى عن عبد الصمد عن عمارة، فذكره، ثم قال: وكذلك رواه سفيان بن فروخ عن عمارة، وعمارة بن زاذان هذا هو الصيدلاني أبو سلمة البصري اختلفوا فيه، وقد قال فيه أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين، وضعفه أحمد مرة ووثقه أخرى. وحديثه هذا قد روي عن غيره من وجه آخر.

فرواه الحافظ البيهقي [٤٧٠/٦] من طريق عمارة بن عرفة عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا.

وقد قال البيهقي [٤٦٨/٦]: أنا الحاكم في آخرين، قالوا: أنا الأصم، أنا عباس الدوري، حدثنا محمد بن خالد بن مخلد، حدثنا موسى بن يعقوب عن هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن عبد الله بن وهب بن زمعة، أخبرتني أم سلمة أن رسول الله ﷺ اضطجع ذات يوم فاستيقظ وهو خاثر، ثم اضطجع فرقد، ثم استيقظ وهو خاثر دون ما رأيت منه في المرة الأولى، ثم اضطجع واستيقظ وفي يده تربة حمراء وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله؟ فقال: «أخبرني جبريل أن هذا يقتل بأرض العراق -للحسين- قلت له: «يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها».

ثم قال البيهقي: تابعه موسى الجهني عن صالح بن أربد النخعي عن أم سلمة، وأبان عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده» [كشف الأستار ٢٦٤٠]: حدثنا إبراهيم بن يوسف الصيرفي، حدثنا الحسين بن عيسى، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كان الحسين جالساً في حجر النبي ﷺ فقال جبريل: أتحبه؟ فقال: وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي؟» فقال: أما إنّ أمتك ستقتله، ألا أريك من موضع قبره؟ فقبض قبضةً فإذا تربة حمراء ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد، والحسين بن عيسى قد حدث عن الحكم بن أبان بأحاديث لا نعلمها عند غيره.

قلت: هو الحسين بن عيسى بن مسلم الحنفي أبو عبد الرحمن الكوفي أخو سليم القاري، قال فيه البخاري: مجهول - يعني مجهول الحال - وإلا فقد روى عنه تسعة نفر، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، روى عن الحكم بن أبان أحاديث منكرة، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال ابن عدي: قليل الحديث، وعامة حديثه غرائب، وفي بعض أحاديثه المنكرات.

وروى البيهقي [دلائل ٦/٤٦٨، ٤٦٩] عن الحكم وغيره عن أبي الأحوص عن محمد بن الهيثم القاضي: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار شداد بن عبد الله عن أم الفضل بنت الحارث أنها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني رأيت حلماً منكراً الليلة، قال: «وما هو؟» قالت: إنه شديد. قال: «وما هو» قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. قال: «رأيت خيراً، تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك»، فولدت فاطمة الحسين، فكان في حجري كما قال رسول الله ﷺ، فدخلت يوماً على رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان الدموع، قالت: قلت يا نبي الله بأبي أنت وأمي، مالك؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: هذا؟ قال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء».

وقد روى الإمام أحمد [٦/٣٣٩، ٣٤٠] عن عفان عن وهيب عن أيوب عن صالح أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم الفضل قالت: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني رأيت في منامي أن في بيتي أو حجري عضواً من أعضائك، قال: «تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فتكفلينه»، فولدت له فاطمة حسيناً، فدفعته إليها فأرضعته بلبن قثم، فأتيت به رسول الله ﷺ يوماً أزوره، فأخذه فوضعه على صدره فبال فأصاب البول إزاره، فزخخت بيدي على كتفيه، فقال: «أوجعت ابني أصلحك الله»، أو قال: «رحمك الله»، فقلت: اعطني إزارك أغسله، فقال: «إنما يغسل بول الجارية ويصب على بول الغلام» ورواه أحمد أيضاً [٦/٣٣٩] عن يحيى بن بكير عن إسرائيل عن سماك عن قابوس بن مخارق عن أم الفضل فذكر مثله سواء، وليس فيه الأخبار بقتله فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١/٢٨٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. قال: رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار وهو قائل: أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل التقطه منذ اليوم»، قال: فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم رضي الله عنه.

قال قتادة: قتل الحسين يوم الجمعة، يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف شهر، وهكذا قال الليث وأبو بكر بن عياش والواقدي والخليفة بن خياط وأبو معشر وغير واحد: أنه قتل يوم عاشوراء عام إحدى وستين، وزعم بعضهم أنه قتل يوم السبت، والأول أصح.

وقد ذكروا في مقتله أشياء كثيرة أنها وقعت من كسوف الشمس يومئذ -وهو ضعيف- وتغير آفاق السماء، ولم ينقلب حجر إلا وجد تحته دم، ومنهم من خصص ذلك بحجارة بيت المقدس، وأن الورس استحال رماداً، وأن اللحم صار مثل العلقم وكان فيه النار إلى غير ذلك مما في بعضها نكارة، وفي بعضها احتمال، والله أعلم.

وقد مات رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ولم يقع شيء من هذه الأشياء، وكذلك الصديق بعده، مات ولم يكن شيء من هذا، وكذا عمر بن الخطاب قتل شهيداً وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر، وحصر عثمان في داره وقتل بعد ذلك شهيداً، وقتل علي بن أبي طالب شهيداً يوم الجمعة قبل صلاة الفجر، ولم يكن شيء من هذه الأشياء، والله أعلم.

وقد روى حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمارة عن أم سلمة أنها سمعت الجن تنوح على الحسين بن علي، وهذا صحيح [الطبراني الكبير ٣/١٣٣ (٢٨٦٧)] وقال شهر بن حوشب [تاريخ دمشق ١٤/٢٣٨]: كنا عند أم سلمة فجاءها الخبر بمقتل الحسين فخرت مغشياً عليها.

وكان سبب قتل الحسين أنه كتب إليه أهل العراق يطلبون منه أن يقدم عليهم ليبايعوه بالخلافة، وكثر تواتر الكتب عليه من العامة ومن ابن عمه مسلم بن عقيل، فلما ظهر على ذلك عبيد الله بن زياد نائب العراق ليزيد بن معاوية، فبعث إلى مسلم بن عقيل فضرب عنقه ورماه من القصر إلى العامة، فتفرق ملؤهم وتبددت كلمتهم، هذا وقد تجهز الحسين من الحجاز إلى العراق، ولم يشعر بما وقع، فتحمل بأهله ومن أطاعه وكانوا قريباً من ثلاثمائة، وقد نهاه عن ذلك جماعة من الصحابة، منهم أبو سعيد، وجابر، وابن عباس، وابن عمر، فلم يطعهم.

وما أحسن ما نهاه ابن عمر عن ذلك، واستدل له على أنه لا يقع ما يريده فلم يقبل، فروى الحافظ البيهقي [دلائل ٦/٤٧٠] من حديث يحيى بن سالم الأسدي، ورواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» عنه، قال: سمعت الشعبي يقول: كان ابن عمر قدم المدينة فأخبر أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين أو ثلاث من المدينة، قال: أين تريد؟ قال العراق ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: إن الله خير نبيه صلى ﷺ بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا، فأبى وقال: هذه كتبهم وبيعتهم، قال: فاعتنقه ابن عمر وقال: أستودعك الله من قتيل، وقد وقع ما فهمه عبد الله بن عمر من ذلك سواء، من أنه لم يل أحد من أهل البيت الخلافة على سبيل الاستقلال ويتم له الأمر، وقد قال ذلك عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب أنه لا يلي أحد من أهل البيت أبداً، ورواه عنهما أبو صالح الخليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ في كتابه «الفتن والملاحم».

قلت: وأما الخلفاء الفاطميون الذين كانوا بالديار المصرية، فإن أكثر العلماء على أنهم أدعياء وعلي بن أبي طالب من أهل البيت، ومع هذا لم يتم له الأمر كما كان للخلفاء الثلاثة قبله، ولا اتسعت يده في البلاد كلها،

ثم تنكدت عليه الأمور، وأما ابنه الحسن رضي الله عنه فإنه لما جاء في جيوشه وتصافى هو وأهل الشام، ورأى أن المصلحة في ترك الخلافة، تركها لله عز وجل، وصيانة لدماء المسلمين، أثابه الله ورضي عنه، وأما الحسين رضي الله عنه فإن ابن عمر لما أشار عليه بترك الذهاب إلى العراق وخالفه، اعتنقه مودعاً له وقال: أستودعك الله من قتيل، وقد وقع ما تفرسه ابن عمر، فإنه لما استقل ذاهباً بعث إليه عبيد الله بن زياد بكتيبة فيها أربعة آلاف يتقدمهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وذلك بعدما استعفاه فلم يعفه، فالتقوا بمكان يقال له كربلاء بالطف، فالتجأ الحسين بن علي وأصحابه إلى مقصبة هنالك، وجعلوها منهم بظهر، وواجهوا أولئك، وطلب منهم الحسين إحدى ثلاث: إما أن يدعوه يرجع من حيث جاء، وإما أن يذهب إلى ثغر من الثغور فيقاتل فيه، أو يتركوه حتى يذهب إلى يزيد بن معاوية فيضع يده في يده. فيحكم فيه بما شاء، فأبوا عليه واحدة منهن، وقالوا: لا بد من قدومك على عبيد الله بن زياد فيرى فيك رأيه، فأبى أن يقدم عليه أبداً، وقاتلهم دون ذلك، فقتلوه رحمه الله، وذهبوا برأسه إلى عبيد الله بن زياد فوضعوه بين يديه، فجعل ينكت بقضيب في يده على ثناياه، وعنده أنس بن مالك جالس، فقال له: يا هذا، ارفع قضيبك، قد طال ما رأيت رسول الله يقبل هذه الثنايا، ثم أمر عبيد الله بن زياد أن يُسار بأهله ومن كان معه إلى الشام، إلى يزيد بن معاوية، ويقال: إنه بعث معهم بالرأس حتى وضع بين يدي يزيد فأنشد حيتئذ قول بعضهم:

نفلق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بتجهيزهم إلى المدينة النبوية، فلما دخلوها تلقتهم امرأة من بنات عبد المطلب ناشرة شعرها، واضعة كفها على رأسها تبكي وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ما ذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بشر في ذوي رحمي

وسنورد هذا مفصلاً في موضعه إذا انتهينا إليه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان، وقد رثاه الناس بمراث كثيرة ومن أحسن ذلك ما أورده الحاكم أبو عبد الله النيسابوري وكان فيه تشيع:

جاؤوا برأسك يا ابن بنت محمد ... متزملاً بدمائه تزميلا
فكأنما بك يا ابن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا ... في قتلك التنزيل والتأويلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

٨٢- ذكر الأخبار عن وقعة الحرة التي كانت في زمن يزيد أيضاً

قال يعقوب بن سفيان: حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثني ابن فليح عن أبيه عن أيوب بن عبد الرحمن عن أيوب بن بشير المعاوي أن رسول الله ﷺ خرج في سفر من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف فاسترجع، فساء ذلك من معه، وظنوا أن ذلك من أمر سفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ما الذي رأيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك ليس من سفركم هذا»، قالوا: فما هو يا رسول الله؟ قال: «يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي»، هذا مرسل، وقد قال يعقوب بن سفيان: قال وهب بن جرير: قالت جويرية: حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾[الأحزاب: ١٤] قال: لأعطوها، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على أهل المدينة، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وتفسير الصحابي في حكم المرفوع عند كثير من العلماء.

وقال نعيم بن حماد في كتاب «الفتن والملاحم» [٤٣٥]: حدثنا أبو عبد الصمد العمي، حدثنا أبو عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أرأيت إن الناس قتلوا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف أنت صانع؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «تدخل بيتك»، قال: قلت: فإن أتى علي؟ قال: «تأتي من أنت منه»، قال: قلت: وأحمل السلاح؟ قال: «إذاً تشرك معهم»، قال: قلت: فكيف أصنع يا رسول الله؟ قال: «إن خفت أن يبهرك شعاع السيف فألق طائفة من ردائك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه» ورواه الإمام أحمد في «مسنده» [١٤٩/٥] عن مرحوم - هو ابن عبد العزيز - عن أبي عمران الجوني، فذكره مطولاً.

قلت: وكان سبب وقعة الحرة أن وفداً من أهل المدينة قدموا على يزيد بن معاوية بدمشق فأكرمهم وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم - وهو عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر - قريباً من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهليهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي من أكبرها ترك الصلاة عن وقتها، بسبب السكر، فاجتمعوا على خلعه، فخلعوه عند المنبر النبوي، فلما بلغه ذلك بعث إليهم سرية، يقدمها رجل يقال له: مسلم بن عقبة، وإنما يسميه السلف: مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غبون هذه الأيام بشراً كثيراً حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها، وزعم بعض علماء السلف أنه قتل في غبون ذلك ألف بكر فالله أعلم.

وقال عبد الله بن وهب عن الإمام مالك: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، حسبت أنه قال: وكان فيهم ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ وذلك في خلافة يزيد.

وقال يعقوب بن سفيان: سمعت سعيد بن كثير بن عفير الأنصاري يقول: قتل يوم الحرة عبد الله بن يزيد المازني ومعقل بن سليمان الأشجعي، ومعاذ بن الحارث القاري، وقتل عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر.

قال يعقوب: وحدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث قال: كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لثلاث بقين من الحجة سنة ثلاث وستين، ثم انبعث مسرف بن عقبة إلى مكة قاصداً عبد الله بن الزبير ليقتله بها؛ لأنه فر من بيعة يزيد، فمات يزيد بن معاوية في غبون ذلك، واستفحل أمر عبد الله بن الزبير في الخلافة بالحجاز، ثم أخذ العراق ومصر، وبويع بعد يزيد لابنه معاوية بن يزيد، وكان رجلاً صالحاً، فلم تطل مدته، مكث أربعين يوماً، وقيل عشرين يوماً، ثم مات رحمه الله، فوثب مروان بن الحكم على الشام فأخذها، فبقي تسعة أشهر ثم مات، وقام بعده ابنه عبد الملك بن مروان، فنازعه فيها عمرو بن سعيد بن الأشدق وكان نائباً على المدينة من زمن معاوية وأيام يزيد ومروان، فلما هلك مروان زعم أنه أوصى له بالأمر من بعد ابنه عبد الملك، فضاق به ذرعاً، ولم يزل به حتى

أخذه بعدما استفحل أمره بدمشق فقتله في سنة تسع وستين، ويقال: في سنة سبعين، واستمرت أيام عبد الملك حتى ظفر بابن الزبير سنة ثلاث وسبعين، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي عن أمره بمكة، بعد محاصرة طويلة اقتضت أن نصب المنجنيق على الكعبة من أجل أن ابن الزبير لجأ إلى الحرم، فلم يزل به حتى قتله، ثم عهد في الأمر إلى بنيه الأربعة بعده الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام بن عبد الملك.

وقد قال الإمام أحمد [٣٢٦/٦]: حدثنا أسود ويحيى بن أبي بكير، حدثنا كامل أبو العلاء، سمعت أبا صالح -وهو مولى ضباعة- المؤذن واسمه مينا - قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من رأس السبعين، وإمارة الصبيان»، وقال: «لا تذهب الدنيا حتى تصير اللكع ابن لكع»، وقال الأسود: يعني اللئيم ابن اللئيم، وقد روى الترمذي [٢٣٣١] من حديث أبي كامل عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين سنة»، ثم قال: حسن غريب.

وقد روى الإمام أحمد [٣٨٥/٢] عن عفان وعبد الصمد عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد: حدثني من سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليرتقين وقال عبد الصمد في روايته: «ليرعفن جبّار من جبابرة بني أمية على منبري هذا» زاد عبد الصمد «يسيل رعافه»، قال: فحدثني من رأى عمرو بن سعيد بن العاص: يرعف على منبر النبي ﷺ حتى سال رعافه.

قلت: علي بن زيد بن جدعان في روايته غرابة ونكارة وفيه تشيع، وعمرو بن سعيد هذا، يقال له: الأشدق، كان من سادات المسلمين وأشرافهم، رأى النبي ﷺ وروى عن جماعة من الصحابة، منهم في «صحيح مسلم» [٢٨٨] عن عثمان في فصل الطهور، وكان نائباً على المدينة لمعاوية ولابنه يزيد بعده، ثم استفحل أمره حتى كاد يصاول عبد الملك بن مروان، ثم خدعه عبد الملك حتى ظفر به فقتله في سنة تسع وستين، أو سنة سبعين، فالله أعلم، وقد روى عنه من المكارم أشياء كثيرة من أحسنها أنه لما حضرت الوفاة قال لبنيه، وكانوا ثلاثة، عمرو هذا، وأمية، وموسى، فقال لهم: من يتحمل ما علي؟ فبدر ابنه عمرو هذا وقال: أنا يا أبه، وما عليك؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: نعم، قال: وأخواتك لا تزوجهن إلا بالأكفاء ولو أكلن خبز الشعير، قال: نعم، قال: وأصحابي من بعدي، إن فقدوا وجهي فلا يفقدوا معروفي، قال: نعم، قال: أما لئن، قلت ذلك، فلقد كنت أعرفه من حماليق وجهك وأنت في مهدك.

وقد ذكر البيهقي [دلائل ٤٧٦/٦، ٤٧٧] من طريق عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن حرملة بن عمران عن أبيه عن يزيد بن أبي حبيب أنه سمعه يحدث عن محمد بن يزيد بن أبي زياد الثقفي، قال: اصطحب قيس بن خرشة وكعب حتى إذا بلغا صفين، وقف كعب الأحبار فذكر كلامه فيما يقع هناك من سفك دماء المسلمين، وأنه يجد ذلك في التوراة، وذكر عن قيس بن خرشة أنه بايع رسول الله ﷺ على أن يقول الحق، وقال: «يا قيس عسى أن يمد بك الدهر حتى يليك بعدي من لا تستطيع أن تقول بالحق معهم، فقال: والله لا أبايعك على شيء إلا وفيت لك به، فقال له رسول الله ﷺ: «إذاً لا يضرك بشر»، فبلغ قيس إلى أيام عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، فنقم عليه عبيد الله في شيء فأحضره فقال: أنت الذي تزعم أنه لا يضرك بشر؟ قال: نعم، قال: لتعلمن اليوم أنك قد كذبت، ائتوني بصاحب العذاب، قال: فمال قيس عند ذلك فمات.

٨٣- التنبؤ بذهاب بصرهِ في آخرِ عمره

روى البيهقي [دلائل٤٦٨/٦] من طريق الدراوردي عن ثور بن زيد عن موسى بن ميسرة: أن بعض بني عبد الله سايره في بعض طريق مكة، قال: حدثني العباس بن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ في حاجة، فوجد عنده رجلاً فرجع ولم يكلمه من أجل مكان الرجل، فلقي العباس رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال: «ورآه؟» قال: نعم، قال: «أتدري من ذلك الرجل؟» ذاك جبريل، ولن يموت حتى يذهب بصره ويؤتى علماً»، وقد مات ابن عباس سنة ثمان وستين بعد ما عمي رضي الله عنه.

وروى البيهقي [دلائل٤٧٩/٦] من حديث المعتمر بن سليمان، حدثتنا نباتة بنت بريد عن حمادة عن أنيسة بنت زيد بن أرقم عن أبيها، أن رسول الله ﷺ دخل على زيد يعوده في مرض كان به، قال: «ليس عليك من مرضك بأس، ولكن كيف بك إذا عمرت بعدي فعميت؟» قال: إذاً أحتسب وأصبر، قال: «إذاً تدخل الجنة بغير حساب»، قال: فعمي بعد ما مات رسول الله ﷺ، ثم رد الله عليه بصره ثم مات.

٨٤- الإخبار عن الكذابين بين يدي الساعةِ

وثبت في «الصحيحين» [خ: ٣٦٠٩] [م ١٥٧ (٨٤)] عن أبي هريرة، وعند مسلم [٢٩٢٣ (٨٣)] عن جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا دجالاً، كلهم يزعم أنه نبي».

وقال البيهقي [دلائل ٤٨٠/٦، ٤٨١] عن الماليني عن بن عدي عن أبي يعلى الموصلي: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن الحسن الأسدي، حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً، منهم مسيلمة، والعنسي، والمختار». وشر قبائل العرب بنو أمية وبنو حنيفة وثقيف، قال ابن عدي: محمد بن الحسن له إفرادات، وقد حدث عنه الثقات، ولم أر بحديثه بأساً، وقال البيهقي: لحديثه في المختار شواهد صحيحة، ثم أورد من طريق أبي داود الطيالسي [دلائل٤٨١/٦] [مسند أبي داود: ١٦٤١]، حدثنا الأسود بن شيبان عن أبي نوفل بن أبي عقرب عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت للحجاج بن يوسف: أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابا ومبيراً، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه، قال: ورواه مسلم [٢٥٤٥] من حديث الأسود بن شيبان، وله طرق عن أسماء وألفاظ سيأتي إيرادها في موضعه.

وقال البيهقي [دلائل٤٨١/٦، ٤٨٢]: أنا الحاكم وأبو سعيد عن الأصم عن عباس الدوري عن عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي المحيّاة، عن أبيه قال لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير دخل الحجاج على أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أمه، إن أمير المؤمنين أوصاني بك، فهل لك من حاجة؟ فقالت: لست لك بأم، ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، وما لي من حاجة، ولكن انتظر حتى أحدثك بما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير»، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت، فقال الحجاج: مبير المنافقين.

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (١٩٢٥)]: حدثنا شريك عن أبي علوان - عبد الله بن عصمة - عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً»، وقد تواتر خبر المختار بن أبي عبيد الكذاب الذي كان نائباً على العراق وكان يزعم أنه نبي، وأن جبريل يأتيه بالوحي، وقد قيل لابن عمر وكان زوج أخت المختار صفية: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه. قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود (١٢٨٦)]: حدثنا قرة بن خالد عن عبد الملك بن عمير عن رفاعة بن شداد، قال: كنت أبطنَ شيء بالمختار الكذاب، قال: فدخلت عليه ذات يوم فقال: دخلت وقد قام جبريل قبل من هذا الكرسي، قال: فأهويت إلى قائم السيف -يعني لأضربه- حتى ذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق الخزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء الغدر يوم القيامة» فكففت عنه، وقد رواه أسباط بن نصر وزائدة والثوري عن إسماعيل السدي عن رفاعة بن شداد القِتباني فذكره نحوه [دلائل ٤٨٣/٦].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر الحميدي، حدثنا سفيان بن عيينة عن مجالد عن الشعبي، قال: فاخرت أهل البصرة فغلبتهم بأهل الكوفة، والأحنف ساكت لا يتكلم، فلما رآني غلبتهم أرسل غلاماً له فجاء بكتاب فقال: هاك اقرأ، فقرأته فإذا فيه: من المختار إليه يذكر أنه نبي، قال: يقول الأحنف: أنى فينا مثل هذا؟!

وأما الحجاج بن يوسف فقد تقدم الحديث أنه الغلام المبير الثقفي، وسنذكر ترجمته إذا انتهينا إلى أيامه، فإنه كان نائباً على العراق لعبد الملك بن مروان، ثم لابنه الوليد بن عبد الملك، وكان من جبابرة الملوك، على ما كان فيه من الكرم والفصاحة على ما سنذكره.

وقد قال البيهقي [دلائل ٤٨٧/٦، ٤٨٨]: حدثنا الحاكم عن أبي النضر الفقيه، حدثنا عثمان بن سعيد الدارمي، قال عبد الله بن صالح المصري أن معاوية بن صالح حدثه عن شريح بن عبيد عن أبي عذبة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فأخبره أن أهل العراق قد حصبوا أميرهم، فخرج غضبان فصلى لنا الصلاة فسها فيها حتى جعل الناس يقولون: سبحان الله، سبحان الله، فلما سلم أقبل على الناس فقال: من ههنا من أهل الشام؟ فقام رجل ثم قام آخر، ثم قمت أنا ثالثا أو رابعاً، فقال: يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ، اللهم إنهم قد لبسوا علي فألبس عليهم وعجِّل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم أهل الجاهلية، لا يقبل محسنهم، ولا من يتجاوز عن مسيئهم.

قال عبد الله: وحدثني ابن لهيعة بمثله، قال: وما ولد الحجاج يومئذ، ورواه الدارمي أيضاً عن أبي اليمان عن جرير بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن أبي عذبة الحمصي عن عمر فذكر مثله، قال أبو اليمان: علم عمر أن الحجاج خارج لا محالة، فلما أغضبوه استعجل لهم العقوبة.

قلت: فإن كان هذا نقله عمر عن رسول الله ﷺ فقد تقدم له شاهد عن غيره، وإن كان عن تحديث، فكرامة الولي معجزة لنبيه.

وقال عبد الرزاق: أنا جعفر ـ يعني ابن سليمان ـ عن مالك بن دينار عن الحسن قال: قال علي لأهل الكوفة: اللهم كما ائتمنتهم فخانوني، ونصحت لهم فغشوني، فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال، يأكل خضرتها، ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية، قال: يقول الحسن: وما خلق الحجاج يومئذ، وهذا منقطع.

وقد رواه البيهقي [دلائل ٤٨٨/٦] أيضاً من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي بن أبي طالب أنه قال: الشاب الذيال أمير المصرين، يلبس فروتها، ويأكل خضرتها، ويقتل أشراف أهلها، يشتد منه الفَرَق، ويكثر منه الأرق، ويسلطه الله على شيعته، وله [دلائل ٤٨٩/٦] من حديث يزيد بن هارون: أنا العوام بن حوشب، حدثني حبيب بن أبي ثابت قال: قال علي لرجل: لا مِتّ حتى تدرك فتى ثقيف، فقيل: يا أمير المؤمنين وما فتى ثقيف؟ فقال: ليقالن له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جهنم رجل يملك عشرين سنة أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه.

وهذا معضل، وفي صحته عن علي نظر والله أعلم.

وقال البيهقي [دلائل ٤٨٩/٦] عن الحاكم عن الحسين بن الحسن بن أيوب عن أبي حاتم الرازي عن عبد الله بن يوسف التنيسيّ، حدثنا هشام بن يحيى الغساني قال: قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وجئناهم بالحجاج لغلبناهم.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم عن بن أبي النجود: ما بقيت لله حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج.

وقال عبد الرزاق: عن معمر عن ابن طاوس أن أباه لما تحقق موت الحجاج تلا قوله تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قلت: وقد توفي الحجاج سنة خمس وتسعين.

٨٥- ذكر الإشارة النبوية إلى دولة عمر بن عبد العزيز تاج بني أمية

قد تقدم حديث أبي إدريس الخولاني عن حذيفة قال: وتنكر سألت رسول الله ﷺ: هل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن». قلت وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر» الحديث. فحمل البيهقي وغيره هذا الخير الثاني على أيام عمر بن عبد العزيز.

وروى [دلائل ٤٩١/٦] عن الحاكم عن الأصم عن العباس بن الوليد بن مزيد عن أبيه قال: سئل الأوزاعي عن تفسير حديث حذيفة حين سأل رسول الله ﷺ عن الشر الذي يكون بعد ذلك الخير فقال الأوزاعي: هي الردة التي كانت بعد وفاة رسول الله ﷺ، قال الأوزاعي: وفي مسألة حذيفة: «فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن» قال الأوزاعي: فالخير الجماعة، وفي ولاتهم من تُعرف سيرته، وفيهم من تُنكر سيرته. قال: فلم يأذن رسول الله ﷺ في قتالهم ما صلوا الصلاة.

وروى أبو داود الطيالسي عن داود الواسطي، وكان ثقة، عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير بن سعد عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم في النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون جبرية ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، قال: فقدم عمر بن عبد العزيز ومعه يزيد بن النعمان، فكتبت إليه أذكره الحديث وكتبت إليه أقول: إني أرجو أن تكون أمير المؤمنين بعد الجبرية، قال: فأخذ يزيد الكتاب فأدخله على عمر فسر به

وأعجبه.

وقال نعيم بن حماد [الفتن (٢٩١)]: حدثنا روح بن عبادة عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قال عمر بن عبد العزيز: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فقال لي: «ادنه» فدنوت حتى قمت بين يديه، فرفع بصره إليّ وقال: «أما إنك ستلي أمر هذه الأمة وستعدل عليهم» وسيأتي في الحديث الآخر إن شاء الله أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. وقد قال كثير من الأئمة: إنه عمر بن عبد العزيز، فإنه توفيّ سنة إحدى ومائة.

وقال البيهقي [دلائل٦/٤٩٢]: أنا الحاكم، أنا أبو حامد أحمد بن علي المقرىء، حدّثنا أبو عيسى، حدّثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية ابن أسماء عن نافع عن ابن عمر قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلا بوجهه شين يلي فيملأ الأرض عدلا، قال نافع من قبله: ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز، وقد رواه نعيم بن حماد عن عثمان ابن عبد الحميد [الفتن (٢٩٠)]، ولهذا طرق عن ابن عمر أنه كان يقول: ليت شعري، من هذا الذي من ولد عمر بن الخطاب في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً؟

وقد روي ذلك عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب نحواً من هذا [دلائل ٦/٤٩٣]، وقد كان هذا الأمر مشهوراً قبل ولايته وميلاده بالكلية أنه يلي رجل من بني أمية يقال له: أشج بني مروان.

وكانت أمه أروى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكان أبوه عبد العزيز بن مروان نائباً لأخيه عبد الملك على مصر، وكان يكرم عبد الله بن عمر، ويبعث إليه بالتحف والهدايا والجوائز فيقبلها، وبعث إليه مرة بألف دينار فأخذها، وقد دخل عمر بن عبد العزيز يوماً إلى إصطبل أبيه وهو صغير، فرمحه فرس فشجه في جبينه، فجعل أبوه يسلت عنه الدم ويقول: أما لئن كنت أشج بني مروان، إنك إذاً لسعيد. وكان الناس يقولون: الأشج والناقص أعدل بني مروان، فالأشج هو عمر بن عبد العزيز، والناقص هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، الذي يقول فيه الشاعر:

رَأَيْتُ اليزيد بن الوليد مباركاً ... شديداً بأعباء الخلافة كاهله

قلت: وقد ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنتين ونصفاً، فملأ الأرض عدلاً، وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي صدقته، وقد حمل البيهقي الدلائل ٦/ ٤٩٣ الحديث المتقدم عن عدي بن حاتم، على أيام عمر بن عبد العزيز، وعندي في ذلك نظر، والله أعلم.

وقد روى البيهقي [دلائل٦/٤٩٣، ٤٩٤] من حديث إسماعيل بن أبي أويس: حدثني أبو معن الأنصاري، ما اسنده قال: بينما عمر بن عبد العزيز يمشي إلى مكة بفلاة من الأرض إذ رأى حية ميتة فقال: عليّ بمحفار. فقالوا: نكفيك أصلحك الله، قال: لا، ثم أخذه فحَفَر له ثم لفه في خرقة ودفنه، فإذا هاتف يهتف لا يَرونَه: رحمة الله عليك يا سرّق، فقال له عمر بن عبد العزيز: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا رجل من الجن وهذا سرق، ولم يبق ممن بايع رسول الله ﷺ غيري وغيره، وأشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «تموت يا سُرّق بفلاة من الأرض ويدفنُك خيرُ أمتي»، وقد روى [دلائل٦/٤٩٤، ٤٩٥] هذا من وجه آخر وفيه: أنهم كانوا تسعة بايعوا رسول الله ﷺ، وفيه أن عمر بن عبد العزيز حلفه، فلما حلف بكى عمر بن عبد العزيز، وقد رجحه البيهقي وحسنه، فالله أعلم.

٨٦- حديث آخر -في صحته نظر- في ذكر وهب بن منبه بالمدح، وذكر غيلان بالذم

روى البيهقي [دلائل٦/٤٩٦] من حديث هشام بن عمار وغيره عن الوليد بن مسلم عن مروان بن سالم القرقسانيّ عن الأحوص بن حكيم عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أمتي رجل يقال له: وهب، يهب الله له الحكمة، ورجل يقال له: غيلان، هو أضرُ على أمتي من إبليس»، وهذا لا يصح لأن مروان بن سالم هذا متروك.

وبه إلى الوليد: حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «ينعق الشيطان بالشام نعقة يكذب ثلثاهم بالقدر»، قال البيهقي: وفي هذا إن صحّ إشارة إلى غيلان وما ظهر بالشام بسببه من التكذيب بالقدر حتى قتل.

٨٧- الإشارة إلى محمد بن كعب القرظي وعلمه بتفسير القرآن وحفظه

قال حرملة عن ابن وهب: أخبرني أبو صخر عن عبد الله بن مغيث عن أبي بردة الظفري عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج في أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسةً لا يدرسها أحد يكون من بعده».

وروى البيهقي [دلائل ٦/ ٤٩٨] عن الحاكم عن الأصم عن إسماعيل القاضي، حدّثنا أبو ثابت، حدّثنا ابن وهب، حدثني عبد الجبار بن عمر عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد غيره» قال: فكانوا يرون أنه محمد بن كعب القرظي، قال أبو ثابت: الكاهنان، قريظة والنضير.

وقد روي [دلائل ٦/٤٩٨، ٤٩٩] من وجه آخر مرسل: «يخرج من الكاهنين رجل أعلم الناس بكتاب الله»، وقد قال عون بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من محمد بن كعب القرظي.

٨٨- ذكر الإخبار بانخرام قرنه ﷺ بعد مائة سنة من ليلة إخباره فكان كما أخبر

ثبت في «الصحيحين» [خ ١١٦] [م ٢٥٣٧ (٢١٧)] من حديث الزهري عن سالم وأبي بكر بن سليمان بن أبي حيثمة عن عبد الله بن عمر قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة في آخر عمره، فلما سلم قام فقال: «أرايتكم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنةٍ منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد». قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ، إلى ما تحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن، وفي رواية: إنما أراد رسول الله ﷺ انخرام قرنه.

وفي «صحيح مسلم» [٢٥٣٨ (٢١٨)] من حديث ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بشهر: «يسألون عن الساعة، وإنما علمها عند الله، فاقسم بالله ما

على ظهر الأرض من نفس منفوسة اليوم، يأتي عليها مائة سنة».

وهذا الحديث وأمثاله مما يحتج به من ذهب من الأئمة إلى أن الخضر ليس بموجود الآن، كما قدمنا ذلك في ترجمته في قصص الأنبياء عليهم السلام، وهو نص على أن جميع الأحياء في الأرض يموتون إلى تمام مائة سنة من إخباره عليه السلام، وهكذا وقع سواء فإنه لم يتأخر أحد من أصحابه إلى ما يجاوز هذه المدة، وكذلك جميع الناس، ثم قد طرد بعض العلماء هذا الحكم في كل مائة سنة، وليس في الحديث تعرض لهذا، والله أعلم.

حديث آخر:

قال محمد بن عمر الواقدي [دلائل ٥٠٣/٦]: حدثني شريح بن يزيد عن إبراهيم بن محمد بن زياد الألهاني عن أبيه عن عبد الله بن بسر، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: «هذا الغلام يعيش قرناً» قال: فعاش مائة سنة، وقد رواه البخاري [المصنف]

في «التاريخ» [التاريخ الكبير ٣٢٣/١] عن أبي حيوة شريح بن يزيد به فذكره، قال: وزاد غيره: وكان في وجهه ثالول، فقال: «ولا يموت حتى يذهب الثالول من وجهه»، فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه، وهذا إسناد على شرط السنن، ولم يخرجوه، ورواه البيهقي عن الحاكم عن محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى عن الفضل بن محمد الشعراني، حدثنا حيوة بن شريح عن إبراهيم بن محمد بن زياد الألهاني عن أبيه عن عبد الله بن بُسْر، أن رسول الله ﷺ قال له: «يعيش هذا الغلام قرناً»، فعاش مائة سنة. قال الواقدي وغير واحد: توفي عبد الله بن بسر بحمص سنة ثمان وثمانين عن أربع وتسعين، وهو آخر من بقي من الصحابة بالشام.

٨٩- ذكر الأخبار عن الوليد بما فيه له من الوعيد الشديد

وإن صح فهو الوليد بن يزيد لا الوليد بن عبد الملك باني الجامع السعيد

قال يعقوب بن سفيان [دلائل ٥٠٥/٦، ٥٠٦]: حدثني محمد بن خالد بن العباس السكسكي، حدثني الوليد بن مسلم، حدثني أبو عمرو الأوزاعي عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: ولد لأخي أم سلمة غلام فسموه الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «قد جعلتم تسمون بأسماء فراعنتكم، إنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له: الوليد، هو أضر على أمتي من فرعون على قومه».

قال أبو عمر والأوزاعي: فكان الناس يرون أنه الوليد بن عبد الملك، ثم رأينا أنه الوليد بن يزيد، لفتنة الناس به، حين خرجوا عليه فقتلوه، وانفتحت الفتنة على الأمة والهرج.

وقد رواه البيهقي عن الحاكم، وغيره عن الأصم عن سعيد بن عثمان التنوخي عن بشر بن بكر عن الأوزاعي عن الزهري عن سعيد [دلائل ٥٠٥/٦]، فذكره ولم يذكر قول الأوزاعي، ثم قال: وهذا مرسل حسن.

وقد رواه نعيم بن حماد [الفتن ٣٢٨] عن الوليد بن مسلم به، وعنده قال الزهري: إن استخلف الوليد بن يزيد، فهو هو، وإلا فهو الوليد بن عبد الملك.

وقال نعيم بن حماد [الفتن ٣٢٢]: حدثنا هشيم عن أبي حمزة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «سيكون رجل اسمه الوليد، يسد به ركن من أركان جهنم وزاوية من زواياها» وهذا مرسل أيضاً.

حديث آخر:

قال سليمان بن بلال [دلائل ٥٠٧/٦] عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلاً، اتخذوا دين الله دغلاً، وعباد الله خَوَلاً، ومال الله دولاً» رواه البيهقي من حديثه.

وقال أبو نعيم بن حماد [الفتن ٣١٤]: حدثنا بقية بن الوليد وعبد القدوس عن أبي بكر بن أبي مريم عن راشد بن سعد عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغت بنو أمية أربعين، اتخذوا عباد الله خولا، ومال الله نحلا، وكتاب الله دغلاً» وهذا منقطع بين راشد بن سعد وبين أبي ذر.

وقال إسحاق بن راهويه [دلائل ٥٠٧/٦]: أنا جرير عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا اتخذوا دين الله دغلاً ومال الله دولاً، وعباد الله خولاً» ورواه أحمد عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير به.

وقال البيهقي [دلائل ٥٠٧/٦، ٥٠٨]: أنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمام - وهو محمد بن غالب - حدثنا كامل بن طلحة، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل أن ابن وهب أخبره أنه كان عند معاوية بن أبي سفيان فدخل عليه مروان فكلمه في حاجته فقال: اقض حاجتي يا أمير المؤمنين فوالله إن مؤنتي لعظيمة، وإني لأبو عشرة، وعم عشرة، وأخو عشرة. فلما أدبر مروان - وابن عباس جالس مع معاوية على السرير - قال معاوية: أنشدك بالله يا ابن عباس، أما تعلم أن رسول الله ﷺ قال: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا، وعباد الله خَوَلاً، وكتاب الله دغلاً فإذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة، كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة» فقال ابن عباس: اللّهم نعم. قال: وذكر مروان حاجة له فرد مروان عبد الملك إلى معاوية فكلمه فيها، فلما أدبر عبد الملك قال معاوية: أنشدك بالله يا ابن عباس، أما تعلم أن رسول الله ﷺ ذكر هذا فقال: «أبو الجبابرة الأربعة؟» فقال ابن عباس: اللّهم نعم، وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة شديدة، وابن لهيعة ضعيف.

وقد قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي [دلائل ٥١٢/٦]: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا سعد بن زيد، أخو حماد بن زيد، عن علي بن الحكم البناني عن أبي الحسن عن عمرو بن مرة، وكانت له صحبة، قال: جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على النبي ﷺ، فعرف كلامه فقال: «ائذنوا له، حية، أو ولد حية، عليه لعنة الله، وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين، وقليل ما هم، يشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق».

قال الدارمي: أبو الحسن هذا حمصي.

وقال نعيم بن حماد في «الفتن والملاحم» [الفتن ٣١٠]: حدثنا عبد الله بن مروان المرواني عن أبي بكر بن أبي مريم عن راشد بن سعد أن مروان بن الحكم لما ولد دفع إلى النبي ﷺ ليدعو له، فأبى أن يفعل ثم قال: «ابن

الزرقاء، هلاك أمتي على يديه ويدي ذريته» وهذا حديث مرسل.

٩٠- ذكر الإخبار عن خلفاء بني أمية جملة من جملة والإشارة إلى مدة دولتهم

قال يعقوب بن سفيان [دلائل ٥١١/٦]: حدّثنا أحمد بن محمد أبو محمد الزرقي، حدّثنا الزنجي - يعني مسلم بن خالد - عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت في المنام بني الحكم - أو بني أبي العاص - ينزون على منبري كما تنزو القردة» قال: فما رُئيَ رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي.

وقال الثوري [دلائل ٥٠٩/٦]: عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على منبره فساءه ذلك، فأوحى إليه: إنما هي دنيا أعطوها، فقرت به عينه وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يعني بلاءً للناس. علي بن زيد بن جدعان ضعيف، والحديث مرسل أيضاً.

وقال أبو داود الطيالسي [لم نجده في المسند]: حدّثنا القاسم بن الفضل - هو الحداني - حدّثنا يوسف بن مازن الراسبي قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية، فقال يا مسود وجوه المؤمنين. فقال الحسن: لا تؤنبني رحمك الله، فإن رسول الله ﷺ رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً، فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] - يعني نهراً في الجنة - ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣] تملكه بنو أمية. قال القاسم: فحسبنا ذلك فإذا هو ألف شهر لا يزيد يوماً ولا ينقص يوماً.

وقد رواه الترمذي [٣٣٥٠] وابن جرير الطبري [٣٠/ ٢٦٠]، والحاكم في مستدركه [١٧١/١٧٠/٣]، والبيهقي في «دلائل النبوة» [٥٠٩/٦، ٥١٠]. كلهم من حديث القاسم بن الفضل الحداني، وقد وثقه يحيى بن سعيد القطان، وابن مهدي، عن يوسف بن سعد، ويقال: يوسف بن مازن الراسبي، وفي رواية ابن جرير عيسى بن مازن، قال الترمذي: وهو رجل مجهول، وهذا الحديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. فقوله: إن يوسف هذا مجهول، مشكل، والظاهر أنه أراد أنه مجهول الحال، فإنه قد روى عنه جماعة، منهم حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد، وقال يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عنه قال: هو ثقة، فارتفعت الجهالة عنه مطلقاً.

قلت: ولكن في شهوده قضية الحسن ومعاوية نظر، وقد يكون أرسلها عمن لا يعتمد عليه، والله أعلم، وقد سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي رحمه الله عن هذا الحديث فقال: هو حديث منكر.

وأما قول القاسم بن الفضل رحمه الله: إنه حسب دولة بني أمية فوجدها ألف شهر، لا تزيد يوماً ولا تنقصه، فهو غريب جداً، وفيه نظر، وذلك لأنه لا يمكن إدخال دولة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت ثنتي عشرة سنة، في هذه المدة، لا من حيث الصورة ولا من حيث المعنى، وذلك أنها ممدوحة؛ لأنه أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وهذا الحديث إنما سيق لذم دولتهم، وفي دلالة الحديث على الذم نظر، وذلك أنه دل على أن ليلة القدر خير من ألف شهر التي هي دولتهم، وليلة القدر ليلة خيرة، عظيمة المقدار والبركة، كما وصفها الله تعالى به، فما يلزم من تفضيلها على دولتهم ذم دولتهم، فليتأمل هذا فإنه دقيق يدل على أن الحديث في صحته نظر؛ لأنه إنما سيق لذم أيامهم والله تعالى أعلم، وأما إذا أراد أن ابتداء دولتهم منذ ولي معاوية حين تسلمها من الحسن بن علي، فقد كان ذلك سنة أربعين، أو إحدى وأربعين، وكان يقال له: عام الجماعة؛ لأن الناس كلهم اجتمعوا على إمام واحد.

وقد تقدم الحديث في «صحيح البخاري»[عن أبي بكرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فتين عظيمتين من المسلمين». فكان هذا في هذا العام، ولله الحمد والمنة. واستمر الأمر في أيدي بني أمية من هذه السنة إلى سنة ثنتين وثلاثين ومائة، حتى انتقل إلى بني العباس كما سنذكره، ومجموع ذلك ثنتان وتسعون سنة، وهذا لا يطابق ألف شهر، لأن معدل ألف شهر ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فإن قال: أنا أخرج منها ولاية ابن الزبير وكانت تسع سنين، فحينئذ يبقى ثلاث وثمانون سنة.

فالجواب أنه وإن خرجت ولاية ابن الزبير، فإنه لا يكون ما بقي مطابقاً لألف شهر تحديداً، بحيث لا ينقص يوماً ولا يزيده، كما قاله، بل يكون ذلك تقريباً، هذا وجه. الثاني: أن ولاية ابن الزبير كانت بالحجاز والأهواز والعراق في بعض أيامه، وفي مصر في قول، ولم تتسلب يد بني أمية من الشام أصلاً، ولا زالت دولتهم بالكلية في ذلك الحين، الثالث: أن هذا يقتضي دخول دولة عمر بن عبد العزيز في حساب بني أمية، ومقتضى ما ذكره أن تكون دولته مذمومة، وهذا لا يقوله أحد من أئمة الإسلام، وإنهم مصرحون بأنه أحد الخلفاء الراشدين، حتى قرنوا أيامه تابعة لأيام الأربعة، وحتى اختلفوا في أيهما أفضل؟ هو أو معاوية بن أبي سفيان أحد الصحابة، وقد قال أحمد بن حنبل: لا أرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، فإذا علم هذا، فإن أخرج أيامه من حسابه انخرم حسابه، وإن أدخلها فيه مذمومة، خالف الأئمة، وهذا ما لا محيد عنه، وكل هذا مما يدل على نكارة هذا الحديث والله أعلم.

وقال نعيم بن حماد [الفتن ٥٢٠]: حدثنا سفيان عن العلاء بن أبي العباس، سمع أبا الطفيل، سمع علياً يقول: لا يزال هذا الأمر في بني أمية ما لم يختلفوا بينهم. حدثنا ابن وهب عن حرملة بن عمران عن سعيد بن سالم عن أبي سالم الجيشاني سمع علياً يقول: الأمر لهم حتى يقتلوا قتيلهم، ويتنافسوا بينهم، فإذا كان ذلك بعث الله عليهم أقواماً من المشرق فقتلوهم بدداً ويحصروهم عدداً، والله لا يملكون سنة إلا ملكنا سنتين، ولا يملكون سنتين إلا ملكنا أربعاً.

وقال نعيم بن حماد [الفتن ٥٣٠]: حدثنا الوليد بن مسلم عن حصين بن الوليد عن الأزهر بن الوليد سمعت أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول: إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً، ما لم تزل طاعة يستخف بها، ودم مسفوك بغير حق - يعني الوليد بن يزيد - ومثل هذه الأشياء إنما تقال عن توقيف.

٩١- ذكر الإخبار عن دولة بني العباس

وكان أول ظهورهم من خراسان بالرايات السود في سنة ثنتين وثلاثين ومائة

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ ٥٣٥/١]: حدثني محمد بن خالد

بن العباس، حدّثنا الوليد بن مسلم، حدثني أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطي عن أبان بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال: قدم عبد الله بن عباس على معاوية وأنا حاضر، فأجازه فأحسن جائزته، ثم قال: يا أبا العباس هل لكم دولة؟ فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، فقال: لتخبرني. قال: نعم. فأخبره، قال: فمن أنصاركم؟ قال: أهل خراسان، ولبني أمية من بني هاشم نطحات. رواه البيهقي، وقال ابن عدي: أنا محمد بن عبده بن حرب، حدّثنا سويد بن سعيد، أنا حجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: مررت بالنبي ﷺ وإذا معه جبريل، وأنا أظنه دحية الكلبي، فقال جبريل للنبي ﷺ: «إنه لوسخ الثياب وسيلبس ولده من بعده السواد». وذكر تمام الحديث في ذهاب بصره، ثم عوده إليه قبل موته، قال البيهقي: تفرد به حجاج بن تميم وليس بالقوي.

وقال البيهقي [دلائل٦/٥١٨]: أخبرنا الحاكم، ثنا أبو بكر بن إسحاق وأبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه في آخرين قالوا: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدّثنا يحيى بن معين، حدّثنا عبيد الله أحمد بن أبي قرة، حدّثنا الليث بن سعيد عن أبي فضيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال: سمعت العباس قال كنت عند النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «انظر هل ترى في السماء من شيء؟» قلت: نعم، قال: «ما ترى؟» قلت: الثريا، قال: «أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك». قال البخاري [التاريخ الكبير ٢/٦]: عبيد بن أبي قرة بغدادي سمع الليث، لا يتابع على حديثه في قصة العباس.

وروى البيهقي [دلائل ٦/٥١٧] من حديث محمد بن عبد الرحمن العامري - وهو ضعيف - عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «فيكم النبوة وفيكم الملك».

وقال أبو بكر بن خيثمة [دلائل ٦/٥١٧]: حدّثنا يحيى بن معين، حدّثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي معبد قال: قال ابن عباس: كما فتح الله بأولنا فأرجو أن يختمه بنا. هذا إسناد جيد، وهو موقوف على ابن عباس من كلامه.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ ١/٥٣٥]: حدثني إبراهيم بن أيوب، حدّثنا الوليد، حدّثنا عبد الملك بن حميد عن أبي غنيّة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عباس ونحن نقول: اثنى عشر أميراً واثْنَيْ عشر أميراً، ثم هي الساعة، فقال ابن عباس: ما أحمقكم؟! إن منا أهل البيت بعد ذلك، المنصور، والسفاح، والمهدي، يدفعها إلى عيسى ابن مريم. وهذا أيضاً موقوف.

وقد رواه البيهقي [دلائل٦/٥١٤] من طريق الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً: منا السفاح، والمنصور، والمهدي. وهذا إسناد ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس شيئاً على الصحيح، فهو منقطع والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق عن الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتل عند كنزكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة، لا يصير إلى واحد منهم، ثم تقبل الرايات السود من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم تروا مثلها، ثم يجيء خليفة الله المهدي، فاذا سمعتم فأتوه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي». أخرجه ابن ماجه [٤٠٨٤] عن أحمد بن يوسف السلمي، ومحمد بن يحيى الذهلي، كلاهما عن عبد الرزاق به، ورواه البيهقي [دلائل ٦/٥١٥] من طرق عن عبد الرزاق، ثم قال: تفرد به عبد الرزاق.

قال البيهقي [دلائل٦/٥١٥]: ورواه عبد الوهاب بن عطاء عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أسماء موقوفاً، ثم قال البيهقي [دلائل ٦/٥١٥]: أنا علي بن أحمد بن عبدان، أنا أحمد بن عبيد الصفار، حدّثنا محمد بن غالب، حدّثنا كثير بن يحيى، حدّثنا شريك عن علي بن زيد عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبلت الرايات السود من عقب خراسان فأتوها ولو حبواً على الثلج، فإن فيها خليفة الله المهدي».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الفضل بن سهل، حدّثنا عبد الله بن داهر الرازي، حدّثنا أبي عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ ذكر فتية من بني هاشم، فاغرَوْرَقت عيناه، وذكر الرايات، قال: فمن أدركها فليأتها ولو حبواً على الثلج، ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن الحكم إلا ابن أبي ليلى، ولا نعلم يروى إلا من حديث داهر بن يحيى، وهو من أهل الرأي صالح الحديث، وإنما يعرف من حديث يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم.

وقال الحافظ أبو يعلى [مسند ابي يعلى (٥٠٨٤)]: حدّثنا أبو هشام بن محمد يزيد بن رفاعة، حدّثنا أبو بكر بن عياش، حدّثنا يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى أن ثُنّها، يُظهرون العدل ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه». وهذا إسناد حسن.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٦٥]: حدثنا يحيى بن غيلان، وقتيبة بن سعيد، قالا: حدّثنا رشدين بن سعد، قال يحيى بن غيلان في حديثه قال: حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة - هو ابن ذؤيب الخزاعي - عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء».

وقد رواه الترمذي [٢٢٦٩] عن قتيبة به وقال: غريب.

ورواه البيهقي [دلائل ٦/٥١٦] والحاكم من حديث عبد الله بن يوسف عن رشدين بن سعد، وقال البيهقي: تفرد به رشدين بن سعد، وقد روى قريب من هذا عن كعب الأحبار ولعله أشبه والله أعلم.

ثم روي [دلائل ٦/٥١٧] من طريق يعقوب بن سفيان: حدثنا محدِّث عن أبي المغيرة عبد القدوس عن إسماعيل بن عياش عمن حدثه عن كعب الأحبار قال: تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا بالشام، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وكل عدو لهم.

وقال الإمام أحمد [٣/٨٠]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عند انقطاع من الزمان، وظهور من الفتن، رجل يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حَثْياً».

ورواه البيهقي [دلائل٦/٥١٤] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي معاوية، عن الأعمش به، وقال فيه: «يخرج رجل من أهل بيتي يقال له: السفاح»، فذكره، وهذا الإسناد على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

فهذه الأخبار في خروج الرايات السود من خراسان وفي ولاية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقد وقعت ولايته في حدود سنة ثلاثين ومائة، ثم ظهر بأعوانه ومعهم الرايات السود، وشعارهم السواد، كما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وعلى رأسه المغفر وفوقه عمامة سوداء، ثم بعث عمه عبد الله

لقتال بني أمية، فكسرهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهرب من المعركة آخر خلفائهم، وهو مروان بن محمد بن مروان ويلقب بمروان الحمار، ويقال له مروان الجعدي، لاشتغاله على الجعد بن درهم فيما قيل، ودخل عمه دمشق واستحوذ على ما كان لبني أمية من الملك والأملاك والأموال، وجرت خطوب كثيرة سنوردها مفصلة في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقد ورد عن جماعة من السلف في ذكر الرايات السود التي تخرج من خراسان بما يطول ذكره، وقد استقصى ذلك نعيم بن حماد في كتابه [الفتن ٣١٠/١-٣٢٢]، وفي بعض الروايات ما يدل على أنه لم يقع أمرها بعد، وأن ذلك يكون في آخر الزمان، كما سنورده في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري، قال قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكون الدنيا للكع بن لكع»، قال أبو معمر: هو أبو مسلم الخراساني - يعني الذي أقام دولة بني العباس - والمقصود أنه تحولت الدولة من بني أمية إلى بني العباس في هذه السنة، وكان أول قائم منهم أبو العباس السفاح، ثم أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور باني مدينة السلام بغداد، ثم ابنه المهدي محمد بن عبد الله، ثم من بعده ابنه الهادي، ثم ابنه الآخر هارون الرشيد، ثم انتشرت الخلافة في ذريته على ما سنفصله إذا وصلنا إلى تلك الأيام، وقد نطقت هذه الأحاديث التي أوردناها آنفاً بالسفاح والمنصور والمهدي، ولا شك أن المهدي الذي هو ابن المنصور ثالث خلفاء بني العباس، ليس هو المهدي الذي وردت الأحاديث المستفيضة بذكره، وأنه يكون في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وقد أفردنا للأحاديث الواردة فيه جزءاً على حدة، كما أفرد له أبو داود كتاباً في «سننه» [د (٤٢٧٩-٤٢٩٠)]، وقد تقدم في بعض هذه الأحاديث آنفاً أنه يسلم الخلافة إلى عيسى ابن مريم إذا نزل إلى الأرض، والله أعلم.

وأما السفاح فقد تقدم أنه يكون في آخر الزمان، فيبعد أن يكون هو الذي بويع أول خلفاء بني العباس فقد يكون خليفة آخر، وهذا هو الظاهر، فإنه قد روى نعيم بن حماد [الفتن ٢٧٢] عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافري عن تَدوم الحميري سمع تُبَيع بن عامر يقول: يعيش السفاح أربعين سنة اسمه في التوراة طائر السماء.

قلت: وقد تكون صفةً للمهدي الذي يظهر في آخر الزمان لكثرة ما يسفح أي يريق من الدماء لإقامة العدل، ونشر القسط، وتكون الرايات السود المذكورة في هذه الأحاديث إن صحت هي التي تكون مع المهدي، ويكون أول ظهور بيعته بمكة، ثم تكون أنصاره من خراسان، كما وقع قديماً للسفاح، والله تعالى أعلم، هذا كله تفريع على صحة هذه الأحاديث، وإلا فلا يخلو سند منها عن كلام، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

٩٢- ذكر الإخبار عن الأئمة الاثني عشر الذين كلهم من قريش

وليسوا بالاثني عشر الذين يدّعون إمامتهم الرافضة، فإن هؤلاء الذين يزعمون لم يل أمور الناس منهم إلا علي بن أبي طالب وابنه الحسن، وآخرهم في زعمهم المهدي المنتظر في زعمهم بسرداب سامراء وليس له وجود، ولا عين، ولا أثر، بل هؤلاء من الأئمة الاثني عشر المخبر عنهم في الحديث، الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا خلاف بين الأئمة على كلا القولين لأهل السنة في تفسير الاثني عشر كما سنذكره بعد إيراد الحديث.

ثبت في «صحيح البخاري» [خ: ٧٢٢٢] من حديث شعبة، «ومسلم» [م: ١٨٢١ (٦)] من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون اثنا عشر خليفةً»، ثم قال كلمة لم أسمعها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: قال: «كلهم من قريش».

وقال أبو نعيم بن حماد في كتاب «الفتن والملاحم» [الفتن ٢٢٤]: حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بعدي من الخلفاء عدة أصحاب موسى». وقد روى مثل هذا عن عبد الله بن عمر وحذيفة وابن عباس وكعب الأحبار من قولهم [الفتن (٢٢٧-٢٢٩،٢٣١)].

وقال أبو داود [٤٢٧٩]: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليهم اثنا عشر خليفةً -أو أميراً- كلهم تجتمع عليهم الأمة». وسمعت كلاماً من النبي ﷺ لم أفهمه، فقلت لأبي: ما يقول؟ قال: يقول: «كلهم من قريش».

وقال أبو داود أيضاً [٤٢٨١]: حدثنا ابن نفيل، حدثنا زهير بن معاوية، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا الأسود بن سعيد الهمداني عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال هذه الأمة مستقيماً أمرها، ظاهرةً على عدوها، حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»، قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: «ثم يكون الهَرْج»، قال البيهقي: ففي الرواية الأولى بيان العدد، وفي الثانية بيان المراد بالعدد، وفي الثالثة بيان وقوع الهرج وهو القتل بعدهم، وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم وقع الهرج والفتنة العظيمة كما أخبر في هذه الرواية، ثم ظهر ملك العباسيّة، كما أشار إليه في الباب قبله، وإنما يزيدون على العدد المذكور في الخبر، إذا تركت الصفة المذكورة فيه أو عد منهم من كان بعد الهرج المذكور فيه، وقد قال النبي ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان». ثم ساقه [دلائل ٥٢١/٦] من حديث عاصم بن محمد عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ فذكره.

وفي «صحيح البخاري» [٧١٣٩] من طريق الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، قال البيهقي [دلائل ٥٢١/٦]: أي أقاموا معالمه وإن قصروا هم في أعمال انفسهم، ثم ساق أحاديث تقتضي ما ذكره في هذا [دلائل ٥٢١/٦-٥٢٣] والله أعلم، فهذا الذي سلكه البيهقي وقد وافقه عليه جماعة، من أن المراد بالخلفاء الاثني عشر المذكورين في هذا الحديث هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق الذي قدمنا الحديث فيه بالذم والوعيد فإنه مسلك فيه نظر، وبيان ذلك أن الخلفاء إلى زمن الوليد بن يزيد هذا أكثر من اثني عشر على كل تقدير نفرضه، وبرهانه أن الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، خلافتهم محققة بنص حديث سفينة: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»، ثم بعدهم الحسن بن علي كما وقع، لأن علياً أوصى إليه، وبايعه أهل العراق، وركب وركبوا معه لقتال أهل الشام حتى اصطلح هو

ومعاوية وسلَّمها إليه، كما دل عليه حديث أبي بكرة في «صحيح البخاري» [٢٧٠٤]، ثم معاوية، ثم ابنه يزيد بن معاوية، ثم ابنه معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، ثم ابنه الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان بن عبد الملك، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، فهؤلاء خمسة عشر، ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فإن اعتبرنا ولاية ابن الزبير قبل عبد الملك صاروا ستة عشر، وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر قبل عمر بن عبد العزيز، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية، ويخرج منهم عمر بن عبد العزيز، الذي أطبق الأئمة على شكره وعلى مدحه، وعدوه من الخلفاء الراشدين، وأجمع الناس قاطبة على عدله، وأن أيامه كانت من أعدل الأيام حتى الرافضة يعترفون بذلك، فإن قال: أنا لا أعتبر في هذا إلا من اجتمعت الأمة عليه، لزمه على هذا القول أن لا يعد علي بن أبي طالب ولا ابنه، لأن الناس لم يجتمعوا عليهما وذلك أن أهل الشام بكمالهم لم يبايعوهما، وعد حينئذ معاوية وابنه يزيد وابن ابنه معاوية بن يزيد ولم يعتد بأيام مروان ولا ابن الزبير، لأن الأمة لم تجتمع على واحد منهما، فعلى هذا نقول في مسلكه هذا عاداً للخلفاء أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم معاوية ثم يزيد ثم معاوية ثم عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد ثم هشام فهؤلاء اثنا عشر، ثم من بعدهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق، ولكن هذا لا يمكن أن يسلك؛ لأنه يلزم منه إخراج علي وابنه الحسن من هؤلاء الاثني عشر وهو خلاف ما نص عليه أئمة السنة بل والشيعة، ثم هو خلاف ما دل عليه نصاً حديث سفينة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً»، وقد ذكر سفينة تفصيل هذه الثلاثين سنة فجمعها من خلافة الأربعة، وقد بينا دخول خلافة الحسن -وكانت نحواً من ستة أشهر- فيها أيضاً، ثم صار الملك إلى معاوية لما سلم الأمر إليه الحسن بن علي، وهذا الحديث فيه المنع من تسمية معاوية خليفة، وبيان أن الخلافة قد انقطعت بعد الثلاثين سنة لا مطلقاً، بل انقطع تتابعها، ولا ينفي وجود خلفاء راشدين بعد ذلك، كما دل عليه حديث جابر بن سمرة.

وقال نعيم بن حماد [الفتن ٢٢٩]: حدثنا رشدين بن سعد عن ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حذيفة بن اليمان قال: يكون بعد عثمان اثنا عشر ملكاً من بني أمية، قيل له: خلفاء؟ قال: لا بل ملوك.

وقد روى البيهقي [دلائل٦/٥٢٣] من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن أبي بحر قال: كان أبو الجلد جاراً لي، فسمعته يقول يحلف عليه: إن هذه الأمة لن تهلك حتى يكون فيها اثنا عشر خليفة كلهم يعمل بالهدى ودين الحق، منهم رجلان من أهل البيت، أحدهما يعيش أربعين سنة، والآخر ثلاثين سنة، ثم شرع البيهقي في رد ما قاله أبو الجلد بما لا يحصل به الرد وهذا عجيب منه وقد وافق أبا الجلد طائفة من العلماء. ولعل قوله أرجح لما ذكرنا وقد كان ينظر في شيء من الكتب المتقدمة.

وفي التوراة التي بأيدي أهل الكتاب ما معناه: إن الله تعالى بشر إبراهيم بإسماعيل، وإنه ينميه ويكثره ويجعل من ذريته اثنَيْ عشر عظيماً، قال شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية: وهؤلاء المبشر بهم في حديث جابر بن سمرة، وقرر أنهم يكونون مفترقين في الأمة، ولا تقوم الساعة حتى يوجدوا، قال: وغلط كثير ممن تشرف بالإسلام من اليهود فظنوا أنهم الذين تدعو إليهم فرقة الرافضة فاتبعوهم.

وقد قال نعيم بن حماد [الفتن ٢٣١]: حدثنا ضمرة عن ابن شوذب عن أبي المنهال عن أبي زياد عن كعب قال: إن الله وهب لإسماعيل من صلبه اثني عشر قيماً، أفضلهم وخيرهم أبو بكر وعمر وعثمان.

وقال نعيم [الفتن ٥٢]: حدثنا ضمرة عن ابن شوذب عن يحيى بن أبي عمرو السيباني قال: ليس من الخلفاء من لم يملك المسجدين: المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس.

٩٣- ذكر الإخبار عن أمور وقعت في دولة بني العباس إلى زماننا هذا

فمن ذلك بناء أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الخليفة بعد أخيه الخليفة السفاح وهو المنصور لمدينة بغداد، في سنة خمس وأربعين ومائة.

قال نعيم بن حماد في كتابه [الفتن ٥٦٨]: عن أبي المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس أنه أتاه رجل وعنده حذيفة فقال: يا ابن عباس قوله تعالى: ﴿حم. عسق﴾ [الشورى: ١،٢]، فأطرق ساعة وأعرض عنه، ثم كررها فلم يجبه بشيء، فقال له حذيفة: أنا أنبئك، قد عرفت لم كرهها، إنما نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله، أو عبد الله، ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقاً، يجتمع فيهما كل جبار عنيد.

وقال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير ١٠/٣٤٩ (١٠٦٨٥)]: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الله بن السمط، حدثنا صالح بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب، خير له من أن يربي ولداً لصلبه»، قال شيخنا الذهبي [ميزان الاعتدال ٢/٤٣٦]: هذا الحديث موضوع، واتهم به عبد الله بن السمط هذا.

وقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري، في كتابه «الفتن والملاحم» [الفتن ١٣١]: حدثنا أبو عمرو البصري عن أبي بيان المعافري عن تُبَيع عن كعب قال: إذا كانت سنة ستين ومائة انتقص فيها حلم ذوي الأحلام، ورأي ذوي الرأي.

٩٤- حديث آخر: فيه إشارة إلى مالك بن أنس الإمام رحمه الله

روى الترمذي [٢٦٨٠] من حديث ابن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة رواية: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة»، ثم قال: هذا حديث حسن وهو حديث ابن عيينة، وقد روي عنه أنه قال: هو مالك بن أنس، وكذا قال عبد الرزاق.

قلت: وقد توفي مالك رحمه الله سنة تسع وسبعين ومائة.

٩٥- حديث آخر: فيه إشارة إلى محمد بن إدريس الشافعي

قال أبو داود الطيالسي [مسند أبي داود ٣٠٩]: حدثنا جعفر بن سليمان عن النضر بن حميد الكندي أو العبدي عن أبي الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً، اللّهم إنك أذقت أولها وبالاً، فأذق آخرها نوالاً» [مناقب الشافعي ٢٧/١]، وقد رواه الحاكم من طريق أبي هريرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني [مناقب الشافعي ٢٩/١]: هو الشافعي.

قلت: وقد توفي الشافعي رحمه الله في سنة أربع ومائتين وقد أفردنا ترجمته في مجلد وذكرنا معه تراجم أصحابه من بعده.

٩٦- خيركم بعد المئتين خفيف الحاذ

روى رواد ابن الجراح [الكامل ١٠٣٧/٣] عن سفيان الثوري عن منصور عن ربعي عن حذيفة مرفوعاً: «خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ» قالوا: وما خفيف الحاذ يارسول الله؟ قال: «من لا أهل له ولا مال ولا ولد».

٩٧- خير الناس قرني ثم الذين يلونهم

قال ابن ماجه [ق ٤٠٥٧]: حدثنا الحسن بن علي الخلال، حدثنا عون بن عمارة، حدثني عبد الله بن المثنى، حدّثنا ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك عن أبيه عن جده أنس بن مالك عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيات بعد المائتين».

وحدثنا [ق ٤٠٥٨] نصر بن علي الجهضمي،حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عبد الله بن معقل عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «أمتي على خمس طبقات، فأربعون سنة أهل بر وتقوى، ثم الذين يلونهم إلى عشرين ومائة سنة أهل تراحم وتواصل، ثم الذين يلونهم إلى ستين ومائة، أهل تدابر وتقاطع ثم الهرج الهرج النجا النجا».

وحدثنا نصر بن علي، حدثنا حازم أبو محمد العنزي، حدثنا المسور بن الحسن عن أبي معن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أمتي على خمس طبقات كل طبقة أربعون عاماً، فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وإيمان وأما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين، فأهل بر وتقوى»، ثم ذكره نحوه. هذا لفظه وهو حديث غريب من هذين الوجهين، ولا يخلو عن نكارة والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد [٤٢٦/٤]: حدّثنا وكيع عن الأعمش، حدثنا هلال بن يساف عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم يتسمنون يحبون السمن يعطون الشهادة قبل أن يسألوها»، ورواه الترمذي من طريق الأعمش [٢٢٢١، ٢٣٠٢]، وقد رواه البخاري [خ: ٢٦٥١] [م ٢٥٣٥ (٢١٤)] ومسلم [خ: ٢٦٥١] [م ٢٥٣٥ (٢١٤)] من حديث شعبة عن أبي جمرة عن هزدم بن مضرب سمعت عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»، لفظ البخاري.

وقال البخاري [٢٦٥٢]: حدثنا محمد بن كثير، أنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم تجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»، قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار وقد رواه بقية الجماعة إلا أبا داود من طرق متعددة عن منصور به [م ٢٥٣٣ (٢١٠، ٢١١،...)] [النسائي الكبرى ٦٠٣١] [ق ٢٣٦٢] [٣٥٨٩].

٩٨- السابع من مولد العباس

قال نعيم بن حماد [الفتن ٥٩٤]: حدثنا أبو عمرو البصري عن ابن لهيعة عن عبد الوهاب بن حسين عن محمد بن ثابت البناني عن أبيه عن الحارث الهمداني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «السابع من ولد العباس يدعو الناس إلى الكفر فلا يجيبونه، فيقول له أهل بيته: تريد أن تخرجنا من معايشنا؟ فيقول: إني أسير فيكم بسيرة أبي بكر وعمر، فيأبون عليه فيقتله عدو له من أهل بيته من بني هاشم، فإذا وثب عليه اختلفوا فيما بينهم» فذكر اختلافاً طويلاً إلى خروج السفياني، وهذا الحديث ينطبق على عبد الله المأمون الذي دعا الناس إلى القول بخلق القرآن، ووقى الله شرها، كما سنورد ذلك في موضعه، والسفياني رجل يكون آخر الزمان منسوب إلى أبي سفيان يكون من سلالته، وسيأتي في آخر كتاب الملاحم.

٩٩- فتح القسطنطينية

قال الإمام أحمد [١٩٣/٤]: حدثنا هاشم، حدّثنا ليث عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه سمعت أبا ثعلبة الخشني صاحب رسول الله ﷺ أنه سمعه يقول وهو بالفسطاط في خلافة معاوية وكان معاوية أغزى الناس القسطنطينية فقال: والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم إذا رأيت الشام مائدة رجل واحد وأهل بيته فعند ذلك فتح القسطنطينية، هكذا رواه أحمد موقوفا على أبي ثعلبة.

وقد أخرجه أبو داود في «سننه» [٤٣٤٩] من حديث ابن وهب عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»، تفرد به أبو داود.

ثم قال أبو داود [٤٣٥٠]: حدّثنا عمرو بن عثمان، حدّثنا أبو المغيرة حدثني صفوان عن سريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم»، قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة».

تفرد به أبو داود وإسناده جيد، وهذا من دلائل النبوة، فإن هذا يقتضي وقوع تأخير الأمة نصف يوم وهو خمسمائة سنة كما فسره الصحابي، وهو مأخوذ من قوله تعالى [تفسيره ٤٣٦/٥، ٤٣٧]: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ثم هذا الإخبار بوقوع هذه المدة لا ينفي وقوع ما زاد عليها، فأما ما يذكره كثير من الناس من أنه عليه السلام لا يؤلف في قبره، بمعنى لا يمضي عليه ألف سنة من يوم مات إلى حين قيام

الساعة، فإنه حديث لا أصل له في شيء من كتب الإسلام والله أعلم.

١٠٠- ظهور نار بأرض الحجاز

فيه الإخبار عن ظهور النار التي كانت بأرض الحجاز حتى أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، وقد وقع هذا في سنة أربع وخمسين وستمائة.

قال البخاري في «صحيحه» [٧١١٨]: حدّثنا أبو اليمان، حدّثنا شعيب عن الزهري قال: قال سعيد بن المسيب: أخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى» تفرد به البخاري، وقد ذكر أهل التاريخ وغيرهم من الناس، وتواتر وقوع هذا في سنة أربع وخمسين وستمائة.

قال الشيخ الإمام الحافظ شيخ الحديث وإمام المؤرخين في زمانه، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الملقب بأبي شامة في «تاريخه» [ذيل على الروضين ١٢٠-١٩٢]: إنها ظهرت يوم الجمعة في خامس جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، وإنها استمرت شهراً وأزيد منه، وذكر كتباً متواترة عن أهل المدينة، في كيفية ظهورها شرق المدينة من ناحية وادي شظا، تلقاء أحد، وأنها ملأت تلك الأودية، وأنه يخرج منها شرر يأكل الحجارة، وذكر أن المدينة زلزلت بسببها، وأنهم سمعوا أصواتاً مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، أول ذلك مستهل الشهر يوم الاثنين، فلم تزل ليلاً ونهاراً حتى ظهرت يوم الجمعة خامسه فانبجست تلك الأرض عند وادي شظا عن نار عظيمة جداً صارت مثل الوادي طوله أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال وعمقه قامة ونصف، يسيل الصخر حتى يبقى مثل الآنك، ثم يصير كالفحم الأسود، وذكر أن ضوءها يمتد إلى تيماء بحيث كتب الناس على ضوئها في الليل، وكأن في بيت كل منهم مصباحاً، ورأى الناس سناها من مكة شرفها الله.

قلت: وأما بصرى فأخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي قاسم التميمي الحنفي قال: أخبرني والدي، وهو الشيخ صفي الدين مدرس بصرى، أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة تلك الليلة من كان بحاضرة بلد بصرى، أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز.

وقد ذكر الشيخ شهاب الدين [ذيل الروضين ١٩٠-١٩٣] أن أهل المدينة لجؤوا في هذه الأيام إلى المسجد النبوي، وتابوا إلى الله من ذنوب كانوا عليها، واستغفروا عند قبر رسول الله ﷺ عما سلف منهم وأعتقوا الغلمان، وتصدقوا على فقرائهم ومحاويجهم وقد قال قائلهم في ذلك:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا رب بأساءُ
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها ... حملا ونحن بها حقاً أحقاءُ
زلازل تخشع الصم الصلاد لها ... وكيف تقوى على الزلزال صماءُ
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت ... عن منظر منه عين الشمس عشواءُ
بحر من النار تجري فوقه سفن ... من الهضاب لها في الأرض إرساءُ
يرى لها شرر كالقصر طائشة ... كأنها ديمة تنصب هطلاءُ
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت ... رعبا وترعد مثل الشهب أضواءُ
منها تكاثف في الجو الدخان إلى ... أن عادت الشمس منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعة في البدر لفحتها ... فليلة التم بعد النور ليلاءُ
فيالها آيةً من معجزات رسول ... الله يعقلها القوم الألباءُ

إلى آخرها.

ومما قيل في هذه النار مع غرق بغداد في هذه السنة:

سبحان من أصبحت مشيئته ... جاريةً في الورى بمقدارِ
أغرق بغداد بالمياه كما ... أحرق أرض الحجاز بالنارِ

١٠١- صنفان من أهلِ النار

قال الإمام أحمد [٣٠٨/٢]: حدثنا أبو عامر،ثنا أفلح بن سعيد الأنصاري، شيخ من أهل قبا من الأنصار، حدثني عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طالت بك مدة أوشك أن تروا قوماً يغدون في سخط الله ويروحون في لعنته، في أيديهم مثل أذناب البقر»

ورواه مسلم [٢٨٥٧ (٥٣)] عن محمد بن عبد الله بن نمير عن زيد بن الحباب عن أفلح بن سعيد به، وروى مسلم أيضاً [٢١٢٨] عن زهير بن حرب عن جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»، وهذان الصنفان وهما الجلادون الذين يسمون بالرجالة، والجاندارية، كثيرون في زماننا هذا ومن قبله وقبل قبله بدهر، والنساء الكاسيات العاريات أي عليهن لبس لا يواري سوآتهن، بل هو زيادة في العورة، وإبداء للزينة. مائلات في مشيهن مميلات غيرهن إليهن، وقد عم البلاء بهن في زماننا هذا، ومن قبله أيضاً، وهذا من أكبر دلالات النبوة إذ وقع الأمر في الخارج طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وقد تقدم [حديث جابر: «أما إنها ستكون لكم أنماط»، وذكر تمام الحديث في وقوع ذلك واحتجاج امرأته عليه بهذا.

١٠٢- تسليط بعضهم على بعض

روى الإمام أحمد [٤٨٧/٣] عن عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني أبي عن داود بن أبي هند، وأخرجه البيهقي من حديثه [دلائل ٥٢٤/٦] عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو البصري أنه قدم المدينة على رسول الله ﷺ فبينما هو يصلي إذ أتاه رجل فقال: يا رسول الله أحرق بطوننا التمر وتحرقت عنا الخنف، قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «لقد رأيتني وصاحبي مكثنا بضع عشرة ليلة وما لنا طعام غير البرير حتى أتينا إخواننا من الأنصار فآسونا من طعامهم وكان طعامهم التمر، والذي لا إله إلا هو لو قدرت لكم على الخبز واللحم لأطعمتكموه، وسيأتي عليكم زمان أو من أدركه منكم يلبسون مثل أستار الكعبة، ويغدى ويراح عليكم بالجفان»، قالوا: يارسول الله أنحن يومئذ خير أم اليوم؟ قال: «بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقد روى سفيان الثوري [دلائل ٥٢٥/٦] عن يحيى بن سعيد عن أبي

موسى يُخنّسَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم، سلط الله بعضهم على بعض»، وقد أسنده البيهقي [دلائل ٥٢٥/٦] من طريق موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

١٠٣- يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها

قال أبو داود [٤٢٩١]: حدثنا سليمان بن داود المهري، حدّثنا ابن وهب، حدّثنا سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة فيما أعلم عن رسول الله ﷺ: قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةٍ من يجدد لها أمر دينها»، قال أبو داود: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل، تفرد به أبو داود، وقد ذكر كل طائفة من العلماء في رأس كل مائة سنة عالماً من علمائهم يتزلون هذا الحديث عليه.

وقال طائفة من العلماء بل الصحيح أن الحديث يشمل كل فرد فرد من آحاد العلماء في هذه الأعصار ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف كما جاء في الحديث من طرق مرسلة وغير مرسلة [العقيلي في الضعفاء ٩/١، ١٠]: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين»، وهذا موجود ولله الحمد والمنة إلى زماننا هذا، ونحن في القرن الثامن، والله المسؤول أن يختم لنا بخير وأن يجعلنا من عباده الصالحين، ومن ورثة جنة النعيم آمين آمين يا رب العالمين.

وسيأتي الحديث المخرج من «الصحيح»: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، وفي «صحيح البخاري» [٣٦٤١] «وهم بالشام» وقد قال كثير من علماء السلف: إنهم أهل الحديث وهذا أيضاً من دلائل النبوة فإن أهل الحديث بالشام اليوم أكثر من سائر أقاليم الإسلام، ولله الحمد، ولا سيما بمدينة دمشق حماها الله وصانها، كما ورد في الحديث الذي سنذكره أنها تكون معقل المسلمين عند وقوع الفتن.

وفي «صحيح مسلم» [٢٩٣٧] عن النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ أخبر عن عيسى ابن مريم أنه ينزل من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق ولعل أصل لفظ الحديث: على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق وقد بلغني أنه كذلك في بعض الأجزاء ولم أقف عليه إلى الآن والله الميسر. وقد جددت هذه المنارة البيضاء الشرقية بجامع دمشق بعد ما أحرقها النصارى في أيامنا هذه بعد سنة أربعين وسبعمائة من أموال النصارى مقاصة على ما فعلوا من العدوان وفي هذا حكمة عظيمة وهو أن ينزل على هذه المبنية من أموالهم عيسى ابن مريم نبي الله فيكذبهم فيما افتروه عليه من الكذب عليه وعلى الله ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية أي يتركها ولا يقبل من أحد منهم ولا من غيرهم إلا الإسلام، يعني أو يقتله وقد أخبر بهذا عنه رسول الله ﷺ وقرره عليه وسوغه له صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان.

١٠٤- المعجزاتُ المماثلة لمعجزات الأنبياء

التنبيه على ذكر معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله، أو أعلى منها، خارجاً عما اختص به من المعجزات العظيمة التي لم تكن لأحد قبله منهم عليهم السلام.

١٠٥- القرآن العظيم

فمن ذلك القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فإنه معجزة مستمرة على الآباد، ولا يخفى برهانها، ولا ينخفض شأنها، وقد تحدى به الثقلين من الجن والإنس على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة من مثله، فعجزوا عن ذلك كما تقدم تقرير ذلك في أول كتاب المعجزات، وقد سبق الحديث المتفق على إخراجه في «الصحيحين»[من طريق الليث بن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فارجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، والمعنى أن كل نبي أوتي من خوارق العادات ما يقتضي إيمان من رأى ذلك من أولي البصائر والنهى، لا من أهل العناد والشقاء، «وإنما كان الذي أوتيته»، أي جله وأعظمه وأبهره، القرآن الذي أوحاه الله إليه، فإنه لا يبيد ولا يذهب كما ذهبت معجزات الأنبياء وانقضت بانقضاء أيامهم، فلا تشاهد، بل يخبر عنها بالتواتر او الآحاد، بخلاف القرآن العظيم فإنه معجزة متواترة عنه، مستمرة دائمة البقاء بعده، مسموعة لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

وقد تقدم في الخصائص ذكر ما اختص به رسول الله ﷺ عن بقية إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، كما ثبت في «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»، وقد تكلمنا على ذلك وما شاكله فيما سلف بما أغنى عن إعادته ولله الحمد.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كل معجزة لنبي من الأنبياء فهي في الحقيقة معجزة لخاتمهم محمد ﷺ وذلك أن كلا منهم بشر بمبعثه، وأمر بمتابعته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

وقد ذكر البخاري [لم نجده في الصحيح. الطبري في تفسيره ٣٣٢/٣] وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه العهد والميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وليتبعنه، وأمره أن يأخذ العهد على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه».

وذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء؛ لأن الولي إنما نال ذلك ببركة متابعته لنبيه، وثواب إيمانه به.

والمقصود أنه كان الباعث لي على عقد هذا الباب أني وقفت على

مولد اختصره من «سيرة» الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيرهما شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي الأنصاري السماكي، نسبه إلى أبي دجانة سماك بن حرب بن خرشة الأوسي، رضي الله عنه، شيخ الشافعية في زمانه بلا مدافعة، المعروف بابن الزملكاني رحمه الله وبل بالرحمة ثراه، وقد ذكر في أواخره شيئاً من فضائل رسول الله ﷺ وعقد فصلاً في هذا الباب فأورد فيه أشياء حسنة، ونبه على فوائد جمة، وفرائد مهمة، وترك أشياء أخرى حسنة، ذكرها غيره من الأئمة المتقدمين،ولم أره استوعب الكلام إلى آخره، فإما أنه قد سقط من خطه، أو أنه لم يكمل تصنيفه، فسألني بعض أهله من أصحابنا ممن تتأكد إجابته، وتكرر ذلك منه، في تكميله وتذييله وترتيبه، وتهذيبه، والزيادة عليه والإضافة إليه، فاستخرت الله حيناً من الدهر، ثم نشطت لذلك ابتغاء الثواب والأجر، وقد كنت سمعت من شيخنا الإمام العلامة الحافظ الجهبذ، أبي الحجاج المزي تغمده اللّه برحمته، أن أول من تكلم في هذا المقام الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه اللّه في كتابه «دلائل النبوة» [٦٨/٦]، عن شيخه الحاكم أبي عبد الله، أخبرني أبو أحمد بن أبي الحسن، أنا عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي عن أبيه، قال عمرو بن سوّاد: قال الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ.

فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال: أعطى محمداً ﷺ الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حين هُيِّئَ له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك، هذا لفظه رضي الله عنه، والمراد من إيراد ما نذكره في هذا الباب، التنبيه على شرف ما أعطى الله أنبياءه عليهم السلام من الآيات البينات، والخوارق القاطعات، والحجج الواضحات، وأن اللّه تعالى جمع لعبده ورسوله سيد الأنبياء وخاتمهم من جميع أنواع المحاسن والآيات، مع ما اختصه الله به مما لم يؤت أحداً قبله، كما ذكرنا في خصائصه وشمائله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ووقفت على فصل مليح في هذا المعنى، في كتاب «دلائل النبوة» للحافظ أبي نعيم، أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني، وهو كتاب حافل في ثلاث في مجلدات، عقد فيه فصلاً في هذا المعنى، وكذا ذكر ذلك الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد، في كتابه «دلائل النبوة» وهو كتاب كبير جليل حافل، مشتمل على فوائد نفيسة، وكذلك الصرصري الشاعر يورد في بعض قصائده أشياء من ذلك أيضاً كما سيأتي، وها أنا أذكر لك بعون الله بجامع ما ذكر من هذه الأماكن المتفرقة بأوجز عبارة، وأقصر إشارة، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، العلي العظيم.

١٠٦- القول فيما أوتي نوح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ. وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٠-١٥] وقد ذكرت القصة مبسوطة في أول هذا الكتاب] وكيف دعا على قومه فنجّاه الله ومن اتبعه من المؤمنين فلم يهلك منهم أحد، وأغرق من خالفه من الكافرين فلم يسلم منهم أحد حتى ولا ولده يام.

قال شيخنا العلامة أبو المعالي محمد بن علي الأنصاري ابن الزملكاني، ومن خطه نقلت: وبيان أن كل معجزة لنبي فلنبينا ﷺ مثلها، أو أتم يستدعي كلاماً طويلاً، وتفصيلاً لا يسعه مجلدات عديدة، ولكن ننبه بالبعض على البعض، فلنذكر جلائل معجزات الأنبياء عليهم السلام.

فمنها نجاة نوح في السفينة بالمؤمنين، ولا شك أن حمل الماء للناس من غير سفينة أعظم من السلوك عليه في السفينة، وقد مشى كثير من الأولياء على متن الماء.

وفي قصة العلاء بن الحضرميّ، صاحب رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك، روى سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي دارين، فدعا بثلاث دعوات فاستجيبت له، نزلنا منزلاً فطلب الماء فلم يجده، فقام وصلى ركعتين وقال: اللّهم إنا عبيدك وفي سبيلك، نقاتل عدوك، اللّهم اسقنا غيثاً نتوضأ به ونشرب، ولا يكون لأحد فيه نصيب غيرنا، فسرنا قليلاً فإذا نحن بماء حين أقلعت السماء عنه، فتوضأنا منه وتزودنا، وملأت إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر هل استجيب له أم لا، فسرنا قليلا ثم قلت لأصحابي: نسيت إداوتي، فرجعت إلى ذلك المكان فكأنه لم يصبه ماء قط، ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم، فقال: عليم يا حكيم يا علي يا عظيم، إنا عبيدك وفي سبيلك، نقاتل عدوك، فاجعل لنا إليهم سبيلا، فدخلنا البحر فلم يبلغ الماء لبودنا، ومشينا على متن الماء ولم يبتل لنا شيء، وذكر بقية القصة، قال: فهذا أبلغ من ركوب السفينة، فإن حمل الماء للسفينة معتاد، وأبلغ من فلق البحر لموسى، فإن هناك انحسر الماء حتى مشوا على الأرض، فالمعجز انحسار الماء، وههنا صار الماء جسداً يمشون عليه كالأرض، وإنما هذا منسوب إلى النبي ﷺ وبركته، انتهى ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوح عليه السلام.

وهذه القصة التي ساقها شيخنا ذكرها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «الدلائل» [دلائل ٥٣/٦] من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا عن أبي كريب عن محمد بن فضيل عن الصلت بن مطر العجلي عن عبد الملك ابن أخت سهم عن سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي فذكره.

وقد ذكرها البخاري في «التاريخ الكبير»[من وجه آخر، ورواها البيهقي [دلائل ٥٣/٦] من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك.

وساقها البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله بن عون عن أنس بن مالك قال: أدركت في هذه الأمة ثلاثاً لو كانت في بني إسرائيل لما تقاسمتها الأمم، قلنا: ما هن يا أبا حمزة؟ قال: كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ، فأضاف المرأة إلى النساء، وأضاف ابنها إلينا، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قبض، فغمضه النبي ﷺ وأمر بجهازه، فلما أردنا أن نغسله قال: «يا أنس ائت أمه، فأعلمها» فأعلمتها، قال: فجاءت حتى جلست عند قدميه، فأخذت بهما ثم قالت: اللّهم إني أسلمت لك طوعاً، وخلعت الأوثان زهداً، وهاجرت إليك رغبةً، اللّهم لا تُشمتْ بي عبدة الأوثان، ولا تحمّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها، قال: فوالله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه، وعاش حتى قبض اللّه رسوله ﷺ، وحتى هلكت أمه، قال أنس: ثم جهز عمر بن الخطاب جيشاً واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي، قال أنس: وكنت في غزاته، فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نَذِروا بنا فعفوا آثار الماء، والحر شديد، فجهدَنا العطش ودوابنا، وذلك يوم الجمعة، فلما مالت الشمس لغربها صلى بنا ركعتين ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً، قال: فوالله ما حط يده حتى بعث الله

ريحاً وأنشأ سحاباً وأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا، قال: ثم أتينا عدونا وقد جاوز خليجا في البحر إلى جزيرة، فوقف على الخليج وقال: يا علي يا عظيم، يا حليم يا كريم، ثم قال: أجيزوا بسم الله، قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو غلية، فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج،فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فلم نلبث إلا يسيراً ثم ذكر موت العلاء ودفنهم إياه في أرض لا تقبل الموتى، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها فلم يجدوه ثم، وإذا اللحد يتلألأ نوراً، فأعادوا التراب عليه ثم ارتحلوا، فهذا السياق أتم، وفيه قصة المرأة التي أحيا الله لها ولدها بدعائها، وسننبه على ذلك فيما يتعلق بمعجزات المسيح عيسى ابن مريم مع ما يشابهها إن شاء الله تعالى، كما سنشير إلى قصة العلاء هذه مع ما سنورده معها ههنا، فيما يتعلق بمعجزات موسى عليه السلام، في قصة فلق البحر لبني إسرائيل، وقد أرشد إلى ذلك شيخنا في عيون كلامه.

١٠٧- قصة أخرى تشبه قصة العلاء بن الحضرمي

روى البيهقي في «الدلائل»- وقد تقدم ذلك أيضاً- من طريق سليمان بن مهروان الأعمش عن بعض أصحابه، قال: انتهينا إلى دجلة وهي مادة والأعاجم خلفها، فقال رجل من المسلمين: بسم الله، ثم اقتحم بفرسه فارتفع على الماء، فقال الناس: بسم الله، ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء، فنظر إليهم الأعاجم، وقالوا: ديوان، ديوان، أي مجانين، ثم ذهبوا على وجوههم، قال فما فقد الناس إلا قدحاً كان معلقاً بعذبة سرج، فلما خرجوا أصابوا الغنائم واقتسموا، فجعل الرجل يقول: من يبادل صفراء ببيضاء؟ وقد ذكرنا في «السيرة العمرية» وأيامها، وفي «التفسير» [التفسير ١١٠/٢] أيضاً: أن أول من اقتحم دجلة يومئذ أبو عبيدة الثقفي أمير الجيوش في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنه نظر إلى دجلة فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثم سمى الله تعالى واقتحم بفرسه الماء واقتحم الجيش وراءه، ولما نظر إليهم الأعاجم يفعلون ذلك جعلوا يقولون: ديوان ديوان، أي مجانين مجانين، ثم ولوا مدبرين فقتلهم المسلمون وغنموا منهم مغانم كثيرة.

١٠٨- قصة أخرى شبيهة بذلك

وروى البيهقي من طريق أبي النضر عن سليمان بن المغيرة أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى دجلة وهي ترمي الخشب من مدها فمشى على الماء والتفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعوا الله تعالى؟ ثم قال: هذا إسناد صحيح.

قلت: وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر [تاريخ دمشق ٢١٠/٢٧]، في ترجمة أبي مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني هذه القصة بأبسط من هذه من طريق بقية بن الوليد: حدثني محمد بن زياد عن أبي مسلم الخولاني أنه كان إذا غزا أرض الروم فمروا بنهر قال: اجيزوا بسم الله، قال: ويمر بين أيديهم قال: فيمرون بالنهر الغَمْر فربما لم يبلغ من الدواب إلا إلى الركب، أو بعض ذلك، أو قريباً من ذلك، قال: إذا جازوا قال للناس: هل ذهب لكم شيء؟ من ذهب له شيء فأنا له ضامن، قال: فألقى بعضهم مخلاة عمداً، فإذا جازوا قال الرجل: مخلاتي وقعت في النهر، قال له: اتبعني، فإذا المخلاة قد تعلقت ببعض أعواد النهر، فقال: خذها.

وقد رواه أبو داود من طريق ابن الأعرابي عنه عن عمرو بن عثمان عن بقية به، ثم قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد أن أبا مسلم الخولاني أتى على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها فوقف عليها ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر مسير بني إسرائيل في البحر، ثم لهز دابته فخاضت الماء وتبعه الناس حتى قطعوا، ثم قال: هل فقدتم شيئاً من متاعكم فادعو الله أن يرده علي؟.

وقد رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق ٢١١/٢٧] من طريق أخرى عن عبد الكريم بن رشيد عن حميد بن هلال العدوي: حدثني ابن عمي أخي أبي قال: خرجت مع أبي مسلم في جيش فأتينا على نهر عجاج منكر، فقلنا لأهل القرية: أين المخاضة؟ فقالوا: ما كانت ههنا مخاضة قط ولكن المخاضة أسفل منكم على ليلتين، فقال أبو مسلم: اللّهم أجزت بني إسرائيل البحر، وإنا عبادك وفي سبيلك، فأجزنا هذا النهر اليوم، ثم قال: اعبروا بسم الله، قال ابن عمي: فأنا على فرس فقلت: لأقذفنّه أول الناس خلف فرسه وكنت أول الناس قذف فرسه خلف أبي مسلم، فوالله ما بلغ الماء بطون الخيل حتى عبر الناس كلهم، ثم وقف فقال: يا معشر المسلمين،هل ذهب لأحد منكم شيء فادعو الله تعالى يرده؟.

فهذه الكرامات لهؤلاء الأولياء، هي من معجزات رسول الله ﷺ كما تقدم تقريره؛ لأنهم إنما نالوا ذلك ببركة متابعته، ويمن سفارته، إذ فيها حجة في الدين، وحاجة أكيدة للمسلمين، وهي مشابهة لمعجزة نوح عليه السلام في مسيره فوق الماء بالسفينة التي أمره الله تعالى بعملها، ومعجزة موسى عليه السلام في فلق البحر، وهذه فيها ما هو أعجب من ذلك، من جهة مسيرهم على متن الماء من غير حائل حامل، ومن جهة أنه ماء جار والسير عليه أعجب من السير على الماء القار الذي يجاز، وإن كان ماء الطوفان أطم وأعظم، فهذه خارق، والخارق لا فرق بين قليله وكثيره، فإن من سلك على وجه الماء الخضم الجاري العجاج فلم يبتل منه نعال خيولهم، أو لم يصل إلى بطونها، فلا فرق في الخارق بين أن يكون قامة أو ألف قامة، أو أن يكون نهراً أو بحراً، بل كونه نهراً عجاجاً كالبرق الخاطف والسيل الجارف، أعظم وأغرب، وكذلك بالنسبة إلى فرق البحر، وهو جانب بحر القلزم، حتى صار كل فرق كالطود العظيم، أي الجبل الكبير، فانحاز الماء يميناً وشمالاً حتى بدت أرض البحر، وأرسل الله عليها الريح حتى أيبستها، ومشت الخيول عليها بلا انزعاج، حتى جاوزوا عن آخرهم، وأقبل فرعون بجنوده: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٨-٧٩] وذلك أنهم لما توسطوه وهمّ أوّلهم بالخروج منه، أمر الله البحر فارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، فلم يفلت منهم أحد، كما لم يفقد من بني إسرائيل واحد، ففي ذلك آية عظيمة بل آيات متعددات، كما بسطنا ذلك في «التفسير» ولله الحمد والمنة.

والمقصود أن ما ذكرناه من قصة العلاء بن الحضرمي، وأبي عبيد الثقفي، وأبي مسلم الخولاني، من مسيرهم على تيار الماء الجاري، فلم يفقد منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً من أمتعتهم، هذا وهم أولياء، منهم صحابي وتابعيان فما الظن أن لو احتيج إلى ذلك بحضرة رسول الله ﷺ؟! سيد الأنبياء وخاتمهم، وأعلاهم منزلة ليلة الإسراء، وإمامهم ليلتئذ ببيت المقدس الذي هو محل ولايتهم، ودار بدايتهم، وخطيبهم يوم القيامة، وأعلاهم منزلة في الجنة، وأول شافع في الحشر. وفي الخروج من النار، وفي دخول

الجنة، وفي رفع الدرجات بها، كما بسطنا أقسام الشفاعة وأنواعها، في آخر الكتاب في أهوال يوم القيامة، وبالله المستعان، وسنذكر في المعجزات الموسوية ما ورد من المعجزات المحمدية، ما هو أظهر وأبهر منها ونحن الآن فيما يتعلق بمعجزات نوح عليه السلام، ولم يذكر شيخنا سوى ما تقدم.

وأما الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، فإنه قال في آخر كتابه في «دلائل النبوة» [دلائل٢/٥٨٧-٦٢٥]، وهو في مجلدات ثلاث: الفصل الثالث والثلاثون في ذكر موازاة الأنبياء في فضائلهم، بفضائل نبينا، ومقابلة ما أوتوا من الآيات بما أوتي، إذ أوتي ما أوتوا وشبهه ونظيره، فكان أول الرسل نوح عليه السلام، وآيته التي أوتي شفاء غيظه، وإجابة دعوته في تعجيل نقمة الله لمكذبيه، حتى هلك من على بسيط الأرض من صامت وناطق، إلا من آمن به ودخل معه سفينته، ولعمري إنها آية جليلة، وافقت سابق قدر الله وما قد علمه في هلاكهم، وكذلك نبينا ﷺ لما كذبه قومه وبالغوا في أذيته، والاستهانة بمنزلته من الله عز وجل، حتى ألقى الشقي عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره وهو ساجد، فقال: «اللّهم عليك بالملأ من قريش»، ثم ساق الحديث عن ابن مسعود كما تقدم، ذكرنا له في «صحيح البخاري» وغيره في وضع الملأ من قريش على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد عند الكعبة سلا تلك الجزور، واستضحاكهم من ذلك، حتى جعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك، ولم يزل على ظهره حتى جاءت فاطمة ابنته عليها السلام فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته رفع يديه فقال: «اللّهم عليك بالملأ من قريش»، ثم سمى فقال: «اللّهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد»، قال عبد الله بن مسعود: فوالذي بعثه بالحق لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر.

وكذلك لما أقبلت قريش يوم بدر في حدها وحديدها، فحين عاينهم رسول الله ﷺ قال رافعاً يديه: «اللّهم هذه قريش جاءتك بفخرها وخيلائها، تحادُّك وتكذب رسولك، اللّهم أحِنْهم الغداة»]، فقتل من سراتهم سبعون وأسر من أشرافهم سبعون، ولو شاء الله لاستأصلهم عن آخرهم، ولكن من حِلْمه وشرف نبيه أبقى منهم من سبق في قدره أن سيؤمن به وبرسوله صلوات الله وسلامه عليه وقد دعا على عتبة بن أبي لهب أن يسلط عليه كلبه بالشام، فقتله الأسد عند وادي الزرقاء قبل مدينة بصرى، وكم له من مثلها ونظيرها ما سلف ذكرنا له وما لم نذكره، وكذلك دعا على قريش بسبعٍ، كسبع يوسف فقحطوا حتى أكلوا العِلْهِزَ، وهو الدم بالوبر، وأكلوا العظام وكل شيء، ثم توسلوا إلى تراحمه وشفقته ورأفته، فدعا لهم، ففرج الله عنهم وسقوا الغيث ببركة دعائه.

وقال الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد في كتابه «دلائل النبوة» - وهو كتاب حافل -: ذكر ما أوتي نوح عليه السلام من الفضائل، وبيان ما أوتي محمد ﷺ مما يضاهي فضائله ويزيد عليها، قالوا: إن قوم نوح لما بلغوا من أذيته والاستخفاف به، وترك الإيمان بما جاءهم به من عند الله دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦] فاستجاب الله دعوته، وغرق قومه، حتى لم يسلم شيء من الحيوانات والدواب إلا من ركب السفينة، فكان ذلك فضيلة أوتيها، إذ أجيبت دعوته، وشفي صدره بإهلاك قومه، قلنا: وقد أوتي محمد ﷺ مثله حين ناله من قريش ما ناله من التكذيب والاستخفاف، فأنزل الله إليه ملك الجبال وأمره بطاعته فيما يأمره به من إهلاك قومه، فاختار الصبر على أذيتهم، والابتهال في الدعاء لهم بالهداية.

قلت: وهذا حسن، وقد تقدم الحديث بذلك [عن عائشة عن رسول الله ﷺ، في قصة ذهابه إلى الطائف، فدعاهم فآذوه فرجع وهو مهموم، فلما كان عند قرن الثعالب ناداه ملك الجبال فقال: يا محمد إن ربك قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد أرسلني إليك لأفعل ما تأمرني به، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين - يعني جبلي مكة اللذين يكتنفانها جنوباً وشمالاً، وهما أبو قبيس وزُرْزُرٌ، فقال: بل استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك بالله شيئاً، وقد ذكر الحافظ أبو نعيم [دلائل ٢/٤٤٨-٥٠] في مقابلة قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٢] أحاديث الاستسقاء عن أنس وغيره، كما تقدم ذكرنا لذلك في دلائل النبوة قريبا أنه ﷺ سأله ذلك الأعرابي أن يدعو الله لهم، لما بهم من الجدب والجوع، فرفع يديه فقال: «اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا، فما نزل عن المنبر حتى رئي المطر يتحادر على لحيته الكريمة صلوات الله وسلامه عليه»، فاستحضر من استحضر من الصحابة رضي الله عنهم قول عمه أبي طالب فيه:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

يلوذ به الهُلَّاك مِن آل هاشم ... فهم عنده في نعمةٍ وفواضل

وكذلك استسقى في غير ما موضع للجدب والعطش فيجاب كما يريد على قدر الحاجة المائية، ولا أزيد ولا أنقص، وهذا أبلغ في المعجزة، وأيضاً فإن هذا ماء رحمةٍ ونعمةٍ، وماء الطوفان ماء غضب ونقمة، وأيضاً فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستسقى بالعباس عم النبي ﷺ فَيُسْقَوْن [وكذلك ما زال المسلمون في غالب الأزمان والبلدان، يستسقون فيجابون فَيُسْقَون، ولا يخيبون غالباً ولا يَشْقون ولله الحمد.

قال أبو نعيم: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فبلغ جميع من آمن به رجالا ونساء، الذين ركبوا معه سفينته، دون مائة نفس، وآمن بنبينا ﷺ - في مدة عشرين سنة - الناس شرقاً وغرباً، ودانت له جبابرة الأرض وملوكها، وخافت زوال ملكهم، ككسرى وقيصر، وأسلم النجاشي والأقيال رغبة في دين الله، والتزم من لم يؤمن به من عظماء الأرض الجزية، والإتاوة عن صغار، أهل نجران، وهجر، وأيلة وأُكَيْدِر دومة، فذلوا له متقادين، لما أيده الله به من الرعب الذي يسير بين يديه شهراً، وفتح الفتوح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ١-٣].

قلت: مات رسول الله ﷺ وقد فتح الله له المدينة وخيبر ومكة وأكثر اليمن وحضرموت، وتوفي عن مائة ألف صحابي أو يزيدون، وقد كتب في آخر حياته الكريمة إلى سائر ملوك الأرض يدعوهم إلى الله تعالى، فمنهم من أجاب ومنهم من توقف ومنهم من صانع وداري عن نفسه، ومنهم من تكبر فخاب وخسر، كما فعل كسرى بن هرمز حين عتا وبغى وتكبر، فمزق ملكه، وتفرق جنده شذر مذر، ثم فتح خلفاؤه من بعده، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان التالي على الأثر مشارق الأرض ومغاربها، من البحر الغربي إلى البحر الشرقي، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»،

وقال ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»]، وكذلك وقع سواء بسواء فقد استوسقت الممالك الإسلامية على ملك قيصر وحواصله، إلا القسطنطينية، وجميع ممالك كسرى وبلاد المشرق، وإلى أقصى بلاد المغرب، إلى أن قتل عثمان في سنة ستة وثلاثين رضي الله عنه، وقبح قاتليه فكما عمت جميع أهل الأرض النقمة بدعوة نوح عليه السلام، لما رأى ما هم عليه من التمادي في الضلال والكفر والفجور، فدعا عليهم غضبا لله ولدينه ورسالته، فاستجاب الله له، وغضب لغضبه، وانتقم منهم بسببه، كذلك عمت جميع أهل الأرض النعمة ببركة رسالة محمد ﷺ ودعوته، فآمن من آمن من الناس، وقامت الحُجَّة على من كفر منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكما قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» [طبقات ابن سعد ١٩٢/١].

وقال هشام بن عمار في كتاب «المبعث»: حدثني عيسى بن عبد الله النعماني، حدثنا المسعودي عن سعيد بن أبي سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قال: من آمن بالله ورسله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسله عوفي من تعجيل ما كان يصيب الأمم قبل ذلك من العذاب والفتن والقذف والخسف، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال ابن عباس: النعمة محمد، والذين بدلوا نعمة الله كفراً هم كفار قريش، يعني: وكذلك كل من كذب به من سائر الناس ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

قال أبو نعيم: فإن قيل: فقد سمى الله نوحاً عليه السلام باسم من أسمائه الحسنى، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣] قلنا: وقد سمى الله محمداً ﷺ باسمين من أسمائه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: وقد خاطب الله الأنبياء بأسمائهم: يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا يحيى، يا عيسى ابن مريم، وقال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وذلك قائم مقام الكنية بصفة الشرف، ولما نسب المشركون أنبياءهم إلى السفه والجنون، كل أجاب عن نفسه قال نوح: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] وكذا قال هود عليه السلام، ولما قال فرعون: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١]، قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢] إلى أمثال ذلك وأما محمد ﷺ فإن الله تعالى هو الذي يتولى جوابهم عنه بنفسه الكريمة، كما قال: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧] قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان: ٥،٦] ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠-٣١] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٣]. ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١، ٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

١٠٩- القول فيما أوتي هود عليه السلام

قال أبو نعيم ما معناه: إن الله تعالى أهلك قومه بالريح العقيم، وقد كانت ريح غضب، ونصر الله تعالى محمداً ﷺ بالصبا يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٩].

ثم قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة (ح) وحدثنا عثمان بن محمد العثماني، أنا زكريا بن يحيى الساجي، قالا: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غيّاث، عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم الأحزاب انطلقت الجنوب إلى الشمال فقالت: انطلقي بنا ننصر محمداً رسول الله ﷺ، فقالت الشمال للجنوب: إن الحُرَّة لا تَسْري بالليل، فأرسل الله عليهم الصبا، فذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] ويشهد له الحديث المتقدم [عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» وسيأتي التنبيه على ذلك في معجزة سليمان بتسخير الريح.

١١٠- القول فيما أوتي صالح عليه السلام

قال أبو نعيم [دلائل٥٩٢]: فإن قيل: فقد أخرج الله لصالح ناقة من الصخرة جعلها الله له آية وحُجَّة على قومه وجعل لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، قلنا: وقد أعطى الله محمداً ﷺ مثل ذلك، بل أبلغ لأن ناقة صالح لم تكلمه ولم تشهد له بالنبوة والرسالة، ومحمد ﷺ شهد له البعير الناد بالرسالة، وشكى إليه ما يلقى من أهله، من أنهم يجيعونه ويُدْئِبونه، ثم ساق الحديث بذلك كما قدمنا] في دلائل النبوة بطرقه وألفاظه وعزوه بما أغنى عن إعادته ههنا، وهو في الصحاح والحسان والمسانيد، وقد ذكرنا مع ذلك حديث الغزالة، وحديث الضب وشهادتهما له ﷺ بالرسالة]، كما تقدم التنبيه على ذلك والكلام فيه، وثبت الحديث] في الصحيح بتسليم الحجر عليه قبل أن يبعث، وكذلك سلام الأشجار والأحجار والمدر عليه حين بُعث صلوات الله وسلامة عليه دائماً إلى يوم الدين.

١١١- القول فيما أوتي إبراهيم الخليل عليه السلام

قال شيخنا العلامة أبو المعالي بن الزملكاني رحمه الله وبل بالرحمة ثراه: وأما خمود النار لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد خمدت لنبينا ﷺ نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وكان خمود نار فارس لمولده ﷺ، وبينه وبين بعثته أربعون سنة، وخمدت نار إبراهيم لمباشرته لها، وخمدت نار فارس لنبينا ﷺ وبينه وبينها مسافة أشهر كذا، وهذا الذي أشار إليه من خمود نار فارس ليلة مولده الكريم، قد ذكرناه بأسانيده وطرقه في أول

السيرة، عند ذكر المولد المطهر المُشرَّف المُكرَّم، بما فيه كفاية ومقنع].

ثم قال شيخنا: مع أنه قد أُلقيَ بعض هذه الأمة في النار فلم تؤثر فيه ببركة نبينا ﷺ، منهم أبو مسلم الخولاني، قال: تنبأ الأسود بن قيس العنسي باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم الخولاني فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، فأعاد عليه، فقال: ما أسمع، فأمر بنار عظيمة فأُجِّجَت وطُرِح فيها أبو مسلم فلم تضرُّه، فقيل له: لئن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، فقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي، فبصر به عمر فقال من أين الرجل؟ قال: من اليمن، قال: ما فعل الله عدو بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟ قال: ذاك عبد الله بن ثُوب، قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، قال: فاعتنقه ثم بكى ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. وهذا السياق الذي أورده شيخنا بهذه الصفة، قد رواه الحافظ الكبير، أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في ترجمة أبي مسلم عبد الله بن ثُوَب في «تاريخه» من غير وجه [تاريخ دمشق ٢٧/٢٠٠، ٢٠١]، عن عبد الوهاب بن نجدة عن إسماعيل بن عياش الحمصي: حدثني شرحبيل بن مسلم الخولاني أن الأسود بن قيس بن ذي الخمار العنسي تنبأ باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم الخولاني فأُتي به فلما جاءه قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: فردد عليه ذلك مراراً ثم أمر بنار عظيمة فأججت فألقي أبا مُسلم فيها فلم تضره، فقيل للأسود: انفهِ عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك، فأمره فارتحل أبو مسلم، فأتى المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، ثم دخل المسجد وقام يصلي إلى سارية، وبَصُر به عمر بن الخطاب، فأتاه فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الرجل الذي حرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: فأنشدُك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، قال: فاعتنقه وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن، قال إسماعيل بن عياش: فأنا أدركت رجالاً من الأمداد الذين يمدون إلينا من اليمن من خولان، ربما تمازحوا فيقول الخولانيون للعنسيين: صاحبكم الكذاب حرق صاحبنا بالنار فلم تضره. وروى الحافظ ابن عساكر أيضاً من غير وجه عن إبراهيم بن دحيم: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد، أخبرني سعيد بن بشير عن أبي بشر - جعفر بن أبي وحشية - أن رجلاً من خَوْلان أسلم فأراده قومه على الكفر فألقوه في نار فلم يحترق منه إلا أنملة لم يكن فيما مضى يصيبها الوضوء، فقدم على أبي بكر فقال: استغفر لي، قال: أنت أحق قال أبو بكر: أنت ألقيت في النار فلم تحترق، فاستغفر له ثم خرج إلى الشام، فكانوا يشبهونه بإبراهيم عليه السلام، وهذا الرجل هو أبو مسلم الخولاني.

وهذه الرواية بهذه الزيادة تحقق أنه إنما نال ذلك ببركة متابعته الشريعة المحمدية المطهرة المقدسة، كما جاء في حديث الشفاعة: «وحرم الله على النار أن تأكل مواضع السجود» [خ: ٨٠٦]، وقد نزل أبو مسلم بداريا من غربي دمشق وكان لا يسبقه أحد إلى المسجد الجامع بدمشق وقت الصبح، وكان يغازي ببلاد الروم، وله أحوال وكرامات كثيرة جداً، وقبره مشهور بداريا، والظاهر أنه مقامه الذي كان يكون فيه، فإن الحافظ ابن عساكر رجح أنه مات ببلاد الروم، في خلافة معاوية [تاريخ دمشق ٢٧/٢٣٠-٢٣٢]، وقيل: في أيام ابنه يزيد، بعد الستين والله أعلم.

وقد وقع لأحمد بن أبي الحواري مع شيخه أبي سليمان الداراني قصة تشبه هذا كما رواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر في «تاريخه» في ترجمة أحمد بن أبي الحواري من غير وجه: أنه جاء إلى أستاذه أبي سليمان يعلمه بأن التنور قد سجروه وأهله ينتظرون ما يأمرهم به، فوجده يكلم الناس وهم حوله فأعلمه بذلك فاشتغل عنه بالناس، ثم أعلمه فلم يلتفت إليه، ثم أعلمه مع أولئك الذين حوله، فقال له وهو مُغضب: اذهب فاجلس فيه ثم تشاغل بالحديث مع أولئك الذين حوله، وذهب أحمد بن أبي الحواري إلى التنور فجلس فيه وهو يتضرم ناراً فكان عليه برداً وسلاماً، وما زال فيه حتى استيقظ أبو سليمان من كلامه فقال لمن حوله: قوموا بنا إلى أحمد بن أبي الحواري فإني أظنه قد ذهب إلى التنور فجلس فيه امتثالاً لما أمرته، فذهبوا فوجدوه جالساً فيه، فأخذ بيده الشيخ أبو سليمان وأخرجه منه، رحمة الله عليهما ورضي الله عنهما.

وقال شيخنا أبو المعالي: وأما إلقاؤه -يعني إبراهيم عليه السلام- من المنجنيق فقد وقع في حديث البراء بن مالك في وقعة مسيلمة الكذاب، وأن أصحاب مسيلمة انتهَوْا إلى حائط حفير فتحصنوا به وأغلقوا الباب، فقال البراء بن مالك: ضعوني على ترس واحملوني على رؤوس الرماح ثم ألقوني من أعلاها داخل الباب ففعلوا ذلك وألقوه عليهم فوقع وقام وقاتل المشركين حتى قتل عشرة أو أكثر وفتح الباب للمسلمين فكان سبب هلاك المشركين وقتل مسيلمة.

قلت: وقد ذكرت ذلك مستقصى في أيام الصديق حين بعث خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وبني حنيفة، وكانوا في قريب من مائة ألف أو يزيدون، وكان المسلمون بضعة عشر ألفاً، فلما التقوا جعل كثير من الأعراب يفرون، فقال المهاجرون والأنصار: أخْلِصْنا يا خالد، فميزهم عنهم، وكان المهاجرون والأنصار قريباً من ألفين وخمسمائة، فصمموا الحملة وجعلوا يتذامرون ويقولون: يا أصحاب سورة «البقرة» بطل السحر اليوم، فهزموهم بإذن الله وألجؤوهم إلى حديقة هناك -وتسمى حديقة الموت- فتحصنوا بها، فحصروهم فيها، ففعل البراء بن مالك -أخو أنس بن مالك وكان الأكبر- ما ذكر من رفعه على ترسه فوق الرماح حتى تمكن من أعلى سورها، ثم ألقى نفسه عليهم ونهض سريعاً إليهم ولم يزل يقاتلهم وحده ويقاتلونه حتى تمكن من فتح باب الحديقة ودخل المسلمون يكبِّرون وانتهوا إلى قصر مسيلمة وهو واقف خارجه عند ثُلْمة جدار كأنه جمل أورق -أي من سمرته- فابتدره وحشي بن حرب الأسود، -قاتل حمزة- بحربته، وأبو دجانة سماك بن خَرَشَة الأنصاري -وهو الذي ينسب إليه شيخنا هذا أبو المعالي بن الزملكاني- فسبقه وحشي فأرسل الحربة عليه من بعد فأنفذها منه، وجاء إليه أبو دجانة فعلاه بسيفه فقتله، لكن صرخت جارية من فوق القصر تندب مسيلمة فقالت: وا أمير المؤمنيناه، قتله العبد الأسود، ويقال: إن عمر مسيلمة -لعنه الله- يوم قُتل مائة وأربعون سنة، فهو ممن طال عمره وساء عمله قبحه الله. هذا ما ذكره شيخنا فيما يتعلق بإبراهيم الخليل عليه السلام.

وأما الحافظ أبو نعيم فإنه قال [دلائل ٢/٥٨٧]: فإن قيل: فإن إبراهيم خُصَّ بالخُلة مع النبوة، قيل: فقد اتخذ الله محمداً خليلاً وحبيباً، والحبيب

ألطف من الخليل.

ثم ساق من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليلُ الله».

وقد رواه مسلم [٢٣٨٣ (٣، ٤، ٥)] من طريق شعبة والثوري عن أبي إسحاق، ومن طريق عبد الله بن مرة، وعبد الله بن أبي الهذيل، كلهم عن أبي الأحوص، عوف بن مالك الجشمي، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عزّ وجلّ صاحبكم خليلاً» هذا لفظ مسلم.

ورواه مسلم أيضاً منفرداً به عن جندب بن عبد الله البجلي كما سأذكره، وأصل الحديث في «الصحيحين» [خ: ٤٦٦] [م: ٢٣٨٢ (٢)] عن أبي سعيد، وفي أفراد البخاري [٤٦٧] عن ابن عباس وابن الزبير كما سقت ذلك في فضائل الصديق رضي الله عنه، وقد أوردناه هنالك من رواية أنس والبراء وجابر وكعب بن مالك وأبي سعيد بن المعلى وأبي هريرة وأبي واقد الليثي وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين.

ثم إنما رواه أبو نعيم من حديث عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن كعب بن مالك أنه قال: عهدي بنبيكم ﷺ قبل وفاته بخمسة أيام فسمعته يقول: «لم يكن نبي إلا له خليلٌ من أمته، وإن خليلي أبو بكر، وإن الله اتخذ صاحبكم خليلاً»، وهذا الإسناد ضعيف.

ومن حديث محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل نبي خليل، وخليلي أبو بكر بن أبي قحافة، وخليل صاحبكم الرحمن»، وهو غريب من هذا الوجه.

ومن حديث عبد الوهاب بن الضحاك [الضعفاء ٧٨/٣] عن إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن كثير بن مرة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ومنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة تُجاهَيْن والعباس بيننا مؤمن بين خليلين» غريب وفي إسناده نظر، انتهى ما أورده أبو نعيم رحمه الله.

وقال مسلم بن الحجاج في «صحيحه» [٥٣٢ (٢٣)]: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم، قالا: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، حدثنا زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث، حدثني جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله عز وجل أن يكون لي منكم خليلٌ فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»، وأما اتخاذه حبيباً، فلم يتعرض لإسناده أبو نعيم.

وقد قال هشام بن عمار في كتابه «المبعث»: حدثنا يحيى بن حمزة الحضرمي وعثمان بن علاّق القرشي، قالا: حدثنا عروة بن رويم اللخمي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أدرك بي الأجل المرقوم وأختنني المقرُبة، واحتضرني احتضاراً، فنحن الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة، وأنا قائلٌ قولاً غير فخر: إبراهيم خليل الله، وموسى صفي الله، وأنا حبيب الله، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة وإن معي لواءَ الحمد تحته كلُّ نبيٍّ وصدِّيق وشهيد يوم القيامة، وأنا أول من تُفتح له أبواب الجنة، وأجارني الله عليكم من ثلاث: أن لا يُهلككم بسنةٍ، وأن لا يستبيحكم عدو، وأن لا تجتمعوا على ضلالة».

وأما الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد فتكلم على مقام الخُلّة بكلام طويل إلى أن قال: ويقال: الخليل الذي يعبد ربه على الرغبة والرهبة، من قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] من كثرة ما يقول: أوّه، والحبيب الذي يعبد ربه على الرؤية والمحبة، ويقال: الخليل الذي يكون معه انتظار العطاء، والحبيب الذي يكون معه انتظارُ اللقاء، ويقال: الخليل الذي يصل بالواسطة من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] والحبيب الذي يصل به إليه، من قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] وقال الخليل: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقال الله للحبيب محمد ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقال الخليل: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] وقال الله للنبي ﷺ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] وقال الخليل حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل وقال الله لمحمد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] وقال الخليل: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وقال الله لمحمد: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وقال الخليل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال الله لمحمد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وقال الخليل: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقال الله للحبيب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال الخليل: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥] وقال الله لمحمد: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وذكر أشياء أُخَر، وسيأتي الحديث في «صحيح مسلم» عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إني سأقوم مقاماً يوم القيامة يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم الخليل»، فدل على أنه أفضل منه إذ هو محتاج إليه في ذلك المقام، ودلّ على أن إبراهيم أفضل الخلق بعده، ولو كان أحد أفضل من إبراهيم بعده لذكره.

ثم قال أبو نعيم [دلائل ٥٨٧/٢]: فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام حجب عن نمروذ بحجب ثلاثة، قيل: فقد كان كذلك وحجب محمد ﷺ عمن أرادوا قتله بخمسة حجب، قال الله تعالى في أمره: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فهذه ثلاث، ثم قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] ثم قال: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] فهذه خمسة حجب. وقد ذكر مثله سواء الفقيه أبو محمد بن حامد، وما أدري أيهما أخذ من الآخر والله أعلم. وهذا الذي قاله غريب، والحجب التي ذكرها لإبراهيم عليه السلام لا أدري ما هي، كيف وقد ألقاه في النار التي نجاه الله منها، وأما ما ذكره من الحجب المستدل عليها بهذه الآيات، فقد قيل: إنها جميعها معنوية لا حسية، بمعنى أنهم مصرفون عن الحق، لا يصل إليهم، ولا يخلص إلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وقد حررنا ذلك في «التفسير»، وقد ذكرنا في السيرة وفي التفسير أن أم جميل امرأة أبي لهب، لما نزلت السورة في ذمّها وذمّ زوجها، ودخولهما النار، وخسارهما، جاءت بفهر وهو الحجر المستطيل لترجم النبي ﷺ. فانتهت إلى أبي بكر وهو جالس عند النبي ﷺ

فلم تر رسول الله ﷺ، وقالت لأبي بكر: أين صاحبُك؟ فقال: وما له؟ فقالت: إنه هجاني، فقال: وما هجاك؟ فقالت: والله لئن رأيته لأضربنه بهذا الفهر، ثم رجعت وهي تقول: مذمماً أبينا. ودينه قلينا. وكذلك حجب ومُنِع من أبي جهل حين هم أن يطأ برجله رأس النبي ﷺ وهو ساجد، فرأى خندقاً من نار وهَوْلاً عظيماً وأجنحة الملائكة دونه، فرجع القهقرى وهو يتقي بيديه، فقالت له قريش: ما لك، ويحك؟ فأخبرهم بما رأى، وقال النبي ﷺ: «لو أقدم لاختطفته الملائكة عُضْواً عضواً». وكذلك لما خرج رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وقد أرصدوا على مدرجته وطريقه، وحوالي بيته رجالاً يحرسونه لئلا يخرج، ومتى عاينوه قتلوه، فأمر علياً فنام على فراشه، ثم خرج عليهم وهم جلوس، فجعل يرشُّ على رأس كل إنسان منهم تراباً ويقول: «شاهت الوجوه»، ثم خرج ولم يروه حتى صار هو وأبو بكر الصديق إلى غار ثور، كما بسطنا ذلك في السيرة، وكذلك ذكرنا أن العنكبوت سد على باب الغار ليعمي الله عليهم مكانه.

وفي «الصحيح» أن أبا بكر قال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وقد قال بعض الشعراء في ذلك:

نسجُ داودَ ما حمى صاحب الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت

وكذلك حُجب ومُنع من سراقة بن مالك بن جعشم حين اتبعهم، بسقوط قوائم فرسه في الأرض حتى أخذ منه أماناً كما تقدم[بسطه في الهجرة.

وذكر ابن حامد في كتابه في مقابلة إضجاع إبراهيم عليه السلام ولده للذبح مستسلماً لأمر الله تعالى، بَذْل رسول الله ﷺ نفسه للقتل يوم أحدٍ وغيره حتى نال منه العدو ما نالوا، من هشم رأسه، وكسر ثنيته اليمنى السفلى، كما تقدم [بسط ذلك في السيرة.

ثم قال: قالوا: كان إبراهيم عليه السلام ألقاه قومه في النار فجعلها الله برداً وسلاماً، قلنا: وقد أوتي رسول الله ﷺ مثله، وذلك أنه لما نزل بخَيْبَر سمَّتْه الخيبرية، فصير ذلك السم في جوفه برداً وسلاماً إلى منتهى أجله، والسم يحرق إذ لا يستقر في الجوف كما تحرق النار.

قلت: وقد تقدم [الحديث بذلك في فتح خيبر، ويؤيد ما قاله أن بشر بن البراء بن معرور مات سريعاً من تلك الشاة المسمومة، وأخبر ذراعها رسول الله ﷺ بما أودع فيه من السم، وكان قد نهش منه نهشة، وكان السم فيه أكثر، لأنهم كانوا يفهمون أنه ﷺ يحب الذراع، فلم يضره السم الذي حصل في باطنه بإذن الله عز وجل، حتى انقضى أجله ﷺ، فذكر أنه وجد حينئذ من ألم ذلك السم الذي كان في تلك الأكلة صلوات الله عليه وسلامه عليه، وقد ذكرنا في ترجمة خالد بن الوليد المخزومي، فاتح بلاد الشام، أنه أُتِيَ بسُمٍ فتحسّاه بحضرة الأعداء ليرهبهم بذلك، فلم ير بأساً، رضي الله عنه.

ثم قال أبو نعيم: فإن قيل: فإن إبراهيم خصم نمروذ ببرهان نبوته فبهته، قال الله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قيل: محمد ﷺ أتاه المكذِّب بالبعث، أبي بن خلف، بعظم بال ففركه وقال: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فأنزل الله تعالى البرهان الساطع: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فانصرف مبهوتاً ببرهان نبوته.

قلت: وهذا أقطع للحجة، وهو استدلاله على المعاد بالبداءة، فالذي خلق الخلق بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قادرٌ على إعادتهم كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] أي يعيدهم كما بداهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] هذا وأمر المعاد نظري لا فطري ضروري في قول الأكثرين، فأما الذي حاج إبراهيم في ربه فإنه معاند مكابر فإن وجود الصانع مذكور في الفِطَر، وكل واحد مفطور على ذلك، إلا من تغيرت فطرته، فيصير نظرياً عنده، وبعض المتكلمين يجعل وجود الصانع من باب النظر لا الضروريات، وعلى كل تقدير فدعْواه أنه هو الذي يحيي ويميت، لا يقبله عقل ولا سمع، وكل واحد يكذبه بعقله في ذلك، ولهذا ألزمه إبراهيم بالإتيان بالشمس من المغرب إن كان كما ادعى ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وكان ينبغي أن يذكر مع هذا أن الله تعالى سلط محمداً ﷺ على هذا المعاند لما بارز النبي ﷺ يوم أحد، فقتله بيده الكريمة، طعنه بحربة فأصاب تَرْقُوته فتداداً عن فرسه مراراً، فقالوا له: ويحك ما لك؟ فقال: والله إن بي لما لو كان بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين. ألم يقل: «بل أنا أقتله؟» والله لو بصق عليّ لقتلني - وكان أبيّ هذا لعنه الله قد أعد فرساً وحربة ليقتل بها عليها رسول الله ﷺ، فقال: «بل أنا أقتله إن شاء الله» - فكان كذلك يوم أحد.

ثم قال أبو نعيم [دلائل ٥٨٨/٢]: فإن قيل: فإن إبراهيم عليه السلام كسر أصنام قومه غضباً لله، قيل: فإن محمداً ﷺ كسر ثلاثمائة وستين صنماً، نصبت حول الكعبة فأشار إليهن فتساقطن ثم روى من طريق عبد الله العمري عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، قد ألزقها الشيطان بالرصاص والنحاس، فكان كلما دنا منها بمخصرته تهوي من غير أن يمسّها، ويقول «﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾» [الإسراء: ٨١] فتساقط لوجوهها، ثم أمر بهن فأخرجن إلى المسيل، وهذا أظهر وأجلى من الذي قبله، وقد ذكرنا هذا في أول دخول النبي ﷺ مكة عام الفتح بأسانيده وطرقه من الصحاح وغيرها، بما فيه كفاية]، وقد ذكر غير واحد من علماء السير أن الأصنام تساقطت أيضاً ليلة مولده الكريم، وهذا أبلغ وأقوى في المعجز من مباشرة كسرها، وقد تقدم] أن نار فارس التي كانوا يعبدونها خمدت أيضاً ليلتئذ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وأنه سقط من شرفات قصر كسرى أربع عشرة شرفة، مؤذنة بزوال دولتهم الكافرة بعد هلاك أربعة عشر من ملوكهم في أقصر مدة، وكان لهم في الملك قريبٌ من ثلاثة آلاف سنة.

وأما إحياء الطيور الأربعة لإبراهيم عليه السلام، فلم يذكره أبو نعيم ولا ابن حامد، وسيأتي في إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام ما وقع من المعجزات المحمدية من هذا النمط ما هو مثل ذلك وأعلى من ذلك كما سيأتي التنبيه عليه إذا انتهينا إليه، من إحياء أموات بدعوات من أمته، وحنين الجذع، وتسليم الحجر والشجر والمدر عليه، وتكليم الذراع له وغير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] والآيات بعدها، فقد قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:

] وقد ذكر ذلك ابن حامد فيما وقفت عليه بعد، وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء من كتابنا هذا، ومن «التفسير» [التفسير ٣/٥-٤٢] ما شاهده رسول الله ﷺ ليلة أسري به من الآيات فيما بين مكة إلى بيت المقدس وفيما بين ذلك إلى سماء الدنيا، ثم ما عاين من الآيات في السموات السبع وما فوق ذلك، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى، والنار التي هي بئس المصير والمثوى، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام في حديث المنام - وقد رواه أحمد [٥/٢٤٣] والترمذي [٣٢٣٣، ٣٢٣٤] وصححه، وغيرهما: - «فتجلّى لي كلُّ شيء وعرفتُ».

وذكر ابن حامد في مقابلة ابتلاء الله يعقوب عليه السلام بفقده ولده يوسف عليه السلام وصبره واستعانته ربه عز وجل، موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وصبره عليه، وقوله: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

قلت: وقد ماتت بناته الثلاثة: رقية، وأم كلثوم، وزينب، وقُتل عمه حمزة، أسد الله وأسد رسوله يوم أحد، فصبر واحتسب، وذكر في مقابلة حسن يوسف عليه السلام ما ذكر من جمال رسول الله ﷺ، ومهابته وحلاوته شكلاً ونطقاً وهدياً، ودلاً، وسمتاً، كما تقدم في شمائله من الأحاديث الدالة على ذلك، كما قالت الربيع بنت مسعود[: لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

وذكر في مقابلة ما ابتُلي به يوسف عليه السلام من الفُرقة والغُربة، هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ومفارقته وطنه وأهله وأصحابه الذين كانوا بها.

١١٢- القول فيما أوتي موسى عليه السلام من الآيات البينات

وأعظمهن تسع آيات كما قال تعالى [التفسير ٥/١٢٢- ١٢٤]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقد شرحناها في «التفسير» [التفسير ٣/٤٥٨-٤٦٣]، وحكينا قول السلف فيها، واختلافهم فيها، وأن الجمهور على أنها هي العصا في انقلابها حية تسعى، واليد، إذا أدخل يده في جيبه درعه أخرجها تضيء كقطعة قمر يتلألأ إضاءة، ودعاؤه على قوم فرعون حين كذبوه فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات، كما بسطنا ذلك في التفسير، وكذلك أخذهم الله بالسنين وهي نقص الحبوب، وبالجدب وهو نقص الثمار، وبالموت الذريع وهو نقص الأنفس، وهو الطوفان في قول: ومنها فلق البحر لإنجاء بني إسرائيل وإغراق آل فرعون، ومنها: تظليل بني إسرائيل في التيه بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم واستسقاؤه لهم، فجعل الله ماءهم يخرج من حَجَر يحمل معهم على دابة، له أربعة وجوه، إذا ضربه موسى بعصاه يخرج من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين، ثم يضربه فيُقلِع، وقَتْل كل من عبدَ العجلَ منهم، ثم أحياهم الله تعالى، وقصة البقرة، إلى غير ذلك من الآيات الباهرات، كما بسطنا ذلك في «التفسير» [التفسير ١/١٤٣، ٣/٧٣، ٧٤]، وفي قصة موسى عليه السلام من كتابنا هذا في قصص الأنبياء منه، ولله الحمد والمنة.

أما العصا فقال شيخنا العلامة ابن الزملكاني: وأما حياة عصا موسى، فقد سبح الحصا في كف رسول الله ﷺ وهو جماد، والحديث في ذلك صحيح، وهذا الحديث مشهور عن الزهري عن رجل عن أبي ذر، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً في دلائل النبوة بما أغنى عن إعادته وفيه: أنهن سبّحن في كف أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، كما سبحن في كف رسول الله ﷺ، فقال: «هذه خلافة النبوة».

وقد روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى بكر بن خنيس عن رجل سماه قال: كان بيد أبي مسلم الخولاني سُبحة يسبح بها، قال: فنام والسبحة في يده قال: فاستدارت السبحة فالتفت على ذراعه وجعلت تسبِّح فالتفت أبو مسلم والسبحة تدور في ذراعه وهي تقول: سبحانك يا منبت النبات، ويا دائم الثبات، فقال: هَلُمِّي يا أم مسلم وانظري إلى أعجب الأعاجيب، قال: فجاءت أم مسلم والسبحة تدور وتسبح فلما جلست سكتت.

وأصح من هذا كله وأصرح حديث البخاري] عن ابن مسعود قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، قال شيخنا: وكذلك قد سلّمت عليه الأحجار.

قلت: وهذا قد رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»، قال بعضهم: هو الحجر الأسود.

وقال الترمذي: حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي، حدثنا الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عباد بن ابي يزيد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، ثم قال: غريب.

ورواه أبو نعيم في «الدلائل» [دلائل٢٨٩] من حديث السدي عن أبي عمارة الخيواني عن علي قال: خرجت مع رسول الله ﷺ فجعل لا يمر على حجر ولا شجر إلا سلم عليه وقدمنا في أول المبعث أنه لما أوحى إليه جبريل أول ما أوحى إليه فرجع لا يمر بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، قال: وأقبلت الشجرة إليه بدعائه، وذكر اجتماع تينك الشجرتين لقضاء حاجته من ورائهما ثم رجوعهما إلى منابتهما، وكلا الحديثين في «الصحيح»]، ولكن لا يلزم من ذلك حلول حياة فيهما، إذ قد تكمونان ساقهما سائق، ولكن في قوله: انقادا عليّ بإذن الله، ما يدل على حصول شعور منهما لمخاطبته، ولا سيما مع امتثالهما ما امرهما به، قال: وأمر عذقاً من نخلة أن يتنزل فنزل إليه ينقز في الأرض حتى وقف بين يديه فقال: «أتشهد أني رسول الله؟» فشهد بذلك ثلاثاً ثم عاد إلى مكانه، وهذا أليق وأظهر في المطابقة من الذي قبله، ولكن هذا السياق فيه غرابة.

والذي رواه الإمام أحمد وصححه الترمذي [٣٦٢٨]، ورواه البيهقي والبخاري في «التاريخ» [التاريخ الكبير ٣/٣] من رواية أبي ظَبْيان حصين بن جندب عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم، قال: فدعا العذق فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض فجعل ينقز حتى أتى رسول الله ﷺ ثم قال له: «ارجع» فرجع حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن به، هذا لفظ البيهقي، وهو ظاهر في أن الذي شهد بالرسالة هو الأعرابي، وكان رجلا من بني عامر.

ولكن في رواية البيهقي من طريق الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا الذي يقول أصحابك؟ قال وحول رسول الله ﷺ أعذاق وشجر، فقال: «هل لك أن

أريك آية؟» قال: نعم، فدعا غصناً منها فاقبل يخد الأرض حتى وقف بين يديه وجعل يسجد ويرفع رأسه، ثم أمره فرجع، قال: فرجع العامري وهو يقول: يا آل عامر بن صعصعة والله لا أكذبه بشيء يقوله أبداً.

وتقدم فيما رواه الحاكم في «مستدركه» متفرداً به عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ دعا رجلاً إلى الإسلام فقال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: «هذه الشجرة» فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خداً فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال، ثم إنها رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه وقال: إن يتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت إليك وكنت معك.

قال: وأما حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ، فعمل له المنبر، فلما رقي عليه وخطب حن الجذع إليه حنين العشار والناس يسمعون صوته بمشهد الخلق يوم الجمعة، ولم يزل يئن ويحن حتى نزل إليه النبي ﷺ فاعتنقه وسكنه وخيره بين أن يرجع غصناً طرياً أو يغرس في الجنة يأكل منه أولياء الله، فاختار الغرس في الجنة وسكن عند ذلك، فهو حديث مشهور معروف، قد رواه من الصحابة عدد كثير متواتر، وكان بحضور الخلائق، وهذا الذي ذكره من تواتر حديث الجذع هو كما قال، فإنه قد روى هذا الحديث جماعة من الصحابة، وعنهم أعداد من التابعين، ثم من بعدهم آخرون عنهم لا يمكن تواطؤهم على الكذب فهو مقطوع به في الجملة، وأما تخيير الجذع كما ذكره شيخنا فليس بمتواتر، بل ولا يصح إسناده، وقد أوردته في الدلائل عن أبي بن كعب، وذكر في «مسند أحمد»، «وسنن ابن ماجه»، وعن أنس من خمس طرق إليه، صحح الترمذي إحداها، وروى ابن ماجه أخرى، وأحمد ثالثة، والبزار رابعة، وأبو نعيم خامسة، وعن جابر بن عبد الله في «صحيح البخاري» من طريقين عنه، والبزار من ثالثة ورابعة، وأحمد من خامسة وسادسة، وهذه على شرط مسلم، وعن سهل بن سعد في «مصنف ابن أبي شيبة» على شرط «الصحيحين»، وعن ابن عباس في «مسند أحمد» «وسنن ابن ماجه» بإسناد على شرط مسلم، وعن ابن عمر في «صحيح البخاري»، ورواه أحمد من وجه آخر عن ابن عمر، وعن أبي سعيد في «مسند عبد بن حميد» بإسناد على شرط مسلم، وقد رواه ابو يعلى الموصلي من وجه آخر عنه، وعن عائشة رواه الحافظ أبو نعيم من طريق علي بن أحمد الجواربيّ عن قبيصة عن حبان بن علي عن صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة عن عائشة، فذكر الحديث بطوله، وفيه أنه خيره بين الدنيا والآخرة فاختار الجذع الآخرة وغار حتى ذهب فلم يعرف، وهذا غريب إسناداً ومتناً.

وعن أم سلمة رواه أبو نعيم بإسناد جيد، وقدمت الأحاديث ببسط أسانيدها وتحرير ألفاظها وعزوها بما فيه كفاية عن إعادته هاهنا، [ومن تدبرها حصل له القطع بذلك ولله الحمد والمنة.

قال القاضي عياض بن موسى السبتي المالكي في كتابه «الشفا» [الشفا ٤٢٧/١]: وهو حديث مشهور منتشر متواتر خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم أبيّ وجابر وأنس وبريدة وجابر وسهل بن سعد، وابن عباس، وابن عمر والمطلب بن أبي وداعة وأبو سعيد وأم سلمة رضي الله عنهم أجمعين، قال شيخنا: فهذه جمادات ونباتات وقد حنت وتكلمت، وفي ذلك ما يقابل انقلاب العصا حية.

قلت: وسنشير إلى هذا عند ذكر معجزات عيسى عليه السلام في إحيائه الموتى بإذن الله تعالى في ذلك كما رواه البيهقي عن الحاكم عن أبي أحمد بن أبي الحسن عن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن سوّاد قال: قال لي الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، فقال: أعطى محمداً الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هُيِّئ له المنبر، فلما هُيِّئ له حن الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك، وهذا إسناد صحيح إلى الشافعي رحمه الله، وهو مما كنت أسمع شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي رحمه الله يذكره عن الشافعي رحمه الله وأكرم مثواه، وإنما قال: فهذا أكبر من ذلك لأن الجذع ليس محلاً للحياة ومع هذا حصل له شعور ووجد لما تحول عنه إلى المنبر فأنَّ وحن حنين العشار حتى نزل رسول الله ﷺ فاحتضنه وسكنه حتى سكن، قال الحسن البصري [دلائل ٥٥٩/٢]: فهذا الجذع حنّ إليه، فأنتم أحق إن يحنّوا إليه، وأما عود الحياة إلى جسد كانت فيه بإذن الله تعالى فعظيم، وهذا أعجب وأعظم منه إيجاد حياة وشعور في محل ليس مألوفاً لذلك لم تكن فيه قبل بالكليّة فسبحان الله رب العالمين.

تنبيه: وقد كان لرسول الله ﷺ لواء يحمل معه في الحرب يخفق في قلوب أعدائه مسيرة شهر بين يديه، وكانت له عنزة تحمل بين يديه فإذا أراد الصلاة إلى غير جدار ولا حائل رُكِزَت بين يديه، وكان له قضيب يتوكأ عليه إذا مشى، وهو الذي عبر عنه سطيح في قوله لابن أخيه عبد المسيح بن بقيلة: يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوه، وظهر صاحب الهراوه وغاضت بحيرة ساوه، فليست الشام لسطيح شاماً، ولهذا كان ذكر هذه الأشياء عند إحياء عصا موسى وجعلها حية ألتي، إذ هي مساوية لذلك، وهذه متعددة كثيرة في محال متفرقة بخلاف عصا موسى فإنها وإن تعدّد جعلها حية، فهي ذات واحدة والله أعلم. ثم نبه على ذلك عند ذكر إحياء الموتى على يد عيسى لأن هذه أعجب وأكبر وأظهر والله أعلم.

قال شيخنا: وأما أن الله كلم موسى تكليماً، فقد تقدّم حصول الكلام للنبي ﷺ ليلة الإسراء فيشهد له: «فنوديتُ: أن يا محمد قد كمّلتُ فريضتي وخففت عن عبادي»، وسياق بقية القصة يرشد إلى ذلك، وقد حكى بعض العلماء الإجماع على ذلك، لكن رأيت في كلام القاضي عياض نقل خلاف فيه والله أعلم.

وأما الرؤية ففيها خلاف مشهور بين الخلف والسلف، ونصرها من الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة المشهور بإمام الأئمة، واختار ذلك القاضي عياض والشيخ محيي الدين النووي، وجاء عن ابن عباس تصديق الرؤية، وجاء عنه تقييدها بالفؤاد، وكلاهما في «صحيح مسلم»، وفي «الصحيحين» عن عائشة إنكار ذلك، وقد ذكرنا في الإسراء عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي ذر وعائشة رضي الله عنهم أن المرئي في المرتين المذكورتين في أول سورة «النجم»، إنما هو جبريل عليه السلام، وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: نورٌ أنّى لي أراه؟»، وفي رواية: «رأيت نوراً»، وقد تقدم] بسط ذلك في الإسراء في السيرة وفي «التفسير» في أول سورة «بني إسرائيل»، [التفسير ٤٢-٣/٥] وهذا الذي ذكره شيخنا فيما يتعلق بالمعجزات الموسوية عليه أفضل الصلاة والسلام. وأيضاً فإن الله تعالى كلم موسى وهو بطور سيناء، وسأل الرؤية فمنعها، وكلم محمداً ﷺ ليلة الإسراء وهو بالملأ الأعلى حين رُفع لمستوىً يسمع فيه صريف الأقلام، وحصلت له الرؤية في قول طائفة كثيرة من علماء السلف والخلف والله أعلم، ثم رأيت ابن حامد قد طرق هذا في كتابه فأجاد وأفاد.

وقال ابن حامد: قال الله تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] وقال لمحمد: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأما اليد التي جعلها الله برهاناً وحجةً لموسى على فرعون وقومه كما قال تعالى بعد ذكر صيرورة العصا حيةً: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢] وقال في سورة «طه»: ﴿آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢،٢٣] فقد أعطى الله محمداً انشقاق القمر بإشارته إليه فرقتين، فرقة من وراء جبل حراء، وأخرى أمامه، كما تقدم بيان ذلك بالأحاديث المتواترة مع قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢] ولا شك أن هذا أجل وأعظم وأبهر في المعجزات وأشهر وأعظم وأعم وأظهر وأبلغ من ذلك، وقد قال كعب بن مالك في حديثه الطويل في قصة توبته: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه فلقة قمر، وذلك في «صحيح البخاري».

وقال ابن حامد: قالوا: فإن موسى أعطي اليد البيضاء، قلنا لهم: فقد أعطي محمد ﷺ ما هو أفضل من ذلك نوراً كان يضيء عن يمينه حيثما جلس، وعن يساره حيث ما جلس وقام، يراه الناس كلهم، وقد بقي ذلك النور إلى قيام الساعة، ألا ترى أنه يرى النور الساطع من قبره ﷺ من مسيرة يوم وليلة؟ هذا لفظه، وهذا الذي ذكره من هذا النور غريب جداً، وقد ذكرنا في السيرة عند إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي أنه طلب من النبي ﷺ آية تكون له عوناً على إسلام قومه فدعا له وذهب إلى قومه فلما أشرف على قومه من ثنية هناك، فسطع نور بين عينيه كالمصباح، فقال: اللهم في غير هذا الموضع فإنهم يظنونه مثلة، فتحول النور إلى طرف سوطه فجعلوا ينظرون إليه كالمصباح فهداهم الله على يديه ببركة رسول الله ﷺ وبدعائه لهم في قوله: «اللهم اهد دوساً، وائت بهم»، وكان يقال للطفيل: ذو النور لذلك. وذكرنا أيضاً حديث أسيد بن حضير وعباد بن بشر في خروجهما من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما طرف عصا أحدهما، فلما افترقا أضاء لكل واحد منهما طرف عصاه، وذلك في «صحيح البخاري» وغيره.

وقال أبو زرعة الرازي في كتاب «دلائل النبوة»: [حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن عباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حندس فأضاءت عصا أحدهما مثل السراج وجعلا يمشيان بضوئها، فلما تفرقا إلى منازلهما أضاءت عصا ذا وعصا ذا.

ثم روى عن إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مصعب بن الزبير بن العوام، وعن يعقوب بن حميد المدني، كلاهما عن سفيان بن حمزة بن يزيد الأسلمي عن كثير بن زيد عن محمد بن حمزة بن عمرو الأسلمي عن أبيه قال: سرنا في سفر مع رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء دحمسة فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم، وإن أصابعي لتنير.

وروى هشام بن عمار في «المبعث» [الزهد ٢٤٦]: حدثنا عبد الأعلى بن محمد البكري، حدثنا جعفر بن سليمان البصري، حدثنا أبو التياح الضبعي قال: كان مطرّف بن عبد الله يبدو فيدخل كل جمعة فربما نور له في سوطه، فأدلج ذات ليلة وهو على فرسه حتى إذا كان عند المقابر هوَّم به، قال: فرأيت صاحب كل قبر جالساً على قبره، قالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة، فقلت لهم: وتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير، قلت: وما يقول فيه الطير؟ قالوا: يقول: سلام سلام من يوم صالح.

وأما دعاؤه عليه السلام عليهم بالطوفان، وهو الموت الذريع في قول، وما بعده من الآيات والقحط والجدب، فإنما كان ذلك لعلهم يرجعون إلى متابعته ويقلعون عن مخالفته، فما زادهم إلا طغياناً كبيراً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨-٤٩] ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٦] وقد دعا رسول الله ﷺ على قريش حين تمادوا على مخالفته بسبع كسبع يوسف فقحطوا حتى أكلوا كل شيء، وكان أحدهم يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجوع، وقد فسر ابن مسعود قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] بذلك كما رواه البخاري عنه في غير ما موضع من «صحيحه»، ثم توسلوا إليه، صلوات الله وسلامه عليه، بقرابتهم منه مع أنه بعث بالرحمة والرأفة، فدعا لهم فأقلع عنهم ورُفع عنهم، وأحيوا بعدما كانوا أشرفوا على الهلكة.

وأما فلق البحر لموسى عليه السلام حين أمره الله تعالى - حين تراءى الجمعان - أن يضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فإنه معجزة عظيمة باهرة، وحجة قاطعة قاهرة، وقد بسطنا ذلك في «التفسير» وفي قصص الأنبياء من كتابنا هذا، وفي إشارته ﷺ بيده الكريمة إلى قمر السماء فانشق فلقتين وفق ما سألته قريش، وهم معه جلوس في ليلة البدر، أعظم آية، وأيمن دلالة وأوضح حجة وأبهر برهان على نبوته وجاهته عند الله تعالى، ولم ينقل معجزة عن نبي من الأنبياء من الآيات الحسّيات أعظم من هذا، كما قررنا ذلك بأدلته من الكتاب والسنة، في «التفسير» وفي أول البعثة، وهذا أعظم من حبس الشمس قليلاً ليوشع بن نون حتى تمكن من الفتح ليلة السبت، كما سيأتي في تقرير ذلك مع ما يناسب ذكره عنده، وقد تقدم من مسير العلاء بن الحضرمي، وأبي عبيد الثقفي وأبي مسلم الخولاني، وسائر الجيوش التي كانت معهم على تيار الماء ومنها دجلة وهي جارية عجاجة تقذف بالخشب من شدة جريها، وتقدم تقرير أن هذا أعجب من فلق البحر لموسى من هذه الوجوه والله أعلم.

وقال ابن حامد: قالوا: فإن موسى عليه السلام ضرب بعصاه البحر فانفلق فكان ذلك آية لموسى عليه السلام، قلنا: فقد أوتي رسول الله ﷺ مثلها، قال علي رضي الله عنه: لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بواد يَشْخَب وقدّرناه فإذا هو أربع عشرة قامة، فقالوا: يا رسول الله العدو من ورائنا والوادي من أمامنا، كما قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. فنزل رسول الله ﷺ ثم قال: «اللهم إنك جعلت لكل مرسل دلالة فارني قدرتك» فركب رسول الله ﷺ فعبرت الخيل لا تبدي حوافرها والإبل لا تبدي أخفافها، فكان ذلك فتحاً، وهذا الذي ذكره بلا إسناد لا أعرفه في شيء من الكتب المعتمدة بإسناد صحيح ولا حسن بل ولا ضعيف فالله أعلم.

وأما تظليله بالغمام في التيه، فقد تقدم ذكر حديث الغمامة التي رآها بحيرا تظله من بين أصحابه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، صحبة عمه أبي

طالب وهو قاصد الشام في تجارة، وهذا أبهر من جهه أنه كان وهو قبل أن يوحى إليه، وكانت الغمامة تظله وحده من بين أصحابه، فهذا أشد في الاعتناء، وأظهر من غمام يُظل بني إسرائيل وغيرهم. وأيضاً فإن المقصود من تظليل الغمام إنما كان لاحتياجهم إليه من شدة الحر، وقد ذكرنا في الدلائل حين سئل النبي ﷺ أن يدعو لهم ليسقوا لما هم عليه من الجوع والجهد والقحط، فرفع يديه وقال: «اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا»، قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فأنشئت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال أنس: فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً، ولما سألوه أن يستصحي لهم رفع يده وقال: «اللّهم حوالينا ولا علينا»، فما جعل يشير بيده إلى ناحيه إلا انجاب السحاب حتى صارت المدينة مثل الإكليل يمطر ما حولها ولا تمطر»، فهذا تظليل غمام محتاجٌ اليه، آكد من الحاجة إلى ذلك، وهو أنفع منه والتصرف فيه وهو يشير أبلغ في المعجز وأظهر في الاعتناء والله أعلم.

وأما إنزال المن والسلوى عليهم فقد كثر رسول الله ﷺ الطعام والشراب في غير ما موطن كما تقدم بيانه في دلائل النبوة من إطعام الجم الغفير من الشيء اليسير، كما أطعم يوم الخندق من شويهة جابر بن عبد الله وصاعه الشعير، أزيد من ألف نفس جائعة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وأطعم من جَفْنةٍ فئاماً من الناس وكانت تمد من السماء إلى غير ذلك من هذا القبيل مما يطول ذكره، وقد ذكر أبو نعيم وابن حامد أيضاً ههنا أن المراد بالمن والسلوى انما هو رزق رزقوه من غير كد منهم ولا تعب، ثم أورد في مقابلته حديث تحليل المغانم ولم تحلّ لأحد قبلنا، وحديث جابر في سرية أبي عبيدة وجوعهم حتى أكلوا الخبط فحسر البحر لهم عن دابة تسمى العنبر فأكلوا منها ثلاثين من يوم وليلة حتى سمنوا وتكسّرت عُكَن بطونهم، والحديث في «الصحيح» كما تقدم.

وسيأتي عند ذكر المائدة في معجزات المسيح ابن مريم قصة أبي مسلم الخولاني أنه خرج هو وجماعة كثيرة من أصحابه إلى الحج وأمرهم أن لا يحملوا زاداً ولا مزاداً فكانوا إذا نزلوا منزلاً صلّى ركعتين فيؤتون بطعام وشراب وعلف يكفيهم ويكفي دوابهم غداء وعشاء مدة ذهابهم وإيابهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٦٠] فقد ذكرنا بسط ذلك في قصة موسى عليه السلام وفي «التفسير» [التفسير ١٤٣/١، ١٤٤]. وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في وضع النبي ﷺ يده في ذلك الإناء الصغير الذي لم يتسع لبسطها فيه، فجعل الماء ينبُع من بين أصابعه أمثال العيون، وكذلك كثر الماء في غير ما موطن، كمزادتي تلك المرأة، ويوم الحديبية، وغير ذلك، وقد استسقى الله لأصحابه في المدينة وغيرها فأجيب طبق السؤال ووفق الحاجة لا أزيد ولا أنقص وهذا أبلغ في المعجز، ونبع الماء من بين أصابعه من نفس يده، على قول طائفة من العلماء، أعظم من نبع الماء من الحجر، فإنه محل لذلك.

قال أبو نعيم الحافظ [دلائل ٥٨٨/٢]: فإن قيل: إن موسى كان يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً في التيه، قد علم كل أناس مشربهم. قيل: كان لمحمد ﷺ مثله وأعجب، فإن نبع الماء من الحجر مشهور في العلوم والمعارف، وأعجب من ذلك نبع الماء من بين اللحم والعظم والدم، فكان يفرج بين أصابعه في مِخْضَب فينبع من بين أصابعه الماء فيشربون ويسقون ماء جارياً عذباً، يروي العدد الكثير من الناس والخيل والإبل.

ثم روى من طريق المطلب بن عبد الله بن أبي حنطب: حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، حدثني أبي قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، فأصاب الناس مخمصة فدعا بركوة فوضعت بين يديه، ثم دعا بماء فصبه فيها، ثم مجّ فيها وتكلم بما شاء الله أن يتكلم، ثم أدخل أصبعه فيها، فاقسم بالله لقد رأيت أصابع رسول الله ﷺ تتفجر منها ينابيع الماء، ثم أمر الناس فسقوا وشربوا وملؤوا قربهم وإداواتهم.

وأما قصة إحياء الذين قتلوا بسبب عبادة العجل وقصة البقرة، فسيأتي ما يشابههما من إحياء حيوانات وأناس، عند ذكر إحياء الموتى على يد عيسى ابن مريم عليه السلام والله أعلم، وقد ذكر أبو نعيم ههنا أشياء أخر تركناها اختصاراً واقتصاداً.

وقال هشام بن عمارة في كتابه «المبعث»: باب فيما أُعطي رسول الله ﷺ وما أعطي الأنبياء قبله

حدثنا محمد بن شعيب القرشي، حدثنا روح بن مدرك، أخبرني عمر بن حسان التميمي أن موسى عليه السلام أُعطي آية من كنوز العرش، ربِّ لا تولج الشيطان في قلبي وأعذني منه ومن كل سوء، فإن لك الأيدَ والسلطان والملك والملكوت، دهر الداهرين وأبد الآبدين آمين آمين، قال: وأعطي محمد ﷺ آيتين من كنوز العرش، آخر «سورة البقرة»: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخرها [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

١١٣- قصة حبس الشمس على يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم السلام

وقد كان نبي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وهو الذي خرج ببني إسرائيل من التيه ودخل بهم بيت المقدس بعد حصار ومقاتلة، وكان الفتح قد يُنجزُ بعد العصر يوم الجمعة وكادت الشمس تغرب ويدخل عليهم السبت فلا يتمكنون معه من القتال، فنظر إلى الشمس فقال: إنك مأمورة وأنا مأمور، ثم قال: اللّهم احبسها علي، فحبسها الله تعالى عليه حتى فتح البلد ثم غربت.

وقد قدمنا في قصة من قصص الأنبياء الحديث الوارد في «صحيح مسلم» من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «غزا نبي من الأنبياء فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللّهم احبسها علي شيئاً»، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، الحديث بطوله.

وهذا النبي هو يوشع بن نون، بدليل ما رواه الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر عن هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع عليه السلام ليالي سار إلى بيت المقدس». تفرد به أحمد وإسناده على شرط البخاري، إذا علم هذا فانشقاق القمر فلقتين حتى صارت مرقة من وراء الجبل - أعني حراء - وأخرى من دونه، أعظم في المعجزه من حبس الشمس قليلاً. وقد قدمنا في الدلائل حديث رد الشمس بعد غروبها، وذكرنا ما قيل

فيه من المقالات فالله أعلم.

قال شيخنا العلامة أبو المعالي بن الزملكاني: وأما حبس الشمس ليوشع في قتال الجبارين، فقد انشق القمر لنبينا ﷺ وانشقاق القمر مزقتين أبلغ من حبس الشمس عن مسيرها، وصحت الأحاديث وتواترت بانشقاق القمر، وأنه كان فرقة خلف الجبل وفرقة أمامه وأن رسول الله ﷺ قال: «اشهدوا»، وأن قريشاً قالوا: هذا سحر أبصارنا، فوردت المسافرون وأخبروا أنهم رأوه مفترقاً، قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢] قال: وقد حبست الشمس لرسول الله ﷺ مرتين، إحداهما ما رواه الطحاوي وقال: رواته ثقات، وسماهم وعدّلهم واحداً واحداً، وهو أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه فلم يرفع رأسه حتى غربت الشمس، ولم يكن علي صلى العصر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة نبيك، فاردد عليه الشمس»، فرد الله عليه الشمس حتى رئيت، فقام علي فصلى العصر، ثم غربت، والثانية صبيحة الإسراء فإنه ﷺ أخبر قريشاً عن مسراه من مكة إلى بيت المقدس، فسألوه عن أشياء من بيت المقدس فجلاه الله له حتى نظر إليه ووصفه لهم، وسألوه عن عير كانت لهم في الطريق فقال: «إنها تصل إليكم مع شروق الشمس»، فتأخرت فحبس الله الشمس عن الطلوع حتى جاءت العيد، روى ذلك يونس بن بكير في زياداته على «السيرة»، أما حديث رد الشمس بسبب علي رضي الله عنه، فقد تقدم ذكرنا له من طريق أسماء بنت عميس، وهو أشهرها، وأبي سعيد وأبي هريرة وعلي نفسه، وهو مستنكر من جميع الوجوه، وقد مال إلى القول بتقويته أحمد بن صالح المصري الحافظ، وأبو جعفر الطحاوي، والقاضي عياض، وكذا صحّحه جماعة من العلماء الرافضة كابن المطهر وذويه، ورده وحكم بضعفه آخرون من كبار حفاظ الحديث ونقادهم، كعلي بن المديني، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، وحكاه عن شيخه محمد ويعلى ابني عبيد الطنافسيين، وكأبي بكر محمد بن حاتم البخاري المعروف بابن زنجويه أحد الحفاظ، والحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر، وذكره الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي في كتاب «الموضوعات»، وكذلك صرح بوضعه شيخاي الحافظان الكبيران أبو الحجاج المزي، وأبو عبد الله الذهبي، وأما ما ذكره يونس بن بكير في زياداته على «السيرة» من تأخر طلوع الشمس عن إبان طلوعها، فلم ير لغيره من علماء السير، على أن هذا ليس من الأمور المشاهَدة، وأكثر ما في الباب أن الراوي رأى تأخير طلوعها ولم يشاهد حبسها عن وقتها.

وأغرب من هذا ما ذكره ابن المطهر في كتابه «المنهاج»، أنها ردت لعلي مرتين، فذكر الحديث المتقدم، كما ذُكر. ثم قال: وأما الثانية فلما أراد أن يعبر الفرات ببابل، اشتغل كثير من أصحابه بسبب دوابهم، وصلى لنفسه في طائفة من أصحابه العصر، وفات كثيراً منهم فتكلموا في ذلك، فسأل الله رد الشمس فرُدّت، قال:

وقد نظمه الحميري فقال:

رُدّت عليه الشمس لما فاته ... وقت الصلاة وقد دنت للمغرب

حتى تبلّج نورُها في وقتها ... للعصر ثم هوت هويّ الكوكب

وعليه قد رُدّت ببابل مرة ... أخرى وما ردت لخلق مُغْرِب

وذكر أبو نعيم بعد موسى إدريس عليه السلام وهو عند كثير من المفسرين من أنبياء بني إسرائيل، وعند محمد بن إسحاق بن يسار وآخرين من علماء النسب قبل نوح عليه السلام، في عمود نسبه إلى آدم عليه السلام، كما تقدم التنبيه على ذلك فقال:

١١٤- القول فيما أعطي إدريس عليه السلام من الرفعة التي نوه الله بذكرها فقال: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]

قال: والقول فيه أن نبينا محمداً ﷺ أعطي أفضل وأكمل من ذلك، لأن الله تعالى رفع ذكره في الدنيا والآخرة فقال ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فليس خطيب ولا متشفع ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقرن الله اسمه باسمه، في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك مفتاحاً للصلاة المفروضة، ثم أورد حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: «قال جبريل: قال الله: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ»، ورواه ابن جرير [تفسير ٣٠/٢٣٥] وابن أبي حاتم من طريق دراج. ثم قال: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي، حدثنا موسى بن سهل الجوني، حدثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهيتي، حدثنا نصر بن حماد عن عثمان بن عطاء عن الزهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله تعالى به من أمر السموات والأرض قلت: يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا قد كرّمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله؟ أن لا أُذكر إلا ذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة، وأنزلت عليك كلمة من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله». وهذا إسناد فيه غرابة،ولكن أورد له شاهداً من طريق أبي القاسم ابن بنت منيع البغوي عن سليمان بن داود الزهراني، عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه.

وقد رواه أبو زرعة الرازي في كتاب «دلائل النبوة» بسياق آخر،وفيه انقطاع، فقال: حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا شعيب بن رزيق أنه سمع عطاء الخراساني يحدّث عن أبي هريرة وأنس بن مالك عن النبي ﷺ من حديث ليلة أسري به. قال: فأراني الله من آياته فوجدنا ريحاً طيبة فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الجنة، قلت: يا ربي ائتني بأهلي. قال الله تعالى: أنا الله لا إله إلا أنا، لك ما وعدتك، كل مؤمن ومؤمنة لم يتخذ من دوني أنداداً، ومَن أقرضني جزيته، ومن توكل علي كفيته، ومن سألني أعطيته، ولا ينقص نفقتي، ولاينقص ما يتمنى، لك ما وعدتك، فنعم دار المتقين أنت، قالت: رضيت، فلما انتهينا إلى سدرة المنتهى خررت ساجداً فرفعت رأسي فقلت: يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، وآتيت داود زبوراً، وآتيت سليمان ملكاً عظيماً، قال: فإني قد رفعت لك ذكرك تُذكرُ معي إذا ذُكرتُ، ولا تجوز لأمتك خُطبة حتى يشهدوا أنك رسولي، وجعلتُ قلوب أمتك أناجيل، وآتيتك خواتيم سورة البقرة من تحت عرشي».

ثم روى من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة، حديث الإسراء بطوله، كما سقناه من طريق ابن جرير في «التفسير» [التفسير ٥/٣١-٣٦]، وقال أبو زرعة في سياقه: ثم لقي أرواح الأنبياء عليهم السلام فأثنوا على ربهم عز وجل، فقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً لله يؤتمّ بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي برداً وسلاماً، ثم إن موسى أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني برسالته وبكلامه، وقربني نجياً، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون على يدي، ونجاة بني إسرائيل على يدي ثم إن داود أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني مَلِكاً وأنزل عليَّ الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبّحن معي والطير، وآتاني الحكمة وفصل الخطاب، ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح والجن والإنس، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وأسال لي عين القطر، وأعطاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عزّ وجل فقال: الحمد لله الذي علمني التوراة والإنجيل، وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهّرني من الذين كفروا، وأعاذني من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل، ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربه فقال: «كلكم أثنى على ربه، وأنا مُثنٍ على ربي، الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل علي الفرقان فيه بيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً». فقال إبراهيم: بهذا فضَلَكم محمد ﷺ.

ثم أورد أبو نعيم الحديث المتقدم فيما رواه الحاكم والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعا في قول آدم: «يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: وما أدراك ولم أخلقه بعد؟ فقال: لأني رأيت مكتوباً مع اسمك على ساق العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تكن تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، ولولا محمد ما خلقتك». وقال بعض الأئمة: رفع الله ذكره، ونوه باسمه في الأولين والآخرين، وكذلك يرفع قدره ويقيمه مقاماً محموداً يوم القيامة، يغبطه به الأولون والآخرون، ويرغب إليه الخلق كلهم حتى إبراهيم الخليل، كما ورد في صحيح مسلم فيما سلف وسيأتي أيضاً.

فأما التنويه بذكره في الأمم الخالية، والقرون السابقة ففي «صحيح البخاري» وغيره [ليس في صحيح البخاري] عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وليتبعنه ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته العهد والميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليتبعنه، وقد بشرت بوجوده الأنبياء حتى كان آخر من بشر به عيسى ابن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل، وكذلك بشرت به الأحبار والرهبان والكهان، كما قدمنا ذلك مبسوطاً، ولما كانت ليلة الإسراء رفع من سماء إلى سماء حتى سلم على إدريس عليه السلام، وهو في السماء الرابعة، ثم جاوزه إلى الخامسة ثم إلى السادسة فسلم على موسى بها، ثم جاوزه إلى السابعة فسلم على إبراهيم الخليل بها عند البيت المعمور، ثم جاوز ذلك المقام، فرفع لمستوى سمع فيه صريف الأقلام وجاء سدرة المنتهى ورأى الجنة والنار وغير ذلك من الآيات الكبرى، وصلى بالأنبياء، وشيعه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه رضوان خازن الجنان ومالك خازن النار، فهذا هو الشرف، وهذه هي الرفعة وهذا التكريم والتنويه والإشهار والتقديم والعلو والعظمة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وأما رفع ذكره في الآخرين، فإن دينه باق ناسخ لكل دين، ولا ينسخ هو أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم الدين، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة، والنداء بالأذان في كل يوم خمس مرات على كل مكان مرتفع من الأض: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وهكذا كل خطيب يخطب لا بد أن يذكره في خطبته، وما أحسن قول حسان:

اغَرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقال الصَّرْصَرِيُّ وهو حسان وقته: لا يصحُّ الأذان في الغرض إلا باسمه العذب في الفم المرضيّ وقال أيضاً:

ألم تر أنا لا يصح أذاننا ... ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

١١٥- القول فيما أوتي داود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧-١٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ: ١٠-١١] وقد ذكرنا في قصته عليه السلام وفي «التفسير» [٦/٤٨٥]، وطيب صوته عليه السلام، وأن الله تعالى كان قد سخر له الطير تسبح معه، وكانت الجبال أيضاً تجيبه وتسبح معه، وكان سريع القراءة، كان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ الزبور مقدار ما يفرغ من شأنها ثم يركب، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان نبينا ﷺ حسن الصوت طيبه بتلاوة القرآن، قال جبير بن مطعم: قرأ رسول الله ﷺ في المغرب بالتين والزيتون، فما سمعت صوتاً أطيب من صوته ﷺ، وكان يقرأ ترتيلاً كما أمره الله عز وجل، وأما تسبيح الطير مع داود، فتسبيح الجبال الصم الجماد أعجب من ذلك، وقد تقدم في الحديث أن الحصا سبح في كف رسول الله ﷺ. قال ابن حامد: وهذا حديث معروف مشهور، وكانت الأحجار والأشجار والمدر تسلم عليه ﷺ.

وفي «صحيح البخاري» [٣٥٧٩] عن ابن مسعود قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل - يعني بين يدي النبي ﷺ - وكلمه ذراع الشاة المسمومة، وأعلمه بما فيه من السم، وشهدت بنبوته الحيوانات الإنسية والوحشية، والجمادات أيضاً، كما تقدم بسط ذلك كله، ولا شك أن صدور التسبيح من الحصا الصغار الصم التي لا تجاويف فيه، أعجب من صدور ذلك من الجبال، لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنها وما شاكلها تردد صدى الأصوات العالية غالباً، كما كان عبد الله بن الزبير: إذا خطب

- وهو أمير المؤمنين بالحرم الشريف - تجاوبه الجبال، أبو قبيس وزرزر، ولكن من غير تسبيح، فإن ذلك من معجزات داود عليه السلام. ومع هذا فتسبيح الحصا في كف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان أعجب.

وأما أكل داود من كسب يده، فقد كان رسول الله ﷺ يأكل من كسبه أيضاً، كما كان يرعى غنماً لأهل مكة على قراريط. وقال: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم». وخرج إلى الشام في تجارة لخديجة مضاربة، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧-٩] إلى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أي للتكسب والتجارة طلباً للربح الحلال، ثم لما شرع الله الجهاد بالمدينة، كان يأكل مما أباح له من المغانم التي لم تبح لنبي قبله، ومما أفاء الله عليه من أموال الكفار التي أبيحت له دون غيره، كما جاء في المسند والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وأما إلانة الحديد لداود عليه السلام فقد كان من المعجزات الباهرات. كان الحديد يلين بين يديه من غير نار كما يلين العجين في يده، فكان يصنع منه هذه الدروع الداوودية، وهي الزرديات السابغات، وأمره الله تعالى بكيفية عملها، ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، أي لا تُدِقّ المسمار فيغلق، ولا تغلظه فيفصم، كما جاء في البخاري [فتح الباري ٤٥٣/٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] وقد قال بعض الشعراء في معجزات النبوة:

نسيج داود ما حمى صاحب الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت

والمقصود المعجز في إلانة الحديد، وقد تقدم في السيرة عند ذكر حفر الخندق عام الأحزاب في سنة أربع، وقيل: خمس، أنهم عرضت لهم كدية - وهي الصخرة في الأرض - فلم يقدروا على كسرها ولا شيء منها، فقام إليها رسول الله ﷺ - وقد ربط حجراً على بطنه من شدة الجوع - فضربها ثلاث ضربات، لمعت الأولى حتى أضاءت له منها قصور الشام، وبالثانية قصور فارس، وبالثالثة قصور صنعاء، ثم انثالت الصخرة كأنها كثيب أهيل من الرمل، ولا شك أن لين الصخور التي لا تنفعل ولا بالنار، أعجب من لين الحديد الذي إن حمي لان كما قال بعضهم:

فلو أن ما عالجتُ لين فؤادها ... بنفسي... للان الجندلُ والجندل

فلو أن شيئاً أشد قوة من الصخر لذكره هذا الشاعر المبالغ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] الآية، وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١] الآية، فذاك الترقي لمعنى آخر ذكر في «التفسير»، وحاصله أن الحديد أشد امتناعاً في الساعة الراهنة من الحجر ما لم يعالج فإذا عولج انفعل الحديد ولا ينفعل الحجر والله أعلم.

وقال أبو نعيم [دلائل ٥٩٤/٢، ٥٩٥]: فإن قيل: فقد لين الله لداود عليه السلام الحديد حتى سرد منه الدروع السوابغ، قيل: لينت لمحمد ﷺ الحجارة وصم الصخور، فعادت له غاراً استتر به من المشركين، يوم أحد، مال برأسه إلى الجبل ليخفي شخصه عنهم فلين الله الجبل له حتى أدخل رأسه فيه، وهذا أعجب لأن الحديد تلينه النار، ولم نر النار تلين الحجر، قال: وذلك بعد ظاهر باق يراه الناس. قال: وكذلك في بعض شعاب مكة حجر من جبل أصم استروح في صلاته إليه فلان له الحجر حتى أثر فيه بذراعيه وساعديه، وذلك مشهور يقصده الحجاج ويرونه. وعادت الصخرة ليلة أسري به كهيئة العجين، فربط بها دابته البراق يلمسه الناس إلى يومنا هذا باق.

وهذا الذي اشار اليه، من يوم أحد وبعض شعاب مكة غريب جداً، ولعله قد اسنده هو فيما سلف، وليس ذلك بمعروف في السير المشهورة. وأما ربط الدابة في الحجر فصحيح، والذي ربطها جبريل كما هو في «صحيح مسلم» [١٦٢ (٢٥٩)] رحمه الله.

وأما قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص ٢٠]، فقد كانت الحكمة التي أوتيها محمد ﷺ والشرعة التي شرعت له، أكمل من كل حكمة وشرعة كانت لمن قبله من الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، فإن الله جمع له محاسن من كان قبله، وفضله، وأكمله له وآتاه ما لم يؤت أحداً قبله، وقد قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً»، ولا شك أن العرب أفصح الأمم، وكان النبي ﷺ أفصحهم نطقاً، وأجمع لكل خلق جميل مطلقاً.

١١٦- القول فيما أوتي سليمان بن داود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٦-٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١-٨٢] وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢-١٣] وقد بسطنا ذلك في قصته، وفي «التفسير» [٤٨٧/٦-٤٨٩] أيضاً.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وصححه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في «مستدركه» [عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ]: أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً، سأل الله حكماً يوافق حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأنه لا يأتي هذا المسجد أحد إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

أما تسخير الريح لسليمان فقد قال الله تعالى في شأن الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقد تقدم [في الحديث الذي رواه مسلم من طريق شعبة عن الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»، ورواه مسلم [٩٠٠ (...)] من طريق الأعمش عن

مسعود بن مالك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ مثله.

وثبت في «الصحيحين»: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». ومعنى ذلك أنه ﷺ كان إذا قصد قتال قوم من الكفار ألقى الله الرعب في قلوبهم منه قبل وصوله إليهم بشهر. ولو كان مسيره شهراً، فهذا في مقابلة: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، بل هذا أبلغ في التمكين والنصر والتأييد والظفر، وسخرت له الرياح تسوق السحاب لإنزال المطر الذي امتن الله به حين استسقى رسول الله ﷺ لأصحابه في غير ما موطن كما تقدم.

وقال أبو نعيم [دلائل ٥٩٦/٢]: فإن قيل: فإن سليمان سخرت له الريح فسارت به في بلاد الله وكان غدوها شهراً ورواحها شهراً. قيل: ما أعطى محمد ﷺ أعظم وأكبر، لأنه سار في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السموات مسيرة خمسين ألف سنة، في أقل من ثلث ليلة، فدخل السموات سماءً سماءً، ورأى عجائبها، ووقف على الجنة والنار، وعرض عليه أعمال أمته، وصلى بالأنبياء وبملائكة السموات، واخترق الحجب. وهذا كله في ليلة قائماً، أكبر وأعجب.

وأما تسخير الشياطين بين يديه تعمل ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، فقد أنزل الله الملائكة المقربين لنصرة عبده رسول الله ﷺ في غير ما موطن، يوم بدر وأحد، ويوم الأحزاب ويوم حنين، كما تقدم ذكرناه ذلك مفصلا في مواضعه. وذلك أعظم وأبهر وأجل وأعلا من تسخير الشياطين. وقد ذكر ذلك ابن حامد في كتابه.

وفي «الصحيحين» [خ: ٤٦١] من حديث شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة، أو كلمة نحوها، ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظر من إليه، فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي»، قال روح: فرده الله خاسئاً. لفظ البخاري.

ولمسلم عن أبي الدرداء نحوه، قال: «ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح مُوثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين، الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة».

وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد [خ: ١٨٩٩] [م: ١٠٧٩] [ن: ٢٠٩٦-٢١٠١] [ابن خزيمة: ١٨٨٢] [ابن حبان: (الإحسان ٣٤٣٤] [المسند: ٢٨١/٢، ٣٥٧] [مصنف عبد الرزاق: ٧٣٨٤] [السنن الكبرى للبيهقي: ٢٠٢/٤، ٣٠٣] أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»، وفي رواية: [مصنف عبد الرزاق (٧٣٨٥)] «مردة الجن»، فهذا من بركة ما شرعه الله له من صيام شهر رمضان وقيامه، وسيأتي عند إبراء الأكمه والأبرص من معجزات المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، دعاء رسول الله ﷺ لغير ما واحد ممن به لمستم من الجن فشفي، وفارقهم خوفاً منه ومهابة له، وامتثالاً لأمره. صلوات الله وسلامه عليهم، وقد بعث الله نفراً من الجن يستمعون القرآن فآمنوا به وصدقوه ورجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى دين محمد ﷺ وحذروهم مخالفته؛ لأنه كان مبعوثاً إلى الإنس والجن، فآمنت طوائف من الجن كثيرة كما ذكرنا، ووفدت إليه منهم وفود كثيرة وقرأ عليهم سورة «الرحمن»، وخبرهم بما لمن آمن منهم من الجنان، وما لمن كفر من النيران، وشرع لهم ما يأكلون وما يطعمون دوابهم، فدل على أنه بين لهم ما هو أهم من ذلك وأكبر.

وقد ذكر أبو نعيم [دلائل: ٥٤٥] هاهنا حديث الغول التي كانت تسرق التمر من جماعة من أصحابه ﷺ ويريدون إحضارها إليه فتمتنع كل الامتناع خوفاً من المثول بين يديه، ثم افتدت منهم بتعليمهم قراءة آية الكرسي التي لا يقرب قارئها الشيطان، وقد سقنا ذلك بطرقه وألفاظه عند تفسير آية الكرسي من كتابنا «التفسير» [٤٥٠/١-٤٥٩] ولله الحمد، والغول هي الجن المتبدي بالليل في صورة مرعبة.

وذكر أبو نعيم [دلائل: ٦٠٣/٢، ٦٠٤] هاهنا حماية جبريل له عليه السلام غير ما مرة من أبي جهل كما ذكرنا في السيرة، وذكر مقاتلة جبريل وميكائيل عن يمينه وشماله يوم أحد.

وأما ما جمع الله تعالى لسليمان من النبوة والملك كما كان أبوه من قبله، فقد خير الله عبده محمداً ﷺ بين أن يكون ملكاً نبياً أو عبداً رسولاً، فاستشار جبريل في ذلك فأشار إليه وعليه أن يتواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، وقد روى ذلك من حديث عائشة وابن عباس، [ولا شك أن منصب الرسالة أعلى، وقد عرضت على نبينا ﷺ كنوز الأرض فأباها، قال: «ولو شئت لأجرى الله معي جبال الأرض ذهباً، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً» [دلائل: ٥٤٠]، وقد ذكرنا ذلك كله بأدلته وأسانيده في «التفسير» وفي السيرة أيضاً ولله الحمد والمنة.

وقد أورد الحافظ أبو نعيم هاهنا طرفاً منها من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم جيء بمفاتيح خزائن الأرض فجعلت في يدي»، ومن حديث الحسين بن واقد عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: «أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا على فرس أبلق جاءني به جبريل عليه قطيفة من سندس»، ومن حديث القاسم عن أبي لبابة مرفوعاً [دلائل: ٥٤٠]: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

قال أبو نعيم [دلائل ٦٠٥/٢]: فإن قيل: سليمان عليه السلام كان يفهم كلام الطير والنملة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] الآية وقال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨-١٩] الآية. قيل: قد أعطى محمد ﷺ مثل ذلك وأكثر منه، فقد تقدم ذكرنا لكلام البهائم والسباع وحنين الجذع ورغاء البعير وكلام الشجر وتسبيح الحصا والحجر، ودعائه إياه واستجابته لأمره، وإقرار الذئب بنبوته، وتسبيح الطير لطاعته، وكلام الظبية وشكواها إليه، وكلام الضب وإقراره بنبوته وما في معناه، كل ذلك قد تقدم في الفصول بما يغني عن إعادته، انتهى كلامه.

قلت: وكذلك أخبره ذراع الشاة بما فيه من السم وكان ذلك بإقرار مَن وَضَعه فيه من اليهود، وقال: إن هذه السحابة لتستهلّ بنصرك يا عمرو بن سالم - يعني الخزاعي - حين أنشده تلك القصيدة يستعديه فيها على بني بكر الذين نقضوا صلح الحديبية، وكان ذلك سبب فتح مكة كما تقدم.

وقال ﷺ: «إني لأعرف حجراً كان يسلم عليَّ بمكة قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»، فهذا إن كان كلاماً مما يليق بحاله ففهم عنه الرسول ﷺ

ذلك، فهو من هذا القبيل وأبلغ، لأنه جماد بالنسبة إلى الطير والنمل، لأنهما من الحيوانات ذوات الأرواح، وإن كان سلاماً نُطقياً وهو الأظهر، فهو أعجب من هذا الوجه أيضاً، كما قال علي: خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فما مر بحجر ولا شجر ولا مدر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فهذا النطق سمعه رسول الله ﷺ وعلي رضي الله عنه.

ثم قال أبو نعيم: حدثنا أحمد بن محمد بن موسى العنبري، حدثنا أحمد بن محمد بن يوسف، حدثنا إبراهيم بن سويد الجنوعي، حدثنا عبد الله بن أذينة الطائي عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل قال: أتى النبي ﷺ - وهو بخيبر - حمارٌ أسود فوقف بين يديه فقال: «مَنْ أنتَ؟» فقال: أنا عمرو بن فلان، كنا سبعة إخوة كلنا ركبنا الأنبياء وأنا أصغرهم، وكنت لك فملكني رجل من اليهود، وكنت إذا ذكرتك كبوت به فيوجعني ضرباً، فقال النبي ﷺ «فأنت يعفور»، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ولا يحتاج إلى ذكره مع ما تقدم من الأحاديث الصحيحة التي فيها غنية عنه، وقد روي على غير هذه الصيغة، وقد نص على نكارته ابن أبي حاتم عن أبيه، والله أعلم.

١١٧- القول فيما أوتي عيسى ابن مريم عليه السلام

ويُسمى المسيح، فقيل: لمسحه الأرض، وقيل: لمسح قدمه، وقيل: لخروجه من بطن أمه ممسوحاً بالدهان، وقيل: لمسح جبريل له بالبركة، وقيل: لمسح الله الذنوب عنه، وقيل: لأنه كان لا يمسح أحداً إلا برئ، حكاها كلها الحافظ أبو نعيم رحمه الله.

ومن خصائصه أنه عليه السلام مخلوقٌ بالكلمة من أنثى بلا ذكر، كما خلقت حواء من ذكر بلا أنثى، وكما خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وإنما خلقه الله تعالى من تراب ثم قال له: كن فيكون. وكذلك يكون عيسى بالكلمة وينفخ جبريل في فرج مريم فخلق الله منها عيسى.

ومن خصائصه وأمه أن إبليس لعنه الله حين ولد ذهب يطعن فطعن في الحجاب كما جاء في «الصحيح» [خ: ٣٢٨٦]، ومن خصائصه أنه لم يمت، وهو حي الآن بجسده في السماء الدنيا، وسينزل قبل يوم القيامة على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، ثم يموت ويدفن بالحجرة النبوية، كما رواه الترمذي وقد بسطنا ذلك في قصته من كتابنا هذا.

وقال شيخنا العلامة ابن الزملكاني رحمه الله تعالى: وأما معجزات عيسى عليه السلام، فمنها إحياء الموتى، وللنبي ﷺ من ذلك كثير، وإحياء الجماد أبلغ من إحياء الميت، وقد كلم النبي ﷺ الذراع المسمومة، وهذا الإحياء أبلغ من إحياء الانسان الميت من وجوه، أحدها: أنه إحياء جزء من الحيوان دون بقية بدنه، وهذا معجز لو كان متصلاص بالبدن، الثاني: أنه أحياه وحده منفصلاً عن بقيه أجزاء ذلك الحيوان مع موت البقية، الثالث: أنه أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل، ولم يكن هذا الحيوان يعقل في حياته فصار جزؤه حياً يعقل الرابع: أنه أقدره الله على النطق والكلام ولم يكن الحيوان الذي هو جزؤه مما يتكلم، وفي هذا ما هو أبلغ من حياة الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ﷺ.

قلت: وفي حلول الحياة والإدراك والعقل في الحجر الذي كان يخاطب النبي ﷺ بالسلام عليه، كما روي في «صحيح مسلم»، من المعجز ما هو أبلغ من إحياء الحيوان في الجملة؛ لأنه كان محلا للحياة في وقت، بخلاف هذا حيث لا حياة له بالكلية قبل ذلك، وكذلك تسليم الأحجار والمدر عليه، وكذلك الأشجار والأغصان وشهادتها بالرسالة، وحنين الجذع إليه صلوات الله وسلامه عليه. قال شيخنا رحمه الله تعالى: وقد جمع ابن أبي الدنيا كتاباً فيمن عاش بعد الموت، وذكر منها كثيراً، وقد ثبت عن أنس [دلائل: ٥٦١] رضي الله عنه أنه قال: دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض يعقِل فلم نبرح حتى قضى، فبسطنا عليه ثوبه وسجَّيناه، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه، فالتفت إليها بعضنا وقال: يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله فقالت: وما ذاك؟ أمات ابني؟ قلنا: نعم، قالت؟ أحق ما تقولون؟ قلنا: نعم، فمدت يديها إلى الله تعالى فقالت: اللّهم إنك تعلم أني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تغيثني عند كل شدة ورخاء، فلا تحمِّلني هذه المصيبة اليوم. قال: فكشف الرجل عن وجهه وقعد، وما برحنا حتى أكلنا معه.

وهذه القصة قد تقدم التنبيه عليها في دلائل النبوة. وفي ذكر معجز الطوفان مع قصة العلاء بن الحضرمي، وهذا السياق الذي أورده شيخنا ذكر بعضه بالمعنى، وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا، والحافظ أبو بكر البيهقي من غير وجه عن صالح بن بشير المري - أحد زهاد البصرة وعُبّادها وفي حديثه لين - عن ثابت عن أنس فذكره. وفي رواية البيهقي: أن أمه كانت عجوزاً عمياء ثم ساقه البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله بن عون عن أنس كما تقدم، وسياقه أتم، وفيه أن ذلك كان بحضرة رسول الله ﷺ، وهذا بإسناد رجاله ثقات، ولكن فيه انقطاع بين عبد الله بن عون وأنس والله أعلم.

١١٨- قصة أخرى

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عبد الله بن إدريس عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي سبرة النخعي قال: أقبل رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطريق نفق حماره فقام وتوضأ ثم صلَّى ركعتين ثم قال: اللّهم إني جئت من الدّثينة مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك، وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث مَن في القبور، لا تجعل لأحد عليَّ اليوم مِنَّة،أطلب اليك اليوم أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفُض أذنيه، قال البيهقي: هذا إسناد صحيح، ومثل هذا يكون كرامةً لصاحب الشريعة.

قال البيهقي: وكذلك رواه محمد بن يحيى الذهلي وغيره عن محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي وكأنه عند إسماعيل من الوجهين. والله أعلم.

قلت: كذلك رواه ابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل عن الشعبي فذكره قال الشعبي: فأنا رأيتُ الحمارَ بيع أو يباع في الكُناسة - يعني بالكوفة - وقد أوردها ابن أبي الدنيا من وجه آخر]، وأن ذلك كان في زمن عمر بن الخطاب، وقد قال بعض قومه في ذلك:

ومنّا الذي أحيا الإله حمارَه وقد مات منه كل عضوٍ ومفصل

وأما قصة زيد بن خارجة وكلامه بعد الموت وشهادته للنبي ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان بالصدق فمشهورة مرويّة من وجوه كثيرة صحيحة.

قيل البخاري في «التاريخ الكبير»: زيد بن خارجة الخزرجي الأنصاري شهد بدراً وتوفي في زمن عثمان، وهو الذي تكلم بعد الموت.

وروى الحاكم في «مستدركه» والبيهقي في «دلائله» وصححه كما تقدم من طريق القعنبي عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب أن زيد بن خارجة الأنصاري ثم من بني الحارث بن الخزرج،توفي زمن عثمان بن عفان فسجّي في ثوبه، ثم إنهم سمعوا جلجلة في صدره، ثم تكلم فقال: أحمد أحمد في الكتاب الأول صدق صدق، أبو بكر الضعيف في نفسه القوي في أمر الله، في الكتاب الأول صدق صدق، عمر بن الخطاب القوي الأمين في الكتاب الأول، صدق صدق، عثمان بن عفان على منهاجهم مضت أربع وبقيت ثنتان، أتت الفتن وأكل الشديد الضعيف، وقامت الساعة، وسيأتيكم عن جيشكم خبر بئر أريس، وما بئر أريس، قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: ثم هلك رجل من بني خطمة فسجّي بثوبه فسُمع جلجلة في صدره، ثم تكلم فقال: إن أخا بني حارث بن الخزرج صدق صدق، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأطول، وصححه البيهقي.قال [الدلائل٦/٥٨]: وقد روي في التكلم بعد الموت عن جماعة بأسانيد صحيحة والله أعلم.

قلت: قد ذكرت في قصة شاة جابر يوم الخندق وأكل الألف منها ومن قليل شعير ما تقدم. وقد أورد الحافظ محمد بن المنذر المعروف بـ «شكّر»، في كتابه «الغرائب والعجائب» بسنده، كما سبق أن رسول الله ﷺ جمع عظامها ثم دعا الله تعالى فعادت كما كانت فتركها في منزلهم والله أعلم.

قال شيخنا: ومن معجزات عيسى الإبراء من الجنون، وقد أبرأ النبي ﷺ - يعني من ذلك - هذا آخر ما وجدته مما حكيناه عنه. فأما إبراء عيسى من الجنون، فما أعرف فيه نقلاً خاصاً، وإنما كان يبرىء الأكمه والأبرص والظاهر: ومن جميع العاهات والأمراض المزمنة.

وأما إبراء النبي ﷺ من الجنون،فقد روى الامام أحمد والحافظ البيهقي [من غير وجه عن يعلى بن مرة أن امرأة أتت بابن لها صغير به لمم ما رأيت لمماً أشد منه، فقالت: يا رسول الله ابني هذا كما ترى أصابه بلاء، وأصابنا منه بلاء، يؤخذه في اليوم ما أدري كم مرة، فقال رسول الله ﷺ: «ناولينيه»، فجعله بينه وبين واسطة الرحل، ثم فَغَر فاه ونفث فيه ثلاثاً وقال: «بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله»، ثم ناولها إياه فذكرت أنه برأ من ساعته وما رابهم منه شيء بعد ذلك.

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة عن فرقد السبخي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن به لمماً، وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا،قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثعّ ثعّة فخرج منه مثل الجرو الأسود يسعى، غريب من هذا الوجه، وفرقد فيه كلام وإن كان من زُهّاد البصرة، لكن ما تقدم له شاهد وإن كانت القصة واحدة والله أعلم.

وروى البزار من طريق فرقد أيضاً عن سعيد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة فجاءته امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إن هذا الخبيث قد غلبني، فقال لها: «إن تصبري على ما أنت عليه تجيئي يوم القيامة ليس عليك ذنوب ولا حساب» فقالت: والذي بعثك بالحق لأصبرنّ حتى ألقى الله، ثم قالت: إني أخاف الخبيث أن يجرِّدني، فدعا لها، وكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتتعلّقُ بها وتقول له: اخسأ، فيذهب عنها.

وهذا دليل على أن فرقداً قد حفظ، فإن هذا له شاهد في «صحيح البخاري ومسلم» من حديث عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه السوداء أتت رسول الله ﷺ فقالت: إني أصرع وأتكشّف فادعُ الله لي، قال: «إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك»،قالت: لا بل أصبر فادع الله أن لا أتكشّف، قال: فدعا لها فكانت لا تتكشف.

ثم قال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا مخلد عن ابن جريج، قال: أخبرني عطاء أنه رأى أم زفر تلك - امرأة طويلة سوداء - على ستر الكعبة. وذكر الحافظ ابن الأثير في كتاب «أسد الغابة في أسماء الصحابة»، أن أم زفر هذه كانت ماشطة لخديجة بنت خويلد، وأنها عمرت حتى رآها عطاء بن أبي رباح رحمهما الله تعالى.

وأما إبراء عيسى الأكمه وهو الذي يولد أعمى، وقيل: هو الذي لا يُبصر في النهار ويُبصر في الليل. وقيل: غير ذلك كما بسطنا ذلك في «التفسير» [التفسير(٣٦/٢)]، والأبرص الذي به بَهَق، فقد ردّ رسول الله ﷺ يوم أُحد عين قتادة بن النعمان إلى موضعها بعدما سالت على خده،فأخذها في يده الكريمة وأعادها إلى مقرها فاستمرت بجمالها وبصرها، وكانت أحسن عينيه رضي الله عنه وﷺ، كما ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في «السيرة» وغيره، وكذلك بسطناه ثمَّ ولله الحمد والمنّة، وقد دخل بعض ولده وهو عاصم بن عمر بن قتادة على عمر بن عبد العزيز فسأل عنه فأنشأ يقول:

أنا ابن الذي سالَت على الخدِّ عينه ... فرُدت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسْن ما عين ويا حُسْن ما خَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز

تلك المكارم لا قَعْبان من لبنٍ ... شِيبًا بماء فعادا بعدُ أبوالا

ثم أجازه فأحسن جائزته، وقد روى الدارقطني أن عينيه أُصيبتا معاً حتى سالتا على خدّيه، فردّها رسول الله ﷺ إلى مكانهما. والمشهور الأول كما ذكر ابن إسحاق وغيره.

١١٩- قصة الأعمى الذي رد الله عليه بصره بدعاء رسول الله ﷺ

قال الإمام أحمد: حدثنا روح وعثمان بن عمر قالا: حدثنا شعبة عن أبي جعفر المديني سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يعافيني، فقال: «إن شئتَ أخرتُ ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئت دعوت لك»: قال: لا، بل ادع الله لي، قال: فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ ويصلي ركعتين وأن يدعوَ بهذا الدعاء: اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدٍ ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بكَ إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى، وقال في رواية عثمان بن عمر: اللّهم فشفعه فيّ، قال: ففعل الرجل فبرأ ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي جعفر الخطمي. وقد رواه البيهقي عن الحاكم بسنده إلى أبي جعفر الخطمي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف فذكر نحوه، قال

عثمان: فوالله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأن لم يكن به ضر قط.

١٢٠- قصة أخرى

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد العزيز بن عمر، حدثني رجل من بني سلامان بن سعد عن أمه أن خالها، حبيب بن فويك حدثها أن أباه خرج إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضَّتان لا يبصر بهما شيئاً أصلاً، فقال له: «ما أصابك؟» قال: كنت أرعى جملاً لي فوقعت رجلي على بيض حية فأُصيب بصري، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، فرأيته وإنه ليدخل الخيط في الإبرة، وإنه لابن ثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضَّتان، قال البيهقي كذا في كتابه: وغيره يقول حبيب بن مدرك.

وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ نفث في عينيْ علي يوم خيبر وهو أرمَد فبرأ من ساعته، ثم لم ترحد بعدها أبداً، ومسح رجل عبد الله بن عتيك وقد انكسرت رجله ليلة قتل أبا رافع - تاجر أهل الحجاز الخيبري - فبرأ من ساعته أيضاً، وروى البيهقي أنه ﷺ مسح يدَ محمد بن حاطب وكانت قد احترقت بالنار فبرأ من ساعته، ومسح رجل سلمة بن الأكوع وقد أصيبت يوم خيبر فبرأت من ساعتها، ودعا لسعد بن أبي وقاص أن يُشفى من مرضه فشفي.

وروى البيهقي أن عمه أبا طالب مرض فسأل منه ﷺ أن يدعو له ربه أن يعافيه فدعا له فشفِيَ من مرضه ذلك وكم له من مثلها وعلى مسلكها، من إبراء آلام، وإزالة أسقام، مما يطول شرحه وبسطه.

وقد وقع في كرامات الأولياء إبراء الأعمى بعد الدعاء عليه بالعَمى أيضاً، كما رواه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق ٢١٣/٢٧] من طريق أبي سعيد بن الأعرابي عن أبي داود: حدثنا عمر بن عثمان، حدثنا بقية عن محمد بن زياد عن أبي مسلم أن امرأة خبّبتْ عليه امرأته، فدعا عليها فذهب بصرُها فأتته فقالت: يا أبا مسلم، إني كنت فعلتُ وفعلتُ، وإني لا أعودُ لمثلها، فقال: اللّهم إن كانت صادقةً فاردد عليها بصرها، فأبصرت.

ورواه أيضاً من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا [تاريخ دمشق ٢١٤/٢٧]: حدثنا عبد الرحمن بن واقد، حدثنا ضمرة، حدثنا عثمان بن عطاء قال: كان أبو مسلم الخولاني إذا دخل منزله سلّم فإذا بلغ وسط الدار كبّر وكبّرت امرأته فإذا بلغ البيت كبرّ وكبّرت امرأته قال: فيدخل فينزع رداءه وحذاءه وتأتيه بطعام فيأكل، فجاء ذات ليلة فكبّر فلم تجبْه، ثم جاء إلى باب البيت فكبّر وسلّم فلم تُجبه، وإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا هي جالسة بيدها عود في الأرض تنكت به، فقال لها: ما لكِ؟ فقالت: الناس بخير، وأنت أبو مسلم لو أتيت معاوية فيأمر لنا بخادم ويعطيك شيئاً تعيش به، فقال: اللّهم مَن أفسد عليّ أهلي فأعم بَصرَه، قال: وكانت أتتها امرأة فقالت أنتِ امرأة أبي مسلم: فلو كلمت زوجك ليكلم معاوية فيخدمكم ويعطيكم؟ قال: فبينما هذه المرأة في منزلها والسراج يزهر، إذ أنكرت بصرها، فقالت: سراجُكم طَفِيء؟ قالوا: لا، قالت: إنّا للّه أذهِب بصري، فأقبلت كما هي إلى أبي مسلم فلم تزل تناشده اللّه وتطلب إليه، فدعا اللّه فردّ بصرها، ورجعت امرأته إلى حالها التي كانت عليها.

وأما قصة المائدة التي قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ -١١٥] وقد ذكرنا في «التفسير» [التفسير ٢٢٠/٣-٢٢٦] بسط ذلك واختلاف المفسرين فيها هل نزلت أم لا على قولين، والمشهور عن الجمهور أنها نزلت، واختُلف فيما كان عليها من الطعام على أقوال، وذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير، الذي فتح البلاد المغربية أيام بني أمية وجد المائدة، ولكن قيل: إنها مائدة سليمان بن داود مرصعةً بالجواهر وهي من ذهب فأرسل به إلى الوليد بن عبد الملك فلم تصل حتى مات، فتسلمها أخوه سليمان، وقيل: إنها مائدة عيسى، لكن يبعُد هذا أن النصارى لا يعرفون المائدة كما قاله غير واحد من العلماء، واللّه أعلم.

والمقصود أن المائدة سواء كانت قد نزلت أم لم تنزل فقد كانت موائد رسول اللّه ﷺ تُمَد من السماء وكانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل بين يديه، وكم قد أشبع من طعام يسير ألوفاً ومئات وعشرات بعد عشرات صلوات اللّه وسلامه عليه ما تعاقبت الأوقات، وما دامت الأرض والسموات، هذا وأبو مسلم الخولاني، قد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمته من «تاريخه» [تاريخ دمشق ٢١٦/٢٧، ٢١٧] أمراً عجيباً وشأناً غريباً، حيث روى من طريق إسحاق بن نجيح الملَطي عن الأوزاعي قال: أتى أبا مسلم الخولاني نفرٌ من قومه فقالوا: يا أبا مسلم أما تشتاق إلى الحج؟ قال: بلى لو أصبتُ لي أصحاباً، قال: فقالوا: نحن أصحابك قال: لستم لي بأصحاب، إنما أصحابي قوم لا يُريدون الزاد ولا المزاد، فقالوا: سبحان اللّه، وكيف يسافر قوم بلا زاد ولا مزاد؟ قال لهم: ألا ترون إلى الطير تغدو وتروح بلا زاد ولا مزاد واللّه يرزقها؟ وهي لا تبيع ولا تشتري، ولا تحرث ولا تزرع واللّه يرزقها؟ قال: فقالوا: فإنا نسافر معك، قال: تهيئوا على بركة اللّه تعالى، قال: فغدَوْا مِن غوطة دمشق ليس معهم زاد ولا مزاد، فلما انتهوا إلى المنزل قالوا: يا أبا مسلم طعامٌ لنا وعلفٌ لدوابنا، قال: فقال لهم: نعم، فتنحّى غير بعيد فتسنّم مسجدَ أحجار فصلّى فيه ركعتين، ثم جثا على ركبتيه فقال: إلهي قد تعلم ما أخرجني من منزلي، وإنما خرجت زائراً لك، وقد رأيتُ البخيل من ولد آدم تنزل به العصابة من الناس فيوسعهم قِرىً وإنا أضيافُك وزوارك، فأطعمنا، واسقنا، واعلف دوابنا، قال: فأتي بسفرة فمُدت بين أيديهم، وجيء بجفنة من ثريد تبخرُ، وجيء بقُلّتين من ماء، وجيء بالعلف لا يدرون من يأتي به، فلم تزل تلك حالهم منذ خرجوا من عند أهاليهم حتى رجعوا، لا يتكلفون زاداً ولا مزاداً.

فهذه حال وليٍّ من هذه الأمة، نزل عليه وعلى أصحابه كل يوم مائدة مرتين مع ما يضاف إليها من الماء والعلوفة لدواب أصحابه، وهذا اعتناء عظيم، وإنما نال ذلك ببركة متابعته لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وأما قوله تعالى [التفسير ٣٦/١] عن عيسى ابن مريم عليه السلام: أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٤٩]، فهذا شيء يسير على الأنبياء، بل وعلى كثير من الأولياء، وقد قال يوسف نبي اللّه الصِّدِّيق لذَيْنك الفتيَيْن المحبوسين معه [التفسير ٣١٤/٤، ٣١٥] ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ

أن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ الآية [يوسف: ٣٧] وقد أخبر رسول الله ﷺ بالأخبار الماضية طبق ما وقع وعن الأخبار الحاضرة سواء بسواء كما أخبر عن أكل الأرضة لتلك الصحيفة الظالمة التي كانت قريش قد تمالأت على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة، فأرسل الله الأرضة فأكلتها إلا مواضع اسم الله تعالى، وفي رواية: فأكلت اسم الله منها تنزيهاً لها أن تكون مع الذي فيها من الظلم والعدوان، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب وهم بالشُّعْب، فخرج إليهم أبو طالب وقال لهم عما أخبرهم به، فقالوا: إن كان كما قال وإلا فسلّموه إلينا، فقالوا: نعم، فأنزلوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر عنها رسول الله ﷺ سواء بسواء، فأقلعت بطون قريش عما كانوا تمالؤوا عليه لبني هاشم وبني المطلب، وهدى الله بذلك خلقاً كثيراً، وكم له مثلها كما تقدم بسطه وبيانه في مواضع من السيرة وغيرها ولله الحمد والمنة.

وفي يوم بدر لما طلب من العباس عمه فداءً ادّعى أنه لا مال له، فقال له: «فأين المال الذي دفنتَه أنت وأم الفضل تحت أسكُفّة الباب، وقلت لها: إن قُتلتُ فهو للصبية؟» فقال: والله يا رسول الله إن هذا شيء لم يطلع عليه غيري وغيرُ أم الفضل إلا الله عز وجل، وأخبر بموت النجاشي يوم مات وهو بالحبشة، وصلّى عليه، وأخبر عن قتل الأمراء يوم مؤتة واحداً بعد واحد وهو على المنبر وعيناه تَذْرِفان، وأخبر عن الكتاب الذي أرسل به حاطب بن أبي بلتعة مع سارة مولاة بني عبد المطلب، وأرسل في طلبها علياً والزبير والمقداد، فوجدوها قد جعلته في عِقاصها، وفي رواية: في حُجْزتها، وقد تقدم ذلك في غزوة الفتح، وقال لأميريْ كسرى اللذين بعث بهما نائب اليمن لكسرى ليستعلما أمر رسول الله ﷺ: «إن ربي قد قتل الليلةَ ربكما»، فأرّخا تلك الليلة، فإذا كسرى قد سلّط اللهُ عليه ولده فقتله، فأسلما وأسلم باذامُ نائب اليمن، وكان سبب مُلك اليمن لرسول الله ﷺ.

وأما إخباره ﷺ عن الغيوب المستقبلة فكثيرة جداً -كما تقدم بسط ذلك، وسيأتي في أثناء التواريخ- فيقع ذلك طبق ما قال سواء بسواء.

وذكر ابن حامد في مقابلة سياحة عيسى عليه الصلاة والسلام كثرة جهاد رسول الله ﷺ، وفي مقابلة زهد عيسى عليه الصلاة والسلام، زهادة رسول الله ﷺ عن كُنوز الأرض حين عُرِضت عليه فأباها، وقال: «أجوع يوماً وأشبع يوماً» وأنه كان له ثلاث عشرة زوجة يمضي عليهن الشهر والشهران لا توقد عندهن نار ولا مصباح إنما هو الأَسْوَدان: التمر والماء، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وما شبعوا من خبز بُرٍّ ثلاث ليال تباعاً، وكان فراشه من أَدَمٍ حشوه ليف، وربما اعتقل الشاة ليحلبها، ورقعَ ثوبه، وخصف نعله بيده الكريمة، صلوات الله وسلامه عليه، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام اشتراه لأهله، هذا وكم آثر بآلاف مؤلفة والإبل والشاء والغنائم والهدايا، على نفسه وأهله للفقراء والمحاويج والأرامل والأيتام والأسرى والمساكين.

وذكر أبو نعيم [الدلائل ٢/٦٠٩، ٦١٠] في مقابلة تبشير الملائكة لمريم الصدِّيقة بمولد عيسى ما بُشرت به آمنة أم رسول الله ﷺ حين حمَلت به في منامها، وما قيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فسمِّيه محمداً. وقد بسطنا ذلك في المولد كما تقدم.

وقد أورد الحافظ أبو نعيم ههنا حديثاً غريباً مطولاً بالمولد أحببنا أن نسوقه ليكون الختام نظير الافتتاح، وبالله المستعان، وعليه التكلان ولله الحمد، فقال [الدلائل ٥٥٥]: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حفص بن عمر بن الصباح، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلُتّيُّ، أنا أبو بكر بن أبي مريم عن سعيد بن عمرو الأنصاري عن أبيه، قال: قال ابن عباس: فكان من دَلالات حَمْل محمد ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة: وقالت: حُمِل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق كاهنة في قريش ولا قبيلة من قبائل العرب إلا حُجِبَت عن صاحبتها، وانتُزِع علم الكهنة منها، ولم يبق سريرُ مَلِك من ملوك الدنيا إلا أصبحَ منكوساً، والمَلِك مُخرَساً لا ينطق يومه لذلك، ومرّت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار بشّر بعضهم بعضاً به، في كل شهر من شهوره نداء في الأرض ونداء في السموات: أن أبشروا فقد آن لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً قال: وبقي في بطن أمه تسعة أشهر وهلك أبوه عبد الله وهو في بطن أمه، فقالت الملائكة: إلهنا وسيدنا، بقيَ نبيك هذا يتيماً، فقال الله تعالى للملائكة: أنا له ولي وحافظ ونصير، فتبركوا بمولده فمولده ميمون مبارك.

وفتح الله لمولده أبواب السماء وجناته، وكانت آمنة تحدث عن نفسها وتقول: آتاني آتٍ حين مرَّ بي مِن حمله ستة أشهر فوكزني برجله في المنام وقال: يا آمنة إنك حملتِ بخير العالَمين طُراً، فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتُمي شأنك. قال: وكانت تحدِّث عن نفسها وتقول: لقد أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحدٌ من القوم ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل وعبدُ المطلب في طوافه، قالت: فسمعت وجْبة شديدة، وأمراً عظيماً، فهالني ذلك، وذلك يوم الاثنين، فرأيتُ كأن جناح طير أبيضَ قد مسح على فؤادي فذهب عني كل رعب وكل فزع ووجع كنت أجد، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء ظنتها لبناً، وكنت عطشى، فتناولتها فشربتها فأضاء مني نورٌ عال، ثم رأيتُ نسوةً كالنخل الطوال، كأنهن من بنات عبد المطلب يُحْدِقن بي، فبينا أنا أعجب وأقول: واغوثاه مِن أين علمنَ بي؟ واشتد بي الأمر وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول، وإذا أنا بديباج أبيض قد مُدّ بين السماء والأرض، وإذا قائل يقول: خذوه عن أعين الناس، قالت: ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق فضة وأنا يَرْشح مني عرق كالجُمان، أطيبُ ريحاً من المسك الأذفَر، وأنا أقول: يا ليت عبد المطلب قد دخل عليّ، وعبد المطلب عني ناء قالت: ورأيت قطعةً من الطير قد أقبلت من حيث لا أشعر حتى غُطت حُجرتي، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من اليواقيت، فكشف الله لي عن بصري، فأبصرتُ مِن ساعتي مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات، علم بالمشرق، وعلم بالمغرب، وعلم على ظهر الكعبة، فأخذني المخاض واشتد بي الطلق جداً، فكنت كأني مستندة إلى أركان النساء، وكثُرن عليّ حتى كأن الأيدي معي في البيت وأنا لا أرى شيئاً، فولدتُ محمداً، فلما خرج من بطني دُرْت فنظرت إليه فإذا أنا به ساجداً وقد رفع أُصبعيه كالمتضرع المبتهل، ثم رأيتُ سحابةً بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيَتْه، فغُيِّب عن عيني، فسمعت منادياً ينادي يقول: طوفوا بمحمد ﷺ شرق الأرض وغربها، وأدخلوه البحار كلها، ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سُمّيَ الماحيَ، لا يبقى شيء من الشرك إلا محي به في زمنه، قالت: ثم تجلّت عنه في أسرع وقت فإذا أنا به مدرجاً في ثوب صوف أبيضَ، أشدّ بياضاً من اللبن، وتحته حريرة خضراء، وقد قبض محمد على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض، وإذا قائل يقول: قبض محمد على مفاتيح النصر، ومفاتيح الريح، ومفاتيح النبوة، هكذا أورده وسكَت عليه وهو غريب جداً.

وقال الشيخ جمال الدين أبو زكريا، يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر الأنصاري الصرصري المادح، الماهر الحافظ للأحاديث واللغة. ذو المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ، فلذلك يُشبَّه في عصره بحسان بن ثابت رضي الله عنه، في ديوانه المكتوب عنه في مديح رسول الله ﷺ، وقد كان ضرير البصر، بصير البصيرة، وكانت وفاته ببغداد في سنة ست وخمسين وستمائة، قتله التتار في كائنة بغداد كما سيأتي ذلك في موضعه، في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان، قال في قصيدته من حرف الحاء المهملة من ديوانه:

محمد المبعوث للناس رحمة ... يشيِّد ما أوهى الضلال ويُصلحُ
لئن سبّحتْ صُم الجبال مجيبة ... لداود أو لان الحديد المصفحُ
فإن الصخور الصم لانت بكفّه ... وإن الحصا في كفه ليسبح
وإن كان موسى أنبع الماء بالعصا ... فمن كفه قد أصبح الماء يطفح
وإن كانت الريح الرخاء مطيعة ... سليمان لا تألو تروح وتسرح
فإن الصبّا كانت لنصر نبينا ... ورعب على شهر به الخصم يكلح
وإن أوتي الملك العظيم وسُخرت ... له الجن تسعى في رضاه وتكدح
فإن مفاتيح الكنوز بأسرها ... أتته فردّ الزاهد المترجّح
وإن كان إبراهيم أعطي خُلة ... وموسى بتكليم على الطور يمنح
فهذا حبيبٌ بل خليلٌ مكلمٌ ... وخصص بالرؤيا وبالحق أشرَح
وخصص بالحوض الرّواء وباللّوا ... ويشفع للعاصين والنار تلفَح
وبالمقعد الأعلى المقرب ناله ... عطاء لعينيه أقر وأفرح
وبالرتبة العليا الوسيلة دونها ... مراتب أرباب المواهب تلمَح
ولَهُو إلى الجنات أول داخل ... له بابها قبل الخلائق تفتح

وهذا آخر ما يسرّ الله جمعه من الإخبار بالمغيبات التي وقعت إلى زماننا مما يدخل في دلائل النبوة والله الهادي، وإذا فرغنا إن شاء الله من إيراد الحادثات من بعد موته عليه الصلاة والسلام إلى زماننا، نُتبع ذلك بذكر الفتن والملاحم الواقعة في آخر الزمان ثم نسوقُ بعد ذلك أشراط الساعة ثم نذكر البعث والنشور، ثم ما يقع يوم القيامة من الأهوال وما فيه من العظمة ونذكر الحوض والميزان والصراط ثم نذكر صفة النار ثم صفة الجنة

كتاب تاريخ الإسلام الأول من الحوادث الواقعة في الزمان، ووَفيات المشاهير والأعيان

سنة إحدى عشرة من الهجرة

تقدم ما كان في ربيع الأول منها من وفاة رسول اللّه ﷺ في يوم الاثنين وذلك الثاني عشر منه على المشهور وقد بسطنا الكلام في ذلك بما فيه كفاية وباللّه المستعان.

خلافة أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنه وما كان في أيامه من الحوادث والأمور

قد تقدم أن رسول اللّه ﷺ توفي يوم الاثنين وذلك ضحى فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة ثم في المسجد البيعة العامة في بقية يوم الاثنين وصبيحة الثلاثاء كما تقدم ذلك بطوله ثم أخذوا في غسل رسول اللّه ﷺ وتكفينه والصلاة عليه ﷺ تسليماً بقية يوم الثلاثاء ودفنوه ليلة الأربعاء كما تقدم ذلك مبرهناً في موضعه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني الزهري حدثني أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب اللّه ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول اللّه ﷺ، ولكني قد كنت أرى رسول اللّه ﷺ سيدبر أمرنا، يقول: يكون آخرنا، وإن اللّه قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسول اللّه ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم اللّه لما كان هداه اللّه، وإن اللّه قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول اللّه ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد اللّه وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء اللّه، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّه لا يدع قوم الجهاد في سبيل اللّه إلا ضربهم اللّه بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم اللّه بالبلاء، اطيعوني ما أطعت اللّه ورسوله، فإذا عصيت اللّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه. وهذا إسناد صحيح.

وقد اتفق الصحابة رضي اللّه عنهم على بيعة الصديق في ذلك الوقت، حتى عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي اللّه عنهما وأرضاهما، والدليل على ذلك ما رواه البيهقي حيث قال: أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن علي الحافظ الإسفرايني، ثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، ثنا أبو بكر بن خزيمة وإبراهيم بن أبي طالب قالا: حدثنا بندار بن بشار، ثنا أبو هشام المخزومي، ثنا وهيب، ثنا داود بن أبي هند، ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قبض رسول اللّه ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمونَ أنّ رسول اللّه ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين ونحن كنّا أنصار رسول اللّه ﷺ فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم ولو قلتم غير هذا لم تابعكم فأخذ بيد أبي بكر قال: هذا صاحبكم فبايعوه، فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار، وقال: فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير، قال: فدعا الزبير فجاء قال: قلت: ابن عمة رسول اللّه ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين، قال: لا تثريب يا خليفة رسول اللّه، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب فجاء قال: قلت: ابن عم رسول اللّه ﷺ وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين، قال: لا تثريب ياخليفة رسول اللّه فبايعه، هذا أو معناه قال الحافظ أبو علي النيسابوري: سمعت ابن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث فكتبته له في رقعة وقرأت عليه، فقال: هذا حديث يساوي بدنة، فقلت: يسوى بدنة، بل هذا يسوى بدرة. وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة عن وهيب مختصراً.

[وأخرجه الحاكم في «مستدركه» [٧٦/٣] من طريق عفان بن مسلم عن وهيب مطولاً كنحو ما تقدم. وروينا من طريق المحاملي عن القاسم بن سعيد بن المسيب عن علي بن عاصم عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد فذكره مثله في مبايعة علي والزبير رضي اللّه عنهما يومئذ.

وقال موسى بن عقبة في «مغازيه» عن سعد بن إبراهيم: حدثني أبي أن أباه عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير، ثم خطب أبو بكر واعتذر إلى الناس وقال: واللّه ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها اللّه في سر ولا علانية، فقبل المهاجرون مقالته، وقال علي والزبير ما غضبنا إلا لأننا أخرنا عن المشورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول اللّه ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي، وهذا اللائق بعلي رضي اللّه عنه والذي يدل عليه الآثار من شهوده معه الصلوات، وخروجه معه إلى ذي القصة بعد موت رسول اللّه ﷺ، كما سنورده، وبذله له النصيحة والمشورة، بين يديه، وأما ما يأتي من مبايعته إياه بعد موت فاطمة، وقد ماتت بعد أبيها عليه السلام بستة أشهر، فذلك محمول على أنها بيعة ثانية أزالت ما كان قد وقع في وحشة بسبب الكلام في الميراث ومنعه إياهم ذلك بالنص عن رسول اللّه ﷺ في قوله: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»، كما تقدم إيراد أسانيده وألفاظه [وللّه الحمد.

وقد كتبنا هذه الطرق مستقصاة في الكتاب الذي أفردناه في سيرة الصديق رضي اللّه عنه وما أسنده من الأحاديث عن رسول اللّه ﷺ، وما روى عنه من الأحكام مبوبة على أبواب العلم وللّه الحمد والمنة.

وقال سيف بن عمر التميمي [تاريخ الطبري ٢٢٣/٣] عن أبي ضمرة عن أبيه عن عاصم بن عدي، قال نادى منادي أبي بكر من الغد من متوفى رسول اللّه ﷺ ليتم بعث أسامة: ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جيش أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف، وقام أبو بكر في الناس فحمد اللّه وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إنما أنا مثلكم وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول اللّه ﷺ يطيق، إن اللّه اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت

فبايعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، وإن لي شيطانا يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، وإن استطعتم أن لا يمضي إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، وسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجد الجد، النجاة النجاة، الوحا الوحا فإن وراءكم طالباً حثيثا، وأجلاً أمره سريع، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطوا به الأموات، قال: وقام أيضا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فأيما ما أخلصتم لله من الأعمال فطاعة أتيتموها وحظاً ظفرتم به وضرائب أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس، وأين هم اليوم، أين الجبارون أين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب، قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميماً، قد نزلت عليهم القالات، الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء، ألا إن الله عز وجل قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفا بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم، أين الوضاءة الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]؟ أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم، قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ماقدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة أو للسعادة فيما بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف به عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وإن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته أما إنه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة.

فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد

الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قتل زيد بن حارثة، وجعفر وابن رواحة: فيغيروا على تلك الأراضي، فخرجوا إلى الجرف فخيموا به، وكان فيهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق فاستثناه رسول الله منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلما مات عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق الجمعة تقام في بلد سوى مكة والمدينة، وكانت جواثا من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في «صحيح البخاري» [٨٩٢] عن ابن عباس كما سيأتي، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، لم يفروا ولا ارتدوا.

والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم، الآن مما جهز بسببه في حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء، إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة فجهزه وأمر الحرس يكونون حول المدينة فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ماخرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يوماً ويقال: سبعين يوما، ثم أتوا سالمين غانمين، ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعي الزكاة على ما سيأتي تفصيله، قال سيف بن عمر [تاريخ الطبري ٢٢٥/٣]: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما بويع أبو بكر وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: ليتم بعث أسامة وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة، في كل قبيلة، ونجم النفاق واشرأبت اليهودية والنصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ، وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

وقد روي هذا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة [تاريخ دمشق ٣١١/٣٠]، ومن حديث القاسم وعمرة عن عائشة قالت: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة وأشرأب النفاق، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة في حفش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وعنائها وفضلها، ثم ذكرت عمر فقالت: من رأى عمر علم أنه خلق غناء للإسلام، كان والله أحوذياً نسيج وحده قد أعد للأمور أقرانها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [تاريخ دمشق ٣١٥/٣٠]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن علي الميموني، ثنا الفريابي، ثنا عباد بن كثير عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقيل له: مه يا أبا هريرة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قبض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله فقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله. فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام - عباد بن كثير هذا أظنه الرملي - لرواية الفريابي عنه، وهو متقارب الحديث، فأما البصري الثقفي فمتروك الحديث والله أعلم.

وروى سيف بن عمر [تاريخ الطبري ٢٢٥/٣، ٢٢٦] عن أبي ضمرة وأبي عمرو وغيرهما عن الحسن البصري: أن أبا بكر لما صمم على تجهيز جيش أسامة قال بعض الأنصار لعمر: قل له فليؤمر علينا غير أسامة،

فذكر له عمر ذلك، فيقال: إنه أخذ بلحيته وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، لأؤمر غير أمير رسول الله ﷺ؟ ثم نهض بنفسه إلى الجرف فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير، وسار معهم ماشياً، وأسامة راكباً، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق، فقال أسامة: ياخليفة رسول الله؛ إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل ولستُ براكب، ثم استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب - وكان مكتتبا في جيشه - فاطلقه له، فلهذا كان عمر لا يلقاه بعد ذلك إلا قال: السلام عليك ايها الأمير.

مقتل الاسود العنسي المتنبئ الكذاب لعنه الله وأخزاه

قال أبو جعفر بن جرير[تاريخ الطبري ٣/٢٤٠]: حدثني عمر بن شبة النميري، ثنا علي بن محمد - يعني المدائني - عن أبي معشر ويزيد بن عياض بن جُعْدُبة، وغسان بن عبد الحميد وجويرية بن أسماء عن مشيختهم قالوا: أمضى أبو بكر جيش أسامة بن زيد في آخر ربيع الأول، وأتى مقتل الأسود في آخر ربيع الأول بعد مخرج أسامة، فكان ذلك أول فتح أتى أبا بكر وهو بالمدينة.

صفة خروجه وتملّكه ومقتله

قد أسلفنا فيما تقدم أن اليمن كانت قديماً لحمير، وكانت ملوكهم يسمون التبابعة، وتكلمنا في أيام الجاهلية على طرف صالح من هذا، ثم إن مَلِك الحبشة بعث أميرين من قواده، وهما أبرهة الأشرم، وارياط، فتملكا له اليمن من حمير، وصار مُلْكها للحبشة، ثم اختلف هذان الأميران، فقُتل أرياط واستقل أبرهة بالنيابة، وبنى كنيسة سماها القُلّيس، لارتفاعها، وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة، فجاء بعض قريش فأحدَث في هذه الكنيسة، فلما بلغه ذلك حلف ليخربنَّ بيت مكة، فسار إليه ومعه الجنود والفيل محمود، فكان من أمرهم ما قص الله في كتابه. وقد تقدم بسط ذلك في موضعه، فرجع أبرهة ببعض مَن بقي مِن جيشه في أسوأ حال وشر خيبة، ومازال تسقط أعضاؤه أنملة أنملة، فلما وصل إلى صنعاء انصدع صدره فمات، فقام بالمُلك بعده ولده يكسوم بن أبرهة ثم أخوه مسروق بن أبرهة، فيقال: إنه استمر مُلْك اليمن بأيدي الحبشة سبعين سنة، ثم ثار سيف بن ذي يزن الحميري، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره عليهم، فأبى ذلك عليه - لما بينه وبينهم من الاجتماع في دين النصرانية - فسار إلى كِسرى ملك الفرس فاستغاث به، وله معه مواقف ومقامات في الكلام تقدم بسط بعضها، ثم اتفق الحال على أن بعث معه ممن بالسجون طائفة تقدّمهم رجل منهم يقال له: وهرز، فاستنقذ مُلْك اليمن من الحبشة، وكسرَ مسروق بن أبرهة وقتله، ودخلوا إلى صنعاء وقرّروا سيف بن ذي يزن في الملك على عادة آبائه، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب، غير أن لكسرى نوّاباً على البلاد، فاستمر الحال على ذلك حتى بعث الله رسولَه ﷺ، فأقام بمكة ما أقام، ثم هاجر إلى المدينة فلما كتب كُتبه إلى ملوك الآفاق يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكتب في جملة ذلك إلى كسرى ملك الفرس:

«بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم. من محمدٍ رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد فأسلمْ تسلم» إلى آخره، فلما جاءه الكتاب قال: ماهذا؟ قالوا: هذا كتاب جاء من عند رجل بجزيرة العرب يزعم أنه نبي، فلما فتح الكتاب فوجده قد بدأ باسمه قبل اسم كسرى، غضب كسرى عند ذلك غضباً شديداً، وأخذ الكتاب فمزّقه قبل أن يقرأه، وكتب إلى عامله على اليمن - وكان اسمه باذام: أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فابعث مِن قِبَلِك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب، الذي يزعم أنه نبي، فابعثه إليّ في جامعة، فلما جاء الكتاب إلى باذام، بعث مِن عنده أميرَيْن عاقلين، وقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فانظرا ما هو، فإن كان كاذباً فخذاه في جامعةٍ حتى تذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إليّ فأخبراني ماهو، حتى أنظر في أمره، فقدِما على رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوجداه على أسدّ الأحوال وأرشدها، ورأيا منه أموراً عجيبة، يطول ذكرها، ومكثا عنده شهراً بعدما أبلغاه ما جاءا له، ثم تقاضاه الجواب بعد ذلك، فقال لهما: «ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربي قد قتَل الليلة ربه»، فأرخّا ذلك عندهما ثم رجعا سريعاً إلى اليمن، فأخبرا باذام بما قال لهما فقال: أحصوا تلك الليلة، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبي، فجاءت الكتب مِن عند مَلِكهم أنه قد قُتِل كِسرى في ليلة كذا وكذا، لتلك الليلة، وكان قد قتلَه بنوه ولهذا قال بعض الشعراء:

وكسرى إذ تَقاسَمهُ بنوهُ   بأسيافٍ كَما اقْتُسِمَ اللحامُ
تَمخّضتُ المنونُ لهُ بيومٍ   أنى ولكلِ حاملةٍ تمامُ

وقام بالملك بعده ولده يزدجرد وكتب إلى باذام أن خُذ لي البيعة من قبلك، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تُهِجْه وأكرمه، فدخل الإسلام في قلب باذام وذويه من أبناء فارس ممن باليمن، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله عنها حتى مات، فلما مات استناب ابنه شهر بن باذام على صنعاء وبعض المخاليف، وبعث طائفة من أصحابه نواباً على مخاليف أُخَر، فبعث أولاً في سنة عشر، علياً وخالداً، ثم أرسل معاذاً وأبا موسى الأشعري وفرّق عمالةَ اليمن بين جماعة من الصحابة، فمنهم شهر بن باذام، وعامر بن شهر الهمداني، على همدان، وأبو موسى على مأرب، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورِمَع وزبيد، ويعلى بن أمية على الجند، والطاهر بن أبي هالة على عك والأشعريين، وعمرو بن حَزْم على نجران، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد، وعلى السكاسك عكاشة بن ثور بن أصغر وعلى السكون معاوية بن كندة وبعث معاذ بن جبل معلما لأهل البلدين - اليمن وحضرموت - يتنقل من بلد إلى بلد، ذكره سيف ابن عمر، وذلك كله في سنة عشر، في آخر حياة رسول الله ﷺ فبينما هم على ذلك إذ نجم هذا اللعين الأسود العنسي.

خروج الأسود العنسي

واسمه عبْهلَةُ بن كعب بن غوث - من بلد يقال لها: كهف خُبّان - في سبعمائة مقاتل، وكتب إلى عمال النبي ﷺ: أيها المورُودون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ماانتم عليه، ثم ركب فتوجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه ثم قصد إلى صنعاء، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا، فغلبه الأسود

وقتله، وكسر جيشه من الأبناء واحتل بلدة صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه ففر معاذ بن جبل من هنالك واجتاز بأبي موسى الأشعري، فذهبا إلى حضرموت وانحاز عمال رسول الله ﷺ إلى الطاهر، ورجع عمر بن حَزْم وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي، وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وكان جيشه يوم لقي شهرا سبعمائة فارس، وأمراؤه قيس بن عبد يغوث المرادي ومعاوية بن قيس ويزيد بن مخزم، ويزيد بن الأفكل الأزدي، واشتد ملكه، واستغلظ أمره، وارتد خلق من أهل اليمن وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معديكرب وأسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه وتزوج بامرأة شهر بن باذام وهي ابنة عم فيروز الديلمي، واسمها آزاذ، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ، ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمي [تاريخ الطبري ٣/٢٣١]: وبعث رسول الله ﷺ كتابه، حين بلغه خبر الأسود العنسي مع رجل يقال له: وبر بن يحنّس الديلمي، يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام، وكان قد تزوج امرأة من السكون يقال لها: رملة، فحَدِبَتْ عليه السكون لصهره فيهم، وقاموا معه في ذلك، وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال النبي ﷺ، ومن قدروا عليه من الناس، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند - وكان قد غضب على الأسود، واستخف به، وهم بقتله - وكذلك كان أمر فيروز الديلمي، قد ضعف عنده أيضا، وكذا داذويه، فلما أعلم وبر بن يُحَنّس والمسلمون قيس بن عبد يغوث، وهو قيس بن مكشوح، كان كأنما نزلوا عليه من السماء، ووافقهم على الفتك بالأسود وتوافق المسلمون على ذلك، وتعاقدوا عليه، فلما أيقن ذلك في الباطن اطلع شيطان الأسود للأسود على شيء من ذلك، فدعا قيس بن مكشوح، فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال يقول: عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك، وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنه يقول يا أسود يا أسود يا سَوْآه يا سَوْآه، قَطِّفْ قُنَّته وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف قُنَّتك فقال قيسٌ وحلف له فكذب: وذي الخمار لأنت أعظم في نفسي وأجل عندي من أن أحدث بك نفسي، فقال له الأسود: ما إخالك تكذب الملك، فقد صدق الملك وعرف الآن أنك تائب لما اطلع عليه منك، ثم خرج قيس من بين يديه فجاء إلى أصحابه: فيروز وداذويه، وأخبرهم بما قال له ورد عليه، فقالوا: إنا كلنا على حذر، فما الرأي، فبينما هم يشتورون إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه، فقال: ألم أشرفكم على قومكم؟ قالوا: بلى، قال: فماذا يبلغني عنكم؟ فقالوا: أقِلْنا مرتنا هذه، فقال: لا يبلغني عنكم فأقتلكم، قال: فخرجنا من عنده ولم نكد، وهو في ارتياب من أمرنا، ونحن على خطر، فبينما نحن في ذلك إذ جاءتنا كتب من عامر بن شهر، أمير همدان، وذي ظليم، وذي كلاع، وغيرهم من أمراء اليمن، يبذلون لنا الطاعة والنصر، على مخالفة الأسود، وذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ يحثهم على مصاولة الأسود العنسي، فكتبنا إليهم أن لا يحدثوا شيئا حتى نبرم الأمر، قال قيس: فدخلت على امرأته آزاذ، فقلت: يابنة عمي قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك، قتل زوجك، وطأطأ في قومك القتل، وفضح النساء، فهل عندك ممالأة عليه؟ قالت على أي أمر، قلت إخراجه،

قالت: أو قتله، قلت: أو قتله؟ قالت: نعم، والله ماخلق الله شخصاً هو أبغض إلي منه، فما يقوم لله علي حق ولا ينتهي له عن حرمة، فإذا عزمتم فاعلموني أخبرْكم بما في هذا الأمر، قال فأخرج فإذا فيروز وداذويه، ينتظراني يريدون أن يناهضوه، فما استقر اجتماعه بهما حتى بعث إليه الأسود فدخل في عشرة من قومه، فقال: ألم أخبرك بالحق وتخبرني بالكذابة؟ إنه يقول: يا سوآه يا سوآه، إن لم تقطعْ من قيس يده يقطع رقبتك العليا، حتى ظن قيس أنه قاتله، فقال: إنه ليس من الحق، أن أهلك وأنت رسول الله، فقتلي أحب إليّ من موتات أموتها كل يوم، فرق له وأمره بالانصراف، فخرج إلى أصحابه وقال: اعمَلوا عملكم، فبينما هم وقوف بالباب يشتورون، إذ خرج الأسود عليهم وقد جمع له مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخط خطاً وأقيمت من ورائه، وقام دونها، فنحرها، غير محبسة ولا معقلة، ما يقتحم الخط منها شيء، فجالت إلى أن زهقت أرواحها، قال قيس: فما رأيت أمراً كان أفظع منه، ولا يوماً أوحش منه، ثم قال الأسود: أحق ما بلغني عنك يافيروز؟ لقد هممت أن أنحرك فأتبعك هذه البهيمة، ويبوأ له الحربة، فقال له فيروز: اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبياً ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟ فلا تقبل علينا أمثال ما يبلغك، فإنا بحيث تحب، فرضي عنه وأمره بقَسْمِ لحوم تلك الأنعام ففرقها فيروز في أهل صنعاء، ثم أسرع اللحاق به، فإذا رجل يحرّضه على فيروز ويسعى إليه فيه، فاستمع له فيروز، فإذا الأسود يقول: أنا قاتله غداً وأصحابه، فاغدُ عليَّ به، ثم التفت فإذا فيروز، فقال: مهْ، فأخبره فيروز بما صنع من قسْم ذلك اللحم، فدخل الأسود داره، ورجع فيروز إلى أصحابه فاعلمهم بما سمع وبما قال وقيل له، فاجتمع رأيهم على أن يعاودوا المرأة في أمره، فدخل أحدهم - وهو فيروز - إليها فقالت: إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه من دون الحرس وليس من دون قتله شيء، وإنني سأضع في البيت سراجاً وسلاحاً، فلما خرج من عندها تلقّاه الأسود فقال له: ما أدخلك على أهلي؟ ووجأ رأسه، وكان الأسود شديداً، فصاحت المرأة فأدهشته عنه، ولولا ذلك لقتله، وقالت: ابنُ عمي جاءني زائراً، فقال: اسكتي لا أبا لك، قد وهبْتُه لكِ، فخرج على أصحابه فقال: النجاء النجاء، وأخبرهم الخبر، فحاروا ماذا يصنعون؟ فبعثتِ المرأة إليهم تقول لهم: لا تنثنوا عما كنتم عازمين عليه، فدخل عليها فيروز الديلمي فاستثبت منها الخبر، ودخلوا إلى ذلك البيت فنقبوا من داخله بطائن ليهون عليهم النقب مِن خارج، ثم جلس عندها جهرةً كالزائر، فدخل الأسود فقال: وما هذا؟ فقالت: إنه أخي مِن الرضاعة، وهو ابن عمي، فنهره وأخرجه، فرجع إلى أصحابه، فلما كان الليل نقبوا ذلك البيت فدخلوا فوجدوا فيه سراجاً تحت جَفْنة فتقدم إليه فيروز الديلمي والأسود نائمٌ على فراش من حرير، قد غرق رأسه في جسده، وهو سكران يغط، والمرأة جالسة عنده، فلما قام فيروز على الباب أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه - وهو نائم مع ذلك يغط - فقال: ما لي وما لك يا فيروز؟ فخشي إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة، فعاجله وخالطه وهو مثلُ الجمل فأخذ رأسه فدق عنقه ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم، فأخذت المرأة بذيله وقالت: أين تذهب عن حرمتكم؟ فظنت أنه لم يقتله، فقال: أخرج لأعْلِمهم بقتله، فدخلوا عليه ليحتزّوا رأسه، فحركه شيطانه فاضطرب، فلم يضبطوا أمره حتى جلس اثنان على ظهره، وأخذت المرأة

بشعره، وجعل يبربر بلسانه فاحتز الآخر رقبته، فخار كأشد خُوار ثور سُمع قط، فابتدر الحرس إلى المقصورة، فقالوا: ماهذا ماهذا؟ فقالت المرأة: النبي يوحَى إليه، فرجعوا، وجلس قيس وداذَوَيْه وفيروز يأتمرون كيف يعلمون أشياعهم، فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح ينادون بشعارهم الذي بينهم وبين المسلمين، فلما كان الصباح قام أحدهم، وهو قيس على سور الحصن فنادى بشعارهم، فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى قيس - ويقال: وبر بن يُحنّس- بالأذان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عَبْهَلة كذّاب، وألقى إليهم رأسه فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نوّاب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم وتنازع أولئك الثلاثة في الإمارة، ثم اتفقوا على معاذ بن جبل يصلي بالناس، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ، وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته.

كما قال سيف بن عمر التميمي [تاريخ الطبري ٢٣٦/٣] عن أبي القاسم الشنوي عن العلاء بن زيد عن ابن عمر: أتى الخبر إلى النبي ﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها العنسي ليبشّرنا، فقال: «قُتِل العنسي البارحة قتلَه رجلٌ مبارك من أهل بيت مباركين»، قيل: ومن؟ قال: «فيروز فاز فيروز»، وقد قيل: إن مدة ملكه منذ ظهر إلى أن قُتِل ثلاثة أشهر، ويقال: أربعة أشهر، فالله أعلم.

وقال سيف بن عمر [تاريخ الطبري ٢٣٦/٣] عن المستنير عن عروة عن الضحاك عن فيروز: قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان إلا أنا أرسلنا إلى معاذ بن جبل فتراضَيْنا عليه، فكان يصلي بنا في صنعاء، فوالله ماصلى بنا إلا ثلاثة أيام حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيراً مما كنا نعرف، واضطربت الأرض.

وقد قدمنا أن خبر العنسي جاء إلى الصدِّيق في أواخر ربيع الأول بعدما جهز جيش أسامة، وقيل: بل جاءت البشارة إلى المدينة صبيحة توفي رسول الله ﷺ والأول أشهر والله أعلم. والمقصود أنه لم يجئهم فيما يتعلق بمصالحهم واجتماع كلمتهم وتأليف ما بينهم والتمسك بدين الإسلام إلا الصدِّيق رضي الله عنه، وسيأتي إرساله إليهم مَن يمهد الأمور التي اضطربت في بلادهم ويقوي أيدي المسلمين، ويثبت أركان دعائم الإسلام فيهم، رضي الله عنهم.

فصل في تصدّي الصدّيق لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة

قد تقدم أن رسول الله ﷺ لما توفي ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة، والتفت على طليحة الأسدي بنو أسد وطيىء، وبشرٌ كثير أيضاً وادعى النبوة أيضاً كما ادعاها مسيلمة الكذاب، وعظم الخطب واشتدت الحال، ونفّذ الصدِّيق جيش أسامة، فقلّ الجند عند الصدِّيق، فطمعت كثير من الأعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليها، فجعل الصدّيق على أنقاب المدينة حراساً يبيتون بالجيوش حولها، فمن أمراء الحرس علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وجعلت وفود العرب تقدم المدينة. يُقرّون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم مَن امتنع من دفعها إلى الصدّيق، وذكر أن منهم مَن احتج بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى مَن صلاته سكَن لنا، وأنشد بعضهم البحر الطويل:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فواعجباً ما بالُ مُلْك أبي بكر

وقد تكلم الصحابة مع الصدّيق في أن يتركهم وماهم عليه من منع الزكاة ويتألّفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم: ثم هم بعد ذلك يُزكّون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه.

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة [خ(١٣٩٩)، م(٢٠)، د(١٥٥٦)، ت(٢٦٠٧) س(٢٤٤٢، ٣٠٩١- ٣٠٩٣، ٣٩٨٠، ٣٩٨١)] أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علامَ تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أنْ أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها»؟ فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية: عقالاً - كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنّهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنّ مَن فرق بين الصلاة والزكاة، قال عمر: فما هو إلا أن رأيتُ اللهَ قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

قلت: وقد قال الله تعالى: [التفسير ٥٣/٤-٥٥] ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وثبت في «الصحيح» [خ(٢٥)، م (٢٢)]: «أُمِرتُ أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» وفي «الصحيحين» [خ(٨) م١٦(١٩-٢٢)]: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق [تاريخ دمشق ٣١٧/٣٠، ٣١٨] عن شبابة بن سوار: حدثنا عيسى بن يزيد المديني، حدثني صالح بن كيسان، قال: لما كانت الردة قام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمداً ﷺ، والعلم شريد، والإسلام غريبٌ طريدٌ، قد رثّ حبله، وخَلِق عهده، وضلّ أهله منه، ومقت اللهُ أهل الكتاب فلا يُعطيهم خيراً لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شراً لشر عندهم، قد غيّروا كتابهم، وألحقوا فيه ماليس منه، والعرب الأميون صِفْرٌ من الله لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشاً، وأضلهم ديناً، في ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب فجمعهم الله بمحمد ﷺ، وجعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه ﷺ فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله الله عنه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إن مَن حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما قد فقدتم من بركة نبيكم ﷺ ولقد وكَلَكم إلى المولى الكافي، الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والله لا أدعُ أقاتِل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، ويُقتل من قُتِل

منا شهيداً من أهل الجنة، ويُبقي مـن بقي منا خليفته وورثته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ﴾[النور: ٥٥] الآية، ثم نزل رحمه الله.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما في قوله تعالى [تفسير الطبري ٢٨٣،٢٨٢/٦]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]. قالوا: المراد بذلك أبو بكرٍ وأصحابه، في قتالهم المرتدين، وما نعي الزكاة.

وقال محمد بن إسحاق: وارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ماخلا أهل المسجدين، مكة، والمدينة، وارتدت أسد وغطفان وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن، وارتدت كندة ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدت مذحج ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وكانت بنو حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب. وارتدت سُليم مع الفجاءة، واسمه أنس بن عبد ياليل، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة.

وقال القاسم بن محمد [تاريخ الطبري ٢٤٤/٣-٢٤٨]: اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدي، وبعثوا وفودا إلى المدينة، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم إلا العباس، فحملوا بهم إلى أبي بكر، على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم، فردهم فرجعوا إلى عشائرهم، فأخبروهم بقلة أهل المدينة، وطمعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلاً تُأتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة، وخلفوا نصفهم بذي حُسىً ليكونوا ردءاً لهم، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم: أن الزموا مكانكم. وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانقشع العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حُسىً فخرج عليهم الردء فالتقوا مع الجمع فكان الفتح وقد قال الحطيل بن أوس، ويقال: الحطيئة في ذلك:

أطعنا رسول الله ما كان وسطنا	فيالعباد الله ما لأبي بكر
ايُورثنا بكراً إذا كان بعده	وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه؟	وهلا خشيتم حسَّ راعية البكر؟
وإن الذي سالوكم فمنعتمو	لكالتمر أو أحلى إليّ من التمر

وفي جمادى الآخرة ركب الصديق في أهل المدينة وأمراء الأنقاب، إلى من حول المدينة من الأعراب الذين أغاروا عليها، فلما تواجه هو وأعداؤه من بني عبس، وبني مرة، وذبيان، ومن ناصب معهم من بني كنانة، وأمدهم طليحة بابنه حبال، فلما تواجه القوم كانوا قد صنعوا مكيدة وهي: أنهم عمدوا إلى أنحاء فنفخوها ثم أرسلوها من رؤوس الجبال، فلما رأتها إبل أصحاب الصديق نفرت وذهبت كل مذهب، فلم يملكوا من أمرها شيئا إلى الليل، وحتى رجعت إلى المدينة، فقال في ذلك الخطيل بن أوس:

فدى لبني ذبيان رحلي وناقت	عشية يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يُدهدى بالرجال فهبنه	إلى قدرما أن تقيم ولا تسري
ولله أجناد تُذاق مذاقه	لتحسب فيما عد من عجب الدهر
أطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيالعباد الله ما لأبي بكر

فلما وقع ما وقع ظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى عشائرهم من نواحي أخر، فاجتمعوا، وبات أبو بكر رضي الله عنه قائماً ليله يعبيء الناس، ثم خرج على تعبئة من آخر الليل، وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن، وعلى الميسرة أخوه عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين حسا ولا همسا، حتى وضعوا فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وكان أول الفتح، وذل بها المشركون، وعز بها المسلمون، ووثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل من وراءهم كفعلهم، فحلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، ففي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غداة سعى أبو بكر إليهم	كما يَسعى لموتته جلال
أراح على نواهقها علياً	ومج لهن مهجته حبال

وقال أيضا:

أقمنا لهم عرض الشمال فكبكبوا	ككبكبة الغزى أناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها	صَبيحة يسمو بالرجال أبو بكر
طَرقنا بني عبس بأدنى نِباجها	وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله، وذلك أنه عز المسلمون في كل قبيلة، وذل الكفار في كل قبيلة، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً، سالما غانما، وطرقت المدينة في الليل صدقات عدي بن حاتم، وصفوان والزبرقان، إحداهما في أول الليل، والثانية في أوسطه والثالثة في آخره، وقدم بكل واحدة منهن بشير من أمراء الأنقاب، فكان الذي بشر بصفوان سعد بن أبي وقاص، والذي بشر بالزبرقان عبد الرحمن بن عوف، والذي بشر بعدي بن حاتم عبد الله بن مسعود، ويقال: أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه. وذلك على رأس ستين ليلة من متوفى رسول الله ﷺ.

ثم قدم أسامة بن زيد بعد ذلك بليال، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وأمرهم أن يريحوا ظهرهم، ثم ركب أبو بكر في الذين كانوا معه، في الوقعة المتقدمة، إلى ذي القصة، فقال له المسلمون: لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلاً، فقال: والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي، فخرج في تعبئته، إلى ذي حسى وذي القصة، والنعمان وعبد الله وسويد بنو مقرن على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق وهناك جماعة من عبس وذبيان، وطائفة من بني كنانة، فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعوفا وأخذ الحطيئة أسيراً فطارت بنو عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياما وقد غلب بني ذبيان على البلاد فقال: حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد، إذ غنمناها الله وحمى الأبرق بخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الربذة. ولما فرت عبس وذبيان صاروا إلى مؤازرة طليحة وهو نازل على بُزاخة، وقد قال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

ويــوم بالأبــارق قــد شــهدنا علــى ذبيــان يلتهــب التهابــا
أتينــاهم بداهيــة نســوف مــع الصديــق إذ تــرك العتابــا

ثم رجع الصديق إلى المدينة مؤيدا منصورا سالماً غانماً ﷺ وارضاه.

ذكر خروجه إلى ذي القصة حين عقد ألوية الأمراء الأحد عشر على ما سيأتي

وذلك بعد ما جم جيش أسامة واستراحوا، ركب الصديق أيضاً في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه مسلولاً، من المدينة إلى ذي القصة، وهي من المدينة على مرحلة، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصديق رضي الله عنهما، كما سيأتي، فسأله الصحابة، منهم عليّ وغيره، وألحوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممن يؤمره من الشجعان الأبطال، فأجابهم إلى ذلك، وعقد لهم الألوية الأحد عشر لأحد عشر أميراً، على ما سنفصله قريباً إن شاء الله.

وقد روى الدارقطني من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر قال: لما برز أبو بكر إلى القصة واستوى على راحلته، أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «شم؟ سيفك ولا تفجعنا بنفسك»، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً، فرجع. هذا حديث غريب من طريق مالك.

وقد رواه زكريا الساجي [تاريخ دمشق ٣١٦/٣٠] من حديث عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أيضاً عن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: خرج أبي شاهراً سيفه راكباً على راحلته إلى وادي القصة، فجاء عليّ بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين ياخليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد: «شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك» فوالله لئن أصبنا بك لايكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع وأمضى الجيش.

وقال سيف بن عمر [تاريخ الطبري ٢٤٩/٣] عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد: لما استراح أسامة وجنده، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر البعوث، وعقد الألوية: فعقد أحد عشر لواء، عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له. ولعكرمة بن أبي جهل، وأمره بمسيلمة، وبعث شرحبيل ابن حسنة في أثره إلى مسيلمة الكذاب، ثم إلى بني قضاعة. وللمهاجر بن أبي أمية، وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح.

ـ قلت: وذلك لأنه كان قد نزع يده من الطاعة، على ما سيأتي.ـ قال: ولخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث. ولحذيفة بن محصن الغطفاني وأمره بأهل دبا ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة. ولطرفة بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن. ولسويد بن مقرن، وأمره بتهامة اليمن. وللعلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين رضي الله عنهم.

وقد كتب لكل أمير كتاب عهده على حدته، ففصل كل أمير بجنده من ذي القصة، ورجع الصديق إلى المدينة، وقد كتب معهم الصديق كتابا إلى الربذة وهذه نسخته «بسم الله الرحمن الرحيم». من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به، ونكفر من أبي ذلك ونجاهده أما بعد فإن الله أرسل محمداً بالحق من عنده، إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرها، ثم توفى الله رسوله، وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيّن له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي انزل فقال ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وقال للمؤمنين ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان إنما يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه. وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يعافه مبتلاً يعنه الله مخذول، ومن هداه غير الله كان ضالاً، قال الله تعالى ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾ [الكهف: ١٧] ولن يقبل منه في الدنيا عمل عبد حتى يقر به، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام، عمل به، اغترارا بالله وجهلا بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل، فإن أجاب وأقر وعمل صالحاً قبل منه، وأعانه عليه وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار وأن يقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد غير الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم وإن أذنوا فسلوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم، رواه سيف ابن عمر عن عبد الله بن سعيد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك [تاريخ الطبري ٢٤٩/٣ـ٢٥١].

فصل في مسيرة الامراء من ذي القصة على ما عوهدوا عليه

وكان سيدّ الأمراء ورأس الشجعان الصناديد أبو سليمان خالد بن الوليد.

روى الإمام أحمد [٨/١] من طريق وحشي بن حرب، أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نعم عبد الله وأخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله الله عز وجل على الكفار والمنافقين، ولما توجه خالد من ذي القصة وفارقه الصديق، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء ـ وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب ـ وامره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم يذهب بعده إلى بني تميم، وكان طليحة بن خويلد في قومه بني أسد، وفي غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بني جديلة والغوث وطيء يستدعيهم إليه، فبعثوا أقواماً منهم بين أيديهم، ليلحقوهم على أثرهم سريعاً، وكان عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر قد قدما على أبي بكر بصدقات قومهما بعد وفاة النبي ﷺ ليقوى بها أبو بكر على قتال أهل الردة ولم يزل لعدي والزبرقان بذلك الشرف على قومهما ومن سواهما]. وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدي إلى قومه بني طيء فأمرهم أن يبايعوا الصديق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبدا ـ يعنون أبا بكر رضي الله عنه ـ فقال: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدي يفتل له في الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد في الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن طليعة، فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما، فلما وجدا ثابتاً وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة، وقيل: بل كان قتل جبالاً قبل ذلك وأخذ ما معه، وحمل عليه طليحة فقتله وقتل هو وأخوه سلمة، ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين ثم أمر بهما فدفنا بدمائهما في ثيابهما وقد قال طليحة في ذلك:

عشية غادرت ابن أقرم ثاويا	وعكاشة العمي تحت مجال
أقمت له صدر الحمالة إنها	معودة قبل الكماة نزال
فيوم تراها في الجلال مصونة	ويوم تراها في ظلال عوالي
وإن تك أذواد أصبن ونسوة	فلم يذهبوا فرغا بقتل حبال

ومال خالد إلى بني طيء، فخرج إليه عدي بن حاتم فقال: أنظرني ثلاثة أيام، فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب اليك من أن يعجلهم إلى النار، فلما كان بعد ثلاث جاءه عدي في خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بني جديلة فقال له عدي: أجّلني أياماً حتى آتيهم فلعل الله ان ينقذهم كما انقذ طيئا، فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاء خالداً بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عدي خير مولود واعظمه بركة على قومه، رضي الله عنه، قالوا: ثم سار خالد حتى نزل بأجا وسلمى، وعبأ جيشه هنالك والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له: بزاخة، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومَن التف معهم وانضاف إليهم، وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بني فزارة واصطف الناس، وجلس طليحة ملتفاً في كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يُوحى إليه فيما يزعم، وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل، حتى إذا ضجر من القتال يجيء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فيقول: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه، قال: يقول عيينة: أظن أن قد علِم الله أن سيكون لك حديثٌ لا تنساه، ثم قال: يابني فزارة انصرفوا وانهزم وانهزم الناس عن طليحة، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها له، وأركب امرأته النوار على بعير له، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرّق جمعه، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه، فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع، قالت بنو عامر وسليم وهوازن: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونسلم لحُكمه في أموالنا وأنفسنا.

قلت: وقد كان طليحة الأسدي ارتد في حياة النبي ﷺ، فلما مات رسول الله ﷺ قام بمؤازرته عيينة بن حصن من بدر، وارتدّ عن الإسلام، وقال لقومه: والله لنبي من بني أسد أحب إليّ من نبي من بني هاشم، وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه، فوافقه قومه بنو فزارة على ذلك، فلما كسَرهما خالد هرب طليحة بامرأته إلى الشام، فنزل على بني كلب، وأسر خالد عيينة بن حصن، وبعث به إلى المدينة مجموعةً يداه إلى عنقه، فدخل المدينة وهو كذلك فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم، ويقولون: أي عدو الله، ارتددت عن الإسلام؟ فيقول: والله ما كنت آمنت قط، فلما وقف بين يدي الصدّيق استتابه وحقن دمه، ثم حَسُن إسلامه بعد ذلك، وكذلك مَنَّ على قرة بن هبيرة، وكان أحد الأمراء مع طليحة، فأسره مع عيينة، وأما طليحة فانه راجع الإسلام بعد ذلك أيضاً، وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصدّيق، واستحيا أن يواجهه مدة حياته، وقد رجع فشهد القتال مع خالد، وكتب الصديق إلى خالد: أن استشره في الحرب ولا تؤمره ـ يعني معاملته له بنقيض ما كان قصَدَه من الرياسة في الباطل ـ وهذا من فِقْه الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وقد قال خالد بن الوليد لبعض أصحاب طليحة ممن أسلم وحسن إسلامه: أخبرنا عما كان يقول لكم طليحة من الوَحْي، فقال: إنه كان يقول: والحمام واليمام والصرَد الصوّام، قد صُمْنَ قبلكم بأعوام ليبلُغنَّ ملكنا العراق والشام، إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات السمجة.

وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره فكتب إليه: ليزدْك ما أنعم الله به خيراً واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدٌّ في أمرك ولا تنِينّ ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكّلت به ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن يرى أن في ذلك صلاحاً فاقتله، فاقام خالد ببزاخة شهراً يصعّد فيها ويصوّب ويرجع إليها في طلب الذين وصّاه بسببهم الصديق، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً يأخذه بثأر مَن قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم مَن حرّقه بالنار، ومنهم مَن رضَخه بالحجارة ومنهم مَن رمى به من شواهق الجبال، كل هذا ليشرِّد بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب، رضي الله عنه.

وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لما قدم وفد بزاخة - أسد وغطفان - على أبي بكر يسألونه الصلح، خيّرهم أبو بكر بين حرب مُجلية أو خطة مُخزية، فقالوا: يا خليفة رسول اللّه أمّا الحرب المجلية فقد عرفناها، فما الخطة المخزية؟ قال: تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتُتركون أقواماً يتّبعون أذناب الإبل حتى يُريَ اللّهُ خليفةَ نبيه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به، وتؤدّون ما أصبتم منا، ولا نؤدّي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وأن قتلاكم في النار، وتَدُون قتلانا ولا نَدِي قتلاكم، فقال عمر: أما قولك: تَدون قتلانا، فإن قتلانا قُتِلوا على أمر اللّه لا ديات لهم فاتّبع عمر وقال عمر في الثاني: نِعْمَ ما رأيت.

ورواه البخاري [٧٢٢١] من حديث الثوري بسنده مختصراً.

وقعة أخرى

كان قد اجتمع طائفة كثيرة من الفُلّال يوم بُزاخة من أصحاب طليحة، من بني غطفان فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها: أم زِمْل - سلمى بنت مالك بن حذيفة - وكانت من سيدات العرب، كأمها أم قِرْفة، وكان يُضرب بأمها المثل في الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها، فلما اجتمعوا إليها ذمّرتهم لقتال خالد، فهاجوا لذلك، وتأشّب إليهم آخرون من بني سليم وطيىء وهوازن وأسد، فصاروا جيشاً كثيفاً وتفحّل أمر هذه المرأة، فلما سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم، واقتتلوا قتالاً شديداً وهي راكبة على جمل أمها الذي كان يقال: مَن نَخَسَ جملها فله مائة من الإبل وذلك لعزها، فهزمهم خالد وعقر جملها وقتلها وبعث بالفتح إلى الصديق رضي اللّه عنه.

قصة الفجاءة

واسمه إياس بن عبد اللّه بن عبد ياليل بن عُميرة بن خُفاف من بني سليم، قاله ابن إسحاق، وقد كان الصديق حرّق الفجاءة بالبقيع في المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه مسلم، وسأل منه أن يجهز معه جيشاً يقاتل به أهل الردّة، فجهّز معه جيشاً فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشاً فردّه، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع، فجُمعت يداه إلى قفاه وألقي في النار فحرّقه وهو مقموط.

قصة سجاح وبني تميم

كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عُقْفانَ التغلبية من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بني تميم دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب، وجماعة من سادات أمراء بني تميم، وتخلف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن غَزْوِها، وحرضها على بني يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ؟ فقالت لهم فيما تسجعه: أعدُّوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب. ثم إنهم تعاهدوا على نصرها، فقال قائل منهم:

أتتنا أخت تغلب في رجالٍ ... جلائبَ من سَراة بني أبينا
وأرست دعوة فينا سفاها ... وكانت من عمائرَ آخرينا
فما كنا لنرزيهم زِبالاً ... وما كانت لتسلم إذ أتينا
ألا سفهت حُلومكمُ وضلتْ ... عشية تحشدون لها ثُبينا

وقال عطارد بن حاجب في ذلك:

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

ثم إن سجاح قصدت بجنودها اليمامة، لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب، فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة، دُفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة، قال: فقصدوا نحو مسيلمة، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أنه مشغول بمقاتلة ثمامة بن أُثال، وقد ساعده عكرمة بن أبي جهل بجنود المسلمين، وهم نازلون ببعض بلاده ينتظرون قدوم خالد كما سيأتي، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت، فقد رده اللّه عليك فحباك به، وراسلها ليجتمع بها في طائفة من قومه وقومها، فركب إليها في أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا في خيمة، فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع اللّه لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كل ما سرّ نفسه مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم، علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار، وقال أيضاً: لما رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت وأيديهم طفلت، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار تصومون، فسبحان اللّه إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السماء كيف ترقون، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ولأكثر الناس فيها الثبور.

وقد كان مسيلمة لعنه اللّه شرع لمن اتبعه أن العزب يتزوج فإذا ولد له ذكر فيحرم عليه النساء حينئذ، إلا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحل له النساء حتى يولد له ذكر، هذا مما اقترحه لعنه اللّه، من تلقاء نفسه، ويقال: إنه لما خلا بسجاح سألها ماذا يوحى إليها؟ فقالت: وهل يكون النساء يبتدئن؟ بل أنت ماذا أوحي اليك؟ فقال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى؟ أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا. قالت: وماذا؟ فقال: إن اللّه خلق للنساء أفراجا، وجعل الرجال لهن أزواجا، فنولج فيهن قُعساً إيلاجا، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا، فينتجن لنا سخالاً إنتاجا. فقالت: أشهد أنك نبي، فقال لها: هل لك أن أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال:

ألا قُومي إلى النَّيك ... فقد هيي لك المضجعْ
فإن شئت ففي البيت ... وإن شئت ففي المخدعْ
وإن شئت سلقناك ... وإن شئت على أربعْ
وإن شئت بثلثيه ... وإن شئت به أجمعْ

فقالت: بل به أجمع، فقال: بذلك أوحي إليَّ، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى قومها فقالوا: ما أصدقك؟ فقالت: لم يصدقني شيئا، فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق فبعثت إليه تسأله صداقها، فقال: ارسلي إلي مؤذِّنك، فبعثته إليه - وهو شَبَث بن رِبعي - فقال: ناد في قومك: إن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد - يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة -وقيل: بل قال لهم إني وضعت عنكم ما أتاكم به محمد من الصلوات وأبحت فروج المؤمنات وشرب الخمر في الكاسات - فكان هذا صداقها عليه لعنهما الله، ثم انشمرت سجاح راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دنو خالد من أرض اليمامة فكرت راجعة إلى الجزيرة بعد ما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب، إلى زمان معاوية فأجلاهم منها على الجماعة كما سيأتي بيانه في موضعه.

فصل في خبر مالك بن نويرة اليربوعي التميمي

كان قد صانع سجاح حين قدمت من أرض الجزيرة، فلما اتصلت بمسيلمة لعنهما الله، ثم ترحلت إلى بلادها فلما كان ذلك ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره، وتلوم في شأنه، وهو نازل بمكان يقال له: البطاح، فقصدها خالد بجنوده وتأخرت عنه الأنصار، وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال لهم خالد: إن هذا أمر لابد من فعله، وفرصة لابد من انتهازها، وإنه لم يأتني فيها كتاب، وأنا الأمير وإلي ترد الأخبار، ولستُ بالذي أجبركم على المسير، وأنا قاصد البطاح. فسار يومين ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به، فلما وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة، فبث خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلا ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحير في أمره، متنح عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربعي الأنصاري - أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا، فيقال: إن الأسارى باتوا في كبولهم في ليلة باردة شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن دافِئوا أسْراكم، فظن القوم أنه أراد القتل، فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، فلما سمع خالد الواعية خرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرا أصابه، واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة، وهي أم تميم ابنة المنهال، وكانت جميلة، فلما حلت بنى بها، ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربت عنقه، وأمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا، فأكل منها خالد تلك الليلة ليرهب بذلك الأعراب، من المرتدة وغيرهم، ويقال: إن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نضج لحم القدر ولم يفرغ الشعر لكثرته، وقد تكلم أبو قتادة مع خالد فيما صنع وتقاولا في ذلك حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصديق، وتكلم عمر مع أبي قتادة في خالد، وقال للصديق: اعزله فإن في سيفه رهقا، فقال أبو بكر: لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار، وجاء متمم بن نويرة فجعل يشكو إلى الصديق خالدا، وعمر يساعده وينشد الصديق ما قال في أخيه من المراثي، فوداه الصديق من عنده، ومن قول متمم في ذلك:

وكنّا كندماني جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
وعشنا بخير ما حيينا وقبلنا ... أباد المنايا قوم كسرى وتُبّعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
تراه كنصل السيف يهتز للندى ... إذا لم يجد عند امرئ السوء مطعما
وما كان وقافاً إذا الحرب أحجمت ... ولا طالباً من خشية الموت مفزعا
ولا بكهام سيفه عن عدوة ... إذا هو لاقى حاسراً أو مقنعا
وإني متى ما أدع باسمك لم تجب ... وكنت حرياً أن تجيب وتسمعا
وما شارف حنّت حنيناً ورجعت ... أنينا فأبكى شجوها البرك أجمعا
بأوجد مني يوم قام بمالك ... مناد فصيح بالفراق فأسمعا
تحيتهُ منّي وإن كان نائيا ... ذِهابَ الغوادي المدجنات فأمّرعا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالك ... ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا

في أبيات أُخر اختصرناها، وقيل: إن متمماً حزن على أخيه مالك حزناً شديداً مكث سنة كاملة لم ينم الليل؛ لم يزل حزيناً عليه ينشد فيه الأشعار حتى مات وكان أعور، فلم يزل يبكيه حتى سالت عينه العوراء بالدموع وهذا أبلغ ما يكون من الحزن.

وقال أيضاً:

لقد لامني عند القبور على البُكا ... رفيقي لتذراف الدموع السّوافك
وقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبرُ مالك

والمقصود أنه لم يزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن الإمرة ويقول: إن في سيفه لرهقا قتل مالكاً ونزى على امرأته، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة، وقد لبس درعه التي من حديد، وقد صدئ من كثرة الدماء، وغرز في عمامته النشاب المضمخ بالدماء، فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها، وقال: أرياءً قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه، ولا يظن إلا أن رأي الصديق فيه كرأي عمر، حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك وودى مالك بن نويرة، فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد، فقال خالد: هلم إلي يا ابن أم شملة، فلم يرد عليه وعرف أن الصديق قد رضي عنه، واستمر أبو بكر بخالد على الأمرة، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة وأخطأ في قتله، كما أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى أبي جذيمة فقتل أولئك الأسارى الذين قالوا: صبانا صبانا، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فوداهم رسول الله ﷺ حتى رد إليهم ميلغة الكلب، ورفع يديه وقال: «اللّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، ومع هذا لم يعزل خالداً عن الإمرة.

مقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله وأخزاه

لما رضي الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به، بعثه إلى قتال بني حنيفة باليمامة، وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب،

وأردف الصديق خالدا بسرية لتكون ردءاً له من ورائه وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفا من المقاتلة، فعجل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالدا، فلما سمع مسيلمة بقدوم خالداً عسكر بمكان يقال له: عقربا في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل علي مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل، والرَّجال من عنفُوة بن نهشل، وكان الرجّال هذا صديقه الذي شهد له أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه مسيلمة بن حبيب في الأمر، فكان هذا الملعون من أكبر ما أضل أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، لعنهما الله، وقد كان الدجّال هذا قد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ «البقرة»، وجاء زمن الردة إلى أبي بكر فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام، فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة.

قال سيف بن عمر [الطبري في تاريخه ٢٨٧/٣] عن طلحة عن عكرمة عن أبي هريرة: كنت يوما عند النبي ﷺ في رهط معنا الرَّجّالُ بن عنفوة، فقال: «إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار أعظم من أحد»، فهلك القوم وبقيت أنا والرجال وكنت متخوفا لها، حتى خرج الرجال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الدجّال أعظم من فتنة مسيلمة.

ورواه ابن إسحاق عن شيخ عن أبي هريرة [تاريخ الطبري ٢٨٩/٣]، واقترب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنبتين زيدا وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة في الليل بنحو من أربعين، وقيل ستين فارسا، عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم فلما جيء بهم إلى خالد سألهم عن خبرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم، سوى مجاعة فإنه استبقاه مقيدا عنده ـ لعلمه بالحرب والمكيدة ـ وكان سيدا في قومه، شريفا مطاعا، ويقال: إن خالدا لما عرضوا عليه قال لهم: ماذا تقولون يابني حنيفة؟ قالوا: نقول منا نبي ومنكم نبي، فقتلهم إلا واحداً اسمه سارية، فقال له: أيها الرجل إن كنت تريد غداً بعدول هؤلاء خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل ـ يعني مجاعة بن مرارة ـ فاستبقاه خالد مقيداً، وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: استوصي به خيرا، فلما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تُستردف النساء سبيات، وينكحهن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرق على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، ومجاعة بن مرارة مقيد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت للمسلمين جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهموا بقتل أم تميم، حتى أجارها مجاعة وقال: نعمت الحرة هذه، وقد قُتِل الرُّجال بن عنفوة لعنه اللّه في هذه الجولة، قتله زيد بن الخطاب، ثم تذامر الصحابة بينهم وقال ثابت بن قيس بن شماس: بئس ماعوَّدتم أقرانكم، ونادوا من كل جانب: اخلُصنا يا خالد، فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار وحمى البراء بن مالك ـ وكان إذا رأى الحرب أخذته العرواء فيجلس على ظهر الرجال وينتقض حتى يبول في سراويله، ثم يثور كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة «البقرة»، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتا حتى قتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُماً، وقال: واللّه لا أتكلم حتى يهزمهم اللّه أو ألقى اللّه فأكلمه بحجتي، فقتل شهيداً رضي اللّه عنه، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب رضي اللّه عنه، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار بحيال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وثب بين الصفين ودعا إلى البراز، وقال: أنا ابن الوليد العَود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين ـ وكان شعارهم يومئذ يا محمداه ـ وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه النَّصَفَ والرجوع إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه، لا يقبل منه شيئا، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد وقد ميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بني أب على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرا لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح اللّه عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاؤوا، حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم محكم اليمامة ـ وهو مُحَكَّمُ بن الطفيل لعنه اللّه ـ بدخولها، فدخلوها وفيها عدو اللّه مسيلمة لعنه اللّه، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه اللّه، وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو مُزبِدٌ متساند، ولا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم ـ قاتل حمزة ـ فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: وا أمير المؤمنيناه، قتله العبد الأسود، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفا، وقتل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة، واللّه أعلم، وفيهم من سادات الصحابة، وأعيان الناس من يذكر بعد، وخرج خالد ومعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلما مروا بالرجال بن عنفوة قال له خالد: أهذا هو؟ قال: لا، واللّه هذا خير منه، هذا الرجال بن عنفوة.

قال سيف بن عمر [الطبري في تاريخه ٢٩٥/٣]: ثم مروا برجل أُصيفر أُخينس، فقال هذا صاحبكم، فقال خالد: قبحكم اللّه على اتباعكم هذا، ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة فقال: إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فقال: دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على

الصلح، فقال: اذهب، فسار إليهم مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة فانتظر الصلح، فصالحهم على البيضاء والصفراء والحلقة والكراع ونصف الرقيق وقيل الخالد: إن فجاعة قد خدعك فقال له: يا مجاعة خدعتني فقال. إنهم قومي وقد أفنيتهم فلا تلمني على ذلك. ولمّا فرغ من قتال بني حنيفة خطب إلى مجاعة ابنته وألح عليه فزوجه إياها. ولما بلغ أبو بكر ذلك كتب إليه إنك لفارغ القلب تتزوج النساء وحول خبائك ألف ومائتين من المسلمين لم تجف دماؤهم بعد فإذا جاءك كتابي هذا فالحق بمن معك من جموع المسلمين إلى العراق وبعث بالكتاب مع أبي سعيد الخدري وقال: لا تفارقه حتى تُشْخِصه. فلما قرأ خالد الكتاب قال: هذا من عمل الأعَيْسر عمر بن الخطاب ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب بجارية منهم، وهي أم ابنة محمد الذي يقال له: محمد ابن الحنفية رضي الله عنه، وقد قال ضرار بن الأزور في غزوة اليمامة هذه:

فلو سُئلتْ عنا جنوبُ لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهمُ
وسال بفرع الوادِ حتى ترقرقت حجارته فيه من القوم بالدم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصممُ
فإن تبتغي الكفار غير مُليمَةٍ جنوب فإني تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهد أعلم

وقد قال خليفة بن خياط[تاريخ خليفة ٨٦/١]، ومحمد بن جرير[تاريخ الطبري ٢٨١/٣]، وخلق من السلف: كانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن نافع: في آخرها، وقال الواقدي وآخرون: كانت في سنة ثنتي عشرة، والجمع بينها أن ابتدأها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة ثنتي عشرة والله أعلم.

ولما قدمت وفود بني حنيفة على الصديق [تاريخ الطبري ٢٨٤/٣، ٣٠٠] قال لهم: أسْمِعونا شيئا من قرآن مسيلمة، فقالوا: أو تعفينا يا خليفة رسول الله؟ فقال: لابد من ذلك، فقالوا: كان يقول: ياضفدع بنت الضفدعين نقي كما تنقين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين، راسك في الماء، وذنبك في الطين، وكان يقول: والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فُضِّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه والباغي فناوئوه، وذكروا أشياء من هذه الخرافات التي يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون، فيقال: إن الصديق قال لهم: ويحكم، أين كان يذهب بعقولكم؟ إن هذا الكلام لم يخرج من إل، وكان يقول: والفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل، وكان يقول: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس، وتقدم قوله: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحَشَا، وأشياء من هذا الكلام السخيف الركيك البارد السمج، وقد أورد أبو بكر بن الباقلاني رحمه الله في كتابه «إعجاز القرآن» [ص١٥٦-١٥٧] أشياء من كلام هؤلاء الجهلة المتنبئين كمسيلمة وطليحة والأسود وسجاح وغيرهم، مما يدل على ضعف عقولهم وعقول من اتبعهم على ضلالهم ومحالهم.

وقد روينا [التفسير ١٩٢/٤، ٤٩٩/٨] عن عمرو بن العاص أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣] قال: ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليَّ مثلها، فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم إنك لتكذب، وذكر علماء التاريخ [تاريخ الطبري ٢٨٤/٣، ٢٨٥] [الكامل ٣٦٢/٢] أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية: وفي أخرى فصار ماؤه أجاجا، وتوضأ وسقي بوضوئه نخلاً فيبست وهلكت، وأُتي بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه، ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي.

وقال سيف بن عمر [الطبري ٢٨٦/٣] عن خليد بن ذَفَرة النمري، عن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟ قالوا: مه رسول الله، فقال: لا حتى أراه، فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ فقال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رحمنٌ، قال: أفي نور أم في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابي الجلف لعنه الله حتى قتل معه عقرباء، لا رحمه الله.

ذكر ردة أهل البحرين وعودهم إلى الإسلام

كان من خبرهم أن رسول الله ﷺ كان قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها، المنذر بن ساوى العبدي، فأسلم على يديه وأقام فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله ﷺ، توفي المنذر بعده بقليل، وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن العاص، فقال له: يا عمرو هل كان رسول الله ﷺ يجعل للمريض شيئا من ماله؟ قال: نعم، الثلث، قال: ماذا أصنع به؟ قال: إن شئت تصدقت به على أقربائك، وإن شئت على المحاويج، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبساً محرما، فقال: إني أكره أن أجعله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ولكني أتصدق به، ففعل، ومات فكان عمرو بن العاص يتعجب منه، فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر. وقال قائلهم: لو كان محمد نبياً ما مات، ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها: جُواثَى، كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة كما ثبت ذلك في «البخاري» عن ابن عباس، وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم، حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعاً شديدا حتى فرَّج الله، وقد قال رجل منهم يقال له عبد الله بن حذف، أحد بني بكر بن كلاب، وقد اشتد عليه الجوع:

ألا أبْلِغ أبا بكر رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام قُعود في جواثا محصرينا
كأن دماءهم في كل فج شعاع الشمس يعشي الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا وجدنا الصبر للمتوكلينا

وقد قام فيهم رجل من أشرافهم، وهو الجارود بن المعلى - وكان ممن

هاجر إلى رسول الله ﷺ - خطيبا وقد جمعهم فقال: يامعشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتوه ولا تجيبوني إن لم تعلموه، فقالوا: سل، قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد؟ قالوا نعم، قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: ونحن أيضا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنت أفضلنا وسيدنا، وثبتوا على إسلامهم، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه، وبعث الصديق رضي الله عنه كما قدمنا إليهم العلاء بن الحضرمي، فلما دنا من البحرين جاء إليه ثمامة بن أثال في حجفل كثير، وجاء كل أمراء تلك النواحي فانضافوا إلى جيش العلاء بن الحضرمي، فأكرمهم العلاء وترحب بهم وأحسن إليهم، وقد كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابي الدعوة، اتفق له في هذه الغزوة أنه نزل منزلاً فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم - وذلك ليلاً - ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهم والغم ما لا يُحدُّ ولا يوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى، قال: فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بالناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدعاء ورفع يديه وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد في الدعاء فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكا، فسقوا الإبل عللاً بعد نهل.

فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية، ثم لما اقترب من جيوش المرتدة - وقد حشدوا وجمعوا خلقا عظيما - نزل ونزلوا، وباتوا متجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتاً عالية في جيش المرتدين، فقال: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حَذَفٍ فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فوره والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلاً عظيماً، وقلَّ من هرب منهم، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم، فكانت غنيمة، عظيمة جسيمة، وكان الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة من سادات القوم نائما، فقام دهشا حين اقتحم المسلمون عليهم فركب جواده فانقطع ركابه فجعل يقول: من يصلح لي ركابي؟ فجاء رجل من المسلمين في الليل فقال: أنا أصلحها لك، ارفع رجلك، فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه، فقال له: اجهز علي، فقال: لا أفعل، فوقع صريعاً كلما مرَّ به أحد يسأله أن يقتله فيأبى، حتى مرَّ به قيس بن عاصم فقال له: أنا الحطم فاقتلني فقتله، فلما رأى رجله مقطوعة ندم على قتله وقال: وا سَوْأتاه، لو أعلم ما به لم أحركه، ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين، يقتلونهم بكل مرصد وطريق، وذهب مَن فرَّ منهم أو أكثرهم في البحر إلى دارين ركبوا اليها السفن، ثم شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونفل الأنفال وفرغ من ذلك وقال للمسلمين: اذهبوا بنا إلى دارين لنغزُوَ مَن بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعاً، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشُقة بعيدة لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حليم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محيي الموتى، يا حيّ يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى رُكَب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر فقاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مُخبراً، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم، فأصاب الفارس ألفين والراجل ألفاً، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع، وقد قال رجل من المسلمين في مرورهم في البحر، وهو عفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

وقد ذكر سيف بن عمر التميمي أنه كان مع المسلمين في هذه المواقف والمشاهد التي رأوها من أمر العلاء، وما أجرى الله على يديه من الكرامات، رجل من أهل هجر راهب فأسلم حينئذ، فقيل له: ما دعاك إلى الإسلام؟ فقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله، لما شاهدتُ من الآيات، قال: وقد سمعت في الهواء وقت السَّحرَ دعاء، قالوا: وما هو؟ قال: اللّهم أنت الرحمن الرحيم، لا إله غيرك والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والحي الذي لا يموت، وخالق ما يُرى وما لا يُرى، وكل يوم أنت في شأن، وعَلِمت اللّهم كل شيء علماً، قال: فعلمتُ أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله، قال: فحسن إسلامه وكان الصحابة يسمعون منه.

ذكر ردة أهل عُمان ومهرة واليمن

أما أهل عمان فنبغ فيهم رجل يقال له: ذو التاج، لقيط بن مالك الأزدي، وكان تَساقى في الجاهلية الجُلَنْدَى، فادعى النبوة أيضاً، وتابعه الجهلة من أهل عمان، فتغلب عليها وقهر جيفراً وعبّاداً وألجاهما إلى أطرافها، من نواحي الجبال والبحر، فبعث جيفر إلى الصديق فأخبره الخبر واستجاشه فبعث إليه الصديق بأميرين وهما حذيفة بن محصن الحميري، وعرفجة البارقي من الأزد، حذيفة إلى عُمان، وعرفجة إلى مهرة، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعُمان، وحذيفة هو الأمير، فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير.

وقد قدمنا أن عكرمة بن أبي جهل لما بعثه الصديق إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل ابن حسنة، عجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجيء شرحبيل ليفوز بالظفر وحده، فناله من مسيلمة قرحٌ والذين معه، فتقهقر حتى جاء خالد بن الوليد، فقهر مسيلمة كما تقدم، وكتب إليه الصديق يلومه على تسرعه، قال: لا أرينَّك ولا أسمعنَّ بك إلا بعد بلاء، وأمره أن يلحق بحذيفة وعجرفة إلى عُمان، وكل منكم أمير على خيله وحذيفة ما دمتم بعُمان فهو أمير الناس، فإذا فرغتم فاذهبوا إلى مهرة، فإذا فرغتم منها

فاذهب إلى اليمن وحضرموت فكن مع المهاجر بن أبي أمية، ومَن لقيته من المرتدة بين عُمان إلى حضرموت واليمن فنكّل به، فسار عكرمة لما أمره به الصديق، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عُمان، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من السير من عُمان أو المقام بها، فساروا فلما اقتربوا من عُمان راسلوا جيفراً وعبّاداً، وبلغ لقيط بن مالك مجيء الجيش، فخرج في جموعه فعسكر بمكان يقال له: دَبا، وهي مصرُ تلك البلاد وسوقها العظمى، وجعل الذراري والأموال وراء ظهورهم، ليكون أقوى لحربهم، واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له صُحار، فعسكرا به وبعثا إلى أمراء الصدّيق فقدموا على المسلمين، فتقابل الجيشان هنالك، وتقاتلوا قتالاً شديداً، وابتُلِيَ المسلمون وكادوا أن يُوَلّوا، فمنّ اللّه بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مدداً، في الساعة الراهنة من بني ناجية وعبد القيس، في جماعة من الأمراء، فلما وصلوا إليهم كان الفتح والنصر، فولى المشركون مُدبرين، وركب المسلمون ظهورهم فقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل وسبَوْا الذراري وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها، وبعثوا بالخُمس إلى الصدّيق رضي اللّه عنه مع أحد الأمراء، وهو عرفجة، ثم رجع إلى أصحابه.

وأما مهرة فإنهم لما فرغوا من عُمان كما ذكرنا، سار عكرمة بالناس إلى بلاد مهرة، بمن معه من الجيوش ومَن أضيف إليها، حتى اقتحم على مهرة بلادها، فوجدهم جندين على أحدهما ـ وهم الأكثر ـ أمير يقال له: المُصبِّح، أحد بني محارب، وعلى الجند الآخر أمير يقال له: شخريت، وهما مختلفان، وكان هذا الاختلاف رحمة على المؤمنين فراسل عكرمة شخريت فأجابه وانضاف إلى عكرمة فقوي بذلك المسلمون، وضعف جاش المصبّح، فبعث إليه عكرمة يدعوه إلى اللّه وإلى السمع والطاعة، فاغترّ بكثرة من معه ومخالفةً لشخريت، فتمادى على طغيانه فسار إليه عكرمة بمَن معه من الجنود فاقتتلوا مع المصبّح أشد من قتال دَبا المتقدم، ثم فتح اللّه بالظفر والنصر، ففر المشركون وقُتِل المصبّح، وقتل خلق كثير من قومه، وغنم المسلمون أموالهم، فكان في جملة ما غنموا ألفا نجيبةٍ فخمّس عكرمة ذلك كله وبعث بخُمْسه إلى الصدّيق مع شخريت، وأخبره بما فتح اللّه عليه، والبشارة مع رجل يقال له: السائب، من بني عابد من مخزوم، وقد قال في ذلك رجل يقال له عُلْجوم:

جزى اللّه شخريتاً وأفناء هاشم ... وفِرْضِم إذ سارت إلينا الحلائب
جزاء مُسيء لم يُراقب لنعمة ... ولم يرْجُها فيما يرجى الأقارب
أعِكْرِمُ لولا جمع قومي وفعلهم ... لضاقت عليكم بالفضاء المذاهب
وكنا كمن اقتاد كفا بأختها ... وحلت علينا في الدهور النوائب

وأما أهل اليمن فقد قدمنا أن الأسود العنسي لعنه اللّه لما نبغ باليمن، أضل خلقاً كثيراً من ضعفاء العقول والأديان حتى ارتد كثير منهم أو أكثرهم عن الإسلام، وأنه لما قتله الأمراء الثلاثة: قيس بن مكشوح وفيروز الديلمي، وداذَوَيْه، وكان ما قدمنا ذكره، ولما بلغهم موتُ رسول اللّه ﷺ ازداد بعض أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك، أجارنا اللّه من ذلك، وطمع قيس بن مكشوح في الإمرة باليمن، فعمل لذلك، وارتدّ عن الإسلام وتابعه عوام أهل اليمن، وكتب الصدّيق إلى الأمراء والرؤساء، من أهل اليمن أن يكونوا عوناً إلى فيروز والأبناء على قيس بن مكشوح حتى تأتيهم جنوده سريعاً، وحرص قيس على قتل الأميرين الأخيرين، فلم يقدر إلا على داذَوَيْه، واحترز منه فيروز الديلمي، وذلك أنه عمل طعاماً وأرسل إلى داذويه أولاً، فلما جاءه عجل عليه، فقتله، ثم أرسل إلى فيروز ليحضر عنده فلما كان ببعض الطريق سمع امرأة تقول لأخرى: وهذا أيضاً واللّه مقتول كما قُتِل صاحبه، فرجع من الطريق وأخبر أصحابه بقتل داذويه، وخرج إلى أخواله خَوْلان فتحصّن عندهم وساعدته عقيل، وعكّ وخلق، وعمد قيس إلى ذراري فيروز وداذويه والأبناء فأجلاهم عن اليمن، وأرسل طائفة في البر، وطائفة في البحر فاحتدّ فيروز فخرج في خلق كثير، فتصادفَ هو وقيس فاقتتلوا قتالاً شديداً فهربوا قيساً وجندَه من العوام، وبقية جند الأسود العنسي، فهربوا في كل وجه وأُسِر قيس وعمرو بن معديكرب، وكان عمرو قد ارتدّ أيضاً، وتابع الأسود العنسي، وبعث بهما المهاجر بن أبي أمية إلى أبي بكر أسيرين، فعنّفهما وأنّبهما، فاعتذرا إليه فقبل منهما علانيتَهما، ووكل سرائرهما إلى اللّه عز وجل، وأطلق سراحهما وردّهما إلى قومهما، ورجعت عُمّال رسول اللّه ﷺ الذين كانوا باليمن إلى أماكنهم التي كانوا عليها في حياته عليه الصلاة والسلام بعد حروب طويلة، لو استقصينا إيرادها لطال ذكرها، وملخصها أنه ما من ناحية من جزيرة العرب إلا وحصل في أهلها ردة لبعض الناس، فبعث الصدّيق إليهم جيوشاً وأمراء يكونون عوناً لمن في تلك الناحية من المؤمنين فلا يتواجه المشركون والمؤمنون في موطن من تلك المواطن إلا غلب جيش الصدّيق لمن هنالك من المرتدين، وللّه الحمد والمنة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة، فيتقوّوْن بذلك على مَن هنالك، ويبعثون بأخماس ما يغنمون إلى الصدّيق فينفِقُه في الناس فيحصل لهم قوةٌ أيضاً ويستعدّون به على قتال مَن يريدون قتالَهم من الأعاجم والروم، على ما سيأتي تفصيله، ولم يزل الأمر كذلك حتى لم يَبْقَ بجزيرة العرب إلا أهل طاعة للّه ولرسوله، أو أهل ذمة من الصدّيق، كأهل نجران وما جرى مجراهم، وللّه الحمد.

وعامة ما وقع من هذه الحروب كان في أواخر سنة إحدى عشرة وأوائل سنة ثنتي عشرة، ولنذكر بعد إيراد هذه الحوادث مَن توفي في هذه السنة من الأعيان والمشاهير وباللّه المستعان، وفيها رجع معاذ بن جبل من اليمن، وفيها استقضى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما.

ذكر مَن توفي في هذه السنة

أعني سنة إحدى عشرة من الأعيان والمشاهير وذكَرْنا معهم مَن قُتل باليمامة؛ لأنها كانت في سنة إحدى عشرة على قول بعضهم، وإن كان المشهور أنها في ربيع سنة ثنتي عشرة.

توفي فيها رسول اللّه ﷺ

■ محمد بن عبد اللّه سيدُ ولد آدم في الدنيا والآخرة، وذلك في ربيعها الأول يوم الاثنين ثانيَ عشرة ـ على المشهور ـ كما قدمنا بيانه، وبعده بستة أشهر على الأشهر، توفيت ابنته فاطمة رضي اللّه عنها، وتكنّى بأم أبيها، وقد كان صلوات اللّه وسلامه عليه عَهِد إليها أنها أول أهلِهِ لحوقاً به، وقال لها مع ذلك: «أما ترْضَيْن أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟» وكانت أصغر بنات النبي ﷺ على المشهور ولم يبْقَ بعده سواها، فلهذا عظُم أجرها لأنها أُصيبت به عليه الصلاة والسلام ويقال: إنها كانت توأماً لعبد اللّه ابن رسول اللّه ﷺ وليس له عليه الصلاة والسلام نسلٌ إلا من جهتها، قاله الزبير بن بكار. وقد ورد أنه عليه الصلاة

والسلام ليلة زفاف علي على فاطمة توضأ وصبَّ عليه وعلى فاطمة ودعا لهما أن يبارك في نسلهما، وقد تزوجها ابن عمها علي بن أبي طالب بعد الهجرة، وذلك بعد بدر وقيل: بعد أُحد، وقيل: بعد تزويج رسول الله ﷺ عائشة بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد ذلك بسبعة أشهر ونصف، فأصدقها دِرْعه الحُطَمِيَّة وقيمته أربعمائة درهم، وكان عمرها إذ ذاك خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وكان علي أسن منها بست سنين. وقد وردت أحاديث موضوعة في تزويج علي بفاطمة لم نذكرها رغبة عنها، فولدت له حَسناً وحُسيناً ومُحسناً وأم كُلثوم، التي تزوج بها عمر بن الخطاب بعد ذلك.

وقد قال الإمام أحمد [١/١٠٦،١٠٧]: حدثنا عفان، حدثنا حماد أنا عطاء بن السائب عن أبيه عن علي أن رسول الله لما زوّجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة مِن أَدَم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرّتين، فقال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوتُ حتى لقد اشتكيتُ صدري، وقد جاء اللَّهُ أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله لقد طحنتُ حتى مَجِلَتْ يداي، فأتت النبي ﷺ فقال: «ما جاء بكَ أيْ بنيَّة؟» قالت: جئت لأسلِّم عليك - واستحيَتْ أن تسأله - ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتياه جميعاً فقال علي: يا رسول الله والله لقد سنوتُ حتى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: لقد طحنتُ حتى مَجِلَتْ يداي، وقد جاءك اللَّهُ بسبي وسَعَة فأخدمنا، فقال: «واللهِ لا أُعطيكُما وأدعُ أهل الصُّفَّة تطوَى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا فأتاهما رسول الله ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطّت رؤوسَهما تكشفت أقدامهما وإذا غطّيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثم قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى، قال: «كلمات علمنيهن جبريل تسبّحان الله في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين» قال: فوالله ما تركتُهن منذُ علمنّيهن رسول الله ﷺ، قال: فقال له ابن الكوّاء: ولا ليلة صِفّين؟ فقال: قاتَلكم الله يا أهل العراق، نعم ولا ليلة صفين، وآخر هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» [خ٣١١٣] [م(٢٧٢٧، ٢٧٢٨)] من غير هذا الوجه، فقد كانت فاطمة صابرة مع عليٍّ عَلى جهد العيش وضيقه، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، ولكنه أراد أن يتزوج في وقتٍ بدُرَّة بنت أبي جهل، فأنف رسول الله ﷺ من ذلك وخطب الناس فقال: «لا أحرِّم حلالاً ولا أحلُّ حراماً، وإن فاطمة بضعةٌ مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها، وإني أخشى أن تُفْتَن عَن دينها، ولكن إن أحب ابن أبي طالب أن يطلِّقها ويتزوج بنت أبي جهل فإنه والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبداً» [خ٥٢٣٠، م٢٤٤٩، ٢٠٦٩٥، ت٣٨٦٧، ق١٩٩٨]، قال: فترك عليٌّ الخِطبة، ولما مات رسول الله ﷺ سألَتْ مِن أبي بكر الميراث فأخبرها أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورّث ماتركنا فهو صدقة»، فسألت أن يكون زوجُها ناظراً على هذه الصدقة فأبى ذلك وقال: إني أعولُ مَن كان رسول الله يعول، وإني أخشى إن تركت شيئاً مما كان رسول الله ﷺ يفعله أن أضِل، والله لقرابةُ رسول الله ﷺ أحبَّ إليّ أن أصل مِن قرابتي، فكأنها وَجَدت في نفسها من ذلك، فلم تزل مُغضَبةً مدة حياتها، فلما مرضت جاءها الصدّيق فدخل عليها فجعل يترضّاها وقال: والله ما تركتُ الدارَ والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاةِ الله ومرضاةِ رسوله ومرضاتكم أهل البيت، فرضيت رضي الله عنهما.

رواه البيهقي [السنن الكبرى ٦/٣٠١] من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، ثم قال: وهذا مرسل حسن بإسناد صحيح.

ولما حضرتها الوفاة أوصت إلى أسماء بنت عميس - امرأة الصدّيق - أن تُغسِّلها فغسَّلتها هي وعلي بن أبي طالب وسَلْمى أم رافع [السنن الكبرى ٣/٣٩٦]، قيل: والعباس بن عبد المطلب، وما رُوي مِن أنها اغتسلت قبل وفاتها وأوصت أن لا تُغسَّل بعد ذلك فضعيف لا يعوَّل عليه والله أعلم.

وكان الذي صلّى عليها زوجُها عَليٌّ، وقيل: عمها العباس، وقيل: أبو بكر الصديق [طبقات ابن سعد٨/٢٩] فالله أعلم، ودُفنت ليلاً وذلك ليلة الثلاثاء لثلاث خلوْن من رمضان سنة إحدى عشرة وقيل: إنها توفيت بعده عليه الصلاة والسلام بشهرين، وقيل: بسبعين يوماً، وقيل: بخمسة وسبعين يوماً، وقيل: بثلاثة أشهر، وقيل: بثمانية أشهر.

والصحيح ما ثبت في «الصحيح» [خ٤٢٤٠] من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أن فاطمة عاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، ودُفنت ليلاً، ويقال: إنها لم تضحكْ في مدة بقائها بعده عليه الصلاة والسلام، وأنها كادت تذوب مِن حزنها عليه، وشوقها إليه، واختُلف في مقدار سنها يومئذ فقيل: سبع وقيل: ثمان وقيل: تسع وعشرون، وقيل: ثلاثون، وقيل: خمس وثلاثون سنة، وهذا بعيد وما قبله أقرب منه والله أعلم، ودفنت بالبقيع وهي أول من سُتِّر سريرها.

وقد ثبت في «الصحيح» [خ٤٢٤٠] أن علياً كان له وجه من الناس حياة فاطمة، فلما ماتت التمس مبايعة الصدّيق فبايعه كما هو مروي في «البخاري»، وهذه البيعة لإزالة ما كان وقَع مِن وحشة حصلت بسبب الميراث ولا ينفي ما ثبت مِن البيعة المتقدمة عليها كما قررنا] والله أعلم.

ومن توفي في هذه السنة

■ أم أيمن بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حُصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان [الاستيعاب ٤/١٧٩٣] مولاة رسول الله ﷺ وَرِثها مِن أبيه، وقيل: من أمه، وحضنته وهو صغير، وكذلك بعد ذلك وقد شربَت بولَه فقال لها: «لقد احتظرت بحظار من النار»]، وقد أعتقها وزوّجها عبيداً فولدت منه ابنها أيمن فعُرفت به، ثم تزوّجها زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، فولدت أسامة بن زيد، وقد هاجرت الهجْرتين إلى الحبشة والمدينة وكانت من الصالحات، وكان عليه الصلاة والسلام يزورها في بيتها ويقول: «هي أمّي بعد أمّي»]، وكذلك كان أبو بكر وعمر يزورانها في بيتها، كما تقدم] ذلك في الموالي وقد توفيت بعده عليه الصلاة والسلام بخمسة أشهر وقيل: بستة أشهر.

ومنهم:

■ ثابت بن أقرم بن ثعلبة ابن عدي بن العجلان البلوي [الاستيعاب ١/١٩٩] حليف الأنصار شهد بدراً وما بعدها، وكان ممن حضر مؤتة، فلما قُتل عبد الله بن رواحة دفعت الراية إليه فسلمها لخالد بن الوليد، وقال: أنت أعلم بالقتال مني، وقد تقدم] أن طليحة الأسدي قتلَه وقتل معه عكاشة بن محصن وذلك حين يقول طليحة:

عشية غادرتُ ابن أقرمَ ثاوياً ... وعكاشةَ الغنميّ تحت مجال

وذلك في سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ثنتي عشرة، وعن عروة أنه قُتل في حياة النبي ﷺ [الطبري الكبير ٢/٧٠(١٣٤٧)] وهذا غريب،

والصحيح الأول والله أعلم.

ومنهم:

■ ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي أبو محمد خطيب الأنصار ويقال له أيضاً: خطيب النبي ﷺ وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه بشرهُ بالجنة وأنه بشره بالشهادة - وقد تقدم الحديث في دلائل النبوة - فقُتل يوم اليمامة شهيداً، وكانت راية الأنصار يومئذ بيده.

وروى الترمذي بإسناد على شرط مسلم [ت(٣٧٩٥)] عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «نِعْم الرجل ثابت بن قيس بن شماس»، وقال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير ٦٢،٦١/٢(١٣٢٠)]: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عطاء الخراساني قال: قدمتُ المدينة فسألت عمن يحدّثني بحديث ثابت بن قيس بن شماس، فأرشدوني إلى ابنته، فسألتها فقالت: سمعتُ أبي يقول: لما أُنزل على رسول الله ﷺ [التفسير ٣٤٢،٣٤١/٦]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] اشتدّت على ثابت بن قيس وغلق عليه بابه، وطفِق يبكي فأُخبر رسول الله ﷺ فسأله فأخبره بما كُبُر عليه منها، وقال: أنا رجل أحبّ الجمال، وأنا أسودُ قومي، فقال: «إنك لست منهم، بل تعيشُ بخير وتموتُ بخير، ويُدخلك الله الجنة»، فلما أُنزل على رسول الله ﷺ [التفسير ٣٤٥/٧-٣٤٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] فعل مثل ذلك فأُخبر النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره بما كَبُرَ عليه منها، وأنه جهير الصوت، وأنه يتخوّف أن يكون ممن حبط عمله، فقال: «إنك لست منهم، بل تعيش حميداً وتُقتل شهيداً ويُدخلك اللهُ الجنة»، فلما استنفر أبو بكر المسلمين إلى أهل الردة واليمامة ومسيلمة الكذاب، سار ثابت فيمن سار، فلما لقوا مسيلمة وبني حنيفة هزموا المسلمين ثلاث مرات، فقال ثابت وسالم مولى أبي حنيفة: ما هكذا كنا نُقاتل مع رسول الله ﷺ فجعلا لأنفسهما حفرة فدخلا فيها فقاتلا حتى قُتلا، قالت: وأُرِيَ رجل من المسلمين ثابت بن قيس في منامه فقال: إني لما قُتِلتُ بالأمس مرّ بي رجل من المسلمين فانتزع مني درعاً نفيسة ومنزلُه في أقصى العسكر وعند منزله فرس يستنُّ في طِوَلِه، وقد أكفأ على الدرع برمة، وجعل فوق البرمة رَحْلاً، وائت خالد بن الوليد فليبعثْ إلى درعي فليأخذها، فإذا قدمتَ على خليفة رسول الله ﷺ فاعلمه أن عليّ مِنَ الدَّيْن كذا ولي من المال كذا وفلان من رقيقي عتيق، وإياك أن تقول: هذا حلم فتضيِّعه، قال: فأتى خالداً فوجّه إلى الدرع فوجدها كما ذكر، وقدم على أبي بكر فأخبره فأنفذ أبو بكر وصيته بعد موته فلا نعلم أحداً جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس، ولهذا الحديث وهذه القصة شواهد أخر، والحديث المتعلق بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، في «صحيح مسلم» عن أنس [م١١٩].

وقال حماد بن سلمة [المعجم الكبير ٥٦/٢(١٣٠٧)]: عن ثابت عن أنس أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوم اليمامة وقد تحنّط ونشر أكفانه وقال: اللّهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، فقُتِل وكانت له درع فسُرقت فرآه رجل فيما يرى النائم فقال: إن درعي في قدر تحت الكانون في مكان كذا وكذا وأوصاه بوصايا، فطلبوا الدرع فوجدوها وأنفذوا الوصايا، رواه الطبراني أيضاً.

ومنهم:

■ حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران المخزومي، [الاستيعاب ٤٠١/١] له هجرة ويقال: أسلم عام الفتح، وهو جد سعيد بن المسيب أراد رسول الله ﷺ أن يسميه سهلاً فامتنع وقال: لا أغير اسماً سمّانيه أبواي، قال سعيد: فلم تزل الحزونة فينا استشهد يوم اليمامة وقُتل معه أيضاً ابناه عبد الرحمن ووهب، وابن ابنه حكيم بن وهب بن حزن.

وممن استشهد في هذه السنة:

■ داذويه الفارسي [الاستيعاب ٤٦١/٢] أحد أمراء اليمن الذين قتلوا الأسود العنسي، قتله غيلةً قيس بن مكشوح حين ارتدّ قبل أن يرجع قيس إلى الإسلام فلما عنّفه الصدّيق على قتله أنكر ذلك فقبل علانيته وإسلامه.

ومنهم:

■ زيد بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو محمد، وهو أخو عمر بن الخطاب لأبيه، وكان زيد أكبر من عمر، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وما بعدها وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معن بن عدي الأنصاري وقد قُتلا جميعاً باليمامة، وقد كانت راية المهاجرين يومئذ بيده، فلم يزل يتقدم بها حتى قُتل فسقطت، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، وقد قتل زيدٌ يومئذ الرجّال بن عنفوة، واسمه نهار، وكان الرجّال هذا قد أسلم وقرأ «البقرة» ثم ارتد ورجع فصدّق مسيلمة وشهد له بالرسالة، فحصل به فتنة عظيمة، فكانت وفاته على يد زيد رضي الله عن زيد ثم قتل زيداً رجل يقال له: أبو مريم الحنفي، وقد أسلم بعد ذلك وقال لعمر: يا أمير المؤمنين إن الله أكرم زيداً بيدي ولم يُهني على يده، وقيل: إنما قتله سلمة بن صُبيح ابن عم أبي مريم هذا، ورجّحه أبو عمر وقال [الاستيعاب٥٥٢/٢]: لأن عمر استقضى أبا مريم، وهذا لا يدل على نفي ما تقدم والله أعلم.

وقد قال عمر لما بلغه مقتل زيد بن الخطاب: سبقني إلى الحُسنَيَيْن: أسلم قبلي، واستُشهد قبلي، وقال لمتمم بن نويرة حين جعل يرثي أخاه مالكاً بتلك الأبيات المتقدم ذكرُها: لو كنتُ أحسنُ الشعر لقلتُ كما قلتَ، فقال له متمم: لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه، فقال له عمر: ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيتني به، ومع هذا كان عمر يقول: ماهبّت الصبًا إلا ذكرتني زيد بن الخطاب، رضي الله عنه. وكان له من الولد عبد الرحمن، وأسماء تزوجها عبد الله بن عمر.

ومنهم:

■ سالم بن عبيد ويقال: ابن معقل مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وإنما كان مُعْتقاً لزوجته ثبيتة بنت يعار وقد تبنّاه أبو حذيفة وزوجه بابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة، فلما أنزل الله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] جاءت امرأة أبي حذيفة سهلة بنت سهيل بن عمرو فقالت: يا رسول الله إن سالماً يدخل عليَّ وأنا فُضُل، فأمرها أن تُرْضِعه فأرضعته فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وكان من سادات المسلمين، أسلم قديماً وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ، فكان يصلي بمن بها من المهاجرين، وفيهم عمر بن الخطاب لكثرة حفظه القرآن، وشهد بدراً وما بعدها وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة» [خ(٣٦٥٨)]، فذكر منهم سالماً مولى أبي حذيفة.

ورُوي عن عمر أنه قال لما احتضر: لو كان سالم حياً لما جعلتها شورى[الاستيعاب٥٦٨/٢]: قال أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب ٥٦٨/٢]: معناه أنه كان يصدُر عن رأيه فيمن يوليه الخلافة.

ولما أخذ الراية يوم اليمامة بعد مقتل زيد بن الخطاب قال له المهاجرون: أتخشى أن نُؤتى من قِبلك؟ فقال: بئس حاملُ القرآن أنا إذاً.

انقطعت يده اليمنى فأخذها بيساره، فقطعت فاحتضنها وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فلما صرع قال لأصحابه: ما فعل أبو حُذيفة؟ قالوا: قُتل، قال: فما فعل فلان؟ قالوا: قُتل، قال: فاضجعوني بينهما.

وقد بعث عمر بميراثه إلى مولاته التي اعتقته ثبيتة فردته وقالت: إنما أعتقته سائبةً، فجعله عمر في بيت المال [أسد الغابة ٣٠٨/٢].

ومنهم:

■ أبو دجانة سِماك بن خَرَشة ـ ويقال: سماك بن أوس بن خرشة ـ ابن لوذان بن عبد وَدّ بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي: شهد بدراً وأبلى يوم أُحد، وقاتل قتالاً شديداً وأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ سيفاً فأعطاه حقه وكان يتبختر عند الحرب، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن هذه لمشية يبغضها اللّه، إلا في هذا الموطن [الدلائل ٢٢٣/٣، ٢٢٤]» وكان يعصب رأسه بعصابة حمراء، شعاراً له بالشجاعة. وشهد اليمامة ويقال: إنه ممن اقتحم على بني حنيفة يومئذ الحديقة فانكسرت رجْله، فلم يزل يُقاتل حتى قُتل يومئذ.

وقد قتل مسيلمة مع وحشي بن حرب رماه وحشي بالحربة وعلاه أبو دجانة بالسيف، قال وحشي: فربُّكَ أعلم أينا قتَلَه. وقد قيل: إنه عاش حتى شهد صفّين مع عليٍّ، والأول أصح. وأما ما يُروى عنه من ذكر الحِرْز المنسوب إلى أبي دجانة فإسناده ضعيف ولا يلتفت إليه والله أعلم.

ومنهم:

■ شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي: حليف بني عبد شمس [الاستيعاب: ٧٠٧/٢]، أسلم قديماً وهاجر وشهد بدراً وما بعدها. وكان رسولَ رسول اللّه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني فلم يسلم، وأسلم حاجبه مِرى. واستشهد شُجاع بن وهب يوم اليمامة عن بضع وأربعين سنة، وكان رجلاً طوالاً نحيفاً أجنا.

ومنهم:

■ الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس الدوسي: أسلم قديماً قبل الهجرة وذهب إلى قومه فدعاهم إلى اللّه فهداهم اللّه على يديه، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة جاءه بتسعين أهل بيت من دَوْس مسلمين، وقد خرج عام اليمامة مع المسلمين ومعه ابنه عمرو، فرأى الطفيل في المنام كأن رأسه قد حُلق، وكأن امرأة أدخلته في فرجها، وكأن ابنه يجتهد أن يلحقه فلم يصل. فأوّلها بأنه سيُقتل ويدفن، وأن ابنه يحرص على الشهادة فلا ينالها عامه ذلك. وقد وقع الأمر كما أولها، ثم قُتل ابنه شهيداً يوم اليرموك كما سيأتي.

ومنهم:

■ عباد بن بشر بن وقش الأنصاري [الاستيعاب ٨٠١/٢] أسلم على يدي مصعب بن عمير قبل الهجرة قبل إسلام معاذ، وأسيد بن الحضير، وشهد بدراً وما بعدها. وكان ممن قتل كعب بن الأشرف، وكانت عصاه تُضيء له إذا خرج من عند رسول اللّه ﷺ في ظلمة. قال موسى بن عقبة عن الزهري: قُتل يوم اليمامة شهيداً عن خمس وأربعين سنة، وكان له بلاء وغَناء. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير عن عائشة [خ٢٦٥٥] قالت: تهجد ﷺ رسول اللّه فسمع صوت عباد فقال: «اللّهم اغفر له».

ومنهم:

■ السائب بن عثمان بن مظعون [الاستيعاب ٥٧٥/٢] بدري من الرماة، أصابه يوم اليمامة سهم فقتله وهو شاب، رحمه اللّه.

ومنهم:

■ السائب بن العوام [الاستيعاب ٥٧٢/٢] أخو الزبير بن العوام استشهد يومئذ رحمه اللّه.

ومنهم:

■ عبد اللّه بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ القرشي العامري [الاستيعاب ٩٢٥/٣]، أسلم قديماً وهاجر ثم استُضعف بمكة، فلما كان يوم بدر خرج معهم فلما تواجهوا فرَّ إلى المسلمين فشهدها معهم، وما بعدها وقتل يوم اليمامة فلما حج أبو بكر عزّى أباه فيه، فقال سهيل: بلغني أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن الشهيد يشفع لسبعين من أهله»، فأرجوا أن يبدأ بي.

ومنهم:

■ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي ابن سلول الأنصاري الخزرجي [الاستيعاب ٩٤٠/٣]، كان من سادات الصحابة وفُضلائهم، شهد بدراً وما بعدها وكان أبوه رأس المنافقين، وكان أشد الناس على أبيه، ولو أذن له رسول اللّه ﷺ فيه لضرب عنقه، وكان اسمه الحُباب فسماه رسول اللّه ﷺ عبد اللّه، وقد استشهد يوم اليمامة رضي اللّه عنه.

ومنهم:

■ عبد اللّه بن ابي بكر الصديق [الاستيعاب ٨٧٤/٣] أسلم قديماً، ويقال: إنه الذي كان يأتي بالطعام والشراب والأخبار إلى رسول اللّه ﷺ وإلى ابيه أبي بكر وهما بغار ثَوْر، ويبيت عندهما ويصبح بمكة كبائت، فلا يسمع بأمر يُكادان به إلا أخبرهما به. وقد شهد الطائف فرماه رجل يقال له: أبا محجن الثقفي بسهم فدُوِيَ منها فاندملت ولكن لم يزل منها ضَمِناً حتى مات في شوال سنة إحدى عشرة.

ومنهم:

■ عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي حليف بني عبد شمس، يكنى أبا محصن، وكان من سادات الصحابة وفضلائهم، هاجر وشهد بدراً وأبلى يومئذ بلاء حسناً وانكسر سيفه فأعطاه رسول اللّه ﷺ يومئذ عُرجوناً فعاد في يده سيفاً أبيض الحديد شديد المتن. وكان ذلك السيف يسمى العَوْن. وشهد أحداً والخندق وما بعدها.

ولما ذكر رسول اللّه ﷺ السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب قال عكاشة: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم فقال: «اللّهم اجعله منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». والحديث مروي من طرق تفيد القطع.

وقد خرج عكاشة مع خالد يوم إمرة الصدّيق بذي القصة فبعثه وثابت بن أقرم بين يديه طليعة، فتلقاهما طليحة الأسدي وأخوه سلمة فقتلاهما، وقد قُتل عكاشة قبل مقتله حِبال بن طليحة، ثم أسلم طليحة بعد ذلك كما ذكرنا، وكان عُمر عكاشة يومئذ أربعاً وأربعين سنة وكان من أجمل الناس رضي اللّه عنه.

ومنهم

■ معن بن عدي بن الجد بن عجلان بن ضبيعة البلوي [الاستيعاب ١٤٤١/٤]، حليف بني عمرو بن عوف. وهو أخو عاصم بن عدي شهد العقبة وبدراً وأُحداً والخندق وسائر المشاهد، وكان قد آخى رسول

الله ﷺ بينه وبين زيد بن الخطاب فقتلا جميعاً يوم اليمامة رضي الله عنهما.

وقال مالك [الاستيعاب ١٤٤١/٤] عن ابن شهاب عن سالم عن أبيه قال: بكى الناس على رسول الله ﷺ حين مات وقالوا: والله وَدِدنا أنا مُتنا قبله نخشى أن نفتتن بعده، فقال معن بن عدي: لكني والله ما أحب أن أموتَ قبلَه لأصدقه ميتاً كما صدقته حياً.

ومنهم

■ الوليد وأبو عبيدة ابنا عمارة بن الوليد بن المغيرة، قُتلا مع عمهما خالد بن الوليد بالبطاح وأبوهما عمارة بن الوليد هو صاحب عمرو بن العاص إلى النجاشي، وقصته مشهورة.

ومنهم:

■ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي العبشمي [الاستيعاب ١٦٣١/٤] أسلم قديماً قبل دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدراً وما بعدها، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عباد بن بشر وقد قُتلا شهيدين يوم اليمامة وكان عُمر أبي حذيفة يومئذ ثلاثاً أو أربعاً وخمسين سنة، وكان طويلاً حسن الوجه أحول أثْعَل، وهو الذي له سنٌ زائدة وكان اسمه هشيماً وقيل مهشم وقيل: هاشم.

وبالجملة فقد قتل من المسلمين يوم اليمامة أربعمائة وخمسون من حملة القرآن ومن الصحابة وغيرهم. وإنما أوردنا هؤلاء لشهرتهم وبالله المستعان.

قلت: وممن استشهد يومئذ من المهاجرين: مالك بن عمرو حليف بني غنم مهاجري بدري، ويزيد بن رقيش بن رئاب الأسدي بدري، والحكم بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي، وجبير بن مالك ابن بُحَينة أخو عبد الله بن مالك الأزدي، حليف بني المطلب بن عبد مناف. وعامر بن البكير الليثي حليف بني عدي بدري، ومالك بن ربيعة حليف بني عبد شمس، وأبو أمية صفوان بن أمية بن عمرو. ويزيد بن أوس حليف بني عبد الدار، وحيي ويقال: مُعلّى بن حارثة الثقفي. وحبيب بن أسيد بن جارية الثقفي، والوليد بن عبد شمس المخزومي، وعبد الله بن عمرو بن بُجرة العدوى، وأبو قيس بن الحارث بن قيس السهمي، وهو من مهاجرة الحبشة، وعبد الله بن الحارث بن قيس، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزي بن أبي قيس بن عبد وُدّ بن نصر العامري، من المهاجرين الأولين، شهد بدراً وما بعدها، وقتل يومئذ. وعمرو بن أويس بن سعد بن أبي سرح العامري، وسليط بن عمرو العامري، وربيعة بن أبي خرشة العامري، وعبد الله بن الحارث بن رحضة من بني عامر.

ومن الأنصار غير من ذكرنا تراجمهم:

■ عمارة بن حزم بن زيد بن لوذان النجّاري، وهو أخو عمرو بن حزم، كانت معه راية قومه يوم الفتح، وقد شهد بدراً وقُتل يومئذ. وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام السلمي، شهد العقبة الأولى وشهد بدرا وما بعدها. وثابت بن هزّال من بني سالم بن عوف بدري. في قول. وأبو عقيل عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة من بني جحجبيّ، شهد بدراً وما بعدها، فلما كان يوم اليمامة أصابه سهم فنزعه ثم تحزّم وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل، وقد أصابته جراحات كثيرة.

و■ عبد الله بن عتيك.

و■ رافع بن سهل.

و■ حاجب بن يزيد الأشهلي.

و■ سهل بن عدي.

و■ مالك بن أوس.

و■ عمير بن أوس.

و■ طلحة بن عتبة من بني جحجبيّ.

و■ رباح مولى الحارث.

و■ معن بن عدي.

و■ جزء بن مالك بن عامر من بني جحجبيّ.

و■ ودَقة بن إياس بن عمرو الخزرجي بدري.

و■ جرول بن العباس.

و■ عامر بن ثابت.

و■ بشر بن عبد الله الخزرجي.

و■ كُليب بن تميم.

و■ عبد الله بن عتبان.

و■ إياس بن ودَقة.

و■ أسيد بن يربوعز

و■ سعد بن حارثة.

و■ سهل بن حِمّان.

و■ محاشن بن حمير.

و■ سلمة بن مسعود، وقيل: مسعود بن سنان.

و■ ضمرة بن عياض.

و■ عبد الله بن أنيس، وأبو حبة بن غزية المازني.

و■ حبيب بن زيد.

و■ حبيب بن عمرو بن محصن.

و■ ثابت بن خالد.

و■ فروة بن النعمان.

و■ عائذ بن ماعص.

و■ يزيد بن ثابت بن الضحاك، أخو زيد بن ثابت.

قال خليفة بن خياط [تاريخ خليفة ٩٧/١]: فجميع مَن استشهد من المهاجرين والأنصار يوم اليمامة ثمانية وخمسون رجلاً، يعني وبقية الأربعمائة والخمسين من غيرهم والله أعلم.

وقد قُتل من الكفار فيما سقنا من المواطن التي التقى فيها المسلمون والمشركون في هذه وأوائل التي قبلها، ما ينيف على خمسين ألفاً ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

فمن مشاهيرهم:

■ الأسود العنسي لعنه الله واسمه عَبْهَلة بن كعب بن غوث، خرج أول مَخْرَجه من بلدة باليمن يقال لها: كهف خُبّان ومعه سبعمائة مقاتل، فما مضى شهر حتى ملك صنعاء ثم استوسقت له اليمن بحذافيرها في أقصر مدة. وكان معه شيطان يُمَخْرِق له ولكن خانه أحوَج ما كان إليه. ثم لم تمض له ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر حتى قتله الله على يدي إخوان صدق، وأمراء حق، كما قدمنا ذكره وهم داذَوَيه الفارسي، وفيروز الديلمي، وقيس بن مكشوح المرادي، وذلك في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، قبل وفاة رسول الله ﷺ بليال، وقيل: بليلة فالله أعلم، وقد أطلع الله رسولَه ليلة قتله على ذلك كما أسلفناه.

ومنهم:

■ مسيلمة بن حبيب الحنفي اليمامي الكذاب لعنه الله:

قدم المدينة وافداً إلى رسول الله ﷺ مع قومه بني حنيفة، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ فسمعه وهو يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، فقال له: «لو سألتني هذا العود - لعُرجون في يده - ما أعطيتُكَه، ولئن أدبرْتَ ليعقرنَّك الله، وإني لأراك الذي أريتُ فيه ما أريتُ»، وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام كأن في يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه في المنام أن انفخهما، فنفخهما فطارا، فأوّلهما بكذابين يخرجان، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة. وهكذا وقع، فإنهما ذهبا وذهب أمرهما. أما الأسود فذُبح في داره، وأما مسيلمة فعقره الله على يدي وحشي بن حرب رماه بالحربة فأنفذه كما تُعقر الإبل، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه وذلك بعُقر داره في الحديقة التي يقال لها: حديقة الموت. وقد وقف عليه خالد بن الوليد وهو طريح، أراه إياه من بين القتلى مُجاعة بن مُرارة، ويقال: كان أُصَيْفِر أخينس وقيل: كان ضخماً أسمر اللون كأنه جمل أورق، ويقال: إنه مات وعمره مائة وأربعون سنة فالله أعلم.

وقد قُتل قبله وزيراه ومستشاراه لعنهما الله، وهما مُحكَّم بن الطفيل الذي يقال له: محكّم اليمامة، قتله عبد الرحمن بن أبي بكر، رماه بسهم وهو يخطب قومه يأمرهم بمصالح حربهم فقتلَه، والآخر نهار بن عنفوة الذي يقال له: الرجّال بن عنفوة، وكان ممن أسلم ثم ارتد وصدّق مسيلمة لعنهما الله وشهد له أنه سمع النبي ﷺ يذكر له أنه قد أُشرك في الأمر معه وقد كذب الرجّال لعنه الله في هذه الشهادة، وقد رزق الله زيد بن الخطاب قَتله قبل أن يُقتل زيد رضي الله عنه، ومما يدل على كذب الرجّال في هذه الشهادة الضرورة في دين الإسلام، وما رواه البخاري وغيره أن مسيلمة، لعنه الله، كتب إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك: أما بعد فإني قد أُشركت معك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر، ويروَى: فلكم نصف الأرض ولنا نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على مَن اتبع الهدىٰ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها مَن يشاء مِن عباده والعاقبة للمتقين». وقد قدمنا ما كان يتعاطاه مسيلمة ويتعاناه لعنه الله مِن الكلام الذي هو أسخف من الهذيان، مما كان يزعم أنه وحي من الرحمن تعالى الله عما يقوله وأمثاله علواً كبيراً.

ولما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقلّ بالأمر من بعده واستخفّ قومه فأطاعوه وكان يقول:

خُذِي الدُّفَّ يا هذِهِ والعَبِي … وبُثِّي محاسِنَ هذَا النَّبِي
تَوَلَّى نَبِي بَنِي هَاشِمٍ … وقامَ نَبِيّ بَنِي يَعْرُبِ

فلم يمهله الله بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا قليلاً حتى سلّط الله عليه سيفاً من سيوفه، وحَتْفاً من حُتوفه فبعج بطنه، وفلق رأسه وعجّل الله بروحه إلى النار فبئس القرار، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] فمسيلمة والأسود وأمثالهما لعنهم الله أحق الناس دخولاً في الآية الكريمة، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة

سنة ثنتي عشرة من الهجرة النبوية

استهلت هذه السنة وجيوش الصدّيق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة جوّالون في البلاد يميناً وشمالاً، لتمهيد قواعد الإسلام وقتال الطغاة من الأنام، حتى رُدّ شارد الدين بعد ذهابه، وترجع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وقد قال جماعة من علماء السير والتواريخ: إن وقعة اليمامة كانت في ربيع الأول من هذه السنة، وقيل: إنها كانت في أواخر السنة التي قبلها، والجمع بين القولين أن ابتداءها كان في السنة الماضية، وانتهاءها وقع في هذه السنة الآتية، فعلى قول الأولين ينبغي أن تُنقل تراجم مَن ذكرنا أنه قُتل في اليمامة إلى هذه السنة، وعلى القول الآخر ينبغي أن يُذكروا في السنة الماضية كما ذكرناه لاحتمال أنهم قُتلوا في الماضية، ومبادرةً إلى استيفاء تراجمهم قبل أن يُذكروا مع مَن قتل بالشام والعراق في هذه السنة على ما سنذكر إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقد قيل: إن وقعة جُواثا وعُمان ومهرة وما كان من الوقائع التي أشرنا إليها إنما كانت في سنة ثنتي عشرة.

وفيها كان قتل الملوك الأربعة: جَمْدٌ ومِخْوَس وأبضعة ومشرحٌ، وأختهم العَمَرّدة الذين ورد الحديث في «مسند أحمد» بلعنهم. وكان الذي قتلهم زياد بن لبيد الأنصاري.

بعث خالد بن الوليد إلى العراق

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصدّيق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألّف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية فإن امتنعوا من ذلك كله قاتلهم في الله، وأمره أن لا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتدّ عن الإسلام وإن كان قد عاد إليه. وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين. وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمداداً لخالد رضي الله عنه.

قال الواقدي [تاريخ الطبري٣/٣٤٣]: اختلف في خالد، فقائل يقول: مَضى من وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق، وقائل يقول: رجع من اليمامة إلى المدينة ثم سار إلى العراق من المدينة فمر على طريق الكوفة حتى انتهى إلى الحيرة.

قلت: والمشهور الأول.

وقد ذكر المدائني بإسناده [تاريخ الطبري٣/٣٤٣] أن خالداً توجه إلى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة، فجعل طريقه البصرة، وفيها قُطبة بن قتادة، وعلى نواحي الكوفة المثنى بن حارثة الشيباني.

وقال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان [تاريخ الطبري٣/٣٤٣]: إن أبا بكر كتب إلى خالد أن يسير إلى العراق فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقريّات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما وألّيس، وصاحبها جابان، فصالحه أهلها.

قلت: وقد قتل منهم المسلمون قبل الصلح خلقاً كثيراً. وكان الصلح على ألف درهم، وقيل: دينار، في رجب، وكان الذي صالحه بُصبُهْرَى بن صلوبا، ويقال: صلوبا بن بُصبُهْرَى، فقبل منهم خالد وكتب لهم كتاباً، ثم أقبل حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي وكان أمّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فقال له قبيصة: مالنا بحربك من حاجة بل نُقيم على ديننا ونعطيكم الجزية. فقال لهم خالد: تباً لكم إن الكفر فلاةٌ مُضلة، فأحمق العرب من سلكها فلقيه منهم رجلان أحدهما عربي والآخر أعجمي فتركه واستدل بالعَجَمي، ثم صالحهم على تسعين ألفاً، وفي رواية: مائتي ألف درهم فكانت أول جزية أُخذت من العراق وحُملت إلى المدينة هي والقريَّات قبلها التي صالح عليها ابن صلوبا.

قلت: وقد كان مع نائب كسرى على الحيرة ممن وفد إلى خالد عبد المسيح بن عمرو بن حيّان بن بُقيلة، وكان من نَصارى العرب، فقال له خالد: من أين أثرك؟ قال: من ظهر أبي، قال: ومن أين خرجتَ؟ قال: من بطن أمي، قال: ويحك! على أي شيء أنت؟ قال: على الأرض، قال: ويحك وفي أي شيء أنت؟ قال: في ثيابي، قال: ويحك! تعقل؟ قال: نعم وأُقيدُ، قال: إنما أسألك قال: وأنا أجيبك، قال: أسِلْم أنت أم حَرب؟ قال: بل سِلم، قال: فما هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه، ثم دعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، فأجابوا إلى الجزية بتسعين أو مائتي ألف كما تقدم.

ثم بعث خالد بن الوليد كتاباً إلى أمراء كِسرى بالمدائن ومرازبته ووزرائه، كما قال هشام بن الكلبي [تاريخ الطبري٣/٣٤٦] عن أبي مخنف عن مجالد عن الشعبي قال: أقرأني بنو بُقيلة كتاب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن: من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد فالحمد لله الذي فض خَدَمَتَكم وسلب مُلككم ووَهَّن كيدكم، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا، أما بعد فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليَّ بالرُّهن واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة. فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون.

وقال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٣٤٨ـ٣٥٠] عن طليحة الأعلم عن المغيرة بن عُتيبة ـ وكان قاضي أهل الكوفة ـ قال: فرّق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو، ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ـ يعني في آخرهم ـ ودليله رافع فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به، ويصادموا عدوهم، وكان فرج الهندي ويسمى فرج الذهب أعظم فروج فارس بأساً وأشدها شوكة، وكان صاحبه يحارب في البر والهند في البحر وهو هرمز، فكتب إليه خالد فبعث هرمز بكتاب خالد إلى شيري بن كسرى، وأردشير بن شيري، وجمع هرمز، وهو نائب كسرى جموعاً كثيرة وسار بهم إلى كاظمة، وعلى مجنبتيه قباذ وأنو شجان ـ وهما من بيت الملك ـ وقد تفرق الجيش في السلاسل لئلا يفروا، ومنعتهم السلاسل من الهزيمة، وقتل منهم ثلاثون ألفاً سوى من غرق وبيت السلاسل إلى الصديق وكان هرمز هذا من أخبث الناس طوية وأشدهم كفرا، وكان شريفا في الفرس وكان الرجل كلما ازداد شرفا زاد في حليته، فكانت قلنسوة هرمز بمائة ألف، وقدم خالد بمن معه من الجيش وهم ثمانية عشر ألفا فنزل تجاههم على غير ماء فشكى أصحابه ذلك، فقال: جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين، فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم، بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء. فقوى المسلمون بذلك، وفرحوا فرحا شديدا، فلما تواجه الصفان وتقاتل الفريقان، ترجل هرمز ودعا إلى النزال، فترجل خالد وتقدم إلى هرمز، فاختلف ضربتين واحتضنه خالد، وجاءت حامية هرمز فما شغله عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز فأناموهم، وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل واستحوذ المسلمون خالد على أمتعتهم وسلاحهم فبلغ وقر ألف بعير، وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لكثرة من سلسل بها من فرسان فارس، وأفلت قباذ وأنوشجان، ولما رجع الطلب نادى منادي خالد بالرحيل فسار بالناس وتبعته الأثقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم، وبعث بالفتح والبشارة والخمس، مع رزين بن كليب، إلى الصديق، وبعث معه بفيل، فلما رآه نسوة أهل المدينة جعلن يقلن أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع؟ فرده الصديق مع رزين، وبعث أبو بكر لما بلغه الخبر إلى خالد، فنفله سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وكانت مرصعة بالجوهر وبعث خالد الامراء يمينا وشمالا يحاصرون حصونا هنالك ففتحوها عنوة وصلحا، وأخذوا منها أموالا جمة، ولم يكن خالد يتعرض للفلاحين ـ من لم يقاتل منهم ـ ولا أولادهم بل للمقاتلة من أهل فارس ثم كانت وقعة المذار في صفر من هذه السنة. ويقال لها: وقعة الثني، وهو النهر، قال ابن جرير ويومئذ قال الناس، صفر الأصفار، فيه يقتل كل جبار، على مجمع الأنهار. وكان سببها أن هرمزاً كان قد كتب إلى أردشير وشيري، بقدم خالد نحوه من اليمامة، فبعث إليه كسرى بمدد مع أمير يقال له: قارن بن قريانس، فلم يصل إلى هرمز حتى كان من أمره مع خالد ما تقدم وفر من فر من الفرس، فتلقاهم قارن، فالتفوا عليه فتذامروا واتفقوا على العود إلى خالد، فساروا إلى موضع يقال له: المذار، وعلى مجنبتي قارن قباذ وأنوشجان، فلما انتهى الخبر إلى خالد، قسم ما كان معه من أربعة أخماس غنيمة يوم ذات السلاسل وأرسل إلى الصديق بخبره مع الوليد بن عقبة، وسار خالد بمن معه من الجيوش حتى نزل على المذار، وهو على تعبئته، فاقتتلوا قتال حنق وحفيظة، وخرج قارن يدعو إلى البراز فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من الأمراء فقتل معقل بن الأعشى بن النباش قارناً، وقتل عدي بن حاتم قباذ، وقتل عاصم أنوشجان، وفرت الفرس وركبهم المسلمون في ظهورهم فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفا وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه، وأقام خالد بالمذار وسلم الأسلاب إلى من قتل، وكان قارن قد انتهى شرفه في أبناء فارس، وجمع بقية الغنيمة وخمسها، وبعث بالخمس والفتح والبشارة إلى الصديق، مع سعيد بن النعمان، أخي بني عدي بن كعب وأقام خالد هناك حتى قسم أربعة الأخماس وسبى ذراري من حصره من المقاتلة، دون الفلاحين فإنه أقرهم بالجزية وكان في هذا السبي حبيب أبو الحسن البصري وكان نصرانيا ومافنّة مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة، ثم أمر على الجند سعيد بن النعمان وعلى الجزية سويد بن مقرّن، وأمره أن ينزل الحفير ليجبي إليه الأموال وأقام خالد يتجسس الأخبار عن الأعداء ثم كان أمر الولجَة في صفر أيضا من هذه السنة، فيما

ذكره ابن جرير وذلك لأنه لما انتهى الخبر بما كان بالمذار من قبل قارن وأصحابه إلى أردشير وهو ملك الفرس يومئذ وبعث أميرا شجاعاً يقال له الأنْدَرْ زَغَرَ، وكان من أبناء السواد ولد بالمدائن ونشأ بها وأمده بجيش آخر مع أمير يقال له بهمن جاذَوَيْهِ، فساروا حتى بلغوا مكانا يقال له: الولجة، وهي مما يلي كسكر من ناحية البرّ فسمع بهم خالد فسار بمن معه من الجنود ووصى من استخلفه هناك بالحذر وقلة الغفلة، فنازل أندر زغر ومن ناشب معه، واجتمع عنده بالولجة، فاقتتلوا قتالا شديدا هو أشد مما قبله، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ، واستبطأ كمينه الذي كان قد أرصدهم وراءه في موضعين، فما كان إلا يسيرا حتى خرج الكمينان من هاهنا ومن هاهنا، ففرت صفوف الأعاجم فأخذهم خالد من أمامهم والكمينان من ورائهم، فلم يعرف رجل منهم مقتل صاحبه، وهرب الأندرزغر من الوقعة فمات عطشا، وقتل منهم سبعون ألفاً وقام خالد في الناس خطيبا فرغبهم في بلاد الأعاجم وزهدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون ما هاهنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه. ثم خمس الغنيمة، وقسم أربعة أخماسها بين الغانمين، وبعث الخمس إلى الصديق، وأسر من أسر من ذراري المقاتلة، وأقر الفلاحين بالجزية، وقال سيف بن عمر عن عمرو عن الشعبي، قال: بارز خالد يوم الولجة رجلا من الأعاجم يعدل بألف رجل فقتله، ثم اتكأ عليه وأتى بغدائه فأكله وهو متكئ عليه بين الصفين.

ثم كانت وقعة أليس في صفر أيضا وذلك أن خالداً كان قد قتل يوم الولجة طائفة من بكر بن وائل، من نصارى العرب ممن كان مع الفرس، فاجتمع عشائرهم وأشدهم حنقا عبد الأسود العجلي، وكان قد قتل له ابن بالأمس، فكاتبوا الأعاجم فأرسل إليهم أردشير جيشاً، فاجتمعوا بمكان يقال له: أُلَيس، فبينما هم قد نصبوا لهم سماطا فيه طعام يريدون أكله، إذ غافلهم خالد بجيشه، فلما رأوه أشار من أشار منهم بأكل الطعام وعدم الاعتناء بخالد، وقال أمير كسرى واسمه جابان بل ننهض إليه، فلم يسمعوا منه. فلما نزل خالد تقدم بين يدي جيشه ونادى بأعلى صوته يا شجعان من كان هنالك من الأعراب: أين فلان، أين فلان؟ فكلهم تلكؤوا عنه إلا رجلا يقال له مالك بن قيس، من بني جذرة، فإنه برز إليه، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة ما جرأك على من بينهم وليس فيك وفاء؟ فضربه فقتله. فنفرت الأعاجم عن الطعام وقاموا إلى السلاح فاقتتلوا قتالا شديدا جدا، والمشركون يرقبون قدوم بهمن مدداً من جهة الملك إليهم، فهم في قوة وشدة وكلب في القتال. وصبر المسلمون صبرا بليغا، وقال خالد: اللّهم لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا استبقي منهم أحدا اقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم. ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم فنادى منادي خالد: الأسر، الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً يساقون سوقا، وقد وكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة ويطلبهم في الغد، ومن بعد الغد وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه فتبر بيمينك، فأرسله فسال النهر دماً عبيطاً، فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم، فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط ما كفى العسكر بكماله ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا وقيل مائة وخمسين ألفاً، ولما هزم خالد الجيش ورجع من رجع من الناس، عدل خالد إلى الطعام الذي كانوا قد وضعوه ليأكلوه فقال للمسلمين: هذا نفل فانزلوا فكلوا، فنزل الناس فأكلوا عشاء. وقد جعل الأعاجم على طعامهم مرققا كثيرا فجعل من يراه من أهل البادية من الأعراب يقولون: ما هذه الرقع؟ يحسبونها ثيابا، فيقول لهم من يعرف ذلك من أهل الأرياف والمدن: أما سمعتم برقيق العيش؟ قالوا: بلى، قالوا: فهذا رقيق العيش، فسموه يومئذ رقاقا، وإنما كانت العرب تسميه العود، وقد قال سيف بن عمر عن عمرو بن محمد عن الشعبي عمن حدث عن خالد أن رسول الله ﷺ نفل الناس يوم خيبر الخبز والطبيخ والشواء وما أكلوا غير ذلك غير متأثليه، وكان جل من قتل بهذه الوقعة يوم أليس من بلدة يقال لها أمنيشيا، فعدل إليها خالد وأمر بخرابها واستولى على ما بها، فوجدوا بها مغنما عظيما، فقسم بين الغانمين فأصاب الفارس بعد النفل ألفا وخمسمائة غير ما تهيأ له مما قبله. وبعث خالد إلى الصديق بالبشارة والفتح والخمس من الأموال والسبي مع رجل يقال له جندل من بني عجل، وكان دليلا صارما، فلما بلغ الصديق الرسالة وأدى الأمانة، أثنى عليه وأجازه جارية من السبي، وقال الصديق: يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراذيله، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد. وقد صدق الصديق ﷺ ثم جرت أمور طويلة لخالد في أماكن متعددة يمل سماعها، وهو مع ذلك لا يكل ولا يمل ولا يهن ولا يحزن، بل كلما له في قوة وصرامة وشدة وشهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله عزاً للإسلام وأهله، وذلا للكفر وشتات شمله.

فصل

ثم سار خالد فنزل الخورنق والسدير وبالنجف وبث سراياه هاهنا وهاهنا، يحاصرون الحصون من الحيرة يستنزلون أهلها قسراً وقهراً، وصلحاً ويسراً، وكان في جملة ما نزل بالصلح قوم من نصارى العرب فيهم المتقدم ذكره، وكتب لأهل الحيرة كتاب أمان، وكان الذي راوده عليه عمرو بن عبد المسيح بن نقيلة ووجد خالد معه كيسا،فقال: ما في هذا؟ وفتحه خالد فوجد فيه سمّاً ـ فقال ابن بقيلة: هو سم ساعة، فقال: ولم استصحبته معك؟ فقال حتى إذا رأيت مكروها في قومي اكلته فالموت أحب إلي من ذلك، فأخذه خالد في يده وقال: إنه لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، ثم قال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء الذي ليس يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم، قال: وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه فبادرهم فابتلعه، فلما رأى ذلك ابن بقيلة قال: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم مادام منكم أحد، ثم التفت إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالا من هذا، ثم دعاهم وسألوا خالداً الصلح فصالحهم وكتب لهم كتابا بالصلح، وأخذ منهم أربعمائة ألف درهم عاجلة، ولم يكن صالحهم حتى سلموا كرامة بنت عبد المسيح إلى رجل من الصحابة يقال له شريك، وذلك أنه لما ذكر رسول الله ﷺ قصور الحيرة كان شرفها أنياب الكلاب فقال له: يا رسول الله هب لي ابنة بقيلة، فقال: هي لك، فلما فتحت ادعاها شريك وشهد له اثنان من الصحابة، فامتنعوا من تسليمها إليه وقالوا: ما تريد إلى امرأة ابنة ثمانين سنة؟ فقالت لقومها: ادفعوني إليه فإني سأفتدي منه، وإنه قد رآني وأنا شابة، فسلمت إليه فلما خلا بها قالت: ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة؟ وأنا أفتدي منك فاحكم بما أردت، فقال: والله لا أفديك بأقل من عشر مائة فاستكثرتها خديعة منها، ثم أتت قومها

فاحضروا له ألف درهم، ولامه الناس وقالوا: لو طلبت أكثر من مائة ألف لدفعوها إليك، فقال: وهل عدد أكثر من عشر مائة؟ وذهب إلى خالد وقال: إنما أردت أكثر العدد، فقال خالد: أردت أمرا وأراد الله غيره، وإنا نحكم بظاهر قولك، ونيتك عند الله، كاذبا أنت أم صادقا.

وقال سيف بن عمر عن عمرو بن محمد عن الشعبي: لما افتتح خالد الحيرة صلى ثماني ركعات بتسليمة واحدة، وقد قال عمرو بن القعقاع في هذه الأيام ومن قتل من المسلمين بها وأيام الردة:

سَقَى اللَّـهُ قَتْلَـى بـالفرات مقيمـةً ... وأخـرى بأثبـاجِ النَّجـافِ الكَوانِـفِ
وَنَحـنُ وطِئنـا بـالكواظِمِ هُرمُـزاً ... وبـالثِّني قَرْنَـي قـارِنٍ بـالجَوارِفِ
وَيَـومَ أحطْنـا بـالقصورِ تَتـابعَتْ ... على الحيرةِ الرَّوحاءِ إحدى المَصارِفِ
حَططناهُم مِنهـا وقَـد كـان عَرشُـهُم ... يَميـلُ بهـم فِعْـلَ الجَبانِ المُخـالِفِ
رَمينـا عَليهـم بـالقَبولِ وقَـد رَأوا ... غَبـوقَ المَنايـا حَـولَ تِلكَ المَحارِفِ
صَبيحةَ قـالوا نَحْـنُ قَـومٌ تَـنزَّلوا ... إلى الرِيفِ مِنْ أرضِ العُرَيْبِ المَقانِفِ

وقد قدِم جرير بن عبد الله البجلي على خالد بن الوليد وهو بالحيرة بعد الوقعات المتعددة، والغنائم المتقدم ذكرها، ولم يحضر شيئاً منها، وذلك لأنه كان قد بعثه الصدّيق مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام فاستأذن خالد بن سعيد في الرجوع إلى الصدّيق ليجمع له قومه مِن بجيلة فيكونوا معه، فلما قدِم على الصدّيق فسأله ذلك غضب الصديق وقال: أتيتني لتشغلَني عما هو أرضى للّه مِن الذي تدعوني إليه، ثم سيره الصدّيق إلى خالد بن الوليد بالعراق [تاريخ الطبري٣/٣٦٥].

قال سيف بأسانيده [تاريخ الطبري ٣/٣٦٧،٣٦٨]: ثم جاء ابن صلوبا فصالح خالداً على بانقيا وباروسما وما حول ذلك على عشرةآلاف دينار، وجاءه دهاقين تلك البلاد فصالَحوه على بُلدانهم وأهاليهم كما صالح أهل الحيرة على الحيرة، واتفق في تلك الأيام التي كان خالد قد تمكن بأطراف العراق واستحوذ على الحيرة وتلك البلدان وأوقع بأهل ألّيس والثني وما بعدها بفارس ومن تأشّب معهم ما أوقع مِن القتل الفظيع في فرسانهم - أن عدَت فارس على ملِكِهم الأكبر أردشير وابنه شيرى فقتلوهما وقتلوا كل مَن يتسب إليهما، وبقيت الفرس حائرين لمن يولونه أمرهم، واختلفوا فيما بينهم، غير أنهم قد جهزوا جيوشاً تكون حائلة بين خالد وبين المدائن التي فيها إيوان كسرى وسرير مملكته، فحينئذ كتب خالد إلى مَن هنالك مِن المرازبة والأمراء والوزراء والدولة، يدعوهم إلى الله وإلى الدخول إلى دين الإسلام ليثْبت ملكهم عليهم، وإلا فليدفعوا الجزية وإلا فليعلموا وليستعدوا لقدومه عليهم بقوم يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، فجعلوا يعجبون مِن جُرأة خالد وشجاعته، ويسخرون من ذلك لحماقتهم ورُعونتهم في أنفسهم، وقد أقام خالد هنالك بعد صلح الحيرة سنة يتردد في بلاد فارس ههنا وههنا، ويوقع بأهلها مِن البأس الشديد، والسطوة الباهرة، ما يبهر الأبصار لمن شاهد ذلك، ويشنّف أسماع مَن بلغه ذلك ويحيرّ العقول لمن تدبّره.

فتح خالد للأنبار، وتسمى هذه الغزوة ذات العيون

ركب خالد في جيوشه فسار حتى انتهى إلى الأنبار وعليها رجل من أعقل الفرس وأسودهم في أنفسهم، يقال له: شيرزاذ، فأحاط بها خالد وعليها خَندق وحوله أعراب مِن قومهم على دينهم، واجتمع معهم أهل أرضهم، فمانعوا خالداً أن يصل إلى الخندق فضرب معهم رأساً، ولما تواجه الفريقان أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين، فتصايح الناس: ذهبت عيون أهل الأنبار، فسميت هذه الغزوة ذات العيون، فراسل شيرزاذ خالداً في الصلح، فاشترط خالد أموراً امتنع شيرزاذ مِن قبولها فتقدم خالد إلى الخندق فاستدعى برَذِيِّ الأموال من الإبل فذبحها حتى ردم الخندق بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فلما رأى شيرزاذ ذلك أجاب إلى الصلح على الشروط التي اشترطها خالد، وسأله أن يرده إلى مأمنه فوفّى له خالد بذلك، وخرج شيرزاذ من الأنبار وتسلمها خالد، فنزلها واطمأن بها، وتعلم الصحابة ممن بها مِن العرب الكتابة العربية، وكان أولئك العرب قد تعلموها مِن عرب قبلهم وهم بنو إياد، كانوا بها من زمان بُختُ نَصّرَ حين أباح العراق للعرب، وأنشدوا خالداً قول بعض إياد يمتدح قومه:

قَوْمـي إيـادٌ لَـوْ أنَّهُـمْ أَمَـمٌ ... أو لَـو أقـاموا فتُهْـزَلَ النِعَـمُ
قَـومٌ لَهُـمْ باحَـةُ العِـراقِ إذا ... سَـارُوا جَميعـاً واللَّـوحُ والقَلَـمُ

ثم صالح خالد أهل البوازيج وكلواذَى، قال: ثم نقض أهل الأنبار ومَن حولهم عهدهم لما اضطربت بعض الأحوال، ولم يبق على عهده سوى البوازيج وبانقيا.

قال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٣٧٥] عن عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال: ليس لأحد مِن أهل السواد عقد قبل الوقعة، إلا بني صلوبا وهم أهل الحيرة وكَلْواذَي وقرى مِن قرى الفرات، حتى غدروا حتى دعوا إلى الذمة بعدما غدروا.

وقال سيف [تاريخ الطبري٣/٣٧٥] عن محمد بن قيس: قلت للشعبي: أُخذ السواد عنوة؟ قال: نعم، وكل أرض إلا بعض القلاع والحصون قال: بعض صالح وبعض غالب. قلت: فهل لأهل السواد ذمة اعتقدوها قبل الهرب؟ قال: لا، ولكنهم لما دُعوا ورضوا بالخراج وأُخذ منهم صاروا ذمة.

وقعة عين التمر

لما استقل خالد بالأنبار استناب عليها الزبرقان بن بدر، وقصد عين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وحولهم مِن الأعراب طوائف من النمر وتغلب وإياد ومَن لاقاهم وعليهم عَقّة بن أبي عَقّة، فلما دنا خالد قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً، فقال له: دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا أعنّاكم، فلامت العجم أميرهم على هذا، فقال: دعوهم فإن غلبوا خالداً فهو لكم، وإن غلبوا قاتلنا خالداً وقد ضعفوا ونحن أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم، وسار خالد وتلقاه عقة فلما تواجهوا قال خالد لمجنبتيه: احفظوا مكانكم فإني حامل، وأمر حُماته أن يكونوا من ورائه، وحمل على عقة وهو يُسوي الصفوف فاحتضنه وأسره وانهزم جيش عقة من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه، نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فُلّال نصارى الأعراب إلى الحصن فوجدوه مفتوحاً فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد فأحاط بهم، وحاصرهم أشد الحصار، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه، فنزلوا على حكم خالد فجعلوا في السلاسل

وتسلم الحصن ثم أمر فضربت عنق عقة ومن كان أسر معه والذين نزلوا على حكمه أيضاً أجمعين، وغنم جميع ما في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي به أربعين غلاما يتعلمون الأنجيل وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرقهم في الأمراء وأهل الغناء، وكان حمران صار إلى عثمان بن عفان من الخمس، ومنهم سيرين والد محمد بن سيرين أخذه أنس بن مالك. وجماعة آخرون من الموالي المشاهير أرادبهم وبذراريهم خيرا.

ولما قدم الوليد بن عقبة على الصدّيق بالخمس رده الصدّيق إلى عياض بن غنم مدداً له وهو محاصر دومة الجندل فلما قدم عليه وجده في ناحية من العراق يحاصر قوماً، وهم قد أخذوا عليه الطرق فهو محصور أيضاً، فقال عياض للوليد: إن بعض الرأي خير من جيش كثيف، ماذا ترى فيما نحن فيه؟ فقال له الوليد: اكتب إلى خالد يمدك بجيش من عنده، فكتب إليه يستمده، فقدم كتابه على خالد غِبَّ وقعة عين التمر وهو يستغيث به، فكتب إليه: من خالد بن الوليد إلى عياض، إياك أريد:

لَبِّثْ قَلِيلاً تَأتِكَ الحَلائِبُ ... يَحْمِلْنَ آساداًعلَيها القَاشِبُ

كَتَائِبٌ تَتْبَعُهَا كَتَائِبُ

خبر دومة الجندل

لما فرغ خالد من عين التمر قصد إلى دومة الجندل، واستخلف على عين التمر عويمر بن الكاهن الأسلمي، فلما سمع أهل دومة الجندل بمسيره إليهم، بعثوا إلى أحزابهم مِن بهراء وتنوخ وكلب وغسان والضجاعم، فأقبلوا إليهم وعلى غسان وتنوخ ابن الأيهم، وعلى الضجاعم بن الحِدْرِجان، وجماع الناس بدومة إلى رجلين أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة، فاختلفا فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمنُ طائر منه في حرب ولا أحدُ منه ولا يرى وجه خالد قوم أبداً، قلوا أم كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد وفارقهم، فبعث إليه خالد عاصم بن عمرو فعارضه فأخذه، فلما أتى به خالداً أمر فضربت عنقه وأخذ ما كان معه، ثم تواجه خالد وأهل دومة الجندل وعليهم الجودي بن ربيعة وكل قبيلة مع أميرها من الأعراب، وجعل خالد دومة بينه وبين جيش عياض بن غنم، وافترق جيش الأعراب فرقتين: فرقة نحو خالد، وفرقة نحو عياض، وحمل خالد على مَن قِبَله، وحمل عياض على أولئك، فأسر خالد الجودي، وأسر الأقرع بن حابس وديعة، وفرت الأعراب إلى الحصن فملؤوه وبقي منهم خلق ضاق عنهم، فعطفت بنو تميم على مَن هو خارج الحصن فأعطوهم ميرة فنجا بعضهم، وجاء خالد فضرب أعناق مَن وجده خارج الحصن، وأمر بضرب عنق الجودي ومَن كان معه من الأسارى، إلا أسارى بني كلب؛ فأن عاصم بن عمرو والأقرع بن حابس وبني تميم أجاروهم، فقال لهم خالد: ما لي ولكم؟ أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الأسلام؟ فقال له عاصم بن عمرو: أتحسدونهم العافية، وتحوزونهم إلى الشيطان، ثم أطاف خالد بالباب فلم يزُل عنه حتى اقتلعه، واقتحموا الحصن فقتلوا مَن فيه مِن المقاتلة، وسبوا الذراري فتبايعوهم بينهم فيمن يزيد، واشترى خالد يومئذ ابنة الجودي، وكانت موصوفة بالجمال، وأقام بدومة الجندل وردّ الأقرع إلى الأنبار، ثم رجع خالد إلى الحيرة، فتلقاه أهلها من أهل الأرض بالتقليس، فسمع رجلاً منهم يقول لصاحبه: مر بنا فهذا يوم فرح الشر.

خبر وقعتي الحصيد والمصيّخ

قال سيف [تاريخ الطبري٣/٣٧٩ـ٣٨١] عن محمد وطلحة والمهلب قالوا: وقد وكان خالد أقام بدومة الجندل فظن الأعاجم به وكاتبوا عرب الجزيرة فاجتمعوا لحربه، وقصدوا الأنبار يريدون انتزاعها من الزبرقان، وهو نائب خالد عليها، فلما بلغ ذلك الزبرقان كتب إلى القعقاع بن عمرو نائب خالد على الحيرة، فبعث القعقاع أعبدّ بن فدَكي السعدي وأمره بالحصيد وبعث عروة بن أبي الجعد البارقي وأمره بالخنافس، ورجع خالد من دومة إلى الحيرة وهو عازم على مصادمة أهل المدائن محلة كسرى، لكنه يكره أن يفعل ذلك بغير إذن أبي بكر الصديق، وشغله ما قد اجتمع من جيوش الأعاجم مع نصارى الأعراب يريدون حربه، فبعث القعقاع بن عمرو أميراً على الناس، فالتقوا بمكان يقال له: الحصيد، وعلى العجم رجل منهم يقال له: روزبه، وأمده أمير آخر يقال له: زرمهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهزم المشركون فقتل منهم المسلمون خلقا كثيراً، وقتل القعقاع بيده زرمهر، وقتل رجل يقال له: عصمة بن عبد اللّه الضبي روزبه. وغنم المسلمون شيئا كثيراً، وهرب من هرب من العجم، فلجأوا إلى مكان يقال له: خنافس، فسار إليهم أبو ليلى بن فدكي السعدي، فلما أحسوا بذلك ساروا إلى المضيح، فلما استقروا بها بمن معهم من الأعاجم والأعارب قصدهم خالد بن الوليد بمن معه من الجنود، وقسم الجيش ثلاث فرق، وأغار عليهم ليلاً وهم نائمون فأنامهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير فما شبهوا إلا بغنم مصرعة.

وقد روى ابن جرير[تاريخ الطبري٣/٣٨٢] عن عدي بن حاتم قال: انتهينا في هذه الغارة إلى رجل يقال له: حرقوص بن النعمان النمري، وحوله بنوه وبناته وامرأته، وقد وضع لهم جفنة من خمر وهم يقولون: أحد يشرب هذه الساعة وهذه جيوش خالد قد أقبلت؟ فقال لهم: اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، فشربوا وجعل يقول:

ألا فاسقياني قَبلَ ثائِرةِ الفَجرِ ... لَعلَّ مَنايانا قَريبٌ ولا نَدري

القصيدة إلى آخرها، قال: فهجم الناس عليه فضرب رجل رأسه فاذا هو في جفنته، وأخذت بنوه وبناته وامرأته.

وقد قتل في هذه المعركة رجلان كانا قد أسلما ومعهما كتاب من الصديق بالأمان ولم يعلم بذلك المسلمون، وهما عبد العزي بن أبي رُهْم بن قرواش، قتله جرير بن عبد اللّه البجلي، والآخر لبيد بن جرير، قتله بعض المسلمين، فلما بلغ خبرهما الصديق وداهما، وبعث بالوصاة بأولادهما، وتكلم عمر بن الخطاب في خالد بسببهما، كما تكلم فيه بسبب مالك بن نويرة، فقال له الصديق: كذلك يلقى من يساكن أهل الحرب في ديارهم، أي الذنب لهما في مجاورتهما المشركين، وهذا كما في الحديث «أنا بريء من كل من ساكن المشرك في داره» [د٢٦٤٥][ت١٦٠٤][س٤٧٩٤] وفي الحديث الأخر «لا تتراءى ناراهما» أي لا يجتمع المسلمون والمشركون في محلة واحدة، ثم كانت وقعة الثنى والزُّميل [تاريخ الطبري٣/٣٨٢،٣٨٣] وقد بيتوهم فقتلوا من كان هنالك من الأعراب والأعاجم فلم يفلت منهم أحد ولا انبعث بخبر، ثم بعث خالد بالخمس من الأموال والسبي إلى الصديق، وقد اشترى علي بن أبي طالب من هذا السبي جارية من العرب وهي ابنة ربيعة بن بجير التغلبي، فاستولدها عمر ورقية رضي اللّه عنهم أجمعين.

وقعة الفِراض

ثم سار خالد بمن معه من المسلمين إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، فأقام هنالك شهر رمضان مفطراً لشغله بالأعداء، ولما بلغ الروم أمر خالد ومصيره إلى قرب بلادهم، حموا وغضبوا وجمعوا جموعاً كثيرة، واستمدوا تغلب وإياد والنمر، ثم ناهدوا خالداً فحالت الفرات بينهم فقالت الروم لخالد: اعبر إلينا، وقال خالد للروم: بل اعبروا أنتم، فعبرت الروم إليهم، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة ثنتي عشرة، فاقتتلوا هنالك قتالاً عظيماً بليغاً، ثم هزم الله جموع الروم وتمكن المسلمون من اقتفائهم فقتل في هذه المعركة مائة ألف، وأقام خالد بعد ذلك بالفراض عشرة أيام ثم أذن بالقفول إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير في المقدمة وأمر شجرة بن الأعزّ أن يسير في الساقة، وأظهر خالد أنه يسير في الساقة، وسار خالد في عدة من أصحابه وقصد شطر المسجد الحرام، وسار إلى مكة في طريق لم تسلك قبله قط، ويأتي له في ذلك أمر لم يقع لغيره، فجعل يسير معتسفاً على غير جادة، حتى انتهى إلى مكة فأدرك الحج هذه السنة، ثم عاد فأدرك آخر الساقة قبل أن يصلوا إلى الحيرة، ولم يعلم أحد بحج خالد هذه السنة إلا القليل من الناس ممن كان معه، ولم يعلم أبو بكر الصديق بذلك أيضاً إلا بعدما رجع أهل الحج من الموسم، فبعث يعتب عليه في مفارقته الجيش وكانت عقوبته عنده أن صرفه من غزو العراق إلى غزو الشام، وقال له فيما كتب إليه: يقول له: وإن الجموع لم تشجوا بعون الله شجيك، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء [تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٣].

فصل فيما كان من الحوادث في هذه السنة

فيها أمر الصديق زيد بن ثابت أن يجمع القرآن من اللخاف والعسب وصدور الرجال، وذلك بعدما استحر القتل في القراء يوم اليمامة كما ثبت به الحديث في «صحيح البخاري»[٤٩٨٦]، وفيها تزوج علي بن أبي طالب بأمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس الأموي، وقد توفي أبوها في هذا العام، وهذه هي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة فيضعها إذا سجد ويرفعها إذا قام.

وفيها تزوج عمر بن الخطاب عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وهي ابنة عمه، وكان لها محباً وبها معجباً، وكان لا يمنعها من الخروج إلى الصلاة ويكره خروجها، فجلس لها ذات ليلة في الطريق في ظلمة فلما مرت ضرب بيده على عجزها، فرجعت إلى منزلها ولم تخرج بعد ذلك، وقد كانت قبله تحت أخيه زيد بن الخطاب، فيما قيل، فقتل عنها، وكانت قبل زيد تحت عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها، ولما مات عمر تزوجها بعده الزبير، فلما قتل خطبها علي بن أبي طالب فقالت: إني أرغب بك عن الموت، وامتنعت من التزوج حتى ماتت وفيها اشترى عمر مولاه أسلم ثم صار منه أن كان أحد سادات التابعين، وابنه زيد بن أسلم أحد الثقات الرفعاء.

وفيها حج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. رواه ابن إسحاق [تاريخ الطبري ٣/٣٨٦] عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة عن رجل من بني سهم، عن أبي ماجدة، قال: حج بنا أبو بكر في خلافته سنة ثنتي عشرة، فذكر حديثاً في القصاص من قطع الأذن، وأن عمر حكم في ذلك بأمر الصديق.

قال ابن إسحاق [تاريخ الطبري ٣/٣٨٦]: وقال بعض الناس لم يحج أبو بكر في خلافته، وأنه بعث على الموسم سنة ثنتي عشرة عمر بن الخطاب، أو عبد الرحمن بن عوف.

فصل فيمن توفي في هذه السنة

قد قيل إن وقعة اليمامة وما بعدها كانت في سنة ثنتي عشرة، فليذكر هاهنا من تقدم ذكره في سنة إحدى عشرة من قتل باليمامة وما بعدها، ولكن المشهور ما ذكرناه.

وممن توفي في هذه السنة:

■ **بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي** [الاستيعاب ١/١٧٣] والد النعمان بن بشير، شهد العقبة الثانية، وبدراً وما بعدها، ويقال: إنه أول من أسلم من الأنصار، وهو أول من بايع الصديق يوم السقيفة من الأنصار، وشهد مع خالد حروبه إلى أن قتل بعين التمر رضي الله عنه. روى له النسائي حديث النحل [س٣٦٧٤ـ٣٦٨٥، ٣٦٨٧، ٣٦٨٨].

و■ **الصعب بن جثامة الليثي** أخو محلم بن جثامة [الاستيعاب: ٢/٧٣٩] له عن رسول الله ﷺ أحاديث، قال أبو حاتم: [الجرح والتعديل ٤/٤٥٠] هاجر وكان ينزل ودان ومات في خلافة الصديق.

■ **أبو مرثد الغنوي** واسمه كناز بن الحصين [الاستيعاب ٤/١٧٥٤] ويقال: ابن حصين بن يربوع بن عمرو بن يربوع بن خرشة بن سعد بن طريف بن جلان بن غنم بن غنى بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار أبو مرثد الغنوي، شهد هو وابنه مرثد بدراً، ولم يشهدها رجل هو وابنه سواهما، واستشهد ابنه مرثد يوم الرجيع كما تقدم، وابن ابنه أنيس بن مرثد بن أبي مرثد له صحبة أيضاً، شهد الفتح وحنيناً وكان عين رسول الله ﷺ يوم أوطاس فهم ثلاثة نسقاً، وقد كان أبو مرثد حليفاً للعباس بن عبد المطلب، ويروى له عن النبي ﷺ حديث واحد انه قال: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا إليها» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق واثلة بن الأسقع عنه [م٩٧٢(٩٧، ٩٨)] [د٣٢٢٩] [ت١٠٥٠/١٠٥١] [س٧٥٩]، قال الواقدي: توفي سنة ثنتي عشرة، زاد غيره بالشام، وزاد غيره عن ست وستين سنة، وكان رجلاً طويلاً كثير الشعر.

قلت: وفي قبلي دمشق قبر يعرف بقبر كثير وكأنه من تصحيف بعض العامة، والذي قرأته على قبره هذا قبر كناز بن الحصين صاحب رسول الله ﷺ، ورأيت على ذلك المكان روحاً وجلالة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر لم يذكره في «تاريخ الشام» فالله أعلم.

وممن توفي في هذه السنة:

■ **أبو العاص بن الربيع** بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي [الاستيعاب ٤/١٧٠١] زوج أكبر بنات رسول الله ﷺ زينب، وكان محسناً إليها ومحباً لها، ولما أمره المشركون بطلاقها حين بعث رسول الله ﷺ أبى عليهم ذلك، وكان ابن أخت خديجة بنت خويلد واسم أمه هالة، ويقال: هند بنت خويلد واختلف في

اسمه فقيل: لقيط، وهو الأشهر، وقيل: مهشم وقيل: هشيم، وقد شهد بدرا من ناحية الكفار فأسر، فجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفاديه، وأحضر معه في الفداء قلادة كانت خديجة أخرجتها مع ابنتها زينب حين تزوج أبو العاص بها، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وأطلقه بسببها، واشترط عليه أن يبعث له زينب إلى المدينة فوفى له بذلك، واستمر أبو العاص على كفره بمكة إلى قبيل الفتح بقليل، فخرج في تجارة لقريش فاعترضه زيد بن حارثة في سرية فقتلوا جماعة من أصحابه وغنموا العير، وفر أبو العاص هارباً إلى المدينة فاستجار بامرأته زينب فأجارته، فأجاز رسول الله جوارها، ورد عليه ما كان معه من أموال قريش، فرجع بها أبو العاص إليهم، ورد كل مال إلى صاحبه، ثم تشهد شهادة الحق وهاجر إلى المدينة، ورد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الاول وكان بين فراقها له وبين اجتماعها ست سنين وذلك بعد ستين من وقت تحريم المسلمات على المشركين في عمرة الحديبية، وقيل: إنما ردها عليه بنكاح جديد فالله أعلم، وقد ولد له من زينب علي بن أبي العاص وأمامة بنت أبي العاص، وخرج مع علي إلى اليمن حين بعثه إليها رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يثني عليه خيرا في صهارته، ويقول: حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي [خ٣١١٠م٢٤٤٩(٩٥)]، وقد توفي في أيام الصديق سنة ثنتي عشرة. وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب بابنته أمامة بنت أبي العاص، بعد وفاة خالتها فاطمة، وما أدري هل كان ذلك قبل وفاة أبيها أبي العاص أو بعده فالله أعلم.

سنة ثلاث عشرة من الهجرة

استهلت هذه السنة والصديق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام، وذلك بعد مرجعه من الحج وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وبقوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩]. واقتداء برسول الله ﷺ فإنه جمع المسلمين لغزو الشام ـ وذلك عام تبوك ـ حتى وصلها في حر شديد وجهد، فرجع عامه ذلك، ثم بعث قبل مؤته أسامة بن زيد مولاه ليغزو تخوم الشام كما تقدم[ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب بسط يمينه إلى العراق، فبعث إليها خالد بن الوليد ثم اراد ان يبعث إلى الشام كما بعث إلى العراق، فشرع في جمع الأمراء في أماكن متفرقة من جزيرة العرب. وكان قد استعمل عمرو بن العاص على صدقات قضاعة ومعه الوليد بن عقبة فيهم، فكتب إليه يستنفره إلى الشام: إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ. مرة، وسماه لك أخرى، وقد أحببت أبا عبد الله ان افرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا ان يكون الذي أنت فيه أحب إليك فكتب إليه عمرو بن العاص: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها فارم بي فيها. وكتب إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك ورد عليه مثله، وأقبلا ـ بعد ما استخلفا في عملهما ـ إلى المدينة.

وقدم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن فدخل المدينة وعليه جبة ديباج، فلما رآها عمر عليه أمر من هناك من الناس بتمزيقها عنه، فغضب خالد بن سعيد وقال لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن! أغلبتم يابني عبد مناف عن الإمرة؟ فقال له علي: أمغالبة تراها أو خلافة؟ فقال لا يخالف على هذا الأمر أولى منكم فقال له عمر بن الخطاب: اسكت فض الله فاك، والله لا تزال كاذبا تخوض فيما قلت ثم لا تضر إلا نفسك. وأبلغها عمر أبا بكر فلم يتأثر لها أبو بكر. ولما اجتمع عند الصديق من الجيوش ما أراد قام في الناس خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله، ثم حث الناس على الجهاد فقال: ألا لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا إيمان لمن لا حسبه له، ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به، هي التجارة التي دل الله عليها، إذ نجى بها من الخزي، فألحق بها الكرامة.

ثم شرع الصديق في تولية الأمراء وعقد الألوية والرايات، فيقال: إن أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص، فجاء عمر بن الخطاب فثناه عنه وذكره بما قال. فلم يتأثر به الصديق كما تأثر به عمر، بل عزله عن الشام وولاه أرض "تيماء" يكون بها فيمن معه من المسلمين حتى يأتيه أمره. ثم عقد لواء يزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور الناس، ومعه سهيل بن عمرو، وأشباهه من أهل مكة، وخرج معه ماشياً يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين، وجعل له دمشق. وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر، وخرج معه ماشياً يوصيه، وجعل له نيابة حمص. وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين. وأمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر، لما لحظ في ذلك من المصالح. وكان الصديق اقتدى في ذلك بنبي الله يعقوب حين قال لبنيه ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] فكان سلوك يزيد بن أبي سفيان على تبوك. قال المدائني بإسناده عن شيوخه قالوا: وكان بعث أبو بكر هذه الجيوش في أول سنة ثلاث عشرة.

قال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري٣/٤٠٥] عن صالح بن كيسان: خرج أبو بكر ماشياً ويزيد بن أبي سفيان راكباً فجعل يوصيه، فلما فرغ قال: أقرئك السلام وأستودعك الله، ثم انصرف ومضى يزيد فأخذ التبوكية ثم تبعه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة مدداً لهما، فسلكوا ذلك الطريق. وخرج عمرو بن العاص حتى نزل العربات من أرض الشام. ويقال إن يزيد بن أبي سفيان نزل البلقاء أولاً ونزل شرحبيل بالأردن ويقال: ببصرى. ونزل أبو عبيدة بالجابية. وجعل الصديق يمدهم بالجيوش، وأمر كل واحد منهم أن ينضاف إلى من أحب من الأمراء. ويقال: إن أبا عبيدة لما مر بمآبَ من أرض البلقاء قاتلهم حتى صالحوه وكان أول صلح وقع بالشام.

ويقال: إن أول حرب وقع بالشام أن الروم اجتمعوا بمكان يقال له: العربة من ارض فلسطين، فوجه إليهم يزيد أبا أمامة في سرية فقتلهم وغنم منهم، وقتل منهم بطريقاً عظيماً. ثم كانت بعد هذه وقعة مرج الصُفّر استشهد فيها خالد بن سعيد بن العاص وجماعة من المسلمين. ويقال إن الذي استشهد في مرج الصُفّر ابن لخالد بن سعيد بن العاص، وأما هو ففر حتى انحاز إلى أرض الحجاز فالله أعلم، حكاه ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٤٠٦].

قال ابن جرير[تاريخ الطبري٣/٣٨٨،٣٨٩،٣٩١،٣٩٢]: ولما انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء اجتمع له جنود من الروم في جمع كثير من نصارى العرب، من بهراء، وتنوخ، وبني كلب، وسليح، ولخم وجذام، وغسان،

فتقدم إليهم خالد بن سعيد، فلما اقترب منهم تفرقوا عنه ودخل كثير منهم في الإسلام، وبعث إلى الصديق يعلمه بما وقع من الفتح، فأمره الصديق أن يتقدم ولايحجم؛ وأمده بالوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وجماعة، فسار إلى قريب من آيل فالتقى هو وأمير من الروم يقال له: باهان فكسره، ولجأ باهان إلى دمشق، فلحقه خالد بن سعيد، وبادر الجيوش إلى نحو دمشق وطلب الحظوة، فوصلوا إلى مرج الصفر فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليهم الطريق، وزحف باهان ففر خالد بن سعيد، فلم يرد إلى ذي المروة. واستحوذ الروم على جيشهم إلا من فر على الخيل، وثبت عكرمة بن أبي جهل، وقد تقهقر عن الشام قريباً وبقي ردءا لمن نفر إليه، وأقبل شرحبيل ابن حسنة من العراق من عند خالد بن الوليد إلى الصديق، فأمره على جيش وبعثه إلى الشام، فلما مر بخالد بن سعيد بذي المروة، أخذ جمهور أصحابه الذين هربوا معه إلى ذي المروة، ثم اجتمع عند الصديق طائفة من الناس فأمر عليهم معاوية بن أبي سفيان وأرسله وراء أخيه يزيد بن أبي سفيان. ولما مر بخالد بن سعيد أخذ من كان بقي معه بذي المروة إلى الشام. ثم أذن الصديق لخالد بن سعيد في الدخول إلى المدينة وقال: كان عمر أعلم بخالد.

وقعة اليرموك

على ماذكره سيف بن عمر في هذه السنة قبل فتح دمشق وتبعه على ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله [تاريخ الطبري ٤٣٦/٣، ٤٤١]. وأما الحافظ ابن عساكر رحمه الله فإنه نقل عن يزيد بن أبي عبيدة والوليد وابن لهيعة والليث وأبي معشر أنها كانت في سنة خمس عشرة بعد فتح دمشق.

وقال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري٤٤١/٣]: كانت في رجب سنة خمس عشرة.

وقال خليفة بن خياط[تاريخ خليفة١١٨/١]: قال ابن الكلبي: كانت وقعة اليرموك يوم الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة. قال ابن عساكر [تاريخ دمشق١٤٢/٢]، وهذا هو المحفوظ وأما ما قاله سيف من أنها قبل فتح دمشق سنة ثلاث عشرة فلم يتابع عليه.

قلت وهذا ذكر سياق سيف وغيره على ما أورده ابن جرير وغيره.قالوا: ولما توجهت هذه الجيوش نحو الشام أفزع ذلك الروم وخافوا خوفاً شديداً، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر. فيقال: إنه كان يومئذ بحمص، ويقال: كان حج عامه ذلك إلى بيت المقدس. فلما انتهى إليه الخبر. قال لهم: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم. فنخروا من ذلك نخرة حمر الوحش كما هي عاداتهم في قلة المعرفة والرأي بالحرب والنصرة في الدين والدنيا. فعند ذلك سار إلى حمص، وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية صحبة الأمراء، في مقابلة كل أمير من المسلمين جيش كثيف، فبعث إلى عمرو بن العاص اخا له لأبويه «تذارق» في تسعين ألفاً من المقاتلة. وبعث جرجه بن بوذيها إلى ناحية يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه. وبعث الدراقص إلى شرحبيل بن حسنة. وبعث القيقار ويقال القيقلان - قال ابن إسحاق وهو خَصِيٌّ هرقل ابن نسطورس - في ستين ألفا إلى أبي عبيدة بن الجراح. وقالت الروم: والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى ارضنا. وجميع عساكر المسلمين أحد وعشرون ألفا سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل. وكان واقفا في طرف الشام ردءا للناس - في ستة آلاف - فكتب الأمراء إلى أبي بكر وعمر يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم، فكتب إليهم أن يجتمعوا ويكونوا جنداً واحداً والقوا جنود المشركين، فأنتم أعوان الله والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها، وليصل كل رجل منكم بأصحابه. وقال الصديق: والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. وبعث إليه وهو بالعراق ليقدم إلى الشام فيكون الأمير على من به، فإذا فرغ عاد إلى عمله بالعراق، فكان ماسنذكره. ولما بلغ هرقل ما أمر به الصديق أمراءه من الاجتماع، بعث إلى أمرائه أن يجتمعوا أيضا وأن ينزلوا بالجيش منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب، وعلى الناس أخوه تذارق، وعلى المقدمة جرجه، وعلى المجنبتين باهان والدراقص، وعلى البحر القيقلان.

وقال محمد بن عائذ عن عبد الأعلى عن سعيد بن عبد العزيز إن المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفا، وعليهم أبو عبيدة، والروم كانوا عشرين ومائة ألف عليهم باهان وسقلاب يوم اليرموك.

وكذا ذكر ابن إسحاق [تاريخ دمشق١٤٤/٣، ١٤٥] أن سقلاب الحصي كان على الروم يومئذ في مائة ألف، وعلى المقدمة جرجه - من أرمينية - في اثنى عشر ألفا، ومن المستعربة اثنى عشر ألفا عليهم جبلة بن الأيهم: والمسلمون في أربعة وعشرين ألفاً، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى قاتلت النساء من ورائهم أشد القتال.

وقال الوليد [تاريخ دمشق١٤٥/٣] عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير. قال: بعث هرقل مائتي ألف عليهم باهان الأرمني.

قال سيف: فسارت الروم فنزلوا الواقوصة قريباً من اليرموك، وصار الوادي خندقا عليهم. وبعث الصحابة إلى الصديق يستمدونه ويعلمونه بما اجتمع من جيش الروم باليرموك، فكتب الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق وأن يقفل بمن معه إلى الشام، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم. فاستناب المثنى بن حارثة على العراق فسار خالد مسرعاً في تسعة آلاف ويقال: ثمانمائة أو خمسمائة، ودليله رافع بن عميرة الطائي، فأخذ به علي السماوة حتى انتهى إلى قراقر، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد، فاجتاب البراري والقفار، وقطع الأودية، وتصعد على الجبال وسار في غير مهيع وجعل رافع يدلهم في مسيرهم على الطريق وهو أرْمد، وعطش النوق وسقاها الماء عللاً بعد نهل، وقطع مشافرها وكعمها حتى لا تجتر وخلّ أدبارها، واستاقها معه، فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا مافي أجوافها من الماء، ويقال: بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها. ووصل ولله الحمد والمنة في خمسة أيام، فخرج على الروم من ناحية تدمر فصالح أهل تدمر وأرَك، ولما مر بعذراء أباحها وغنم لغَسَّان أموالاً عظيمة وخرج من شرقي دمشق، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى فوجد الصحابة محاصريها فصالحه صاحبها وسلمها إليه، فكانت أول مدينة فتحت من الشام ولله الحمد.

وبعث خالد بأخماس ما غنم من غسان مع بلال بن الحارث المري إلى الصديق ثم سار خالد وأبو عبيدة ويزيد وشرحبيل إلى عمرو بن العاص - وقد قصده الروم بأرض العربات من الغور - فكانت واقعة أجنادين. وقد قال رجل من المسلمين في مسيرهم هذا مع خالد:

لله عينا رافع أني اهتدى ... فوز من قراقر إلى سُوَى

خمساً إذا ماسارها الجيشُ بكى ما سارها قبلك إنسي أرى

وقد كان بعض العرب قال له في هذا المسير: إن أنت أصبحت عند الشجرة الفلانية نجوت أنت ومن معك، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معك، فسار خالد بمن معه وسَرَوْا سروةً عظيمةً فأصبحوا عندها، فقال خالد: عند الصباح يحمد القوم السُّرى. فأرسلها مثلاً، وهو أول من قالها ﷺ.

قال غير ابن إسحاق كسيف بن عمر وأبي مخنف وغيرهما في تكميل السياق الأول: حين اجتمعت الروم مع أمرائها بالواقوصة وانتقل الصحابة من منزلهم الذي كانوا فيه قريبا من الروم في طريقهم الذي ليس لهم طريق غيره، فقال عمرو بن العاص: أبشروا أيها الناس، فقد حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير. ويقال [تاريخ دمشق٢/١٤٥ـ١٤٧] إن الصحابة لما اجتمعوا للمشورة في كيفية المسير إلى الروم، جلس الأمراء لذلك فجاء أبو سفيان فقال: ما كنت أظن أني أُعمَّرُ حتى أدرك قوما يجتمعون لحرب ولا أحضرهم، ثم أشار أن يتجزأ الجيش ثلاثة أجزاء، فيسير ثلثه فينزلون تجاه الروم، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر ويتأخر خالد بالثلث الآخر حتى إذا وصلت الأثقال إلى أولئك سار بعدهم ونزلوا في مكان تكون البرية من وراء ظهورهم لتصل إليهم البُرُدُ والمدد. فامتثلوا ما أشار به ونعم الرأي هو.

وذكر الوليد [تاريخ الطبري٣/٣٩٣،٣٩٤] عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير أن الروم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك، ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر، وأذرعات خلفهم ليصل إليهم المدد من المدينة. ويقال [تاريخ الطبري٣/٣٩٣،٣٩٤] إن خالدا إنما قدم عليهم بعد ما نزل الصحابة تجاه الروم بعدما صابروهم وحاصروهم شهري ربيع الأول والآخر بكماله، فلما انسلخ وأمكن القتال لقلة الماء بعثوا إلى الصديق يستمدونه فقال: خالد لها، فبعث إلى خالد فقدم عليهم في ربيع الآخر، فعند وصول خالد إليهم أقبل باهان مدداً للروم ومعه القساقسة، والشمامسة والرهبان يحثونهم ويحرضونهم على القتال لنصر دين النصرانية، فتكامل جيش الروم أربعون ومائتا ألف ثمانون ألفا مسلسل بالحديد والحبال وثمانون ألف فارس، وثمانون ألف راجل. وقيل: بل كان الذين تسلسلوا كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا ثلاثين ألفا، فالله أعلم.

قال سيف [تاريخ الطبري: ٣/٣٩٦] وقدم عكرمة بمن معه من الجيوش فتكامل جيش الصحابة ستة وثلاثين ألفا إلى الأربعين ألفا.

وعند ابن إسحاق [تاريخ الطبري٣/٤١٧ـ٤١٩] والمدائني أيضا أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك وكانت وقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وقتل بها بشر كثير من الصحابة، وهزم الروم وقتل أميرهم القيقلان. وكان قد بعث رجلاً من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة، فلما رجع إليه قال: وجدت قوماً رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه. فقال له القيقلان: والله لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من ظهرها.

وقال سيف بن عمر في سياقه [تاريخ الطبري٣/٣٩٤،٣٩٧]: ووجد خالد الجيوش متفرقة فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية. فقام خالد في الناس خطيبا. فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف. فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم في أول جمادى الآخرة وقام خالد بن الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولاالبغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده إن رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نَزال نردهم، وإن هزمونا لا نفلح أبعدها أبداً، فتعالوا فلتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد، حتى يتأمَّرَ كلكم، ودعوني اليوم أَلِيكُم، فأمّروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جداً فخرجت الروم في تعبئة لم يُرَ مثلها قبلها قط وخرج خالد في تعبئة لم تُعبِّها العرب قبل ذلك. فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين كل كردوس ألف رجل عليهم أمير، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل ابن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان. وأمّر على كل كردوس أميراً، وعلى الطلائع قُباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود والقاضي يومئذ أبو الدرداء وقاصُّهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو سفيان بن حرب وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة «الأنفال» وآيات الجهاد المقداد بن الأسود.

وذكر إسحاق بن بشر [تاريخ بغداد٢/١٤٨ـ١٥٩] بإسناده: أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة: أبو عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وخرج الناس على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة قُباث بن أشْيَم الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه.

ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال، وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أراك الله أسمع لك وأطِعْ. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لا بُدّ لهم من حملة عظيمة لامحيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها مِن وراء الميمنة والميسرة حتى إذا صدموهم رأوا أنفسهم مِن ردءاً ورائهم. فقال له: نِعِمْ ما رأيتَ. فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله لكي إذا رآه المنهزم استحيى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد العدوي أحد العشرة رضي الله عنهم، وساق خالد إلى النساء مِن وراء الجيش ومعهن عدد مِن السيوف وغيرها، فقال لهن: مَن رأيتموه مُولياً فاقتلنه، ثم رجع إلى موقفه ﷺ.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للربِّ ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافّكم، ولا تخطوا إليهم خُطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال وأشرعوا الرماح واستتروا بالدرَق والزموا الصمت إلا مِن ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

قالوا: وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكّرهم ويقول: يا أهل القرآن، ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأمانيّ، ولايؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدِّق ألم تسمعوا لقول الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية [النور: ٥٥]. فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرّاراً مِن عدوكم وأنتم في قبضته وليس لكم مُلتحد مِن دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غُضّوا الأبصار، واجثوا على الرُّكَب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويُثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحساناً، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْراً كَفْراً وقصراً قصراً، فلا يَهولنّكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدّ تطايروا تطاير أولادِ الحَجَل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدَدُه، شديدٍ عليكم حنَقُه، وقد وَتَرْتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يُبلّغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلين صَحاري وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا مَعْدِل إلا الصبر ورجاءُ ما وعد الله فهو خير مُعوّل، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن ثم عاد فنادى: يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه رحمه الله.

وقد وعظ الناس أبو هريرة [تاريخ دمشق ١٥١/٢ـ١٥٣] أيضاً فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم. ما أنتم إلى ربكم في موطن أحبّ إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم.

قال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣٩٧/٣، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٣] بإسناده عن شيوخه: إنهم قالوا: كان في ذلك الجمع ألفُ رجل من الصحابة منهم مائة من أهل بدر. وجعل أبو سفيان يقف على كل كُردوس ويقول: الله الله إنكم دارَة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارَة الروم وأنصار الشرك، اللّهم إن هذا يومٌ من أيامك، اللّهم أنزل نصرك على عبادك. قالوا: ولما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: ويلك، أتخوّفني بالروم؟ إنما تكثُر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجّيه، وأنهم أضعفوا في العدد ـ وكان فرسه قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق ـ ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان ومعهما ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، وأبو جندل بن سهيل، ونادوا: إنما نريد أميركم لنجتمع به، فأُذِن لهم في الدخول على تذارق، وإذا هو جالس في خيمة من حرير. فقال الصحابة: لا نستحِلّ دخولها، فأمر لهم بفُرُش بُسُط من حرير، فقالوا: ولا نجلس على هذه. فجلس معهم حيث أحبّوا وتراضوا على الصلح، ورجع عنهم الصحابة بعدما دعوهم إلى الله عز وجل فلم يتم ذلك.

وذكر الوليد بن مسلم[تاريخ دمشق١٤٦/٢،١٤٧] أن باهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم فقال باهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها. فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب باهان: هذا والله ما كنا نُحدّث به عن العرب.

قالوا [تاريخ الطبري٣٩٧/٣ـ٤٠٠]: ثم تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ـ وهما على مجنبتي القلب ـ أن يُنْشِبا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز، وتنازل الأبطال، وتجاولوا وحمي الحرب وقامت على ساق. هذا وخالد معه كردوس من الحُماة الشجعان الأبطال بين يدي الصفوف، والأبطال يتصاولون من الفريقين بين يديه، وهو ينظر ويبعث إلى كل قوم من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل، ويُدبِّر أمر الحرب أتم تدبير.

وقال إسحاق بن بشير عن سعيد بن عبد العزيز عن قدماء مشايخ دمشق، قالوا: ثم زحف باهان فخرج أبو عبيدة، وقد جعل على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة قباث بن أشيم الكناني، وعلى الرجّالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وخرج الناس على راياتهم، وسار أبو عبيدة بالمسلمين، وهو يقول: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافّكم، ولا تخطوا إليهم خُطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله.

وخرج معاذ بن جبل فجعل يذكرهم، ويقول: يا أهل القرآن، ومستحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تُنال، وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا للصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى آخر الآية؟[النور: ٥٥] فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فُرّاراً من عدوكم، وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه.

وسار عمرو بن العاص في الناس وهو يقول: أيها المسلمون غضوا الأبصار واجثوا على الراكب، وأشرعوا الرماح، فاذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويُثيب عليه، ويمقت الكذب ويجزي الإحسان إحساناً. لقد سمعتُ أن المسلمين سيفتحونها كَفْراً كَفْراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد لتطايروا أولاد الحجل.

ثم تكلم أبو سفيان فأحسن وحث على القتال فأبلغ في كلام طويل. ثم قال حين تواجه الناس: يامعشر أهل الإسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، وحرّض أبو سفيان النساء فقال: مَن رأيتنه فاراً فاضربنه بهذه الأحجار والعصي حتى يرجع.

وأشار خالد أن يقف في القلب سعيد بن زيد، وأن يكون أبو عبيدة من وراء الناس ليرد المنهزم. وقسم خالد الخيل قسمين: فجعل فرقة وراء الميمنة، وفرقة وراء الميسرة، لئلا يفر الناس وليكونوا ردْءاً لهم من وراءهم. فقال له أصحابه: افعل ما أراك الله، وامتثلوا ما أشار به خالد رضي الله عنه. وأقبلت الروم رافعة صُلبانها ولهم أصوات مزعجة كالرعد، والقساقسة والبطارقة تحرضهم على القتال وهم في عَدد وعُدد لم يُرَمثله، فالله المستعان وعليه التكلان.

وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل مَن هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا فلما واجهوا صُفوف الروم أحجموا وأقدم هو

فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه. ثم جاؤوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جُرْحين بين كتفيه وفي رواية: جرح. وقد روى البخاري معنى ماذكرناه في «صحيحه» [خ(٣٧٢١)].

وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللّهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم: وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبِّبْ إلينا اللقاء، ورضِّنا بالقضاء. وخرج باهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدريجان، وكان عدو اللّه متنسكاً فيهم، فحمل على الميمنة وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان، فثبتوا حتى صدقوا أعداء اللّه، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال. فزال المسلمون من الميمنة إلى ناحية القلب، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، وانكشفت زُبيد. ثم تنادَوْا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا مَن أمامهم من الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس، واستقبل النساء مَن انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول:

يا هارباً عن نسوةٍ تقيّاتْ فعن قليلٍ ما ترى سبيّاتْ
ولا حظيّاتٍ ولا رضيّاتْ

قال: فتراجع الناس إلى مواقفهم.

وقال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٤٠١]: عن أبي عثمان الغساني عن أبيه قال: قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلتُ رسول اللّه ﷺ في مواطِنَ وأفر منكم اليوم؟ثم نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قُدّام فُسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعاً جراحاً، وقُتل منهم خلق منهم ضرار بن الأزور رضي اللّه عنهم.

وقد ذكر الواقدي وغيره [تاريخ دمشق١١/٥٠٤]: أنهم لما صُرِعوا من الجراح استسقوا ماءً فجيء إليهم بشربة ماء فلما قُربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها بينهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم، رضي اللّه عنهم أجمعين.

ويقال [تاريخ دمشق٢/١٥١]: إن أول مَن قتل من المسلمين يومئذ شهيداً رجلٌ جاء إلى أبي عبيدة فقال: إني قد تهيأت لأمري فهل لك من حاجة إلى رسول اللّه ﷺ؟ قال: نعم، تقرئه عني السلام وتقول: يارسول اللّه إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. قال: فتقدم هذا الرجل حتى قُتل رحمه اللّه.

قالوا [تاريخ دمشق٢/١٥٣]: وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحى. فلم يُر يوم اليرموك أكثر قِحْفاً ساقطاً، ومعصماً نادراً، وكفاً طائرة من ذلك الموطن ثم حمل خالد بمن معه من الخيّالة على الميسرة التي حملَتْ على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب فقتل في حملته هذه ستة آلاف منهم ثم قال: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم اللّه أكتافهم. ثم اعترضهم فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف فما وصل إليهم حتى انفضّ جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رَجلٍ واحد، فانكشفوا وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

قالوا [تاريخ الطبري٣/٣٩٨ـ٤٠٠]: وبينما هم في جولة الحرب وحومة الوَغى والأبطال يتصاولون من كل جانب، إذ قدم البريد من نحو الحجاز فدُفع إلى خالد بن الوليد فقال له: ما الخبر؟ فقال له ـ فيما بينه وبينه ـ: إن الصدّيق ﷺ قد تُوفي واستخلف عمر فاستناب على الجيوش أبا عبيدة عامر بن الجراح. فأسرّها خالد ولم يُبْدِ ذلك للناس لئلا يحصل ضعفٌ ووهن في تلك الحال، وقال له والناس يسمعون: أحسنت وأخذ منه الكتاب فوضعه في كنانته واشتغل بما كان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة، وأوقف الرسول الذي جاء بالكتاب ـ وهو مَحْمِيَة بن زنيم ـ إلى جانبه. كذا ذكره ابن جرير بأسانيده.

قالوا [تاريخ الطبري٣/٣٩٨ـ٤٠٠]: وخرج جَرَجَةٌ أحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جَرَجَةُ: يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل باللّه، هل أنزل اللّه على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبِمَ سُميتَ سيف اللّه؟ قال: إن اللّه بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذّبه وباعده، فكنت فيمن كذّبه وباعده، ثم إن اللّه أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لي: «أنت سيفٌ من سيوف اللّه سلّه اللّه على المشركين». ودعا لي بالنصر، فسمِّيت سيف اللّه بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين، فقال جَرجة: يا خالد إلامَ تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند اللّه عز وجل. قال: فمن لَم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعُهم. قال: فإن لم يُعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة مَن يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض اللّه علينا، شريفُنا ووضيعُنا وأولُنا وآخرُنا. قال جرجة: فلِمَن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذُخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرُنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويُرينا الآيات، وحُق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سَمِعنا أن يُسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم ترَوْا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحُجَج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيةٍ كان أفضل منا فقال جَرَجةُ: باللّه لقد صدقتني ولم تُخادعني؟ قال: باللّه لقد صدقتك وإن اللّه ولي ما سألتَ عنه.

فعند ذلك قلب جَرَجةُ الترس ومال مع خالد وقال: علّمْني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشنَّ عليه قِربة من ماء ثم صلى به ركعتين. وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حملة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المُحامية عليهم عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام. فركب خالد وجرجة معه والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم وزحف خالد بالمسلمين حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجة من لَدُن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. وصلى المسلمون صلاة الظهر وصلاة العصر إيماءً، وأصيب جرجة رحمه اللّه ولم يصلِّ للّه إلا تلك الركعتين مع خالد رضي اللّه عنهما. وتضعضعت الروم عند ذلك. ثم نهد خالد بالقَلْب حتى صار في وسط خيول الروم، فعند ذلك هربت خيّالتهم، واشتدت بهم في تلك الصحراء، وأفرج المسلمون بخيولهم حتى ذهبوا. وأخّر الناس صلاتي العشاء حتى استقرّ الفتح، وعمد خالد إلى رَجْل الروم ـ وهم الرجالة ـ ففصلوهم عن آخرهم حتى صاروا كأنهم حائط قد هُدم ثم تبعوا مَن فرّ من الخيالة واقتحم خالد عليهم خندقهم، وجاء الروم في ظلام الليل إلى

الواقوصة، فجعل الذين تسلسلوا وقيدُّوا بعضهم ببعض إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه. قال ابن جرير وغيره [تاريخ الطبري٣/٤٠٠]: فسقط فيها وقُتل عندها مائة ألف وعشرون ألفاً سوى مَن قُتل في المعركة. وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم وكنّ يضربْنَ مَن انهزم من المسلمين ويقُلن: أين تذهبون وتدعوننا للعُلوج؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.

قال: وتجلّل القيقلان وأشراف من قومه من الروم ببرانسهم وقالوا: إذا لم نقدِر على نصر دين النصرانية فلنمُتْ على دينهم. فجاء المسلمين فقتلوهم عن آخرهم.

قالوا [تاريخ الطبري٣/٤٠٢]: وقُتِل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد -وأُثبت خالد بن سعيد فلا يُدْرَى أين ذهب- وضرار بن الأزور، وهشام بن العاص وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي، وحقق الله رؤيا أبيه يوم اليمامة.

وقد انكشف في هذا اليوم جماعة من الناس انهزم عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا إلى النساء ثم رجعوا حين زجرهم النساء، وانكشف شرحبيل ابن حسنة وأصحابه ثم تراجعوا حين وعظهم الأمير بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١].

وثبت يومئذ يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يا بُني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين الا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين؟! أولئك أحقُّ الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بُني ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغبَ في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب [تاريخ دمشق٢/١٥٧] عن أبيه قال: هدأتِ الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصرَ الله اقتربْ، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحتَ راية ابنه يزيد. وأكمل خالد ليلته في خيمة تذارق أخي هرقل - وهو أمير الروم كلهم يومئذ - هرب فيمن هرب، وباتت الخيول تجول نحو خيمة خالد يقتُلون مَن مر بهم من الروم حتى أصبحوا وقُتل تذارق وكان له ثلاثون سُرادقاً وثلاثون رواقاً من ديباج بما فيها من الفرش والحرير، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم. وما فرحوا بما وجدوا بقدْر حزنهم على الصدِّيق حين أعلمهم خالد بذلك ولكن عوّضهم الله بالفاروق رضي الله عنه.

وقال خالد حين عزّى المسلمين في الصدّيق: الحمدُ لله الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحبّ إليّ من عمر، والحمدُ لله الذي ولّى عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر وألزمني حُبَّه.

وقد اتبع خالد مَن انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق فخرج إليه أهلها فقالوا: نحن على عهدنا وصلحنا؟ قال: نعم. ثم اتبعهم إلى ثنية العقاب فقتل منهم خلقاً كثيراً ثم ساق وراءهم إلى حمص فخرج إليه أهلها فصالحهم كما صالح أهل دمشق. وبعث أبو عبيدة عياض بن غنم وراءهم أيضاً فساق حتى وصل مَلَطْيَةَ فصالحه أهلها ورجَع. فلما بلغ هرقل ذلك بعث إلى مقاتليها فحضروا بين يديه وأمر بمَلَطْيَة فحُرِقت وانتهت الروم منهزمةً إلى هرقل وهو بحمص والمسلمون في آثارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون. فلما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين وترّس بها وقال هرقل: أما الشام فلا شام، وويل للروم من المولود المشؤوم.

ومما قيل من الأشعار في يوم اليرموك قول القعقاع بن عمرو [تاريخ دمشق٢/١٦٦]:

ألم ترنا على اليرموك فزنا ... كما فزنا بأيام العراق
فتحنا قبلها بصرى وكانت ... محرّمة الجناب لدى البعاق
وعذراء المدائن قد فتحنا ... ومرج الصُّفَّرين على العتاق
قتلنا من أقام لنا وفينا ... نهابهم بأسياف رقاق
قتلنا الروم حتى ما تساوي ... على اليرموك تُفْروق الوراق
فضضنا جمعهم لما استحالوا ... على الواقوص بالبتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا ... إلى أمر يعضل بالذواق

وقال الأسود أبو مُفزّر التميمي:

وكم قد أغرنا غارة بعد غارة ... يوماً ويوماً قد كشفنا أهاولهْ
ولولا رجال كان حشو غنيمة ... لدى مأقط رجّت علينا أوائلهْ
لقيناهم اليرموك لما تضايقتْ ... بمن حلّ باليرموك منه حمائلهْ
فلا يعدمَنْ منّا هرقل كتائباً ... إذا رامها رامَ الذي لا يحاولهْ

وقال عمرو بن العاص:

القومُ لخمٌ وجذام في الحرب ... ونحن والروم بمرج نضطرب
فإن يعودوا بعدها لا نصطحب ... بل نعصب الفُرّار بالضرب الكلِبْ

وروى أحمد بن مروان المالكي في «المجالسة» [تاريخ دمشق٢/٩٧]: ثنا أبو إسماعيل الترمذي ثنا أبو معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمةُ الروم: ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟! قالوا: بلى. قال فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنّا نشرب الخمر، ونزني،ونركب الحرام،وننقض العهد،ونغصب ونظلِم ونأمر بما يسخط الله وننهي عما يرضي الله ونفسد في الأرض.فقال: أنت صدقتني.

وقال الوليد بن مسلم [تاريخ دمشق٢/٩٦، ٩٧]: أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا: لما نزل المسلمون بناحية الأردنّ، تحدثنا بيننا أن دمشق ستُحاصر فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك، فبينا نحن فيها إذ أرسل إلينا بطْريقُها فجئناه فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم! قال: وعلى النصرانية؟ قلنا: نعم. فقال: ليذهب أحدكم فليتجسّسْ لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه. ففعل ذلك أحدنا، فلبث ملياً ثم جاءه، فقال: جئتكَ من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاق أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويُثقّفون القنا، لو حدّثْت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. قال: فالتفت إلى أصحابه وقال: أتاكم منهم ما لا طاقةَ لكم به.

انتقال إمرة الشام مِن خالد إلى أبي عبيدة في الدولة العمرية وذلك بعد وقعة اليرموك وصيرورة الإمرة بالشام إلى أبي عبيدة، فكان أبو عبيدة أول مَن سمي أمير الأمراء

قد تقدم أن البريد قدم بموت الصدّيق والمسلمون مصافّو الروم يوم اليرموك، وأن خالداً كتم ذلك عن المسلمين لئلا يقع وهن، فلما أصبحوا أجلى لهم الأمر وقال ما قال، ثم شرع أبو عبيدة في جمع الغنيمة وتخميسها، وبعث بالفتح والخمُس مع قباث بن أشيم إلى الحجاز، ثم نودي بالرحيل إلى دمشق، فساروا حتى نزلوا مرج الصفر، وبعث أبو عبيدة بين يديه طليعةً أبا أمامة الباهلي ومعه رجلان من أصحابه. قال أبو أمامة: فسرتُ فلما كان ببعض الطريق أمرت الواحد فكمن هناك وسرت أنا والآخر، فلما كان ببعض الطريق أمرتُ الآخر فكمَن هناك، ثم سرْتُ أنا وحدي حتى جئتُ باب البلد، وهو مغلق في الليل وليس هناك أحد، فنزلتُ وغرزتُ رمحي بالأرض ونزعتُ لجام فرسي، وعلّقتُ عليه مخلاته ونمت، فلما أصبح الصباح قمتُ فتوضأتُ وصليتُ الفجر، فإذا باب المدينة يقعقع فلما فُتح حملتُ على البواب فطعنته بالرمح فقتلته، ثم رجعت والطلب ورائي فلما انتهينا إلى الرجل الذي في الطريق مِن أصحابي ظنوا أنه كمين فرجعوا عني، ثم سِرنا حتى أخذنا صاحبَنا الآخر وجئت إلى أبي عبيدة فأخبرته بما رأيت، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر فيما يعتمده مِن أمر دمشق فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها، فساروا إليها حتى أحاطوا بها. واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك.

وقعة جرت بالعراق بعد مجيء خالد إلى الشام

وذلك أن أهل فارس اجتمعوا بعد مقتل ملكهم وابنه على تمليك شهريار بن أردشير بن شهريار واستغنموا غيبة خالد عنهم فبعثوا إلى نائبه المثنى بن حارثة جيشاً كثيفاً نحواً من عشرة آلاف عليهم هرمز بن جاذَوَيْه، وكتب شهريار إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً مِن وحش أهل فارس إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم. فكتب إليه المثنى: من المثنى إلى شهريار إنما أنت أحد رجلين إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس المُلوك، وأما الذي يدلّنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررْتم إليهم، فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير. قال: فجزع أهل فارس مِن هذا الكتاب، ولاموا شهريار على كتابه إليه واستهجنوا رأيه. وسار المثنى مِن الحرّة إلى بابل، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عدوة الصراة الأولى، اقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرّق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة، ووجدوا الملك قد مات فملّكوا عليهم ابنة كسرى بوران بنت أبرويز فأقامت العدل، وأحسنت السيرة، فأقامت سنةً وسبعة شهور، ثم ماتت، فملّكوا عليهم أختها آزرميدُخْت زنانَ فلم ينتظم لهم أمر، فملّكوا عليهم سابور بن شهريار وجعلوا أمره إلى الفرُخزاذ بن البندوان فزوّجه سابور بابنةَ كسرى آزرميدُخْت فكرهت ذلك وقالت: إنما هذا عبدٌ مِن عبيدنا. فلما كان ليلة عرسها عليه هموا إليه فقتلوه، ثم ساروا إلى سابور فقتلوه أيضاً، وملّكوا عليهم هذه المرأة وهي آزرميدخت ابنة كسرى. ولعبت فارس بمُلكها لعباً كثيراً، وآخر ما استقر أمرهم عليه في هذه السنة أن ملّكوا امرأة وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وفي هذه الوقعة التي ذكرنا يقول عبدة بن الطبيب السعدي، وكان قد هاجر لمهاجَرة حليلةٍ له حتى شهد وقعة بابل هذه، فلما آيسته رجع إلى البادية وقال:

هل حَبْل خولة بعد البين موصول ... أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغول
وللأحبّة أيام تذكرها ... وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلَّت خويلة في حي عهدتهمُ ... دون المدينة فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحيةً ... منهم فوارس لا عُزل ولا ميل

وقد قال الفرزدق في شعره يذكر قتل المثنى ذلك الفيل:

وبيْتُ المثنى قاتلُ الفيل عنوةً ... ببابل إذ في فارس مُلْك بابل

ثم إن المثنى بن حارثة استبطأ أخبار الصدّيق لتشاغله بأهل الشام، وما فيه مِن حرب اليرموك المتقدم ذكره، فسار المثنى بنفسه إلى الصديق، واستناب على العراق بشير ابن الخصاصية، وعلى المسالح سعيد بن مرة العجلي، فلما انتهى المثنى إلى المدينة وجد الصدّيق في آخر مرض الموت. وقد عهد إلى عمر بن الخطاب، ولما رأى الصدّيق المثنى قال لعمر: إذا أنا مُت فلا تمسينّ حتى تندُب الناس لحربِ أهل العراق مع المثنى، إذا فتح الله على أمرائنا بالشام فارددْ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه.

فلما مات الصدّيق ندب عمر المسلمين إلى الجهاد بأرض العراق لقلة مَن بقيَ فيه من المقاتلة بعد خالد بن الوليد، فانتدب خلق وأمّر عليهم أبا عبيد بن مسعود، وكان شاباً شجاعاً، خبيراً بالحرب والمكيدة. وهذا آخر ما يتعلق بخبر العراق إلى آخر أيام الصدّيق وأول دولة الفاروق.

خلافة عمر بن الخطاب ﵁ وأرضاه

كانت وفاة الصدّيق ﵁ في يوم الاثنين عشية، وقيل: بعد المغرب ودُفن من ليلته، وذلك لثمان بقين مِن جُمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بعد مرض خمسة عشرة يوماً، وكان عمر بن الخطاب يصلي عنه فيها بالمسلمين، وفي أثناء هذا المرض عَهد بالأمر مِن بعده إلى عمر بن الخطاب، وكان الذي كتب العهد عثمان بن عفان، وقُرئ على المسلمين فأقرّوا به وسمعوا له وأطاعوا، فكانت خلافة الصديق سنتين وثلاث أشهر وعشرة أيام، وقيل: وعشرين يوماً، وقيل: سنتين وأربعة أشهر، وكان عمره يوم توفي ثلاثاً وستين سنة، للسن الذي توفي فيه رسول الله ﷺ وقد جَمع الله بينهما في التربة، كما جَمع بينهما في الحياة، فرضي الله عنه وأرضاه.

قال محمد بن سعد [تاريخ الطبري٣/٤٢٧] عن أبي قطن عمرو بن الهيثم عن الربيع عن حبّان الصائغ. قال: كان نقش خاتم أبي بكر نعمَ القادرُ اللّهُ. وهذا غريب وقد ذكرنا ترجمة الصديق ﵁، وسيرته وأيامه وما روى من الأحاديث، وما روي عنه مِن الأحكام في مجلد ولله الحمد والمنة.

فقام بالأمر مِن بعده أتم القيام الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

ﷺ. وهو أول مَن سُمي بأمير المؤمنين. وكان أول مَن حيّاه بها المغيرة بن شعبة، وقيل: غيره كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد، ومُسنده والآثار المروية مرتباً على الأبواب في مجلد آخر ولله الحمد.

وقد كتب بوفاة الصدّيق إلى أمراء الشام مع شدّاد بن أوس، ومحمية بن جَزْء، فوصلا والناس مُصافّون جيوش الروم يوم اليرموك كما قدمنا. وقد أمّر عمر على الجيوش أبا عبيدة حين ولاه وعزل خالد بن الوليد.

وذكر سلمة [تاريخ الطبري٣/٤٣٦،٤٣٧] عن محمد بن إسحاق أن عمر إنما عزل خالداً لكلام بلغه عنه، ولِما كان من أمر مالك بن نويرة، وما كان يعتمده في حربه. فلما وُلّيَ عمر كان أول ما تكلّم به أن عزل خالداً، وقال: لا يَلي لي عملاً أبداً. وكتب عمر إلى أبي عبيدة: إن أكذَبَ خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه، وإن لم يُكذِب نفسه فهو معزول، فانزع عمامته عن رأسه وقاسمه مالَه نِصفين. فلما قال أبو عبيدة ذلك لخالد قال له خالد: أمهلني حتى أستشير أختي فذهب إلى أخته فاطمة - وكانت تحت الحارث بن هشام - فاستشارها في ذلك، فقالت له: إن عمر لا يُحبك أبداً، وإنه سيعزلك وإن أكذبْتَ نفسك. فقال لها: صدقتِ والله. فقاسمه أبو عبيدة حتى أخذ أحد نعليه وترك له الآخر، وخالد يقول: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين.

وقد روى ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٤٣٤] عن صالح بن كيسان أنه قال: أول كتاب كتبه عمر إلى أبي عبيدة حين ولاّه وعزل خالداً أن قال: وأوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تُقدّم المسلمين إلى هلكةٍ رجاءَ غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثْف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغُضّ بصرك عن الدنيا، وألْهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعهم. وأمرهم بالمسير إلى دمشق وكان بعدما بلغه الخبر بفتح اليرموك وجاءته به البشارة، وحُمل الخمس إليه.

وقد ذكر ابن إسحاق [تاريخ الطبري٣/٤٣٤،٤٣٥] أن الصحابة قاتلوا بعد اليرموك بأجنادين ثم بفِحْل من أرض الغَوْر قريباً من بيسان بمكان يقال له: الردغة. سمي بذلك لكثرة ما لَقوا من الأوحال فيها ثم لما فرّت الروم من هذه الوقعة ألجئوهم إلى دمشق فقصدوهم فيها، فأغلقوها عليهم، وأحاط بها الصحابة. قال: وحينئذ جاءت الإمارة لأبي عبيدة من جهة عمر وعُزل خالد. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من مجيء الإمارة لأبي عبيدة في حصار دمشق هو المشهور.

ذكر فتح دمشق

قال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٤٣٦-٤٤١]: لما ارتحل أبو عبيدة من اليرموك فنزل بالجنود على مرج الصفر وهو عازم على حصار دمشق إذ أتاه الخبر بقدوم مدد لهم من حمص، وجاءه الخبر بأنه قد اجتمع طائفة كثيرة من الروم بفَحْل من أرض فلسطين، فهو لا يدري بأي الأمرين يبدأ. فكتب إلى عمر في ذلك، فجاء الجواب أن ابدأ بدمشق فإنها حصنُ الشام وبيت مملكتهم، فانْهَد لها واشْغَلوا عنكم أهل فِحْل بخيول تكون تِلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحبّ، وإن فُتحت دمشق قبلها فسِرْ أنتَ ومَن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فِحْلاً فسِرْ أنت وخالد إلى حمص واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

قال: فسرّح أبو عبيدة إلى فِحْل عشرة أمراء مع كل أمير خمسة أمراء وعلى الجميع عُمارة بن مَخشي صحابي، فساروا من مرج صفر إلى فِحْل فوجدوا هنالك قريباً من ثمانين ألفاً، وقد أرسلوا المياه حولهم حتى أردغت الأرض فسموا ذلك الموضوع الردْغة، وفتحها الله على المسلمين فكانت أول حصن فُتح قَبل دمشق على ماسيأتي تفصيله ولله الحمد.

وبعث أبو عبيدة جيشاً يكون بين دمشق وبين فلسطين، وبعث ذا الكلاع في جيش يكون بين دمشق وبين حمص، ليردّ مَن يَرد إليهم من المدد من جهة هرقل. ثم سار أبو عبيدة من مرج الصفر قاصداً دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب وركِب أبو عبيدة وعمرو بن العاص في المجنبَّتين، وعلى الخيل عياض بن غنم، وعلى الرجّالة شرحبيل ابن حسنة، فقدموا دمشق وعليها نسطاس بن نَسْطورس، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي وإليه باب كَيْسان أيضاً، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية الكبير، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب الجابية الصغير، ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بقية أبواب البلد ونصبوا المجانيق والدبابات، وقد أرصد أبو عبيدة أبا الدرداء على جيش بَبَرْزة يكونون ردءاً له، وكذا الذي بينه وبين حمص وحاصروها حصاراً شديداً سبعين ليلة، وقيل: أربعة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: أربعة عشر شهراً فالله أعلم.

وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع، ويُرسلون إلى ملكهم هرقل - وهو مقيم بحمص - يطلبون منه المدد فلا يمكن وصول المدد إليهم من ذي الكلاع، الذي قد أرصده أبو عبيدة ﷺ بين دمشق وبين حمص - عن دمشق ليلة - فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مدد أبلَسوا وفشلوا وضعُفوا، وقويَ المسلمون واشتدّ حصارهم، وجاء فصل الشتاء واشتد البرد وعسُر الحال وعسُر القتال، فقدّر الله الكبير المتعالي، ذو العزة والجلال، أن وُلد لبطريق دمشق مولود في تلك الليالي فصنع لهم طعاماً وسقاهم بعده شراباً. وباتوا عنده في وليمته قد أكلوا وشربوا وتعبوا فناموا عن مواقفهم، واشتغلوا عن أماكنهم، وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد فإنه كان لا ينامُ ولايترك أحداً ينام، بل مُراصد لهم ليلاً ونهاراً، وله عيون وقُصّاد يرفعون إليه أحوال المُقاتِلة صباحاً ومساءً، فلما رأى خمدة تلك الليلة، وأنه لا يُقاتل على السور أحد كان قد أعدّ سلاليم من حبال فجاء هو وأصحابه من الصناديد الأبطال، مثل القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وقد أحضر جيشه عند الباب وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا من فوق السور فارْقَوْا إلينا. ثم نَهَد هو وأصحابه فقطعوا الخندق سباحة بقِرَب في أعناقهم، فنصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرُفات، وأكّدوا أسافلها خارج الخندق، وصعدوا فيها، فلما استَوَوا على السور رفعوا أصواتهم بالتكبير، وجاء المسلمون فصعِدوا في تلك السلالم وانحدر خالد وأصحابه الشجعان من السور إلى البّوابين فقتلوهم، وقطع خالد وأصحابه أغَاليق الباب بالسيوف وفتحوا الباب، فدخل الجيش الخالدي من الباب الشرقي. ولما سمع أهل البلد التكبير ثاروا وذهب كل فريق إلى أماكنهم من السور، لا يدرون ما الخبر، فجعل كلما قدِم أحد من أصحاب الباب الشرقي قتله أصحاب خالد، ودخل البلدة عنوة فقتل مَن وجده. وذهب أهل كل باب فسألوا من أميرهم الذي عند الباب من خارج الصلح - وقد كان المسلمون دعَوْهم إلى المشاطرة فيأبون عليهم - فلما دعوهم إلى ذلك

أجابوهم. ولم يعلم بقيَّةُ الصحابة ما صنع خالد. ودخل المسلمون مِن كل جانب وباب فوجدوا خالداً وهو يقتل مَن وجَده فقالوا له: إنا قد أمَّنَّاهم، فقال: إني فتحتُها عنوة. والتقتِ الأمراء في وسط البلد عند كنيسة المِقْسلاَّط بالقرب مِن درب الريحان اليوم. هكذا ذكره سيف بن عمر وغيره وهو المشهور أن خالداً فتح الباب قسراً.

وقال آخرون: بل الذي فتحها عنوة أبو عبيدة وقيل: يزيد بن أبي سفيان، وخالدٌ صالح أهل البلد فعكسوا المشهور المعروف. والله أعلم.

وقد اختلف الصحابة فقال قائلون: هي صلح - يعني على ما صالحهم الأمير في نفس الأمر وهو أبو عبيدة - وقال آخرون: بل هي عنوة لأن خالداً افتتحها بالسيف أولاً كما ذكرنا، فلما أحسّوا بذلك ذهبوا إلى بقية الأمراء ومنهم أبو عبيدة فصالحوهم، فاتفقوا فيما بينهم على أن جعلوا نصفَها صُلحاً ونصفها عنوة، فملَك أهلها نصفَ ما كان بأيديهم وأُقرّوا عليه، واستقرّت يد الصحابة على النصف. ويقوّي هذا ماذكره سيف بن عمر مِن أن الصحابة كانوا يطلبون إليهم أن يُصالحوهم على المُشاطرة فيأبَون، فلما أحَسّوا باليأس أنابوا إلى ما كانت الصحابة دعَوْهُم إليه فبادروا إلى إجابتهم. ولم تعلم الصحابة بما كان من خالد إليهم والله أعلم.

ولهذا أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التي كانت بدمشق وتعرف بكنيسة يوحنا فاتخذوا الجانب الشرقي منها مسجداً، وأبقَوْا لهم نصفها الغربي كنيسة، وقد أبقوا لهم مع ذلك أربع عشرة كنيسة أخرى مع نصف الكنيسة المعروفة بيوحنا والتي هي جامع دمشق اليوم. وقد كتب لهم بذلك خالد بن الوليد كتاباً، وكتب فيه شهادتَه أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد وشُرحبيل:

إحداها كنيسة المقسلاَّط التي اجتمع عندها أمراء الصحابة، وكانت مبنية على ظهر السوق الكبير، وهذه القناطر المشاهدة في سوق الصابونيين مِن بقية القناطر التي كانت تحتها، ثم بادت فيما بعد وأُخِذت حجارتها في العمارات.

الثانية: كنيسةٌ كانت في رأس درب القُرَشيين وكانت صغيرة، قال الحافظ ابن عساكر: وبعضها باقٍ إلى اليوم وقد تشعَّث.

الثالثة: كانت بدار البِطِّيخ العَتيقة.

قلت: وهي داخل البلد بقرب الكوشك. وأظنها هي المسجد الذي قِبَل هذا المكان المذكور، فانها خَرِبت من دهر والله أعلم.

الرابعة: كانت بدرب بني نصر بين درب الحَبّالين ودرب التميمي. قال الحافظ ابن عساكر: وقد أدركتُ بعض بنيانها، وقد خَرِب أكثرها.

الخامسة: كنيسة بولص، قال ابن عساكر: وكانت غربيّ القيسارية الفخرية وقد أدركت مِن بنيانها بعض أساس الحَنْيَة.

السادسة: كانت في موضع دار الوكالة وتعرف اليوم بكنيسة القلانسيّين.

قلت: والقلانسيين هي الخوّاصين اليوم.

السابعة: التي بدرب السقيل اليوم وتعرف بكنيسة حُميد بن دُرّة سابقاً، لأن هذا الدرب كان إقطاعاً له وهو حميد بن عمرو بن مساحق القرشي العامري، ودرة أمه وهي درة بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، فأبوها خال معاوية، وكان قد أُقطع هذا الدرب فنُسبت هذه الكنيسة إليه، وكان مسلماً، ولم يبق لهم اليوم سواها، وقد خرب أكثرها.

وللبعقوبية منهم كنيسة داخل باب توما بين رَحْبة خالد - وهو خالد بن أسيد بن أبي العيص - وبين درب طلحة بن عمرو بن مرة الجهني، وهي الكنيسة

الثامنة

وكانت لليعقوبيين كنيسة أخرى فيما بين درب السوسي وسوق علي.

قال ابن عساكر: قد بقيَ مِن بنائها بعضه، وقد خَرِبت منذ دهر. وهي الكنيسة

التاسعة.

وأما **العاشرة** فهي الكنيسة المُصَلَّبة قال الحافظ ابن عساكر: وهي باقية إلى اليوم بين الباب الشرقي وباب توما بقرب النَّيْبَطُن عند السور. والناس اليوم يقولون: النِّيطون. قال ابن عساكر: وقد خَرِب أكثرها هكذا قال. وقد خربت هذه الكنيسة وهُدِمت في أيام صلاح الدين فاتح القدس بعد الثمانين وخمسمائة بعد موت الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

الحادية عشرة: كنيسة مريم داخل الباب الشرقي. قال ابن عساكر: وهي مِن أكبر ما بقي بأيديهم.

قلت: ثم خرِبَت بعد موته بدهر في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البُنْدُقْداري على ما سيأتي بيانه.

الثانية عشرة: كنيسة اليهود التي بأيديهم اليوم في حارتهم، ومحلها معروف بالقرب من الحير وتسميه الناس اليوم بُستان القط

وكانت لهم كنيسة في درب البلاغة لم تكن داخلة في العهد فهدمت فيما بعد وجُعل مكانها المسجد المعروف بمسجد ابن الشَهْرزوري، والناس اليوم يقولون: درب الشاذوري.

قلت: وقد أُخربت لهم كنيسة كانوا قد أحدثوها لم يذكرها أحد من علماء التاريخ لا ابن عساكر ولا غيره، وكان إخرابها في حدود سنة سبع عشرة وسبعمائة ولم يتعرّض الحافظ ابن عساكر لذكر كنيسة السامرة بمرَّة. ثم قال ابن عساكر: ومما أحدث - يعني النصارى - كنيسة بناها أبو جعفر المنصور لبني قطيطا في الفورنق عند قناة صالح قريباً من دار تهادُرْ آص وأرمن اليوم وقد أخربت فيما بعد وجُعلت مسجداً يعرف بمسجد الجينيق وهو مسجد أبي اليمن. قال: ومما أُحدث كنيستا العُباد إحداهما عند دار ابن الماشكي وقد جُعلت مسجداً. والأخرى التي في رأس درب النقاشين وقد جعلت مسجداً. انتهى ما ذكره الحافظ ابن عساكر الدمشقي رحمه الله.

قلت: وظاهر سياق سيف بن عمر يقتضي أن فتح دمشق وقع في سنة ثلاث عشرة ولكن نصّ سيف على ما نصّ عليه الجمهور مِن أنها فُتحت في نصف رجب سنة أربع عشرة [تاريخ دمشق٢/١١١]. وكذا حكاه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق٢/١٠٩، ١١٠] من طريق محمد بن عائذ القرشي الدمشقي عن الوليد بن مسلم عن عثمان بن حصن بن علاّق عن يزيد بن عبيدة قال: فُتِحت دمشق سنة أربع عشرة، ورواه دُحيم عن الوليد. قال [تاريخ دمشق٢/١١٠]: سمعت أشياخنا يقولون: إن دمشق فُتِحت سنة أربع عشرة. وهكذا قال سعيد بن عبد العزيز وأبو مَعْشَر ومحمد بن إسحاق ومعمر والأموي -وحكاه عن مشايخه- وابن الكلبي وخليفة بن خيّاط وأبو عبيدة القاسم بن سلام إن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة [تاريخ دمشق٢/١٠٩-١١٢]. وزاد سعيد بن عبد العزيز وأبو معشر والأموي: وكانت اليرموك بعدها بسنة. وقال بعضهم: بل كان فتحها في شوال سنة أربع عشرة. وقال خليفة [تاريخ خليفة١/١١٣]: حاصرهم أبو عبيدة في رجب وشعبان ورمضان وشوال وتم الصلح في ذي القعدة. وقال الأموي في «مغازيه» [تاريخ دمشق٢/١١٤]: كانت وقعة أجنادين في جمادى الأولى، ووقعة

فِحْل في ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة - يعني ووقعة دمشق سنة أربع عشرة. وقال دحيم عن الوليد [تاريخ دمشق١١٥/٢]: حدثني الأموي أن وقعة فِحْل وأجنادين كانت في خلافة أبي بكر ثم مضى المسلمون إلى دمشق فنزلوا عليها في رجب سنة ثلاث عشرة يعني ففتحوها في سنة أربع عشرة. وكانت اليرموك سنة خمس عشرة، وقدم عمر إلى بيت المقدس سنة ست عشرة.

فصل

واختلف العلماء في دمشق هل فتحت صلحاً، أو عنوة؟ فأكثر العلماء على أنه استقر أمرها على الصلح، لأنهم شكّوا في المتقدِّم على الآخر أفُتحت عنوة ثم عدل الروم إلى المصالحة أو فتحت صلحاً واتفق الاستيلاء من الجانب الآخر قسراً؟ فلما شكّوا في ذلك جعلوها صلحاً احتياطاً.

وقيل: بل جُعل نصفها صلحاً ونصفها عنوة، وهذا القول قد يظهر من صنيع الصحابة في الكنيسة العظمى التي كانت أكبر معابدهم حين أخذوا نصفها وتركوا لهم نصفها والله أعلم.

ثم قيل: إن أبا عبيدة هو الذي كتب لهم كتاب الصلح، وهذا هو الأنسب والأشهر، فإن خالداً كان قد عُزل عن الإمرة، وقيل: بل الذي كتب لهم الصلح خالد بن الوليد، ولكن أقرّه على ذلك أبو عبيدة فالله أعلم.

وذكر أبو حنيفة إسحاق بن بشر [تاريخ دمشق١٢٣/٢، ١٢٥] أن الصدّيق توفي قَبل فتح دمشق، وأن عمر كتب إلى أبي عبيدة يُعزّيه والمسلمين في الصدّيق، وأنه قد استنابه على مَن بالشام، وأمره أن يستشير خالداً في الحرب، فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة كتمه من خالد حتى فُتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة، فقال له خالد: يرحمك الله، ما منعك أن تُعلمني حين جاءك؟ فقال: إني كرِهت أن أكسر عليك حرْبَك، وما سلطان الدنيا أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان وما يضر الرجل أن يَلِيَه أخوه في دينه ولا دنياه.

ومن أعجب ما يذكر ههنا ما رواه يعقوب بن سفيان الفسوي [المعرفة والتاريخ٣١٥/٢، ٣١٦]: حدثنا هشام بن عمار ثنا عبد الملك بن محمد ثنا راشد بن داود الصنعاني حدثني أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد، قال: بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى أهل اليمامة، وبعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام، فذكر الراوي قِتال خالد لأهل اليمامة إلى أن قال: ومات أبو بكر واستخلف عمر فبعث أبا عبيدة إلى الشام فقدم دمشق فاستمد أبو عبيدة عمر فكتب عمر إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى أبي عبيدة بالشام، فذكر مسيرخالد من العراق إلى الشام كما تقدم وهذا غريب جداً فإن الذي لا يُشكُّ فيه أن الصدّيق هو الذي بعث أبا عبيدة من الأمراء إلى الشام، وهو الذي كتب إلى خالد بن الوليد أن يقدم من العراق إلى الشام ليكون مدداً لمن به وأميراً عليهم، ففتح الله تعالى عليه وعلى يديه جميع الشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وقال محمد بن عائذ [تاريخ دمشق١٣٤/٢]: قال الوليد بن مسلم: أخبرني صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أن المسلمين لما افتتحوا مدينة دمشق بعثوا أبا عبيدة بن الجراح وافداً إلى أبي بكر بشيراً بالفتح فقَدِم المدينة فوجد أبا بكر قد توفي واستخلف عمر بن الخطاب فأعظم أن يتأمّر أحد من الصحابة عليه فولاّه جماعة الناس فقدم عليهم فقالوا: مرحباً بمن بعثناه بريداً فقدم علينا أميراً.

وقد روى الليث وابن لهيعة وحيوة بن شريح ومفضّل بن فضالة وعمرو بن الحارث وغير واحد [تاريخ دمشق١٣٥/٢-١٣٧] عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن الحكم عن عُلَيّ بن رباح عن عقبة بن عامر أنه بعثه أبو عبيدة بريداً بفتح دمشق، قال: فقدمت على عمر يوم الجمعة فقال لي: منذ كم لم تنزع خفيك؟ فقلت من يوم الجمعة وهذا يوم الجمعة. فقال: أصبت السُنة.

قال الليث: وبه نأخذ، يعني أن المسح على الخفين للمسافر لا يتأقّت، بل له أن يمسح عليهما ما شاء، وإليه ذهب الشافعي في القديم. وقد روى أحمد وأبو داود عن أُبيّ بن عمارة مرفوعاً مثل هذا [د(١٥٨)] [ق(٥٥٧)]، والجمهور علي ما رواه مسلم عن عَليّ في تأقيت المسح للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوم وليلة [م(٢٧٦)]. ومن الناس مَن فصل بين البريد ومَن في معناه وغيره، فقال في الأول: لا يتأقت، وفيما عداه: يتأقت لحديث عقبة وحديث علي. والله أعلم.

فصل

ثم إن أبا عبيدة بعث خالد بن الوليد إلى البقاع ففتحه بالسيف. وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون، وعلى الروم رجل يقال له: سنان تحدّر على المسلمين من عقبة بيروت فقتل من المسلمين يومئذ جماعة من الشهداء فكانوا يُسمون عين ميسنون عين الشهداء. واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان كما وعده بها الصدّيق. وبعث يزيد دحية بن خليفة إلى تدمر في سرية ليمهّدوا أمرها. وبعث أبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران فصالح أهلها.

قال أبو عبيد القاسم بن سلاّم [تاريخ دمشق١٣٣/٢] رحمه الله: افتتح خالد دمشق صلحاً، وهكذا سائر مدن الشام كانت صُلحاً دون أرضها. فعلى يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وأبي عبيدة. وقال الوليد بن مسلم [تاريخ دمشق١٣٤/٢]: أخبرني غير واحد من شيوخ دمشق أن المسلمين بينما هم على حصار دمشق إذ أقبلت خيلٌ من عقبة السلمية مُخمَّرة بالحرير فثار إليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لَهْيَا والعقبة التي أقبلوا منها، فهزموهم وطردوهم إلى أبواب حمص، فلما رأى أهل حمص ذلك ظنوا أنهم قد فتحوا دمشق فقال لهم أهل حمص: إنّا نصالحكم على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا.

وقال خليفة بن خياط [تاريخ خليفة١١٧/١]: حدثني عبد الله بن المغيرة عن أبيه قال: افتتح شرحبيل ابن حسنة الأردن كلها عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه. وهكذا قال ابن الكلبي. وقالا: بعث أبو عبيدة خالداً فغلب على أرض البقاع وصالحه أهل بعلبكّ وكتب لهم كتاباً. وقال ابن المغيرة [تاريخ دمشق١٣٩/٢] عن أبيه: وصالحهم على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ووَضْع الخراج. وقال ابن إسحاق وغيره [تاريخ دمشق١٣٩/٢]: وفي سنة أربع عشرة فُتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي القعدة. قال خليفة [تاريخ خليفة١١٧/١]: ويقال: في سنة خمس عشرة.

وقعة فِحل بكسر الفاء قيل: والحاء والصحيح تسكينها:

وقد ذكرها كثير من علماء السِّير قبل فتح دمشق وإنما ذكرها الإمام

أو جعفر بن جرير بعد فتح دمشق [تاريخ الطبري: ٣/٤٤٢] وتبع في ذلك سياق سيف بن عمر فيما رواه عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العيشمي قالا: خلّف الناسُ يزيدَ بن أبي سفيان في خَيْله في دمشق وساروا نحو فِحل وعلى الناس الذين هم بالغَوْر شرحبيل ابن حسنة وسار أبو عبيدة وقد جعَل على المقدمة خالد بن الوليد وأبو عبيدة على الميمنة وعمرو بن العاص على الميسرة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجّالة عياض بن غنم فوصلوا إلى فِحْل وهي بلدة بالغَوْر وقد انحاز الروم إلى بَيْسان، وأرسلوا مياه تلك الأراضي على ما هنالك من الأراضي فحال بينهم وبين المسلمين، وأرسل المسلمون إلى عمر يخبرونه بما هم فيه من مصابرة عدوهم وما صنعه الروم من تلك المكيدة، إلا أن المسلمين في عيش رغيد ومدد كثير، وهم على أُهبة من أمرهم. وأمير هذا الحرب شرحبيل ابن حسنة وهو لا يبيّت ولا يُصبح إلا على تعبئة. وظنّ الروم أن المسلمين على غِرّة، فركبوا في بعض الليالي ليبيّتوهم، وعلى الروم سقلاب بن مخراق، فهجموا على المسلمين فنهضوا إليهم نهضة رجل واحد لأنهم على أهبة دائماً، فقاتلوهم حتى الصباح وذلك اليوم بكماله إلى الليل. فلما أظلم الليل فرّ الروم وقُتل أميرهم سقلاب وركب المسلمون أكتافهم وأسلَمَتْهم هزيمتهم إلى ذلك الوَحْل الذي كانوا قد كادوا به المسلمين فغرّقهم الله فيه، وقتل منهم المسلمون بأطراف الرماح ما قارب الثمانين ألفاً، لم ينجُ منهم إلا الشريد، وغنموا منهم شيئاً كثيراً ومالاً جزيلاً. وانصرف أبو عبيدة وخالد بمن معهما من الجيوش نحو حمص كما أمَر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. واستخلف أبو عبيدة على الأردن شرحبيل ابن حسنة، فسار شرحبيل ومعه عمرو بن العاص فحاصر بَيْسان فخرجوا إليه فقتَل منهم مقتلة عظيمة، ثم صالحوه على مثل ما صالحت عليه دمشق، وضرب عليهم الجزية والخراج على أراضيهم وكذلك فعل أبو الأعور السلمي بأهل طبرية سواء

فصل فيما وقع بأرض العراق في هذه المدة من القتال

وقد قدمنا أن المثنى بن حارثة لما سار خالد من العراق بمَن صحبه إلى الشام ـ وقد قيل: إنه سار بتسعه آلاف، وقيل: بثلاثة آلاف، وقيل: بسبعمائة وقيل: بأقل، إلا أنهم صناديد جيش العراق ـ فأقام المثنى بمن بقيَ فاستقلّ عددهم وخاف من سطوة الفرس لولا اشتغالهم بتبديل ملوكهم وملِكاتهم، واستبطأ المثنى خبر الصدّيق فسار إلى المدينة فوجد الصدّيق في السِّياق، فأخبره بأمر العراق، فأوصى الصدّيق عمر أن يندب الناس لقتال أهل العراق. فلما مات الصدّيق ودفن ليلة الثلاثاء أصبح عمر فندب الناس وحثّهم على قتال أهل العراق، وحرّضهم ورغّبهم في الثواب على ذلك، فلم يقم أحد لأن الناس كانوا يكرهون قِتال الفرس لقوة سطوتهم، وشدة قِتالهم. ثم ندبهم في اليوم الثاني والثالث فلم يقم أحد وتكلم المثنى بن حارثة فأحسن، وأخبرهم بما فتح الله تعالى على يدي خالد من معظم أرض العراق، ومالهم هنالك من الأموال والأملاك والأمتعة والزاد، فلم يقم أحد في اليوم الثالث فلما كان اليوم الرابع كان أول مَن انتدب من المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس في الإجابة، وأمّر عمر طائفة من أهل المدينة وأمّر على الجميع أبا عبيد هذا ولم يكن صحابياً، فقيل لعمر: هلاّ أمّرت عليهم رجلاً من الصحابة؟ فقال: إنما أؤمّر أول مَن استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم. ثم دعاه فوصّاه في خاصّة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وأن يستشير سليط بن قيس فإنه رجل باشر الحروب فسار المسلمون إلى أرض العراق وهم سبعة آلاف رجل وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يُرسل مَن كان بالعراق ممن قدم مع خالد إلى العراق فجهز عشرة آلاف عليهم هاشم بن عتبة وأرسل عُمر جريرَ بن عبد الله البجلي في أربعة آلاف إلى العراق فقدم الكوفة ثم خرج منها فواقع هرقرانَ المدارَ فقتله وانهزم جيشه وغرق أكثرهم في دجلة فلما وصل الناس إلى العراق وجدوا الفرس مضطربين في مُلكهم، وآخر ما استقر عليه أمرهم أن ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بعد ما قتلوا التي كانت قبلها أزرميدُخْت وفوّضت بوران أمر المُلك عشر سنين إلى رجل منهم يقال له: رستم بن فرخزاذ على أن يقوم بأمر الحرب، ثم يصير المُلك إلى آل كسرى فقبل ذلك. وكان رستم هذا منجماً يعرف النجوم وعِلْمها جيداً، فقيل له: ما حَمَلك على هذا؟ يعنون وأنت تعلم أن هذا لا يتم لك فقال: الطمع وحُبّ الشرف.

وقعة النمارق

بعث رستم أميراً يقال له: جابان وعلى مُجنّبتيه رجلان يقال لأحدهما: خشنس ماه ويقال للآخر: مَرْدان شاه وهو حصيٌّ أمير حاجب الفرس، فالتقوا مع أبي عبيد بمكان يقال له: النمارق ـ بين الحيرة والقادسية ـ وعلى الخيل المثنى بن حارثة، وعلى الميسرة عمرو بن الهيثم فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً وهزم الله الفرس وأُسِر جابان مَرْدان شاه. فأما مَرْدان شاه. فإنه قتله الذي أسره، وأما جابان فإنه خدَع الذي أسره حتى أطلقه فأمسكه المسلمون وأبَوْا أن يُطلِقوه، وقالوا: إن هذا هو الأمير وجاؤوا به إلى أبي عبيد فقالوا: اقتله فإنه الأمير فقال: وإن كان الأمير فإني لا أقتله وقد أمّنه رجل من المسلمين ثم ركب أبو عبيد في آثار من انهزم منهم وقد لجؤوا إلى مدينة كسكر التي لابن خالة كسرى واسمه نَرْسي فوازرهم نَرْسي على قتال أبي عبيد فقهرهم أبو عبيد وغنم منهم شيئاً كثيراً وأطعمات كثيرة جداً ولله الحمد. وبعث بخُمس ما غنم من المال والطعام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة وقد قال في ذلك رجل من المسلمين:

لَعَمري وما عَمْري عليّ بهيّن ... لقد صُبّحَتْ بالخزي أهل النمارق

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... يجوسونَهم ما بين دُرْتا وبارق

قتلناهم ما بين مرج مُسلّح ... وبين الهوافي من طريق البذارق

فالتقوا بمكان بين كسكر والسقاطية وعلى ميمنة نرسي وميسرتِهِ ابنا خاله بندَوَيْه وتيرَوَيْه أولاد بسطام وكان رستم قد جهزَ الجيوش مع الجالِنوس فلما بلغ أبو عبيد ذلك أعْجَل نرسي بالقتال قبل وصولهم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الفرس وهرب نرسي والجالِنوس إلى المدائن بعد وقعة جرت بين أبي عبيد مع الجالِنوس بمكان يقال له: باروسما فبعث أبو عبيد المثنى بن حارثة وسرايا أُخَر إلى ما تاخم تلك الناحية كنهر جَوْبَر ونحوها ففتحها صلحاً وقهراً وضربوا الجزية والخراج وغنموا الأموال الجزيلة ولله الحمد والمنة وكسروا الجالِنوس الذي جاء لنُصرة جابان وغنموا جيشه وأمواله وكرّ هارباً إلى قومه حقيراً ذليلاً.

وقعة جسر أبي عبيد التي قُتِل فيها أميرُ المسلمين وخلق كثير منهم فإنا لله وإنا إليه راجعون

لما رجع الجالِنوس هارباً مما لقي من المسلمين تذامرت الفرس بينهم واجتمعوا إلى رستم فأرسل جيشاً كثيفاً عليهم ذا الحاجب بَهْمَن جاذَوَيْه وأعطاه راية أفريدون وتسمى درفش كابيان وكانت الفرس تتيمن بها. وحملوا معهم راية كسرى وكانت من جلود النمور عرضها ثمانية أذرع. فوصلوا إلى المسلمين وبينهم النهر وعليه جسر فأرسلوا: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. فقال المسلمون لأميرهم أبي عبيد: مُرْهم فليعبروا هم إلينا. فقال: ما هم بأجْرَأ على الموت منا ثم اقتحم إليهم فاجتمعوا في مكان ضيق فالتقوا هنالك فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يُعهد مثله والمسلمون في نحو من عشرة آلاف وقد جاءت الفرس معهم بأفيلة كثيرة عليها الجلاجل والنُخُل قائمةً لتذعَرَ خيول المسلمين فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرّت خيولهم من الفِيَلة ومما تسمع من الجلاجل التي عليها ولا يثبت منها إلا القليل على قَسْر. وإذا حمل المسلمون عليهم لا تَقْدِم خيلُهم على الفيلة ورشقتهم الفرس بالنَّبْل، فنالوا منهم خلقاً كثيراً وقتل المسلمون منهم مع ذلك ستة آلاف. وأمر أبوعبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولاً، فاحتَوشوها فقتلوها عن آخرها، وقد قدّمَت الفرس بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيضَ، فتقدم إليه أبو عبيد فضربَه بالسيف فقطع زلومَه فحمِيَ الفيل، وصاح صيحةً هائلةً وحمل عليه فتخبطه برجله فقتله ووقف فوقه فحمل على الفيل خليفةُ أبي عُبيد الذي كان أوصى أن يكون أميراً بعدَه فقُتل، ثم آخر ثم آخر حتى قُتل سَبعة من ثقيف كان قد نصّ أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحد، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضاً. وقد كانت دَوْمة امرأة أبي عُبيد رأت مناماً يدلّ على ما وقع سواءً بسواء. فلما رأى المسلمون ذلك وَهَنوا عند ذلك ولم يكن بقي إلا الظفَرُ بالفرس، وضَعُف أمرهم، وذهبت ريحهم، وولّوا مدبرين، وساقت الفرس خلفَهم يقتلون بشراً كثيراً وانكشف الناس فكان أمراً بليغاً وجاؤوا إلى الجسر فمرّ بعض الناس. ثم انكسر الجسر فتحكّم فيمن وراءه الفرس فقتلوا من المسلمين وغرق في الفرات نحو من أربعة آلاف. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وسار المثنى بن حارثة فوقف عند الجسر الذي جاؤوا منه، وكان الناس لما انهزموا جعل بعضهم يُلقي بنفسه في الفرات فيغرق، فنادى المثنى. أيها الناس على هَيْنتِكُم فإني واقف على فمَ الجِسْر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحدٌ ههنا، فلما عدّى الناس إلى الناحية الأخرى سار المثنى فنزل بهم أول منزل، وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين، وقد جُرح أكثرهم وأُثخنوا. ومن الناس مَن ذهب في البريّة لا يُدْرى أين ذهب، ومنهم مَن رجع إلى المدينة النبوية مذعورا، وذهب بالخبر عبد الله بن زيد بن عاصم المازني إلى عمر بن الخطاب فوجده على المنبر، فقال له عمر: ماوراءك يا عبد الله بن زيد؟ فقال: أتاك الخبر اليقين يا أمير المؤمنين، ثم صعد إليه المنبر فأخبره الخبر سرّاً، ويقال: كان أولَ مَن قدِم بخبَر الناس عبد الله بن يزيد بن الحصين الخطمي فالله أعلم ـ قال سيف بن عمر: وكانت هذه الوقعة في شعبان من سنة ثلاث عشرة بعد اليرموك بأربعين يوماً فالله أعلم ـ وتراجع المسلمون بعضهم إلى بعض وكان منهم مَن فرّ إلى المدينة فلم يُؤنِّب عمر الناس بل قال: أنا فِئَتُكم واشغل اللهُ المجوسَ بأمر مَلِكِهم. وذلك أن أهل المدائن عدَوْا على رستم فخلعوه ثم ولّوه وأضافوا إليه الفيرُزان، واختلفوا على فرقتين، فركب الفرس إلى المدائن ولحِقهم المثنى بن حارثة في نفر من المسلمين، فعارضه أميران من أمرائهم في جيشهم فأسرهما وأسر معهما بشرًا كثيراً فضرب أعناقهم. ثم أرسل المثنى إلى مَن بالعراق من أمراء المسلمين يستمدهم، فبعثوا إليه بالأمداد، وبعث إليه عمر بن الخطاب بمَدَدٍ كثير فيهم جرير بن عبد اللّه البجلي، في قومه بجيلة بكمالها، وغيرُه من سادات المسلمين حتى كثُر جيشُه.

وقعة البُوَيْب التي اقتصّ فيها المسلمون من الفرس

فلما سمع أمراء الفرس بكثرة جيوش المثنى، بعثوا إليه جيشاً آخر مع رجل يقال له: مهران فتوافَوْا هم وإياهم بمكان يقال له: البويب قريب من مكان الكوفة اليوم وبينهما الفرات. فقالوا: إما أن تَعبروا إلينا، أو نعبر إليكم. فقال المسلمون: بل اعبروا إلينا. فعبرت الفرس إليهم فتواقفوا، وذلك في شهر رمضان، فعزم المثنى على المسلمين في الفطر فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم، وعبّى الجيش، وجعل يمرُّ على كل راية من رايات الأمراء على القبائل ويعِظُهم ويحثهم على الجهاد والصبر والصمت والثبات، وفي القوم جريرُ بن عبد اللّه البجلي في بَجيلة وجماعةٌ من سادات المسلمين. وقال المثنى لهم: إني مكبرٌ ثلاث تكبيرات فتهيّئوا، فإذا كبرتُ الرابعة فاحملوا. فقابلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول، فلما كبّر أول تكبيرة عاجَلتهم الفرس فحملوا حتى غالقوهم واقتتلوا قتالاً شديداً، وركدت الحربُ ورأى المثنى في بعض صفوفه خللاً، فبعث إليهم رجلاً يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: لا تفضحوا المسلمين اليوم فاعتدلوا. فلما رأى ذلك منهم ـ وهو بنو عِجْل ـ أعجبه وضحك. وبعث إليهم يقول: يامعشر المسلمين عاداتِكم، انصروا اللّه ينصُركم. وجعل المثنى والمسلمون يَدْعون اللّهَ بالظفر والنصر. فلما طالت مدة الحرب جَمَع المثنى جماعةً من أصحابه الأبطال يَحْمون ظَهْره، وحَمل على مهران فأزاله عن موضعه حتى دخل الميمنة، وحمل غلامٌ من بني تغلب نصراني فقتل مهران وركب فرسه، كذا ذكره سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٦٦].

وقال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري٣/٤٧٢] بل حمل عليه المنذر بن حسان بن ضرار الضبي فطعنه واحتزّ رأسه جريرُ بن عبد اللّه البَجلي، واختصما في سَلَبه، فأخذ جرير السلاح وأخذ المنذر مِنْطَقَته. وهربت المجوس وركب المسلمون أكتافهم يقصلونهم قصلاً. وسبق المثنى بن حارثة إلى الجسر فوقف عليه ليمنع الفُرس من الجواز عليه ليتمكن منهم المسلمون. فركبوا أكتافهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة، ومن الغد إلى الليل فيقال: إنه قُتِل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف وللّه الحمد والمنة. وغَنِم المسلمون مالاً جزيلاً وطعاماً كثيراً، وبعثوا بالبشارة والأخماس إلى عمر ﷺ. وقد قُتِل من سادات المسلمين في هذا اليوم بشرٌ كثيرٌ أيضاً وذَلّت لهذه الوقعة رقاب الفرس وتمكّن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة فغنموا شيئا عظيماً لا يمكن حَصْره. وجرت أمورٌ يطول ذكرها بعد يوم البُويب وكانت هذه الوقعة بالعراق نظيرَ اليرموك بالشام. وقد قال الأعور الشنيّ العبدي في ذلك:

هاجت لأعورَ دار الحي أحْزانَا ... واستبدلتْ بعد عبد القيس خفّانا

وقد أرانا بها والشمْلُ مجتمعٌ ... إذ بالنُّخَيْلة قتلى جُند مِهْرانا

إذ كان سار المثنى بالخيول لهم … فقتّل الزحف من فُرْس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذي معه … حتى أبادهم مثنى ووُحدانا

فصل

ثم بعث أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب سعدَ بن أبي وقاص الزهري أحد العشرة في ستة آلاف أميراً على العراق، وكتب إلى جرير بن عبد الله والمثنى بن حارثة أن يكونا تبعاً له وأن يسمعا له ويطيعا، فلما وصل إلى العراق كانا معه، وكانا قد تنازعا الإمرة، فالمثنى يقول لجرير: إنما بعثك أمير المؤمنين مدداً لي. ويقول جرير: إنما بعثني أميراً عليك: فلما قدم سعد على إمرة العراق انقطع نزاعُهما. قال ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٤٧٢/٣]. وتوفي المثنى بن حارثة في هذه السنة. كذا قال ابن إسحاق: والصحيح أن بعث عمر سعداً إنما كان في أول سنة أربع عشرة كما سيأتي.

ذكر اجتماع الفرس على يَزْدَجِرْد بعد اختلافهم واضطرابهم ثم اجتمعت كلمتهم

كان شيرين قد جمع آل كسرى في القصر الأبيض وأمر بقتل ذُكْرانهم كلهم وكانت أم يزدجرد فيهم ومعها ابنها وهو صغير، فواعدت أخواله فجاؤوا فأخذوه منها وذهبوا به إلى بلادهم، فلما وقع ما وقع يوم البويب وقتل من قُتِل منهم كما ذكرنا، وركب المسلمون أكتافهَم وانتصروا عليهم وعلى أخْذِ بلدانهم ومحالّهم وأقاليمهم. ثم سمعوا بقدوم سعد بن أبي وقاص مِن جهة عمر، اجتمعوا فيما بينهم وأحضروا الأميرَيْن الكبيرَيْن فيهم وهما: رستم والفيرُزان فتذامروا فيما بينهم وتواصوا وقالوا لهما: لئن لم تقوما بالحرب كما ينبغي لنقتلنَّكما ونشتفي بكما. ثم رأوْا فيما بينهم أن يبعثوا خلف نِساء كسرى من كل فج ومن كل بقعة، فمن كان لها ولد من آل كسرى ملَّكوه عليهم. فجعلوا إذا أتَوْا بالمرأة عاقبوها: هل لها ولد وهي تنكرُ ذلك خوفاً على ولدها إن كان لها ولد فلم يزالوا حتى دُلّوا على أم يزدجرد فأحضَروها وأحضروا ولدها فملّكوه عليهم وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وهو مِن ولدِ شهريار بن كسرى وعزلوا بوران واستوسقت الممالك له، واجتمعوا عليه وفرحوا به، وقاموا بين يديه بالنصرة أتم قيام، واستفحل أمره فيهم وقويت شكوتهم به، وبعثوا إلى الأقاليم والرساتيق فخلعوا الطاعة للصحابة ونقضوا عهودَهم وذممهم وبعث الصحابة إلى عمر بالخبر، فأمرهم عمر أن يتبرّزوا مِن بين ظهرانَيْهم وليكونوا على أطراف البلاد حولهم على المياه، وأن تكون كل قبيلة تنظر إلى الأخرى بحيث إذا حدَثَ حدَثٌ على قبيلة لا يخفى أمرُها على جيرانهم. وتفاقم الحال جداً، وذلك في ذي القعدة مِن سنة ثلاث عشرة، وقد حج بالناس عُمر في هذه السنة وقيل: بل حج بهم عبد الرحمن بن عوف ولم يحج عمر هذه السنة والله أعلم.

ذكرُ ما وقع في هذه السنة، أعني سنة ثلاث عشرة مِن الحوادث إجمالاً ومَن توفي فيها مِن الأعيان

كانت فيها وقائع تقدّم تفصيلها ببلاد العراق على يديْ خالد بن الوليد ﷺ، فُتحت فيها الحيرة والأنبار وغيرهما مِن الأمصار.

وفيها سار خالد بن الوليد من العراق إلى الشام على المشهور.

وفيها كانت وقعة اليرموك في قول سيف بن عمر واختيار ابن جرير، وقتل بها مَن قتل مِن الأعيان ممن يطول ذكرهم وتراجمهم رضي الله عنهم أجمعين.

وفيها توفي أبو بكر الصديق ﷺ. وقد أفردنا سيرته في مجلد ولله الحمد.

وفيها وُلّي عمر بن الخطاب ﷺ يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة منها فولّى قضاء المدينة علي بن أبي طالب ﷺ واستناب على الشام أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وعزل عنها خالد بن الوليد المخزومي، وأبقاه على شورى الحرب.

وفيما فتحت بصرى صُلحاً وهي أول مدينة فُتحت مِن الشام.

وفيها فُتحت دمشق في قول سيف وغيره كما قدمنا واستُنيب فيها يزيد بن أبي سفيان وهو أول مَن وليها من أمراء المسلمين رضي الله عنهم.

وفيها كانت وقعة فِحْل مِن أرض الغَوْر وقد قُتل بها جماعة مِن الصحابة وغيرهم.

وفيها كانت وقعة جسر أبي عبيد فقُتل فيها أربعة آلاف مِن المسلمين منهم اميرهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وهو والد صفية امرأة عبدالله بن عمر وكانت امرأة صالحة رحمهما الله. ووالد المختار بن أبي عبيد كذّاب ثقيف وقد كان نائباً على العراق في بعض وقعات العراق كما سيأتي.

وفيها توفي:

■ المثنى بن حارثة في قول ابن إسحاق، وقد كان نائباً على العراق استخلفه خالد بن الوليد حين سار إلى الشام، وقد شهد مواقفَ مشهورة وله أيامٌ مذكورة ولا سيما يوم البويب بعد جسر أبي عبيد قُتل فيه مِن الفرس وغرِق بالفرات قريب من مائة ألف والذي عليه الجمهور أنه بَقيَ إلى سنة أربع عشرة كما سيأتي بيانه.

وفيها حج بالناس عُمر بن الخطاب في قول بعضهم وقيل: بل حجّ عبد الرحمن بن عوف.

وفيها استنفر عمر قبائل العرب لغزو العراق والشام فأقبلوا مِن كل النواحي فرمى بهم الشام والعراق.

وفيها كانت وقعة أجنادين في قول ابن إسحاق يوم السبت لثلاث بقين مِن جمادى الأولى منها. وكذا عند الواقدي فيما بين الرملة وبَيْت جُبْرين وعلى الروم القيقلان وأمير المسلمين عمرو بن العاص، وهو في عشرين ألفاً في قول فقُتل القيقلان وانهزمت الروم وقُتل منهم خلقٌ كثير. واستشهد مِن المسلمين أيضاً جماعة منهم هشام بن العاص والفضل بن العباس، وأبان بن سعيد وأخواه خالد وعمرو، ونعيم بن عبد الله بن النّحّام، والطفيل بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدَّوْسيّان، وضِرار بن الأزور، وعكرمة بن أبي جهل، وعمُّه سلمة بن هشام، وهبّار بن سفيان، وصخر بن نصر، وتميم وسعيد ابنا الحارث بن قيس رضي الله عنهم.

وقال محمد بن سعد [الطبقات الكبرى١٢٤/٣]: قُتل يومئذ طُليب بن عُمير

وأمه أروى بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ وممن قُتل يومئذ عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وكان عمرُه يومئذ ثلاثين سنة فيما ذكره الواقدي قال: ولم يكُن له رواية وكان ممن صبَر يوم حُنين. قال ابن جرير: وقتل يومئذ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة والحارث بن أوس بن عتيك رضي الله عنهم.

وفيها كانت وقعة مرج الصفَّر في قول خليفة بن خياط [تاريخ خليفة١/١٠٤] وذلك لثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى وأمير الناس خالد بن سعيد بن العاص فقتل يومئذ وقيل: إنما قُتِل أخوه عمرو وقيل: ابنه فالله أعلم.

قال ابن إسحاق [تاريخ خليفة١/١٠٤]: وكان أمير الروم قلقط فقُتِل من الروم مقتلة عظيمة حتى جرت طاحون هناك مِن دمائهم. والصحيح أن وقعة مرج الصفَّر في أول سنة أربع عشرة كما سيأتي.

ذكر المتوفَّين في هذه السنة مُرتَّبين على الحروف كما ذكرهم شيخنا الحافظ الذهبي في تاريخه

■ **أبان بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي** [الاستيعاب١/٦٢]: أبو الوليد المكي صحابي جليل: وهو الذي أجار عثمان بن عفان يوم الحديبية حتى دخل مكة لأداء رسالة رسول ﷺ. أسلم بعد مَرْجِع أخويه مِن الحبشة. خالد وعمرو، فدعَواه إلى الإسلام فأجابهما. وساروا فوجدوا رسول الله ﷺ قد فتح خيبر. وقد استعمله رسول الله ﷺ سنة تسع على البحرين وقُتل بأجنادين.

■ **أنسة مولى رسول الله ﷺ**: المشهور أنه قُتل ببدر فيما ذكره البخاري وغيره، وزعم الواقدي [طبقات ابن سعد٣/٤٨، ٤٩] فيما نقله عن أهل العلم أنه شهد أُحداً وأنه بقي بعد ذلك زماناً، قال: وحدثني ابن أبي الزناد، عن محمد بن يوسف أن أنسة مات في خلافة أبي بكر الصدِّيق، وكان يكنى أبا مسروح. وقال الزهري [طبقات ابن سعد٣/٤٩]: كان يَأذَن للناس على النبي ﷺ.

■ **تميم بن الحارث بن قيس السهمي وأخوه سعيد**: صحابيان جليلان، هاجَرا إلى الحبشة وقُتلا بأجنادين.

■ **الحارث بن أوس بن عتيك** [الاستيعاب١/٢٨١]: من مهاجرة الحبشة، قتل بأجنادين.

■ **خالد بن سعيد بن العاص الأموي** [الاستيعاب٢/٤٢٠]: من السابقين الأولين، ممن هاجر إلى الحبشة وأقام بها بضع عشرة سنة ويقال: إنه كان على صنعاء مِن جهة رسول الله ﷺ وأمرّه الصدّيق على بعض الفتوحات كما تقدم قُتل يوم مرج الصفَّر في قول، وقيل: بل هرب فلم يمكّنه الصدّيق من دخول المدينة تعزيراً له، فأقام شهراً في بعض ظواهرها حتى أذِن له، ويقال: إن الذي قَتله أسلم، وقال: رأيتُ له حين قتلتُه نوراً ساطعاً إلى السماء ﷺ.

■ **سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي حزيمة**: ويقال حارثة بن حرام بن حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي: سيدهم، أبو ثابت ويقال: أبو قيس صحابي جليل كان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً في قول عروة وموسى بن عقبة والبخاري وابن ماكولا [تاريخ دمشق٢٠/٢٣٨، ٢٣٩] [التاريخ الكبير٤/٤٤] [الإكمال٣/١٤٠].

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق٢٠/٢٤٩] من طريق حجاج بن أرطاة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أن راية المهاجرين يوم بدر كانت مع علي وراية الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنهما.

قلت: والمشهور أن هذا كان يوم الفتح والله أعلم.

وقال الواقدي: لم يشهدها لأنه نهسته حية فشغلته عنها بعد أن تجهز لها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، وشهد أحُداً وما بعدها. وكذا قال خليفة بن خياط [طبقات خليفة١/٢١٦]. وكانت له جفنة تدور مع النبي ﷺ حيث دار مِن بيوت نسائه بلحم وثريد، أو لبن وخبز، أو خبز وسمن أو بخلٍّ وزيت، وكان يُنادي عند أُطُمِهِ كل ليلة لمن أراد القِرى. وكان يُحسن الكتابة بالعربيّ، والرمي والسباحة، وكان يُسمّى مَن أحسن ذلك كاملاً. وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر ما ذكره غير واحد مِن علماء التاريخ أنه تخلّف عن بيعة الصدّيق حتى خرج إلى الشام فمات بقرية مِن حَوْران سنة ثلاث عشرة في خلافة الصدّيق. قاله ابن إسحاق والمدائني وخليفة [الاستيعاب٢/٥٩٩]. قال: وقيل: في أول خلافة عمر. وقيل: سنة أربع عشرة وقيل: سنة خمس عشرة. وقال الفلاس وابن بكير [تاريخ دمشق٢٠/٢٦٩، ٢٧٠] سنة ست عشرة.

قلت: أما بيعة الصدّيق فقد روينا في «مسند الإمام أحمد» أنه سلّم للصدّيق ما قاله مِن أن الخلفاء مِن قريش. وأما موته بأرض الشام فمحقق والمشهور أنه بحوران.

قال محمد بن عائذ الدمشقي [تاريخ دمشق٢٠/٢٦٦] عن عبد الأعلى عن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: أول مدينة فُتحت مِن الشام بُصرى، وبها توفي سعد بن عُبادة. وعند كثير من أهل زماننا أنه دفن بقرية من غوطة دمشق، يقال لها: المنيحة وبها قبرٌ مشهورٌ به. ولم أرَ الحافظ ابن عساكر تعرّض لذكر هذا القبر في ترجمته بالكلية [تاريخ دمشق٢٠/٢٣٧]. فالله أعلم.

قال ابن عبد البر [الاستيعاب٢/٥٩٩]: ولم يختلفوا أنه وجِد ميتاً في مُغْتَسله، وقد اخضرّ جسده ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول:

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عُبادة
رميناه بسهمين فلم نُخطِ فُؤادَهْ

قال ابن جريج: سمعت عطاء يقول: سمعت أن الجن قالوا في سعد بن عبادة هذين البيتين.

له عن النبي ﷺ أحاديث، وكان ﷺ من أشد الناس غَيْرة، ما تزوّج امرأة إلا بكراً، ولا طلّق امرأة فتجاسر أحد أن يخطبها بعدُه. وقد رُوي أنه لما خرَج مِن المدينة قسم ماله بين بَنيه، فلما توفيَ وُلِد له وَلد فجاء أبو بكر وعُمر إلى ابنه قيس بن سعد فأمراه أن يُدْخِل هذا معهم، فقال: إني لا أغيِّر ما صَنع سعد ولكن نصيبي لهذا الولد.

■ **سلمة بن هشام بن المغيرة**: أخو أبي جهل بن هشام [الاستيعاب٢/٦٤٣]، أسلم سلمة قديماً وهاجر إلى الحبشة فلما رجع منها حبسه أخوه وأجاعه فكان رسول الله ﷺ يدعو له في القنوت ولجماعة معه مِن المستضعفين. ثم انسلّ فلحِق برسول الله ﷺ بالمدينة بعد الخندق، وكان معه بها. وقد شهد أجنادين وقُتل بها ﷺ.

■ **ضرار بن الأزور الأسدي** [الاستيعاب٢/٧٤٦]:، كان مِن الفرسان المشهورين، والأبطال المذكورين، له مواقف مشهودة، وأحوال محمودة. ذكر عروة وموسى بن عقبة أنه قُتل بأجنادين [تاريخ دمشق٢٤/٣٩٠، ٣٩١]. له

حديث في استحباب إبقاء شيء من اللبن في الضرع عند الحلب [المسند ٣١١/٤، ٣٣٩].

■ **طليب بن عمير بن وهب بن كثير بن عبد بن قصي القرشي العبدي**: أمه أروى بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ. أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية وشهد بدراً. قاله ابن إسحاق والواقدي والزبير بن بكار [تاريخ دمشق١٤٢/٢٥، ١٤٦]. ويقال: إنه أول مَن ضرب مُشركاً، وذلك أن أبا جهل سبّ النبي ﷺ فضربه طُليب بلَحْيِ جملٍ فشجّه. استشهد طليب بأجنادين وقد شاخ ﷺ.

■ **عبد اللّه بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي** [الاستيعاب٩٠٤/٣]: ابن عم النبي ﷺ كان من الأبطال المذكورين والشجعان المشهورين، قُتل يوم أجنادين بعدما قتل عشرة من الروم مبارزة كلهم بطارقة أبطال. وله من العمر يومئذ بضع وثلاثون سنة.

■ **عبد اللّه بن عمرو الدوسي** [الاستيعاب٩٥٦/٣]: قتل بأجنادين. وليس هذا الرجل معروفاً.

■ **عثمان بن طلحة العبدري الحجبي** [الاستيعاب١٠٣٤/٣]: قيل: إنه قُتل بأجنادين، والصحيح أنه تأخر إلى ما بعد الأربعين.

■ **عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن امية الأموي**: أبو عبد الرحمن [الاستيعاب١٠٢٥/٣] أمير مكة نيابة عن رسول اللّه ﷺ استعمله عليها عام الفتح، وله من العمر عشرون سنة، فحجّ بالناس عامئذ، واستنابه عليها أبو بكر بعده عليه الصلاة والسلام. وكانت وفاته بمكة، قيل يوم توفي أبو بكر رضي اللّه عنهما. له حديث واحد رواه أهل السنن الأربعة [د١٦٠٣، ١٦٠٤] [ت٦٤٤] [س٢٦١٧] [ق١٨١٩، ٢١٨٩].

■ **عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم أبو عثمان القرشي المخزومي** [الاستيعاب١٠٨٢/٣]: كان من سادات الجاهلية كأبيه، ثم أسْلم عام الفتح بعدما فرّ، ثم رجع إلى الحق. واستعمله الصدّيق على عُمان حين ارتدوا فظفر بهم كما تقدم. ثم قَدِم الشام وكان أميراً على بعض الكراديس، ويقال: إنه لا يُعرَف له ذنب بعدما أسلم. وكان يُقبِّل المُصحف ويبكي ويقول: كلام ربي كلام ربي [المعجم الكبير ٣٧١/١٧، ٣٧٢(١٠١٨)] [المستدرك٢٤٣/٣]. احتج بهذا الإمام أحمد على جواز تقبيل المصحف ومشروعيته. وقال الشافعي: كان عكرمة محمود البلاء في الإسلام. قال عروة: قُتل بأجنادين. وقال غيره: باليرموك بعد ما وُجد به بضع وسبعون ما بين ضربة وطعنة ﷺ.

■ **الفضل بن العباس بن عبد المطلب** [الاستيعاب: ١٢٦٩/٣]: قيل: إنه توفي في هذه السنة، والصحيح أنه تأخر إلى سنة ثماني عشرة.

■ **نعيم بن عبد اللّه بن النحام** [الاستيعاب١٥٠٧/٤] أحد بني عدي: أسلم قديماً قبل عُمر ولم يتهيأ له هجرة إلى ما بعد الحديبية؛ وذلك لأنه كان فيه برٌّ بأقاربه، فقالت له قريش: أقم عندنا على أيِّ دين شئت، فواللّه لا يتعرَّضك أحد إلا ذهبَتْ أنفسنا دونك. استشهد يوم أجنادين وقيل: يوم اليرموك ﷺ.

■ **هبار بن الأسود بن أسد أبو الأسود القرشي الأسدي** [الاستيعاب١٥٣٦/٤]: هذا الرجل كان قد طعن راحلة زينب بنت النبي ﷺ يوم خرجت من مكة حتى أسقَطت، ثم أسلم بعدُ فحسُن إسلامه، وقُتل بأجنادين ﷺ.

■ **هبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي** [الاستيعاب١٥٣٦/٤] ابن أخي أبي سلمة: أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة واستشهد يوم أجنادين على الصحيح، وقيل: قُتل يوم مؤتة واللّه أعلم.

■ **هشام بن العاص بن وائل السهمي** [الاستيعاب١٥٣٩/٤] أخو عمرو بن العاص: روى الترمذي [الكبرى(٨٣٠٠)] [المسند ٣٠٤/٢، ٣٢٧، ٣٥٣، ٣٥٤] أن رسول اللّه ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان» وقد أسلم هشام قبل عمرو، وهاجر إلى الحبشة، فلما رجع منها احتُبس بمكة. ثم هاجر بعد الخندق، وقد أرسله الصدّيق إلى ملك الرّوم. وكان من الفرسان. وقُتل بأجنادين، وقيل: باليرموك، والأول أصح واللّه أعلم

■ **أبو بكر الصديق** [الاستيعاب٩٦٣] ﷺ: تقدم وله ترجمة مفردة وللّه الحمد.

سنة أربع عشرة من الهجرة

استهلت هذه السنة والخليفة عمر بن الخطاب يحثّ الناس ويحرضهم على جهاد أهل العراق. وذلكَ لما بلغهِ من قتل أبي عبيد يوم الجسر، وانتظام شمل الفرس واجتماع أمرهم على يزدجرد الذي أقاموه من بيت المُلْك، ونقض أهل الذمة بالعراق عهودهم، ونبذهم المواثيق التي كانت عليهم، وآذوا المسلمين وأخرجوا العمال من بين أظهرهم. وقد كتب عمر إلى من هنالك من الجيش أن يتبرّزوا من بين أظهرهم إلى أطراف البلاد.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٤٨٠/٣، ٤٨٧] رحمه اللّه: وركب عمر ﷺ في أول يوم من المحرم هذه السنة في الجيوش من المدينة فنزل على ماء يقال له: صِرار، فعسكر به عازماً على غزو العراق بنفسه واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة. ثم عقد مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه، ونودي: أن الصلاة جامعة، وقد أرسل إلى عليّ فقدم من المدينة، ثم استشارهم فكلّهم وافقه على الذهاب إلى العراق، إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه قال له: إني أخشى إن كُسِرتَ أن تُضْعِف المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع أنت إلى المدينة. فارْفَأ عمر والناس عند ذلك واستصوبوا رأي ابن عوف. فقال عمر: فمَن ترى أن نبعث إلى العراق؟ فقال: قد وجَدْتُه. قال: ومَن هو؟ قال الأسد في براثِنه سعد بن مالك الزهري. فاستجاد قوله وأرسل إلى سعد فأمّره على العراق وأوصاه فقال: يا سعد بني وهيب لا يغرنَّكَ من اللّه أن قيل: خالُ رسول اللّه ﷺ وصاحبُه، فإن اللّه لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحَسَن، وإن اللّه ليس بينَه وبين أحدٍ نسب إلا بطاعته فالناس شريفُهم ووضيعُهم في ذات اللّه سواء، اللّه ربهم وهم عِباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند اللّه بالطاعة، فانْظُر الأمر الذي رأيتَ رسول اللّه ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه، فإنه الأمر. هذه عظتي إياك، إن تركتَها ورغبتَ عنها حبِط عملُك وكنتَ من الخاسرين. ولما أراد فراقه قال له: إنك ستُقدم على أمر شديد، فالصبر الصبر على أصابك ونابك، تُجمع لك خشية اللّه، واعلم أن خشية اللّه تجتمع في أمْرَين، في طاعته واجتناب معصيته، وإنما طاعة مَن أطاعه ببُغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصيان مَن عصاه بحُب الدنيا وبُغض الآخرة. وللقلوب حقائق يُنشِئها اللّه إنشاء، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبّة الناس فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتَهم، وإن اللّه إذا أحبّ عبداً حبّبه وإذا أبغض عبداً بغّضه، فاعتبرْ منزلتك عند اللّه بمنزلتكِ عند الناس. قالوا:

فسار سعد نحو العراق في أربعة آلاف ثلاثة آلاف من أهل اليمن، وألف من سائر الناس، وقيل: في ستة آلاف.

وشيعهم عمر من صرار إلى الأعوص وقام عمر في الناس خطيباً هنالك فقال: إن اللّه إنما ضرب لكم الأمثال، وصرّف لكم القول ليُحييَ به القلوب فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها اللّه، مَن علم شيئاً فلينتفع به، فإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهَين واللِّين. وأما التباشير فالرحمة. وقد جعل اللّه لكل أمر باباً، ويسّر لكل باب مفتاحاً، فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت والاستعداد بتقديم الأعمال. والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَله حق والاكتفاء بما يكفيه من الكفَاف، فإن مَن لم يكفه الكفاف لم يُغنِهِ شيء. إني بينكم وبين اللّه، وليس بيني وبينه أحد، وإن اللّه قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهوا شكاتكم إلينا، فمَن لم يستطع فإلى مَن يُبَلِّغُناها نأخذ له الحق غير متعتع. ثم سار سعد إلى العراق، ورجع عمر بمَن معه من المسلمين إلى المدينة. ولما انتهى سعد إلى نهر زرود، ولم يبق بينه وبين أن يجتمع بالمثنى بن حارثة إلا اليسير، وكل منهما مشتاق إلى صاحبه، انتقض جُرح المثنى بن حارثة الذي كان جُرِحه يوم الجسر فمات رحمه اللّه ﷺ، واستخلف على الجيش بشير ابن الخصاصية. ولما بلغ سعداً موته ترحّم عليه وتزوّج زوجته سَلْمى. ولما وصل سعد إلى محلّة الجيوش انتهت إليه رياستها وإمرتها، ولم يَبْقَ بالعراق أمير من سادات العرب إلا تحت أمره وأمده عمر بأمداد أُخَر حتى اجتمع معه يوم القادسية ثلاثون ألفاً، وقيل: ستة وثلاثون. وقال عمر: واللّه لأرمين مُلوك العجم بمُلوك العرب. وكتب إلى سعد أن يجعلَ الأمراء على القبائل، والعُرفاء على كل عشرة عريفاً على الجيوش، وأن يواعِدَهم إلى القادسية، ففعل ذلك سعد، عرّف العرفاء، وأمّر على القبائل، وولّى على الطلائع، والمقدمات، والمجنبات والساقات، والرجالة، والركبان، كما أمَر أمير المؤمنين عمر.

قال سيف بإسناده عن مشايخه قالوا [تاريخ الطبري٣/٤٨٩، ٤٩٠]: وجعل عمر على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء، وجعل داعية الناس وقاصّهم سلمان الفارسي. وجعل الكاتب زياد بن أبي سفيان. قالوا: وكان في هذا الجيش كله من الصحابة ثلاثمائة وبضعة عشر صحابياً، منهم بضعة وسبعون بدرياً، وكان فيه سبعمائة من أبناء الصحابة رضي اللّه عنهم.

وبعث عمر كتاباً إلى سعد يأمره بالمبادرة إلى القادسية والقادسية بابُ فارس في الجاهلية، وأن يكون بين الحَجَر والمَدَر، وأن يأخذ الطرُق والمسالك على فارس، وأن يبدُروهم بالضرب والشدة، ولا يهولنّك كثرة عَدَدهم وعُدَدهم، فإنهم قوم خَدَعة مكرة، وإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم، ثم لم يجتمع لهم شملهم أبداً إلا أن يجتمعوا، وليست معهم قلوبهم. وإن كانت الأخرى فارجعوا إلى ما وراءكم حتى تَصلوا إلى الحَجَر فإنكم عليه أجرأ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل، حتى يأتيَ اللّه بالفتح عليهم ويردُّ لكم الكرَّة. وأمره بمحاسبة نفسه وموعظة جيشه، وأمرهم بالنية الحسنة والصبر فإن النصر يأتي من اللّه على قدر النية، والأجْر على قدر الحسبة، وسلوا اللّهَ العافيةَ، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا باللّه، واكتب إليّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم، واجعلني بكتبك إليّ كأني أنظر إليكم، واجعلني من أمركم على الجلية، وخف اللّه وارجه ولا تدل بشيء، واعلم أن اللّه قد توكل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن يصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم.

فكتب إليه سعد يصف له كيفية تلك المنازل والأراضي بحيث كأنه يشاهدها، وكتب إليه يخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأمثاله، فهم يطلبونا ونحن نطلبهم، وأمر اللّه بعد ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا فنسأل اللّه خير القضاء وخير القدرِ في عافية، وكتب إليه عمر: قد جاءني كتابك وفهمته، فإذا لقيت عدوك ومنحك اللّه أدبارهم، فإنه قد ألقي في روعي أنكم ستهزمونهم فلا تشكن في ذلك، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء اللّه، وجعل عمر يدعو لسعد خاصة وله وللمسلمين عامة.

ولما بلغ سعد العذيب اعترض للمسلمين جيش للفرس مع شيرزاذ بن أزاذويه، فغنموا مما معه شيئاً كثيراً ووقع منهم موقعاً كبيراً، فخمسها سعد وقسم أربعة أخماسها في الناس واستبشر الناس بذلك وفرحوا، وتفاءلوا، وأفرد سعد سرية تكون حياطة لمن معهم من الحريم، على هذه السرية غالب بن عبد اللّه الليثي.

غزوة القادسية

ثم سار سعد فنزل القادسية، وبث سراياه، وأقام بها شهرا لم ير أحدا من الفرس، فكتب إلى عمر بذلك، والسرايا تأتي بالميرة من كل مكان. فعجت رعايا الفرس من أطراف بلادهم إلى يزدجرد من الذين يلقون من المسلمين من النهب والسبي. وقالوا: إن لم تنجدونا وإلا أعطينا ما بأيدينا وسلمنا إليهم الحصون. واجتمع رأي الفرس على إرسال رستم إليهم، فبعث إليه يزدجرد فأمره على الجيش فاستعفى رستم من ذلك، وقال: إن هذا ليس برأي في الحرب، إن إرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشا كثيفا مرة واحدة. فأبى الملك إلا ذلك، فتجهز رستم للخروج. ثم بعث سعد كاشفا إلى الحيرة وإلى صلوبا، فأتاه الخبر بأن الملك قد أمر على الحرب رستم بن الفرخزاذ الأرمني، وأمده بالعساكر. فكتب سعد إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر: لا يكربنك مايأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن باللّه وتوكل عليه، وابعث إليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه، فإن اللّه جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا عليهم، واكتب إلي في كل يوم.

ولما اقترب رستم بجيوشه وعسكر بساباط، كتب سعد إلى عمر يقول: إن رستم قد عسكر بساباط وجر الخيول والفيول وزحف علينا بها، وليس شيء أهم عندي، ولا أكثر ذكرا مني لما أحببت أن أكون عليه من الاستعانة والتوكل. وعبأ رستم فجعل على المقدمة وهي أربعون ألفا الجالنوس، وعلى الميمنة الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام وذلك ستون ألفا، وعلى الساقة البندران في عشرين ألفا، فالجيش كله ثمانون ألفا فيما ذكره سيف وغيره. وفي روايه: كان رستم في مائة ألف وعشرين ألفا، يتبعها ثمانون ألفا، وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل أبيض كان لسابور، فهو أعظمها وأقدمها، وكانت الفيلة تألفه، ثم بعث سعد جماعة من السادات منهم النعمان بن مقرن، وفرات بن حبان، وحنظلة بن الربيع التميمي، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعب، وعمر بن معديكرب، يدعون رستم إلى اللّه عز وجل. فقال لهم رستم: مااقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعود اللّه إيانا، أخذ بلادكم وسبي نسائكم وأبنائكم وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك، وقد رأى رستم في

منامه كان ملكا نزل من السماء فختم على سلاح الفرس كله ودفعه إلى رسول الله ﷺ فدفعه رسول الله ﷺ إلى عمر. وذكر سيف بن عمر أن رستم طاول سعدا في اللقاء حتى كان بين خروجه من المدائن وملتقاه سعدا بالقادسية أربعة أشهر كل ذلك لعله يضجر سعدا ومن معه ليرجعوا، ولولا أن الملك استعجله ما التقاه، لما يعلم من غلبة المسلمين لهم ونصرهم عليهم، ولما رأى في منامه، ولما يتوسمه، ولما سمع منهم، ولما عنده من علم النجوم الذي يعتقد صحته في نفسه لما له من الممارسة لهذا الفن. ولما دنا جيش رستم من سعد أحب سعد أن يطلع على أخبارهم على الجلية، فبعث رجلا سرية لتأتيه برجل من الفرس وكان في السرية طليحة الأسدي الذي كان ادعى النبوة ثم تاب. وتقدم الحارث مع أصحابه حتى رجعوا. فلما بعث سعد السرية اخترق طليحة الجيوش والصفوف، وتخطى الألوف، وقتل جماعة من الأبطال حتى أسر أحدهم وجاء به لا يملك من نفسه شيئا، فسأله سعد عن القوم فجعل يصف شجاعة طليحة، فقال دعنا من هذا وأخبرنا عن رستم، فقال: هو في مائة ألف وعشرين ألفا، ويتبعها مثلها. وأسلم الرجل من فوره رحمه الله.

قال سيف عن شيوخه. ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا: فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة وقد بعث الله إلينا رسولا قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز. فقال له رستم: فما هو؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا؟ وأي شيء أيضا؟ قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضا وأي شيء أيضا: والناس بنو آدم، فهم أخوة لأب وأم، قال وحسن أيضا. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضا. قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل.

قالوا: ثم بعث إليه سعد رسولا آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة. وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فان تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبي قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله: قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي، فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال نعم! كم أحب إليكم؟ يوما أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال ماسن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال! لا: ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة. إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب. ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلا فبعث إليهم حذيفة بن محصن فتكلم نحو ما قال ربعي. وفي اليوم الثالث المغيرة بن شعبة فتكلم بكلام حسن طويل. قال فيه رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخولكم أرضنا كمثل الذباب رأى العسل. فقال من يوصلني إليه وله درهمان؟ فلما سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلا يجده، وجعل يقول من يخلصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل جحرا في كرم فلما رآه صاحب الكرم ضعيفا رحمه فتركه، فلما سمن أفسد شيئا كثيرا فجاء بجيشه، واستعان عليه بغلمانه فذهب ليخرج فلم يستطع لسمنه فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا. ثم استشاط غضبا وأقسم بالشمس لأقتلنكم غدا فقال المغيرة: ستعلم. ثم قال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة. ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا. فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون وستصيرون لنا عبيدا على رغمكم؟! فلما قال ذلك استشاط غضبا.

وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن صفوان الثقفي حدثنا أمية بن خالد حدثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن. قال: قال أبو وائل: جاء سعد حتى نزل القادسية ومعه الناس قال لا أدري لعلنا لا نزيد على سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بين ذلك، والمشركون ثلاثون ألفا ونحو ذلك، فقالوا لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم؟ ارجعوا. قال: قلنا ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من قلتنا ويقولون دوك دوك وشبهونا بالمغازل. فلما أبينا عليهم أن نرجع قالوا: ابعثوا إلينا رجلا من عقلائكم يبين لنا ما جاء بكم. فقال المغيرة بن شعبة، أنا: فعبر إليهم فقعد مع رستم على السرير فنخروا وصاحوا، فقال: إن هذا لم يزيدني رفعة ولم ينقص صاحبكم. فقال رستم: صدق، ما جاء بكم؟ فقال: إنا كنا قوما في شر وضلالة، فبعث الله إلينا نبيا فهدانا الله به ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة تنبت في هذا البلد، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبرلنا عنها، أنزلونا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبة. فقال رستم إذا نقتلكم. قال إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار وأديتم الجزية. قال: فلما قال وأديتم الجزية نخروا وصاحوا وقالوا: لا صلح بيننا وبينكم. فقال المغيرة. تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟ فقال رستم: بل نعبر إليكم. فاستأخر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم.

وذكر سيف أن سعدا كان به عرق النسا يومئذ، وأنه خطب الناس وتلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وصلى بالناس الظهر ثم كبر أربعا وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، في طردهم إياهم، وقتلهم لهم. وقعودهم لهم كل مرصد، وحصرهم لبعضهم في بعض

الأماكن حتى أكلوا الكلاب والسنانير. وطارد شاردهم حتى وصل إلى نهاوند، ولجأ أكثرهم إلى المدائن، ولحقهم المسلمون إلى أبوابها. وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل الوقعة فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم وسياطهم بأيديهم، والنعال في أرجلهم، وخيولهم الضعيفة، وخبطها الأرض بأرجلها. وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها. وعددها. ولما استأذنوا على الملك يزدجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه، وكان متكبرا قليل الأدب، ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ماأسمها؟ عن الأردية، والنعال، والسياط ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه. ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال له النعمان بن مقرن: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة. فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم، ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكروه عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد. فعرفنا جميعاً فَضْل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمَن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسَّن الحسن وقبّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة. وإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم، وإن أتّقيتمونا بالجزْي قَبِلْنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم. قال: فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذاتِ بين منكم، قد كنا نوكّل بكم قُرى الضواحي فيكفونكم، لاتغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثُر فلا يغرنَّكم منّا، وإن كان الجَهْد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خِصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم مَلِكاً يرفق بكم. فأسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يُكرِم الأشرافَ الأشرافُ، ويعظِّم حقوق الأشرافِ الأشرافُ، وليس كل ما أُرسلوا له جمعوه لك ولا كلُّ ما تكلمتَ به أجابوك عنه، وقد أحسنوا ولا يحسُن بمثلهم إلا ذلك. فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك. إنك قد وصفتنا صفةً لم تكن بها عالماً، فأما ماذكرْتَ من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يُشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعْلان والعقارب والحيّات، ونرى ذلك طعامنا، وإنما المنازل، فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتُل بعضنا بعضاً، وأن يُغير بعضنا على بعض وإن كان أحدُنا ليدفن ابنته وهي حية كراهيةَ أن تأكل من طعامه فكانت حالنا قبلَ اليوم ما ذكرتُ لك فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده. فأرضُه خيرُ أرضنا، وحسَبُه خير أحسابنا، وبيتُه خير بيوتنا، وقبيلتُه خير قبائلنا، وهو نفسُه كان خيْرَنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلَمنا، فدعانا إلى أمر فلم يُجبه أحد أولَ من تِرْب كان له وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدّق وكذّبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيمابيننا وبين رب العالمين. فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالكٌ إلا وجهي، وأنا خلقتُ كل شيء، وإليّ يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثتُ إليكم هذا الرجل لأدلّكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: مَن تابَعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومَن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومَن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمَن قُتل منكم أدخلته جنتي، ومَن بقي منكم أعقبتُه النصر على مَن ناوأه. فاخترْ إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تُسْلِم فتنجِّي نفسك. فقال يزدجرد: استقبلتَني بمثل هذا؟! فقال ما استقبلتُ إلا مَن كلمني، ولو كلّمني غيرك لم أستقبِلْك به. فقال: لولا أنّ الرسل لا تُقتَل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي. وقال: ائتوني بوقْر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من أبيات المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلِموه أني مُرسلٌ إليه رستم حتى يدفِنه وجُنْده في خندق القادسية وينكِّل به وبكم من بَعْد، ثم أُوردُه بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدّ مما نالكم من سابور. ثم قال: مَن أشرفكم؟ فسكت القوم فقال عاصم بن عمرو وافتات ليأخذ التراب: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحمِّلْنيه، فقال: أكذاك؟ قالوا: نعم. فحمله على عُنقه فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها ثم انجذب في السير فأتوا به سعداً وسبقهم عاصم فمر بباب قُدَيس فطواه فقال: بشرُّوا الأمير بالظفَر، ظفِرنا إن شاء الله تعالى: ثم مضى حتى جعل التراب في الحِجْر ثم رجع فدخل على سعدٍ فأخبره الخبر. فقال: ابشروا فقد واللهِ أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم، وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم. ثم لم يزل أمر الصحابة يزداد في كل يوم علواً وشرفاً ورفعة، وينحطّ أمر الفرس سفلاً وذلاً ووهناً.

ولما رجع رستم إلى المَلِك يسأله عن حال مَن رأى من المسلمين فذكر له عقلهم وفصاحتهم وحِدّة جوابهم، وأنهم يَرومون أمراً يوشِك أن يُدركوه. وذكر ما أمر به أشرفَهم من حمل التراب وأنه استحمق أشرَفهم في حملِهِ التراب على رأسه، ولو شاء اتّقى بغيره وأنا لا أشعر. فقال له رستم: إنه ليس بأحمق، وليس هو بأشرفهم، إنما أراد أن يفتديَ قومَه بنفسه ولكن واللهِ ذهبوا بمفاتيح أرضنا وكان رستم منجماً، ثم أرسل رجلاً وراءهم وقال: إن أدرك التراب فردّه تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غَلبونا على أرضنا. قال: فساق وراءهم فلم يُدركهم بل سبقوه إلى سعد بالتراب. وساء ذلك فارس وغضبوا من ذلك أشدّ الغضب واستهجنوا رأي المَلِك.

فصل

كانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها، وذلك أنه لما تواجه الصفان كان سعد ﷺ قد أصابه عِرق النَّسا، ودمامل في جسده، فهو لا يستطيع الركوب، وإنما هو في قصر مُتكئ على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبِّر أمره، وقد جعل أمْر الحرب إلى خالد بن عُرْفطة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح، وكان قيس والمغيرة بن شعبة قد قَدِما على سعد مدداً من عند أبي عبيدة من الشام بعدما شهدا وقعة اليرموك.

وزعم ابن إسحاق أن المسلمين كانوا ما بين السبعة آلاف إلى الثمانية آلاف [تاريخ خليفة١/١١٩]، وأن رستم كان في ستين ألفاً، فصلّى سعد

بالناس الظهر ثم خطب الناس فوعظهم وحثّهم وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقرأ القرّاء آيات الجهاد وسُوَرَه. ثم كبّر سعد أربعاً ثم حملوا بعد الرابعة فاقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا، وقد قُتِل مِن الفرقين بشر كثير، ثم أصبحوا إلى مواقفهم فاقتتلوا يومهم، ذلك وعامّة ليلتهم، ثم أصبحوا كما أمسوا على مواقفهم، فاقتتلوا حتى أمسوا ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كذلك وأمست هذه الليلة تسمى ليلة الهرير، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالاً شديداً وقد قاسَوْا مِن الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية بسبب نَفْرَتها منها أمراً بليغاً، وقد أباد الصحابة الفِيَلة ومَن عليها، وقلعوا عيونَها، وأبلى جماعة مِن الشجعان في هذه الأيام مثل طليحة الأسدي، وعمرو بن مَعْديكرب، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وضِرار بن الخطاب، وخالد بن عُرْفطة، وأشكالهم وأضرابهم. فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم -ويسمى يوم القادسية، وكان يوم الاثنين مِن المحرم سنة أربع عشرة كما قاله سيف بن عمر التميمي- هبّت ريح شديدة فرفعت خيام الفُرْس عن أماكنها وألقت سرير رستم الذي هو منصوب له، فبادر فركب بغلته وهرب فأدركه المسلمون فقتلوه وقتلوا الجالِنوس مُقَدَّم الطلائع الفارسية، وانهزمت الفرس - وللّه الحمد والمنة - عَن بَكْرَة أبيهم، ولحِقهم المسلمون في أقفائهم فقُتل يومئذ المُسَلْسَلون بكمالهم وكانوا ثلاثين ألفاً، وقُتل في المعركة عشرة آلاف، وقتلُوا قبل ذلك قريباً مِن ذلك. وقُتل مِن المسلمين في هذا اليوم وما قبله من الأيام ألفان وخمسمائة رحمهم اللّه.

وساق المسلمون خلف المنهزمين حتى دخلوا وراءهم مدينة المَلِك وهي المدائن التي فيها الإيوان الكسروي، وقد أذِن لمن ذكرنا عليه، فكان منهم إليه ما قدّمنا. وقد غنم المسلمون مِن وقعة القادسية هذه مِن الأموال والسلاح ما لا يُحدّ ولا يوصف كثرة، فحصلت الغنائم بعد صرْف الأسلاب وخُمِسَتْ وبُعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

وقد كان عمر ﷺ يستخبر عن أمر القادسية كل مَن لقيه مِن الركبان، ويخرج مِن المدينة إلى ناحية العراق يشتنشق الخبر، فبينما هو ذات يوم من الأيام إذا هو براكب يَلوح مِن بُعد، فاستقبله عمر فاستخبره، فقال له: فَتَح اللّه على المسلمين بالقادسية وغنموا غنائم كثيرة وجعل يحدثه وهو لا يعرف عمر وعمر ماشٍ تحت راحلته، فلما اقتربا مِن المدينة جعل الناس يحيّون عمر بالإمارة فعرَف الرجل عمر فقال: يرحمك اللّه يا أمير المؤمنين هلا أعلمتني أنك الخليفة؟ فقال: لا حرج عليك يا أخي.

وقد تقدم أن سعداً ﷺ كان به قُروح وعِرْق النَّسا، فمنعه مِن شهود القتال لكنه جالس في رأس القصر ينظرُ في مصالح الجيش، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته ولو فرّ الناس لأخذَتْه الفرس قبضاً باليد، لا يمتنع منهم، وعنده امرأتُه سلمى بنت حفص التي كانت قَبْلَه عند المثنى بن حارثة، فلما فرّ بعض الخيل يومئذ فزعت وقالت: وامُثنّياهُ ولا مُثنى ليَ اليوم. فغضب سعد مِن ذلك ولطم وجهها، فقالت: أغَيْرةً وجُبناً؟ يعني أنها تُعيّره بجلوسه في القصر يوم الحرب، وهذا عناد منها فإنها أعلم الناس بعُذره وما هو فيه مِن المرض المانع من ذلك.

وكان عنده في القصر رجل مسجون على الشراب كان قد حدّ فيه مرات متعددة، يقال: سبع مرات، فأمر به سعد فقُيِّد وأودع القصر فلما رأى الخيول تجول حول حِمى القصر وكان مِن الشجعان الأبطال قال:

كفى حزنا أن تُدْحم الخيل بالقنا　　وأُترَك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عَنّاني الحديد وأُغلقت　　مصاريعُ مِن دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة　　وقد تركوني مُفرداً لا أخاً ليا

ثم سأل مِن زَبْراء أم ولد سعد أن تُطْلِقه وتُعيره فرس سعد، وحلَف لها أنه يرجع آخر النهار فيضع رجلَه في القيد فأطلقَتْه، وركب فرس سعد وخرج فقاتل قتالاً شديداً، وجعل سعد ينظُر إلى فرسه فيعرفُها وينكِرُها ويُشبّهُه بأبي محجن ولكن يشك لظنه أنه في القصر موثق، فلما كان آخر النهار رجَع فوضَع رجله في قيدها ونزل سعد فوجَد فرسه يعرَقُ فقال: ما هذا؟ فذكروا له قصة أبي محجن فرضي عنه وأطلقه رضي اللّه عنهما.

وقد قال رجل من المسلمين في سعد ﷺ:

نُقاتِل حتى أنزل اللّه نصره　　وسعدٌ بباب القادسية مُعصِمُ
فأُبنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرة　　ونسوةُ سعدٍ ليس فيهن أيِّمُ

فيقال: إن سعداً نزل إلى الناس فاعتذر إليهم مما فيه مِن القروح في فخِذيه وإليتَيْه، فعذره الناس. ويذكر أنه دَعا على قائل هذين البيتين وقال: اللّهم إن كان كاذباً، أو قال الذي قال رياءً وسمعة وكذباً فاقطع لسانه ويدَه. فجاءه سهمٌ وهو واقفٌ بين الصفّين، فوقع في لسانه فبطلَ شِقّه فلم يتكلم حتى مات رواه سيف عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر فذكره [تاريخ الطبري ٣/٣٧٧، ٥٧٩، ٥٨٠].

وقال سيف عن المقدام بن شريح الحارثي عن أبيه قال: قال جرير بن عبد اللّه البجلي [الطبري ٣/٥٨٠]:

أنا جريرٌ كُنيتي أبو عَمْرو　　قد فتح اللّهُ وسعدٌ في القَصِرْ

فأشرف سعدٌ مِن قصره وقال:

وما أرجو بَجيلةَ غيرَ أني　　أؤمّل أجرَها يوم الحساب
وقد لقيَتْ خيولُهم خيولاً　　وقد وقع الفوارس في الضِّراب
وقد دلفت بَعرْصتهم فيولٌ　　كأن زُهاءَها إبِلُ الجِراب
فلولا جَمْعُ قعقاع بن عمرو　　وحمّال للَجُّوا في الركاب
ولولا ذاك أُلْفِيْتم رَعاعاً　　تسيلُ جموعكم مثل الذباب

وقد روى محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري ٣/٥٧٦، ٥٧٧] عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم البجلي - وكان ممن شهد القادسية - قال: كان معنا رجلٌ مِن ثقيف فلحق بالفُرْس مرتدّاً، فأخبرهم أن بأسَ الناس في الجانب الذي فيه بَجيلة. قال: وكنا رُبع الناس، قال: فوجّهوا إلينا ستة عشر فيلاً، وجعلوا يُلقون تحت أرجل خيولنا حسك الحديد، ويرشُقوننا بالنشّاب، فلكأنه المطر، وقرّنوا خيولهم بعضها إلى بعض لئلا يفرّوا. قال: وكان عمرو بن معد يكرب الزبيدي يمر بنا فيقول: يا معشر المهاجرين، كونوا أسوداً فإنما الفارسيّ تيسٌ. قال: وكان فيهم أُسْوار لا تكاد تسقط له نشّابة، فقلنا له: يا أبا ثَوْر اتّق ذاك الفارسي فإنه لا تسقط له نشّابة، فتوجّه إليه ورماه الفارسي بنشابة فأصاب تُرْسه وحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه فاستلبه سوارَيْن مِن ذهب، ومِنطقةً مِن ذهب، ويَلْمَقاً مِن ديباج. قال: وكان المسلمون ستة آلاف أو سبعة آلاف، فقتل اللّه رستم وكان الذي قتله رَجُل يقال له: هلال بن عُلَّفة التَّيمي، رماه رستم بنشّابة فأصاب قدمه وحملَ عليه هلال فقتله واحتزّ رأسه وولّت الفرس فاتبعهم المسلمون يقتُلونهم فأدركوهم في مكانٍ قد نزلوا فيه واطمأنوا، فبينما هم

سُكارى قد شربوا ولَعِبوا إذ هجم عليهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وقُتل هنالك الجالنوس، قتله زُهرة بن حَويّة التميمي. ثم ساروا خلفهم فكلما تواجَه الفريقان نصر اللّه حزب الرحمن، وخذل حزب الشيطان وعبدة النيران واحتاز المسلمون من الأموال ما يعجز عن حصره ميزان وقبّان، حتى أن منهم مَن يقول: مَن يقايض بيضاء بصفراء لكثرة ما غَنِموا من الفُرْسان. ولم يزالوا يُتْبِعونهم حتى جازوا الفرات وراءهم وفتحوا المدائن وجلولاء على ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة

وقال سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٥٨١] سليمان بن بشير عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت: شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فُرِغ من الناس، شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوَى ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سَقَيْناه ورفعناه، ومَن كان من المشركين أجهزنا عليه، ومعنا الصبيان فنولّيهم ذلك - تعني استلابهم - لئلا يَكْشِفْن عَن عورات الرجال.

وقال سيف بأسانيده عن شيوخه قالوا [تاريخ الطبري٣/٥٨٣]: وكتب سعد إلى عمر يخبره بالفتح وبعدَّة مَن قَتلوا من المشركين. وبعدَّة مَن قُتل من المسلمين، وبعث بالكتاب مع سعد بن عميلة الفزاري وصورته: أما بعد فإن اللّه نصرنا على أهل فارس ومنحهم سُنَن مَن كان قبلَهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعُدَّة لم يرَ الراؤون مثل زُهائها، فلم ينفعهم اللّه بذلك، بل سُلِبوه ونقله عنهم إلى المسلمين، وأتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام، وفي الفجاج. وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاريّ وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا اللّه، فإنه بهم عالم كانوا يُدَوّون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل كدويّ النحل، وهم آساد في النهار لا تُشبههم الأسود، ولم يفضُلْ مَن مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم.

فيقال: إن عمر قرأ هذه البشارة على الناس فوق المنبر رضي اللّه عنهم. ثم قال عمر للناس: إني حريص على أن لا أرى حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تأسّينا في عيشنا حتى نستويَ في الكَفاف، ولوددتُ أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولستُ مُعْلِمكم إلا بالعمل، إني واللّه لستُ مَلِك فأستعبدكم، ولكني عبد اللّه عرِض عليَّ الأمانة فإن أبيتها ورددتُها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وتَرْوَوْا سعدتُ بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتُها إلى بيتي شقيتُ بكم، ففرحتُ قليلاً وحزنتُ طويلاً، فبقيتُ لا أُقال ولا أُرد فأُستعتَب.

وقال سيف عن شيوخه قالوا [تاريخ الطبري٣/٥٨٢، ٥٨٣]: وكانت العرب من العُذَيْب إلى عَدَن أَبْيَن، يتربّصون وقعة القادسية هذه، يرون أن ثبات مُلْكِهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم، فلما كان ما كان من الفتح سبقت الجن بالبشارة إلى أقصى البلاد قَبْل رُسل الإنس فسُمِعت امرأة ليلاً بصنعاء على رأس جبل وهي تقول:

فحيِّيتِ عنا عكرمَ ابنة خالدٍ ... وما خيرُ زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتْكِ عني الشمس عند طلوعها ... وحيّاكِ عني كل ناجٍ مفرَّدِ
وحيتك عني عُصبة نخعية ... حِسان الوجوه آمنوا بمحمدِ
أقاموا لكسرى يضربون جنودَه ... بكل رقيق الشفرتين مهنّدِ
إذا ثوّب الداعي أناخوا بكَلْكَلٍ ... من الموت مسوَدّ الغياطل أجرَدِ

قالوا: وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني بهذه الأبيات:

وجدنا الأكثرين بني تميم ... غداة الروع أكثرهم رجالا
هم ساروا بأرعن مُكْفهِرٍّ ... إلى لجبٍ فزرّتهم رعالا
بحورٌ للأكاسر من رجال ... كأسد الغاب تحسبهم جبالا
تركن لهم بقادسَ عِزَّ فخرٍ ... وبالخيفين أياماً طِوالا
مقطعةً أكفهمُ وسوق ... بمردٍ حيث قابلتِ الرِّجالا

قالوا: وسُمع ذلك في سائر بلاد العرب.

وقد كانت بلاد العراق بكمالها التي فتحها خالد نقضت العهود والذمم والمواثيق التي كانوا أعطوها خالداً، سوى أهل بانِقْيا وباروسْما، وأهل أُلّيس الآخرة ثم عاد الجميع بعد هذه الوقعة التي أوردناها، وادّعوا أن الفرس اجبروهم على نقض العهود، وأخذوا منهم الخَراج وغير ذلك. فصدّقوهم في ذلك تألفاً لقلوبهم وسنذكر حُكم أهل السواد في كتابنا «الأحكام الكبير» إن شاء اللّه تعالى.

وقد ذهب ابن إسحاق وغيره إلى أن وقعة القادسية كانت في سنة خمس عشرة. وزعم الواقدي أنها كانت في سنة ست عشرة. وأما سيف بن عمر وجماعة فذكروها في سنة أربع عشرة، وفيها ذكرها ابن جرير فاللّه أعلم.

قال ابن جرير والواقدي [تاريخ الطبري٣/٥٩٠]: وفي سنة أربع عشرة جمع عمر بن الخطاب الناس على أُبيّ بن كعب في التراويح وذلك في شهر رمضان منها، وكتب إلى سائر الأمصار يأمرهم بالاجتماع في قيام شهر رمضان.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٥٩٠، ٥٩١]: وفيها بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره أن ينزل بها وقن معه من المسلمين، وقطع مادّة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم في قول المدائني، وروايته. قال [تاريخ الطبري٣/٥٩٠]: وزعم سيف أن البصرة إنما مُصِّرت في ربيع من سنة ست عشرة وأن عُتبة بن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلولاء وتكريت، وجّهه إليها سعد بأمر عمر رضي اللّه عنهم.

وقال أبو مخنف عن مجالد عن الشعبي: إن عمر بعث عتبة بن غزوان إلى أرض البصرة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وسار إليه من الأعراب ما كمّل معه خمسمائة، فنزلها في ربيع الأول سنة أربع عشرة، والبصرة يومئذ تُدعى أرض الهند فيها حجارة بيض خشنة، وجعل يرتاد لهم منزلاً حتى جاؤوا حيال الجسر الصغير فإذا فيه حَلَفٌ وقصب نابت، فنزلوا. فركب إليهم صاحب الفرات في أربعة آلاف أُسْوار، فالتقاه عتبة بعدما زالت الشمس، وأمر أصحابه فحملوا عليهم فقتلوا الفرس عن آخرهم، وأسروا صاحب الفرات، وقام عتبة خطيباً فقال في خُطبته: إن الدنيا قد آذنت بُصرم، وولّت حَذّاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء، وإنكم متقلون منها إلى دار القرار، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فقد ذُكر لي لو أنّ صخرة أُلقيت من شفير جهنم هوت سبعين خريفاً ولتملأنّه، أوَ عجبتم؟ ولقد ذُكر لي أن ما بين مِصْراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتينّ عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني وأنا سابع سبعة، وأنا مع رسول اللّه ﷺ مالنا طَعام إلا ورق السَّمُر، حتى تقرَّحتْ أشداقُنا، والتقطتُ بُردة فشققتُها بيني وبين سعد، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا هو أمير على مصر من الأمصار، وستُجَرِّبون الناس بعدنا. وهذا الحديث في

«صحيح مسلم» بنحو مِن هذا السياق [م٢٩٦٧].

وروى علي بن محمد المدائني [تاريخ الطبري ٣/٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٧] أن عمر كتب إلى عتبة بن غزوان حين وجّهه إلى البصرة: يا عُتبة إني استعملتك على أرض الهند وهي حومة مِن حومة العدو، وأرجوا أن يكفيك الله ما حولها، وأن يُعينك عليها، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي يمدُّك بعرفجة بن هرثمة. فإذا قدِم عليك فاستشِرْه وقرِّبه، وادعُ إلى الله، فمَن أجابك فاقْبل منه. ومَن أبى فالجزية عن صَغار وذلة، وإلا فالسيف في غير هوادة، واتق الله فيما وُلّيت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كِبْر فتُفسد عليك آخرتك، وقد صحبتَ رسول الله ﷺ فعززْتَ بعد الذلة، وقَويتَ بعد الضعف، حتى صِرْتَ أميرا مسلطاً، ومَلِكاً مطاعاً، تقول فيُسمع منك. وتأمر فيطاع أمرك، فيالها مِن نعمة إن لم ترقَ فوق قدرك، وتبطر على مَن دونك، احتفظ مِن النعمة احتفاظك مِن المعصية، ولَهِيَ أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة فتصير بها إلى جهنم، أعيذك بالله ونفسي مِن ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا تُرد الدنيا، واتق مصارع الظالمين.

وقد فتح عتبة الأُبُلّة في رجب أو شعبان مِن هذه السنة. ولما مات عتبة بن غزوان في هذه السنة استعمل عمر على البصرة المغيرة بن شعبة سنتين، فلما رُمي بما رُمي به عزله وولّى عليها أبا موسى الأشعري رضي الله عنهم.

وفي هذه السنة ضَرَب عمر بن الخطاب ابنه عبيد الله في الشراب هو وجماعة معه.

وفيها ضَرَب أبا محجن الثقفي في الشراب أيضاً سبع مرات، وضرب معه ربيعة بن أمية بن خلف.

وفيها نزل سعد بن أبي وقاص بالكوفة.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب. قال: وكان بمكة عتاب بن أسيد، وبالشام أبو عبيدة، وبالبحرين عثمان بن أبي العاص وقيل: العلاء بن الحضرمي، وعلى العراق سعد، وعلى عُمان حذيفة بن محصن.

ذكر مَن توفي في هذا العام مِن المشاهير والأعيان

ففيها توفي:

■ سعد بن عبادة في قول والصحيح في التي قبلها والله أعلم.

وفيها توفي:

■ عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب المازني [الاستيعاب٣/١٠٢٦]، حليف بني عبد شمس صحابي بدري، وأسلم قديماً بعد ستة وهاجر إلى أرض الحبشة وهو أول مَن اختط البصرة عن أمر عمر وإمرته له على ذلك كما تقدم، وله فضائل ومآثر، وتوفي سنة أربع عشرة، وقيل: سنة خمس عشرة، وقيل: سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين فالله أعلم. وقد جاوز الخمسين، وقيل: بلغ ستين سنة ﷺ.

و■ عمرو بن أم مكتوم الأعمى [الاستيعاب٣/١١٩٨]، ويقال: اسمه عبد الله، صحابي مهاجري، هاجر بعد مصعب بن عمير قبل النبي ﷺ فكان يُقرئ الناس القرآن، وقد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة غيرَ مرة، فيقال: ثلاث عشرة مرة، وشهد القادسية مع سعد زمن عمر فيقال: إنه قُتل بها شهيداً ويقال: إنه رجع إلى المدينة وتوفي بها والله أعلم.

■ المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان الشيباني [الاستيعاب٤/١٤٥٦]: نائب خالد على العراق، وهو الذي صارت إليه الإمرة بعد أبي عبيد يوم الجسر، فدارَى بالمسلمين حتى خلّصهم مِن الفرس يومئذ، وكان أحد الفرسان الأبطال، وهو الذي ركب إلى الصدّيق فحرّضه على غزو العراق، ولما توفي تزوج سعد بن أبي وقاص بامرأته سلمى بنت خفص رضي الله عنهما وأرضاهما وقد ذكره ابن الأثير في كتابه «الغابة في أسماء الصحابة».

■ أبو زيد الأنصاري النجاري [الاستيعاب: ٤/١٦٦٥] أحد القُراء الأربعة الذين حفظوا القرآن مِن الأنصار في عهد رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك في حديث أنس بن مالك [خ٣٨١٠ م٢٤٦٥]، وهم معاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال أنس: أحد عُمومتي. قال ابن الكلبي: واسم أبي زيد هذا قيس بن السَّكَن بن قيس بن زعوراء بن حرام بن جندب بن غنم بن عدي بن النجار شهدا بدراً. قال موسى بن عقبة: واستشهد يوم جسر أبي عبيد وهي عنده في سنة أربع عشرة، وقال بعض الناس: أبو زيد الذي جمع القرآن سعد بن عبيد، وردّوا هذا برواية قتادة عن أنس بن مالك قال [كشف الأستار٢٨٠٢] [مسند أبي يعلى ٥٩٥٣]: افتخرت الأوس والخزرج فقالت الأوس: منا غسيلُ الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدَّبرُ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، ومنا الذي اهتزّ له عرش الرحمن سعد بن معاذ، ومنا الذي جعلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ أبي، وزيد بن ثابت، ومعاذ، وأبو زيد رضي الله عنهم أجمعين.

■ أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي [الاستيعاب٤/١٧٠٩]: والد المختار بن أبي عبيد أمير العراق، ووالد صفية امرأة عبد الله بن عمر. أسلم أبو عبيدة في حياة النبي ﷺ وذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر في الصحابة.

قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي [تاريخ الإسلام١٣٧]: ولا يبعُد أن يكون له رواية والله أعلم.

■ أبو قُحافة والد الصديق [الاستيعاب٤/١٧٣٢] واسم أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن صخر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، أسلم أبو قحافة عام الفتح فجاء به الصدّيق يقوده إلى النبي ﷺ فقال: «هلاّ أقررتم الشيخ في بيته حتى كنا نحن نأتيه» تكرمةً لأبي بكر ﷺ فقال: بل هو أحق بالسعي إليك يا رسول الله [المسند٣/١٦٠، ٦/٣٤٩، ٣٥٠] فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ورأسه كالثغامة بياضاً ودعا له، وقال: «غيِّروا هذا الشيب بشيء وجنِّبوه السواد» [م٢١٠٢]. ولما تُوفي رسول الله ﷺ وصارت الخلافة إلى الصدّيق أخبره المسلمون بذلك وهو بمكة، فقال: وأقرّت بذلك بنو هاشم وبنو مخزوم؟ قالوا: نعم! قال: ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء. ثم أُصيب بابنه الصديق ﷺ. ثم توفي أبو قحافة في محرم وقيل: في رجب سنة أربع عشرة بمكة، عن أربع وتسعين سنة رحمه الله وأكرم مثواه.

وممن ذكر شيخنا أبو عبد الله الذهبي من المستشهدين في هذه السنة مرتبين على الحروف [تاريخ الإسلام١٣١ـ١٣٨]:

■ أوس بن أوس بن عتيك قُتل يوم الجسر.

■ بشير بن عنبس بن يزيد الظفري أحدي، وهو ابن عم قتادة بن النعمان ويعرف بفارس الحوّاء اسم فرسه.

■ ثابت بن عتيك، من بني عمرو بن مبذول، صحابي قُتل يوم الجسر.

■ ثعلبة بن عمرو بن محصن النجّاري بدري قتل يومئذ.
■ الحارث بن عتيك بن النعمان النجاري شهد أُحداً قُتل يومئذ.
■ الحارث بن مسعود بن عبدة صحابي أنصاري قُتل يومئذ.
■ الحارث بن عدي بن مالك أنصاري إحدي قُتل يومئذ.
■ خالد بن سعيد بن العاص، قيل: إنه استشهد يوم مرج الصفّر، وكان في سنة أربع عشرة في قول.
■ خزيمة بن أوس الأشهلي قُتل يوم الجسر.
■ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أرّخ وفاته في هذه السنة ابن قانع.
■ زيد بن سُراقة يوم الجسر.
■ سعد بن سلامة بن وقش الأشهلي.
■ سعد بن عُبادة في قول.
■ سلمة بن أسلم بن حَريش يوم الجسر.
■ سلمة بن هشام، يوم مرج الصُفَّر، وقد كان في سنة أربع عشرة في قول.
■ سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري، يوم الجسر.
■ ضمرة بن غزية يوم الجسر.
■ عباد وعبد الله وعبد الرحمن بنو مربّع بن قيظي قتلوا يومئذ.
■ عبد الله بن صعصعة بن وهب الأنصاري البخاري، شهد أحداً وما بعدها. قال ابن الأثير في «أسد الغابة» [أسد الغابة٣/٢٧٩]: وقُتل يوم الجسر.
■ عتبة بن غزوان تقدم.
■ (عقبة بن قيظي بن قيس)
■ (عبد الله بن قيظي بن قيس)
عقبة وأخوه عبد الله حضرا الجسر مع أبيهما قيظي بن قيس وقُتلا يومئذ.
■ العلاء بن الحضرمي توفي في هذه السنة في قول وقيل: بعدها وسيأتي.
■ عمر بن أبي اليَسر قُتل يوم الجسر.
■ قيس بن السكن أبو زيد الأنصاري ﷺ تقدم.
■ المثنى بن حارثة الشيباني، توفي في هذه السنة رحمه الله وقد تقدم.
■ نافع بن غيلان قُتل يومئذ.
■ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وكان أسنّ من عمه العباس، قيل: إنه توفي في هذه السنة والمشهور قبلها كما تقدم.
■ واقد بن عبد الله قُتل يوم.
■ يزيد بن قيس بن الخطيم الأنصاري الظفري شهد أُحداً وما بعدها، قُتل يوم الجسر. وقد أصابه يوم أُحد جراحات كثيرة وكان أبوه شاعراً مشهوراً.
■ أبو عبيد بن مسعود الثقفي أمير يوم الجسر وبه عُرف لقتله عنده، تخبّطه الفيل حتى قتله ﷺ بعدما قطع بسيفه خُرطومه كما تقدم.
■ أبو قحافة التيمي والد أبي بكر الصديق، توفي في هذه السنة ﷺ.
■ هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن أمية الأموية [الاستيعاب٤/١٩٢٢]، والدة معاوية بن أبي سفيان، وكانت من سيدات نساء قريش ذات رأي ودهاء ورياسة في قومها، وقد شهدت يوم أُحد مع زوجها وكان لها تحريضٌ على قتل المسلمين يومئذ، ولما قُتل حمزة مثّلت به وأخذت من كبده فلاكتها فلم تستطع إساغتها، لأنه كان قد قَتل أباها وأخاها يوم بدر، ثم بعد ذلك كله أسلمت ـ وحسُن إسلامها ـ عام الفتح بعد زوجها بليلة. ولما أرادت الذهاب إلى رسول الله ﷺ لتبايعه استأذنت أبا سفيان فقال لها: قد كنت بالأمس مكذبةً بهذا الأمر، فقالت: واللهِ ما رأيتُ اللهَ عُبد حق عبادته بهذا المسجد قبل هذه الليلة، واللهِ لقد باتوا ليلهم كلهم يصلون فيه. فقال لها: إنك قد فعلتِ ما فعلتِ فلا تذهبي وحدكِ. فذهبت إلى عثمان بن عفان ـ ويقال: إلى أخيها أبي حذيفة بن عتبة ـ فذهب معها، فدخلت وهي مُتنقبة، فلما بايعها رسول الله ﷺ مع غيرها من النساء قال: «على أن لا تشركنَ بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين» فقالت: أوَ تزني الحرة؟ «﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾» قالت: قد ربّيناهم صغاراً فقتلتهم كباراً؟! فتبسّم رسول الله ﷺ، «﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ﴾» فبادرت وقالت: في معروف. فقال: «﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾»، وهذا من فصاحتها وحزمها، وقد قالت لرسول الله ﷺ: والله يا محمد ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يذلوا من أهل خبائك، فقد والله أصبح اليوم وما على ظهر الأرض من أهل خباء أحبّ إلي من أن يعزوا من أهل خبائك. فقال: «وكذلك والذي نفسي بيده». وشكت من شُحّ أبي سفيان فأمرها أن تأخذ ما يكفيها ويكفي بنيها بالمعروف، وقصتها مع الفاكه بن المغيرة مشهورة، وقد شهدت اليرموك مع زوجها وماتت يوم مات أبو قحافة في سنة أربع عشرة.

ثم دخلت سنة خمس عشرة

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٥٩٨]: قال بعضهم: فيها مصّر سعد بن أبي وقاص الكوفة دلّهم عليها ابن بقيلة قال لسعد: أدُلك على أرض ارتفعت عن البق والحدرت عن الفلاة؟ فدلهم على موضع الكوفة اليوم، قال: وفيها كانت وقعة مرج الروم، وذلك لما انصرف أبو عبيدة وخالد من وقعة فحل قاصدين إلى حمص حسب ما أمر به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كما تقدم في رواية سيف بن عمر، فسارا حتى نزلا على ذي الكلاع، فبعث هرقل بطريقاً يقال له: توذرا في جيش معه فنزل بمرج دمشق وغربيِّها، وقد هجم الشتاء فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم، وجاء أمير آخر من الروم يقال له: شنس وعسكرَ معه كثيف، فنازله أبو عبيدة فاشتغلوا به عن توذرا فسار توذرا نحو دمشق لينازلها وينتزعها من يد يزيد بن أبي سفيان، فأتبعه خالد بن الوليد وبرز إليه يزيد بن أبي سفيان من دمشق، فاقتتلوا وجاء خالد وهم في المعركة فجعل يقتلهم من ورائهم ويزيد يقصّل فيهم من أمامهم، حتى أناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد، وقتلَ خالدٌ توذرا وأخذوا من الروم أموالاً عظيمة فاقتسماها ورجع يزيد إلى دمشق وانصرف خالد إلى أبي عبيدة فوجده قد واقع شَنس بمرج الروم فقتّلهم فيه مقتلة عظيمة حتى أنتنت الأرض من زُهَمِهم، وقتل أبو عبيدة شنس وركبوا أكتافهم إلى حمص فنزل عليها يحاصرها.

وقعة حمص الأولى

لما وصل أبو عبيدة [تاريخ الطبري٣/٥٩٩ـ٦٠١] في اتباعه الروم المنهزمين إلى حمص، نزل حولها يحاصرها، ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً، وذلك في زمن البرد الشديد، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرفهم عنهم شدة البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً بحيث إنه ذكر غيرُ واحد أن من الروم مَن كان يرجع وقد سقطت رجله وهي في

الخف، والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال، ومع هذا لم يُصب منهم قدم ولا أُصبع أيضاً، ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصلُ الشتاء فاشتدّ الحصار، وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة فأبوا عليه ذلك وقالوا: أنُصالح والمَلِك منا قريب؟ فيقال: إن الصحابة كبّروا في بعض الأيام تكبيرة ارتجّت منها المدينة حتى تفطّرت منها بعض الجدران، ثم تكبيرةً أخرى فسقطت بعض الدور، فجاءت عامّتهم إلى خاصتهم فقالوا: ألا تنظرون إلى ما نزل بنا، وما نحن فيه؟ ألا تصالحون القوم عنا؟ قال: فصالَحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق، على نصف المنازل، وضرْب الخراج على الأراضي، وأخذ الجزية على الرقاب بحَسَب الغِنَى والفقر. وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى عمر مع عبد الله بن مسعود وأنزل أبو عبيدة بحمص جيشاً كثيفاً يكون بها مع جماعة من الأمراء، منهم بلال والمقداد وكتب أبو عبيدة إلى عمر يخبره بأن هرقل قد قطع الماء إلى الجزيرة وأنه يظهر تارة ويَخْفَى أخرى. فبعث إليه عمر يأمره بالمُقام ببلده.

وقعة قنسرين

لما فتح أبو عبيدة حمص بعث خالدَ بن الوليد إلى قنسرين، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومَن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديداً، وقتَل منهم خلقاً كثيراً، فأما مَن هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم ميناس. وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا فقبل منهم خالد وكف عنهم ثم خلص إلى البلد فتحصنّوا فيه، فقال لهم خالد: إنكم لو كنتم في السحاب لحملَنا اللهُ إليكم أو لأنزلكم إلينا. ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد.

فلما بلغ عمر ما صنعه خالد في هذه الوقعة قال: يرحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مِنّي والله إني لم أعزله عن ريبة ولكن خشيتُ أن يوكَلَ الناس إليه. وفي هذه السنة تقهقر هرقل بجنوده، وارتحل عن بلاد الشام إلى بلاد الروم.

هكذا حكاه ابن جرير عن محمد بن إسحاق قال: وقال سيف [تاريخ الطبري٣/٦٠٢]: كان ذلك في سنة ست عشرة، قالوا [تاريخ الطبري٣/٦٠٢، ٦٠٣]: وكان هرقل كلما حج إلى بيت المقدس وخرج منها يقول: عليك السلام يا سورية، تسليم مُودع لم يقضِ منك وَطَره وهو عائد فلما عزم على الرحيل من الشام وبلغ الرهاء، طلب من أهلها أن يصحبوه إلى الروم، فقالوا: إن بقاءنا ههنا أنفع لك من رحيلنا معك، فتركهم. فلما وصل إلى شمشاط وعلا على شرفٍ هنالك التفت إلى نحو بيت المقدس وقال: عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده إلا أن أسلم عليك تسليم المُفارق، ولا يعودُ إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولَد المولود المشؤوم، ويا ليته لم يولد. ما أحْلى فِعله وأمرَّ عاقبته على الروم!! ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية واستقر بها مُلْكه، وقد سأل رجلاً ممن اتبعه كان قد أُسر مع المسلمين، فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أُخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لايأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على مَن حاربوه حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليملِكُنَّ موضع قدميّ هاتين.

قلت: وقد حاصر المسلمون قسطنطينية في زمان بني أمية فلم يملكوها ولكن سيملِكها المسلمون في آخر الزمان كما سنبيِّنه في كتاب الملاحم، وذلك قبلَ خروج الدجال بقليل على ما صحّت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ في «صحيح مسلم» وغيره من الأئمة [م٢٨٩٧] [ق٢٧٧٩] [المستدرك٤/٤٨٢] ولله الحمد والمنة.

وقد حرّم الله على الروم أن يملكوا بلاد الشام برمتها إلى آخر الدهر، كما ثبت به الحديث في «الصحيحين» [عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقُنّ كنوزهما في سبيل الله عز وجل» وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه كما رأيت، وسيكون ما أخبر به جزماً لا يعود مُلْك القياصرة إلى الشام أبداً؛ لأن قيصر علم جنس عند العرب يطلق على كل مَن ملك الشام مع بلاد الروم. فهذا لا يعود لهم أبداً.

وقعة قيسارية

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٦٠٤]: وفي هذه السنة أمّر عمر معاوية بن أبي سفيان على قيسارية وكتب إليه: أما بعد فقد وليتُك قيسارية فسِرْ إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وزاحفه أهلها مرات عديدة، وكان آخرها وقعة أن قاتلوا قتالاً عظيماً، وصمّم عليهم معاوية، واجتهد في القتال حتى فتح الله عليه، فما انفصل الحال حتى قتل منهم نحواً من ثمانين ألفاً، وكمّل المائة الألف من الذين انهزموا عن المعركة، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٦٠٥ـ٦٠٧]: وفيها كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى إيلياء،ومناجزة صاحبها فاجتاز في طريقه عند الرملة بطائفه من الروم فكانت:

وقعة أجنادين

وذلك أنه سار بجيشه وعلى ميمنته ابنه عبد الله بن عمرو، وعلى ميسرته جنادة بن تميم المالكي، من بني مالك بن كنانة، ومعه شرحبيل ابن حسنة، واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي، فلما وصل إلى الرملة وجد عندها جمعاً من الروم عليهم الأرْطَبون، وكان أدهى الروم وأبعدها غَوْراً، وأنكاها فعلاً، وقد كان وضع بالرملة جنداً عظيماً وبإيلياء جنداً عظيماً، فكتب عمرو إلى عمرَ بالخبر. فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رَمَيْنا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج. وبعث عمرو بن العاص علقمة بن حكيم الفراسي، ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل إيلياء. وأبا أيوب المالكي إلى الرملة، وعليها التذارق، فكانوا بإزائهم ليشغلوهم عن عمرو بن العاص وجيشه، وجعل عمرو كلما قدِم عليه أمداد من جهة عمر يبعث منهم طائفة إلى هؤلاء وطائفة إلى هؤلاء. وأقام عمرو على أجنادين لا يقدِر من الأرطبون على سقطةٍ ولا تشفيه الرسل فوليَهُ بنفسه، فدخل عليه كأنه رسولٌ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمّل حُصونَه حتى عرَف ما أراد، وقال الأرْطَبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنتُ لأصيبَ القوم بأمرٍ هو أعظم من قتله. فدعا حَرَسِيّاً فسارّه فأمره بقتلِه فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني

قد سمعتُ كلامَكَ وسمعتَ كلامي، وإني واحدٌ مِن عشرةٍ بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره. وقد أحببتُ أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيتُ. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فأتني بهم، ودعا رجلاً فسارَّه فقال: اذهب إلى فلان فردَّه. وقام عمرو فذهب إلى جيشه ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص، فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب. وبلغت عمر بن الخطاب فقال: غلبَه عمرو، للّه درُّ عمرو. ثم ناهضه عمرو فاقتتلوا بأجنادين قتالاً عظيماً. كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم ثم اجتمعت بقيةُ الجيوش إلى عمرو بن العاص، وذلك حين أعياهم صاحب إيلياء وتحصّن منهم بالبلد، وكثُر جيشه، فكتب الأرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري أنتَ في قومك مثلي في قومي، والله لاتفتَحُ مِن فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تُغرَّ فتلقى مثل ما لقي الذين قبلَك مِن الهزيمة، فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالرومية فبعثه إلى أرطبون وقال: اسمع ما يقول لكَ ثم ارجع فأخبرني. وكتب إليه معه: جاءني كتابُك وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتْك خصلة تجاهلتَ فضيلتي وقد علمتَ أني صاحبُ فتح هذه البلاد، واقرأ كتابي هذا بمحضرٍ مِن أصحابك ووزرائك. فلما وصله الكتاب جمع وُزراءه وقرأ عليهم الكتاب فقالوا للأرطبون: مِن أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد؟ فقال: صاحبها رجل اسمه على ثلاثة أحرف فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال فكتَب عمرو إلى عمر يستمدّه ويقول له: إني أعالِجُ حرباً كؤوداً صدوماً، وبلاداً ادُّخِرت لكَ، فرأيك. فلما وصل الكتاب إلى عُمر علم أن عمراً لم يقلْ ذلك إلا لأمرٍ علمه. فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس كما سنذكر تفصيله.

قال سيف بن عمر عن شيوخه [تاريخ الطبري٣/٦٠٧]: وقد دخل عمر الشام أربع مرات، الأولى كان راكباً فرساً حين فتح بيت المقدس، والثانية على بعير، والثالثة وصل إلى سرغ ثم رجع لأجل ما وقع بالشام من الوباء. والرابعة دخلها على حمار هكذا نقله ابن جرير عنه.

فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب

ذكره أبو جعفر بن جرير في هذه السنة عن رواية سيف بن عمر [تاريخ الطبري٣/٦٠٧ـ٦١٣] وملخص ما ذكره هو وغيره أن أبا عبيدة لما فرغ مِن دمشق كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى اللّه وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية أو يؤذنون بحرب. فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه. فركب إليهم في جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد ثم حاصر بيت المقدس وضيّق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار عمرُ الناس في ذلك فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم. وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حِصارهم بينهم، فهويَ ما قال علي ولم يهوَ ما قال عثمان. وسار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وسار العباس بن عبد المطلب على مُقدّمته، فلما وصل إلى الشام تلقّاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر فأشار أبو عبيدة ليقبّل يدَ عمر فهمّ عمر بتقبيل رجْل أبي عبيدة فكفّ أبو عبيدة فكفّ عمر. ثم سار حتى صالح نَصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث ثم دخلها إذ دخل المسجد مِن الباب الذي دخل منه رسول اللّه ﷺ ليلة الإسراء. ويقال: إنه لبّى حين دخل بيت المقدس فصلّى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة مِن الغد فقرأ في الأولى بسورة «ص» وسجد فيها والمسلمون معه وفي الثانية بسورة «بني إسرائيل» ثم جاء إلى الصخرة فاستدلّ على مكانها مِن كعب الأحبار وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد مِن ورائه فقال ضاهيْتَ اليهودية. ثم جعل المسجد في قِبْليّ بيت المقدس وهو العُمَريُّ اليوم ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه في ذلك، وسُخِّر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود، حتى أن المرأة كانت تُرسل خرقة حيضتها من داخل الحَوْز لتُلقى في الصخرة، وذلك مُكافأة لما كانت اليهود عاملت به القُمامة وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب فجعلوا يُلقون على قبره القمامة فلأجل ذلك سمي ذلك الموضع القُمامة وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك.

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكُناسة على الصخرة حتى وصلت إلى محراب داود قال لهم: إنكم لخليقٌ أن تُقتلوا على هذه الكُناسة مما امتهنتم هذا المسجد كما قُتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا ثم أُمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك فما أزالوا ثُلُثها حتى فتحها المسلمون فأزالها عمر بن الخطاب وقد استقصى هذا كله بأسانيده ومتونه الحافظ بهاء الدين بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر في كتابه «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى».

وذكر سيف في سياقه: أن عمر رضي الله عنه ركب مِن المدينة على فرس ليسرع السير بعد ما استخلف عليها علي بن أبي طالب، فسار حتى قدم الجابية فنزل بها وخطب بالجابية خطبة طويلة بليغة منها: أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلُحْ علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أبٌ حيٌّ ولا بينه وبين اللّه هَوادة، فمن أراد لَحْبَ وجه الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخْلُونَّ أحدكم بإمرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومَن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن. وهي خطبة طويلة اختصرناها. ثم صالح عمر أهل الجابية ورحل إلى بيت المقدس.

وقد كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه في اليوم الفلاني إلى الجابية فتوافَوْا أجمعون في ذلك اليوم إلى الجابية، فكان أول مَن تلقّاه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد في خيول المسلمين وعليهم يَلامق الديباج، فسار إليهم عمر ليَحْصِبهم فاعتذروا إليه بأن عليهم السلاح، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم. فسكت عنهم واجتمع الأمراء كلهم بعدما استخلفوا على أعمالهم، سوى عمرو بن العاص وشرحبيل فإنهما موافقان الأرطبون بأجنادين، فبينما عمر في الجابية إذا بكردوس مِن الروم بأيديهم سيوف مسللة، فسار إليهم المسلمون بالسلاح فقال عمر: إن هؤلاء قوم يستأمنون. فساروا نحوهم فإذا هم جند مِن بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح مِن أمير المؤمنين حين سمعوا بقدومه فأجابهم عمر رضي الله عنه إلى ما سألوا، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحه، وضرب عليهم الجزية، واشترط عليهم شروطاً ذكرها ابن جرير، وشهد في الكتاب خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وهو كاتب الكتاب وذلك في سنة خمسة عشر.

ثم كتب لأهل لُدّ ومَن هنالك مِن الناس كتاباً آخر وضرب عليهم

الجزية، ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيلياء، وفرّ الأرطبون إلى بلاد مصر، فكان بها حتى فتحها عمرو بن العاص، ثم فرّ إلى البحر فكان يلي بعض السرايا الذين يقاتلون المسلمين فظفر به رجل من قيس فقطع يد القيسي وقتله القيسي وقال في ذلك.

فإن يكن أرطبونُ الروم أفسدها … فإن فيها بحمد الله مُنتفعا

وإن يكن أرطبونُ الروم قطّعها … فقد تركتُ بها أوصالَه قِطَعا

ولما صالح أهل الرملة وتلك البلاد، أقبل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة حتى قدما الجابية فوجدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب راكباً، فلما اقتربا منه أكبّا على ركبتيه فقبّلاها واعتنقهما عمر معاً رضي الله عنهم.

قال سيف: ثم سار عمر إلى بيت المقدس من الجابية وقد توجّى فرسُه فأتوه ببرذون فركبه فجعل يُهملج به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علّم الله مَن علّمك، هذا من الخيلاء، ثم لم يركب برذوناً قبله ولا بعده، ففُتحت إيلياء وأرضها على يديه ماخلا أجنادين فعلى يدي عمرو. وقيسارية فعلى يدي معاوية. هذا سياق سيف بن عمر وقد خالفه غيره من أئمة السير فذهبوا إلى أن فتح بيت المقدس كان في سنة ست عشرة.

قال محمد بن عائذ [تاريخ دمشق ١٦٧/٢] عن الوليد بن مسلم عن عثمان بن حصن بن علاّق قال: قال يزيد بن عبيدة: فُتحت بيت القدس سنة ست عشرة وفيها قدم عمر بن الخطاب الجابية.

وقال أبو زرعة الدمشقي [تاريخ دمشق: ١٦٧/٢] عن دحيم عن الوليد بن مسلم قال: ثم عاد في سنة سبع عشرة فرجع من سَرْغ ثم قدم سنة ثماني عشرة فاجتمع إليه الأمراء وسلّموا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال فقسّمها وجنّد الأجناد ومصّر الأمصار ثم عاد إلى المدينة.

وقال يعقوب بن سفيان [تاريخ دمشق١٩٧/٢]: ثم كان فتح الجابية وبيت المقدس سنة ست عشرة. وقال أبو معشر [تاريخ دمشق١٦٨/٢، ١٦٩]: ثم كان عمواس والجابية في سنة ست عشرة. ثم كانت سَرْغ في سبع عشرة، ثم كان عام الرمادة في سنة ثماني عشرة قال: وكان فيها طاعون عمواس - يعني فتح البلدة المعروفة بعمواس - فأما الطاعون المنسوب إليها فكان في سنة ثماني عشرة كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

قال أبو مخنف: لما قدم عمر الشام فرأى غوطة دمشق ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين تلا قوله تعالى [التفسير٢٣٨/٧، ٢٣٩]: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ ٢٨] ثم أنشد قول النابغة:

هما فتيا دهر يكُرّ عليهما … نهار وليل يلحقان التواليا

إذا ما هما مرا بحي بغبطة … أناخا بهم حتى يُلاقوا الدواهيا

وهذا يقتضي باديَ الرأي أنه دخل دمشق وليس كذلك، فإنه لم ينقل أحد أنه دخلها في شيء من قَدَماته الثلاث إلى الشام، أما الأولى وهي هذه فإنه سار من الجابية إلى بيت المقدس، كما ذكر سيف وغيره والله أعلم.

وقال الواقدي: أما رواية أهل الشام أن عمر دخل الشام مرتين ورجع الثالثة من سَرْغ فليس بمعروف، وإنما قدم مرة واحدة عام الجابية حين صالح أهل بيت المقدس سنة ست عشرة، ورجع من سَرْغ سنة سبع عشرة وهم يقولون: دخل في الثالثة دمشق وحمص وأنكر الواقدي ذلك.

قلت: ولا يُعرف أنه دخل دمشق إلا في الجاهلية قبلَ إسلامة كما بسطنا ذلك في «سيرته».

وقد رُوّينا [تاريخ دمشق١٧٠/٢، ١٧١] أن عمر حين دخل بيت المقدس سأل كعب الأحبار عن مكان الصخرة فقال: يا أمير المؤمنين أذرعْ من الحائط الذي يلي وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً فهي ثَمَّ. فذرَعوا فوجَدوها وقد اتخذها النصارى مزبلة، كما فعلت اليهود بمكان القُمامة، وهو المكان الذي صُلب فيه المصلوب الذي شُبّه بعيسى فاعتقدت النصارى واليهود أنه المسيح. وقد كذَبوا في اعتقادهم هذا كما نص الله تعالى على خطئهم في ذلك.

والمقصود أن النصارى لما حَكَموا على بيت المقدس قبلَ البعثة بنحو من ثلاثمائة سنة، طهّروا مكان القُمامة واتخذوه كنيسة هائلة بنتها أم المَلِك قسطنطين باني المدينة المنسوبة إليه، واسم أمه هيلانة الحرّانية الفُنْدُقانيّة. وأمرتْ ابنَها فبنى للنصارى بيتَ لحم على موضع الميلاد، وبنت هي على موضع القبر فيما يزعمون. والغرض أنهم اتخذوا مكان قِبْلة اليهود مزبلةً أيضاً في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه. فلما فتح عمر بيت المقدس وتحقّق موضع الصخرة، أمر بإزالة ما عليها من الكناسة حتى قيل: إنه كنسها بردائه، ثم استشار كعباً أين يضع المسجد؟ فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فضرّب في صدره وقال. يا ابن أم كعب ضارعْتَ اليهوديةَ: وأمر ببنائه في مُقدّم بيت المقدس.

قال الإمام أحمد [٣٨/١]: حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب أن عمر بن الخطاب كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس، قال: قال ابن سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم سمعت عمر يقول لكعب: أين تُرى أن أُصلي؟ قال: إن أخذتَ عنّي صليتَ خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر ضاهيت اليهودية لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدّم إلى القبلة فصلّى، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكُناسة في ردائه وكنس الناس. وهذا إسناد جيد اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه «المستخرج»، وقد تكلمنا على رجاله في كتابنا الذي أفردناه في مسند عمر، ما رواه من الأحاديث المرفوعة وما رُوي عنه من الآثار الموقوفة مُبوباً على أبواب الفقه ولله الحمد والمنة.

وقد روى سيف بن عمر [تاريخ الطبري٦٠٨/٣] عن شيوخه عن سالم قال: لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء؟ لا ها الله لا ترجع حتى يفتح الله عليك إيلياء.

وقد روى أحمد بن مروان الدينوري عن محمد بن عبد العزيز عن أبيه عن الهيثم بن عدي عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم مولى عمر، عن عمر بن الخطاب أنه قدم دمشق في تجار من قريش، فلما خرجوا تخلّف عمر لبعض حاجته، فبينما هو في البلد إذا ببطريق يأخذ بعنقه، فذهب ينازعه فلم يقدر، فأدخله داراً فيها تراب وفأس ومجرفة وزنبيل، وقال له: حوّل هذا من ههنا إلى ههنا، وغلّق عليه الباب وانصرف فلم يجئ إلى نصف النهار. قال: وجلست مفكراً ولم أفعل مما قال لي شيئاً. فلما جاء قال: ما لك لم تفعلْ؟ ولكَمني في رأسي بيده قال: فأخذتُ الفأس فضربته بها فقتلتُه وخرجت على وجهي فجئت دَيْراً لراهب فجلست عنده من العشي، فأشرف عليَّ فنزل وأدخلني الدير فأطعمني وسقاني، وأتحفني، وجعل يحقق النظر فيّ، وسألني عن أمري فقلت: إني أُضللت عن أصحابي. فقال: إنك لتنظر بعين خائف، وجعل يتوسّمني ثم قال: لقد عَلِم

أهل دين النصرانية أني أعلّمهم بكتابهم، وإنـي لأراك الـذي تُخرجنـا مِـن بلادنا هذه، فهل لك أن تكتب لي كتابَ أمانٍ على دَيْري هذا؟ فقلـت: يـا هذا لقد ذهبتَ غير مذهب. فلم يزل بي حتّى كتبتُ له صحيفة بمـا طلـب مني، فلما كان وقت الانصراف أعطاني أتانا فقال لي: اركبها، فاذا وصلـت إلى أصحابك فابعث إليَّ بها وحدها فإنها لا تمر بدَيْر إلا أكرَموها. ففعلـتُ ما أمرني به، فلما قدِم عمر لفتـح بيـت المقـدس أتـاه ذلـك الراهـب وهـو بالجابية بتلك الصَّحيفة فأمضاها له واشترط عليـه ضيافـةَ مَـن يمـر بـه مِـن المسلمين، وأن يُرشدهم إلى الطريق. رواه ابن عساكر وغيره. وقد ساقه ابـن عساكر من طريق أخرى في ترجمة يحيى بـن عبـد اللّه بـن أسـامة القرشـي البلقاوي عن زيد بن أسلم عن أبيه [تاريخ دمشق١٨/١٤٣-١٤٧] فذكر حديثاً طويلاً عجيباً هذا بعضه. وقد ذكرنا الشروط العمرية علـى نصـارى الشـام مطولاً في كتابنا «الأحكام»، وأفردنا له مصنّفاً على حدة وللّه الحمد والمنة.

وقد ذكرنـا خطبتـه في الجابيـة بألفاظهـا وأسـانيدها في الكتـاب الـذي أفردناه لمسند عمر، وذكرنا تواضُعه في دخوله الشام في السيرة التي أفردناهـا له.

وقال أبو بكر بـن أبـي الدنيـا: حدثـني الربيـع بـن ثعلب حدثنـا أبـو إسماعيل المؤدب عن عبد اللّه بن مسلم بن هرمز المكـي عـن أبـي العاليـة الشامي قال: قدِم عمر بن الخطاب الجابيـة علـى طريـق إيليـاء علـى جمـل أوْرَق، تلوح صَلعَتُـه للشـمس، ليـس عليـه قلنسـوة ولا عمامـة، تصطفـق رجلاه بين شُعبتي الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساء أنبجاني ذو صـوف هـو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حَقيبته نَمِرة أو شملة محشـوة ليفـاً، هـي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نـزل وعليـه قميـص مِـن كرابيـس قـد دَسِـم وتخرّق جيبُه. فقـال: ادْعـوا لي رأسَ القـوم، فدعَـوْا لـه الجلومـس، فقـال: اغسلوا قميصي وخيِّطوه وأعـيروني قميصـاً أو ثوبـاً. فـأُتي بقميـص كتـان فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان. قال: وما الكتان؟ فأخبروه فنزع قميصه فغُسِّـل ورُقِّع وأُتي به فنزع قميصهم ولبِس قميصه. فقال له الجلومس: أنت ملـك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل. فأتي ببرذَوْن فُطرح عليه قطيفةٌ بـلا سَرْج ولا رَحْل فركبه فقال: احبسوا احبسوا، ما كنت أظن الناس يركبـون الشيطان قبل هذا هاتوا جملي فأُتِيَ بجمله فركبه.

وقال إسماعيل بن محمد الصفار: حدثنا سعدان بن نصر حدثنا سفيان عن أيوب الطائي عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: لما قـدِم عمر الشام عرضَتْ له مخاضة فنزل عن بعيره ونزَع موقَيْه فأمسكهما بيـده، وخاض الماء ومعه بعيره: فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعتَ كذا وكذا، قال: فصكَّ في صَدْره وقال: أوّه، لـو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذلّ الناس وأحقرَ الناس وأقلّ النـاس، فأعزكم اللّه بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يُذِلُّكم اللّه.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٦١٨]: وفي هذه السنة - أعني سـنة خمـس عشرة - كانت بين المسلمين وفارس وقعات في قول سيف بن عمر.

وقال ابن إسحاق والواقدي [تاريخ الطبري٣/٦١٨]: إنما كان ذلك في سنة ست عشرة ثم ذكر ابن جرير وقعات كثيرة كانت بينهم، وذلك حين بعـث [تاريخ الطبري٣/٦١٨-٦٢٢] عمر بن الخطاب إلى سعد بـن أبـي وقـاص يأمره بالمسير إلى المدائن، وأن يُخلِّف النساء والعيال بالعقيق في خيـل كثـيرة كثيفة. فلما تفرَّغ سعد من أمر القادسية بعث على المقدمة زُهرة بـن حَوِيّـة ثم أتبعه بالأمراء واحداً بعد واحد، ثم سار في الجيوش وقـد جعـل هاشـم بن عتبة بن أبي وقاص على خِلافته مكان خالد بن عُرفطة، وجعل خـالداً

هذا على السـاقة، فساروا في خيول عظيمة، وسلاح كثير، وذلك لأيام بقين من شـوال من هذه السنة، فـنزلوا الكوفـة وارتحـل زُهـرة بـين أيديهـم نحـو المدائن، فلقيه بها بُصبُهْرى في جيـش مِـن فـارس فهزمهـم زهـرة وذهبـت الفرس في هزيمتهم إلى بابل وبها جمـع كثـير ممـن انهـزم يـوم القادسـية قـد جعلوا عليهم الفيرزان، فبعث زهـرة إلى سـعد فأعلمـه باجتمـاع المنهزمـين ببابل، فسار سعد بالجيوش إلى بابل فتقابل هو والفيرزان عند بابل فهزمهـم كأسرع من لفة الرداء، وانهزموا بين يديه فِرْقتين؛ ففرقة ذهبـت إلى المدائـن، وأخرى سارت إلى نهاوند، وأقام سعد ببابل أياماً ثم سار منها نحـو المدائـن فلقُوا جمعاً آخر من الفرس فاقتتلوا قتالاً شديداً وبارزوا أمير الفرس، وهـو شهريار، فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له: نايل الأعرجي أبو نباتـة مِـن شجعان بني تميـم، فتجـاولا سـاعة بالرمـاح ثـم ألقياهـا فانتضيـا سـيفيهما وتصاولا بهما، ثم تعانقا وسقطا عن فرسيهما إلى الأرض، فوقـع شـهريار على صدر أبي نباتة، وأخرج خنجراً ليذبحه بها، فوقعت أُصبعه في فم أبـي نُباتة فقضَمها حتى شغله عن نفسه، وأخذ الخنجر فذبح شهريار بها وأخذ فرسه وسوارَيْه وسَلَبه، وانكشف أصحابه فهزُموا، فأقسم سـعد علـى نـايل لَيَلْبَسُ سواريْ شهريار وسلاحه، وليركبنّ فرسه إذا كان حرب فكان يفعـل ذلك. قالوا: وكان أوّل مَن تسوّر بالعراق. وذلك بمكـان يقـال لـه: كوثَـى. وزار المكان الذي حُبس فيه الخليل وصلّى عليه وعلى سائر الأنبيـاء وقـرأ: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٠].

وقعة بهرسير

قالوا [تاريخ الطبري٣/٦٢٢، ٦٢٣]: ثم قدّم سعدٌ زهرةَ بين يديه مِن كوثَى إلى بَهُرَسِير فمضى إلى المقدمة وقد تلقاه شيرزاذ إلى ساباط بالصلح والجزية فبعثه إلى سعد فأمضاه، ووصل سعد بـالجنود إلى مكـان يقـال لـه: مُظلِـم سـاباط، فوجـدوا هنـالك كتـائب كثيرة لكسـرى يسـمونها بـوران، وهـم يُقسِمون كل يوم: لا يزول مُلْك فارس ما عِشنا، ومعهم أسد كبير لكسرى يقال له: المقرِّط، قد أرصدوه في طريق المسلمين فتقدّم إليه ابن أخي سـعد، وهو هاشم بن عتبة، فقتل الأسدَ والناس ينظرون وسُمّي يومئذ سيفه المتين وقبّل سعد يومئذ رأس هاشم وقبّل هاشم قدم سعد. وحمـل هاشـم علـى الفُرس فأزالهم عن أماكنهم وهزمهم وهو يتلو قوله تعـالى: ﴿أَوَلَـمْ تَكُونُـواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فلمـا كـان الليـل ارتحـل المسلمون ونزلوا بَهُرَسِير فجعلـوا كلمـا وقفـوا كبّروا وكذلـك حتـى كـان آخرُهم مع سعد فأقاموا بها شهرين ودخلوا في الثالث وفرغت السنة.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري٣/٦٢٣]: وفيهـا حـجّ بالنـاس عمـر وكـان عامله فيها على مكة عتاب بن أسيد، وعلى الشام أبو عبيدة، وعلى الكوفة والعراق سعد، وعلى الطائف يعلى بن أمية وعلى البحرين واليمامة عثمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حذيفة بن محصن.

قلت: وكانت وقعة عساكر في سنة خمس عشـرة في رجـب منهـا عنـد الليث بن سعد وابن لهيعة وأبي معشر والوليد بن مسلم ويزيـد بـن عبيـدة وخليفة بن خياط وابن الكلبي ومحمد بن عائذ وابـن عسـاكر وشـيخنا أبـي عبد اللّه الذهبي الحافظ. وأما سيف بن عمر وأبو جعفر بن جريـر فذكـروا وقعة اليرموك في سنة ثلاث عشرة. وقد قدمنـا ذكرهـا هنـالك تبعـاً لابـن جرير، وهكذا وقعة القادسية عنه بعض الحفاظ أنها كـانت في أواخـر هـذه السنة - سنة خمس عشـرة - وتبعهـم في ذلـك شـيخنا الحـافظ الذهـبي. والمشهور أنها كانت في سنة أربع عشرة كما تقدم.

ثم ذكر شيخنا الذهبي [تاريخ الإسلام١٤٦ـ١٥٦] من توفي في هذه السنة مرتّبين على الحروف

■ سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وهو أحد أقوال المؤرخين. وقد تقدم[.

■ سعد بن عبيد بن النعمان أبو زيد الأنصاري الأوسي [الاستيعاب٦٠٠/٢]: قُتل بالقادسية، ويقال: إنه أبو زيد القاري أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وأنكر آخرون ذلك، ويقال: إنه والد عمير بن سعد الزاهد أمير حمص. وذكر محمد بن سعد وفاته بالقادسية وقال [طبقات ابن سعد٤٥٨/٣]: كانت في سنة ست عشرة والله أعلم.

■ سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُد بن نصر مالك بن حسل بن عامر بن لؤي أبو يزيد العامري [الاستيعاب٦٦٩/٢]: أحد خطباء قريش وأشرافهم، أسلم يوم الفتح وحسُن إسلامه وكان سمحاً جواداً فصيحاً كثير الصلاة والصوم والصدقة وقراءة القرآن والبكاء. ويقال: إنه قام وصام حتى شَحُب لونه. وله سعي مشكور في صلح الحديبية. ولما مات رسول الله ﷺ خطب الناس بمكة خطبةً عظيمةً تُثَبِّت الناس على الإسلام، وكانت خطبته بمكه قريباً من خطبة الصدِّيق بالمدينة، ثم خرج في جماعة إلى الشام مجاهداً فحضر البرموك وكان أميراً على بعض الكَراديس، ويقال: إنه استشهد يومئذ. وقال الواقدي والشافعي: توفي بطاعون عمواس.

■ عامر بن مالك بن أهيب الزهري أخو سعد بن أبي وقاص [الاستيعاب٧٩٩/٢]. هاجر إلى الحبشة، وهو الذي قدم بكتاب عمر إلى أبي عبيدة بولايته على الشام وعزل خالد عنها، استشهد يوم اليرموك.

■ عبد الله بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي [الاستيعاب٩٢١/٣]: صحابي هاجر إلى الحبشة مع عمّه أبي سلمة بن عبد الأسد. روى عنه عمرو بن دينار منقطعاً لأنه قُتل يومَ اليرموك.

■ عبد الرحمن بن العوام،أخو الزبير بن العوام، حضر بدراً مشركاً ثم أسلم واستشهد يوم اليرموك في قول.

■ عتبة بن غزوان، توفي فيها في قول.

■ عكرمة بن أبي جهل: استشهد باليرموك في قول.

■ عمرو ابن أم مكتوم: استشهد يوم القادسية وقد تقدّم، ويقال: بل رجع إلى المدينة.

■ عمرو بن الطفيل بن عمرو تقدم.

■ عياش بن أبي ربيعة تقدم.

■ فراس بن النضر بن الحارث [الاستيعاب١٢٦٨/٤] يقال: استشهد يوم اليرموك.

■ قيس بن عدي بن سعد بن سهم: من مهاجرة الحبشة قُتل باليرموك.

■ قيس بن أبي صعصعة، عمرو بن زيد بن عوف الأنصاري المازني: شهد العقبة وبدراً، وكان أحد أمراء الكراديس يوم اليرموك،وقتل يومئذ، وله حديث قال: قلت: يا رسول الله في كم أقرأ القرآن؟ قال: «في خمس عشرة» الحديث.

قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: ففيه دليل على أنه ممن جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ

■ نُضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري: أسلم عام الفتح، وكان من علماء قريش، وأعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين مائه من الابل، فتوقف في أخذها وقال: لا أرتشي على الإسلام، ثم قال: والله ما طلبتها ولا سألتها، وهي عطية من رسول الله ﷺ، فأخذها وحسن إسلامه، واستشهد يوم اليرموك.

■ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، كان أسن من أسلم من بني عبد المطلب، وكان ممن أسر يوم بدر ففداه العباس، ويقال: إنه هاجر أيام الخندق وشهد الحديبية والفتح، وأعان رسول الله ﷺ يوم حنين بثلاثة آلاف رمح، وثبت يومئذ وتوفي سنة خمس عشرة، وقيل: سنة عشرين والله أعلم، توفي بالمدينة وصلى علية عمر ومشى في جنازته ودفن بالبقيع وخلف عدة أولاد فضلاء وأكابر.

■ هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص تقدم، وقال ابن سعد: قتل يوم اليرموك [الطبقات: ١٩٢/٤].

ثم دخلت سنة ست عشرة

استهلت هذه السنة وسعد بن أبي وقاص مُنازل مدينة بَهُرسير، وهي إحدى مدينتي كسرى مما يلي دجلة من الغرب، وكان قدوم سعد إليها في ذي الحجة من سنة خمس عشرة، واستهلت هذه السنة وهو نازل عندها. وقد بعث السرايا والخيول في كل وجه فلم يجدوا واحداً من الجند، بل جمعوا من الفلاحين مائة ألف فحبسوا حتى كتب إلى عمر ما يفعل بهم، فكتب إليه عمر: إن من كان من الفلاحين لم يعن عليكم وهو مقيم ببلده فهو أمانة، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به. فأطلقهم سعد بعدما دعاهم إلى الإسلام فأبوا إلا الجزية. ولم يبق من غربي دجله إلى أرض العرب أحد من الفلاحين إلا تحت الجزية والخراج.

وامتنعت بَهُرسير من سعد أشد الامتناع، وقد بعث إليهم سعد سلمان الفارسي فدعاهم إلى الله عز وجل أو الجزية أو المقاتلة فأبوا إلا المقاتلة والعصيان، ونصبوا المجانيق والدبابات، وأمر سعد بعمل المجانيق فعملت عشرون منجنيقا، ونصبت على بَهُرسير، واشتد الحصار وكان أهل بَهُرَسير يخرجون فيقاتلون قتالا شديدا ويحلفون أن لا يفروا أبداً، فأكذبهم الله وهزمهم زهرة بن حويَّة بعدما أصابه سهم وقتل بعد مصابه به كثيرا من الفرس وفروا بين يديه ولجؤوا إلى بلدهم، فكانوا يحاصرون فيه أشد الحصار، وقد انحصر أهل البلد حتى أكلوا الكلاب والسنانير وقد أشرف رجل منهم على المسلمين فقال: يقول لكم الملك: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا، ولكم ما يليكم، من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم؟ لا أشبع الله بطونكم.

قال: فبدر الناس رجل يقال له أبو مُفَزِّز الأسود بن قطبة فأنطقة الله بكلام لم يدر ما قال لهم، قال: فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون من بهرسير إلى المدائن. فقال الناس لأبي مفزّز: ما قلت لهم؟ فقال: والذي بعث محمدا بالحق ما أدري ما قلت لهم إلا أن عليَّ سكينة وأنا أرجو أن أكون قد أُنطقت بالذي هو خير، وجعل الناس يتنابونه يسألونه عن ذلك، وكان فيمن سأله سعد بن أبي وقاص، وجاءه سعد إلى منزله فقال: يا أبا مفزّز: ما قلت؟ فوالله إنهم هُرّاب. فحلف له أنه لا يدري ما قال.

فنادى سعد في الناس ونهد بهم إلى البلد والمجانيق تضرب في البلد، فنادى رجل من البلد بالأمان فأمّناه، فقال: والله ما بالبلد أحد، فتسوّر الناس السور فما وجدنا فيها أحدا إلا قد هربوا إلى المدائن. وذلك في شهر

صفر من هذه السنة فسألنا ذلك الرجل وأناسا من الأسارى فيها لأي شيء هربوا؟ قالوا: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجابه ذلك الرجل بأنه لا يكون بينكم وبينهم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفرنديـن بأترج كوثى. فقال الملك: ياويلاه إن الملائكة لتتكلم على ألسنتهم، ترد علينا وتجيبنا عن العرب. ثم أمر الناس بالرحيل من هناك إلى المدائن فجازوا في السفن منها إليها وبينهما دجلة، وهي قريبة منها جداً.

ولما دخل المسلمون بهرسير في الليل لاح لهم القصر الأبيض من المدائن وهو قصر الملك الذي ذكره رسول الله ﷺ أنه سيفتحه الله على أمته، وذلك قريب الصباح، فكان أول من رآه من المسلمين ضرار بن الخطاب، فقال: الله أكبر أبيض كسرى، هذا ما وعدنا الله ورسوله. ونظر الناس إليه فتابعوا التكبير إلى الصبح.

ذكر فتح المدائن التي هي مستقرّ ملك كسرى

لما فتح سعد بهرسير واستقر بها، وذلك في صفر لم يجد فيها أحدا ولا شيئا مما يغنم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعد ﷺ شيئا من السفن وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية، وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسود ماؤها، ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل. فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض - يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى - ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم بن عمرو وذوو البأس من الناس قريب من ستمائة، فأمّر سعد عليهم عاصم بن عمرو فوقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين - والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر - فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة، فقال: أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق الستون فرقتين أصحاب الخيل الذكور وأصحاب الخيل الإناث. فلما رآهم الفرس يَطْفُون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. يقولون: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسا بل تقاتلون جنا. ثم أرسلوا فرسانا منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عَمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء. واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب وكانوا يسمون الكتيبة الأولى كتيبة الأهوال، وأميرها عاصم بن عَمرو، والكتيبة الثانية الكتيبة الخرساء وأميرها القعقاع بن عمرو.

وهذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس، وسعد واقف على شاطئ دجلة. ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم اقتحم بفرسه دجله واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له. فقال: «اللّهم أجب دعوته، وسدد رميته» [خ(٥٦٥٩)، م(١٦٢٨)].

والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد غير أن رجلاً واحداً يقال له غرقدة البارقي، زل عن فرس له شقراء، فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان، فقال: عجز النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو. ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر، كانت عِلاقته رثة فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللّهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي. فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه. وكان الفرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح، وحتى إن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها، وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع، سوى قضية العلاء بن الحضرمي المتقدمة، بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك.

قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرن الله وليه وليُظهرنّ الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: إن الإسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً. فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن، فلم يجدوا بها أحدا، بل قد أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة والحواصل وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع، والآنية والألطاف والأدهان ما لا يدرى قيمته. وكان في خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ثلاث مرات فأخذوا من ذلك ما قدروا عليه وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه.

فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال ثم الكتيبة الخرساء، فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً ولا يخشونَه غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصن.

فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد واتخذ الإيوان مصلًى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٨] ثم تقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح، وذكر سيف في روايته أنه صلاها بتسليمة واحدة وأنه جمّع بالإيوان في صفر من هذه السنة فكانت أول جمعة جُمّعت بالعراق، وذلك لأن سعدا نوى الإقامة بها، وبعث إلى العيالات فأنزلهم دور المدائن واستوطنوها، حتى فتحوا جلولاء وتكريت والموصل، ثم تحولوا إلى الكوفة بعد ذلك كما سنذكره.

ثم أرسل السرايا في إثر كسرى يزدجرد فلحق بهم طائفة فقتلوهم وشردوهم واستلبوا منهم أموالا عظيمة. وأكثر ما استرجعوا من ملابس كسرى وتاجه وحليه. وشرع سعد في تحصيل ما هنالك من الأموال والحواصل والتحف، مما لا يقوَّم ولا يُحدُّ ولا يوصف كثرة وعظمة.

وقد روينا أنه كان هناك تماثيل من جص فنظر سعد إلى أحدها وإذا هو يشير بأصبعه إلى مكان، فقال سعد: إن هذا لم يوضع هكذا سدًى، فأخذوا ما يسامت أصبعه فوجدوا قبالتها كنزاً عظيماً من كنوز الأكاسرة الأوائل، فأخرجوا منه أموالا عظيمة جزيلة وحواصل باهرة، وتحفاً فاخرة. واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع مما لم ير أحد في الدنيا أعجب منه. وكان في جملة ذلك تاج كسرى وهو مكلل بالجواهر النفيسة التي تحير الأبصار، ومنطقته كذلك وسيفه وسواره وقباؤه وبساط إيوانه، وكان مربعا ستون ذراعا في مثلها، من كل جانب، والبساط مثله سواء، وهو منسوج بالذهب واللآلئ والجواهر الثمينة، وفيه مصور جميع ممالك كسرى، بلاده بأنهارها وقلاعها، وأقاليمها، وكُورها، وصفة الزروع والأشجار التي في بلاده. فكان إذا جلس على كرسي مملكته ودخل تحت تاجه، وتاجه معلق بسلاسل الذهب، لأنه كان لا يستطيع أن يقلّه على راسه لثقله، بل كان يجيء فيجلس تحته ثم يدخل رأسه تحت التاج والسلاسل الذهب تحمله عنه، وهو يستره حال لبسه فإذا رفع الحجاب عنه خرت له الأمراء سجودا. وعليه المنطقة والسواران والسيف والقباء المرصع بالجواهر فينظر في البلدان واحدة واحدة، فيسأل عنها ومن فيها من النواب، وهل حدث فيها شيء من الأحداث؟ فيخبره بذلك ولاة الأمور بين يديه. ثم ينتقل إلى الأخرى، وهكذا حتى يسأل عن أحوال بلاده في كل وقت لا يهمل أمر المملكة، وقد وضعوا هذا البساط بين يديه تذكارا له بشأن الممالك، وهو إصطلاح جيد منهم في أمر السياسة.

فلما جاء قدر الله زالت تلك الأيدي عن تلك الممالك والأراضي وتسلمها المسلمون من أيديهم قسرا، وكسروا شوكتهم عنها وأخذوها بأمر الله صافية ضافية، ولله الحمد والمنة.

وقد جعل سعد بن أبي وقاص على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن فكان أول ما حصل ما كان في القصر الأبيض ومنازل كسرى، وسائر دور المدائن وما كان بالإيوان مما ذكرنا وما يفد من السرايا الذين في صحبة زهرة بن حوية وكان فيما رد زهرة بغل كان قد أدركه وغصبه من الفرس وكانت تحوطه بالسيوف فاستنقذه منهم وقال: إن لهذا لشأناً. فرده إلى الأقباض وإذا عليه سَفَطان فيهما ثياب كسرى وحليه، ولبسه الذي كان يلبسه على السرير كما ذكرنا، وبغل آخر عليه تاجه الذي ذكرنا في سفطين أيضا رُدّا من الطريق مما استلبه أصحاب السرايا.

وكان فيما ردّت السرايا أموال عظيمة فيها أكثر أثاث كسرى وأمتعته والأشياء النفيسة التي استصحبوها معهم، فلحقهم المسلمون فاستلبوها منهم. ولم تقدر الفرس على حمل البساط لثقله عليهم، ولا حمل الاموال لكثرتها. فإنه كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور فيجدون البيت ملآنا إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً، فيحسبونه ملحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين فوجدوه مرّاً حتى تبينوا أمره.

فتحصل الفيء على أمر عظيم من الأموال، وشرع سعد فخمسه وأمر سلمان بن ربيعة الباهلي فقسم الأربعة الأخماس بين الغانمين، فحصل لكل واحد من الفرسان اثنا عشر ألفا، وكانوا كلهم فرسانا، ومع بعضهم جنائب، واستوهب سعد أربعة أخماس البساط ولُبسَ كسرى من المسلمين، ليبعثه إلى عمر والمسلمين بالمدينة لينظروا إليه ويتعجبوا منه فطيبوا له ذلك وأذنوا فيه، فبعثه سعد إلى عمر مع الخمس مع بشير بن الخصاصية، وكان الذي بشر بالفتح قبله حليس بن فلان الأسدي، فروينا أن عمر لما نظر إلى ذلك قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء، فقال له علي بن أبي طالب: إنك عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت. ثم قسم عمر ذلك في المسلمين فأصاب علياً قطعة من البساط فباعها بعشرين ألفا.

وقد ذكر سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب ألبس ثياب كسرى لخشبة ونصبها أمامه ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب، وماعليها من زهرة الحياة الدنيا الفانية [تاريخ الطبري: ٢٣،٢٢/٤].

وقد روينا أن عمر ألبس ثياب كسرى لسراقة بن مالك بن جعشم أمير بني مدلج ﷺ.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة [٣٢٥/٦]: أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهاني حدثنا أبو سعيد بن الأعرابي. قال: وجدت في كتابي بخط يدي عن أبي داود حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب أُتي بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم، قال: فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله سواري كسرى بن هرمز في يدي سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج. وذكر الحديث.

هكذا ساقه البيهقي. ثم حكى عن الشافعي أنه قال: وإنما ألبسهما سراقة لأن رسول الله ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه: «كأني بك وقد لبست سواري كسرى» قال الشافعي: وقد قال عمر لسراقة حين ألبسه سواري كسرى: قل: الله أكبر. فقال: الله أكبر. ثم قال: قل: الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابيّاً من بني مدلج [دلائل النبوة: ٣٢٥/٦].

وقال الهيثم بن عدي: أخبرنا أسامة بن زيد الليثي حدثنا القاسم بن محمد بن أبي بكر، قال بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه، قال: فنظر عمر في وجوه القوم. وكان أجسمهم وأبدنهم قامة سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا سراق قم فالبس، قال سراقة: فطمعت فيه فقمت فلبست فقال: أدبر فأدبرت، ثم قال: أقبل فأقبلت، ثم قال: بخ بخ،

أُعيرابيٌّ من بني مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه. رب يوم يا سراق بن مالك، لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى، كان شرفاً لك ولقومك، انزع. فنزعت. فقال: اللّهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي. ثم بكى حتى رحمه من كان عنده. ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي.

وذكر سيف بن عمر التميمي: أن عمر حين ملك تلك الملابس والجواهر جيء بسيف كسرى ومعه عدة سيوف منها سيف النعمان بن المنذر نائب كسرى على الحيرة وأن عمر قال: الحمد لله الذي جعل سيف كسرى فيما يضره ولا ينفعه. ثم قال: إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة. ثم قال: إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته فجمع لزوج امرأته، أو زوج ابنته، ولم يقدم لنفسه، ولو قدم لنفسه ووضع الفضول في مواضعها لحصل له [تاريخ الطبري: ٢٣،٢٢/٤].

وقد قال بعض المسلمين وهو أبو بُجيد نافع بن الأسود في ذلك:

وأملنا على المدائن خيلا بحرها مثل برِّهنّ أريضا
فانتثلنا خزائن المرءِ كسرى يوم ولّوا وحاص منّا جريضا

وقعة جلولاء

لما سار كسرى وهو يزدجرد بن شهريار من المدائن هارباً إلى حلوان شرع في أثناء الطريق في جمع رجال وأعوان وجنود، من البلدان التي هناك، فاجتمع إليه خلق كثير، وجم غفير من الفرس وأمّر على الجميع مهران، وسار كسرى إلى حلوان وأقام الجمع الذي جمعه بينه وبين المسلمين في جلولاء، واحتفروا خندقاً عظيماً حولها، وأقاموا بها في العَدَد والعُدَد وآلات الحصار، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك. فكتب إليه عمر أن يقيم هو بالمدائن ويبعث ابن أخيه هاشم بن عتبة أميراً على الجيش الذي يبعثه إلى كسرى، ويكون على المقدمة القعقاع بن عمرو، وعلى الميمنة سِعْرُ بن مالك وعلى الميسرة أخوه عمر بن مالك، وعلى الساقة عمرو بن مرة الجهني.

ففعل سعد ذلك وبعث مع ابن أخيه جيشاً كثيفاً يقارب اثني عشر ألفاً، من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار، ورؤوس العرب. وذلك في صفر من هذه السنة بعد فراغهم من أمر المدائن، فساروا حتى انتهوا إلى المجوس وهم بجلولاء قد خندقوا عليهم، فحاصرهم هاشم بن عتبة، وكانوا يخرجون من بلدهم للقتال في كل وقت فيقاتلون قتالاً لم يسمع بمثله. وجعل كسرى يبعث إليهم الأمداد، وكذلك سعد يبعث المدد إلى ابن أخيه، مرة بعد أخرى.

وحمي القتال، واشتد النزال، واضطرمت نار الحرب، وقام في الناس هاشم فخطبهم غير مرة، فحرضهم على القتال والتوكل على الله. وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت، وحلفوا بالنار أن لا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب. فلما كان الموقف الأخير وهو يوم الفيصل والفرقان، تواقفوا من أول النهار، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله حتى فني النشاب من الطرفين، وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء، وصاروا إلى السيوف والطبرزينات، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماءً، وذهبت فرقة المجوس وجاءت مكانها أخرى، فقام القعقاع بن عمرو في المسلمين فقال: أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون؟ قالوا: نعم إنا كالّون وهم مريحون، فقال: بل إنا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم، حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم، فحمل وحمل الناس، فأما القعقاع فإنه صمم الحملة في جماعة من الفرسان والأبطال والشجعان، حتى انتهى إلى باب الخندق، وأقبل الليل بظلامه وجالت بقية الأبطال بمن معهم في الناس وجعلوا يأخذون في التحاجز من أجل إقبال الليل وفي الأبطال يومئذ طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح، وحجر بن عدي. ولم يعلموا بما صنعه القعقاع في ظلمة الليل، ولم يشعروا بذلك، لولا مناديه ينادي: أين أيها المسلمون، هذا أميركم على باب خندقهم. فلما سمع ذلك المجوس فروا وحمل المسلمون نحو القعقاع بن عمرو فإذا هو على باب الخندق قد ملكه عليهم، وهربت الفرس كل مهرب، وأخذهم المسلمون من كل وجه، وقعدوا لهم كل مرصد، فقتل منهم في ذلك الموقف مائة ألف حتى جللوا وجه الأرض بالقتلى، فلذلك سميت جلولاء. وغنموا من الأموال والسلاح والذهب والفضة قريباً مما غنموا من المدائن قبلها.

وبعث هاشم بن عتبة القعقاع بن عمرو في إثر من انهزم منهم وراء كسرى، فساق خلفهم حتى أدرك مهران منهزماً، فقتله القعقاع بن عمرو، وأفلتهم الفيرزان فاستمر منهزماً، وأسر سبايا كثيرة بعث بها إلى هاشم بن عتبة، وغنموا دواب كثيرة جداً. ثم بعث هاشم بالغنائم والأموال إلى عمه سعد بن أبي وقاص فنفل سعد ذوي النجدة ثم أمر بقسم ذلك على الغانمين.

قال الشعبي: كان المال المتحصل من وقعة جلولاء ثلاثين ألف ألف، فكان خمسه ستة آلاف ألف [تاريخ الطبري: ٢٩/٤].

وقال غيره: كان الذي أصاب كل فارس يوم جلولاء نظير ما حصل له يوم المدائن ـ يعني اثني عشر ألفاً لكل فارس [تاريخ الطبري: ٢٩/٤].

وقيل أصاب كل فارس تسعة آلاف وتسع دواب [تاريخ الطبري: ٢٩/٤].

وكان الذي ولي قسم ذلك بين المسلمين وتحصيله، سلمان بن ربيعة ﷺ. ثم بعث سعد بالأخماس من المال والرقيق والدواب مع زياد بن أبي سفيان، وقضاعي بن عمرو، وأبي مفرِّز الأسود.

فلما قدموا على عمر سأل عمر زياد بن أبي سفيان عن كيفية الوقعة فذكرها له، وكان زياد فصيحاً، فأعجب إيراده لها عمر بن الخطاب ﷺ، وأحب أن يسمع المسلمون منه ذلك، فقال له: أتستطيع أن تخطب الناس بما أخبرتني به؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنه ليس أحد على وجه الأرض أهيب عندي منك، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك؟ فقام في الناس فقص عليهم خبر الوقعة، وكم قتلوا، وكم غنموا، بعبارة عظيمة بليغة فقال عمر: إن هذا لهو الخطيب المِصْقَع ـ يعني الفصيح ـ فقال زياد: إن جندنا أطلقوا بالفَعَال لساننا. ثم حلف عمر بن الخطاب أن لا يُجِنُّ هذا المال الذي جاؤوا به سقف حتى يقسمه، فبات عبد الله بن أرقم وعبد الرحمن بن عوف يحرسانه في المسجد، فلما أصبح جاء عمر في الناس، بعد ما صلى الغداة وطلعت الشمس، فأمر فكشف عنه جلابيبه، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وذهبه الأصفر وفضته البيضاء، بكى عمر، فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر، فقال عمر: والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقي بأسهم بينهم. ثم قسمه كما قسم أموال القادسية

[تاريخ الطبري: ٤/٢٩، ٣٠].

وروى سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا: وكان فتح جلولاء في ذي القعدة من سنة ست عشرة، وكان بينه وبين فتح المدائن تسعة أشهر وقد تكلم ابن جرير [تاريخه: ٤/٣٠-٣٣] ههنا فيما رواه عن سيف على ما يتعلق بأرض السواد وخراجها، وموضع تحرير ذلك كتاب الأحكام.

وقد قال هاشم بن عتبة في يوم جلولاء:

يومُ جلولاءَ ويوم رستم
ويوم زحفِ الكوفةِ المقدَّمْ
ويومُ عرضِ النهرِ المحرَّمْ
وأيامٌ خلتْ من شهرٍ صُرَّمْ
شيَّبن أصدغي فهن هرَّمْ
مثلُ ثُغامِ البَلَدِ المحرَّمْ

وقال أبو بُجيد في ذلك:

ويومُ جلولاءَ الوقيعةِ أصبحتْ ... كتائبنا تردي بأسدٍ عوابسِ
فضَضْتُ جموعَ الفرسِ ثم أنمتهم ... فتبّاً لأجسادِ المجوسِ النجائسِ
وأفلتهنَّ الفيرزانُ بجرعةٍ ... ومهرانُ أردتْ يومَ حزِّ القوانسِ
أقاموا بدارٍ للمنيةِ موعدٌ ... وللترب تحثوها خجوجُ الروامسِ

ذكر فتح حلوان

ولما انقضت الوقعة أقام هشام بن عتبة بجلولاء عن أمر عمر بن الخطاب - في كتابه إلى سعد - وتقدم القعقاع بن عمرو إلى حلوان، عن أمر عمر أيضاً ليكون ردءاً للمسلمين هنالك ومرابطاً لكسرى حيث هرب.

فسار كما قدمنا، وأدرك أمير الوقعة وهو مهران الرازي، فقتله وهرب منه الفيرزان، فلما وصل إلى كسرى وأخبره بما كان من أمر جلولاء، وما جرى على الفرس بعده، وكيف قتل منهم مائة ألف، وأدرك مهران فقتل، هرب عند ذلك كسرى من حلوان إلى الري، واستناب على حلوان أميراً يقال له: خُسْرُو شنوم، فتقدم إليه القعقاع بن عمرو، وبرز إليه خُسْرو شنوم إلى مكان خارج من حلوان، فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً ثم فتح الله ونصر المسلمين وانهزم خُسْرو شنوم، وساق القعقاع إلى حلوان فتسلمها ودخلها المسلمون فغنموا وسبوا، وأقاموا بها، وضربوا الجزية على من حولها من الكور والأقاليم بعدما دعوا إلى الدخول في الإسلام فأبوا إلا الجزية. فلم يزل القعقاع بها حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة، فسار إليه كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

فتح تكريت والموصل

لما افتتح سعد المدائن بلغه أن أهل الموصل قد اجتمعوا بتكريت على رجل من الكفرة يقال له الأنطاق، فكتب إلى عمر بأمر جلولاء واجتماع الفرس بها، وبأمر أهل الموصل، فتقدم ما ذكرناه من كتاب عمر في أهل جلولاء، وما كان من أمرها. وكتب عمر في قضية أهل الموصل الذين قد اجتمعوا بتكريت على الأنطاق، أن يعيّن جيشاً لحربهم، ويؤمر عليه عبد الله بن المعتم، وأن يجعل على مقدمته ربعي بن الأفكل العَنَزي، وعلى الميمنة الحارث بن حسان الذهلي، وعلى الميسرة فرات بن حيان العجلي، وعلى الساقة هانئ بن قيس، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة.

ففصل عبد الله بن المعتم في خمسة آلاف من المدائن، فسار في أربع حتى نزل بتكريت على الأنطاق، وقد اجتمع إليه جماعة من الروم، ومن الشهارجة، ومن نصارى العرب، ومن إياد وتغلب والنمر. وقد أحدقوا بتكريت، فحاصرهم عبد الله بن المعتم أربعين يوماً. وزاحفوه في هذه المدة أربعاً وعشرين مرة، ما من مرة إلا وينتصر عليهم ويفل جموعهم، فضعف جأشُهم، وعزمت الروم على الذهاب في السفن بأموالهم، وراسل عبد الله بن المعتم إلى من هنالك من الأعراب، فدعاهم إلى الدخول معه في النصرة على أهل البلد، فجاءت القُصّاد إليه عنهم بالإجابة إلى ذلك، فأرسل إليهم:

إن كنتم صادقين فيما قلتم فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقروا بما جاء من عند الله. فرجعت القصاد إليه بأنهم قد أسلموا فبعث إليهم: إن كنتم صادقين فإذا كبَّرنا وحملنا على البلد الليلة فأمسكوا علينا أبواب السفن، وامنعوهم أن يركبوا فيها، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله.

ثم شد عبدالله وأصحابه، وكبَّروا تكبيرة رجل واحد، وحملوا على البلد فكبرت الأعراب من الناحية الأخرى، فحار أهل البلد، وأخذوا في الخروج من الأبواب التي تلي دجلة، فتلقتهم إياد والنمر وتغلب، فقتلوهم قتلا ذريعاً، وجاء عبد الله بن المعتم بأصحابه من الأبواب الأخر فقتل جميع أهل البلد عن بكرة أبيهم، ولم يسلم إلا من أسلم من الأعراب من إياد وتغلب والنمر، وقد كان عمر عهد في كتابه أن إذا نصروا على تكريت أن يبعثوا ربعي بن الأفكل إلى الحصنين وهي الموصل سريعاً، فسار إليها كما أمر عمر، ومعه سرية كثيرة، وجماعة من الأبطال، فسار إليها حتى فجأها قبل وصول الأخبار إليها، فما كان إلا أن واقفها حتى أجابوا إلى المصالحة فضربت عليهم الذِّمةُ عن يد وهم صاغرون.

ثم اقتُسمت الأموال التي تحصلت من تكريت، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألف درهم. وبعثوا بالأخماس مع فرات بن حيان، وبالفتح مع الحارث بن حسان، وولي امرة حرب الموصل ربعي بن الأفكل، وولي الخراج بها عرفجة بن هرثمة.

فتح ماسبذان من أرض العراق

لما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن، بلغ سعداً أن آذين بن الهرمزان قد جمع طائفة من الفرس، فكتب إلى عمر في ذلك، فكتب إليه أن ابعث جيشاً وأمِّر عليهم ضرار بن الخطاب. فخرج ضرار في جيش من المدائن، وعلى مقدمته ابن الهُذيل الأسدي، فتقدم ابن الهُذيل بين يدي الجيش، فالتقى مع آذين وأصحابه قبل وصول ضرار إليه، فكسر ابن الهُذيل طائفة الفرس، وأسر آذين بن الهرمزان، وفرَّ عنه أصحابه، وأمر ابن الهُذيل فضرب عنق آذين بين يديه، وساق وراء المنهزمين حتى انتهى إلى ماسبذان - وهي مدينة كبيرة - فأخذها عنوة، وهرب أهلها في رؤوس الجبال والشعاب، فدعاهم فاستجابوا له، وضرب على من لم يسلم الجزية، وأقام نائباً عليها حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة كما سيأتي.

فتح قرقيسياءَ وهِيت في هذه السنة

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٧/٤، ٣٨] وغيره [الكامل: ٥٢٥/٢، ٥٢٦]: لما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن وكان أهل الجزيرة قد أمدوا أهل حمص على قتال أبي عبيدة وخالد - لما كان هرقل بقنسرين - واجتمع أهل الجزيرة في مدينة هيت، كتب سعد إلى عمر في ذلك، فكتب إليه أن يبعث إليهم جيشاً، وأن يؤمر عليهم عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف، فسار في مَن معه من المسلمين إلى هيت فوجدهم قد خندقوا عليهم، فحاصرهم حيناً فلم يظفر بهم، فسار في طائفة من أصحابه واستخلف على محاصرة هيت الحارث بن يزيد، فراغ عمر بن مالك إلى قرقيسياءَ فأخذها عنوة، وأنابوا إلى بذل الجزية، وكتب إلى نائبه على هيت: إن لم يصالحوا أن يحفر من وراء خندقهم خندقا، ويجعل له أبواباً من ناحيته. فلما بلغهم ذلك أنابوا إلى المصالحة.

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ الذهبي [تاريخ الإسلام: ١٦٢، ١٦٣]: وفي هذه السنة بعث أبو عبيدة عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنسرين فصالح أهل حلب، ومنبج، وأنطاكية، على الجزية. وفتح سائر بلاد قنسرين عنوة.

قال: وفيها افتتحت سروج والرها على يدي عياض بن غنم.

قال: وفيها فيما ذكر ابن الكلبي سار أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فحاصر إيلياءَ فسألوا الصلح على أن يقدم عمر فيصالحهم على ذلك، فكتب أبو عبيدة إلى عمر فقدم حتى صالحهم وأقام أياماً ثم رجع إلى المدينة.

قلت: قد تقدم هذا فيما قبل هذه السنة والله أعلم.

قال الواقدي: وفي هذه السنة حمى عمر الربذة لخيل المسلمين، وفيها غرّب عمر أبا محجن الثقفي إلى باضع، وفيها تزوج عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد.

قلت: الذي قُتل يوم الجسر، وكان أمير السرية، وهي أخت المختار بن أبي عبيد أمير العراق فيما بعد، وكانت امرأة صالحة، وكان أخوها فاجراً وكافراً أيضاً.

قال الواقدي: وفيها حج عمر بالناس، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت.

قال: وكان نائبه على مكة عتاب، وعلى الشام أبو عبيدة، وعلى العراق سعد، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يعلى بن أمية، وعلى اليمامة والبحرين العلاء بن الحضرمي، وعلى عُمَان حذيفة بن محصن وعلى البصرة المغيرة بن شعبة، وعلى الموصل ربعي بن الأفكل، وعلى الجزيرة عياض بن غنم الأشعري [تاريخ الطبري ٣٩/٤].

قال الواقدي: وفي ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة ست عشرة - كتب عمر بن الخطاب التاريخ، وهو أول من كتبه.

قلت: قد ذكرنا سببه في سيرة عمر، وذلك أنه رفع إلى عمر صك مكتوب لرجل على آخر بدين يحل عليه في شعبان، فقال: أي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها، أم التي بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون فيه حلول ديونهم. فيقال: إنهم أراد بعضهم أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده، فكرهوا ذلك. ومنهم من قال: أرخوا بتاريخ الروم من زمان إسكندر فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً. وقال قائلون: أرخوا من مولد رسول الله ﷺ. وقال آخرون: من مبعثه ﷺ. وأشار علي بن أبي طالب وآخرون أن يؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة لظهوره لكل أحد فإنه أظهر من المولد والمبعث. فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ وأرخوا من أول تلك السنة من محرمها.

وعند مالك رحمه الله فيما حكاه عن السهيلي وغيره أن أول السنة من ربيع الأول لقدومه ﷺ فيه إلى المدينة.

والجمهور على أن أول السنة من المحرم، لأنه أضبط لئلا تختلف الشهور، فإن المحرم أول السنة الهلالية العربية.

وفي هذه السنة - أعني سنة ست عشرة - توفيت مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وذلك في المحرم منها فيما ذكره الواقدي وابن جرير [تاريخ الطبري: ٣٨/٤] وغير واحد، وصلى عليها عمر بن الخطاب، وكان يجمع الناس لشهود جنازتها، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها، وهي مارية القبطية، أهداها صاحب إسكندرية - وهو جريج بن مينا - في جملة تحف وهدايا لرسول الله ﷺ، فقبل ذلك منه، وكان معها أختها سيرين التي وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان.

ويقال: أهدى المقوقس معهما جاريتين أخريين، فيحتمل أنهما كانتا خادمتين لمارية وسيرين. وأهدى معهن غلاماً خصياً اسمه مأبور، وأهدى مع ذلك بغلة شهباء اسمها الدلدل، وأهدى حلة حرير من عمل الإسكندرية. وكان قدوم هذه الهدية في سنة ثمان. فحملت مارية من رسول الله ﷺ بإبراهيم عليه السلام، فعاش عشرين شهراً، ومات قبل أبيه رسول الله ﷺ بسنة سواء. وقد حزن عليه رسول الله ﷺ وبكى عليه وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» [تاريخ دمشق: ١٣٩/٣]، وقد تقدم ذلك في سنة عشر.

وكانت مارية هذه من الصالحات الخيرات الحسان. وقد حظيت عند رسول الله ﷺ وأعجب بها، وكانت جميلة مُلاَّحة، أي حلوة، وهي تشابه هاجر سرية الخليل، فإن كلا منهما من ديار مصر وتسراها نبي كريم، وخليل جليل، عليهما السلام.

ثم دخلت سنة سبع عشرة

في المحرم منها انتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن إلى الكوفة، وذلك أن الصحابة استوخموا المدائن، وتغيرت ألوانهم، وضعفت أبدانهم، لكثرة ذبابها وغبارها، فكتب سعد إلى عمر في ذلك، فكتب عمر: إن العرب لا تصلح إلا حيث يوافق إبلها.

فبعث سعد حذيفة وسلمان بن زياد يرتادان للمسلمين منزلا مناسباً يصلح لإقامتهم. فمرا على أرض الكوفة وهي حصباء في رملة حمراء، فأعجبتهما ووجدا هنالك ثلاث ديرات دير حرقة بنت النعمان، ودير أم عمرو، ودير سلسلة، وبين ذلك خصاص خلال هذه الكوفة، فنزلا فصليا هنالك وقال كل واحد منهما: اللّهم رب السماء وما أظلت، ورب الأرض وما أقلت، والريح وما ذرت، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلّت، والخصاص وما أجنت، بارك لنا في هذه الكوفة واجعلها منزل ثبات. ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأمر سعد باختطاط الكوفة، وسار إليها في أول هذه السنة في محرمها، فكان أول بناء وضع فيها المسجد. وأمر سعد رجلا رامياً شديد الرمي، فرمى من المسجد إلى الأربع جهات

فحيث سقط سهمه بنى الناس منازلهم، وعمر قصراً تلقاء محراب المسجد للإمارة وبيت المال، فكان أول ما بنوا المنازل بالقصب، فاحترقت في أثناء السنة، فبنوها باللبن عن أمر عمر، بشرط أن لا يسرفوا ولا يجاوزوا الحد. وبعث سعد إلى الأمراء والقبائل فقدموا عليه، فأنزلهم الكوفة، وأمر سعد أبا هياج الموكل بإنزال الناس فيها بأن يعمّروا ويدعوا للطريق المنهج وسع أربعين ذراعاً. ولما دون ذلك ثلاثين وعشرين ذراعاً، وللأزقة سبعة أذرع.

وبني لسعد قصر قريب من السوق، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً من الحديث، فكان يغلق بابه ويقول: سكّن الصُّويت. فلما بلغت هذه الكلمة عمر بن الخطاب بعث محمد بن مسلمة، فأمره إذا انتهى إلى الكوفة أن يقدح زناده ويجمع حطباً ويحرق باب القصر ثم يرجع من فوره فلما انتهى إلى الكوفة فعل ما أمره به عمر، وأمر سعداً أن لا يغلق بابه عن الناس، ولا يجعل على بابه أحداً يمنع الناس عنه، فامتثل ذلك سعد وعرض على محمد بن مسلمة شيئاً من المال فامتنع من قبوله، ورجع إلى المدينة، واستمر سعد بعد ذلك في الكوفة ثلاث سنين ونصفاً، حتى عزله عنها عمر، من غير عجز ولا خيانة.

قصة أبي عبيدة وحصر الروم له بحمص وقدوم عمر إلى الشام أيضاً لينصره

وذلك أن جمعاً من الروم عزموا على حصار أبي عبيدة بحمص،واستجاشوا بأهل الجزيرة وخلق ممن هنالك، وقصدوا أبا عبيدة، فبعث أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قنسرين، وكتب إلى عمر بذلك، واستشار أبو عبيدة المسلمين في أن يناجز الروم أو يتحصن بالبلد حتى يجيء أمر عمر؟ فكلهم أشار بالتحصن، إلا خالداً فإنه أشار بمناجزتهم، فعصاه وأطاعهم. وتحصن بحمص وأحاط به الروم، وكل بلد من بلدان الشام مشغول أهله عنه بأمرهم، ولو تركوا ما هم فيه وأقبلوا إلى حمص لانخرم النظام في الشام كله. وكتب عمر إلى سعد أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو، ويسيِّرهم إلى حمص من يوم يقدم عليه الكتاب، نجدة لأبي عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالؤوا الروم على حصار أبي عبيدة ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غنم. فخرج الجيشان معاً من الكوفة، القعقاع في أربعة آلاف نحو حمص لنجدة أبي عبيدة وخرج عمر بنفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة، فبلغ الجابية وقيل: إنما بلغ سَرْغ. قاله ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٥٧/٤]، وهو أشبه والله أعلم. فلما بلغ أهل الجزيرة الذين مع الروم على حمص أن الجيش قد طرق بلادهم انشمروا إلى بلادهم، وفارقوا الروم، وسمعت الروم بقدوم أمير المؤمنين عمر لينصر نائبه عليهم فضعف جانبهم جداً. وأشار خالد على أبي عبيدة بأن يبرز إليهم ليقاتلهم، ففعل ذلك أبو عبيدة، ففتح الله عليه ونصره، وهزمت الروم هزيمة فظيعة. وذلك قبل ورود عمر عليهم وقبل وصول الأمداد إليهم بثلاث ليال. فكتب أبو عبيدة إلى عمر وهو بالجابية يخبره بالفتح وأن المدد وصل إليهم بعد ثلاث ليال وسأله هل يدخلهم في القسم معهم مما أفاء الله عليهم؟ فجاء الجواب بأن يدخلهم معهم في الغنيمة، فإن العدو إنما ضعف وإنما انشمر عنه المدد من خوفهم منهم، فأشركهم أبو عبيدة في الغنيمة. وقال عمر: جزى الله أهل الكوفة خيراً يحمون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار.

فتح الجزيرة

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٣/٤، ١٠٢]: وفي هذه السنة فتحت الجزائر فيما قاله سيف بن عمر.

قال ابن جرير: في ذي الحجه من سنة سبع عشرة فوافق سيف بن عمر في كونها في هذه السنة.

وقال ابن إسحاق: كان ذلك في سنة تسع عشرة [تاريخ الطبري٥٣/٤].

سار إليها عياض بن غنم. وفي صحبته أبو موسى الأشعري وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو غلام صغير السن ليس إليه من الأمر شيء، وعثمان بن أبي العاص. فنزل الرها فصالحه أهلها على الجزية، وصالحت حران على ذلك. ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين، وعمر بن سعد إلى رأس العين، وسار بنفسه إلى دارا، فافتتحت هذه البلدان، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى إرمينية، فكان عندها شيء من قتال قُتل فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيداً. ثم صالحهم عثمان بن أبي العاص على الجزية، على كل أهل بيت دينار.

وقال سيف في روايته [تاريخ الطبري: ٥٣، ٥٤]: جاء عبد الله بن عبد الله بن عتبان فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل فعبر إلى بلد حتى انتهى إلى نصيبين، فلقوه بالصلح وصنعوا كما صنع أهل الرقة. وبعث إلى عمر برؤوس النصارى من عرب أهل الجزيرة، فقال لهم عمر: أدوا الجزية. فقالوا: أبلغنا مأمننا فوالله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم، والله لتفضحنا من بين العرب. فقال لهم: أنتم فضحتم انفسكم، وخالفتم امتكم، ووالله لتؤدن الجزية وأنتم صغرة قمأة، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم. قالوا: فخذ منا شيئا ولا تسميه جزية. فقال: أما نحن فنسميه جزية، وأما أنتم فسموه ما شئتم. فقال له علي بن أبي طالب: ألم يُضْعِفْ عليهم سعد الصدقة؟ قال: بلى: وأصغى إليه ورضي به منهم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٧/٤]: وفي هذه السنة قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام فوصل إلى سرغ في قول محمد بن إسحاق.

وقال سيف: وصل إلى الجابية [تاريخ الطبري: ٥٥/٤].

قلت: والأشهر أنه وصل سرغ.

وقد تلقاه أمراء الأجناد، أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، إلى سَرْغ فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فمن قائل يقول: أنت قد جئت لأمر فلا ترجع عنه. ومن قائل يقول: لا نرى أن تقدم بوجوه أصحاب رسول الله ﷺ على هذا الوباء. فيقال: إن عمر أمر الناس بالرجوع من الغد. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال: نعم! نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو هبطت وادياً ذا عدوتين إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، فإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن أنت رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ ثم قال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة!

قال ابن إسحاق في روايته [تاريخ الطبري: ٥٨/٤] وهو في صحيح البخاري [٥٧٢٩]: وكان عبد الرحمن بن عوف متغيباً في بعض شأنه، فلما قدم قال: إن عندي من ذلك علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه.» فحمد الله عمر ـ يعني لكونه وافق رأيه ـ ورجع بالناس.

وقال الإمام أحمد [١٨٢/١]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن

أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد عن سعد بن مالك بن أبي وقاص وخزيمة بن ثابت وأسامة بن زيد قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به قوم قبلكم، فإذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه».

ورواه الامام أحمد [١/١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٦] أيضاً من حديث سعيد بن المسيب ويحيى بن سعيد عن سعد بن أبي وقاص به.

قال سيف بن عمر [تاريخ الطبري: ٥٨/٤]: كان الوباء قد وقع بالشام في المحرم من هذه السنة وصفر ثم ارتفع.

وكان سيفاً يعتقد أن هذا الوباء هو طاعون عمواس، الذي هلك فيه خلق من الأمراء ووجوه المسلمين، وليس الأمر كما زعم، بل طاعون عمواس من السنة المستقبلة بعد هذه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وذكر سيف بن عمر أن أمير المؤمنين عمر كان قد عزم على أن يطوف البلدان، ويزور الأمراء، وينظر فيما اعتمدوه وما آثروا من الخير، فاختلف عليه الصحابة فمن قائل يقول: ابدأ بالعراق، ومن قائل يقول: بالشام. فعزم عمر على قدوم الشام لأجل قسم مواريث من مات من المسلمين في طاعون عمواس، فإنه أشكل قسمها على المسلمين بالشام فعزم على ذلك. وهذا يقتضي أن عمر عزم على قدوم الشام بعد طاعون عمواس، وقد كان الطاعون في سنة ثماني عشرة كما سيأتي، فهو قدوم آخر غير قدوم سرغ. والله أعلم.

قال سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة والربيع بن النعمان قالوا: قال عمر: ضاعت مواريث الناس بالشام أبدأ بها فأقسم المواريث وأقيم لهم ما في نفسي، ثم أرجع فأتقلب في البلاد وأنبذ إليهم أمري.

قالوا: فأتى عمر الشام أربع مرات مرتين في سنة ست عشرة، ومرتين في سنة سبع عشرة، ولم يدخلها في الأولى من الأخريين [تاريخ الطبري: ٥٩/٤].

وهذا يقتضي ما ذكرناه عن سيف أنه يقول بكون طاعون عمواس في سنة سبع عشرة. وقد خالفه محمد بن إسحاق وأبو معشر وغير واحد [تاريخ الطبري: ٦٠/٤]، فذهبوا إلى أنه كان في سنة ثماني عشرة.

وفيه توفي أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان، وغيرهم من الأعيان، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من أخبار طاعون عمواس

الذي توفي فيه أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أشراف الصحابة وغيرهم. أورده ابن جرير في هذه السنة.

قال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ٦٠/٤، ٦١،عن محمد ابن إسحاق به] عن شعبة عن المختار بن عبد الله البجلي عن طارق بن شهاب البجلي. قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدث عنده فلما جلسنا قال: لا تَخِفُّوا فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السقم، ولا عليكم أن تتنزهوا عن هذه القرية فتخرجوا في فسيح بلادكم ونزهها، حتى يرتفع هذا البلاء، فإني سأخبركم بما يكره مما يتقى. من ذلك أن يُظَن من خرج أنه لو قام مات، ويظن من أقام فأصابه ذلك أنه لو خرج لم يصبه، فاذا لم يظن ذلك هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج وأن يتنزه عنه، إني كنت مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام عام طاعون عمواس، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك أما بعد فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا أن لا تضعه من يدك حتى تقبل إلي. قال: فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين.

ثم كتب إليه يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاءه، فخلني من عزيمتك يا أمير المؤمنين، ودعني وجندي.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قد.

قال: ثم كتب إليه: سلام عليك أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضا غَمِقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة.

قال أبو موسى: فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبا موسى، إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فاخرج فارتد للناس منزلا حتى أتبعك بهم، فرجعت إلى منزلي لأرتحل فوجدت صاحبتي قد أصيبت، فرجعت إليه فقلت: والله لقد كان في أهلي حدث. فقال: لعل صاحبتك قد أصيبت؟ قلت: نعم، فأمر ببعيره فرحل له فلما وضع رجله في غرزه طُعن فقال: والله لقد أصبت. ثم سار بالناس حتى نزل الجابية ورفع عن الناس الوباء.

وقال محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري: ٦١/٤، ٦٢] عن أبان بن صالح عن شهر بن حوشب عن رابة - رجل من قومه - وكان قد خلف على أمه بعد أبيه، وكان قد شهد طاعون عمواس. قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيباً فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظه، فطُعن، فمات.

واستُخلف على الناس معاذ بن جبل، فقام خطيبا بعده. فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذا يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم، فطعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثم قام فدعا لنفسه فطعن في راحته فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقلب ظهر كفه ثم يقول: ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا.

فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فيهم خطيباً فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتحصنوا منه في الجبال. فقال أبو واثلة الهذلي: كذبت والله لقد صحبتُ رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا. فقال: والله ما أرد عليك ما تقول، وايم الله لا نقيم عليه. قال: ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ودفعه الله عنهم. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص فوالله ما كرهه.

قال ابن إسحاق: ولما انتهى إلى عمر مصاب أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان، أمر معاوية على جند دمشق وخراجها، وأمر شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها.

وقال سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان طاعون عمواس وقع مرتين لم ير مثلهما وطال مكثه، وفني خلق كثير من الناس، حتى طمع العدو وتخوفت قلوب المسلمين لذلك [تاريخ الطبري: ٦٣/٤].

قلت: ولهذا قدم عمر بعد ذلك إلى الشام فقسم مواريث الذين ماتوا لما أشكل أمرها على الأمراء، وطابت قلوب الناس بقدومه، وانقمعت الأعداء من كل جانب لمجيئه إلى الشام ولله الحمد والمنة.

قال سيف: وأصاب أهل البصرة تلك السنة طاعون أيضاً فمات بشر

كثير وجم غفير، رحمهم الله ورضي الله عنهم أجمعين.

قالوا: وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهله إلى الشام فلم يرجع منهم إلا أربعة. فقال المهاجر بن خالد في ذلك.

من يسكن الشام يُعرَّس به ... والشام إن لم يُفنِنا كارب

أفنى بني ريطة فرسانهم ... عشرون لم يقصص لهم شارب

ومن بني أعمامهم مثلهم ... لمثل هذا يعجب العاجب

طعناً وطاعوناً منايـاهم ... ذلك ما خَطّ لنا الكاتب

وقال سيف - بعد ذكره قدوم عمر بعد طاعون عمواس في آخر سنة سبع عشرة - قال: فلما أراد القفول إلى المدينة في ذي الحجة منها خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا وإني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله، فبسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغناكم ما لدينا، فجندنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبوأنا لكم، ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطعماتكم وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم. فمن علم شيئاً ينبغي العمل به فليعلمنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

قال: وحضرت الصلاة فقال الناس: لو أمرت بلالا فأذن؟ فأمره فأذن فلم يبق أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بل لحيته، وعمر أشدهم بكاء، وبكى من لم يدركه لبكائهم ولذكره ﷺ.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٦٦/٤] في هذه السنة من طريق سيف بن عمر عن أبي المجالد أن عمر بن الخطاب بعث ينكر على خالد بن الوليد في دخوله إلى الحمام، وتدلكه بعد النورة بعصفر معجون بخمر، فقال في كتابه: إن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه، كما حرم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرم مس الخمر فلا تمسوها أجسامكم فإنها نجس، فإن فعلتم فلا تعودوا.

فكتب إليه خالد: إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر. فكتب إليه عمر: إني أظن أن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه. فانتهى لذلك.

كائنة غريبة فيها عزل خالد عن قِنّسرين أيضاً

قال ابن جرير [تاريخه: ٦٦/٤]: وفي هذه السنة أدرب خالد بن الوليد وعياض بن غنم، أي سلكا درب الروم وأغارا عليهم، فغنموا أموالا عظيمة وسبياً كثيراً.

ثم روى [تاريخه: ٦٧/٤، ٦٨] من طريق سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة والربيع وأبي المجالد. قالوا: لما رجع خالد ومعه أموال جزيلة من الصائفة انتجعه الناس يبتغون رفده ونائله، فكان ممن دخل عليه الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف فلما بلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيم خالداً ويكشف عمامته وينزع عنه قلنسوته ويقيده بعمامته ويسأله عن هذه العشرة آلاف، إن كان أجازها الأشعث من ماله فهو سَرَفٌ، وإن كان من مال الصائفة فهي خيانة ثم اعزله عن عمله.

فطلب أبو عبيدة خالداً وصعد أبو عبيدة المنبر، وأقيم خالد بين يدي المنبر، وقام إليه بلال ففعل ما أمر به عمر بن الخطاب هو والبريدي الذي قدم بالكتاب. هذا وأبو عبيدة ساكت لا يتكلم، ثم نزل أبو عبيدة واعتذر إلى خالد مما كان بغير اختياره وإرادته، فعذره خالد وعرف أنه لا قصد له في ذلك.

ثم سار خالد إلى قنسرين فخطب أهل البلد وودعهم، وسار بأهله إلى حمص فخطبهم أيضاً وودعهم وسار إلى المدينة، فلما دخل خالد على عمر أنشد عمر قول الشاعر:

صنعتَ فلم يصنع كصنعكَ صانعٌ ... وما يصنع الأقوامُ فاللهُ صانعُ

ثم سأله: من أين هذا اليسار الذي تجيز منه بعشرة آلاف؟ فقال: من الأنفال والسهمان. قال: فما زاد على الستين ألفا فلك. ثم قوّم أمواله وعروضه وأخذ منه عشرين ألفاً ثم قال: والله إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب. ولن تعمل لي بعد اليوم على شيء.

وقال سيف عن عبد الله بن المستورد عن أبيه عن عدي بن سهيل. قال: كتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع [تاريخ الطبري: ٦٨/٤].

ثم رواه سيف عن مبشر عن سالم قال: لما قدم خالد على عمر فذكر مثله.

قال الواقدي: وفي هذه السنة اعتمر عمر في رجب منها، وعمر في المسجد الحرام وأمر بتجديد أنصاب الحرم، أمر بذلك لمخرمة بن نوفل، وأزهر بن عبد عوف، وحويطب بن عبد العزى، وسعيد بن يربوع.

قال الواقدي: وحدثني كثير بن عبد الله المري عن أبيه عن جده قال: قدم عمر مكة في عمرة سنة سبع عشرة، فمر بالطريق فكلمه أهل المياه أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة - ولم يكن قبل ذلك بناء - فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

قال الواقدي: وفيها تزوج عمر بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القعدة.

وقد ذكرنا في سيرة عمر ومسنده صفة تزويجه بها وأنه أمهرها أربعين ألفاً، وقال إنما تزوجتها لقول رسول الله ﷺ «كل سبب ونسب فانه ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» قال: وفي هذه السنة ولى عمر أبا موسى الأشعري البصرة، وأمره أن يشخص إليه المغيرة بن شعبة في ربيع الأول فشهد عليه فيما حدثني معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب: أبو بكرة، وشبل بن معبد البجلي، ونافع بن عبيد، وزياد. ثم ذكر الواقدي وسيف هذه القصة وملخصها: أن امرأة كان يقال لها أم جميل بنت الأفقم، من نساء بني عامر بن صعصعة، ويقال من نساء بني هلال. وكان زوجها من ثقيف قد توفي عنها، وكانت تغشى نساء الأمراء والأشراف، وكانت تدخل على بيت المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة، وكانت دار المغيرة تجاه دار أبي بكرة، وكان بينهما الطريق، وفي دار أبي بكرة كوة تشرف على كوة في دار المغيرة، وكان لا يزال بين المغيرة وبين أبي بكرة شنآن. فبينما أبو بكرة في داره وعنده جماعة يتحدثون في العلية، إذ فتحت الريح باب الكوة، فقام أبو بكرة ليغلقها، فاذا كوة المغيرة مفتوحة، وإذا هو على صدر امرأة وبين رجليها، وهو يجامعها، فقال أبو بكرة لأصحابه: تعالوا فانظروا إلى أميركم يزني بأم جميل. فقاموا فنظروا إليه وهو يجامع تلك المرأة، فقالوا لأبي بكرة: ومن أين قلت إنها أم جميل؟ - وكان رأساهما من الجانب الآخر - فقال: انتظروا، فلما فرغا قامت المرأة فقال أبو بكرة: هذه أم جميل. فعرفوها فيما يظنون. فلما خرج المغيرة - وقد اغتسل - ليصلي بالناس منعه أبو بكرة أن يتقدم. وكتبوا إلى عمر في ذلك، فولى عمر أبا موسى الأشعري أميراً على البصرة. وعزل المغيرة، فسار إلى البصرة فنزل البريد. فقال المغيرة:

والله ما جاء أبو موسى تاجراً ولا زائراً ولا جاء إلا أميراً. ثم قدم أبو موسى على الناس وناول المغيرة كتابا من عمر هو أوجز كتاب فيه "أما بعد فانه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم ما في يديك والعجل" وكتب إلى أهل البصرة: إني قد وليت عليكم أبا موسى ليأخذ من قويكم لضعيفكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن دينكم وليجبي لكم فيأكم ثم ليقسمه بينكم. وأهدى المغيرة لأبي موسى جارية من مولدات الطائف تسمى عقيلة وقال: إني رضيتها لك، وكانت فارهة. وارتحل المغيرة والذين شهدوا عليه وهم أبو بكرة، ونافع بن كلدة، وزياد بن أمية، وشبل بن معبد البجلي. فلما قدموا على عمر جمع بينهم وبين المغيرة. فقال المغيرة: سل هؤلاء الأعبد كيف رأوني؟ مستقبلهم أو مستدبرهم؟ وكيف رأوا المرأة وعرفوها، فان كانوا مستقبلي فكيف لم يستتروا؟ أو مستدبري فكيف استحلوا النظر في منزلي على امرأتي؟ والله ما أتيت إلا امرأتي وكانت تشبهها. فبدأ عمر بأبي بكرة فشهد عليه أنه رآه بين رجلي أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة، قال: كيف رأيتهما؟ قال: مستدبرهما. قال: فكيف استبنت رأسها قال: تحاملت. ثم دعا شبل بن معبد فشهد بمثل ذلك، فقال استقبلتهما ام استدبرتهما؟ قال: استقبلتهما وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكرة ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم. قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة فرأيت قدمين مخضوبتين يخفقان وأستين مكشوفتين، وسمعت حفزاناً شديداً. قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟ قال: لا. قال: فهل تعرف المرأة؟ قال: لا ولكن أشبهها. قال: فتنح وروى أن عمر رضي الله عنه كبر عند ذلك ثم أمر بالثلاثة فجلدوا الحد وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فقال المغيرة: اشفني من الأعبد. قال: اسكت أسكت الله فاك، والله لو تمت الشهادة لرجمناك بأحجارك.

فتح الأهواز ومناذر ونهر تيري

قال ابن جرير: كان في هذه السنة، وقيل: في سنة ست عشرة. ثم روى من طريق سيف عن شيوخه أن الهرمزان كان قد تغلب على هذه الأقاليم وكان ممن فر يوم القادسية من الفرس، فجهز أبو موسى من البصرة، وعتبة بن غزوان من الكوفة جيشين لقتاله، فنصرهم الله عليه، وأخذوا منه ما بين دجلة إلى دجيل، وغنموا من جيشه ما أرادوا، وقتلوا من أرادوا، ثم صانعهم وطلب مصالحتهم عن بقية بلاده، فشاوروا في ذلك عتبة بن غزوان فصالحه، وبعث بالأخماس والبشارة إلى عمر، وبعث وفداً فيهم الأحنف بن قيس. فأعجب عمر به وحظي عنده. وكتب إلى عتبة يوصيه به ويأمره بمشاورته والاستعانة برأيه. ثم نقض الهرمزان العهد والصلح، واستعان بطائفة من الاكراد، وغرته نفسه، وحسن له الشيطان عمله في ذلك. فبرز إليه المسلمون فنصروا عليه وقتلوا من جيشه جماً غفيراً، وخلقاً كثيراً، وجمعاً عظيما، واستلبوا منه ما بيده من الأقاليم والبلدان إلى تستر، فتحصن بها، وبعثوا إلى عمر بذلك. وقد قال الأسود بن سريع في ذلك ـ وكان صحابياً رضي الله عنه ـ:

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيعوا
أطاعوا ربهم وعصاه قوم ... أضاعوا أمره فيمن يضيع
مجوس لا ينهنهها كتاب ... فلاقوا كبة فيها قبوع
وولى الهرمزان على جواد ... سريع الشد يثفنه الجميع
وخلى سرة الأهواز كرهاً ... غداة الجسر إذ نجم الربيع

وقال حرقوص بن زهير السعدي وكان صحابياً أيضا:

غلبنا الهرمزان على بلاد ... لها في كل ناحية ذخائر
سواء برهم والبحر فيها ... إذا صارت نواحيها بواكر
لها بحر يعج بجانبيه ... جعافر لا يزال لها زواخر

فتح تستر المرة الأولى صلحاً

قال ابن جرير: كان ذلك في هذه السنة في قول سيف وروايته. وقال غيره: في سنة ست عشرة وقال غيره: كانت في سنة تسع عشرة. ثم قال ابن جرير: ذكر الخبر عن فتحها، ثم ساق من طريق سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: ولما افتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز، وفر الهرمزان بين يديه، فبعث في إثره جزء بن معاوية ـ وذلك عن كتاب عمر بذلك ـ فما زال جزء يتبعه حتى انتهى إلى رامهرمز فتحصن الهرمزان في بلادها، وأعجز جزءاً تطلبه، واستحوذ جزء على تلك البلاد والأقاليم والأراضي، فضرب الجزية على أهلها، وعَمّر عامرها، وشق الأنهار إلى خرابها ومواتها: فصارت في غاية العمارة والجودة. ولما رأى الهرمزان ضيق بلاده عليه بمجاورة المسلمين، طلب من جزء بن معاوية المصالحة، فكتب إلى حرقوص فكتب حرقوص إلى عتبة بن غزوان، وكتب عتبة إلى عمر في ذلك. فجاء الكتاب العمري بالمصالحة على رامهرمز، وتستر، وجنديسابور، ومدائن اخر مع ذلك. فوقع الصلح على ذلك كما أمر به عمر رضي الله عنه.

ذكر غزو بلاد فارس من ناحية البحرين

وذلك في هذه السنة فيما حكاه ابن جرير عن سيف [تاريخ الطبري: ٤/٧٩ـ٨٣]

وذلك أن العلاء بن الحضرمي كان على البحرين في أيام الصديق، فلما كان عمر عزله عنها وولاها لقدامة بن مظعون. ثم أعاد العلاء بن الحضرمي إليها. وكان العلاء بن الحضرمي يباري سعد بن أبي وقاص. فلما افتتح سعد القادسية، وأزاح كسرى عن داره، وأخذ حدود ما يلي السواد، واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء بن الحضرمي من ناحية البحرين. فأحب العلاء أن يفعل فعلاً في فارس نظير مافعله سعد فيهم، فندب الناس إلى حربهم، فاستجاب له أهل بلاده، فجزأهم أجزاء، فعلى فرقة الجارود بن المعلى، وعلى الأخرى السوار بن همام وعلى الأخرى خليد بن المنذر بن ساوى، وخليد هو أمير الجماعة.

فحملهم في البحر إلى فارس، وذلك بغير إذن عمر له في ذلك ـ وكان عمر يكره ذلك لأن رسول الله ﷺ ولا أبا بكر أغزيا فيه المسلمين ـ فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا من عند إصطخر فحالت فارس بينهم وبين سفنهم، فقام في الناس خليد بن المنذر فقال: أيها الناس، إنما أراد هؤلاء القوم بصنيعهم هذا محاربتكم، وأنتم إنما جئتم لمحاربتهم، فاستعينوا بالله وقاتلوهم، فإنما الأرض والسفن لمن غلب، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥]

فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالا شديداً في مكان من الأرض يدعى طاوس، ثم أمر خليد المسلمين فترجلوا وقاتلوا فصبروا، ثم ظفروا فقتلوا فارس مقتله لم يقتلوا قبلها مثلها. ثم خرجوا يريدون البصرة فغرقت بهم سفنهم، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا ووجدوا شهرك في أهل إصطخر قد أخذوا على المسلمين بالطرق، فعسكروا وامتنعوا من العدو.

ولما بلغ عمر ما صنع العلاء بن الحضرمي، اشتد غضبه عليه، وبعث إليه فعزله وتوعده، وأمرّه بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه. فقال: الحق بسعد بن أبي وقاص في مَن قِبَلَك. فخرج العلاء إلى سعد بن أبي وقاص مضافاً إليه، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: إن العلاء بن الحضرمي خرج بجيش فأقطعهم أهلُ فارس وعصاني، وأظنه لم يرد اللّه بذلك، فخشيت عليهم إن لا ينصروا، أن يُغلبوا وينشبوا، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا.

فندب عتبة المسلمين وأخبرهم بكتاب عمر إليه في ذلك، فانتدب جماعة من الأمراء الأبطال، منهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس، وغيرهم، في اثني عشر ألفاً. وعلى الجميع أبو سبرة بن أبي رهم. فخرجوا على البغال يجنبون الخيل سراعاً فساروا على الساحل لا يلقون أحداً حتى انتهوا إلى موضع الوقعة التي كانت بين المسلمين من أصحاب العلاء، وبين أهل فارس بالمكان المسمى بطاوس، وإذا خليد بن المنذر ومن معه من المسلمين محصورون قد أحاط بهم العدو من كل جانب، وقد تداعت عليهم تلك الأمم من كل وجه، وقد تكاملت أمداد المشركين، ولم يبق إلا القتال. فقدم المسلمون إليهم في أحوج ماهم فيه إليهم، فالتقوا مع المشركين رأساً، فكسر أبو سبرة المشركين كسرة عظيمة، وقتل منهم مقتلة عظيمة جداً، وأخذ منهم أموالا جزيلة باهرة، واستنقذ خليداً ومن معه من المسلمين من أيديهم، وأعز اللّهُ به الإسلام وأهله، ودمغ الشرك وذله وللّه الحمد والمنة ثم عادوا إلى عتبة بن غزوان إلى البصرة.

ولما استكمل عتبة فتح تلك الناحية، استأذن عمر في الحج فأذن له فسار إلى الحج واستخلف على البصرة أبا سبرة بن أبي رهم، واجتمع بعمر في الموسم، وسأله أن يقيله فلم يفعل، واقسم عليه ليرجعن إلى عمله، فدعا عتبة اللّه عز وجل فمات ببطن نخله، وهو منصرف من الحج، فتأسف عليه عمر وأثنى عليه خيراً، وولى بعده بالبصرة المغيرة بن شعبة، فوليها بقية تلك السنة والتي تليها، لم يقع في زمانه حدث، وكان مرزوق السلامة في عمله. ثم وقع الكلام في تلك المرأة من أبي بكرة فكان من أمره ما قدمنا. ثم بعث إليها أبا موسى الأشعري واليا عليها رضي اللّه عنهم.

ذكر فتح تستر ثانية عَنوة والسُّوس ورامهرمز وأسر الهرمزان وبعثه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال ابن جرير [تاريخه: ٨٣/٤]: كان ذلك في هذه السنة في رواية سيف بن عمر التميمي. وكان سبب ذلك أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس في كل وقت ويؤنبهم بملك العرب بلادهم وقصدهم إياهم في حصونهم فكتب إلى أهل الأهواز وأهل فارس فتحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين، وأن يقصدوا البصرة.

وبلغ الخبر إلى عمر، فكتب إلى سعد - وهو بالكوفة - أن ابعث جيشاً كثيفاً إلى الأهواز مع النعمان بن مقرن وعجل وليكونوا بإزاء الهرمزان، وسمي رجالا من الشجعان الأعيان الأمراء يكونون في هذا الجيش، منهم جرير بن عبد اللّه البجلي، وجرير بن عبد اللّه الحميري، وسويد بن مقرن: وعبد اللّه بن ذي السهمين.

وكتب عمر إلى أبي موسى وهو بالبصرة: أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمر عليهم سهيل بن عدي، وليكن معه البراء بن مالك، وعاصم بن عمرو، ومجزأة بن ثور، وكعب بن ثور، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وعبد الرحمن بن سهل، والحصين بن معبد. وليكن على أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم، وعلى كل من أتاه من المدد. قالوا: فسار النعمان بن مقرن بجيش الكوفة فسبق البصريين فانتهى إلى رامهرمز وبها الهرمزان، فخرج إليه الهرمزان في جنده ونقض العهد بينه وبين المسلمين، فبادره طمعاً أن يقتطعه قبل مجيء أصحابه من أهل البصرة رجاء أن ينصر أهل فارس، فالتقى معه النعمان بن مقرن بأربل، فاقتتلا قتالا شديداً، فهزم الهرمزان وفر إلى تستر، وترك رامهرمز فتسلمها النعمان عنوة وأخذ مافيها من الحواصل والذخائر والسلاح والعدد. فلما وصل الخبر إلى أهل البصرة بما صنع الكوفيون بالهرمزان وأنه فر فلجأ إلى تستر، ساروا إليها ولحقهم أهل الكوفة حتى أحاطوا بها فحاصروها جميعاً، وعلى الجميع أبو سبرة فوجدوا الهرمزان قد حشد بها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً. وكتبوا إلى عمر في ذلك وسألوه أن يمدهم، فكتب إلى أبي موسى أن يسير إليهم. فسار إليهم - وكان أمير أهل البصرة واستمر أبو سبرة على الإمرة على جميع أهل الكوفة والبصرة، فحاصرهم أشهراً وكثر القتل من الفريقين، وقتل البراء بن مالك أخو أنس بن مالك يومئذ مائة مبارز سوى من قتل غير ذلك، وكذلك فعل كعب بن ثور، ومجزأة بن ثور، وأبو يمامة وغيرهم من أهل البصرة، وكذلك أهل الكوفة قتل منهم جماعة مائة مبارزة كحبيب بن قرة، وربعي بن عامر، وعامر بن عبد الأسد وقد تزاحفوا أياماً متعددة، حتى إذا كان في آخر زحف قال المسلمون للبراء بن مالك - وكان مجاب الدعوة -: يا براء اقسم على ربك ليهزمنهم لنا. فقال: اللّهم اهزمهم لنا، واستشهدني قال: فهزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به، وقد ضاقت بهم البلد، وطلب رجل من أهل البلد الأمان من أبي موسى فأمنه، فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد، وهو من مدخل الماء إليها، فندب الأمراء الناس إلى ذلك فانتدب رجال من الشجعان والأبطال، وجاؤوا فدخلوا مع الماء - كالبط - إلى البلد، وذلك في الليل، فيقال كان أول من دخلها عبد اللّه بن مغفل المزني، وجاؤوا إلى البوابين فأناموهم وفتحوا الأبواب، وكبر المسلمون فدخلوا البلد، وذلك في وقت الفجر إلى أن تعالى النهار، ولم يصلوا الصبح يومئذ إلا بعد طلوع الشمس (كما حكاه البخاري عن أنس بن مالك قال: شهدت فتح تستر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل الناس بالفتح فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس) فما أحب أن لي بتلك الصلاة حمر النعم. احتج بذلك البخاري لمكحول والأوزاعي في ذهابهما إلى جواز تأخير الصلاة لعذر القتال. وجنح إليه البخاري واستدل بقصة الخندق في قوله عليه السلام «شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ اللّه قبورهم وبيوتهم ناراً» وبقوله يوم بني قريظة «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فأخرها فريق من الناس إلى بعد غروب الشمس، ولم يعنفهم، وقد تكلمنا على ذلك في غزوة الفتح.

والمقصود أن الهرمزان لما فتحت البلد لجأ إلى القلعة فتبعه جماعة من الأبطال ممن ذكرنا وغيرهم فلما حصروه في مكان من القلعة ولم يبق إلا تلافه أو تلافهم، قال لهم بعدما قتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور رحمهما الله: إن معي جعبة فيها مائة سهم، وإنه لا يتقدم إليّ أحد منكم إلا رميته بسهم قتلته، ولا يسقط لي سهم إلا في رجل منكم، فماذا ينفعكم إن أسرتموني بعد ما قتلت منكم مائة رجل؟ قالوا: فماذا تريد؟ قال: تؤمنوني حتى أسلمكم يدي فتذهبوا بي إلى عمر بن الخطاب فيحكم في بما يشاء. فأجابوه إلى ذلك فألقى قوسه ونشابه وأسروه فشدوه وثاقاً وأرصدوه ليبعثوه إلى أمير المؤمنين عمر، ثم تسلموا ما في البلد من الأموال والحواصل فاقتسموا أربعة أخماسه فنال كل فارس ثلاثة آلاف وكل راجل ألف درهم.

فتح السوس

ثم ركب أبو سبرة في طائفة من الجيش ومعه أبو موسى الأشعري والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، وساروا في طلب المنهزمين من الفرس حتى نزلوا على السوس، فأحاطوا بها. وكتب أبو سبرة إلى عمر فجاء الكتاب بأن يرجع أبو موسى إلى البصرة، وأمر عمر زر بن عبد الله كليب العقيمي - وهو صحابي - أن يسير إلى جنديسابور، فسار. ثم بعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان مع وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما اقتربوا من المدينة هيئوا الهرمزان بلبسه الذي كان يلبسه من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلئ. ثم دخلوا المدينة وهو كذلك فتيمموا به منزل أمير المؤمنين فسألوا عنه فقالوا: إنه ذهب إلى المسجد بسبب وفد من الكوفة. فجاؤوا المسجد فلم يروا أحداً فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا: إنه نائم في المسجد متوسد برنساً له فرجعوا إلى المسجد فاذا هو متوسد برنساً له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره، والدرة معلقة في يده. فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا. وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حجابه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حجاب ولا حرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال: ينبغي أن يكون نبياً. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء. وكبر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين بالله. ثم قال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فانها غدارة. فقال له الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء. ففعلوا ذلك وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر: إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم، اذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا. ثم قال: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك. فاستسقى الهرمزان ماء فأتي به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في هذا. فأتي به في قدح آخر يرضاه فلما أخذه جعلت يده ترعد، وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه. فقال عمر: أعيدوه عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش. فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأنس به. فقال له عمر: إني قاتلك، فقال انك أمنتني. قال: كذبت، فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ويحك ياأنس أنا أؤمن من قتل مجزأة والبراء؟ لتأتيني بمخرج وإلا عاقبتك، قال: قلت: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلت لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له: من حوله مثل ذلك. فأقبل على الهرمزان فقال: خدعتني والله لا انخدع إلا أن تسلم. فأسلم ففرض له في ألفين وأنزله المدينة. وفي رواية أن الترجمان بين عمر وبين الهرمزان كان المغيرة بن شعبة، فقال له عمر: قل له: من أي أرض أنت؟ قال مهرجاني. قال: تكلم بحجتك. فقال: أكلام حي أم ميت؟ قال: بل كلام حي. فقال: قد أمنتني، فقال: خدعتني ولا أقبل ذلك إلا أن تسلم. فأسلم ففرض له في ألفين وأنزله المدينة. ثم جاء زيد فترجم بينهما أيضاً.

قلت: وقد حسن إسلام الهرمزان وكان لا يفارق عمر حتى قتل عمر فاتهمه بعض الناس بممالأة أبي لؤلؤة هو وجفينة، فقتل عبيد الله بن عمر الهرمزان وجفينة على ما سيأتي تفصيله.

وقد روينا أن الهرمزان لما علاه عبيد الله بالسيف قال: لا إله إلا الله. وأما جفينة فصلب على وجهه.

والمقصود أن عمر كان يحجر على المسلمين أن يتوسعوا في بلاد العجم خوفاً عليهم من العجم، حتى أشار عليه الأحنف بن قيس بأن المصلحة تقتضي توسعهم في الفتوحات فإن الملك يزدجرد لا يزال يستحثهم على قتال المسلمين، وإن لم يستأصل شأو العجم وإلا طمعوا في الإسلام وأهله، فاستحسن عمر ذلك منه وصوبه. وأذن للمسلمين في التوسع في بلاد العجم، ففتحوا بسبب ذلك شيئاً كثيراً، ولله الحمد. وأكثر ذلك وقع في سنة ثماني عشرة كما سيأتي بيانه فيها.

ثم نعود إلى فتح السوس وجنديسابور وفتح نهاوند في قول سيف. كان قد تقدم أن أبا سبرة سار بمن معه من علية الأمراء من تستر إلى السوس، فنازلها حيناً وقتل من الفريقين خلق كثير، فأشرف عليه علماء أهلها فقالوا: يا معشر المسلمين لا تتعبوا في حصار هذا البلد فإنا نأثر فيما نرويه عن قدمائنا من أهل هذا البلد أنه لا يفتحه إلا الدجال أو قوم معهم الدجال، واتفق أنه كان في جيش أبي موسى الأشعري صاف بن صياد، فأرسله أبو موسى فيمن يحاصره، فجاء إلى الباب فرفسه برجله فتقطعت السلاسل، وتكسرت الأغلاق، ودخل المسلمون البلد فقتلوا من وجدوا حتى نادوا بالامان ودعوا إلى الصلح فأجابوهم إلى ذلك، وكان على السوس شهريار أخو الهرمزان، فاستحوذ المسلمون على السوس، وهو بلد قديم العمارة في الأرض يقال إنه أول بلد وضع على وجه الأرض والله أعلم. وذكر ابن جرير أنهم وجدوا قبر دانيال بالسوس، وأن أبا موسى لما قدم بها بعد مضى أبي سبرة إلى جنديسابور، كتب إلى عمر في أمره فكتب اليه ان يدفنه وأن يغيب عن الناس موضع قبره، ففعل. وقد بسطنا ذلك في سيرة عمر ولله الحمد.

قال ابن جرير: وقال بعضهم ان فتح السوس ورامهز وتسيير الهرمزان من تستر إلى عمر في سنة عشرين والله أعلم وكان الكتاب العمري قد ورد بأن النعمان بن مقرن يذهب إلى أهل نهاوند فسار إليها فمر بماه - بلدة كبيرة قبلها - فافتتحها ثم ذهب إلى نهاوند ففتحها ولله الحمد.

قلت: المشهور أن فتح نهاوند إنما وقع في سنة إحدى وعشرين كما سيأتي فيها بيان ذلك، وهي وقعة عظيمة وفتح كبير، وخبر غريب ونبأ عجيب، وفتح زر بن عبد الله الفقيمي مدينة جنديسابور فاستوثقت تلك البلاد للمسلمين. هذا وقد تحول يزدجرد من بلد إلى بلد، ومن ذلك البلد

إلى غيره حتى انتهى أمره إلى الإقامة بأصبهان، وقد كان صرف طائفة من أشراف أصحابه قريبا من ثلثمائة من العظماء عليهم رجل يقال له سياه، فكانوا يفرون من المسلمين من بلد إلى بلد حتى فتح المسلمون تستر واصطخر، فقال سياه لأصحابه: إن هؤلاء بعد الشقاء والذلة ملكوا أماكن الملوك الأقدمين، ولا يلقون جنداً إلا كسروه، والله ما هذا عن باطل. ـ ودخل في قلبه الإسلام وعظمته ـ فقالوا له: نحن تبع لك. وبعث عمار بن ياسر في غضون ذلك يدعوهم إلى الله، فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري بإسلامهم (وكتب فيهم إلى عمر في ذلك، فأمره أن يفرض لهم في ألفين ألفين، وفرض لستة منهم في ألفين وخمسمائة، وحسن إسلامهم) وكان لهم نكاية عظيمة في قتال قومهم حتى بلغ من أمرهم أنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم فجاء أحدهم فرمى بنفسه في الليل على باب الحصن وضمخ ثيابه بدم، فلما نظروا إليه حسبوا أنه منهم، ففتحوا إليه باب الحصن ليأووه فثار إلى البواب فقتله، وجاء بقية أصحابه ففتحوا ذلك الحصن، وقتلوا من فيه من المجوس. إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وذكر ابن جرير أن عمر بن الخطاب عقد الألوية والرايات الكبيرة في بلاد خراسان والعراق لغزو فارس والتوسع في بلادهم كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس، فحصل بسبب ذلك فتوحات كثيرة في السنة المستقبلة بعدها كما سنبينه وننبه عليه ولله الحمد والمنة.

قال: وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم ذكر نوابه على البلاد، وهم من ذكر في السنة قبلها غير المغيرة فإن على البصرة بدله أبو موسى الأشعري.

قلت: وقد توفي في هذه السنة أقوام قيل إنهم توفوا قبلها وقد ذكرناهم، وقيل فيما بعدها وسيأتي ذكرهم في أماكنهم والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثماني عشرة

المشهور الذي عليه الجمهور ان طاعون عمواس كان بها، وقد تبعنا قول سيف بن عمر وابن جرير في إيراده ذلك في السنة التي قبلها، لكنا نذكر وفاة من مات في الطاعون في هذه السنة إن شاء الله تعالى، قال ابن إسحاق، وأبو معشر: كان في هذه السنة طاعون عمواس وعام الرمادة، فتفانى فيهما الناس.

قلت: كان في عام الرمادة جدب عم أرض الحجاز، وجاع الناس جوعاً شديداً. وقد بسطنا القول في ذلك في سيرة عمر.

وسميت عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد. وقيل: لأنها تسفي الريح تراباً كالرماد. ويمكن أن تكون سميت لكل منهما والله أعلم. وقد أجدبت الناس في هذه السنة بأرض الحجاز، وجفلت الأحياء إلى المدينة ولم يبق عند أحد منهم زاد فلجؤوا إلى أمير المؤمنين فأنفق فيهم من حواصل بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده، وألزم نفسه أن لا يأكل سمناً ولا سميناً حتى يكشف ما بالناس، فكان في زمن الخصب يبث له الخبز باللبن والسمن، ثم كان عام الرمادة يبث له بالزيت والخل، وكان يستمرئ الزيت. وكان لا يشبع مع ذلك، فاسود لون عمر رضي الله عنه وتغير جسمه حتى كاد يخشى عليه من الضعف. واستمر هذا الحال في الناس تسعة أشهر، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم.

قال الشافعي: بلغني أن رجلا من العرب قال لعمر حين ترحلت الأحياء عن المدينة: لقد انجلت عنك ولأنك لابن حرة. أي واسيت الناس وانصفتهم وأحسنت إليهم. وقد روينا أن عمر عس المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحداً يضحك، ولا يتحدث الناس في منالهم على العادة، ولم ير سائلا يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين إن السؤال سألوا فلم يعطوا فقطعوا السؤال، والناس في هم وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون. فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة أن يا غوثاه لأمة محمد. وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر أن ياغوثاه لأمة محمد. فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الاطعمات، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى مكة. وهذا الأثر جيد الإسناد، لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فان مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فأما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهم والله أعلم.

وذكر سيف عن شيوخه أن أبا عبيدة قدم المدينة ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاماً، فأمره عمر بتفريقها في الأحياء حول المدينة، فلما فرغ من ذلك أمر له بأربعة آلاف درهم فأبى أن يقبلها، فلح عليه عمر حتى قبلها.

وذكر ابن جرير في هذه السنة من طريق سيف بن عمر عن أبي المجالد والربيع وأبي عثمان وأبي حارثة وعن عبد الله بن شبرمة عن الشعبي قالوا: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار وأبو جندل بن سهل، فسألناهم فقالوا: خيرنا فاخترنا قال فهل أنتم منتهون؟ ولم يعزم. فجمع عمر الناس فأجمعوا على خلافهم، وأن المعني: فهل أنتم منتهون أي انتهوا. وأجمعوا على جلدهم ثمانين ثمانين. وأن من تأول هذا التأويل وأصر عليه يقتل. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم فسلهم عن الخمر فإن قالوا هي حلال فاقتلهم، وإن قالوا هي حرام فاجلدهم. فاعترف القوم بتحريمها، فجلدوا الحد وندموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما قالوه، حتى وسوس أبو جندل في نفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر في ذلك؟ وسأله أن يكتب إلى أبي جندل ويذكره، فكتب إليه عمر بن الخطاب في ذلك، من عمر إلى أبي جندل، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فتب وارفع رأسك وابرز ولا تقنط فان الله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وكتب عمر إلى الناس: إن عليكم أنفسكم ومن غير فغيروا عليه، ولا تعيروا أحداً فيفشو فيكم البلاء، وقد قال أبو الزهراء القشيري في ذلك:

ألم تـر أنّ الدهـرَ يعـثُرُ بالفتى ... وليسَ على صرف المنون بقـادر
صبرت ولم أجزعْ وقد ماتَ إخوتي ... ولستُ عن الصهباءِ يوماً بصابر
رماها أميرُ المؤمنينَ بحتفها ... فخلانُها يبكونَ حولَ المقاصر

وقال سيف بن عمر عن سهل بن يوسف السلمي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة، وأول سنة ثماني عشرة، أصاب أهل المدينة وما حولها جوع فهلك كثير من الناس، حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، فكان الناس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار حتى أقبل بلال بن الحارث المزني فستأذن على عمر فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك رسول الله ﷺ «لقد

عهدتك كيساً، وما زلت على ذلك، فما شأنك» قال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة. فخرج فنادى في الناس الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين ثم قام فقال: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه؟ فقالوا: اللهم لا، فقال: إن بلال بن الحارث يزعم ذية وذية. قالوا: صدق بلال فاستغث بالله ثم بالمسلمين. فبعث إليهم - وكان عمر عن ذلك محصورا - فقال عمر: الله أكبر، بلغ البلاء مدته فانكشف. ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء. وكتب إلى أمراء الأمصار أن أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنه قد بلغ جهدهم. وأخرج الناس إلى الاستسقاء فخرج وخرج معه العباس بن عبد المطلب ماشيا، فخطب وأوجز وصلى ثم جثى لركبتيه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا. ثم انصرف فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغدران.

ثم روى سيف عن مبشر بن الفضيل عن جبير بن صخر عن عاصم بن عمر بن الخطاب أن رجلا من مزينة عام الرمادة سأله أهله أن يذبح لهم شاة فقال: ليس فيهن شيء. فألحوا عليه فذبح شاة فإذا عظامها حمر فقال يا محمداه. فلما أمسى أرى في المنام أن رسول الله ﷺ يقول له: «أبشر بالحياة، ائت عمر فأقرئه مني السلام وقل له إن عهدي بك وفي العهد شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر»، فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه استأذن لرسول رسول الله ﷺ. فأتى عمر فأخبره ففزع ثم صعد عمر المنبر فقال للناس أنشدكم الله الذي هداكم للإسلام هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟ فقالوا: اللهم لا، وعم ذاك؟ فأخبرهم بقول المزني - وهو بلال بن الحارث - ففطنوا ولم يفطن. فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا. فنادى في الناس فخطب فأوجز ثم صلى ركعتين فأوجز ثم قال: اللهم عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم اسقنا وأحي العباد والبلاد.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا: حدثنا أبو عمر بن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «إيت عمر فأقره مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون، وقل له عليك بالكيس الكيس.» فأتى الرجل فأخبر عمر فقال: يا رب ما آلوا إلا ما عجزت عنه. وهذا إسناد صحيح.

وقال الطبراني: حدثنا أبو مسلم الكشي حدثنا أبو محمد الأنصاري ثنا أبي عن ثمامة بن عبد الله ابن أنس، عن أنس أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس معه يستسقي يقول: اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبينا توسلنا إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ. وقد رواه البخاري عن الحسن ابن محمد عن محمد بن عبد الله به ولفظه: عن أنس أن عمر كان اذا قحطوا يستسقي بالعباس ابن عبد المطلب فيقول: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا - في كتاب المطر وفي كتاب مجابي الدعوة - حدثنا أبو بكر النيسابوري حدثنا عطاء بن مسلم عن العمري عن خوات بن جبير قال: خرج عمر يستسقي بهم فصلى ركعتين فقال: اللهم إنا نستغفرك ونستسقيك فما برح من مكانه حتى مطروا فقدم أعراب فقالوا: يا أمير المؤمنين بينما نحن في وادينا في ساعة كنا إذ أظلتنا غمامة فسمعنا منها صوتاً: أتاك الغوث أبا حفص، أتاك الغوث أبا حفص. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا سفيان عن مطرف بن طريف عن الشعبي قال: خرج عمر يستسقي بالناس فما زاد على الاستغفار حتى رجع فقالوا يا أمير المؤمنين ما نراك استسقيت. فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ثم قرأ ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ [نوح: ١١] ثم قرأ ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] الآية.

قال الواقدي وغيره: وفي هذه السنة في ذي الحجة منها حول عمر المقام - وكان ملصقا بجدار الكعبة - فأخره إلى حيث هو الآن لئلا يشوش المصلون عنده على الطائفين. قلت: قد ذكرت أسانيد ذلك في سيرة عمر ولله الحمد والمنة، قال: وفيها استقضى عمر شريحا على الكوفة، وكعب بن سور على البصرة قال وفيها حج عمر بالناس وكانت نوابه فيها الذين تقدم ذكرهم في السنة الماضية وفيها فتحت الرقة والرها وحران على يدي عياض بن غنم قال: وفتحت رأس عين الوردة على يدي عمر بن سعد بن أبي وقاص. وقال غيره خلاف ذلك. وقال شيخنا الحافظ الذهبي في تاريخه: وفيها - يعني هذه السنة - افتتح أبو موسى الأشعري الرهاوشمشاط عنوة، وفي أوائلها وجه أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة فوافق أبا موسى فافتتحا حران ونصيبين وطائفة من الجزيرة عنوة، وقيل صلحاً. وفيها سار عياض إلى الموصل فافتتحها وما حولها عنوة. وفيها بنى سعد جامع الكوفة. وقال الواقدي: وفيها كان طاعون عمواس فمات فيه خمسة وعشرون ألفا. قلت: هذا الطاعون منسوب إلى بلدة صغيرة يقال لها عمواس - وهي بين القدس والرملة - لأنها كان أول ما نجم الداء بها، ثم انتشر في الشام منها فنسب إليها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. قال الواقدي توفي: في عام طاعون عمواس من المسلمين بالشام خمسة وعشرون ألفا. وقال غيره: ثلاثون ألفا.

وهذا ذكر طائفة من أعيانهم رضي الله عنهم

■ **الحارث بن هشام:** أخو أبي جهل أسلم يوم الفتح، وكان سيداً شريفاً في الإسلام كما كان في الجاهلية، استشهد بالشام في هذه السنة في قول، وتزوج عمر بعده بامرأته فاطمة.

■ **شرحبيل بن حسنة:** أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن قطن الكندي حليف بني زهرة، وحسنة امه، نسب إليها وغلب عليه ذلك. أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة وجهزه الصديق إلى الشام، فكان أميراً على ربع الجيش، وكذلك في الدولة العمرية، وطعن هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد سنة ثماني عشرة. له حديثان روى ابن ماجه أحدهما في الوضوء وغيره.

■ **عامر بن عبد الله بن الجراح:** ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو عبيدة بن الجراح الفهري، أمين هذه الأمة، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخمسة الذين أسلموا في يوم واحد، وهم عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح. أسلموا على يدي الصديق. ولما هاجروا آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، وقيل: بين محمد بن مسلمة. وقد شهد بدراً وما بعدها، وقال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» ثبت ذلك

في الصحيحين [خ(٣٧٤٤)، م(٢٤١٩)].

وثبت في الصحيحين[خ(٦٨٣٠)، م(١٦٩١)] أيضا أن الصديق قال يوم السقيفة: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوه - يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة - وبعثه الصديق أميراً على ربع الجيش إلى الشام، ثم لما انتدب خالداً من العراق كان أميراً على أبي عبيدة وغيره لعلمه بالحروب. فلما انتهت الخلافة إلى عمر عزل خالداً وولى أبا عبيدة بن الجراح، وأمره أن يستشير خالداً، فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٥/٤٧٧]: وهو أول من سمي أمير الأمراء بالشام.

قالوا: وكان أبو عبيدة طوالاً نحيفاً أجنأ معروق الوجه، خفيف اللحية، أهتم، وذلك لأنه لما انتزع الحلقتين من وجنتي رسول الله ﷺ يوم أحد خاف أن يؤلم رسول الله ﷺ فتحامل على ثنيتيه فسقطتا، فما رئي أحسن هتماً منه.

توفي بالطاعون عام عمواس كما تقدم سياقه في سنة سبع عشرة عن سيف بن عمر- والصحيح أن عمواس كانت في هذه السنة سنة ثماني عشرة - بقرية فحل، وقيل: بالجابية.

وقد اشتهر في هذه الأعصار قبر بالقرب من عَقَبة عُمَيّاء بالغور ينسب إليه. والله أعلم.

وعمره يوم مات ثمان وخمسون سنة.

■ الفضل بن عباس بن عبد المطلب: كان حسناً وسيماً جميلاً، أردفه رسول الله ﷺ وراءه يوم النحر من حجة الوداع، وهو شاب حسن، وقد شهد فتح الشام، واستشهد بطاعون عمواس، في قول محمد بن سعد [الطبقات: ٤/٥٥، ٧/٣٩٩] والزبير بن بكار وأبي حاتم [الجرح والتعديل: ٧/٦٣] وابن البَرقي وهو الصحيح. وقيل يوم مرج الصفر، وقيل: بأجنادين. ويقال: باليرموك، ويقال: سنة ثمان وعشرين.

■ معاذ بن جبل: بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أُديّ بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو عبدالرحمن المدني صحابي جليل كبير القدر.

قال الواقدي: كان طوالا حسن الشعر والثغر براق الثنايا، لم يولد له.

وقال غيره: بل ولد له ولد وهو عبد الرحمن. شهد معه اليرموك. وقد شهد معاذ العقبة. ولما هاجر الناس آخى رسول الله ﷺ بينه وبين ابن مسعود. حكى الواقدي الإجماع على ذلك.

وقد قال محمد بن إسحاق: آخى بينه وبين جعفر بن أبي طالب. وشهد بدراً وما بعدها. وكان أحد الأربعة من الخزرج، الذين جمعوا القرآن في حياة النبي ﷺ، وهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد عَمُّ أنس بن مالك.

وصح في الحديث الذي رواه أبو داود [١٥٢٣] والنسائي [١٣٠٢] من حديث حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن الصنابحي. عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ والله إني لأحبك فلا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وفي المسند [٣/١٨٤، ٢٨١] والنسائي [كبرى(٨٢٤٢، ٨٢٨٧)] وابن ماجه [١٢٥] من طريق أبي قلابة عن أنس مرفوعا «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له: «بم تحكم؟» فقال: بكتاب الله. الحديث.

وكذلك أقره الصديق على ذلك يعلم الناس الخير باليمن. ثم هاجر إلى الشام فكان بها حتى مات بعدما استخلفه أبو عبيدة حين طعن ثم طعن بعده في هذه السنة. وقد قال عمر بن الخطاب: إن معاذاً يبعث أمام العلماء بِرَتْوة.

ورواه محمد بن كعب مرسلاً.

وقال ابن مسعود: كنا نشبهه بإبراهيم الخليل [المستدرك: ٣/٢٧٢].

وقال ابن مسعود: إن معاذاً كان قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين [المستدرك: ٣/٢٧١-٢٧٢].

وكانت وفاته شرقي غور بيسان سنة ثماني عشرة. وقيل: سنة تسع عشرة وقيل: سبع عشرة، عن ثمان وثلاثين سنة على المشهور وقيل: غير ذلك والله أعلم.

■ يزيد بن أبي سفيان: أبو خالد صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أخو معاوية، وكان يزيد أكبر وأفضل. وكان يقال له يزيد الخير، أسلم عام الفتح، وحضر حنينا وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل وأربعين أوقية، واستعمله الصديق على ربع الجيش إلى الشام، وهو أول أمير وصل إليها، ومشى الصديق في ركابه يوصيه، وبعث معه أبا عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فهؤلاء أمراء الأرباع. ولما افتتحوا دمشق دخل هو من باب الجابية الصغير عنوة كخالد في دخوله من الباب الشرقي عنوة وكان الصديق قد وعده بإمرتها، فوليها عن أمر عمر وأنفذ له ما وعده الصديق، وكان أول من وليها من المسلمين.

المشهور أنه مات في طاعون عمواس كما تقدم. وزعم الوليد بن مسلم أنه توفي سنة تسع عشرة بعدما فتح قيسارية. ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك رضي الله عنهم.

وليس له في الكتب [له عند ابن ماجه(٤٥٥)] شيء وقد روى عنه أبو عبد الله الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يصلي ولا يتم ركوعه ولا سجوده مثل الجائع الذي لا يأكل إلا التمرة والتمرتين لايغنيان عنه شيئا» [التاريخ الكبير للبخاري: ٤/٢٠].

■ أبو جندل بن سهيل بن عمرو: وقيل: اسمه العاص. أسلم قديما وقد جاء يوم صلح الحديبية مسلما يرسف في قيوده لأنه كان قد استضعف فرده أبوه وأبى أن يصالح حتى يرد، ثم لحق أبو جندل بأبي بصير إلى سيف البحر، ثم هاجر إلى المدينة وشهد فتح الشام. وقد تقدم أنه تأول آية الخمر ثم رجع، ومات بطاعون عمواس رحمه الله ورضي عنه.

■ أبو عبيدة بن الجراح: هو عامر بن عبد الله تقدم.

■ أبو مالك الأشعري، قيل: اسمه كعب بن عاصم. قدم مهاجراً سنة خيبر مع أصحاب السفينة، وشهد مابعدها، واستشهد بالطاعون عام عمواس هو وأبو عبيدة ومعاذ في يوم واحد رضي الله عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة تسع عشرة

قال الواقدي وغيره: كان فتح المدائن وجلولاء فيها. والمشهور خلاف ما قال كما تقدم.

وقال محمد ابن إسحاق: كان فتح الجزيرة والرها وحران ورأس العين ونصيبين في هذه السنة وقد خالفه غيره.

وقال أبو معشر وخليفة وابن الكلبي: كان فتح قيسارية في هذه السنة وأميرها معاوية.

وقال غيره: يزيد بن أبي سفيان. وقد تقدم أن معاوية افتتحها قبل هذا بسنتين.

وقال محمد بن إسحاق: كان فتح قيسارية من فلسطين وهرب هرقل وفتح مصر في سنة عشرين.

وقال سيف بن عمر: كان فتح قيسارية وفتح مصر في سنة ست عشرة.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٠٢/٤]: فأما فتح قيسارية فقد تقدم، وأما فتح مصر فإني سأذكره في سنة عشرين إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: وفي هذه السنة ظهرت نار من حَرَّة ليلى فأراد عمر أن يخرج بالرجال إليها، ثم أمر المسلمين بالصدقة فطفئت ولله الحمد.

ويقال: كان فيها وقعة إرمينية، وأميرها عثمان بن أبي العاص، وقد أصيب فيها صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي ثم الذكواني، وكان أحد الأمراء يومئذ. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «ما علمت عليه إلا خيرا»[خ(٤٤٤١)، (٢٧٧٠)] وهو الذي ذكره المنافقون في قصة الإفك فبرأ الله ساحته، وجناب أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ مما قالوا. وقد كان إلى حين قالوا ما قالوا لم يتزوج، ولهذا قال: والله ما كشفت كنف أنثى قط [خ(١٢٦٦)، م(٢٧٧)]. ثم تزوج بعد ذلك، وكان كثير النوم ربما غلبه عن صلاة الصبح في وقتها، كما جاء في سنن أبي داود [٢٤٥٩] وغيره [مسند أحمد: ٨٠/٣].وكان شاعرا ثم حصلت له شهادة في سبيل الله. قيل: بهذا البلد، وقيل: بالجزيرة، وقيل: بسُميساط. وقد تقدم بعض هذا فيما سلف.

وفيها فتحت تكريت في قول والصحيح قبل ذلك.

وفيها فيما ذكرنا أسرت الروم عبد الله بن حذافة.

وفيها في ذي الحجة منها كانت وقعة بأرض العراق قتل فيها أمير المجوس شهراك، وكان أمير المسلمين يومئذ الحكم بن أبي العاص رضي الله عنه.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٠٣/٤] وفيها حج بالناس عمر، ونوابه في البلاد وقضاته هم المذكورون قبلها والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أبي بن كعب: سيد القراء، وهو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، أبو المنذر وأبو الطفيل، الأنصاري النجاري سيد القراء شهد العقبة وبدراً وما بعدهما، وكان سيداً جليل القدر. وهو أحد القراء الأربعة الخزرجيين الذين جمعوا القرآن في حياة رسول الله ﷺ وقد قال لعمر يوما: «إني تلقيت القرآن ممن تلقاه من جبريل وهو رطب» [مسند أحمد: ١١٧/٥].

وفي المسند [١٨٤/٣، ٢٨١] والنسائي [كبرى(٨٢٤٥)] وابن ماجه [١٥٤، ١٥٥] من طريق أبي قلابه عن أنس مرفوعا: «أقرأ أمتي أبي بن كعب».

وفي الصحيح [خ(٤٩٥٩ـ٤٩٦١)، م(٧٩٩)] أن رسول الله ﷺ قال له «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه. وقد تكلمنا على ذلك في التفسير عند سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

قال الهيثم بن عدي: توفي أُبيّ سنة تسع عشرة.

وقال يحيى بن معين: سنة تسع عشرة أو عشرين.

وقال الواقدي عن غير واحد: توفي سنة اثنتين وعشرين. وبه قال أبو عبيد وابن نمير وجماعة.

وقال الفلاس وخليفة [تاريخه: ١٧٧/١]: توفي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفيها مات

■ خباب مولى عتبة بن غزوان من المهاجرين شهد بدراً وما بعدها، وهو صحابي من السابقين وصلى عليه عمر.

ومات فيها

■ صفوان بن المعطل في قول كما تقدم والله أعلم.

سنة عشرين من الهجرة

قال محمد بن إسحاق: فيها كان فتح مصر. وكذا قال الواقدي: إنها فتحت هي والإسكندرية في هذه السنة.

وقال أبو معشر: فتحت مصر سنة عشرين، والإسكندرية في سنة خمس وعشرين.

وقال سيف: فتحت مصر والإسكندرية في سنة ست عشرة في ربيع الأول منها.

ورجح ذلك أبو الحسن بن الأثير في الكامل [٥٦٤/٢] لقصة بعث عمرو بن العاص الميرة من مصر عام الرمادة، وهو معذور فيما رجحه والله أعلم.

وفيها كان فتح تستر في قول طائفة من علماء السير بعد محاصرة سنتين وقيل: سنة ونصف والله أعلم.

صفة فتح مصر مجموعاً من كلام ابن إسحاق وسيف وغيرهما

قالوا [تاريخ الطبري: ١٠٤/٤ وما بعدها]: لما استكمل المسلمون فتح الشام بعث عمرو بن العاص إلى مصر - وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس - وأردفه بالزبير بن العوام وفي صحبته بشر بن أرطاة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي. فاجتمعا على باب مصر فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام في أهل الثبات، بعثه المقوقس صاحب إسكندرية لمنع بلادهم، فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم، ليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد، فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به وأمرنا به محمد ﷺ، وادى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم

حفظاً لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة. ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل مَنْف والملك فيهم فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم واغتربوا فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلاً. أمِّنّا حتى نرجع إليك، فقال عمرو: إن مثلي لا يخدع ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا ولتناظرا قومكما وإلا ناجزتكم. قالا: زدنا، فزادهم يوماً، فقالا: زدنا. فزادهم يوماً. فرجعا إلى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم. وقد بقيت أربعة أيام. وأشار عليهم بأن يبيتوا المسلمين، فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟! فألح الأرطبون في أن يُبَيِّتوا للمسلمين ففعلوا فلم يظفروا بشيء بل قتل منهم طائفة منهم الأرطبون.

وحاصر المسلمون عين شمس من مصر في اليوم الرابع. وارتقى الزبير عليهم سور البلد،فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه واخترق الزبير البلد حتى خرج من الباب الذي عليه عمرو فأمضوا الصلح.

وكتب لهم عمرو كتاب أمان: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النُوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما جَنَى لُصُوتُهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم مما عليهم أثلاثاً، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً على أن لا يُغْزَوْا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر.

فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح واجتمعت الخيول بمصر وعَمَّروا الفسطاط، وظهر أبو مريم وأبو مريام فكلما عمراً في السبايا التي أصيبت بعد المعركة. فأبى عمرو أن يردها عليهما، وأمر بطردهما وإخراجهما من بين يديه، فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر أن كل سبي أخذ في الخمسة أيام التي أمنوهم فيها أن يرد عليهم، وكل سبي أخذ ممن لم يقاتل وكذلك من قاتل فلا يرد عليه سباياه.

وقيل: إنه أمره أن يخيروا من في أيديهم من السبي بين الإسلام وبين أن يرجع إلى أهله، فمن اختار الإسلام فلا يردوه إليهم، ومن اختارهم رده عليهم وأخذوا منه الجزية، وأما ما تفرق من سبيهم في البلاد ووصل إلى الحرمين وغيرهما، فإنه لا يقدر على ردهم ولا ينبغي أن يصالحهم على ما يتعذر الوفاء به. ففعل عمرو ما أمر به أمير المؤمنين، وجمع السبايا وعرضوهم وخيروهم فمنهم من اختار الإسلام، ومنهم من عاد إلى دينه، وانعقد الصلح بينهم.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى إسكندرية ـ وكان المقوقس صاحب الإسكندرية قبل ذلك يؤدي خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم ـ فلما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن ملكهم ولا طاقة لنا بهم، والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم. ثم بعث إلى عمرو بن العاص يقول: إني كنت أؤدي الخراج إلى من هو أبغض إليَّ منكم ـ فارس والروم ـ ثم صالحه على أداء الجزية، وبعث عمرو بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وذكر سيف أن عمرو بن العاص لما التقى مع المقوقس جعل كثير من المسلمين يفر من الزحف فجعل عمر يُذَمِّرهم ويحثهم على الثبات: فقال له رجل من أهل اليمن: إنا لم نخلق من حجارة ولا حديد فقال له عمرو: اسكت، فإنما أنت كلب. فقال له الرجل: فأنت إذا كبير الكلاب. فأعرض عنه عمرو ونادى يطلب أصحاب رسول الله ﷺ فلما اجتمع إليه من هناك من الصحابة قال لهم عمرو: تقدموا فبكم ينصر الله المسلمين. فنهدوا إلى القوم ففتح الله عليهم وظفروا أتم الظفر.

قال سيف: ففتحت مصر في ربيع الأول من سنة ست عشرة وقام فيها ملك الإسلام ولله الحمد والمنة.

وقال غيره: فتحت مصر في سنة عشرين، وفتحت إسكندرية في سنة خمس وعشرين بعد محاصرة ثلاثة أشهر عنوة، وقيل: صلحا على اثني عشر ألف دينار.

وقد ذكر أن المقوقس سأل من عمرو أن يُهادنه أولاً، فلم يقبل عمرو وقال له: قد علمتم ما فعلنا بملككم الأكبر هرقل. فقال المقوقس لأصحابه: صدق فنحن أحق بالإذعان. ثم صالح على ما تقدم.

وذكر غيره أن عمراً والزبير سارا إلى عين شمس فحاصراها وأن عمراً بعث إلى الفَرَما أبرهة بن الصباح، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فقال كل منهما لأهل بلده: إن نزلتم فلكم الأمان. فتربصوا ماذا يكون من أهل عين شمس، فلما صالحوا صالح الباقون. وقد قال عوف بن مالك لأهل إسكندرية: ما أحسن بلدكم؟ فقالوا: إن إسكندر لما بناها قال: لأبنين مدينة فقيرة إلى الله غنية عن الناس. فبقيت بهجتها. وقال أبرهة لأهل الفرما: ما أقبح مدينتكم؟ فقالوا: إن الفرما ـ وهو أخو الإسكندر ـ لما بناها قال: لأبنين مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس. فهي لا يزال ساقطا بناؤها فشوهت بذلك

وذكر سيف أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما ولي مصر بعد ذلك زاد في الخراج عليهم رؤوسا من الرقيق يهدونها إلى المسلمين في كل سنة، ويعوضهم المسلمون بطعام مسمى وكسوة. وأقر ذلك عثمان بن عفان وولاة الأمور بعده، حتى كان عمر بن عبد العزيز فأمضاه أيضا نظراً لهم، وإبقاء لعهدهم.

قلت: وإنما سميت ديار مصر بالفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص، وذلك أنه نصب خيمته وهي الفسطاط موضع مصر اليوم، وبنى الناس حوله، وتركت مصر القديمة من زمان عمرو بن العاص وإلى اليوم، ثم رفع الفسطاط وبنى موضعه جامع وهو المنسوب إليه اليوم.

وقد غزا المسلمون بعد فتح مصر النوبة فنالهم جراحات كثيرة، وأصيبت أعين كثيرة، لجودة رمي النوبة فسموهم. جند الحدق. ثم فتحها الله بعد ذلك وله الحمد والمنة.

وقد اختلف في بلاد مصر فقيل: فتحت صلحا إلا الإسكندرية، وهو قول يزيد بن أبي حبيب. وقيل: كلها عنوة وهو قول ابن عمر وجماعة.

وعن عمرو بن العاص أنه خطب الناس فقال: ما قعدت مقعدي هذا ولأحد من القبط عندي عهد؛ إن شئت قتلتُ، وإن شئت بعت وإن شئت خمست إلا لأهل أنطابُلُس فإن لهم عهداً نفي به.

قصة نِيل مصر

روينا من طريق ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص - حين دخل بؤنة من أشهر العجم - فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا بؤنة وأبيب ومِسْرى والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل.

فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت إنما تجري من قِبَلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار، هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم [فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٥٠، ١٥١، المنتظم لابن الجوزي ٢٩٤/٤].

قال سيف بن عمر: وفي ذي القعدة من هذه السنة -وهي عنده سنة ست عشرة - جعل عمر المسالح على أرجاء مصر، وذلك لأن هرقل أغزا الشام ومصر في البحر.

قال ابن جرير [تاريخه: ١١٢/٤]: وفي هذه السنة غزا أرض الروم أبو بحرية عبد الله بن قيس الكندي - وهو أول من دخلها فيما قيل - فسلم وغنم وقيل: أول من دخلها ميسرة بن مسروق العبسي.

قال الواقدي: وفيها عزل عمر قدامة بن مظعون عن البحرين، وحدَّه في الشراب. وولى على البحرين واليمامة أبا هريرة الدوسي رضي الله عنه.

قال: وفيها شكا أهل الكوفة سعداً في كل شيء، حتى قالوا: لا يحسن يصلي، فعزله عنها وولى عليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان - وكان نائب سعد - وقيل: بل ولاها عمار بن ياسر.

وقال الإمام أحمد [١٧٩/١]: حدثنا سفيان عن عبد الملك سمعه من جابر بن سمرة. قال: شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر فقالوا: إنه لا يحسن يصلي، قال: الأعاريب! والله ما آلو بهم عن صلاة رسول الله ﷺ في الظهر والعصر، أركُدُ في الأوليين وأحذِف في الأخريَيْن. فسمعت عمر يقول: كذا الظن بك يا أبا إسحاق.

وفي صحيح مسلم [(٤٥٣)(١٥٨) مختصراً، وهو بطوله عند خ(٧٥٥) بنحوه] أن عمر بعث من يسأل عنه أهل الكوفة فأثنوا خيراً إلا رجلا يقال له: أبو سعدة أسامة بن قتادة قام فقال: أما إذ أنشدتنا فإن سعداً لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية، ولايخرج في السرية. فقال سعد: اللّهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة، فأطل عمره وادم فقره وعرضه للفتن. فأصابته دعوة سعد - فكان شيخاً كبيراً يرفع حاجبيه عن عينيه، ويتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن، فيقال له في ذلك، فيقول: شيخ كبير مفتون أصابته دعوة سعد.

وقد قال عمر في وصيته - وذكره في الستة - فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك، وإلا فليستعن به أيكم ولي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة [خ(٣٧٠٠)].

قال: وفيها أجلى عمر يهود خيبر عنها إلى أذرعات وغيرها، وفيها أجلى عمر يهود نجران منها أيضاً إلى الكوفة، وقسم خيبر، ووادي القرى، ونجران بين المسلمين.

قال: وفيها دون عمر الدواوين، وزعم غيره أنه دونها قبل ذلك فالله أعلم.

قال: وفيها بعث عمر علقمة بن مجزِّز المدلجي إلى الحبشة في البحر فأصيبوا فآلى عمر على نفسه أن لا يبعث جيشاً في البحر بعدها.

وقد خالف الواقدي في هذا أبو معشر فزعم أن غزوة الحبشة إنما كانت في سنة إحدى وثلاثين - يعني في خلافة عثمان بن عفان - والله أعلم.

قال الواقدي: وفيها تزوج عمر فاطمة بنت الوليد بن عتبة. التي مات عنها الحارث بن هشام في الطاعون. وهي أخت خالد بن الوليد.

قال: وفيها مات بلال بدمشق، وأسيد بن الحضير في شعبان، وزينب بنت جحش أم المؤمنين. وهي أول من مات من أمهات المؤمنين رضي الله عنها.

قال: وفيها مات هرقل وقام بعده ولده قسطنطين.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عمر ونوابه وقضاته من تقدم في التي قبلها. سوى من ذكرنا أنه عزله وولى غيره.

ذكر المتوفين في هذه السنة من الأعيان

■ أسيد بن الحضير ابن سماك الأنصاري الأشهلي من الأوس، أبو يحيى أحد النقباء ليلة العقبة، وكان أبوه رئيس الأوس يوم بعاث، وكان قبل الهجرة بست سنين وكان يقال له حضير الكتائب، يقال: إنه أسلم على يدي مصعب بن عمير. ولما هاجر الناس آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، ولم يشهد بدراً.

وفي الحديث الذي صححه الترمذي [٣٧٩٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أسيد بن الحضير» وذكر جماعة.

وقدم الشام مع عمر وأثنت عليه عائشة، وعلى سعد بن معاذ، وعباد بن بشر، رضي الله عنهم.

وذكر ابن بكير أنه توفي بالمدينة سنة عشرين، وأن عمر حمل بين عموديه وصلى عليه ودفنه بالبقيع، وكذا أرخ وفاته سنة عشرين الواقدي وأبو عبيد وجماعة

■ أنيس بن مرثد بن أبي مرثد الغنوي: هو وأبوه وجده صحابة وكان أُنيس هذا عينا لرسول الله يوم حنين، يقال إنه الذي قال له رسول الله ﷺ «اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» [خ(٢٣١٤)، م(١٦٩٧)و(١٦٩٨)]والصحيح أنه غيره، فإن في الحديث: فقال لرجل من أسلم.

فقيل: إنه أنيس بن الضحاك الأسلمي.

وقد مال ابن الأثير [أسد الغابة: ١٥٧/١] إلى ترجيحه والله أعلم. له

حديث في الفتنة قال إبراهيم بن المنذر: توفي في ربيع الأول سنة عشرين.

■ **بلال بن أبي رباح الحبشي المؤذن مولى أبي بكر:** ويقال له بلال بن حمامة. وهي أمه. أسلم قديما فعذب في الله فصبر فاشتراه الصديق فأعتقه، شهد بدراً وما بعدها. وكان عمر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. رواه البخاري [٣٧٥٤].

ولما شرع الأذان بالمدينة كان هو الذي يؤذن بين يدي رسول الله ﷺ وابن أم مكتوم يتناوبان. تارة هذا وتارة هذا، وكان بلال ندي الصوت حسنه، فصيحاً وما يروى «إنّ سين بلال عند الله شينٌ» فليس له أصل. وقد أذن يوم الفتح على ظهر الكعبة. ولما توفي رسول الله ﷺ ترك الأذان، ويقال: أذن للصديق أيام خلافته ولا يصح.

ثم خرج إلى الشام مجاهداً، ولما قدم عمر إلى الجابية أذن بين يديه بعد الخطبة لصلاة الظهر، فانتحب الناس بالبكاء. وقيل إنه زار المدينة في غُبُون ذلك؛ فأذن فبكى الناس بكاء شديداً ويحق لهم ذلك رضي الله عنهم.

وثبت في الصحيح [خ(١١٤٩)، م(٢٤٥٨)] أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «إني دخلت الجنة فسمعت خشف نعليك أمامي فأخبرني بأرجى عمل عملته» فقال: ما توضأت إلا وصليت ركعتين. فقال «بذاك» وفي رواية «ما أحدثت إلا توضأت وما توضأت إلا رأيت أن عليّ أن أصلي ركعتين» [الحلية: ١/١٥٠].

قالوا: وكان بلال آدم شديد الأدمة طويلا نحيفا أجنا كثير الشعر خفيف العارضين.

قال ابن بكير: توفي بدمشق في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة.

وقال محمد بن إسحاق وغير واحد: توفي سنة عشرين.

قال الواقدي: ودفن بباب الصغير وله بضع وستون سنة.

وقال غيره: مات بداريا ودفن بباب كيسان. وقيل دفن بداريا، وقيل: إنه مات بحلب. والأول أصح والله أعلم.

■ **سعيد بن عامر بن حذيم:** من أشراف بني جمح، شهد خيبر وكان من الزهاد والعباد، وكان أميراً لعمر على حمص بعد أبي عبيدة، بلغ عمر أنه أصابته حاجة شديدة، فأرسل إليه بألف دينار فتصدق بها جميعها، وقال لزوجته: أعطيناها لمن يتجر لنا فيها رضي الله عنه.

قال خليفة: فتح هو ومعاوية قيسارية كل منهما أمير على من معه.

■ **عياض بن غنم، أبو سعد الفهري:** من المهاجرين الأولين، شهد بدرا وما بعدها، وكان سمحا جوادا، شجاعا، وهو الذي افتتح الجزيرة، وهو أول من جاز درب الروم غازيا، واستنابه أبو عبيدة بعده على الشام فأقره عمر عليها إلى أن مات سنة عشرين عن ستين سنة.

■ **أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ** قيل: اسمه المغيرة. أسلم عام الفتح فحسن إسلامه جدا وكان قبل ذلك من أشد الناس على رسول الله ﷺ، وعلى دينه ومن تبعه، وكان شاعراً مطيقاً يهجو الإسلام وأهله، وهو الذي رد عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه في قوله:

ألا أبلـغْ أبـا سـفيانَ عـنـي ... مغلغلـةً فقـدْ بـرحَ الخفـاءُ
هجـوتَ محمـداً وأجبـتُ عنـه ... وعنـدَ اللـهِ في ذاكَ الجـزاءُ
أتهجـوهُ ولسـتَ لـهُ بكـفءٍ ... فشـرُّكما لخيرِكمـا الفـداءُ

ولما جاء هو وعبد الله بن أبي أمية ليسلما لم يأذن لهما رسول الله ﷺ حتى شفعت أم سلمة لأخيها فأذن له، وبلغه أن أبا سفيان هذا قال: والله لئن لم يأذن لي لآخذن بيد بنيَّ هذا ـ لولد معه صغير ـ فلأذهبن فلا يدرى أين أذهب. فرق حينئذ له رسول الله ﷺ وأذن له، ولزم رسول الله ﷺ يوم حنين وكان آخذاً بلجام بغلته يومئذ، وقد روي أن رسول الله ﷺ أحبه وشهد له بالجنة، وقال: «أرجو أن تكون خلفاً من حمزة» وقد رثى رسول الله ﷺ حين توفي بقصيدة ذكرناها فيما سلف وهي التي يقول فيها:

ارقـتُ فبـاتَ ليلـيَ لا يـزولُ ... وليلُ أخـي المصيبـةِ فيـهِ طـولُ
وأسـعدني البكـاءُ وذاكَ فيمـا ... أُصيبَ المسـلمونَ بـهِ قليـلُ
فقـد عظمـتْ مصيبتُـنا وجلَّـتْ ... عشيةَ قيلَ قـدْ قبـضَ الرسـولُ
فقدنـا الوحـي والتـنزيل فينـا ... يـروح بـه ويغـدو جـبرئيل

ذكروا أن أبا سفيان حج فلما حلق رأسه قطع الحالق ثُؤلولاً له في رأسه فتمرض منه فلم يزل كذلك حتى مات بعد مرجعه إلى المدينة، وصلى عليه عمر بن الخطاب. وقد قيل: إن أخاه نوفلاً توفي قبله بأربعة أشهر والله أعلم.

■ **أبو الهيثم بن التيهان:** هو مالك بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، شهد العقبة نقيبا، وشهد بدراً وما بعدها، ومات سنة عشرين، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: إنه شهد صفين مع علي.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٦/٣٢٤]: وهو الأكثر. وقد ذكره شيخنا [تاريخ الإسلام(٢٢١)] هنا فالله أعلم.

■ **زينب بنت جحش بن رباب الأسدية:** من أسد خزيمة أول أمهات المؤمنين وفاة، أمها أميمة بنت عبد المطلب، وكان اسمها برة، فسماها رسول الله ﷺ زينب، وتكنى أم الحكم، وهي التي زوجه الله بها، وكانت تفتخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من السماء. قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]. وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، فلما طلقها تزوجها رسول الله ﷺ قيل: كان ذلك في سنة ثلاث وقيل: أربع وهو الأشهر وقيل: سنة خمس. وفي دخوله عليه الصلاة والسلام بها نزل الحجاب كما ثبت في الصحيحين وهي التي كانت تسامي عائشة بنت الصديق في الجمال والحظوة، وكانت دينة ورعة عابدة كثيرة الصدقة. وذاك الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً» أي بالصدقة. وكانت امرأة صناعا تعمل بيديها وتتصدق على الفقراء.

قالت عائشة: ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم أمانة وصدقة من زينب بنت جحش.

ولم تحج بعد حجة الوداع لا هي ولا سودة، لقوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه «هذه ثم ظهور الحصر»[د(١٧٢٢)].

وأما بقية أزواج النبي ﷺ فكن يخرجن إلى الحج وقالت زينب وسودة: والله لاتحركنا بعده دابة [مسند أحمد: ٦/٣٢٤].

قالوا: وبعث عمر إليها فرضها اثني عشر ألفاً فتصدقت به في أقاربها. ثم قالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد هذا. فماتت في سنة عشرين وصلى عليها عمر. وهي أول من صنع لها النعش، ودفنت بالبقيع.

■ **صفية بنت عبد المطلب:** عمة رسول الله ﷺ وهي أم الزبير بن العوام، وهي شقيقة حمزة والمقوّم وحَجْل، أمهم هالة بنت وهيب بن عبد

مناف بن زهرة. لا خلاف في إسلامها وقد حضرت يوم أحد ووجدت على أخيها حمزة وجدا كثيراً، وقتلت يوم الخندق رجلا من اليهود جاء فجعل يطيف بالحصن التي هي فيه وهو فارع حصن حسان فقالت لحسان: انزل فاقتله، فأبى، فنزلت إليه فقتلته ثم قالت: انزل فاسلبه فلولا أنه رجل لاستلبته. فقال: لا حاجة لي فيه. فكانت أول امرأة قتلت رجلا من المشركين.

وقد اختلف في إسلام من عداها من عمات النبي ﷺ فقيل: أسلمت أروى وعاتكة.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ١٧٢/٧] وشيخنا أبو عبد الله الذهبي الحافظ [تاريخ الإسلام ص٢٢٠]: والصحيح أنه لم يسلم منهن غيرها. وقد تزوجت أولا بالحارث بن حرب بن أمية. ثم خلف عليها العوام بن خويلد فولدت له الزبير وعبد الكعبة. وقيل: تزوج بها العوام بكراً، والصحيح الأول توفيت بالمدينة سنة عشرين عن ثلاث وسبعين سنة. ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وقد ذكر ابن إسحاق من توفي غير هؤلاء.

■ عويم بن ساعدة الأنصاري: شهد العقبتين والمشاهد كلها وهو أول من استنجى بالماء، وفيه نزل قوله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] وله روايات توفي هذه السنة بالمدينة.

■ بشر بن عمرو بن حنش: يلقب بالجارود، أسلم في السنة العاشرة، وكان شريفاً مطاعاً في عبد القيس، وهو الذي شهد على قدامة بن مظعون أنه شرب الخمر، فعزله عمر عن اليمن وحدّه قتل الجارود شهيداً.

■ أبو خراشة خويلد بن مرة الهذلي: كان شاعرا مجيداً مخضرما أدرك الجاهلية والإسلام وكان إذا جرى سبق الخيل. نهشته حية فمات بالمدينة.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين

ففيها كانت وقعة نهاوند وفتحها على المشهور، وهي عظيمة جدا لها شأن رفيع ونبأ عجيب، وكان المسلمون يسمونها فتح الفتوح

قال ابن إسحاق والواقدي: كانت وقعة نهاوند في سنة إحدى وعشرين.

وقال سيف: كانت في سنة سبع عشرة. وقيل: في سنة تسع عشرة والله أعلم.

وإنما ساق أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ١١٤/٤] قصتها في هذه السنة فتبعناه في ذلك وجمعنا كلام هؤلاء الأئمة في هذا الشأن سياقاً واحداً، حتى دخل سياق بعضهم في بعض.

قال سيف وغيره: وكان الذي هاج هذه الوقعة أن المسلمين لما افتتحوا الأهواز ومنعوا جيش العلاء من أيديهم واستولوا على دار الملك القديم من إصطخر مع ما حازوا من دار مملكتهم حديثا، وهي المدائن، وأخذوا تلك المدائن والأقاليم والكور والبلدان الكثيرة، فحموا عند ذلك واستجاشهم يزدجرد الذي تقهقر من بلد إلى بلد حتى صار إلى أصبهان مبعداً طريداً، لكنه في أسرة من قومه وأهله وماله، وكتب إلى ناحية نهاوند وما والاها من الجبال والبلدان، فتجمعوا وتراسلوا حتى كمل لهم من الجنود مالم يجتمع لهم قبل ذلك.

فبعث سعد إلى عمر يعلمه بذلك، وثار أهل الكوفة على سعد في غبون هذا الحال. فشكوه في كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلي. وكان الذي نهض بهذه الشكوى رجل يقال له: الجراح بن سنان الأسدي في نفر معه، فلما ذهبوا إلى عمر فشكوه قال لهم عمر: مِنّ الدليل على شركم نهوضُكم في هذا الحال عليه، وهو مستعد لقتال أعداء الله وقد أجمعوا لكم، ومع هذا لا يمنعني أن انظر في أمركم.

ثم بعث محمد بن مسلمة - وكان رسول العمال - فلما قدم محمد بن مسلمة الكوفة طاف على القبائل والعشائر والمساجد بالكوفة فكل يثني على سعد خيراً إلا ناحية الجراح بن سنان فإنهم سكتوا فلم يذموا ولم يشكروا، حتى انتهى إلى بني عبس، فقام رجل يقال له أبو سعد أسامة بن قتادة، فقال: أما إذ ناشدتنا فإن سعداً لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو بالسرية. فدعا عليه سعد فقال: اللهم إن كان قالها كذبا ورياءاً وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن. فعمي واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فلا يزال حتى يأتيها فيجسها فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك. ثم دعا سعد على الجراح وأصحابه فكل أصابته قارعة في جسده، ومصيبة في ماله بعد ذلك.

واستنفر محمد بن مسلمة أهل الكوفة لغزو أهل نهاوند في غبون ذلك عن أمر عمر بن الخطاب. ثم سار سعد ومحمد بن مسلمة والجراح وأصحابه حتى جاؤوا عمر فسأله عمر: كيف يصلي؟ فاخبره أنه يطول في الأولين ويخفف في الأخريين وما آلو ما اقتديت به من صلاة رسول الله ﷺ. فقال له عمر: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق. وقال سعد في هذه القضية: لقد أسلمت خامس خمسة، ولقد كنا وما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة حتى تقرحت أشداقنا، وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ يوم أحد أبويه وما جمعهما لأحد قبلي، ثم أصبحت بنو أسد يقولون: لا يحسن يصلي. وفي رواية تُعزّرُني على الإسلام، لقد خبت إذا وضل عملي [خ(٣٧٢٨)،(٢٩٦٦)]. ثم قال عمر لسعد: من استخلفت على الكوفة؟ فقال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان، فأقره عمر على نيابته الكوفة - وكان شيخا كبيراً من أشراف الصحابة حليفا لبني الحُبْلي من الأنصار - واستمر سعد معزولاً من غير عجز ولا خيانة وتهدد أولئك النفر، وكاد يوقع بهم بأساً. ثم ترك ذلك خوفا من أن لا يشكو أحد أميراً.

والمقصود أن أهل فارس اجتمعوا من كل فج عميق بأرض نهاوند. حتى اجتمع منهم مائة ألف وخمسون ألف مقاتل، وعليهم الفيرزان ويقال: بندار، ويقال ذو الحاجب. وتذامروا فيما بينهم، وقالوا: إن محمداً الذي جاء العرب لم يتعرض لبلادنا، ولا أبو بكر الذي قام بعده تعرض لنا في دار ملكنا، وإن عمر بن الخطاب هذا لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة وليس بمنته حتى يخرجكم من بلادكم. فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ثم يشغلوا عمر عن بلاده، وتواثقوا من أنفسهم وكتبوا بذلك عليهم كتابا. فلما كتب سعد بذلك إلى عمر - وكان عزل سعدٍ في غبون ذلك - شافه سعد عمر بما تمالؤوا عليه وقصدوا إليه، وأنه قد اجتمع منهم مائة وخمسون ألفا. وجاء كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان من الكوفة إلى عمر مع قريب بن ظفر العبدي بأنهم قد اجتمعوا وهم متحرقون متذامرون على الإسلام وأهله، وأن المصلحة يا أمير المؤمنين أن نقصدهم فنعاجلهم عما هموا به وعزموا عليه من المسير إلى بلادنا، فقال عمر لحامل الكتاب: ما اسمك؟ قال: قريب. قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر. فتفاءل عمر بذلك وقال: ظفر قريب. ثم أمر فنودي الصلاة جامعة، فاجتمع

الناس وكان أول من دخل المسجد لذلك سعد بن أبي وقاص، فتفاءل عمر أيضا بسعد، فصعد عمر المنبر حتى اجتمع الناس فقال: إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، إني قد رأيت أن أسير بمن قبلي حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين فأستنفر الناس، ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم. فقام عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي، فتكلم كل منهم بانفراده فأحسن وأجاد، واتفق رأيهم على أن لا يسير من المدينة، ولكن يبعث البعوث ويحضرهم برأيه ودعائه.

وكان من كلام علي رضي الله عنه أن قال: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ. فنحن على موعود من الله والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكانك منهم يا أمير المؤمنين مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه، فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثير عزيز بالإسلام، فأقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم فليذهب منهم الثلثان ويقيم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة يمدونهم أيضا.

وكان عثمان قد أشار في كلامه بأن يمدهم في جيوش من أهل اليمن والشام.

ووافق عمر على الذهاب بنفسه إلى مابين البصرة والكوفة - فرد علي على عثمان في موافقته على الذهاب إلى ما بين البصرة والكوفة كما تقدم، ورد رأي عثمان فيما أشار به من استمداد أهل الشام خوفا على بلادهم إذا قل جيوشها من الروم. ومن أهل اليمن خوفا على بلادهم من الحبشة. فأعجب عمر قول علي وسر به. وكان عمر إذا استشار أحدا لا يبرم أمراً حتى يشاور العباس - فلما أعجبه كلام الصحابة في هذا المقام عرضه على العباس فقال: يا أمير المؤمنين خفض عليك، فإنما اجتمع هؤلاء الفرس لنقمة تنزل عليهم. ثم قال عمر: أشيروا عليَّ بمن أوليه أمر الحرب وليكن عراقياً. فقالوا: أنت أبصر بجندك يا أمير المؤمنين. فقال: ما والله لأولين رجلا يكون أول الأسنة إذا لقيها غدا. قالوا: من يا أمير المؤمنين؟ قال. النعمان بن مقرن فقالوا: هو لها - وكان النعمان قد كتب إلى عمر وهو نائب على كسكر وسأله أن يعزله عنها ويوليه قتال أهل نهاوند - فلهذا أجابه إلى ذلك وعينه له.

ثم كتب عمر إلى حذيفة أن يسير من الكوفة بجنود منها، وكتب إلى أبي موسى أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان - وكان بالبصرة أن يسير بمن هناك من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكل أمير على جيشه والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن. فإذا قتل فحذيفة بن اليمان، فإن قتل فجرير بن عبد الله، فإن قتل فقيس بن مكشوح، فإن قتل قيس ففلان ثم فلان، حتى عد سبعة أحدهم المغيرة بن شعبة، وقيل لم يسم فيهم والله أعلم.

وصورة الكتاب "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جوعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله وبمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتُكَفِّرَهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلا من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك. فسر في وجهك ذلك حتى تأتي ماه فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن يجتمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا الله وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله".

وكتب عمر إلى نائب الكوفة - عبد الله بن عبد الله - أن يعين جيشاً ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، فإن قتل النعمان فحذيفة، فإن قتل فنعيم بن مقرن. وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم.

فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماه، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد أرصد في كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس في كل ناحية، واحتاطوا احتياطا عظيما، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر وفيه الأمر له بما يعتمده في هذه الوقعة، فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفا من المقاتلة فيما رواه سيف عن الشعبي [تاريخ الطبري: ١٣٦/٤]، فيهم من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلق كثير وجم غفير منهم عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي.

فسار الناس نحو نهاوند وبعث النعمان بن مقرن الأمير بين يديه طليعة ثلاثة وهم طليحة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وعمرو بن أبي سُلمى. ويقال له عمرو بن ثُبي أيضاً، ليكشفوا له خبر القوم وما هم عليه. فسارت الطليعة يوما وليلة فرجع عمرو بن ثبي فقيل له: ما رجعك؟ فقال: كنت في أرض العجم وقتلتْ أرضٌ جاهلَها وقتل أرضاً عالمها. ثم رجع بعده عمرو بن معدي كرب وقال: لم نَرَ أحدا وخفت أن يؤخذ علينا بالطريق، ونفذ طليحة ولم يحفل برجوعهما فسار بعد ذلك نحواً من بضعة عشر فرسخا حتى انتهى إلى نهاوند ودخل في العجم وعلم من أخبارهم ما أحب، ثم رجع إلى النعمان فأخبره بذلك، وأنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه.

فسار النعمان على تعبئته وعلى المقدمة نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين حذيفة وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، حتى انتهوا إلى الفرس وعليهم الفيرزان، ومعه من الجيش كل من غاب عن القادسية في تلك الأيام المتقدمة، وهو في مائة وخمسين ألفا، فلما تراءا الجمعان كبر النعمان وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات، فزلزلت الأعاجم ورعبوا من ذلك رعبا شديدا. ثم أمر النعمان بحط الأثقال وهو واقف، فحط الناس أثقالهم، وتركوا رحالهم. وضربوا خيامهم وقبابهم. وضربت خيمة للنعمان عظيمة، وكان الذين ضربوا أربعة عشر من أشراف الجيش، وهم حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وابن الهوبر، وربعي بن عامر وعامر بن مطر، وجرير بن عبد الله الحميري، وجرير بن عبد الله البجلي، والأقرع بن عبد الله الحميري، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر، فلم ير بالعراق خيمة عظيمة أعظم من بناء هذه الخيمة، وحين حطوا الأثقال أمر النعمان بالقتال وكان يوم الأربعاء، فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده والحرب سجال، فلما كان يوم الجمعة انحجزوا في حصنهم، وحاصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله، والأعاجم يخرجون إذا أرادوا ويرجعون إلى حصونهم إذا أرادوا.

وقد بعث أمير الفرس يطلب رجلا من المسلمين ليكلمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة، فذكر من عظمة ما رأى عليه من لبسه ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانته بهم، وأنهم كانوا أطول الناس جوعا، وأقلهم دارا وقدرا. وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجُّساً من جيفكم، فإن تذهبوا نخل عنكم، وإن تأبوا؟ نزركم مصارعكم. قال: فتشهدت وحمدت الله وقلت: لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت، حتى بعث الله رسوله فوعدنا النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، وما زلنا نتعرف من ربنا النصر منذ بعث الله رسوله إلينا، وقد جئناكم في بلادكم وإنا لن نرجع إلى ذلك الشقاء أبدا حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم أو نقتل بأرضكم. فقال: أما والله إن الأعور لقد صدقكم ما في نفسه.

فلما طال على المسلمين هذا الحال واستمر، جمع النعمان بن مقرن أهل الرأي من الجيش، واشتوروا في ذلك، وكيف يكون من أمرهم حتى يتواجهوا هم والمشركون في صعيد واحد، فتكلم عمرو بن أبي سُلمى أولا ـ وهو أسن من كان هناك ـ فقال: إن بقاءهم على ما هم عليه أضر عليهم من الذي يطلبه منهم وأبقى على المسلمين. فرد الجميع عليه وقالوا: إنا لعلى يقين من إظهار ديننا، وإنجاز موعود الله لنا. وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم. فردوا عليه وقالوا: إنما يناطح بنا الجدران والجدران أعوان لهم علينا. وتكلم طليحة الأسدي فقال: إنهما لم يصيبا، وإني أرى أن تبعث سرية فتحدق بهم ويناوشوهم بالقتال ويحمشوهم فإذا برزوا إليهم فليفروا إلينا هرابا بين أيديهم فإذا استطردوا وراءهم وانتهوا إلينا عزمنا أيضا على الفرار كلنا، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم، فإذا تكامل خروجهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضي الله بيننا. فاستجاد الناس هذا الرأي، وأمر النعمان على المجردة القعقاع بن عمرو، وأمرهم أن يذهبوا إلى البلد فيحاصروهم وحدهم ويهربوا بين أيديهم إذا برزوا إليهم. ففعل القعقاع ذلك، فلما برزوا من حصونهم نكص القعقاع بمن معه ثم نكص ثم نكص فاغتنمها الأعاجم، ففعلوا ما ظن طليحة، وقالوا: هي هي، فخرجوا بأجمعهم ولم يبق بالبلد من المقاتلة إلا من يحفظ لهم الأبواب، حتى انتهوا إلى الجيش، والنعمان بن مقرن على تعبئته. وذلك في صدر نهار جمعة، فعزم الناس على مصادمتهم، فنهاهم النعمان وأمرهم أن لا يقاتلوا حتى تزول الشمس، وتهب الأرواح، وينزل النصر كما كان رسول الله ﷺ يفعل. وألح الناس على النعمان في الحملة فلم يفعل ـ وكان رجلا ثابتاً ـ فلما كان الزوال صلى بالمسلمين ثم ركب برذوناً له أحوى قريبا من الأرض، فجعل يقف على كل راية ويحثهم على الصبر ويأمرهم بالثبات، ويقدم إلى المسلمين أنه يكبر الأولى فيتأهب الناس للحملة، ويكبر الثانية فلا يبقى لأحد أهبة، ثم الثالثة ومعها الحملة الصادقة. ثم رجع إلى موقفه. وتعبأت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة. في عَدَد وعُدَد لم ير مثله، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم في بعض وألقوا حسك الحديد وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب ولا الفرار، ولا التحيز.

ثم إن النعمان بن مقرن رضي الله عنه كبر الأولى وهز الراية فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضاً، ثم كبر الثالثة وحمل وحمل الناس على المشركين وجعلت راية النعمان تنقضُّ نحو الفرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالا لم يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، قتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دما، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه، حتى قيل: إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه في ذلك الدم فوقع وجاءه سهم في خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد سوى أخيه سويد، وقيل نعيم، وقيل: غطاه بثوبه وأخفى موته ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان، فأقام حذيفة أخاه نعيماً مكانه، وأمر بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس.

فلما أظلم الليل انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون، وكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وحفروا حولهم خندقاً، فلما انهزموا وقعوا في الخندق وفي تلك الأودية نحو مائة ألف، وجعلوا يتساقطون في أودية بلادهم فهلك منهم بشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة. ولم يفلت منهم إلا الشريد. وكان الفيرزان أميرهم قد صرع في المعركة فانفلت وانهزم وأتبعه نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع بين يديه وقصد الفيرزان همذان فلحقه القعقاع وأدركه عند ثنية همذان، وقد أقبل منها بغال كثير وحمر تحمل عسلا، فلم يستطع الفيرزان صعودها منهم، وذلك لحينه فترجل وتوقَّل في الجبل فأتبعه القعقاع حتى قتله، وقال المسلمون يومئذ: إن لله جنوداً من عسل، ثم غنموا ذلك العسل وما خالطه من الأحمال وسميت تلك الثنية ثنية العسل.

ثم لحق القعقاع بقية المنهزمين منهم إلى همذان وحاصرها وحوى ما حولها، فنزل إليه صاحبها ـ وهو خسرو شنُوم ـ فصالحه عليها. ثم رجع القعقاع إلى حذيفة ومن معه من المسلمين، وقد دخلوا بعد الوقعة نهاوند عنوة، وقد جمعوا الأسلاب والمغانم إلى صاحب الأقباض وهو السائب بن الأقرع.

ولما سمع أهل ماه بخبر أهل همدان بعثوا إلى حذيفة وأخذوا لهم منه الأمان، وجاء رجل يقال له الهِرْبذ ـ وهو صاحب نارهم ـ فسأل من حذيفة الأمان ويدفع إليهم وديعة عنده لكسرى، ادخرها لنوائب الزمان، فأمنه حذيفة وجاء ذلك الرجل بسفطين مملوءتين جوهراً ثميناً لا يقوَّم، غير أن المسلمين لم يعبؤوا به، واتفق رأيهم على بعثه لعمر خاصة، وأرسلوه صحبة الأخماس والسبي صحبة السائب بن الأقرع، وأرسل قبله بالفتح مع طريف بن سهم، ثم قسم حذيفة بقية الغنيمة في الغانمين، ورضخ ونفل لذوي النجدات، وقسم لمن كان قد أرصد من الجيوش لحفظ ظهور المسلمين من ورائهم، ومن كان ردءاً لهم، ومنسوباً إليهم.

وأما أمير المؤمنين فإنه كان يدعو الله ليلا ونهاراً لهم، دعاء الحوامل المقربات، وابتهال ذوي الضرورات، وقد استبطأ الخبر عنهم فبينا رجل من المسلمين ظاهر المدينة إذا هو براكب فسأله من أين أقبل؟ فقال: من نهاوند. فقال: ما فعل الناس؟ قال: فتح الله عليهم وقتل الأمير، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة أصاب الفارس ستة آلاف، والراجل ألفان. ثم فاته وقدم ذلك الرجل المدينة فأخبر الناس وشاع الخبر حتى بلغ أمير المؤمنين فطلبه فسأله عمن أخبره، فقال: راكب. فقال: إنه لم يجئني، وإنما هو رجل من الجن وهو بريدهم واسمه عثيم ثم قدم طريف بالفتح بعد ذلك بأيام، وليس معه سوى الفتح، فسأله عمر عمن قَتَل النعمان فلم يكن معه علم حتى قدم الذين معهم الأخماس فأخبروا بالأمر على جليته، فإذا ذلك قد الجني شهد الوقعة ورجع سريعاً إلى قومه نذيراً. ولما أخبر عمر بمقتل النعمان بكى وسأل السائب عمن قُتِل من المسلمين فقال: فلان وفلان وفلان. لأعيان الناس وأشرافهم، ثم قال: وآخرون من أفناد الناس ممن لايعرفهم أمير المؤمنين، فجعل يبكي ويقول: وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير

المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر. ثم أمر بقسمة الخمس على عادته، وحملت ذانك السفطان إلى منزل عمر، ورجعت الرسل، فلما أصبح عمر طلبهم فلم يجدهم، فأرسل في إثرهم البُرُد فما لحقهم البريد إلا بالكوفة.

قال السائب بن الأقرع: فلما أنخت بعيري بالكوفة، أناخ البريد بعيره على عرقوب بعيري، وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت: لماذا؟ فقال: لا أدري. فرجعنا على إثرنا، حتى انتهيت إليه. قال: مالي ولك يا ابن أم السائب، بل ما لابن أم السائب وما لي، قال: فقلت وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك والله إن هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة الله تسحبني إلى ذينك السفطين وهما يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينك بهما. فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين. فاذهب بهما لا أبا لك فبعهما فاقسمهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم، فإنهم لا يدرون ما وهبوا ولم تدر أنت معهم.

قال السائب: فأخذتهما حتى جئت بهما مسجد الكوفة وغشيني التجار فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف. ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف. فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد ذلك.

قال سيف: ثم قسم ثمنهما بين الغانمين فنال كل فارس أربعة آلاف درهم من ثمن السفطين.

قال الشعبي: وحصل للفارس من أصل الغنيمة ستة آلاف وللراجل ألفان وكان المسلمون ثلاثين ألفاً.

قال: وافتتحت نهاوند في أول سنة تسع عشرة لسبع سنين من إمارة عمر، رواه سيف عن عمرو بن محمد عنه [تاريخ الطبري: ١٣٦/٤].

وبه عن الشعبي قال: لما قدم سبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة - فيروز غلام المغيرة بن شعبة - لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي - وكان أصل أبي لؤلؤة من نهاوند فأسرته الروم أيام فارس وأسرته المسلمون بعد، فنسب إلى حيث سبي - قالوا: ولم تقم للأعاجم بعد هذه الوقعة قائمة، وأتحف عمر الذين أبلوا فيها بألفين تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم.

وفي هذه السنة افتتح المسلمون أيضاً بعد نهاوند مدينة جَيّ - وهي مدينة أصبهان - بعد قتال كثير وأمور طويلة، فصالحوا المسلمين وكتب لهم عبد الله ابن عبد الله كتاب أمان وصُلْح وفر منهم ثلاثون نفراً إلى كرمان لم يصالحوا المسلمين.

وقيل: إن الذي فتح أصبهان هو النعمان بن مقرن وأنه قتل بها، ووقع أمير المجوس وهو ذو الحاجبين عن فرسه فانشق بطنه ومات وانهزم أصحابه. والصحيح أن الذي فتح أصبهان عبد الله بن عبد الله عتبان - الذي كان نائب الكوفة.

وفيها افتتح أبو موسى قم وقاشان، وافتتح سهيل بن عدي مدينة كرمان.

وذكر ابن جرير عن الواقدي [تاريخه: ١٤٤/٤]: أن عمرو بن العاص سار في جيش معه إلى أنطابُلُس قال: وهي برقة فافتتحها صلحاً على ثلاثة عشر ألف دينار في كل سنة.

قال: وفيها بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة ففتحها بصلح، وصار ما بين برقة إلى زويلة سلما للمسلمين.

قال: وفيها ولى عمر عمار بن ياسر على الكوفة بدل زياد بن حنظلة الذي ولاه بعد عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وجعل عبد الله بن مسعود على بيت المال، فاشتكى أهل الكوفة من عمار فاستعفى عمار من عمر، فعزله وولى جبير بن مطعم، وأمره أن لا يعلم أحداً، وبعث المغيرة بن شعبة امرأته إلى امرأة جبير يعرض عليها طعاماً للسفر فقالت: اذهبي فأتيني به. فذهب المغيرة إلى عمر فقال: بارك الله يا أمير المؤمنين فيمن وليت على الكوفة. فقال: وما ذاك؟ وبعث إلى جبير بن مطعم فعزله وولى المغيرة بن شعبة ثانية، فلم يزل عليها حتى مات عمر رضي الله عنهم.

قال: وفيها حج عمر واستخلف على المدينة زيد بن ثابت وكان عماله على البلدان المتقدمون في السنة التي قبلها سوى الكوفة.

قال الواقدي: وفيها توفي خالد بن الوليد بحمص وأوصى إلى عمر بن الخطاب. وقال غيره: توفي سنة ثلاث وعشرين، وقيل: بالمدينة. والأول أصح.

وقال غيره: وفيها توفي العلاء بن الحضرمي فولى عمر مكانه أبا هريرة.

وقد قيل: إن العلاء توفي قبل هذا كما تقدم والله أعلم.

وقال ابن جرير [تاريخه: ١٤٤/٤، ١٤٥ عن ابن إسحاق] فيما حكاه عن الواقدي: وكان أمير دمشق في هذه السنة عمير بن سعد، وهو أيضاً على حمص وحوران وقنسرين والجزيرة، وكان معاوية على البلقاء والأردن، وفلسطين، والسواحل وأنطاكية، وغير ذلك.

ذكر من توفي في هذه السنة

أعني سنة إحدى وعشرين

■ خالد بن الوليد: ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي أبو سليمان المخزومي، سيف الله، أحد الشجعان المشهورين، لم يقهر في جاهلية ولا إسلام. وأمه عصماء بنت الحارث، أخت لبابة بنت الحارث، وأخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين.

قال الوقدي: أسلم أول يوم من صفر سنة ثمان، وشهد مؤتة وانتهت إليه الإمارة يومئذ عن غير إمرة، فقاتل يومئذ قتالا شديداً لم ير مثله، اندقت في يده تسعة أسياف، ولم تثبت في يده إلا صفيحة يمانية. وقد قال رسول الله ﷺ «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه» [المستدرك: ٢٩٩/٣].

وقد روي أن خالداً سقطت قلنسوته يوم اليرموك وهو في الحرب فجعل يستحث في طلبها فعوتب في ذلك، فقال: إن فيها شيئاً من شعر ناصية رسول الله ﷺ، وإنها ما كانت معي في موقف إلا نصرت بها.

وقد روينا في مسند أحمد [٨/١] من طريق الوليد بن مسلم عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده وحشي بن حرب عن أبي بكر الصديق أنه لما أمر خالداً على حرب أهل الردة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين».

وقال أحمد [٩٠/٤]: حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن عبد الملك بن عمير قال: استعمل عمر بن الخطاب أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد، فقال خالد: بعث إليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح» فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة» وقد أورده

ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦/٢٤١ـ٢٤٤] من حديث عبد اللّه بن أبي أوفى، وأبي هريرة، ومن طرق مرسلة يقوي بعضها بعضاً.

وفي الصحيح [خ(١٤٦٨)، م(٩٨٣)] «وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً وقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل اللّه».

وشهد الفتح وشهد حنيناً وغزا بني جُذيمة أميراً في حياته عليه السلام.

واختلف في شهوده خيبر، وقد دخل مكة أميراً على طائفة من الجيش وقتل خلقاً كثيراً من قريش، كما قدمنا ذلك مبسوطاً في موضعه، وللّه الحمد والمنة.

وبعثه رسول اللّه ﷺ إلى العزى ـ وكانت لهوازن ـ فكسر أنفها أولاً ثم دعثرها وجعل يقول:

يا عُزُّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت اللّه قد أهانك

ثم حرقها.

وقد استعمله الصديق بعد رسول اللّه ﷺ على قتال أهل الردة ومانعي الزكاة، فشفى واشتفى. ثم وجهه إلى العراق ثم إلى الشام فكانت له من المقامات ما ذكرناها مما تقر بها القلوب والعيون، وتتشنف بها الأسماع. ثم عزله عمر عنها وولى أبا عبيدة وأبقاه مستشاراً في الحرب، ولم يزل بالشام حتى مات على فراشه رضي اللّه عنه.

وقد روى الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: لما حضرت خالداً الوفاة بكى ثم قال: لقد حضرت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

وقال أبو يعلى [مسنده(٧١٨٥)]: ثنا سُريج بن يونس ثنا يحيى بن زكريا عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس. قال: قال خالد بن الوليد: ما ليلة تهدى إليَّ فيها عروس، أو أبشَّر فيها بغلام بأحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصبِّح بهم العدو.

وقال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن خيثمة قال: أُتي خالد برجل معه زق خمر فقال: اللّهم اجعله عسلاً، فصار عسلاً [مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا (٨٨)].

وله طرق، وفي بعضها:

مر عليه رجل معه زق خمر فقال له خالد: ما هذا؟ فقال: عسل فقال: اللّهم اجعله خلاً، فلما رجع إلى أصحابه قال: جئتكم بخمر لم يشرب العرب مثله، ثم فتحه فإذا هو خل، فقال: أصابته واللّه دعوة خالد رضي اللّه عنه.

وقال حماد بن سلمة عن ثمامة عن أنس. قال: التقى خالد عدواً له فولى عنه المسلمون مدبرين وثبت هو وأخي البراء بن مالك، وكنت بينهما واقفاً، قال: فنكس خالد رأسه ساعة إلى الأرض ثم رفع رأسه إلى السماء ساعة ـ قال: وكذلك كان يفعل إذا أصابه مثل هذا ـ ثم قال لأخي البراء: قم. فركبا، واختطب خالد من معه من المسلمين وقال: ما هو إلا الجنة وما إلى المدينة سبيل. ثم حمل بهم فهزم المشركين.

وقد حكى مالك عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر: اكتب إلى خالد أن لا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرك. فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك، فكتب إليه خالد: إما أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك. فأشار عليه عمر بعزله، فقال أبو بكر: مَن يُجزي عني جزاء خالد؟ قال عمر: أنا. قال: فأنت. فتجهز عمر حتى أُنيخت الظهر في الدار، ثم جاء الصحابة فأشاروا على الصديق بإبقاء عمر بالمدينة وإبقاء خالد بالشام. فلما وَلِيَ عمر كتب إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد بمثل ذلك فعزله، وقال: ما كان اللّه ليراني آمر أبا بكر بشيء لا أنفذه أنا.

وقد روى البخاري في التاريخ [التاريخ الصغير: ١/٨٢] وغيره [المسند: ٣/٤٧٥] من طريق عُلَيِّ بن رباح عن ناشرة بن سُمَيٍّ اليَزَني، قال: سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد، فقال: أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس، وذا الشرف واللسان، وأمَّرتُ أبا عبيدة. فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: ما اعتذرت ياعمر، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول اللّه ﷺ، ووضعت لواء رفعه رسول اللّه ﷺ، وأغمدت سيفاً سله اللّه، ولقد قطعت الرحم، وحسدت ابن العم. فقال عمر: إنك قريب القرابة، حديث السن مغضب في ابن عمك.

قال الواقدي ومحمد بن سعد [الطبقات: ٧/٣٩٧] وغير واحد: مات سنة إحدى وعشرين بقرية على ميل من حمص، وأوصى إلى عمر بن الخطاب.

وقال دحيم وغيره: مات بالمدينة. والصحيح الأول.

وقدمنا فيما سلف تعزير عمر له حين أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف، وأخذه من ماله عشرين ألفاً أيضاً. وقدمنا عتبه عليه لدخوله الحمام وتدلكه بعد النورة بدقيق عصفر معجون بخمر، واعتذار خالد إليه بأنه صار غسولاً.

وروِّينا عن خالد أنه طلق امرأة من نسائه وقال: إني لم أطلقها عن ريبة، ولكنها لم تمرض عندي ولم يصبها شيء في بدنها ولا رأسها ولا في شيء من جسدها.

وروى سيف وغيره: أن عمر قال حين عزل خالداً عن الشام والمثنى بن حارثة عن العراق: إنما عزلتهما ليعلم الناس أن اللّه نصر الدين لا بنصرهما وأن القوة للّه جميعاً [تاريخ الطبري: ٤/٦٨].

وروى سيف أيضاً أن عمر قال حين عزل خالداً عن قنسرين وأخذ منه ما أخذ: إنك علي لكريم، وإنك عندي لعزيز، ولن يصل إليك مني أمر تكرهه بعد ذلك [تاريخ الطبري: ٤/٦٨].

وقد قال الأصمعي عن سلمة بن بلال عن مجالد عن الشعبي قال: اصطرع عمر وخالد وهما غلامان ـ وكان خالد ابن خال عمر ـ فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجبرت، وكان ذلك سبب العداوة بينهما.

وقال الأصمعي عن ابن عون عن محمد بن سيرين قال: دخل خالد على عمر وعليه قميص حرير فقال عمر: ما هذا يا خالد؟ فقال: وما بأسه يا أمير المؤمنين أليس قد لبسه عبد الرحمن بن عوف؟ فقال: وأنت مثل ابن عوف! ولك مثل ما لابن عوف؟ عزمت على من بالبيت إلا أخذ كل واحد منهم طائفة مما يليه. قال: فمزقوه حتى لم يبق منه شيء.

وقال عبد اللّه بن المبارك عن حماد بن زيد حدثنا عبد اللّه بن المختار عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل ـ ثم شك حماد في أبي وائل ـ قال: لما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال: لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا اللّه من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تَهُلُّني تنتظر الصبح، حتى نغير على الكفار. ثم قال: إذا أنا مت فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل اللّه.

فلما توفي خرج عمر على جنازته فذكر قوله: ما على نساء آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعا أو لقلقة.

قال ابن المختار: النقع: التراب على الرأس، واللقلقة: الصوت.

وقد علق البخاري في صحيحه [قبل (١٢٩١)] بعض هذا فقال: وقال عمر: دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة.

وقال محمد بن سعد حدثنا وكيع وأبو معاوية وعبد الله بن نمير قالوا: حدثنا الأعمش عن شقيق بن سلمة قال: لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكين عليه فقيل لعمر: إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه، وهن خلقاء أن يسمعنك بعض ما تكره. فأرسل إليهن فانههن. فقال عمر: وما عليهن أن يُرِقْنَ من دموعهن على أبي سليمان، ما لم يكن نقعاً أو لقلقة.

ورواه البخاري في التاريخ [التاريخ الصغير: ٧١/١] من حديث الأعمش بنحوه.

وقال إسحاق بن بشر وقال محمد: مات خالد بن الوليد بالمدينة فخرج عمر في جنازته وإذا أمه تندبه وتقول:

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القو م إذا ما كبتْ وجوه الرجالِ

فقال عمر: صدقت، إن كان لكذلك.

وقال سيف بن عمر عن مبشّر عن سالم. قال: فأقام خالد في المدينة حتى إذا ظن عمر أنْ قد سَتَكَه وبصَّر الناس، حجَّ، وقد عزم على توليته واشتكى خالد بعد وهو خارج من المدينة زائراً لأمه فقال لها احدروني إلى مهاجري، فقدمت به المدينة ومرضته فلما ثَقُل وأظل قدوم عمر لقيه لقَيْه لاقٍ على مسيرة ثلاث صادراً عن حجة فقال له عمر: مَهْيَم؟ فقال: خالد بن الوليد ثقيل لما به. فطوى عمر ثلاثاً في ليلة فأدركه حين قضى، فرقّ عليه واسترجع وجلس ببابه حتى جُهِّز، وبكته البواكي، فقيل لعمر: ألا تسمع ألا تنهاهن؟ فقال: وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان؟ ما لم يكن نقع ولا لقلقة. فلما خرج لجنازته رأى عمر امرأة محتزمة تبكيه وتقول:

أنتَ خيرٌ منْ ألف ألفٍ منَ النا س إذا ما كبت وجوه لرجالِ
أشجاعُ فأنتَ أشجعُ منْ ليثٍ عرينٍ جهمٍ أبي أشبالِ
اجوادٌ فأنتَ أجود منْ سيل دياسٍ يسيلُ بينَ الجبالِ

فقال عمر: من هذه؟ فقيل: أمه فقال: أمه، والإلهِ ثلاثاً. هل قامت النساء عن مثل خالد! قال: فكان عمر يتمثل في طيه تلك الثلاث في ليلة وفي قدومه:

تبكّي ما وصلتَ بهِ الندامى ولا تبكي فوارسَ كالجبالِ
أولئكَ إنْ بكيتَ أشد فقدا من الأذهاب والعَكَرِ الجلالِ
تمنى بعدهم قومٌ مداهُم فلم يدنوا لأسبابِ الكمالِ

وفي رواية: أن عمر قال لأم خالد: أخالداً وأجرَه ترزئين؟ عزمت عليك أن لا تبيتي حتى تسود يداك من الخضاب.

وهذا كله يقتضي موته بالمدينة النبوية، وإليه ذهب دحيم عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، ولكن المشهور عن الجمهور وهم الواقدي، وكاتبه محمد بن سعد، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وإبراهيم بن المنذر، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبو عمرو العصفري، وموسى بن أيوب، وأبو سليمان بن أبي محمد وغيرهم، أنه مات بحمص سنة إحدى وعشرين. زاد الواقدي: وأوصى إلى عمر بن الخطاب.

وقد روى محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد وغيره قالوا: قدم خالد المدينة بعد ما عزله عمر فاعتمر ثم رجع إلى الشام، فلم يزل بها حتى مات في سنة إحدى وعشرين.

وروى الواقدي أن عمر رأى حجاجاً يصلون بمسجد قباء فقال: أين نزلتم بالشام؟ قالوا: بحمص، قال: فهل من مُغَرِّبَةِ خبر؟ قالوا: نعم مات خالد بن الوليد. قال: فاسترجع عمر وقال: كان والله سداداً لنحور العدو، ميمون النقيبة. فقال له علي: فلم عزلته؟ قال: لبذله المال لذوي الشرف واللسان.

وفي رواية: أن عمر قال لعلي: ندمت على ما كان مني.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٣٩٧/٧]: أخبرنا عبد الله بن الزبير الحميدي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، قال: سمعت قيس بن أبي حازم يقول: لما مات خالد بن الوليد قال عمر: رحم الله أبا سليمان، لقد كنا نظن به أموراً ما كانت.

وقال جويرية عن نافع قال: لما مات خالد لم يوجد له إلا فرسه وغلامه وسلاح، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، إنْ كنّا لنظنُّه على غير هذا.

وقال القاضي المعافَى بن زكريا الجريري: حدثنا أحمد بن العباس العسكري، حدثنا عبد الله بن أبي سعد حدثني عبد الرحمن بن حمزة اللخمي حدثنا أبو علي الحرمازي قال: دخل هشام بن البختري في ناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب فقال له: ياهشام أنشدني شعرك في خالد. فأنشده فقال: قصَّرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله، إنه كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله. ثم قال عمر: قاتل الله أخا بني تميم ما أشعره:

وقل للذي يبقى خلافَ الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأنْ قدِ
فما عيشُ من قد عاشَ بعدي بنافعي ولا موتُ منْ قد ماتَ يوماً بمخلدي

ثم قال عمر: رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه. ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ولكن رأيت الدهر ليس بقابل.

■ طليحة بن خويلد: ابن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قُعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي الفقعسي.

كان ممن شهد الخندق من ناحية المشركين، ثم أسلم سنة تسع، ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ في أيام الصديق، وادعى النبوة كما تقدم.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٥٤/٢٥] أنه ادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ وأن ابنه حبالاً قدم على رسول الله ﷺ فسأله: «مااسم الذي يأتي إلى أبيك؟» فقال: ذو النون الذي لا يكذب ولا يخون، ولا يكون كما يكون. فقال: «لقد سمى ملكاً عظيم الشأن» ثم قال لابنه: «قتلك الله وحرمك الشهادة». ورده كما جاء. فقتل حبالٌ في الردة في بعض الوقائع قتله عكاشة بن محصن ثم قتل طليحة عكاشة وله مع المسلمين وقائع. ثم خذله الله على يدي خالد بن الوليد، وتفرق جنده فهرب حتى دخل الشام فنزل على آل جفنة، فأقام عندهم حتى مات الصديق حياء منه، ثم رجع إلى الإسلام واعتمر، ثم جاء يسلم على عمر فقال له: اغرب عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين، عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم، فقال: يا أمير المؤمنين هما رجلان أكرمهما الله على يدي ولم يهني بأيديهما. فأعجب عمر كلامه ورضي عنه. وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يشاور ولا يولي شيئاً من الأمر.

ثم عاد إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وبعض حروب كالقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله.

وذكره محمد بن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة وقال: كان يعد بألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب.

وقال أبو نصر بن ماكولا [الإكمال: ٨١/١]: أسلم ثم ارتد ثم أسلم وحسن إسلامه، وكان يعدل بألف فارس.

ومن شعره أيام ردته وادعائه النبوة في قتل المسلمين أصحابه.

فما ظنكم بالقوم إذ تقتلونهم ... أليسوا وإنْ لم يسلموا برجالِ

فإن تكُ أذواد أصبنَ ونسوةٌ ... فلم لم يذهبوا فرغا بقتل حبالِ

نصبتُ لهم صدرَ الحمالةِ إنها ... معاودة قتل الكماة نزالِ

فيوماً تراها في الجلال مصونة ... ويوماً تراها غيرَ ذاتِ جلالِ

ويوماً تضيء المشرفيةُ نحوها ... ويوماً تراها في ظلال عوالي

عشيةَ غادرتُ ابنَ أقرمَ ثاوياً ... وعكاشة الغنمي عند مجالِ

وقال سيف بن عمر عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبد الله. قال: بالله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كما هجمنا عليه من أماناتهم وزهدهم، طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المكشوح.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٢/٢٥]: ذكر أبو الحسن محمد بن أحمد بن القوّاس الوراق أن طليحة استشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرن، وعمرو بن معدي كرب رضي الله عنهم.

■ **عمرو بن معدي كرب**: بن عبد الله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زبيد الأصغر وهو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن منبه بن زبيد الأكبر بن الحارث بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج الزبيدي المذحجي أبو ثور، أحد الفرسان المشاهير الأبطال، والشجعان المذاكير، قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع، وقيل عشر، مع وفد مراد، وقيل في وفد زبيد قومه.

وقد ارتد مع الأسود العنسي فسار إليه خالد بن سعيد بن العاص، فقاتله فضربه خالد بن سعيد بالسيف على عاتقه فهرب وقومه، وقد استلب خالد سيفه الصمصامة، ثم أسر ودفع إلى أبي بكر فأنبه وعاتبه واستتابه، فتاب وأناب وحسن إسلامه بعد ذلك، فسيره، إلى الشام، فشهد اليرموك ثم أمره عمر بالمسير إلى سعد وكتب بالوصاة به، وأن يشاور ولا يولي شيئاً، فنفع الله به الإسلام وأهله، وأبلى بلاء حسناً يوم القادسية. وقيل إنه قتل بها. وقيل بنهاوند، وقيل مات عطشاً في بعض القرى يقال لها روذة فالله أعلم. وذلك كله سنة إحدى وعشرين فقال بعض من رثاه من قومه:

لقد غادَر الركبانُ يومَ تحملوا ... بروذةَ شخصاً لا جباناً ولا غمرا

فقل لزبيدٍ بل لمذحجَ كلها ... رزئتمْ أبا ثور قريعَكم عمرا

وكان عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه من الشعراء المجيدين، فمن شعره:

أعاذلَ عدّتي بدني ورمحي ... وكلُّ مقلص سلس القيادِ

أعاذلَ إنما أفنى شبابي ... إجابتي الصريخَ إلى المنادي

مع الأبطال حتى سلّ جسمي ... وأقرحَ عاتقي حمل النجادِ

ويبقى بعدَ حِلمِ القوم حلمي ... ويفني قبلَ زادِ القومِ زادي

تمنى أن يلاقيني قُييس ... وددتُ وأينما مني ودادي

فمن ذا عاذري من ذي سفاه ... يسرودُ بنفسه شرُّ المرادي

أريدُ حياتهُ ويريدُ قتلي ... عَذيرك من خليلكَ منْ مراد

له حديث واحد في التلبية رواه شراحيل بن القعقاع عنه،قال: كنا نقول في الجاهلية إذا لبينا:

لبيك تعظيما إليك عذرا ... هذي زبيد قد أتتك قسرا

تعدو بها مضمرات شزرا ... يقطعن خبتا وجبالا وعرا

قد تركوا الأوثان خِلْواً صفرا

قال عمرو: فنحن نقول الآن ولله الحمد كما علمنا رسول الله ﷺ: لبيك اللّهم لبيك،لبيك لا شريك لك لبيك،إن الحمد والنعمة لك والملك،لا شريك لك.

■ **العلاء بن الحضرمي**: أمير البحرين لرسول الله ﷺ وأقره عليها أبو بكر ثم عمر. تقدم أنه توفي سنة أربع عشرة ومنهم من يقول: إنه تأخر إلى سنة إحدى وعشرين، وعزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبا هريرة. وأمره عمر على الكوفة فمات قبل أن يصل إليها منصرفه من الحج. كما قدمنا ذلك والله أعلم.

وقد ذكرنا في دلائل النبوة قصته في سيره بجيشه على وجه الماء وما جرى له من خرق العادات ولله الحمد.

■ **النعمان بن مقرن بن عائذ المزني**: أمير وقعة نهاوند، صحابي جليل القدْر، قدم مع قومه من مزينة في أربعمائة راكب، ثم سكن البصرة وبعثه الفاروق أميراً على الجنود إلى نهاوند، ففتح الله على يديه فتحاً عظيماً، ومكن الله له في تلك البلاد، ومكنه من رقاب أولئك العباد، ومكن به للمسلمين هنالك إلى يوم التناد، ومنحه النصر في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأتاح له بعدما أراه ما أحب شهادة عظيمة وذلك غاية المراد فكان ممن قال الله تعالى في حقه في كتابه المبين وهو صراطه المستقيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين

وفيها كانت فتوحات كثيرة فيما ذكر ابن جرير وغيره في هذا الشأن، منها فتح همذان ثانية ثم الري وما بعدها ثم أذربيجان

قال الواقدي وأبو معشر [تاريخ الطبري: ١٤٦/٤]: كانت سنة اثنتين وعشرين.

وقال سيف [تاريخ الطبري: ١٤٨/٤]: كانت في سنة ثماني عشرة بعد فتح همذان والري وجرجان.

وأبو معشر يقول بأن أذربيجان كانت بعد هذه البلدان، ولكن عنده أن الجميع كان في هذه السنة. وتبعهما وعند الواقدي [تاريخ الطبري: ١٤٨/٤] أن فتح همذان والري في سنة ثلاث وعشرين، فهمذان افتتحها المغيرة بعد

مقتل عمر بستة أشهر.

قال: ويقال: كان فتح الري قبل وفاة عمر بستين، إلا أن الواقدي وأبا معشر متفقان على أن أذربيجان في هذه السنة، وتبعهما ابن جرير [تاريخه: ١٤٨/٤] وغيره.

وكان السبب في ذلك أن المسلمين لما فرغوا من نهاوند وما وقع من الحرب المتقدم، فتحوا حلوان وهمذان بعد ذلك. ثم إن أهل همذان نقضوا عهدهم الذي صالحهم عليه القعقاع بن عمرو، فكتب عمر إلى نعيم بن مقرن أن يسير إلى همذان، وأن يجعل على مقدمته أخاه سويد بن مقرن، وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر الطائي، ومهلهل بن زيد اليمني. فسار حتى نزل على ثنية العسل، ثم تحدر على همذان، واستولى على بلادها، وحاصرها فسألوه الصلح فصالحهم ودخلها، فبينما هو فيها ومعه اثنا عشر ألفاً من المسلمين اذ تكاتبَ الديلم وأهل الري وأهل أذربيجان، واجتمعوا على حرب نعيم بن مقرن في جمع كثير، فعلى الديلم ملكهم واسمه موتا، وعلى أهل الري أبو الفَرُّخان، وعلى أهل أذربيجان اسفَنْدياذ أخو رستم، فخرج إليهم نُعيم بن مقرّن بمن معه من المسلمين حتى التقوا بمكان يقال له واج رُوذ، فاقتتلوا قتالا شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند ولم تك دونها، فقتلوا من المشركين جمعاً كثيراً، وجماً، غفيراً لا يحصون كثرة، وقتل ملك الديلم موتا وتمزق شملهم، وانهزموا بأجمعهم، بعد من قتل بالمعركة منهم، فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين.

وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعلمه باجتماعهم فهمه ذلك واغتم له. فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة فحمد اللّه وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقرئ على الناس، ففرحوا وحمدوا اللّه عز وجل. ثم قدم عليه بالأخماس ثلاثة من الأمراء وهم سماك بن خرشة -وليس بأبي دجانة- وسماك بن عبيد، وسماك بن مخرمة. فلما استسماهم عمر قال: اللّهم اسْمُكْ بهم الإسلام، وأمد بهم الإسلام، ثم كتب إلى نعيم بن مقرن بأن يستخلف على همذان ويسير إلى الري فامتثل نعيم. وقد قال نعيم في هذه الوقعة:

ولما أتاني أن موتا ورهطه	بني باسل جروا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مسامياً	لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
فجئنا إليهم بالحديد كأننا	جبال تراءى من فروع القلاسم
فلما لقيناهم بها مستفيضة	وقد جعلوا يسمون فعل المساهم
صدمناهم في واج روذ بجمعنا	غداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا في حومة الموت ساعة	لحد الرماح والسيوف الصوارم
كأنهم عند انثناث جموعهم	جدار تشظى لبنه للهوادم
أصبنا بها موتا ومن لفَّ جمعه	وفيها نهابٌ قسمه غير عاتم
تبعناهم حتى أوَوْا في شعابهم	فنقتلهم قتل الكلاب الجواحم
كأنهم في واج روذ وجوّه	ضئين أصابتها فروج المخارم

فتح الرّي

استخلف نعيم بن مقرن على همذان يزيد بن قيس الهمداني وسار بالجيوش حتى لحق بالري فلقي هناك جمعاً من المشركين عظيماً فاقتتلوا عند سفح جبل الري فصبروا صبراً عظيما ثم انهزموا فقتل منهم نعيم بن مقرن مقتلة عظيمة بحيث عُدُّوا بالقصب فيها، وغنموا منهم غنيمة عظيمة قريباً مما غنم المسلمون من المدائن. وصالحه أبو الفرخان على الري، وكتب له أماناً بذلك، ثم كتب نعيم إلى عمر بالفتح ثم بالأخماس [انظر تاريخ الطبري: ١٥٠/٤] ولله الحمد والمنة.

فتح قُومِس

ولما ورد البشير بفتح الري وأخماسها كتب عمر إلى نعيم بن مقرن أن يبعث أخاه سويد بن مقرن إلى قومس. فسار إليها سويد، فلم يقم له شيء حتى أخذها سلماً وعسكر بها وكتب لأهلها كتاب أمان وصلح.

فتح جرجان

لما عسكر سويد بقومس بعث إليه أهل بلدان شتى؛ منها جرجان وطبرستان وغيرها يسألونه الصلح على الجزية، فصالح الجميع وكتب لأهل كل بلدة كتاب أمان وصلح.

وحكى المدائني أن جرجان فتحت في سنة ثلاثين أيام عثمان [تاريخ الطبري: ١٥٣/٤] فاللّه أعلم.

وهذا فتح أذربيجان

لما افتتح نعيم بن مقرن همذان ثم الري، وكان قد بعث بين يديه بكير بن عبد اللّه من همذان إلى أذربيجان، وأردفه بسماك بن خرشة، فلقي إسفندياذ بن الفرُّخزاذ بكيراً وأصحابه، قبل أن يقدم عليهم سماك، فاقتتلوا فهزم اللّه المشركين، وأسر بكير إسفندياذ، فقال له إسفندياذ: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ فقال: بل الصلح. قال: فأمسكني عندك. فأمسكه ثم جعل يفتح بلداً بلداً وعتبة بن فرقد أيضاً يفتح معه بلداً بلداً في مقابلته من الجانب الآخر.

ثم جاء كتاب عمر بأن يتقدم بكير إلى الباب وجَعْل سِماكٍ موضعه نائباً لعتبة بن فرقد، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد، وسلم إليه بكير إسفندياذ، وسار كما أمره عمر إلى الباب. قالوا: وقد كان اعتراض بهرام بن فرُّخزاذ لعتبة بن فرقد فهزمه عتبة وهرب بهرامُ، فلما بلغ ذلك إسفندياذ وهو في الأسر عند بكير قال: الآن تم الصلح وطفئت الحرب. فصالحه فأجاب إلى ذلك كلهم. وعادت أذربيجان سلماً، وكتب بذلك عتبة وبكير إلى عمر، وبعثوا بالأخماس إليه، وكتب عتبة -حين انتهت إليه إمرة أذربيجان - لأهلها كتاب أمان وصلح.

فتح الباب

قال ابن جرير [تاريخه: ١٥٥/٤]: وزعم سيف أنه كان في هذه السنة كتب عمر بن الخطاب كتاباً بالإمرة على هذه الغزوة لسراقة بن عمرو - الملقب بذي النور - وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ويقال له - ذو النور أيضاً - وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد، وعلى الأخرى بكير بن عبد اللّه الليثي - وكان قد تقدمهم إلى الباب - وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة، فساروا كما أمرهم عمر وعلى تعبئته، فلما انتهى مقدم العساكر - وهو عبد الرحمن بن ربيعة - إلى الملك الذي هناك عند

الباب وهو شهربراز ملك أرمينية وهو من بيت الملك الذي قتل بني إسرائيل وغزا الشام في قديم الزمان، فكتب شهربراز لعبد الرحمن واستأمنه فأمنه عبد الرحمن بن ربيعة، فقدم عليه الملك، فأنهى إليه أنَّ صَغْوَه إلى المسلمين، وأنه مناصح للمسلمين. فقال له: إن فوقي رجلاً فاذهب إليه. فبعثه إلى سراقة بن عمرو أمير الجيش، فسأل من سراقة الأمان، فكتب إلى عمر فأجاز ما أعطاه من الأمان، واستحسنه، فكتب له سراقة كتاباً بذلك. ثم بعث سراقة بكيراً، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة، إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية جبال اللان وتفليس وموقان، فافتتح بكير موقان، وكتب لهم كتاب أمان ومات في غبون ذلك أمير المسلمين هنالك، وهو سراقة بن عمرو، واستخلف بعده عبد الرحمن بن ربيعة، فلما بلغ عمر ذلك أقره على ذلك وأمره بغزو الترك.

أول غزو الترك

وهو تصديق الحديث المتقدم الثابت في الصحيح عن أبي هريرة [خ(٣٥٩٠، ٣٥٩١)، م(٢٩١٢) بنحوه] وعمرو بن تغلب [خ(٢٩٢٧)] أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عراض الوجوه، دلف الأنوف، حمر الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة»

وفي رواية «ينتعلون الشعر» [خ(٢٩٢٧، ٢٥٩٢ من حديث عمرو بن تغلب]

لما جاء كتاب عمر إلى عبد الرحمن بن ربيعة يأمره بأن يغزو الترك، سار حتى قطع الباب قاصداً لما أمره عمر، فقال له شهربراز: أين تريد؟ قال: أريد ملك الترك بلنجر، فقال له شهربراز: إنا لنرضى منهم بالموادعة، ونحن من وراء الباب. فقال له عبد الرحمن: إن الله بعث إلينا رسولاً، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر ونحن لا نزال منصورين، فقاتل الترك وسار في بلاد بلنجر مائتي فرسخ، وغزا مرات متعددة. ثم كانت له وقائع هائلة في زمن عثمان كما سنورده في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال سيف بن عمر عن الغصن بن القاسم عن رجل عن سلمان بن ربيعة. قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة بلادهم حال الله بين الترك والخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعهم الملائكة تمنعهم من الموت. فتحصنوا منه وهربوا بالغنم والظفر.

ثم إنه غزاهم غزوات في زمن عثمان فظفر بهم، كما كان يظفر بغيرهم، فلما ولى عثمان على الكوفة بعض من كان ارتد، غزاهم فتذامرت الترك وقال بعضهم لبعض: إنهم لا يموتون، قال: انظروا وفعلوا فاختفوا لهم في الغياض. فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه، فخرجوا على المسلمين بعد ذلك حين عرفوا أن المسلمين يموتون، فاقتتلوا قتالاً شديداً ونادى مناد من الجو: صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة، فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف الناس وأخذ الراية سلمان بن ربيعة فقاتل بها، ونادى المنادي من الجو: صبراً آل سلمان بن ربيعة. فقاتل قتالاً شديداً ثم تحيز سلمان وأبو هريرة بالمسلمين، وفروا من كثرة الترك ورميهم الشديد السديد على جيلان فقطعوها إلى جرجان، واجترأت الترك بعدها، ومع هذا أخذت الترك عبد الرحمن بن ربيعة فدفنوه في بلادهم، فهم يستسقون بقبره إلى اليوم. وسيأتي تفصيل ذلك كله.

قصة السدّ

ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٥٩/٤] بسنده أن شهربراز قال لعبد الرحمن بن ربيعة لما قدم عليه حين وصل إلى الباب وأراه رجلاً فقال شهربراز: أيها الأمير إن هذا الرجل كنت بعثته نحو السد، وزودته مالاً جزيلاً وكتبت له إلى الملوك الذين يلونني، وبعثت لهم هدايا، وسألت منهم أن يكتبوا له إلى من يليهم من الملوك حتى ينتهي إلى سد ذي القرنين، فينظر إليه ويأتينا بخبره. فسار حتى انتهى إلى الملك الذي السد في أرضه، فبعثه إلى عامله مما يلي السد، فبعث معه بازياره ومعه عقابه، فلما انتهوا إلى السد إذا جبلان بينهما سد مسدود، حتى ارتفع على الجبلين، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده، فنظر إلى ذلك كله وتفرس فيه، ثم لما همّ بالانصراف قال له البازيار: على رسلك، ثم شرح بضعة لحم معه فألقاها في ذلك الوادي، وانقض عليها العقاب. فقال: إن أدركها في الهواء تقع فلا شيء، وإن لم يدركها حتى تقع فذلك شيء قال: فلم يدركها حتى وقعت في أسفله وأتبعها العقاب فأخرجها فإذا فيها ياقوتة وهي هذه. ثم ناولها الملك شهربراز لعبد الرحمن بن ربيعة، فنظر إليها عبد الرحمن ثم ردها إليه، فلما ردها إليه فرح وقال: والله لهذه خير من مملكة هذه المدينة - يعني مدينة باب الأبواب التي هو فيها - ووالله لأنتم أحب إلي مَلَكَةً من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ويبلغهم خبرها لانتزعوها مني. وايم الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر.

ثم أقبل عبد الرحمن بن ربيعة على الرسول الذي ذهب إلى السد فقال: ما حال هذا الردم؟ - يعني ما صفته - فأشار إلى ثوب في زرقة وحمرة فقال: مثل هذا. فقال رجل لعبد الرحمن: صدق والله لقد نفذ ورأى. فقال: أجل وصف صفة الحديد والصفر. قال الله تعالى ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] وقد ذكرت صفة السد في التفسير [١٩٢/٥-١٩٣]، وفي أوائل هذا الكتاب.

وقد ذكر البخاري في صحيحه تعليقاً [قبل(٣٣٤٦)] أن رجلاً قال للنبي ﷺ رأيت السد. فقال: «كيف رأيته؟» قال: مثل البرد المحبر قال: «رأيته».

قالوا: ثم قال عبد الرحمن بن ربيعة لشهربراز: كم كانت هديتك؟ قال: قيمة مائة ألف في بلادي وثلاثة آلاف ألف في تلك البلدان.

بقيه من خبر السد

أورد شيخنا أبو عبد الله الذهبي الحافظ [تاريخ الإسلام: ٢٤٦/٣-٢٤٨] في هذه السنة ما ذكره صاحب كتاب «مسالك الممالك» [١٦٢-١٧٠] عما أملاه عليه سلام الترجمان، حين بعثه الواثق بأمر الله بن المعتصم - وكان قد رأى في النوم كأن السد قد فتح - فأرسل سلاماً هذا وكتب له إلى الملوك بالوصاة به، وبعث معه ألفي بغل تحمل طعاماً فساروا من سامرا إلى إسحاق بتفليس، فكتب لهم إلى صاحب السرير، وكتب لهم صاحب السرير إلى ملك اللان، فكتب لهم إلى فيلانشاه، فكتب لهم إلى ملك الخزر، فوجه معه خمسة أدلاء فساروا ستة وعشرين يوماً فانتهوا إلى أرض سوداء منتنة حتى جعلوا يشمون الخل، فساروا فيها عشرة أيام، فانتهوا إلى مدائن خراب مدة سبعة وعشرين يوماً، وهي التي كانت يأجوج ومأجوج تطرقها

فخربت من ذلك الحين، وإلى الآن، ثم انتهوا إلى حصن قريب من السد فوجدوا قوماً يعرفون بالعربية وبالفارسية ويحفظون القرآن، ولهم مكاتب ومساجد، فجعلوا يعجبون منهم ويسألونهم من أين أقبلوا، فذكروا لهم أنهم من جهة أمير المؤمنين الواثق فلم يعرفوه بالكلية. ثم انتهوا إلى جبل أملس ليس عليه خضراءُ وإذا السد هنالك من لبن حديد مغيّب في نحاس، وهو مرتفع جدا لا يكاد البصر يتهي إليه، وله شرفات من حديد وفي وسطه باب عظيم بمصراعين مغلقين، عرضهما مائة ذراع، في طول مائة ذراع، في ثخانة خمسة أذرع، وعليه قفل طوله سبعة أذرع في غلظ باع ـ وذكر أشياء كثيرة ـ وعند ذلك المكان حرس يضربون عند القفل في كل يوم فيسمعون بعد ذلك صوتاً عظيما مزعجاً، فيعلمون أن وراء هذا الباب حرساً وحفظة، وقريب من هذا الباب حصنان عظيمان بينهما عين ماء عذبة، وفي إحداهما بقايا العمارة من مغارف ولبن من حديد وغير ذلك، وإذا طول اللبنة ذراع ونصف في مثله، في سمك شبر.

وذكروا أنهم سألوا أهل تلك البلاد: هل رأوا أحداً من يأجوج ومأجوج؟ فأخبروهم أنهم رأوا منهم يوما أشخاصا فوق الشرفات، فهبت الريح فألقتهم إليهم، فإذا طول الرجل منهم شبر ونصف شبر والله أعلم.

قال الواقدي: وفي هذه السنة غزا معاوية الصائفة، من بلاد الروم، في عشرة آلاف من المسلمين، فسار وغنم ورجع سالما.

وفيها ولد يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان. وفيها حج بالناس عمر بن الخطاب وكان عماله فيها على البلاد، هم الذين كانوا في السنة قبلها.

وذكر أن عمر عزل عماراً في هذه السنة عن الكوفة اشتكاه أهلها وقالوا: لا يحسن السياسة، فعزله وولى أبا موسى الأشعري، فقال أهل الكوفة: لا نريده، وشكوا من غلامه فقال: دعوني حتى أنظر في أمري، وذهب إلى طائفة من المسجد ليفكر من يولي. فنام من الهم فجاءه المغيرة فجعل يحرسه حتى استيقظ فقال له: إن هذا الأمر عظيم يا أمير المؤمنين، الذي بلغ بك هذا. قال: وكيف لا وأهل الكوفة مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير. ثم جمع الصحابة واستشارهم، هل يولي عليهم قوياً مشدّداً أو ضعيفاً مسْلِماً؟ فقال له المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين، إن القوي قوته لك وللمسلمين وتشديده لنفسه، وأما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وإسلامه لنفسه. فقال عمر للمغيرة ـ واستحسن ما قال له ـ اذهب فقد وليتك الكوفة. فرده إليها بعد ما كان عزله عنها بسبب ما كان شهد عليه الذين تقدم حدهم بسبب قذفه، والعلم عند الله عز وجل.

وبعث أبا موسى الأشعري إلى البصرة، فقيل لعمار: أساءك العزل؟ فقال: والله ما سرتني الولاية، ولقد ساءني العزل. وفي رواية أن الذي سأله عن ذلك عمر رضي الله عنه.

ثم أراد عمر أن يبعث سعد بن أبي وقاص على الكوفة بدل المغيرة فعاجلته المنية في سنة ثلاث وعشرين على ما سيأتي بيانه، ولهذا أوصى لسعد به.

قال الواقدي: وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس بلاد خراسان، وقصد البلد الذي فيه يزدجرد ملك الفرس.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/١٦٦]: وزعم سيف أن هذا كان في سنة ثماني عشرة.

قلت: والأول هو المشهور والله أعلم.

قصة يزدجرد بن شهريار بن كسرى

الذي كان ملك لما استلب سعد من يديه مدينة ملكه، ودار مقرّه، وإيوان سلطانه، وبساط مشورته وحواصله، تحول من هناك إلى حلوان، ثم جاء المسلمون ليحاصروا حلوان فتحول إلى الري، وأخذ المسلمون حلوان ثم أخذت الري، فتحول منها إلى أصبهان، فأخذت أصبهان، فسار إلى كرمان فقصد المسلمون كرمان فافتتحوها فانتقل إلى خراسان فنزلها. هذا كله والنار التي يعبدها من دون الله يسير بها معه من بلد إلى بلد، ويبني لها في كل بلد بيت توقد فيه على عادتهم، وهو يحمل في الليل في مسيره إلى هذه البلدان على بعير عليه هودج ينام فيه.

فبينما هو ذات ليلة في هودجه وهو نائم فيه، إذ مروا به على مخاضة فأرادوا أن ينبهوه قبلها لئلا ينزعج إذا استيقظ في المخاضة، فلما أيقظوه تغضب عليهم شديداً وشتمهم، وقال: حرمتموني أن أعلم مدة بقاء هؤلاء في هذه البلاد وغيرها، إني رأيت في منامي هذا أني ومحمداً تناجينا عند الله، فقال له: ملككم مائة سنة فقال: زدني. فقال: عشراً ومائة فقال: زدني. فقال: عشرين ومائة سنة. فقال: زدني فقال: لك. وأنبهتموني، فلو تركتموني لعلمت مدة هذه الأمة.

غزو المسلمين بلاد خراسان مع الأحنف بن قيس

وذلك أن الأحنف بن قيس هو الذي أشار على عمر بأن يتوسع المسلمون بالفتوحات في بلاد العجم، ويضيقوا على كسرى يزدجرد، فإنه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين. فأذن عمر بن الخطاب في ذلك عن رأيه، وأمّر الأحنف، وأمره بغزو بلاد خراسان. فركب الأحنف في جيش كثيف إلى خراسان قاصداً حرب يزدجرد، فدخل خراسان فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي، ثم سار إلى مرو الشاهجان وفيها يزدجرد، وبعث الأحنف بين يديه مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى نيسابور، والحارث بن حسان إلى سرخس. ولما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان، ترحل منها يزدجرد إلى مرو الروذ فافتتح الأحنف مرو الشاهجان فنزلها. وكتب يزدجرد حين نزل مرو الروذ إلى خاقان ملك الترك يستمده، وكتب إلى ملك الصُغْد يستمده، وكتب إلى ملك الصُغْد يستمدُّه، وقصده الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ وقد استخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان، وقد وفدت إلى الأحنف أمداد من أهل الكوفة مع أربعة أمراء، فلما بلغ مسيره إلى يزدجرد ترّحل إلى بلخ، وجاء الأحنن، فافتتح مرو الروذ، ثم سار وراء يزدجرد، فهزمه الله عز وجل وهرب هو ومن بقي معه من جيشه فعبر النهر واستوثق ملك خراسان على يدي الأحنف بن قيس، واستخلف في كل بلدة أميراً، ورجع الأحنف فنزل مرو الروذ، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليه من بلاد خراسان بكمالها. فقال عمر: وددت أنه كان بيننا وبين خراسان بحر من نار فقال له علي: ولم يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن أهلها سينقضون عهدهم ثلاث مرات فيُجتاحون في الثالثة، فقال: يا أمير المؤمنين، لأن يكون ذلك بأهلها، أحب إلي من أن يكون ذلك بالمسلمين.

وكتب عمر إلى الأحنف ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر. وقال: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان. ولما وصل رسولا يزدجرد إلى اللذين استنجد بهما لم يحتفلا بأمره، فلما عبر يزدجرد النهر ودخل في بلادهما

تعين عليهما الجهاده في شرع الملوك، فسار معه خاقان الأعظم ملك الترك، ورجع يزدجرد بجنود عظيمة فيهم ملك التتار خاقان، فوصل إلى بلخ واسترجعها، وفر عمال الأحنف إليه إلى مرو الروذ، وخرج المشركون من بلخ حتى نزلوا على الأحنف بمرو الروذ فبرز الأحنف بمن معه من أهل البصرة وأهل الكوفة والجميع عشرون ألفاً فسمع رجلا يقول لآخر: إن كان الأمير ذا رأي فإنه يقف دون هذا الجبل فيجعله وراء ظهره ويبقى هذا النهر خندقاً حوله فلا يأتيه العدو إلا من جهة واحدة.

فلما أصبح الأحنف أمر المسلمين فوقفوا في ذلك الموقف بعينه، وكان أمارة النصر والرشد، وجاءت الأتراك والفرس في جمع عظيم هائل مزعج، فقام الأحنف في الناس خطيباً فقال: إنكم قليل وعدوكم كثير، فلا يهولنكم، فـ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فكانت الترك يقاتلون بالنهار ولا يدري الأحنف أين يذهبون في الليل. فسار ليلة مع طليعة من أصحابه نحو جيش خاقان، فلما كان قريب الصبح خرج فارس من الترك وطليعة وعليه طوق وضرب بطبله فتقدم إليه الأحنف فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز.

إن على كل رئيس حقاً ... أن يخضب الصعدة أو يندقا

إن لنا شيخا بها مُلقى ... سيف أبي حفص الذي تبقى

قال: ثم استلب التركي طوقه ووقف موضعه، فخرج آخر عليه طوق ومعه طبل فجعل يضرب بطبله، فتقدم إليه الأحنف فقتله أيضاً واستلبه طوقه ووقف موضعه فخرج ثالث فقتله وأخذ طوقه ثم أسرع الأحنف الرجوع إلى جيشه ولا يعلم بذلك أحد من الترك بالكلية. وكان من عادتهم أنهم لا يخرجون من مبيتهم حتى تخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم يضرب الأول بطبله، ثم الثاني ثم الثالث، ثم يخرجون بعد الثالث.

فلما خرجت الترك ليلتئذ بعد الثالث، فأتوا على فرسانهم مقتلين، تشاءم بذلك الملك خاقان وتطير، وقال لعسكره: قد طال مقامنا وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم نصب بمثله، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا. فرجعوا إلى بلادهم وانتظرهم المسلمون يومهم ذلك ليخرجوا إليهم من شعبهم فلم يروا أحدا منهم، ثم بلغهم انصرافهم إلى بلادهم راجعين عنهم. وقد كان يزدجرد ـ وخاقان في مقابلة الأحنف بن قيس ومقاتلته ـ ذهب إلى مرو الشاهجان فحاصر. حارثةَ بن النعمان بها واستخرج منها خزانته التي كان دفنها بها، ثم رجع وانتظره خاقان ببلخ حتى رجع إليه.

وقد قال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم. وقد أصاب الأحنف في ذلك، فقد جاء في الحديث «اتركوا الترك ما تركوكم» [د(٤٣٠٢)] وقد ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾. [الأحزاب: ٢٥].

ورجع كسرى خاسراً الصفقة لم يشف له غليل، ولا حصل على خير، ولا انتصر كما كان في زعمه، بل تخلى عنه من كان يرجو النصر منه، وتنحى عنه وتبرأ منه أحوج ما كان إليه، وبقي مذبذباً ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨] وتحير في أمره ماذا يصنع؟ وإلى أين يذهب؟ وقد أشار عليه بعض أولي النهى من قومه حين قال: قد عزمت أن أذهب إلى بلاد الصين أو أكون مع خاقان في بلاده. فقالوا: إنا نرى أن نصانع هؤلاء القوم فإن لهم ذمة وديناً يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا، فهم خير لنا من غيرهم. فأبى عليهم كسرى ذلك. ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به ويستنجده فجعل ملك الصين يسأل الرسول عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد، فجعل يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون؟ وكيف يصلون. فكتب معه إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحقُّ عليَّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم وارض منهم بالمسالمة. فأقام كسرى وآل كسرى في بعض البلاد مقهورين. ولم يزل ذلك دأبه حتى قتل بعد سنتين من إمارة عثمان كما سنورده في موضعه.

ولما بعث الأحنف بكتاب الفتح وما أفاء اللّه عليهم من أموال الترك ومن كان معهم، وإنهم قتلوا منهم مع ذلك مقتلة عظيمة، ثم ردهم اللّه بغيظهم لم ينالوا خيراً. فقام عمر على المنبر وقرئ الكتاب بين يديه ثم قال عمر: إن اللّه بعث محمداً بالهدى ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٣] فالحمد للّه الذي أنجز وعده! ونصر جنده. ألا وإن اللّه قد أهلك مُلْك المجوسية وفرق شملهم فليسوا بملكون من بلادهم شبرا يضرُّ بمسلم ألا وإن اللّه قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فقوموا في أمره على وجل، يوف لكم بعهده، ويؤتكم وعده ولا تغيروا فيستبدل قوماً غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم.

وقال شيخنا أبو عبد اللّه الذهبي الحافظ في تاريخ هذه السنة [تاريخ الإسلام: ٢٤١] ـ أعني سنة اثنتين وعشرين ـ:

وفيها فتحت أذربيجان على يدي المغيرة بن شعبة. قاله ابن إسحاق: فيقال: إنه صالحهم على ثمانمائة ألف درهم. وقال أبو عبيدة: فتحها حبيب بن مسلمة الفهري بأهل الشام عنوة، ومعه أهل الكوفة فيهم حذيفة فافتتحها بعد قتال شديد واللّه أعلم.

وفيها افتتح حذيفة الدينور عنوة ـ بعد ما كان سعد افتتحها فانتقضوا عهدهم.

وفيها افتتح حذيفة ماسبذان عنوة ـ وكانوا نقضوا أيضاً عهد سعد ـ وكان مع حذيفة أهل البصرة فلحقهم أهل الكوفة فاختصموا في الغنيمة، فكتب عمر: إن الغنيمة لمن شهد الوقعة.

قال أبو عبيدة: ثم غزا حذيفة همذان فافتتحها عنوة، ولم تكن فتحت قبل ذلك، وإليها انتهى فتوح حذيفة.

قال: ويقال: افتتحها جرير بن عبد اللّه بأمر المغيرة ويقال: افتتحها المغيرة سنة أربع وعشرين. وفيها افتتحت جرجان.

قال خليفة [تاريخه: ١/١٥٠]: وفيها افتتح عمرو بن العاص أطرابلس المغرب، ويقال: في بالسبة التي بعدها.

قلت: وفي هذا كله غرابة بالنسبة إلى ما سلف واللّه أعلم.

قال شيخنا [تاريخ الإسلام: ٣/٢٤٢]:

وفيها توفي

■ أبي بن كعب في قول الواقدي وابن نمير والذهلي والترمذي، وقد تقدم في سنة تسع عشرة.

■ معضد بن يزيد الشيباني: استشهد بأذربيجان ولا صحبة له.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين

وفيها وفاة عمر بن الخطاب

قال الواقدي وأبو معشر [تاريخ الطبري: ١٧٤/٤]: فيها كان فتح اصطخر وهمذان.

وقال سيف [تاريخ الطبري: ١٧٤/٤]: كان فتحها بعد فتح تَـوَّج الآخرة. ثم ذكر [تاريخ الطبري: ١٧٥/٤] أن الذي افتتح توج مجاشع بن مسعود، بعد ما قتل من الفرس مقتلة عظيمة وغنم منهم غنائم جمة، ثم ضرب الجزية على أهلها، وعقد لهم الذمة، ثم بعث بالفتح وخُمُس الغنائم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم ذكر أن عثمان بن أبي العاص افتتح جور بعد قتال شديد كان عندها، ثم افتتح المسلمون إصطخر - وهذه المرة الثانية - وكان أهلها قد نقضوا العهد بعد ما كان جند العلاء بن الحضرمي افتتحوها حين جاز في البحر - من أرض البحرين - والتقوا هم والفرس في مكان يقال له طاوس، كما تقدم بسط ذلك في موضعه. ثم صالحه الهربذ على الجزية، وأن يضرب لهم الذمة. ثم بعث بالأخماس والبشارة إلى عمر.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٧٥/٤]: وكانت الرسل لها جوائز، وتقضى لهم حوائج، كما كان رسول الله ﷺ يعاملهم بذلك. ثم إن شهرك خلع العهد، ونقض الذمة، ونشّط الفرس، فنقضوا، فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم، فاقتتلوا مع الفرس فهزم الله جيوش المشركين، وقتل الحكم بن أبي العاص شهرك، وقتل ابنه معه أيضاً.

وقال أبو معشر: كانت فارس الأولى وإصطخر الآخرة سنة ثمان وعشرين في إمارة عثمان، وكانت فارس الآخرة ووقعة جور في سنة تسع وعشرين.

فتح فسا ودارابجرد وقصة سارية بن زنيم

ذكر سيف [تاريخ الطبري: ١٧٨/٤] عن مشايخه أن سارية بن زنيم قصد فسا ودارابجرد، فاجتمع له جموع - من الفرس والأكراد - عظيمة، ودهم المسلمين منهم أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في وقت من النهار، وأنهم في صحراء وهناك جبل إن استندوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد، فنادى من الغد: الصلاة جامعة.

حتى إذا كانت الساعة التي رأى أنهم اجتمعوا فيها، خرج إلى الناس وصعد المنبر، فخطب الناس وأخبرهم بصفة ما رأى، ثم قال: يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ، ثم أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلّغهم.

قال: ففعلوا ما قال عمر، فنصرهم الله على عدوهم، وفتحوا البلد.

وذكر سيف في رواية أخرى عن شيوخه أن عمر بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قال: يا سارية بن زنيم الجبل الجبل. فلجأ المسلمون إلى جبل هناك فلم يقدر العدو عليهم إلا من جهة واحدة فأظفرهم الله بهم، وفتحوا البلد. وغنموا شيئاً كثيراً، فكان من جملة ذلك سفطٌ من جوهر فاستوهبه سارية من المسلمين لعمر، فلما وصل إليه مع الأخماس قدم الرسول بالخمس فوجد عمر قائماً في يده عصا وهو يطعم المسلمين سماطهم، فلما رآه عمر قال له: اجلس - ولم يعرفه - فجلس الرجل فأكل مع الناس، فلما فرغوا انطلق عمر إلى منزله واتبعه الرجل، فاستأذن فأذن له وإذا هو قد وضع له خبز وزيت وملح، فقال: ادن فكل. قال: فجلست فجعل يقول لامرأته: ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟ فقالت: إني اسمع حس رجل عندك. فقال: أجل، فقالت: لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لي غير هذه الكسوة. فقال: أو ما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة عمر. فقالت: ما أقل غناء ذلك عني. ثم قال للرجل: ادن فكل فلوكانت راضية لكان أطيب مما ترى. فأكلا فلما فرغا قال: أنا رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين. فقال: مرحباً وأهلاً. ثم أدناه حتى مست ركبتُه ركبتَه، ثم سأله عن المسلمين، ثم سأله عن سارية بن زنيم، فأخبره ثم ذكر له شأن السفط من الجوهر فأبى أن يقبله وأمر برده إلى الجند. وقد سأل أهل المدينة رسول سارية عن الفتح فأخبرهم، فسألوه: هل سمعوا صوتاً يوم الوقعة؟ قال: نعم، سمعنا قائلا يقول: يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا [تاريخ الطبري: ١٧٨/٤، ١٧٩].

ثم رواه سيف عن مجالد عن الشعبي بنحو هذا.

وقال عبد الله بن وهب عن يحيى بن أيوب عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر: أن عمر وجه جيشاً ورأس عليهم رجلا يقال له سارية، قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي: يا ساري الجبل! ثلاثاً. ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر: فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا منادياً: يا سارية الجبل! ثلاثاً فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله. قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك [الدلائل لأبي نعيم (٥٢٦)].

وهذا إسناد جيد حسن.

وقال الواقدي: حدثني نافع بن أبي نعيم عن نافع مولى ابن عمر: أن عمر قال على المنبر: يا سارية بن زنيم الجبل! فلم يدر الناس ما يقول حتى قدم سارية بن زنيم المدينة على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين كنا محاصري العدو فكنا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد، نحن في خفض من الأرض وهم في حصن عال، فسمعت صائحا ينادي بكذا وكذا يا سارية بن زنيم الجبل، فعلوت بأصحابي الجبل، فما كان إلا ساعة حتى فتح الله علينا.

وقد رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر بنحوه، وفي صحته من حديث مالك نظر.

وقال الواقدي: حدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه. وأبو سليمان عن يعقوب بن زيد قالا: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الجمعة إلى الصلاة فصعد المنبر ثم صاح: يا سارية بن زنيم الجبل! يا سارية بن زنيم الجبل! ظلم من استرعى الذئب الغنم. ثم خطب حتى فرغ، فجاء كتاب سارية إلى عمر: إن الله قد فتح علينا يوم الجمعة ساعة كذا وكذا - لتلك الساعة التي خرج فيها عمر فتكلم على المنبر - قال سارية: فسمعت صوتاً يا سارية بن زنيم الجبل، يا سارية بن زنيم الجبل! ظلم من استرعى الذئب الغنم! فعلوت بأصحابي الجبل، ونحن قبل ذلك في بطن واد، ونحن محاصرو العدو ففتح الله علينا. فقيل لعمر بن الخطاب: ما ذلك الكلام؟ فقال: والله ما ألقيت له بالاً، شيءٌ ألقي على لساني. فهذه طرق يشد بعضها بعضاً.

ثم ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٨٠/٤] من طريق سيف عن شيوخه فتح كرمان على يدي سهيل بن عدي وأمده عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وقيل: على يدي عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وذكر فتح سجستان على يدي عاصم بن عمرو، بعد قتال شديد، وكانت ثغورها متسعة، وبلادها متباينة، مابين السند إلى نهر بلخ، وكانوا يقاتلون القندهار والترك

من ثغورها وفروجها.

وذكر فتح مكران على يدي الحكم بن عمرو، وأمده شهاب بن المخارق بن شهاب، وسهيل بن عدي، وعبد الله بن عبد الله، واقتتلوا مع ملك السند فهزم الله جموع السند، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة، وكتب الحكم بن عمرو بالفتح وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، فلما قدم على عمر سأله عن أرض مكران فقال: يا أمير المؤمنين أرض سهلها جبل وماؤها وشل، وثمرها دَقَلٌ، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها. فقال عمر: أسجاع أنت أم مخبر؟ فقال: لا، بل مخبر، فكتب عمر إلى الحكم بن عمرو أن لا يغزو بعد ذلك مكران، وليقتصروا على ما دون النهر.

وقد قال الحكم بن عمرو في ذلك:

لقد شبع الأرامل غير فخر ... بفيء جاءهم من مكّران
أتاهُم بعدَ مسغبةٍ وجهدٍ ... وقدْ صَفِرَ الشتاءُ منَ الدُّخانِ
فإني لا يَذُمُّ الجيشُ فعلي ... ولا سيفي يُذَمُّ ولا سناني
غداةَ أدفَعُ الأوباشَ دفعاً ... إلى السندِ العريضةِ والمداني
ومهرانٌ لنا فيما أردنا ... مطيع غير مسترخي العنانِ
فلولا ما نهى عنه أميري ... قطعناهُ إلى البلدِ الزواني

غزوة الأكراد

ثم ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٨٣/٤] بسنده عن سيف عن شيوخه: أن جماعة من الأكراد والتف إليهم طائفة من الفرس اجتمعوا فلقيهم أبو موسى بمكان من أرض بيروذ قريب من نهر تيرى، ثم سار عنهم أبو موسى إلى أصبهان وقد استخلف على حربهم الربيع بن زياد بعد مقتل أخيه المهاجر بن زياد، فتسلم الحرب وهو حنق عليهم، فهزم الله العدو وله الحمد والمنة، كما هي عادته المستمرة وسنته المستقرة في عباده المؤمنين، وحزبه المفلحين، من أتباع سيد المرسلين.

ثم خمست الغنيمة وبعث بالفتح والخمس إلى عمر رضي الله عنه، وقد سار ضبة بن محصن العنزي فاشتكى أبا موسى إلى عمر، وذكر عنه أموراً لا ينقم عليه بسببها، فاستدعاه عمر فسأله عنها فاعتذر منها بوجوه مقبولة فسمعها عمر وقبلها، ورده إلى عمله وعذر ضبة فيما تأوله، ومات عمر، وأبو موسى على صلاة البصرة.

خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

بعثه عمر أميراً على سرية ووصاه بوصايا كثيرة بمضمون حديث بريدة في صحيح مسلم [١٧٣١] «اغزوا بسم الله قاتلوا من كفر بالله» الحديث إلى آخره، فساروا فلقوا جمعاً من المشركين فدعوهم إلى إحدى ثلاث خلال، فأبوا أن يقبلوا واحدة منها، فقاتلوهم فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وغنموا أموالهم. ثم بعث سلمة بن قيس رسولا إلى عمر بالفتح وبالغنائم، فذكروا وروده على عمر وهو يطعم الناس، وذهابه معه إلى منزله، كنحو ما تقدم من قصة أم كلثوم بنت علي، وطلبها الكسوة كما يكسي طلحة وغيره أزواجهم، فقال: ألا يكفيك أن يقال بنت علي وامرأة أمير المؤمنين؟ ثم ذكر طعامه الخشن، وشرابه من سلت، ثم شرع يستعلمه عن أخبار المهاجرين، وكيف طعامهم وأسعارهم، وهل يأكلون اللحم الذي هو شجرتهم، ولا بقاء للعرب دون شجرتهم؟ وذكر عرضه عليه ذلك السفط من الجوهر، فأبى أن يأخذه وأقسم على ذلك، وأمره بأن يرده فيقسم بين الغانمين.

وقد أورده ابن جرير [تاريخه: ١٨٦/٤، ١٨٧] مطولا جداً.

وقال ابن جرير [تاريخه: ١٩٠/٤]: وفي هذه السنة حج عمر بأزواج النبي ﷺ، وهي آخر حجة حجها رضي الله عنه.

قال: وفي هذه السنة كانت وفاته. ثم ذكر صفة مقتله مطولاً أيضاً، وقد ذكرت ذلك مستقصى في آخر سيرة عمر، فليكتب من هناك إلى هنا. وهو

■ عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشي، أبو حفص العدوي، الملقب بالفاروق قيل لقبه بذلك أهل الكتاب روي ذلك عن الزهري [تاريخ الطبري ١٩٥/٤].

وأمه حنتمة بنت هشام أخت أبي جهل بن هشام.

أسلم عمر وعمره سبع وعشرين سنة، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وخرج في عدة سرايا، وكان أميراً على بعضها، وهو أول من دعي أمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ، وجمع الناس على التراويح، وأول من عس بالمدينة وحمل الدرة وأدب بها، وجلد في الخمر ثمانين، وفتح الفتوح، ومصر الأمصار، وجند الأجناد. ووضع الخراج، ودون الدواوين، وعرض الأعطية، واستقضى القضاة، وكور الكور، مثل السواد والأهواز والجبال وفارس وغيرها، وفتح الشام كله، والجزيرة والموصل، وميافارقين، وآمد، وأرمينية، ومصر وإسكندرية. ومات وعساكره على بلاد الري.

فتح من الشام اليرموك وبصرى ودمشق والأردن، وبيسان، وطبرية، والجابية، وفلسطين والرملة، وعسقلان وغزة والسواحل والقدس.

وفتح مصر وإسكندرية وطرابلس الغرب وبرقة.

ومن مدن الشام بعلبك وحمص وقنسرين وحلب وأنطاكية.

وفتح الجزيرة وحران والرها والرقة ونصيبين ورأس عين وشمشاط وعين وردة وديار بكر وديار ربيعة وبلاد الموصل وأرمينية جميعها.

وبالعراق القادسية والحيرة وبهرسير وساباط، ومدائن كسرى وكورة الفرات ودجلة والأبلة والبصرة والأهواز وفارس ونهاوند وهمذان والري وقومس وخراسان وإصطخر وأصبهان والسوس ومرو ونيسابور وجرجان وأذربيجان وغير ذلك.

وقطعت جيوشه النهر مراراً، وكان متواضعاً في الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديداً في ذات الله، يرقع الثوب بالأديم، ويحمل القربة على كتفيه، مع عظم هيبته، ويركب الحمار عرياً، والبعير مخطوماً بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً وكان نقش خاتمه كفى بالموت واعظاً يا عمر.

وقال النبي ﷺ: «أشد أمتي في دين الله عمر» [طبقات ابن سعد: ٢٩١/٣]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض، فوزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر، وإنهما السمع والبصر» [المستدرك: ٢٦٤/٢، وليس عند «وإنهما السمع والبصر» وهي عند ت(٣٦٧١) من حديث عبد الله بن حنطب]

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال «إن الشيطان يفرق من عمر» [تاريخ دمشق: ترجمة عمر ص٧١]

وقال «ارحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر» [مسند احمد: ٣/١٨٤].

وقيل لعمر إنك فظٌ. فقال: الحمد الله الذي ملأ قلبي لهم رُحما وملأ قلوبهم لي رعباً.

وقال عمر: لا يحل لي من مال الله إلا حلتان حلة للشتاء وحلة للصيف، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين.

وكان عمر إذا استعمل عاملا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين واشترط عليه أن لا يركب برذونا، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات. فإن فعل شيئا من ذلك حلّت عليه العقوبة.

وقيل: إنه كان إذا حدثه الرجل بالحديث فيكذب فيه الكلمة والكلمتين فيقول عمر: احبس هذه احبس هذه، فيقول الرجل: والله كل ما حدثتك به حق غير ما أمرتني أن أحبسه.

وقال معاوية بن أبي سفيان: أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته فلم يردها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن.

وعوتب عمر فقيل له: لو أكلت طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق؟ فقال: إني تركت صاحبي على جادة، فإن تركت جادتهما فلم أدركهما في المنزل.

وكان يلبس وهو خليفة جبة صوف مرقوعة بعضها بأدم ويطوف بالأسواق على عاتقه الدرة يؤدب بها الناس، وإذا مر بالنوى وغيره يلتقطه ويرمي به في منازل الناس ينتفعون به.

وقال أنس: كان بين كتفي عمر اربع رقاع، وإزاره مرقوع بأدم، وخطب على المنبر وعليه إزار فيه اثني عشر رقعة، وانفق في حجته ستة عشر ديناراً، وقال لابنه: قد أسرفنا، وكان لا يستظل بشيء غير انه كان يلقي كساءه على الشجر ويستظل تحته، وليس له خيمة ولا فسطاط.

ولما قدم الشام لفتح بيت المقدس كان على جمل أورق تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة قد طبق رجليه بين شعبتي الرحل بلا ركاب، ووطاؤه كساء من صوف، وهو فراشه إذا نزل، وحقيبته محشوة ليفاً، وهي وسادته إذا نام، وعليه قميص من كرابيس قد دَسِم وتخرق جيبه، فلما نزل قال: ادعوا لي رأس القرية، فدعوه فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروني قميصاً، فأتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟ فقيل: كتان. فقال: فما الكتان؟ فأخبروه. فنزع قميصه فغسلوه وخاطوه ثم لبسه، فقال له: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا يصلح فيها ركوب الإبل. فأتي ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل، فلما سار جعل البرذون يهملج به فقال لمن معه: احبسوا، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين، هاتوا جملي. ثم نزل وركب الجمل.

وعن أنس قال: كنت مع عمر فدخل حائطاً لحاجته فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار الحائط ـ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله بُنيَّ الخطاب أو ليعذبنك.

وقيل: إنه حمل قربة على عاتقه فقيل له في ذلك فقال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها!

وكان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته فلا يزال يصلي إلى الفجر. وما مات حتى سرد الصوم، وكان في عام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع.

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء، وكان يسمع الآية من القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعاً إلى منزله فيعاد أياماً ليس به مرض إلا الخوف.

وقال طلحة بن عبد الله: خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتاً فلما اصبحت ذهبت إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيكي؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى. فقلت لنفسي: ثكلتك أمك ياطلحة، أعثرات عمر تتبع؟!

وقال أسلم مولى عمر: قدم المدينة رفقة من تجار، فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة؟ قال: نعم! فباتا يحرسانهم ويصليان، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتق الله تعالى وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي فأتى إلى أمه فقال لها: ويحك، إنك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء؟! فقالت: يا عبد الله إني أشغله عن الطعام فيأبى ذلك، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم. قال: وكم عمر ابنك هذا؟ قالت: كذا وكذا شهراً، فقال: ويحك لا تعجليه عن الفطام. فلما صلى الصبح وهو لا يستبين للناس قراءته من البكاء. قال: بؤساً لعمر. كم قتل من أولاد المسلمين. ثم أمر مناديه فنادى: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام. وكتب بذلك إلى الأفاق.

وقال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة فلاح لنا بيت شعر فقصدناه فإذا فيه امرأة تمخض وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة غريبة وليس عندي شيء. فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم، فحمل على ظهره دقيقاً وشحما، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاءا، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها ـ وهو لا يعرفه ـ يتحدث، فوضعت المرأة غلاماً فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام. فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر. فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف.

وقال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال: يا أسلم ههنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟ قالت: ادن أو دع. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري، فقلت: أنا أحمله عنك. فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟!

فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: آتني بصحفة. فأتي بها فغرف فيها ثم جعلها بين يدي الصبيان وقال: كلوا. فأكلوا حتى شبعوا ـ والمرأة

تدعوله وهي لا تعرفه ـ فلم يزل عندهم حتى نـام الصغـار، ثـم أوصلهـم بنفقة وانصرف، فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم.

وقيل: إن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه رأى عمر وهو يعدو إلى ظاهر المدينة فقال له: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال: قد نـدَّ بعير مـن إبـل الصدقة فأنا أطلبه. فقال: قد أتعبت الخلفاء من بعدك.

وقيل: إنه رأى جارية تتمايل من الجوع فقال: مـن هـذه؟ فقـالت ابنـة عبد اللّه: هذه ابنتي. قال: فما بالها؟ فقـالت: إنـك تحبـس عنـا مـا في يـدك فيصيبنا ما ترى. فقال: يـا عبـد اللّـه، بيـني وبينكـم كتـاب اللّـه، واللّـه مـا أعطيكم إلا ما فرض اللّه لكم، أتريدون مني أن أعطيكـم مـا ليـس لكـم؟ فأعود خائنا؟!.

وقال الواقدي: حدثنا أبـو حـرزة يعقـوب بـن مجـاهد عـن محمـد بـن إبراهيم عن أبي عمرو قال: قلت لعائشة: من سمى عمر الفاروق؟ قـالت: النبي ﷺ.

أمير المؤمنين وأول من حياه بها المغـيرة بـن شـعبة ' وقيـل: غـيره فاللّـه أعلم.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٢٠٨/٤]: حدثني أحمد بن عبد الصمد الأنصاري حدثتني أم عمرو بنت حسان الكوفية ـ وكان قد أتى عليها مائـة وثـلاث وثلاثون سنة ـ عن أبيها قال: لما وَلِيَ عمر قالوا: يـا خليفـة خليفـة رسـول اللّه. فقال عمر: هذا أمر يطول، بل أنتم المؤمنين وأنا أميركم. فـسمي أمـير المؤمنين.

وملخص ذلك أن عمر رضي اللّه عنه لما فرغ مـن الحـج سـنة ثـلاث وعشرين ونزل بالأبطح دعا اللّه عز وجل وشكا إليه أنـه قـد كـبرت سـنه وضعفت قوته، وانتشرت رعيته، وخاف من التقصير، وسأل اللّه أن يقبضه إليه، وأن يمنّ عليه بالشهادة في بلد النبي ﷺ، كما ثبـت عنـه في الصحيـح [خ(١٨٩٠) بنحوه] أنـه كـان يقـول: اللّهـم إنـي أسـألك شـهادة في سبيلك، وموتاً في بلد رسولك.

فاستجاب له اللّه هذا الدعاء، وجمع له بين هذين الأمريـن الشـهادة في المدينة النبوية وهذا عزيز جداً، ولكن اللّه لطيـف لمـا يشـاء تبـارك وتعـالى، فاتفق له أن ضربه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصـل، الرومـي الـدار، وهـو قائم يصلي في المحراب، صلاة الصبح من يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بخنجر ذات طرفين، فضربـه ثـلاث ضربـات، وقيـل: ست ضربـات، إحداهـن تحـت سـرته قطعـت الصِّفَـاق فخـر مـن قامتـه، واستخلف عبد الرحمن بن عوف، ورجع العلـج بخنجره لا يمـر بـأحد إلا ضربه، حتى ضرب ثلاثة عشر رجلا مات منهم ستة، فألقى عليه عبد اللّـه بن عوف برنسـاً فانتحر نفسه لعنه اللّه، وحُمل عمر إلى منزله والـدم يسـيل من جرحه ـ وذلك قبل طلوع الشمس ـ فجعل يفيق ثم يغمى عليه، ثـم يذكرونه بالصلاة فيفيق ويقول: نعم، ولاحظَّ في الإسـلام لمـن تركهـا. ثـم صلى في الوقت، ثم سأل عمن قتله من هو؟ فقـالوا لـه: أبـو لؤلـؤة غـلام المغيرة بن شعبة. فقال: الحمد للّه الـذي لم يجعـل منيـتي علـى يـدي رجـل يدعي الإيمان ولم يسجد للّه سجدة. ثم قال: قبحه اللّه، لقد كنـا أمرنـا بـه معروفاً ـ وكان المغيرة قد ضرب عليه في كل يوم درهمـين ثـم سـأل مـن عمر أن يزيد في خراجه فإنه نجار نقاش حداد فـزاد في خراجه إلى مائة في كل شهر ـ وقال له: لقد بلغني أنك تحسن أن تعمل رحاً تدور بالهواء فقال أبو لؤلؤة: اما واللّـه لأعملـن لـك رحـاً يتحـدث بهـا النـاس في المشـارق والمغارب ـ وكان هذا يوم الثلاثاء عشية ـ وطعنه صبيحة الأربعـاء لأربـع بقين من ذي الحجة.

وأوصى عمر أن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي رسول اللّه ﷺ وهو عنهم راض، وهم عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وعبد الرحمـن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ولم يذكر سعيد بـن زيـد بـن عمـرو بـن نفيل العدوي فيهم، لكونه من قبيلته، خشـية أن يراعـى في الإمـارة بسـببه، وأوصى من يستخلف بعده بالناس خيراً على طبقـاتهم ومراتبهـم، ومـات رضي اللّه عنه بعد ثلاث، ودفن في يوم الأحد مستهل المحرم من سنة أربـع وعشرين، بالحجرة النبوية، إلى جانب الصديق، عن إذن أم المؤمنـين عائشـة رضي اللّه عنها في ذلك، وفي ذلك اليوم حكـم أمـير المؤمنـين عثمـان بـن عفان رضي اللّه عنه.

قال الواقدي: حدثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيـه قال: طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين مـن ذي الحجـة سـنة ثـلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، فكـانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يومـاً، وبويـع لعثمـان يـوم الاثنين لثلاث مضين من المحرم. قال: فذكرت ذلك لعثمان الأخنسي فقال: ما أراك إلا وهلت. تـوفي عمـر لأربـع ليـال بقـين مـن ذي الحجـة وبويـع لعثمـان لليلـة بقيـت مـن ذي الحجـة فاسـتقبل بخلافتـه المحـرم سـنة أربـع وعشرين.

وقال أبو معشر: قتل عمر لأربع بقين من ذي الحجة تمام سنة ثـلاث وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وبويـع عثمـان بن عفان.

وقال ابن جرير [تاريخه: ١٩٤/٤]: حدثت عن هشام بن محمد قال: قتـل عمر لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فكانت خلافتـه عشـر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

وقال سيف عن خليد بن ذفرة ومجالد قالا: اسـتخلف عثمـان لثـلاث من المحرم فخرج فصلى بالناس صلاة العصر.

وقال علي بن محمـد المدائـني عـن شـريك عـن الأعمـش ـ أو جـابر الجعفي ـ عن عوف بن مالك الأشجعي وعامر بن أبي محمد عـن أشـياخ من قومه، وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري قال: طعن عمر يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة.

قال: وقال غيرهم: لستٍّ بقين من ذي الحجة. والقول الأول هو الأشهر واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

صفته رضي اللّه عنه:

كان رجلاً طوالاً أصلع أعسر أيسر أحوز العينـين، آدم اللـون، وقيـل: كان أبيض شديد البياض تعلوه حمرة، أشنب الأسنان، وكان يصفـر لحيتـه، ويرجِّل رأسه بالحناء.

واختلف في مقدار سنه يوم مات رضي اللّه عنه على أقـوال عدتهـا ـ عشرة:

فقال ابن جرير [تاريخه: ١٩٧/٤]: حدثنا زيد بن أخزم حدثنـا أبـو قتيبـة عن جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قـال: قتـل عمـر بـن الخطاب وهو ابن خمس وخمسين سنة.

ورواه الدراوردي عن عبيد اللّه عن نافع عن ابـن عمـر [تاريخ الطبري: ١٩٧/٤، من طريق الدراوردي به].

وقاله عبد الرازق [المصنف(٦٧٩١)] عن ابن جريج عن الزهري.

ورواه أحمد [تاريخ دمشق ص٤٠٢ من طريق الإمام أحمد، به] عن هشيم عن علي بن زيد عن سالم بن عبد الله بن عمر.

وعن نافع رواية أخرى ست وخمسون سنة وثالثة: تسع وخمسون.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٩٧/٤]: وقال آخرون: كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، حدثت بذلك عن هشام بن محمد.

ثم روى عن عمر الشعبي أنه توفي وله ثلاث وستون سنة.

قلت: وقد تقدم في عمر الصديق مثله. وروى عن قتادة أنه قال: توفي عمر وهو ابن إحدى وستين سنة [تاريخ الطبري: ١٩٨/٤].

وعن ابن عمر والزهري خمس وستون. وعن ابن عباس ست وستون.

وروى ابن جرير [تاريخه: ١٩٨/٤] عن أسلم مولى عمر أنه قال: توفي وهو ابن ستين سنة.

قال الواقدي: وهذا أثبت الأقاويل عندنا.

وقال المدائني: توفي عمر وهو ابن سبع وخمسين سنة.

ذكر زوجاته وأبنائه وبناته:

قال الواقدي وابن الكلبي وغيرهما: تزوج عمر في الجاهلية زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة رضي الله عنهم. وتزوج مليكة بنت جرول فولدت له عبيد الله فطلقها في الهدنة، فخلف عليها أبو الجهم بن حذيفة، قاله المدائني [تاريخ الطبري: ١٩٨/٤].

وقال الواقدي: هي أم كلثوم بنت جرول فولدت له عبيد الله وزيداً الأصغر.

قال المدائني: وتزوج قريبة بنت أبي أمية المخزومي ففارقها في الهدنة، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر.

قالوا: وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد زوجها ـ حين قتل في الشام ـ فولدت له فاطمة ثم طلقها.

قال المدائني: وقيل: لم يطلقها، قالوا: وتزوج جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح من الأوس. وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر ولما قتل عمر تزوجها بعده الزبير بن العوام رضي الله عنهم، ويقال: هي أم ابنه عياض فالله أعلم.

قال المدائني: وكان قد خطب أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق وهي صغيرة وراسل فيها عائشة فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فصده عنها ودله على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ومن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال: تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ، فخطبها من علي فزوجه إياها، فأصدقها عمر رضي الله عنه أربعين ألفاً، فولدت له زيداً ورقية.

قالوا: وتزوج لهية ـ امرأة من اليمن ـ فولدت له عبد الرحمن الأصغر، وقيل: الأوسط.

وقال الواقدي: هي أم ولد وليست بزوجة، قالوا: وكانت عنده فكيهة أم ولد فولدت له زينب.

قال الواقدي وهي أصغر ولده.

قال الواقدي: وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

قلت: فجملة أولاده رضي الله عنه وأرضاه ثلاثة عشر ولداً وهم زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وعاصم، وعبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط.

قال الزبير بن بكار: وهو أبو شحمة، وعبد الرحمن الأصغر وعبيد الله، وعياض، وحفصة، ورقية، وزينب، وفاطمة، رضي الله عنهم.

ومجموع نسائه اللاتي تزوجهن في الجاهلية والإسلام ممن طلقهن أو مات عنهن سبع، وهن جميلة أخت عاصم بن ثابت بن الأقلح، وزينب بنت مظعون، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وقريبة بنت أبي أمية، ومليكة بنت جرول، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأم كلثوم أخرى وهي مليكة بنت جرول.

وكانت له أمتان له منهما أولاد، وهما فكيهة ولهية، وقد اختلف في لهية هذه فقال بعضهم: كانت أم ولد، وقال بعضهم: كان أصلها من اليمن وتزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فالله أعلم.

ذكر بعض ما رثي به:

قال علي بن محمد المدائني: عن ابن داب وسعيد بن خالد، عن صالح بن كيسان عن المغيرة بن شعبة قال: لما مات عمر بكته ابنة أبي حثمة فقالت: واعمراه، أقام الأود وأبرأ العَمَد، أمات الفتن وأحيا السنن، خرج نقي الثوب بريئاً من العيب.

قال: فقال علي بن أبي طالب: والله لقد صدقت، ذهب بخيرها، ونجا من شرها أما والله ماقالت ولكن قُوِّلَت.

قال: وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل في زوجها عمر.

فجعني فيروز لا در دره ... بأبيض تال للكتاب منيب
رؤوف على الأدنى غليظ على العِدى ... أخي ثقة في النائبات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله ... سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت أيضاً:

عين جودي بعبرة ونحيب ... لا تملي على الإمام النجيب
فجعتني المنون بالفارس المعـ ... ـلم يوم الهياج والتلبيب
عصمة الناس والمعين على الدهـ ... ـر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل السراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوب

وقالت امرأة من المسلمين تبكيه:

سيبكيك نساء الحـ ... ـي يبكين شجيات
ويخمشن وجوهاً كالـ ... ـدنانير نقيات
ويلبسن ثياب الحـ ... ـزن بعد القصبيات

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٩٠/٤ـ٢٤١] ترجمة طويلة لعمر بن الخطاب، وكذلك أطال ابن الجوزي: في سيرته وشيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه [عهد الخلفاء ص٢٥٣ـ٢٨٤]، وقد جمعنا متفرقات كلام الناس في مجلد مفرد، وأفردنا لما أسنده وروي عنه من الأحكام مجلداً آخر كبيراً مرتباً على أبواب الفقه ولله الحمد.

[ومن أحداث هذه السنة]

وقال ابن جرير [تاريخه: ٢٤١/٤]: وفي هذه السنة توفي قتادة بن النعمان.

وفيها غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية ومعه من الصحابة عبادة بن الصامت، وأبو أيوب وأبو ذر، وشداد بن أوس.

وفيها فتح معاوية عسقلان صلحاً.

قال: فيها كان على قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة كعب بن سور.

قال: وأما مصعب الزبيري فإنه ذكر أن مالكا روى عن الزهري أن أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاض.

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في تاريخه [جزء عهد الخلفاء ص٢٤٩، ٢٥٠] في سنة ثلاث وعشرين:

فيها كانت قصة سارية بن زنيم. وفيها كان فتح كرمان وأميرها سهيل بن عدي.

وفيها فتحت سجستان، وأميرها عاصم بن عمرو.

وفيها فتحت مكران، وأميرها الحكم بن أبي العاص، أخو عثمان، وهي من بلاد الجبل.

وفيها رجع أبو موسى الأشعري من بلاد أصبهان وقد افتتح بلادها.

وفيها غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية.

ثم ذكر وفاة من مات فيها. فمنهم:

قتادة بن النعمان الأنصاري الأوسي الظفري أخو أبي سعيد الخدري لأمه، وقتادة أكبر منه، شهد بدراً وأصيبت عينه في يوم أحد حتى وقعت على خده فردها رسول الله ﷺ فصارت أحسن عينيه، وكان من الرماة المذكورين وكان على مقدمة عمر حين قدم إلى الشام توفي في هذه السنة على المشهور عن خمس وستين سنة، ونزل عمر في قبره، وقيل: إنه توفي في التي قبلها.

ثم ذكر ترجمة عمر بن الخطاب فأطال فيها وأكثر وأطنب وأطيب، وأتى بمقاصد كثيرة مهمة، وفوائد جمة، وأشياء حسنة، فأثابه الله الجنة. ثم قال:

ذكر من توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

■ الأقرع بن حابس ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي المجاشعي.

قال ابن دريد [الاشتقاق ص٢٣٩]: واسمه فراس بن حابس ولقب بالأقرع لقرع في رأسه.

وكان أحد الرؤساء، قدم على رسول الله ﷺ مع وفد بني تميم، وهو الذي نادى من وراء الحجرات: يا محمد إن مدحي زين، وذمي شين [مسند أحمد: ٤٨٨/٣]. وهو القائل - وقد رأى رسول الله ﷺ يقبل الحسن - أتقبله؟ والله إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم. فقال «من لا يرحم لا يرحم» [خ(٥٩٩٧)، م(٢٣١٨)].

وفي رواية: «ما أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك» [مسند أحمد: ٥٦/٦].

وكان ممن تألفه رسول الله ﷺ فأعطاه يوم حنين مائة من الإبل، وكذلك لعيينة بن حصن الفزاري، وأعطى عباس بن مرداس خمسين من الابل فقال:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع

فقال له رسول الله ﷺ: أنت القائل:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين الأقرع وعُيينة

رواه البخاري [٣١٥٠]

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢٨٧/٧]: إنما قدم رسول الله ﷺ ذكر الأقرع قبل عيينة لأن الأقرع كان خيراً من عيينة؛ ولهذا لم يرتد بعد النبي ﷺ كما ارتد عيينة، فبايع طليحة وصدقة ثم عاد.

والمقصود أن الأقرع كان سيداً مطاعاً، وشهد مع خالد وقائعه بأرض العراق، وكان على مقدمته يوم الأنبار. ذكره شيخنا [تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء) ص٢٨٥] فيمن توفي في خلافة عمر بن الخطاب.

والذي ذكره ابن الأثير في الغابة [١٣٠/١] أنه استعمله عبد الله بن عامر على جيش وسيره إلى الجوزجان فقتل وقتلوا جميعاً، وذلك في خلافة عثمان كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

■ حباب بن المنذر: بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة أبو عمر ويقال: أبو عمرو الأنصاري الخزرجي السلمي، ويقال له ذو الرأي لأنه أشار يوم بدر أن يتزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء يكون إلى القوم، وأن يغور ما وراءهم من القُلُب فأصاب في هذا الرأي، ونزل الملك بتصديقه.

وأما قوله يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير [خ(٢٤٦٢)، م(١٦٩١)]. فقد رده عليه الصديق والصحابة.

■ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عمّ رسول الله ﷺ: عتبة بن مسعود الهذلي، هاجر مع أخيه لأبويه، عبد الله إلى الحبشة وشهد أحداً وما بعدها.

قال الزهري: ما كان عبيد الله بأفقه منه، ولكن مات عتبة قبله.

وتوفي زمن عمر على الصحيح، ويقال في زمن معاوية سنة أربع وأربعين.

■ علقمة بن علاثة: ابن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي:

أسلم عام الفتح وشهد حنيناً وأعطي يومئذ مائة من الابل تأليفا لقلبه، وكان يكون بتهامة وكان شريفا مطاعا في قومه وقد ارتد أيام الصديق فبعث إليه سرية فانهزم ثم أسلم وحسن إسلامه، ووفد على عمر في خلافته وقدم دمشق في طلب ميراث له، ويقال: استعمله عمر على حوران فمات بها، وقد كان الحطيئة قصده ليمتدحه فمات قبل مقدمه بليال فقال:

فما كان بيني لو لقيتك سالما ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

■ علقمة بن مجزز: بن الأعور بن جعلة بن معاذ بن عتوارة بن عمرو بن مدلج الكناني المدلجي:

أحد أمراء رسول الله ﷺ على بعض السرايا وكانت فيه دعابة، فأجج ناراً وأمر أصحابه أن يدخلوا فيها فامتنعوا، فقال النبي ﷺ: «لو دخلوا فيها ما خرجوا منها» وقال: «إنما الطاعة في المعروف» [خ(٤٣٤٠)، م(١٨٤٠)]

وقد كان علقمة جوادا ممدحا رثاه جواس العذري فقال:

إن السلام وحسن كل تحية … تغدو على ابن مجزز وتروح

■ **عويم بن ساعدة:** بن عائش أبو عبد الرحمن الأنصاري الأوسي.

أحد بني عمرو بن عوف شهد العقبة وبدراً وما بعدها له حديث عند أحمد [٣/٤٢٢] وابن ماجه [١٨٦١، وحديثه في النكاح] في الاستنجاء بالماء.

قال ابن عبد البر [الاستيعاب: ٣/١٢٤٨]: توفي في حياة النبي ﷺ وقيل في خلافة عمر، وقال: وهو واقف على قبره: لا يستطيع أحد أن يقول: أنا خير من صاحب هذا القبر ما نصبت راية للنبي ﷺ إلا وهو واقف تحتها.

وقد روى هذا الأثر ابن أبي عاصم [الآحاد والمثاني(١٩٤٤)] كما أورده ابن الأثير [أسد الغابة: ٤/٣١٦] من طريقه.

■ **غيلان بن سلمة الثقفي:** أسلم عام الفتح على عشر نسوة فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً، وقد وفد قبل الإسلام على كسرى فأمره أن يبني له قصراً بالطائف، وقد سأله كسرى: أي ولدك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم، فقال له كسرى: أنى لك هذا؟ هذا كلام الحكماء! قال: فما غذاؤك؟ قال: البر. قال نعم هذا من البر لا من التمر واللبن.

■ **معمر بن الحارث:** بن معمر حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي الجمحي أخو حاطب وحطاب، أمهم قتيلة بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون:

أسلم معمر قبل دخول دار الأرقم وشهد بدراً وما بعدها وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاذ بن عفراء.

■ **ميسرة بن مسروق العبسي:** شيخ صالح قيل: إنه صحابي شهد اليرموك ودخل الروم أميراً على جيش ستة آلاف وكانت له همة عالية فقتل وسبى وغنم وذلك في سنة عشرين، وروى عن أبي عبيدة وعنه أسلم مولى عمر، لم يذكره ابن الأثير في الغابة.

■ **واقد بن عبد الله:** بن عبد مناف بن عرين الحنظلي اليربوعي حليف بني عدي بن كعب.

أسلم قبل دار الأرقم وشهد بدراً وما بعدها وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين بشر بن البراء بن معرور، وهو أول من قتل في سبيل الله عز وجل ببطن نخلة، مع عبد الله بن جحش حين قتل عمرو بن الحضرمي، توفي في خلافة عمر رضي الله عنه.

■ **أبو خراش الهذلي الشاعر:** واسمه خويلد بن مرة:

كان يسبق الخيل على قدميه، وكان فتاكا في الجاهلية، ثم أسلم وحسن إسلامه، وتوفي في زمن عمر، أتاه حجاج فذهب يأتيهم بماء فنهشته حية فرجع إليهم بالماء وأعطاهم شاة وقدراً، ولم يعلمهم بما جرى له، فأصبح فمات فدفنوه.

ذكره ابن عبد البر [الاستيعاب: ٤/١٦٣٦] وابن الأثير [أسد الغابة: ٦/٨٦] في أسماء الصحابة، والظاهر أنه ليست له وفادة، وإنما أسلم في حياة النبي ﷺ فهو مخضرم والله أعلم.

■ **أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب:** بن عمرو الأنصاري: شهد أحداً وما بعدها، إلا تبوك فإنه تخلف لعذر الفقر، وهو أحد البكائين المذكورين.

■ **سودة بنت زمعة القرشية العامرية أم المؤمنين:** أول من دخل بها رسول الله ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها، وكانت صوامة قوامة، ويقال كان في خلقها حدة، وقد كبرت فأراد رسول الله ﷺ أن يفارقها - ويقال بل فارقها - فقالت: يارسول الله لا تفارقني وأنا أجعل يومي لعائشة، فتركها رسول الله ﷺ وصالحها على ذلك. وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ الآية [النساء: ١٢٨]. قالت عائشة: نزلت في سودة بنت زمعة [ت(٣٠٤٠)]، توفيت في خلافة عمر بن الخطاب.

■ **هند بنت عتبة:** يقال: ماتت في خلافة عمر وقيل: توفيت قبل ذلك كما تقدم فالله أعلم.

ثم استهلت سنة أربع وعشرين

ففي أول يوم منها دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الأحد في قول وبعد ثلاث أيام بويع لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ

كان عمر رضي الله عنه قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر وهم عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم. وتحرج أن يجعلها إلى واحد من هؤلاء على التعيين وقال: لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً وإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ، ومن تمام ورعه لم يذكر في أهل الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل لأنه ابن عمه خشي أن يراعى فيولى لكونه ابن عمه، فلذلك تركه. وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، بل جاء في رواية المدائني عن شيوخه أنه استثناه من بينهم، وقال: لست مدخله فيهم، وقال لأهل الشورى: يحضركم عبد الله - يعني ابنه - وليس إليه من الأمر شيء؛ بل يحضر الشورى ويشير بالنصح ولا يولى شيئاً - وأوصى أن يصلي بالناس صهيب بن سنان الرومي ثلاثة أيام حتى تنقضي الشورى، وأن يجتمع أهل الشورى ويوكل بهم أناس حتى ينبرم الأمر، ووكل بهم خمسين رجلا من المسلمين وجعل عليهم مستحثاً أبا طلحة الأنصاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقد قال عمر بن الخطاب: ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحداً، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه.

قالوا: فلما مات عمر رضي الله عنه وأحضرت جنازته تبادر إليها علي وعثمان أيهما يصلي عليه، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف: لستما من هذا في شيء، إنما هذا إلى صهيب الذي أمره عمر أن يصلي بالناس. فتقدم صهيب وصلى عليه، ونزل في قبره مع ابنه عبد الله أهل الشورى سوى طلحة فإنه كان غائباً.

فلما فُرغ من شأن عمر جمعهم المقداد بن الأسود في بيت المسور بن مخرمة، وقيل في حجرة عائشة وقيل: في بيت المال، وقيل: في بيت فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس، والأول أشبه والله أعلم.

فجلسوا في البيت وقام أبو طلحة يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا من وراء الباب فحصبهما سعد بن أبي وقاص وطردهما وقال: جئتما لتقولا: حضرنا أمر الشورى! رواه المدائني عن

مشايخه والله أعلم بصحته.

والمقصود أن القوم خلصوا من الناس في بيت يتشاورون في أمرهم، فكثر القول، وعلت الأصوات وقال أبو طلحة: إني كنت أظن أن تدافعوها ولم أكن أظن أن تنافسوها، ثم صار الأمر بعد حضور طلحة إلى أن فوض ثلاثة منهم ما لهم في ذلك إلى ثلاثة، ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي، وفوض سعد ما له في ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، وترك طلحة حقه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال عبد الرحمن لعلي وعثمان: أيكما يبرأ من هذا الأمر فنفوض الأمر إليه والله عليه والإسلامُ ليولين أفضل الرجلين الباقين فأُسكت الشيخان علي وعثمان، فقال عبد الرحمن: إني أترك حقي من ذلك والله علي والإسلام أن أجتهد فأولي أولاكما بالحق، فقالا: نعم! ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاه ليعدلن ولئن ولِّيَ عليه ليسمعن وليطيعن، فقال كل منهما: نعم! ثم تفرقوا.

ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين في أفضلهم فيولّيه، فيذكر أنه سأل كلَّ من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم فلا يشير إلا بعثمان بن عفان، حتى أنه قال لعلي: أرأيت إن لم أولّك بمن تشير به عليَّ؟ قال: بعثمان. وقال لعثمان: أرأيت إن لم أولّك فمَن تشير به؟ قال: بعلي بن أبي طالب.

والظاهر أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة وينخلع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل واللهُ عليه والإسلامُ ليجتهدن في أفضل الرجلين فيوليه.

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما ويجتمع برؤوس الناس وأجنادهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرادى، ومجتمعين، سراً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشارا بعلي بن أبي طالب، ثم بايعا مع الناس على ما سنذكر. فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاءً واستخارة، وسؤالا من ذوي الرأي وغيرهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه.

فلما كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن اخته المسور بن مخرمة فقال: أنائم يا مسورا والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث، اذهب فادع لي علياً وعثمان قال المسور: فقلت: بأيهما أبدأ؟ فقال: بأيهما شئت، قال: فذهبت إلى علي فقلت: أجب خالي، فقال: أمرك أن تدعو معي أحداً؟ قلت: نعم! قال: من؟ قلت: عثمان بن عفان، قال: بأينا بدأ؟ قلت: لم يأمرني بذلك، بل قال: ادعو لي أيهما شئت أولاً، فجئت إليك. قال: فخرج معي فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس علي حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته، فقال لي كما قال لي علي سواء، ثم خرج فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي، فلما انصرف أقبل على علي وعثمان فقال: إني قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً. ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولِّيَ عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمَّمه رسول الله ﷺ، وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس عامة: الصلاةَ جامعةً، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا في أخريات الناس -وكان رجلاً حيياً رضي الله عنه - ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فقام على الدرجة التي كان يجلس عليها رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاء طويلاً، لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال: أيها الناس، أني سألتكم سراً وجهراً، مثنىً وفرادى بأمانيكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما علي وإما عثمان، فقم إلي يا علي، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللّهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده وقال: قم إلي يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللّهم نعم! قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللّهم اسمع واشهد، اللّهم اسمع واشهد، اللّهم اسمع واشهد، اللّهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان. قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، قال: فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبايعونه، وبايعه علي بن أبي طالب أولاً، ويقال: آخراً [طبقات ابن سعد: ٦٢/٣].

وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير [تاريخه: ٢٣٣/٤، ٢٣٨] وغيره عن رجال لا يُعْرَفون أن علياً قال لعبد الرحمن: خدعتني، وإنك إنما وليته لأنه صهرك وليشاورك كل يوم في شأنه، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ١٠] إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائليها وناقليها والله أعلم.

والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الجهلة الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها، وشاذها وقويمها، والله الموفق للصواب.

وقد اختلف علماء السير في اليوم الذي بويع فيه لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فروى الواقدي عن شيوخه أنه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين [طبقات ابن سعد: ٦٣/٣].

وهذا غريب جداً.

وقد روى الواقدي أيضاً عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة قال: بويع لعثمان بن عفان لعشر خلون من المحرم بعد مقتل عمر بثلاث ليال.

وهذا أغرب من الذي قبله. وقال سيف عن خليد بن ذفرة ومجالد قالا: استخلف عثمان لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين، وكذا روى سيف بن عمر عن عامر الشعبي أنه قال: اجتمع أهل الشورى على عثمان لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين، وقد دخل وقت العصر وقد أذن مؤذن صهيب، واجتمع الناس بين الأذان والإقامة فخرج فصلى بهم العصر، وزاد الناس - يعني في أعطياتهم - مائة، ووفد أهل الأمصار، وهو أول من صنع ذلك.

قلت: ظاهر ما ذكرناه من سياق بيعته يقتضي أن ذلك كان قبل الزوال، لكنه لما بايعه الناس في المسجد ذهب به إلى دار الشورى على ما تقدم فيها من الخلاف، فبايعه بقية الناس، وكأنه لم يتم البيعة إلا بعد الظهر وصلى صهيب يومئذ الظهر في المسجد النبوي وكان أول صلاة صلاها الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالمسلمين صلاة العصر، كما ذكره

الشعبي وغيره.

وأما أول خطبة خطبها بالمسلمين فروى سيف بن عمر عن بدر بن عثمان عن عمه قال: لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر النبي ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال: إنكم في دار قُلعة وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم، الا وإن الدنيا طويت على الغرور ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّـهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا. اين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا، والذي هو خير فقال تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا. الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦] قال: وأقبل الناس يبايعونه.

قلت: وهذه الخطبة إما بعد صلاة العصر يومئذ أو قبل الزوال وعبد الرحمن بن عوف جالس في رأس المنبر وهو الأشبه والله أعلم.

وما يذكره بعض الناس من أن عثمان لما خطب أول خطبة أُرتجَ عليه فلم يدر ما يقول حتى قال: أيها الناس، إن أول مركب صعب، وإن أعش فستأتيكم الخطبة على وجهها. فهو شيء يذكره صاحب العقد [العقد الفريد: ٤/٦٦] وغيره، ممن يذكر طرف الفوائد، ولكن لم أر هذا بإسناد تسكن النفس إليه والله أعلم.

وأما قول الشعبي إنه زاد الناس مائة ـ يعني في عطاء كل واحد من جند المسلمين ـ زاده على ما فرض له عمر مائة درهم من بيت المال وكان عمر قد جعل لكل نفس من المسلمين في كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال يفطر عليه، ولأمهات المؤمنين درهمين درهمين فلما ولي عثمان أقر ذلك وزاده، واتخذ سماطاً في المسجد أيضاً للمتعبدين، والمعتكفين، وأبناء السبيل، والفقراء، والمساكين، رضي الله عنه.

وقد كان أبو بكر إذا خطب يقوم على الدرجة التي تحت الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يقف عليها، فلما ولي عمر نزل درجة أخرى عن درجة أبي بكر رضي الله عنهما، فلما ولي عثمان قال: إن هذا يطول فصعد إلى الدرجة إلى كان يخطب عليها رسول الله ﷺ وزاد الأذان الأول يوم الجمعة، قبل الأذان الذي كان يؤذن به بين يدي رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر.

وأما أول حكومة حكم فيها فقضية عبيد الله بن عمر، وذلك أنه غدا على ابنة أبي لؤلؤة قاتل عمر فقتلها، وضرب رجلا نصرانياً يقال له جفينة بالسيف فقتله، وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تستر فقتله، وكان قد قيل: إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر فالله أعلم.

وقد كان عمر قد أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولي عثمان وجلس للناس كان أول ما تحوكم إليه في شأن عبيد الله، فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله، وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك، قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك، فودى عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله، لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال، والإمام يرى الأصلح في ذلك، وخلى سبيل عبيد الله.

قالوا: فكان زياد بن لبيد البياضي إذا رأى عبيد الله بن عمر يقول:

ألا يا عبيد الله ما لك مهرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبت دماً والله في غير حله ... حراماً وقتل الهرمزان له خطر

على غير شيء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عمر

فقال سفيه والحوادث جمة نعم ... أتهمه قد أشار وقد أمر

وكان سلاح العبد في جوف بيته ... يقلبها والأمر بالأمر يعتبر

قال: فشكا عبيد الله زياداً إلى عثمان فاستدعى عثمان زياد بن لبيد فأنشأ زياد يقول في عثمان:

أبا عمرو عبيد الله رهن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان

فإنك إن غفرت الجرم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان

أتعفو إذ عفوت بغير حق ... فما لك بالذي يخلى يدان

قال: فنهاه عثمان عن ذلك وزبره فسكت زياد بن لبيد عما يقول.

ثم كتب عثمان بن عفان إلى عماله على الأمصار أمراء الحرب، والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ويحرضهم على الاتباع وترك الابتداع.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/٢٤٠]: وفي هذه السنة عزل عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص فكان أول عامل ولاه، لأن عمر قال: فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك، وإلا فليستعن به أيكم ولي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة. فاستعمل سعداً عليها سنة وبعض أخرى.

ثم رواه ابن جرير [تاريخه: ٤/٢٤٤] من طريق سيف عن مجالد عن الشعبي.

وقال الواقدي فيما ذكره عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر أوصى أن تقر عماله سنة، فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ثم عزله واستعمل سعداً ثم عزله وولي الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

قال ابن جرير: فعلى ما ذكره الواقدي تكون ولاية سعد على الكوفة سنة خمس وعشرين.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/٢٤٦]: وفي هذه السنة ـ أعني سنة أربع وعشرين ـ غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية حين منع أهلها ما كانوا صولحوا عليه في أيام عمر بن الخطاب.

وهذا في رواية أبي مخنف، وأما في رواية غيره فإن ذلك كان في سنة ست وعشرين.

ثم ذكر ابن جرير: ههنا هذه الوقعة وملخصها.

أن الوليد بن عقبة سار بجيش الكوفة نحو أذربيجان وأرمينية، حين نقضوا العهد فوطىء بلادهم وأغار بأراضي تلك الناحية فغنم وسبى وأخذ اموالا جزيلة فلما أيقنوا بالهلكة صالحهم أهلها على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان ثمانمائة ألف درهم في كل سنة فقبض منهم جزية سنة ثم رجع سالما غانما إلى الكوفة، فمر بالموصل وجاءه كتاب عثمان وهو بها يأمره أن يمد أهل الشام على حرب أهل الروم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/٢٤٧]: وفي هذه السنة جاشت الروم حتى خاف أهل الشام وبعثوا إلى عثمان رضي الله عنه يستمدونه فكتب إلى الوليد بن عقبة: أن إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلا أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم بالشام.

فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين وندب الناس وحثهم على الجهاد ومعاونة معاوية وأهل الشام، وأمَّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف فبعثهم إلى الشام وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري، فلما اجتمع الجيشان شنوا الغارات على بلاد الروم فغنموا وسبوا سبياً شيئاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة ولله الحمد.

وزعم الواقدي أن الذي أمد أهل الشام بسلمان بن ربيعة إنما هو سعيد بن العاص عن كتاب عثمان رضي الله عنه فبعث سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة بستة آلاف فارس حتى انتهى إلى حبيب بن مسلمة وقد أقبل إليه الموريان الرومي في ثمانين ألفاً من الروم والترك، وكان حبيب بن مسلمة شجاعاً شهماً فعزم على أن يبيت جيش الروم فسمعته امرأته يقول للأمراء ذلك فقالت له: فأين موعدي معك - تعني أين أجتمع بك غداً - فقال لها: موعدك سرادق الموريان أو الجنة، ثم نهض إليهم في الليل بمن معه من المسلمين فقتل مَن أشرف له وسبقته امرأته إلى سرادق الموريان فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق وقد مات عنها حبيب بن مسلمة بعد ذلك، فخلف عليها بعده الضحاك بن قيس الفهري، فهي أم ولده.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٤٩/٤]: واختلف فيمن حج بالناس في هذه السنة.

فقال الواقدي وأبو معشر: حج بهم عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان.

وقال آخرون: حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه.

والأول هو الأشهر فإن عثمان لم يتمكن من الحج في هذه السنة لأجل رعاف أصابه مع الناس في هذه السنة حتى خشي عليه وكان يقال لهذه السنة سنة الرعاف.

وفيها افتتح أبو موسى الأشعري الري بعدما نقضوا العهد الذي كان واثقهم عليه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

وفيها توفي

■ سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ويكنى بأبي سفيان، كان ينزل قديداً وهو الذي اتبع رسول الله ﷺ وأبا بكر وعامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط الديلي حين خرجوا من غار ثور قاصدين المدينة فأراد أن يردهم على أهل مكة لما جعلوا في كل واحد من النبي ﷺ وأبي بكر مائة من الإبل، فطمع أن يفوز بهذا الجعل فلم يسلطه الله عليهم، بل لما اقترب منهم وسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ساخت قوائم فرسه في الأرض حتى ناداهم بالأمان، فأعطوه الأمان، وكتب له أبو بكر كتاب أمان عن إذن رسول الله ﷺ، ثم قدم به بعد غزوة الطائف فأسلم وأكرمه النبي ﷺ وهو القائل: يارسول الله أعمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال له: «بل لأبد الأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» [م(١٢١٨)(١٤٧)].

ثم دخلت سنة خمس وعشرين

فيها نقض أهل إسكندرية العهد، وذلك أن ملك الروم بعث إليهم مانويل الخصي في مراكب من البحر فطمعوا في النصرة ونقضوا ذمتهم، فغزاهم عمرو بن العاص في ربيع الأول فيها، فافتتح الأرض عنوة وافتتح المدينة صلحاً.

وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفيها في قول سيف عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط مكانه، فكان هذا مما نقم على عثمان.

وفيها وجه عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو بلاد المغرب، واستأذنه ابن أبي سرح في غزو إفريقية فأذن له.

ويقال: فيها أيضاً عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وقيل: بل كان هذا في سنة سبع وعشرين كما سيأتي والله أعلم.

وفيها فتح معاوية الحصون.

وفيها ولد ابنه يزيد بن معاوية.

ثم دخلت سنة ست وعشرين

قال الواقدي: فيها أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرم.

وفيها وسع المسجد الحرام.

وفيها عزل سعداً عن الكوفة وولّى الوليد بن عقبة.

وكان سبب عزل سعد أنه اقترض من ابن مسعود مالاً من بيت المال، فلما تقاضاه به ابن مسعود لم يتيسر قضاؤه تقاولا، وجرت بينهما خصومة شديدة، فغضب عليهما عثمان فعزل سعداً واستعمل الوليد بن عقبة - وكان عاملاً لعمر على عرب الجزيرة - فلما قدمها أقبل عليه أهلها فأقام بها خمس سنين وليس على داره باب، وكان فيه رفق برعيته.

قال الواقدي: وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقال غيره: وفيها افتتح عثمان بن أبي العاص سابور صلحاً على ثلاثة آلاف ألف وثلاثمائة ألف.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين

قال الواقدي وأبو معشر: وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وكان أخا عثمان لأمه - وهو الذي شفع له يوم الفتح حين كان أهدر رسول الله ﷺ دمه وكان يكتب الوحي، ثم ارتدّ عن الإسلام، فأباح دمه يوم الفتح، وهذا أيضاً مما نُقم على عثمان.

غزوة إفريقية

أمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يغزو بلاد إفريقية فإذا فتحها الله عليه فله خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، فسار إليها في عشرة آلاف فافتتحها سهلها وجبلها، وقتل خلقاً كثيراً من أهلها، ثم اجتمعوا على الطاعة والإسلام، وحسن إسلامهم، وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس من الغنيمة وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان، وقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش، فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار.

قال الواقدي: وصالحه بطريقها على ألفي ألف دينار وخمس مئة ألف دينار وعشرين ألف دينار، فأطلقها كلها عثمان في يوم واحد لآل الحكم ويقال: لآل مروان.

غزوة الأندلس

لما افتتحت إفريقية بعث عثمان عبد اللّه بن نافع بن الحصين وعبد قيس من فورهما إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان والسلام.

قال: فساروا إليها فافتتحوها وللّه الحمد والمنة

وقعة جرجير والبربر مع المسلمين

لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفا إفريقية، وعليهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، وفي جيشه عبد اللّه بن عمر وعبد اللّه بن عمرو بن العاص، وعبد اللّه بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل: في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، قال عبد اللّه بن الزبير: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان قال: فأمر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه - وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك - فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففر على برذونه، فلحقته فطعنته برمحي، وذففت عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالا كثيرة، وسبياً عظيما، وذلك ببلد يقال له سبيطلة - على يومين من القيروان - فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد اللّه بن الزبير رضي اللّه عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين.

قال الواقدي: وفي هذه السنة افتتحت إصطخر ثانية على يدي عثمان بن أبي العاص.

وفيها غزا معاوية قنسرين.

وفيها حج بالناس عثمان بن عفان.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٥٨/٤] قال بعضهم: وفي هذه السنة غزا معاوية قبرص.

وقال الواقدي: كان ذلك في سنة ثمان وعشرين.

وقال أبو معشر: غزاها معاوية سنة ثلاث وثلاثين فاللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين

فتح قبرس ففيها ذكر ابن جرير [تاريخه: ٢٥٨/٤] فتح قبرس تبعاً للواقدي، وهي جزيرة غربي بلاد الشام في البحر، مخلصة وحدها، ولها ذنب مستطيل إلى نحو الساحل مما يلي دمشق، وغربيها أعرضها، وفيها فواكه كثيرة، ومعادن، وهي بلد جيد،وكان فتحها على يدي معاوية بن أبي سفيان، ركب إليها في جيش كثيف من المسلمين ومعه عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان التي تقدم حديثها في ذلك حين نام رسول اللّه ﷺ في بيتها ثم استيقظ يضحك فقالت: ما أضحكك يا رسول اللّه فقال: «أناس من أمتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة». فقالت: يارسول ادع اللّه أن يجعلني منهم. فقال: «أنت منهم» ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال مثل ذلك فقالت: ادع اللّه أن يجعلني منهم فقال: «أنت من الأولين» [خ(٢٧٧٨)، م(١٩١٢)] فكانت في هذه الغزوة وماتت بها وكانت الثانية عبارة عن غزوة قسطنطينية بعد هذا كما سنذكره.

والمقصود أن معاوية ركب البحر في مراكب فقصد الجزيرة المعروفة بقبرس ومعه جيش عظيم من المسلمين، وذلك بأمر عثمان بن عفان رضي اللّه عنه له في ذلك بعد سؤاله إياه، وقد كان سأل في ذلك عمر بن الخطاب فأبى أن يمكنه من حمل المسلمين على هذا الخَلْق العظيم الذي لو اضطرب لهلكوا عن آخرهم، فلما كان عثمان ألحَّ معاوية عليه في ذلك فأذن له فركب في المراكب فانتهى إليها، ووافاه عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح إليها من الجانب الآخر، فالتقيا على أهلها فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا سبايا كثيرة، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً، ولما جيء بالأساري جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز اللّه فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر اللّه صيرهم إلى ما ترى، سلط اللّه عليهم السِّباء، وإذا سلُط على قوم السِّباء فليس للّه فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على اللّه تعالى إذا تركوا أمره؟! ثم صالحهم معاوية على سبعة آلاف دينار في كل سنة وهادنهم، فلما أرادوا الخروج منها قدمت لأم حرام بغلة لتركبها فسقطت عنها فاندقت عنقها فماتت هناك فقبرها هنالك يعظمونه ويستسقون به ويقولون: قبر المرأة الصالحة.

قال الواقدي: وفي هذه السنة غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم.

وتزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية - وكانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها.

وفيها بنى عثمان داره بالمدينة الزوراء.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّه عنه

ثم دخلت سنة تسع وعشرين

فيها عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعري عن البصرة، بعد عمالة ست سنين وقيل ثلاث، وأمر عليها عبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وهو ابن خال عثمان بن عفان، وجمع له بين جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص وله من العمر خمس وعشرون سنة، فأقام بها ست سنين.

وفي هذه السنة افتتح عبد اللّه بن عامر فارس في قول الواقدي وأبي معشر. وزعم سيف أنه كان قبل هذه السنة فاللّه أعلم.

وفيها وسع عثمان بن عفان مسجد النبي ﷺ وبناه بالقصَّة - وهي الكلس- كان يؤتى به من بطن نخل والحجارة المنقوشة وجعل عمده حجارة مرصَّصة، وسقوفه بالساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة، على ما كانت عليه في زمان عمر بن الخطاب، ابتدأ بناءه في ربيع الأول منها.

وفيها حج بالناس عثمان بن عفان، وضرب له بمنى فسطاطاً فكان أول فسطاط ضربه عثمان بمنى، وأتم الصلاة عامه هذا، فأنكر ذلك عليه

غير واحد من الصحابة، كعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد اللّه بن مسعود. حتى قال ابن مسعود: ليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان [خ(١٠٨٤)، م(٦٩٥)].

وقد ناظره عبد الرحمن بن عوف فيما فعله:

فروى ابن جرير [تاريخه: ٢٦٨/٤] أنه قال: تأهلت بمكة، فقال له: ولك أهل بالمدينة وإنك تقوم حيث أهلك بالمدينة. قال: وإن لي مالاً بالطائف أريد أن أطّلعه بعد الصَّدَر، قال: إن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث،فقال: وإن طائفة من أهل اليمن قالوا: إن الصلاة بالحضر ركعتان فربما رأوني أصلي ركعتين فيحتجون بي، فقال له: قد كان رسول اللّه ﷺ ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، وكان يصلي ههنا ركعتين، وكان أبو بكر يصلي ههنا ركعتين، وكذلك عمر بن الخطاب، وصليت أنت ركعتين صدراً من إمارتك، قال: فسكت عثمان ثم قال: إنما هو رأي رأيته.

سنة ثلاثين من الهجرة النبوية

فيها افتتح سعيد بن العاص طبرستان في قول الواقدي وأبي معشر والمدائني، وقال: هو أول من غزاها [تاريخ الطبري: ٢٦٩/٤].

وزعم سيف أنهم كانوا صالحوا سويد بن مقرن قبل ذلك على أن لا يغزوها على مال بذله له أصبهبذها [تاريخ الطبري: ٢٦٩/٤] فاللّه أعلم.

فذكر المدائني أن سعيد بن العاص ركب في جيش فيه الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة، وحذيفة بن اليمان، في خلق من الصحابة فسار بهم فمر على بلدان شتى فصالحوه على أموال جزيلة، حتى انتهى إلى بلد بمعاملة جرجان، تسمّى طَميسة على ساحل البحر فقاتلوه حتى احتاجوا إلى صلاة الخوف فسأل حذيفة: كيف صلى رسول اللّه ﷺ؟ فأخبره فصلى كما أخبره، ثم سأله أهل ذلك الحصن الأمان، فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلا واحداً ففتحوا الحصن فقتلهم إلا رجلا واحداً، واحتوى على ما كان في الحصن، فأصاب رجل من بني نهد سفطاً مقفولاً فاستدعي به سعيد؟ ففتحوه فإذا فيه خرقة سوداء مدرجة فنشروها، فإذا فيها خرقة حمراء فنشروها، فإذا داخلها خرقة صفراء، وفيها أيران كميت وورد. فقال شاعر يهجو بهما بني نهد.

آب الكـرامُ بالسـبايا غنيمـة ... وفـازَ بنـو نهـد بـأيرين في سـفط
كُميـت وورد وافريـن كلاهمـا ... فظنوهما غُنماً فناهيكَ مـن غلـط

قالوا: ثم نقض أهل جرجان ما كان صالحهم عليه سعيد بن العاص، وامتنعوا عن أداء المال الذي ضربه عليهم ـ وكان مائة ألف دينار وقيل: مائتي ألف دينار وقيل: ثلاثمائة ألف دينار ـ ثم ردّه عليهم يزيد بن المهلب بعد ذلك كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

وفي هذه السنة عزل عثمان بن عفان الوليد بن عقبة عن الكوفة، وولى عليها سعيد بن العاص وكان سبب عزله أنه صلى بأهل الكوفة الصبح أربعاً ثم التفت فقال: أزيدكم؟ فقال قائل: ما زلنا منك منذ اليوم في زيادة. ثم إنه تصدى له جماعة يقال: كان بينهم وبينه شنآن، فشكوه إلى عثمان، وشهد بعضهم عليه أنه شرب الخمر وشهد آخر أنه رآه يتقايؤها، فأمر عثمان بإحضاره وأمر بجلده، فيقال: إن علياً نزع عنه حلته، وأن سعيد بن العاص جلده بين يدي عثمان بن عفان، وعزله وأمر مكانه على الكوفة سعيد بن العاص

وفي هذه السنة سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان في بئر أريس، وهي على ميلين من المدينة، وهي من أقل الآبار ماء، فلم يدرك خبره بعد بذل مال جزيل، والاجتهاد في طلبه، حتى الساعة، فاستخلف عثمان بعده خاتماً من فضة، ونقش عليه محمد رسول اللّه، فلما قتل عثمان ذهب الخاتم فلم يدر من أخذه.

وقد روى ابن جرير [تاريخه: ٢٨١/٤ـ٢٨٣] ها هنا حديثاً طويلا في اتخاذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب، ثم من فضة، وبعثه عمر بن الخطاب إلى كسرى، ثم دحية إلى قيصر، وأن الخاتم الذي كان في يد النبي ﷺ ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان ست سنين، ثم إنه وقع في بئر أريس، وقد تقدم بعض هذا في الصحيح [خ(٥٨٦٦)، م(٢٠٩١) من حديث ابن عمر].

وفي هذه السنة وقع بين معاوية وأبي ذر بالشام، وذلك أن أبا ذر أنكر على معاوية بعض الأمور، وكان ينكر على من يقتني مالا من الأغنياء ويمنع أن يدخر فوق القوت، ويوجب أن يتصدق بالفضل، ويتأول قول اللّه سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] فينهاه معاوية عن إشاعة ذلك فلا يمتنع، فبعث يشكوه إلى عثمان، فكتب عثمان إلى أبي ذر أن يقدم عليه المدينة، فقدمها فلامه عثمان على بعض ما صدر منه، واسترجعه فلم يرجع فأمره بالمقام بالربذة ـ وهي شرقي المدينة ـ ويقال: إنه سأل عثمان أن يقيم بها وقال: إن رسول اللّه ﷺ قال لي: «إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج منها» وقد بلغ البناء سلعاً [المستدرك: ٣٤٤/٣]، فأذن له عثمان بالمقام بالربذة وأمره أن يتعاهد المدينة في بعض الأحيان حتى لا يرتد أعرابياً بعد هجرته، ففعل فلم يزل مقيماً بها حتى مات على ما سنذكره رضي اللّه عنه.

وفي هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء.

من توفي في هذه السنة

وممن ذكر شيخنا أبو عبد اللّه الذهبي [تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء) ص٣٣٣] أنه توفي في هذه السنة أعني سنة ثلاثين: أبي بن كعب فيما صححه الواقدي.

■ جبّار بن صخر بن أمية بن خنساء، أبو عبد اللّه الأنصاري: عقبي بدري، وقد بعثه رسول اللّه ﷺ إلى خيبر خارصاً، وقد توفي عن ستين سنة.

■ حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير اللخمي: حليف بني أسد بن عبد العزى، شهد بدراً وما بعدها، وهو الذي كان كتب إلى المشركين يعلمهم بعزم رسول اللّه ﷺ على فتح مكة، فعذره رسول اللّه ﷺ بما اعتذر به ثم بعثه بعد ذلك برسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية.

■ الطفيل بن الحارث ابن المطلب أخو عبيدة وحصين: شهد بدراً. قال سعيد بن عُفير: توفي في هذه السنة.

■ عبد اللّه بن كعب بن عمرو المازني أبو الحارث: وقيل: أبو يحيى الأنصاري، شهد بدراً وكان على الخمس يومئذ.

■ عبد اللّه بن مظعون أخو عثمان بن مظعون: هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً.

■ عياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال أبو سعيد القرشي الفهري: شهد بدراً وما بعدها.

■ مسعود بن ربيعة وقيل: ابن الربيع: أبو عمرو القاري شهد بدراً وما بعدها. توفي عن نيف وستين سنة.

■ معمر بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال القرشي: أبو سعد الفهري، وقيل: اسمه عمرو، بدري قديم الصحبة.

■ أبو أُسَيد مالك بن ربيعة: قال الفلاس: مات في هذه السنة والأصح أنه مات سنة أربعين، وقيل: سنة ستين فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين

ففيها كانت غزوة الصواري، وغزوة الأساودة في البحر فيما ذكره الواقدي [تاريخ الطبري: ٤/٢٨٨].

وقال أبو معشر: كانت غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين [تاريخ الطبري: ٤/٢٨٨].

وملخص ذلك فيما ذكره الواقدي وسيف وغيرهما أن الشام كان قد جُمع نيابتُه لمعاوية بن أبي سفيان لسنتين مضتا من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أحرزه غاية الحفظ وحمى حوزته ومع هذا له في كل سنة غزوة في بلاد الروم في زمن الصيف، - ولهذا يسمون هذه الغزوة الصائفة - فيقتلون خلقاً، ويأسرون آخرين، ويفتحون حصوناً ويغنمون أموالاً ويرعبون الأعداء.

فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصاب من الفرنج والبربر، ببلاد إفريقية والأندلس، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لم ير مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمائة مركب، وقصدوا عبد الله بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد الغرب.

فلما تراءى الجمعان بات الروم يُقَسْقِسون ويصلِّبون، وبات المسلمون يقرؤون ويصلُّون، فلما أصبحوا صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن.

قال بعض من حضر ذلك: فاقبلوا إلينا في أمر لم ير مثله من كثرة المراكب، وعقدوا صواريها وكانت الريح لهم وعلينا، فأرسينا ثم سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجل منا ومنكم، قال: فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء، قال: فدنونا منهم وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشر كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه - وقد قلُّوا جداً - وبه جراحات شديدة كثيرة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً.

قال الواقدي: فحدثني معمر عن الزهري قال: كان في هذه الغزوة محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، فأظهرا عيب عثمان وما غيَّر وما خالف أبا بكر وعمر، ويقولان: دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد - وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله ﷺ دمه - وأخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان، ونزع الصحابة واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدو فكانا أنكل المسلمين قتالاً، فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكِّمه؟ فأرسل إليهما عبد الله بن سعد فنهاهما أشد النهي وقال: والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما [تاريخ الطبري: ٤/٢٩٢].

قال الواقدي: وفي هذه السنة فتحت إرمينية على يدي حبيب بن مسلمة.

وفي هذه السنة قتل كسرى ملك الفرس.

كيفية قتل كسرى ملك الفرس وهو يزدَجرد

قال ابن إسحاق: هرب يزدجرد من كرمان في جماعة يسيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستنصرونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحية على شط، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله [تاريخ الطبري: ٤/٢٩٢، ٢٩٣].

وقال المدائني: لما هرب بعد قتل أصحابه انطلق ماشياً وعليه تاجه ومنطقته وسيفه، فانتهى إلى منزل هذا الرجل الذي ينقر الأرحية فجلس عنده فاستغفله وقتله وأخذ ما كان عليه، وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى إصطخر، وقد كان يزدجرد وطىء امرأة من أهل مرو قبل أن يقتل فحملت منه ووضعت بعد قتله غلاماً ذاهب الشق وسمي ذلك الغلام المخدج، وكان له نسل وعقب في خراسان، وقد سبى قتيبة بن مسلم في بعض غزواته بتلك البلاد جاريتين من نسله: فبعث بإحداهما إلى الحجاج، فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك فولدت له ابنه يزيد بن الوليد الملقب بالناقص [تاريخ الطبري: ٤/٢٩٣].

وقال المدائني في رواية عن بعض شيوخه: إن يزدجرد لما انهزم عنه أصحابه عُقر جواده وذهب ماشياً حتى دخل رحىً على شط نهر يقال له المُرْغاب فمكث فيه ليلتين والعدو في طلبه فلم يدر أين هو، ثم جاء صاحب الرحى فرأى كسرى وعليه أبهته، فقال له: ما أنت؟ إنسي أم جني؟ قال: إنسي، فهل عندك طعام؟ قال: نعم، فأتاه بطعام فقال: إني مزمزم فأتني بما أزمزم به، قال: فذهب الطحان إلى أسوار من الأساورة فطلب منه ما يزمزم به، قال: وما تصنع به؟ قال: عندي رجل لم أر مثله قط وقد طلب مني هذا، فذهب به الأسوار إلى ملك البلد - مرو - واسمه ماهويه بن باباه، فاخبره خبره، فقال: هو يزدجرد، اذهبوا فجيئوني برأسه، فذهبوا مع الطحان فلما دنوا من دار الرحى هابوا أن يقتلوه وتدافعوا وقالوا للطحان: ادخل أنت فاقتله. فدخل فوجده نائماً فأخذ حجراً فشدخ به رأسه ثم احتزه فدفعه إليهم وألقى جسده في النهر، فخرجت العامة إلى الطحان فقتلوه، وخرج أسقف فأخذ جسده من النهر وجعله في تابوت وحمله إلى إصطخر فوضعه في ناووس [تاريخ الطبري: ٤/٢٩٤].

ويروى أنه مكث في منزل ذلك الطحان ثلاثة أيام لا يأكل حتى رق له وقال له: ويحك يا مسكين الا تأكل؟ وأتاه بطعام فقال: إني لا أستطيع أن آكل إلا بزمزمة، فقال له: كل وانا ازمزم لك، فسأل أن يأتيه بمزمزم، فلما ذهب يطلب له من بعض الأساورة شموا رائحة المسك من ذلك الرجل، فأنكروا رائحة المسك منه فسألوه فأخبرهم فقال: إن عندي رجلاً من

صفته كيت وكيت، فعرفوه وقصدوه مع الطحان وتقدم الطحان فدخل عليه وهم بالقبض عليه فعرف يزدجرد ذلك فقال له: ويحك خذ خاتمي وسواري ومنطقتي ودعني أذهب من هاهنا، فقال: لا، اعطني أربعة دراهم وأنا أطلقك، فزاده إحدى قرطيه من أذنه فلم يقبل حتى يعطيه أربعة دراهم، فهم في ذلك إذ دهمهم الجند فلما أحاطوا به أرادوا قتله قال: ويحكم لا تقتلوني فإنا نجد في كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلوني واذهبوا بي إلى الملك أو إلى العرب، فإنهم يستحيون من قتل الملوك، فأبوا عليه ذلك فسلبوه ما كان عليه من الحلي فجعلوه في جراب وخنقوه بوتر وألقوه في النهر فتعلق بعود فأخذه أسقف - واسمه إيليا - فحن عليه لما كان من أسلافه من الإحسان إلى النصارى الذين كانوا ببلادهم، فوضعه في تابوت ودفنه في ناووس، ثم حمل ما كان عليه من الحلي إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ففقد قرط من حليه فبعث إلى دهقان تلك البلاد فأغرمه ذلك.

وكان ملك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة، وباقي ذلك هارباً من بلد إلى بلد، خوفاً من الإسلام وأهله، وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق، لقول رسول الله ﷺ: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» رواه البخاري [٣٦١٨]. وثبت في الحديث الصحيح [خ(٦٤)] أنه لما جاء كتاب النبي ﷺ مزقه، فدعا عليه النبي ﷺ أن يمزق كل ممزق. فوقع الأمر كذلك.

وفي هذه السنة فتح ابن عامر فتوحات كثيرة كان قد نقض أهلها ما كان لهم من الصلح، فمن ذلك ما فتح عنوة، ومن ذلك ما فتح صلحاً، فكان في جملة ما صالح عليه بعض المدائن - وهي مرو - على ألفي ألف ومائتي ألف، وقيل: على ستة آلاف ألف ومئتي ألف.

وفي هذه السنة حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين

وفيها غزا معاوية بلاد الروم حتى بلغ المضيق - مضيق القسطنطينية - ومعه زوجته عاتكة ويقال فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف. قاله أبو معشر والواقدي [تاريخ الطبري: ٣٠٤/٤].

وفيها استعمل سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة على جيش وأمره أن يغزو الباب، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة نائب تلك الناحية بمساعدته، فسار حتى بلغ بلنجر فحصروها ونصبت عليها المجانيق والعرادات. ثم إن أهل بلنجر خرجوا إليهم وعاونهم الترك فاقتتلوا قتالا شديداً - وكانت الترك تهاب قتال المسلمين، ويظنون أنهم لا يموتون - حتى اجترؤوا عليهم بعد ذلك، فلما كان هذا اليوم التقوا معهم فاقتتلوا، فقتل يومئذ عبد الرحمن بن ربيعة - وكان يقال له ذو النور - وانهزم المسلمون فافترقوا فرقتين، ففرقة ذهبت على بلاد الخزر. وفرقة سلكوا ناحية جيلان وجرجان، وفي هؤلاء أبو هريرة وسلمان الفارسي. وأخذت الترك جسد عبد الرحمن بن ربيعة - وكان من سادات المسلمين وشجعانهم - فدفنوه في بلادهم فهم يستسقون عنده إلى اليوم. ولما قتل عبد الرحمن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص على ذلك الجيش سلمان بن ربيعة، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتنازع حبيب وسلمان في الإمرة حتى اختلفا، فكان أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام، حتى قال في ذلك رجل من أهل الكوفة وهو أوس:

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أمير في الكتائب مقبلُ

ونحن ولاة الثغر كنا حماته ... ليالي نرمي كلَّ ثغر وننكل

وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ والطلقان والفارياب والجوزجان وطخارستان فأما مرو الروذ فبعث إليهم أبو عامر الأحنف بن قيس فحصرها فخرجوا إليه فقاتلهم حتى كسرهم فاضطرهم إلى حصنهم، ثم صالحوه على مال جزيل وعلى أن يضرب على أراضي الرعية الخراج، ويدع الأرض التي كان أقطعها كسرى لوالد المرزبان، صاحب مرو، حين قتل الحية التي كانت تقطع الطريق على الناس وتأكلهم، فصالحهم الأحنف على ذلك، وكتب لهم كتاب صلح بذلك.

ثم بعث الأحنف الأقرع بن حابس إلى الجوزجان ففتحها بعد قتال وقع بينهم، قتل فيه خلق من شجعان المسلمين، ثم نصروا فقال في ذلك كثير النهشلي قصيدة طويلة فيها:

سقى مزنُ السحاب إذا استهلّتْ ... مصارع فتيةٍ بالجوزجانِ

إلى القصرين من رستاقِ خوطٍ ... أبادهمُ هناكَ الأقرعانِ

ثم سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصرهم حتى صالحوه على اربعمائة ألف، واستناب ابن عمه أسيد بن المتشمّس على قبض المال، ثم ارتحل يريد الجهاد، وداهمه الشتاء فقال لأصحابه: ما تشاؤون؟ فقالوا: قد قال عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ ... وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ

فأمر الأحنف بالرحيل إلى بلخ فأقام بها مدة الشتاء، ثم عاد إلى ابن عامر فقيل لابن عامر: ما فتح على أحد ما فتح عليك، فارس وكرمان وسجستان وعامّة خراسان، فقال: لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك ان احرم بعمرة من موقفي هذا مشمراً فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان لامه على إحرامه من خراسان.

وفيها أقبل قارن في أربعين ألفاً فالتقاه عبد الله بن خازم في أربعة آلاف، وجعل لهم مقدمة ستمائة رجل، وأمر كل واحد منهم أن يحمل على رأس رمحه ناراً، وأقبلوا إليهم في وسط الليل فبيتوهم فثاروا إليهم فناوشتهم المقدمة فاشتغلوا بهم، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين فالْتَقَوْا هم وإياهم، فولى المشركون مدبرين، وأتبعهم المسلمون يقتلون من شاؤوا كيف شاؤوا. وغنموا سبيا كثيراً وأموالا جزيلة، ثم بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر، فرضي عنه وأقره على خراسان - وكان قد عزله عنها - فاستمر بها عبد الله بن خازم إلى ما بعد ذلك.

ذكر من توفي من الأعيان في هذه السنة

■ العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الفضل المكي عم رسول الله ﷺ، ووالد الخلفاء العباسيين، وكان أسن من رسول الله ﷺ بسنتين أو ثلاث، أسر يوم بدر فافتدى نفسه بمال، وافتدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث. وقد ذكرنا أنه لما أسر وشد في الوثاق وامسى الناس، أرّق رسول الله ﷺ فقيل يارسول الله ما لك؟ فقال: «إني أسمع أنين العباس في وثاقه فلا أنام» فقام رجل من

المسلمين فحل من وثاق العباس حتى سكن أنينه فنام رسول اللّه ﷺ [تاريخ الطبري: ٤٦٣/٢، الدلائل للبيهقي: ١٤١/٣ عن ابن إسحاق، بنحوه].

ثم أسلم عام الفتح، وتلقى رسول اللّه ﷺ إلى الجحفة فرجع معه، وشهد الفتح، ويقال: إنه أسلم قبل ذلك ولكنه أقام بمكة بإذن النبي ﷺ له في ذلك، كما ورد به الحديث [الدلائل للبيهقي: ١٤٢/٣، ١٤٣] فاللّه أعلم.

وقد كان رسول اللّه ﷺ يجله ويعظمه وينزله منزلة الوالد من الولد، ويقول: «هذا بقية آبائي» [الطبراني في «الأوسط» (٤٢٢١) و«الصغير» ٢٠٧/١].

وكان من أوصل الناس لقريش وأشفقهم عليهم، وكان ذا رأي وعقل تام واف، وكان طويلا جميلا أبيض بَضًّا ذا ضفيرتين وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث، وهم تمام - وكان أصغرهم - والحارث، وعبد اللّه، وعبيد اللّه، وعبد الرحمن، وعون، والفضل، وقثم، وكثير، ومعبد، وأعتق سبعين مملوكاً من غلمانه.

وقال الإمام أحمد [١٨٥/١]: حدثنا علي بن عبد اللّه قال: حدثني محمد بن طلحة التيمي، من أهل المدينة حدثني أبو سهيل نافع بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص قال: رسول اللّه ﷺ للعباس: «هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفاً وأوصلها».

تفرد به.

وثبت في الصحيحين [خ(١٤٦٨)، م(٩٨٣)] أن رسول اللّه ﷺ قال لعمر حين بعثه على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً وقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل اللّه، وأما العباس فهي عليَّ ومثلُها» ثم قال: «ياعمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟»

وثبت في صحيح البخاري [١٠١٠] عن أنس أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس معه يستسقي به، وقال: اللّهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، قال: فيسقون.

ويقال: إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا إذا مرا بالعباس وهما راكبان ترجّلا إكراماً له.

قال الواقدي وغير واحد: توفي العباس في يوم الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل: من رمضان سنة ثنتين وثلاثين، عن ثمان وثمانين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان، ودفن بالبقيع وقيل: توفي سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: سنة أربع وثلاثين، وفضائله ومناقبه كثيرة جداً.

■ **عبد اللّه بن مسعود** بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، أبو عبد الرحمن حليف بني زهرة.

أسلم قديماً قبل عمر، وكان سبب إسلامه حين مر به رسول اللّه ﷺ وأبو بكر رضي اللّه عنه، وهو يرعى غنما فسألاه لبنا فقال: إني مؤتمن، قال: فأخذ رسول اللّه ﷺ عناقاً لم ينز عليها الفحل فاعتقلها ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلِص» فقلَص، فقلت: علّمني من هذا الدعاء فقال: «إنك غُلَيِّمٌ معلَّم» [الدلائل للبيهقي: ٨٤/٦، ومسنده أحمد: ٤٦٢/١، بلفظ «غلام»] الحديث.

وروى محمد بن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه ابن مسعود: كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عند البيت، وقريش في أنديتها قرأ سورة ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فقاموا إليه فضربوه.

ولزم رسول اللّه ﷺ حين أسلم، وكان يحمل نعليه وسواكه، وقال له: «إذنك عليَّ أن تسمع سوادي» [م(٢١٦٩)، ج(١٣٩)] ولهذا كان يقال له صاحب السواك والسواد.

وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وهو الذي قتل أبا جهل بعد ما أثبته ابنا عفراء، وشهد بقية المشاهد.

وقال له رسول اللّه ﷺ يوماً: «اقرأ عليَّ» فقلت: اقرأ عليك وعليك انزل؟! فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأ عليه من أول سورة النساء إلى قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [٤١] فبكى رسول اللّه ﷺ وقال: «حسبك» [خ(٥٠٤٩)، م(٨٠٠)].

وقال أبو موسى: قدمت أنا وأخي من اليمن وما كنا نظن إلا أن ابن مسعود وأمه من أهل بيت النبي ﷺ، لكثرة دخولهم بيت النبي ﷺ. [خ(٣٧٦٣)، م(٢٤٦٠)]

وقال حذيفة: ما رأيت أحداً أشبه برسول اللّه ﷺ في هديه ودلّه وسَمْته من ابن مسعود، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى اللّه زلفى [خ(٣٧٦٢)].

وفي الحديث: «وتمسكوا بعهد ابن أم عبد» [ت(٣٨٠٥) بنحوه].

وفي الحديث الآخر الذي رواه أحمد [١١٤/١] عن محمد بن فضيل عن مغيرة عن أم موسى عن علي أن ابن مسعود صعد شجرة يجتني الكباث فجعل الناس يعجبون من دقة ساقيه، فقال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه - عنه وقد نظر إلى قصره وكان يوازي بقامته الجُلُوس - فجعل يتبعه بصره ثم قال: هو كُنَيف ملئ علماً [طبقات ابن سعد: ١٥٦/٣، الحلية لأبي نعيم: ١٢٩/١].

وقد شهد ابن مسعود بعد النبي ﷺ مواقف كثيرة، منها اليرموك وغيرها، وكان قد قدم من العراق حاجاً فمر بالربذة فشهد وفاة أبي ذر ودفنه، ثم قدم إلى المدينة فمرض بها فجاءه عثمان بن عفان عائداً، فيروى أنه قال له: ماتشتكي؟ قال: ذنوبي قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطائك؟ - وكان قد تركه سنتين - فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: يكون لبناتك من بعدك، فقال: أتخشى علي بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» [شعب الإيمان(٢٤٩٧) بنحوه].

وأوصى عبد اللّه بن مسعود إلى الزبير بن العوام، فيقال: إنه هو الذي صلى عليه ليلا، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وقيل: عمار، فاللّه أعلم. ودفن بالبقيع عن بضع وستين سنة.

■ **عبد الرحمن بن عوف** بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، أبو محمد القرشي الزهري، أسلم قديماً على يدي أبي بكر، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وآخى رسول اللّه ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وشهد بدراً وما بعدها، وأمَّره رسول اللّه ﷺ حين بعثه إلى بني كلب وأرخى له عَذَبَة بين كتفيه، لتكون أمارة عليه للإمارة وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، ثم أحد الثلاثة الذين انتهت إليهم منهم، كما ذكرنا.

ثم كان هو الذي اجتهد في تقديم عثمان رضي اللّه عنه، وقد تقاول هو وخالد بن الوليد في بعض الغزوات فأغلظ له خالد في المقال، فلما بلغ

ذلك رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وهو في الصحيح [خ(٣٦٧٣)، م(٢٥٤١)].

وقال معمر عن الزهري: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد النبي ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفاً ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة [الزهد لابن المبارك(٥٢٠)].

فأما الحديث الذي قال عبد بن حميد في مسنده حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا عمارة بن زاذان عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له: إن لي حائطين فاختر أيهما شئت، فقال: بارك الله لك في حائطيك، ما لهذا أسلمت، دلني على السوق، قال: فدله فكان يشتري السُّمينة والأقيطة والإهاب، فجمع فتزوج فأتى النبي ﷺ فقال: «بارك الله لك أولم ولو بشاة» قال: فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام، قال: فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة، فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة تحمل البر والدقيق والطعام. فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً» فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال: أشهدك يا أمه أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

وقال الإمام أحمد [١١٥/٦]: حدثنا عبد الصمد بن حسان حدثنا عمارة ـ هو ابن زاذان ـ عن ثابت عن أنس قال: بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ قالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل كل شيء ـ قال: وكانت سبعمائة بعير ـ قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت: عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً» فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: لئن استطعت لأدخلنّها قائماً، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله.

فقد تفرد به عمارة بن زاذان الصيدلاني وهو ضعيف.

وقوله في سياق عبد بن حميد: إنه آخى بينه وبين عثمان بن عفان، فغلط محض مخالف لما في صحيح البخاري [٣٩٣٧] من أن الذي آخى بينه وبينه إنما هو سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنهما. وثبت في الصحيح [م(٢٧٤)(٨١)] أن رسول الله ﷺ صلى وراءه الركعة الثانية من صلاة الفجر في بعض الأسفار. وهذه منقبة عظيمة لا تبارى.

ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار ـ وكانوا مائة ـ فأخذوها حتى عثمان وعلي، وقال علي: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها، وسبقت رَنْقَها [طبقات ابن سعد: ١٣٥/٣، ١٣٦].

وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة تقول سقاه الله من السلسبيل [مسند أحمد: ١٠٤/٦، ١٣٥].

وأعتق خلقاً من مماليكه ثم ترك بعد ذلك كله مالاً جزيلاً، من ذلك ذهبٌ قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال، وترك ألف بعير ومائة فرس، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع، وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً، ولما مات صلى عليه عثمان بن عفان، وحمل في جنازته سعد بن أبي وقاص، ودفن بالبقيع عن خمس وسبعين سنة. وكان أبيض مشرباً حمرة حسن الوجه، دقيق البشرة، أعين أهدب الأشفار، أقنى، له جمة، ضخم الكفين، غليظ الأصابع، لا يغير شيبه رضي الله عنه.

■ أبو ذرّ الغفاري واسمه جندب بن جنادة على المشهور، أسلم قديماً بمكة فكان رابع أربعة أو خامس خمسة.

وقصة إسلامه تقدمت قبل الهجرة، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، ثم رجع إلى بلاده وقومه، فكان هناك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فهاجر بعد الخندق ثم لزم رسول الله ﷺ حضراً وسفراً، وروى عنه أحاديث كثيرة. وجاء في فضله أحاديث كثيرة، من أشهرها ما رواه الأعمش عن أبي اليقظان عثمان بن عمير عن أبي حرب بن أبي الأسود عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر» [ت(٣٨٠١)، م(١٥٦)] وفيه ضعف.

ثم لما مات رسول الله ﷺ ومات أبو بكر خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل بالربذة فأقام بها حتى مات في ذي الحجة من هذه السنة، وليس عنده سوى امرأته وأولاده، فبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه إذ قدم عبد الله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحابه، فحضروا موته، وأوصاهم كيف يفعلون به.

وقيل: قدموا بعد وفاته فولوا غسله ودفنه، وكان قد أمر أهله أن يطبخوا لهم شاة من غنمه ليأكلوها بعد الموت، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى أهله فضمهم إلى أهله.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان فتح قبرس في قول أبي معشر، وخالفه الجمهور فذكروها قبل ذلك كما تقدم.

وفيها غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية ثانية، حين نقض أهلها العهد.

وفيها سير أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة إلى الشام، وكان سبب ذلك أنهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر، فكتب إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه عثمان أن يجليهم عن بلده إلى الشام، وكتب عثمان إلى معاوية أمير الشام أنه قد خرج إليك قراء من أهل الكوفة فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم.

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم واجتمع بهم ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد، فأجابه متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم معاوية لحلمه، وأخذ في مدح قريش ـ وكانوا قد نالوا منهم ـ وأخذ في المدح لرسول الله ﷺ، والثناء عليه، والصلاة والتسليم. وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه، وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلا حازماً، فقال له صعصعة بن صوحان: كذبت، قد ولد الناس كلهم لمن هو خير من أبي سفيان من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر، والأحمق والكيس.

ثم بذل لهم النصح مرة أخرى فإذا هم يتمادون في غيهم، ويستمرون على جهالتهم وحماقتهم، فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم عن الشام، لئلا يشوشوا عقول الطغام، وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على

القدح في قريش كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه، من نصرة الدين وقمع المفسدين. وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب، وكانوا يشتمون عثمان وسعيد بن العاص، وكانوا عشرة، وقيل: تسعة وهو الأشبه، منهم كميل بن زياد، والأشتر النخعي ـ واسمه مالك بن الحارث ـ وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد بن صوحان ومالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد وعمرو بن الحَمِق الخزاعي.

فلما خرجوا من دمشق أووا إلى الجزيرة فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ وكان نائباً على الجزيرة. ثم ولي حمص بعد ذلك ـ فهددهم وتوعدهم، فاعتذروا إليه وأنابوا إلى الإقلاع عما كانوا عليه، فدعا لهم وسير مالكاً الأشتر النخعي إلى عثمان بن عفان ليعتذر إليه عن أصحابه بين يديه، فقبل ذلك منهم وكف عنهم وخيرهم أن يقيموا حيث أحبوا، فاختاروا أن يكونوا في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقدموا عليه حمص، فأمرهم بالمقام بالساحل، وأجرى عليهم الرزق.

ويقال: بل لما مقتهم معاوية كتب فيهم إلى عثمان فجاءه كتاب عثمان أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه، فلما رجعوا كانوا أزلق ألسنة، وأكثر شراً، فضج منهم سعيد بن العاص إلى عثمان، فأمره أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، وأن يلزموا الدروب.

وفي هذه السنة سير عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشام، وإلى مصر بأسباب مسوغة لما فعله رضي الله عنه، فكان هؤلاء ممن يؤلب عليه ويمالئ الأعداء في الحط والكلام فيه، وهم الظالمون في ذلك، وهو البار الراشد رضي الله عنه.

وفي هذه السنة حج بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وتقبل الله منه.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين

قال أبو معشر: فيها كانت غزوة الصواري، والصحيح في قول غيره أنها كانت قبل ذلك كما تقدم.

وفي هذه السنة تكاتب المنحرفون عن طاعة عثمان رضي الله عنه وكان جمهورهم من أهل الكوفة ـ وهم في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص منفيون عن الكوفة، وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة، وتألبوا عليه ونالوا منه ومن عثمان، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه، وأغلظوا له في القول، وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل بهم غيرهم من السابقين ومن الصحابة، حتى شق ذلك عليه جداً، وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وعبد الله بن عامر أمير البصرة فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة.

فأشار عبد الله بن عامر أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دَبَرَة دابته وقمل فروته فإن غوغاء الناس إذا تفرغوا وبطلوا اشتغلوا بما لا يغني وتكلموا بما لا يرضي وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم.

وأشار سعيد بن العاص بأن يستأصل شأفة المفسدين ويقطع دابرهم.

وأشار معاوية بأن يرد عماله إلى أقاليمهم وأن لا يلتفت إلى هؤلاء وما تألبوا عليه من الشر، فانهم أقل وأضعف جنداً.

وأشار عبد الله بن سعد بن أبي سرح بأن يتألفهم بالمال فيعطيهم منه ما يكف به شرهم. ويأمن غائلتهم، ويعطف به قلوبهم إليه.

وأما عمرو بن العاص فقام فقال: أما بعد يا عثمان فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون فإما أن تعزل عنهم ما يكرهون، وإما أن تقدم فتنزل عمالك عمّا هم عليه، وقال له كلاماً فيه غلظة، ثم اعتذر إليه في السر بأنه إنما قال هذا ليبلغ عنه من كان حاضراً من الناس إليهم ليرضوا من عثمان بهذا.

فعند ذلك قرر عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألف قلوب أولئك بالمال، وأمر بأن يبعثوا في الغزو إلى الثغور، فجمع بين المصالح كلها، ولما رجعت العمال إلى أقاليمها امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص ولبسوا السلاح وحلفوا أن لا يمكنوه من الدخول عليهم حتى يعزله عثمان ويولي عليهم أبا موسى الأشعري، وكان اجتماعهم بمكان يقال له الجَرَعة، وقد قال يومئذ الأشتر النخعي: والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا، وتواقف الناس بالجرعة وأحجم سعيد عن قتالهم وصمموا على منعه، وقد اجتمع في مسجد الكوفة في هذا اليوم حذيفة وأبو مسعود عقبة بن عمرو، فجعل أبو مسعود يقول: والله لا يرجع سعيد بن العاص حتى يكون دماء. فجعل حذيفة يقول: والله ليرجعن ولا يكون فيها محجمة من دم، وما أعلم اليوم شيئاً إلا وقد علمته ومحمد ﷺ حي.

والمقصود أن سعيد بن العاص كر راجعاً إلى المدينة وكسر الفتنة، فاعجب ذلك أهل الكوفة، وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري بذلك فأجابهم عثمان إلى ما سألوا إزاحة لعذرهم، وإزالة لشبههم، وقطعاً لعللهم.

وذكر سيف بن عمر أن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلا يقال له عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، مضمونه أنه يقول للرجل: أليس قد ثبت أن عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فيقول الرجل: بلى! فيقول له: فرسول الله ﷺ أفضل منه فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسى ابن مريم عليه السلام؟

ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب، فمحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثم يقول: فهو أحق بالإمرة من عثمان، وعثمان معتد في ولايته ماليس له.

فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فافتتن به بشر كثير من أهل مصر، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالؤوا على ذلك، وتكاتبوا فيه، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان، وأرسلوا إليه من يناظره ويذكر له ما ينقمون عليه من توليته أقرباءه وذوي رحمه وعزله كبار الصحابة. فدخل هذا في قلوب كثير من الناس، فجمع عثمان بن عفان نوابه من الأمصار فاستشارهم فأشاروا عليه بما تقدم ذكرنا له فالله أعلم.

وقال الواقدي فيما رواه عن عبد الله بن محمد عن أبيه قال: لما كانت سنة أربع وثلاثين كَثُر الناس على عثمان بن عفان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، فكلم الناس علي بن أبي طالب أن يدخل على عثمان، فدخل عليه فقال له: إن الناس ورائي وقد كلموني فيك، وو الله ما أدري ما

أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمور عنك، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقناك إلى شيء، فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمىً، ولا تعلَّم من جهل. وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدِيَ وهدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة معلومة، فوالله إن كلاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وَضُلّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم» وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته، فإن عذابه شديد أليم، واحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتُلبس أمورها عليها، ويتركون شيعاً لا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويَمْرَجون فيها مَرْجاً.

فقال عثمان: قد والله علمتُ لتقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك، ولا عبت عليك ولا جئت منكَراً، أنْ وصلت رحماً، وسددت خلّة، وآويت ضائعاً، ووليت شبيها بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم! قال: فتعلم أن عمر ولاه؟ قال: نعم! قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟

فقال علي: سأخبرك: إن عمر كان كلما ولى أميراً فإنما يطأ على صماخيه، إن بلغه عنه حرف جاء به، ثم بلغ به أقصى الغاية في العقوبة وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك.

فقال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها، فقد وليته، فقال علي: أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم! قال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ويقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك فلا تنكر ولا تغير على معاوية.

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على إثره فصعد المنبر فخطب الناس، فوعظ وحذر وأنذر، وتهدد وتوعد، وأبرق وأرعد، فكان فيما قال: ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم به لابن الخطاب، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي، أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن، إن قلت: هلم أُتيَ إلي، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت لكم عن نابي، فأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم أنطق به، فكفوا ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يليكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ فوالله ماقصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي. ثم اعتذر عما كان يعطي أقاربه بأنه من فضل ماله. فقام مروان بن الحكم فقال: إن شئتم والله حكمنا بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم ... معارسكم تبنون في دِمَنِ الثرى

فقال عثمان: اسكت لا سكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا، ألم أتقدم إليك أن لا تنطق. فسكت مروان ونزل عثمان رضي الله عنه [تاريخ الطبري: ٤/٣٣٦-٣٣٩].

وذكر سيف بن عمر وغيره أن معاوية لما ودَّع عثمان حين عزم على الخروج إلى الشام عرض عليه أن يرحل معه إلى الشام فإنهم قوم كثيرة طاعتهم للأمراء. فقال: لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه. فقال: أجهز لك جيشاً من الشام يكونون عندك ينصرونك؟ فقال: إني أخشى أن أضيق بهم بلد رسول الله ﷺ على أصحابه من المهاجرين والأنصار. قال معاوية: فوالله يا أمير المؤمنين لتغتالن - أو قال: لتغزين - فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم خرج معاوية من عنده وهو متقلد السيف وقوسه في يده، فمر على ملأ من المهاجرين والأنصار، فيهم علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير فوقف عليهم واتكأ على قوسه وتكلم بكلام بليغ يشتمل على الوصاة بعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، والتحذير من إسلامه إلى أعدائه، ثم انصرف ذاهباً. فقال الزبير: ما رأيته أهيب في عيني من يومه هذا [تاريخ الطبري: ٤/٣٤٥، الكامل: ٣/١٥٧].

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤/٣٤٣] أن معاوية استشعر الأمر لنفسه من قدمته هذه إلى المدينة، وذلك أنه سمع حادياً يرتجز في أيام الموسم في هذا العام وهو يقول:

قد علمت ضوامر المطي ... وضُمَّرات عُوَّج القسي

أن الأمير بعده علي ... وفي الزبير خلف رضي

وطلحة الحافي لها ولي

فقال كعب الأحبار وهو يسير خلف عثمان: والله إن الأمير بعده صاحب البغلة الشهباء وأشار إلى معاوية.

فلما سمعها معاوية لم يزل ذلك في نفسه حتى كان ما كان على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله وبه الثقة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/٣٣٩]: وفي هذه السنة مات

■ أبو عبس بن جبر بالمدينة وهو بدري. ومات أيضاً

■ مسطح بن أثاثة.

و■ عاقل بن البكير.

وحج بالناس في هذه السنة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

ففيها مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه

وكان السبب في ذلك أن عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن مصر وولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكان سبب ذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير، فما زالوا يعملون عليه حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه.

فلم يزل ذلك دأبهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة،

وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح. ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلام قبيح.

فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فأقدم إلي. فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير فكلمه فيما كان من أمره بنفس، وتقاولا في ذلك، وافتخر عمرو بن العاص بأبيه على أبي عثمان، وأنه كان أعز منه. فقال له عثمان: دع هذا فإنه من أمر الجاهلية.

وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان. وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان ويتكلمون فيه بكلام قبيح على ما قدمنا، وينقمون عليه في عزله جماعة من علية الصحابة وتوليته من دونهم، أو من لا يصلح عندهم للولاية. وكره أهل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بعد عمرو بن العاص، واشتغل عبد الله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب، وفتحه بلاد البربر والأندلس وإفريقية. ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه، وكان عظم ذلك مسنداً إلى محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفرا نحواً من ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب، لينكروا على عثمان فساروا إليها تحت أربع رفاق، وأمر الجميع إلى أبي عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران السكوني. وأقبل معهم محمد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء.

وكتب عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صفة معتمرين فلما اقتربوا من المدينة أمر عثمان علي بن أبي طالب أن يخرج إليهم ليردهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة. ويقال: بل ندب الناس إليهم، فانتدب علي رضي الله عنه لذلك فبعثه وخرج معه جماعة الأشراف وأمره أن يأخذ معه عمار بن ياسر. فقال علي لعمار فأبى عمار أن يخرج معه. فبعث عثمان سعد بن أبي وقاص أن يذهب إلى عمار ليحرضه على الخروج مع علي إليهم، فأبى عمار كل الإباء، وامتنع أشد الامتناع، وكان متغضباً على عثمان بسبب تأديبه له على أمر وضربه إياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن أبي لهب، فأدبهما عثمان، فتآمر عمار عليه لذلك، وجعل يحرض الناس عليه، فنهاه سعد بن أبي وقاص عن ذلك ولامه عليه، فلم يقلع عنه ولم يرجع ولم ينزع.

فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره فردهم وأنبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليهم به. ويقال: إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم: ماذا ينقمون عليه؟ فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه حرق المصاحف، وأنه أتم الصلاة وأنه ولى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى بني أمية أكثر من الناس. فأجاب علي عن ذلك: أما الحمى فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه وقد حماه عمر من قبله. وأما المصاحف فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها، وأما توليته الأحداث فلم يول إلا رجلا سوياً عدلا، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة وولى أسامة بن زيد بن حارثة وطعن الناس في إمارته فقال: «إنه لخليق بالأمارة» وأما إيثاره قومه بني أمية فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشا على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها.

ويقال: إنهم عتبوا عليه في عمار ومحمد بن أبي بكر، فذكر عثمان عذره في ذلك وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما. وعتبوا عليه في إيوائه الحكم بن أبي العاص، وقد نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فذكر أن رسول الله ﷺ كان قد نفاه إلى الطائف ثم رده ثم نفاه إليها، قال: فقد نفاه رسول الله ﷺ ثم رده.

وروي أن عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له فيما فيه شهادة له.

ويروى أنهم بعثوا طائفة منهم فشهدوا خطبة عثمان هذه، فلما تمهدت الأعذار وانزاحت عللهم ولم يبق لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم فصفح عنهم وتركهم، رضي الله عنه. وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئا مما كانوا أملوا وراموا، ورجع علي إلى عثمان، فأخبره برجوعهم عنه، وسماعهم منه، وأشار على عثمان أن يخطب الناس خطبة يعتذر إليهم فيها مما كان وقع من الأثرة لبعض أقاربه، ويشهدهم عليه بأنه قد تاب من ذلك، وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله، وأنه لا يحيد عنها، كما كان الأمر أولا في مدة ست سنين الأول، فاستمع عثمان هذه النصيحة، وقابلها بالسمع والطاعة.

ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس، رفع يديه في أثناء الخطبة، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أول تائب مما كان مني، وأرسل عينيه بالبكاء فبكى المسلمون أجمعون، وحصل للناس رقة شديدة على إمامهم، وأشهد عثمان الناس على نفسه بذلك، وأنه قد لزم ما كان عليه الشيخان، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنه قد سبّل بابه لمن أراد الدخول عليه، لا يمنع أحد من ذلك، ونزل فصلى بالناس ثم دخل منزله وجعل من أراد الدخول على أمير المؤمنين لحاجة أو مسألة أو سؤال لا يمنع أحد من ذلك مدة.

قال الواقدي: فحدثني علي بن عمر عن أبيه قال: ثم إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له: تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك، ولا آمن ركباً آخرين يقدمون من قبل الكوفة، فتقول: يا علي اركب إليهم. ويقدم آخرون من البصرة فتقول: يا علي اركب إليهم. فإن لم أفعل قطعت رحمك واستخففت بحقك.

قال: فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعلم الناس من نفسه التوبة، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فو الله ما عاب من عاب شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكن ضل رشدي ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زل فليتب، ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة، إن من تمادى في الجور كان أبعد عن الطريق» فأنا أول من اتعظ، أستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم، فوالله لأكونن كالمرقوق إن ملك صبر، وإن عتق شكر، وما عن الله مذهب إلا إليه.

قال: فرق الناس له وبكى من بكى، وقام إليه سعيد بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين! الله الله في نفسك! فأتمم على ما قلت.

فلما انصرف عثمان إلى منزله وجد به جماعة من أكابر الناس، وجاءه

مروان بن الحكم فقال: أتكلم يا أمير المؤمنين أم أصمت؟ فقالت امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية من وراء الحجاب: بل اصمت، فوالله إنهم لقاتلوه، ولقد قال مقالة لا ينبغي له النزوع عنها. فقال لها: وما أنت وذاك؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ. فقالت له: دع ذكر الآباء. ونالت من أبيه الحكم، فأعرض عنها مروان، وقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت؟ فقال له عثمان: بل تكلم، فقال مروان: بأبي أنت وأمي، لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطُّبيين، وخلّف السيل الزبى، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل، والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها، خير من توبة تُخوِّف عليها، وإنك لو شئت لعزمت التوبة ولم تقرر لنا بالخطيئة، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم، فإني أستحي أن أكلمهم. قال: فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً. فقال: ما شأنكم كأنكم قد جئتم لنهب، شاهت، الوجوه كل إنسان آخذ بأذن صاحبه ألا من أريد جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر يسوؤكم ولا تحمدوا غِبَّه، ارجعوا إلى منازلكم، فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا.

قال: فرجع الناس، وخرج بعضهم حتى اتى عليا فأخبره الخبر، فجاء علي مغضبا حتى دخل على عثمان، فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحويلك عن دينك وعقلك؟! وإن مثلك مثل جمل الظعينة سار حيث يسار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وايم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفَك، وغلبت على أمرك.

فلما خرج علي دخلت نائلة على عثمان فقالت: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلمي، فقالت: سمعت قول علي أنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان حيث شاء قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولاهيبة ولا محبة، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى.

قال: فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه، وقال: لقد أعلمته أني لست بعائد. قال: وبلغ مروان قول نائلة فيه فجاء إلى عثمان فقال: أتكلم أو سكت؟ فقال: تكلم، فقال: إن نائلة بنت الفرافصة، فقال عثمان: لا تذكرها بحرف فأسوء لك وجهك، فهي والله أنصح لي منك. قال: فكف مروان.

ذكر مجيء الأحزاب إلى عثمان للمرة الثانية من مصر وغيرها في شوال من هذه السنه

وسبب ذلك أن أهل الأمصار لما بلغهم خبر مروان، وغضب علي على عثمان بسببه، ووجدوا الأمر على ماكان عليه لم يتغير ولم يسلك سيرة صاحبيه فكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا، وزورت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة وعلى لسان علي وطلحة والزبير، يدعون الناس إلى قتال عثمان ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد اليوم.

وقال سيف بن عمر التميمي عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، غيرهم أيضاً، قالوا: لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين، خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلل لهم يقول: ستمائة، والمكثر يقول: ألف. على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التُّجيبي، وعروة بن شِيَيْم الليثي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة السكوني وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي، وخرجوا فيما يظهرون للناس حجاجاً، ومعهم ابن السوداء وكان أصله ذميا فأظهر الإسلام وأحدث بدعاً قولية وفعلية - قبحه الله -.

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق أيضاً، وأمراؤهم: زيد بن صوحان، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر بن الحارث، وعبد الله بن الأصم، وعلى الجميع عمرو بن الأهيم.

وخرج أهل البصرة أيضاً في أربع رايات مع حكيم بن جبلة العبدي، وبشر بن شريح بن ضبيعة القيسي، وذريح بن عباد العبدي وابن محرِّش الحنفي، وعليهم كلهم حرقوص بن زهير السعدي.

وأهل مصر مصرون على ولاية علي بن أبي طالب، وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير، وأهل االبصرة مصممون على تولية طلحة. لا تشك كل فرقة أن أمرها سيتم، فسار كل طائفة من بلدهم حتى توافوا حول المدينة، كما تواعدوا في كتبهم، في شهر شوال فنزل طائفة منهم بذي خشب، وطائفة بالأعوص، والجمهور بذي المروة، وهم على وجل من أهل المدينة، فبعثوا قصاداً وعيوناً بين أيديهم ليختبروا الناس ويخبروهم أنهم جاؤوا للحج لا لغيره، وليستعفوا هذا الوالي من بعض عماله، ما جئنا إلا لذلك، واستأذنوا في الدخول، فكل الناس أبى دخولهم ونهى عنه فتجاسروا واقتربوا من المدينة، وجاءت طائفة من المصريين إلى علي وهو في عسكر عند أحجار الزيت، عليه حلة أفواف، معتم بشقيقة حمراء يمانية، متقلد السيف وليس عليه قميص، وقد سرح ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه فسلم عليه المصريون فصاح بهم وأطردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صبحكم الله، قالوا: نعم! وانصرفوا من عنده على ذلك، وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي - وقد أرسل ابنيه إلى عثمان - فسلموا عليه فصاح بهم وأطردهم وقال لهم كما قال علي لأهل مصر، وكذلك كان رد الزبير على أهل الكوفة، فرجع كل فريق منهم إلى قومهم، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم، وساروا أياماً راجعين، ثم كروا عائدين إلى المدينة، فما كان غير قليل حتى سمع أهل المدينة التكبير، وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاطوا بها، وجمهورهم عند دار عثمان بن عفان، وقالوا للناس: من كف يده فهو آمن. فكف الناس ولزموا بيوتهم، وأقام الناس على ذلك أياماً. هذا كله ولا يدري الناس ما القوم صانعون ولا على ما هم عازمون، وفي كل ذلك وأمير المؤمنين عثمان بن عفان يخرج من داره فيصلي بالناس، فيصلي وراءه أهل المدينة وأولئك الآخرون، وذهب الصحابة إلى هؤلاء يؤنبونهم ويعذلونهم على رجوعهم، حتى قال علي لأهل مصر: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا وكذلك قال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير. وقال أهل كل مصر: إنما جئنا لننصر أصحابنا. فقال لهم الصحابة: كيف علمتم بذلك من أصحابكم، وقد افترقتم وصار بينكم مراحل؟ إنما هذا أمر اتفقتم عليه، فقالوا: ضعوه على ما أردتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا ونحن نعتزله - يعنون أنه إن نزل عن الخلافة تركوه آمنا -.

وكان المصريون فيما ذكر [تاريخ الطبري: ٣٥٥/٤]، لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا في الطريق بريداً يسير، فأخذوه ففتشوه، فإذا معه في إداوة كتاباً على لسان عثمان فيه الأمر بقتل طائفة منهم، وبصلب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان، والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جمله، فلما رجعوا جاؤوا بالكتاب وداروا به على الناس فكلم الناس امير المؤمنين في ذلك، فقال: بيِّنة عليَّ بذلك وإلا فواللّه لا كتبت ولا أمليت، ولادريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يزور على الخاتم، فصدقه الصادقون في ذلك، وكذبه الكاذبون.

ويقال: إن أهل مصر كانوا قد سألوا من عثمان أن يعزل عنهم ابن أبي سرح، ويولي محمد بن أبي بكر، فأجابهم إلى ذلك، فلما رجعوا وجدوا ذلك البريد ومعه الكتاب بقتل محمد بن أبي بكر وآخرين معه، فرجعوا، وقد حنقوا عليه حنقاً شديداً، وطافوا بالكتاب على الناس، فدخل ذلك في أذهان كثير من الناس.

وروى ابن جرير [تاريخه: ٣٦٧/٤] من طريق محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار، أن الذي كان معه هذه الرسالة من جهة عثمان إلى مصر أبو الأعور السلمي على جمل لعثمان.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٦٧/٤] من هذه الطريق أن الصحابة كتبوا إلى الآفاق من المدينة يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه. وهذا كذب على الصحابة، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، كما كتبوا من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج كتبا مزورة عليهم أنكروها، وهكذا زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً، فانه لم يأمر به ولم يعلم به أيضاً.

واستمر عثمان يصلي بالناس في تلك الأيام كلها، وهم أحقر في عينه من التراب، فلما كان في بعض الجمعات وقام على المنبر، وفي يده العصا التي كان يعتمد عليها رسول اللّه ﷺ في خطبته، وكذلك أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما من بعده، فقام إليه رجل من أولئك فسبه ونال منه، وأنزله عن المنبر، فطمع الناس فيه من يومئذ.

كما قال الواقدي [تاريخ الطبري: ٣٦٦/٤، ٣٦٧]: حدثني أسامة بن زيد عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: بينا أنا أنظر إلى عثمان يخطب على عصا النبي ﷺ إلتى كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر، فقال له جهجاه: قم يا نَعْثَل فانزل عن هذا المنبر. وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى فدخلت شظية منها فيها فبقي الجرح حتى أصابته الأكِلَة فرأيتها تَدود، فنزل عثمان وحملوه وأمر بالعصا فشدوها، فكانت مضبية، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خرجة أو خرجتين حتى حصر فقتل.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٦٧/٤]: حدثني أحمد بن إبراهيم حدثنا عبد اللّه بن إدريس عن عبيد اللّه بن عمر عن نافع أن جَهْجاهاً الغفاري اخذ عصا كانت في يد عثمان فكسرها على ركبته، فرُمي في ذلك المكان بأكَلة.

وقال الواقدي: وحدثني ابن أبي الزناد عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال: خطب عثمان الناس في بعض أيامه فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين: إنك ركبت نهابير وركبناها معك، فتب نتب معك. فاستقبل عثمان القبله وشهَرَ يديه، قال أبو حبيبة: فلم أر يوماً أكثر باكيا ولا باكية من يومئذ.

ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام إليه جهجاه الغفاري فصاح: يا عثمان ألا إن هذه شارف قد جئنا بها عليها عباءة وجامعة، فانزل فلندرجك في العباءة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ثم نطرحك في جبل الدخان. فقال عثمان: قبحك اللّه وقبح ما جئت به، ثم نزل عثمان. قال أبو حبيبة: فكان آخر يوم رأيته فيه.

وقال الواقدي حدثني أبو بكر بن إسماعيل عن أبيه عن عامر بن سعد. قال: كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيئ جبلة بن عمرو الساعدي مر به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جبلة جامعة، فلما مر عثمان سلم فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون عليه؟ رجل قال كذا وكذا، ثم أقبل على عثمان فقال: واللّه لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه، فقال عثمان: اي بطانة؟ فواللّه إني لأتخير الناس، فقال: مروان تخيرته! ومعاوية تخيرته! وعبد اللّه بن عامر بن كريز تخيرته! وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح تخيرته! منهم من نزل القرآن بذمه، وأباح رسول اللّه ﷺ دمه، قال: فانصرف عثمان فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم.

قال الواقدي: وحدثني محمد بن صالح عن عبيد اللّه بن رافع بن نقاخة عن عثمان بن الشريد. قال: مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو بفناء داره، ومعه جامعة، فقال: يانعثل! واللّه لأقتلنك ولأحملنك على قلوص جرباء، ولأخرجنك إلى حرة النار. ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله عنه.

وذكر سيف بن عمر: أن عثمان بعد أن صلى بالناس يوم الجمعة صعد المنبر فخطبهم أيضاً فقال في خطبته: ياهؤلاء العِدا! اللّه اللّه، فواللّه إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن اللّه لا يمحو السيئ إلا بالحسن، فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده، فقام زيد بن ثابت فقال: إنه في الكتاب. فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قُتيرة فأقعده وقال فأفظع، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشياً عليه، فاحتُمل وأُدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من الناس أن يساعدهم إلا محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر. وأقبل علي وطلحة والزبير إلى عثمان في أناس يعودونه ويشكون إليه بَثَّهم وما حلَّ بالناس، ثم رجعوا إلى منازلهم، واستقتل جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وابن عمر، وزيد بن ثابت في المحاربة عن عثمان، فبعث إليهم يقسم عليهم لما كفوا أيديهم وسكنوا حتى يقضي اللّه ما يشاء.

صفة حصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان

لما وقع ما وقع يوم الجمعة، وشج أمير المؤمنين عثمان، وهو في رأس المنبر، وسقط مغشيا عليه، واحتمل إلى داره وتفاقم الأمر، وطمع فيه أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس، وألجؤوه إلى داره وضيقوا عليه، وأحاطوا بها محاصرين له، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم، وسار إليه جماعة من أبناء الصحابة عن أمر آبائهم، منهم الحسن والحسين، وعبد اللّه بن الزبير ـ وكان أمير الدار ـ وعبد اللّه بن عمر، وصاروا، يُجاحفون عنه، ويناضلون دونه أن يصل إليه أحد منهم، وأسلمه بعض الناس رجاء أن يجيب أولئك إلى واحدة مما سألوا، فإنهم كانوا قد طلبوا منه إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، ولم يقع في خلد أحد أنه يُقتل، إلاّ ما كان في نفس أولئك الخارجين عليه. وانقطع عثمان عن المسجد فكان لايخرج إليه إلا قليلا في أوائل الأمر، ثم انقطع بالكلية في آخره، وكان يصلي بالناس في هذه الأيام الغافقي بن حرب. وقد استمر الحصر أكثر من شهر. وقيل:

أربعين يوما، حتى كان آخر ذلك أن قتل شهيداً رضي الله عنه، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

والذي ذكره ابن جرير [تاريخه: ٤٢٣/٤] أن الذي كان يصلي بالناس في هذه المدة وعثمان محصور، طلحة بن عبيد الله.

وروى الواقدي أن علياً صلى بالناس أيضا، وصلى أبو ايوب، وصلى بهم سهل بن حنيف، وكان يجمِّع بهم علي، وهو الذي صلى بهم بعد، وقد خاطب الناس في غبون ذلك بأشياء، وجرت أمور سنورد منها ما تيسر وبالله المستعان.

قال الامام أحمد [٧٠/١]: حدثنا بهز حدثنا أبو عوانه حدثنا حصين عن عمرو بن جاوان قال الأحنف: انطلقنا حجاجا فمررنا بالمدينة،فبينا نحن في منزلنا إذ جاءنا آت فقال: الناس في المسجد، فانطلقت أنا وصاحبي، فإذا الناس مجتمعون على نفر في المسجد، قال: فتخللتهم حتى قمت عليهم، فإذا علي بن أبي طالب والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، قال: فلم يكن ذلك بأسرع من أن جاء عثمان يمشي، فقال: ههنا علي؟ قالوا: نعم! قال: ههنا الزبير؟ قالوا: نعم! قال: ههنا طلحة؟ قالوا: نعم! قال: ههنا سعد؟ قالوا: نعم! قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من يبتاع مربد بني فلان غفر الله له» فابتعته فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني قد ابتعته فقال: «اجعله في مسجدنا وأجره لك» قالوا نعم قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال. «من يبتاع بئر رومة؟» فابتعتها بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني قد ابتعتها - يعني بئر رومة - قال: «اجعلها سقاية للمسلمين ولك أجرها»؟ قالوا: نعم! قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر في وجوه القوم يوم جيش العسرة فقال: «من يجهز هؤلاء غفر الله له» فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالا؟ قالوا: اللّهم نعم! فقال: اللّهم اشهد، اللّهم اشهد، اللّهم اشهد. ثم انصرف.

ورواه النسائي [٣٦٠٨، ٣٦٠٩] من حديث حصين وعنده: إذ جاء عثمان وعليه ملاءة صفراء.

طريق أخرى:

قال عبد الله بن أحمد [المسند: ٧٤/١]: حدثني عبيد الله بن عمر القواريري حدثني القاسم بن الحكم بن أوس الأنصاري حدثني أبو عبادة الزرقي الأنصاري، من أهل المدينة عن زيد بن أسلم عن أبيه. قال: شهدت عثمان يوم حصر في موضع الجنائز، ولو ألقي حجر لم يقع إلا على رأس رجل، فرأيت عثمان أشرف من الخوخة التي تلي مقام جبريل، فقال: أيها الناس! أفيكم طلحة؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس: أفيكم طلحة؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس! أفيكم طلحة؟ فقام طلحة بن عبيد الله، فقال له عثمان: ألا أراك ههنا؟ ما كنت أرى أنك تكون في جماعة قوم تسمع ندائي آخر ثلاث مرات، ثم لا تجيبني أنشد الله يا طلحة تذكر يوم كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في موضع كذا وكذا، ليس معه أحد من أصحابه غيري وغيرك؟ فقال: نعم! قال: فقال لك رسول الله ﷺ: «ياطلحة إنه ليس من نبي إلا ومعه من أصحابه رفيق من أمته معه في الجنة، وإن عثمان بن عفان هذا - يعنيني - رفيقي في الجنة»؟ فقال طلحة: اللّهم نعم! ثم انصرف.

لم يخرجوه.

طريق أخرى:

قال عبد الله بن أحمد [٧٤/١، ٧٥]: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا هلال بن حقّ عن الجريري عن ثمامة بن حَزْن القشيري. قال: شهدت الدار يوم أصيب عثمان، فاطلع عليهم اطلاعة، فقال: ادعو لي صاحبيكم اللذين ألباكم علي، فدعيا له، فقال: أنشدكما الله أتعلمان أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله، فقال: «من يشتري هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كالمسلمين، وله خير منها في الجنة»؟ فاشتريتها من خالص مالي فجعلتها بين المسلمين وأنتم تمنعوني أن أصلي فيه ركعتين! ثم قال: أنشدكم الله تعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا رومة فقال رسول الله ﷺ: «من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين، وله خير منها في الجنة؟» فاشتريتها من خالص مالي وأنتم تمنعوني أن أشرب منها! ثم قال: هل تعلمون أني صاحب جيش العسرة؟ قالوا: اللّهم نعم!

وقد رواه الترمذي [٣٧٠٣] عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وعباس الدوري وغير واحد.

وأخرجه النسائي [٣٦١٠] عن زياد بن أيوب كلهم عن سعيد بن عامر عن يحيى بن أبي الحجاج المنقري عن أبي سعيد الجريري به وقال الترمذي: حسن صحيح.

طريق أخرى

قال الإمام أحمد [٦٢/١]: حدثنا عبد الصمد ثنا القاسم - يعني ابن الفضل - ثنا عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد قال: دعا عثمان رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ،فيهم عمار بن ياسر، فقال: إني سائلكم وإني أحب أن تصدقوني، نشدتكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان يؤثر قريشا على الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم. فقال عثمان: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم، فبعث إلى طلحة والزبير فقال عثمان: ألا أحدثكما عنه - يعني عماراً - أقبلت مع رسول الله ﷺ. آخذاً بيدي تمشي في البطحاء حتى أتى على أبيه وأمه وهم يعذبون» فقال أبو عمار: يارسول الله، الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: «اصبر»، ثم قال: «اللّهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت»

تفرد به أحمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

طريق أخرى

قال الإمام أحمد [٦٣/١]: حدثنا إسحاق بن سليمان سمعت مغيرة بن مسلم ابا سلمة يذكر عن مطر عن نافع عن ابن عمر: أن عثمان أشرف على أصحابه وهو محصور، فقال: علام تقتلوني؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عمداً فعليه القَوَدُ، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل» فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحداً فاقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ورواه النسائي [٤٠٦٨] عن أحمد بن الأزهر عن إسحاق بن سليمان به.

طريق أخرى

قال الإمام أحمد [٦٥/١]: حدثنا عفان حدثنا حماد بن زيد حدثنا يحيى بن سعيد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: كنت مع عثمان في الدار وهو محصور، قال: وكنا ندخل مدخلاً إذا دخلناه سمعنا كلام مَنْ على

البلاط، قال: فدخل عثمان يوماً لحاجةٍ فخرج إلينا متقعاً لونه، فقال: إنهم ليتوعّدوني بالقتل آنفاً. قال: قلنا: يكفيكهم الله ياأمير المؤمنين، قال: فقال: وبمَ يقتلوني؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس» فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا تمنيت بدلا بديني منذ هداني الله له، ولا قتلت نفسا، فبم يقتلوني؟.

وقد رواه أهل السنن الأربعة [د(٤٥٠٢)، ت(٢١٥٨)، س(٤٠٣١)، ج(٢٥٢٣)] من حديث حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن أبي أمامة ـ زاد النسائي: وعبد الله بن عامر بن ربيعة قالا: كنا مع عثمان فذكره. وقال الترمذي: حسن وقد رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد فرفعه.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد [٥٩/١]: حدثنا قطن ثنا يونس ـ يعني ابن ابي إسحاق ـ عن أبيه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن. قال: أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله بقدمه ثم قال: «اسكن حراء ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» وأنا معه، فانتشد له رجال قال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين إلى أهل مكة فقال: «هذه يدي وهذه يد عثمان». ووضع يديه إحداهما على الأخرى فبايع لي؟ فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ قال: «من يوسّع لنا بهذا البيت في المسجد ببيتٍ في الجنة؟» فابتعته من مالي فوسعت به المسجد. فانتشد له رجال. ثم قال: وأنشد بالله من شهد رسول الله يوم جيش العسرة قال: «مَنْ ينفق اليوم نفقة متقبلة؟» فجهزت نصف الجيش من مالي، فانتشد له رجال. ثم قال: وأنشد بالله من شهد رومة يباع ماؤها ابن السبيل فابتعتها من مالي فأبحتها ابن السبيل؟ قال: فانتشد له رجال.

ورواه النسائي [٣٦١١] عن عمران بن بكار عن خطاب بن عثمان عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن جده أبي إسحاق السبيعي به.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٦٨/٤] أن عثمان رضي الله عنه لما رأى ما فعله هؤلاء الخوارج من أهل الأمصار من محاصرته في داره، ومنعه الخروج إلى المسجد، كتب إلى معاوية بالشام وإلى ابن عامر بالبصرة وإلى أهل الكوفة، يستنجدهم في بعث جيش يطردون هؤلاء من المدينة، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة، وانتدب يزيد بن أسد القَسْري في جيش، وبعث أهل الكوفة جيشا، وأهل البصرة جيشا، فلما سمع أولئك بخروج الجيوش إليهم صمموا في الحصار، فما اقترب الجيوش إلى المدينة حتى جاءهم قتل عثمان رضي الله عنه كما سنذكره.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٧١/٤، ٣٧٢] أن عثمان استدعى الأشتر النخعي ووضعت لعثمان وسادة في كوة من داره، فأشرف على الناس، فقال له عثمان: يا أشتر ماذا يريدون؟ فقال: إنهم يريدون منك إما أن تعزل نفسك عن الإمرة، وإما أن تُقيد من نفسك من قد ضربته، أو جلدته، أو حبسته، وإما أن يقتلوك.

وفي رواية [تاريخ الطبري: ٣٧١/٤] أنهم طلبوا منه أن يعزل نوابه عن الأمصار ويولي عليها من يريدون هم، وإن لم يعزل نفسه أن يسلم لهم مروان بن الحكم فيعاقبوه كما زور على عثمان كتابه إلى مصر، فخشي عثمان إن سلمه إليهم أن يقتلوه فيكون سبباً في قتل امرئ مسلم وما فعل من الأمر ما يستحق بسببه القتل، واعتذر عن الاقتصاص مما قالوا بأنه رجل ضعيف البدن كبير السن. وأما ماسألوه من خلعه نفسه فإنه لا يفعل ولا ينزع قميصا قمصه الله أياه، ويترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض، وقال لهم فيما قال: وأي شيء إلي من الأمر إن كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عنه وليته؟ وقال لهم فيما قال: والله لئن قتلتموني لا تتحابوا بعدي أبداً ولا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي عدواً جميعاً أبداً. وقد صدق رضي الله عنه فيما قال..

وقال الإمام أحمد [١٤٩/٦]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن أبي قيس حدثني النعمان بن بشير قال: كتب معي معاوية إلى عائشة كتابا فدفعت إليها كتابه فحدثتني أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول لعثمان: «إن الله لعله يقمّصك قميصا. فإن أرادك أحد على خلعه فلا تخلعه» ثلاث مرات. قال النعمان: فقلت: ياأم المؤمنين! فأين كنت عن هذا الحديث؟ فقالت: يابني والله أنسيته.

وقد رواه الترمذي [٣٧٠٥] من حديث الليث عن معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن عامر عن النعمان عن عائشة به.

ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

ورواه ابن ماجه [١١٢] من حديث الفرج بن فضالة عن ربيعة بن يزيد عن النعمان فأسقط عبد الله بن عامر.

قال الإمام أحمد [٥١/٦، ٥٢]: حدثنا يحيى، عن اسماعيل حدثنا قيس عن أبي سهلة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي بعض أصحابي» قلت أبو بكر؟ قال: لا، قلت: عمر؟ قال: «لا» قلت: ابن عمك علي؟ قال: لا قالت: قلت: عثمان؟ قال: "نعم" فلما جاء قال: "تنحى" فجعل يساره ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر فيها قلنا: ياأمير المؤمنين الا تقاتل؟ قال: لا! إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وإني صابر نفسي عليه».

تفرد به أحمد.

وقال محمد بن عائذ الدمشقي. حدثنا الوليد بن مسلم ثنا عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو أنه سمع أبا ثور الفَهْمي يقول: قدمت على عثمان فبينا أنا عنده فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا فدخلت على عثمان فأعلمته، قال: فكيف رأيتهم؟ فقلت: رأيت في وجوههم الشر، وعليهم ابن عديس البلوي، فصعد ابن عديس منبر رسول الله ﷺ فصلى بهم الجمعة، وتنقص عثمان في خطبته، فدخلت على عثمان فأخبرته بما قام فيهم، فقال: كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكرتُ ذلك، إني لرابع أربعة في الإسلام، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، والله لا زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، ولا تعنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ ولا أتت علي جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت، إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة فأجمعها في الجمعة الثانية.

ورواه يعقوب بن سفيان عن عبد الله بن أبي بكر عن ابن لهيعة، قال: لقد اختبأت عند ربي عشراً. فذكرهن.

حصارُ عثمان رضي الله عنه

كان الحصار مستمراً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر

من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للذين عنده في الدار من أبناء المهاجرين والأنصار ـ وكانوا قريبا من سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريرة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله، وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جم غفير وقال لرقيقه: من أغمد سيفه فهو حر فبرد القتال من داخل الدار، وحمي من خارج، واشتد الأمر، وكان سبب ذلك أن عثمان رأى في المنام رؤيا دلت على اقتراب أجله فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقا إلى رسول الله ﷺ، وليكون خير ابني آدم حيث قال حين أراد أخوه قتله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وروي أن آخر من خرج من عند عثمان من الدار، بعد أن عزم عليهم في الخروج، الحسن بن علي وقد جُرح، وكان أمير الحرب على أهل الدار عبدالله بن الزبير رضي الله عنهم [تاريخ خليفة: ١٨٨/١].

وروى موسى بن عقبة عن سالم أو نافع أن ابن عمر لم يلبس سلاحه بعد رسول الله ﷺ إلا يوم الدار ويوم نجدة الحروري.

قال أبو جعفر الرازي عن أيوب السختياني عن نافع عن ابن عمر: إن عثمان يرضي الله عنه أصبح يحدث الناس، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: «يا عثمان افطر عندنا» فأصبح صائما وقتل من يومه.

وقال سيف بن عمر عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن رجل قال: دخل عليه كثير بن الصلت فقال: يا أمير المؤمنين اخرج فاجلس بالفناء فيُرى وجهك فإنك إن فعلت ارتدعوا. فضحك وقال: يا كثير رأيت البارحة وكأني دخلت على نبي الله ﷺ وعنده أبو بكر وعمر، فقال. «ارجع فإنك مفطر عندي غدا» ثم قال عثمان: ولن تغيب الشمس والله غداً أو كذا وكذا إلا وأنا من أهل الآخرة،قال: فوضع سعد وأبو هريرة السلاح وأقبلا حتى دخلا على عثمان.

وقال موسى بن عقبة: حدثني أبو علقمة ـ مولى لعبد الرحمن بن عوف حدثني ابن الصلت قال: أغفى عثمان بن عفان في اليوم الذي قتل فيه فاستيقظ فقال: لولا أن يقول الناس: تمنى عثمان أمنية لحدثتكم. قال: قلنا: أصلحك الله، حدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا، «فقال: إنك شاهد معنا الجمعة».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو عبد الرحمن القرشي، ثنا خلف بن تميم حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر البجلي، حدثنا عبد الملك بن عمير حدثني كثير بن الصلت قال: دخلت على عثمان وهو محصور، فقال لي: يا كثير ما أراني إلا مقتولا يومي هذا. قال: قلت: ينصرك الله على عدوك يا أمير المؤمنين، قال: ثم أعاد علي فقلت: وقّت لك في هذا اليوم شيء؟ أو قيل لك شيء؟قال: لا! ولكني سهرت في ليلتي هذه الماضية، فلما كان عند السَحَر اغفيت إغفاءة فرأيت فيما يرى النائم رسول الله ﷺ، وأبا بكر وعمر، ورسول الله ﷺ يقول لي: «يا عثمان الحقنا لا تحبسنا، فإنا ننتظرك» قال: فقتل من يومه ذلك.

وقال ابن ابي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا يزيد بن هارون، عن فرج بن فضالة عن مروان بن أبي أمية عن عبد الله بن سلام.قال: أتيت عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال: مرحبا بأخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة ـ قال: وخوخة في البيت ـ فقال: «يا عثمان حصروك؟» قلت: نعم قال: «أعطشوك؟»

قلت: نعم! فأدلى دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال: «إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده». فقتل ذلك اليوم.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٧٥/٣]: حدثنا محمد بن عمر، أنا عفان بن مسلم حدثنا وهيب حدثنا داود عن زياد بن عبد الله عن أم هلال بنت وكيع عن امرأة عثمان ـ قال: وأحسبها بنت الفرافصة ـ قالت: أغفى عثمان فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلونني، قلت: كلا يا أمير المؤمنين. قال: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فقالوا: افطر عندنا الليلة، أو إنك تفطر عندنا الليلة.

وقال الهيثم بن كليب: حدثنا عيسى بن أحمد العسقلاني ثنا شبابة ثنا يحيى بن أبي راشد مولى عمر بن حريث عن محمد بن عبد الرحمن الجرشي. وعقبة بن أسيد عن النعمان بن بشير عن نائلة بنت الفرافصة الكلبية ـ امرأة عثمان ـ قالت: لما حصر عثمان ظل اليوم الذي كان قبل قتله بيوم صائماً، فلما كان عند إفطاره سألهم الماء العذب فأبوا عليه، وقالوا: دونك ذلك الركي. وركيٌ في الدار الذي يلقى فيه النتن ـ قالت: فلم يفطر فأتيت جارات لنا على أحاجير متواصلة وذلك في السحر ـ فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزاً من ماء فأتيته فقلت: هذا ماء عذب أتيتك به، قالت: فنظر فإذا الفجر قد طلع فقال: إني أصبحت صائما، قالت: فقلت: ومن اين ولم أر أحداً أتاك بطعام ولا شراب؟ فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ اطلع علي من هذا السقف ومعه دلو من ماء فقال: اشرب يا عثمان، فشربت حتى رويت، ثم قال: ازدد فشربت حتى نهلت، ثم قال: أما إن القوم سيكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا، قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وقال أبو يعلى الموصلي وعبد الله بن الإمام أحمد [٧٢/١]: حدثني عثمان بن أبي شيبة حدثنا يونس بن أبي يعفور العبدي عن أبيه عن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان عن عثمان أن عثمان أعتق عشرين مملوكاً ودعا بسراويل فشدها ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر، وأنهم قالوا لي: اصبر فإنك تفطرعندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فقتل وهو بين يديه. قلت: إنما لبس السراويل رضي الله عنه في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قتل فانه كان شديد الحياء، كانت تستحي منه الملائكة، كما نطق بذلك النبي ﷺ. ووضع بين يديه المصحف يتلو فيه، واستسلم لقضاء الله عز وجل، وكف يده عن القتال، وأمر الناس وعزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه، ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدرا مقدورا.

وقال هشام بن عروة عن أبية: إن عثمان رضي الله عنه أوصى إلى الزبير.

وقال الأصمعي عن العلاء بن الفضل عن أبيه. قال: لما قتل عثمان فتشوا خزانته فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها "هذه وصية عثمان. بسم الله الرحمن الرحيم عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور، ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد، عليها يحيى وعليها يموت، وعليها يبعث إن شاء الله تعالى".

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ص٤٠٧] أن عثمان رضي الله عنه قال يوم دخلوا عليه فقتلوه:

أرى الموت لا يبقي عزيزاً ولم يدع	لعاد ملاذاً في البلاد ومُرْتَقى

وقال أيضاً:

يبيت أهل الحصن والحصن مغلق	ويأتي الجبال في شماريخها العلا

صفة قتله رضي الله عنه

وقال خليفة بن خياط [تاريخه: ١٨٣/١]: حدثنا ابن علية حدثنا ابن عون عن الحسن قال أنبأني وثاب. قال: بعثني عثمان فدعوت له الأشتر فقال: ما يريد الناس؟ قال: ثلاث ليس من إحداهن بد، قال: ما هن؟ قال: يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول: هذا أمركم فاختاروا من شئتم، وبين أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك. فقال: أما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، وأما أن أُقِصَّ لهم من نفسي، فوالله لقد علمت أن صاحبي بين يدي قد كانا يعاقبان وما يقوم بَدَني بالقصاص وأما أن يقتلوني فو الله لئن قتلتموني لا تحابون بعدي أبداً، ولا تصلون بعدي جميعاً أبداً، ولا تقاتلون بعدي جميعاً عدواً أبداً. قال: وجاء رويجل كأنه ذئب فاطلع من باب ورجع، وجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً، فأخذ بلحيته وقال بها حتى سمعت وقع أضراسه، فقال: ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر، وما أغنت عنك كتبك، قال: أرسل لحيتي يا ابن أخي، قال: فأنا رأيته استعدى رجلا من القوم بعينه - يعني أشار إليه - فقام إليه بمشقص فوجأ به رأسه. قلت: ثم مه؟ قال: ثم تعاوروا عليه والله حتى قتلوه.

قال سيف بن عمر التميمي رحمه الله عن الغُصْن بن القاسم عن رجل عن خنساء مولاة أسامة بن زيد - وكانت تكون مع نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان - أنها كانت في الدار ودخل محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته وأهوى بمشاقص معه ليجأ بها في حلقه، فقال مهلاً يا ابن أخي، فوالله لقد أخذت مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به، فتركه وانصرف مستحيياً نادماً فاستقبله القوم على باب الصفة فردهم طويلاً حتى غلبوه، فدخلوا وخرج محمد راجعاً. فأتاه رجل بيده جريدة يقدمهم حتى قام على عثمان فضرب بها رأسه فشجه، فقطر دمه على المصحف حتى لطخه، ثم تغاوَوْا عليه فأتاه رجل فضربه على الثدي بالسيف، ووثبت نائلة بنت الفرافصة الكلبية فصاحت وألقت نفسها عليه، وقالت: يا بنت شيبة أيقتل أمير المؤمنين! وأخذت السيف، فقطع الرجل يدها، وانتهبوا متاع الدار ومر رجل على عثمان ورأسه مع المصحف فضرب رأسه برجله ونحاه عن المصحف وقال: ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن ولا مضجع كافر أكرم. قال: والله ماتركوا في داره شيئاً حتى الأقداح إلا ذهبوا به.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق، ترجمة عثمان، ص٤٠٨، ٤١٢] أن عثمان لما عزم على أهل الدار في الانصراف ولم يبق عنده سوى أهله تسوروا عليه الدار وأحرقوا الباب ودخلوا عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم، إلا محمد بن أبي بكر، وسبقه بعضهم، فضربوه حتى غشي عليه وصاح النسوة فانذعروا وخرجوا ودخل محمد بن أبي بكر وهو يظن أنه قد قتل، فلما رآه قد أفاق قال: على أي دين أنت يا نعثل؟ قال: على دين الإسلام، ولست بنعثل ولكني أمير المؤمنين، فقال: غيَّرت كتاب الله، فقال: كتاب الله بيني وبينكم، فتقدم إليه وأخذ بلحيته وقال: إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وشطحه بيده من البيت إلى باب الدار، وهو يقول: يا ابن أخي ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي. وجاء رجل من كندة من أهل مصر، يلقب حماراً، ويكنى بأبي رومان. وقال قتادة: اسمه رومان، وقال غيره: كان أزرق أشقر، وقيل: كان اسمه سودان بن رومان المرادي. وعن ابن عمر قال: كان اسم الذي قتل عثمان أسود بن حمران ضربه بحربة وبيده السيف صلتاً، فقال: أفرجوا. ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه، ثم وضع ذباب السيف في بطنه واتكأ عليه وتحامل حتى قتله، وقامت نائلة دونه فقطع السيف أصابعها رضي الله عنها [تاريخ خليفة: ١٩٠/١].

ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه [طبقات ابن سعد: ٧٣/٣].

والصحيح أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها. فتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع وجاحف دونه فلم يُفِد وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٤١٤] عن ابن أبي عون أن كنانة بن بشر ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد فخر لجنبه، وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خرّ لجنبه فقتله، وأما عمرو بن الحَمِق فوثب على عثمان فجلس على صدره، وبه رمق، فطعنه تسع طعنات، وقال: أما ثلاث منهن فلله، وست لما كان في صدري عليه.

وقال الطبراني [المعجم الكبير: ٣٩/١]: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، وإسحاق بن داود الصواف التستري قالا: حدثنا محمد بن خالد بن خداش حدثنا سَلْم بن قتيبة حدثنا مبارك عن الحسن. قال: حدثني سياف عثمان أن رجلا من الأنصار دخل على عثمان فقال: ارجع يا ابن أخي فلست بقاتلي، قال: وكيف علمت ذلك؟ قال: لأنه أتى بك النبي ﷺ يوم سابعك فحنكك ودعا لك بالبركة. ثم دخل عليه رجل آخر من الأنصار فقال له مثل ذلك سواء. ثم دخل محمد بن أبي بكر فقال: أنت قاتلي. قال: وما يدريك يا نعثل؟ قال: لأنه أتي بك رسول الله ﷺ يوم سابعك ليحنكك ويدعو لك بالبركة، فخريت على رسول الله ﷺ، قال: فوثب على صدره وقبض على لحيته، وجاء بمشاقص كانت في يده.

هذا حديث غريب جداً وفيه نكارة.

وثبت من غير وجه أن أول قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويروى أنه كان قد وصل إليها في التلاوة أيضاً حين دخلوا عليه، وليس ببعيد فإنه كان قد وضع المصحف يقرأ فيه القرآن.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ٤١٨، ٤١٩] أنه لما طعن قال: بسم الله توكلت على الله، فلما قطر الدم قال: سبحان الله العظيم.

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه [٣٥٥/٤، ٣٥٦، ٣٧٣، ٣٧٧] بأسانيده أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم، وصلب بعضهم، ويقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان، متأولاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] وعنده أن

هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزور على خطه وخاتمه، ويبعث غلامه على بعيره، بعد ما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر، بخلاف ذلك كله، ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب على خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان، أعظموا ذلك، مع ما هم مشتملون عليه من الشر فرجعوا إلى المدينة فطافوا به على رؤوس الصحابة، وأعانهم على ذلك قوم آخرون، حتى ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر عثمان رضي الله عنه، فلما قيل لعثمان رضي الله عنه في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين، حلف بالله العظيم، وهو الصادق البار الراشد، أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه، ولا علم به، فقالوا له: فإن عليه خاتمك. فقال: إن الرجل قد يزوِّر على خطه وخاتمه قالوا: فإنه مع غلامك وعلى جملك. فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك. فقالوا له ـ بعد كل مقالة ـ إن كنت قد كتبته فقد خنت، وإن لم تكن قد كتبته بل كتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلافة، إما لخيانتك، وإما لعجزك.

وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام، وأما إذا لم يكن قد علم به فأي عجز ينسب إليه إذا لم يكن قد اطلع عليه وزوِّر على لسانه؟! وليس هو بمعصوم بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه، وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متعنتون خونة، ظلمة مفترون، ولهذا صمموا بعد هذا على حصره والتضييق عليه، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد، وتهددوه بالقتل، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه، ومن وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من منع ماءها، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله بإحدى ثلاث، النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [د(٤٥٠٢)، ت(٢١٥٨)] وذكر أنه لم يقتل نفساً، ولا ارتد بعد إيمانه، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام، بل ولا مس فرجه بيمينه بعد أن بايع بها رسول الله ﷺ.

وفي رواية [د(٣٧٧٨)، ج(٢٥٣٣)]: بعد أن كتب بها المفصل.

ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه والرجوع إلى الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منهم، فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان. ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده، حتى اشتد عليه الحال، وضاق المجال، ونفد ما عنده من الماء، فاستغاث بالمسلمين في ذلك فركب علي بنفسه وحمل معه قرباً من الماء فبالجهد حتى أوصلها إليه بعدما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ، وتنفير لدابته، وإخراق عظيم بليغ، وكان قد زجرهم أتم الزجر، حتى قال لهم فيما قال: والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا لهذا الرجل، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون. فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار. وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها، فقالوا: ما جاء بك؟ فقالت: إن عنده وصايا بني أمية، لأيتام وأرامل، فأحببت أن أذكره بها، فكذبوها في ذلك ونالها منهم شدة عظيمة، وقطعوا حزام البغلة وندّت بها، وكادت أو سقطت عنها، وكادت تقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها، ووقع أمر كبير جداً، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً، ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك، فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج.

واستخلف عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس، فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أجاحف عنك أفضل من الحج. فعزم عليه، فخرج بالناس إلى الحج واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع البشير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين. وبلغهم أيضاً أن معاوية قد بعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد نفذ آخر مع معاوية بن حديج، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعاً في جيش فعند ذلك صمموا على أمرهم وبالغوا فيه، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج، وأحاطوا بالدار، وجدُّوا في الحصار، وأحرقوا الباب، وتسوروا من الدار المتاخمة للدار، كدار عمرو بن حزم وغيرها، وجاحف الناس عن عثمان أشد المجاحفة، واقتتلوا على الباب قتالاً شديداً، وتبارزوا وتراجزوا بالشعر في مبارزتهم، وجعل أبو هريرة يقول: هذا يوم طاب امضرابُ. وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار، وجرح عبد الله بن الزبير جراحات كثيرة وكذلك جرح الحسن بن علي ومروان بن الحكم فقطع إحدى علباويه فعاش أوقص حتى مات.

ومن أعيان من قتل من أصحاب عثمان، زياد بن نعيم الفهري والمغيرة بن الأخنس بن شريق، ونيار بن عبد الله الأسلمي، في أناس وقت المعركة.

ويقال: إنه انهزم أصحاب عثمان ثم تراجعوا. ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم، فانصرفوا كما تقدم، فلم يبق عنده أحد سوى أهله، فدخلوا عليه من الباب، ومن الجدران وفزع عثمان إلى الصلاة وافتتح سورة طه، وكان سريع القراءة ـ فقرأها والناس في غلبة عظيمة، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال، ثم فرغ عثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصحف، وجعل يتلو هذه الآية ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فكان أول من دخل عليه رجل يقال له الموت الأسود فخنقه خنقاً شديداً حتى غشي عليه، وجعلت نفسه تتردد في حلقه، فتركه وهو يظن أنه قد قتله، ثم دخل ابن أبي بكر فمسك بلحيته ثم ندم وخرج، ثم دخل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها، فقيل: إنه أبانها: وقيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثمان قال: والله إنها لأوّل يد كتبت المفصل. فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] ثم جاء آخر شاهراً سيفه فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها. ثم إنه تقدم إليه فوضع السيف في بطنه فتحامل عليه، رضي الله عن عثمان وأرضاه.

وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في يَدِه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله فاستدار

المصحف ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه. وسالت عليه الدماء، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها فولت فضرب عجيزتها بيده وقال: إنها لكبيرة العجيزة. وضرب عثمان فقتله، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له: قُتيرة فقتله.

وروى ابن جرير [تاريخه: ٤/٤١٤] أنهم أرادوا حز رأسه بعد قتله، فصاح النساء وضربن وجوههن، فيهن امرأتان نائلة وأم البنين، وبناته، فقال ابن عديس: اتركوه، فتركوه. ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه، وذلك أنه نادى مناديهم: أيحل لنا دمه ولا يحل لنا ماله! فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه، فلما خرجوا إلى صحن الدار وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله، وجعلوا لا يمرون على شيء إلا أخذوه حتى استلب رجل يقال له كلثوم التجيبي، ملاءة نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتل الغلام أيضا، ثم تنادى القوم: أن ادركوا بيت المال لا تُستَبقوا إليه، فسمعهم حفظة بيت المال فقالوا: ياقوم النجاءَ النجاءَ، فإن هؤلاء القوم لم يصدقوا فيما قالوا من أن قصدهم قيام الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما ادعوا أنهم إنما قاموا لأجله وكذبوا إنما قصدهم الدنيا، فانهزموا وجاء الخوارج فأخذوا مال بيت المال، وكان فيه شيء كثير جداً.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة سهم بن خَنْبس أبي خنبش، أو خُنيس الأزدي وكان قد شهد الدار.

ورواه محمد بن عائذ عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن يزيد الرُّحبي عنه وكان قد استدعاه عمر بن عبد العزيز إلى دير سمعان فسأله عن مقتل عثمان فذكر ما ملخصه: أن وفد الأشقياء، وهم وفد مصر كانوا قد قدموا على عثمان فأجازهم وأرضاهم فانصرفوا راجعين ثم كروا إلى المدينة فوافقوا عثمان قد خرج لصلاة الغداة أو الظهر فحصبوه بالحصا والنعال والخفاف فانصرف إلى الدار ومعه أبو هريرة والزبير وابنه عبد الله وطلحة ومروان والمغيرة بن الأخنس في أناس، وأطاف وفد مصر بداره فاستشار الناس فقال عبد الله بن الزبير: يا أمير المؤمنين إني أشير بإحدى ثلاث خصال إما أن تحرم بعمرة فتحرم عليهم دماؤنا وإما أن نركب معك إلى معاوية بالشام، وإما أن نخرج فنضرب بالسيف إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم، فإنّا على الحق وهم على الباطل. فقال عثمان: أما ما ذكرت من الإحرام بعمرة فتحرم دماؤنا فإنهم يرونا حلالا الآن وحال الإحرام وبعد الإحرام وأما الذهاب إلى الشام فإني أستحيي أن أخرج من بينهم خائفاً فيراني أهل الشام وتسمع الأعداء من الكفار ذلك، وأما القتال فإني أرجو أن ألقى الله وليس يهراق بسببي محجمة دم.

قال: ثم صلينا معه صلاة الصبح ذات يوم فلما فرغ أقبل على الناس فقال: إني رأيت أبا بكر وعمر أتياني الليلة فقالا لي: صم يا عثمان فإنك تفطر عندنا، وإني أشهدكم أني وقد أصبحت صائماً وإني أعزم على من كان يؤمن با لله واليوم الآخر أن يخرج من الدار سالماً مسلوماً منه. فقلنا: يا أمير المؤمنين إن خرجنا لم نأمن منهم علينا فاذن لنا أن نكون في بيت من الدار تكون لنا فيه جماعة ومنعةٌ. ثم أمر بباب الدار ففتح ودعا بالمصحف فأكب عليه وعنده امرأتاه بنت الفرافصة الكلبية وابنة شيبة فكان أول من دخل عليه محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته فقال: دعها يا ابن أخي فو الله لقد كان أبوك يتلهّف لها بأدنى من هذا فاستحيى فخرج فقال للقوم: قد أشعرته لكم. وأخذ عثمان ما امتعط من لحيته فأعطاه إحدى امرأتيه. ثم دخل رومان بن سودان رجل أزرق قصير مُخَدَّد عداده من مراد معه جُرْز من حديد فاستقبله فقال: على أي ملة أنت يا نعثل؟ فقال عثمان: لست بنعثل ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين فقال: كذبت، وضربه بالجُرْز على صدغه الأيسر فقتله فخر فادخلته بنت الفَرافصة بينها وبين ثيابها وكانت امرأة جسيمة ضليعة فألقت نفسها عليه وألقت بنت شيبة نفسها على ما بقي من جسده ودخل رجل من أهل مصر بالسيف مصلتا فقال: والله لأقطعن أنفه فعالج المرأة عنه فغلبته فكشف عنها درعها من خلفها حتى نظر إلى متنها فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها فقبضت على السيف فقطع أناملها، فقالت: يا رباح ـ لغلام عثمان أسود ـ يا غلام ادفع عني هذا الرجل، فمشى إليه الغلام فضربه فقتله وخرج أهل البيت يقاتلون عن أنفسهم فقتل المغيرة بن الأخنس وجرح مروان. قال: فلما أمسينا قلنا: إن تركتم صاحبكم حتى يصبح مثلوا به فاحتملناه إلى بقيع الغرقد في جوف الليل وغشينا سواد من خلفنا فهبناهم وكدنا أن نتفرق عنه فنادى مناديهم: أن لا روع عليكم اثبتوا إنما جئنا لنشهده معكم وكان أبو خنيس يقول: هم ملائكة الله فدفناه ثم هربنا إلى الشام من ليلتنا فلقينا الجيش بوادي القرى عليهم حبيب بن مسلمة قد أتوا في نصره عثمان فأخبرناهم بقتله ودفنه.

وقت قتل عثمان ﷺ

ولما وقع هذا الأمر العظيم، الفظيع الشنيع، أسقط في أيدي الناس، فأعظموه جداً، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج على ما صنعوا، وأشبهوا من تقدمهم ممن قصّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز، من الذين عبدوا العجل، في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان ـ وكان قد خرج من المدينة ـ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال: تباً لهم، ثم تلا قوله تعالى ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠] وبلغ علياً قتله فترحم عليه. وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦] ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٣]ة ثم قال سعد: اللهم أندمهم ثم خذهم. وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً. رواه ابن جرير [تاريخه: ٤/٣٩٢].

وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه:

منها دعوة سعد المستجابة كما ثبت في الحديث الصحيح [المستدرك: ٣/٥٠٠].

وقال بعضهم: ما مات أحد منهم حتى جن [المعجم الكبير للطبراني: ١/٤٥ من كلام يزيد بن حبيب].

وقال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث قال: الذي قتل عثمان كنانة بن بشر بن عتّاب التجيبي. وكانت امرأة منظور بن سيار الفزاري تقول: خرجنا إلى الحج وما علمنا لعثمان بقتل، حتى إذا كنا بالعَرْج سمعنا رجلا يغني تحت الليل:

ألا إن خـير النـاس بعـد ثلاثـة قتيل التجيبي الـذي جـاء مـن مصر

ولما رجع الحجيج وجدوا عثمان رضي اللّه عنه قد قتل، وبايع الناس علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه. ولما بلغ أمهات المؤمنين في أثناء الطريق أن عثمان قد قتل، رجعن إلى مكة فأقمن بهـا نحـواً مـن أربعة أشـهر كـما سيأتي

فصل

كانت مدة حصر عثمـان رضي اللّه عنه في داره أربعين يوماً على المشهور، وقيل: كانت بضعا وأربعين يوماً.

وقال الشعبي: كانت ثنتين وعشرين ليلة.

ثم كان قتلة رضي اللّه عنه في يوم الجمعة بلا خلاف.

قال سيف بن عمر عن مشايخه: في آخر ساعة منها، ونص عليه مصعب الزبيري وآخرون. وقال آخرون ضحوة، وهذا أشبه، وكـان ذلك لثماني عشر ليلة خلت من ذي الحجة على المشهور، وقيل في أيام التشريق.

رواه ابن جرير [تاريخه: ٤١٦/٤] حدثني أحمد بن زهير حدثنا أبو خيثمة ثنا وهب بن جرير قال: سمعت أبي قال: سمعت يونس بن يزيد عن الزهري. قال: قتل عثمان فزعم بعض الناس أنه قتل في أيام التشريق.

ورواه عبد اللّه بن أحمد [المسند: ٧٤/٢] عن عبيد اللّه بـن معاذ عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان قال: قتل عثمان في أواسط أيام التشريق.

وقال بعضهم: قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

وقيل: قتل يوم النحر، حكاه ابن عساكر [تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص٥٢٧] ويستشهد له بقول الشاعر:

ضحّوا بـأشمطَ عنوانُ السجودِ بهِ يقطّـعُ الليـلَ تسـبيحاً وقرآنـا

قلت: والأول هو الأشهر، وهو أنه قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين على الصحيح المشهور.

وقيل سنة ست وثلاثين، قال مصعب الزبيري وطائفة. وهـو غريب.

فكانت خلافته ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوما، لأنه بويع لـه في مستهل المحرم سنة أربع وعشرين.

عُمْرُ عثمان رضي الله عنه

وأما عمره رضي اللّه عنه فإنـه جـاوز الثمـانين على المشهور. فقيل: إحدى وثمانية سنة.

قال الواقدي: وغير واحد: توفي عن ثنتين وثمانين سنة.

وقال أحمد عن حسن بن موسى حدثنا أبـو هـلال عن قتادة توفي عثمان عـن ثمـان وثمـانين أو تسـعين سـنة، وفي روايـة عنـه: تـوفي ست وثمانين سنة.

وعن هشام بن الكلبي: توفي عن خمـس وسـبعين سنة، وهـذا غريب جداً، وأغرب منه ما رواه سيف بن عمر عن مشايخه، وهم محمـد وطلحـة وأبو عثمان وأبو حارثة أنهم قالوا: قتل عثمان رضي اللّه عنـه عـن ثـلاث وستين سنة.

موضع قبر عثمان رضي الله عنه

وأما موضع قبره فلا خلاف أنه دفن بحَشّ كوكب - شـرقي البقيـع - وقد بني عليه في زمان بني أمية قبة عظيمة وهي باقية إلى اليوم.

قال الإمام مالك رضي اللّه عنه: بلغني أن عثمان رضي اللّه عنـه كـان يمر بمكان قبره من حش كوكب فيقول: إنه سيدفن ههنا رجل صالح [المعجم الكبير: ٣٤/١].

عثمان بعدَ قتلِه وكيف دفن

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤١٢/٤] أن عثمان رضي اللّـه عنه بقي بعد أن قتل ثلاثة أيام لا يدفن.

قلت: وكأنه اشتغل الناس عنه بمبايعة علي رضي اللّه عنه حتى تمـت، وقيل: إنه مكث ليلتين، وقيل: بل دفن مـن ليلته، ثـم كـان دفنـه مـا بين المغرب والعشاء خيفـة مـن الخـوارج، وقيـل بـل اسـتؤذن في ذلـك بعض رؤسائهم. فخرجوا به في نفر قليل من الصحابة، منهـم حكيـم بـن حـزام، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم الأسلمي، وجبير بن مطعم، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك، وطلحة والزبير، وعلي بن أبي طالب وجماعة من أصحابه ونسائه، منهـن امرأتـاه نائلة وأم البنين بنت عُيينة بن حصن، وصِبْيان. - وهذا مجموع من كلام الواقـدي وسـيف بن عمر التميمي.

قال أحمد [٧٤/١]: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قـال: صلى الزبير على عثمان ودفنه وكان أوصى إليه.

وروى عبد اللّه [المسند: ٧٣/١] من طريق إبراهيم بـن عبد اللّـه بـن فروخ عن أبيه: شهدت عثمان دفن في ثيابه بدمائه ولم يغسل. وحمله جماعـة من خدمه حملوه على باب بعد ما غسلوه وكفنـوه. وزعـم بعضهـم أنـه لم يغسل ولم يكفن، والصحيح الأول. وصلى عليه جبير بـن مطعـم، وقيـل الزبير بن العوام، وقيل حكيم بن حزام، وقيـل مـروان بـن الحكـم، وقيـل المسور بن مخرمة وقد عارضه بعـض الخـوارج وأرادوا رجمـه، وإلقـاءه عـن سريره، وعزموا على أن يدفن بمقبرة اليهـود بدير سـلع، حتـى بلـغ علي رضي اللّه عنه إليهم من نهاهم عن ذلك وحمل جنازته حكيـم بـن حـزام، وأبو جهم بن حذيفة ونيار بن مكرم، وجبير بن مطعم.

وذكر الواقدي أنه لما وضع ليصلى عليه - عند مصلى الجنـائز - أراد بعض الأنصار أن يمنعهم من ذلك، فقال أبو جهم بن حذيفة: ادفنـوه فقـد صلى اللّه عليه وملائكته ثم قالوا: لا يدفـن في البقيـع ولكـن ادفنـوه وراء الحائط، فدفنوه شرقي البقيع تحت نخلات هناك.

وذكر الواقدي أن عمير بـن ضـابئ نـزا علـى سـريره وهـو موضـوع للصلاة عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: أحبست ضابئاً حتى مـات في السجن؟ وقد قتل الحجاج فيما بعد عمير بن ضابئ هذا.

وقال البخاري في التاريخ: حدثنا موسى بن إسماعيل عن عيسـى بـن منهال حدثنا غالب عن محمد بن سيرين قـال: كنـت أطـوف بالكعبة وإذا رجل يقـول: اللّهـم اغفـر لي، ومـا أظـن أن تغفـر لي، فقلت: يـاعبد اللّـه ماسمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت للّه عهـداً إن قـدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل وضع على سريره في البيت والنـاس يجيئون فيصلُّون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجـدت خلـوة فرفعـت

الثوب عن وجهه ولحيته فلطمته وسجَّيته وقد يبست يميني. قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود.

ثم خرجوا بعبدي عثمان اللذين قتلا في الدار، وهما صبيح ونجيح، رضي الله عنهما، فدفنا إلى جانبه بحش كوكب، وقيل: إن الخوارج لم يمكنوا من دفنهما، بل جروهما بأرجلهما حتى ألقوهما بالبلاط فأكلتهما الكلاب.

وقد اعتنى معاوية في أيام إمارته بقبر عثمان، ورفع الجدار بينه وبين البقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حوله حتى اتصلت بمقابر المسلمين.

ذكر صفته رضي الله عنه

كان رضي الله عنه حسن الوجه دقيق البشرة، كبير اللحية، معتدل القامة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، حسن الثغر، فيه سمرة، وقيل بياض. وقيل: كان في وجهه شيء من آثار الجدري، رضي الله عنه.

وعن الزهري: كان حسن الوجه والشعر، مربوعاً، أصلع، أروح الرجلين.

وقال الإمام أحمد [١/٧٣، ٧٤]: حدثنا عبد الصمد حدثنا سالم أبو جميع حدثنا الحسن وذكر عثمان وشدة حيائه فقال: إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه.

وقال عبد الله [المسند: ١/٧٣] حدثنا زياد بن أيوب حدثنا هشيم قال: زعم أبو المقدام عن الحسن بن أبي الحسن قال.

وقال الواقدي: حدثنا ابن أبي سبرة عن سعيد بن أبي زيد عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. قال: كان لعثمان عند خازنه يوم قتل، ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، فانتهبت وذهبت، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها، ببئر أريس، وخيبر، ووادي القرى، قيمة مئتي ألف دينار.

وقال الإمام أحمد [١/٦٦]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا أرطاة بن المنذر حدثنا أبو عون الأنصاري أن عثمان قال لابن مسعود: هل أنت منته عما بلغني عنك؟ فاعتذر بعض العذر، فقال عثمان: إني قد سمعت وحفظت وليس كما سمعت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيقتل أمير وينتزي منتزٍ» وإني أنا المقتول وليس عمر، إن عمر قتله واحد وإنه سيجتمع علي.

وقال أحمد [١/٥٧، ٥٨، ٦٩] حدثنا وكيع عن إسماعيل عن قيس قال: حدثني أبو سهلة أن عثمان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد لي عهداً فأنا صابر عليه. قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم.

ورواه الترمذي [٣٧١١] من حديث وكيع ويحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد به.

وفي مسند أبي يعلى من طريق أبي سهلة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ستبتلى بعدي فلا تقاتل».

فتنة قتل عثمان رضي الله عنه

قال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال: أول الفتن قتل عثمان، وآخر الفتن الدجال.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٤٥٨، ٤٥٩] من طريق شبابة عن حفص بن مورق الباهلي، عن حجاج بن أبي عثمان الصواف عن زيد بن وهب عن حذيفة. قال: أول الفتن قتل عثمان، وآخر الفتن خروج الدجال، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من حبِّ قتلِ عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه، آمن به في قبره.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا وغيره: أنا محمد بن سعد أنا عمرو بن عاصم الكلابي حدثنا أبو الأشهب حدثني عوف عن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان قال: اللَّهم إن كان قتل عثمان بن عفان خيراً. فليس لي فيه نصيب، وإن كان قتله شراً فأنا منه بريء، والله لئن كان قتله خيراً لتحلبنه لبنا، ولئن كان قتله شراً لتمتصُّن به دماً. وقد ذكره البخاري في صحيحه.

طريق اخرى عنه

قال محمد بن عائذ: ذكر يحيى بن حمزة حدثني أبو عبد الله النجراني أن حذيفة بن اليمان في مرضه الذي هلك فيه كان عنده رجل من إخوانه وهو يناجي امرأته ففتح عينيه فسألهما فقالا: خيرٌ، فقال: إن شيئاً تسرانه دوني ماهو بخير، قال: قتِل الرجلُ - يعني عثمان - قال: فاسترجع ثم قال: اللَّهم إني كنت من هذا الأمر بمعزل، فإن كان خيراً فهو لمن حضره وأنا منه بريء، وإن كان شراً فهو لمن حضره وأنا منه بريء، اليوم نفرت القلوب بأنفارها، الحمد لله الذي سبق بي الفتن، قادتها وعلوجها الخطيُّ، من تردى بعيره فشبع شحما وقلَّ عمله.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي موسى الأشعري. قال. لو كان قتل عثمان هدى لاحتلبت به الأمة لبنا، ولكنه كان ضلالا فاحتلبت به الأمة دما.

وهذا منقطع.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٣/٨٠]: أنا عارم بن الفضل أنا الصعق بن حزن ثنا قتادة عن زهدم الجرمي. قال: خطب ابن عباس فقال: لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء.

وقد روي من غير هذا الوجه عنه.

وقال الأعمش وغيره عن ثابت بن عبيد عن أبي جعفر الأنصاري. قال: لما قتل عثمان جئت علياً وهو جالس في المسجد وعليه عمامة سوداء فقلت له: قتل عثمان، فقال: تباً لهم آخر الدهر. وفي رواية: خيبة لهم.

وقال أبو القاسم البغوي: أنبأنا علي بن الجعد أنا شريك عن عبد الله بن عيسى عن ابن أبي ليلى. قال: سمعت علياً وهو بباب المسجد أو عند احجار الزيت رافعا صوته يقول: اللَّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

وقال أبو هلال عن قتادة عن الحسن. قال: قتل عثمان وعلي غائب في أرض له، فلما بلغه قال: اللَّهم إني لم أرض ولم أمالئ.

وروى الربيع بن بدر عن سيار بن سلامة عن أبي العالية: أن علياً دخل على عثمان فوقع عليه وجعل يبكي حتى ظنوا أنه سيلحق به.

وقال الثوري وغيره عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال: قال علي يوم قتل عثمان: والله ما قتلت ولا أمرت ولكني غلبت.

ورواه غير ليث عن طاوس عن ابن عباس عن علي نحوه.

وقال حبيب بن أبي العالية عن مجاهد عن ابن عباس. قال: قال علي: إن شاء الناس حلفت لهم عند مقام إبراهيم بالله ماقتلت عثمان ولا أمرت بقتله، ولقد نهيتهم فعصوني.

وقد روي من غير وجه عن علي بنحوه [أخرج أقوال علي ابن عساكر في تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص٤٦١ـ٤٦٦].

وقال محمد بن يونس الكُديمي: ثنا هارون بن إسماعيل ثنا قرة بن خالد عن الحسن عن قيس بن عباد. قال: سمعت علياً يوم الجمل يقول: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: واللّه إني لأستحيي من اللّه أن أبايع قوماً قتلوا رجلا قال فيه رسول اللّه ﷺ: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة» وإني لأستحيي من اللّه أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد. فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس يسألوني البيعة فقلت: اللّهم إني لمشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزمة فبايعت. فلما قالوا: أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبي وانسكبت بعبرة.

وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر بجمع الطرق الواردة عن علي [تاريخ دمشق (ترجمة عثمان ص٤٦١ـ٤٧٦)] أنه تبرأ من دم عثمان، وكان يقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالأ ولارضي به، ولقد نهى عنه فلم يسمعوا منه. ثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث وللّه الحمد والمنة.

وثبت عنه أيضا من غير وجه أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال اللّه تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] وثبت عنه أيضا من غير وجه أنه قال: كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وأحسنوا.

وفي رواية أنه قال: كان عثمان رضي اللّه عنه خيرنا وأوصلنا للرحم، وأشدنا حياء، وأحسننا طهوراً، وأتقانا للرب عز وجل.

وروى يعقوب بن سفيان عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مجالد عن عمير بن زَوْذي أبي كثير. قال: خطب علي فقطع الخوارج عليه خطبته فنزل فقال: إن مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة، أحمر وأبيض وأسود، ومعهم في أجمة أسد، فكان كلما أراد قتل أحدهم منعه الآخران، فقال للأسود والأحمر: إن هذا الأبيض قد فضحنا في هذه الأجمة فخليا عنه حتى آكله، فخليا عنه فأكله، ثم كان كلما أراد أحدهما منعه الآخر فقال للأحمر: إن هذا الأسود قد فضحنا في هذه الأجمة، وإن لوني على لونك فلو خليت عنه أكلته فخلى عنه الأحمر فأكله، ثم قال للأحمر: إني آكلك، فقال: دعني حتى أصيح ثلاث صيحات، فقال: دونك، فقال: ألا إني إنما أُكلت يوم أُكل البيض. ثلاثا فلو أني نصرته لما أكلت ثم قال علي: وإنما أنا وهنت يوم قتل عثمان، ولو أني نصرته لما وهنت قالها ثلاثاً.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٤٨٣، ٤٨٤] من طريق محمد بن هارون الحضرمي عن سوّار بن عبد اللّه العنبري القاضي عن ابن مهدي عن حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب. قال: كانت المرأة تجيء في زمان عثمان إلى بيت المال فتحمل وقرها وتقول: اللّهم بدل، اللّهم غير. فقال حسان بن ثابت حين قتل عثمانﷺ:

قلتـم بـدّل فقـد بدّلكـم سـنة حـرى وحربـاً كـاللّهب

مـا نقمتـم مـن ثيـاب خلفـة وعبيـدٍ وإمـاء وذهـبْ

قال: وقال أبو حميد أخو بني ساعدة ـ وكان ممن شهد بدراً، وكان في من جانب عثمان ـ فلما قتل قال: واللّه ما أردنا قتله، ولا كنا نرى أن يبلغ منه القتل، اللّهم إن لك عليَّ أن لا أفعل كذا وكذا ولا أضحك حتى ألقاك.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٧٩/٣] أنا عبد اللّه بن إدريس أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. قال: لقد رأيتني وإن عمر موثقي وأخته على الإسلام، ولو ارفضَّ أحد فيما صنعتم بابن عفان لكان حقيقا.

وهكذا رواه البخاري في صحيحه [٣٨٦٢].

وروي محمد بن عائذ عن إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير. قال: سمع عبد اللّه بن سلام رجلا يقول لآخر: قتل عثمان بن عفان فلم يتطح فيه عنزان. فقال ابن سلام: أجل! إن البقر والمعز لا تتطح في قتل الخليفة، ولكن يتطح فيه الرجال بالسلاح، واللّه لتقتلن به أقوام إنهم لفي أصلاب آبائهم ما ولدوا بعد.

وقال ليث عن طاوس. قال: قال ابن سلام: يحكم عثمان يوم القيامة في القاتل والخاذل.

وقال أبو عبد اللّه المحاملي: ثنا أبو الأشعث ثنا حزم بن أبي حزم سمعت أبا الأسود يقول: سمعت أبا بكرة يقول: لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أشرك في دم عثمان.

وقال أبو يعلى: [مسنده(٦٧٦٧)] ثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة ثنا محمد بن عباد المنائي ثنا البراء بن أبي فضالة ثنا الحضرمي عن أبي مريم رضيع الجارود. قال: كنت بالكوفة فقام الحسن بن علي خطيباً فقال: أيها الناس! رأيت البارحة في منامي عجبا، رأيت الرب تبارك وتعالى فوق عرشه فجاء رسول اللّه ﷺ حتى قام عند قائمة من قوائم العرش، فجاء أبو بكر فوضع يده على منكب النبي ﷺ ثم جاء عمر فوضع يده على منكب أبي بكر، ثم جاء عثمان فكان نَبِذَةً فقال: رب سل عبادك فيم قتلوني؟ فانبعث من السماء ميزابان من دم في الأرض، قال: فقيل لعلي: ألا ترى مايحدث به الحسن؟! فقال: حدث بما رأى.

ورواه أبو يعلى [مسنده(٦٧٦٨)] أيضا عن سفيان بن وكيع عن جميع بن عمر بن عبد الرحمن بن مجالد عن طحرب العجلي: سمعت الحسن بن علي يقول: ماكنت لأقاتل بعد رؤيا رأيتها، رأيت العرش ورأيت رسول اللّه ﷺ متعلقاً بالعرش، ورأيت أبا بكر واضعا يده على منكب رسول اللّه ﷺ، وكان عمر واضعا يده على منكب أبي بكر، ورأيت عثمان واضعا يده على منكب عمر، ورأيت دماً دونهم، فقلت: ماهذا؟ فقيل: هذا دم عثمان يطلب اللّه به.

وقال مسلم بن إبراهيم: ثنا سلام بن مسكين عن وهب بن شبيب عن زيد بن صوحان أنه قال: يوم قتل عثمان نفرت القلوب منافرها، والذي نفسي بيده لا تتألف إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن سيرين: قالت عائشة: مُصْتُموه مَوْصَ الإناء ثم قتلتموه!

وقال خليفة بن خياط [تاريخه: ١٩١/١] ثنا أبو قتيبة ثنا يونس بن أبي إسحاق عن عون بن عبد اللّه بن عتبة. قال: قالت عائشة: غضبت لكم من السوط ولا أغضب لعثمان من السيف! استعتبتموه حتى إذا تركتموه كالقُلْب المصفى قتلتموه.

وقال أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة عن مسروق. قال: قالت عائشة حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قتلتموه.

وفي رواية: ثم قربتموه فذبحتموه كما يذبح الكبش؟ فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم أن يخرجوا إليه، فقالت: لا والذي آمن به المؤمنين وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء

حتى جلست مجلسي هذا.

قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٤٩٦].

وهذا إسناد صحيح إليها.

وفي هذا وأمثاله دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الخوارج قبحهم الله، زوروا كتبا على لسان الصحابة إلى الآفاق يحرضونهم على قتال عثمان، كما قدمنا بيانه ولله الحمد والمنة.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا حزم القطعي ثنا أبو الأسود سوادة أخبرني طلق بن خُشّاف قال: قال قتل عثمان فتفرقنا في أصحاب محمد ﷺ نسألهم عن قتله فسمعت عائشة تقول: قتل مظلوماً لعن الله قتلته.

وروى محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة عن أنس. قال: قالت أم سليم لما سمعت بقتل عثمان: رحمه الله، أما إنهم لن يحتلبوا بعده إلا دما.

وأما كلام أئمة التابعين في هذا الفصل فكثير جداً يطول ذكرنا له، فمن ذلك قول أبي مسلم الخولاني حين رأى الوفد الذين قدموا من قتله: أما مررتم ببلاد ثمود؟ قالوا: نعم! قال: فأشهد أنكم مثلهم، لخليفةُ الله أكرم عليه من ناقته.

وقال ابن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن. قال: لو كان قتل عثمان هدى لاحتلبتْ به الأمة لبنا، ولكنه كان ضلالا فاحتلبت به الأمة دماً.

وقال أبو جعفر الباقر: كان قتل عثمان على غير وجه الحق.

وهذا ذكر بعض ما رثي به ﷺ

قال مجالد عن الشعبي: ماسمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك:

فكفَّ يديه ثم أغلقَ بابَهُ ... وأيقنَ أنَّ اللَّه ليسَ بغافلِ
وقالَ لأهلِ الدارِ لا تقتلوهُمُ ... عفا اللَّهُ عن كلِ امرئ لم يقاتلِ
فكيفَ رأيتَ اللَّه صب عليهمُ ... العداوةَ والبغضاءَ بعدَ التواصلِ
وكيفَ رأيتَ الخيرَ أدبَر بعدَهُ ... عنِ الناسِ إدبارَ النعامِ الجوافلِ

وقد نسب هذه الأبيات سيف بن عمر إلى أبي المغيرة بن الأخنس بن شريق.

وقال سيف بن عمر: وقال حسان بن ثابت:

ماذا أردتم من أخي الدينِ باركت ... يدُ اللَّهِ في ذاكَ الأديمِ المقدَّدِ
قتلتمْ وليَ اللَّهِ في جوفِ دارهِ ... وجئتمْ بأمرٍ جائرٍ غيرِ مهتدِ
فهلا رعيتم ذمةَ اللَّهِ بينكم ... وأوفيتم بالعهدِ عهدِ محمدِ
ألمْ يكُ فيكم ذا بلاء ومصدقٍ ... وأوفاكم قِدْماً لدى كلِّ مشهدِ
فلا ظفرتْ أيمانُ قومٍ تبايعوا ... على قتلِ عثمانَ الرشيدِ المسددِ

وقال ابن جرير [تاريخه: ٤/٤٢٥]: وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

من سرهُ الموتُ صرفاً لا مزاجَ لهُ ... فليأتِ مأسدةً في دارِ عثمانا
مستشعري حَلَقَ الماذيِّ قد شُفعت ... قَبلَ المخاطمِ بيضٌ زانَ أبدانا
ضحوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ بهِ ... يقطعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا
صبراً فدى لكمُ أمي وما ولدت ... قد ينفعُ الصبرُ في المكروهِ أحيانا
فقد رضينا بأرضِ الشامِ نافرةً ... وبالأميرِ وبالإخوانِ إخوانا
إني لمنهمْ وإن غابوا وإن شهدوا ... ما دمتُ حياً وما سُمِّيتُ حسانا
لتسمعنَّ وشيكاً في ديارهمُ ... اللَّهُ أكبرُ يا ثاراتِ عثمانا
يا ليتَ شعري وليتَ الطير تخبرني ... ما كان شأن علي وابنِ عفانا

وقال راعي الإبل النميري في ذلك:

عشيةَ يدخلونَ بغيرِ إذنٍ ... على متوكلٍ أوفى وطابا
خليلُ محمدٍ ووزيرُ صدقٍ ... ورابعُ خيرِ من وطئ الترابا

كيف وقعَ قتلُ عثمانَ

إن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان رضي الله عنه بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم؟

فجوابه من وجوه:

أحدها: أن كثيراً منهم بل أكثرهم أو كلهم لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله، فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عينا، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلى الناس مروان، أو أن يعزل نفسه ويستريح من هذه الضائقة الشديدة. وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع، ولا أن هؤلاء يجترئون عليه إلى ما هذا حده، حتى وقع ماوقع والله أعلم.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا، فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج لما اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لما اقترب مجيئهم، انتهزوا فرصتهم، قبحهم الله، وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبا من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة، لأن الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة وفي الحج.

ومع هذا كان كثير من الصحابة اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف، يضعه على حبوته إذا احتبى، والخوارج محدقون بدار عثمان رضي الله عنه، وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكنَ ذلك.

ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجفون عن عثمان رضي الله عنه، لكي تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته، فما فجأ الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها، وأحرقوا بابها، وتسوروا عليه حتى قتلوه.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان رضي الله عنه، بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر، كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق وغيرهم.

قال أبو عمر بن عبد البر [الاستيعاب: ١٠٤٨/٣]: دفنوا عثمان رضي الله عنه بحشّ كوكب - وكان قد اشتراه وزاده في البقيع.

ولقد أحسن بعض السلف إذ يقول وقد سئل عن عثمان: هو أمير البررة، وقتيل الفجرة، مخذول من خذله، منصور من نصره.

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في آخر ترجمة عثمان وفضائله - بعد حكايته هذا الكلام: قلت: الذين قتلوه أو ألبوا عليه قتلوا إلى عفو الله ورحمته، والذين خذلوه خُذلوا وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبه معاوية، وابنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته، استطالوا حياته وملوه مع فضله وسوابقه، فتملك عليهم من هو من بني عمه بضعاً وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير. وهذا لفظه بحروفه.

فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو

■ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. أبوعمرو وأبو عبد الله، القرشي، الأموي،، أمير المؤمنين، ذو النورين، وصاحب الهجرتين، والمصلّي إلى القبلتين، وزوج الابنتين.

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس. وأمها أم حكيم وهي البضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان ثالث الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، المأمور باتباعهم والاقتداء بهم.

أسلم عثمان رضي الله عنه قديما على يدي أبي بكر الصديق، وكان سبب إسلامه عجيبا فيما ذكره الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص٢٠، ٢١]، وملخص ذلك أنه لما بلغه أن رسول الله ﷺ زوّج ابنته رقية - وكانت ذات جمال - من ابن عمها عتبة بن أبي لهب، تأسف إذ لم يكن هو تزوجها، فدخل على أهله مهموما فوجد عندهم خالته سعدى بنت كريز - وكانت كاهنة - فقالت له:

أبشر وحييت ثلاثا تترا ... ثم ثلاثا وثلاثا أخرى
ثم بأخرى كي تتم عشرا ... أتاك خير وو قيت شرا
انكحت والله حصانا زهرا ... وأنت بكر ولقيت بكرا
وافيتها بنت عظيم قدرا ... بنيت أمراً قد أشاد ذكرا

قال عثمان: فعجبت من قولها حيث تبشرني بامرأة قد تزوجت بغيري: فقلت: ياخالة! ماتقولين؟ فقالت: عثمان

لك الجمالُ، ولك اللسانُ ... هذا نبيٌ ومعه البرهانُ
أرسلهُ بحقِّه الديّانُ ... وجاءه التنزيلُ والفرقانُ
فاتبعه لا تغتالكَ الأوثانُ

قال: فقلت إنك لتذكرين أمراً ما وقع ببلدنا. فقالت: محمد بن عبد الله، رسول من عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو به إلى الله ثم قالت:

مصباحُه مصباحُ ... ودينُه فلاحُ
وأمره نجاحُ ... وقرنه نطاحُ
ذلَّت له البطاحُ ... ما ينفعُ الصيّاحُ
لو وقعَ الذّباحُ ... وسُلّت الصفاحُ
ومُدّت الرّماحُ

قال عثمان: فانطلقت مفكراً فلقيني أبو بكر فأخبرته، فقال: ويحك يا عثمان إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأصنام التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟ قال: قلت: بلى! والله إنها لكذلك، فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله،قد بعثه الله إلى خلقه برسالته، هل لك أن تأتيه؟ فاجتمعنا برسول الله ﷺ فقال: «ياعثمان أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه» قال: فوالله ما تمالكت حين سمعت رسول الله قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده وسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ فكان يقال: أحسنُ زوج رآه إنسانٌ رقيةُ وزوجها عثمان

فقالت في ذلك سعدى بنت كريز:

هدى الله عثمانا بقولي إلى الهدى ... وأرشدهُ والله يهدي إلى الحق
فتابعَ بالرأي السديدِ محمداً ... وكانَ برأيٍ لا يصدُّ عن الصدقِ
وأنكحهُ المبعوثُ بالحقِ بنتَهُ ... فكانا كبدرٍ مازجَ الشمسَ في الأفقِ
فداؤكَ يا ابنَ الهاشميينَ مهجتي ... أنتَ أمينُ اللّه أرسلتَ للخلقِ

قال: ثم جاء أبو بكر من الغد بعثمان بن مظعون، وبأبي عبيدة بن الجرّاح وعبد الرحمن بن عوف، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا وكانوا مع من اجتمع مع رسول الله ﷺ ثمانية وثلاثون رجلاً.

ثم هاجر إلى الحبشة أول الناس ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فلما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقام بسببها في المدينة، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منه وأجره فيها، فهو معدود فيمن شهدها. فلما توفيت زوجه رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم فتوفيت أيضا في صحبته، وقال رسول الله ﷺ: «لو كان عندنا أخرى لزوجناها بعثمان» [المعجم الكبير: ١٨٤/١٧ بنحوه].

وشهد أحداً وفر يومئذ فيمن تولى، وقد نص الله تعالى على العفو عنهم، وشهد الخندق والحديبية، وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذ بإحدى يديه، وشهد خيبر وعمرة القضاء، وحضر الفتح وهوازن والطائف وغزوة تبوك، وجهز فيها جيش العسرة، فتقدم في رواية عبد الرحمن بن خباب أنه جهزهم يومئذ بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها [أطراف المسند: ٢٥٧/٤].

وعن عبد الرحمن بن سمرة أنه جاء يومئذ بألف دينار فصبها في حجر رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ماضر عثمان مافعل بعد هذا اليوم مرتين [الدلائل للبيهقي: ٤١٢/٥].

وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وتوفي وهو عنه راض.

ثم صحب أبا بكر فأحسن صحبته، وتوفي وهو عنه راض، وصحب عمر فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض. ونص عليه في أهل الشورى الستة، فكان خيرهم كما سيأتي.

فولي الخلافة بعده ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصادق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

وقوله ﷺ: «إن اللّه زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» [م(٢٨٨٩) من حديث ثوبان].

وقوله ﷺ «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل اللّه» [خ(٣١٢٠)] وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد في زمان عثمان رضي اللّه عنه.

قد كان رضي اللّه عنه حسن الشكل، مليح الوجه، كريم الأخلاق، ذا حياء كثير، وكرم غزير، يؤثر أهله وأقاربه في اللّه، تأليفاً لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا الفاني، لعله يرغبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى، كما كان النبي ﷺ يعطي أقواماً ويدع آخرين، يعطي أقواماً خشية أن يكبهم اللّه على وجوههم في النار، ويكل آخرين إلى ما جعل اللّه في قلوبهم من الهدى والإيمان، وقد عابه بسبب هذه الخصلة أقوام، كما عاب بعض الخوارج على رسول اللّه ﷺ في الإيثار. وقد قدمنا ذلك في غزوة حنين حيث قسم غنائمها.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل عثمان رضي اللّه عنه نذكر ما تيسر منها إن شاء اللّه وبه الثقة، وهي قسمان:

الأول: فضائل عثمان مع غيره

فمن ذلك الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه [٣٦٩٩]: حدثنا مسدد ثنا يحيى بن سعيد عن سعيد عن قتادة أن أنساً حدثهم قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف فقال: «اسكن أحد ـ أظنه ضربه برجله ـ فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان»

تفرد به دون مسلم.

وقال الترمذي [٣٦٩٦]: ثنا قتيبة ثنا عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال النبي ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد». ثم قال: وفي الباب: عن عثمان وسعيد بن زيد وابن عباس، وسهل بن سعد، وأنس بن مالك، وبريدة الأسلمي، وهذا حديث صحيح.

قلت: ورواه أبو داود [٤٦٥١]، ورواه الترمذي [٣٧٠٣] عن عثمان في خطبته يوم الدار، وقال: على ثبير.

حديث آخر: وهو ما ثبت في الصحيحين [خ(٣٦٩٥) و(٧٢٦٢)، م(٢٤٠٣)] من حديث أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع رسول اللّه ﷺ في حائط، فأمرني بحفظ الباب، فجاء رجل يستأذن فقلت: من هذا؟ قال: أبو بكر، فقال رسول اللّه ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة.» ثم جاء عمر فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه» فدخل وهو يقول: اللّهم صبراً. في رواية: اللّه المستعان.

رواه عنه قتادة [المسند: ٣٩٣/٤] وأيوب السختياني.

وقال البخاري [٣٦٩٥]: وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم الأحول وعلي بن الحكم سمعا أبا عثمان يحدث عن أبي موسى الأشعري بنحوه، وزاد عاصم: أن رسول اللّه ﷺ كان قاعداً في مكان، فيه ماء قد انكشف عن ركبتيه، أو ركبته، فلما دخل عثمان غطاها.

وهو في الصحيحين [خ(٣٦٧٤)، م(٢٤٠٣)] أيضا من حديث سعيد بن المسيب عن أبي موسى، وفيه أن أبا بكر وعمر دليا أرجلهما مع رسول اللّه في باب القف وهو في البئر، وجاء عثمان فلم يجد له موضعاً فجلس ناحية قال سعيد بن المسيب: فأولت ذلك قبورهم اجتمعتْ وانفرد عثمان.

وقال الإمام أحمد [٤٠٨/٣]: حدثنا يزيد بن هارون ثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة. قال: قال نافع بن الحارث: خرجت مع رسول اللّه ﷺ حتى دخل حائطا فقال: «أمسك عليَّ الباب»، فجاء حتى جلس على القف ودلى رجليه، فضرب الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر قلت: يا رسول اللّه هذا أبو بكر، قال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فدخل فجلس مع رسول اللّه ﷺ على القف ودلى رجليه في البئر، ثم ضرب الباب: فقلت: من هذا؟ قال: عمر، قلت: يارسول اللّه هذا عمر، قال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ففعلت، فجاء فجلس مع رسول اللّه ﷺ على القف ودلى رجليه في البئر، ثم ضرب الباب فقلت: من هذا؟ قال: عثمان، قلت: يارسول اللّه هذا عثمان، قال: «ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء»، فأذنت له وبشرته بالجنة، فجلس مع رسول اللّه ﷺ على القف ودلى رجليه في البئر.

هكذا وقع في هذه الرواية.

وقد أخرجه أبو داود [٥١٨٨] والنسائي [كبرى(٨١٣٢)] من حديث أبي سلمة.

فيحتمل أن أبا موسى ونافع بن عبد الحارث كانا موكلين بالباب، أو أنها قصة أخرى.

وقد رواه الإمام أحمد [٤٠٨/٣] عن عفان عن وهيب عن موسى بن عقبة سمعت أبا سلمة يحدث ولا أعلمه إلا عن نافع بن عبد الحارث: أن رسول اللّه ﷺ دخل حائطا فجلس على قف البئر، فجاء أبو بكر فاستأذن فقال لأبي موسى: «ائذن له وبشره بالجنة». ثم جاء عمر فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشره بالجنة وسيلقى بلاء».

وهذا السياق أشبه من الأول، على أنه قد رواه النسائي [كبرى(٨١٣١)] من حديث صالح بن كيسان عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث عن أبي موسى الأشعري فاللّه أعلم.

وقال الإمام أحمد [١٦٥/٢]: حدثنا يزيد أنا همام عن قتادة عن ابن سيرين ومحمد بن عبيد عن عبد اللّه بن عمرو قال: كنت مع رسول اللّه ﷺ فجاء أبوبكر فاستأذن فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ثم جاء عمر فاستأذن فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ثم جاء عثمان فاستأذن فقال: «ائذن له وبشره بالجنة». قال: قلت: فأين أنا؟ قال: «أنت مع أبيك».

تفرد به أحمد.

وقد رواه البزار [كشف الأستار (١٥٧٢، ١٥٧٣)] وأبو يعلى [مسنده(٣٩٥٨)] من حديث أنس بن مالك بنحو ما تقدم.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [١/٧١، ٦/١٥٥]: حدثنا حجاج ثنا ليث حدثني عقيل عن ابن شهاب عن يحيى بن سعيد بن العاص أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على النبي ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فاستأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يارسول اللّه! ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحالة لا يبلغ إليّ حاجته» قال الليث: وقال جماعة الناس: إن رسول اللّه ﷺ قال لعائشة: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة!»

رواه مسلم [(٢٤٠٢)(٢٧)] من حديث الليث بن سعد به [(٢٤٠٢)(٢٧)] ومن حديث صالح بن كيسان عن الزهري به [(٢٤٠٢)(٠٠٠)].

ورواه مسلم [٢٤٠١] من حديث محمد بن أبي حرملة عن عطاء وسليمان ابني يسار وأبي سلمة عن عائشة.

ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث سهيل عن أبيه عن عائشة. ورواه جبير بن نفير وعائشة بنت طلحة عنها.

وقال الإمام أحمد [٦/٦٢]: حدثنا مروان ثنا عبيد اللّه بن سيّار سمعت عائشة بنت طلحة تذكر عن عائشة أم المؤمنين أن رسول اللّه ﷺ «كان جالساً كاشفاً عن فخذه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له وهو على حاله، ثم استأذن عثمان فارخى عليه ثيابه، فلما قاموا قلت: يارسول اللّه استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك! فقال: «يا عائشة ألا أستحي من رجل واللّه إن الملائكة لتستحي منه!».

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

طريق أخرى عن حفصة:

رواه الحسن بن عرفة وأحمد بن حنبل [٦/٢٨٨] عن روح بن عبادة عن ابن جريج، أخبرني أبو خالد عثمان بن خالد عبد اللّه بن أبي سعيد المدني حدثتني حفصة، فذكر مثل حديث عائشة، وفيه فقال: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة؟».

طريق أخرى عن ابن عبّاس:

قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار(٢٥٠٧)]: حدثنا أبو كريب ثنا يونس بن بكير ثنا النضر ـ هو ابن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز الكوفي ـ عن عكرمة عن ابن عباس. قال قال رسول اللّه ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة؛ عثمان بن عفان!» ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد.

قلت: هو على شرط الترمذي ولم يخرجوه.

طريق أخرى عن ابن عمر:

قال الطبراني [الكبير: ١٢/٣٢٧]: حدثنا عبد اللّه بن أحمد بن حنبل ثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ثنا أبو معشر حدثني إبراهيم بن عمر بن أبان حدثني أبي عمر بن أبان عن أبيه. قال سمعت عبد اللّه بن عمر يقول: بينما رسول اللّه ﷺ جالس وعائشة وراءه إذ استأذن أبو بكر فدخل، ثم أستأذن عمر فدخل، ثم استأذن سعد بن مالك فدخل، ثم استأذن عثمان بن عفان ورسول اللّه ﷺ يتحدث كاشفا عن ركبته، فمدّ ثوبه على ركبته حين استأذن عثمان، وقال لامرأته: استأخري، فتحدثوا ساعة ثم خرجوا، فقالت عائشة: يا نبي اللّه! دخل أبي وأصحابه فلم تصلح ثوبك على ركبتك ولم تؤخرني عنك، فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة! والذي نفسي بيده إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من اللّه ورسوله، ولو دخل وأنت قريب مني لم يتحدث ولم يرفع رأسه حتى يخرج».

هذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه زيادة على ما قبله، وفي إسناده ضعف.

قلت: وفي الباب عن علي وعبد اللّه بن أبي أوفى، وزيد بن ثابت [الطبراني في الكبير: ٥/١٧٨]:

وروى أبو مروان القرشي عن أبيه عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «عثمان حَييٌّ تستحي منه الملائكة».

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٣/١٨٤، ٢٨١]: حدثنا وكيع عن سفيان عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس. قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين اللّه عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب اللّه أُبيّ. وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وهكذا رواه الترمذي [٣٧٩١] والنسائي [كبرى (٨٢٤٢، ٨٢٨٧)] وابن ماجه [١٥٤] من حديث خالد الحذاء، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي صحيح البخاري [٤٣٨٢] ومسلم [٢٤١٩] آخره «ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وقد روى هشيم عن كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر مثل حديث أبي قلابة عن أنس أو نحوه.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٣/٣٥٥]: حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا محمد بن حرب حدثني الزبيدي عن ابن شهاب عن عمرو بن أبان بن عثمان عن جابر بن عبد اللّه. أنه كان يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: «أُري الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول اللّه ﷺ، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر». قال جابر: فلما قمنا من عند رسول اللّه ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول اللّه ﷺ، وأما ما ذكر رسول اللّه ﷺ عن نوط بعضهم لبعض، فهؤلاء ولاة هذا الأمر الذي بعث اللّه به نبيه ﷺ.

ورواه أبو داود [٤٦٣٦] عن عمرو بن عثمان عن محمد بن حرب، ثم قال: ورواه يونس وشعيب فلم يذكرا عمر.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٢/٧٦]: حدثنا أبو داود ـ عمر بن سعد ـ ثنا بدر بن عثمان عن عبيد اللّه بن مروان عن أبي عائشة عن ابن عمر قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال: «رأيت قبل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي توزنون بها، فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فوزنت بهم فرجحت، ثم جيء بأبي بكر فوزن بهم فوزَن، ثم جيء بعمر فوزن بهم فوزَن، ثم جيء بعثمان فوزن بهم فوزَن، ثم رفعت»

تفرد به أحمد

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا هشام بن عمار ثنا عمرو بن واقد ثنا يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن معاذ بن جبل. قال قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت أني وضعت في كفة وأمتي في كفة فعدلتها، ثم وضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة فعدلها، ثم وضع عمر في كفة وأمتي في كفة فعدلها، ثم وضع عثمان في كفة وأمتي في كفة فعدلها».

حديث آخر

قال أبو يعلى [مسنده(٤٨٨٤)]: حدثنا عبد الله بن مطيع ثنا هشيم عن العوام، عمن حدثه عن عائشة. قالت: لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه، قالت: فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هذا أمْرُ الخلافة من بعدي». وقد تقدم هذا الحديث في بناء مسجده أول مقدمه المدينة عليه الصلاة والسلام، وكذلك تقدم في دلائل النبوة [الدلائل للبيهقي: ٦/٦٤، ٦٥] من حديث الزهري عن رجل عن أبي ذر في تسبيح الحصا في يده عليه الصلاة والسلام ثم في كف أبي بكر، ثم في كف عمر، ثم في كف عثمان، رضي الله عنهم، وفي بعض الروايات: فقال رسول الله ﷺ: «هذه خلافة النبوة».

وسيأتي حديث سفينة أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً».

فكانت ولاية عثمان مدتها ثنتي عشرة سنة، من جملة هذه الثلاثين بلا خلاف بين العلماء العاملين، كما أخبر به سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

حديث آخر

وهو ما روي من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه شهد للعشرة بالجنة، وهو أحدهم بنص النبي ﷺ على ذلك.

حديث آخر

قال البخاري [٣٦٩٧]: حدثنا محمد بن حازم بن بزيع ثنا شاذان ثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نذر أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم. تابعه عبد الله بن صالح بن عبد العزيز.

تفرد به البخاري.

ورواه إسماعيل بن عياش، والفرج بن فضالة، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن نافع عن ابن عمر.

ورواه أبو يعلى [مسنده(٥٦٠٤)] عن أبي معشر عن يزيد بن هارون عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عمر به.

طريق أخرى عن ابن عمر:

قال الإمام أحمد [٢/١٤]: حدثنا أبو معاوية ثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن ابن عمر، قال: كنا نعد ورسول الله ﷺ حيٌّ وأصحابه متوافرون أبو بكر وعمر وعثمان ثم نسكت».

طريق أخرى عن ابن عمر بلفظ آخر

قال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار(١٥٦٩)]: حدثنا عمرو بن علي وعقبة بن مكرم قالا: ثنا أبو عاصم عن عمر بن محمد عن سالم عن أبيه. قال: كنا نقول في عهد النبي ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان - يعني في الخلافة.

وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه،، لكن قال البزار: وهذا الحديث قد روي عن ابن عمر من وجوه وعمر بن محمد لم يكن بالحافظ، وذلك في حديثه متبيِّن إذا روى عن غير سالم.

وقد رواه غير واحد من الضعفاء عن الزهري عن سالم عن أبيه به.

وقد اعتنى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص١٥٣-١٥٩] بجمع طرقه عن ابن عمر فأفاد وأجاد.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني [الكبير: ١١/٧٦]: حدثنا سعيد بن عبدويه الصفار البغدادي حدثنا علي بن جميل الرقي أنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة - أو ما في الجنة شجرة - شك علي بن جميل، ما عليها ورقة إلا مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين»

فإنه حديث ضعيف في إسناده من تكلم فيه ولا يخلو من نكارة، والله أعلم.

الثاني: فضائل عثمان وحده

قال البخاري [٣٦٩٨]: حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا أبو عوانة ثنا عثمان بن وهب. قال: «جاء رجل من أهل مصر حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر! إني سائلك عن شيء فحدثني، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم! قال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم! قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم! قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أُبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ: بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

تفرد به دون مسلم.

طريق أخرى

وقال الإمام أحمد [١/٦٨]: حدثنا معاوية بن عمرو ثنا زائدة عن عاصم عن شقيق. قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: مالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم حنين - قال عاصم: يقول: يوم أحد - ولم أتخلف عن يوم بدر، ولم أترك سنة عمر، قال: فانطلق فخبَّر بذلك عثمان فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم حنين، فكيف يعيرني بذلك وقد عفا الله عني فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ وقد ضرب لي رسول الله ﷺ، بسهمي ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه فقد شهد، وأما قوله: لم أترك سنة عمر، فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدِّثه بذلك.

حديث آخر

قال البخاري [٣٦٩٦]: حدثنا أحمد بن شبيب بن سعيد ثنا أبي عن يونس قال ابن شهاب: أخبرني عروة أن عبيد الله بن عدي بن الخيار أخبره أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد فقد أكثر الناس فيه؟ فقصدت لعثمان حين خرج إلى الصلاة. قلت: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك، فقال: يا أيها المرء منك قال أبو عبد الله: قال معمر: أراه قال: أعوذ بالله منك ـ فانصرفت فرجعت إليهم إذ جاء رسول عثمان، رضي الله عنه، فأتيته فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله، فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه، وقد أكثر الناسُ في شأن الوليد. فقال: أدركت رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا! ولكن خلص إلي من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها، قال: أما بعد! فإن الله بعث محمداً بالحق وكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمنت بما بعث به، وهاجرت الهجرتين كما قلت، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته، فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله عز وجل، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله، ثم استخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟ قلت: بلى! قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه بالحق إن شاء الله. ثم دعا علياً فأمره أن يجلده فجلده ثمانين.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٨٦/٦، ٨٧]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الوليد بن سليمان حدثني ربيعة بن يزيد عن عبدالله بن عامر عن النعمان بن بشير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فجاء فأقبل عليه رسول الله ﷺ فلما رأينا إقبال رسول الله ﷺ على عثمان أقبلت إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلام كلَّمه أن ضرب منكبه وقال: «ياعثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثاً فقلت لها: يا أم المؤمنين؟ فأين كان هذا عنك؟ قالت: نُسِّيته والله فماذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به، فكتبت إليه به كتاباً»

وقد رواه أبو عبد الله الجسري عن عائشة وحفصة بنحو ما تقدم.

ورواه قيس بن أبي حازم وأبو سهلة عنها.

ورواه أبو سهلة عن عثمان: أن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً فأنا صابر نفسي عليه.

ورواه فرج بن فضالة عن محمد بن الوليد الزبيدي عن الزهري عن عروة عن عائشة فذكره.

قال الدارقطني: تفرد به الفرج بن فضالة ورواه أبو مروان محمد بن عثمان بن خالد العثماني عن أبيه عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

ورواه ابن عساكر [تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص٢٨١] من طريق المنهال بن عمر عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عنها.

ورواه أبو أسامة عن الجريري: حدثني أبوبكر العدوي قال: سألت عائشة، وذكر عنها نحو ما تقدم. ورواه خصيف عن مجاهد عن عائشة بنحوه.

قال الإمام أحمد [١١٤/٦]: حدثنا محمد بن كناسة الأسدي أبو يحيى حدثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه. قال: بلغني أن عائشة قالت: ما استمعت على رسول الله ﷺ إلا مرة، فإن عثمان جاءه في نحر الظهيرة فظننت أنه جاءه في أمر النساء، فحملتني الغيرة على أن أصغيت إليه فسمعته يقول: «إن الله ملبسك قميصا تريدك أمتي على خلعه فلا تخلعه» فلما رأيت عثمان يبذل لهم ما سألوه إلا خلعه علمت أنه عهد من رسول الله ﷺ الذي عهد إليه.

طريق اخرى

قال الطبراني [الأوسط (٨٧٤٧)]: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف، قال: كنا عند شفي الأصبحي فقال: حدثنا عبد الله بن عمرو قال: التفت رسول الله ﷺ فقال: «ياعثمان إن ألبسك الله قميصا فأرادك الناس على خلعه فلا تخلعه، فوالله لئن خلعته لا ترى الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»

وقد رواه أبو يعلى [مسنده (٧٠٤٥)] من طريق عبدالله بن عمر عن أخته حفصة أم المؤمنين. وفي سياق متنه غرابة والله أعلم.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٢٥٠/٦]: حدثنا عبد الصمد حدثتني فاطمة بنت عبد الرحمن قالت: حدثتني أمي أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقال: قولي إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه، فقالت: لعن اللّهُ من لعنه، فوالله لقد كان قاعداً عند رسول الله ﷺ، وإن رسول الله ﷺ لمسند ظهره إلي، وإن جبريل ليوحي إليه القرآن، وإنه ليقول له: «اكتب ياعثيم»، قالت عائشة: فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله»

ثم رواه الإمام أحمد [٢٦١/٦] عن يونس عن عمر بن إبراهيم اليشكري عن أمه عن أمها: أنها سألت عائشة عند الكعبة عن عثمان فذكرت مثله.

حديث آخر

قال البزار [كشف الأستار (٣٢٦٤)]: حدثنا عمر بن الخطاب قال: ذكر أبو المغيرة عن صفوان بن عمرو عن ماعز التميمي عن جابر «أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة فقال أبو بكر: أنا أدركها؟ فقال: «لا» فقال عمر: أنا يارسول الله أدركها؟ قال: «لا» فقال عثمان: يارسول الله فأنا أدركها؟ قال: «بك يبتلون» قال البزار: وهذا لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

حديث آخر

قال الإمام أحمد [١١٥/٢]: حدثنا أسود بن عامر ثنا سنان بن هارون ثنا كليب بن وائل عن ابن عمر. قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال «يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوماً» فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان.

ورواه الترمذي [٣٧٠٨] عن إبراهيم بن سعيد عن شاذان به وقال: حسن غريب.

حديث أخر

قال الإمام أحمد [٣٤٤/٢، ٣٤٥]: حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة قال: حدثني أبو أمي أبو حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنه واختلافاً» ـ أو قال: «اختلافا وفتنة» ـ فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه» وهو يشير إلى عثمان بذلك.

تفرد به أحمد وإسناده جيد حسن ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٥/٣٣، وبنحوه: ٥/٣٥]: أبو أسامة - حماد بن أسامة - حدثنا كهمس بن الحسن عن عبد الله بن شقيق حدثني هرم بن الحارث وأسامة بن خريم - وكانا يغازيان - فحدثاني حديثا ولم يشعر كل واحد منهما أن صاحبه حدثنيه عن مرة البهزي قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في طريق من المدينة فقال: «كيف تصنعون في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر؟» قالوا: نصنع ماذا يا رسول الله؟ قال: «عليكم هذا وأصحابه» - قال: فأسرعت حتى عييت فادركت الرجل فقلت: هذا يا رسول الله؟ قال: «هذا»، فإذا هو عثمان بن عفان. فقال: «هذا وأصحابه» فذكره.

طريق أخرى

وقال الترمذي في جامعه [٣٧٠٤]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني أن خطباء قامت بالشام وفيهم رجال من أصحاب النبي ﷺ، فقام آخرهم رجل يقال له مرة بن كعب، لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت، وذكر الفتن فقربها فمر رجل مقنّع في ثوب، فقال: «هذا يومئذ على الهدى» فقمت إليه. فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال «نعم!» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن ابن عمر وعبد الله بن حوالة وكعب بن عجرة.

قلت: وقد رواه أسد بن موسى عن معاوية بن صالح حدثني سليم بن عامر عن جبير بن نفير عن مرة بن كعب البهزي فذكر نحوه.

وقد رواه الإمام أحمد [٤/٢٣٦] عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية عن صالح عن سليم بن عامر عن جبير بن نفير عن كعب بن مرة البهزي. والصحيح مرة بن كعب كما تقدم.

وأما حديث ابن حوالة، فقال حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن عبد الله بن شقيق عن عبد الله بن حوالة. قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنت وفتنة تكون في أقطار الأرض؟» قلت: ما خار الله لي ورسوله، قال: «اتبع هذا الرجل، فإنه يومئذ ومن اتبعه على الحق» قال: فاتبعته فأخذت بمنكبه فلفتُّه فقلت: هذا يارسول الله؟ فقال: «نعم» فإذا هو عثمان بن عفان».

وقال حرملة عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط عن ابن حوالة. قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من نجا منهن فقد نجا، موتي، وخروج الدجال وقتل خليفة مصطبر قوام بالحق يعطيه»

وأما حديث كعب بن عجرة. فقال الإمام أحمد [٤/٢٤٢]: حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي أخبرني معاوية بن مسلم عن مطر الوراق عن ابن سيرين عن كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها وعظمها قال: ثم مر رجل مقنع في ملحفة فقال: «هذا يومئذ على الحق» فانطلقت مسرعاً - أو قال محضِراً - وأخذت بضبعيه فقلت: هذا يا رسول الله؟ قال: «هذا» فإذا هو عثمان بن عفان.

ثم رواه أحمد [٤/٢٤٣] عن يزيد بن هارون عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن كعب بن عجرة فذكر مثله.

ورواه أبو يعلى عن هدبة عن همام عن قتادة عن محمد بن سيرين عن كعب بن عجرة. وكذا رواه أبو عون عن ابن سرين عن كعب بن عجرة.

وقد تقدم حديث أبي ثور الفهمي عنه في قوله في الخطبة التي خاطب بها الناس من داره: والله ما تغنّيت ولا تمنيت ولا زنيت في جاهليه ولا إسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ. وأنه كان يعتق كل يوم جمعة عتيقاً فإن تعذر عليه أعتق في الجمعة الأخرى عتيقين.

وقال مولاه حمران: كان عثمان يغتسل كل يوم منذ أسلم. [مسند أحمد: ١/٦٧]

حديث آخر

قال الإمام أحمد [١/٦٧]: حدثنا علي بن عياش حدثنا الوليد بن مسلم أنبأنا الأوزاعي عن محمد بن عبد الملك بن مروان أنه حدثه عن المغيرة بن شعبة أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال: «إنك إمام العامة وقد نزل بك ما ترى وإني أعرض عليك خصالاً ثلاثاً اختر إحداهن: إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عددا وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما إن تخرق بابا سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية. فقال عثمان: اما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلَف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء، وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني بها، فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُلْحَد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم»،ولن أكون أنا، وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد [١/٦٦]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا أرطاة - يعني ابن المنذر - حدثني أبو عون الأنصاري أن عثمان قال لابن مسعود: «هل أنت منته عما بلغني عنك؟ فاعتذر بعض العذر، فقال عثمان: ويحك! إني قد سمعت وحفظت - وليس كما سمعت - أن رسول الله ﷺ قال «سيقتل امير، ويَنْتزي مُنْتَزٍ» وإني أنا المقتول، وليس عمر، إنما قتل عمر واحد، وإنه يجتمع عليَّ».

وهذا الذي قاله لابن مسعود قبل مقتله بنحو من اربع سنين فإنه مات قبله بنحو ذلك.

حديث آخر

قال عبد الله بن أحمد [١/٧٤]: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري: حدثنا القاسم بن الحكم بن أوس الأنصاري حدثني أبو عبادة الزرقي الأنصاري - من أهل المدينة - عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: شهدت عثمان يوم حصر في موضع الجنائز ولو أُلقي حجر لم يقع إلا على رأس رجل فرأيت عثمان أشرف من الخوخة التي تلي باب مقام جبريل، فقال: أيها الناس! أفيكم طلحة؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس! أفيكم طلحة بن عبيد الله؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس!أفيكم طلحة؟ فقام طلحة بن عبيد الله فقال له عثمان: الا أراك ههنا؟ ما كنت أرى أنك تكون في جماعة قوم تسمع ندائي آخر ثلاث مرات، ثم لا تجيبني؟ أنشدك الله يا طلحة تذكر يوم كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في موضع كذا وكذا ليس معه أحد من أصحابه غيري وغيرك؟ فقال: نعم! قال: فقال لك رسول الله ﷺ: «إنه ما من نبي إلا ومعه من أصحابه رفيق من أمته معه في الجنه، وإن عثمان بن عفان هذا - يعنيني - رفيقي في الجنه؟» فقال طلحة: اللّهم نعم! تفرد به.

حديث آخر عن طلحة

قال الترمذي [٣٦٩٨]: حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا يحيى بن اليمان عن شيخ من بني زهرة عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن

طلحة بن عبيد الله قال: قال رسول الله ﷺ «لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان» ثم قال: هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوي، وإسناده منقطع.

ورواه أبو مروان محمد بن عثمان عن أبيه عن أبي الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقال الترمذي [٣٧٠٩]: حدثنا الفضل بن أبي طالب البغدادي وغير واحد قالوا: حدثنا عثمان بن زفر حدثنا محمد بن زياد عن محمد بن عجلان عن أبي الزبير عن جابر قال: أُتي النبي ﷺ بجنازة رجل ليصلي عليه فلم يصل عليه، فقتل: يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا؟ فقال: «إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، ومحمد بن زياد هذا صاحب ميمون بن مهران ضعيف الحديث جداً، ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة بصري ثقة، يكنى أبا الحارث، ومحمد بن زياد الألهاني صاحب أبي أمامة ثقة شامي يكنى أبا سفيان.

حديث آخر

روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٣٤، ٣٥] من حديث أبي مروان العثماني حدثنا أبي عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لقي عثمان بن عفان على باب المسجد فقال: «يا عثمان! هذا جبريل يخبرني أن الله قد زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية، على مثل مصاحبتها»

وقد رواه ابن عساكر أيضاً [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٣٦، ٤١] من حديث ابن عباس وعائشة وعمارة بن روية وعصمة بن مالك الخطمي وأنس بن مالك وابن عمر وغيرهم. وهو غريب منكر من جميع طرقه.

وروي [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٣٧] بإسناد ضعيف عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان لي أربعون ابنة لزوجتهن بعثمان واحدة بعد واحدة، حتى لا يبقى منهن واحدة»

وقال محمد بن سعيد الأموي عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن المهلب بن أبي صفرة قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: لم قلتم في عثمان: أعلاها فُوقاً؟ قالوا: لأنه لم يتزوج رجل من الأولين والآخرين ابنتي نبي غيره. رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص٤٦].

وقال إسماعيل بن عبد الملك عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ رافعا يديه حتى يبدو ضبعيه إلا لعثمان بن عفان، إذا دعا له [تاريخ دمشق(ترجمة عثمان) ص٤٦].

وقال مسعر عن عطية عن أبي سعيد قال: رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه يدعو لعثمان يقول: «اللّهم عثمان رضيت عنه فارض عنه»

وفي روايه يقول لعثمان: «غفر الله لك ما قدمت وما اخرت وما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة»

ورواه الحسن بن عرفة عن محمد بن القاسم الأسدي عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقال ابن عدي [الكامل: ١/٣٣٤] عن أبي يعلى عن عمار بن ياسر المستملي عن أبي إسحاق عن أبي وائل عن حذيفة: أن رسول الله ﷺ بعث إلى عثمان يستعينه في غزاة غزاها، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار، فوضعها بين يديه، فجعل يقلبها بين يديه ويدعوله: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي عثمان ما فعل بعدها»

حديث آخر

وقال ليث بن أبي سليم: أول من خبص الخبيص عثمان خلط بين العسل والنقي ثم بعث به إلى رسول الله ﷺ إلى منزل أم سلمة، فلم يصادفه، فلما جاء وضعوه بين يديه، فقال: «من بعث هذا؟» قالوا: عثمان: قالت: فرفع يديه إلى السماء فقال: «اللّهم إن عثمان يترضاك فارض عنه»

حديث آخر

روى أبو يعلى [مسنده(٢٠٥١)] عن شيبان بن فروخ عن طلحة بن زيد عن عبيدة بن حسان عن عطاء الكيخاراني عن جابر أن رسول الله ﷺ اعتنق عثمان وقال: «أنت وليي في الدنيا ووليي في الآخرة»

حديث آخر

قال أبو داود الطيالسي [مسنده(١٢٥٠)]: حدثنا حماد بن سلمة وحماد بن زيد عن الجريري عن عبد الله بن شقيق عن عبد الله بن حوالة. قال: قال رسول ﷺ: «تهجمون على رجل معتجر ببردة من أهل الجنة، يبايع الناس» قال: فهجمنا على عثمان بن عفان فرأيناه معتجراً يبايع الناس.

شيء من سيرته

وهي دالة على فضيلته رضي الله عنه

قال ابن مسعود: لما توفي عمر بايعنا خيرنا ولم نأل.

وفي رواية: بايعوا خيرهم ولم يألوا.

وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن أبيه عن عمرو بن عثمان بن عفان قال: كان نقش خاتم عثمان: آمنت بالذي خلق فسوى.

وقال محمد بن المبارك: بلغني أنه كان نقش خاتم عثمان آمن عثمان بالله العظيم.

وقال البخاري في التاريخ: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرا، يقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل، الأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متّقى، وذات البين حسن، والخير كثير، وما مؤمن يخاف مؤمناً، ومن لقيه فهو أخوه، من كان من أُلفته ونصيحته ومودته قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة، فإذا كانت فاصبروا.

قال الحسن: فلو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير، قالوا: لا والله ما نصابرها. فوالله ما رُدُّوا وما سلِموا، والأخرى كان السيف مغمدا عن أهل الإسلام فسلوه على أنفسهم، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا، وايم الله إني لأراه سيفا مسلولا إلى يوم القيامة.

وقال غير واحد عن الحسن البصري قال: سمعت عثمان يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب.

وروى سيف بن عمر أن أهل المدينة اتخذ بعضهم الحمام ورمى بعضهم بالجُلاهقات فوكّل عثمان رجلا من بني ليث يتتبّع ذلك، فيقص الحمام ويكسر الجلاهقات - وهي قسيّ البندق -

وقال محمد بن سعد: أنبأنا القعنبي وخالد بن مخلد حدثنا محمد بن هلال عن جدته - وكانت تدخل على عثمان وهو محصور - فولدت

هلالا، ففقدها يوماً فقيل له: إنها قد ولدت هذه الليلة غلاماً، قالت: فأرسل إلي بخمسين درهماً وشُقَيقةً سُنبلانية، وقال: هذا عطاء ابنك وكسوته فإذا مرت به سنة رفعناه إلى مائة.

وروى الزبير بن أبي بكر عن محمد بن سلام عن ابن داب قال: قال ابن سعيد بن يربوع بن عنكثة المخزومي: انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طير أرسله في المسجد والمسجد يُبنى، فإذا شيخ جميل حسن الوجه نائم، تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله، ففتح عينيه فقال: من أنت يا غلام؟ فأخبرته، فنادى غلاماً نائماً قريباً منه فلم يجبه، فقال لي: ادعه! فدعوته فأمره بشيء وقال لي: اقعد! فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم، ونزع ثوبي وألبسني الحلة؟ وجعل الألف درهم فيها، فرجعت إلى أبي فأخبرته؟ فقال: يا بني من فعل هذا بك؟ فقلت: لا أدري إلا أنه رجل في المسجد نائم لم أر قط أحسن منه، قال: ذاك أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

وقال عبد الرزاق [المصنف(٤٦٥٣)] عن ابن جريج: أخبرني يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد «أن رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد الله قال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان قال: نعم! قال: قلت لأغلبن الليلة النفر على الحجر - يعني المقام - فلما قمت فإذا رجل يَزْحَمُني مقنّعاً قال: فالتفت فإذا بعثمان فتأخرت عنه فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذا هو أذان الفجر أوتر بركعة لم يصل غيرها ثم انطلق.

وقد روي هذا من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحج، وقد كان هذا من دابه ﷺ.

ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] قال: هو عثمان بن عفان [طبقات ابن سعد: ٧٦/٣].

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] قال: هو عثمان بن عفان. وقال حسان:

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به	يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

وقال سفيان بن عيينة: حدثنا إسرائيل بن موسى سمعت الحسن يقول: قال عثمان: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف، وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه.

وقال أنس ومحمد بن سيرين: قالت امرأة عثمان يوم الدار: اقتلوه أودعوه، فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة.

وقال غير واحد: إنه ﷺ كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه، إلا أن يجده يقظاناً، وكان يصوم الدهر، وكان يعاتب فيقال له: لو أيقظت بعض الخدم؟ فيقول: لا! الليل لهم يستريحون فيه.

وكان إذا اغتسل لا يرفع المئزر عنه، وهو في بيت مغلق عليه، ولا يرفع صلبه جيداً من شدة حيائه ﷺ. [المسند: ٧٣/١، ٧٤]

شيء من خطبه

قال الواقدي: حدثني إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي عن أبيه أن عثمان لما بويع خرج إلى الناس فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنّ أول كل مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلّمنا الله.

وقال الحسن: خطب عثمان فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! اتقوا الله فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورا لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى، وقد كان بصيراً، وقد يكفيني الحكيم جوامع الكلم، والأصم ينادى من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده؟

وقال مجاهد: خطب عثمان فقال: ابن آدم! اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك، وقصدك، فخذ حذرك، واستعدّ له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك،واعلم ابن آدم إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لها لم يستعد لها غيرك، ولابد من لقاء الله فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك والسلام.

وقال سيف بن عمر عن بدر بن عثمان عن عمه. قال: آخر خطبة خطبها عثمان في جماعة: «إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى وإن الآخرة تبقى، لا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله، اتقوا الله فإن تقواه جنّة من بأسه ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغِيَر، والزموا جماعتكم لاتصيروا أحزابا ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ إلى آخر الآيتين [آل عمران: ١٠٣].

شيءٌ من رعايته لرعيته

قال الإمام أحمد [٧٣/١]: حدثنا هشيم حدثنا محمد بن قيس الأسدي عن موسى بن طلحة. قال: سمعت عثمان بن عفان وهو على المنبر والمؤذن يقيم الصلاة وهو يستخبر الناس يسألهم عن أخبارهم، وأسفارهم.

وقال أحمد [٥٨/١، ٧٠]: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا يونس - يعني ابن عبيد - حدثني عطاء بن فروخ مولى القرشيّين أن عثمان اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه فلقيه فقال: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إنك غبنتني، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني، قال: أذلك يمنعك؟ قال: نعم! قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ «أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشترياً وبائعاً وقاضياً ومقتضياً».

وروى ابن جرير [تاريخه: ٤٠٥/٤] أن طلحة لقي عثمان وهو خارج إلى المسجد فقال له طلحة: إن الخمسين ألفاً التي لك عندي قد حصلت فأرسل من يقبضها، فقال له عثمان: إنّا قد وهبناكها لمروءتك.

وقال الأصمعيُّ: استعمل ابن عامر قطن بن عوف الهلالي على كرمان، فأقبل جيش من المسلمين - أربعة آلاف - وجرى الوادي فقطعهم عن طريقهم، وخشي قطن الفوت فقال: من جاز الوادي فله ألف درهم فحملوا أنفسهم على العُظم، فكان إذا جاز الرجل منهم قال قطن: أعطوه جائزته، حتى جازوا جميعا وأعطاهم أربعة آلاف ألف درهم، فأبى ابن عامر أن يحسبها له، فكتب بذلك إلى عثمان بن عفان، فكتب عثمان: أن احسبها له، فإنه إنما أعان المسلمين في سبيل الله ففي ذلك اليوم سميت

الجوائز لإجازة الوادي، فقال الكناني في ذلك:

فـدىً للأكرمـينَ بـني هـلال ... علـى علاتهـم أهلـي ومـالي

همـوا سـنوا الجوائـزَ في معـدٍّ ... فـعـادت سـنّة أخـرى الليـالي

رمـاحهم تزيـد علـى ثمـان ... وعشـر قبـل تركيـب النصـالِ

من مناقبه الكبار

ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المصحف على العرضة الأخيرة، التي درّسها جبريل على رسول الله ﷺ في آخر سني حياته، وكان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في بعض الغزوات، وقد اجتمع فيها خلق من أهل الشام، ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود، وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق، ممن يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي موسى، وجعل من لا يعلم بسوغان القراءة على سبعة أحرف، يفضل قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كفره، فأدى ذلك إلى اختلاف شديد، وانتشار في الكلام السيِّئ بين الناس، فركب حذيفة إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم. وذكر له مشاهد من اختلاف الناس في القراءة، فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به، دون ما سواه، لما رأى في ذلك من مصلحة كف المنازعة، ودفع الاختلاف، فاستدعى بالصحف التي كان الصديق أمر زيد بن ثابت بجمعها، فكانت عند الصديق أيام حياته، ثم كانت عند عمر، فلما توفي صارت إلى حفصة أم المؤمنين، فاستدعى بها عثمان وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي، بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، فكتب لأهل الشام مصحفاً، ولأهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفاً وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى مكة مصحفاً وإلى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفاً. ويقال لهذه المصاحف الأئمة، وليست كلها بخط عثمان، بل ولا واحد منها، وإنما هي بخط زيد بن ثابت، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه، وإمارته، كما يقال: دينار هرقلي، أي ضرب في زمانه ودولته.

قال الواقدي: حدثنا ابن أبي سبرة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه غيره من وجه آخر عن أبي هريرة قال: لما نسخ عثمان المصاحف دخل عليه أبو هريرة فقال: أصبتَ ووفّقتَ، أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أشد أمتي حبّاً لي قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، يعلمون بما في الورق المعلق» فقلت: أي ورق؟ حتى رأيت المصاحف، قال: فأعجب ذلك عثمان وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف، وقال: والله ما علمت أنك لتحبس علينا حديث نبينا ﷺ.

ثم عمد إلى بقية المصاحف إلى بأيدي الناس مما يخالف ما كتبه فحرقه، لئلا يقع بسببه اختلاف.

فقال أبو بكر بن أبي داود ـ في كتاب المصاحف [ص١٢] ـ حدثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر وعبد الرحمن قالا: حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن رجل عن سويد بن غفلة قال: قال علي حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعته».

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي وعمرو بن مرزوق عن شعبة مثله.

وقد رواه البيهقي [السنن الكبرى: ٤٢/٢] وغيره من حديث محمد بن أبان ـ زوج أخت حسين ـ عن علقمة بن مرثد قال: سمعت العيزار بن جرول سمعت سويد بن غفلة قال: قال علي: أيها الناس إياكم والغلو في عثمان يقولون: حرّق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل.

وقد روي عن ابن مسعود أنه تعتب لما أخذ منه مصحفه فحرق، وتكلم في تقدم إسلامه على زيد بن ثابت الذي كتب المصاحف، وأمر أصحابه أن يغلوا مصاحفهم، وتلا قوله تعالى ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] فكتب إليه عثمان رضي الله عنه يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه من المصلحة في ذلك، وجمع الكلمة، وعدم الاختلاف، فأناب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قال أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد أن عبد الله بن مسعود دخل مسجد منى فقال: كم صلى أمير المؤمنين الظهر؟ قالوا: أربعاً، فصلى ابن مسعود أربعاً فقالوا: ألم تحدثنا أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر صلوا ركعتين؟ فقال: نعم! وأنا أحدثكموه الآن، ولكن أكره الاختلاف.

وفي الصحيح [خ(١٠٨٤)، م(٦٩٥)] أن ابن مسعود قال: ليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبّلتان.

وقال الأعمش: حدثني معاوية بن قرة ـ بواسط ـ عن أشياخه قالوا: صلى عثمان الظهر بمنى أربعاً فبلغ ذلك ابن مسعود فعاب عليه، ثم صلى بأصحابه العصر في رحله أربعاً، فقيل له: عبتَ على عثمان وصليت أربعاً؟ فقال: إني أكره الخلاف.

وفي رواية [د(١٩٦١)]: الخلاف شر.

فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن؟! والاقتداء به في التلاوة التي عزم على الناس أن يقرؤوا بها لا بغيرها؟

وقد حكى الزهري [د(١٩٦٥)] وغيره أن عثمان إنما أتم خشية على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتان.

وقيل: بل قد تأهل بمكة، فروى يعلى وغيره من حديث عكرمة بن إبراهيم حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي ذباب عن أبيه أن عثمان صلى بهم بمنى أربع ركعات، ثم أقبل عليهم فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تزوج الرجل ببلد فهو من أهله» وإني أتممت لأني تزوجت بها منذ قدمتها.

وهذا الحديث لا يصح، وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء بميمونة بنت الحارث ولم يتم الصلاة، وقد قيل: إن عثمان تأول أنه أمير المؤمنين حيث كان وهكذا تأولت عائشة فأتمت، وفي التأويل نظر، فإن رسول الله ﷺ هو رسول الله حيث كان. ومع هذا ما أتم الصلاة في الأسفار. ومما كان يعتمده عثمان بن عفان أنه كان يلزم عماله بحضور الموسم كل عام، ويكتب إلى الرعايا: من كانت له عند أحد منهم مظلمة فليواف إلى الموسم، فإني آخذ له حقه من عامله، وكان عثمان قد سمح لكثير من كبار الصحابة في المسير حيث شاؤوا من البلاد، وكان عمر يحجر عليهم في ذلك، حتى ولا في الغزو، ويقول: إني أخاف أن تروا الدنيا

أو يراكم أبناؤها. فلما خرجوا في زمان عثمان اجتمع عليهم الناس، وصار لكل واحد أصحاب، وطمع كل قوم في تولية صاحبهم الإمارة العامة بعد عثمان، فاستعجلوا موته، واستطالوا حياته، حتى وقع ما وقع من بعض أهل الأمصار، كما تقدم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، العلي العظيم.

ذكر زوجاته وبنيه وبناته رضي الله عنهم

تزوج برقية بنت رسول الله ﷺ فولد له منها عبد الله، وبه كان يكنى، بعدما كان يكنى في الجاهلية بأبي عمرو، ثم لما توفيت تزوج بأختها أم كلثوم، ثم توفيت فتزوج بفاختة بنت غزوان بن جابر، فولد له منها عبيد الله الأصغر.

وتزوج بأم عمرو بنت جندب بن عمرو الأزدية، فولدت له عمراً، وخالداً، وأباناً وعمر، ومريم.

وتزوج بفاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية، فولدت له الوليد وسعيداً.

وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية، فولدت له عبد الملك، ويقال وعتبة.

وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو، بنات عثمان.

وتزوج نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب، فولدت له مريم، ويقال وعنبسة. وقتل رضي الله عنه وعنده أربع نائلة، ورملة، وأم البنين، وفاختة. ويقال: إنه طلق أم البنين وهو محصور.

رحى الإسلام تدور لخمسٍ وثلاثين

تقدم في دلائل النبوة الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١/٣٩٠] وأبو داود [٤٢٥٤] من حديث سفيان الثوري عن منصور عن ربعي عن البراء بن ناجية الكاهلي، عن عبد الله بن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «إن رحى الإسلام ستدور لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين، فان تهلك فسبيل ما هلك وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً» قال: فقال عمر يا رسول الله أبما مضى أم بما بقي؟ قال: بل بما بقي» وفي لفظ له [١/٣٩٣] ولأبي داود [٤٢٥٤] «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين» الحديث.

وكأن هذا الشك من الراوي، والمحفوظ في نفس الأمر خمس وثلاثين، فإن فيها قتل أمير المؤمنين عثمان على الصحيح، وقيل: سنة ست وثلاثين، والصحيح الأول وكانت أمور شنيعة فظيعة، ولكن الله سلم ووقى بحوله وقوته فلم يكن بأسرع من أن بايع الناس علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وانتظم الأمر، واجتمع الشمل، ولكن جرت بعد ذلك أمور في يوم الجمل وأيام صفين على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

فصل في ذكر من توفي زمان دولة عثمان

ممن لا يعرف وقت وفاته على التعيين على ما ذكره شيخنا أبو علي الذهبي وغيره

■ أنس بن معاذ بن أنس بن قيس الأنصاري النجاري، ويقال له أنيس أيضا، شهد المشاهد كلها رضي الله عنه.

■ أوس بن الصامت، أخو عباده بن الصامت الأنصاري، شهد بدراً، وأوسٌ هو زوج المجادلة المذكور في قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وامرأته خولة بنت ثعلبة.

■ أوس بن خولي الأنصاري: من بني الحُبْلَى، شهد بدراً، وهو المنفرد من بين الأنصار بحضور غُسل النبي ﷺ، والنزول مع أهله في قبره، عليه الصلاة والسلام.

■ الجَدُّ بن قيس، كان سيداً في الأنصار، ولكن كان بخيلا ومتهماً بالنفاق، يقال إنه شهد بيعة الرضوان فلم يبايع، واستتر ببعير له، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] الآية. وقد قيل إنه تاب وأقلع فالله أعلم.

■ الحطيئة الشاعر المشهور. قيل اسمه جرول ويكنى بأبي مليكة، من بني عبس، أدرك أيام الجاهلية، وأدرك صدراً من الإسلام، وكان يطوف في الآفاق يمتدح الرؤساء من الناس، ويستجديهم، ويقال: كان بخيلا مع ذلك، سافر مرة فودع امرأته فقال لها.

عُدِّي السنينَ إذا خرجتُ لغيبة ودعي الشهورَ فإنهنَّ قصارُ

وكان مداحاً هجاء، وله شعر جيد، ومن شعره ما قاله بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فاستجاد منه قوله:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لم يعدمِ جوازيَه لا يذهبُ العرفُ بينَ اللهِ والناس

■ خُبيب بن يساف بن عتبة الأنصاري، أحد من شهد بدراً.

■ سلمان بن ربيعة الباهلي، يقال له صحبة، كان من الشجعان الأبطال المذكورين، والفرسان المشهورين، ولاه عمر قضاء الكوفة، ثم ولي في زمن عثمان إمرة على جهاد الترك، فقتل ببلنجر، فقبره هناك في تابوت يستسقي به الترك إذا قطحوا

■ عبد الله بن حذافة بن قيس القرشي السهمي، هاجر هو وأخوه قيس إلى الحبشة، وكان من سادات الصحابة، وهو القائل: من أبي يا رسول الله؟ ـ وكان إذا لا حى الرجال دعي لغير أبيه ـ فقال: «أبوك حذافة»، وكان رسول الله ﷺ بعثه إلى كسرى، فدفع كتابه إلى عظيم بُصرى، فبعث معه من يوصله إلى هرقل كما تقدم، وقد أسرته الروم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في جملة ثمانين من المسلمين، فأرادوه على الكفر فأبى عليهم، فقال له الملك: قبّل رأسي وأنا أطلقك ومن معك من المسلمين، فقبل رأسه فأطلقهم، فلما قدم على عمر قال له: حق على كل مسلم ان يقبّل رأسك، ثم قام عمر فقبّل رأسه ثم قبّله الناس رضي الله عنه.

■ عبد الله بن سراقة بن المعتمر، العدوي صحابي أحدي، وزعم الزهري أنه شهد بدراً فالله أعلم.

■ عبد الله بن قيس بن خالد الأنصاري، شهد بدراً.

■ عبد الرحمن بن سهل بن زيد الأنصاري الحارثي شهدا أحداً وما بعدها.

وقال ابن عبد البر [الاستيعاب: ٢/٨٣٦] شهد بدراً، استعمله عمر على البصرة بعد موت عتبة بن غزوان، وقد نهشته حية فرقاه عمارة بن حزم، وهو القائل لأبي بكر ـ وقد جاءته جدتان فأعطى السدس أم الأم

وترك الأخرى وهي أم الأب ـ فقال له: أعطيت التي لو ماتت لم يرثها، وتركت التي لو ماتت لورثها. فشرك بينهما.

■ عمرو بن سراقة بن المعتمر العدوي أخو عبد الله بن سراقة، وهو بدري كبير، روي أنه جاع مرة فربط حجراً على بطنه من شدة الجوع، ومشى يومه ذلك إلى الليل، فأضافه قوم من العرب ومن معه، فلما شبع قال لأصحابه: كنت أحسب الرِّجْلين يحملان البطن، فإذا البطن يحمل الرِّجْلين.

■ عمير بن سعد الأنصاري الأوسي، صحابي جليل القدر، كبير المحل كان يقال له نسيج وحده لكثرة زهادته وعبادته، شهد فتح الشام مع أبي عبيدة، وناب بحمص وبدمشق أيضا في زمان عمر، فلما كانت خلافة عثمان عزله وولى معاوية الشام بكماله، وله أخبار يطول ذكرها.

■ عروة بن حزام أبو سعيد العدوي كان شاعراً مغرماً في ابنة عم له، وهي عفراء بنت مهاجر، يقول فيها الشعر واشتهر بحبها، فارتحل أهلها من الحجاز إلى الشام، فتبعهم عروة فخطبها إلى عمه فامتنع من تزويجه لفقره، وزوجها بابن عمها الآخر، فهلك عروة هذا في محبتها، وهو مذكور في كتاب «مصارع العشاق»، ومن شعره فيها قوله:

وما هو إلا أن أراها فجاءة فأُبهت حتى ما أكاد أجيبُ
واصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي وأنسى الذي أعددت حين تغيبُ

■ قطبة بن عامر أبو زيد الأنصاري: عقبي بدري.

■ قيس بن قَهْد بن قيس بن ثعلبة الأنصاري النجاري: له حديث في الركعتين قبل الفجر، وزعم ابن ماكولا أنه شهد بدراً.

قال مصعب الزبيري: هو جد يحيى بن سعيد الأنصاري، وقال الأكثرون: بل هو جد أبي مريم عبد الغفار بن القاسم الكوفي فالله أعلم.

■ لبيد بن ربيعة أبو عقيل العامري الشاعر المشهور. صح أن رسول الله ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وتمام البيت:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان بن مظعون: إلا نعيم الجنة، وقد قيل: إنه توفي سنة إحدى وأربعين فالله أعلم.

■ المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي، شهد بيعة الرضوان وهو والد سعيد بن المسيب سيد التابعين.

■ معاذ بن عمرو بن الجموح الأنصاري: شهد بدراً، وضرب يومئذ أبا جهل بسيفه فقطع رجله، وحمل عكرمة بن أبي جهل على معاذ هذا فضربه بالسيف فحل يده من كتفه، فقاتل بقية يومه وهي معلقة يسحبها خلفه، قال معاذ: فلما آذتني وضعت قدمي عليها ثم تمطأت عليها حتى طرحتها ﷺ. وعاش بعد ذلك إلى هذه السنة سنةِ خمس وثلاثين.

■ محمد بن جعفر بن أبي طالب، القرشي الهاشمي، ولد لأبيه وهو بالحبشة، فلما هاجر إلى المدينة سنة خيبر، وتوفي يوم مؤتة شهيداً، جاء رسول الله ﷺ إلى منزلهم فقال لأمهم أسماء بنت عميس: «ائتني ببني أخي» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فجعل يقبلهم ويشمهم ويبكي، فبكت أمهم فقال: «أتخافين عليهم العيلة وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟» ثم أمر الحلاق فحلق رؤوسهم [المسند: ١/٢٠٤، ٢٠٥، د(٤١٩٢)، س(كبرى٨٦٠٤)].

وقد مات محمد وهو شاب في أيام عثمان كما ذكرنا، وزعم ابن عبد البر [الاستيعاب: ١٣٦٨/٣] أنه توفي في تستر فالله أعلم.

■ معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، قتل شابا بإفريقية من بلاد المغرب.

■ معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، صاحب خاتم النبي ﷺ، قيل: توفي في أيام عثمان، وقيل قبل ذلك، وقيل سنة أربعين والله أعلم.

■ منقذ بن عمرو الأنصاري، أحد بني مازن بن النجار. كان قد أصابته آمّة في رأسه فكسرت لسانه، وضعف عقله، وكان يكثر من البيع والشراء، وكان يُغبَن، فقال له النبي ﷺ: «من بايعت فقل: لا خلابة، ثم أنت بالخيار في كل ما تشتريه ثلاثة أيام» [التاريخ الكبير: ١٧/٨ بنحوه]

قال الشافعي [الأم: ٩٥/٣]: كان مخصصا بإثبات الخيار ثلاثة في كل بيع، سواء اشترط الخيار أم لا.

■ نعيم بن مسعود، أبو سلمة الغطفاني، وهو الذي خذَّل بين الأحزاب وبين بني قريظة كما قدمناه فله بذلك اليد البيضاء والراية العليا.

■ أبوذؤيب خويلد بن خالد الهذلي، الشاعر، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ، وشهد يوم السقيفة وصلى على النبي ﷺ، وكان أشعر هذيل، وهذيل أشعر العرب وهو القائل:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

توفي غازيا بإفريقية في خلافة عثمان

■ أبو رُهْم سبرة بن عبد العزى القرشي الشاعر: ذكره في هذا الفصل محمد بن سعد وحده

■ أبو زبيد الطائي، الشاعر، اسمه حرملة بن المنذر كان نصرانيا وكان يجالس الوليد بن عقبة فأدخله على عثمان فاستنشده شيئا من شعره فأنشده قصيدة له في الأسد بديعة، فقال له عثمان: تفتأ تذكر الأسد ما حييت؟ إني لأحسبك جباناً نصرانياً.

■ أبو سبرة بن أبي رهم العامري، أخو أبي سلمة بن عبد الأسد، أمهما برة بنت عبد المطلب، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا وما بعدها، قال الزبير بن بكّار: لا نعلم بدرياً سكن مكة بعد النبي ﷺ سواه، قال: وأهله ينكرون في ذلك.

■ أبولبابة بن عبد المنذر أحد نقباء ليلة العقبة، وقيل إنه توفي في خلافة علي والله أعلم.

■ أبو هاشم بن عتبة تقدم وفاته في سنة إحدى وعشرين، وقيل في خلافة عثمان والله أعلم.

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

ولنذكر شيئاً من ترجمته على سبيل الاختصار قبل ذلك هو أمير المؤمنين.

■ علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب واسمه شيبة بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة كعب بن لؤي غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان أبو الحسن والحسين، ويكنى بأبي تراب، وأبي القَضْم الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته فاطمة الزهراء.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ويقال: إنها

أول هاشمية ولدت هاشميا.

وكان له من الإخوة طالب، وعقيل، وجعفر، وكانوا أكبر منه، بين كل واحد منهم وبين الآخر عشر سنين، وله أختان، أم هانئ وجمانة، وكلهم من فاطمة بنت أسد، وقد أسلمت وهاجرت.

كان علي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان ممن توفي ورسول الله ﷺ وهو راض عنهم وكان رابع الخلفاء الراشدين وكان رجلا آدم شديد الأدمة شَكِلَ العينين عظيمهما فيهما خَفَش، ذو بطن، أصلع، وهو إلى القصر أقرب وكان عظيم اللحية، وقد ملأت صدره ومنكبيه، أبيضها كثير، وكان كثير شعر الصدر والكتفين، حسن الوجه، ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض.

أسلم عليٌّ قديما، وهو ابن سبع وقيل ابن ثمان، وقيل: تسع، وقيل: عشر، وقيل: أحدى عشرة، وقبل اثنتي عشرة، وقيل ثلاث عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: ابن خمس عشرة، أو ست عشرة أو ستة عشرة سنة قاله عبد الرازق [المصنف(٢٠٣٩١)] عن معمر عن قتادة عن الحسن.

ويقال: إنه أول من أسلم والصحيح أنه أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلمت من النساء، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار.

وكان سبب إسلام علي صغيراً أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ، لأنه كان قد أصابتهم سنة مجاعة، فأخذه من أبيه، فكان في كفالته، فلما بعثه الله بالحق آمنت خديجة وأهل البيت ومن جملتهم علي، وكان الإيمان النافع المتعدي نفعه إلى الناس إيمان الصديق رضي الله عنه. وقد ورد عن علي أنه قال: أنا أول من أسلم.

ولا يصح إسناده إليه، وقد روي في هذا المعنى أحاديث أوردها ابن عساكر كثيرة منكرة لا يصح شيء منها والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد [٤/٣٧١] من حديث شعبة عن عمرو بن مرة سمعت أبا حمزة - رجلا من موالي الأنصار - قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي.

وفي رواية [٤/٣٦٨]: أول من صلى. قال عمرو: فذكرت ذلك للنخعي فأنكره، وقال أبو بكر: أول من أسلم.

وقال محمد بن كعب القرظي: أول من آمن خديجة وأول رجلين آمنا أبو بكر وعلي ولكن كان أبو بكر يظهر إيمانه وعلي يكتم إيمانه.

قلت: يعني خوفا من أبيه.

ثم أمره أبوه بمتابعة ابن عمه ونصرته.

وهاجر علي بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة وكان قد أمره بقضاء ديونه ورد ودائعه، ثم يلحق به، فامتثل ما أمره به، ثم هاجر، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٠٤، ٥٠٥] وغيره من أهل السير والمغازي أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين نفسه ولا يصح، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة لا يصح شيء منها لضعف أسانيدها وركة بعض متونها، فإن في بعضها «أنت أخي ووارثي وخليفتي وخير من أَمَّر بعدي» وهذا الحديث موضوع مخالف لما ثبت في الصحاح وغيرهما والله أعلم.

وقد شهد علي بدراً وكانت له اليد البيضاء فيها، بارز يومئذ فغلب وظهر وفيه وفي عمه حمزة وابن عمه عبيدة بن الحارث وخصومهم الثلاثة - عتبة وشيبة والوليد بن عتبة - نزل قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ الآية [الحج: ١٩].

وقال الحكم وغيره عن مقسم عن ابن عباس قال: دفع النبي ﷺ الراية يوم بدر إلى علي وهو ابن عشرين سنة.

وقال الحسن بن عرفة: حدثني عمار بن محمد عن سعيد بن محمد الحنظلي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: نادى مناد في السماء يوم بدر يقال له رضوان: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

قال ابن عساكر وهذا مرسل وإنما تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ثم وهبه من علي بعد ذلك.

وقال يونس بن بكير عن مسعر عن أبي عون عن أبي صالح عن علي قال: قيل لي يوم بدر ولأبي بكر قيل لأحدنا معك جبريل ومع الآخر ميكائيل قال: وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل ويكون في الصف.

وشهد علي أحداً وكان على الميمنة ومعه الراية بعد مصعب بن عمير، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الأنصاري، وحمزة بن عبد المطلب، على القلب وعلى الرَّجالة الزبير بن العوام، وقيل المقداد بن الأسود، وقد قاتل علي يومئذ قتالا شديداً، وقتل خلقاً من المشركين، وغسل عن وجه النبي ﷺ الدم حين شج في رأسه وكسرت رباعيته وشهد يوم الخندق فقتل يومئذ فارس العرب، وأحد شجعانهم المشاهير عمرو بن عبدود العامري، كما قدمنا ذلك في عزوة الخندق.

وشهد الحديبية وبيعة الرضوان، وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة، منها أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فدعا علياً - وكان أرمد - فدعا له، وبصق في عينيه فلم يرمد بعدها، فبرأ وأعطاه الراية، ففتح الله على يديه، وقتل مرحباً اليهودي [خ(٤٢٠٩)].

وذكر محمد بن إسحاق عن عبد الله بن حسن عن بعض أهله عن أبي رافع أن يهودياً ضرب عليا فطرح ترسه،، فتناول بابا عند الحصن فترس به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يده ثم ألقاه من يده، قال أبو رافع: فلقد رأيتني أنا وسبعة معي نجهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع.

وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر أن علياً حمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، فلم يحملوه إلا أربعون رجلا.

ومنها أنه قتل مرحبا فارس يهود وشجاعهم.

وشهد علي عمرة القضاء وفيها قال له النبي ﷺ: «أنت مني، وأنا منك» [خ(٤٢٥١)].

وما يذكره كثير من القصاص في مقاتلته الجن في بئر ذات العلَم - وهو بئر قريب من الجحفة - فلا أصل له، وهو من وضع الجهلة من الأخباريين فلا يغتر به.

وشهد الفتح وحنينا والطائف، وقاتل في هذه المشاهد قتالا كثيراً، واعتمر من الجعرانة مع رسول الله ﷺ.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك واستخلفه على المدينة، قال: يارسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» [خ(٤٤١٦)، م(٢٤٠٤)].

وبعثه رسول الله ﷺ أميراً وحاكماً على اليمن، ومعه خالد بن الوليد، ثم وافى رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، إلى مكة وساق معه

هدياً، وأهل كإهلال النبي ﷺ، فأشركه في هديه، واستمر على إحرامه، ونحرا هديهما بعد فراغ نسكهما كما تقدم.

ولما مرض رسول الله ﷺ قال له العباس: سل رسول الله ﷺ في مَن الأمر بعده؟ فقال: والله لا أسأله فإنه إن منعناها لا يعطينا الناس بعده أبداً [خ(٤٤٤٧)]، والأحاديث الصحيحة الصريحة دالة على أن رسول الله ﷺ لم يوص إليه ولا إلى غيره بالخلافة، بل لوح بذكر الصديق، وأشار إشارة مفهمة ظاهرة جداً إليه، كما قدمنا ذلك ولله الحمد.

وأما ما يفتريه كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء، من أنه أوصى إلى علي بالخلافة، فكذب وبهت وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير، من جَوْر الصحابة وتمالُئهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره، لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن دين الإسلام هو الحق، يعلم بطلان هذا الافتراء، لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة، التي هي أشرف الأمم بنص القرآن، وإجماع السلف والخلف، في الدنيا والآخرة، ولله الحمد.

وما يقصه بعض القصاص من العوام وغيرهم في الأسواق وغيرها من الوصية لعلي بآداب وأخلاق في المأكل والمشرب والملبس، مثل مايقولون: يا علي لا تعتم وأنت قاعد، يا علي لا تلبس سراويلك وأنت قائم، يا علي لا تمسك عضادتي الباب، ولا تجلس على أسكفة الباب، ولا تخط ثوبك وهو عليك، ونحو ذلك. كل ذلك من الهذيانات فلا أصل له، بل هو اختلاق وكذب وزور.

ثم لما مات رسول الله ﷺ كان علي في جملة من غسله وكفنه، وولي دفنه كما تقدم ذلك مفصلا ولله الحمد والمنة. وسيأتي في باب فضائله ذكر تزويجه بفاطمة بعد وقعة بدر فولد له منها حسن وحسين ومحسِّن كما قدمنا، وقد وردت أحاديث في ذلك لا يصح كثير منها بل أكثرها من وضع الروافض والقصاص. ولما بويع الصديق يوم السقيفة كان علي من جملة من بايع بالمسجد كما قدمنا.

وكان بين يدي الصديق كغيره من أمراء الصحابة يرى طاعته فرضاً عليه، وأحب الأشياء إليه، ولما توفيت فاطمة بعد ستة أشهر - وكانت قد تغضبت بعض التغضُّب على أبي بكر بسبب الميراث الذي فاتها من أبيها عليه السلام، ولم تكن اطلعت على النص المختص بالأنبياء وأنهم لا يورثون، فلما بلغها سألت أبا بكر أن يكون زوجها ناظراً على هذه الصدقة، فأبى ذلك عليها، فبقي في نفسها شيء كما قدمنا، واحتاج علي أن يداريها بعض المداراة - فلما توفيت جدد عليٌّ البيعة مع الصديق رضي الله عنهما.

فلما توفي أبو بكر وقام عمر في الخلافة بوصية أبو بكر إليه بذلك، كان علي من جملة من بايعه، وكان معه يشاوره في الأمور، ويقال إنه استقضاه في أيام خلافته، وقدم معه في جملة سادات أمراء الصحابة إلى الشام، وشهد خطبته بالجابية، فلما طعن عمر وجعل الأمر شورى في ستة أحدهم علي، ثم خلص منهم بعثمان وعلي كما قدمنا، فقدَّم عثمان على علي، فسمع وأطاع، فلما قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمسة وثلاثين على المشهور، عدل الناس إلى علي فبايعوه، قبل أن يدفن عثمان، وقيل بعد دفنه كما تقدم، وقد امتنع علي من مبايعتهم وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبذول، وأغلق بابه وامتنع من قبول الإمارة، حتى تكرر قولهم، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب.

ذكر بيعة علي ﷺ بالخلافة

فيقال: إن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى وكانت شلاء من يوم أحد - لما وقى بها رسول الله ﷺ - فقال بعض القوم: والله إن هذا الأمر لا يتم. وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وعمامة خز ونعلاه في يده، يتوكأ على قوسه، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، ويقال إن طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يؤمرهما على البصرة والكوفة، فقال لهما: بل تكونان عندي أستأنس بكما. ومن الناس من يزعم أنه لم يبايعه طائفة من الأنصار، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة.

ذكره ابن جرير [تاريخه: ٤/٤٢٩، ٤٣٠] من طريق المدائني عن شيخ من بني هاشم عن عبد الله بن الحسن قال المدائني: حدثني من سمع الزهري يقول: هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة.

قلت: وهرب مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام.

وقال الواقدي: بايع الناس علياً بالمدينة، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا، منهم ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم.

وذكر سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه قالوا: بقيت المدينة خمسة أيام بعد قتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر. والمصريون يلحون على علي وهو يهرب منهم إلى الحيطان، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم، ثم جاؤوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم، فرجعوا إلى علي فألحوا عليه، وأخذ الأشتر النخعي بيده فبايعه وبايعه الناس، وأهل الكوفة يقولون: أول من بايعه الأشتر النخعي وذلك يوم الخميس الرابع والعشرون من ذي الحجة، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك، وكلهم يقولون: لا يصلح لها إلا علي.

فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس، وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء، فقال قائل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم الزبير، ثم قال الزبير: إنما بايعت عليا واللُّج على عنقي، ثم راح إلى مكة فأقام بها أربعة أشهر، وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمسة بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرم حرما مُجملة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون

من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصَّةُ أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناسُ أخراهم اتقوا اللّه عباده في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا اللّه ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرّ فدعوه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فلما فرغ من خطبته قال المصريون:

خُذْها إليك واحذرنْ أبا الحسنْ ... إنا نُمرُّ الأمرَ إمرارَ الرسنْ

صولةَ أقوام كأسداد السفنْ ... بمشرفياتٍ كغدران اللبنْ

ونطعنُ الملكَ بلين كالشطنْ ... حتى يمرُنْ على غيرِ عَنَنْ

فقال علي مجيباً لهم:

إن عجزتُ عجزةً لا أعتذرْ ... سوفَ أكيسُ بعدها وأستمرّْ

ارفعُ من ذيلي ما كنتُ أجُرّْ ... وأجمعُ الأمرَ الشتيتَ المنتشرْ

إن لم يشاغبني العَجُولُ المنتصرْ ... أو يتركوني والسلاحُ يبتدرْ

وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة وعلى الحرب القعقاع بن عمرو وعلى الخراج جابر بن فلان المزني، وعلى البصرة عبد اللّه بن عامر، وعلى مصر عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، وقد تغلب عليه محمد بن أبي حذيفة، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، ونوابه على حمص: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة، وعلى الأردن أبو الأعور، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى قرقيسياء جرير بن عبد اللّه البجلي، وعلى حلوان عتيبة بن النهاس، وعلى ماة مالك بن حبيب، وعلى همذان النسير.

هذا ما ذكره ابن جرير [تاريخه: ٤/٤٢١، ٤٢٢] من نواب عثمان الذين توفي وهم نواب الأمصار، وكان على بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى قضاء المدينة زيد بن ثابت.

ولما قتل عثمان بن عفان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين جاحفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف فورد به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الأخذ بثأر هذا الدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، وحث بعضهم بعضا على الأخذ بثأره، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، ممن قتله من أولئك الخوارج: منهم عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، وعمرو بن عَبَسة وغيرهم من الصحابة، ومن التابعين: شريك بن حباشة، وأبو مسلم الخولاني، وعبد الرحمن بن غنم، وغيرهم من التابعين.

ولما استقر أمر بيعة علي دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة رضي اللّه عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان. فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان ، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة، ليأتيه منها بالجنود ليتقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي اللّه عنه. فقال لهما: حتى أنظر في هذا الأمر.

ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له: إني أرى أن تقر عمالك على البلاد، فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت، ثم جاءه من الغد فقال له: إني أرى أن تعزلهم لتعلم من يطيعك ممن يعصيك، فعرض ذلك علي على ابن عباس فقال: لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم، فبلغ ذلك المغيرة فقال: نعم نصحته فلما لم يقبل غششته. ثم خرج المغيرة فلحق بمكة، ولحقه جماعة منهم طلحة والزبير بمكة، وكانوا قد استأذنوا عليا في الاعتمار فأذن لهم، ثم إن ابن عباس أشار على علي باستمراره بنوّابه في البلاد، إلى أن يتمكن الأمر، وأن يقر معاوية خصوصا على الشام وقال له: إني أخشى إن عزلته عنها أن يطالبك بدم عثمان ولا آمن طلحة والزبير أن يكرّا عليك بسبب ذلك، فقال علي: إني لا أرى هذا ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان، أو يحبسني لقرابتي منك ولكن اكتب إلى معاوية فمنِّه وعِدْه، فقال علي: واللّه إن هذا ما لا يكون أبدا، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إن الحرب خدعة كما قال رسول اللّه ﷺ، فواللّه لئن أطعتني لأوردنهم بعد صدرهم ونهى ابن عباس عليا فيما أشار عليه أن يقبل من هؤلاء الذين يحسنون له الدخول إلى العراق، ومفارقة المدينة، فأبى عليه ذلك كله، وطاوع أمر أولئك الأمراء من أولئك الخوارج من أهل الأمصار.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤/٤٤١]: وفي هذه السنة قصد قسطنطين بن هرقل بلاد المسلمين في ألف مركب، فأرسل اللّه عليه قاصفا من الريح فغرقه اللّه بحوله وقوته، ومن معه، ولم ينج منهم أحد إلا الملك في شرذمة قليلة من قومه، فلما دخل صقلية عملوا له حماما فدخله فقتلوه فيه، وقالوا: أنت قتلت رجالنا.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين من الهجرة

استهلت هذه السنه وقد تولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخلافة، وولى على الأمصار نوابا، فولى عبيد اللّه بن عباس على اليمن، وولى عثمان بن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية، فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية، فقالوا: من أنت؟ فقال: أمير، قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام، فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحي هلا بك، وإن كان غيره بعثك فارجع، فقال: أو ما سمعتم الذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع إلى علي.

وأما قيس بن سعد فاختلف عليه أهل مصر فبايع له الجمهور، وقالت طائفة: لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان، وكذلك أهل البصرة.

وأما عمارة بن شهاب المبعوث أميراً على الكوفة فصده عنها طليحة بن خويلد غضبا لعثمان، فرجع إلى علي فأخبره وانتشرت الفتنة وتفاقم الأمر، واختلفت الكلمة، وكتب أبو موسى إلى علي بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم إلا القليل منهم، وبعث علي إلى معاوية كتبا كثيرة فلم يرد عليه لها جوابها، وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، ثم بعث معاوية طوماراً مع رجل فدخل به على علي فقال له علي: ماوراءك؟ قال جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود كلهم موتور، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق،

فقال علي: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي فهمّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد.

وعزم علي رضي اللّه عنه على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى بالكوفة. وبعث إلى عثمان بن حنيف بذلك، وخطب الناس فحثهم على ذلك. وعزم على التجهز، وخرج من المدينة، واستخلف عليها قثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال: يا أبه دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم. فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن العباس على الميمنة، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة، وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام، حتى جاءه من شغله عن ذلك كله وهو ما سنورده.

ابتداء وقعة الجمل

لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق، كان أزواج النبي ﷺ قد خرجن إلى الحج في هذا العام فراراً من الفتنة، فلما بلغ الناس أن عثمان قد قتل، أقمن بمكة بعدما خرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتجسسون الأخبار فلما بويع لعلي وصار أحظى الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك رؤوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن علياً في نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربص بهم الدوائر، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق اللّه منهم، ولكن لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه عِلْية الصحابة فرّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة، واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكة وتبعهم خلق كثير، وجم غفير، وكان علي لما عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، وطلب عبد اللّه بن عمر بن الخطاب وحرضه على الخروج معه، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، فإن خرجوا خرجت على السمع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام، ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكة أيضا في هذا العام يعلى بن أمية من اليمن، ـ وكان عاملا عليها لعثمان ـ ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وقدم إليها عبد اللّه بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع بمكة خلق من سادات الصحابة، وأمهات المؤمنين، فقامت عائشة رَضي اللّه عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول اللّه ﷺ وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال. فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر، وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك، فقال قائل: نذهب إلى الشام، فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها ولو قدموها لغلبوا، واجتمع الأمر كله لهم، لأن أكابر الصحابة معهم. وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من علي أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا، وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلته. فاتفق الرأي على ذلك وواقف بقية أمهات المؤمنين عائشة على المسير إلى المدينة، فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك وقُلْنَ: لا نسير إلى غير المدينة، وجهز الناسَ يعلى بن أمية فأنفق فيهم ست مئة ألف وستمائة بعير وجهزهم ابن عامر أيضا بمال كثير.

وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد اللّه من ذلك، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة، وسار الناس صحبة عائشة في ألف، وقيل تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة، وتلاحق بهم آخرون فصاروا في ثلاثة آلاف، وأم المؤمنين عائشة تحمل في هودج على جمل اسمه عسكر، اشتراه يعلى بن أمية من رجل من عرينة بمائتي دينار، وقيل بثمانين ديناراً، وقيل غير ذلك، وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هنالك وبكين للوداع، وتباكى الناس، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب.

وسار الناس قاصدين البصرة، وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبد اللّه بن الزبير، ومروان بن الحكم يؤذن للناس في أوقات الصلوات، وقد مروا في مسيرهم ليلا بماء يقال له الحَوْأَب، فنبحتهم كلاب عنده، فلما سمعت ذلك عائشة قالت: ما اسم هذا المكان؟ قالوا الحوأب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ما أظنني إلا راجعة، قالوا: ولم؟ قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول لنسائه: «ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب»، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته، وقالت: ردوني أنا واللّه صاحبة ماء الحوأب [كشف الأستار(٣٢٧٤)]، وقد أوردنا هذا الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوة كما سبق، فأناخ الناس حولها يوما وليلة، وقال لها عبد اللّه بن الزبير: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب، ثم قال الناس: النجاء النجاء، هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل، فارتحلوا نحو البصرة.

فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رؤوس الناس، أنها قد قدمت، فبعث عثمان بن حنيف عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليها ليعلما ما جاءت له، فلما قدما عليها سلما عليها واستعلما منها ما جاءت له، فذكرت لهما ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان، لأنه قتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام. وتلت قوله تعالى ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: أما بايعت علياً؟ قال: بلى والسيف على عنقي، ولا أستقيله إن هو لم يُخَلِّ بيننا وبين قتلة عثمان. فذهبا إلى الزبير فقال مثل ذلك قال: فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف، فقال أبو الأسود:

يا ابنَ الأحنفِ قد أُتيتَ فانفرِ وطاعِنِ القومَ وجالدْ واصبرِ
واخرجْ لهم مستلئما وشمّرِ

فقال عثمان بن حنيف: إنا للّه وإنا إليه راجعون، دارت رحا الإسلام ورب الكعبة، فانظروا بأي زيفان تزيف، فقال عمران: إي واللّه لتعركنكم عركا طويلا، يشير عثمان بن حنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعاً «تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين» الحديث [مسند أحمد: ١/٣٩٠، د(٤٢٥٤)] كما تقدم، ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: أشر علي، فقال اعتزل فإني قاعد في منزلي، أو قاعد على بعيري، فذاهب فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح

والاجتماع في المسجد، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز، فقام رجل وعثمان على المنبر فقال: أيها الناس إن كان هؤلاء القوم جاؤوا خائفين فقد جاؤوا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته، فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا، فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا، فحصبه الناس، فعلم عثمان بن حنيف أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصاراً فكسره ذلك.

وقدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس، فنزلوا المربد من أعلاه قريبا من البصرة وخرج إليها من أراد من أهل البصرة فكان معها، وخرج عثمان بن حنيف بالجيش فاجتمعوا بالمربد، فتكلم طلحة - وكان على الميمنة - فندب إلى الأخذ بثأر عثمان، والطلب بدمه، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته فرد عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف، وتكلمت أم المؤمنين فحرضت وحثت على ذلك، فتثاور طوائف من أطراف الجيشين فتراموا بالحجارة، ثم تحاجز الناس ورجع كل فريق إلى حوزته، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حنيف إلى جيش عائشة، فكثروا، وجاء جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين! والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع.

وأقبل حكيم بن جبلة - وكان على خيل عثمان بن حنيف - فأنشب القتال وجعل أصحاب أم المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال، وجعل حكيم يقتحم عليهم فاقتتلوا على فم السكة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن، وحجز الليل بينهم، فلما كان اليوم الثاني قصدوا القتال، فاقتتلوا قتالا شديدا، إلى أن زال النهار، وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف، وكثرت الجراح في الفريقين، فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتابا ويبعثوا رسولا إلى أهل المدينة يسأل أهلها، إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة، خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وإن لم يكونا أكرها على البيعة خرج طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم، وبعثوا بذلك كعب بن سور القاضي، فقدم المدينة يوم الجمعة، فقام في الناس، فسألهم: هل بايع طلحة والزبير طائعين أو مكرهين؟ فسكت الناس فلم يتكلم إلا أسامة بن زيد، فقال: بل كانا مكرهين، فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه، فجاحف دونه صهيب، وأبو أيوب، وجماعة حتى خلصوه، وقالوا له: ما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال: لا والله ما كنت أرى أن الأمر ينتهي إلى هذا، وكتب علي إلى عثمان بن حنيف يقول: إنهما لم يكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا، وقدم كعب بن سور على عثمان بكتاب علي، فقال عثمان: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه.

وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى، فجمعا الرجال في ليلة مظلمة وشهد بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع، ولم يخرج عثمان بن حنيف تلك الليلة فصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ووقع من رعاع الناس من أهل البصرة كلام وضرب، فقتل منهم نحواً من أربعين رجلا، ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره فأخرجوه إلى طلحة والزبير، ولم يبق في وجهه شعرة إلا نتفوها، فاستعظما ذلك وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر، فأمرت أن تخلي سبيله، فأطلقوه وولوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسم طلحة والزبير أموال بيت المال في الناس وفضلوا أهل الطاعة، وأكب عليهم الناس يأخذون أرزاقهم، وأخذوا الحرس، واستبدوا بالأمر بالبصرة، فحمي لذلك جماعة من قوم قتلة عثمان وأنصارهم، فركبوا في جيش قريب من ثلاثمائة، ومقدمهم حكيم بن جبلة، وهو أحد من باشر قتل عثمان، فبارزوا وقاتلوا، فضرب رجل رِجْلَ حكيم بن جبلة فقطعها، فزحف حتى أخذها وضرب بها ضاربه فقتله ثم اتكأ عليه وجعل يقول:

يا ساقُ لن تراعي إنّ معي ذراعي
أحمي بها كراعي

وقال أيضاً:

ليس عليّ أن أموت عار والعارُ في الناسِ هو الفرارُ
والمجدُ لا يفضحه الدمار

فمر عليه رجل وهو متكئ برأسه على ذلك الرجل، فقال له: من قتلك؟ فقال: وسادتي. ثم مات حكيم قتيلا هو ونحو من سبعين من قتلة عثمان وأنصارهم، فضعف جأش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة، ويقال: إن أهل البصرة بايعوا طلحة والزبير، وندب الزبير ألف فارس يأخذها معه ويلتقي عليا قبل أن يجيء فلم يجبه أحد، وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك، وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها والقيام معها فإن لم يجئ فليكف يده وليلزم منزله، أي لا يكون عليها ولا لها، فقال: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك، وأبى أن يطيعها في ذلك، وقال: رحم الله أم المؤمنين أُمرتْ أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحق بذلك منا، وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك.

ذكر مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من المدينة إلى البصرة بدلا عن مسيره إلى الشام

بعد أن كان قد تجهز قاصداً الشام كما ذكرنا، فلما بلغه قصد طلحة والزبير البصرة، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولئك من دخولها، إن أمكن، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة، واستجاب له بعضهم.

قال الشعبي: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين، ليس لهم سابع.

وقال غيره أربعة. وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤/٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥١] وغيره قال: كان ممن استجاب له من كبار الصحابة أبو الهيثم بن التيهان، وأبو قتادة الأنصاري، وزياد بن حنظلة، وخزيمة بن ثابت. قالوا: وليس بذي الشهادتين، ذاك مات في زمن عثمان رضي الله عنه.

وسار علي من المدينة نحو البصرة على تعبئته المتقدمة إلى الشام، غير أنه استخلف على المدينة تمام بن عباس وعلى مكة قثم بن عباس وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وخرج علي من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل، وقد لقي عبد الله بن سلام رضي الله عنه عليا وهو بالربذة، فأخذ بلجام فرسه وقال: يا أمير المؤمنين! لا تخرج منها، فوالله لئن

خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً فسبه بعض الناس، فقال علي: دعوه فنعم الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، وجاء الحسن بن علي إلى أبيه في الطريق فقال: لقد نهيتك فعصيتني تقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك. فقال له علي: إنك لا تزال تحن علي حنين الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟ فقال: ألم آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها، فيقول قائل أو يتحدث متحدث؟ ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فعصيتني في ذلك كله؟

فقال له علي: أما قولك أني أخرج قبل مقتل عثمان فلقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر وأما أن اجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ماذهبوا إليه. فتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها، ويقال: ليست ها هنا، حتى يُحَلّ عرقوبها فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني.

ولما انتهى إليه خبر ما صنع القوم بالبصرة كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، إني قد اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم وفرغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً، فمضيا، وأرسل إلى المدينة فأخذ ما أراد من سلاح ودواب، وقام في الناس خطيباً فقال: إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخواناً، بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ماشاء الله، الإسلام دينهم، والحق قائم بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين أذلهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، الا وإن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن.

ثم عاد ثانية فقال: إنه لابد مما هو كائن أن يكون، الا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، شرها فرقة تحبني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهديي نبيكم، واتبعوا سنته، وأعرضوا عما أشكل عليكم، حتى تعرضوه على الكتاب، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً.

قال: فلما عزم على المسير من الربذة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع، فقال: ياأمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بغدرهم ونعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً. فقام إليه الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لينصرنّي الله كما سمانا أنصاراً.

قال: وأتت جماعة من طيئ وعليٌ بالربذة، فقيل له: هؤلاء جماعة جاؤوا من طيئ منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد السلام عليك، فقال: جزى الله كلاً خيراً ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]

ثم فسار علي من الربذة على تعبئته وهو راكب ناقة حمراء يقود فرساً كميتاً فلما كان بفيدٌ جاءه جماعة من أسد وطيئ، فعرضوا انفسهم عليه فقال: فيمن معي كفاية ـ وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له عامر بن مطر الشيباني، فقال له علي: ما وراءك؟ فأخبره الخبر، فسأله عن أبي موسى فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه، فقال علي: والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا. وسار.

فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليته، من قتل ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة، وأخذهم أموال بيت المال، جعل يقول: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير، فلما انتهى إلى ذي قار أتاه عثمان بن حنيف مهشماً، وليس في وجهه شعرة فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني إلى البصرة وأنا ذو لحية، وقد جئتك أمرد، فقال: أصبت خيراً وأجراً. وقال عن طلحة والزبير: اللهم احلل ما عقدا، ولا تبرم ما احكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا -يعني في هذا الأمر- وأقام علي بذي قار ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر وصاحبه محمد بن جعفر وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى وقاما في الناس بامره فلم يجابا إلى شيء، فلما أمسوا دخل أناس من ذوي الحجى على أبي موسى يعرضون عليه الطاعة لعلي، فقال: كان هذا بالأمس فغضب محمد ومحمد فقالا له قولا غليظاً: فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومَن كانوا، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر، وهو بذي قار، فقال للأشتر: أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فخرجا فقدما الكوفة وكلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهل الكوفة فقام في الناس فقال: أيها الناس، إن أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله وأن لا تجترئوا على أمره، وهذه فتنة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي فاغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة، فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي فأخبراه الخبر، فارسل الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت، فانطلقا حتى دخلا المسجد فكان أول من سلم عليهما مسروق بن الأجدع، فقال لعمار: علام قتلتم عثمان؟ فقال: على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا، فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولو صبرتم لكان خيراً للصابرين.

قال: وخرج أبو موسى فلقي الحسن بن علي فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين عثمان قتلته؟ فقال: لم أفعل، ولم يسؤني ذلك، فقطع عليهما الحسن بن علي فقال لأبي موسى: لم تثبط الناس عنا؟ فو الله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء فقال: صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت من النبي ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب» وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا، فغضب عمار وسبه، وقال: يا أيها الناس، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده أنت فيها قاعداً خير منك قائماً، فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار، وثار آخرون، وجعل أبو موسى يكفكف الناس، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وقال أبو موسى: أيها الناس، اطيعوني وكونوا خير قوم من خير أمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمن فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شَبَّهت، وإذا أدبرت بيَّنت؛ ثم أمر

الناس بكف أيديهم ولزوم بيوتهم، فقام زيد بن صوحان فقال: أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، سيروا إليه أجمعين. فقام القعقاع بن عمرو فقال: إن الحق ما قاله الأمير، ولكن لا بد للناس من أمير يردع الظالم ويعدي المظلوم، وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين علي مليء بما ولي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يريد الأصلاح، فانفروا إليه. وقام عبد خير فقال: الناس أربع فرق، عليٌّ بمن معه في ظاهر الكوفة وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا غناء بها، فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة، ثم تراسل الناس في الكلام.

ثم قام عمار والحسن بن علي في الناس على المنبر يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس، وسمع عمار رجلا يسب عائشة فقال: اسكت مقبوحا منبوحا، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعونه أو إياها. رواه البخاري [٣٧٧٢، ٧١٠٠ بنحوه].

وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٤١] وجعل الناس كلما قام رجل يحرض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر، وعمار والحسن معه على المنبر حتى قال له الحسن بن علي: ويحك! اعتزلنا لا أم لك، ودع منبرنا، ويقال: إن عليا بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة، واستجاب الناس للنفير فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البر وفي دجلة، ويقال: سار معه اثنا عشر ألفا ورجل واحد، فقدموا على عليٍّ بذي قار فتلقاهم إلى أثناء الطريق في جماعة، منهم ابن عباس فرحب بهم وقال: ياأهل الكوفة! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبو داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بالظلم، ولم ندع امرأ فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى.

فاجتمعوا عنده بذي قار، وكان من المشهورين من رؤساء من انضاف إلى علي، القعقاع بن عمرو، وسِعْر بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب، وزيد بن صوحان، والأشتر، وعدي بن حاتم، والمسيب بن نجبة، ويزيد بن قيس، وحجر بن عدي وأمثالهم، وكانت عبد القيس بكمالها بين علي وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف، فبعث عليٌّ القعقاع رسولا إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف.

فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين، فقال: أي أُمَّه! ما أقدمك هذا البلدة؟ فقالت: أي بني! الإصلاح بين الناس، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: الإصلاح بين الناس، فقالا: ونحن كذلك قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن، قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأديلوا عليكم كان الذي حذرتم وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه ـ يعني أن الذي تريدون من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها ـ وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم بعد هذا، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة عليه، ثم أعلمهم أن خلقا من ربيعة ومضر قد أجمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع. فقالت له عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة، ودرك بثار، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واتنافه كانت علامة شر وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا، ولا تعرضونا للبلاء فتعرَّضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وايم الله إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة. فقالوا: قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر.

قال: فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه، وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنما جاءت للإصلاح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي في الناس خطيبا فذكر الجاهلية وشقاءها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيهم ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة، أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي منّ بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره. ثم قال: ألا إني مرتحل غدا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على عثمان بشيء من أمور الناس.

فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وعلباء بن الهيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد، فقالوا: ماهذا، الرأي وعلي والله أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟ فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليا بعثمان، فرضي القوم منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: بئس مارأيت، لو قتلناه قتلنا، فإنا يامعشر قتلة عثمان في ألفين وخمسمائة وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف ولا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم، فقال علباء بن الهيثم دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها، فقال ابن السوداء: بئس ما قلت، إذاً والله كان يتخطفكم الناس، ثم قال ابن السوداء قبحه الله: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فإذا التقى الناس فانشبوا القتال ولا تفرّغوهم للنظر، فمن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما تكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه، وأصبح علي مرتحلا ومر بعبد القيس فساروا معه حتى نزلوا بالزاوية، وسار منها يريد البصرة، وسار طلحة والزبير ومن معهما للقائه، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزل الناس كل في ناحية. وقد سبق علي جيشه وهم يتلاحقون به،

فمكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم، فكان ذلك للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقد أشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة، من قتلة عثمان، فقالا: إن عليا قد أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك، وقام علي في الناس خطيباً، فقام إليه الأعور بن بنان المنقري، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة، فقال: الإصلاح وإطفاء النائرة ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمة، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا، قال: نعم! وقام إليه أبو سلامة الدالاني فقال: هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا اللّه في ذلك؟ قال: نعم! قال: فهل لك من حجة في تأخيرك ذلك؟ قال: نعم! قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟ قال: إني لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه للّه إلا أدخله اللّه الجنة وقال في خطبته: أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإياكم أن تسبقونا غداً، فإن المخصوم غداً من خُصم اليوم. وجاء في غبون ذلك الأحنف بن قيس في جماعة فانضاف إلى علي – وكان قد منع حرقوص بن زهير من طلحة والزبير وكان قد بايع عليا بالمدينة وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور فسأل عائشة وطلحة والزبير: إن قُتل عثمان من أبايع؟ فقالوا: بايع علياً فلما قتل عثمان بايع عليا قال: ثم رجعت إلى قومي فجاءني بعد ذلك ما هو أفظع، حتى قال الناس: هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان، فحرت في أمري لمن أتبع، فنفعني اللّه بحديث سمعته من أبي بكرة قال: قال رسول اللّه ﷺ وقد بلغه أن الفرس قد ملكوا عليهم ابنة كسرى فقال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري [٤٤٢٥، ٧٠٩٩].

والمقصود أن الأحنف لما انحاز إلى علي ومعه ستة آلاف، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف، فقال: اكفف عنا عشرة آلاف سيف، ثم بعث علي إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر، فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس، فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبد اللّه بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجاد وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف، فثار كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا، وبيتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي فبلغ الأمر عليا فقال: ما للناس؟ فقالوا: بيتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحهم ولبسوا اللأمة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر، وكان أمر اللّه قدرا مقدورا، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً، والتف على عائشة ومن معها نحو من ثلاثين ألفاً، وقامت الحرب على ساق، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان؛ فإنا للّه وإنا إليه راجعون، والسبئية أصحاب ابن السوداء قبحه اللّه لا يفترون عن القتل، ومنادي علي ينادي: ألا كفوا ألا كفوا، فلا يسمع أحد، وجاء كعب بن سور قاضي البصرة فقال: ياأم المؤمنين أدركي الناس لعل اللّه أن يصلح بك بين الناس، فجلست في هودجها فوق بعيرها وستروا الهودج بالدروع، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس في معركتهم، فتصاولوا وتجاولوا، وكان في جملة من تبارز الزبير وعمار، فجعل عمار يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يا أبا عبد اللّه، وإنما تركه الزبير لقول رسول اللّه ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية» وإلا فالزبير أقدر عليه منه عليه، فلهذا كف عنه، وقد كان من سنتهم في هذا اليوم أنه لا يذفف على جريح، ولا يتبع مدبر، وقد قتل مع هذا بشر كثير جداً، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن: يابني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين سنة فقال له: يا أبه قد كنت أنهاك عن هذا.

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عباد قال: قال علي يوم الجمل: يا حسن، يا حسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له: ياأبه قد كنت أنهاك عن هذا، قال: يابني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا.

وقال مبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة: لما اشتد القتال يوم الجمل، ورأى علي الرؤوس تندر أخذ علي ابنه الحسن فضمه إلى صدره ثم قال: إنا للّه يا حسن! أي خير يرجى بعد هذا؟ فلما ركب الجيشان وتراءى الجمعان طلب علي الزبير وطلحة ليكلمهما، فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم، فيقال: إنه قال لهما: إني أراكما قد جمعتما خيلا ورجالا وعُدَداً، فهل أعددتما عذراً يوم القيامة كذلك؟ فاتقيا اللّه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمي؟ فقال طلحة: ألّبتَ على عثمان. فقال علي ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، ثم قال: لعن اللّه قتلة عثمان، ثم قال: ياطلحة! أجئت بعرس رسول اللّه ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت؟ أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي. وقال للزبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني. فقال له علي: أتذكر يوم مررت مع رسول اللّه ﷺ في بني غنم فنظر إلي وضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول اللّه ﷺ: «إنه ليس بمزهوٍّ لتقاتلنه وأنت ظالم له»؟ فقال الزبير: اللّهم نعم! ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، واللّه لا أقاتلك.

وفي هذا السياق كله نظر، والمحفوظ منه الحديث.

كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي فقال: حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا أبو عاصم عن عبد اللّه بن محمد بن عبدالملك بن مسلم الرقاشي عن جده عبد الملك عن أبي جَرْو المازني. قال: شهدت عليا والزبير حين تواقفا، – يعني يوم الجمل –فقال له علي: يا زبير! انشدك اللّه أسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنك تقاتلني وأنت لي ظالم»؟ قال: نعم! لم أذكره إلا في موقفي هذا. ثم انصرف.

وقد رواه البيهقي [الدلائل: ٦/٤١٥] عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان عن قطن بن نُسير عن جعفر بن سليمان عن عبد اللّه بن محمد بن عبد الملك بن مسلم الرقاشي عن جده عن أبي جَرْوٍ المازني عن علي والزبير به.

وقال عبد الرزاق [المصنف: ٢٠٤٣٠]: أنا معمر عن قتادة قال: لما ولى الزبير يوم الجمل بلغ علياً فقال: لو كان ابن صفية يعلم أنه على حق ما ولى، وذلك أن رسول اللّه ﷺ لقيهما في سقيفة بني ساعدة فقال: «أتحبه يا زبير؟» فقال: وما يمنعني؟ قال: «فكيف بك إذا قاتلته وأنت ظالم له؟» قال: فيرون أنه إنما ولى لذلك. قال البيهقي: هذا مرسل وقد روي موصولا

من وجه آخر [الدلائل: ٦/٤١٤].

أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي أنا أبو عامر بن مطر أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن سوار الهاشمي الكوفي أنا منجاب بن الحارث، حدثنا عبد الله بن الأجلح، حدثنا أبي عن يزيد الفقير عن أبيه. قال: وسمعت فضل بن فضالة يحدث عن أبي، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن أبيه دخل حديث أحدهما في حديث صاحبه قال: لما دنا علي وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج علي وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: ادعوا لي الزبير بن العوام فإني علي، فدعي له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال علي: يا زبير! نشدتك بالله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: «يا زبير ألا تحب علياً؟» فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟ فقال: «يا زبير أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له»؟ فقال الزبير: بلى! والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ، ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك. فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: ما لك؟ فقال: ذكرني علي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لتقاتلنه وأنت ظالم له» فقال: وللقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفت أن لا أقاتله، قال: اعتق غلامك جرجس وقف حتى تصلح بين الناس. فأعتق غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه.

وروى البزار [كشف الأستار(٢٥٢٨)] عن أحمد بن عبدة عن الحسين بن الحسن عن رفاعة بن إياس بن أبي إياس عن أبيه عن جده قال: سمعت علياً يقول لطلحة يوم الجمل، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه». قال: بلى وانصرف.

وقد استغربه البزار، وهو جدير بذلك فرجع الزبير إلى عائشة فذكر لها أنه قد آلى أن لا يقاتل علياً، فقال له ابنه عبد الله: إنك جمعت الناس، فلما تراءى بعضهم لبعض خرجت من بينهم، كفر عن يمينك واحضر. فأعتق غلاماً اسمه مكحول، وقيل غلامه سرجس. وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عماراً مع علي وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فخشي أن يقتل عمار في هذا اليوم.

وعندي أن الحديث الذي أوردناه إن كان صحيحاً عنه فما رجعه سواه، ويبعد أن يكفر عن يمينه ثم يحضر بعد ذلك ويقاتل علياً؛ والله أعلم.

والمقصود أن الزبير لما رجع يوم الجمل سار حتى نزل وادياً يقال له وادي السباع، فاتبعه عمرو بن جرموز، فجاءه وهو نائم فقتله غيلة كما سنذكره تفصيله.

وأما طلحة فجاءه في المعركة سهم غرب يقال رماه به مروان بن الحكم فالله أعلم، فانتظم رجله مع فرسه فجمحت به الفرس فجعل يقول: إلي عباد الله، إلي عباد الله، فاتبعه مولى له فأمسكها، فقال له: ويحك! اعدل بي إلى البيوت، وامتلأ خفه دماً فقال لغلامه: انزعه واردفني، وذلك أنه نزفه الدم وضعف، فركب الغلام وراءه وجاء به إلى بيت في البصرة فمات فيه، رضي الله عنه.

وتقدمت عائشة رضي الله عنها في هودجها، وناولت كعب بن سور قاضي البصرة مصحفاً وقالت: ادعهم إليه ـ وذلك حين اشتد الحرب وحمي القتال، ورجع الزبير، وقتل طلحة رضي الله عنهما ـ فلما تقدم كعب بن سور بالمصحف يدعو الناس إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيين، ـ وهو عبد الله بن سبأ ابن السوداء ـ وأتباعه بين يدي الجيش، يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة، لا يتوقفون في أحد، فلما رأوا كعب بن سور رافعاً المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه، ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فجعلت تنادي: الله الله! يا بني اذكروا يوم الحساب ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان، فضج الناس معها بالدعاء حتى وصلت الضجة إلى علي فقال: ما هذا؟ فقالوا: أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم. فقال: اللهم العن قتلة عثمان، وجعل أولئك النفر لا يقلعون عن رشق هودجها بالنبال حتى بقي مثل القنفذ، وجعلت تحرض الناس على منعهم وكفهم، فحملت مضر حملة الحفيظة فطردوهم حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذي فيه علي بن أبي طالب، فقال لابنه محمد بن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية، فلم يستطع، فأخذها علي من يده فتقدم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة، حتى قتل خلق كثير، وجم غفير، ولم تُر وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة، وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: نحن بكر بن وائل، فقالت: لكم يقول القائل:

وجــاؤوا إلينــا بــالحديدِ كــأنهم ... مِن العزّة القعساءِ بكرُ بــنُ وائلِ

ثم جاء إليها بنو ناجية ثم بنو ضبة فقتل عندها منهم خلق كثير، ويقال: إنه قطعت يد سبعين رجلا وهي آخذة بخطام الجمل فلما أثخنوا تقدم بنو عدي بن عبد مناف فقاتلوا قتالا شديداً، ودفعوا رأس الجمل، وجعل أولئك يقصدون الجمل وقالوا: لا يزال الحرب قائماً مادام هذا الجمل واقفاً، ورأس الجمل في يد عميرة بن يثربي، وقُتل أخوه عمرو بن يثربي وكان من الشجعان المذكورين والفرسان المشهورين فتقدم إليه هند بن عمرو الجملي، فقتله ابن يثربي، ثم صمد إليه علباء بن الهيثم، فقتله ابن اليثربي أيضاً، وقتل سيحان بن صوحان وارتُثَّ صعصعة بن صوحان فدعاه عمار إلى البراز فبرز له، فتجاولا بين الصفين ـ وعمار يومئذ ابن تسعين سنة عليه فروة قد ربط وسطه بحبل ليف ـ فقال الناس: إنا لله وإنا إليه راجعون الآن يلحق عماراً بأصحابه، فضربه ابن يثربي بالسيف فاتقاه عمار بدرقته فعضّت السيف ونشب فيها، فضربه عمار فقطع يده وأخذه أسيراً إلى بين يدي علي فقال: استبقني ياأمير المؤمنين، فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ ثم أمر به فقتل واستمر زمام الجمل بيد رجل بعده كان قد استنابه فيه من بني عدي فبرز إليه ربيعة العقيلي فتجاولا حتى قتل كل واحد منهما صاحبه وأخذ الزمام الحارث الضبي فما رئي أشد منه وجعل يقول:

نحـن بنـو ضبـة أصحـابُ الجمـلْ ... نبـارز القِـرنَ إذا القِـرنُ نـزل

ننعي ابـن عفـانَ بـأطرافِ الأسـلْ ... المـوتُ أحلـى عندنـا مِـنَ العسـل

ردوا علينـا شـيخَنا ثـم بجـل

وقد قيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عمرو الضبي. وكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره حتى قتل منهم أربعون رجلا قالت عائشة: ما زال جملي معتدلا حتى فقدت أصوات بني ضبة ثم أخذ الخطام سبعون رجلا من قريش وكل واحد يقتل بعد صاحبه، فكان منهم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد فقال لعائشة: مريني بأمرك يا أماه. فقالت: آمرك أن تكون

كخير ابني آدم فامتنع أن ينصرف وثبت في مكانه وجعل يقول: حم لا ينصرون، فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه وصار كل واحد منهم بعد ذلك يدعي قتله وقد طعنه بعضهم بحربة فأنفذه وقال:

وأشعث قوامٍ بآياتِ ربهِ قليلِ الأذى فيما ترى العينُ مسلمِ
هتكتُ له بالرمحِ جيبَ قميصهِ فخرَّ صريعاً لليدينِ وللفمِ
يناشدني حمْ والرمحُ شاجرٌ فهلا تلا حمْ قبلَ التقدمِ
على غير شيء غيرَ أن ليسَ تابعاً علياً ومنْ لا يَتبعِ الحقَّ يندمِ

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف فجعل لا يدنو منه أحد إلا خطمه بالسيف فأقبل إليه الحارث ابن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أمنا ياخيرَ أمٍّ نعلمُ أما ترين كم شجاعٍ يكلمُ
وتُختلى هامتهُ والمعصمُ

فاختلفا ضربتين فقتل كل واحد منهما صاحبه، وأحدق أهل النجدات والمروءات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية والخطام إلا شجاع معروف، فيقتل من قصده ثم يقتل بعد ذلك، وقد فقأ بعضهم عين عدي بن حاتم ذلك اليوم، ثم تقدم عبد الله بن الزبير فاخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلم فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك فقالت: واثكل أسماء! وجاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً وضربه عبد الله ضربة خفيفة ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان فجعل عبد الله بن الزبير يقول:

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فأرسلهما مثلا، وجعل الناس لايعرفون مالكا من هو وإنما هو معروف بالأشتر فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما وقدجرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعاً وثلاثين جراحة، وجرح مروان بن الحكم أيضا، ثم جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره وسقط إلى الأرض، فسمع له عجيج ما سمع أشد ولا أنفذ منه، وآخر من كان الزمام بيده زفر بن الحارث فعقر الجمل وهو في يده، ويقال: إنه اتفق هو وبجير بن دلجة على عقره، ويقال: إن الذي أشار بعقر الجمل علي، وقيل: القعقاع بن عمرو لئلا تصاب أم المؤمنين، فإنها صارت غرضا للرماة، ومن يمسك بالزمام برجاساً للرماح، ولينفصل هذا الموقف الذي قد تفانى فيه الناس ولما سقط الجمل إلى الأرض انهزم من حوله من الناس، وحمل هودج عائشة وإنه لكالقنفذ من كثرة النشاب، ونادى منادي علي في الناس: إنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح، ولا يدخلوا الدور، وأمر علي نفراً أن يحملوا الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر وعماراً أن يضربا عليها قبة، وجاء إليها أخوها محمد فسألها: هل وصل إليك شيء من الجراح؟ فقالت: وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية. وسلم عليها عمار فقال: كيف أنت يا أم؟ فقالت: لست لك بأم. قال: بلى! وإن كرهت، وجاء إليها علي بن أبي طالب مسلماً فقال: كيف أنت ياأمه؟ قالت: بخير فقال: يغفر الله لك. وجاء وجوه الناس إليها من الأمراء والأعيان يسلمون عليها، ويقال: إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في الهودج فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حميراء، فقالت: هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك. فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عرياناً في خربة من خرابات الأزد.

فلما كان الليل دخلت أم المؤمنين البصرة ـ ومعها أخوها محمد بن أبي بكر ـ فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي ـ وهي أعظم دار بالبصرة ـ على صفية بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات عبد الله بن خلف، وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا البصرة وأقام علي بظاهر البصرة ثلاث وقد طاف علي بين القتلى فجعل كلما مر برجل يعرفه ترحم عليه ويقول: يعز عليَّ أن أرى قريشاً صرعى. وقد مر عليٌّ فيما ذُكر على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول فقال: لهفي عليك يا أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون والله لقد كنت كما قال الشاعر:

فتىً كانَ يدنيهِ الغنى مِنْ صديقهِ إذا ما هوَ استغنى ويبعدهُ الفقرُ

ثم صلى على القتلى من الفريقين، وخص قريشاً بصلاة من بينهم، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئا هو لأهلهم فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان.

وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله ورضي عن الصحابة منهم. وقد سأل بعض أصحاب عليٍّ علياً أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليهم فطعن فيه السبائية وقالوا: كيف يحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك علياً فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم، ولهذا لما دخل البصرة فرق في أصحابه أموال بيت المال فنال كل رجل منهم خمسمائة، وقال: لكم مثلها من الشام في أعطياتكم فتكلم فيه السبئية أيضاً ونالوا منه من وراء وراء.

بعد الجملِ

ولما فرغ علي من أمر الجمل أتاه وجوه الناس يسلمون عليه، فكان فيمن جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد ـ وكانوا قد اعتزلوا القتال ـ فقال له علي: تربَّصتَ ـ يعني بنا ـ فقال: ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إليَّ غداً أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستبق مودتي لغد، ولا تقل مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً.

قالوا: ثم دخل علي البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم، حتى الجرحى والمستأمنة. وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي فبايعه فقال له علي: أين المريض؟ ـ يعني أباه ـ فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإنه على مسرَّتك لحريص. فقال: امش أمامي، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره، وعرض عليه البصرة فامتنع وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس، وأشار عليه بابن عباس فولاه على البصرة، وجعل معه زياد بن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد وكان زياد معتزلا.

ثم جاء علي إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة فاستأذن ودخل فسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قتل منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، فلما دخل علي قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها علي شيئا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضاً فسكت، فقال له رجل: يا أمير

المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك! إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهنّ مشركات، أفلا نكف عنهن وهنّ مسلمات؟ فقال له رجل: ياأمير المؤمنين إن على الباب رجلين ينالان من عائشة فأمر علي القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة وأن يخرجهما من ثيابهما.

وقد سألت عائشة عمن قتل معها من المسلمين ومن قتل من عسكر علي، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحمت عليه ودعت له.

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة بعث إليها علي رضي اللّه عنه بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في جيشها أن يرجع معها إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات. وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس معه، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودعت لهم، وقالت: يابني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه واللّه ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار. فقال علي: صدقت واللّه ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة. وسار علي معها مودعاً ومشيعاً أميالاً، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم - وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين- وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك ثم رجعت إلى المدينة رضي اللّه عنها.

وأما مروان بن الحكم فإنه لما فر استجار بمالك بن مسمع فأجاره ووفى له، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكا ويشرفونه، ويقال: إنه نزل دار بني خلف فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هي إلى مكة سار هو إلى المدينة.

قالوا: وقد علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة، وذلك مما كانت النسور تخطفه من تخطف الأيدي والأقدام فيسقط منها هنالك، حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس، وذلك أن نسراً مر بهم ومعه شيء فسقط فإذا هو كف فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب.

هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٤/٥٠٦، ٥٤٤] رحمه اللّه عن أئمة هذا الشأن، وليس فيما يذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلقة على الصحابة والأخبار الموضوعة إلى ينقلونها بما فيها، وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنقول لهم: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٥].

فصل في ذكر أعيان من قتل يوم الجمل

من السادة النجباء من الصحابة وغيرهم من الفريقين رضي اللّه عنهم أجمعين

وقد قدمنا أن عدة القتلى نحو من عشرة آلاف، وأما الجرحى فلا يحصون كثرة. ولم يكن في الفريقين من الصحابة إلا قليل.

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن أيوب عن محمد بن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول اللّه ﷺ عشرات ألوف فلم يحضرها منهم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل هو ابن علية حدثنا منصور بن عبد الرحمن قال: قال الشعبي: لم يشهد الجمل من أصحاب النبي ﷺ غير علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاؤوا بالخامس فأنا كذاب

قلت: قد حضرها عائشة وابن الزبير والحسن والحسين ومحمد بن أبي بكر وسهل بن حنيف وآخرون.

فممن قتل يومئذ في المعركة

■ طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة أبو محمد القرشي التيمي.

ويعرف بطلحة الخير، وطلحة الفياض لكثرة برّه وكثرة جوده. أسلم قديماً على يدي أبي بكر الصديق، فكان نوفل بن خويلد بن العدوية يشدهما في حبل واحد، ولا تستطيع بنو تيم أن تمنعهما منه، ولذلك كان يقال لطلحة وأبي بكر القرينان، وقد هاجر وآخى رسول اللّه ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، وشهد المشاهد كلها مع رسول اللّه ﷺ إلا بدراً - فإنه كان بالشام في تجارة - وقيل: في رسالة، لهذا ضرب له رسول اللّه ﷺ بسهمه وأجره من بدر، وكانت له يوم أحد اليد البيضاء وشلت يده يومئذ، لأنه وقى بها رسول اللّه ﷺ واستمرت كذلك إلى أن مات، وكان الصديق إذا حدث عن يوم أحد يقول: ذاك يوم كان كله لطلحة، وقد قال له رسول اللّه ﷺ يومئذ: «أوجب طلحة» [ت(١٦٩٢)] وذلك أنه كان على رسول اللّه ﷺ درعان فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هنالك فما استطاع فطأطأ له طلحة فصعد على ظهره حتى استوى عليها، وقال: «أوجب طلحة».

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وقد صحب رسول اللّه ﷺ فأحسن صحبته حتى توفي وهو عنه راض، وكذلك أبو بكر وعمر، فلما كان قضية عثمان اعتزل عنه فنسبه بعض الناس إلى تحامل فيه، فلهذا لما حضر يوم الجمل واجتمع به علي فوعظه تأخر فوقف في بعض الصفوف، فجاءه سهم غرب فوقع في ركبته وقيل في رقبته، والأول أشهر، وانتظم السهم مع ساقه خاصرةَ الفرس فجمح به حتى كاد يلقيه، وجعل يقول: إلي عباد اللّه. فأدركه مولى له فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بدار فيها، ويقال: إنه مات بالمعركة، وأن علياً لما دار بين القتلى رآه فجعل يمسح عن وجهه التراب وقال: رحمة اللّه عليك أبا محمد، يعز عليّ أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى اللّه أشكو عجري وبُجَري، واللّه لوددت أني كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. ويقال: إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحكم، وقال لأبان بن عثمان: قد كفيتك رجلاً من قتلة عثمان، وقد قيل: إن الذي رماه غيره، وهذا عندي أقرب، وإن كان الأول مشهوراً واللّه أعلم، وكان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين.

ودفن طلحة إلى جانب الكلاء وكان عمره ستين سنة، وقيل بضعاً وستين سنة.

وكان آدم، وقيل أبيض، حسن الوجه كثير الشعر إلى القصر أقرب وكانت غلته في كل يوم ألف درهم.

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبيه أن رجلا رأى طلحة في منامه وهو يقول: حولوني عن قبري فقد آذاني الماء، ثلاث ليال، فأتى ابن عباس - وكان نائباً على البصرة - فأخبره فاشتروا له داراً بالبصرة بعشرة آلاف درهم فحولوه من قبره إليها، فإذا هو قد اخضر من

جسده ما يلي الماء، وإذا هو كهيئته يوم أصيب.

وقد وردت له فضائل كثير، فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن أبي عاصم: حدثنا الحسن بن علي بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله حدثني أبي عن جده عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: سماني رسول الله ﷺ يوم أحد طلحة الخير، ويوم العسرة طلحة الفياض. ويوم حنين طلحة الجود.

وقال أبو يعلى الموصلي [مسنده: (٦٦٣)] حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء يسأل عمن قضى نحبه فقالوا: سل رسول الله ﷺ فسأله في المسجد فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم اطلعت من باب المسجد وعليَّ ثياب خضر فقال رسول الله: «أين السائل»؟ قال: ها أنا ذا فقال: «هذا ممن قضى نحبه».

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد ثنا مكي بن إبراهيم حدثنا الصلت بن دينار عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

وقال الترمذي [٣٧٤١]: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو عبد الرحمن بن منصور العنزي - اسمه النضر - حدثنا عقبة بن علقمة اليشكري سمعت علي بن أبي طالب يقول: سمعت أذناي رسول الله ﷺ يقول: «طلحة والزبير جاراي في الجنة».

وقد روي من غير وجه عن علي [فضائل الصحابة للإمام أحمد ١٢٩١، ١٢٩٥] أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رجلاً كان يقع في طلحة والزبير وعثمان وعلي رضي الله عنهم فجعل سعد ينهاه ويقول: لا تقع في إخواني فأبى فقام سعد فصلى ركعتين ثم قال: اللّهم إن كان هذا مسخطاً لك فيما يقول، فأرني فيه اليوم آية واجعله للناس عبرة. فخرج الرجل فإذا هو ببختي يشق الناس فأخذه بالبلاط فوضعه بين كركرته والبلاط فسحقه حتى قتله. قال سعيد بن المسيب: فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً ويقولون: هنيئاً لك أبا إسحاق أجيبت دعوتك.

وأما الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة أبو عبد الله القرشي الأسدي.

وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ أسلم الزبير قديماً وعمره خمس عشرة سنة، وقيل أقل وقيل أكثر. وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمة بن سلامة بن وقش، وقد شهد المشاهد كلها وقد قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «من يأتينا بخبر القوم»؟ فقال: أنا، ثم ندب الناس فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير» ثبت ذلك من رواية زر عن علي [ت(٣٧٤٤)، مسند أحمد: ٨٩/١، ١٠٢، ١٠٣]، وثبت عن الزبير أنه قال: «جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم بني قريظة» [خ: (٣٧٢٠)، م(٢٤١٦)].

وروي أنه أول من سل سيفاً في سبيل الله، وذلك بمكة حين بلغ الصحابة أن رسول الله قد قتل فجاء الزبير شاهراً سيفه حتى رأى رسول الله ﷺ فشام سيفه [مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٢٩) وابن أبي شيبة (١٢٢١٥)].

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، واحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وصحب الصديق فأحسن صحبته، وكان ختنه على ابنته أسماء، وابنه عبد الله منها؛ أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة، وخرج مع الناس إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك فتشرفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العالية، اخترق جيوش الروم وصفوفهم من بين الناس مرتين من أولهم إلى آخرهم، وكان من جملة من دافع عن عثمان وجاحف عنه، فلما كان يوم الجمل ذكره علي بما ذكره به كما تقدم فرجع عن القتال وكر راجعاً إلى المدينة، فمر بقوم الأحنف بن قيس - وكانوا قد اعتزلوا الفريقين - فقال قائل منهم يقال هو الأحنف: ما بال هذا جمع بين الناس حتى إذا التقوا كر راجعاً إلى أهله؟ من رجل يكشف لنا خبره؟ فاتبعه عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس، ونفيع في طائفة من غواة بني تميم فيقال: إنهم لما ادركوه تعاونوا عليه حتى قتلوه ويقال: بل أدركه عمرو بن جرموز فقال له عمرو: إن لي إليك حاجة فقال: ادن! فقال مولى الزبير، واسمه عطية - إني أرى معه سلاحاً فقال: وإن كان، فتقدم إليه فجعل يحدثه وحان وقت الصلاة فقال له الزبير: الصلاة فقال: الصلاة فتقدم الزبير ليصلي بهما فطعنه عمرو بن جرموز فقتله ويقال بل أدركه عمرو بواد يقال له وادي السباع وهو نائم في القائلة فهجم عليه فقتله وهذا القول هو الأشهر، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكان آخر من تزوجها وكانت قبله تحت عمر بن الخطاب فقتل عنها أيضاً وكانت قبله تحت عبد الله بن أبي بكر الصديق فقتل عنها فلما قتل الزبير رثته بقصيدة جيدة الشعر، محكمة المعنى فقالت:

غدرَ ابنُ جرموزٍ بفارسِ بهمةٍ ... يومَ اللقاءِ وكانَ غيرَ معردِ
ياعمرو لو نبهتهُ لوجدتَه ... لا طائشاً رعشَ الجَنانِ ولا اليدِ
ثكلتكَ أمكَ أنْ ظفرتَ بمثلهِ ... ممنْ بقي ممنْ يروحُ ويغتدي
كمْ غمرة قدْ خاضها لم يثنهِ ... عنها طرادكَ يا ابنَ فقعِ القرددِ
واللهِ ربي إنْ قتلتَ لمسلماً ... حلتْ عليكَ عقوبةُ المتعمدِ

ولما قتله عمرو بن جرموز احتز رأسه وذهب به إلى علي ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده فاستأذن فقال علي: لاتأذنوا له وبشروه بالنار، وفي رواية [مسند أحمد: ٨٩/١، ١٠٢، ١٠٣] أن علياً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار».

ودخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير فقال علي: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ فيقال: إن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه، وقيل: بل عاش إلى أن تأمر مصعب بن الزبير، على العراق فاختفى منه، فقيل لمصعب: إن عمرو بن جرموز هاهنا وهو مختف، فهل لك فيه؟ فقال: مروه فليظهر فهو آمن، والله ما كنت لأقيد للزبير منه فهو أحقر من أن أجعله عدلاً للزبير.

وقد كان الزبير ذا مال جزيل وصدقات دارة كثيرة جداً، ولما كان يوم الجمل اوصى إلى ابنه عبد الله فلما قتل وجدوا عليه من الدين الفي الف ومائتي الف فوفوها عنه، وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذي كان أوصى به ثم قسمت التركة بعد ذلك فأصاب كل واحدة من زوجاته وكن أربعاً من ربع الثمن ألف ألف ومائتا الف درهم، فعلى هذا يكون مجموع ما قسم بين الورثة ثمانية وثلاثين الف الف وأربعمائة الف والثلث الموصى به

تسعة عشر ألف ألف ومائتا ألف فالجملة سبعة وخمسون ألف ألف وستمائة ألف والدين المخرج قبل ذلك ألفا ألف ومائتا ألف فعلى هذا يكون جميع ما تركه من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين ألف ألف وثمانمائة ألف، وإنما نبهنا على هذا لأنه وقع في صحيح البخاري [٣١٢٩] ما فيه نظر ينبغي أن ينبه له والله أعلم.

وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة والمآثر الوثيرة من الحلال مما أفاء الله عليه من الجهاد ومن خمس الخمس مما يختص به منه، ومن التجارة المبرورة. وقد قيل: إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فربما تصدق في بعض الأيام بخراجهم كله رضي الله عنه وأرضاه، وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وقد نيف على الستين سنة بست أو سبع وكان أسمر ربعة من الرجال معتدل اللحم خفيف اللحية رضي الله عنه.

وفي هذه السنة أعني سنة ست وثلاثين ولى علي بن أبي طالب نيابة الديار المصرية لقيس بن سعد بن عبادة، وكان على نيابتها في أيام عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلما توجه أولئك الأحزاب من خوارج المصريين إلى عثمان ليقتلوه وكان الذي جهزهم إليه مع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء محمد بن أبي حذيفة بن عتبة، وكان لما قتل أبوه باليمامة قد أوصى به إلى عثمان، فكفله ورباه في حجره ومنزله وأحسن إليه إحسانا كثيراً ونشأ في عبادة وزهادة، وسأل من عثمان أن يوليه عملا فقال له: متى ما صرت أهلا لذلك وليتك، فتعتب في نفسه على عثمان فسأل من عثمان أن يخرج إلى الغزو فأذن له، فقصد الديار المصرية وحضر مع أميرها عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزوة الصواري كما قدمنا، وشرع يتنقص عثمان رضي الله عنه وساعده على ذلك محمد بن أبي بكر الصديق، فكتب بذلك ابن أبي سرح إلى عثمان يشكوهما إليه فلم يعبأ بهما عثمان شيئاً ولم يزل ذلك دأب محمد بن أبي حذيفة حتى استنفر أولئك إلى عثمان فلما بلغه أنهم قد حصروا عثمان تغلب على الديار المصرية وأخرج منها ابن أبي سرح، وصلى بالناس فيها، فلما كان ابن أبي سرح ببعض الطريق جاءه الخبر بقتل عثمان فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وبلغه أن عليا قد بعث على إمرة مصر قيس بن سعد بن عبادة، فشمت بمحمد بن أبي حذيفة، إذ لم يمتع بملك الديار المصرية سنة، وسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى الشام إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره بديار مصر، وأن محمد بن أبي حذيفة قد استحوذ عليها، فسار معاوية وعمرو بن العاص إليه ليخرجاه منها لأنه من أكبر الأعوان على قتل عثمان، مع أنه كان قد رباه وكفله وأحسن إليه، فعالجا دخول مصر فلم يقدرا فلم يزالا يخدعانه حتى خرج إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها، وجاء عمرو بن العاص فنصب عليه المنجنيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتلوا، ذكره محمد بن جرير [تاريخه: ٥٤٦/٤].

ثم سار إلى مصر قيس بن سعد بولاية من علي، فدخل في سبعة نفر، فرقى المنبر وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم كثيرا الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام دينا لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به الرسل إلى عباده وخص به من انتخب من خلقه، فكان مما أكرم الله به هذه الأمة، وخصهم به من الفضيلة أن بعث محمداً ﷺ يعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة، لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرقوا، وزكاهم لكي يتطهروا، ووفقهم لكيلا يجوروا. فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه، صلوات الله وسلامه عليه وبركاته ورحمته، ثم إن المسلمين استخلفوا بعده أميرين صالحين، عملا بالكتاب وأحسنا السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما الله فرحمهما الله، ثم ولي بعدهما وال أحدث أحداثا، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا، ثم نقموا عليه فغيروا، ثم جاؤوني فبايعوني فأستهدي الله بهداه وأستعينه على التقوى، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، والقيام عليكم بحقه والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل، وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته أسأل الله لنا ولكم عملا زاكياً وثواباً جزيلا ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين.

قال [تاريخ الطبري: ٥٤٩/٤]: ثم قام قيس بن سعد فخطب الناس ودعاهم إلى البيعة لعلي، فقام الناس فبايعوه، واستقامت له طاعة بلاد مصر سوى قرية منها يقال لها خربتا، فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان - وكانوا سادة الناس ووجوههم وكانوا في نحو من عشرة آلاف منهم بسر بن أبي أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج وجماعة من الأكابر وعليهم رجل يقال له يزيد بن الحارث المدلجي - وبعثوا إلى قيس بن سعد فوادعهم، وكذلك مسلمة بن مخلد الأنصاري تأخر عن البيعة فتركه قيس بن سعد ووادعه، ثم كتب معاوية بن أبي سفيان بعد أن استوسق له أمر الشام بحذافيره - إلى أقصى بلاد الروم والسواحل وجزيرة قبرص أيضاً تحت حكمه يأتيه حِمْلُها وبعض بلاد الجزيرة كالرها وحران وقرقيسياء وغيرها، وقد أتاه الذين هربوا يوم الجمل من العثمانية، وقد أراد الأشتر انتزاع هذه البلاد من نواب معاوية، فبعث إليه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ففر منه الأشتروهرب، فاستقر أمر معاوية على تلك البلاد فلما استوسقت له البلاد كما ذكرنا كتب إلى قيس بن سعد يدعوه إلى القيام بطلب دم عثمان وأن يكون مؤازراً له على ما هو بصدده من القيام في ذلك، ووعده أن يكون نائبه على العراقين إذا تم له الأمر مادام سلطانا فلما بلغه الكتاب - وكان قيس رجلا حازماً - لم يخالفه ولم يوافقه بل بعث يلاطف معه الأمر وذلك لبعده عن علي وقربه من بلاد الشام وما مع معاوية من الجنود، فسالمه قيس وتاركه ولم يوافقه على ما دعاه إليه ولا خالفه عليه: فكتب إليه معاوية: إنه لا يسعك معي تسويفك بي وخديعتك لي فلا بد أن أعلم أنك سَلْم أو عدو - وكان معاوية حازماً أيضاً - فكتب إليه قيس لما صمم عليه: إني مع علي إذ هو أحق بالأمر منك. فلما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان يئس منه ورجع عنه ثم أشاع بعض أهل الشام أن قيساً يكاتبهم في الباطن ويمالئهم على أهل العراق.

وروى ابن جرير [تاريخه: ٥٥٣/٤] أنه جاءهم من جهته كتاب مزور بمبايعة قيس معاوية فالله أعلم بصحته.

فلما جاء الكتاب إلى علي اتَّهمه وكتب إليه أن يغزو أهل خربتا الذين تخلفوا عن البيعة، فبعث يعتذر إليه بأنهم عدد كثير، وهم وجوه الناس. وكتب إليه: إن كنت إنما أمرتني بهذا لتختبرني لأنك اتهمتني في طاعتك، فابعث على عملك بمصر غيري، فبعث علي الأشتر النخعي، فسار إليها فلما بلغ القلزم شرب شربة من عسل فكان فيها حتفه فبلغ ذلك أهل

الشام فقالوا: إن للّه جنداً من عسل، فلما بلغ علياً مهلك الأشتر بعث محمد بن أبي بكر على إمرة مصر، وقد قيل وهو الأصح إنه إنما ولاّه مصر بعد قيس بن سعد ، فارتحل قيس إلى المدينة، ثم ركب هو وسهل بن حنيف إلى علي فاعتذر إليه قيس بن سعد فعذره علي، وشهدا معه صفين كما سنذكره، فلم يزل محمد بن أبي بكر قائم الأمر مهنياً بالديار المصرية، حتى كانت وقعة صفين، وبلغ أهل مصر صَبْر معاوية ومن معه من أهل الشام في قتال أهل العراق، وصاروا إلى التحكيم فعند ذلك طمع أهل مصر في محمد بن أبي بكر واجترؤوا عليه وبارزوه بالعداوة فكان من أمره ما سنذكره.

وكان عمرو بن العاص قد بايع معاوية على القيام بطلب دم عثمان، وكان قد خرج من المدينة حين أرادوا حصره لئلا يشهد مهلكه، مع أنه كان متعتباً على عثمان بسبب عزله له عن ديار مصر وهو الذي فتحها وتوليته بدله عبد اللّه بن أبي سرح، فخرج من المدينة على تغضب وغيظ فنزل قريباً من الأردن، فلما قتل عثمان صار إلى معاوية فبايعه على ما ذكرناه من القيام بدم عثمان.

وقعة صِفّين بين أهل العراق من اصحاب علي وبين أهل الشام من أصحاب معاوية

قد تقدم ما رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين. أنه قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول اللّه ﷺ عشرات ألوف فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد قال لشعبة: إن أبا شيبة روى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلا، فقال: كذب أبو شيبة، واللّه لقد ذاكرنا الحكم في ذلك فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت.

وقد قيل إنه شهدها من أهل بدر سهل بن حنيف، وكذا أبو أيوب الأنصاري قاله شيخنا العلامة ابن تيمية في كتاب الرّد على الرافضة.

وروى ابن بطة بإسناده عن بكير بن الأشج أنه قال: أما إن رجالا من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

وأما علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه فإنه لما فرغ من وقعة الجمل ودخل البصرة وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة، سار من البصرة إلى الكوفة. قال ابن أبي الكنود عبيد الرحمن بن عبيد: فدخلها علي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين فقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا! إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله فأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرحبة وصلى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد اللّه ـ وكان على همذان من زمان عثمان ـ وإلى الأشعث بن قيس ـ وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان ـ يأمرهما أن يأخذا البيعة على من هنالك ثم يقبلا إليه، ففعلا ذلك. فلما أراد علي رضي اللّه عنه أن يبعث إلى معاوية رضي اللّه عنه يدعوه إلى بيعته قال جرير بن عبد اللّه: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين فإن بيني وبينه ودّاً، فآخذ لك من البيعة، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، وبعثه وكتب معه كتابا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس.

فلما انتهى إليه جرير بن عبد اللّه أعطاه الكتاب فطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام فاستشارهم فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت ثم لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: واللّه لو بعثني لم يعيني جواب معاوية ولأعجلنه عن الفكرة، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة، فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيسياء، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه.

وخرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من الكوفة عازماً على الدخول إلى الشام فعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عمرو البدري الأنصاري وكان قد أشار عليه جماعة بأن يقيم بالكوفة ويبعث الجنود وأشار آخرون عليه بالخروج بنفسه، وبلغ معاوية أن علياً قد خرج إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فقال له: اخرج إليه أنت أيضاً بنفسك، وقام عمرو بن العاص في الناس خطيباً فقال: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبق مع علي إلا شرذمة قليلة، ممن قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فاللّه اللّه في حقكم أن تضيعوه، وفي دم عثمان خليفة اللّه فلا تطلوه، وكتب إلى أجناد الشام فحضروا، وعقدت الألوية والرايات للأمراء ، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا أيضاً إلى نحو الفرات من ناحية صفين ـ حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ـ بمن معه من النخيلة قاصداً أرض الشام. قال أبو إسرائيل عن الحكم بن عتيبة: وكان في جيش علي ثمانون بدرياً ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة. رواه ابن ديزيل.

وقد اجتاز في طريقه براهب فكان من أمره ما ذكره إبراهيم بن الحسين بن ديزيل في كتابه فيما رواه عن يحيى بن عبد اللّه الكرابيسي عن نصر بن مزاحم [كتاب وقعة صفين ص١٤٧، ١٤٨] عن عمر بن سعد حدثني مسلم الأعور عن حبة العرني قال: لما أتى علي الرقة نزل بمكان يقال له البليخ على جانب الفرات فنزل إليه راهب من صومعته فقال لعلي: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى ابن مريم عليهما السلام، أعرضه عليك؟ فقال علي: نعم! فقرأ الراهب:

بسم اللّه الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، وكتب فيما كتب أنه باعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل اللّه، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون اللّه على كل شرف، وفي كل صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وينصره اللّه على كل ممن ناوأه فإذا توفاه اللّه اختلفت أمته ثم اجتمعت فلبثت بذلك ماشاء اللّه ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق ولا ينكّس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد أو قال التراب ـ في يوم عصفت فيه الريح ـ والموت أهون عليه من شرب الماء، يخاف اللّه في السر، وينصح في العلانية، ولا يخاف في اللّه لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك

العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة».

ثم قال لعلي: فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسياً منسياً، والحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار. فمضى الراهب معه وأسلم فكان مع علي حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال علي: اطلبوا الراهب، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه واستغفر له.

وقد بعث علي بين يديه زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف، ومعه شريح بن هانئ، في أربعة آلاف، فساروا في طريق بين يديه غير طريقه، وجاء علي كرم الله وجهه فقطع دجلة من جسر منبج وسارت المقدّمتان، فبلغهم أن معاوية قد ركب في أهل الشام ليلقى علياً فهموا بلقياه فخافوا من قلة عددهم بالنسبة إليه، فعدلوا عن طريقهم وجاؤوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهل عانات فساروا فعبروا من هيت ثم لحقوا علياً ـ وقد سبقهم ـ فقال علي: مقدمتي تأتي من ورائي؟ فاعتذروا إليه بما جرى لهم، فعذرهم ثم قدمهم أمامه إلى معاوية بعد أن عبر الفرات فتلقاهم أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي في مقدمة أهل الشام فتواقفوا، ودعاهم زياد بن النضر أمير مقدمة أهل العراق إلى بيعة علي فلم يجيبوه بشيء فكتب إلى علي بذلك فبعث إليهم علي الأشتر النخعي أميراً، وعلى ميمنته زياد بن النضر، وعلى ميسرته شريح، وأمره أن لا يتقدم إلى أهل الشام بقتال حتى يبدؤوه أولا بالقتال، ولكن ليدعهم إلى البيعة مرة بعد مرة، فإن امتنعوا فلا يقاتلهم حتى يقاتلوه ولا يقرب منهم قرب من يريد الحرب، ولا يبعد منهم ابتعاد من يهاب الرجال، ولكن صابرهم حتى آتيك فأنا حثيث السير وراءك إن شاء الله، وبعث معه بكتاب الإمارة على المقدمة مع الحارث بن جهمان الجعفي، فلما قدم الأشتر على المقدمة امتثل ما أمره به علي، فتواقف هو ومقدمة معاوية وعليها أبو الأعور فلم يزالوا متواقفين يومهم ذلك، فلما كان آخر النهار حمل عليهم أبو الأعور السلمي فثبتوا له واضطربوا لهم ساعة ثم انصرف أهل الشام عند المساء، فلما كان الغد تواقفوا أيضاً وتصابروا فحمل الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي ـ وكان من فرسان أهل الشام ـ قتله رجل من أهل العراق يقال له ظبيان بن عمارة التميمي، فعند ذلك حمل عليهم أبو الأعور بمن معه، فتقدموا إليهم وطلب الأشتر من أبي الأعور أن يبارزه، فلم يجبه أبوالأعور إلى ذلك، وكأنه رآه غير كفء له في ذلك والله أعلم.

ثم تحاجز القوم عن القتال عند إقبال الليل من اليوم الثاني، فلما كان صباح اليوم الثالث أقبل علي رضي الله عنه في جيوشه، وجاء معاوية رضي الله عنه في جنوده، فتواجه الفريقان وتقابل الجمعان وبالله المستعان، فتواقفوا طويلا. وذلك بمكان يقال له: صفين وذلك في أوائل ذي الحجة، ثم عدل علي رضي الله عنه فارتاد لجيشه منزلا، وقد كان معاوية سبق بجيشه فنزلوا على مشرعة الماء في أسهل موضع وأفيحه، فلما نزل علي نزل بعيداً من الماء، وجاء سرعان أهل العراق ليردوا من الماء فمنعهم أهل الشام، فوقع بينهم مقاتلة بسبب ذلك، وقد كان معاوية قد وكل على الشريعة أبا الأعور السلمي، وليس هناك مشرعة سواها، فعطش أصحاب علي عطشاً شديداً فبعث علي الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء فمنعهم أولئك وقال: موتوا عطشا كما منعتم عثمان الماء، فتراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمد كل طائفة أصحابها، حتى جاء الأشتر من ناحية العراقيين وجاء عمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت، وقد قال رجل من أهل العراق ـ وهو عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي ـ وهو يقاتل.

خلّوا لنا ماء الفراتِ الجاري　　أو اثبتوا لجحفلٍ جرارِ
لكلِ قَرمٍ مستميتٍ شارِ　　مطاعنٍ برمحهِ كرارِ
ضرّابِ هاماتِ العدى مغوارِ

ثم مازال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه وخلوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذي إنسان منهم إنساناً.

وفي رواية أن معاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة وقف دونها برماح مشرعة، وسيوف مسللة وسهام مفوقة، وقسي موترة، فجاء أصحاب علي علياً فشكوا إليه ذلك فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية يقول له: إنا جئنا كافين عن قتالكم حتى نقيم عليكم الحجة، فبعثت إلينا مقدمتك فقاتلتنا قبل أن نبدأكم بالقتال، ثم هذه أخرى قد منعتمونا فقال معاوية للقوم: ماذا ترون؟ فقال عمرو بن العاص خلّ بينهم وبينه، فليس من النصف أن نكون ريانين وهم عطاش، فقال الوليد بن عقبة: دعهم يذوقوا من العطش ما أذاقوا أمير المؤمنين عثمان حين حصروه في داره، ومنعوه طيب الماء والطعام أربعين صباحاً، وقال عبدالله بن سعد بن أبي سرح: امنعهم الماء إلى الليل لعلهم يرجعون إلى بلادهم. فسكت معاوية فقال له صعصعة بن صوحان: ماذا جوابك؟ فقال: سيأتيكم رأيي بعد هذا، فلما رجع صعصعة فأخبر الخبر ركبت الخيل والرجال، فما زالوا حتى أزاحوهم عن الماء ووردوه قهراً، ثم اصطلحوا على وروده، وأن لا يمنع أحد أحداً منه وأقام علي يومين لا يكاتب معاوية ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا علي بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فقال: إيتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة واسمعوا ما يقول لكم، فلما دخلوا على معاوية قال له بشير بن عمرو: يامعاوية! إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها. فقال له معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال له: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في أخراك. فقال معاوية: ويطل دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً، ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم فبدره شبث بن ربعي فتكلم قبله بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية، فزجره معاوية وزبره في افتياته على من هو أكبر منه أشرف، وفي كلامه بما لا علم له به، ثم أمر بهم فأخرجوا من بين يديه، وصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً، فعند ذلك نشبت الحرب بينهم، وأمر علي بالطلائع والأمراء أن يتقدموا للحرب، وجعل علي يؤمر كل يوم كل يوم على الحرب أميراً، فمن أمرائه على الحرب الأشتر النخعي ـ وهو أكبر من كان يخرج للحرب ـ وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وخالد بن المعمر وزياد بن النضر، وزياد بن خصفة، وسعيد بن قيس، ومعقل بن قيس، وقيس بن سعد، وكذلك فعل معاوية كان كل يوم يبعث على الحرب أميراً، فمن أمرائه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلم، وذو الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السمط، وحمزة بن مالك الهمداني، وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين،

وذلك في شهر ذي الحجة بكماله.

حج بالناس في هذه السنة عبد الله بن عباس عن أمر علي لـه بذلـك، فلما انسلخ ذو الحجة ودخل المحرم تداعى النـاس للمتاركـة، لعـل اللـه أن يصلح بينهم على أمر يكون فيه حقن دمائهم، فكـان مـا سـنذكره إن شـاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

استهلت هذه السنة وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللـه عنـه متواقف هو ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كـل منهمـا في جنـوده بمكان يقال له صفين بالقرب من الفرات شرقي بلاد الشام، وقد اقتتلـوا في مدة شهر ذي الحجة كل يوم، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين، وجـرت بينهم حروب يطول ذكرها.

والمقصود أنه لما دخل شهر المحـرم تحـاجز القـوم رجـاء أن يقـع بينهـم مهادنة وموادعة يؤول أمرها إلى الصلح بين النـاس وحقـن دمـائهم، فذكـر ابن جرير [تاريخه: ٥/٥] من طريق هشام عن أبي مخنف قال حدثني سعد أبو المجاهد الطائي عن محل بن خليفة أن علياً بعث عدي بـن حـاتم ويزيـد بـن قيس الأرحبي، وشبث بن ربعي وزياد بن خصفة إلى معاوية، فلمـا دخلـوا عليه - وعمرو بن العاص إلى جانبه - قـال عـدي بعـد حمـد اللـه والثنـاء عليه: أما بعد يا معاوية فإنا جئنـاك ندعـوك إلى أمـر يجمـع اللـه بـه كلمتنـا وأمتنا، وتحقن به دماؤنا وتأمن به السبل، ويصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثراً وقـد اسـتجمع لـه الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير مـن معـك، فاته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك مثل ما أصاب يوم الجمل، فقـال له معاوية: كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً، هيهـات يـاعدي، كـلا والله إني لابن حرب، لا يقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتله، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به.

وتكلم شبث بن ربعي وزياد بن خصفة فذكرا من فضل علـي وقـالا: اتق الله يامعاوية ولا تخالفه فإنا والله مارأينا رجلا قط أعمل بـالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم دعوتمونـي إلى الجماعة والطاعة، فأما الجماعة فنعمّا هـي، وأمـا الطاعـة فكيـف أطيـع رجلا أعان على قتل عثمان وهو يزعم أنه لم يقتله؟ ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به، ولكنه آوى قتلته، فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم ثم نحـن نجيبكـم إلى الطاعة والجماعة. فقال له شبث بن ربعي: أنشدك اللـه يـا معاويـة، لـو تمكنت من عمار أكنت قاتله بعثمان؟ قال معاوية: لو تمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان، ولكني كنت قتلته بغلام عثمان. فقال له شبث بـن ربعـي: وإله الأرض والسماء لا تصـل إلى قتـل عمـار حتـى تنـدر الـرؤوس عـن كواهلها، ويضيق فضاء الأرض ورحبها عليك. فقال معاوية: لـو قـد كـان ذلك كانت عليك أضيق.

وخرج القوم من بـين يديـه فذهبـوا إلى علي فأخبروه الخبر. وبعـث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس إلى علي، فدخلوا عليه فبدأ حبيب فحمـد اللـه وأثنـى عليـه، ثـم قال: أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليـه فقتلتمـوه فـادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم، فيولي الناس أمرهم من أجمعوا عليه رأيهـم. فقـال لـه علـي: وما أنت لا أم لك، وهذا الأمر وهذا العزل، فاسكت فـإنك لسـت هنـاك ولا بأهل لذاك. فقال له حبيب: أما والله لتريني حيث تكره، فقال له علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت، اذهـب فصعد وصوّب ما بدا لك.

ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلا جـرى بينهـم وبـين علـي، وفي صحـة ذلك عنهم وعنه نظر فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما يتنقـص فيـه معاوية وأباه، وإنهم إنما دخلوا في الإسلام كرهاً ولم يزالا في تردد فيه وغير ذلك وإنه قال في غبون ذلك: لا أقول: إن عثمان قتـل مظلومـاً ولا ظالمـاً. فقالوا: نحن نبرأ ممن لم يقل: إن عثمان قتل مظلومـاً، وخرجـوا مـن عنـده، فقال علـي: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وما أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١] ثـم قـال لأصحابه: لا يكـن هـؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم.

وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه.

وروى ابن ديزيل من طريق عمر بن سعد بإسناده أن قراء أهل العراق وقراء أهل الشام عسكروا ناحية وكانوا قريباً من ثلاثين ألفاً، وأن جماعة من قراء العراق منهم عبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس، وعامر بن عبد قيـس وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وغيرهم جـاؤوا إلى معاويـة فقـالوا لـه: مـا تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان قالوا: لمن تطلب به؟ قال: عليا، قالوا: أهـو قتله؟ قال: نعم! وأوى قتلته به. فانصرفوا إلى علي فذكروا له ما قال فقال: كذب! لم أقتله وأنتم تعلمون أنـي لم أقتلـه. فرجعـوا إلى معاويـة فأخـبروه فقال: إن لم يكن قتله بيده فقد أمر بقتله ومالأ. فرجعـوا إلى علـي فأخـبروه فقال: والله لا قتلت ولا أمرت ولا مالأتُ. فرجعوا فقال معاوية: فإن كان صادقا فليقدنا من قتلة عثمان، فإنهم في عسكره وجنده فرجعوا فقال علي: تأول القوم عليه القرآن في فتنة ووقعت الفرقـة لأجلهـا وقتلـوه في سـلطانه وليس لي عليهم سبيل. فرجعوا إلى معاوية فأخـبروه فقـال: إن كـان الأمـر على ما يقول فما له أنتهز الأمر دوننا من غير مشورة منـا ولا ممـن هاهنـا؟ فرجعوا إلى علي فقال: إنما النـاس تبـع المهـاجرين والأنصـار، فهـم شـهود الناس على ولايتهم وأمر دينهم، وقد رضوا وبايعوني، ولسـت اسـتحل أن أدع مثل معاوية يحكم على الأمة ويشق عصاها، فرجعوا إلى معاوية فقـال: ما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟ فرجعـوا إلى علي فقال: إنما هذا للبدريين دون غـيرهم وليـس علـى وجـه الأرض بدري إلا وهو معي، وقد تابعني وبايعني ورضي، فلا يغرنكم مـن دينكـم وأنفسكم.

قال: فأقاموا يتراسلون في ذلـك مـدة شـهر ربيـع الآخـر وجمـادين ويفزعون في غبون ذلك الفزعة بعد الفزعة ويزحف بعضهـم علـى بعـض، ويحجز بينهم القراء، فلا يكون في ذلك قتال.

قال: ففزعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين فزعة.

قال: وخرج أبو الدرداء وأبـو أمامـة فدخـلا علـى معاويـة فقـالا لـه: يامعاوية علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه لأقدم منك ومن أبيـك سـلماً، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ وأحق بهذا الأمر منك. فقال: أقاتله علـى دم عثمان وإنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من يبايعه من أهل الشام، فذهبا إلى علي فقالا له ذلـك فقـال: هـؤلاء

الذين ترون فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا وليكدنا. قال: فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم قتالا بل لزما بيوتهما.

قال عمر بن سعد بإسناده: حتى إذا كان رجب وخشي معاوية أن تبايع القراء كلهم علياً كتب في سهم من عبد الله الناصح: يامعشر أهل العراق! إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليغرقكم فخذوا حذركم، ورمى به في جيش أهل العراق. فأخذه الناس فقرؤوه وتحدثوا به، وذكروه لعلي فقال: إن هذا مالا يكون ولا يقع. وشاع ذلك فيهم، وبعث معاوية مائتي فاعل يحفرون في جنب الفرات وبلغ الناس ذلك فخاف أهل العراق من ذلك وفزعوا إلى علي فقال: ويحكم! إنه يريد أن يخدعكم ويوهن كيدكم ليزيلكم عن مكانكم هذا وينزل فيه لأنه خشي من مكانه. فقالوا: لا بد من أن نخلي عن هذا الموضع فارتحلوا منه، وجاء معاوية فنزله بجيشه - وكان علي آخر ما ارتحل - فنزله بهم وهو يقول:

فلو انـي اطعتُ عصمتُ قومي إلى ركـن اليمامـةِ أو شمـام
ولكـني إذا أبرمـتُ امـراً يخالفـهُ الطغـامُ بنـو الطغـام

قال: فأقاموا إلى شهر ذي الحجة ثم شرعوا في القتال فجعل عي يؤمر على الحرب كل يوم أميراً فاقتتلوا شهر ذي الحجة بكماله، وربما اقتتلوا في بعض الأيام مرتين.

قال ابن جرير رحمه الله [تاريخه: ٥/١٠]: ثم لم تزل الرسل تتردد بين علي ومعاوية والناس كافّون عن القتال حتى انسلخ المحرم من هذه السنة ولم يقع بينهم صلح، فأمر علي بن أبي طالب مرثد بن الحارث الجشمي فنادى أهل الشام عند غروب الشمس الا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق، واقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا، وإني قد عذرت إليكم ونبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. ففزع أهل الشام إلى أمرائهم فأعلموهم بما سمعوا المنادي ينادي به فنهض عند ذلك معاوية وعمرو فعبيا الجيش ميمنة وميسرة، وبات علي يعبي جيشه من ليلته، فجعل على خيل أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى رجالتهم عمار بن ياسر، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالتهم قيس بن سعد وهاشم بن عتبة، وعلى قرائهم مسعر بن فدكي التميمي، وتقدم علي إلى الناس أن لا يبدؤوا أحداً بالقتال حتى يبدأهم ويعتدي عليهم، وأنه لا يذفف على جريح ولا يتبع مدبر ولا يكشف ستر امرأة ولا تهان، وإن شتمت أمراء الناس وصلحاءهم. وبرز معاوية صبح تلك الليلة وقد جعل على الميمنة ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى المقدمة أبا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلى رجالتهم الضحاك بن قيس. ذكره ابن جرير [تاريخه: ٥/١١، ١٢].

وروى ابن ديزيل من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر ويزيد بن الحسن بن علي وغيرهما. قالوا: لما بلغ معاوية مسير علي إليه سار معاوية نحو علي واستعمل على مقدمته سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي وعلى الساقة بسر بن أرطاة حتى توافوا جميعاً بقناصرين إلى جانب صفين. وزاد ابن الكلبي فقال: جعل على المقدمة أبا الأعور السلمي، وعلى الساقة بسراً، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وجعل على الميمنة حبيب بن مسلمة، وعلى رجالتها يزيد بن زحر العنبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى رجالتها حابس بن سعد الطائي، وعلى خيل دمشق الضحاك بن قيس وعلى رجالتهم يزيد بن لبيد بن كرز البجلي، وجعل على أهل حمص ذا الكلاع وعلى أهل فلسطين مسلمة بن مخلد وقام معاوية في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! والله ما أصبت الشام إلا بالطاعة ولا اضبط حرب أهل العراق إلا بالصبر ولا أكابد أهل الحجاز إلا باللطف، وقد تهيأتم وسرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق، وسار القوم ليمنعوا العراق ويأخذوا الشام ولعمري ما للشام رجاء العراق ولا أموالها، ولا للعراق خبرة أهل الشام ولا بصائرها، مع أن للقوم أعدادهم، وليس بعدكم غيركم فإن غلبتموهم فليس تغلبوهم إلا من أناتكم وصبركم وإن غلبوكم غلبوا من بعدكم والقوم لاقوكم بكيد أهل العراق، ورقة أهل اليمن وبصائر أهل الحجاز، وقسوة أهل مصر، وإنما ينصر غداً من ينصر اليوم فاستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين؛ فلما بلغ علياً خطبة معاوية قام في أصحابه أيضاً وحضهم على الجهاد ومدحهم بالصبر وشجعهم بكثرتهم بالنسبة إلى أهل الشام.

قال جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر وزيد بن الحسن وغيرهما قالوا: سار علي إلى الشام في مائة وخمسين ألفاً من أهل العراق وأقبل معاوية في نحو منهم من أهل الشام.

وقال غيرهم: أقبل علي في مائة ألف أو يزيدون، وأقبل معاوية في مائة الف وثلاثين ألفاً - ذكر ذلك ابن ديزيل في كتابه - وقد تعاقد جماعة من أهل الشام على أن لا يفروا فعقلوا أنفسهم بالعمائم، وكان هؤلاء خمسة صفوف ومعهم ستة صفوف آخرين وكذلك أهل العراق كانوا أحد عشر صفاً أيضاً فتواقفوا على هذه الصفة أول يوم من صفر وكان ذلك يوم الأربعاء، وكان أمير الحرب يومئذ للعراقيين الأشتر النخعي، وأمير الحرب يومئذ للشاميين حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالا شديداً ثم تراجعوا من آخر يومهم وقد انتصف بعضهم من بعض وتكافؤوا في القتال ثم أصبحوا من الغد يوم الخميس وأمير حرب أهل العراق هاشم بن عتبة، وأمير الشاميين يومئذ أبو الأعور السلمي فاقتتلوا قتالا شديداً تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم تراجعوا من آخر يومهم وقد صبر كل من الفريقين للآخر وتكافؤوا ثم خرج في اليوم الثالث - وهو يوم الجمعة - عمار بن ياسر من ناحية أهل العراق وخرج إليه عمرو بن العاص في الشاميين فاقتتل الناس قتالا شديداً وحمل عمار على عمرو بن العاص فأزاله عن موقفه وبارز زياد بن النضر الحارثي وكان على الخيالة يومئذ رجلا فلما تواقفا تعارفا فإذا هما أخوان من أم، فانصرف كل واحد منهما إلى قومه وترك صاحبه، وتراجع الناس من العشي وقد صبر كل فريق لصاحبه، وخرج في اليوم الرابع - وهو يوم السبت - محمد بن علي - وهو ابن الحنفية - ومعه جمع عظيم فخرج إليه في جحفل كثير من جهة الشاميين عبيد الله بن عمر، فاقتتل الناس قتالا شديداً، وبرز عبيد الله بن عمر فطلب من ابن الحنفية أن يبرز إليه فبرز إليه؟ فلما كادا أن يقتربا قال علي: من المبارز؟ قالو: محمد ابنك وعبيد الله بن عمر، فيقال إن علياً حرك دابته وأمر ابنه أن يتوقف وتقدم عليٌّ إلى عبيد الله فقال له: تقدم إلي فقال عبيد الله: لا حاجة لي في مبارزتك، فقال: بلي، فقال: لا! فرجع عنه علي وتحاجز الناس يومهم ذلك.

ثم خرج في اليوم الخامس - وهو يوم الأحد - في العراقيين عبدالله بن عباس وفي الشاميين الوليد بن عقبة، فاقتتل الناس قتالا شديداً، وجعل الوليد ينال من ابن عباس، فيما ذكره أبو مخنف [تاريخ الطبري: ٥/١٣] ويقول:

قتلتم خليفتكم ولم تنالوا ماطلبتم، ووالله إن الله ناصرنا عليكم فقال له ابن عباس: فابرز إلي فأبى عليه ويقال: إن ابن عباس قاتل يومئذ قتالا شديداً بنفسه رضي الله عنه.

ثم خرج في اليوم السادس - وهو يوم الاثنين - من جهة عليٍّ على العراقيين قيس بن سعد بن عبادة، ومن جهة أهل الشام ابن ذي الكلاع فاقتتلوا قتالا شديداً أيضاً وتصابروا ثم تراجعوا، ثم خرج الأشتر النخعي في اليوم السابع - وهو يوم الثلاثاء من جهة عليٍّ وخرج إليه قرنه من جهة معاوية وهو حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالا شديداً أيضاً ولم يغلب أحد أحداً في هذه الأيام كلها.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب أن علياً قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ ثم قام في الناس عشية الأربعاء بعد العصر فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض وما أبرم لم ينقضه الناقضون، لو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار فلفّت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع فلو شاء لعجل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الله الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١] ألا وإنكم لاقوا القوم غداً فأطيلوا الليله في القيام وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله النصر والصبر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين: قال: فوثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها قال: ومر بالناس وهم كذلك كعب بن جعيل التغلبي فرأى ما يصنعون فجعل يقول:

اصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

قال: ثم أصبح علي في جنوده قد عبأهم كما أراد، وركب معاوية في جيشة قد عبأهم كما أراد، وقد أمر عليٌّ كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام، ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض، فتقاتلوا قتالا عظيما لا يفر أحد من أحد ولا يغلب أحد أحداً، ثم تحاجزوا عند العشي، وأصبح علي فصلى الفجر بغلس وباكر القتال، ثم استقبل أهل الشام فاستقبلوه بوجوههم، فقال علي فيما رواه أبو مخنف عن مالك بن أعين عن زيد بن وهب: اللهم رب السقف المحفوظ المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت فيه سبطاً من الملائكة لا يسأمون العبادة، ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى ومالا يرى من خلقك العظيم، ورب الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض، ورب البحر المسجور المحيط بالعالم، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً، إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي والفساد وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة وجنب بقية أصحابي من الفتنة.

ثم تقدم علي وهو في القلب في أهل المدينة وعلى ميمنته يومئذ عبد الله بن بديل، وعلى الميسرة عبد الله بن عباس، وعلى القراء عمار بن ياسر وقيس بن سعد، والناس على راياتهم فزحف بهم إلى القوم، وأقبل معاوية - وقد بايعه أهل الشام على الموت - فتواقف الناس في موطن مهول وأمر عظيم، وحمل عبد الله بن بديل أمير ميمنة علي على ميسرة أهل الشام وعليها حبيب بن مسلمة، فاضطره حتى ألجاه إلى القلب، وفيه معاوية، وقام عبد الله بن بديل في الناس خطيباً فحرضهم على القتال وقام كل أمي في أصحابه يحرضهم على القتال ويحثهم على الصبر والثبات والجهاد والجلاد ويتلوا عليهم آيات القتال، وحرض أمير المؤمنين عليٌّ الناس على الصبر والثبات والجهاد، وحثهم على قتال أهل الشام، وتلا عليهم آيات القتال من أماكن متفرقة من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ثم قال: قدموا المدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف على الهام، والتووا في أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجاش وأسكن للقلب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، راياتكم لا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم.

وقد ذكر علماء التاريخ وغيرهم أن علياً رضي الله عنه بارز في أيام صفين وقاتل وقتل خلقاً حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة، فمن ذلك أن كريب بن الصباح قتل أربعة من أهل العراق مبارزة ثم وضعهم تحت قدميه ونادى: هل من مبارز؟ فبرز إليه علي فتجاولا ساعة ثم ضربه علي فقتله ثم قال علي: هل من مبارز؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله، ثم برز إليه رود بن الحارث الكلاعي فقتله، ثم برز إليه المطاع بن المطلب القيني فقتله. ثم تلا علي قوله تعالى ﴿والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] ثم نادى: ويحك يامعاوية! ابرز إلي ولا تفني العرب بيني وبينك، فقال له عمرو: يا معاوية اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة، فقال له معاوية: والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي، اذهب إليك! فليس مثلي يخدع.

وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع علي عنه، فقال له أصحابه: ما لك يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال: أتدرون من هو؟ قالوا: قال: هو عمرو بن العاص وإنه تلقاني بسوءته فذكرني الرحم فرجعت عنه، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له: احمد الله واحمد إستك.

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل: حدثنا يحيى بن نصر حدثنا عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن تمير الأنصاري قال: والله لكأني أسمع علياً وهو يقول لأصحابه يوم صفين: أما تخافون مقت الله حتى متى، ثم انفتل إلى القبلة يدعو ثم قال: والله ما سمعنا برئيس أصاب بيده من القتل ما أصاب علي يومئذ إنه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسمائة رجل، يخرج فيضرب بالسيف حتى ينحني ثم يجيء فيقول معذرة إلى الله وإليكم والله لقد هممت أن أقلعه ولكن يحجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» قال: فيأخذه فيصلحه ثم يرجع به.

وهذا إسناد ضعيف وحديث منكر.

وحدثنا يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني الليث عن يزيد بن حبيب أنه أخبره من حضر صفين مع علي ومعاوية. قال ابن وهب: وأخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط قال: شهدنا صفين مع علي ومعاوية قال: فمطرت السماء علينا دماً عبيطاً قال الليث في حديثه: حتى أن كانوا ليأخذونه بالصحاف والآنية قال ابن لهيعة: فتمتلئ ونهريقها

وقد ذكرنا أن عبد الله بن بديل كسر الميسرة التي فيها حبيب بن مسلمة

حتى أدخلها في القلب فأمر معاوية الشجعان أن يعاونوا حبيباً على الكرة وبعث إليه معاوية يأمره بالحملة والكرة على ابن بديل، فحمل حبيب بمن معه من الشجعان على ميمنة أهل العراق فأزالوهم عن أماكنهم وانكشفوا عن أميرهم حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلاثمائة والمجفل بقية أهل العراق، ولم يبق مع علي من تلك القبائل كلها إلا أهل المدينة وعليهم سهل بن حنيف، وثبت ربيعة مع علي رضي الله عنه واقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه، وتقدم إليه مولى لبني أمية فاعترضه مولى لعلي فقتله الأموي وأقبل يريد علياً وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، فلما وصل إلى علي أخذه علي بيده فرفعه ثم ألقاه على الأرض فكسر عضده ومنكبه وابتدره الحسين ومحمد بأسيافهما فقتلاه فقال علي للحسن ابنه وهو واقف معه: ما منعك أن تصنع كما صنعا فقال: كفياني أمره ياأمير المؤمنين وأسرع إلى علي أهل الشام فجعل علي لا يزيده قربهم منه سرعة في مشيته، بل هو سائر على هيئته، فقال له ابنه الحسن: يا أبه لو سعيت أكثر من هذا فقال: يابني إن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطئ به عنه السعي ولا يعجّل به إليه المشي إن أباك والله ما يبالي أوقع على الموت أو وقع عليه الموت.

ثم إن علياً أمر الأشتر النخعي أن يلحق المنهزمين فيردهم فساق بأسرع سوق حتى استقبل المنهزمين من العراقيين من بين أيديهم فجعل يؤنبهم ويوبخهم ويحرض القبائل والشجعان منهم على الكرة فتابعه طائفة واستمرّ آخرون في هزيمتهم فلم يزل ذلك دأبه حتى اجتمع عليه منهم جمع عظيم فرجع بهم إلى أهل الشام فجعل لا يلقى قبيلة من الشاميين إلا كشفها ولا طائفة إلا ردها حتى انتهى إلى أمير الميمنة وهو عبد الله بن بديل ومعه نحو من ثلاثمائة قد ثبتوا في مكانهم فسألوه عن أمير المؤمنين فقال: حيٌّ صالح فالتفوا عليه، فتقدم بهم حتى تراجع كثير من الناس وذلك مابين صلاة العصر إلى الغروب، وأراد ابن بديل أن يتقدم إلى أهل الشام فأمره الأشتر أن يثبت مكانه فإنه خير له فأبى عليه ابن بديل، وحمل نحو معاوية، فلما انتهى إليه وجده واقفاً أمام أصحابه وفي يده سيفان وحوله كتائب أمثال الجبال، فلما اقترب ابن بديل حمل عليه جماعة منهم فقتلوه وألقوه إلى الأرض قتيلا، وفر أصحابه منهزمين وأكثرهم مجروح فلما انهزموا قال معاوية لأصحابه انظروا من أميرهم، فجاؤوا إليه فلم يعرفوه فتقدم معاوية إليه فإذا هو عبد الله بن بديل، فقال معاوية: هذا والله كما قال الشاعر، وهو حاتم الطائي:

أخو الحربِ إن عضّتْ به الحربُ عضّها ... وإن شمّرتْ يوماً بهِ الحربُ شمّرا
ويحمي إذا ما الموتُ حانَ لقاؤهُ ... كذلكَ ذو الأشبالِ يحمي إذا فرّا
كليثِ هزبرٍ كانَ يحمي ذمارهُ ... رمتهُ المنايا قصدها فتقطّرا

ثم حمل الأشتر النخعي بمن رجع معه من المنهزمين فصدق الحملة حتى خالط الصفوف الخمسة الذين تعاقدوا وتعاهدوا على الموت أن لا يفروا وهم حول معاوية، فخرق منهم أربعة وبقي بينه وبين معاوية صف واحد، قال الأشتر: فرأيت هولا عظيما، وكدت أن أفر فما ثبتني إلا قول ابن الإطنابة وهي أمه من بلقين وكان هو من الأنصار وهو جاهلي:

أبتْ لي عفتي وأبى بلائي ... وإقدامي على البطلِ المشيح
وإعطائي على المكروهِ مالي ... وضربي هامةَ الرجلِ السميح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانكِ تحمدي أو تستريحي

قال: هذا الذي ثبتني في ذلك الموقف.

والعجب أن ابن ديزيل روى في كتابه أن أهل العراق حملوا حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أزالوه حتى أفضوا إلى معاوية فدعا بفرسه لينجو عليه، قال معاوية: فلما وضعت رجلي في آلة الركاب تمثلت بأبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمنِ الربيح
وإعطائي على المكروهِ مالي ... وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جَشأت وجاشت ... مكانكِ تُحمَدي أو تستريحي

قال: فثبت.

ونظر معاوية إلى عمرو بن العاص فقال: اليوم صبر وغدا فخر، فقال له عمرو: صدقت قال معاوية: فاصبت خيراً في الدنيا وأنا أرجو أن أصيب خير الآخرة.

ورواه محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عبد الرحمن بن حاطب عن معاوية.

وبعث معاوية إلى خالد بن المعتمر وهو أمير الخيالة لعلي فقال له: اتبعني على ما أنت عليه ولك إمرة العراق، فطمع فيه، فلما ولي معاوية العراق لم يعطه شيئاً، ثم إن علياً لما رأى الميمنة قد اجتمعت رجع إلى الناس فأنب بعضهم وعذر بعضهم وحرض الناس وثبتهم ثم تراجع أهل العراق فاجتمع شملهم ودارت رحى الحرب لهم وجالوا في الشاميين وصالوا، وتبارز الشجعان فقتل خلق كثير من الأعيان من الفريقين فإنا لله وإنا إليه راجعون. منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب من الشاميين، واختلفوا في قاتله من أهل العراق مَن هو.

وقد ذكر إبراهيم بن الحسين بن ديزيل أن عبيد الله لما خرج يومئذ أميراً على الحرب من جهة معاوية أحضر امرأتيه أسماء بنت عطارد بن حاجب التميمي وبحرية بنت هانئ بن قبيصة الشيباني - فوقفتا وراءه في راحلتين لتنظرا إلى قتاله وشجاعته وقوته، فواجهته من جيش العراقيين ربيعة الكوفة وعليهم زياد بن خصفة التيمي، فشدوا عليه شدة واحدة فقتلوه بعدما انهزم عنه أصحابه، ونزلت ربيعة فضربوا لأميرهم خيمة فبقي منها طنب منها لم يجدوا له وتداً فشدوه برجل عبيد الله بن عمر، وجاءت امرأتاه تولولان حتى وقفتا عليه وبكتا عنده، وشفعت امرأته بحرية إلى الأمير أن يطلقه لها، فأطلقه لها فاحتملتاه في هودجهما وقتل معه أيضاً ذو الكلاع الحميري، قال الشعبي: ففي مقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب يقول كعب بن جعيل التغلبي:

ألا إنما تبكي العيونُ لفارسٍ ... بصفينَ ولت خيلهُ وهو واقفُ
تبدّل من أسماء أسيافَ وائلٍ ... وكانَ فتى لو أخطأتهُ المتالفُ
تركنَ عبيدَ اللهِ بالقاعِ ثاوياً ... تسيلُ دماهُ والعروقُ نوازفُ
ينوءُ ويغشاهُ شآبيب من دم كما ... لاحَ من جيبِ القميصِ الكفائفُ
وقد صبرت حول ابن عمِ محمدٍ ... لدى الموتِ أربابُ المناقبِ شارفُ
فما برحوا حتى رأى اللهُ صبرهم ... وحتى أُتِيحت بالأكفِّ المصاحف

وزاد غيره فيها

معاوي لا تنهض بغيرِ وثيقةٍ ... فإنكَ بعدَ اليوم بالذلِ عارفُ

وقد أجابه أبو جهم الأسدي بقصيدة فيها أنواع من الهجاء تركناها

قصداً.

وهذا مقتل:

■ عمار بن ياسر رضي الله عنه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قتله أهل الشام وبان وظهر بذلك سرُّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية وبان بذلك أن علياً محق وأن معاوية باغ، وماني ذلك من دلائل النبوة.

ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٩/٥] من طريق أبي مخنف حدثني مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب الجهني أن عماراً قال يومئذ: أين من يبتغي رضوان ربه ولا يلوي إلى مال ولا ولد، قال: فأتته عصابة من الناس فقال: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا القيام بثاره، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها واستمرؤوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله، فخدعوا أتباعهم بقولهم إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان ولكانوا أذل وأخس وأقلّ، ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين، فسيروا إلى الله سيراً جميلا، واذكروه ذكراً كثيراً ثم تقدم فلقيه عمرو بن العاص وعبيد الله بن عمر فلامهما وأنبهما ووعظهما، وذكروا من كلامه لهما ما فيه غلظة فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣١٩/٤]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عبد الله بن سلمة يقول: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدم طوالا أخذ الحربة بيده ويده ترعد، فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق، وأنهم على الضلالة.

وقال الإمام أحمد [٣١٩/٤، ٣٢٠]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة وحجاج حدثني شعبة سمعت قتادة يحدث عن أبي نضرة قال حجاج: سمعت أبا نضرة عن قيس بن عباد قال. قلت لعمار: أرأيت قتالكم رأيا رأيتموه، فإن الرأي يخطئ ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس كافة.

وقد رواه مسلم [(٢٧٧٩) (١٠)] من حديث شعبة وله تمام عن عمار عن حذيفة في المنافقين.

وهذا كما ثبت في الصحيحين [خ: (١١١)، م(٣١٧٢)] وغيرهما [د(٤٥٣٠)] عن جماعة من التابعين، منهم الحارث بن سويد، وقيس بن عبادة، وأبو جحيفة وهب بن عبد الله السوائي، ويزيد بن شريك، وأبو حسان الأجرد وغيرهم أن كلا منهم قال: قلت لعلي: هل عندكم شيء عهده إليكم رسول الله ﷺ لم يعهد إلى الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ فإذا فيها العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر، وأن المدينة حرم ما بين عَيْر إلى ثور.

وثبت في الصحيحين [خ: (٣١٨١)، م(١٧٨٥) (٩٥)] أيضاً من حديث الأعمش عن أبي وائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: ياأيها الناس! اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ أمره، ووالله ما حملنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يقطعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه، غير أمرنا هذا، فإنا لا نسد منه خصما إلا انفتح لنا غيره لا ندري كيف نبالي له.

وقال أحمد [٣١٩/٤]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري. قال: قال عمار يوم صفين: ائتوني بشربة لبن، فإن رسول الله ﷺ قال: «آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن».

وقال الإمام أحمد [٣١٩/٤]: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن حبيب عن أبي البختري أن عماراً أتي بشربة لبن فضحك وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شراب أشربه لبن حين أموت».

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل: حدثنا يحيى بن نصر حدثنا عمرو بن شمر عن جابر الجعفي قال: سمعت الشعبي عن الأحنف بن قيس: قال: ثم حمل عمار بن ياسر عليهم فحمل عليه ابن جوي السكوني وأبو الغادية الفزاري، فأما أبو الغادية فطعنه، وأما ابن جوي فاحتز رأسه. وقد كان ذو الكلاع سمع قول عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها صاع لبن» فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ويحك ما هذا ياعمرو؟ فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا. قال: فلما أصيب عمار بعد ذو الكلاع قال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع والله لو بقي ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى عليٍّ ولأفسد علينا جندنا.

قال: وكان لا يزال يجيء رجل فيقول لمعاوية وعمرو: أنا قتلت عماراً فيقول له عمرو: فما سمعته يقول فيخلطون فيما يخبرون حتى جاء ابن جون فقال: أنا سمعته يقول:

اليومَ ألقى الأحبه محمداً وحزبه

فقال له عمرو: صدقت أنت إنك صاحبه، ثم قال له رويداً، أما والله ما ظفرت بذاك ولقد أسخطت ربك.

وقد روى ابن ديزيل من طريق أبي يوسف عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عبد الرحمن الكندي عن أبيه عن عمرو بن العاص. أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

ورواه أيضاً من حديث جماعة من التابعين أرسلوه منهم عبد الله بن أبي الهذيل ومجاهد وحبيب بن أبي ثابت وحبة العرني، وساقه من طريق أبان عن أنس مرفوعا، ومن حديث عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي الزبير عن حذيفة مرفوعا «ما خيِّر عمار بين شيئين إلا اختار أرشدهما».

وبه عن عمرو بن شمر عن السري عن يعقوب بن الأوسط قال: اختصم رجلان في سَلَب عمار وفي قتله فأتيا عبد الله بن عمرو بن العاص فيتحاكما إليه، فقال لهما: ويحكما اخرجا عني، فإن رسول الله ﷺ قال - ولِعَتْ قريش بعمار -: «ما لهم ولعمار؟ عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار» قال: فبلغني أن معاوية قال: إنما قتله من أخرجه يخدع بذلك أهل الشام.

وقال إبراهيم بن الحسين: حدثنا يحيى حدثنا عيسى بن عمر حدثنا هشيم حدثنا العوام بن حوشب بن الأسود بن مسعود عن حنظلة بن خويلد - وكان يأتي من عند علي ومعاوية - قال: بينا هو عند معاوية إذ

جاءه رجلان يختصمان في قتل عمار، فقال لهما عبد الله بن عمرو: ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية لعمرو: ألا تنهى عنا مجنونك هذا؟! ثم أقبل معاوية على عبد الله فقال له: فلم تقاتل معنا؟ فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني بطاعة والدي ما كان حيا وأنا معكم ولست أقاتل [مسند أحمد: ١٦٤/٢].

وحدثنا يحيى حدثنا نصر حدثنا حفص بن عمران البرجمي قال: حدثني نافع بن عمر الجمحي عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن عمرو قال لأبيه: لولا أن رسول الله ﷺ أمرني بطاعتك ما سرت معك هذا المسير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية».

وحدثنا يحيى حدثنا عبد الرحمن بن زياد حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي قال: جاء قاتل عمار يستأذن على معاوية وعنده عمرو بن العاص فقال: ائذن له وبشره بالنار. فقال الرجل: أما تسمع مايقول عمرو. فقال معاوية: صدق إنما قتله الذين جاؤوا به!.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٤٠/٥، ٤١]: وحدثنا أحمد بن محمد حدثنا الوليد بن صالح حدثنا عطاء بن مسلم عن الأعمش قال: قال أبو عبد الرحمن السلمي: قال كنا مع علي بصفين وكنا قد وكلنا بفرسه نفسين يحفظانه ويمنعانه أن يحمل، فكان إذا حانت منهما غفلة حمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت، قال: ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ، ورأيته جاء إلى المِرْقال هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي فقال: يا هاشم تقدم! الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسَلِ، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين.

اليومَ ألقى الأحبه محمداً وحزبه

ثم حملا هو وهاشم فقتلا رحمهما الله تعالى.

قال: وحمل حينئذ علي وأصحابه على أهل الشام حملة رجل واحد كأنهما: كانا - يعني عماراً وهاشما - علماً لهم قال: فلما كان الليل قلت: لأدخلن الليلة إلى عسكر الشاميين حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا؟ - وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم - فركبت فرسي وقد هدأت الرجل، ثم دخلت عسكرهم فإذا أنا بأربعة يتسامرون، معاوية، وأبو الأعور السلمي، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو وهو خير الأربعة. فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول بعضهم لبعض، فقال عبد الله لأبيه: يا أبتِ قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وما قال؟ فقال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين؟ فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سمية الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية» قال: فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال: يامعاوية أما تسمع مايقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر فقال معاوية: إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك، أونحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً من جاء به؟ قال: فخرج الناس من عند فساطيطهم وأخبيتهم وهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدري من كان أعجب هو أو هم.

قال الإمام أحمد [٢٢/٣]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن خالد عن عكرمة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتله الفئة الباغية».

وقال أحمد [٢٨/٣]: حدثنا سليمان بن داود حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن دينار عن أبي هشام عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

وقال الإمام أحمد [١٦١/٣]: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن الحارث قال: إني لأسير مع معاوية منصرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص فقال عبد الله بن عمرو: يا أبتِ أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: «ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية» قال: فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول هذا فقال معاوية: لا تزال يأتينا بهنة، أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاؤوا به.

ثم رواه أحمد [١٦١/٢] عن أبي نعيم عن سفيان الثوري عن الأعمش به نحوه.

تفرد به أحمد بهذا السياق من هذا الوجه، وهذا التأويل الذي سلكه معاوية رضي الله عنه بعيد، ثم لم ينفرد عبد الله بن عمرو بهذا الحديث بل قد روي من وجوه أخر.

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد العزيز بن المختار [٤٤٧] وعبد الوهاب الثقفي [٢٨١٢] عن خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي سعيد في قصة بناء المسجد أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «يا ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن وفي الفتن من صحيحه أيضاً يا ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار.

وروى مسلم [٢٩١٥] من حديث شعبة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: حدثني من هو خير مني - يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية». وروى مسلم [٢٩١٦] أيضاً من حديث شعبة عن خالد الحذاء عن الحسن وسعد ابني أبي الحسن عن أمهما حرة عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

ورواه [٢٩١٦] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أبيه عن أم سلمة به.

وفي رواية «وقاتله في النار».

وروى البيهقي [الدلائل: ٤٢٢/٦] عن الحاكم وغيره عن الاصم عن أبي بكر محمد بن إسحاق الصنعاني عن أبي الجواب عن عمار بن زريق عن عمار الذهبي عن سالم بن أبي الجعد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق».

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل - في سيرة علي - حدثنا يحيى بن عبيد الله الكرابيسي حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن عمار بن زريق عن عمار الذهبي عن سالم بن أبي الجعد قال: جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن الله قد امننا أن يظلمنا ولم يؤمنا أن يفتننا، ارأيت إذا نزلت فتنة كيف أصنع؟ قال: عليك بكتاب الله، قلت: أرأيت إن جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق». وروى ابن ديزيل عن عمرو بن العاص نفسه حديثا في ذكر عمار وأنه مع فرقة الحق. وإسناده غريب.

وروى البيهقي [الدلائل: ٤٢١/٦]: أنا علي بن أحمد بن عبدان أنا أحمد

بن عبيد الله الصفار ثنا الأسفاطي حدثنا أبو مصعب حدثنا يوسف الماجشون عن أبيه عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن مولاة لعمار قالت: اشتكى عمار شكوى أرق منها فغشي عليه، فأفاق ونحن نبكي حوله، فقال: ما تبكون؟ أتخشون أن أموت على فراشي؟ أخبرني حبيبي ﷺ أنه تقتلني الفئة الباغية، وأن آخر زادي من الدنيا مذقة من لبن.

وقال أحمد [٥/٣]: حدثنا ابن أبي عدي عن داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فترب رأسه قال: فحدثني أصحابي ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه ويقول: «ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

تفرد به أحمد، وما زاده بعض الرواة في هذا الحديث وهو قوله: «لا أنالها والله شفاعتي يوم القيامة» فهو كذب وبهت على رسول الله ﷺ فإنه قد ثبت الأحاديث عنه صلوات الله وسلامه عليه بتسمية الفريقين مسلمين، كما سنورده إن شاء الله.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١/٥، ٤٢] وقد ذكر أن عماراً لما قتل قال علي لربيعة وهمدان: أنتم درعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً، وتقدمهم على بغلته فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية وعلي يقاتل ويقول:

أضربهم ولا أرى معاويه ... الجاحظ العين عظيم الحاويه

قال: ثم دعى علي معاوية إلى أن يبارزه فأشار عليه إليه عمرو بن العاص أن يبرز إليه فقال له معاوية: إنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، ولكنك طمعت فيها بعدي.

ثم قدم علي ابنه محمداً في عصابة كثيرة من الناس، فقاتلوه قتالاً شديداً ثم أتبعه علي في عصابة أخرى، فحمل بهم فقتل في هذا الموطن خلقاً كثيراً أيضاً وقتل من العراقيين خلق كثير أيضا، وطارت أكف ومعاصم ورؤوس عن كواهلها، رحمهم الله. ثم حانت صلاة المغرب فما صلى بالناس إلا إيماء صلاتي العشاء واستمر القتال في هذه الليلة كلها وهي من أعظم الليالي شراً بين المسلمين، وتسمى هذه الليلة ليلة الهرير وكانت ليلة الجمعة تقصفت فيها الرماح ونفذت النبال، وصار الناس إلى السيوف، وعلي رضي الله عنه يحرض القبائل، ويتقدم إليهم يأمر بالصبر والثبات وهو أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشتر النخعي، تولاها بعد قتل عبد الله بن بديل عشية الخميس ليلة الجمعة - وعلى الميسرة ابن عباس، والناس يقتتلون من كل جانب وذلك لما قتل عمار عرف أهل العراق أن أهل الشام بغاة ليس معهم حق. وذكر غير واحد من علماء السير - أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت، وبالنبال حتى فنيت، وبالسيوف حتى تحطمت ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب يعفرونه في الوجوه، ثم تعاضوا بالأسنان فكان يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان، وكل واحد منهما يهمز على الآخر ويهر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا، لا يمكن أحدهما الفرار من الآخر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك وصلى الناس الصبح إيماء وهم في القتال حتى تضاحى النهار وأقبل النصر وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام، وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، وكان من الشجعان الأبطال الذين يعرفون الحروب ولا يهابون القتل فحمل بمن فيه علي أهل الشام وتبعه عليٌّ فانتقضت غالب صفوف أهل الشام ولم يبق إلا الهزيمة والكسرة والفرار.

ذكر رفع أهل الشام المصاحف مكراً منهم بأهل العراق وخديعة

فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح: وقالوا: هذا بيننا وبينكم قد فني الناس فمن للثغور؟ ومن لجهاد المشركين والكفار؟.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٨/٥، ٤٩] وغيره من أهل التاريخ أن الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص، وذلك لما رأى، أن أهل العراق قد ظهروا وانتصروا أحب أن ينفصل الحال وأن يتأخر الأمر فإن كلا من الفريقين صابر للآخر، والناس يتفانون. فقال لمعاوية: إني قد رأيت أمراً لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيد أهل العراق إلا تفرقاً واختلافاً، أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال هذه الساعة، وإن اختلفوا فيما بينهم بأن يقول بعضهم: نجيبهم، وبعضهم لا نجيبهم، فشلوا وذهبت ريحهم.

وقال الإمام أحمد [٤٨٥/٣، ٤٨٦]، حدثنا يعلى بن عبيد عن عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت. قال: أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيما استجابوا له وفيما فارقوه، وفيما استحل قتالهم فقال: كنا بصفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] فقال علي: نعم! أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله قال: فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القراء وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تنتظر بهؤلاء القوم الذين على التل ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فتكلم سهل بن حنيف فقال: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يوم الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ وذكر تمام الحديث كما تقدم في موضعه.

فلما رفعت المصاحف قال أهل العراق: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه.

قال أبو مخنف: حدثني عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه أن علياً قال: عباد الله امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، وقد صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم والله إنهم ما رفعوها رفع من يقرؤها ويعمل بما فيها، وإنما رفعوها خديعة ودهاء ومكراً وتخذيلا لكم وكسراً لحدتكم وقتالكم، ولم يبق إلا هزيمتهم وفرارهم ونصركم عليهم. فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب

اللّه فنأبى أن نقبله. ونجيب إليه. فقال لهم: إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب فإنهم قد عصوا اللّه فيما أمرهم به، وتركوا عهده، ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصن الطائي ثم السنبسي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا علي أجب إلى كتاب اللّه إذ دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه لما ترك العمل بكتاب اللّه قتلناه، واللّه لتفعلنها أو لنفعلنها بك. قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم، قالوا: فابعث إلى الأشتر فليأتك ويكف عن القتال، فبعث إليه علي ليكف عن القتال.

وقد ذكر الهيثم بن عدي في كتابه الذي صنفه في الخوارج فقال: قال ابن عباس: فحدثني محمد بن المنتشر الهمداني عن من شهد صفين وعن ناس من رؤوس الخوارج ممن لا يتهم علي كذب أن عمار بن ياسر كره ذلك وأبى وقال في علي بعض ما أكره ذكره، ثم قال عمار: من رائح إلى اللّه قبل أن يبتغي غير اللّه حكما؟ فحمل فقاتل حتى قتل رضي اللّه عنه.

وكان ممن دعا إلى ذلك في ذلك اليوم من سادات الشاميين عبد اللّه بن عمرو بن العاص قام في أهل العراق فدعاهم إلى الموادعة والكف وترك القتال والائتمار بما في القرآن، وذلك عن أمر معاوية له بذلك رضي اللّه عنهما، وكان ممن أشار على علي بالقبول والدخول في ذلك الأشعث بن قيس الكندي رضي اللّه عنه.

فروى أبو مخنف من وجه آخر أن علياً لما بعث إلى الأشتر قال: قل له: إن هذه ساعة ليس ينبغي أن لا تزيلني عن موقفي فيها، إني قد رجوت أن يفتح اللّه علي، فلا تعجلني، فرجع الرسول - وهو يزيد بن هانئ - إلى علي فأخبره بما قال الأشتر، وصمم الأشتر على القتال لينتهز الفرصة، فارتفع الهرج وعلت الأصوات فقال أولئك القوم لعلي: واللّه ما نراك إلا قد أمرته أن يقاتل، فقال: أرأيتموني ساررت الرسول؟ ألم أبعث إليه جهرة وأنتم تسمعون؟ فقالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا واللّه اعتزلناك، فقال علي ليزيد بن هانئ: ويحك! قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فلما رجع إليه يزيد بن هانئ وأبلغه ما قال عليٌّ أنه يقبل إليه، جعل الأشتر يتململ ويقول: ويحك ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر ولم يبق إلا القليل؟ فقلت: أيهما أحب إليك أن ترجع أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان؟ ثم ماذا تغني عنك نصرتك ها هُنا؟ قال: فأقبل الأشتر إلى علي وترك القتال فقال الأشتر: يا أهل العراق يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد واللّه تركوا ما أمر اللّه به فيها، وسنة من أُنزل عليه القرآن، فلا تجيبوهم، أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا! قال: أمهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت في النصر، قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك، ثم أخذ الأشتر يناظر أولئك القراء الداعين إلى إجابة أهل الشام بما حاصله: إن كان أول تقالكم لهؤلاء حقاً فاستمروا عليه، وإن كان باطلاً فاشهدوا لقتلاكم بالنار، فقالوا: دعنا منك فإنا لا نطيعك ولا صاحبك أبداً، ونحن قاتلنا هؤلاء في اللّه، وتركنا قتالهم للّه فقال لهم الأشتر: خُدعتم واللّه فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب السوء كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء اللّه، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، يا أشباه النيب الجلاّلة ما أنتم بربانيين بعدها. فابعدوا كما بعد القوم الظالمون. فسبوه وسبهم فضربوا وجه دابته بسياطهم، وجرت بينهم أمور طويلة، ورغب أكثر الناس من العراقيين والشاميين بكمالهم إلى المصالحة

والمسالمة مدة لعلهم يتفقون على أمر يكون فيه مصلحة لحقن دماء المسلمين، فإن الناس قد تفانوا في هذه المدة ولا سيما في هذه الثلاثة الأيام المتأخرة التي كان آخرها ليلة الجمعة وهي ليلة الهرير. وقد صبر كل من الجيشين للآخر صبراً لم يُر مثله لما كان فيهم من الشجعان والأبطال ما ليس يوجد مثلهم في الدنيا، ولهذا لم يفر أحد عن أحد، بل صبروا حتى قتل من الفريقين فيما ذكره غير واحد سبعون ألفاً. خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق. قاله غير واحد منهم محمد بن سيرين وسيف وغيره. وزاد أبو الحسن بن البراء - وكان في أهل العراق - خمسة وعشرون بدريا، قال: وكان بينهم في هذه المدة تسعون زحفاً واختلفا في مدة المقام بصفين فقال سيف: سبعة أشهر أو تسعة أشهر. وقال أبو الحسن بن البراء مائة يوم وعشرة أيام.

قلت: ومقتضى كلام أبي مخنف أنه كان في مستهل ذي الحجة إلى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر وذلك ثلاثة وسبعون يوما فاللّه أعلم، وقال الزهري: بلغني أنه كان يدفن في القبر الواحد خمسون نفساً.

هذا كله ملخص من كلام ابن جرير وابن الجوزي في المنتظم [١٢٣/٥].

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٤١٩/٦] من طريق يعقوب بن سفيان عن أبي اليمان عن صفوان بن عمر.و قال: كان أهل الشام ستين ألفاً فقتل منهم عشرون ألفاً، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم أربعون ألفاً. وحكى البيهقي هذه الوقعة على الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين [خ: (٣٦٠٩)، م(١٥٧)] من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة

ورواه البخاري من طريق أخرى عن أبي هريرة، ومن حديث شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة» [٧١٢١].

ورواه مجالد عن أبي الحواري عن أبي سعيد مرفوعاً مثله

ورواه الثوري عن ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد. قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة فبينما هم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد عن ابن مهدي وإسحاق عن سفيان عن منصور عن ربعي بن خراش عن البراء بن ناجية الكاهلي عن ابن مسعود. قال قال رسول اللّه ﷺ: «إن رحى الإسلام ستزول لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاما»، فقال عمر: يارسول اللّه أما مضى أم بما بقي؟ قال: «بلى مما بقي».

وقد رواه إبراهيم بن الحسين بن ديزيل في كتاب جمعه في سيرة علي رواه عن إبراهيم، عن أبي نعيم الفضل بن دكين عن شريك عن منصور به مثله.

وقال أيضاً: حدثنا أبو نعيم ثنا شريك بن عبد اللّه النخعي عن مجالد عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد اللّه. قال: قال لنا رسول اللّه ﷺ: «إن رحى الإسلام ستزول بعد خمس وثلاثين سنة فإن يصطلحوا فيما بينهم يأكلوا الدنيا سبعين عاماً رغداً، وإن يقتتلوا يركبوا سنن من كان قبلهم»

وقال ابن ديزيل: حدثنا عبد اللّه بن عمر ثنا عبد اللّه بن خراش

الشيباني عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي. قال: قال رسـول اللّه ﷺ: «تدور رحى الإسلام عند قتل رجل مـن بـني أميـة» ـ يعـني عثمـان رضي اللّه عنه ـ وهذا مرسل.

وقال أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع عن صفوان بن عمرو عن الأشـياخ أن رسول اللّه ﷺ دعي إلى جنازة رجل من الأنصار فقـال ـ وهـو قـاعد ينتظرها ـ كيف أنتم إذا رأيتم خيلين في الإسلام؟» قالوا: أو يكـون ذلـك في أمة إلهها واحد ونبيها واحد؟ قال: نعم قال أبـو بكـر: أفـأدرك ذلـك يـا رسول اللّه؟ قال: «لا» قال عمر: أفأدرك ذلك يارسول اللّه؟ قال: «لا» قال عثمان: أفأدرك ذلك يارسول اللّه؟ قال: «نعم! بك ينشؤون الحرب وقـال عمر بن الخطاب لابن عباس: كيف يختلفون وإلههم واحد وكتابهم واحـد وملتهم واحدة؟ فقال: «إنه سـيجيء قـوم لا يفهمـون القـرآن كمـا نفهـم، فيختلفون فيه فإذا اختلفوا اقتتلوا». فأقر عمر بن الخطاب بذلك.

وقال أيضاً: حدثنا أبو نعيم حدثنا سعيد بن عبد الرحمـن ـ أخـو أبـي حمزة ـ ثنا محمد بن سيرين قال: لما قتـل عثمـان قـال عـدي بـن حـاتم: لا ينتطح في قتله عنزان. فلما كان يوم صفين فقئت عينه فقيل: لا ينتطـح في قتله عنزان، فقال: بلى وتفقأ عيون كثيرة.

وروي عن كعب الأحبار أنه مر بصفـين فـرأى حجارتهـا فقـال: لقـد اقتتل في هذا الموضع بنو إسرائيل تسـع مـرات، وإن العـرب سـتقتتل فيهـا العاشرة، حتى يتقاذفوا بالحجارة التي تقاذف فيها بنو إسرائيل ويتفـانوا كمـا تفانوا.

وقد ثبت في الحديـث أن رسـول اللّـه ﷺ قـال: «سـألت ربـي أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيهـا، وسـألته أن لا يسـلط عليهـم عـدواً مـن سواهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها وسألته أن لا يسلط بعضهم على بعـض فمنعنيها» ذكرنا ذلك عنـد تفسير قولـه تعـالى ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسول اللّه: «هذا أهون»

قصة التحكيم

ثم تراوض الفريقـان بعـد مكاتبـات ومراجعـات يطـول ذكرهـا علـى التحكيم، وهو أن يحكم كل واحد من الأميرين ـ علي ومعاويـة ـ رجـلا من جهته. ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين. فوكّل معاويـة عمرو بن العاص، وأراد علي أن يوكل عبد اللّه بن عباس ـ وليته فعـل ـ ولكنه منعه القراء الخوارج ممن ذكرنا وقـالوا: لا نرضـى إلا بـأبي موسـى الأشعري.

وذكر الهيثم بن عدي في كتـاب الخـوارج لـه أن أول مـن أشـار بـأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه بأنه كـان ينهى الناس عن الفتنة والقتال، وكان أبو موسى قد اعتزل في بعـض أرض الحجاز. قال علي: فإني أجعل الأشتر حكما، فقـالوا: وهـل سَعَّر الأرض إلا الأشتر؟ قال: فاصنعوا ماشئتم، فقال الأحنف لعلي: واللّه لقـد رميـت بحجر إنه لا يصلـح لهـؤلاء القـوم إلا رجـل، يدنـو منهـم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير في أكفهم، ويبعد عنهم حتـى يصـير بمنزلـة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكما فـاجعلني ثانيـاً أو ثالثـاً، فإنـه لـن يعقـد عقدة إلا حللتها، ولا يحل عقدة عقدتها إلا عقـدت لـك أخـرى مثلهـا أو أحكم منها. قال: فأبوا إلا أبا موسى الأشعري.

فذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري ـ وكـان قـد اعـتزل ـ فلمـا قيل له: إن الناس قد اصطلحوا قـال: الحمـد للّـه، قيـل لـه: وقـد جعلـت حكما، فقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ثم أخذوه حتى أحضـروه إلى علـي رضي اللّه عنه وكتبوا بينهم كتاباً هذا صورته.

بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طـالب أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس بأميرنا، فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين، فقال علي: امحُه واكتـب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ثم استشـهد علـي بقصـة الحديبيـة حين امتنع أهل مكة من قوله: هذا مـا قـاضى عليـه محمـد رسـول اللّـه، فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبـد اللّه، فكتب الكاتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طـالب ومعاويـة بـن أبـي سـفيان، قـاضى علـي علـى أهـل العـراق ومـن معهـم مـن شـيعتهم والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشـام ومـن كـان معـه مـن المؤمنـين والمسلمين إنا ننزل عند حكم اللّه وكتابه ونحيي ما أحيـى اللّـه، ونميـت مـا أمات اللّه فما وجد الحكمان في كتاب اللّه ـ وهمـا أبـو موسـى الأشـعري وعمرو بن العاص ـ عملا به ومـا لم يجـدا في كتـاب اللّـه فالسـنة العادلـة الجامعة غير المفرقة.

ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيـق على أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمـة لهمـا أنصـار علـى الـذي يتقاضيان عليه ويتفقان، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد اللّه وميثاقه أنهم على ما في هذه الصحيفة، وأجّلا القضاء إلى رمضـان وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك على تـراض منهمـا، وكتـب في يـوم الأربعـاء لثـلاث عشرة خلت من صفر سنة سـبع وثلاثين، على أن يـوافي علـي ومعاويـة موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كـل واحـد مـن الحكمـين أربعمائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام المقبل بأذرح.

وقد ذكر الهيثم في كتاب في الخوارج أن الأشعث بن قيس لما ذهب إلى معاوية بالكتاب وفيه: «هذا ما قاضى عبد اللّه أمير المؤمنـين علـي معاويـة بن أبي سفيان» قال معاوية: لو كان أمير المؤمنـين لم أقاتلـه، ولكـن ليكتـب اسمه وليبدأ به قبل اسمي لفضله وسابقته. فرجع إلى علي فكتب كما قـال معاوية.

وذكر الهيثم أن أهل الشام أبـوا أن يبـدؤوا باسـم علـي قبـل معاويـة، وباسم أهل العراق قبلهم، حتى كتب كتابان كتاب لهؤلاء وكتاب لهـؤلاء بما أرادوا.

وهذه تسمية من شهد على هذا الكتاب والتحكيم مـن جيـش علـي: عبد اللّـه بـن عبـاس، والأشـعث بـن قيـس الكنـدي، وسـعيد بـن قيـس الهمداني، وعبد اللّه بن الطفيل العامري، وحجر بن عدي الكندي، وورقاء بن سمي البجلي، وعبد اللّه بن مُحِلّ العجلي، وعقبة بن زياد الحضرمي، ويزيد بن حُجيّة التميمي، ومالك بن كعب الهمداني. فهؤلاء عشرة.

وأما من الشاميين فعشرة آخرون، وهم أبو الأعـور السـلمي، وحبيـب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومخارق بن الحارث الزبيـدي، زمل بن عمرو العُذري وعلقمـة بـن يزيـد الحضرمي، وحُمرة بـن مـالك الهمداني، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعتبة بـن أبـي سـفيان أخـو معاويـة، ويزيد بن الحر العبسي.

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب يقـرؤه علـى النـاس ويعرضـه عليهم من الطائفتين. ثم شرع الناس في دفن قتلاهم.

قال الزهري: بلغني أنه دفن في كل قبر خمسون نفساً، وكـان علـي قـد

أسر جماعة من أهل الشام، فلما أراد الانصراف عن صفين أطلقهم، وكان مثلهم أو قريب منهم في يد معاوية قد أسرهم أهل الشام وكان معاوية قد عزم على قتلهم لظنه أن علياً قد قتل أسراهم، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم أطلق معاوية الذين في يده.

ويقال: إن رجلا يقال له عمرو بن أوس - من الأود - كان من الأسارى فأراد معاوية قتله فقال: امنن علي فإنك خالي، فقال: ويحك! من أين أنا خالك؟ فقال: إن أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ وهي أم المؤمنين وأنا ابنها وأنت أخوها وأنت خالي. فأعجب ذلك معاوية وأطلقه.

وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وذكر أهل صفين - فقال: كانوا عربا يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية فالتقوا في الإسلام معهم بتلك الحمية نُهية الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم. قال الشعبي: هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد.

ذِكْر خروج الخوارج

وذلك أن الأشعث بن قيس مر على ملأ من بني تميم فقرأ عليهم الكتاب فقام إليه عروة بن أُدَيَّة وهي أمه وهو عروة بن حُدَير من بني ربيعة بن حنظلة وهو أخو أبي بلال مرداس بن حُدَير فقال: أتحكّمون في دين الله الرجال؟ ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث، فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤساء بني تميم يعتذرون إلى الأشعث من ذلك.

قال الهيثم بن عدي: والخوارج يزعمون أن أول من حكم عبد الله بن وهب الراسبي. والصحيح الأول. وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علي من القراء وقالوا: إن الحكم إلا لله، فسموا المحكمة. وتفرق الناس إلى بلادهم من صفين، فرجع علي إلى الكوفة على طريق هيت، ورجع معاوية إلى الشام بأصحابه، فلما دخل علي إلى الكوفة سمع رجلا يقول: ذهب علي ورجع في غير شيء. فقال علي: للذين فارقناهم آنفاً خير من هؤلاء وأنشأ يقول:

أخوكَ الذي إن أجرضتك ملمة … مِنَ الدهرِ لم يبرح لبثك واجما
وليسَ أخوكَ بالذي إن تشعبت … عليكَ الأمور ظلَّ يلحاكَ لائما

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة من الكوفة، ولما كان قد قرب من دخول الكوفة انخزل من جيشه قريب من - اثني عشر ألفا - وهم الخوارج، وأبوا أن يساكنوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له حروراء وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها، فبعث إليهم علي رضي الله عنه عبد الله بن عباس فناظرهم فرجع أكثرهم وبقي بقيتهم، فقاتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه كما سيأتي بيانه وتفصيله قريبا إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن هؤلاء الخوارج هم المشار إليهم في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «تمرق مارقة على حين فرقة من الناس - وفي رواية من المسلمين، وفي رواية من أمتي - فيقتلها أولى الطائفتين بالحق».

وهذا الحديث له طرق متعددة وألفاظ كثيرة.

قال الإمام أحمد [٣٢/٣ و٩٧/٣]: حدثنا وكيع وعفان ثنا القاسم بن الفضل عن أبي نضرة عن أبي سعيد. قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

رواه مسلم [١٠٦٥] عن شيبان بن فروخ عن القاسم بن محمد به.

وقال أحمد [٥٣/١١]: حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «تكون أمتي فرقتين تخرج بينهما مارقة تلي قتلها أولاهما بالحق».

ورواه مسلم [١٠٦٥] من حديث قتادة وداود بن أبي هند عن أبي نضرة به.

وقال أحمد [٥/٣]: حدثنا ابن أبي عدي عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ «ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحليق هم شر الخلق - أو من شر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق» قال أبو سعيد: وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

وقال أحمد [٧٩/٣]: حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي فرقتين فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق».

ورواه [٢٥/٣] أيضاً عن يحيى القطان عن عوف وهو الأعرابي به مثله.

فهذه طرق متعددة عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة العبدي، وهو أحد الثقات الرفعاء.

ورواه مسلم أيضا [(١٠٦٥)(١٥٣)] من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد بنحوه.

فهذا الحديث من دلائل النبوة لأنه قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة أهل الجهل والجور، من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً في قتاله وقد أخطأ، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علياً هو الإمام المصيب إن شاء الله تعالى فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري [٧٣٥٢] من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» وسيأتي بيان كيفية قتال علي رضي الله عنه للخوارج، وصفة المُخْدَج الذي أخبر به الرسول ﷺ فوجد كما أخبر ففرح بذلك علي رضي الله عنه وسجد شكراً لله عز وجل.

موقفُ الخوارج من عليٍّ

قد تقدم: أن علياً رضي الله عنه لما رجع من الشام بعد وقعة صفين، ذهب إلى الكوفة، فلما دخلها اعتزله طائفة من جيشه، قيل ستة عشر ألفاً وقيل اثنا عشر ألفاً، وقيل أقل من ذلك، فباينوه وخرجوا عليه وأنكروا عليه أشياء، فبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم فيها ورد عليهم ما توهموه من الشُبهة، ولم يكن له حقيقة في نفس الأمر، فرجع بعضهم واستمر بعضهم على ضلاله حتى كان منهم ما سنورده قريباً إن شاء الله، ويقال: إن علياً رضي الله عنه ذهب إليهم فناظرهم فيما نقموا عليه حتى استرجعهم عما كانوا عليه، ودخلوا معه الكوفة، ثم إنهم عادوا فنكثوا ما عاهدوه عليه وتعاقدوا وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، والقيام على الناس في ذلك ثم تميزوا ناحية إلى موضع يقال له النهروان، وفيه قاتلهم علي كما سيأتي.

قال الإمام أحمد [٨٦/١]: حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع حدثني يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن عبد الله بن عياض بن عمرو القارئ قال: جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة ونحن عندها مرجعه من العراق ليالي قُتل علي، فقالت له: يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟ تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي، قال: ومالي لا أصدقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم، قال: فإن علياً لما كاتب معاوية وحكم الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله، واسم سماك به الله ثم انطلقت فحكّمت في دين الله فلا حكم إلا لله، فلما أن بلغ علياً ما عتبوا عليه وفارقوه عليه، فأمر فأذن مؤذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين رجل قد حمل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف! حدث الناس فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا عليَّ أن كاتبتُ معاوية: كتب علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشا فكتب رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال: «كيف نكتب؟» فقال: «اكتب باسمك اللّهم! فقال رسول الله ﷺ «فاكتب محمد رسول الله» فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشا، يقول الله تعالى في كتابه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] فبعث إليهم عبد الله بن عباس فخرجت معه حتى إذا توسطت عسكرهم فقام ابن الكوّاء فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه، هذا ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب الله، فقال بعضهم: والله لنواضعنه فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه وإن جاء بباطل لنُبكّتنّه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم على عليٍّ الكوفة، فبعث علي إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً أو تقطعوا سبيلا أو تظلموا ذمة فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] فقالت له عائشة: يا ابن شداد فقتلهم؟ فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدماء واستحلوا أهل الذمة، فقالت: آللّه؟ قال: آللّهِ الذي لا إله إلا هو قد كان ذلك. قالت: فما شيء بلغني عن أهل العراق يقولون ذو الثدي وذو الثدية؟ قال: قد رأيته وقمت مع علي عليه في القتلى فدعا الناس فقال: أتعرفون هذا؟ فما أكثر من جاء يقول: قد رأيته في مسجد بني فلان، يصلي ويقرأ ورأيته في مسجد بني فلان يصلي. ولم يأتوا فيه بثبت يعرف إلا ذلك. قالت: فما قول علي حين قام عليه كما يزعم أهل العراق؟ قال: سمعته يقول: صدق الله ورسوله قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟ قال: اللّهم لا! قالت: أجل! صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً إنه كان لا يرى شيئاً يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث.

تفرد به أحمد وإسناده صحيح واختاره الضياء.

ففي هذا السياق ما يقتضي أن عدتهم كانت ثمانية آلاف لكن من القراء، وقد يكون واطأهم على مذهبهم آخرون من غيرهم حتى بلغوا اثنى عشر ألفاً، أو ستة عشر ألفاً. ولما ناظرهم ابن عباس رجع منهم أربعة آلاف وبقي بقيتهم على ما هم عليه.

وقد رواه يعقوب بن سفيان عن موسى بن مسعود عن عكرمة بن عمار عن سماك أبي زميل عن ابن عباس فذكر القصة وأنهم عتبوا عليه في كونه حكّم الرجال، وأنه محا اسمه من الإمرة، وأنه غزا يوم الجمل فقتل الأنفس الحرام ولم يقسم الأموال والسبي، فأجاب عن الأولتين بما تقدم، وعن الثالثة بأن قال: قد كان في السبي أم المؤمنين عائشة فإن قلتم ليست لكم بأم فقد كفرتم، وإن استحللتم سبي أمّكم فقد كفرتم. قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فتقاتلوا.

وذكر غيره أن ابن عباس لبس حلة لما فرج إليهم، فناظروه في لبسه إياها، فاحتج عليهم بقوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف: ٣٢].

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٩١/٥] أن علياً خرج بنفسه إلى بقيتهم فلم يزل يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى - شك الراوي في ذلك - ثم جعلوا بعد ذلك يعرِّضون له في الكلام ويسمعونه شتماً ويتأولون تأويل في قوله.

قال الشافعي رحمه الله: قال رجل من الخوارج لعلي وهو في الصلاة ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ [الزمر: ٦٥] فقرأ علي ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ [الروم: ٦٠].

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٧٣/٥] أن هذا الكلام إنما قاله وعلي يخطب لا في الصلاة.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٧٣/٥] أيضاً أن علياً بينما هو يخطب يوماً إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب: لا حكم إلا لله، لا حكمَ إلا لله فجعل علي يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل، ثم قال: إن لكم علينا أن لا نمنعكم فيئا ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا به. ثم إنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة وتحيزوا إلى النهروان على ماسنذكره بعد حكم الحكمين.

صفة اجتماع الحكَمين وهما أبو موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما بدومة الجندل

وكان ذلك في شهر رمضان كما تشارطوا عليه وقت التحكيم بصفين. وقال الواقدي اجتمعوا في شعبان.

وذلك أن علياً رضي الله عنه لما كان مجيء رمضان بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانئ، ومعهم أبو موسى، وعبدالله بن عباس، وإليه الصلاة وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام ومعه عبد الله بن عمرو ابنه، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح - وهي نصف بين الكوفة والشام، بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل- وشهد ذلك معهم جماعة من رؤوس الناس، كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري وأبي جهم بن حذيفة.

وزعم بعض الناس أن سعد بن أبي وقاص شهدهم أيضاً، وأنكر حضوره آخرون.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٦٧/٥] أن عمر بن سعد بن أبي وقاص خرج إلى أبيه وهو بماء لبني سليم معتزل بالبادية: فقال يا أبه: قد بلغك ما كان من الناس بصفين، وقد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش، فاشهدهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الشورى ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة فاحضر إنك أحق الناس بالخلافة. فقال: لا أفعل! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون فتنة خير الناس فيها الخفي التقي» والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً.

وقد قال الإمام أحمد [١٦٨/١]: حدثنا أبو بكر الحنفي عبد الكبير بن عبد المجيد ثنا بكير بن مسمار عن عامر بن سعد أن أخاه عمر انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبه أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».

وهكذا رواه مسلم في صحيحه [٢٩٦٥].

وقال أحمد أيضا [١٧٧/١]: حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا كثير بن زيد الأسلمي فقال: يابني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً؟ لا والله حتى أُعطَى سيفاً إن ضربت به مؤمنا نبا عنه وإن ضربت به كافراً قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغني الخفي التقي».

وهذا السياق كان عكس الأول، والظاهر أن عمر بن سعد استعان بأخيه عامر على أبيه ليشير عليه أن يحضر أمر التحكيم لعلهم يعدلون عن معاوية وعلي ويولونه فامتنع سعد من ذلك وأباه أشد الإباء وقنع بما هو فيه من الكفاية والخفاء كما ثبت في صحيح مسلم [١٠٥٤] أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه» وكان عمر بن سعد هذا يحب الدُّنيا والإمارة، فلم يزل ذلك دأبه حتى كان هو من السرية التي قتلت الحسين بن علي رضي الله عنه كما سيأتي بيانه في موضعه، ولو قنع بما كان عليه أبوه لم يكن شيء من ذلك والله أعلم.

والمقصود أن سعداً لم يحضر أمر التحكيم ولا أراد ذلك ولاهم به، وإنما حضره من ذكرنا.

فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونَظَرِ في تقدير أمور ثم اتفقا على أن يعزلا عليا ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال له عمرو: فولِّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد. فقال له أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن والدنيا معك، وهو مع ذلك رجل صدق.

قال أبو مخنف: فحدثني محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال: قال عمرو بن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس يأكل ويُطْعِم. وكان ابن عمر فيه غفلة، فقال له ابن الزبير: يا عبدَ الله، افطَنْ وانتبه، فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، ثم قال: يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتشاكت بالرماح، فلا تردنهم في فتنة مثلها أو أشد منها. ثم إن عمرو بن العاص حاول أبا موسى على أن يقر معاوية وحده على الناس فأبى عليه، ثم حاوله ليكون ابنه عبد الله بن عمرو هو الخليفة، فأبى أيضاً، وطلب أبو موسى من عمرو أن يوليا عبد الله بن عمر بن الخطاب، فامتنع عمرو أيضاً، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعليا ويتركا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على من يختاروه لأنفسهم، ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس - وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى بل يقدمه في كل الأمور أدباً وإجلالا - فقال له: يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

فخطب أبو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألَمَّ لشعثها من رأي قد اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع عليا ومعاوية ونترك الأمر شورًى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه واختاروه، وإني قد خلعت عليا ومعاوية. ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما قد سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته أيضاً كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه وليُّ عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وهو أحق الناس بمقامه - وكان عمرو رأى من المصلحة أنَّ ترك الناس بلا إمام - والحالة هذه - يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أعظم مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، فاجتهد والاجتهاد يخطئ ويصيب. ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ورد عليه عمرو بن العاص مثله.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٧١/٥] أن شريح بن هانئ - مقدَّم جيش علي - وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط وقام إليه ابنٌ لعمرو فضربه بالسوط، وتفرق الناس في كل وجه إلى بلادهم، فأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بتحية الخلافة، وأما أبو موسى فاستحيى من علي فذهب إلى مكة ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو فاستضعفوا رأي أبي موسى وعرفوا أنه لا يوازن عمراً.

فذكر أبو مخنف عن أبي جناب الكلبي أن عليا لما بلغه ما فعل عمرو كان يلعن في قنوته معاوية، وعمرو بن العاص، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، والضحاك بن قيس، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والوليد بن عُقبة، فلما بلغ ذلك معاوية أيضاً كان يلعن في قنوته عليا وحسنا وحسينا وابن عباس والأشتَر النخعي.

ولا يصح هذا عنهم، رضي الله عنهم، والله أعلم.

فأما الحديث الذي قال البيهقي في الدلائل [٤٢٣/٦]: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا إسماعيل بن الفضل حدثنا قتيبة بن سعيد عن جرير عن زكريا بن يحيى عن عبد الله بن يزيد وحبيب بن يسار عن سويد بن غفلة قال: إني لأمشي مع علي بشط الفرات فقال:

قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين فضلّا وأضلّا، وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين فيضلان ويُضلاّن من اتبعهما».

فإنه حديث منكر ورفعُه موضوع والله أعلم. إذ لو كان هذا معلوماً عند علي لم يوافق على تحكيم الحكمين حتى لا يكون سبباً لإضلال الناس، كما في هذا الحديث. وآفة هذا الحديث هو زكريا بن يحيى وهو الكندي الحميري الأعمى قال ابن معين: ليس بشيء.

ذِكر خروج الخوارج من الكوفة ومبارزتهم علياً رضي الله عنه بالعداوة والمخالفة وقتال عليٍّ إياهم وما ورد في ذلك من الأحاديث

لما بعث علي أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على علي وصرحوا بكفره، فجاء إليه رجلان منهم، وهما زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي فقالا: لا حكم إلا لله، فقال علي: نعم، لا حكم إلا لله، فقال لهم حرقوص: تب إلى الله من خطيئتك وارجع عن قضيّتك واذهب بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وعهوداً وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الآية [النحل: ٩١] فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه، فقال علي: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه، فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك وَجْهَ الله ورضوانه، فقال علي: تباً لك ما أشقاك! كأني بك قتيلا تسفي عليك الريح، فقال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: إنك لو كنت محقاً كان في الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم. فخرجا من عنده يحكمان أمرهما وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس، وتعرضوا لعلي في خطبه وأسمعوه السب والشتم والتعريض بآيات من القرآن، وذلك أن علياً قام خطيباً في بعض الجمع فذكر أمر الخوارج فذمه وعابه. فقام جماعة منهم كل يقول: لا حكم إلا لله. وقام رجل منهم وهو واضع إصبعه في أذنيه يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] فجعل علي يقلب يديه هكذا وهكذا وهو على المنبر يقول: حكم الله ننتظر فيكم. ثم قال: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا ما لم تخرجوا علينا، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا.

وقال أبو مخنف عن عبد الملك بن أبي حرّة أن علياً لما بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في هذه الدنيا ورغبهم في الآخرة والجنة، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال، أو بعض هذه المدائن، منكرين لهذه الأحكام الجائرة. ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنّكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، فقال سنان بن حمزة الأسدي: ياقوم أن الرأي ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلا منكم، فإنه لابد لكم من عماد وسناد، ومن راية تحفون بها وترجعون إليها، فبعثوا إلى زيد بن حصين الطائي ـ وكان من رؤوسهم ـ فعرضوا عليه الإمارة عليهم فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، ثم عرضوها على حمزة بن سنان فأبى، ثم عرضوها على شريح بن أوفى العبسي فأبى ثم عرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت.

واجتمعوا أيضاً في بيت زيد بن حصين الطائي السنبسي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القرآن منها قوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] الآية. وقوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] والتي بعدها وبعدها ﴿الظالمون﴾ ﴿الفاسقون﴾ ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حق على المؤمنين، قال: فبكى رجل منهم يقال له عبد الله بن شجرة السُّلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم آتاكم اللهُ ثواب المطيعين له العاملين بأمره ـ وإن قتلتم فأي شيء أفضل من الصبر والمصير إلى الله ورضوانه وجنته؟.

قلت: وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد، وسبق في قدره ذلك. وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣].

والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطؤوا على المسير إلى المدائن ليملكوها ويتحصنوا بها ثم يبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم ـ ممن هو على ما هم عليه، من أهل البصرة وغيرها ـ فيوافوهم إليها. ويكون اجتماعهم عليها. فقال لهم زيد بن حصين الطائي: إن المدائن لا تقدرون عليها، فإن بها جيشاً لا تطيقونه وسيمنعوها منكم، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخى، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحداناً لئلا يشعروا بكم، فكتبوا كتاباً عاماً إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها وبعثوا به إليهم ليوافوهم إلى النهر ليكونوا يداً واحدة على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحداناً لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأعمام والعمات وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسماوات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر والذنوب الموبقات، والعظائم والخطيئات، وأنه مما يزيّنه لهم إبليس وأنفسهم التي هي بالسوء أمّارات وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وقراباتهم وإخوانهم فردوهم ووبخوهم فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنهم من فر بعد ذلك فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة،

وذهب الباقون إلى ذلك الموضع ووافى إليهم من كاتبوه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم جند مستقتلون وفيهم شجاعة وثبات وصبر وعندهم أنهم متقربون بذلك إلى الله عزوجل. فهم قوم لا يصطلى لهم بنار، ولا يطمع أحد في أن يؤخذ منهم بثار، وبالله المستعان.

وقال أبو مخنف عن أبي روق عن الشعبي أن علياً لما خرجت الخوارج إلى النهروان وهرب أبو موسى إلى مكة، ورد ابن عباس إلى البصرة، قام في الناس بالكوفة خطيباً فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدثان الجليل، وأشهد أن لا إله غيره وأن محمداً رسول الله، أما بعد: فإن المعصية تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمري، ونحلتكم رأيي، فأبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن فأجاد:

بذلتُ لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضحى الغدِ

ثم تكلم فيما فعله الحكمان فرد عليهما فيما حكما به وأنبهما، وبين ما في ذلك من هوى ووزور ومحبة للدنيا وقلّة نصح ونظر للأمة وحط عليهما، ثم ندب الناس إلى الخروج إلى أهل الشام، وعين لهم يوم الاثنين يخرجون فيه، وكتب إلى ابن عباس والي البصرة يستنفر له الناس إلى الخروج إلى أهل الشام، وكتب إلى الخوارج يعلمهم أن الذي حكم به الحكمان مردود عليهما، وأنه قد عزم على الذهاب إلى أهل الشام، فهلموا حتى نجتمع على قتالهم. فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك وإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فلما قرأ عليٌّ كتابهم يئس منهم وعزم على الذهاب إلى أهل الشام ليناجزهم وخرج من الكوفة إلى النخيلة في عسكر كثيف - خمسة وستين ألفا - وبعث إليه ابن عباس بثلاثة آلاف ومائتي فارس من أهل البصرة مع جارية بن قدامة ألف وخمسمائة، ومع أبي الأسود الدؤلي ألف وسبعمائة، فكمل جيشه في ثمانية وستين ألف فارس ومائتي فارس وقام علي في الناس خطيباً فحثهم على الجهاد والصبر عند اللقاء، وهو عازم على غزو أهل الشام، فبينما هو عازم على غزو أهل الشام إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل واستحلوا المحارم وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، أسروه وامرأته معه وهي حامل فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ وأنتم قد روعتموني فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» فقادوه بيده فبينما هو يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم بسيفه فشق جلده فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه وبينا هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله عز وجل، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها، فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بالقتال أن يخلفهم هؤلاء في ذراريهم وديارهم ويفعلوا هذا الصنع، فخافوا غائلتهم، وأشاروا على عليّ بأن يبدأ بهم، ثم إذا فرغ منهم ساروا معه إلى الشام والناس آمنون من شرهم فاجتمع الرأي على هذا وفيه خيرة عظيمة لهم ولأهل الشام أيضاً إذ لو قَوَوْا هؤلاء لأفسدوا الأرض كلها عراقاً وشاماً ولم يتركوا طفلا ولا طفلة ولا رجلا ولا امرأة لأن الناس عندهم قد فسدوا فساداً لا يصلحهم إلا القتل جملة فأرسل علي إليهم الحارث بن مرة العبدي، وقال له: اخبر لي خبرهم، واعلم لي أمرهم واكتب إلي به على الجلية فلما قدم عليهم قتلوه ولم ينظروه، فلما بلغ ذلك عليا سار إليهم وترك أهل الشام.

ذكر مسير أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى الخوارج

لما عزم علي ومن معه من الجيش على البداءة بالخوارج، نادى مناديه في الناس بالرحيل إليهم فعبر الجسر فصلى ركعتين عنده ثم سلك علي دير عبد الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم على شاطئ الفرات، فلقيه هنالك منجم فأشار عليه بوقت من النهار يسير فيه ولا يسير في غيره، فإنه إن سار في غيره يخشى عليه فخالفه علي وسار على خلاف ما قال المنجم وقال نسير ثقة بالله وتوكلا عليه وتكذيباً لقول المنجم فأظفره الله، وقال علي: إنما أردت أن أبين للناس خطأه وخشيت أن يقول الناس، إنما ظفر لكونه وافقه، فيما أشار به، فيشركوا بالله غيره وسلك علي ناحية الأنبار وبعث بين يديه قيس بن سعد، وأمره أن يأتي المدائن وأن يلقاه بنائبها سعد بن مسعود، وهو اخو عبد الله بن مسعود الثقفي - في جيش المدائن فاجتمع الناس هنالك على علي، وبعث إلى الخوارج: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم لنقتلهم بهم ثم إنا تاركوكم وذاهبون عنكم إلى الشام - ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه. فبعثوا إليه يقولون: كلنا قتل إخوانكم ونحن مستحلون دماءهم دماءكم. فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم فيما هم مرتكبوه من الأمر العظيم، والخطب الجسيم، فلم ينفع ذلك فيهم وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري أنبهم ووبخهم فلم ينجع فيهم، وتقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إليهم فوعظهم وخوفهم وحذرهم وأنذرهم وتهدَّدهم وتوعدهم وقال: إنكم أنكرتم علي أمراً أنتم دعوتموني إليه وأبيتم إلا إياه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه ولا تركبوا محارم الله فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيما عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟.

فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادوا فيما بينهم أن لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيؤوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة! وتقدموا فاصطفوا للقتال وتأهبوا للنزال فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي السنبسي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي. ووقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه.

وجعل علي على ميمنته حجر بن عدي، وعلى الميسرة شبث بن ربعي أو معقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة - وكانوا في سبعمائة - قيس بن سعد بن عبادة، وأمر علي أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى

الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا في دمائكم إلا فيمن قتل إخواننا.

فانصرف منهم طوائف كثيرون ـ وكانوا في أربعة آلاف ـ فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد اللّه بن وهب الراسبي، فزحفوا إلى علي فقدّم علي بين يديه الخيل وقدم منهم الرماة وصف الرجال وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم، وأقبلت الخوارج وهم يقولون: لا حكم إلا للّه، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقتل أمراؤهم عبد اللّه بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد اللّه بن شجرة السلمي، قبحهم اللّه.

قال أبو أيوب: وطعنت رجلا من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر يا عدو اللّه بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صلياً.

قالوا: ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر.

وجعل علي يمشي بين القتلى منهم ويقول: بؤساً لكم! لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرهم؟ قال: الشيطان وأنفسٌ بالسوء أمارة، غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم.

وقال الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج: وحدثنا محمد بن قيس الأسدي ومنصور بن دينار عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سبرة أن علياً لم يخمس ما أصاب من الخوارج يوم النهروان ولكن رده إلى أهليهم كله حتى كان آخر ذلك مرجل أتي به فرده.

وقال أبو مخنف: حدثني عبد الملك بن أبي حرة أن علياً خرج في طلب ذي الثُديَّة ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جَبْرة والريان بن صبرة بن هوذة فوجده الريان في حفرة على جانب النهر في أربعين أو خمسين قتيلا، قال: فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة له حَلَمة كحَلَمة الثدْي عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي يده الأخرى ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما رآه علي قال: أما واللّه ما كَذبت ولا كُذبت أما واللّه لولا أن تتكلوا على غير العمل لأخبرتكم بما قضى اللّه على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم عارفاً للحق.

وقال الهيثم بن عدي في كتابه في الخوارج: وحدثني محمد بن ربيعة الأخنسي عن نافع بن مسلمة الأخنسي قال: كان ذو الثدية رجلا من عُرينة من بني بجيلة، وكان أسود شديد السواد، له ريح منتنة معروف في العسكر، يرافقنا على ذلك وينازلنا وننازله.

وحدثني أبو إسماعيل الحنفي عن الريان بن صبرة الحنفي. قال: شهدنا النهروان مع علي، فلما وجد المُخدَج سجد سجدة طويلة شكراً للّه.

وحدثني سفيان الثوري عن محمد بن قيس الهمداني عن رجل من قومه يكنى أبا موسى أن علياً لما وجد المخدج سجد.

وحدثني يونس بن أبي إسحاق حدثني إسماعيل بن سعيد بن عمروة عن حبة العرني. قال لما قتل علي أهل النهروان جعل الناس يقولون: الحمد للّه يا أمير المؤمنين الذي دابرهم. فقال علي: كلا واللّه إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين فقلّما يقاتلون أحداً إلا ألفوا أن يظهروا عليه.

قال: وكان عبد اللّه بن وهب الراسبي قد قحلت مواضع السجود منه من شدة اجتهاده وكثرة سجوده، وكان يقال له: ذو الثفنات.

وروى الهيثم عن بعض الخوارج أنه قال: ما كان عبد اللّه بن وهب من بغضه لعلي يسميه إلا الجاحد.

وقال الهيثم بن عدي: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال: سئل علي عن أهل النهروان: أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فروا، قيل: أفمنافقون هم؟ قال إن المنافقين لا يذكرون اللّه إلا قليلا: فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا.

فهذا ما أورده ابن جرير [تاريخه: ٥/٧٢-٩٢] وغيره في هذا المقام.

ولنذكر الآن ما ورد فيهم من الأحاديث الشريفة المرفوعة إلى رسول اللّه ﷺ

الحديث الأول عن علي ﷺ

ورواه عنه زيد بن وهب، وسويد بن غفلة، وطارق بن زياد، وعبد اللّه بن شداد، وعبيد اللّه بن أبي رافع، وعَبيدة بن عمرو السلماني، وكليب أبو عاصم، وأبو كثير وأبو مريم، وأبو موسى، وأبو وائل وأبو الوضيء فهذه اثنا عشر طريقا إليه ستراها بأسانيدها وألفاظها ومثل هذا يبلغ حد التواتر.

الطريق الأولى:

قال عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل [٩١/١، ٩٢]: حدثنا أبو يوسف، أنا يحيى بن عبد الملك بن حميد بن أبي غَنِيَّة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل عن زيد بن وهب قال: لما خرجت الخوارج بالنهروان قام علي في أصحابه فقال: إن هؤلاء القوم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على سرح الناس، وهم أقرب العدو إليكم، فإن تسيروا إلى عدوكم فإنا نخاف أن يخلفكم هؤلاء في أعقابكم إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «تخرج خارجة من أمتي ليس صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء ولا قراءتكم إلى قراءتهم بشيء يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس لها ذراع عليها مثل حلمة الثدي عليها شعرات بيض لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما لهم على لسان نبيهم لاتكلوا على العمل فسيروا على اسم اللّه».

وذكر الحديث بطوله، هكذا رواه عبد اللّه بن أحمد إلى هنا.

قال مسلم بن الحجاج في صحيحه [١٠٦٦]: حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق بن همام حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان حدثنا سلمة بن كهيل حدثني زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي اللّه عنه الذين ساروا إلى الخوارج فقال علي: يأيها الناس إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز

صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية». لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا على العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد ليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، واللّه إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم اللّه.

قال سلمة: فنزّلني زيد بن وهب منزلاً منزلاً حتى قال: مرَرْنا على قنطرة فلما التقينا ـ وعلى الخوارج يومئذ عبد اللّه بن وهب الراسبي ـ فقال لهم: ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء، فرجعوا فوحشوا برماحهم وسلوا السيوف فشجرهم الناس برماحهم. قال: وقتل بعضهم على بعض وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان، فقال علي رضي اللّه عنه: التمسوا فيهم المخدج، فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي رضي اللّه عنه بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم علي بعض، فقال: أخروهم فوجدوهم مما يلي الأرض فكبر، قال: صدق اللّه وبلغ رسوله قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين واللّه الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا من رسول اللّه ﷺ فقال: إي واللّه الذي لا إله إلا هو، فاستحلفه ثلاثا وهو يحلف له. هذا لفظ مسلم.

وقد رواه أبو داود [٤٧٦٨] عن الحسن بن علي الخلال عن عبد الرزاق بنحوه.

طريق أخرى عن علي

قال الإمام أحمد [١٣١/١]: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش وعبد الرحمن عن سفيان عن الأعمش عن خيثمة عن سويد بن غفلة قال قال علي: إذا حدثتكم عن رسول اللّه ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال عبد الرحمن: لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ـ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند اللّه يوم القيامة».

وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٦١١)، م(١٠٦٦)] من طرق عن الأعمش به.

قال الإمام أحمد [١٤٧/١، ١٠٧]: حدثنا أبو نعيم وحدثنا الوليد بن القاسم الهمداني حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن عبد الأعلى عن طارق بن زياد قال: سار علي إلى النهروان ـ قال الوليد في روايته: وخرجنا معه ـ فقتل الخوارج فقال: اطلبوا المخدج فإن رسول اللّه ﷺ قال: «سيجيء قوم يتكلمون بكلمة الحق لا تجاوز حلوقهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم أو فيهم رجل أسود مخدج اليد في يده شعرات سود». إن كان فيهم فقد قتلتم شر الناس، وإن لم يكن فيهم فقد قتلتم خير الناس». قال الوليد في روايته: فبكينا قال: ثم إنا وجدنا المخدج قال: فخررنا سجوداً وخر علي ساجداً معنا.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

طريق أخرى:

رواه عبد اللّه بن شداد عن علي كما تقدم قريبا إيراده بطوله.

طريق أخرى عن علي رضي اله عنه:

قال مسلم [١٠٦٦] حدثني أبو الطاهر ويونس بن عبد الأعلى قالا: حدثنا عبد اللّه بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج عن بسر بن سعيد عن عبيد اللّه بن أبي رافع مولى رسول اللّه ﷺ أن الحرورية لما خرجت ـ وهو مع علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه قالوا: لا حكم إلا للّه، قال علي: كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول اللّه ﷺ وصف ناساً إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، يقولون: «الحق بألسنتهم لا يجوز هذا منهم ـ وأشار إلى حلقة ـ من أبغض خلق اللّه إليه منهم أسود إحدى يديه طبي شاة أو حلمة ثدي» فلما قتلهم علي بن أبي طالب قال: انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئاً فقال: ارجعوا، فواللّه ما كَذَبت ولا كُذِبتُ ـ مرتين أو ثلاثا ـ ثم وجدوه في خربة فأتوا به علياً حتى وضعوه بين يديه، قال عبيد اللّه: وأنا حاضر ذلك من أمرهم، وقول علي فيهم. زاد يونس في روايته قال بكير: وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال: رأيت ذلك الأسود. تفرد به مسلم.

طريق أخرى قال أحمد [٨٣/١]: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن محمد عن عبيدة عن علي قال: ذكر الخوارج عند علي فقال: فيهم مخدج اليد أو مثدون اليد؟ ـ أو قال: مودن اليد ـ ولولا أن تبطروا لحدثتكم بما وعد اللّه الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ، قال قلت: أنت سمعته من محمد ﷺ؟ قال: إي ورب الكعبة إي ورب الكعبة، إي ورب الكعبة.

وقال أحمد [٩٥/١]: حدثنا وكيع حدثنا جرير بن حازم وأبو عمرو بن العلاء عن ابن سيرين سمعاه عن عبيدة عن علي قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يخرج قوم فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد ولولا أن تبطروا لأنبأتكم بما وعد اللّه الذين يقتلونهم على لسان نبيه ﷺ». قال عبيدة: قلت لعلي: أنت سمعته من رسول اللّه ﷺ؟ قال: إي ورب الكعبة إي ورب الكعبة إي وربُّ الكعبة.

وقال أحمد [١٤٤/١]: حدثنا يزيد حدثنا هشام عن محمد عن عبيدة قال: قال علي لأهل النهروان: فيهم رجل مثدون اليد أو مخدوج اليد، ولولا أن تبطروا لأخبرتكم بما قضى اللّه على لسان نبيه ﷺ لمن قتلهم. قال عبيدة: فقلت لعلي: أنت سمعته؟ قال: إي ورب الكعبة. يحلف عليها ثلاثا.

وقال أحمد [١٥٥/١]: حدثنا ابن أبي عدي عن ابن عون عن محمد قال: قال عبيدة: لا أحدثك إلا ما سمعت منه، قال محمد: فحلف لنا عبيدة ثلاث مرات، وحلف له علي قال قال: لولا أن تبطروا لأنبأتكم ما وعد اللّه الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ قال: قلت: أنت سمعته؟ قال: إي ورب الكعبة، إي ورب الكعبة، إي ورب الكعبة، فيهم رجل مخدج اليد أو مثدون اليد أحسبه قال: أو مودن اليد.

وقد رواه مسلم [١٠٦٦] من حديث إسماعيل بن علية وحماد بن زيد كلاهما عن أيوب وعن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن ابن عون كلاهما عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي.

وقد ذكرناه من طرق متعددة تفيد القطع عند كثيرين عن محمد بن سيرين. وقد حلف أنه سمعه من عبيدة وحلف عبيدة أنه سمعه من علي وحلف عليٌّ أنه سمعه من رسول اللّه ﷺ، وقد قال علي: لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب على رسول اللّه ﷺ.

طريق أخرى:

قال عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل [١٦٠/١]: حدثني إسماعيل أبو

معمر حدثنا عبد الله بن إدريس حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه قال: كنت جالساً عند علي إذ دخل رجل عليه ثياب السفر فاستأذن على علي وهو يكلم الناس فشُغل عنه فقال علي: إني دخلت على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فقال لي: «كيف أنت وقوم كذا وكذا؟» فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: فقال: «قوم يخرجون من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فيهم رجل مخدج اليد كأن يده ثَدْيُ حبشية»، أنشدكم بالله هل أخبرتكم أنه فيهم؟ فذكر الحديث بطوله.

ثم رواه عبد الله بن أحمد [١٦٠/١] عن أبي خيثمة زهير بن حرب عن القاسم بن مالك عن عاصم بن كليب عن أبيه عن علي. فذكر نحوه وإسناده جيد ولم يخرجوه.

طريق أخرى

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٩٩/١، ٢٠٠]: أخبرنا أبو القاسم الأزهري أنا علي بن عبد الرحمن البكائي أنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي أنا يحيى بن عبد الحميد الحماني أنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن ميسرة قال قال أبو جُحيفة: قال علي حين فرغنا من الحرورية إن فيهم رجلا مخدجاً ليس في عضده عظم ثم عضده كحلمة الثدي عليها شعرات طوال عقف، فالتمسوه فلم يجدوه قال: فما رأيت عليا جزع جزعاً أشد من جزعه يومئذ، فقالوا: ما نجده يا أمير المؤمنين.فقال: ويلكم ما اسم هذا المكان؟ قالوا: النهروان، قال: كذبتم إنه لفيهم، فثورنا القتلى فلم نجده فعدنا إليه فقلنا: يا أمير المؤمنين ما وجدناه، قال: ما اسم هذا المكان؟ قلنا: النهروان، قال: صدق الله ورسوله وكذبتم إنه لفيهم فالتمسوه، فالتمسناه فوجدناه في ساقية فجئنا به فنظرت إلى عضده ليس فيها عظم وعليها كحلمة ثدي المرأة عليها شعرات طوال عقف.

طريق أخرى

قال الإمام أحمد [٨٨/١]: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا إسماعيل بن مسلم العبدي حدثنا أبو كثير مولى الأنصار قال: كنت مع سيدي مع علي بن أبي طالب حيث قتل أهل النهروان، فكأن الناس وجدوا في أنفسهم من قتلهم، فقال علي: ياأيها الناس إن رسول الله ﷺ قد حدثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يرجعون فيه أبداً حتى يرجع السهم على فُوقه، وإن آية ذلك ان فيهم رجلا أسود مخدج اليد إحدى يديه كثدي المرأة، لها حلمة كحلمة ثدي المرأة، حوله سبع هلبات فالتمسوه فإني أراه فيهم، فالتمسوه فوجدوه إلى شفير النهر تحت القتلى فأخرجوه فكبر علي، فقال: الله أكبر! صدق الله ورسوله. وإنه لمتقلد قوساً له عربية فأخذها بيده فجعل يطعن بها في مخدجته ويقول: صدق الله ورسوله. وكبر الناس حين رأوه واستبشروا وذهب عنهم ماكانوا يجدون.

تفرد به أحمد.

طريق أخرى

قال عبد الله بن أحمد [١٥١/١]: حدثنا أبو خيثمة حدثنا شبابة بن سوار حدثني نعيم بن حكيم حدثني أبو مريم حدثنا علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «إن قوماً يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، علامتهم رجل مخدج اليد».

وقال أبو داود في سننه [٤٧٧٠]: حدثنا بشر بن خالد حدثنا شبابة بن سوار عن نعيم بن حكيم عن أبي مريم قال: إن كان ذاك المخدج لمعنا يومئذ في المسجد نجالسه الليل والنهار، وكان فقيراً، ورأيته مع المساكين يشهد طعام علي مع الناس، وقد كسوته برنساً لي، قال أبو مريم: وكان المخدج يسمى نافعاً ذا الثدية، وكان في يده مثل ثدي المرأة، على رأسه حلمة مثل الثدي عليه شعرات مثل سبالة السنور.

طريق أخرى

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل [٤٣٣/٦]: أخبرنا أبو علي الروذباري أنا أبو محمد عبد الله بن عمرو بن شوذب المقرئ الواسطي بها حدثنا شعيب بن أيوب حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين عن سفيان - هو الثوري - عن محمد بن قيس عن أبي موسى رجل من قومه قال: كنت مع علي فجعل يقول: التمسوا المخدج. فالتمسوه فلم يجدوه، قال: فأخذ يعرق ويقول: والله ما كذبت ولا كذبت. فوجدوه في نهر أو دالية فسجد.

طريق أخرى

قال أبو بكر البزار: حدثني محمد بن مثنى ومحمد بن معمر حدثنا عبد الصمد حدثنا سويد بن عبيد العجلي حدثنا أبو مؤمن. قال: شهدت علي بن أبي طالب يوم قتل الحرورية وأنا مع مولاي فقال: انظروا فإن فيهم رجلا إحدى يديه مثل ثدي المرأة، وأخبرني النبي ﷺ أني صاحبه، فقلبوا القتلى فلم يجدوه، وقالوا: سبعة نفر تحت النخلة لم نقلبهم بعد، قال: ويلكم انظروا، قال أبو مؤمن: فرأيت في رجليه حبلين يجرونه بهما حتى ألقوه بين يديه فخر علي ساجداً وقال: أبشروا قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار. ثم قال البزار: لا نعلم روى أبو مؤمن عن علي غير هذا الحديث.

طريق أخرى

قال البزار: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي سمعت أبا سنان عن حبيب بن أبي ثابت قال: قلت لشقيق بن سلمة - يعني أبا وائل - حدثني عن ذي الثدية، قال: لما قاتلناهم قال علي: اطلبوا رجلا علامته كذا وكذا، فطلبناه فلم نجده، فبكى عليٌّ وقال: اطلبوه، فوالله ما كذبت ولا كذبت، قال: فطلبناه فلم نجده فبكى وقال: اطلبوه فوالله ما كذبت ولا كذبت، قال: فطلبناه فلم نجده قال: وركب بغلته الشهباء فطلبناه فوجدناه تحت بَرْديٍّ فلما رآه سجد. ثم قال البزار: لا نعلم روى حبيب عن شقيق عن علي إلا هذا الحديث.

طريق أخرى

قال عبد الله بن أحمد [١٣٩/١]: حدثني عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا جميل بن مرة عن أبي الوضيء قال: شهدت علياً حيث قتل أهل النهروان قال: التمسوا المخدج: فطلبوه في القتلى فقالوا: ليس نجده فقال: ارجعوا فالتمسوه فوالله ماكذبت ولا كذبت، فرجعوا فطلبوه فردد ذلك مراراً، كل ذلك يحلف بالله ما كذبت ولا كذبت، فانطلقوا فوجدوه تحت القتلى في طين فاستخرجوه فجيء به، قال أبو الوضيء: فكأني أنظر إليه حبشي عليه ثدي قد طبق إحدى يديه مثل ثدي المرأة عليها شعرات مثل شعرات تكون على ذنب اليربوع.

وقد رواه أبو داود [٤٧٦٩] عن محمد بن عبيد بن حساب عن حماد بن زيد حدثنا جميل بن مرة حدثنا أبو الوضيء - واسمه عباد بن نُسيب - ولكنه اختصره

وقال عبد الله بن أحمد [١/١٤٠، ١٤١] أيضاً: حدثنا حجاج بن يوسف الشاعر حدثني عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا يزيد بن أبي صالح أن أبا الوضيء عباداً حدثه أنه قال: كنا عائدين إلى الكوفة مع علي بن أبي طالب فلما بلغنا مسيرة ليلتين أو ثلاثاً من حروراء شذ منا ناس كثير، فذكرنا ذلك لعلي فقال: لا يهولنكم أمرهم فإنهم سيرجعون. فذكر الحديث بطوله قال: فحمد الله علي بن أبي طالب وقال: إن خليلي أخبرني أن قائد هؤلاء رجل مخدج اليد على حلمة ثديه شعرات كأنهن ذنب اليربوع، فالتمسوه فلم يجدوه فأتيناه فقلنا: إنا لم نجده، فقال: فالتمسوه، فوالله ما كذبت ولا كُذِبتُ ـ ثلاثاً، فقلنا: لم نجده، فجاء عليٌّ بنفسه فجعل يقول: اقلبوا ذا، اقلبوا ذا، حتى جاء رجل من أهل الكوفة فقال: هو هذا؟ فقال علي: الله أكبر، لا يأتيكم أحد يخبركم من أبوه؟ فجعل الناس يقولون: هذا مالك، هذا مالك، فقال علي: ابن من هو؟

وقال عبد الله بن احمد أيضاً [١/١٤١]: حدثني حجاج بن يوسف الشاعر حدثني عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا يزيد بن أبي صالح أن أبا الوضيء عباداً حدثه أنه قال: كنا عامدين إلى الكوفة مع علي فذكر حديث المخدج قال علي: «فوالله ما كذبت ولا كذبت ثلاثا، ثم قال علي: أما إن خليلي أخبرني بثلاثة إخوة من الجن هذا أكبرهم والثاني له جمع كثير، والثالث فيه ضعف» وهذا السياق فيه غرابة شديدة جداً. وقد يكون أن يكون ذو الثدية من الجن؟ بل هو من الشياطين إما شياطين الإنس أو شياطين الجن، إن صح هذا السياق والله تعالى أعلم.

والمقصود أن هذه طرق متواترة عن علي إذ قد روى من طرق متعددة عن جماعة متباينة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، فأصل القصة محفوظ وإن كان بعض الألفاظ وقع فيها اختلاف بين الرواة ولكن معناها وأصلها الذي تواطأت الروايات عليه صحيح لا يشك فيه عن علي أنه رواه عن رسول الله ﷺ أنه أخبره عن صفة الخوارج وصفة ذي الثدية الذي هو علامة عليهم.

وقد روى ذلك من طريق جماعة من الصحابة غير علي كما ستراها بأسانيدها وألفاظها وبالله المستعان.

وقد رواه جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، ورافع بن عمرو الغفاري، وسعد بن أبي وقاص، وأبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الأنصاري، وسهل بن حنيف، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قدمنا حديث عليٍّ بطرقه لأنه أحد الخلفاء الأربعة وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أصحاب الشورى، وصاحب القصة. ولنذكر بعده حديث ابن مسعود لتقدم وفاته على وقعة الخوارج.

الحديث الثاني عن ابن مسعود رضي الله عنه

قال الإمام أحمد [١/٤٠٤]: حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زرّ عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «يخرج قوم في آخر الزمان سفهاء الأحلام، أحداث ـ أو قال: حدثاء ـ الأسنان يقولون من خير قول الناس يقرؤون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، فمن أدركهم فليقتلهم فإن في قتلهم أجراً عظيما عند الله لمن قتلهم».

وقد رواه الترمذي [٢١٨٨] عن أبي كريب وأخرجه ابن ماجه [١٦٨] عن أبي بكر بن أبي شيبة وعبد الله بن عامر بن زرارة ثلاثتهم عن أبي بكر بن عياش به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ابن مسعود مات قبل ظهور الخوارج بنحو من خمس سنين فحديثه في ذلك من أقوى الأسانيد.

الحديث الثالث عن أنس بن مالك

قال الإمام أحمد [٣/١٨٩]: حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان التيمي حدثنا أنس قال: ذكر لي أن نبي الله ﷺ قال ـ ولم أسمعه منه ـ: «إن فيكم قوماً يتعبدون ويدأبون حتى يعجبوا الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»

طريق أخرى

قال الإمام أحمد [٣/٢٢٤]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي حدثنا قتادة عن أنس بن مالك وأبي سعيد ـ قال أحمد: وقد حدثنا أبو المغيرة فقال: عن أنس عن أبي سعيد، ثم رجع أن النبي ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد السهم على فوقه، هم شر الخلق والخليقة، وطوبى لمن قتلهم أو قتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم»، قالوا: يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: «التحليق».

وقد رواه أبو داود في سننه [٤٧٦٥] عن نصر بن عاصم الأنطاكي عن الوليد بن مسلم ومبشِّر بن إسماعيل الحلبي كلاهما عن الأوزاعي عن قتادة عن سعيد وأنس به.

وأخرجه أبو داود [٤٧٦٦] وابن ماجه [١٧٥] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس وحده.

وقد روى البزار من طريق أبي سفيان وأبو يعلى من طريق يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بن مالك حديثا في الخوارج قريباً من حديث أبي سعيد كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الحديث الرابع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه

قال الإمام أحمد [٣/٣٥٣]: حدثنا حسن بن موسى حدثنا أبو شهاب عن يحيى بن سعيد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ عام الجعرانة وهو يقسم فضة في ثوب بلال للناس فقال رجل: يا رسول الله اعدل، فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟! لقد خبت إن لم أكن أعدل»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أقتل هذا المنافق، فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، أو تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»

وقال أحمد [٣/٣٥٤]: حدثنا علي بن عياش حدثنا إسماعيل بن عياش حدثني يحيى بن سعيد أخبرني أبو الزبير قال: سمعت جابراً يقول: بصر عيني وسمع أذني رسول الله ﷺ بالجعرانة وفي ثوب بلال فضة ورسول

اللّه ﷺ يقبضها للناس يعطيهم، فقال رجل: اعدل فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب: دعني أقتل هذا المنافق الخبيث، فقال رسول اللّه ﷺ: «معاذ اللّه أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إنّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

ثم رواه أحمد [٣٥٤/٣، ٣٥٥] عن أبي المغيرة عن معان بن رفاعة حدثنا أبو الزبير عن جابر بن عبد اللّه قال: لما قسم رسول اللّه ﷺ غنائم هوازن بالجعرانة قام رجل من بني تميم فقال: اعدل يا محمد فقال: «ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل» قال: فقال عمر: يا رسول اللّه ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: «معاذ اللّه أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه»، ثم قال رسول اللّه ﷺ: إن هذا وأصحاباً له يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» قال مُعَانٌ: فقال لي أبو الزبير: فعرضت هذا الحديث على الزهري فما خالفني، إلا أنه قال النَّضِيُّ وقلت القدح قال: ألست رجلا عربيا؟!.

وقد رواه مسلم [١٠٦٣] عن محمد بن رمح عن الليث وعن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب الثقفي.

وأخرجه النسائي [كبرى (٨٠٨٧، ٨٠٨٨)] من حديث الليث ومالك بن أنس كلهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري به بنحوه.

حديث رافع بن عمرو الغفاري سيأتي مع حديث أبي ذر رضي اللّه عنهما.

الحديث الخامس عن سعد بن مالك بن أُهيب الزهري وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان ـ هو ابن عيينة ـ حدثني العلاء بن أبي عياش أنه سمع أبا الطفيل يحدث عن بكر بن قرواش عن سعد بن أبي وقاص قال: ذكر رسول اللّه ﷺ ذا الثدية فقال: «شيطان الردهة كراعي الخيل يحتدره رجل من بجيلة يقال له الأشهب أو ابن الأشهب علامةٌ في قوم ظلمة» قال سفيان: فأخبرني عمار الدُّهني أنه جاء به رجل يقال له: الأشهب أو ابن الأشهب.

وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد [١٧٩/١] عن سفيان بن عيينة به مختصراً ولفظه «شيطان الردهة يحتدره» يعني: رجلاً من بجيلة.

تفرد به أحمد وحكى البخاري [التاريخ الكبير: ٩٤/٢] عن علي بن المديني قال: لم أسمع بذكر بكر بن قرواش إلا في هذا الحديث.

وروى يعقوب بن سفيان عن عبيد اللّه بن معاذ عن أبيه عن شعبة عن أبي إسحاق عن حامد الهمداني قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: «قتل علي شيطان الردهة»

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: يريد واللّه أعلم قتله أصحاب علي بأمره.

وقال الهيثم بن عدي: حدثنا إسرائيل بن يونس عن جده أبي إسحاق السبيعي عن رجل قال: بلغ سعد بن أبي وقاص أن علياً بن أبي طالب قتل الخوارج فقال: قتل علي بن أبي طالب شيطان الردهة.

الحديث السادس عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الأنصاري رضي الله عنه

وله طرق عنه الأولى منها

قال الإمام أحمد [١٥/٣]: حدثنا بكر بن عيسى حدثنا جامع بن مطر الحبطي حدثنا أبو رؤبة شداد بن عمران القيسي عن أبي سعيد الخدري أن أبا بكر جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه إني مررت بوادي كذا وكذا فإذا رجل متخشع حسن الهيئة يصلي، فقال له رسول اللّه ﷺ: «اذهب إليه فاقتله» قال: فذهب إليه أبو بكر فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله. فرجع إلى رسول اللّه ﷺ فقال النبي ﷺ لعمر: «اذهب إليه فاقتله» قال: فذهب عمر فرآه على تلك الحال التي رآه أبو بكر فكره أن يقتله فرجع فقال: يا رسول اللّه إني رأيته متخشعاً فكرهت أن أقتله. قال: «يا علي اذهب فاقتله» فذهب علي فلم يره فرجع، فقال: يا رسول اللّه إني لم اره فقال رسول اللّه ﷺ «هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم في فوقه فاقتلوهم هم شر البرية».

تفرد به أحمد.

وقد روى البزار في مسنده [كشف الأستار (١٨٥١)] من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك. وأبو يعلى [مسنده: (٤١٢٧)] عن أبي خيثمة عن عمر بن يونس عن عكرمة بن عمار عن يزيد الرقاشي عن أنس نحواً من هذه القصة وأطول منها وفيها زيادات أخر.

الطريق الثاني

قال الإمام أحمد [٨٢/٣]: حدثنا أبو أحمد، ثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث ذكره «قوم يخرجون على فرقة من الناس مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق» أخرجاه في الصحيحين كما سيأتي في ترجمة أبي سلمة عن أبي سعيد.

الطريق الثالث

قال الإمام أحمد [٣٣/٣، ٤٨]: حدثنا وكيع حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا عاصم بن شميخ عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا حلف فاجتهد في اليمين قال: «والذي نفس أبي القاسم بيده ليخرجن قوم من أمتي تحقرون أعمالكم عند أعمالهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية». قالوا: فهل من علامة يعرفون بها؟ قال: فيهم رجل ذو يدية أو ثدية محلقي رؤوسهم» قال أبو سعيد: فحدثني عشرون أو بضع وعشرون من أصحاب النبي ﷺ أن علياً ولي قتلهم قال: فرأيت أبا سعيد بعدما كبر ويديه ترتعش ويقول: قتالهم أحل عندي من قتال عدتهم من الترك. وقد رواه أبو داود [٣٢٦٤] عن أحمد بن حنبل به.

الطريق الرابع

قال الإمام أحمد [٦٨/٣، ٧٢، ٧٣]: حدثنا عبد الرزاق أنا سفيان عن أبيه عن ابن أبي نُعم عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي وهو باليمن إلى رسول اللّه ﷺ بذهيبة في تربتها فقسمها رسول اللّه ﷺ بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع، وبين عيينة بن بدر الفزاري وبين علقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، وبين زيد الخير الطائي، ثم

أحد بني نبهان. قال: فغضبت قريش والأنصار قالوا يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا؟ قال: «إنما أتألفهم». قال: فأقبل رجل غائر العينين ناتئ الجبين كث اللحية مشرف الوجنتين محلوق الرأس فقال: يامحمد اتق الله فقال: «من يطيع الله إذا عصيته؟ يأمني على أهل الأرض ولا تأمنوني»، قال: فسأل الرجل من القوم قتله النبيَّ ﷺ - أراه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: «إن من ضئضئ هذا قوم يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

رواه البخاري [٧٤٣٢] من حديث عبد الرزاق به.

ثم رواه أحمد [٤/٣، ٥] عن محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد وفيه الجزم بأن خالداً سأل أن يقتل ذلك الرجل، ولا ينافي سؤال عمر بن الخطاب.

وهو في الصحيحين [خ: (٤٣٥١)، م(١٠٦٤)] من حديث عمارة بن القعقاع بن شُبرمة: وقال فيه «إنه سيخرج من ضئضئ هذا قوم يقرؤون القران لا يجاوز حناجرهم».

وليس المراد به أنه يخرج من صلبه ونسله لأن الخوارج الذين ذكرنا لم يكونوا من سلالة هذا، بل ولا أعلم أحداً منهم من نسله وإنما المراد: «من ضئضئ هذا» أي من شكله وعلى صفته فعلا وقولا فالله أعلم. وهذا الشكل وهذه الصفة كثيرة في الناس جداً في كل زمان وكل مكان في قراء القرآن وغيرهم لمن تأملها، والله أعلم. وهذا الرجل المذكور هو ذو الخويصرة التميمي وسماه بعضهم حرقوصاً فالله أعلم.

الطريق الخامس

قال الإمام أحمد [٦٤/٣]: حدثنا عفان حدثنا مهدي بن ميمون حدثنا محمد بن سيرين عن معبد بن سيرين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يخرج أناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم على فوقه» قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق والتسبيد».

ورواه البخاري [٧٥٦٢] عن أبي النعمان محمد بن الفضل عن مهدي بن ميمون به.

الطريق السادس

قال الإمام أحمد [٥٢/٣]: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سويد بن نجيح عن يزيد الفقير قال: قلت لأبي سعيد: إن منا رجالا هم أقرؤنا للقرآن، وأكثرنا صلاة وأوصلنا للرحم، وأكثرنا صوما، خرجوا علينا بأسيافهم. فقال أبو سعيد: سمعت النبي ﷺ يقول: «يخرج قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

تفرد به أحمد ولم يخرجوه في الكتب الستة ولا واحد منهم، وإسناده لا بأس به رجاله كلهم ثقات وسويد بن نجيح هذا مستور.

الطريق السابع

قال الإمام أحمد [٥٦/٣]: حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتأذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء»، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود في إحدى يديه - أو قال: إحدى ثُدَيَّيْه - مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس، فنزلت فيه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية [التوبة: ٥٨] الآية قال أبو سعيد: فاشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن عليا حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ.

ورواه البخاري [٦٩٣٣] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن هشام بن يوسف عن معمر، به.

ورواه البخاري أيضا [٣٦١٠] من حديث شعبة، ومسلم [١٠٦٤] من حديث يونس بن يزيد عن الزهري به،لكن في رواية مسلم عن حرملة وأحمد بن عبد الرحمن كلاهما عن ابن وهب عن يونس عن الزهري عن أبي سلمة، والضحاك الهمداني عن أبي سعيد به.

ثم رواه أحمد [٦٥/٣] عن محمد بن مصعب عن الأوزاعي عن الزهري عن أبي سلمة والضحاك المشرقي عن أبي سعيد فذكر نحو ما تقدم من هذا السياق، وفيه أن عمر هو الذي استأذن رسول الله ﷺ في قتله، وفيه «يخرجون على فرقتين من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله» قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأني شهدت عليا حين قتلهم، فالتمس في القتلى فوجد على النعت الذي نعته رسول الله ﷺ.

ورواه البخاري [٦١٦٣] عن دحيم عن الوليد عن الأوزاعي كذلك.

وقال أحمد [٦٠/٣]: قرأت على عبد الرحمن عن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئاً، ثم ينظر في القدح فلا يرى شيئاً، ثم ينظر في الريش فلا يرى شيئاً ويتمارى في الفوق» قال عبد الرحمن: حدثنا به مالك - يعني هذا الحديث -.

ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف عن مالك به [٥٠٥٨].

ورواه البخاري [٦٩٣١] ومسلم [١٠٦٤] عن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة وعطاء بن يسار عن أبي سعيد به

وقال الإمام أحمد [٣٣/٣، ٣٤]: حدثنا يزيد أنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى أبي سعيد فقال: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر في الحرورية شيئاً؟ فقال: سمعته يذكر قوماً يتعمقون في الدين يحقر أحدكم صلاته عند صلاتهم، وصومه عند صومهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أخذ سهمه فنظر في نصله فلم ير شيئاً ثم نظر في رصافه فلم ير شيئاً، ثم نظر في القذذ فتمارى هل يرى شيئاً أم لا».

ورواه ابن ماجه [١٦٩] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون به

الطريق الثامن

قال الإمام أحمد [٥/٣]: حدثنا ابن أبي عدي عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق، هم شر الخلق، أو من شر الخلق،

تقتلهم أدنى الطائفتين بالحق، قال: فضرب النبي ﷺ لهم مثلا - أو قال قولا - الرجل يرمي الرمية - أو قال الغرض - فينظر في النصل فلا يرى بصيرة، وينظر في النضيِّ فلا يرى بصيرة، وينظر في الفُوق فلا يرى بصيرة» فقال أبو سعيد: وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

وقد رواه مسلم[١٠٦٥] عن محمد بن المثنى عن محمد بن أبي عدي عن سليمان - وهو ابن طرخان التيمي - عن أبي نضرة واسمه المنذر بن مالك بن قُطَعة عن أبي سعيد الخدري بنحوه.

الحديث الثامن عن سلمان الفارسي

قال الهيثم بن عدي حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: جاء رجل إلى قوم فقال: لمن هذه الخباء؟ قالوا: لسلمان الفارسي، قال: أفلا تنطلقون معي فيحدثنا ونسمع منه؟ فانطلق معه بعض القوم فقال: يا أبا عبد الله لو أدنيت خباءك إلينا وكنت منا قريباً فحدثتنا وسمعنا منك؟ فقال: ومن أنت؟ قال: فلان بن فلان. قال سلمان: قد بلغني عنك معروف. بلغني أنك تَخِفُّ في سبيل الله، وتقاتل العدو، وتخدم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن أخطأتك واحدة أن تكون من هؤلاء القوم الذين ذكرهم لنا رسول الله ﷺ. قالوا: فوجد ذلك الرجل قتيلا في أصحاب النهروان.

الحديث التاسع عن سهل بن حنيف الأنصاري

قال الإمام أحمد [٤٨٦/٣]: حدثنا أبو النضر حدثنا حزام بن إسماعيل العامري عن أبي إسحاق الشيباني عن يُسَير بن عمرو قال: دخلت على سهل بن حنيف فقلت: حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ قال في الحرورية، قال: أحدثك ما سمعت من النبي ﷺ لا أزيدك عليه شيئاً، سمعت رسول الله ﷺ يذكر قوما يخرجون من هاهنا - وأشار بيده نحو العراق - يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال: قلت: هل ذكر لهم علامة؟ قال: هذا ما سمعت لا أزيدك عليه.

وقد أخرجاه في الصحيحين [خ: (٦٩٣٤)، م(١٠٦٨)] من حديث عبد الواحد بن زياد ومسلم [(١٠٦٨)(١٥٩، ١٦٠)] من حديث علي بن مسهر والعوام بن حوشب والنسائي [كبرى (٨٠٩٠)] من حديث محمد بن فضيل كلهم عن أبي إسحاق الشيباني به.

وقد رواه مسلم [(١٠٦٨)(١٥٩)] حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا علي بن مسهر عن الشيباني عن يُسَير بن عمرو قال: سألت سهل بن حنيف: سمعتَ رسول الله ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: سمعته - وأشار بيده نحو المشرق - «قوم يقرؤون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». وحدثناه أبو كامل حدثنا عبد الواحد حدثنا سليمان الشيباني بهذا الإسناد [(١٠٦٨) (...)] وقال: «يخرج منه أقوام».

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق جميعاً عن يزيد قال أبو بكر: حدثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن أُسير بن عمرو عن سهل بن حنيف عن النبي ﷺ قال: «يتيه قوم قبل المشرق محلقة رؤوسهم» [(١٠٦٨)(١٦٠)]

الحديث العاشر عن ابن عباس

قال البزار: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يقرأ القرآن أقوام من أمتي يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

ورواه ابن ماجه [١٧١] عن أبي بكر بن أبي شيبة وسويد بن سعيد كلاهما عن أبي الأحوص بإسناده مثله.

الحديث الحادي عشر عن ابن عمر

قال الإمام أحمد [٨٤/٢]: حدثنا يزيد حدثنا أبو جناب يحيى بن أبي حيَّة عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من أمتي قوم يسيئون الأعمال يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم» قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: «يحقر أحدكم عمله مع عملهم يقتلون أهل الإسلام فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، كلما طلع منهم قرن قطعه الله». فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقد ثبت من حديث سالم ونافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وأشار بيده نحو المشرق [خ: (٧٠٩٢، ٧٠٩٣)، م(٢٩٠٥)(٤٥)]

الحديث الثاني عشر عن عبد الله بن عمرو

قال الإمام أحمد [١٩٨/٢، ١٩٩]: حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي، فجئته فجاء رجل فانتبذ عن الناس عليه خميصة فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، تلفظهم أرضهم، تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج ناس من أمتي من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج منهم قوم قُطع - حتى عدها زيادة على عشر مرات - كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم».

وقد روى أبو داود أوله في كتاب الجهاد من سننه [٢٤٨٢] عن القواريري عن معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة، به. وقد تقدم حديث عبد الله بن مسعود وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

الحديث الثالث عشر عن أبي ذر

قال مسلم بن الحجاج [(١٠٦٧)(١٥٨)]: حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا سليمان بن المغيرة ثنا حميد بن هلال عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر.

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بعدي من أمتي - أو سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة» قال ابن الصامت: فلقيت رافع بن عمرو الغفاري أخا الحكم الغفاري ما حديث سمعته من أبي ذر كذا كذا؟ فقال: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ.

لم يروه البخاري.

الحديث الرابع عشر عن أم المؤمنين عائشة

قال الحافظ البيهقي [دلائل: ٦/ ٤٣٤]: أنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا السري بن يحيى حدثنا أحمد بن يونس حدثنا علي بن عياش عن حبيب عن سلمة. قال: قال لي علي: لقد علمت عائشة أن جيش المروة وأهل النهروان ملعونون على لسان محمد ﷺ قال ابن عياش: جيش المروة قتلة عثمان رضي الله عنه.

وقال الهيثم بن عدي: حدثني إسرائيل بن يونس عن جده أبي إسحاق السبيعي عن رجل عن عائشة قال: بلغنا قَتْل عليّ الخوارج فقالت: قتل علي بن أبي طالب شيطان الردهة - تعني المخدج.

وقال البزار: حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح حدثنا سهل بن عامر البجلي حدثنا أبو خالد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ الخوارج فقال: «شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي».

قال: وحدثناه إبراهيم بن سعيد حدثنا حسين بن محمد حدثنا سليمان بن قرم حدثنا عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة عن النبي ﷺ فذكر نحوه قال: فرأيت علياً قتلهم وهم أصحاب النهروان. ثم قال البزار: لا نعلم روى عطاء عن أبي الضحى عن مسروق إلا هذا الحديث، ولا نعلم رواه عن عطاء إلا سليمان بن قرم.

قلت: وسليمان بن قرم قد تكلموا فيه لكن الإسناد الأول يشهد له كما أن هذا يشهد لذاك فهما متعاضدان، وهو غريب من حديث عائشة، وقد تقدم في حديث عبد الله بن شداد عن علي ما يدل على أن عائشة استغربت حديث الخوارج ولا سيما خبر ذي الثدية كما تقدم، وإنما أوردنا هذه الطرق كلها ليعلم الواقف عليها أن ذلك حق وصدق وهو من أكبر دلالات النبوة، كما ذكره غير واحد من الأئمة في دلائل النبوة والله تعالى أعلم.

وقد سئلت: سألت عائشة رضي الله عنها بعد ذلك عن خبر ذي الثدية فتيقنته من طرق متعددة.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل [٤٣٤/٦، ٤٣٥]: أنا أبو عبد الله الحافظ أنا الحسين بن الحسن بن عامر الكندي بالكوفة من أصل سماعه حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة الكاتب حدثني عمر بن عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان بن صالح، قال: هذا كتاب جدّي محمد بن أبان فقرأت فيه: حدثني الحسن بن الحر، حدثني الحكم بن عتيبة وعبد الله بن أبي السفر عن عامر الشعبي عن مسروق قال: قالت عائشة: عندك علم من ذي الثدية الذي أصابه علي في الحرورية قال: قلت: لا قالت: فاكتب لي بشهادة من شهدهم، فرجعت إلى الكوفة وبها يومئذ أسباع فكتبت شهادة عشرة من كل سُبع ثم أتيتها بشهادتهم فقرأتها عليها، قالت: أكل هؤلاء عاينوه؟ قلت: لقد سألتهم فأخبروني بأن كلهم قد عاينه، فقالت: لعن الله فلانا فإنه كتب إلي أنه أصابهم بنيل مصر. ثم أرخت عينيها فبكت فلما سكنت عبرتها قالت: رحم الله عليا لقد كان على الحق، وما كان بيني وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمائها.

حديث آخر عن رجلين مُبهمَيْن من الصحابة

قال الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج: حدثني سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: أقبل رجلان من أهل الحجاز حتى قدما العراق فقيل لهما: ما أقدمكما العراق؟ قالا: رجونا أن ندرك هؤلاء القوم الذين ذكرهم لنا رسول الله ﷺ، فوجدنا علي بن أبي طالب قد سبقنا إليهم - يعنيان أهل النهروان -.

حديث آخر في مدح علي رضي الله عنه على قتال الخوارج

قال الإمام أحمد [٨٢/٣]: حدثنا حسين بن محمد حدثنا فطر عن إسماعيل بن رجاء بن ربيعة الزبيدي عن أبيه قال: سمعت أبا سعيد يقول: كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ فخرج علينا من بيوت بعض نسائه قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله فتخلف عليها علي يخصفها فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرفنا لها وفينا أبو بكر، وعمر فقال: «لا ولكنه خاصف النعل»، قال: فجئنا نبشره قال: فكأنه قد سمعه.

ورواه أحمد [٣٣/٣ و٢٤٤/٦] عن وكيع وأبي أسامة عن فطر بن خليفة.

فأما الحديث الذي قال الحافظ أبو يعلى [مسنده (٥١٩)]: حدثنا إسماعيل بن موسى حدثنا الربيع بن سهل عن سعيد بن عبيد عن علي بن ربيعة قال: سمعت عليا على منبركم هذا يقول: عهد إلي النبي ﷺ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

وقد رواه أبو بكر بن المقرئ عن إسماعيل بن عبّاد البصري نا عباد بن يعقوب عن الربيع بن سهل الفزاري به، فإنه حديث غريب ومنكر، على أنه قد روي من طرق عن علي وعن غيره ولا تخلو واحدة منها عن ضعف والمراد بالناكثين يعني أهل الجمل وبالقاسطين أهل الشام والقاسط هو الجائر الظالم، وبالمارقين الخوارج، لأنهم مرقوا من الدين وأما الناكثون فهم أصحاب الجمل الذين عقدوا البيعة له ثم نكثوا، والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو أحمد بن عدي في كامله عن أحمد بن جعفر البغدادي عن سليمان بن سيف عن عبيد الله بن موسى عن فطر عن حكيم بن جبير عن إبراهيم عن علقمة عن علي قال: أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٣٤٠/٨، ٣٤١]: أخبرني الأزهري حدثنا محمد بن المظفر حدثنا محمد بن أحمد بن ثابت قال: وجدت في كتاب جدي محمد بن ثابت حدثنا أشعث بن الحسن السلمي عن جعفر الأحمر عن يونس بن الأرقم عن أبان عن خليد العصري قال: سمعت عليا أمير المؤمنين يقول يوم النهروان: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين.

وقد رواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر من حديث محمد بن فرج الجنديسابوري أنا هارون بن إسحاق حدثنا أبو غسان عن جعفر - أحسبه

الأحمر - عن عبد الجبار الهمداني عن أنس بن عمرو عن أبيه عن علي. قال: أمرت بقتال ثلاثة المارقين والقاسطين والناكثين».

وقال الحاكم أبو عبد الله: أنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن تميم الحنظلي بقنطرة بردان حدثنا محمد بن الحسن بن عطية بن سعد العوفي حدثني أبي حدثني عمي عمرو بن عطية بن سعد عن أخيه الحسن بن عطية حدثني جدي سعد بن جنادة عن علي رضي الله عنه قال: أمرت بقتال ثلاثة، القاسطين، والناكثين، والمارقين. فأما القاسطون فأهل الشام، وأما الناكثون فذكرهم، وأما المارقون فأهل النهروان - يعني الحرورية -.

وقال الحافظ ابن عساكر: أنا أبو القسم زاهر بن طاهر أنا أبو سعد الأديب أنا السيد أبو الحسن محمد بن علي بن الحسين حدثنا محمد بن أحمد الصوفي حدثنا محمد بن عمرو الباهلي حدثنا كثير بن يحيى حدثنا أبو عوانة عن أبي الجارود عن زيد بن علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جده عن علي قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين.

حديث ابن مسعود في ذلك

قال الحاكم: حدثنا الإمام أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه أنا الحسن بن علي حدثنا زكريا بن يحيى الخزار المقرئ حدثنا إسماعيل بن عباد المقرئ حدثنا شريك عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ فأتى منزل أم سلمة فجاء علي فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سلمة هذا والله قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين من بعدي»

حديث أبي سعيد في ذلك

قال الحاكم: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني حدثنا الحسين بن الحكم الحبري حدثنا إسماعيل بن أبان حدثنا إسحاق بن إبراهيم الأزدي عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فقلت: يا رسول الله! أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟ فقال: «مع علي بن أبي طالب معه يقتل عمار بن ياسر»

حديث أبي أيوب في ذلك

قال الحاكم: أنا أبو الحسن علي بن حمشاذ العدل حدثنا إبراهيم بن الحسين بن ديزيل حدثنا عبد العزيز بن الخطاب حدثنا محمد بن كثير عن الحارث بن حصيرة عن أبي صادق عن مخنف بن سُليم. قال: أتينا أبا أيوب فقلنا: قاتلت بسيفك المشركين مع رسول الله ﷺ ثم جئت تقاتل المسلمين؟ فقال: «أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين.

وقال الحاكم: وحدثنا أبوبكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا الحسن بن علي بن شبيب المعمري حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل حدثني أبو زيد الأحول عن عتاب بن ثعلبة حدثني أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطاب قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين مع علي بن أبي طالب».

وقال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٣/١٨٦، ١٨٧]: حدثنا الحسن بن علي بن عبد الله المقرئ حدثنا أحمد بن محمد بن يوسف حدثنا محمد بن جعفر المطيري حدثنا أحمد بن عبد الله المؤدب بسر من رأى حدثنا المعلى بن عبد الرحمن ببغداد حدثنا شريك عن سليمان بن مهران الأعمش قال: حدثنا إبراهيم عن علقمة والأسود قالا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين فقلنا له: يا أبا أيوب! إن الله أكرمك بنزول محمد ﷺ وبمجيء ناقته تفضلا من الله وإكراماً لك حين أناخت ببابك دون الناس ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله؟ فقال: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله، وإن رسول الله ﷺ أمرنا بقتال ثلاثة مع علي، بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. فأما الناكثون فقد قاتلناهم وهم أهل الجمل، طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم - يعني معاوية وعمراً - وأما المارقون فهم أهل الطرفاوات وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهرونات، والله ما أدري أين هم ولكن لابد من قتالهم إن شاء الله قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية وأنت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي فإنه لن يدليك في ردي ولن يخرجك من هدى، يا عمار من تقلد سيفاً أعان به عليا على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من در، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي عليه قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار» فقلنا: يا هذا! حسبك رحمك الله! حسبك رحمك الله».

هذا السياق الظاهر أنه موضوع وآفته من جهة المعلى بن عبد الرحمن فإنه متروك الحديث، والله أعلم.

قلت: هذا الحديث إن صح بعضه ففي بعضه زيادات موضوعة من وضع الرافضة، والمعلى بن عبد الرحمن لا يلتفت إليه.

خطبةُ علي بعد النهروان

قال الهيثم بن عدي في كتابه الذي جمعه في الخوارج وهو من أحسن ما صنف في ذلك قال: وذكر عيسى بن داب قال: لما انصرف علي رضي الله عنه من النهروان قام في الناس خطيباً فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ.

أما بعد: فإن الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام فقاموا إليه فقالوا: ياأمير المؤمنين نفد نَبْلُنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من فارقنا وهلك منا فإنه أقوى لنا على عدونا - وكان الذي تكلم بهذا الأشعث بن قيس الكندي فبايعهم وأقبل بالناس حتى نزل بالنخيلة وأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا أنفسهم على جهاد عدوهم ويقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم، فأقاموا معه أياماً مستمسكين برأيه وقوله، ثم تسللوا حتى لم يبق معه منهم أحد إلا رؤوس أصحابه، فقام علي فيهم خطيباً فقال: الحمد لله فاطر الخلق وفالق الإصباح وناشر الموتى وباعث من في القبور، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم بتقوى الله فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان والجهاد في سبيله وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها من فرائضه، وصوم شهر رمضان فإنه جنة من عذابه، وحج البيت فإنه منفاة للفقر مدحضة للذنب، وصلة الرحم فإنها مثراة في المال، منسأة في الأجل، محبة في الأهل، وصدقة السر فإنها تكفير

للخطيئة وتطفئ غضب الرب وصنع المعروف فإنه يدفع ميتة السوء ويقي مصارع الهول، أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد الله المتقين فإن وعد الله أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكم ﷺ فإنه أفضل الهدي، واستنُّوا بسنته فإنها أفضل السنن، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث، وتفقهوا في الدين فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، وإذا قرئ عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون، فإن العالم العامل بغير علم كالجاهل الحائر الذي لا يستقيم من جهله، بل قد رأيت أن الحجة أعظم، والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه وضرره على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما حائر مضلل مثبور، لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهلوا، ولا تذهلوا في الحق فتخسروا، الا وإن من الحزم أن تثقوا، ومن الثقة أن لا تغتروا، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه وإن أغشكم لنفسه أعصاكم لربه، من يطع الله يأمن ويستبشر، ومن يعص الله يخف ويندم، سلوا الله اليقين وارغبوا إليه في العافية، وخير ما دام في القلب اليقين، إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرُّها وكل محدثة بدعة وكل محدث مبتدع، ومن ابتدع فقد ضيع، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة، المغبون من غبن دينه، والمفتون من خسر نفسه، وإن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص من العلم والإيمان، ومجالس اللهو تنسي القرآن، ويحضرها الشيطان، وتدعو إلى كل غي، ومحادثة النساء تزيغ القلوب وتطمح إليهن الأبصار، وهي مصائد الشيطان، فاصدقوا الله فإن الله مع من صدق وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان الا إن الصادق على شرف منجاة وكرامة، وإن الكاذب على شرف ردىً وهلكة، الا وقولوا الحق تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم، وصلوا أرحام من قطعكم وعودوا بالفضل على من حرمكم، وإذا عاهدتم فأوفوا، وإذا حكمتم فاعدلوا، ولا تفاخروا بالآباء، ولا تنابزوا بالألقاب، ولا تمازحوا، ولا يغضب بعضكم بعضاً، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وارحموا الأرملة واليتيم، وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها ﴿وتَعَاوَنُوا عَلَى البر والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] وأكرموا الضيف، وأحسنوا إلى الجار، وعودوا المرضى، وشيعوا الجنائز، وكونوا عباد الله إخوانا.

أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد اظلت وأشرفت باطلاع، وإن المضمار اليوم وغدا السباق وإن السبقة والغاية الجنة أو النار، الا وإنكم في أيام مهل من ورائها أجل حثيث عجل، فمن اخلص لله عمله في أيام مهله قبل حضور اجله فقد أحسن عمله ونال أمله، ومن قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمله، وضره أمله، الا فاعملوا في الرغبة والرهبة فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة، فإن الله قد تأذن المسلمين بالحسنى، ولمن شكر بالزيادة، وإني لم أر مثل الجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ولا أكيسَ من مكتسب يكتسب شيئاً اليوم يدخره ليوم تنفع فيه الدخائر، وتبلى فيه السرائر، يُجمع فيه المؤمن والكافر الا، وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك، ومن لا ينفعه حاضره فغاربه عنه أعوز، وغائبه عنه أعجز: الا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد فاعملوا على المراد، الا وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان طول الأمل واتباع الهوى، فطول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق، الا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة إن استطعتم، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

وهذه خطبة بليغة نافعة جامعة للخير ناهية عن الشر. وقد روي لها شواهد من وجوه أخر متصلة ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٩٠/٥، ٩١]: أن عليا رضي الله عنه لما نكل أهل العراق عن الذهاب معه إلى الشام خطبهم فوبخهم وأنبهم وتوعدهم وتهددهم وتلا عليهم في الجهاد آيات من من القرآن من سور متفرقة، وحثهم على المسير إلى عدوهم وتأبوا على ذلك وخالفوه ولم يوافقوه، واستمروا في بلادهم، وانصرفوا عنه ها هنا وها هنا، قيل: إن ذلك بسبب قتله الخوارج لأنهم كانوا قراباتهم وإخوانهم، ويرونهم أفضلهم وأخيرهم لعبادتهم وقراءتهم فتثاقلوا عنه وهجروه فدخل عليّ الكوفة في حالة الله بها أعلم.

فصل

وقد ذكر الهيثم بن عدي أنه خرج على علي رضي الله عنه بعد قتله أهل النهروان رجل يقال له: الحارث بن راشد الناجي، قدم مع أهل البصرة، فقال لعلي: إنك قد قاتلت أهل النهروان في كونهم أنكروا عليك قصة قضية التحكيم وتزعم أنك قد أعطيت أهل الشام عهودك ومواثيقك، وانك لست بناقضها، وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعك ثم اختلفا في ولاية معاوية فولاه عمرو وامتنع أبو موسى من ولايته، فأنت مخلوع باتفاقهما، وأنا قد خلعتك وخلعت معاوية معك، واتبع الحارث على مقالته هذه بشر كثير من قومه - بني ناجية وغيرهم وتحيزوا ناحية، فبعث إليهم علي معقل بن قيس الرياحي في جيش كثيف فقتلهم معقل قتلا ذريعاً وسبى من بني ناجية خمسمائة أهل بيت فقدم بهم على علي فتلقاه رجل يقال له: مصقلة بن هبيرة أبو المغلس - وكان عاملاً لعلي على بعض الأقاليم - فتضرّع السبي إليه وشكوا ما هم فيه، فاشتراهم مصقلة من معقل بخمسمائة ألف وأعتقهم، فطالبه بالثمن فهرب منه إلى ابن عباس بالبصرة، فكتب معقل إلى ابن عباس في ذلك فقال له مصقلة: إني إنما جئت لأدفع ثمنهم إليك ثم هرب من ابن عباس إلى علي فطالبه علي بالثمن فدفع إليه من الثمن مائتي ألف ثم هرب فلحق بمعاوية بن أبي سفيان بالشام، فأمضى عليّ عتقهم وقال: ما بقي من المال في ذمة مصقلة؟ وأمر بداره في الكوفة فهدمت.

وقد روى الهيثم عن سفيان الثوري وإسرائيل عن عمار الدُّهني عن أبي الطفيل أن بني ناجية ارتدوا فبعث إليهم معقل بن قيس فسباهم فاشتراهم مصقلة من علي بثلاثمائة ألف فأعتقهم ثم هرب إلى معاوية. قال الهيثم وهذا قول الشيعة ولم يسمع بمجيٍ من العرب ارتدوا عن الإسلام بعد الردة التي كانت في أيام الصديق.

وقال الهيثم: حدثني عبيد الله بن تميم بن طرفة الطائي حدثني أبي أن عدي بن حاتم قال مرة لعلي بن أبي طالب وهو يخطب: قتلت أهل النهروان على إنكار الحكومة، وقتلت الخرِّيت بن راشد على مسألته إياك الحكومة، والله ما بينهما موضع قدم. فقال له علي: أسكت إنما كنت أعرابياً تأكل الضبع بجبلي طيئ بالأمس. فقال له عدي: وأنت والله قد رأيناك بالأمس تأكل البلح بالمدينة. قال الهيثم: ثم خرج رجل على عليٍّ من أهل البصرة فقتل فأمر أصحابه عليهم الأشرس بن عوف الشيباني، فقتل هو وأصحابه، قال: ثم خرج عليه الأشهب بن بشر البجلي ثم أخذ عرينة من أهل الكوفة فقتل هو وأصحابه. قال: ثم خرج على علي سعيد بن بن قُفْل التيمي، تيم ثعلبة من أهل الكوفة فقتل بقنطرة درزيجان فوق المدائن. قال الهيثم: أخبرني بذلك عبد الله بن عياش عن مشيخته.

فصل

ذكر ابن جرير [تاريخه: ٩١/٥] عن أبي مخنف لوط بن يحيى ـ وهو أحد أئمة هذا الشأن ـ أن قتال علي للخوارج يوم النهروان، كان في هذه السنة ـ أعني سنة سبع وثلاثين ـ قال ابن جرير: وأكثر أهل السير على أن ذلك كان في سنة ثمان وثلاثين. وصححه ابن جرير.

قلت: وهو الأشبه كما سننبه عليه في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

قال ابن جرير [تاريخه: ٩٢/٥، ٩٣]: وحج بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة سبع وثلاثين ـ عبيد الله بن عباس نائب علي على اليمن ومخاليفها. وكان نائب مكة قثم بن العباس، وعلى المدينة تمام بن عباس، وقيل: سهل بن حنيف، وعلى البصرة عبد الله بن عباس، وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي، وعلى مصر محمد بن أبي بكر الصديق، وأمير المؤمنين علي مقيم بالكوفة، ومعاوية بن أبي سفيان مستحوذ على الشام. قلت: ومن نيته أن يأخذ بلاد مصر من محمد بن أبي بكر الصديق.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة: كان قد أصابه سباء في الجاهلية فاشترته أم أنمار الخزاعية التي كانت تختن النساء، وهي أم سباع بن عبد العزى الذي قتله حمزة يوم أحد حالف خبّاب بني زهرة.

أسلم خباب قديماً قبل دار الأرقم، وكان ممن يوذى في الله فيصبر ويحتسب، وهاجر وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد.

قال الشعبي: دخل خبّاب يوماً على عمر فأكرم مجلسه وقال: ما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا بلال. فقال: يا أمير المؤمنين إن بلالا كان يؤذى وكان له من يمنعه، وإني كنت لا ناصر لي والله لقد سلقوني يوماً في نار أججوها ووضع رجل منهم رجله على صدري فما اتقيت الأرض إلا بظهري، ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص رضي الله عنه.

ولما مرض دخل عليه ناس من الصحابة يعودونه فقالوا: أبشر غداً تلقى الأحبة محمداً وحزبه فقال: والله إخواني مضوا ولم يأكلوا من أجرهم شيئاً، وإنا قد أينعت لنا ثمرتها فنحن نهدبها، فهذا الذي يهمني.

قالوا: وتوفي بالكوفة في هذه السنة عن ثلاث وستين سنة وهو أول من دفن بظاهر الكوفة.

■ خزيمة بن ثابت ابن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الأنصاري ذو الشهادتين وكانت راية بني خطمة معه يوم الفتح، وشهد صفين مع علي، وقتل يومئذ رضي الله عنه.

■ سفينة مولى رسول الله ﷺ قد قدمنا ترجمته في الموالي المنسوبين إليه صلوات الله وسلامه عليه.

■ عبد الله بن الأرقم بن أبي الأرقم أسلم عام الفتح وكتب بين يدي رسول الله ﷺ. وقد تقدم مع كتّاب الوحي.

■ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، قتل يوم صفين وكان أمير الميمنة لعلي فأخذها بعده الأشتر.

■ عبد الله بن خباب بن الأرت. ولد في زمن النبي ﷺ وكان موصوفاً بالخير، قتله الخوارج كما قدمنا بالنهروان في هذه السنة، فلما جاء علي قال لهم: أعطونا قتلته ثم أنتم آمنون فقالوا: كلنا قتله فقتلهم.

■ عبد الله بن سعد بن أبي سرح: أحد كتاب الوحي أيضاً، أسلم قديماً وكتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام ثم عاد إلى الاسلام عام الفتح واستأمن له عثمان ـ وكان أخاه لأمه ـ وحسن إسلامه وقد ولاه عثمان نيابة مصر بعد عمرو بن العاص، فغزا إفريقية وبلاد النوبة، وفتح الأندلس وغزا ذات الصواري مع الروم في البحر فقتل منهم ما صبغ وجه الماء من الدماء، ثم لما حصر عثمان تغلب عليه محمد بن أبي حذيفة وأخرجه من مصر فمات في هذه السنة وهو معتزل عليا ومعاوية، في صلاة الفجر بين التسليمتين رضي الله عنه.

■ عمار بن ياسر ابو اليقظان العبسي من عبس اليمن، وهو حليف بني مخزوم، أسلم قديماً وكان ممن يعذب في الله هو وأبوه وأمه سمية، ويقال: إنه أول من اتخذ مسجداً في بيته يتعبد فيه، وقد شهد بدراً وما بعدها وقد قدمنا كيفية مقتله يوم صفين وكان مع علي، وأخبر رسول الله ﷺ أنه تقتله الفئة الباغية».

وروى الترمذي [٣٧٩٧] من حديث الحسن عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة، علي وعمار وسلمان»

وروى الثوري عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ عن علي أن عماراً استاذن على رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بالطيب المطيب».

وقال إبراهيم بن الحسين: حدثنا يحيى حدثني نصر حدثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي عمار عن عمرو بن شرحبيل عن رجل من أصحاب رسول الله أن رسول الله ﷺ قال: «لقد ملئ عمار إيماناً من قدمه إلى مشاشه».

وحدثنا يحيى بن معلى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلا عمار بن ياسر فإنه حشي ما بين أخمص قدميه إلى شحمة اذنه إيماناً».

وحدثنا يحيى حدثنا عمرو بن عون أنا هشيم عن العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة قال: أتيت أهل الشام فلقيت خالد بن الوليد فحدثني قال: كان بيني وبين عمار بن ياسر كلام في شيء فشكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «ياخالد! لا تؤذ عماراً فإنه من يبغض عماراً يبغضه الله، ومن يعاد عماراً يعاده الله» قال: فعرضت له بعد ذلك فسللت ما في نفسه.

وله أحاديث كثيرة في فضائله رضي الله عنه.

قتل بصفين عن إحدى وقيل ثلاث وقيل أربع وتسعين سنة طعنه أبو الغادية فسقط ثم أكب عليه رجل فاحتز رأسه، ثم اختصما إلى معاوية

أيهما قتله فقال لهما عمرو بن العاص: اتّئدا، فواللّـه إنكما لتختصمان في النار. فسمعها منه معاوية فلامه على تسميعه إياهما ذلك، فقال لـه عمرو: والله إنك لتعلم ذلك، ولوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

قال الواقدي: حدثني الحسن بن الحسين بن عمارة عن أبي إسحاق عن عاصم أن علياً صلى عليه ولم يغسله وصلى معه على هاشم بن عتبة، فكان عمار مما يلي عليا، وهاشم إلى نحو القبلة. قالوا: وقبر هنالك، وكان آدم اللون، طويلا بعيداً ما بين المنكبين: أشهل العينين، رجلا لا يغير شيبه رضي الله عنه.

■ **الربيع بن معوِّذ بن عفراء:** أسلمت قديماً وكانت تخرج مع رسول الله ﷺ إلى الغزوات فتداوي الجرحى، وتسقي الماء للكلمى وغيرهم، وروت أحاديث كثيرة.

وقد قتل في هذه السنة في أيام صفين خلق كثير وجم غفير.

فقيل: قتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً وقيل: قُتل من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً. وقيل قتل من أهل العراق أربعون ألفاً - من مائة وعشرين ألفاً - وقتل من أهل الشام عشرون ألفاً من ستين ألفا. وبالجملة فقد كان في قتلى الفريقين أعيان ومشاهير يطول استقصاؤهم وفيما ذكرنا كفاية والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها بعث معاوية عمرو بن العاص إلى ديار مصر فأخذها من محمد بن أبي بكر واستناب معاوية عمراً عليها، وذلك كما سنبينه، وقد كان علي رضي الله عنه استناب عليها قيس بن سعد بن عبادة وانتزعها من يد محمد بن أبي حذيفة وقد كان بن أبي سرح نائب عثمان عليها، وكان عثمان قد عزل عنها عمرو بن العاص وكان عمرو هو الذي افتتحها، كما تقدم ذلك. ثم إن عليا عزل قيس بن سعد وولى عليها محمد بن أبي بكر وكان قيس كفؤاً لمعاوية وعمرو، فلما ولي محمد بن أبي بكر لم يكن فيه قوة تعادل معاوية وعمراً، وحين عزل قيس بن سعد عنها رجع إلى المدينة ثم سار إلى علي بالعراق فكان معه، وكان معاوية يقول: والله لقيس بن سعد عند علي أبغض إلي من مائة ألف مقاتل تكون معه بدله.

فلما فرغ علي من صفين وبلغه أن أهل مصر قد استخفوا بمحمد بن أبي بكر لكونه شاباً ابن ست وعشرين سنة أو نحو ذلك عزم علي على رد مصر إلى قيس بن سعد إليها، وكان عليٌّ قد جعله على شرطته وقيل: إنه استمر بقيس عنده، وولّى الأشتر النخعي مصر، وقد كان نائبه على الموصل ونصيبين، فكتب إليه فاستقدمه عليه وولاه مصر.

فلما بلغ معاوية تولية علي للأشتر النخعي مصر بدل محمد بن أبي بكر، وعلم أن الأشتر سيمنعها منه لجرأته وشجاعته، سار الأشتر إليها فلما بلغ القلزم استقبله الجايسار وهو مقدم عليٌّ على الخراج فقدم إليه طعاماً وسقاه شراباً من عسل فمات منه، فلما بلغ ذلك معاوية وعمراً وأهل الشام قالوا: إن لله جنوداً من عسل.

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه [٩٥/٥] أن معاوية كان قد تقدم إلى هذا الرجل في أن يحتال على الأشتر فيقتله ووعده على ذلك بأمور ففعل ذلك.

وفي هذا نظر، وبتقدير صحته فإن معاوية يستجيز قتل الأشتر لأنه من قتلة عثمان رضي الله عنه.

والمقصود أن معاوية وأهل الشام فرحوا فرحاً شديداً بموت الأشتر النخعي.

ولما بلغ ذلك علياً تأسف على شجاعته وغنائه، وكتب إلى محمد بن أبي بكر باستقراره واستمراره بديار مصر، ولكنه ضعف جأشه مع ما كان فيه من الخلاف عليه من العثمانية الذين ببلد خربتا وقد كانوا استفحل أمرهم حين انصرف علي من صفين، وحين كان من أمر التحكيم ما كان، وحين نكل أهل العراق عن قتال أهل الشام معه. وقد كان أهل الشام حين انقضت الحكومة بدومة الجندل سلموا على معاوية بالخلافة وقوي أمرهم جداً، فعند ذلك جمع معاوية أمراءه عمرو بن العاص وشرحبيل بن السمط وحبيب بن مسلمة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والضحاك بن قيس، وبشر بن أبي أرطاة، وأبا الأعور السلمي، وحمزة بن سنان الهمداني وغيرهم، فاستشارهم في المسير إلى ديار مصر فاستجابوا له وقالوا: سر حيث شئت فنحن معك. وعين معاوية نيابتها لعمرو بن العاص إذا فتحها ففرح بذلك عمرو، ثم قال لمعاوية: أرى أن تبعث إليهم رجلاً معه جندٌ مأمون عارف بالحرب، فإن بها جماعة ممن يوالي عثمان فيساعدونه على حرب من خالفهم، فقال معاوية: لكن أرى أن أبعث إلى شيعتنا ممن هنالك كتابا نعلمهم بقدومنا عليهم، ونبعث إلى مخالفينا كتابا ندعوهم فيه إلى الصلح. وقال معاوية لعمر بن العاص: إنك ياعمرو رجل بورك لك في العجلة وإني امرؤ بورك لي في التؤدة، فقال عمرو: افعل ما أراك اللّه، وما أرى أمرك وأمرهم إلا سيصير إلى الحرب العوان.

فكتب عند ذلك معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وإلى معاوية بن حديج السكوني - وهما رئيسا العثمانية ببلاد مصر وكانا ممن لم يبايع عليا ولم يأتمر بأمر نوابه بمصر في نحو من عشرة آلاف - يخبرهم بقدوم الجيش إليهم سريعاً، وبعث به مع مولى له يقال له سبيع. فلما وصل الكتاب إلى مسلمة ومعاوية بن حديج فرحا به وردا جوابه بالاستبشار والمعاونة والمناصرة له ولمن يبعثه من الجيش.

فعند ذلك جهز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف، وخرج معاوية مودعاً وأوصاه بتقوى الله والرفق والمهل والتؤدة، وأن يقتل من قاتل ويعفو عمن ادبر، وأن يدعو الناس إلى الصلح والجماعة، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك.

فسار عمرو بن العاص، فلما دخل مصر، اجتمعت عليه العثمانية فقادهم، وكتب إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد فتنحَّ عَنِّي بدمكَ، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها فإني لك لمن الناصحين والسلام.

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه: أما بعد فإن غب البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم فاعله من النقمة في الدنيا والتبعة الموبقة في الآخرة وإنا لا نعلم أحداً كان أشد خلافاً على عثمان منك حين تطعن بمشاقصك بين حشاشته وأوداجه، ثم أنت تظن أني عنك نائم أو لفعلك ناس ذلك لك، حتى تأتي فتتأمرُ على بلاد أنت بها جارى وجل أهلها أنصارى وقد بعثت إليك بجيوش يتقربون إلى الله بجهادك ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت والسلام.

قال: فطوى محمد بن أبي بكر الكتابين وبعث بهما إلى علي وأعلمه بقدوم عمرو إلى مصر في جيش من قبل معاوية، فإن كانت لك بأرض مصر حاجة فابعث إلي بأموال ورجال والسلام.

فكتب إليه عليٌّ يأمره بالصبر وبمجاهدة العدو، وأنه سيبعث إليه

الرجال والأموال، ويمده بالجيوش.

وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية كتابا في جواب ماقال وفيه غلظة، وكذلك كتب إلى عمرو بن العاص فيه كلام غليظ. وقام محمد بن أبي بكر في الناس فخطبهم وحثهم على الجهاد ومناجزة من قصدهم من أهل الشام.

وتقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيوشه، ومن لحق به من العثمانية، والجميع في قريب من ستة عشر ألفاً، وركب محمد بن أبي بكر في قريب من ألفي فارس وهم الذين انتدبوا معه من أهل مصر وقدم بين يديه جيشه كنانة بن بشر فجعل لا يلقى أحداً من الشاميين إلا قاتلهم حتى يلحقهم مغلوبين إلى عمرو بن العاص، فبعث عمرو بن العاص إليه معاوية بن حديج فجاءه من ورائه وأقبل إليه الشاميون حتى أحاطوا به من كل جانب، فترجل عند ذلك كنانة وهو يتلو ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن اللّه كتابا مؤجلا﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثم قاتل حتى قتل وتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه ورجع يمشي فرأى خربة فأوى إليها ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر وذهب معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر فمر بعلوج في الطريق فقال لهم: هل مر بكم أحد تستنكرونه؟ قالوا: لا! فقال رجل منهم: إني رأيت رجلا جالساً في هذه الخربة، فقال: هو هو ورب الكعبة. فدخلوا عليه فاستخرجوه منها - وقد كاد يموت عطشا - فانطلق أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص - وكان قد قدم معه إلى مصر - فقال: أيقتل أخي صبراً؟.

فبعث عمرو بن العاص إلى معاوية بن حُديج أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر ولا يقتله فقال معاوية: كلا واللّه، أيقتلون كنانة بن بشر وأترك محمد بن أبي بكر، وقد كان في مَن قتل عثمان وقد سألهم عثمان الماء، فلم يسقوه؟ وقد سألهم محمد بن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء فقال معاوية: لاسقاني اللّه إن سقيتك قطرة من الماء أبداً، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فتلقاه اللّه بالرحيق المختوم.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٠٤/٥] أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن حديج هذا وشتمه ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً، فعند ذلك غضب معاوية بن حديج فقدمه فقتله ثم جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار، فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وضمت عياله إليها، وكان فيهم ابنه القاسم وجعلت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص دبر الصلوات.

وذكر الواقدي أن عمرو بن العاص قدم مصر في أربعة آلاف فيهم أبوالأعور السلمي فالتقوا مع المصريين بالمسناة فاقتتلوا قتالا شديداً حتى قتل كنانة بن بشر بن غياث التجيبي، فهرب عند ذلك محمد بن أبي بكر فاختبأ عند رجل يقال له جبلة بن مسروق، فدل عليه فجاء معاوية بن حديج وأصحابه فأحاطوا به فخرج إليهم محمد بن أبي بكر فقاتل حتى قتل.

قال الواقدي: وكان ذلك في صفر من هذه السنة.

قال الواقدي: ولما قتل محمد بن أبي بكر بعث علي الأشتر النخعي إلى مصر فمات في الطريق فاللّه أعلم.

قال: وكانت أذرح في شعبان في هذه السنة أيضاً، فلما قتل محمد بن أبي بكر، وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر وأن اللّه قد فتح عليه بلاد مصر ورجعوا إلى السمع والطاعة.

وقد زعم هشام بن محمد الكلبي أن محمد بن أبي حذيفة بن عتيك، مَسيك في هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر - وكان من جملة المحرضين على قتل عثمان - فبعثه عمرو بن العاص إلى معاوية ولم يبادر إلى قتله لأنه ابن خال معاوية فحبسه معاويه بفلسطين فهرب من السجن - وكان معاوية يحب نجاته فيما يرون - فلحقه رجل من خثعم يقال له عبد اللّه بن عمرو بن ظلام وكان عثمانياً شجاعاً - بأرض البلقاء من بلاد حوران فاختفى محمد بن أبي حذيفة بغار فجاءت حمر وحش لتأوى إلى ذلك الغار لما رأته فيه نفرتها فتعجب من نفرتها جماعة من الحصادين هنالك، فذهبوا إلى الغار محمد بن أبي حذيفة، فخشي عبد اللّه بن ظلام أن يرده إلى معاوية فيعفو عنه، فضرب عنقه هنالك.

هكذا ذكر ذلك ابن الكلبي. وقد ذكر الواقدي وغيره أن محمد بن أبي حذيفة قتل في سنة ست وثلاثين كما قدمنا فاللّه أعلم.

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل في كتابه: حدثنا عبد اللّه بن صالح حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر لأنه استقر عنده أنه كان يظهر الروم على عورات المسلمين - يكتب إليهم بذلك - فاستخرج منه بضعاً وخمسين إردبا دنانير، قال أبوصالح: والإردب ست ويبات والويبة مثل القفيز واعتبرنا الويبة فوجدناها تسعا وثلاثين ألف دينار.

قلت: فعلى هذا يكون مبلغ ما أُخذ منه ثلاثة عشر ألف ألف دينار.

قال أبو مخنف بإسناده: ولما بلغ علي بن أبي طالب مقتل محمد بن أبي بكر وما كان بمصر من الأمر، وتملك عمرو مصر، واجتماع الناس عليه وعلى معاوية قام في الناس خطيباً فحثهم على الجهاد والصبر والمسير إلى أعدائهم من الشاميين والمصريين، وواعدهم الجرعة بين الكوفة والحيرة، فلما كان الغد خرج يمشي إليها حتى نزلها فلم يخرج إليه منهم أحد، فلما كان العشي بعث إلى أشرافهم فدخلوا عليه وهو حزين كئيب فقام فيهم خطيباً فقال: الحمد للّه على ما قضى من أمر وقدر من فعل وابتلاني بكم وبمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغاة فيتبعونه بغير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء؟ وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة والعطاء فتتفرّقون وتنفرون عني وتعصونني وتختلفون علي؟ فقام إليه مالك بن كعب الهمداني ثم الأرحبي فندب الناس إلى امتثال أمر علي والسمع والطاعة له فانتدب ألفان فأمر عليهم مالك بن كعب هذا فسار بهم خمساً، ثم قدم على علي جماعة ممن كان محمد بن أبي بكر بمصر فاخبروه كيف وقع الأمر وكيف قتل محمد بن أبي بكر وكيف استقر أمر عمرو بها، فبعث إلى مالك بن كعب فرده من الطريق - وذلك أنه خشي عليهم من أهل الشام قبل وصولهم إلى مصر.

واستقر أمر العراقيين على مخالفة علي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، والخروج عليه وانتقاد أحكامه وأقواله وحلّ إبرامه؛ لجهلهم وقلة عقلهم وجفائهم وغلظتهم وفجور كثير منهم، ولما جاء علياً الخبر من مصر، وما حلّ بها، وقتل محمد بن أبي بكر حزن على محمد حزناً كثيراً، وترحم ورُئي الحزن والكآبة عليه مع ما اجتمع عليه من مخالفة أهل العراق له، ثم قال للناس: إني واللّه بمواضع الحرب لجدير خبير، وإني لأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب، فأستصرخكم معلناً وأناديكم نداء المستغيث، ولا أرى فيكم مغيثاً، ولا تسمعون لي قولا، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة فأنتم واللّه القوم لا يدرك بكم ثار، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ خمسين كلية فتجرجرتم جرجرة

الحمل الأشدق، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو، ولا اكتساب الأجر. ثم خرج إلي منكم مرايب كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون فأفٍّ لكم.

ثم كتب علي عند ذلك إلى ابن عباس وهو نائبة على البصرة يشكو إليه ما يلقاه من الناس من المخالفة، ويقول:

إني دعوتهم إلى غوث إخوانهم فمنهم من أتى كارهاً، ومنهم المعتذر كاذباً. أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً ومخرجاً، وأن يريحني منهم عاجلاً. ولولا ما أحاول من الشهادة لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً. عزم الله لنا ولكم ذلك على تقواه وهداه إنه على كل شيء قدير والسلام.

فرد عليه ابن عباس يسليه عن الناس، ويعزيه في محمد بن أبي بكر ويحثه على ملاحظة الناس والصبر على مسيئهم فإن ثواب الله خير وأبقى، وقال له: إن الناس ربما تثاقلوا ثم نشطوا، فارفق بهم يا أمير المؤمنين. ثم ركب ابن عباس من البصرة إلى علي وهو بالكوفة واستخلف ابن عباس على البصرة زياداً.

وفي هذا الحين بعث معاوية بن أبي سفيان كتابا مع عبد الله بن عمرو الحضرمي إلى أهل البصرة يدعوهم إلى الإقرار بما حكم له به عمرو بن العاص، فلما قدمها نزل علي بني تميم فأجاروه فنهض إليه زياد وبعث إليه عليٌّ بن أبي طالب أعين بن ضبيعة في جماعة من الناس فثاروا إليهم فاقتتلوا فقتل أعين بن ضبيعة، أمير السرية التي بعثها علي فكتب نائب ابن عباس زياد إلى علي يعلمه بما وقع بالبصرة من المخالفة بعد خروج ابن عباس منها، فبعث عند ذلك علي جارية بن قدامة التميمي في خمسين رجلا إلى قومه بني تميم، وكتب معه كتابا إليهم فرجع أكثرهم عن ابن الحضرمي فقصده جارية فحصره في دار هو وجماعة معه، قيل: كان عددهم أربعين رجلاً، وقيل سبعين، فحرقهم بالنار بعد أن أعذر إليهم وأنذرهم فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما جاؤوا له من جهه معاوية.

قتالُ أهل النهروان، وغير ذلك

وقد صحح ابن جرير [تاريخه: ٩١/٥] أن قتال علي لأهل النهروان كان في هذه السنة، وكذلك خروج الخِرِّيت بن راشد الناجي كان في هذه السنة أيضاً، وكان مع الخِرِّيت ثلاثمائة رجل من قومه بني ناجية - وكان مع علي بالكوفة - فجاء إلى علي فقام بين يديه وقال: والله ياعلي لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك، إني لك غدا لمفارق. فقال له علي: ثكلتك أمك إذاً تعصي ربك وتنقض عهدك ولا تضر إلا نفسك، ولم تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكمت في الكتاب وضعفت عن قيام الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الظالمين، فأنا عليك زار وعليك ناقم، وإنا لكم جميعاً مباينون. ثم رجع إلى أصحابه فسار بهم نحو بلاد البصرة فبعث إليهم عليٌّ معقل بن قيس ثم أردفه بخالد بن معدان الطائي - وكان من أهل الصلاح والدين والبأس والنجدة - وأمره أن يسمع له ويطيع، فلما اجتمعوا صاروا جيشاً واحداً، ثم خرجوا في آثار الخرِّيت وأصحابه فلحقوهم - وقد أخذوا في جبال رامهرمز قال: فصففنا لهم ثم أقبلنا إليهم فجعل معقل على ميمنته يزيد بن معقل، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي، ووقف الخرِّيت فيمن معه من العرب فكانوا ميمنة، وجعل من اتبعه من الأكراد والعلوج ميسرة، قال: وسار فينا معقل بن قيس فقال: عباد الله! لا تبدؤوا القوم وغضوا أبصاركم، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب، وأبشروا في قتالهم بالأجر إنما تقاتلون مارقة مرقت من الدين، وعلوجاً كسروا الخراج، ولصوصاً وأكراداً، فإذا حملت فشدوا شدة رجل واحد. ثم تقدم فحرك دابته تحريكتين ثم حمل عليهم في الثالثة وحملنا معه جميعاً، فوالله ما صبروا لنا ساعة واحدة حتى ولوا منهزمين، وقتلنا من العلوج والأكراد نحواً من ثلاثمائة، وفر الخرِّيت منهزما حتى لحق بأسياف - وبها جماعة من قومه كثيرة - فاتبعوه فقتلوه مع جماعة من أصحابه بسيف البحر، قتله النعمان بن صهبان، وقتل معه في المعركة مائة وسبعون رجلا. ثم ذكر ابن جرير [تاريخه: ١٢٢/٥] وقعات كثيرة كانت فيها بين أصحاب علي والخوارج.

ثم قال: حدثني عمر بن شبّة حدثنا أبو الحسن - يعني المدائني - علي بن محمد عن علي بن مجاهد قال: قال الشعبي: لما قتل علي أهل النهر خالفه قوم كثيرون، وانتقضت أطرافه وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن الحضرمي إلى البصرة، وانتقض أهل الجبال، وطمع أهل الخراج في كسره وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس - وكان عاملا عليها لعليّ - فأشار ابن عباس بزياد بن أبيه أن يوليه إياها فولاه إياها فسار إليها في السنة الآتيه في جمع كثير، فوطئهم حتى أدوا الخراج.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٣٢/٥] وغيره: وحج بالناس في هذه السنة قثم بن العباس، نائب علي على مكة، وكان أخوه عبيد الله بن عباس نائب اليمن، وأخوهما عبد الله بن عباس نائب البصرة، وأخوهم تمام بن عباس نائب المدينة، وعلى خراسان خالد بن قُرّة اليربوعي وقيل: ابن أبزى، وأما مصر فقد استقرت بيد معاوية فاستناب عليها عمرو بن العاص والله أعلم.

ذكْرُ من تُوفي في هذه السَّنةِ مِن الأعيان

■ سهْل بنُ حنيف بن واهب بن العُكيم بنِ ثعلبة الأنصاريُّ الأوْسيُّ، شهد بدراً، وثبت يومَ أُحدٍ، وحضر بقيَّةَ المشاهِدِ، وكان صاحباً لعليِّ بن أبي طالبٍ، وقد شهد معه مشاهدة كلَّها أيضاً غير الجمل، فإنَّه كان قد استخلفه على المدينة. ومات سهلُ بنُ حُنيفٍ في هذه السنة بالكوفة، وصلَّى عليه عليٌّ فكبَّر عليه خمساً، وقيلَ ستّاً. وقال: إنَّه من أهلِ بدرٍ. رضي اللهُ عنه.

■ صَفوانُ ابنُ بيضاء أخو سُهيل ابن بيضاء شهد المشاهِدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ ، وتوفِّي في هذه السنة في رمضان منها، وليس له عقبٌ.

■ صُهَيْبُ بنُ سنان بن مالكٍ أبو يحيى الروميُّ، وأصلُه من اليمن، مِن قاسِطٍ، وكان أبو أو عمُّه عاملاً لكِسْرَى على الأُبُلَّةِ، وكانت منازلهم على دِجلةَ عندَ الموصلِ - وقيلَ: على الفُرات - فأغارت على بلادهم الرومُ فأسَرَته وهو صغيرٌ، فأقام عندهم حيناً ثم اشترته بن كلبٍ فحملوه إلى مكة فابتاعه عبدُ اللهِ بنُ جُدْعانَ فأعتَقَه وأقام بمكةَ حيناً، فلمَّا بعث رسولُ اللهِ ﷺ ، آمن به قديماً هو وعمارُ بنُ ياسرٍ في يوم واحدٍ بعدَ بضعةٍ وثلاثين رجلاً، وكان مِن، المستضعفينَ الذين يُعذَّبون في اللهِ عزَّ وجلَّ، ولما هاجر رسولُ اللهِ ﷺ هاجرَ صُهيبٌ بعده بأيامٍ فلحِقه قومٌ من المشركين يريدون أن يَصُدُّوه عن الهجرة، فلمّا أحسَّ بهم نَثل كِنانته بينَ يديه وقال لهم: واللهِ لقد علِمتُم أنِّي مِن أرماكم رجلاً، وواللهِ لا تَصلون إليَّ حتى أقتُلَ بكلِّ سهمٍ من هذه رجلاً منكم، ثم أقاتلكم بسيفي حتى أُقتلَ، وإن كنتم تُريدون المال فأنا أدُلُّكم على مالي، هو مدفونٌ في مكان كذا وكذا، فانصرفوا عنه فأخذوا ماله، فلمّا قدِم على رسول اللهِ ﷺ قال له: «ربِح

البيعُ أبا يَحيى». وأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ورواه حمادُ بنُ سَلَمةَ، عن عليِّ بن زيدٍ، عن سعيد بن المُسيبِ قال: وشهد صهيبٌ بدراً وما بعدها، ولمّا طعِن عمرُ، كان صهيبٌ هو الذي يصلِّي بالناس أيامَ الشورى حتى تعيَّنَ عثمانُ، وهو الذي صلَّى على عمر، وكان له صاحباً وصديقاً.

وكان صُهَيبٌ أحمرَ شديد الحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أقرنَ الحاجبين كثير الشعر، وكان لسانه عُجمةٌ شديدةٌ، وكان مع فضلِه ودينه فيه دُعابةٌ وفكاهةٌ وانشراحٌ. رُوي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رآه يأكلُ بقِثّاء رُطباً وهو أرمَدُ إحدى العينين، فقال: «أتأكلُ رُطباً وأنتَ أرمَدُ؟» فقال: إنّما آكلُ من ناحيةِ عَيْني الصحيحة. فضحِك رسولُ اللهِ ﷺ من قوله.

وكانت وفاتُه بالمدينة سنةَ ثمانٍ وثلاثين، وقيل: سنة تِسْعٍ وثلاثين. وقد نَيَّف على السبعين.

■ محمدُ بنُ أبي بكر الصدِّيق ولِد في حياة النبيِّ ﷺ في حَجةِ الوداع، تحتَ الشجرة عندَ المحرِم. وأمُّه أسماءُ بنتُ عُميس، ولمّا احتُضِر الصِّدِّيقُ أوصَى أن تغسِّلَه فغسَّلَته، ثم لمّا انقضَت عدَّتُها تزوَّجها عليٌّ فنشأ محمدٌ في حَجْرِه، فلمّا صارت إليه الخلافةُ استنابه على مصرَ بعدَ قيس بن سعد بن عُبادة، كما تقدَّم ذلك، فلمّا كانت هذه السَّنةُ قتِل ببلاد مصرَ، وله من العمر دون الثلاثين سَنةً، رحمه اللهُ ورضي عنه. وحزنت عليه عائشةُ وعليٌّ وغيرهما.

■ أسماءُ بنتُ عُميس بن مَعْدِ بن الحارث، الخثعمية وهي أمُّ محمدٍ المذكور، أسلمت قديماً بمكةَ وهاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة وقدِمت معه إلى خيبر، ولها منه عبدُ اللهِ، ومحمدٌ، وعَونٌ. ولما قتِل جعفرٌ بمُؤْتَةَ، تزوجها بعده أبو بكر الصديقُ فولَدَت له محمد بنَ أبي بكر أميرَ مصرَ. ثم لمّا مات الصدِّيقُ تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ فولَدَتْ له يحيى وعَوناً، وهي أختُ ميمونة بنت الحارث أمِّ المؤمنين لأمِّها. وكذلك هي أُختُ أمِّ الفَضْلِ امرأةِ العباس لأمها، وكان لها من الأخوات لأمها تسعُ أخواتٍ، وهي أخت سَلْمى بنتِ عُميس امرأة العباس، التي له منها بنتٌ اسمُها عُمارةُ.

ثم دخلت سنةُ تسعٍ وثلاثينَ

فيها فرَّق معاويةُ بنُ أبي سفيانَ جيوشاً كثيرةً في أطراف مُعاملات عليِّ بن أبي طالب، وذلك أنَّ معاويةَ رأى بعدَ أن ولاه عمرُو بنُ العاص الخلافة بعدَ اتفاقه هو وأبو موسى علي خَلْع عليٍّ وعزله عن الأمر - أنَّ ولايته صحيحةٌ، وقد وقعت الموقع، فهو الذي تجِبُ طاعتُه فيما يعتقده، ولأنَّ أهلَ العراق قد خالفوا عليّاً فلا يطيعونه، ولا يأتمرون بأمره، فلا يحصُلُ بمباشرته مقصودُ الولاية والإمارة، والحالةُ هذه، فأنا أولى منه؛ إذ كانت كلمةُ أهل الشام ومصرِ مجموعةً عليَّ، وهم طائعون لي، يأتمرون بأمري، وكلمتي نافذةٌ فيهم. فعند ذلك جهَّز الجيوش إلى أطراف مملكة عليٍّ، فكان ممن بعثَه في هذه السنةِ النُّعمانُ بنُ بشير في ألفي فارس إلى عين التَّمر، وعليها مالكُ بنُ كعبٍ في ألف فارس مَسْلَحَةً لعليٍّ، فلمّا سمِعوا بقُدوم الشاميين ارْفَضُّوا عنه فلم يبقَ مع مالكٍ إلا مائةُ رجل، فكتبَ عندَ ذلك إلى عليٍّ يخبِره بأمر النعمان، فندبَ عليٌّ الناسَ إلى إغاثة مالك بن كعب، فتثاقلوا عليه ونكَلُوا، ولم يُجيبوا إلى الخروج، فخطبهم عليٌّ عند ذلك، فقال في خُطبته: يا أهلَ الكوفة، كلَّما سمعتُم بمِنْسَرٍ من مناسر أهلِ الشام قد أظلَّكم، انجحَر كلُّ امرئٍ منكم في بيته، وغلَق عليه بابه، انجحار الضَّبِّ في جُحره، والضَّبُع في وجارِه، المغرورُ واللهِ من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، لا أحرارٌ عندَ النداء، ولا إخوانٌ ثقةٌ عندَ النَّجاء، إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون، ماذا مُنيتُ به منكم؟ عُميٌ لا تبصرون، وبُكمٌ لا تنطقون، وصُمٌّ لا تسمعون، إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون. ودهمهم النعمانُ بنُ بشير في ألفي مقاتلٍ وليس مع مالك بن كعب إلا مائةُ رجلٍ قد كسروا جُفون سيوفهم واستَقتلوا أولئك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فبينما هم كذلك إذ جاءهم نجدةٌ من جهة مِخنف بن سُليم مع ابنه عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً، فلمّا رآهم الشاميُّون ظنُّوا أنَّهم مَددٌ عظيمٌ، ففرُّوا هراباً على وجوههم، فأتبعَهم مالكُ بنُ كعبٍ فقتل منهم ثلاثةَ أنفس، وذهب الباقون لا يَلوون على أحدٍ حتى قدمُوا الشام ولم يتمَّ لهم ما رَجَوْا من هذا الوجه.

وفيها: بعَث معاويةُ سفيان بنَ عوفٍ في ستة آلافٍ إلى هيت فيُغيرُ عليها، ثم يأتي الأنبار والمدائن. فسار حتى انتهى إلى هيت فلم يجد بها أحداً، ثم أتى الأنبار وبها مَسْلَحَةٌ لعليٍّ نحوٌ من خمسمائةٍ فتفرَّقوا ولم يبق فيها إلا مائةُ رجل، فقاتَلوا مع قلَّتِهم وصبروا حتى قُتِلَ أميرُهم - وهو أشرسُ بنُ حسّانَ البكريُّ - في ثلاثين رجلاً من أصحابه، واحتمل الشاميُّون ما كان بالأنبار من الأموال وكرُّوا راجعين إلى الشام، فلمّا بلغَ عليّاً ما جرى لأهل الأنبار، ركِب بنفسه فنزل النُّخيلة، فقال له الناسُ: نحن نكفيك ذلك يا أمير المؤمنين. فقال: واللهِ ما تكفُونني ولا أنفسكم. وسرَّح سعيد بن قيسٍ في أثر القوم، فسار وراءهم حتى بلَغ هيتَ فلم يلحقْهم فرجَع.

وفيها: بعث معاويةُ عبدَ اللهِ بنَ مَسْعَدةَ الفزاريَّ في ألفٍ وسبعمائةٍ إلى تَيماءَ وأمَره أن يُصدِّقَ أهلَ البوادي، ومَن امتنَع من إعطائه فليقتُله ثم يأتي المدينة ومكة والحجاز. فسار إلى تيماء واجتمع عليه بشرٌ كثيرٌ، فلمّا بَلغ عليّاً خبرُه بعث المسيَّبَ بنَ نَجَبَةَ الفَزاريَّ في ألفي رجلٍ، فالتقوا بتَيماء فاقتتلوا قتالاً شديداً عندَ زوال الشمس، وحمل المسيَّبُ بنُ نَجَبَةَ على ابن مَسْعَدةَ فضربه ثلاثَ ضربات وهو لا يريدُ قتله بل يقول له: النَّجاء النَّجاء. فانحاز ابنُ مَسْعَدةَ في طائفةٍ من قومه إلى حصنٍ هناك فتحصَّنوا به، وهرَب بقيتُهم إلى الشام، وانتهبت الأعرابُ ما كان جمَعه ابنُ مَسْعَدةَ من إبل الصدقة، وحاصرهم المسيَّبُ ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب على الباب وألهب فيه النار، فلمّا أحسُّوا بالهلاك أشرفوا من الحصن، ومَتُّوا إليه بأنهم من قومه، فرَقَّ لهم وأطفأ النارَ، فلمّا كان الليلُ فتح بابَ الحصن وخرجوا منه هراباً إلى الشام، فقال عبدُ الرحمن بنُ شبيبٍ للمسيَّب بن نَجَبَةَ: سَرِّحْني الحقْهم. فقال: لا. فقال: غَشَشتَ أميرَ المؤمنين وداهنت في أمرهم.

وفيها: وجَّه معاويةُ الضَّحَّاكَ بنَ قيسٍ في ثلاثة آلافٍ، وأمره يُغير على أطراف جيش عليٍّ، فبعَث إليه عليٌّ حُجْرَ بنَ عدي في أربعة آلافٍ وأنفق فيهم كلَّ واحدٍ خمسين درهماً خمسينَ درهماً، فالتقوا بتَدْمر فقتَل حُجرٌ من أصحاب الضَّحَّاك تسعةَ عشرَ رجلاً، وقتل من أصحاب حُجْرٍ رجلان، وغَشيهم الليلُ فتفرقوا، وانشمر الضحاكُ بأصحابه فاراً إلى الشام.

وفيها: سار معاويةُ بنفسه في جيشٍ كثيفٍ حتى بلغ دِجلةَ ثم كرَّ راجعاً. ذكره محمدُ بنُ سعدٍ، عن الواقديِّ بإسناده، وأبو معشر معه أيضاً.

وفيها وَلّى عليُّ بنُ أبي طالبٍ زيادَ بنَ أبيه على أرض فارس، وكانوا قد منَعوا الخراج والطاعة، وسببُ ذلك ما تقدَّم من قتل العلاء بن الحضرمي وأصحابه بالنار حينَ حرقهم جاريةُ بنُ قدامة، كما تقدَّم، فلمّا

اشتهر هذا الصنيعُ في البلاد شَوَّشَ قلوبَ كثيرٍ من النـاس وأنكروه جـدًّا، واختلفوا على عليٍّ، ومنَع أكثرُ أهلِ تلك النَّواحي الخراجَ، ولا سيما أهـلُ فارس فإنَّهم تمرَّدوا وأخرجوا عاملهم سهلَ بنَ حُنَيْفٍ عنهم، فاستشار عليٌّ الناس في من يُوليه عليهم، فأشار ابنُ عباس وجاريةُ بنُ قدامة أن يُولي عليهم زيادَ بن أبيه، فإنَّه صَليبُ الرأي، علمٌ بالسياسة. فقال عليٌّ: هو لهـا. فولّاه عليٌّ فارس وكَرْمان فجهَّزه إليها في أربعة آلاف فارس، فسار إليها في هذه السنةِ فدوَّخ أهلها وقهرهم حتى استقاموا وأدَّوُا الخـراجَ، ورَجعوا إلى السمع والطاعة، وسار فيهم بالمعدَلةِ والأمانة، حتى كان أهـلُ تلك البـلاد يقولون: ما رأينا سيرةً أشبَه بسيرةِ كسرى أنوشِروانَ من سيرة هـذا العربيِّ في اللين والمُداراة والعلمِ بما يأتي وما يذرُ، وصَفَتْ لـه تلك البـلادُ بعدلـه وعلمه وصرامته، واتخذ للمال قلعةً حصينةً، فكانت تُعرفُ بقلعةِ زيـادٍ، ثـم لمَّا تَحصَّنَ فيها منصورٌ اليشكريُّ فيما بعدَ ذلك، عُرفت به، فكان يقال لها: قلعةُ منصور.

قال الواقديُّ: وفي هذه السنةِ بَعث عليُّ بنُ أبي طالبٍ عبيـدَ اللّـه بـن عباسٍ على الموْسم، وبعث معاويةُ يزيد بنَ شجرةَ الرَّهـاويَّ ليقيـمَ للنـاس الحجَّ، فلمّا اجتمعا بمكَّةَ تنازعا، وأبى كلُّ واحـدٍ منهمـا أن يُسَلِّمَ لصاحبـه فاصطلحا على شيبة بن عثمـان بـن أبي طلحةَ الحَجَبيِّ فحجَّ بالنـاس، وصلَّى بهم في أيام الموسم.

قال أبو الحسن المدائنيُّ: لم يشهدْ عبدُ اللّـه بـنُ عبـاس الموسـم في أيام عليٍّ حتى قتل، والذي نازعه يزيدُ بنُ شجرة إنَّما هو قُثَمُ بنُ العباس، حتى اصطلحا على شيبة بن عثمان قال ابنُ جرير: وكما قال أبو الحسن المدائـني قال أبو معشر.

قال ابن جرير: وأما عُمَّالُ عليٍّ علـى الأمصـار فهـم الذيـن ذكرنـا في السَّنةِ الماضية، غيرَ أنَّ ابنَ عبـاس كـان قـد سـار مـن البصـرة إلى الكوفـة، واستخلف على البصرة زيادَ بنَ أبيه، ثم سار زيادٌ في هذه السنةِ إلى فـارس وكَرْمان كما ذكرنا.

ذكرُ مَن تُوفي فيها من الأعيان

■ **سعدُ القَرَظِ** مؤذنُ مسجدِ قباء في زمان رسول اللّهِ ﷺ ، فلمّـا ولي عمرُ الخلافة ولاَّه أذانَ المسجد النبويِّ، وكان أصلُه مولىً لعمَّـار بـن ياسـر، وهو الذي كان يحملُ العَنَزَةَ بينَ يدي أبي بكرٍ وعمـر وعثمـان وعلـيٍّ إلى المصلَّى يومَ العيد، وبقي الأذان في ذرِّيَّته مدةً طويلةً.

■ **عقبةُ بنُ عمرو بن ثعلبة، أبو مسعودٍ البَدْريُّ** سكن ماءَ بدرٍ فنُسـب إليه، ولم يَشْهَدِ الوقعةَ ببدرٍ علـى الصحيـح، وقـد شـهد العقبـةَ، وهـو مـن سادات الصحابة، وكان ينُوبُ لعليٍّ بالكوفة إذا خرَج منها إلى القتال.

سنة أربعين من الهجرة النبوية

فيها كان مقتلُ أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ، رضي اللّهُ عنه، علـى ما سنذكرُه مُفَصَّلاً إن شاء اللّه تعالى.

قال ابنُ جرير: فمِمَّا كان في هذه السَّنةِ، مـن الأمـور الجليلـةِ، توجيـهُ معاويةَ بُسرَ بنَ أبي أرطاةَ في ثلاثة آلافٍ من المقاتِلةِ إلى الحجاز، فذُكـر عـن زياد ابن عبدِ اللّـه البكّـائيِّ، عـن عوانـة قـال: أرسَـل معاويـةُ بعـدَ تحكيـم الحكمين بُسر ابن أبي أرطاة - وهو رجـلٌ مـن بني عـامر بـن لـؤيٍّ - في جيش، فساروا من الشام حتى قَدِموا المدينة وعاملُ عليٍّ عليهـا يومئـذ أبـو أيوب الأنصاريُّ، ففرَّ منهم أبو أيوب فأتى عليّاً بالكوفة، ودخل بُسرٌ المدينة ولم يُقاتِلْه أحدٌ، فصعد مِنبرها، فنادى على المنبر: يا دينارُ، ويانجّارُ، ويازريقُ، شيخي شيخي! عَهدي به ههنا بالأمس، فأين هو؟ يعني عثمان بـن عفـان، ثم قال: يا أهلَ المدينة، واللّه لولا ما عهد إليَّ معاويةُ فيكـم مـا تركـتُ بهـا مُحْتلِماً إلاّ قَتَلْتُه. ثم بايع أهلُ المدينة، وأرسل إلى بني سَلِمةَ، فقال: واللّه ما لكم عندي من أمان ولا مُبايعةٍ حتى تأتوني بجابر بن عبد اللّهِ، يعـني حتى يبايعه، فانطلق جابرٌ إلى أمِّ سَلَمةَ فقال لها: ماذا تَرَيْن؟ إني خشيتُ أن أُقتلَ، وهذه بَيْعةُ ضلالةٍ. فقالت: أرى أن تُبايِعَ، فإني قد أمَرتُ ابني عمر، وخَتَني عبدَ اللّهِ بنَ زَمْعَةَ؛ وهو زوجُ ابنتها زينب، أن يبايعا. فأتاه جابرٌ فَبايَعه.

قال: وهدَم بُسْرٌ دوراً بالمدينة، ثم مضـى حتـى أتـى مَكَّـةَ، فخافـه أبـو موسى الأشعريُّ أن يقتُله، فقال له بُسْرٌ: ما كنت لأفعـل بصـاحب رسـول اللّه ﷺ ذلك. فخلى عنه، وكتَب أبو موسى قبلَ ذلك إلى أهـل اليمـن أنَّ خيلاً مبعوثةً من عند معاويةَ تَقْتُلُ من أبي أن يُقِرَّ بالحكومة، ثم مضى بُسْـرٌ إلى اليمن، وعليها عبيدُ اللّهِ بن عبـاس فَفَـرَّ إلى الكوفـةِ حتـى لحـق بعلـيٍّ، واستخلف على اليمن عبدَ اللّهِ بن عبد المـدان الحـارثي. فلمَّا دخَـل بُسْـرٌ اليمن قتله، وقتل ابنه، ولقي بُسْرٌ ثَقَلَ عبيدِ اللّه بـن عبـاس وفيـه ابنـان لـه صغيران فقتلهما، وهما؛ عبدُ الرحمن، وقُثَمُ، وقيل: إنَّـه ذَبَحهمـا بـينَ يـدي أُمِّهما فزاغ عقلُها ووَسْوَسَتْ ممّا رات، فكانت بعد ذلك تَقـفُ في المواسـم مبهوتةً زائغةَ العقل، تندبُ ولديها. ويقال: إنَّ بُسراً قتل في مسيره هذا خلقاً مِن شيعةِ عليٍّ. وهذا الخبرُ مشـهورٌ عندَ أصحـاب المغـازي والسِّيَر، وفي صحته عندي نظرٌ. واللّهُ تعالى أعلمُ. ولمَّا بلغَ عليّاً خبرُ بُسْرٍ وجَّه جاريةَ بنَ قُدامةَ في ألفين، ووَهْبَ بنَ مسعودٍ في ألفين، فسار جاريةُ حتى بلـغ نجرانَ فحرَّق بها، وقتل ناساً من شيعةِ عثمان، وهـرب بُسْـرٌ وأصحابُـه، فـأتْبَعَهم حتى بلغ مَكَّةَ. فقال لهم جاريةُ: بايعُوا. فقالوا: لمن نُبـايعُ وقـد هلـك أميرُ المؤمنين! فلِمن نُبايعُ؟ فقال: بايعُوا لِمن بايع له أصحاب عليٍّ. فتثاقلوا، ثـم بايعوا حينَ خافوا. ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يُصلي بهم، فهـرب منه، فقال جاريةُ: واللّه، لو أخذتُ أبا سنُّور لضربتُ عُنُقَه. ثم قـال لأهـل المدينة: بايعوا الحسن بنَ عليٍّ. فبايعوا، وأقام عندهم يوماً، ثم خرج مُنْصَرِفاً إلى الكوفة، وعاد أبو هريرة يُصلِّي بهم.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة جرت بين علـيٍّ ومعاويـة المُهادنـة بعـدَ مُكاتبات يَطول ذِكرُها،على وضع الحرب بينهما، وأن يكون مُلك العـراق لعليٍّ، ولمعاوية مُلك الشـام، ولا يدخـل أحدُهمـا علـى صاحبـه في عملـه بجيش ولا غارة ولا غزوةٍ.

ثم ذكَر عن زيادٍ، عن ابن إسحاق ما هذا مَضمُونُـه، أن معاويـة كتـب إلى عليٍّ: أما بعدُ، فإنَّ قد قتل بعضُها بعضاً بيني وبينك، فلـك العـراق ولي الشّام. فأقره عليٌّ على ذلك. وأمسك كل منهما عن قتـال الآخـر، وبعـث الجيوش إلى بلاده، واستقرَّ الأمرُ على ذلك.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة خرَج ابنُ عباسٍ مـن البصـرة إلى مَكَّـة، وترك العمل، في قول عامَّة أهلِ السِّيَر، وقد أنكر ذلك بعضهم، وزعم أنـه لم يَزَل عاملاً على البصرة حتى صالح الحسنُ بنُ عليٍّ معاويـةَ، وأنَّـه كـان شاهداً الصُّلح، كما نصَّ على ذلك أبو عبيدة، وغيرُه.

ثم ذكر ابنُ جرير سببَ خروج ابنُ عباسٍ عن البصرة؛ وذلك أنه كلَّـم أبا الأسود الدؤليَّ - وكان قاضياً عليها - بكلامٍ فيه غَضٌّ من أبي الأسود، فكتب أبو الأسود إلى عليٍّ يَشكو إليه ابنَ عباس، وينالُ من عِرْضه؛ بأنه

تناول شيئاً من أموال الناس من بيت المال، فبعث عليٌّ إلى ابن عباس، فعاتبه في ذلك، وحرَّر عليه القضية، فغضب ابنُ عباس من ذلك، وكتبَ إلى عليٍّ أن ابعَث إلى عملك من أحببت فإنِّي ظاعنٌ عنه. والسلام. ثم سار ابنُ عباس إلى مكة مع أخواله بني هلال، وتبعتهم قيسٌ كلُّها، وقد أخذ شيئاً من بيت المال ممَّا كان اجتمع له من العمالة والفيء، ولمَّا سار تبعه أقوامٌ أُخرُ، فلحقهم بنو تميم وأرادوا ردَّهم ومنعهم من المسير، فكان بينهم بعضُ قتال، ثم تحاجزوا، ودخل ابنُ عباس مكةَ.

ذكرُ مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وما ورد في ذلك وفي فضله من الأحاديث النبوية، وما في ذلك من دلائل النبوة وآياتِ المعجزةِ

كان أميرُ المؤمنين، رضي الله عنه، قد انتقَضَت عليه الأمورُ، واضْرِبتْ عليه الأحوالُ، وخالفه جيشُه من أهلِ العراق وغيرهم، ونكلوا عن القيام معه، واستَفْحل أمرُ أهل الشام، وصالُوا وجالُوا يميناً وشِمالاً زاعمين أن الأمرَ لمعاوية؛ بمُقتَضى حُكْم الحَكَمين في خلعهما عليّاً وتَوْلية عمرو بن العاص مُعاوية عندَ خُلُوِّ الإمرة عن أحَدٍ، وقد كان أهلُ الشام بعدَ التَّحكيم يُسمُّون مُعاوية الأمير، وكلما ازداد أهلُ الشام قوةً ضعُف جَأشُ أهلِ العراق ووهنوا، هذا وأميرُهم عليُّ بنُ أبي طالب خيرُ أهل الأرض في ذلك الزمان، فهو أعبَدُهم وأزهَدُهم، وأعلَمُهم وأخشاهم لله، عز وجل، ومع هذا كلِّه خَذَلوه وتَخلَّوا عنه، وقد كان يُعطيهم العطاء الكثير والمال الجزيل، فلا زال هذا دأبهم معه حتى كره الحياة وتَمنَّى الموتَ؛ وذلك لكثرة الفتن وظُهور المِحن، فكان يُكثِرُ أن يقول: ماذا يَحبسُ أشقاها - أي ما ينتظر - ما له لا يَقتُلُ؟ ثم يقول: والله لتُخضَبَنَّ هذه - ويُشيرُ إلى لحيته - من هذه. ويُشير إلى هامته.

كما قال البيهقيُّ، عن الحاكم، عن الأصَمِّ، عن محمد بن إسحاق الصَّغانيِّ، حدثنا أبو الجوّاب الأحْوَصُ بنُ جوّابٍ، حدثنا عَمَّار بنُ رزيق، عن الأعمش، عن حبيب ابن أبي ثابت، عن ثعلبة بن يزيد قال: قال عليٌّ: والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمةَ لتُخضَبنَّ هذه من هذه - للحيته من رأسه - فما يحبسُ أشقاها؟ فقال عبدُ الله بنُ سَبُع: والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلاً فعل ذلك لأبرنا عترته. فقال: أنشُدُكم بالله أن يُقتل بي غير قاتلي. فقالوا: يا أمير المؤمنين، ألا تَستَخْلفُ؟ فقال: لا ولكني أترُكُكم كما ترككم رسول الله ﷺ. قالوا: فما تقول لربِّك إذا لقيته وقد تركتنا هَمَلاً؟ قال: أقول: اللّهم استَخْلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم. فيه ضعفٌ في بعض ألفاظه.

طريقٌ أخرى: قال أبو داودَ الطيالسيُّ في «مسنده» حدثنا شَريكٌ، عن عثمان بن المغيرة، عن زيدِ بن وهبٍ قال: جاء رأس الخوارج إلى عليٍّ فقال له: اتَّقِ الله فإنَّك مَيِّتٌ. فقال: لا والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة، ولكن مَقتولٌ من ضربةٍ على هذه تُخضَبُ هذه - وأشار بيده إلى لحيته - عهدٌ معهودٌ، وقَضاءٌ مَقضيٌّ، وقد خاب من افترى.

طريقٌ أخرى عنه: قال الحافظُ أبو يعلى: حدثنا سويد بنُ سعيدٍ، حدثنا رِشدينُ بنُ سعدٍ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامةَ، عن عثمان بن صهيبٍ، عن أبيه قال: قال عليٌّ: قال لي رسولُ الله ﷺ: «من أشقى الأوَّلين»؟ قلتُ: عاقرُ الناقةِ. قال: «صدقت، فمن أشقى الآخرين؟» قلتُ: لا علم لي يا رسول الله. قال: «الذي يَضرِبُك على هذه». وأشار بيده على يافوخه، قال: فكان يقولُ: وددت أنه قد انبعث أشقاكم فيُخضِّبُ هذه من هذه. يعني لحيته من دم رأسه.

طريقٌ أخرى عن عليٍّ، رضي الله عنه: قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمشُ، عن سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن سَبُعٍ قال: سمِعْتُ عليّاً يقولُ: لتُخضَبَنَّ هذه من هذه فما ينتظر بي الأشقى؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، أخبرنا به نُبيرُ عترته. قال: إذاً تالله تقتلون بي غير قاتلي! [٥٩/٦و] قالوا: فاستَخلف علينا. قال: لا، ولكن أترُكُكم إلى ما ترككم إليه رسولُ الله ﷺ. قالوا: فما تقولُ لربِّك إذا أتيته؟ قال: أقولُ: اللّهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسودُ بنُ عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن سَلَمة بن كهيل، عن عبد الله بن سبُع قال: خطبنا عليٌّ فقال: والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة لتُخضبن هذه من هذه. قال: فقال الناسُ: فأعلمنا من هو، والله لنُبيدَنَّه أو لنُبيدَنَّ عِترته. قال: أنشدكم بالله أن يقتل غيرُ قاتلي. قالوا: إن كنت قد علمت ذلك فاستخلف إذاً. قال: لا، ولكن أكلكم إلى ما وكلكم إلايه رسول الله ﷺ. تفرَّد به أحمد.

طريقٌ أخرى عن عليِّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشمُ بنُ القاسم، حدثنا محمدٌ - يعني ابن راشدٍ - عن عبد الله ابن محمد بن عقيل، عن فضالة بن أبي فَضالة الأنصاري - وكان أبو فضالة من أهل بدر - قال: خرجتُ مع أبي عائداً لعليِّ بن أبي طالب من مرض أصابه ثقل منه. قال: فقال له أبي: ما يُقيمك بمنزلك هذا؟ لو أصابكَ أجلك لم يلك إلا أعراب جُهينة، تُحملُ إلى المدينة، فإن أصابك أجلُك وليك أصحابُك وصلُّوا عليك. فقال عليٌّ: إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ ألا أموت حتى أُؤمَّرَ ثم تُخضب هذه - يعني لحيته - من دم هذه. يعني هامته، قال: فقُتل وقُتل أبو فضالة مع عليٍّ يوم صِفين. تفرَّد به أحمد أيضاً. وقد رواه البيهقيُّ في «الدلائل» عن الحاكم، عن الأصم، عن الحسن بن مُكرم، عن أبي النَّضر هاشم ابن القاسم به.

طريقٌ أخرى عنه: قال الحافظ أبو بكر البزَّارُ في «مسنده» : حدثنا أحمدُ ابنُ أبان القُرشيُّ، حدثنا سفيانُ بنُ عيينة، حدثنا كوفيٌّ يقال له: عبدُ الملك بنُ أعينَ. عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه قال: سمِعْتُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ يقولُ: قال لي عبدُ الله بنُ سلام وقد وَضَعْتُ رجلي في غرز الركاب: لا تأت العراق؛ فإنك إن أتيتها أصابك بها ذُبابُ السَّيف. قال: وايمُ الله لقد قالها، ولقد قالها النبيُّ ﷺ لي قبله. قال أبو الأسود: فقلتُ: تالله ما رأيتُ رجلاً مُحارباً يُحدِّثُ بهذا غيرك. ثم قال البزَّارُ: لا نَعْلمُ رواه إلا عليُّ بنُ أبي طالبٍ بهذا الإسناد، ولا نعلم رواه إلا عبد الملك بن أعين، عن أبي حربٍ، ولا رواه عنه إلا ابنُ عيينة. هكذا قال، وقد رأيت من الطرق المتعددة خلاف ذلك. وقال البيهقيُّ بعد ذكره طرفاً من هذه الطرق: وقد رُوِّينا في كتاب «السُّنن» بإسنادٍ صحيحٍ عن زيد بن أسلم، عن أبي سنان الدُّؤليِّ، عن عليٍّ في إخبار النبيِّ ﷺ بقتله.

حديثٌ آخر في ذلك: قال الخطيب البغداديُّ: أخبرني عليُّ ابنُ القاسم البصريُّ، حدثنا عليُّ بنُ إسحاق المادرائيُّ، أنا محمد بنُ إسحاق الصَّغانيُّ، حدثنا إسماعيل بنُ الوَرَّاق، حدثنا ناصحٌ، أبو عبد الله المُحلِّميُّ، عن سِماكٍ، عن جابر بن سَمُرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ لعليٍّ: «من أشقى الأوَّلين؟» قال: عاقرُ الناقة. قال: «فمن أشقى الآخرين؟» قال: اللهُ

ورسوله أعلم. قال: «قاتلُك».

حديث آخر في معنى ذلك:

وروى البيهقي [الدلائل: ٦/٤٣٩، ٤٤٠] من طريق فطر بن خليفة وعبد العزيز بن سياه كلاهما عن حبيب بن أبي ثابت عن ثعلبة الحماني قال سمعت عليا على المنبر وهو يقول: والله إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي: «إن الأمة ستغدر بك بعدي».

قال البخاري [التاريخ الكبير: ٢/١٧٤]: ثعلبة بن يزيد الحماني في حديثه هذا نظر.

قال البيهقي [الدلائل: ٦/٤٤٠]: وقد رويناه بإسناد آخر عن علي إن كان محفوظا. أخبرنا أبو علي الروذباري أنا أبو محمد بن شوذب الواسطي بها حدثنا شعيب بن أيوب حدثنا عمرو بن عون عن هشيم عن إسماعيل بن سالم عن أبي إدريس الأزدي عن علي. قال: «إن مما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن الأمة ستغدر بك بعدي» قال البيهقي: فإن صح فيحتمل أن يكون المراد به والله أعلم في خروج من خرج عليه ثم في إمارته، ثم في قتله.

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر. قال: خطبنا علي يوم جمعة فقال نبئت أنّ بسراً قد طلع اليمن، وإني والله لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم، وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم، وخيانتكم وأمانتهم، وإفسادكم في أرضكم وإصلاحهم في أرضهم، قد بعثت فلاناً فخان وغدر، وبعثت فلانا فخان وغدر، وبعث المال إلى معاوية لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ علاقته، اللّهم سئمتهم وسئموني، وكرهتهم وكرهوني، اللّهم فأرحهم مني وأرحني منهم قال: فما صلى الجمعة الأخرى حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه

صفة مقتله رضي الله عنه

ذكر ابن جرير [تاريخه: ٥/١٤٣-١٤٦] وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس: أن ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري ثم الكندي حليف بني جبلة من كندة المصري وكان أسمر حسن الوجه أبلج شعره مع شحمة أذنيه وفي جبهته أثر السجود. والبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي أيضاً ـ اجتمعوا فتذاكروا قتل علي إخوانهم من أهل النهروان فترحموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا من خير الناس وأكثرهم صلاة وكانوا دعاة الناس إلى ربهم، لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟ فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب. وقال البرك بن عبد الله: وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه.

فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس في قوم من بني تيم الرباب وهم يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها قطام بنت الشجنة، قد قتل علي يوم النهروان أباها وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه، فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادما وقينة. وأن يقتل لها علي بن أبي طالب. قال: فهو لك ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي، فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرضه على ذلك وندبت له رجلا من قومها، من تيم الرباب يقال له وردان، ليكون معه ردءاً، واستمال ابن ملجم رجلا آخر يقال له شبيب بن بجرة الأشجعي الحروري قال له ابن ملجم: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ فقال: وما ذاك؟ قال: قتل علي، فقال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئاً إدّاً، كيف تقدر عليه؟ قال: أكمُن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا. فقال: ويحك لو غير علي لكان أهون علي؟ قد عرفت سابقته في الإسلام وقرابته من رسول الله ﷺ فما أجدني أنشرح صدراً لقتله. فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان؟ فقال: بلى قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه إلى ذلك بعد لأي ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت. وقال: هذه الليلة التي واعدت أصحابي يقتل كل واحد منّا فيها صاحبه الذي ذهب إليه. ثم جاؤوا إلى قطام وهي امرأة ابن ملجم فدعت لهم بعصب الحرير فعصبتهم بها، وكانت في المسجد، فجاء هؤلاء الثلاثة ـ وهم ابن ملجم، ووردان وشبيب ـ وهم مشتملون على سيوفهم فدخلوا المسجد الجامع فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة، ويقول: الصلاة الصلاة. فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته رضي الله عنه، ولما ضربه ابن ملجم قال: لا حكم إلا لله ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ونادى علي: عليكم به، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس، ومسك ابن ملجم وقدم عليٌّ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب فصلى بالناس صلاة الفجر، وحمل علي إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف ـ قبحه الله ـ فقال له: أي عدو الله ألم أحسن إليك؟ قال: بلى: قال. فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صاحباً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال له علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه. ثم قال: إن مت فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به.

وقال الإمام أحمد [١/٩٢، ٩٣]: حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال: لما ضرب ابن ملجم عليا قال لهم: افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله فقال: «اقتلوه ثم احرقوه».

وقد روي أن أم كلثوم قالت لابن ملجم وهو واقف. ويحك! لم ضربت أمير المؤمنين؟ قال: إنما ضربت أباك فقالت: إنه لا بأس عليه، فقال: فلمَ تبكين؟ والله لقد ضربته ضربة لو أصابت أهل المصر لماتوا أجمعين، والله لقد سممت هذا السيف شهراً ولقد اشتريته بألف وسممته بألف.

فقال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟ فقال

لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. ولما احتضر علي جعل يكثر من قول لا إله إلا الله، لا ينطق بغيرها. وقد قيل: إن آخر ما تكلم به ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. [الزلزلة: ٧] وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة والزكاة وغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية ووصاه بما وصاهما به، وأن يعظمهما ولا يقطع أمراً دونهما. وكتب ذلك كله في كتاب وصيته رضي الله عنه وأرضاه.

وصورة الوصية: بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، أوصيك ياحسن وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام» انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب الله الله في الأيتام فلا تعفو أفواههم ولا يضيعن بحضرتكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا، والله الله في شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب، والله الله في ذمة نبيكم لا تظلمن بين ظهرانيكم، والله الله في اصحاب نبيكم فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم، والله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في معاشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «أوصيكم بالضعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم» الصلاة الصلاة لا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولّى الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله. ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض في شهر رمضان.

وقد غسله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وصلى عليه الحسن فكبر عليه تسع تكبيرات.

قال الهيثم بن عدي: حدثني رجل من بجيلة عن مشيخة قومه أن عبد الرحمن بن ملجم رأى امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام كانت من أجمل النساء ترى رأي الخوارج، قد قتل عليٌّ قومها على هذا الرأي فلما أبصرها عشقها فخطبها فقالت: لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة، وقَتْل علي بن أبي طالب فتزوجها على ذلك فلما بنى بها قالت له: يا هذا قد فرغت من حاجتك فافرغ من حاجتي. فخرج ملبساً سلاحه وخرجت معه فضربت له قبة في المسجد وخرج علي يقول: الصلاة الصلاة، فاتبعه عبد الرحمن فضربه بالسيف على قرن رأسه فقال الشاعر: ـ قال ابن جرير [١٥٠/٥]: هو ابن مياس المرادي.

فلم أر مهراً ساقهُ ذو سماحةٍ ... كمهرِ قطامٍ بيناً غيرَ معجمِ
ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ ... وقتلُ علي بالحسامِ المصممِ
فلا مهرَ أغلى من علي وإن غلا ... ولا قَتْل إلا دون قَتْلِ ابن ملجمِ

ولابن مياس في قتلهم علياً

ونحنُ ضربنا يا لكَ الخير حيدراً ... أبا حسنٍ مأمومةً فتفطَّرا
ونحن خلعنا ملكهُ من نظامهِ ... بضربةِ سيفٍ إذ علا وتجبرا
ونحنُ كرامٌ في الهياجِ أعزةٌ ... إذا الموتُ بالموت ارتدى وتأزرا

وقد امتدح ابن ملجم بعض الخوارج المتأخرين في زمن التابعين وهو عمران بن حطان وكان أحد العباد ممن يروي عن عائشة في صحيح البخاري فقال فيه:

ياضربةً من تقي ما أرادَ بها ... إلا ليبلغَ من ذي العرشِ رضوانا
إني لأذكرهُ يوماً فأحسبهُ ... أوفى البريةِ عندَ اللهِ ميزانا

وأما صاحب معاوية ـ وهو البُرَك ـ فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر في هذا اليوم فضربه بالسيف، وقيل بخنجر مسموم فجاءت الضربه في وركه فجرحت إليته ومسك الخارجي فقتل، وقد قال لمعاوية: اتركني فإني أبشرك ببشارة، فقال: وما هي؟ فقال: إن أخي قد قتل في هذه الليلة علي بن أبي طالب، قال: فلعله لم يقدر عليه، قال: بلى إنه لا حرس معه، فأمر به فقتل، وجاء الطبيب إلى معاوية فقال: إن جرحك مسموم فإما أن أكويك وإما أن أسقيك شربة فيذهب السم ولكن ينقطع نسلك فقال معاوية: أما النار فلا طاقة لي بها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاه شربة فبرأ من ألمه وجراحه وانقطع النسل وسلم من ذلك رضي الله عنه. ومن حينئذ عملت المقصورة في المسجد الجامع بدمشق وجعل الحرس حولها في حال السجود، فكان أول من اتخذها معاوية لأجل هذه الحادثة.

وأما صاحب عمرو بن العاص ـ وهو عمرو بن بكر ـ فإنه كمن له ليخرج إلى الصلاة فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مغص شديد في تلك الليلة فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة ـ وهو خارجة بن أبي حبيبة من بني عامر بن لؤي وكان على شرطة عمرو بن العاص فحمل عليه الخارجي فقتله وهو يعتقده عمرو بن العاص، فلما أخذ الخارجي قال: أردت عمراً وأراد الله خارجة. فأرسلها مثلاً، ثم قتل قبحه الله، وقد قيل: إن الذي قالها عمرو بن العاص، وذلك حين جيء بالخارجي فقال: ما هذا؟ قالوا: قتل نائبك خارجة، فقال الخارجي: والله ما أردت إلا إياك. فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة. ثم أمر به فضربت عنقه.

والمقصود ان علياً رضي الله عنه لما مات صلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه تسع تكبيرات ودفن بدار الإمارة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، هذا هو المشهور.

ومن قال: إنه حمل على راحلته فذهبت به فلا يدرى أين ذهبت فقد أخطأ وتكلف مالا علم له به ولا يسيغه عقل ولا شرع، وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره بمشهد النجف فلا دليل على ذلك ولا أصل له، ويقال: إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة، حكاه الخطيب البغدادي

[تاريخ بغداد: ١/ ١٣٨] عن أبي نعيم الحافظ عن أبي بكر الطلحي عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ، هو مُطَيَّنٌ أنه قال: لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يعظمونه بالنجف لرجموه بالحجارة، هذا قبر المغيرة بن شعبة.

قال الواقدي: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر: كم كان سن علي يوم قتل؟ قال: ثلاثا وستين سنة. قلت: أين دفن؟ قال: دفن بالكوفة ليلا وقد غُبِّي عني دفنه.

وفي رواية عن جعفر الصادق أنه كان عمره ثمانياً وخمسين سنة.

وقد قيل: إن عليا دفن قبلي المسجد الجامع من الكوفة.

قاله الواقدي، والمشهور أنه دُفن بدار الإمارة.

وقيل بحائط جامع الكوفة.

وقد حكى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٣٧/١] عن أبي نعيم الفضل بن دكين أن الحسن والحسين حولاه فنقلاه إلى المدينة فدفناه بالبقيع عند قبر زوجته فاطمة أُمهما.

وقيل إنهم لما حملوه على البعير ضل منهم فأخذته طيئ يظنونه مالاً فلما رأوا أن الذي في الصندوق ميت ولم يعرفوا من هو دفنوا الصندوق بما فيه فلا يعلم أحد أين قبره، حكاه الخطيب أيضا [تاريخ بغداد: ١٣٨/١] .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الحسن بن علي قال: دفنت عليا في حجرة من دور آل جعدة.

وعن عبد الملك بن عمير قال: لما حفر خالد بن عبد الله أساس دار ابنه يزيد استخرجوا شيخاً مدفونا أبيض الرأس واللحية كأنما دفن بالأمس فهم بإحراقه ثم صرفه الله عن ذلك فاستدعى بقباطي فلفه فيها وطيبه وتركه مكانه. قالو وذلك المكان بحذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد في بيت اسكاف وما يكاد يقر في ذلك الموضع أحد إلا انتقل منه.

وعن جعفر بن محمد الصادق قال: صلّي على علي ليلا ودفن بالكوفة وعمّي موضع قبره ولكنه عند قصر الإمارة.

وقال ابن الكلبي: شهد دفنه في الليل الحسن والحسين وابن الحنيفة وعبد الله بن جعفر وغيرهم من أهل بيتهم فدفنوه في ظاهر الكوفة وعموا قبره خيفة عليه من الخوارج وغيرهم.

وحاصل الأمر أن علياً قتل ليلة الجمعة سحراً وذلك لسبع عشرة خلت من رمضان من سنة أربعين.

وقيل: إنه قتل في ربيع الأول والأول هو الأصح الأشهر والله أعلم.

ودفن بالكوفة عن ثلاث وستين سنة وصححه الواقدي وابن جرير [تاريخه: ١٥١/٥] وغير واحد، وقيل عن خمس وستين وقيل عن ثمان وخمسين سنة رضي الله عنه. وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

فلما مات علي رضي الله عنه استدعى الحسن بن علي بابن ملجم فقال له ابن ملجم: إني أعرض عليك خصلة قال: وما هي؟ قال: إني كنت عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما، فإنْ خليتني ذهبت إلى معاوية على أني إن لم أقتله أو قتله وبقيت فللّه علي عهد الله أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك، فقال له الحسن: كلا والله حتى تعاين النار، ثم قدمه فقتله ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري ثم أحرقوه بالنار.

وقد قيل: إن عبد الله بن جعفر قطع يديه ورجليه وكحلت عيناه وهو مع ذلك يقرأ سورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى آخرها ثم جاؤوا ليقطعوا لسانه فجزع وقال: إني أخشى أن تمر علي ساعة لا اذكر الله فيها ثم قطعوا لسانه ثم قتلوه ثم حرقوه في قوصرة والله أعلم. وروى ابن جرير [تاريخه: ١٥٢/٥] قال: حدثني الحارث حدثنا ابن سعد عن محمد بن عمر قال: ضرب علي يوم الجمعة فمكث يوم الجمعة، وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة.

قال الواقدي: وهو المثبت عندنا. والله أعلم بالصواب.

ذكر زوجاته وبنيه وبناته رضي الله عنهم أجمعين

قال الإمام أحمد [١١٨/١]: حدثنا حجاج حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانىء بن هانىء عن علي قال: لما ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ماسميتموه؟» فقلت: سميته حربا، فقال: «بل هو حسن»، فلما ولد الحسين قال: «أروني ابني، ماسميتموه؟» فقلت: سميته حربا قال: «بل هو حسين»، فلما ولد الثالث جاء النبي ﷺ فقال: «أروني ابني ما سميتموه؟» فقلت: حربا فقال: «بل هو محسِّن»، ثم قال: «إني سميتهم باسم ولد هارون شبَّر وشَبير ومشبر».

وقد رواه محمد بن سعد عن يحيى بن عيسى التيمي عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي: كنت رجلا أحب الحرب فلما ولد الحسن هممت أن أسميه حربا، فذكر الحديث بنحو ما تقدم لكن لم يذكر الثالث.

وقد ورد في بعض الأحاديث أن عليا سمى الحسن أولا بحمزة وحسينا بجعفر فغير اسميهما رسول الله ﷺ.

فأول زوجه تزوجها علي رضي الله عنه

■ فاطمة بنت رسول الله ﷺ بنى بها بعد وقعة بدر فولدت له الحسن وحسينا ويقال ومحسِّنا ومات وهو صغير، وولدت له زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهي وهذه تزوج بها عمر بن الخطاب كما تقدم.

ولم يتزوج علي على فاطمة حتى توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر، فلما ماتت تزوج بعدها بزوجات كثيرة، منهن من توفيت في حياته ومنهن من طلقها، وتوفي عن أربع كما سيأتي.

فمن زوجاته

■ أم البنين بنت حرام وهو المحل بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان. وقد قتل هؤلاء مع أخيهم الحسين بكربلاء ولا عقب لهم سوى العباس.

ومنهن ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك من بني تميم فولدت له عبيد الله وأبا بكر.

قال هشام بن الكلبي: وقد قتلا بكربلاء أيضاً.

وزعم الواقدي أن عبيد الله قتله المختار بن أبي عبيد يوم المَذَار.

ومنهن أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر قاله الكلبي.

وقال الواقدي: ولدت له يحيى وعونا.

قال الواقدي: فأما محمد الأصغر فمن أم ولد.

ومنهن

■ أم حبيبة بنت زمعة بن بحر بن العبد بن علقمة وهي أم ولد من السبي الذين سباهم خالد من بني تغلب حين أغار على عين التمر فولدت له عمر ـ وقد عمر خمساً وثلاثين سنة ـ ورقية.

ومنهن

■ **أم سعيد بنت عروة بن مسعود** بن معتِّب بن مالك الثقفي فولدت له أم الحسن ورملة الكبرى.

ومنهن

ابنة امرئ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم بن كلب الكلبية فولدت له جارية فكانت تخرج مع علي إلى المسجد وهي صغيرة فيقال لها: من أخوالك؟ فتقول: وه وه تعني بني كلب.

ومنهن

■ **أمامة بنت أبي العاص** بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها وهو في الصلاة إذا قام حملها وإذا سجد وضعها فولدت له محمداً الأوسط.

وأما ابنه محمد الأكبر فهو ابن الحنفية وهي

■ **خولة بنت جعفر** بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدُّئِل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل سباها خالد أيام الصديق أيام الردة من بني حنيفة فصارت لعلي بن أبي طالب فولدت له محمداً هذا، ومن الشيعة من يدعي فيه الإمامة والعصمة، وقد كان من سادات المسلمين ولكن ليس بمعصوم ولا أبوه معصوم بل ولا من هو أفضل من أبيه من الخلفاء الراشدين قبله ليسوا بواجبي العصمة، والله أعلم.

وقد كان لعلي أولاد كثيرة آخرون من أمهات أولاد شتى فإنه مات عن أربع نسوة وتسع عشرة سرية رضي الله عنه فمن أولاده رضي الله عنهم ممن لا يعرف أسماء أمهاتهم أم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم جعفر وأم سلمة وجمانة ونفيسة.

قال ابن جرير: فجميع ولد على أربعة عشر ذكرا وسبع عشرة أنثى.

قال الواقدي: وإنما كان النسل من خمسة وهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن الثعلبية رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قال ابن جرير [تاريخه: ١٥٧/٥]: حدثني ابن سنان القزاز حدثنا أبو عاصم حدثنا سُكين بن عبد العزيز أنا حفص بن خالد حدثني أبي خالد بن جابر قال: سمعت الحسن لما قتل علي قام خطيباً فقال: لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة نزل فيها القرآن، ورفع فيها عيسى ابن مريم، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السرية جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ماترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبع مئة أرصدها لخادم.

وهذا غريب جداً وفيه نكارة والله أعلم.

وهكذا رواه أبو يعلى [مسنده (٦٧٥٨)] عن إبراهيم بن الحجاج عن مسكين به.

وقال الإمام أحمد [١٩٩/١] : حدثنا وكيع عن شريك عن أبي إسحاق عن هبيرة قال: خطبنا الحسن بن علي قال: «لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون، كان رسول الله ﷺ يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله لا ينصرف حتى يفتح الله له.

ورواه زيد العمى وشعيب بن خالد عن أبي إسحاق به وقال: ما ترك إلا سبعمائة كان أرصدها يشتري بها خادماً».

وقال الإمام أحمد [١٥٩/١]: حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم بن كليب عن محمد بن كعب القرظي أن عليا قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لتبلغ أربعين ألفا.

ورواه عن أسود عن شريك به وقال: «إن صدقتي لتبلغ أربعين ألف دينار» [المسند: ١٥٩/١]

باب ذكر شيء من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

فمن ذلك أنه أقرب العشرة المشهود لهم بالجنة نسباً من رسول الله ﷺ فإنه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب واسمه شيبة بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف واسمه المغيرة بن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أبو الحسن القرشي الهاشمي فهو ابن عم رسول الله ﷺ أبوه أخو أبيه وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

قال الزبير بن بكار: وهي أول هاشمية ولدت هاشميا. وقد أسلمت وهاجرت، وأبوه هو العم الشقيق الرفيق أبو طالب واسمه عبد مناف كذا نص عليه الإمام أحمد بن حنبل [فضائل الصحابة: ٩٢٩-٩٣١] هو وغير واحد من علماء النسب وأيام الناس. وزعمت الروافض أن اسم أبي طالب عمران وأنه المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقد أخطؤوا في ذلك خطأ كبيراً ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان من القول في تفسيرهم له على غير مراد الله تعالى، فإنه تعالى قد ذكر بعد هذه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] فذكر بعدها ميلاد مريم بنت عمران عليها السلام وهذا ظاهر ولله الحمد.

وقد كان أبو طالب كثير المحبة لرسول الله ﷺ ولم يؤمن به إلى أن مات على الكفر كما ثبت ذلك في صحيح البخاري [٣٨٨٤] من رواية سعيد بن المسيب عن أبيه في عرضه عليه الصلاة والسلام على عمه أبي طالب وهو في السياق أن يقول: لا إله إلا الله فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنه» فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٣]

ونزلت﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص: ٥٦] وقد تقدم هذا كله في أول المبعث ونبهنا على خطأ الرافضة في دعواهم أنه أسلم وافترائهم ذلك بلا دليل على مخالفة النصوص الصحيحة الصريحة.

وأما علي رضي الله عنه فإنه أسلم قديماً وهو دون البلوغ على المشهور، ويقال: أنه أول من أسلم وقد روي في ذلك حديث عنه ولا

يصح، والصحيح أنه أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلم من النساء، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي.

وقد روى الترمذي [٣٧٢٨] وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك قال: «بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء».

ورواه بعضهم عن مسلم الملائي عن حبة بن جوين عن علي - وحبة لا يساوي حبة-.

وقد روى سلمة بن كهيل عن حبة عن علي قال: «عبدت الله مع رسول الله سبع سنين قبل أن يعبده أحد».

وهذا لا يصح أبداً وهو كذب.

وروى سفيان الثوري وشعبة عن سلمة عن حبة عن علي قال: «أنا أول من أسلم».

وهذا لا يصح أيضا وحبة ضعيف.

وقال سويد بن سعيد حدثنا نوح بن قيس، ثنا سليمان بن عبد الله عن معاذة العدوية قالت: سمعت علي بن أبي طالب على منبر البصرة يقول: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم».

وهذا لا يصح قاله البخاري [التاريخ الكبير: ٢٣/٤].

وقد ثبت عنه بالتواتر أنه قال على منبر الكوفة: «أيها الناس! إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ولو شئت أن أسمي الثالث لسميت».

قال الإمام أحمد [٣٧٣/١]: حدثنا سليمان بن داود حدثنا أبو عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: «أول من صلى - وفي رواية من أسلم - مع رسول الله ﷺ بعد خديجة علي بن أبي طالب»

ورواه الترمذي [٣٧٣٤] من حديث شعبة عن أبي بلج، به.

وقد رُوي عن زيد بن أرقم وأبي أيوب الأنصاري أنه صلى قبل الناس بسبع سنين وهذا لا يصح من أي وجه كان. وقد روي في أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء، وأجود ما في ذلك ما ذكرناه. على أنه قد خولف فيه وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في تاريخه بتطريق هذه الروايات، فمن أراد كشف ذلك فعليه به والله الموفق للصواب.

وقد روى الترمذي [٣٧٣٥] والنسائي [كبرى (٨١٣٧)] من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن طلحة بن يزيد عن زيد بن أرقم قال: «أول من أسلم علي» قال الترمذي: حسن صحيح.

وصحب علي رسول الله ﷺ مدة مقامه بمكة، وكان عنده في المنزل وفي كفالته في حياة أبيه أبي طالب إلى أن هاجر رسول الله ﷺ، تتخلف عليّ بعده ليؤدي ما كان عند رسول الله ﷺ من ودائع الناس، فإنه كان يعرف في قومه بالأمين، فكانوا يودعونه الأموال والأشياء النفيسة ثم هاجر علي بعد رسول الله ﷺ وصحب رسول الله ﷺ إلى أن توفي وهو راض عنه وحضر معه مشاهده كلها وجرت له مواقف شريفة بين يديه في مواطن الحرب كما بينا ذلك في السيرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، كيوم بدر وأحد والأحزاب وخيبر وغيرها، ولما استخلفه عام تبوك على أهله بالمدينة قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» [سيرة ابن هشام: ٥١٩/٢، ٥٢٠] وقد ذكرنا تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ودخوله بها بعد وقعة بدر بما أغنى عن إعادته. ولما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع فكان بين مكة والمدينة بمكان يقال له غدير خم خطب الناس هنالك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة فقال في خطبته: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وفي بعض الروايات: «اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» والمحفوظ الأول.

وإنما كان سبب هذه الخطبة والتنبيه على فضله ما ذكره ابن إسحاق من أن عليا لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أميراً هو وخالد بن الوليد ورجع علي فوافى رسول الله ﷺ بمكة في حجة الوداع وقد كثرت فيه المقالة وتكلم فيه بعض من كان معه بسبب استرجاعه منهم خلعاً كان خلعها نائبه عليهم لما تعجل السير إلى رسول الله ﷺ، فلما تفرغ رسول الله ﷺ من حجة الوداع أحب أن يبرئ ساحة علي مما نسب إليه من القول فيه وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيداً، فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد في أيام بني بويه في حدود الأربعمائة كما ستنبه عليه إذا انتهينا إليه إن شاء الله. ثم بعد ذلك بنحو من عشرين يوماً تعلق المسوح السود على أبواب الدكاكين وتذر التبن والرماد، في الطُرق والأسواق وتدور النساء في سكك البلد يَنُحْنَ على الحسين بن علي يوم عاشوراء صبيحة قراءتهم المصرع المكذوب في قتل الحسين، وسنبين ذلك كلّه إذا انتهينا إليه وكيف وقع الأمر على الجلية إن شاء الله تعالى.

وقد كان بعض بني أمية يعيب علياً في تسميته أبا تراب وهو اسم سماه به رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيحين [خ: (٤٤١)، م(٢٤٠٩)] عن سهل بن سعد أن عليا غاضب فاطمة فراح إلى المسجد فجاء رسول الله ﷺ فوجده نائما وقد لصق التراب بجلده فجعل ينفض عنه التراب ويقول: «اجلس أبا تراب، اجلس أبا تراب».

حديث المؤاخاة:

قال الحاكم: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجنيد حدثنا الحسين بن جعفر القرشي حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي حدثنا أيوب بن مدرك عن مكحول عن أبي أمامة قال: لما آخى رسول الله ﷺ بين الناس آخى بينه وبين علي. ثم قال الحاكم: لم نكتبه من حديث مكحول إلا من هذا الوجه وكان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام.

قلت: وفي صحة هذا الحديث نظر، وورد من طريق أنس وابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وكذلك من طريق زيد بن أبي أوفى وابن عباس ومحدوج بن زيد الذهلي وجابر بن عبد الله وعامر بن ربيعة وأبي ذر وعلي نفسه نحو ذلك وأسانيدها كلها ضعيفة لا يقوم بشيء منها حجة والله أعلم. وقد جاء من غير وجه أنه قال: أنا عبد الله وأخو رسوله لا يقولها بعدي إلا كذاب» [فضائل الصحابة (٩٩٣)]

وقال الترمذي [٣٧٢٠]: حدثنا يوسف بن موسى القطان البغدادي حدثنا علي بن صالح بن حي عن حكيم بن جبير عن جميع بن عمير التيمي عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ثم قال: هذا حديث حسن غريب وفيه عن زيد بن أبي أوفى.

وقد شهد عليّ بدرا. وقد قال رسول الله ﷺ لعمر: «وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»

[خ: (٣٩٨٣)، م(٢٤٩٤)].

وبارز يومئذ كما تقدم وكانت له اليد البيضاء ودفع إليه رسول الله ﷺ الراية يومئذ وهو ابن عشرين سنة. قاله الحكم عن مقسم عن ابن عباس. قال: وكانت تكون معه راية المهاجرين في المواقف كلها، وكذلك قال سعيد بن المسيب وقتادة.

وقال خيثمة بن سليمان الأطرابلسي الحافظ: حدثنا أحمد بن حازم عن ابن أبي غرزة حدثنا إسماعيل بن أبان حدثنا ناصح بن عبد الله المحلمي عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قالوا: يا رسول الله من يحمل رايتك يوم القيامة؟ قال: «ومن عسى أن يحملها يوم القيامة إلا من كان يحملها في الدنيا علي بن أبي طالب».

وهذا إسناد ضعيف. ورواه ابن عساكر عن أنس بن مالك ولا يصح أيضاً.

وقال الحسن بن عرفة: حدثني عمار بن محمد عن سعيد بن محمد الحنظلي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: نادى مناد في السماء يوم بدر: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» قال الحافظ ابن عساكر: وهذا مرسل وإنما تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ثم وهبه لعلي بعد ذلك.

وقال الزبير بن بكار: حدثني علي بن المغيرة عن معمر بن المثنى قال: كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحة بن أبي طلحة فقتله علي بن أبي طالب ففي ذلك يقول الحجاج بن علاط السلمي.

لله اي مُذَبِّب عن أعني ابنَ فاطمة المعمَّ المُخْوَلا
جادتْ يداكَ لهُ بعاجلِ طعنةٍ تركت طليحةَ للجبينِ مجدَّلا
وشددتَ شدة باسلٍ فكشفتهم بالحق إذ يهوونَ أخولَ أخولا
وعللتَ سيفكَ بالدماءِ ولم تكن لتردَهُ حران حتى ينهلا

وشهد بيعة الرضوان وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨] وقال رسول الله ﷺ «لن يدخل أحد بايع تحت الشجرة النار».

وقد ثبت في الصحاح [خ: (٢٩٧٥)، م(٢٤٠٧)] وغيرها أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار يفتح الله على يديه» فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها حتى قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فلما أصبح أعطاها عليا ففتح الله على يديه، ورواه جماعة منهم مالك ويحيى بن سعيد ويعقوب بن عبد الرحمن وجرير بن عبد الحميد وحماد بن سلمة وعبد العزيز بن المختار وخالد بن عبد الله عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة وأخرجه مسلم [٢٤٠٥]. ورواه ابن أبي حازم عن سهل بن سعد أخرجاه في الصحيحين [خ:(٢٩٤٢)، م(٢٤٠٦)] وقال في حديثه: فدعا به رسول الله ﷺ وهو أرمد فبصق في عينيه فبرأ» ورواه إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ويزيد بن أبي عبيد عن مولاه سلمة أيضاً، وحديثه عنه في الصحيحين [خ: (٤٢٠٩)، م(٢٤٠٦)]

وقال محمد بن إسحاق: حدثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن أبيه عن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بكر الصديق برايته إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد، ثم بعث عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار»، قال سلمة: فدعا رسول الله ﷺ علياً وهو أرمد فتفل في عينية ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك» قال سلمة: فخرج والله بها يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رجم من حجارة تحت الحصن فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب، قال اليهودي: عَليتُم ومن أنزل التوراة على موسى قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه.

وقد رواه عكرمة بن عمار عن عطاء مولى السائب عن سلمة بن الأكوع وفيه أنه هو الذي جاء به يقوده وهو أرمد حتى بصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرأ.

رواية بريدة بن الحصيب:

وقال الإمام أحمد [٥/٣٥٣]: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين بن واقد حدثني عبد الله بن بريدة حدثني بريدة بن الحصيب قال: حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له، ثم أخذه من الغد عمر فخرج فرجع ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد فقال رسول الله ﷺ: «إني دافع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له» ـ قال: وبتنا طيبةً أنفسنا أن الفتح غداً ـ قال: فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة، ثم قام قائماً فدعا باللواء والناس على مصافهم فدعا عليا وهو أرمد فتفل في عينيه ودفع إليه اللواء ففتح له، قال بريدة: وأنا فيمن تطاول لها.

ورواه النسائي [كبرى (٨٤٠٢)] من حديث الحسين بن واقد به أطول منه.

ثم رواه أحمد [٥/٣٥٨] عن محمد بن جعفر وروح كلاهما عن عوف عن ميمون أبي عبد الله الكردي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به نحوه، وأخرجه النسائي [كبرى (٨٤٠٣، ٨٦٠٠)] عن بندار عن غندر به وفيه الشعر.

رواية عبد الله بن عمر:

ورواه هشيم عن العوام بن حوشب عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عمر فذكر سياق حديث بريدة. ورواه كثير النواء عن جميع بن عمير عن ابن عمر نحوه وفيه: «قال علي: فما رمدت بعد يومئذ» ورواه أحمد عن وكيع عن هشام بن سعد عن عمر بن أسيد عن ابن عمر كما سيأتي.

رواية ابن عباس:

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا أبو عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فقال: «أين علي؟» قالوا: يطحن، قال: وما أحد منهم يرضى أن يطحن، فأتي به فدفع إليه الراية فجاء بصفية بنت حيي بن أخطب.

وهذا غريب من هذا الوجه وهو مختصر من حديث طويل.

ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن أبي بلج عن

عمرو بن ميمون عن ابن عباس فذكره بتمامه.

فقال الإمام أحمد [٣٣٠/١، ٣٣١] عن يحيى بن حماد: حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بلج حدثنا عمرو بن ميمون قال: إني لجالس إلى ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا: يا ابن عباس إما أن تقوم معنا وإما أن يُخلونا هؤلاء؟ فقال: بل أقوم معكم - وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى - قال: وابتدؤا فتحدثوا فلا ندري ما قالوا قال: فجاء ينفض ثوبه ويقول: أفٍ وتُف، وقعوا في رجل له عشر وقعوا في رجل قال له النبي ﷺ: «لأبعثنَّ رجلا لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله» قال: فاستشرف لها من استشرف قال: «أين علي؟» قالوا: هو في الرحى يطحن، قال: وما كان أحدكم ليطحن، قال: فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر فنفث في عينيه ثم هز الراية ثلاثا فأعطاه إياه فجاء بصفية بنت حيي بن أخطب. قال: ثم بعث فلانا بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه، ثم قال: «لا يذهب بها إلا رجل مني وأنا منه». قال: وقال لبني عمه: «أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟» فأبوا قال: وعلي معه جالس فقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة. قال: فتركه ثم أقبل على رجال منهم فقال: «أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟» فأبوا فقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة فقال: «أنت وليي في الدنيا والآخرة».

قال: وكان أول من أسلم من الناس بعد خديجة، قال: وأخذ رسول الله ﷺ ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال: وشرى على نفسه لبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه.

قال: وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ فجاء أبو بكر وعلي نائم وأبو بكر يحسب أنه نبي الله فقال: يانبي الله! فقال له علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار قال: وجعل علي يُرمى بالحجارة كما كان يُرمى رسول الله ﷺ وهو يتضوّر وقد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح ثم كشف عن رأسه فقالوا: إنك لئيم قد كان صاحبك نرميه فلا يتضوّر وأنت تتضوّر وقد استنكرنا ذلك، قال: وخرج - يعني رسول الله ﷺ بالناس في غزوة تبوك - فقال له علي: أخرج معك؟ فقال له النبي ﷺ: «لا» فبكى علي فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست بنبي؟ إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي» قال: وقال له رسول الله ﷺ: «أنت ولي كل مؤمن بعدي» قال وسد أبواب المسجد غير باب علي قال: فيدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره، قال: وقال: «من كنت مولاه فإن مولاه عليٌّ».

قال: وأخبرنا الله في القرآن أنه قد رضي عن أصحاب الشجرة فعلم ما في قلوبهم فهل حدثنا أنه سخط عليهم بعد؟.

قال: وقال نبي الله ﷺ لعمر حين قال: ائذن لي أن أضرب عُنقه - يعني حاطب بن أبي بلتعة - قال: «وكنتَ فاعلاً؟ وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»

وقد روى الترمذي [٣٧٢٢] بعضه من طريق شعبة عن أبي بلج يحيى بن أبي سليم واستغربه. وأخرج النسائي [كبرى (٨٤٢٧، ٨٤٢٨)] بعضه أيضاً عن محمد بن المثنى عن يحيى بن حماد به.

رواية عمران وقال البخاري في التاريخ: حدثنا عمر بن عبد الوهاب الرياحي حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن منصور عن ربعي عن عمران بن حصين. قال: قال رسول الله ﷺ: «لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فبعث إلى علي وهو أرمد فتفل في عينيه وأعطاه الراية فما رد وجهه حتى فتح الله عليه، وما اشتكاهما بعد».

ورواه أبوالقاسم البغوي عن إسحاق بن إبراهيم عن أبي موسى الهروي عن علي بن هاشم عن محمد بن علي عن منصور عن ربعي عن عمران فذكره.

وأخرجه النسائي [كبرى (٨١٥٠، ٨٤٠٧)] عن عباس العنبري عن عمر بن عبد الوهاب به.

رواية أبي سعيد في ذلك:

قال الإمام أحمد [١٦/٣]: حدثنا مصعب بن المقدام وحجين بن المثنى قالا: حدثنا إسرائيل حدثنا عبد الله بن عصمة قال سمعت أبا سعيد الخدري يقول: إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزها ثم قال: «من يأخذها بحقها؟» فجاء بلال فقال: أنا فقال: «أمِطْ» ثم جاء رجل آخر فقال أنا فقال «أمِطْ» ثم قال النبي ﷺ: «والذي أكرم وجه محمد لأعطينها رجلا لا يفر»، فجاء علي فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك وجاء بعجوتهما وقديدهما.

ورواه أبو يعلى [مسنده (١٣٤٦)] عن حسين بن محمد عن إسرائيل وقال في سياقه: فجاء الزبير فقال: أنا فقال: «أمِطْ» ثم جاء آخر فقال: «أمِطْ» وذكره تفرد به أحمد.

رواية علي بن أبي طالب في ذلك:

وقال الإمام أحمد [٩٩/١، ١٣٣]: حدثنا وكيع عن ابن أبي ليلى عن المنهال عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان أبي يسمر مع علي وكان علي يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف فقيل له: لو سألته فسأله فقال: إن رسول الله ﷺ بعث إلي وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت: يا رسول الله إني أرمد العين فتفل في عيني وقال: «اللّهم أذهب عنه الحر والبرد» فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ، وقال: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار» فتشرف لها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأعطانيها. تفرد به أحمد.

وقد رواه غير واحد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن المنهال، زاد بعضُهم: والحكم بن عُتيبة، ورواه غير واحد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن علي به مطولا.

وقال أبو يعلى [مسنده (٥٩٣)]: حدثنا زهير حدثنا جرير عن مغيرة عن أم موسى قالت: سمعت عليا يقول: «ما رمدت ولا صدّعت منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر وأعطاني الراية.

رواية سعد بن أبي وقاص في ذلك:

ثبت في الصحيحين [خ: (٣٧٠٦)، م(٢٤٠٤)] من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي.

قال أحمد [١٨٥/١] ومسلم [٢٤٠٤] والترمذي [٣٧٢٤]: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حاتم بن إسماعيل عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال له: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما

يمنعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أمّا ماذكرتُ ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلا؛ لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم سمعت رسول الله ﷺ يقول- وخلّفه في بعض مغازيه - فقال له علي: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوّة بعدي؟» وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال: فتطاولت لها قال «ادعوا لي عليا» فأتي به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأبْنَاءَكُم ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُم وأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُم﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللّهم هؤلاء أهلي». ثم قال الترمذي: حسن صحيح.

وقد رواه أحمد [١٧٩/١] مسلم [٢٤٠٤] والترمذي [٣٧٣١] والنسائي [كبرى (٨٤٣٠، ٨٤٣٣)] من حديث سعيد بن المسيب عن سعد أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وقال الترمذي: ويستغرب من رواية سعيد عن سعد.

وقال الإمام أحمد [١٤٨/١]: حدثنا أحمد الزبيري حدثنا عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت عن حمزة بن عبد الله عن أبيه - يعني عبد الله بن عمر - عن سعد قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك خلف عليا فقال: أتخلفني؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»

وهذا بإسناد جيد ولم يخرجوه.

وقال أحمدُ: حدثنا محمدُ بنُ جعفر، ثنا شعبةُ، عن سعدِ بن إبراهيمَ، سمعتُ إبراهيمَ بنَ سعدٍ يُحدثُ عن سعدٍ، عن النبيِّ ﷺ [٦٨/٦ظ] أنه قال لعليٍّ: «أما تَرْضَى أن تكون منى بمنزلةِ هارونَ من موسى؟» أخرجاه من حديثِ محمدِ بنِ جعفرٍ به.

وقال أحمد [١٧٠/١]: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا سليمان بن بلال حدثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن الجعفي عن عائشة بنت سعد عن أبيها: أن عليا خرج مع رسول الله ﷺ حتى جاء ثنية الوداع وعلي يبكي يقول: تخلفني مع الخوالف؟ فقال: «أو ما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة؟».

وهذا إسناد صحيح أيضاً ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة العبدي: حدثنا محمد بن خازم أبو معاوية الضرير عن موسى بن مسلم الشيباني عن عبد الرحمن بن سابط عن سعد بن أبي وقاص قال: قدم معاوية في بعض حجاته فأتاه سعد بن أبي وقاص فذكروا عليا فقال سعد سمعت رسول الله ﷺ يقول له ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من الدنيا وما فيها. سمعته يقول «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وسمعته يقول: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله»، وسمعته يقول: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» إسناده حسن ولم يخرجوه.

وقال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا أحمد بن خالد الوهبي أبو سعيد حدثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه قال: لما حج معاوية أخذ بيد سعد بن أبي وقاص فقال: يا أبا إسحاق إنا قوم قد أجفانا هذا الغزو عن الحج حتى كدنا أن ننسى بعض سننه فطف نطف بطوافك؛ قال: فلما فرغ أدخله دار الندوة فأجلسه معه على سريره ثم ذكر علي بن أبي طالب فوقع فيه فقال: أدخلتني دارك وأجلستني على سريرك ثم وقعت في علي تشتمه؟! والله لأن يكون فيَّ إحدى خلا له الثلاث أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، ولأن يكون لي ما قال له حين غزا تبوكا «الا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟» لأحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن يكون لي ما قال له يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار» أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ولأن أكون صهره على ابنته ولي منها من الولد ما له أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، لا أدخل عليك داراً بعد هذا اليوم ثم نفض رداءه ثم خرج.

وقال أحمد [١٨٢/١]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبي وقاص قال: خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟» إسناده على شرطهما ولم يخرجاه.

وهكذا رواه أبو عوانة عن الأعمش عن الحكم بن مصعب عن أبيه. ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن عاصم عن مصعب عن أبيه فالله أعلم. وقد رواه غير واحد عن عائشة بنت سعد عن أبيها.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة منهم عمر وعلي وابن عباس وعبد الله بن جعفر ومعاوية وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وأبو سعيد والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن أبي أوفى ونبيط بن شريط وحبشي بن جناده ومالك بن الحويرث وأنس بن مالك وأبو الفيل، وأم سلمة وأسماء بنت عميس، وفاطمة بنت حمزة.

وقد تقصى الحافظ ابن عساكر هذه الأحاديث في ترجمة علي في تاريخه فأجاد وأفاد وبرز على النظراء والأشباه والأنداد. رحمه رب العباد يوم التناد.

رواية عمر رضي الله عنه في ذلك:

قال أبو يعلى: حدثنا عبد الله بن عمر حدثنا عبد الله بن جعفر اخبرني سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال عمر: لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي خصلة منها أحب إلي من حمر النعم. قيل: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ لا يحل لي فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر.

وقد روي عن عمر من غير وجه.

رواية ابن عمر رضي الله عنهما:

وقد رواه الإمام أحمد [٢٦/٢] عن وكيع عن هشام بن سعد عن عمر بن أسيد عن ابن عمر قال: «كنا نقول في زمان رسول الله ﷺ: رسول ا لله خير الناس، ثم خير الناس أبو بكر ثم عمر ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاثا لأن أكون أعطيتهن أحب إلي من حمر النعم. فذكر هذه الثلاث.

وقد روى أحمد [٣٣٨/٣] والترمذي [٣٧٣٠] من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»

وورواه أحمد [٣٢/٣] من حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

ورواه الطبراني [الأوسط (١٤٨٨)] من طريق عبد العزيز بن حكيم عن ابن عمر مرفوعاً.

ورواه سلمة بن كهيل عن عامر بن سعد عن أبيه وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟» قال سلمة: وسمعت مولى لبني موهبة يقول: سمعت ابن عباس يقول: قال النبي ﷺ . مثله.

تزويجه فاطمة الزهراء رضي الله عنهما:

قال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن أبيه سمع رجلاً علياً على منبر الكوفة يقول: «أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته ثم ذكرت أن لا شيء لي ثم ذكرت عائدته وصلته فخطبتها، فقال: «هل عندك شيء؟» قلت: لا! قال: «فأين درعك الحطيمة التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟» قلت عندي، قال: «فأعطها» فأعطيتها فزوجني فلما كان ليلة دخلت عليها قال: «لا تحدثا شيئا حتى آتيكما»، قال: فأتانا وعلينا قطيفة أو كساء فتخشخشنا فقال: «مكانكما»، ثم دعا بقدح من ماء فدعا فيه ثم رشه عليَّ وعليها، فقلت: يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي؟ قال: «هي أحب إلي وأنت أعز علي منها».

وقد روى النسائي [كبرى (١٠٠٨٧، ١٠٠٨٨)] من طريق عبد الكريم بن سليط عن ابن بريدة عن أبيه فذكره بأبسط من هذا السياق، وفيه: أنه أولم عليها بكبش من عند سعد وآصع من الذرة من عند جماعة من الأنصار، وأنه دعا لهما بعدما صب عليهما الماء، فقال: «اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في شملهما» - يعني الجماع.

وقال محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: لما خطب علي فاطمة دخل عليها رسول الله ﷺ فقال لها: «أي بنية! إن ابن عمك علياً قد خطبك فماذا تقولين؟» فبكت ثم قالت: كأنك يا أبت إنما دخرتني لفقير قريش؟ فقال: «والذي بعثني بالحق ما تكلمت فيه حتى أذن الله لي فيه من السماء»، فقالت فاطمة: رضيت بما رضي الله لي ورسوله. فخرج من عندها واجتمع المسلمون إليه ثم قال: «يا علي اخطب لنفسك» فقال علي: الحمد لله الذي لا يموت وهذا محمد رسول الله زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم فاسمعوا ما يقول واشهدوا، قالوا: ما تقول يا رسول الله؟ قال: «أشهدكم إني قد زوجته».

رواه ابن عساكر وهو منكر.

وقد ورد في هذا الفصل أحاديث كثيرة منكرة وموضوعة ضربنا عنها لئلا يطول الكتاب بها. وقد أورد منها الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» مع ضعفها ووضعها طرفاً جيداً.

وروى وكيع عن أبي خالد عن الشعبي قال قال علي: «ما كان لنا إلا إهاب كبش نتام على ناحيته وتعجن فاطمة على ناحيته».

وفي رواية مجالد عن الشعبي: ونعلف عليه الناضح بالنهار وما لي خادم عليها غيرها.

حديث آخر: قال أحمد [٣٦٩/٤]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن ميمون أبي عبد الله عن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد قال: فقال يوماً: «سدوا هذه الأبواب إلا باب علي» قال: فتكلم في ذلك أناسٌ فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي فقال فيه قائلكم وإني والله ما سددت شيئا ولا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته».

وقد رواه أبو الأشهب عن عوف عن ميمون عن البراء بن عازب فذكره.

وقد تقدم مارواه أحمد والنسائي من حديث أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس الحديث الطويل وفيه: سد الأبواب غير باب علي.

وكذا رواه شعبة عن أبي بلج عن ابن عباس.

ورواه سعد بن أبي وقاص: قال أحمدُ: ثنا حجاجٌ، ثنا فِطْرٌ، عن عبد الله بن شريك، عن عبدِ اللهِ بن الأرْقَم الكِنانِّي قال: خرجْنا إلى المدينة زمنَ الجملِ فلقينا سعدَ بن مالكٍ بها فقال: أمر رسولُ اللهِ ﷺ بسدِّ الأبواب الشارعة في المسجد وترْكِ بابِ عليٍّ. تفرَّدَ به أحمدُ.

طريقٌ أخرى عن سعدٍ: قال أبو يعلى [مسنده(٧٠٣)] حدثنا موسى بن محمد بن حيّان حدثنا محمد بن إسماعيل بن جعفر الطحان حدثنا غسان بن بشر الكاهلي عن مسلم عن خيثمة عن سعد «أن رسول الله ﷺ سد أبواب الناس في المسجد وفتح باب علي فقال الناس في ذلك فقال: «ما أنا فتحته ولكن الله فتحه» وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري [٤٦٦] من أمره عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي مات فيه بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر الصديق لأن نفي هذا في حقِّ عليٍّ كان في حال حياته لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها، فجعل هذا رفقا بها، وأما بعد وفاته فزالت هذه العلة فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام وفيه إشارة إلى خلافته.

وقال الترمذي [٣٧٢٧]: حدثنا علي بن المنذر حدثنا ابن فضيل عن سالم بن أبي حفصه عن عطية عن أبي سعيد. قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا يحل لأحد يجنب في المسجد غيري وغيرك» قال علي بن المنذر: قلت لضرار بن صرد: ما معنى هذا الحديث؟ قال: لا يحل لأحد يستطرقه جنباً غيري وغيرك. ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد سمع محمد بن إسماعيل مني هذا الحديث فاستغربه.

وقد رواه ابن عساكر من طريق كثير النواء عن عطية عن أبي سعيد به.

ثم أورده من طريق أبي نعيم: حدثنا عبد الملك بن أبي غَنِيَّة عن أبي الخطاب عمر الهَجَري عن محدوج عن جسرة بنت دجاجة أخبرتني أم سلمة قالت: خرج النبي ﷺ في بيته حتى انتهى إلى صرحة المسجد فنادى بأعلى صوته: «إنه لا يحل المسجد لجنب ولا لحائض إلا لمحمد وأزواجه وعلي وفاطمة بنت محمد ألا هل بينت لكم الأسماء أن تضلوا».

وهذا إسناد غريب وفيه ضعف، ثم ساقه من حديث أبي رافع بنحوه وفي إسناده غرابة أيضاً.

حديث آخر: قال الحاكم [المستدرك: ١١٠/٣] وغير واحد [مسند أحمد: ٣٤٧/٥] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن بريدة بن الحصيب: قال غزوت مع علي إلى اليمن فرأيت منه جفوة فقدمت على رسول الله ﷺ

فذكرت عليا فتنقصته فرأيت وجه رسول اللّه ﷺ يتغير فقال: «يابريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فقلت: بلى يا رسول اللّه. فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

وقال الإمام أحمد [٣٥٦/٥] : حدثنا ابن نمير، حدثنا الأجلح الكندي عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه بريدة قال: «بعث رسول اللّه ﷺ بعثين إلى اليمن على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الأخرى خالد بن الوليد وقال: «إذا التقيتما فعلي على الناس وإذا افترقتما فكل واحد منكما على جنده»، قال: فلقينا بني زيد من أهل اليمن فاقتتلنا فظهر المسلمون على المشركين فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية فاصطفى عليٌّ امرأة من السبي لنفسه، قال بريدة: فكتب معي خالد بن الوليد إلى رسول اللّه ﷺ يخبره بذلك، فلما أتيت رسول اللّه ﷺ دفعت إليه الكتاب فقرئ عليه فرأيت الغضب في وجه رسول اللّه ﷺ فقلت: يا رسول اللّه هذا مكان العائذ بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه فبلّغت ما ارسلت به، فقال رسول اللّه ﷺ «لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي».

هذه اللفظة منكرة والأجلح شيعي ومثله لا يقبل إذا تفرد بمثلها، وقد تابعه فيها من هو أضعف منه واللّه أعلم. والمحفوظ في هذا رواية أحمد [٣٥٨/٥، ٣٦١] عن وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من كنت وليّه فعلي وليه».

ورواه أحمد [٣٥٠/٥] أيضاً والحسن بن عرفة، عن أبي معاوية، عن الأعمش به.

ورواه النسائي [كبرى (٨١٤٤، ٨٤٦٥)] عن أبي كريب عن أبي معاوية به.

وقال أحمد [٣٥٩/٥]: حدثنا روح عن علي بن سويد بن منجوف عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال: «بعث رسول اللّه ﷺ عليا إلى خالد بن الوليد ليقبض الخمس قال فأصبح ورأسه تقطر، فقال خالد لبريدة: ألا ترى ما يصنع هذا؟ قال: فلما رجعت إلى رسول اللّه ﷺ أخبرته ما صنع علي، قال: ـ وكنت أبغض علياً ـ فقال: « يا بريدة أتبغض علياً؟» فقلت: نعم! قال: «لا تبغضه وأحبّه فإن له في الخمس أكثر من ذلك». وقد رواه البخاري في الصحيح [٤٣٥٠] عن بندار عن روح به مطولا.

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الجليل قال: انتهيت إلى حلقة فيها أبو مجلز وابن بريدة فقال عبد اللّه بن بريدة: حدثني أبي بريدة قال: أبغضت علياً بغضاً لم أبغضه أحداً، قال: وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا على بغضه عليّا، قال: فبعث ذلك الرجل على خيل قال: فصحبته ما أصحبه إلا على بغضه علياً فأصبنا سبياً فكتب إلى رسول اللّه ﷺ أن ابعث إلينا من يخمسه، فبعث إلينا علياً قال: وفي السبي وصيفة هي من أفضل السبي ـ فخمس وقسم فخرج ورأسه يقطر، فقلنا: يا أبا الحسن ما هذا؟ قال: ألم ترو إلى الوصيفة التي كانت في السبي؟ فإني قسمت وخمست فصارت في الخمس ثم صارت في أهل بيت النبي ﷺ، ثم صارت في آل علي فوقعت بها، قال: وكتب الرجل إلى نبي اللّه ﷺ فقلت: ابعثني؟ فبعثني مصدقاً، قال: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق، قال: فأمسك يديّ والكتاب قال: «أتبغض علياً؟» قال: قلت: نعم! قال: «فلا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً، فوالذي نفسي بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة»، قال: فما كان في الناس أحد بعد قول رسول اللّه ﷺ أحب إلي من علي. قال عبد اللّه: فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي ﷺ في هذا الحديث غير أبي بريدة.

تفرد به أحمد وقد روى غير واحد هذا الحديث عن أبي الجواب عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن البراء بن عازب نحو رواية بريدة بن الحصيب وهذا غريب.

وقد رواه الترمذي [١٧٠٤، ٣٧٢٥] عن عبد اللّه بن أبي زياد عن أبي الجواب الأحوص بن جواب به وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال الإمام أحمد [٤٣٧/٤]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا جعفر بن سليمان حدثني يزيد الرشك عن مطرف بن عبد اللّه عن عمران بن حصين قال: بعث رسول اللّه ﷺ سرية وأمر عليها علي بن أبي طالب فأحدث شيئا في سفره فتعاهد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول اللّه ﷺ قال عمران: وكنا إذا قدمنا من سفر بدأنا برسول اللّه ﷺ فسلمنا عليه، قال: فدخلوا عليه فقام رجل منهم فقال: يا رسول اللّه إن علياً فعل كذا وكذا فأعرض عنه ثم قام الثاني فقال: يا رسول اللّه إن عليا فعل كذا وكذا، فأعرض عنه ثم قام الثالث فقال: يا رسول اللّه إن عليا فعل كذا وكذا، فأعرضَ عنه، ثم قام الرابع فقال: يا رسول اللّه إن عليا فعل كذا وكذا، قال: فأقبل رسول اللّه صلى ا لله عليه وسلم على الرابع وقد تغير وجهه وقال: «دعوا عليّاً، دعوا عليّاً، إن عليّاً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي».

وقد رواه الترمذي [٣٧١٢] والنسائي [كبرى (٨١٤٦)] عن قتيبة عن جعفر بن سليمان وسياق الترمذي مطول وفيه «أنه أصاب جارية من السبي» ثم قال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان.

ورواه أبو يعلى الموصلي عن عبيد اللّه بن عمر القواريري والحسن بن عمر بن شقيق الحرمي والمعلى بن مهدي كلهم عن جعفر بن سليمان به.

وقال خيثمة بن سليمان: حدثنا أحمد بن حازم أخبرنا عبيد اللّه بن موسى، ثنا يوسف بن صهيب عن رُكين عن وهب بن حمزة قال: سافرت مع علي بن أبي طالب من المدينة إلى مكة، فرأيت منه جفوة فقلت: لئن رجعت فلقيت رسول اللّه ﷺ لأنالن منه، قال: فرجعت فلقيت رسول اللّه ﷺ فذكرت عليا فنلت منه، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «لا تقولن هذا لعلي فإن علياً وليكم بعدي»

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٢٧٥٢)]: عن أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن بن عباس أن رسول اللّه ﷺ قال لعلي: «أنت ولي كل مؤمن بعدي»

وقال الإمام أحمد [٨٦/٣]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثني عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب ـ وكانت عند أبي سعيد الخدري ـ عن أبي سعيد قالت: اشتكى عليا الناس فقام رسول اللّه ﷺ فينا خطيباً فسمعته يقول: «أيها الناس لا تشكوا علياً فواللّه إنه لأخشن في ذات اللّه». أو «في سبيل اللّه».

تفرد به أحمد.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٩٨/٥، ٣٩٩]: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا أبو سهل بن زياد القطان حدثنا أبو إسحاق القاضي حدثنا إسماعيل بن أبي إدريس حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة عن أبي سعيد قال: بعث رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن، قال أبو سعيد: فكنت فيمن خرج معه فلما أخذ من إبل الصدقة سألناه أن

نركب منها ونريح إبلنا - وكنا قد رأينا في إبلنا خللا - فأبى علينا وقال: إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، قال: فلما فرغ علي وانصفق من اليمن راجعاً، أمر علينا إنسانا فأسرع هو فأدرك الحج، فلما قضى حجته قال له النبي ﷺ: «ارجع إلى أصحابك حتى تقدم عليهم». قال أبو سعيد: وقد كنا سألنا الذي استخلفه ما كان علي منعنا إياه ففعل، فلما جاء علي عرف في إبل الصدقة أنها قد ركبت - رأى أثر المراكب - فذم الذي أمره ولامه، فقلت: أما إن للّه علي إن قدمت المدينة لأذكرن لرسول اللّه ﷺ ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق، قال: فلما قدمنا المدينة غدوت إلى رسول اللّه ﷺ أريد أن اذكر له ما كنت حلفت عليه فلقيت أبا بكر خارجاً من عند رسول اللّه ﷺ فلما رآني وقف معي ورحب بي وساءلني وساءلته وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة، فرجع معي إلى رسول اللّه ﷺ فدخل فقال: هذا سعد بن مالك بن الشهيد، قال: «ائذن له» فدخلت فحييت رسول اللّه ﷺ وحياني وسلّم عليَّ وسألني عن نفسي وعن أهلي فأحفى المسألة فقلت: يا رسول اللّه لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق، فابتدر رسول اللّه ﷺ وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه حتى إذا كنت في وسط كلامي ضرب رسول اللّه ﷺ على فخذي - وكنت منه قريباً - وقال: «سعد بن مالك بن الشهيد مه بعض قولك لأخيك علي، فواللّه لقد علمت أنه أخشنُ في سبيل اللّه»، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك سعد بن مالك ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدري، لا جرم واللّه لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية»:

وقال يونس بن بكير. عن محمد بن إسحاق حدثني أبان بن صالح عن عبد اللّه بن دينار الأسلمي عن خاله عمرو بن شأس الأسلمي - وكان من أصحاب الحديبية - قال: كنت مع علي في خيله التي بعثه فيها رسول اللّه ﷺ إلى اليمن، فجفاني علي بعض الجفاء فوجدت عليه في نفسي، فلما قدمت المدينة اشتكيته في مجالس المدينة وعند من لقيته فأقبلت يوماً ورسول اللّه ﷺ جالس في المسجد فلما رآني أنظر إلى عينيه نظر إلي حتى جلست إليه فلما جلست إليه قال: أما إنه واللّه ياعمرو لقد آذيتني»، فقلت: إنا للّه وإنا إليه راجعون أعوذ باللّه والإسلام أن أؤذي رسول اللّه ﷺ فقال: «من آذى عليا فقد آذاني»

وقد رواه الإمام أحمد [٤٨٣/٣] عن يعقوب عن أبيه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح عن الفضل بن معقل عن عبد اللّه بن دينار عن خاله عمرو بن شأس فذكره.

وكذا رواه غير واحد عن محمد بن إسحاق عن أبان عن الفضل.

وكذلك رواه سيف بن عمر عن عبد اللّه بن سعيد عن أبان بن صالح به ولفظه: «فقال رسول اللّه ﷺ: «من آذى مسلماً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللّه».

وروى عباد بن يعقوب الرواجني عن موسى بن عمير عن عقيل بن نجدة بن هبيرة عن عمرو بن شأس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ياعمرو إن من آذى علياً فقد آذاني».

وقال أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا قنّان بن عبد اللّه النهمي حدثنا مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: كنت جالساً في المسجد أنا ورجلان معي فنلنا من علي فأقبل رسول اللّه ﷺ يعرف في وجهه الغضب فتعوذت باللّه من غضبه فقال: «ما لكم وما لي؟ من آذى عليّا فقد آذاني».

حديث غدير خم:

قال الإمام أحمد [٣٧٠/٤]: حدثنا حسين بن محمد وأبو نعيم المعنى قالا: حدثنا فطر عن أبي الطفيل قال: جمع علي الناس في الرحبة ثم قال لهم: أنشد اللّه كل امرئ مسلم سمع رسول اللّه ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام، فقام ثلاثون من الناس - قال أبو نعيم: فقام ناس كثير - فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس: «أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: نعم يا رسول اللّه قال: «من كنت مولاه فهذا مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه». قال: فخرجت كأن في نفسي شيئا فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا. قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول ذلك له.

ورواه النسائي [كبرى (٨٤٦٤)] من حديث حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عنه أتم من ذلك.

وقال أبو بكر الشافعي: حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث حدثنا عبيد اللّه بن موسى حدثنا أبو إسرائيل الملائي عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن عن زيد بن أرقم: أن علياً انتشد الناس: من سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه» فقام ستة عشر رجلا فشهدوا بذلك وكنت فيهم.

وقال أبو يعلى [مسنده (٥٦٧)] وعبد اللّه بن أحمد في مسند أبيه [١١٩/١]: حدثنا القواريري حدثنا يونس بن أرقم حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شهدت عليّاً في الرحبة يناشد الناس: أنشد باللّه من سمع رسول اللّه ﷺ يقول يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه» لما قام فشهد قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر بدرياً كأني أنظر إلى أحدهم عليه سراويل فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول اللّه ﷺ يقول يوم غدير خم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي أمهاتهم؟» قلنا: بلى يا رسول اللّه، قال: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

ثم رواه عبد اللّه بن أحمد [١١٩/١] عن أحمد بن عمر الوكيعي عن زيد بن الحباب عن الوليد بن عقبة بن نزار عن سماك بن عبيد بن الوليد العنسي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فذكره، قال: فقام اثنا عشر رجلا فقالوا: قد رأيناه وسمعناه حين أخذ بيده يقول: «اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

وهكذا رواه أبو داود الطهوي - واسمه عيسى بن مسلم - عن عمرو بن عبد اللّه بن هند الجملي وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فذكره بنحوه، قال الدارقطني: غريب تفرد به عنهما أبو داود الطهوي.

قال الطبراني [الأوسط (٢٢٧٥)، والصغير: ٦٤/١] : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن كيسان المديني سنة تسعين ومائتين. حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي حدثنا مسعر عن طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال: شهدت عليّاً على المنبر يناشد أصحاب رسول اللّه ﷺ من سمع رسول اللّه ﷺ يوم غدير خم يقول ما قال؟ فقام اثنا عشر رجلا منهم أبوهريرة وأبو سعيد وأنس بن مالك فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللّه ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

ورواه أبو العباس بن عقدة الحافظ الشيعي عن الحسن بن علي بن عفان العامري عن عبد اللّه بن موسى عن فطر، عن أبي إسحاق، عن

عمرو ذي مُرٍّ وسعيد بن وهب وعن زيد بن يُثَيع قالوا: سمعنا عليا يقول في الرحبة فذكر نحوه فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا أن رسول اللّه ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه وابغض من أبغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله» قال أبو إسحاق حين فرغ من هذا الحديث: يا أبا بكر أي أشياخ هم؟.

وكذلك رواه عبد اللّه بن أحمد [١١٨/١] عن علي بن حكيم الأودي عن شريك عن أبي إسحاق فذكر نحوه.

وقال عبد الرزاق عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن وهب وعبد خير قالا: سمعنا عليا برحبة الكوفة يقول: أنشد اللّه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقام عدة من أصحاب رسول اللّه صلى ا لله عليه وسلم فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللّه ﷺ يقول ذلك.

وقال الإمام أحمد [فضائل الصحابة (١٠٢١)]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت سعيد بن وهب قال: نشد علي الناس فقام خمسة أو ستة من أصحاب رسول اللّه ﷺ فشهدوا أن رسول اللّه ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»

وقال أحمد [٤١٩/٥]: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا حنش بن الحارث بن لقيط الأشجعي عن رياح بن الحارث قال: جاء رهط إلى علي بالرحبة فقالوا: السلام عليك يا مولانا. فقال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟ قالوا: سمعنا رسول اللّه ﷺ يوم غدير خم يقول: «من كنت مولاه فإن هذا مولاه» قال رياح: فلما مضوا اتبعتهم فسألت: من هؤلاء؟ قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة [المصنف: (١٢١٢٢)] : حدثنا شريك عن حنش عن رياح بن الحارث قال: بينا نحن جلوس في الرحبة مع علي إذ جاء رجل عليه أثر السفر فقال: السلام عليك يامولاي فقال: من هذا؟ فقال أبو أيوب: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه»

وقال أحمد [٨٨/١]: حدثنا محمد بن عبد اللّه حدثنا الربيع - يعني ابن أبي صالح الأسلمي - حدثني زياد بن أبي زياد الأسلمي سمعت علي بن أبي طالب ينشد الناس فقال: أنشد اللّه رجلا مسلما سمع رسول اللّه ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال، فقام اثنا عشر رجلا بدرياً فشهدوا.

وقال أحمد [٨٤/١]: حدثنا ابن نمير حدثنا عبد الملك عن أبي عبد الرحمن الكندي عن زاذان أبي عمر قال: سمعت علياً في الرحبة وهو ينشد الناس: من شهد رسول اللّه ﷺ يوم غدير خم وهو يقول ماقال؟ فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللّه ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

وقال عبد اللّه بن أحمد [١٥٢/١]: حدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا شبابة حدثنا نعيم بن حكيم حدثني أبو مريم ورجل من جلساء علي عن علي أن رسول اللّه ﷺ قال يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه» قال: فزاد الناس بعد: «اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وقد روي هذا من طرق متعددة عن علي رضي اللّه عنه، وله طرق متعددة عن زيد بن أرقم.

وقال غندر عن شعبة عن سلمة بن كهيل سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سَرِيحة أو زيد بن أرقم - شعبة الشاك - قال قال رسول اللّه ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

قال سعيد بن جبير: وأنا قد سمعته قبل هذا من ابن عباس.

رواه الترمذي [ت (٣٧١٣)] عن بندار عن غندر وقال: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد [٣٧٢/٤]: حدثنا عفان، حدثنا أبوعوانة عن المغيرة، عن أبي عبيد عن ميمون بن أبي عبد اللّه قال: قال زيد بن أرقم وأنا أسمع: نزلنا مع رسول اللّه ﷺ بواد يقال له واد خم فأمر بالصلاة فصلاها بهجير قال: فخطبنا وظُلّل لرسول اللّه ﷺ بثوب على شجرة سَمُر من الشمس فقال: «ألستم تعلمون - أو ألستم تشهدون - أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى! قال: «فمن كنت مولاه فإن عليا مولاه، اللّهم عاد من عاداه ووال من والاه».

وكذا رواه أحمد [٣٧٢/٤، ٣٧٣] عن غندر عن شعبة عن ميمون بن أبي عبد اللّه عن زيد بن أرقم.

وقد رواه عن زيد بن أرقم جماعة منهم أبو إسحاق السبيعي وحبيب الإسكاف وعطية العوفي وأبو عبد اللّه الشامي وأبو الطفيل عامر بن واثلة.

وقد رواه معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال: لما قفل رسول اللّه ﷺ من حجة الوداع نهى أصحابه عن شجرات بالبطحاء متقاربات أن ينزلوا حولهن، ثم بعث إليهن فصلى تحتهن ثم قام فقال: «أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، وإني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك اللّه خيراً، قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأنّ البعث بعد الموت حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن اللّه يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللّهم اشهد». ثم قال: «يا أيها الناس إن اللّه مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم من كنت مولاه فهذا مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ثم قال: «أيها الناس إني فرطكم وإنكم واردون عليَّ الحوض حوضٌ أعرض مما بين بصرى وصنعاء فيه آنية عدد النجوم قدْحان من فضة، وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما؛ الثقل الأكبر كتاب اللّه سبب طرفه بيد اللّه وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

رواه ابن عساكر بطوله من طريق معروف كما ذكرنا.

وقال عبد الرزاق: أنا معمر عن علي بن زيد بن جدعان عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ حتى نزلنا غديرخم فبعث منادياً ينادي، فلما اجتمعنا قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قلنا: بلى يا رسول اللّه! قال: «ألست أولى بكم من أمهاتكم؟» قلنا: بلى يا رسول اللّه. قال: «ألست أولى بكم من آبائكم؟» قلنا: بلى يا رسول اللّه! قال: «ألست؟ ألست؟ ألست؟» قلنا: بلى يا رسول اللّه قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه» فقال عمر بن الخطاب: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت اليوم ولي كل مؤمن.

وكذا رواه ابن ماجه [١١٦] من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جُدعان.

وورواه أبو يعلى عن هُدبة بن خالد وإبراهيم بن الحجاج السامي عن حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد وأبي هارون العبدي عن عدي بن ثابت

عن البراء به.

وهكذا رواه موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء به.

وقد روى هذا الحديث عن سعد وطلحة بن عبيد الله وجابر بن عبد الله وله طرق عنه وأبي سعيد الخدري وحبشي بن جنادة وجرير بن عبد الله وعمر بن الخطاب وأبي هريرة، وله عنه طرق منها - وهي أغربها - الطريق الذي قال:

الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٢٩٠/٨]: حدثنا عبد الله بن علي بن محمد بن بشران أنا علي بن عمر الحافظ أنا أبو نصر حبشون بن موسى بن أيوب الخلال حدثنا علي بن سعيد الرملي حدثنا ضمرة بن ربيعة القرشي عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: من صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً وهو يوم غديرخم لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: «ألست ولي المؤمنين؟» قالوا بلى يا رسول الله! قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم فأنزل الله عز وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣]. ومن صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهراً وهو أول يوم نزل جبريل بالرسالة.

قال الخطيب: اشتهر هذا الحديث برواية حبشون وكان يقال: إنه تفرد به، وقد تابعه عليه أحمد بن عبيد الله بن العباس بن سالم بن مهران المعروف بابن النَّيريّ، عن علي بن سعيد الشامي.

قلت: وفيه نكارة من وجوه منها:

قوله نزل فيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣] وقد ورد مثله من طريق ابن هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ولا يصح أيضاً، وإنما نزل ذلك يوم عرفة كما ثبت في الصحيحين [خ: (٤٥)، م(٣٠١٧)] عن عمر بن الخطاب وقد تقدم. وقد روي عن جماعة من الصحابة غير من ذكرنا في قوله عليه الصلاة والسلام «من كنت مولاه» والأسانيد إليهم ضعيفة.

حديث الطير:

وهذا الحديث قد صنف الناس فيه وله طرق متعددة وفي كل منها نظر ونحن نشير إلى شيء من ذلك:

قال الترمذي [٣٧٢١]: حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا عبيد الله بن موسى عن عيسى بن عمر عن السُّدي، عن أنس قال: كان عند النبي ﷺ طير فقال: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير» فجاء علي فأكل معه، ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه من حديث السُّدي إلا من هذا الوجه، قال: وقد روى من غير وجه عن أنس.

وقد رواه أبو يعلى [مسنده (٤٠٥٢)] عن الحسن بن حماد عن شهر بن عبد الملك عن عيسى بن عمر به.

وقال أبو يعلى: حدثنا قطن بن بشير حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي حدثنا عبد الله بن مثنى حدثنا عبد الله بن أنس عن أنس بن مالك قال: أهدي لرسول الله ﷺ حَجَل مشوي بخبزه وصِنابه فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطعام» فقالت عائشة: اللّهم اجعله أبي، وقالت حفصة: اللّهم اجعله أبي، وقال أنس: وقلت: اللّهم اجعله سعد بن عبادة، قال أنس: فسمعت حركة بالباب فخرجتُ فإذا عليٌّ، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة. فانصرَفَ ثم سمعت حركة بالباب فخرجت فإذا علي بالباب، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة فانصرف ثم سمعت حركة بالباب فسلم عليٌّ فسمع رسول الله ﷺ صوته فقال: «انظر من هذا؟» فخرجت فإذا هو علي فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ائذن له». فدخل عليٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم واليَّ، اللّهم واليَّ».

ورواه الحاكم في مستدركه [١٣٠/٣، ١٣١] عن أبي علي الحافظ عن محمد بن أحمد الصفار وحميد بن يونس الزيات كلاهما عن محمد بن أحمد بن عياض عن أبي غسان أحمد بن عياض عن أبي طَيبة عن يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن أنس فذكره.

وهذا إسناد غريب.

ثم قال الحاكم: هذا الحديث على شرط البخاري ومسلم. وهذا فيه نظر، فإن أبا علاثة محمد بن أحمد بن عياض هذا غير معروف لكن روى هذا الحديث عنه جماعة عن أبيه، وممن رواه عنه أبو القاسم الطبراني [الأوسط (٦٥٥٧)] ثم قال: تفرد به عن أبيه والله أعلم.

قال الحاكم: وقد رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً.

قال شيخنا الحافظ الكبير أبوعبد الله الذهبي: وَصْلُهم بثقة يصح الإسناد إليه. ثم قال الحاكم: وصحت الرواية عن علي وأبي سعيد وسفينة.

قال شيخنا أبو عبد الله: لا والله ما صح شيء من ذلك.

ورواه الحاكم [١٣٠/٣، ١٣١] من طريق إبراهيم بن ثابت القصار - وهو مجهول - عن ثابت البناني عن أنس قال: دخل محمد بن الحجاج فجعل يسب علياً فقال أنس: اسكت عن سب علي. فذكر الحديث مطولا وهو منكر سنداً ومتناً، ثم لم يورد الحاكم في مستدركه غير هذين الحديثين.

وقد رواه ابن أبي حاتم عن عمار بن خالد الواسطي عن إسحاق الأزرق عن عبد الملك بن أبي سليمان عن أنس. وهذا أجود من إسناد الحاكم.

ورواه عبد الله بن زياد أبو العلاء عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أنس بن مالك. فقال: أهدي لرسول الله ﷺ طير مشوي فقال: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير» فذكر نحوه.

ورواه محمد بن مُصَفَّى عن حفص بن عمر عن موسى بن مسعود عن الحسن عن أنس فذكره.

ورواه علي بن الحسن الشامي عن خليد بن دعلج عن قتادة عن أنس بنحوه.

ورواه أحمد بن يزيد الورتنيسي عن زهير عن عثمان الطويل عن أنس فذكره.

ورواه عبيد الله بن موسى عن سُكين بن عبد العزيز عن ميمون أبي خلف حدثني أنس بن مالك فذكره.

قال الدارقطني: هذا حديث غريب من حديث ميمون أبي خلف تفرد به سُكين بن عبد العزيز.

ورواه الحجاج بن يوسف بن قتيبة عن بشر بن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس.

ورواه ابن يعقوب إسحاق بن الفيض حدثنا المضاء بن الجارود عن عبد العزيز بن زياد أن الحجاج بن يوسف دعا أنس بن مالك من البصرة

فسأله عن علي بن أبي طالب فقال: أهدي للنبي ﷺ طائر فأمر به فطبخ وصنع فقال: «اللّهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي». فذكره.

وقال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٧١/٣]: أنا الحسن بن أبي بكر أنا أبو بكر محمد بن العباس بن نجيح حدثنا محمد بن القاسم النحوي أبو عبد الله حدثنا أبوعاصم عن أبي الهندي عن أنس فذكره.

ورواه الحكم بن محمد عن محمد بن سليم عن أنس بن مالك فذكره.

وقال أبو يعلى [مسنده: (٤٠٥٢)]: حدثنا الحسن بن حماد الوراق، حدثنا مسهر بن عبد الملك بن سلع - ثقة -، حدثنا عيسى بن عمر عن إسماعيل السدي أن رسول اللّه ﷺ كان عنده طائر فقال: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير»، فجاء أبو بكر فرده، ثم جاء عمر فرده ثم جاء عثمان فرده ثم جاء علي فأذن له.

وقال أبو العباس بن عقدة حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن حدثنا يوسف بن عدي، حدثنا حماد بن المختار الكوفي حدثنا عبد الملك بن عمير عن أنس بن مالك قال: أهدي لرسول اللّه ﷺ طائر فوضع بين يديه فقال: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي» قال: فجاء علي فدق الباب فقلت: من ذا؟ فقال: أنا علي، فقلت: إن رسول اللّه ﷺ على حاجة. حتى فعل ذلك ثلاثاً، فجاء الرابعة فضرب الباب برجله فدخل فقال النبي ﷺ: «ما حَبَسك؟» فقال: قد جئت ثلاث مرات فيحبسُني أنس، فقال النبي ﷺ: «ما حملك على ذلك؟» قال قلت: كنت أحب أن يكون رجلا من قومي» وقد رواه الحاكم النيسابوري عن عبدان بن يزيد عن يعقوب الدقاق عن إبراهيم بن الحسين الكسائي عن أبي توبة الربيع بن نافع عن حسين بن سليمان بن عبد الملك بن عمير عن أنس فذكره، ثم قال الحاكم: لم نكتبه إلا بهذا الإسناد.

وساقه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤٨/١٢] من حديث الحارث بن نبهان عن إسماعيل ـ رجل من أهل الكوفة ـ عن أنس بن مالك فذكره.

ومن حديث حفص بن عمر المهرقاني عن النجم بن بشير، عن إسماعيل أبي سليمان أخي إسحاق بن سليمان الرازي عن عبد الملك بن أبي سليمان عن أنس فذكره.

ومن حديث سليمان بن قرم عن محمد بن علي السلمي عن أبي حذيفة العقيلي عن أنس فذكره.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام حدثنا ابن فضيل حدثنا مسلم الملائي عن أنس قال: أهدت أم أيمن إلى رسول اللّه ﷺ طيراً مشوياً فقال: «اللّهم ائتني بمن تحبه يأكل معي من هذا الطير»، قال أنس: فجاء علي فستأذن فقلت: هو على حاجته، فرجع ثم عاد فاستأذن فقلت: هو على حاجته فرجع، ثم عاد فاستأذن فسمع النبي ﷺ صوته فقال: «ائذن له» فدخل وهو موضوع بين يديه فأكل منه وحمد اللّه.

فهذه طرق متعددة عن أنس بن مالك وكل منها فيه ضعف ومقال.

وقال شيخنا أبو عبد اللّه الذهبي ـ في جزء جمعه في هذا الحديث بعدما أورد طرقا متعددة نحواً مما ذكرنا: ويروى هذا الحديث من وجوه باطلة أو مظلمة عن حجاج بن يوسف وأبي عصام خالد بن عبيد ودينار أبي مِكْيَس وزياد بن محمد الثقفي وزياد العبسي وزياد بن المنذر وسعد بن ميسرة البكري وسليمان التيمي وسليمان بن علي الأمير وسلمة بن وردان وصبّاح بن محارب وطلحة بن مصرف وأبي الزناد وعبد الأعلى بن عامر وعمر بن راشد وعمر بن أبي حفص الثقفي الضرير وعمر بن سليم البجلي وعمر بن يحيى الثقفي وعثمان الطويل وعلي بن أبي رافع وعيسى بن طهمان وعطية العوفي وعباد بن عبد الصمد وعمار الذهبي وعباس بن علي وفضيل بن غزوان وقاسم بن جندب وكلثوم بن جبر ومحمد بن علي الباقر والزهري ومحمد بن عمرو بن علقمة ومحمد بن مالك الثقفي ومحمد بن جحادة وميمون بن مهران وموسى الطويل وميمون بن جابر السلمي ومنصور بن عبد الحميد ومعلى بن أنس وميمون أبي خلف الحراني وقيل: أبو خالد ومطر أبي خالد ومعاوية بن عبد اللّه بن جعفر وموسى بن عبد اللّه الجهني ونافع مولى ابن عمر والنضر بن أنس بن مالك ويوسف بن إبراهيم ويونس بن خبّاب ويزيد بن سفيان ويزيد بن أبي حبيب وأبي المليح وأبي الحكم وأبي داود السبيعي وأبي حمزة الواسطي وأبي حذيفة العقيلي وإبراهيم بن هدبة. ثم قال بعد أن ذكر الجميع: الجميع بضعة وتسعون نفساً أقربها غرائب ضعيفة وأردؤها طرق مختلفة مفتعلة وغالبها طرق واهية.

وقد روي من حديث سفينة مولى رسول اللّه ﷺ فقال أبو القاسم البغوي وأبو يعلى الموصلي قالا: حدثنا القواريري حدثنا يونس بن أرقم حدثنا مطير بن أبي خالد عن ثابت البجلي عن سفينة مولى رسول اللّه ﷺ قال: أهدت امرأة من الأنصار طائرين بين رغيفين إلى النبي ﷺ ولم يكن في البيت غيري وغير أنس ـ فجاء رسول اللّه ﷺ فدعا بغدائه. فقلت: يا رسول اللّه قد اهدت لك امرأة من الأنصار هدية، فقدمت الطائرين إليه فقال رسول اللّه ﷺ: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك وإلى رسولك»، فجاء علي بن أبي طالب فضرب الباب ضرباً خفيفاً، فقلت: من هذا؟ قال: أبو الحسن، ثم ضرب الباب ورفع صوته فقال رسول اللّه ﷺ: «من هذا؟» قلت: علي بن أبي طالب قال: «افتح له»، ففتحت له فأكل معه رسول اللّه ﷺ من الطيرين حتى فنيا.

وروي عن ابن عباس فقال أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا حسين بن محمد حدثنا سليمان بن قرم عن محمد بن شعيب عن داود بن علي بن عبد اللّه بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس قال: أُتي النبي ﷺ بطائر فقال: «اللّهم ائتني برجل يحبه اللّه ورسوله» فجاء علي فقال: «اللّهم وإليَّ».

وروي عن علي نفسه فقال عباد بن يعقوب: حدثنا عيسى بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علي حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي قال: أهدي لرسول اللّه ﷺ طير يقال له الحُبارَى فوضعت بين يديه ـ وكان أنس بن مالك يحجبه ـ فرفع النبي ﷺ يده إلى اللّه ثم قال: «اللّهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير». قال: فجاء علي فاستأذن فقال له أنس: إن رسول اللّه -يعني- على حاجته، فرجع ثم أعاد رسول اللّه ﷺ الدعاء فرجع ثم دعا الثالثة فجاء علي فأدخله، فلما رآه رسول اللّه قال: «اللّهم وإليَّ». فأكل معه فلما أكل رسول اللّه ﷺ وخرج علي قال أنس اتَّبعتُ علياً فقلت: يا أبا الحسن استغفر لي فإن لي إليك ذنباً وإن عندي بشارة، فأخبرته بما كان من النبي ﷺ فحمد اللّه واستغفر لي ورضي عني أذهب ذنبي عنده بشارتي إياه.

ومن حديث جابر بن عبد اللّه الأنصاري أورده ابن عساكر من طريق عبد اللّه بن صالح كاتب الليث عن ابن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر فذكره بطوله.

وقد روي أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وصححه الحاكم [المستدرك: ١٣١/٣] ولكن إسناده مظلم وفيه ضعف.

وروي من حديث حبشي بن جنادة ولا يصح أيضاً ومن حديث يعلى

بن مرة والإسناد إليه مظلم، ومن حديث أبي رافع نحوه وليس بصحيح بل طريقه مظلم.

وقد جمع الناس في هذا الحديث مصنفات مفردة منهم أبو بكر بن مردويه والحافظ أبو طاهر محمد بن أحمد بن حمدان فيما رواه شيخنا أبو عبد الله الذهبي، ورأيت فيه مجلداً في جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر بن جرير الطبري المفسر صاحب «التاريخ»، ثم وقفت على مجلد كبير في رده وتضعيفه سنداً ومتناً للقاضي أبي بكر الباقلاني المتكلم. وبالجملة ففي القلب من صحة هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقه والله أعلم.

حديث آخر في فضل علي رضي الله عنه:

قال أبو بكر الشافعي: حدثنا بشر بن موسى الأسدي حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار في نخل لها يقال له الأسواف، ففرشت لرسول الله ﷺ تحت صَوْر لها مرشوش فقال رسول الله ﷺ: «الآن يأتيكم رجل من أهل الجنة»، فجاءه أبو بكر، ثم قال: «الآن يأتيكم رجل من أهل الجنة»، فجاء عمر، ثم قال: «الآن يأتيكم رجل من أهل الجنة» قال: فلقد رأيته مطأطئاً رأسه تحت الصَّوْر ثم يقول: «اللهم إن شئت جعلته علياً»، فجاء علي، ثم إن الأنصارية ذبحت لرسول الله ﷺ شاة وصنعتها فأكل وأكلنا فلما حضرت الظهر قام يصلي وصلينا ما توضأ ولا توضأنا، فلما حضرت العصر صلى وما توضأ ولا توضأنا

حديث آخر:

قال أبو يعلى [مسنده (٤٨٥٧)]: حدثنا الحسن بن حماد الكوفي حدثنا ابن أبي غَنِيَّة عن أبيه عن الشيباني عن جميع بن عمير قال: دخلت مع أُمي على عائشة فسألتها عن علي فقالت: ما رأيت رجلا كان أحب إلى رسول الله ﷺ منه، ولا امرأة كانت أحب إلى رسول الله ﷺ من امرأته.

وقد رواه غير واحد من الشيعة عن جميع بن عيمر به.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [٦/٣٢٣]: حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبد الله الجدلي قال: دخلت على أم سلمة فقالت لي: أيسب رسول الله ﷺ فيكم؟ فقلت: معاذ الله ـ أو سبحان الله أو كلمة نحوها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سب علياً فقد سبني».

وقد رواه أبو يعلى [مسنده (٧٠١٣)] عن أبي خيثمة عن عبيد الله بن موسى عن عيسى بن عبد الرحمن البجلي من بَجْلة من سُلَيم عن السدي عن أبي عبد الله الجَدَلي قال: قالت لي أم سلمة أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم على المنابر؟ قال: قلت وأنَّى ذلك؟ قالت: أليس يسب علي ومن أحبه؟ فأشهد أن رسول الله ﷺ كان يحبه.

وقد روي من غير هذا الوجه عن أم سلمة.

وقد ورد من حديثها وحديث جابر وأبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «كذب من زعم أنه يحبني ويبغضك». ولكن أسانيدها كلها ضعيفة لا يحتج بها.

حديث آخر:

قال عبد الرزاق: أنا الثوري عن الأعمش عن عدي بن ثابت عن زر بن حبيش قال: سمعت علياً يقول: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إنه لعهد النبي ﷺ إلي: «إنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

ورواه أحمد [١/٨٤] عن ابن نُمير ووكيع عن الأعمش.

وكذلك رواه أبو معاوية ومحمد بن فضيل وعبد الله بن داود الخُرَيبي وعبيد الله بن موسى ومحاضر بن المورِّع ويحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش به.

وأخرجه مسلم في صحيحه [٧٨] عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش به. ورواه حسان بن حسان عن شعبة عن عدي بن ثابت عن زرّ عن علي فذكره. وقد روي من غير وجه عن علي. وهذا الذي أوردناه هو الصحيح من ذلك والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٦/٢٩٢]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن عبيد الله بن عبد الرحمن أبي نصر حدثني مساور الحميري عن أمه قالت: سمعت أم سلمة تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: «لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق».

وقد روي من غير هذا الوجه عن أم سلمة بلفظ آخر ولا يصح.

وروى ابن عقدة عن الحسن بن علي بن بزيع حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا سوار بن مصعب عن الحكم عن يحيى الجزار عن عبد الله بن مسعود سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زعم أنه آمن بي وبما جئت به وهو يبغض علياً فهو كاذب ليس بمؤمن» وهذا بهذا الإسناد مختلق لا يثبت والله أعلم.

وقال الحسن بن عرفة: حدثني سعيد بن محمد الوراق عن علي بن الحزوَّر سمعت أبا مريم الثقفي سمعت عمار بن ياسر يقول: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي: «طوبى لمن أحبك وصَدّق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك».

وقد روي في هذا المعنى أحاديث كثيرة موضوعة لا أصل لها.

وقال غير واحد عن أبي الأزهر أحمد بن الأزهر: حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ نظر إلى علي فقال: «أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة، من أحبك فقد أحبني وحبيبك حبيب الله ومن أبغضك فقد أبغضني وبغيضك بغيض الله، والويل لمن أبغضك من بعدي» [فضائل الصحابة (١٠٩٢)، المستدرك: ٣/١٢٨].

وروى غير واحد أيضاً عن الحارث بن حصيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجذ عن علي قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إن فيك من عيسى ابن مريم مثلا أبغضته يهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به» قال علي: ألا وإنه يهلك في اثنان محب مطر يُقرِّظني بما ليس في. ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني، ألا وإني لستُ بنبي ولا يوحى إلي، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما استطعت، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم وكرهتم.

لفظ عبد الله بن أحمد [زوائد المسند: ١/١٦٠].

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا علي بن

مسهر عن الأعمش عن موسى بن طريف عن عباية عن علي قال: أنا قسيم النار، إذا كان يوم القيامة قلت: هذا لكِ وهذا لي.

قال يعقوب: وموسى بن طريف ضعيف يحتاج إلى من يعدله، وعباية أقل منه ليس حديثه بشيء. وذكر أن أبا معاوية لام الأعمش على تحديثه بهذا الحديث فقال له الأعمش: إذا نسيت فذكروني. ويقال: إن الأعمش إنما رواه على سبيل الاستهزاء بالروافض والتنقيص لهم في تصديقهم ذلك.

قلت: وما يتوهمه بعض العوام - بل هو مشهور بين كثير منهم - أن علياً هو الساقي على الحوض فليس له أصل ولم يجيء من طريق مرضي يعتمد عليه، والذي ثبت أن رسول الله ﷺ هو الذي يسقي الناس.

وهكذا الحديث الوارد في أنه ليس أحد يأتي يوم القيامة راكباً إلا أربعة: رسول الله ﷺ على البراق، وصالح عن ناقته، وحمزة على العضباء، وعلي على ناقة من نوق الجنة رافعاً صوته بالتهليل، وكذلك ما في أفواه الناس من اليمين بعلي يقول أحدهم: خذ بعلي، أعطني بعلي، ونحو ذلك كل ذلك لا أصل له بل ذلك من نزعات الروافض ومقالاتهم ولا يصح من شيء من هذه الوجوه، وهو من وضع الرافضة ويخشى على من اعتاد ذلك سلب الإيمان عند الموت، ومن حلف بغير الله فقد أشرك.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [٨٣/١، ٨٤]: حدثني يحيى عن شعبة حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي قال: مر بي رسول الله ﷺ وأنا وجع وأنا أقول: اللّهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان آجلاً فارفعني، وإن كان بلاء فصبرني. قال: «ما قلت؟» فأعدت عليه فضربني برجله وقال: «ما قلت؟» فأعدت عليه فقال: «اللّهم عافه» أو «اشفه» فما اشتكيت ذلك الوجع بعد.

حديث آخر:

قال محمد بن مسلم بن وارة: حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا أبو عمر الأزدي عن أبي راشد الحُبْراني عن أبي الحمراء قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى يحيى بن زكريا في زهده وإلى موسى في بطشه فلينظر إلى علي بن أبي طالب».

وهذا منكر جداً ولا يصح إسناده.

حديث رد الشمس له حتى صلى العصر:

ضعيف لا يصح، قد ذكرناه في دلائل النبوة بأسانيده وألفاظه كما تقدم فأغنى عن إعادته.

حديث آخر:

قال أبو عيسى الترمذي [٣٧٢٦]: حدثنا علي بن المنذر الكوفي حدثنا محمد بن فضيل عن الأجلح عن أبي الزبير عن جابر قال: «دعا رسول الله ﷺ علياً يوم الطائف فانتجاه فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال رسول الله ﷺ ما انتجيته ولكن اللّه انتجاه» ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأجلح وقد رواه غير ابن فضيل عن الأجلح ومعنى قوله: «ولكن اللّه انتجاه» أن اللّه أمرني أن انتجي معه.

حديث آخر:

قال الترمذي [٣٧٣٧]: حدثنا محمد بن بشار ويعقوب بن إبراهيم وغير واحد حدثنا أبو عاصم عن أبي الجراح عن جابر بن صبح حدثتني أمي أم شراحيل حدثتني أم عطية قالت: بعث رسول اللّه ﷺ جيشاً فيهم علي قالت: فسمعت رسول الله ﷺ رافعاً يديه يقول: «اللّهم لا تمتني حتى تريني علياً» ثم قال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [١٨٩/١]: حدثنا علي بن عاصم قال: حصين أخبرنا عن هلال بن يساف عن عبد الله بن ظالم المازني قال: لما خرج معاوية من الكوفة استعمل المغيرة بن شعبة قال: فأقام خطباء يقعون في علي، قال: وأنا إلى جنب سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال: فغضب فقام وأخذ بيدي وتبعته فقال: ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه الذي يأمر بلعن رجل من أهل الجنة! وأشهد على التسعة أنهم من أهل الجنة، ولو شهدت على العاشر لم آثم، قال: قلت: وما ذاك؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «اثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» قال: قلت: من هم؟ فقال: رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك. قال: قلت: ومن العاشر؟ قال: قال أنا.

وينبغي أن يكتب ها هنا حديث أم سلمة المتقدم قريباً أنها قالت لأبي عبد الله الجدلي: أيسب رسول الله ﷺ فيكم على المنابر؟ الحديث رواه أحمد أيضاً.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد [١٦٤/٤]: حدثنا يحيى بن آدم وابن أبي بكير قالا: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة السلولي ـ وكان قد شهد حجة الوداع ـ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي».

ثم رواه أحمد [١٦٤/٤، ١٦٥] عن أبي أحمد الزبيري عن إسرائيل.

حديث آخر:

قال أحمد [٣/١]: حدثنا وكيع قال: قال إسرائيل: قال أبو إسحاق عن زيد بن يثيع عن أبي بكر: أن رسول اللّه ﷺ بعثه بـ«براءة» إلى أهل مكة «لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، من كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ مدة فأجله إلى مدته واللّه بريء من المشركين ورسوله». قال: فسار بها ثلاثاً ثم قال لعلي: «الحقه وردَّ على أبا بكر وبلّغها أنت»، قال: فلما قدم أبو بكر على رسول اللّه ﷺ

بكى وقال: يا رسول الله حدث فيَّ شيء؟ قال: «ما حدث فيك إلا خير ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل من أهل بيتي».

وقال عبد الله بن أحمد [١٥١/١ مطولاً]: حدثني محمد بن سليمان لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حبشي عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة دعا رسول الله ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي: «أدرك أبا بكر فحيث لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم»، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: «لا ولكن جبريل جاءني فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك».

وقد رواه كثير النواء عن جميع بن عمير عن ابن عمر بنحوه. وفيه نكارة من جهة أمره برد الصديق فإن الصديق لم يرجع بل كان هو أمير الحج في سنة تسع وكان علي هو وجماعة معه بعثهم الصديق يطوفون برحاب منىً في يوم النحر وأيام التشريق ينادون بـ«براءة»؟ وقد قررنا ذلك في حجة الصديق وفي أول تفسير سورة براءة.

حديث آخر:

روي من حديث أبي بكر الصديق وعمر وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمران بن حصين وأنس وثوبان وعائشة وأبي ذر وجابر أن رسول الله ﷺ قال: «النظر إلى وجه علي عبادة».

وفي حديث عن عائشة: «ذكر علي عبادة». ولكن لا يصح شيء منها فإنه لا يخلو كل سند منها عن كذاب أو مجهول لا يعرف حاله وهو شيعي.

حديث الصدقة بالخاتم وهو راكع:

قال الطبراني: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن سَلْم الرازي حدثنا محمد بن يحيى بن ضريس العبدي حدثنا عيسى بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد والناس يصلون بين راكع وقائم وإذا سائل فقال: «يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً؟» فقال: لا! إلا هاذاك الراكع - لعلي - أعطاني خاتمه.

وقال الحافظ ابن عساكر: أنا خالي أبو المعالي القاضي أنا أبو الحسن الخلعي أنا أبو العباس أحمد بن محمد الشاهد حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الرملي حدثنا القاضي جُملةُ بن محمد حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول عن موسى بن قيس عن سلمة قال: تصدق علي بخاتمة وهو راكع فنزلت ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ﴾.

وهذا لا يصح بوجه من الوجوه لضعف أسانيده ولم ينزل في علي شيء من القرآن بخصوصيته وكل ما يوردونه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان: ٨] وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] وغير ذلك من الآيات والأحاديث الواردة في أنها نزلت في علي لا يصح شيء منها.

وأما قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] فثبت في الصحيح [خ: (٤٧٤٣، ٤٧٤٤)، م(٣٠٣٣)] أنه نزل في علي وحمزة وعبيدة من المؤمنين، وفي عتبة وشيبة والوليد بن عتبة من الكافرين.

وما روي عن ابن عباس أنه قال: ما نزل في أحد من الناس ما نزل في علي.

وفي رواية عنه أنه قال: نزل فيه ثلاثمائة آية. فلا يصح ذلك عنه لا هذا ولا هذا. ولا يصحُّ أيضاً ما قالوا فيه أنه قال: ما نزلت آية فيها: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلاّ وعليٌّ بن أبي طالب رأسُها. كل ذلك لا يصح، وإنما هذا من غلو الرافضة.

حديث آخر

قال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي حدثنا العباس بن بكار أبو الوليد حدثنا عبد الله بن المثنى الأنصاري عن عمه ثمامة بن عبد الله بن أنس عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً بالمسجد وقد أطاف به أصحابه إذ أقبل عليٌّ فسلم ثم وقف فنظر مكاناً يجلس فيه فنظر رسول الله ﷺ إلى وجوه أصحابه أيهم يوسع له - وكان أبو بكر عن يمين رسول الله ﷺ جالسا - فتزحزح أبو بكر عن مجلسه وقال: ها هنا يا أبا الحسن، فجلس بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر فرأينا السرور في وجه رسول الله ﷺ، ثم أقبل على أبي بكر فقال: «يا أبا بكر إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذَوو الفضل».

فأما الحديث الوارد عن علي وحذيفة مرفوعا «عليٌّ خير البشر، من أبى فقد كفر». فهو موضوع من الطريقين معاً قبح الله من وضعه واختلقه.

حديث آخر قال أبوعيسى الترمذي [٣٧٢٣]: حدثنا إسماعيل بن موسى بن عمر الرومي حدثنا شريك عن سلمة بن كهيل عن سويد بن غفلة عن الصنابحي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعلي بابها» ثم قال: هذا الحديث غريب قال: وروى بعضهم هذا الحديث عن ابن عباس.

قلت: رواه سويد بن سعيد عن شريك عن سلمة عن الصنابحي عن علي مرفوعا: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت باب المدينة».

وأما حديث ابن عباس فرواه ابن عدي [الكامل: ١٩٢/١، ١٩٣] من طريق أحمد بن سلمة أبي عمرو الجرجاني حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتها من قبل بابها» ثم قال ابن عدي: وهذا الحديث يعرف بأبي الصلت الهروي عن أبي معاوية سرقه منه أحمد بن سلمة هذا ومعه جماعة من الضعفاء. هكذا قال رحمه الله.

وقد روى أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز عن ابن معين أنه قال: اخبرني ابن أيمن أن أبا معاوية حدث بهذا الحديث قديماً ثم كف عنه.

قال: وكان أبو الصلت رجلاً موسراً يكرم المشايخ ويحدثونه بهذه الأحاديث.

وساقه ابن عساكر بإسناد مظلم عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده عن جابر بن عبد الله فذكره مرفوعا. ومن طريق أخرى عن جابر.

قال ابن عدي [الكامل: ١٩٥/١]: وهو موضوع أيضاً.

وقال أبو الفتح الأزدي: لا يصح في هذا الباب شيء.

حديث آخر: يقرب مما قبله:

قال ابن عدي [الكامل: ١٤٢١/٤]: حدثنا أحمد بن حمدون النيسابوري حدثنا ابن بنت أبي أسامة - هو جعفر بن هذيل - حدثنا ضرار بن صرد حدثنا يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش عن عباية عن ابن عباس عن

النبي ﷺ قال: «علي عَيْبةُ علمي»

حديث آخر في معنى ما تقدم

قال ابن عدي: حدثنا أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة حدثنا حُيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ادعوا لي أخي» فدعوا له أبا بكر فأعرض عنه ثم قال: «ادعوا لي أخي» فدعوا له عمر فأعرض عنه ثم قال «ادعوا لي أخي» فدعوا له عثمان فأعرض عنه، ثم قال: «ادعوا لي أخي» فدعي له علي بن أبي طالب فستره بثوب وأكب عليه فلما خرج من عنده قيل له: ما قال لك؟ قال: علمني ألف باب يفتح كل باب إلى ألف باب.

قال ابن عدي: هذا حديث منكر ولعل البلاء فيه من ابن لهيعة فإنه شديد الإفراط في التشيع وقد تكلم فيه الأئمة ونسبوه إلى الضعف والله أعلم.

حديث آخر:

قال ابن عساكر: أنبأنا أبو عليٍّ المقرئ، أنا أبو نعيم الحافظ أنا أبو أحمد الغطريفي حدثنا أبو الحسين بن أبي مقاتل حدثنا محمد بن عبيد بن عتبة حدثنا محمد بن علي الوهبي الكوفي حدثنا أحمد بن عمران بن سلمة - وكان ثقة عدلاً مرضياً - حدثنا سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنت عند النبي ﷺ فسئل عن علي فقال: «قسمت الحكمة عشرة أجزاء أعطي علي تسعة والناس جزءاً واحداً»

وسكت الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث ولم ينبه على أمره وهو منكر بل موضوع مركب على سفيان الثوري بإسناده قبح الله واضعه ومن افتراه واختلقه.

حديث آخر:

قال أبو يعلى [مسنده (٤٠١)] : حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يحيى بن سعيد عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن علي. قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لي علم بالقضاء قال: فضرب في صدري وقال: «إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك» قال: فما شككت في قضاء بين اثنين بعد.

وقد ثبت عن عمر أنه كان يقول: علي أقضانا وأُبيّ أقرؤنا للقرآن. وكان عمر يقول: أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها [طبقات سعد: ٣٣٩/٢].

حديث آخر

قال الإمام أحمد [٣٠٠/٦]: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا جرير بن عبد الحميد عن مغيرة عن أم موسى عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي بن أبي طالب لأقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ عدنا رسول الله ﷺ غداة بعد غداة يقول: «جاء علي؟» مراراً - وأظنه كان بعثه في حاجة - قالت: فجاء بعد فظننت أن له إليه حاجة فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب فكنت من أدناهم إلى الباب فأكبَّ عليه علي فجعل يسارُّه ويناجيه ثم قبض من يومه ذلك فكان أقرب الناس به عهداً.

وهكذا رواه عبد الله بن أحمد [المسند ٣٠٠/٦] وأبو يعلى [مسنده (٦٩٣٤)] عن أبي بكر بن أبي شيبة به.

حديث آخر في معناه:

قال أبو يعلى [مسنده (٤٨٦٥)]: حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا أبو بكر بن عياش عن صدقة بن سعيد عن جميع بن عمير أن أمه وخالته دخلتا على عائشة فقالتا: يا أم المؤمنين أخبرينا عن علي، قالت: أي شيء تسألن؟ عن رجل وضع يده من رسول الله ﷺ موضعاً فسالت نفسه في يده فمسح بها وجهه، واختلفوا في دفنه فقال: إن أحب الأماكن إلى الله مكان قبض فيه نبيه ﷺ؟ قالتا: فلم خرجت عليه؟ قالت: أمر قُضي لوددت أني أفديه بما على الأرض» وهذا منكر جداً وفي الصحيح [خ(٣١٠٠)، م(٢٤٤٣)] ما يرد هذا والله أعلم.

حديث آخر قال الإمام أحمد [١٠٨/١، ١٠٩]: حدثنا أسود بن عامر حدثني عبد الحميد بن أبي جعفر - يعني الفراء - عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن علي قال: قيل: يا رسول الله من نؤمِّر بعدك؟ قال: «إن تؤمِّروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا علياً - ولا أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الطريق المستقيم».

وقد روى هذا الحديث من طريق عبدالرزاق عن النعمان بن أبي شيبة وعن يحيى بن العلاء عن الثوري عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه [المستدرك: ١٤٢/٣].

ورواه أبو الصلت الهروي عبد السلام بن صالح عن ابن نمير عن الثوري عن شريك عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن حذيفة به.

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: أنا أبو عبد الله محمد بن علي الآدمي بمكة حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصنعاني أنا عبد الرزاق بن همام عن أبيه عن ابن ميناء عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ ليلة وفد الجن قال: فتنفس فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إليَّ نفسي» قلت: فاستخلف. قال: «من؟» قلت: أبا بكر قال: فسكت ثم مضى ثم تنفس قلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود»، قلت: فاستخلف قال: «من؟» قلت: عمر قال: فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس قال: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود». قلت: فاستخلف قال: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب قال: «أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»

قال ابن عساكر: همام وميناء مجهولان.

حديث آخر:

قال أبو يعلى [مسنده (٥٥٠)]: حدثنا أبو موسى - يعني محمد بن المثنى - حدثنا سهيل بن حماد أبو عتّاب الدلال حدثنا مختار بن نافع التيمي حدثنا أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً من ماله، رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرّاً تركه الحق وماله من صديق، رحم الله عثمان تستحييه الملائكة رحم الله علياً دار الحق معه حيث دار».

وقد ورد عن أبي سعيد وأم سلمة أن الحق مع علي رضي الله عنه. وفي كل منهما نظر والله أعلم.

حديث آخر

قال أبو يعلى [مسنده (١٠٨٦)]: حدثنا عثمان بن جرير عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»، قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله، قال: «لا» فقال عمر: أنا هو يا رسول الله، قال: «لا! ولكن خاصف النعل» - وكان قد أعطى علياً نعله يخصفه.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٤٣٦/٦] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن

عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش به.

ورواه الإمام أحمد [٨٢/٣] عن وكيع وحسين بن محمد عن فطر بن خليفة عن إسماعيل بن رجاء به.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٤٣٥/٦] أيضاً من حديث أبي نعيم عن فطر بن خليفة عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد به.

ورواه فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد.

وروى من حديث علي نفسه [ت (٣٧١٥)]. وقد قدمنا هذا الحديث في موضعه في قتال علي أهل البغي والخوارج ولله الحمد. وقدمنا أيضاً حديث علي للزبير أن رسول الله ﷺ قال لك: إنك تقاتلني وأنت ظالم. فرجع الزبير وذلك يوم الجمل ثم قتل بعد مرجعه في وادي السباع [الدلائل للبيهقي: ٤١٥/٦]. وقدمنا صبره وصرامته وشجاعته في يوم الجمل وصفين، وبسالته وفضله في يوم النهروان، وما ورد في فضل طائفته الذين قتلوا الخوارج من الأحاديث وذكرنا الحديث الوارد من غير طريق عن علي وأبي سعيد وأبي أيوب أن رسول الله ﷺ أمره بقتال المارقين والقاسطين والناكثين وفسروا الناكثين بأصحاب الجمل والقاسطين بأهل الشام والمارقين بالخوارج والحديث ضعيف [مسند أبي يعلى (٥١٩)].

فصل: في ذكر شيء من سيرته العادلة وطريقته الفاضلة ومواعظه وقضاياه الفاصلة وخطبه الكاملة وحكمه التي هي إلى القلوب واصلة

قال عبد الوارث عن أبي عمرو بن العلاء عن أبيه قال: خطب علي فقال: أيها الناس! والله الذي لا إله إلا هو ما رزأتُ من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه - وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب -. فقال: أهداها إلي الدهقان، ثم أتى بيت المال فقال: خذوا وأنشأ يقول:

أفلح من كانت له قوصرةْ ... يأكلُ منها كلُّ يوم تمرةْ

وفي رواية: مره: وفي رواية:

طوبى لمن كانت له قوصرةْ.

وقال حرملة عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن عبد الله بن زُرَير الغافقي قال: دخلنا مع علي يوم الأضحى فقرب إلينا خزيرة فقلنا: أصلحك الله لو قدمت إلينا هذا البط والإوز، فإن الله قد أكثر الخير فقال: يا ابن زُرَير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل للخليفة من مال الله إلاّ قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها الناس»

وقال الإمام أحمد [٧٨/١]: حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم قالا: حدثنا ابن لهيعة حدثنا عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زُرير أنه قال: دخلت على علي بن أبي طالب - قال حسن: يوم الأضحى -: فقرب إلينا خزيرة فقلت: أصلحك الله لو قرّبت إلينا من هذا البط؟ - يعني الوَزّ - فإن الله قد أكثر الخير، قال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»

وقال أبو عبيد: حدثنا عباد بن العوام عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب بالخورنق وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال وأنت تفعل بنفسك هذا؟! فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي - أو قال: من المدينة.

وقال أبو نعيم: سمعت سفيان الثوري يقول: ما بنى علي لبنةً على لبنةٍ ولا قصبة على قصبةٍ، وإن كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جراب.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر الحميدي حدثنا سفيان أبو حيّان عن مجمع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته.

وقال الزبير بن بكار: حدثني سفيان عن جعفر - قال: أظنه عن أبيه - أن عليّاً كان إذا لبس قميصاً مد يده في كمه فما فضل من الكم عن الأصابع قطعه وقال: ليس للكم فضل عن الأصابع.

وقال أبو بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس قال: اشترى علي قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة وقطع كمه من موضع الرسغين، وقال: الحمد لله الذي هذا من رياشه.

وروى الإمام أحمد في الزهد عن عباد بن العوام عن هلال بن خبّاب عن مولى لأبي عُصَيفير قال: رأيت علياً خرج فأتى رجلا من أصحاب الكرابيس فقال له: عندك قميص سنبلاني؟ قال: فأخرج إليه قميصاً فلبسه فإذا هو إلى نصف ساقيه، فنظر عن يمينه وعن شماله فقال: ما أرى إلا قدراً حسنا، بكم هو؟ قال: بأربعة دراهم يا أمير المؤمنين، قال: فحلّها من إزاره فدفعها إليه ثم انطلق.

وقال محمد بن سعد: أنا الفضل بن دكين أنا الحسن بن جرموز عن أبيه قال: رأيت عليا وهو يخرج من القصر وعليه قِطْريتان؛ إزار إلى نصف الساق ورداء مشمر قريب منه، ومعه درة له يمشي بها في الأسواق ويأمر الناس بتقوى الله وحسن البيع ويقول: أوفوا الكيل والميزان، ويقول: لا تَنْفُخوا اللحم.

وقال عبد الله بن المبارك في الزهد [٧٥٦]: أنا رجل حدثني صالح بن مِيْثَم حدثنا يزيد بن وهب الجهني قال: خرج علينا علي بن أبي طالب ذات يوم وعليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانباً، قد رقّع رداءه بخرقة فمر به أعرابي فقال: أيها الإنسان البس من هذه الثياب فإنك ميت أو مقتول. فقال: أيها الأعرابي إنما ألبس هذين الثوبين ليكونا أبعد لي من الزهو، وخيراً لي في صلاتي، وسنة للمؤمن.

وقال عبد بن حميد: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا المختار بن نافع عن أبي مطر قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لك، وخذ عن رأسك إن كنت مسلما. فمشيت خلفه وهو بين يَدَيّ مؤتزر بإزار مرتد برداء ومعه الدرة كأنه أعرابي بدوي فقلت: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريباً بهذا البلد. فقلت: أجل أنا رجل من أهل البصرة، فقال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين. حتى انتهى إلى دار بني أبي معيط وهي يسوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة.

ثم أتى أصحاب التمر فإذا خادم تبكي فقال: ما يبكيك؟ فقالت: باعني هذا الرجل تمراً بدرهم فرده موالي فأبى أن يقبله، فقال له علي: خذ تمرك واعطها درهمها، فإنها ليس لها أمر، فدفعه، فقلت: أتدري من هذا؟ فقال: لا فقلت: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فصبت تمره وأعطاها درهمها. ثم قال الرجل: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين، قال: ما ارضاني عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم. ثم مرَّ مجتازاً بأصحاب التمر

فقال: يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يرب كسبكم.

ثم مر مجتازاً ومعه المسلمون حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا طافو. ثم أتى دار فرات - وهي سوق الكرابيس - فأتى شيخاً فقال: يا شيخ أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم، فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً، ثم آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً، فأتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم. وكمه ما بين الرسغين إلى الكفين. يقول في لبسه: الحمد الله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي. فقيل له: يا أمير المؤمنين هذا شيء ترويه عن نفسك أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: لا! بل شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقوله عند الكسوة. فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل له: يا فلان قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين قميصاً بثلاثة دراهم، قال: أفلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ منه أبوه درهماً ثم جاء به إلى أمير المؤمنين وهو جالس مع المسلمين على باب الرحبة فقال: امسك هذا الدرهم. فقال: ما شأن هذا الدرهم؟ فقال: كان قميصاً ثُمُنَ درهمين، فقال: باعني رضاي وأخذ رضاه.

وقال عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن الشعبي قال: وجد علي بن أبي طالب درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح يخاصمه، قال: فجاء علي حتى جلس جنب شريح وقال: يا شريح لو كان خصمي مسلماً ما جلست إلا معه، ولكنه نصراني وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم وإياهم في طريق فاضطروهم إلى مضايقه، وصغّروا بهم كما صغّر الله بهم من غير أن تطغوا» ثم قال: هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، مالي بينة. فقضى بها شريح للنصراني، قال: فأخذها النصراني ومشى خطىً ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قدّمني إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس. قال الشعبي: فأخبرني من رآه يقاتل الخوارج مع عليٍّ يوم النهروان.

وقال سعيد بن عبيد عن علي بن ربيعة: جاء جعدة بن هبيرة إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلهزه علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثني جدي حدثنا علي بن هاشم عن صالح بياع الأكسية عن جدته قالت: رأيت علياً اشترى تمراً بدرهم فحمله في ملحفته فقال رجل: يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحق بحمله.

وعن أبي هاشم عن زاذان قال: كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأرض ولا فَسَاداً﴾ [القصص: ٨٣]، ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

وعن عبادة بن زياد عن صالح بن أبي الأسود عمن حدثه أنه رأى علياً قد ركب حماراً ودلى رجليه إلى موضع واحد ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا.

وقال يحيى بن معين عن علي بن الجعد عن الحسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب.

وقال هشام بن حسان: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال: يا أبا سعيد ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله علياً، إن علياً كان سهماً لله صائباً في أعدائه، وكان في مَحَلّةِ العلم أشرفها وأقربها من رسول الله ﷺ، وكان ربّاني هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسروقة، ولا في أمر الله بالنّؤومة، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياض مونقة، وأعلام بينة، ذاك علي بن أبي طالب يا لكع.

وقال هشيم عن سيار عن عمار. قال: حدث رجل علي بن أبي طالب بحديث فكذبه فما قام حتى عمي.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني شريح بن يونس حدثنا هشيم عن إسماعيل بن سالم عن عمار الحضرمي عن زاذان أبي عمر أن رجلا حدث علياً بحديث فقال: ما أراك إلا قد كذبتني، قال: لم أفعل قال: أدعو عليك إن كنت كذبت، قال: ادع! فدعا فما برح حتى عمي.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن سالم حدثنا محمد بن بشر عن أبي مكين قال: مررت أنا وخالي أبو أمية على دار في محل حي من مراد، قال: ترى هذه الدار؟ قلت: نعم! قال: فإن علياً مر عليها وهم يبنونها فسقطت عليه قطعة فشجته فدعا الله أن لا يكمل بناؤها، قال: فما وضعت عليها لبنة، قال: فكنت أَمُرُّ عليها لا تشبه الدور.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عبد الله بن يونس بن بكير الشيباني عن أبيه عن عبد الغفار بن القاسم الأنصاري عن أبي بشير الشيباني. قال: شهدت الجمل مع مولاي فما رأيت يوماً قط أكثر ساعداً نادراً وقدماً نادرة من يومئذ، ولا مررت بدار الوليد قط إلا ذكرت يوم الجمل قال: فحدثني الحكم بن عُتيبة أن علياً دعا يوم الجمل فقال: اللّهم خذ أيديهم وأقدامهم.

ومن كلامه الحسن رضي الله عنه:

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا علي بن الجعد أنا عمرو بن شمر حدثني إسماعيل السدي سمعت أبا أراكة يقول: صليت مع علي صلاة الفجر فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى ركعتين ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صُفْراً شُعثاً غُبْراً بين أعينهم كأمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تُبَلَّ ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفتراً يضحك حتى قتله ابن ملجم عدو الله الفاسق.

وقال وكيع عن عمرو بن منبه عن أوفى بن دلهم عن علي بن أبي طالب أنه قال: تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحق تسعة أعشاره، وإنه لا ينجو منه إلا كل نُوَمَةٍ مُنْبَتٍّ الداء، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم ليسوا بالعُجُل المذاييع البُذُر. ثم قال: ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من

أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً، ألا من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرُمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ألا إن لله عباداً كمَن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وأهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم، ربَّنا ربَّنا، يطلبون فكاك رقابهم. وأما النهار فعلماء حلماء بررة أتقياء، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى وما بالقوم من مرض، وخولطوا ولقد خالط القوم أمر عظيم.

وعن الأصبغ بن نباتة قال: صعد علي ذات يوم المنبر فحمد الله وأثنى عليه وذكر الموت فقال: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم له أخذكم،وإن فررتم منه أدرككم، فالنجاء النجاء، والوحاء الوحاء، وراءكم طالب حثيث القبر فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته، ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوماً يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير، ﴿وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وتَرى النَّاسَ سُكَارَى ومَا هُمْ بِسُكَارى ولَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، وخازنها ملك ليس لله فيه رحمه.

قال: ثم بكى ويكى المسلمون حوله، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

ورواه ليث بن أبي سليم عن مجاهد حدثني من سمع علياً فذكر نحوه.

وقال وكيع عن عمرو بن منبه عن أوفى بن دلهم قال: خطب علي فقال: أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المضمار اليوم وغداً السباق، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خيِّب عمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى حار به الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، وذللتم على الزاد، ألا أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم.

أيها الناس: أحسنوا في أعماركم تحفظوا في عَقِبكم، فإن الله وعد جنته من أطاعه، وأوعد ناره من عصاه. إنها نار لا يهدأ زفيرها، ولا يفك أسيرها، ولا يجبر كسيرها، حرها شديد، وقعرها بعيد، وماؤها صديد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

وفي رواية: فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة.

وعن عاصم بن ضمرة قال: ذم رجل الدنيا عند علي فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ومهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببَيْنِها، ونادت بفراقها، وشبَّهت بسرورها السرور، وببلائها إليه ترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذام للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا أو متى استذمَّت إليك؟ أبمصارع آبائك في البلى؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم مرضت بيديك، وعللت بكفيك، تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطباء لا يغني عنك دواؤك، ولا ينفعك بكاؤك.

وقال سفيان الثوري والأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري. قال: جاء رجل إلى علي فأطراه ـ وكان يبغض علياً ـ فقال له: لست كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك.

وروى ابن عساكر أن رجلا قال لعلي: ثبتك الله قال: على صدرك.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة عن يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر قال: قال علي: إن الأمر ينزل من السماء كقطر المطر لكل نفس ما كتب الله لها من زيادة أو نقصان في نفس أو أهل أو مال، فمن رأى نقصاً في نفسه أو أهله أو ماله، ورأى لغيره غَفيرة فلا يكونن ذلك له فتنة، فإن المسلم مالم يغش دناءة يظهر تخشعاً لها إذا ذكرت، وتُغري به لئام الناس، كالياسر الفالج ينتظر أول فوزة من قداحه توجب له المغنم، وتدفع عنه المغرم فكذلك المسلم البريء من الخيانة بين إحدى الحسنيين، إذا ما دعا الله، فما عند الله خير له، وإما أن يرزقه الله مالا فإذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه، الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام.

قال سفيان: ومن يحسن أن يتكلم بهذا الكلام إلا علي؟ وقال الثوري عن زبيد اليامي عن مهاجر العامري قال: كتب علي بن أبي طالب عهداً لبعض أصحابه على بلد فيه: أما بعد فلا تطولن حجابك على رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة الضيق. وقلة علم بالأمور، والاحتجاب يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه، فيضعف عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليس على القول سمات يعرف بها ضروب الصدق من الكذب، فتحصن من الإدخال في الحقوق بلين الحجاب، فإنما أنت أحد الرجلين، إما امرؤ سَخَتْ نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من حق واجب أن تعطيه؟ أو خلق كريم تسدَّد به؟ وإما مبتلى بالمنع والشح فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسوا من خيرك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤنة فيه عليك من شكاية مظلمة أو طلب إنصاف، فانتفع بما وصفت لك واقتصر على حظك ورشدك إن شاء الله.

وقال المدائني: كتب علي إلى بعض عماله: رويداً فكأن قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة.

وقال هشيم: أخبرنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي قال: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان علي يقول الشعر، وكان علي أشعر الثلاثة.

ورواه هشام بن عمار عن إبراهيم بن أعين عن عمر بن أبي زائدة عن عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي فذكره.

وقال أبو بكر بن دريد قال: وأخبرنا عن دماذ عن أبي عبيدة قال: كتب معاوية إلى علي: يا أبا الحسن إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيداً في

الجاهلية، وصرت ملكا في الإسلام، وأنا صهر رسول الله ﷺ، وخال المؤمنين، وكاتب الوحي. فقال علي: أبالفضائل يفخر علي ابن آكلة الأكباد؟ ثم قال: اكتب يا غلام

محمدٌ النبيُّ أخي وصِهري ... وحَمزةُ سيدُ الشهداءِ عمي
وجعفرٌ الذي يمسي ويضحي ... يطيرُ معَ الملائكةِ ابنُ أمي
وبنتُ محمدٍ سكني وعرسي ... مسوطٌ لحمُها بدمي ولحمي
وسبطا أحمدٍ ولداي منها ... فأيكم لهُ سهم كسهمي
سبقتكمُ إلى الاسلام طراً ... صغيراً ما بلغتُ أوانَ حُلُمي

قال: فقال معاوية: أخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلون إلى ابن أبي طالب.

وهذا منقطع بين أبي عبيدة وزمان علي ومعاوية.

وقال الزبير بن بكار وغيره: حدثني بكر بن حارثة عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن جابر بن عبد الله قال: سمعت علياً ينشد ورسول الله ﷺ يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شكَّ في نَسَبي ... معهُ ربيتُ وسبطاه هما ولدي
جدي وجدُّ رسولِ اللهِ منفرد ... وفاطم زوجتي لا قولَ ذي فندِ
صدقتُهُ وجميعُ الناس في بُهَم ... منَ الضلالةِ والإشراكِ والنكدِ
فالحمدُ للهِ شكراً لا شريك له ... البَرّ بالعبدِ والباقي بلا أمدِ

قال: فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «صدقت يا علي».

وهذا بهذا الإسناد منكر والشعر فيه ركاكة، وبكر هذا لا يقبل منه تفرده بهذا السند والمتن والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق أبي زكريا الرملي: حدثنا يزيد بن هارون عن نوح بن قيس عن سلامة الكندي عن الأصبغ بن نباتة عن علي أنه جاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة قد رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك. فقال علي: اكتب على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي: علي بحلة، فأتي بها فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول:

كسوتَني حلةً تبلى محاسنها ... فسوف أكسوكَ من حسن الثنا حللا
إن نلتَ حسنَ ثنائي نلت مكرمة ... ولستَ أبغي بما قد قلتُهُ بدلا
إن الثناءَ ليحيي ذكرَ صاحبه ... كالغيثِ يحيي نداهُ السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ في خيرٍ تواقعهُ ... فكل عبدٍ سيجزى بالذي عملا

فقال علي: عليَّ بالدنانير. فأتي بمائة دينار فدفعها إليه، قال الأصبغ: فقلت: يا أمير المؤمنين حلة ومائة دينار؟ قال: نعم! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم» وهذه منزلة هذا الرجل عندي.

وروى الخطيب البغدادي من طريق أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن نبيط بن شريط حدثني أبي إسحاقُ بن إبراهيم بن نُبيط عن أبيه عن جده قال: قال علي بن أبي طالب:

إذا اشتملت على الناس القلوبُ ... وضاقَ بما بهِ الصدرُ الرحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشافِ الضر وجهاً ... ولا أغنى بحيلتهِ الأريبُ
أتاكَ على قنوطٍ منكَ غوث ... يجيءُ القريبُ المستجيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهت ... فموصولٌ بها الفرجُ القريبُ

ومما أنشده أبو بكر محمد بن يحيى الصولي لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب: -

ألا فاصبرْ على الحدثِ الجليلِ ... وداوِ جواكَ بالصبرِ الجميلِ
ولا تجزع فإن أعسرتَ يوماً ... فقد أيسرتَ في الدهرِ الطويلِ
ولا تظنن بربكَ ظنَّ سوء ... فإنّ اللهَ أولى بالجميلِ
فإنّ العسرَ يتبعهُ يسار ... وقولُ اللهِ أصدقُ كل قيلِ
فلو أنّ العقولَ تجرُّ رزقاً ... لكانَ الرزقُ عند ذوي العقولِ
فكم من مؤمنٍ قد جاعَ يوماً ... سيُروى من رحيقِ السلسبيلِ

فمن هوان الدنيا على الله أنه سبحانه يجيع المؤمن مع نفاسته، ويشبع الكلب مع خساسته، والكافر يأكل ويشرب، ويلبس ويتمتع، والمؤمن يجوع ويعرى، وذلك لحكمة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين.

ومما أنشده علي بن جعفر الوراق لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

أجدِ الثيابَ إذا اكتسيتَ فإنها ... زينُ الرجالِ بها تعزُّ وتكرمُ
ودعِ التواضعَ في الثيابِ تخوُّفاً ... فاللهُ يعلمُ ما تجنُّ وتكتمُ
فرثاثُ ثوبكَ لا يزيدكَ زلفةً ... عندَ الإلهِ وأنتَ عبد مجرمُ
وبهاءُ ثوبكَ لا يضركَ بعدَ أن ... تخشى الإلهَ وتتقي ما يحرمُ

وهذا كما جاء في الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ثيابكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [م:(٢٥٦٤)(٣٣)(٣٤)، مسند أحمد: ٢/٢٨٥، ٥٣٩] .

وقال الثوري: ليس الزهد في الدنيا بلبس العباءِ ولا بأكل الخشن، إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد: كان مكتوبا على سيف علي:

للناسِ حرص على الدنيا وتدبيرُ ... وصفوها لك ممزوجٌ بتكديرِ
وإنْ أتوا طاعةً للهِ ربهمُ ... فالعقلُ منهم عن الطاعاتِ مأسورُ
لم يرزقوها بعقلٍ عندَ ما قسمتْ ... لكنهمْ رُزقوها بالمقاديرِ
كم من أديبٍ لبيبٍ لا تساعدهُ ... وماتقٍ نالَ دنياهُ بتقصيرِ
لو كانَ عن قوةٍ أو عن مغالبةٍ ... طار البُزاةُ بأرزاقِ العصافيرِ

وقال الأصمعي: حدثنا سلمة بن بلال عن مجالد عن الشعبي قال: قال علي ابن أبي طالب لرجل كره له صحبة رجل:

فلا يصحب أخا الجهـ ... ـل وإياكَ وإياهُ
فكمْ من جاهل أردى ... حليماً حين آخاه
يقاسُ المرءُ بالمر ... ءِ إذا ما هو ماشاهُ
وللشيءِ على الشيءِ ... مقاييسٌ وأشباه
وللقلبِ على القلبِ ... دليل حين يلقاه

وعن عمرو بن العلاء عن أبيه قال: وقف علي على قبر فاطمة فأنشأ يقول:

ذكرتُ أبا أروى فبتُّ كأنني ... بردُ الهموم الماضيات وكيلُ
لكل اجتماعٍ من خليلين فرقة ... وكلُّ الذي قبلَ الممات قليلُ
وإن افتقادي واحداً بعدَ واحدٍ ... دليلٌ على أن لا يدومُ خليلُ
سيعرضُ عن ذكري وتنسى مودتي ... ويحدثُ بعدي للخليل خليل
إذا انقطعتْ يوماً من العيشِ مدتي ... فإن غناءَ الباكياتِ قليلُ

وأنشد بعضهم لعلي رضي الله عنه:

حقيقٌ بالتواضعِ من يموت ... ويكفي المرءَ من دنياهُ قوتُ
فما للمرءِ يصبحُ ذا همومٍ ... وحرصٍ ليس تدركُهُ النعوتُ
صنيعُ مليكنا حسنٌ جميلٌ ... وما أرزاقُهُ عنا تفوتُ
فيا هذا سترحلُ عن قليلٍ ... إلى قومٍ كلامُهُمُ السكوتُ

وهذا الفصل يطول استقصاؤه وقد ذكرنا منه ما فيه مقنع لمن أراده ولله الحمد والمنة.

وقال حماد بن سلمة عن أيوب السختياني أنه قال: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله، ومن أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق.

غريبة من الغرائب وآبدة من الأوابد

قال ابن أبي خيثمة: حدثنا أحمد بن منصور بن سيار حدثنا عبد الرازق قال: قال معمر مرة وأنا مستقبله وتبسم وليس معنا أحد فقلت له: ما شأنك؟ قال: عجبت من أهل الكوفة كأن الكوفة إنما بنيت على حب علي، ما كلمت أحداً منهم إلا وجدت المقتصد منهم الذي يفضل علياً على أبي بكر وعمر، منهم سفيان الثوري، قال: فقلت لمعمر: ورأيته؟ - كأني أعظمت ذاك - فقال معمر: وما ذاك؟ لو أن رجلا قال: علي أفضل عندي منهما ما عنّفته إذا ذكر فضلهما ولو أن رجلا قال: عمر عندي أفضل من علي وأبي بكر ما عنفته.

قال عبد الرزاق: فذكرت ذلك لوكيع بن الجراح ونحن خالين فاشتهاها أبو سفيان وضحك وقال: لم يكن سفيان يبلغ بنا هذا الحد، ولكنه أفضى إلى معمر بما لم يفض إلينا، وكنت أقول لسفيان: يا أبا عبد الله أرأيت إن فضلنا عليا على أبي بكر وعمر ما تقول في ذلك؟ فيسكت ساعة ثم يقول: أخشى أن يكون ذلك طعناً على أبي بكر وعمر ولكنا نقف.

قال عبد الرزاق: وأخبرنا ابن التيمي - يعني معتمراً - فقال: سمعت أبي يقول: فَضَل علي بن أبي طالب أصحاب رسول الله ﷺ بمائة منقبة وشاركهم في مناقبهم، وعثمان أحب إلي منه.

هكذا رواه ابن عساكر في تاريخه بسنده عن ابن أبي خيثمة به. وهذا الكلام فيه تخبيط كثير ولعله اشتبه على معمر فإن المشهور عن بعض الكوفيين تقديم علي على عثمان فأما على الشيخين فلا، ولا يخفى فضل الشيخين على سائر الصحابة إلا على غبي، فكيف يخفى على هؤلاء الأئمة؟ بل قد قال غير واحد من العلماء - كأيوب والدارقطني- من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وهذا الكلام حق وصدق وصحيح ومليح.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي حدثنا إبراهيم بن سعيد عن شعبة عن أبي عون - محمد بن عبيد الله الثقفي - عن أبي صالح الحنفي قال: رأيت علي بن أبي طالب أخذ المصحف فوضعه على رأسه حتى إني لأرى ورقه يتقعقع قال: ثم قال: اللّهم إنهم منعوني ما فيه فأعطني ما فيه، ثم قال: اللّهم إني قد مللتهم وملوني وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي وأخلاق لم تكن تعرف لي، اللّهم فابدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني، اللّهم أمث قلوبهم مَيْثَ الملح في الماء. قال إبراهيم: - يعني أهل الكوفة -.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عبد الرحمن بن صالح حدثنا عمرو بن هاشم الجَنْبي عن أبي جَنَاب عن أبي عون الثقفي عن أبي عبد الرحمن السلمي. قال: قال لي الحسن بن علي: قال لي علي: إن رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي فقلت: يارسول الله ما لقيت من أمتك من الأود واللدد؟ قال: ادع عليهم فقلت: اللّهم أبدلني بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني. فخرج فضربه الرجل.

الأود: العوج، واللدد: الخصومة - وقد قدمنا الحديث الوارد بالأخبار بمقتله وأنه تخضَّب لحيته من قرن رأسه، فوقع كما أخبر صلوات الله وسلامه على رسوله.

وروى أبو داود في كتاب القدر أنه لما كان أيام الخوارج كان أصحاب علي يحرسونه كل ليلة عشرة - يبيتون في المسجد بالسلاح - فرآهم علي فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: نحرسك، فقال: من أهل السماء؟ ثم قال: إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء، وإن عليّ من الله جنة حصينة. وفي رواية: وإن الأجل جُنة حصينة، وإنه ليس من الناس أحد إلا وقد وكل به ملك فلا تريده دابة ولا شيء إلا قال: اتقه اتقه، فإذا جاء القدر خلّى عنه، وفي رواية: ملكان يدفعان عنه فإذا جاء القدر خلّيا عنه، وإنه لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

وكان علي يدخل المسجد كل ليله فيصلي فيه، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها قلق تلك الليلة وجمع أهله فلما خرج إلى المسجد صرخ الإوز في وجهه فسكتوهن عنه فقال: ذروهن فإنهن نوائح. فلما خرج إلى المسجد ضربه ابن ملجم فكان ما ذكرنا قبل. فقال الناس: يا أمير المؤمنين الا نقتل مراداً كلها؟ فقال: لا ولكن احبسوه وأحسنوا إساره، فإن مت فاقتلوه وإن عشت فالجروح قصاص. وجعلت أم كلثوم بنت علي تقول: ما لي ولصلاة الغداة، قتل زوجي عمر أمير المؤمنين صلاة الغداة، وقتل أبي أمير المؤمنين صلاة الغداة، رضي الله عنها.

وقيل لعلي: الا تستخلف؟ فقال: لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ.

فهذا اعتراف منه في آخر وقت الدنيا بفضل الصديق.

وقد ثبت عنه بالتواتر أنه خطب بالكوفة في أيام خلافته ودار إمارته، فقال: أيها الناس إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر، ثم عمر ولو شئت أن أسمي الثالث لسميت.

وعنه أنه قال وهو نازل من المنبر: ثم عثمان ثم عثمان.

ولما مات علي ولي غسله ودفنه أهله، وصلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه أربعاً، وقيل أكثر من ذلك. ودفن علي بدار الخلافة بالكوفة وقيل: تجاه الجامع من القبلة في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة، بحذاء باب الوراقين وقيل: بظاهر الكوفة، وقيل: بالكناسة، وقيل: دفن بالثَّوِيَّة وقيل

بحائط جامع الكوفة.

وقال شريك القاضي وأبو نعيم الفضل بن دكين: نقله الحسن بن علي بعد صلحه مع معاوية إلى المدينة، فدفنه بالبقيع إلى جانب فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وقال عيسى بن دأب: بل لما أرادوا أن يحملوه إلى المدينه ليدفنوه بها جعلوه في صندوق على بعير، فلما مروا به ببلاد طيئ أضلوا البعير فأخذت طيئ ذلك البعير بما عليه يحسبونه مالاً، فلما وجدوا بالصندوق ميتاً دفنوه في بلادهم فلا يعرف قبره إلى الآن.

والمشهور أن قبره إلى الآن بالكوفة كما ذكر عبد الملك بن عمران أن خالد بن عبد الله القسري - نائب بني أمية في زمان هشام بن عبد الملك لما كان أميراً على العراق هدم دوراً ليبنيها داراً وجد قبراً فيه شيخ أبيض الرأس واللحيه فإذا هو علي بن أبي طالب، فأراد أن يحرقه بالنار فقيل له: أيها الأمير إن بني أمية لا يريدون منك هذا كله، فلفه في قباطي ودفنه هناك. قالوا: فلا يقدر أحد أن يسكن تلك الدار التي هو فيها إلا ارتحل منها. كما ذكره ابن عساكر.

ثم إن الحسن بن علي أستحضر عبد الرحمن بن ملجم من السجن، فأحضر الناس النفط والبواري ليحرقوه، فقال لهم أولاد علي: دعونا نشتفي منه، فقطعت يداه ورجلاه فلم يجزع ولا فتر عن الذكر، ثم كحلت عيناه وهو في ذلك يذكر الله وقرأ سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إلى آخرها، وإن عينيه لتسيلان على خديه. ثم حاولوا لسانه ليقطعوه فجزع عند ذلك جزعاً شديداً، فقيل له في ذلك فقال: إني اخاف أن أمكث في الدنيا فواقا لا أذكر الله فيه. فقتل عند ذلك وحرق بالنار، قبحه الله.

قال محمد بن سعد [الطبقات الكبرى: ٣/٤٠]: كان ابن ملجم رجلا أسمر حسن الوجه أبلج، شعره مع شحمة أذنه، في جبهته أثر السجود.

قال العلماء: ولم ينتظر بقتله بلوغ العباس بن علي فإنه كان صغيراً يوم قتل أبوه، قالوا: لأنه كان قتل محاربة لا قصاصاً والله أعلم.

وكان طعن علي رضي الله عنه يوم الجمعه السابع عشر من رمضان سنة أربعين بلا خلاف فقيل مات من يومه وقيل يوم الأحد التاسع عشر منه.

قال الفلاس: وقيل ضرب ليلة إحدى وعشرين ومات ليلة أربع وعشرين عن تسع أو سبع أو ثمان وخمسين سنة، وقيل: عن ثلاث وستين سنة وهو المشهور، قاله محمد بن الحنفية، وأبو جعفر الباقر، وأبو إسحاق السبيعي، وأبو بكر بن عياش.

وقال بعضهم: عن ثلاث أو أربع وستين سنة، وعن أبي جعفر الباقر خمس وستين سنة.

وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، وقيل أربع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام وقيل ستة أيام وقيل: وأربعة عشرة يوماً وقيل: أربع سنين وثمانيه أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، رضي الله عنه.

وقال جرير عن مغيرة قال: لما جاء نعي علي بن أبي طالب إلى معاوية وهو نائم مع امرأته فاختة بنت قرظة في يوم صائف، جلس وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وجعل يبكي فقالت له فاختة: أنت بالأمس تطعن عليه واليوم تبكي عليه، فقال: ويحك إنما أبكي لما فقد الناس من حلمه وعلمه وفضله وسوابقه وخيره.

وذكر ابن أبي الدنيا - في كتاب مكائد الشيطان [كتاب الهواتف ص١٧٦] - أن رجلا من أهل الشام من أمراء معاوية غضب ذات ليلة على ابنه فأخرجه من منزله، فخرج الغلام لايدري أين يذهب، فجلس وراء الباب من خارج فنام ساعة ثم استيقظ فإذا هو بهرٍ أسود بري، وقد جاء إلى الباب الذي لهم فنادى: يا سويد، يا سويد، فخرج إليه الهر الذي في منزلهم فقال له البري: ويحك! افتح فقال: لا أستطيع، فقال: ويحك ائتني بشيء أتبلغ به فإني جائع وتعبان، هذا أوان مجيئي من الكوفة، وقد حدث الليلة حدث عظيم، قتل علي بن أبي طالب قال: فقال له الهرُّ الأهلي: والله إنه ليس ها هنا شيء إلا وقد ذكروا اسم الله عليه، غير سفود كانوا يشوون عليه اللحم،فقال: ائتني به، فجاء به فجعل يلحسه حتى أخذ حاجته وانصرف، وذلك بمرأى من الغلام ومسمع، فقام إلى الباب فطرقه فخرج إليه أبوه فقال: من؟ فقال له: افتح، فقال: ويحك ما لك؟ فقال: افتح، ففتح فقص عليه خبر ما رأى، فقال له: ويحك أمنام هذا؟ قال: لا والله، قال: ويحك! أفأصابك جنون بعدي؟ قال: لا والله: ولكن الأمر كما وصفت لك، فاذهب إلى معاوية الآن فاتخذ عنده يداً بما قلت لك. فذهب الرجل فاستأذن على معاوية فأخبره الخبر على ما ذكر له ولده. فأرّخوا ذلك عندهم قبل مجيء البرد، ولما جاءت البرد وجدوا ما أخبروهم به مطابقا لما كان أخبر به أبو الغلام. هذا ملخص ما ذكره.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد حدثنا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عمرو بن الأصم قال: قلت للحسن بن علي: إن هذه الشيعة يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: كذبوا والله ما هؤلاء بالشيعة، لو علمنا أنه مبعوث ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله.

ورواه أسباط بن محمد عن مطرف عن أبي إسحاق عن عمرو بن الأصم عن الحسن بن علي بنحوه.

فصل نذكر فيه كلمات زيادة على ما نص عليه المؤلف

[زيادة من الناسخ]

عن سلمة بن كهيل، عن مجاهد، قال: إنما شيعة علي العلماء الحكماء الذبل الشفاه الأبرار الأخيار الزهاد الذين يعرفون بأثر العبادة.

وقال علي بن الحسين: شيعتنا الذبل الشفاه، والإمام منا من دعا إلى طاعة الله.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار الضبي، حدثنا عبد الواحد بن أبي عمر السدي عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح قال:

دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له: صف لي علياً قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذ لا بد من وصفي له، كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير العبرة طويل الفكر يقلب كفه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. كان والله كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه. وكنا مع قربنا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت

نجومه يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا: أبي تغررت؟ أو إلي تشوقت؟ هيهات هيهات غري غيري، قد بتتك ثلاثاً فعمرك قصير ومحلك حقير وخطرك كبير. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

قال: فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذلك كان أبو الحسن رحمه اللّه، كيف وَجْدُكَ عليه يا ضرار؟ قال: وجد من ذبح واحدها في حجرها لا ترقأ دمعتها، ولا يسكن حزنها. ثم قام فخرج.

وقال علي: أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر اللّه على كل حال، ومواساة الأخ في المال.

وقال علي: إن اللّه لم يرض من أهل القرآن بالادهان والسكوت واللّه يعصى.

وروى الثوري عن عمرو بن قيس قال: قيل لعلي أمير المؤمنين: لم ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب ويقتدي بي المؤمن.

وعن زياد بن مليح أن علياً أتي بشيء من خبيص، فوضعه بين أيديهم، فجعلوا يأكلون ولا يأكل، فقال: إن الإسلام ليس ببكر ضال ولكن قريشاً رأت هذا العيش فتناحرت عليه.

وقد كان لعلي ﷺ ظبية - أي جراب جلد غزال - يكون فيه سويق ليشربه بالماء وقت القائلة هو طعامه لا يزيد عليه، وكان يختم عليه لئلا يختلط بغيره.

وعاتبه رجل في لبوسه فقال له: ما لك وللبوسي؟ إن لبوسي أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي بي المسلم.

وعن عبد اللّه بن شريك، عن جده، عن علي أنه أتي بالفالوذج فوضع بين يديه، فقال: إنك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتد.

وعن مجمع التيمي قال: كان علي يقسم مال بيت المال ويكنسه ويصلي فيه، يتخذه مسجداً رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

وقال الإمام: حدثنا وهب بن سعيد، حدثنا محمد بن قيس، عن علي بن ربيعة الوالبي عن علي بن أبي طالب أنه جاءه ابن النباح، فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء فقال: اللّه أكبر. فقام متوكئاً على ابن النباح حتى قام على بيت المال فقال:

هـذا جناي وخياره فيه		وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح علي بأشياع الكوفة. فنودي في الناس، فأعطاهم جميع ما في بيت المال وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين.

وقال الطبراني: حدثنا أبو مسلم الكشي، حدثنا عبد العزيز بن الخطاب، حدثنا سهل بن شعيب، عن أبي علي الصقيل، عن عبد الأعلى عن نوف البكالي قال: رأيت علي بن أبي طالب خرج ليلة فنظر إلى النجوم فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين. فقال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابه فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً. فرضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام يا نوف إن اللّه عز وجل أوحى إلى عيسى أن مر بني إسرائيل أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب طاهرة وأبصار خاشعة وأيد من الآثام نقية، فإني لا أستجيب لأحد منهم ولأحد من خلقي عنده مظلمة، يا نوف لا تكن شاعراً ولا عريفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا عشاراً فإن داود عليه السلام قام في ساعة من الليل فقال: يا لها ساعة لا يدعو فيها عبد ربه إلا استجاب له فيها إلا أن يكون عريفاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً أو صاحب عربطة، وهو الطنبور، أو صاحب كوبة، وهو الطبل، أو صاحب الشاة، وهو الشطرنج.

وروى عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن علي قال: كونوا ينابيع العلم، معادن الحكمة، مصابيح الليل، خلقان الثياب، جدد القلوب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض، وتذكرون عند ربكم.

وروي نحو ذلك عن ابن مسعود.

وقال عاصم بن ضمرة عن علي قال: ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة اللّه ولا يؤمنهم من عذاب اللّه، ويرخص لهم في معاصي اللّه، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها.

وقال أبو بكر بن خزيمة: حدثنا علي بن حجر، حدثنا يوسف بن زياد عن يوسف بن أبي المتيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: قال علي: كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يقبل.

وعن عبد خير عن علي قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت اللّه وإن أسأت استغفرت اللّه. ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع في الخيرات ويعمل في الدرجات. ولا يقبل عملا مع التقوى وكيف يقل ما يقبل.

وروي نحو هذا عن أبي الدرداء.

وروى ثابت بن أبي صفية أبي الزعراء قال: قال علي: احفظوا عني خمساً لو ركبتم الإبل في طلبهن لما أصبتموهن ولأنضيتم الإبل قبل أن تدركوهن. لا يرجونّ عبد إلا ربه، ولا يخف إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول اللّه أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا إيمان لمن لا صبر له.

خلافة الحسن بن علي ﷺ

قد ذكرنا أن علياً رضي اللّه عنه لما ضربه ابن ملجم قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين فقال: لا ولكن أدعكم كما ترككم رسول اللّه ﷺ - يعني بغير استخلاف - فإن يرد اللّه بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول اللّه ﷺ.

فلما توفي وصلى عليه ابنه الحسن - لأنه أكبر بنيه رضي اللّه عنهم - ودفن كما ذكرنا بدار الإمارة على الصحيح من أقوال الناس، فلما فرغ من شأنه كان أول من تقدم إلى الحسن بن علي رضي اللّه عنه قيس بن سعد بن عبادة فقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب اللّه وسنة نبيه، فسكت الحسن فبايعه ثم بايعه الناس بعده، وكان ذلك يوم مات علي، وكان موته يوم ضرب على قول وهو يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وقيل: إنما مات بعد الطعنة بيومين، وقيل: مات في العشر الأخير

من رمضان، ومن يومئذ ولي الحسن ابنه.

وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان، تحت يده أربعون ألف مقاتل، قد بايعوا علياً على الموت فلما مات عليٌّ ألح قيس بن سعد على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، فعزل قيساً عن إمرة أذربيجان، وولى عبيد الله بن عباس عليها، ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعا عظيما لم يسمع بمثله، فأمَّر الحسن بن علي قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في اثني عشر ألفا بين يديه، وسار هو بالجيوش في إثره قاصداً بلاد الشام، ليقاتل معاوية وأهل الشام فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدّم المقدّمة بين يديه فبينما هو في المدائن معسكراً بظاهرها، إذ صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل. فثار الناس فانتهب بعضُهم بعضاً حتى انتهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطا كان جالساً عليه، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أشوته فكرههم الحسن كراهية شديدة، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن فنزله وهو جريح، وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفي - أخو أبي عبيد صاحب يوم الجسر - فلما استقر الحسن بالقصر قال المختار بن أبي عبيد قبحه الله لعمه سعد بن مسعود: هل لك في الشرف والغنى؟ قال: وما ذا؟ قال: تأخذ الحسن بن علي فتقيده وتبعث به إلى معاوية فقال له عمه: قبّحك الله وقبح ما جئت به، أأغدر بابن بنت رسول الله ﷺ ؟!

ولّما رأى الحسن بن علي تفرق جيشه عليه مقتهم وكتب عند ذلك إلى معاوية- وكان قد ركب في أهل الشام فنزل مسكن- يراوضه على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبدالرحمن بن سمرة، فقدما عليه الكوفة فبذلا له ما أراد من الأموال، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وأن يكون خراج دارابجرد له، وأن لا يسب علي وهو يسمع، فإذا فعل ذلك نزل عن الإمرة لمعاويه ويحقن الدماء بين المسلمين فاصطلحوا على ذلك واجتمعت الكلمة على معاوية على ما سيأتي بيانه وتفصيله، وقد لام الحسين أخاه الحسن على هذا الرأي فلم يقبل منه، والصواب مع الحسن رضي الله عنه كما سنذكر دليله قريباً.

ثم بعث الحسن بن علي إلى أمير المقدمة قيس بن سعد أن يسمع ويطيع، لمعاوية فأبى قيس بن سعد من قبول ذلك، وخرج عن طاعتهما جميعاً، واعتزل بمن أطاعه ثم راجع الأمر فبايع معاوية بعد قريبة كما سنذكره.

ثم المشهور أن مبايعة الحسن لمعاوية كانت في سنة أربعين، ولهذا يقال له عام الجماعة، لاجتماع الكلمة فيه على معاوية، والمشهور عند ابن جرير وغيره من علماء السير أن ذلك كان في أوائل سنة إحدى وأربعين كما سنذكره إن شاء الله. وحج بالناس في هذه السنة - أعني سنه أربعين - المغيرة بن شعبة.

وزعم ابن جرير [تاريخه: ١٦٠/٥، ١٦١] فيما رواه عن إسماعيل بن راشد أن المغيرة بن شعبة افتعل كتاباً على لسان معاوية أنه قد ولاه الحج عامئذ، وبادر إلى ذلك عتبة بن أبي سفيان، وكان معه كتاب من أخيه بإمرة الحج، فتعجل المغيرة فوقف بالناس يوم الثامن ليسبق عتبة إلى الإمرة.

وهذا الذي نقله ابن جرير لا يقبل، ولا يظن بالمغيرة رضي الله عنه ذلك، وإنما نبهنا على ذلك ليعلم أنه باطل، والله أعلم؛ فإن الصحابة أجل قدراً من هذا، ولكن هذه نزعة شيعية.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٦١/٥]: وفي هذه السنة بويع لمعاوية بإيلياء - يعني لما مات علي - قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع، فعند ذلك أقام أهل العراق الحسن بن علي رضي الله عنه ليمانعوا به أهل الشام فلم يتم لهم ما أرادوه وما حاولوه، وإنما كان خذلانهم من قبل تدبيرهم وآرائهم المختلفة المخالفة لأمرائهم، ولو كانوا يعلمون لعظموا ما أنعم الله به عليهم من مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيد المسلمين، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوي آرائهم.

والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في دلائل النبوة من طرق عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» [مسند أحمد: ٢٢٠/٥، ٢٢١، د(٤٦٤٦)، ت(٢٢٢٦)، س كبرى (٨١٥٥)] وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنه، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من أكبر دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً. وقد مدحه رسول الله ﷺ على صنيعه هذا وهو تركه الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة الباقية، وحقنه دماء هذه الأمة فنزل عن الخلافة وجعل الملك بيد معاوية حتى تجتمع الكلمة على أمير واحد. وهذا المدح قد ذكرناه فيما تقدّم وسنورده في حديث أبي بكرة الثقفي أن رسول الله ﷺ صعد المنبر يوماً وجلس الحسن بن علي إلى جانبه، فجعل ينظر إلى الناس مرة وإليه أخرى ثم قال: «أيها الناس إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه البخاري [٣٦٢٩].

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية

قال ابن جرير [تاريخه: ١٦٢/٥، ١٦٣]: فيها سلم الحسن بن علي الأمر لمعاوية بن أبي سفيان. ثم روى عن الزهري أنه قال: لما بايع أهل العراق الحسن بن علي طفق يشترط عليهم: إنكم سامعون مطيعون مسالمون من سالمت محاربون من حاربت. فارتاب به أهل العراق وقالوا: ما هذا لكم بصاحب. فما كان عن قريب حتى طعنوه فأشوه فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً، فعند ذلك عرف تفرقهم واختلافهم عليه وكتب إلى معاوية يسالمه ويراسله في الصلح بينه وبينه على ما يختاران.

وقال البخاري في كتاب الصلح [٢٧٠٤]: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن أبي موسى. قال: سمعت الحسن يقول: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال معاوية - وكان والله خير الرجلين -: إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس؟ من لي بضيعتهم؟ من لي بنسائهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر- قال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به، فصالحه. قال الحسن:

ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». قال البخاري قال لي علي بن المديني: إنما ثبت عندنا سماع الحسن بن أبي بكرة بهذا الحديث.

قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري في كتاب الفتن عن علي بن عبد الله - وهو ابن المديني [٧١٠٩] - وفي فضائل الحسن عن صدقة بن الفضل ثلاثتهم عن سفيان [٣٧٤٦].

ورواه أحمد عن سفيان - وهو ابن عيينة - عن إسرائيل بن موسى البصري به.

ورواه أيضاً في دلائل النبوة [٢٧٠٤] عن عبد الله بن محمد - وهو ابن أبي شيبة - ويحيى بن آدم كلاهما عن حسين بن علي الجعفي عن إسرائيل عن الحسن وهو البصري به.

وأخرجه أحمد [٤٩/٥] وأبو داود [٤٦٦٢] والنسائي [كبرى (١٠٠٨٠)] من حديث حماد بن زيد عن علي بن زيد عن الحسن البصري به.

ورواه أبو داود [٤٦٦٢] أيضاً والترمذي [٣٧٧٣] من طريق أشعث عن الحسن به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد رواه النسائي [كبرى(١٠٠٨٣-١٠٠٨٥)] من طريق عوف الأعرابي وغيره عن الحسن البصري مرسلا.

وقال أحمد [٤٧/٥]: حدثنا عبد الرزاق أنا معمر أخبرني من سمع الحسن يحدث عن أبي بكرة قال: «كان النبي ﷺ يحدثنا يوماً والحسن بن علي في حجره فيقبل على أصحابه فيحدثهم ثم يقبل على الحسن فيقبله ثم قال: «إن ابني هذا سيد إن يعش يصلح بين طائفتين من المسلمين»

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٣١/١٣-٢٣٨] : كذا رواه معمر ولم يسم الذي حدثه به عن الحسن.

وقد رواه جماعة عن الحسن. منهم أبو موسى إسرائيل، ويونس بن عبيد، ومنصور بن زاذان، وعلي بن زيد، وهشام بن حسان، وأشعث بن سوار، والمبارك بن فضالة، وعمر بن عبيد القدري. ثم شرع ابن عساكر في تطريق هذه الروايات كلها فأفاد وأجاد.

قلت: والظاهر أن معمراً رواه عن عمرو بن عبيد فلم يفصح باسمه. وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار عنه وسماه، ورواه أحمد [٤٤/٥] عن هاشم عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة فذكر الحديث قال الحسن: فوالله والله بعد أن وَلِيَ لم يُهْرِقْ في خلافته ملء محجمة من دم.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي في أطرافه [تحفة الأشراف: ٣٩/٩] : وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أم سلمة.

وقد روي هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، قال يحيى بن معين: ثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ للحسن: «إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين من المسلمين».

وكذا رواه عبد الرحمن بن مغراء عن الأعمش به.

وقد رواه غيره عن أبي هريرة فقال أبو يعلى [مسنده (٦٥٦١)]: حدثنا أبو بكر حدثنا زيد بن الحباب حدثنا محمد بن صالح التمار المدني حدثنا مسلم بن أبي مريم عن سعيد بن أبي سعيد المدني قال: كنا مع أبي هريرة إذ جاء الحسن بن علي فسلّم فرددنا عليه ولم يعلم به أبو هريرة ومضى فقلنا يا أبا هريرة هذا الحسن بن علي قد سلم علينا قال: فتبعه فلحقه وقال: وعليك السلام يا سيدي، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيد».

وقال أبو الحسن علي بن المديني: كان تسليم الحسن الأمر لمعاوية في الخامس من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقال غيره: في ربيع الآخر. ويقال في غرة جمادى الأولى فالله أعلم.

قال: وحينئذ دخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها بعد البيعة.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ١٦٣/٥]: أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علي أن يخطب الناس ويعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية، فأمر معاوية الحسن فقام في الناس خطيباً فقال في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ: أما بعد أيها الناس! فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١].

فلما قالها غضب معاوية وأمره بالجلوس، وعتب على عمرو بن العاص في إشارته بذلك، ولم يزل في نفسه لذلك والله أعلم.

فأما الحديث الذي قال أبو عيسى الترمذي في جامعه [٣٣٥٠]: حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال: سودت وجوه المؤمنين - أو يا مسوّد وجوه المؤمنين - فقال: لا تؤنبني رحمك الله، فإن النبي ﷺ أُري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يا محمد - يعني نهراً في الجنه - ونزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بعدك بنو أمية يا محمد، قال القاسم: فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي، قال: وشيخه يوسف بن سعد - ويقال يوسف بن مازن - رجل مجهول - قال: ولا يعرف هذا الحديث على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه.

فإنه حديث غريب بل منكر جداً، وقد تكلمنا عليه في كتابنا التفسير بما فيه كفاية وبينا وجه نكارته، وناقشنا القاسم بن الفضل فيما ذكره، فمن أراد ذلك فليراجع التفسير والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٣٠٥/١٠]: حدثنا إبراهيم بن مخلد بن جعفر حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الحكيمي حدثنا عباس بن محمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا زهير بن معاوية حدثنا أبو روق الهمداني حدثنا أبو الغريف قال: كنا في مقدمة الحسن بن علي اثني عشر ألفاً بمسكن مستميتين تقطر أسيافنا من الجد على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمرطه فلما جاءنا بصلح الحسن بن علي كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ، فلما قدم الحسن بن علي الكوفة قال له رجل منا يقال له أبو عامر سفيان بن الليل: السلام عليك يا مذل المؤمنين فقال: لا تقل هذا يا أبا عامر! لست بمذل المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلهم على الملك.

ولما تسلم معاوية البلاد ودخل الكوفة وخطب بها واجتمعت عليه الكلمة في سائر الأقاليم والآفاق، ورجع إليه قيس بن سعد أحد دهاة العرب - وقد كان عزم على الشقاق وحصل على بيعة معاوية عامئذ الإجماع والاتفاق، ترحل الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. وجعل كلما مر بحي من شيعتهم

يبكونه على ما صنع من نزوله عن الأمر لمعاوية، وهو في ذلك مصيب بارٌ راشد ممدوح، وليس يجد في صدره حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً، بل هو راض بذلك مستبشر به، وإن كان قد ساء هذا خلقاً من ذويه وأهله وشيعته، ولا سيما بعد ذلك بمدد وهلم جرّا إلى يومنا هذا. والحق في ذلك اتباع السنة ومدحه فيما حقن به دماء الأمة، كما مدحه على ذلك رسول الله ﷺ كما تقدم في الحديث الصحيح ولله الحمد والمنة. وسيأتي فضائل الحسن عند ذكر وفاته رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنات الفردوس متقلّبه ومثواه، وقد فعل.

وقال محمد بن سعد: أنا أبو نعيم حدثنا شريك عن عاصم عن أبي رزين. قال: خطبنا الحسن بن علي يوم جمعة فقرأ سورة «إبراهيم» على المنبر حتى ختمها.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤٤/١٣] عن الحسن أنه كان يقرأ كل ليلة سورة «الكهف» في لوح مكتوب يدور معه حيث دار من بيوت أزواجه قبل أن ينام وهو في الفراش رضي الله عنه.

ذكر أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وملكه

قد تقدم في الحديث أن الخلافة بعده عليه الصلاة والسلام ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا، وقد انقضت الثلاثون سنة بخلافة الحسن بن علي، فأيام معاوية أول الملك، فهو أول ملوك الإسلام وخيارهم.

قال الطبراني [المعجم الكبير: ١١٩/١، ١٢٠و٥٣/٢٠] : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا أحمد بن يونس حدثنا الفضيل بن عياض عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة قالا قال رسول الله ﷺ «إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم كائن ملكا عضوضا، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض، يستحلون الحرير والفروج والخمور ويرزقون على ذلك وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل» إسناده جيد.

وقد ذكرنا في دلائل النبوة الحديث الوارد من طريق إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر - وفيه ضعف - عن عبد الملك بن عمير قال: قال معاوية: والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ لي: «يا معاوية إن ملكت فأحسن». رواه البيهقي [الدلائل: ٤٤٦/٦] عن الحاكم عن الأصم عن العباس بن محمد عن محمد بن سابق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن إسماعيل، ثم قال البيهقي [الدلائل: ٤٤٦/٦، ٤٤٧]: وله شواهد من وجوه أخر، منها حديث عمرو بن يحيى بن سعيد بن العاص عن جده سعيد أن معاوية أخذ الإداوة فتبع رسول الله ﷺ فنظر إليه فقال له: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل» قال معاوية: فما زلت أظن أني مبتلى بعمل لقول رسول الله ﷺ .

ومنها حديث راشد بن سعد عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ فنفعه الله بها.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٤٤٦/٦] من طريق هشيم عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بالمدينة، والملك بالشام». غريب جداً.

وروى من طريق أبي إدريس عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام».

وقد رواه سعيد بن عبد العزيز عن عطية بن قيس ويونس بن ميسرة عن عبد الله بن عمرو [الدلائل للبيهقي: ٤٤٨/٦].

ورواه الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة.

وروى يعقوب بن سفيان عن نصر بن محمد بن سليمان السلمي الحمصي عن أبيه عن عبد الله بن قيس، سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عموداً من نور خرج من تحت رأسي ساطعاً حتى استقر بالشام» [الدلائل للبيهقي: ٤٤٨/٦] .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن صفوان قال: قال رجل يوم صفين: اللّهم العن أهل الشام، فقال له علي: لا تسب أهل الشام فإن بها الأبدال فإن بها الأبدال فإن بها الأبدال [المصنف (٢٠٤٥٥)] .

وقد روي هذا الحديث من وجه آخر مرفوعاً [مسند أحمد: ١١٢/١]:

فضل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

هو

■ معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الرحمن القرشي الأموي، خال المؤمنين، وكاتب وحي رب العالمين، أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يوم الفتح.

وقد روي عن معاوية أنه قال: أسلمت يوم عمرة القضاء ولكن كتمت إسلامي من أبي وأمي إلى يوم الفتح.

وقد كان أبوه من سادات قريش في الجاهلية. وآلت إليه رياسة قريش بعد يوم بدر، فكان هو أمير الحروب من ذلك الجانب، وكان رئيساً مطاعاً ذا مال جزيل، ولما أسلم قال: يا رسول الله مرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: «نعم» قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم» ثم سأل أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى، وهي عزة بنت أبي سفيان واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فلم يقع ذلك، وبين رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له. وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير موضع، وأفردنا له مصنفا على حدة ولله الحمد والمنة.

والمقصود أن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ مع غيره من كتاب الوحي رضي الله عنهم. ولما فتحت الشام ولاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقره على ذلك عثمان بن عفان وزاده بلاداً أخرى، وهو الذي بنى القبة الخضراء بدمشق وسكنها أربعين سنة، قاله الحافظ ابن عساكر.

ولما ولي علي بن أبي طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام ويولي عليها سهل بن حنيف فعزله فلم يتنظم له عزله والتف عليه جماعة من أهل الشام ومانع عليا عنها وقد قال: لا أبايعه حتى يسلمني قتلة عثمان فإنه قتل مظلوماً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ [الإسراء: ٣٣]

وروى الطبراني [المعجم الكبير: ٣٢٠/١٠] عن ابن عباس أنه قال: ما زلت موقناً أن معاوية سيلي الملك والسلطان من هذه الآية. أوردنا سنده ومتنه عند تفسير هذه الآية.

فلما امتنع معاوية من البيعة لعلي حتى يسلمه القتلة، كان من أمر صفين ما قدمنا ذكره، ثم آل الأمر إلى التحكيم، فكان من أمر عمرو بن العاص وأبي موسى ما أسلفناه من قوة جانب أهل الشام في الصورة الظاهرة، واستفحل أمر معاوية جداً، ولم يزل أمر علي في اختلاف مع أصحابه حتى قتله ابن ملجم كما تقدم، فعند ذلك بايع أهل العراق الحسن بن علي، وبايع أهل الشام لمعاوية بن أبي سفيان. ثم ركب الحسن في جنود العراق عن غير إرادة منه، وركب معاوية في أهل الشام. فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان سعى الناس بينهما في الصلح فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الملك إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك في ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وأربعين ـ ودخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها خطبة بليغة بعدما بايعه الناس ـ واستوسقت له الممالك شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وسمّي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على أمير واحد بعد الفُرقة، فولى معاوية قضاء الشام لفضالة بن عبيد، ثم بعده لأبي إدريس الخولاني. وكان على شرطته قيس بن حمزة، وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي، ويقال: إنه أول من اتخذ الحرس وأول من حزم الكتب وختمها، وكان أول الأحداث في دولته رضي الله عنه.

خروج طائفة من الخوارج عليه

وكان سبب ذلك أن معاوية لما دخل الكوفة وخرج الحسن وأهله منها قاصدين إلى الحجاز، قالت فرقة من الخوارج ـ نحو من خمسمائة ـ جاء ما لا يشك فيه فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فساروا حتى قربوا من الكوفة وعليهم فروة بن نوفل، فبعث إليهم معاوية خيلا من أهل الشام فطردوا الشاميين، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقكم. فخرجوا إلى الخوارج فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون؟ أليس معاوية عدوكم وعدونا؟ فدعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكموه، وإن أصبنا كنتم قد كفيتمونا. فقالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالت الخوارج: يرحم الله إخواننا من أهل النهر كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. فاقتتلوا فهزمهم أهل الكوفة وطردوهم.

ثم إن معاوية أراد أن يستخلف على الكوفة عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له المغيرة بن شعبة: توليه الكوفة وأبوه بمصر وتبقى أنت بين لحيي الأسد؟! فثناه عن ذلك وولى عليها المغيرة بن شعبة، فاجتمع عمرو بن العاص بمعاوية فقال: أتجعل المغيرة على الخراج؟ هلا وليت الخراج رجلا آخر؟ فعزله عن الخراج وولاه على الصلاة، فقال المغيرة لعمرو في ذلك، فقال له: ألست المشير على أمير المؤمنين في عبد الله بن عمرو؟ قال: بلى! قال: فهذه بتلك.

وفي هذه السنة وثب حمران بن أبان على البصرة فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكر الثقفي إلى معاوية فسأله في الصفح عنهم والعفو، فعفى عنهم وأطلقهم وولى على البصرة بسر بن أبي أرطاة، فتسلط على أولاد زياد يريد قتلهم، وذلك أن معاوية كتب إلى أبيهم ليحضر إليه فتلبّث، فكتب إليه بسر: لئن لم تسرع إلى أمير المؤمنين وإلا قتلت بنيك، فبعث أبو بكرة إلى معاوية في ذلك. فأخذ له أماناً منه. وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً فإنك قد تقلدت عظيما، خلافة الله في خلقه، فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث وأوشك أن تبلغ المدى فيلحق الطالب فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تؤثرن على رضا الله شيئا.

ثم ولى معاوية في آخر هذه السنة البصرة لعبد الله بن عامر، وذلك أن معاوية أراد أن يوليها لعتبة بن أبي سفيان فقال له ابن عامر: إن لي بها أموالا وودائع، وإن لم تولّنيها هلكتُ، فولاه إياها وأجابه إلى سؤاله في ذلك.

قال أبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان.

وقال الواقدي: إنما حج بهم عنبسة بن أبي سفيان فالله أعلم.

ومن أعيان من توفي هذا العام:

■ **رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان**: شهد العقبة وبدراً وما بعدها.

■ **ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب القرشي**، وهو الذي صارعه النبي ﷺ فصرعه، وكان رُكانة من أشد الناس، وكان صَرْعُ رسول الله ﷺ له من المعجزات كما قدمنا في دلائل النبوة، أسلم عام الفتح، وقيل قبل ذلك بمكة فالله لما صرّعه رسول الله ﷺ أعلم.

■ **صفوان بن أمية ابن خلف بن وهب بن حذافة بن وهب القرشي**: أحد الرؤساء تقدم أنه هرب يوم الفتح، ثم جاء فأسلم وحسن إسلامه، وكان الذي استأمن له عمير بن وهب الجمحي. وكان صاحبه وصديقه في الجاهلية كما تقدم، وقدم به في وقت صلاة العصر فاستأمن له فأمنه رسول الله ﷺ أربعة أشهر، واستعار منه أدرعاً وسلاحاً ومالاً. وحضر صفوان حنيناً مشركا، ثم أسلم ودخل الإيمان قلبه، فكان من سادات المسلمين كما كان من سادات الجاهلية.

قال الواقدي: ثم لم يزل مقيماً بمكة حتى توفي بها في أول خلافة معاوية.

■ **عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار العبدري الحجبي**، أسلم هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص في أول سنة ثمان قبل الفتح.

وقد روى الواقدي حديثاً طويلا عنه في صفة إسلامه، وهو الذي أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة عام الفتح ثم رده إليه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨] وقال له: «خذها يا عثمان خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم». وكان علي قد طلبها من النبي ﷺ فمنعه من ذلك.

قال الواقدي: نزل المدينة حياة رسول الله ﷺ، فلما مات نزل بمكة فلم يزل بها حتى مات في أول خلافة معاوية.

■ **عمرو بن الأسود العَنْسي** كان من العبّاد الزهاد، وكانت له حلة بمائتي درهم يلبسها إذا قام إلى صلاة الليل، وكان إذا خرج إلى المسجد وضع يمينه على شماله مخافة الخيلاء، روى عن معاذ، وعبادة بن الصامت، والعرباض بن سارية وغيرهم.

وقال أحمد في الزهد [المسند: ١٨/١، ١٩] : حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر عن حكيم بن عمير وضمرة بن حبيب قالا: قال عمر بن الخطاب: من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدي عمرو بن الأسود.

■ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، وهي أخت سعيد بن زيد أحد العشرة، أسلمت وهاجرت وكانت من حسان النساء وعبادهن، تزوجها عبد الله بن أبي بكر فتيم بها، فلما قتل في غزوة الطائف آلت أن لا تتزوج بعده، فبعث إليها عمر بن الخطاب - وهو ابن عمها - فتزوجها، فلما قتل عنها خلف بعده عليها الزبير بن العوام، فقتل عنها بوادي السباع، فبعث إليها علي بن أبي طالب يخطبها فقالت له: إني أخشى عليك أن تقتل، فأبت أن تتزوجه ولو تزوجته لقتل عنها أيضا، فإنها لم تزل بلا زوج حتى ماتت في أول خلافة معاوية في هذه السنة رحمها الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين

فيها غزا المسلمون اللان والروم فقتلوا من أمراءهم وبطارقتهم خلقاً كثيراً، وغنموا وسلموا.

وفيها ولى معاوية مروان بن الحكم نيابة المدينة، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى قضائها شريح القاضي، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، وعلى خراسان قيس بن الهيثم من قبل عبد الله بن عامر.

وفي هذه السنة تحركت الخوارج الذين كانوا قد عفى عنهم علي يوم النهروان، وقد عوفي جرحاهم وثابت إليهم قواهم، فلما بلغهم مقتل علي ترحموا على قاتله ابن ملجم وقال قائلهم: لا يقطع الله يداً علت قَذَال علي بالسيف. وجعلوا يحمدون الله على قتل علي، ثم عزموا على الخروج على الناس وتوافقوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يزعمون

وفي هذه السنة قدم زياد بن أبيه على معاوية - وكان قد امتنع عليه قريباً من سنة في قلعة عرفت به يقال لها قلعة زياد. فكتب إليه معاوية: ما يحملك على أن تهلك نفسك؟ أقدم علي فأخبرني بما صار إليك من أموال فارس وما صرفت منها وما بقي عندك فائتني به وأنت آمن، فإن شئت أن تقيم عندنا فعلت وإلا ذهبت حيثما شئت من الأرض فأنت آمن. فعند ذلك أزمع زياد السير إلى معاوية، فبلغ المغيرة قدومه فخشي أن يجتمع بمعاوية قبله، فسار نحو دمشق إلى معاوية فسبقه زياد إلى معاوية بشهر فقال معاوية للمغيرة: ما هذا وهو أبعد منك وأنت جئت بعده بشهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه يتنظر الزيادة وأنا أنتظر النقصان، فأكرم معاوية زياداً وقبض ما كان معه من الأموال وصدقه فيما صرفه وما بقي عنده.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

فيها غزا بسر بن أبي أرطاة بلاد الروم فتوغل فيها حتى بلغ مدينة قسطنطينية، وشتى ببلادهم فيما زعمه الواقدي، وأنكر غيره ذلك وقالوا: لم يكن بها مشتى لأحد قط فالله أعلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٨١/٥]: وفيها مات عمرو بن العاص بمصر، ومحمد بن مسلمة.

قلت: وسنذكر ترجمة كل منهما في آخرها.

فولى معاوية بعد عمرو بن العاص على ديار مصر ولده عبد الله بن عمرو، قال الواقدي: فعمل له عليها سنتين.

وقد كانت في هذه السنة - أعني سنة ثلاث وأربعين - وقعة عظيمة بين الخوارج وجند الكوفة، وذلك أنهم صمموا- كما قدمنا - على الخروج على الناس في هذا الحين، فاجتمعوا في قريب من ثلاثمائة عليهم المستورد بن عُلَّفة، فجهز عليهم المغيرة بن شعبة جندا عليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، فصار إليهم وقدم بين يديه أبا الرواغ في طليعة هي ثلاثمائة على عدة الخوارج، فلقيهم أبو الرواغ بمكان يقال له المذار. فاقتتلوا معهم فهزمتهم الخوارج ثم كروا عليهم فهزمتهم الخوارج، ولكن لم يقتل أحد منهم فلزموا مكانهم في مقابلتهم يتنظرون قدوم أمير الجيش معقل بن قيس عليهم، فما قدم عليهم إلا في آخر نهار غربت فيه الشمس فنزل وصلى بأصحابه، ثم شرع في مدح أبي الرواغ فقال له: أيها الأمير إن لهم شدات منكرة، فكن أنت رِدْءَ الناس، ومر الفرسان فليقاتلوا بين يديك، فقال معقل بن قيس: نعم ما رأيت.

فما كان إلا ريثما قال له ذلك حتى حملت الخوارج على معقل وأصحابه، فانجفل عنه عامة أصحابه، فترجل عند ذلك معقل بن قيس وقال: يا معشر المسلمين الأرض الأرض. فترجل معه جماعة من الفرسان والشجعان قريب من مائتي فارس منهم أبو الرواغ الشاكري، فحمل عليهم المستورد بن عُلَّفة بأصحابه فاستقبلوهم بالرماح والسيوف، ولحق بقية الجيش بعض الفرسان فذمَّرهم وعيرهم وأنبهم على الفرار فرجع الناس إلى معقل وهو يقاتل الخوارج بمن معه قتالا شديداً، والناس يتراجعون في أثناء الليل، فصفهم معقل بن قيس ميمنة وميسرة ورتبهم وقال: لا تبرحوا على مصافكم حتى نصبح فنحمل عليهم. فما أصبحوا حتى هزمت الخوارج فرجعوا من حيث أتوا، فسار معقل في طلبهم وقدم بين يديه أبا الرواغ في ستمائة فالتقوا بهم عند طلوع الشمس فثار إليهم الخوارج فتبارزوا ساعة، ثم حملوا حملة رجل واحد فصبر لهم أبو الرواغ بمن معه، وجعل يُذَمِّرهم وينهاهم عن الفرار ويحثهم على الصبر فصبروا وصدقوا في الثبات حتى ردوا الخوارج إلى أماكنهم، فلما رأت الخوارج ذلك خافوا من هجوم معقل عليهم فما يكون دون قتلهم شيء، فهربوا بين أيديهم حتى قطعوا دجلة ووقعوا في أرض بهرسير، وتبعهم أبو الرواغ ولحقه معقل بن قيس، ووصلت الخوارج إلى المدينة العتيقة فركب إليهم سماك بن عبيد - نائب المدائن - ولحقهم أبو الرواغ بمن معه من المقدمة.

وحج بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة.

وممن توفي بها عمرو بن العاص ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهما. أما

■ عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي، أبوعبد الله، ويقال أبو محمد.

أحد رؤساء قريش في الجاهلية، وهو الذي أرسلوه إلى النجاشي ليرد عليهم من هاجر من المسلمين إلى بلاده فلم يجبهم إلى ذلك لعدله، ووعظ عمرو بن العاص في ذلك، فيقال إنه أسلم على يديه. والصحيح أنه إنما أسلم قبل الفتح بستة أشهر هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة العبدري.

وكان أحد أمراء الإسلام، وهو أمير غزوة ذات السلاسل، وأمده رسول الله ﷺ بمدد عليهم أبو عبيدة ومعه الصديق وعمر الفاروق، واستعمله رسول الله ﷺ على عُمَان فلم يزل عليها مدة حياة رسول الله ﷺ، وأقره عليها الصديق.

وقد قال الترمذي [٣٨٤٤]: حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة حدثنا مشرح

بن هاعان عن عقبة بن عامر. قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص».

وقال أيضاً [٣٨٤٥]: حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا أبو أسامة عن نافع بن عمر الجمحي عن ابن أبي مليكة. قال: قال طلحة بن عبيد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عمرو بن العاص من صالحي قريش».

وفي الحديث الآخر: «ابنا العاص مؤمنان» [مسند احمد: ٢/٢٥٤، ٣٠٤، ٣٢٧، ٣٥٣].

وفي الحديث الآخر: «نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله» [مسند احمد: ١/١٦١] .

رووه في فضائل عمرو بن العاص.

ثم إن الصديق بعثه في جملة من بعث من أمراء الجيش إلى الشام فكان ممن شهد تلك الحروب، وكانت له الآراء السديدة، والمواقف الحميدة، والأحوال السعيدة.

ثم بعثه عمر إلى مصر فافتتحها واستنابه عليها، وأقره فيها عثمان بن عفان أربع سنين ثم عزله كما قدمنا، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاعتزل عمرو بفلسطين وبقي في نفسه من عثمان رضي الله عنهما. فلما قتل عثمان سار إلى معاوية فشهد مواقفه كلها بصفين وغيرها، وكان هو أحد الحكمين.

ثم لما أن استرجع معاوية مصر وانتزعها من يد محمد بن أبي بكر، استعمل عمرو بن العاص عليها فلم يزل نائبها إلى أن مات في هذه السنة على المشهور، وقيل: إنه توفي سنة سبع وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين. وقيل سنة إحدى وخمسين رحمه الله.

وقد كان معدوداً من دهاة العرب وشجعانهم وذوي آرائهم. وله أمثال حسنة وأشعار جيدة. وقد رُوي عنه أنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل. ومن شعره:

إذا المرءُ لم يتركْ طعاماً يحبُّهُ ... ولم ينهَ قلباً غاوياً حيثُ يمَّما
قضى وطراً منهُ وغادرَ سُبَّةً ... إذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما

وقال الامام أحمد [٤/١٩٩]: حدثنا علي بن إسحاق حدثنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد الرحمن بن شماسة حدثه قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله: لم تبكي؟ أجزعاً من الموت؟ فقال: لا والله ولكن مما بعد الموت، فقال له: قد كنت على خير. فجعل يذكره صحبة رسول الله ﷺ وفتوحه الشام، فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أول شيء كافراً، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار، فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياء منه، فما ملأت عيني من رسول الله ﷺ ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله حياء منه، فلو مت يومئذ قال الناس: هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه نرجو له الجنة. ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدري علي أم لي، فإذا مت فلا تبكين علي باكية، ولا تتبعني مادحاً ولا ناراً، وشدوا عليَّ إزاري فإني مخاصَم، وشنوا علي التراب شنا، فإن جنبي الأيمن ليس بأحقَّ بالتراب من جانبي الأيسر، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور وتقطيعها، أستأنس بكم.

وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه [١٢١] من حديث يزيد بن أبي حبيب بإسناده نحوه وفيه زيادات على هذا السياق، فمنها قوله: كي أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع رسل ربي عز وجل.

وفي رواية أنه بعد هذا حول وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللّهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك [مسند احمد: ٤/١٩٩، ٢٠٠].

وفي رواية: أنه وضع يده على موضع الغل من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهم لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت. فلم يزل يرددها حتى مات رضي الله عنه.

وأما

■ محمد بن مسلمة الأنصاري فإنه أسلم على يدي مصعب بن عمير قبل أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، شهد بدراً وما بعدها إلا تبوك فإنه استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في قول، وقيل: استخلفه في قرقرة الكدر، وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف اليهودي، وقيل إنه الذي قتل مرحباً اليهودي يوم خيبر أيضاً. وقد أمَّره رسول الله ﷺ على نحو من خمس عشرة سرية، وكان ممن اعتزل تلك الحروب بالجمل وصفين وغيرها، واتخذ سيفاً من خشب. وقد ورد في حديث قدمناه أنه أمره رسول الله ﷺ بذلك وخرج إلى الربذة [مسند احمد: ٧/٤٩٣].

وكان من سادات الصحابة، وكان هو يريد عمر إلى عماله وهو الذي شاطرهم عن أمره، وله وقائع عظيمة وصيانة وأمانة بليغة، رضي الله عنه، واستعمله على صدقات جهينة.

وقيل إنه توفي سنة ست أو سبع وأربعين، وقيل غير ذلك. وقد جاوز السبعين، وترك بعده عشرة ذكور وست بنات، وكان أسمر شديد السمرة طويلا أصلع رضي الله عنه.

وممن توفي فيها:

■ عبد الله بن سلام أبو يوسف الإسرائيلي: أحد احبار اليهود، أسلم حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في نخل له، قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل إليه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وقد ذكرنا صفة إسلامه أول الهجرة، وماذا سأل عنه رسول الله ﷺ من الأسئلة النافعة الحسنة، رضي الله عنه. وهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وهو ممن يقطع له بدخولها.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين

فيها غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومعه المسلمون وشتوا هنالك.

وفيها غزا بسر بن أبي ارطاة في البحر.

وفيها عزل معاوية عبد الله بن عامر عن إمرة البصرة، وذلك أنه ظهر فيها الفساد بسبب لينه لأنه كان ليِّنَ العريكة سهلا كريماً، وكان لا يأخذ على أيدي السفهاء ولا يقطع لصاً ويريد أن يتألف الناس ففسدت البصرة بسبب ذلك.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥/٢١٢] شكا عبد الله بن عامر الى زياد فساد

الناس فقال: جرد فيهم السيف، فقال ابن عامر: إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي. قال: فذهب عبد اللّه بن أبي أوفى المعروف بابن الكوا فشكاه إلى معاوية، فعزل معاوية ابن عامر عن البصرة، وبعث إليها الحارث بن عبد اللّه الأزدي، ويقال: إن معاوية استدعاه إليه ليزوره فقدم ابن عامر على معاوية دمشق فأكرمه ورده على عمله، فلما ودعه قال له معاوية: ثلاث أسألكهن فقل: هن لك. قال: هن لك وأنا ابن أم حكيم، قال معاوية: ترد علي عملي ولا تغضب، قال ابن عامر: قد فعلت، قال معاوية: وتهب لي مالك بعرفة، قال: قد فعلت. قال: وتهب لي دورك بمكة، قال: قد فعلت. فقال له معاوية: وصلتك رحم، فقال ابن عامر: يا أمير المؤمنين وإني سائلك ثلاثا فقل هنّ لك. قال: هنّ لك وأنا ابن هند، قال: ترد علي مالي بعرفة، قال: قد فعلت قال: ولا تحاسب لي عاملا ولا تتّبع لي أثراً، قال: قد فعلت، قال: وتنكحني ابنتك هنداً، قال: قد فعلت: ويقال إن معاوية خيره بين هذه الثلاث وبين الولاية على البصرة فاختار هذه الثلاث وانعزل عن البصرة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢١٤/٥، ٢١٥]: وفي هذه السنة استلحق معاوية زياد ابن أبيه فألحقه بأبي سفيان، وذلك أن رجلا شهد على إقرار أبي سفيان أنه عاهر بسمية أم زياد في الجاهلية، وأنها حملت بزياد هذا من أبي سفيان، فلما استلحقه معاوية قيل له زياد بن أبي سفيان، وقد كان الحسن البصري ينكر هذا الاستلحاق، ويقول: قال رسول اللّه ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» [خ: (٢٢١٨)، م(١٤٥٧)].

وقال أحمد [١٦٩/١و٤٦/٥]: حدثنا هشيم حدثنا خالد عن أبي عثمان قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سَمْعُ أذني من رسول اللّه ﷺ وهو يقول: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول اللّه ﷺ.

أخرجاه [خ: (٤٣٢٦، ٤٣٢٧)، م(٦٣)] من حديث أبي عثمان عنهما.

قلت: أبو بكرة اسمه نفيع واسم أمه سمية أيضاً.

وحج بالناس في هذه السنة معاوية، وفيها عمل معاوية المقصورة بالشام، وعمل مروان مثلها بالمدينة.

وفي هذه السنة توفيت

■ أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، واسمها رملة أخت معاوية، أسلمت قديماً وهاجرت هي وزوجها عبيد اللّه بن جحش إلى أرض الحبشة فتنصر هناك زوجها، وثبتت هي على دينها رضي اللّه عنها.

وحبيبة هي أكبر أولادها منه، ولدتها بالحبشة وقيل بمكة قبل الهجرة، ومات زوجها هنالك لعنه اللّه وقبحه ولما تأيمت بعد زوجها بعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجها منه، وولي العقد خالد بن سعيد بن العاص، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار وحملها إليه في سنة سبع، ولما جاء أبوها عام الفتح ليشدّ العقد دخل عليها فثنت عنه فراش رسول اللّه ﷺ فقال لها: واللّه يا بنية ما أدري أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول اللّه ﷺ وأنت رجل مشرك، فقال لها: واللّه يا بنية لقد لقيت بعدي شراً.

وقد كانت من سيدات أمهات المؤمنين ومن العابدات الورعات رضي اللّه عنها.

قال محمد بن عمر الواقدي: حدثني أبوبكر بن عبد اللّه بن أبي سبرة عن عبد المجيد بن سهيل عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة عند موتها فقالت: قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر. فقلت: يغفر اللّه لي ولك، ما كان من ذلك كله وتجاوز وحلّلك، فقالت: سررتني سرك اللّه. وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين

فيها ولى معاوية البصرة للحارث بن عبد اللّه الأزدي، ثم عزله بعد أربعة أشهر، وولى زياداً فقدم زياد الكوفة، وعليها المغيرة بن شعبة فأقام بها ليأتيه رسول معاوية بولاية البصرة، فظن المغيرة أنه قد جاء على إمرة الكوفة فبعث إليه وائل بن حجر ليعلم له خبره فاجتمع به فلم يقدر منه على شيء، فجاء البريد إلى زياد أن يسير إلى البصره، واستعمله على خراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان.

ودخل زياد البصرة في مستهل جمادى الأولى فقام في أول خطبة خطبها ـ وقد وجد الفسق ظاهراً في البصرة فقال فيها: أيها الناس كأنكم لم تسمعوا ما أعد اللّه من الثواب لأهل الطاعة، والعذاب لأهل المعصية أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات، فاختار الفانية على الباقية.

ثم ما زال يقيم أمر السلطان ويجرد السيف حتى خافه الناس خوفا عظيما، وتركوا ما كانوا فيه من المعاصي الظاهرة، واستعان بجماعة من الصحابة، وولى عمران بن حصين القضاء بالبصرة، وولى الحكم بن عمرو الغفاري نيابة خراسان، وولى سمرة بن جندب وعبد الرحمن بن سمرة وأنس بن مالك، وكان زياد حازم الرأي ذا هيبة داهية، وكان مفوّهاً فصيحا بليغاً.

قال الشعبي: ما سمعت متكلما قط تكلم فاحسن إلا احببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زياداً فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً. وقد كانت له وجاهه عند عمر بن الخطاب.

وفي هذه السنة غزا الحكم بن عمرو نائب زياد على خراسان جبل الأشل عن أمر زياد فقتل منهم خلقاً كثيرا وغنم أموالا جمة، فكتب إليه زياد: إن أمير المؤمنين قد جاء كتابه أن يصطفى له كل صفراء وبيضاء ـ يعني الذهب والفضة ـ يجمع كله من هذه الغنيمة لبيت المال. فكتب الحكم بن عمرو إليه: إن كتاب اللّه مقدم على كتاب أمير المؤمنين، وإنه واللّه لو كانت السموات والأرض على عبد فاتقى اللّه لجعل له مخرجاً، ثم نادى في الناس: أن اغدوا على قسم غنيمتكم، فقسمها بينهم وخالف زيادا فيما كتب إليه عن معاوية، وعزل الخمس كما أمر اللّه ورسوله ﷺ، ثم قال الحكم: اللّهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك، فمات بمرو من خراسان رضي اللّه عنه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٢٦/٥]: وحج بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم وكان نائب المدينة وكانت الولاة والعمال هم الذين كانوا في السنة الماضية.

وفي هذه السنة توفي:

■ زيد بن ثابت الأنصاري أحد كتاب الوحي، وقد ذكرنا ترجمته فيهم في أواخر السيرة، وهو الذي كتب هذا المصحف الإمام الذي بالشام عن أمر عثمان بن عفان، وهو خط جيد قوي جداً فيما رأيته.

وقد كان زيد بن ثابت من أشد الناس ذكاءً تعلم لسان يهود وكتابهم في خمسة عشر يوماً.

قال أبو الحسن بن البراء: تعلم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خدام رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: وأول مشاهده الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة. وفي الحديث الذي رواه أحمد [٣/٢٨١] والنسائي [كبرى (٨٢٤٢)]: «وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت». وقد استعمله عمر بن الخطاب على القضاء.

وقال مسروق: كان زيد بن ثابت من الراسخين في العلم.

وقال محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن ابن عباس: أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب فقال له: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: لا! هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

وقال الأعمش عن ثابت بن عبيد قال: كان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته ومن أزمته خرج إلى الرجال.

وقال محمد بن سيرين: خرج زيد بن ثابت إلى الصلاة فوجد الناس راجعين منها فتوارى عنهم، وقال: من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله.

مات في هذه السنة وقيل في سنة خمس وخمسين، والصحيح الأول، وقد قارب الستين وصلى عليه مروان بن الحكم نائب المدينة.

وقال ابن عباس: لقد مات اليوم علم كثير.

وقال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة.

وفيها مات:

■ سلمة بن سلامة بن وقش عن سبعين سنة، وقد شهد بدراً وما بعدها ولا عقب له.

■ عاصم بن عدي، وقد استخلفه رسول الله ﷺ حين خرج إلى بدر على قُباء وأهل العالية، وشهد أحداً وما بعدها، وتوفي عن خمس عشرة ومائة، وقد بعثه رسول الله ﷺ هو ومالك بن الدخشم إلى مسجد الضرار فحرقاه.

وفيها توفيت:

■ حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت خنيس بن حذافة السهمي، وهاجرت معه إلى المدينة فتوفي عنها بعد بدر، فلما انقضت عدتها عرضها أبوها على عثمان بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فأبى أن يتزوجها فعرضها على أبي بكر فلم يرد عليه شيئا، فما كان عن قريب حتى خطبها رسول الله ﷺ فتزوجها، فعاتب عمر أبا بكر بعد ذلك في ذلك فقال له أبو بكر: إن رسول الله صلى ا لله عليه وسلم كان قد ذكرها فما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها [خ: (٤٠٠٥)].

وقد روينا في الحديث أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وفي رواية أن جبريل أمره بمراجعتها، وقال: إنها صوامه قوامة، وهي زوجتك في الجنة [طبقات ابن سعد: ٨/٨٤، ٨٥].

وقد اجمع الجمهور أنها توفيت في شعبان من هذه السنة عن ستين سنة، وقيل: إنها توفيت أيام عثمان والأول اصح والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وأربعين

فيها شتى المسلمون ببلاد الروم مع أميرهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقيل كان أميرهم غيره والله أعلم. وحج بالناس فيها عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، والعمال على البلاد هم المتقدم ذكرهم

وممن توفي في هذه السنة:

■ سالم بن عمير أحد البكائين المذكورين في القرآن، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد كلها.

■ سراقة بن كعب:

شهد بدرا وما بعدها.

■ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد القرشي المخزومي: وكان من الشجعان المعروفين والأبطال المشهورين كأبيه، وكان قد عظم ببلاد الشام لذلك حتى خاف منه معاوية، ومات وهو مسموم رحمه الله وأكرم مثواه.

قال ابن منده وأبو نعيم الأصبهاني: أدرك النبي ﷺ.

وقد روى ابن عساكر من طريق أبي عمر أن عمرو بن قيس روى عنه عن النبي ﷺ في الحجامة بين الكتفين.

قال البخاري [التاريخ الكبير: ٥/٢٧٧]: وهو منقطع - يعني مرسلا.

وقال الزبير بن بكار: كان عظيم القدر في أهل الشام، شهد صفين مع معاوية وكان كعب بن جعيل مداحاً له ولأخويه مهاجز وعبد الله.

وقال ابن سميع: كان يلي الصوائف زمن معاوية.، وقد حفظ عن معاوية.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٥/٢٢٧] وغيره أن رجلا يقال له ابن أثال - وكان رئيس الذمة بأرض حمص - سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح والله أعلم. وقد رثاه بعضهم فقال:

أبوكَ الذي قادَ الجيوشَ مغرباً ... إلى الرومِ لما أعطت الخَرجَ فارسُ
وكمْ من فتىً نبهتَه بعد هجعة ... بقرعِ اللِّجامِ وهو أكتعُ ناعسُ
وما يستوي الصفانِ صفٌ لخالدٍ ... وصفٌ عليهِ منْ دمشقَ البرانسُ

وقد ذكروا أن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد قدم المدينة فقال له عروة بن الزبير: ما فعل ابن أثال؟ فسكت خالد بن عبد الرحمن ثم رجع إلى حمص فثار على بن أثال فقتله، فحبسه معاوية ثم أطلقه، ثم قدم المدينة، فقال له عروة: مافعل أثال؟ فقال: قد كفيتك إياه ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة.

وفيها توفي:

■ محمد بن مسلمة في قول، وقد تقدم.

■ هرم بن حيان العبدي: كان أحد عمال عمر بن الخطاب، ولقي أويساً القرني وكان من عقلاء الناس وعلمائهم وعبادهم. ويقال: إنه لما دفن جاءت سحابة فرشّت قبره وحده، ونبت العشب عليه من وقته، فالله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين

فيها شتى المسلمون ببلاد الروم.

وفيها عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص عن ديار مصر وولى عليها معاوية بن حُديج.

وحج بالناس عتبة بن أبي سفيان وقيل: أخوه عنبسة بن أبي سفيان فالله أعلم.

وممن توفي فيها:

■ قيس بن عاصم المنقري، كان من سادات الناس في الجاهلية والإسلام، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وذلك أنه سكر يوماً فعبث بنات محرم منه فهربت منه فلما أصبح قيل له ذلك فحرَّمها، وأنشد في ذلك:

رأيتُ الخمرَ مَصْلحةً وفيها مقابح تفضحُ الرجلَ الكريما
فلا واللهِ أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما

وكان إسلامه مع وفد بني تميم، وفي بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال: «هذا سيد أهل الوبر» [خ في الأدب المفرد (٩٥٣)] وكان جواداً ممدحاً كريماً وهو الذي يقول فيه الشاعر يوم مات:

فما كان قيسٌ هلكهُ هلكُ واحد ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدما

وقال الأصمعي: سمعت أبا عمرو بن العلاء وأبا سفيان بن العلاء يقولان: قيل للأحنف بن قيس ممن: تعلمت الحِلْم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، لقد اختلفنا إليه في الحكم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه، فبينا نحن عنده يوماً وهو قاعد بفنائه محتب بكسائه إذ أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف فقالوا: هذا ابنك قتله ابن أخيك، قال: فوالله ما حل حبوته ولا قام مقامه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس فقال: أطلق عن ابن عمك، ووار أخاك واحمل إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة، ثم نظر له فقال: نقصت عدوك، وقطعت رحمك، وعصيتَ ربك، وأطعت شيطانك.

ويقال: إنه لما حضرته الوفاة جلس حوله بنوه ـ وكانوا اثنين وثلاثين ذكراً ـ فقال لهم: يا بني سوِّدوا عليكم أكبركم تخلفوا أباكم، ولا تسوِّدوا أصغركم فيزدري بكم أكفاؤكم، وعليكم بالمال واصطناعه فإنه مابهه للكريم ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس فإنها من أخس مكسبة الرجل، ولا تنوحوا علي فإن رسول الله ﷺ لم ينح عليه، ولا تدفنوني حيث يشعر بكر بن وائل، فإني كنت أعاديهم في الجاهلية. وفيه يقول الشاعر:

عليكَ سلام الله قيسَ بن عاصم ورحمتهُ ما شاء أنْ يترحما
تحيةَ من أوليتهُ منكَ منة إذا ذكرت مثلتها تملأ الفما
فما كان قيسٌ هلكهُ هلكُ واحد ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدما

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين

فيها شتى أبو عبد الرحمن القيني بالمسلمين ببلاد أنطاكية.

وفيها غزا عقبة بن عامر بأهل مصر البحر.

وحج بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فيها غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ قسطنطينية وكان معه ماعة من سادات الصحابة منهم ابن عمر، وابن عباس وابن الزبير وأبو وب الأنصاري.

وقد ثبت في صحيح البخاري [٢٩٢٤] أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» فكان هذا الجيش أول من غزاها، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد.

وفيها توفي أبو أيوب

■ خالد بن زيد الأنصاري وقيل: لم يمت في هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو ثنتين أو ثلاث وخمسين كما سيأتي.

وفيها عزل معاوية مروان عن المدينة وولى عليها سعيد بن العاص، واستقضى سعيد عليها أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

وفيها شتى مالك بن هبيرة الفزاري بأرض الروم.

وفيها كانت غزوة فضالة بن عبيد، وشتى هنالك، ففتح البلد وغنم شيئاً كثيراً.

وفيها كانت صائفة عبد الله بن كرز البجلي.

وفيها وقع الطاعون بالكوفة فخرج منها المغيرة فاراً، فلما ارتفع الطاعون رجع إليها فأصابه الطاعون فمات، والصحيح أنه مات سنة خمسين كما سيأتي.

فجمع معاوية لزياد الكوفة إلى البصرة، فكان أول من جمع له بينهما، فكان زياد يقيم في هذه ستة أشهر وهذه ستة أشهر، وكان يستخلف على البصرة سمرة بن جندب.

وحج بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ الحسن بن علي بن أبي طالب أبو محمد القرشي الهاشمي:

سبط رسول الله ﷺ ابن ابنته فاطمة الزهراء، وريحانته، وأشبه خلق الله به في وجهه، ولد للنصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، فحنكه رسول الله ﷺ بريقه وسماه حسناً، وهو أكبر ولد أبويه، وقد كان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً حتى كان يقبل زُبيبته وهو صغير، وربما مص لسانه واعتنقه وداعبه، وربما جاء ورسول الله ﷺ ساجد في الصلاة فيركب على ظهره فيقره على ذلك ويطيل السجود من أجله، وربما صعد معه إلى المنبر.

وقد ثبت في الحديث [مسند أحمد: ٣٥٤/٥، د(١١٠٩)، ت(٣٧٧٤)، ج(٣٦٠٠)، س(١٥٨٤)] أنه عليه الصلاة والسلام بينما هو يخطب إذ رأى الحسن والحسين مقبلين فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥] إني رأيت هذين يمشيان ويعثران فلم أملك أن نزلت إليهما».

ثم قال: «إنكم لمن روح الله وإنكم لتُبَخِّلون وتُجَبِّنون» [مسند أحمد: ٤٠٩/٦].

وقد ثبت في صحيح البخاري [٣٥٤٢] عن أبي عاصم عن عمر بن سعيد بن أبي حسين عن ابن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث أن أبا بكر صلى بهم العصر بعد وفاة رسول الله ﷺ بليال ثم خرج هو وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان فاحتمله على عنقه وجعل يقول: بأبي شبه النبي، ليس شبيهاً بعلي، قال: وعلي يضحك.

وروى سفيان وغير واحد قالوا: حدثنا وكيع حدثنا إسماعيل بن أبي خالد سمعت أبا جحيفة يقول: «رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي يشبهه».

ورواه البخاري [٣٥٤٣] ومسلم [٢٣٤٣] من حديث إسماعيل بن أبي خالد.

قال وكيع: لم يسمع إسماعيل من أبي جحيفة إلا هذا الحديث [تاريخ دمشق: ١٣/١٨٣] .

وقال أحمد [٦/٢٨٣]: حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا زمعة عن ابن أبي مليكة قال: كانت فاطمة تُنَقِّز الحسن بن علي وتقول:

يــــا بـــأبي شِبْـــهُ النـــبيّ ليـــس شـــبيهاً بعلـــي

وقال عبد الرزاق [المصنف: (٢٠٩٨٤)] وغيره عن معمر عن الزهري عن أنس قال: كان الحسن بن علي أشبههم وجهاً برسول الله ﷺ.

ورواه أحمد [٣/١٦٤] عن عبد الرزاق بنحوه.

وقال أحمد [١/٩٩]: حدثنا حجاج حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانئ عن علي قال: «الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما أسفل من ذلك».

ورواه الترمذي [٣٧٧٩] من حديث إسرائيل وقال: حسن غريب.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده: (١٣٠)] : حدثنا قيس عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ عن علي قال: كان الحسن بن علي أشبه الناس برسول الله ﷺ من وجهه إلى سرته، وكان الحسين أشبه الناس به ما أسفل من ذلك.

وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير أن الحسن بن علي كان يشبه النبي ﷺ.

وقال أحمد [٥/٢٠٥] : حدثنا عارم بن الفضل حدثنا معتمر عن أبيه قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن أبي عثمان النهدي يحدثه أبو عثمان عن أسامة بن زيد قال: كان النبي ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمنا ثم يقول: «اللّهم ارحمهما فإني أرحمهما».

وكذا رواه البخاري [٦٠٠٣] عن النهدي عن محمد بن الفضل عارم به، وعن علي بن المديني عن يحيى القطان عن سليمان التيمي عن أبي تميمة عن أبي عثمان عن أسامة.

وأخرجه أيضا عن موسى بن إسماعيل ومسدد عن معتمر عن أبيه عن أبي عثمان عن أسامة [٣٧٣٥، ٣٧٤٧] فلم يذكر أبا تميمة والله أعلم.

وفي رواية: «اللّهم إني أحبهما فأحبهما» [٣٧٤٧].

وقال شعبة عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: «اللّهم إني أحبه فأحبه». أخرجاه [خ: (٣٧٤٩)، م(٢٤٢٢)] من حديث شعبة.

ورواه علي بن الجعد [الجعديات (٢٠٢٣)] عن فضيل بن مرزوق عن عدي عن البراء، فزاد «وأحب من يُحبُّه» وقال الترمذي: حسن صحيح [عقب ح(٣٧٨٢)] .

وقال أحمد [٢/٢٤٩]: حدثنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال للحسن بن علي: «اللّهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه».

ورواه مسلم عن أحمد [(٢٤٢١)(٥٦)].

وأخرجاه [خ: (٣٧٤٩)، م(٢٤٢٢)] من حديث شعبة.

وقال أحمد [٢/٣٣١]: حدثنا أبو النضر حدثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبي يزيد عن نافع بن جبير عن أبي هريرة قال: كنت مع النبي ﷺ في سوق من أسواق المدينة فانصرف وانصرفت معه، فجاء إلى فناء فاطمة فنادى الحسن فقال: «أي لكع أي لكع أي لكع» فلم يجبه أحد، فانصرف وانصرفت معه فجاء إلى فناء عائشة فقعد، قال: فجاء الحسن بن علي - قال أبو هريرة: ظننا أن أمه حبسته لتجعل في عنقه السُّخاب - فلما دخل التزمه رسول الله ﷺ والتزم هو رسول الله ﷺ، ثم قال: «اللّهم إني أحبه فأحبّه وأحب من يحبه» ثلاث مرات.

وأخرجاه [خ: (٢١٢٢)، م(٢٤٢١)] من حديث سفيان بن عيينة عن عبد الله به.

وقال أحمد [٢/٥٣٢]: حدثنا حماد الخياط حدثنا هشام بن سعد عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبي هريرة. قال: خرج رسول الله ﷺ إلى سوق بني قينقاع متكئاً على يدي فطاف فيها، ثم رجع فاحتبى في المسجد وقال: «أين لكاع؟ ادعوا لي لكاع» فجاء الحسن فاشتد حتى وثب في حبوته فادخل فمه في فمه ثم قال: «اللّهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه» ثلاثاً، قال أبو هريرة: ما رأيت الحسن إلا فاضت عينيْ، أو قال: دمعت عيني أو بكيت - وهذا على شرط مسلم ولم يخرجوه.

وقد رواه الثوري عن نعيم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة فذكر مثله أو نحوه.

ورواه معاوية بن أبي مُزرِّد عن أبيه عن أبي هريرة بنحوه وفيه زيادة. وروى أبو إسحاق عن الحارث عن علي نحواً من هذا السياق.

ورواه عثمان بن أبي الكنّات عن ابن أبي مليكة عن عائشة بنحوه وفيه زيادة. وقال سفيان الثوري وغيره عن سالم بن أبي حفصة عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني». غريب من هذا الوجه.

وقال أحمد [٢/٤٤٠] : حدثنا ابن نمير حدثنا الحجاج - يعني ابن دينار - عن جعفر بن إياس عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله إنك لتحبهما، فقال: «من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد ابغضني». تفرد به أحمد.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين فجعلا يتوثبان على ظهره إذا سجد، فأراد الناس زجرهما فلما سلم قال للناس: «هذان ابناي، من أحبهما فقد أحبني».

ورواه النسائي من حديث عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح عن عاصم به [كبرى (٨١٧٠)] .

وقد ورد عن عائشة وأم سلمة أمي المؤمنين أن رسول الله ﷺ اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

وقال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي حدثنا شريك عن جابر عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله. قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنه فلينظر إلى الحسن بن علي».

وقد رواه وكيع عن الربيع بن سعد عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر فذكر مثله، وإسناده لا بأس به، ولم يخرجوه.

وجاء من حديث جابر وأبي سعيد وبريدة وحذيفة أن رسول الله ﷺ

قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما».

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن عمرو حدثنا إسماعيل بن عياش حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن يعلى بن مرة. قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى رسول الله ﷺ فجاء أحدهما قبل الآخرفجعل يده في رقبته ثم ضمه إلى إبطه، ثم جاء الآخر فجعل يده الأخرى في رقبته ثم ضمه إلى إبطه، ثم قبّل هذا ثم قبل هذا ثم قال: «اللّهم إني أحبهما فأحبهما»، ثم قال: «أيها الناس إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة».

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي خثيم عن محمد بن الأسود بن خلف عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أخذ حسنا فقبله ثم أقبل عليهم فقال: «إن الولد مبخلة مجبنة».

وقال ابن خزيمة: حدثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي حدثنا يزيد بن الحباب (ح).

وقال أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة: حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين بن واقد حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر، ثم قال: صدق الله! ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما». ثم أخذ في خطبته.

وقد رواه أبو داود [١١٠٩] والترمذي [٣٧٧٤] وابن ماجه [٣٦٠٠] من حديث الحسين بن واقد به، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقد رواه محمد الضمري عن زيد بن أرقم فذكر القصة للحسن وحده.

وفي حديث عبد الله بن شداد عن أبيه «أن رسول الله ﷺ صلى بهم إحدى صلاتي العشي فسجد سجدة أطال فيها السجود، فلما سلم قال الناس له في ذلك، قال: «إن ابني - يعني الحسن - ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

وقال الثوري عن أبي الزبير عن جابر قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو حامل الحسن والحسين على ظهره وهو يمشي بهما على أربع، فقلت: نعم الجَمَل جملكما فقال: «ونعم العدلان هما» على شرط مسلم ولم يخرجوه.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هاشم حدثنا أبو عامر حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس. قال: خرج رسول الله ﷺ هو حامل الحسن على عاتقة فقال له رجل: ياغلام نعم المركب ركبت، فقال رسول الله ﷺ: «ونعم الراكب هو».

وقال أحمد [٤٤٢/٢]: حدثنا تليد بن سليمان حدثنا أبو الجحاف عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: نظر رسول الله ﷺ إلى علي وحسن وحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم».

وقد رواه النسائي [كبرى (٨١٦٨)] من حديث أبي نعيم، وابن ماجه [١٤٣] من حديث وكيع كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي الجحاف داود بن أبي عوف، قال وكيع: وكان مرضياً - عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال عن الحسن والحسين: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»

وقد رواه أسباط عن السدي عن صبيح مولى أم سلمة عن زيد بن أرقم فذكره.

وقال بقية عن بَحير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحسن مني والحسين من علي». فيه نكارة لفظاً ومعنى.

وقال أحمد [٢٥٥/٢]: حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن عمير بن إسحاق. قال: كنت مع الحسن بن علي فلقينا أبو هريرة فقال: أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ يقبل، فقال بقميصه، قال: فقبل سرته. تفرد به أحمد. ثم رواه عن إسماعيل بن علية عن ابن عون [٤٢٧/٢].

وقال أحمد [٩٣/٤]: حدثنا هاشم بن القاسم عن حريز عن عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي عن معاوية. قال «رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه - أو قال: شفته. يعني الحسن بن علي - وإنه لن يعذب لسان أو شفتان مصّهما رسول الله ﷺ». تفرد به أحمد.

وقد ثبت في الصحيح [٣٦٢٩] عن أبي بكرة. ورواه أحمد [٤٧/٥ من حديث أبي بكرة] عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»

وقد تقدم هذا الحديث في دلائل النبوة، وتقدم قريباً عند نزول الحسن لمعاوية عن الخلافة، ووقع ذلك تصديقا لقوله ﷺ هذا، وكذلك ذكرناه في كتاب دلائل النبوة ولله الحمد والمنة.

وقد كان الصديق يجله ويعظمه ويكرمه ويحبه ويتفداه، وكذلك عمر بن الخطاب، فروى الواقدي عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه: أن عمر لما عمل الديوان فرض للحسن والحسين مع أهل بدر في خمسة آلاف، وكذلك كان عثمان بن عفان يكرم الحسن والحسين ويحبهما. وقد كان الحسن بن علي يوم الدار - وعثمان بن عفان محصور - عنده ومعه السيف متقلداً به يجاحف عن عثمان فخشي عثمان عليه فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلهم تطيباً لقلب علي، وخوفا عليه رضي الله عنهم.

وكان علي يكرم الحسن إكراماً زائداً، ويعظمه ويبجله وقد قال له يوماً: يا بني ألا تخطب حتى أسمعك؟ فقال: إني أستحي أن أخطب وأنا أراك، فذهب علي فجلس حيث لا يراه الحسن ثم قام الحسن في الناس خطيباً وعلي يسمع، فأدى خطبة بليغة فصيحة فلما انصرف جعل علي يقول: ﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ [آل عمران: ٣٤].

وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه. وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما، رضي الله عنهما وأرضاهما.

وكان ابن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي.

وقال غيره: كان الحسن إذا صلى الغداة في مسجد رسول الله ﷺ يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده، ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن، وربما أتحفنه ثم ينصرف إلى منزله رضي الله عنه.

ولما نزل لمعاوية عن الخلافة من ورعه صيانة لدماء المسلمين، كان له على معاوية في كل عام جائزة، وكان يفد إليه، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم، وراتبه في كل سنة مائة ألف، فانقطع سنة عن الذهاب وجاء وقت الجائزة فاحتاج الحسن إليها - وكان من أكرم الناس - فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه، فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له: «يا بني أتكتب إلى مخلوق بحاجتك؟!» وعلمه دعاء يدعو به، فترك

الحسن. ما كان همّ به من الكتابة، فذكره معاوية وافتقده، وقال: ابعثوا إليه بمائتي ألف فلعل له ضرورة في تركه القدوم علينا. فحملت إليه من غير سؤال.

قال صالح بن أحمد: سمعت أبي يقول: الحسن بن علي مدني ثقة. حكاه ابن عساكر في تاريخه [١٣/٢٤٢، ٢٤٣] .

قالوا: وقاسم اللّه ماله ثلاث مرات، وخرج من ماله مرتين، وحج خمساً وعشرين مرة ماشياً وإن والجنائب لتقاد بين يديه.

وروى ذلك البيهقي [السنن الكبرى: ٤/٣٣١] من طريق عبد اللّه بن عبيد بن عمير عن ابن عباس. وقاله علي بن زيد بن جدعان.

وقد علق البخاري في صحيحه أنه حج ماشياً والنجائب تقاد بين يديه.

وروى داود بن رشيد عن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه. قال: حج الحسن بن علي ماشياً والجنائب تقاد بين يديه ونجائبه تقاد إلى جنبه.

وقال العباس بن الفضل عن القاسم عن محمد بن علي قال قال الحسن بن علي: إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين مرة إلى المدينة على رجليه.

قالوا: وكان يقرأ في بعض خطبه سورة إبراهيم، وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف قبل أن ينام، يقرؤها من لوح كان يدور معه حيث كان من بيوت نسائه، فيقرأه بعدما يدخل في الفراش قبل أن ينام رضي اللّه عنه.

وقد كان من الكرم على جانب عظيم، قال محمد بن سيرين: ربما أجاز الحسن بن علي الرجل الواحد بمائة ألف.

وقال: سعيد بن عبد العزيز: سمع الحسن بن علي رجلا إلى جانبه يدعو اللّه أن يملكه عشرة آلاف درهم، فقام إلى منزله فبعث بها إليه.

وذكروا أن الحسن رأى غلاماً أسود يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلباً هناك لقمة، فقال له: ما يحملك على هذا؟ فقال: إني أستحي منه أن آكل ولا أطعمه، فقال له الحسن: لا تبرح من مكانك حتى آتيك. فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذي هو فيه، فأعتقه وملّكه الحائط، فقال الغلام: يامولاي قد وهبت الحائط للذي وهبتني له.

قالوا: وكان كثير التزوج، وكان لا يفارقه أربع حرائر، وكان مطلاقاً مصداقا، يقال إنه أحصن بسبعين امرأة.

وذكروا أنه طلق امرأتين في يوم، واحدة من بني أسد وأخرى - فزارية، وبعث إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف وبزقاق من عسل وقال للغلام: اسمع ما تقول كل واحدة منهما. فأما الفزارية فقالت: جزاه اللّه خيراً ودعت له، وأما الأسدية فقالت.

متاع قليل من حبيب مفارق

فرجع الغلام إليه بذلك، فارتجع الأسدية وترك الفزارية.

وقد قال علي لأهل الكوفة: لا تزوجوه فإنه مطلاق، فيقولون: واللّه يا أميرالمؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوّجناه منّا مَن شاء؛ ابتغاء في صهر رسول اللّه ﷺ .

وذكروا أنه نام مع امرأته خولة بنت منظور الفزاري - وقيل هند بنت سهيل - فوق إجّار فعمدت المرأة فربطت رجله بخمارها إلى خلخالها، فلما استيقظ قال لها: ما حملك على هذا؟ فقالت: خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم سخلة على العرب. فأعجبه ذلك منها، واستمر بها سبعة أيام بعد ذلك.

وقال أبو جعفر الباقر: جاء رجل إلى الحسين بن علي فاستعان به في حاجة فوجده معتكفاً فاعتذر إليه، فذهب إلى الحسن فاستعان به فقضى حاجته، وقال: لقضاء حاجة أخ لي في اللّه أحب إلي من اعتكاف شهر.

وقال هشيم عن منصور عن ابن سيرين قال: كان الحسن بن علي لا يدعو إلى طعامه أحداً ويقول: إن الطعام أهون من أن يدعى إليه أحد.

وقال أبو جعفر: قال علي: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن بن علي فإنه مطلاق، فقال رجل من همدان: واللّه لنزوجنه، فما رضي أمسك وما كره طلّق.

وقال أبو بكر الخرائطي - في كتاب مكارم الأخلاق [المنتقى من مكارم الأخلاق: (١٢٢٥٧)] : حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا القواريري حدثنا عبد الأعلى عن هشام عن محمد بن سيرين قال: تزوج الحسن بن علي امرأة فبعث إليها بمائة جارية مع كل جارية ألف درهم.

وقال عبد الرزاق عن الثوري عن عبد الرحمن بن عبد اللّه عن أبيه عن الحسن بن سعد عن أبيه قال: متع الحسن بن علي امرأتين بعشرين ألفا وزقاق من عسل، فقالت إحداهما - وأراها الحنفية:

متاع قليل من حبيب مفارق

وقال الواقدي: حدثني علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين قال: كان الحسن بن علي مطلاقا للنساء، وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه.

وقال جويرية بن أسماء: لما مات الحسن بكى عليه مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟! فقال: إني كنت أفعل ذلك إلى أَحْلَمَ من هذا. وأشار بيده إلى الجبل.

وقال محمد بن سعد: أنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: ما تكلم عندي أحد كان أحب إلي إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة، فإنه كان بين الحسن بن علي وبين عمرو بن عثمان خصومة فقال الحسن: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه. فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه قط.

قال محمد بن سعد: وأنا الفضل بن دكين أنا مساور الجصاص عن رُزيق بن سوار. قال: كان بين الحسن ومروان خصومة فجعل مروان يغلظ للحسن وحسن ساكت فامتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن: ويحك! أما علمت أن اليمين للوجه، والشمال للفرج؟ أف لك. فسكت مروان.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قيل للحسن بن علي: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، فقال: رحم اللّه أبا ذر أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار اللّه له لم يتمن أن يكون في غير الحالة التي اختار اللّه له. وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء.

وقال أبو بكر محمد بن كيسان الأصم: قال الحسن ذات يوم لأصحابه: إني أخبركم عن أخ لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان عظيمَ ما عظّمه في عيني صِغَرُ الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجا من سلطان فرجه، فلا يستخف له عقله ولا رأيه، وكان خارجا من سلطان الجهلة فلا يمد يداً إلا على ثقة المنفعة، ولا يخطو خطوة إلا لحسنة، وكان لا يسخط ولا يتبرم، كان إذا جامع العلماء يكون على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا غُلب على الكلام لم يغلب على الصمت، كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بَذّ القائلين، كان لا يشارك في دعوى، ولا يدخل في مراء، ولا

يدلي بحجة، حتى يرى قاضياً يقول ما يفعل، ويفعل ما لا يقول، تفضلا وتكرما، كان لا يغفل عن إخوانه، ولا يستخص بشيء دونهم. كان لا يكرم أحداً فيما يقع العذر بمثله كان إذا ابتدأه أمران لا يرى أيهما أقرب إلى الحق نظر فيما هو أقرب إلى هواه فخالفه.

رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٣/٢٥٣، ٢٥٤] والخطيب [تاريخ بغداد: ١٢/٣١٥].

وقال أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري: حدثنا بدر بن الهيثم الحضرمي حدثنا علي بن المنذر الطريقي حدثنا عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا محمد بن عبد الله أبو رجاء - من أهل تستر - حدثنا شعبة بن الحجاج الواسطي عن أبي إسحاق الهمداني عن الحارث الأعور: أن علياً سأل ابنه - يعني الحسن - عن أشياء من المروءة فقال: يا بني ما السداد؟ قال: يا أبة السداد دفع المنكر بالمعروف، قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة. قال: فما المروءة؟ قال العفاف وإصلاح المرء ماله. قال: فما الدِّقَّة؟ قال: النظر في اليسير ومنع الحقير. قال: فما اللوم؟ قال: إحراز المرء نفسه وبذله عِرْسَه. قال: فما السماحة؟ قال: البذل في العسر واليسر. قال: فما الشح؟ قال: أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً. قال: فما الإخاء؟ قال: الوفاء في الشدة والرخاء. قال: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو. قال: فما الغنيمة؟ قال: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا هي الغنيمة الباردة. قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ وملك النفس. قال: فما الغنى؟ قال: رضا النفس بما قسم الله لها وإن قلّ فإنما الغنى غنى النفس. قال: فما الفقر؟ قال: شَرَهُ النفس في كل شيء. قال: فما المنعة؟ قال: شدة البأس ومقارعة أشد الناس. قال: فما الذل؟ قال: الفزع عند المَصْدوقة؟ قال: فما الجرأة؟ قال: موافقة الأقران. قال: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك. قال: فما المجد. قال أن تعطي في الغرم وأن تعفو عن الجرم. قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب كل ما استرعيته. قال: فما الخُرْق؟ قال: معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك. قال: فما الثناء؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح. قال: فما الحزم؟ قال: طول الأناة، والرفق بالولاة. والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم قال: فما الشرف؟ قال: موافقة الإخوان، وحفظ الجيران. قال: فما السفه؟ قال: اتباع الدناة ومصاحبة الغواة. قال: فما الغفلة؟ قال: تركك المسجد وطاعتك المفسد قال: فما الحرمان؟ قال: تركك حظك وقد عرض عليك. قال: فمن السيد؟ قال: الأحمق في المال المتهاون بعرضه، يشتم فلا يجيب المتحزّن بأمر العشيرة هو السيد.

قال: ثم قال علي: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعودُ من العقل ولا وحدة أوحش من العُجْب، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير، ولا حسب كحسن الخلق، ولا ورع كالكف، ولا عبادة كالتفكر، ولا إيمان كالحياء، ورأس الإيمان الصبر، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم السفه، وآفة العبادة الفترة، وآفة الظَّرف الصَّلَف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المن، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة الحب الفخر».

ثم قال علي: يا بني لا تستخفن برجل تراه أبداً، فإن كان أكبر منك فَعُد أنه أبوك، وإن كان مثلك فهو أخوك، وأن كان أصغر منك فاحسب أنه ابنك.

فهذا ما سأل علي ابنه عن أشياء من المروءة.

قال القاضي أبو الفرج: ففي هذا الخبر من الحكمة وجزيل الفائدة ما ينتفع به من راعاه، وحفظه ووعاه، وعمل به وأدب نفسه بالعمل عليه، وهذبها بالرجوع إليه، وتتوفر فائدته بالوقوف عنده. وفيما رواه أمير المؤمنين وأضعافه عن النبي ﷺ ما لا غنى لكل لبيب عليم وحِذْرِهِ حكيم عن حفظه وتأمُّله، والمسعود من هدي لتقبله، والمجدود من وفق لامتثاله وتقبله.

قلت: ولكن إسناد هذا الأثر وما فيه من الحديث المرفوع ضعيف، ومثل هذه الألفاظ في عباراتها ما يدل ما في بعضها من النكارة على أنه ليس بمحفوظ والله أعلم.

وقد ذكر الأصمعي والعتبي والمدائني وغيرهم: أن معاوية سأل الحسن عن أشياء تشبه هذا فأجابه بنحوما تقدم، لكن هذا السياق أطول بكثير. فالله أعلم.

وقال علي بن العباس الطبراني: كان على خاتم الحسن بن علي مكتوب:

قدم لنفسكَ ما استطعت من التقى   إنّ المنيةَ نازلٌ بكَ يا فتى
أصبحتَ ذا فرح كأنكَ لا ترى   أحبابَ قلبكَ في المقابرِ والبلى

وقال الإمام أحمد: حدثنا مطلب بن زياد أبو محمد حدثنا محمد بن أبان قال: قال الحسن بن علي لبنيه وبني أخيه: تعلموا فإنكم صغار قوم اليوم وتكونوا كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب. رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن عبد الله بن أحمد عن أبيه [تاريخ دمشق: ١٣/٢٥٩، من طريق البيهقي، به] .

وقال عبد الله بن أحمد: حدثني أبو علي سويد الطحان حدثنا علي بن عاصم حدثنا أبو ريحانة عن سفينة عن النبي ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» فقال رجل كان حاضراً في المجلس: قد دخلت من هذه الثلاثين ستة شهور في خلافة معاوية. فقال: من ها هنا أتيت تلك الشهور كانت البيعة للحسن بن علي، بايعه أربعون ألفاً أو اثنان وأربعون ألفاً.

وقال صالح بن أحمد: سمعت أبي يقول: بايع الحسن تسعون ألفاً فزهد في الخلافة وصالح معاوية ولم يسفك في أيامه محجمة من دم.

وقال ابن أبي خيثمة: وحدثنا أبي حدثنا وهب بن جرير قال: قال أبي: فلما قتل علي بايع أهل الكوفة الحسن بن علي وأطاعوه وأحبوه أشد من حبهم لأبيه.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة عن ابن شوذب. قال: لما قتل علي سار الحسن في أهل العراق وسار معاوية في أهل الشام فالتقوا فكره الحسن القتال وبايع معاوية على أن يجعل العهد للحسن من بعده. قال: فكان أصحاب الحسن يقولون: يا عار المؤمنين، قال: فيقول لهم: العار خير من النار.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا العباس بن هشام عن أبيه قال: لما قتل علي بايع الناس الحسن بن علي فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

وقال غير ابن عباس: بايع الحسن أهل الكوفة، وبايع أهل الشام معاوية بإيلياء بعد قتل علي، وبويع بيعة العامة ببيت المقدس يوم الجمعة من آخر سنة أربعين، ثم لقي الحسن معاوية بمسكن - من سواد الكوفة - في سنة إحدى وأربعين فاصطلحا، وبايع الحسن معاوية.

وقال غيره: كان صلحهما ودخول معاوية الكوفة في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين.

وقد تكلمنا على تفصيل ذلك فيما تقدم بما أغنى عن إعادته ها هنا.

وحاصل ذلك أنه اصطلح مع معاوية على أن يأخذ ما في بيت المال

الذي بالكوفة، فوفى له معاوية بذلك فإذا فيه خمسة آلاف ألف، وقيل سبعة آلاف ألف، وعلى أن يكون خراج البصرة. وقيل دارابجرد له في كل عام، فامتنع أهل تلك الناحية عن أداء الخراج إليه، فعوضه معاوية عن ذلك ستة آلاف ألف درهم في كل عام، فلم يزل يتناولها مع ما له في كل عام في وفادته من الجوائز والتحف والهدايا، إلى أن توفي في هذا العام.

وقال محمد بن سعد عن هوذة بن خليفة عن عوف عن محمد بن سيرين قال: لما دخل معاوية الكوفة وبايعه الحسن بن علي قال أصحاب معاوية لمعاوية: مر الحسن بن علي أن يخطب، فإنه حديث السن عيي فلعله يتلعثم فيتضع في قلوب الناس. فأمره فقام فاختطب فقال في خطبته: أيها الناس والله لو ابتغيتم بين جابلق وجابرس رجلا جده نبي غيري وغير أخي لم تجدوه، وإنا قد أعطينا بيعتنا معاوية ورأينا أن حقن دماء المسلمين خير من إهراقها، والله ما أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين» ـ وأشار إلى معاوية ـ فغضب من ذلك وقال: ما أردت من هذه؟ قال: أردت منها ما أراد الله منها. فصعد معاوية وخطب بعده.

وقد رواه غير واحد وقدمنا أن معاوية عتب على أصحابه.

وقال محمد بن سعد: حدثنا أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن يزيد بن خمير قال: سمعت عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي يحدث عن أبيه قال: قلت للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة؟ فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أثيرها بأتياس أهل الحجاز.

وقال محمد بن سعد: أنا علي بن محمد عن إبراهيم بن محمد عن زيد بن أسلم قال: دخل رجل على الحسن بن علي المدينة وفي يده صحيفة فقال: ما هذه؟ فقال: ابن معاوية يَعِدُ فيها ويتوعد، قال: قد كنت على النصف منه، قال: أجل ولكن خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً، أو أكثر أو أقل، تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيما هُريق دمه؟.

وقال الأصمعي عن سلام بن مسكين عن عمران بن عبد الله. قال: رأى الحسن بن علي في منامه أنه مكتوب بين عينيه، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] ففرح بذلك فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: إن كان رأى هذه الرؤيا فقلَّ ما بقي من أجله. قال: فلم يلبث الحسن بن علي بعد ذلك إلا أياما حتى مات.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عبد الرحمن بن صالح العتكي ومحمد بن عثمان العجلي قالا: حدثنا أبو أسامة عن ابن عون عن عمير بن إسحاق. قال: دخلت أنا ورجل من قريش على الحسن بن علي فقام فدخل المخرج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدي أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت السم مراراً وما سقيت مرة هي أشد من هذه. قال: وجعل يقول لذلك الرجل: سلني قبل أن لا تسألني، فقال: ما أسألك شيئاً يعافيك الله، قال: فخرجنا من عنده ثم عدنا إليه من الغد. وقد أخذ في السَّوْق فجاء حسين حتى قعد عند رأسه، فقال: أي أخي! من صاحبك؟ قال: تريد قتله، قال: نعم! قال: لئن كان صاحبي الذي أظن للَّهُ أشد نقمة. وفي رواية: فالله أشد بأساً وأشد تنكيلا، وإن لم يكنه ما أحب أن تقتل بي بريئا.

ورواه محمد بن سعد عن ابن علية عن ابن عون.

وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور. قالت: كان الحسن سقي مراراً السم كل ذلك يفلت منه، حتى كانت هذه المرة الآخرة التي مات فيها فإنه كان يختلف كبده، فلما مات أقام نساء بني هاشم عليه النوح شهراً.

وقال الواقدي: وحدثنا عبيدة بن نابل عن عائشة قالت: حد نساء بني هاشم على الحسن بن علي سنة.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن حسن قال: كان الحسن بن علي كثير نكاح النساء، وكان قل ما يحظين عنده، وكان قل امرأة تزوجها إلا أحبته وصَبَتْ به، فيقال: إنه كان سقي، ثم أفلت، ثم سقي فأفلت ثم كانت الآخرة توفي فيها، فلما حضرته الوفاة قال الطبيب وهو يختلف إليه: هذا رجل قطع السم أمعاءه، فقال الحسين: يا أبا محمد أخبرني من سقاك؟ قال: ولم يا أخي؟ قال: أقتله والله قبل أن أدفنك ولا أقدر عليه أو يكون بأرض أتكلف الشخوص إليه. فقال: يا أخي إنما هذه الدنيا ليال فانية، دعه حتى ألتقي أنا وهو عند الله. وأبى أن يسميه. وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه أن يسقيه سُمّاً.

قال محمد بن سعد: أنا يحيى بن حمّاد أنا أبو عوانة عن المغيرة عن أم موسى أن جعدة بنت الأشعث بن قيس سقت الحسن السم فاشتكى منه شكاة، قال: فكان يوضع تحته طست ويرفع آخر نحواً من أربعين يوماً.

وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمي الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا؟.

وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى، وقد قال كثير عزة في ذلك

يا جعدُ بَكِّيهِ ولا تسأمي ... بكاء حقٍّ ليسَ بالباطلِ
لن تَستري البيتَ على مثلهِ ... في الناسِ من حافٍ ولا ناعلِ
أعني الذي أسلمهُ أهلُه ... للزمنِ المستخرجِ الماحلِ
كان إذا شُبَّت لهُ نارهُ ... يرفعها بالنسبِ المائلِ
كما يراها بائس مُرْمِل ... أو فردُ قوم ليسَ بالآهلِ
تغلي بِنيِّ اللحم حتى إذا ... أُنضجَ لم يغلُ على آكلِ

قال سفيان بن عيينة عن رقبة بن مصقلة قال: لما حُضِر الحسن بن علي قال: أخرجوني إلى الصحن حتى أنظر في ملكوت السموات. فأخرجوا فراشه فرفع رأسه فنظر فقال: اللّهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس علي، قال: فكان مما صنع الله له أنه احتسب نفسه عنده.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لما اشتد بسفيان الثوري المرض جزع جزعا شديداً فدخل عليه مرحوم بن عبد العزيز فقال: ما هذا الجزع يا أبا عبد الله؟ تقدم على رب عبدته ستين سنة، صمت له، صليت له حججت له، قال: فسُرِّيَ عن الثوري.

قال أبو نعيم: لما اشتد بالحسن بن علي الوجع جزع فدخل عليه رجل فقال له: يا أبا محمد ما هذا الجزع؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك عليٍّ وفاطمة، وعلى جديك النبي ﷺ وخديجة، وعلى أعمامك حمزة وجعفر، وعلى أخوالك القاسم والطيب ومطهّر وإبراهيم، وعلى خالاتك رقية وأم كلثوم وزينب، قال: فسُرِّي عنه.

وفي رواية: أن القائل له ذلك الحسين، وأن الحسن قال له: يا أخي إني ادخل في أمر من أمر الله لم ادخل في مثله، وأرى خلقاً من خلق الله لم أر

مثله قط قال: فبكى الحسين رضي الله عنهما.

ورواه عباس الدوري عن ابن معين به.

ورواه بعضهم عن جعفر بن محمد عن أبيه فذكر نحوهما.

وقال الواقدي: حدثنا إبراهيم بن الفضل عن أبي عتيق قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: شهدنا حسن بن علي يوم مات وكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي ومروان بن الحكم، وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يدفن مع رسول الله ﷺ، فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليدفن بالبقيع، فأبى مروان أن يدعه - ومروان يومئذ معزول يريد أن يرضي معاوية بذلك - فلم يزل مروان عدواً لبني هاشم حتى مات، قال جابر: فكلمت يومئذ حسين بن علي فقلت: يا أبا عبد الله اتق الله فتنة فإن أخاك كان لا يحب ما ترى فادفنه بالبقيع مع أمه ففعل.

ثم روى الواقدي: حدثني عبد الله بن نافع عن أبيه عن عمر قال: حضرت موت الحسن بن علي فقلت للحسين بن علي: اتق الله ولا تثر فتنة ولا تسفك الدماء، وادفن أخاك إلى جانب أمه، فإن أخاك قد عهد بذلك إليك، قال: ففعل الحسين. وقد روى الواقدي عن أبي هريرة نحواً من هذا.

وفي رواية أن الحسن بعث يستأذن عائشة في ذلك فأذنت له، فلما مات لبس الحسين السلاح وتسلح بنو أميه وقالوا: لا ندعه يدفن مع رسول الله ﷺ أيدفن عثمان بالبقيع ويدفن الحسن بن علي في الحجرة؟ فلما خاف الناس وقوع الفتنة أشار سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر على الحسين أن لا يقاتل فامتثل ودفن أخاه قريباً من قبر أمه بالبقيع، رضي الله عنه.

وقال سفيان الثوري عن سالم بن أبي حفصة عن أبي حازم قال: رأيت الحسين بن علي قدّم يومئذ سعيد بن العاص فصلى على الحسن وقال: لولا أنها سنة ما قدمته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني مساور مولى بني سعد بن بكر قال: رأيت أبا هريرة قائماً على مسجد رسول الله ﷺ يوم مات الحسن بن علي وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا.

وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام. وقد بكاه الرجال والنساء سبعاً، واستمر نساء بني هاشم يَنُحْن عليه شهراً، وحدت نساء بني هاشم عليه سنة.

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قتل علي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ومات لها حسن، وقتل لها الحسين رضي الله عنهم.

وقال شعبة عن أبي بكر بن حفص قال: توفي سعد والحسن بن علي في أيام بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين.

وقال علية عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: توفي الحسن وهو ابن سبع وأربعين، وكذا قال غير واحد وهو أصح.

والمشهور أنه مات سنة تسع وأربعين كما ذكرنا.

وقال آخرون: مات سنة خمسين وقيل: سنة إحدى وخمسين أو ثمان وخمسين.

سنة خمسين من الهجرة

ففي هذه السنة توفي أبو موسى الأشعري في قول، والصحيح أنه مات سنة ثنتين وخمسين كما سيأتي.

وفيها حج بالناس معاوية، وقيل ابنه يزيد، وكان نائب المدينة في هذه السنة سعيد بن العاص، وعلى الكوفة والبصرة والمشرق وسجستان وفارس والسند والهند زياد.

وفي هذه السنة اشتكى بنو نهشل على الفرزدق إلى زياداً فهرب منه إلى المدينة، وكان سبب ذلك أنه عرّض بمعاوية في قصيدة له فطلبه زياد أشد الطلب ففر منه إلى المدينة، فاستجار بسعيد بن العاص، ومدحه بأشعار فأجاره، ولم يزل الفرزدق يتردد بين مكة والمدينة حتى توفي زياد فرجع إلى بلاده، وقد طول ابن جرير [تاريخه: ٥/٢٤١-٢٥٠] هذه القصة.

وقد ذكر ابن جرير في هذه السنة من الحوادث ما رواه من طريق الواقدي [تاريخه: ٥/٢٣٩]: حدثني يحيى بن سعيد بن دينار عن أبيه أن معاوية كان قد عزم على تحويل المنبر النبوي من المدينة إلى دمشق وأن يأخذ العصا التي كان النبي ﷺ يمسكها في يده إذا خطب فيقف معاويه على المنبر وهو يمسكها، فقال له أبو هريرة وجابر بن عبد الله: يا أمير المؤمنين نذكرك الله أن تفعل هذا فإن هذا لا يصلح أن يخرج المنبر من موضع وضعه فيه رسول الله ﷺ، وأن يخرج عصاه من المدينة. فترك ذلك معاوية ولكن زاد في المنبر ست درجات واعتذر إلى الناس.

ثم روى الواقدي [تاريخ الطبري: ٥/٢٣٩] أن عبد الملك بن مروان أيام خلافته همّ بذلك وعزم عليه فقيل له: إن معاوية كان قد عزم على هذا ثم تركه، وإنه لما حرك المنبر وأراد قلعه كسفت الشمس فترك ذلك. ثم لما حج الوليد بن عبد الملك أراد ذلك أيضاً فقيل له: إن معاوية وأباك أرادا ذلك ثم تركاه، وكان السبب في تركه أن سعيد بن المسيب كلّم عمر بن عبد العزيز أن يكلمه في ذلك ويعظه فترك. ثم لما حج سليمان أخبره عمر بن عبد العزيز بما كان عزم عليه الوليد، وأن سعيد بن المسيب نهاه عن ذلك، فقال: ما أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد، وما يكون لنا أن نفعل هذا، ما لنا ولهذا وقد أخذنا الدنيا فهي في أيدينا فنريد أن نعمد إلى علم من أعلام الإسلام يوفد إليه الناس فنحمله إلى ما قبلنا. هذا ما لا يصلح رحمه الله.

وفي هذه السنة عزل معاوية عن مصر معاوية بن حُديج وولى عليها وإفريقية مسلمة بن مخلد.

وفيها افتتح عقبة بن نافع الفهري عن أمر معاوية بلاد إفريقية، واختط القيروان - وكان مكانها غيضة تأوي إليها السباع والوحوش والحيات العظام، فدعا الله تعالى فلم يبق فيها شيء من ذلك حتى إن السباع صارت تخرج منها تحمل أولادها، والحيات يخرجن من أجحارهن هوارب - فعند ذلك أسلم خلق كثير من البربر. وفي هذه السنة غزا بسر بن أبي أرطاة وسفيان بن عوف أرض الروم.

وفيها غزا فضالة بن عبيد البحر.

وفيها توفي مدلاج بن عمرو السلمي صحابي جليل شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم أر له ذكراً في الصحابة.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتابه المنتظم [٥/٢٣٠-٢٤٠] أن في هذه السنة توفي جبير بن مطعم وحسان بن ثابت، والحكم بن عمرو الغفاري، ودحية بن خليفة الكلبي، وعقيل بن أبي طالب، وعمرو بن أمية

الضمري، وكعب بن مالك، والمغيرة بن شعبة، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي، وأم شريك الأنصارية. رضي الله عنهم أجمعين.

أما

■ جبير بن مطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي أبومحمد وقيل أبو عدي المدني، فإنه قدم وهو مشرك في فداء أسارى بدر، فلما سمع قراءة رسول الله ﷺ في سورة الطور ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. دخل في قلبه الإسلام، ثم أسلم عام خيبر، وقيل زمن الفتح، والأول أصح، وكان من سادات قريش وأعلمها بالأنساب، أخذ ذلك عن الصديق والمشهور أنه توفي سنة ثمان وخمسين، وقيل سنة تسع وخمسين كما سيأتي.

وأما

■ حسان بن ثابت شاعر الإسلام فالصحيح أنه توفي سنة أربع وخمسين كما سيأتي.

وأما

■ الحكم بن عمرو بن مجدع الغفاري أخو رافع بن عمرو، ويقال له الحكم بن الأقرع، فصحابي جليل له عند البخاري [٥٥٢٩] حديث واحد في النهي عن لحوم الحمر الإنسية، وقد استنابه زياد بن أبيه على غزو جبل الأشل فغنم شيئاً كثيراً، فجاء كتاب زياد إليه عن أمر معاوية أن يصطفي الذهب والفضة من الغنيمة لبيت المال فرد عليه الحكم: إن كتاب اللّه أولى أن يتبع من كتاب معاوية، وقد سبق كتابُ اللّه كتاب معاوية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ثم نادى في الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها في الناس ولم يترك إلا الخمس، فيقال: إنه حبس إلى أن مات بمرو في هذه السنة وقيل في سنة إحدى وخمسين رحمه الله.

وأما

■ دحية بن خليفة الكلبي فصحابي جليل، كان جميل الصورة، فلهذا كان جبريل يأتي على صورته كثيراً، وأرسله رسول الله ﷺ إلى قيصر.

أسلم قديماً ولكن لم يشهد بدراً، وشهد ما بعدها، ثم شهد اليرموك وأقام بالمزة -غربي دمشق- إلى أن مات في خلافة معاوية.

وفيها توفي

■ عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي أبو سعيد العبشمي، أسلم يوم الفتح،وقيل شهد مؤتة، وغزا خراسان، وافتتح سجستان وكابل وغيرها، وكانت له دار بدمشق وأقام بالبصرة، وقيل: بمرو.

قال محمد بن سعد وغير واحد: مات بالبصرة سنة خمسين، وقيل سنة إحدى وخمسين، وصلى عليه زياد، وترك عدة من الذكور، وكان اسمه في الجاهلية عبد كلال، وقيل: عبد كلوب، وقيل: عبد الكعبة، فسماه رسول ﷺ عبد الرحمن. وكان أحد السفيرين بين معاوية والحسن رضي اللّه عنهما.

وقد قال له رسول اللّه ﷺ :«يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » [ت(١٥٢٩)] .

وفيها توفي

■ عثمان بن أبي العاص الثقفي أبوعبد اللّه الطائفي، له ولأخيه الحكم صحبة، قدم على رسول اللّه ﷺ في وفد ثقيف فاستعمله رسول اللّه ﷺ على الطائف، وأقره عليها أبوبكر وعمر، فكان أميرهم وإمامهم مدة طويلة حتى مات سنة خمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين رضي اللّه عنه.

وأما

■ عقيل بن أبي طالب أخو علي فكان أكبر من جعفر بعشر سنين وجعفر أكبر من علي بعشر سنين كما أن طالباً أكبر من عقيل بعشر سنين، وكلهم أسلم إلا طالباً، أسلم عقيل قبل الحديبية وشهد مؤتة، وكان من أنسب قريش، وكان قد ورث أقرباءه الذين هاجروا وتركوا أموالهم بمكة، ومات في خلافة معاوية

وأما

■ عمرو بن أمية الضمري: فصحابي جليل أسلم بعد أحد، وأول مشاهده بئر معونة، وكان ساعي رسول اللّه ﷺ بعثه إلى النجاشي في تزويج أم حبيبة وأن يأتي بمن بقي من المسلمين للمسلمين هناك، وله أفعال حسنة، وآثار محمودة، رضي اللّه عنه توفي في خلافة معاوية وكان لا يُلحق ولا يُسبق بالخيل.

وفيها كانت وفاة:

■ عمرو بن الحَمِق بن الكاهن الخزاعي: أسلم قبل الفتح، وهاجر، وقيل: إنه إنما أسلم عام حجة الوداع، وورد في حديث أن رسول اللّه ﷺ دعا له أن يمتعه اللّه بشبابه، فبقي ثمانين سنة لا يرى في لحيته شعرة بيضاء، ومع هذا كان أحد الأربعة الذين دخلوا على عثمان، ثم صار بعد ذلك من شيعة علي، فشهد معه الجمل وصفين، وكان من جملة الذين قاموا مع حجر بن عدي فتطلبه زياد فهرب إلى الموصل، فبعث معاوية إلى نائبها فوجدوه قد اختفى في غار فنهشته حية فمات فقطع رأسه فبعث به إلى معاوية، فطيف به في الشام وغيرها، فكان أول رأس طيف به. ثم بعث معاوية برأسه إلى زوجته آمنه بنت الشريد - وكانت في سجنه - فألقي في حجرها، فوضعت كفها على جبينه ولثمت فمه وقالت: غيبتموه عني طويلا، ثم أهديتموه إلي قتيلا فأهلا بها من هدية غير قالية ولا مقلية.

وأما

■ كعب بن مالك الأنصاري السلمي: شاعر الإسلام فإنه أسلم قديماً وشهد العقبة ولم يشهد بدراً كما ثبت في الصحيحين [خ: (٤٤١٨)، م(٧١٦) و(٢٧٦٩)] في سياق توبة اللّه عليه فإنه كان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم من تخلفهم عن غزوة تبوك كما ذكرنا ذلك مفصلا في التفسير، وكما تقدم في غزوة تبوك.

وغلط ابن الكلبي في قوله: إنه شهد بدراً، وفي قوله: إنه توفي قبل الأربعين، فإن الواقدي - وهو أعلم منه - قال: توفي سنة خمسين، وقال الهيثم بن عدي: سنة إحدى وخمسين رضي اللّه عنه.

وأما

■ المغيرة بن شعبة ابن أبي عامر بن مسعود أبو عيسى ويقال: عبد اللّه الثقفي، وعروة بن مسعود الثقفي عم أبيه.

كان المغيرة من دهاة العرب، وذوي آرائها، أسلم عام الخندق بعدما قتل ثلاثة عشر رجلا من ثقيف، مرجعهم من عند المقوقس وأخذ أموالهم فغرم دياتهم عروة بن مسعود، وشهد الحديبية، وكان واقفا يوم الصلح على رأس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالسيف صلتا، وبعثه رسول اللّه ﷺ بعد إسلام أهل الطائف هو وأبا سفيان بن حرب فهدما اللات، وقد قدمنا كيفية ذلك.

وبعثه الصديق إلى البحرين، وشهد اليمامة واليرموك فأصيبت عينه يومئذ، وقيل: بل نظر إلى الشمس وهي كاسفة فذهب ضوء عينه، وشهد

القادسية، وولاه عمر فتوحاً كثيرة، منها همدان وميسان، وهو الذي كان رسول سعد إلى رستم فكلمه بذلك الكلام البليغ فاستنابه عمر على البصرة، فلما شهد عليه بالزنى ولم يثبت عليه عزله عنها وولاه الكوفة، واستمر به عثمان حيناً ثم عزله، فبقي معزولاً حتى كان أمر الحكمين فلحق بمعاوية، فلما قتل علي وصالح الحسن معاوية ودخل الكوفة ولاه عليها فلم يزل أميرها حتى مات في هذه السنة على المشهور. قاله محمد بن سعد [الطبقات الكبرى: ٢٠/٦] وغيره.

وقال الخطيب [تاريخ بغداد: ١٩١/١]: أجمع الناس على ذلك، وذلك في رمضان منها عن سبعين سنة.

وقال أبو عبيد: مات سنة تسع وأربعين.

وقال ابن عبد البر [الاستيعاب: ١٤٤٦/٤]: سنة أحدى وخمسين.

وقيل: سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة ست وثلاثين وهو غلط.

قال محمد بن سعد: وكان المغيرة أصهب الشعر جدّاً، أكشف، مقلص الشفتين، أهتم ضخم الهامة، عبل الذراعين، بعيد ما بين المنكبين، وكان يفرق رأسه أربعة قرون.

وقال الشعبي: القضاة أربعة أبو بكر، وعمر، وعليّ، وابن مسعود، وأبو موسى. والدهاة أربعة، معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد.

وقال الزهري: الدهاة في الفتنة خمسة، معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان معتزلا، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بديل بن ورقاء، وكانا مع علي.

قلت: والشيعة يقولون: الأشباح خمسة. رسول الله ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأضداد خمسة أبو بكر، وعمر، ومعاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة.

وقال الشعبي: سمعت المغيرة يقول: ما غلبني أحد إلا فتى مرة أردت أن أتزوج امرأة فاستشرته فيها فقال: أيها الأمير! لا أرى لك أن تتزوجها، فقلت له: لم؟ فقال: إني رأيت رجلا يقبلها. ثم بلغني عنه أنه تزوجها، فقلت له: ألم تزعم أنك رأيت رجلا يقبلها؟ فقال: نعم! رأيت أباها يقبلها وهي صغيرة.

وقال أيضاً: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها.

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: كان المغيرة بن شعبة يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان، وكان يتزوج أربعة معاً ويطلقهن معاً.

وقال عبد الله بن نافع الصائغ أحصن المغيرة ثلاثمائة امرأة.

وقال غيره: ألف امرأة، وقيل مائة امرأة وقيل ثمانين امرأة فالله أعلم.

وأما

■ **جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المصطلقية أم المؤمنين** وكان فسباها رسول ﷺ في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، وكان أبوها ملكهم فأسلمت فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وكاتبها فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها فقال: «أو خير من ذلك» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أشتريك وأعتقك وأتزوجك» فأعتقها فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوا ما بأيديهم من سبي بني المصطلق وكانوا نحواً من مائة أهل بيت، فقالت عائشة: لا أعلم امرأة أعظم بركة على أهلها منها.

وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ جويرية. وكانت امرأة ذات ملاحة ـ أي حلوة الكلام ـ توفيت في هذا العام سنة خمسين كما ذكره ابن الجوزي [المنتظم: ٢٣١/٥] وغيره عن خمس وستين سنة، وقال الواقدي: سنة ست وخمسين رضي الله عنها وأرضاها، والله أعلم.

وأما

■ **صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن ينحوم، أم المؤمنين النضرية** فمن سلالة هارون أخي موسى عليهما السلام، وكانت مع أبيها وعمها جُدي أخطب بالمدينة، فلما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى خيبر، وقتل أبوها حيي مع بني قريظة صبراً كما قدمنا فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر كانت في جملة السبي فوقعت في سهم دحية بن خليفة الكلبي، فذكر لرسول الله ﷺ جمالها وأنها بنت ملكهم، فاصطفاها لنفسه وعوّض دحية عنها وأسلمت فأعتقها وتزوجها، فلما حلت بالصهباء بنى بها، وكانت ماشطتها أم سليم، وقد كانت تحت ابن عمها لها، يقال له كنانة بن أبي الحقيق فقتل في المعركة ووجد رسول الله صلى ا لله عليه وسلم بخدها لطمة فقال: ما هذه؟ فقالت: إني رأيت كان القمر أقبل من يثرب فسقط في حجري فقصصت المنام على ابن عمي فلطمني وقال: تتمنين أن يتزوجك ملك يثرب؟ فهذه من لطمته.

وكانت من سيدات النساء عبادة وورعاً وزهادة وبراً وصدقة، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الواقدي: توفيت سنة خمسين، وقال غيره سنة ست وثلاثين، والأول أصح.

وأما

■ **أم شريك الأنصارية: ويقال العامرية: فهي التي وهبت نفسها للنبي** ﷺ فقيل قبلها وقيل: لم يقبلها، ولم تتزوج حتى ماتت ترجو بذلك أن تكون من أزواجه، وهي التي سقيت بدلو من السماء لما منعها المشركون الماء فأسلموا عند ذلك، واسمها غزية، وقيل غزيلة: بنت دودان بن عمرو بن عامر بن رواحة بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي أسلمت قديما. ماتت في هذه السنة على الصحيح، قال ابن الجوزي [المنتظم: ٢٢٧/٥، ٢٣٦]: ماتت سنة خمسين ولم أره لغيره.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين

فيها كان مقتل حجر بن عدي وأصحابه: وهوحجر بن عدي بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن كندي الكوفي، ويقال له حجر الخير، ويقال له حجر بن الأدبر، لأن أباه عديا طعن مولياً فسمي الأدبر، ويكنى حجر بأبي عبد الرحمن وهو من كندة من رؤساء أهل الكوفة، قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٠٧/١٢، ٢٠٨]: وفد إلى النبي ﷺ وسمع علياً وعماراً وشراحيل بن مرة، ويقال شرحبيل بن مرة. وروى عنه أبو ليلى مولاه، وعبد الرحمن بن عابس، وأبو البختري الطائي. وغزا الشام في الجيش الذين افتتحوا عذراء، وشهد صفين مع عليّ أميراً، وقتل بعذراء من قرا دمشق، ومسجد قبره بها معروف.

ثم ساق ابن عساكر بأسانيده إلى حجر فذكر طرفا صالحاً من روايته عن علي وغيرة، وقد ذكره محمد بن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة [٢١٧/٦ في الطبقة من تابعي أهل الكوفة] وذكر له وفادة، ثم ذكره في الأولى من

تابعي أهل الكوفة. قال: وكان ثقة معروفا، ولم يرو عن غير علي شيئاً.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٢/٢١٠]: بل قد روى عن عمار وشراحيل بن مرة.

وقال أبو أحمد العسكري: أكثر المحدثين لا يصححون له صحبة. شهد القادسية وافتتح برج مرج، وشهد الجمل وصفين، وكان مع علي حجر الخير ـ وهو حجر بن عدي هذا ـ وحجر الشر ـ وهو حجر بن يزيد بن سلمة بن مرة.

وقال المرزباني: قد روى أن حجر بن عدي وفد إلى رسول الله ﷺ مع أخيه هانئ بن عدي، وكان هذا الرجل من عباد الناس وزهادهم، وكان باراً بأمه، وكان كثير الصلاة والصيام.

وقال أبو معشر: ما أحدث قط إلا توضأ، ولا توضأ إلا صلى ركعتين. هكذا قال غير واحد من الناس.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد حدثني الأعمش عن أبي إسحاق. قال: قال سلمان لحجر: يا ابن أم حجر لو تقطعت أعضاءً ما بلغت الإيمان، وكان إذا كان المغيرة بن شعبة على الكوفة إذا ذكر علياً في خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان وشيعته فيغضب حجر هذا ويظهر الإنكار عليه، ولكن كان المغيرة فيه حلم وأناة فكان يصفح عنه ويعظه فيما بينه وبينه، ويحذره غب هذا الصنيع، فإن معارضة السلطان شديد وبالها، فلم يرجع حجر عن ذلك. فلما كان في آخر أيام المغيرة قام حجر يوماً، فأنكر عليه في الخطبة وصاح به وذمه بتأخيره العطاء عن الناس، وقام معه فئام من الناس لقيامه، يصدقونه ويشنعون على المغيرة، فدخل المغيرة بعد الصلاة قصر الإمارة ودخل معه جمهور الناس من الأمراء وغيرهم، فأشاروا على المغيرة أن يردَّ حجراً عما تعاطاه من الجراءة على السلطان وشق العصى والقيام على الأمير، وذمروه وحثوه على التنكيل به فصفح عنه وحلم.

وذكر يونس بن عبيد أن معاوية كتب إلى المغيرة يستمد بمال يبعثه من بيت المال، فبعث عيراً تحمل مالا فاعترض لها حجر، فأمسك بزمام أولها وقال: لا والله حتى يوفى كل ذي حق حقه. فقال شباب ثقيف للمغيرة: ألا نأتيك برأسه؟ فقال: ما كنت لأفعل ذلك بحجر، فتركه، فلما بلغ معاوية ذلك عزل المغيرة وولى زياداً، والصحيح أنه لم يعزل المغيرة حتى مات.

فلما توفي المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وجمعت الكوفة مع البصرة لزياد دخلها وقد التف على حجر جماعات من شيعة علي يقوونه ويشدون أمره على يده، ويسبون معاوية ويتبرؤون منه، فلما كان أول خطبة خطبها زياد بالكوفة، ذكر في آخرها فضل عثمان وذم من قتله أو أعان على قتله. فقام حجر كما كان يقوم في أيام المغيرة، وتكلم بنحو مما قال للمغيرة، فلم يعرض له زياد، ثم ركب زياد إلى البصرة، وأراد أن يأخذ حجراً معه إلى البصرة لئلا يحدث حدثا، فقال: إني مريض، فقال: والله إنك لمريض الدين والقلب والعقل، والله لئن أحدثت شيئاً لأسعين في قتلك، ثم سار زياد إلى البصرة فبلغه أن حجراً وأصحابه أنكروا على نائبة بالكوفة ـ وهو عمرو بن حريث ـ وحصبوه وهو على المنبر يوم الجمعة، فركب زياد إلى الكوفة فنزل القصر ثم خرج إلى المنبر وعليه قباء سندس، ومطرف خز أحمر، قد فرق شعره، وحجر جالس وحوله أصحابه أكثر ما كانوا يومئذ، وكان من لبس من أصحابه يومئذ نحو من ثلاثة آلاف، وجلسوا حوله في المسجد في الحديد والسلاح فخطب زياد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن غب البغي والغي وخيم، وإن هولاء القوم جَمُّوا فأشروا وأمنوني فاجترؤوا علي، وأيم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم، ثم قال: ما أنا بشيء إن لم أمنع ساحة الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده، ويل أمك يا حجر، سقط بك العشاء على سرحان. ثم قال:

أبلغ نصيحةً أن راعي إبلها سقطَ العشاءُ بهِ على سرحانِ

وجعل زياد يقول في خطبته: إن من حق أمير المؤمنين؛ إن من حقّ أمير المؤمنين، فقال حجر: كذبت. فسكت زياد ونظر إليه. ثم عاد زياد إن من حق أمير المؤمنين. إن من حق أمير المؤمنين ـ يعني كذا وكذا. فأخذ حجر كفا من حصىً فحصبه وقال: كذبت! عليك لعنة الله. فانحدر زياد فصلى، ثم دخل القصر، واستحضر حجراً، ويقال: إن زياداً لما خطب طول الخطبة وأخر الصلاة فقال له حجر: الصلاة فمضى في خطبته ثم قال له: الصلاة، فمضى في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة عمد إلى كف من حصىً وثار إلى الصلاة، وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس، فلما انصرف من صلاته كتب إلى معاوية في أمره وكثر عليه، فكتب إليه معاوية: أن شدَّه في الحديد واحمله إلي، فبعث إليه زياد والي الشرطة ـ وهو شداد بن الهيثم ـ ومعه أعوانه فقال له: إن الأمير يطلبك، فامتنع من الحضور إلى زياد، وقام دونه أصحابه فرجع الوالي إلى زياد فأعلمه، فاستنهض زياد جماعات من القبائل فركبوا مع الوالي إلى حجر وأصحابه فكان بينهم قتال بالحجارة والعصي، فعجزوا عنه فندب محمد بن الأشعث وأمهله ثلاثا وجهز معه جيشاً، فركبوا في طلبه ولم يزالوا حتى أحضروه إلى زياد، وما أغنى عنه قومه ولا من كان يظن أن ينصره فعند ذلك قيده زياد وسجنه عشرة أيام وبعث به إلى معاوية، وبعث معه جماعة يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وأنه حارب الأمير، وأنه يقول: إن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل علي بن أبي طالب. وكان من جملة الشهود عليه أبو بردة بن أبي موسى، ووائل بن حجر، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وإسحاق، وإسماعيل، وموسى بنو طلحة بن عبيد الله، والمنذر بن الزبير، وكثير بن شهاب: وثابت بن ربعي، في سبعين ويقال: إنه كتبت شهادة شريح القاضي فيهم، وإنه أنكر ذلك وقال: إنما قلت لزياد: إنه كان صواماً قواماً، ثم بعث زياد حجراً وأصحابه مع وائل بن حجر، وكثير بن شهاب إلى الشام. وكان مع حجر بن عدي بن جبلة الكندي، من أصحابه جماعة، قيل عشرون وقيل أربعة عشر رجلا منهم الأرقم بن عبد الله الكندي وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سمي البجلي، وكدام بن حبان، وعبد الرحمن بن حسان العنزي ـ ومحرز بن شهاب التميمي، وعبيد الله بن حوية السعدي التميمي أيضاً. فهؤلاء أصحاب حجر الذين وصلوا معه، فساروا بهم إلى الشام. ثم إن زياداً أتبعهم برجلين آخرين، عتبة بن الأخنس من بني سعد، وسعد بن عمران الهمداني، فكملوا أربعة عشر رجلا، فساروا بهم إلى الشام فيقال: إن حجراً لما دخل على معاوية قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فغضب معاوية غضباً شديداً وأمر بضرب عنقه هو ومن معه، ويقال إن معاوية ركب فتلقاهم إلى مرج عذراء ويقال: بل بعث إليهم من تلقاهم إلى عذراء تحت الثنية ـ ثنية العقاب ـ فقتلوا هناك. وكان الذين بعث إليهم معاوية من دمشق ثلاثة وهم هدبة بن فياض القضاعي، وحضير بن عبد الله الكلابي، وأبو شريف البدوي، فجاؤوا إليهم عشاء فبات حجر

وأصحابه يصلون طول الليل، فلما صلوا الصبح قتلوهم، وهذا هو الأشهر والله أعلم. وذكر محمد بن سعد أنهم دخلوا عليه ثم ردهم فقتلوا بعذراء، وكان معاوية قد استشار الناس فيهم حتى وصل بهم إلى برج عذراء فمن مشير بقتلهم، ومن مشير بتفريقهم في البلاد، فكتب معاوية إلى زياد كتاباً آخر في أمرهم، فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة في ملك العراق، فعند ذلك أمر بقتلهم، فاستوهب منه الأمراء واحداً بعد واحد حتى استوهبوا منه ستة، وقتل منهم ستة أولهم حجر بن عدي، ورجع آخر فعفا عنه معاوية، وبعث بآخر نال من عثمان وزعم أنه أول من جار في الكلم ومدح علياً، فبعث به معاوية إلى زياد وقال له: إنك لم تبعث إلي فيهم أردى من هذا. فلما وصل إلى زياد دفنه في الناطف حيا - وهو عبد الرحمن بن حسان العنزي. وهذه تسمية الذين قتلوا بعذراء: حجر بن عدي، وشريك بن شداد، وصيفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، ومحرز بن شهاب المنقري السعدي، وكدام بن حبان. [العنزي وعبد الرحمن بن حسان العنزي المبعوث إلى زياد المدفون في الناطق، فلما قتلوا صلي عليهم ودفنوا] ومن الناس من يزعم أنهم مدفونون بمسجد القصب في عرفة، [ومنهم من يزعم أنهم مدفونون بمسجد السبعة خارج باب توما وإنما نسبت السبعة إليهم لأنهم سبعة في شرقية وقيل هم في غربي مسجد القصب] والصحيح بعذراء، من غوطة دمشق ويذكر أن حجراً لما أرادوا قتله قال: دعوني حتى أتوضأ، فقالوا: توضأ، فقال: دعوني حتى أصلي ركعتين فصلاهما وخفف فيهما، ثم قال: لولا أن يقولوا ما بي جزع من الموت لطولتهما. ثم قال: قد تقدم لهما صلوات كثيرة. ثم قدموه للقتل وقد حفرت قبورهم ونشرت أكفانهم، فلما تقدم إليه السياف ارتعدت فرائضه فقيل له: إنك قلت لست بجازع، فقال ومالي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً. فأرسلها مثلا. ثم تقدم إليه السياف، وهو أبو شريف البدوي، وقيل تقدم إليه رجل أعور فقال له: ارفع عنقك واشدده، فقال: لا أعين على قتل نفسي، فأسأل عن ذلك يوم القيامة فضربه فقتله، وكان قد أوصى أن يدفن في قيوده، ففعل به ذلك، وقيل: بل صلوا عليه وغسلوه. وروي أن الحسن بن علي قال: لما بلغة قتل حجر وأصحابه قال: أصلوا عليهم وغسلوهم واستقبلوا بهم القبلة ودفنوهم في قيودهم؟ قالوا: نعم! قال: حجهم والله. والظاهر أن الحسين قائل هذا، فإن حجراً قتل في سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثلاث وخمسين، وعلى كل تقدير فالحسن قد مات قبله والله أعلم رضي الله عن الحسن ورحم حجر وأصحاب فقتلوه رحمه الله وسامحه. وروينا أن معاوية لما دخل على أم المؤمنين عائشة فسلم عليها من وراء الحجاب - وذلك بعد مقتله حجراً وأصحابه - قالت له: أين ذهب عنك حلمك يا معاوية حين قتلت حجراً وأصحابه؟ فقال لها: فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يا أماه. ثم قال لها: فكيف بري بك يا أمه؟ فقالت: إنك بي لبار فقال: يكفيني هذا عند الله، وغداً لي ولحجر موقف بين يدي الله عز وجل وفي رواية أنه قال: إنما قتله الذين شهدوا عليه.

وروى ابن جرير أن معاوية لما حضره الموت جعل يغرغر وهو يقول: إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل، قالها ثلاثاً فالله أعلم.

وقال محمد بن سعد في الطبقات: ذكر بعض أهل العلم أن حجراً وفد إلى رسول الله ﷺ مع أخيه هانئ بن عدي، - وكان من أصحاب علي - فلما قدم زياد بن أبي سفيان والياً على الكوفة دعا بحجر بن عدي فقال: تعلم أني أعرفك وقد كنت أنا وأباك على ما قد علمت - يعني من حب علي- وأني كنت واشد حباً له وأنه قد جاء غير ذلك، وإني أنشدك الله أن تقطر لي من دمك قطرة فأستفرغه كله، أملك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي، فاكفني نفسك فإني أعرف عجلتك، فأنشدك الله في نفسك، وإياك وهذه السقطة وهؤلاء السفهاء أن يستزلوك عن رأيك. فقال حجر: قد فهمت، ثم انصرف إلى منزله فأتاه الشيعة فقالوا: ما قال لك؟ قال قال لي كذا وكذا. وسار زياد إلى البصرة ثم جعلوا يترددون إليه يقولون له: أنت شيخنا، وإذا جاء المسجد مشوا معه فأرسل إليه عمرو بن حريث - نائب زياد على الكوفة - يقول: ما هذه الجماعة وقد أعطيت الأمير ما قد علمت؟ فقال للرسول: إنهم ينكرون ما أنتم عليه، إليك وراءك أوسع لك. فكتب عمرو بن حريث إلى زياد: إن كان لك حاجة بالكوفة فالعجل العجل، فأعجل زياد السير إلى الكوفة، فلما وصل بعث إليه عدي بن حاتم، وجرير بن عبد الله البجلي، وخالد بن عرفطة في جماعة من أشراف الكوفة لينهوه عن هذه الجماعة، فأتوه فجعلوا يحدثونه ولا يرد عليهم شيئا، إنما يقول: يا غلام أعلفت البكر؟ البكر مربوط في الدار - فقال له عدي بن حاتم: أمجنون أنت؟ نكلمك وأنت تقول: أعلفت البكر، ثم قال عدي لأصحابه: ما كنت أظن هذا البائس بلغ به الضعف كل ما أرى. ثم نهضوا فأخبروا زياداً ببعض الخبر وكتموه بعضاً، وحسنوا أمره وسألوه الرفق به فلم يقبل، بل بعث إليه الشرط والمحاربة فأتي به وبأصحابه، فقال له: مالك ويلك؟ فقال حجر: إني على بيعتي لمعاوية، فجمع زياد سبعين من أهل الكوفة فقال: اكتبوا شهادتكم على حجر وأصحابه، ففعلوا، ثم أوفدهم إلى معاوية، وبلغ الخبر عائشة فأرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية تسأله أن يخلي سبيلهم، فلما دخلوا على معاوية قرأ كتاب زياد وشهد الشهود فقال معاوية: اخرجوا بهم إلى عذراء فاقتلوهم هناك، فذهبوا بهم ثم قتلوا منهم سبعة، ثم جاء رسول معاوية بالتخلية عنهم، وأن يطلقوهم كلهم، فوجدوا قد قتلوا منهم سبعة وأطلقوا السبعة الباقين، ولكن كان حجر فيمن قتل في السبعة الأول، وكان قد سألهم أن يصلي ركعتين قبل أن يقتلوه، فصلى ركعتين فطول فيهما، وقال إنهما لأخف صلاة صليتها. وجاء رسول عائشة بعدما فرغ من شأنهم. فلما حج معاوية قالت له عائشة: أين عزب عنك عقلك وحلمك حين قتلت حجراً؟ فقال: حين غاب عني مثلك من قومي. ويروى أن عبد الرحمن بن الحارث قال لمعاوية: أقتلت حجر بن الأدبر الذي قتله أعظم من قتل مائة ألف؟ فقال معاوية: قتله أحب إلي من أن أقتل معه مائه ألف، وقد ذكر ابن جرير وغيره عن حجر بن عدي وأصحابه أنهم كانوا ينالون من عثمان ويقولون فيه مقالة الجور، وينتقدون على الأمراء، ويسارعون في الإنكار عليهم ويبالغون في ذلك، ويتولون شيعة علي، ويتشددون في الدين. ويروى أنه لما أخذ في قيوده سائراً من الكوفة إلى الشام تلقته بناته في الطريق وهو في قيوده وهن يبكين، فمال نحوهن: فسكت ساعة فقال إن الذي يطعمكن ويكسوكن هو الله وهو حي باق لكن بعدي، فعليكن بتقوى الله وعبادته، وإني إما أن أقتل في وجهي وهي شهادة، أو ان أرجع إليكن مكرماً، والله خليفتي عليكم. ثم انصرف مع أصحابه في قيوده، ويقال إنه أوصى أن يدفن في قيوده ففعل ذلك به، ولكن صلوا عليهم ودفنوهم مستقبل القبله رحمهم الله وسامحهم. وقد قالت امرأة من المتشيعات ترثي حجراً - وهي هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية - ويقال إنها لهند اخت حجر فالله أعلم.

ترفع أيها القمر المنير ... تبصر هل ترى حجراً يسير

يسيرُ إلى معاويةَ بنِ حربٍ ليقتلهُ كما زعمَ الأميرُ
يرى قتلَ الخيارِ عليهِ حقاً لهُ منْ شرِ أمتهِ وزيرُ
الا ياليتَ حجراً ماتَ يوماً ولمْ ينحرْ كما نُحرَ البعيرُ
تجبرتِ الجبابرُ بعدَ حجرٍ وطابَ لها الخورنقُ والسديرُ
وأصبحتْ البلادُ لهُ محولاً كأنْ لمْ يحيها مزنٌ مطيرُ
الا يا حجرُ حجرَ بنَ عدي تلقتكَ السلامةُ والسرورُ
أخافُ عليكَ ما أردى عدياً وشيخاً في دمشقَ لهُ زئيرُ
فإن تهلكْ فكلُ زعيمِ قومٍ منَ الدنيا إلى هلكٍ يصيرُ
فرضوانُ الإلهِ عليكَ ميتاً وجناتٌ بها نعمٌ وحورُ

وذكر ابن عساكر له مراثي كثيرة. وقال يعقوب بن سفيان: حدثني حرمله أنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: دخل معاوية على عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء، حجرا وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين إني رأيت في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي مقامهم فساداً للأمة، فقالت: سمعت رسول اللّه يقول: «سيقتل بعذراء أناس يغضب اللّه لهم، وأهل السماء». وهذا إسناد ضعيف منقطع. وقد رواه عبد اللّه بن المبارك عن ابن لهيعة عن أبي الأسود أن عائشة قالت: بلغني أنه سيقتل بعذراء أناس يغضب اللّه لهم وأهل السماء.

وقال يعقوب ابن سفيان، حدثني ابن بكير: حدثني ابن لهيعة حدثني الحارث بن يزيد عن عبد اللّه بن رزين الغافقي. قال: سمعت علياً يقول: يا أهل العراق سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود، قال: فقتل حجر وأصحابه ـ ابن لهيعة ضعيف ـ.

وروى الامام أحمد عن ابن علية عن ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر في السوق فنعى له حجر فأطلق حبوته وقام وغلب عليه النحيب.

وروى أحمد عن عفان عن ابن علية عن أيوب عن عبد اللّه بن أبي مليكة ـ أو غيره ـ قال لما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة فقالت: أقتلت حجراً؟ فقال: يا أم المؤمنين إني وجدت قتل حجر فيه صلاح للأمة أو قال صلاح الناس وفي رواية إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحيائه في فسادهم. وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن مروان. قال: دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة فقالت: يا معاوية قتلت حجراً وأصحابه وفعلت الذي فعلت، أما خشيت أن أخبأ لك رجلا يقتلك بحجر؟ فقال: لا! إني في بيت إيمان، سمعت رسول اللّه يقول: «الايمان ضد الفتك لا يفتك مؤمن» يا أم المؤمنين كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك وأمرك؟ قالت: صالح. قال: فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عز وجل. وفي رواية أنها حجبته وقالت: لا يدخل علي أبداً فلم يزل يتلطف حتى دخل فلامته في قتله حجراً، فلم يزل يعتذر حتى عذرته. وقيل لم تعذره بل قالت له عش ما بدا لك فإن الموعد اللّه، تهدده بذلك وفي رواية: أنها كانت تتوعده وتقول: لولا يغلبنا سفهاؤنا لكان لي ولمعاوية في قتله حجراً شأن، فلما اعتذر إليها عذرته على إغماض واللّه أعلم

قال المؤلف: قال ابن جرير: وفي هذه السنة ولى زياد على بلاد خراسان بعد موت الحكم بن عمرو والربيع بن زياد الحارث الذي افتتح بلخ صلحاً، وكانوا قد أغلقوها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس، وفتح قوهستان عنوة، وكان عندها أتراك فقتلهم ولم يبق منهم إلا ترك طرخان الذي قتله قتيبة بن مسلم بعد ذلك كما سيأتي. وفيها غزا الربيع المذكور ما وراء النهر فغنم وسلم، وقد كان قطع ما وراء النهر قبله الحكم بن عمرو، وكان أول من شرب من ماء النهر غلام الحكم سقاه سيده، توضأ الحكم وصلى وراء النهر ركعتين، ثم رجع، فلما كان الربيع هذا غزا ما وراء النهر فغنم وسلم، وفيها حج بالناس يزيد بن معاوية فيما قاله أبو معشر والواقدي.

وذكر ابن الجوزي في المنتظم أنه توفي في هذه السنة من الأكابر جرير بن عبد اللّه البجلي، وجعفر بن أبي سفيان بن الحارث، وحارثة بن النعمان، وحجر بن عدي، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد اللّه بن أنيس، وأبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي، ورضي اللّه عنهم.

فأما

■ **جرير بن عبد اللّه بن جابر البجلي** فأسلم بعد نزول المائدة، وكان إسلامه في رمضان سنة عشر، وكان قدومه ورسول اللّه يخطب، وكان قد قال في خطبته: «إنه يقدم عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن، وإن على وجهه مسحة ملك» فلما دخل جرير رماه الناس بأبصارهم ينظرون إليه فكان كما وصف رسول اللّه ﷺ، وأخبروه بما قال فحمد اللّه تعالى. ويروى أن رسول اللّه ﷺ لما جالسه بسط رداءه وقال: «إذاجاءكم كريم قوم فأكرموه» وبعثه رسول اللّه إلى ذي الخلصة ـ وكان بيتا تعظمه دوس في الجاهلية ـ فذكر أنه لا يثبت على الخيل فضرب في صدره وقال «اللّهم ثبته واجعله هاديا مهديا» فذهب فهدمه.

وفي الصحيحين أنه قال: ما حجبني رسول اللّه منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم. وكان عمر بن الخطاب يقول: جرير يوسف هذه الأمة.

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت جريراً كأن وجهه شقة قمر.

وقال الشعبي: كان جرير هو وجماعة مع عمر في بيت. فاشتم عمر من بعضهم ريحا، فقال: عزمت على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ، فقال جرير: أونقوم كلنا فنتوضأ يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نعم السيد كنت في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام.

وقد كان عاملا لعثمان على همدان، يقال إنه أصيبت عينه هناك، فلما قتل عثمان اعتزل عليا ومعاوية، ولم يزل مقيما بالجزيرة حتى توفي بالسراة، سنة إحدى وخمسين، قاله الواقدي، وقيل سنة أربع، وقيل سنة ست وخمسين.

وأما

■ **جعفر بن أبي سفيان بن عبد المطلب** فأسلم مع أبيه حين تلقياه بين مكة والمدينة عام الفتح، فلما ردهما قال أبو سفيان: واللّه لئن لم يأذن لي عليه لآخذن بيد هذا فأذهبن في الأرض فلا يدري أين أذهب، فلما بلغ ذلك رسول اللّه ﷺ رق له وأذن له وقبل إسلامهما فأسلما إسلاماً حسناً، بعدما كان أبو سفيان يؤذي رسول اللّه اذي كثيراً، وشهد حنينا، وكان ممن ثبت يومئذ رضي اللّه عنهما.

وأما

■ **حارثة بن النعمان الأنصاري النجاري** فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها، وكان من فضلاء الصحابة، وروى أنه رأى جبريل مع رسول اللّه بالمقاعد يتحدثان بعد خيبر، وأنه رآه يوم بني قريظة في صورة دحية. وفي الصحيح أن رسول اللّه ﷺ سمع قراءته في الجنة. قال محمد بن سعد: حدثنا عبد الرحمن بن يونس حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك حدثنا محمد بن عثمان عن أبيه أن حارثه بن النعمان كان قد كف بصره فاتخذ خيطا من مصلاه إلى باب حجرته كان يضع عنده مكتلا فيه تمر

وغيره، فإذا جاءه المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ يمسك بذلك الخيط حتى يضع ذلك في يد المسكين، وكان أهله يقولون له: نحن نكفيك ذلك، فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مناولة المسكين تقي ميتة السوء».
وأما حجر بن عدي فقد تقدمت قصته مبسوطة.
وأما

■ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي أبوالأعور العدوي فهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنه، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وأخته عاتكة زوجة عمر، وأخت عمر فاطمة زوجة سعيد، أسلم سعيد قبل عمر هو وزوجته فاطمة، وهاجرا، وكان من سادات الصحابة قال عروة والزهري وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق والواقدي وغير واحد: لم يشهد بدراً لأنه قد كان بعثه رسول الله هو وطلحة بن عبيد الله بين يديه يتجسسان أخبار قريش فلم يرجعا حتى فرغ من بدر، فضرب لهما رسول الله ﷺ بسهمهما وأجرهما، ولم يذكره عمر في أهل الشورى لئلا يحابى بسبب قرابته من عمر فيولي فتركه لذلك، وإلا فهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة في جملة العشرة، كما صحت بذلك الأحاديث المتعددة الصحيحة، ولم يتول بعد رسول الله ﷺ ولاية، وما زال كذلك حتى مات بالكوفة، وقيل بالمدينة وهو الأصح، قال الفلاس وغيره: سنة أحدى وخمسين وقيل سنة اثنتين وخمسين والله أعلم. وكان رجلا طوالا أشعر، وقد غسله سعد بن أبي وقاص، وحمل من العقيق على رقاب الرجال إلى المدينة، وكان عمره يومئذ بضعاً وسبعين سنة.
وأما

■ عبد الله أنيس بن الجهني أبو يحيى المدني فصحابي جليل شهد العقبة ولم يشهد بدراً. وشهد ما بعدها، وكان هو ومعاذ يكسران أصنام الأنصار، له في الصحيح حديث أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين، وهو الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي فقتله بعرنة وأعطاه رسول الله ﷺ مخصرة وقال: «هذه آية ما بيني وبينك يوم القيامة» فأمر بها فدفنت معه في أكفانه.

وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٢٤٧/٥] أنه توفي سنة إحدى وخمسين، وقال غيره: سنة أربع وخمسين وقيل: سنة ثمانين.
وأما

■ أبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة الثقفي فصحابي جليل كبير القدر، ويقال: كان اسمه مسروح وإنما قيل له أبو بكرة لأنه تدلى في بكرة يوم الطائف فأعتقة رسول الله ﷺ وكل من نزل من مواليهم إليهم يومئذ.

وأمه سمية هي أم زياد، وكان ممن شهد على المغيرة بالزنى هو وأخوه زياد ومعهما شبل بن معبد، ونافع بن الحارث فلما تلكأ زياد في الشهادة جلد عمر الثلاثة الباقين ثم استتابهم فتابوا إلا أبا بكرة فإنه صمم على الشهادة، وقال المغيرة: يا أمير المؤمنين اشفني من هذا العبد، فنهره عمر وقال له: اسكت! لو كملت الشهادة لرجمتك بأحجارك، وكان أبو بكرة خير هؤلاء الشهود وكان ممن اعتزل الفتن فلم يحضر شيئاً منها، ومات في هذه السنة، وقيل قبلها بسنة، وقيل بعدها بسنة وصلى عليه أبو برزة الأسلمي، وكان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ.
وفيها توفيت أم المؤمنين

■ ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء سنة سبع.

قال ابن عباس ـ وكان ابن اختها أم الفضل لبابة بنت الحارث ـ تزوجها رسول الله ﷺ وهو محرم، أخرجاه [خ (٥١١٤)(١٨٣٧)، م(١٤١٠)] وثبت في صحيح مسلم [١٤١١] عنها أنهما كانا حلالين، وقولها مقدم عند الأكثرين على قول ابن عباس.
وروى الترمذي [٨٤٥] عن أبي رافع ـ وكان السفير بينهما ـ أنهما كانا حلالين.

ويقال كان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة، وتوفيت بسرف بين مكة والمدينة حيث بنى بها رسول الله ﷺ في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاث وستين، وقيل سنة ست وستين، والمشهور الأول، وصلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين

فيها غزا بلاد الروم وشتى بها سفيان بن عوف الأزدي فمات هنالك، واستخلف على الجند بعده عبد الله بن مسعدة الفزاري.
وقيل: إن الذي كان أمير الغزو ببلاد الروم هذه السنة بسر بن أبي أرطاة ومعه سفيان بن عوف.
وحج بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص نائب المدينة، قاله أبو معشر والواقدي وغيرهما.
وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي.
وعمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة الماضية.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب الأنصاري الخزرجي شهد بدراً والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع علي قتال الحرورية، وفي داره كان نزول رسول الله ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً من مكة فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحول إليها، وقد كان أبو أيوب أنزل رسول الله ﷺ في سُفل الدار، ثم تحرج من أن يعلو فوقه، فسأل من رسول الله ﷺ أن يصعد إلى العلو ويكون هو وأم أيوب في السفل فأجابه إلى ذلك.

وقد روينا عن ابن عباس أنه قدم عليه أبو أيوب البصرة وهو نائبها فخرج له عن داره وأنزله بها، فلما أراد الانصراف خرج له عن كل شيء بها، وزاده تحفاً وخدماً كثيراً وأعطاه اربعين ألفا، وأربعين عبداً إكراماً له لما كان أنزل رسول الله ﷺ في داره، وقد كان من أكبر الشرف له. وهو القائل لزوجته أم أيوب ـ حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ـ؟ فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله فقال: والله لهي خير منك، فأنزل الله تعالى ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ الآية [النور: ١٢] [المعجم الكبير: ١٢٨/٤، ٤٩ والمستدرك: ٤٦١/٣، ٤٦٢] .

وكانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور قسطنطينية من هذه السنة، وقيل: في التي قبلها، وقيل: في التي بعدها. وكان في جيش يزيد بن معاوية، وإليه أوصى، وهو الذي صلى عليه.

وقد قال الإمام أحمد [٤١٦/٥]: حدثنا عثمان حدثنا همام حدثنا عاصم عن رجل من أهل مكة أن يزيد بن معاوية كان أميراً على الجيش الذي غزا فيه أبو أيوب، فدخل عليه عند الموت فقال له: إذا أنا مت

فاقرؤوا على الناس مني السلام وأخبروهم أني سمعت رسول ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئاً جعله الله في الجنة». ولينطلقوا بي فليبعدوا بي في أرض الروم ما استطاعوا. قال: فحدث الناس لما مات أبو أيوب فاستلأم الناس وانطلقوا بجنازته.

وقال الإمام أحمد [٤٢٣/٥]: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي ظبيان قال: غزا أبو أيوب مع يزيد بن معاوية. قال: فقال: إذا مت فأدخلوني في أرض العدو فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو، قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة».

ورواه أحمد [٤١٩/٥] عن ابن نمير ويعلى بن عبيد عن الأعمش سمعت أبا ظبيان فذكره، وقال فيه: سأحدثكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لولا حالي هذا ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة».

وقال الإمام أحمد [٤١٤/٥]: حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني محمد بن قيس ـ قاصُّ عمر بن عبد العزيز ـ عن أبي صرمة عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله قوماً يذنبون فيغفر لهم».

وعندي أن هذا الحديث والذي قبله هو الذي حمل يزيد بن معاوية على طرف من الإرجاء، وركب بسببه أفعالا كثيرة أنكرت عليه كما سنذكره في ترجمته والله تعالى أعلم.

قال الواقدي: مات أبو أيوب بأرض الروم سنة ثنتين وخمسين ودفن عند القسطنطينية وقبره هنالك يستسقي به الروم إذا قحطوا، وقيل: إنه مدفون في حائط القسطنطينية وعلى قبرة مزار ومسجد وهم يعظمونه.

وقال أبو زرعة الدمشقي [تاريخ أبي زرعة: ١٨٨/١]: توفي سنة خمس وخمسين، والأول أثبت والله أعلم.

وقال أبو بكر بن خلاد: حدثنا الحارث بن أبي أسامة حدثنا داود بن المحبر حدثنا ميسرة بن عبد ربه عن موسى بن عبيدة عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «إن الرجلين ليتوجهان إلى المسجد فيصليان فينصرف أحدهما وصلاته أوزن من أُحد، وينصرف الآخر وما تعدل صلاته مثقال ذرة». فقال أبو حميد الساعدي: وكيف يكون ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا كان أحسنهما عقلاً». قال: وكيف يكون ذلك؟ قال: «إذا كان أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على المسارعة إلى الخير» وإن كان دونه في التطوع.

وعن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ لرجل سأله أن يعلمه ويوجز فقال له: «إذا صليت صلاة فصل صلاة مودع، ولا تكلمن بكلام تعتذر منه، واجمع اليأس مما في أيدي الناس» [ج(٤١٧١)، مسند أحمد: ٤١٢/٥]

وفيها كانت وفاة أبي موسى

■ عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن جماهر بن الأشعر الأشعري اليماني، أسلم ببلاده وقدم مع جعفر وأصحابه عام خيبر.

وذكر محمد بن إسحاق أنه هاجر أولا إلى مكة ثم هاجر إلى الحبشة، وليس هذا بالمشهور.

وقد استعمله رسول الله ﷺ مع معاذ على اليمن، واستنابه عمر على البصرة، وفتح تستر، وشهد خطبة عمر بالجابية، وولاه عثمان الكوفة، وكان أحد الحكمين بين علي ومعاوية، فلما اجتمعا خدع عمرو أبا موسى.

وكان من قراء الصحابة وفقهائهم، وكان أحسن الصحابة صوتا في زمانه.

قال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بَرْبَط ولا مزمار أطيب من صوت أبي موسى.

وثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» [مسند أحمد: ١٦٧/٦].

وكان عمر يقول له ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ وهم يسمعون.

وقال الشعبي: كتب عمر في وصيته أن لا يقر لي عامل أكثر من سنة إلا أبا موسى فليقر أربع سنين.

وذكر ابن الجوزي في المنتظم [٢٥٢/٥] أنه توفي في هذه السنة، وهو قول بعضهم، وقيل إنه توفي قبلها بسنة، وقيل في سنة ثنتين وأربعين، وقيل غير ذلك والله أعلم.

وكانت وفاته بمكة لما اعتزل الناس بعد التحكيم، وقيل بمكان يقال له: الثوية على ميلين من الكوفة. وكان قصيرا نحيف الجسم أَثَطَّ أي لا لحية له، رضي الله عنه.

وذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٢٥٢/٥] أنه توفي في هذه السنة أيضاً من الصحابة:

■ عبد الله بن المغفل المزني: صحابي جليل وكان أحد البكائين، وأحد العشرة الذين بعثهم عمر إلى البصرة ليفقهوا الناس، وهو أول من دخل تستر من المسلمين حين فتحها. لكن الصحيح ما حكاه البخاري [التاريخ الكبير: ٢٣/٥] عن مسدد أنه توفي سنة سبع وخمسين.

وقال ابن عبد البر [الاستيعاب: ٩٩٦/٣]: توفي سنة ستين، وقال غيره: سنة إحدى وستين فالله أعلم. ويروى عنه أنه رأى في منامه كأن القيامة قد قامت وكان هناك مكان من وصل إليه نجا، فجعل يحاول الوصول إليه فقيل له: أتريد أن تصل إليه وعندك ما عندك من الدنيا؟ فاستيقظ فعمد إلى عيبة عنده فيها ذهب كثير فلم يصبح عليه الصباح إلا وقد فرقها في المساكين والمحاويج والأقارب رضي الله عنه [المنتظم: ٢٥٣/٥].

وفيها توفي

■ عمران بن حصين بن عبيد بن خلف أبو نُجيد الخزاعي، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر وشهد غزوات، وكان من سادات الصحابة، استقضاه عبد الله بن عامر على البصرة فحكم له بها، ثم استعفاه فأعفاه، ولم يزل بها حتى مات في هذه السنة.

قال الحسن وابن سيرين: ما قدم البصرة راكب خير منه.

وقد كانت الملائكة تسلم عليه فلما اكتوى انقطع عنه سلامهم ثم عادوا قبل موته بقليل فكانوا يسلمون عليه رضي الله عنه وعن أبيه أيضاً.

■ كعب بن عجرة الأنصاري أبو محمد المدني: صحابي جليل وهو الذي نزلت فيه آية الفدية في الحج. مات في هذه السنة، وقيل قبلها بسنة عن خمس أو سبع وسبعين سنة.

■ معاوية بن حُديج ابن جفنة بن قتيرة الكندي الخولاني المصري، صحابي على قول الأكثرين، وذكره ابن حبان في التابعين من الثقات [٤١٥/٥] والصحيح الأول.

شهد فتح مصر، وهو الذي وفد إلى عمر بفتح الإسكندرية، وشهد مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح قتال البربر، وذهبت عينه يومئذ، وولي

حروباً كثيرة في بلاد المغرب، وكان عثمانياً في أيام علي ببلاد مصر، ولم يبايع علياً بالكلية، فلما أخذ معاوية بن أبي سفيان مصر أكرمه ثم استنابه بها بعد عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه ناب بها بعد أبيه ستين ثم عزله معاوية وولى بن خديج هذا، فلم يزل بمصر حتى مات بها في هذه السنة.

■ هانئ بن نيار أبو بردة البلوي: وهو خال البراء بن عازب المخصوص بذبح العناق وإجزائها عن غيرها من الأضاحي، وشهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها وكانت راية بني حارثة معه يوم الفتح رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها غزا عبد الرحمن بن أم الحكم بلاد الروم وشتى بها.

وفيها افتتح المسلمون وعليهم جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدر عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عندهم فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد، وما زالوا كذلك حتى كانت إمارة إمارة يزيد بن معاوية، بعد أبيه، فأقفلهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة.

وحج بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص والي المدينة، قاله أبو معشر والواقدي.

وفي هذه السنة توفي جبلة بن الأيهم الغساني كما ستأتي ترجمته في آخر هذه التراجم.

وفيها توفي

■ الربيع بن زياد الحارثي، مختلف في صحبته، كان نائب زياد على خراسان، وكان قد ذكر حجر بن عدي فتأسف عليه، وقال: والله لو ثارت العرب له لما قتل صبراً ولكن أقرت العرب فذلت، ثم لما كان يوم الجمعة دعا الله على المنبر أن يقبضه إليه فما عاش إلى الجمعة الأخرى، واستخلف على عمله ابنه عبد الله بن الربيع فأقره زياد على ذلك، فمات بعد ذلك بشهرين واستخلف على عمله بخراسان خليد بن عبد الله الحنفي فأقره زياد.

و■ رويفع بن ثابت: صحابي جليل شهد فتح مصر، وله آثار جيدة في فتح بلاد المغرب، ومات ببرقة والياً من جهة مسلمة بن مخلد نائب مصر.

وفيها توفي

■ زياد بن أبي سفيان ويقال له: زياد ابن أبيه وزياد بن سمية - وهي أمه - في رمضان من هذه السنة مطعوناً، أنه كتب إلى معاوية يقول له: إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة. وهو يعرض له أن يستنيبه على بلاد الحجاز أيضاً، فلما بلغ أهل الحجاز جاؤوا إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب فشكوا إليه ذلك، وخافوا أن يلي عليهم زياد، فيعسفهم كما عسف أهل العراق، فقام ابن عمر فاستقبل القبلة فدعا على زياد والناس يؤمنون، فطعن زياد بالعراق في يده فضاق ذرعاً بذلك، واستشار شريحاً القاضي في قطع يده، فقال له شريح: إني لا أرى لك أن تفعل ذلك بنفسك، فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك جزعاً من لقائه، وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم فيعيَّر ولدك بذلك. فصرفه عن ذلك.

فلما خرج شريح من عنده عاتبه بعض الناس وقالوا: هلا تركته فقطع يده؟! فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن» [د(٥١٢٨)، ج(٣٧٤٥)].

ويقال إن زياداً جعل يقول: أأنام أنا والطاعون في فراش واحد؟ فعزم على قطع يده، فلما جيء بالمكاوي والحديد خاف من ذلك فترك ذلك، وذكر أنه جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه مما يجد من الحر في باطنه، منهم ثلاثة أطبّاء ممن كان يَطِبُّ كسرى بن هرمز، فعجزوا عن رد القدر المحتوم والأمر المحموم، فمات في ثالث شهر رمضان في هذه السنة. وقد قام في إمرة العراق خمس سنين. ودفن بالثوية خارج الكوفة، وقد كان برز منها قاصداً إلى الحجاز أميراً عليها.

فلما بلغ خبر موته عبد الله بن عمر قال: اذهب إليك يا ابن سمية، فلا الدنيا بقيت لك، ولا الآخرة أدركت.

قال ابو بكر بن أبي الدنيا: حدثني أبي عن هشام بن محمد حدثني يحيى بن ثعلبة أبو المقوَّم الأنصاري عن أمه عائشة عن أبيها عبد الرحمن بن السائب الأنصاري. قال: جمع زياد أهل الكوفة فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ليَعْرِضَهم على البراءة من علي بن أبي طالب، قال عبد الرحمن: فإني لمع نفر من أصحابي من الأنصار، والناس في أمر عظيم من ذلك وفي حَصْر، قال: فهومت تهويمة - أي نعست نعسة - فرأيت شيئا أقبل طويل العنق، له عنق مثل عنق البعير، أهدب أهدل فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النقَّاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر. فاستيقظت فزعا فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيت؟ قال: لا! فأخبرتهم، وخرج علينا خارج من القصر فقال: إن الأمير يقول لكم: انصرفوا عني، فإني عنكم مشغول. وإذا الطاعون قد أصابه.

وروى ابن أبي الدنيا أن زيادا لما ولي الكوفة سأل عن أعْبَدِ أهلها فدل على رجل يقال له أبو المغيرة الحميري، فجاء به فقال له: الزم بيتك ولا تخرج منه وأنا أعطيك من المال ما شئت، فقال: لو أعطيتني ملك الأرض ما تركت خروجي لصلاة الجماعة. فقال: الزم الجماعة ولا تتكلم بشيء. فقال: لا أستطيع ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأمر به فضربت عنقه. وهذا غريب جداً!.

ولما احتضر قال له ابنه: يا أبة قد هيأت لك ستين ثوبا أكفنك فيها، فقال: يا بني قد دنا من أبيك أمر إما لباس خير من لباسه وإما سلب سريع.

و■ صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم الدارمي، كان سيداً في قومه في الجاهلية وفي الإسلام، يقال إنه أحيا في الجاهلية ثلاثمائة وستين موؤودة، وقيل أربعمائة. وقيل ستا وتسعين موؤودة، فلما أسلم قال له رسول الله ﷺ: «لك أجر ذلك إذ مَنَّ الله عليك بالإسلام» [المعجم الكبير: ٩١/٨].

ويروي عنه أنه أول ما أحيى الموؤودة أنه ذهب في طلب ناقتين شردتا له، قال: فبينما أنا في الليل أسير إذ أنا بنار تضيء تارة وتخبو أخرى. فجعلت لا أهتدي إليها، فقلت: اللهم لك علي إن أوصلتني إليها ان أدفع عن أهلها ضيما إن وجدته بهم، قال: فوصلت إليها وإذا شيخ كبير يوقد ناراً وعنده نسوة مجتمعات، فقلت: ما أنتن؟ فقلن: إن هذه امرأة قد حبستنا منذ ثلاث، تطلق ولم تخلص، فقال لي الشيخ صاحب المنزل: وما خبرك؟ فقلت: إني في طلب ناقتين شردتا لي، فقال: قد وجدتهما، إنهما لفي إبلنا،

قال فنزلت عنده. قال: فما هو إلا أن نزلت إذ قلن: وضعت، فقال الشيخ: إن كان ذكرا فارتحلوا، وإن كان أنثى فلا تسمعنني صوتها، فقلت: علام تقتل ولدك ورزقه على الله؟ فقال: لا حاجة لي بها، فقلت: أنا أفتديها منك وأتركها عندك حتى تبين عنك أو تموت. قال: بكم؟ قلت: بإحدى ناقتي، قال: لا قلت: فبهما، قال: لا إلا أن تزيدني بعيرك هذا فإني أراه شابا حسن اللون، قلت نعم على أن تردني إلى أهلي، قال: نعم.

فلما خرجت من عندهم رأيت أن الذي صنعته نعمة من الله منّ بها علي هداني إليها، فجعلت لله عليّ أن لا أجد موؤودة إلا افتديتها كما افتديت هذه. قال فما جاء الإسلام حتى أحييت مائة موؤودة إلا أربعاً، ونزل القرآن بتحريم ذلك على المسلمين.

وممن توفي في هذه السنة من المشاهير المذكورين:

■ **جبلة بن الأيهم الغساني**: ملك نصارى العرب وهو جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي شِمْر، واسمه المنذر بن الحارث، وهو ابن مارية ذات القرطين، وهو ابن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، واسمه كعب بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس، ومارية هي بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، ويقال غير ذلك في نسبه، وكنيته جبلة أبو المنذر الغساني الجفني، وكان ملك غسان، وهم نصارى العرب أيام هرقل، وغسان أولاد عم الأنصار أوسها وخزرجها، وكان جبلة آخر ملوك غسان، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتابا مع شجاع بن وهب يدعوه إلى الإسلام فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ.

وقال ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ٣٦٨/٥] قيل: إنه لم يسلم قط، وهكذا صرح به الواقدي وسعيد بن عبد العزيز.

وقال الواقدي: شهد اليرموك مع الروم أيام عمر بن الخطاب ثم أسلم بعد ذلك في أيام عمر، فاتفق أنه وطئ رجلاً من مزينة بدمشق فلطمه ذلك المزني، فرفعه أصحاب جبلة إلى أبي عبيدة فقالوا: هذا لطم جبلة، قال أبو عبيدة: فيلطمه جبلة فقالوا: أو ما يقتل؟ قال: لا! قالوا: فما تقطع يده؟ قال لا، إنما أمر الله بالقود، فقال جبلة: أترون أني جاعل وجهي بدلاً لوجه مازني جاء من ناحية المدينة؟ بئس الدين هذا، ثم ارتد نصرانيا وترحل بأهله حتى دخل أرض الروم، فبلغ ذلك عمر فشق عليه وقال لحسان: إن صديقك جبلة ارتد عن الإسلام، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قال: ولم؟ قال: لطمه رجل من مزينة فقال: وحُقّ له، فقام إليه عمر بالدرة فضربه بها.

ورواه الواقدي عن معمر وغيره عن الزهري عن عبيدالله بن عبد الله عن ابن عباس وساق ذلك بأسانيده إلى جماعة من الصحابة. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقد روى ابن الكلبي وغيره أن عمر لما بلغه إسلام جبلة فرح بإسلامه، ثم بعث يستدعيه ليراه بالمدينة، وقيل: بل استأذنه جبلة في القدوم عليه فأذن له فركب في خلق كثير من قومه، قيل مائة وخمسون راكبا، وقيل خمسمائة، وتلقته هدايا عمر ونزله قبل أن يصل إلى المدينة بمراحل، وكان يوم دخوله يوما مشهودا دخلها وقد ألبس خيوله قلائد الذهب والفضة، ولبس تاجا على رأسه مرصعا بالألئ والجواهر، وفيه قرطا مارية جدته، وخرج أهل المدينة رجالهم ونساؤهم ينظرون إليه، فلما سلم على عمر رحب به عمر وأدنى مجلسه، وشهد الحج مع عمر في هذه السنة، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطئ إزاره رجل من بني فزاره فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف ذلك الرجل، ومن الناس من يقول: إنه قلع عينه، فاستعدى عليه الفزاري عمر ومعه خلق كثير من بني فزارة، فاستحضره عمر فاعترف جبلة فقال له عمر: أَقِدْهُ. فقال جبلة: كيف وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال: إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقوى، فقال جبلة: قد كنت أظن أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية، فقال عمر: دع ذا عنك، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أقدته منك، فقال: إذن أتنصر، فقال: إن تنصرت ضربت عنقك. فلما رأى الجِدَّ: قال: سأنظر في أمري هذه الليلة، فانصرف من عند عمر.

فلما ادلهم الليل ركب في قومه ومن أطاعه فسار إلى الشام ثم دخل بلاد الروم ودخل على هرقل في مدينة القسطنطينية فرحب به هرقل وأكرمه وأقطعه بلاداً كثيرة، وأجرى عليه أرزاقاً جزيلة، وأهدى إليه هدايا جميلة، وجعله من سُمّاره، فمكث عنده دهرا.

ثم إن عمر كتب كتابا إلى هرقل مع رجل يقال له جثامة بن مساحق الكناني، فلما بلغ هرقل كتاب عمر بن الخطاب قال له هرقل: هل لقيت ابن عمك جبلة؟ قال: لا! قال: فالقه، فذكر اجتماعه به وما هو فيه من النعمة والسرور والحبور الدنيوي، في لباسه وفرشه ومجلسه وطيبه وجواريه، حواليه الحسان من الخدم والقيان، ومطعمه وشرابه وسروره وداره التي تعوض بها عن دار الإسلام، وذكر أنه دعاه إلى الإسلام والعود إلى الشام فقال: أبعد ما كان مني من الارتداد؟ فقال: نعم! إن الأشعث بن قيس ارتد وقاتلهم بالسيف، ثم لما رجع إلى الحق قبلوه منه وزوجه الصديق بأخته أم فروة، قال: فالتهى عنه بالطعام والشراب، وعرض عليه الخمر فأبى عليه، وشرب جبلة من الخمر شيئاً كثيراً حتى سكر ثم أمر جواريه القيان فغنينه بالعيدان من قول حسان يمدح بني عمه من غسان والشعر في والد جبلة هذا الحيوان.

لِلّـه درُّ عصابـةٍ نـادمتهمْ ... يومـاً بجلّـقَ في الزمـانِ الأولِ

أولادِ جفنـةَ حـولَ قـبرِ أبيهـمُ ... قـبرِ ابـن ماريـةَ الكريـمِ المفضـلِ

يسقونَ مـن وردَ البريصَ عليهـمُ ... صَهْبـاً تُصَفَّـقُ بـالرحيقِ السلسـلِ

بيضِ الوجـوهِ كريمـةٍ أحسـابهمْ ... شُـمِّ الأنـوفِ مـنَ الطـرازِ الأولِ

يغشـونَ حتـى مـا تهـرُّ كلابهـمْ ... لا يسـألونَ عـن السـوادِ المقبـلِ

قال: فأعجبه قولهن ذلك، ثم قال: هذا شعر حسان بن ثابت الأنصاري فينا وفي ملكنا، ثم قال لي: كيف حال حسان؟ قلت: تركته ضريراً شيخاً كبيراً، ثم قال لهن: أطربنني. فاندفعن يغنين بقول حسّان أيضا:

لِمـنِ الديـارُ أقفـرت بمعـانِ ... بيـنَ فـرعِ اليرموكِ فالصمّـانِ

فالقُرَيّـاتُ مـن بـلاسَ فداريّـا ... فسكاءَ فـالقصورِ الدوانـي

فحمى جاسم الى مـرج ذي الصُّفـ ... ـر مغنـى قبـائلٍ وهجـانِ

تلـكَ دارُ العزيـزِ بعـدَ الـوفِ ... وحلـولٍ عظيمـةِ الأركـانِ

صلواتُ المسيحِ في ذلـك الديـ ... ـر دعـاء القسيـسِ والرهبـانِ

ذاكَ مغنـىً لآلِ جفنـةَ في الدهـ ... ـرِ محـاه تعـاقبُ الأزمـانِ

فـأراني هنـاكَ حـقٌّ مكيـنٌ ... عنـدَ ذي التـاجِ مجلسي ومكـاني

ثكلـتْ أمهـم وقـد ثكلتهـم ... يـومَ حلـوا بحـارثِ الجَـوْلانِ

قـد دنـا الفصحُ فـالولائد ينظمـ ... ـنَ سـراعاً أكِلّـةَ المَرْجـانِ

ثم قال: هذا لابن الفريعة حسان بن ثابت فينا وفي ملكنا وفي منازلنا

بأكناف غوطة دمشق، قال: ثم سكت طويلا، ثم قال لهن: بكينني، فوضعن عيدانهن ونكسن رؤوسهن وقلن:

تنصرت الأشرافُ من عارِ لطمةٍ ... وما كانَ فيها لو صبرتُ لها ضررْ
تكنفني فيها لجاجٌ ونخوةٌ ... وبعت بها العينَ الصحيحةَ بالعور
فيا ليتَ أمي لم تلدني وليتني ... رجعتُ إلى القول الذي قالهُ عمرْ
ويا ليتني أرعى المخاضَ بقفرةٍ ... وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مضرْ
ويا ليتَ لي بالشام أدنى معيشةٍ ... أجالسُ قومي ذاهبَ السمعِ والبصرْ
أدينُ بما دانوا بهِ من شريعةٍ ... وقد يصبرُ العودُ الكبيرُ على الدَّبَرْ

قال: فوضع يده على وجهه فبكى حتى بل لحيته بدموعه وبكيت معه، ثم استدعى بخمسمائة دينار هرقلية فقال: خذ هذه فأوصلها إلى حسان بن ثابت، وجاء بأخرى مثلها فقال: خذ هذه لك، فقلت: لا حاجة لي فيها ولا أقبل منك شيئا وقد ارتددت عن الإسلام، فيقال: إنه أضافها إلى التي لحسان، فبعث إليه بألف دينار هرقلية، ثم قال لي: أبلغ عمر بن الخطاب مني السلام وسائر المسلمين، فلما قدمت على عمر أخبرته خبره فقال: ورأيته يشرب الخمر؟ قلت: نعم! قال: أبعده الله، تعجل فانية بباقية فما ربحت تجارته. ثم قال: وما الذي وَجَّه به لحسان؟ قلت: خمسمائة دينار هرقلية، فدعا حساناً فدفعها إليه، فأخذها وولّى وهو يقول:

إن ابنَ جفنةَ من بقيةِ معشرٍ ... لم يَغْذُهُم آباؤهم باللومِ
لم ينسني بالشام إذ هو ربها ... كلا ولا متنصِّراً بالرومِ
يعطي الجزيلَ ولا يراهُ عنده ... إلا كبعضِ عطيةِ المحرومِ
وأتيتهُ يوماً فقرَّب مجلسي ... وسقى فرواني من الخرطومِ

ثم لما كان في هذه السنة من أيام معاوية بعث معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري رسولا إلى ملك الروم، فاجتمع بجبلة بن الأيهم فرأى ما هو فيه من السعادة الدنيوية والأموال من الخدم والحشم والذهب والخيول، فقال له جبلة: لو أعلم أن معاوية يقطعني أرض البَثْنيَّة فإنها منازلنا، وعشرين قرية من غوطة دمشق ويفرض لجماعتنا، ويحسن جوائزنا، لرجعت إلى الشام. فأخبر عبد الله بن مسعدة معاوية بقوله، فقال معاوية: أنا أعطيه ذلك، وكتب إليه كتاباً مع البريد بذلك، فما أدركه البريد إلا وقد مات في هذه السنة قبحه الله.

وذكر أكثر هذه الأخبار الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم [٥/٢٥٦-٢٦٠]، وأرخ وفاته في هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وخمسين.

وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه [مختصر تاريخه: ٥/٢٥٦-٢٦٠] فأطال الترجمة وأفاد، ثم قال في آخرها: بلغني أن جبلة توفي في خلافة معاوية بأرض الروم بعد سنة أربعين من الهجرة.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

وفيها كان شتى محمد بن مالك بأرض الروم.

وغزا الصائفة معن بن زائدة السلمي.

وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن إمرة المدينة ورد إليها مروان بن الحكم، وكتب إليه أن يهدم دار سعيد بن العاص، ويصطفي أمواله التي بأرض الحجاز، فجاء مروان إلى دار سعيد ليهدمها فقال سعيد: ما كنت لتفعل ذلك، فقال: إن أمير المؤمنين كتب إلي بذلك، ولو كتب إليك في داري لفعلته. فقام سعيد فأخرج إليه كتاب معاوية إليه حين ولاه المدينة أن يهدم دار مروان ويصطفي أمواله، وذكر أن سعيداً لم يزل يحاجف دونه حتى صرف ذلك عنه، فلما رأى مروان الكتب إلى سعيد بذلك، ثناه ذلك عن دار سعيد، ولم يزل يدافع عنه حتى تركه معاوية في داره وأقر عليه أمواله.

وفيها عزل معاوية سمرة بن جندب عن البصرة، وكان زياد قد استخلفه عليها فأقره معاوية ستة أشهر ثم عزله، وولى عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان.

وروى ابن جرير وغيره [المنتظم: ٥/٢٦٧] عن سمرة أنه قال: لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبدا. وهذا لا يصح عنه.

وأقر معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد على نيابة الكوفة، وكان زياد قد استخلفه عليها فأبقاه معاوية.

وقدم في هذه السنة عبيد الله بن زياد على معاوية فأكرمه وسأله عن نواب أبيه على البلاد فأخبره عنهم، ثم ولاه إمرة خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة، فسار إلى مقاطعته وتجهز من فوره غاديا إليها، فقطع النهر إلى جبال بخارى، ففتح رامِيْثَن ونصف بيكند ـ وهما من معاملة بخارى ـ ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديدا وهزمهم هزيمة فظيعة بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها، فلبست واحدة وتركت أخرى، فأخذها المسلمون فقوموا جَوْرَبَها بمائتي ألف درهم، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة، وأقام عبيد الله بخراسان سنتين.

وفي هذه السنة حج بالناس مروان بن الحكم نائب المدينة.

وكان على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد، وقيل: بل كان عليها الضحاك بن قيس، وكان على البصرة عبد الله بن غيلان.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي أبو محمد المدني: مولى رسول الله ﷺ وابن مولاه، وحبه وابن حبه، وأمه بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، ولاه رسول الله ﷺ الإمرة بعد مقتل أبيه فطعن بعض الناس في إمرته، فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمرة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة، وإن كان لمن أحبُّ الناس إليّ، وإن هذا الخليق بالإمارة إن كان لمن أحب الناس إلي وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده» [خ: (٦٦٢٧)، (٢٤٢٦)].

وثبت في صحيح البخاري [٣٧٣٥] عنه: أن رسول الله ﷺ كان يجلس الحسن على فخذه ويجلس أسامة على فخذه الأخرى ويقول: «اللّهم إني أحبهما فأحبهما».

وفضائله كثيرة جداً. توفي رسول الله ﷺ وعمره تسع عشرة سنة، وكان عمر إذا لقيه يقول: السلام عليك أيها الأمير.

وصحح أبو عمر بن عبد البر أنه توفي في هذه السنة، وقال غيره: سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل توفي بعد مقتل عثمان فالله أعلم.

■ ثوبان بن بجدد: مولى رسول الله ﷺ تقدمت ترجمته في الموالي ومن كان يخدمه عليه الصلاة والسلام، أصل ثوبان من العرب فأصابه سباء فاشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه، فلزم رسول الله ﷺ سفرا وحضراً، فلما مات أقام بالرملة ثم انتقل إلى حمص فابتنى بها داراً ولم يزل بها حتى مات

في هذه السنة على الصحيح، وقيل سنة أربع وأربعين وهو غلط، ويقال إنه توفي بمصر، والصحيح بحمص.

■ **جبير بن مطعم** تقدم أنه توفي سنة خمسين.

■ **الحارث بن ربعي أبو قتادة الأنصاري**، وقال الواقدي: اسمه النعمان بن ربعي، وقال غيره: عمرو بن ربعي.

وهو أبو قتادة الأنصاري السلمي المدني فارس الإسلام، شهد أحداً وما بعدها، وكان له يوم ذي قرد سعي مشكور كما قدمنا ذلك. قال رسول الله ﷺ يومئذ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع» [مسند أحمد: ٤/٥٢-٥٤].

وزعم أبو أحمد الحاكم أنه شهد بدرا وليس هذا بمعروف.

وقال أبو سعيد الخدري: أخبرني من هوخير مني أبو قتادة الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» [م (٢٩١٥)].

قال الواقدي وغير واحد: توفي في هذه السنة ـ يعني سنة أربع وخمسين ـ بالمدينة عن سبعين سنة، وزعم الهيثم بن عدي وغيره أنه توفي بالكوفة سنة ثمان وثلاثين، وصلى عليه علي بن أبي طالب. وهذا غريب.

■ **حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي أبو خالد المكي**، وأمه فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وعمته خديجة بنت خويلد، وزوجة رسول الله ﷺ، وأم أولاده سوى إبراهيم. ولدته أمه في جوف الكعبة قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وذلك أنها دخلت الكعبة تزور فضربها الطلق فوضعته على نطع.

وكان شديد المحبة لرسول الله ﷺ، ولما كان بنو هاشم وبنو المطلب في الشعب لا يبايعون ولا يناكحون، كان حكيم يقبل بالعير تقدم من الشام فيشتريها مكانها، ثم يذهب بها فيضرب أدبارها حتى تلج الشعب تحمل الطعام والكسوة تكرمة لرسول الله ﷺ، ولعمته خديجة بنت خويلد. وهو الذي اشترى زيد بن حارثه فابتاعته منه عمته خديجة فوهبته لرسول الله فأعتقه، وهو الذي اشترى حلة ذي يزن فأهداها لرسول الله ﷺ فلبسها، قال: فما رأيت شيئا أحسن منه فيها. ومع هذا ما أسلم إلا يوم الفتح هو وأولاده كلهم.

قال البخاري [التاريخ الكبير: ١١/٣] وغيره: عاش ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، وكان من سادات قريش وكرمائهم وأعلمهم بالنسب، وكان كثير الصدقة والبر والعتاقة، فلما أسلم سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أسلمت على ما أسلفتَ من خير» [خ: (١٤٣٦)، م(١٢٣)] .

وقد كان حكيم شهد مع المشركين بدراً وتقدم إلى الحوض فكاد حمزة أن يقتله، فما سحب إلا سحبا بين يديه، فلهذا كان إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي نجاني يوم بدر. ولما نزل رسول الله ﷺ يوم الفتح بمرّ الظهران ومعه جنود خرج حكيم وأبو سفيان يتجسسان الأخبار، فلقيهما العباس، فأخذ أبا سفيان فأجاره وأخذ له أمانا من رسول الله ﷺ، وأسلم أبو سفيان ليلتئذ كرها، ومن صبيحة ذلك اليوم أسلم حكيم وشهد مع رسول الله ﷺ حنينا، وأعطاه رسول الله ﷺ مائه من الإبل ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال له: «يا حكيم إن هذه المال حلوة خضرة، وإنه من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع». فقال حكيم: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك أبدا، فلم يرزأ أحداً بعده، فكان أبو بكر يعرض عليه العطاء فيأبى، وكان عمر يعرض عليه العطاء فيأبى فكان عمر يشهد عليه المسلمين، ومع هذا كان من أغنى الناس، مات الزبير يوم مات والحكيم عليه مائة ألف.

وقد كان بيده حين أسلم الرفادة ودار الندوة فباعها بَعْدُ من معاوية بمائة ألف، وفي رواية بأربعين ألف دينار، فقال له ابن الزبير: بعت مكرمة قريش؟ فقال له حكيم: ابن أخي ذهبت المكارم فلا كرم إلا التقوى، يا ابن أخي إنني اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، ولأشترين بها دارا في الجنه، أشهدك أني قد جعلتها في سبيل الله.

وهذه الدار كانت لقريش بمنزلة دار العدل، وكان لا يدخلها أحد إلا وقد صار سِنُّه أربعين سنة، إلا حكيم بن حزام فإنه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة. ذكره الزبيربن بكار.

وذكر الزبير أن حكيما حج عاما فأهدى مائة بدنة مجللة، وألف شاة، وأوقف معه بعرفات مائة وصيف في أعناقهم أطوقة الفضة، وقد نقش فيها: هؤلاء عتقاء الله عن حكيم بن حزام، فأعتقهم وأهدى جميع تلك الأنعام رضي الله عنه.

توفي حكيم في هذه السنة على الصحيح، وقيل غير ذلك وله مائة وعشرون سنة والله أعلم.

■ **حويطب بن عبد العزى العامري**: صحابي جليل، أسلم عام الفتح، وكان قد عمِّر دهراً طويلا، ولهذا جعله عمر في النفر الذين جددوا أنصاب الحرم، وقد شهد بدراً مع المشركين، ورأى الملائكة يومئذ بين السماء والأرض، وشهد الحديبية وسعى في الصلح، فلما كان عمرة القضاء كان هو وسهيل هما اللذان أمرا رسول الله ﷺ بالخروج من مكة، فأمر بلالا أن لا تغرب الشمس وبمكة أحد من أصحابه.

قال: وفي كل هذه المواطن أَهُمُّ بالإسلام ويأبى الله إلا ما يريد، فلما كان زمن الفتح خفت خوفا شديدا وهربت فلحقني أبو ذر ـ وكان لي خليلا في الجاهلية ــ فقال: يا حويطب مالك؟ فقلت: خائف، فقال: لا تخف فإنه أبر الناس وأوصل الناس، وأنا جار لك فاقدم معي، فرجعت معه فوقف بي على رسول الله ﷺ وهو بالبطحاء ومعه أبو بكر وعمر، وقد علمني أبو ذر أن أقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فلما قلت ذلك قال: «حويطب»؟ قلت: نعم أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «الحمد لله الذي هداك» وسر بذلك واستقرضني مالا فأقرضته أربعين ألفاً، وشهدت معه حنيناً والطائف، وأعطاني من غنائم حنين مائة بعير.

ثم قدم حويطب بعد ذلك المدينة فنزلها وله بها دار، ولما ولي عليها مروان بن الحكم جاءه حويطب وحكيم بن حزام، ومخرمة بن نوفل، فسلموا عليه وجلسوا يتحدثون عنده ثم تفرقوا، ثم اجتمع حويطب بمروان يوماً آخر فسأله مروان عن عمره فأخبره، فقال له: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث. فقال حويطب: الله المستعان، والله لقد هممت بالإسلام غير مرة كل ذلك يعوقني أبوك يقول: تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث؟ وتصير تابعا؟ قال: فأسكت مروان وندم على ما كان قال له، ثم قال حويطب: أما كان أخبرك عثمان ما كان لقي من أبيك حين أسلم؟ قال: فازداد مروان غما. وكان حويطب ممن شهد دفن عثمان، واشترى منه معاوية داره بمكة بأربعين ألف دينار فاستكثرها الناس، فقال حويطب: وما هي في رجل له خمسة من العيال؟.

قال الشافعي: كان حويطب حميد الإسلام، وكان أكثر قريش بمكه ربعاً جاهلياً.

وقال الواقدي: عاش حويطب في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، ومات حويطب في هذه السنة بالمدينة وله مائة وعشرون سنة.

وقال غيره: توفي بالشام. له حديث واحد رواه البخاري [٧١٦٣] ومسلم [١٠٤٥] والنسائي [٢٦٠٤-٢٦٠٦] من حديث السائب بن يزيد عنه عن عبد الله بن السعدي عن عمر في العمالة، وهو من عزيز الحديث لأنه اجتمع فيه أربعة من الصحابة رضي الله عنهم.

■ سعيد بن يربوع بن عنكثة ابن عامر بن مخزوم، أسلم عام الفتح، وشهد حنينا، وأعطاه رسول الله ﷺ خمسين من الإبل وكان اسمه صرما، وفي رواية أصرم، فسماه سعيدا، وكان في جملة النفر الذين أمرهم عمر بتجديد أنصاب الحرم، وقد أصيب بصره بعد ذلك فأتاه عمر يعزيه فيه، رواه البخاري [التاريخ الكبير: ٤٥٣/٣].

وقال الواقدي وخليفة [تاريخه: ٢٦٦/١] وغير واحد: مات في هذه السنة بالمدينة، وقيل بمكة وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل أكثر من ذلك.

■ مرة بن شراحيل الهمداني يقال له مرة الطيب، ومرة الخير: روى عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وغيرهم، كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، فلما كبر صلى أربعمائة ركعة، ويقال إنه سجد حتى أكل التراب جبهته، فلما مات رئي في المنام - وقد صار ذلك المكان نوراً - فقيل له: أين منزلك؟ فقال: بدار لا يظعن أهلها ولا يموتون.

■ النعيمان بن عمرو ابن رفاعة بن الحر، شهد بدراً وما بعدها، ويقال إنه الذي كان يؤتى به في الشراب فيجلده النبي ﷺ، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»

■ سودة بن زمعة القرشية العامرية أم المؤمنين، تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة، وكانت قبله عند السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، فلما كبرت همَّ رسول الله بطلاقها، ويقال: إنه طلقها، فسألته أن يبقيها في نسائه وتهب يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها، فأنزل الله: ﴿وإن امرأةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً﴾[النساء: ١٢٨] الآية، وكانت ذات عبادة وورع وزهادة.

قالت عائشة: ما من امرأة أحب أن أكون في مسلاخها إلاّ سودة، إلا أن فيها حدة تُسرع منها الفيئة [شطره الأول عند م(١٤٦٣) ومطولاً في مسند أحمد: ١٥٠/٦، ١٥١،وفيه أن كلام عائشة في زينب وليس في سودة] .

ذكر ابن الجوزي وفاتها في هذه السنة، وقال ابن أبي خيثمة: توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب فالله أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

فيها عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة وولى عليها عبيد الله بن زياد، وكان سبب عزله عنها أنه كان يخطب الناس فحصبه رجل من بني ضبة فأمر بقطع يده، فجاء قومه إليه فقالوا له: إنه متى بلغ أمير المؤمنين أنك قطعت يده في هذا الصنع فعل به وبقومه نظير ما فعل بحجر بن عدي، فاكتب لنا كتابا أنك قطعت يده في شبهة، فكتب لهم فتركوه عندهم حيناً ثم جاؤوا معاوية فقالوا له: إن نائبك قطع يد صاحبنا في شبهة فأقدنا منه، فقال: لا سبيل إلى القود من نوابي ولكن الدية، فأعطاهم الدية من بيت المال وعزل ابن غيلان، وقال لهم: اختاروا من تريدون أوليه عليكم فذكروا رجالا فقال: لا! ولكن أولي عليكم ابن أخي عبيد الله بن زياد، فولاه فاستخلف ابن زياد على خراسان أسلم بن زرعة، فلم يغز ولم يفتح شيئاً، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى ثم عزله وولى ابن أذينة العبدي، وولى شرطتها عبد الله بن حصن.

وحج بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة.

وفيها عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة وولى الضحاك بن قيس الفهري رضي الله عنه.

ذكر من توفي من الأعيان في هذه السنة

■ الأرقم بن أبي الأرقم: عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أسلم قديما، يقال سابع سبعة، وكانت داره كهفا للمسلمين يأوي إليها رسول الله ﷺ ومن أسلم من قريش، وكانت عند الصفا وقد صارت فيما بعد ذلك للمهدي فوهبها لامرأته الخيزران أم موسى الهادي وهارون الرشيد، فبنتها وجددتها فعرفت بها، ثم صارت لغيرها، وقد شهد الأرقم بدرا وما بعدها من المشاهد، ومات بالمدينة في هذه السنة، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص أوصى به رضي الله عنهما، وله بضع وثمانون سنة.

■ سَحْبان بن زفر بن إياس ابن عبد شمس بن الأحَبِّ الباهلي الوائلي، الذي يضرب بفصاحته المثل، فيقال: أفصح من سحبان وائل. ووائل هو ابن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار، وباهلة امرأة مالك بن أعصر، ينسب إليها ولدها، وهي باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٤٣/٢٠]: سحبان المعروف بسحبان وائل، بلغني أنه وفد إلى معاوية فتكلم فقال معاوية: أنت الشيخ؟ فقال: إي والله. وغير ذلك. ولم يزد ابن عساكر على هذا، وقد نسبه ابن الجوزي في كتابة المنتظم [٢٨٣/٥] كما ذكرنا، ثم قال: وكان بليغاً يضرب المثل بفصاحته، دخل يوما على معاوية وعنده خطباء القبائل، فلما رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه، فقال سحبان:

لقد علمَ الحي اليمانونَ أنني إذا قلتُ أما بعدُ أني خطيبها

فقال له معاوية: اخطب! فقال: انظروا لي عصاً تقيم من أودي، فقالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ فقال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، فأخذها وتكلم من الظهر إلى أن قاربت العصر، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا ابتدأ في معنى فخرج عنه وقد بقيت عليه بقية فيه، فقال معاوية: الصلاة! فقال: الصلاة أمامك، ألسنا في تحميد وتمجيد وعظة وتنبيه، وتذكير ووعد ووعيد؟ فقال معاوية: أنت أخطب العرب، قال: العرب وحدها؟ بل أخطب الجن والإنس. قال: كذلك أنت.

■ سعد بن أبي وقاص واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، أبو إسحاق القرشي الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، أسلم قديما، قالوا: وكان يوم أسلم عمره سبع عشرة سنة.

وثبت عنه في الصحيح [خ: (٣٧٢٧)] أنه قال: ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام.

وهو الذي كوّف الكوفة ونفى عنها الأعاجم، وكان مجاب الدعوة، وهاجر وشهد بدرا وما بعدها، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله،

وكان فارساً شجاعاً من أمراء رسول الله ﷺ، وكان في أيام الصديق معظماً جليل القَدْر، وكذلك في أيام عمر، وقد استنابه على الكوفة، وهو الذي فتح المدائن، وكانت بين يديه وقعة جلولاء. وكان سيداً مطاعاً، وعزله عمر عن الكوفة عن غير عجز ولا خيانة، ولكن لمصلحة ظهرت لعمر في ذلك. وقد ذكره في الستة أصحاب الشورى، ثم ولاه عثمان الكوفة بعدها ثم عزله عنها.

وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: شهد سعد بن أبي وقاص وابن عمر دومة الجندل يوم الحكمين.

وثبت في صحيح مسلم [(٢٩٦٥) بنحوه] أن ابنه عمر جاء إليه وهو معتزل في إبله فقال: الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا؟ فقال: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد الغني الخفي التقي».

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٧/٢٠] : ذكر بعض أهل العلم أن ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص جاءه فقال له: يا عم هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر فقال: أريد من مائة ألف سيفا واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع. وقال عبدالرزاق [المصنف (٤٣٥١)] عن ابن جريج حدثني زكريا بن عمرو أن سعد بن أبي وقاص وفد على معاوية فأقام عنده شهر رمضان يقصر الصلاة ويفطر.

وقال غيره: فبايعه وما سأله سعد شيئا إلا أعطاه إياه.

قال أبو يعلى: حدثنا زهير حدثنا إسماعيل بن علية عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم. قال: قال سعد: إني لأول رجل رمى بسهم في المشركين، وما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد قبلي، ولقد سمعته يقول: «ارم فداك أبي وأمي».

وقال أحمد [١٨٦/١]: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا إسماعيل عن قيس سمعت سعد بن مالك يقول: والله إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر، حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الدين، لقد خبت إذاً وضل عملي.

وقد رواه شعبة ووكيع وغير واحد عن إسماعيل بن أبي خالد به [خ (٣٧٢٨)، م (٢٩٦٦)].

وقال أحمد [١٨٠/١]: حدثنا ابن سعيد عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن سعد. قال: جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد.

ورواه أحمد [١٧٤/١] أيضاً عن غندر عن شعبة عن يحيى بن سعيد الأنصاري.

وقد رواه الليث وغير واحد عن يحيى بن سعيد الأنصاري [خ (٤٠٥٧)، م (٢٤١٢)].

ورواه غير واحد عن سعيد بن المسيب عن سعد [خ (٣٧٢٥)، م (٢٤١٢)].

ورواه الناس من حديث عامر بن سعد عن أبيه [م(٢٤١٢)، س كبرى (١٠٠٣١، ١٠٠٣٢)].

وفي بعض الروايات «فداك أبي وأمي» [خ (٤٠٥٥)، م (٢٤١١، ٢٤١٢)].

وفي رواية: «فقال: ارم وأنت الغلام الحزور» [ت (٢٨٢٩، ٣٧٥٣)] قال سعيد: وكان سعد جيد الرمي.

وقال الأعمش عن أبي خالد عن جابر بن سمرة. قال: أول الناس رمى بسهم في سبيل الله سعد رضي الله عنه.

وقال أحمد [١٢٤/١]: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الله بن شداد سمعت عليا يقول: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحداً بأبويه إلا سعد بن مالك، وإني سمعته يقول له يوم أحد: «ارم سعد فداك أمي وأبي».

ورواه البخاري [٤٠٥٨] عن أبي نعيم عن مسعر عن سعد بن إبراهيم به.

ورواه شعبة عن سعد بن إبراهيم [م (٢٤١١)] ورواه سفيان بن عيينة وغير واحد عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب فذكره [ت (٢٨٢٩، ٢٧٥٣)].

وقال عبد الرزاق [المصنف (٢٠٤١٩)]: أنا معمر عن أيوب أنه سمع عائشة بنت سعد تقول: أنا ابنة المهاجر الذي فداه رسول الله ﷺ يوم أحد بالأبوين.

وقال الواقدي [المغازي: ٢٣٤/١] حدثتني عبيدة بنت نابل عن عائشة بنت سعد عن أبيها. قال: «لقد رأيتني أرمي بالسهم يوم أحد فيرده على رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد، فظننت أنه ملك».

وقال أحمد [١٧١/١]: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي حدثنا إبراهيم عن سعد عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص. وقال: لقد رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد».

ورواه الواقدي [المغازي: ٧٨/١]: حدثني أبو إسحاق بن أبي عبد الله عن عبد الواحد ابن أبي عون - عن زياد مولى سعد عن سعد. قال: «رأيت رجلين يوم بدر يقاتلان عن رسول الله ﷺ أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإني لأراه ينظر إلى ذا مرة وإلى ذا مرة سروراً بما ظفره الله عز وجل».

وقال سفيان عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود. قال: اشتركت أنا وسعد وعمار يوم بدر فيما أصبنا من الغنيمة، فجاء سعد بأسيرين ولم أجئ أنا وعمار بشيء.

وقال الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود. قال: لقد رأيت سعد بن أبي وقاص يوم بدر يقاتل قتال الفارس للراجل.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد أنه سمع عبد الله بن عامر بن ربيعة يقول قالت عائشة بات رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقاً ذات ليلة ثم قال: «ليت رجلا صالحا يحرسني الليلة» قالت: إذ سمعنا صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» قال: أنا سعد بن أبي وقاص، أنا أحرسك يا رسول الله، قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه.

أخرجاه [خ (٢٨٨٥)، م (٢٤١٠)] من حديث يحيى بن سعيد.

وفي رواية "فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام [ت (٣٧٥٦)]"

وقال أحمد [٢٢٢/٢]: حدثنا قتيبة حدثنا رشدين بن سعد عن الحجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فدخل سعد بن أبي وقاص.

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الله بن قيس الرقاشي الخزاز، بصري، حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر. قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال: «يدخل عليكم من ذا الباب رجل من

أهل الجنة، قال: فليس منا أحد إلا وهو يتمنى أن يكون من أهل بيته، فإذا سعد بن أبي وقاص قد طلع.

وقال حرملة عن ابن وهب أخبرني حيوة أخبرني عقيل عن ابن شهاب حدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك. قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فاطلع سعد بن أبي وقاص، حتى إذا كان الغد قال رسول الله صلى ا لله عليه وسلم مثل ذلك، قال: فاطلع سعد بن أبي وقاص على ترتيبه الأول، حتى إذا كان الغد قال رسول الله صلى ا لله عليه وسلم مثل ذلك، قال: فطلع على ترتيبه، فلما قام رسول الله ﷺ ثار عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: إني غاضبت أبي فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تنحل يميني فعلت، قال أنس: فزعم عبد الله بن عمرو أنه بات معه ليلة حتى إذا كان الفجر فلم يقم تلك الليلة شيئا، غير أنه كان إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبره حتى يقوم مع الفجر، فإذا صلى المكتوبة أسبغ الوضوء وأتمه ثم يصبح مفطرا، قال عبد الله بن عمرو: فرمقته ثلاث ليال وأيامهن لا يزيد على ذلك، غير أني لا أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله، قلت: إنه لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله صلى ا لله عليه وسلم قال ذلك قبلُ ثلاث مرات في ثلاثة مجالس: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» فاطلعت أنت أولئك المرات الثلاث، فأردت أن آوي إليك حتى أنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك تعمل كثير عمل، ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا الذي رأيت. قال: فلما رأيت ذلك انصرفت عنه فدعاني حين وليت، فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي سوءاً لأحد من المسلمين، ولا أنوي له شراً ولا أقوله. قال: هذه التي بلغت بك وهي التي لا أطيق.

وهكذا رواه صالح المري عن عمرو بن دينار - مولى آل الزبير - عن سالم عن أبيه فذكر مثل رواية أنس بن مالك.

وثبت في صحيح مسلم [٢٤١٣] من طريق سفيان الثوري عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد في قوله تعالى: ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ والعَشيِ يُريدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] نزلت في ستة، أنا وابن مسعود منهم.

وفي رواية أنزل الله فيّ ﴿وإنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [العنكبوت: ٨] وذلك أنه لما أسلم امتنعت أمه من الطعام والشراب أياما، فقال لها: تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي. فنزلت هذه الآية [تاريخ دمشق: ٢٠/٢٣١].

وأما حديث الشهادة للعشرة بالجنة فثبت في الصحيح [د (٤٦٤٩)] من حديث سعيد بن زيد.

وجاء من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة في قصة حراء ذكر سعد بن أبي وقاص منهم [م (٢٤١٧)].

وقال هشيم وغير واحد عن مجالد عن الشعبي عن جابر. قال: كنا مع رسول الله صلى ا لله عليه وسلم فأقبل سعد فقال رسول الله ﷺ: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله». رواه الترمذي [٣٧٥٢].

وقال الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا عبد الوهاب بن الضحاك حدثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن ماعز التميمي عن جابر. قال كنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل سعد فقال: «هذا خالي».

وثبت في الصحيحين [خ (٥٦)، م (١٦٢٨)] من حديث مالك وغيره عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه: أن رسول الله صلى ا لله عليه وسلم جاءه يعوده عام حجة الوداع من وجع اشتد به فقلت: يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»! قلت: فالشطر يا رسول الله؟ قال: «لا»! قلت: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في امرأتك».

وفي رواية [خ (٦٧٣٣)، ت (٢١١٦)]: «حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك» قلت: يا رسول الله أخلف بعد أصحابي؟ فقال: «إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون». ثم قال: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة» يرثي له رسول الله صلى ا لله عليه وسلم أن مات بمكة.

ورواه أحمد [١٧١/١] عن يحيى بن سعيد عن الجعد بن أوس عن عائشة بنت سعد عن أبيها فذكر نحوه، وفيه قال: فوضع يده على جبهته فمسح وجهه وصدره وبطنه وقال: «اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته». قال سعد: فما زلت يخيل إلي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة.

وقال ابن وهب: حدثني موسى بن علي بن رباح عن أبيه أن رسول الله ﷺ عاد سعداً فقال: «اللهم أذهب عنه الباس، إله الناس، ملك الناس، أنت الشافي لا شافي له إلا أنت، بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من حسد وعين، اللهم أصح قلبه وجسمه، واكشف سقمه وأجب دعوته».

وقال ابن وهب: أخبرني عمرو عن بكير بن الأشج قال: سألت عامر بن سعد عن قول رسول الله صلى ا لله عليه وسلم لسعد: «وعسى أن تبقى حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون» فقال: أُمّر سعد على العراق فقتل قوما على الردة فضرهم، واستتاب قوماً كانوا سجعوا سجع مسيلمة الكذاب فتابوا فانتفعوا به.

وقال الإمام أحمد [٢٦٧/٥]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا مُعَان بن رفاعة حدثني علي بن يزيد عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة. قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال: يا ليتني مت، فقال رسول الله ﷺ: «يا سعد، أعندي تتمنى الموت!» فردّد ذلك ثلاث مرات ثم قال: «يا سعد إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك».

وقال موسى بن عقبة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن سعد. أن رسول الله ﷺ قال. «اللهم سدد رميته وأجب دعوته».

ورواه بيان بن بشر عن قيس عن أبي بكر الصديق. قال: سمعت رسول الله صلى ا لله عليه وسلم يقول لسعد: «اللهم سدد سهمه وأجب دعوته، وحببه إلى عبادك».

وروى من حديث ابن عباس. وفي رواية محمد بن عائد الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم بن المقدام وغيره أن سعدا قال: يا رسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي فقال: «إنّ الله لا يستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه» فقال: يا رسول الله ادع الله أن يطيب مطعمي فدعا له. قالوا: فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث

أخذت.

وقد كان كذلك مجاب الدعوة لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجيب له، فمن أشهر ذلك ما ثبت في الصحيحين [خ (٧٥٥)، م (٤٥٣)] من طريق عبد الملك بن عمير عن جابر بن سَمُرة أن أهل الكوفة شكوا سعداً إلى عمر في كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلي، فقال سعد: أما إني لا آلو أن أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أطيل الأوليين وأحذف في الأخريين، فقال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، وكان قد بعث من يسأل عنه بمحال الكوفة، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيراً، حتى مروا بمسجد لبني عبس فقام رجل منهم يقال له أبو سعدة أسامة بن قتادة فقال: إن سعداً كان لا يسير في السرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، فبلغ سعداً قوله فقال: اللّهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطل عمره وأدم فقره، وعرضه للفتن، قال: فأنا رأيته بعد ذلك شيخا كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه يقف في الطريق فيغمز الجواري فيقال له في ذلك، فيقول: شيخ مفتون أصابته دعوة سعد.

وفي رواية غريبة أنه أدرك فتنة المختار بن أبي عبيد فقتل فيها [تاريخ دمشق: ٢٠/٣٤٢، ٣٤٣].

وقال الطبراني [المعجم الكبير: ١/١٠٢، ١٠٣]: حدثنا يوسف القاضي حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم عن سعيد بن المسيب. قال: خرجت جارية لسعد يقال لها زبراء، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح فشد عليها عمر بالدرة، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدرة وقال: اقتصَّ مني. فعفا عن عمر.

وروى [المعجم الكبير: ١/١٠١] أيضا أنه كان بين سعد وابن مسعود كلام فهمَّ سعد أن يدعو عليه فخاف ابن مسعود وجعل يشتد في الهرب.

وقال سفيان بن عيينه: لما كان يوم القادسية كان سعد على الناس وقد أصابته جراح فلم يشهد يوم الفتح، يعني فتح القادسية، فقال رجل من بجيلة:

ألم تـر أن اللـه أظهـرَ دينـهُ ... وسعدٌ ببـابِ القادسـيةِ مُعْصَـمُ
فأُبنا وقـد آمـتْ نسـاءٌ كثيـرة ... ونسـوةُ سعد ليـسَ فيهـنَّ أيِّـمُ

فقال سعد: اللّهم اكفنا يده ولسانه. فجاءه سهم غرب فأصابه فخرس ويبست يداه جميعا.

وقد أسند زياد البكائي وسيف بن عمر عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر عن ابن عمر فذكر مثله، وفيه: ثم خرج سعد فأرى الناس ما به من القروح في ظهره ليُعذر إليهم.

وقال هشيم عن أبي بلج عن مصعب بن سعد أن رجلا نال من علي فنهاه سعد فلم ينته، فقال سعد: أدعو عليك. فلم ينته، فدعا الله عليه فما برح حتى جاء بعير ناد فتخبطه.

وجاء من وجه آخر عن عامر بن سعد أن سعداً رأى جماعة عكوفاً على رجل فأدخل رأسه من بين اثنين فإذا هو يسب عليا وطلحة والزبير، فنهاه عن ذلك فلم ينته، فقال: أدعو عليك، فقال الرجل: تتهددني كأنك نبي! فانصرف سعد فدخل دار آل فلان فتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه فقال: اللّهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواماً قد سبق لهم منك سابقة الحسنى، وأنه قد أسخطك سبه إياهم، فاجعله اليوم آية وعبرة. قال: فخرجت بختية نادة من دار آل فلان لا يردها شيء حتى دخلت بين أضعاف الناس، فافترق الناس فأخذته بين قوائمها، فلم تزل تتخبطه حتى مات. قال: فلقد رأيت الناس يشتدون وراء سعد يقولون: استجاب الله دعاءك يا أبا إسحاق.

ورواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب فذكر نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا [مجابو الدعوة (٣٤)]: حدثني الحسن بن داود بن محمد بن المنكدر القرشي حدثنا عبد الرزاق عن أبيه عن مينا مولى عبد الرحمن بن عوف أن امرأة كانت تطّلع على سعد فنهاها فلم تنته، فاطلعت يوما وهو يتوضأ فقال: شاه وجهك، فعاد وجهها في قفاها.

وقال كثير النَّوَّاء: عن عبد الله بن مُليل قال: دخل سعد على معاوية فقال له: ما لك لم تقاتل معنا؟ فقال: إني مرت بي ريح مظلمة فقلت: أخ أخ. فأنخت راحلتي حتى انجلت عني ثم عرفت الطريق فسرت، فقال معاوية: ليس في كتاب الله: أخ أخ. ولكن قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[الحجرات: ٩] فوالله ما كنت مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية. فقال سعد: ما كنت لأقاتل رجلا قال له رسول الله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي». فقال معاوية: من سمع هذا معك؟ فقال: فلان وفلان وأم سلمة. فقال معاوية: أما إني لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت عليا.

وفي رواية من وجه آخر: أن هذا الكلام كان بينهما وهما بالمدينة في حجة حجها معاوية، وأنهما قاما إلى أم سلمة فسألاها فحدثتهما بما حدث به سعد، فقال معاوية: لو سمعت هذا قبل هذا اليوم لكنت خادما لعلي حتى يموت أو أموت.

وفي إسناد هذا ضعف والله أعلم.

وقد روي عن سعد أنه سمع رجلا يتكلم في علي وفي خالد فقال: إنه لم يبلغ ما بيننا ديننا.

وقال محمد بن سيرين: طاف سعد على تسع جوار في ليلة فلما انتهى إلى العاشرة أخذه النوم فاستحيت أن توقظه.

ومن كلامه الحسن أنه قال لابنه مصعب: يا بني إذا طلبت شيئا فاطلبه بالقناعة، فانه من لا قناعة له لم يغنه المال.

وقال حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد. قال: كان رأس أبي في حجري وهو يقضي فبكيت، فقال: ما يبكيك يا بني؟ والله إن الله لا يعذبني أبداً، وإني من أهل الجنة. إن الله يدين للمؤمنين بحسناتهم فاعملوا لله، وأما الكفار فيخفّف عنهم بحسناتهم، فإذا نفدت قال: ليطلب كل عامل ثواب عمله ممن عمل له.

وقال الزهري: لما حضرت سعداً الوفاة دعا بخَلَق جُبَّة فقال: كفنوني فيها فإني لقيت فيها المشركين يوم بدر، وإنما كنت أُخبِّؤها لهذا اليوم.

وكانت وفاة سعد بالعقيق خارج المدينة، فحمل إلى المدينة على أعناق الرجال فصلى عليه مروان، وصلى بصلاته أمهات المؤمنين الباقيات الصالحات، ودفن بالبقيع. وكان ذلك في هذه السنة - سنة خمس وخمسين - على المشهور الذي عليه الأكثرون، وقد جاوز الثمانين على الصحيح.

قال علي بن المديني: وهو آخر العشرة وفاة. وقال غيره: كان آخر المهاجرين وفاة رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وقال الهيثم بن عدي: سنة خمسين، وقال أبو معشر وأبو نعيم وقَعْنَب بن المحرر: توفي سعد سنة ثمان وخمسين، وقال قَعْنَب: وفيها توفي الحسن

بن علي وعائشة وأم سلمة. والصحيح الأول ـ خمس وخمسين.

قالوا: وكان سعد قصيراً غليظا شثن الأصابع أفطس أشعر الجسد، يخضب بالسواد، وكان ميراثه مائتي ألف وخمسين ألفاً.

■ **فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي** أول مشاهده أحد وشهد بيعة الرضوان، ودخل الشام، وتولى القضاء بدمشق في أيام معاوية بعد أبي الدرداء.

قال أبو عبيد: مات سنة ثلاث وخمسين. وقال غيره: سنة سبع وستين.

وقال ابن الجوزي في المنتظم [٢٨٣/٥]: توفي في هذه السنة والله أعلم.

■ **قثم بن العباس بن عبد المطلب:** كان أشبه الناس برسول الله ﷺ، تولى نيابة المدينة في أيام علي، وشهد فتح سمرقند مما وراء النهر فاستشهد بها.

■ **كعب بن عمرو أبو اليسر الأنصاري السلمي،** شهد العقبة وبدراً، وأسر يومئذ العباس بن عبد المطلب، وشهد ما بعد ذلك من المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

قال أبوحاتم وغيره: مات سنة خمس وخمسين. زاد غيره: وهو آخر من مات من أهل بدر.

ثم دخلت سنة ستّ وخمسين

وذلك في أيام معاوية، ففيها شتى جنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وقيل عبد الرحمن بن مسعود.

وقيل فيها غزا في البحر يزيد بن شجرة، وفي البر عياض بن الحارث.

وفيها اعتمر معاوية في رجب، وحج بالناس فيها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وفيها ولى معاوية سعيد بن عثمان بلاد خراسان، وعزل عنها عبيد الله بن زياد، فسار سعيد إلى خراسان والتقى مع الترك عند صُغْد سمرقند، فقتل منهم خلقا كثيراً، واستشهد يومئذ جماعة منهم فيما قيل قثم بن العباس بن عبد المطلب.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٠٤/٥ - ٣٠٦]: سأل سعيد بن عثمان بن عفان معاوية أن يوليه خراسان فقال: إن بها عبيد الله بن زياد، فقال سعيد لمعاوية: أما والله لقد اصطنعك أبي ورقاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا يسامى فما شكرت بلاءه ولا جازيته بآلائه، وقدمت عليَّ هذا ـ يعني يزيد بن معاوية ـ وبايعت له، ووالله لأنا خير منه أبا وأما ونفسا. فقال له معاوية: أما بلاء أبيك عندي فقد يحق علي الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشفت الأمور، ولست بلائم لنفسي في التشمير، وأما فضل أبيك على أبيه، فأبوك والله خير مني وأقرب برسول الله ﷺ، وأما فضل أمك على أمه فما لا ينكر، فإن امرأة من قريش خير من امرأة من كلب، وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة دحست ليزيد رجالا مثلك ـ يعني أن الغوطة لو ملئت رجالا مثل سعيد بن عثمان كان يزيد خيراً وأحب إلي منهم. فقال له يزيد: يا أمير المؤمنين ابن عمك وأنت أحق من نظر في أمره، وقد عتب عليك فيَّ فأعتبه.

قال: فولاه خراسان، فأتى سمرقند فخرج إليه أهل الصغد من الترك فقاتلهم وهزمهم وحصرهم في مدينتهم، فصالحوه وأعطوه رهنا خمسين غلاما يكونون في يده من أبناء عظمائهم، فأقام بالترمذ ولم يف لهم، وجاء بالغلمان الرهن معه إلى المدينة.

وفيها دعا معاوية الناس إلى البيعة ليزيد ولده أن يكون ولي عهده من بعده، ـ وكان قد عزم قبل ذلك على هذا في حياة المغيرة بن شعبة.

فروى ابن جرير [تاريخه: ٣٠١/٥-٣٠٤] من طريق الشعبي أن المغيرة كان قد قدم على معاوية واستعفاه من إمرة الكوفة فأعفاه لكبره وضعفه، وعزم على توليتها سعيد بن العاص، فلما بلغ ذلك المغيرة كأنه ندم، فجاء إلى يزيد بن معاوية فأشار عليه بأن يسأل من أبيه أن يكون ولي العهد من بعده، فسأل ذلك يزيد من أبيه فقال: من أمرك بهذا؟ قال: المغيرة، فأعجب ذلك معاوية من المغيرة ورده إلى عمل الكوفة، وأمره أن يسعى في ذلك، فعند ذلك سعى المغيرة في توطيد ذلك، وكتب معاوية إلى زياد يستشيره في ذلك، فكره زياد ذلك لما يعلم من لعب يزيد وإقباله على اللعب والصيد، فبعث زياد إليه من يثني رأيه عن ذلك، وهو عبيد بن كعب النميري ـ وكان صاحباً أكيداً لزياد ـ فسار إلى دمشق فاجتمع بيزيد أولا، فكلمه عن زياد وأشار عليه بأن لا يطلب ذلك، فإنَّ تركه خير له من السعي فيه، فانزجر يزيد عما يريد من ذلك، واجتمع بأبيه واتفقا على ترك ذلك في هذا الوقت.

فلما مات زياد وكانت هذه السنة، شرع معاوية في نظم ذلك والدعاء إليها، وعقد البيعة لولده يزيد، وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس في سائر الأقاليم، إلا عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وابن عباس، فركب معاوية إلى مكة معتمرا، فلما اجتاز بالمدينة ـ مرجعه من مكة ـ استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة فأوعده وتهدده بانفراده، فكان من أشدهم عليه ردا وأجلدهم في الكلام، عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان ألينهم كلاما عبد الله بن عمر بن الخطاب، ثم خطب معاوية وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد وهم قعود ولم يوافقوا ولم يظهروا خلافا، لما تهددهم وتوعدهم، فاتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد، وقدمت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد، فكان فيمن قدم الأحنف بن قيس، فأمره معاوية أن يحادث يزيد، فجلسا ثم خرج الأحنف فقال له معاوية: ماذا رأيت من ابن أخيك؟ فقال: إنا نخاف الله كذبنا ونخافكم إن صدقنا، وأنت أعلم به في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، وأنت أعلم به بما أردت، وإنما علينا أن نسمع ونطيع، وعليك أن تنصح للأمة.

وقد كان معاوية لما صالح الحسن بن علي عَهِدَ للحسن بالأمر من بعده فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهلٌ، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان يظنُّ لا يقوم أحد من أبناء في الملك مقامه، ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع، فقال له ابن عمر: إذا بايعه الناس كلهم بايعته ولوكان عبداً حبشياً مجدع الأطراف.

وقد عاتب معاوية في ولايته يزيد، سعيدُ بن عثمان بن عفان وطلب منه أن يوليه مكانه فقال له: والله لو ملئت الغوطة رجالا مثلك لكان يزيد أحب إلي منكم كلكم.

وروينا عن معاوية أنه قال يوما في خطبته: اللّهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته، وإن كنت تعلم أني إنما

وليته لأني أحبه فلا تتمم له ما وليته.

وذكر الحافظ ابن عساكر أن معاوية كان قد سمر ليلة فتكلم أصحابه في المرأة التي يكون ولدها نجيباً، فذكروا صفة المرأة التي يكون ولدها نجيباً فقال معاوية: وددت لو عرِفت بامرأة تكون بهذه المثابة؟ فقال أحد جلسائه: قد وجدت ذلك يا أمير المؤمنين. قال: ومن؟ قال: ابنتي يا أمير المؤمنين. فتزوجها معاوية فولدت له يزيد بن معاوية فجاء نجيباً ذكياً حاذقاً. ثم خطب امرأة أخرى فحظيت عنده وولدت له غلاما آخر، وهجر أم يزيد فكانت عنده في جنب داره فبينما هو في النظارة ومعه امرأته الأخرى، إذ نظر إلى أم يزيد وهي تسرحه، فقالت امرأته: قبحها الله وقبح ما تسرح. فقال: ولم؟ فوالله إن ولدها لأنجب من ولدك. وإن أحببت بينت لك ذلك. ثم استدعى ولدها فقال له: إن أمير المؤمنين قد عن له أن يطلق لك ما تتمناه عليه فاطلب مني ما شئت. فقال: أسأل من أمير المؤمنين أن يطلق لي كلابا للصيد وخيلا، ورجالا يكونون معي في الصيد. فقال: قد أمرنا لك بذلك، ثم استدعى يزيد فقال له كما قال لأخيه، فقال يزيد: أو يعفيني أمير المؤمنين في هذا الوقت عن هذا؟ فقال: لا بد لك أن تسأل حاجتك، فقال: أسأل - وأطال الله عمر أمير المؤمنين - أن أكون ولي عهده من بعده، فإنه بلغني أن عدل يوم في الرعية كعبادة خمسمائة عام. فقال: قد أجبتك إلى ذلك، ثم قال لامرأته: كيف رأيت؟ فعلمت وتحققت فضل يزيد على ولدها.

وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٢٨٨/٥] في هذه السنة وفاة أم حرام بنت ملحان الأنصارية امرأة عبادة بن الصامت، والصحيح الذي لم يذكر العلماء غيره أنها توفيت سنة سبع وعشرين، في خلافة عثمان، وكانت هي وزوجها مع معاوية حين دخل قبرص، وَقَصَتْها بغلتها فماتت هناك وقبرها بقبرص، والعجب أن ابن الجوزي أورد في ترجمتها حديثها المخرج في الصحيحين [خ (٢٧٧٨، ٢٧٧٩)، م (١٩١٢)] في قيلولة النبي ﷺ في بيتها، ورؤياه في منامه قوماً من أمته يركبون ثبج البحر مثل الملوك على الأسرة غزاة في سبيل الله، وأنها سألته أن يدعو لها أن تكون منهم فدعا لها، ثم نام فرأى كذلك، فقالت: ادعوا الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت من الأولين». وهم الذين فتحوا قبرص فكانت معهم، وذلك في سنة سبع وعشرين، ولم تكن من الآخرين الذين غزوا بلاد الروم سنة إحدى وخمسين مع يزيد بن معاوية ومعهم أبو أيوب، وقد توفي هناك فقبره قريب من سور قسطنطينية، وقد ذكرنا هذا مقرَّراً في دلائل النبوة.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين

فيها كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض الروم.

قال الواقدي: وفي شوالها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة، وولى عليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة، لأنه صارت إليه إمرة المدينة، وكان على الكوفة الضحاك بن قيس، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى خراسان سعيد بن عثمان.

قال ابن الجوزي [المنتظم: ٢٨٩/٥]: وفيها توفي عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسي، وهو أخو عبادة وسهل ابني حنيف، بعثه عمر لمساحة خراج السواد بالعراق، واستنابه عمر على الكوفة، فلما قدم طلحة والزبير صحبة عائشة وامتنع من تسليم دار الإمارة، نتفت لحيته وحواجبه وأشفار عينيه ومثل به، فلما جاء علي وسلمه البلد قال له: يا أمير المؤمنين فارقتك ذا لحية واجتمعت بك أمرد، فتبسم علي رضي الله عنه وقال: لك أجر ذلك عند الله.

وله في المسند [١٣٨/٤] والسنن [ت (٣٥٧٨)، س (كبرى) (١٠٤٩٥)، ج (١٣٨٥)] حديث الأعمى الذي سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له ليرد الله عليه ضوء بصره فرده الله عليه.

وله حديث آخر عند النسائي [كبرى (٩٧٦٥)] ولم أر أحداً أرخ وفاته بهذه السنة سوى ابن الجوزي والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين

فيها غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم.

قال الواقدي: وفيها قُتل يزيد بن شجرة في البحر، وقيل: بل غزا البحر وبلاد الروم جنادة بن أبي أمية، وقيل: إنما شتى بأرض الروم عمرو بن يزيد الجهني.

قال أبو معشر والواقدي: وحج بالناس فيها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وفيها ولى معاوية الكوفة لعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم، وأم الحكم هي أخت معاوية، وعزل عنها الضحاك بن قيس، فولى ابن أم الحكم على شرطته زائدة بن قدامة، وخرجت الخوارج في أيام ابن أم الحكم، وكان رئيسهم في هذه الوقعه حيان بن ظبيان السلمي، فبعث إليهم جيشا فقتلوا الخوارج جميعاً، ثم إن ابن أم الحكم أساء السيرة في أهل الكوفة فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً، فرجع إلى خاله معاوية فذكر له ذلك، فقال: لأولينك مصراً هو خير لك. فولاه مصر، فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حُديج على مرحلتين من مصر، فقال له: ارجع إلى خالك معاوية، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة. فرجع ابن أم الحكم إلى معاوية ولحقه معاوية بن حُديج وافداً على معاوية، فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم الحكم، وهي أم عبد الرحمن الذي طرده أهل الكوفة وأهل مصر، فلما رآه معاوية بن حُديج قال: بخ بخ، هذا معاوية بن حديج، فقالت أم الحكم: لا مرحبا به، تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال معاوية بن حديج: على رسلك يا أم الحكم، أما والله لقد تزوجت فما أكرمت، وولدت فما أنجبت، أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، فما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطاطئ منه وإن كره ذلك الجالس - يعني معاوية - فالتفت إليها معاوية فقال: كُفّي.

قصة غريبة

ذكرها ابن الجوزي في كتابه المنتظم [٢٩٢/٥-٢٩٥] بسنده، وملخصها أن معاوية بينما هو يوما على السماط إذا شاب من بني عذرة قد مَثُل بين يديه فأنشده شعراً مضمونه التشوق إلى زوجته سعاد، فاستدناه معاوية واستحكاه عن أمره، فقال: يا أمير المؤمنين إني كنت مزوجاً بابنة عم لي، وكان لي إبل وغنم، فأنفقت ذلك عليها، فلما قل ما بيدي رغب عني أبوها وشكاني إلى عاملك بالكوفة، ابن أم الحكم، وبلغه جمالها فحبسني في الحديد وحملني على أن أطلقها، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم فزوجه إياها، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين وأنت غياث المحروب، وسند

المسلوب، فهل من فرج؟ ثم بكى وأنشأ يقول:

في القلبِ مني نارٌ والنار فيها شرارُ
والجسمُ مني نحيلٌ واللونُ فيه اصفرارُ
والعينُ تبكي بشجوٍ فدمعها مدرارُ
والحبُّ داءٌ عسيرٌ فيه الطبيبُ يحارُ
حملتُ فيهِ عظيماً فما عليهِ اصطبارُ
فليسَ ليلي بليلٍ ولا نهاري نهارُ

قال: فرقَّ له معاوية وكتب إلى ابن أم الحكم يؤنبه على ذلك ويعيبه عليه، ويأمره بطلاقها قولاً واحداً، فلما جاءه كتاب معاوية تنفس الصعداء، وقال: وددت أن أمير المؤمنين خلى بيني وبينها سنة ثم عرضني على السيف، وجعل يؤامر نفسه على طلاقها فلا يقدر على ذلك ولا تجيبه نفسه، وجعل البريد الذي ورد عليه بالكتاب يستحثه، فطلقها وأخرجها عنه وسيرها مع الوفد إلى معاوية، فلما وقفت بين يديه رأى منظراً جميلاً، فلما استنطقها فإذا هي أفصح الناس وأحلاهم كلاماً، وأكملهم جمالاً ودلالاً، فقال لابن عمها: يا أعرابي هل من سُلُوّ عنها بأفضل الرغبة؟ قال: نعم إذا فرقت بين رأسي وجسدي ثم أنشأ يقول: ـ

لا تجعَلَنّي والأمثالُ تضربُ بي كالمستغيثِ من الرمضاءِ بالنارِ
اردد سعادَ على حيرانَ مكتئبٍ يمسي ويصبحُ في همٍ وتذكارِ
قد شفَّهُ قلقٌ ما مثلهُ قلقٌ وأسعرَ القلبُ منهُ أي إسعارِ
واللّهِ واللّهِ لا أنسى محبتها حتى أُغيّبَ في رمسٍ وأحجارِ
كيف السلوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبحَ القلبُ عنها غيرَ صبارِ

فقال معاوية: فإنا نخيرها بيني وبينك وبين ابن أم الحكم فأنشأت تقول: ـ

هذا وإن أصبحَ في أطمارِ وكانَ في نقصٍ من اليسارِ
أكثر عندي من أبي وجاري وصاحبِ الدرهمِ والدينارِ
أخشى إذا غدرتُ حرَّ النارِ

قال: فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ومركب ووطاء، ولما انقضت عدتها زوجه بها وسلمها إليه. حذفنا منها أشعاراً كثيرة مطولة.

وجرت في هذه السنة فصول طويلة بين عبيد الله بن زياد والخوارج، فقتل منهم خلقا كثيراً وجماً غفيراً، وحبس منهم آخرين، وكان صارماً كأبيه مقداماً في أمرهم.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

توفي في هذا العام:

■ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، قتل أبوه يوم بدر كافرا، قتله علي بن أبي طالب.

ونشأ سعيد في حجر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان عمر سعيد يوم مات رسول الله ﷺ تسع سنين، وكان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين، وكان جدّه سعيد بن العاص ـ ويكنى بأبي أحيحة ـ رئيساً في قريش، يقال له ذو التاج لأنه كان إذا اعتم لا يعتم أحد يومئذ إعظاما له.

وكان سعيد هذا من عمال عمر على السواد، وجعله عثمان فيمن يكتب المصاحف لفصاحته.

قالوا: وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ، وكان في جملة الاثني عشر رجلا، الذين يستخرجون القرآن ويعلمونه ويكتبونه، منهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

واستنابه عثمان على الكوفة بعد عزله الوليد بن عقبة، فافتتح طبرستان وجرجان، ونقض العهد أهل أذربيجان فغزاهم ففتحها، فلما مات عثمان اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقرّ الأمر لمعاوية وفد إليه فعتب عليه فاعتذر إليه فعذره في كلام طويل جداً، وولاه المدينة مرتين، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم، وكان سعيد هذا لا يسبُّ علياً، ومروان يسبّه، وروى عن النبي ﷺ، وعن عمر بن الخطاب، وعثمان، وعائشة، وعنه ابناه عمرو بن سعيد الأشدق ويحيى بن سعيد وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير وغيرهم، وليس له في المسند ولا في الكتب الستة شيء.

وقد كان حسن السيرة، جيد السريرة، وكان كثيراً ما يجمع أصحابه في كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحلل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير، وكانَ يصر الصرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢١/١٠٧، ١٠٨]: وقد كانت له دار بدمشق تعرف بعده بدار نعيم، وحمام نعيم، بنواحي الديماس، ثم رجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات، وكان كريما جواداً ممدحاً.

ثم أورد شيئاً من حديثه من طريق يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو سعيد الجعفي حدثنا عبد الله بن الأجلح حدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن سعيد بن العاص قال: إن رسول الله ﷺ قال: «خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية» [تاريخ دمشق: ٢١/١٠٨]

ومن طريق الزبير بن بكار: حدثني رجل عن عبد العزيز بن أبان حدثني خالد بن سعيد عن أبيه عن ابن عمر قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببرد، فقالت: إني نويت أن أعطي هذا الثوب أكرم العرب، فقال: «أعطه هذا الغلام» ـ يعني سعيد بن العاص ـ وهو واقف، فلذلك سميت الثياب السعيدية وأنشد الفرزدق قوله فيه:

ترى الغُرَّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الخطبُ في الحدثان عالا
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يرونَ بهِ هلالا

وذكر أن عثمان عزل عن الكوفة المغيرة وولاها سعد بن أبي وقاص، ثم عزله وولاها الوليد بن عقبة، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، فأقام بها حينا، ولم تحمد سيرته فيهم ولم يحبوه، ثم ركب مالك بن الحارث ـ وهو الأشتر النخعي ـ في جماعة إلى عثمان وسألوه أن يعزل عنهم سعيداً فلم يعزله، وكان عنده بالمدينة فبعثه إليهم، وسبق الأشتر إلى الكوفة فخطب الناس وحثهم على منعه من الدخول إليهم، وركب الأشتر في جيش يمنعونه من الدخول، قيل: تلقوه إلى العذيب، ـ وقد نزل سعيد بالعُذيب ـ فمنعوه من الدخول إليهم، ولم يزالوا به حتى ردوه إلى عثمان، وولى الأشتر أبا موسى الأشعري على الصلاة والثغر وحذيفة بن اليمان على الفيء، فأجاز ذلك أهل الكوفة وبعثوا إلى عثمان في ذلك فأمضاه وسره ذلك فيما أظهره، ولكن هذا كان أول وهن دخل على عثمان.

وأقام سعيد بن العاص بالمدينة حتى كان زمن حصر عثمان فكان عنده

بالدار، ثم لما ركب طلحة والزبير مع عائشة من مكة يريدون قتلة عثمان ركب معهم، ثم انفرد عنهم هو والمغيرة بن شعبة وغيرهما، فأقام بالطائف حتى انقضت تلك الحروب كلها، ثم ولاه معاوية إمرة المدينة سنة تسع وأربعين، وعزل مروان فأقام سبعاً ثم رد مروان.

وقال عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر قال: بعثني زياد في شغل إلى معاوية، فلما فرغت من أموري قلت: يا أمير المؤمنين لمن يكون الأمر من بعدك؟ فسكت ساعة ثم قال: يكون بين جماعة، أما كريمة قريش سعيد بن العاص، وأما فتى قريش، حياء ودهاء وسخاء، فعبد الله بن عامر، وأما الحسن بن علي فرجل سيد كريم، وإما القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله، فمروان بن الحكم، وأما رجل رجل نفسه فعبد الله بن عمر، وأما رجل يَرِدُ الشريعة مع دواهي السباع ويروغ روغان الثعلب فعبد الله بن الزبير.

وروينا أنه استسقى يوما في بعض طرق المدينة، فأخرج له رجل من داره ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك الرجل يعرض داره للبيع فسأل عنه لم يبيع داره؟ فقالوا: عليه دين أربعة آلاف دينار، فبعث إلى غريمه فقال: هي لك علي، وأرسل إلى صاحب الدار فقال: استمتع بدارك.

وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة فقالت له امرأته: إن أميرنا هذا يوصف بكرم، فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء؟ فقال: ويحك! لا تخلقي وجهي فألحت عليه في ذلك، فجاء فجلس إليه، فلما انصرف الناس عنه مكث الرجل جالساً في مكانه، فقال له سعيد: أظن جلوسك لحاجة؟ فسكت الرجل، فقال سعيد لغلمانه: انصرفوا، ثم قال له سعيد: لم يبق غيري وغيرك، فسكت، فأطفأ المصباح ثم قال له: رحمك الله لست ترى وجهي فاذكر حاجتك، فقال: أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت، فقال له: إذا أصبحت فالقَ فلاناً وكيلي، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل: إن الأمير قد أمر لك بشيء فأت بمن يحمله معك، فقال: ما عندي من يحمله، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال: حملتيني على بذل وجهي للأمير، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله، وما أراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام، ولو كان مالا لما احتاج إلى من يحمله، ولأعطانيه، فقالت له المرأة: فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذه، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل: إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك، فذهب الرجل، فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فقال للغلمان: ضعوا ما معكم وانصرفوا، فقالوا: إن الأمير قد أطلقنا لك، فإنه ما بعث مع خادم هدية إلى أحدٍ إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها، قال: فحسن حال ذلك الرجل.

وذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٣٠/٢١] أن زياد بن أبي سفيان بعث إلى سعيد بن العاص بهدايا وأموال وكتاب ذكر فيه أنه يخطب إليه ابنته أم عثمان من أمة بنت جرير بن عبد الله البجلي، فلما وصلت الهدايا والأموال والكتاب قرأه، ثم فرّق الهدايا في جلسائه، ثم كتب إليه كتاباً لطيفاً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم! قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦] والسلام.

وروينا أن سعيدا خطب أم كلثوم بنت علي من فاطمة، التي كانت تحت عمر بن الخطاب، فأجابت إلى ذلك وشاورت أخويها فكرها ذلك، وفي رواية إنما كره ذلك الحسين وأجاب الحسن، فهيأت دارها ونصبت سريراً وتواعدوا للكتاب، وأمرت ابنها زيد بن عمر أن يزوجها منه، فبعث إليها بمائة ألف، وفي رواية: بمائتي ألف مهراً واجتمع عنده أصحابه ليذهبوا معه، فقال: إني أكره أن أحرج ابنَيْ فاطمة، فترك التزويج وأطلق جميع ذلك المال لها.

وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد: سأل أعرابي سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار، فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي، فقال له: ما لك؟ ألم تقبض نوالك؟ قال: بلى والله! ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك.

وقال عبد الحميد بن جعفر: جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل: له عليك بالحسن بن علي، أو عبد الله بن جعفر، أوسعيد بن العاص، أو عبيد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقيل: سعيد بن العاص، فقصده فذكر له ما أقدمه، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابي: ائت بمن يحمل معك؟ فقال: رحمك الله! إنما سألتك مالا لا تمراً، فقال: أعرف، ائت بمن يحمل معك؟ فأعطاه أربعين ألفاً فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره.

وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني أخزى لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أو جاءك مخاطراً لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته.

وقال سعيد: لجليسي علي ثلاث، إذا دنا رحبت به وإذ جلس أوسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه.

وقال أيضاً: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فتهون عليه، وفي رواية: فيجترئ عليك.

وخطب يوما فقال: من رزقه الله رزقا حسنا فليكن أسعد الناس به، إنما يتركه لأحد رجلين، إما مصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب أنت، والمصلح لا يقل عليه شيء، وإما مفسد فلا يبقى له شيء. فقال معاوية: جمع أبو عثمان طُرف الكلام.

وروى الأصمعي عن حكيم بن قيس. قال: قال سعيد بن العاص: موطنان لا استحي من رفقي فيهما والتأني عندهما، مخاطبتي جاهلا أو سفيها، وعند مسألتي حاجة لنفسي.

ودخلت عليه امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها، فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت المنة لك في أعناق الكرام، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لردها عليه.

وقد كان له عشرة من الولد ذكوراً وإناثا، وكانت إحدى زوجاته أم البنين بنت الحكم بن أبي العاص ـ أخت مروان بن الحكم.

ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه وقال لهم: لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يرد، فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم مِنّةً عليكم مما تعطونه. ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء، وأن يسودوا أكبرهم. فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما مات دفنه بالبقيع ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه

واسترجع معاوية وحزن عليه وقال: هل ترك من دين عليه؟ قال: نعم! قال: وكم؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم، وفي رواية: ثلاثه آلاف درهم، فقال معاوية: هي علي! فقال ابنه: يا أمير المؤمنين، إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه. فاشترى منه معاوية أراضي بمبلغ الدين، وسأل منه عمرو أن يحملها له إلى المدينة فحملها له، ثم شرع عمرو يقضي ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عشرون ألفا، فقال له عمرو: كيف استحققت هذه على أبي؟ فقال الشاب: إنه كان يوما يمشي وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله، فلما وصل قال: هل من حاجة؟ فقلت: لا إلا أني رأيت الأمير يمشي وحده فاحترت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله، فقال: ابغني رقعة من أديم، فذهبت إلى الخرّازين فأتيته بهذه فكتب لي فيها هذا المبلغ، واعتذر بأنه ليس عنده اليوم شيء. فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئا كثيراً.

ويروى أن معاوية قال لعمرو بن سعيد: من ترك مثلك لم يمت، ثم قال: رحم الله أبا عثمان، ثم قال: قد مات من هو أكبر مني ومن هو أصغر مني، ثم أنشد قول الشاعر:

إذا سار مَنْ دونَ امرئٍ وأمامَهُ وأوحشَ من إخوانِهِ فهوَ سائرُ

وكانت وفاة سعيد بن العاص في هذه السنة، وقيل: في التي قبلها، وقيل: في التي بعدها. وقال بعضهم: كانت وفاته قبل عبد الله بن عامر بجمعة فالله أعلم.

■ **شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام، أبو يعلى الأنصاري الخزرجي**: صحابي جليل، وهو ابن أخي حسان بن ثابت.

وحكى ابن منده عن موسى بن عقبة أنه قال: شهد بدراً.

قال ابن منده وهو وهم.

وكان من الاجتهاد في العبادة على جانب عظيم، كان إذا أخذ مضجعه يعلق على فراشه، ويتقلب عليه ويتلوى كما تتلوى الحية ويقول: اللّهم إن خوف النار قد أقلقني، ثم يقوم إلى صلاته.

قال عبادة بن الصامت: كان شداد من الذين أوتوا العلم والحلم.

نزل شداد فلسطين وبيت المقدس، ومات في هذه السنة عن خمس وسبعين سنة، وقيل: مات سنة أربع وستين، وقيل: سنة إحدى وأربعين. فالله أعلم.

■ **عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي**، ابن خال عثمان بن عفان، ولد في حياة رسول الله ﷺ، وتفل في فيه، فجعل يتلمظ ريق رسول الله ﷺ فقال: «إنه لمسقاء»، فكان لا يعالج أرضا إلا ظهر له الماء، وكان كريما ممدحاً ميمون النقيبة، استنابه عثمان على البصرة بعد أبي موسى، وولاه بلاد فارس بعد عثمان بن أبي العاص، وعمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة، ففتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وبلاد غزنة، وقتل كسرى ملك الملوك في أيامه - وهو يزدجرد - ثم أحرم عبد الله بن عامر بحجة، وقيل بعمرة من تلك البلاد شكراً لله عز وجل، وفرق في أهل المدينة أموالا كثيرة جزيلة، وهو أول من لبس الخز بالبصرة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها الماء المعين والعين، ولم يزل على البصرة حتى قتل عثمان، فأخذ أموال بيت المال وتلقى بها طلحة والزبير وحضر معهم الجمل، ثم سار إلى دمشق، ولم يسمع له بذكر في صفين، ولكن ولاه معاوية البصرة بعد صلحه مع الحسن، وتوفي في هذه السنة بأرضه بعرفات، وأوصى إلى عبدالله بن الزبير. له حديث واحد، وليس له في الكتب شيء.

روى مصعب الزبيري عن جدّه عن حنظلة بن قيس عن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد» [المستدرك: ٦٣٩/٣].

وقد زوجه معاوية بابنته هند، وكانت جميلة، فكانت تلي خدمته بنفسها من محبتها له، فنظر يوما في المرآة فرأى صباحة وجهها وشيبة في لحيته فطلقها، وبعث إلى أبيها أن يزوجها بشاب كأن وجهه ورقة مصحف. توفي في هذه السنة وقيل بعدها بسنة.

■ **عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق** وهو أكبر ولد أبي بكر الصديق، قاله الزبير بن بكار، قال: وكانت فيه دعابة، وأمه أم رومان، وأم عائشة فهو شقيقها، بارز يوم بدر واحد مع المشركين، وأراد قتل أبيه أبي بكر، فتقدم إليه أبوه أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ: «أمتعنا بنفسك» ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك في الهدنة، وهاجر قبل الفتح، ورزقه رسول الله ﷺ من خيبر كل سنة أربعين وسقاً، وكان من سادات المسلمين، وهو الذي دخل على رسول الله ﷺ يوم مات وعائشة مسندته إلى صدرها، ومع عبد الرحمن سواك رطب فأمدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره، فأخذت عائشة ذلك السواك فقضمته، وطيبته، ثم دفعته إلى رسول الله ﷺ فاستن به أحسن استنان ثم قال: «اللّهم في الرفيق الأعلى». ثم قضى. قالت: فجمع الله بين ريقي وريقه، ومات بين سحري ونحري، في بيتي ويومي لم أظلم فيه أحداً [خ (٣١٠٠)، مسند أحمد (٢٧٤/٦)].

وقد شهد عبد الرحمن فتح اليمامة وقتل يومئذ سبعة، وهو الذي قتل محكم بن الطفيل - صديق مسيلمة على باطله - كان محكم واقفاً في ثلمة حائط فرماه عبد الرحمن فسقط محكم، فدخل المسلمون من تلك الثلمة فخلصوا إلى مسيلمة فقتلوه. وقد شهد فتح الشام، وكان معظماً بين أهل الإسلام ونفل ليلى بنت الجودي ملك عرب الشام، نفله إياها خالد بن الوليد عن أمر عمر بن الخطاب كما سنذكره مفصلا.

وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي بكر - ولم يجرب عليه كذبة قط - ذكر عنه حكاية أنه لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة، قال عبد الرحمن لمروان: جعلتموها والله هرقلية وكسروية - يعني جعلتم ملك الملك لمن بعده من ولده - فقال له مروان: اسكت فإنك أنت الذي أنزل الله فيك ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ [الأحقاف: ١٧] فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أنه أنزل عذري [خ (٤٨٢٧) بنحوه].

ويروى أنها بعثت إلى مروان تعتبه وتؤنبه وتخبره بخبر فيه ذم له ولأبيه [س (كبرى) (١١٤٩١)] لا يصح عنهما.

قال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهري عن أبيه عن جده. قال: بعث معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد بن معاوية، فردها عبد الرحمن وأبى أن يأخذها، وقال: أبيع ديني بدنياي؟ وخرج إلى مكة فمات بها.

وقال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا أبو مسهر حدثنا مالك قال: توفي عبد الرحمن بن أبي بكر في نومة نامها.

ورواه أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد فذكره وزاد: فأعتقت عنه عائشة رقاباً.

ورواه الثوري عن يحيى بن سعيد عن القاسم فذكره.

ولما توفي كانت وفاته بمكان يقال له الحبشي - على ستة أميال من مكة، وقيل: اثني عشر ميلا - فحمله الرجال على أعناقهم حتى دفن بأعلى مكة، فلما قدمت عائشة مكة زارته وقالت: أما والله لو شهدتك لم أبك عليك، ولو كنت عندك لم أنقلك من موضعك الذي مت فيه، ثم تمثلت بشعر متمم بن نويرة في أخيه مالك: -

وكُنا كندماني جذيمةَ برهةً ... من الدهر حتى قيلَ لنْ يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطولِ اجتماعٍ لم نبت ليلة معا

رواه الترمذي [١٠٥٥] وغيره.

وروى ابن سعد أن ابن عمر مرة رأى فسطاطا مضروبا على قبر عبد الرحمن - ضربته عائشة بعدما ارتحلت - فأمر ابن عمر بنزعه وقال: إنما يظله عمله.

وكانت وفاته في هذا العام في قول كثير من علماء التاريخ، ويقال: إن عبد الرحمن توفي سنة ثلاث وخمسين قاله الواقدي وكاتبه محمد بن سعد وأبو عبيد وغير واحد، وقيل: سنة أربع وخمسين فالله أعلم.

قصته مع ليلى بنت الجودي ملك عرب الشام:

قال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك الحزامي عن أبيه عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قدم الشام في تجارة - يعني في زمان جاهليته - فرأى هنالك امرأة يقال لها ليلى ابنة الجودي على طنفسة لها وحولها ولائدها فأعجبته، قال ابن عساكر: رآها بأرض بُصرى فقال فيها:

تذكرتُ ليلى والسماوةَ دونها ... فما لابنة الجودي ليلى وما ليا
وأنى تعاطى قلبهُ حارثيةً ... تُدمّنُ بصرى أو تحلُّ الجوابيا
وأنى تلاقيها بلى ولعلها ... إن الناسَ حجوا قابلا أن توافيا

قال: فلما بعث عمر بن الخطاب جيشه إلى الشام قال للأمير على الجيش: إن ظفرت بليلى بنت الجودي عنوة فادفعها إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فظفر بها فدفعها إليه فأعجب بها وآثرها على نسائه حتى جعلن يشكونه إلى عائشة، فعاتبته عائشة على ذلك، فقال: والله كأني أرشف بأنيابها حب الرمان، فأصابها وجع سقط له فوها فجفاها حتى شكته إلى عائشة، فقالت له عائشة: يا عبد الرحمن لقد أحببت ليلى فأفرطت، وأبغضتها فأفرطت، فإما أن تنصفها وإما أن تجهزها إلى أهلها فجهزها إلى أهلها.

قال الزبيري: وحدثني عبد الله بن نافع عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه. قال: إن عمر بن الخطاب نفل عبد الرحمن بن أبي بكر ليلى بنت الجودي حين فتح دمشق، وكانت ابنة ملك دمشق - يعني ابنة ملك العرب الذين هم حول دمشق - في زمن الروم؛ والله أعلم.

■ **عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابن عم النبي** ﷺ، وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة، وأمهما أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، وكان عبيد الله كريما جميلا وسيما يشبه أباه في الجمال، روينا أن رسول الله ﷺ كان يَصُفّ عبد الله وعبيد الله وكثيراً ثم يقول: «من سبق إلي فله كذا» فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم [مسند أحمد: ٢١٤/١].

وقد استنابه علي بن أبي طالب في أيام خلافته على اليمن. وحج بالناس سنة ست وثلاثين وسنة سبع وثلاثين، فلما كان سنة ثمان وثلاثين اختلف هو ويزيد بن شجرة الرهاوي الذي قدم على الحج من جهة معاوية، ثم اصطلحا على شيبة بن عثمان الحجبي، فأقام للناس الحج عامئذ، ثم لما صارت الشوكة لمعاوية تسلط على عبيد الله بسر بن أبي أرطاه فقتل له ولدين، وجرت أمور باليمن قد ذكرنا بعضها. وكان يقدم هو وأخوه عبد الله المدينة فيوسعهم عبد الله علما، ويوسعهم عبيد الله كرما.

وقد روي أنه نزل في مسير له مع مولى له على خيمة رجل من الأعراب، فلما رآه الأعرابي أعظمه وأجله، ورأى حسنه وشكله، فقال لامرأته: ويحك ماذا عندك لضيفنا هذا؟ فقالت: ليس عندنا إلا هذه الشويهة التي حياة ابنتك من لبنها، فقال: إنه لا بد من ذبحها، فقالت: أتقتل ابنتك؟ فقال: وإن، فأخذ الشفرة والشاة وجعل يذبحها ويسلخها وهو يقول مرتجزاً:

يا جارتي لا توقظي البنيه ... إن توقظيها تنتحب عليّه
وتنزع الشفرة من يديه

ثم هيأها طعاماً فوضعها بين يدي عبيد الله ومولاه فعشاهما، وكان عبيدالله قد سمع محاورته لامرأته في الشاة، فلما أراد الارتحال قال لمولاه: ويلك ماذا معك من المال؟ فقال: معي خمسمائة دينار فضلت من نفقتك، فقال: ادفعها إلى الأعرابي، فقال: سبحان الله! تعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة واحدة تساوي خمسة دراهم؟ فقال: ويحك والله لهو أسخى منا وأجود، لأنا إنما أعطيناه بعض ما نملك، وجاد هو علينا بجميع ما يملك، وآثرنا على مهجة نفسه وولده. فبلغ ذلك معاوية فقال: لله در عبيد الله، من اي بيضة خرج؟! ومن أي شيء درج!

قال خليفة بن خياط [تاريخه: ٢٧٠/١]: توفي سنة ثمان وخمسين.

وقال غيره: توفي في أيام يزيد بن معاوية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: توفي في سنة سبع وثمانين.

وكانت وفاته بالمدينة، وقيل باليمن، وله حديث واحد.

قال أحمد [٢١٤/١]: حدثنا هشيم حدثنا يحيى بن أبي إسحاق عن سليمان بن يسار عن عبيد الله بن عباس قال: جاءت الغميصاء - أو الرميصاء - إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها تزعم أنه لا يصل إليها، فما كان إلا يسيراً حتى جاء زوجها فزعم أنها كاذبة، وأنها تريد أن ترجع إلى زوجها الأول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس لك ذلك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره»

وأخرجه النسائي [٣٤١٣] عن علي بن حجر عن هشيم به.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

أم المؤمنين

■ **عائشة بنت أبي بكر الصدّيق، زوجة رسول الله** ﷺ، وأحب أزواجه إليه، المبرّأة من فوق سبع سموات رضي الله عنها، وأمها هي أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، تكنى عائشة بأم عبد الله، قيل كناها بذلك رسول الله ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير، وقيل: إنها أسقطت من رسول الله ﷺ سقطا فسماه عبد الله، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها، ولم ينزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها، ولم يكن في أزواجه أحب إليه منها، تزوجها بمكة بعد وفاة خديجة، وقد أتاه الملك بها في المنام في سرقة من حرير، مرتين أو ثلاثاً، فيقول: هذه زوجتك. قال: «فأكشف

عنك فإذا هي أنت، فأقول، إن يكن هذا من عند الله يمضه»، فخطبها من أبيها فقال: يا رسول الله أو تحل لك؟ قال: نعم! قال: أو لست أخاك؟ قال: «بلى في الإسلام، وهي لي حلال»، فتزوجها رسول الله ﷺ فحظيت عنده».

وقد قدمنا ذلك في أول السيرة، وكان ذلك قبل الهجرة بستين، وقيل: بسنة ونصف، وقيل: بثلاث سنين، وكان عمرها إذ ذاك ست سنين ثم دخل بها وهي بنت تسع سنين بعد بدر، في شوال من سنة ثنتين من الهجرة فأحبها.

ولما تكلم فيها أهل الإفك بالزور والبهتان، غار الله لها فأنزل براءتها في عشر آيات من القرآن تتلى على تعاقب الزمان. وقد ذكرنا ذلك مفصلا فيما سلف، وشرحنا الآيات والأحاديث الواردة في ذلك في غزوة المريسيع، وبسطنا ذلك أيضا في كتاب التفسير بما فيه كفاية ومقنع، ولله الحمد والمنة.

وقد أجمع العلماء على تكفير من قذفها بعد براءتها، واختلفوا في بقية أمهات المؤمنين، هل يكفر من قذفهن أم لا؟ على قولين، وأصحهما أنه يكفر، لأن المقذوفة زوجة رسول الله ﷺ، والله تعالى إنما غضب لها لأنها زوجة رسول الله ﷺ، فهي وغيرها منهن سواء.

ومن خصائصها رضي الله عنها أنها كان لها في القسم يومان يومها ويوم سودة حين وهبتها ذلك تقربا إلى رسول الله ﷺ، وأنه مات في يومها وفي بيتها وبين سحرها ونحرها. وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من الدنيا، وأول ساعة من الآخرة، ودفن في بيتها.

وقد قال الإمام أحمد [١٣٨/٦]: حدثنا وكيع عن إسماعيل عن مصعب بن إسحاق بن طلحة عن عائشة عن النبي ﷺ: قال: «إنه ليهون علي أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة» تفرد به أحمد.

وهذا في غاية ما يكون من المحبة العظيمة أنه يرتاح لأنه رأى بياض كفها أمامه في الجنة.

ومن خصائصها أنها أعلم نساء النبي ﷺ، بل هي أعلم النساء على الإطلاق.

قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة.

وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة، ولم ترو امرأة ولا رجل غير أبي هريرة عن رسول الله ﷺ من الأحاديث بقدر روايتها رضي الله عنها.

وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً. رواه الترمذي [٣٨٨٣].

وقال أبو الضحى عن مسروق: رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض.

فأما ما يلهج به كثير من الفقهاء وعلماء الأصول من إيراد حديث: «خذوا شطر دينكم عن الحميراء» فإنه ليس له أصل ولا هو مثبت في شيء من أصول الإسلام، وسألت عنه شيخنا أبا الحجاج المزي فقال: لا أصل له.

ثم لم يكن في النساء أعلم من تلميذاتها عمرة بنت عبد الرحمن، وحفصة بنت سيرين، وعائشة بنت طلحة.

وقد تفردت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بمسائل عن الصحابة لم توجد إلا عندها، وانفردت باختيارات أيضا وردت أخباراً بخلافها بنوع من التأويل. وقد جمع ذلك غير واحد من الأئمة.

وقال الشعبي: كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله المبرأة من فوق سبع سموات.

وثبت في صحيح البخاري [٣٦٦٢، ٤٣٥٨] من حديث أبي عثمان النهدي عن عمرو بن العاص. قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: ومن الرجال؟ قال: «أبوها».

وفي صحيح البخاري [خ (٣٤١١)، م (٢٤٣١)] أيضا عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقد استدل كثير من العلماء ممن ذهب إلى تفضيل عائشة على خديجة بهذا الحديث، فإنه دخل فيه سائر النساء الثلاث المذكورات وغيرهن، ويعضد ذلك أيضا الحديث الذي رواه البخاري [٣٨٢١]: حدثنا إسماعيل بن خليل حدثنا علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة» قالت عائشة: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر الأول، قد أبدلك الله خيراً منها!.

هكذا رواه البخاري.

فأما ما يروى فيه من الزيادة: « ما أبدلني الله خيراً منها» فليس يصح سندها. وقد ذكرنا ذلك مطولا عند وفاة خديجة، وذكرنا حجة من ذهب إلى تفضيلها على عائشة بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال البخاري [٣٧٦٨]: حدثنا يحيى بن بكير، ثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال أبو سلمة: إن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ قال يوماً: «يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام» فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى.

وثبت في صحيح البخاري [٣٧٧٥] أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع أزواج النبي ﷺ إلى أم سلمة وقلن لها: قولي له يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، فقالت أم سلمة: فلما دخل علي قلت له ذلك فأعرض عني، ثم قلن لها ذلك فقالت له: فأعرض عنها، ثم لما دار إليها قالت له فقال: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»

وذكر أنهن بعثن فاطمة ابنته إليه فقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في ابنة أبي بكر ابن أبي قحافة، فقال: «يا بنية ألا تحبين من أحب؟» قالت: قلت: بلى! قال: «فأحبي هذه»، ثم بعثن زينب بنت جحش فدخلت على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فتكلمت زينب ونالت من عائشة، فانتصرت عائشة منها وكلمتها حتى أفحمتها، فجعل رسول الله ﷺ ينظر إلى عائشة ويقول: «إنها ابنة أبي بكر» [خ (٢٥٨١)]

وذكرنا أن عماراً لما جاء يستصرخ الناس ويستنفرهم إلى قتال طلحة والزبير أيام الجمل، صعد هو والحسن بن علي على منبر الكوفة، فسمع عمار رجلا ينال من عائشة فقال له: اسكت مقبوحاً منبوذا، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أو إياها [خ (٣٧٧٢) بنحوه].

وقال الإمام أحمد [٢٧٦/١]: حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنا

عبد الله بن خثيم حدثني عبد الله بن أبي مليكة أنه حدثه ذكوان - حاجب عائشة - أنه جاء عبد الله بن عباس يستأذن على عائشة فجئت - وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن - فقلت: هذا ابن عباس يستأذن، فأكب عليها ابن أخيها عبد الله فقال: هذا عبد الله بن عباس يستأذن - وهي تموت - فقالت: دعني من ابن عباس، فقال: يا أُمتاه!! إن ابن عباس من صالح بنيك يسلم عليك ويودعك، فقالت: ائذن له إن شئت قال: فأدخلته، فلما جلس قال: أبشري فقالت: بماذا؟ فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً صلى ا لله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، وكنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ حتى يصبح في المنزل، وأصبح الناس وليس معهم ماء فأنزل الله آية التيمم، فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار، فقالت: دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً. والأحاديث في فضائلها ومناقبها كثيرة جداً.

وقد كانت وفاتها في هذا العام سنة ثمان وخمسين، وقيل قبله بسنة، وقيل بعده بسنة، والمشهور في رمضان منه وقيل في شوال، والأشهر ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان.

وأوصت أن تدفن بالبقيع ليلا، وصلى عليها أبوهريرة بعد صلاة الوتر ونزل في قبرها خمسة، وهم عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام، من أختها أسماء بنت أبي بكر، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان عمرها يومئذ سبعاً وستين سنة، لأنه توفي رسول الله ﷺ وعمرها ثمان عشرة سنة، وكان عمرها عام الهجرة ثمان سنين أو تسع سنين، فالله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

فيها شتى عمرو بن مرة الجهني في أرض الروم في البر.

قال الواقدي: ولم يكن فيها غزو في البحر.

وقال غيره: بل غزا في البحر عامئذ جنادة بن أبي أمية.

وفيها عزل معاوية ابن أم الحكم عن الكوفة لسوء سيرته فيهم، وولى عليهم النعمان بن بشير.

وفيها ولى معاوية عبد الرحمن بن زياد ولاية خراسان وعزل عنها سعيد بن عثمان بن عفان، فصار عبيد الله على البصرة وعباد بن زياد على سجستان، وعبد الرحمن بن زياد على خراسان، ولم يزل عليها إلى زمن يزيد، فقدم عليه بعد مقتل الحسين فقال له: كم قدمت به من المال؟ قال: عشرون ألف ألف، فقال له: إن شئت حاسبناك، وإن شئت سوغناكها وعزلناك عنها، على أن تعطي عبدالله بن جعفر خمسمائة ألف درهم، قال: بل تسوّغنيها، وأما عبد الله بن جعفر فأعطيه ما قلت ومثلها معها، فعزله وولى غيره، وبعث عبد الرحمن بن زياد إلى عبد الله بن جعفر بألف ألف درهم، وقال: خمسمائة ألف من جهة أمير المؤمنين، وخمسمائة ألف من قبلي.

وفي هذه السنة وفد عبيد الله بن زياد على معاوية ومعه أشراف أهل البصرة والعراق، فاستأذن لهم عبيد الله عليه على منازلهم منه، فكان آخر من أدخله على معاوية الأحنف بن قيس- ولم يكن عبيد الله يجله - فلما رأى معاوية الأحنف رحب به وعظمه وأجله وأجلسه معه على السرير، ثم تكلم القوم فأثنوا على عبيد الله والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: إن تكلمت خالفت القوم، فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا والياً ترضونه، فمكثوا أياماً يترددون إلى أشراف بني أمية، يسألون كل واحد منهم أن يتولى عليهم فلم يقبل أحدٌ منهم ذلك، ثم جمعهم معاوية فقال: من اخترتم؟ فاختلفوا عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد غير أهل بيتك فرأه رأيك. فقال معاوية: قد أعدته إليكم.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٣١٧/٥]: قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن وليت علينا أحداً من أهل بيتك فإنا لا نعدل بعبيد الله أحداً، وإن وليت علينا من غيرهم فانظر لنا في ذلك، فقال معاوية: قد أعدته إليكم. ثم إن معاوية أوصى عبيد الله بالأحنف خيراً، وقبح رأيه فيه وفي مباعدته، فكان الأحنف بعد ذلك أخص أصحاب عبيد الله، ولما وقعت الفتنة لم يف لعبيد الله غير الأحنف بن قيس.

قصة يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري مع ابني زياد عبيد الله وعباد

ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣١٧/٥-٣٢١] عن أبي عبيدة معمر بن المثنى وغيره أن هذا الرجل كان شاعراً، وكان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، وضاق على الناس علف الدواب، فقال ابن مفرغ شعراً يهجو به عبّاد بن زياد على ما كان منه فقال:

ألا ليتَ اللحى كانت حشيشاً		فنعلفها خيولَ المسلمينا

وكان عباد بن زياد عظيم اللحية كبيرها جداً، فبلغه ذلك فغضب وتطلبه فهرب منه وقال فيه قصائد يهجوه بها كثيرة فمن ذلك قوله: -

إذا اودى معاويةُ بنُ حربٍ		فبشر شعبَ قعبكَ بانصداعِ
فاشهدُ أنّ أمكَ لم تباشرْ		أبا سفيانَ واضعةَ القناعِ
ولكن كانَ أمراً فيهِ لبسٌ		على وَجَلٍ شديدٍ وارتياعِ

وقال أيضا:

ألا أبلغْ معاويةَ بنَ حربٍ		مغلغلةً منَ الرجلِ اليماني
أتغضبُ أنْ يقالَ أبوكَ عفٌّ		وترضى أنْ يقالَ أبوكَ زاني
فاشهدُ أن رحمكَ من زيادٍ		كرحمِ الفيلِ من ولدِ الأتانِ

فكتب عباد بن زياد إلى أخيه عبيد الله وهو وافد على معاوية بهذه الأبيات، فقرأها عبيد الله على معاوية واستأذنه في قتله، فقال: لا تقتله، ولكن أدبه ولا تبلغ به القتل، فلما رجع عبيد الله إلى البصرة استحضره وكان قد استجار بوالد زوجة عبيد الله بن زياد، وهو المنذر بن الجارود، وكانت ابنته بحرية عند عبيد الله، فأجاره وآواه إلى داره، وجاء المنذر مسلما على عبيد الله، وبعث عبيد الله الشرط إلى دار المنذر فجاؤوا بابن مفرّغ فأوقف بين يديه، فقال المنذر: إني قد أجرته، فقال: يمدحك ويمدح أباك فترضى عنه، ويهجوني ويهجو أبي ثم تجيره علي، ثم أمر عبيد الله بابن مفرغ فسقي دواء مسهلا وحملوه على حمار عليه إكاف وجعلوا يطوفون به

في الأسواق وهو يسلح والناس ينظرون إليه، ثم أمر به فنفي إلى سجستان إلى عند أخيه عباد، فقال ابن مفرغ لعبيد الله بن زياد: ـ

يغسل الماء ما صنعت وقولي ... راسخ منك في العظام البوالي

وكلم اليمانيون معاوية في أمر ابن مفرغ، وأنه إنما بعث به إلى أخيه ليقتله، فبعث معاوية إلى ابن مفرغ فأحضره، فلما وقف بين يديه بكى وشكى إلى معاوية ما فعل به ابن زياد، فقال له معاوية: إنك هجوته، ألست القائل كذا؟ ألست القائل كذا؟ فأنكر أن يكون قال من ذلك شيئاً، وذكر أن القائل ذلك هو عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان، وأحب أن يسندها إلي، فغضب معاوية على عبد الرحمن بن الحكم ومنعه العطاء حتى يرضى عنه عبيد الله بن زياد، وأنشد ابن مفرغ ما قاله في الطريق في معاوية يخاطب راحلته: ـ

عَدسْ ما لعبادٍ عليكَ إمارةٌ ... نجوتِ وهذا تحملينَ طليقُ

لعمري لقد نجاكِ منْ هوةِ الردى ... إمامٌ وحبلٌ للأنامِ وثيقُ

سأشكرُ ما أوليتَ من حسنِ نعمةٍ ... ومثلي بشكرِ المنعمينَ حقيقُ

فقال له معاوية: أما لو كنا نحن الذي هجوتنا لم يكن من ذلك شيء ثم خيّره أي البلاد أعجب إليه يقيم بها، فاختار الموصل فأرسله إليها، ثم استأذن عبيد الله في القدوم إلى البصرة والمقام بها فأذن له. ثم إن عبد الرحمن بن الحكم ركب إلى عبيدالله فاسترضاه فرضي عنه وأنشده عبد الرحمن: ـ

لأنتَ زيادةٌ في آلِ حربٍ ... أحبُّ إليَّ منْ إحدى بناني

أراكَ أخاً وعماً وابنَ عمٍّ ... ولا أدري بغيبٍ ما تراني

فقال له عبيد الله: أراك والله شاعر سوء. ثم رضي عنه وأعاد إليه ما كان مُنع من العطاء.

قال أبو معشر والواقدي: وحج بالناس في هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان نائب المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى الكوفة النعمان بن بشير، وقاضيها شريح، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وقاضيها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وعلى سجستان عباد بن زياد، وعلى كرمان شريك بن الأعور الحارثي، من قبل عبيد الله بن زياد.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان:

ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٣٠٦/٥]: أنه توفي فيها أسامة بن زيد، والصحيح قبلها كما تقدم.

■ الحطيئة الشاعر واسمه جرول بن أوس بن مالك بن جرول بن مالك بن جؤية بن مخزوم بن مالك بن قطيعة بن عيسى أبو مليكة، الشاعر الملقب بالحطيئة لقصره، أدرك الجاهلية وأسلم في زمن الصديق، وكان كثير الهجاء حتى يقال: إنه هجا أباه وأمه، وخاله وعمه، ونفسه وعرسه، فمما قال في أمه قوله: ـ

تنحي فاقعدي عني بعيدا ... أراحَ اللّهُ منكِ العالمينا

أغربالا إذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا

جزاكِ اللّه شراً من عجوزٍ ... ولقاكِ العقوق من البنينا

وقال في أبيه وعمه وخاله: ـ

لحاكَ اللّهُ ثمَّ لحاكَ حقاً ... أباً ولحاكَ من عمٍّ وخالِ

فنعمَ الشيخُ أنتَ لدى المخازي ... وبئسَ الشيخُ أنتَ لدىَ المعالي

ومما قال في نفسه يذمها: ـ

أبتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلما ... بشرٍّ فما أدري لمن أنا قائله؟

أرى ليَ وجهاً شوه اللّه خلقه ... فقبحَ من وجهٍ وقبحَ حاملهْ

وقد شكاه الناس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأحضره وحبسه، وكان سبب ذلك أن الزبرقان بن بدر شكاه لعمر أنه قال له يهجوه: ـ

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها ... واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

فقال له عمر: ما أراه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه لا يكون هجاء أشد من هذا، فبعث عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين ما هجاه ولكن سلح عليه، فعند ذلك حبسه عمر وقال: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين، ثم شفع فيه عمرو بن العاص فأخرجه وأخذ عليه العهد أن لا يهجو الناس واستتابه، ويقال: إنه أراد أن يقطع لسانه فشفعوا فيه حتى أطلقه.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك بن عثمان الحزامي عن عبد الله بن مصعب حدثني عن ربيعة بن عثمان عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره، فأخرج وأنا حاضر فأنشأ يقول: ـ

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ... زغبِ الحواصلِ لاماءٌ ولا شجرُ

غادرتَ كاسبهمْ في قعرِ مظلمةٍ ... فارحم هداكَ مليكُ الناسِ يا عمرُ

أنتَ الإمامُ الذي منْ بعدِ صاحبهِ ... ألقى إليكَ مقاليدَ النهى البشرُ

لم يؤثروكَ بها إذ قدموكَ لها ... لكنْ لأنفسهم كانتَ بكَ الإثرُ

فامننْ على صبيةٍ بالرملِ مسكنهم ... بينَ الأباطحِ يغشاهم بها القدرُ

نفسي فداؤكَ كم بيني وبينهم ... من عرضِ داويةٍ يعمى بها الخبرُ

قال: فلما قال الحطيئة: ماذا تقول الأفراخ بذي مرخ، بكى عمر، فقال عمرو بن العاص: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة. ثم ذكروا أنه أراد قطع لسان الحطيئة لئلا يهجو به الناس فأجلسه على كرسي وجيء بالموسى، فقال الناس: لا يعود يا أمير المؤمنين وأشاروا إليه قل: لا أعود، فقال له عمر: النجاء، فلما ولى قال له عمر: ارجع يا حطيئة، فرجع فقال له: كأني بك عند شاب من قريش قد كسر لك نمرقة، وبسط لك أخرى، وقال: يا حطيئة غننا، فاندفعت تغنيه بأعراض الناس، قال أسلم: فرأيت الحطيئة بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر وقد كسر له نمرقة وبسط له أخرى، وقال: يا حطيئة غننا فاندفع حطيئة يغني، فقلت له: يا حطيئة أتذكر يوم عمر حين قال لك ما قال؟ ففزع وقال: رحم الله ذلك المرء، لو كان حياً ما فعلنا هذا، فقلت لعبيد الله: إني سمعت أباك يقول كذا وكذا فكنت أنت ذلك الرجل.

وقال الزبير: حدثني محمد بن الضحاك عن أبيه قال: قال عمر للحطيئة: دع قول الشعر. قال: لا أستطيع، قال: لم؟ قال: هو مأكلة عيالي، ونملة على لساني، قال: فدع المِدْحة المجحفة،قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: تقول: بنو فلان أفضل من بني فلان، امدح ولا تفضل، فقال: أنت أشعر مني يا أمير المؤمنين.

ومن مديحه الجيد المشهور قوله:

أقلـوا عليهـم لا أبـاً لأبيكـم ... من اللوم أو سدّوا المكانَ الذي سدّوا

أولئك قومي إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإنْ عقدوا شدّوا

وإن كانتِ النعماءُ فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولاكدّوا

قالوا: ولما احتضر الحطيئة قيل له: أوص. فقال: أوصيكم بالشعر، ثم قال:

الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلّمه ... إذا ارتقى فيهِ الذي لا يعلمهْ

زلّت بهِ إلى الحضيضِ قدمهْ ... والشعر لا يستطيعهُ من يظلمهْ

يريد أن يعربه فاعجمه

قال أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم [٥/٣٠٧، ٣١١]: توفي الحطيئة في هذه السنة.

وذكر أيضا فيها وفاة عبد الله بن عامر بن كريز، وقد تقدم في التي قبلها.

■ **عبد الله بن مالك بن القشب**: واسمه جندب بن نضلة بن عبد الله بن رافع الأزدي، أبو محمد حليف بني عبد المطلب، المعروف بابن بحينة، وهي أمه بحينة بنت الأرت، واسمه الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

أسلم قديما، وصحب رسول الله ﷺ، وكان ناسكا صوّاما قواما، وكان ممن يسرد صوم الدهر كله.

قال ابن سعد [الطبقات: ٤/٣٤٢]: كان ينزل بطن ريم على ثلاثين ميلا من المدينة، ومات في عمل مروان في المرة الثانية، ما بين سنة أربع وخمسين إلى ثمان وخمسين، والعجب أن ابن الجوزي نقل من كلام محمد بن سعد، ثم إنه ذكر وفاته في هذه السنة ـ يعني سنة تسع وخمسين فالله أعلم.

■ **قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي**: صحابي جليل كأبيه، له في الصحيحين [خ (١٣١٢)، م (٨١)(٩٦١)] حديث، وهو القيام للجنازة، وله في المسند [٣/٤٢١، ٤٢٢] حديث في صوم عاشوراء، وحديث غسل رسول الله ﷺ في دراهم وغير ذلك [٣/٤٢٦ و٦/٦، ٧].

وخدم رسول الله ﷺ عشر سنين، وثبت في صحيح البخاري [٧١٥٥] عن أنس قال: كان قيس بن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير. وحمل لواء رسول الله ﷺ في بعض الغزوات، واستعمله على الصدقة.

ولما بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فأصابهم ذلك الجهد الكثير فنحر لهم قيس بن سعد تسع جزائر، حتى وجدوا تلك الدابة على سيف البحر فأكلوا منها، وأقاموا عليها شهراً حتى سمنوا.

وكان قيس سيداً مطاعاً كريما ممدحاً شجاعاً، ولاه علي نيابة مصر، وكان يقاوم بدهائه وخديعته وسياسته لمعاوية وعمرو بن العاص، ولم يزل معاوية يعمل عليه حتى عزله علي عن مصر وولى عليها محمد بن أبي بكر الصديق، فاستخفه معاوية، ولم يزل به حتى أخذ منه مصر كما قدمنا ذكره.

وأقام قيس عند علي فشهد معه صفين والنهروان ولزمه حتى قتل ثم صار إلى المدينة، فلما اجتمعت الكلمة على معاوية جاءه ليبايعه كما بايعه أصحابه.

قال عبد الرزاق عن ابن عيينة قال: قدم قيس بن سعد على معاوية ليبايعه كما بايع أصحابه فقال له معاوية: وأنت يا قيس تُلْجِم علي مع من الجم؟ اما والله لقد كنت أحب أن لا تأتيني هذا اليوم إلا وقد ظفر بك ظفر من أظافري موجع، فقال له قيس: وأنا والله قد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأحييك بهذه التحية، فقال له معاوية: ولم؟ وهل أنت إلا حبر من أحبار يهود؟ فقال له قيس: وأنت يا معاوية كنت صنما من أصنام الجاهلية، دخلت في الإسلام كارهاً، وخرجت منه طائعاً، فقال معاوية: اللّهم غفراً، مُدَّ يدك، فقال له قيس بن سعد: إن شئت. زدتَ وزدتُ.

وقال موسى بن عقبة: قالت عجوز لقيس: أشكو إليك قلة الجرذان، فقال قيس: ما أحسن هذه الكناية!! املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً.

وقال غيره: كانت له صحفة يدار بها حيث دار، وكان ينادي له مناد: هلموا إلى اللحم والثريد. وكان أبوه وجده من قبله يفعلان كفعله.

وقال عروة بن الزبير: باع قيس بن سعد من معاوية أرضاً بتسعين ألفاً، فقدم المدينة فنادى مناديه: من أراد القرض فليأت، فاقرض منها خمسين ألفاً وأطلق الباقي، ثم مرض بعد ذلك فقل عواده، فقال لزوجته ـ قريبة بنت أبي عتيق أخت أبي بكر الصديق ـ: إنني أرى قلة من عادني في مرضي هذا، وإني لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض، فبعث إلى كل رجل ممن كان له عليه دين بصكه المكتوب عليه، فوهبهم ماله عليهم، وقيل: إنه أمر مناديه فنادى: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه في حل، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد، وكان يقول: اللّهم ارزقني مالاً وفعالاً، فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال.

وقال سفيان الثوري: اقترض رجل من قيس بن سعد ثلاثين ألفاً، فلما جاء ليوفيه إياها قال له قيس: إنا قوم إذا أعطينا أحداً شيئا فنرجع فيه.

وقال الهيثم بن عدي: اختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم، فقال أحدهم: عبد الله بن جعفر، وقال الآخر: قيس بن سعد، وقال الآخر: عرابة الأوسي، فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة، فقال لهم رجل: فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره، فلينظر ما يعطيه وليحكم على العيان.

فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه فوجده قد وضع رجله في الغرْز ليذهب إلى ضيعة له، فقال له: يا ابن عم رسول الله ابن سبيل ومنقطع به، قال: فاخرج رجله من الغرْز وقال: ضع رجلك واستو عليها فهي لك بما عليها، وخذ ما في الحقيبة ولا تخدَعنّ عن السيف فإنه من سيوف علي، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة وإذا في الحقيبة أربعة آلاف دينار، ومطارف من خز وغير ذلك، وأجلُّ ذلك سيف علي بن أبي طالب.

ومضى صاحب قيس بن سعد إليه فوجده نائما، فقالت له الجارية: ما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل، ومنقطع به، قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس مال غيره اليوم، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل فخذ لك ناقة وعبدا، واذهب راشدا. فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها شكراً على صنيعها ذلك، وقال: هلا أيقظتني حتى أعطيه ما يكفيه، فلعل الذي أعطيته لا يقع منه موقع حاجته.

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يتوكأ على عبدين ـ وقد كف بصره ـ فقال له: يا عرابة، فقال: قل، فقال: ابن سبيل ومنقطع به. قال: فخلّى عن العبدين ثم صفّق بيديه، باليمني على اليسري، ثم قال: أوّه أوه، والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئا، ولكن خذهما؛ يعني

العبدين، فقال: ما كنت لأفعل، فقال: إن لم تأخذهما فهما حران، فإن شئت فاعتق، وإن شئت فخذ. وأقبل يلتمس الحائط بيده قال: فأخذهما وجاء بهما. قال: فحكم الناس على أن ابن جعفر قد جاد بمال عظيم، وأن ذلك ليس بمستنكر له، إلا أن السيف أجلها. وأن قيساً أحد الأجواد حكّم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسانه ما فعلته، وعتقه لها وما تكلّم به، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي، لأنه جهد من مقل.

وقال سفيان الثوري عن عمرو بن أبي صالح قال: قسم سعد بن عبادة ماله بين أولاده وخرج إلى الشام فمات بها، فولد له ولد بعد وفاته، فجاء أبو بكر وعمر إلى قيس بن سعد فقالا: إن أباك قسم ماله ولم يعلم بحال هذا الولد إذ كان حملاً، فاقسموا له معكم، فقال قيس: إني لا أغير ما فعله سعد ولكن نصيبي له.

ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين فذكره.

ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرني عطاء فذكره.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا أبو نعيم حدثنا مسعر عن معبد بن خالد، قال: كان قيس بن سعد لا يزال هكذا رافعاً أصبعه المسبحة - يعني يدعو -.

وقال هشام بن عمار: حدثنا الجراح بن مليح حدثنا أبو رافع عن قيس بن سعد. قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المكر والخديعة في النار» لكنت من أمكر هذه الأمة.

وقال الزهري: دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة، معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل، وكانا مع علي، وكان المغيرة معتزلاً بالطائف حتى حكم الحكمان فصارا إلى معاوية.

وقد تقدم أن محمد بن أبي حنيفة كان قد تغلب على مصر وأخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، نائب عثمان بعد عمرو بن العاص، فأقره عليها علي مدة يسيرة ثم عزله بقيس بن سعد، فلما دخلها سار فيها سيرة حسنة وضبطها، وذلك في سنة ست وثلاثين، فثقل أمره على معاوية وعمرو بن العاص، فكاتباه ليكون معهما على علي فامتنع وأظهر للناس مناصحته لهما، فشاع الخبر حتى بلغ علياً فعزله وبعث إلى مصر الأشتر النخعي فمات الأشتر في الرملة قبل أن يصل إليها، فبعث علي محمدَ بن أبي بكر فخف أمره على معاوية وعمرو، فلم يزالا حتى أخذا منه الديار المصرية، وقتل محمد بن أبي بكر هذا وأحرق في جيفة حمار. وسار قيس إلى المدينة، ثم سار إلى علي بالكوفة، فكان معه في حروبه حتى قتل علي، ثم على مقدمة الحسن، فلما بايع الحسن معاوية ساء قيساً ذلك، وامتنع من طاعة معاوية، ثم ارتحل إلى المدينة، ثم قدم على معاوية في وفد من الأنصار فبايع معاوية بعد معاتبة، وكلام فيه غلظة، ثم أكرمه معاوية وقدمه وحظي عنده، فبينما هو مع الوفود عند معاوية إذ قد كتاب ملك الروم على معاوية وفيه: أن ابعث إلي بسراويل أطول رجل من العرب، فقال معاوية لقيس: ما أظننا إلا قد احتجنا إلى سراويلك؟ - وكان قيس مديد القامة جداً لا يصل أطول الرجال إلى صدره - فقام قيس فتنحى ثم خلع سراويله فألقاها إلى معاوية فقال له معاوية: يرحمك الله، ما أردتُ إلى هذا، هلاّ ذهبت إلى منزلك ثم أرسلت بها إلينا، فأنشأ قيس يقول عند ذلك: -

أردتُ بها كي يعلم الناسُ أنها ... سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ
وأنْ لا يقولوا غاب قيسٌ وهذه ... سراويلُ عاديٍّ نَمَتْهُ ثمودُ
وإني من الحي اليماني لسيدٌ ... وما الناسُ إلا سيدٌ ومسودُ
فكدهم بمثلي إنّ مثلي عليهمُ ... شديدٌ وخَلْقي في الرجالِ مزيدُ
وفضلني في الناسِ أصلي ووالدي ... وباعٌ بهِ أعلو الرجالَ مديدُ

قال: فأمر معاوية أطول رجل في الوفد فوضعها على أنفه فوقعت بالأرض.

وفي رواية أن ملك الروم بعث إلى معاوية برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم، والآخر أطول الروم، فإن كان في جيشك من يفوقهما بعثت إليك من الأسارى كذا وكذا، ومن التحف كذا وكذا، وإن لم يكن في جيشك من يُشبهُهما فهادني ثلاث سنين، فلما حضرا عند معاوية قال: من لهذا القوي؟ فقالوا: ماله إلا أحد رجلين، إما محمد بن الحنفية، أو عبدالله بن الزبير، فجيء بمحمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب، فلما اجتمع الناس عند معاوية قال له معاوية: أتعلم فيم أرسلت إليك؟ قال: لا! فذكر له أمر الرومي وشدة بأسه فقال له: ما تريد؟، فقال تجلس لي أو أجلس لك وتناولني يدك أو أناولك يدي، فأينا قدر على أن يقيم الآخر من مكانه غلبه، وإلا فقد غلب، فقال له: ما تريد؟ تجلس أو أجلس؟ فقال له الرومي: بل اجلس أنت، فجلس محمد بن الحنفية وأعطى الرومي يده فاجتهد الرومي بكل ما يقدر عليه من القوة أن يزيله من مكانه أو يحركه ليقيمه فلم يقدر على ذلك، ولا وجد إليه سبيلاً، فغُلب الرومي عند ذلك، وظهر لمن معه من الوفود من بلاد الروم أنه قد غلب ثم قام محمد بن الحنفية فقال للرومي: اجلس لي، فجلس وأعطى محمداً يده فما لبث أن أقامه سريعاً، ورفعه في الهواء ثم ألقاه على الأرض فسر بذلك معاوية سروراً عظيما، ونهض قيس بن سعد فتنحى عن الناس ثم خلع سراويله وأعطاها لذلك الرومي الطويل فلبسها فبلغت إلى ثدييه وأطرافها تخط بالأرض، فاعترف الروم بالغلب، وبعث ملكهم ما كان التزمه لمعاوية، وعاتب الأنصار قيس بن سعد في خلعه سراويله بحضرة الناس فقال ذلك الشعر المتقدم معتذراً به إليهم، وليكون ذلك ألزم للحجة التي تقوم على الروم، وأقطع لما حاولوه.

وروى الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: كان قيس بن سعد رجلا ضخما جسيما صغير الرأس له لحية في ذقنه، وكان إذا ركب الحمار العالي خطت رجلاه بالأرض.

وقال الواقدي وخليفة بن خياط وغير واحد: توفي بالمدينة في آخر خلافة معاوية.

وذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٣١٨/٥] وفاته في هذه السنة، فتبعناه في ذلك.

■ معقل بن يسار المزني صحابي جليل، شهد الحديبية، وكان هو الذي كان يرفع أغصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس تحتها، وكانت من السمر، وهي المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨] وقد ولاه عمر إمرة البصرة فحفر بها النهر المنسوب إليه، فيقال نهر معقل، وله بها دار.

قال الحسن البصري: دخل عبيد الله بن زياد على معقل بن يسار يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له معقل: إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، لولم أكن على حالي هذه لم أحدثك به، سمعته يقول: «من استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة، وإن ريحها

ليوجد من مسيرة مائة عام».

وممن توفي في هذه السنة.

■ **أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه** وقد اختلف في اسمه في الجاهلية والإسلام، واسم أبيه على أقوال متعددة، وقد بسطنا أكثرها في كتابنا «التكميل»، وقد بسط ذلك ابن عساكر في تاريخه، والأشهر أن اسمه عبد الرحمن بن صخر وهو من الأزد، ثم من دوس. ويقال: كان اسمه في الجاهليه عبد شمس، وقيل: عبد نهم، وقيل: عبد غنم، ويكنى بأبي الأسود، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وكناه بأبي هريرة.

وروي عنه أنه قال: وجدت هريرة وحشية فأخذت أولادها فقال لي أبي: ما هذه في حِجْرك؟ فأخبرته، فقال: أنت أبو هريرة.

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له: «أبا هر» [٦٤٥٢] وثبت أنه قال له: «يا أبا هريرة» [٢٣١١، ٥٠٧٦، ...].

قال محمد بن سعد وابن الكلبي والطبراني: واسم أمه ميمونة بنت صبيح بن الحارث بن أبي صعب بن هُنَيّة بن سعد بن ثعلبة، أسلمت وماتت مسلمة.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ الكثير الطيب، وكان من حفاظ الصحابة، وروى عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب، وأسامة بن زيد، وبَصْرة بن أبي بَصْرة، والفضل بن العباس، وكعب الأحبار، وعائشة أم المؤمنين. وحدث عنه خلائق من أهل العلم قد ذكرناهم مرتبين على حروف المعجم في «التكميل»، كما ذكره شيخنا في تهذيبه [تهذيب الكمال: ٣٦٦/٣٤].

قال البخاري [التاريخ الكبير: ٢٦٥/١٢]: روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم، من الصحابة والتابعين وغيرهم.

وقال عمرو بن علي الفلاس: كان ينزل المدينة وكان إسلامه سنة خيبر.

قال الواقدي: وكان له بذي الحليفة دار.

وقال غيره: كان آدم اللون، بعيد ما بين المنكبين، ذا ضفيرتين، أفرق الثنيتين.

وقال أبو داود الطيالسي وغير واحد عن أبي خلدة خالد بن دينار عن أبي العالية عن أبي هريرة قال: لما أسلمت قال رسول الله ﷺ «ممن أنت؟» فقلت: من دوس، فوضع يده على جبهته وقال: «ما كنت أرى أن في دوس رجلاً فيه خير».

وقال الزهري عن سعيد عن أبي هريرة قال: شهدت مع رسول الله ﷺ خيبر.

وروى عبد الرزاق عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس. قال: قال أبو هريرة: جئت يوم خيبر بعدما فرغوا من القتال.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا الدراوردي. قال: حدثني خُثيم بن عراك بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة. قال: خرج رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، قال أبو هريرة: وقدمت المدينة مهاجراً فصليت الصبح وراء سباع فقرأ في السجدة الأولى سورة مريم، وفي الثانية ويل للمطففين، قال أبو هريرة: فقلت في نفسي: ويل لأبي فلان، لرجل كان بأرض الأزد ـ وكان له مكيالان مكيال يكيل به لنفسه، ومكيال يبخس به الناس».

وقد ثبت في صحيح البخاري [٢٥٣٠] أنه ضل غلام له في الليلة التي اجتمع في صبيحتها برسول الله ﷺ وأنه جعل ينشد

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفرِ نَجَّتِ

فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له: «هذا غلامك»؟ فقال هو حر لوجه الله عز وجل.

وقد لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ بعد إسلامه، فلم يفارقه في حضر ولا سفر، وكان أحرص شيء على سماع الحديث منه، وتفقه عنه، وكان يلزمه على شبع بطنه.

وقال أبو هريرة ـ وقد تمخط يوماً في قميص له من كتان ـ: بخ بخ، أبو هريرة يتمخط في الكتان! لقد رأيتني أخر فيما بين المنبر والحُجَرِ من الجوع، فيمر المار فيقول: به جنون. وما بي إلا الجوع، والله الذي لا إله إلا هو لقد كنت أعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد كنت استقرئ أحدهم الآية وأنا أعلم بها منه، وما بي إلا أن يستتبعني إلى منزله فيطعمني شيئا. وذكر حديث اللبن مع أهل الصفة كما قدمناه في ذكر دلائل النبوة.

وقال الإمام أحمد [٣١٩/٢، ٣٢٠]: حدثنا عبد الرحمن حدثنا عكرمه بن عمار حدثني أبو كثير ـ وهو يزيد بن عبد الرحمن بن أذينة السحيمي الأعمى ـ حدثني أبو هريرة. قال: والله ما خلق الله مؤمنا يسمع بي ولا يراني إلا احبني، قلت: وما علمك بذلك يا أبا هريرة؟ قال: إن أمي كانت امرأة مشركة، وإني كنت ادعوها إلى الإسلام وكانت تأبى علي، فدعوتها يوماً فاسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا ابكي،فقلت: يا رسول الله إني كنت ادعو أمي إلى الاسلام فكانت تأبى علي، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت أعدو أبشرها بدعاء رسول الله ﷺ، فلما أتيت الباب إذا هو مجافٌ، وسمعت خضخضة الماء وسمعت خشف رِجْل ـ يعني وقعها ـ فقالت: يا أبا هريرة كما أنت، ثم فتحت الباب وقد لبِست درعها وعجلت عن خمارها فقالت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ابكي من الفرح كما بكيت من الحزن، فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعاءك، قد هدى الله أم أبي هريرة، وقلت: يا رسول الله ادعو الله ان يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين ويُحبِّبهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحببهم إليهما» قال أبو هريرة: فما خلق الله من مؤمن يسمع بي ولا يراني أو يرى أمي إلا وهو يحبني.

وقد رواه مسلم [(٢٤٩١)(١٥٨)] من حديث عكرمة عن عمار نحوه.

وهذا الحديث من دلائل النبوة، فإن أبا هريرة محبب إلى جميع الناس، وقد شهر الله ذكره بما قدره من إيراد هذا الخبر عنه، الذي رواه عن رسول الله ﷺ في الإنصات يوم الجمعة عند الخطبة على رؤوس الناس في المحافل الكثيرة المتعددة في سائر الأقاليم وهذا قدّره الله ويسّره من شهر ذكره ومحبة الناس له رضي الله عنه.

وقال هشام بن عمار: حدثنا سعيد حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن المقبري عن سالم مولى النضريين أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما محمد بشر أغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما رجل من المسلمين آذيته أو شتمته أو جلدته فاجعلها له قربة بها عندك يوم القيامة» قال أبو هرير: لقد رفع عليٌّ رسول

الله ﷺ يوماً الدرة ليضربني بها، لأن يكون ضربني بها أحب إلي من حمر النعم، ذلك بأني أرجو أن أكون مؤمناً وأن يستجاب لرسول الله ﷺ دعوته.

وقال ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة. قال: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثا كثيرا فأنساه، فقال: «ابسط رداءك»، فبسطته، ثم قال: «ضمه» فضممته فما نسيت حديثا بعد». رواه البخاري [١١٩].

وقال الإمام أحمد [٢/٢٤٠]: حدثنا سفيان عن الزهري عن عبد الرحمن الأعرج، قال سمعت: أبا هريرة يقول: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله ﷺ، والله الموعدُ إني كنت امرءاً مسكينا أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فحضرت من رسول الله ﷺ يوماً مجلساً فقال: «من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئا سمعه مني». فبسطت بردة علي حتى قضى حديثه، ثم قبضتها إلي فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئا سمعته منه بعد ذلك.

وقد رواه ابن وهب عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة [م (٢٤٩٢)] وله طرق أخر [خ (١١٨، ١١٩)] عنه.

وقد قيل إن هذا كان خاصاً بتلك المقالة المعينة لم ينس منها شيئا، بدليل أنه نسي بعض الأحاديث كما هو مصرح به في الصحيح [خ (٥٧٧١)]، حيث نسي حديث «لا عدوى ولا طيرة» مع حديثه «لا يورد ممرض على مصح» وقيل: إن هذا كان عاماً في تلك المقالة وغيرها والله أعلم.

وقال الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه قال: «يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه».

ورواه البخاري [٦٥٧٠] من حديث عمرو بن أبي عمرو به.

وقال ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته في الناس، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم.

ورواه البخاري [١٢٠] من حديث ابن أبي ذئب، ورواه غير واحد عن أبي هريرة. وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال، وما سيقع التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه، وردوا ما أخبر به من الحق، كما قال: لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتتلون فيما بينكم بالسيوف لما صدقتموني. وقد يتمسك بهذا الحديث طوائف من أهل الأهواء والبدع الباطلة، والأعمال الفاسدة، ويسندون ذلك إلى هذا الجراب الذي لم يقله أبو هريرة، ويعتقدون أن ما هم عليه كان في هذا الجراب الذي لم يخبر به أبو هريرة، وما من مبطل مع تضاد أقوالهم وأعمالهم إلا ويدعي شيئاً من هذا وكلهم يكذبون، فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به فمن علمه من بعده؟ وإنما كان الذي فيه شيء من الفتن والملاحم قد أخبر بها هو وغيره من الصحابة، مما ذكرناه ومما سنذكره في كتاب الفتن والملاحم.

وقال حماد بن زيد: حدثنا عمرو بن عبيد الأنصاري حدثنا أبو الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم: أن مروان دعا أبا هريرة وأقعده خلف السرير، وجعل مروان يسأله وجعلت أكتب، حتى إذا كان عند رأس الحول دعا به وأقعده من وراء الحجاب فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر [المستدرك: ٣/٥١٠].

وروى أبو بكر بن عياش وغيره عن الأعمش عن أبي صالح. قال: كان أبو هريرة من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ ولم يكن بأفضلهم.

وقال الربيع: قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا أبو خيثمة حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: تواعد الناس ليلة من الليالي إلى قبة من قباب معاوية فاجتمعوا فيها، فقام أبو هريرة فحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح.

وقال سفيان بن عيينة عن معمر عن وهب بن منبه عن أخيه همام بن منبه. قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب [خ (١١٣)].

وقال أبو زرعة الدمشقي [تاريخه: ١/٥٤٤]: حدثني محمد بن زرعة الرعيني حدثنا مروان بن محمد حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبيد الله عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس، وقال لكعب الأحبار: لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة.

قال أبو زرعة، وسمعت أبا مسهر يذكره عن سعيد بن عبد العزيز نحوا منه ولم يسنده.

وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي يضعها الناس على غير مواضعها، وأنهم يتكلون على ما فيها من أحاديث الرخص، أو أن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك.

وقد جاء أن عمر أذن له بعد ذلك في الحديث.

فقال مسدد: حدثنا خالد الطحان حدثنا يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة. قال بلغ عمر حديثي فأرسل إلي فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ قال: قلت: نعم! وقد علمت لم سألتني عن ذاك؟ قال: ولم سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» قال: إما لى فاذهب فحدث.

وقال الإمام أحمد [٢/٤١٣]: حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد - يعني ابن زياد - حدثنا عاصم بن كليب حدثني أبي. قال: سمعت أبا هريرة يقول - وكان يبتدئ حديثه بأن يقول: قال رسول الله ﷺ أبو القاسم الصادق المصدوق: «من كذبَ علي عامداً فليتبوأ مقعده من النار». وروي مثله من وجه آخر عنه.

وقال ابن وهب: حدثني يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان. أن أبا هريرة كان يقول: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشجّ رأسي.

وقال صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن أبي سلمة: سمعت أبا هريرة يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن

الزهري. قال: قال عمر: أقلوا الرواية عن رسول اللّه ﷺ إلا فيما يعمل به. قال: ثم يقول أبو هريرة: أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي؟ أما واللّه إذاً لأيقنت أن المخفقة ستباشر ظهري، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام اللّه.

ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فدعهم على ما هم عليه، ولا تشغلهم بالأحاديث، وأنا شريكك في ذلك. وهذا معروف عن عمر رضي اللّه عنه

وقال الإمام أحمد [٢/٢، ٣]: حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن الوليد بن عبد الرحمن عن ابن عمر. أنه مر بأبي هريرة وهو يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط، فإن شهد دفنها فله قيراطان، القيراط أعظم من أُحد». فقال له ابن عمر: أبا هرّ انظر ما تحدث عن رسول اللّه ﷺ فقام إليه أبو هريرة حتى انطلق به إلى عائشة فقال لها: يا أم المؤمنين أنشدك باللّه أسمعت رسول اللّه صلى ا لله عليه وسلم يقول: «من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط فإن شهد دفنها فله قيراطان»؟ فقالت: اللهم نعم. فقال أبوهريرة: إنه لم يكن يشغلني عن رسول اللّه ﷺ غرس الوَديّ ولا صفق بالأسواق، إني إنما كنت أطلب من رسول اللّه ﷺ كلمة يعلمنيها، أو أكلة يطعمنيها، فقال له ابن عمر: أنت يا أبا هر كنت ألزمنا لرسول اللّه ﷺ وأعلمنا بحديثه.

وقال الواقدي: حدثني عبد اللّه بن نافع عن أبيه. قال: كنت مع ابن عمر في جنازة أبي هريرة وهو يمشي أمامها ويكثر الترحم عليه، ويقول: كان ممن يحفظ حديث رسول اللّه ﷺ على المسلمين.

وقد روي أن عائشة تأولت أحاديث كثيرة من أبي هريرة ووهمته في بعضها، وفي الصحيح [خ (٣٥٦٨)، م (٢٤٩٣)] أنها عابت عليه سرد الحديث، أي الإكثار منه في الساعة الواحدة.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا بشر بن الوليد الكندي حدثنا إسحاق بن سعيد عن سعيد أن عائشة قالت لأبي هريرة: أكثرت الحديث عن رسول اللّه ﷺ يا أبا هريرة! قال: إني واللّه ما كانت تشغلني عنه المكحلة والخضاب، ولكني أرى ذلك شغلك عما استكثرت من حديثي. قالت: لعله.

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم الشامي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع أن رجلا من قريش أتى أبا هريرة في حلة يتبختر فيها، فقال: يا أبا هريرة إنك تكثر الحديث عن رسول اللّه ﷺ، فهل سمعته يقول في حلتي هذه شيئا؟ قال: واللّه إنكم لتؤذوننا، ولولا ما أخذ اللّه على أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران: ١٨٧] ما حدثتكم بشيء، سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن رجلا ممن كان قبلكم بينما هو يتبختر في حلة إذ خسف اللّه به الأرض فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة» فواللّه ما أدري لعله كان من قومك أو من رهطك ــ شك أبو يعلى ــ.

وقال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر حدثني كثير بن زيد عن الوليد بن رباح قال: سمعت أبا هريرة يقول لمروان: واللّه ما أنت بوال، وإن الوالي لغيرك فدعه ــ يعني حين أرادوا أن يدفنوا الحسن مع رسول اللّه ﷺ ولكنك تَدَخَّل فيما لا يعنيك، إنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك ــ يعني معاوية ــ قال: فأقبل عليه مروان مغضباً فقال: يا أبا هريرة إن الناس قد قالوا: إنك أكثرت عن رسول اللّه ﷺ الحديث، وإنما قدمت قبل وفاة النبي ﷺ بيسير، فقال أبو هريرة: نعم! قدمت ورسول اللّه ﷺ بخيبر سنة سبع، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين سنة سنوات، وأقمت معه حتى توفي، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه، وأنا واللّه يومئذ مقل، وأصلي خلفه وأغزو وأحج معه، فكنت واللّه أعلم الناس بحديثه، قد واللّه سبقني قوم بصحبته والهجرة من قريش والأنصار، فكانوا يعرفون لزومي له فيسألوني عن حديثه، منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فلا واللّه ما يخفى علي كل حديث كان بالمدينة، وكل من أحب اللّه ورسوله، وكل من كانت له عند رسول اللّه ﷺ منزلة، وكل صاحب له، فكان أبو بكر صاحبه في الغار وغيره، وقد أخرجه رسول اللّه ﷺ أن يساكنه ــ يعرض بأبي مروان الحكم بن أبي العاص ــ ثم قال أبو هريرة: ليسألني أبو عبد الملك عن هذا وأشباهه فإنه يجد عندي منه علما جماً ومقالا، قال: فواللّه ما زال مروان يقصر عن أبي هريرة ويتقيه بعد ذلك ويخافه ويخاف جوابه.

وفي رواية أن أبا هريرة قال لمروان: إني أسلمت وهاجرت اختياراً وطوعاً، وأحببت رسول اللّه ﷺ حباً شديداً، وأنتم أهل الدار وموضع الدعوة، أخرجتم الداعي من أرضه، وآذيتموه وأصحابه، وتأخر إسلامكم عن إسلامي إلى الوقت المكروه إليكم. فندم مروان على كلامه له واتقاه.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا هارون بن معروف حدثنا محمد بن سلمة حدثنا محمد بن إسحاق عن عمر أو عثمان بن عروة عن أبيه ــ يعني عروة بن الزبير بن العوام ــ قال: قال لي أبي الزبير: أدنني من هذا اليماني ــ يعني أبا هريرة ــ فإنه يكثر الحديث عن رسول اللّه ﷺ، قال: فأدنيته منه، فجعل أبو هريرة يحدث، وجعل الزبير يقول: صدق، كذب صدق، كذب. قال: قلت: يا أبه ما قولك: صدق كذب؟ قال: يا بني أما أن يكون سمع هذه الأحاديث من رسول اللّه ﷺ فلا أشك، ولكن منها ما وضعه على مواضعه، ومنها ما وضعه على غير مواضعه.

وقال علي بن المديني عن وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي أنس بن أبي عامر. قال: كنت عند طلحة بن عبيد اللّه إذ دخل رجل فقال: يا أبا محمد واللّه ما ندري هذا اليماني أعلم برسول اللّه ﷺ منكم، أم يقول على رسول اللّه ﷺ ما لم يقل؟ فقال طلحة: واللّه ما نشك أنه سمع من رسول اللّه ﷺ ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، إنا كنا قوماً أغنياء، لنا بيوتات وأهلون، وكنا نأتي رسول اللّه ﷺ طرفي النهار ثم نرجع، وكان مسكينا لا مال له ولا أهل، وإنما كانت يده مع رسول اللّه ﷺ، وكان يدور معه حيثما دار، فما نشك أنه قد علم مالم نعلم وسمع مالم نسمع. وقد رواه الترمذي بنحوه [٣٨٣٧].

وقال شعبه عن أشعث بن سليم عن أبيه قال: سمعت أبا أيوب يحدث عن أبي هريرة فقيل له: أنت صاحب رسول اللّه ﷺ وتحدث عن أبي هريرة؟ فقال: إن أبا هريرة قد سمع ما لم نسمع، وإني أن أحدث عنه أحب إلي من أن أحدث عن رسول اللّه ﷺ ــ يعني ما لم أسمعه منه.

وقال مسلم بن الحجاج [تاريخ دمشق: ٢٣٩/١٩ من طريق مسلم به]: حدثنا عبد اللّه بن عبد الرحمن الدارمي حدثنا مروان الدمشقي عن الليث بن سعد حدثني بكير بن الأشج. قال: قال لنا بسر بن سعيد: اتقوا اللّه وتحفظوا من الحديث، فواللّه لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول اللّه ﷺ ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول اللّه ﷺ عن كعب، وحديث كعب عن رسول اللّه ﷺ، وفي رواية: يجعل ما قاله كعب عن رسول اللّه صلى ا لله عليه وسلم، وما قاله رسول اللّه صلى ا لله عليه وسلم عن كعب، فاتقوا اللّه وتحفظوا في الحديث.

وقال يزيد بن هارون: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلس - رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٩/٢٤٠].

وكان شعبة يشير بهذا إلى حديثه «من أصبح جنباً فلا صيام له» [مسند أحمد: ٢/٢٤٨] فإنه لما حوقق عليه قال: أخبرنيه مخبر ولم أسمعه من رسول الله ﷺ.

وقال شريك عن مغيرة عن إبراهيم. قال: كان أصحابنا يدعون من حديث أبي هريرة.

وروى الأعمش عن إبراهيم، قال: ما كانوا يأخذون بكل حديث أبي هريرة.

وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم قال: كانوا يرون في أحاديث أبي هريرة شيئاً، وما كانوا يأخذون من حديثه إلا ما كان من حديث جنة أو نار.

وقد انتصر ابن عساكر لأبي هريرة ورد هذا الذي قاله إبراهيم النخعي. وقد قال ما قاله إبراهيم طائفة من الكوفيين، والجمهور على خلافهم.

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم.

قال حماد بن زيد عن عباس الجريري عن أبي عثمان النهدي. قال: كان أبو هريرة يقوم ثلث الليل. وامرأته ثلثه، وابنته ثلثه، يقوم هذا ثم يوقظ هذا، ثم يوقظ هذا هذا.

وفي الصحيحين [خ (١١٧٨، ١٩٨١)، م (٧٢١، ٧٢٢)] عنه أنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وقال ابن جريج عمن حدثه. قال: قال أبو هريرة: إني أجزئ الليل ثلاثة أجزاء فجزءاً لقراءة القرآن، وجزءاً أنام فيه، وجزءاً أتذكر فيه حديث رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن سعد: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا إسحاق بن عثمان القرشي حدثنا أبو أيوب. قال: كان لأبي هريرة مسجد في مخدعه، ومسجد في بيته، ومسجد في حجرته، ومسجد على باب داره، إذا خرج صلى فيها جميعها، وإذا دخل صلى فيها جميعها.

وقال عكرمة: كان أبو هريرة يسبح كل يوم ثني عشرة ألف تسبيحة، يقول: أسبح على قدر ديني.

وقال هشيم عن يعلى بن عطاء عن ميمون بن أبي ميسرة. قال: كانت لأبي هريرة صيحتان في كل يوم، أول النهار صيحة يقول: ذهب الليل وجاء النهار وعرض آل فرعون على النار، وإذا كان العشي يقول: ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله من النار.

وقال عبد الله بن المبارك: حدثنا موسى بن عبيدة عن زياد بن ثوبان عن أبي هريرة. قال: لا تغبطن فاجراً بنعمة فإن من ورائه طالبا حثيثاً طلبه، ﴿جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال ابن لهيعة عن أبي يونس عن أبي هريرة أنه صلى بالناس يوما فلما سلم رفع صوته فقال: الحمد لله الذي جعل الدين قواما، وجعل أبا هريرة إماماً، بعدما كان أجيراً لابنة غزوان على شبع بطنه وحمولة رجله ثم يقول: والله يا أهل الإسلام إن كانت إجارتي معهم إلا على كسرة يابسة، وعقبة في ليلة غبراء مظلمة، ثم زوجنيها الله فكنت أركب إذا ركبوا، وأخدم إذا نزلوا وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: حدثنا عفان حدثنا سليم بن حيان قال: سمعت أبي يحدث عن أبي هريرة قال: نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي، أحدو بهم إذا ركبوا وأحتطب إذا نزلوا، فالحمد لله الذي جعل الدين قواما وجعل أبا هريرة إماماً.

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: حدثنا الحجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الحنفي عن عطاء بن أبي ميمونه عن أبي سلمة. قال: قال أبو هريرة وأبو ذر: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا، وباب نعلّمه عملنا به أو لم نعمل به، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاء طالب العلم الموت وهو على هذه الحال مات وهو شهيد» وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وروى غير واحد عن أبي هريرة أنه كان يتعوذ في سجوده أن يزني أو يسرق، أو يكفر أو يعمل كبيرة. فقيل له: أتخاف ذلك؟ فقال: ما يؤمنني وإبليس حي، ومصرّف القلوب يصرفها كيف يشاء؟.

وقالت له ابنته: يا أبة إن البنات يعيرنني يقلن: لم لا يحليك أبوك بالذهب؟ فقال: يا بنية قولي لهن: إن أبي يخشى علي حرّ اللّهب

وقال أبو هريرة: أتيت عمر بن الخطاب فقمت له وهو يسبح بعد الصلاة فانتظرته فلما انصرف دنوت منه فقلت: أقرئني آيات من كتاب الله، قال: وما أريد إلا الطعام، قال: فاقرأني آيات من سورة آل عمران، فلما بلغ أهله دخل وتركني على الباب، فقلت: ينزع ثيابه ثم يأمر لي بطعام، فلم أر شيئاً، فلما طال علي قمت فمشيت فاستقبلني رسول الله ﷺ فكلمني فقال: «يا أبا هريرة إن خلوف فمك الليلة لشديد؟» فقلت: أجل يا رسول الله لقد ظللت صائماً وما أفطرت بعد، وما أجد ما أفطر عليه، قال: «فانطلق»، فانطلقت معه حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال: «ائتنا بتلك القصعة» فأتتنا بقصعة فيها وضر من طعام أراه شعيراً قد أكل وبقي في جوانبها بعضه وهو يسير، فسميت وجعلت أتتبعه فأكلت حتى شبعت.

وقال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين أن أبا هريرة قال لابنته: لا تلبسي الذهب فإني أخشى عليك حر اللّهب.

وقد روي هذا عن أبي هريرة من طرق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن سماك بن حرب عن أبي الربيع عن أبي هريرة أنه قال: إن هذه الكناسة مهلكة دنياكم وآخرتكم، يعني الشهوات وما يأكلونه.

وروى الطبراني عن ابن سيرين عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب دعاه ليستعمله فأبى أن يعمل له، فقال: أتكره العمل وقد عمل من هو خير منك؟ أو قال: قد طلبه من هو خير منك؟ قال: من؟ قال: يوسف عليه السلام فقال أبو هريرة: يوسف نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أميمة، فأخشى ثلاثاً واثنتين. فقال عمر: أفلا قلت خمساً؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حكم، وأن يضرب ظهري، وينتزع مالي، ويشتم عرضي.

وقال سعيد بن أبي هند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك؟» فقلت: أسألك أن تعلمني مما علمك الله، قال: فنزعت نمرة على ظهري فبسطتها بيني وبينه

حتى كأني أنظر إلى القمل يدب عليها، فحدثني حتى إذا استوعب حديثه قال: «اجمعها إليك فصرها»، فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني.

وقال أبو عثمان النهدي: قلت لأبي هريرة: كيف تصوم؟ قال: أصوم أول الشهر ثلاثاً فإن حدث بي حدث كان لي أجر شهري.

قال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي عثمان النهدي أن أبا هريرة كان في سفر ومعه قوم فلما نزلوا وضعوا السفرة وبعثوا إليه ليأكل معهم فقال: إني صائم، فلما كادوا أن يفرغوا من أكلهم جاء فجعل يأكل، فجعل القوم ينظرون إلى رسولهم الذي أرسلوه إليه، فقال لهم: أراكم تنظرون إلي، قد والله أخبرني أنه صائم فقال أبو هريرة: صدق، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صوم شهر الصبر وصوم ثلاث أيام من كل شهر صوم الدهر» وقد صمت ثلاثة أيام من أول الشهر فأنا مفطر في تخفيف الله، صائم في تضعيف الله عز وجل.

وروى الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا إسماعيل عن أبي المتوكل عن أبي هريرة أنه كان هو وأصحاب له إذا صاموا يجلسون في المسجد وقالوا: نظهر صيامنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا عثمان الشحام أبو سلمة حدثنا فرقد السبخي قال: كان أبو هريرة يطوف بالبيت وهو يقول: ويل لي من بطني، إن أشبعته كظني، وإن أجعته أضعفني.

وروى الإمام أحمد عن عكرمة قال: قال أبو هريرة: إني لأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه كل يوم اثني عشر ألف مرة، وذلك على قدر ديتي.

وروى عبد الله بن أحمد عن أبي هريرة أنه كان له خيط فيه اثني عشر ألف عقدة يسبح به قبل أن ينام.

وفي رواية ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وهو أصح من الذي قبله.

ولما حضره الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلة زادي، وإني أصبحت في صعود مهبط على جنة ونار، لا أدري إلى أيهما يأخذ بي.

وروى قتيبة بن سعيد حدثنا الفرج بن فضالة عن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: إذا زوقتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم.

وروى الطبراني عن معمر قال: بلغني عن أبي هريرة أنه كان إذا مر بجنازة قال: روحوا فإنا غادون، أو اعدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، يذهب الأول ويبقى الآخر لا عقل له.

وقال الحافظ أبو بكر بن مالك: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبو بكر ليث بن خالد البلخي حدثنا عبد المؤمن بن عبد الله السدوسي. قال: سمعت أبا يزيد المديني يقول: قام أبو هريرة على منبر رسول الله ﷺ دون مقام رسول الله ﷺ بعتبة، فقال: ويل للعرب من شر قد اقترب، ويل لهم من إمارة الصبيان، يحكمون فيهم بالهوى ويقتلون بالغضب.

وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن ثابت عن أسامة بن زيد عن أبي زياد مولى ابن عباس عن أبي هريرة قال: كانت لي خمس عشر ثمرة فأفطرت على خمس وتسحرت بخمس وأبقيت خمساً لفطري.

وقال أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا إسماعيل - يعني العبدي - عن أبي المتوكل أن أبا هريرة كانت لهم زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع عليها يوماً السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشيتك به ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك، أحوج ما أكون إليه، اذهبي فأنت حرة لله عز وجل.

وروى حماد بن سلمة عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة أن أبا هريرة مرض فدخلت عليه أعوده فقلت: اللّهم اشف أبا هريرة فقال: اللّهم لا ترجعها ثم قال: يا أبا سلمة يوشك أن يأتي على الناس زمان يكون الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر.

وروى عطاء عن أبي هريرة قال: إذا رأيت ستاً فإن كانت نفس أحدكم في يده فليرسلها، فلذلك أتمنى الموت أخاف أن تدركني، إذا أُمِّرت السفهاء، وبيع الحكم، وتهوّن بالدم، وقطعت الأرحام، وكثرة الجلاوزة، ونشأ نَشْءٌ يتخذون القرآن مزامير.

وقال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث عن يزيد بن زياد القرظي أن ثعلبة بن أبي مالك القرظي حدثه أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ أمير لمروان بن الحكم فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك، فقلت: يرحمك الله يكفي هذا فقال: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه.

وله فضائل ومناقب ومآثر وكلام حسن ومواعظ جمة.

أسلم كما قدمنا عام خيبر، فلزم رسول الله ﷺ ولم يفارقه إلا حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، ووصاه به، فجعله العلاء مؤذناً بين يديه، وقال له أبو هريرة: لا تسبقني بـ«آمين» أيها الأمير. وقد استعمله عمر بن الخطاب عليها في أيام إمارته، وقاسمه مع جملة العمال.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين: أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال أي عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما. فقال: فمن أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي، وأعطية تتابعت علي. فنظروا فوجدوا كما قال. فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله فأبى أن يعمل له، فقال له: تكره العمل وقد طلبه من كان خيراً منك؟ طلبه يوسف عليه السلام، فقال: إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أميمة وأخشى ثلاثاً واثنين، قال عمر: فهلا قلت: خمسة؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حكم، أو يضرب ظهري، وينتزع مالي، ويشتم عرضي. وذكر غيره أن عمر أغرمه في العمالة الأولى اثني عشر ألفاً فلهذا امتنع في الثانية.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن محمد بن زياد. قال: كان معاوية يبعث أبا هريرة على المدينة فإذا غضب عليه عزله وولى مروان بن الحكم، فإذا جاء أبو هريرة إلى مروان حجبه عنه، فعزل مروان ورجع أبو هريرة، فقال لمولاه: من جاءك فلا ترده واحجب مروان، فلما جاء مروان دفع الغلام في صدره فما دخل إلا بعد جهد فلما دخل قال: إن الغلام حجبنا عنك، فقال له أبو هريرة: إنك أحق الناس أن لا تغضب من ذلك.

والمعروف أن مروان هو الذي كان يستنيب أبا هريرة في إمرة المدينة، ولكن كان يكون عن إذن معاوية في ذلك والله أعلم.

وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع: كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة فيركب الحمار ويلقى الرجل فيقول: الطريق قد جاء الأمير - يعني نفسه - وكان يمر بالصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب، فلا يشعرون به حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجلية كأنه مجنون، فيفزع الصبيان منه ويفرون.

قال أبو رافع: وربما دعاني أبو هريرة إلى عشائه بالليل فيقول: دع العُراق للأمير - يعني قطع اللحم - قال: فأنظر فإذا هو ثريد بزيت.

وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان: بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار، فلما كان الغد بعث إليه، إني غلطت ولم أردك بها، وإني إنما أردت غيرك. فقال أبو هريرة: قد أخرجتها فإذا خرج عطائي فخذها منه وكان قد تصدق بها وإنما أراد مروان اختباره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الأعلى بن عبد الجبار حدثنا حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: كان معاوية إذا أعطى أبا هريرة سكت، وإذا أمسك عنه تكلم.

وروى غير واحد عن أبي هريرة أنه جاءه شاب فقال: يا أبا هريرة إني أصبحت صائماً فدخلت على أبي فجاءني بخبز ولحم فأكلت ناسياً، فقال: طعمة أطعمكها الله لا عليك، قال: ثم دخلت داراً لأهلي فجيء بلبن لقحة فشربته ناسياً قال: لا عليك، قال: ثم نمت فاستيقظت فشربت ماء، وفي رواية: وجامعت ناسياً، فقال أبو هريرة: إنك يا ابن أخي لم تعوّد الصيام.

وروى غير واحد أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: على قلة الزاد وشدة المفازة، وأنا على عقبة هبوط إما إلى جنة أو إلى نار فما أدري إلى أيهما أصير.

وقال مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري. قال: دخل مروان على أبي هريرة في شكواه الذي مات فيه فقال: شفاك الله يا أبا هريرة. فقال أبو هريرة: اللّهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. قال: فما بلغ مروان أصحاب القطا حتى مات أبو هريرة.

وقال يعقوب بن سفيان عن دحيم عن الوليد عن ابن جابر عن عمير بن هانئ. قال: قال أبو هريرة: اللّهم لا تدركني سنة ستين، قال: فتوفي فيها أو قبلها بسنة.

وهكذا قال الواقدي: إنه توفي سنة تسع وخمسين، عن ثمان وسبعين سنة.

قال الواقدي: وهو الذي صلى على عائشة في رمضان، وعلى أم سلمة في شوال سنة تسع وخمسين، ثم توفي أبو هريرة بعدهما فيها. كذا قال، والصواب أن أم سلمة تأخرت بعد أبي هريرة.

وقد قال غير واحد: إنه توفي سنة تسع وخمسين وقيل ثمان، وقيل سبع وخمسين، والمشهور تسع وخمسين.

قالوا: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان نائب المدينة، وفي القوم ابن عمر وأبو سعيد وخلق من الصحابة وغيرهم، وكان ذلك عند صلاة العصر، وكانت وفاته في داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة فصلي عليه، ثم دفن بالبقيع رحمه الله ورضي عنه.

وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبي هريرة فكتب إليه معاوية: أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، واعمل إليهم معروفاً، فإنه كان عمن نصر عثمان، وكان معه في الدار رحمه الله تعالى.

سنة ستين من الهجرة النبوية

فيها كانت غزوة مالك بن عبد الله مدينة سورية.

قال الواقدي: وفيها دخل جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس وهدم مدينتها.

وفيها أخذ معاوية البيعة ليزيد من الوفد الذين قدموا صحبة عبيد الله بن زياد إلى دمشق.

وفيها مرض معاوية مرضه الذي توفي فيه في رجب منها كما سنبينه.

فروى ابن جرير [تاريخه:٣٢٢/٥] من طريق أبي مخنف: حدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها، دعا ابنه يزيد فقال: يا بني إني قد كفيتك الرحلة والرجال. ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتبَّ إلا أربعة نفر، الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. كذا قال والصحيح أن عبد الرحمن كان قد توفي قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا - فأما ابن عمر فهو رجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين فإن أهل العراق لا يدعونه حتى يخرجوه عليك، فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً. وأما ابن أبي بكر فرجل إن راى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله، ليست له همة إلا في النساء واللّهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، وإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً.

قال غير واحد: فحين حضرت معاوية الوفاة كان يزيد في الصيد، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري - وكان على شرطة دمشق - ومسلم بن عقبة فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام ويقولا له يتوصى بأهل الحجاز، وإن سأله أهل العراق في كل يوم أن يعزل عنهم عاملا ويولي عليهم آخر فليفعل، فعزل واحد أحب إليك من أن يُسل عليك مائة ألف سيف، وأن يتوصى بأهل الشام خيراً، وأن يجعلهم أنصاره، وأن يعرف لهم حقهم، ولست أخاف عليه من قريش سوى ثلاثة، الحسين، وابن عمر، وابن الزبير، ولم يذكر عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا أصح، فأما ابن عمر فقد وقذته العبادة، وأما الحسين فرجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله تعالى بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحما ماسة وحقا عظيما، وقرابة من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضب فإن شخص لك فالبدْ له إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن فعل فاقبل منه، واصفح عن دماء قومك ما استطعت.

وكان موت معاوية لاستهلال رجب من هذه السنة، قاله هشام بن الكلبي. وقيل للنصف منه، قاله الواقدي. وقيل يوم الخميس لثمان بقين منه، قاله المدائني.

قال ابن جرير [تاريخه:٣٢٣/٥، ٣٢٤] : وأجمعوا على أنه هلك في رجب منها، وكان مدة ملكه استقلالا من جمادى سنة إحدى وأربعين حين بايعه الحسن بن علي بأذرح، فذلك تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكان نائبا في الشام عشرين سنة، وقيل غير ذلك. وكان عمره ثلاثا وسبعين سنة، وقيل خمساً وسبعين سنة، وقيل ثمانيا وسبعين سنة، وقيل خمساً وثمانين سنة، وسيأتي بقية الكلام في ذلك آخر ترجمته.

وقال أبو السكين زكريا بن يحيى حدثني عم أبي زحر بن حصن عن جده حميد بن منهب. قال: كانت هند بنت عتبة عند الفاكه بن المغيرة المخزومي، وكان الفاكه من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن، فخلا ذلك البيت يوما فاضطجع الفاكه وهند فيه في وقت القائلة، ثم خرج الفاكه لبعض شأنه، وأقبل رجل ممن كان يغشاه فولج البيت فلما رأى المرأة فيه ولى هاربا، وأبصره الفاكه وهو خارج من

البيت، فأقبل إلى هند فضربها برجله وقال: من هذا الذي كان عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتني أنت، فقال لها: الحقي بأبيك، وتكلم فيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك، فأنبئيني نبأك، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسست إليه من يقتله فينقطع عنك القالة، وإن يك كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن، فحلفت له هند بما كانوا يحلفون في الجاهلية إنه لكاذب عليها، فقال عتبة للفاكه: يا هذا إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه في بعض جماعة من بني مخزوم معهم - أقاربه - وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها، فلما شارفوا البلاد وقالوا: غداً نرد على الكاهن، تنكرت حال هند وتغير وجهها. وقال لها أبوها: يا بنية قد أرى ما بك من تنكر الحال، وما ذاك أراه عندك إلا لمكروه فالاً كان هذا قبل أن ويشتهر في الناس مسيرنا؟ فقالت: والله يا أبتاه ما هذا الذي تراه مني لمكروه وقع مني، وإني لبريئة، ولكن هذا الذي تراه من الحزن وتغير الحال هو أني أعلم أنكم تأتون هذا الكاهن وهو بشر يخطئ ويصيب، ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون علي سبة في العرب. فقال لها أبوها: لا تخافي فإني سوف أختبره وأمتحنه قبل أن يتكلم في شأنك وأمرك، فإن أخطأ فيما أمتحنه به لم ادعه يتكلم في أمرك.

ثم إنه انفرد عن القوم - وكان راكباً مهراً - حتى توارى عنهم خلف رابية فنزل عن فرسه ثم صفر له حتى أدلى، ثم أخذ حبة بر فادخلها في إحليل المهر، وأوكى عليها بسير فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: إنا في جئناك في أمر، ولكن لا أدعك تتكلم فيه حتى تبين لنا ما خبأت لك، فإني قد خبأت لك خبيئاً فانظر ما هو، قال الكاهن: ثمرة في كمرة، قال: أريد أبين من هذا، قال: حبّةٌ من بُرٍّ في إحليل مهر، قال: صدقت فخذ لما جئناك له، انظر في أمر هؤلاء النسوة، فأجلس النساء خلفه وهند معهم لا يعرفها، ثم جعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ويقول: انهضي، حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية، ولتلدن ملكا يقال له معاوية. فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنثرت يدها من يده وقالت له: إليك عني، والله لا يجمع رأسي ورأسك وسادة، والله لأحرصن على أن يكون هذا الملك من غيرك، فتزوجها أبو سفيان بن حرب فجاءت منه بمعاوية.

وهذه ترجمة معاوية رضي الله عنه وذكر شيء من أيامه ودولته وما ورد في مناقبه وفضائله

هو

■ **معاوية بن أبي سفيان** صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، القرشي الأموي، أبو عبد الرحمن، خال المؤمنين، وكاتب وحي رسول رب العالمين. وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

أسلم معاوية عام الفتح، وروي عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه، فقلت له: لم آل نفسي جهداً. قال معاوية: ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي فجئته فرحب بي، وكتبت بين يديه.

قال الواقدي: وشهد معه حنينا، وأعطاه مائة من الإبل، وأربعين أوقية من ذهب، وزنها له بلال، وشهد اليمامة. وزعم بعضهم أنه هو الذي قتل مسيلمة الكذاب. حكاه ابن عساكر.

وقد يكون له شرك في قتله، وإنما الذي طعنه وحشي، وجلله أبو دجانة سماك بن خرشة بالسيف.

وكان أبوه من سادات قريش في الجاهلية، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة وآثار محمودة في يوم اليرموك وما قبله وما بعده.

وصحب معاوية رسول الله ﷺ، وكتب الوحي بين يديه مع الكتاب، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كان معاوية طويلا أبيض جميلا، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب.

حدثني محمد بن يزيد الأدمي حدثنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن أبي عبد رب قال: رأيت معاوية يصفر لحيته كأنها الذهب.

وقال غيره: كان أبيض طويلا أجلح أبيض الرأس واللحية يخضبهما بالحناء والكتم. وقد أصابته لِقْوة في آخر عمره، فكان يستر وجهه ويقول: رحم الله عبداً دعا لي بالعافية، فقد رميت في أحسني وما يبدو مني ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي، وكان حليما وقوراً رئيسا سيداً في الناس، كريما عادلا شهماً.

وقال المدائني عن صالح بن حسان قال: راى بعض متفرسي العرب معاوية وهو صبي صغير، فقال: إني لأظن هذا الغلام سيسود قومه، فقالت هند: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه.

وقال الشافعي: قال أبو هريرة: رأيت هنداً بمكة كأن وجهها فلقة قمر، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال: إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه، فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله. وهو معاوية بن أبي سفيان.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف قال: نظر أبو سفيان يوما إلى معاوية وهو غلام فقال لهند: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وأنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة. وكانت هند تحمله وهو صغير وتقول:

إنّ بُـني معرقٌ كريمُ ... محببٌ في أهلهِ حليمُ
ليسَ بفحاشٍ ولا لئيمُ ... ولا بطخرورٍ ولا سؤومُ
صخرُ بني فهرٍ بهِ زعيمُ ... لا يخلفُ الظنَّ ولا يخيمُ

قال: فلما ولى عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من الشام، خرج إليه معاوية فقال أبو سفيان لهند: كيف رأيت صار ابنك تابعاً لابني؟ فقالت: إن اضطرب حَبْلُ العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني. فلما مات يزيد بن أبي سفيان سنة بضع عشرة، وجاء البريد إلى عمر بموته، رد عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيه يزيد، ثم عزى أبا سفيان في ابنه يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخاه معاوية، قال: وصَلَتْك رحمٌ يا أمير المؤمنين.

وقالت هند لمعاوية فيما كتبت به إليه: والله يا بني إنه قل أن تلد حرة مثلك، وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت.

وقال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخيرنا فصاروا قادة، وصرنا أتباعا، وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد فنافس فيه فإن بلغته أورثته عقبك.

فلم يزل معاوية نائبا على الشام في الدولة العمرية والعثمانية مدة خلافة عثمان، وافتتح في سنة سبع وعشرين جزيرة قبرص وسكنها المسلمون قريبا من ستين سنة في أيامه ومن بعده، ولم تزل الفتوحات والجهاد قائما على ساقه في أيامه في بلاد الروم والفرنج وغيرها.

فلما كان من أمره وأمر أمير المؤمنين علي ما كان، لم يقع في تلك الأيام فتح بالكلية، لا على يديه ولا على يدي علي، وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخساه وأذله، وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة.

ثم كان من أمر التحكيم ما كان، وكذلك ما بعده إلى وقت اصطلاحه مع الحسن بن علي كما تقدم، فانعقدت الكلمة على معاوية، واجتمعت الرعايا على بيعته في سنة احدى وأربعين كما قدمنا، فلم يزل مستقلا بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عاليه، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو.

وقد ثبت في صحيح مسلم [٢٥٠١] من طريق عكرمة بن عمار عن أبي زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس. قال: قال أبو سفيان: يا رسول الله ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم»، قال: تؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم!» قال: ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك، قال: «نعم» وذكر الثالثة وهو أنه أراد أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى عزة بنت أبي سفيان، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فقال «إن ذلك لا يحل لي». وقد تكلمنا على ذلك في جزء مفرد، وذكرنا أقوال الأئمة واعتذارهم عنه ولله الحمد.

والمقصود منه أن معاوية كان من جملة الكتاب بين يدي رسول الله ﷺ الذين يكتبون الوحي.

وروى الإمام أحمد [١/٢٩١، ٣٣٥] ومسلم [٢٦٠٤] والحاكم في مستدركه من طريق أبي عوانة ـ الوضاح بن عبد الله اليشكري ـ عن أبي حمزة عمران بن أبي عطاء عن ابن عباس. قال: كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله ﷺ قد جاء فقلت: ما جاء إلا إلي، فاختبأت على باب فجاءني فحطاني حطاة، ثم قال: «اذهب فادع لي معاوية» وكان يكتب الوحي ـ قال: فذهبت فدعوته له فقيل: إنه يأكل، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إنه يأكل، فقال: اذهب فادعه، فأتيته الثانية فقيل: إنه يأكل فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال في الثالثة: «لا أشبع الله بطنه» قال: فما شبع بعدها.

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أما في الدنيا فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا ويقول: والله ما أشبع وإنما أعيى، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك. وأما في الآخرة فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه هو البخاري [٦٣٦١] وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة. أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربه وتقربه بها عندك يوم القيامة» فركّب مسلم من الحديث الأول.

وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك.

وقال المسيب بن واضح عن أبي إسحاق الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس. قال: أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أقرئ معاوية السلام واستوص به خيراً، فإنه أمين الله على كتابه ووحيه ونعم الأمين.

ثم أورده ابن عساكر من وجه آخر عن عبد الملك بن أبي سليمان، ثم أورده أيضا من رواية علي وجابر بن عبد الله «أن رسول الله ﷺ استشار جبريل في استكتابه معاوية، فقال: استكتبه فإنه أمين». ولكن في الأسانيد إليهما غرابة.

ثم أورد ثم عن علي في ذلك غرائب كثيرة وكذا عن غيره أيضا.

وقال أبو عوانة عن سليمان عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر الزبيدي عن عبد الله بن عمرو. قال: كان معاوية يكتب للنبي ﷺ

وقال أبو القاسم الطبراني [الأوسط(١٨٥٩)]: حدثنا أحمد بن محمد الصيدلاني حدثنا السري بن عاصم حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ، دق الباب داق، فقال النبي ﷺ : «انظروا من هذا؟» قالوا: معاوية، قال: «ائذنوا له»، فدخل وعلى أذنه قلم لم يخط به، فقال: «ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟» قال: قلم أعددته لله ولرسوله، فقال: «جزاك الله عن نبيك خيراً، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله، وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله. كيف بك لو قمصك الله قميصاً؟» يعني الخلافة، فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت: يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً؟ قال: «نعم» ولكن فيه هنات وهنات وهَنَات. فقالت: يا رسول الله فادع الله له، فقال: «اللّهم اهده بالهدى، وجنبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى». قال الطبراني تفرد به السري بن عاصم عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن هشام.

وقد أورد ابن عساكر من طريق شعيب بن إسحاق وغيره، عن هشام بن عروة فذكر بإسناده نحوه، وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها والله الموفق للصواب.

وقد أورد من طريق أبي هريرة وأنس وواثلة بن الأسقع مرفوعا: «الأمناء ثلاثة، جبريل، وأنا ومعاوية» ولا يصح من جميع وجوهه، ومن رواية ابن عباس: «الأمناء سبعة، القلم، واللوح، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، وأنا، ومعاوية» وهذا أنكر من الأحاديث التي قبله، وأضعف إسناداً.

وقال الإمام أحمد [٤/١٢٧]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية ـ يعني ابن صالح ـ عن يونس بن سيف عن الحارث بن زياد عن أبي رهم عن العرباض بن سارية السلمي. قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعونا إلى السحور في شهر رمضان: «هلم إلى الغداء المبارك»، ثم سمعته يقول: «اللّهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب» تفرد به أحمد.

ورواه ابن جرير من حديث ابن مهدي.

وكذلك رواه أسد بن موسى، وبشر بن السري، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح، بإسناده مثله. وفي رواية بشر بن السري «وأدخله الجنة» ورواه ابن عدي [الكامل:١٨١٠/٥] وغيره من حديث عثمان بن عبد الرحمن الجمحي عن عطاء عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»

وقال محمد بن سعد: حدثنا سليمان بن حرب والحسن بن موسى الأشيب قال: حدثنا أبو هلال محمد بن سليم حدثنا جبلة بن عطية عن مسلمة بن مخلّد، وقال الأشيب: قال أبو هلال أو عن رجل عن مسلمة بن مخلّد، وقال سليمان بن حرب أو حدثه مسلمة عن رجل أنه رأى معاوية يأكل فقال لعمرو بن العاص: إن ابن عمك هذا لَمِخْضَد قال: أما اني أقول لك هذا وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللّهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب».

وقد أرسله غير واحد من التابعين منهم الزهري وعروة بن رويم حريز بن عثمان الرحبي الحمصي، ويونس بن ميسرة بن حلبس.

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة وأحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الدمشقيان قالا: حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني - وكان من أصحاب النبي ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية: «اللّهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب»

قال ابن عساكر: وهذا غريب، والمحفوظ بهذا الإسناد حديث العرباض الذي تقدم.

ثم روى من طريق الطبراني عن أبي زرعة عن أبي مسهر عن سعيد عن ربيعة عن عبدالرحمن بن أبي عمير المزني. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لمعاوية: «اللّهم اجعله هاديا مهديا واهده واهد به»

وقال الإمام أحمد [٢١٦/٤]: حدثنا علي بن بحر حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الأزدي عن النبي ﷺ أنه ذكر معاوية فقال: «اللّهم اجعله هادياً مهدياً واهد به».

وهكذا رواه الترمذي [٣٨٤٣] عن محمد بن يحيى عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز به. وقال حسن غريب.

وقد رواه عمر بن عبد الواحد ومحمد بن سليمان الحراني كما رواه الوليد بن مسلم وأبو مسهر عن سعيد عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة.

ورواه محمد بن المصفى عن مروان بن محمد الطاطري عن سعيد بن عبدالعزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس عن ابن أبي عميرة أن رسول الله ﷺ دعا لمعاوية فقال: «اللّهم علمه العلم، واجعله هاديا مهديا، واهده واهد به».

وقد رواه سلمة بن شبيب وصفوان بن صالح وعيسى بن هلال وأبو الأزهر عن مروان الطاطري، ولم يذكروا أبا إدريس في إسناده.

ورواه الطبراني عن عبدان بن أحمد عن علي بن سهل الرملي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني. أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر معاوية فقال: «اللّهم اجعله هاديا مهديا واهده».

قال ابن عساكر: وقول الجماعة هو الصواب.

وقد اعتنى ابن عساكر بهذا الحديث وأطنب فيه وأطيب وأطرب، وافاد وأجاد، وأحسن الانتقاد، فرحمه الله، كم له من موطن قد برّز فيه على غيره من الحفاظ والنقاد.

وقال الترمذي [٣٨٤٣]: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن حلبس عن أبي إدريس الخولاني قال: لما عزل عمر بن الخطاب عمير بن سعد عن الشام وولى معاوية قال الناس: عزل عميراً وولى معاوية، فقال عمير: لاتذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللّهم اهد به».

تفرد به الترمذي وقال: غريب. وعمرو بن واقد ضعيف، هكذا ذكره أصحاب الأطراف [تحفة الأشراف:٢٠٥/٨] في مسند عمير بن سعيد الأنصاري. وعندي أنه ينبغي أن يكون من رواية عمر بن الخطاب، ويكون الصواب فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلا بخير. ليكون عذراً له في توليته له.

ومما يقوي هذا أن هشام بن عمار قال: حدثنا ابن أبي السائب - وهو عبد العزيز بن الوليد بن سليمان - قال: وسمعت أبي يذكر أن عمر بن الخطاب ولى معاوية بن أبي سفيان فقالوا: ولى حدث السن! فقال: تلومونني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللّهم اجعله هاديا واهد به». وهذا منقطع يقويه ما قبله.

قال الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح حدثنا نعيم بن حماد حدثنا محمد بن شعيب بن سابور حدثنا مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن عبد الله بن بسر أن رسول الله ﷺ: استشار أبا بكر وعمر في أمر فقال: «أشيرا عليّ» فقالا: الله ورسوله أعلم، فقال: «ادعوا معاوية». فقال أبو بكر وعمر: أما في رسول الله ﷺ ورجلين من رجال قريش ما يتقنون أمرهم، حتى يبعث رسول الله ﷺ إلى غلام من غلمان قريش؟ فقال: «ادعو لي معاوية» فدعي له، فلما وقف بين يديه قال رسول الله ﷺ: «أحضروه أمركم وأشهدوه أمركم، فإنه قوي أمين».

ورواه بعضهم عن نعيم وزاد «وحملوه أمركم».

ثم ساق ابن عساكر أحاديث كثيرة موضوعة بلا شك في فضل معاوية، أضربنا عنها صفحا، واكتفينا بما أوردناه من الأحاديث الصحاح والحسان والمستجادات عما سواها من الموضوعات والمنكرات.

ثم قال ابن عساكر: وأصح ما روي في فضل معاوية حديث أبي حمزة عن ابن عباس: أنه كان كاتب النبي ﷺ منذ أسلم. أخرجه مسلم في صحيحه [(١٦٠٤)(٩٦، ٩٧)]، وبعده حديث العرباض: «اللّهم علم معاوية الكتاب» وبعده حديث ابن أبي عميرة: «اللّهم اجعله هادياً مهدياً».

قلت: وقد قال البخاري في كتاب المناقب [٣٧٦٤]: ذكر معاوية بن أبي سفيان: حدثنا الحسن بن بشر حدثنا المعافى عن عثمان بن الأسود عن ابن أبي مليكة قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس، فقال: أوتر معاوية بركعة بعد العشاء بركعة، فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ.

حدثنا ابن أبي مريم حدثنا نافع بن عمر حدثنا ابن أبي مليكة. قال: قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؟ ما أوتر إلا بواحدة! قال: أصاب، إنه فقيه [٣٧٦٥].

حدثنا عمرو بن عباس حدثنا ابن جعفر حدثنا شعبة عن أبي التياح قال: سمعت حمران عن أبان عن معاوية. قال: إنكم لتصلون صلاة، لقد

صحبنا رسول الله ﷺ فما رأيناه يصليهما، ولقد نهى عنهما [٣٧٦٦] - يعني الركعتين بعد العصر.

ثم قال البخاري بعد ذلك [٣٨٢٥]: ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة: وقال عبدان حدثنا عبد الله حدثنا يونس عن الزهري حدثني عروة أنّ عائشة قالت: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحبُّ إليَّ أن يعزُّوا من أهل خبائك، فقال: «وأيضاً والذي نفسي بيده». فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: «لا أراه بالمعروف».

فالمدحة في قوله: «وأيضا والذي نفسي بيده» وهو أنه كان يود أن هنداً وأهلها وكل كافر يذلوا في حال كفرهم، فلما أسلموا كان يحب أن يعزوا فأعزهم الله - يعني أهل خبائها.

وقال الإمام أحمد [١٠١/٤]: حدثنا روح حدثنا أبو أمية عمرو بن يحيى بن سعيد قال. سمعت جدي يحدث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة فتبع رسول الله ﷺ بها - وكان أبو هريرة قد اشتكى - فبينما هو يوضىء رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل». قال معاوية: فما زلت أظن أني سأبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت. تفرد به أحمد.

ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي إسحاق الهمداني سعيد بن زنبور بن ثابت عن عمرو بن يحيى بن سعيد. ورواه ابن منده من حديث بشر بن الحكم عن عمرو بن يحيى به.

وقال أبو يعلى [مسنده(٧٣٨٠)]: حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده عن معاوية قال: اتبعت رسول الله ﷺ بوضوء، فلما توضأ نظر إلي فقال: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل» فما زلت أظن أني مبتلى بعمل لقول رسول الله ﷺ حتى وليت».

ورواه غالب القطان عن الحسن. قال: سمعت معاوية يخطب وهو يقول: صببت يوما على رسول الله ﷺ وضوءه فرفع رأسه إلي فقال: «أما إنك ستلي أمر أمتي بعدي، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم» وقال: فما زلت أرجو حتى قمت مقامي هذا.

وروى البيهقي [الدلائل:٤٤٦/٦] عن الحاكم بسنده إلى إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عبد الملك بن عمير، قال: قال معاوية: والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ: «يا معاوية، إن ملكت فأحسن» قال البيهقي: إسماعيل بن إبراهيم هذا ضعيف، إلا أن للحديث شواهد.

وروى ابن عساكر بإسناده عن نعيم بن حماد: حدثنا محمد بن حرب عن أبي بكر بن أبي مريم حدثنا محمد بن زياد عن عوف بن مالك الأشجعي قال: بينما أنا راقد في كنيسة يوحنا - وهي يومئذ مسجد يصلى فيها - إذ انتبهت من نومي فإذا أنا بأسد يمشي بين يدي، فوثبت إلى سلاحي، فقال الأسد: مه! إنما أرسلت إليك برسالة لتبلغها، قلت: ومن أرسلك؟ قال: الله أرسلني إليك لتبلغ معاوية السلام وتعلمه أنه من أهل الجنة، فقلت له: ومن معاوية؟ قال: معاوية بن أبي سفيان.

ورواه الطبراني عن أبي يزيد القراطيسي عن المعلى بن الوليد القعقاعي عن محمد بن حرب الخولاني عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، وفيه ضعف وهذا غريب جدا، ولعل الجميع منامًا! ويكون قوله: «إذ انتبهت من نومي» مدرجاً لم يضبطه ابن أبي مريم، والله أعلم.

وقال محمد بن عائذ عن الوليد عن ابن لهيعة عن يونس عن الزهري. قال: قدم عمر الجابية فنزع شرحبيل وأمر عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر، وبقي الشام على أميرين أبي عبيدة ويزيد، ثم توفي أبو عبيدة فاستخلف عياض بن غنم، ثم توفي يزيد فأمر معاوية مكانه، ثم نعاه عمر لأبي سفيان، فقال لأبي سفيان: احتسب يزيد بن أبي سفيان، قال: من أمرت مكانه؟ قال: معاوية، فقال: وصَلَتْك يا أمير المؤمنين رحمٌ، فكان على الشام معاوية، وعمير بن سعد حتى قتل عمر، رضي الله عنهم.

وقال محمد بن إسحاق: مات أبو عبيدة في طاعون عمواس واستخلف معاذاً، فمات معاذ واستخلف يزيد بن أبي سفيان، فمات واستخلف أخاه معاوية فأقره عمر، وولى عمرو بن العاص فلسطين والأردن، ومعاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص، ثم جمع الشام كلها لمعاوية بن أبي سفيان، ثم استمرّ به عثمان بن عفان على الشام.

وقال إسماعيل بن أمية: أفرد عمر معاوية بإمرة الشام، وجعل له في كل شهر ثمانين ديناراً.

والصواب أن الذي جمع لمعاوية الشام كلها عثمان بن عفان، وأما عمر إنما ولاه بعض أعمالها.

وقال بعضهم: لما عزيت هند في يزيد بن أبي سفيان- ولم يكن منها قيل لها: إنه قد جعل معاوية أميراً مكانه فقالت: أو مثل معاوية يجعل خلفاً من أحد؟ فوالله لو أن العرب اجتمعت متوافرة ثم رمي به فيها لخرج من أي أعراضها شاء.

وقال آخرون: ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك في الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن قدامة الجوهري حدثني عبد العزيز بن بحر عن شيخ له. قال: لما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم، فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: مع ما بلغك من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن يظهر من عز السلطان ما يرهبهم به، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضِّرْس، لئن كان ما قلت حقا إنه لرأي أريب، ولئن كان باطلا إنه لخديعة أديب. قال: فمرني يا أمير المؤمنين، قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه؟ فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه.

وفي رواية أن معاوية تلقى عمر حين قدم الشام، ومعاوية في موكب كثيف، فاجتاز بعمر وهو وعبد الرحمن بن عوف راكبان على حمار، ولم يشعر بهما، فقيل له: إنك جاوزت أمير المؤمنين، فرجع، فلما رأى عمر ترجل وجعل يقول له ما ذكرنا، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما أحسن ما صدر عما أوردته فيه يا أمير المؤمنين!؟ فقال: من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه.

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد [ص٥٧٦]: أخبرنا محمد بن أبي ذئب عن مسلم بن جندب عن أسلم مولى عمر قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبضّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر

ينظر إليه فيعجب له، ثم يضع أصبعه على مَتْنه ثم يرفعها عن مثل الشراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذاً خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة. فقال معاوية: يا أمير المؤمنين سأحدثك إنّا بأرض الحمامات والريف، فقال عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك، وذوو الحاجات وراء الباب! قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجا تَفِلاً حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما؟! فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي أو قومي، والله لقد بلغني أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم أني لقد عرفت الحياء فيه، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني أبي عن هشام بن محمد عن أبي عبد الرحمن المدني. قال: كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب. وهكذا حكى المدائني عن عمر أنه قال ذلك.

وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده. قال: دخل معاوية على عمر عليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين الله الله فيّ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين؟ وما في قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيراً، وما بلغني إلا خير، ولكني رأيته - وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه. وقد قال أبو داود [٢٩٤٨]: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا ابن أبي مريم أن القاسم بن مخيمرة أخبره أن أبا مريم الأزدي أخبره. قال: دخلت على معاوية فقال: ما أنعمنا بك أبا فلان - وهي كلمة تقولها العرب - فقلت: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره». قال: فجعل رجلا على حوائج الناس. ورواه الترمذي [١٣٣٣] وغيره.

وقال الإمام أحمد [١٠٠/٤]: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا حبيب بن الشهيد عن أبي مجلز. قال: خرج معاوية على الناس فقاموا له فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

وفي رواية [٩٣/٤] قال: خرج معاوية على ابن عامر وابن الزبير فقام له ابن عامر ولم يقم له ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس! فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثّل له العباد قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

ورواه أبو داود [٥٢٢٩] والترمذي [٢٧٥٥] من حديث حبيب بن الشهيد، وقال الترمذي: حديث حسن.

وروى أبو داود [٤٨٨٨] من حديث الثوري عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد المقرائي الحمصي عن معاوية. قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية نفعه الله بها.

تفرد به أبو داود - يعني أنه كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر رحمه الله تعالى.

وثبت في الصحيحين [خ(٧١)، م(١٠٣٧)] من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن معاوية. أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون».

وفي رواية [خ(٣٦٤١)] «وهم على ذلك».

وقد خطب معاوية بهذا الحديث مرة ثم قال: وهذا مالك بن يخامر يخبر عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال وهم بالشام - فحثّ بهذا أهل الشام على مناجزة أهل العراق: «وإن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها».

وهذا مما كان يحتج به معاوية لأهل الشام في قتالهم أهل العراق.

وقال الليث بن سعد: فتح معاوية قيسارية سنة تسع عشرة في دولة عمر بن الخطاب.

وقال غيره: وفتح قبرص سنة خمس وقيل: سنة سبع، وقيل ثمان وعشرين في أيام عثمان.

قالوا: وكان عام غزوة المضيق - يعني مضيق القسطنطينية - في سنة اثنتين وثلاثين الأمير على الناس عامئذ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وجمع عثمان لمعاوية جميع الشام، وقد استقضى معاوية فضالة بن عبيد بعد أبي الدرداء، ثم كان ما كان بينه وبين علي بعد قتل عثمان على سبيل الاجتهاد والرأي، فجرى بينهما قتال عظيم كما قدمنا، وكان الحق والصواب مع علي، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين من الطرفين - أهل العراق وأهل الشام - كما ثبت في الحديث الصحيح [م(١٠٦٥)]: «تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» فكانت المارقة الخوارج، وقتلهم علي وأصحابه، ثم قتل علي فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين، وكان يغزو الروم في كل سنة مرتين، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ويأمر رجلا من قومه فيحج بالناس، وحج بالناس معاوية سنة خمسين، وحج ابنه يزيد سنة إحدى وخمسين، وفيها أو في التي بعدها أغزاه بلاد الروم فقد تقدم ذلك كله. فسار معه خلق كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر القسطنطينية، وقد ثبت في الصحيح [خ(٢٩٢٤)]: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم».

وقال وكيع عن الأعمش عن أبي صالح، قال: كان الحادي يحدو بعثمان فيقول:

إن الأميرَ بعدَهُ علي ... وفي الزبيرِ خلفٌ مرضيُّ

فقال كعب: بل هو صاحب البغلة الشهباء - يعني معاوية - فأتاه معاوية فقال: يا أبا أسحاق تقول هذا وههنا علي والزبير وأصحاب محمد ﷺ؟ فقال: أنت صاحبها.

ورواه سيف عن بدر بن الخليل عن عثمان بن عطية الأسدي عن رجل من بني أسد. قال: ما زال معاوية يطمع فيها منذ سمع الحادي في أيام عثمان يقول:

إن الأميرَ بعدَهُ علي ... وفي الزبيرِ خلفٌ مرضيُّ

فقال كعب: كذبت! بل صاحب البغلة الشهباء بعده - يعني معاوية - فقال له معاوية في ذلك فقال: نعم أنت الأمير بعده، ولكنها والله لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي هذا. فوقعت في نفس معاوية.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباد المكي حدثنا سفيان بن عيينة

عن أبي هارون قال: قال عمر: إياكم والفرقة بعدي، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام، وستعلمون إذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها دونكم.

ورواه الواقدي من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه.

وقد روى ابن عساكر عن عامر الشعبي أن عليا حين بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية قبل وقعة صفين - وذلك حين عزم علي على قصد الشام، وجمع الجيوش لذلك - وكتب معه كتابا إلى معاوية يذكر له فيه أنه قد لزمته بيعته، لأنه قد بايعه المهاجرون والأنصار، فإن لم تبايع استعنت بالله عليك وقاتلتك، وقد أكثرت القول في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله... في كلام طويل. وقد قدمنا أكثره فيما سلف، فقرأه معاوية على الناس وقام جرير فخطب الناس، وأمر في خطبته معاوية بالسمع والطاعة، وحذره من المخالفة والمعاندة، ونهاه عن إيقاع الفتنة بين الناس، وأن يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف. فقال له معاوية: انتظر حتى آخذ رأي أهل الشام، فلما كان بعد ذلك أمر معاوية منادياً فنادى في الناس: الصلاة جامعة.

فلما اجتمع الناس صعد المنبر فخطب فقال: الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانا، والشرائع للإيمان برهاناً يتوقد مصباحه بالسنة في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده فأحلها أهل الشام ورضيهم لها، ورضيها لهم، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم أولياءه فيها، والقوام بأمره، الذابين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما، وفي أعلام الخير عظاماً، يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم أُلفة المؤمنين، والله نستعين على إصلاح ما تشعث من أمور المسلمين، وتباعد بينهم بعد القرب والألفة، اللهم انصرنا على قوم يوقظون نائمنا، ويخيفون آمننا، ويريدون هراقة دمائنا، وإخافة سبيلنا، وقد يعلم الله أنا لا نريد لهم عقابا، ولا نهتك لهم حجاباً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى، وسقط الندى، وعرف الهدى، وقد علمنا أن الذي حملهم على خلافنا البغي والحسد لنا، فالله نستعين عليهم.

أيها الناس! قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأني خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم، وأني لم أقم رجلا منكم على خزاية قط، وأني ولي عثمان وابن عمه، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وقد علمتم أنه قتل مظلوماً، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقال أهل الشام بأجمعهم: بل نطلب بدمه، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، ووثقوا له أن يبذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم، أو يدركوا بثاره، أو يفني الله أرواحهم قبل ذلك.

فلما رأى جرير من طاعة أهل الشام لمعاوية ما رأى، أفزعه ذلك، وعجب منه. وقال معاوية لجرير: إن ولاني علي الشام ومصر بايعته على أن لا يكون لأحد بعده علي بيعة، فقال: اكتب إلى علي بما شئت، وأنا أكتب معك.

فلما بلغ علياً الكتاب قال: هذه خديعة، وقد سألني المغيرة بن شعبة أن أولي معاوية الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. ثم كتب إلى جرير بالقدوم عليه، فما قدم إلا وقد اجتمعت العساكر إلى علي، وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص - وكان معتزلا بفلسطين حين قتل عثمان - وكان عثمان قد عزله عن مصر فكتب إليه معاوية يستدعيه ليستشيره في أموره، فركب إليه فاجتمعا على حرب علي.

وقد قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط في كتاب معاوية إلى علي حين سأله نيابة الشام ومصر، فكتب إلى معاوية يؤنبه ويلومه على ذلك ويعرض بأشياء فيه.

معاوي إن الشام شامكَ فاعتصم ... بشامكَ لا تدخل عليكَ الأفاعيا
وحامِ علياً بالقبائل والقنا ... ولاتكُ مخشوش الذراعين وانيا
فإنَّ علياً ناظرٌ ما تجيبُه ... فأهدِ لهُ حرباً يشيبُ النواصيا
وإلا فسلم إن في الأمنِ راحة ... لمنْ لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإنَّ كتابا يا ابن حربٍ كتبتهُ ... على طمعٍ جانٍ عليكَ الدواهيا
سألتَ علياً فيهِ مالا تنالهُ ... ولو نلتهُ لم يبقَ إلا لياليا
إلى أنْ ترى منهُ الذي ليسَ بعدها ... بقاءٌ فلا تكثرْ عليكَ الأمانيا
ومثلُ علي تغترَّه بخدعةٍ ... وقد كانَ ما جربتَ من قبل كافيا
ولوْ نشبتْ أظفارهُ فيكَ مرةً ... حذاكَ ابنَ هندٍ بعدَ ما كنتَ حاذيا

وقد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: أنت تنازع عليا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه وأمره إلي؟ فقولوا له: فليسلم إلي قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره. فأتوا عليا فكلموه في ذلك فلم يدفع إليهم أحداً، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية.

وعن عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي وأبي جعفر الباقر. قال: بعث علي رجلا إلى دمشق ينذرهم أن عليا قد نهد في أهل العراق إليكم ليستعلم طاعتهم لمعاوية، فلما قدم أمر معاوية فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فملؤوا المسجد ثم صعد المنبر فقال في خطبته: إن عليا قد نهد إليكم في أهل العراق فما الرأي؟ فضرب كل منهم على صدره، ولم يتكلم أحد منهم، ولا رفعوا إليه أبصارهم، وقام ذو الكلاع فقال: يا أمير المؤمنين عليك الرأي وعلينا امفعال يعني الفعال -، ثم نادى معاوية في الناس: أن اخرجوا إلى معسكركم في ثلاث، فمن تخلف فقد أحل بنفسه. فاجتمعوا كلهم، فركب ذلك الرجل إلى علي فأخبره، فأمر علي منادياً فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمعوا فصعد المنبر فقال: إن معاوية قد جمع الناس لحربكم، فما الرأي؟ فقال كل فريق منهم مقالة، واختلط كلام بعضهم في بعض، فلم يدر علي مما قالوا شيئا، فنزل عن المنبر وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب والله بها ابن آكلة الأكباد.

ثم كان من أمر الفريقين بصفين ما كان، كما ذكرنا. مبسوطاً في سنة ست وثلاثين.

وقد قال أبو بكر بن دريد: أنبأنا أبو حاتم عن أبي عبيدة. قال: قال معاوية: لقد وضعت رجلي في الركاب وهممت يوم صفين بالهزيمة، فما منعني إلا قول ابن الإطنابة حيث يقول: -

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمنِ الربيحِ
وإكراهي على المكروهِ نفسي ... وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانكِ تحمدي أو تستريحي

وروى البيهقي عن الإمام أحمد أنه قال: الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فقيل له: فمعاوية؟ قال: لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمان علي من علي، ورحم الله معاوية.

وقال علي بن المديني: سمعت سفيان بن عيينة يقول: ما كانت في علي

خصلة تقصر به عن الخلافة، ولم يكن في معاوية خصلة ينازع علياً بها.

وقيل لشريك القاضي: كان معاوية حليما؟ فقال: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علياً. رواه ابن عساكر.

وقال سفيان الثوري عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه ذكر معاوية وأنه لبى عشية عرفة فقال فيه قولا شديداً، ثم بلغه ان علياً لبى عشية عرفة فتركه.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني عباد بن موسى حدثنا علي بن ثابت الجزري عن سعيد بن أبي عروبة عن عمر بن عبد العزيز. قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت وجلست، فبينا أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية، فأدخلا بيتا وأجيف الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قُضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

وروى ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي أنه قال له رجل: إني أبغض معاوية، فقال له: ولم؟ قال: لأنه قاتل علياً، فقال له أبو زرعة: ويحك إن رب معاوية ربٌّ رحيم، وخصم معاوية خصمٌ كريم، فأيش دخولك أنت بينهما؟! رضي الله عنهما.

وسئل الإمام أحمد عما جرى بين علي ومعاوية فقرأ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال الأوزاعي: سئل الحسن عما جرى بين علي وعثمان فقال: كانت لهذا سابقة ولهذا سابقة، ولهذا قرابة ولهذا قرابة، فابتلي هذا وعوفي هذا. وسئل عما جرى بين علي ومعاوية فقال: كانت لهذا قرابة ولهذا قرابة، ولهذا سابقة ولم يكن لهذا سابقة، فابتليا جميعاً.

وقال كلثوم بن جوشن: سأل النضر أبو عمر الحسن البصري فقال: أبو بكر أفضل أم علي؟ فقال: سبحان الله ولا سواء، سبقت لعلي سوابق شركه فيها أبو بكر، وأحدث علي أحداثاً لم يشركه فيها أبو بكر، أبو بكر أفضل. قال: فعمر أفضل أم علي؟ فقال: مثل قوله الأول في أبي بكر، ثم قال: عمر أفضل، ثم قال: عثمان أفضل أم علي؟ فقال مثل قوله الأول، ثم قال: عثمان أفضل. قال: فعلي أفضل أم معاوية؟ فقال: سبحان الله ولا سواء! سبقت لعلي سوابق لم يشركه فيها معاوية، وأحدث علي أحداثاً شركه فيها معاوية، علي أفضل من معاوية.

وقد روي عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله علياً، وقتله حجر بن عدي، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه.

وقال جرير بن عبد الحميد عن مغيرة. قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم. وفي رواية أنها قالت له بالأمس تقاتله واليوم تبكينه؟!

قلت: وقد كان مقتل علي في رمضان سنة أربعين كما قدمنا، ولهذا قال الليث بن سعد: إن معاوية بويع له بإيلياء بيعة الجماعة، ودخل الكوفة سنة أربعين.

والصحيح الذي قاله ابن إسحاق والجمهور أنه بويع له بإيلياء في رمضان سنة أربعين حين بلغ أهل الشام مقتل علي، ولكنه إنما دخل الكوفة بعد مصالحة الحسن له في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وهو عام الجماعة، وذلك بمكان يقال له أذرُح، وقيل: بمسكن من أرض سواد العراق من ناحية الأنبار، فاستقل معاوية بالأمر إلى أن مات سنة ستين.

وقد قال بعضهم: كان نقش خاتم معاوية: لكل عمل ثواب. وقيل بل كان: لا قوة إلا بالله.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وسعيد بن منصور قالا: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن سويد. قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة يعني خارج الكوفة الجمعة في الضحى ثم خطبنا فقال: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد اعطاني الله ذلك وأنتم كارهون.

ورواه محمد بن سعد عن يعلى بن عبيد عن الأعمش به.

وقال محمد بن سعد: حدثنا عارم حدثنا حماد بن زيد عن معمر عن الزهري أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه، ثم إنه بَعِدَ.

وقال نعيم بن حماد: حدثنا ابن فضيل عن السري بن إسماعيل عن الشعبي حدثني سفيان بن الليل قال: قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة: يا مذل المؤمنين، قال: لا تقل ذلك فإني سمعت أبي يقول: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية». فعلمت أن أمر الله واقع، فكرهت أن تهراق بيني وبينه دماء المسلمين.

وقال مجالد عن الشعبي عن الحارث الأعور. قال: قال علي بعدما رجع من صفين: أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل.

وقال ابن عساكر بإسناده عن أبي داود الطيالسي: حدثنا أيوب بن جابر عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد قال: قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد ﷺ في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة.

وقال الزهري: حدثني القاسم بن محمد أن معاوية حين قدم المدينة يريد الحج دخل على عائشة فكلمها خاليين لم يشهد كلامهما أحد إلا ذكوان أبو عمرو مولى عائشة، فقالت: أمنتَ أن أُخبِّئ لك رجلا يقتلك بقتلك أخي محمداً؟ فقال: صدقت. فكلّمها معاوية. فلما قضى كلامه معها تشهدت عائشة ثم ذكرت ما بعث الله به نبيه ﷺ من الهدى ودين الحق، والذي سن الخلفاء بعده، وحضّت معاوية على اتباع أمرهم، فقالت في ذلك فلم تَتْرك، فلما قضت مقالتها قال لها معاوية: أنت والله العالمة بأمر رسول الله ﷺ، الناصحة المشفقة البليغة الموعظة، حضضت على الخير، وأمرت به، ولم تأمرينا إلا بالذي هو لنا، وأنت أهل أن تطاعي. وتكلمت هي ومعاوية كلاماً كثيراً. فلما قام معاوية اتكأ على ذكوان وقال: والله ما سمعت خطيباً ليس رسول الله ﷺ أبلغ من عائشة.

وقال محمد بن سعد: حدثنا خالد بن مخلد البجلي حدثنا سليمان بن بلال حدثني علقمة بن أبي علقمة عن أمه. قالت: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة فأرسل إلى عائشة: أن أرسلي إليَّ بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره، فأرسلت به معي أحمله، حتى دخلت به عليه، فأخذ الأنبجانية فلبسها، واخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده.

وقال الأصمعي عن الهذلي عن الشعبي قال: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك وأعلى امرك فما رد عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد وعلا

المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد! فإني والله ما وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة، ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت عليّ وأين مثل هؤلاء؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم؟ رحمة الله ورضوانه عليهم، غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك. ولكل فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دُبُر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه، فإنها ليست بقائبة قوبها، وإن السيل إذا جاء تَتْرى، وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لي ولكم. ثم نزل.

قال أهل اللغة: القائبة البيضة، والقوب: الفرخ، قابت البيضة تقوب: إذا انفلقت عن الفرخ ــ.

والظاهر أن هذه الخطبة كانت عام حج في سنة أربع وأربعين، أو في سنة خمسين، لا في عام الجماعة.

وقال الليث: حدثني علوان بن داود، عن صالح بن كيسان أن معاوية قدم المدينة أول حجة حجها بعد اجتماع الناس عليه فلقيه الحسن والحسين ورجال من قريش، فتوجه إلى دار عثمان بن عفان، فلما دنا إلى باب الدار صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها، فقال معاوية لمن معه: انصرفوا إلى منازلكم فإن لي حاجة في هذه الدار، فانصرفوا ودخل فسكّن عائشة بنت عثمان، وأمرها بالكف وقال لها: يا بنت أخي إن الناس أعطونا سلطاناً فأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا، وباعونا هذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا شحّوا على حقّهم، ومع كل إنسان منهم شيعته، وهو يرى مكان شيعتهم، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا؟ وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني أمة من إماء المسلمين، ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك. وقد روى ابن عدي من طريق علي بن زيد – وهو ضعيف – عن أبي نضرة عن أبي سعيد ومن حديث مجالد وهو ضعيف أيضاً عن أبي الوداك عن أبي سعيد. أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه».

وأسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهير ـ وهو متروك ـ عن عاصم عن زر عن ابن مسعود مرفوعاً.

وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم. وأرسله عمرو بن عبيد عن الحسن البصري، قال أيوب: وهو كذب. ورواه الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد:٢٥٩/١] بإسناد مجهول عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: «إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه فإنه أمين مأمون».

وقد قال أبو زرعة الدمشقي [تاريخه:١٨٩/١، ١٩٠] عن دحيم عن الوليد عن الأوزاعي قال: أدركت خلافة معاوية عدة من الصحابة منهم أسامة وسعد وجابر وابن عمر وزيد بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد ورافع بن خديج وأبو أمامة وأنس بن مالك، ورجال أكثر ممن سمّينا بأضعاف مضاعفة كانوا مصابيح الهدى وأوعية العلم حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله. ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير وعبد الله بن محيريز، في أشباه لهم لم ينتزعوا يداً من جماعة في أمة محمد ﷺ.

وقال أبو زرعة [تاريخه:١٨٨/١] عن دحيم عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز. قال: لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو، حتى كان عام الجماعة فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة تذهب سرية في الصيف وتشتوا بأرض الروم ثم تقفل وتعقبها أخرى. وكان في جملة من أغزى ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة، فجاز بهم الخليج، وقاتل أهل القسطنطينية على بابها، ثم قفل بهم، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شدُّوا خناق الروم.

وقال ابن وهب عن يونس عن الزهري قال: حج معاوية بالناس في أيام خلافته مرتين، وكانت أيامه عشرين سنة إلا شهراً. وقال أبو بكر بن عياش: حج بالناس معاوية في أيام خلافته مرتين، وكانت أيامه عشرين سنة إلا أشهر.

وقال أبو بكر بن عياش: حج بالناس معاوية سنة أربع وأربعين، وسنة خمسين.

وقال غيره: سنة إحدى وخمسين فالله أعلم.

وقال الليث بن سعد: حدثنا بكير عن بسر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب ـ يعني معاوية ـ.

وقال عبد الرزاق [المصنف(٢٠٧١٧)]: حدثنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن حدثنا المسور بن مخرمة أنه وفد على معاوية. قال: فلما دخلت عليه ـ حسبت أنه قال: سلمت عليه ـ فقال: ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور؟ قال: قلت: ارفضنا عن هذا وأحسن فيما قدمنا له، فقال لتكلمني بذات نفسك، قال: فلم أدع شيئاً أعيبه عليه إلا أخبرته به، فقال لا براء من الذنوب، فهل لك من ذنوب تخاف أن تهلكك إن لم يغفرها الله لك؟ قال: قلت: نعم! قال: فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو المغفرة مني، فوالله لما ألي من إقامة الحدود والجهاد في سبيل الله والأمور العظام التي تحصيها والتي لا تحصيها أكثر مما تلي وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات والله على ذلك ما كنت لأخيَّر بين الله وغيره إلا اخترت الله على ما سواه، قال: ففكرت حين قال لي ما قال فعرفت أنه قد خصمني. قال: فكان المسور إذا ذكره بعد ذلك دعا له بخير.

وقد رواه شعيب عن الزهري عن عروة عن المسور بنحوه.

وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي قال: قال معاوية: يا أيها الناس! ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدركم حلباً.

وقد رواه محمد عن ابن سعد عن محمد بن مصعب عن أبي بكر بن أبي مريم عن ثابت مولى سفيان أنه سمع معاوية يقول نحو ذلك.

وقال هشام بن عمار خطيب دمشق: حدثنا عمرو بن واقد حدثنا يونس بن حلبس قال: سمعت معاوية على منبر دمشق يوم جمعة يقول: أيها الناس اعقلوا قولي فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة، فلتقيمنّ وجوهكم وصفوفكم، أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدي سفهائكم أو ليسلطن الله عليكم فليسومنكم سوء العذاب. تصدقوا ولا يقولن الرجل إني مقلٌّ فإن

صدقة المقلّ أفضل من صدقة الغني، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت وبلغني، فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يزيد بن طهمان الرقاشي حدثنا محمد بن سيرين. قال: كان معاوية إذا حدث عن رسول الله ﷺ لم يتهم.

وروى أبو القاسم البغوي عن سويد بن سعيد عن ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل، قال: كان معاوية يبعث رجلا يقال له أبو الجيش في كل يوم فيدور على المجالس يسأل: هل ولد لأحد مولود؟ أو قدم أحد من الوفود؟ فإذا أخبر بذلك أثبت في الديوان - يعني ليجري عليه الرزق. وقال غيره: كان معاوية متواضعاً ليس له مجالد إلا كمجالد الصبيان التي يسمونها المخاريق فيضرب بها الناس.

وقال هشام بن عمار عن عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة بن حلبس. قال: رأيت معاوية في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً عليه قميص مرقوع الجيب، وهو يسير في أسواق دمشق.

وقال الأعمش عن مجاهد إنه قال: لو رأيتم معاوية لقلتم: هذا المهدي.

وقال هشيم عن العوام عن جبلة بن سحيم عن ابن عمرو. قال: ما رأيت أحداً أسود من معاوية، قال: كان عمر قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه، وكان معاوية أسود منه.

ورواه أبو سفيان الحيري عن العوام بن حوشب به. قال: ما رأيت احد بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية قيل: ولا أبو بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود منهم.

وروي من طرق عن ابن عمر مثله.

وقال عبد الرزاق [المصنف(٢٠٩٨٥)]: عن معمر عن همام سمعت ابن عباس يقول: ما رأيت رجلا كان أخلق بالملك من معاوية.

وقال حنبل بن إسحاق: حدثنا أبو نعيم حدثنا ابن أبي عتبة عن شيخ من أهل المدينة قال قال معاوية: أنا أول الملوك.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة عن ابن شوذب قال: كان معاوية يقول: أنا أول الملوك وآخر خليفة.

قلت: والسنة أن يقال لمعاوية ملك، ولا يقال له خليفة لحديث سفينة: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً عضوضاً» [مسند احمد:٥/٢٢١] .

وقال عبد الملك بن مروان يوماً وذكر معاوية فقال: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه.

وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حلماً ولا أكثر سؤدداً ولا أبعد أناة ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية.

وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه؟ فقال: إني لأستحيي أن يضيق حلمي عن أحد من رعيتي.

وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك؟ فقال: إني لأستحيي أن يكون جرم رجل أعظم من حلمي.

وقال الأصمعي عن الثوري: قال قال معاوية: إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بستري.

وقال الشعبي والأصمعي عن أبيه قالا: جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلام فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غمّ لمعاوية فاطرق. ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس. ثم أمر له بمال فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية على حلمه:

نميل على جوانبه كأنّا ... إذا مِلْنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرما ولينا

وقال الأعمش: طاف الحسن بن علي مع معاوية يمشي بين يديه، فقال الحسن: ما أشبه أليته بأليتي هند؟ فالتفت إليه معاوية فقال: أما إنه كان يعجب أبا سفيان.

وقال ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم لمعاوية: إن فلاناً يشتمني، فقال له: تطأطأ لها فتمر فتجاوزك.

وقال ابن الأعرابي: قال رجل لمعاوية: ما رأيت أنذل منك، فقال معاوية: بلى من واجه الرجال بمثل هذا.

وقال أبو عمرو بن العلاء قال معاوية: ما يسرني بَذل الكرم حمر النعم.

وقال بعضهم: قال معاوية: يا بني أمية قاربوا قريشاً بالحلم، فو الله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً، فأرجع وهو لي صديق، إن أستنجده فينجدني، وأثور به فيثور معي، وما رفع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرماً. وقال: آفة الحلم الذل.

وقال أيضاً: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة الحلم.

وقال عبد الله بن الزبير: لله دَرُّ ابن هند، إن كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه، فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتّعنا به ما دام في هذا الجبل حجر وأشار إلى أبي قبيس.

وقال رجل لمعاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقاً، وأحلمهم حين يستجهل.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليمُ
فلا تسفه وإن ملئت غيظاً ... على أحد فإن الفحش لومُ
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريمُ

وقال القاضي الماوردي في الأحكام السلطانية: وحكي أن معاوية أتي بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد من بينهم، فقال:

يميني أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مكاناً يَشِينُها
يدي كانت الحسناء لو تم سترها ... ولا تعدم الحسناء عيباً يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية: كيف أصنع بك؟ وقد قطعنا أصحابك؟ فقالت أم السارق: يا أمير المؤمنين! اجعلها في ذنوبك التي تتوب منها. فخلى سبيله، فكان أول حد ترك في الإسلام. وعن ابن عباس أنه قال: قد علمت بم غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقعوا طار.

وقال غيره: كتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغي أن يسوس الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيحمل الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، أكون أنا للين والألفة والرحمة، فإذا خاف خائف وجد باباً يدخله.

وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز. قال: قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، كانت عليها.

وقال هشام بن عروة عن أبيه. قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهماً نشتري به لحماً؟ فقالت: لو أذكرتني لفعلت.

وقال عطاء: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته.

وقال زيد بن الحباب عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة. قال: قدم الحسن بن علي على معاوية فقال: لأجيزنك بجائزة لم يجزها أحد كان قبلي، فأعطاه أربعمائة ألف ألف.

ووفد إليه مرة الحسن والحسين فأجازهما على الفور بمائتي ألف، وقال لهما: ما أجاز بها أحد قبلي، فقال له الحسين: ولم تعط أحداً أفضل منا.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن مغيرة. قال: أرسل الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر إلى معاوية يسألانه المال، فبعث إليهما أو إلى كل منهما بمائة ألف، فبلغ ذلك علياً فقال لهما: ألا تستحيان؟ رجل نطعن في عينه غدوة وعشية تسألانه المال؟ فقالا: بل حرمتنا وجاد لنا.

وروى الأصمعي قال: وفد الحسن وعبد الله بن الزبير على معاوية فقال للحسن: مرحباً وأهلا بابن رسول الله صلى ا لله عليه وسلم، وأمر له بثلاثمائة ألف، وقال لابن الزبير: مرحباً وأهلا بابن عمة رسول الله صلى ا لله عليه وسلم ، وأمر له بمائة ألف.

وقال أبو مروان المرواني: بعث معاوية إلى الحسن بن علي بمائة ألف فقال لجلسائه: من أخذ شيئاً فهو له، وبعث إلى الحسين بمئة ألف، فقسمها على جلسائه وكانوا عشرة، فأصاب كل واحد عشرة آلاف. وبعث إلى عبد الله بن جعفر بمائة ألف فاستوهبتها منه امرأته فأطلقها لها، وبعث إلى مروان بن الحكم بمائة ألف فقسم منها خمسين ألفاً وحبس خمسين ألفاً. وبعث إلى عبد الله بن عمر بمائة ألف ففرق منها تسعين واستبقى عشرة آلاف. فقال معاوية: إنه لمقتصد يحب الاقتصاد. وبعث إلى عبد الله بن الزبير بمائة ألف فقال للرسول: لم جئت بها بالنهار؟ هلا جئت بها بالليل؟ ثم حبسها عنده ولم يعط منها أحداً شيئاً، فقال معاوية: إنه لخب ضب، كأنك به قد رفع ذنبه وقطع.

وقال ابن داب: كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف، ويقضي له معها مائة حاجة، فقدم عليه عاماً فأعطاه المال وقضى له الحاجات، وبقيت منها حاجة واحدة، فبينما هو عنده إذ قدم أصبهبذ سجستان يطلب من معاوية أن يملكه تلك البلاد، ووعد من قضى له هذه الحاجة من ماله ألف ألف، فطاف على رؤوس الأمراء من أهل الشام وأمراء العراق، ممن قدم مع الأحنف بن قيس، فكلهم يقولون: عليك بعبد الله بن جعفر، فقصده الدهقان فكلم فيه ابن جعفر معاوية فقضى حاجته تكملة المائة حاجة، وأمر الكاتب فكتب له عهده، وخرج به ابن جعفر إلى الدهقان فجسد له وحمل إليه ألف ألف درهم، فقال له ابن جعفر: اسجد لله واحمل مالك إلى منزلك، فإنا أهل بيت لا نتبع المعروف بالمنّ. فبلغ ذلك معاوية فقال: لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق، أبت بنو هاشم إلا كرماً.

وقال غيره: كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف، فاجتمع عليه في بعض الأوقات دين خمسمائة ألف، فألح عليه غرماؤه فاستنظرهم حتى يقدم على معاوية فيسأله أن يسلفه شيئاً من العطاء، فركب إليه فقال له: ما أقدمك يا ابن جعفر؟ فقال: دين ألح علي غرماؤه فقال: وكم هو؟ قال: خمسمائة ألف. فقضاها عنه وقال له: إن الألف ألف ستأتيك في وقتها.

وقال ابن سعد: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا ابن هلال عن قتادة. قال قال معاوية: يا عجباً للحسن بن علي!! شرب شربة عسل يمانية بماء رومة فقضى نحبه، ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي، فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزنني الله ولا يسوؤني ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء، وقال: خذها فاقسمها في أهلك.

وقال أبو الحسن المدائني عن سلمة بن محارب قال: قيل لمعاوية: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافاً وكانوا أشرف واحداً، لم يكن في بني عبد مناف مثل هاشم فلما هلك كنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً، وكان فيهم عبد المطلب لم يكن فينا مثلهم، فصرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شيءٌ لم يسمع الأولون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله محمد ﷺ.

وروى ابن أبي خيثمة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمرو بن العاص قص على معاوية مناماً رأى فيه أبا بكر وعمر وعثمان وهم يحاسَبون على ما ولوه في أيامهم، ورأى معاوية وهو موكل به رجلان يحاسبانه على ما عمل في أيامه، فقال له معاوية: ما رأيت ثَمّ دنانير مصر؟

وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي. قال: دخل عمرو على معاوية وقد ورد عليه كتاب فيه تعزية له في بعض الصحابة، فاسترجع معاوية فقال عمرو بن العاص:

يموت الصالحون وأنت حي   تخطاك المنايا لا تموت

فقال له معاوية:

اترجو أن أموت وأنت حي   فلست بميت حتى تموتا

وقال ابن السماك: قال معاوية: كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

وقال الزهري عن عبد الملك بن مروان عن أبي بحرية. قال: قال معاوية: المروءة في أربع، العفاف في الإسلام، واستصلاح المال، وحفظ الإخوان وحفظ الجار.

وقال أبو بكر الهذلي: كان معاوية يقول الشعر فلما ولي الخلافة قال له أهله: قد بلغت الغاية فماذا تصنع بالشعر؟ فارتاح يوماً فقال:

سَرَحْتُ سفاهتي وأرحت حلمي   وفيَّ على تحملُّي اعتراضُ
على أني أجيب إذا دعتني   إلى حاجاتها الحَدَق المِراضُ

وقال مغيرة عن الشعبي: أول من خطب جالساً معاوية حين كثر شحمه وعظم بطنه.

وكذا روى عن مغيرة عن إبراهيم أنه قال: أول من خطب جالساً يوم الجمعة معاوية.

وقال أبو المليح عن ميمون: أول من جلس على المنبر معاوية واستأذن الناس في الجلوس.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: أول من أذن وأقام يوم الفطر والنحر معاوية.

وقال أبو جعفر الباقر: كانت أبواب مكة لا أغلاق لها، وأول من اتخذ

لها الأبواب معاوية.

وقال أبو اليمان عن شعيب عن الزهري: مضت السنة أن لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر، وأول من ورث المسلم من الكافر معاوية، وقضى بذلك بنو أمية بعده حتى كان عمر بن عبد العزيز فراجع السنة، وأعاد هشام ما قضى به معاوية وبنو أمية من بعده.

وبه قال الزهري: ومضت السنة أن دية المعاهَدِ كدية المسلم، وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف، وأخذ النصف لنفسه.

وقال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية، كان حقاً على الله أن لا يناقشه الحساب.

وقال سعيد بن يعقوب الطالقاني: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: تراب في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز.

وقال محمد بن يحيى بن سعيد: سئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: «سمع الله لمن حمده، فقال خلفه: ربنا ولك الحمد»، فقيل له: أيهما أفضل؟ هو أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز.

وقال غيره عن ابن المبارك قال: معاوية عندنا محنة فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم؛ يعني الصحابة.

وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره: سئل المعافى بن عمران أيما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلا من الصحابة مثل رجل من التابعين؟! معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله. وقد قال رسول الله ﷺ: «دعوا لي أصحابي وأصهاري، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وكذا قال الفضل بن عتبة. قال أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه.

وقال الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن إذا رأيت رجلا يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام.

وقال الفضل بن زياد. سمعت أبا عبد الله يسأل عن رجل تنقص معاوية وعمرو بن العاص: أيقال له رافضي؟ فقال: إنه لم يجتر عليهما إلا وله خبيئة سوء، ما انتقص أحد أحداً من الصحابة إلا وله داخلة سوء.

وقال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة. قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضربه أسواطاً.

وقال بعض السلف: "بينا أنا على جبل بالشام إذ سمعت هاتفاً يقول: من أبغض الصديق فذاك زنديق، ومن أبغض عمر فإلى جهنم زُمَر، ومن أبغض عثمان فذاك خصمه الرحمن، ومن أبغض عليٌّ فذاك خصمه النبيّ، ومن أبغض معاويه سحبته الزبانيه، إلى جهنم الحاميه، يرمى به في الهاويه.

وقال بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، إذ جاء رجل فقال عمر: يا رسول الله هذا يتنقصُنا، فكأنه انتهره رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني لا أتنقص هؤلاء ولكن هذا أتنقص يعني معاوية فقال: رسول الله ﷺ «ويلك! وليس هو من أصحابي؟» قالها ثلاثاً، ثم أخذ رسول الله ﷺ حربة فناولها معاوية فقال: «جأ بها في لبته» فضربه بها وانتبهت فبكَّرت إلى منزله، فإذا ذلك الرجل قد أصابته الذبحة من الليل ومات، وهو راشد الكندي".

وروى ابن عساكر عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: معاوية من الصحابة، من العلماء الكبار، ولكن ابتلي بحب الدنيا.

وقال العتبي: قيل لمعاوية أسرع إليك الشيب؟ فقال: كيف لا ولا أزال ارى رجلا من العرب قائماً على رأسي يلقح لي كلاماً يلزمني جوابه، فإن أصبت لم أُحمد، وإن أخطأت سارت بها البُرُد.

وقال الشعبي وغيره: أصابت معاوية في آخر عمره لَقْوَةٌ.

وروى ابن عساكر في ترجمة حديج الخصي مولى معاوية قال: اشترى معاوية جارية بيضاء جميلة فأدخلتها عليه مجردة، وبيده قضيب، فجعل يهوي به إلى متاعها - يعني فرجها - ويقول: هذا المتاع لو كان لي متاع! اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا ادع لي ربيعة بن عمرو الجرشي - وكان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد، فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين! فإنها لا تصلح له، فقال: نعم ما رأيت، قال: ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزاري مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكان أسود فقال له: بيض بها ولدك.

وهذا من فقه معاوية وتحريه حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكنه استضعف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها من ولده يزيد لقوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ [النساء: ٢٢]. وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمرو الجرشي الدمشقي.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٥/٣٣٠، ٣٣١] أن عمرو بن العاص قدم في وفد أهل مصر إلى معاوية، فقال لهم في الطريق: إذا دخلتم على معاوية فلا تسلموا عليه بالخلافة فإنه لا يحب ذلك، فلما دخل عليه عمرو قَبْلَهم، قال معاوية لحاجبه: أدخلهم، وأوعز إليه أن يخوفهم في الدخول ويرعبهم. وقال: إني لأظن عمراً قد تقدم إليهم في شيء. فلما أدخلوهم عليه - وقد أهانوهم - جعل أحدهم إذا دخل يقول: السلام عليك يا رسول الله، فلما نهض عمرو من عنده قال: قبحكم الله، نهيتكم عن أن تسلموا عليه بالخلافة فسلمتم عليه بالنبوة!

وذكر أن رجلا سأل معاوية أن يساعده في بناء داره بـاثني عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة، قال: وكم اتساعها؟ قال:: فرسخان في فرسخين، قال: لا تقل داري بالبصرة، ولكن قل: البصرة في داري.

وذكر أن رجلا دخل بابن معه فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلا ذريعاً، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدخول، فقال له معاوية: أين ابنك التلقامة؟ قال: اشتكى قال: قد علمت أن أكله سيورثه داء.

قال: ونظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها.

وقال معاوية: أفضل الناس عَقْل وحلْم؛ من إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا وعد أنجز، وإذا أساء استغفر.

وكتب رجل من أهل المدينة إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

إذا الرِّجال وَلَدتْ أولادها   واضطربت من كِبَرٍ أعضادُها

وَجعلــتْ أســقامُها تعتادُهـــا ... فهــي زروعٌ قــد دَنــا حصادُهــا

فقال معاوية: نعى إلي نفسي.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني هارون بن سفيان عن عبد الله السهمي حدثني ثمامة بن كلثوم أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس! إني من زرع قد استحصد، وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدي إلا من هو شر مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني، ويا يزيد إذا وَفَى أجلي فول غسلي رجلا لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ وقُراضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفي وفمي، وأذني وعيني، واجعل ذلك الثوب يلي جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين.

وقال بعضهم: لما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمري لقـد عمِّرت في الدهر برهـة ... ودانــت لي الدنيــا بوقــع البواتــر

وأعطيت حمر المال والحلم والنهى ... وسِـلْمَ فمـا قيـم الملـوك الجبـابر

فأضحى الـذي قد كـان مما يسرني ... كحُلم مضـى في المزمنـات الغوابـر

فيـا ليتني لم أغْـنَ في الملك ساعة ... ولم أعْـنَ في لـذات عيش نواضـر

وكنت كـذي طمرين عـاش ببلغـة ... مـن العيش حتى زار ضيق المقـابر

وقال محمد بن سعد: أنبأنا علي بن محمد عن محمد بن الحكم عمن حدثه أن معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يطيب له لأن عمر بن الخطاب قاسم عماله.

وذكروا أنه في آخر عمره اشتد به البرد فكان إذا لبس أو تغطى بشيء ثقيل يغمه، فاتخذ له ثوباً من حواصل الطير، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تباً لك من دار، ملكتك أربعين سنة، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالي فيك، ومصيري منك، تباً للدنيا ومُحِبِّيها.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا أبو عبيد عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير. قال: لما ثقل معاوية وتحدث الناس أنه بالموت قال لأهله: احشوا عيني إثمداً، وأوسعوا رأسي دهناً. ففعلوا وبَرَّقوا وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس وقال: أسندوني، ثم قال: ائذنوا للناس فليسلموا علي قياماً ولا يجلس أحد، فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً فيراه متكحِّلاً متدهناً فيقول متقول الناس: إن أمير المؤمنين هو لَمَّا به وهو أصح الناس، فلما خرجوا من عنده قال معاوية في ذلك:

وتجلـدي للشـامتين أريهـم ... أنـي لريـب الدهـر لا أتضعضـع

وإذا المنيــة أنشــبت أظفارهــا ... ألفيــت كــل تميمــة لا تنفــع

قال: وكان به التفاتَةٌ يعني لَقْوة فمات من يومه ذلك رحمه الله ورضي عنه.

وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى، ولم أل من هذا الأمر شيئاً.

وقال أبو السائب المخزومي: لما حضرت معاوية الوفاة تمثل بقول الشاعر:

إن تنـاقش يكـن نقاشـك يـا رب ... عذابـاً لا طـوق لي بـالعذاب

أو تجـاوز تجـاوُزَ العفـو فـاصفح ... عـن مسـيء ذنوبـه كالـتراب

وقال بعضهم: لما احتُضر معاوية جعل أهله يقلبونه فقال لهم: أي شيخ تقلبون؟ إن نجاه الله من عذاب النار غداً.

وقال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احتضر يضع خداً على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] اللهم فاجعلني ممن تشاء أن تغفر له.

وقال العتبي عن أبيه: تمثل معاوية عند موته بقول بعضهم وهو في السياق.

هو الموت لا منجى مـن الموت والـذي ... نحـاذر بعـد المـوت أدهـى وأفظـع

ثم قال: اللهم أقلّ العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فإنك واسع المغفرة، ليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك.

ورواه ابن دريد عن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء فذكر مثله، وزاد: ثم مات.

وقال غيره: أغمي عليه ثم أفاق فقال لأهله: اتقوا الله فإن الله تعالى يقي من اتقاه ولا يقي من لا يتقى. ثم مات رحمه الله.

وقد روى أبو مخنف عن عبد الملك بن نوفل. قال: لما مات معاوية صعد الضحاك بن قيس المنبر فخطب الناس وأكفان معاوية على يديه فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

إن معاوية الذي كان عَوْدَ العرب، وحَدَّ العرب، قطع الله به الفتنة، وملكه على العباد، وفتح به البلاد إلا إنه قد مات وهذه أكفانه، فنحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى.

ثم نزل وبعث البريد إلى يزيد بن معاوية يعلمه ويستحثه على المجيء.

ولا خلاف أنه، رضي الله عنه، توفي بدمشق في رجب سنة ستين.

وقيل: ليلة الخميس للنصف من رجب سنة ستين، وقيل: ليلة الخميس لثمان بقين من رجب سنة ستين. قاله ابن إسحاق وغير واحد.

وقيل: لأربع خلت من رجب، قاله الليث.

وقال سعد بن إبراهيم: لمستهل رجب.

قال محمد بن إسحاق والشافعي: صلى عليه ابنه يزيد.

وقد ورد من غير وجه أنه أوصى إليه أن يكفن في ثوب رسول الله ﷺ الذي كساه إياه، وكان مدخراً عنده لهذا اليوم، وأن يجعل ما عنده من شعره وقلامة اظفاره في فمه وأنفه وعينه وأذنيه.

وقال آخرون: بل كان ابنه يزيد غائباً فصلى عليه الضحاك بن قيس بعد صلاة الظهر بمسجد دمشق، ثم دفن فقيل: بدار الإمارة وهي الخضراء، وقيل: بمقابر باب الصغير. وعليه الجمهور فالله أعلم.

وكان عمره إذ ذاك ثمانياً وسبعين سنة، وقيل: جاوز الثمانين وهو الأشهر والله أعلم.

ثم ركب الضحاك بن قيس في جيش وخرج ليتلقى يزيد بن معاوية وكان يزيد بحوارين فلما وصلوا إلى ثنية العقاب تلقتهم أثقال يزيد؛ وإذا يزيد راكب على بختي وعليه الحزن ظاهر، فسلم عليه الناس بالإمارة وعزوه في أبيه، وهو يخفض صوته في رده عليهم والناس صامتون لا يتكلم معه إلا الضحاك ابن قيس فانتهى إلى باب توما، فظن الناس أنه يدخل منه إلى المدينة، فأجازه مع السور حتى انتهى إلى الباب الشرقي، فقيل: يدخل منه لأنه باب خالد، فجازه حتى أتى الباب الصغير فعرف الناس أنه قاصد قبر

أبيه، فلما وصل إلى باب الصغير ترجّل عند المقبرة، ثم دخل فصلى على أبيه بعد ما دفن ثم انفتل، فلما خرج من المقبرة أُتي بمراكب الخلافة فركب.

ثم دخل البلد وأمر فنودي في الناس الصلاة جامعة، ودخل الخضراء فاغتسل ولبس ثياباً حسنة ثم خرج فخطب الناس أول خطبة وهو أمير المؤمنين، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

أيها الناس! إن معاوية كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه ثم قبض إليه، وهو خير ممن بعده ودون من قبله، ولا أزكيه على الله عز وجل، هو أعلم به إن عفى عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئاً كان.

وقال لهم في خطبته هذه: وإن معاوية كان يغزيكم في البحر، وإني لست حاملا أحداً من المسلمين في البحر، وإن معاوية كان يُشتّيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم، وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثاً وأنا أجمعه لكم كله، قال: فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً.

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: بعث معاوية وهو مريض إلى ابنه يزيد، فلما جاءه البريد ركب وهو يقول:

جاء البريد بقرطاس يخبُّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم ... قال الخليفة أمسى مُثْبتاً وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقلعا
ثم انبعثنا إلى خُوص مضمّرة ... نرمي الفجاج بها نأتلي سُرّعا
فما نبالي إذا بُلّغْنَ أرحُلَنا ... ما مات منهن بالمَوْماة أو ظلعا

وزاد غيره:

لما انتهينا وباب الدار منصفق ... بصوت رملة ريع القلب فانصدعا
من لا تزل نفسه توفي على شرف ... توشك مقادير تلك النفس أن تقعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعاً خليطاً سالمين معا
أغرُّ أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا
لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا ... أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا

قال الشافعي: سرق يزيد هذين البيتين من الأعشى. ثم ذكر أنه دخل قبل موت أبيه دمشق وأنه أوصى إليه. وهذا قد قاله ابن إسحاق وغير واحد، ولكن الجمهور على أن يزيد لم يدخل دمشق إلا بعد موت أبيه، وأنه صلى على قبره بالناس كما قدمنا. والله أعلم.

وقال أبو الورد العنبري يرثي معاوية ﷺ:

ألا أنعى معاوية بن حرب ... نعاه الحِلُّ للشهر الحرام
نعاه الناعجاتُ بكل فج ... خواضع في الأزمّة كالسهام
فهاتيك النجوم وهن خرس ... ينحن على معاوية الشآم

وقال أيمن بن خريم يرثيه أيضاً:

رمى الحِدْثان نسوة آل حرب ... بمقدار سَمَدْن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضاً ... ورد وجوههن البيض سودا
فإنك لو شهدت بكاء هند ... ورملة إذ يصفقن الخدودا

بكيت بكاء معولة قريح ... أصاب الدهر واحدها الفريدا

ذكر من تزوج من النساء ومن ولد له من الأولاد الذكور والإناث:

كان له عبد الرحمن وبه كان يكنى، وعبد الله، وكان ضعيف العقل، وأمهما

■ فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، وقد تزوج بأختها منفردة عنها بعدها، وهي كنود بنت قرظة وهي التي كانت معه حين افتتح قبرص، وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية فأعجبته وقال لميسون بنت بحدل: ادخلي فانظري إلى ابنة عمك، فدخلت فسألها عنها فقالت: إنها لكاملة الجمال، ولكن رأيت تحت سُرّتها خالاً، وإني لأرى هذه يقتل زوجها ويوضع رأسه في حجرها، فطلقها معاوية فتزوجها بعده حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشير فقتل ووضع رأسه في حجرها.

ومن أشهر أولاده يزيد وأمه

■ ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة الكلبي، وهي التي دخلت على نائلة فأخبرت معاوية عنها بما أخبرته، وكانت حازمة عظيمة الشأن جمالا ورياسة وعقلا ودينا، ودخل عليها معاوية يوما ومعه خادم خصي فاستترت منه وقالت: ما هذا الرجل معك؟ فقال: إنه خصي فاظهري عليه، فقالت: ما كانت المثلة لتحل له ما حرم الله عليه، وحجبته عنها. وفي رواية أنها قالت له: إن مجرد مثلتك له لن تحل ما حرمه الله عليه، وقد وَلِيَ ابنها يزيد الخلافة بعد أبيه.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٥/٣٢٩] أن ميسون هذه ولدت لمعاوية بنتاً أخرى يقال لها: أمة رب المشارق، ماتت صغيرة.

و■ رملة تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان، كانت دارها بدمشق عند عقبة السمك تجاه زقاق الرمان، قاله ابن عساكر [تاريخ دمشق، جزء تراجم النساء ص٩٥] قال: ولها طاحون معروفة إلى الآن.

و■ هند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر، فلما أدخلت عليه بالخضراء، أرادها على نفسها فتمنعت عليه وأبت أشد الإباء، فضربها فصرخت، فلما سمع الجواري صوتها صرخن وعلت أصواتهن، فسمع معاوية فنهض إليهن فاستعلمهن ما الخبر؟ فقلن: سمعنا صوت سيدتنا فصحنا. فدخل فإذا بها تبكي من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك!! مثل هذه تضرب في مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بنية إنه زوجك الذي أحله الله لك، أو ما سمعت قول الشاعر

من الخَفِرات البيض أمّا حرامها ... فصعبٌ وأما حِلُّها فذلولُ

ثم خرج معاوية من عندها وقال لزوجها: ادخل فقد مهدت لك خُلُقها ووطّأته. فدخل ابن عامر فوجدها قد طابت أخلاقها فقضى حاجته منها رحمهم الله تعالى.

من كان على قضاء معاوية وحرسه:

وكان على قضاء معاوية أبو الدرداء بولاية عمر بن الخطاب، فلما حضره الموت أشار على معاوية بتولية فضالة بن عبيد، ثم مات فضالة فولى أبا إدريس الخَوْلاني.

وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له المختار وقيل مالك، ويكنى أبا المخارق ـ مولى لحمير ـ وكان معاوية أول من اتخذ الحرس، وعلى

حُجّابه سعد مولاه وعلى الشرطة قيس بن حمزة، ثم زمل بن عمرو العذري، ثم الضحاك بن قيس الفهري، وكان صاحب أمره سرجون بن منصور الرومي. وكان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم وخزْم الكتب.

وممن ذكر أنه توفي في هذه السنة ـ أعني سنة ستين ـ

■ صفوان بن المعطِّل بن رحة بن المؤمِّل بن خزاعي أبو عمرو، وأول مشاهده المريسيع، وكان في الساقة يومئذ، وهو الذي رماه أهل الإفك بأم المؤمنين فبرأه الله وإياها مما قالوا، وكان من سادات المسلمين، وكان ينام نوما شديداً حتى كان ربما طلعت عليه الشمس وهو نائم لا يستيقظ، فقال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظت فصل» [مسند أحمد:٣/٨٠]. وقد قتل صفوان شهيداً.

■ أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثُوَب الخولاني من خولان ببلاد اليمن. دعاه الأسود العنسي إلى أن يشهد أنه رسول الله فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا أسمع، أشهد أن محمداً رسول الله، فأجج له ناراً وألقاه فيها فلم تضره، وأنجاه الله من النار، فكان يشبَّه بإبراهيم الخليل، ثم هاجر فوجد رسول الله ﷺ قد مات، فقدم على الصديق فأجلسه بينه وبين عمر وقال له عمر: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى في أمة محمد من فعل به كما فعل بإبراهيم الخليل، وقبله بين عينيه، وكانت له أحوال ومكاشفات.

ويقال: إنه توفي فيها النعمان بن بشير رضي الله عنه، والأظهر أنه مات بعد ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

إمارة يزيد بن معاوية وما جرى في أيامه من الحوادث والفتن

بويع له بالخلافة بعد أبيه في رجب سنة ستين، وكان مولده سنة ست وعشرين، فكان يوم بويع ابن أربع وثلاثين سنة، فأقر نواب أبيه على الأقاليم، لم يعزل أحداً منهم، وهذا من ذكائه.

قال هشام بن محمد الكلبي عن أبي مخنف لوط بن يحيى الكوفي الأخباري: ولي يزيد في هلال رجب سنة ستين، وأمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأمير الكوفة النعمان بن بشير، وأمير البصرة عبيد الله بن زياد، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يكن ليزيد همة حين ولي إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية البيعة ليزيد، فكتب إلى نائب المدينة الوليد بن عتبة:

«بسم الله الرحمن الرحيم من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد فإن معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام»

وكتب إليه في صحيفة كأنها أذن الفارة وأما بعد فخذْ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخصة حتى يبايعوا والسلام».

فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكَبُر عليه، فبعث إلى مروان فقرأ عليه الكتاب واستشاره في أمر هؤلاء النفر، فقال: أرى أن تدعوَهم قبل أن يعلموا بموت معاوية إلى البيعة، فإن أبوا ضربت أعناقهم. فأرسل من فوره عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إلى الحسين وابن الزبير ـ وهما في المسجد ـ فقال لهما: أجيبا الأمير، فقالا: انصرف الآن نأتيه، فلما انصرف عنهما قال الحسين لابن الزبير: إني أرى طاغيتهم قد هلك، قال ابن الزبير: وأنا ما أظن غيره.

قال: ثم نهض حسين فأخذ معه مواليه وجاء باب الأمير فاستأذن فأذن له، فدخل وحده، وأجلس مواليه على الباب، وقال: إن سمعتم أمراً يريبكم فادخلوا، فسلم وجلس ومروان عنده، فناوله الوليد بن عتبة الكتاب ونعى إليه معاوية، فاسترجع وقال: رحم الله معاوية، وعظم لك الأجر. فدعاه الأمير إلى البيعة فقال له الحسين: إن مثلي لا يبايع سرّاً، وما أراك تجتزئ مني بهذا، ولكن إذا اجتمع الناس دَعوتنا معهم فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد ـ: وكان يحب العافية ـ فانصرف على اسم الله حتى تأتينا في جماعة الناس، فقال مروان للوليد: والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه، فاحبسه ولا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربت عنقه، فنهض الحسين وقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني! كذبت والله وأثمت.

ثم انصرف إلى داره، فقال مروان للوليد: والله لا تراه بعدها أبداً. فقال الوليد: والله يا مروان ما أحب أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين، سبحان الله! أقتل حسينا أن قال: لا أبايع! والله إني لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة.

وبعث الوليد إلى عبد الله بن الزبير فامتنع عليه وماطله يوما وليلة، ثم إن ابن الزبير ركب في مواليه واستصحب معه أخاه جعفراً وسار إلى مكة على طريق الفُرع، وبعث الوليد خلف ابن الزبير الرجال والفرسان فلم يقدروا على رده، وقد قال جعفر لأخيه عبد الله وهما سائران متمثلا بقول صبرة الحنظلي: ـ

وكلُّ بني أمٍّ سيمسونَ ليلةً ... ولم يبقَ من أعقابهمْ غيرُ واحدِ

فقال: سبحان الله! ما أردت إلى هذا؟ فقال: والله ما أردت به شيئا يسوؤك، فقال: إن كان إنما جرى على لسانك فهو أكره إلي، قالوا: وتطير به.

وأما الحسين بن علي فإن الوليد تشاغل عنه بابن الزبير وجعل كلما بعث إليه يقول: حتى تنظر وننظر، ثم جمع أهله وبنيه وركب ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب من هذه السنة، بعد خروج ابن الزبير بليلة، ولم يتخلف عنه أحد من أهله سوى محمد بن الحنفية، فإنه قال له: والله يا أخي لأنت أعز أهل الأرض علي، وإني ناصح لك لا تدخلن مصراً من هذه الأمصار، ولكن اسكن البوادي والرمال، وابعث إلى الناس فإذا بايعوك واجتمعوا عليك فادخل المصر، وإن أبيت إلا سكنى المصر فاذهب إلى مكة، فإن رأيت ما تحب وإلا ترفعت إلى الرمال والجبال فقال له: جزاك الله خيراً فقد نصحت وأشفقت.

وسار الحسين إلى مكة فاجتمع هو وابن الزبير بها، وبعث الوليد إلى عبد الله بن عمر فقال: بايع ليزيد، فقال: إذا بايع الناس بايعت، فقال رجل: إنما تريد أن يختلف الناس ويقتتلوا حتى يتفانوا، فإذا لم يبق غيرك بايعوك؟ فقال ابن عمر: لا أحب شيئا مما قلت، ولكن إذا بايع الناس فلم يبق غيري بايعت. قال: فتركوه؛ وكانوا لا يتخوّفونه.

وقال الواقدي: لم يكن ابن عمر بالمدينة حين قدم نعي معاوية، وإنما

كان هو وابن عباس بمكة فلقيهما وهما مقبلان منها الحسين وابن الزبير، فقالا: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية والبيعة ليزيد، فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. وقدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة فلما جاءت البيعة من الأمصار بايعا مع الناس، وأما الحسين وابن الزبير فإنهما قدما مكة فوجدا بها عمرو بن سعيد بن العاص فخافاه وقالا: إنا جئنا عواذاً بهذا البيت.

وفي هذه السنة في رمضان منها عزل يزيد بن معاوية الوليد بن عتبة عن إمرة المدينة لتفريطه، وأضافها إلى عمرو بن سعيد بن العاص نائب مكة، فقدم المدينة في رمضان، وقيل: في ذي القعدة، وكان متوهاً متكبراً، وسلط عمرو بن الزبير ـ وكان عدواً لأخيه عبد الله ـ على حربه وجرده له، وجعل عمرو بن سعيد يبعث البعوث إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير.

وقد ثبت في الصحيحين [خ(١٠٤)، م(١٣٥٤) مطولاً عندهما] أن أبا شريح الخزاعي قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك حديثا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلي، ولم يحل لأحد بعدي [م(١٣٥٥) بنحوه] ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ثم قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وفي رواية [خ(١٠٤)، م(١٣٥٤)] «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم» فقيل لأبي شريح: ما قال لك؟ فقال: قال لي نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة.

قال الواقدي: ولى عمرو بن سعيد شرطة المدينة عمرو بن الزبير فتتبع أصحاب أخيه ومن يهوى هواه، فضربهم ضربا شديداً حتى ضرب من جملة من ضرب أخاه المنذر بن الزبير، وجماعة من الأعيان من مكة ثم جاء العزم من يزيد إلى عمرو بن سعيد في تطلب ابن الزبير، وأنه لا يقبل منه وإن بايع حتى يؤتى به إلي في جامعة من ذهب أو من فضة تحت برنسه، فلا ترى إلا أنه يسمع صوتها، وكان ابن الزبير قد منع الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلي بأهل مكة، وكان نائب عمرو بن سعيد عليها، فحينئذ صمم عمرو على تجهيز سرية إلى مكة بسبب ابن الزبير، فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير: من يصلح أن نبعثه إلى مكة لأجل قتاله؟ فقال له عمرو بن الزبير: إنك لا تبعث إليه من هو أنكى له مني، فعينه على تلك السرية وجعل على مقدمته أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مقاتل.

وقال الواقدي: إنما عينهما يزيد بن معاوية نفسه، وبعث بذلك إلى عمرو بن سعيد في كتاب، فعسكر أنيس بالجرف وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد أن لا يغزو مكة وأن يترك ابن الزبير بها، فإنه عما قليل إن لم يقتل يمت، فقال أخوه عمرو بن الزبير: والله لنغزونه ولو في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم. فقال مروان: والله إن ذلك ليسوؤني.

فسار أنيس واتبعه عمرو بن الزبير في بقية الجيش ـ وكانوا ألفين ـ حتى نزل بالأبطح، وقيل بداره عند الصفا، ونزل أنيس بذي طوى، فكان عمرو بن الزبير يصلي بالناس، ويصلي وراءه أخوه عبد الله بن الزبير، وأرسل عمرو إلى أخيه يقول له: بَرَّ يمينَ الخليفة، وأته وفي عنقك جامعة من ذهب أو فضة، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضا، واتق الله فإنك في بلد حرام. فأرسل عبدالله يقول لأخيه: موعدك المسجد. وبعث عبد الله بن الزبير عبد الله بن صفوان بن أمية في سرية فاقتتلوا أنيس بن عمرو الأسلمي فهزموا أنيساً هزيمة قبيحة، وتفرق عن عمرو بن الزبير أصحابه وهرب عمرو إلى دار ابن علقمة، فأجاره أخوه عبيدة بن الزبير، فلامه أخوه عبد الله بن الزبير وقال: تجير من في عنقه حقوق الناس؟ ثم ضربه بكل من ضربه بالمدينة إلا المنذر بن الزبير وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا من عمرو، وسجنه ومعه عارم، فسمي سجن عارم، وقد قيل: إن عمرو بن الزبير مات تحت السياط والله أعلم.

قصة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسبب خروجه بأهله من مكة إلى العراق في طلب الإمارة وكيفية مقتله رضي الله عنه

ولنبدأ قبل ذلك بشيء من ترجمته ثم نتبع الجميع بذكر مناقبه وفضائله.

هو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أبو عبد الله القرشي الهاشمي، السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء، وريحانته من الدنيا، ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولد الحسن في سنة ثلاث من الهجرة، وقال بعضهم: إنما كان بينهما طهر واحد ومدة الحمل، وولد لخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع.

وقال قتادة: ولد الحسين لست سنين وخمسة أشهر ونصف من التاريخ، وقتل يوم الجمعة يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف، رضي الله عنه.

وروي عن النبي ﷺ أنه حنكه وتفل في فيه ودعا له وسماه حسينا، وقد كان سماه أبوه قبل ذلك حربا، وقيل جعفرا، وقيل: إنما سماه يوم سابعه وعق عنه.

وقال جماعة عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ عن علي رضي الله عنه قال: الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه به ما كان أسفل من ذلك [ت(٣٧٧٩)، المسند:٩٩/١].

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك الحزامي. قال: كان وجه الحسن يشبه وجه رسول الله ﷺ، وكان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله ﷺ.

وروى محمد بن سيرين وأخته حفصة، عن أنس. قال: كنت عند ابن زياد فجيء برأس الحسين فجعل يقول بقضيب في أنفه ويقول: ما رأيت مثل هذا حسناً، فقلت له: إنه كان من أشبههم برسول الله ﷺ. [خ(٣٧٤٨)]

وقال سفيان: قلت لعبيد الله بن أبي يزيد: رأيت الحسين؟ قال: نعم أسود الرأس واللحية شعرات ههنا في مقدم لحيته، فلا أدري أخضب وترك ذلك المكان تشبها برسول الله ﷺ، أو لم يكن شاب منه غير ذلك؟

وقال ابن جريج: سمعت عمر بن عطاء قال: رأيت الحسين بن علي يصبغ بالوشمة، أما هو فكان ابن ستين، وكان رأسه ولحيته شديدي السواد.

فأما الحديث الذي روى من طريقين ضعيفين [تاريخ دمشق:١٢٨/١٤،

١٢٩] أن فاطمة سألت رسول الله ﷺ في مرض الموت أن يَنحلَ ولديها شيئا فقال: «أما الحسن فله هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فله جُرأتي وجودي». فليس بصحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب المعتبرة.

وقد أدرك الحسين من حياة النبي خمس سنين أو نحوها، وروي عنه أحاديث.

وقال مسلم بن الحجاج: له رؤية من النبي ﷺ.

وقد روى صالح بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال في الحسن بن علي: إنه تابعي ثقة. وهذا غريب فلأن يقول في الحسين إنه تابعي بطريق الأولى، وسنذكر ما كان رسول الله ﷺ يكرمهما به، وما كان يظهر من محبتهما والحنو عليهما.

والمقصود أن الحسين عاصر رسول الله ﷺ وصحبه إلى أن توفي وهو عنه راض، ولكنه كان صغيراً.

ثم كان الصديق يكرمه ويعظمه، وكذلك عمر وعثمان، وصحب أباه وروى عنه، وكان معه في مغازيه كلها، في الجمل وصفين، وكان معظما موقراً، ولم يزل في طاعة أبيه حتى قتل، فلما آلت الخلافة إلى أخيه وأراد أن يصالح معاوية شق ذلك عليه ولم يسدد رأى أخيه في ذلك، بل حثه على قتال أهل الشام، فقال له أخوه: والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطبق عليك بابه حتى أفرغ من هذا الشأن ثم أخرجك. فلما رأى الحسين ذلك سكت وسلم، فلما استقرت الخلافة لمعاوية كان الحسين يتردد إليه مع أخيه الحسن فكان معاوية يكرمهما إكراماً زائداً، ويقول لهما: مرحبا وأهلا، ويعطيهما عطاء جزيلا، وقد أطلق لهما في يوم واحد مائتي ألف، وقال: خذاها وأنا ابن هند، والله لا يعطيكماها أحد قبلي ولا أحد بعدي، فقال الحسين: والله لن تعطي أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلين أفضل منّا.

ولما توفي الحسن كان الحسين يفد إلى معاوية في كل عام فيعطيه ويكرمه، وقد كان في الجيش الذين غزوا القسطنطينية مع ابن معاوية يزيد، في سنة إحدى وخمسين.

ولما أخذت البيعة ليزيد في حياة معاوية كان الحسين ممن امتنع من مبايعته هو وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن عباس، ثم مات ابن أبي بكر وهو مصمم على ذلك، فلما مات معاوية سنة ستين وبويع ليزيد، بايع ابن عمر وابن عباس، وصمم على المخالفة الحسين وابن الزبير، وخرجا من المدينة فارين إلى مكة فأقاما بها، فعكف الناس على الحسين يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد.

وأما ابن الزبير فإنه لزم مصلاه عند الكعبة، وجعل يتردد في غبون ذلك إلى الحسين في جملة الناس، ولا يمكنه أن يتحرك بشيء مما في نفسه مع وجود الحسين، لما يعلم من تعظيم الناس له وتقديمهم إياه عليه، غير أنه قد تعينت السرايا والبعوث إلى مكة بسببه، ولكن أظفره الله بهم كما تقدم ذلك آنفا، فانقشعت السرايا عن مكة مفلولين وانتصر عبد الله بن الزبير على من أراد هلاكه من اليزيديين، وضرب أخاه عمراً وسجنه واقتص منه وأهانه، وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز، واشتهر أمره وبعُد صيته، ومع هذا كله ليس هو معظماً عند الناس مثل الحسين، بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله ﷺ فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه.

وقد كثر ورود الكتب عليه من بلاد العراق يدعونه إليهم ـ وذلك حين بلغهم موت معاوية وولاية يزيد، ومصير الحسين إلى مكة فراراً من بيعة يزيد ـ فكان أول من قدم عليه عبد الله بن سبع الهمداني، وعبد الله بن وال، معهما كتاب فيه السلام والتهنئة بموت معاوية، فقدما على الحسين لعشر مضين من رمضان من هذه السنة، ثم بعثوا بعدهما نفراً منهم قيس بن مسهر الصَّيداوي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكَوّاء الأرحبي، وعمارة بن عبد الله السلولي، ومعهم نحو من مائة وخمسين كتابا إلى الحسين، ثم بعثوا هانئ بن هانئ السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي ومعهما كتاب فيه الاستعجال في السير إليهم، وكتب إليه شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعزرة بن قيس وعمرو بن حجاج الزبيدي، ومحمد بن عمير بن يحيى التميمي: أما بعد فقد اخضرت الجناب وأينعت الثمار وطمّت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجندة والسلام عليك.

فاجتمعت الرسل كلها بكتبها عند الحسين، وجعلوا يستحثونه ويستقدمونه عليهم ليبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، ويذكرون في كتبهم أنهم فرحوا بموت معاوية، وينالون منه ويتكلمون في دولته، وأنهم لما يبايعوا أحداً إلى الآن، وأنهم ينتظرون قدومك إليهم ليقدموك عليهم.

فعند ذلك بعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى العراق، ليكشف له حقيقة هذا الأمر والاتفاق، فإن كان متحتما وأمراً حازماً محكما بعث إليه ليركب في أهله وذويه، ويأتي الكوفة ليظفر بمن يعاديه، وكتب معه كتابا إلى أهل العراق بذلك، فلما سار مسلم من مكة اجتاز بالمدينة فأخذ منها دليلين فسارا به على براري مهجورة المسالك، فكان أحد الدليلين منهما أول هالك، وذلك من شدة العطش، وقد أضلوا الطريق فهلك الدليل الواحد بمكان يقال له المضيق، من بطن خبيت، فتطير به مسلم بن عقيل، فتلبث مسلم على ما هنالك ومات الدليل الآخر فكتب إلى الحسين يستشيره في أمره، فكتب إليه يعزم عليه أن يدخل العراق، وأن يجتمع بأهل الكوفة ليستعلم أمرهم، ويستخبر خبرهم.

فلما دخل الكوفة نزل على رجل يقال له مسلم بن عوسجة الأسدي، وقيل نزل في دار المختار بن أبي عبيد الثقفي فالله أعلم.

فتسامع أهل الكوفة بقدومه فجاؤوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين، وحلفوا له لينصرنه بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليهم فقد تمهدت له البيعة والأمور، فتجهز الحسين من مكة قاصداً الكوفة كما سنذكره.

وانتشر خبرهم حتى بلغ أمير الكوفة النعمان بن بشير أخبره رجل بذلك، فجعل يضرب عن ذلك صفحاً ولا يعبأ به، ولكنه خطب الناس ونهاهم عن الاختلاف والفتنة، وأمرهم بالائتلاف والسنة، وقال: إني لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب علي، ولا آخذكم بالظنة، ولكن والله الذي لا إله إلا هو لئن فارقتم إمامكم ونكثتم بيعته لأقاتلنكم ما دام في يدي من سيفي قائمته. فقام إليه رجل يقال له عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي فقال له: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالغشم، وإن الذي سلكته أيها الأمير مسلك المستضعفين. فقال له النعمان: لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعزين في معصية الله. ثم نزل فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يعلمه بذلك، وكتب إلى يزيد عمارة بن عقبة وعمر بن سعد بن أبي وقاص، فبعث يزيد فعزل النعمان عن الكوفة وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة، وذلك بإشارة

سرجون مولى يزيد بن معاوية، وكان يزيد يستشيره، فقال سرجون: أكنت قابلا من معاوية ما أشار به لو كان حيا؟ قال: نعم! قال: فاقبل مني فإنه ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد، فوله إياها. وكان يزيد يبغض عبيد الله بن زياد، وكان يريد أن يعزله عن البصرة، فولاه البصرة والكوفة معاً لما يريده الله به وبغيره.

ثم كتب يزيد إلى ابن زياد: إذا قدمت الكوفة فتطلّب مسلم بن عقيل فإن قدرت عليه فاقتله أو انفه. وبعث الكتاب مع العهد مع مسلم بن عمرو الباهلي، فسار ابن زياد من البصرة إلى الكوفة، فلما دخلها دخلها متلثما بعمامة سوداء، فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا قال: سلام عليكم. فيقولون: وعليك السلام مرحباً بابن رسول الله ـ يظنون أنه الحسين وقد كانوا ينتظرون قدومه ـ وتكاثر الناس عليه، ودخلها في سبعة عشر راكبا، فقال لهم مسلم بن عمرو الذي من جهه يزيد: تأخروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد. فلما علموا ذلك علتهم كآبة وحزن شديد، فتحقق عبيد الله الخبر، ونزل قصر الإمارة من الكوفة.

ولما انْتَهَى ابنُ زيادٍ إلى بابِ القصرِ وهو مُتَلَثِّمٌ ظَنَّـه النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ الحسينَ قد قَدِمَ، فأَغْلَقَ بابَ القصرِ، قال: ما أنا بمُسَلِّمٍ إليك أمانتي. فقال له عُبيدُ اللهِ: افْتَحْ لا فَتَحْتَ. ففتح وهو يَظُنُّه الحسينَ، فلمَّا تحقَّق أنه عُبيد اللهِ أُسْقِطَ في يدِه، فدخل [١٨١/٦و] عبيدُ اللهِ إلى قَصرِ الإمارة، وأمَر مُنادياً فنادى أن الصلاةَ جامعةً. فاجتَمَع الناسُ، فخرَجَ إليهم، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه، قال: أما بعدُ فإن أميرَ المؤمنين، أصْلَحه اللهُ ولأني مِصرَكم وثَغْرَكم وفيئَكم وأمرني بإنصاف مَظْلومِكم، وإعطاء مَحرومكم، وبالإحسان إلى سامِعِكم ومُطيعِكم، وبالشِّدَّةِ على مُريبِكم وعاصيكم، وأنا مُمتثلٌ فيكم أمره ومُنَفِّذٌ عَهده. ثم نزل وأمَرَ العُرفاء أن يكتُبوا من عندَهم من الحَرُورِيَّةِ وأهلِ الرِّيَبِ والخلافِ والشِّقاق، وأيُّما عريفٌ لم يُطلعنا على ذلك صُلِبَ ونُفي وأُسقطت عِرافَتُه من الديوان.

فلما استقر أمره أرسل مولى لبني تميم ـ وقيل كان مولى له يقال له معقل ـ ومعه ثلاثة آلاف درهم في صورة قاصد من بلاد حمص، وأنه إنما جاء لهذه البيعة، فذهب ذلك المولى فلم يزل يتلطف ويستدل على الدار التي يبايعون بها مسلم بن عقيل حتى دخلها، وهي دار هانئ بن عروة التي تحول إليها من الدار الأولى، فبايع وأدخلوه على مسلم بن عقيل فلزمهم أياماً حتى اطلع على جلية أمرهم، فدفع المال إلى أبي ثمامة الصائدي بأمر مسلم بن عقيل ـ وكان هو الذي يقبض ما يؤتى به من الأموال ويشتري السلاح ـ وكان من فرسان العرب، فرجع ذلك المولى وأعلم عبيد الله بالدار وصاحبها، وقد تحول مسلم بن عقيل بن دار هانئ بن عروة المرادي، ثم إلى دار شريك بن الأعور وكان من الأمراء الأكابر، وبلغه أن عبيد الله يريد عيادته، فبعث إلى هانئ يقول له: ابعث مسلم بن عقيل حتى يكون في داري ليقتل عبيد الله إذا جاء يعودني، فبعثه إليه فقال له شريك: كن أنت في الخباء، فإذا جلس عبيد الله فإني أطلب الماء وهي إشارتي إليك، فاخرج فاقتله، فلما جاء عبيد الله جلس على فراش شريك وعنده هانئ بن عروة، وقام من بين يديه غلام يقال له مهران، فتحدث عنده ساعة ثم قال شريك: اسقوني ماءً، فتجبن مسلم عن قتله، وخرجت جارية بكوز من ماء فوجدت مسلما في الخباء فاستحيت ورجعت. قالها ثلاثا، ثم قال: اسقوني ولو كان فيه ذهاب نفسي أتحمونني من الماء؟ ففهم مهران الغدر فغمز مولاه فنهض سريعا وخرج، فقال شريك: أيها الأمير إني أريد أن أوصي إليك، فقال: سأعود إليك! فخرج به مولاه فأذهبه، وجعل يطرد به يقول له: إن القوم أرادوا قتلك فقال: ويحك إني بهم لرفيق. فما بالهم؟ وقال شريك لمسلم: ما منعك أن تخرج فتقتله؟ قال: حديث بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال «الإيمان ضد الفتك، لا يفتك مؤمن» [مسند أحمد:١/١٦٦] وكرهت أن أقتله في بيتك، فقال: أما لو قتلته لجلست في القصر لم يستعد منه أحد ولتكفينَّ أمر البصرة، ولو قتلته لقتلت ظالما فاجرا، ومات شريك بعد ثلاث.

ولما انتهى ابن زياد إلى باب القصر وهو متلثم ظنه النعمان بن بشير الحسين قد قدم فأغلق باب القصر وقال: ما أنا بمسلم إليك أمانتي، فقال له عبيد الله: افتح لأفتحته، ففتح وهو يظنه الحسين، فلما تحقق أنه عبيد الله أسقط في يده، فدخل عبيد الله إلى قصر الإمارة وأمر منادياً فنادى: إن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين قد ولاني أمركم وثغركم وفيأكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، والشدة على مريبكم وعاصيكم، وإنما أنا ممتثل فيكم أمره ومنفذ عهده، ثم نزل وأمر العرفاء أن يكتبوا من عندهم من الزورية وأهل الريب والخلاف والشقاق، وإيما عريف لم يطلعنا على ذلك صلب أو نفي وأسقطت عرافته من الديوان ـ وكان هانئ أحد الأمراء الكبار ـ ولم يسلم على عبيد الله منذ قدم وتمارض، فذكره عبيد الله وقال: ما بال هانئ لم يأتني مع الأمراء؟ فقالوا: أيها الأمير إنه يشتكي، فقال: قد بلغني إنه يجلس على باب داره. وزعم بعضهم أنه عاده قبل شريك بن الأعور ومسلم بن عقيل عنده، وقد هموا بقتله فلم يمكنهم هانئ لكونه في داره، فجاء الأمراء إلى هانئ بن عروة فلم يزالوا به حتى أدخلوه على عبيد الله بن زياد، فالتفت عبيد الله إلى القاضي شريح فقال متمثلا بقول الشاعر:

أريدُ حياتَهُ ويريدُ قتلي عذيرَكَ مِنْ خليلكَ مِنْ مُراد

فلما سلم هانئ على عبيد الله قال: يا هانئ أين مسلم بن عقيل؟ قال: لا أدري، فقام ذلك المولى التميمي الذي دخل دار هانئ في صورة قاصد من حمص فبايع في داره ودفع الدراهم بحضرة هانئ إلى مسلم، فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم! فلما رآه هانئ قُطِع به وأُسقط في يده، فقال: أصلح الله الأمير، والله ما دعوته إلى منزلي، ولكنّه جاء فطرح نفسه علي، فقال عبيد الله: فأتني به، فقال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه، فقال: أدنوه مني، فأدنوه فضربه بحربة على وجهه فشجه على حاجبه وكسر أنفه، وتناول هانئ سيف شرطي ليسله فدُفع عن ذلك، وقال عبيد الله: قد أحل الله لي دمك، لأنك حروري، ثم أمر به فحبسه في جانب الدار وجاء قومه من بني مذحج مع عمرو بن الحجاج فوقفوا على باب القصر يظنون أنه قد قتل، فسمع عبيد الله لهم جلبة، فقال لشريح القاضي وهو عنده: اخرج إليهم فقل لهم: إن الأمير لم يحبسه إلا ليسأله عن مسلم بن عقيل، فقال لهم: إن صاحبكم حي وقد ضربه سلطاننا ضربا لم يبلغ نفسه، فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم. فتفرقوا إلى منازلهم، وسمع مسلم بن عقيل الخبر فركب ونادى بشعاره «يا منصور أمت» فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، وكان معه المختار بن أبي عبيد، ومعه راية خضراء، وعبد الله بن الحارث بن نوفل براية حمراء فرتبهم ميمنة وميسره وسار هو في القلب إلى عبيد الله، وهو يخطب الناس في أمر هانئ ويحذرهم من الاختلاف، وأشراف الناس وأمراؤهم تحت منبره، فبينما هو كذلك إذ جاءت النظارة يقولون: جاء مسلم بن عقيل، فبادر عبيد الله

فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب، فلما انتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد الله في القصر، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف، وتهددوهم ووعدوهم وتوعدوهم وأخرج عبيد الله بعض الأمراء وأمرهم أن يركبوا في الكوفة يخذلون الناس عن مسلم بن عقيل، ففعلوا ذلك، فجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وأخيها وتقول: ارجع الناس يكفونك ويقول الرجل لابنه وأخيه: كأنك غدا بجنود الشام قد أقبلت فماذا تصنع معهم؟

فتخاذل الناس وقصّروا وتصرّموا وانصرفوا عن مسلم بن عقيل فما أمسى إلا وهو في خمسمائة نفس، ثم بقي في ثلاثمائة ثم لم يبق معه إلاّ ثلاثون رجلا، فصلى بهم المغرب وقصد أبواب كندة فخرج منها في عشرة، ثم انصرفوا عنه فبقي وحده ليس معه من يدله على الطريق، ولا من يواسيه بنفسه، ولا من يأويه إلى منزله.

فذهب على وجهه واختلط الظلام وهو وحده يتردد في الطريق لا يدري أين يذهب، فأتى باباً فنزل عنده وطرقه فخرجت منه امرأة يقال لها طوعة، كانت أم ولد للأشعث بن قيس، وقد كان لها ابن من غيره يقال له بلال بن أسيد، خرج مع الناس وأمه قائمة بالباب تنتظره، فقال لها مسلم بن عقيل: اسقيني ماء فسقته، ثم دخلت وخرجت فوجدته، فقالت: ألم تشرب؟ قال: بلى! قالت: فاذهب إلى أهلك فسكت، فقالت له ذلك ثلاثاً وهو ساكت، فقالت: سبحان الله يا عبد الله! قم إلى أهلك عافاك الله، فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أحلُّه لك، فقام فقال: يا أمة الله ليس لي في هذا البلد منزل ولا عشيرة، فهل لك إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم؟ فقالت: يا عبد الله وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل، كذبني هؤلاء القوم وغرّوني، فقالت: أنت مسلم؟ قال: نعم! قالت ادخل! فأدخلته بيتا من دارها غير البيت الذي تكون فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعش، فلم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج، فسألها عن شأنها فقالت: يا بني اله عن هذا، فألح عليها فأخذت عليه أن لا يحدث أحداً، فأخبرته خبر مسلم، فاضطجع وسكت إلى الصباح ساكتا لا يتكلم.

وأما عبيد الله بن زياد فإنه نزل من القصر بمن معه من الأمراء والأشراف بعد العشاء الآخرة فصلى بهم العشاء في المسجد الجامع، ثم خطبها وطلب منهم مسلم بن عقيل وحث على طلبه، ومن وجد عنده ولم يعلم به فلعه هدر، ومن جاء به فله ديته، وطلب الشرط وحرَّضهم على تطلُّبه وتهددهم وتوعّدهم.

فلما أصبح ابن تلك العجوز ذهب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأعلمه بأن مسلم بن عقيل في دارهم، فجاء عبد الرحمن فسار أباه بذلك وهو عند ابن زياد: فقال ابن زياد: ما سارّك به؟ فقال: أخبرني أن مسلماً في بعض دورنا، فنخس بقضيب في جنبه وقال: قم فأتني به الساعة. وبعث ابن زياد عمرو بن حريث المخزومي - وكان صاحب شرطته - ومعه عبد الرحمن ومحمد بن الأشعث في سبعين أو ثمانين فارساً فلم يشعر مسلم إلا وقد أحيط بالدار التي هو فيها، فدخلوا عليه فقام إليهم بالسيف فأخرجهم من الدار ثلاث مرات، وأصيبت شفته العليا والسفلى، ثم جعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطناب القصب ويلقونها عليه، فضاق بهم ذرعاً، فخرج إليهم بسيفه فقاتلهم، فأعطاه عبد الرحمن الأمان فأمكنه من يده، وجاؤوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا منه سيفه فلم يبق يملك من نفسه شيئا، فبكى عند ذلك وعرف أنه مقتول، فيئس من نفسه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال بعض من حوله: إن من يطلب مثل الذي تطلب لا يبكي إذا نزل به هذا، فقال: أما والله لست أبكي على نفسي، ولكن أبكي على الحسين، وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم أو غداً من مكة، ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال: إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لساني تأمره بالرجوع فافعل. فبعث محمد بن الأشعث إلى الحسين يأمره بالرجوع فلم يصدق الرسول في ذلك، وقال: كل ما حم واقع.

قالوا: ولما انتهى مسلم بن عقيل إلى باب القصر إذا على بابه جماعة من الامراء من أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه، ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد، ومسلم مخضب بالدماء وجهه وثيابه مثخن بالجراح، في غاية العطش، وإذا قلة من ماء بارد هنالك فأراد أن يتناولها ليشرب منها فقال له رجل من أولئك: والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم، فقال له: ويلك يا ابن باهلة، أنت أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني، ثم جلس متسانداً إلى الحائط من التعب والكلال والعطش، فبعث عمارة بن عقبة بن أبي معيط مولى له إلى داره فجاء بقُلّة عليها منديل ومعه قدح، فجعل يفرغ له في القدح ويعطيه فيشرب فلا يستطيع من كثرة الدماء التي تعلو على الماء مرتين أو ثلاثا، فلما شرب سقطت ثنيّتاه مع الماء فقال: الحمد للّه لقد كان لي من الرزق المقسوم شربة ماء، ثم أدخل على ابن زياد، فلما وقف بين يديه لم يسلم عليه، فقال له الحرسي: الا تسلم على الأمير؟ فقال: لا! إن كان يريد قتلي فلا حاجة لي بالسلام عليه، وإن لم يرد قتلي فسأسلم عليه كثيراً، فأقبل ابن زياد عليه فقال: إيه يا ابن عقيل، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على بعض؟ قال: كلا لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب. قال: وما أنت وذاك يا فاسق؟ أو لم نكن تعمل بذلك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟. فقال: أنا أشرب الخمر! والله إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قلت بغير علم، وأنت أحق بذلك مني، فإني لست كما ذكرت، وإن أولى بها مني من يلغ في دماء المسلمين وَلْغاً، ويقتل النفس التي حرم الله بغير نفس، ويقتل على الغضب والظن، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا. فقال له ابن زياد: يا فاسق إن نفسك تمنيك ما حال الله دونك ودونه، ولم يرك أهله، قال: فمن أهله يا ابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد. قال: الحمد لله علي كل حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم. قال: كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئاً؟ قال: لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين. قال له: قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يقتلها أحد في الإسلام من الناس. قال: أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السيرة المكتسبة عن آبائكم وجهالكم، وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسيناً وعلياً، ومسلم ساكت لا يكلمه.

ذكره ابن جرير [تاريخه: ٣٧٧/٥] عن أبي مخنف وغيره من رواة الشيعة.

ثم قال له ابن زياد: إني قاتلك. قال: كذلك؟ قال: نعم. قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي، قال: أوص. فنظر في جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص. فقال: يا عمر إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وهو سر، فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريبا من ابن زياد فقال له مسلم: إنّ علي ديناً في الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عني، واستوهب جثتي من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين، فإني قد كتبت

إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلا، فقام عمر فعرض على ابن زياد ما قال له فأجاز له ذلك كله، وقال: وأما الحسين فإنه إن لم يردنا لا نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه، ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل فاصعد إلى أعلى القصر وهو يكبر ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول: اللّهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع رأسه بجسده. ثم أمر بهانيء بن عروة المذحجي فضربت عنقه بسوق الغنم، وصلب بمكان من الكوفة يقال له الكناسة، فقال رجل شاعر في ذلك قصيدة- ويقال: إنها الفرزدق

فإن كنتِ لا تدرينَ ما الموتُ فانظري ... إلى هانيءٍ في السوقِ وابنِ عقيلِ
أصابهما أمرُ الإمامِ فأصبحا ... أحاديثَ من يسعى بكلِّ سبيلِ
إلى بطلٍ قد هشمَ السيفُ وجهه ... وآخرَ يهوي من طمارِ قتيلِ
تري جسداً قد غيرَ الموتُ لونَهُ ... ونَضْحَ دمٍ قد سال كلَّ مسيلِ
فإن أنتمُ لم تثأروا بأخيكمُ ... فكونوا بغايا أرضيتْ بقليلِ

ثم بعث برؤسهما إلى يزيد بن معاوية إلى الشام وكتب له كتابا بصورة ما وقع من أمرهما.

وقد كان عبيد الله قبل أن يخرج من البصرة بيوم خطب أهلها خطبة بليغة ووعظهم فيها وحذرهم وأنذرهم من الاختلاف والفتنة والتفرق. وذلك لما رواه هشام بن الكلبي وأبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن أبي عثمان النهدي [تاريخ الطبري:٥/٣٥٧] .

قال: بعث الحسين مع مولى له يقال له سليمان كتابا إلى أشراف أهل البصرة فيه:

أما بعد فإن الله اصطفى محمداً على خلقه وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأولياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، فإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري، فإن فعلتم أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله.

وعندي في صحة هذا عن الحسين نظر، والظاهر أنه مطرز بكلام مزيد من بعض رواة الشيعة.

قال: فكل من قرأ ذلك من الأشراف كتمه إلا المنذر بن الجارود فإنه ظن أنه دسيسة من ابن زياد فجاء به إليه، فبعث خلف الرسول الذي جاء به فضرب عنقه، وصعد عبيد الله بن زياد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فوالله ما بي تقرن الصعبة، وما يقعقع لي بالشنان، وإني لنِكْلٌ لمن عاداني، وسِمام لمن حاربني، أنصفَ القارة من راماها، يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى، حتى تستقيموا لي، ولا يكن فيكم مخالف ولا مشاقٌّ، أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطيء الحصى، ولم ينتزعني شبه خال ولا عم.

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي فكان من أمره ما تقدم.

قال أبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن عون بن أبي جحيفة قال: كان مخرج مسلم بن عقيل بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة، وقيل: يوم الأربعاء لتسع مضين من ذي الحجة، وذلك يوم عرفة سنة ستين، وكان ذلك بعد مخرج الحسين من مكة قاصداً أرض العراق بيوم واحد، وكان خروج الحسين من المدينة إلى مكة يوم الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة ستين ودخل مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان، فأقام بمكة بقية شعبان ورمضان وشوال وذا القعدة، وخرج منها لثمان مضين من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التروية.

صفة مخرج الحسين وما جرى بعد ذلك

لما تواترت الكتب إلى الحسين من جهة أهل العراق وتكررت الرسل بينهم وبينه، وجاءه كتاب مسلم بن عقيل بالقدوم عليه بأهله، ثم وقع في غبون ذلك ما وقع من مقتل مسلم بن عقيل، والحسين لا يعلم بشيء من ذلك، بل قد عزم على المسير إليهم والقدوم عليهم، فاتفق خروجه من مكة يوم التروية قبل مقتل مسلم بن عقيل بيوم واحد - فإن مسلماً قتل يوم عرفة - ولما استشعر الناس خروجه أشفقوا عليه من ذلك، وحذروه منه، وأشار عليه ذوو الرأي منهم والمحبة له بعدم الخروج إلى العراق، وأمروه بالمقام بمكة، وذكروه ما جرى لأبيه وأخيه معهم.

قال سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس. قال: استشارني الحسين بن علي في الخروج فقلتُ: لولا أن يزري بي وبك لشَبَّثْتُ يدي في رأسك، فكان ردّ علي أن قال: لأن أقتل في مكان كذا وكذا أحب إلي من أن أقتل بمكة. قال: فكان هذا الذي سلى نفسي عنه.

وروى أبو مخنف عن الحارث بن كعب الوالبي عن عقبة بن سمعان: أن حسيناً لما أجمع المسير إلى الكوفة أتاه عبد الله ابن عباس فقال: يا ابن عم إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لي ما أنت صانع؟ فقال: إني قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان قد دعوك بعدما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم عليهم، قاهراً لهم، وعماله تجبى بلادهم، فانهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستنفروا إليك الناس، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إني أستخير الله وأنظر ما يكون.

فخرج ابن عباس عنه، ودخل ابن الزبير فقال له: ما أدري ما تركنا لهؤلاء القوم ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم، أخبرني ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلي شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله. فقال ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها. فلما خرج من عنده قال الحسين: قد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوه بي، فود أني خرجت لتخلو له.

فلما كان من العشي أو من الغد، جاء ابن عباس إلى الحسين فقال له: يا ابن عم! إني أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم اقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصونا وشعابا،

ولأبيك به شيعة، وكن عن الناس في معزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه. ثم قال ابن عباس: أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه بالحجاز، فوالله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس اطعتني وأقمت لفعلت ذلك. قال: ثم خرج من عنده فلقي ابن الزبير فقال قرت عينك يا ابن الزبير؟

يا لكِ من قنبرةٍ بمعمر خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفِري
ونقري ما شئتِ أن تنقري

ثم قال ابن عباس: هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز.

وقال غير واحد عن شبابة بن سوار. قال: حدثنا يحيى بن إسماعيل بن سالم الأسدي قال: سمعت الشعبي يحدث عن ابن عمر أنه كان بماء له، فبلغه أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق فلحقه على مسيرة ثلاث ليال، فقال له: أين تريد؟ قال: العراق، وإذا معه طوامير وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: لاتأتهم، فأبى. فقال ابن عمر: إني محدثك حديثا، إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بَضْعة من رسول الله، والله ما يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع. قال: فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: استودعك الله من قتيل.

وقال يحيى بن معين: حدثنا أبو عبيدة حدثنا سليم بن حيان عن سعيد بن ميناء. قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: عجل حسين قدره، عجّل حسين قَدَره؛ والله لو أدركته ما كان ليخرج إلا أن يغلبني، ببني هاشم فتح، وببني هاشم ختم؛ فإذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان.

قلت: وهذا مع حديث ابن عمر يدل على أن الفاطميين أدعياء، لم يكونوا من سلالة فاطمة كما زعموا، وإنما كانوا كذبة فيما ادّعوه، كما نص عليه غير واحد من الأئمة على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عبد الله بن شريك عن بشر بن غالب. قال قال ابن الزبير للحسين: أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ فقال: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل بي - يعني مكة -.

وقال الزبير بن بكار: حدثني عمي مصعب بن عبد الله أخبرني من سمع هشام بن يوسف يقول عن معمر قال: سمعت رجلا يحدّث عن الحسين بن علي، قال: سمعته يقول لعبد الله بن الزبير: أتتني بيعة أربعين ألفاً يحلفون بالطلاق والعتاق من أهل الكوفة، أو من أهل العراق، فقال له ابن الزبير: أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك؟

قال هشام: فسألت معمراً عن الرجل فقال: هو ثقة.

قال الزبير: وقال عمي: وزعم بعض الناس أن ابن عباس هو الذي قال هذا.

وقد ساق محمد بن سعد كاتب الواقدي هذا سياقا حسنا مبسوطاً. فقال: أنبأنا علي بن محمد عن يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه، وعن لوط بن يحيى الغامدي عن محمد بن نَشْر الهمداني وغيره، وعن محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير، وعن هارون بن عيسى عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه، وعن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن مجالد عن الشعبي. قال محمد بن سعد: وغير هؤلاء قد حدثني أيضاً في هذا الحديث بطائفة فكتبت جوامع حديثهم في مقتل الحسين رضي الله عنه وأرضاه.

قالوا: لما بايع الناس معاوية ليزيد كان الحسين ممن لم يبايع له، وكان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين يدعونه إلى الخروج إليهم في خلافة معاوية، كل ذلك يأبى، فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية يطلبون إليه أن يخرج معهم فأبى، وجاء إلى الحسين فأخبره بما عرضوا عليه، وقال: إن القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا، ويُشيطوا دماءنا، فأقام حسين على ما هو عليه من الهموم، مرة يريد أن يسير إليهم، ومرة يجمع الإقامة، فجاءه أبو سعيد الخدري فقال: يا أبا عبد الله! إني لكم ناصح، وإني عليكم مشفق، وقد بلغني أنه كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج، فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملوني وأبغضوني، وما بلوتُ منهم وفاء قط، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثباتٌ ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف.

قال: وقدم المسيب بن نَجَبة الفزاري في عدة معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن، فدعوه إلى خلع معاوية وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك، فقال: إني لأرجو أن يعطي الله أخي على نيته في حبه الكف، وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين.

وكتب مروان إلى معاوية: إني لست آمن أن يكون حسين مرصداً للفتنة، وأظن يومكم من حسين طويلا. فكتب معاوية إلى الحسين: إن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أنبئت أن قوما من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جربت قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله واذكر الميثاق، فإنك متى تكدني أكدك. فكتب اليه الحسين: أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عني جدير، والحسنات لا يهدي لها إلا الله، وما أردت لك محاربة ولا عليك خلافا، وما أظن لي عند الله عذراً في ترك جهادك، وما أعلم فتنة أعظم من ولايتك أمر هذه الأمة، فقال معاوية: إن أثرنا بأبي عبد الله إلا أسداً.

وكتب إليه معاوية أيضاً في بعض ما بلغه عنه: إني لأظن أن في رأسك نزوة فوددت أني أدركها فأغفرها لك. قالوا: فلما احتضر معاوية دعا يزيد فأوصاه بما أوصاه به، وقال له: انظر حسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله، فإنه أحب الناس إلى الناس، فصل رحمه، وارفق به، يصلح لك أمره، فإن يكن منه شيء فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه.

وتوفي معاوية ليلة النصف من رجب سنة ستين، وبايع الناس يزيد فكتب يزيد مع عبد الله بن عمرو بن أويس العامري عامر بن لؤي، إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو على المدينة: أن ادع الناس فبايعهم، وابدأ بوجوه قريش، وليكن أول من تبدأ به الحسين بن علي، فإن أمير المؤمنين عهد إلي في أمره الرفق به واستصلاحه.

فبعث الوليد من ساعته نصف الليل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير فأخبرهما بوفاة معاوية، ودعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: إلى أن نصبح وننظر ما يصنع الناس، ووثب الحسين فخرج وخرج معه ابن الزبير وهو يقول: هو يزيد الذي نعرف، والله ما حدث له حزم ولا مروؤة.

وقد كان الوليد أغلظ للحسين فشتمه الحسين وأخذ بعمامته فنزعها من رأسه، فقال الوليد: إن هجنا بأبي عبد الله إلا أسداً. فقال له مروان - أو بعض جلسائه -: اقتله، فقال: إن ذلك لدم مضنون به في بني عبد مناف.

قالوا: وخرج الحسين وابن الزبير من ليلتهما إلى مكة، وأصبح الناس فغدوا على البيعة ليزيد، وطلب الحسين وابن الزبير فلم يوجدا، فقال المسور بن مخرمة: عجل الحسين وابن الزبير يلفته ويزجيه إلى العراق ليخلو بمكة، فقدما مكة فنزل الحسين دار العباس، ولزم ابن الزبير الحجر، ولبس المعافري وجعل يحرض الناس على بني امية، وكان يغدو ويروح إلى الحسين ويشير عليه أن يقدم العراق، ويقول: هم شيعتك وشيعة أبيك، فكان عبد الله ابن عباس ينهاه عن ذلك ويقول: لا تفعل، وقال له عبد الله بن مطيع: إني فداؤك وأبي وأمي، فأمتعنا بنفسك ولا تسر إلى العراق، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذونا عبيداً وخولا. قالوا: ولقيهما عبد الله بن عمر وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة بالأبواء منصرفين من العمرة فقال لهما ابن عمر: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس، وتنظرا فإن اجتمع الناس عليه فلم تشذا، وإن افترق عليه كان الذي تريدان. وقال ابن عمر للحسين: لاتخرج فإن رسول الله ﷺ خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، وإنك بضعة منه ولاتنالها - يعني الدنيا - واعتنقه وبكى وودعه، فكان ابن عمر يقول: غلبنا حسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له أن لا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير.

وقال له ابن عباس: أين تريد يا ابن فاطمة؟ فقال: العراق وشيعتي، فقال: إني لكَرِهٌ لوجهك هذا تخرج إلى قوم قتلوا اباك وطعنوا أخاك حتى تركهم سخطة وملالة لهم؟ أذكرك الله أن تغرر بنفسك.

وقال أبو سعيد الخدري: غلبني الحسين بن علي على الخروج، وقد قلت له: اتق الله في نفسك والزم بيتك ولا تخرج على إمامك.

وقال أبو واقد الليثي: بلغني خروج الحسين بن علي فأدركته بملل فناشدته الله أن لا يخرج فإنه يخرج في غير وجه خروج، إنما خرج يقتل نفسه، فقال: لا أرجع.

وقال جابر بن عبد الله: كلمت حسيناً فقلت: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم. فعصاني.

وقال سعيد بن المسيب: لو أن حسيناً لم يخرج لكان خيراً له.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: وقد كان ينبغي لحسين أن يعرف أهل العراق ولا يخرج إليهم، ولكن شجعه على ذلك ابن الزبير.

وكتب إليه المسور بن مخرمة: إياك أن تغتر بكتب أهل العراق ويقول ابن الزبير: الحق بهم فإنهم ناصروك، إياك أن تبرح الحرم فإنهم إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون إليك آباط الإبل حتى يوافوك فتخرج في قوة وعدة. فجزاه خيرا وقال: أستخير الله في ذلك.

وكتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن تعظم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنه إنما يساق إلى مصرعه، وتقول: أشهد لسمعت عائشة تقول أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل الحسين بأرض بابل» فلما قرأ كتابها قال: فلا بد لي إذا من مصرعي ومضى.

وأتاه أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال: يا ابن عم، إن الرحم نظارني عليك، وما أدري كيف أنا عندك في النصيحة لك، قال: يا أبا بكر، ما أنت ممن يُستغشُ ولا يُتهَّم، فقُل، قال: قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك وأخيك، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فأذكرك الله في نفسك. فقال. جزاك الله يا ابن عم خيراً، مهما يقض الله من أمر يكن. فقال أبو بكر: إنا لله عند الله، نحتسب أبا عبد الله.

وكتب إليه عبد الله بن جعفر كتابا يحذره أهل الكوفة ويناشده الله إن يشخص إليهم. فكتب إليه الحسين: إني رأيت رؤيا، ورأيت رسول الله ﷺ امرني بأمر وأنا ماض له، ولست بمخبر بها أحداً حتى الاقي عملي.

وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص نائب الحرمين: إني أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يصرفك عما يرديك، بلغني أنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، وإني أعيذك الله من الشقاق، فإن كنت خائفا فاقبل إلي، فلك عندي الأمان والبر والصلة.

فكتب إليه الحسين: إن كنت أردت بكتابك بري وصلتي فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة، وإنه لم يشاقق من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين، وخير الأمان أمان الله، ولم يؤمن بالله من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمان الآخرة عنده.

قالوا: وكتب يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن عباس يخبره بخروج الحسين إلى مكة، ويحسبه قد جاءه رجال من أهل هذا المشرق فمنوه بالخلافة، وعندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان قد فعل فقد قطع واشجَ القرابة، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعي في الفرقة.

وكتب بهذه الأبيات إليه وإلى من بمكة والمدينة من قريش: -

يا أيها الراكب العادي لطيَّته ... على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشا على نأي المزار بها ... بيني وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الإله وما توفى به الذمم
عنيتم قومكم فخراً بأمكم ... أم لعمري حصان برة كرمُ
هي التي لا يداني فضلها أحد ... بنتُ الرسولِ وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم في فضلها قسم
إني لأعلم أو ظنا كعالمه ... والظن يصدق أحيانا فينتظم
أن سوف يترككم ما تدعون بها ... قتلى تهاداكم العقبان والرخم
ياقومنا لا تشبوا الحرب إذ سكنت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
قد غرّت الحرب من قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم
فانصفوا قومكم لا تهلكوا بَذَخاً ... فرب ذي بَذَخ زلت به القدم

قال: فكتب إليه ابن عباس: إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به الألفة وتطفى به النائرةُ.

ودخل عبد الله بن عباس على الحسين فكلمه ليلا طويلاً وقال له: أنشدك أن تهلك غداً بحال مضيعة لا تأتي العراق، وإن كنت لا بد فاعلا فأقم حتى ينقضي الموسم وتلقى الناس وتعلم ما يصدرون، ثم ترى رأيك، وذلك في عشر ذي الحجة. فأبى الحسين إلا أن يمضي إلى العراق، فقال له ابن عباس: والله إني لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان بين نسائه وبناته، والله إني لأخاف أن تكون الذي يقاد به عثمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فقال: أبا العباس إنك شيخ قد كبرت، فقال له ابن عباس: لولا أن يزري ذلك بي أو بك لنشبت يدي في رأسك، ولو أعلم أنا إذا تناصينا أقمت لفعلت، ولكن لا إخال ذلك نافعي. فقال له الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل بي؛ يعني

مكة. قال: فبكى ابن عباس وقال: أقررت عين ابن الزبير بذلك، وذلك الذي سلا نفسي عنه.

قال: ثم خرج ابن عباس عنه وهو مغضب وابن الزبير على الباب، فلما رآه قال: يا ابن الزبير قد أتى ما أحببت، قرت عينك، هذا أبو عبد الله خارج ويتركك والحجاز، ثم قال:

يا لكِ من قُنبرة بمعمرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري
ونقري ما شئتِ أن تنقري

قال: وبعث الحسين إلى المدينة فقدم عليه من خف من بني عبد المطلب، وهم تسعة عشر رجلا ونساء وصبيان من إخوانه وبناته ونسائهم، وتبعهم محمد بن الحنفية، فأدرك حسيناً بمكة فأعلمه أن الخروج ليس له برأي يومه هذا، فأبى الحسين أن يقبل، فحبس محمد بن الحنفية ولده فلم يبعث معه أحداً منهم حتى وجد الحسين في نفسه على محمد، وقال: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه؟ فقال محمد: وما حاجتي إلى أن تصاب ويصابون معك؟ وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم؟ قالوا: وبعث أهل العراق إلى الحسين الرسل والكتب يدعونه إليهم، فخرج متوجهاً إليهم في أهل بيته وستين شيخاً من أهل الكوفة صحبته، وذلك يوم الاثنين في عشر ذي الحجة، سنة ستين، فكتب مروان إلى عبيد الله بن زياد: أما بعد فإن الحسين بن علي قد توجه إليك، وهو الحسين بن فاطمة. وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وبالله ما أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين، فإياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء، ولا تنساه العامة، ولا تدع ذكره، والسلام.

وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص: أما بعد فقد توجه إليك الحسين، وفي مثلها تعتق أو تكون عبداً تسترق كما يسترق العبيد.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك عن أبيه. قال: كتب يزيد إلى ابن زياد: إنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة، وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان وابتليت به أنت من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبدا كما تُعتَبَدُ العبيد، فقتله ابن زياد وبعث برأسه إليه.

قلت: والصحيح أنه لم يبعث برأس الحسين إلى الشام كما سيأتي، وفي رواية [تاريخ الطبري:٣٨١/٥] أن يزيد كتب إلى ابن زياد: قد بلغني أن الحسين قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس واحبس على الظنة وخذ على التهمة، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك، واكتب إلي في كل ما يحدث من خبر والسلام.

وقال الزبير بن بكار: وحدثني محمد بن الضحاك قال: خرج الحسين من مكة إلى العراق، فلما مر بباب المسجد الحرام وقال:

لا ذعرتُ السوام في فلقِ الصبح مغيراً ولا دعيتُ يزيدا
يومَ أعطي مخافةَ الموت ضَيْماً والمنايا ترصدنني أن أحيدا

وقال أبو مخنف: قال أبو جناب يحيى بن أبي حَيَّة عن عدي بن حرملة الأسدي عن عبد الله بن سليم والمَذْري بن المشمعل الأسديين قالا: خرجنا حاجين من الكوفة حتى قدمنا مكة فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين وابن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب، فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك؟. فقال الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشاً يستحل حُرمتها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش. فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئت وولني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى، فقال: وما أريد هذا أيضاً، قالا: ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا، فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دُعاةَ الناس متوجهين إلى منى عند الظهيرة، قالا: فطاف الحسين بالبيت وبين الصفا والمروة، وقصر من شعره، وحل من عمرته، ثم توجه نحو الكوفة وتوجهنا نحن مع الناس إلى منى.

وقال أبو مخنف: حدثني الحارث بن كعب الوالبي عن عقبة بن سمعان. قال: لما خرج الحسين من مكة اعترضه رسل عمرو بن سعيد يعني نائب مكة عليهم أخوه يحيى بن سعيد، فقالوا له: انصرف أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط، ثم إن حسيناً وأصحابه امتنعوا منهم امتناعاً قوياً، ومضى الحسين على وجهه، فنادوه: يا حسين الا تتقي الله؟ تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة؟ قال: فتأول الحسين قوله تعالى ﴿لِي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ [يونس: ٤١].

قال: ثم إن الحسين مر بالتنعيم فلقي بها عيراً قد بعث بها بَحير بن رَيْسان الحميري نائب اليمن قد أرسلها من اليمن إلى يزيد بن معاوية، عليها ورس وحلل كثيرة، فأخذها الحسين وانطلق بها، واستأجر أصحاب الجمال عليها إلى الكوفة، ودفع إليهم أجرتهم.

ثم ساق أبو مخنف بإسناده الأول أن الفرزدق لقي الحسين في الطريق فسلم عليه وقال له: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب. فسأله الحسين عن أمر الناس وما وراءه فقال له: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. فقال له: صدقت، لله الأمر، يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يَعْتَدِ من كان الحق نيته، والتقوى سريرته، ثم حرك الحسين راحلته فقال: السلام عليكم. ثم افترقا.

وقال هشام بن الكلبي عن عوانة بن الحكم عن لَبَطَ بن الفرزدق عن أبيه. قال: حججت بأمي، فبينما أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم في أيام الحج، وذلك سنة ستين، إذ لقيت الحسين خارجاً من مكة معه أسيافه وأتراسه، فقلت له: بأبي وأمي يا ابن رسول الله، ما أعجلك عن الحج؟ فقال: لو لم أعجل لأخذت، ثم سألني: ممن أنت؟ فقلت: امرؤ من العراق، فسألني عن الناس . فذكر نحو ما تقدم.

ثم ذكر الفرزدق اجتماعه بعبد الله بن عمرو وقوله: له: إن الحسين لا يحيك فيه السلاح . فندم الفرزدق أن لا يكون تابعَ الحسين، فلما بلغه قتْله، جعل يتذكر قول عبد الله بن عمرو: لا يحيك فيه السلاح. ولم يفهم عنه، إنما أراد أن السلاح لا يضرُّه في آخرته؛ وكذا قال بعض السلف، ذكره ابن عساكر، [تاريخ الطبري:٢١٢/١٤، ٢١٣]. وفي هذا نظر، والله أعلم ، وقيل: غير ذلك وقيل: أراد الهزل بالفرزدق. قالوا: ثم سار الحسين لا يلوي على شيء حتى نزل ذات عرق.

قال أبو مخنف: فحدثني الحارث بن كعب الوالبي عن علي بن الحسين بن علي قال: لما خرجنا من مكة كتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين مع ابنيه عون ومحمد: أما بعد فإني أسائلك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي هذا، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك إن هلكت اليوم طفىء نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في إثر كتابي

والسلام.

ثم نهض عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد نائب مكة فقال: اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البر والصلة، وتوثق له في كتابك، وتسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع، فقال له عمرو: اكتب عني ما شئت وأتني به حتى أختمه. فكتب ابن أبي جعفر عن عمرو بن سعيد ما أراد عبد الله، ثم جاء بالكتاب إلى عمرو فختمه بخاتمه، وقال عبد الله لعمرو بن سعيد: ابعث معي أخاك، فبعث معه أخاه يحيى، فانصرفا حتى لحقا الحسين فقرآ عليه الكتاب فأبى أن يرجع وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقد أمرني بأمر وأنا ماض له، فقالا: ما تلك الرؤيا؟ فقال: ما حدثت بها أحداً ولا أحدثه حتى ألقى ربي عز وجل.

قال أبو مخنف: وحدثني محمد بن قيس أن الحسين أقبل حتى إذا بلغ الحاجر من بطن ذي الرمة، بعث قيس بن مسهر الصيداوي إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: وكان كتاب مسلم إليه قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة، ومضمونه: أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن جمع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي هذا والسلام عليك.

قال: وأقبل قيس بن مسهر الصيداوي إلى الكوفة، بكتاب الحسين حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فقال له ابن زياد: اصعد إلى أعلى القصر فسب الكذاب ابن الكذاب فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر من بطن الرُّمَّة، فاجيبوه. ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي والحسين. فأمر به ابن زياد فألقي من رأس القصر فتقطع، ويقال: بل تكسرت عظامه وبقي فيه بقية رمق، فقام إليه عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه، وقال: إنما أردت إراحته من الألم، وقيل: إنه رجل يشبه عبد الملك بن عمير وليس به.

وفي رواية أن الذي قدم بكتاب الحسين إنما هو عبد الله بن بقطر أخو الحسين من الرضاعة، فألقي من أعلى القصر والله أعلم.

ثم أقبل الحسين يسير نحو الكوفة ولا يعلم بشيء مما وقع في الأخبار.

قال أبو مخنف عن أبي علي الأنصاري، عن بكر بن مصعب المزني.

قال: وكان الحسين لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتبعوه.

قال: قال أبو مخنف عن أبي جناب عن عدي بن حرملة عن عبد الله بن سليم والمَذْري بن المشمعل الأسديين قالا: لما قضينا حجنا لم يكن لنا همة إلا اللحاق بالحسين، فذكر أنهما اتبعاه فأدركناه وقد مر برجل من بني أسد فهم الحسين أن يكلمه ويسأله فترك ذلك، فجئنا ذلك فسألناه عن أخبار الناس، فقال: والله لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما في السوق. قالا: فلحقنا الحسين فأخبرناه فجعل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ مراراً. فقلنا له: الله الله في نفسك. فقال: لا خير في العيش بعدهما. فقلنا: خار الله لك. وقال له بعض أصحابه: والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

وقال غيرهما: لما سمع أصحاب الحسين بمقتل مسلم بن عقيل، وثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب وقالوا: لا والله لا نرجع حتى ندرك ثارنا، أو نذوق ما ذاق أخونا. فسار الحسين حتى إذا كان بزرود بلغه خبر مقتل الذي بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة بعد أن خرج من مكة ووصل إلى حاجر، فقال: قد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف عن غير حرج عليه، وليس عليه منا ذمام، قال: فتفرق الناس عنه أيادي سبا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من مكة، وإنما فعل ذلك لأنه ظن أن من اتبعه من الأعراب إنما اتبعوه لأنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهلها، فكره أن يسيروا معه وهم يعلمون على ما يقدمون، وقد علم أنه إذا بين لهم الأمر لم يصحبه إلا من يريد مواساته في الموت معه قال: فلما كان السحر أمر فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه، ثم سار حتى مر ببطن العقبة فنزل بها.

وقال محمد بن سعد: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا جعفر بن سليمان عن يزيد الرشك قال: حدثني من شافه الحسين قال: رأيت أبنية مضروبة بفلاة من الأرض فقلت: لمن هذه؟ قالوا: هذه لحسين قال: فأتيته فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته، قال: قلت: بأبي وأمي يا ابن رسول الله ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التي ليس بها أحد؟ فقال: هذه كتب أهل الكوفة إلي ولا أراهم إلا قاتلي، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأَمَة؛ يعني مقنعتها.

وأخبرنا علي بن محمد عن الحسن بن دينار عن معاوية بن قرة، قال: قال الحسين: والله ليعتدن علي كما اعتدت بنو إسرائيل في السبت.

وحدثنا علي بن محمد عن جعفر بن سليمان الضبعي. قال:: قال الحسين: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة. فقتل بنينوى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو بكر الحميدي حدثنا سفيان حدثنا شهاب بن خراش عن رجل من قومه: قال: كنت في الجيش الذين بعثهم ابن زياد إلى الحسين، وكانوا أربعة آلاف يريدون قتال الديلم، فصرفهم عبد الله إلى الحسين، فلقيت حسيناً فرأيته أسود الرأس واللحية، فقلت له: السلام عليك أبا عبد الله، فقال: وعليك السلام وكانت فيه غنة فقال: لقد باتت فينا سَلَّة منذ الليلة يعني سَرَقٌ. قال شهاب: فحدثت به زيد بن علي فأعجبه وكانت فيه غنة. قال سفيان بن عيينة: وهي في الحسينيين.

قال أبو مخنف عن بعض أصحابه، عن أبي خالد الكاهلي: قال: لما صبحت الخيل الحسين بن علي رفع يديه فقال: اللّهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل ثقة وعدة، فكم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، فأنزلته بك وشكوته إليك، رغبة فيه إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل غاية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني حجاج بن محمد عن أبي معشر عن بعض مشيخته. قال: قال الحسين حين نزلوا كربلاء: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: كرب وبلاء.

وبعث عبيد الله بن زياد عمر بن سعد يقاتلهم، فقال الحسين: يا عمر اختر مني إحدى ثلاث خصال، إما أن تتركني أرجع كما جئت، فإن أبيت هذه فسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده فيحكم في ما رأى، فإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت. فأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهم أن يسيره إلى يزيد، فقال شمر بن ذي الجوشن: لا! إلا أن ينزل على حكمك، فأرسل إليه بذلك فقال الحسين: والله لا أفعل، وأبطأ عمر عن قتاله فأرسل ابن زياد شمر بن ذي الجوشن: وقال له: إن تقدم عمر فقاتل وإلا فاقتله وكن أنت مكانه، فقد وليتك الإمرة، وكان مع عمر قريب من ثلاثين رجلا من أعيان أهل الكوفة، فقالوا له: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال فلا تقبلوا منها شيئاً؟ فتحولوا مع الحسين فقاتلوا معه.

وقال أبو زرعة [تاريخه:١/٢٢٦] : حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام عن حصين. قال: أدركت ذاك مقتل الحسين قال: فحدثني سعد بن عبيدة قال: فرأيت الحسين وعليه جبة برود ورماه رجل يقال له عمرو بن خالد الطهوي بسهم، فنظرت إلى السهم معلقاً بجبته.

وقال ابن جرير [تاريخه:٥/٣٩٢] : حدثنا محمد بن عمار الرازي حدثني سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام حدثنا حصين أن الحسين بعث إليه أهل الكوفة: إن معك مائة ألف. فبعث إليهم مسلم بن عقيل فذكر قصة مقتل مسلم كما تقدم.

قال حصين: فحدثني هلال بن يساف أن ابن زياد أمر بأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يَدَعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج، وأقبل الحسين ولا يشعر بشيء حتى أتى الأعراب فسألهم عن الناس فقالوا: والله لا ندري، غير أنك لا تستطيع أن تلج ولا تخرج، قال: فانطلق يسير نحو يزيد بن معاوية، فتلقته الخيول بكربلاء فنزل يناشدهم الله والإسلام، قال: وكان بعث إليه ابن زياد عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وحصين بن نمير، فناشدهم الحسين الله والإسلام أن يسيروه إلى أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده، فقالوا له: لا! إلا على حكم ابن زياد، وكان في جملة من بعثهم إليه الحر بن يزيد الحنظلي ثم النهشلي على خيل، فلما سمع ما يقول الحسين قال لهم: ألا تقبلون من هؤلاء ما يعرضون عليكم، والله لو سألكم هذا الترك والديلم ما حل لكم أن تردوهم فأبوا إلا حكم ابن زياد؟ فضرب الحُرُّ وَجْه فرسه وانطلق إلى الحسين وأصحابه، فظنوا أنه إنما جاء ليقاتلهم، فلما دنا منهم قلب ترسه وسلم عليهم ثم كر على أصحاب ابن زياد فقاتلهم فقتل منهم رجلين ثم قتل رحمه الله.

وذكر أن زهير بن القين البجلي لقي الحسين وكان حاجاً فاقبل معه، وخرج إليه ابن أبي بحرية المرادي ورجلان آخران، وهما عمرو بن الحجاج ومعن السلمي. قال الحصين: وقد رأيتها. قال: وأقبل الحسين يكلم من بعث إليه ابن زياد وعليه جبة من برود، فلما كلمهم انصرف فرماه رجل من بني تميم يقال له عمرو الطهوي بسهم، فإني لأنظر إلى السهم بين كتفيه متعلقاً بجبته، فلما أبوا عليه رجع إلى مصافه وإني لأنظر إليهم وهم قريب من مائة رجل، فيهم لصلب علي خمسة، ومن بني هاشم ستة عشر، ورجل من بني سليم حليف لهم، ورجل من بني كنانة حليف لهم، وابن عم ابن زياد.

وقال حصين: حدثني سعد بن عبيدة قال: إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجل فساره فقال له: قد بعث إليك ابن زياد جويرية بن بدر التميمي وأمره إن لم تقاتل القوم أن يضرب عنقك. قال: فوثب إلى فرسه فركبه ثم دعا بسلاحه فلبسه وإنه لعلى فرسه، ونهض بالناس إليهم فقاتلوهم فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد فوضع بين يديه فجعل يقول بقضيبه في أنفه ويقول: إن أبا عبد الله كان قد شمط. قال: وجيء بنسائه وبناته وأهله قال: وكان أحسن شيء صنعه أن أمر لهم بمنزل في مكان معتزل وأجرى عليهم رزقاً، وأمر لهم بنفقة وكسوة. قال: وانطلق غلامان منهم لعبد الله بن جعفر أو ابن ابن جعفر فأتيا رجلا من طيئ فلجأ إليه، فضرب أعناقهما وجاء برأسيهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد، قال: فهم ابن زياد بضرب عنقه وأمر بداره فهدمت.

قال: وحدثني مولى لمعاوية بن أبي سفيان قال: لما أتي يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه رأيته يبكي ويقول: لو كان بينه وبينه رحم ما فعل هذا يعني ابن زياد

قال الحصين: ولما قتل الحسين لبثوا شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع.

قال أبو مخنف: حدثني لوذان حدثني عكرمة أن أحد عمومته سأل الحسين: أين تريد؟ فحدثه، فقال له: أنشدك بالله لما انصرفت راجعاً، فو الله ما بين يديك أحد يذب عنك ولا يقاتل معك، وإنما والله أنت قادم على الأسنة والسيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطؤوا لك الأشياء، ثم قدمت عليهم بعد ذلك كان ذلك رأياً، فأما على هذه الصفة فإني لا أرى لك أن تفعل. فقال له الحسين: إنه ليس يخفى علي ما قلت وما رأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره، ثم ارتحل قاصداً الكوفة. وقال خالد بن سعيد بن العاص:

رب مستنصح يغش ويردى وظنين بالغيب يلقى نصيحا

وقد حج بالناس في هذه السنة عمرو بن سعيد بن العاص وكان عامل المدينة ومكة ليزيد، وقد عزل يزيد عن إمرة المدينة الوليد بن عتبة وولاها عمرو بن سعيد بن العاص في شهر رمضان منها وكان عبيد الله بن زياد على البصرة والكوفة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين

استهلت هذه السنة والحسين بن علي سائر إلى الكوفة فيما بين مكة والعراق ومعه أصحابه وقراباته، فقتل في يوم عاشوراء من شهر محرم من هذه السنة على المشهور الذي صححه الواقدي وغير واحد، وزعم بعضهم أنه قتل في صفر منها والأول أصح.

وهذه صفة مقتله رضي الله عنه مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب الصريح والبهتان

قال أبو مخنف عن أبي جناب عن عدي بن حرملة عن عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين قالا: أقبل الحسين فلما نزل شراف قال لغلمانه وقت السحر: استقوا من الماء فأكثروا، ثم ساروا إلى صدر

النهار فسمع الحسين رجلا يكبر فقال له: ممَّ كبرت؟ فقال: رأيت النخل، فقال له الأسديان: إن هذا المكان لم ير أحد منه نخلة، فقال الحسين: فماذا تريانه رأى؟ فقالا: هذه الخيل قد أقبلت، فقال الحسين: أما لنا ملجأ نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقالا: بلى: ذو حسم. فأخذ ذات اليسار إلى ذي حُسُم فنزل، وأمر بأبنيته فضربت، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي، وهم مقدمة الجيش الذين بعثهم ابن زياد، حتى وقفوا في مقابلته في نحر الظهيرة، والحسين وأصحابه معتمون متقلدون سيوفهم، فأمر الحسين أصحابه أن يترووا من الماء ويسقوا خيولهم، وأن يسقوا خيول أعدائهم أيضاً.

وروى [تاريخ الطبري:٥/٤٠١-٤١٤] هو وغيره قالوا: لما دخل وقت الظهر أمر الحسن الحجاج بن مسروق الجعفي فأذن ثم خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين فخطب الناس من أصحابه وأعدائه واعتذر إليهم في مجيئه هذا إلى ههنا، بأنه قد كتب إليه أهل الكوفة أنهم ليس لهم إمام، وإن أنت قدمت علينا بايعناك وقاتلنا معك، ثم أقيمت الصلاة فقال الحسين للحر: تريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا! ولكن صل أنت نصلي نحن وراءك. فصلى بهم الحسين، ثم دخل إلى خيمته واجتمع به أصحابه، وانصرف الحر إلى جيشه وكل على أهبته، فلما كان وقت العصر صلى بهم الحسين ثم انصرف فخطبهم وحثهم على السمع والطاعة له وخلع من عليهم من الأدعياء السائرين بالجور في الرعية. فقال له الحر: إنا لا ندري ما هذه الكتب، ولا من كتبها، فأحضر الحسين خرجين مملوءين كتباً فنثرها بين يديه وقرأ منها طائفة، فقال الحر: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك، ثم قال الحسين لأصحابه: اركبوا! فركبوا وركب النساء، فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف، فقال الحسين للحر: ثكلتك أمك، ما تريد؟ فقال له الحر: أما والله لو غيرك يقولها لي من العرب وهو على مثل الحال التي أنت عليها لأقتص منه، ولما تركت ذِكر أمه، ولكن لا سبيل إلى ذكر أمك إلا بأحسن ما نقدر عليه، وتقاول القوم وتراجعوا فقال له الحر: إني لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تقدمك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، وأكتب أنا إلى ابن زياد واكتب أنت إلى يزيد، أو إلى ابن زياد إن شئت، فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني في العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك.

قال: فأخذ الحسين يساراً عن طريق العذيب والقادسية، والحر بن يزيد يسايره وهو يقول له: يا حسين إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى.

فقال له الحسين: أفبالموت تخوفني؟ ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال: أين تذهب فإنك مقتول؟ فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق خوفاً أن يعيش ويرغما

ويروي على صفة أخرى:

سأمضي وما بالموت عار على امرئ ... إذا ما نوى حقاً ولم يلف مجرما
فإن مت لم أندم وإن عشت لم ألم ... كفى بك موتاً أن تذل وترغما

فلما سمع ذلك الحر منه تنحى عنه وجعل يسير بأصحابه ناحية عنه، فانتهوا إلى عذيب الهجانات، وكان بها هجائن النعمان ترعى هناك، وإذا سفر أربعة أي أربعة نفر على رواحلهم يجنبون ويجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل قد أقبلوا من الكوفة يقصدون الحسين، ودليلهم رجل يقال له الطرماح بن عدي راكب على فرس، وهو يقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري ... وشمري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر ... حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الحر رحيب الصدر ... أتى به الله لخير أمر
ثمت أبقاه بقاء الدهر

فأراد الحر أن يحول بينهم وبين الحسين فمنعه الحسين من ذلك، فلما خلصوا إليه قال لهم: أخبروني عن الناس وراءكم، فقال له مجمع بن عبد الله العائذي أحد النفر الأربعة: أما أشراف الناس فهم ألب عليك، لأنهم قد عظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، يُستماك بذلك ودهم ويستخلص به نصيحتهم، وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك. قال لهم: فهل لكم برسولي علم؟ قالوا: ومن رسولك؟ قال: قيس بن مسهر الصيداوي. قالوا: نعم أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى ابن زياد فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلى عليك وعلى أبيك ولعن ابن زياد وأباه، ودعا الناس إلى نصرتك وأخبرهم بقدومك فأمر به فألقي من رأس القصر فمات، فترقرقت عينا الحسين، وقرأ قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣]: اللّهم اجعل منازلهم الجنة، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك.

ثم إن الطرماح بن عدي قال للحسين: أنظر فما أرى معك أحداً إلا هذه الشرذمة اليسيرة، وإني لأرى هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك، فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيول والجيوش يعرضون ليقصدوك، فأنشدك الله، إن قدرت أن لا تَقدم إليهم شبراً إلا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به من ملوك غسان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذل قط فأسير معك حتى أنزلك القُريَّة، ثم نبعث إلى الرجال من أجأ وسلمى من طيء، ثم أقم معنا ما بدا لك، فأنا زعيم بعشرة آلاف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف. فقال له الحسين: جزاك الله خيراً. ولم يرجع عما هو بصدده، فودعه الطرماح، ومضى الحسين.

فلما كان من الليل أمر فتيانه أن يستقوا من الماء كفايتهم، ثم سرى فنعس في مسيره حتى خفق برأسه، واستيقظ وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. ثم قال: رأيت فارساً على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

فلما طلع الفجر صلى بأصحابه وعجل الركوب ثم تياسر في مسيره حتى انتهى إلى نينوى، فإذا راكب متنكب قوساً قد قدم من الكوفة، فسلم على الحر بن يزيد ولم يسلم على الحسين، ودفع إلى الحر كتاباً من ابن زياد ومضمونه أن يعدل بالحسين في السير إلى العراق في غير قرية ولا حصن، حتى تأتيه رسله وجنوده، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين، فلما كان من الغد قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف، وكان قد جهزه ابن زياد في هؤلاء إلى الديلم، وخيم بظاهر الكوفة، فلما قدم عليهم أمر الحسين قال له: سر إليه، فإذا فرغت منه فسر إلى

الديلم، فاستعفاه عمر بن سعد من ذلك. فقال له ابن زياد: إن شئت عفيتك وعزلتك عن ولاية هذه البلاد التي قد استنبتك عليها، فقال: حتى أنظر في أمري، فجعل لا يستشير أحداً إلا نهاه عن المسير إلى الحسين، حتى قال له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة: إياك أن تسير إلى الحسين فتعصي ربك وتقطع رحمك، فو الله لأن تخرج من سلطان الأرض كلها أحب إليك من أن تلقى الله بدم الحسين، فقال: إني أفعل إن شاء الله تعالى، ثم إن عبيد الله بن زياد تهدده وتوعده بالعزل والقتل، فسار إلى الحسين فنازله في المكان الذي ذكرنا، ثم بعث إلى الحسين الرسل: ما الذي أقدمك؟ فقال: كتب إلي أهل الكوفة أن أقدم عليهم، فإذ قد كرهوني فأنا أرجع إلى مكة وأذركم.

فلما بلغ عمر بن سعد هذا قال: أرجو أن يعافيني الله من حربه، وكتب إلى ابن زياد بذلك، فرد عليه ابن زياد: أن حل بينهم وبين الماء كما فعل بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان، واعرض على الحسين أن يبايع هو ومن معه لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فإذا فعلوا ذلك رأينا رأينا، وجعل أصحاب عمر بن سعد يمنعون أصحاب الحسين من الماء، وعلى سرية منهم عمرو بن الحجاج، فدعا عليه الحسين بالعطش فمات هذا الرجل من شدة العطش، ثم إن الحسين طلب من عمر بن سعد أن يجتمع به بين العسكرين، فجاء كل واحد منهما في نحو من عشرين فارساً، فتكلما طويلا حتى ذهب هزيع من الليل، ولم يدر أحد ما قالا، ولكن ظن بعض الناس أنه سأله أن يذهب معه إلى يزيد بن معاوية ويتركا العسكرين متوافقين، فقال عمر: إذاً يهدم ابن زياد داري، فقال الحسين: أنا أبنيها لك أحسن مما كانت، قال: إذا يأخذ ضياعي، قال أنا أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز، قال: فتكره عمر بن سعد من ذلك. وقال بعضهم: بل سأل منه إما أن يذهبا إلى يزيد، أو يتركه يرجع إلى الحجاز أو يذهب إلى بعض الثغور فيقاتل الترك، فكتب عمر إلى عبيد الله بذلك، فقال: نعم! قد قبلت، فقام الشمر بن ذي الجوشن فقال: لا والله حتى ينزل على حكمك هو وأصحابه، ثم قال: والله لقد بلغني أن حسيناً وابن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل، فقال له ابن زياد: فنعم ما رأيت.

وقد روى أبو مخنف: حدثني عبد الرحمن بن جندب عن عقبة بن سمعان. قال: لقد صحبت الحسين من مكة إلى حين قتل، والله ما من كلمة قالها في موطن إلا وقد سمعتها، وإنه لم يسأل أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده، ولا أن يذهب إلى ثغر من الثغور، ولكن طلب منهم أحد أمرين، إما أن يرجع من حيث جاء، وإما أن يدعوه يذهب في الأرض العريضة حتى ينظر ما يصير أمر الناس إليه. ثم إن عبيد الله بن زياد بعث شمر بن ذي الجوشن فقال: اذهب فإن جاء حسين وأصحابه على حكمي وإلا فمر عمر بن سعد أن يقاتلهم، فإن تباطأ عن ذلك فاضرب عنقه ثم أنت الأمير على الناس.

وكتب إلى عمر بن سعد يتهدده على توانيه في قتال الحسين، وأمره إن لم يجئ الحسين إليه أن يقاتله ومن معه، فإنهم مشاقون. فاستأمن عبد الله بن أبي المحل لبني عمته أم البنين بنت حزام من علي، وهم العباس وعبد الله وجعفر وعثمان. فكتب لهم ابن زياد كتاب أمان وبعثه عبد الله بن المحل مع مولى له يقال له كزمان، فلما بلغهم ذلك قالوا: أما أمان ابن سمية، فلا نريده، وإنا لنرجو أماناً خيراً من أمان ابن سمية.

ولما قدم شمر بن ذي الجوشن على عمر بن سعد بكتاب عبيد الله بن زياد، قال له عمر: أبعد الله دارك، وقبح ما جئت به، والله إني لأظنك الذي صرفته عن الذي عرضت عليه من الأمور الثلاثة التي طلبها الحسين، فقال له شمر: فأخبرني ما أنت صانع؟ أتقاتلهم أنت أو تاركي وإياهم؟ فقال له عمر: لا ولا كرامة لك! أنا أتولى ذلك، وجعله على الرجالة ونهضوا إليهم عشية يوم الخميس التاسع من المحرم، فقام شمر بن ذي الجوشن فقال: أين بنو أختنا؟ فقام إليه العباس وعبد الله، وجعفر وعثمان بنو علي بن أبي طالب، فقال: أنتم آمنون. فقالوا: إن أمنتنا وابن رسول الله ﷺ، وإلا فلا حاجة لنا بأمانك. قال: ثم نادى عمر بن سعد في الجيش: يا خيل الله اركبي وأبشري، فركبوا وزحفوا إليهم بعد صلاة العصر من يومئذ، هذا وحسين جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه، ونعس فخفق برأسه وسمعت أخته زينب الضجة فدنت منه فأيقظته، فرجع برأسه كما هو، وقال: إني رأيت برسول الله ﷺ في المنام فقال لي: «إنك تروح إلينا» فلطمت وجهها وقالت: يا وَيْلنا. فقال: ليس لك الويل يا أُخيّه: اسكني رحمك الرحمن، وقال له أخوه العباس بن علي: يا أخي جاءك القوم، فقال: اذهب إليهم فسلهم ما بدا لهم، فذهب إليهم في نحو من عشرين فارساً فقال: ما لكم؟ فقالوا: جاء أمر الأمير إما أن تأتوا على حكمه وإما أن نقاتلكم. فقال: مكانكم حتى أذهب إلى أبي عبد الله فأعلمه، فرجع ووقف أصحابه فجعلوا يتراجعون القول ويؤنب بعضهم بعضاً، يقول أصحاب الحسين: بئس القوم، أنتم تريدون قتل ذرية نبيكم وخيار الناس في زمانهم؟

ثم رجع العباس بن علي من عند الحسين إليهم فقال لهم: يقول لكم أبو عبد الله: انصرفوا عشيتكم هذه حتى ينظر في أمره الليلة، فقال عمر بن سعد لشمر بن ذي الجوشن: ما تقول؟ فقال: أنت الأمير والرأي رأيك، فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي: سبحان الله! والله لو سألكم ذلك رجل من الديلم لكان ينبغي إجابته. وقال قيس بن الأشعث: أجبهم إلى ما سألوك، فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوة.

وهكذا جرى الأمر، فإن الحسين لما رجع العباس قال له: ارجع فارددهم هذه العشية لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه، فقد علم الله مني أني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، والاستغفار والدعاء. وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله، وخطب أصحابه في أول الليل فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسوله بعبارة فصيحة بليغة، وقال لأصحابه: من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني. فقال: مالك بن النضر: علي دين ولي عيال، فقال هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يريدونني، فلو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل.

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه: لا بقاء لنا بعدك، ولا أرانا الله فيك ما نكره، فقال الحسين: يا بني عقيل حسبكم بمسلم أخيكم، اذهبوا فقد أذنت لكم، قالوا: فما يقول الناس أنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، رغبة في الحياة الدنيا، لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وقال نحو ذلك مسلم بن عوسجة الأسدي، وكذلك قال سعيد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول

الله ﷺ فيك، والله لو علمت أني أقتل دونك ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك، لأحببت ذلك، فكيف وإنما هي قتلة واحدة، وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً من وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، وأنفسنا الفداء لك نقيك بنحورنا وجباهنا، وأيدينا وأبداننا، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا. وقال أخوه العباس: لا أرانا الله يوم فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك. وتتابع أصحابه على ذلك.

وقال أبو مخنف: حدثني الحارث بن كعب وأبو الضحاك عن علي بن الحسين زين العابدين. قال: إني لجالس تلك العشية التي قتل أبي في صبيحتها، وعمتي زينب تمرضني إذ اعتزل أبي في خبائه ومعه أصحابه، وعنده حُوَيٌّ مولى أبي ذر الغفاري، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:

يا دهر أف لك من خليل … كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل … والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل … وكل حي سالك السبيل

قال: فأعادها مرتين أو ثلاثاً ففهمت ما أراد، فخنقتني العبرة فرددتها، ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأما عمتي فقامت حاسرة، حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه!! ليت الموت أعدمني الحياة اليوم، ماتت أمي فاطمة وعلي أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضي، وثمال الباقي! فنظر إليها وقال: يا أخية، لا يذهبن حلمك الشيطان، فقالت: بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله، استُقْتِلتَ؟ ولطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشياً عليها، فقام إليها فصب على وجهها الماء وقال: يا أخية اتق الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويميتهم بقهره وعزته، ويعيدهم فيعودوني وحده وهو فرد وحده، واعلمي أن أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة حسنة، ثم حرج عليها أن لا تفعل شيئاً من هذا بعد مهلكه، ثم أخذ بيدها فردها إلى عندي، ثم خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقرّبوا بيوتهم بعضها من بعض حتى تدخل الأطناب بعضها في بعض، وأن لا يجعلوا للعدو مخلصاً إليهم إلا من وجه واحد، وتكون البيوت عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن ورائهم.

وبات الحسين وأصحابه طول ليلتهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم، عليها عزرة بن قيس الأحمسي والحسين يقرأ: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨، ١٧٩] . فسمعها رجل من تلك الخيل التي كانت تحرس من أصحاب ابن زياد فقال: نحن ورب الكعبة الطيبون ميزنا الله منكم. قال: فعرفته فقلت لبُرير بن حُضير: أتدري من هذا؟ قال: لا! فقلت: هذا أبو حرب السبيعي عبد الله بن شهر وكان مضحاكاً بطالا وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية، فقال له برير بن خضير: يا فاسق متى كنت من الطيبين؟ فقال: من أنت ويلك؟ قال: أنا برير بن خضير. قال: إنا لله! هلكت والله عزّ والله عليّ يا بُرير قتلك؟ قال فقلت له: يا أبا حرب هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام؟ فو الله إنا لنحن الطيبون وإنكم لأنتم الخبيثون. قال: نعم وأنا على ذلك من الشاهدين. قال: ويحك أفلا تنفعك معرفتك؟ قال: فانتهره عزرة بن قيس أمير السرية التي تحرسنا فانصرف عنا. قال: فلما صلى عمر بن سعد الصبح بأصحابه يوم الجمعة وقيل يوم السبت وكان يوم عاشوراء انتصب للقتال، وصلى الحسين أيضاً بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلا، ثم انصرف فصفهم فجعل على ميمنته زهير بن القين، وعلى الميسرة حبيب بن مظهَّر، وأعطى رايته العباس بن علي أخاه، وجعلوا البيوت بما فيها من الحرم وراء ظهورهم، وقد أمر الحسين من الليل فحفروا وراء بيوتهم خندقاً وقذفوا فيه حطباً وخشباً وقصباً، ثم أضرمت فيه النار لئلا يخلص أحد إلى بيوتهم من ورائها.

وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى الميسرة شمر بن ذي الجوشن واسم ذي الجوشن شرحبيل بن الأعور بن عمرو بن معاوية وهو الضباب بن كلاب وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي، وأعطى الراية ذُويداً مولاه، وتواقف الناس في ذلك الموضع، فعدل الحسين إلى خيمة قد نصبت له فاغتسل فيها واطّلى بالنورة وتطيب بمسك كثير، ودخل بعده بعض الأمراء ففعلوا كما فعل، فقال بعضهم لبعض: ما هذا في هذه الساعة؟ فقال بعضهم: دعنا منك، والله ما هذه بساعة باطل، فقال بُرير بن خضير: والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلا، ولكن والله إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء فيقتلوننا. ثم ركب الحسين على فرسه وأخذ مصحفاً فوضعه بين يديه، ثم استقبل القوم رافعاً يديه يدعو بما تقدم ذكره: اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة.. إلى آخره. وأركب ابنه علي بن الحسين وكان ضعيفاً مريضاً فرساً يقال له الأحمق ونادى الحسين أيها الناس: اسمعوا مني نصيحة أقولها لكم، فأنصت الناس كلهم، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علي سبيل، وإن لم تقبلوا مني ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ [يونس: ٧١]. ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦].

فلما سمع ذلك أخواته وبناته ارتفعت أصواتهن بالبكاء فقال عند ذلك: لا يبعد ابن عباس يعني: حين أشار عليه أن لا يخرج بالنساء معه ويدعهن بمكة إلى أن ينتظم الأمر. ثم بعث أخاه العباس وابنه علياً فسكّتاهنّ فسكتهن، ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه، ويقول: رجعوا أنفسكم وحاسبوها. هل يصلح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري، وعليٌ أبي، وجعفر ذو الجناحين عمي، وحمزة سيد الشهداء عم أبي. وقال لي رسول الله ﷺ ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة». فإن صدقتموني بما أقول فهو الحق، فو الله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على الكذب، وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك، جابر بن عبد الله، وأبا سعيد، وسهل بن سعد، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم بذلك، ويحكم! أما تتقون الله؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فقال عند ذلك شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف: إن كنت أدري ما يقول. فقال له حبيب بن مظهرٌ: والله يا شمر إنك لتعبد الله على سبعين حرفاً، وإنك لا تدري ما يقول؛ لأنَّ اللَّه قد طبع على قلبك. ثم قال: أيها الناس ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض، فقالوا: وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك؟ فقال: معاذ الله أن أعطيهم بيدي

إعطاء الذليل وأقرّ إقرار العبيد، عباد الله] ﴿إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ [غافر: ٢٧] ثم أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ثم قال: أخبروني أتطلبوني بقتيل لكم قتلته؟ أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاصة من جراحة؟ قال: فأخذوا لا يكلمونه. قال: فنادى يا شبَث بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلي أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب، فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجند؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله! والله لقد فعلتم، ثم قال: يا أيها الناس! إذ قد كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم، فقال له قيس بن الأشعث: ألا تنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب؟ فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد.

قال: وأقبلوا يزحفون نحوه وقد تحيز إلى جيش الحسين من أولئك طائفة قريب من ثلاثين فارساً فيما قيل، منهم الحر بن يزيد أمير مقدمة الكوفيين، فاعتذر إلى الحسين مما كان منهم، قال: ولو أعلم أنهم على هذه النية لسرت معك إلى يزيد، فقبل منه الحسين، ثم تقدم بين يدي أصحاب الحسين فخاطب عمر بن سعد فقال: ويحكم ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله ﷺ ما يعرض عليكم من الخصال الثلاث واحدة منها؟ فقال: لو كان ذلك إلي قبلت.

قال: وخرج من أصحاب الحسين زهير بن القين على فرس له شاك في السلاح، فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، على دين واحد، وملة واحدة، مالم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية ابن الطاغية، عبيد الله بن زياد، فإنكم لم تدركوا منهما إلا سوء عموم سلطانهما، يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانيء بن عروة وأشباهه. قال: فسبوه وأثنوا على ابن زياد ودعوا له وقالوا: لا ننزع حتى نقتل صاحبك ومن معه. فقال لهم: إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن أنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، تذهب حيث شاء، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين. قال: فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال له: اسكت أسكت الله نامتك، أبرمتنا بكثرة كلامك، فقال له زهير: يا ابن البوال على عقبيه، إياك أخاطب؟ إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم. فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة، فقال له زهير: أبالموت تخوفني؟ فو الله للموت معه أحب إلي من الخلود معكم. ثم إن زهيراً أقبل على الناس رافعاً صوته يقول: عباد الله لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فو الله لا ينال شفاعة محمد ﷺ قوم أهرقوا دماء ذريته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم.

وقال الحر بن يزيد لعمر بن سعد: أصلحك الله! أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي، وكان الحر من أشجع أهل الكوفة، فلامه بعض أصحابه على الذهاب إلى الحسين، فقال له: والله إني أخير نفسي بين الجنة والنار، و والله لا أختار على الجنة غيرها ولو قطعت وحرقت. ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين فاعتذر إليه بما تقدم، ثم قال: يا أهل الكوفة لأمكم الهبل، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الوسيعة التي لا يمنع فيها الكلب والخنزير، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي يشرب منه الكلب والخنزير وقد صرعهم العطش بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه. فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل فأقبل حتى وقف أمام الحسين وقال لهم عمر بن سعد: لو كان الأمر إليّ لأجبت الحسين إلى ما طلب ولكن أبى عليّ ابن زياد، وقد خاطب أهل الكوفة فسبَّهم وأنبهم وقال: ويحكم حتى إذا جاء خذلتموه. وما كفاكم ذلك حتى جئتم لتقاتلوه وقد منعتموه ونساءه الماء من الفرات الذي يشرب منه اليهودي والنصراني والمجوسي وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

قال: فتقدم عمر بن سعد وقال لمولاه: يا ذُويد أدن رايتك، فأدناها ثم شمر عمر عن ساعده ورمى بسهم وقال: اشهدوا أني أول من رمى القوم، قال: فترامى الناس بالنبال، وخرج يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله فقالا: من يبارز؟ فبرز لهما عبد الله بن عمير الكلبي بعد استئذانه الحسين فقتل يساراً أولا ثم قتل سالماً بعده، وقد ضربه سالم ضربة أطار أصابع يده اليسرى، وحمل رجل يقال له عبد الله بن حوزة حتى وقف بين يدي الحسين فقال له: يا حسين أبشر بالنار! فقال له الحسين: كلا ويحك إني أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، بل أنت أولى بالنار. قالوا: فانصرف فوقصته فرسه فسقط وتعلقت رجله اليسرى بالركاب، وكان الحسين قد سأل عنه فقال: أنا ابن حوزة فرفع الحسين يديه وقال: اللّهم حزه إلى النار فغضب ابن حوزة وأراد أن يقحم عليه الفرس وبينه وبينه نهر، فجالت به الفرس فانقطعت قدمه وساقه وفخذه وبقي جانبه الآخر متعلقاً بالركاب، وشد عليه مسلم بن عوسجة فضربه فأطار رجله اليمنى، وغارت به فرسه فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه في رأسه حتى مات.

وروى أبو مخنف عن أبي جناب قال: كان منا رجل يدعى عبد الله بن عمير من بني عليم، كان قد نزل الكوفة واتخذ داراً عند بئر الجعد من همدان، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط، فرأى الناس يتهيئون للخروج إلى قتال الحسين، فقال: والله لقد كنت على قتال أهل الشرك حريصاً، وإني لأرجو أن يكون جهادي مع ابن بنت رسول الله ﷺ لهؤلاء أفضل من جهاد المشركين، وأيسر ثواباً عند الله، فدخل إلى امرأته فأخبرها بما هو عازم عليه، فقالت: أصبت أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك. قال: فخرج بها ليلا حتى أتى الحسين. ثم ذكر قصة رمي عمر بن سعد بالسهم، وقصة قتله يسار مولى زياد، وسالم مولى ابن زياد، وأن عبد الله بن عمير استأذن الحسين في الخروج إليهما فنظر إليه الحسين، فرأى رجلا آدم طويلا شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين، فقال الحسين: إني لأحسبه للأقران قتّالاً، اخرج إن شئت، فخرج فقالا له: من أنت؟ فانتسب لهما، فقالا: لا نعرفك فقال لهما: يا أولاد الزانية، أوَ بكم رغبة عن مبارزة أحد من الناس، وهل يخرج إليكما أحد إلا وهو خير منكما، ثم شد على يسار فكان كأمس الذاهب، فإنه لمشتغل به إذ حمل عليه سالم مولى ابن زياد فصاح به: قد رهقك العبد، قال: فلم ينتبه له حتى غشيه فضربه على يده اليسرى فأطار أصابعه، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى

قتله وأقبل يرتجز ويقول:

إن تنكراني فأنا ابن كلب — حسبي بيتي في عليم حسبي

إني امرؤ ذو مرة وعصب — ولست بالخوار عند الكرب

إني زعيم لك أم وهب — بالطعن فيهم مقدماً والضرب

ضرب غلام مؤمن بالرب

فأخذت أم وهب عموداً ثم أقبلت نحو زوجها تقول له: فداؤك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد عليه الصلاة والسلام، فأقبل إليها يردها نحو النساء فأقبلت تجاذبه ثوبه، قالت: دعني أكون معك، فناداها الحسين: انصرفي إلى النساء فاجلسي معهن فإنه ليس على النساء قتال، فانصرفت إليهن.

قال: وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة، وحمل عمرو بن الحجاج أمير الميمنة، وجعل يقول: قاتلوا من مرق من الدين وفارق الإمام والجماعة. فقال له الحسين: ويحك يا حجاج أعلي تحرض الناس؟ أنحن مرقنا من الدين وأنتم ثبتم عليه؟ ستعلمون إذا فارقت أرواحكم أجسادكم من أولى بصلي النار. وقد قتل في هذه الحملة مسلم بن عوسجة. فكان أول من قتل من أصحاب الحسين فمشى إليه الحسين فترحم عليه، وهو على آخر رمق، وقال له حبيب بن مظهر: أبشر بالجنة، فقال له بصوت ضعيف: بشرك الله بالخير. ثم قال له حبيب: لولا أني أعلم أني على اثرك لاحقك لكنت أقضي ما توصيني به، فقال له مسلم بن عوسجة: أوصيك بهذا وأشار الحسين إلى أن تموت دونه. قالوا: ثم حمل شمر بن ذي الجوشن بالميسرة وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعاً عظيماً، وكافحوا دونه مكافحة بليغة، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجالة، فبعث إليهم نحواً من خمسمائة، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها حتى بقي جميعهم رجالة، ولما عقروا جواد الحر بن يزيد نزل عنه وفي يده السيف كأنه ليث وهو يقول:

إن تعقروا بي فأنا ابن الحر — أشجع من ذي لِبَدٍ هزبر

ويقال: إن عمر بن سعد أمر بتقويض تلك الأبنية التي تمنع من القتال من أتى من ناحيتها، فجعل أصحاب الحسين يقتلون من يتعاطى ذلك، فأمر بتحريقها فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت.

وجاء شمر بن ذي الجوشن قبحه الله إلى فسطاط الحسين فطعنه برمحه يعني الفسطاط وقال: ائتوني بالنار لأحرقه على من فيه، فصاحت النسوة وخرجن منه، فقال له الحسين: أنت تريد أن تحرق أهلي! أحرقك الله بالنار، وجاء شبث بن ربعي إلى شمر قبحه الله فقال له: ما رأيت أقبح من قولك وموقفك هذا، أتريد أن ترعب النساء؟ فاستحيا وهم بالرجوع وقال حميد بن مسلم: قلت لشمر سبحان الله!! إن هذا لا يصلح لك، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين؟ تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء؟ والله إن في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك. قال فقال لي: من أنت؟ قلت: لا أخبرك من أنا وخشيت أني إن أخبرته فعرفني أن يسوؤني عند السلطان.

وشد زهير بن القين في رجال من أصحاب الحسين على شمر بن ذي الجوشن فأزالوه عن موقفه، وقتلوا أبا عزة الضبابي وكان من أصحاب شمر وكان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل، وإذا قتل من أصحاب ابن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم، ودخل عليهم وقت الظهر فقال الحسين: مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلي، فقال رجل من أهل الكوفة: إنها لا تقبل منكم، فقال له حبيب بن مظهَّر: ويحك!! أتقبل منكم الصلاة ولا تقبل من آل رسول الله ﷺ؟ وقاتل حبيب قتالاً شديداً حتى قتل وحُمل رأسه إلى ابن زياد رجلا يقال له بديل بن صريم من بني عقفان وجعل يقول:

أنا حبيب وأبي مظاهر — فارس هيجاء وحرب مسعر

أنتم أوفر عدة وأكثر — ونحن أوفى منكم وأصبر

ونحن أعلى حجة وأظهر — حقاً وأبقى منكم وأطهر

ثم حمل على حبيب هذا رجل من بني تميم فطعنه فوقع، ثم ذهب ليقوم فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف فوقع ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه وحمله إلى ابن زياد فرأى ابن حبيب رأس أبيه فعرفه فقال لحامله: أعطني رأس أبي حتى أدفنه، ثم بكى، وقال: [لقاتله: أما والله لقد قتلته وهو خير منك] فمكث الغلام إلى أن بلغ أشده ثم لم تكن له همة إلا قتل قاتل أبيه، قال: فما كان زمن مصعب بن عمير دخل الغلام عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه في فسطاط، فدخل عليه وهو قائل فضربه بسيفه حتى برد.

وقال أبو مخنف: حدثني محمد بن قيس قال: لما قتل حبيب بن مظاهر هد ذلك الحسين، وقال عند ذلك: احتسبت نفسي، وأخذ الحر يرتجز ويقول للحسين:

آليت لا تقتل حتى أقتلا — ولن أصاب اليوم إلا مقبلا

أضربهم بالسيف ضرباً مفصلا — لا ناكلا عنهم ولا مهملا

ثم قاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً، فكان إذا شد أحدهما حتى استلحم شد الآخر حتى يخلصه، ففعلا ذلك ساعة، ثم إن رجالاً شدوا على الحر بن يزيد فقتلوه، وقتل أبو ثمامة الصائدي ابن عم له كان عدواً له. ثم صلى الحسين بأصحابه الظهر صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعدها قتالاً شديداً ووصل إلى الحسين رضي الله عنه، ودافع عنه صناديد أصحابه، فقتل زهير بن القين بين يدي الحسين وقاتل دونه نافع بن هلال الجملي، قتالاً شديداً، ورمى بعض أصحابه بالنبل حتى سقط بين يدي الحسين وجعل زهير يرتجز ويقول:

أنا زهير وأنا ابن القين — أذودكم بالسيف عن الحسين

قال: وأخذ يضرب على منكب الحسين ويقول:

أقدم هديت هادياً مهدياً — فاليوم تلقى جدك النبيا

وحسناً والمرتضى علياً — وذا الجناحين الفتى الكميا

وأسد الله الشهيد الحيا

قال: فشد عليه كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه.

قال: وكان من أصحاب الحسين نافع بن هلال الجملي، وكان قد كتب على فوق نبله فجعل يرمي بها مسمومة وهو يقول:

ارمـي بهـا معلمـاً أفواقهـا والنفـس لا ينفعهـا شـقاقها
أنـا الجملـي أنـا علـى ديـن علـي

فقتل اثني عشر من أصحاب عمر بن سعد، سوى من جرح، ثم أُسر وكُسرت عَضُداه، ومع ضرب عنقه بين يدي عمر بن سعد شَمِر بن ذي الجوشن، ثم حمل شمر على أصحاب الحسين وهو يقول: خَلُّو عُداة اللّه خلُّوا عن شمر يضربهم بسيفه ولا يفرّ وصمَّم عليهم الأعداء من كل جانب وتكاثروا عليهم وتفانى ضرب حتى كسرت عضداه، ثم أسروه فأتوا به عمر بن سعد فقال له: ويحك يا نافع، ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ فقال: إن ربي يعلم ما أردت، والدماء تسيل عليه وعلى لحيته، ثم قال: واللّه لقد قتلت من جندكم اثنى عشر سوى من جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني. فقال شمر لعمر: اقتله، قال: أنت جئت به فإن شئت اقتله. فقام شمر فانتضى سيفه فقال له نافع: أما واللّه يا شمر لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى اللّه بدمائنا، فالحمد للّه الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه، ثم قتله، ثم أقبل شمر فحمل على أصحاب الحسين وتكاثر معه الناس حتى كادوا أن يصلوا إلى الحسين، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا عليهم، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا الحسين ولا أنفسهم، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه، فجاء عبد الرحمن وعبد اللّه ابنا عزرة الغفاري، فقالا: أبا عبد اللّه عليك السلام، حازنا العدو إليك فأحببنا أن نقتل بين يديك وندفع عنك. فقال: مرحباً بكما، ادنوا مني، فدنوا منه فجعلا يقاتلان قريباً منه وهما يقولان:

قـد علمـت حقـاً بنـو غفـار وخنـدف بعـد بـني نـزار
لنضربـن معشـر الفجـار بكـل عضـب قـاطع بتـار
يـا قـوم ذودوا عـن بـني الأخيـار بالمشـرقي والقنـا الخطـار

ثم أتاه أصحابه مثنى وفرادى يقاتلون بين يديه وهو يدعو لهم ويقول: جزاكم اللّه أحسن جزاء المتقين، فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا، ثم جاء عابس بن أبي شبيب فقال: يا أبا عبد اللّه! ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء أعز علي من نفسي ودمي لفعلته، السلام عليك يا أبا عبد اللّه، اشهد لي أني على هديك. ثم مشى صلتا وبه ضربة على جبينه وكان أشجع الناس فنادى: الا رجل لرجل؟ الا ابرزوا إلي. فعرفوه فنكلوا عنه، ثم قال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة، فرمي الحجارة من كل جانب فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس، واللّه لقد رأيته يكرد أكثر من مائتين من الناس بين يديه ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه اللّه فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عدد، كل يدعي قتله، فأتوا به عمر بن سعد فقال لهم: لا تختصموا فيه، فإنه لم يقتله إنسان واحد، ففرق بينهم بهذا القول.

ثم قاتل أصحاب الحسين بين يديه لم يبق معه أحد إلا سويد بن عمرو بن أبي مطاع الخثعمي، وكان أول قتيل من أهل الحسين من بني أبي طالب يومئذ علي الأكبر بن الحسين بن علي، وأمه ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي، طعنه مرة بن منقذ بن النعمان العبدي فقتله، ويروى أنه جعل يقاتل عن أبيه وهو يقول:

أنـا علـي بـن الحسـين بـن علـي نحـن وربِّ اللّـه أولى بـالنبي
تاللّـه لا يحكـم فينـا ابـن الدَّعـي كيـف تـرون اليـوم سـتري عـن أبـي

فلما طعنه مرة احتوشته الرجال فقطعوه بأسيافهم، فقال الحسين: قتل اللّه قوماً قتلوك يا بني ما أجراهم على اللّه وعلى انتهاك محارمه؟! فعلى الدنيا بعدك العفاء.

قال: وخرجت جارية كأنها الشمس حسناً فقالت: يا أخياه ويا ابن أخيّاه؛ فإذا هي زينب بنت علي من فاطمة، فأكبت عليه وهو صريع. قال: فجاء الحسين فأخذ بيدها فادخلها الفسطاط، وأمر به الحسين فحول من هناك إلى بين يديه عند فسطاطه، ثم قتل عبد اللّه بن مسلم بن عقيل. ثم قتل عون ومحمد ابنا عبد اللّه بن جعفر، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيل بن أبي طالب، ثم قتل القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

قال أبو مخنف: وحدثني فضيل بن خديج الكندي أن يزيد بن زياد، وكان رامياً، وهو أبو الشعثاء الكندي من بني بهدلة. جثا على ركبتيه بين يدي الحسين فرمى بمائة سهم ما سقط منها على الأرض خمسة أسهم، فلما فرغ من الرمي قال: قد تبين لي أني قتلت خمسة نفر وكان في أول من قُتل، وكان رجزه يومئذ:

أنـا يزيـد وأبـي مهـاصر أشـجع مـن ليـث بغيـل خـادر
يـا ربِّ إنـي للحسـين نـاصر ولابـن سـعد تـارك وهـاجر

قالوا: ومكث الحسين نهاراً طويلا وحده لا يأتي أحد إليه إلا رجع عنه، لا يحب أن يلي قتله، حتى جاءه رجل من بني بداء، يقال له مالك بن النُّسير، فضرب الحسين بالسيف على رأسه فجرحه، وكان عليه برنس فامتلأ دماً، فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت، وحشرك اللّه مع الظالمين. ثم ألقى الحسين ذلك البرنس ودعا بعمامة فاعتمّ بها.

وقال أبو مخنف: حدثني سليمان بن أبي راشد عن حميد. قال: خرج إلينا غلام كأن وجهه فلقة قمر في يده سيف وعليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لنا عمر بن سعد بن نفيل الأزدي: واللّه لأشدن عليه. فقلت له: سبحان اللّه!! وما تريد إلى ذلك؟ يكفيك قتل هؤلاء، الذين تراهم قد اعتزلوهم. فقال: واللّه لأشدن عليه، فشد عليه عمر بن سعد أمير الجيش، فضربه وصاح الغلام يا عماه، قال: فشد الحسين على عمر بن سعد شدة ليث أغضب، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق فصاح ثم تنحى عنه، وحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوا عمر من الحسين، فاستقبلت عمر بصدورها وحركت حوافرها، وجالت بفرسانها عليه، ثم انجلت الغبرة فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجله والحسين يقول: بعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، ثم قال: عز اللّه علي عمك ان تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوت واللّه كثر عدوه وقل ناصره، ثم احتمله فكأني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه علي الأكبر ومع من قتل من أهل بيته، فسألت عن الغلام فقيل لي: هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وقال هانىء بن ثبيت الحضرمي: إني لواقف يوم مقتل الحسين عاشر عشرة ليس منا رجل إلا على فرس، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، وعليه إزار وقميص، وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالا، فكأني أنظر إلى درتين في أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض فرسه حتى إذا دنا من الغلام مال عن فرسه ثم أخذ الغلام فقطعه

بالسيف. قال هشام السكوني: هانئ بن ثبيت هو الذي قتل الغلام، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه.

قال: ثم إن الحسين أعيا فقعد على باب فسطاطه وأتى بصبي صغير من أولاده، فأجلسه في حجرة، ثم جعل يقبله ويشمه ويودعه ويوصي أهله، فرماه رجل من بني أسد يقال له «ابن موقد النار» بسهم فذبح ذلك الغلام، فتلقى حسين دمه في يده وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك قد حبست عنا النصر من السماء فاجعله لما هو خير، وانتقم لنا من الظالمين.

ورمى عبد الله بن عقبة الغنوي أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله أيضاً، ثم قتل عبد الله والعباس وعثمان وجعفر ومحمد بنو علي بن أبي طالب، إخوة الحسين لأبيه، رضي الله عنهم أجمعين، وقد اشتد عطش الحسين فحاول أن يصل إلى من ماء الفرات فمانعوه دونه، فخلص إلى شربة منه، فلما أهوى إليها رماه حصين بن نمير بسهم في حنكه فأثبته، فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم فتلقاه بيديه ثم رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دماً، ثم رمى به إلى السماء وقال: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً. ودعا عليهم دعاء بليغاً.

قال: فو الله إن مكث الرجل الرامي له إلا يسيراً حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لا يروى ويسقي الماء مبرداً، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعاً، ويسقي فلا يروى، بل يقول: ويلكم اسقوني قتلني الظمأ، قال: فو الله ما لبث إلا يسيراً حت انقد بطنه انقداد بطن البعير. ثم إن شمر بن ذي الجوشن أقبل في نحو من عشرة رجالة الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعياله، فمشى نحوهم فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم الحسين. ويلكم!! إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في دنياكم أحرارا وذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم. فقال ابن ذي الجوشن ذلك لك يا ابن فاطمة، ثم أحاطوا به فجعل شمر يحرضهم على قتله، فقال له أبو الجنوب: وما يمنعك أنت من قتله؟ فقال له شمر: إلي تقول ذا؟ فقال أبو الجنوب: إلي تقول ذا؟ فاستبا ساعة، فقال له أبو الجنوب وكان شجاعاً: والله لقد هممت أن أخضخض هذا السنان في عينك، فانصرف عنه شمر.

ثم جاء شمر ومعه جماعة من الشجعان حتى أحاطوا بالحسين وهو عند فسطاطه ولم يبق معه أحد يحول بينهم وبينه، فجاء غلام يشتد من الخيام كأنه البدر، في أذنيه درتان تَذَبْذَبان، فخرجت زينب بنت علي لترده فامتنع عليها، وجاء يحاجف عن عمه فضربه رجل منهم بالسيف فاتقاه بيده فأطنها سوى جلدة، فقال: يا أبتاه، فقال له الحسين: يا بني احتسب أجرك عند الله، فإنك تلحق بآبائك الصالحين.

ثم حمل على الحسين الرجال من كل جانب وهو يجول فيهم بالسيف يميناً وشمالا، فيتنافرون عنه كتنافر المعزى عن السبع، وخرجت أخته زينب بنت فاطمة إليه فجعلت تقول: ليت السماء تقع على الأرض وجاء عمر بن سعد فقالت: يا عمر أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟ فتحادرت الدموع على لحيته وصرف وجهه عنها، ثم جعل لا يقدم أحد على قتله، حتى نادى شمر بن ذي الجوشن: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الحسين وضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى، وضُرب على عاتقه ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو، ثم جاء إليه سنان بن أنس بن عمرو بن النخعي فطعنه بالرمح فوقع، ثم نزل فذبحه وحز رأسه، ثم رفع رأسه إلى خولي بن يزيد. وقيل: إن الذي قتله شمر بن ذي الجوشن. وقيل رجل من مذحج، وقيل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وليس بشيء، وإنما كان عمر أمير السرية التي قتلت الحسين فقط والأول أشهر. وقال عبد الله بن عمار، رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه يحمل على من على يمينه حتى انذعروا عنه، فو الله وما رأيت مكثورا قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جاشاً منه ولا أمضى جناناً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. وقال: ودنا عمر بن سعد من الحسين فقالت له زينب: يا عمر أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟ فبكى وصرف وجهه عنها.

وقال أبو مخنف: حدثني الصقعب بن زهير عن حميد بن مسلم قال: جعل الحسين يشد على الرجال وهو يقول: أعلى قتلي تحابون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم بقتله مني، وأيم الله إني أرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم الله لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم. قال: ولقد مكث طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكن كان يتقي بعضهم ببعض دمه، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء مؤنة قتله حتى نادى شمر بن ذي الجوشن ماذا تنتظرون بقتله، فتقدم إليه زرعة بن شريك التميمي فضربه بالسيف على عاتقه، ثم طعنه سنان بن أنس بن عمرو النخعي بالرمح، ثم نزل فاحتز رأسه ودفعه إلى خولي. وقد روى ابن عساكر في ترجمة شمر بن ذي الجوشن، وذو الجوشن صحابي جليل قيل اسمه شرحبيل، وقيل عثمان بن نوفل، ويقال ابن أوس بن الأعور العامري الضبابي، بطن من كلاب، ويكنى شمر بأبي السابغة.

ثم روى من طريق عمر بن شبة: حدثنا أبو أحمد حدثني عمي فضيل بن الزبير عن عبد الرحمن بن ميمون عن محمد بن عمرو بن حسن. قال: كنا مع الحسين بنهري كربلاء، فنظر إلى شمر بن ذي الجوشن فقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «كأني أنظر إلى كلب أبقع في دماء أهل بيتي» وكان شمر قبحه الله أبرص. وأخذ سنان وغيره سلبه، وتقاسم الناس ما كان من أمواله وحواصله، وما في خبائه حتى ما على النساء من الثياب الظاهرة.

وقال أبو مخنف عن جعفر بن محمد. قال: وجد بالحسين حين قتل ثلاثاً وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، وهم شمر بن ذي الجوشن بقتل علي بن الحسين الأصغر «زين العابدين» وهو صغير مريض حتى صرفه عن ذلك حميد بن مسلم أحد أصحابه، وجاء عمر بن سعد فقال: ألا لا يدخلن على هذه النسوة أحد، ولا يقتل هذا الغلام أحد، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده عليهم، قال: فو الله ما رد أحد شيئاً فقال له علي بن الحسين: جزيت خيراً فقد دفع الله عني بمقالتك شراً.

قالوا: ثم جاء سنان بن أنس إلى باب فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا ... أنا قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر بن سعد: أدخلوه علي، فلما دخل رماه بالسوط وقال: ويحك أنت مجنون، والله لو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك. ومنَّ عمر بن سعد على عقبة بن سمعان حين أخبره أنه مولى، فلم ينج منهم غيره. والمُرَقَّع بن ثُمامة أسر فمنَّ عليه ابن زياد.

وقتل من أصحاب الحسين اثنان وسبعون نفساً فدفنهم أهل الغاضرية،

من بني أسد بعدما قتلوا بيوم رحمهم الله وأكرمهم.

قال: ثم أمر عمر بن سعد أن يوطأ الحسين بالخيل. ولا يصح ذلك والله أعلم. وقتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون نفساً.

وروى عن محمد بن الحنيفة أنه قال: قتل مع الحسين سبعة عشر رجلا كلهم من أولاد فاطمة.

وعن الحسن البصري أنه قال: قتل مع الحسين ستة عشر رجلا كلهم من أهل بيته، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شِبْهٌ.

وقال غيره: قتل معه من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلا فمن أولاد علي رضي الله عنه جعفر والحسين والعباس ومحمد وعثمان وأبو بكر. ومن أولاد الحسين عليٌّ الأكبر وعبد الله. ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة، عبد الله، والقاسم، وأبو بكر بنو الحسن بن علي بن أبي طالب. ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان، عون ومحمد. ومن أولاد عقيل، جعفر، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومسلم قتل قبل ذلك كما قدمنا. فهؤلاء أربعة لصلبه، واثنان آخران هما عبد الله بن مسلم بن عقيل ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل، فكملوا ستةً من ولد عقيل، وفيهم يقول الشاعر:

وانـدي تسـعة لصلـب علـي ... قـد أصيبـوا وسـتة لعقيـل

وسَـمِيُّ النـبي غـودر فيهـم ... قـد علـوه بصـارم مصقـول

وممن قتل مع الحسين بكربلاء أخوه لأمه من الرضاعة عبد الله بن يُقْطُر، وقد قيل إنه قتل قبل ذلك حيث بعث معه كتاباً إلى أهل الكوفة فحمل إلى ابن زياد فقتله. وقتل من أهل الكوفة من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلا سوى الجرحى، فصلى عليهم عمر بن سعد ودفنهم. ويقال: إن عمر بن سعد أمر عشرة فرسان فداسوا الحسين بأفراسهم حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة وسُرِّح برأسه من يومه إلى ابن زياد مع خولي بن يزيد الأصبحي، فلما انتهى به إلى القصر وجده مغلقاً فرجع به إلى منزله فوضعه تحت إجَّانة وقال لامرأته نوار بنت مالك: جئتك بعز الدهر، فقالت: وما هو؟ قال: برأس الحسين. فقالت: جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت أنت برأس ابن بنت رسول الله ﷺ؟! والله لا يجمعني وإياك فراش أبداً، ثم نهضت عنه من الفراش، واستدعى بامرأة له أخرى من بني أسد فنامت عنده. قالت الثانية: والله مازلت أرى النور ساطعاً من تلك الإجّانة إلى السماء وطيوراً بيضاً ترفرف حولها. فلما أصبح غدا به إلى ابن زياد فأحضره بين يديه، ويقال إنه كان معه رؤوس بقية أصحابه، وهو المشهور، ومجموعهما اثنان وسبعون رأساً، وذلك أنه ما قتل قتيل إلا احتزوا رأسه وحملوه إلى ابن زياد، ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام [تاريخ الطبري:٥/٤٥٦-٤٥٩] .

قال الإمام أحمد [٣/٢٦١]: حدثنا حسين حدثنا جرير عن محمد عن أنس. قال: أُتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعل في طست، فجعل ينكت عليه وقال في حسنه شيئاً، فقال أنس: إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة.

ورواه البخاري في المناقب [٣٧٤٨] عن محمد بن الحسين بن إبراهيم هو ابن إشكاب عن حسين بن محمد عن جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أنس فذكره.

وقد رواه الترمذي [٣٧٧٨] من حديث حفصة بنت سيرين عن أنس. وقال: حسن صحيح، وفيه «فجعل ينكت بقضيب في أنفه ويقول: ما رأيت مثل هذا حسناً».

وقال البزار [كشف الأستار(٢٦٤٩)]: حدثنا مفرج بن شجاع بن عبيد الله الموصلي حدثنا غسان بن الربيع حدثنا يونس بن عبدة عن ثابت وحميد عن أنس. قال: لما أُتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين جعل ينكت بالقضيب ثناياه يقول: لقد كان أحسبه قال ـ جميلاً فقلت: والله لأسوؤنك، إني رأيت رسول الله ﷺ يلثم حيث يقع قضيبك. قال فانقبض.

تفرد به البزار من هذا الوجه وقال: لا نعلم رواه عن حميد غير يوسف بن عبدة وهو رجل من أهل البصرة مشهور وليس به بأس.

ورواه أبو يعلى الموصلي [مسنده(٣٩٨١)] عن إبراهيم بن الحجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس فذكره.

ورواه قرة بن خالد عن الحسن عن أنس فذكره [تاريخ دمشق:١٤/٢٣٦]

وقال أبو مخنف عن سليمان بن أبي راشد عن حميد بن مسلم. قال: دعاني عمر بن سعد فسرحني إلى أهله لأبشرهم بما فتح الله عليه وبعافيته، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتُهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل، فأجد ابن زياد قد جلس للناس، وقد دخل عليه الوفد الذين قدموا عليه، فدخلت فيمن دخل. فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت فيه بقضيب بين ثَنِيَّتَيْه ساعة، فقال له زيد بن أرقم: ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فو الله الذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقلبهما. ثم انفضخ الشيخ يبكي، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فو الله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، قال: فنهض فخرج، فلما خرج قال الناس: والله لقد قال زيد بن أرقم كلاماً لو سمعه ابن زياد لقتله، قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مر بنا وهو يقول: ملك عبد عُبَّداً. فاتخذهم تُلَداً. أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمَّرتم ابن مَرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذُّلِّ فبعداً لمن رضي بالذل.

وقد روي من طريق أبي داود السَّبيعي عن زيد بن أرقم بنحوه.

ورواه الطبراني [المعجم الكبير:٢٣٤، ٢٣٨] من طريق ثابت عن زيد.

وقد قال الترمذي [٣٧٨٠]: حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير قال: لما جيء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه نُصبت في المسجد في الرحبة فانتهيت إليهم وهم يقولون: قد جاءت قد جاءت، فإذا حية قد جاءت تتخلل الرؤوس حتى دخلت في منخري عبيد الله بن زياد، فمكثت هنيهة ثم خرجت، فذهبت حتى تغيب ثم قالوا: قد جاءت قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً. ثم قال الترمذي: حسن صحيح.

وأمر ابن زياد فنودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، فقال: ويحك يا ابن زياد!! تقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب، ثم أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة وطيف به في أزقتها، ثم سيره مع زحر بن قيس ومعه رؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية بالشام، وكان مع زحر جماعة من الفرسان، منهم أبو بردة بن عوف الأزدي: وطارق بن أبي ظبيان الأزدي، فخرجوا حتى قدموا بالرؤوس كلها على يزيد بن معاوية بالشام [تاريخ الطبري:٥/٤٥٨، ٤٥٩] .

قال هشام: فحدثني عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي عن أبيه عن الغاز بن ربيعة الجرشي من حمير. قال: والله إني لعند يزيد بن

معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس فدخل على يزيد، فقال له يزيد: ويلك ما وراءك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، ورد علينا الحسين بن علي بن أبي طالب وثمانية عشر من أهل بيته، وستون رجلا من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا إليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم. فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وزر ويلوذون منا بالآكام والحفر، لواذاً كما لاذ الحمام من صقر، فو الله ما كان إلا جزر جَزور، أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرمّلة، وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح، زوارهم العقبانُ والرُّخم. [تاريخ الطبري: ٥/٤٥٩، ٤٦٠]

قال: فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن مَرْجانة، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، ورحم الله الحسين. ولم يصل زَجْر بن قيس بشيء.

ولما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد قال: أما والله لو أني صاحبك ما قتلتك، ثم أنشد قول الحسين بن الحمام المري الشاعر [تاريخ الطبري: ٥/٤٦٠]:

يفلقن هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

قال أبو مخنف: فحدثني أبو جعفر العبسي عن أبي عمارة العبسي، قال: وقام يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم فقال:

لهام بجنب الطف أدنى قرابة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سمية أضحى نسلها عدد الحصى ... وبنت رسول اللّه ليس لها نسل

قال: فضرب يزيد في صدر يحيى بن الحكم وقال: اسكت.

وقال محمد بن حميد الرازي وهو شيعي: حدثنا محمد بن يحيى الأحمري حدثنا ليث عن مجاهد قال: لما جيء برأس الحسين فوضع بين يدي يزيد تمثل بهذه الأبيات:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

فأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا لي هنيئاً لا تسل

حين حكّت بقُباء بركها ... واستحر القتل في عبد الأسل

قد قتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها، والله ثم والله ما بقي في جيشه أحد إلا تركه.

وقد اختلف العلماء بعدها في رأس الحسين هل سيره ابن زياد إلى الشام إلى يزيد أم لا؟ على قولين، والأول أشبه، وقد ورد في ذلك آثار كثيرة فالله أعلم. وقال أبو مخنف عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الله الثُّمالي عن القاسم بن بخيت، قال: لما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد بن معاوية جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره، ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المري:

يفلقن هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي: أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذاً لقد رأيت رسول الله ﷺ يرشفه، ثم قال: أما إن هذا سيجيء يوم القيامة وشفيعه محمد ﷺ، وتجيء وشفيعك ابن زياد. ثم قام فولى. [تاريخ الطبري: ٥/٤٦٥]

وقد رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الوليد عن خالد بن يزيد بن أسد عن عمار الدهني عن أبي جعفر. قال: لما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد وعنده أبو برزة جعل ينكت بالقضيب على فيه ويقول: يُفلِّقن هاماً. فقال له أبو برزة: «ارفع قضيبك فلقد رأيت رسول الله ﷺ يلثمه».

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني مسلمة بن شبيب عن الحميدي عن سفيان سمعت سالم بن أبي حفصة قال قال الحسن: لما جيء برأس الحسين جعل يزيد يطعن بالقضيب، قال سفيان وأخبرت أن الحسن كان ينشد على إثر هذا:

سمية أمسى نسلها عدد الحصى ... وبنت رسول اللّه ليس لها نسل

وأما بقية أهله ونسائه فإن عمر بن سعد وكل بهم من يحرسهم ويكلؤهم، فأركبوهم على الرواحل في الهوادج، فلما مروا بمكان المعركة ورأوا الحسين وأصحابه مجدّلين هنالك بكته النساء، وصرخن، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها، فقالت وهي تبكي:

يا محمداه. يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء. هذا حسين بالعراء. مزمل بالدماء، مقطع الأعضاء يا محمداه. وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفي عليها الصبا، قال: فأبكت والله كل عدو وصديق.

قال قرة بن قيس لما مرت النسوة بالقتلى صحن ولطمن وجوههنْ، قال: فما رأيت من منظر من نسوة قط أحسن منظر رأيته منهن ذلك اليوم، والله إنهن لأحسن من مها يَبرين.

وذكر الحديث كما تقدم. ثم قال: ثم ساروا بهم في الهوادج من كربلاء حتى دخلوا الكوفة فأكرمهم ابن زياد وأجرى عليهم النفقات والكساوى والصِّلات.

قال: ودخلت زينب ابنة فاطمة في أرذل ثيابها قد تنكرت وحفت بها إماؤها، فلما دخلت على عبيد الله بن زياد قال: من هذه؟ فلم تكلمه فقال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة، فقال ابن زياد: الحمد للّه الذي فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم. فقالت: بل الحمد للّه الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً لا كما تقول، وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر. قال: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتكم؟ فقالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فيحاجونك إلى الله فغضب ابن زياد واستشاط، فقال له عمرو بن حريث: أصلح اللّه الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها؟ إنها لا تؤاخذ بما تقول ولا تلام على خطل.

وقال أبو مخنف عن المجالد عن سعيد: إن ابن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين «زين العابدين» قال لشرطي: انظر أأدرك هذا الغلام، فإن كان أدرك فانطلقوا به فاضربوا عنقه؟ فكشف إزاره عنه فقال: نعم! فقال: اذهب به فاضرب عنقه، فقال له علي بن الحسين: إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلا يحافظ عليهن، فقال له ابن زياد: تعال أنت! فبعثه معهن.

قال أبو مخنف: وأما سليمان بن أبي راشد فحدثني عن حميد بن مسلم قال: إني لقائم عند ابن زياد حين عرض عليه علي بن الحسين، فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أولم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت، فقال له ابن زياد: مالك لا تتكلم؟ قال: كان لي أخ يقال له علي أيضاً قتله الناس. قال: إن الله قتله، فسكت، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: ﴿اللّه يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿وما كان لنفس أن

تموت إلا بإذن الله﴾ [آل عمران: ١٤٥] قال: أنت والله منهم ويحك!! انظروا هذا أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلا، فكشف عنه مري بن معاذ الأحمري فقال: نعم قد أدرك، فقال: اقتله، فقال علي بن الحسين: من توكل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته فقالت: يا ابن زياد حسبك منا ما فعلت بنا، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟ قال: واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه، وناداه علي فقال: يا ابن زياد!! إن كان بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلا تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام. قال: فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم!! والله إني لأظن أنها ودت لو أني قتلته أن أقتلها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك.

قال: ثم إن ابن زياد أمر بنساء الحسين وصبيانه وبناته فجهزن إلى يزيد، وأمر بعلي بن الحسين فغل بغل إلى عنقه، وأرسلهم مع مِحْفَز بن ثعلبة العائذي من عائذة قريش ومع شمر بن ذي الجوشن قبحه الله، فلما بلغوا باب يزيد بن معاوية رفع مِحْفَز بن ثعلبة صوته فقال: هذا محفز بن ثعلبة، أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه يزيد بن معاوية: ما ولدت أم مِحْفَز شر والأم.

ثم سيَّرهم فردُّهم عُبيد الله إلى الشام [المعجم الكبير] شمر بن ذي الجوشن ومُحفَز بن ثعلبة العائذي من قريش، ومعهم علي بن الحسين زين العابدين، وكان أراد ابن زياد قَتْلَه، فصرفه الله عنه، فلما بعثهم سيَّره مع أهله، ولكنه مغلولٌ إلى عنقه، وبقيَّة الأهل في حال سيئة على ما ذكر بعضهم.

فلما دخلوا على يزيد بن معاوية قال لعلي بن الحسين: يا علي أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت. فقال علي: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: ٢٢] فقال يزيد لابنه خالد: اردُد عليه. قال: فما درى خالد ما يرد عليه، فقال له يزيد: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠] فسكت عنه ساعة ثم دعا بالنساء والصبيان فرأى هيئة قبيحة، فقال: قبح الله ابن مرجانة، لو كانت بينهم وبينه قرابة ورحم ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا.

وروى أبو مخنف عن الحارث بن كعب عن فاطمة بنت علي قالت: لما أُجلسنا بين يدي يزيد رق لنا وأمر لنا بشيء وألطفنا، ثم إن رجلا من أهل الشام أحمر قام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه. يعنيني وكنت جارية وضيئة، فارتعدت فزعة من قوله، وظننت أن ذلك جائز لهم، فأخذت بثياب أختي زينب وكانت أكبر مني وأعقل، وكانت تعلم أن ذلك لا يجوز فقالت لذلك الرجل: كذبت والله ولؤمت، ما ذلك لك ولا له، فغضب يزيد فقال لها: كذبت! والله إن ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلت. قالت: كلا! والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. قالت: فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك: قال: كذبت يا عدوة الله. قالت: أنت أمير المؤمنين مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك. قالت: فو الله لكأنه استحيا فسكت، ثم الشاميُّ فقال: يا أمير هب لي هذه. فقال له يزيد اعزب وهب الله لك حتفاً قاضياً.

ثم أمر يزيد النعمان بن بشير أن يبعث معهم إلى المدينة رجلا أميناً معه رجال وخيل، ويكون علي بن الحسين معهن. ثم أنزل النساء عند حَرَمِه في دار الخلافة فاستقبلهن نساء آل معاوية يبكين وينحن على الحسين، ثم أقمن المناحة ثلاثة أيام، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا ومعه علي بن الحسين وعمرو بن الحسن، فقال يزيد يوماً لعمرو الحسين وهو صغيرٌ جداً: أتقاتل هذا؟ يعني ابنه خالد بن يزيد فقال: أعطني سكيناً وأعطه سكيناً حتى نتقاتل، فأخذه يزيد فضمه إليه وقال: شنشنة أعرفها من أخزم، هل تلد الحية إلا حية؟!

ولما ودعهم يزيد قال لعلي بن الحسين: قبح الله ابن مَرْجانة، أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت. ثم جهزه وأعطاه مالا كثيراً وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول، وقال له: كاتبني بكل حاجة تكون لك، فكان ذلك الرسول الذي أرسله معهن يسير عنهن بمعزل من الطريق، ويبعد عنهن بحيث يدركهن طرفه وهو في خدمتهم حتى وصلوا المدينة، فجمعن شيئاً من حُلِيِّهن، فدفعْنه إلى ذلك الرجل فأبى أن يقبله، وقال: إنما والله ما فعلت ذلك لله تعالى ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

وقيل: إن يزيد لما رأى رأس الحسين قال: أتدرون من أين أتي ابن فاطمة؟ وما الحامل له على ما فعل، وما الذي أوقعه فيما وقع فيه؟ قالوا: لا! قال: يزعم أن أباه خير من أبي، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمي، وجده رسول الله ﷺ خير من جدي! وأنه خير مني وأحق بهذا الأمر مني، فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد حاج أبي أباه إلى الله عز وجل، وعلم الناس أيهما حكم له، وأما قوله: أمه خير من أمي فلعمري إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمي، وأما قوله: جدي رسول الله خير من جدي. فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى أن لرسول الله فينا عدلا ولا نداً، ولكنه إنما أتي من قِبَل فقهه لم يقرأ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فلما دخلت النساء على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين وكانت أكبر من سكينة: يا يزيد! بنات رسول الله ﷺ سبايا! فقال يزيد: يا بنت أخي، أنا لهذا كنت أكره، قالت: قلت: والله ما تركوا لنا خرصاً، فقال: ابنة أخي! ما أتى إليك أعظم مما ذهب لك.

ثم أدخلهن داره ثم أرسل إلى كل امرأة منهن: ماذا أُخذ لك؟ فليس منهن امرأة تدعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلا أضعفه لها.

وقال هشام عن أبي مخنف: حدثني أبو حمزة الثُّمالي عن عبد الله الثُّمالي عن القاسم بن بخيت. قال: لما أقبل وفد الكوفة برأس الحسين دخلوا به مسجد دمشق فقال لهم مروان بن الحكم: كيف صنعتم؟ قالوا: ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلا فأتينا والله على آخرهم، وهذه الرؤوس والسبايا، فوثب مروان وانصرف، وأتاهم أخوه يحيى بن الحكم فقال: ما صنعتم؟ فقالوا له مثل ما قالوا لأخيه، فقال لهم: حجبتم عن محمد ﷺ يوم القيامة، لن أجامعكم على أمر أبداً، ثم قام فانصرف.

قال: ولما بلغ أهل المدينة مقتل الحسين بكى عليه نساء بني هاشم ونحن عليه.

وروي أن يزيد استشار الناس في أمرهم فقال رجل ممن قبحهم الله: يا أمير المؤمنين لا تتخذن من كلب سوء جرواً، اقتل علي بن الحسين حتى لا يبقى من ذرية الحسين أحد، فسكت يزيد فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين اعمل معهم كما كان يعمل معهم رسول الله ﷺ لو رآهم على

هذه الحال. فرق عليهم يزيد وبعث بهم إلى الحمام وأجرى عليهم الكساوي والعطايا والأطعمة، وأنزلهم في داره.

وهذا يرد قول الرافضة: إنهم حملوا على جنائب الإبل سبايا عرايا، حتى كذب من زعم منهم أن الإبل البخاتي إنما نبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم لتستر عوراتهن.

ثم كتب ابن زياد إلى عمرو بن سعيد أمير الحرمين يبشره بمقتل الحسين، فأمر منادياً فنادى بذلك في المدينة. فلما سمع نساء بني هاشم ارتفعت أصواتهن بالبكاء والنوح فجعل عمرو بن سعيد يقول: هذا ببكاء نساء عثمان بن عفان. وقال عبد الملك بن عمير: دخلت على عبيد الله بن زياد وإذا رأس الحسين بن علي بين يديه على ترس، فو الله ما لبثت قليلاً حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس، ووالله ما لبثت إلا قليلا حتى دخلت على عبد الملك بن مروان وإذا رأس مصعب بن الزبير على ترس بين يديه.

وقال أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه [٥/٣٨٩، ٣٩٠]: فحدثني زكريا بن يحيى الضرير حدثنا أحمد بن جناب المصيصي حدثنا خالد بن يزيد بن عبد الله القسري حدثنا عمار الدهني قال: قلت لأبي جعفر: حدثني عن مقتل الحسين كأني حضرته، فقال: أقبل الحسين بكتاب مسلم بن عقيل الذي كان قد كتبه إليه يأمره فيه بالقدوم عليه، حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيه الحر بن يزيد التميمي فقال له: أين تريد؟ فقال: أريد هذا المصر، فقال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه، فهم الحسين أن يرجع، وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نأخذ بثأرنا ممن قتل أخانا أو نقتل. فقال: لا خير في الحياة بعدكم، فسار فلقيه أوائل خيل ابن زياد، فلما رأى ذلك عاد إلى كربلاء فأسند ظهره إلى قَصْباء وخَلاً؛ لئلا يُقاتِل إلا من وَجْهٌ واحد. فنزل وضرب أبنيته، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل.

وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص قد ولاه ابن زياد الري وعهد إليه عهده، فقال: اكفني هذا الرجل، فقال: أعفني. فأبى أن يعفيه، فقال: أنظرني الليلة، فأخبره فنظر في أمره، فلما أصبح غدا عليه راضياً بما أمره به فتوجه إليه عمر بن سعد فلما أتاه قال له الحسين: اختر واحدة من ثلاث، إما أن تَدَعوني فأنصرف من حيث جئت، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد، وإما أن تدعوني فألحق بالثغور. فقبل ذلك عمر، فكتب إليه عبيد الله بن زياد لا ولا كرامة حتى يضع يده في يدي، فقال الحسين: لا والله لا يكون ذلك أبداً. فقاتله فقتل أصحاب الحسين كلهم وفيهم بضعة عشر شاباً من أهل بيته وجاءه سهم فأصاب ابناً له معه في حجره فجعل يمسح الدم عنه ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا، ثم أمر بحبرة فشققها ثم لبسها وخرج بسيفه فقاتل حتى قتل، قتله رجل من مذحج وحز رأسه فانطلق به إلى عبيد الله وقال في ذلك:

أوقر ركابي فضة وذهبا ... فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

قال: فأوفده إلى يزيد بن معاوية فوضع رأسه بين يديه، وعنده أبو برزة الأسلمي فجعل يزيد ينكت بالقضيب على فيه ويقول:

يفلقن هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة: ارفع قضيبك، فو الله لربما رأيت فا رسول الله ﷺ على فيه يلثمه قال: وسرّح عمر بن سعد بحرمه وعياله إلى عبيد الله، ولم يكن بقي من آل الحسين إلا غلام وكان مريضاً مع النساء، فأمر به ابن زياد ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت: والله لا يقتل حتى تقتلوني، فرق لها فتركه وكف عنه، قال: وجهزّهم وحملهم إلى يزيد فلما قدموا عليه جمع من كان بحضرته من أهل الشام ثم أدخلوهم فهنؤوه بالفتح، فقال رجل منهم أحمر أزرق ونظر إلى وصيفة من بناته فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه، فقالت زينب: لا والله ولا كرامة لك ولا له، إلا أن تخرجا من دين الله قال: فأعادها الأزرق فقال له يزيد: كف عن هذا. ثم أدخلهم على عياله، فجهزهم وحملوا إلى المدينة، فلما دخلوها خرجت امرأة من بني عبد المطلب ناشرة شعرها واضعة كمها على رأسها تتلقاهم وهي تبكي وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وقد روى أبو مخنف عن سليمان بن أبي راشد عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود أن بنت عقيل هي التي قالت هذا الشعر.

وهكذا حكى الزبير بن بكار أن زينب الصغرى بنت عقيل بن أبي طالب هي التي قالت ذلك حين دخل آل الحسين المدينة النبوية.

وروى أبو بكر بن الأنباري بإسناده أن زينب بنت علي بن أبي طالب من فاطمة وهي زوج عبد الله بن جعفر أم بنيه رفعت سجف خبائها يوم كربلاء يوم قتل الحسين وقالت هذه الأبيات فالله أعلم.

وقال هشام بن الكلبي: حدثني بعض أصحابنا عن عمرو بن أبي المقدام قال: حدثني عمر بن عكرمة قال: أصبحنا صبيحة قتل الحسين بالمدينة فإذا مولاة لنا تحدثنا قالت: سمعت البارحة منادياً ينادي وهو يقول:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبي ومَلأكٍ وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وحامل الإنجيل

قال ابن هشام: حدثني عمرو بن حيزوم الكلبي عن أمه قالت: سمعت هذا الصوت.

ومما أنشده الحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيره لبعض المتقدمين في مقتل الحسين:

جاؤوا برأسك يا ابن بنت محمد ... متزملا بدمائه تزميلا
وكأنما بك يا ابن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولم يترقَّبوا ... في قتلك التنزيلا والتأويلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

فصل

وكان مقتل الحسين ﷺ يوم الجمعة، وقال الليث وأبو نعيم يوم السبت يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين.

وقال هشام بن الكلبي: سنة اثنين وستين، وبه قال علي بن المديني.

وقال ابن لهيعة: سنة ثنتين أو ثلاث وستين. وقال غيره سنة ستين.

والصحيح الأول. بمكان يقال له الطفُّ بكربلاء من أرض العراق وله من العمر ثمان وخمسون سنة أو نحوها، وأخطأ أبو نعيم في قوله: إنه قتل

وله من العمر خمس أو ست وستون سنة.

قال الإمام أحمد [٢٦٥/٣]: حدثنا عبد الصمد بن حسان حدثنا عمارة يعني ابن زاذان عن ثابت عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتي النبي ﷺ فأذن له، فقال لأم سلمة: «احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد» فجاء الحسين بن علي فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي ﷺ، فقال له الملك: أتحبه؟ قال النبي ﷺ: «نعم» فقال فإن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، قال: فضرب بيده فأراه تراباً أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها. قال: فكنا نسمع يقتل بكربلاء.

وقال الإمام أحمد [٢٩٤/٦]: حدثنا وكيع حدثني عبد الله بن سعيد عن أبيه عن عائشة أو أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل عليَّ قبلها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك الأرض التي يقتل بها» قال: فأخرج تربة حمراء.

وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أم سلمة.

ورواه الطبراني [الكبير: ٣٤٢/٨] عن أبي أمامة وفيه قصة أم سلمة.

ورواه محمد بن سعد عن عائشة بنحو رواية أم سلمة فالله أعلم.

وروي ذلك من حديث زينب بنت جحش ولبابة أم الفضل امرأة العباس. وأرسله غير واحد من التابعين.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا محمد بن هارون أبو بكر حدثنا إبراهيم بن محمد الرقي وعلي بن الحسن الرازي قالا: حدثنا سعيد بن عبد الملك أبو واقد الحراني حدثنا عطاء بن مسلم حدثنا أشعث بن سحيم عن أبيه قال: سمعت أنس بن الحارث يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابني هذا يعني الحسين يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصره». قال: فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين، ثم قال: ولا أعلم روى غيره.

وقال الإمام أحمد [٨٥/١]: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا شرحبيل بن مدرك عن عبد الله بن نُجي عن أبيه أنه سار مع علي وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين، فنادى علي: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله، بشط الفرات قلت: وماذا؟ قال: دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان فقلت: يا نبيَّ الله، أغضبك أحدٌ؟ وما شأن عينيك تفيضان؟ قال: «بلى قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات» قال: فقال: «هل لك أن أشمك من تربته؟» قال: فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا تفرد به أحمد.

وروى محمد بن سعد عن علي بن محمد عن يحيى بن زكريا عن رجل عن عامر الشعبي عن علي مثله.

وقد روى محمد بن سعد وغيره من غير وجه عن علي بن أبي طالب أنه مر بكربلاء عند أشجار الحنظل وهو ذاهب إلى صفين، فسأل عن اسمها فقيل كربلاء فقال: كرب وبلاء، فنزل فصلى عند شجرة هناك ثم قال: يقتل ههنا شهداء هم خير الشهداء غير الصحابة، يدخلون الجنة بغير حساب وأشار إلى مكان هناك فعلموه بشيء فقتل فيه الحسين رَضِيَ اللَّهُ عنه.

وقد روى عن كعب الأحبار آثار في كربلاء وقد حكى أبو الجناب الكلبي وغيره أن أهل كربلاء لا يزالون يسمعون نوح الجن على حسين وهن يقلن:

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قريش جده خير الجدود

وقد أجابهم بعض الناس فقال:

خرجوا به وفداً إليه فهم له شر الوفود
قتلوا ابن بنت نبيهم سكنوا به نار الخلود

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤٣/١٤] أن طائفة من الناس ذهبوا في غزوة إلى بلاد الروم فوجدوا في كنيسة مكتوباً:

أترجو أمةٌ قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

فسألوهم: من كتب هذا؟ فقالوا: إن هذا مكتوب ههنا من قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة.

وروي أن الذين قتلوه رجعوا فباتوا وهم يشربون الخمر والرأس معهم، فبرز لهم قلم من حديد فرسم لهم في الحائط بدم هذا البيت.

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب؟

وقال الإمام أحمد [٢٤٢/١، ٢٨٣]: حدثنا عبد الرحمن وعفان حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام بنصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا؟ قال: «هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم». قال عمار: فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل في ذلك اليوم.

تفرد به أحمد وإسناده قوي.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبد الله بن محمد بن هانىء أبو عبد الرحمن النحوي حدثنا مَعْدي بن سليمان حدثنا علي بن زيد بن جدعان. قال: استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله، فقال له أصحابه: كلا يا ابن عباس كلاّ؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: « ألا أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله». فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه، وتلك الساعة، فما لبثوا إلا أربعة وعشرين يوماً حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في ذلك اليوم وتلك الساعة.

وروى الترمذي [٣٧٧١] عن أبي سعيد الأشج عن أبي خالد الأحمر عن رزين عن سلمى قالت: دخلت على أم سلمة وهي تبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقالت: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «شهدت قتل الحسين آنفاً».

وقال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري أنبانا قرة بن خالد أخبرني عامر بن عبد الواحد عن شهر بن حوشب قال: إنا لعند أم سلمة زوج النبي ﷺ فسمعنا صارخة فأقبلت حتى انتهت إلى أم سلمة فقالت: قتل الحسين. فقالت: قد فعلوها، ملأ الله قبورهم أو بيوتهم عليهم ناراً، ووقعت مغشياً عليها، وقمنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حمّاد بن سلمة عن عمار قال: سمعت أم سلمة قالت: سمعت الجن يبكين على حسين وسمعت الجن تنوح على الحسين.

ورواه الحسين بن إدريس عن هاشم بن هاشم عن أمه عن أم سلمة قالت: سمعت الجن يبكين تنوح على الحسين وهن يقلن:

أيها القاتلون ظلماً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبي ومرسل وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وصاحب الإنجيل

وقد روي من طريق أخرى عن أم سلمة بشعر آخر غير هذا، فالله أعلم.

وقال الخطيب [تاريخ بغداد: ١٤١/١، ١٤٢]: أنبأنا أحمد بن عثمان بن ميّاح السكري حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي حدثنا محمد بن شداد المسمعي حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: أوحى الله تعالى إلى محمد إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وأنا قاتل بابنا بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً».

هذا حديث غريب جداً، وقد رواه الحاكم في مستدركه [٥٩٢/٢].

وقد ذكر الطبراني [المعجم الكبير: ١١٩/٣-١٢٣] ههنا آثاراً غريبة جداً، ولقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذباً فاحشاً، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرت، وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم وصارت السماء كأنها علقة، وأن الكواكب صار يضرب بعضها بعضا، وأمطرت السماء دماً أحمر، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذ.

وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل المعافري أن الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم وقت الظهر، وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دماً، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام، ولم يمس زعفران ولا ورس بما كان معه يومئذ إلا احترق من مسه، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط، وأن الإبل التي غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم. إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء.

وأما ما روي من الأمور والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح، فإنه قل من نجا منهم في الدنيا، إلا أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون. وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين رضي الله عنه كذب كثير وأخبار طويلة، وفيما ذكرناه كفاية، وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ الأئمة ذكروه ما سقته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنفين ممن بعده والله أعلم.

وقد أسرف الرافضة في دولة بني بويه في حدود الأربعمائة وما حولها فكانت الدبادب تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء، ويذر الرماد والتبن في الطرقات والأسواق، وتعلق المسوح على الدكاكين، ويظهر الناس الحزن والبكاء، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتئذ موافقة للحسين لأنه قتل عطشان. ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن، حافيات في الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة ن والأهواء الفظيعة والهتائك المخترعة وإنما يريدون بهذا وأشباهه أن يشنعوا على دولة بني أمية، لأنه قتل في أيامهم.

وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء النواصب من أهل الشام، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ويلبسون أفخر ثيابهم ويتخذون ذلك اليوم عيداً يصنعون فيه أنواع الأطعمة، ويظهرون السرور والفرح، يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم.

وقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه، وقد ورد في صحيح مسلم [١٨٥٢] الحديث بالزجر عن ذلك، والتحذير منه، والتوعد عليه وبتقدير أن تكون طائفة من الجهلة قد تأولوا عليه وقتلوه ولم يكن لهم قتله، بل كان يجب عليهم إجابته إلى ما سأل من تلك الخصال الثلاث المتقدم ذكرها، فإذا ذمت طائفة من الجبارين لم تذم الأمة بكمالها وتتهم على نبيها ﷺ، فليس الأمر كما ذهبوا إليه، ولا كما سلكوه، بل أكثر الأمة قديماً وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه، سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة قبحهم الله وأكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا به إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة.

فلما علم ذلك ابن زياد منهم بلغهم ما يريدون من الدنيا وأخذهم على ذلك وحملهم عليه بالرغبة والرهبة، فانكفوا عن الحسين وخذلوه ثم قتلوه. وليس كل ذلك الجيش كان راضياً بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك والله أعلم، ولا كرهه، والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه كما أوصاه بذلك أبوه، وكما صرح هو به مخبراً عن نفسه بذلك. وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه ولا أرسل يعيب عليه ذلك والله أعلم.

فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه هذا الذي وقع من قتله رضي الله عنه، فإنه من سادات المسلمين، وعلماء الصحابة وابن بنت رسول الله ﷺ التي هي أفضل بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخياً، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء وقد كان أبوه أفضل وهم لا يتخذون مقتله مأتماً كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة، وقد قتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتماً، وكذلك عمر بن الخطاب وهو أفضل من عثمان وعلي، قتل وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر وهو يقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم مقتله مأتماً، وكذلك الصديق كان أفضل منه ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتماً، رسول الله ﷺ سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله، ولم يتخذ أحد يوم موته مأتماً يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين. ولا ذكر أحد أنه ظهر يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة، مثل كسوف الشمس والحمرة التي تطلع في السماء وغير ذلك.

وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب وأمثالها ما رواه الحسين بن علي عن جده رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكّرها وإن تقادم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب منها». رواه الإمام أحمد [٢٠١/١] وابن ماجه.

وأما قبر الحسين رضي الله عنه: فقد اشتهر عند أكثر المتأخرين أنه في مشهد علي. بمكان من الطف عند نهر كربلاء، فيقال إن ذلك المشهد مبني على قبره فالله أعلم.

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع على

تعيينه بخبر.

وقد كان أبو نعيم، الفضل بن دكين، ينكر على من يزعم أنه يعرف قبر الحسين رضي الله عنه.

وذكر هشام بن الكلبي أن الماء لما أجري على قبر حسين ليُمحى أثره نضب الماء بعد أربعين يوماً، فجاء أعرابي من بني أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة ويشمها حتى وقع على قبر الحسين فبكى وقال: بأبي أنت وأمي، ما كان أطيبك وأطيب تربتك!! ثم أنشأ يقول:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وأما رأسه رضي الله عنه: فالمشهور عند أهل التاريخ وعلماء السير أنه بعث به ابن زياد إلى يزيد بن معاوية، ومن الناس من أنكر ذلك. وعندي أن الأول أشهر فالله أعلم.

ثم اختلفوا بعد ذلك في المكان الذي دفن فيه الرأس، فروى محمد بن سعد أن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة فدفنه عند أمه بالبقيع.

وذكر ابن أبي الدنيا من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن عمر بن صالح وهما ضعيفان أن الرأس لم يزل في خزانة يزيد بن معاوية حتى توفي فأخذ من خزانته فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق.

قلت: ويعرف مكانه بمسجد الرأس اليوم داخل باب الفراديس الثاني.

وذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة ريا حاضنة يزيد بن معاوية [تراجم النساء ص١٠٢، ١٠٣]، أن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه تمثل بشعر ابن الزبعرى يعني قوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

قال: ثم نصبه بدمشق ثلاثة أيام ثم وضع في خزائن السلاح، حتى كان زمن سليمان بن عبد الملك فجيء به إليه، وقد بقي عظماً أبيض، فكفنه وطيبه وصلى عليه ودفنه في مقابر المسلمين، فلما جاءت المسودة يعني بني العباس نبشوا عن رأس الحسين وأخذوه معهم.

وذكر ابن عساكر أن هذه المرأة بقيت بعد دولة بني أمية، وقد جاوزت المائة سنة فالله أعلم.

وادعت الطائفة المسمون بالفاطميين الذين ملكوا الديار المصرية قبل سنة أربعمائة إلى ما بعد سنة ستين وستمائة، أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور به بمصر، الذي يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة. وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء، في دولتهم في حدود سنة أربعمائة، كما سنبين ذلك كله إذا انتهينا إليه في مواضعه إن شاء الله تعالى.

فصل: في ذكر شيء من فضائله

روى البخاري من حديث شعبة [٣٧٥٧] ومهدي بن ميمون [٥٩٩٤] عن محمد بن أبي يعقوب سمعت ابن أبي نُعم قال: سمعت عبد الله بن عمر وسأله رجل من أهل العراق عن المحرم يقتل الذباب فقال: أهل العراق يسألون عن قتل الذباب، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا».

ورواه الترمذي [٣٧٧٠] عن عقبة بن مكرم عن وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن أبي يعقوب به نحوه: أن رجلا من أهل العراق سأل ابن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب، فقال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ. وذكر تمام الحديث. ثم قال حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٢٨٨/٢]: حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان عن أبي الجحاف عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني» يعني حسناً وحسيناً.

وقال الإمام أحمد [٤٤٢/٢]: حدثنا تليد بن سليمان كوفي حدثنا أبو الجحاف عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: نظر النبي ﷺ إلى علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربكم، سلم لمن سالمكم». تفرد بهما الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد [٤٤٠/٢]: حدثنا ابن نمير حدثنا حجاج يعني ابن دينار عن جعفر بن إياس عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبي هريرة. قال: خرج رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله! والله إنك لتحبهما، فقال: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني». تفرد به أحمد.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي [مسنده(٤٢٩٤)]: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثني عقبة بن خالد حدثني يوسف بن إبراهيم التميمي أنه سمع أنس بن مالك يقول: سئل رسول الله ﷺ : أي أهل بيتك أحب إليك؟ قال: «الحسن والحسين». قال: وكان يقول: «ادع لي ابني» فيشمهما ويضمهما إليه.

وكذا رواه الترمذي [٣٧٧٢] عن أبي سعيد الأشج به، وقال: حسن غريب من حديث أنس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر [٢٥٩/٣] وعفان [٢٨٥/٣] عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أنس. أن رسول الله ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر فيقول: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ورواه الترمذي [٣٢٠٦] عن عبد بن حميد عن عفان به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة:

وقال الترمذي [٣٧٨٢]: حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن البراء أن رسول الله ﷺ أبصر حسناً وحسيناً فقال: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»، ثم قال: حسن صحيح.

وقد روى الإمام أحمد [٣٥٤/٥]: عن زيد بن الحباب عن الحسين بن واقد وأهل السنن الأربعة [د(١١٠٩)، ت(٣٧٧٤)، س(١٤١٢)،ق(١٥٨٤)، ج(٣٦٠٠)] من حديث الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه. قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا لفظ الترمذي، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد.

ثم قال [٣٧٧٥]: حدثنا الحسين بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن راشد عن يعلى بن مرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط». ثم قال الترمذي. هذا حديث حسن.

ورواه أحمد [١٧٢/٤] عن عفان عن وهيب، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم به.

ورواه الطبراني [الكبير:٢٧٣/٢٢] عن بكر بن سهل عن عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن يعلى بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط».

وقال الإمام أحمد [٦٢/٣]: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن أبي نُعم عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

ورواه الترمذي [٣٧٦٨] من حديث سفيان الثوري وغيره عن يزيد بن أبي زياد، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أبو القاسم البغوي عن داود بن رشيد عن مروان الفزاري عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعم عن أبيه عن أبي سعيد. قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة، يحيى وعيسى عليهما السلام».

وأخرجه النسائي [كبرى(٨١٦٩)] من حديث مروان بن معاوية الفزاري به.

ورواه سويد بن سعيد عن محمد بن خازم عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد. [تاريخ دمشق:١٣٥/١٤، ١٣٦]

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن ربيع بن سعد عن أبي سابط قال: دخل حسين بن علي المسجد فقال جابر بن عبد الله: من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا، سمعته من رسول الله ﷺ». تفرد به أحمد [رواه ابن عساكر تاريخ دمشق: ١٣٦/١٤، من طريق الإمام أحمد].

وروى الترمذي [٣٧٨١] والنسائي [كبرى(٨٢٩٨)] من حديث إسرائيل عن ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبيش عن حذيفة أن أمه بعثته ليستغفر له رسول الله ﷺ ولها قال: فأتيته فصليت معه المغرب ثم صلى حتى صلى العشاء، ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: «من هذا؟ حذيفة؟» قلت: نعم! قال: «ما حاجتك غفر الله لك ولأمك؟ إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قبل هذه الليلة، استأذن ربه بأن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ولا يعرف إلا من حديث إسرائيل.

وقد روي مثل هذا من حديث علي بن أبي طالب ومن حديث الحسين نفسه، وعمر وابنه عبد الله وعبد الله ابن عباس وابن مسعود وأنس وغيرهم، وفي أسانيده كلها ضعف والله أعلم.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده(٢٥٠٢)]: حدثنا موسى بن مطير عن أبيه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في الحسن والحسين: «من أحبني فليحب هذين».

وقال الإمام أحمد [٣٦٩/٥]: حدثنا سليمان بن داود حدثنا إسماعيل يعني ابن جعفر أخبرني محمد يعني ابن أبي حرملة عن عطاء. أن رجلا أخبره أنه رأى النبي ﷺ يضم إليه حسناً وحسيناً ويقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما». وقد روي عن أسامة بن زيد وسلمان الفارسي شيء يشبه هذا وفيه ضعف وسقم والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد [٥١٣/٢]: حدثنا أسود بن عامر حدثنا كامل وأبو المنذر، أنا كامل قال أسود: أنبأنا المعنى عن أبي صالح عن أبي هريرة. قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء فإذا سجد وثب الحسين والحسن على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما أخذاً رفيقاً فيضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا حتى قضى صلاته أقعدهما على فخذيه، قال: فقمت إليه فقلت: يا رسول الله أردهما؟ قال: فبرقت برقة فقال لهما: «الحقا بأمكما»، قال فمكث ضوؤها حتى دخلا. وقد روى موسى بن عثمان الحضرمي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة نحوه، وقد روي عن أبي سعيد وابن عمر قريب من هذا.

وقال الإمام أحمد [١٠١/١]: حدثنا عفان حدثنا معاذ بن معاذ حدثنا قيس بن الربيع عن أبي المقدام عن عبد الرحمن الأزرق عن علي. قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا نائم على المنامة، فاستسقى الحسن أو الحسين فقام رسول الله ﷺ إلى شاة لنا بَكيء فحلبها فدرت فجاءه الآخر فنحاه، فقالت فاطمة: يا رسول الله كأنه أحبهما إليك؟ قال: «لا ولكنه استسقى قبله»، ثم قال: «إني وإياك وهذين وهذا الراقد في مكان واحد يوم القيامة».

تفرد به أحمد.

ورواه أبو داود الطيالسي [مسنده(١٩٠)] عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن أبي فاختة عن علي فذكر نحوه وقد روي عن أبي سعيد الخدري وعن ميمونة وأم سلمة أمي المؤمنين مثله أو نحوه.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يحبهما ويكرمهما ويحملهما ويعطيهما في الديوان كما يعطي أباهما، وجيء مرة بحلل من اليمن فقسمها بين أبناء الصحابة ولم يعطهما منها شيئاً، وقال: ليس فيها شيء يصلح لهما، ثم بعث إلى نائب اليمن فاستعمل لهما حلتين تناسبهما.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا قبيصة بن عقبة حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث قال: بينما عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة إذ رأى الحسين مقبلا فقال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء.

وقال الزبير بن بكار: حدثني أحمد بن سلمان، عن الدراوردي عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا، ولم يبايع صغيراً إلا منا». وهذا مرسل غريب.

وقال محمد بن سعد: أخبرني يعلى بن عبيد حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عبد الله بن عبيد بن عمير. قال: حج الحسين بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد بين يديه.

وحدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا حفص بن غياث عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسين بن علي حج ماشياً وإن نجائبه لتقاد وراءه.

والصواب أن ذلك إنما هو الحسن أخوه كما حكاه البخاري.

وقال المدائني: جرى بين الحسن والحسين كلام فتهاجروا، فلما كان بعد ذلك أقبل الحسن إلى الحسين فأكب على رأسه فقبّله، وقال: إن الذي منعني من ابتدائك بهذا أني رأيت أنك أحق بالفضل مني فكرهت أن انازعك ما أنت أحق به مني.

وحكى الأصمعي عن ابن عون أن الحسن كتب إلى الحسين يعيب عليه إعطاء الشعراء فقال الحسين: إن أحسن المال ما وقى العرض.

وقد روى الطبراني (المعجم الكبير: ١٠٦/٣): حدثنا أبو حنيفة محمد بن حنيفة الواسطي حدثنا يزيد بن عمرو بن البراء الغنوي حدثنا سليمان بن الهيثم قال: كان الحسين بن علي يطوف بالبيت فأراد أن يستلم فأوسع فما له الناس، والفرزدق بن غالب ينظر إليه فقال رجل: يا أبا فراس من هذا؟ فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
في كفّ خيزران ريحها عبق ... بكف أروع في عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نسبته ... طابت عناصره والخيم والشيم
لا يستطيع جواد بعد غايته ... ولا يدانيه قوم إن هموا كرموا
أي العشائر ليست في رقابهم ... لأولية هذا أو له نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

هكذا أوردها الطبراني في ترجمة الحسين في معجمه الكبير وهو غريب، فإن المشهور أنها من قيل الفرزدق في علي بن الحسين لا في أبيه، وهو أشبه، فإن الفرزدق لم ير الحسين إلا وهو مقبل إلى الحج والحسين ذاهب إلى العراق، فسأل الحسين الفرزدق عن الناس فذكر له ما تقدم، ثم إن الحسين قتل بعد مفارقته له بأيام يسيرة، رآه يطوف بالبيت؟ والله أعلم.

وروى هشام عن عوانة قال: قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد: أين الكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين؟ فقال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب، فقال له ابن زياد: لتجيئن به، قال: ضاع، قال: والله لتجيئن به، قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهن بالمدينة، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبي وقاص لكنت قد أديت حقه، فقال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق عمر والله، ولوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن حسيناً لم يقتل، قال: فو الله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله.

فصل: في ذكر شيء من أشعاره

فمن ذلك ما أنشده أبو بكر بن كامل عن عبد الله بن إبراهيم، وذكر أنه للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

اغن عن المخلوق بالخالق ... تَغْنَ عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله ... فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه ... فليس بالرحمن بالواثق
أو ظن أن المال من كسبه ... زلت به النعلان من حالق

عن الأعمش أن الحسين بن علي قال:

كلما زيد صاحب المال مالا ... زيد في همه وفي الاشتغال
قد عرفناك يا منغصة العيـ ... ـش ويا دار كل فان وبالي
ليس يصفو لزاهد طلب الزهـ ... ـد إذا كان مثقلا بالعيال

وعن إسحاق بن إبراهيم قال: بلغني أن الحسين زار مقابر الشهداء بالبقيع فقال:

ناديت سكان القبور فأسكتوا ... وأجابني عن صمتهم نُدْبُ الجُثَى
قالت أتدري ما صنعت بساكني ... مزقت ألحمهم وخرقت الكسا
وحشوت أعينهم تراباً بعدما ... كانت تأذى باليسير من القذا
أما العظام فإنني مزقتها ... حتى تباينت المفاصل والشوا
قطعت ذا مِنْ ذا ومن هذا كذا ... فتركتها رمماً يطول بها البِلى

وأنشد بعضهم للحسين عليه السلام أيضاً:

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة ... فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أنشئت ... فقتل سبيل الله بالسيف أفضل
وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدراً ... فقلة سعي المرء في الكسب أجمل
وإن كانت الأموال للترك جُمِّعتْ ... فما بال متروك به المرء يبخل

ومما أنشد الزبير بن بكار من شعره في امرأته الرباب بنت أنيف، ويقال بنت امرئ القيس بن عدي بن أوس الكلبي وهي أم ابنته سكينة بنت الحسين:

لعمرك إنني لأحب داراً ... تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي ... وليس للائمي فيها عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً ... حياتي أو يُغَيِّبني التراب

وقد أسلم أبوها على يدي عمر بن الخطاب وأمره عمر على قومه، فلما خرج من عنده خطب إليه علي بن أبي طالب أن يزوج ابنه الحسن والحسين من بناته، فزوج الحسن ابنته سلمى، والحسين ابنته الرباب، وزوج علياً ابنته الثالثة، وهي المحياة بنت امرئ القيس في ساعة واحدة، فأحب الحسين زوجته الرباب حباً شديداً وكان بها معجباً يقول فيها الشعر، ولما قتل بكربلاء كانت معه فوجدت عليه وجداً شديداً، وذكر أنها أقامت على قبره سنة ثم انصرفت وهي تقول:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقد خطبها بعده خلق كثير من أشراف قريش فقالت: ما كنت لأتخذ حمِيَّ بعد رسول الله ﷺ، وو الله لا يؤويني ورجلا بعد الحسين سقف أبداً. ولم تزل عليه كمدة حتى ماتت، ويقال إنها إنما عاشت بعده أياماً يسيرة فالله أعلم.

وابنتها سكينة بنت الحسين كانت من أجمل النساء حتى أنه لم يكن في زمانها أحسن منها، فالله أعلم.

وروى أبو مخنف عن عبد الرحمن بن جندب أن عبيد الله ابن زياد بعد مقتل الحسين تفقد أشراف أهل الكوفة فلم ير عبيد الله بن الحر بن يزيد، فتطلبه حتى جاءه بعد أيام فقال: أين كنت يا ابن الحر؟ قال: كنت مريضاً، قال: مريض القلب أم مريض البدن؟ قال: أما قلبي فلم يمرض، وأما بدني فقد من الله عليه بالعافية، فقال له ابن زياد: كذبت، ولكنك كنت مع عدونا، قال: لو كنت مع عدوك لم يخف مكان مثلي، ولكان الناس شاهدوا ذلك، قال: وغَفَل عنه ابن زياد غفلة فخرج ابن الحر فقعد على فرسه. ثم

قال: أبلغوه أني لا آتيه والله طائعاً فقال ابن زياد: أين الحر؟ قالوا: خرج، فقال: علي به، فخرج الشرط في طلبه فأسمعهم غليظ ما يكرهون، وترضى عن الحسين أخيه وأبيه ثم أسمعهم في ابن زياد غليظاً من القول، ثم امتنع منهم وقال في الحسين وفي أصحابه شعراً:

يقول أمير غادر حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
فيا ندمي أن لا أكون نصرته ... ألا كل نفس لا تسدد نادمه
وإني لأني لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا ... على نصره سقياً من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالهم ... فكاد الحشا ينفض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى ... سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه
تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم ... بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
فإن تقتلوا فكل نفس تقية ... على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراؤون أفضل منهم ... لدى الموت سادات وزهر قماقمه
أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فيا ابن زياد استعد لحربنا ... وموقف ضنك يقصم الظهر قاصمه

وقال الزبير بن بكار: قال سليمان بن قَتّة يرثي الحسين ﷺ:

وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاباً من قريش فذلت
فإن تتبعوه عائذ البيت تصبحوا ... كعاد تعمت عن هداها فضلت
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتها أمثالها حيث حلت
وكانوا لنا غنماً فعادوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلت
إذا افتقرت قيس جبرنا فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
وعند غَنيٍّ قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يوماً بها حيث حلت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لقتل حسين والبلاد اقشعرت

ومما وقع من الحوادث في هذه السنة أعني سنة إحدى وستين بعد مقتل الحسين.

ففيها ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد سجستان وخراسان حين وفد عليه، وله من العمر أربعٌ وعشرون سنة، وعزل عنها أخويه عباداً وعبد الرحمن، وسار سلم إلى عمله فجعل ينتخب الوجوه والفرسان، ويحرِّض الناس على الجهاد، ثم خرج في جحفل عظيم ليغزو بلاد الترك، ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص، فكانت أول امرأة من العرب قطع بها النهر، وولدت هنالك ولداً أسموه صُغْدِيّاً، وبعثت إليها امرأة صاحب الصغد بتاجها من ذهب ولآلئ. وكان المسلمون قبل ذلك لا يشتون في تلك البلاد، فشتى بها سلم بن زياد.

وبعث المهلب بن أبي صفرة إلى تلك المدينة التي هي للترك، وهي خوارزم فحاصرهم حتى صالحوه على نيف وعشرين ألف ألف، وكان يأخذ منهم عروضاً عوضاً، فيأخذ الشيء بنصف قيمته فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فحظي بذلك المهلب عند سلم بن زياد، ثم بعث من ذلك ما اصطفاه ليزيد بن معاوية مع مرزبان ومعه وفد، وصالح سلم أهل سمرقند في هذه الغزوة على مال جزيل.

وفيها عزل يزيد عن إمره الحرمين عمرو بن سعيد وأعاد إليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فولاه المدينة، وذلك أن ابن الزبير لما بلغه مقتل الحسين شرع يخطب الناس ويعظم قتل الحسين وأصحابه جداً، ويعيب على أهل الكوفة وأهل العراق ما صنعوه من خذلانهم الحسين، ويترحم على الحسين ويلعن من قتله، ويقول: أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغنا والملاهي! ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالجلوس في حلق الذكر تَطلاب الصيد يعرض في ذلك بيزيد بن معاوية فسوف يلقون غيا، ويؤلِّب الناس على بني أمية ويحثهم على مخالفتهم وخلع يزيد. فبايعه خلق كثير في الباطن، وسألوه أن يظهرها فلم يمكنه ذلك مع وجود عمرو بن سعيد، وكان شديداً عليه ولكن فيه رفق، وقد كان كاتبه أهل المدينة وغيرهم، وقال الناس: أما إذ قتل الحسين فليس أحد ينازع ابن الزبير، وبلغ ذلك يزيد وقيل له: إن عمرو بن سعيد لو شاء لبعث إليك برأس ابن الزبير، أو يحاصره حتى يخرجه من الحرم، فبعث فعزله وولى الوليد بن عتبة في هذه السنة، وقال بعضهم: في مستهل ذي الحجة، فأقام للناس الحج في هذه السنة، وحلف يزيد ليبعثن إلى ابن الزبير فليؤتينَّ به في سلسلة من فضة، وبعث بها مع البريد ومعه برنس من خز لتَبرَّ يمينه، فلما مر البريد على مروان وهو بالمدينة وأخبره بما هو قاصد له وما معه من الغل أنشأ مروان يقول:

فخذها فما هي للعزيز بخطّة ... وفيها مقال لامرئ متذلل
أعامر إن القوم ساموك خطة ... وذلك في الجيران غزل بمغزل
أراك إذا ما كنت في القوم ناصحاً ... يقال له بالدلو أدبر وأقبل

فلما انتهت الرسل إلى عبد الله بن الزبير بعث مروان ابنيه عبد الملك وعبد العزيز ليحضرا مراجعته في ذلك، وقال: أسمعاه قولي في ذلك، قال عبد العزيز: فلما جلس الرسل بين يديه جعلت أنشده ذلك وهو يسمع ولا أشعره، فالتفت إلي فقال: أخبرا أباكما أني أقول:

إني لمن نبعة صم مكاسرها ... إذا تناوحت القصباء والعشر
ولا ألين لغير الحق أسأله ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

قال عبد العزيز: فما أدري أيُّهما كان أعجب!!

قال أبو معشر: لا خلاف بين أهل السير أن الوليد بن عتبة حج بالناس في هذه السنة وهو أمير الحرمين وعلى البصرة والكوفة عبيد الله بن زياد، وعلى خراسان وسجستان سلم بن زياد أخو عبيد الله بن زياد، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن علي رضي الله عنهما**: ومعه بضعة عشر من أهل بيته قتلوا جميعاً بكربلاء، وقيل بضعة وعشرون كما تقدم. وقتل معهم جماعة من الأبطال والفرسان.

■ **جابر بن عتيك بن قيس**: أبو عبد الله الأنصاري، شهد بدراً وما بعدها، وكان حامل راية بني معاوية يوم الفتح، كذا قال ابن الجوزي، قال: وتوفي في هذه السنة عن إحدى وسبعين سنة.

■ **حمزة بن عمرو الأسلمي** صحابي جليل ثبت في الصحيحين

[خ(١٩٤٢، ١٩٤٣)، م(١١٢١)(١٠٣-١٠٦)] عن عائشة أنها قالت: سأل حمزة بن عمرو رسول الله ﷺ فقال: إني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال له: «إن شئت فصم، وإن شئت فافطر». وقد شهد فتح الشام، وكان هو البشير للصديق يوم أجنادين.

قال الواقدي: وهو الذي بشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه فأعطاه ثوبيه.

وروى البخاري في التاريخ [الكبير:٣/٤٦] بإسناد جيد عنه أنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاءت لي أصابعي حتى جمعت عليها كل متاع كان للقوم».

اتفقوا على أنه توفي في هذه السنة أعني إحدى وستين.

■ **شيبة بن عثمان بن أبي طلحة العبدري الحجبي**: صاحب مفتاح الكعبة كان أبوه ممن قتله علي بن أبي طالب يوم أحد كافراً، وأظهر شيبة الإسلام يوم الفتح، وشهد حنيناً وفي قلبه شيء من الشك، وقد هم بالفتك برسول الله ﷺ، فأطلع الله على ذلك رسوله فأخبره بما همَّ به فأسلم باطناً وجاد إسلامه، وقاتل يومئذ وصبر فيمن صبر.

قال الواقدي عن أشياخه: إن شيبة قال: كنت أقول: والله لو آمن بمحمد جميع الناس ما آمنت به، فلما فتح مكة وخرج إلى هوازن خرجت معه رجاء أن أجد فرصة آخذ بثار قريش كلها منه، قال: فاختلط الناس ذات يوم ونزل رسول الله ﷺ عن بغلته فدنوت منه وانتضيت سيفي لأضربه به، فرفع لي شواظ من نار كاد يمحشني، فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبة ادن مني» ، فدنوت منه فوضع يده على صدري وقال: «اللهم أعذه من الشيطان». قال: فوالله ما رفع يده حتى لهو يومئذ أحب إلي من سمعي وبصري، ثم قال: «اذهب فقاتل»، قال: فتقدمت إلى العدو والله لو لقيت أبي لقتلته لو كان حياً، فلما تراجع الناس قال لي: «يا شيبة الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك»، ثم حدثني بكل ما كان في نفسي مما لم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، فتشهدت وقلت: أستغفر الله، فقال: «غفر الله لك».

ولي الحجابة بعد عثمان بن طلحة واستقرت الحجابة في بنيه وبيته إلى اليوم، وإليه ينسب بنو شيبة، وهم حجبة الكعبة.

قال خليفة بن خياط [تاريخه:١/٢٧٢] وغير واحد: توفي سنة تسع وخمسين.

وقال محمد بن سعد [الطبقات:٥/٤٤٨]: بقي إلى أيام يزيد بن معاوية.

وقال ابن الجوزي في المنتظم [٦/٣]: مات في هذه السنة.

■ **عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم** صحابي جليل، ممن انتقل إلى دمشق وله بها دار، ولما مات أوصى إلى يزيد بن معاوية وهو أمير المؤمنين.

■ **الوليد بن عقبة بن أبي معيط ابن أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية** بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أبو وهب القرشي العبشمي، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وللوليد من الإخوة خالد وعمارة وأم كلثوم، وقد قتل رسول الله ﷺ أباه بعد وقعة بدر من بين الأسرى صبراً بين يديه، فقال: يا محمد من للصبية؟ فقال: «لهم النار» [سيرة ابن هشام: ١/٦٤٤] وكذلك فعل بالنضر بن الحارث.

وأسلم الوليد هذا يوم الفتح، وقد بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق فخرجوا يتلقونه فظن أنه إنما خرجوا لقتاله فرجع، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يجهز إليهم جيشاً، فبلغهم ذلك فجاء من جاء منهم ليعتذروا إليه ويخبروه بصورة ما وقع، فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة﴾ [الحجرات: ٦] الآية. ذكر ذلك غير واحد من المفسرين [تاريخ الطبري:٢٦/١٢٣-١٢٥] والله أعلم بصحة ذلك. وقد حكى أبو عمرو بن عبد البر [الاستيعاب:٤/١٥٥٣] على ذلك الأجماع.

وقد ولاه عمر صدقات بني تغلب، وولاه عثمان نيابة الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، سنة خمس وعشرين، ثم شرب الخمر وصلى بأصحابه ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ ووقع منه تخبيط، ثم إن عثمان جلده وعزله عن الكوفة بعد أربع سنين فأقام بها، فلما جاء علي إلى العراق سار إلى الرقة واشترى له عندها ضيعة وأقام بها معتزلا جميع الحروب التي كانت أيام علي ومعاوية وما بعدها إلى أن توفي بضيعته هذه، ودفن بها في هذه السنة وهي على خمسة عشر ميلا من الرقة، ويقال: إنه توفي في أيام معاوية فالله أعلم.

روى له الإمام أحمد [٤/٣٢] وأبو داود [٤١٨١] حديثاً في فتح مكة، وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٦/٤] وفاته في هذه السنة، وذكر أيضاً وفاة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية، وقد تقدم ذكر وفاتها في سنة إحدى وخمسين، وقيل إنها توفيت سنة ثلاث وستين، وقيل سنة ست وستين، والصواب ما ذكرناه.

■ **أم سلمة أم المؤمنين: هند بنت أبي أمية حذيفة وقيل سهل بن المغيرة** بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشية المخزومية كانت أولا تحت ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد فمات عنها، فتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها في شوال سنة ثنتين بعد وقعة بدر، وقد كانت سمعت من زوجها أبي سلمة حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مسلم يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أبدله الله خيراً منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلت ذلك ثم قلت: ومن هو خير من أبي سلمة أول رجل هاجر؟ ثم عزم الله لي فقتلها فأبدلني الله خيراً منه، رسول الله ﷺ [أحمد: ٤/٢٧، ٢٨، والترمذي(٣٥١١)]

وكانت من حسان النساء وعابداتهن.

قال الواقدي: توفيت سنة تسع وخمسين وصلى عليها أبو هريرة.

وقال ابن أبي خيثمة: توفيت في أيام يزيد بن معاوية.

قلت: والأحاديث المتقدمة في مقتل الحسين تدل على أنها عاشت إلى ما بعد مقتله والله أعلم. ورضي الله عنها وأرضاها.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين

يقال: فيها قدم وفد المدينة النبوية على يزيد بن معاوية فأكرمهم وأجازهم بجوائز سنية، ثم عادوا من عنده بالجوائز فخلعوه وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، فبعث إليهم يزيد جنداً في السنة الآتية إلى المدينة فكانت وقعة الحرة على ما سنبينه في التي بعدها إنشاء الله تعالى.

وقد كان يزيد عزل عن الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص، وولى عليهم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فلما دخل المدينة احتاط على الأموال والحواصل والأملاك، وأخذ العبيد الذين لعمرو بن سعيد فحبسهم وكانوا نحواً من ثلاثمائة عبد فتجهز عمرو بن سعيد إلى يزيد فركب وبعث عبيده

أن يخرجوا من السجن ويلحقوا به، وأعد لهم إبلا يركبونها، ففعلوا ذلك، فما لحقوه حتى وصل إلى يزيد فلما دخل عليه أكرمه واحترمه ورحب به يزيد، وأدنى مجلسه، ثم إنه عاتبه في تقصيره في شأن ابن الزبير، فقال له: يا أمير المؤمنين الشاهد يرى مالا يرى الغائب، وإن جل أهل مكة والحجاز مالأوه علينا وأحبوه ولم يكن لي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته وقد كان يحذرني ويحترس مني، وكنت أرفق به كثيراً وأداريه لأستمكن منه فأثب عليه، مع أني قد ضيقت عليه ومنعته من أشياء كثيرة، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إليَّ اسمه واسم أبيه، ومن أي بلاد اللهِ هو وما جاء له، وماذا يريد، فإن كان من أصحابه أو ممن عرف أنه يريده رددته صاغراً، وإلا خليت سبيله. وقد وليت الوليد وسيأتيك من عمله وأمره ما لعلك تعرف به به فضل مبالغتي في أمرك ومناصحتي لك إن شاء الله، والله يصنع لك ويكبت عدوك. فقال له يزيد: أنت أصدق ممن رماك وحملني عليك، وأنت ممن أثق به وأرجو معونته وادخره لرأب الصدع. وكفاية المهم وكشف نوازل الأمور العظام. في كلام طويل.

وأما الوليد بن عتبة فإنه أقام بالحجاز وقد هم مراراً أن يبطش بعبد الله بن الزبير فلا يجده إلا متحذراً ممتنعاً قد أعد للأمور أقرانها. وثار باليمامة رجل آخر يقال له نجدة بن عامر الحنفي حين قتل الحسين، وخالف يزيد بن معاوية، ولم يخالف ابن الزبير بل بقي على حدة، له أصحاب يتبعونه، فإذا كان ليلة عرفة دفع الوليد بن عتبة بالجمهور وتخلف عنه أصحاب ابن الزبير وأصحاب نجدة، ثم يدفع كل فريق وحدهم. ثم كتب نجدة إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلا أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، فلو بعثت إلينا رجلا سهل الخلق لين الكنف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله تعالى.

قالوا: فعزل يزيد الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فسار إلى الحجاز وإذا هو فتى غر حدث غمر لم يمارس الأمور، فطمعوا فيه، ولما دخل المدينة بعث إلى يزيد منها وفداً فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة الحضرمي، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، إلا المنذر بن الزبير فإنه سار إلى صاحبه عبيد الله بن زياد بالبصرة، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف نظير أصحابه من أولئك الوفد، ولما رجع وفد المدينة إليها أظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر وتعزف عنده القينات بالمعازف، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فتابعهم الناس على خلعه، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على الموت، وأنكر عليهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، ورجع المنذر بن الزبير من البصرة إلى المدينة فوافق أولئك على خلع يزيد، وأخبرهم عنه أنه يشرب الخمر ويسكر حتى يترك الصلاة، وعابه أكثر مما عابه أولئك.

فلما بلغ ذلك يزيد قال: اللّهم إني آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت، فادركه وانتقم منه.

ثم إن يزيد بعث إلى أهل المدينة النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا ويحذرهم غِبَّ ذلك ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة، فسار إليهم ففعل ما أمره يزيد وخوفهم الفتنة وقال لهم: إن الفتنة وخيمة، وقال: لا طاقة لكم بأهل الشام، فقال له عبد الله بن مطيع العَدَوي: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال له النعمان: أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب التي تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين، وكأني بك قد ضربت جنب بغلتك إلى مكة وخلَّفت هؤلاء المساكين يعني الأنصار يقتلون في سككهم ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم. فعصاه الناس فلم يسمعوا منه فانصرف وكان الأمر والله كما قال سواء.

قال ابن جرير [التاريخ:٥/٤٨١] : وحج بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة. كذا قال وفيه نظر، فإنه إن كان في وفد أهل المدينة وقد رجعوا من عند يزيد فإنما وفد عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وإن كان قد حج بالناس فيها الوليد فما قدم وفد المدينة إلى يزيد إلا في أول سنة ثلاث وستين وهو أشبه والله أعلم.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **بُرَيدة بن الحصيب الأسلمي**: كان إسلامه حين اجتاز به رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة عند كراع الغميم، فلما كان هناك تلقاه بريدة في ثمانين نفساً من أهله فأسلموا، وصلى بهم صلاة العشاء وعلمه ليلتئذ صدراً من سورة مريم ثم قدم على رسول الله ﷺ المدينة بعد أحد فشهد معه المشاهد كلها وأقام بالمدينة، فلما فتحت البصرة نزلها واختط بها داراً، ثم خرج إلى غزو خراسان فمات بمرو في خلافة يزيد بن معاوية. ذكر موته غير واحد في هذه السنة.

■ **الربيع خثيم أبو يزيد الثوري الكوفي** أحد أصحاب ابن مسعود قال له عبد الله بن مسعود: ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. ولو رآك رسول الله ﷺ لأحبك. وكان ابن مسعود يجله كثيراً.

وقال الشعبي: وكان الربيع من معادن الصدق، وكان أورع أصحاب ابن مسعود.

وقال ابن معين: لا يسأل عن مثله.

وله مناقب كثيرة جداً، أرخ ابن الجوزي [المنتظم:٦/٨] وفاته في هذه السنة.

■ **علقمة بن قيس أبو شبل النخعي الكوفي**: كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم وكان يشبه بابن مسعود. وقد روى علقمة عن جماعة من الصحابة وعنه خلق من التابعين.

■ **عقبة بن نافع الفهري**: بعثه معاوية إلى إفريقية في عشرة آلاف فافتتحها، واختط القيروان، وكان موضعها غيضة لا ترام من السباع والحيات والحشرات، فدعا الله تعالى فجعلن يخرجن بأولادهن من الأوكار والجحار، فبناها ولم يزل بها حتى هذه السنة،

غزا أقواماً من البربر والروم فقتل شهيداً ﷺ.

■ **عمرو بن حزم**: صحابي جليل استعمله رسول الله ﷺ على نجران وعمره سبع عشرة سنة وأقام بها مدة، وأدرك أيام يزيد بن معاوية.

■ **مسلم بن مخلَّد الأنصاري الزرقي**: ولد عام الهجرة، وسمع من رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، وولي الجند بها لمعاوية ويزيد، ومات في ذي القعدة من هذه السنة.

■ **نوفل بن معاوية الديلي**: صحابي جليل شهد بدراً وأحداً والخندق مع المشركين، وكانت له في المسلمين نكاية، ثم أسلم وحسن إسلامه، وشهد فتح مكة وحنيناً، وحج مع أبي بكر سنة تسع، وشهد حجة الوداع، وعمرستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. قاله الواقدي: قال: وأدرك

أيام يزيد من معاوية، وقال ابن الجوزي [المنتظم:٦/١٠]: مات في هذه السنة.

وفيها توفيت

■ **الرباب بنت امرئ القيس** امرأة الحسين بن علي التي كانت حاضرة أهل العراق إذ هم يعدون في السبت أو في الجمعة على زوجها الحسين بن علي ابن بنت رسول الله ﷺ.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين

ففيها كانت وقعة الحرة وكان سببها أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد وولوا على قريش عبد الله بن مطيع وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، وعلى قبائل المهاجرين معقل بن سنان الأشجعي؛ فلما كان في أول هذه السنة أظهروا ذلك واجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه ويُلقيها عن رأسه، ويقول الآخر: قد خلعته كما خلعت نعلي هذه. حتى اجتمع شيء كثير من العمائم والنعال هنالك، ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ابن عم يزيد، وعلى إجلاء بني أمية من المدينة، فاجتمعت بنو أمية وهم قريب من ألف رجل في دار مروان بن الحكم، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم، واعتزل الناسَ عليُّ بن الحسين «زين العابدين» وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب لم يخلع يزيد، ولا أحد من أهل بيته ، وقد قال ابن عمر لأهله: لا يخلعن أحد منكم يزيد فتكون الفيصل ويروى الصيلم بيني وبينه. وسيأتي هذا الحديث بلفظه وإسناده في ترجمة يزيد. وأنكر على أهل المدينة في مبايعتهم لابن مطيع وابن حنظلة على الموت، وقال: إنما كنا نبايع رسول الله ﷺ على أن لا نفر، وكذلك لم يخلع يزيد أحد من بني عبد المطلب، وقد سئل محمد بن الحنفية في ذلك فامتنع من ذلك وأبى أشد الإباء وناظرهم وجادلهم في يزيد ورد عليهم ما اتهموه به من شربه الخمر وتركه بعض الصلوات كما سيأتي مبسوطاً في ترجمة يزيد قريباً إن شاء الله تعالى.

وكتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر والإهانة، والجوع والعطش، وأنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم وبعثوا ذلك مع البريد، فلما قدم بذلك على يزيد وجده جالساً على سريره ورجلاه في ماء يتبرد به مما به من النقرس في رجليه، فلما قرأ الكتاب انزعج لذلك وقال: ويلك! أما فيهم ألف رجل؟ قال: بلى، قال: أفلا قاتلوا ولو ساعة من نهار؟ ثم بعث إلى عمرو بن سعيد بن العاص فقرأ عليه الكتاب واستشاره فيمن يبعثه إليهم، وعرض عليه ذلك فأبى، وقال: إن أمير المؤمنين عزلني عنها وهي مضبوطة وأمورها محكمة، فأما الآن فإنما دماء قريش تراق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك منهم، ليتول ذلك من هو أبعد منهم مني، قال: فبعث البريد إلى مسلم بن عقبة المُرّي وهو شيخ كبير ضعيف فانتدب لذلك وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارس، وقيل اثني عشر ألفاً ونادى منادي يزيد بدمشق أن سيروا على أخذ أعطياتكم كاملاً ومعونة أربعين ديناراً. قال المدائني: ويقال: في سبعةٍ وعشرين ألفاً، اثنا عشر ألف فارس وخمسة عشر ألف راجل، وأعطى كل واحد منهم مائة دينار وقيل أربعين ديناراً، ثم استعرضهم وهو على فرس له.

قال المدائني: وجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكوني، وعلى أهل الأردن حبيش بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامي وشريك الكناني، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم جميعاً مسلم بن عقبة المُرِّي، مُرَّة غطفان، وإنما يسميه السلف مسرف بن عقبة. فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين ولني عليهم أكفك وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة فقال يزيد: لا! ليس إلا هذا العشمة، والله لا أقبلهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة. فقال النعمان انشدك الله يا أمير المؤمنين في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ.

وقال له عبد الله بن جعفر: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أتقبل منهم؟ قال: إن فعلوا فلا سبيل عليهم، وقال يزيد لمسلم بن عقبة: إذا قدمتَ المدينة ولم تصدَّ عنها، وسمعوا وأطاعوا، فلا تتعرض لأحد منهم، وامض إلى الملحد ابن الزبير، وإن صدُّوك عن المدينة فادعهم ثلاثاً فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم، فأبحها ثلاثاً ثم اكفف عن الناس وقيل: إنه قال لمسلم بن عقبة: إذا ظهرتَ عليهم فإن كان قُتلَ من بني أميَّة أحجٌ فجرِّد السيفَ، واقتل المقبلَ والمدبرَ، وأجهزْ على الجريح وانهبْها ثلاثاً، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وأدن مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه، وأمره إذا فرغ من المدينة أن يذهب إلى مكة لحصار ابن نمير، وقال له: إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن الزبير السكوني.

وقد كان يزيد كتب إلى عبد الله بن زياد أن يسير إلى ابن الزبير فيحاصره بمكة، فأبى عليه وقال: والله لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغزو البيت الحرام؟ وقد كانت أمه مرجانة قالت له حين قتل الحسين: ويحك ماذا صنعت وماذا ركبت؟ وعنفته تعنيفاً شديداً.

قالوا: وقد بلغ يزيد أن ابن الزبير يقول في خطبته: يزيد القرود، شارب الخمر، تارك الصلوات، منعكف على القينات.

فلما جهز مسلم بن عقبة واستعرض الجيش بدمشق جعل يقول:

أبلغ أبا بكر إذا الجيش سرى ... وأشرف الجيش على وادي القرى

أجمع سكران من القوم ترى ... يا عجبا من ملحد يا عجبا

مخادع للدين يقفو يقضي بالفرى

وفي رواية:

أبلغ أبا بكر إذا الأمر انبرى ... ونزل الجيش على وادي القرى

عشرون ألفاً بين كهل وفتى ... أجمع سكران من القوم ترى

قالوا: وسار مسلم بمن معه من الجيوش إلى المدينة، فلما اقترب منها اجتهد أهل المدينة في حصار بني أمية وقالوا لهم: والله لنقتلنكم عن آخركم او تعطونا موثقاً أن لا تدلوا علينا أحداً من هؤلاء الشاميين، ولا تمالئوهم علينا، فأعطوهم العهود بذلك، فلما وصل الجيش تلقاهم بنو أمية فجعل مسلم يسألهم عن الأخبار فلا يخبره أحد، فانحصر لذلك، وجاءه عبد الملك بن مروان فقال له: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أقفيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن بالله وقاتلهم فإن الله ناصرك عليهم إذ خالفوا الإمام وخرجوا عن الطاعة. فشكره مسلم بن عقبة على ذلك، وامتثل ما أشار عليه به، فنزل شرقي المدينة في الحرة، ودعا أهلها ثلاثة أيام، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاث قال لهم في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين قال لهم: يا أهل

المدينة: مضت الثلاث وإن أمير المؤمنين قال لي: إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرني أن أؤجلكم ثلاثاً فقد مضت، فما أنتم صانعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب. فقال: لا تفعلوا بل سالموا ونجعل جدنا وقوتنا على هذا الملحد يعني ابن الزبير فقالوا: يا عدو الله! لو أردت ذلك لما مكناك منه، أنحن نذركم تذهبون فتلحدون في بيت الله الحرام؟ ثم تهيؤوا للقتال، وقد كانوا اتخذوا خندقاً بينهم وبين مسلم بن عقبة، وجعلوا جيشهم أربعة أرباع، على كل ربع أمير، وجعلوا أجلَّ الأرباع الربع الذي فيه عبد الله بن حنظلة الغسيل، ثم اقتتلوا قتالا شديداً، ثم انهزم أهل المدينة إليها. وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه، وعبد الله بن حنظلة الغسيل، وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس، ومحمد بن عمرو بن حزم، وقد مر به مروان وهو مُجَدَّلٌ فقال: رحمك الله فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود.

ثم أباح مسلم بن عقبة، الذي يقول فيه السلف: مسرف بن عقبة قبحه الله المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، لا جزاه الله خيراً، وقتل خلقاً من أشرافها وقرائها وانتهب أموالا كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكره غير واحد، فكان ممن قتل بين يديه صبراً معقل بن سنان الأشجعي، وقد كان صديقه قبل ذلك، ولكن أسمعه في يزيد كلاماً غليظاً فنقم عليه بسببه.

واستدعى بعلي بن الحسين فجاء يمشي بين مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، ليأخذ له بهما عنده أماناً، ولم يشعر أن يزيد أوصاه به، فلما جلس بين يديه استدعى مروان بشراب وقد كان مسلم بن عقبة حمل معه من الشام ثلجاً إلى المدينة فكان يشاب له بشرابه فلما جيء بالشراب شرب مروان قليلا ثم أعطى الباقي لعلي بن الحسين ليأخذ له بذلك أماناً، وكان مروان مواداً لعلي بن الحسين، فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قد أخذ الإناء في يده قال له: لا تشرب من شرابنا، ثم قال له: إنما جئت مع هذين لتأمن بهما؟ فأرعدت يد علي بن الحسين وجعل لا يضع الإناء من يده ولا يشربه، ثم قال له: لولا أن أمير المؤمنين أوصاني بك لضربة عنقك. ثم قال له: إن شئت ان تشرب فاشرب، وإن شئت دعونا لك بغيرها، فقال: هذه التي في كفي أريد، فشرب ثم قال له مسلم بن عقبة: إليَّ ههنا، فأجلسه معه على السرير وقال له: إن أمير المؤمنين أوصاني بك، وإن هؤلاء شغلوني عنك. ثم قال: لعل أهلك فزعوا، فقال: إي والله. فأمر بدابته فأسرجت ثم حمله عليها حتى رده إلى منزله مكرماً. ثم استدعى بعمزو بن عثمان بن عفان ولم يكن خرج مع بني أمية فقال له: إنك إن ظهر أهل المدينة قلت: أنا معكم، وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين، ثم أمربه فنتفت لحيته بين يديه.

قال المدائني: وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثاً، يقتلون الناس، ويأخذون الأموال. فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك فمر أصحابك أن لا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا، فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلا بإبلها وجاءت امرأة فقالت: أنا مولاتك وابني في الأسارى، فقال: عجلوه لها، فضربت عنقه وقال: أعطوها رأسه، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك؟ ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج.

قال المدائني عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد الحرة من غير زوج.

وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله، وخرج أبو سعيد الخدري فلجأ إلى غار في جبل فلحقه رجل من أهل الشام، قال: فلما رأيته انتضيت سيفي فقصدني، فلما رآني صمم على قتلي فشِمْتُ سيفي ثم قلت: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ [المائدة: ٢٩] فلما رأى ذلك قال: من أنت؟ قلت: أنا أبو سعيد الخدري قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم! فمضى وتركني.

قال المدائني: وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب فقال له: بايع! فقال: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر. فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله.

وقال المدائني عن علي بن عبد الله القرشي وأبي إسحاق التميمي قالا: لما انهزم أهل المدينة يوم الحرة صاح النساء والصبيان، فقال ابن عمر: بعثمان ورب الكعبة ورب الكعبة.

قال المدائني عن شيخ من أهل المدينة. قال: سألت الزهري كم كان القتلى يوم الحرة قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي وممن لا يعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف. قال: وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام.

قال الواقدي وأبو معشر: كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.

قال الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن ابن عوف قال: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكانوا يسمونه العائذ ويرون الأمر شورى، وجاء الخبر إلى أهل مكة ليلة بما حصل لأهل المدينة مستهل المحرم مع سعيد مولى المسور بن مخرمة، فحزنوا حزناً شديداً وتأهبوا لقتال أهل الشام.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥/٤٩٥] : وقد رويت قصة الحرة على غير ما رواه أبو مخنف، فحدثني أحمد بن زهير حدثنا أبي سمعت وهب بن جرير حدثنا جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يحدثون أن معاوية لما حضرته الوفاة دعا ابنه يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفت نصيحته، فلما هلك معاوية وفد إليه وفد من أهل المدينة، وكان ممن وفد إليه عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر وكان شريفاً فاضلا سيداً عابداً ومعه ثمانية بنين له فأعطاه يزيد مائة ألف درهم، وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم فلما قدم المدينة عبد الله بن حنظلة أتاه الناس فقالوا له: ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: قد بلغنا أنه أعطاك وأخذاك وأكرمك. قال: قد فعل وما قبلت منه إلا لأتقوى به فحض الناس فبايعوه، فبلغ ذلك يزيد فبعث إليهم مسلم بن عقبة وقد بعث أهل المدينة إلى كل ماء بينهم وبين الشام فصبوا فيه زقاً من قطران وعوروه، فأرسل الله على جيش الشام السماء مدراراً، فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة فخرج إليهم أهل المدينة بجموع كثيرة وهيئة لم ير مثلها، فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم، ومسلم شديد الوجع، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة، وأقحم عليهم بنو حارثة من أهل الشام وهم على الجدد، فانهزم الناس فكان من أصيب في الخندق أكثر ممن قتل من الناس، فدخلوا المدينة وهزم الناس وعبد الله بن حنظلة مستند إلى الجدار يغط نوماً، فنبهه

ابنه، فلما فتح عينيه ورأى ما صنع الناس، أمر أكبر بنيه فتقدم حتى قتل، فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء.

وقد روى ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد الصمد من تاريخه من كتاب المجالسة لأحمد بن مروان المالكي: حدثنا الحسين بن الحسن اليشكري حدثنا الزيادي عن الأصمعي. (ح) وحدثني محمد بن الحارث عن المدائني قال: لما قتل أهل الحرة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة، وابن الزبير جالس يسمع:

قتل الخيار بنو الخيار ذوو المهابة والسماح
والصائمون القانتون أولو الصلاح
المهتدون المحسنون السابقون إلى الفلاح
ماذا بواقم والبقيع من الجحاجحة الصُّباح
وبقاع يثرب ويحهن من النوادب والصياح

فقال ابن الزبير لأصحابه: يا هؤلاء قتل أصحابكم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فإنه وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال البخاري في صحيحه [١٨٧٧]: حدثنا الحسين بن حريث حدثنا الفضل بن موسى حدثنا الجعيد عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء». وقد رواه مسلم [١٣٦٣] من حديث أبي عبد الله القراظ المدني واسمه دينار عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال «لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء».

وفي رواية لمسلم [١٣٨٧] من طريق أبي عبد الله القراظ عن سعد وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء».

وقال الإمام أحمد [٥٥/٤]: حدثنا أنس بن عياض حدثنا يزيد بن خصيفة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد أن رسول الله ﷺ قال: «من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً».

ورواه النسائي [كبرى(٤٢٦٦)] من غير وجه عن علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر عن يزيد بن خصيفة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن عطاء بن يسار عن ابن خلاد من بلحارث بن الخزرج أخبره فذكره.

وكذلك رواه الحميدي عن عبد العزيز بن أبي حازم عن يزيد بن خصيفة.

ورواه النسائي [كبرى (٤٢٦٥)] أيضاً عن يحيى بن حبيب بن عربي عن حماد عن يحيى بن سعيد عن مسلم بن أبي مريم عن عطاء بن يسار عن ابن خلاد وكان من أصحاب النبي ﷺ فذكره.

وقال ابن وهب: أخبرني حيوة بن شريح عن ابن الهاد عن أبي بكر عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وقال الدار قطني: حدثنا علي بن أحمد بن الهيثم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر حدثنا أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن يزيد بن عبد الله بن أنيس الأنصاري عن محمد وعبد الرحمن ابني جابر بن عبد الله قالا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة وقد كف بصره فقال: تعس من أخاف رسول الله ﷺ فقلنا: يا أبة وهل أحد يخيف رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخاف هذا الحي من الأنصار فقد أخاف ما بين هذين ووضع كفَّيه على جَنبيه» قال الدارقطني: تفرد به سعيد بن عبد الحميد لفظاً وإسناداً.

وقد استدل بهذا الحديث وأمثاله من ذهب إلى الترخيص في لعنة يزيد بن معاوية وهو رواية عن أحمد بن حنبل اختارها الخلال وأبو بكر عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وابنه القاضي أبو الحسين وانتصر لذلك الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في مصنف مفرد، وجوز لعنه. ومنع من ذلك آخرون وصنفوا فيه أيضاً لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول وأخطأ، وقالوا: إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد ذلك على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج كما جرى.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد بن معاوية لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه، فرح بذلك فرحاً شديداً، فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته، وأمروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة ثلاثة أيام كما تقدم، وقد جاء في الصحيح [م(١٨٥٢)]: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان».

وأما ما يوردونه عنه من الشعر في ذلك واستشهاده بشعر ابن الزبعرى في وقعة أحد التي يقول فيها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكَّت بقُباء بركها واستحر القتل في عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض الروافض فيها فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء ولا وحي نزل

فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه ليشنع عليه به، وعلى سلوك المسلمين، وسنذكر في ترجمة يزيد بن معاوية قريباً، وما ذكر عنه وما قيل فيه وما كان يعانيه من الأفعال والقبائح والأقوال في السنة الآتية، فإنه لم يمهل بعد وقعة الحرة وقتل الحسين إلا يسيراً حتى قصمه الله الذي قصم الجبابرة قبله وبعده، إنه كان عليماً قديراً.

وقد توفي في هذه السنة خلق من المشاهير والأعيان من الصحابة وغيرهم في وقعة الحرة مما يطول ذكرهم. فمن مشاهيرهم من الصحابة عبد

اللّٰه بن حنظلة أمير المدينة الذي بايعه أهل الحرة ومعقل بن سنان وعبد اللّٰه بن زيد بن عاصم رضي اللّٰه عنهم، ومسروق بن الأجدع.

ثم دخلت سنة أربع وستين

ففيها في أول المحرم منها سار مسلم بن عقبة بعد فراغه من حرب أهل المدينة إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير ومن التف عليه من الأعراب، على مخالفة يزيد بن معاوية، واستخلف عليها المدينة روح بن زنباع، فلما بلغ ثنية هرشاً بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم فقال: إن أمير المؤمنين عهد إلي إنْ حدث بين حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكوني، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت، ثم دعا به فقال: انظر يا ابن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به، ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث ثم قال: اللّهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمداً رسول اللّٰه، أحب إلي من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة. وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي. ثم مات قبحه اللّٰه ودفن بالمشلّل فيما قاله الواقدي.

ثم أتبعه اللّٰه بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه، فما متعهما اللّٰه بشيء مما رجوه وأملوه، بل قهرهم القاهر فوق عباده وسلبهم الملك، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء.

وسار حصين بن نمير بالجيش نحو مكة فانتهى إليها لأربع بقين من المحرم فيما قاله الواقدي، وقيل لسبع مضين منه، وقد تلاحق بابن الزبير جماعات ممن بقي من أشراف أهل المدينة، وانضاف إليه أيضاً نجدة بن عامر الحنفي من أهل اليمامة في طائفة من أهلها ليمنعوا البيت من أهل الشام، فنزل حصين بن نمير ظاهر مكة، وخرج إليه ابن الزبير في أهل مكة ومن التف معه فاقتتلوا ذلك اليوم قتالا شديداً، وتبارز المنذر بن الزبير ورجل من أهل الشام فقتل كل واحد منهما صاحبه، وحمل أهل الشام على أهل مكة حملة صادقة، فانكشف أهل مكة، وعثرت بغلة عبد اللّٰه بن الزبير به، فكر عليه المسور بن مخرمة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف وطائفة فقاتلوا دونه حتى قتلوا جميعاً، وصابرهم ابن الزبير حتى الليل فانصرفوا ثم اقتتلوا في بقية شهر المحرم وصفراً بكماله، فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة أربع وستين نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها حتى بالنار، فاحترق جدار البيت في يوم السبت، هكذا قول الواقدي، وهم يقولون:

خطّارةٌ مثل الفنيق المزبد ... نرمي بها أعواد هذا المسجد

وجعل عمر بن حوطة السدوسي يقول:

كيف ترى صنيع أم فروه ... تأخذهم بين الصفا والمروه

وأم فروة اسم المنجنيق، وقيل: إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة، فعلقت النار في بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت، وقيل إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام، فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل، فأطارت الريح شررة من رأس الرمح إلى ما بين الركن اليماني والأسود من الكعبة فعلقت في أستارها وأخشابها فاحترقت، واسود الركن وانصدع في ثلاثة أمكنة منه واستمر الحصار إلى مستهل ربيع الآخر، وجاء الناس نعي يزيد بن معاوية، وأنه قد مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين، وهو ابن خمس أو ثمان أو تسع وثلاثين سنة، فكانت ولايته ثلاث سنين وستة أو ثمانية أشهر، فحينئذ خمدت الحرب وطفئت نار الفتنة، ويقال: إنهم مكثوا يحاصرون ابن الزبير بعد موت يزيد أربعين ليلة، ويذكر أن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أهل الشام فنادى فيهم: يا أهل الشام قد أهلك اللّٰه طاغيتكم، فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل، ومن احب أن يرجع إلى شامه فليرجع، فلم يصدق الشاميون أهل مكة فيما أخبروهم به، حتى جاء ثابت بن قيس بن المنقّع بالخبر اليقين.

ويذكر أن حصين بن نمير دعاه ابن الزبير ليحدثه بين الصفين فاجتمعا حتى اختلفت رؤوس فرسيهما، وجعلت فرس حصين تنفر ويكفها، فقال له ابن الزبير: ما لك؟ فقال إن الحمام تحت رجلي فرسي تأكل من الروث فاكره أن أطأ حمام الحرم، فقال له: تفعل هذا وأنت تقتل المسلمين؟ فقال له حصين: فأذن لنا فلنطف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا، فأذن لهم فطافوا.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٥/٥٠١-٥٠٣] أن حصيناً وابن الزبير اتعدا ليلة أن يجتمعا فاجتمعا بظاهر مكة، فقال له حصين: إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر بعده، فهلمَّ فارحل معي إلى الشام، فوالله لا يختلف عليك اثنان. فيقال: إن ابن الزبير لم يثق منه بذلك وأغلظ له في المقال فنفر منه ابن نمير وقال: أنا أدعوه إلى الخلافة وهو يغلظ لي في المقال؟ ثم كر بالجيش راجعاً إلى الشام، وقال: أعده بالملك ويتواعدني بالقتل؟ ثم ندم ابن الزبير على ما كان منه إليه من الغلظة، فبعث إليه يقول له: أما الشام فلست آتيه ولكن خذ لي البيعة على من هناك، فإني أؤمنكم واعدل فيكم. فبعث إليه يقول له: إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثير. فرجع فاجتاز بالمدينة فطمع فيه أهلها وأهانوهم إهانة بالغة، وأكرمهم علي بن الحسين وأهدى لحصين بن نمير قتاً وعلفاً، وارتحلت بنو أمية مع الجيش إلى الشام فرجعوا إليه وقد استخلف بدمشق معاوية بن يزيد بن معاوية عن وصية من أبيه له بذلك، والله سبحانه أعلم بالصواب.

وهذه ترجمة يزيد بن معاوية

هو

■ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمير المؤمنين أبو خالد الأموي، ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين، بالماطرون، وقيل: ببيت رأس وبويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون ولي العهد من بعده، ثم أكد ذلك بعد موت أبيه في النصف من رجب سنة ستين، فاستمر متولياً إلى أن توفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين. وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة بن عدي بن زهير حارثة الكلبي روى عن أبيه معاوية أن رسول اللّٰه ﷺ قال «من يرد اللّٰه به خيراً يفقهه في الدين». وحديثاً آخر في الوضوء. وعنه ابنه خالد وعبد الملك بن مروان، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي العليا، وقال: له أحاديث.

وكان كثير اللحم عظيم الجسم كثير الشعر جميلا طويلا ضخم الهامة محدّد الأصابع غليظها مجدراً.

وكان أبوه قد طلق أمه وهي حامل به، فرأت في المنام أنه خرج من قُبلها قمر، فقصت رؤياها على أمها فقالت: إن صدقت رؤياك لتلدن من يبايع له بالخلافة. وجلست أمه ميسون يوماً تمشطه وهو صبي صغير، وأبوه معاوية مع زوجته الحظية عنده في المنظرة، وهي فاختة بنت قرظة، فلما

فرغت من مشطه نظرت إليه فأعجبها فقبّلت بين عينيه، فقال معاوية عند ذلك:

إذا مات لم تفلح مزينة بعده فنوطي عليه يا مزين التمائما

وانطلق يزيد يمشي وفاختة تتبعه بصرها ثم قالت: لعن اللّه سواد ساقي أمك، فقال معاوية: أما واللّه أنه لخير من ابنك عبد اللّه وهو ولده منها وكان أحمق فقالت فاختة: لا واللّه لكنك تؤثر هذا عليه، فقال: سوف أبين لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن تقومي من مجلسك هذا، ثم استدعى بابنها عبد اللّه فقال له: إنه قد بدا لي أن أعطيك كل ما تسألني في هذا المجلس، فقال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً، فقال: يا بني أنت حمار ويشتري لك حمار؟! قم فاخرج. ثم قال لأمه: كيف رأيت؟ ثم استدعى بيزيد فقال: إني قد بدا لي أن أعطيك كل ما تسألني في مجلسك هذا، فسلني ما بدا لك. فخر يزيد ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد للّه الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه في هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتوليني العام صائفة المسلمين، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتوليني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمح، وأيتام بني سهم، وأيتام بني عدي، فقال: ما لك ولأيتام بني عدي؟ فقال: لأنهم حالفوني وانتقلوا إلى داري. فقال معاوية: قد فعلت ذلك كله، وقبل وجهه، ثم قال لابنة قرظة: كيف رأيت؟ فقالت: يا أمير المؤمنين أوصه بي فأنت أعلم به مني، ففعل.

وفي رواية أن يزيد لما قال له أبوه: سلني حاجتك، قال له يزيد: اعتقني من النار أعتق اللّه رقبتك منها، قال: وكيف؟ قال: لأني وجدت في الأثر أنه من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه اللّه على النار، فاعهد إلي بالأمر من بعدك. ففعل.

وقال العتبي: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له فقال له: سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ واللّه لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن، وإن أحقَّ من عفا لمن قدر.

قلت: وقد ثبت في الصحيح [١٦٥٩] أن رسول اللّه ﷺ رأى أبا مسعود يضرب غلاماً له فقال: «اعلم أبا مسعود للّه أقدر عليك منك عليه».

قال العتبي: وقدم زياد بأموال كثيرة وبسفط مملوء جواهراً على معاوية فسر بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عبيد إلى حرب بني أمية. فقال له معاوية: اجلس فداك أبي وأمي.

وعن عطاء السائب وغيره قال: غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين إنما هم أولادنا، ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولا تكن عليهم ثقيلا فيملوا حياتك ويتمنوا موتك. فقال معاوية: للّه درك يا أبا بحر، يا غلام ائت يزيد فأقرئه مني السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم، ومائة ثوب، فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف، فقال يزيد: لا جرم لأقاسمنه. فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفاً وخمسين ثوباً.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي حدثنا ابن عائشة عن أبيه. قال: كان يزيد في حداثته صاحب شراب يأخذ مأخذ الأحداث، فأحسَّ معاوية بذلك فأحب أن يعظه في رفق، فقال: يا بني ما أقدرك على أن تصير إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك، ثم قال: يا بني إني منشدك أبياتاً فتأدب بها واحفظها، فأنشده:

انصب نهاراً في طلاب العلا واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناكساً قد باشر الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أستاره فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة يشفى بها كل عدو غريب

قلت: وهذا كما جاء في الحديث «من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر اللّه عز وجل». [الموطأ:٨٢٥/٢معلولاً]

وروى الواقدي والمدائني أن عبد اللّه بن عباس وفد إلى معاوية فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن علي، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه، وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المعزي لا المهني. ثم ذكر الحسن فقال: رحم اللّه أبا محمد اوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم اللّه أجرك وأحسن عزاءك وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثواباً وخير عقبى. فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حُلماء الناس: ثم أنشد متمثلا:

مغاض عن العوراء لا ينطقونها وأصل وراثات الحلوم الأوائل

وقد كان يزيد أول من غزا مدينة قسطنطينية في سنة تسع وأربعين في قول يعقوب بن سفيان

وقال خليفة بن خياط [تاريخه:٢٤٨/٢] : سنة خمسين.

ثم حج بالناس في تلك السنة بعد مرجعه من من أرض الروم.

وقد ثبت في الصحيح [خ(٢٩٢٤)] أن رسول اللّه ﷺ قال: «أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم». وهو الجيش الثاني الذي رآه رسول اللّه ﷺ في منامه عند أم حرام بنت ملحان، فقالت: ادع اللّه أن يجعلني منهم، فقال: «أنت من الأولين». يعني: من الجيش الأول الذين رآهم رسول اللّه ﷺ مثل الملوك على الأسرَّة، يركبون ثبجَ البحر، فكان أمير الأولى أبو معاوية حين غزا قبرص، ففتحها في سنة سبع وعشرين أيام عثمان بن عفان، وكانت معهم أم حرام، فماتت هنالك بقبرس، ثم كان أمير الجيش الثاني ابنه يزيد بن معاوية ولم تدرك أم حرام جيش يزيد هذا. وذلك من أكبر دلائل النبوة كما تقدم بيانه.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر ههنا الحديث الذي رواه محاضر عن الأعمش عن إبراهيم بن عبيدة عن عبد اللّه. أن رسول اللّه ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» الحديث.

وكذلك رواه عبد اللّه بن شقيق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله.

ثم أورد من طريق حماد بن سلمة عن أبي محمد عن زرارة بن أوفى قال: القرن عشرون ومائة سنة، فبعث رسول اللّه ﷺ في قرن وكان آخره موت يزيد بن معاوية.

قال أبو بكر بن عياش: حج بالناس يزيد بن معاوية في سنة إحدى وخمسين وثنتين وخمسين وثلاث خمسين.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو كريب حدثنا رشدين عن عمرو بن

الحارث عن أبي بكير بن الأشج أن معاوية قال ليزيد ابنه: كيف تراك فاعلا إن وليت؟ قال: يمتع الله بك، قال: لتخبرني: قال: كنت والله يا أبة عاملا فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله!! والله يا بني لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها.

وقال الواقدي: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن مروان بن أبي سعيد بن المعلى قال قال معاوية ليزيد وهو يوصيه عند الموت: يا يزيد!! اتق الله فقد وطأت لك هذا الأمر ووليت من ذلك ما وليت، فإن يك خيراً فأنا أسعد به، وإن كان غير ذلك شقيت به، فارفق بالناس واغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به، وطأ عليه يهنك عيشك، وتصلح لك رعيتك، وإياك والمناقشة وحمل الغضب، فإنك تهلك نفسك ورعيتك، وإياك وجفوة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم، لِنْ لهم ليناً بحيث لا يرون منك ضعفاً ولا خوراً وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وأدنهم منك، فإنهم يعلمون لك حقك، ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك، فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم، وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأي ليس في صدر واحد، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف، ثم اطعه فيما أشار به، واخزن ذلك عن نسائك وخدمك، وشمر إزارك، وتعاهد جندك، وأصلح نفسك يصلح لك الناس لا تدع لهم فيك مقالا فإن الناس نُزّاعٌ إلى الشر، واحضر الصلاة، فإنك إذا فعلت ما أوصيك به عرف الناس لك حقك، وعظمت مملكتك، وعظمت في أعين الناس، واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أنصارك وحماتك وجندك الذين بهم تصول وتنتصر على أعدائك وتصل إلى أهل طاعتك، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف، فإن ذلك يُنشِّط آمالهم، وإن وفد عليك وافد من الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم فإنهم لمن ورائهم، ولا تسمعن قول قاذف ولا ماحل فإني رأيتهم وزراء سوء.

ومن وجه آخر أن معاوية قال ليزيد: إن لي خليلا من أهل المدينة فأكرمه، قال: ومن هو؟ قال: عبد الله بن جعفر. فلما وفد بعد موت معاوية على يزيد أضعف جائزته التي كان معاوية يعطيه إياها، وكانت جائزته على معاوية ستمائة ألف، فأعطاه يزيد ألف ألف، فقال له: بأبي أنت وأمي، فأعطاه ألف ألف أخرى، فقال له ابن جعفر: والله لا أجمع أبوي لأحد بعدك. ولما خرج ابن جعفر من عند يزيد وقد أعطاه ألفي ألف، رأى على باب يزيد بخاتي مبركات قد قدم عليها هدية من خراسان، فرجع عبد الله بن جعفر إلى يزيد فسأله منها ثلاث بخاتي ليركب عليها إلى الحج والعمرة، وإذا وفد إلى الشام على يزيد، فقال يزيد للحاجب: ما هذه البخاتي التي على الباب؟ ولم يكن شعر بها فقال: يا أمير المؤمنين هذه أربعمائة بختية جاءتنا من خراسان تحمل أنواع الألطاف وكان عليها أنواع من الأموال كلها فقال: اصرفها إلى أبي جعفر بما عليها. فكان عبد الله بن جعفر يقول: أتلوموني على حسن الرأي في هذا؟ يعني يزيد.

وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك. وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات.

وقد قال الإمام أحمد [٣/٣٨، ٣٩]: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة حدثني بشير بن أبي عمرو الخولاني أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر». قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به. تفرد به أحمد.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير بن حرب حدثنا الفضل بن دكين حدثنا كامل أبو العلاء سمعت أبا صالح سمعت أبا هريرة، يقول: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من سنة سبعين، ومن إمارة الصبيان».

وروى الزبير بن بكار عن عبد الرحمن بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه قال في يزيد بن معاوية:

لست منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلاة للشهوات

قال: وزعم بعض الناس أن هذا الشعر لموسى بن يسار، ويعرف بموسى شهوات.

وروي عن عبد الله بن الزبير أنه سمع جارية له تغني بهذا البيت فضربها وقال قولي:

أنت منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلاة للشهوات

وقال الحافظ أبو يعلى [مسنده (٨٧٠)]: حدثنا الحكم بن موسى حدثنا يحيى بن حمزة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي عبيدة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية».

وحدثنا الحكم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يثلمُه رجل من بني أمية يقال له: يزيد»[مسند أبي يعلى (٨٧١)] وهذا منقطع بين مكحول وأبي عبيدة بل معضل. وقد رواه ابن عساكر من طريق صدقة بن عبد الله الدمشقي عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة. عن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال أمر هذه الأمة قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد». ثم قال: وهو منقطع أيضاً بين مكحول وأبي ثعلبة.

وقال أبو يعلى: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن عوف عن خالد بن أبي المهاجر عن أبي العالية. قال: كنا مع أبي ذر بالشام فقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية».

ورواه ابن خزيمة عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد عن عوف: حدثنا مهاجر بن أبي مخلد حدثني أبو العالية حدثني أبو مسلم عن أبي ذر فذكر نحوه، وفيه قصة: وهي أن أبا ذر كان في غزاة عليهم يزيد بن أبي سفيان فاغتصب يزيد من جارية فاستعان الرجل على يزيد بأبي ذر أن يردها عليه، فأمره أبو ذر أن يردها عليه فتلكأ فذكر أبو ذر له الحديث فردها، وقال يزيد لأبي ذر: نشدتك بالله أهو أنا؟ قال: لا.

وكذا رواه البخاري في التاريخ [الصغير:١/٧٠] وأبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب. ثم قال البخاري: والحديث معلول ولا يعرف أن أبا ذر قدم الشام زمن عمر بن الخطاب. قال: وقد مات يزيد بن أبي سفيان زمن عمر فولى مكانه أخاه معاوية.

وقال عباس الدوري: سألت ابن معين: أسمع أبو العالية من أبي ذر؟ قال: لا، إنما يروي عن أبي مسلم عنه. قلت: فمن أبو مسلم هذا؟ قال: لا

أدري.

وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذم يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح شيء منها، وأجود ما ورد ما ذكرناه على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه والله أعلم.

وقال الحسنُ بنُ أبي الحسن: ما أفسدَ أمرَ الناسِ إلا اثنان؛ عمرُو بن العاصِ يومَ أشار على معاويةَ برفعِ المصاحفِ يوم صِفِّين، فحملتْ على رءوس الأسنَّةِ، فحكم الخوارجُ، وقالوا: لا حكمَ إلاَّ لله. فلا يزالُ هذا التحكيمُ إلى يوم القيامة، والآخرُ المغيرةُ بن شعبةَ، فإنه كان عاملَ معاويةَ على الكوفة فكتب إليه معاويةُ يقولُ: إذا قرأتَ كتابي فأقبل معزولاً. فأبطأ على معاويةَ في القدومِ، فلما قدم عليه قال له معاوية: ما أبطأكَ عني؟ قال أمرٌ كنتُ أُوطِّئُه وأُهيِّئُه. قال: وما هو؟ قال: البيعةُ ليزيدَ من بعدِك. قال: وقد فعلتَ ذلك؟ قال: نعم. فقال: ارجعْ إلى عملك. فلما خرَجَ المغيرةُ من عنده، قال له أصحابُه: ما وراءَك؟ قال: وضعتُ رِجلَ معاويةَ في غَرزِ غَيٍّ لا يزالُ فيه إلى يوم. قال الحسنُ: فمِن أجل ذلك بايع هؤلاء أبناءَهم، ولولا ذلك لكانت شورى بين المسلمين إلى يوم القيامةِ.

وقيل: إن معاويةَ قيل له: نَنشُدُك اللهَ فيمن نستخلفُ على المسلمين. فقال: لم يبقَ إلا ابني وأبناؤُهم وابني أحقُّ.

قال الحارث بن مسكين عن مسكين، عن سفيان عن شبيب عن غرقدة بن المستظل. قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب، إذا ساسهم من لم يدرك الجاهلية ولم يكن له قدم في الإسلام.

قلت: يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش، فأما قتل الحسين فإنه كما قال جده أبو سفيان يوم أحد لم يأمر بذلك ولم يسؤه. وقد قدمنا أنه قال: لو كنت أنا لم أفعل معه ما فعله ابن مرجانة يعني: عبيد الله بن زياد. وقال للرسل الذين جاؤوا برأسه: قد كان يكفيكم من الطاعة دون هذا. ولم يعطهم شيئاً، وأكرم آل بيت الحسين ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعافه، وردهم إلى المدينة في تجمُّل وأبهة عظيمة، وقد ناح أهله في منزله على الحسين حين كانوا عندهم ثلاثة أيام.

وقيل: إن يزيد فرح بقتل الحسين أول ما بلغه ثم ندم على ذلك.

فقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: إن يونس بن حبيب الجرمي حدثه قال: لما قتل ابن زياد الحسين ومن معه بعث برؤوسهم إلى يزيد، فسر بقتله أولا وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ندم! فكان يقول: وما كان علي لو احتملت الأذى وأنزلته في داري وحكمته فيما يريده، وإن كان علي في ذلك وكف ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله ﷺ، ورعاية لحقه وقرابته، ثم يقول: لعن الله ابن مرجانة فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله أو يأتيني أو يكون بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله تعالى، فلم يفعل، وأبى عليه وقتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فأبغضني البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلي حسيناً، مالي ولابن مرجانة قبحه الله وغضب عليه.

ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة، لم يذكروا عنه وهم أشد الناس عداوة له إلا ما ذكروه عنه من شربه الخمر وإتيانه بعض القاذورات، لم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض، بل قد كان فاسقاً والفاسق لا يجوز خلعه لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع زمن الحرة، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة وأنظرهم ثلاثة أيام، فلما رجعوا قاتلهم، وقد كان في هذا كفاية، ولكنه تجاوز الحد بإباحة المدينة ثلاثة أيام، فوقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عظيم.

وقد كان عبد الله بن عمر بن الخطاب وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد. ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد. كما قال الإمام أحمد [٤٨/٢]: حدثنا إسماعيل بن علية حدثني صخر بن جويرية عن نافع. قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال:

أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان»، وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله، أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته. فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون الصيلم بيني وبينه.

وقد رواه مسلم [١٣٧٥] والترمذي [١٥٨١] من حديث صخر بن جويرية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني عن صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر فذكر مثله.

قال: ومشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه. فقال لهم: قد أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦] ولست من أمركم في شيء، قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه، فقالوا: فمر ابنيك أبا هاشم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله!! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه إذاً ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذاً نكرهك. قال: إذاً آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق، وخرج إلى مكة.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا مصعب الزبيري حدثنا ابن أبي حازم عن هشام عن زيد بن أسلم عن أبيه أن ابن عمر دخل وهو معه علي بن مطيع، فلما دخل عليه. قال: مرحباً بأبي عبد الرحمن ضعوا له وسادة، فقال: إنما جئتك لأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت موتة جاهلية».

وهكذا رواه مسلم [١٨٥١] من حديث هشام بن سعد عن زيد عن أبيه عن ابن عمر به. وتابعه إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن زيد بن أسلم عن أبيه.

وقد رواه الليث عن محمد بن عجلان عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فذكره. [المسند: ٩٧/٢]

وقال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب أيام الحرة، ولما قدم مسلم بن عقبة المدينة أكرمه وأدنى مجلسه وأعطاه كتاب أمان.

وروى المدائني أن مسلم بن عقبة بعث روح بن زنباع إلى يزيد ببشارة الحرة، فلما أخبره بما وقع قال: واقوماه، ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة؟ فما الرأي الذي يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته.

وهذا خلاف ما ذكره كذبة الروافض عنه من أنه شمت بهم وشَفَى بقتلهم، وأنه أنشد إما ذكراً وإما أثراً شعر ابن الزبعرى المتقدم ذكره.

وقال أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام: حدثني محمد بن القاسم سمعت الأصمعي يقول سمعت هارون الرشيد ينشد ليزيد بن معاوية:

إنها بين عامر بن لؤي ... حين تنمى وبين عبد مناف
ولها في المطيِّبين جدود ... ثم نالت مكارم الأخلاف
بنت عم النبي أكرم من ... يمشي بنعل على التراب وحافي
لن تراها على التبذل والغلـ ... ـظة إلا كدرة الأصداف

وقال الزبير بن بكار: أنشدني عمي مصعب ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

آب هذا الهم فاكتنعا ... وأمرّ النوم فامتنعا
راعياً للنجم أرقبه ... فإذا ما كوكب طلعا
حام حتى إنني لأرى ... أنه بالغور قد وقعا
ولها بالماطرون إذا ... أكل النمل الذي جمعا
نزهة حتى إذا بلغت ... نزلت من جلّق بِيَعا
في قباب وسط دسكرة ... حولها الزيتون قد ينعا

ومن شعره:

وقائلة لي حين شبهت وجهها ... ببدر الدجى يوماً وقد ضاق منهجي
تشبهني بالبدر هذا تناقص ... بقدري ولكن لست أول من هجي
ألم تر أن البدر عند كماله ... إذا بلغ التشبيه عاد كدُمْلُج
فلا فخر إن شبهت بالبدر مبسمي ... وبالسحر أجفاني وبالليل مدعجي

وذكره الزبير بن بكار عن أبي محمد الجزري قال: كانت بالمدينة جارية مغنية يقال لها سلامة، من أحسن النساء وجهاً، وأتمهنّ عقلا وأحسنهن حديثاً، قد قرأت القرآن.

وروت الشعر وقالته، وكان عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يجلسان إليها.

فعلقت الأحوص وصدّت عن عبد الرحمن، فرحل ابن حسان إلى يزيد بن معاوية إلى الشام فامتدحه ودله على سلامة وجمالها وحسنها وفصاحتها. وقال: لا تصلح إلا لك يا أمير المؤمنين، وأن تكون من سمارك، فأرسل يزيد فاشتريت له وحملت إليه، فوقعت منه موقعاً عظيماً، وفضلها على جميع من عنده، ورجع عبد الرحمن إلى المدينة فمر بالأحوص فوجده مهموماً، فأراد أن يزيده إلى ما به فقال:

يا مبتلى بالحب مفدوحا ... لاقى من الحب تباريحا
أفحمه الحب فما يثني ... إلا بكأس الحب مصبوحا
وصار لا يعجبه مغلقاً ... عنه وما يكره مفتوحا
قد حازها من أصبحت عنده ... ينال منها الشم والريحا
خليفة اللّه فسل الهوى ... وعز قلباً منك مجروحاً

قال: فأمسك الأحوص عن جوابه ثم غلبه وجده عليها فسار إلى يزيد فامتدحه فأكرمه يزيد وحظي عنده، فدست إليه سلامة خادماً وأعطته مالا على أن يدخله إليها، فأخبر الخادم يزيد بذلك، فقال: امض لرسالتها، ففعل وأدخل الأحوص عليها وجلس يزيد في مكان يراهما ولا يريانه، فلما بصرت الجارية بالأحوص بكت إليه وبكى إليها، وأمرت فألقي له كرسي فقعد عليه، وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه شدة شوقه، فلم يزالا يتحدثان إلى السحر، ويزيد يسمع كلامهما من غير أن يكون بينهما ريبة، حتى إذا هم الأحوص بالخروج قال:

امسى فؤادي في هم وبلبال ... من حب من لم أزل منه على بال

فقالت:

صحا المحبون بعد النأي إذ يئسوا ... وقد يئست وما أضحوا على حال

فقال:

من كان يسلو بيأس عن أخي ثقة ... فعنك سلام ما أمسيت بالسالي

فقالت:

واللّه واللّه لا أنساك يا شجني ... حتى تفارق مني الروح أوصالي

فقال:

واللّه ما خاب من أمسى وأنت له ... يا قرة العين في أهل وفي مال

قال: ثم ودعها وخرج، فأخذه يزيد ودعا بها فقال: أخبراني عما كان في ليلتكما واصدُقاني: فأخبراه وأنشداه ما قالا، فلم يحرفا منه حرفاً ولا غيرا شيئاً مما سمعه، فقال لها يزيد: أتحبينه؟ قالت: إي واللّه يا أمير المؤمنين.

حباً شديداً جرى كالروح في جسدي ... فهل يفرق بين الروح والجسد؟

فقال له: أتحبها؟ فقال: إي واللّه يا أمير المؤمنين.

حباً شديداً تليداً غير مطرف ... بين الجوانح مثل النار يضطرم

فقال يزيد: إنكما لتصفان حباً شديداً خذها يا أحوص فهي لك، ووصله صلة سنية، فرجع بها الأحوص إلى الحجاز وهو قرير العين.

وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه، وقيل: إن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته. وذكروا عنه غير ذلك واللّه أعلم بصحة ذلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي مذعور: حدثني بعض أهل العلم قال: آخر ما تكلم به يزيد بن معاوية: اللّهم لا تؤاخذني بما لم أحبه، ولم أرده، واحكم بيني وبين عبيد اللّه بن زياد. وكان نقش خاتمه آمنت باللّه العظيم.

مات يزيد بحوارين من قرى دمشق في رابع عشر ربيع الأول، وقيل

يوم الخميس للنصف منه، سنة أربع وستين، وكانت ولايته بعد موت أبيه في منتصف رجب سنة ستين، وكان مولده في سنة خمس، وقيل سنة ست، وقيل سبع وعشرين.

ومع هذا فقد اختلف في سنه ومبلغ أيامه في الإمارة على أقوال كثيرة، وإذا تأملت ما ذكرته لك من هذه التحديدات انزاح عنك الإشكال من هذا الخلاف، فإن منهم من قال: جاوز الأربعين حين مات فالله أعلم. وقد حمل إلى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد أمير المؤمنين يومئذ، ودفن بمقابر باب الصغير، وفي أيامه وسع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيون، وكان جدولا صغيراً فوسعه أضعاف ما كان يجري فيه من الماء.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: حدثنا أبو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي قاضي البحرين من لفظه وكتبه لي بخطه قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: أنت قتلت الحسين؟ فقال: لا! فقلت له: هل غفر الله لك؟ قال: نعم، وأدخلني الجنة.

قلت: فالحديث الذي يروى أن رسول الله ﷺ رأى معاوية يحمل يزيد فقال: «رجل من أهل الجنة يحمل رجلا من أهل النار»؟ فقال: ليس بصحيح. قال ابن عساكر. وهو كما قال: فإن يزيد بن معاوية لم يولد في حياة النبي ﷺ. وإنما ولد بعد العشرين من الهجرة.

وقال أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٥/٥٠٠]:

ذكر أولاد يزيد بن معاوية وعددهم

فمنهم: معاوية بن يزيد بن معاوية يكنى أبا ليلى وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إني أرى فتنة قد حان أولها والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

وخالد بن يزيد يكنى أبا هاشم كان يقال إنه أصاب علم الكيمياء، وأبو سفيان، وأمهم أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقد تزوجها بعد يزيد مروان بن الحكم، وهي التي يقول فيها الشاعر:

انعمي أم خالد رب ساع لقاعد

وعبد الله بن يزيد ويقال له الأسوار، وكان من أرمى العرب، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

زعم الناس أن خير قريش كلهم حين يذكرون الأسوارُ

وعبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعتبة، وعبد الرحمن والربيع، ومحمد، لأمهات أولاد شتى. ويزيد وحرب وعمر وعثمان. فهؤلاء خمسة عشر ذكراً، وكان له من البنات عاتكة ورملة وأم عبد الرحمن وأم يزيد، وأم محمد. فهؤلاء خمس بنات. وقد انقرضوا كافة فلم يبق ليزيد عقب، والله سبحانه أعلم.

إمارة معاوية بن يزيد بن معاوية

■ (معاوية بن يزيد بن معاوية) أبي عبد الرحمن ويقال: أبو يزيد ويقال: أبو ليلى القرشي الأموي، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، بويع له بعد موت أبيه وكان ولي عهده من بعده في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين وكان رجلا صالحاً ناسكاً، ولم تطل مدته، قيل: إنه مكث في الملك أربعين يوماً، وقيل عشرين يوماً، وقيل شهرين، وقيل شهراً ونصف شهر، وقيل ثلاثة أشهر وقيل: عشرين يوماً، وقيل أربعة أشهر فالله أعلم.

وكان في مدة ولايته مريضاً لم يخرج إلى الناس، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس ويسد الأمور، ثم مات معاوية بن يزيد هذا عن إحدى وعشرين وقيل: ثلاثة وعشرين سنة وثمانية عشر يوماً، وقيل: تسع عشرة سنة، وقيل عشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون سنة، وقيل: إنما عاش ثماني عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة، فالله أعلم.

وصلى عليه أخوه خالد، وقيل عثمان بن عنبسة، وقيل الوليد بن عتبة. وهذا هو الصحيح، فإنه أوصى إليه بذلك، وشهد دفنه مروان بن الحكم، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس بعده حتى استقر الأمر لمروان بالشام، ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق.

ولما حضرته الوفاة قيل له: ألا توصي فقال: لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبني أمية، وكان رحمه الله أبيض شديد البياض كثير الشعر كبير العينين جعد الشعر أقنى الأنف مدور الرأس، جميل الوجه دقيقه حسن الجسم.

قال أبو زرعة الدمشقي: معاوية وعبد الرحمن وخالد إخوة، وكانوا من صالحي القوم وقال فيه بعض الشعراء وهو عبد الله بن همام السلولي:

تلقاها يزيد عن أبيه فدونكها معاوي عن يزيدا

أديروها بني حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا

ويروى أن معاوية بن يزيد هذا نادى في الناس الصلاة جامعة ذات يوم، فاجتمع الناس فقال لهم فيما قال: يا أيها الناس! إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتُها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل ودخل منزله فلم يخرج منه حتى مات رحمه الله تعالى: ويقال: إنه سقي ويقال: إنه طعن وقيل إن معاوية بن يزيد لما بويع بالخلافة خطب الناس فقال: أيها الناس إنا بليناكم بكم وبليتم بنا، وإنا لا نجهل كراهيتكم لنا، وإن جدي قد نازع هذا الأمر من كان أولى به منه فمضى لسبيله، وأقام جدي فيه على ما علمتم فركب منكم ما علمتم. ثم مات فصار مرتهناً بعمله ثم قلد أبي هذا الأمر فركب هواه فأخلفه الأمل وقصر في العمل حتى بغته الموت، وحال بينه وبين ما يشتهيه، فخرج من الدنيا عقير ذنبه مريض شهوته قد رضته الآفات، وطحنته الخطيات.

ثم بكى وقال: ولست بالمختار لتقلد أموركم ولا بالتحمل لتبعاتكم فإن تكن الخلافة خيراً فقد نلنا منها حظاً وافراً، وإن تكن شراً فحسب آل أبي سفيان من الشر ما أصابوا منه فيما مضى.

ولم يكن معاوية بن يزيد ليهلك نفسه ودينه، فدخل منزله فلم يخرج منه حتى مات رحمه الله.

قال: فدخلوا عليه وهو مريض فقالوا له: اعهد لمن شئت فقال: كيف تقلدونيها؟ والله لا أتحملها حياً وميتاً اذهبوا عني اللهم إني بريء إليك منها. ثم دعا الله واستعاذه من الفتن، ثم دعا حسان بن مالك خازن بيت المال فقال له: احفظ ما قبلك حتى يجتمع الناس على إمام يرضونه.

ولما مات صلى عليه الوليد بن عتبة فكبر عليه تكبيرتين، ثم طعن في الثانية فوقع ميتاً، فتقدم عثمان بن عنبسة فصلى عليه، ودفن بالباب الصغير عند آبائه وحزن عليه الناس كثيراً لعقله وعفته وزهده ودينه، وانقضى بموته

ملك بني حرب.

والظاهر أن القبر الذي بباب الصغير يقال له قبر معاوية إنما هو قبر معاوية بن يزيد هذا، وليس بقبر معاوية بن أبي سفيان.

ويقال: إن معاوية بن أبي سفيان مدفون في حائط جامع دمشق خوفاً عليه من الخوارج، وكذلك عمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب إنما دفنوا في حوائط الجامع، بمصر والكوفة والشام حيث ماتوا والله أعلم.

ثم تولى الشام مروان بن الحكم وأولاده وهم بنو أبي العاص بني أمية وأبو العاص أخو حرب بن أمية، وهو أبو أبي سفيان، والله سبحانه أعلم.

وقد حضر مروان دفنه فلما فرغ منه قال مروان: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم معاوية بن يزيد، فقال مروان: هو أبو ليلى الذي قال فيه أبو أزنم الفزاري:

إنــي أرى فتنــة تغلــي مراجلهــا والملك بعد أبــي ليلــى لمــن غلبــا

قالوا: كان الأمر كما قال، وذلك أن أبا ليلى توفي من غير عهد منه إلى أحد، فتغلب على الحجاز عبد الله بن الزبير، وعلى دمشق وأعمالها مروان بن الحكم، وبايع أهل خراسان سلم بن زياد حتى يتولى على الناس خليفة، فسار فيهم سلم سيرة حسنة أحبوه عليها، ثم أخرجوه من بين أظهرهم.

وخرج القراء والخوارج بالبصرة وعليهم نافع بن الأزرق، وطردوا عنهم عبيد الله بن زياد بعد ما كانوا بايعوه عليهم حتى يصير للناس إمام، فذهب إلى الشام بعد فصول يطول ذكرها، وقد بايعوا بعده عبد الله بن الحارث بن نوفل المعروف بَبّة، وأمه هند بنت أبي سفيان، وقد جعل على شرطة البصرة هميان بن عدي السدوسي، فبايعه الناس في مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وستين، وقد قال الفرزدق:

وبــايعت أقوامــاً وفيــت بعهدهــم وببّــة قــد بايعتــه غــير نــادم

فأقام فيها أربعة أشهر ثم لزم بيته، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يصلي بالناس، فصلى بهم شهرين، ثم كان ما سنذكره.

وخرج نجدة بن عامر الحنفي باليمامة، وخرج بنو ماحوز في الأهواز وفارس وغير ذلك على ما سيأتي تفصيله قريباً إن شاء الله تعالى.

إمارة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وعند ابن حزم وطائفة أنه أمير المؤمنين آنذاك

قد قدمنا أنه لما مات يزيد أقلع الجيش عن مكة، وهم الذين كانوا يحاصرون ابن الزبير وهو عائذ بالبيت فلما رجع حصين بن نمير السكوني ورجعوا عن مكة إلى الشام، واستفحل عبد الله بن الزبير ببلاد الحجاز وما والاها، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة عامّة هناك، واستناب على المدينة أخاه عبيدة بن الزبير، وأمره بإجلاء بني أمية عن المدينة فأجلاهم فرحلوا إلى الشام، وفيهم مروان وابنه عبد الملك، ثم بعث أهل البصرة إلى ابن الزبير بعد حروب جرت بينهم وفتن كثيرة يطول استقصاؤها، غير أنهم في أقل من ستة أشهر أقاموا عليهم نحواً من أربعة أمراء من بينهم ثم اضطربت أمورهم، ثم بعثوا إلى ابن الزبير وهو بمكة يجلبونه إلى أنفسهم، فكتب إلى أنس بن مالك ليصلي بهم.

ويقال إن أول من بايع ابن الزبير مصعب بن عبد الرحمن، فقال الناس: هذا أمر فيه صعوبة. وبايعه عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن علي بن أبي طالب، وبعث إلى ابن عمر وابن الحنفية وابن عباس ليبايعوا فأبوا عليه. وبويع في رجب بعد أن أقام الناس نحو ثلاثة أشهر بلا إمام.

وبعث ابن الزبير إلى أهل الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج، واستوثق له المصران جميعاً، وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه. واستناب عليها عبد الرحمن بن جحدم، وأطاعت له الجزيرة، وبعث على البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وبعث إلى اليمن فبايعوه، وإلى خراسان فبايعوه، وإلى الضحاك بن قيس بالشام فبايع وقيل: إن أهل دمشق وأعمالها من بلاد الأردن لم يبايعوه، لأنهم بايعوا مروان بن الحكم لما رجع الحصين بن نمير عن مكة إلى الشام وقد كان التف على عبد الله بن الزبير جماعة من الخوارج يدافعون عنه، منهم نافع بن الأزرق، وعبد الله بن إباض، وجماعة من رؤوسهم فلما استوثق أمرهم في الخلافة قالوا فيما بينهم: إنكم قد أخطأتم لأنكم قاتلتم مع هذا الرجل ولم تعلموا رأيه في عثمان بن عفان. وكانوا يبغضون عثمان فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان فأجابهم فيه بما يسوؤهم، وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسيرة الحسنة، والرجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا عنه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة، التي لا تنضبط ولا تنحصر، لأنها مفرعة على الجهل وقوة النفس، والاعتقاد الفاسد، ومع هذا استحوذوا على كثير من البلدان والكور، حتى انتزعت منهم بعد ذلك على ما سنذكره بعد إن شاء الله.

ذكر بيعة مروان بن الحكم

وكان سبب ذلك أن حصين بن نمير لما رجع من أرض الحجاز وارتحل عبيد الله بن زياد من البصرة إلى الشام، وانتقلت بنو أمية من المدينة إلى الشام، اجتمعوا إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد، وقد كان عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق، وقد بايع أهلها الضحاك بن قيس على أن يصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم حتى تجتمع أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم ، والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير، وقد بايع لابن الزبير النعمان بن بشير بحمص، وبايع له زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين وبايع له نائل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، فلم يزل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بمروان بن الحكم حتى ثنوه عن رأيه وحذروه من دخول سلطان ابن الزبير وملكه إلى الشام، وقالوا له: أنت شيخ قريش وسيدها: فأنت أحق بهذا الأمر التف هؤلاء كلهم مع قومه بني أمية ومع أهل اليمن، فوافقهم على ما أرادوا وجعل يقول ما فات شيء، وكتب حسان بن مالك بن بحدل الكلبي إلى الضحاك بن قيس يثنيه عن المبايعة لابن الزبير، ويعرفه أيادي بني أمية عنده وإحسانهم إليه، ويذكر فضلهم وشرفهم، وقد بايع حسان بن مالك أهل الأردن لبني أمية، وهو يدعو إلى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وبعث إلى الضحاك كتاباً بذلك، وأمره أن يقرأ كتابه على أهل دمشق يوم الجمعة على المنبر، وبعث بالكتاب مع رجل يقال له ناغضة بن كريب الطابخي، وقيل هو من بني كلب وقال له: إن لم يقرأه هو على الناس فاقرأه أنت، فأعطاه الكتاب فسار إلى الضحاك فأمره بقراءة الكتاب فلم يقبل، فقام ناغضة فقرأه على الناس فصدقه جماعة من أمراء الناس، وكذبه آخرون، وثارت فتنة

عظيمة بين الناس، فقام خالد بن يزيد بن معاوية وهو شاب حدث على درجتين من المنبر فسكن الناس، ونـزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة، وأمر الضحاك بن قيس بأولئك الذين صدقوا ناغضة أن يسجنوا، فثارت قبائلهم فأخرجوهم من السجن، واضطرب أهل دمشق في ابن الزبير وبني أمية، وكان اجتماع الناس لذلك ووقوفهم بعد صلاة الجمعة بباب الجيرون «فسمي هذا اليوم يوم جيرون».

قال المدائني: وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يتولى عليهم فأبى، وهلك في تلك الليالي، ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع فخطبهم به، ونال من يزيد بن معاوية، فقام إليه شاب من بني كلب فضربه بعصى كانت معه، والناس جلوس متقلدي سيوفهم، فقام بعضهم إلى بعض فاقتتلوا في المسجد قتالاً شديداً فقيس ومن لف لفيفها يدعون إلى ابن الزبير وينصرون الضحاك بن قيس، وبنو كلب يدعون إلى بني أمية إلى البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، ويتعصبون ليزيد وأهل بيته، فنهض الضحاك بن قيس فدخل دار الإمارة وأغلق الباب ولم يخرج إلى الناس من يوم السبت لصلاة الفجر، ثم أرسل إلى بني أمية فجمعهم إليه فدخلوا عليه وفيهم مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية.

قال المدائني: فاعتذر إليهم مما كان منه، واتفق معهم أن يركب معهم إلى حسان بن مالك الكلبي فيتفقوا على رجل يرضونه من بني أمية للإمارة، فركبوا جميعاً إليه، فبينما هم يسيرون إلى الجابية لقصد حسان، إذ جاء ثور بن معن بن الأخنس في قومه قيس، فقال له: إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير فأجبناك، وأنت الآن ذاهب إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نسِرُّ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها. فمال الضحاك بمن معه فرجع إلى دمشق فأقام بها بمن معه من الجيش من قيس ومن لف لفيفها، وبعث إلى أمراء الأجناد وبايع الناس لابن الزبير، وكتب بذلك إلى ابن الزبير يعلمه بذلك، فذكره ابن الزبير لأهل مكة وشكره على صنيعه، وكتب إليه بنيابة الشام، وقيل بل بايع لنفسه بالخلافة فالله أعلم أي ذلك كان.

والذي ذكره المدائني أنه إنما دعا إلى بيعة ابن الزبير أولا، ثم حسن له عبيد الله بن زياد أن يدعو إلى نفسه، وذلك مكرٌ منه به فدعا الضحاك إلى نفسه ثلاثة أيام، فنقم الناس عليه ذلك وقالوا: دعوتنا إلى بيعة رجل فبايعناه ثم خلعته من غير سبب ولا عذر، ودعوتَ إلى نفسك؟ فرجع إلى البيعة لابن الزبير فسقط بذلك عند الناس، وذلك الذي أراد عبيد الله بن زياد.

وكان اجتماع عبيد الله بن زياد به بعد اجتماعه بمروان وتحسينه له أن يدعو إلى نفسه، ثم فارقه ليخدع له الضحاك، فنزل عنده بدمشق وجعل يركب إليه في كل يوم، ثم أشار ابن زياد على الضحاك أن يخرج من دمشق إلى الصحراء ويدعو بالجيوش إليه ليكون أمكن له، فركب الضحاك إلى مرج راهط فنزل بمن معه من الجنود، وعند ذلك اجتمعت بنو أمية ومن اتبعهم بالأردن واجتمع إليهم من هنالك من قوم حسان بن مالك من بني كلب.

ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير، وما استوسق له من الملك، عزم على الرحيل إليه ليبايعه وليأخذ منه أماناً لبني أمية، فسار حتى بلغ أذرعات فلقيه عبيد الله ابن زياد مقبلا من العراق فصده عن ذلك وهجن رأيه، واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص، وحصين بن نمير، وابن زياد، وأهل اليمن وخلق، فقالوا لمروان: أنت كبير قريش ورئيسها، وخالد بن يزيد غلام، وعبد الله بن الزبير كهل، فإنما يقرع الحديد بعضه ببعض، فلا تباره بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه بالجابية في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين، قاله الواقدي [تاريخ الطبري: ٥/٥٣٣، ٥٣٤].

فلما تمهد له الأمر سار بمن معه نحو الضحاك بن قيس فالتقيا بمرج راهط فغلبه مروان بن الحكم وقتله وقتل من قيس مقتلة لم يسمع بمثلها، على ما سيأتي تفصيله في أول سنة خمس وستين فإن الواقدي وغيره قالوا: إنما كانت هذه الوقعة في المحرم من أول سنة خمس وستين.

وفي رواية محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا: إنما كانت في أواخر هذه السنة.

وقال الليث بن سعد والواقدي والمدائني وأبو سليمان بن زَبْر وأبو عبيد وغير واحد: كانت وقعة مرج راهط للنصف من ذي الحجة سنة أربع وستين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقعة مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري رضي الله عنه

قد تقدم أن الضحاك كان نائب دمشق لمعاوية بن أبي سفيان، وكان يصلي عنهم إذا اشتغل أو غاب، ويقيم الحدود ويسد الأمور، فلما مات معاوية قام بأعباء بيعة يزيد ابنه، ثم لما مات يزيد بايع الناس لمعاوية بن يزيد، فلما مات معاوية بن يزيد بايعه أهل دمشق حتى يجتمع الناس على إمام، فلما اتسعت البيعة لابن الزبير عزم على المبايعة لابن الزبير، فخطب الناس يوماً وتكلم في يزيد بن معاوية وذمه، فقامت فتنة في المسجد الجامع، حتى اقتتل الناس فيه بالسيوف، فسكن الناس ثم دخل دار الإمارة من الخضراء وأغلق عليه الباب، ثم اتفق مع بني أمية على أن يركبوا إلى حسان بن مالك بن بحدل وهو بالأردن فيجتمعوا عنده على ما يراه أهلا للإمارة على الناس، وكان حسان يريد أن يبايع لابن أخته خالد بن يزيد، ويزيد بن ميسون، وميسون بنت بحدل أخت حسان، فلما ركب الضحاك معهم انخذل بأكثر الجيش فرجع إلى دمشق فامتنع بها، وبعث إلى أمراء الأجناد فبايعهم لابن الزبير، وسار بنو أمية ومعهم مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية، حتى اجتمعوا بحسان بن مالك بالجابية. وليس لهم قوة طائلة بالنسبة إلى الضحاك بن قيس، فعزم مروان على الرحيل إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ أماناً منه لبني أمية، فإنه كان قد أمر بإجلائهم عن المدينة، فسار حتى وصل إلى أذرعات فلقيه عبيد الله بن زياد مقبلا من العراق فاجتمع به ومعه حصين بن نمير، وعمرو بن سعيد بن العاص، فحسنوا إليه أن يدعو إلى نفسه، فإنه أحق بذلك من ابن الزبير الذي قد فارق الجماعة وخلع ثلاثة من الخلفاء، فلم يزالوا بمروان حتى أجابهم إلى ذلك، وقال له عبيد الله بن زياد: وأنا أذهب لك إلى الضحاك إلى دمشق فأخدعه لك وأخذل أمره.

فسار إليه وجعل يركب إليه كل يوم ويظهر له الود والنصيحة والمحبة، ثم حسَّن له أن يدعو إلى نفسه ويخلع ابن الزبير فإنك أحق بالأمر منه، لأنك لم تزل في الطاعة مشهوراً بالأمانة، وابن الزبير خارج عن الناس. فدعا الضحاك الناس إلى نفسه ثلاثة أيام فلم يصعد معه، فرجع إلى الدعوة

لابن الزبير، ولكن انحط بها عند الناس، ثم قال له ابن زياد: إن من يطلب ما تطلب لا ينزل المدن والحصون، وإنما ينزل الصحراء ويدعو عبيد الله بالجنود، فبرز الضحاك إلى مرج راهط فنزله، وأقام ابن زياد بدمشق ومروان وبنو أمية بتدمر، وخالد وعبد الله عند خالهم حسان بالجابية، فكتب ابن زياد إلى مروان يأمره أن يظهر دعوته، فدعا إلى نفسه، وتزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية وهي أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، فعظم أمره وبايعه الناس، واجتمعوا عليه، وسار إلى مرج راهط نحو الضحاك بن قيس، وركب إليه عبيد الله بن زياد وأخوه عباد بن زياد، حتى اجتمع مع مروان ثلاثة عشر ألفاً، وبدمشق من جهته يزيد بن أبي النمس، وقد أخرج عامل الضحاك منها وهو يمد مروان بالسلاح والرجال وغير ذلك. ويقال كان نائبه على دمشق يومئذ عبد الرحمن بن أم الحكم، وجعل مروان على ميمنته عبيد الله بن زياد، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد بن العاص، وبعث الضحاك إلى النعمان بن بشير فأمده النعمان بأهل حمص عليهم شرحبيل بن ذي الكلاع، وركب إليه زفر بن الحارث الكلابي في أهل قنسرين. فكان الضحاك في ثلاثين ألفاً، على ميمنته زياد بن عمرو العقيلي، وعلى ميسرته زكريا بن شِمْر الهلالي، فتصافوا وتقاتلوا بالمرج عشرين يوماً، يلتقون في كل يوم فيقتتلون قتالا شديداً، ثم أشار عبيد الله بن زياد على مروان أن يدعوهم إلى الموادعة خديعة فإن الحرب خدعة، وأنت وأصحابك على الحق، وهم على الباطل. فنودي في الناس بذلك، ثم غدر أصحاب مروان فمالوا يقتلونهم قتالا شديداً، وصبر أصحاب الضحاك صبراً بليغاً، فقتل الضحاك بن قيس في المعركة، قتله رجل يقال له زُحْمة بن عبد الله من بني كلب، طعنه بحربة فأنفذه ولم يعرفه. وصبر مروان وأصحابه صبراً شديداً حتى فر أولئك بين يديه، فنادى مروان: لا يُتّبع مدبرٌ. ثم جيء برأس الضحاك، ويقال إن أول من بشره بقتله روح بن زنباع الجذامي، واستقر ملك الشام بيد مروان بن الحكم. وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط، فقال: أبعد ما كبرت وضعفت حتى صرت إلى أن أَقتُل بالسيوف على الملك؟!

قال: ولم تطل مدته في الملك إلا تسعة أشهر على ما سنذكره.

وقد كان

■ الضحاك بن قيس بن خالد الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن واثلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك، أبو أنيس الفهري أحد الصحابة على الصحيح، وقد سمع من النبي ﷺ وروى عنه أحاديث عدة، وروى عنه جماعة من التابعين، وهو أخو فاطمة بنت قيس وكانت أكبر منه بعشر سنين، وكان أبو عبيدة بن الجراح عمه. حكاه ابن أبي حاتم [الجرح والتعديل: ٤/٤٥٧].

وزعم بعضهم أنه لا صحبة له.

وقال الواقدي: أدرك النبي ﷺ وقد سمع منه قبل البلوغ.

وفي رواية عن الواقدي أنه قال: ولد الضحاك قبل وفاة النبي ﷺ بستين.

وكان شهد فتح دمشق وسكنها وله بها دار عند حجر الذهب مما يلي نهر بَرَدى، وكان على أهل دمشق يوم صفين مع معاوية، ولما أخذ معاوية الكوفة استنابه بها في سنة أربع وخمسين.

وقد روى البخاري في التاريخ [الكبير: ٤/٣٣٢] أن الضحاك قرأ سورة ص في الصلاة بالناس بالكوفة فسجد فيها فلم يتابعه علقمة وأصحاب ابن مسعود في السجود.

ثم استنابه معاوية عنده على دمشق فلم يزل عنده حتى مات معاوية وتولى ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد، ثم صار أمره إلى ما ذكرنا.

وقد قال الإمام أحمد [٣/٤٥٣]: حدثنا عفان بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن الحسن أن الضحاك بن قيس كتب إلى قيس بن الهيثم حين مات يزيد بن معاوية: سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، فتناً كقطع الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً. يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا قليل». وإن يزيد بن معاوية قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نختار لأنفسنا.

وقد روى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤/٢٩١] من طريق ابن قتيبة عن العباس بن الفرج الرياشي عن يعقوب بن إسحاق بن بُوَيه عن حماد بن زيد. قال: دخل الضحاك بن قيس على معاوية فقال معاوية:

تطاولت للضحاك حتى رددته ... إلى حسب في قومه متقاصر

فقال الضحاك: قد علم قومنا أنا أحلاس الخيل، فقال: صدقت، أنتم أحلاسها ونحن فرسانها. يريد: أنتم راضة وساسة، ونحن الفرسان. وأرى من الحلس وهو كساء يكون تحت البردعة، أي: يلزم ظهورها كما يلزم الحلس ظهر البعير.

وروي أيضاً أن مؤذن دمشق قال للضحاك بن قيس: والله أيها الأمير إني لأحبك في الله. فقال له الضحاك: ولكني والله أبغضك في الله. قال: ولم أصلحك الله؟ قال: لأنك تتراءى في أذانك وتأخذ أجراً على تعليمك.

قتل الضحاك رحمه الله يوم مرج راهط وذلك للنصف من ذي الحجة سنة أربع وستين. قاله الليث بن سعد وأبو عبيد والواقدي وابن زبر والمدائني.

وفيها قُتل:

■ النعمان بن بشير الأنصاري

وأمه عمرة بنت رواحة، وكان أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة للأنصار، في جمادى الأولى سنة ثنتين من الهجرة، فأتت به أمه تحمله إلى النبي ﷺ فحنكه وبشرها بأنه يعيش حميداً، ويقتل شهيداً، ويدخل الجنة، فعاش في خير وسعة، وولي نيابة الكوفة لمعاوية تسعة أشهر، ثم سكن الشام، وولي قضاءها بعد فضالة بن عبيد، وفضالة بعد أبي الدرداء. وناب بحمص لمعاوية، وهو الذي رد آل رسول الله ﷺ إلى المدينة بأمر يزيد له في ذلك، وهو الذي أشار على يزيد بالإحسان إليهم وقال: عاملهم بما كان يعاملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآهم على هذه الحالة. فرقّ لهم يزيد وأحسن إليهم وأكرمهم، وأمره بإكرامهم، ثم لما كانت وقعة مرج راهط وقتل الضحاك بن قيس، وكان النعمان قد أمده بأهل حمص عدا عليه أهل حمص. فقتلوه بقرية يقال لها بِيْرين، قتله رجل يقال له خالد بن خلي الكلاعي. وقتل خلي بن داود وهو جد خالد بن خلي. وقد رثته ابنته حميدة بنت النعمان فقالت:

ليت ابن مزنة وابنه ... كانوا لقتلك واقيه
وبني أمية كلهم ... لم تبق منهم باقيه
جاء البريد بقتله ... يا للكلاب العاويه
يستفتحون برأسه ... دارت عليهم ثانيه

فلأبكينك مسرة ولأبكين علانيه
ولأبكينك ما حييت مع السباع العادية

وقيل إن أعشى همدان قدم على النعمان بن بشير وهو على حمص وهو مريض، فقال له النعمان: ما أقدمك؟ قال: لتصلني وتحفظ قرابتي وتقضي ديني، فقال: والله ما عندي، ولكني سائلهم لك شيئاً، ثم قام فصعد المنبر ثم قال: يا أهل حمص، إن هذا ابن عمكم من العراق، وهو مسترفدكم شيئاً فما ترون؟ فقالوا: احتكم في أموالنا، فأبى عليهم فقالوا: قد حكمنا من أموالنا كل رجل دينارين وكانوا في الديوان عشرين ألف رجل فعجلها له النعمان من بيت المال أربعين ألف دينار، فلما خرجت أعطياتهم أسقط من عطاء كل رجل منهم دينارين.

ومن كلام النعمان بن بشير ﷺ قوله: إن الهلكة كل الهلكة أن تعمل بالسيئات في زمان البلاء.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن أبي رواحة يزيد بن أيهم عن الهيثم بن مالك الطائي سمعت النعمان بن بشير على المنبر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله، والفخر بعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله».

ومن أحاديثه الحسان الصحاح ما سمعه من رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحت صَلَح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب». رواه البخاري [٥٢، ٢٠٥١] ومسلم [(١٥٩٩) (١٠٧، ١٠٨) بنحوه]

وقال أبو مسهر: كان النعمان بن بشير على حمص عاملا لابن الزبير، فلما تَمَرْوَنَ أهل حمص خرج النعمان هارباً فاتبعه خالد بن خلي الكلاعي فقتله.

قال أبو عبيد وغير واحد: في هذه السنة.

وقد روى محمد بن سعد بأسانيده أن معاوية تزوج بامرأة جميلة جداً فبعث إحدى امرأتيه ميسون أو فاختة لتنظر إليها، فلما رأتها أعجبتها جداً، ثم رجعت إليه فقال: كيف رأيتها؟ قالت: بديعة الجمال، غير أني رأيت تحت سرتها خالا أسود، وإني أحسب أن زوجها يقتل ويلقى رأسه في حِجْرها. فطلقها معاوية وتزوجها النعمان بن بشير، فلما قتل أُلقي رأسه في حجر امرأته هذه.

وقال سليمان بن زَبْر: قتل بسَلَمية سنة ست وستين. وقال غيره: سنة خمس وستين، وقيل سنة ستين والصحيح ما ذكرناه.

وفيها توفي

■ المسور بن مخرمة بن نوفل، صحابي صغير، أصابه حجر المنجنيق مع ابن الزبير بمكة وهو قائم يصلي في الحجر. وهو من أعيان من قتل في حصار مكة وهو المسور بن مخرمة بن نوفل أبو عبد الرحمن الزهري، أمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف، له صحبة ورواية، ووفد على معاوية، وكان ممن يلزم عمر بن الخطاب، وقيل إنه كان ممن يصوم الدهر، وإذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً، وصلى ركعتين، وقيل إنه وجد يوم القادسية إبريق ذهب مرصّعاً بالياقوت فلم يدر ما هو، فلقيه رجل من الفرس فقال له: بعنيه بعشرة آلاف، فعلم أنه شيء له قيمة. فبعث به إلى سعد بن أبي وقاص فنفله إياه، فباعه بمائة ألف.

ولما توفي معاوية قدم مكة فأصابه حجر المنجنيق مع ابن الزبير لما رموا به الكعبة، فمات منه بعد خمسة أيام، وغسله عبد الله بن الزبير، وحمله في جملة من حمل إلى الحجون، وكانوا يطؤون به القتلى، ويمشون به بين أهل الشام وصلوا معهم عليه.

واحتكر المسور بن مخرمة طعاماً في زمن عمر بن الخطاب، فرأى سحاباً فكرهه، فلما أصبح غدا إلى السوق فقال: من جاءني أعطيته، فقال عمر: أجننت يا ابن مخرمة؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكني رأيت سحاباً فكرهت ما ينفع الناس فكرهت أن أربح فيه شيئاً، فقال له عمر: جزاك الله خيراً. ولد المسور بمكة بعد الهجرة بسنتين.

■ المنذر بن الزبير بن العوام ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وقد غزا المنذر القسطنطينية مع يزيد بن معاوية، ووفد على معاوية فأجازه بمائة ألف، وأقطعه أرضاً، فمات معاوية قبل أن يقبض المال.

وكان المنذر بن الزبير وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام يقاتلان أهل الشام بالنهار، ويطعمانهم بالليل. قتل المنذر بمكة في حصارها مع أخيه، ولما مات معاوية أوصى إلى المنذر أن ينزل في قبره.

■ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف كان شاباً ديناً فاضلا. قتل مصعب أيضاً في حصار مكة مع ابن الزبير.

وممن قتل في وقعة الحرة محمد بن أبي بن كعب، وعبد الرحمن بن أبي قتادة، وأبو حكيم معاذ بن الحارث الأنصاري الذي أقامه عمر يصلي بالناس، وقتل يومئذ ولدان لزينب بنت أم سلمة، وزيد بن محمد بن سلمة وسعيد بن زيد بن ثابت الأنصاري قتل يومئذ، وقتل معه سبعة من إخوته وغير هؤلاء رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين.

وفيها توفي

■ الأخنس بن شريق، شهد فتح مكة وكان مع علي يوم صفين.

حوادث ووقائع

وفي هذه السنة -أعني سنة أربع وستين- جرت حروب كثيرة وفتن منتشرة ببلاد المشرق واستحوذ على بلاد خراسان رجل يقال له عبد الله بن خازم، وقهر عمالها وأخرجهم منها، وذلك بعد موت يزيد وابنه معاوية، قبل أن يستقر ملك ابن الزبير على تلك النواحي، وجرت بين عبد الله بن خازم هذا وبين عمرو بن مرثد حروب يطول ذكرها وتفصيلها، اكتفينا بذكرها إجمالا إذ لا يتعلق بتفصيلها كبير فائدة، وهي حروب فتنة وقتال بغاة بعضهم في بعض، والله المستعان.

وقال الواقدي: وفي هذه السنة -بعد موت معاوية بن يزيد- بايع أهل خراسان سلم بن زياد بن أبيه، وأحبوه حتى أنهم سموا باسمه في تلك السنة أكثر من ألف غلام مولود، ثم نكثوا واختلفوا فخرج عنهم سلم وترك عليهم المهلب بن أبي صفرة.

وفيها اجتمع ملأ الشيعة على سليمان بن صرد بالكوفة، وتواعدوا النخيلة ليأخذوا بثأر الحسين بن علي بن ﷺ، وما زالوا في ذلك مجدين، وعليه عازمين، من بعد مقتل الحسين بكربلاء في العاشر المحرم سنة إحدى

وستين، وقد ندموا على ما كان منهم من بعثهم إليه، فلما حصل خذلوه وتخلوا عنه ولم ينصروه.

فجـاءَتْ بوَصْـلٍ لا ينفـعُ الوَصْـلُ

فاجتمعوا في دار سليمان بن صرد وهو صحابي جليل، وكان رؤوس القائمين في ذلك خمسة، سليمان بن صرد الصحابي، والمسيب بن نجبة الفزاري أحد كبار أصحاب علي، وعبد اللّه بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد اللّه بن وال التيمي، ورفاعة بن شداد البجلي. وكلهم من أصحاب علي ﷺ، فاجتمعوا كلهم بعد خطب ومواعظ على تأمير سليمان بن صرد عليهم، فتعاهدوا وتعاقدوا وتواعدوا النخيلة، أن يجتمع من يستجيب لهم إلى ذلك الموضع بها في سنة خمس وستين، ثم جمعوا من أموالهم وأسلحتهم شيئاً كثيراً وأعدوه لذلك.

وقام المسيب بن نجبة خطيباً فيهم، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: أما بعد فقد ابتلينا بطول العمر وكثرة الفتن، وقد ابتلانا اللّه فوجدنا كاذبين في نصرة ابن بنت رسول اللّه ﷺ، بعد أن كتبنا إليه وراسلناه، فأتانا طمعاً في نصرتنا إياه، فخذلناه وأخلفناه، وأتينا به إلى من قتله وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار، فما نصرناهم بأيدينا، ولا خذلنا عنهم بألسنتنا، ولا قويناهم بأموالنا، فالويل لنا جميعاً ويلا متصلا أبداً لا يفتر ولا يبيد دون أن يقتل قاتلهم والممالئين عليه، أو نقتل دون ذلك وتذهب أموالنا وتخرب ديارنا، أيها الناس قوموا في ذلك قومة رجل واحد، ﴿وتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾، الآية [البقرة: ٥٤]. وذكر كلاماً طويلا. ثم كتبوا إلى جميع إخوانهم أن يجتمعوا بالنخيلة في السنة الآتية.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان وهو بالمدائن يدعوه إلى ذلك فاستجاب له ودعا إليه سعد من أطاعه من أهل المدائن، فبادروا إليه بالاستجابة والقبول، وتمالؤوا عليه وتواعدوا النخيلة في التاريخ المذكور.

وكتب سعد إلى سليمان بذلك ففرح أهل الكوفة من موافقة أهل المدائن لهم على ذلك، وتنشطوا لأمرهم الذي تمالؤوا عليه. فلما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بعد قليل، طمعوا في الأمر، واعتقدوا أن أهل الشام قد ضعفوا، ولم يبق من يقيم لهم أمراً، فَغَدوا إلى سليمان واستشاروه في الظهور أن يخرجوا إلى النخيلة قبل الأجل، فمنعهم من ذلك: حتى يأتي الأجل الذي واعدوا إخوانهم فيه. ثم هم في الباطن يعدون السلاح والقوة ولا يشعر بهم جمهور الناس، وحينئذ عمد جمهور أهل الكوفة إلى عمرو بن حريث نائب عبيد اللّه بن زياد على الكوفة فأخرجوه من القصر، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الملقب دحروجة، فبايع لعبد اللّه بن الزبير، فهو يسد الأمور حتى تأتي نواب ابن الزبير.

فلما كان يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان من هذه السنة أعني سنة أربع وستين قدم أميران إلى الكوفة من جهة ابن الزبير، أحدهما عبد اللّه بن يزيد الخطمي، على الحرب والثغر، والآخر إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد اللّه التيمي، على الخراج والأموال.

وقد كان قدم قبلهما بجمعة واحدة للنصف من هذا الشهر المختار ابن أبي عبيد -وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب- فوجد الشيعة قد التفت على سليمان بن صرد وعظموه تعظيماً زائداً، وهم معدون للحرب. فلما استقر المختار عندهم بالكوفة دعا إلى إمامة محمد بن الحنفية، ولقبه المهدي، فاتبعه كثير من الشيعة وفارقوا سليمان بن صرد، وصارت الشيعة فرقتين، الجمهور منهم مع سليمان يريدون الخروج على الناس ليأخذوا بثأر الحسين، وفرقة أصحاب المختار يريدون الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية، وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقولون عليه ليروجوا على الناس به، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة، وجاءت العين الصافية إلى عبد اللّه بن يزيد الخطمي نائب ابن الزبير بما تمالأ عليه فرقتا الشيعة على اختلافهما من الخروج على الناس والدعوة إلى ما يريدون، واشار من أشار عليه بأن يبادر إليهم ويحتاط عليهم ويبعث الشرط والمقاتلة فيقمعهم عما هم مجمعون عليه من إرادة الشر والفتنة. فقام خطيباً في الناس وذكر في خطبته ما بلغه عن هؤلاء القوم، وما أجمعوا عليه من الأمر، وأن منهم من يريد الأخذ بثأر الحسين، ولقد علموا أني لست ممن قتله، وإني واللّه لممن أصيب بقتله رحمه اللّه ولعن قاتله، وإني لا أتعرض لأحد قبل أن يبدأني بالشر، وإن كان هؤلاء يريدون الأخذ بثأر الحسين فليعمدوا إلى ابن زياد فإنه هو الذي قتل الحسين وخيار أهله فليأخذوا منه بالثأر، ولا يخرجوا بسيوفهم على أهل بلدهم، فيكون فيه حتفهم واستئصالهم.

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة الأمير الآخر فقال: أيها الناس لا يغرنكم من أنفسكم كلام هذا المداهن، إنا واللّه قد استيقنا من أنفسنا أن قوماً يريدون الخروج علينا، ولنأخذن الوالد بالولد والولد بالوالد، والحميم بالحميم، والعريف بما في عرافته، حتى يدينوا بالحق ويذلوا للطاعة. فوثب إليه المسيب بن نجبة الفزاري فقطع كلامه فقال: يا ابن الناكثين أتهددنا بسيفك وغشمك؟ أنت واللّه أذل من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك، وإنا لنرجو أن نلحقك بهما قبل أن تخرج من هذا القصر. وساعد المسيب بن نجبة من وردٌ عن إبراهيم بن محمد بن طلحة جماعة من العمال، وخرجت فتنة وشرٌ كبير في المسجد، فنزل عبد اللّه بن يزيد الخطمي عن المنبر وحاولوا أن يوقعوا بين الأميرين فلم يتفق لهم ذلك، ثم ظهرت الشيعة أصحاب سليمان بن صرد بالسلاح، وأظهروا ما كان في أنفسهم من الخروج على الناس وركبوا مع سليمان بن صرد فقصدوا نحو الجزيرة، وكان من أمرهم ما سنذكره.

وأما المختار بن أبي عبيد اللّه الثقفي الكذاب فإنه قد كان بغيضاً إلى الشيعة من يوم طعن الحسين وهو ذاهب إلى الشام بأهل العراق، فلجأ إلى المدائن، فأشار المختار على عمه وهو نائب المدائن بأن يقبض على الحسين ويبعثه إلى معاوية فيتخذ بذلك عنده اليد البيضاء، فامتنع عمُّه من ذلك، فأبغضَتْه الشيعة بسبب ذلك، فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان وقتله ابن زياد، كان المختار يومئذ بالكوفة فبلغ ابن زياد أنه يقول: لأقومن بنصرة مسلم ولآخذن بثأره، فأحضره بين يديه وضرب عينه بقضيب كان بيده فشترها، وأمر بسجنه، فلما بلغ أخته سجنه بكت وجزعت عليه، وكانت تحت عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع عنده في إخراج المختار من السجن، فبعث يزيد إلى ابن زياد: أن ساعة وقوفك على هذا الكتاب تخرج المختار بن أبي عبيد من السجن، فلم يمكن ابن زياد غير ذلك، فأخرجه وقال له: إن وجدتك بعد ثلاثة أيام بالكوفة ضربت عنقك. فخرج المختار إلى الحجاز وهو يقول: واللّه لأقطعن أنامل عبيد اللّه بن زياد، ولأقتلن بالحسين بن علي عدد من قتل على دم يحيى بن زكريا. فلما استفحل أمر عبد اللّه بن الزبير بمكة بايعه المختار بن أبي عبيد، وكان من كبار الأمراء عنده، ولما حاصره الحصين بن نمير مع أهل الشام قاتل المختار دونه أشد القتال، فلما بلغه موت يزيد بن معاوية

واضطراب أهل العراق، نقم على ابن الزبير في بعض الأمر وخرج من الحجاز فقصد الكوفة فدخلها في يوم جمعة والناس يتهيئون للصلاة، فجعل لا يمر بملأ إلا سلم عليه وقال: أبشروا بالنصر والظفر بالأعداء. ودخل المسجد فصلى إلى سارية هنالك حتى أقيمت الصلاة، ثم صلى من بعد الصلاة حتى صليت العصر، ثم انصرف فسلم عليه الناس وأقبلوا إليه وعليه وعظموه، وجعل يدعو إلى إمامة المهدي محمد بن الحنفية، ويظهر الانتصار لأهل البيت، وأنه بصدد أن يقيم شعارهم، ويظهر منارهم، ويستوفي ثأرهم، ويقول للناس الذين قد اجتمعوا على سليمان بن صرد من الشيعة وقد خشي أن يبادروا إلى الخروج مع سليمان فجعل يخذلهم ويستميلهم إليه ويقول لهم: إني قد جئتكم من قبل ولي الأمر، ومعدن الفضل، ووصي الوصيّ، والإمام المهدي، بأمر فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء، وتمام النعماء، وأن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه إنما هو عشمة من العشم، وشنٌّ بال ليس بذي تجربة للأمور، ولا له علم بالحروب، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، وإني إنما أعمل على مثل قد مُثّل لي، وأمر قد بين لي، فيه عز وليكم، وقتل عدوكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا مني وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتباشروا، فإني لكم بكل ما تأملون وتحبون كفيل. فالتف عليه خلق كثير من الشيعة، ولكن الجمهور منهم مع سليمان بن صرد، فلما خرجوا مع سليمان إلى النخيلة قال عمر بن سعد بن أبي وقاص وشبث بن ربعي وغيرهما لعبد الله بن يزيد نائب الكوفة: إن المختار بن أبي عبيد أشد عليكم من سليمان بن صرد، فبعث إليه الشرط فأحاطوا بداره فأخذ فذهب به إلى السجن مقيّداً، وقيل بغير قيد. فأقام به مدة ومرض فيه.

قال أبو مخنف: فحدثني يحيى بن أبي عيسى أنه قال: دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزدي نعوده ونتعاهده. فسمعته يقول: أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لَدْن خطار، ومهند بتار، وجموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، وجبرت صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وادركت ثار أولاد النبيين، لم أبك على زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا دنا. قال: وكان كلما أتيناه وهو في السجن يردد علينا هذا القول حتى خرج.

ذكر هدم الكعبة وبنائها في أيام ابن الزبير

قال ابن جرير [تاريخه: ٥/٥٨٢]: "وفي هذه السنة هدم ابن الزبير الكعبة، وذلك لأنه مال جدارها مما رميت به من حجارة المنجنيق فهدم الجدران حتى وصل إلى أساس إبراهيم، وكان الناس يطوفون ويصلون من وراء ذلك، وجعل الحجر الأسود في تابوت في سَرَقة من حرير، وادخر ما كان في الكعبة من حلي وثياب وطيب، عند الخزان حتى أعاد ابن الزبير بناءها على ما كان رسول الله ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل، وقال الواقدي: لما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس في هدمها فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك، وقال ابن عباس: أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها، ولكن أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً بعث رسول الله ﷺ عليها فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رضي حتى يجدده فكيف ببيت ربكم؟!

ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام، ثم غدا في اليوم الرابع فبدأ بنقض الركن إلى الأساس، فلما وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلا بالحجر مشبكاً كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلا وأشهدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحِجْر فيه، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض، باب يدخل منه وباب يخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده، وشده بفضة لأنه كان قد تصدع، وجعل طول الكعبة سبعة وعشرين ذراعاً وكان طولها سبعة عشر ذراعاً فاستقصره، وزاد في وسع الكعبة عشرة أذرع، ولطخ جدرانها بالمسك وسترها بالديباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة وطاف بالبيت وصلى وسعى، وأزال ما كان البيت وفي المسجد من الحجارة ومن الزبالة، وما كان حولها من الدماء، وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق، واسود الركن وانصدع الحجر الأسود من النار التي كانت حول الكعبة.وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت في الصحيحين [خ(١٢٦)، (١٣٣٣)] [د(٢٠٢٨، ٢٠٢٩)؛(٨٧٥، ٨٧٦)، ج(٢٩٥٥)] وغيرهما من المسانيد [أحمد: ٦/٥٧] والسنن، من طرق عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا».

فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيراً، ثم لما غلبه الحجاج بن يوسف في سنة ثلاث وسبعين كما سيأتي وقتله وصلبه، هدم الحائط الشمالي وأخرج الحجر كما كان أولا، وأدخل الحجارة التي هدمها إلى جوف الكعبة فرضّها فيها، فارتفع الباب وسد الغربي، وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان في ذلك، ولم يكن بلغه الحديث، فلما بلغه الحديث قال: وددنا أنا تركنا وما تولى من ذلك.

وقد هم المهدي ابن المنصور أن يعيدها على ما بناها ابن الزبير، واستشار الإمام مالك بن أنس في ذلك، فقال: إني أكره أن يتخذها الخلفاء ملعبةً -يعني يتلاعبون في بنائها بحسب آرائهم- فهذا يرى رأي ابن الزبير، وهذا يرى رأي عبد الملك بن مروان، وهذا يرى رأياً آخر والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥/٥٨٢]: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير وكان عامله على المدينة أخوه عبيدة، وعلى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وعلى قضائها سعيد بن نمران، وامتنع شريح أن يحكم في زمان الفتنة، وعلى البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

وكان في أواخر هذه السنة وقعة مرج راهط كما قدمنا، وقد استقر ملك الشام لمروان بن الحكم، وذلك بعد ظفره بالضحاك بن قيس وقتله له في الوقعة.

وقيل إن فيها دخل مروان مصر وأخذها من نائبها الذي من جهة ابن الزبير، وهو عبد الرحمن بن جحدم. واستقرت يد مروان على الشام ومصر وأعمالها والله أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وستين

فيها اجتمع إلى سليمان بن صرد نحو من سبعة عشر ألفا، كلهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله. قال الواقدي: لما خرج الناس إلى النخيلة كانوا قليلا، فلم تعجب سليمان قلتهم، فأرسل حكيم بن منقذ فنادى في الكوفة بأعلى صوته: يا ثارات الحسين، فلم يزل ينادي حتى بلغ المسجد الأعظم، فسمع الناس فخرجوا إلى النخيلة وخرج أشراف الكوفة فكانوا قريبا من عشرين ألفا أو يزيدون، في ديوان سليمان بن صرد، فلما عزم على المسير بهم لم يصف معه منهم سوى أربعة آلاف، فقال المسيب بن نجبة لسليمان: إنه لا ينفعك الكاره، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، وباع نفسه لله عز وجل، فلا تنتظرن أحداً وامض لأمرك في جهاد عدوك واستعن بالله عليهم. فقام سليمان في أصحابه وقال: يا أيها الناس! من كان إنما خرج لوجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، ومن كان خروجه معنا للدنيا فليس منا ولا يصحبنا. فقال الباقون معه: ما للدنيا خرجنا، ولا لها طلبنا، فقيل له: أنسير إلى قتلة الحسين بالشام وقتلته عندنا بالكوفة كلهم مثل عمر بن سعد وغيره؟ فقال سليمان: إن ابن زياد هو الذي جهز الجيش إليه وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عدنا إلى أعدائه بالكوفة، ولو قاتلتموهم أولا، وهم أهل مصركم ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلا قد قتل أباه قد قتل أخاه أو حميمه، فيقع التخاذل، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد. فقالوا: صدقت. فنادى فيهم: سيروا على اسم الله تعالى، فساروا عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول.

وقال في خطبته: من كان خرج منكم للدنيا ذهبها وزبرجدها فليس معنا مما يطلب شيء، وإنما معنا سيوف على عواتقنا، ورماح في أكفنا، وزاد يكفينا حتى نلقي عدونا. فأجابوه إلى السمع والطاعة والحالة هذه، وقال لهم: عليكم بابن زياد الفاسق أولا، فليس له إلا السيف، وها هو قد أقبل من الشام قاصداً العراق. فصمم الناس معه على هذا الرأي.

فلما أزمعوا على ذلك بعث عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد أمراء الكوفة من جهة ابن الزبير، إلى سليمان بن صرد يقولان له: إنا نحب أن تكون أيدينا واحدة على ابن زياد، وأنهم يريدون أن يبعثوا معهم جيشا ليقويهم على ما هم قد قصدوا له، وبعثوا بريدا بذلك ينتظرهم حتى يقدموا عليه، فتهيأ سليمان بن صرد لقدومهم عليه في رؤوس الأمراء، وجلس في أبهته والجيوش محدقة به، وأقبل عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة في أشراف أهل الكوفة من غير قتلة الحسين، لئلا يطمعوا فيهم، وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص في هذه الأيام كلها لا يبيت إلا في قصر الإمارة عند عبد الله بن يزيد خوفا على نفسه، فلما اجتمع الأميران عند سليمان بن صرد قالا له وأشارا عليه أن لا يذهبوا حتى تكون أيديهم كلهم واحدة على قتال ابن زياد، ويجهزوا معهم جيشاً آخر، فإن أهل الشام جمع كثير وجم غفير، وهم يحاجفون عن ابن زياد، فامتنع سليمان من قبول قولهما وقال: إنا خرجنا لأمر لا نرجع عنه ولا نتأخر فيه. فانصرف الأميران راجعين إلى الكوفة، وانتظر سليمان بن صرد وأصحابه الذين كانوا قد واعدوهم من أهل البصرة وأهل المدائن أن يقدموا عليهم النخيلة في هذه السنة، فلم يقدموا عليهم ولا أحدٌ منهم، فقام سليمان بن صُرَد في أصحابه خطيباً وحرضهم على الذهاب لما خرجوا عليه، وقال: لو قد سمع إخوانكم بمسيركم للحقوكم سراعا. فخرج سليمان وأصحابه من النخيلة يوم الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول سنة خمس وستين، فسار بهم مراحل، ما يتقدمون مرحلة إلى نحو الشام إلا تخلف عنه طائفة من الناس الذين معه، فلما مروا بقبر الحسين صاحوا صيحة واحدة وتباكوا وباتوا عنده ليلة، وظلوا يوما يترحمون عليه ويستغفرون له ويترضون عنه ويتمنون أن لو كانوا ماتوا معه شهداء.

قلت: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة، لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين.

ولما أرادوا الانصراف جعل لا يسير أحد منهم حتى يأتي القبر فيترحم عليه ويستغفر له، حتى جعلوا يزدحمون أشد من ازدحامهم عند الحجر الأسود. ثم ساروا قاصدين الشام، فلما اجتازوا بقرقيسيا تحصن منهم زفر بن الحارث، فبعث إليه سليمان بن صرد: إنا لم نأت لقتالكم فأخرج إلينا سوقا فإنا إنما نقيم عندكم يوما أو بعض يوم. فأمر زفر بن الحارث أن يخرج السُّوق إليهم، وأمر للرسول إليه وهو المسيب بن نجبة بفرس وألف درهم. فقال: أما المال فلا. وأما الفرس فنعم.

وبعث زفر بن الحارث إلى سليمان بن صرد ورؤوس الأمراء الذين معه إلى كل واحد عشرين جزورا وطعاما وعلفا كثيرا، ثم خرج زفر بن الحارث فشيعهم، وسار مع سليمان بن صرد وقال له: إنه قد بلغني أن أهل الشام قد جهزوا جيشاً كثيفا وعدداً كثيراً، مع حصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وادهم بن محرز الباهلي وربيعة بن المخارق الغنوي، وجبلة بن عبد الله الخثعمي. فقال سليمان بن صرد: على الله توكلنا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. ثم عرض عليهم زفر بن الحارث أن يدخلوا مدينته أو يكونوا عند بابها، فإن جاءهم أحد كان معهم عليه، فأبوا أن يقبلوا شيئاً من ذلك وقالوا: قد عرض علينا أهل بلدنا مثل ذلك فامتنعنا. قال: فإذا أبيتم ذلك فبادروهم إلى عين الوردة فيكون الماء والمدينة والأسواق والسباق خلف ظهوركم، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، ثم أشار عليهم بما يعتمدونه في حال القتال، فأثنى عليه سليمان بن صرد والناس خيراً، ثم رجع عنهم، وسار سليمان بن صرد فبادر إلى عين الوردة فنزل غربيها، وأقام خمساً هناك قبل وصول أعدائه إليه.

وقعة عين الوردة

واستراح سليمان وأصحابه واطمأنوا، فلما اقترب أهل الشام إليهم خطب سليمان أصحابه فرغبهم في الآخرة وزهدهم في الدنيا، وحثهم على الجهاد، وقال: إن قتلت فالأمير عليكم المسيب بن نجبة، فإن قتل فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فعبد الله بن وال، فإن قتل فرفاعة بن شداد.

ثم بعث بين يديه المسيب بن نجبة في أربع مئة فارس، فأغاروا على جيش شرحبيل بن ابن ذي الكلاع وهم غارون، فقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين، واستاقوا نعماً، وأتى الخبر إلى عبيد الله بن زياد فأرسل بين يديه الحصين بن نمير في اثني عشر ألفاً فصبح سليمان بن صرد وجيشه فتوافقوا في يوم الأربعاء لثمان بقين من جمادى الأولى، وحصين بن نمير قائم في اثني عشر ألفاً، وقدمها كل من الفريقين لصاحبه، فدعا الشاميون أصحاب سليمان إلى الدخول في طاعة مروان بن الحكم، ودعا أصحاب سليمان الشاميين إلى أن يسلموا إليهم عبيد الله بن زياد فيقتلوه عن الحسين، وامتنع كل من الفريقين أن يجيب إلى ما دعا إليه الآخر، فاقتتلوا قتالا شديداً عامة يومهم إلى الليل، وكانت الدائرة فيه للعراقيين على الشاميين، فلما أصبحوا أصبح ابن ذي الكلاع وقد وصل إلى الشاميين في

ثمانية عشر آلاف فارس، وقد أنبه وشتمه عبيد الله ابن زياد، فاقتتل الناس في هذا اليوم قتالا لم ير الشيب والمرد مثله قط، لا يحجز بينهم إلا أوقات الصلوات إلى الليل، فلما أصبح الناس من اليوم الثالث وصل إلى الشاميين أدهم بن محرز في عشرة آلاف، وذلك في يوم الجمعة، فاقتتلوا قتالا شديداً إلى حين ارتفاع الضحى، ثم استدار أهل الشام بأهل العراق وأحاطوا بهم من كل جانب، فخطب سليمان بن صرد الناس وحرضهم على الجهاد، فاقتتل الناس قتالا عظيماً جداً، ثم ترجل سليمان بن صرد وكسر جفن سيفه ونادى يا عباد الله، من أراد الرواح إلى الجنة والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فليأت إليّ، فترجل معه ناس كثيرون وكسروا جفون سيوفهم، وحملوا حتى صاروا في وسط القوم، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة حتى خاضوا في الدماء، وقتل سليمان بن صرد، رماه رجل يقال له يزيد بن الحصين بسهم فوقع، ثم وثب ثم وقع ثم وثب ثم وقع، وهو يقول: فزت ورب الكعبة، فأخذ الراية المسيب بن نجبة فقاتل بها قتالا وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ مَيَّالَةُ الذَّوائِبِ … وَاضِحَةُ اللَّبَّاتِ والتَّرائِبِ
أنِّي غَداةَ الرَّوْعِ والتَّغالُبِ … أشْجَعُ مِنْ ذِي لِبْدَةٍ مُواثِبِ
قَطَّاعُ أقْرانٍ مَخُوفُ الجانِبِ

ثم قاتل قتالا فقضى ابن نجبة نحبه، ولحق صحبته، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل فقاتل قتالا شديداً أيضاً، وهو يقول: رحم الله أخويَّ، منهم من قضى نَحْبَه، ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً؛ وحمل حينئذ ربيعة بن مخارق على أهل العراق حملة منكرة، وتبارز هو وعبد الله بن سعد بن نفيل، ثم اتحدا فحمل ابن أخي ربيعة على عبد الله بن سعد فقتله، ثم احتمل عمه، فأخذ الراية عبد الله بن وال، فحرض الناس على الجهاد وجعل يقول: الرواح إلى الجنة - وذلك بعد العصر - وحمل بالناس ففرق من كان حوله ثم قتل - وكان من الفقهاء المفتين - قتله أدهم بن محرز الباهلي أمير حرب الشاميين ساعتئذ، من جهة الشاميين فأخذ الراية رفاعة بن شداد فانحاز بالناس وقد دخل الظلام، ورجع الشاميون إلى رحالهم، وانشمر رفاعة بمن بقي معه راجعا إلى بلاده، فلما أصبح الشاميون إذا العراقيون قد كروا راجعين إلى بلادهم، فلم يبعثوا وراءهم طالباً ولا أحداً، فقطع رفاعة بمن معه الخابور ومر على قرقيسيا فبعث إليهم زفر بن الحارث الطعام والعلف والأطباء فأقاموا ثلاثاً حتى استراحوا ثم رحلوا، فلما وصلوا إلى هيت إذا سعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن قاصدين إلى نصرتهم، فلما أخبروه بما كان من أمرهم وما حل بهم، ونعوا إليه أصحابهم ترحموا عليهم واستغفروا لهم وتباكوا على إخوانهم، وانصرف أهل المدائن إليها، ورجع راجعة أهل الكوفة إليها، وقد قتل منهم خلق كثير وجم غفير، وإذا المختار بن أبي عبيد كما هو في السجن لم يخرج منه بَعْدُ، فكتب إلى رفاعة بن شداد يعزيه فيمن قتل منهم ويترحم عليهم ويغبطهم بما نالوا من الشهادة وجزيل الثواب، ويقول: مرحباً بالذين أعظم الله أجورهم ورضي عنهم، والله ما خطا منهم أحد خطوة إلا كان ثواب الله له فيها أعظم من الدنيا وما فيها، وإن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه في أرواح النبيين والشهداء والصالحين، وبعد فأنا الأمير المأمون، قاتل الجبارين والمفسدين إن شاء الله، فأعدوا واستعدوا وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله: والطلب بدماء أهل البيت. وذكر كلاماً كثيراً في هذا المعنى.

وقد كان قبل قدومهم أخبر الناس بهلاكهم عن رَئِيِّه الذي كان يأتي إليه من الشياطين، فإنه قد كان يأتيه شيطان فيوحي إليه قريباً مما كان يوحي شيطان مسيلمة إليه، وكان جيش سليمان بن صرد وأصحابه يسمى بجيش التوابين.

وقد كان سليمان بن صرد الخزرجي صحابياً جليلا نبيلا عابداً زاهداً، وروى عن النبي ﷺ أحاديث في الصحيحين وغيرهما، وشهد مع علي صفين، وكان أحد من كان يجتمع الشيعة في داره لبيعة الحسين، وكتب إلى الحسين فيمن كتب بالقدوم إلى العراق، فلما قدمها تخلوا عنه وقتل بكربلاء، ورأى هؤلاء أنهم كانوا سببا في قدومه، وأنهم خذلوه حتى قتل هو وأهل بيته فندموا على ما فعلوا معه، ثم اجتمعوا في هذا الجيش وسموا جيشهم جيش التوابين وسموا سليمان بن صرد أمير التوابين، فقتل سليمان رضي الله عنه في هذه الوقعة بعين وردة سنة خمس وستين، وقيل سنة سبع وستين، والأول أصح. وكان عمره يوم قتل ثلاثاً وتسعين سنة رحمه الله.

وأما المسيب بن نجبة بن ربيعة الفزاري فإنه قدم مع خالد بن الوليد من العراق وشهد فتح دمشق، ثم عاد إلى العراق وشهد مع علي صفين وغيرها، وكان أحد الكبار الذين خرجوا يطالبونَ بدم الحسين، رضي الله عنه، وحمل رأسه ورأس سليمان بن صُرد إلى مروان بن الحكم بعد الوقعة، وكتب أمراء الشاميين إلى مروان بما فتح الله عليهم وأظفرهم من عدوهم، فخطب الناس وأعلمهم بما كان من أمر الجنود ومن قتل من أهل العراق. وقد قال: أهلك الله رؤوس الضلال سليمان بن صرد وأصحابه، وعلق الرؤوس بدمشق، وكان مروان بن الحكم قد عهد بالأمر من بعده إلى ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز، وأخذ بيعة الأمراء على ذلك في هذه السنة، قاله ابن جرير [تاريخه: ٥/٦١٠] وغيره.

وفيها دخل مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد الأشدق إلى الديار المصرية فأخذاها من يد نائبها الذي كان لعبد الله بن الزبير، وهو عبد الرحمن بن جحدم، وكان سبب ذلك أن مروان قصدها فخرج إليه نائبها ابن جحدم فقابله مروان ليقاتله فاشتغل به، وخلص عمرو بن سعيد بطائفة من الجيش من وراء عبد الرحمن بن جحدم فدخل مصر فملكها، وهرب عبد الرحمن ودخل مروان إلى مصر فملكها، وجعل عليها ولده عبد العزيز.

وفيها بعث ابن الزبير أخاه مصعباً ليفتح له الشام، فبعث إليه مروان عمرو بن سعيد فتلقاه إلى فلسطين فهرب منه مصعب بن الزبير وكر راجعاً ولم يظفر بشيء. واستقر ملك الشام ومصر لمروان.

وقال الواقدي: إن مروان حاصر مصر فخندق عبد الرحمن بن جحدم على البلد خندقاً، وخرج في أهل مصر إلى قتاله، وكانوا يتناوبون القتال ويستريحون، ويسمى ذلك يوم التراويح، واستمر القتل في خواص أهل البلد فقتل منهم خلق كثير، وقتل يومئذ عبد الله بن يزيد بن معد يكرب الكلاعي أحد الأشراف. ثم صالح عبد الرحمن مروان على أن يخرج إلى مكة بماله وأهله، فأجابه مروان إلى ذلك وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان بيده، وتفرق الناس وأخذوا في دفن موتاهم والبكاء عليهم، وضرب مروان عنق ثمانين رجلا تخلفوا عن مبايعته، وضرب عنق الأكيدر بن حملة اللخمي، وكان من قتلة عثمان، وذلك في نصف جمادى الآخر يوم توفي عبد الله بن عمرو بن العاص، فما قدروا أن يخرجوا بجنازته فدفنوه في داره، واستولى مروان على مصر وأقام بها شهرين، ثم استعمل عليها ولده عبد العزيز، وترك عنده أخاه بشر بن مروان وموسى بن نصير وزيراً له، وأوصاه بالإحسان إلى الأكابر ورجع إلى الشام.

وفيها جهز مروان جيشين أحدهما مع حبيش بن دلجة القَيْني ليأخذ له

المدينة، وكان من أمره ما سنذكره، والآخر مع عبيد الله بن زياد إلى العراق ليتزعه من نواب ابن الزبير، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا جيش التوابين مع سليمان بن صرد وكان من أمرهم ما ذكرناه عند عين الوردة قتلوا أكثر أصحاب سليمان بن صرد معه. واستمروا ذاهبين، فلما كانوا بالجزيرة بلغهم موت مروان بن الحكم.

وكانت وفاته في شهر رمضان من هذه السنة، وكان سبب موته أنه تزوج بأم خالد امرأة يزيد بن معاوية وهي أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة، وإنما أراد مروان بتزويجه إياها ليصغر ابنها خالداً في أعين الناس، فإنه قد كان في نفوس كثير من الناس منه أن يملكوه بعد أخيه معاوية، فتزوج أمه ليصغر أمره، فبينما هو ذات يوم داخل إلى عند مروان، إذ جعل مروان يتكلم فيه عند جلسائه، فلما جلس قال له فيما خاطبه به: يا ابن الرطبة الاست. فذهب خالد إلى أمه فأخبرها بما قال له، فقالت: اكتم ذلك ولا تعلمه أنك أعلمتني بذلك. فلما دخل عليها مروان قال لها: هل ذكرني خالد عندك بسوء؟ فقالت له: وما عساه يقول لك وهو يحبك ويعظمك؟ ثم إن مروان رقد عندها فلما أخذه النوم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه وتحاملت عليها هي وجواريها حتى مات غماً، وكان ذلك في ثالث شهر رمضان سنة خمس وستين بدمشق، وله من العمر ثلاث وستون سنة وقيل إحدى وستون وقيل: إحدى وثمانون سنة، وكانت إمارته تسعة أشهر، وقيل عشرة أشهر إلا ثلاثة أيام.

وهذه ترجمة مروان بن الحكم

جدّ خلفاء بني أمية الذين كانوا بعده

هو

■ مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك ويقال أبو الحكم، ويقال أبو القاسم، وهو صحابي عند طائفة كثيرة لأنه ولد في حياة النبي ﷺ وروى عنه في حديث صلح الحديبية، وفي رواية في صحيح البخاري [٤١٧٨-٤١٨١] عن مروان والمسور بن مخرمة الحديث بطوله، وروى عن عمر وعثمان وكان كاتبه وعلي وزيد بن ثابت وبُسْرة بنت صفوان الأسدية وكانت حماته، وقال الحاكم أبو أحمد: كانت خالته.

ولا منافاة بين كونها حماته وخالته. وروى عنه ابنه عبد الملك وسهل بن سعد وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلي بن الحسين زين العابدين ومجاهد وغيرهم.

قال الواقدي. ومحمد بن سعد: أدرك النبي ﷺ ولم يحفظ عنه شيئاً، وكان عمره ثمان سنين حين توفي النبي ﷺ. وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من التابعين [الطبقات الكبرى: ٥/٣٥].

وقد كان مروان من سادات قريش وفضلائها.

روى ابن عساكر وغيره أن عمر بن الخطاب خطب امرأة إلى أمها فقال: إن جريراً البَجَلي يخطب إليكم أسلم. وهو سيد شباب المشرق، ومروان بن الحكم وهو سيد شباب قريش، وعبد الله بن عمر وهو من قد علمتم، وعمر؛ فقالت المرأة: أجاد يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قالت: قد زوجناك يا أمير المؤمنين.

وقد كان عثمان بن عفان يكرمه ويعظمه، وكان كاتب الحُكم بين يديه، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار، وبسببه حصر عثمان بن عفان فيها.

وألح عليه أولئك أن يسلم مروان إليهم فامتنع عثمان أشد الامتناع، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالا شديداً، وقتل بعض أولئك الخوارج، وكان على الميسرة يوم الجمل، ويقال: إنه رمى طلحة بسهم في ركبته فقتله فالله أعلم.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: كان علي يوم الجمل حين انهزم الناس يكثر السؤال عن مروان فقيل له في ذلك فقال: إنه تعطفني عليه رحم ماسة، وهو سيد من شباب قريش.

وقال ابن المبارك عن جرير بن حازم عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر أنه قال لمعاوية: من ترى لهذا الأمر من بعدك؟ فقال: وأما القارئ لكتاب الله. الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله، فمروان بن الحكم.

وقد استنابه على المدينة غير مرة، يعزله ثم يعيده إليها، وأقام للناس الحج في سنين متعددة.

وقال حنبل عن الإمام أحمد، قال: يقال: كان عند مروان قضاء. وكان يتّبع قضاء عمر بن الخطاب.

وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول وذكر مروان يوماً فقال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة ثم أصبحت فيما أنا فيه، من هِراقة الدماء وهذا الشأن.

وقال إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد وغيره. قال: كان مروان إذا ذكر الإسلام قال:

بنعمة ربي لا بما قدمت يدي ... ولا يبرّاتي إنني كنت خاطئا

وقال الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم أبي النضر أنه قال: شهد مروان جنازة فلما صلى عليها انصرف، فقال أبو هريرة: أصاب قيراطا وحرم قيراطا، فأخبر بذلك مروان فأقبل يجري حتى بدت ركبتاه، فقعد حتى أذن له.

وروى المدائني عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد أن مروان كان أسلف علي بن الحسين حين يرجع إلى المدينة بعد مقتل أبيه ستة آلاف دينار، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه عبد الملك أن لا يسترجع من علي بن الحسين شيئاً، فبعث إليه عبد الملك فامتنع من قبولها، فألح عليه فقبلها.

وقال الشافعي: أنبأنا حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان ولا يعيدانها، ويعتدان بها.

وقد روى عبد الرزاق [المصنف (٥٦٤٩)] عن الثوري عن قيس ابن مسلم عن طارق بن شهاب قال: أول من قدم الخطبة على الصلاة يوم العيد مروان، فقال له رجل: خالفت السنة، فقال له مروان: إنه قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

قالوا: ولما كان نائباً بالمدينة كان إذا وقعت معضلة جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها. قالوا: وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها فنسب إليه الصاع، فقيل: صاع مروان.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا إبراهيم بن حمزة حدثني عليّ بن أبي علي اللّهبي عن إسماعيل بن أبي سعيد الخدري عن أبيه. قال: خرج أبو هريرة من عند مروان فلقيه قوم قد خرجوا من عنده فقالوا له: إنه أشهدنا الآن على مائة رقبة أعتقها الساعة، قال: فغمز أبو هريرة يدي وقال: يا أبا

سعيد، يكُ من كسب طيب خير من مائة رقبة. قال الزبير: اليَكُ: الواحد.

وقال الإمام أحمد [٨٠/٣]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد. قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنو أبي فلان ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولاً، ودين الله دخلاً، وعباد الله خولاً».

ورواه أبو يعلى [مسنده(١١٥٢)] عن زكريا بن زحمويه عن صالح بن عمر عن مطرف عن عطية عن أبي سعيد. قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا دين الله دخلاً، وعباد الله خولاً، ومال الله دولاً».

وقد رواه الطبراني عن أحمد بن عبد الوهاب عن أبي المغيرة عن أبي بكر بن أبي مريم عن راشد بن سعد عن أبي ذر. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلاً». وذكره، وهذا منقطع.

ورواه العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة من قوله: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا» فذكره.

ورواه البيهقي [الدلائل: ٥٠٧/٦، ٥٠٨] وغيره من حديث ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن موهب عن معاوية وعبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين اتخذوا مال الله بينهم دولا، وعباد الله خولا، وكتاب الله دخلا فإذا بلغوا ستة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة» وأن رسول الله ﷺ ذكر عبد الملك بن مروان فقال: « أبو الجبابرة الأربعة». وهذه الطرق كلها ضعيفة.

وروى أبو يعلى [مسنده (٦٤٦١)] وغيره من غير وجه عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ رأى في المنام أن بني الحكم ينزون على منبره ويرقون، فأصبح كالمتغيظ، وقال: «رأيت بني الحكم ينزون على منبري نزو القردة»، فما رئي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات.

ورواه الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا وفيه «فأوحى الله إليه إنما هي دنيا أعطوهـا». فقرت عينه وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يعني بلاء للناس. وهذا مرسل وسنده إلى سعيد ضعيف. وقد ورد في هذا المعنى أحاديث موضوعة، فلهذا أضربنا صفحاً عن إيرادها لعدم صحتها.

وقد كان أبوه الحكم من أكبر أعداء النبي ﷺ، وإنما أسلم يوم الفتح، وقدم الحكم المدينة ثم طرده النبي ﷺ إلى الطائف، ومات بها، ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان لأنه زور على لسانه كتاباً إلى مصر بقتل أولئك الوفد، ولما كان متولياً على المدينة لمعاوية كان يسب علياً كل جمعة على المنبر، وقال له الحسن بن علي: لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه فقال: لعن الله الحكم وما ولد والله أعلم.

وقد تقدم أن حسان بن مالك بن بحدل لما قدم عليه مروان أرض الجابية، أعجبه إتيانه إليه، فبايعه وبايع أهل الأردن على أنه إذا انتظم له الأمر نزل عن الإمرة لخالد بن يزيد، ويكون لمروان إمرة حمص، ولعمرو بن سعيد نيابة دمشق.

وكانت البيعة لمروان يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة أربع وستين. قاله الليث بن سعد وغيره.

وقال الليث: وكانت وقعة مرج راهط في ذي الحجة من هذه السنة بعد عيد النحر بيومين.

قالوا: فغلب الضحاك بن قيس واستوثق له ملك الشام ومصر، فلما استقر ملكه في هذه البلاد بايع من بعده لولده عبد الملك، ثم من بعده لولده عبد العزيز - والد عمر بن عبد العزيز - وترك البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، لأنه كان لا يراه أهلاً للخلافة، ووافقه على ذلك حسان بن مالك، وإن كان خالا لخالد بن يزيد، وهو الذي قام بأعباء بيعة عبد الملك، ثم إن أم خالد دبرت أمر مروان فسمته ويقال: بل وضعت على وجهه وهو نائم وسادة فمات مخنوقاً ثم إنها أعلنت الصراخ هي وجواريها وصحن: مات أمير المؤمنين فجأة. فقام من بعده ولده عبد الملك بن مروان كما سنذكره.

وقال عبد الله بن أبي مذعور: حدثني بعض أهل العلم قال: كان آخر ما تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقش خاتمه العزة لله.

وقال الأصمعي: حدثنا عدي بن أبي عمارة عن أبيه عن حرب بن زياد قال: كان نقش خاتم مروان: آمنت بالعزيز الرحيم.

وكانت وفاته بدمشق عن إحدى -وقيل: ثلاث- وستين سنة.

وقال أبو معشر وغير واحد: كان عمره يوم توفي إحدى وثمانين سنة.

وقال خليفة: حدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده قال: مات مروان بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وقال غيره: عشرة أشهر.

وقال ابن أبي الدنيا وغيره. كان قصيراً أحمر الوجه أوقص دقيق العنق كبير الرأس واللحية، وكان يلقب خيط باطل.

قال الحافظ ابن عساكر: وذكر سعيد بن كثير بن عفير أن مروان مات حين انصرف من مصر بالصُّنَّبْرةَ ويقال بلُدٌ، وقد قيل إنه مات بدمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير.

وكان كاتبه عبيد بن أوس، وحاجبه المنهال مولاه، وقاضيه أبو إدريس الخولاني، وصاحب شرطته يحيى بن قيس الغساني، وكان له من الولد عبد الملك، وعبد العزيز، ومعاوية. وغير هؤلاء، وكان له عدة بنات من أمهات شتى.

خلافة عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة في حياة أبيه، فلما مات أبوه في ثالث رمضان من هذه السنة أعني سنة خمس وستين جددت له البيعة بدمشق ومصر وأعمالهما، فاستقرت يده على ما كانت يد أبيه عليه، وقد كان أبوه قبل وفاته بعث بعثين أحدهما مع عبيد الله بن زياد إلى العراق لينتزعها من نواب ابن الزبير، فلقي في طريقه جيش التوابين مع سليمان بن صرد عند عين الوردة، فكان من أمرهم ما تقدّم، من ظفره بهم، وقتله أميرهم وأكثرهم. والبعث الآخر مع جيش بن دلجة إلى المدينة ليرتجعها من نائب ابن الزبير، فسار نحوها، فلما انتهى إليها هرب نائبها جابر بن الأسود بن عوف، وهو ابن أخي عبد الرحمن بن عوف، فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير وهو الحارث بن عبد الله بن ربيعة، جيشاً من البصرة إلى حبيش بن دلجة ليخرجوه من المدينة، فلما سمع بهم حبيش بن دلجة سار إليهم. وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائباً على المدينة، وأمره أن يسير في طلب حبيش، فسار في طلبهم حتى لحقهم بالربذة فرمى يزيد بن سياه حبيشاً بسهم فقتله، وقتل بعض أصحابه وهزم الباقون، وتحصن منهم خمسمائة في

المدينة ثم نزلوا على حكم عباس بن سهل فقتلهم صبراً، ورجعَ فلُّهم إلى الشام.

قال ابن جرير[تاريخه: ٦١٢/٥]: ولما دخل يزيد بن سياه الأسواري قاتل حبيش بن دلجة إلى المدينة مع عباس بن سهل كان عليه ثياب بياض وهو راكب برذوناً أشهب، فما لبث أن اسودت ثيابه ودابته مما يتمسح الناس به ومن كثرة ما صبوا عليه من الطيب والمسك.

وقال ابن جرير[تاريخه: ٦١٣/٥-٦١٥]: وفي هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة.

وفيها قتل نافع بن الازرق وهو رأس الخوارج ورأس أهل البصرة، مسلم بن عبيس فارس أهل البصرة، ثم قتله ربيعة السَّليطي وقتل بينهما نحو خمسة أمراء، وقتل في وقعة الخوارج قرة بن إياس المزني أبو معاوية، وهو من الصحابة. ولما قتل نافع بن الأزرق رأست الخوارج عليهم، عبيد الله بن ماحوز، فسار بهم إلى المدائن فقتلوا أهلها ثم غلبوا على الأهواز وغيرها، وجبوا الأموال وأتتهم الأمداد من اليمامة والبحرين، ثم ساروا إلى أصفهان وعليها عتاب بن ورقاء الرياحي، فالتقاهم فهزمهم، ولما قتل أمير الخوارج ابن ماحوز كما سنذكر، أقاموا عليهم قطري بن الفجاءة أميراً.

ثم أورد ابن جرير [تاريخه: ٦١٣/٥-٦١٩] قصة قتالهم مع أهل البصرة بمكان يقال له دولاب، وكانت الدولة للخوارج على أهل البصرة، وخاف أهل البصرة من الخوارج أن يدخلوا البصرة، فبعث ابن الزبير فعزل نائبها عبد الله بن الحارث المعروف ببَبَّة، بالحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقباع، وأرسل ابن الزبير المهلب بن أبي صفرة الأزدي على عمل خراسان ، فلما وصل إلى البصرة قالوا له: إن قتال الخوارج لا يصلح إلا لك، فقال: إن أمير المؤمنين قد بعثني إلى خراسان، ولست أعصي أمره فاتفق أهل البصرة مع أميرهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على أن كتبوا كتاباً على لسان ابن الزبير إلى المهلب يأمره فيه بالمسير للخوارج ليكفهم عن الدخول إلى البصرة، فلما قرىء عليه الكتاب اشترط على أهل البصرة أن يقوي جيشه من بيت مالهم وأن يكون له ما غلب عليه من أموال الخوارج، فأجابوه إلى ذلك، ويقال إنهم كتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأمضى لهم ذلك وسوغه، فسار إليهم المهلب وكان شجاعاً بطلا صنديداً، فلما أراد قتال الخوارج أقبلوا إليه يزفون في عدة لم ير مثلها من الدروع والزرود والخيول والسلاح، وذلك أن لهم مدة يأكلون تلك النواحي، وقد صار لهم تحمل عظيم مع شجاعة لا تُداني، وإقدام لا يسامي، وقوة لا تباري، وسبق إلى حومه الوغى لا يجارى فلما تواقف الناس بمكان يقال له سِلَّى وسِلَّبْرى ابري، اقتتلوا قتالا شديداً، وصبر كل من الفريقين صبراً باهراً، وكان المهلب في نحو من ثلاثين ألفاً، ثم إن الخوارج حملوا حملة منكرة، فانهزم أصحاب المهلب لا يلوي والد على ولد، ولا يلتفت أحد إلى أحد، ووصل إلى البصرة فُلُّهم، وأما المهلب فإنه سبق المنهزمين فوقف لهم بمكان مرتفع من الأرض، وجعل ينادي: إلى عباد الله، فاجتمع إليه من جيشه ثلاثة آلاف من الفرسان الشجعان، فقام فيهم خطيباً فقال في خطبته: أما بعد أيها الناس، فأن الله تعالى ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، وأنتم فرسان أهل المصر وأهل النصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزموا معكم الآن ﴿ولَوْ كَانوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلا خَبَالاً﴾ ثم قال: عزمت على كل رجل منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا إلى عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيولهم في طلب إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم، وتقتلوا أميرهم. ففعل الناس ذلك، فزحف بهم المهلب بن أبي صفرة على عسكر الخوارج فقتل منهم خلقاً كثيراً نحواً من سبعة آلاف، وقتل عبيد الله بن الماحوز في جماعة كثيرة من الأزارقة، واحتاز من أموالهم شيئاً، كثيراً، وقد أرصد المهلب خيولا بينه وبين الذين يرجعون من طلب أهل البصرة، فجعلوا يقتطعون دون قومهم، وانهزم فلهم إلى كرمان وأرض أصبهان، وأيام المهلب بالأهواز حتى قدم مصعب بن الزبير إلى البصرة، وعزل عنها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة كما سيأتي قريباً.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦٢٢/٥]: وفي هذه السنة وجه مروان بن الحكم قبل مهلكه ابنه محمداً إلى الجزيرة، وذلك قبل مسيرة إلى مصر.

قلت: محمد بن مروان هذا هو والد مروان الحمار، وهو مروان بن محمد بن مروان، وهو آخر خلفاء بني أمية، ومن يده استلب الخلافة العباسيون كما سيأتي.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦٢٢/٥]: وفي هذه السنة عزل ابن الزبير أخاه عبيدة الله عن إمرة المدينة وولاها أخاه مصعباً، وذلك أن عبيدة الله خطب الناس فقال في خطبته: وقد رأيتم ما نصع الله بقوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم، فلما بلغت أخاه قال: إن هذا لهو التكلف، وعزله. فسُمِّي مقوم الناقة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦٢٢/٥]: وفي آخرها عزل ابن الزبير عن الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وولى عليها عبد الله بن مطيع الذي كان أمير المهاجرين يوم الحرة، لما خلعوا يزيد.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦١٢/٥،٦١٣]: وفي هذه السنة كان الطاعون الجارف بالبصرة.

وقال ابن الجوزي في المنتظم[٢٥/٦،٢٦]: كان في سنة أربع وستين، وقد قيل: إنما كان في سنة تسع وستين.

وهذا هو المشهور الذي ذكره شيخنا الذهبي [تاريخ الإسلام حوادث ووفيات ٦١-٨٠ص٦٦، ٦٧] وغيره، وكان معظم ذلك بالبصرة، وكان ذلك في ثلاثة أيام، فمات في أول يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفاً، وفي اليوم الثاني منها أحدٌ وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفاً، وأصبح الناس في اليوم الرابع موتى إلا قليلاً من آحاد الناس، حتى ذكر أن أم الأمير بها ماتت فلم يوجد لها من يحملها، حتى استأجروا لها أربعة أنفس.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا عبيد الله حدثنا أحمد بن عصام حدثني معدي عن رجل يكنى أبا النُّفيل، وكان قد أدرك زمن الطاعون، قال: كنا نطوف بالقبائل وندفن الموتى، فلما كثروا لم نقو على الدفن، فكنا ندخل الدار وقد مات أهلها فنسد بابها. قال: فدخلنا داراً ففتشناها فلم نجد فيها أحداً حياً فسددنا بابها، فلما مضت الطواعين كنا نطوف تنزع تلك السُّدَد عن الأبواب، ففتحنا سدة الباب الذي كنا فتشناه فإذا نحن بغلام في وسط الدار طري دهين، كأنما أخذ ساعتئذ من حجر أمه، قال: ونحن وقوف على الغلام نتعجب منه فدخلت كلبة من شق في الحائط فجعلت تلوذ بالغلام يحبو إليها حتى مص من لبنها، قال معدي: وأنا رأيت ذلك الغلام في مسجد البصرة وقد قبض على لحيته.

قال ابن جرير [تاريخه:٦٢٢/٥]: وفي هذه السنة بنى عبد الله بن الزبير الكعبة البيت الحرام، يعني أكمل بناءها وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦٢٢/٥]: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثني

عبد العزيز بن خالد بن رستم الصنعاني أبو محمد حدثني زياد بن جبل أنه كان بمكة يوم كان عليها ابن الزبير، فسمعه يقول: حدثتني أمي أسماء بنت أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «لولا قرب عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيد في الكعبة من الحجر». قال: فأمر ابن الزبير فحفروا فوجدوا قلاعاً أمثال الإبل فحركوا منها صخرة فبرقت برقة فقال: أقروها على أساسها، فبناها ابن الزبير وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر.

قلت: هذا الحديث له طرق متعددة عن عائشة في الصحاح [خ(١٢٦)،م(١٣٣٣)]والحسان والمسانيد [مسند أحمد: ٥٧/٦، ٦٧]، وموضوع سياق طرق ذلك في كتاب الأحكام إن شاء الله تعالى.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٦٢٣/٥-٦٢٦] في هذه السنة حروباً جرت بين عبد الله بن خازم بخراسان، وبين الحريش بن هلال القريعي يطول تفصيلها.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان على المدينة مصعب بن الزبير، وعلى الكوفة عبد الله بن مطيع، وعلى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

قال الواقدي: وممن توفي فيها من الأعيان عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل أبو محمد السهمي كان من نجباء الصحابة وعلمائهم وعبادهم، وكتب عن النبي ﷺ كثيراً، أسلم قبل أبيه، ولم يكن أصغر منه إلا باثني عشرة سنة، وكان واسع العلم مجتهداً في العبادة، عاقلا، وكان يلوم أباه في القيام مع معاوية، وكان سميناً، وكان يقرأ الكتابين والتوراة والفرقان، وقيل إنه بكى حتى زاغت عيناه، يقوم الليل ويصوم يوماً ويفطر يوماً ويصوم يوماً. استنابه معاوية على الكوفة ثم عزله عنها بالمغيرة بن شعبة، توفي في هذه السنة بمصر. وقتل بمكة عبد الله بن مسعدة الفزاري، له صحبة، نزل دمشق وقيل إنه من سبي فزارة.

ثم دخلت سنة ست وستين

وفيها وثب المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب بالكوفة ليأخذ ثأر الحسين بن علي فيما يزعم، وأخرج عنها عاملها عبد الله بن مطيع، وكان سبب ذلك أنه لما رجع أصحاب سليمان بن صرد مغلوبين إلى الكوفة وجدوا المختار بن أبي عبيد مسجوناً فكتب إليهم يعزيهم ويعدهم ويُمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وقال لهم فيما كتب إليهم خفية: أبشروا فإني لو قد خرجت إليهم جردت فيما بين المشرق والمغرب من أعدائكم السيف فجعلتهم بإذن الله ركاماً، وقتلتهم. فذاً وتوأماً، فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى، ولا يبعد الله إلا من أبى وعصى.

فلما وصلهم الكتاب قرؤوه سراً وردوا إليه: إنا كما تحب، فمتى أحببت أخرجناك من محبسك، فكره أن يخرجوه من مكانه على وجه القهر لنواب الكوفة، فتلطف فكتب إلى زوج أخته صفية، وكانت امرأة صالحة، وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب، يسأله أن يشفع في خروجه من محبسه عند نائبي الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فكتب ابن عمر إليهما يشفع عندهما فيه فلم يمكنهما رده.

وكان فيما كتب إليهما ابن عمر: قد علمتما ما بيني وبينكما من الود وما بيني وبين المختار من القرابة والصهر، وأنا أقسم عليكما لما خليتما سبيله والسلام.

فاستدعيا به فضمنه جماعة من أصحابه، واستحلفه عبد الله بن يزيد إن هو بغى للمسلمين غائلة فعليه ألف بدنة ينحرها تجاه الكعبة، وكل مملوك له - من عبد وأمة- حر، فالتزم لهما بذلك، ولزم منزله، وجعل يقول: قاتلهما الله، أما حلفي بالله، فإني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير، وأما إهدائي ألف بدنة فيسير، وأما عتقي مماليكي فوددت أنه قد استتم لي هذا الأمر ولا أملك مملوكاً واحداً.

واجتمعت الشيعة عليه وكثر أصحابه وبايعوه في السر. وكان الذي يأخذ البيعة له ويحرض الناس عليه خمسة، وهم السائب بن مالك الأشعري، ويزيد بن أنس، وأحمد بن شميط، ورفاعة بن شداد، وعبد الله بن شدّاد الجشمي.

ولم يزل أمره يقوى ويشتد ويستفحل ويرتفع، حتى عزل عبد الله بن الزبير عن الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، وبعث عبد الله بن مطيع نائباً عليها، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة نائباً على البصرة.

فلما دخل عبد الله بن مطيع المخزومي إلى الكوفة في رمضان سنة خمس وستين، خطب الناس وقال في خطبته: إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير أمرني أن أسير فيكم بسيرة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان. فقام إليه السائب بن مالك الأشعري فقال: لا نرضى إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا، ولا نريد سيرة عثمان - وتكلم فيه - ولا سيرة عمر وإن كان لا يريد للناس إلا خيراً. وصدّقه على ما قال بعض أمراء الشيعة، فسكت الأمير وقال: إني سأسير فيكم بما تحبون من ذلك.

وجاء صاحب الشرطة وهو إياس بن مضارب العجلي إلى ابن مطيع فقال له: إن هذا الذي ردَّ عليك من رؤوس أصحاب المختار، ولست آمن المختار، فابعث إليه فاردده إلى السجن فإن عيوني قد أخبروني أن أمره قد استجمع له، وكأنك به وقد وثب بالمصر فبعث إليه عبد الله بن مطيع زائدة بن قدامة وأميراً آخر معه، فدخلا على المختار فقالا له: أجب الأمير، فدعا بثيابه وأمر بإسراج دابته، وتهيأ للذهاب معهما، فقرأ زائدة بن قدامة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] فألقى المختار نفسه وأمر بقطيفة أن تلقى عليه، وأظهر أنه مريض، وقال: أخبرا الأمير بحالي، فرجعا إلى ابن مطيع فاعتذرا عنه، فصدقهما ولها عنه.

فلما كان المحرم من هذه السنة عزم المختار على الخروج لطلب ثأر الحسين فيما يزعم، فلما صمم على ذلك اجتمعت عليه الشيعة وثبطوه عن الخروج الآن إلى وقت آخر، ثم أنفذوا طائفة منهم إلى محمد بن الحنفية يسألونه عن أمر المختار وما دعا إليه، فلما اجتمعوا به كان ملخص ما قال لهم: إنا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه، وقد كان المختار بلغه مخرجهم إلى محمد بن الحنفية فكره ذلك وخشي أن يكذبه فيما أخبر به عنه، فإنه لم يكن بإذن محمد بن الحنفية، وهمَّ بالخروج قبل رجوع أولئك، وجعل يسجع لهم سجعاً من سجع الكهان بذلك ثم كان الأمر على ما سجع به، فلما رجعوا أخبروه بما قال ابن الحنفية، فعند ذلك قوي عزم الشيعة على الخروج مع المختار بن أبي عبيد.

وقد روى أبو مخنف [تاريخ الطبري: ١٥/٦] أن أمراء الشيعة قالوا للمختار: اعلم أن جميع أمراء الكوفة مع عبد الله بن مطيع وهم ألب علينا، وإنه إن بايعك إبراهيم بن الأشتر النخعي وحده أغنانا عن جميع من

سواه. فبعث إليه المختار جماعة يدعونه إلى الدخول معهم في الأخذ بثأر الحسين وذكروه سابقة أبيه مع علي ﷺ، فقال: قد أجبتكم إلى ما سألتم، على أن أكون أنا ولي أمركم، فقالوا: إن هذا لا يمكن لأن المهدي قد بعث المختار إلينا وزيراً له وداعياً إليه، فسكت عنهم إبراهيم بن الأشتر فرجعوا إلى المختار فأخبروه، فمكث ثلاثاً ثم خرج في جماعة من رؤوس أصحابه إليه، فدخل على ابن الأشتر فقام إليه واحترمه وأكرمه وجلس إليه، فدعاه إلى الدخول معهم، وأخرج له كتاباً على لسان ابن الحنفية يدعوه إلى الدخول مع أصحابه من الشيعة فيما قاموا فيه من نصرة آل بيت النبي ﷺ، والأخذ بثأر الحسين. فقال ابن الأشتر: إنه قد جاءني كتب محمد بن الحنفية بغير هذا النظام، فقال المختار: إنهذا زمان وذاك زمان، فقال إبراهيم بن الأشتر: فمن يشهد أن هذا كتابه؟ فتقدم جماعة من أصحاب المختار فشهدوا بذلك، فقام ابن الأشتر من مجلسه وأجلس المختار فيه وبايعه، ودعا لهم بفاكهة وشراب من عسل.

قال الشعبي: وكان حاضراً ذلك من أمرهم هو وأبوه. فلما انصرف المختار قال لي إبراهيم بن الأشتر: يا شعبي ما ترى فيما شهد به هؤلاء؟ فقلت: إنهم قراء وأمراء ووجوه الناس، ولا اراهم يشهدون إلا بما يعلمون، قال: وكتمته ما في نفسي من اتهامهم، ولكني كنت أحب أن يخرجوا للأخذ بثأر الحسين، وكنت على رأي القوم.

ثم جعل إبراهيم يختلف إلى المختار في منزله هو ومن اطاعه من قومه، ثم اتفق رأي الشيعة على أن يكون خروجهم ليلة الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ـ سنة ست وستين.

وقد بلغ ابن مطيع أمر القوم وما اشتوروا عليه، فبعث الشرط في كل جانب من جوانب الكوفة وألزم كل أمير أن يحفظ ناحيته من أن يخرج منها أحد، فلما كان ليلة الثلاثاء خرج إبراهيم بن الأشتر قاصداً إلى دار المختار في مائة رجل من قومه، وعليهم الدروع تحت الأقبية، فلقيه إياس بن مضارب فقال له: أين تريد يا ابن الأشتر في هذه الساعة؟ إن أمرك لمريب، فوالله لا ادعك حتى أحضرك إلى الأمير فيرى فيك رأيه، فتناول إبراهيم بن بن الأشتر رمحاً من يد رجل فطعنه في ثغرة نحره فسقط، وأمر رجلا فاحتز رأسه، وذهب به إلى المختار فألقاه بين يديه، فقال له المختار: بشرك الله بخير، فهذا طائر صالح. ثم طلب إبراهيم من المختار أن يخرج في هذه الليلة، فأمر المختار بالنار أن ترفع وأن ينادى بشعار أصحابه: يا منصور أمت، يا ثارات الحسين. ثم نهض المختار فجعل يلبس درعه وسلاحه وهو يقول:

قد علمت بيضاء حسناء الطلل واضحة الخدين عجزاء الكفل
إني غداة الروع مقدام بطل

وخرج بين يديه إبراهيم بن الأشتر فجعل يتقصد الأمراء الموكلين بنواحي البلد فيطردهم عن أماكنهم واحداً واحداً. وينادي بشعار المختار، وبعث المختار أبا عثمان النهدي فنادى بشعار المختار، يا ثارات الحسين. فاجتمع الناس إليه من هاهنا وهاهنا، وجاء شبث بن ربعي فاقتتل هو والمختار عند داره. وحصره حتى جاء إبرهيم بن الأشتر فطرده عنه.

فرجع شبث إلى ابن مطيع وأشار عليه بأن يجمع الأمراء إليه، وأن ينهض بنفسه، فإن أمر المختار قد قوي واستفحل، وجاءت الشيعة من كل فج عميق إلى المختار، فاجتمع إليه في أثناء الليل قريب من أربعة آلاف، فأصبح وقد عبى جيشه وصلى بهم الصبح، فقرأ فيها ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في الثانية قال بعض من سمعه: فما سمعت إماماً أفصح لهجة منه.

وقد جهز ابن مطيع جيشاً؛ ثلاثة آلاف عليهم شبث بن ربعي، وأربعة آلاف، أخرى مع راشد بن إياس بن مضارب، فوجه المختار إبراهيم بن الأشتر في ستمائة فارس وستمائة راجل إلى راشد بن إياس، وبعث نعيم بن هبيرة في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل إلى شبث بن ربعي، فأما إبراهيم بن الأشتر فإنه هزم جيش قرنه راشد بن إياس وقتله وأرسل إلى المختار يبشره، وأما نعيم بن هبيرة فإنه لقي شبث بن ربعي فهزمه شبث بن ربعي وقتله وجاء فأحاط بالمختار بن أبي عُبيد وحصره. وأقبل إبراهيم بن الأشتر نحو المختار بن أبي عبيد فاعترض له حسان بن فائد العبسي في نحو من ألفي فارس من جهة ابن مطيع، فاقتتلوا ساعة. فهزمه إبراهيم، ثم أقبل نحو المختار فوجد شبث بن ربعي قد حصر المختار وجيشه، فما زال حتى طردهم عنه وكَرُّوا راجعين، وخلص إبراهيم إلى المختار، وارتحلوا من مكانهم ذلك إلى غيره في ظاهر الكوفة، فقال له إبراهيم بن الأشتر: اعمد بنا إلى قصر الإمارة فليس دونه أحد يرد عنه، فوضعوا ما معهم من الأثقال، وأجلسوا هنالك ضعفة المشايخ والرجال.

واستخلف المختار على من هنالك أبا عثمان النهدي، وبعث بين يديه إبراهيم بن الأشتر، وعبأ المختار جيشه كما كان، وسار نحو القصر، فبعث ابن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفي رجل، فبعث إليه المختار يزيد بن أنس وسار هو وابن الأشتر أمامه حتى دخل الكوفة من باب الكناسة، وأرسل ابن مطيع شمر بن ذي الجوشن الذي قتل الحسين في ألفين آخرين، فبعث إليه المختار سعد بن منقذ الهمذاني، وسار المختار حتى انتهى إلى سكة شبث. وإذا نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة في خمسة آلاف وخرج ابن مطيع من القصر في الناس، واستخلف عليه شبث بن ربعي، فتقدم إبراهيم بن الأشتر إلى الجيش الذي مع نوفل بن مساحق فكان بينهم قتال شديد، قتل فيه رفاعة بن شداد أمير جيش التوابين الذين قدم بهم، وعبد الله بن سعد وجماعة غيرهم، ثم انتصر عليهم ابن الأشتر فهزمهم، وأخذ بلجام دابة ابن مساحق فمَتَّ إليه بالقرابة، فأطلقه، فكان لا ينساها بعد لابن الأشتر.

ثم تقدم المختار بجيشه إلى الكناسة وحصروا ابن مطيع بقصره ثلاثاً، ومعه أشراف الناس سوى عمرو بن حريث فإنه لزم داره، فلما ضاق الحال على ابن مطيع وأصحابه استشارهم فأشار عليه شبث بن ربعي أن يأخذ له ولهم من المختار أماناً، فقال: ما كنت لأفعل هذا وأمير المؤمنين مطاع بالحجاز وبالبصرة، فقال له: فإن رأيت أن تذهب بنفسك مختفياً حتى تلحق بصاحبك فتخبره بما كان من الأمر وبما كان منا في نصره وإقامة دولته.

فلما كان الليل خرج ابن مطيع مختفياً حتى دخل دار أبي موسى الأشعري، فلما أصبح الناس أخذ الأمراء إليهم أماناً من أميرهم ابن الأشتر فأمنهم، فخرجوا من القصر وجاؤوا إلى المختار فبايعوه، ثم دخل المختار إلى القصر فبات فيه وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر، فخرج المختار إلى المسجد فصعد المنبر وخطب الناس خطبة بليغة ثم دعا الناس إلى البيعة وقال: فوالذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً والأرض فجاجاً سبلاً، ما بايعتم بعد بيعة عليٍّ أهدى منها. ثم نزل فدخل ودخل الناس يبايعونه على كتاب الله وسنة رسوله، والطلب بثأر الحسين وأهل البيت وجاء رجل إلى المختار فأخبره أن ابن مطيع في دار أبي موسى، فاراه

أنه لا يسمع قوله، حتى كرّر ذلك ثلاثاً كل ذلك يُريه أنه لا يسمع قولَه. فسكت الرجل، فلما كان الليل بعث المختار إلى ابن مطيع بمائة ألف درهم. وقال له: اذهب فقد أُخبرت بمكانك - وكان له صديقاً قبل ذلك - فذهب ابن مطيع إلى البصرة وكره أن يرجع إلى عبد الله بن الزبير وهو مغلوب.

وشرع المختار يتحبب إلى الناس بحسن السيرة، ووجد في بيت المال تسعة آلاف وألف، فأعطى الجيش الذين حضروا معه القتال نفقات كثيرة، واستعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري، وقرب أشراف الناس فكانوا جلساءه، فشق ذلك على الموالي الذين قاموا بنصره، وقالوا لأبي عمرة كيسان مولى عرينة - وكان على حرسه -: قدّم والله أبو إسحاق العرب وتركنا، فأنهى ذلك أبو عمرة إليه، فقال: بل هم مني وأنا منهم، ثم قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] فقال لهم أبو عمرة: أبشروا فإنه سيقتلهم ويقربكم. فأعجبهم ذلك وسكتوا.

ثم إن المختار بعث الأمراء إلى النواحي والبلدان والأقاليم والرساتيق، من أرض العراق وخراسان، وعقد الألوية والرايات، وقرر الإمارة والولايات، وجعل يجلس للناس غدوة وعشية يحكم بينهم، فلما طال ذلك عليه استقضى شريحاً فتكلم في شريح طائفة من الشيعة، وقالوا: إنه شهد على حجر بن عدي، وإنه لم يبلّغ عن هانئ بن عروة ما أرسله به، وقد كان علي بن أبي طالب عزله عن القضاء. فلما بلغ شريحاً ذلك تمارض ولزم بيته، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم عزله وجعل مكانه عبد الله بن مالك الطائي قاضياً.

فصل

ثم شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله، وكان سبب ذلك أن عبيد الله بن زياد كان قد جهزه مروان بن الحكم من دمشق ليدخل الكوفة، فإن ظفر بها فليبحها ثلاثة أيام، وجعل له ما غلب عليه من البلاد فسار ابن زياد قاصداً الكوفة، فلقي جيش التوابين بعين الوردة كما ذكرنا ثم سار حتى انتهى إلى الجزيرة فوجد بها قيس عيلان، وهم من أنصار ابن الزبير، وقد كان مروان أصاب منهم قتلى كثير يوم مرج راهط، وهم أَلْبٌ عليه، وعلى ابنه عبد الملك من بعده، فتعوق عن المسير سنة وهو محاصر قيس عيلان بالجزيرة، ثم وصل إلى الموصل فانحاز نائبها عنه إلى تكريت، وكتب إلى المختار يعلمه بذلك فندب المختار يزيد بن أنس في ثلاثة آلاف اختارها، وقال له: إني سأمدك بالرجال بعد الرجال، فقال له: لا تمدني إلا بالدعاء. وخرج معه المختار إلى ظاهر الكوفة فودعه ودعا له وقال له: ليكن خبرك في كل يوم عندي، وإذا لقيت عدوك فناجزهم، ولا تؤخر فرصة.

ولما بلغ خبر مخرجهم عُبيد الله بن زياد جهز بين يديه سريتين إحداهما مع ربيعة بن مخارق ثلاثة آلاف، والأخرى مع عبد الله بن حملة ثلاثة آلاف، وقال: أيكم سبق فهو الأمير، وإن سبقتما معاً فالأمير على الناس أسَنُّكما. فسبق ربيعة بن مخارق إلى يزيد بن أنس فالتقيا في طرف أرض الموصل مما يلي الكوفة، فتواقفا هنالك، ويزيد بن أنس مريض مدنف، وهو مع ذلك يحرض قومه على الجهاد ويدور على الأرباع وهو محمول مضنىً راكب على حمار وهو يقول: لقومه يا شرطة الله اصبروا تؤجروا وقاتلوا عدوكم تظفروا. ثم نزل فوضع له سريره بين الصفين وقال لقومه: قاتلوا عن أميركم إن شئتم أو فروا عنه. وقال للناس: إن هلكت فالأمير على الناس عبد الله بن ضمرة العذري، رأس الميمنة، فإن هلك فسعْر بن أبي سعر رأس الميسرة، وكان ورقاء بن عازب الأسدي على الخيل. وهو وهؤلاء الثلاثة أمراء الأرباع، وكان ذلك في يوم عرفة من سنة ست وستين عند إضاءة الصبح، فاقتتلوا هم والشاميون قتالاً شديداً، واضطربت كل من الميمنتين والميسرتين، ثم حمل ورقاء على الخيل فهزمها وفر الشاميون وقتل أميرهم ربيعة بن مخارق، واحتاز جيش المختار ما في معسكرهم، ورجع فُرّارهم فلقوا الأمير الآخر عبد الله بن حملة، فقال: ما خبركم؟ فأخبروه فرجع بهم وسار بهم نحو يزيد بن أنس فانتهى إليهم عشاء، فبات الناس متحاجزين، فلما أصبحوا تواقفوا على تعبئتهم، وذلك يوم الأضحى من سنة ست وستين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم جيش المختار جيش الشاميين أيضاً، وقتلوا أميرهم عبد الله بن حملة واحتووا على ما في معسكرهم، وأسروا منهم ثلاثمائة أسير، فجاؤوا بهم إلى يزيد بن أنس وهو على آخر رمق، فأمر بضرب أعناقهم.

ومات يزيد بن أنس من يومه ذلك وصلى عليه خليفته ورقاء بن عامر ودفنه، وسقط في أيدي أصحابه وجعلوا يتسللون راجعين إلى الكوفة، فقال لهم ورقاء: يا قوم ماذا ترون؟ إنه قد بلغني أن ابن زياد قد أقبل في ثمانين ألفاً من الشام، ولا أرى لكم بهم طاقة، وقد هلك أميرنا، وتفرق عنا طائفة من الجيش من أصحابنا فلو انصرفنا راجعين إلى بلادنا ونظهر أنا إنما انصرفنا حزناً منا على أميرنا لكان خيراً لنا من أن نلقاهم فيهزمونا ونرجع مغلوبين. فاتفق رأي الأمراء على ذلك، فرجعوا إلى الكوفة.

فلما بلغ خبرهم أهل الكوفة وأنهم قد كروا راجعين وبلغهم أن يزيد بن أنس قد هلك، أرجف أهل الكوفة بالمختار وقالوا: قتل يزيد بن أنس في المعركة وانهزم جيشه، وعما قليل يقدم عليكم ابن زياد فيستأصلكم ويشتف خضراكم، ثم تمالؤوا على الخروج على المختار وقالوا: هو كذاب، واتفقوا على حربه وقتاله وإخراجه من بين أظهرهم، وقالوا: هو كذاب قد قدم موالينا على أشرافنا، وزعم أن ابن الحنفية قد أمره بالأخذ بثأر الحسين وهو لم يأمره بشيء، وإنما هو متقوّل عليه. وانتظروا بخروجهم عليه أن يخرج من الكوفة إبراهيم بن الأشتر فإنه قد عينه المختار أن يخرج في سبعة آلاف للقاء ابن زياد وقال له: سر حتى تلقى جيش ابن أنس فردهم معك وسر بهم حتى تلقى عدوك عبيد الله بن زياد فناجزه فخرج ابن الأشتر بجموعه، فلما بلغ ساباط جاءه كتاب المختار يأمره بالرجوع فرجع. وكان المختار قد حصن قصر الإمارة واستعد للقتال وخرج أولئك الذين اتفقوا على قتاله فعسكروا بجبانة السبيع وهم شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وكعب الخثعمي وزحر بن قيس الجعفي وإسحاق بن محمد بن الأشعث وبشر بن جرير وحجار بن أبجر وعمرو بن الحجاج الزبيدي وغيرهم، فلما خرج إبراهيم بن الأشتر اجتمع أشراف الناس ممن كان في جيش قتلة الحسين وغيرهم في دار شبث بن ربعي وأجمعوا أمرهم على قتال المختار، ثم وثبوا فركبت كل قبيلة مع أميرها في ناحية من نواحي الكوفة، وقصدوا قصر الإمارة، وبعث المختار عمرو بن توبة بريداً إلى إبراهيم بن الأشتر ليرجع إليه سريعا وبعث مختار إلى أولئك يقول لهم: ماذا تنقمون؟ فإني أجيبكم إلى جميع ما تطلبون، وإنما يريد أن يثبطهم عن مناهضته حتى يقدم إبراهيم بن الأشتر، وقال: إن كنتم لا تصدقوني في أمر محمد بن الحنفية فابعثوا من جهتكم وأبعث من جهتي من يسأله عن ذلك، ولم يزل يطاولهم حتى قدم

إبراهيم بن الأشتر بعد ثلاث، فانقسم هو والناس فرقتين، فتكفل المختار بأهل اليمن، وتكفل إبراهيم بن الأشتر بمضر وعليهم شبث بن ربعي، وكان ذلك بإشارة المختار، حتى لا يتولى ابن الأشتر قتال قومه من أهل اليمن فيحنو عليهم وكان المختار شديداً عليهم.

ثم اقتتل الناس في نواحي الكوفة قتالا عظيماً وكثرت القتلى بينهم من الفريقين، وجرت فصول وأحوال حربية يطول استقصاؤها، وقتل جماعة من الأشراف، منهم عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الكندي، وسبعمائة وثمانين رجلا من قومه، وقتل من مضر بضعة عشر رجلا، ويعرف هذا اليوم بجبانة السبيع، وكان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة ست وستين، ثم كانت النصرة للمختار عليهم، وأسر منهم خمسمائة أسير، فعرضوا عليه فقال: انظروا من كان منهم شهد مقتل الحسين فاقتلوه، فقتل منهم مائتان وأربعون رجلا، وقتل أصحابه منهم من كان يؤذيهم ويسيء إليهم بغير أمر المختار، ثم أطلق الباقين، وهرب عمرو بن الحجاج الزبيدي، وكان ممن شهد قتل الحسين فلا يدرى أين ذهب من الأرض.

ذكر مقتل شمر بن ذي الجوشن أمير السرية التي قتلت حسيناً

وهرب أشراف الكوفة إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير، وكان ممن هرب لقصده شمر بن ذي الجوشن قبحه الله، فبعث المختار في أثره غلاماً له يقال له زَرْبي، فلما دنا منه قال شمر لأصحابه: تقدموا وذروني وراءكم بصفة أنكم قد هربتم وتركتموني حتى يطمع في هذا العلج، فساقوا وتأخر شمر فأدركه زَرْبي فعطف عليه شمر وتركه، وكتب كتاباً إلى مصعب بن الزبير وهو بالبصرة ينذره بقدومه عليه، ووفادته إليه، وكان كل من فر من هذه الوقعة يهرب إلى مصعب بالبصرة، وبعث شمر الكتاب مع علج من علوج قرية قد نزل عندها يقال لها الكلتانية عند نهر إلى جانب تل هناك فذهب ذلك العلج فلقيه علج آخر فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: إلى مصعب. قال: ممن؟ قال: من شمر، فقال: اذهب معي إلى سيدي، وإذا سيده أبو عمرة أمير حرس المختار، وهو قد ركب في طلب شمر، فدله العلج على مكانه فقصده أبو عمرة، وقد أشار أصحاب شمر عليه أن يتحول من مكانه ذلك، فقال لهم: هذا كله فرق من الكذاب، والله لا ارتحل من هاهنا إلى ثلاثة أيام حتى أملأ قلوبهم رعباً فلما كان الليل كابسهم أبو عمرة في الخيل فأعجلهم أن يركبوا أو يلبسوا أسلحتهم، وثار إليهم شمر بن ذي الجوشن فطاعنهم برمحه وهو عريان ثم دخل خيمته فاستخرج منها سيفاً وهو يقول:

نبهتم ليث عرين باسلا جهما محياه يدق الكاهلا
لم ير يوما عن عدو ناكلا إلا كذا مقاتلا أو قاتلا
يُبرِحُهم ضرباً ويروي العاملا

ثم ما زال يناضل عن نفسه حتى قتل، فلما سمع أصحابه وهم منهزمون صوت التكبير وقول أصحاب المختار الله أكبر قتل الخبيث عرفوا أنه قد قتل قبحه الله.

قال أبو مخنف عن يونس بن أبي إسحاق قال: ولما خرج المختار من جبانة السبيع وأقبل إلى القصر - يعني منصرفه من القتال - ناداه سراقة بن مرداس بأعلى صوته وكان في الأسرى:

امنن علي اليوم يا خير مَعَدّ وخير من حل بشحر والجَنَدْ
وخير لبّى وصام وسجد

قال: فبعث إلى السجن فاعتقله ليلة ثم أطلقه من الغد، فأقبل إلى المختار وهو يقول:

الا اخبر أبا إسحاق أنا نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً وكان خروجنا بطراً وَحَيْنا
نراهم في مصافهم قليلا وهم مثل الدَّبا حين التقينا
برزنا إذ رأيناهم فلما رأينا القوم قد برزوا إلينا
رأينا منهم ضرباً وطَحناً وطعناً صائباً حتى انثنينا
نصرت على عدوك كل يوم بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد في يوم بدر ويوم الشعب إذ لاقى حنينا
فاسجح إذ ملكت فلو ملكنا لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبة مني فإني سأشكر إذ جعلت النَّقْدَ دينا

وجعل سراقة بن مرداس يحلف أنه رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض وأنه لم يأسره إلا واحد من أولئك الملائكة، فأمره المختار أن يصعد المنبر فيخبر الناس بذلك. فصعد المنبر فأخبر الناس بذلك، فلما نزل خلا به المختار فقال له: إني قد عرفت أنك لم تر الملائكة، وإنما أردت بقولك هذا أني لا أقتلك، ولست أقتلك فاذهب حيث شئت، لا تفسد عليّ أصحابي، فذهب سراقة إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير وجعل يقول:

إلا ابلغ أبا إسحاق أني رأيت البلق دهما مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً عليّ قتالكم حتى الممات
رأت عيناي ما لم تبصراه كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا: أقول لهم كذبتم وإن خرجوا لبست لهم أداتي

قالوا: ثم خطب المختار أصحابه فحرضهم في خطبته تلك على تَتَبُّع من قتل الحسين من أهل الكوفة المقيمين بها، فقالوا: ما ديننا تَرْكُ قوم قتلوا حسيناً يمشون في الدنيا أحياء آمنين، بئس ناصر آل محمد إني إذاً كذاب كما سميتموني أنتم، فإني بالله أستعين عليهم، فالحمد لله الذي جعلني سيفا أضربهم، ورمحا أطعنهم، وطالب وترهم، والقائم بحقهم، وإنه كان حقا على الله أن يقتل من قتلهم، وأن يذل من جهل حقهم، فسموهم ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم، فإنه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، وأنفي من في المصر منهم. ثم جعل يتتبع من من في الكوفة منهم وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات مما يناسب مافعلوا - ومنهم من حرقه بالنار، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات، ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت، فأتوه بمالك بن بشير فقال له المختار: أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه؟ فقال: خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا، فقال: اقطعوا يديه ورجليه. ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات، وقتل عبد الله ابن أسيد الجهني وغيره شر قتلة

مقتل خولي بن يزيد الأصبحي الذي احتز رأس الحسين رضي الله عنه

بعث إليه المختار أبا عمرة صاحب حرسه، فكبس بيته فخرجت إليهم امرأته فسألوها عنه فقالت: لا أدري أين هو. وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختف فيه، - وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها، وكانت تلومه على ذلك - واسمها العيوف بنت مالك بن نهار بن عقرب الحضرمي، فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قَوْصَرَةً فحملوه إلى المختار فأمر بقتله قريبا من داره، وأن يحرق بعد ذلك.

وبعث المختار إلى حكيم بن فضيل السنبسي - وكان قد سلب العباس بن علي بن أبي طالب يوم قتل الحسين - فأخذ فذهب أهله إلى عدي بن حاتم، فركب ليشفع فيه عند المختار، فخشي أولئك الذين أخذوه أن يسبقهم عدي إلى المختار فيشَفّعه فيه، فقتلوا حكيما قبل أن يصل إلى المختار، فدخل عدي فشفع فيه فشفعه فيه. فلما رجعوا وقد قتلوه شتمهم عدي وقام متغضبا عليهم وقد تقلد منّة المختار. وبعث المختار إلى زيد بن رُقَّاء، وكان قد قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، فلما أحاط الطلب بداره خرج فقاتلهم فرموه بالنبل والحجارة حتى سقط، ثم حرقوه وبه رمق الحياة، وطلب المختار سنان بن أنس، الذي كان يدعي أنه قتل الحسين، فوجدوه قد هرب إلى البصرة فأمر بداره فهُدمت. فهكذا صنع بكل من هرب من هؤلاء إلى البصرة أو الجزيرة فهُدمت داره، وكان محمد بن الأشعث بن قيس ممن هرب إلى مصعب فأمر المختار بهدم داره وأن يبني بها دار حجر بن عدي التي كان زياد هدمها.

مقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين

قال الواقدي: كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جالساً ذات يوم إذ جاء غلام له ودمه يسيل على عقبيه، فقال له سعد: من فعل بك هذا؟ فقال: ابنك عمر، فقال سعد: اللّهم اقتله وأسل دمه. وكان سعد مستجاب الدعوة، فلما ظهر المختار على الكوفة استجار عمر بن سعد بعبد الله بن جعدة بن هبيرة، وكان صديقاً للمختار من قرابته من علي، فأتى المختار فأخذ منه لعمر بن سعد أماناً مضمونه أنه آمن على نفسه وأهله وماله ما أطاع ولزم رحله ومصره، ما لم يحدث حدثا. وأراد المختار: ما لم يأت الخلاء فيبول أو يغوط.

ولما بلغ عمر بن سعد أن المختار يريد قتله خرج من منزله ليلا يريد السفر نحو مصعب أو عبيد الله بن زياد، فنمى للمختار بعض مواليه ذلك، فقال المختار: وأي حدث أعظم من هذا؟ وقيل: إن مولاه قال له ذلك، وقال له: تخرج من منزلك ورحلك؟ ارجع، فرجع، ولما أصبح بعث إلى المختار يقول له: إن أبي يقول لك: هل أنت مقيم على أمانك؟ وقيل: إنه أتى المختار يتعرف منه ذلك فقال له المختار: اجلس، وقيل: إنه أرسل عبد الله بن جعدة إلى المختار يقول له: هل أنت مقيم على أمانك له؟ فقال له المختار: اجلس، فلما جلس قال المختار لصاحب حرسه: اذهب فأتني برأسه. فذهب إليه فقتله وأتاه برأسه.

وفي رواية [تاريخ الطبري: ٦/٦٠]: أن المختار قال ليلة: لأقتلن غداً رجلا عظيم القدمين غائر العينين، مشرف الحاجبين يسر بقتله المؤمنون والملائكة المقربون، وكان الهيثم بن الأسود حاضراً فوقع في نفسه أنه أراد عمر بن سعد فبعث إليه ابنه العُريان فأنذره، فقال: كيف يكون هذا بعد ما أعطاني من العهود والمواثيق؟ وكان المختار حين قدم الكوفة أحسن السيرة إلى أهلها أولا وكتب لعمر بن سعد كتاب أمان إلا أن يحدث حدثا.

قال أبو مخنف: وكان أبو جعفر الباقر يقول: إنما أراد المختار إلا أن يدخل الكنيف فيحدث فيه، ثم إن عمر بن سعد قلق أيضا، ثم جعل يتنقل من محلة إلى محلة ثم صار أمره أنه رجع إلى داره، وقد بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع فقال: كلا والله إن في عنقه سلسلة ترده لو جَهِدَ أنْ ينطلق ما استطاع. ثم أصبح فبعث إليه أبا عمرة فدخل عليه فقال: أجب الأمير. فقام عمر فعثر في جبته، فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله، وجاءه برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار، فقال المختار، لابنه حفص - وكان جالساً عند المختار -: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم ولا خير في العيش بعده، فقال: صدقت، ثم أمر به فضربت عنقه ووضع رأسه مع رأس أبيه، ثم قال المختار: هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين الأكبر، ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله. ثم بعث المختار برأسيهما إلى محمد بن الحنفية، وكتب إليه كتابا في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم للمهدي محمد بن علي من المختار بن أبي عبيد، سلام عليك أيها المهدي فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله بعثني نقمة على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتلكم، ونصر مؤازركم، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه وقد قتلنا مَن شَرَك في دم الحسين وأهل بيته كل من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقي، ولست بمنحجم عنهم حتى يبلغني أنْ على أديم الأرض منهم إرَمِيًّا، فاكتب إلي أيها المهدي برأيك أتبعه وأكُن عليه، والسلام عليك أيها المهدي ورحمة الله وبركاته، ولم يذكر ابن جرير أن محمد بن الحنيفة رد جوابه، مع أن ابن جرير قد تقصى هذ الفصل وأطال شرحه، ويظهر من غبون كلامه ونظامه قوة وجده به وغرامه، ولهذا توسع في إيراده بروايات أبي مخنف لوط بن يحيى، وهو متهم فيما يرويه، ولاسيما في باب التشيع، وهذا المقام للشيعة فيه غرام وأي غرام، إذ فيه الأخذ بثأر الحسين وأهله من قتلتهم، والانتقام منهم. ولا شك أن قتل قتلته كان متحتماً، والمبادرة إليه كان مغنما، ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافرا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليُؤيِّد هذا الدينَ بالرجل الفاجر»، وقال تعالى في كتابه الذي هو أفضل ما يكتبه الكاتبون ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩] وقال بعض الشعراء: -

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقَها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم

وسيأتي في ترجمة المختار ما يدل على كذبه وافترائه، وادعائه نصرة أهل البيت، وهو في نفس الأمر متستر ذلك ليجمع عليه رَعاعاً من الشيعة الذين بالكوفة. ليقيم لهم دولة ويصول بهم ويجول على مخالفيه صولة.

ثم إن الله تعالى سلط عليه من انتقم منه، وهذا هو الكذاب الذي قال فيه الرسول في حديث أسماء بنت الصديق: «إنَّه سيكونُ في ثقيفٍ كذابٌ ومبيرٌ». [م(٢٥٤٥)] فهذا هو الكذاب وهو يظهر التشيع وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ولي الكوفة من جهة عبد الملك بن مروان

كما سيأتي. وكان الحجاج عكس هذا، كان ناصبيا جلداً ظالماً غاشماً، ولكن لم يكن في طبقة هذا، يُتهم على دين الإسلام ودعوة النبوة، وأنه يأتيه الوحي من العلي العلام.

قال ابن جرير[تاريخه:٦/٦٦]: وفي هذه السنة بعث المختار المثنى بن مخرّبة العبدي إلى البصرة يدعو إليه من استطاع من أهلها، فدخلها وابتنى بها مسجداً يجتمع إليه فيه قومه، فجعل يدعو إلى المختار، ثم أتى مدينة الرِّزق فعسكر عندها فبعث إليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع - وهو أمير البصرة قبل أن يعزل بمصعب - جيشا مع عباد بن الحصين أمير الشرطة، وقيس بن الهيثم. فقاتلوه وأخذوا منه المدينة وانهزم أصحابه، وكان قد قام بنصرتهم بنو عبدالقيس، فبعث إليهم الجيش فبعثوا إليه فارسل الأحنف بن قيس وعمرو بن عبد الرحمن المخزومي ليصلحا بين الناس،وساعدهما مالك بن مسمع، فانحجز الناس بعضهم عن بعض، ورجع إلى المختار في نفر يسير مغلولا مغلوبا مسلوبا، وأخبر المختار بما وقع من الصلح على يدي الأحنف وغيره من أولئك الأمراء، وطمع المختار فيهم وكاتبهم في أن يدخلوا معه فيما هو فيه من الأمر.

وكان كتابه إلى الأحنف بن قيس: من المختار إلى الأحنف بن قيس ومن قبله أنتم أما بعد فويل أمّ ربيعة من مضر، وإن الأحنف يورد قومه سقر، حيث لايستطيع لهم الصَّدَر، وإني لا أملك لكم ما قد خُطَّ في القدر، وقد بلغني أنكم سميتموني كذاباً، وقد كذب الأنبياء من قبلي ولست بخير منهم.

وقال ابن جرير [٦/٩٦]: حدثني أبو السائب سلم بن جنادة ثنا الحسن بن حماد عن حماد بن علي عن مجالد عن الشعبي. قال: دخلت البصرة فقعدت إلى حلقة فيها الأحنف بن قيس، فقال بعض القوم: مَن أنت؟ فقلت: رجل من أهل الكوفة، فقال: أنتم موال لنا، قلت: وكيف؟ قال: قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم من أصحاب المختار.

قلت: أتدري ما قال شيخ من همدان فينا وفيكم؟ فقال الأحنف: وما قال؟ قلت: قال: -

أفخَرتُم انْ قَتلتُمْ أعبداً ... وهزمتمْ مرةً آلَ عَزَلْ
فإذا فاخرتُمونا فاذكروا ... مافعلنا بكمُ يومَ الجملْ
بينَ شيخٍ خاضبٍ عُثنونَهُ ... وفتى أبيض وضاح رِفَلّ
جاءَنا يُهدجُ في سابغةٍ ... فذبحناهُ ضحًى ذبحَ الجملْ
وعفونا فنسيتمْ عَفونَا ... وكفرتمْ نعمةَ اللهِ الأجلّ
وقتلتمْ بحسينٍ منهمُ ... بدلا مِن قومكمُ شرُّ بدلْ

قال: فغضب الأحنف وقال: يا غلام هات الصحيفة. فأتي بصحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر فإن الأحنف يورد قومه سقر حيث لا يقدرون على الصدر، وقد بلغني أنكم تكذبوني، فإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي،ولست بخير منهم، ثم قال الأحنف: هذا منا أو منكم.

فصل

ولما علم المختار أن ابن الزبير لاينام عنهم، وأن جيش الشام من قبل عبدالملك يقصدونه مع عُبيد بن زياد في جمع كثير لا يرام، شرع يصانع ابن الزبير ويعمل على خداعة والمكر به، فكتب إليه: إني كنت بايعتك على السمع والطاعة والنصح لك، فلما رأيتك قد أعرضت عني تباعدت عنك، فإن كنت على ما أعهد منك فأنا على السمع والطاعة لك. والمختار يخفي هذا كل الإخفاء عن الشيعة، فإذا ذكر له أحد شيئاً من ذلك أظهر لهم أنه أبعد الناس من ذلك.

فلما وصل كتابه إلى ابن الزبير أراد أن يعلم أصادق أم كاذب، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، فقال له: تجهز إلى الكوفة فقد وليتكها، فقال: وكيف وبها المختار؟! فقال: يزعم أنه سامع لنا مطيع، وأعطاه قريبا من أربعين الف يتجهز بها، فسار فلما كان ببعض الطريق لقيه زائدة بن قدامة من جهة المختار في خمسمائة فارس مُلْبسَة، ومعه سبعون ألفا من المال، وقد تقدم إليه المختار فقال: أعطه المال فإن هو انصرف وإلا فأره الرجال فقاتله حتى ينصرف، فلما رأى عمر بن عبدالرحمن الجدّ قبض المال وسار إلى البصرة فاجتمع هو وابن مطيع بها عند أميرها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وذلك قبل وثوب المثنى بن مخرمة كما تقدم، وقبل وصول مصعب بن الزبير إليها.

وبعث عبد الملك بن مروان بن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم في جيش إلى وادي القرى ليأخذوا المدينة من نواب ابن الزبير، وكتب المختار إلى ابن الزبير: إن أحببت أن أمدك بمدد. وإنما يريد المختار خديعته ومكايدته، فكتب إليه ابن الزبير: إن كنت على طاعتي فلست أكره ذلك فابعث بجند إلى وادي القرى ليكونوا مددا لنا على قتال الشاميين. فجهز المختار ثلاثة آلاف عليهم شرحبيل بن وَرْس الهمداني، ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة، وقال له: سر حتى تدخل المدينة، فإذا دخلت فاكتب إلي حتى يأتيك أمري. وإنما يريد أخذ المدينة من ابن الزبير، ثم يركب بعد ذلك إلى مكة ليحاصر ابن الزبير بها، وخشي ابن الزبير أن يكون المختار بعث ذلك الجيش مكراً فبعث العباس بن سهل بن سعد الساعدي في ألفين، وأمره أن يستعين بالأعراب وقال لهم: إن رأيتموهم في طاعتي وإلا فكايدوهم حتى تهلكهم.

فأقبل العباس بن سهل حتى لقي ابن ورس بالرقيم، وقد تعبّى ابن ورس في جيشه، فاجتمعا على ماء هنالك، فقال له العباس: ألستم في طاعة ابن الزبير؟ فقال: بلى، قال: فإنه قد أمرني أن نذهب إلى وادي القرى فنقاتل من به من الشاميين. فقال له ابن ورس: فإني لم أومر بطاعتك، وإنما أُمرت أن أدخل المدينة ثم أكتب إلى صاحبي فإنه يأمرني بأمره، ففهم عباس مغزاه ولم يظهر له أنه فطن لذلك، فقال له: رأيك أفضل، فاعمل مابدا لك. ثم نهض العباس من عنده وبعث إليهم الجزر والغنم والدقيق، وقد كان عندهم حاجة أكيدة إلى ذلك، وجوع كثير، فجعلوا يذبحون ويطبخون ويختبزون ويأكلون على ذلك الماء، فلما كان الليل بيتهم عباس بن سهل فقتل أميرهم وطائفة منهم نحوا من سبعين، وأسر منهم خلقا كثيرا فقتل أكثرهم ورجع القليل منهم إلى المختار وإلى بلادهم خائبين.

قال أبو مخنف: فحدثني أبو يوسف أن عباس بن سهل انتهى إليهم وهو يقول: -

أنا ابنُ سهلٍ فارسٌ غيرُ وَكَلْ ... أروعُ مقدامٌ إذا الكبشُ نكلْ
واعتلي رأسَ الطِّرمَّاح البطلْ ... بالسيف يومَ الروعِ حتى يُنخزَلْ

فلما بلغ خبرهم المختار قام في أصحابه خطيباً فقال: إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار، إلا إنه كان أمراً مأتيا، وقضاء مقضيا.

ثم كتب إلى محمد بن الحنفية مع صالح بن مسعود الخثعمي كتابا يذكر فيه أنه بعث إلى المدينة جيشا لنصرته فغدر بهم جيش ابن الزبير، فإن رأيت أن أبعث جيشا آخر إلى المدينة وتبعث من قبلك رسلا إليهم فافعل.

فكتب إليه ابن الحنفية: أما بعد فإن أحب الأمور كلها إلي ما أطيع الله فيه، فاطع الله فيما أعلنت وأسررت، واعلم أني لو أردت القتال لوجدت الناس إلي سراعا، والأعوان لي كثيرة، ولكني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. وقال لصالح بن مسعود: قل للمختار فليتق الله وليكفف عن الدماء.

فلما انتهى إليه كتاب محمد بن الحنفية قال: إني قد أمرت بجمع البر واليسر، ويطرح الكفر والغدر.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٧٥/٦] من طريق المدائني وأبي مخنف أن الزبير عمد إلى ابن الحنفية وسبعة عشر رجلا من أشراف أهل الكوفة فحبسهم حتى يبايعوه، فكرهوا أن يبايعوا إلا من اجتمعت عليه الأمة، فتهددهم وتوعدهم واعتقلهم بزمزم، فكتبوا إلى المختار بن أبي عبيد يستصرخونه، ويستنصرونه، ويقولون له: إن ابن الزبير قد توعدنا بالقتل والحريق، فلا تخذلونا كما خذلتم الحسين وأهل بيته. فجمع المختار الشيعة وقرأ عليهم الكتاب وقال: هذا كتاب المهدي وصريخ أهل البيت قد أصبحوا محصورين ينتظرون القتل والحريق وقال: لست أنا بأبي إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً، وإن لم أسرّب إليهم الخيل كالسيل يتلوه السيل، حتى يحل بابن الكاهلية الويل. ثم وجه أبا عبد الله الجدلي في سبعين راكبا من أهل القوة، وظبيان بن عمر التميمي في أربعمائة، وأبا المعتمر في مائة. وهانئ بن قيس في مائة. وعمير بن طارق في أربعين، ويونس بن عمران في أربعين وكتب إلى محمد بن الحنفية مع الطفيل بن عامر بتوجيه الجنود إليه، فنزل أبو عبد الله الجدلي بذات عرق حتى تلاحق به نحو من مائة وخمسين فارساً، ثم سار بهم حتى دخل المسجد الحرام نهاراً جهاراً وهم يقولون: يا ثارات الحسين. وقد أعد ابن الزبير الحطب لابن الحنفية وأصحابه ليحرقهم به إن لم يبايعوا، وقد بقي من الأجل يومان، فعمدوا - يعني أصحاب المختار - إلى محمد بن الحنفية فأطلقوه من سجن ابن الزبير، وقالوا: إن أذنت لنا قاتلنا ابن الزبير، فقال: إني لا أرى القتال في المسجد الحرام، فقال لهم ابن الزبير: ليس يبرح وتبرحون حتى يبايع وتبايعوا معه، فامتنعوا عليه ثم لحقهم بقية أصحابهم فجعلوا يقولون وهم داخلون الحرم: يا ثارات الحسين. فلما رأى ابن الزبير ذلك منهم خافهم وكف عنهم، ثم أخذوا محمد بن الحنفية وأخذوا من الحجيج مالا كثيراً فسار بهم حتى دخل شعب علي، واجتمع معه أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم ذلك المال.

هكذا أورده ابن جرير وفي صحتها نظر والله أعلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٨٠/٦، ٨١]: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير وكان نائبه بالمدينة أخاه مصعب ونائبه على البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الملك بن مروان على الشام وأخوه محمد بن مروان على الجزيرة وأرمينية وأخوه عبد العزيز على مصر وقد استحوذ المختار على الكوفة، وعبد الله بن خازم على بلاد خراسان، وذكر حروبا جرت فيها لعبد الله بن خازم يطول ذكرها [تاريخ الطبري: ٧٧/٦-٨٠].

فصل

قال ابن جرير: وفي هذه السنة شخص إبراهيم بن الأشتر إلى عبيد الله بن زياد، وذلك لثمان بقين من ذي الحجة.

وقال أبو مخنف عن مشايخه: ما هو إلا أن فرغ المختار من جبّانة السبيع وأهل الكناسة، فما نزل إبراهيم بن ابن الأشتر إلا يومين حتى أشخصه إلى الوجه الذي كان وجهه فيه لقتال أهل الشام، فخرج يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجة سنة ست وستين، وخرج معه المختار يودعه في وجوه أصحابه، وخرج معهم خاصة المختار. ومعهم كرسي المختار على بغل أشهب ليستنصروا به على الأعداء، وهم حافون به يدعون ويستصرخون ويستنصرون ويتضرعون، فرجع المختار بعد أن وصاه بثلاث قال: يا ابن الأشتر اتق الله في سرك وعلانيتك، وأسرع السير، وعاجل عدوك بالقتال. واستمر أصحاب الكرسي سائرين مع ابن الأشتر، فجعل ابن الأشتر يقول: اللّهم لاتؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، سنة بني إسرائيل والذي نفسي بيده إذ عكفوا على عجلهم. فلما جاوز القنطرة هو وأصحابه رجع أصحاب الكرسي.

قال ابن جرير [تاريخه: ٨٢/٦]: وكان سبب اتخاذ هذا الكرسي ما حدثني به عبد الله بن أحمد بن شَبُّويه حدثني أبي حدثنا سليمان حدثنا عبد الله بن المبارك عن إسحاق بن يحيى بن طلحة حدثني معبد بن خالد حدثني طفيل بن جعدة بن هبيرة قال: أعدمت مرة من الورق فإني كذلك إذ مررت بباب رجل جار لي له كرسي قد ركبه وسخ شديد، فخطر على بالي أن لو قلت في هذا، فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إلي بالكرسي، فأرسل به، فأتيت المختار فقلت له: إني كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لي أن أذكره إليك، قال: وما هو؟ قال: قلت: كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه كأنه كان يرى أن فيه أثرة من علم. قال: سبحان الله!! فأخّرت هذا إلى اليوم؟ ابعث إليه. قال: فجئت به وقد غسل فخرج عودا ناضرا وقد تشرّب الزيت، فأمر لي باثني عشر ألفا، ثم نودي في الناس: الصلاة جامعة، قال: فخطب الناس فقال: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه قد كان في بني إسرائيل التابوت ينصرون به، وإن هذا مثله. ثم أمر فكشف عنه أثوابه وقامت السبئية فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثا، فقام شبث بن ربعي فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا التابوت هذا التعظيم، وأشار بأن يكسر ويخرج من المسجد ويرمى به في الحُشّ، فشكرها الناس لشبث بن ربعي، فلما قيل: هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل. وبعث المختار إبراهيم بن الأشتر، بعث معه بالكرسي يحمل على بغل أشهب قد غشي بأثواب الحرير، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة، فلما تواجهوا مع الشاميين -كما سيأتي- وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد، ازداد تعظيمهم لهذا الكرسي حتى بلغوا به الكفر، قال الطفيل بن جعدة فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وندمت على ماصنعت. وتكلم الناس في هذا الكرسي وكثر عيب الناس له، فغُيّب حتى لا يرى بعد ذلك.

وذكر ابن الكلبي [تاريخ الطبري: ٨٤/٦، ٨٥] أن المختار طلب من آل جعدة بن هبيرة الكرسي الذي كان علي يجلس عليه فقالوا: ما عندنا شيء مما يقول الأمير. فألح عليهم حتى علموا أنهم لوجاؤوا بأي كرسي كان لقبله منهم، فحملوا إليه كرسيا من بعض الدور فقالوا: هذا هو. فخرجت شبام وشاكر وسائر رؤوس المختار به وقد عصّبوه بالحرير والديباج. وحكى أبو مخنف أن أول من سدن هذا الكرسي موسى بن أبي موسى الأشعري، ثم إنه عتب عليه في ذلك، فدفعه إلى حوشب البرسمي، وكان صاحبه حتى هلك المختار قبحه الله.

ويروى أن المختار كان يظهر أنه لا يعلم بما يعظم أصحابه هذا

الكرسي، وقد قال في هذا الكرسي أعشى همدان: -

شهدتُ عليكم أنكم سبئيّةٌ ... وإنّي بكم يا شُرطةَ الشِّرك عارفُ
وأُقسم ما كُرسيُّكم بسَكينةٍ ... وإنْ كان قد لُفّت عليه اللفائفُ
وان ليس كالتّابوتِ فينا وإن سعت ... شِبامٌ حواليه ونهدٌ وخارفُ
وإنّي امرؤٌ أحببتُ آلَ محمّدٍ ... وتابعتُ وحياً ضُمِّنَتْه المصاحفُ
وتابعتُ عبدَ اللّه لمّا تتابعتْ ... عليه قريشٌ شُمْطُها والغَطارِفُ

وقال المتوكل الليثي:

أبلغْ أبا إسحاقَ إنْ جئته ... أنّي بكرسيّكم كافرُ
تَنْزوا شِبام حولَ أعوادِه ... وتحمل الوحيَ لهُ شاكرُ
محمّرةً أعينُهم حولَه ... كأنهن الحِمَّصُ الحازرُ

قلت: هذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه، وضعفه وقلة علمه وكثرة جهله، ورداءة فهمه، وترويجه الباطل على أتباعه وتشبيهه الباطل بالحق ليضل به الطغام، ويجمع عليه جهال العوام.

قال الواقدي: وفي هذه السنة وقع في مصر طاعون هلك فيه خلق كثير من أهلها.

وفيها ضرب الدنانير عبد العزيز بن مروان بمصر، وهو أول من ضربها بها.

قال صاحب مرآة الزمان: وفيها ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى، وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد اللّه بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك ويذكر مساوئ بني مروان، ويقول: إن النبي صلى اللّه عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولعينه. وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحا، فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى لهم القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن تشنيع ابن الزبير عليه، فكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية. ونقل الطواف من بيت اللّه إلى قبلة بني اسرائيل. ونحو ذلك.

ولما أراد عبد الملك بناءها، سار من دمشق إلى بيت المقدس ومعه الأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع والمهندسين فأمرهم فصوّروا له القُبّة في صحن المسجد فأعجبه، وبنى للمال بيتاً شرقي القُبّة، وشحنه بالمال وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا المال إفراغا ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة التي هي اليوم قائمة، وبنوا من ناحية القبلة سبع قباب، والقُبّة التي باقية اليوم على المحراب هي أوسطها، ولما تم بناء القُبّة عمل لها جلالين، احدهما من لُبود أحمر للشتاء، والآخر من أدم للصيف، وحفا الصخرة بدرابزين من الساج المطعّم باليَشْم وخلف الدرابزين ستور من الديباج مُرخاة بين العُمُر، وكانت السَّدنة كل خميس واثنين يذوبون المسك والعنبر والماورد والزعفران، ويعملون منه غالية ويُخمّرونها من الليل، ثم يدخلُ الخدمُ الحمّامَ مِن الليلِ فيغتسلونَ ويتطيّبون، ويلبسُونَ ثيابَ الوشْيِ، ويشدُّون أوساطَهم بالمناطِقِ المُحلاةِ بالذّهب، ويُخلّقونَ الصّخرةَ ثم يضعُون البَخُورَ في مجامرِ الذّهبِ والفضّةِ، وفيها العودُ القماريُّ المغلّيُّ بالمسكِ ويرخي السَّدنةُ الستورَ فتخرجُ تلك الرائحةُ فتملأ المدينةَ كلَّها، ثم ينادي منادٍ: ألا إنَّ الصّخرةَ قد فُتحتْ فمن أراد الزيارةَ فليأتِ، فيقبلُ الناسُ مبادرين، فيصلُّون ويخرُجون، فمَن وُجدتْ منه رائحةُ البَخور قال الناسُ: هذا كان اليومَ في الصخرةِ.

وأبواب الصَّخرة أربعةٌ؛ على كلِّ بابٍ عشرةٌ مِن الحَجَبَةِ، البابُ الشّماليُّ يُسمّى بابَ الجنّةِ، والشّرقيُّ بابَ إسرائيلَ، والغربيُّ بابَ جبريلَ، والقبليُّ بابَ الأقصى. وكانوا يشغلونها بدهن البان، ولا يدخلها أحد غير أيام الزيارة سوى الخدم، وكان للحرم عشرون باباً، وكان فيه ألفُ عمودٍ مِن الرُّخامِ، وفي السّقوفِ ستون ألفَ خشبةٍ مِن السّاجِ المنقوش، ومِن القناديل خمسةُ آلافِ قنديل، وكان فيه أربعُمائة سلسلةٍ ألفُ رطلٍ شاميٍّ، طولُ السلاسلِ ثلاثون ألفَ ذراعٍ، وكان يُوقد في الصّخرةِ كلَّ ليلةٍ مائةُ شمعةٍ، وكذا في الأقصى، وكان يُوقَدُ في القناديلِ كلَّ ليلةٍ مِن الزّيتِ المفتول قنطارٌ، وكان في الحرمِ خمسون قُبّةً، ومِنْ ألواحِ الرَّصاصِ سبعون ألفَ لَوحٍ، وكان في الحرمِ ثلاثُمائةِ خادمٍ ابتاعوا مِن بيتِ المالِ مِن الخُمسِ، كلّما ماتَ واحدٌ قام ولدُه بعدَه مقامَه، ويقبضُون أرزاقَهم مِن بيتِ المالِ شهراً بشهرٍ، وكان في الحرمِ مائةُ صِهْريجٍ، وكانت صفائحُ القُبّةِ، وسقفُ الأقصى مِن صفائحِ الذّهب عوضَ الرّصاص، وكذلك أبوابُ القُبّةِ صفائحُها، وذلك أنه لما كمّل البناءُ فضَل مِن المال ثلاثُمائةِ ألفِ دينار، وقيل: ستُمائةِ ألف. وكتب رجاءُ بنُ حَيْوةَ ويزيدُ إلى عبدِ الملكِ يُعرِّفانِه بذلك، فكتبَ إليهما: قد جعلتُه لكُما عِوضًا عن تعبكما. فكتَبا إليه: إنّما قُمْنا بهذا البيت للّه تعالى، فلا نَقبَلُ على ذلك عرَضَ الدُّنيا ولوَدِدْنا أنْ نزيدَ فيه مِن حَلي نسائنا. فكتب إليهم: [٤٠/٧و] إذا أبيتُم ذلك فأفرِغاه على القُبّةِ والأبوابِ. فما كان أحد يستطيع أن يتأمّل القبة مما عليها من الذهب.

فلمّا كان في خلافةِ أبي جعفر المنصور قديم القدسَ سنةَ أربعين ومائةٍ فوجدَ الأقصى وقِبابَه تشكو إليه الخرابَ، فأمر بقلعِ الصفائحِ التي على القُبّةِ والأبوابِ، وأنْ يُعمِّرَبها ما تشعَّثَ في الحرم. ففعلوا ذلك. وكان المسجدُ طويلاً، فأمَر أنْ يوخَذَ مِن طولِه ويُزادَ في عرضِه، ولما كمّل البناءُ كتَبوا على القُبّةِ مِمّايلي البابَ القبليَّ مِن جهةِ الأقصى بالنصِّ بعدَ البسملةِ: بنى هذه القُبّةَ عبدُ اللّهِ عبدُ الملكِ أميرُ المؤمنين سنةَ اثْنَيْن وسبعينَ مِن الهجرةِ النبويةِ. وكان طولُ المسجدِ مِن القبلةِ إلى الشّمال سبعمائةٍ وخمسةً وستين ذِراعاً، وعرضُه أربَعمائةٍ وستّينَ ذِراعاً. وكان فتحُ القدسِ سنةَ عشْرةَ واللّهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ.

ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعل فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيرا، وجعل فيها العود القماري المغلف بالمسك وفرشها والمسجد بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور يُشمّ من مسافة بعيدة، وكان إذا رجع الرجل من بيت المقدس إلى بلاده توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياما، ويعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس، وأنه دخل الصخرة، وكان فيه من السدنة والقوم القائمين بأموره خلق كثير، ولم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس، بحيث إن الناس التهوا بها عن الكعبة والحج، بحيث كانوا لا يلتفتون في مواسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس، وافتتن الناس بذلك افتتانا عظيما، وأتوه من كل مكان، وقد عملوا فيه من الأشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيرا مما في الآخرة،

فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة، وقدم رسول الله ﷺ، ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك، وإلى زماننا.

وبالجملة أن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير، وأنواع باهرة. ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه فضل من المال الذي انفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال. فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما: قد وهبته منكما، فكتبا إليه: إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا. فكتب إليهما إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب. فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث، فلما كان في خلافة أبي جعفر المنصور قدم بيت المقدس في سنة أربعين ومائة، فوجد المسجد خراباً، فأمر أن يقلع ذلك الذهب والصفائح التي على القبة والأبواب، وأن يعمروا بها ما تشعث في المسجد ففعلوا ذلك.. وكان المسجد طويلا فأمر أن يؤخذ من طوله ويزاد في عرضه، ولما كمل البناء كتب على القبة مما يلي الباب القبلي: أمر ببنائه بعد تشعيثه أمير المؤمنين عبد الملك سنة اثنتين وستين من الهجرة النبوية، وكان طول المسجد من القبلة إلى الشمال سبعمائة وخمسة وستين ذراعاً، وعرضه أربعمائة وستين ذراعاً، وكان فتوح القدس سنة ستة عشر والله.

ثم دخلت سنة سبع وستين

ففيها كان مقتل عبيد الله بن زياد على يدي إبراهيم بن الأشتر النخعي، وذلك أن إبراهيم بن الأشتر خرج من الكوفة يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجة في السنة الماضية، ثم استهلت هذه السنة وهو سائر لقصد ابن زياد في أرض الموصل، فكان اجتماعهما بمكان يقال له الخازر، بينه وبين الموصل خمسة فراسخ، وكان بن الأشتر لا يسير إلا على نفسه فلما قاربوا أرسل عمير بن الحباب السلمي إني معك وأتى إلى ابن الأشتر ليلا فبايعه وأخبره أنه على ميسرة ابن زياد، ووعده أنه ينهزم بالناس وقال له: لا تطاول القوم فإنهم أضعافكم ولكن ناجزهم فإنهم قد ملئوا منكم رعبا فقال ابن الأشتر: الآن علمت أنك ناصح. ثم انصرف، فبات ابن الأشتر تلك الليلة ساهرا لا يغتمض بنوم، فلما كان قريب الصبح نهض فعبى جيشه وكتب كتائبه، وصلى بأصحابه الفجر في أول وقت، ثم ركب فناهض جيش ابن زياد، وزحف بجيشه رويدا وهو ماش في الرجالة حتى أشرف من فوق تل على جيش ابن زياد، فإذا هم لم يتحرك منهم أحد، فلما رأوهم نهضوا إلى خيلهم وسلاحهم مدهوشين، فركب ابن الأشتر فرسه وجعل يقف على رايات القبائل فيحرضهم على قتال ابن زياد ويقول: هذا قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ، قد جاءكم الله به وأمكنكم الله منه اليوم، فعليكم به فإنه قد فعل في ابن بنت رسول الله ﷺ ما لم يفعله فرعون في بني إسرائيل! هذا ابن زياد قاتل الحسين الذي حال بينه وبين الفرات أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه، ومنعه أن ينصرف إلى بلده أو يأتي يزيد بن معاوية حتى قتله، ويحكم!! اشفوا صدوركم منه، وارووا رماحكم وسيوفكم من دمه، هذا الذي فعل في آل نبيكم مافعل، قد جاءكم الله به. ثم أكثر من هذا القول وأمثاله، ثم نزل تحت رايته.

وأقبل ابن زياد في جيش كثيف قد جعل على ميمنته حصين بن نمير وعلى الميسرة، عمير بن الحباب السلمي - وكان قد اجتمع بابن الأشتر ووعده أنه معه وأنه سينهزم بالناس غدا - وعلى خيل ابن زياد شرحبيل بن ذي الكلاع، وابن زياد في الرجالة يمشي معهم.

فما كان إلا أن تواقف الفريقان حتى حمل حصين بن نمير بالميمنة على ميسرة أهل الكوفة فهزمها، وقتل أميرها علي بن مالك الجشمي فأخذ رايته من بعده ولده قُرّة بن علي فقتل أيضاً، واستمرت الميسرة ذاهبة فجعل ابن الأشتر يناديهم: إلي يا شرطة الله، أنا ابن الأشتر، وقد كشف عن رأسه ليعرفوه، فالتاثوا به وانعطفوا عليه، واجتمعوا إليه، ثم حملت ميمنة أهل الكوفة على ميسرة أهل الشام. وقيل: بل انهزمت ميسرة أهل الشام وانحازت إلى ابن الأشتر، ثم حمل ابن الأشتر بمن معه وجعل يقول لصاحب رايته: ادخل برايتك فيهم، وقاتل ابن الأشتر يومئذ قتالا عظيما، وكان لايضرب بسيفه رجلا إلا صرعه، وكثرت القتلى بينهم، وقيل: إن ميسرة أهل الشام ثبتوا وقاتلوا قتالا شديداً بالرماح ثم بالسيوف، ثم أردف الحملة ابن الأشتر فانهزم جيش الشام بين يديه، وهو يقتلهم كما يقتل الحملان، وأتبعهم بنفسه ومن معه من الشجعان، وثبت عبيد الله بن زياد في موقفه حتى اجتاز به ابن الأشتر فقتله وهو لايعرفه، لكن قال لأصحابه: التمسوا في القتلى رجلا ضربته بالسيف فنفحني منه ريح المسك، شرقت يداه وغربت رجلاه، وهو واقف عند راية منفردة على شاطئ نهر خازر: فالتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد، وإذا هو قد ضربه ابن الأشتر فقطعه نصفين، فاحتزوا رأسه وبعثوه إلى المختار إلى الكوفة مع البشارة بالنصر والظفر بأهل الشام.

وقتل من رؤوس أهل الشام أيضاً حصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع، فأرسلهما المختار إلى ابن الزبير فنصبت بمكة.

وأتبع الكوفيون أهل الشام فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم أكثر ممن قتل، واحتازوا ما كان في معسكرهم من الأموال والخيول.

وقد كان المختار بشر أصحابه بالنصر قبل أن يجيء الخبر، فما ندري أكان ذلك تفاؤلا منه أو اتفاقا وقع له، أو كهانة. وأما على ما كان يزعم أصحابه أنه أوحي إليه بذلك فلا، فإن من اعتقد ذلك كفر ومن أقرهم على ذلك كفر، لكن: قال إن الوقعة كانت بنصيبين فأخطأ مكانها إنما كانت بأرض الموصل، وهذا مما انتقده عامر الشعبي على أصحاب المختار حين جاءه الخبر بالفتح، وقد خرج المختار من الكوفة ليتلقى البشارة، فأتى المدائن فصعد منبرها فبينما هو يخطب إذ جاءته البشارة وهو هنالك.

قال الشعبي: فقال لي بعض أصحابه: أما سمعته بالأمس يخبرنا بهذا؟ فقلت له: أنه زعم أن الوقعة كانت بنصيبين من أرض الجزيرة، وإنما قال البشير: إنهم كانوا بالخازر من أرض الموصل، فقال: والله لا تؤمن يا شعبيُّ حتى ترى العذاب الأليم.

ثم رجع المختار إلى الكوفة وفي غيبته هذه تمكن جماعة ممن كان قاتله يوم جبانة السبيع والكناسة من الخروج إلى البصرة ليجتمعوا بمصعب بن عمير ، وكان منهم شبث بن ربعي، وأما ابن الأشتر فانه بعث بالبشارة وبرأس عُبيد الله بن زياد إلى المختار واشتغل هو في تلك البلاد فبعث أخاه لأمه عبد الرحمن بن عبد الله على نيابة نصيبين وبعث عمالا إلى الموصل وأخذ سنجار ودارا وما والاها من الجزيرة.

وقال أبو أحمد الحاكم: كان مقتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة ست وستين. والصواب سنة سبع وستين.

وقد قال سراقة بن مرداس البارقي يمدح ابن الأشتر على قتله ابن

زياد:

أتاكم غلامٌ من عرانين مَذحجٍ ... جريءٌ على الأعداءِ غيرُ نكولِ
فيا ابن زيادٍ بؤْ بأعظم هالكٍ ... وذُقْ حدَّ ماضي الشفرتين صقيلِ
ضربْناك بالعَضْب الحسام بحدّه ... إذا ما أبانا قاتلا بقتيلِ
جزى اللّه خيراً شُرطة اللّه إنّهم ... شفَوا من عبيدِ اللّه أمس غليلي

وهذه ترجمة ابن زياد

هو

■ عبيد اللّه بن زياد بن عبيد، المعروف بابن زياد بن أبي سفيان، ويقال له زياد بن أبيه، وابن سمية، أمير العراق بعد أبيه زياد،

وقال ابن معين [تاريخه: ٣٨٢/٢]: ويقال له عبيد اللّه بن مرجانة وهي أمه، وقال غيره: وكانت مجوسية.

وكنيته أبو حفص، وقد سكن دمشق بعد يزيد بن معاوية، وكانت له دار عند الديماس تعرف بعده بدار ابن عجلان، وكان مولده في سنة تسع وثلاثين فيما حكاه ابن عساكر عن أبي العباس أحمد بن يونس الضبي.

قال ابن عساكر[تاريخ دمشق: ٢١٢/٤٤]: وروى الحديث عن معاوية وسعد بن أبي وقاص ومعقل بن يسار، وحدث عنه الحسن البصري وأبو المليح بن أسامة.

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: ذكروا أن عبيد اللّه بن زياد حين قتل الحسين كان عمره ثمانيا وعشرين سنة.

قلت فعلى هذا يكون مولده سنة ثلاث وثلاثين فاللّه أعلم.

وقد روى ابن عساكر أن معاوية كتب إلى زياد: أن أوفد إلي ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً، فقال له: مامنعك من تعلم الشعر؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام اللّهِ كلامَ الشيطان. فقال معاوية: اغرب فواللّه ما منعني من الفرار يوم صفين إلا قول ابن الإطنابة حيث يقول:

أبتْ لي عِفتي وأبى بَلائي ... وأخْذي الحمدَ بالثمنِ الربيحِ
وإعطائي على الإعدام مالي ... وإقدامي على البطلِ المُشيحِ
وقَولي كلما جَشأتْ وجَاشتْ ... مكانَكِ تُحمَدي أو تَستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عَن أنفٍ صحيحِ

ثم كتب إلى أبيه: أن روِّه من الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه منه شيء.

ومن شعره بعد ذلك: -

سيعلمُ مروانُ بن نسوة أنني ... إذا التَقتِ الخيلانِ أطعنها شزرا
وإني إذا حلَّ الضيوفُ ولم أجدْ ... سوى فرسي أوسعتُه لهم نحرا

وقد سأل معاوية يوما أهل البصرة عن ابن زياد فقالوا: إنه لظريف ولكنه يلحن، فقال: أوليس اللحن أظرف له؟

قال ابن قتيبة وغيره: إنما أرادوا أنه يلحن في كلامه، أي يلغز. وهو اللحن بحجته كما قال الشاعر:

منطقٌ رائعٌ ويلحنُ أحياناً ... وخيرُ الحديثِ ما كان لحنا

وقيل: إنهم إنما أرادوا أن يلحن في قوله لحنا وهو ضد الإعراب.

وقيل أرادوا اللحن الذي هو ضد الصواب. وهو الأشبه واللّه أعلم. فاستحسن معاوية منه السهولة في الكلام وأنه لم يكن ممن يتغنى في كلامه ويفخمه، ويتشدق فيه.

وقيل: أرادوا أنه كانت فيه لكنة من كلام العجم، فإن أمه مرجانة كانت سرية وكانت بنت بعض ملوك الأعاجم يزدجرد أو غيره.

قالوا: وكان في كلامه شيء من كلام العجم، قال يوما لبعض الخوارج: أهروري أنت؟ يعني: أحروري أنت؟ وقال يوما: من كاتلنا كاتلناه، أي: من قاتلنا قاتلناه.

وقول معاوية ذاك أظرف له، أي أجود له حيث نزع إلى أخواله، وقد كانوا يوصفون بحسن السياسة وجودة الرعاية ومحاسن الشيم.

ثم لما مات زياد سنة ثلاث وخمسين ولى معاوية على البصرة سمرة بن جندب سنة ونصفا ثم عزله وولى عليها عبد اللّه بن عمرو بن غيلان بن سلمة ستة أشهر، ثم عزله وولى عليها ابن زياد سنة خمس وخمسين. فلما تولى يزيد الخلافة جمع له بين البصرة والكوفة، فبنى في إمارة يزيد البيضاء، وجعل باب القصر الأبيض الذي كان لكسرى عليها، وبنى الحمراء وهي على سكة المربد، فكان يشتو في الحمراء ويصيف في البيضاء.

قالوا: وجاء رجل إلى ابن زياد فقال: أصلح اللّه الأمير، إن امرأتي ماتت، وإني أريد أن أتزوج أمها، فقال له: كم عطاؤك في الديوان؟ فقال: سبعمائة، فقال: يا غلام حُطّه من عطائه أربعمائة، ثم قال له: يكفيك من فقهك هذا ثلاثمائة!

قالوا: وتخاصمت أم الفُجَيع وزوجها إليه وقد أحبت المرأة ان تفارق زوجها، فقال أبو الفُجَيع: أصلح اللّه الأمير إن خير شطري الرجل آخره، وإن شر شطري المرأة آخرها، فقال له: وكيف ذلك؟ فقال: إن الرجل إذا أسن اشتد عقله واستحكم رأيه وذهب جهله، وإن المرأة إذا أسنت ساء خلقها، وعقم رحمها واحتد لسانها، فقال: صدقت خذ بيدها وانصرف.

وقال يحيى بن معين: أمر ابن زياد لصفوان بن محرز بألفي درهم فسرقت، فقال: عسى أن يكون خيراً فقال أهله: كيف يكون هذا خيراً؟ فبلغ ذلك ابن زياد فأمر له بألفين آخرين، ثم وجد الألفين فصارت أربعة آلاف فكان خيراً.

وقيل لهند بنت أسماء بن خارجة - وكانت قد تزوجت بعده أزواج من نواب العراق - من أعزُّ أزواجك وأكرمهم عليك؟ فقالت: ما أكرم النساء إكرام بشر بن مروان ولا هاب النساء هيبة الحجاج بن يوسف، ووددت أن القيامة قد قامت فأرى عبيد اللّه بن زياد وأشتفي من حديثه والنظر إليه - وكان أبا عُذرها - وقد تزوجت بالآخرين أيضاً.

وقال عثمان بن أبي شيبة عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال: أول من جهر بالمعوذتين في الصلاة المكتوبة ابن زياد، قلت: يعني واللّه أعلم في الكوفة، فإن ابن مسعود كان لا يكتبهما في مصحفه وكان فقهاء الكوفة عن كبراء أصحاب ابن مسعود يأخذون واللّه أعلم.

وقد كانت في ابن زياد جرأة وإقدام على سفك الدماء قتل خلقا كثيرا صبرا وكان سفيها شديدا وكان فيه مبادرة إلى ما لا حاجة له به، ثبت في الحديث الذي رواه أبو يعلى ومسلم [١٨٣٠]، كلاهما عن شيبان بن فروخ عن جرير عن الحسن أن عائذ بن عمرو دخل على عبيد اللّه بن زياد فقال: أي بني، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنَّ شرَّ الرِّعاء الحُطَمَة، فإيَّاك أن تكونَ منهُم». فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول اللّه

ﷺ، فقال: وهل كانت فيهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم.

وقد روى غير واحد عن الحسن أن عبيد الله بن زياد دخل على معقل بن يسار يعوده فقال: إني محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ أنه قال: «ما مِن رَجلٍ استرعَاه اللَّهُ رعيَّة يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لهم إلا حرَّم اللَّهُ عليه الجنَّة». [خ بنحوه (٧١٥٠، ٧١٥١)، م(١٤٢)]

فذكر غير واحد أنه لما مات معقل صلى عليه عبيد الله بن زياد ولم يشهد دفنه، واعتذر بما ليس يجدي شيئا وركب إلى قصره.

ومن جراءته إقدامه على الأمر بإحضار الحسين إلى بين يديه وإن قتل دون ذلك، وكان الواجب عليه أن يجيبه إلى سؤاله الذي سأله فيما طلب من ذهابه إلى يزيد أو إلى مكة أو إلى أحد الثغور، فلما أشار عليه شمر بن ذي الجوشن بأن الحزم أن يحضر عندك وأنت تسيره بعد ذلك إلى حيث شئت من هذه الخصال أو غيرها، فوافق شمراً على ما أشار به من إحضاره بين يديه فأبى الحسين أن يحضر عنده ليقضي فيه بما يراه ابن مرجانة، وقد تعس وخاب وخسر، فليس لابن بنت رسول الله ﷺ أن يحضر بين يدي ابن مرجانة الخبيث.

وقد قال محمد بن سعد: أنبأنا الفضل بن دكين ومالك بن إسماعيل قالا: حدثنا عبد السلام بن حرب عن عبد الملك بن كردوس عن حاجب عبيد الله بن زياد قال: دخلت معه القصر حين قتل الحسين قال: فاضطرم في وجهه ناراً -أو كلمة نحوها-، فقال بكمّه هكذا على وجهه وقال: لا تحدثن بهذا أحداً.

وقال شريك عن مغيرة قال: قالت مرجانة لابنها عبيد الله: يا خبيث قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ؟ لاترى الجنة أبداً.

وقد قدمنا أن يزيد بن معاوية لما مات بايع الناس في المصرين لعبيد الله حتى يجتمع الناس على إمام، ثم خرجوا عليه فأخرجوه من بين أظهرهم، فسار إلى الشام فاجتمع بمروان، وحسّن له أن يتولى الخلافة ويدعو إلى نفسه ففعل ذلك، فكان من أمره ما تقدم مع الضحاك بن قيس، ثم سيّره مروان في جيش إلى العراق فالتقى بعين الوردة مع سليمان بن صرد فكسرهم، واستمر قاصدا الكوفة في ذلك الجيش، فتعوق في الطريق بسبب من كان يمانعه في أرض الجزيرة من الأعداء ممن بايع ابن الزبير.، ثم اتفق خروج ابن الأشتر إليه في سبعة آلاف، وكان مع ابن زياد أضعاف ذلك، ولكن ظفر به ابن الأشتر فقتله شر قتله على شاطئ نهر الخازر قريبا من الموصل بخمس مراحل.

قال أبو أحمد الحاكم: وكان ذلك يوم عاشوراء.

قلت: وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين.

ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وجماعة من رؤساء أصحابهم، فسر بذلك المختار.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثني يوسف بن موسى حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لما جيء برأس ابن مرجانة وأصحابه طرحت بين يدي المختار فجاءت حية دقيقة تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة وخرجت من منخره، ودخلت في منخره وخرجت من فمه، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرؤوس.

ورواه الترمذي [٣٧٨٠] من وجه آخر بلفظ آخر فقال: حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير. قال: لما جيء برأس عبيد الله وأصحابه نُضّدَت في المسجد في الرحبة، فانتهيت إليهم وهم يقولون: قد جاءت قد جاءت، فإذا حية قد جاءت تخلل الرؤوس حتى دخلت في منخري عبيد الله بن زياد، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا: قد جاءت قد جاءت. ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثا. قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

وقال أبو سليمان بن زَبْر: وفي سنة ست وستين قالوا فيها قتل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير، ولي قتلهما إبراهيم بن الأشتر وبعث برؤوسهما إلى المختار فبعث بهما إلى ابن الزبير، فنصبت بمكة والمدينة.

وهكذا حكى ابن عساكر عن أبي أحمد الحاكم وغيره أن ذلك كان في سنة ست وستين، زاد أبو أحمد: في يوم عاشوراء. وسكت ابن عساكر عن ذلك.

والمشهور أن ذلك كان في سنة سبع وستين كما ذكره ابن جرير [تاريخه: ٩٠/٦] وغيره، ولكنّ بعث الرؤوس إلى ابن الزبير في هذه السنة متعذر لأن العدواة كانت قد قويت وتحققت بين المختار وابن الزبير في هذه السنة، كما ذكرنا وعما قليل أمر ابن الزبير أخاه مصعباً أن يسير من البصرة إلى الكوفة لحصار المختار وقتاله. والله أعلم.

مقتل المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب على يدي مصعب بن الزبير وأهل البصرة

كان عبد الله بن الزبير قد عزل في هذه السنة عن نيابة البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بالقباع، وولاها لأخيه مصعب بن الزبير، ليكون ردْءاً وقرنا وكفؤاً للمختار، فلما قدم مصعب البصرة دخلها متلثما فيمم المنبر، فلما صعده قال الناس: أمير أمير، فلما كشف اللثام عرفه الناس فأقبلوا إليه، وجاء القباع فجلس تحته بدرجه، فلما اجتمع الناس قام مصعب خطيباً فاستفتح القصص حتى بلغ ﴿إِنَّ فرعونَ علا في الأرضِ وجَعلَ أهلهَا شِيَعاً﴾ [القصص: ٤] وأشار بيده نحو الشام أو الكوفة ثم قال ﴿ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضعِفُوا في الأرضِ﴾ [القصص: ٥] وأشار إلى الحجاز. وقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون امراءكم وقد سميت نفسي الجزار، فاجتمع عليه الناس وفرحوا به، ولما انهزم أهل الكوفة حين خرجوا على المختار فقهرهم وقتل منهم من قتل، كان لا ينهزم أحد من أهلها إلا قصد البصرة، ثم لما خرج المختار ليلقّي ابن الأشتر حين بلغه أنه قتل ابن زياد، اغتنم من بقي بالكوفة من أعداء المختار غيبته فذهبوا إلى البصرة فراراً من المختار لقلة دينه وكفره، ودعواه أنه يأتيه الوحي، وأنه قدم الموالي على الأشراف، واتفق أن ابن الأشتر حين قتل ابن زياد واستغل بتلك النواحي، فأحرز بلاداً وأقاليم ورساتيق لنفسه، واستهان بالمختار، فطمع مصعب فيه وبعث محمد بن الأشعث بن قيس على البريد إلى المهلب بن أبي صفرة، وهو نائبهم على خراسان، فقدم في تجمُّل عظيم ومال ورجال وعَدد وعُدد، وجيش كثيف، ففرح به أهل البصرة وتقوى به مصعب، فركب في أهل البصرة ومن اتبعهم من أهل الكوفة فركبوا في البحر والبر وساروا قاصدين إلى الكوفة.

وقدّم مصعب بين يديه عباد بن الحصين، وجعل على ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر وعلى الميسرة المهلب بن أبي صفرة، ورتب الأمراء على راياتها وقبائلها كمالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، وزياد بن عمر، وقيس بن الهيثم وغيرهم، وخرج المختار بعسكره فنزل المذار وقد جعل على مقدمته أبا كامل الشاكري، وعلى ميمنته عبد الله بن كامل، وعلى

ميسرته عبد الله بن وهب الجشمي، وعلى الخيل وزير بن عبد الله السلولي، وعلى الموالي أبا عمرة صاحب شرطته.

ثم خطب الناس وحثهم على الخروج، وبعث بين يديه الجيوش، وركب هو وخلق من أصحابه وهو يبشرهم بالنصر، فلما انتهى مصعب إلى قريب الكوفة لقيتهم الكتائب المختارية فحملت عليهم الفرسان الزبيرية، فما لبثت المختارية إلا يسيراً حتى هربوا على حمية، وقد قتل منهم جماعة من الأمراء، وخلق من القراء وطائفة كثيرة من الشيعة الأغبياء، ثم انتهت الهزيمة إلى المختار.

وقال الواقدي: لما انتهت مقدمة المختار إليه جاء مصعب فقطع الدجلة إلى الكوفة وقد حصن المختار القصر واستعمل عليه عبد الله بن شداد وخرج المختار بمن بقي معه فنزل حروراء فلما قرب جيش مصعب منه جهز إلى كل قبيلة كردوساً، فبعث إلى بكر بن وائل سعيد بن منقذ، وإلى عبد القيس مالك بن المنذر، وإلى العالية عبد الله بن جعدة، وإلى الأزد مسافر بن سعيد، وإلى بني تميم سليم بن يزيد الكندي، وإلى محمد بن الأشعث السائب بن مالك، ووقف المختار في بقية أصحابه فاقتتلوا قتالا شديداً إلى الليل فقتل أعيان أصحاب المختار وقتل تلك الليلة محمد بن الأشعث وعُبيد الله بن علي بن أبي طالب، وتفرق عن المختار باقي أصحابه، فقيل له القصر القصر، فقال: والله ماخرجت منه وأنا أريد أن أعود إليه، ولكن هذا حكم الله، ثم سار إلى القصر فدخل وجاءه مصعب ففرق القبائل في نواحي الكوفة، واقتسموا المحال، وخلصوا إلى القصر، وقد منعوا المختار المادة والماء، وكان المختار يخرج فيقاتلهم ثم يعود إلى القصر، ولما اشتد عليه الحصار قال لأصحابه: إن الحصار لا يزيدنا إلا ضعفا، فانزلوا بنا حتى نقاتل حتى الليل حتى نموت كراما، فوهنوا فقال: أما أنا، فوالله لا أعطي بيدي. ثم اغتسل وتطيب وتحنط وخرج فقاتل هو ومن معه حتى قتلوا.

وقيل: بل أشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته، فدخله وهو ملوم مذموم، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم، فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم، ثم جعل المختار يجيل فكرته ويكرر رَوِيَّته في الأمر الذي قد حل به، واستشار من عنده من الموالي والعبيد، ولسان القدر والشرع يناديه ﴿قُلْ جاءَ الحَقُّ وما يُبدئُ أظهر الباطلُ وما يُعيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] ثم قوّى عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه، على أن أخرجته من بين من كان يخالفه ويواليه، ورأى أن يموت على فرسه، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه، فنزل حمية وغضباً، وشجاعة وكلبا، وهو مع ذلك لا يجد مناصاً ولا مفراً ولا مهرباً، وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لايفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر، ولما خرج من القصر قال لأصحاب مصعب: أتؤمنونني؟ قالوا: لا إلا على حكم الأمير. فقال: إلا حكم نفسي أبدا ثم قاتل قتالاً شديداً وتقدم إليه رجلان شقيقان أخوان، وهما طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة من بني حنيفة، فقتلاه بمكان الزياتين من الكوفة، واحتزا رأسه وأتيا به إلى مصعب بن الزبير، وقد دخل قصر الإمارة، فوضع بين يديه، كما وضع رأس ابن زياد بين يدي المختار، وكما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان، فلما وضع رأس المختار بين يدي مصعب أمر لهما بثلاثين ألفا.

وقد قتل مصعب جماعة من المختارية في المعركة، وأسر منهم خمسمائة أسير، فضربت أعناقهم عن آخرهم في يوم واحد، وقد قتل من أصحاب مصعب في الوقعة محمد بن الأشعث بن قيس، وأمر مصعب بكف المختار فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد، فلم يزل هنالك حتى قدم الحجاج، فسأل عنها فقيل له: هي كف المختار، فأمر بها فرفعت وانتزعت من هنالك، لأن المختار كان من قبيلة الحجاج والمختار هو الكذاب، والمبير الحجاج، ولهذا أخذ الحجاج بثأره من ابن الزبير فقتله وصلبه شهوراً، وقد سأل مصعب أم ثابت بنت سمرة بن جندب امرأة المختار عنه فقالت: ما عسى أن أقول فيه إلا ماتقولون أنتم فيه، فتركها واستدعى بزوجته الأخرى وهي عمرة بنت النعمان بن بشير فقال لها: ما تقولين فيه؟ فقالت: رحمه الله لقد كان عبداً من عباد الله الصالحين، فسجنها وكتب إلى أخيه: إنها تقول إنه نبي فكتب إليه أن اخرجها فاقتلها، فأخرجها إلى ظاهر البلد فضربت ضربات حتى ماتت، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إنَّ من أعجب العجائبِ عِندي		قتلَ بيضاءَ حرةٍ عُطبُولِ
قُتلتْ هكذا على غيرِ جُرم		إن للّهِ درَّها من قتيلِ
كُتب القتلُ والقتالُ علينا		وعلى الغانياتِ جرُّ الذيولِ

وقال أبو مخنف: حدثني محمد بن يوسف أن مصعباً لقي عبد الله بن عمر فسلم عليه فقال ابن عمر: من أنت؟ فقال له: أنا ابن أخيك مصعب بن الزبير، فقال له ابن عمر: نعم، أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة؟ عش ما استطعت، فقال له مصعب: إنهم كانوا كفرة سحرة، فقال ابن عمر: والله لو قتلت عِدتَهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سَرَفاً.

وهذه ترجمة المختار بن أبي عبيد الكذاب

هو

■ المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عُقدة بن غِيرَة بن عوف بن ثقيف الثقفي، أسلم أبوه في حياة النبي ﷺ، ولكن لم يره، فلهذا لم يذكره أكثر الناس في الصحابة، وإنما ذكره ابن الأثير في الغابة [٦/٢٠٥]، وقد كان عمر بعثه في جيش كثيف في قتال الفرس سنة ثلاث عشرة، فقتل يومئذ شهيداً وقتل معه نحو من أربعة آلاف من المسلمين، كما قدمنا، وعرف ذلك الجسر به، وهو جسر على دجلة، فيقال له إلى اليوم جسر أبي عبيد، وكان له من الولد صفية بنت أبي عبيد وكانت من الصالحات العابدات وهي زوجة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان عبد الله لها مكرما ومحباً، وماتت في حياته. وأما أخوها المختار هذا فإنه كان أولا ناصبياً يبغض عليا بغضاً شديداً، وكان عند عمه بالمدائن، وكان عمه نائبها، فلما دخلها الحسن بن علي يوم خذله أهل العراق وهو سائر إلى الشام لقتال معاوية بعد مقتل أبيه علي، فلما أحس الحسن منهم بالغدر فر منهم إلى المدائن في جيش قليل، فقال المختار لعمه: لو أخذت الحسن فبعثته إلى معاوية لاتخذت عنده بذلك اليد البيضاء أبدا، فقال له عمه: بئس ما تأمرني به يا ابن أخي، فما زالت الشيعة تبغضه حتى كان من أمر مسلم بن عقيل بالكوفة ماكان، وكان المختار من الأمراء بالكوفة، فجعل يقول: أما لأنصرنه. فبلغ ابن زياد ذلك فحبسه بعد ضربه مائة جلدة، فأرسل ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع فيه، فأرسل يزيد إلى ابن زياد فأطلقه وسيره إلى الحجاز في عباءة، فصرى إلى ابن الزبير بمكة فقاتل معه حين حصره

أهل الشام قتالا شديداً، ثم بلغ المختار ما أهل العراق فيه من التخبيط، فسار إليهم وترك ابن الزبير، ويقال إنه سأل ابن الزبير أن يكتب له كتابا إلى ابن مطيع نائب الكوفة ففعل، فسار إليها، وكان يظهر مدح ابن الزبير في العلانية ويسبه في السر، ويمدح محمد بن الحنفية ويدعو إليه، ومازال حتى استحوذ على الكوفة بطريق التشيع وإظهار الأخذ بثأر الحسين، وبسبب ذلك التفت عليه جماعات كثيرة من الشيعة حتى قاوم نوّاب ابن الزبير على الكوفة، وأخرج عامل ابن الزبير منها، واستقر ملك المختار بها، ثم كتب إلى ابن الزبير يعتذر إليه ويخبره أن ابن مطيع كان مداهناً لبني أمية، وقد خرج من الكوفة، وأنا ومن بها في طاعتك، فصدقه ابن الزبير لأنه كان يدعو له على المنبر يوم الجمعة على رؤوس الناس، ويظهر طاعته، ثم شرع في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقا كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين ولوا قتل الحسين، وسنان بن أبي أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وخلق غير هؤلاء، ومازال حتى بعث سيف نقمته إبراهيم بن الأشتر النخعي في عشرين ألفا إلى ابن زياد، وهو في جيش أعظم من جيش المختار بأضعاف مضاعفة ـ كانوا ستين ألفا، وقيل: ثمانين ألفاً فقتل ابن الأشتر ابن زياد وكسر جيشه، واحتاز ما في معسكره، واتفق ذلك في يوم عاشوراء سنة سبع وستين ثم بعث برأس عبيد الله بن زياد ورؤوس أصحابه مع البشارة إلى المختار، ففرح بذلك فرحاً شديداً، ثم إن المختار بعث برأس ابن زياد ورأس حصين بن نمير ومن معهما إلى ابن الزبير بمكة، فأمر ابن الزبير بها فنصبت على عقبة الحجون، وقد كانوا نصبوها بالمدينة، وطابت نفس المختار بالملك، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع، ثم إن ابن الزبير تبين ابن خداعه ومكره وسوء مذهبه، فبعث أخاه مصعباً أميراً على العراق، فسار إلى البصرة فاجتمع إليه أهلها، ووفد إليه جماعات من الكوفة فلم يتمّ سرور المختار حتى ركب إليه مصعب بن الزبير من البصرة في جيش هائل فحاصره بالكوفة وضيّق عليه، وما زال حتى أمكن اللّه منه فقتله واحتز رأسه وأمر بصلب كفه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشرط على البريد، إلى أخيه عبد اللّه بن الزبير، فوصل مكة بعد العشاء فوجد عبد اللّه يتنفل، فما زال يصلي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس، فلما كان قريب الفجر قال: ما جاء بك؟ فألقى إليه الكتاب فقرأه، فقال: يا أمير المؤمنين معي الرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين، فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق.

ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها، وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقا، بل كان كاذباً وكاهناً وكان يزعم أن الوحي يتنزل عليه على يد جبريل يأتي عليه.

قال الإمام أحمد [٥/٢٢٣]: حدثنا ابن نمير حدثنا عيسى القارئ أبو عمر بن عمر، حدثنا السدي عن رفاعة القتباني قال: دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال: لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك، قال: فأردت أن أضرب عنقه قال: فذكرت حديثا حدثنيه أخي عمرو بن الحمق، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أيما مؤمنٍ أمَّنَ مُؤمِناً على دمِه فقتلَه فأنا مِن القاتِلِ بَرِيءٌ».

وقال الإمام أحمد [٥/٢٢٤]: حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن حماد بن سلمة حدثني عبد الملك بن عمير عن رفاعة بن شداد قال: كنت أقوم على رأس المختار فلما عرفت كذبه هممت أن أسل سيفي فأضرب عنقه، فذكرت حديثا حدثناه عمرو بن الحمق. قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من أمَّنَ رجلا على نفسه فقتَله أعطِيَ لواءَ غَدرٍ يومَ القيامةِ»

ورواه النسائي [كبرى (٨٧٣٩-٨٧٤١)] وابن ماجه [٢٦٨٨] من غير وجه عن عبد الملك بن عمير به.

وفي لفظ لهما: «من أمَّن رجلا على دمِه فقتَله فأنا بريءٌ من القاتلِ، وإنْ كان المقتُولُ كافراً».

وفي سند هذا الحديث اختلاف.

وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه، فقال: صدق، قال اللّه تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِم﴾ [الأنعام: ١٢١].

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كان يتعاهد مبيتي بالليل قال: فقال لي: اخرج فحدث الناس، قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ماتقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان قال اللّه تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القُرْآنَ﴾ [سورة يوسف: ٣] وقال تعالى: ﴿وكَذَلِك جَعلْنا لِكُلِ نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنس والجِنَّ يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القول غُروراً﴾ [الأنعام: ١١٢] قال: فهمّوا بي أن يأخذوني فقلت: ما لكم وذاك! إني مفتيكم وضيفكم. فتركوني، وإنما أراد عكرمة أن يعرض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي يتنزل عليه.

وروى الطبراني [الكبير: ٥/٢٤١] من طريق أنيسة بنت زيد بن أرقم أن أباها دخل على المختار بن أبي عبيد فقال له: يا أبا عامر لو سبقت رأيت جبريل وميكائيل، فقال له زيد: حُقرت وتعست، أنت أهون على اللّه من ذلك، كذاب مفتر على اللّه ورسوله.

وقال الإمام أحمد [٦/٣٥١]: حدثنا ابن إسحاق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج بن يوسف دخل على أسماء بنت أبي بكر الصديق، بعد ما قتل ابنها عبد اللّه بن الزبير فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وإن اللّه أذاقه من عذاب أليم، وفعل به وفعل، فقالت: كذبت، كان باراً بالوالدين، صواماً قواماً، واللّه لقد أخبرنا رسول اللّه ﷺ: «أنَّه سَيَخرجُ من ثقيفٍ كذَّابان الآخرُ منهما شرٌّ مِن الأوَّل، وهو مُبيرٌ».

هكذا رواه أحمد بهذا السند واللفظ.

وقد أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل [٢٥٤٥] عن عقبة بن مكرم العمي البصري عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي عن الأسود بن شيبان عن أبي نوفل عن أبي عقرب واسمه معاوية بن مسلم عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول اللّه ﷺ قال: «إنَّ في ثقيفٍ كذاباً ومُبيراً».

وفي الحديث قصة طويلة في مقتل الحجاج ولدها عبد اللّه بن الزبير في سنة ثلاث وسبعين كما سيأتي.

وقد ذكر البيهقي هذا الحديث في دلائل النبوة [٦/٤٨٦].

وذكر العلماء أن الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة، وَيُسِرُّ إلى أخصائه أنه يوحى إليه، ولكن ما أدري هل كان يدعي النبوة أم لا؟ وكان قد وضع له كرسي يعظم ويحف بالرجال، ويستر بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن، ولا شك أنه كان ضالا مضلا أراح اللّه المسلمين منه بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالمين بعضاً بِما كَانوا يَكسِبون﴾ [الأنعام: ١٢٩] وأما المبير فهو القتّال وهو الحجاج بن يوسف الثقفي نائب العراق لعبد الملك بن مروان، الذي انتزع العراق من يد مصعب بن الزبير، كما سيأتي بيانه قريباً.

وذكر الواقدي أن المختار لم يزل مظهراً موافقة ابن الزبير حتى قدم مصعب إلى البصرة في أول سنة سبع وستين وأظهر مخالفته فسار إليه مصعب فقاتله وكان المختار في نحو من عشرين ألفاً، وقد حمل عليه المختار مرة فهزمه، ولكن لم يثبت جيش المختار حتى جعلوا ينصرفون إلى مصعب ويَدّعون المختار، وينقمون عليه ما هو فيه من الكهانة والكذب، فلما رأى المختار ذلك انصرف إلى قصر الإمارة فحاصره مصعب فيه أربعة أشهر، ثم قتله في رابع عشر رمضان سنة سبع وستين، وله من العمر سبع وستون سنة فيما قيل.

فصل

ولما استقر مصعب بن الزبير بالكوفة بعث إلى إبراهيم بن الأشتر ليقدم عليه، وبعث عبد الملك بن مروان إليه ليقدم عليه، فحار ابن الأشتر في أمره، وشاور أصحابه إلى أيهما يذهب، ثم اتفق رأيهم على الذهاب إلى بلدهم الكوفة، فقدم ابن الأشتر على مصعب بن الزبير فأكرمه وعظمه واحترمه كثيرا، وبعث مصعب المهلب بن أبي صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وكان قد استخلف على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر، وأقام هو بالكوفة، ثم لم تنسلخ هذه السنة حتى عزله أخوه عبد الله بن الزبير عن البصرة وولى عليها ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، وكان شجاعاً جواداً مخلطا يعطي أحيانا حتى لايدع شيئاً، ويمنع أحياناً ما لم يمنع مثله، وظهرت خفته وطيش في عقله، وسرعة في أمره، فبعث الأحنف إلى عبد الله بن الزبير فعزله وأعاد إلى ولايتها أخاه مصعباً مضافاً إلى ما بيده من ولاية الكوفة.

قالوا: وخرج حمزة بن عبد الله بن الزبير من البصرة بمال كثير من بيت مالها، فعرض له مالك بن مسمع، فقال: لا ندعك تذهب بأعطياتنا، فضمن له عبيد الله بن عبد الله بن معمر العطاء فكف عنه، فلما انصرف حمزة لم يقدم على أبيه مكة، بل عدل إلى المدينة، فأودع ذلك المال رجالا فكلهم غلّ ما أودعه وجحده، سوى رجل من أهل الكتاب، فأدى إليه أمانته، فلما بلغ أباه ما صنع قال: أبعده الله، أردت أن أباهي به بني مروان فنكص.

وذكر أبو مخنف أن حمزة بن عبد الله بن الزبير ولي البصرة سنة كاملة فالله أعلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ١١٨/٦]: وحج بالناس فيها عبد الله بن الزبير، وكان عامله على الكوفة أخاه مصعبا، وعلى البصرة ابنه حمزة، وقيل بل كان رجع إليها أخوه، وعلى خراسان وتلك البلاد عبد الله بن خازم السلمي من جهة ابن الزبير والله سبحانه أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأبو الجهم، وهو صاحب الأنبجانية المذكورة في الحديث الصحيح [خ(٣٧٣)، م(٥٥٦)].

وفيها قتل خلق كثير يطول ذكرهم.

ثم دخلت سنة ثمان وستين

ففيها رد عبد الله أخاه مصعباً إلى إمرة البصرة، فأتاها فأقام بها، واستخلف على الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، قُباعاً، واستعمل على المدينة جابر بن الأسود الزهري، وعزل عنها عبد الرحمن بن الأشعث لكونه ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطاً، فإنه أراد أن يبايع لابن الزبير فامتنع من ذلك فضربه، فعزله ابن الزبير.

وفيها هلك ملك الروم قسطنطين بن قسطنطين ببلده لعنه الله.

وفيها كانت وقعة الأزارقة:

وذلك أن مصعباً كا قد عزل عن ناحية فارس المهلب بن أبي صفرة، وكان قاهراً لهم وولاه الجزيرة، وولى على فارس عمر بن عبيد الله بن معمر، فثاروا عليه فقاتلهم عمر بن عبيد الله بن معمر، فثاروا عليه، فقاتلهم عمر بن عبيد الله فقهرهم وكسرهم، وكانوا مع أميرهم الزبير بن الماحوز، ففروا بين يديه إلى إصطخر فاتبعهم فقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتلوا ابنه، ثم ظفر بهم مرة أخرى ثم هربوا إلى بلاد أصبهان ونواحيها، فتقووا هنالك وكثر عَدَدُهم وعُدَدُهم،ثم أقبلوا يريدون البصرة، فمروا ببعض بلاد فارس وتركوا عمر بن عبيد الله بن معمر وراء ظهورهم، فلما سمع مصعب بقدومهم ركب في الناس وجعل يلوم عمر بن عبيد الله بتركه هؤلاء يجتازون ببلاده إلى البصرة، وقد ركب عمر بن عبيد الله بن معمر في آثارهم، فبلغ الخوارج أن مصعباً أمامهم وعمر بن عبيد الله وراءهم، فعدلوا إلى المدائن فجعلوا يقتلون النساء والولدان، ويبقرون بطون الحبالى، ويفعلون أفعالا لم يفعلها غيرهم، فقصدهم نائب الكوفة الحارث بن عبد اله بن أبي ربيعة ومعه أهلها وجماعات من أشرافها، فيهم ابن الأشتر وشبث بن ربيعي، فلما وصلوا إليهم عند جسر الصراة قطعه الخوارج بينهم وبين الناس، فأمر الأمير بإعادته فأُعيد، ففرت الخوارج هاربين بين يديه، فاتبعهم عبد الرحمن بن مخنف في ستة آلاف فمروا على الكوفة ثم صاروا إلى أرض أصبهان، فانصرف عنهم ولم يقاتلهم، ثم أقبلوا فحاصروا عتاب بن ورقاء شهراً، بمدينة جُيّا، حتى ضيقوا على الناس فنزلوا إليهم فقاتلوهم فكشفوهم وقتلوا أميرهم الزبير بن الماحوز وغنموا ما في معسكرهم، وأمَّرت الخوارج عليهم قَطَري بن الفُجاءة ثم ساروا إلى بلاد الأهواز، فكتب مصعب بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة - وهو على الموصل - أن يسير إلى قتال الخوارج وكان أبصر الناس بقتالهم، وبعث مكانه إلى الموصل إبراهيم بن الأشتر فانصرف المهلب إلى الأهواز فقاتل فيها الخوارج ثمانية أشهر قتالا لم يسمع بمثله.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٢٧/٦]: وفي هذه السنة كان القحط الشديد ببلاد الشام بحيث لم يتمكنوا معه من الغزو لضعفهم وقله طعامهم وميرتهم.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٢٧/٦-١٣٥]: وفيها قتل عبيد الله بن الحر وكان من خبره أنه كان رجلا شجاعا تتقلب به الأحوال والأيام والآراء، حتى صار من أمره أنه لا يطاع لأحد من بني أمية ولا لآل الزبير، وكان يمر على عامل الكورة من العراق وغيره فيأخذ منه جميع مافي بيت ماله من الحواصل قهراً ويكتب له براءة ويذهب فينفقه على أصحابه.

وكان الخلفاء والأمراء يبعثون إليه الجيوش فيطردها ويكسرها قلّت أو كثرت، حتى كاع فيه مصعب بن الزبير وعماله ببلاد العراق، ثم إنه وفد على عبدالملك بن مروان فبعثه في عشرة نفر وقال: ادخل الكوفة وأعلمهم أن الجنود ستصل إليهم سريعاً، فبعث في السر إلى جماعة من إخوانه فظهر على أمره فأعلم أمير الكوفة الحارث بن عبد الله فبعث إليه جيشا فقتلوه في المكان الذي هو فيه، وحمل رأسه إلى الكوفة، ثم إلى البصرة، واستراح الناس منه.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٣٨/٦]: وفيها شهد موقف عرفة أربع رايات

متباينة، كل واحدة منها لا تأتم بالأخرى الواحدة لمحمد بن الحنفية في أصحابه، والثانية لنجدة الحروري وأصحابه، والثالثة لبني أمية، والرابعة لعبد الله بن الزبير، وكان أول من دفع رايته ابن الحنفية، ثم نجدة، ثم بنو أمية، ثم دفع ابن الزبير فدفع الناس معه، وكان عبد الله بن عمر فيمن انتظر دفع ابن الزبير، ولكنه تأخر دفعه، فقال ابن عمر: أشبه بتأخيره دفع الجاهلية، فدفع ابن عمر فدفع ابن الزبير، وتحاجز الناس في هذا العام فلم يكن بينهم قتال، وكان على نيابة المدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري، وعلى الكوفة والبصرة أخوه مصعب، وعلى ملك الشام ومصر عبد الملك بن مروان، والله أعلم.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ عبد الله بن يزيد الأوسي، شهد الحديبية.

و■ عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث.

و■ عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي، ابن أخي عمر بن الخطاب، أدرك النبي ﷺ، وتوفي بالمدينة عن نحو سبعين سنة.

■ عبدالرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري.

■ عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن امرىء القيس. صحابي جليل، سكن الكوفة ثم سكن قرقيسياء.

■ زيد بن أرقم بن زيد صحابي جليل.

وفيها توفي:

■ عبد الله بن عباس ترجمان القرآن وابن عم رسول الملك الديان:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو العباس الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ، حبر هذه الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، كان يقال له الحبر والبحر.

وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق من الصحابة وأمم من التابعين، وله مفردات ليست لغيره من الصحابه لاتساع علمه وكثرة فهمه وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله، رضي الله عنه وأرضاه.

وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو والد الخلفاء العباسيين، وهو أحد إخوة عشرة ذكور من أم الفضل للعباس، وهو آخرهم مولداً، وقد مات كل واحد منهم في بلد بعيد من الآخر جداً كما سيأتي ذلك.

قال مسلم بن خالد الزنجي المكي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما كان رسول الله ﷺ في الشعب جاء أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا محمد أرى أم الفضل قد اشتملت على حمل، فقال: «لعلَّ اللهَ أنْ يُقِرَّ أعيُنَكُم». قال: فأتى بي رسول الله ﷺ وأنا في خرقة فحنكني بريقه. قال مجاهد: فلا نعلم أحداً حنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بريقه غيره.

وفي رواية أخرى فقال رسول الله ﷺ: «لعلَّ اللهَ أنْ يُبيِّض وجوهَنا بغلامٍ». فولدت عبد الله بن عباس.

وعن عمرو بن دينار قال: ولد ابن عباس عام الهجرة.

وروى الواقدي من طريق شعبة عن ابن عباس أنه قال: ولدت قبل الهجرة بثلاث سنين، ونحن في الشعب، وتوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاث عشرة سنة.

ثم قال الواقدي: وهذا مالا خلاف فيه بين أهل العلم.

واحتج الواقدي بأنه كان قد ناهز الحلم عام حجة الوداع.

وفي صحيح البخاري [٦٢٩٩] عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون، وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم.

وقال شعبة وهشيم وأبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين مختون. زاد هشيم: وقد جمعت المحكم على عهد رسول الله ﷺ، قلت: وما المحكم؟ قال: المفصل [سند أحمد: ١/٢٥٣، ٢٨٧، ٣٣٧].

وقال أبو داود الطيالسي [سنده (٢٦٤٠)] عن شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قبض رسول الله ﷺ وأنا ابن خمس عشرة سنة مختون.

وهذا هو الأصح ويؤيده صحة ماثبت في الصحيحين [خ(٧٦)، م٥٠٤].

ورواه مالك [الموطأ: ١/١٥٥] عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: أقبلت راكبا على حمار أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله ﷺ يصلي بالناس بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصف، فنزلت وأرسلت الأتان ترتع ودخلت في الصف، فلم ينكر ذلك على أحد.

وثبت عنه في الصحيح [خ(٤٥٨٧) بنحوه] أنه قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين، كانت أمي من النساء وكنت أنا من الوالدان.

وهاجر مع أبيه قبل الفتح، فاتفق لقياهما النبي ﷺ بالجحفة، وهو ذاهب لفتح مكة، فشهد الفتح وحنيناً والطائف عام ثمان، وقيل: كان في سنة تسع وحجة الوداع سنة عشر، وصحب النبي ﷺ من حينئذ ولزمه، وأخذ عنه وحفظ وضبط الأقوال والأفعال والأحوال، وأخذ عن الصحابة علماً عظيما مع الفهم الثاقب، والبلاغة والفصاحة والجمال والملاحة، والأصالة والبيان، ودعا له رسول الرحمن ﷺ، وذلك كما وردت به الأحاديث الثابتة الأركان عند الأئمة الحفاظ المرضيين، أن رسول الله ﷺ دَعا لَه بأنْ يُعلمَه اللهُ التَّأويلَ، وأنْ يُفقهَه في الدِّين.

وقال الزبير بن بكار: حدثني ساعدة بن عبيد الله المزني عن داود بن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أنه قال: إن عمر كان يدعو عبد الله بن عباس فيقربه ويقول: إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك يوماً فمسح رأسك وتفل في فيك وقال: «اللَّهم فقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التَّأويل».

وبه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهم بارك فيه وانشُرْ منه».

وقال حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خُثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.قال: بتّ في بيت خالتي ميمونة فوضعت للنبي صلى الله عليه وسلم غسلا، فقال: «مَن وَضعَ هذا؟» قالوا: عبد الله بن عباس، فقال: «اللَّهم علِّمه التَّأويل، وفقِّهه في الدِّين». وقد رواه غير واحد عن ابن خُثَيم بنحوه [سند أحمد: ١/٢٦٦، ٣١٤].

وقال الإمام أحمد [١/٣٣٠]: حدثنا عبد الله بن بكر حدثنا حاتم بن أبي صفيرة أبو يونس عن عمرو بن دينار أن كريباً أخبره أن ابن عباس قال: أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرني حتى جعلني حذاءه، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست فصلى رسول الله ﷺ فلما انصرف قال لي: «ما شأني أجعلُك حِذائي فَتخْنِسُ»؟ فقلت: يا رسول الله أوينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله عز وجل؟ قال: فأعجبته. فدعا الله لي أن يزيدني علماً

وفهما، قال: ثم رأيت رسول الله ﷺ نام حتى سمعته ينفخ، ثم أتاه بلال فقال: يا رسول الله الصلاة، فقام فصلى ما أعاد وضوءاً.

وقال الامام أحمد [٣٢٧/١] وغيره [خ(١٤٣)]: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ورقاء سمعت عبيد الله بن أبي يزيد يحدث عن ابن عباس قال: أتى رسولُ الله ﷺ الخلاءَ فوضعت له وضوءاً، فلما خرج قال: «من وَضع ذا؟» فقيل: ابن عباس، فقال: «اللّهم فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل».

وقال الثوري وغيره عن ليث عن أبي جهضم موسى بن سالم عن ابن عباس أنه رأى جبريل وأن رسول الله ﷺ دعا له بالحكمة، وفي روايه بالعلم، مرتين [ت(٣٨٢٢)].

وقال الدارقطني: حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي وآخرون قالوا: حدثنا العباس بن محمد حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا أبو مالك النخعي عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: «رأيت جبريل مرتين، ودعا لي رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين». ثم قال: غريب من حديث أبي إسحاق السبيعي عن عكرمة.

تفرد به عنه أبو مالك النخعي عبد الملك بن حسين.

وقال الإمام أحمد [٢١٤/١]: حدثنا هشيم عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس. قال: ضمّني رسولُ الله ﷺ وقال: «اللّهم علّمه الحكمة».

ورواه أحمد [٣٥٩/١] أيضاً عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال: ضمّني إليه رسول الله ﷺ وقال: «اللّهم علّمه الكتاب».

وقد رواه البخاري [٧٥] والترمذي [٣٨٢٤] والنسائي [كبرى (٨١٧٩)] وابن ماجه [١٦٦] من حديث خالد وهو ابن مهران الحذاء عن عكرمة عنه به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد [٢٦٩/١]: حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال حدثنا حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم أعطِ ابن عباس الحكمةَ وعلّمه التأويل». تفرد به أحمد.

وقد روى هذا الحديث غير واحد عن عكرمة بنحو هذا.

ومنهم من أرسله عن عكرمة، والمتصل هو الصحيح، فقد رواه غير واحد من التابعين عن ابن عباس. وروي من طريق أمير المؤمنين المهدي عن أبيه عن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عباس:. أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم علمه الكتاب وفقّهه في الدين».

وقال الإمام أحمد [٣١٢/١]: حدثنا أبو كامل وعفان المعنى قالا: ثنا حماد ثنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. قال: كنت مع أبي عند النبي ﷺ وعنده رجل يناجيه، قال عفان: وهو كالمُعرض عن العباس، فخرجنا من عنده فقال العباس: ألم ترَ إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت: إنه كان عنده رجل يناجيه، قال عفان: قال: أو كان عنده أحد؟ قلت: نعم، قال: فرجع إليه فقال: يا رسول الله هل كان عندك أحد؟ فإن عبد الله أخبرني أنه كان عندك رجل تُناجيه، قال: «هل رأيته يا عبد الله؟» قال: نعم! قال: «ذاك جبريل عليه السلام».

وقد روي من حديث المهدي عن آبائه، وفيه أن رسول الله ﷺ قال له: «أما إنّك ستصابُ في بصرِك». فكان كذلك، وقد روي من وجه آخر أيضاً والله أعلم.

ذكر صفة أخرى لرؤيته جبريل:

رواها قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد عن موسى بن ميسرة أن العباس بعث ابنه عبد الله في حاجة إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده رجلا فرجع ولم يكلمه من أجل مكان ذلك الرجل، فلقي العباس رسول الله ﷺ بعد ذلك فقال العباس: أرسلت إليك ابني فوجد عندك رجلا فلم يستطع أن يكلمك فرجع وراءه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمّ تدري من ذاك الرجل؟» قال: لا! قال: «ذاك جبريل، ولن يموتَ ابنك حتى يذهب بصره ويؤتى علماً».

ورواه سليمان بن بلال عن ثور بن زيد كذلك. وله طريق أخرى. وقد ورد في فضائل ابن عباس أحاديث كثيرة منها ما هو منكر جداً أضربنا عن كثير منها صفحا، وذكرنا ما فيه مقنع وكفاية عما سواه.

وقال أبو بكر البيهقي: أنبأ أبو عبد الله الحافظ أنبأ عبد الله بن الحسن القاضي بمرو حدثنا الحارث بن محمد أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير، فقال: يا عجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك ذلك وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح عليّ من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله ماجاء بك؟ هلا أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا! أنا أحق أن آتيك، قال: فأسأله عن الحديث، قال: فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني».

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة حدثنا أبو سلمة عن ابن عباس قال: وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل بباب أحدهم، ولو شئت أن يؤذن لي عليه لأذن، ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٣٧١/٢]: أنبأ محمد بن عمر حدثني قدامة بن موسى عن أبي سلمة الحضرمي قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ، وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحداً منهم إلا سر بإتياني، لقربي من رسول الله ﷺ فجعلت أسأل أبي بن كعب يوماً ـ وكان من الراسخين في العلم ـ عما نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل سبع وعشرون سورة وسائرها مكي.

وقال أحمد: عن عبد الرزاق عن معمر قال: عامة علم ابن عباس من ثلاثة، من عمر وعلي وأبي بن كعب.

وقال طاوس عن ابن عباس أنه قال: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال مغيرة عن الشعبي قال: قيل لابن عباس: أنى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

وثبت عن عمر بن الخطاب أنه كان يجلس ابن عباس مع مشايخ الصحابة ويقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وكان إذا أقبل يقول عمر: جاء فتى الكهول، وذو اللسان السؤول، والقلب العقول.

وثبت في الصحيح [خ(٤٩٧٠)] أن عمر سأل الصحابة عن تفسير ﴿إذا

جاءَ نصرُ اللَّـهِ والفتحُ﴾ [سورة النصر: ١] فسكت بعض وأجاب بعض بجواب لم يرتضه عمر، ثم سأل ابن عباس عنها فقال: أجل رسول الله ﷺ نُعي إليه، فقال: لا أعلم منها إلا ما تعلم.

وأراد عمر بذلك أن يقرر عندهم جلالة قدره، وكبير منزلته في العلم والفهم.

وسأله مرة عن ليلة القدر فاستنبط أنها في السابعة من العشر الأخير فاستحسنه عمر واستجاده كما ذكرنا في التفسير.

وقد قال الحسن بن عرفة: حدثنا يحيى بن اليمان عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير قال: قال عمر لابن عباس: لقد علمت علماً ما علمناه.

وقال الأوزاعي: قال عمر لابن عباس: إنك لأصبح فتياتنا وجهاً، وأحسنهم عقلاً، وأفقهم في كتاب الله عز وجل.

وقال مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال لي أبي: إن عمر يدنيك ويجلسك مع أكابر الصحابة فاحفظ عني ثلاثاً، لا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يجربن عليك كذباً. قال الشعبي: قلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف، فقال ابن عباس: بل كل واحدة خير من عشرة آلاف.

وقال الواقدي: حدثنا عبد الله بن الفضل بن أبي عبد الله عن أبيه عن عطاء بن يسار أن عمر وعثمان كانا يدعوان ابن عباس فيشير مع أهل بدر، وكان يفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات.

قلت: وشهد فتح إفريقية سنة سبع وعشرين مع ابن أبي سرح.

وقال الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه قال: نظر أبي إلى ابن عباس يوم الجمل يمشي بين الصفين، فقال: أقر الله عين من له ابن عم مثل هذا.

وقد شهد مع علي أيضاً صفين وكان أميراً على الميسرة، وشهد معه قتال الخوارج وكان ممن أشار على علي أن يستنيب معاوية على الشام، وأن لا يعزله عنها في بادئ الأمر، حتى قال له فيما قال: إن أحببت عزله فوله شهراً واعزله دهراً. فأبى عليه علي إلا أن يقاتله، فكان ما كان مما قد سبق بيانه. ولما تراوض الفريقان على تحكيم الحكمين طلب ابن عباس أن يكون من جهة علي ليكافئ عمرو بن العاص، فامتنعت مذحج وأهل اليمن إلا أن يكون من جهة علي أبو موسى الأشعري، فكان من أمر الحكمين ماسلف.

وقد استنابه علي على البصرة، وأقام للناس الحج في بعض السنين فخطب بهم في عرفات خطبة وفسر فيها سورة البقرة، وفي رواية سورة النور، قال من سمعه: فسر ذلك تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

وهو أول من عرَّف بالناس في البصرة، فكان يصعد المنبر ليلة عرفة ويجتمع أهل البصرة حوله فيفسر شيئاً من القرآن، ويذكر الناس من بعد العصر إلى الغروب، ثم ينزل فيصلي بهم المغرب. وقد اختلف العلماء بعده في ذلك. فمنهم من كره ذلك وقال: هو بدعة لم يعملها رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه إلا ابن عباس، ومنهم من استحب ذلك لأجل ذكر الله وموافقة الحجاج.

وقد كان ابن عباس ينتقد على علي في بعض أحكامه فيرجع إليه علي في ذلك، كما:

قال الإمام أحمد [١/٢١٧، ٢٨٢، ٢٨٣]: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرِّقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لاتعذِّبوا بعذاب الله» وكنت قاتلهم لقول رسول الله ﷺ: «مَن بدَّل دينَه فاقتلوه». فبلغ ذلك علياً فقال: ويح ابن عباس، وفي رواية ويح ابن عباس إنه لغواص على الهَنات.

وقد كافأه علي فإن ابن عباس كان يرى إباحة المتعة، وأنها باقية، وتحليل الحمر الإنسية، فقال علي: إنك امرؤ تائه، إن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الإنسية يوم خيبر. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين [خ(٤٢١٦)، م(١٤٠٧)] وغيرهما، وله ألفاظ هذا من أحسنها والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقال البيهقي: أنبأ أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا بكر بن المؤمل يقول: سمعت أبا نصر بن أبي ربيعة يقول: ورد صعصعة بن صوحان على علي بن أبي طالب من البصرة فسأله عن ابن عباس - وكان علي خلافته بها - فقال صعصعة: يا أمير المؤمنين، إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث، آخذ بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدِّث وبأيسر الأمرين إذا خولف، وترك المراء ومقارنة اللئيم، وما يعتذر منه.

وقال الواقدي: ثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن سعد عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. قال: مارأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألبّ لُبّاً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع حلماً من ابن عباس، ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات ثم يقول: عندك قد جاءتك معضلة. ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار.

وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشَّره منا أحد. وكان يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

وعن ابن عمر أنه قال: ابن عباس أعلم الناس بما أنزل الله على محمد ﷺ.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢/٣٧٢]: حدثنا محمد بن عمر حدثني يحيى بن العلاء عن يعقوب بن زيد عن أبيه قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول حين بلغه موت ابن عباس وصفَّق بإحدى يديه على الأخرى: مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق.

وبه إلى يحيى بن العلاء عن عمر بن عبد الله عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: قال: لما مات ابن عباس قال رافع ابن خديج: مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب في العلم.

قال الواقدي: وحدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن عمرو بن أبي عمرو: عن عكرمة قال: سمعت معاوية يقول: ومولاك والله أفقه من مات ومن عاش.

وروى ابن عساكر تاريخ دمشق: [٢٩/٢٨٧، ٢٨٨] عن ابن عباس قال: دخلت على معاوية حين كان الصلح وهو أول ما التقيت أنا وهو، فإذا عنده أناس فقال: مرحباً يا ابن عباس، ما تحاكت الفتنة بيني وبين أحد كان أعز علي بعداً ولا أحب إلي قرباً، الحمد الله الذي أمات علياً، فقلت له: إن الله لا يذم في قضائه، وغير هذا الحديث أحسن منه، ثم قلت له: أحب أن تعفيني من ابن عمي وأعفيك من ابن عمك، قال: ذلك لك.

وقالت عائشة وأم سلمة حين حج ابن عباس بالناس: هو أعلم الناس بالمناسك.

وقال ابن المبارك عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا فقال له زيد: ارني يديك؟ فأخرج يديه فقبلهما فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقال الواقدي: حدثني داود بن سمعت ابن المسيب يقول: ابن عباس أعلم الناس.

وحدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة. قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال. يعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ونائل، ومارأيت أحدا كان أعلم بما سبقه من حديث النبي ﷺ منه، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم فيما مضى ولا أثبت رأيا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عند علما. قال: وربما حفظت القصيدة من فيه ينشدها ثلاثين بيتا.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت مثل ابن عباس قط.

وقال عطاء: مارأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً، ولا أعظم هيبة، أصحاب القرآن يسألونه، وأصحاب العربية يسألونه، وأصحاب الشعر عنده يسألونه، فكلهم يصدر في واد واسع.

وقال الواقدي: حدثني بشر بن أبي سليم عن ابن طاوس عن أبيه. قال: كان ابن عباس قد بَسَقَ على الناس في العلم كما تبسق النخلة السحوق على الودي الصغار

وقال ليث بن أبي سليم قلت لطاوس: لم لزمت هذا الغلام؟ - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من الصحابة؟ فقال: إني رأيت سبعين من الصحابة إذا تدارؤوا في شيء صاروا إلى قوله.

وقال طاوس أيضاً: مارأيت أفقه منه، قال: وماخالفه أحد قط فتركه حتى يقرره.

وقال على بن المديني ويحيى بن معين وأبو نعيم وغيرهم عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: مارأيت مثله قط، ولقد مات يوم مات وإنه لحبر هذه الأمة - يعني ابن عباس.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة وغيره عن أبي أسامة عن الأعمش عن مجاهد. قال: كان ابن عباس يسمّي البحر لكثرة علمه.

وروى الواقدي والزبير بن بكار عن مجاهد أنه كان قال: كان ابن عباس أمدهم قامة، وأعظمهم جفنة، وأوسعهم علما.

وقال عمرو بن دينار، قال: مارأيت مجلساً قط أجمع لكل خير من مجلس عباس الحلال والحرام وتفسير القرآن والعربية والشعر والطعام.

وقال محمد بن سعد: حدثنا عفان بن مسلم حدثنا سليم بن أخضر عن سليمان التيمي قال: أنبأني من أرسله الحكم بن أيوب - إلى الحسن سأله: من أول من جمّع بالناس في هذا المسجد يوم عرفة؟ قال: إن أول من جمّع ابن عباس، وكان رجلا مثجّاً - أحسب في الحديث - كثير العلم، وكان يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة ويفسرها آية آية.

وقد روي من وجه آخر عن الحسن البصري نحوه.

وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: روى سفيان عن أبي بكر الهذلي عن الحسن قال: كان ابن عباس أول من عرّف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا، وكان مثجّاً: قال ابن قتيبة مثجّاً من الثج وهو السيلان، قال تعالى ﴿وأنزلنا من المُعصِراتِ ماءً ثجّاجاً﴾ [النبأ: ١٤] وقيل: كثيراً بسرعة.

وقال يونس بن بكير: حدثنا أبو حمزة الثمالي عن أبي صالح: قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلسا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً، لقد رأيت الناس اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم، فقال لي: ضع لي وضوءاً، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج فقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل.

قال: فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثل ماسألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، قال: فخرجت فقلت لهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال اخرج. فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وماأشبهها، فليدخل، فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم. فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل، قال: فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، قال أبوصالح: فلو أن قريشا كلها فخرت بذلك لكان فخراً، فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس.

وقال طاوس وميمون بن مهران: مارأينا أورع من ابن عمر ولا أفقه من ابن عباس.

قال ميمون: وكان ابن عباس أفقههما.

وقال شريك القاضي عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فاذا نطق قلت: أفصح الناس فإذا تحدث قلت: أعلم الناس.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٤٩٥/١] حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن الزبير بن الخرِّيت عن عكرمة قال: كان ابن عباس أعلمهما بالقرآن، وكان علي أعلمهما بالمبهمات.

وقال إسحاق بن راهويه: إنما كان كذلك لأن ابن عباس كان قد أخذ ما عند علي من التفسير، وضم إلى ذلك ما اخذه عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي بن كعب وغيرهم من كبار الصحابة. مع دعاء رسول الله ﷺ له أن يعلمه الله الكتاب.

وقال أبو معاوية عن الأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة فجعل يقرؤها ويفسِّر فجعلت أقول: مارأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت.

وقد روى أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل أن ابن عباس حج بالناس عام قتل عثمان فقرأ سورة النور ففسرّها. وذكر نحو ماتقدم. فلعل الأول كان في زمان علي فقرأ في تلك الحجة سورة البقرة، وفي فتنة عثمان سورة النور، والله أعلم.

وقد روينا عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله.

وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس مرتين من أوله إلى آخره،

اقف عند كل آية فأسأل عنها.

ورُوي عنه أنه قال: أربع من القرآن لا أدري ما هي: الأواه، والحنـان، والرقيم، والغسلين. وكل القرآن أعلمه إلا هذه الأربع.

وقال ابن وهب وغيره عن سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد. قال: كان ابن عباس إذا سئل عن مسألة فإن كانت في كتاب الله قـال بهـا، وإن لم تكن وهي في السنة قال بها، فإن لم يقلها رسول اللّـه ﷺ ووجدهـا عن أبي بكر وعمر قال بها، وإلا اجتهد رأيه.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ١/٥٢٦]: حدثنا أبو عاصم وعبد الرحمن بن حمّاد الشُعيبي عن كهمس بن الحسن عـن عبد اللّـه بـن بريـدة. قال: شتم رجل ابن عباس فقال له: إنك لتشتمني وفيَّ ثلاث خصـال، إنـي لآتي على الآية من كتاب الله فلوددتُ أن الناس علموا منهـا مثـل الـذي أعلم، وإني لأسمع بالحاكم مـن حكـام المسلمين يقضي بـالعدل ويحكـم فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً وإني لأسمع بـالغيث يصيـب الأرض من أرض المسلمين فأفرح به وما لي بها من سائمة أبداً.

ورواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن الحسن بن مكرم عـن يزيـد بن هارون عن كهمس به.

وقال الواقدي: سأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] قال: كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات.

وقال ابن أبي مليكة: صحبت ابن عباس مـن المدينة إلى مكـة، وكـان يصلي ركعتين فإذا نزل قام شطر الليل ويرتـل القـرآن، يقـرأ حرفـا حرفـا، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب ويقرأ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]

وقال الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن شعيب بـن درهـم قـال: كان في هذا المكان ـ وأومأ إلى مجرى الدموع من خدّيه ـ مـن خـدي ابـن عباس ـ مثل الشراك البالي من البكاء.

وقال غيره: كان يصوم يوم الاثنين والخميس، وقال: أحـب أن يرتفـع عملي وأنا صائم.

وروى هشيم وغيره عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عـن ابـن عباس أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن أحب الكلام إلى اللّـه عـز وجل. ومن أكرم العباد على الله عز وجل، ومن أكرم الإماء على الله عـز وجل، وعن أربعة فيهم الروح لم يركضوا في رحم، وعن قبر سار بصاحبه، وعن مكان في الأرض لم تطلع عليه الشمس إلا مرة واحـدة، وعـن قـوس قزح ماهو؟ وعن المجرة. فبعث معاوية فسأل ابن عباس عنهـن فكتـب ابـن عباس إليه: أما أحب الكلام إلى الله فسبحان الله والحمـد للّـه ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولاقوة إلا بالله. وأكرم العباد على الله آدم، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسمـاء كـل شـيء، وأكرم الإماء على الله مريم بنت عمران. وأما الأربعة الذين لم يركضـوا في رحم فآدم وحواء وعصا موسى، وكبش إبراهيم الذي فدى بـه إسمـاعيل، وفي رواية: وناقة صالح، وأما القبر الذي سار بصاحبه فهو حـوت يونـس. وأما المكان الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فهـو البحر الـذي انفلـق لموسى حتى جاز بنو إسرائيل فيه، وأما قوس قزح فأمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء. وفي رواية الذي تنشق منه. فلما قرأ ملك الروم ذلك أعجبه وقال: والله ما هي من عند معاوية ولا من قوله، وإنما هي من عند أهل النبي ﷺ.

وقد ورد في هذه الأسئلة روايات كثيرة وزيادات كثيرة فيها وفي بعضها نظر؛ أنه سأله عن من لا قُبلَ له، وعن من لا عشيرة له، وعـن مـن لا أب له، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء وأرسل قارورة فقـال ابعث إليَّ في هذه. يبزر كل شيء، فكتب إليه: أما الذي لا قبل له فالله عز وجـل وأمـا من لاعشيرة له فآدم عليه السلام، وأما من لا أب له فعيسى عليه السـلام، وأما عن شيء فهو العاقل يعمل بعقله وأما نصف شـيء فـالذي لـه عقـلٌ ويعمل برأي غيره، وأما لاشيء فالذي لاعقـل لـه ولايعمـل بعقـل غـيره. وملأ القارورة ماء وقال: هذا بزر كل شـيء. فـأعجب ذلـك ملـك الـروم جدًا. فالله أعلم.

فصل:

تولى ابن عباس إمامة الحج سنة خمس وثلاثين بأمر عثمان بن عفان لـه وهو محصور، وفي غيبته هذه قتل عثمان، وحضر مـع علـي الجمـل، وكـان على الميسرة يوم صفين، وشهد قتال الخوارج وتأمر على البصرة مـن جهـه علي، وكان إذا خرج منها يستخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة، وزيـاد بن أبي سفيان على الخراج، وكان أهل البصرة مغبوطين به، يفقههم ويعلـم جاهلهم، ويعظ مجرمهم، ويعطي فقيرهم، فلم يزل عليها حتى مات علـي، ويقال: إن عليا عزله عنها قبل موته، ثم وفد علـى معاويـة. فأكرمـه وقربـه واحترمه وعظمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلـة فيجيـب عنهـا سـريعا، فكان معاوية يقول: مارأيت أحداً أحضر جواباً من ابن عباس.

ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علـي اتفـق كـون ابـن عبـاس عنـد معاوية فعزاه فيه بأحسن تعزية، ورد عليه ابن عباس رداً حسناً كمـا قدمنـا، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس فعزّاه فيه بعبارة فصيحة بليغة وجيزة، شكره عليها ابن عباس، وقد تقدم ذلك أيضاً.

ولما مات معاوية ورام الحسين بن علـي الخـروج إلى العـراق نهـاه ابـن عباس أشد النهي، ولامه على عزمه ذلك آكد اللـوم وأراد ابـن عبـاس أن يتعلق بثياب الحسين، لأن ابن عباس كان قد اضـر في آخـر عمـره ـ فلـم يقبل منه، فلما بلغه عزمه حزن عليه حزناً شديداً ولزم بيته، وكان يقول: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، فإنك إن لا تفعل تندم.

وجاء إليه رجل يقال لـه جنـدب فقـال لـه: أوصـني، فقـال: أوصيـك بتوحيد الله والعمل له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن كل خير آتيـه أنـت بعد ذلك مقبول، وإلى الله مرفوع، يا جندب إنك لن تزدد من يومـك إلا قرباً، فصل صلاة مودع. واصبح في الدنيا كأنك غريب مسافر، فـإنك مـن أهل القبور، وابك على ذنبـك وتـب مـن خطيئتـك، ولتكـن الدنيـا أهـون عليك من شسع نعلك، وكأن قد فارقتها وصرت إلى عدل الله، ولن تنتفـع بما خلفت، ولن ينفعك إلا عملك.

وقال بعضهم: أوصى ابن عباس بكلمات خير من الخيل الدهم، قال: لا تكلمن فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعا، ولا تمار سـفيها ولا حليمـا فإن الحليم يغلبك والسفيه يزدريك، ولا تذكرن أخاك إذا تـوارى عنـك إلا بمثل الذي تحب أن يتكلم فيك إذا تواريت عنه، واعمل عمـل رجـل يعلـم أنه مجزيٌ بالإحسان مأخوذ بالإجرام. فقال رجل عنده: يا ابن عباس! هـذا خير من عشرة آلاف. فقال ابن عباس: كلمة منه خير من عشرة آلاف.

قال ابن عباس: تمـام المعـروف تعجيلـه وتصغيره وسـتره ـ يعـني أن تعجل العطية للمعطى، وأن تصغر في عـين المعطـي ـ وأن تسـترها عـن

الناس فلا تظهرها! فإن في إظهارها فتح باب الرياء وكسر قلب المعطى، واستحياءه من الناس.

وقال ابن عباس: أعز الناس علي جليسي لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت.

وقال أيضاً: لا يكافئ من أتاني يطلب حاجة فرآني لها موضعا إلا الله عز وجل، وكذا رجل بدأني بالسلام أو أوسع لي في مجلس أو قام لي عن المجلس، أو رجل سقاني شربة ماء على ظمأ، ورجل حفظني بظهر الغيب.

والمأثور عنه من هذه المكارم كثير جداً وفيما ذكرنا إشارة إلى ما لم نذكره.

وقد عده الهيثم بن عدي في العميان من الأشراف، وفي بعض الأحاديث الواردة عنه ما يدل على ذلك، وقد أصيبت إحدى عينيه فنحل جسمه، فلما أصيبت الأخرى عاد إليه لحمه، فقيل له في ذلك فقال: أصابني ما رأيتم في الأولى شفقة على الأخرى، فلما ذهبتا اطمأن قلبي.

وقال أبو القاسم البغوي: ثنا علي بن الجعد حدثنا شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه وقع في عينيه الماء فقيل له: نتزع من عينك الماء على أنك أن لا تصلي سبعة أيام. فقال: لا! إنه من ترك الصلاة وهو يقدر عليها لقي الله وهو عليه غضبان، وفي رواية أنه قيل له: نزيل هذا الماء من عينك على أن تبقى خمسة أيام ولا تصلي إلا على عود، وفي رواية إلا مستلقياً، فقال: لا والله ولا ركعة واحدة، إنه من ترك صلاة واحدة متعمداً لقي الله وهو عليه غضبان.

وقد أنشد المدائني لابن عباس حين عمي:

إنْ يأخذِ اللهُ من عَينيَّ نورَهما ... ففي لساني وسمعي منهما نورُ
قلبي ذكيٌ وعقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ... وفي فمي صارمٌ كالسيفِ مأثورُ

ولما وقع الخلف بين ابن الزبير وبين عبد الملك بن مروان اعتزل ابن عباس ومحمد بن الحنفية الناس فدعاهما ابن الزبير ليبايعاه فأبيا عليه، وقال كل منهما: لا نبايعك ولا نخالفك. فهمّ بهما فبعثا أبا الطفيل عامر بن واثلة فاستنجد لهما من بالعراق من شيعتهما. فقدم أربعة آلاف فكبروا بمكة تكبيرة واحدة، وهمّوا بابن الزبير فانطلق ابن الزبير هارباً وتعلّق بأستار الكعبة، وقال: أنا عائذ بالله، فكفوهم عنه، ثم مالوا إلى ابن عباس وابن الحنفية وقد حمل ابن الزبير حول دورهم الحطب ليحرقهم، فخرجوا بهما حتى نزلوا الطائف، وأقام ابن عباس سنتين لم يبايع أحدا كما تقدم.

فلما كان في سنة ثمان وستين توفي ابن عباس بالطائف، وصلى عليه محمد بن الحنفية، وقال: مات اليوم حبر هذه الأمة. فلما وضعوه ليدخلوه في قبره جاء طائر أبيض لم ير مثل خلقته، فدخل في أكفانه والتفّ فيها حتى دفن معه.

قال عفان: فكانوا يرونه علمه، فلما وضع في اللحد تلا تال لا يعرف من هو- وفي رواية: أنهم سمعوا من قبره ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٨] هذا القول في وفاته هو الذي صححه غير واحد من الأئمة، ونص عليه أحمد بن حنبل والواقدي وابن عساكر، وهو المشهور عند الحفاظ.

وقيل: إنه توفي سنة ثلاث وستين، وقيل سنة ثلاث وسبعين، وقيل سنة سبع وستين، وقيل سنة تسع وستين، وقيل سنة سبعين،

والأول أصح، وهذه الأقوال كلها شاذة غريبة مردودة والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكان عمره يوم مات ثنتين وسبعين سنة، وقيل إحدى وسبعين، وقيل أربع وسبعين، والأول أصح والله أعلم.

صفة ابن عباس رضي الله عنه:

كان جسيما إذا جلس يأخذ مكان رجلين، جميلا له وفرة. قد شاب مقدم رأسه، وشابت لمته، وكان يخضب بالحناء وقيل بالسواد، حسن الوجه يلبس حسناً ويكثر من التطيُّب بحيث إنه كان إذا مر في الطريق تقول النساء: هذا ابن عباس أو رجل معه مسك وكان وسيماً أبيض طويلاً، صبيحاً، فصيحاً ولما عمي اعترى لونه صفرة يسيرة. وقد كان بنو العباس عشرة، وهم الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، ومعبد، وقثم، وعبد الرحمن، وكثير، والحارث، وعون، وتمام. وكان أصغرهم تمام، ولهذا كان العباس يحمله ويقول.

تَمُّوا بِتَمَّامٍ فَصَاروا عَشَرَه ... يا رب فاجعلهم كِرَامَا بَرَرَه
واجعلهم ذِكراً وأَنمِ الثَمَرَه

فأما الفضل فمات بأجنادين شهيداً، وعبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، ومعبد وعبد الرحمن بأفريقية، وقثم وكثير بينبع، وقيل: إن قُثَمَ مات بسمرقند.

وقد قال مسلم بن قمادين المكي مولى بني مخزوم: ما رأيت مثل بني أم واحدة أشراف ولدوا في دار واحدة أبعد قبوراً من بني أم الفضل. ثم ذكر مواضع قبورهم كما تقدم، إلا أنه قال: الفضل مات بالمدينة، وعبيد الله بالشام.

وقد كان عبد الله بن عباس يلبس الحلة بألف درهم، وكان له من الولد العباس وعلي، ويدعى السجاد لكثرة صلاته، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض، وقد قيل: إنه كان يصلي كل يوم ألف ركعة، وقيل: في الليل والنهار مع الجمال التام. وعلى هذا فهو أبو الخلفاء العباسيين، ففي ولده كانت الخلافة العباسية كما سيأتي، وكان لابن عباس أيضا محمد والفضل وعبد الله، ولُبابة وأمهم زرعة بنت مسرح بن معدي كرب، وله أسماء وهي لأم ولد، وكان له من الموالي عكرمة وكريب وأبو معبد وشعبة ودقيق وأبو عمرة وأبو عبيد، ومقسم.

وقد أسند ألفا وستمائة وستين حديثا. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيها توفي:

■ أبو شريح الخزاعي العدوي الكعبي، اختلف في اسمه على أقوال أصحها خويلد بن عمرو، أسلم عام الفتح، وكان معه أحد ألوية بني كعب الثلاثة.

قال محمد بن سعد: مات في هذه السنة وله أحاديث.

و■ أبو واقد الليثي صحابي جليل مختلف في اسمه وفي شهوده بدراً.

قال الواقدي: توفي سنه ثمان وستين عن خمس وستين سنة، وكذا قال غير واحد في تاريخ وفاته، وزعم بعضهم أنه عاش سبعين سنة، وكانت وفاته بمكة بعد ما جاوز بها سنة ودفن في مقابر المهاجرين والله أعلم.

■ حميد بن ثور الهلالي الشاعر المشهور، قال الشعر في أيام عمر، وهو من فحول الشعراء.

ثم دخلت سنة تسع وستين

ففيها كان مقتل عمرو بن سعيد الأشدق الأموي قتله عبد الملك بن مروان وكان سبب ذلك أن عبد الملك ركب في أول هذه السنة في جنوده قاصداً قرقيسياء ليحاصر زفر بن الحارث الكلابي الذي أعان سليمان بن صرد على جيش مروان حين قاتلوهم بعين وردة. ومن عزمه إذا فرغ من ذلك أن يقصد مصعب بن الزبير بعد ذلك، فلما سار إليها استخلف على دمشق عمرو بن سعيد الأشدق، فتحصن بها وأخذ أموال بيت المال. وقيل: بل كان مع عبد الملك ولكنه انخذل عنه في طائفة من الجيش وكر راجعا إلى دمشق في الليل ومعه حميد بن حريث ابن بحدل الكلبي وزهير بن الأبرد الكلبي، فاتهوا إلى دمشق وعليها عبد الرحمن بن أم الحكم نائباً من جهة عبد الملك بن مروان، فلما أحس بهم هرب وترك البلد فدخلها عمرو بن سعيد الأشدق فاستحوذ على ما فيها من الخزائن، وخطب الناس فوعدهم العدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل. ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق كر راجعا من فوره فوجد الأشدق قد حصن دمشق وعلق عليها الستائر والمسوح، وانحاز الأشدق إلى حصن رومي منيع كان بدمشق فنزله، فحاصره عبد الملك وقاتله عمرو بن سعيد الأشدق مدة ستة عشر يوماً، وراسله عبد الملك وقال له: أنشدك الله والرحم أن تفسد أمر بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة، وأن فيما صنعت قوة لابن الزبير فارجع إلى بيعتك ولك علي عهد الله وميثاقه، وحلف له بالأيمان المؤكدة أنك ولي عهدي من بعدي، وكتب بينهما كتابا، فانخدع له عمرو، وفتح أبواب دمشق ثم اصطلحا على ترك القتال، وعلى أن يكون ولي العهد من بعد عبد الملك، وعلى أن يكون مع كل عامل لعبد الملك عامل له، وكتبا بينهما كتاب أمان، وذلك عشية الخميس.

ودخل عبد الملك إلى دمشق إلى دار الإمارة على عادته، وبعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق يقول له: رد على الناس أعطياتهم التي أخذتها لهم من بيت المال، فبعث إليه عمرو يقول له: إن هذا ليس إليك، وليس هذا البلد لك فاخرج منه. فلما كان يوم الاثنين بعث عبد الملك إلى الأشدق يأمره بالإتيان إلى منزله بدار الإمارة الخضراء، فلما جاءه الرسول صادف عنده عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو زوج ابنته أم موسى بنت عمرو بن سعيد، فاستشاره عمرو في الذهاب إلى عبد الملك فقال له: يا أبا سعيد والله لأنت أحب إلى من سمعي وبصري، وأرى أن لا تأتيه، فإن تبيعاً الحميري ابن امرأة كعب الأحبار قال: إن عظيماً من عظماء بني إسماعيل يغلق أبواب دمشق فلا يلبث أن يقتل. فقال عمرو: والله لو كنت نائماً ما تخوفت أن ينبهني ابن الزرقاء، وما كان ليجترئ على ذلك مني، مع أن عثمان بن عفان أتاني البارحة في المنام فألبسني قميصه، وقال عمرو بن سعيد للرسول: أبلغه السلام وقل له: أنا رائح إليك العشية إن شاء الله.

فلما كان العشي - يعني بعد الظهر - لبس عمرو درعا بين ثيابه وتقلد سفيه ونهض فعثر بالبساط فقالت امرأته وبعض من حضره: إنا نرى أن لا تأتيه، فلم يلتفت إلى ذلك ومضى في مائة من مواليه، وكان عبد الملك قد أمر بني مروان فاجتمعوا كلهم عنده، فلما انتهى عمرو إلى الباب أمر عبد الملك أن يدخل وأن يحبس من معه عند كل باب طائفة منهم، فدخل حتى انتهى إلى صرحة المكان الذي فيه عبد الملك، ولم يبق معه من مواليه سوى وصيف واحد، فرمى ببصره فإذا بنو مروان عن بكرة أبيهم مجتمعون عند عبد الملك، فأحس بالشر فالتفت إلى وصيفه فقال له همساً: ويلك انطلق إلى أخي يحيى بن سعيد فقل له فليأتني، فلم يفهم عنه وقال له: لبيك، فاعاد عليه ذلك فلم يفهم أيضاً وقال: لبيك، فقال: ويلك اغرب عني في حرق الله وناره، وكان عند عبد الملك حسان بن مالك بن بحدل، وقبيصة بن ذؤيب، فأذن لهما عبد الملك بالانصراف، فلما خرجا غلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك فرحب به وأجلسه معه على السرير، ثم جعل يحدثه طويلا، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين. فقال له عبد الملك: أو تطمع أن تتحدث معي متقلدا سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: إنك حيث خلعتني آليت بيميني إن ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة، فقالت بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، قال: ثم أطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبي أمية، فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين، فقال عمرو: فأبرّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه ثم قال: يا غلام قم فاجمعه فيها، فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس، فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاهاً الله إذا ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولما نخرجها منك إلا صعداً، ثم اجتبذه اجتباذة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين يا أن يدعوك كسر عظمى إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قط على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه.

وفي رواية أنه قال له: أما علمت يا عمرو أنه لا يجتمع فحلان في سَوْل؟. فلما تحقق عمرو ما يريد من قتله قال له: أعذراً يا ابن الزرقاء؟ وبينما هما كذلك إذ أذن للعصر، فقام عبد الملك ليخرج إلى الصلاة، وأمر أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله، وخرج عبد الملك وقام إليه عبد العزيز بالسيف فقال له عمرو: أذكرك الله والرحم أن لا تلي ذلك مني، وليتول ذلك غيرك، فكف عنه عبد العزيز بن مروان.

ولما رأى الناس عبد الملك قد خرج وليس معه عمرو أرجف الناس بعمرو، فأقبل أخوه يحيى بن سعيد في ألف عبد لعمرو بن سعيد وأناس معهم كثير، وأسرع عبد الملك الدخول إلى دار الإمارة، وجاء أولئك فجعلوا يدقون باب الإمارة ويقولون: أسمعنا صوتك يا أبا أمية، وضرب رجل منهم الوليد بن عبد الملك في رأسه بالسيف فجرحه، فأدخله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان بيتاً، وأحرزه فيه، ووقعت خبطة عظيمة في المسجد، وضجت الأصوات، ولما رجع عبد الملك وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبه وسب أمه، ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك - فقال: إنه ناشدني الله والرحم، وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام أئتني بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً، ثم ثنّى فلم تغن شيئاً، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال: ودارع أيضاً؟ إن كنت لُمِعِدّاً، يا غلام ائتني بالصمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصرع ثم جلس على صدره فذبحه وهو يقول: -

يا عَمرُو إنْ لا تدَعْ شتمي ومنقصتي أضربْكَ حيث تقولُ الهامةُ اسقوني

قالوا: وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً، وبحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولا، فوضعوه طالب

على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قِتْلةَ صاحب دنيا ولا آخرة، ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أم الحكم فخرج إلى الناس فألقاه بين أظهرهم، وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدر من الأموال تحمل، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك من الناس إلى بيت المال.

ويقال: إن الذي ولي قتل عمرو بن سعيد مولى عبد الملك أبو الزعيزعة بعد ما خرج عبد الملك إلى الصلاة فالله أعلم.

وقد دخل يحيى بن سعيد ـ أخو عمرو بن سعيد ـ دار الإمارة بعد مقتل أخيه بمن معه فقام إليهم بنو مروان فاقتتلوا، وجرح جماعات من الطائفتين، وجاءت يحيى بن سعيد صخرة في رأسه أشغلته عن نفسه وعن القتال، ثم إن عبد الملك بن مروان خرج إلى المسجد الجامع فصعد المنبر فجعل يقول: ويحكم أين الوليد؟ وأبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثارهم، فأتاه إبراهيم بن عربي الكناني فقال: هذا الوليد عندي قد أصابته جراحة وليس عليه بأس، ثم أمر عبد الملك بيحيى بن سعيد أن يقتل فشفع فيه أخوه عبد العزيز بن مروان، وفي جماعات آخرين معه كان عبد الملك قد أمر بقتلهم يومئذ، فشفعه فيهم وأمر بحبسه فسجن شهراً، ثم سيره وبني عمرو بن سعيد وأهليهم إلى العراق فدخلوا على مصعب ابن الزبير فاكرمهم وأحسن إليهم، ثم لما انعقدت الجماعة لعبد الملك بعد مقتل ابن الزبير كما سيأتي، وفدوا عليه فكاد يقتلهم فتلطف بعضهم في العبارة حتى رق لهم رقة شديدة، وقال: إن أباكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله، فاخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما ارغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم وأرعاني لحقكم. فأحسن جائزتهم وقربهم، وقد كان عبد الملك بعث إلى امرأة عمرو بن سعيد أن ابعثي إلي بكتاب الأمان الذي كنت كتبته لعمرو، فقالت: إني دفنته معه ليحاكمك به يوم القيامة عند الله.

وقد كان مروان بن الحكم وعد عمرو بن سعيد هذا أن يكون ولي العهد من بعد ولده عبد الملك، كلاماً مجرداً، فطمع في ذلك وقويت نفسه بسبب ذلك، وكان عبد الملك يبغضه بغضاً شديداً من الصغر، ثم كان هذا صنيعه إليه في الكبر.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٤٨/٦]: وذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك ذات يوم: عجب منك ومن عمرو بن سعيد كيف أصبت غرته حتى قتلته؟ فقال:

أدنيْتُه مني ليسكُن رَوعُهُ　　فأصُولَ صَولة حازم مُستمكنِ
غضَباً وحمية لدِيني إنه　　ليس المُسيء سبيله كالمُحسِنِ

قال خليفة بن خياط [تاريخه: ٢٣٨]: وهذا الشعر للضّبي بن أبي رافع تمثل به عبد الملك.

وروى ابن دريد عن أبي حاتم عن العُتبي أن عبد الملك قال: لقد كان عمرو بن سعيد أحب إلي من دم النواظر، ولكن والله لا يجتمع فحلان في الإبل إلا أخرج أحدهما الآخر، وإننا لكما قال أخو بني يربوع: ـ

أُجَازي مَن جَزاني الخير خَيراً　　وجازي الخير يُجزَى بالنوَال
وأَجزي مَن جزاني الشر شَراً　　كما تُحذَى النِّعال على النِّعالِ

قال خليفة بن خياط: وأنشد أبو اليقظان لعبد الملك في قتله عمرو بن سعيد:

صَحَتْ ولا تَشلَل وضَرَّت عُدُوها　　يَمين أراقت مُهْجَة ابن سعيد
وَجَدتُ ابن مروان ولا تَبْلَ نفسه　　شديداً ضَريرِ البأس غير بليدِ
هو ابن أبي العاصي لمروان ينتمي　　إلى أسرة طابت له وجُدودِ

وكان الواقدي يقول: أما حصار عبد الملك لعمرو بن سعيد الأشدق فكان في سنة تسع وستين، رجع إليه من بطنان فحاصره بدمشق وأما قتْلُه إياه فكان في سنة سبعين والله أعلم.

وهذه ترجمة عمرو بن سعيد الأشدق

هو

■ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو أمية القرشي الأموي، المعروف بالأشدق، يقال: إنه رأى النبي ﷺ وروي عنه أنه قال: «ما نحل والد ولداً أحسن من أدب حسن» [ت(١٩٥٢)].

وحديثا آخر في العتق [مصنف عبد الرزاق (١٦٧٠٥)].

وروى عن عمر وعثمان وعلي وعائشة، وحدث عنه بنوه أمية وسعيد وموسى وغيرهم، واستنابه معاوية على المدينة، وكذلك يزيد بن معاوية بعد أبيه كما تقدم.

وكان من سادات المسلمين، ومن الكرماء المشهورين، يعطي الكثير، ويتحمل العظائم، وكان وصي أبيه من بين بنيه، وكان أبوه كما قدمنا من المشاهير الكرماء، والسادة النجباء.

قال عمرو: ما شتمت رجلا منذ كنت رجلا، ولا كلفت من قصدني أن يسألني، لهو امنُّ علي مني عليه.

وقال سعيد بن المسيب: خطباء الناس في الجاهلية الأسود بن المطلب، وسهيل بن عمرو، وخطباء الناس في الإسلام معاوية وابنه، وسعيد بن العاص وابنه، وعبد الله بن الزبير.

وقد قال الإمام أحمد [٥٢٢/٢]: حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد حدثنا علي بن زيد اخبرني من سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيرعَفَنّ علي مِنبَري جبار من جبابرة بني أمية حتى يسيل رعافه» قال: فأخبرني من رأى عمرو بن سعيد بن العاص رعف على منبر رسول الله ﷺ حتى سال رعافه.

وهو الذي كان يبعث البعوث إلى مكة بعد وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير، فنهاه أبو شريح الخزاعي وذكر له الحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ في تحريم مكة، فقال: نحن أعلم بذلك منك يا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة، الحديث كما تقدم وهو في الصحيحين [خ(١٠٤)، م(١٣٥٤)].

ثم إن مروان دخل إلى مصر بعد ما دعا إلى نفسه واستقر له الشام، ودخل معه عمرو بن سعيد ففتح مصر، وقد كان وعد عمراً أن يكون ولي العهد من بعد عبد الملك، وأن يكون قبل ذلك نائباً بدمشق، فلما قويت شوكة مروان رجع عن ذلك، وجعل الأمر من بعد عبد الملك لولده عبد العزيز، وخلع عمرو بن سعيد من ذلك، فما زال ذلك في نفسه حتى كانت هذه السنة، وعزم عبد الملك على الدخول إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير فرجع من جيشه ودخل عمرو دمشق وتحصن بها وأجابه أهلها، فاتبعه فحاصره عبد الملك ثم استنزله على أمان صوري، ثم قتله كما قدمنا.

وكان ذلك في هذه السنة على المشهور عند الأكثرين.

وقال الواقدي وأبو سعيد بن يونس سنة سبعين فالله أعلم.

ومن الغريب ما ذكره هشام بن محمد الكلبي بسند له: أن رجلا سمع في المنام قائلا يقول على سور دمشق قبل أن يخرج عمرو بن سعيد بالكلية، وقبل قتله بمدة هذه الأبيات: -

ألا يا لقومي للسفاهة والوهن وللفاجر الموهون والرأي ذي الأفن
ولابن سعيد بينما هو قائم على قدميه خرَّ للوجه والبطن
رأى الحِصن منجاة من الموت فالتجا إليه فزارته المنية في الحِصن

قال: فأتى الرجل عبد الملك فأخبره فقال: ويحك سمعها منك أحد؟ قال: لا! قال: فضعها تحت قدميك. ثم بعد ذلك خلع عمرو الطاعة وقتله عبد الملك بن مروان، وقد قيل: إن عبد الملك لما حاصره راسله وقال: أنشدك الله والرحم أن تدع أمر بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة فإن فيما صنعت قوة لابن الزبير علينا، فارجع إلى بيعتك ولك علي عهد الله وميثاقه، وحلف له بالأيمان المؤكدة أنك ولي عهدي من بعدي، وكتبا بينهما كتاباً، فانخدع له عمرو وفتح له أبواب دمشق فدخلها عبد الملك وكان من أمرهما ما تقدم.

ومن توفي فيها من الأعيان أيضاً

■ أبو الأسود الدؤلي ويقال له الديلي: قاضي البصرة، تابعي جليل، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل ابن يعمر بن حلس بن نُفَاثة بن عدي بن الدُّئل بن بكر، أبو الأسود الذي نسب إليه علم النحو، ويقال: إنه أول من تكلم فيه، وإنما أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وقد اختلف في اسمه على أقوال، أشهرها أن اسمه ظالم بن عمرو، وقيل عكسه.

وقال الواقدي: اسمه عويمر بن ظويلم، قال: وقد أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، وشهد الجمل مع علي وكان من وجوه شيعته ومن أكملهم رأيا وعقلاً وقد أمره عليٌ بوضع النحو فلما رآه عليٌ قال له: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت وهلك في ولاية عبيد الله بن زياد.

وقال يحيى بن معين وأحمد بن عبد الله العجلي: كان ثقة وهو أول من تكلم في النحو.

وقال ابن معين وغيره: مات بالطاعون الجارف سنة تسع وستين.

قال ابن خلكان: وقيل إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقد كان ابتداؤها في سنة تسع وتسعين.

قلت: وهذا غريب جداً.

قال ابن خلكان وغيره: كان أول من ألقى إليه علم النحو علي بن أبي طالب، وذكر له أن الكلام اسم وفعل وحرف، ثم إن أبا الأسود نحى نحوه وفرّع على قوله، وسلك طريقه، فسمي هذا العلم النحو لذلك.

وكان الباعث لأبي الأسود على ذلك تغير لغة الناس، ودخول اللحن في كلام بعضهم أيام ولاية زياد على العراق، وكان أبو الأسود مؤدب بنيه، فإنه جاء رجل يوماً إلى زياد فقال: توفي أبانا وترك بنون، فأمره زياد أن يضع للناس شيئا يهتدون به إلى معرفة كلام العرب.

ويقال: إن أول ما وضع منه باب التعجب من أجل أن ابنته قالت له ليلة: يا أبه ما أحسنُ السماء! فقال: نجومها، فقالت: إني لم أسأل عن أحسنها إنما تعجبت من حسنها، فقال: قولي: ما أحسنَ السماء!

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٥٣٨/٢، ٥٣٩ بنحوه]: وقد كان أبو الأسود يبخَل، وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنّا مثلهم.

وعشي ليلة مسكيناً ثم قيده وبيته عنده ومنعه أن يخرج ليلته تلك لئلا يؤذي المسلمين بسؤاله، فقال له المسكين: أطلقني، فقال: هيهات، إنما عشيتك لأريح منك المسلمين الليلة. فلما أصبح أطلقه، وله شعر حسن رحمه الله.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٤٨/٦، ١٤٩]: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وقد أظهر خارجي التحكيم بمنى فقتل عند الجمرة.

والنواب فيها هم الذين كانوا في السنة التي قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ جابر بن سمرة بن جنادة، له صحبة ورواية ولأبيه أيضاً صحبة ورواية، وقيل توفي في سنة ست وستين فالله أعلم.

■ أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية؛ بايعت النبي ﷺ ويقال لها ام سليم قتلت بعمود خيمتها يوم اليرموك تسعة من الروم ليلة عرسها، وسكنت دمشق وقبرها بباب الصغير.

■ حسان بن مالك بن بحدل الأمير أبو سليمان البحدلي الكلبي، وهو الذي قام ببيعة مروان. وقيل: إنهم سلموا عليه بالخلافة أربعين يوما ثم سلمها لمروان. وقصر حسان بدمشق ويعرف بقصر ابن أبي الحديد وهو قصر البحادلة.

مات في هذه السنة والله سبحانة أعلم.

■ يوسف بن الحكم الثقفي والد الحجاج. قدم من الطائف إلى الشام ثم ذهب إلى مصر والمدينة وكان يلزم مروان.

■ عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان. شهد الدار مع عثمان بن عفان، وكان شاعرا محسنا، وله منزلة عند معاوية وابنه.

ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة

فيها ثارت الروم على من بالشام، واستضعفوهم لما يرون من الاختلاف الواقع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله ابن الزبير، فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم وهادنه على أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على الشام.

وفيها وقع الوباء بمصر فهرب منه عبد العزيز ابن مروان إلى الشرقية، فنزل حلوان وهي على مرحلة من القاهرة، واتخذها منزلا واشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وبنى بها داراً للإمارة وجامعاً، وأنزلها الجند.

وفيها ركب مصعب بن الزبير من البصرة إلى مكة ومعه أموال جزيلة. فأعطى وفرق ونحر عند الكعبة ألف بدنة وعشرين ألف شاة وأغنى ساكني مكة ثم عاد إلى العراق وأنعم وأطلق لجماعة من رؤوس الناس بالحجاز أموالا كثيرة.

وحجَّ الناس فيها ابن الزبير والعمال على الأمصار المذكورون فيما قبل.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، وأمه جميلة بنت ثابت ابن أبي الأفلح، ولد في حياة رسول الله ﷺ، ولم يرو إلا عن أبيه حديثا واحداً: «إذا أقبل الليل من ههنا» الحديث [خ(١٩٥٤)، م(١١٠٠)].

وعنه ابناه حفص وعبيد الله، وعروة بن الزبير، وقد طلق أبوه أمه

فأخذته جدته الشموس بنت أبي عامر، حكم له بها الصديق وقال: شَمُّها ولطفها أحب إليه منك، ثم لما زوجه أبوه في أيامه أنفق عليه من بيت المال شهراً، ثم كف عن الإنفاق عليه وأعطاه ثمن ماله وأمره أن يتجر وينفق على عياله.

وذكر غير واحد أنه كان بين عاصم وبين الحسن والحسين منازعة في أرض، فلما تبين عاصم من الحسن الغضب قال: هي لك، فقال له: بل هي لك، فتركاها ولم يتعرضا لها، ولا أحد من ذريتهما حتى أخذها الناس من كل جانب.

وكان عاصم رئيسا وقوراً كريماً فاضلاً.

قال الواقدي: مات سنة سبعين بالمدينة.

■ **قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي، أبو العلاء**: من كبار التابعين شهد خطبة عمر بالجابية وكان أخا معاوية من الرضاعة. وكان من الفصحاء البلغاء.

■ **قيس بن ذريح أبو يزيد الليثي الشاعر المشهور**، من بادية الحجاز وكان قد تزوج بنت الحباب ثم طلقها فلما طلقها هام لما به من الغرام، وسكن البادية وجعل يقول فيها الأشعار ونحل جسمه، فلما زاد ما به أتاه ابن أبي عتيق فأخذه ومضى به إلى عبد الله بن جعفر فقال له: فداك أبي وأمي، اركب معي في حاجة، فركب واستنهض معه أربعة نفر من وجوه قريش، فذهبوا معه وهم لا يدرون ما يريد، حتى أتى بهم بابَ زوجِ لبنى، فخرج إليهم فإذا وجوه قريش، فقال: جعلني الله فداكم! ما جاء بكم؟ قالوا: حاجة لابن أبي عتيق، فقال الرجل: اشهدوا عليَّ أن حاجته مقضية، وحكمه جائز، فقالوا: أخبره بحاجتك، فقال ابن أبي عتيق: اشهدوا على أن زوجته لبنى منه طالق، فقال عبد الله بن جعفر: قبحك الله، ألهذا جئت بنا؟ فقال: جعلت فداكم يطلق هذا زوجته ويتزوج بغيرها خير من أن يموت رجل مسلم في هواها صبابة، والله لا أبرح حتى ينتقل متاعها إلى بيت قيس، ففعلت وأقاموا مدة في أرغد عيش وأطيبه رحمهم الله تعالى.

■ **يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري الشاعر**: كان كثير الشرِّ والهجو، وقد أراد عبيد الله بن زياد قتله لكونه هجا أباه زياداً، فمنعه معاوية من قتله، وقال: أدبه، فسقاه دواء مسهلا وأركبه على حمار وطاف به في الأسواق وهو يسلح على الحمار فقال في ذلك:

يَغسِلُ الماءُ ما صنعتَ وشِعري رَاسِخ مِنكَ في العظامِ البَوالي

■ **بشير بن النضر**: قاضي مصر، كان رزقه في العام ألف دينار، توفي بمصر، وولي بعده عبد الرحمن بن حجزة الخولاني، والله سبحانه أعلم.

■ **مالك بن يخامر السكسكي الألهاني الحمصي**: تابعي جليل، ويقال: له صحبة فالله أعلم.

روى البخاري [٣٦١، ٧٤٦٠] من طريق معاوية عنه عن معاذ بن جبل في حديث الطائفة الظاهرة على الحق أنهم بالشام، وهذا من باب رواية الأكابر عن الأصاغر، إلا أن يقال له صحبة، والصحيح أنه تابعي وليس بصحابي، وكان من أخص أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه.

قال غير واحد: مات في هذه السنة، وقيل سنة اثنتين وسبعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

وفيها كان مقتل مصعب بن الزبير، وذلك أن عبد الملك بن مروان سار في جنود هائلة من الشام قاصداً مصعب بن الزبير بالعراق، فالتقيا في هذه السنة، وقد كانا قبلها يركب كل واحد للتقي الآخر فيحول بينهما الشتاء والبرد والوحل، فيرجع كل واحد منهما إلى بلده، فلما كان في هذا العام سار إليه عبد الملك وبعث بين يديه السرايا، ودخل بعض من أرسله إلى البصرة فدعا أهلها إلى عبد الملك في السر، فاستجاب له بعضهم، وقد كان مصعب سار إلى الحجاز فجاء ودخل البصرة على إثر ذلك، فأنب الكبراء من الناس وشتمهم ولامهم على دخول أولئك إليهم، وإقرارهم لهم على ذلك، وهدم دور بعضهم، ثم شخص إلى الكوفة، ثم بلغه قصد عبد الملك له بجنود الشام فخرج إليه.

ووصل عبد الملك إلى مسكن، وكتب إلى المروانية الذين استجابوا لمن بعثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يوليهم أصبهان فقال: نعم - وهم جماعة كثيرة من الأمراء وقد جعل عبد الملك على مقدمته أخاه محمد بن مروان. وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وخرج مصعب بن الزبير وقد اختلف عليه أهل العراق، وخذلوه وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطمَّن نفسه على ذلك، وقال: لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من إلقائه يده، ومن الذلة لعبيد الله بن زياد، وجعل ينشد ويقول مسلياً نفسه:

وإن الأولَى بالطفِّ من آل هاشم تَآسَوا فَسَنُّوا للكِرام التأسِّيَا

وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أمرائه أن يقيم بالشام وأن يبعث إلى مصعب جيشا، فأبى وقال: لعلي أبعث رجلا شجاعا لا رأي له، ومن له رأي له لا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصراً بالحرب وشجاعة، وإن مصعباً في بيت شجاعة، أبوه أشجع قريش، وأخوه لا تجهل شجاعته، وهو شجاع لا علم له بالحرب وهو يحب الدعة والخفض، ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي ويوافقني على ما أريد، فسار بنفسه فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلى أمراء مصعب بكتب يدعوهم إلى نفسه ويعدهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشتر إلى مصعب فألقى إليه كتاباً مختوماً وقال: هذا جاءني من عبد الملك، ففتحه فإذا هو يدعوه إلى الإتيان إليه وله نيابة العراق، وقال لمصعب: أيها الأمير! إنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم. فقال له مصعب: إني لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم، فقال: فأوقرهم في الحديد وابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه، ووكِّل بهم من إن غلبت ضرب أعنقهم، وإن غَلَبت مَنَنتَ بهم على عشائرهم بعدهم؛ فقال له: يا أبا النعمان، إني لفي شغل عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف بن قيس - إن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

ثم تواجه الجيشان بدير الجاثليق من مسكن، فحمل إبراهيم بن الأشتر - وهو أمير المقدمة العراقية لجيش مصعب - على محمد بن مروان - وهو أمير مقدمة الشام - فأزاله عن موضعه، فأردفه عبد الملك بن مروان بعبد الله بن يزيد بن معاوية، فحملوا على ابن الأشتر ومن معه فطحنوهم، وقتل ابن الأشتر رحمه الله وعفا عنه وقتل معه جماعة من الأمراء، وكان عتاب بن ورقاء على خيل مصعب فهرب أيضا ولجأ إلى عبد الملك بن مروان، وجعل مصعب بن الزبير وهو واقف في القلب ينهض أصحاب الرايات ويحث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلى أمام القوم، فلا يتحرك أحد، فجعل يقول: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، وتفاقم الأمر واشتد

القتال، وتخاذلت الرجال، وضاق الحال، وكثر النزال.

قال المدائني: عن يحيى بن إسماعيل بن المهاجر، عن أبيه قال: أرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلى مصعب يعطيه الأمان فأبى وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالبا أو مغلوباً.

قالوا: فنادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك. لك الأمان، فقال له مصعب: قد آمنك عمك فامض إليه، فقال: لا تتحدث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني فاركب خيل السبق فالحق بعمك فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول ههنا، فقال: والله إني لا أخبر عنك أحداً أبداً، ولا أخبر نساء قريش بمصرعك أبداً، ولا أقتل إلا معك ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة، فقال مصعب: لا والله، ما الفرار لي بعادة، ولكن أقاتل، فإن قُتلت فما السيف لي بعار والله لاتتحدث قريش عني بأني فررت من القتال، فقال لابنه: تقدم بين يدي حتى أحتسبك، فتقدم ابنه فقاتل حتى قتل، وأثخن مصعب بالرمي فنظر إليه زائدة بن قدامة وهو كذلك فحمل عليه فطعنه وهو يقول: يا ثارات المختار مصرعه، ونزل إليه رجل يقال له عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي فقتله وحز رأسه وأتى به عبد الملك بن مروان، فسجد عبد الملك وأطلق له ألف دينار فأبى أن يقبلها وقال: لم أقتله على طاعتك ولكن بثأر كان لي عنده. وكان قد ولي له عملا قبل ذلك فعزله عنه وأهانه.

قالوا: ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال عبد الملك: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، وكان من أحب الناس إلي، ولكن هذا الملك عقيم.

وقال: لما تفرق عن مصعب جموعه قال له ابنه عيسى: لو اعتصمت ببعض القلاع وكاتبت مَنْ بَعُدَ عنك مثل المهلب بن أبي صفرة وغيره فقدموا عليك، فإذا اجتمع لك ما تريد منهم لقيت القوم، فإنك قد ضعفت جداً. فلم يرد عليه جوابا. ثم ذكر ما جرى للحسين بن علي وكيف قتل كريما ولم يلق بيده، ولم يجد من أهل العراق وفاء، وكذلك أبوه وأخوه، ونحن ما وجدنا لهم وفاء.

ثم انهزم أصحابه وبقي في قليل من خواصه، ومال الجميع إلى عبد الملك، وقد كان عبد الملك يحب مصعباً حباً شديداً، وكان خليلا له قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فآمنه، فجاءه فقال له: يا مصعب قد آمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مصعب: قضي الأمر، إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً، فتقدم ابنه عيسى فقاتل، فقال محمد بن مروان: يا ابن أخي لا تقتل نفسك. ثم ذكر من قوله ما تقدم، ثم قاتل حتى قتل رحمه الله، ثم ذكر من قتل أبيه بعده كما تقدم.

قال: ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بكى وقال: والله ما كنت أقدر أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم! ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته ودفنه هو وابنه وإبراهيم بن الأشتر في قبور بمسكن بالقرب من الكوفة.

قال المدائني: وكان مقتل مصعب بن الزبير يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى أو الآخرة من سنة إحدى وسبعين في قول الجمهور. وقال المدائني: سنة ثنتين وسبعين. والله أعلم.

قالوا: ولما قتل عبد الملك مصعباً ارتحل إلى الكوفة فنزل النخيلة فوفدت عليه الوفود بها من رؤساء القبائل وسادات العرب، وجعل يخاطبهم بفصاحة وبلاغة واستشهاد بأشعار حسنة، وبايعه أهل العراق وفرق العمالات في الناس، وولى الكوفة قطن بن عبد الله الحارثي أربعين يوما، ثم عزله وولى أخاه بشر بن مروان عليها.

وخطب عبد الملك يوما بالكوفة فقال في خطبته: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ولم يغرز ذَنَبه في الحرم، ثم قال لهم: إني قد استخلفت عليكم أخي بشر بن مروان وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة وبالشدة على أهل المعصية، فاسمعوا له وأطيعوا.

وأما أهل البصرة فإنهم لما بلغهم مقتل مصعب تنازع في إمارتها حُمْران بن أبان مولى عثمان بن عفان، وعبيد الله بن أبي بكرة، فغلبه حمران بن أبان عليها، فبايعه أهلها فكان أشرف الرجلين.

قال أعرابي: والله لقد رأيت رداء ابن أبان مال عن عاتقه يوما فابتدره مروان وسعيد بن العاص أيهما يسويه على منكبيه.

وقال غيره: مدّ حُمران يوماً رجله فابتدر معاوية وعبد الله بن عامر أيهما يغمزها.

قال: فبعث عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد واليا عليها - يعني على البصرة - فأخذها من حمران بن أبان واستناب فيها عبيد الله بن أبي بكرة، وعزل حمران عنها.

قالوا: وقد أمر عبد الملك بطعام كثير فعمل لأهل الكوفة فأكلوا من سماطه ومعه يومئذ على السرير عمرو بن حريث، فقال له عبد الملك: ما ألذ عيشنا لو أنّ شيئا يدوم؟ ولكن كما قال الأول.

وكل جَديدٍ يا أُمَيمَ إلى بِلىً ... وكل إمرىءٍ يوماً يَصير إلى كانْ

فلما فرغ الناس من الأكل نهض فدار في القصر وجعل يسأل عمرو بن حريث عن أحوال القصر ومن بنى أماكنه وبيوته فيخبره، ثم جاء مجلسه فاستلقى وهو يقول:

اعْمَل عَلى مَهلٍ فإنكَ مَيت ... واكدح لِنفسِكَ أيها الإنسانْ

فكأنْ ما قد كان لم يَكُ إذ مَضى ... وكأنْ ما هو كائن قد كانْ

قال ابن جرير[تاريخه: ٦/١٦٥]: وفيها رجع عبد الملك -فيما زعم الواقدي- إلى الشام.

وفيها عزل ابن الزبير جابر ابن الأسود عن المدينة وولى عليها طلحة بن عبد الله بن عوف، وكان هو آخر أمرائه عليها، حتى قدم عليها طارق بن عمرو مولى عثمان من جهة عبد الملك بن مروان.

وفيها حج بالناس عبد الله بن الزبير ولم يبق له ولاية على العراق.

قال الواقدي: وفيها عقد عبد العزيز بن مروان نائب مصر لحسان الغساني على غزو إفريقية فسار إليها في عدد كثير، فافتتح قرطاجنة وكان اهلها روماً عُبّاد أصنام.

وفيها قتل نجدة الحروري الذي تغلب على اليمامة.

وفيها خرج عبد الله بن ثور في اليمامة.

وهذه ترجمة مصعب بن الزبير، رحمه الله

وهو

■ مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو عبد الله القرشي، ويقال له أبو عيسى أيضاً الأسدي.

وأمه الرَّباب بنت أنيف الكلبية. كان من أحسن الناس وجهاً، وأشجعهم قلباً، وأسخاهم كفّاً.

وقد حكى عن عمر بن الخطاب، وروى عن أبيه الزبير وسعد وأبي سعيد الخدري، وروى عنه الحكم بن عُتيبة وعمرو بن دينار الجمحي، وإسماعيل بن أبي خالد، ووفد على معاوية، وكان ممن يجالس أبا هريرة، وكان من أحسن الناس وجها.

حكى الزبير بن بكار أن جميلاً نظر إليه وهو واقف بعرفة فقال: إن ههنا فتى أكره أن تراه بثينة.

وقال الشعبي: ما رأيت أميراً قط على منبر أحسن منه. وكذا قال إسماعيل بن أبي خالد. وقال الحسن: هو أجمل أهل البصرة.

وقال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٣/١٠٥]: ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الله بن الزبير حتى قتله عبد الملك بمسكن في موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق، وقبره إلى الآن معروف هناك.

وقد ذكرنا صفة قتله المختار بن أبي عبيد، وأنه قتل في غداة واحدة من أصحاب المختار سبعة آلاف.

قال الواقدي: لما قتل مصعب المختار طلب أهل القصر من أصحاب المختار من مصعب الأمان فأمنهم، ثم بعث إليهم عباد بن الحصين فجعل يخرجهم ملتفين، فقال له رجل: الحمد لله الذي نصركم علينا وابتلانا بالأسر، يا ابن الزبير من عفا عفا الله عنه، ومن عاقب لا يأمن القصاص، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم وقد قدرت فاسمح واعف عنا قال: فرق لهم مصعب وأراد أن يخلي سبيلهم، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وغيره من كل قبيلة فقالوا: قد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منا خلقاً، اخترنا أو اخترهم، فأمر حينئذ بقتلهم، فنادوا بأجمعهم: لا تقتلنا واجعلنا مقدمتك في قتال عبد الملك بن مروان، فإن ظفرنا فلكم، وإن قتلنا لا نُقتل حتى نَقتل منهم طائفة، وكان الذي تريد. فأبى ذلك مصعب، فقال له مسافر: اتق الله يا مصعب، فإن الله عز وجل أمرك أن لا تقتل نفساً مسلمة بغير نفس، وإن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣] فلم يسمع له بل أمر بضرب أعناقهم جميعهم وكانوا سبعة آلاف نفس، ثم كتب مصعب إلى ابن الأشتر إن أجبتني فلك الشام وأعنة الخيل. فسار ابن الأشتر إلى مصعب، وقيل إن مصعباً لما قدم مكة أتى عبد الله بن عمر فقال: أي عم: إني أسألك عن قوم خلعوا الطاعة وقاتلوا حتى إذا غُلبوا تحصنوا وسألوا الأمان فأعطوه ثم قتلوا بعد ذلك. فقال: وكم هم؟ فقال: خمسة آلاف، فسبح ابن عمر واسترجع وقال: لو أن رجلا أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف شاة في غداة واحدة ألست تعده مسرفا؟ قال: نعم: قال: أفتراه إسرافا في البهائم ولا تراه إسرافا في من ترجو توبته؟ يا ابن أخي أصب من الماء البارد ما استطعت في دنياك.

ثم إن مصعباً بعث برأس المختار إلى أخيه بمكة وتمكن مصعب في العراق تمكُّناً زائداً، فقرر بها الولايات والعمال. وحظي عنده إبراهيم ابن الأشتر فجعله على الوفادة، ثم رحل مصعب إلى أخيه بمكة فأعلمه بما فعل فأقره على ما صنع، إلا إبراهيم بن الأشتر لم يُمضِ له ما جعله عليه، فقال له: أعمدت إلى رأية خفضها الله تريد أنْ ترفعها؟ ثم كشف عن ظهره فإذا ضربة قد أصابته وقال له: أتراني أحب ابن الأشتر وهو الذي جرحني هذه الجراحة. ثم استدعى بمن قدم مع مصعب من أهل العراق فقال لهم: والله لوددت أن لي بكل رجلين منكم رجلا من أهل بالشام، فقال له أبو حاضر الأسيدي - وكان قاضي الجماعة بالبصرة -: إن لنا ولكم مثلا قد مضى يا أمير المؤمنين وهو ما قال الأعشى:

عُلِّقْتُهَا عَرَضَاً وعُلِّقَتْ رَجُلا　غَيْرِي وعُلِّقَ أُخرَى غَيْرَها الرجُلُ

قلت كما قيل أيضا:

جُنِنَّا بلَيْلَى وهي جُنَّت بِغَيرِنا　وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

علقناك يا أمير المؤمنين وعلقت أهل الشام وعلّق أهل الشام إلى مروان، فما عسينا أن نصنع؟ قال الشعبي: فما سمعت جوابا أحسن منه.

وقال غيره: وكان مصعب من أشد الناس محبة للنساء وقد أعطاه الله من ذلك شيئاً كثيرا.

كما روي أنه اجتمع عند الحجر الأسود جماعة فقالوا فيما بينهم: ليقم كل واحد منكم فليسأل عند الحجر الأسود من الله شيئا يحبه فقام كلٌّ يسأل حاجته منهم وكان بينهم مصعب بن الزبير سأل الله عز وجل أن يزوجه سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وكانتا أحسن النساء في ذلك العصر، وأن يعطيه الله إمرة العراقين، فأعطاه الله ذلك كله، تزوج بعائشة بنت طلحة، وكان صداقها عليه مائة ألف دينار، وكانت باهرة الجمال جداً، وكان مصعب أيضاً جميلا جداً، وكذلك بقية زوجاته.

قال الأصمعي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبد الله بنو الزبير وعبد الله ابن عمر، فقالوا: تَمَنَّوا فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة. قال: فنالوا كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غُفر له.

وقال عامر الشعبي: بينما أنا جالس يوماً إذ دعاني الأمير مصعب بن الزبير فأدخلني دار الإمارة ثم كشف عن ستر فإذا وراءه عائشة بنت طلحة، فلم أر منظراً أبهى ولا أحسن منها، فقال: أتدري من هذه؟ فقلت: لا فقال: هذه عائشة بنت طلحة، ثم خرجت فقالت عائشة: من هذا الذي أظهرتني عليه؟ قال: هذا عامر الشعبي، قالت: فأطلق له شيئاً، فأطلق لي عشرة آلاف درهم. قال الشعبي: فكان أول مال ملكته.

وحكى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق(تراجم النساء) ص٢١٨] أن عائشة بنت طلحة تغضبت مرة على مصعب فترضاها بأربعمائة ألف درهم، فأطلقتها هي للمرأة التي أصلحت بينهما.

وقيل إنه أهديت له نخلة من ذهب ثمارها من صنوف الجواهر المثمنة، فقومت بألفي ألف دينار، وكانت من متاع الفرس فأعطاها لعبد الله بن أبي فروة.

وقيل: إن أخاه عبد الله كان إذا كتب لأحد جائزة بألف درهم جعلها مصعب مائة ألف درهم.

وقد كان مصعب من أجود الناس وأكثرهم عطاء، لا يستكثر ما يعطي ولو كان ما عساه أن يكون فكانت عطاياه للقوي والضعيف، والوضيع والشريف متقاربة، وكان أخوه عبد الله يبخّل.

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه [١٣/١٠٦] أن مصعباً غضب مرة على رجل فأمر بضرب عنقه، فقال له الرجل: أعز الله الأمير ما أقبح بمثلي أن يقوم يوم القيامة فيتعلق بأطرافك الحسنة، وبوجهك هذا الذي يستضاء به، فأقول: يا رب سل مصعباً فيم قتلني؟ فعفا عنه، فقال الرجل:

أعز الله الأمير إن رأيت أن تجعل ما وهبت لي من حياتي في عيش رَخيٍّ، فأطلق له مائة ألف، فقال الرجل إني أشهدك أن نصفها لابن قيس الرقيات حيث يقول فيك: -

إنما مُصعَبٌ شِهابٌ مِن اللَّه … تجلت عن وجهه الظلماءُ
مُلكُه مُلك عزةٍ ليس فيه … جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
يَتقِي اللَّه في الأمور وقد … أفلحَ مَنْ كان همَّهُ الاتقاءُ

وفي رواية أنه قال له: أيها الأمير قد وهبتني حياة، فإن استطعت أن تجعل ما قد وهبتني من الحياة في عيش رخيٍ وسعة فافعل، فأمر له بمائة ألف.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٤٠، ٢٤١]: حدثنا مؤمّل، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد قال: بلغ مصعبا عن عريف الأنصار شيء فهمَّ به، فدخل عليه أنس بن مالك فقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأنصار خيراً - أو قال معروفاً - اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم». فألقى مصعب نفسه عن سريره وألصق خده بالبساط وقال: أمر رسول الله ﷺ على الرأس والعين. فتركه.

ومن كلام مصعب في التواضع أنه قال: العجب من ابن آدم كيف يتكبر وقد جرى في مجري البول مرتين.

وقال محمد بن يزيد المبرد: سئل القاسم بن محمد عن مصعب فقال: كان نبيلاً رئيسا تقيّاً أنيساً.

وقد تقدم أنه لما ظهر على المختار قتل من أصحابه في غداة واحدة خمسة آلاف، وقيل سبعة آلاف، فلما كان بعد ذلك لقي ابن عمر فسلم عليه فلم يعرفه ابن عمر لأنه كان قد انضرَّ في عينيه، فتعرَّف له حتى عرفه فقال: أنت الذي قتلت في غداة واحدة خمسة آلاف ممن يوحد الله؟ فاعتذر إليه بأنهم بايعوا المختار، فقال: أما كان فيهم من هو مستكره أو جاهل فينظر حتى يتوب؟ أرأيت لو أن رجلا جاء إلى غنم الزبير فنحر منها خمسة آلاف في غداة واحدة، أما كان مسرفاً؟ قال: بلى! قال: وهي لا تعبد الله ولا تعرفه كما يعرفه الآدمي، فكيف بمن هو موحد؟ ثم قال له: يا بني تمتع من الماء البارد في الدنيا ما استطعت. وفي رواية أنه قال له: عش ما استطعت.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن عن زافر بن قتيبة عن الكلبي قال قال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه: من أشجع العرب؟ قالوا شبيب، قطري بن الفجاءة وفلان وفلان. فقال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل جمع بين سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وأمَة الحميد بنت عبد الله بنت عامر بن كريز وأمه رباب بنت أنيف الكلبي، وسيد ضاحية العرب وولي العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف وألف ألف، وألف وألف، وأعطي الأمان، فأبى، ومشى بسيفه حتى مات؛ ذلك مصعب بن الزبير، لا مَن قطع الجسور مرة ههنا ومرة ههنا.

قالوا: وكان مقتله يوم الخميس النصف من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين.

وقال الزبير بن بكار: حدثني فليح بن إسماعيل وجعفر بن أبي كثير عن أبيه. قال: لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال: -

لقد أردى الفوارس يوم عَبسٍ … غُلام غيرُ مَنَّاع المتاع
ولا فرح بخير إن أتاه … ولا هلع من الحدثان لاعِ
ولا وقَّافةٍ والخيل تعدُو … ولا خَالٍ كأُنبوب اليراعِ

فقال الرجل الذي جاء برأسه: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمح في يده تارة والسيف تارة يفري بهذا ويطعن بهذا، لرأيت رجلا يملأ القلب والعين شجاعة وإقداماً، لكنه لما تفرقت رجاله وكثر من قصده وبقي وحده مازال ينشد: -

وإني على المكرُوه عند حُضورِهِ … أكذّب نفسِي والجفونُ له تُغضِي
وما ذاك من ذُلٍّ ولكن حَفيظَةً … أذُبُّ بها عند المكَارِمِ عن عِرضِي
وإني لأهل الشرِّ بالشرِّ مُرصِدٌ … وإني لِذي سِلْمٍ أذلُّ من الأرضِ

فقال عبد الملك: كان والله كما وصف به نفسه وصدق، ولقد كان من أحب الناس إلي، وأشدهم لي ألفةً ومودةً، ولكن الملك عقيم.

وروي يعقوب بن سفيان عن سليمان بن حرب عن غسان بن مضر عن سعيد بن يزيد أن عبيد الله بن زياد بن ظبيان قتل مصعباً عند دير الجاثليق على شاطئ نهر يقال له دجيل، من أرض مسكن، واحتز رأسه فذهب به إلى عبد الملك فسجد شكراً لله وكان ابن ظبيان فاتكا رديّاً وكان ويقول: ليتني قتلت عبد الملك حين سجد يومئذ فأكون قد قتلت ملكي العرب.

قال يعقوب: وكان ذلك سنة ثنتين وسبعين.

قلت: وكذا قال علي بن محمد المدائني والذي رجحه ابن جرير وغيره انه سنة احدى وسبعين فالله أعلم.

وحكى الزبير بن بكار في عمره يوم قتل ثلاثة أقوال، أحدها خمس وثلاثون سنة والثاني أربعون سنة، والثالث خمس وأربعون سنة فالله أعلم.

وروي الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٣/١٠٨] أن امرأته سكينة بنت الحسين كانت معه في هذه الوقعة. فلما قتل طلبته في القتلى حتى عرفته بشامة في فخذه فقالت: نعم بعل المرأة المسلمة كنتَ، أدركك والله ما قال عنترة:

وحَليلِ غَانيةٍ تَركتُ مجدّلا … بالقاعِ لم يعهد ولم يَتَثلمِ
فهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إهابَه … ليسَ الكريمُ على القَنَا بمحَرَّمِ

قال الزبير: وقال عبيد الله بن قيس الرقيات يرثي مصعباً:

لقد أورثَ المِصْرَين حُزنا وذِلة … قَتيلٌ بدير الجاثليق مُقيمُ
فَمَا نَصَحَت للّه بَكر بن وائلٍ … ولا صَدَقت يوم اللقاء تَميمُ
ولو كان بَكريّاً تَعطّفَ حَولَه … كتائبُ يغلي حَمْيُها ويدومُ
ولكنه ضاع الذِمام ولم يكن … بها مُضَريٍ يومَ ذاك كريمُ
جَزَى اللَّه كُوفِيّاً هناك مَلامَة … وبصريُّهم إن المَلومَ مَلُومُ
وإن بني العلات أخلوا ظهورنا … ونحن صريح بينهم وصَميمُ
فإن نفس لايبقى أولئك بَعدَنا … لذي حرمة في المسلمين حَريمُ

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات يرثي مصعبا أيضاً: الكامل

نَعَت السَّحائبُ والغَمامُ بأسرِها … جَسَداً بمسكن عاري الأوصالِ
تُمسي عَوائدُه السِّباع ودارُه … بمَنازلٍ أطلالُهن بَوالي
رَحَلَ الرِّفاقُ وغادروه ثاوياً … للريح بين الصَّبا وبين شَمَالِ

وقد قال أبو حاتم الرازي: حدثنا يحيى بن مصعب الكلبي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عبد الملك بن عمير قال: دخلت القصر بالكوفة فإذا

رأس الحسين بن علي على ترس بين يدي عبيد الله بن زياد وعبيد الله على السرير، ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدي المختار، والمختار على السرير، ثم دخلت القصر بعد حين فرأيت رأس المختار على تُرس بين يدي مصعب، ومصعب على السرير، ثم دخلت بعد ذلك بحين فرأيت رأس مصعب ابن الزبير على ترس بين يدي عبد الملك، وعبد الملك على السرير، وقد حكي ذلك الإمام أحمد وغير واحد عن عبد الملك بن عمير.

وقد حكاها الإمام أحمد وغير واحد، عن عبد الملك بن عمير رحمه الله.

فصل

وكان لمصعب من الولد عكاشة وعيسى الذي قتل معه وسكينة وأمهم فاطمة بنت عبد الله بن السائب، وعبد الله ومحمد، وأمهما عائشة بنت طلحة، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وجعفر ومصعب وسعيد وعيسى الأصغر والمنذر لأمهات شتى، والرباب وأمها سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنهم

قال ابن جرير: [تاريخه: ١٦٦/٦] وذكر أبو زيد عن أبي غسان محمد بن يحيى حدثني مصعب بن عثمان قال: لما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب قام في الناس خطيبا فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه وإن كان فرداً وحده ولن يفلح من كان وليه الشيطان وحزبه ولو كان معه الأنام طراً، ألا وإنه أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب رحمه الله، فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يرعوي من بعدها، وذو الرأي جميل الصبر كريم العزاء، ولئن أصبت بمصعب فلقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعواني، ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا في الإسلام. وما نموت إلا بأطراف الرماح أو تحت ظل السيوف، فإن بني أبي العاص يجمعون الناس بالرغبات والرهبات، ثم يقاتلون بهم أعداءهم ممن خير منهم وأكرم ولا يقاتلون تابعيهم زحفاً، ألا وإن الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر لا أبكِ عليها بكاء الحزين المهين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ إبراهيم بن الأشتر واسم الأشتر مالك بن الحارث النخعي كان أبوه الأشتر من كبار أمراء علي واستعمله على خراسان، وهو ممن قام على عثمان وقتله وكان ابنه إبراهيم هذا من المعروفين بالشجاعة وله شرف، وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد كما ذكرنا ثم صار إلى مصعب بن الزبير وقتل معه هذه السنة كما ذكرنا.

■ عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي له صحبة ورواية واستعمله علي على خراسان وسكن الكوفة وولِيها مرة. توفي بالكوفة.

■ عبد الرحمن بن عسيلة أبو عبد الله المرادي الصنابحي، كان من الصلحاء، وكان عبد الملك يجلسه معه على السرير، وكان عالماً فاضلاً، توفي بدمشق.

■ عمر بن أبي سلمة المخزومي المدني ربيب النبي ﷺ ولد بأرض الحبشة وكان عند أمه أم سلمة. وله روايات عن النبي ﷺ وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

■ سفينة مولى رسول الله ﷺ أبو عبد الرحمن: كان عبداً لأم سلمة فاعتقته وشرطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ فقال: أنا لا أزال أخدم رسول الله ﷺ لو لم تعتقيني ما عشت. وقد كان سفينة بآل رسول الله ﷺ أليفاً، وبهم خليطاً.

وروى الطبراني [المعجم الكبير: ٩٦/٧، ٩٧] أن سفينة سئل عن اسمه: لِمَ سمي سفينة؟ قال: سماني رسول الله ﷺ سفينة. خرج مرة ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ابسط كساءك» فبسطته فجعل فيه متاعهم، ثم قال لي: «احمل ما أنت إلا سفينة» قال: فلو حملت يومئذ وِقْرَ بعير أو بعيرين أو خمسة أو ستة ما ثقل علي.

وروى محمد بن المنكدر عن سفينة قال: ركبت مرة سفينة في البحر فانكسرت بنا فركبت لوحاً منها فطرحني البحر إلى غيضة فيها الأسد فجاءني فقلت: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه أو بكفه حتى وضعني على الطريق، ثم همهم همهمة فظننت أنه يودعني [تاريخ دمشق: ٢٧٠/٤].

وقال حماد بن سلمة: حدثنا سعيد بن جُمهان عن سفينة أن رسول الله ﷺ دخل بيت فاطمة فرأى في ناحية البيت قِراماً مضروباً فرجع ولم يدخل، فقالت فاطمة لعلي: سل رسول الله ﷺ ما الذي رده؟ فسأله فقال: «ليس لي ولا لنبي أن يدخل بيتاً مزوّقاً» [د(٣٧٥٥)، جه(٣٣٦٠)، أحمد: ٢٢٠/٥، ٢٢١].

■ عمرو بن أخطب أبو زيد الأنصاري الأعرج غزا مع النبي ﷺ ثلاث عشرة غزوة ومسح رأسه وقال: «اللهم» جمله فبلغ مائة سنة ولم يبيض شعره. توفي بالبصرة.

■ غُضَيْف بن الحارث بن زُنيم السَّكوني، مختلف في صحبته، له روايات عن الصحابة، قيل: هو من تابعي أهل الشام. سكن حمص، وكان يتولى صلاة الجمعة نيابة عن خالد بن يزيد. وكان من الصالحين.

■ يزيد بن الأسود الجرشي السكوني كان عابداً زاهداً صالحاً، سكن الشام بقرية زبدين، وقيل بقرية جسْرين، وكانت له دار داخل باب شرقي، وهو مختلف في صحبته، وله روايات عن الصحابة، وكان أهل الشام يستسقون به إذا قحطوا، وقد استسقى به معاوية والضحاك بن قيس، وكان يجلسه معه على المنبر، فإذا اجتمع الناس قال معاوية: قم يزيد اللهم إنا نتوسل إليك بخيارنا وصلحائنا، فيستسقي الله فيسقون، وكان يصلي الصلوات في الجامع بدمشق، وكان إذا خرج من القرية يريد الصلاة بالجامع في الليلة المظلمة يضيء له إبهام قدمه، وقيل أصابع رجليه كلها حتى يدخل الجامع، فإذا رجع أضاءت له حتى يدخل القرية، وذكروا أنه لم يدع شجرة في قرية زبدين إلا صلى عندها ركعتين، وكان يمشي في ضوء إبهامه في الليلة المظلمة ذاهبا إلى صلاة العشاء بالجامع بدمشق وآتيا إلى قريته، وكان يشهد الصلوات بالجامع بدمشق لا تفوته به صلاة.

مات بقرية زبدين أو جسرين من غوطة دمشق رحمه الله.

■ عمرو بن الأسود أبو عياض العنسي الحمصي: من كبار تابعي الشام، صاحب زهد واجتهاد. توفي بحمص.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين

ففيها كانت وقعة عظيمة بين المهلب بن أبي صفرة وبين الأزارقة من الخوارج بمكان يقال له سولاف، مكثوا نحواً من ثمانية أشهر متواقفين، وجرت بينهم حروب يطول بسطها، وقد استقصاها ابن جرير [تاريخه: ١٦٨/٦].

وقتل في أثناء ذلك من هذه المدة مصعب بن الزبير، وبايع الناس عبد الملك بالأهداز، وأقرَّ عبد الملك المهلب بن أبي صفرة على الأهواز وما معها، وشكر سعيه وأثنى عليه ثناء كثيراً، ثم تواقع الناس في دولة عبد الملك بالأهواز فكسر الناس الخوارج كسرة فظيعة، وهربوا في البلاد لا يلوون بل يُوَلوِلون، واتبعهم خالد بن عبد الله أمير الناس وداود بن قحذم ليطردوهم، وأرسل عبد الملك إلى أخيه بشر بن مروان أن يمدهم بأربعة آلاف، فبعث إليه أربعة آلاف عليهم عتاب بن ورقاء فطردوا الخوارج كل مطرد، ولكن لقي الجيش جهداً عظيماً وماتت خيولهم ولم يرجع أكثرهم إلا مشاة إلى أهليهم.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٧٤/٦]: وفي هذه السنة كان خروج أبي فديك الحارثي وهو من قيس بن ثعلبة، وغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحارثي، فبعث إليه خالد بن عبد الله أمير البصرة أخاه أمية بن عبد الله في جيش كثيف، فهزمهم أبو فديك وأخذ جارية لأمية واصطفاها لنفسه، وكتب خالد بن عبد الله أمير البصرة إلى عبد الملك يعلمه بما وقع، واجتمع على خالد حربُ أبي فديك وحرب الأزارقة أصحاب قطري بن الفجاءة بالأهواز.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٧٤/٦]: وفيها بعث عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الله بن الزبير ليحاصره بمكة، قال: وكان السبب في بعثه له دون غيره، أن عبد الملك بن مروان لما أراد الرجوع إلى الشام بعد قتله مصعبا وأخذه العراق، ندب الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة فلم يجبه أحد إلى ذلك، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا له. وقص الحجاج على عبد الملك مناماً زعم أنه رآه، قال: رأيت يا أمير المؤمنين كأني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته، فابعث بي إليه فإني قاتله. فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام وكتب معه أماناً لأهل مكة إن هم أطاعوا.

قالوا: فخرج الحجاج في جمادى من هذه السنة ومعه ألفا فارس من أهل الشام، فسلك طريق العراق ولم يعرض للمدينة حتى نزل الطائف، وجعل يبعث البعوث إلى عرفة، ويرسل ابن الزبير الخيل فيلتقيان فتُهزم خيل ابن الزبير وتظفر خيل الحجاج، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم ومحاصرة ابن الزبير، فإنه قد كلَّت شوكته، وتفرق عنه عامة أصحابه، وسأله أن يمده برجال أيضا، فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه بالحجاج وكان طارق يتولى المدينة لعبد الملك وكان قد أمره عبد الملك أن يكون مقيما بوادي القرى بمن معه من جيش المدينة وغيرها وكان في نحو خمسة آلاف من الشام منهم ثلاثة آلاف، وارتحل الحجاج من الطائف فنزل بئر ميمون، وحصر ابن الزبير بالمسجد، فلما دخل ذو الحجة حج بالناس الحجاج في هذه السنة وعليه وعلى أصحابه السلاح وهم وقوف بعرفات، وكذا فيما بعدها من المشاعر، وابن الزبير محصور لم يتمكن من الحج هذه السنة، بل نحر بُدْناً يوم النحر، وكذا لم يتمكن كثير ممن معه من الحج، وكذا لم يتمكن كثير ممن مع الحجاج وطارق بن عمرو أن يطوفوا بالبيت، فبقوا على إحرامهم لم يحصل لهم التحلل الثاني، والحجاج وأصحابه نزول بين الحجون وبئر ميمونة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابن جرير [١٧٦/٦]: وفي هذه السنة كتب عبد الملك إلى عبد الله بن خازم أمير خراسان يدعوه إلى بيعته ويقطعه خراسان سبع سنين، فلما وصل إليه الكتاب قال للرسول: بعثك أبو الذِّبَّان؟ والله لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك، ولكن كل كتابه. فأكله، وبعث عبد الملك إلى بكير بن وشاح نائب ابن خازم على مرو يعده بإمرة خراسان إن هو خلع عبد الله بن خازم، فخلعه، فجاءه ابن خازم فقاتله فقتل في المعركة عبد الله بن خازم أمير خراسان، قتله رجل يقال له وكيع بن عميرة، لكن كان قد ساعده غيره، فجلس وكيع على صدره وفيه رمق، فذهب لينوء فلم يتمكن من ذلك، وجعل وكيع يقول: يا ثارات دويلة - يعني أخاه - وكان دويلة قد قتله ابن خازم، ثم إن ابن خازم تنخم في وجه وكيع قال وكيع: لم أر أحداً أكثر ريقاً منه في تلك الحال. وكان أبو هُبيرة إذا ذكر هذا يقول: هذه والله البسالة، وقال له ابن خازم: ويحك أتقتلني بأخيك؟ لعنك الله، أتقتل كبش مضر بأخيك العلج؟ وكان لا يساوي كفًّا من تراب؟! أو قال من نَوَى قالوا: فاحتز رأسه وأقبل بكير بن وشاح فأراد أخذ الرأس فمنعه منه بحير بن ورقاء فضربه بكير بن وشاح بعمود وقيده، ثم أخذ الرأس ثم بعثه إلى عبد الملك بن مروان وكتب إليه بالنصر والظفر ومقتل عبد الله بن خازم فسر بذلك سروراً كثيراً، وكتب إلى بكير بن وشاح بأقرّه على نيابة خراسان.

وفي هذه السنة أخذت المدينة من نواب ابن الزبير واستناب فيها عبد الملك طارق بن عمرو، الذي كان بعثه مدداً للحجاج على ابن الزبير.

وهذه ترجمة:

■ ابن خازم: هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمي أبو صالح البصري أمير خراسان أحد الشجعان المذكورين، والفرسان المشكورين.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيبه [٤٤٢/١٤]: ويقال: له صحبة، روى عن النبي ﷺ في العمامة السوداء، وهو عند أبي داود [٤٠٣٨] والترمذي [٣٣٢١] والنسائي [كبرى(٤٧٦/٥)] لكن لم يسموه.

وروى عنه سعد بن عثمان الرازي وسعيد بن الأزرق.

روى أبو بشير الدولابي أنه قتل في سنة إحدى وسبعين، وقيل: في سنة سبع وثمانين، وليس هذا القول بشيء. انتهى ما ذكره شيخنا في التهذيب.

وقد ذكره أبو الحسن ابن الأثير في الغابة في أسماء الصحابة [٢٢٠/٣، ٢٢١] فقال: عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن سماك بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور، أبو صالح السلمي أمير خراسان، شجاع مشهور، وبطل مذكور، روى عنه سعيد بن الأزرق، وسعد بن عثمان، قيل: إن له صحبة، وفتح سرخس، وكان أميراً على خراسان أيام فتنة ابن الزبير، وأول ما وليها سنة أربع وستين بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية، وجرى له فيها حروب كثيرة حتى تم أمره بها، وقد استقصينا أخباره في كتاب «الكامل في التاريخ» [١٥٤/٤] وقتل سنة إحدى وسبعين بخراسان.

هكذا قال: إنه قتل سنة إحدى وسبعين. وهكذا حكى شيخنا عن الدولابي، وكذا رأيت في «التاريخ» [تاريخ الإسلام ص٣٠٠] لشيخنا الذهبي والذي ذكره ابن جرير في سياق تاريخه [١٧٨/٦] أنه قتل في سنة اثنتين وسبعين.

قال ابن جرير [١٧٨/٦]: وزعم بعضهم أنه قتل بعد مقتل عبد الله بن الزبير، وأن عبد الملك بعث برأس ابن الزبير إلى ابن خازم بخراسان، ويدعوه إلى طاعته وله خراسان عشر سنين، وأن ابن خازم لما راى رأس ابن الزبير حلف لا يعطيه طاعة أبداً، ودعا بطست فغسل رأس ابن الزبير وكفنه وطيبه وبعث به إلى أهله بالمدينة، ويقال: بل دفنه عنده بخراسان والله أعلم.

وأطعم الكتاب للرسول الذي جاء به وقال: لولا أنك رسول لضربت عنقك، وقال بعضهم: قطع يديه ورجليه وضرب عنقه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي: أبو بحر البصري ابن أخي صعصعة بن معاوية، والأحنف لقب له، وإنما اسمه الضحاك، وقيل: صخر، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، وجاء في حديث أن رسول الله ﷺ دعا له [المسند: ٣٧٢/٥].

وكان سيداً شريفا مطاعا مؤمنا، عليم اللسان، وكان يضرب بحلمه المثل وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان.

قال عنه عمر بن الخطاب: هو مؤمن عليم اللسان.

وقال الحسن البصري: ما رأيت شريف قوم أفضل منه.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: هو بصري تابعي ثقة، وكان سيد قومه، وكان اعور أحنف الرجلين دميماً قصيرا كوسجا له بيضة واحدة، احتبسه عمر سنة يختبره، ثم قال: هذا والله السيد.

وقيل: إنه خطب عند عمر فاعجبه منطقه. قيل ذهبت عينه بالجدري، وقيل في فتح سمرقند.

وقال يعقوب بن سفيان: كان الأحنف جوادا حليما، وكان رجلا صالحا، أدرك الجاهلية ثم أسلم، وذكر للنبي ﷺ فاستغفر له.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٩٣/٧]: كان ثقة مأمونا قليل الحديث.

وكان كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح، ويصلي ويبكي حتى الصباح، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول: حسْ يا أحنف، ما حملك على كذا؟ ما حملك على كذا؟ ثم يقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على نار جهنم؟

وقيل له: بأيِّ شيء سودك قومك وأنت ارذلهم خلقة؟ قال: لو عاب الماءَ الناسُ ما شربته.

وكان الأحنف من أمراء علي يوم صفين، وهو الذي صالح أهل بلخ على أربعمائة ألف دينار في كل سنة، وله وقائع مشهودة مشهورة، وقتل من أهل خراسان خلقا كثيرا في القتال بينهما، وانتصر عليهم.

وكان الأحنفُ لا يحسُدُ، ولا يجهلُ، ولا يدفَعُ الحقَّ. وقال: إنَّ مِن السؤدَدِ الصبرَ على الذلِّ، وكفى بالحلم ناصراً. وقال: ما نازعني أحدٌ إلاّ أخذْتُ مِن أمري إحدى ثلاثٍ؛ إن كان فوقي عرَفْتُ قدْرَه، وإن كان دُوني رفَعْتُ نفسي عنه، وإنْ كان مِثلي تفضَّلْتُ. وقال: ما ذَكَرْتُ أحداً بسوءٍ بعدَ أنْ يقومَ مِن عندي، ولا سمعتُ كلمةً تسوءُني إلا طأطأْتُ رأسي لِما هو أعظمُ منها. وأغلظ له رجلٌ في الكلامِ، فلمَّا وصَل إلى نادِي قومِه وقَف وقال: إن كان عندكَ شيءٌ آخرُ، فقُلْ؛ لئلا يسمعَكَ قومي فيُؤْذوك. وقيل: إن عبدَ الملكِ بنَ مروانَ كتب إليه يدعوه لنفسِه ويعِدُه بولايةِ الشامِ، فقال: يدعوني ابنُ الزرقاء إلى ولايةِ الشامِ، واللّهِ وددتُ أنَّ بيني وبينَهم جبلاً مِن نار. وكان زيادُ بنُ أبيه يقولُ: قد بلَغ الأحنفُ مِن السؤدَد والشرفِ مالا ينفعُه معه ولايةٌ ولا يضرُّه عزلٌ. وإنَّ ليفِرُّ مِن الشرفِ وهو يتبعُه.

وقال الحاكم: وهو الذي افتتح مرو الروذ، وكان الحسن وابن سيرين في جيشه، وهو الذي افتتح سمرقند وغيرها من البلاد.

وقيل: إنه مات سنة سبع وستين، وقيل غير ذلك، عن سبعين سنة، وقيل عن أكثر من ذلك.

ومن كلامه وقد سئل عن الحلم ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر.

وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول: والله إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور.

وقال: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال.

وقد انتهى إليه الحلم والسؤدد، وقال: أحي معروفك بإماتة ذكره.

وقال: عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟ وقال: ما أتيت باب أحد من هؤلاء إلا أن ادعى، ولا دخلت بين اثنين إلا أن يدخلاني بينهما.

وقيل له: بم سدت قومك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري مالا يعنيك.

واغلظ له رجل في الكلام وقال: والله يا أحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعن بدلها عشراً، فقال له: إنك إن قلت لي عشراً لا تسمع مني واحدة.

وكان يقول في دعائه: اللّهم إن تعذبني فأنا أهل لذلك، وإن تغفر لي فأنت أهل لذلك.

وقد كان زياد بن أبيه يقربه ويعظمه ويدنيه، فلما مات زياد وولي ابنه عبيد الله لم يرفع به رأساً، فتأخرت عنده منزلته لقُبح منظره وصار يقدم عليه من هو دونه، فلما وفد برؤساء أهل العراق على معاوية أدخلهم عليه على مراتبهم عنده، فكان الأحنف آخر من أدخله عليه، فلما رآه معاوية اجله وعظمه، وأدناه وأكرمه، وأجلسه معه على الفراش، ثم أقبل عليه يحادثه دونهم، ثم شرع الحاضرون في الثناء على عبيد الله بن زياد والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ قال: إن تكلمت خالفتهم، فقال معاوية: أشهدوا عليَّ أني قد عزلت عبيد الله عن العراق، ثم قال لهم. انظروا لكم نائبا عليكم، وأجّلهم ثلاثة أيام، فاختلفوا بينهم اختلافا كثيراً، ولم يذكر أحد منهم بعد ذلك عبيد الله، ولا طلبه أحد منهم، ولم يتكلم الأحنف في هذه الأيام في ذلك كلمة واحدة مع أحد منهم، فلما اجتمعوا بعد ثلاث أفاضوا في ذلك، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات والأحنف ساكت، فقال له معاوية: تكلم، فقال له: إن كنت تريد أن تولي فيها أحداً من أهل بيتك فليس فيهم من هو مثل عبيد الله، فإنه رجل حازم ولا يسد أحد منهم مسده، وإن كنت تريد غيره فأنت أعلم بنوّابك، فرده معاوية إلى الولاية، ثم قال له بينه وبينه: كيف جهلت مثل الأحنف؟ إنه عزلك وولاك وهو ساكت. فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد.

توفي الأحنف بالكوفة وصلى عليه مصعب بن الزبير، ومشى في جنازته ذكر الواقدي أنه قدم على معاوية فوجده غضبان على ابنه يزيد،

وأنه أصلح بينهما بكلام، قال: فبعث معاوية إلى يزيد بمال جزيل وقماش كثير، فأعطى يزيد نصفه للأحنف. والله سبحانه أعلم.

■ البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن أوس الأنصاري الحارثي الأوسي. صحابي جليل، وأبوه أيضا صحابي.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة، وحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وعنه جماعة من التابعين وبعض الصحابة. وقيل: إنه مات بالكوفة أيام ولاية مصعب بن الزبير على العراق.

■ عَبيدة السلماني القاضي وهو عبيدة بن عمرو ويقال ابن قيس بن عمرو السلماني المرادي أبو عمرو الكوفي. وسلمان بطن من مراد.

أسلم عبيدة في حياة النبي ﷺ وروى عن ابن مسعود وعلي وابن الزبير. وحدث عنه جماعة من التابعين.

وقال الشعبي: كان يوازي شريحاً في القضاء.

وقال ابن نمير: كان شريح إذا أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه، وانتهى إلى قوله، وقد أثنى عليه غير واحد.

وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل سنة ثلاث وقيل أربع وسبعين فالله أعلم.

وقد قيل: إن مصعب بن الزبير قتل في هذه السنة فالله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان أيضاً:

■ عبد الله بن السائب بن صيفي المخزومي، قارىء أهل مكة. له صحبة ورواية، وقرأ على أبي بن كعب، وقرأ عليه مجاهد وغيره

■ عطية بن بسر المازني: له صحبة ورواية توفي بالمدينة.

■ عبيدة بن نَضْلة أبو معاوية الخزاعي الكوفي مقرئ أهل الكوفة، مشهور بالخير والعبادة، توفي بالكوفة في هذه السنة.

■ عبيد الله بن قيس الرقيات القرشي العامري: أحد الشعراء، مدح مصعب بن الزبير وعبد الله بن جعفر وإنما سمي قيس الرقيات لأن له عدة أخوات يسمين رقية.

■ عبد الله بن همام أبو عبد الرحمن السلولي أحد الشعراء الفصحاء مدح يزيد بن معاوية بعد ان كان هجاه بقوله: ـ

شَربْنَا الغَيظ حتى لو سُقينا ... دماء بني أُمَيَّة ما روينا
ولو جَاؤوا برملة أو بهند ... لبايعنا أميرَ المؤمنينا

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كان مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي المبير قبحه الله وأخزاه.

قال الواقدي: حدثني مصعب بن ثابت عن نافع مولى بني أسد ـ وكان عالما بفتنة ابن الزبير ـ قال: حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي الحجة سنة ثنتين وسبعين وقتل لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، فكان حصر الحجاج له خمسة أشهر وسبع عشرة ليلة.

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الحجاج حج بالناس في هذه السنة الخارجة، وكان في الحج ابن عمر، وقد كتب عبد الملك إلى الحجاج أن يأتم بابن عمر في المناسك كما ثبت ذلك في الصحيحين [خ(١٦٦٠، ١٦٦٣)، وليس عند م].

فلما استهلت هذه السنة استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك.

وكان مع الحجاج خلق قدموا إليه من ارض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقا كثيراً، وكان معه خمس مجانيق فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الميرة فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: يا أهل الشام الله الله في الطاعة، فكانوا يحملون على ابن الزبير حتى يقال: إنهم آخذوه في هذه الشدة، فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب بني شيبة، ثم يكرون عليه فيشد عليهم، فعل ذلك مراراً، وقتل يومئذ جماعة منهم وهو يقول: خذها وأنا ابن الحواريُّ. وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعا والله لا أسألهم صلحا أبداً.

وذكر غير واحد أنهم لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلا فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يشجعهم ويقول: إني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم، وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضا، فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة؟!

وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق يقولون:

خَطّارة مثل الفَنيق المُزْبد ... نَرمي بها عُوّاذَ هذا المسجد

فنزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته، فتوقف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة فخطبهم الحجاج فقال: ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته. فعادوا إلى المحاصرة.

وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمنهم وقلَّ أصحاب ابن الزبير جداً، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمنهما، ودخل عبد الله بن الزبير على أمه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكني احببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضي ربي عز وجل، اللهم إني

لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللّهم انت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من اللّه أن يكون عزائي فيك حسنا، إن تقدمتني أو تقدمتك ففي نفسي، اخرج يابني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك اللّه يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل وبعد فقالت: لا ادعه أبداً لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللّهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللّهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبد اللّه بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم قالت له: ادنُ مني أودعك. فدنا منها فقبلته ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها - وكانت قد أضرت في آخر عمرها - فوجدته لابساً درعا من حديد فقالت: يابني ما هذا لباس من يريد ما يريد من الشهادة!! فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به، فقالت: لا يا بني ولكن انزعه. فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد وهي تقول: شمر ثيابك. وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول اللّه ﷺ وترجيه القدوم عليهم إذا هو قتل شهيدا، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رضي اللّه عنهما وعن أبيه وأبيها.

ثم قالت له: امض على بصيرتك، فودّعها وخرج وهو يقول.

وَلَسْتُ بِمبتاعِ الحَيَاةِ بسبَّةٍ ... ولا مُرتَقٍ من خَشْيَةِ المَوتِ سُلَّمَا

قالوا: وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يمينا وشمالا، ولا يثبت له أحد وهو يقول: -

إنـي إذا أعـرف يَومِـي أصـبرْ ... إذ بعضُهـم يعـرفُ ثـم يُنكِـرْ

ويقول أيضاً:

المـوتُ أكـرمُ مـن إعطـاءِ مُنقصـةٍ ... مَنْ لم يَمت غِبطـةً فالغايـةُ الهَـرَمُ

وكان أبواب الحرم قد قل من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح.

وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلا فرقهم ويبدد شملهم، وهو غير ملبس حتى يخرجهم إلى الأبطح ثم يصيح.

لـو كـان قرنـي واحـداً لكفيتـه

فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضا: إي واللّه وألف رجل.

ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا يتزعج لذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضار، حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته، فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة بات ابن الزبير يصلي طول ليلته ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفي ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال: أذن يا سعد، فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلى الفجر، ثم قرأ سورة «ن» حرفاً حرفاً، ثم سلم فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال لأصحابه: ما أراني اليوم إلا مقتولاً، فإني رأيت في منامي كأن السماء خرجت لي فدخلتها وإني واللّه قد مللت الحياة وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة اللّهم إني أحب لقاءك فأحبّ لقائي. ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم، فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر، فحرضهم وحثهم على القتال والصبر، ثم نهض بهم، فحمل وحملوا حتى كشفوهم إلى الحجون فجاءته آجُرّة فأصابته في وجهه فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثل بقول بعضهم:

فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم رجع فجاءه حجر منجنيق من ورائه فأصابه في قفاه فوقَذَه ثم وقع إلى الأرض على وجهه ثم انتهض فلم يقدر على القيام، وابتدره الناس فشد عليه رجل من أهل الشام فضرب الرجل فقطع رجليه وهو متكئ على مرفقه الأيسر وجعل يضرب وما يقدر أن يتهض حتى كثروا عليه فابتدروه بالسيوف فقتلوه رضي اللّه عنه.

وجاؤوا إلى الحجاج فأخبروه فخر ساجدا قبحه اللّه، ثم قام هو وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه وهو صريع، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا! فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين؟ قال: نعم! هو أعذر لنا؛ إنّا محاصروه وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة يتصف منا، بل يفضُل علينا في كل موقف. فلما بلغ ذلك عبد الملك صوَّب طارقاً.

وروى ابن عساكر في ترجمة الحجاج [تاريخ دمشق: ١٢٠/١٢]: أنه لما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بكاء على عبد اللّه بن الزبير رحمه اللّه. فخطب الحجاج الناس فقال: أيها الناس! إن عبد اللّه بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه اللّه من عذاب أليم، وإن آدم كان أكرم على اللّه من ابن الزبير، وكان في الجنة، وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر اللّه وأكل من الشجرة التي نُهي عنها أخرجه اللّه من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه.

وقيل إنه قال: يا أهل مكة! بلغني إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة اللّه وألحد في حرم اللّه، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه اللّه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض. وآدم أكرم على اللّه من ابن الزبير، وان ابن الزبير غيّر كتاب اللّه. فقال له عبد اللّه بن عمر: لو شئت أن أقول لك: كذبت لقلت، واللّه إن ابن الزبير لم يغيِّر كتاب اللّه، بل كان قوّاماً به صواماً، عاملاً بالحق.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما وقع، وبعث برأس ابن الزبير مع رأس عبد اللّه بن صفوان وعمارة بن حزم إلى عبد الملك، ثم أمرهم إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرؤوس بها، ثم يسيروا بها إلى الشام، ففعلوا ما أمرهم به.

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت على ثنية كَدَاء عند الحجون، ويقال: منكّسة، فما زالت مصلوبة. حتى مر به عبد اللّه بن عمر فقال: رحمة اللّه عليك يا أبا خبيب، أما واللّه لقد كنت صواما قواما. ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع ودفن هناك.

ودخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ولم يزل الحجاج مقيما بمكة حتى أقام للناس الحج عامه هذا

أيضا وهو على مكة واليمامة واليمن.

وهذه ترجمة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

هو

■ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو بكر ويقال له أبو خبيب القرشي الأسدي، أول مولود ولد بعد الهجرة بالمدينة من المهاجرين. وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ذات النطاقين، هاجرت به وهي حامل به مُتِمّ- فولدته بقُباء أول مقدمهم المدينة وقيل: إنما ولدته في شوال سنة اثنتين من الهجرة. قاله الواقدي ومصعب الزبيري وغيرهما، والأول أصح لما رواه أحمد [٣٤٧/٦] عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبد الله بمكة قالت: فخرجت به وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت فولدته، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ، قالت: ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام.

وهو صحابي جليل. روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عن أبيه وعمر وعثمان وغيرهم. وعنه جماعة من التابعين، وشهداليرموك، مع أبيه وهو صغير، وحضر خطبة عمر بالجابية، ورواها عنه بطولها ثبت ذلك من غير وجه. وقدم دمشق لغزو القسطنطينية، ثم قدمها مرة أخرى وبويع بالخلافة أيام يزيد بن معاوية ولما مات يزيد غلب على الحجاز واليمن والعراقين ومصر وخراسان وسائر بلاد الشام إلا دمشق، وتمت البيعة له سنة أربع وستين وكان الناس بخير في زمانه.

وثبت من غير وجه عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها خرجت بعبد الله من مكة مهاجرة وهي حبلى به فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله ودعا له، وفرح المسلمون بمولده لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلما ولد ابن الزبير كبر المسلمون [خ(٣٩٠٩)، م(٢١٤٦)].

وقد سمع عبد الله بن عمر جيش الشام حين كبروا عند قتله. فقال: أما والله للذين كبروا عند مولده خير من هؤلاء الذين كبروا عند قتله.

وأذن الصديق في أذنه حين ولد رضي الله عنهما، ومن قال: إن الصديق طاف به حول الكعبة وهو في خرقة فهو واهم والله أعلم. وإنما طاف الصديق به في المدينة ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود.

وقال مصعب الزبيري: كان عارضا عبد الله خفيفين، وما اتصلت لحيته حتى بلغ ستين سنة.

وقال الزبير بن بكار: حدثني علي بن صالح عن عامر بن صالح عن سالم بن عبد الله بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ كلّم في غلمة ترعرعوا منهم عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة، فقيل: يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر، فأتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا واقتحم عبد الله بن الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إنه ابن أبيه» وبايعه.

وقد روي من غير وجه [المستدرك: ٥٥٤/٣] أن عبد الله بن الزبير شرب من دم النبي ﷺ: كان النبي ﷺ قد احتجم في طست فأعطاه عبد الله بن الزبير ليريقه فشربه فقال له: «لا تمسك النار إلا تحلة القسم، وويل لك من الناس وويل للناس منك»

وفي رواية [تاريخ دمشق: ١٦٣/٢٨] أنه قال له: «يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد»، فلما بعد عمد إلى ذلك الدم فشربه، فلما رجع قال: «ما صنعت بالدم؟» قال: عمدت إلى أخفى موضع علمت فجعلته فيه. قال: «فلعلك شربته؟» قال: نعم. فقال: «لا تمسّك النار إلاّ تحلّة القسم، ويل للناس منك، وويل لك من الناس». فكانت تلك القوة التي به من ذلك الدم.

وقال محمد بن سعد: أنبا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد حدثنا أبو عمران الجوني أن نوفا البكائي كان يقول: إني لأجد في كتاب الله المنزل أن ابن الزبير فارس الخلفاء. وقال حماد بن زيد عن ثابت البناني قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك.

وقال الأعمش عن يحيى بن وثاب: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه الا جذم حائط.

وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح، ويركع ليله حتى يصبح، ويسجد ليله حتى يصبح.

وقال بعضهم: ركع ابن الزبير يوماً فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه.

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء: كنت إذا رأيت ابن الزبير يصلي كأنه كعب راتب.

وفي رواية: ثابت.

وقال أحمد: تعلم عبد الرزاق الصلاة من ابن جريج، وابن جريج من عطاء، وعطاء من ابن الزبير، وابن الزبير من الصديق، والصديق من رسول الله ﷺ.

وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة عن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة تصفقها الريح، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا. قال سفيان: كأنه لا يبالي. وحكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال عن مقامه ولا عرف ذلك في صوته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله، جاد ما وصفت.

وقال عمر بن عبد العزيز يوما لابن أبي مليكة: صف لنا عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثله، ولا رأيت نفسا ركّبت بين جنبين مثل نفسه، ولقد مرت آجُرّة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشِع ولا قطع لها قراءته، ولا ركع دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها. ولقد كان يركع فيكاد الرخم يقع على ظهره ويسجد فكأنه ثوب مطروح.

وقال أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة عن منصور بن زاذان قال: أخبرني من رأى ابن الزبير يشرب في صلاته وكان ابن الزبير من المصلين.

وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال: كان قارئا لكتاب الله، متبعاً لسنة رسول الله، قانتاً لله صائما في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، زوجة رسول الله، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله.

ورُوي أن ابن الزبير كان يوما يصلي فسقطت حية من السقف تطوّقت

على بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها، وسلم الولد؛ فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى لابنه حتى سلم.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الضحاك الحزامي وعبد الملك بن عبد العزيز ومن لا أحصي كثرة من أصحابنا أن ابن الزبير كان يواصل الصوم سبعا، يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة، ويصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة، وكان إذا أفطر أول ما يفطر على لبن لقحة وسمن وصبر.

وفي رواية أخرى: فأما اللبن فيعصمه، وأما السمن فيقطع عنه العطش، وأما الصبر فيفتق الأمعاء.

وقال ابن معين عن روح عن حبيب بن الشهيد عن ابن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم الثامن وهو أليثنا.

وروى مثله من غير وجه. وقال بعضهم: لم يكن يأكل في شهر رمضان سوى مرة واحدة في وسطه.

وقال خالد بن أبي عمران: كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام. ومكث أربعين سنة لم ينزع ثوبه عن ظهره.

وقال ليث عن مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة رضي الله عنه. ولقد جاء سيل مرة فطبق البيت فجعل ابن الزبير يطوف بالبيت سباحة.

وقال بعضهم: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث، في العبادة والشجاعة والفصاحة.

وقد ثبت أن عثمان جعله في النفر الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

وذكره سعيد بن المسيب في خطباء الإسلام مع معاوية وابنه وسعيد بن العاص وابنه.

وقال عبد الواحد بن أيمن: رأيت على ابن الزبير رداءاً يمانيا عدنيا يصلي فيه، وكان صَيِّتاً إذا خطب يُجاوبه الجبلان أبو قبيس وزرود.

وكان آدم نحيفا ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود كثير العبادة مجتهداً شهماً فصيحاً صواما قواما شديد البأس ذا أنفة له نفس شريفة وهمة عالية، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلا. وكانت له جمة وكان له لحية صفراء.

وقد ذكرنا أنه شهد مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح قتال البربر وكانوا في عشرين ومائة ألف، والمسلمون عشرين ألفاً، فأحاطوا بهم من كل جانب، فما زال عبد الله بن الزبير يحتال حتى ركب في ثلاثين فارساً، وسار نحو ملك البربر وهو منفرد وراء الجيش، وجواريه يظللنه بريش النعام، فساق حتى انتهى إليه والناس يظنون أنه ذاهب في رسالة إليه، فلما فهمه الملك ولى مدبراً فلحقه عبد الله فقتله واحتز رأسه وجعله في رأس رُمْحِه وكبر وكبر المسلمون، وحملوا على البربر، فانهزمت البربر بين أيديهم فقتلوا منهم خلقا كثيراً وغنموا مغانم كثيرة جداً، وبعث ابن أبي سرح بالبشارة مع ابن الزبير فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: أتستطيع أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر؟ قال: نعم! فأمره فصعد ابن -الزبير- فوق المنبر فخطب الناس وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد أن يرتج عليَّ في الكلام من هيبته في قلبي، فزبرني بعينه وأشار إليَّ ليحصبني، فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: خرج ابن الزبير في ليلةٍ مقمرةٍ على راحلة له فنزل يبولُ فالتفت فإذا على الراحلة شيخ أبيض الرأس واللحية، قال: فشد عليه ابن الزبير فتنحى عنها فركب ابن الزبير راحلته ومضى، قال: فناداه: والله يا ابن الزبير لو دخل قلبك الليلة مني شعرة لخبلتك، قال: ومنك أنت يا لعين يدخل قلبي شيء!

وقد روي لهذه الحكاية شواهد من وجوه أخرى جيدة [تاريخ دمشق: ١٨٣/٢٨-١٨٦].

وروى عبد الله بن المبارك عن إسحاق بن يحيى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: أقبل عبد الله بن الزبير من العمرة في ركب من قريش فلما كانوا عند التناضب أبصروا رجلا عند شجرة، فتقدمهم ابن الزبير، فلما انتهى إليه سلم عليه فلم يعبأ به ورد رداً ضعيفاً، ونزل ابن الزبير فلم يتحرك له الرجل، فقال له ابن الزبير: تنح عن الظل. فانحاز متكارهاً، قال ابن الزبير: فجلست وأخذت بيده وقلت: من أنت؟ فقال: رجل من الجن. فما عدا أن قالها حتى قامت كل شعرة مني فاجتذبته وقلت: أنت رجل من الجن وتبدو لي هكذا؟ وإذا ليس له سفلة وانكسر ونهرته وقلت: إليَّ تتبدى وأنت من أهل الأرض فذهب هارباً وجاء أصحابي فقالوا: أين الرجل الذي كان عندك؟ فقلت: إنه كان من الجن فهرب قال: فما منهم رجل إلا سقط إلى الأرض عن راحلته فأخذت كل رجل منهم فشددته على راحلته حتى أتيت بهم أَمَجَ وما يعقلون.

وقال سفيان بن عيينة قال ابن الزبير: دخلت المسجد ذات ليلة فإذا نسوة يطفن بالبيت فأعجبنني، فلما قضين طوافهن خرجن فخرجت في إثرهن لأعلم أين منزلهن، فخرجن من مكة حتى أتين العقبة ثم انحدرن حتى أتين فَجّاً فدخلن في خربة فدخلت في إثرهن. فإذا مشيخة جلوس فقالوا: ما جاء بك يا ابن الزبير؟ فقلت لهم: من انتم؟ قالوا: الجن وتلك النسوة نساؤنا فما تشتهي يا ابن الزبير؟ فقلت: أشتهي رطباً، وما بمكة يومئذ من رطبة. فأتوني برطب فأكلت ثم قالوا: احمل ما بقي معك، فجئت به إلى المنزل فوضعته في سفط وجعلت السفط في صندوق، ثم وضعت رأسي لأنام، فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت جلبة في البيت، فقال بعضهم لبعض: أين وضعه؟ قالوا: في الصندوق، ففتحوه فإذا هو في السفط داخله، فهموا بفتحه فقال بعضهم: إنه ذكر اسم الله عليه، فأخذوا السفط بما فيه فذهبوا به، قال. فلم آسف على شيء أسفي كيف لم أثب عليهم وهم في البيت.

وقد كان عبد الله بن الزبير ممن حاجف عن عثمان يوم الدار، وجرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وكان على الرجّالة يوم الجمل وجرح يومئذ تسع عشرة جراحة أيضاً. وقد تبارز يومئذ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر، فاتحدا فصرع الأشتر ابن الزبير فلم يتمكن من القيام عنه، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي ويقول:

اقتلوني ومالكا، واقتلوا مالكا معي

فأرسلها مثلاً. ثم تفرقا ولم يقدر عليه الأشتر، وقد قيل: إنه جرح يومئذ بضعاً وأربعين جراحة، ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة لمن بشرها أنه لم يقتل عشرة آلاف درهم وسَجَدَتْ لله شكراً، وقد كانت تحبه حباً شديداً، لأنه ابن أختها، وكان عزيزاً عليها.

وقد روي عن عروة أنه قال لم تكن عائشة لم تحب أحداً بعد رسول

اللّه ﷺ وأبي بكر مثل حبها عبد الله ابن الزبير، وقال: وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير.

وقال الزبير بن بكار: حدثني أخي هارون بن أبي بكر عن يحيى بن إبراهيم عن سليمان بن محمد بن يحيى بن عروة عن أبيه عن عمه عن عبد الله بن عروة قال: أقحمت السنة نابغة بني جعدة فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشد هذه الأبيات:

حكيتَ لَنَا الصِّدِّيقَ لَمَّا وَلِيتَنَا ... وعُثمانَ والفاروقَ فارتاحَ مُعدِمُ
وَسَوَّيتَ بينَ النَّاسِ في الحقِّ فاستووا ... فَعادَ صَباحاً حَالكُ اللونِ مُظلِمُ
أتاكَ أبو ليلى يَجُوبُ بهِ الدُّجَى ... دُجَى الليلِ جَوابُ الفَلاةِ غَشَمْشَمُ
لِتَجبُرَ مِنهُ جَانِباً غَدَرَت بِهِ ... صُرُوفُ الليالي والزَّمانُ المُصَمِّمُ

فقال له ابن الزبير: هو عليك أبا ليلي. فإن الشعر أهون رسائلك عندنا، أما صفوة مالنا فلآل الزبير، وأما عفوه فان بني أسد يشغلها عنك وتيما، ولكن لك في مال الله حقان، حق لرؤيتك لرسول الله ﷺ وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أخذ بيده فأدخله دار النعم فأعطاه قلائص سبعا وجملا رحيلا، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثيابا، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صرفا، فقال له ابن الزبير: ويح أبي ليلى، لقد بلغ الجهد. فقال النابغة: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما وليت قريش فعَدَلَتْ، واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيون فرط القاصفين».

وقال محمد بن مروان صاحب كتاب المجالسة: أخبرني حبيب بن نصر الأزدي حدثنا محمد بن دينار حدثنا محمد بن زياد الضبي حدثنا هشام بن سليمان المخزومي عن أبيه قال: أذن معاوية للناس يوما فدخلوا عليه فاحتفل المجلس وهو على سريره، فأجال بصره فيهم فقال: أنشدوني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها العرب، ثم قال: يا أبا خبيب فقال: مهيم، قال: أنشدني ذلك، فقال: نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف كل بيت بمائة ألف، قال: نعم إن ساوت، قال: أنت بالخيار، وأنت واف كاف، قال: نعم. فأنشده للأفوه الأودي:

بَلَوتُ النَّاسَ قَرْناً بعد قَرنٍ ... فَلَم أرَ غيرَ خَتَّالٍ وقَالِ

فقال معاوية: صدق:

ولَم أرَ في الخُطوبِ أشدَّ وَقعاً ... وكيداً مِن مُعاداةِ الرِّجالِ

فقال: صدق

وذُقتُ مَرارةَ الأشياءِ طُرّاً ... فَما شيءٌ أَمَرُّ مِنَ السُّؤالِ

فقال: صدق. ثم قال معاوية: هيه يا أباخبيب، قال: إلى ههنا انتهى قال: فدعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدرة، وهي عشرة آلاف درهم، فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره.

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي زيد النميري عن أبي عاصم النبيل عن جويرية بن أسماء أن معاوية لما حج تلقته الناس وتخلف ابن الزبير ثم جاءه وقد حلق رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين ما أكثر جحرة رأسك!! فقال له: اتق، لا يخرج عليك منها حية فتقتلك. فلما أفاض معاوية طاف معه ابن الزبير وهو آخذ بيده ثم استدعاه إلى داره ومنازله بقعيقعان، فذهب معه إليها، فلما خرجا قال: يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون: جاء معه أمير المؤمنين إلى دوره ومنازله فعل ماذا؟ لا والله لا أدعك حتى تعطيني مائة ألف. فأعطاه فجاء مروان فقال: والله يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلك، جاءك رجل قد سمى بيت مال الديوان وبيت الخلافة، وبيت كذا، وبيت كذا، فأعطيته مائة ألف، فقال له: ويلك كيف أصنع بابن الزبير؟

وقال ابن أبي الدنيا: أخبرني عمر بن بكير عن علي بن مجاهد عن هشام بن عروة قال: سأل ابن الزبير معاوية شيئاً فمنعه، فقال: والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية فلا أشتم لك عرضاً ولا أقصبُ لك حسباً، ولكني أسدل عمامتي من بين يدي ذراعا، ومن خلفي ذراعا في طريق أهل الشام وأذكر سيرة أبي بكر الصديق وعمر فيقول الناس: من هذا؟ فيقولون: ابن حواري رسول الله ﷺ وابن بنت الصديق، فقال معاوية: حسبك بهذا شراً. ثم قال: هات حوائجك.

وقال الأصمعي: حدثنا غسان بن مضر عن سعيد بن يزيد. قال: دخل ابن الزبير على معاوية فأمر ابناً له صغيراً فلطمه لطمة دوخ منها رأسه. فلما أفاق ابن الزبير قال للصبي: ادن مني، فدنا منه، فقال له: الطم معاوية، قال: لا أفعل، قال: ولم؟ قال: لأنه أبي. فرفع ابن الزبير يده فلطم الصبي لطمة جعل يدور منها كما تدور الدوامة، فقال معاوية: تفعل هذا بغلام لم تجر عليه الأحكام؟ قال: إنه والله قد عرف ما يضره مما ينفعه، فأحببت أن أحسن أدبه.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن عبد الله بن أبي بكر قال: لحق ابن الزبير معاوية وهو سائر إلى الشام من المدينة فوجده وهو ينعس على راحلته، فقال له: أتنعس وأنا معك؟ أما تخاف مني أن أقتلك؟ فقال: إنك لست من قُتّال الملوك، إنما يصيد كل طائر قدره. فقال: أما لقد سرت تحت لواء أبي إلى علي بن أبي طالب، وهو من تعلم. فقال: لا جرم تقتلكم والله بشماله. قال: أما إن ذلك كان في نصرة عثمان، ثم لم يجز بها، فقال: إنما كان لبغض علي لا لنصرة عثمان، فقال له ابن الزبير: إنا قد أعطيناك عهدا فنحن وافون لك به ما عشت، فإذا متُّ فسيعلم من بعدك، فقال: أما والله ما أخافك إلا على نفسك، ولكأني بك قد خبطت في الحبالة واستحكمت عليك الأنشوطة، فذكرتني وأنت فيها، فقلت: ليت أبا عبد الرحمن لها، ليتني والله لها، اما والله لأحْلَلْنك رويداً، ولأطلقنك سريعاً، ولبئس الولي أنت تلك الساعة، وحكى ابن عيينة نحو هذا.

وقد تقدم أن معاوية لما مات وجاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة انشمر منها ابن الزبير والحسين بن علي فقصدا مكة فأقاما بها، ثم خرج الحسين إلى العراق فكان من أمر مقتله بأرض كربلاء ما تقدم، وتفرد بالرياسة والسؤدد بمكة ابن الزبير، ولهذا كان ابن عباس ينشد: بعد مخرج الحسين:

يا لَكِ مِن قُنبرةٍ بمَعمَرِ ... خَلا لَكِ الجَوُّ فَبيضي واصفِري
ونَقِّري ما شِئتِ أن تنقِّري

يعرض بابن الزبير.

وقيل: إن يزيد بن معاوية كتب إلى ابن الزبير يقول: إني قد بعثت إليك بسلسلة من فضة وقيد من ذهب وجامعة من فضة وحلفت لتأتيني في ذلك فأبر قسمي ولا تشق العصا، فلما قرأ كتابه ألقاه من يده وقال:

ولا أَلِينُ لِغَيرِ الحقِّ أسألُهُ ... حَتّى يَلِينَ لِضرسِ الماضِغِ الحَجَرُ

فلما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد من بعده قريباً، استفحل أمر عبد الله بن الزبير جداً، وبويع له بالحجاز والعراق ومصر، وبايع له الضحاك بن قيس بدمشق وأعمالها، ولكن عارضه مروان بن

الحكم في ذلك وما زال حتى قتله وجماعة بمرج راهط، كما تقدّم. فبايع له أهل الشام، ثم دخل مصر فانتزعها من نوّاب ابن الزبير، ثم جهز السرايا إلى العراق، ومات واستخلف بعده عبد الملك بن مروان فما زال حتى قتل مصعب بن الزبير وأخذ العراق منه، ثم بعث الحجاج بن يوسف فحاصر ابن الزبير بمكة قريبا من سبعة أشهر حتى ظفر به في يوم الثلاثاء سابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

وكانت ولاية ابن الزبير في سنة أربع وستين، وحج بالناس فيها كلها، وبنى الكعبة في أيامه كما أشار إليه رسول الله ﷺ ورد بنائها كما كانت عليه كما أخبرته بذلك عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها، وكسا الكعبة الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح.

وكان ابن الزبير عالماً عابداً مهيباً وقوراً كثير الصلاة والصيام، شديد الخشوع قويَّ السياسة.

قال أبو نعيم الأصبهاني [حلية الأولياء: ١/٣٣٤]: حدثنا أبو حامد بن جبلة حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي حدثنا أبو عاصم عن عمر بن قيس. قال: كان لابن الزبير مائة غلام يتكلم كل غلام منهم بلغة غير لغة الآخر، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته، وكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين.

وقال الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى قال: رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لي كان رأس مال. وكان يطيب الكعبة حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة.

وقال ابن المبارك عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: دخل ابن الزبير على امرأته بنت الحسن فرأى ثلاثة مثل - يعني أفرشة - فقال: هذا لي وهذا لابنة الحسن، وهذا للشيطان. فأخرَجوه.

وقال الثوري عن عبد الله بن أبي بشير عن عبد الله بن مساور. قال: سمعت ابن عباس يعاتب ابن الزبير على البخل ويقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس بالمؤمن من يبيت شبعان وجاره إلى جنبه جائع».

وقال الإمام أحمد [١/٦٤]: حدثنا إسماعيل بن أبان الوراق حدثنا يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبزى عن عثمان بن عفان. قال: قال له عبد الله بن الزبير حين حصر: إن عندي نجائب قد أعددتها لك، فهل لك أن تحوّل إلى مكة فيأتيك من أراد أن يأتيك؟ قال: لا! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله، عليه مثل أوزار الناس».

وهذا الحديث منكر جدا وفي إسناده ضعف، ويعقوب هذا هو القمي وفيه تشيع وضعف، ومثل هذا لا يقبل تفرده به، وبتقدير صحته فليس هو بعبد الله بن الزبير، فإنه كان على صفات حميدة، وقيامه في الإمارة إنما كان لله عز وجل، ثم هو كان له الأمر بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه، وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢/٢١٩، ومختصراً دون القصة: ٢/١٩٦]: حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا إسحاق بن سعيد حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو عبد الله بن الزبير وهو في الحجر جالس فقال: يا ابن الزبير إياك والإلحاد في حرم الله، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال: فانظر أن لا تكونه، يا ابن عمر فإنك قد قرأت الكتب وصحبت النبي ﷺ، قال: فإني أشهدك أن هذا وجهي إلى الشام مجاهداً.

وهذا قد يكون رفعه غلطاً، وإنما هو من كلام عبد الله بن عمرو، ومما أصابه من الزاملتين من علوم أهل الكتاب يوم اليرموك. والله أعلم.

وقال وكيع عن الثوري عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن حنش الكناني عن عليم الكندي عن سلمان الفارسي. قال: ليحرقن هذا البيت على يدي رجل من آل الزبير.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن ابن فضيل حدثنا سالم بن أبي حفصة عن منذر الثوري قال: قال ابن الحنفية: اللّهم إنك تعلم أني كنت أعلم مما علمتني أن ابن الزبير لا يخرج منها إلا قتيلا يطاف برأسه في الأسواق.

وقد روى الزبير بن بكار عن هشام بن عروة قال: إن أول ما فصح به عبد الله ابن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضعه من فيه، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام.

وقد تقدم كيفية مقتله، وأن الحجاج صلبه على جذع فوق الثنية، وأنه ربط إلى جانبه هرة ميتة فكان ريح المسك يغلب على ريحها، وأن أمه أرسلت إلى الحجاج تقول: قاتلك الله علام تصلب ولدي؟. إني استبقت أنا وإياه إلى هذه الخشبة فسبقني إليها. وأن أمه جاءت حتى وقفت عليه فدعت له طويلا ولا يقطر من عينها دمعة ثم انصرفت، وكذلك وقف عليه ابن عمر فدعا له وأثنى عليه ثناء كثيراً جداً.

وقال الواقدي: حدثني نافع بن ثابت عن عبد الله مولى أسماء قال: لما قتل عبد الله خرجت إليه أمه حتى وقفت عليه وهي على دابة، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحقَّ وأظهره؟ قالت: ربما أديل الباطل على الحق، وإنك بين فرثها والجيَّة، فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وقد أذاقه الله ذلك العذابَ الأليم، قطع السُّبُل قالت: كذبت، كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسر به رسول الله ﷺ وحنكه بيده وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك براً بالوالدين صواما قواما بكتاب الله، معظماً لحرم الله، يبغض من يعصي الله عز وجل، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول: «سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول وهو مبير» فانكسر الحجاج وانصرف، فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء، وقال: مالك ولابنة الرجل الصالح؟

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه [٢٥٤٥]: حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي أنبا الأسود بن شيبان عن أبي نوفل. قال: رأيت عبد الله بن الزبير على عَقَبَة المدينة، قال: فجعلت قريش تمر عليه والناس حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صواما قواما وصولا للرحم، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر. فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزل عن جذعه وألقي

في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه فأعاد عليها الرسول: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إلي من يسحبني بقروني، قال: فقال الحجاج: أروني سِبْتَيَّ. فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتني صنعت بعدوِّ الله؟ قالت: رأيتك أفسد عليه دنياه، وأفسدت عليك آخرتك، بلغني أنك تقول: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة الذي لا تستغني عنه، أما إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذابا ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها.

انفرد به مسلم.

وروى الواقدي أن الحجاج لما صلب ابن الزبير على ثنية الحجون بعثت إليه أسماء تدعو عليه، وطلبت منه أن يدفن فأبى عليها، حتى كتب إلى عبد الملك في ذلك فكتب إليه أن يدفن فدفن بالحجون، وذكروا أنه كان يشتمُّ من عند قبره ريح المسك.

وكان الحجاج قد قدم من الشام في ألفي فارس وانضاف إليه طارق بن عمرو في خمسة آلاف.

وروى محمد بن سعد وغيره بسنده أن الحجاج حاصر ابن الزبير، وأنه اجتمع معه أربعون ألفا: وأنه نصب المنجنيق على أبي قبيس ليرمي به المسجد الحرام الذي فيه عبد الله بن الزبير، وأنه جعل يؤمِّن، وأنه أمَّن من خرج إليه من أهل مكة ونادي فيهم بذلك، وقال: إنا لم نأت لقتال أحد سوى ابن الزبير، وأنه خيَّر ابن الزبير بين ثلاث إما أن يذهب في الأرض حيث شاء أو يبعثه إلى الشام مقيَّداً بالحديد، أو يقاتل حتى يقتل. فشاور أمه في ذلك فأشارت عليه بالثالث فقط.

ويروى أنها استدعت بكفن له وبخرته وشجعته على القتل، فخرج بهذه النية فقاتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين قتالا شديداً فجاءته آجُرَّة فغلقت رأسه فسقط على وجهه إلى الأرض، ثم أراد أن ينهض فلم يقدر، فاتكأ على مرفقه الأيسر وجعل يحذم بالسيف من جاءه، فأقبل إليه رجل من أهل الشام فضربه فقطع رجليه، ثم تكاثروا عليه حتى قتلوه واحتزوا رأسه، وكان مقتله قريبا من الحجون، ويقال: بل قتل وهو متعلق بأستار الكعبة. فالله أعلم. ثم صلبه الحجاج منكَّساً على ثنية كداء عند الحجون، ثم لما أنزله دفنه في مقابر اليهود كما رواه مسلم [٢٥٤٥]، وقيل: دفن بالحجون بالمكان الذي صلب فيه، فالله أعلم وقيل: إن أسماء بعدما تقطَّعت أوصاله وخيَّطته وكفَّنته وصلَّت عليه، وحملته إلى المدينة فدفنته في دار صفية بنت حيي، وأنَّ هذه الدار زيدت في المسجد، فهو مدفون في المسجد مع أبي بكر وعمر. وقال عبد الرزاق [المصنف(٢٠٧٥٥)] عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال قال عبد الله بن الزبير لما جيء برأس المختار: ماكان يحدثنا كعب الأحبار شيئاً إلا وجدناه كما قال إلا قوله: إن فتى ثقيف يقتلني، وهذا رأسه بين يدي، قال ابن سيرين: ولم يشعر أنه قد خبئ له الحجاج.

وروي هذا من وجه آخر.

قلت: والمشهور أن مقتل الزبير كان في سنة ثلاث وسبعين يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى، وقيل الآخرة منها، وعن مالك وغيره أن مقتله كان على رأس اثنين وسبعين، والصحيح المشهور هو الأول، وكانت بيعته في سابع رجب سنة أربع وستين، وكان مولده في أول سنة إحدى من الهجرة، وقيل في شوال سنة ثنتين من الهجرة، فمات وقد جاوز السبعين قطعاً والله أعلم.

وأما أمه فإنها لم تعش بعده إلا مائة يوم وقيل: إنما عاشت معه عشرة أيام، وقيل: خمسة، والأول هو المشهور وستأتي ترجمتها قريباً رضي الله عنها.

وكان له من الولد: خبيب وحمزة وعباد وثابت وأمهم تماضر بنت منظور الفزاري وهاشم وقيس وعروة -قتل مع أبيه- والزبير وأمهم أم هاشم بنت حلّة بن منظور وعامر وموسى وأم حكيم وفاطمة وفاختة وأمهم جثيمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبكر ورقية وأمهم عائشة بنت عثمان بن عفان وعبد الله ومصعب من أم ولد.

وقد أسند ثلاثة وثلاثين حديثاً.

وقد رثي ابن الزبير وأخوه مصعب بمراثي كثيرة حسنة بليغة، رحمها الله، من ذلك قول عمرو بن معمر الذهلي يرثيهما بأبيات:

لَعَمرُكَ ما أَبقَيتُ في الناسِ حَاجَةً ... ولا كُنتُ مَلْبُوسَ الهُدَى مُتذبذبا
غَدَاةَ دَعَاني مُصعب فَأجَبْتُه ... وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا
أبوكَ حواريُّ الرَّسُولِ وسيفُهُ ... فأنتَ بِحَمدِ اللَّه من خيرنا أبا
وَذَاكَ أخُوكَ المهتدي بِضيائِه ... بمكة يدعونا دعاء مُثوّبا
ولم أك ذا وجهين وجه لِمُصعب ... مَريضٍ ووَجه لابن مروان إذ صبَّا
وكُنتُ امرأ ناصَحْتُه غَيرَ مُؤثِر ... عليه ابن مروان ولا مُتَقربا
إليه بما تَقذَى به عَين مُصعبٍ ... ولكنني ناصَحتُ في اللَّه مُصعَبا
إلى أن رَمَتْهُ الحادِثات بِسَهمِهَا ... فاللَّه سَهمًا ما أسَدُّ وأصوبَا
فَإن يَكُ هذا الدَّهرُ أودَى بِمُصعَبٍ ... وأصبَحَ عبدُ اللَّه شِلواً مُلحَّبا
فكل امرىء حاسٍ مِنَ الموتِ جُرعةً ... وإن حَادَ عَنهَا جُهدَه وتَهَيَّبا

وقد روى الطبراني عن عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه أن النبي ﷺ أعطاه دم محاجمه يهريقه فحساه، فلما رجع إلى النبي ﷺ، قال: «ما صنعت يا عبد الله بالدم؟» قلت: جعلته في مكان ظننت أنه خاف على الناس، قال: «فلعلك شربته؟» قلت: نعم! قال: «ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويل لك من الناس، وويل للناس منك».

ودخل سلمان الفارسي مرة على النبي ﷺ فإذا عبد الله بن الزبير قائم في الدهليز ومعه طست يشرب منه، فدخل سلمان ودخل عبد الله على رسول الله ﷺ، قال له: «فرغت؟» قال: نعم! قال سلمان: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «أعطيته غسالة محاجمي يهريق ما فيها» قال سلمان شربها والذي بعثك بالحق، قال: «شربته؟» قال: نعم! قال: لم؟ قال: أحببت أن يكون دم رسول الله ﷺ في جوفي، فقال بيده على رأس ابن الزبير، وقال: «ويل لك من الناس، وويل للناس منك، لا تمسك النار إلا تحلة القسم».

ولما بعث يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير ذلك القيد من ذهب وسلسلةً من فضة وجامعة من فضة وأقسم لتأتيني فيها، فقالوا له: بر قسم أمير المؤمنين فقال:

ولا أَلِينُ لِغَيرِ الحَقِّ أَسأَلُه ... حَتى تَلِينَ لِضِرسِ الماضِغ الحَجَرُ

ثم قال: والله لضربة بسيف في عزٍ، أحب إلي من ضربة بسوط في ذل، ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية.

وروى الطبراني أن ابن الزبير دخل على أمه فقال: إن في الموت

لراحة، وكانت أمه قد أتت عليها مائة سنة لم تسقط لها سن، ولم يفسد لها بصر، فقالت: ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك فتقر عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك، ثم خرج عنها وهو يقول: -

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... ولا مُرْتَقٍ مِن خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا

ثم أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول: ليكنْ أحدكم سيفه كما تكنُّ وجهه فيلدفع عن نفسه بيده كأنه امرأة، والله ما لقيت زحفا قط إلا في الرعيل الأول، وما ألمت جرحاً إلا ألم الدواء، ثم حمل عليهم ومعه سفيان، فأول من لقيه الأسود فضربه بسيفه حتى أطن رجله، فقال له الأسود: أخ يا ابن الزانية، فقال له ابن الزبير: أخسأ يا ابن حام، أسماء زانية؟ ثم أخرجهم من المسجد، وكان على ظهر المسجد جماعة من أعوانه يرمون أعداءه بالآجُرّ، فأصابته آجُرّة من أعوانه من غير قصد في مفرق رأسه فغلقت رأسه فوقف قائما وهو يقول:

لو كان قرني واحداً كفيته

ويقول: -

ولَسْنَا عَلَى الأعقَابِ تَدمِى كُلُومُنا ... ولَكِن على أقدامِنَا تَقطُرُ الدِّمَا

ثم وقع فأكب عليه موليان له وهما يقولان:

العبد يحمي ربه ويحتمي

وروى الطبراني أيضاً عن إسحاق بن أبي إسحاق قال: أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه فصرعته، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أسماءُ يا أسماءُ لا تبكيني ... لم يَبقَ إلا حَسَبي وديني

وصَارِمٌ لانت به يَميني

وقد روي أن أمه قالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال الحجاج: ابنك المنافق، فقالت: والله ما كان منافقا، إن كان لصواما قواما وصولا للرحم، فقال: انصرفي يا عجوز، فإنك قد خرفت، فقالت: والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير»، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت.

وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر فمر على ابن الزبير فوقف فترحم وأثنى عليه ثم التفت إلي وقال: أخبرني أبو بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال: «من يعمل سوءاً يجز به».

وروى سفيان عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة قال: ذكرت ابن الزبير عند ابن عباس فقال: كان عفيفا في الإسلام، قارئا للقرآن، صواما قواما، أبوه الزبير، وأمه أسماء، وجده أبو بكر، وعمته خديجة، وجدته صفية، وخالته عائشة، والله لأحاسبن له بنفسي محاسبة لم أحاسبها لأبي بكر ولا لعمر.

وقال الطبراني: حدثنا زكريا الساجي حدثنا حوثرة بن محمد حدثنا أبو أسامة حدثنا سعيد بن المرزبان أبو سعيد العبسي حدثنا محمد بن عبد الله الثقفي قال: شهدت خطبة ابن الزبير بالموسم خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم فلبّى بأحسن تلبية سمعتها قط، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم جئتم من آفاق شتى وفوداً إلى الله عز وجل، فحق على الله أن يكرم وفده، فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب فصدقوا قولكم بفعل، فإن ملاك القول الفعل والنية النية، والقلوب القلوب، الله الله في أيامكم هذه فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجونها هاهنا. ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكيا أكثر من يومئذ.

وروى الحسن بن سفيان قال: حدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مالك بن أنس عن وهب بن كيسان قال: كتب إلى عبد الله بن الزبير بموعظة: أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم، صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء، ورضاً بالقضاء، وشكر للنعماء، وذل لحكم القرآن، وإنما الإمام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله. وإن نفق الباطل عنده حمل إليه وجاءه أهله.

وقال أبو معاوية: حدثنا هشام بن عروة عن وهب بن كيسان قال: ما رأيت ابن الزبير يعطي سلمه قط لرغبه ولا لرهبة سلطان ولا غيره.

وبهذه الإسنادات أهلُ الشام كانوا يعيرون ابن الزبير ويقولون له: يا ابن ذات النطاقين. فقالت له اسماء: يابني إنهم يعيرونك بالنطاقين وإنما كان لي نطاق واحد شققته نصفين فجعلت في سفرة رسول الله ﷺ أحدهما واوكيت قربته بالآخر لما خرج هو وأبو بكر يريدان الهجرة إلى المدينة. فكان ابن الزبير بعد ذلك إذا عيروه بالنطاقين يقول:

إيهاً والله تلك شكاة ظاهر عنك

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وممن قتل مع ابن الزبير في سنة ثلاث وسبعين بمكة من الأعيان:

■ **عبد الله بن صفوان ابن امية بن خلف الجمحي أبو صفوان المكي:** وكان أكبر ولد أبيه، أدرك حياة النبي ﷺ وروى عن عمر وجماعة من الصحابة، وحدث عنه خلق من التابعين، وكان سيداً شريفاً مطاعاً حليماً يحتمل الأذى، لو سبه عبد أسود ما استنكف عنه، ولم يقصده أحد في شيء فرده خائباً. ولا سمع بمفازة إلا حفر بها جبأ أو عمل فيها بركة، ولا عقبة إلا سهلها، وقيل: إن المهلب بن أبي صفرة قدم على ابن الزبير من العراق فأطال الخلوة معه، فجاء ابن صفوان فقال: من هذا الذي شغلك منذ اليوم؟ قال: هذا سيد العرب من أهل العراق، فقال: ينبغي أن يكون المهلب. فقال المهلب لابن الزبير: ومن هذا الذي يسأل عني يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا سيد قريش بمكة، فقال: ينبغي أن يكون عبد الله بن صفوان، وكان ابن صفوان كريماً جداً.

وقال الزبير بن بكار بسنده: قدم معاوية حاجّاً فتلقاه الناس فكان ابن صفوان في جملة من تلقاه، فجعل يساير معاوية وجعل أهل الشام يقولون: من هذا الذي يساير أمير المؤمنين؟ فلما انتهى إلى مكة إذا الجبل أبيض من الغنم، فقال: يا أمير المؤمنين هذه غنم أجزرتكها، نقسّمها بين الجند، فإذا هي ألفا شاة، فقالوا: ما رأينا أكرم من ابن عم أمير المؤمنين.

ثم كان ابن صفوان من جملة من صبر مع ابن الزبير حين حصره الحجاج، فقال له ابن الزبير: إني قد أقلتك بيعتي فاذهب حيث شئت، فقال: إني إنما قاتلت عن ديني. ثم صبّر نفسه حتى قتل وهو متعلق بأستار الكعبة في هذه السنة، رحمه الله وأكرم مثواه.

■ **عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة القرشي العدوي المدني،** ولد في حياة رسول الله ﷺ وحنكه ودعا له بالبركة، وروى عن أبيه عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقتل قرشي بعد اليوم صبراً إلى يوم القيامة» [م(١٧٨٢)].

وعنه ابناه إبراهيم ومحمد والشعبي وعيسى بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن أبي موسى.

قال الزبير بن بكار: كان ابن مطيع من كبار رجال قريش جلداً وشجاعة، وأخبرني عمي مصعب أنه كان على قريش أميراً يوم الحرة ثم قتل مع ابن الزبير بمكة وهو الذي يقول:

أنا الذي فررتُ يومَ الحَره والشيخُ لا يَفِرُّ غير مَره
ولأجبُرن كرةً بفرةْ

رحمه الله.

■ عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني صحابي جليل، شهد مؤته مع خالد بن الوليد والأمراء قبله، وشهد الفتح وكانت معه راية قومه يومئذ، وشهد فتح الشام، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث، وروى عنه جماعة من التابعين وأبو هريرة، وقد مات قبله.

وقال الواقدي وخليفة بن خياط [تاريخه: ٣٤٢/١] وأبو عبيد وغير واحد: توفي سنة ثلاث وسبعين بالشام.

■ أسماء بنت أبي بكرالصديق والدة عبد الله بن الزبير، يقال لها ذات النطاقين، وإنما سميت بذلك عام الهجرة حين شقت نطاقها فربطت به سفرة النبي ﷺ وأبي بكر حين خرجا إلى غار ثور للهجرة، وأمها قيلة وقيل قُتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي.

أسلمت أسماء قديماً وهم بمكة في أول الإسلام وهاجرت هي وزوجها الزبير وهي حامل متم بابنها عبد الله فوضعته بقباء أول مقدمهم المدينة، ثم ولدت للزبير بعد ذلك عروة والمنذر. وهي آخر المهاجرين والمهاجرات موتاً، وكانت هي وأختها عائشة وأبوها أبو بكر الصديق وجدها أبو عتيق وابنها عبد الله وزوجها الزبير صحابيين رضي الله عنهم، وقد شهدت اليرموك مع ابنها وزوجها، وهي أكبر من أختها عائشة بعشر سنين. وقيل: إن الحجاج دخل عليها بعد أن قتل ابنها فقال: يا أماه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة؟ فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم المصلوب على الثنية، وما لي من حاجة، ولكن أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا أراك إلا إياه. فقال: أنا مبير المنافقين، وقيل إن ابن عمر دخل معه عليها وابنها مصلوب فقال لها: إن هذا الجسد ليس بشيء وإنما الأرواح عند الله فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل! وقيل: إنها غسلته وحنطته وكفنته وطيبته وصلت عليه ثم دفنته، ثم ماتت بعده بأيام في آخر جمادى الآخرة. ثم لما كبرت طلّقها ابن الزبير، وقيل: بل قال له عبد الله ابنه: إن مثلي لا توطأ أمه، فطلقها الزبير، وقيل: بل اختصمت هي والزبير فجاء عبد الله ليصلح بينهما فقال الزبير: إن دخلت فهي طالق، فدخلت فبانت فالله أعلم.

وقد عمرت أسماء دهراً صالحاً وأضرت في آخر عمرها، وقيل بل كانت صحيحة البصر لم يسقط لها سن، وأدركت قتل ولدها في هذه السنة كما ذكرنا، ثم ماتت بعده بخمسة أيام، وقيل: بعشرة، وقيل: بعشرين، وقيل: ببضعة وعشرين يوما، وقيل: عاشت بعده مائة يوم وهو الأشهر، وبلغت من العمر مائة سنة، ولم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل رحمها الله ورضي عنها. وقد روت عن النبي ﷺ عدة أحاديث طيبة مباركة رضي الله عنها ورحمها.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٩٤/٦]: وفي هذه السنة ـ يعني سنة ثلاث وسبعين ـ عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وأضافها إلى أخيه بشر بن مروان مع الكوفة، فارتحل إليها بشر واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث.

وفيها غزا محمد بن مروان الصائفة فهزم الروم.

وقيل: إنه كان في هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية، وهو في أربعة آلاف، والروم في ستين ألفاً فهزمهم وأكثر القتل فيهم.

وأقام للناس الحج في هذه السنة الحجاج بن يوسف الثقفي وهو على مكة واليمن واليمامة، وعلى الكوفة والبصرة بشر بن مروان، في قول الواقدي. وفي قول غيره. وعلى الكوفة شريح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة. وعلى إمرة خراسان بكير بن وشاح، يعني الذي كان نائباً لعبد الله بن خازم والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان غير من تقدم ذكره مع ابن الزبير

■ عبد الله بن سعد بن خيثمة الأنصاري: له صحبه وشهد اليرموك، وكان كثير العبادة والغزو.

■ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي أبو محمد: له صحبة ورواية توفي بالمدينة.

■ مالك بن مسمع بن غسان البصري: كان شديد الاجتهاد في العبادة والزهادة.

■ ثابت بن الضحاك الأنصاري: له صحبة ورواية توفي بالمدينة، يقال له أبو زيد الأشهلي وهو من أهل البيعة تحت الشجرة.

قال يحيى بن أبي كثير: أخبرني أبو قلابة أن ثابت بن الضحاك أخبره أنه بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة وأن رسول الله ﷺ قال: «من قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله» [خ(٤١٧١، ٦٠٤٧)].

■ زينب بنت أبي سلمى المخزومية ربيبة النبي ﷺ ولدتها أمها بالحبشة، ولها رواية وصحبة.

■ توبة بن الحُمَيِّر وهو الذي يقال له مجنون ليلى، كان توبة يشنُّ الغاراتِ على بني الحارث بن كعب، فرأى ليلى فهواها وتهتك فيها وهام بها محبة وعشقا، وقال فيها الأشعار الكثيرة القوية الرائقة، التي لم يسبق إليها ولم يلحق فيها لكثرة ما فيها من المعاني والحكم، وقد قيل له مرة: هل كان بينك وبين ليلى ريبة قط؟ فقال: برئت من شفاعة محمد ﷺ إن كنت قط حللت سراويلي على محرم.

وقد دخلت ليلى على عبد الملك بن مروان تشكو ظُلامةً فقال لها: ماذا رأى منك توبة حتى عشقك هذا العشق كله؟! فقالت: والله يا أمير المؤمنين لم يكن بيني وبينه قط ريبة ولا خنا، وإنما العرب تعشق وتعف وتقول الأشعار في مَن تهوى وتحب مع العفة والصيانة لأنفسها عن الدناءات، فأزال ظلامتها وأجازها.

توفي توبة في هذه السنة وقيل إن ليلى جاءت إلى قبره فبكت حتى ماتت والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمرة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، فقدمها فأقام بها شهراً ثم خرج معتمراً ثم عاد إلى المدينة في صفر فأقام بها ثمانية أشهر، وبنى في بني سلمة مسجداً، وهو الذي ينسب إليه اليوم، ويقال إن الحجاج في هذه السنة وهذه المدة ختّم جابراً وسهل بن سعد وقرعهما لِمَ لا نصرا عثمان بن عفان، وخاطبهما خطابا غليظاً قبحه الله وأخزاه، وقد استقضى أبا إدريس الخولاني -أظنه- على اليمن.

وقال الواقدي: إن الحجاج لما قدم المدينة صعد منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس وقال: يا أهل خبيثة: -يعني طيبة-. أنتم شر أمة وأخس ولولا أن أمير المؤمنين أوصاني بكم لجعلتها مثل جوف حمار يا أهل خبيثة تمُّون هل تعوّذون إلا بأعواد يابسة - يعني المنبر - ورُمّة بالية، وأشار إلى قبر النبي ﷺ، ثم نزل وأرسل إلى سهل بن سعد الساعدي فقال: ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: قد فعلت. فقال: كذبت، ثم أمر به فختم في عنقه برصاص وكذلك فعل بجابر بن عبد الله ختمه في يده وأنس بن مالك في عنقه وكان قصدُه يذلهم بذلك فقال أنس: إن أهل الذمة لا يجوز أن يفعل بهم مثل هذا.

قال ابن جرير [تاريخ الطبري: ١٩٥/٦]: وفيها نقض الحجاج بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير بناه وأعادها على بنيانها الأول.

قلت: الحجاج لم ينقض بنيان الكعبة جميعه، بل إنما هدم الحائط الشامي حتى أخرج الحِجْرَ من البيت ثم سدَّه وأدخل في جوف الكعبة ما فضل من الأحجار، وبقيت الحيطان الثلاثة بحالها، ولهذا بقي البابان الشرقي والغربي وهما ملصقان بالأرض كما هو المشاهد إلى يومنا هذا، ولكن سد الغربي بالكلية وردم أسفل الشرقي حتى جعله مرتفعاً كما كان في الجاهلية، ولم يبلغ الحجاج وعبد الملك ما كان بلغ ابن الزبير من العلم النبوي الذي كانت أخبرته به خالته أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ كما تقدم ذلك من قوله: «لولا أن قومك حديث عهدهم بكفر - وفي رواية - بجاهلية- لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر، وجعلت لها باباً شرقيا وباباً غربياً، ولألصقتهما بالأرض، فإن قومك قصُرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم يتمموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا» [خ(١٥٨٤، ١٥٨٦)، م(١٣٣٣) اخرجاه باختلاف في بعض الفاظه]. فلما تمكن ابن الزبير بناها كذلك، ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال: وددنا أنّا تركناه وما تولى من ذلك.

وفي هذه السنة ولي المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج الأزارقة في جيوش من أهل البصرة والكوفة، ووجد بشر على المهلب في نفسه حيث عينه عبد الملك في كتابه، فلم يجد بُدّاً من طاعته في تأميره على الناس في هذه الغزوة، وما كان له من الأمر شيء، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الرحمن بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه، وأن لا يقبل له رأيا ولا مشورة، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل برامهرمز، فلم يلبث عليها إلا عشراً حتى جاء نعي بشر بن مروان، وأنه مات بالبصرة واستخلف عليها خالد بن عبد الله، فارفضّ بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا في آثارهم من يردهم، وكتب خالد بن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم، ويتوعدهم بسطوة عبد الملك، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حريث في المصير إلى الكوفة فكتب إليهم: إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين، فليس لكم إذن ولا إمام ولا أمان، فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحالهم فركبوها ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا مختفين بها حتى قدم الحجاج والياً على العراق مكان بشر بن مروان كما سيأتي بيانه قريباً.

وفي هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح التميمي عن إمرة خراسان وولاها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد القرشي ليجتمع عليه الناس فإنه قد كادت الفتنة تتفاقم بخراسان بعد عبد الله بن خازم، فلما قدم أمية بن عبد الله خراسان عرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى وطلب منه أن يوليه طخارستان فخوفوه منه أن يخلعه هنالك فتركه مقيماً عنده.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٠١/٦]: وحج بالناس فيها الحجاج وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن واليمامة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٠١/٦]: وقد قيل: إن عبد الملك اعتمر في هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ رافع بن خديج بن رافع الأنصاري، صحابي جليل شهد أحداً وما بعدها، وشهد صفين مع علي وكان يتعانى المزارع والفلاحة، توفي وهو ابن ست وثمانين سنة، وأسند ثمانية وسبعين حديثا وله أحاديث جيدة. وقد أصابه يوم أحد سهم في ترقوته فخيّره رسول الله ﷺ بين أن ينزعه منه وبين أن يترك فيه القطنة ويشهد له يوم القيامة، فاختار هذا، وانتقض عليه في هذه السنة فمات منه. رضي الله عنه

■ أبو سعيد الخدري، سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل من فقهاء الصحابة استصغر يوم أحد. ثم كان أول مشاهده الخندق، وشهد مع رسول الله ﷺ ثنتي عشرة غزوة وروى عنه أحاديث كثيرة، وعن جماعة من الصحابة، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة، كان من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم رضي الله عنهم.

قال الواقدي وغيره: مات سنة أربع وسبعين.

وقيل: قبلها بعشر سنين فالله أعلم.

قال الطبراني [المعجم الأوسط (٩٠٤٣)]: حدثنا المقدام بن داود حدثنا خالد بن نزار حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري. قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «النبيون» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا السترة» - وفي رواية:- «إلا العباءة - أو نحوها، وإن أحدهم ليبتلى فَيَقْبلُ حتى يَنبذَ القملَ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء». وقال قتيبة بن سعيد: حدثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري: أن أهله شكوا إليه الحاجة فخرج إلى رسول الله ﷺ يسأل لهم شيئا، فوافقه على المنبر وهو يقول: «أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة فإنه من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، والذي نفس محمد بيده ما رزق الله عبدا من رزق أوسع له من الصبر، ولئن أبيتم إلا أن تسألوني لأعطينكم ما وجدت». وقد رواه الطبراني عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد نحوه.

■ عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أبو عبد الرحمن المكي ثم المدني أسلم قديما مع أبيه ولم يبلغ الحلم وهاجر وعمره عشر سنين، وقد استصغر يوم أحد، وكان ابن أربع عشرة فلما كان يوم الخندق أجازه وهو ابن خمس عشرة سنة فشهدها وما بعدها، وهو شقيق حفصة أم المؤمنين، أمهما زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون.

وكان عبد الله بن عمر ربعة من الرجال آدم له جمة تضرب إلى منكبيه جسيماً يخضب بالصفرة ويحفي شاربه، وكان يتوضأ لكل صلاة ويدخل الماء في أصول عينيه، وقد أراده عثمان على القضاء فأبى، وكذلك أبوه.

وشهد اليرموك والقادسية وجلولاء وما بينهما من وقائع الفرس، وشهد فتح مصر، واختط بها داراً، وقدم البصرة وشهد غزو فارس وورد المدائن مراراً وكان عمره يوم مات النبي ﷺ ثنتين وعشرين سنة، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تقرّب به إلى الله عز وجل، وكان عبيده قد عرفوا ذلك منه، فربما لزم أحدهم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه، فيقال له: إنهم يخدعونك، فيقول: من خدعنا في الله انخدعنا له.

وكان له جارية يحبها كثيراً فأعتقها وزوجها لمولاه نافع، وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وكان له نجيب اشتراه بمال فأعجبه لما ركبه فقال: يا نافع أدخله في إبل الصدقة.

وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف دينار فقيل له: ما تنتظر ببيعه فقال: ما هو خير من ذلك؟ هو حر لوجه الله.

واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفا وأعتقه فقال الغلام يا مولاي قد أعتقتني فهب لي شيئا أعيش به فأعطاه أربعين ألفا.

واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال: لمن صليتم هذه الصلاة؟ فقالوا: لله، فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له، فأعتقهم.

والمقصود أنه ما مات حتى أعتق ألف رقبة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا، وكانت تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحماً وما كان يأكل طعاماً إلا وعلى مائدته يتيم.

وبعث إليه معاوية بمائة ألف لما أراد أن يبايع ليزيد، فما حال عليها الحول وعنده منها شيء، وكان يقول: إني لا أسأل أحداً شيئاً، وما رزقني الله فلا أرده.

وكان في مدة الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله، وكان أعلم الناس بمناسك الحج، وكان يتتبع آثار رسول الله ﷺ كلّ مكان صلّى فيه أو قعد فيه، حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها ويصب في أصلها الماء حتى لا تيبس.

وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا الليل تلك الليلة، وكان يقوم أكثر الليل، وقيل: إنه مات وهو في الفضل مثل أبيه، وكان يوم مات خير من بقي، ومكث ستين سنة يفتي الناس من سائر البلاد.

وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وروى عن الصديق وعن عمر وعثمان وسعد وابن مسعود وحفصة وعائشة أم المؤمنين وغيرهم، وعنه خلق من التابعين منهم بنوه حمزة وبلال وزيد وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر -إن كان محفوظاً-، وأسلم -مولى أبيه- وأنس بن سيرين والحسن وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وطاووس وعروة وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن سيرين والزهري ومولاه نافع.

وثبت في الصحيح [خ(٧٠٢٩)] عن حفصة أن رسول الله ﷺ قال: «إن عبد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل»، فكان بعد يقوم الليل.

وقال ابن مسعود: إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا ابن عمر.

قال جابر: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها، إلا ابن عمر، وما أصاب أحد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريما.

وقال سعيد بن المسيب: مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحد احب ان ألقي الله بمثل عمله منه.

وقال الزهري: لا يعدل برأيه فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة، فلم يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه رضي الله عنهم.

وقال مالك: عاش ستاً وثمانين سنة وأفتى في الإسلام ستين سنة، يقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض.

قال الواقدي وجماعة: توفي ابن عمر سنة أربع وسبعين.

وقال الزبير بين بكار وآخرون: توفي سنة ثلاث وسبعين والأول أثبت والله تعالى أعلم.

وقال ابن سعد لما قتل عثمان واستخلف علي أتاه ابن عمر قال له علي: أنت محبوب إلى الناس فسر إلى الشام فقد وليتكها. فقال: اذكر الله وقرابتي وصحبتي لرسول الله والرحم إلا ما وليت غيري وأعفيتني فأبى عليه فاستعان بحفصة أخته فكلمته ثم سار من ليله إلى مكة هاربا منه.

وقيل: إن مروان قال لابن عمر: ألا تخرج إلى الشام فيبايعوك؟ قال: فكيف أصنع بأهل العراق؟ قال: تقاتلهم بأهل الشام فقال: والله ما يسرُّني أن لي ملك الأرض وأن الناس كلهم بايعوني وقد قتل منهم رجل واحد وما احب انها أتتني ورجل يقول: لا وآخر: نعم.

وقيل: إنه دخل عليه الحجاج وهو مريض فغمّض عينيه فكلمه فلم يجبه.

توفي بمكة بعد منصرف الناس من الحج في آخر السنة وعمره أربع وثمانون سنة ودفن بالمحصب وهو آخر من مات من الصحابة بمكة.

وكان له من الولد أبو بكر وأبو عبيدة وواقد وعبد الله وعمر وحفصة وسودة أمهم صفية بنت أبي عبيد أخت المختار وعبد الرحمن وسالم وعبيد الله وحمزة وأمهم أم ولد وزيد وعائشة لأم ولد.

وأسند ألفين وستمائة وثلاثين حديثاً.

■ عبيد بن عمير بن قتادة بن سعد بن عامر بن جندع بن ليث، الليثي ثم الجندعي، أبو عاصم المكي قاضي أهل مكة.

قال مسلم بن الحجاج: ولد في حياة النبي ﷺ، وقال غيره: ورآه أيضاً.

وروى عن أبيه، له صحبة وعن عمر وعلي وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو وأم سلمة وغيرهم.

وعنه جماعة من التابعين وغيرهم، ووثقه ابن معين وأبو زرعة وغير واحد.

وكان ابن عمر يجلس في حلقته ويبكي وكان يعجبه تذكيره، وكان بليغا، وكان يبكي حتى يبل الحصى بدموعه.

قال مهدي بن ميمون عن غيلان بن جرير قال: كان عبيد بن عمير إذا آخى أحداً في الله استقبل به القبلة فقال: اللّهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك، واجعل محمداً شهيداً علينا بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنى غير متطاول علينا الأمد، ولا قاسية قلوبنا ولا قائلين ما ليس لنا بحق، ولا سائلين ما ليس لنا به علم.

وحكى البخاري [التاريخ الكبير: ٤٥٥/٥] عن ابن جريج أن عبيد بن

عمير مات قبل ابن عمر رضي الله عنه.

■ **أبو جحيفة:** وهب بن عبد الله السوائي، صحابي رأى النبي ﷺ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبي ﷺ لكن روى عنه عدة أحاديث، وعن علي والبراء بن عازب، وعنه جماعة من التابعين، منهم إسماعيل بن أبي خالد، والحكم وسلمة بن كهيل والشعبي وأبو إسحاق السبيعي. وكان قد نزل الكوفة وابتنى بها داراً وتوفي في هذه السنة، وقيل في سنة أربع وتسعين فالله أعلم.

وكان صاحب شرطة علي، وكان علي إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره.

■ **سلمة بن الأكوع** بن عمرو بن سنان الأنصاري وهو أحد من بايع تحت الشجرة، وكان من فرسان الصحابة وعلمائهم، كان يفتي بالمدينة، وله مشاهد معروفة في حياة النبي ﷺ وبعده، توفي بالمدينة وقد جاوز السبعين سنة.

■ **مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني** وهو جد الإمام مالك بن أنس، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم وكان فاضلا عالما، توفي بالمدينة.

■ **أبو عبد الرحمن السلمي:** مقرئ أهل الكوفة بلا مدافعة واسمه عبد الله بن حبيب، قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود، وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج، قرأ عليه عاصم بن أبي النجود وخلق غيره، توفي بالكوفة.

■ **أبو معرض الأسدي:** اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه، وله شعر جيد، ويعرف بالأقيشر، وكان أحمر الوجه كثير الشعر، توفي بالكوفة في هذه السنة، وقد قارب الثمانين سنة.

■ **بشر بن مروان الأموي** أخو عبد الملك بن مروان، ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الملك، وله دار بدمشق عند عقبة الكتّان، وكان سمحاً جواداً، وإليه ينسب دير مروان عن حجيرا، وهو الذي قتل خالد بن حصين الكلابي يوم مرج راهط، وكان لا يغلق دونه الأبواب ويقول: إنما تحتجب النساء، وكان طليق الوجه، وكان يجيز على الشعر بالألوف، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل. والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل فيما مدح به بشر بن مروان، وهو قوله:

قد استوى بِشرٌ عَلَى العِرَاق ... من غَير سَيف ودَم مُهرَاق

وليس فيه دليل، فإن هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة، وقد كان الأخطل نصرانيا.

وكان سبب موت بشر أنه وقعت القرحة في يمينه فقيل له نقطعها من المفصل فجزع فما أمسى حتى خالطت الكتف، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات، ولما احتضر جعل يبكي ويقول: والله لوددت أني كنت عبداً أرعى الغنم في البادية لبعض الأعراب ولم أل ما وليت. فذكر قوله لأبي حازم - أو لسعيد بن المسيب - فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يفرون إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم، إنا لنرى فيهم عبراً.

وقال الحسن: دخلت عليه فإذا هو يتململ على سريره ثم نزل عنه إلى صحن الدار، والأطباء حوله.

مات بالبصرة في هذه السنة وهو أول أمير مات بها. ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه وأمر الشعراء أن يرثوه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار - صائفة الروم حين خرجوا من عند مرعش.

وفيها ولي عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبي العاص، وهو عمه، وعزل عنها الحجاج.

وفيها ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار، وذلك بعد موت أخيه بشر بن مروان، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج لسطوته وقهره وقسوته وشهامته، فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق، فسار من المدينة إلى العراق في اثني عشر راكبا على النجائب، فنزل قريب الكوفة فاغتسل واختضب ولبس ثيابه وتقلد سيفه وألقى عذبة العمامة بين كتفيه، ثم سار فنزل دار الإمارة، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول، فخرج عليهم وهم لا يعلمون، فصعد المنبر وجلس عليه وأمسك عن الكلام طويلاً، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجثوا على الركب وتناولوا الحصباء ليقذفوه بها، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله، فلما سكت أبهتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه، فكان أول ما تكلم به أنه قال:

يا أهل العراق يا أهل الشقاق ويا أهل النفاق، ومساوئ الأخلاق، والله إن كان أمركم ليهمني قبل أن آتيَ إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي فأجاب دعوتي، إلاّ أنّي سرت البارحة فسقط مني سوطي الذي أؤذيكم به، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - ثم قال: والله لأجُرَّنَّه فيكم جرَّ المرأة ذيلَها، لأفعلنَّ بكم ولأصعنَّ فلما سمعوا كلامه جعل الحصى يتساقط من أيديهم، وقيل: إنه دخل الكوفة على حين غفلة من أهلها في شهر رمضان من هذه السنة ظهراً فأتى المسجد وصعد المنبر وهو معتجر بعمامة حمراء متلثم بطرفها، ثم قال: علي بالناس! فحسبه الناس وأصحابه من الخوارج فهمُّوا به حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جَلاً وطلاَّع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال: أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وآن قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى.

شمرت عن ساقها فشمري

ثم أنشد أيضاً:

هذا أوان الشدّ فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسوّاق حُطَمْ
لست براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضَمْ
قد لفّها الليلِ بَعصَلْبيٍّ ... أروعَ خرّاج من الدّويّْ
مهاجرٍ ليس بأعرابي

ثم قال: إني والله يا أهل العراق ما أغمز بغماز، ولا يقعقع لي بالشنان، ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مغمزاً فوجهني إليكم، فإنكم طالما أوضعتم في أودية الفتن، وسننتم سنن الغي، واخترتم جدد الضلال، أما والله لألحونكم لحي العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب

غرائب الإبل، إني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أحلق إلا فريت، فإياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً، والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده.

ثم قال: من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب - يعني الذين كانوا قد رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر بن مروان كما تقدم - سفكت دمه وانتهبت ماله. ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك.

ويقال: إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته أطال السكوت حتى إن محمد بن عمير أخذ كفاً من حصىً وأراد أن يحصبه بها، وقال: قبحه الله ما أعياه وأذمه! فلما نهض الحجاج وتكلّم بما تكلم به جعل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشعر به، لما يرى من فصاحته وبلاغته.

ويقال: إن الحجاج قال في خطبته هذه: شاهت الوجوه إن الله ضرب مثلا ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] وأنتم أولئك فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تَدِرُّوا، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تنقادوا، وأقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعن الإرجاف وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والخبر وما الخبر، أو لأهبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامى والأولاد يتامى، حتى تمشوا السُّمَّهَى وتقلعوا عن ها وها. في كلام طويل بليغ غريب مشتمل على وعيد شديد ليس فيه وعد بخير.

فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيراً في السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إني سمعت تكبيراً في الأسواق ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب، ولكنه تكبير يراد به الترهيب، وقد عصفت عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء والأيامى، ألا يربع كل رجل منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه، وأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدباً لما بعدها.

قال: فقام إليه عمير بن ضابئ التميمي ثم الحنظلي فقال: أصلح الله الأمير أنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل، وهذا ابني وهو أشب مني. قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابئ التميمي، قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم! قال: ألست الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى. قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كان حبس أبي وكان شيخا كبيراً، قال: أو ليس هو الذي هو يقول:

هممتُ ولم أفعل وكدت وليتني فعلت وولّيت البكاء حلائله

ثم قال الحجاج: إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصرين، ثم قال: قم إليه يا حرسي فاضرب عنقه، فقام إليه رجل فضرب عنقه وانتهب ماله، وأمر مناديا فنادى في الناس: ألا إن عمير بن ضابئ تأخر بعد سماع النداء. ثلاثا فأُمر بقتله.

قال: فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه في ساعة واحدة أربعة آلاف من مذحج، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى المهلب، وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه، فقال المهلب: قدم العراق والله رجل ذَكَر اليوم قوتل العدو.

ويروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابئ حتى قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير! إن هذا جاء إلى عثمان رضي الله عنه وقد قتل فلطم وجهه. فأمر الحجاج عند ذلك بقتله.

وبعث الحجاج الحكم بن أيوب الثقفي نائبا على البصرة من جهته، وأمره أن يشتد على خالد بن عبد الله، وأقر على قضاء الكوفة شريحا ثم ركب الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة أبا يعفور، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى، ثم عاد إلى الكوفة.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الملك بن مروان، وأقر عمه يحيى على نيابة المدينة، وعلى بلاد خراسان أمية بن عبد الله.

وفي هذه السنة وثب الناس بالبصرة على الحجاج، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عمير بن ضابئ، وقام في أهل البصرة بخطبة نظير ما قام في أهل الكوفة من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، ثم أتي برجل من بني يشكر فقيل: هذا عاص، فقال الرجل: إن بي فتقا وقد عذرني الله وعذرني بشر بن مروان، وهذا عطائي مردود على بيت المال، فلم يقبل منه وأمر بقتله فقتل، ففزع أهل البصرة وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رامهرمز، وعليهم عبد الله بن الجارود، وخرج إليهم الحجاج - وذلك في شعبان من هذه السنة - في أمراء الجيش من المصرين فاقتتلوا هناك قتالا شديداً، فهزمهم الحجاج وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رؤوس من القبائل معه، وأمر برؤوسهم فنُصبت عند الجسر من رامهرمز، ثم بعث بها إلى المهلب فقوي بذلك وضعف أمر الخوارج، وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف فأمرهما بمناهضة الأزارقة، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال، فهربوا إلى أرض كازرون من أقليم سابور، وسار الناس وراءهم فالتقوا في العشر الأواخر من رمضان.

فلما كان الليل بيت الخوارج المهلب من الليل فوجدوه قد تحصن بخندق حول معسكره، فجاؤوا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز - وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل - فاقتتلوا في الليل فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه وهزموهم هزيمة منكرة، ويقال: إن الخوارج لما التقوا مع الناس في هذه الوقعة كان ذلك في يوم الأربعاء لعشر بقين من رمضان، فاقتتلوا قتالا شديداً لم يعهد مثله من الخوارج، وحملت الخوارج على جيش المهلب فاضطروه إلى معسكره، فجعل عبد الرحمن بن مخنف يمده بالخيل بعد الخيل، والرجال بعد الرجال، فمالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بن مخنف بعد العصر فاقتتلوا معه إلى الليل، فقتل عبد الرحمن في أثناء الليل، وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه، فلما كان الصباح جاء المهلب فصلى عليه ودفنه وكتب إلى الحجاج بمهلكه، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزيه فيه فنعاه عبد الملك إلى الناس بمنى، وأمّر الحجاج مكانه عتاب بن ورقاء، وكتب إليه أن يطيع المهلب، فكره ذلك ولم يجد بداً من طاعة الحجاج، ولم يمكنه مخالفته، فسار إلى المهلب فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً ويعصيه سراً، ثم تقاولا فهمّ المهلب أن يوقع بعتاب ثم حجز بينهما الناس، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب فكتب إليه أن يقدم عليه وأعفاه من ذلك وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب.

وفيها خرج داود بن النعمان المازني بنواحي البصرة، فوجه إليه الحجاج أميراً على سرية فقتله.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦/٢١٥]: وفي هذه السنة تحرك صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس، وكان يرى رأي الصُّفرية، وقيل: إنه أول من خرج من الصفرية، وكان سبب ذلك أنه كان حج بالناس في هذه السنة ومعه شبيب بن يزيد، والبطين وأشباههم من رؤوس الخوارج، واتفق حج أمير

المؤمنين عبد الملك فهمَّ شبيب بالفتك به، فبلغ عبد الملك ذلك من خبره فكتب إلى الحجاج أن يتطلبهم، وكان صالح بن مسرح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والإقامة بها، وكان له جماعة، من أهل دارا وأهل الموصل، يعلمهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم وكان مصفراً كثير العبادة، وكان إذا قص يحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسول الله ﷺ، ثم يأمر بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويحث على ذكر الموت، ثم يترحَّم على الشيخين أبي بكر وعمر، ويثني عليهما ثناء حسناً، ولكن بعد ذلك يذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه فيسبه وينال منه وينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا عليه وقتلوه من فجرة أهل الأمصار، ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والإنكار المنكر، الذي قد شاع في الناس وذاع، ويهون عليهم القتل، ويذم الدنيا وأمرها ويُصغِّرها فالتفَّ عليه جماعة من الناس، وكتب إليه شبيب بن يزيد الحارثي يستبطئه في الخروج ويحثه عليه ويندبه إليه، ثم قدم شبيب على صالح وهو بدارا فتواعدوا وتوافقوا على الخروج في مستهل صفر من هذه السنة الآتية ـ وهي سنة ست وسبعين ـ وقدم على صالح شبيبٌ وأخوه مصادٌ والمحلل والفضل بن عامر، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بدارا نحو مائة وعشرة أنفس، ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان فأخذوها وتقوَّوْا بها ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما سنذكره في التي بعدها إن شاء الله تعالى.

وكان ممن توفي في هذه السنة

في قول أبي مسهر وأبي عبيد:

■ **العرباض بن سارية السلمي أبو نجيح** سكن حمص وهو صحابي جليل، أسلم قديما هو وعمرو بن عَبَسة رضي الله عنهما ونزل الصُّفة، وكان من البكائين المذكورين في سورة براءة كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله تعالى: ﴿ولا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قلتَ لا ما أحملكم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ [التوبة: ٩٢]. وهو راوي حديث «خطبنا رسول الله ﷺ خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون» حتى قُلْنَا: يا رسولَ اللّهِ، كأنَّها موعظةُ مودِّعٍ [٨٥/٧ب] فأوْصِنا. قال: «أُوصيكم بتقوَى اللهِ والسَّمعِ والطاعةِ، وإنْ تأمَّرَ عليكم عبدٌ حَبَشيٌّ كأنَّ رأسَه زبيبةٌ، عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين مِن بعدِي، عَضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيَّاكم ومحدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ محدَثةٍ بدعةٌ».

ورواه أحمد [١٢٦/٤، ١٢٧] وأهل السنن [د(٤٦٠٧)، ت(٢٦٧٦)، جه(٤٢)] وصححه الترمذي وغيره.

وروى أيضاً أن النبي ﷺ «كان يصلي على الصف المقدم ثلاثا وعلى الثاني واحدة» [المسند: ١٢٦/٤، ١٢٧]

وقد كان العرباض شيخاً كبيراً، وكان يحب أن يقبضه الله إليه، وكان يدعو: اللّهم كبرت سني ووهن عظمي فاقبضني إليك. وروى أحاديث.

■ **أبو ثعلبة الخشني**: صحابي جليل شهد بيعة الرضوان وغزا حنيناً وكان ممن نزل الشام بداريا غربي دمشق إلى جهة القبلة، وقيل ببلاط قرية شرقي دمشق فالله أعلم.

وقد اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة، والأشهر منها جرثوم بن ناشر.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث وعن جماعة من الصحابة، وعنه جماعة من التابعين، منهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامي وأبو إدريس الخولاني، وأبو قلابة الجرمي.

وكان ممن يجالس كعب الأحبار، وكان في كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ثم يرجع فيسجد لله عز وجل، وكان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني الله عند الموت كما أراكم تختنقون، فبينما هو ليلة يصلي من الليل إذ قبضت روحه وهو ساجد. ورأت ابنته في المنام كأن أباها قد مات فانتبهت مذعورة فقالت لأمها: أين أبي؟ قالت: هو في مصلاه، فنادته فلم يجبها، فجاءته فحركته فسقط لجنبه فإذا هو ميت رحمه الله.

قال أبو عبيد ومحمد بن سعد [الطبقات: ٤١٦/٧] وخليفة [تاريخه: ٢٨٧] وغير واحد: كانت وفاته سنة خمس وسبعين.

وقال غيرهم: كانت وفاته في أول إمرة معاوية فالله أعلم.

وقد توفي في هذه السنة.

■ **الأسود بن يزيد**: صاحب ابن مسعود، وهو الأسود بن يزيد النخعي من كبار التابعين، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود، ومن كبار أهل الكوفة، وكان يصوم الدهر، وقد ذهبت عينه من كثرة الصوم، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرةً: وكان يهل من الكوفة، توفي في هذه السنة، وكان يصوم حتى يخضر ويصفر، فلما احتضر بكى فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: مالي لا أجزع؟ ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهمَّني الحياء منه مما قد صنعت إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيياً منه.

■ **حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان**: كان من سبي عين التمر اشتراه عثمان، وهو الذي كان يأذن للناس على عثمان. توفي في هذه السنة والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وسبعين

وكان في أولها في مستهل صفر منها ليلة الأربعاء اجتماع صالح بن مسرح أمير الصفرية، وشبيب بن يزيد أحد شجعان الخوارج، فقام فيهم صالح بن مسرح فأمرهم بتقوى الله وحثهم على الجهاد، وأن لا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى الدخول معهم.

ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة لأخيه عبد الملك فأخذوها فتقووا بها، وأقاموا بأرض دارا ثلاثة عشرة ليلة، وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدي بن عدي بن عميرة، ثم زاده خمسمائة أخرى فسار في ألف من حران إليهم، وكأنما يُساق إلى الموت وهو ينظر، لما يعلم من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم، فلما التقى مع الخوارج هزموه هزيمة شنيعة بالغة. واحتووا على ما في معسكره ورجع فلهم إلى محمد بن مروان، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن جزء السلمي، وقال لهما: أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس، فساروا إليهم في ثلاثة آلاف مقاتل، والخوارج في نحو من مائة نفس وعشرة أنفس فلما انتهوا إلى آمد توجه صالح إلى خالد بن جزء في شطر الناس، ووجه شبيباً في الباقي إلى الحارث بن جعونة في الباقين، فاقتتل الناس في هذا اليوم قتالا شديداً إلى الليل، فلما كان المساء انكف كل من الفريقين عن الآخر، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين، وهربت الخوارج في الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا في أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا

الدسكرة، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلا. فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس، فهو في كردوس، وشبيب عن يمينه في كردوس، وسويد بن سليمان عن يساره في كردوس، وحمل عليهم الحارث بن عميرة، وعلى ميمنته أبو الرواع الشاكري وعلى ميسرته الزبير بن الأروح التميمي، فصبرت الخوارج على قلتهم صبراً شديداً، ثم انكشف سويد بن سليمان، ثم قتل صالح بن مسرح أميرهم وصرع شبيب عن فرسه فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك، وقد بقي منهم سبعون رجلا، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً، فما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج من الباب على الصعب والذلول فبيتوا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الناس سراعا إلى المدائن، واحتاز شبيب وأصحابه ما في معسكرهم، فكان جيش الحارث بن عميرة أول جيش هزمه شبيب، وكان مقتل صالح بن مسرح في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفيها دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته غزالة، وذلك أن شبيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسرح، واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك، ثم سار فحاصر المدائن فلم ينل منها شيئا، فسار فأخذ دواب للحجّاج من كلواذا، ومن عزمه أن يبيت أهل المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة، فلما وصل فلهم إلى الحجاج جهز جيشا أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب، فمروا على المدائن ثم ساروا في طلب شبيب فجعل شبيب يسير بين أيديهم قليلا قليلا وهو يريهم أنه خائف منهم، ثم يكر في كل وقت على المقدمة فيكسرها وينهب ما فيها، ولا يواجه أحداً إلا هزمه، والحجاج يلح في طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد وشبيب لا يبالي بأحد وإن ما معه مائة وستون فارسا، وهذا من أعجب العجب، ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها، فخرج الجيش بكماله إلى السبخة لقتاله، وبلغه ذلك فلم يبال بهم وانزعج الناس وخافوا منه وفرقوا، وهموا أن يدخلوا الكوفة خوفاً منه فيتحصنوا فيها منه، حتى قيل لهم: إن سويد بن عبد الرحمن في آثارهم وقد اقترب منهم، وشبيب نازل بالكوفةبالدير ليس عنده خبر منهم ولا خوف، وقد أمر بطعام وشواء أن يصنع له فقيل له: قد جاءك الجند فادرك نفسك، فجعل لا يلتفت إلى ذلك ولايكترث لذلك ويقول للدهقان الذي يصنع له الطعام: عجل به، فلما استوى أكله ثم توض وصلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة، ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال: أسرجوا لي البغلة، فقال له أخوه مصاد: أفي هذا اليوم تركب البغلة وقد أحاط بك الأعداء من كل جانب قال: نعم فركبها ثم فتح باب الدير الذي هو فيه وخرج وهو يقول: أنا أبو المدلّه لا حكم إلا للّه، وتقدم إلى أمير الجيش الذين تقدموا إليه فضربه بالعمود الحديد فقتله، وهو سعيد بن المجالد، وحمل على الجيش الأخر الكثيف فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجؤوا إلى الكوفة، ومضى شبيب إلى الكوفة حتى أغار على أسفل الفرات، وقتل جماعة هنالك، وخرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها، فأعلم الدهاقين عروة بن المغيرة بذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فاسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبقه الحجاج إليها فدخلها العصر، ووصل شبيب إلى المربد عند الغروب فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الإمارة فضرب بابه بعمود في يده فأثرت ضربته في الباب، فكانت تعرف بعد ذلك، يقال هذه ضربة شبيب، وسلك في طرق المدينة وتقصد محال القبائل، وقتل رجالا من رؤساء أهل الكوفة وأشرافهم، منهم أبو سليم والد ليث ابن أبي سليم، وعدي بن عمرو، وأزهر بن عبد اللّه العامري، في طائفة كثيرة من أهل الكوفة، وكان مع شبيب امرأته غزالة، وكانت معروفة بالشجاعة، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تذم بني مروان.

ونادى الحجاج في الناس: يا خيل اللّه اركبي وأبشري، فخرج شبيب من الكوفة فجهز الحجاج في إثره ستة آلاف مقاتل، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينعس ويهز رأسه، وفي أوقات كثيرة يكر عليهم شبيب فيقتل منهم جماعة، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً، وقتل جماعة من الأمراء منهم زائدة بن قدامة، قتله شبيب، وهو ابن عم المختار، فوجه الحجاج مكانه لحربه عبد الرحمن بن الأشعث، فلم يقابل شبيباً ورجع، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثي، فالتقوا في أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس، فمن أعيانهم عقيل بن شداد السلولي، وخالد بن نهيك الكندي، والأسود بن ربيعة.

واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً، فبعث له جيشاً من أهل الشام فقدموا في السنة الآتية، وإن ما مع شبيب شرذمة قليلة، وقد ملأ قلوب الناس رعباً وجرت خطوب كثيرة له معهم، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلت هذه السنة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٥٦/٦]: وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير وهو أول من نقشها.

وقال الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» [ص١٣٩]: اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام فقال سعيد بن المسيب: أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان، وكانت الدنانير رومية والدراهم كسروية.

قال أبو الزناد: وكان ذلك سنة أربع وسبعين.

وقال المدائني: خمس وسبعين، وضربت في الآفاق سنة ستة وسبعين.

وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها (اللّه أحد)، وعلى الوجه الآخر (اللّه الصمد).

قال: وحكى يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد اللّه بن الزبير، سنة سبعين على ضرب الأكاسرة، وعليها (الملك بركة) من جانب، و(للّه) من جانب، ثم غيرها الحجاج وكتب اسمه عليها من جانب، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبد اللّه القسري في أيام هشام، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم، ولهذا كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيرية والخالدية واليوسفية.

وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة منها الدرهم البغلي، وكان منها ثمانية دوانق، والطبري وكان أربعة دوانق، والمصري ثلاثة دوانق واليمني دانقاً، فجمع عمر بن الخطاب بين البغلي والطبري ثم أخذ نصفهما فجعله الدرهم الشرعي وهو نصف مثقال وخمس مثقال. وذكروا أن المثقال لم

يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام، وفي هذا نظر والله أعلم.

وفيها ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو مروان.

وفيها ولّى عبد الملك بن مروان نيابة المدينة لأبان بن عثمان، وعزل عنها يحيى بن مروان عمّه، واستدعاه إلى الشام.

الحمار آخر من ولي الخلافة من بني أمية بالشام، ومنه أخذها بنو العباس.

وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة وعلى إمرة العراق الحجاج وعلى خراسان أمية بن عبد الله والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو عثمان النهدي القضاعي اسمه عبد الرحمن بن مُلّ، أسلم على عهد النبي ﷺ وغزا جلولاء والقادسية وتستر، ونهاوند، وأذربيجان وغيرها، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً يصوم النهار ويقوم الليل، توفي وعمره مائة وثلاثون سنة بالكوفة.

■ صلة بن أشيم العدوي: من كبار التابعين من أهل البصرة، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد، كنيته أبو الصبهاء كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبواً، وله مناقب كثيرة جداً، منها أنه كان يمر عليه شباب يلهون ويلعبون فيقول: أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فحادوا في النهار عن الطريق وناموا الليل فمتى يقطعون سفرهم؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة، فقال شاب منهم: والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا، نحن بالنهار نلهو، وبالليل نتام. ثم تبع صلة فلم يزل يتعبد معه حتى مات.

ومر عليه فتى يجر ثوبه فهمّ أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم فقال: دعوني أكفكم أمره، ثم دعاه فقال: يا ابن أخي لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال: أن ترفع إزارك، قال: نعم، ونعَمتْ عينٌ، فرفع إزاره، فقال صلة: هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه لشتمكم.

ومنها ما حكاه جعفر بن زيد قال: خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فقلت: لأرمقن عمله الليلة، فدخل غيضة ودخلت في أثره فقام يصلي وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا في شجرة، قال: فتُراه التفت أو عدّه جرْواً حتى سجد فقلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم فقال: أيها السبع إنْ كنت أمرت بشيء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر، فولى الأسد وإن له لزئيراً تصدع منه الجبال، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال: اللّهم إني أسالك أن تجيرني من النار، أوَ مثلي يجترئ أن يسالك الجنة، ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عليم.

قال: وذهبت بغلته بثقلها فقال: اللّهم إني أسالك أن ترد عليَّ بغلتي بثقلها، فجاءت حتى قامت بين يديه، قال: فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعا بهم طعناً وضرباً، فقال العدو: رجلان من العرب صنعا بنا هذا فكيف لو قاتلونا كلهم؟ أعطوا المسلمين حاجتهم ـ يعني انزلوا على حكمهم.

وقال صلة: جعت مرة في غزاة جوعا شديداً فبينما أنا أسير أدعو ربي وأستطعمه إذ سمعت وجبة من خلفي فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض فإذا فيه دوخلة ملآنة رطباً فأكلت منه حتى شبعت، وأدركني المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث فاستطعمني من الرطب فأطعمته، ثم إني مررت على ذلك الراهب بعد زمان فإذا نخلات حسان فقال: إنهن لمن الرطبات التي أطعمتني. وجاء بذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس.

ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصليفقامت تصلى معه، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح، قال: فأتيته فقلت له: أي عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلي وتركتها!اقال: إنك أدخلتني بيتاً أول النهار أذكرتني به النار، وادخلتني بيتاً آخر النهار أذكرتني به الجنة، فلم تزل فكرتي فيهما حتى أصبحت.البيت الذي أذكره به النار هو الحمام، والبيت الذي أذكره به الجنة هو بيت العروس.

وقال له رجل: ادع الله لي، فقال: رغَّبك الله فيما يبقى، وزهدك فيما يفنى، ورزقك اليقين الذي لا يركن إلا إليه، ولا تعوّل في الدين إلا عليه.

وكان صلة في غزاة ومعه ابنه فقال له: أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم صلة فقاتل حتى قتل، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت: إن كنتن جئتن لتُهَنِّئنني فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

توفي صلة في غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس في هذه السنة.

■ زهير بن قيس البلوي: شهد فتح مصر وسكنها، له صحبة، قتلته الروم ببرقة من بلاد المغرب، وذلك أن الصريخ أتى الحاكم بمصر وهو عبد العزيز بن مروان أن الروم نزلوا برقة، فأمره بالنهوض إليهم، فساق زهير ومعه أربعون نفساً فوجد الروم فأراد أن يكف عن القتال حتى يلحقه العسكر، فقالوا: يا أبا شداد احمل بنا عليهم، فحملوا فقتلوا جميعاً.

■ المنذر بن الجارود مات في هذه السنة، تولى بيت المال ووفد على معاوية والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً، وانضاف إليهم عشرة آلاف، فصاروا خمسين ألفاً، وأمر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد لشبيب بن يزيد وأن يصمم عليه وعلى من معه -وكانوا قد تجمعوا ألف رجل ـ وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة.

ولما بلغ شبيباً ما بعث به الحجاج إليه من الجنود، لم يعبأ بهم شيئاً، بل قام في أصحابه خطيباً فوعظهم وذكرهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء.

سار شبيب بأصحابه نحو عتاب بن ورقاء، فالتقيا في آخر النهار عند غروب الشمس، فأمر شبيب مؤذنه سلام بن سيّار الشيباني فأذن المغرب ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب، وصف عتاب أصحابه ـ وكان قد خندق حول جيشه من أول النهار ـ فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى إذا طلع القمر وأضاء تأمّل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول: أنا شبيب أبو المدلّه لا حكم إلا للّه. فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والق وجماعة من الأمراء معه، ثم كر على الميمنة وعلى الميسرة ففرق شمل كل واحدة منهما، ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتاب بن ورقاء وزهرة بن حَوِيَّة، وولى عامة الجيش مدبرين وداسوا الأمير عتاباً وزهرة فوطئته الخيل، وقُتل في المعركة عمار بن يزيد الكلبي، ثم قال شبيب لأصحابه: لا تتبعوا منهزماً، وانهزم جيش

الحجاج عن بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة.

وكان شبيب لما احتوى على المعسكر أخذ ممن بقي منهم البيعة له بالإمارة فبايعوه، وقال لهم: إلى أي ساعة تهربون؟ ثم احتوى على ما في المعسكر من الأموال والحواصل، واستدعى بأخيه مصاد من المدائن، ثم قصد نحو الكوفة، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في ستة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام، فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، فلا يقاتلن معنا إلا من كان لنا عاملا، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه وسار شبيب حتى بلغ الصراة، وخرج إليه الحجاج بمن معه من الشاميين وغيرهم، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج إلى شبيب وهو في ستمائة من أصحابه فخطب الحجاج أهل الشام وقال: يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم، غضوا الأبصار واجثوا على الركب، واستقبلوا بأطراف الأسنة. ففعلوا ذلك.

وأقبل شبيب وقد عَبَّأ أصحابه ثلاث فرق، واحدة معه، وأخرى مع سويد بن سليم، وأخرى مع المحلّل بن وائل، وأمر شبيب سويداً أن يحمل فحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم عنهم، فنادى الحجاج: يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا. ثم أمر الحجاج فقدم كرسيه الذي هو جالس عليه إلى الأمام، ثم أمر شبيب المحلّل أن يحمل، ففعلوا به كما فعلوا بسويد، وقال لهم الحجاج كما قال لأولئك وقدم الحجاج كرسيه إلى أمام، ثم إن شبيباً حمل عليهم في كتيبته فثبتوا له حتى إذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلا، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى الحقوه بأصحابه، فلما رأى صبرهم نادى: يا سويد احمل في خيلك على أهل هذه السكّة، لعلك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه، ونحمل نحن عليه من أمامه. فحمل فلم يُغنِ ذلك شيئاً، وذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في ثلاثمائة فارس ردءاً له من ورائه لئلا يؤتوا من خلفهم، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ففهم الحجاج ذلك، فنادى: يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة، ثم ورب السماء والأرض ما شيء دون الفتح، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه، فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظهرون على شبيب وأصحابه حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما ورائها، فنادى شبيب في أصحابه: يا أولياء الله الأرض الأرض. ثم نزل ونزل أصحابه وجاء الحجاج فنادى: يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة، هذا أول النصر والذي نفسي بيده. وصعد مسجداً هنالك لشبيب ومعه نحوٌ من عشرين رجلا معهم النبل، واقتتل الناس قتالا شديداً عامة النهار من أشد قتال في الأرض، حتى أقر كل واحد من الفريقين لصاحبه والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه، ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعة فيأتي الخوارج من ورائهم، فأذن له، فانطلق في جماعة معه نحو من أربعة آلاف فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب، وغزالة امرأة شبيب، قتلها رجل يقال له فروة بن دَقَّان الكلبي.

وخرق في جيش شبيب، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبروا، وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس، فأمر الحجاج الناس أن ينطلقوا في تطلبهم، فشدوا عليهم فهزموهم وتخلف شبيب في حامية الناس، ثم انطلق واتبعه الطلب فجعل ينعس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه، ودنا منه الطلب فجعل بعض أصحابه ينهاه عن النُعاس في هذه الساعة فجعل لا يكترث بهم ويعود فتخفق رأسه، فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول: دعوه في حرق النار، فتركوه ورجعوا.

ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال في خطبته: إن شبيباً لم يهزم قبلها. ثم قصد شبيب الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا معه يوم الأربعاء فهُزم الخوارج يوم الجمعة، وسارت الخوارج هاربين. وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس معه، فحمل شبيب على الحارث بن معاوية فكسره ومن معه، وقتل منهم طائفة، ودخل الناس الكوفة هاربين، وحصن الناس السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل، ثم هرب أصحابه ودخلوا الكوفة، ثم خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضا، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد فمروا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه، ثم خطب أصحابه وقال: اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة. ثم رمى بالمال في الفرات، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلا قتله، ثم خرج إليه بعض الأمراء الذين على بعض المدن فقال له: يا شبيب ابرز إلي وأبرز إليك، ـ وكان صديقه ـ فقال له شبيب: إني لا أحب قتلك، فقال له: لكني أحب قتلك فلا تغرنك نفسك وما تقدم من الوقائع: ثم حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فهمس رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه، ثم كفنه ودفنه، ثم إن الحجاج أنفق أموالا كثيرة على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يطيقوه ولم يقدروا عليه، وإنما سلط الله عليه موتاً قدراً من غير صنعهم ولا صنعه في هذه السنة.

ذكر مقتل شبيب في هذه السنة عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل وهو زوج ابنة الحجاج يأمره أن يجهز جيشاً أربعة آلاف يتطلبون شبيباً، ويكونون تبعاً لسفيان بن الأبرد، ففعل فالتقوا به فاقتتلوا قتالا شديداً وصبر كل من الفريقين لصاحبه، ثم عزم أصحاب الحجاج فحملوا على الخوارج ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى جسر هناك، فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته، ورده عن موقفه هذا بعدما تقاتلوا نهاراً كاملا أشد قتال يكون، ثم أمر سفيان بن الأبرد الرماة من أصحابه فرشقوهم بالنَّبل رشقاً واحداً، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا منهم نحواً من ثلاثين رجلا من أصحاب ابن الأبرد، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض، وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر، فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر، فبينما شبيب على متن الجسر وهو على حصان له وبين يديه فرس أنثى فنزا فرسه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس رجْل شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء، فقال: ليقضي الله أمراً كان مفعولا ثم انغمر في الماء ثم ارتفع وهو يقول: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾. فغرق.

ولما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كروا وانصرفوا ذاهبين مفرّقين في

البلاد، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيباً من الماء وعليه درعه، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه فإذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة، وكانوا يضربون به الأرض فيثب قامة الإنسان. وقيل: إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائرهم، فلما تخلف في الساقة اشتوروا وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط في الماء فغرق، فنادوا غرق أمير المؤمنين، فعرف جيش الحجاج ذلك فجاؤوا فاستخرجوه.

ولما نعي شبيب إلى أمه قالت: صدقتم إني كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج مني شهاب من نار فعلمت أنه لا وأنه لا يطفئه إلا الماء، وكانت أمه جارية اسمها جهيرة. وكانت جميلة، وكانت من أشجع النساء، تقاتل مع ابنها في الحروب.

وذكر القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢/٤٥٥] أنها قتلت في هذه الغزوة، وكذلك قتلت زوجته غزالة، وكانت شديدة البأس خارجية وكان الحجاج مع هيبته يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء:

أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُروبِ نَعَامَةٌ فَتخَاء تَنفرُ من صَفير الصَّافِرِ
هَلا بَرزْتَ إلى غَزَالَة في الوَغَى بَل كان قلبك في جَناحي طائرِ

قال [وفيات الأعيان: ٢/٤٥٤]: وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل بن مُرَّة بن ذهل بن شيبان الشيباني، يدعى الخلافة ويتسمى بأمير المؤمنين، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الغرق لنال الخلافة إن شاء الله، ولما قدر عليه أحد. وإنما قهره الله على يدي الحجاج لما أرسل إليه أمير المؤمنين عبد الملك بعساكر لقتاله فهرب غير مرة، ولما ألقاه جواده على الجسر في نهر دجيل قال له رجل: أغرقاً يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

قال: ثم اخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فنزع قلبه من صدره فإذا هو مثل الحجر.

وكان رجلا طويلا أشمط جعداً، وكان مولده في يوم عيد النحر سنة ست وعشرين، وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له: ألست القائل:

فإن يَكُ مِنكُم كان مَروانُ وابنُهُ وعَمرٌو ومِنكُمُ هاشِم وحَبِيبُ
فَمِنا حُصَينٌ والبَطِينُ وقَعنَب ومِنَّا أميرُ المؤمنين شَبِيبُ

فقال: إنما قلتُ ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ، فأعجبه اعتذاره وأطلقه.

وفي هذه السنة كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبي صفرة نائب الحجاج، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم قطري بن الفجاءة، وكان أيضاً من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين، وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا في هذه السنة، وأما هو فشرد في الأرض لا يدرى أين ذهب وقد جرت بينهم مناوشات ومجاولات يطول بسطها واستقصاؤها، وقد بالغ ابن جرير في ذكرها [تاريخه: ٦/٣٠١].

قال [تاريخ الطبري: ٦/٣١١]: وفي هذه السنة ثار بكير بن وشاح الذي كان نائب خراسان على نائبها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد - كما سيأتي- وذلك أن بكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله، وقد جرت بينهما خطوب طويلة قد استقصاها أبو جعفر رحمه الله في تاريخه.

وفي هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد الخارجي كما قدمنا، وقد كان من الشجاعة والفروسية على جانب كبير لم أرَ بعد عصر الصحابة مثله، ومثل الأشتر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله وممن يناط بهؤلاء في الشجاعة مثل قطري بن الفجاءة من الأزارقة الخوارج والله أعلم.

وفيها توفي من الأعيان

■ **كثير بن الصلت بن معدي كرب الكندي**، كان كبيراً مطاعاً في قومه، وله بالمدينة دار كبيرة بالمصلى، وقيل إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل، توفي بالشام.

■ **محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله** كانت أخته تحت عبد الملك وولاه سجستان فلما سار إليها قيل له إن شبيباً في طريقك وقد أعيا الناس فاعدل إليه لعلك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد، فلما سار لقيه شبيب فاقتتل معه فقتله شبيب، وقيل غير ذلك والله أعلم.

عياض بن عمرو الأشعري: شهد اليرموك، وحدث عن جماعة من الصحابة وغيرهم توفي بالبصرة رحمه الله.

■ **مطرف بن المغيرة بن شعبة**: وقد كانوا إخوة: عروة ومطرف وحمزة، وقد كانوا يميلون إلى بني أمية فاستعملهم الحجاج على أقاليم، فاستعمل عروة على الكوفة، ومطرف على المدائن، وحمزة على همدان.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم ففتحوا إرقيلية، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وثلج وبرد، فأصيب بسببه ناس كثير.

وفيها ولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقدّم على مقدمته طارقاً فقتلوا ملوك تلك البلاد، وبعضهم قطعوا أنفه ونفوه.

وفيها عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي مع سجستان أيضاً، وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من الكوفة إلى البصرة، و قد استخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمي، فقدم المهلب على الحجاج وهو بالبصرة وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً، فأجلسه معه على السرير واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه، فمن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له لعطية، ثم ولى الحجاج المهلب إمرة سجستان، وولى عبيد الله بن أبي بكرة إمرة خراسان، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده، فقيل: كان ذلك بإشارة المهلب، وقيل: إنه كان استعان بصاحب الشرطة وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي، حتى أشار على الحجاج بذلك فأجابه الحجاج إلى ذلك، وألزم المهلب بألف ألف درهم لكونه اعترض على ذلك.

قال أبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة الوليد بن عبد الملك.

وكان أمير المدينة أبان بن عثمان، وأمير العراق وخراسان وسجستان وتلك النواحي كلها الحجاج بن يوسف، ونائبه على خراسان المهلب بن أبي صفرة، ونائبه على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري.

وقد توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو عبد الله الأنصاري**

السلمي، صاحب رسول الله ﷺ وله روايات كثيرة، وشهد العقبة وأراد أن يشهد بدراً فمنعه أبوه وخلفه على أخواته وإخوته، وكانوا تسعة، وقيل إنه ذهب بصره قبل موته.

توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة، وأسند إليه ألف وخمسمائة وأربعين حديثا.

■ **شريح بن الحارث بن قيس أبو أمية الكندي**، وهو قاضي الكوفة، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ثم عزله علي، ثم ولاه معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة، وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم، وقيل خمسمائة درهم.

وكان إذا خرج إلى القضاء يقول: سيعلم الظالم حظ من نقص.

وقيل: إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأرض فَاحْكُمْ بَيْنَ النَاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوى﴾ الآية [ص: ٢٦].

وكان يقول: إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر.

وقيل: إنه مكث قاضيا نحو سبعين سنة، وقيل: إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة فالله أعلم.

وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ، وتوفي بالكوفة وعمره مائة وثمان سنين.

■ **عبد الرحمن بن غنم الأشعري**: نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة وقيل: إن له صحبة وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها في الدين وكان من العباد الصالحين.

■ **جنادة بن أبي أمية الأزدي**: شهد فتح مصر وكان أميراً على غزو البحر لمعاوية، وكان موصوفا بالشجاعة والخير، توفي بالشام وقد قارب الثمانين.

■ **العلاء بن زياد البصري**: كان من الصالحين العباد من أهل البصرة، وكان كثير الخوف والورع، وكان يعتزل في بيته ولا يخالط الناس، وكان كثير البكاء، لم يزل يبكي حتى عمي، وله مناقب كثيرة، توفي بالبصرة في هذه السنة.

■ **سراقة بن مرداس الأزدي**: كان شاعراً مطبقاً، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فتوفي بها.

■ **النابغة الجعدي الشاعر**.

■ **السائب بن يزيد الكندي**: توفي في هذه السنة.

■ **سفيان بن سلمة الأسدي**.

■ **معاوية بن قرة البصري**.

■ **زر بن حبيش**.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته، ولم يغز فيها أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم، ووصلت الروم فيها أنطاكية فأصابوا خلقاً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة.

وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك حتى أوغل في بلاده، ثم صالحه على مال يحمله إليه في كل سنة،

وفيها قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد الدمشقي، مولى أبي الجلاس العبدري، ويقال: مولى الحكم بن مروان، كان أصله من الحولة فنزل دمشق وتعبد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقرى على عَقِبه، وانسلخ من آيات الله تعالى، وفارق حزب الله المفلحين، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولم يزل الشيطان يزخ في قفاه حتى أخسره دينه ودنياه، وأخزاه فيهما وأشقاه، فإنا لله وإنّا إليه راجعون وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا محمد بن مبارك حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال: كان الحارث الكذاب من أهل دمشق، وكان مولى لأبي الجلاس، وكان له أب بالحولة، فعرض له إبليس، وكان رجلا متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرئيت عليه الزهادة والعبادة، وكان إذا أخذ في التحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من كلامه، فكتب إلى أبيه وكان بالحولة: يا أبتاه أعجل عليَّ فإني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لي، قال: فزاده أبوه غياً على غيه، فكتب إليه أبوه: يا بني أقبل على ما أمرت به فإن الله تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢] ولستَ بأفاك ولا أثيم، فامض لما أمرت به. فكان يجيء إلى أهل المسجد رجلا رجلا فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى قَبِلَ وإلا كتَم عليه.

قال: وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً حتى يضج من ذلك الحاضرون.

قلت: وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول: كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح، وكان زنديقاً.

قال ابن أبي خيثمة في رواية: وكان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرجوا حتى أريكم الملائكة، فيخرج بهم إلى دير المُرَّان فيريهم رجالا على خيل، فتبعه على ذلك بشر كثير، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة، قال: فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد والميثاق إن هو رضي أمراً قبله، وإن كرهه كتم عليه، قال: فقال له: إني نبي، فقال القاسم: كذبت ياعدو الله، ما أنت بنبي.

وفي رواية: ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ: «إنَّ السَاعَةَ لا تَقُومُ حَتى يَخرُجَ ثَلاثُون دَجَّالُون كَذَّابُون كُلُّهُم يَزعُم أنَّه نَبِيٌ» [خ(٣٦٠٩)، م(١٥٧)] وأنت أحدهم ولا عهد لك، قال: ثم قام فخرج إلى أبي إدريس ـ وكان على القضاء بدمشق ـ فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس: نعرفه، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك.

وفي رواية أخرى أن مكحولاً وعبد الله بن أبي زكريا دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذباه وردا عليه ما قال، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً، واختفى الحارث وصار إلى دار ببيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى الصُّنَّبرة فنزلها فورد عليه هناك رجل من المسلمين من أهل البصرة ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند من الأتراك ليحتاط عليه، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل، ويفعل ما يأمره به، فلما وصل الرجل إلى بيت المقدس بمن

معه انتدب نائب القدس لخدمته، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعةً فإذا أمرهم بإشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث فقال لبوابه: استأذن لي على نبي الله، فقال: في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح، فصاح البصري: أسرجوا، فأسرج الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار، وهجم البصري: على الحارث فاختفى منه في سرب هناك فقال أصحابه: هيهات تريدون أن تصلوا إلى نبي الله، إنه قد رفع إلى السماء.

قال: فادخل البصري: يده في ذلك السرب فإذا بثوبه فاجتره فأخرجه، ثم قال للفرغانيين من أتراك الخليفة: تسلَّموا قال: فأخذوه فربطوه وقيدوه، فيقال إن القيود والجامعة سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها، وجعل يقرأ: ﴿قُلْ إن ضَلَلتُ فَإنَّما أضِلُّ عَلَى نفسي، وإن اهتَدَيتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِي إنهُ سَمِيعٌ قَرِيب﴾ [سبأ: ٥٠] وقال لأولئك الأتراك: ﴿أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]؟ فقالوا له بلسانهم ولغتهم: هذا كراننا فهات كرانك، أي هذا قرآننا فهات قرآنك، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلا فطعنه بحربة فانثنت في ضلع من أضلاعه، فقال له عبد الملك: ويحك أذكرت اسم الله حين طعنته؟ فقال: نسيت، فقال: ويحك سمِّ الله ثم اطعنه، قال: فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه. وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالا من أهل العلم والفقه أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذي به من الشيطان، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك. وهذا من تمام العدل والدين.

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثني من سمع عتبة الأعور يقول: سمعت العلاء بن زياد العدوي. يقول: ما غبطت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثا حُدِّثْتُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَقُومَ السَّاعَةَ حَتَّى يَخرُجَ ثلاثُون دَجَّالُون كَذَّابُون كُلُّهُم يَزْعُم انه نبي، فَمَن قَالَهُ فَاقتلوه، ومَن قَتَلَ أحَدَاً فَلَهُ الجَنَّة».

وقال الوليد بن مسلم: بلغني أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك: لو حضرتك ما أمرتك بقتله، قال: ولم؟ قال: إنه إنما كان به المُذْهِبُ فلو جوعته لذهب ذلك عنه.

وقال الوليد عن المنذر بن نافع: سمعت خالد بن اللجلاج يقول لغيلان: ويحك يا غيلان، ألم نأخذك في شبيبتك ترامي النساء في شهر رمضان بالتفاح، ثم صرت حارثياً يحجب امرأته ويزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت فصرت قدريا زنديقاً.

وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك الأعظم فيهم، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى، فكتب الحجاج إلى عبد الله بن أبي بكرة أن ناجزه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتلته، فخرج في جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ثم التقى مع رتبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة، وجاس ابن أبي بكرة وجنده خلال ديارهم، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره، وتبر ما هنالك تتبيراً، ثم إن رتبيل تقهقر منه مُنشمراً وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك حتى ظن كل من المسلمين إنه لا محالة هالك، فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل على أن يدفع إليه سبعمائة ألف، ويفتحوا للمسلمين طريقاً يخرجون منه ويرجعون عنهم إلى بلادهم، فانتدب شريح بن هانئ الحارثي- وكان صحابياً، وكان من أكبر أصحاب علي وهو المقدم على أهل الكوفة - فندب الناس إلى القتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال، فنهاه عبيد الله بن أبي بكرة فلم ينته، وأجابه شرذمة من الناس من الشجعان وأهل الحفائظ، فما زال يقاتل بهم الترك حتى فني أكثر المسلمين، فإنّا لله وأن إليه راجعون، قالوا: وجعل شريح بن هانئ يرتجز يومئذٍ، ويقول:

أَصبَحتُ ذَا بَثٍّ أُقَاسِي الكِبَرَا ... قد عِشتُ بينَ المُشرِكِين أعصُرَا
ثُمَّتَ أدركتُ النَّبِيَ المُنذِرَا ... وبَعدَهُ صديقَهُ وعُمَرَا
ويومَ مَهرَانَ ويومَ تُسْتَرَا ... والجَمعَ في صِفّينِهم والنَهرَا
هَيهَاتَ مَا أطولَ هَذَا عُمُرَا

ثم قاتل حتى قتل رضي الله عنه، وقتل معه خلق من أصحابه، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل، وهم قليل، وبلغ ذلك الحجاج فأخذه ما تقدم وما تأخر. وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستشيره في بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه بسبب ما حل بالمسلمين في بلاده، فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة على ما رأى من المصلحة في ذلك، وأن يعجل ذلك سريعاً، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش فجهز جيشاً كثيفا لذلك على ما سيأتي تفصيله في السنة الآتية بعدها، وقيل إنه قتل من المسلمين مع شريح بن هانئ ثلاثون ألفا وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار وقاسوا شدائد، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد قتل المسلمون من الترك خلقاً كثيراً قتلوا أضعافهم.

ويقال إنه في هذه السنة استعفى شريح من القضاء فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته في السنة الماضية والله أعلم.

قال الواقدي وأبو معشر وغير واحد من أهل السير: وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان أمير المدينة النبوية.

وفي هذه السنة قتل

■ **قطري بن الفجاءة التميمي أبو نعامة الخارجي**، وكان من الشجعان المشاهير، ويقال: إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه من الخوارج بالخلافة، وقد جرت له خطوب وحروب مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً في أماكنه.

وكان خروجه في زمن مصعب بن الزبير، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها، ووقائعه مشهورة وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كبيرة فهزمها، وقيل: إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية وهو على فرس أعجف وبيده عمود حديد، فلما قرب منه كشف قطري عن وجهه فولى الرجل هارباً فقال له قطري: إلى أين؟ أما تستحي أن تفر ولم تر طعناً ولا ضرباً؟ فقال: إن الإنسان لا يستحي أن يفر من مثلك.

ثم إنه في آخر أمره توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش فاقتتلوا بطبرستان، فعثر بقطري فرسه فوقع إلى الأرض فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج، وقيل: إن الذي قتله سودة بن الحر الدارمي، وكان قطري بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن، فمن مستجاد

شعره قوله يشجع نفسه وغيره ومن سمعها انتفع بها:

أقُولُ لَهَا وقد طَارَتْ شَعَاعاً ... مِنَ الأبطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِي
فَإنكِ لَوْ سَألتِ بَقَاءَ يَوْمٍ ... عَلَى الأجَلِ الذي لكِ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْراً في مَجَالِ المَوتِ صَبْراً ... فَمَا نَيلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
ولا ثَوبُ الحَيَاةِ بِثَوبِ عِزٍّ ... فَيُطوَى عَنْ أخِي الخَنَعِ اليَرَاعِ
سَبِيلُ الموتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ ... ودَاعِيهِ لأهلِ الأرضِ دَاعِ
فَمَنْ لا يُغْتَبَطْ يَسْأمْ وَيَهْرَمْ ... وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انقِطَاعِ
ومَا للمَرءِ خَيرٌ في حَيَاةٍ ... إذا مَا عُدَّ في سَقَطِ المَتَاعِ

ذكرها صاحب الحماسة واستحسنها ابن خلكان في تاريخه [وفيات الأعيان: ٩٤/٤] كثيراً.

وفيها توفي

■ **عبيد الله بن أبي بكرة** رحمه الله وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك وقاتلوا رتبيل ملك الترك، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هانئ كما تقدم ذلك.

وقد دخل عبيد الله بن أبي بكرة على الحجاج مرة وفي يده خاتم فقال له الحجاج: كم ختمت بخاتمك هذا؟ قال: على أربعين ألف ألف دينار، قال: ففيم أنفقتها؟ قال: في اصطناع المعروف، ورد الملهوف والمكافأة بالصنائع وتزويج العقائل.

وقيل: إن عبيد الله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد فأعطاها ثلاثين ألفاً.

وقيل: إنه أهدي إليه وصيف ووصيفة وهو جالس بين أصحابه فقال لبعض أصحابه: خذهما لك، ثم فكر وقال: والله إن إيثار بعض الجلساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة: ثم قال يا غلام ادفع إلى كل واحد من جلسائي وصيفا ووصيفة، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفا ووصيفة.

توفي عبيد الله بن أبي بكرة ببست وقيل بِزَرِيح والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

فيها كان السيل الجُحَاف بمكة لأنه جحف على كل شيء مرَّ به، وحمل الحجاج من بطن مكة والجمال بما عليها، والرجال والنساء لا يستطيع احد أن ينقذهم منه، وبلغ الماء إلى الحَجُون، وغرق خلق كثير، وقيل: إنه ارتفع حتى كاد أن يغطي البيت والله أعلم.

وحكى ابن جرير [تاريخه: ٣٢٥/٦] عن الواقدي أنه قال: كان بالبصرة في هذه السنة الطاعون الجارف فالله أعلم. والمشهور أنه كان في سنة تسع وستين كما تقدم.

وفيها قطع المهلب بن أبي صفرة نهر بلخ، وأقام بكش سنتين صابراً مصابراً للأعداء من الأتراك، وجرت له معهم هناك فصول يطول ذكرها، وفد عليه في غُبون هذه المدة كتاب ابن الأشعث بخلعه الحجاج، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ثم كان ما سيأتي بيانه وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث.

وفي هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل ملك ليقتصُّوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكرة فجهز أربعين ألفا من كل من المصرين عشرين ألفاً، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع أنه كان الحجاج يبغضه جداً، حتى إنه كان يقول: ما رأيته قط إلا هممت بقتله.

ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبي فقال: انظر إلى مشيته والله لقد هممت أن أضرب عنقه. فأسرها الشعبي إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث: وأنا والله لأجهدن أن أزيله عن سلطانه إن طال بي وبه البقاء.

والمقصود أن الحجاج أخذ في استعراض هذه الجيوش وبذل فيهم العطاء ثم اختلف رأيه فيمن يؤمر عليهم، ثم وقع اختياره على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقدمه عليهم، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج: إني أخاف أن تؤمره فلا يرى لك طاعة إذا جاوز جسر الفرات، فقال: ليس هو هنالك هو لي أهيب ومني أرهب أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي. فأمضاه عليهم، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل، فلما بلغ رتبيل مجيء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية، وأنه كان لذلك كارها، وأنهم ألجؤوه إلى قتالهم، وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن يبذل للمسلمين الخراج، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك، وصمم على دخول بلاده، وجمع رتبيل جنوده وتهيأ له ولحربه، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلدا أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائبا من جهته وجعل معه مَن يحفظها له، وجعل المسالح على كل أرض ومكان مخوف، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل، وغنم أموالا كثيرة جزيلة، وسبى خلقاً كثيرة، ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد، ويتقووا بما فيها من المغلات والحواصل ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يحوزون الأراضي والأقاليم حتى يحاصروهم في مدينتهم -مدينة العظماء- على الكنوز والأموال والذراري حتى يغنموها ثم يقتلون مقاتلتهم، وعزموا على ذلك، وكان هذا هو الرأي.

وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم، وبهذا الرأي الذي رآه لهم.

وقال بعضهم: كان الحجاج قد وجه هميان بن عدي السدوسي إلى كرمان مسلحة لأهلها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك، فعصى هميان ومن معه، فوجه الحجاج إليه ابن الأشعث فهزمه وأقام بمن معه.

ومات عبيد الله بن أبي بكرة فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبي بكرة وجهز إلى ابن الأشعث جيشاً أنفق عليه ألفي ألف سوى أعطياتهم، وكان يدعى هذا الجيش جيش الطواويس، وأمره بالإقدام على رتبيل فكان من أمره معه ما تقدم.

قال الواقدي وأبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان.

وقال غيرهما: بل حج بهم سليمان بن عبد الملك.

وكان على الصائفة في هذه السنة الوليد بن عبد الملك، وعلى المدينة أبان بن عثمان، وعلى المشرق بكماله الحجاج، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبي موسى، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **أسلم مولى عمر بن الخطاب**: وهو أبو زيد بن أسلم أصله من سبي عين التمر اشتراه عمر بمكة لما حج سنة إحدى عشرة، وتوفي وعمره مائة

وأربع عشرة سنة، وروى عن عمر عدة أحاديث، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً وله مناقب كثيرة رحمه الله.

■ جبير بن نفير بن مالك الحضرمي له صحبة ورواية، وكان من علماء أهل الشام وكان مشهوراً بالعبادة والعلم توفي بالشام وعمره مائة وعشرون سنة، وقيل: أكثر وقيل: أقل.

■ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: صحابي جليل ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عميس، وهو آخر من رأى النبي ﷺ من بني هاشم وفاة، سكن المدينة، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة أتى النبي ﷺ إلى أمهم فقال: «إِئتُونِي بِبَنِي أَخِي»، فأتي بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق رؤوسهم ثم قال: «اللَّهُمَّ اخلُفْ جَعفَراً فِي أَهلِهِ وبَارِكْ لِعَبدِ اللَّهِ فِي صَفقَتِهِ»، فجاءت أمهم فذكرت للنبي ﷺ أنه ليس لهم شيء، فقال: «أنا لهم عوضاً من أبيهم» وقد بايع النبي ﷺ عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين، وهذا لم يتفق لغيرهما.

وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس، يعطي الجزيل الكثير ويستقله، وقد تصدق مرة بألفي ألف، وأعطى مرة رجلا ستين ألفا، ومرة أعطى رجلا أربعة آلاف دينار، وقيل: إن رجلا جلب مرة سكراً إلى المدينة فكسد عليه فلم يشتره أحد فأمر ابن جعفر قيّمه أن يشتريه وأن يهبه للناس.

وقيل: إن معاوية لما حج ونزل المدينة في دار مروان قال يوماً لحاجبه: انظر هل تري بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلانا - وعد جماعة - فخرج فلم ير أحداً، فقيل له: هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون، فأتى معاوية فأخبره فقال: ما أنا إلا كأحدهم. ثم أخذ عصا فتوكأ عليها ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل فأجلسه في صدر فراشه، فقال له معاوية: أين غداؤك يا ابن جعفر؟ فقال: وما تشتهي من شيء فأدعُ به؟ فقال معاوية: أطعمنا مخاً، فقال: يا غلام هات مخّاً، فأتى بصحفة فأكل معاوية، ثم قال ابن جعفر لغلامه: هات مخّاً، فجاء بصحفة أخرى ملآنة مخاً إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات، فتعجب معاوية وقال: يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء. فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم، ويقضي له مائة حاجة. ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد به. فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له: كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة؟ قال: ألف ألف. فقال له: قد أضعفناها لك، وكان يعطيه ألفي ألف كل سنة، فقال له عبد الله بن جعفر: بأبي أنت وأمي ما قلتها لأحد قبلك ولا أقولها لأحد بعدك، فقال يزيد: ولا أعطاكها أحد قبلي ولا يعطيكها أحد بعدي.

وقيل: إنه كان عند ابن جعفر جارية تغنيه تسمى عمّارة، وكان يحبها محبة عظيمة، فحضر عنده يزيد بن معاوية يوماً فغنت الجارية، فلما سمعها يزيد افتتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منه؛ خوفاً أن يمنعه إياها، فلم يزل في نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية، فبعث يزيد رجلا من أهل العراق فبعث يزيد رجلاً من أهل العراق ودفع إليه تجارة وأمره أن يتلطّف في أمر هذه الجارية، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليه هدايا وتحفاً كثيرة، وأنس به، ولا زال حتى أخذ الجارية وأتى بها يزيد.

وكان الحسن البصري يذم عبد الله بن جعفر على سماعه الغناءَ واللّهو وبشرائه المولدات، ويقول: أما يكفيه هذا الأمر القبيح الذي هو متلبس به من هذه الأشياء وغيرها؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله ﷺ، وكان الحجاج يقول: إنما تزوجتها لأذل بها آل أبي طالب، وقيل: إنه لم يصل إليها، وقد كتب عبد الملك إليه أن يطلقها فطلقها.

أسند عبد الله بن جعفر ثلاثة عشر حديثاً.

■ أبو إدريس الخولاني اسمه عائذ الله بن عبد الله، له أحوال ومناقب، كان يقول: قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دنس في ثياب نقية. وقد تولى القضاء بدمشق، وقد ذكرنا ترجمته في كتابنا التكميل.

■ معبد الجهني القدري: يقال إنه معبد بن عبد الله بن عُكَيم، راوي حديث: «لا تَنتَفِعُوا مِنَ المَيْتَةِ بِإِهَابٍ ولا عَصَبٍ» [د(٤١٢٧، ٤١٢٨)، ت(١٧٢٩)، س(٤٢٦٠، ٤٢٦١)، ج(٣٦١٣)].

وقيل: غير ذلك في نسبه.

سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية وعمران بن حصين وغيرهم.

وشهد يوم التحكيم، وسأل أبا موسى في ذلك ووصاه ثم اجتمع بعمرو بن العاص فوصاه في ذلك فقال له: إيهاً يا تيس جهينة ما أنت من أهل السر ولا العلانية، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل. وهذا توسُّم فيه من عمرو بن العاص فيه، ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر، ويقال: إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سُوسن، وأخذ غيلان القدر من معبد.

وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة، ووثقه ابن معين وغيره في حديثه.

وقال الحسن البصري: إياكم ومعبداً فإنه ضال مضل. وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله.

وقال سعيد بن عفير: بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله.

وقال خليفة بن خياط: مات قبل التسعين فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

ففيها فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قاليقلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة.

وفيها قتل بكير بن وشاح، قتله بَحير بن ورقاء الصريمي، وكان بكير من الأمراء الشجعان ثم ثار لبكير ابن وشاح رجل من قومه يقال له: صعصعة بن حرب العوفي الصريمي، فقتل بَحير بن ورقاء الذي قتل بكيراً، طعنه بخنجر وهو جالس عند المهلب بن أبي صفرة فحمل إلى منزله وهو بآخر رمق، فبعث المهلب بصعصعة إليه، فلما تمكن منه بَحير بن ورقاء قال: ضعوا رأسه عند رجلي. فوضعوه فطعنه بَحير بحربته حتى قتله ومات على إثره.

وقد قال له أنس بن طارق: اعف عنه فقد قتلت بكير بن وشاح، فقال: لا والله لا أموت وهذا حي. ثم قتله، وقد قيل: إنه إنما قتل بعد موته. فالله أعلم.

فتنة ابن الأشعث

قال أبو مخنف: كان ابتداؤها في هذه السنة.

وقال الواقدي: في سنة ثنتين وثمانين.

وقد ساقها ابن جرير [تاريخه: ٦/٣٣٤] في هذه السنة فوافقناه في ذلك.

وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه، فلما أمَّره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره، وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقووا إلى العام المقبل فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب، ويأمره حتماً بدخول بلاد رتبيل، ثم أردف ذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد، وكتب في جملة ذلك يا ابن الحائك الغادر المرتد، امض إلى ما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو وإلا حل بك ما لا يطاق. وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث، ويقول: هو أهوج أحمق حسود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله، وجده الأشعث ارتد عن الإسلام وما رأيته قط إلا هممت بقتله، ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك، غضب ابن الأشعث وقال: يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة - يعني أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة .

ثم إن ابن الأشعث جمع رؤوس أهل العراق وقال لهم: إن الحجاج قد ألح عليكم في الإيغال في بلاد العدو، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس. وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد، فانظروا في أمركم أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأياً رأيته بالأمس، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم في ذلك من إصلاح البلد التي فتحوها، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلاتها وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسيرون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رتبيل ملك الترك في مدينة العظماء، ثم أعلمهم بما كتب الحجاج إليه من الأمر بمعاجلة رتبيل، فثار إليه الناس وقالوا: لا بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع.

قال أبو مخنف: فحدثني مطرف بن عامر بن واثلة الكناني أن أباه كان أول من تكلم في ذلك، وكان شاعراً خطيباً، وكان مما قال: إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه: احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إنكم إن ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء، ثم قال: اخلعوا عدو الله الحجاج - ولم يذكر خلع عبد الملك - وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث فإني أشهدكم أني أول خالع للحجاج. فقال الناس من كل جانب: خلعنا عدو الله. ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان.

وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفر بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً.

ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق، ثم لما توسطوا الطريق قالوا: إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان فخلعوهما جميعاً وجددوا البيعة لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد المُحِلِّين، فإذا قالوا: نعم. بايعهم.

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستعجله في بعثه الجنود إليه، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك فأبى عليه، وبعث بكتابه إلى الحجاج. وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له: إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل، أبق على أمة محمد الله الله، انظر لنفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها، فإن قلت: أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه من الناس، فلا تعرضها لله في سفك دم، أو استحلال محرم والسلام عليك.

وكتب المهلب إلى الحجاج: «أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من عَلٍ ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شِرَّةً في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يصلوا إلى أهليهم ويشموا أولادهم، ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله تعالى».

فلما قرأ الحجاج كتابه قال: فعل الله به وفعل، لا والله ما لي نظر ولكن لابن عمه نصح.

ولما رفع كتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فخفه، وإن كان من قبل سجستان فلا تخفه.

ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج وتجهز الحجاج للخروج إلى ابن الأشعث، وعصى رأي المهلب فيما أشار به عليه، وكان فيه النصح والصدق، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك يخبره بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساء، أين نزل ومن أين ارتحل، وأي الناس إليه أسرع. وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب، حتى قيل: إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل. وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث، فنزل تستر وقدم بين يديه مطهر بن حَيّ العكيَّ أميراً على المقدمة، ومعه عبد الله بن زميت أميراً آخر، فانتهوا إلى دجيل فإذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة، واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وقماش وأموال. وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه فأخذه ما دبَّ ودرَج، وقد كان قائماً يخطب، فقال: أيها الناس ارجعوا إلى البصرة فإنه أرفق بالجند. فرجع بالناس واتبعتهم خيول ابن الأشعث لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه، ولا فاذاً إلا أهلكوه، ومضى الحجاج هارباً لا يلوي على شيء حتى أتى الزاوية فعسكر عندها وجعل يقول: لله در المهلب أي صاحب حرب هو! قد أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبل، وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مائة وخمسين ألف ألف درهم، وخندق حول جيشه خندقاً، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشموا أولادهم، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بهم وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيء، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله، ووافقه على خلعهما جميع من بالبصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب، ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة فعمل ذلك، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة من هذه السنة.

وحج بالناس فيها سليمان بن عبد الملك فيما ذكره الواقدي وأبو معشر والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيها غزا موسى بن نصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلاد الأندلس فافتتح مدناً كثيرة، وأراضي عامرة، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الزقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ بَحير بن ورقاء الصريمي البصري أحد الأشراف بخراسان، والقواد وهو الذي حارب ابن خازم وقتله، وقتل بكير بن وشاح ثم قتل في هذه السنة.

■ سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر أبو امية الجعفي الكوفي: شهد اليرموك وحدث عن جماعة من الصحابة، وكان من كبار المخضرمين ويقال: إنه رأى النبي ﷺ، وصلى معه، والصحيح أنه لم يره، وكان مولده عام ولد النبي ﷺ وقيل: إنه ولد بعده بستين، وعاش مائة وعشرين سنة لم ير يوماً محتبياً ولا متسانداً، وافتض بكراً عام وفاته وكانت وفاته في سنة إحدى وثمانين. قاله أبو عبيد وغير واحد. وقيل: إنه توفي في سنة ثنتين وثمانين فالله أعلم.

■ عبد الله بن شداد بن الهاد: كان من العباد الزهاد، والعلماء، وله وصايا وكلمات حسان، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة وعنه خلق من التابعين.

■ محمد بن علي بن أبي طالب: أبو القاسم وأبو عبد الله أيضاً، وهو المعروف بابن الحنفية، وكانت أمه أَمَةً سوداء سندية من سبي من بني حنيفة اسمها خولة. ولد محمد في خلافة عمر بن الخطاب، ووفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وقد صرع مروان يوم الجمل وقعد على صدره وأراد قتله فناشده مروان بالله وتذلل له فاطلقه، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك فقال: عفواً يا أمير المؤمنين، فعفا عنه وأجزل له الجائزة.

وكان محمد بن علي من سادات قريش، ومن الشجعان المشهورين، ومن الأقوياء المذكورين، ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه، فجرى بينهما شر عظيم حتى همَّ ابن الزبير به وبأهله كما تقدم ذلك، فلما قتل ابن الزبير واستقر أمر عبد الملك تابعه ابن عمر وبايعه ابن الحنفية، وقدم المدينة فمات بها في هذه السنة وقيل في التي قبلها أو في التي بعدها، ودفن بالبقيع. والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى، وأنه حي يرزق، وهم ينتظرونه، وقد قال كثير عزة في ذلك:

أَلا إنَّ الأئِمَّـةَ مِـن قُرَيْـشٍ ... وُلاةَ الحَـقِّ أَرْبَعَـةٌ سَـوَاءُ
عَلِـيٌّ والثَّلاثَـةُ مِـن بَنِيـهِ ... هُـمُ الأَسْبَاطُ لَيـسَ بِهـم خَفَـاءُ
فَسِـبطٌ سِـبطُ إيْمَـانٍ وبِـرٍّ ... وسِـبطٌ غَيَّبَتْـهُ كَرْبَـلاءُ
وسِـبطٌ لا تَـرَاهُ العَيـنُ حَتَّـى ... يقُـودَ الخيـلَ يَقدُمُهـا لِـوَاءُ
تَغَيَّـبَ لا يُـرَى عَنهُـم زَمَانـاً ... بِرَضْـوَى عِنـدَه عَسَـلٌ ومَـاءُ

ولما همَّ ابن الزبير بابن الحنفية كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبي الطفيل واثلة بن الأسقع وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله، وقد كان ابن الزبير جمع لهم حطباً كثيراً على أبوابهم ليحرقهم بالنار، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار، وقد كان المختار يدعو إليه ويسميه المهدي، فبعث المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف فاستنقذوا بني هاشم من يدي ابن الزبير، وخرج معهم ابن عباس فمات بالطائف وبقي ابن الحنفية في شيعتهم، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه فخرج إلى أرض الشام بأصحابه وكانوا نحو سبعة آلاف، فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك يقول: إما أن تبايعني وإما أن تخرج من أرضي، فكتب إليه ابن الحنفية: أبايعك على أن تؤمن أصحابي، قال: نعم فقام ابن الحنفية في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال: الحمد لله الذي حقن دماءكم وأحرز دينكم فمن أحب منكم أن يأتي مأمنه إلى بلده محفوظاً فليفعل، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقي في سبعمائة رجل، فأحرم بعمرة وقلد هديا وسار نحو مكة، فلما أراد دخول الحرم بعث إليه ابن الزبير خيلا فمنعه أن يدخل، فأرسل إليه إنا لم نأت لحرب ولا لقتال، ولكن دعنا ندخل حتى نقضي نسكنا ثم نخرج عنك، فأبى عليه وكان معه بدن قد قلدها فرجع إلى المدينة فأقام بها محرما حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير، فكان ابن الحنفية في تلك المدة محرماً، فلما سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة وقضى نسكه وذلك بعد عدة سنين، وكان القمل يتناثر منه في تلك المدة كلها، فلما قضى نسكه رجع إلى المدينة فأقام بها حتى مات.

وقيل: إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية: قد قتل عدو الله فبايع، فكتب إليه: إذا بايع الناس كلهم بايعت، فقال الحجاج: والله لأقتلنك، فقال ابن الحنفية: إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ، في كل نظرة منها ثلاثمائة وستون قضية، فلعل الله تعالى أن يجعلني في قضية منها فيكفينيك، فكتب الحجاج بذلك إلى عبد الملك فأعجبه قوله وكتب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف فارفق به فهو يأتيك ويبايعك، وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - إن لله ثلاثمائة وستين نظرة - إلى ملك الروم، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدده بجموع من الجنود لا يطيقها أحد، فكتب بكلام ابن الحنفية فقال ملك الروم: إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك، وإنما خرج من بيت نبوة. ولما اجتمع الناس على بيعة عبد الملك قال ابن عمر لابن الحنفية: ما بقي شيء فبايع، فكتب بيعته إلى عبد الملك ووفد عليه بعد ذلك.

توفي ابن الحنفية في المحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة، وكان له من الولد عبد الله وحمزة وعلي وجعفر الأكبر والحسن وإبراهيم والقاسم وعبد الرحمن وجعفر الأصغر وعون ورقية، وكلهم لأمهات شتى.

وقال الزبير بن بكار: كانت شيعته تزعم أنه لم يمت وفيه يقول السيد:

ألا قُـل للوَصِـيِّ فَدَتـكَ نَفسِـي ... أَطَلْـتَ بِذَلِـكَ الجَبَـلِ المُقامَـا
أَضَـرَّ بِمَعشَـرٍ وَالَـوكَ مِنَّـا ... وسَـمُّوكَ الخَلِيفَـةَ والإمَامَـا
وعَـادُوا فِيـكَ أَهـلَ الأرضِ طُـرّاً ... مُقَـامُكَ عَنهـم سِـتِّين عَامَـا
ومَا ذَاقَ ابـن خَولَـةَ طعـمَ مَـوتٍ ... ولا وَارت لَـهُ أرضٌ عِظَامَـا
لَقـد أمسَى بِمُـورِقِ شِعب رَضـوَى ... تُرَاجِعُـهُ المَلائِكَـةُ الكَلامَـا
وإنَّ لَـهُ بِـهِ لَمَقِيـلَ صِـدقٍ ... وأنديـةً تُحدِّثُـهُ كِرَامَـا
هَدَانَـا اللَّـهُ إذ حُـزتُم لأمـرٍ ... بِـهِ وعليـهِ نَلتَمِـسُ التَّمَامَـا
تَمَـامَ مَـوَدَّةِ المَهـدِيِّ حتَّـى ... تَـرَوا رَايَاتِـهِ تَـترَى نِظَامَـا

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه في آخر الزمان، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكري، الذي يخرج في زعمهم من سرداب سامرا، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وبهتانهم، وسنزيد ذلك وضوحاً في موضعه إن شاء

الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففي المحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج في آخره، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام، ثم تواقعوا يوماً آخر فحمل سفيان بن الأبرد أحد أمراء أهل الشام على ميمنة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقا من القراء من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم، وخر الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثا على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول: ما كان أكرمه حين صبر نفسه للقتل.

وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث أبو الطفيل بن عامر بن واثلة الليثي، ولما فر أصحاب ابن الأشعث رجع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن اتبعه من أهل البصرة، فسار حتى دخل الكوفة فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه، فقاتل الحجاج خمس ليال أشد القتال، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث، وتبعه طائفة من أهل البصرة، فاستتاب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، ودخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان، وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك، واشتد الحال، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب، واتسع الخرق على الراقع.

قال الواقدي: لما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة، فقال القراء ـ وكان عليهم جبلة بن زحر ـ: أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منه منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم، وقال سعيد بن جبير نحو ذلك، وقال الشعبي: قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة، ثم حملت القراء ـ وهم العلماء ـ على جيش الحجاج حملة صادقة فبدعوا فيهم ثم رجعوا فإذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعاً، فهدهم ذلك فناداهم جيش الحجاج: يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم، ثم حمل سفيان بن الأبرد وهو على خيل الحجاج على ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن قُرّة التميمي، فانهزموا ولم يقاتلوا كثير قتال، فأنكر الناس منهم ذلك، وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبرد شجاعاً لا يفر، وظنوا أنه قد خامر، فنقضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة فبايعه أهلها.

ثم كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة، وقعة دير الجماجم قاله الواقدي:

وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه، غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم ذلك، فعدلوا إلى القصر، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلاليم فنصبت على قصر الإمارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله فقال له: استبقني فإني خير من فرسانك، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب، وأمر بالمسالح من كل جانب، وحفظت الثغور والطرق والمسالك، ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة في البر حتى مر بين القادسية والعذيب وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من المصريين فمنعوا الحجاج من نزول القادسية، فسار الحجاج حتى نزل دير قرة، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية فنزل دير الجماجم، ومعه جنود كثيرة، وفيهم القراء من المصريْن لحين، وكان الحجاج بعد ذلك يقول: قاتل الله ابن الأشعث، أما كان يزجر الطير حيث رآني قد نزلت دير قرة، ونزل هو بدير الجماجم، وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام، وخندق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالا شديداً في كل يوم، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم، واستمر هذا الحال مدة طويلة، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جداً، وكتب معهما كتابا إلى أهل العراق يقول لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته، وأبقيت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان، وقال في عهده هذا: فإن لم يجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأي عنده، وكتب إلى عبد الملك: يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جراءة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان؟ فلما سألهم ما يريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ وإن الحديد بالحديد يُفلَح، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك.

قال: فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر، فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك، فقالوا: ننظر في أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج فنفر الناس من كل جانب وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدداً وعُدَداً، وهم في ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً. ثم جددوا خلع عبد الملك بن مروان ثانية، واتفقوا على ذلك كلهم.

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان الخبر فقالا

للحجاج: شأنك بهم إذاً، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، فكانا إذا لقياه سلما عليه بالإمرة ويسلم هو أيضاً عليهم بالإمرة، وتولى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب، فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سُليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحكمي، وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن حارثة الخثعمي، وعلى الميسرة الأبرد بن قرة التميمي، وعلى الخيالة عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي، وكان في القراء سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد ـ وكان شجاعاً فاتكا على كبر سنه ـ وأبو البختري الطائي وغيرهم، ثم جعلوا يقتتلون في كل يوم، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق والأقاليم، من العلف والطعام وغيره، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم في ضيق من العيش، وقلة من الطعام، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه، وما زالت الحرب بينهم في هذه المدة كلها حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام، وقد قتل من أصحاب الحجاج زياد بن غنم، وكسر بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف جفون سيوفهم واستقتلوا وكانوا من أصحاب ابن الأشعث.

وفي هذه السنة كانت وفاة

■ **المهلب بن أبي صفرة**، وهو المهلب بن أبي صفرة ظالم أبو سعيد الأزدي أحد أشراف أهل البصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرمائهم، ولد عام الفتح، وكانوا ينزلون فيما بين عمان والبحرين، وقد ارتد قومه فقاتلهم عكرمة بن أبي جهل فظفر بهم، وبعث بهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا في أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين، وولي الجزيرة لابن الزبير سنة ثمان وستين، ثم ولي حرب الخوارج أول دولة الحجاج وقتل منهم في وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، فعظمت منزلته عند الحجاج، وكان فاضلا شجاعاً كريماً يحب المدح، وله كلام حسن، فمنه: نعم الخصلة السخاء تستر عورة الشريف وتلحق خسيسة الوضيع، وتحبب المزهود فيه.

وقال: يعجبني في الرجل خصلتان أن أرى عقله زائداً على لسانه، ولا أرى لسانه زائداً على عقله.

توفي المهلب غازياً بمرو الروذ وعمره ستة وسبعون سنة رحمه الله وكان له عشرة من الولد وهم: يزيد، وزياد، والمفضل، ومدرك، وحبيب، والمغيرة، وقبيصة، ومحمد، وهند، وفاطمة.

توفي المهلب في ذي الحجة منها، وكان من الشجعان مواقف حميدة، وغزوات مشهورة في الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج، وجعل الأمر من بعده لولده يزيد بن المهلب على إمرة خراسان فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان.

وفي جمادى الآخرة منها عزل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عن إمرة المدينة أبان بن عثمان، وولى عليها هشام بن إسماعيل المخزومي، وكانت ولاية أبان على المدينة سبع سنين وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وكان على إمرة بلاد المشرق بكماله الحجاج بن يوسف والنواب في الأقاليم من تحت يده، وهو مشغول عن تدبير الممالك بحرب ابن الأشعث في هذه المدة كلها.

قال أبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان الذي كان نائب المدينة.

وفيها توفي

■ **أسماء بن خارجة الفزاري الكوفي** كان جواداً ممدحاً، حكي أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال: حاجة لا أستطيع ذكرها، فألح عليه فقال: جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبي معها، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حتى مرت تلك الجارية فقال: هذه، فقال له: اخرج فاجلس على الباب مكانك، فخرج الشاب فجلس مكانه، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلي، وقال له: ما منعني أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختي، وكانت ضنينة بها، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف، وألبستها هذا الحلي، فهي لك بما عليها. فأخذها الشاب وانصرف.

■ **المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة**، كان جواداً ممدحا شجاعا، له مواقف مشهورة.

■ **الحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومي المعروف بقباع**، ولي إمرة البصرة لابن الزبير.

■ **محمد بن أسامة بن زيد بن حارثة**: كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع.

■ **عبد الله بن أبي طلحة بن الأسود**: والد الفقيه إسحاق حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها فأصبح أبو طلحة فأعلم النبي ﷺ فقال ﷺ: «أعَرَّسْتُم بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا في لَيلَتِكما» [خ(٥٤٧٠)، (٢١٤٤)، (٢٣)] ولما ولد حنكه بتمرات.

■ **عبد الله بن كعب بن مالك** كان قائد كعب حين عمي، له روايات، توفي بالمدينة هذه السنة.

■ **سفيان بن وهب**: أبو أيمن الخولاني المصري له صحبة ورواية، وغزا المغرب، وسكن مصر وبها مات.

■ **جميل بن عبد الله بن معمر بن صُبّاح بن ظبيان بن حُنّ بن ربيعة بن حرام بن ضِنّة بن عبد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. أبو عمرو الشاعر** صاحب بثينة، كان قد خطبها فمنعت منه، فتغزل فيها واشتهر بها، وكان أحد عشاق العرب، كانت إقامته بوادي القرى وما حوله وكان عفيفاً صيِّناً ديناً شاعراً إسلاميّاً، من أفصح الشعراء في زمانه.

وكان كثير عزة راويته، وهو يروي عن هدبة بن خشرم عن الحطيئة عن زهير بن أبي سلمى، وابنه كعب.

قال كثير عزة كان جميل أشعر العرب حيث يقول:

وخَبَّرْتُمَاني أن تَيمَاءَ مَنزِلٌ ... لِلَيلَى إذا مَا الصَّيفُ ألقَى المَرَاسِيَا

فَهَذي شُهُورُ الصيفِ عَنا قد انقَضَت ... فَمَا للنوَى تَرمِي بليلَى المَرَامِيَا

ومنها قوله:

ومَا زِلتِ بِي يا بَثْنُ حَتَّى لَو انَّنِي ... مِنَ الشَّوقِ أستَبكِي الحَمَامَ بَكَى لِيَا

ومَا زَادَنِي الوَاشُونَ إلا صَبَابَةً ... ولا كَثْرَةُ النَّاهِينَ إلا تَمَادِيَا

وما أحدثَ النّأيُ المُفرِّق بيننا سُلواً ولا طُولُ الليالي تقاليا
ألم تعلَمِي يا عَذْبَة الرِّيق أنني أظلُّ إذا لم ألقَ وَجهكِ صاديا
لقد خِفتُ أن ألقى المَنيةَ بَغتةً وفي النفسِ حاجَات إليكِ كَمَا هيا

ومما أورد له القاضي ابن خلكان في الوفيات [٣٦٧/١] قوله:

إني لأحفظ سركم ويَسُرُّني لو تعلَمِين بصالح ان تُذكري

إلى أن قال:

ما أنتِ والوَعدُ الذي تَعِدِينَنِي إلا كَبرقِ سَحَابةٍ لم تُمطِرِ

وقوله -ورُوي لعمر بن أبي ربيعة فيما نقله ابن عساكر:

ما زلتُ أبغِي الحَيَّ أتبعُ فَلَّهُم حتى دُفعت إلى ربيبة هودج
فَدَنوتُ مُختفياً ألُمُّ بِبَيتِهَا حتى وَلَجتُ إلى خَفيِّ المَولِجِ
قالت وعَيشُ أخي ونعمة والدي لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إن لم تخرُجِ
فتناوَلت رَأسِي لِتَعرفَ مَسَّهُ بمُخضَّبِ الأطراف غيرَ مُشَنَّجِ
فخَرجتُ خِيفةَ أهلِهَا فتَبسَّمَتْ فعلِمتُ أنْ يَمِينَهَا لم تحرَجِ
فَلَثَمتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِها شُربَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

قال كثير عزة: لقيني جميل بثينة فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند هذه الحبيبة، فقال: وإلى أين؟ فقلت: إلى هذه الحبيبة - يعني عزة- فقال: أقسمت عليك لمّا رجعت إلى بثينة فواعدتها؛ فإنّ لي من أول الصيف ما رأيتها، وكان آخر عهدي بها بوادي الدَّوْم، وهي تغسل هي وأمها ثوباً فتحادثنا إلى الغروب. قال كثير: فرجعت حتى أنخت بهم، فقال أبو بثينة: ما رَدَّكَ يا ابن أخي؟ فقلت: أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك. فقال: وما هي؟ فأنشدته وبثينة تسمع من وراء الحجاب:

فَقلتُ لَها يا عَزُّ أرسلُ صَاحبي إليكِ رَسُولا والرَّسُول مُوَكَّلُ
بأن تَجعَلي بَيني وبَينَك موعِداً وأن تأمُريني ما الذي فيه أفعَلُ
وآخِرُ عَهدِي مِنكِ يَومَ لَقِيتِني بأسفلِ وادي الدومِ والثوبُ يُغسَلُ

قال: فضربت بثينة جانب خدرها، وقالت: اخسأ، اخسأ فقال أبوها: مهيم فقالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية، ثم قالت لجاريتها: ابغينا من الدومات حطباً ليشوى به لكثير شاة فقلت: أنا أعجل من ذلك، وانطلقت إلى جميل فقلت: موعدك الدومات. قال: فلما كان الليل أقبلت بثينة إلى المكان الذي واعدته إليه وجاء جميل، وكنت معهم فما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادمات وانفضَّ ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه.

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له: ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن قط، ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هذا؟ قال: أنا فقلت: والله ما أظنك سلمت وأنت تشبب منذ عشرين سنة، ببثينة. فقال: لا نالتني شفاعة محمد ﷺ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريبة قال: فما برحنا حتى مات.

قلت: كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز بن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بثينة فقال: شديداً، واستنشده من أشعاره ومدائحه فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبينها فعاجلته المنية في سنة ثنتين وثمانين رحمه الله آمين.

وقد ذكر الأصمعي عن رجل أن جميلاً قال له: هل أنت مبلغ عني رسالة إلى حي بثينة ولك ما عندي؟ قال: نعم قال: إذا أنا مت فاركب ناقتي والبس حلتي هذه وأمره أن يقول أبياتاً منها:

قُومِي بُثَينةُ فاندُبِي بِعَوِيلِ وابكِي خَليلَكِ دُون كُلِ خَليلِ

فلما انتهى إلى حيّهم أنشد الأبيات. قال: فخرجت بثينة كأنها بدر بدا في دُجنة وهي تتثنى في مرطها فقالت له: ويحك إن كنت صادقا فقد قتلتني، وإن كنت كاذبا فقد فضحتني. فقلت: بلى والله صادق وهذه حلته وناقته، فلما تحققت ذلك صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي إليها يبكين معها، ثم صعقت مغشيّاً عليها، ثم أفاقت وهي تقول:

وإنّ سُلُوّي عَن جَمِيل لَسَاعةٌ مِنَ الدَّهرِ مَا حَانت ولا كَان حِينُهَا
سَواءٌ عَلَينا يا جَميل بن مَعْمَر إذا مِتّ بأساءُ الحَيَاةِ ولِينُهَا

قال الرجل: فما رأيت أكثر باكياً ولا باكية من يومئذٍ.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٥٦/١١] عنه أنه قيل له بدمشق: لو تركت الشعر وحفظت القرآن؟ فقال: هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مِنَ الشعر لَحِكمَةً».

■ **عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان أبو حفص القرشي التيمي:** أحد الأجواد والأمراء الأمجاد، فتحت على يديه بلدان كثيرة، وكان نائبا لابن الزبير على البصرة، وقد فتح كابل مع عبد الله بن خازم، وهو الذي قتل قطري بن الفجاءة.

روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما، وعنه عطاء بن أبي رباح، وابن عون.

ووفد على عبد الملك فتوفي بدمشق سنة اثنتين وثمانين. قاله المدائني.

وحُكي أن رجلا اشترى جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره فأحبها حباً شديداً وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ولم يبق له شيء سوى هذه الجارية، فقالت له الجارية: قد أرى ما بك من قلة الشيء، فلو بعتني وانتفعت بثمني صلح حالك، فباعها لعمر بن عبيد الله هذا - وهو يومئذ أمير البصرة - بمائة ألف درهم، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية، فأنشأت تخاطب مولاها الذي باعها.

هَنِيئاً لَكَ المَالُ الذي قد أخذتَه ولَم يَبق فِي كَفّيَّ إلا تَفَكُّري
أقُولُ لِنَفسِي وهي في كَربِ غَشيةٍ أقِلِّي فقد بَانَ الخَليطُ أو اكثِرِي
إذا لم يكن في الأمرِ عِندَكِ حِيلةٌ ولم تَجِدِي بُداً مِن الصَّبرِ فاصبِرِي

فأجابها سيدها وقال: -

ولَولا قُعُودُ الدَّهرِ بي عَنكِ لم يَكُن لِفُرقَتِنا شيءٌ سوى الموتِ فاعذُرِي
أأوبُ بِحُزنٍ مِن فِرَاقكِ مُوجَعٍ أناجِي بِه قَلباً طَويلَ التذكرِ
عَلَيكِ سلامٌ لا زِيارَة بيننا ولا وَصلٌ إلا أن يشاء ابن مَعمَرِ

فلما سمعهما ابن معمر قد شبيت قال: والله لا فرقت بين محبين أبداً، ثم أعطاه المال - وهو مائة ألف - والجارية لما رأى من توجعهما على فراق كل منهما صاحبه، فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق.

توفي عمر بن عبيد الله بن معمر هذا بدمشق بالطاعون، وصلى عليه عبد الملك بن مروان، ومشى في جنازته وحضر دفنه وأثنى عليه بعد موته، وكان له من الولد طلحة وهو من سادات قريش.

تزوج فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر على صداق أربعين ألف دينار، فأولدها إبراهيم ورملة، فتزوج رملة إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس على صداق مائة ألف دينار رحمهم الله.

■ كُميل بن زياد بن نهيك بن الهيثم النخعي الكوفي: روى عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي هريرة، وشهد مع علي صفين.

وكان عابدا زاهداً، قتله الحجاج في هذه السنة، وقد عاش مائة سنة قتله صبراً بين يديه، وإنما نقم عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه، فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه، فقال له الحجاج: أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص؟ ثم أمر فضربت عنقه.

قالوا: وذكر الحجاج عليا في غبون ذلك فنال منه وصلى عليه كميل، فقال له الحجاج: والله لأبعثن إليك من يبغض علياً أكثر مما تحبه أنت، فأرسل إليه ابن ادهم، وكان من أهل حمص، ويقال أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه.

وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله «القلوب أوعية فخيرها أوعاها» وهو طويل. قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات وفيه مواعظ وكلام حسن رضي الله عن قائله.

■ زاذان أبو عمرو الكندي: أحد التابعين كان أولا يشرب المسكر ويضرب بالطنبور، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله بن مسعود وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق، وخشية شديدة، حتى إذا كان في الصلاة كأنه خشبة.

وقال مرة: إني جائع فنزل عليه من الروزنة رغيف مثل الرحى.

وهو ثقة عند ابن معين وغيره.

قال خليفة [تاريخه: ٣٧٣/١]: توفي سنة ثنتين وثمانين.

قال خليفة: وفيها توفي

■ زر بن حبيش أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة.

وقال أبو عبيد: مات سنة إحدى وثمانين وقد تقدمت له ترجمة.

■ شقيق بن سلمة أبو وائل أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين، وأسلم في حياة النبي ﷺ.

■ أم الدرداء الصغرى: اسمها هجيمة ويقال: جهيمة تابعية عابدة عالمة فقيهة كان الرجال يقرؤون عليها، ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها مع المتفقهة يشتغل عليها وهو خليفة، رضي الله عنها.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متواقفون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم، والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة، وفي غالب الأيام تكون النُصْرة لأهل العراق على أهل الشام، حتى قيل: إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعاً وثمانين مرة يتصرون عليهم، ومع هذا فالحجاج ثابت مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذي هو فيه، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام تقدم بجيشه إلى نحر عدوه، وكان له خبرة بالحرب، ومازال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء، لأن الناس كانوا تبعاً لهم، وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم، فصبر القراء لحملة جيشه، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم، وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، ثم حمل على جيش ابن الأشعث فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فل قليل من الناس، فأتبعه الحجاج جيشاً كثيفاً مع عمارة بن تميم اللخمي ومعه محمد بن الحجاج والإمرة لعمارة، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلا أو أسراً، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم والكور والرساتيق، وهم في أثره حتى وصل إلى كرمان، واتبعه الشاميون فنزلوا في قصر كان فيه أهل العراق قبلهم، فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فروا معه من شعر أبي جلدة اليشكري يقول:

أيــا لَهَفـاً ويــا حُزنــا جَميعَــاً ... ويــا حَــرَّ الفُــؤاد لِمَــا لَقِينَـا
تَرَكنَـا الديـنَ والدُّنيـا جَميعـاً ... وأسـلمنَا الحَلائِـلَ والبَنِينَـا
فَمَـا كُنَّـا أُناسَـاً أهـلَ دُنيـا ... فَنَمنَعُهَـا ولـو لم نَـرجُ دِينَـا
تَرَكنـا دُورَنـا لطُغَـام عَـكٍّ ... وأنبَـاطِ القُـرى والأشـعرِينَا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وآمنه وعظمه.

قال الواقدي: ومر ابن الأشعث وهو ذاهب إلى بلاد رتبيل على عامل له في بعض المدن كان ابن الأشعث قد استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا وأنزله، فعل ذلك خديعة به ومكراً، وقال له: ادخل إلى عندي إلى البلد لتتحصن بها من عدوك ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة، فأجابه إلى ذلك، وإنما أراد المكر به، فمنعه أصحابه فلم يقبل منهم، فتفرق عنه أصحابه، فلما دخل المدينة وثب عليه العامل فمسكه وأوثقه بالحديد وأراد أن يتخذ به يداً عند الحجاج، وقد كان الملك رتبيل سر بقدوم ابن الأشعث، فلما بلغه ما حدث له من جهة ذلك العامل بمدينة بست، سار حتى أحاط ببست، وأرسل إلى عاملها يقول له: والله لئن آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستنزلك وأقتل جميع من في بلدك. فخافه ذلك العامل وسير إليه ابن الأشعث فأكرمه رتبيل، فقال ابن الأشعث لرتبيل: إن هذا العامل كان عاملي ومن جهتي، فغدر بي وفعل ما رأيت، فأذن لي في قتله، فقال: قد أمنته، وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان هو الذي يصلي بالناس هنالك في بلاد رتبيل، ثم إن جماعة من الفل الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه - وهم قريب من ستين ألفاً - فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رتبيل فتغلبوا على سجستان وعذبوا عاملها عبد الله بن عامر البعار وإخوته وقرابته، واستحوذوا على ما فيها من الأموال، وانتشروا في تلك البلاد وأخذوها، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث: أن أخرج إلينا حتى نكون معك ننصرك على من يخالفك، ونأخذ بلاد خراسان، فإن بها جنداً عظيماً منّا، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك، فنرى بعد ذلك رأينا. فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلا إلى نحو خراسان فاعتزله شرذمة من أهل العراق مع عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة، فقام فيهم ابن الأشعث خطيباً فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب، وقال: لا حاجة لي بكم، وأنا ذاهب إلى صاحبي رتبيل فأكون عنده. ثم انصرف عنهم وتبعه

طائفة منهم ويقي معظم الجيش، فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة الهاشمي.

وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ليمنعهم من دخول بلاده، وكتب إلى عبد الرحمن بن عباس يقول له: إن في البلاد متسعاً فاذهب إلى أرض ليس بها سلطان فإني أكره قتالك، وإن كنت تريد مالا بعثت إليك. فقال له: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب وليست بنا حاجة إلى حاجة مما عرضت، ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خراسان، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضل في جيوش كثيفة، فلما صافوهم اقتتلوا غير كثير ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عباس، وقتل يزيد منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم أسرى كثيرة واحتاز ما في معسكرهم، وبعث بالأسارى وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص إلى الحجاج، ويقال إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب: أسألك بدعوة أبي لأبيك لما أطلقتني. فأطلقه.

قال أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٣٧٤/٦]: ولهذا الكلام خبر فيه طول، ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث بدير الجماجم نادى مناديه في الناس: من رجع فهو آمن ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فلحق به خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأمنهم الحجاج، ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير على ما سيأتي بيانه.

وكان الشعبي من جملة من صار إلى قتيبة بن مسلم فذكره يوماً الحجاج فقيل له: إنه سار إلى قتيبة. فكتب إليه مسلم: أن ابعث لي بالشعبي قال الشعبي: فلما دخلت عليه سلمت عليه بالإمرة ثم قلت: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله تمردنا عليك، وحَرّضنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد الحجة علينا.

فقال الحجاج: أنت والله يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي. قال: فانصرفت فلما مشيت قليلا قال: هلم يا شعبي، قال: فوجل لذلك قلبي، ثم ذكرت قوله: قد أمنت يا شعبي فاطمأنت نفسي، فقال: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ - قال: وكان لي مكرماً- فقلت: أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت السهولة، واستوخمت الجناب، واستحلست الخوف، واستحليت الهم، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خَلَفاً. قال: انصرف يا شعبي، فانصرفت. ورواه أبو مخنف عن السَّري إسماعيل عن الشعبي [تاريخ الطبري: ٣٧٥/٦].

وروى البيهقي [السنن الكبرى: ٣٥٤/٦] أنه سأله عن المسألة الخرقاء في الفرائض وهي أم زوج وأخت وما كان يقوله فيها الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود، وكان لكل منهم قول فيها، فنقل ذلك كله الشعبي في ساعته فاستحسن قول علي وحكم بقول عثمان، وأطلق الشعبي بسبب ذلك.

وقيل: إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم إليه يزيد بن المهلب كما تقدم ذلك.

ثم سار إلى الكوفة فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال: اتشهد على نفسك أنك قد كفرت، فإذا قال: نعم بايعه، وإن أبى قتله، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبى أن يشهد على نفسه بالكفر، قال: فأتي برجل فقال الحجاج: ما أظن هذا يشهد على نفسه بالكفر لصلاحه ودينه - وأراد الحجاج مخادعته - فقال: أخادعي أنت عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون وهامان ونمروذ. قال: فضحك الحجاج وخلى سبيله.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٧٥/٦] من طريق أبي مخنف أن أعشى همدان أتي به إلى الحجاج - وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج وعبد الملك بن مروان ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه، فاستنشده إياها فأنشده قصيدة طويلة دالية، فيها مدح كثير لعبد الملك بن مروان وأهل بيته فجعل أهل الشام يقولون: قد أحسن أيها الأمير، فقال الحجاج: إنه لم يحسن، وإنما يقول هذا مصانعة، ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه.

واسم الأعشى هذا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث أبو المصبح الهمداني الكوفي الشاعر، أحد الفصحاء البلغاء المشهورين، وقد كان له فضل وعبادة في مبتدئه، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعرف به، وقد وفد على النعمان بن بشير وهو أمير بحمص فامتدحه، وكان محصوله في رحلته إليه منه ومن جند حمص أربعين ألف دينار، وكان زوج أخت الشعبي، كما أن الشعبي كان زوج أخته أيضاً، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث، فقتله الحجاج كما ذكرنا رحمه الله.

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث بعث كميناً يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه، ثم تواقف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره، فجاء ابن الأشعث فاحتاز ما في المعسكر وبات فيه، فجاءت السرية إليهم ليلا وقد وضعوا أسلحتهم فمالوا عليهم ميلة واحدة، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتالا شديداً، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير وغرق كثير منهم في دجلة ودجيل، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان، واحتازوه بكماله، وانطلق ابن الأشعث هارباً في ثلاثمائة من أصحابه فركبوا دجيلا في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة، ثم ساروا من هنالك إلى بلاد الترك، وكان في دخولهم بلاد رتبيل ما كان، ثم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث فقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل: إنه قتل منهم بين يديه صبراً مائة ألف وثلاثين ألفا. قاله النضر بن شميل عن هشام بن حسان، منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات حتى كان آخرهم سعيد ابن جبير رحمهم الله ورضي عنهم كما سيأتي ذلك في موضعه.

بناء واسط: قال ابن جرير [تاريخه: ٣٨١/٦، ٣٨٢]: وفي هذه السنة بنى الحجاج واسطاً، وكان سبب بنائه لها أنه رأى راهبا على أتان قد أجاز دجلة، فلما مر بموضع واسط وقفت أتانه فبالت، فنزل عنها وعمد إلى موضع بولها فاحتفره ورمى به في دجلة، فقال الحجاج: علي به، فأتي به فقال له: لم صنعت هذا؟ قال: إنا نجد في كتبنا أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه مادام في الأرض أحد يوحده، فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط في ذلك المكان وبنى المسجد في ذلك الموضع.

وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني المصري**، روى عن جماعة من الصحابة وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصص وبيت المال، وكان رزقه في العام ألف دينار، وكان لا يدخر منها شيئاً.

■ **طارق بن شهاب بن عبد شمس الأحمسي** ممن رأى النبي ﷺ وغزا في خلافة الصديق وعمر رضي الله عنهما بضعاً وأربعين غزاة، توفي بالمدينة هذه السنة.

■ **عبيد الله بن عدي بن الخيار**: أدرك النبي ﷺ، وحدث عن جماعة من الصحابة وكان من فقهاء قريش وعلمائهم، وأبوه عدي ممن قُتل يوم بدر كافراً.

■ **عبد الله بن قيس بن مخرمة**، كان قاضي المدينة، وتوفي بها في هذه السنة.

■ **مرثد بن عبد الله أبو الخير اليزني**.

وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع ابن الأشعث، منهم من هرب ومنهم من قتل في المعركة، ومنهم من أسر فضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله.

وقد سمى منهم خليفة بن خياط [تاريخه: ٣٧١/١، ٣٧٢] طائفة من الأعيان، فمنهم مسلم بن يسار المزني، وأبو مرّانة العجلي قتل، وعقبة بن عبد الغافر قتل، وعقبة بن وسّاج قتل، وعبد الله بن غالب الجهضمي قتل، وأبو الجوزاء الربعي قتل، والنضر بن أنس، وعمران والد أبي جمرة الضبعي، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي، ومالك بن دينار، ومرة بن دبّاب الهدادي وأبو نجيد الجهضمي، وأبو شيخ الهنائي، وسعيد بن أبي الحسن، وأخوه الحسن البصري.

قال أيوب: قيل لابن الأشعث: إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج عائشة يوم الجمل فأخرج الحسن معك، فأخرجه.

ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن شداد والشعبي، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، والمعرور بن سويد، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وأبو البختري، وطلحة بن مصرف، وزبيد بن الحارث اليامي، وعطاء بن السائب.

قال أيوب: فما منهم من أحد صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه.

ومن أعيان من قتل الحجاج: عمران بن عصام الضبعي، والد أبي جمرة، كان من علماء أهل البصرة، وكان صالحاً عابداً، أتي به أسيراً إلى الحجاج فقال له: اشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك، فقال: والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به. فأمر فضربت عنقه.

■ **عبد الرحمن بن أبي ليلى**، روى عن جماعة من الصحابة، ولأبيه أبي ليلى صحبة، أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب، خرج مع ابن الأشعث فأتي به الحجاج أسيراً فضرب عنقه بين يديه صبراً.

فأما

■ **مسلم بن يسار** فكان كثير العبادة والصيام، شديد الخشوع في الصلاة. وقع مرة حريق إلى جنبه وهو قائم يصلي فما شعر به. وانهدمت ناحية المسجد ففزع أهل المسجد لهدتها، وإنه لفي المسجد قائم يصلي فما التفت. قال ابنه: رأيته ساجداً، وهو يقول: متى ألقاك وأنت عني راض.

وكان إذا كان في غير صلاة كأنه في صلاة.

قال لأصحابه يوم التروية: هل لكم في الحج؟ فقالوا: خرف الشيخ، وعلى ذلك لنطيعنه. فخرجوا إلى الجبال برواحلهم، فقال: خلوا أزمتها. فأصبحوا، وهم ينظرون إلى جبال تهامة. قولهم (خرف) أي: تغير عقله من الكبر؛ لأنهم كانوا بالبصرة، وقد بقي للوقوف بعرفة يوم واحد، فعرض عليهم الحج وبينهم وبينه مسيرة أربعين يوماً وأربعين ليلة في ليلة واحدة.

وقال سليمان بن المغيرة: جاء مسلم بن يسار إلى دجلة وهي تقذف بالزبد وترمي بالخشب، فمشى على الماء ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون شيئاً؟ يعني أن أصحابه كانوا قد مشوا معه على الماء ببركته، فلما قطعوا دجلة أشفق أن يكون قد ذهب لهم شيء من أمتعتهم، فقال: هل تفقدون شيئاً؟

قال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار في منامي بعد موته فسلمت عليه فلم يرد علي السلام، فقلت له: ما لك لا ترد علي. فقال: أنا ميت، فكيف أرد عليك؟ فقلت: ماذا لقيت بعد الموت؟ قال: لقيت والله أهوالاً وزلازل شداداً عظاماً. فقلت: فما كان بعد ذلك؟ قال: فما تراه يكون من الكريم؛ قبل منا الحسنات، وعفا لنا عن السيئات وضمن عنا التبعات. ثم شهق مالك شهقة خر مغشياً عليه، فلبث أياماً مريضاً ثم مات.

قتل مسلم بن يسار في وقعة ابن الأشعث مع الحجاج.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال الواقدي: فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك بن مروان المصيصة.

وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية فقتل منهم خلقاً كثيراً وحرق كنائسهم وضياعهم وتسمى سنة الحريق.

وفيها استعمل الحجاج على فارس محمد بن القاسم الثقفي، وأمره بقتل الأكراد.

وفيها ولى عبد الملك الإسكندرية عياض بن غنم التُجيبي وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود الذي كان قد وليها في العام الماضي.

وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب من ذلك بلد أَوْرَبة، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً، وأسر نحواً من خمسين ألفاً.

وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من رؤساء أصحاب ابن الأشعث، منهم:

■ **أيوب بن القِرِّيّة**: وكان فصيحاً بليغاً واعظاً، قتله صبراً بين يديه، ويقال: إنه ندم على قتله.

وهو أيوب بن زيد بن قيس أبو سليمان الهلالي المعروف بابن القرية.

■ **عبد الله بن الحارث بن نوفل**. وسعد بن إياس الشيباني، وأبو عِنبة الخولاني. له صحبة ورواية، سكن حمص وبها توفي وقد قارب المائة سنة.

■ **عبد الله بن قتادة**. وغير هؤلاء جماعة منهم من قتلهم الحجاج.

ومنهم من توفي:

■ **أبو زرعة الجذامي الفلسطيني**، كان ذا منزلة عند أهل الشام فخاف منه معاوية ففهم منه ذلك أبو زرعة فقال: يا أمير المؤمنين لا تهدم ركناً بنيته، ولا تحزن صاحباً سررته، ولا تشمت عدواً كبته. فكف عنه معاوية.

وفيها توفي

■ **عتبة بن النُدّر السلمي**: صحابي جليل، كان يعد في أهل الصفة.

■ **عمران بن حطان الخارجي**، وقد كان أولاً من أهل السنة والجماعة

فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها، وكان هو دميم الشكل، فأراد أن يردها إلى السنة فأبت فارتد معها إلى مذهبها. وقد كان من الشعراء المطبقين، وهو القائل في قتل علي رضي الله عنه وقاتله:

يا ضَرْبَةً مِن تقيٍّ مَا أراد بهَا … إلا لِيبلُغَ مِن ذِي العرشِ رِضوَانا
إنـي لأذكُـرُهُ يَومـاً فأحسَـبُهُ … أوفـى البريـةِ عنـدَ اللّـهِ ميزَانـاً
أكرِمْ بِقَومٍ بُطُونُ الطَّيرِ قبرُهُم … لَم يَخلِطُوا دِينَهُم بَغياً وعُدوَانا

وقد كان الثوري يتمثل بأبياته هذه في الزهد في الدنيا وهي قوله:-

أرَى أشقِياءَ النَّاسِ لا يَسْأمُونَهَا … عَلَى أنهُم فِيهَا عُـرَاةٌ وجُـوَّعُ
أرَاهَـا وإن كـانت تُحَـبُّ فإنَّهَـا … سَحَابَةُ صَيـفٍ عَـن قَلِيـلٍ تَقشَّعُ
كَرَكْبٍ قَضَوا حَاجَاتِهِم وتَرَحَّلوا … طَرِيقهُـم بـادِي العَلامـةِ مَهيَـعُ

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين.

وقد رد عليه بعض العلماء في أبياته المتقدمة في قتل علي رضي الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها:

بَلْ ضَرْبَةٌ مِن شَقِيٍّ مَا أرَادَ بِهَا … إلا لِيبلُغَ مِن ذِي العَرشِ خُسرَانَا
إنـي لأذكُـرُه يَومـاً فأحسَـبُهُ … أشقَى البَرِيَّـةِ عِنْـدَ اللّـهِ مِيزَانَـا

■ **روح بن زنباع الجذامي**: كان من أمراء الشام وكان عبد الملك يستشيره في أموره.

وفيها كان مهلك

■ **عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي** وقيل في التي بعدها فالله أعلم.

وذلك وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى رتبيل ملك الترك الذي لجأ ابن الأشعث إليه يقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل، ولأخربنها.

فلما تحقق الوعيد من الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج دياره ويأخذ عامة أمصاره، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين، وأن لا يؤدي في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج، فأجابه الحجاج إلى ذلك.

وقيل: إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضه سبع سنين، فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث فقيل: إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج.

وقيل: بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً فقتله وهو بآخر رمق.

والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاد وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرُّخَّج، صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفر، فألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث وبعث برؤوسهم إلى الحجاج فأمر فطيف برأسه في العراق، ثم بعثه إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر وجثته بالرُّخَّج، وقد قال بعض الشعراء في ذلك:

هَيهَاتَ مَوضِعُ جُثَّةٍ مِن رَأسِهَا … رَأسٌ بِمِصرَ وجُثَّةٌ بالرُّخَّجِ

وإنما ذكر ابن جرير [تاريخه: ٦/٣٨٩] مقتل ابن الأشعث في سنة خمس وثمانين فالله أعلم.

وعبد الرحمن هذا هو ابن محمد بن الأشعث بن قيس، ومنهم من يقول عبد الرحمن بن قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الكوفي.

قد روى له أبو داود [٣٥١١] والنسائي [٤٦٦٢] عن أبيه عن جده عن ابن مسعود حديث «إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو يتاركان».

وعنه أبو العميس ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة فالله أعلم. والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنما هو كندي من اليمن، وقد أجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولا ثم رجع عنه، كما قررنا ذلك فيما تقدم. فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير هلك فيه خلق كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون.

■ **أيوب بن القِرِّيَّة**: وهي أمه. واسم أبيه يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمري الهلالي.

كان أعرابياً أمياً، وكان يضرب به المثل في فصاحته وبيانه وبلاغته، صحب الحجاج ووفد على عبد الملك، ثم بعثه رسولا إلى ابن الأشعث فقال له ابن الأشعث: لئن لم تقم خطيباً فتخلع الحجاج لأضربن عنقك. ففعل وأقام عنده، فلما ظهر الحجاج استحضره وجرت له معه مقامات ومقالات في الكلام، ثم في آخر الأمر ضرب عنقه وندم بعد ذلك على ما فعل من ضرب عنقه، ولكن ندم حيث لا ينفعه الندم. كما قيل:

وجـادت بوصـل حـين لاينفـع الوصـل

وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه [١٠/١٤٠] وابن خلكان في الوفيات [١/٢٥٠] وأطال ترجمته وذكر فيها أشياء حسنة، قال: والقرِّيَّة بكسر القاف وتشديد الياء وهي جدته واسمها جماعة بنت جشم.

قال ابن خلكان [١/٢٥٤]: ومن الناس من أنكر وجوده ووجود مجنون ليلى.

وابن أبي العقب صاحب الملحمة، وهو يحيى بن عبد الله بن أبي العقب والله أعلم.

■ **روح بن زنباع بن سلامة الجذامي** أبو زرعة ويقال أبو زنباع الدمشقي داره بدمشق في طرف البزوريين عند دار أبي عقب صاحب الملحمة. وهو تابعي جليل، روى عن أبيه - وكانت له صحبة - وتميم الداري، وعبادة بن الصامت ومعاوية وكعب الأحبار وغيرهم، وعنه جماعة منهم عبادة بن نسي.

كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين، وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة، ولم يتابع مسلم على هذا القول.

والصحيح أنه تابعي وليس بصحابي.

ومن مآثره التي تفرد بها أنه كان كلما خرج من الحمام يعتق نسمة.

قال ابن زَبْر: مات سنة أربع وثمانين بالأردن. وزعم بعضهم أنه بقي إلى أيام هشام بن عبد الملك، وقد حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان، ثم وضعت بين يديه، فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء، فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام، فجاء الراعي فنظر إلى طعامه وقال: إني صائم، فقال له روح: في مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم يا راعي؟ فقال الراعي: أفاغبن أيامي من أجل طُعَيِّمِكَ؟ ثم إن الراعي ارتاد لنفسه مكاناً فنزله وترك روح بن زنباع، فقال روح بن زنباع: ـ

لَقَدْ ضَنَنْتَ بِأَيَّامِكَ يَا رَاعِي ... إِذْ جَادَ بِهَا رَوْح بْنُ زِنْبَاعِ

ثم إن روحاً بكى طويلا وأمر بتلك الأطعمة فرفعت، وقال: انظروا هل تجدون لها آكلاً من هذه الأعراب أو الرعاة؟ ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعي بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها كما ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٨٩/٦] كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث الكندي فالله أعلم.

وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب.

وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك فلما انصرف مر بدير فقيل له: إن فيه شيخاً من أهل الكتاب عالماً، فدعي له فقال: يا شيخ هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه؟ قال: نعم. قال له: فما تجدون صفة أمير المؤمنين؟ قال: نجده ملكاً أقرع، من يقم في سبيله يصرع، قال: ثم من؟ قال: ثم رجل يقال له الوليد، قال: ثم ماذا؟ قال: ثم رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس، قال: أتعرفني فتعرفني؟ قال: قد أخبرت بك. قال: أفتعرف ما إلي؟ قال: نعم! قال: فمن يلي العراق بعدي؟ قال: رجل يقال له يزيد، قال: أفي حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري، قال: أفتعرف صفته؟ قال: يغدر غدرة لا أعرف غيرها قال: فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب، وسار سبعاً وهو وجل من كلام الشيخ. ثم بعث إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده. فجاء الكتاب بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه.

ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى بعبيد بن موهب فدخل عليه وهو ينكت في الأرض فرفع رأسه إليه فقال: ويحك يا عبيد، إن أهل الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي يليه رجل يقال له: يزيد، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن نمير ويزيد بن دينار فليسوا هناك، وما هو - إن كان - إلا يزيد بن المهلب. فقال عبيد: لقد شرفتهم وعظمت ولايتهم، وإن لهم لعدداً وجلداً وحظاً فأخلق به، فأجمع رأي الحجاج على عزل يزيد بن المهلب، فكتب إلى عبد الملك يذمه ويخوفه غدره ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ، وكتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في شأن يزيد فسم رجلا يصلح لخراسان، فوقع اختيار الحجاج على المفضل بن المهلب فولاه قليلا تسعة أشهر، فغزا باذغيس وغيرها وغنم مغانم كثيرة، وامتدحه الشعراء ثم عزله بقتيبة بن مسلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٩٨/٦]: وفي هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ، ثم ذكر سبب ذلك وملخصه:

أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه، فجعل كلما اقترب من بلدة خرج إليه ملكها فقاتله، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريبا من ترمذ وكان ملكها فيه ضعف، فجعل يهادنه ويبعث إليه بالألطاف والتحف، حتى جعل يتصيد هو وهو، ثم عنّ للملك فعمل له طعاماً وبعث إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتني في مائة من أصحابك. فاختار موسى من جيشه مائة من شجعانهم، ثم دخل البلد، فأكل من طعام الملك، فلما فرغت الضيافة اضطجع موسى على جنبه في دار الملك وقال: والله لا أقوم من هنا حتى يكون هذا المنزل منزلي أو يكون قبري. فثار أهل القصر إليه فحاجف عنه أصحابه، ثم وقعت الحرب بينهم وبين أهل ترمذ، فاقتتلوا فقتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم، واستدعى موسى بقية جيشه إليه واستحوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الأعداء، وخرج منها ملكها هارباً فلجأ إلى إخوانه من الأتراك فاستنصرهم فقالوا له: هؤلاء قوم في نحو من مائة رجل أخرجوك من بلدكم، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء. ثم ذهب ملك ترمذ إلى طائفة أخرى من الترك فاستنصرخهم فبعثوا معه قصاداً نحو موسى ليسمعوا كلامه، فلما أحس بقدومهم عليه ـ وكان ذلك في شدة الحر ـ أمر أصحابه أن يؤججوا ناراً ويلبسوا ثياب الشتاء ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يصطلون بها، فلما وصلت إليه الرسل رأوا أصحابه وما يصنعون في شدة الحر فقالوا لهم: ما هذا الذي تفعلونه؟ فقالوا لهم: إنا نجد البرد في الصيف والكرب في الشتاء، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ما هؤلاء بشر! ما هؤلاء إلا جن! ثم عادوا إلى ملكهم فأخبروه بما رأوا فقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء. ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجاش بطائفة أخرى فجاؤوا فحاصرهم بترمذ وجاء الخزاعي فحاصرهم أيضاً، فجعل يقاتل الخزاعي أول النهار ويقاتل آخره العجم، ثم إن موسى بيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وأفزع ذلك عمر الخزاعي فصالحه وكان معه، فدخل يوماً عليه وليس عنده أحد، وليس يرى معه سلاحاً فقال على وجه النصح: أصلح الله الأمير، إن مثلك لا ينبغي أن يكون بلا سلاح، فقال: إن عندي سلاحاً، ثم رفع صدر فراشه فإذا سيفه منتضى فأخذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هارباً، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبد الله بن خازم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٢/٦]: وفي هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمرة الديار المصرية، وحسن له ذلك روح بن زنباع الجذامي، فبينما هما في ذلك إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب في الليل، وكان لا يحجب عنه أي ساعة جاء من ليل أو نهار، فعزاه في أخيه عبد العزيز فندم على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وذلك عن رأي الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك، كان أبوه مروان عهد بالأمر من بعده إلى عبد الملك ثم من بعده إلى عبد العزيز، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الإمرة من بعده بالكلية، ويجعل الأمر في أولاده وعقبه، وأن تكون الخلافة باقية فيهم، والله أعلم.

عبد العزيز بن مروان رحمه الله تعالى

هو

■ عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الأصبغ القرشي الأموي. ولد بالمدينة ثم دخل الشام مع أبيه مروان بن الحكم، وكان ولي عهده من بعد أخيه عبد الملك، وولاه أبوه إمرة الديار المصرية في سنة خمس وستين فكان والياً عليها إلى هذه السنة وشهد قتل عمرو بن سعيد بن العاص كما قدمنا، وكانت له دار بدمشق وهي الدار التي للصوفية اليوم، المعروفة بالخانقاه السميساطية ثم كانت من بعده لولده عمر بن عبد العزيز، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاها للصوفية.

وقد روى عبد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبي هريرة، وحديثه عنه في مسند أحمد [٣٠٢/٢، ٣٢٠] وسنن أبي داود [٢٥١١] أن رسول الله ﷺ قال «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌ هالعٌ وجُبنٌ خالعٌ». وعنه ابنه عمر والزهري وعلي بن رباح وجماعة.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٣٦/٥]: كان ثقة قليل الحديث، وقال غيره: كان يلحن في الحديث وفي كلامه، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها فكان من أفصح الناس، وكان سبب ذلك أنه دخل عليه رجل يشكو ختنه - وهو زوج ابنته - فقال له عبد العزيز: مَنْ خَتَنَكَ؟ فقال الرجل: ختني الخاتن الذي يختن الناس، فقال لكاتبه: ويحك بماذا أجابني؟ فقال الكاتب: يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول: من خَتَنُك؟ فآلى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية، فمكث جمعة واحدة فتعلمها فخرج وهو من أفصح الناس، وكان بعد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه وينقص عطاء من يلحن فيه، فتسارع الناس في زمانه إلى تعلم العربية.

قال عبد العزيز يوماً لرجل: ممن أنت؟ فقال: من بنو عبد الدار، فقال: تجدها في جائزتك، فنقصه مائة دينار.

وقال أبو يعلى الموصلي [مسنده: (٥٧٣٠)]: حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم قال: كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر: ارفع إليّ حاجتك. فكتب إليه ابن عمر: إن رسول الله ﷺ قال: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِن اليَدِ السُّفْلَى وابدأ بِمَن تَعُول». ولست أسالك شيئاً ولا أرد رزقاً رزقنيه الله عز وجل منك.

وقال ابن وهب: حدثني يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس قال: بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر قال: فجئته فدفعت إليه الكتاب فقال: أين المال؟ فقلت: لا أستطيعه الليلة حتى أصبح. قال: لا والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار، قال: فدفع إلي الكتاب حتى جئته بها ففرقها رضي الله عنه.

ومن كلامه رحمه الله: عجباً لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه، كيف يحبس مالاً عن عظيم أجر وحسن سماع.

ولما حضرته الوفاة أحضر له مالٌ يحصُه وإذا هو ثلاثمائة مُدْيٍ من ذهب، فقال: والله لوددت أنه بعر حائل بنجد، وقال: والله لوددت أنـي لم أكن شيئا مذكوراً، ولوددت أن أكون هذا الماء الجاري، أو نباتة بأرض الحجاز، وقال لهم: ائتوني بكفني الذي تكفنوني فيه، فجعل يقول: أف لك ما أقصر طويلك، وأقل كثيرك.

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٤٣٣/٣] عن ابن بكير عن الليث كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٦/٤٣٠]: وهذا وهم من يعقوب بن سفيان والصواب سنة خمس وثمانين، فإنه مات قبل عبد الملك أخيه، ومات عبد الملك سنة ست وثمانين.

وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء كريماً جواداً ممدحاً، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وقد اكتسى عمر أخلاق أبيه وزاد عليه بأمور كثيرة.

وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر، عاصم وأبو بكر ومحمد والأصبغ - مات قبله بقليل فحزن عليه حزناً كثيراً ومرض بعده ومات.

وسهيل وكان له عدة بنات، أم محمد وأم عثمان وأم الحكم وأم البنين وهن من أمهات شتى، وله من الأولاد غير هؤلاء.

مات بالمدينة التي بناها على مرحلة من مصر وحمل إلى مصر في النيل ودفن بها، وقد ترك عبد العزيز بن مروان من الأموال والأثاثوالدواب من الخيل والبغال والإبل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف، من جملة ذلك ثلاثمائة مد من ذهب غير الورق، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة، فإنه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤١٤/٦] أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد أو يكون ولي العهد من بعده، فإنه أعز الخلق علي، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد. فكتب إليه عبد الملك يأمره بحمل خراج مصر - وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه شيئاً من الخراج ولا غيره، وإنما كانت بلاد مصر بكمالها وبلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز، مغانمها وخراجها وحملها - فكتب عبد العزيز إلى أخيه عبد الملك: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لا تُغَثِّثَ عليّ بقية عمري فافعل. فرق له عبد الملك وكتب إليه: لعمري لا أُغَثِّثَ عليك بقية عمرك.

وقال عبد الملك لابنه الوليد: إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك، وقال لابنيه الوليد وسليمان: هل قارفتما محرماً أو حراماً قط؟ قالا: لا والله، فقال: الله أكبر، نلتماها ورب الكعبة. ويقال: إن عبد الملك لما امتنع أخوه عبد العزيز من إجابته إلى ما طلب منه من بيعته لولده الوليد دعا عليه وقال: اللهم إنه قطعني فاقطعه. فمات في هذه السنة كما ذكرنا، فلما جاء الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليلا حزن وبكى وبكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز، ولكن سره ذلك من جهة ابنيه الوليد وسليمان فإنه نال فيهما ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما العهد من بعده.

وقد كان الحجاج كتب إلى عبد الملك يُزَيّن له ولاية الوليد من بعده، وأوفد إليه وفداً في ذلك عليهم عمران بن عصام العَنَزي، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فتكلم وتكلم الوفد وحثوا عبد الملك على ذلك وأنشد عمران بن عصام في ذلك:

أَمِيرَ المُؤمِنينَ إليكَ نُهدِي ... عَلَى النَّأي التَّحِيةَ والسَّلامَا
أجِبْنِي في بَنِيكَ يَكُن جَوَابِي ... لَهُم عَادِيَّةً ولَنَا قِوامَا
فَلَو أن الوَلِيدَ أطَاعَ فِيهِ ... جَعَلتَ لَه الخِلافَةَ والذِّمَامَا
شَبِيهكَ حَولَ قُبَّتِه قُرَيشٌ ... بِهِ يَستَمطِرُ النَاسُ الغَمَامَا
ومِثلُكَ فِي التُّقَى لم يَصْبُ يَومَاً ... لَدُن خَلَعَ القَلائِدَ والتَّمَامَا
فَإن تُؤثِر أخَاكَ بِهَا فَإنَّا ... وجَدِّكَ لا نُطِيقُ لَها اتهامَا

وَلَكِنّـا نُحَـاذِرُ مِـنْ بَنِيـهِ		بَنِي العَلاّتِ مَـأثرَةً سَـمَامَا
ونَخْشَى إن جَعلتَ المُلكَ فيهم		سَحَاباً أن تعودَ لهم جَهَامَا
فَلا يَكُ ما حَلبتَ غداً لِقَومٍ		وبَعدَ غدٍ بَنُوكَ هُمُ العِيَامَا
فَأُقسِمُ لو تَخَطّاني عِصَامٌ		بِذلكَ ما عَذَرتُ به عِصَامَا
ولو أني حَبَوتُ أخاً بفَضلٍ		أُريدُ به المَقَالةَ والمُقَامَا
لَعَقَّبَ في بَنِيَّ عَلى بَنِيهِ		كَذلكَ أو لَرُمتُ لَهُ مَرَامَا
فَمَن يَكُ في أقاربِهِ صُدُوعٌ		فَصَدعُ المُلكِ أبطُؤهُ التِئامَا

قال: فهاجه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد، فأبى عليه، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحد، فتمكن حينئذ مما أراد من بيعة الوليد وسليمان والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم من بعده لأخيه سليمان

وكان ذلك في هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان، بويع له بدمشق ثم في سائر الأقاليم ثم لسليمان من بعده، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع في حياة عبد الملك لأحد، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضرب ستين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر وأركبه جملا وطاف به في المدينة، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب - وهي الثنية التي كانوا يُصلبون عندها ويقتلون - فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة فأودعوه السجن، فقال لهم: والله لو أعلم أنكم لا تقتلونني لم ألبس هذا التُّبان.

ثم كتب هشام بن إسماعيل المخزومي إلى عبد الملك يعلمه بمخالفة سعيد بن المسيب في ذلك، فكتب إليه يعنفه في ذلك ويأمره بإخراجه ويقول له: إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف.

ويروى أنه قال له: ما ينبغي إلا أن يبايع، فإن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله.

وذكر الواقدي أن سعيداً -رحمه الله- لما جاءت بيعة عبد الله بن الزبير إلى المدينة امتنع من البيعة فضربه نائبها في ذلك الوقت - وهو جابر بن الأسود بن عوف - ستين سوطاً أيضاً وسجنه فالله أعلم.

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدي: وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي نائب المدينة، وكان على العراق والمشرق بكماله الحجاج.

قال شيخنا الحافظ الذهبي [تاريخ الإسلام: ص٢٢]:

وتوفي في هذه السنة

■ أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة، كان من فقهاء المدينة العشرة، قاله يحيى بن القطان.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٢/٥، ١٥٣] كان ثقة وكان به صمم ووضح كثير، وأصابه الفالج قبل أن يموت.

■ عبد الله بن عامر بن ربيعة.

■ عمرو بن حريث.

■ عمرو بن سلمة.

و■ واثلة بن الأسقع، قال الواقديُّ ويحيى بنُ معين: كان يسكُنُ الصُفّةَ في زمنِ النبيِّ ﷺ. قال الواقديُّ: أسلَم واثلةُ والنبي ﷺ يتجهَّزُ إلى تبوك في آخِرِ الأمرِ.

قال واثلةُ: قال لنا رسولُ اللّهِ ﷺ: كيف أنتم بعدي إذا شبعتم من خبزِ البُرِّ والزيت، فأكلتُم الطعام، ولبستُم أنواع الثياب، فأنتم اليومَ خيرٌ أم ذلكَ اليومُ؟». قال: قُلنا: ذلك اليومُ. قال: «بل أنتم اليومَ خيرٌ». قال واثلةُ: فما ذهَبتْ عنّا الأيامُ حتى أكلْنا ألوانَ الطعامِ، ولبِسْنا أنواعَ الثِّياب وركِبنا المراكب.

شهد واثلة تبوك ثم شهد فتح دمشق ونزلها، ومسجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة، وهو آخر من توفي بدمشق من الصحابة؛ قاله سعيد بن بشير، وقد قال البخاري وغيره أنه توفي سنة ثلاث وثمانين. والله أعلم.

■ خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر ابن حرب بن أمية، كان أعلم قريش بفنون العلم، وله يد طولى في الطب، وكلام كثير في الكيمياء، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانس، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً مطبقاً كأبيه، دخل يوماً على عبد الملك بن مروان بحضرة الحكم بن أبي العاص فشكى إليه أن ابنه الوليد يحتقر أخاه عبد الله بن يزيد، فقال عبد الملك: ﴿إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلوا قريةً أفسَدُوهَا وجَعَلُوا أعِزّةَ أهلِهَا أذِلّةً﴾ [النمل: ٣٤] فقال له خالد: ﴿وإذا أرَدْنَا أن نُهلِكَ قريةً أمَرنا مُترفِيهَا فَفَسَقُوا فيها فَحَقّ عَليها القَولُ فَدَمّرنَاهَا تَدميرًا﴾ [الإسراء: ١٦] فقال عبد الملك: والله لقد دخل عليَّ أخوك عبد الله فإذا هو لا يقيم اللحن، فقال خالد: والوليد لا يقيم اللحن، فقال عبد الملك: إن أخاه سليمان لا يلحن، فقال خالد: وأنا أخو عبد الله لا ألحن، فقال الوليد - وكان حاضراً - لخالد بن يزيد: اسكت، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين! ثم أقبل خالد على الوليد فقال: ويحك وما هو العير والنفير غير جدي أبي سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات وحُبيلات والطائف، ورحم الله عثمان، لقلنا: صدقت - يعني أن الحكم كان منفياً بالطائف يرعى غنماً ويأوي إلى حبلة الكرم حتى آواه عثمان بن عفان حين ولي - فسكت الوليد وأبوه ولم يحيرا جواباً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها غزا قتيبة بن مسلم نائب الحجاج على مرو وخراسان، بلاداً كثيرة من أرض الترك وغيرهم من الكفار، وسبى وغنم وسلم وتسلم قلاعاً وحصوناً وممالك، ثم قفل فسبق الجيش، فكتب إليه الحجاج يلومه على ذلك ويقول له: إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش، وإذا قفلت راجعاً فكن في ساقة الجيش - يعني لتكون ردءاً لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد - وهذا رأي حسن وعليه جاءت السنة، وكان في جملة السبي امرأة برمك - والد خالد بن برمك - فأعطاها قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم فوطئها فحملت منه، ثم إن قتيبة منَّ على السبي وردت تلك المرأة على زوجها برمك وهي حبلى من عبد الله بن مسلم، وكان ولدها عندهم حتى أسلموا فقدموا به معهم أيام بني العباس

كما سيأتي. ولما رجع قتيبة إلى خراسان تلقاه دهاقين بلغار وصاغان بهدايا عظيمة، ومفتاح من ذهب بلغار.

وفيها كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ويسمى طاعون الفتيات، لأنه أول ما بدأ بالنساء فسمي بذلك.

وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وسلم وافتتح حصن بولق وحصن الأخرم من أرض الروم.

وفيها عقد عبد الملك لابنه عبد الله على مصر وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز فدخلها في جمادى الآخرة، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة.

وفيها هلك ملك الروم الأخرم بورى لا رحمه الله.

وفيها حبس الحجاج يزيد بن المهلب.

وحج بالناس فيها هشام بن إسماعيل المخزومي.

وفي هذه السنة توفي

■ أبو امامة صدي بن عجلان الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي في قول، شهد فتح مصر وسكنها وهو آخر من مات من الصحابة بمصر وله أحاديث.

وفيها في النصف من شوالها توفي أمير المؤمنين.

■ عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو الوليد الأموي أمير المؤمنين وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية. سمع عثمان بن عفان، وشهد الدار مع أبيه وله ابن عشر سنين، وهو أول من سار بالناس في بلاد الروم سنة ثنتين وأربعين وكان أميراً على أهل المدينة، وله ست عشرة سنة، ولاه إياها معاوية.

وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة.

وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان.

ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سماه القاسم فكان يكنى بأبي القاسم، فلما بلغه النهي عن التكني غيَّر اسمه فسمّاه سماه عبد الملك.

قال ابن أبي خيثمة عن مصعب بن الزبير: وكان أول من سمي في الإسلام بعبد الملك.

قال ابن أبي خيثمة: وأول من سمي في الإسلام بأحمد والد الخليل بن أحمد العروضي.

وبويع له بالخلافة في سنة خمس وستين في حياة أبيه في خلافة ابن الزبير، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين، وابن الزبير على باقي البلاد، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير، وذلك في سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة كما ذكرنا ذلك، وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ست وعشرين.

وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر. وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له أبو الذّبان.

وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين أشهل كبير العينين دقيق الأنف مشرق الوجه أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب، ويقال: إنه خضب بعد ذلك.

وقد قال نافع: لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ابن مروان.

وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذويب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة.

وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أباً ـ يعني عبد الملك.

ورآه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس، فقال: لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه.

وقال عبد الملك: كنت أجالس بريرة بالمدينة قبل أن أولِيَ هذا الأمر فكانت تقول: يا عبد الملك إن فيك خصالا، وإنك لجدير أن تلي أمر هذه الأمة، فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرّجُلَ لَيُدفَعُ عَن بَابِ الجَنة بَعدَ أن يَنظُرَ إليها عَلى مَحجَمَة مِن دَم يُرِيقُه مِن مُسلِم بِغَير حَق».

وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمرو بن العاص في قصة طويلة.

وقال سعيد بن داود الزّنبري عن مالك عن يحيى بن سعيد قال: كان أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه، فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم.

إنما العبادة التفكر في أمر الله والورع عن محارم الله.

وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

وذكر خليفة بن خياط [تاريخه: ٢٤٧/١] أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خليج، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئا كثيراً.

ولم يزل عبد الملك مقيما بالمدينة حتى كانت وقعة الحرة، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز، وأجلى بني أمية من هنالك، فقدم مع أبيه إلى الشام، ثم لما صارت الإمارة إلى أبيه وبايعه أهل الشام كما تقدم أقام في الإمارة تسعة أشهر ثم عهد إليه بالإمارة من بعده، فاستقل عبد الملك بالخلافة في مستهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين في جمادى الأولى إلى هذه السنة.

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: لما سلّم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف فاطبقه وقال: هذا فراق بيني وبينك.

وقال أبو الطفيل: صنع لعبد الملك مجلس توسّع فيه، وقد كان بني له فيه قبة قبل ذلك، فدخله وقال: لقد كان ابن حنتمة الأحوزي - يعني عمر بن الخطاب ـ يرى أن هذا عليه حرام.

وقيل: إنه لما وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك.

وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء، وكان عمّاله على مذهبه؛ منهم الحجاج والمهلب وغيرهم وكان حازماً فهماً فطناً سائساً لأمور الدنيا، لا يكل أمر دنياه إلى غيره.

وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وأبوها معاوية هو

الذي جدع أنف حمزة عم النبي ﷺ يوم أحد.

وقال سعيد بن عبد العزيز: لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير خرج معه يزيد بن الأسود الجرشي، فلما التقوا قال: اللّهم احجز بين هذين الجبلين، وول الأمر أحبهما إليك. فظفر عبد الملك وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً ودخوله الكوفة ووضعه رأس مصعب بين يديه وقد كان من أعز الناس عليه وأحبُّهم إليه.

قال سعيد بن عبد العزيز: لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عمر إلى عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين! سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنك راع وكل راع مسؤول عن رعيته ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ [النساء: ٨٧] لا أحد. والسلام.

ويعث به مع سالم فوجدوا عليه إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين، ثم نظروا في كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك، فاحتملوا ذلك منه.

وقال الواقدي: حدثني ابن أبي سبرة عن أبي موسى الحنّاط عن أبي كعب قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: يا أهل المدينة أنّ أحق الناس أن يلزم الأمر الأول لأنتم، وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن، فالزموا ما في مصحفكم الذي جمعكم عليه الإمام المظلوم، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله، فإنه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشير كان للإسلام رحمه الله، فاحكما ما أحكما، وأسقطا ما شذ عنهما.

وقال ابن جريج عن أبيه: حج علينا عبد الملك بن مروان سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين، فخطبنا فقال: أما بعد فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويؤكِلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأبون ـ يعني يزيد بن معاوية ـ أيها الناس إنا نحتمل لكم كل اللُّغوبة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه، وقرابته قرابته. قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء، فليبلغ الشاهد الغائب.

وقال الأصمعي: حدثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده. قال: ركب عبد الملك بن مروان بكراً فأنشأ قائده يقول: ـ

يا أيها البَكْرُ الذي أراكا ... عَليكَ سَهلَ الأرض في مَمْشَاكَا
وَيْحَكَ هَل تعلمُ مَن عَلاكَا ... خليفةُ اللّه الذي امتَطَاكَا
لم يَحْبُ بَكراً مثل ما حَبَاكَا

فلما سمعه عبد الملك قال: إيهاً يا هناه، قد أمرت لك بعشرة آلاف.

وقال الأصمعي: خطب عبد الملك فحصر فقال: إن اللسان بضعة من الإنسان، وإنا لا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً، ونحن أمراء الكلام، فينا رسخت عروقه، وعلينا تهدّلت أغصانه، وبعد مقامنا هذا مقام، وبعد عيِّنا هذا مقال، وبعد يومنا هذا أيام، يعرف فيها فصل الخطاب ومواقع الصواب.

قال الأصمعي: قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب، فقال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين؟.

وقال غيره قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب، فقال: شيَّبني كثرة ارتقاء المنبر ومخافة اللحن؟.

ولحن رجل عند عبد الملك فقال له آخر: زِدْ ألِفاً فقال له عبد الملك: وأنت فزد ألفاً.

وقال الزهري: سمعت عبد الملك يقول في خطبته: إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه.

وروى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة: سبحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبروا بنا حتى نأتي تلك الحجر، ونحو ذلك.

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل.

وقال غير واحد: كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيافون على رأسه بالسيوف فينشد، وقال بعضهم: يأمر من ينشد فيقول:

إنا إذا نالت دَواعِي الهَوى ... وانصتَ السَامِعُ للقَائلِ
واصطَرعَ الناسُ بألبابهم ... نقضي بحُكمٍ عادِلٍ فاصِلِ
لانجعل الباطل حقاً ولا ... نَلُطُّ دون الحق بالباطلِ
نخاف أن تسفه أحلامنا ... فَنَخْمَلَ الدَّهرَ مع الخامِلِ

وقال الأعمش: أخبرني محمد بن الزبير أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه: لو أن رجلا آوى عيسى ليلة واحدة أو خدمة فعرفته النصارى لنزل عندهم، ولعرفوا ذلك له، ذلك، ولو أن رجلا خدم موسى أو رآه فعرفته اليهود فذكر نحوه. وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه وإن الحجاج قد أضر بي وفعل وفعل، قال: فأخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ويلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير وجهه ثم قال إلى حامل الكتاب: انطلق بنا إليه نترضاه.

وقال أبو بكر بن دريد: كتب عبد الملك إلى الحجاج في أيام ابن الأشعث: إنك أعز ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه، وإذا عززت بالله فاعف له، فإنك به تعز وإليه ترجع.

وقال بعضهم: سأل رجل عبد الملك أن يخلو به فأذن لأصحابه بالانصراف، فلما تهيّأ الرجل ليتكلم قال له عبد الملك: إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليَّ بأحد وإن شئت أقلتك، فقال الرجل: أقلني. فأقاله.

وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق: اعفني من أربع وقل ما شئت، لا تطرني، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه، ولا تكذبني، ولا تحملني على الرعية فإنهم إلى رأفتي ومعدلتي أحوج.

وقال الأصمعي عن أبيه قال: أُتي عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك، فقال: وما جزاؤك؟ فقال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت عليك خيراً لك من مائة ألف معك تنصحك، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه، وكنت مع فلان فقتل، وكنت مع فلان فهزم ـ حتى عد جماعة من الأمراء ـ فضحك وخلى سبيله.

وقيل لعبد الملك: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة، وترك النصرة عن قوة.

وقال أيضاً: لا طمأنينة قبل الخبرة، فإن الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم.

وقال: خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذماً، ولا يقولن أحدكم: ابدأ بمن تعول، فإن الخلق كلهم عيال الله.

وينبغي أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث.

وقال المدائني: قال عبد الملك لمؤدب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ـ: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السُّفلة فإنهم أسوأ الناس رعةً وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عَرْضاً، ويمصوا الماء مصاً، ولا يعبوا عباً، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم.

وقال الهيثم بن عدي: أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذناً خاصاً، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدر أين ذهب، وإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الإنسانُ إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحْكُم بَينهم بالحَقِ ﴿ولا تَتّبعِ الهَوى فَيُضِلَّـكَ عَـن سَبيلِ اللّـهِ، إنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبيلِ اللّه لَهم عَذَابٌ شَديدٌ بِمَـا نَسُوا يَـومَ الحِسَـابِ﴾ [ص: ٢٦] ﴿ألا يَظُنُّ أولَئكَ أنهُم مَبعُوثُون لِيـوم عظيـم، يَـومَ يَقـومُ النـاسُ لِربِ العَالَمين﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦] ﴿ذَلكَ يَومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذَلكَ يَـومٌ مَشْهُود﴾ ومَا نُؤَخِرهُ إلا لأَجَلٍ مَعدُود﴾ [هود: ١٠٤، ١٠٥] أنّ الـذي أنـت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك، ﴿فَتِلكَ بيُوتُهُم خَاوِيَةً بِمَـا ظَلَمُـوا﴾ [النمل: ٥٢] وإنني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وأزوَاجَهُم﴾ [الصافات: ٢٢] ﴿أنْ لَعنَةُ اللّـهِ عَلى الظَّـالِمين﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: فتغير وجه عبد الملك فدخل دار حرمه ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياماً.

وكتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتاباً وفي آخره: ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلم به الأولون:

إذا الرِّجـالُ وَلَـدَتْ أولادَهـا ... وبَلِيَـتْ مِـن كِـبَرٍ أجسَـادُها

وجَعلَـتْ أسـقَامُها تعتَادُهـا ... تلكَ زُرُوعٌ قـد دَنَـا حَصَادُهـا

فلما قرأ عبد الملك بكى حتى بلّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق زر، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق.

وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال: إيهاً عن ذكر عمر فإنه إزراء على الولاة مفسدة للرعية.

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده قال: كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطلاءَ بعد العبادة والنسك، فقال: إي والله، والدماءَ قد شربتها، ثم جاءه غلام كان قد بعثه في حاجة فقال: ما حبسك لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة لعان».

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن قال: قيل لسعيد بن المسيب: إن عبد الملك بن مروان قال: قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها، ولا أحزن على السيئة أرتكبها، فقال سعيد: الآن تكامل موت قلبه.

وقال الأصمعي عن أبيه قال: خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللّهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي. قال: فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام.

وقد روي عن غير واحد نحو ذلك.

وقال أبو مسهر الدمشقي: وضع سماط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه: ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال: مات يا أمير المؤمنين، قال: فأميَّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد، قال: مات، قال: فلخالد بن يزيد بن معاوية، قال: مات، قال فلفلان وفلان ـ لأقوام قد ماتوا وهو يعلم ذلك فبكى، وأمر برفع السماط وأنشأ يقول:

ذَهَبَـتْ لِدَاتِـي وانقَضَـت أيـامُهم ... وغَـبَرتُ بَعدَهُـم ولَسـتُ بخَـالدِ

وقيل: إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحن حنين الجارية والأمة؟ إذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشاً. ثم قال له: يا وليد اتق اللّـه فيما أستخلفك فيه، واحفظ وصيتي، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها، وانظر ابن عمنا عليَّ بن عبد الله بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهد لكم البلاد وقهر الأعداء وأخلص لكم الملك وشتت الخوارج، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيِّد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إنَّ الأمُـورَ إذا اجتمعـن فَرَامَهـا ... بالكَسرِ ذو حَنَقٍ وبَطشٍ بـاليدِ

عَزّت فَلَم تُكسَر وإن هي بُـدِّدَتْ ... فالكَسـرُ والتَّوهِـين للمُتَبَـدِّدِ

ثم قال: إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك فمن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن وأحبهن إلي فاطمة ـ وكان قد أعطاها قرطي مارية والدرة اليتيمة ـ ثم قال: اللّهم احفظني فيها. فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها.

ولما احتضر سمع غسالاً يغسل الثياب فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسال، فقال: ياليتني كنت غسالا أكسب ما أعيش به يوماً بيوم، ولم أل الخلافة. ثم تمثل فقال:

لعمري لقد عُمِّرتُ في المُلكِ بُرهَـةً ... وكانت لِـي الدنيـا بِوقـعِ البَواتِـرِ

وأعطيتُ جَمَّ المَالِ والحُكـمِ والنُّهَـى ... ودانَ قمـاقيمُ المُلـوكِ الجَبَـابرِ

فأضحى الـذي قـد كـانَ ممـا يسرني ... كحلـم مضـى في المزمنـاتِ الغوابـرِ

فيـا ليتنـي لم أُغـنِ بـالملكِ ليلـةً ... ولم أسعَ في لـذاتِ عيـشٍ نواضـرِ

وكنتُ كـذي طِمْرَيـنِ عـاش بِبُلغَـةٍ ... مِنَ العيـشِ حتـى زار ضيـقَ المَقـابرِ

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبي سفيان عند موته.

وقال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال سعيد بن عبد العزيز: لما احتضر عبد الملك أمر بفتح أبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار، فقال: يا ليتني كنت قصاراً، فلما بلغ سعيداً قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

وقال غيره: لما حضره الموت جعل يندم ويضرب بيده على راسه ويقول: وددت أني أكسبُ قوتي يوماً بيوم واشتغلت بطاعة الله.

وقال غيره: لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم ثم قال: الحمد لله الذي لا ينسى أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد: ـ

فهل من خالدٍ إمّا هَلكنا ... وهل بالموتِ يا للناس عارُ

ويروى أنه قال: ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء وقال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير وإن كثيرك لحقير، وإنْ كنا منك لفي غرور، ثم تمثل بهذين البيتين ويروى أن معاوية قالهما في هذه الحال:

إن تُناقِش يَكُن نِقاشُك يا رَبُّ ... عذاباً لا طَوقَ لي بالعَذابِ
او تُجاوزْ فأنتَ رَبٌّ صَفُوحٌ ... عن مُسيءٍ ذُنُوبُهُ كالتُرابِ

قالوا: وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل الأربعاء وقيل الخميس، في النصف من شوال وقيل لخمس مضين منه. سنة ست وثمانين، وصلى عليه ابنه الوليد وليّ عهده من بعده، وكان عمره يوم مات ستين سنة. قاله أبو معشر وصححه الواقدي.

وقيل: ثلاثا وستين سنة. قاله المدائني.

وقيل: ثمان وخمسين.

ودفن بباب الجابية الصغير.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٩/٦]: ذكر أولاده وأزواجه: منهم الوليد وسليمان ومروان الأكبر -درج- وعائشة، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض، ويزيد ومروان الأصغر ومعاوية - درج- وأم كلثوم وأمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهشام وأمه أم هشام عائشة - فيما قاله المدائني - بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

وأبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي، والحكم -درج- وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموي، وفاطمة وأمها أمّ المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي.

وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد شتى.

فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإناثاً.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة، منها تسع سنين مشاركاً لابن الزبير، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلا بالخلافة وحده.

وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني، وكاتبه روح بن زنباع، وحاجبه يوسف مولاه، وصاحب بيت المال والخاتم قبيصة بن ذؤيب. وعلى شرطته أبو الزعيزعة. وقد ذكرنا عماله فيما مضى.

قال المدائني: وكان له زوجات أخر، شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي، وابنة لعلي بن أبي طالب، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر.

وممن يذكر أنه توفي في هذه السنة تقريباً.

■ أرطاة بن زفر بن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن عقفان بن أبي حارثة بن مرة بن نُشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ابو الوليد المري، ويعرف بابن سهية، وهي أمه بنت زامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خليج بن أبي جشم بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف - سبية من كلب - وكانت عند ضرار بن الأزور، ثم صارت إلى زفر وهي حامل فأتت بأرطاة على فراشه، وقد عمر أرطاة دهراً طويلا حتى جاوز المائة بثلاثين سنة.

وقد كان سيداً شريفاً مطاعاً ممدحاً شاعراً مطبقاً.

قال المدائني: ويقال إن بني عُقفانظلة ابن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعةعبس دخلوا في بني مرة بن نُشبة فقالوا بني عقفان بن أبي حارثة بن مرة.

وقد وفد أبو الوليد أرطاة بن زفر هذا على عبد الملك بن مروان فأنشده أبياتاً

رأيتُ المرءَ تأكلُهُ الليالي ... كأكلِ الأرضِ ساقطةَ الحديدِ
وما تُبقي المَنيةُ حينَ تأتي ... عَلى نَفسِ ابنِ آدمَ من مَزيدِ
واعلمُ أنها ستَكُرُّ حتى ... تُوفي نَذرَها بأبي الوَليدِ

قال: فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه بذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي، فقال عبد الملك: وأنا والله سيمر بي الذي يمر بك، وزاد بعضهم في هذه الأبيات: ـ

خُلِقنَا أنفُساً وبَني نُفُوسٍ ... ولَسنَا بالسَّلامِ ولا الحديدِ
لَئِن فُجِعْتُ بالقُرناءِ يوماً ... لقد مُتعتُ بالأملِ البَعيدِ

وهو القائل:

وإني لقَوامٌ لَدَى الضيفِ مُوهِناً ... إذا أسبلَ السِّترَ البخيلُ المُواكلُ
دَعَا فاجابته كِلابٌ كَثِيرة ... عَلى ثقةٍ مني بأني فاعلُ
وما دُون ضَيفِي من تِلادٍ تَحُوزُه ... لي النفسُ إلا أن تُصانَ الحَلائلُ

■ يونس بن عطية الحضرمي: قاضي مصر وصاحب الشرطة في أيام عبد العزيز بن مروان، ثم تولي بعده القضاءَ ابنُ أخيه أوس بن عبد الله.

■ مطرف بن عبد الله بن الشخير: كان من كبار التابعين، وكان من أصحاب عمران بن حصين، وكان مجاب الدعوة، وكان يقول: ما أوتي أحد أفضل من العقل، وعقول الناس على قدر زمانهم.

وقال: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله: هذا عبدي حقاً.

وقال: إذا دخلتم على مريض فإن استطعتم أن يدعو لكم فإنه قد حرّك - أي قد أوقظ من غفلته بسبب مرضه - فدعاؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه.

وقال: إن أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة.

وقال لبعض إخوانه: إذا كانت لك إليّ حاجةٌ، فلا تكلّمني فيها؛ فإنّي أكرَهُ أن أرى ذُلَّ السؤال في وجهك، ولكن اكتبْها في رُقعةٍ وارفعْها.

وكان يقولُ: إن هذا الموتَ قد أفسَد على أهلِ النَّعيم نعيمَهم، فاطلُبوا نعيمًا لا موتَ فيه.

وقال: لو علِمتُ متى أجَلي؛ لخشِيتُ على ذَهابِ عقلِي، ولكنَّ اللّهَ

مَنٌ على عبادِه بالغفلةِ عن الموت، ولولا الغفلةُ لَما تَهنّوا بعيشٍ، ولا قامَت بينَهمُ الأسواقُ.

وكان مطرِّفٌ إذا دخَل بيتَه، سبَّحت معه آنيةُ بيتِه.

وكان يسكُنُ الباديةَ، ويجيءُ منها إلى الجُمُعَةِ مبكِّراً، فمرَّ مرةً بمقبرةٍ، فنعَس فنام عندَ القبور، فرأى في منامه أهلَ القبور على أفواه قبورهم، فقالوا: هذا مطرِّفٌ يذهَبُ إلى الجُمُعة. قال: فقلتُ لهم: وتعرِفون الجُمُعَةَ من غيرِها؟ قالوا: نعم، ونعرفُ ما يقول الطيرُ في جوِّ السماء.

قال: فقلت: وما تقولُ؟ قالوا: تقولُ: سلامٌ سلامٌ ليوم صالحٍ.

وكان يقولُ: يا إخوتاه، اجتهدوا في الأعمال الصالحة؛ فإن يكُنِ الأمرُ كما نرجو مِن رحمةِ اللّهِ، كان لنا درجاتٌ في الجنة، وإنْ يكنُ الأمرُ شديداً كما نخافُ لم نقُلْ: ربَّنا ارجِعْنا نعمَلْ صالحاً غيرَ الذي كنّا نعمَلُ، نقولُ: قد عَمِلنا فلم ينفَعْنا.

وكان يدعو: اللّهمَّ ارضَ عنَّا؛ فإن لم ترضَ عنّا، فاعفُ عنَّا؛ فإن المولَى قد يعفو عن العبدِ، وهو عنه غيرُ راضٍ.

وكان مطرِّفٌ قد حفَرَ في داره قبراً، كان كلَّ يوم ينزلُ إليه، فيصلِّي فيه، ويقرأُ القرآن.

توفِّي مطرِّفٌ بالبصرة، وكان له منزلةٌ عندَ الخلفاء والملوك والأمراء، وكان هو مِن أرْشَدِ الناس فيهم، وكان مجابَ الدعوة؛ كذَب عليه رجلٌ عندَ بعض الأمراء، فقال مطرِّفٌ: يا هذا، إنْ كنتَ كاذبًا عجَّل اللّهُ حتفَك. فوقَع الرجلُ ميِّتاً مكانَه. واللّهُ سبحانه أعلمُ.

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير - وكان ذلك في يوم الخميس وقيل الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة أعني سنة ست وثمانين - لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر - منبر المسجد الأعظم بدمشق - فخطب الناس فكان مما قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا. فكان أول من قام إليه عبد الله بن همام السلولي وهو يقول: -

اللّـه أعطـاكَ الـتي لا فَوقَهـا ... وقـد أرادَ الملحِـدُون عَوقَهَـا
عنـكَ ويـأبى اللّـه إلا سَـوقَها ... إليـك حتـى قَلَّـدُوك طَوقَهَـا

ثم بايعه وبايعه الناس بعده.

وذكر الواقدي أنه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أيها الناس إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضاء الله وسابقته وما كتبه على أنبيائه وحملة عرشه وملائكته الموت، وقد صار إلى منازل الأبرار، بما لاقى في هذه الأمة -يعني بالذي يحق لله عليه - من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وإعلائه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً.

أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد.

أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه.

ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فحازها. وكان جباراً عنيداً.

وقد ورد في تولية الوليد حديث غريب، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك كما سيأتي بيانه، وكما تقدم تقريره في كتاب دلائل النبوة في باب الإخبار عن الغيوب المستقبلة، فيما يتعلق بدولة بني أمية.

وأما الوليد بن عبد الملك هذا فقد كان صيناً في نفسه حازماً في رأيه، يقال: إنه لا تعرف له صبوة، ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال: لولا أن الله قصة علينا خبر قوم لوط في كتابه ما ظننا أن ذكراً يأتي ذكراً كما تؤتى النساء، كما سيأتي ذلك في ترجمته عند ذكر وفاته في سنة ست وتسعين إن شاء الله تعالى.

وهو باني جامع دمشق الذي لا يعرف في الآفاق أحسن بناء منه، وقد شرع في بنائه في ذي القعدة من هذه السنة، فلم يزل في بنائه وتحسينه مدة خلافته وهي عشر سنين، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته كما سيأتي بيان ذلك مفصلا.

وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها: كنيسة يوحنا، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة، فأخذوا منها الجانب الشرقي فحولوه مسجداً، وبقي الجانب الغربي كنيسة بحاله من لدن سنة أربع عشرة إلى هذه السنة، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها في جانب السيف، وقيل: عوضهم عنها كنيسة توما، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً في البنيان والديارات والآثار والعمارات، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمر بن عبد العزيز، فدخلها في ثلاثين بعيراً في ربيع الأول منها، فنزل دار مروان وجاء الناس للسلام عليه، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبوبكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا اريد ان اقطع امراً إلا برايكم او براي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرِّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني.

فخرجوا من عنده يجزونه خيراً، وافترقوا على ذلك.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان - وكان سيِّئ الرأى فيه - لأنه أساء إلى أهل المدينة في مدة ولايته عليهم، وكانت نحواً من اربع سنين، ولا سيما إلى سعيد بن المسيب وإلى علي بن الحسين وأهل بيته فلما أُوقف للناس قال هشام: ما أخاف إلا من سعيد وعلي بن الحسين، فقال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه: لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل، فإني تركت ذلك لله وللرحم. وأما كلامه فلا أكلمه أبداً، وأما علي بن الحسين فإنه مر به وهو موقوف عند دار مروان فلم يتعرض له وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض له

أحد منهم، فلما اجتاز به علي بن الحسين وتجاوزه ناداه هشام بن إسماعيل فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً. وفتح حصوناً كثيرة وغنم غنائم جمة.

ويقال: إن الذي غزا بلاد الروم في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق، وحصن الأخرم، وبحيرة الفرسان، وحصن بولس، وقميقم، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذراريهم.

وفي هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل، وعلى أن يطلق كل من ببلاده من أسارى المسلمين.

وفيها غزا قتيبة بيكند فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير، وهي من أعمال بخارى، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصغد ومن حولهم من الأتراك، فأتوهم في جمع عظيم فاخذوا على قتيبة الطرق والمضايق، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين وهو لا يقدر على أن يبعث إليهم رسولا ولا يأتيه من جهتهم رسول، وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار.

وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم، وكان لقتيبة عين من العجم يقال له: تندر، فأعطاه أهل بخارى مالا جزيلا على أن يأتي قتيبة فيخذله عنهم، فجاء إليه فقال له: أخلني، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين، فقال له تندر: هذا عامل يقدم عليك سريعا بعزل الحجاج، فلو انصرفت بالناس إلى مرو، فقال قتيبة لمولاه سياه: اضرب عنقه فقتله، ثم قال قتيبة لضرار: لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الخبر حتى ينقضي حربنا لألحقنّك به، فاملك عليك لسانك، فإن انتشار هذا يَفُتُّ في أعضاد الناس ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب، ووقف على أصحاب الرايات يحرضهم، فاقتتل الناس قتالا شديداً وأنزل الله على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر فهزمت الترك هزيمة عظيمة، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ما شاؤوا، واعتصم من بقي منهم بالمدينة، فأمر قتيبة الفعلة بهدمها فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم، وجعل عليها رجلا من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعاً، فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه، فرجع إليهم وحاصرها شهراً. وأمر النقابين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب وهو يريد أن يضرم النار فيها، فسقط السور فقتل من الفعلة أربعين نفساً، فسألوه الصلح فأبى، ولم يزل حتى افتتحها فقتل مقاتلتهم وسبى الذرية وغنم الأموال.

وكان الذي ألب على المسلمين رجل أعور منهم، فأسر فقال: أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك منه، فقال قتيبة: لا والله لا أروع بك مسلما مرة ثانية، وأمر به فضربت عنقه. وغنم المسلمون من بيكند شيئاً كثيراً من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب، وكان فيها صنم سبك فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ووجدوا في خزائن الملك أموالا كثيرة وسلاحاً كثيراً وعدداً متنوعة، وجواهر نفيسة وأخذوا من السبي شيئا كثيراً، فكتب قتيبة إلى الحجاج في أن يعطي ذلك للجند، فأذن له فتمول المسلمون مالاً كثيراً جداً، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة وتقوَّوا على الأعداء قوة عظيمة ولله الحمد والمنة.

وقد حج بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

وعلى العراق والمشرق بكماله الحجاج بن يوسف الثقفي، ونائبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي وقاضيه بها عبد الله ابن أذنية، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جرير بن عبد الله البجلي، وقاضيه بها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري، ونائبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم.

وفي هذه السنة توفي من الأعيان

■ **عتبة بن عبد السلمي**: صحابي جليل. نزل حمص، يروى أنه شهد بني قريظة، وعن العرباض أنه كان يقول: هو خير مني أسلم قبلي بسنة.

قال الواقدي وغيره: توفي في هذه السنة، وقال غيره: بعد التسعين والله أعلم.

قال أبو سعيد بن الأعرابي: كان عتبة بن عبد السلمي من أهل الصفة.

وروى بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي ﷺ قال: «لو أنَّ رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله لحقره يوم القيامة» [المسند: ٤/١٨٥].

وقال إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمي قال: اشتكيت إلى رسول الله ﷺ العُري فكساني خيشتين فلقد رأيتني ألبسهما وأنا أكسى الصحابة [د (٤٠٣٢)، المسند: ٤/١٨٥].

■ **المقدام بن معدي كرب**: صحابي جليل، نزل حمص أيضاً، له أحاديث، وروى عنه غير واحد من التابعين.

قال محمد بن سعد والفلاس وأبو عبيد: توفي في هذه السنة، وقال غيرهم: توفي بعد التسعين فالله أعلم.

■ **أبو أمامة الباهلي**: واسمه صدي بن عجلان. صحابي جليل، نزل حمص، وهو راوي حديث «تلقين الميت بعد الدفن» رواه الطبراني في الدعاء [٣/١٣٦٧]، وقد تقدم له ذكر في الوفيات.

■ **قبيصة بن ذؤيب أبو سفيان الخزاعي المدني**، ولد عام الفتح وأتى به النبي ﷺ ليدعو له.

روى عن جماعة كثيرة من الصحابة، وأصيبت عينه يوم الحرة، وكان من فقهاء المدينة، وكانت له منزلة عند عبد الملك، ويدخل عليه بغير إذن، وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها، وكان صاحب سره، وكان له دار بدمشق بباب البريد، وتوفي بدمشق.

■ **عروة بن المغيرة بن شعبة**: ولِيَ إمرة الكوفة للحجاج، وكان شريفاً لبيباً مطاعاً في الناس، وكان أحول، توفي بالكوفة.

■ **يحيى بن يعمر**، كان قاضي مرو، وهو أول من نقط المصاحف، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم وله أحوال ومعاملات، وله روايات، وكان أحد الفصحاء، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي.

■ **شريح بن الحارث بن قيس القاضي**: أدرك الجاهلية، واستقضاه عمر على الكوفة فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة، وكان عالماً عادلا كثير الخير، حسن الأخلاق، فيه دعابة كثيرة، وكان كوسجاً لا شعر بوجهه، وكذلك كان عبد الله بن الزبير، والأحنف بن قيس، وقيس بن سعد بن عبادة وقد ترجمناه في التكميل بما فيه كفاية، وقد اختلف في نسبه وسنه

وعام وفاته على أقوال، ورجح ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤٦٣/٢] وفاته في هذه السنة والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانة في جمادى من هذه السنة ـ وكان هذا حصيناً منيعاً ـ اقتتل الناس عنده قتالا عظيماً ثم حمل المسلمون على النصارى فهزموهم حتى أدخلوهم الكنيسة، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين فانهزم المسلمون ولم يبق أحد منهم في موقفه إلا العباس بن الوليد ومعه ابن محيريز الجمحي، فقال العباس لابن محيريز: أين قراء القرآن الذين يريدون وجه الله عز وجل؟ فقال: نادهم يأتوك، فنادى: يا أهل القرآن، فتراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم ولجؤوا إلى الحصن فحاصروهم حتى فتحوه.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٣٥/٦، ٤٣٦] أنّ في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز بالمدينة يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله ﷺ وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، فمن باعك ملكه فاشتره منه وإلا فقوّمه له قيمة عدل ثم اهدمْ وادفع إليهم أثمان بيوتهم، فإن لك في ذلك سلف صدق؛ عمر وعثمان.

فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب الوليد، فشق عليهم ذلك وقالوا: هذه حجر قصيرة السقوف، وسقوفها من جريد النخل، وحيطانها من اللبن، وعلى أبوابها المسوح، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون، وإلى بيوت النبي ﷺ فينتفعوا بذلك ويعتبروا به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة وهو ما يستر ويُكِنُّ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها.

فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر، وأن يعلّي سقوفه. فلم يجد عمر بُدّاً من هدمها، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم، وتباكوا مثل يوم مات النبي ﷺ، فأجاب من له ملك متاخم للمسجد إلى بيعه فاشترى منهم عمر، وشرع في بنائه وشمر عن إزاره واجتهد في ذلك، وجاءته فُعولٌ كثيرة من قِبَل الوليد، فأدخل فيه الحجرة النبوية ـ حجرة عائشة ـ فدخل القبر في المسجد، وكانت حده من الشرق وسائر حجر أمهات المؤمنين كما أمر الوليد.

وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم فخشوا أن تكون قدم النبي ﷺ حتى تحققوا أنها قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد ـ كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجداً ـ والله أعلم.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٣٦/٦]: أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء، فبعث إليه بمائة صانع وفصوص كثيرة من أجل المسجد النبوي نحو خمسين حِمْلاً ومائة ألف دينار.

والمشهور أن هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق فالله أعلم.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كور مغانونُ ابن أخت ملك الصين، ومعه مائتا ألف مقاتل، من أهل الصغد وفرغانة وغيرهم، فاقتتلوا قتالا شديداً، وكان مع قتيبة نيزك ملك الترك مأسوراً فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئا كثيرا، وقتل منهم خلقاً وسبى وأسر.

وفيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز ومعه جماعات من أشراف قريش، فلما كان بالتنعيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، فقال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا ودخلوا مكة وهم مع المطر، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر، ومطرت عرفة ومزدلفة ومنى، وأخصبت الأرض هذه السنة خصباً عظيماً بمكة وما حولها، وذلك ببركة دعاء عمر بن عبد العزيز ومن كان معه من الصالحين.

وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الله بن بُسر بن أبي بُسر المازني: صحابي كأبيه، سكن حمص، وروى عنه جماعة من التابعين.

قال الواقدي: توفي في سنة ثمان وثمانين عن أربع وتسعين سنة.

زاد غيره: وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام، وقد جاء في الحديث أنه يعيش قرناً [التاريخ الصغير: ٢١٦/١]، فعاش مائة سنة.

■ عبد الله بن أبي أوفى علقمة بن خالد بن الحارث الخزاعي ثم الأسلمي، صحابي جليل، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، وكانت وفاته فيما قاله البخاري سنة سبع أو ثمان وثمانين [التاريخ الصغير: ٢١١/١].

وقال الواقدي وغير واحد: سنة ست وثمانين، وقد جاوز المائة، وقيل قاربها رضي الله عنه.

وفيها توفي:

■ هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد المخزومي المدني، وكان حما عبد الملك بن مروان ونائبه على المدينة، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب كما تقدم، ثم قدم دمشق فمات بها، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق فمات فيها في السُّبع.

■ حكيم بن عُمير العنسي الشامي، له رواية، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو وابن محيريز أبو الأحوص، قتل في غزوة طوانة من بلاد الروم في هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بلاد الروم فقتلا خلقاً كثيراً وفتحا حصوناً كثيرة، منها حصن سورية وعمورية وهرقلة وقمودية، وغنما شيئا كثيراً وأسرا جماً غفيراً.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصغد ونَسَفَ وكِسٌ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفر بهم فقتلهم، وسار إلى بخارى فلقيه دونها خلق كثير

من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خرقان، وظفر بهم فقال في ذلك نهار بن توسعة:

وباتت لَهُم مِنا بِخَرْقَانَ ليلةٌ   وليلتنا كانت بخرقان أطولا

ثم قصد قتيبة وردان خذاه ملك بخارى فقاتله وردان قتالا شديداً فلم يظفر به قتيبة، فرجع عنه إلى مرو، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام، وكتب إليه أن يبعث له بصورة هذا البلد - يعني بخارى - فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من ذنبك وائتها من مكان كذا وكذا، ورد وردان خذاه، وإياك والتحويط، ودعني وبنيات الطريق.

وفي هذه السنة ولى الوليد بن عبد الملك إمرة مكة لخالد بن عبد الله القسري، فحفر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون، فجاءت عذبة الماء طيبة، وكان يستقي الناس منها.

وروى الواقدي: حدثني عمر بن صالح عن نافع مولى بني مخزوم، قال: سمعت خالد بن عبد الله القسري يقول على منبر مكة وهو يخطب الناس: أيها الناس! أيهما أعظم؟ خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحاً أجاجاً، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراتاً - يعني البئر التي احتفرها له بالثنيتين ثنية طوى وثنية الحجون - فكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم.

قال: ثم غارت تلك البئر فذهب ماؤها فلا يدرى أين هو إلى اليوم.

وهذا الاسناد غريب، وهذا الكلام يتضمن كفراً إن صح عن قائله، وعندي أن خالد بن عبد الله القسري لا يصح عنه هذا الكلام، وإن صح فهو عدو الله، وقد قيل عن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول الذي أرسله الله، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها.

وفي هذه السنة غزا مسلمةُ الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، وفتح حصوناً ومدائن هنالك. وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز.

قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي [تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات سنة ٨١-١٠٠هـ ص٣٤)]: وفي هذه السنة فتحت صقلية وميورقة وقيل: منورقة، وهما في البحر بين جزيرة صقلية وحَذَاءَه من بلاد الأندلس وفيها سيَّر موسى بن نصير ولده إلى التقريس ملك الفرنج فافتتح بلاداً كثيرة.

وتوفي فيها

■ عبد الله بن بسر بن ابي بسر المازني له ولأبيه صحبة والصحيح انه توفي في التي قبلها.

وفيها توفي من الأعيان

■ عبد الله بن ثعلبة بن صُعير احد التابعين العذري الشاعر، وقد قيل إنه أدرك حياة النبي ﷺ، ومسح على رأسه، وكان الزهري يتعلم منه النسب.

والعمال في هذه السنة هم المذكورون في التي قبلها وقد تقدم ذكرهم، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم، ففتحا حصوناً وقتلا خلقاً من الروم وغنما وأسرا خلقا كثيراً.

وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر، وذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك.

وفيها عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر وولّى عليها قرة بن شريك.

وفيها قتل محمد بن القاسم الثقفي ملك السند داهر بن صصة، وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج.

وفيها فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى وهزم جميع العدو من الترك بها، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها، وقد تقصاها ابن جرير [تاريخه: ٦/٤٤٢-٤٤٤].

وفيها طلب طرخون ملك الصغد بعد فتح بخارى من قتيبة أن يصالحه على مال يبذله في كل عام فأجابه قتيبة إلى ذلك وأخذ منه رهناً عليه.

وفيها استنجد وردان خذاه بالترك فأتوه من جميع النواحي - وهو صاحب بخارى بعد أخذ قتيبة لها - وخرج وردان خذاه وحمل على المسلمين فحطموهم ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وصالح قتيبة ملك الصغد، وفتح بخارى وحصونها، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاج، فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصغد قال لملوك الترك: إن العرب بمنزلة اللصوص فإن أعطوا شيئاً ذهبوا، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك، فإن أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم، وإن قتيبة ليس يملك ولا يطلب ملكاً، فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم فكاتب نيزك ملك الترك ملوك ما وراء النهر منهم ملك الطالقان، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذي كان بينه وبين قتيبة، واستجاش عليه بالملوك كلها، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يداً واحدة على قتيبة، واتعدوا إلى الربيع وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم فاجتمعوا في فصل الربيع من السنة الآتية، فقتل منهم قتيبة في ذلك الحين مقتلة عظيمة جداً لم يسمع بمثلها، وصلب منهم سماطين في مسافة أربعة فراسخ في نظام واحد، وذلك مما كسر جوعهم كلهم.

وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب وأخواه الفضل وعبد الملك من سجن الحجاج، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنهم من الحجاج، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك وعاقبهم عقوبة عظيمة، وأخذ منهم ستة آلاف ألف، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد بن المهلب، كان لا يسمع له صوت ولو فعلوا به ما فعلوا فكان ذلك يغيظ الحجاج حتى قال قائل للحجاج: إن في ساقه أثر نشابة بقي نصلها فيه، وإنه متى أصابها شيء لا يملك نفسه أن يصرخ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعذاب، فصاح. فلما سمعت أخته هند بنت المهلب - وكانت تحت الحجاج - صوته بكت وناحت عليه فطلقها الحجاج ثم أودعهم السجن، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال ليتفذ جيشاً إلى الأكراد واستصحبهم معه، فخندق حولهم ووكل بهم الحرس، فلما كان في بعض الليالي أمر يزيد بن المهلب بطعام كثير فصُنع للحرس، فاشتغلوا به ثم تنكر في هيئة بعض الطباخين وجعل لحيته لحية بيضاء ثم خرج فرآه بعض الحرس فقال: ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا، ثم تبعه يتحققه، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه، ثم لحقه أخواه فركبوا السفن وساروا نحو الشام.

فلما بلغ الحجاج هربهم انزعج لذلك وذهب وهمه أنهم ساروا إلى خراسان، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم، وأن يرصدهم في كل مكان، ويكتب إلى أمراء الثغور والكور بتحصيلهم.

وكتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بهربهم، وأنه لا يراهم هربوا إلا إلى خراسان، وخاف الحجاج من يزيد بن المهلب أن يصنع كما صنع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس له.

وأما يزيد بن المهلب فإنه سلك على البطائح وجاءته خيول كان قد أعدها له أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم، فركبها وسلك به دليل من بني كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد، فأخذ بهم على السماوة، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين أن يزيد قد سلك نحو الشام، فكتب إلى الوليد يعلمه بذلك، وسار يزيد حتى نزل الأردن على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي - وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك - فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له: إن يزيد بن المهلب وإخويه في منزلي، قد جاؤوا مستعيذين بك من الحجاج، قال: فاذهب فأتني بهم فهم آمنون ما دمت حياً، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك، فأمنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد: إن آل المهلب قد أمنتهم، وإنما بقي للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف، وهي عندي.

فكتب إليه الوليد: لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إليّ، فكتب إليه: ولا والله لا أبعثه حتى أجيء معه، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحني أو تخفرني في جواري، فكتب إليه: لا والله لا تجيء معه وابعث به إليّ في وثاق. فقال يزيد: ابعثني إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحربا، فابعثني إليه وابعث معي ابنك واكتب إليه بألطف عبارة تقدر عليها. فبعثه وبعث معه ابنه أيوب، وقال لابنه: إذا دخلت في الدهليز فادخل مع يزيد في السلسلة، وادخلا عليه كذلك: فلما رأى الوليد ابن أخيه في السلسلة، قال: والله لقد بلغنا من سليمان. ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال: يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك، ولا تذل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك.

ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبد الملك فإذا فيه: أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذل جاري ولا تخفر جواري، بل لم أجر إلا سامعاً مطيعاً، حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته، وقد بعثت به إليك فإن كنت إنما تعد قطيعتي وإخفار ذمتي والإبلاغ في مساءتي فقد قدرت إن أنت فعلت، وأنا أعيذك بالله من احتراد قطيعتي وانتهاك حرمتي، وترك بري وصلتي، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك، ولا متى يفرق الموت بيني وبينك، فإن استطاع أمير المؤمنين -أدام الله سروره- أن لا يأتي أجل الوفاة علينا إلا وهو لي واصل ولحقي مؤد، وعن مساءتي نازع فليفعل، ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا بعد تقوى الله فيها بأسر مني برضاك وسرورك، وإن رضاك وسرورك ومما ألتمس به رضوان الله عز وجل، وإن كنت يا أمير المؤمنين يوماً من الدهر تريد مسرّتي صلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد، وكل ما طلبته به فهو عليّ.

فلما قرأ الوليد كتابه قال: لقد أشققنا على سليمان، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه، وتكلم يزيد بن المهلب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء، فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه، ومن يكفره فلسنا بكافريه، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب، ما إنّ المنة فيه علينا عظيمة.

فقال له: اجلس فجلس فأمنه وكف عنه ورده إلى سليمان، وكان عنده يعلّمه الهيئة، ويصف له ألوان الأطعمة الطيبة، وكان حظياً عنده لا يهدى إليه بهدية إلا بعث إليه بنصفها، وتقرب يزيد بن المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقادم.

وكتب الوليد إلى الحجاج: إني لم أصل إلى يزيد بن المهلب وأهل بيته مع أخي سليمان، فاكفف عنهم واله عن الكتاب إليّ فيهم.

فكف الحجاج عن آل المهلب وترك ما كان يطالبهم به من الأموال، حتى ترك لأبي عيينة بن المهلب ألف ألف درهم، ولم يزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج في سنة خمس وتسعين، كما سيأتي بيانه.

ثم ولي يزيد بلاد العراق بعد الحجاج كما أخبره الراهب.

وفيها توفي من الأعيان

■ **تياذوق الطبيب** الحاذق له مصنفات في فنه وكان حظياً عند الحجاج، مات في حدود سنة تسعين بواسط.

وفيها توفي

■ **عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة.**

و■ **أبو العالية الرياحي.**

و■ **سنان بن سلمة بن المحبّق** أحد الشجعان المذكورين، أسلم يوم الفتح، وتولى غزو الهند، وطال عمره.

وتوفي في هذه السنة

■ **محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج**، وكان أميراً على اليمن، وكان يلعن علياً على المنابر، قيل: إنه أمر حُجراً المَدَري أن يلعن علياً فقال: بل لعن الله من يلعن علياً، ولعنة الله على من لعنه الله. وقيل: إنه وَرَّى في لعنه فالله أعلم.

■ **خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم الأموي الدمشقي**، وكانت داره بدمشق تلي دار الحجارة، وكان عالماً شاعراً، وينسب إليه شيء من علم الكيمياء، وكانت يعرف شيئاً من علوم الطبيعة، روى عن أبيه ودحية الكلبي وعنه الزهري وغيره.

قال الزهري: كان خالد يصوم الأعياد كلها الجمعة والسبت والأحد - يعني يوم الجمعة وهو عيد المسلمين، ويوم السبت وهو عيد اليهود، والأحد للنصارى -.

وقال أبو زرعة الدمشقي [تاريخه: ٣٥٨/١]: كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد، وكان ولي العهد من بعد مروان فلم يلتئم له الأمر، وكان مروان زوج أمه.

ومن كلامه: أقرب شيء الأجل، وأبعد شيء الأمل، وأرجى شيء العمل.

وقد امتدحه بعض الشعراء فقال:

سألتُ النّدى والجُودَ حُرّانِ أنتما ... فقالا جميعاً إننا لعبيدُ
فقلتُ ومن مولاكُما فتطاولا ... عَليّ وقالا خالدُ بنُ يزيدِ

قال: فأمر له بمائة ألف.

قلت: وقد رأيتهما قد أنشدا في خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقالا: وقالا: خالد بن وليد. والله أعلم.

وخالد بن يزيد هذا كان أميراً على حمص، وهو الذي بنى جامع حمص وكان له فيه أربعمائة عبد يعملون، فلما فرغ منه أعتقهم.

وكان خالد يبغض الحَجّاج، وهو الذي أشار على عبد الملك لما تزوج الحجاج بنت جعفر أن يرسل إليه فيطلقها ففعل.

ولما مات مشى الوليد في جنازته وصلى عليه، وكان قد تجلد على خالد اصفرار وضعف، فسأله عبد الملك عن ذلك فلم يخبره فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة أخت مصعب بن الزبير، فأرسل عبد الملك يخطبها لخالد فقالت: حتى يطلق نساءه. فطلقهن وتزوجها وأنشد فيها الشعر.

وكانت وفاته في هذا العام، وقيل في سنة أربع وثمانين وقد ذكر هناك، والصحيح الأول.

■ **عبد الله بن الزبير بن سليم الأسدي** الشاعر أبو كثير، ويقال أبو سعد، وهو مشهور.

وفد على عبد الله بن الزبير فامتدحه فلم يعطه شيئاً فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إنْ وصاحبها.

يقال: إنه مات في زمن الحجاج.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد.

وفيها غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ففتح مدائن وحصونا كثيرة أيضا، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك.

وفيها غزا موسى بن نصير بلاد المغرب ففتح مدناً كثيرة ودخل في تلك البلاد وولج فيها حتى دخل أراضي غابرة قاصية فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد ما يلوح على سماتها أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائغة، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها.

وفيها مهد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة، وذلك بعد قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد، وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتعدوا في العام الماضي في أوان الربيع أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم، فاجتمعوا اجتماعاً هائلا لم يجتمعوا مثله في موقف، فكسرهم قتيبة وقتل منهم أمماً كثيرة، ورد الأمور إلى ما كانت عليه، حتى ذكر أنه صلب منهم في بعض الأماكن من جملة من أخذ منهم سماطين طولهما أربعة فراسخ من ههنا وههنا، عن يمينه وشماله، صلب الرجل منهم بجنب الرجل، وهذا شيء كثير، وقتل في الكفار قتلا ذريعاً، ثم لا يزال يتتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم، ومن كورة إلى كورة، ومن رستاق إلى رستاق، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره في قلعة هنالك شهرين متتابعين، حتى نفد ما عند نيزك خان من الأطعمة، وأشرف هو ومن معه على الهلاك، فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمناً مذموماً مخذولا، فسجنه عنده ثم كتب إلى الحجاج في أمره فجاء الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه، فقائل يقول: اقتله وقائل يقول: لا تقتله فقال له بعض الأمراء: إنك أعطيت الله عهدا أنك إن ظفرت به لتقتلنه، وقد أمكنك الله منه، فقال قتيبة: والله لو لم يبق من عمري الا ما يسع ثلاث كلمات لقتلته، ثم قال: اقتلوه اقتلوه اقتلوه، فقتل هو وسبعمائة من أصحابه في غداة واحدة، وأخذ قتيبة من أموالهم وخيولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئا كثيراً، وفتح في هذا العام مدنا كثيرة، وقرر ممالك كثيرة، وأخذ حصونا كثيرة مشحونة بالأموال والنساء، ومن آنية الذهب والفضة شيئا كثيراً.

ثم سار قتيبة إلى الطالقان ـ وهي مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم ـ فأخذها واستعمل عليها، ثم سار إلى الفارياب وبها مدن ورساتيق، فخرج إليه ملكها سامعاً مطيعاً، فاستعمل عليها رجلا من أصحابه، ثم سار إلى الجوزجان فأخذها من ملكها واستعمل عليها، ثم أتى بلخ فدخلها وأقام بها نهاراً واحداً، ثم خرج منها وقصد نيزك خان ببغلان، وقد ترك نيزك خان معسكراً على فم الشعب الذي منه يدخل إلى بلاده، وفي فم الشعب قلعة عظيمة تسمى شمسة، لعلوها وارتفاعها واتساعها. فقدم على قتيبة الرؤب خان ملك الرؤب وسمنجان، فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة، فأمنه وبعث معه رجالا إلى القلعة فأتوها ليلا ففتحوها وقتلوا خلقا من أهلها وهرب الباقي، ودخل قتيبة الشعب وأتى سمنجان ـ وهي مدينة كبيرة ـ فأقام بها وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك البلاد والمدن نيزك خان في جيش هائل، فسار خلفه إلى بغلان فحصره بها، وأقام بحصاره شهرين حتى نفد ما عنده من الأقوات، فأرسل قتيبة من عنده ترجماناً يسمى الناصح، فقال له: اذهب فائتني بنيزك خان ولئن عدت إلي وليس هو معك ضربت عنقك. وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة، فسار الترجمان إلى نيزك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها ـ وكانوا قد أجهدهم الجوع ـ ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ومن أهل بيته جماعة. وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم وولى على بلادهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال الواقدي وغيره: وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز نائب المدينة أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية فأخلي له المسجد النبوي، فلم يبق فيه أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تنح عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه. فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلي ههنا وههنا ويدعو الله عز وجل.

قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت أعدل به عن موضع سعيد بن المسيب خشية أن يراه فحانت منه التفاتة فقال: من هذا، أهو سعيد بن المسيب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بمكانك لقام إليك وسلم عليك. فقال الوليد: قد علمت حاله، وجعل يدور في المسجد ويتفرّج في عمارته، ويسألني عن سعيد بن المسيب، فقلت: إنه وإنه، وقصدت موافقته في ذلك، نشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ـ وإنما قلت ذلك لأعتذر له ـ فقال: نحن أحق بالسعي إليه، فجاء فوقف عليه فسلم عليه فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد: بخير والحمد لله وحده. ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا بقيّة الناس. فقال: أجل يا أمير المؤمنين.

قالوا: ثم خطب الوليد على منبر رسول الله ﷺ فجلس في الخطبة

الأولى وانتصب قائما في الثانية، وقال: هكذا خطب عثمان بن عفان، ثم انصرف فصرف على الناس من أهل المدينة ذهبا كثيراً وفضة كثيرة. ثم كسا المسجد النبوي كسوة من كسوة الكعبة التي معه، وهي من ديباج غليظ.

وتوفي في هذه السنة:

■ **السائب بن يزيد** بن سعيد بن ثمامة، وقد حج به أبوه مع رسول الله ﷺ وكان عمر السائب سبع سنين، رواه البخاري [١٨٥٩]؛ فلهذا قال الواقدي: إنه ولد سنة ثلاث من الهجرة، وتوفي في سنة إحدى وتسعين.

وقال غيره: سنة ست وقيل: ثمان وثمانين، والله أعلم.

■ **سهل بن سعد الساعدي**: صحابي مدني جليل، توفي رسول الله ﷺ وله من العمر خمس عشرة سنة، وكان ممن ختمه الحجاج في عنقه سنة أربع وسبعين هو وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله في يده، ليذلهم كيلا يسمع الناس من رأيهم. قال الواقدي: توفي سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة، وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة.

قال محمد بن سعد: ليس في هذا خلاف، وقد قال البخاري [التاريخ الكبير: ٩٧/٤، ٩٨] وغيره: توفي سنة ثمان وثمانين والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ففتحا حصوناً كثيرة وغنما شيئاً كثيراً وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم.

وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس في اثني عشر ألفاً، فخرج إليه ملكها أذرينوق في جحافله وعليه تاجه ومعه سرير ملكه، فقاتله طارق فهزمه وغنم ما في معسكره، فكان من جملة ذلك السرير، وتملك بلاد الأندلس بكمالها، قال الذهبي [تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٨١-١٠٠هـ) ص٢٥٥،٢٥٦]: كان طارق بن زياد أمير طنجة وهي أقصى بلاد المغرب، وكان نائبا لمولاه موسى بن نصير، فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس من زقاق سبتة وانتهز الفرصة لكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم، وأمعن طارق في بلاد الأندلس فافتتح قرطبة وقتل ملكها أذرينوق، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح، فحسده موسى على الانفراد بهذا الفتح، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، ثم سار إليه مسرعاً بجيوشه فدخل الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري، فأقام سنين يفتح في بلاد الأندلس ويأخذ المدن والأموال، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال، فغنم شيئاً لا يحد ولا يوصف ولا يعد، من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة، ومن آنية الذهب والفضة والأثاث والخيول والبغال وغير ذلك شيئاً كثيراً، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئاً كثيراً. وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد من حصون بلاد الروم حصن سوسنة وبلغا إلى خليج القسطنطينية.

وفيها فتح قتيبة بن مسلم شومان وكِسَّ ونَسَف، وامتنع عليه أهل فرياب فأحرقها، وجهز أخاه عبد الرحمن إلى الصغد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان أموالا كثيرة، وقدم على أخيه وهو ببخارى فرجع إلى مرو، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورحل عنه اجتمعت الصغد وقالوا لطرخون: إنك قد بؤت بالذل، وأديت الجزية، وأنت شيخ كبير، فلا حاجة لنا فيك، ثم عزلوه وولوا عليهم غوزك خان - أخا طرخون خان - ثم إنهم عصوا ونقضوا العهد، وكان من أمرهم ما سيأتي.

وفيها غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك، يحمل ذلك إليه، فصالحه.

وحج بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة رحمه الله.

وتوفي فيها من الأعيان

■ **مالك بن أوس بن الحدثان النصري**، أبو سعيد المدني، مختلف في صحبته، وقال بعضهم: ركب الخيل في الجاهلية ورأى أبا بكر.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٥٦/٥]: رأى رسول الله ﷺ ولم يحفظ منه شيئاً، وأنكر ذلك ابن معين والبخاري وأبو حاتم، وقالوا: لا تصح له صحبة فالله أعلم.

مات في هذه السنة وقيل في التي قبلها والله أعلم.

■ **طويس المغني**: اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدني مولى بني مخزوم، كان بارعا في صناعته، وكان طويلا مضطرباً أحول العين، وكان مشؤوماً، لأنه ولد يوم توفي رسول الله ﷺ، وفطم يوم توفي الصديق، واحتلم يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم قتل الحسين بن علي، وقيل: ولد له يوم قتل علي. حكاه ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٥٠٧/٣] وغيره.

وكانت وفاته في هذه السنة عن ثنتين وثمانين سنة بالسويداء - وهي على مرحلتين من المدينة.

■ **الأخطل** كان شاعراً مطبقاً، فاق أقرانه في الشعر.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

فيها افتتح مسلمة بن عبد الملك حصوناً كثيرة من بلاد الروم، منها حصن الحديد وغزالة وماسة وغير ذلك.

وفيها غزا العباس بن الوليد ففتح سَبَسْطية.

وفيها غزا مروان بن الوليد الروم حتى بلغ خنجرة.

وفيها كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح وأن يعطيه من بلاده مدائن، وأن يدفع إليه أموالا ورقيقاً كثيراً على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه، فإنه قد أفسد في الأرض وبغى على الناس وعسفهم، وكان أخوه هذا لا يسمع بشيء حسن عندأحد إلا بعث إليه فأخذه منه، سواء كان مالا أو نساء أو صبيانا أو دواب أو غيره، فأقبل قتيبة نصره الله في الجيوش فسلم إليه خوارزم شاه ما صالحه عليه، وبعث قتيبة إلى بلاد أخي خوارزم شاه جيشاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير، فدفع أخاه إليه، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته، قتل ألفاً بين يديه وألفاً عن يمينه وألفاً عن شماله وألفاً من وراء ظهره، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم.

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله وعزم على الرجوع إلى بلاده، قال

له بعض الأمراء: إن أهل الصغد قد أمِنوك عامك هذا، فإن رأيت أن تعدل إليهم وهم لا يشعرون، فإنك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدها يوماً من الدهر. فقال قتيبة لذلك الأمير: هل قلت هذا لأحد؟ قال: لا! قال: فلئن يسمعه منك أحد أضرب عنقك.

ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفاً فسبقه إلى سمرقند، ولحقه قتيبة في بقية الجيوش، فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل فيكبسوا جيش المسلمين، وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يطاقون، وقال: خذوا عليهم الطريق، فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق فلما اجتازوا بهم في الليل - وهم لا يشعرون بأمرهم - ثاروا عليهم فاقتتلوا هم وإياهم، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا النفر اليسير واحتزوا رؤوسهم وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المُحَلاّة بالذهب، والأمتعة، وقال لهم بعض أولئك: تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلا ابن ملك أو بطلاً من الأبطال المعدودين بمائة فارس أو بألف فارس. فنفلهم قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح.

واقترب قتيبة من المدينة العظمى التي بالصغد - وهي سمرقند - فنصب عليها المجانيق فرماها بها، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم، وناصحه من معه عليها من أهل بخارى وخوارزم، فقاتلوا أهل الصغد قتالاً شديداً، فأرسل إليه غوزك ملك الصغد: إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي، فأخرج إليَّ العرب. فغضب عند ذلك قتيبة وميز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح، وانتزعه من أيدي الجبناء، وزحف بالأبطال على المدينة ورماها بالمجانيق، فثلم فيها ثلمة فسدها الترك بغرائر الدخن، وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه. فلم يلبث أن مات قبحه الله، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف، ثم دخل الليل، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضاً ثلمة وصعد المسلمون فوقها، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب، فقالت الترك لقتيبة: ارجع عنا يومك هذا ونحن نصالحك غداً، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفي ألف ومئتي ألف يحملونها إليه في كل عام، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب. وفي رواية: مائة ألف من رقيق، وعلى أن يأخذ حلية الأصنام وما في بيوت النيران، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبة مسجداً، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه، ويتغدى ويخرج. فأجابوه إلى ذلك.

فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال - وذلك بعد أن بنى المسجد ووضع فيه المنبر - وصلى في المسجد وخطب وتغدى وأُتي بالأصنام التي لهم فسلبت بين يديه، وألقيت بعضها فوق بعض، حتى صارت كالقصر العظيم، ثم أمر بتحريقها، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس: إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك. وجاء الملك غوزك فنهى عن ذلك، وقال لقتيبة: إني لك ناصحٌ، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال: أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل، وألقى فيها النار فاحترقت، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسين ألف مثقال من ذهب.

وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السبي جارية من ولد يزدجرد، فأهداها إلى الحجاج، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد، ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم: إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه، ولكن لابد من جند يقيمون عندكم من جهتنا. فانتقل عنها ملكها غوزك خان فتلا قتيبة ﴿وأنَّهُ أهْلَكَ عَاداً الأُولَى وثَمُودَ فَمَا أبْقَى﴾ الآيات [النجم: ٥٠ - ٥١].

ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم، وقال له: لا تَدَعَنَّ مشركاً يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد، ثم لا تدعه بها إلا بمقدار ما تجف طينة ختمه، فإن جفت وهو بها فاقتله، ومن رأيته منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها، وإذا غلقت الباب فوجدت بها أحداً منهم فاقتله، فقال في ذلك كعب الأشقري - ويقال هي لرجل من جُعفيٍّ: -

كلَّ يومٍ يَحوي قتيبةُ نَهْباً ... ويزيدُ الأموالَ مالا جَديدَا
باهليٌّ قد أُلبسَ التاجَ حتى ... شابَ منهُ مَفارقٌ كُنَّ سُودَا
دوَّخَ الصُّغْدَ بالكتائبِ حتى ... تركَ الصُّغْدَ بالعراءِ قُعُودَا
فوليدٌ يبكي لفقدِ أبيهِ ... وأبٌ موجعٌ يبكّي الوليدَا
كلمَّا حَلَّ بلدةً أو أتاها ... تركتْ خيلُهُ بها أخدُودَا

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارقاً عن الأندلس، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وفيها من الذهب والجواهر شيء كثير جداً، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك، فما وصلت إليه حتى مات وتولى اخوه سليمان بن عبد الملك، فوصلت مائدة سليمان عليه السلام إلى سليمان على ما سيأتي بيانه في موضعه، وكان فيها ما يبهر العقول، لم ير منظر أحسن منها. واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير.

وفيها بعث موسى بن نصير العساكر وبثها في بلاد المغرب، فافتتحوا مدناً كثيرة من جزيرة الأندلس منها قرطبة وطنجة، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء وغيرهما من المدن الكبار والأقاليم، ومن القرى والرساتيق شيئاً كثيراً، فكان لا يأتي مدينة فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه، وجهز البعوث والسرايا غرباً وشرقاً وشمالا، فجعلوا يفتحون المغرب بلداً بلداً، وإقليماً إقليماً، ويغنمون الأموال ويسبون الذراري والنساء، ورجع موسى بن نصير بغنائم وأموال وتحف لا تحصى ولا تعد كثرة.

وفيها قحط أهل إفريقية وأجدبوا جدباً شديداً، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقي بهم، فما زال يدعو حتى انتصف النهار، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ قال: ليس هذا الموضع موضع ذاك، فسقاهم اللهُ مطراً غزيراً.

وفيها ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد في يوم شاتٍ، وأقامه على باب المسجد يومه ذلك فمات رحمه الله. وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن، وكان إذا بشر بشيء من أمر الآخرة يقول: وكيف وخبيب لي بالطريق؟ وفي رواية يقول: هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق. ثم يصيح صياح المرأة الثكلى، وكان إذا أثني عليه يقول: خبيب وما خبيب! إن نجوت منه فأنا بخير. وما زال على المدينة إلى

أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء، وكانت تلك هفوة منه وزلة، ولكن حصل له بسببها خير كثير، من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعدل وصدقة وبر عتق وغير ذلك.

وفيها افتتح محمد بن القاسم ـ وهو ابن عم الحجاج بن يوسف ـ مدينة الدَّيْبُل وغيرها من بلاد الهند وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر ـ وهو ملك الهند ـ في جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلا منتخبة، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً، فأحاطوا بالمسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل الملك داهر وغالب من معه، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكيرج وبرها ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثرة، من الجواهر والذهب وغير ذلك.

وفيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة، وكان سبب ذلك، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم في ضيم وضيق مع الحجاج من ظلمه وغشمه، فسمع بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة، وإن جماعة من أهل الشر من أهل العراق قد لجؤوا إلى المدينة ومكة وهذا وهن وضعف في الولاية، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما. فولَّ على المدينة عثمان بن حيان، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسري، ففعل ما أمره به الحجاج. فخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة في شوال فنزل السويداء، وقدم عثمان بن حيان إلى المدينة لليلتين بقيتا من شوال في هذه السنة.

وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، أبو حمزة ويقال أبو ثمامة الأنصاري النجاري، خادم رسول الله ﷺ وصاحبه، وأمه أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام، زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري.

روى عن رسول الله ﷺ أحاديث جمة، وأخبر بعلوم مهمة. وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم. وحدث عنه خلق من التابعين.

قال أنس: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة.

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال: قيل لأنس: أشهدت بدراً؟ فقال: وأين أغيب عن بدر لا أم لك؟ قال الأنصاري: شهدها يخدم رسول الله ﷺ.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي [تهذيب الكمال: ٣/ ٣٦٨]: لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي.

قلت: الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازي والله أعلم.

وقد ثبت أن أمه أتت به ـ وفي رواية [طبقات ابن سعد: ١٩/٧] عمه زوج أمه أبو طلحة ـ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذا أنس خادم لبيب يخدمك، فوهبته له فقبله، وسألته أن يدعو له فقال: «اللّهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة» [خ: (٦٣٣٤، ٦٣٤٤)، م(٢٤٨٠، ٢٤٨١) بنحوه وليس عندهما «وادخله الجنة»]. وثبت عنه أنه قال: كنّاني رسول الله ﷺ ببقلة كنت أجتنيها [ت(٣٨٣٠)].

وقد استعمله أبو بكر ثم عمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك.

وقد ثبت عنه أنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما ضربني ولا سبني ولا عبس في وجهي ولا قال لي لشيء: لم لا فعلت كذا؟ وقيل: إن النبي ﷺ دعا له فقال: «اللّهم كثر ماله وولده وطول حياته» [تاريخ دمشق: ٣٤٩/٩].

وكان أنس رضي الله عنه كثير الصلاة والصيام والعبادة.

وقد انتقل بعد النبي ﷺ فسكن البصرة، وكان له بها أربع دور، وقد ناله أذى من جهة الحجاج، وذلك في فتنة ابن الأشعث، توهم الحجاج منه أنه داخل في الأمر، وأنه أفتى فيه، فختمه الحجاج في عنقه: هذا عتق الحجاج، وقد شكاه أنس كما قدمنا إلى عبد الملك، فكتب إلى الحجاج يعنفه، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنسا. وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك في أيام ولايته، قيل: في سنة ثنتين وتسعين، وهو يبني جامع دمشق.

قال مكحول: رأيت أنساً يمشي في مسجد دمشق فقمت إليه فسألته عن الوضوء من الجنازة فقال: لا وضوء.

وقال الأوزاعي: حدثني إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر قال: قدم أنس على الوليد فقال له الوليد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين».

ورواه عبد الرزاق بن عمر عن إسماعيل قال: قدم أنس على الوليد في سنة ثنتين وتسعين فذكره.

وقال الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف مما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه إلا هذه الصلاة، وقد صنعتم فيها ما صنعتم [خ: ٥٢٩ من طريق غيلان، وليس الزهري].

وفي رواية [خ: (٥٣٠)] وهذه الصلاة قد ضيعت ـ يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع ـ كانوا يواظبون على التأخير إلا عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته كما سيأتي، وقال عبد بن حميد [المنتخب من مسنده (١٢٥٣)] عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس. قال: جاءت بي أم سُليم أمي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام فقالت: يا رسول الله خويدمك أنيس فادع الله له. فقال: «اللّهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة». قال: فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة.

وفي رواية [طبقات ابن سعد: ١٩/٧، ٢٠] [تاريخ دمشق: ٣٤٩/٩] قال أنس: فوالله إن مالي لكثير حتى ان نخلي وكرمي ليثمر في السنة مرتين، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة.

وفي رواية [طبقات ابن سعد: ١٩/٧، ٢٠] [تاريخ دمشق ٣٤٩/٩] وإن ولدي لصلبي مائة وستة. ولهذا الحديث طرق كثيرة وألفاظ منتشرة جداً.

وفي رواية [خ: (١٩٨٢)] قال أنس: وأخبرتني ابنتي أُمينة أنه دفن لصلبي إلى حين مقدم الحجاج عشرون ومائة.

وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أنس، وقد أوردنا طرفاً من ذلك في كتاب دلائل النبوة في أواخر السيرة ولله الحمد.

وقال ثابت لأنس: هل مسّت يدُك كفّ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! قال فأعطنيها أقبلها.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٠/٧] عن مسلم بن إبراهيم عن المثنى بن سعيد الذارع قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ ثم يبكي.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٤٨٢/١] عن أبي نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن المنهال بن عمرو. قال: كان أنس صاحب نعل رسول الله ﷺ وإداوته.

وقال أبو داود: حدثنا الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس. قال: إني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ فأقول: يا رسول الله خويدمك.

وقال الإمام أحمد [١٧٨/٣]: حدثنا يونس حدثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس. قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة: قال: «أنا فاعل، قلت: فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله؟ قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فاذا لم ألقك؟ قال: فأنا عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال فأنا عند الحوض لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة».

ورواه الترمذي [٢٤٣٣] وغيره من حديث حرب بن ميمون أبي الخطاب الأنصاري به وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال شعبة عن ثابت قال قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم - يعني أنس بن مالك - وقال أنس بن سيرين: كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر.

وقال أنس: يا ثابت خذ مني فأني أخذت من رسول الله ﷺ وأخذ رسول الله عن الله عز وجل، ولست تجد أوثق مني [ت (٣٨٣١)] .

وقال معتمر بن سليمان عن أبيه سمعت أنساً يقول: ما بقي أحد صلى القبلتين غيري [خ: (٤٤٨٩)] .

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٢٢/٧]: حدثنا عفان حدثني شيخ لنا يكنى أبا حُباب سمعت الجريري يقول: أحرم أنس من ذات عرق فما سمعناه متكلماً إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل، فقال لي: يا ابن أخي هكذا الإحرام.

وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن في بعض أبيات أزواج النبي ﷺ نتحدث فقال: مه، فلما أقيمت الصلاة قال: إني أخاف أن أكون قد أبطلت جمعتي بقولي لكم مه.

وقال ابن أبي الدنيا [مجابو الدعوة (٤٤)]: حدثنا بشار بن موسى الخفاف حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت قال: كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال: يا أبا حمزة عطشت أرضنا، قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب يلتئم ثم مطرت حتى ملأت كل شيء، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال: انظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيراً.

وقال الإمام أحمد [٢٠٥/٣]: حدثنا معاذ بن معاذ حدثنا ابن عون عن محمد قال: كان أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثا ففرغ منه قال: أو كما قال رسول الله ﷺ .

وقال الأنصاري عن ابن عون عن محمد قال: بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من الفيء فقال: أخمس؟ قال: لا. قال: فلم يقبله.

وقال النضر بن شداد عن أبيه: مرض أنس فقيل له ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني.

وقال حنبل بن إسحاق: حدثنا أبو عبد الله الرقاشي حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا علي بن يزيد قال: كنت في القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليالي ابن الأشعث، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج: هي يا خبيث، جوال في الفتن، مرة مع علي، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما يجرد الضب. قال: يقول أنس: من يعني الأمير؟ قال: إياك أعني، أصم الله سمعك، قال: فاسترجع أنس، وشغل الحجاج فخرج أنس فتبعناه إلى الرحبة، فقال: لولا أني ذكرت ولدي وخفته عليهم لكلمته بكلام في مقامي هذا لا يستحييني بعده أبداً.

وقد ذكر أبو بكر بن عياش أن أنساً بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول في كتابه: إني خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله لو أن اليهود والنصارى أدركوا رجلاً خدم نبيهم لأكرموه، وذكر له أذيّة الحجاج له. فلما قرأ عبد الملك كتابه حصل عنده أمر عظيم، فكتب إليه يقول: ويلك، لقد خشيت أن لا يصلح على يدي أحد. وذكر له ثلاثاً فيه غلظة ويقول فيه: إذا جاءك كتابي هذا فقم إلى أنس واعتذار إليه، فجاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة في ذلك فهمّ أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، الذي قدم بالكتاب أن لا يذهب إلى أنس، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة - وكان إسماعيل صديق الحجاج - فجاء أنس فقام إليه الحجاج يتلقاه، وقال: إنما مثلي ومثلك كما قيل إياك أعني واسمعي يا جارة. أردت أن لا يبقى لأحد عليّ منطق.

وقال ابن قتيبة [غريب الحديث: ٧٠٩/٣، ٧١١، ٧١٢]: كتب عبد الملك إلى الحجاج - لما قال لأنس ما قال - يا ابن المستفرمة بعَجَمِ الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوي بها إلى نار جهنم، قاتلك الله أخيفش العينين، أُقيبل الرجلين، أسود الجاعرتين -.

ومعنى قوله المستفرمة بعَجَمِ الزبيب - أي تضيق فرجها عند الجماع به، ومعنى أركلك: أي ارفسك برجلي. وسيأتي بسط ذلك في ترجمة الحجاج في سنة خمس وتسعين.

وقال أحمد بن صالح العجلي: لم يبتل أحد من الصحابة إلا رجلين، معيقيب كان به الجذام، وأنس بن مالك كان به وضح.

وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر قال: رأيت أنساً يأكل فرأيته يلقم لُقماً عظاماً، ورأيت به وضحا شديداً.

وقال أبو يعلى [مسنده: ٧٠٤/٧ (٤١٩٤)]: حدثنا عبيد الله بن معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا عمران عن أيوب قال: ضعف أنس عن الصوم فصنع جَفْنَةً من ثَريد ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم. وذكره البخاري تعليقا. وقال شعبة عن موسى السبلاني قلت لأنس: أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: قد بقي قوم من الأعراب، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي.

وقيل له في مرضه: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضني، وجعل يقول: لقنوني لا إله إلا الله، وهو محتضر فلم يزل يقولها حتى قبض. وكان عنده عُصيّة من رسول الله ﷺ فأمر بها فدفنت معه.

وقال عمر بن شبّة وغير واحد: مات وله مائة وسبع سنين.

وقال الامام أحمد في مسنده [١٢٤/٣] حدثنا معتمر بن سليمان عن حميد ان أنساً عمّر مائة سنة غير سنة.

قال الواقدي: وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة. وكذا قال علي بن المديني والفلاس وغير واحد. وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته، فقيل: سنة تسعين، وقيل إحدى وتسعين، وقيل ثنتين وتسعين وقيل: ثلاث

وتسعين، وهذا هو المشهور وعليه الجمهور والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثني أبو نعيم قال: توفي أنس بن مالك وجابر بن زيد في جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين.

وقال قتادة: لما مات أنس قال مورِّق العجلي: ذهب اليوم نصف العلم، قيل له: وكيف ذاك يا أبا المعتمر؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله ﷺ قلنا لهم: تعالوا إلى من سمعه منه.

■ عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي الشاعر المشهور، يقال إنه ولد يوم توفي عمر بن الخطاب، وختن يوم مقتل عثمان، وتزوج يوم مقتل علي، فالله أعلم.

وكان مشهوراً بالتغزُّل المليح البليغ، كان يتغزل في امرأة يقال لها الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية، وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة: ـ

أيها المُنكِحُ الثريا سُهيلا ... عَمرَكَ اللهُ كيفَ يلتقيانِ

هي شاميةٌ إذا ما استقلَّتْ ... وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِ

ومن مستجاد شعره ما أورده القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤٣٩/٣] قوله:

حيِّ طَيفاً من الأحبةِ زارًا ... بعد ما صرَّعَ الكرى السمّارًا

طارقاً في المنامِ تحت دجى ... الليلِ ضَنيناً بأن يزورَ نهارًا

قلتُ ما بالُنا جُفينا وكنّا ... قبلَ ذاكَ الأسماعَ والأبصارًا

قال: إنا كما عهدت ولكن ... شغل الحَلْيُ أهلَه أنْ يعارا

■ بلال بن أبي الدرداء: ولي إمرة دمشق ثم ولي القضاء بها، ثم عزله عبد الملك بأبي إدريس الخولاني. كان بلال حسن السيرة، كثير العبادة، والظاهر أن هذا القبر الذي بباب الصغير الذي يقال له قبر بلال، إنما هو قبر بلال بن أبي الدرداء، لا قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ، فإن بلالا المؤذن دفن بداريا والله أعلم.

■ بُسر بن سعيد المدني السيد العابد الفقيه، كان من العباد المنقطعين، الزهاد المعروفين، توفي بالمدينة.

■ زرارة بن أوفى بن حاجب العامري، قاضي البصرة، كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها، له روايات كثيرة، قرأ مرة في صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ [المدثر: ٨] خرّ ميتا. توفي بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة.

■ خبيب بن عبد الله بن عبد الله بن الزبير، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له في ذلك فمات، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة، فكان يتأسف على ضربه له ويبكي. مات بالمدينة.

■ حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب المدني، له روايات كثيرة، وكان من الصالحين. توفي بالمدينة.

■ سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد الأموي، أحد الأشراف بالبصرة، كان جواداً ممدحاً، وهو أحد الموصوفين بالكرم، قيل: إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين ألفاً.

■ فروة بن مجاهد قيل: إنه كان من الأبدال، أسر مرة وهو في غزوة هو وجماعة معه فأتوا بهم الملك فأمر بتقييدهم وحبسهم في المكان والاحتراز عليهم إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه، فقال لهم فروة: هل لكم في المضي إلى بلادنا؟ فقالوا: وما ترى ما نحن فيه من الضيق؟ فلمس قيودهم بيده فزالت عنهم، ثم أتى باب السجن فلمسه بيده فانفتح، فخرجوا منه ومضوا، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد.

■ أبو الشعثاء جابر بن زيد: كان لا يماكس في ثلاث، في الكَرْي إلى مكة، وفي الرقبة يشتريها للعتق، وفي الأضحية.

وقال: لا تماكس في شيء يتقرب به إلى الله.

وقال ابن سيرين: كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم.

قلت: كما قيل:

إني رأيتُ فلا تظنوا غيرَهُ ... أن التورعَ عندَ هذا الدرهمِ

فإذا قدرتَ عليهِ ثم تركتَهُ ... فاعلمْ بأن تقاكَ تقوى المسلمِ

وقال أبو الشعثاء: لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إلي من حجة بعد حجة الإسلام.

كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم، وكان يفتي في البصرة، وكان الصحابة مثل جابر بن عبد الله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول: كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء؟ وقال له ابن عمر: جابر بن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتى فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد.

وقال إياس بن معاوية: أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان.

وقال قتادة لما دفن جابر بن زيد: اليوم دفن أعلم أهل الأرض.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال أبو الشعثاء: كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدهم - أي عمرو - فلو أني ابتليت بشيء منه لركبت راحلتي وهربت في الأرض.

وقال أبو الشعثاء: نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحج يجهد المال والبدن، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك.

وأخذ مرةً قصبة من حائط، فلما أصبح ردّها في الحائط، وكان الحائط لقوم فقال: لو كان كلما مر به أخذ منه قصبة لم يبق منه شيء.

وقال أبو الشعثاء: إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل: اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجه إليك، وأقرب من تقرب إليك، وأنجح من دعاك ورغب إليك.

وقال سيار: حدثنا حماد بن زيد حدثنا الحجاج بن أبي عيينة. قال: كان جابر بن زيد يأتينا في مصلانا، قال: فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان، فقال: مضى من عمري ستون سنة نعلاي هاتان أحب إلي مما مضى منه إلا أن يكون خيراً قدمته. وقال صالح الدهان:

كان جابر بن زيد إذا وقع في يده درهم ستوق كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم. الستوق: الدرهم المغاير أو الدغل. وقيل: هو المغشوش.

وروى الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الصمد العمي حدثنا مالك بن دينار قال: دخل علي جابر بن زيد وأنا أكتب المصحف فقلت له: كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء؟ قال: نعم الصنعة صنعتك، تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة، وآية إلى آية، وكلمة إلى كلمة، هذا الحلال لا بأس به.

وقال مالك بن دينار: سألته عن قوله تعالى ﴿إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المَمَاتِ﴾ قال ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لك عَلَيْنا نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٧٥].

وقال سفيان: حدثني أبو عمير الحارث بن عمير قال: قالوا لجابر بن زيد عند الموت: ما تشتهي، أو ما تريد؟ قال: نظرة إلى الحسن. وفي رواية عن ثابت قال: لما ثقل على جابر بن زيد قيل له: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن. قال ثابت: فأتيت الحسن فأخبرته فركب إليه، فلما دخل عليه قال لأهله: أرفدوني، فجلس فما زال يقول: أعوذ بالله من النار وسوء الحساب.

وقال حماد بن زيد: حدثنا حجاج بن أبي عيينة عن هند بنت المهلب بن أبي صفرة - وكانت من أحسن النساء - وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا: إنه كان إباضياً، فقالت: كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إلي وإلى أمي، فما أعلم شيئاً، كان يقربني إلى الله عز وجل إلا أمرني به، ولا شيئاً يباعدني عن الله إلا نهاني عنه، وما دعاني إلى الإباضية قط ولا أمرني بها، وكان ليأمرني أن أضع الخمار - ووضعت يدها على الجبهة.

أسند عن جماعة من الصحابة، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم، فقيل: إنه فتح أنطالية،

وغزا أخوه عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزالة، وبلغ الوليد بن هشام المعيطي أرض برج الحمام، وبلغ يزيد بن أبي كبشة أرض سورية.

وفيها كانت الرجفة بالشام.

وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم.

وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند وغنم أموالاً لا تعد ولا توصف، وقد ورد في غزوه الهند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره [المسند: ٢/٢٢٨، ٢٢٩ من(٣١٧٣)].

وفيها غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرغانة حتى بلغ خجندة، وكاشان مدينتي فرغانة، وذلك بعد فراغه من الصغد وفتح سمرقند، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها، وقد لقيه المشركون في جموع هائلة من الترك فقاتلهم قتيبة عند خجندة مراراً وظفر بهم، وأخذ البلاد منهم، وقتل منهم خلقاً وأسر آخرين، وغنم أموالاً كثيرة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٦/٤٨٤]: وقد قال سحبان وائل يذكر قتالهم بخجندة التي هي قريبة من بلاد الصين أبياتاً في ذلك: -

فَسَلِ الفوارسَ في خُجَنْـ ... ـدَةَ تحتَ مُرهَفةِ العَوالي
هلْ كُنتُ أجمعهم إذا ... هُزِمُوا وأُقدمُ في تَتالي
أمْ كنتَ أضربُ هامةَ الـ ... ـعاتي وأصبرُ للنزالِ
هذا وأنتَ قريعُ قيـ ... ـسٍ كلها ضخمُ النوالِ
وفضلتَ قيساً في الندى ... وأبوكَ في الحججِ الخوالي
تمتْ مروءتكمْ ونا ... غى عزكم غُلْبَ الجبالِ
ولقدْ تبينَ عدلُ حكمكَ ... فيهمُ في كلِّ مالِ

هكذا ذكر ابن جرير أن هذا من شعر سحبان وائل في هذه الغزوة. وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزي في منتظمه أن سحبان وائل مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد الخمسين. والله أعلم.

مقتل سعيد بن جبير رحمه الله

قال ابن جرير [تاريخه: ٦/٤٨٧-٤٩١]: وفي هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى أصبهان، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها، ثم كان يعتمر في كل سنة ويحج، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد: والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره؟!.

وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من أهل العراق إلى الحجاج في القيود، فتعلم منه خالد بن عبد الله القسري فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وعمرو بن دينار، وطلق بن حبيب.

ويقال: إن الحجاج كتب إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواماً من أهل الشقاق، فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة، وبعث بأولئك الثلاثة، فأما طلق بن حبيب فمات في الطريق قبل أن يصل، وأما مجاهد فحبس حتى مات الحجاج.

وأما سعيد بن جبير فإنه لما وقف بين يدي الحجاج قال له: يا سعيد ألم أشركك في أمانتي! ألم أستعملك؟ ألم أفعل، ألم أفعل؟ كل ذلك يقول: نعم حتى ظن من عنده أنه سيخلي سبيله، حتى قال له: فما حملك على أن خرجتَ علي وخلعت بيعة أمير المؤمنين؟ فقال سعيد: إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم علي، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط أحد طرفي ردائه عن منكبه، وقال له: ويحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: بلى، قال: ثم قدمت الكوفة والياً على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية؟ قال: بلى! قال: فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك؟ يا حرسي اضرب عنقه. قال: فضربت عنقه فندر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء.

وقال الواقدي: لما أوقف سعيد بن جبير قدام الحجاج قال: يا شقي بن كسير أما قدمت الكوفة فجعلتك إماماً؟ قال بلى. قال: أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة: إنه لا يصلح للقضاء إلا عربي فجعلت أبا بردة وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى. قال: أما أعطيتك مائة ألف تفرقها على أهل الحاجة؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي؟ قال: بيعة كانت في عنقي لابن الأشعث. فغضب الحجاج وقال: أما كانت بيعة أمير المؤمنين في عنقك من قبل؟ ثم قال: أكفرت أذ خرجت علي؟ فقال: ما كفرت منذ آمنت. فقال: اختر أي قتلة أقتلك. فقال: اختر أنت فإن القصاص أمامك. فقال الحجاج: يا حرسي اضرب عنقه. وذلك في رمضان سنة خمس

وتسعين بواسط، وقبره ظاهر يزار.

ولما قتله خرج منه دم كثير حتى راع الحجاج فدعا طبيباً فسأله عن ذلك فقال: إنك قتلته ونفسه معه وقلبه. حاضر وقيل: إن الحجاج رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل رجل قتله قتلة، وقتلني بسعيد بن جبير اثنتين وسبعين قتلة، والله أعلم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٨٩/٦]: فحدثت عن أبي غسان مالك بن إسماعيل قال: سمعت خلف بن خليفة يذكر عن رجل قال: لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فندر رأسه هلل ثلاثا، مرة يفصح بها، وفي الثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها.

وذكر أبو بكر الباهلي قال: سمعت أنس بن أبي شيخ يقول: لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير قال: لعن الله ابن النصرانية - يعني خالداً القسري وكان هو الذي أرسل به من مكة - أما كنت أعرف مكانه، بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة، ثم أقبل عليه فقال: يا سعيد ما أخرجك علي؟ فقال: أصلح الله الأمير، أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب أخرى، فطابت نفس الحجاج وتطلّق وجهه، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره، ثم عاوده في شيء فقال سعيد: إنما كانت بيعة في عنقي. فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله.

وذكر عتاب بن بشير عن سالم الأفطس قال: أتي الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجليه في الغرز، فقال: والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه، فضربت عنقه. قال: والتبس الحجاج في عقله مكانه، فجعل يقول: قيودنا قيودنا. فظننا أنه يريد القيود التي على سعيد فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود.

وقال محمد بن حاتم: حدثنا عبد الملك بن عبد الله، عن هلال بن خباب، قال: جيء بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال: كتبت إلى مصعب بن الزبير؟ فقال: بل كَتَبَ إليَّ مصعب، قال: والله لأقتلنك قال: إني إذا لسعيد كما سمتني أمي. قال: فقتله، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً، فكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه فيقول: ياعدو الله فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٣٧١/٢-٣٧٤]: كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولى بني والبة كوفياً أحد الأعلام من التابعين، وكان أسود اللون، وكان لا يكتب على الفتيا، فلما عمي ابن عباس كتب، فغضب ابن عباس من ذلك. وذكر مقتله بنحو ما تقدم، وذكر أنه كان في شعبان، وأن الحجاج توفي بعده في رمضان، وقيل: بستة أشهر.

وذكر عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال: مفتقر - إلى علمه.

ويقال: إن الحجاج لم يسلّط بعده على أحد. وسيأتي في ترجمة الحجاج أيضا شيء من هذا.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٩١/٦]: وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة. مات في أولها علي بن الحسين زين العابدين، ثم عروة بن الزبير، ثم سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسعيد بن جبير من أهل مكة.

وقد ذكرنا تراجم هؤلاء في كتابنا التكميل، وسنذكر طرفاً صالحاً ها هنا إن شاء الله تعالى.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٩١/٦]: واستقضى الوليد بن عبد الملك في هذه السنة على الشام سليمان بن حبيب.

وحج بالناس أخوه مسلمة في قول بعضهم.

وقال الواقدي: حجَّ بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد، ويقال: مسلمة بن عبد الملك.

وكان على نيابة مكة خالد بن عبد الله القسري، وعلى المدينة عثمان بن حيان، وعلى المشرق بكماله الحجاج، وعلى نيابة خراسان قتيبة بن مسلم، وعلى الكوفة من جهة الحجاج زياد بن جرير، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج الجراح بن عبد الله الحكمي، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **سعيد بن جبير** بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله، الكوفي المكي، من أكابر أصحاب عبد الله بن عباس كان من أئمة الإسلام في التفسير والفقه وأنواع العلوم، وكثرة العلم الصالح، رحمه الله، وقد رأى خلقاً من الصحابة، وروى عن جماعة منهم، وعنه خلق من التابعين، يقال: إنه كان يقرأ القرآن فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة، وكان يقعد في الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة، وربما قرأها في ركعة في جوف الكعبة.

وقد قال ابن عباس وقد أتاه أهل الكوفة: أليس فيكم سعيد بن جبير؟

وقال سفيان الثوري عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

وكان في جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فلما ظفر الحجاج هرب سعيد إلى أصبهان، ثم كان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين، مرة للعمرة ومرة للحج، وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان فحدث بها، وكان بخراسان لا يتحدَّث؛ لأنه كان لا يسأله أحد عن شيء من العلم هناك، وكان يقول: إن مما يهمني ما عندي من العلم، وددت أن الناس أخذوه. واستمر في هذا الحال مختفياً من الحجاج قريباً من ثنتي عشرة سنة. ثم أرسله خالد القسري من مكة إلى الحجاج، فكان من مخاطبته له ماذكرناه قريباً.

وقد قال أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء [٢٩٠/٤]: حدثنا أبو حامد بن جبلة حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا محمد بن أحمد بن أبي خلف حدثنا سفيان عن سالم بن أبي حفصة. قال: لما أتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له: أنت شَقيُّ بن كُسَير؟ قال: لا! إنما أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك، قال: إني إذاً كما سمتني أمي سعيداً قال: شقيت وشقيت أمك، قال: الأمر ليس إليك. ثم قال: اضربوا عنقه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ثم قال: إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم، ثم قال: وما عاذت به؟ قال: قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] قال سفيان: لم يقتل بعده إلا رجلا واحداً.

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه، وقد رويت آثار غريبة في صفة مقتله، أكثرها لا يصح، وقد عوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة، فلم يلبث بعده إلا قليلا ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما سنذكر وفاته في السنة الآتية، فقيل: إنه مكث بعده خمسة عشر يوما، وقيل أربعين يوماً، وقيل: ستة أشهر فالله أعلم.

واختلفوا في عمر سعيد بن جبير رحمه الله حين قتل، فقيل: كان عمره تسعاً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وخمسين فالله أعلم.

قال أبو القاسم اللالكائي: كان مقتله في سنة خمس وتسعين.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٦/٤٨٧-٤٩١] مقتله في هذه السنة ـ سنة أربع وتسعين ـ فالله أعلم.

■ سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي أبو محمد المدني المخزومي، سيد التابعين على الإطلاق، ولد لسنتين مضتا وقيل: بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب، وقيل: لأربع مضين منها، وقول الحاكم أبي عبد الله إنه ادرك العشرة وهم منه والله أعلم.

ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً عن النبي ﷺ، وروى عن عمر كثيراً، فقيل: سمع منه، وقيل: لم يسمع وعن عثمان وعلي وسعيد وأبي هريرة وكان زوج ابنته، وأعلم الناس بحديثه، وروى عن جماعة من الصحابة آخرين وحدث عن جماعة من التابعين، وخلق ممن سواهم.

قال ابن عمر: كان سعيد أحد المفتين: وكان أعلم أهل الأرض كلها في زمانه وكان يسرد الصوم، وقال عن نفسه إنه ما فاتته التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وحج أربعين حجة.

وقال الزهري: جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره.

وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال: طفت الأرض كلها في طلب العلم. فلما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب.

وقال الأوزاعي: سئل الزهري ومكحول: من افقه من لقيتما؟ قالا: سعيد بن المسيب.

وقال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه وكان الحسن إذا أشكَلَ عليه شيء، كتب إلى سعيد بن المسيب.

وقال غيره: كان يقال له فقيه الفقهاء.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

قال مالك: وبلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وقال الربيع عن الشافعي أنه قال: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: هي صحاح. قال: وسعيد بن المسيب أفضل التابعين.

قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين اوسع علما منه، وإذا قال سعيد: مضت السنة فحسبك به، وهو عندي أجل التابعين.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان سعيد رجلا صالحاً فقيهاً، كان لا يأخذ العطاء، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار، وكان يتجر في الزيت، وكان أعور.

وقال أبو زرعة: كان مدني ثقة إمام.

وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، وهو أثبتهم في أبي هريرة.

قال الواقدي: توفي في سنة الفقهاء، وهي سنة أربع وتسعين، عن خمس وسبعين سنة، رحمه الله.

وكان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا، والكلام فيما لا يعني، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث.

جاءه رجل وهو مريض فسأله عن حديث فجلس فحدثه ثم اضطجع، فقال الرجل: وددت أنك لم تتعنَّ، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وقال برد مولاه: ما نودي للصلاة منذ أربعين إلا وسعيد في المسجد.

وقال ابن إدريس: صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة.

وقال سعيد: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة.

وقال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء.

وقال: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى.

وقال: كفى بالمرء نصرة من الله له أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله.

وقال: من استغنى بالله افتقر الناس إليه. وقال: الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها.

وقال: إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، وقال: من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة ـ وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج ـ وكان فقيراً، فأرسل إليه بخمسة آلاف، وقيل: بعشرين ألفاً، وقال: استنفق هذه.

وقصته في ذلك مشهورة، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها، فاحتال عليه حتى ضربه بالسياط كما تقدم، لما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبد الملك، ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل وأطافه المدينة، وعرضوه على السيف فمضى ولم يبايع، فلما رجعوا به رأته امرأة فقالت: ما هذا الخزي يا سعيد؟ فقال: من الخزي فررنا إلى ما ترين، أي لو أجبناهم وقعنا في خزي الدنيا والآخرة.

وكان يجعل على ظهره إهاب الشاة، وكان له مال يتجر فيه ويقول: اللّهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلا ولا حرصاً عليه، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم في وفيهم، وأصل منه رحمي، وأؤدي منه الحقوق التي فيه، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار. والله سبحانه وتعالى أعلم.

■ طلق بن حبيب العنزي: تابعي جليل، روى عن أنس وجابر وابن الزبير وابن عباس، وعبد الله بن عمر وغيرهم، وعنه حميد الطويل والأعمش وطاوس، وهو من أقرانه وأثنى عليه في قراءته عمرو بن دينار، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة، ولكن تكلموا فيه من جهة أنه كان يقول بالإرجاء.

وقد كان فيمن خرج مع ابن الأشعث، وكان يقول: اتقوها بالتقوى، فقيل له: صف لنا التقوى، فقال: التقوى؛ العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله. والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

وقال أيضاً: إن حقوق الله اعظم من ان يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى، أو يقوم بشكرها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين.

وكان طلق لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شيء يتصدق به، وإن لم يجد إلا بصلا، ويقول: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢] فتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الله أعظم وأعظم.

قال مالك: قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير.

وقد ذكر ابن جرير فيما سبق أن خالد بن عبد الله القسري بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج، وهم مجاهد، وسعيد بن جبير، وطلق بن حبيب، فمات طلق في الطريق وحبس مجاهد، وكان من أمر سعيد ما كان. والله أعلم.

■ عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني، تابعي جليل، روى عن أبيه وعن العبادلة ومعاوية والمغيرة وأبي هريرة، وأمه أسماء، وخالته عائشة، وأم سلمة. وعنه جماعة من التابعين، وخلق ممن سواهم.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ١٧٩/٥]: كان عروة ثقة كثير الحديث عالما مأمونا ثبتاً.

وقال العجلي [تاريخ الثقات ص٣٣١]: مدني تابعي رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن.

وقال ذكره الواقدي: كان فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير، وهو أول من صنف المغازي، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر، وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث هشام: العلم لواحد من ثلاثة، لذي حسب يزينه به، أو ذي دين يسوس به دينه، أو مختلط بسلطان يتحفه بعلمه ويتخلص منه بالعلم، فلا يقع في هلكة، وقال: ولا أعلم أحداً اشترط لهذه الخصال الثلاثة إلا عروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز.

وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن ويقوم به في الليل، وكان أيام الرطب يثلم حائطه ثم يأذن للناس فيدخلون فيأكلون ويحملون، فإذا ذهب الرطب أعاده.

وقال الزهري: كان عروة بحراً لا ينزف. وقال مرةً: ولا تكدره الدلاء.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله.

وقد ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين ينتهي إلى قولهم.

وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إلى قولهم في زمن ولايته على المدينة.

وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق، فلما رجع أصابته في رجله الأكلة فأرادوا قطعها، فعرضوا عليه أن يشرب شيئا يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها، فقال: ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل، ولكن هلموا فاقطعوها فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم، ولا يُسمع له حِسٌّ.

وروي أنهم قطعوها وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة فالله أعلم.

ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله ولد له يسمى محمداً - كان أحب أولاده - من سطح فمات، فدخلوا عليه فعزوه فيه، فقال: اللّهم لك الحمد، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة، وكنَّ أطرافاً أربعاً فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثاً، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما أعطيت.

وقيل: إنه لما رأى رجله المقطوعة في الطُّشت قال: الله أعلم أني ما مشيت بها في معصية قط.

قلت: قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ليجتمع بالوليد، وقعت الأكلة في رجله في وادي قرب المدينة وكان مبدؤها هناك، فظن أنها لا يكون منها ما كان، فذهب في وجهه ذلك، فما وصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه. وربما ترقّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها وقالوا له: ألا نسقيك مرقّدا حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر؟ فقال: لا! والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شرابا أو يأكل شيئا يذهب عقله، ولكن إن كنتم لابد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحس بذلك، ولا أشعر به. قال: فنشروا رجله من فوق الأكلة، من المكان الحي احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء، وهو قائم يصلي، فما تصور ولا اختلج، فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله، فقال: اللّهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت.

وقيل: إنه لّما رأى رجله المقطوعة في الطُّست، قال: الله أعلم أنّي ما مشيتُ بها إلى معصية قط.

قيل: إنه ولد في حياة عمر، والصحيح أنه ولد بعد عمر في سنة ثلاث وعشرين، وكانت وفاته في سنة أربع وتسعين على المشهور، وقيل: سنة تسعين، وقيل: سنة مائة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: سنة إحدى ومائة، وقيل: سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين، وقيل سنة تسع وتسعين والله أعلم.

■ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي المشهور بزين العابدين، وأمه أم ولد اسمها سلامة، وكان له أخ أكبر منه يقال له علي أيضاً، قتل مع أبيه.

روى علي هذا الحديث عن أبيه وعمه الحسن بن علي، وجابر وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة، أمهات المؤمنين.

وعنه جماعة منهم بنوه زيد وعبد الله وعمر، وأبو جعفر محمد بن علي الباقر، وزيد بن أسلم، وطاوس وهو من أقرانه، والزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأبو سلمة وهو من أقرانه، وخلق.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢٦٧/٣]: كانت أُمُّه سلاّمة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس.

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار» أن يزدجرد كان له ثلاث بنات سبين في زمن عمر بن الخطاب، فحصلت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالماً، والأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولدها القاسم، والأخرى للحسين بن علي فأولدها عليا زين العابدين هذا، فكلُّهم بنو خالة.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢٦٧/٣]: ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز بن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج فأخذ إحداهما وبعث بالأخرى إلى الوليد بن عبد الملك، فأولدها الوليد يزيد الناقص.

وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف [ص: ٢١٤] أن زين العابدين هذا كانت أمه سندية، يقال لها سلامة، ويقال غزالة.

وكان مع أبيه بكربلاء، فاستبقي لصغره، وقيل: لمرضه، فإنه كان ابن ثلاث وعشرين سنة، وقيل أكثر من ذلك، وقد هم بقتله عبيد الله بن زياد، ثم صرفه الله عنه، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضاً فمنعه الله تعالى من ذلك، و لله الحمد من ذلك، و لله الحمد والمنّة، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه ويعظمه ويجلسه معه، ولا يأكل إلا وهو عنده، ثم بعثهم إلى المدينة مكرمين، وكان علي بالمدينة محترما معظما.

قال الحافظ ابن عساكر: ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف.

قلت: وهو الذي يقال له: مشهد علي شرقي جامع دمشق. وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق فاستشاره في جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة وطراز القراطيس.

قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض، فقال عمر بن سعد: لا تعرضوا لهذا المريض.

وقال الواقدي: كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل، وكان إذا مشى لا يخطر بيده، وكان يعتم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه، وكان كنيته أبو الحسن، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٥/٢٢٢]: كان ثقة مأموناً كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً، وأمه غزالة خلف عليها بعد الحسين مولاه زبيد فولدت له عبد الله بن زبيد، وهو علي الأصغر، فأما الأكبر فقتل مع أبيه. وكذا قال غير واحد.

وقال سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ومالك وأبو حازم: لم يكن في أهل البيت مثله.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري: سمعت علي بن الحسين وهو أفضل هاشمي أدركته يقول: يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً.

وفي رواية: حتى بغضتمونا إلى الناس.

وقال الأصمعي: لم يكن للحسين عقب إلا من علي بن الحسين، ولم يكن لعلي بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن، فقال له مروان بن الحكم: لو اتخذت السراري حتى يكثر أولادك، فقال: ليس لي ما أتسرى به، فأقرضه مائة ألف فاشترى له السراري فولدن له وكثر نسله، ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من علي بن الحسين مما كان أقرضه، فجميع الحسينيين من نسله رضي الله عنه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أصح الأسانيد كلها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده. وذكروا أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قالوا له: ما لك لم تنصرف؟ فقال: إني اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وأنه كان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق، فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون بين يدي من أريد أن أقوم ولمن أناجي؟ ولما حج أراد أن يلبي فارتعد وقال: أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك، فيقول لي: لا لبيك، فشجعوه وقالوا: لا بُدَّ من التلبية، فلما لبى غشي عليه حتى سقط عن الراحلة، وأنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة.

وقال طاوس: سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول: عبيدك بفنائك. مسكينك بفنائك سائلك بفنائك. فقيرك بفنائك، قال طاوس: فوالله ما دعوت بها في كرب قط إلا كشف عني.

وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل، وكان يقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة. وأنه قاسم الله تعالى ماله مرتين.

وقال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجُرُب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل.

وقيل: إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات.

ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده فبكى ابن أسامة فقال له: ما يبكيك؟ قال: علي دين. قال: وكم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار - وفي رواية سبعة عشر ألف دينار - فقال: هي علي.

وقال علي بن الحسين: كان أبو بكر وعمر من رسول الله ﷺ في حياته بمنزلتهما منه بعد وفاته.

ونال منه رجل يوماً فجعل يتغافل عنه - يريه أنه لم يسمعه - فقال له الرجل: إياك أعني، فقال له علي: وعنك أغضي.

وخرج يوماً من المسجد فسبّه رجل فابتدر الناس إليه، فقال: دعوه، ثم أقبل عليه فقال: ما سُتر عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الأنبياء.

قالوا: واختصم علي بن الحسين وحسن بن حسن - وكان بينهما منافسة - فنال منه حسن بن حسن وهو ساكت، فلما كان الليل ذهب علي بن الحسين إلى منزله فقال: يا ابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لي، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك والسلام عليك، ثم رجع، فلحقه فصالحه رحمهما الله.

وقيل له: من أعظم الناس خطراً؟ فقال: من لم يرض الدنيا لنفسه خطراً.

وقال أيضاً: الفكرة مرآة تري المؤمن حسناته وسيئاته، وقال: فقد الأحبة غربة.

وكان يقول: إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وآخرون عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار الأخيار.

وقال لابنه: يا بني لا تصحب فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة وأقل منها يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا بخيلا فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، ولا كذاباً فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا قاطع رحم فإنه ملعون في كتاب الله. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

وكان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك، أنت سيد الناس تأتي تخطى حتى تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فقال له علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يُبتغى ويؤتى ويطلب من حيث كان.

وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال: قال لي علي بن الحسين: أتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ قال: أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء -

وأشار بيده إلى العراق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن رزين بن عبيد قال: كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس: مرحباً بالحبيب ابن الحبيب.

وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي: حدثنا العلائي حدثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير قال: كنا عند جابر بن عبد الله فدخل عليه علي بن الحسين فقال: كنت عند رسول الله ﷺ فدخل عليه الحسين بن علي فضمه إليه وقبله وأقعده إلى جنبه، ثم قال: «يولد لابني هذا ابن يقال له علي، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقم سيد العابدين، فيقوم هو».

هذا حديث غريب جداً أورده الحافظ ابن عساكر.

وقال الزهري: كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أفقه منه، وكان قليل الحديث، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك، وكان يسميه زين العابدين.

وقال جويرية بن أسماء: ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهماً قط. رحمه الله ورضي عنه.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٥/٢١٣]: انبأ علي بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبري قال: بعث المختار إلى علي بن الحسين بمائة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردها، فاحتبسها عنده، فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان: إن المختار بعث إلي بمائة ألف فكرهت أن أقبلها وكرهت أن أردها، فابعث من يقبضها. فكتب إليه عبد الملك: يا ابن عم! خذها فقد طيبتها لك، فقبلها.

وقال علي بن الحسين: سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم، لأن العلماء ورثة الأنبياء.

وقال أيضاً: إني لأستحي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك لكنت بها أبخل، وأبخل وأبخل.

وذكروا أنه كان كثير البكاء فقيل له في ذلك فقال: إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات، وإني رأيت بضعة عشر من أهلي بيتي يذبحون في غداة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً؟!.

وقال عبد الرزاق: سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: قد عفا الله عنك. فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: اذهبي أنت حرة.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا عبد الله بن إبراهيم أبو قدامة الجُمَحي عن أبيه عن جده عن محمد بن علي عن أبيه قال: جلس إليَّ قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما، ثم ابتدؤوا في عثمان فقلت لهم: أخبروني أأنتم من المهاجرين الذين ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وإلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا، لسنا منهم قال: فأنتم من الذين قال الله، عز وجل ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] قالوا: لا، لسنا منهم، قال: فقلت لهم: أما أنتم فقد تبرأتم وأقررتم وشهدتم أن تكونوا منهم، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] فقوموا عني لا بارك الله فيكم، ولا قرب دوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام، ولستم من أهله.

وجاء رجل فسأله: متى يبعث علي؟ فقال: يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثت عن سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال: اللّهم إني أتصدق اليوم ـ أو أهب عرضي اليوم ـ من استحله.

وروى ابن أبي الدنيا أن غلاماً سقط من يده سَفُّود وهو يشوي شيئاً في التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله، فنهض علي بن الحسين مسرعاً، فلما نظر إليه قال للغلام: يا بني إنك لم تتعمد، أنت حر. ثم شرع في جهاز ابنه.

وقال المدائني: سمعت سفيان يقول: كان علي بن الحسين يقول: ما يسرني أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم.

ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه.

ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه، فقال له علي بن الحسين: إن من وراء ابنك خلالا ثلاثاً: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله، ورحمة الله عز وجل.

وقال المدائني: قارف الزهري ذنباً فاستوحش منه وهام على وجهه وترك أهله وماله، فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له: يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك، فقال الزهري: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي رواية: أنه كان أصاب دما خطأ فأمره علي بالتوبة والاستغفار وأن يبعث الدية إلى أهله.

وكان الزهري يقول: علي بن الحسين أعظم الناس علي منة.

وقال سفيان بن عيينة: كان علي بن الحسين يقول: لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة الله.

وذكروا أنه زوج ابنةً من مولى له وأعتق أمه فتزوجها فأرسل إليه عبد الملك يلومه في ذلك، فكتب إليه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد أعتق صفية فتزوجها، وزوج مولاه زيد بن حارثة من ابنة عمته زينب بنت جحش.

قالوا: وكان يلبس في الشتاء خميصة من خز بخمسين ديناراً، فإذا جاء الصيف تصدق بها، ويلبس في الصيف الثياب المرقعة ودونها ويتلو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقد روي من طرق ذكرها الصولي والجريري وغير واحد أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه أو أخيه الوليد، فطاف بالبيت، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه، وقام أهل الشام حوله، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالا له وهيبة واحتراماً، وهو في بزة حسنة، وشكل مليح، فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه. لئلا يرغب فيه أهل الشام ـ فقال الفرزدق ـ وكان حاضراً ـ: أنا أعرفه، فقالوا: ومن هو؟ فأنشأ الفرزدق يقول:

هَـذَا الـذِي تَعْـرِفُ البَطْحَـاءُ وَطْأَتَـهُ   والبَيـتُ يَعرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ
هـذا ابـنُ خَـيرِ عِبَـادِ اللـهِ كُلِّهِـمُ   هـذا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطَّـاهِرُ العَلَـمُ
إذا رَأَتْـهُ قُرَيـشٌ قَـالَ قَائِلُهَـا   إلى مَكَـارِمِ هـذا يَنْتَهِـي الكَـرَمُ
يُنْمَـى إلى ذِروَةِ العِـزِّ الـتي قَصُـرَت   عـن نَيلِهـا عَـرَبُ الإسـلامِ والعَجَـمُ
يَكَـادُ يُمسِـكُهُ عِرفـانُ رَاحَتِـهِ   رُكـنُ الحَطِيـمِ إذا مَـا جَـاءَ يَسـتَلِمُ
يُغضِـي حَيـاءً ويُغضَـى مِـن مَهَابَتِـهِ   فَمَـا يُكَلَّـمُ إلا حِـينَ يَبتَسِـمُ
بِكَفِّـهِ خَـيزُرانٌ رِيحُهَـا عَبِـقٌ   مِـن كَـفِّ أروَعَ في عِرنِينِـهِ شَـمَمُ
مُشـتَقَّةٌ مِـن رَسُـولِ اللـهِ نَبعَتُـهُ   طَـابَت عَناصِرُهـا والخِيـمُ والشِّـيَمُ
يَنجـابُ نُـورُ الهُـدَى مِـن نُـورِ غُرَّتِـهِ   كالشمسِ يَنجَابُ عـن إشـراقِها القَتَـمُ
حَمَّـالُ أثقَـالِ أقـوامٍ إذا فُدِحُـوا   حُلـوُ الشَّـمائِلِ تَحلُـو عِنـدَهُ نَعَـمُ
هَـذا ابـنُ فَاطِمَـةٍ إن كُنـتَ جَاهِلَـهُ   بِجَـدِّهِ أنبِيـاءُ اللـهِ قَـد خُتِمُـوا
اللـهُ فَضَّلَـهُ قِدَمـاً وشَـرَّفَهُ   جَـرَى بِـذاكَ لَـهُ فِـي لَوحِـهِ القَلَـمُ
مِـن جَـدُّهُ دَانَ فَضـلُ الأنبيـاءِ لَـهُ   وفَضـلُ أُمَّتِـهِ دَانَـت لَهَـا الأُمَـمُ
عَـمَّ البَرِيَّـةَ بالإحسـانِ فانْقَشَـعَت   عنهـا الغَيَابَـةُ والإمـلاقُ والظُّلَـمُ
كِلتَـا يَدَيـهِ غِيـاثٌ عَـمَّ نَفعُهُمـا   يُسـتَوكَفانِ ولا يَعرُوهُمَـا العَـدَمُ
سَـهلُ الخَلِيقَـةِ لا تُخشَـى بَـوادِرُهُ   يَزِينُـهُ اثنـانِ حُسـنُ الخُلْـقِ والكَـرَمُ
لا يُخلِـفُ الوَعـدَ مَيمُـونٌ نَقِيبَتُـهُ   رَحـبُ الفِنَـاءِ أرِيـبٌ حِـينَ يَعـتَزِمُ
مِـن مَعشَـرٍ حُبُّهُـم دِيـنٌ وبُغضُهُـمُ   كُفـرٌ وقُربُهُـمُ مَنجـىً ومُعتَصَـمُ
يُسـتَدفَعُ السُّـوءُ والبَلـوَى بِحُبِّهِـمُ   ويُسـتَرَبُّ بِـهِ الإحسـانُ والنِّعَـمُ
مُقَـدَّمٌ بَعـدَ ذِكـرِ اللـهِ ذِكرُهُـمُ   في كُـلِّ حُكـمٍ ومَختُـومٌ بِـهِ الكَلِـمُ
إن عُـدَّ أهـلُ التُّقَـى كـانوا أئِمَّتَهُـم   أو قِيـلَ مَـن خَـيرُ أهـلِ الأرضِ قِيـلَ هُـمُ
لا يَسـتَطِيعُ جَـوادٌ بَعـدَ غَـايَتِهِم   ولا يُدانِيهِـمُ قَـومٌ وإن كَرُمُـوا
هُـمُ الغُيُـوثُ إذا مَـا أزمَـةٌ أزَمَـت   والأُسـدُ أُسـدُ الشَّـرَى والبـأسُ مُحتَـدِمُ
يـأبَى لَهُـم أن يَحُـلَّ الـذَّمُّ سَـاحَتَهُم   خِيـمٌ كَرِيـمٌ وأيـدٍ بـالنَّدَى هُضُـمُ
لا يَقبِـضُ العُسـرُ بَسـطاً مِـن أكُفِّهِـمُ   سِـيَّانِ ذلـك إن أثـرَوا وإن عَدِمُـوا
أيُّ الخَلائِـقِ لَيسَـت فِـي رِقَـابِهِمُ   لأوَّلِيَّـةِ هـذا أو لَـهُ نِعَـمُ
فَلَيـسَ قَولُـكَ مَـن هـذا بِضَـائِرِهِ   العُـربُ تَعـرِفُ مَـن أنكَـرتَ والعَجَـمُ
مَـن يَعـرِفِ اللـهَ يَعـرِفْ أوَّلِيَّـةَ ذا   فـالدِّينُ مِـن بَيـتِ هـذا نالَـهُ الأُمَـمُ

قال: فغضب هشام من ذلك وأمر بحبس الفرزدق بعسفان، بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك علي بن الحسين بعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم وأرسل يعتذر إليه أن ليس عنده اليوم غيرها فردها الفرزدق، وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل ونصرة للحق، وقياماً بحق رسول الله ﷺ في ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشيء. فأرسل إليه علي بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك في ذلك، وأقسمت لتقبلنها فقبلها منه. ثم جعل يهجو هشاماً وكان مما قال فيه:

يُحَبِّسُـنِي بَـينَ المدينـةِ والـتي   إليهـا قُلُـوبُ النـاسِ يَهـوِي مُنِيبُهَـا
يُقَلِّـبُ رأسـاً لم يكـن رأسَ سَـيِّدٍ   وعينَـينِ حَولاوَيـنِ بـادٍ عُيُوبُهَـا

وقد روينا عن علي بن الحسين رحمه الله أنه كان إذا مرت به الجنازة يقول:

نُـرَاعُ إذا الجَنَـائِزُ قابَلَتنـا   ونَلهـو حِـينَ تَمضِـي ذاهِبَـاتِ
كَرَوعَـةِ ثُلَّـةٍ لِمُغَـارِ سَـبعٍ   فَلَمَّـا غـابَ عَـادَت رَاتِعَـاتِ

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري قال سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه: -

يا نفس حتام إلى الدنيا غرورك، وإلى عمارتها ركونك، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ومن وارته الأرض من ألافك؟ ومن فُجعتَ به من إخوانك، ونُقل إلى البلى من أقرانك؟

خَلَت دُورُهم مِنهُم وأقوَت عِرَاصُهم   وسَـاقَتهُم نَحـوَ المَنايـا المَقـادِرُ
وخَلَّوا عـن الدنيـا ومـا جَمَعوا لهـا   وضَمَّتهُـم تَحـتَ الـترابِ الحَفـائِرُ

كم تخرَّمتْ أيدي المنون من قرون بعد قرون، وكم غيرت الأرض ببلائها، وغيبت في ثراها، ممن عاشرت من صنوف الناس وشيعتهم إلى الأرماس.

وأنتَ على الدنيـا مُكِـبٌّ مُنـافِسٌ   لِخُطّابِهـا فيهـا حَرِيـصٌ مُكـاثِرُ
عَلَى خَطَرٍ تُمسِـي وتُصبِـحُ لاهِيـاً   أتَـدرِي بمـاذا لـو عَقَلـتَ تُخـاطِرُ
وإن امـرأً يَسـعَى لِدُنيـاهُ دائِبـاً   ويَذهَـلُ عَـن أُخـراهُ لا شَـكَّ خاسِـرُ

فحتّام على الدنيا إقبالك، وبشهواتها اشتغالك؟ وقد وخطك القتير، وأتاك النذير، وأنت عما يراد بك ساه وبلذة يومك لاه، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات، وعاينت ما حل بهم من المصيبات:

وفي ذِكـرِ هَـولِ المَـوتِ والقَبـرِ والبِلَـى   عـنِ اللَّهـوِ واللَّـذّاتِ للمَـرءِ زاجِـرُ
أبعـدَ اقـترابِ الأربعـينَ تَرَبُّـصٌ   وشَـيبُ قَـذَالٍ مُنـذِرٌ لـكَ كاسِـرُ
كـأنكَ مَعنِـيٌّ بمـا هـو صـائِرٌ   لنفسِـكَ عَمـداً أو عـن الرُّشـدِ جـائِرُ

انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية كيف أفنتهم الأيام ووافاهم الحمام، فانمحت من الدنيا آثارهم، وبقيت فيها أخبارهم، وأضحوا رمماً في التراب، إلى يوم الحشر والحساب:

وأضحَـوا رَمِيمـاً في الـتُّرابِ وعُطِّلَـت   مَجـالِسُ مِنهُـم أُقفِـرَت ومَقـاصِيرُ
وحَلُّـوا بِـدارٍ لا تَـزَاوُرَ بَينَهُـم   وأنَّـى لِسُـكّانِ القُبـورِ تَـزاوُرُ
فَمـا إن تَـرَى إلا قُبُـوراً قَـد ثَـوَوا بِهـا   مُسَـطَّحَةً تَسـفِي عَلَيهـا الأعاصِيرُ

كم من ذي منعة وسلطان وجنود وأعوان، تمكن من دنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر، وجمع الأعلاق والذخائر

فَمـا صَرَفَـت كَـفَّ المَنِيَّـةِ إذ أتَـت   مُبـادِرَةً تَهـوِي إلَيـهِ الذَّخـائِرُ
ولا دفعت عنه الحُصُونُ الـتي بَنَـى   وحَـفَّ بِهـا أنهـارُهُ والدَّسـاكِرُ
ولا قـارَعَت عنـهُ المَنِيَّـةَ حِيلَـةٌ   ولا طَمِعَـت في الـذَّبِّ عنـه العَسـاكِرُ

أتاه من الله مالا يرد، ونزل به من قضائه مالا يصد، فتعالى الله الملك الجبار، المتكبر القهار، قاصم الجبارين، ومبيد المتكبرين، الذي ذل لعزه كل سلطان، وأباد بقوته كل ديان.

مَلِيـكٌ عَزِيـزٌ لا يُـرَدُّ قَضَـاؤُهُ   حَكِيـمٌ عَلِيـمٌ نـافِذُ الأمـرِ قـاهِرُ
عَنـا كُـلُّ ذي عِـزٍّ لِعِـزَّةِ وَجهِـهِ   فَكُـلُّ عَزِيـزٍ للمُهَيمِـنِ صـاغِرُ
لقـد خَضَعَـت واستَسـلَمَت وتَضـاءَلَت   لِعِـزَّةِ ذي العَـرشِ المُلـوكُ الجَبـابِرُ

فالبدار البدار والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لك من مصايدها، وتحلت لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها، وأبرزت لك من شهواتها، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها.

وفي دُونِ ما عَايَنتَ مِن فَجَعَاتِها إلى رَفْضِها داعٍ وبالزهدِ آمِرُ
فَجِدَّ ولا تَغفَلْ فعيشُكَ زائلٌ وأنتَ إلى دارِ الإقامةِ صائرُ
ولا تَطلُبِ الدُّنيا فإنَّ نَعيمَها وإن نِلتَ منها غُبَّةً لكَ ضائرُ

فهل يحرص عليها لبيب، أو يسر بها أريب؟ وهو على ثقة من فنائها، وغير طامع في بقائها، أم كيف تنام عينا من يخشى البيات، وتسكن نفس من يتوقع الممات.

ألا لا ولكنَّا نَغُرُّ نُفوسَنا وتَشغَلُنا اللذاتُ عَمَّا نُحاذِرُ
وكيفَ يَلَذُّ العَيشَ مَن هُو مُوقِنٌ بمَوقِفِ عَدلٍ يومَ تُبلَى السَّرائرُ
كأنَّا نَرَى أن لا نُشورَ وأنَّنا سُدىً ما لَنا بعدَ المَماتِ مَصادِرُ

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ويتمتع به من بهجتها، مع صنوف عجائبها وكثرة تعبه في طلبها، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها؟!

أمَا قد تَرَى في كلِّ يومٍ وليلةٍ يَروحُ علينا صَرفُها ويُباكِرُ
تُعاوِرُنا آفاتُها وهُمومُها وكم قد تَرَى يَبقَى لها المُتعاوِرُ
فلا هُو مَغبوطٌ بدُنياهُ آمِنٌ ولا هُوَ عَن تَطلابِها النفسَ قاصِرُ

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تنعشه من عثرته، ولم تقمه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبره من سقمه. ولم تخلصه من وصمه.

بَلِ اوْرَدَتهُ بَعدَ عِزٍّ ومَنعَةٍ مَوارِدَ سُوءٍ ما لَهُنَّ مَصادِرُ
فلمَّا رَأى أن لا نَجاةَ وأنَّهُ هو المَوتُ لا يُنجيهِ منهُ التَّحاذُرُ
تَندَّمَ إذ لم تُغنِ عنهُ نَدامَةٌ عليهِ وأبكَتهُ الذُّنوبُ الكبائِرُ

بكى على ما سلف من خطاياه، وتحسر على ما خلف من دنياه، حين لا ينفعه الاستغفار، ولا ينجيه الاعتذار، عند هول المنية ونزول البلية.

أحاطَت بهِ أحزانُهُ وهُمومُهُ وأبلَسَ لمَّا أعجزَتهُ المعاذِرُ
فليسَ لَهُ مِن كُربَةِ المَوتِ فارِجٌ وليسَ لهُ مِمَّا يُحاذِرُ ناصِرُ
وقد جَشَأت خَوفَ المَنيَّةِ نَفسُهُ تُرَدِّدُها مِنهُ اللُّها والحَناجِرُ

هنالك خف عواده، وأسلمه أهله وأولاده، وارتفعت الرنة بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فغمضوا بأيديهم عينيه، ومد عند خروج روحه رجليه، وتخلى عنه الصديق، والصاحب الشفيق.

فَكَم مُوجَعٍ يَبكي عَلَيهِ ومُفجَعٍ ومُستَنجِدٍ صَبراً وما هو صابِرُ
ومُستَرجِعٍ داعٍ لهُ اللهَ مُخلِصاً يُعَدِّدُ مِنهُ خَيرَ ما هو ذاكِرُ
وكَم شامِتٍ مُستَبشِرٍ بوَفاتِهِ وعمَّا قَليلٍ للذي صارَ صائرُ

فشقت جيوبها نساؤه، ولطمت خدودها إماؤه، وأعول لفقده جيرانه، وتوجع لرزئه إخوانه، ثم أقبلوا على جهازه، وشمروا لإبرازه، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى، ولا الحبيب المبدى.

وظَلَّ أحَبُّ القَومِ كانَ لِقُربِهِ يَحُثُّ عَلى تَجهيزِهِ ويُبادِرُ
وشَمَّرَ مَن قَد أحضَرُوهُ لِغُسلِهِ ووُجِّهَ لمَّا قامَ للقبرِ حافِرُ
وكُفِّنَ في ثَوبَينِ واجتَمَعَت لهُ مُشيِّعةً إخوانُهُ والعَشائِرُ

فلو رأيت الأصغر من أولاده، وقد غلب الحزن على فؤاده، وغُشي من الجزع عليه، وخضبت الدموع خديه، وهو يندب أباه ويقول: يا ويلاه واحرباه:

لَعايَنتَ مِن قُبحِ المَنيَّةِ مَنظَراً يُهالُ لِمَرآهُ ويَرتاعُ ناظِرُ
أكابِرُ أولادٍ يَهيجُ اكتِئابُهُم إذا ما تَناساهُ البَنونُ الأصاغِرُ
ورَنَّةُ نِسوانٍ عَلَيهِ جَوازِعٍ مَدامِعُهُم فَوقَ الخُدودِ غَوازِرُ

ثم أخرج من سعة قصره، إلى ضيق قبره، فلما استقر في اللحد وهيء عليه اللبن، احتوشته أعماله وأحاطت به خطاياه، وضاق ذرعا بما رآه، وحثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا التلدُّد عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهنا بما كسب وطلب.

فَوَلَّوا عَلَيهِ مُعوِلينَ وكُلُّهُم لِمِثلِ الذي لاقى أخوهُ مُحاذِرُ
كَشاءٍ رِتاعٍ آمِنينَ بَدا لها بِمُديَتِهِ بادي الذراعينِ حاسِرُ
فَريعَت ولم تَرتَع قليلاً وأجفَلَت فلمَّا نأى عنها الذي هُو جازِرُ

عادت إلى مرعاها، ونسيت ما في أختها دهاها، أفبأفعال البهائم اقتدينا؟ أم على عادتها جرينا؟ عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى، والثرى، المدفوع إلى هول ما ترى.

ثَوَى مُفرَداً في لَحدِهِ وتَوزَّعَت مَوارِيثَهُ أرحامُهُ والأواصِرُ
وأحنَوا على أموالِهِ يَقسِمونَها فلا حامِدٌ مِنهُم عليها وشاكِرُ
فيا عامِرَ الدُّنيا ويا ساعِياً لها ويا آمِناً مِن أن تَدورَ الدَّوائرُ

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة؟ أم كيف تهنأ بحياتك وهي مطيتك إلى مماتك؟ أم كيف تسيغ طعامك وأنت منتظر حمامك؟ أم كيف تهنأ بالشهوات، وهي مطية الآفات.

ولم تَتزَوَّدْ للرحيلِ وقد دَنا وأنتَ على حالٍ وشيكٍ مُسافِرُ
فيا لَهفَ نفسي كَم أُسَوِّفُ تَوبَتي وعُمري فانٍ والرَّدى لي ناظِرُ
وكُلُّ الذي أسلَفتُ في الصُّحُفِ مُثبَتٌ يُجازي عَليهِ عادِلُ الحُكمِ قادِرُ

فكم ترقع بآخرتك دنياك، وتركب في ذلك هواك، أراك ضعيف اليقين، يا مؤثر الدنيا على الدين أبهذا أمرك الرحمن؟ أم على هذا نزل القرآن؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب، وشر المآب أما تذكر حال من جمع وثمر، ورفع البناء وزخرف وعمر، أما صار جمعهم بورا، ومساكنهم قبورا:

تُخَرِّبُ ما يَبقى وتُعمِرُ فانياً فلا ذاكَ مَوفورٌ ولا ذاكَ عامِرُ
وهل لكَ إنْ وافاكَ حَتفُكَ بَغتَةً ولم تَكتَسِبْ خَيراً لدى اللهِ عاذِرُ
أترضى بأنْ تَفنى الحَياةُ وتَنقَضي ودينُكَ مَنقوصٌ ومالُكَ وافِرُ

وقد اختلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها علي بن الحسين، زين العابدين، فالمشهور عن الجمهور أنه توفي في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وتسعين ـ في أولها عن ثمان وخمسين سنة، وصلي عليه بالبقيع، ودفن به.

قال الفلاس: مات سعيد بن المسيب وعليُّ بن الحسين وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن سنة أربع وتسعين.

وقال بعضهم: توفي سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين.

واغرب المدائني في قوله: إنه توفي سنة تسع وتسعين والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة، قيل اسمه محمد، وقيل اسمه أبو بكر، وكنيته أبو عبد الرحمن، والصحيح أن اسمه وكنيته واحد، وله من الأولاد والإخوة كثير، وهو تابعي جليل، روى عن عمار وأبي هريرة وأسماء بنت أبي بكر وعائشة وأم سلمة وغيرهم، وعنه جماعة منهم بنوه: سلمة وعبد الله وعبد الملك وعمر، ومولاه سمي، وعامر الشعبي وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، ومجاهد، والزهري.

ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش، لكثرة صلاته، وكان مكفوفاً، وكان يصوم الدهر، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم.

وكان عبد الملك بن مروان يكرمه ويعرف فضله ويقول: إني أَهُمُّ بالشيء أفعله بأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا، فأذكر أبا بكر بن عبد الرحمن فاستحيي منه وأترك ذلك الأمر من أجله.

وله مناقب كثيرة.

قال أبو داود: وكان قد كُفَّ وكان إذا سجد يضع يده في طست ماء لعلة كان يجدها. والصحيح أنه مات في هذه السنة، وقيل: في التي قبلها، وقيل: في التي بعدها. والله أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح حصوناً كثيرة.

وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب من أرمينيّة وخربها ثم بناها بعد ذلك بتسع سنين.

وفيها افتتح محمد بن القاسم مدينة المولتان من أرض الهند، وأخذ منها أموالا جزيلة.

وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل تحمل من كثرتها، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش، ففتح مدناً وأقاليم كثيرة، فلما كان هناك جاءه الخبر بموت الحجاج بن يوسف فقمعه ذلك ورجع بالناس إلى مدينة مرو وتمثل بقول بعض الشعراء:

لَعَمْري لَنِعْمَ المَرْءُ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ بِحَورانَ أَمْسَى أَعْلَقَتْهُ الحَبَائِلُ
فَإِنْ تَحْيَ لا أَمْلَكُ حَيَاتي وإِنْ تَمُتْ فَمَا في حَيَاتي بَعْدَ مَوتِكَ طَائِلُ

وفيها كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء، ويعده على ذلك ويجزيه خيراً، ويثني عليه بما صنع من الجهاد وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد. وقد كان الحجاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله، فولى الوليد الصلاة والحرب بالمصرين - الكوفة والبصرة - يزيد بن أبي كبشة، وولى خراجهما يزيد بن مسلم، وقيل: إن الحجاج كان يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه، وكانت وفاة الحجاج لخمس، وقيل: لثلاث بقين من رمضان، وقيل: مات في شوال من هذه السنة.

وحج بالناس فيها بشر بن الوليد بن عبد الملك، قاله أبو معشر والواقدي.

وفيها قتل الوضاحي بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه.

وفي هذه السنة كان مولد أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

(وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي وذكر وفاته)

هو

■ الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف - وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن - أبو محمد الثقفي.

سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبي بردة بن أبي موسى.

وروى عنه أنس بن مالك، وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وجراد بن مجالد، وقتيبة بن مسلم، وسعيد بن أبي عروبة. قاله ابن عساكر [تاريخ دمشق:١٢/١١٣].

قال: وكانت له بدمشق آدُرٌ منها دار الزاوية بقرب قصر ابن أبي الحديد. وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق.

وقدم دمشق وافداً على عبد الملك، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم حدثنا سالم بن قتيبة بن مسلم، سمعت أبي يقول: خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة، وبيت الغربة. حتى بكى وأبكى من حوله، ثم قال: سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول: سمعت مروان يقول في خطبته: خطبنا عثمان بن عفان فقال في خطبته: «ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبر أو ذكره إلا بكى».

وهذا الحديث له شاهد في سنن أبي داود [٣٢٣٤] وغيره [ج (٤١٩٥)]

وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار: حدثنا سيّار عن جعفر عن مالك بن دينار قال: دخلت يوماً على الحجاج فقال لي: يا أبا يحيى ألا أحدثك بحديث حسن عن رسول الله ﷺ؟ فقلت: بلى! فقال: حدثني أبو بردة عن أبي موسى. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللهِ حَاجَةٌ فَلْيَدْعُ بِهَا في دُبُرِ صَلاةٍ مَفْرُوضَةٍ».

وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره في السنن [د(١٤٨١)، ت(٣٤٧٦، ٣٤٧٧)، س(١٣١٤)] والمسانيد [المسند: ١٨/٦] والله أعلم.

قال الشافعي رحمه الله: سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبة دخل على امرأته وهي تتخلل - أي تخلل أسنانها ليخرج ما بينها من أذى - وكان ذلك في أول النهار، فقال: والله لئن كنت باكرت الغذاء إنك لَرَغيبةٌ دنية، وإن كان الذي تخللين منه شيء بقي في فيك من البارحة إنك لقذرة، فطلقها فقالت: والله ما كان شيء مما ذكرت، ولكنني باكرت ما تباكره الحرة من السواك، فبقيت شظية في فمي منه فحاولتها لأخرجها. فقال المغيرة ليوسف أبي الحجاج: تزوجها فإنها لخليقة بأن تأتي برجل يسود، فتزوجها يوسف أبو الحجاج. قال الشافعي: فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له في النوم: ما أسرع ما ألقحت بالمبير.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢/٢٩]: واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، وكان زوجها الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب، وذكر عنه هذه الحكاية في السواك.

وذكر صاحب العقد [العقد الفريد: ١٣/٥، ١٤] أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك، فشكا عبدُ الملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجل توليه ذلك، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك، فقال للحجاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعله أنت، فإن يدي يدك، وسوطي سوطك، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرني في الذي وليتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده.

قال: وبنى واسط في سنة أربع وثمانين، وفرغ منها في سنة ست وثمانين.

وقيل قبل ذلك [وفيات الأعيان: ٥٠/٢].

قال: وفي أيامه نقطت المصاحف، وذكر في حكايته ما يدل أنه كان أولا يسمى كليباً، ثم سمّي الحجاج.

وذكر أنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدي أياماً ثم دم سالخ ولطخ وجهه بدمه فارتضع، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذي لطخ به وجهه.

ويقال: إن أمه هي المتمنية لنصر بن حجاج بن علاط.

وقيل: إنها أم أبيه والله أعلم.

وكانت فيه شهامة عظيمة، وفي سيفه رهق، وكان كثير قتْل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة، وكان يغضب غضب الملوك، وكان فيما يزعم يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً، ولا سواء ولا قريب.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة سليم بن عِتْر التجيبي قاضي مصر [مختصر تاريخ دمشق: ٢٠٠/١٠] ، وكان من كبار التابعين. وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم، وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات في الصلاة وغيرها.

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر في جامعها فاجتاز بهما سليم بن عِتْر هذا فنهض إليه أبو الحجاج فسلم عليه، وقال له: إني ذاهب إلى أمير المؤمنين، فهل من حاجة لك عنده؟ قال: نعم! تسأله أن يعزلني عن القضاء. فقال: سبحان الله!! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك. ثم رجع إلى ابنه الحجاج فقال له ابنه: يا أبه أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفي؟ فقال له: يا بني والله إني لأحسب أن الناس إنّما يرحمون بهذا وأمثاله. فقال ابنه الحجاج: والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله، فقال: ولم يا بني؟ قال: لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئا عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه، ولا يرون طاعته، والله لو خلص إليّ من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله، فقال له أبوه: يا بني والله إني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً.

وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عند الخليفة، وأنه كان ذا فراسة صحيحة، فإنه تفرس في ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك.

قالوا: وكان مولد الحجاج في سنة تسع وثلاثين، وقيل: في سنة أربعين، وقيل: في سنة إحدى وأربعين، ثم نشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن.

قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن في كل ليلة.

وقال أبو العلاء: ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري، وكان الحسن أفصح منه.

وقال الدارقطني: ذكر سليمان بن أبي شيخ عن صالح ابن سليمان قال: قال عتبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض، إلا الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس.

وتقدم أن عبد الملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيه عبد الله بن الزبير فحاصره بها.

وأقام للناس الحج عامئذ، ولم يتمكن ومن معه من الطواف بالبيت، ولا تمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف بعرفة، ولم يزل محاصره حتى ظفر به في جمادى سنة ثلاث وسبعين فقتله كما قدمنا وأقام للناس الحج أيضاً في سنة ثلاث وسبعين.

ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن، ثم ولاه عبد الملك العراق بعد موت أخيه بشر بن مروان. فدخل الكوفة كما ذكرنا، وقال لهم وفعل بهم ما تقدم إيراده مفصلا، فأقام بين ظهرانيهم عشرين سنة كاملة. وفتح فيها فتوحات كثيرة، هائلة منتشرة، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم، ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب بلاد الصين، وجرت له فصول قد ذكرناها. ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الأمور والجراءة والإقدام، والتهوُّر في الأمور العظام، مما يمدح على مثله ومما يذم بقوله وفعله، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره.

فروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن كثير - ابن أخي إسماعيل ابن جعفر المديني - ما معناه: أن الحجاج بن يوسف صلى مرة بجنب سعيد بن المسيب - وذلك قبل أن يلي شيئاً - فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه - وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة - فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره، ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلي هذه الصلاة! لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك. فلم يرد عليه ثم مضى الحجاج إلى الحج، ثم رجع فعاد إلى الشام، ثم جاء نائبا على الحجاز. فلما قتل ابن الزبير كر راجعا إلى المدينة نائباً عليها، فلما دخل المسجد النبوي إذا مجلس سعيد بن المسيب، فقصده الحجاج فخشي الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم! قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك. ثم قام ومضى.

وروى الرياشي عن الأصمعي وأبي زيد عن معاذ بن العلاء - أخي أبي عمرو بن العلاء - قال: لما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء، فأمر بالناس فجمعوا في المسجد ثم صعد المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه: يا أهل مكة! بلغني إكباركم قتل ابن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فنزع طاعة الله واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله، إن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباح له كرامته، وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف حدثنا عوف عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعد ما قتل ابنها عبد الله فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم، وفعل. فقالت: كذبت، كان براً بوالديه، صواماً قواماً، والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ «أنهُ يَخْرُجُ مِن ثَقِيفٍ كَذابَانِ الآخَرُ مِنْهُمَا شَرٌّ مِنَ الأول، وهُوَ مُبيرٌ».

ورواه أبو يعلى عن وهب بن بقية عن خالد عن عوف عن أبي الصديق. قال: بلغني أن الحجاج دخل على أسماء.... فذكر مثله.

وقال أبو يعلى: حدثنا زهير حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن قيس بن الأحنف عن أسماء بنت أبي بكر. قالت: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن المثلة. وسمعته يقول: «يَخْرُجُ مِنَ ثَقِيفٍ رَجُلان كَذابٌ ومُبيرٌ». قالت فقلت للحجاج: أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو يا حجاج.

وقال عبيد بن حميد: أنبأنا يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثني من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها تقول للحجاج حين دخل عليها يعزيها في ابنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنَ ثَقِيفٍ رَجُلان مُبيرٌ وكَذَابٌ» فأما الكذاب فابن أبي عبيد ـ تعني المختار ـ وأما المبير فأنت.

وتقدم في صحيح مسلم [من وجه آخر عن أسماء أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله.

وقد رواه غير أسماء عن النبي ﷺ.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي حدثنا وكيع حدثتنا أم عراب عن امرأة يقال لها عقيلة عن سلامة بنت الحر قالت: قال رسول الله ﷺ: «في ثَقيفٍ كَذابٌ ومُبيرٌ». تفرد به أبو يعلى.

وقد روى الإمام أحمد] [٣٨١/٦] عن وكيع عن أم غُراب ـ واسمها طلحة ـ عن عقيلة عن سلامة حديثاً آخر في الصلاة.

وأخرجه أبو داود [٥٨١] وابن ماجه [٩٨٢]، وروي من حديث ابن عمر، فقال أبو يعلى: حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد بن زُريع حدثنا عبد الله بن عصمة قال: سمعت ابن عمر «أنبأنا رسول الله ﷺ «أنّ في ثَقِيفٍ مُبيراً وكَذاباً».

وأخرجه الترمذي [٢٢٢٠، ٣٩٤٤] من حديث شريك عن عبد الله بن عُصْم ويقال عصمة. وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك.

وقال الشافعي: حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن نافع أن ابن عمر اعتزل ليالي قتال ابن الزبير والحجاج بمنى، فكان يصلي مع الحجاج.

وقال الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلي وراءه.

وقال إسحاق بن راهويه: أنبأ جرير عن القعقاع ابن الصلت قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير غيّر كتاب الله، فقال ابن عمر: ما سلطه الله على ذلك، ولا أنت معه، ولو شئت أن أقول: كذبت لفعلت.

وروي عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول: الصلاة الصلاة مراراً، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس، فصلى الحجاج بالناس، فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟ فقال: إنما نجيء للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم بَقْبِقْ ما شئت بعد من بَقْبَقَةٍ.

وقال الأصمعي: سمعت عمي يقول: بلغني أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم إلى المدينة لقي شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة، فقال: بشرِّ حال، قتل ابن حواري رسول الله ﷺ، فقال الحجاج: ومن قتله؟ قال: الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته، من قليل المراقبة لله. فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال: أيها الشيخ! أتعرف الحجاج إذا رأيته؟ قال: نعم! فلا عرّفه الله خيراً ولا وقاه ضراً. فكشف الحجاج عن لثامه وقال: ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة. فلما تحقق الشيخ الجد قال: والله إن هذا لهو العجب يا حجاج، لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبي داود، أصرع كل يوم خمس مرات فقال الحجاج: انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن عبد الصمد حدثنا حماد بن سلمة عن ابن أبي رافع عن عبد الله بن جعفر أنه زوج بنته من الحجاج بن يوسف فقال لها: إذا دخل بك فقولي: لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. وزعم أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قال هذا. قال حماد: فظننت أنه قال: فلم يصل إليها.

قال الشافعي: لما تزوج الحجاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتمكّنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشد البأس والله، قال: كيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير مذ تزوجت رملة بنت الزبير، قال: وكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها فطلقها.

وقال سعيد بن أبي عروبة: حج الحجاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأتى بغدائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير، فقام فلما دخل على الحجاج قال له: اغسل يديك ثم تغد معي، فقال: إنه دعاني من هو خير منك فأجبته، قال: ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم فأجبته، قال: في هذا الحر الشديد: قال: نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه، قال: فأفطر وصم غداً، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك لي، قال: فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إن طعامنا طعام طيب، قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، إنما طيبته العافية.

فصل

قد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة في سنة خمس وسبعين وخطبته إياهم بغتة، وتهديده ووعيده إياهم، وأنهم خافوه مخافة شديدة، وأنه قتل عمير بن ضابئ، وكذلك قتل كميل بن زياد صبراً، ثم كان من أمره في قتال ابن الأشعث ما قدمنا ذكره من ظفره به بعد المطاولة والمقاتلة وتسلطه على من كان معه من الرؤساء والأمراء والعبّاد والقراء، حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير.

قال القاضي المعافى بن زكريا: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد الكلبي حدثنا محمد بن زكريا الغلابي حدثنا محمد ـ يعني ابن عبيد الله بن عباس ـ عن عطاء ـ يعني ابن مصعب ـ عن عاصم قال: خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم، فقال: يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم، والعصب والمسامع، والأطراف، ثم أفضى إلى الأسماخ والأمخاخ، والأشباح والأرواح، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، ثم دب ودرج، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً، اتخذتموه

دليلا تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامِراً تشاورونه وتستأمرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث رُمْتم المكر واجتمعتم على الغدر، واتفقتم على الكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا والله ارميكم بطرفي وأنت تتسللون لواذا، وتنهزمون سراعاً.

يوم الزاوية وما يوم الزاوية، مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله، ونكوس قلوبكم إذ وليتم كالإبل الشاردة عن أوطانها النوازع، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حين عضكم السلاح، ونخستكم الرماح.

يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق يا أهل الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الختَرات، والنزوة بعد النزوات، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون نعمة، ولا تشكرون معروفاً، هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، ولا استنقذكم عاص، ولا استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا لبيتم دعوته، وأجبتم صيحته، ونفرتم إليه خفافاً وثقالا، وفرساناً ورجالا.

يا أهل العراق هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق ألم تنفعكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته، ويذقكم حر سيفه، وأليم بأسه ومثلاته؟.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها القذر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب.

يا أهل الشام! أنتم الجُنّة والرداء، وأنتم الملاءة والحذاء، أنتم الأولياء والأنصار، والشعار والدثار، بكم يذب عن البيعة والحوزة، وبكم تُرمى كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولى.

قال أبو البكر بن أبي الدنيا: حدثني محمد بن أبي الحسين حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي سمعت شيخاً من قريش يكنى أبا بكر التيمي قال: كان الحجاج يقول في خطبته - وكان لسناً - إن الله تعالى خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم فردهم إليها فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها. وقطعتهم في جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور.

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ: أيها الرجل وكلكم ذاك الرجل، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وكفها بزمامها عن معاصي الله،ورحم الله امرأ رد نفسه، امرأ اتهم نفسه، امرأ اتخذ نفسه عدوه، امرأ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرأ نظر إلى ميزانه، امرأ نظر إلى حسابه، امرأ وزن عمله، امرأ فكر فيما يقراه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عند قلبه زاجراً، وعند همه آمراً، امرأ أخذ بعنان عمله كما يأخذ بزمام جمله، فإن قاده إلى طاعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كف، امرأ عقل عن الله امره، امرأ فاق واستفاق، وأبغض المعاصي والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول امرأ امرأ، حتى بكى مالك بن دينار.

وقال المدائني عن عوانة بن الحكم قال: قال الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

وقال المدائني عن أبي عبد الله الثقفي عن عمه قال: سمعت الحسن البصري يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهبت ساعة من عمره بغير ما خلق له لحري أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة.

وقال شريك القاضي عن عبد الملك بن عمير قال: قال الحجاج يوماً: من كان له بلاء أعطيناه على قدره، فقام رجل فقال: أعطني فإني قتلت الحسين، فقال: وكيف قتلته؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً، وما أشركت معي في قتله أحداً. فقال: اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو في موضع واحد، ولم يعطه شيئاً.

وقال الهيثم بن عدي: جاء رجل إلى الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري، فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

جَانِيكَ مَن يجني عَلَيْكَ وقدْ تعْدِي الصِّحَاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ
ولَربَّ مَأخُوذٍ بِذَنْبِ قَرِيبِهِ ونَجَا المُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ؟

فقال الرجل: أيها الأمير! إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا، قال: وما قال؟ قال ﴿قالوا يا أيها العزيزُ إنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فخذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ انْ نَأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان وابن داره، واعطه عطاءه، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال الهيثم بن عدي عن ابن عياش: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليّ برأس أسلم بن عبد البكري، لما بلغني عنه، فأحضره الحجاج فقال: أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبإٍ فتبيَّنوا انْ تُصِيبُوا قوماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. وما بلغه عني فباطل، وإني أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري وهن بالباب، فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه: أنا عمته، وهذه: أنا أخته، وهذه: أنا أبنته. وهذه: أنا زوجته، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان، دون العشرة، فقال لها الحجاج: من أنت؟ فقالت: أنا ابنته، ثم قالت: أصلح الله الأمير، وجثت على ركبتيها وقالت: -

احَجَّاجُ لم تُشْهدْ مَقَامَ بَنَاتِهِ وعَمَّاتِهِ يَنْدُبْنَهُ الليلَ اجْمَعَا
احَجَّاجُ كمْ تقتلْ بِهِ إنْ قَتَلْتَهُ ثَمَاناً وعَشْراً واثْنَتَيْنِ وارْبَعَا
احَجَّاجُ مَنْ هذا يَقُومُ مَقَامَهُ عَلَيْنَا فَمَهْلا إنْ تَزِدْنَا تَضَعْضُعَا
احَجَّاجُ إمَّا انْ تَجُودَ بِنِعْمَةٍ عَلَيْنَا وإمَّا انْ تُقَتِّلَنَا مَعَا

قال: فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن تضعضعا، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل، وبما قالت ابنته هذه، فكتب إليه يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدها في كل وقت.

وقيل: إن الحجاج خطب يوماً فقال: أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله. فقام إليه رجل فقال له: ويحك يا حجاج

ما أصفق وجهك وأقل حياءك، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام؟ خبت وضل سعيك، فقال للحرس: خذوه، فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذي جراك علي؟ فقال: ويحك يا حجاج، أنت تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك، وأنت تجترئ على الله رب العالمين، فقال: خلو سبيله. فأطلق.

وقال المدائني: أتي الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: إن لي عندك يداً، قال: وما هي؟ قال: ذكر ابن الأشعث يوماً أمك فرددت عليه، فقال: ومن يشهد لك؟ قال: صاحبي هذا! فسأله فقال: نعم! فقال: ما منعك أن تفعل كما فعل؟ قال: بغضك. قال: اطلقوا هذا لصدقه، وهذا لفعله. فأطلقوهما

وحكى الواقدي أن الحجاج نادى في البلد أن من خرج من بعد العشاء الآخرة من بيته قتل، فأتي ليلة برجل، فقال: ما أخرجك من بيتك هذه الساعة من بعد ما سمعت المنادي؟ فقال: أما والله إني لا أكذب الأمير، إن أمي مريضة، هالكة. وأنا عندها منذ ثلاثة أيام، فلما كان الساعة أفاقت وقالت: يا بني إني أعزم عليك بحقي عليك إلا ما مضيت إلى أهلك وأولادك فإنهم مغمومون بتخلفك عنهم، فخرجت من عندها، فأخذني العسس، وأتوا بي إليك. فقال الحجاج: ننهاكم وتعصوننا، ثم أمر فضربت عنقه. قال: ثم أتي بآخر فقال له الحجاج: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال: والله ما أكذبك إنه كان عندي لرجل دراهم، فأقعدني على بابه ولزمني، وقال: لا أفارقك إلا بحقي فلما كان هذه الساعة دخل إلى منزله، وأغلق بابه، وتركني على بابه، فجاءني طائفك فأخذ بي إليك، فقال الحجاج: اضربوا عنقه. قال: ثم أتي بآخر فقال له: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال: كنت أشرب مع قوم فلما سكرت خرجت من عندهم وأنا لا أدري، فأخذوني إليك، فقال الحجاج لرجل كان عنده: ما أراه إلا صادقاً، ثم قال: خلوا سبيله.

فخلوا سبيله وذكر محمد بن زياد بن الأعرابي فيما بلغه أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان فاتكاً بأرض اليمامة، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه، فما زال نائبها في طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج، فقال له الحجاج: ما حملك على ما كنت تصنعه؟ فقال: جراءه الجِنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، ولو اختبرني الأمير لوجدني من صالح الأعوان، وبُهَم الفرسان، ولوجدني من أصلح رعيته، وذلك أني ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً، فقال له الحجاج: إنا قاذفوك في حائر فيه أسد عاقر فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته خلينا سبيلك. ثم أودعه السجن مقيداً مغلولة يده اليمنى إلى عنقه، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث اليه بأسد عظيم ضار، وقد قال جحدر هذا في محبسه هذا أشعاراً يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمرو يقول في بعضها:

أليسَ الليلُ يَجمَعُ أُمَّ عَمرٍو　　وإيانا فَذاكَ بِنا تَدَانِي
بَلَى وتَرَى الهِلالَ كَمَا تَراهُ　　ويَعلُوهَا النهارُ كما عَلانِي
إذا جَاوزتُمَا نَخلاتِ حَجْرٍ　　وأوديةَ اليمامةِ فانعيَانِي
وقُولا جحدرٌ أمسَى رَهيناً　　يُحَاذِرُ وَقعَ مَصقُولٍ يَمَانِي

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام، ثم أبرز إلى حائر - وهو البستان - وأمر بجحدر فأخرج في قيوده ويده اليمنى مغلولة بحالها، وأعطي سيفاً في يده اليسرى وخلى بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه في منظرة، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول:

ليثٌ وليثٌ في مَجَالٍ ضَنْكِ　　كِلاهُمَا ذُو أنفٍ ومَحْكِ
وشِدَّةٍ في نفسِهِ وفَتْكِ　　إن يَكْشِفِ اللّهُ قناعَ الشكِّ
فهوَ أحقُّ منزلٍ بتركِ

فلما نظر اليه الأسد زار زارة شديدة وتمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة حتى خالط ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، من شدة الضربة، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد ولموضع القيود عليه، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأنشأ جحدر يقول:

يا جُمْلُ إنكِ لَو رَأيتِ كَريهتِي　　فِي يَومِ هَولٍ مُسدِفٍ وعَجَاجِ
وتَقَدُّمِي لليثِ ارسُفُ مُوثقاً　　كَيمَا أُسَاوِرهُ على الأحرَاجِ
شَثْنٌ بَرَاثِنُهُ كَأنَّ نُيوبَهُ　　زُرقُ المَعَاوِلِ أو شِباهُ زجاجِ
يَسمُو بِناظِرتَينِ تَحسَبُ فيهما　　لَهَباً أحدُهُمَا شُعَاعُ سِرَاجِ
وكأنما خِيطَتْ عَلَيهِ عَبَاءَةٌ　　برقَاءُ أو خِرَقٌ مِنَ الدِّيبَاجِ
لَعَلِمتِ أنِّي ذُو حِفَاظٍ مَاجِدٌ　　مِن نَسلِ أقوَامٍ ذَوِي أبرَاجِ

ثم التفت إلى الحجاج فقال:

عَلِمَ النِّسَاءُ بأنَّنِي لا أنثَنِي　　إذ لا يَثِقنَ بِغَيرَةِ الأزوَاجِ
وعَلِمتُ أنِّي إن كَرِهتُ نِزَالَهُ　　أنِّي مِنَ الحَجَّاجِ لَستُ بِنَاجِ

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده، وإن شاء انطلق إلى بلاده، فاختار المقام عند الحجاج، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً.

وقد كان الحجاج مع فصاحته وبلاغته يلحن في حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر، منها أنه كان يبدل «إن» المكسورة بـ«أن» المفتوحة وعكسه، وكان يقرأ ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيكُم﴾ [التوبة: ٢٤] فيقرأها برفع أحَبُّ.

وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن بنته، فقال له يحيى بن يعمر: كذبت! فقال الحجاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك، فقال: قال الله تعالى: ﴿ومِن ذُرِّيَتِهِ دَاوُدَ وسُلَيمَانَ﴾ إلى قوله ﴿وزَكَرِيَّا ويَحيَى وعِيسَى﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ٨٥] فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ.

فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خراسان.

وقال الأصمعي وغيره: كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد، فقال للرسول: أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده؟ قال: نعم! فكتب الحجاج إلى عبد الملك: أما أمس فأجلٌ، وأما اليوم فعملٌ، وأما غداً فأمل.

وقال ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة معمر بن المثنى. قال: لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق، وسع على الناس في العطاء، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم مالا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر، ثم قال منشداً:

عليكَ بتقوى اللّهِ في الأمرِ كلهِ　　وكن لوعيدِ اللّهِ تخشى تضرعُ

ووفَّرَ خراجَ المسلمينَ وفيئهمْ وكنْ لهمُ حصناً تجيرُ وتمنعُ

فكتب إليه الحجاج:

لعمري لقدْ جاءَ الرسولُ بكتبكمْ قراطيسَ تُملى ثمّ تطوى فتطبعُ
كتابُ أتاني فيه لينٌ وغلظةٌ وذكرتُ والذكرى لذي اللبِ تنفعُ
وكانت أمورٌ تعتريني كثيرةٌ فأرضخُ أو اعتلُ حيناً فأمنعُ
إذا كنتَ سوطاً من عذابٍ عليهمُ ولم يكُ عندي بالمنافعِ مطمعُ
أيرضى بذاكَ الناسُ أو يسخطونهُ أم احمدَ فيهمْ أم الامُ فأقذعُ
وكانت بلادٌ جئتها حينَ جئتها بها كلُّ نيرانِ العداوةِ تلمعُ
نقاسيتُ منها ما علمتَ ولم أزلْ أصارعُ حتى كدتُ بالموتِ أصرعُ
وكم أرجفوا منْ رجفةٍ قد سمعتها ولو كانَ غيري طارَ مما يُروّعُ
وكنتُ إذا هموا بإحدى قنَاتهم حسرتُ لهم راسي ولا أتقنعُ
فلو لم يذدْ عني صناديدٌ منهمُ تقسَّمَ أعضائي ذئابٌ وأضبعُ

قال: فكتب إليه عبد الملك: أن اعمل برأيك.

وقال الثوري عن محمد بن المستورد الجمحي قال: أتي الحجاج بسارق فقال له: لقد كنت غنياً أن يأتيك الحكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك، فقال الرجل: إذاً قل ذات اليد سخت النفس بالمتالف. قال: صدقت والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنتَ له موضعاً. يا غلام سيف صارم ورجل قاطع. فقطع يده.

وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال: تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبد الملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ فقال: يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت، ولكني أنهى عنه أهل عملي، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال عمر بن شبة عن أشياخه قال: كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يعتب عليه في إسرافه في صرف الاموال، وسفك الدماء، ويقول له: إنما المال مال الله ونحن خزانه، وسيان منع حق أو إعطاء باطل. وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات: ـ

إذا انتَ لمْ تتركْ أُموراً كَرِهتُها وتَطلُبْ رِضَائي فِي الذّي أنا طَالِبهْ
وتَخشى الذِي يَخشَاهُ مِثلُكَ هَارِباً إلى اللّهِ مِنهُ ضَيَّعَ الدُّرَّ حَالِبُه
فإنْ ترَ مِنّي غَفلَةً قُرَشِيَّةً فَيا ربَّما قد غُصَّ بالماءِ شَارِبهُ
وإنْ ترَ مني وثبةً أمَوِيةً فهذا وهذا كُلُّهُ أنا صَاحِبُه
فلا تعدُ ما يأتيكَ مني فإنْ تعُدْ تَقُمْ فاعلَمَنْ يوماً عليكَ نوائبُهْ

فلما قرأه الحجاج كتب: أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الأموال، والدماء، فو الله ما بالغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حق أهل الطاعة، فإن كان ذلك سرفاً فليحدّ لي أمير المؤمنين حداً أنتهي إليه ولا أتجاوزه، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لمْ أطلبْ رضاكَ وأتقي أذاكَ فيومي لا تَوارَتْ كَواكِبُهْ
إذا قَارَفَ الحَجّاجُ فيكَ خَطيئةً فقامتْ عليهِ في الصباحِ نوائِبُهْ
أسالمُ منْ سَالمتَ مِن ذِي هَوادةٍ ومنْ لمْ تُسالمه فإني محاربهْ
إذا أنا لم أدنِ الشفيقَ لنصحهِ وأقصِ الذي تسري إلي عقاربُهْ

فمن يتقي يومي ويرجو إذاً غدي على ما أرى والدهرُ جمٌّ عجائبُهْ

وعن الشافعي رحمه الله أنه قال: أمر الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه: هل يجد في نفسه مما أصاب من الدماء شيئاً؟ فسأله كما أمره، فقال: والله ما أحب أن لي لبنان أو سَنيراً ذهباً أنفقه في سبيل الله مكان ما أبلاني الله من الطاعة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل فيما روي عنه من الكلمات الناقصة والجراءة البالغة

قال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو بكر عن عاصم قال: سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول: اتقو الله ما استطعتم، ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالا، وما عذيري من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله، والله ما هي إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه ﷺ، وعذيري من هذه الحمراء، يزعم أحدهم يرمي بالحجر فيقول إلى إن يقع الحجر حدث أمر، فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر. قال: فذكرته للأعمش فقال: وأنا والله سمعته منه.

ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة عن محمد بن يزيد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود والأعمش أنهما سمعا الحجاج قبحه الله يقول ذلك، وفيه: والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنّها من المصحف ولو بضلع خنزير.

ورواه غير واحد عن أبي بكر بن عياش بنحوه.

وفي بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه.

وهذا من جراءة الحجاج قبحه الله، وإقدامه على الكلام السيء، والدماء الحرام.

وإنما نقم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الأمام الذي جمع الناس عليه عثمان، والظاهر أن عبد الله بن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه والله أعلم.

وقال علي بن عبد الله بن مبشر عن عباس الدوري عن مسلم بن إبراهيم: حدثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج على منبر واسط يقول: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه. قال: وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية ﴿هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأحدٍ مِن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] قال: والله إن كان سليمان لحسوداً. وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر. قبحه الله وأخزاه، وأبعده وأقصاه.

ومن الطامات أيضاً ما رواه أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني حدثنا جرير. (ح) وحدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن المغيرة عن بَزيع بن خالد الضبي قال: سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته: رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله؟ فقلت في نفسي: لله علي أن لا أصلي خلفك صلاة أبداً، وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاهدنك معهم. زاد إسحاق في حديثه: فقاتل في الجماجم حتى قتل.

فإن صح هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على منصب الرسالة، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول.

وقال الأصمعي: حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا أبو حفص الثقفي قال: خطب الحجاج يوما فأقبل عن يمينه فقال: ألا إن الحجاج كافر، ثم أطرق فقال: إن الحجاج كافر، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال: ألا إن الحجاج كافر، فعل ذلك مراراً، ثم قال: كافر يا أهل العراق باللات والعزى.

وقال حنبل بن إسحاق: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة حدثنا ابن شوذب عن مالك بن دينار قال: بينما الحجاج يخطبنا يوماً إذ قال: الحجاج كافر، قلنا: ما له؟ أي شيء يريد؟ قال: الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء.

وقال الأصمعي: قال عبد الملك يوماً للحجاج: إنه ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصف عيب نفسك، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، فأبى، فقال: أنا لجوج حقود حسود، فقال عبد الملك: ما في الشيطان شر مما ذكرت.

وفي رواية أنه قال: إذاً بينك وبين إبليس نسب.

وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم، وعصيانهم، ومخالفتهم، والافتيات عليهم.

قال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عمن حدثه قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان، فصلى لنا صلاة فسها فيها، حتى جعل الناس يقولون: سبحان الله سبحان الله، فلما سلم أقبل على الناس فقال: من ههنا من أهل الشام؟ فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثاً أو رابعاً، فقال: يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ، اللهم إنهم قد لبسوا لُبُسوا فالبس عليهم، وعجل عليهم بالغلام الثقفي، يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم.

وقد رويناه في كتاب مسند عمر بن الخطاب [٦٦٣/٢] من طريق أبي عذبة الحمصي عن عمر مثله.

وقال عبد الرزاق: حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال: قال علي بن أبي طالب: اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ونصحت لهم فغشوني فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال، يأكل خضرتها، ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية.

قال: يقول الحسن: وما خلق الحجاج يومئذ.

ورواه معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي أنه قال: الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها، ويقتل أشراف أهلها، يشتد منه الفرق، ويكثر منه الأرق، ويسلطه الله على شيعته.

وقال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة [٤٨٩/٦]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي: حدثنا سعيد بن مسعود حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا العوام بن حوشب حدثني حبيب بن أبي ثابت. قال: قال علي لرجل: لا متّ حتى تدرك فتى ثقيف، قيل له: يا أمير المؤمنين وما فتى ثقيف؟ قال: ليقالن له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشرين، أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله عز وجل معصية إلا ارتكبها، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه.

وقال الطبراني: حدثنا القاسم بن زكريا حدثنا إسماعيل بن موسى السُّدي حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الشعبي عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت: استأذن الأشعث بن قيس على علي فرده قنبر فأدمى أنفه فخرج علي فقال: مالك وله يا أشعث، أما والله لو بعبد ثقيف تمرست لاقشعرت شعيرات استك، قيل له: يا أمير المؤمنين، ومن عبد ثقيف؟ قال: غلام يليهم لا يبقي أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً، قيل: كم يملك؟ قال: عشرين إن بلغ.

وقال البيهقي [الدلائل: ٤٨٩/٦]: أنبأنا الحاكم أنبأنا الحسن بن الحسن بن أيوب حدثنا أبو حاتم الرازي حدثنا عبد الله بن يوسف التنيسي حدثنا هشام بن يحيى الغساني. قال: قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

وقال أبو بكر بن عياش: عن عاصم بن أبي النجود أنه قال: ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج.

وقد تقدم الحديث «إنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّاباً ومُبِيراً» وقد ذكرنا شأن المختار بن أبي عبيد وهو الكذاب المذكور في هذا الحديث، وقد كان يظهر الرفض أولاً ويبطن الكفر المحض، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي هذا، وقد كان ناصبياً يبغض علياً وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جباراً عنيداً، مقداما على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا. فإن كان قد تاب منها أو أقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، وربما حرفوا عليه بعض الكلم. وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات.

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها، وخفيات الصدور وضمائرها.

قلت: الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل، وقد كان حريصا على الجهاد وفتح البلاد، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن، فكان يعطي على القرآن كثيراً، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم. والله أعلم.

وقال القاضي المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرارى البغدادي: حدثنا محمد بن القاسم الأنباري حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي حدثنا عوانة بن الحكم الكلبي. قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه سلّم عليه قال له: إيه إيه يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة. ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة. فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ قال: إياك صك الله سمعك. قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت. ولا أي ميتة مت، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصفّق عجباً، وتعاظم ذلك من الحجاج، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك بن مروان:

بسم الله الرحمن الرحيم: إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من

أنس بن مالك، أما بعد: فإن الحجاج قال لي هُجْراً، وأسمعني نُكراً، ولم أكن لذلك أهلا، فخذ لي على يديه، فإني أمتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه، والسلام عليك، ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجاج - فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام، وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك.

وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك:

بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الملك أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إليّ بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي. والسلام.

فلما قرأ أنس كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً، وعافاه وكفاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه.

فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين، وليس بك عنه غنى، ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام، فقال أنس: أفعل إن شاء الله، ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال إسماعيل: أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، فتغير لون الحجاج وقال: ما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً، ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً، فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نقضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل! فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبده؟ وكان في الطومار: الى الحجاج بن يوسف.

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد فإنك عبد طمت بك الأمور، فسموت فيها وعلوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدّاً، وأردت أن تبورني فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغكها رجعت القهقرى، فلعنك الله من عبداً أخفش العينين، منقوص الجاعرتين. أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل، يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تتجاوز له إساءته، جراءة منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلا خدم عزير بن عزرى، وعيسى ابن مريم، لعظمته وشرفته وأكرمته فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين، يطلعه على سره، ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مُشكل حتف قاض، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

وقد تكلم ابن طرارى على ما وقع في هذا الكتاب من غريب، وكذلك ابن قتيبة وغيرهما من أئمة اللغة. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١٣٢/٣، ١٧٧]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الزبير - يعني ابن عدي - قال: شكونا الى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو يوم إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل»، سمعته من نبيكم ﷺ. وهكذا رواه البخاري [٧٠٦٨] عن محمد بن يوسف عن سفيان وهو الثوري عن الزبير بن عدي عن أنس قال: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه» الحديث.

قلت: ومن الناس من يروي هذا الحديث بالمعنى فيقول: كل عام ترذلون، وهذا اللفظ لا أصل له، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث، والله أعلم.

وقد قال سفيان الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، قال: يأتي على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج.

وقال أبو نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر، قال: قال الشعبي: والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج.

وقال الأصمعي: قيل للحسن: إنك تقول: الآخر شر من الأول، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال الحسن: لابد للناس من تنفيسات.

وقال ميمون بن مهران: بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به، فلما قام بين يديه قال: يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا، قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن.

وقال أيوب السختياني: إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه، وقد ذكر له معه مناظرات، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك، وإنما خرج معهم مكرها كما قدمنا، وكان الحسن يقول: إنما هو نقمة فلا تقابلوا نقمة الله بالسيف، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع.

وقال ابن دريد عن الحسن بن الخضر عن ابن عائشة. قال: أتي الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج فقيل له: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قال: فعثمان؟ فأثنى خيراً، قيل له: فما تقول في علي؟ فأثنى خيراً، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد، فيثني على كل بما يناسبه، حتى قيل له: فما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال: الآن جاءت المسألة، ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من خطاياه؟!

وقال الأصمعي عن علي بن مسلم الباهلي قال: أتي الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً، فقال لها بعض الشرط: يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه؟ فقالت: إني لأستحي من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فأمر بها فقتلت.

وقد ذكرنا في سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة.

وقد قال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا أبو ظفر حدثنا جعفر بن سليمان عن بسطام بن مسلم عن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟ قال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر، ويقال: إنه لم يقتل بعده إلا رجلا واحداً اسمه ماهان، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث.

وقال أبو عيسى الترمذي [عقب ح(٢٢٢٠)]: حدثنا أبو داود سليمان بن سَلْم البلخي حدثنا النضر بن شميل عن هشام بن حسان قال: أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً.

قال الأصمعي: حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحذم قال: أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا

في سجن الحجاج، وقيل: إنه مات في سجنه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب، وكان فيمن حبس أعرابي وجد يبول في أصل ربض مدينة واسط، وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول:

إِذَا نَحنُ جَاوَزْنَا مَدِينَةَ وَاسِطٍ   خَرِينَا وصَلّينَا بِغَيْرِ حِسَابِ

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر.

قال ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي: حدثنا سليمان بن أبي شيخ حدثنا صالح بن سليمان قال: قال عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة لقد ولي العراق وهو أوفر ما يكون في العمارة، فأخس به حتى صيره إلى أربعين ألف ألف، ولقد أُدي إلي في عامي هذا ثمانين ألف ألف، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إلي ما أدي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف.

وقال أبو بكر بن المقرئ: حدثنا أبو عروبة عمرو حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبي سمعت جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: بلغني أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسنته فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا سعيد بن أسد حدثنا ضمرة عن الريان بن مسلم. قال: بعث عمر بن عبد العزيز بآل أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه: أما بعد فإني قد بعثت بآل أبي عقيل وهم شرّ بيت في العرب، ففرقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا، وعليك السلام. وإنما نفاهم.

وقال الأوزاعي: سمعت القاسم بن مخيمرة يقول: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام، وذكر حكاية.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم: لم يبق للّه حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف، وقال يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش: اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهداً فقال: تسألون عن الشيخ الكافر.

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت، كافر بالله العظيم. كذا قال والله أعلم.

وقال الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً؟!.

وقال الثوري عن ابن عون: سمعت أبا وائل يُسأل عن الحجاج: أتشهد أنه من أهل النار؟ فقال: أتأمروني أن أشهد على الله العظيم.

وقال الثوري عن منصور: سألت إبراهيم عن لعن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وبه قال إبراهيم: وكفى بالرجل عمى أن يعمى عن أمر الحجاج.

وقال سلام بن أبي مطيع لأنا للحجاج أرجى مني لعمرو بن عبيد، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا، وعمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة شنعاء، قتل الناس بعضهم بعضاً.

وقال الزبْرقان: سببت الحجاج يوماً عند أبي وائل فقال: لا تسبه لعله قال: يوماً اللّهم ارحمني فيرحمه، إياك ومجالسة من يقول: أرأيت أرأيت.

وقال عوف: ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال: مسكين أبو محمد، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه، وإن يغفر له فهنيئاً له، وإن يلق الله بقلب سليم فقد أصاب الذنوب من هو خيرٌ منه، فقيل له: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم الله تعالى وأن الساعة حق قائمة، وأن الله يبعث من في القبور.

وقال أبو قاسم البغوي: حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو أسامة قال: قال رجل لسفيان الثوري: أتشهد على الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في النار؟ قال: لا! إذا أقرّا بالتوحيد.

وقال الرياشي: حدثنا عباس الأزرق عن السري بن يحيى قال: مر الحجاج في يوم جمعة فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ فقيل له: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون. قال: فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة.

وقال بعضهم: رأيته وهو يأتي الجمعة وقد كاد يهلك من العلة.

وقال الأصمعي: لما مرض الحجاج ارجف الناس بموته فقال في خطبته: إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج فمه؟! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني أن لا أموت وأن لي الدنيا وما فيها، وما رأيت اللّـه رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا اللّـه العبد الصالح فقال: ﴿هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره، فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] فما عسى أن يكون أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني والله بكل حي منكم ميتاً، وبكل رطب يابساً، ثم نقل في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولا في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصت صديده، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الحبيب من ماله، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول: ثم نزل.

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إيّاه على حبه القرآن وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللّهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر. قال: كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: اللّهم اغفر لي فإنهم زعموا أنك لا تفعل، قال: وحدثني بعض أهل العلم قال: قيل للحسن: إن الحجاج قال عند الموت كذا وكذا، قال: أقالها؟ قالوا: نعم! قال: عسى؟. وقال أبو العباس المبرد عن الرياشي عن الأصمعي قال: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول:

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَعدَاءُ واجتَهَدُوا   بِأَنَّنِي رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ
أَيحلِفُونَ عَلَى عَمْيَاءَ وَيْحَهُمُ   مَا عِلمُهُم بِكَرِيمِ العَفوِ غَفَّارِ

قال: فأخبر بذلك الحسن فقال: تاللّه إن نجا فبهما. وزاد بعض في ذلك:

إنَّ المَوَالِي إذا شَابَت عَبِيدُهُمُ   فِي رِقِّهِم عَتَقُوهُمْ عِتقَ أَبرَارِ
وانتَ يَا خَالِقِي اولَى بِذَا كَرَماً   قد شِبْتُ فِي الرِّقِ فاعتِقْنِي مِنَ النَّارِ

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن عبد اللّه التيمي قال: لما مات الحجاج لم يُعلم بموته حتى أشرفت جارية فبكت فقالت: الا إن مطعم

الطعام، وميتم الأيتام، ومرمل النساء ومفلّق الهام، وسيد أهل الشام قد مات، ثم أنشأت تقول: ـ

اليومَ يَرحَمُنَا مَن كانَ يغبطنا والـيومَ يَأمَنُنَا مَن كانَ يَخشَانَا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مراراً فلما تحقق وفاته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحَمدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وروى غير واحد أن الحسن لما بشر بموت الحجاج سجد شكراً للّه عز وجل، وكان مختفياً فظهر، وقال: اللّهم أمته فاذهب عنا سنته.

وقال حماد بن أبي سليمان: لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا سليمان بن أبي شيخ حدثنا صالح بن سليمان قال: قال زياد بن الربيع الحارثي لأهل السجن: يموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا وكذا، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحاً، جلسوا ينتظرون حتى سمعوا الناعية، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان، وقيل: كان ذلك لخمس بقين من رمضان وقيل: في شوال من هذه السنة، وكان عمره إذ ذاك خمساً وخمسين سنة، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين، وقيل بعدها بسنة، وقيل قبلها بسنة.

مات بواسط وعفي قبره، وأجري عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق واللّه أعلم.

وقال الأصمعي: ما كان أعجب الحجاج، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم.

وقال الواقدي: حدثنا عبد اللّه بن محمد بن عبيد حدثني عبد الرحمن بن عبد اللّه بن قريب: حدثنا عمي قال: زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلا ومائة درع موقوفة.

وقال شهاب بن خراش: حدثني عمي يزيد بن حوشب قال: بعث إلي أبو جعفر المنصور فقال: حدثني بوصية الحجاج بن يوسف، فقلت: اعفني يا أمير المؤمنين، فقال: حدثني بها، فقلت: بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيى، وعليها يموت، وعليها يبعث، وأوصى بتسعمائة درع حديد، ستمائة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها، وثلاثمائة للترك. قال: فرفع أبو جعفر رأسه إلى أبي العباس الطوسي ـ وكان قائماً على رأسه ـ فقال: هذه واللّه الشيعة لا شيعتكم.

وقال الأصمعي عن أبيه قال: رأيت الحجاج في المنام فقلت: ما فعل اللّه بك؟ فقال: قتلني بكل قتلة قتلت بها إنساناً، قال: ثم رأيته بعد الحول فقلت: يا أبا محمد ما صنع اللّه بك؟ فقال: يا ماصّ بظر أمه أما سألت عن هذا عام أول؟.

وقال القاضي أبو يوسف: كنت عند الرشيد فدخل عليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة في النوم، قال: في أي زي رأيته؟ قال: في زي قبيح. فقلت له: ما فعل اللّه بك؟ فقال: ما أنت وذاك يا ماص بظر أمه! فقال هارون: صدقت واللّه، أنت رأيت الحجاج حقاً، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حياً وميتاً.

وقال حنبل بن إسحاق: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة حدثنا ابن شوذب عن أشعث الحُدّاني. قال: رأيت الحجاج في المنام في حالة سيئة فقلت: يا أبا محمد ما صنع بك ربك؟ قال: ما قتلت أحداً قِتْلةً إلا قتلني بها، فقلت: ثم مه؟ قال: ثم أمر بي إلى النار، قلت: ثم مه، قال: ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا اللّه، قال: وكان ابن سيرين يقول: إني لأرجو له، فبلغ ذلك الحسن فقال: أما واللّه ليخلفن اللّه رجاءه فيه.

وقال احمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج، قال: ما فعل اللّه بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه واللّه أعلم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا حمزة بن العباس حدثنا عبد اللّه بن عثمان أنبأ ابن المبارك أنبأنا سفيان. قال: قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافداً ومعه معاوية بن قرة، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج فقال: إن صدقناكم قتلتمونا، وإن كذبناكم خشينا اللّه عز وجل، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك: لا تعرض له، فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف.

ومن توفي من الأعيان في هذه السنة

أعني سنة خمس وتسعين:

■ إبراهيم بن يزيد النخعي، قال: كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة أو إلى النار، وإنكم في جنائزكم تتحدثون بأحاديث دنياكم. وقال: لا يستقيم رأي إلا برواية، ولا رواية إلا برأي.

وقال: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك من فلاحه.

وقال: إني لأرى الشيء مما يعاب فلا يمنعني من عيبه إلا مخافة أن ابتلى به. وبكى عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: انتظار ملك الموت، ما أدري يبشرني بجنة أو بنار.

■ الحسن بن محمد بن الحنفية: كنيته أبو محمد، كان المقدم على إخوته في الفضل، وكان أعلم الناس بالاختلاف والفقه والتفسير، وكان من ظرفاء بني هاشم وعقلائهم ولم يكن له عقب.

قال أيوب السختياني وغيره: كان أول من تكلم في الإرجاء، وكتب في ذلك رسالة ثم ندم عليها.

وقال غيرهم: كان يتوقف في عثمان وعلي وطلحة والزبير، فلا يتولاهم ولا يذمهم، فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجه وقال: ويحك ألا تتولى أباك علياً؟.

وقال أبو عبيد: توفي سنة خمس وتسعين.

وقال خليفة: توفي في أيام عمر بن عبد العزيز واللّه أعلم.

■ حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري: وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه، وكان حميد فقيهاً نبيلا عالماً، له روايات كثيرة.

■ مطرف بن عبد اللّه بن الشخير: تقدمت ترجمته.

وهؤلاء كلهم لهم تراجم في كتابنا التكميل.

وفيها كان موت الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطاً مستقصى وللّه الحمد.

وفيها كان مقتل سعيد بن جبير في قول علي بن المدائني وجماعة،

والمشهور أنه كان في سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلا يتهدده ويتوعده ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده، ويختم ملوكهم وأشرافهم، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا في الإسلام، فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم، وهو في مدينة عظيمة، يقال: إن عليها تسعين باباً في سورها المحيط بها، يقال لها خان بالق، من أعظم المدن وأكثرها ريعا ومعاملات وأموالا، حتى قيل: إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في ملك الصين، والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في ملك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم، وغيرهم محتاج إليهم لما عندهم من المتاع والدنيا المتسعة، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج، لقهره وكثرة جنده وعدده.

والمقصود أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظيمة وجنداً كثيرة ومدينة حصينة ذات أنهار وأسواق وحسن وبهاء، فدخلوا عليه في قلعة عظيمة حصينة، بقدر مدينة كبيرة، فقال لهم ملك الصين: ما أنتم؟ ـ وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة ـ فقال الملك لترجمانه: قل لهم: ما أنتم وما تريدون؟ فقالوا: نحن رسل قتيبة بن مسلم، وهو يدعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعل فالجزية، فإن لم تفعل فالحرب. فغضب الملك وأمر بهم إلى دار، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم: كيف تكونون في عبادة إلهكم؟ فصلوا الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم، فقال: كيف تكونون في بيوتكم؟ فلبسوا ثياب مهنهم، فأمرهم بالانصراف، فلما كان من الغد أرسل إليهم فقال: كيف تدخلون على ملوككم؟ فلبسوا الوشي والعمائم والمطارف ودخلوا على الملك، فقال لهم: ارجعوا فرجعوا، فقال الملك لأصحابه: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى، وهم أولئك.

فلما كان اليوم الثالث: أرسل إليهم فقال لهم: كيف تلقون عدوكم؟ فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض وتقلدوا السيوف وتنكّبوا القسي وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين، فقيل لهم: ارجعوا ـ وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم ـ فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ فقالوا: ما رأينا كهؤلاء قط.

فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم، فبعثوا إليه هبيرة، فقال له الملك حين دخل عليه: قد رأيتم عظم ملكي وليس أحد يمنعكم مني، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتك، فقال: سل، فقال الملك: لم صنعتم ما صنعتم من زي أول يوم والثاني والثالث؟ فقال: أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم، وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا. فقال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم ـ يعني قتيبة ـ وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادي، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم. فقال له هبيرة: تقول لقتيبة هذا؟ فكيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أولُ خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك في بلادك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا نعلم أن لنا أجلا إذا حضر فأكرمها عندنا القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟ فقال: قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك، فقال: أنا أبر يمينه وأخرجه منها، أرسل إليه بتراب من ارضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثيابا صينية لا تقوم ولا يدري أحد قدرها، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة، ثم شرع يتهددهم فتهدّدوه ويتوعدهم فتوعّدوه ثم اتفق الحال على أنه بعث صحافاً من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم، وبعث بمال جزيل ليبر بذلك يمين قتيبة، وقيل: إنه بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك.

فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين، فانكسرت همته لذلك، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلي على عدم مبايعة سليمان بن عبد الملك، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر، ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك، ثم قتل في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى، فإنه يقال: إنه ما كسرت له راية، وكان من المجاهدين في سبيل الله، واجتمع له من العساكر ما لم يجتمع لغيره.

وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة، وغزا العباس بن الوليد الروم، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم.

وقال الواقدي: إن قتيبة بن مسلم سير جيشاً إلى بلد كاشغر.

وفيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى جزاه الله عن المسلمين خيراً، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولا، فهم أول من بناها، وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيِّرة، وهي القمر في السماء الدنيا، وعطارد في السماء الثانية، والزهرة في السماء الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة، وكانوا قد صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلا لكوكب من هذه الكواكب السبعة، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك، فنصبوا هياكل سبعة لكل كوكب هيكل، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد في السنة، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين، وصرفوه أنهاراً تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماء في أفناء أبنية الدور بدمشق، فكانت دمشق في أيامهم من أحسن المدن، بل هي أحسنها، لما فيها من التصاريف العجيبة، وبنوا هذا المعبد وهو الجامع اليوم في جهة القطب، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، وكانت محاريبه تجاه الشمال، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة، خلف المحراب اليوم، كما شاهدنا ذلك عياناً، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب، ورأينا الباب وهو باب حسن مبني بحجارة منقوشة، وعليه كتاب بخطهم، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد، وشرقي المعبد قصر جيرون الملك، الذي كان

ملكهم، وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يتملك دمشق قديماً منهم.

ويقال: إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة للملوك، ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف بحجارة كبار منحوتة، وهن دار المطبق، ودار الخيل، ودار كانت تكون مكان الخضراء التي بناها معاوية.

قال الحافظ ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل [تاريخ دمشق: ٢٥٧/٢]: إنهم مكثوا يأخذون الطالع لبناء دمشق وهذه الأماكن ثماني عشرة سنة، وقد حفروا أساس الجدران حتى وافاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المسجد لا يخرب أبداً ولا تخلوا منه العبادة، وأن هذه الدار إذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة.

قلت: أما المعبد فلم يخل من العبادة.

قال كعب الأحبار: لا يخلو منها حتى تقوم الساعة.

وأما دار الملك التي هي الخضراء فقد جدد بناءها معاوية، ثم أحرقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة كما سنذكره، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم في الغالب إلى زماننا هذا وبالله المستعان.

والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرناها بدمشق مدداً طويلة، تزيد على أربعة آلاف سنة، حتى إنه يقال: إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة هود عليه الصلاة والسلام، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة.

وقد ورد إبراهيم عليه السلام دمشق ونزل شماليها عند برزة، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم، ونصره الله عليهم، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة، يأثرونه كابراً عن كابر وإلى زماننا والله أعلم.

وكانت دمشق إذ ذاك عامرة آهلة بمن فيها من اليونان، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله، وهم خصماء الخليل، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها في غير موض كما قررنا ذلك في التفسير، وفي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام من كتابنا هذا «البداية والنهاية» ولله الحمد وبالله المستعان.

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ويبنون فيها وفي معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبعلبك وغيرها، البنايات الهائلة الغريبة العجيبة، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة تنصر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين، الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم التي تُنسب إليه وهي القسطنطينية، وهو الذي وضع لهم القوانين، وقد كان أولا هو وقومه وغالب أهل الأرض يونانا، ووضعت له بطاركة النصارى ديناً مخترعاً مركباً من أصل دين النصرانية، ممزوجاً بشيء من عبادة الأوثان، وصلوا به إلى الشرق، وزادوا في الصيام، وأحلوا الخنزير، وعلموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون، وإنما هي في الحقيقة خيانة كبيرة، وجناية كبيرة حقيرة، وهي مع ذلك في الحجم صغيرة، حقيرة نقيرة وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه، فبنى لهم هذا الملك الذي تُنسب إليه الطائفة الملكية من النصارى، كنائس كثيرة في دمشق وفي غيرها، حتى يقال: إنه بنى في زمانه ثنتي عشرة ألف كنيسة، وأوقف عليها أوقافا دارّة، من ذلك كنيسة بيت لحم، وقمامة في القدس، بنتها أم هيلانة الفندقانية، وغير ذلك.

والمقصود أنهم - يعني النصارى - حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان فجعلوه كنيسة وبنوا له المذابح في شرقيه، وسموه كنيسة مريحنا ومنهم من يقول كنيسة يوحنا، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة.

واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فكان من شأنه صلوات الله وسلامه عليه ما ذكرنا بعضه في كتاب السيرة من هذا الكتاب، وقد بعث صلوات الله وسلامه عليه إلى ملك الروم في زمانه - وهو قيصر ذلك الوقت - واسمه هرقل يدعوه إلى الله عز وجل، وكان من مراجعته ومخاطبته لأبي سفيان صخر بن حرب ما تقدم. ثم بعث عليه السلام أمراءه الثلاثة، زيد بن حارثة مولاه، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، إلى البلقاء من تخوم الشام، فبعث الروم إليهم جيشاً كبيراً فقتلوا هؤلاء الأمراء وجماعة ممن معهم من الجيش، فعزم النبي ﷺ على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك، ثم رجع عليه السلام عامه ذلك لشدة الحر، وضعف الحال، وضيقه على الناس.

ثم لما توفي رسول الله ﷺ بعث الصديق الجيوش إلى الشام وإلى العراق كما تقدم تفصيل ذلك في كتابنا هذا ولله الحمد ففتح الله على المسلمين الشام بكمالها، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها، وقد بسطنا القول في ذلك عند ذكر فتحها، فلما استقرت اليد الإسلامية عليها وأنزل الله رحمته فيها، وساق بره إليها، وكتب أمير الحرب إذ ذاك وهو أبو عبيدة، وقيل خالد بن الوليد، لأهل دمشق كتاب أمان أقروا أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسة وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مريحنا، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة، وكان على باب الجابية الصلح، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة مسجداً وكان قد صارت إليه إمرة الشام لعزل عمر خالداً وتولية أبي عبيدة مسجداً - وكان أول من صلى في هذا المسجد أبو عبيدة رضي الله عنه ثم الصحابة بعده في البقعة الشرقية منه، التي يقال لها محراب الصحابة، ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محني، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة، والظاهر أن الوليد هو الذي فتق المحاريب في الجدار القبلي. وقد كره كثير من السلف الصلاة في مثل هذه المحاريب، وجعلوه من البدع المحدثة، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد، وهو باب المعبد الأصلي الذي كان من جهة القبلة، مكان المحراب الكبير الذي في المقصورة اليوم، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم، ولا يضربوا بناقوسهم، إجلالا للصحابة ومهابة وخوفاً.

وقد بنى معاوية رضي الله عنه في أيام ولايته على الشام دار الإمارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة، وبنى فيها قبة خضراء، فعرفت الدار بكمالها بها، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا.

ثم لم يزل الأمر كما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى، من سنة أربع عشرة، إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك في شوال منها، فعزم الوليد على اخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها، وجعل الجميع مسجداً واحداً، وذلك لأنّ بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى الإنجيل، ورفع أصواتهم في صلواتهم، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا، فيصير كله معبدا للمسلمين، ويتسع المسجد لكثرة المسلمين، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان، ويعوضهم إقطاعات كثيرة، وعرضها عليهم،

وأن يُقرَّ لهم أربع كنائس لم تدخل في العهد، وهي كنيسة مريم، وكنيسة المصلبة داخل الباب الشرقي، وكنيسة تل الجبن، وكنيسة حميد بن درة التي بدرب الصقيل، فأبوا ذلك أشد الإباء، فقال: ائتونا بعهدكم فأتوا بعدهم الذي بأيديهم من زمن الصحابة، فقرئ بحضرة الوليد، فإذا كنيسة توما - التي كانت خارج باب توما عند النهر - لم تدخل في العهد، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريحنا، فقال الوليد: أنا أهدمها وأجعلها مسجداً، فقالوا: بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى بأخذ بقية هذه الكنيسة، فأقرهم على تلك الكنائس، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة. هذا قول.

ويقال: إن الوليد لما أهمه ذلك وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله. دخل عليه بعض الناس فأرشده إلى أن يقيس من باب الشرقي ومن باب الجابية، فوجد منتصف ذلك عند سوق الرَّيحان تقريباً، فإذا الكنيسة المنازع فيها قد دخلت في العنوة، فأخذها.

وحكي عن المغيرة مولى الوليد قال: دخلت على الوليد فوجدته مهموماً فقلت: مالك يا أمير المؤمنين مهموماً؟ فقال: إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد، فأحضرت النصارى وبذلت لهم الأموال في بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا. فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين عندي ما يزيل همك، قال: وما هو؟ قلت: الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي بالسيف، فلما سمع أهل البلد بذلك فزعوا إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان فأمنهم، وفتحوا له باب الجابية، فدخل منه أبو عبيدة بالصلح، فنحن نماسحهم إلى أي موضع بلغ السيف أخذناه، وما كان بالصلح تركناه بأيديهم، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها في العنوة فتدخل في المسجد، فقال الوليد: فرجت عني، فتول أنت ذلك بنفسك، فتولاه المغيرة ومسح من الباب الشرقي إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان فوجد السيف لم يزل عمالا حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربعة أذرع وكسر، فدخلت الكنيسة في المسجد، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال: إن هذه الكنيسة كلها دخلت في العنوة فهي لنا دونكم، فقالوا: إنك أولا دفعت إلينا الأموال وأقطعتنا الإقطاعات فأبينا فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصالحنا فيبقي لنا هذه الكنائس الأربع بأيدينا، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس والله أعلم.

وقيل: إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخلة فسموها مريحنا باسم تلك الكنيسة التي أُخذت منهم، وأخذوا شاهدها فوضعوه فوق التي أخذوها بدلها فالله أعلم.

ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤوس الناس، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن، فقال: أنا أحب أن أُجَنَّ في الله عز وجل، ووالله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات، وكانت صومعة هائلة فإذا فيها راهب معظَّم عندهم، فأمره الوليد بالنزول منها فأكبر الراهب ذلك، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أحدره منها، ثم صعد الوليد على أعلى مكان في الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها، الذي يسمونه الشاهد، وهو تمثال في أعلى الكنيسة، فقال له الرهبان: احذر الشاهد، فقال: أنا أول ما أضع فأسي في رأس الشاهد، ثم كبر وضربه فهدمه، وكان على الوليد قَبَاء لونه أصفر سفرجلي وقد غرز أذياله في المنطقة، ثم أخذ فأساً بيده فضرب بها في أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون، وكانوا قد اجتمعوا هنالك، فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رياح الغساني، أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك، ففعل ذلك، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية والحنايا، حتى بقي المكان صرحة مربعة، ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة التي لم يشتهر مثلها قبلها على ما سنذكره ونشير إليه.

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك، ويقال: إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعاً في الرخام وغير ذلك، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش، وليخربن كل كنيسة في بلاده، حتى كنيسة القدس، وكنيسة الرها، وسائر آثار الروم، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جدا، مائتي صانع، وكتب إليه يقول: إن كان أبوك فَهِمَ هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت فإنه لوصمة عليك، وإن لم يكن فَهِمه وفَهِمته أنت فإنه لوصمة.

فلما وصل ذلك الكتاب إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك، واجتمع الناس عنده لذلك، وكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال: أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله تعالى. قال الوليد: وما هو ويحك؟ فقال: قال الله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩) وسليمان هو ابن داود، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه، فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابا إلى ملك الروم. وقد قال الفرزدق في ذلك

فرقت بين النصارى في كنائسهم ... والعابدين مع الأسحار والعَتَم
وهم جميعا إذا صلوا وأوجههم ... شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه ... أهل الصليب مع القراء لم تنم
فُهِّمت تحويلها عنهم كما فهما ... إذ يحكمان له في الحرث والغنم
فهمك الله تحويلا لبيعتهم ... عن مسجد فيه يتلى طيب الكلم
داود والملك المهدي إذ جَزَّا ... أولادها واجتزاز الصوف بالجلم
فَهَّمك الله تحويلاً لبيعتهم ... عن مسجد فيه يُتلى طيِّب الكَلِم
ما من أب حملته الأرض نعلمه ... خير بنين ولا خير من الحكم

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقي: بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك الحيطان.

وقال الحسن بن يحيى الخشني: إن هودا عليه السلام هو الذي بنى الحائط القبلي من مسجد دمشق.

وقال غيره: لما أراد الوليد بناء القبة التي في وسط الرواقات وهي قبة النسر وهو اسم حادث لها، وكأنهم شبهوها بالنسر في شكله لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالاجنحة لها - حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذباً زلالا، ثم إنهم وضعوا فيه جرار الكرم وبنوا فوقها بالحجارة، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت، فقال الوليد لبعض المهندسين: أريد أن تبني لي أنت هذه القبة، فقال: على أن تعطيني عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيها أحد غيري، ففعل فبنى الأركان ثم غلفها بالبواري، وغاب عنها سنة كاملة لا يدري الوليد أين ذهب، فلما

كان بعد السنة حضر، فهم به الوليد فأخذه ومعه رؤوس الناس، فكشف البواري عن الأركان فإذا هي قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض، فقال له: من هذا أُتيت، ثم بناها فانعقدت.

وقال بعضهم: أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن المسجد فقال له المعمار: إنك لا تقدر على ذلك، فضربه خمسين سوطاً، وقال له: ويلك! أنا لا أقدر على ذلك، وتزعم أني أعجز عنه؟ وخراج الأرض وأموالها تجبى إلي؟ قال: نعم أنا أبين لك ذلك، قال: فبين ذلك، قال: اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما سبك به لبنة فإذا هي قد دخلها ألوف من الذهب فقال: يا أمير المؤمنين إنا نريد من هذه كذا وكذا ألف لبنة فإن كان عندك ما يكفي من ذلك عملناه، فلما تحقق الوليد صحة قوله أطلق له خمسين ديناراً، وقال: إني لا أعجز كما قلت، ولكن فيه إسراف وضياع مال في غير وجهه اللائق به، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله، وردا على ضعفاء المسلمين خير من ذلك. ثم عقدها على ما أشار به المعمار.

ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات، وباطنها مسطحاً مقرنصاً بالذهب، فقال له بعض أهله: أتعبت الناس بعدك في تطيين أسطحه لما يريد هذا المسجد في كل عام من الطين الكثير يشير إلى أن التراب يغلو والفعلة تقل لأجل العمل في هذا المسجد في كل عام - فأمر الوليد أن يجمع ما في بلاده من الرصاص ليجعله عوض الطين، ويكون أخف على السقوف فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم، فعازوا فإذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة، فساوموها فيه، فأبت أن تبيعه إلا بوزنه فضة، فكتبوا إلى أمير الوليد بذلك فقال: اشتروه منها ولو بزنته فضة، فلما بذلوا لها ذلك قالت: أما إذا فعلتم ذلك فهو صدقة لله يكون في سقف هذا المسجد، فكتبوا على ألواحها بطابع «لله» ويقال إنها كانت إسرائيلية، وإنه كتب على الألواح التي أخذت منها: هذا ما أعطته الإسرائيلية.

وقال محمد بن عائذ: سمعت المشايخ يقولون: ما تم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة لقد كان يفضل عند الرجل من القومة يعنون الفعلة الفأس ورأس المسمار فيجيء حتى يضعه في الخزانة.

وقال بعض مشايخ الدماشقة: ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس والباقي كله مرمر.

وقال بعضهم: اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر، من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار.

وقال دحيم عن الوليد بن مسلم: حدثنا مروان بن جناح عن أبيه قال: كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم.

وقال أبو قصي عن دحيم عن الوليد بن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصاري: إنهم حسبوا ما أنفقه الوليد على الكرمة التي في قبلة المسجد فإذا هو سبعون ألف دينار.

وقال أبو قصي: أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. قلت: فعلى هذا يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، والله أعلم.

قال أبو قصي: وأتى الحرسي إلى الوليد فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها. فنودي في الناس: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم أنكم قلتم كذا وكذا، ثم قال: يا عمرو بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع وبسطت الأنطاع تحت قبة النسر، ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً، وفضة خالصة، حتى صارت كوماً، حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر، وهذا شيء كثير، ثم جيء بالقبانين فوزنت الأموال فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ست عشرة سنة مستقبلة، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية، فقال لهم الوليد: والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين. فقال لهم الوليد: يا أهل دمشق، والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد شيئاً من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق، إنكم تفخرون على الناس بأربع، بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع فاحمدوا الله تعالى وانصرفوا شاكرين داعين.

وقال بعضهم: كان في قبلة جامع دمشق ثلاث صفائح مذهبة بلازورد، في كل منها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نعبد إلا إياه، ربنا الله وحده، وديننا الإسلام، ونبينا محمد ﷺ أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد، في ذي القعدة سنة ست وثمانين، وفي صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفائح ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ مَـٰلِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ إلى آخر السورة، ثم النازعات، ثم عبس، ثم ﴿إذا الشمس كورت﴾.

قالوا: ثم محيت بعد مجيء المأمون إلى دمشق. وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها، وأن الرخام كان في جُدرانه إلى قامات، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض، قد صوروا بها سائر البلدان المشهورة، الكعبة فوق المحراب، وسائر الأقاليم يمنة ويسرة، وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك، وسقفه مقرنص بالذهب، والسلاسل المعلقة فيه جميعها من ذهب وفضة وأنوار الشموع في أماكنه مفرقة.

قال: وكان في محراب الصحابة برنية حجر من بلور، ويقال: بل كانت حجراً من جوهر وهي الدرة، وكانت تسمى القليلة، وكانت إذا اطفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد - وكان يحب البلور وقيل الجوهر - بعث إلى سليمان والي شرطة دمشق أن يبعث بها إليه، فسرقها الوالي خوفاً من الناس وسيرها إلى الأمين، فلما ولي المأمون أرسل بها إلى دمشق ليشنع بذلك على الأمين.

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٧٩/٢]: ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج. قال: وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيء.

قالوا: وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق، وإنما كان عليها الستور مرخاة، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التي فوقها الفصوص المذهبة، ورؤوس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير، وعملوا له شرفات تحيط به، وبنى الوليد المنارة الشمالية فيه التي يقال لها مأذنة العروس، فأما الشرقية والغربية فكانتا فيه قبل ذلك بدهور متطاولة، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً،

بنتها اليونان للرصد، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان وبقيت القبليتان إلى الآن، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة، فنقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى، حيث اتهموا بحريقها، فقامت على أحسن الأشكال، بيضاء بذاتها وهي والله أعلم المنارة الشرقية التي ينزل عليها عيسى ابن مريم في آخر الزمان بعد خروج الدجال، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم [(٢٩٣٧)(١١٠)] عن النواس بن سمعان.

قلت: ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجددت، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها في آخر السبعين وسبعمائة، فصارت كلها مبنية بالحجارة.

والمقصود أن الجامع الأموي لما اكتمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجلّ منه، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه أو إلى أيّ جهة منه أو إلى أيّ بقعة أو مكان منه تحيّر فيما ينظر إليه لحسنه وجماله، ولا يمل ناظره، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى.

وكانت فيه طِلّسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية، لا من الحيات ولا من العقارب، ولا الخنافس ولا العناكيب، ويقال: ولا العصافير أيضاً تعشش فيه، ولا الحمام ولا شيء مما يتأذى به الناس.

وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف الجامع مما يلي السبع، فأحرقت لما وقع فيه الحريق وكان ذلك ليلة النصف من شعبان بعد العصر، سنة إحدى وستين وأربعمائة، في دولة الفاطميين كما سيأتي ذلك في موضعه. وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم.

فمن ذلك العمود الذي في رأسه مثل الكرة بسوق الشعير عند قنطرة أم حكيم، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبيين، ذكر مشايخ دمشق أنه من وضع اليونان لعسر بول الحيوان، فإذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق بوله، وذلك مجرب عند اليونان.

قال ابن تيمية عن هذا العمود: إن تحته مدفوناً جبار عنيد، كافر يعذب، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراث وبال من الخوف، قال: ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار، فإذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها. والعمود المشار إليه ليس له سر، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأً فاحشاً، وقيل: إن تحته كنزاً وصاحبه عنده مدفون، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى ﴿وقالوا ما هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٧) والله سبحانه وتعالى أعلم.

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل في تكملة الجامع الأموي المعمور وزيادته مدة ولايته، وجددت له فيه المقصورة رحمه الله، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرده ما فيه من الذهب، ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء فيرد ذلك كله إلى بيت المال، ويُطيِّنه مكان ذلك كله، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه. وقال خالد بن عبد الله القسري: أنا أكلمه لكم. فلما اجتمعوا، قال خالد: يا أمير المؤمنين بلغنا أنك تريد أن تصنع كذا وكذا. قال: نعم! فقال خالد: ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ولم يا ابن الكافرة؟ وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد ـ فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة فقد ولدت رجلا مؤمناً. فقال: صدقت. واستحيا عمر ثم قال له: فلما قلت ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم، وليس هو لبيت المال، فاطرق عمر رحمه الله.

قالوا: واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلاً من عند ملكهم، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن ذلك الجامع الباهر، والزخرفة التي لم يسمع بمثلها، صعق كبيرهم وخرّ مغشياً عليه، فحملوه إلى منزلهم، فبقي أياماً مدنفاً، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال: ما كنت أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال: أو إنَّ هذا لغيظ الكفار، دعوه.

وسألت النصارى في أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلساً في شأن ما كان أخذه الوليد منهم وكان عمر عادلا، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه الوليد منه فأدخله في الجامع، ثم حقق عمر القضية ثم نظر فإذا الكنائس التي هي خارج البلد لم تدخل في الصلح الذي كتبه لهم الصحابة، مثل كنيسة دير مران بسفح قاسيون، وهي بقرية المعظمية، وكنيسة الراهب، وكنيسة توما خارج باب توما، وسائر الكنائس التي بقرى الحواضر فخيّرهم بين رد ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها، أو تبقى تلك الكنائس ويطيبوا نفساً للمسلمين بهذه البقعة، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس، ويكتب لهم كتاب أمان بها، ويطيبوا نفساً بهذه البقعة فكتب لهم كتاب أمان بها.

والمقصود أن الجامع الأموي كان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا نظير في حسنه وبهجته.

قال الفرزدق: أهل دمشق في بلدهم في قصر من قصور الجنة ـ يعني به الجامع الأموي.

وقال أحمد بن أبي الحواري عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان: ما ينبغي أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق، لما يرون من حسن مسجدها.

قالوا: ولما دخل المهدي أمير المؤمنين العباسي دمشق يريد زيارة بيت المقدس نظر إلى جامع دمشق فقال: لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري: سبقنا بنو أمية بثلاث، بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه ظهر الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبداً. ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة ـ وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها ـ قال لكاتبه: وهذه رابعة أيضاً.

ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم، وقاضيه يحيى بن أكثم، قال: ما أعجب ما فيه؟ فقال أخوه: هذه الأذهاب التي فيه.

وقال يحيى بن أكثم: هذا الرخام وهذه العقد، فقال المأمون: إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم، ثم قال المأمون لقاسم التمار: أخبرني باسم حسن أسمي به جاريتي هذه، فقال: سمها مسجد دمشق، فإنه أحسن شيء.

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي قال: عجائب الدنيا خمسة: أحدها منارتكم هذه ـ يعني منارة ذي القرنين التي بإسكندرية ـ والثانية أصحاب الرقيم وهم بالروم اثنا عشر رجلا أو ثلاثة عشر رجلا، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها، يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ. وقيل ينظر من بالقسطنطينية، والرابعة مسجد دمشق وما يوصف من الإنفاق عليه، والخامسة الرخام والفسيفساء، فإنه لا يدرى لهما موضع، ويقال: إن الرخام

معجون، والدليل على ذلك أنه ينوب على النار.

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢/٢٤٨]: وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب - وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة - وفي رسالة له قال: ثم أمرنا بالانتقال إلى البلد فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه، ووافق ظاهره باطنه، أزقته أرجة، وشوارعه فرجة، فحيث ما شئت شممت طيباً، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً، وأفضيت إلى جامعة فشاهدت منه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ولا الرائي أن يعرفه، وجملته أنه بكْر الدهر ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات، ولقد أثبت اللّه عز وجل به ذكراً يدرس، وخلف به أمراً لا يخفى ولا يدرس.

قال ابن عساكر: وأنشدني بعض أهل الأدب لبعض المحدثين في جامع دمشق عمره اللّه بذكره وفي دمشق فقال:

دمشق قد شاع حسن جامعها ... وما حوته رُبَى مرابعها
بديعة الحسن في الكمال لما ... يدركه الطرف من بدائعها
طيبة أرضها مباركة ... باليمن والسعد أخذ طالعها
جامعها جامع المحاسن قد ... فاقت به المدن في جوامعها
بنية بالإتقان قد وضعت ... لا ضيع اللّه سعي واضعها
تذكر في فضله ورفعته ... أخبار صدق راقت لسامعها
قد كان قبل الحريق مدهشة ... فغيرتْهُ نار بلافعها
فأذهبت بالحريق بهجته ... فليس يرجى إياب راجعها
إذا تفكرت في الفصوص وما ... فيها تيقنت حذق راصعها
أشجارها لا تزال مثمرة ... لا تذهب الريح من مدافعها
كأنها من زمرد غرست ... في أرض تبر تغشى بفاقعها
فيها ثمار تخالها ينعت ... وليس يخشى فساد يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحه الـ ... أيدي ولا تجتني لبائعها
وتحتها من رخامه قطع ... لا قطع اللّه كف قاطعها
أحكم ترخيمها المرخم قد ... بان عليها إحكام صانعها
وإن تفكرت في قناطره ... وسقفه بان حذق صانعها
وإن تبينت حسن قبته ... تحير اللب في أضالعها
تخترق الريح في مخارمها ... عصفا فتقوى على زعازعها
وأرضه بالرخام قد فرشت ... ينفسح الطرف في مواضعها
مجالس العلم فيه مثقنة ... ينشرح الصدر في مجامعها
وكل باب عليه مطهرة ... قد أمن الناس دفع مانعها
يرتفق الخلق من مرافقها ... ولا يصدون عن منافعها
ولا تزال المياه جارية ... فيها لما شئ من مشارعها
وسوقها لا تزال آهلة ... تزدحم الناس في شوارعها
لما يشاؤون من فواكهها ... وما يريدون من بضائعها
كأنها جنة معجلة ... في الأرض لولا سُرى فجائعها
دامت برغم العدى مسلمة ... وحاطها اللّه من قوارعها

فصل فيما وجد فيه من الآثار وما روي في فضله من الأخبار عن جماعة من السادة الأخيار

روي عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿والتِّين﴾ قال: هو مسجد دمشق ﴿والزَّيْتون﴾ قال: هو مسجد بيت المقدس ﴿وطُورِ سِينِينَ﴾ حيث كلم اللّه موسى ﴿وهَذَا البَلَدِ الأمِينِ﴾ وهو مكة.

ونقل عثمان بن أبي العاتكة عن أهل العلم أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿والتِّين﴾ هو مسجد.

دمشق رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢/٢٣٧].

وقال صفوان بن صالح عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه عن عطية بن قيس الكلابي قال: قال كعب الأحبار: ليبنين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً.

وقال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم أبي عبد الرحمن قال: أوحى اللّه تعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس، قال: ففعل فأوحى اللّه إليه أما إذ فعلت فإني سأبني لي في حضنك بيتاً أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك، قال: فهو عند اللّه بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع.

وقال دحيم: حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك - يعني أنه رفع الجدار فعلاه من حد الرخام والكرمة إلى فوق.

وقال غيره: إنما بنى هود الجدار القبلي فقط. وقال أبو بكر أحمد بن عبد اللّه بن الفرج المعروف بابن البرامي الدمشقي: حدثنا إبراهيم بن مروان سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول: سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد اللّه بن أبي المهاجر قال: كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان، فما تُقُبّل منه جاءت نار فأكلته، وما لم يتقبل منه بقي على حاله.

قلت: وهذه الصخرة نقلت إلى داخل باب الساعات، وهي موجودة إلى الآن، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التي وضع عليها ابنا آدم قربانهما فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، واللّه أعلم.

وقال هشام بن عمار: حدثنا الحسن بن يحيى الخُشَني أن رسول اللّه ﷺ ليلة أسري به صلى في موضع مسجد دمشق.

قال ابن عساكر: وهذا منقطع.

قلت: ومنكر جداً ولا يثبت أيضاً لا من هذا الوجه ولا من غيره.

وقال أبو بكر البرامي: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقرئ حدثني أبي عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوّام ليلة من الليالي فقال: إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد فلا تتركوا فيه أحداً حتى أصلي الليلة. فقال له بعضهم: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي في المسجد كل ليلة، وفي رواية أنه قال لهم: لا تتركوا أحداً يدخله ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له، فإذا رجل قائم بين باب الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة يصلي، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات، فقال الوليد للقوام: ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلي في المسجد؟ فقال له بعضهم: يا أمير المؤمنين هذا الخضر عليه السلام يصلي كل ليلة في المسجد.

في إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية ولا صلاته في هذا المكان المذكور، والله أعلم.

وقد اشتهر في الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبلية عند باب المئذنة الغربية تسمى زاوية الخضر، وما أدري ما سبب ذلك، والذي ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التي صلوا فيها، وأول من صلى فيه إماماً أبو عبيدة بن الجراح، وهو أمير الأمراء بالشام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأمين هذه الأمة وصلى فيه خلق من الصحابة مثل معاذ بن جبل وغيره لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ﷺ، فإنه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين، وهو يبني فيه الوليد، فصلى فيه أنس ورأى الوليد وأنكر أنس على الوليد تأخيره الصلاة إلى آخر وقتها كما قدمنا ذلك في ترجمة أنس، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين.

وسيصلي فيه عيسى ابن مريم [م: (٢٩٣٧)] إذا نزل من السماء في آخر الزمان، إذا خرج الدجال وعمت البلوى به، وانحصر الناس منه بدمشق، فينزل مسيح الهدى فيقتل مسيح الضلالة، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر [أحمد: ٢١٦/٤، ٢١٧]، فيأتي وقد أقيمت الصلاة فيقول له إمام الناس: تقدم يا روح الله فيقول: إنما أقيمت لك فيصلي عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة، يقال: إنه المهدي فالله أعلم.

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجال عند عُقبة أفيق، وقيل: بباب لد فيقتله بيده هنالك. وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وفي الصحيح [م: (١٥٥) دون قوله: «ولا يقبل إلا الإسلام»] عن النبي ﷺ «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، وإماماً عادلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام»

والمقصود أن عيسى عليه السلام ينزل والبلد محصن من الدجال، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق - وهي هذه المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارى - حيث أحرقوها فجددت من أموالهم - ثم يكون نزول عيسى حتفاً لهم وهلاكاً ودماراً عليهم، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما، وعليه مهرودتان - وفي رواية [د(٤٣٢٤)، أحمد: ٤٠٦/٢، ٤٣٧]: ممصرتان - يقطر رأسه ماء كأنما خرج من ديماس، وذلك وقت الفجر، فينزل على المنارة وقد أقيمت الصلاة، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق، وهو هذا الجامع.

وما وقع في صحيح مسلم من رواية النواس بن سمعان الكلابي [٢٩٣٧]: «فينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق»، كأنه والله أعلم مروي بالمعنى بحسب ما فهمه الراوي، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق، وقد أخبرت ولم أقف عليه إلى الآن أنه كذلك، في بعض ألفاظ هذا الحديث، في بعض المصنفات، والله المسؤول المأمول أن يوفقني فيوقفني على هذه اللفظة.

وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه، وهي بيضاء بنفسها، ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها، ولا أبهى ولا أعلى منها، ولله الحمد والمنة.

الكلام على ما يتعلق برأس يحيى بن زكريا عليهما السلام

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤٠/٢، ٢٤١] عن زيد بن واقد قال: وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارة فعرَّفنا الوليد ذلك، فلما كان الليل وافانا وبيديه الشمع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة،ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صندوق، ففتح الصندوق فإذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام. مكتوب عليه: هذا رأس يحيى بن زكرياء فأمر به الوليد فرد إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيَّراً من بين الأعمدة، فجعل عليه عمود مسفط الرأس.

وفي رواية عن زيد بن واقد: أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبة - يعني قبل أن تبنى - قال: وكان على الرأس شعر وبشر.

وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أخرج من الليطة القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة، فوضع تحت عمود السُّبط السكاسك.

وقال الأوزاعي والوليد بن مسلم: هو العمود الرابع المسفط.

وروى أبو بكر بن البرامي عن أحمد بن أنس بن مالك عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعبانيين عن سفيان الثوري أنه قال: صلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة. وهذا غريب جداً.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٤٣/٢، ٢٤٤] من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع - مولى أم عمرو بنت مروان - عن أبيه - وفي رواية: عن رجل قد سماه - أن واثلة بن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي باب جيرون فلقيه كعب الأحبار فقال: أين تريد؟ قال واثلة: أريد بيت المقدس. فقال: تعال حتى أريك موضعاً في هذا المسجد من صلى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالي إلى الحنية - يعني القنطرة الغربية - فقال: من صلَّى فيما بين هذين فكأنما صلَّى في بيت المقدس. فقال واثلة: إنه لمجلسي ومجلس قومي. قال كعب: هو ذاك. وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ولا يعتمد على مثله.

وعن الوليد بن مسلم قال: لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتاب نقش، فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم فلم يستخرجوه، ثم بعث إلى العبرانيين، فلم يستخرجوه ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأشبان فلم يستخرجوه، فدل على وهب بن منبه فبعث إليه فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه في ذلك الحائط ويقال: إن ذلك الحائط بناه هود عليه السلام - فلما نظر إليه وهب حرك رأسه وقرأ فإذا هو:

بسم الله الرحمن الرحيم، ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، وإنما تلقى ندمك لو قد زلَّت بك قدمك. وأسلمك أهلك وحشمك، وانصرف عنك الحبيب وودَّعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة، وقبل الحسرة والندامة، قبل أن يحل بك أجلك، وتنزع منك روحك، فلا ينفعك مال جمعته، ولا ولد ولدته، ولا أخ تركته، ثم تصير إلى برزخ الثرى، ومجاورة الموتى، فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوة قبل الضعف، والصحة قبل السقم، قبل أن تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل. وكتب في زمن سليمان بن داود عليهما

السلام.

وقال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٧٩/٢]: قرأت على أبي محمد السلمي عن عبد العزيز التميمي أنبأنا تمام الرازي حدثنا ابن البرامي سمعت أبا مروان عبد الرحيم بن عمر المازني يقول: لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد احتفروا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً، فلم يفتحوه وأعلموا به الوليد، فخرج من داره حتى وقف عليه، وفتح بين يديه، فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة، على فرس من حجارة، في يد التمثال الواحدة الدُّرة التي كانت في المحراب، ويده الأخرى مقبوضة، فأمر بها فكسرت، فإذا فيها حبتان، حبة قمح وحبة شعير، فسأل عن ذلك فقيل له: لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير.

وقال الحافظ أحمد الوراق ـ وكان قد عمر مائة سنة: سمعت بعض الشيوخ يقول: لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على المقسلاط ـ على السفود الحديد الذي في أعلاه ـ صنماً ماداً يده بكف مطبقة، فكسروه فإذا في يده حبة قمح، فسألوا عن ذلك فقيل لهم: هذه الحبة القمح جعلها حكماء اليونان في كف هذا الصنم طِلَّسْماً، حتى لا يسوس القمح في هذه البلاد، ولو أقام سنين كثيرة.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٠/٢]: وقد رأيت أنا في هذا السفود على قناطر كنيسة المقسلاط فلما هدمت القناطر ذهب.

قلت: كنيسة المقسلاط كانت مبنية فوق القناطر التي في السوق الكبير، عند الصابونيين والعطارين اليوم، وعندها اجتمعت جيوش الإسلام يوم فتح دمشق، دخل أبو عبيدة من باب الجابية، وخالد من الباب الشرقي، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير كما قدمنا ولله الحمد والمنة.

وقال عبد العزيز التميمي عن أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الله المزني: سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون: إن في سقف مسجد الجامع طلاسم عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي، فيها طلاسم للصنونيات، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها، ولا يدخله غراب، وطلّسم للفأر والحيات والعقارب، ما أبصر الناس من هذا شيئاً إلا الفأر، ويوشك أن يكون قد غير طلسمها، وطلسم للعنكبوت لا ينسج في زواياه، فيركبه الغبار والوسخ.

قال الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨١/٢]: وسمعت جدي أبا الفضل يحيى بن علي القاضي يذكر أنه أدرك في الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر الحشرات، معلقة في السقف فوق البطائن مما يلي السبع، وأنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق فلما احترقت الطلسمات وُجدت وكان حريق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سنة إحدى وستين وأربعمائة.

وقد كانت بدمشق طلسمات كثيرة، ولم يبق منها سوى العمود الذي بسوق العلبيين اليوم الذي في أعلاه مثل الكرة العظيمة، وهي لعسر بول الدواب، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها.

وقد كان شيخنا العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله يقول: إنما هذا قبر مشرك متمرد مدفون هنالك يعذب، فإذا سمعت الدابة صياحه فزعت فانطلق طبعها، قال: ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا مَغِلَتْ فيتطلق طباعها وتروث، وما ذاك إلا لأنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون والله أعلم.

ذكر الساعات التي على بابه

قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر: إنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه كان عمل هناك بِركار الساعات، يُعلَم بها كل ساعة تمضي من النهار، عليها عصافير من نُحاس، وحية من نحاس وغراب، فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطست، فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة، وكذلك في سائرها.

قلت: هذا الكلام يحتمل أحد شيئين إما أن الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع، وهو الذي يسمى باب الزيادة، ولكن قد قيل: إنه محدث بعد بناء الجامع، ولا ينفي ذلك أن الساعات كانت عنده في زمن القاضي ابن زبر، وإما أنه قد كان في الجانب الشرقي من الجامع في الحائط القبلي باب آخر في محاذاة باب الزيادة، وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم، وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم.

قلت: باب الوراقين قبلي أيضاً، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع والله أعلم، أو لمجاورته للجامع ولبابه.

قلت: فأما القبة التي في وسط صحن الجامع التي فيها الماء الجاري، وتقول العامة لها قبة أبي نواس فكان بناؤها في سنة تسع وستين وثلاثمائة أرّخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة.

وأما القبة الغربية العالية التي في صحن الجامع التي يقال لها قبة عائشة، فسمعت شيخنا الحافظ الذهبي يقول: إنها إنما بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن المنصور العباسي، وجعلوها لحواصل الجامع وكُتّب أوقافه.

وأما القبة الشرقية التي على باب مشهد علي فيقال: إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي في حدود سنة أربع ومائة.

وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسن بن العباس الحسيني، وكأنه كان ناظر الجامع، وجر إليها قطعة من حجر كبير من قصر حجاج، وأجرى فيها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة وعملت حولها قناطر، وعقد عليها قبة، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكت عندها وازدحمت، وذلك في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبادين ودار الحجارة في شوال من سنة اثنتين وستين وخمسمائة، ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر.

قلت: وأما القصعة التي كانت في الفوارة، فما زالت وسطها، وقد أدركتها كذلك، ثم رفعت بعد ذلك.

وكان بطهّارة جيرون قصعة أخرى مثلها، فلم تزل بها، ثم لمّا انهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما كانت، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر، ثم عمل الشاذروان الذي هو شرقي فوارة جيرون، بعد الخمسمائة ـ أظنه ـ سنة أربع عشرة وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ابتداء أمر السبع بالجامع الأموي

قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو عامر بن موسى بن عامر المري حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ قال: قال أبو عمرو الأوزاعي عن حسان

بن عطية قال: الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل المخزومي، في قدمته على عبد الملك، فحجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق فسمع قراءة فقال: ما هذا؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ في الخضراء فقرأ هشام بن إسماعيل فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام بن إسماعيل، فقرأ بقراءته، مولى له، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرؤوا بقراءته.

وقال هشام بن عمار خطيب دمشق: حدثنا أيوب بن حسان حدثنا الأوزاعي حدثنا خالد بن دهقان قال: أول من أحدث القراءة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشي.

قلت: هشام بن إسماعيل هذا كان نائباً على المدينة النبوية، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك، قبل أن يموت أبوه، ثم عزله عنها الوليد وولى عليها عمر بن عبد العزيز، كما ذكرنا.

وقد حضر هذا السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق، منهم هشام بن إسماعيل المخزومي ومولاه رافع وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مكتباً لأولاد عبد الملك بن مروان، وقد ولي إمرة إفريقية لهشام بن عبد الملك وابنيه عبد الرحمن ومروان.

وحضره من القضاة أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني، وعمير بن أوس الأشعري، ويزيد بن أبي مالك الهمداني، وسالم بن عبد الله المحاربي، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي.

ومن الفقهاء والمحدثين والحفاظ المقرئين أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى آل معاوية، ومكحول، وسليمان بن موسى الأشدق، وعبد الله بن العلاء بن زبر، وأبو إدريس الأصغر عبد الرحمن بن عراك، وعبد الرحمن بن عامر اليحصبي - أخو عبد الله بن عامر - ويحيى بن الحارث الذماري، وعبد الملك بن نعمان المُرّني، وأنس بن أُنيس العذري، وسليمان بن بزيع القارئ، وسليمان بن داود الخشني، وعمرانُ - أو هَرّان - بن حكيم القرشي، ومحمد بن خالد بن أبي ظبيان الأزدي، ويزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر، وعياش بن دينار وغيرهم.

هكذا أوردهم ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٣/٢، ٢٨٤]. قال: وقد روي عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره، ولا وجه لإنكاره.

ثم ساق من طريق أبي بكر بن أبي داود [تاريخ دمشق: ٢٨٤/٢]: حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الله بن العلاء قال: سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب ينكر الدراسة ويقول: ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب النبي ﷺ.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٢٨٥/٢]: وكان الضحاك بن عبد الرحمن أميراً على دمشق في أواخر سنة ست وثمانين في خلافة عمر بن عبد العزيز.

فصل كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين، هدمت الكنيسة التي كانت موضعه في ذي القعدة منها، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء، وتكامل في عشر سنين، وكان الفراغ منه في هذه السنة - أعني سنة ست وتسعين.

وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك، وقد بقيت فيه بقايا فكملها أخوه سليمان بن عبد الملك كما ذكرنا.

فأما قول يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٤٣٣/٣، ٤٣٥]: سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد دمشق وهدم الكنيسة قال: كان الوليد قال للنصارى من أهل دمشق: ما شئتم إنا أخذنا كنيسة توما عنوة وكنيسة الداخلة صلحاً، فأنا أهدم كنيسة توما - قال هشام: وتلك أكبر من هذه الداخلة - قال: فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة وأدخلها في المسجد، قال: وكان بابها قبلة المسجد اليوم، وهو المحراب الذي يصلى فيه، قال: وهدم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين، ومكثوا في بنائها سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتم بناءه، فأتمه هشام من بعده ففيه فوائد وفيه غلط، وهو قوله: إنهم مكثوا في بنائه سبع سنين، والصواب عشر سنين، فإنه لا خلاف أن الوليد بن عبد الملك توفي في هذه السنة - أعني سنة ست وتسعين - وقد حكى أبو جعفر بن جرير [تاريخ الطبري: ٤٩٥/٦] على ذلك إجماع أهل السير. وقوله: لم يتمّ بناؤه في زمن الوليد: بل قد تمّ، ولكن بقيت بقيّات من الزخرفة فأكملها أخوه سليمان لا هشام والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق وذكر وفاته في هذا العام

هو

■ الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العباس الأموي، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه في شوال سنة ست وثمانين، وكان أكبر ولده، والولي من بعده، وأمه ولادة بنت العباس بن جُزَي بن الحارث بن زهير العبسي. وكان مولده سنة خمسين، وكان أبواه يترفانه، فشب بلا أدب، وكان لا يحسن العربية، وكان طويلاً أسمر به أثر جدري، أفطس الأنف سائله، وكان إذا مشى يتوكف في المشية - أي يتبختر - وكان جميلا وقيل: بل كان دميماً، قد شاب في مقدم لحيته، وقد رأى سهل بن سعد وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه سأله ماذا سمع في أشراط الساعة، كما تقدم في ترجمة أنس، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عنه الزهري وغيره.

وقد روي أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لا يحسن العربية فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده فأقاموا عنده سنة، وقيل: ستة أشهر، فخرج يوم خرج أجهل مما كان، فقال عبد الملك: قد أجهد وأعذر.

وقيل: إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له: لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك، وتحن حنين الأمة، ولكن شمر وائتزر، ودلني في حفرتي، وخلني وشأني، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا.

وقال الليث: وفي سنة ثمان وسبعين غزا الوليد بلاد الروم، وفيها حج بالناس أيضاً.

وقال غيره: غزا في التي قبلها وفي التي بعدها بلاد ملطية وغيرها وكان نقش خاتمه أومن بالله مخلصاً. وقيل: كان نقشه يا وليد إنك ميت، ويقال: إن آخر ما تكلم به سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

وقال إبراهيم بن أبي عبلة: قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً: في كم تختم القرآن؟ قلت: في كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث، وقيل: في كل سبع، قال: وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة. قال إبراهيم رحمه الله: الوليد! وأين مثله؟ بنى مسجد دمشق، وكان

يعطيني قصاع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس.

وروى الحافظ ابن عساكر بإسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال: خرج الوليد بن عبد الملك يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلا عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً، فأتاه فوقف عليه فإذا هو يأكل خبزاً وتراباً، فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: القنوع يا أمير المؤمنين، فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال: إن لك لشأناً فأخبرني به وإلا ضربت الذي فيه عيناك، فقال: نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلا جَمّالا، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصداً إلى الكسوة، إذ زَرَتَني البول فعدلت إلى خربه لأبول، فإذا سرب فحفرته فإذا مال صبيب، فملأت منه غرائري، ثم انطلقت أقود برواحلي وإذا بمخلاة معي فيها طعام فألقيته منها، وقلت: إني سآتي الكسوة، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخلاة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد في الطلب، فلما أيست رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام، فآليت على نفسي أن لا آكل إلا خبزاً وتراباً. قال: فهل لك عيال؟ قال: نعم، ففرض له في بيت المال.

قال ابن جابر: وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها خازنه فوضعها في بيت المال. وقيل: إن الوليد قال له: ذلك المال وصل إلينا واذهب إلى إبلك فخذها، وقيل: إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يقيته وعياله.

وقال نمير بن عبد الله السمعاني عن أبيه قال: قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن أحداً يفعل هذا.

قالوا: وكان الوليد لحاناً كما جاء من غير وجه أن الوليد خطب يوماً فقرأ في خطبته ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةُ﴾ [الحاقة: ٢٧] فضم التاء من ﴿ليتها﴾، فقال عمر بن عبد العزيز: يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك، وكان يقول: يا أهلُ المدينة.

وقال عبد الملك يوماً لرجل من قريش: إنك لرجل لولا أنك تلحن، فقال: وهذا ابنك الوليد يلحن، فقال: لكن ابني سليمان لا يلحن، فقال الرجل: وأخي أبو فلان لا يلحن.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٤٩٦/٦]: حدثني عمر حدثنا علي - يعني ابن محمد المدائني - قال: كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد بدمشق، ووضع المنار، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً، وكل ضرير قائداً، وفتح في ولايته فتوحات كثيرة عظاماً، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم، فتح والهند والسند والأندلس وأقاليم بلاد العجم، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك، قال: وكان مع هذا يمر بالبقال فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول: بكم تبيع هذه؟ فيقول: بفلس، فيقول: زد فيها فإنك تربح.

وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضي عنهم ديونهم.

قالوا: وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الآخر فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، فكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن والصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صلّيت البارحة؟

وقال الواقدي: كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، لجوجاً كثير الأكل والجماع مطلاقاً، يقال: إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الإماء.

قلت: وقد يراد بهذا الوليد بن يزيد الفاسق لا الوليد بن عبد الملك باني الجامع والله أعلم.

قلت: بنى الوليد بن عبد الملك الجامع على الوجه الذي ذكرنا فلم يكن له في الدنيا نظير، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة، وبنى مسجد النبي ﷺ ووسعه حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه، وله آثار حسان كثيرة جداً، ثم كانت وفاته في يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة ست وتسعين.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٩٥/٦]: وهذا قول جميع أهل السير،وقد قال عمر بن علي الفلاس وجماعة: كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة، عن ست وقيل: ثلاث وقيل تسع وقيل: أربع وأربعين سنة. وكانت وفاته بدير مران فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير، وقيل: بمقابر باب الفراديس، حكاه ابن عساكر.

وكان الذي صلى عليه عمر بن عبد العزيز، لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف. وقيل صلّى عليه ابنه عبد العزيز. وقيل: بل صلّى عليه أخوه سليمان، والصحيح عمر بن عبد العزيز والله أعلم. وهو الذي أنزله إلى قبره وقال حين أنزله: لتنزلنه غير موسَّد ولا ممهد، قد خلفت الأسباب وفارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، فقيراً إلى ما تُقدم عليه، غنياً عما تُخلّف.

وجاء من غير وجه عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه أخبر أنه لما وضع - الوليد - في لحده ارتكض في أكفانه، وجمعت رجلاه إلى عنقه.

وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور والله أعلم.

قال المدائني: وكان له من الولد تسعة عشر ولداً ذكراً، وهم عبد العزيز، ومحمد، والعباس، وإبراهيم، وتمام وخالد وعبد الرحمن ومبشر ومسرور وأبو عبيدة وصدقة ومنصور ومروان وعنبسة وعمر وروح وبشر ويزيد ويحيى. فأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان، وأم أبي عبيدة فزارية، وسائرهم من أمهات أولاد شتى.

قال المدائني: وقد رثاه جرير فقال:

يا عينَ جودي بدمعٍ هاجهُ الذِّكَرُ ... فما لدمعكِ بعدَ اليومِ مدخرُ
إنّ الخليفةَ قدْ وارت شمائلَهُ ... غبراءُ مُلْحَدَةٌ في جُولِها زورُ
أضحى بنوهُ وقد جلّت مصيبتهمْ ... مثلَ النجوم هوى من بينها القمرُ
كانوا جميعاً فلم يدفعْ منيتهُ ... عبدُ العزيزِ ولا روحٌ ولا عمرُ

ومن هلك أيام الوليد بن عبد الملك:

■ زياد بن جارية التميمي الدمشقي، كانت داره غربي قصر الثقفيين، روى عن حبيب بن مسلمة الفهري في النهي عن المسألة لمن له ما يغديه ويعشيه، وفي النفل. ومنهم من زعم أن له صحبة، والصحيح أنه تابعي. روى عنه عطية بن قيس ومكحول ويونس بن ميسرة بن حلبس، ومع هذا قال فيه أبو حاتم: شيخ مجهول، ووثقه النسائي وابن حبان.

روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٣٦/١٩] أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة، فقال: والله ما بعث الله نبيا بعد محمد ﷺ أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت، قال: فأخذ فأدخل الخضراء فقُطع رأسه، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك.

■ عبد الله بن عمرو بن عثمان أبو محمد، كان قاضي المدينة، وكان شريفاً كثير المعروف جواداً ممدحاً والله أعلم.

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، وكان سليمان بالرملة، وكان ولي العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك.

وقد كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد، وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك الحجاج بن يوسف وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة من أهل الشام، وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد، فلم ينتظم ذلك له حتى مات الوليد، وانعقدت البيعة لسليمان، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على أن لا يبايعه، فعزله سليمان وولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين، وأمره بمعاقبة آل الحجاج بن يوسف، الذي عزله عن خراسان.

ولسبع بقين من رمضان من هذه السنة عزل سليمان عن إمرة المدينة عثمان بن حيان وولىَّ عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكان أحد العلماء.

وقد كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة كتب إليه كتابا يعزيه في أخيه، ويهنئه بولايته، ويذكر فيه بلاءه وعناءه وقتاله وهيبته في صدور الأعداء، وما فتح اللّه من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه، وأنه له على مثل ما كان للوليد من قبله من الطاعة والنصيحة، إن لم يعزله عن خراسان، ونال في هذا الكتاب من يزيد بن المهلب، ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر فيه ما فعله من القتال والفتوحات وهيبته في صدور الملوك والأعاجم، ويذم يزيد بن المهلب أيضاً، ويقسم فيه لئن عزله وولىَّ يزيد بن المهلب ليخلعن سليمان عن الخلافة، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان بالكلية، وبعث بها مع البريد وقال له: ادفع إليه الكتاب الأول، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه الثالث، فلما قرأ سليمان الكتاب الأول - واتفق حضور يزيد عند سليمان - ودفعه إلى يزيد فقرأه، فناوله البريد الكتاب الثاني فقرأه ودفعه إلى يزيد، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فإذا فيه التصريح بعزله وخلعه، فتغير وجهه، ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد، وأمر بإنزال البريد في دار الضيافة، فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ودفع إليه ذهباً وكتاباً فيه ولاية قتيبة على خراسان، وأرسل مع ذلك البريد بريداً آخر من جهته ليقرره عليها، فلما وصلوا بلاد خراسان بلغهم أن قتيبة قد خلع الخليفة، فدفع البريد كتاب بريد سليمان الكتاب الذي معه إلى بريد قتيبة، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع بريد سليمان.

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهم همته وفتوحه وعدله فيهم، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد من الناس إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمهم، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا، وعملوا على مخالفته، وسعوا في قتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبي سود، فجمع جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم، وكانت أمه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم كان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد اللّه وعبيد اللّه وصالح وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن أبي سود.

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلي، من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى اللّه على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا اللّه، فأسلموا ودانوا للّه عز وجل، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً كما تقدم ذلك مفصلا مبيناً، واللّه سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهاده.

ولكن زل زلة كان فيها حتفه، وفعَل فعلةً رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية إليه، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر اللّه به سيئاته، ويمحو بها عنه من خطيّاته، واللّه يسامحه ويعفو عنه، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء، وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان، في ذي الحجة من هذه السنة، وله من العمر ثمان وأربعون سنة، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب بن الزبير، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي فقال:

كان أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً

ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً

دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلى الجنات عَفّاً مطهرا

فما رزئ الإسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فبكّيه عَبْهَرا

ولقد بالغ هذا الشاعر في بيته الأخير، وعبهر أُمُّ ولدٍ له.

وقال الطرماح في هذه الوقعة التي قُتل فيها قتيبة على يدي وكيع بن أبي سود:

لَولا فَوارِسُ مَذْحِجٍ ابْنةِ مَذْحِجٍ ... والأَزْدُ زُعْزِعَ واسْتُبيحَ العسْكَرُ

وَتَقطَّعَت بِهِمُ البِلادُ ولَم يَؤُبْ ... مِنْهُم إِلَى أَهْلِ العِرَاقِ مُخَبِّرُ

واسْتُضْلِعَتْ عُقَدُ الجَمَاعَةِ وازْدرى ... أَمْرُ الخَلِيفَةِ واستُحِلَّ المُنْكَرُ

قَومٌ هُمُو قَتَلُوا قُتَيْبَةَ عَنْوَةً ... والخَيْلُ جانحةٌ عَلَيْهَا العِثْيَرُ

بالمَرْجِ مَرْجِ الصِّينِ حَيْثُ تَبَيَّنَتْ ... مُضَرُ العِرَاقِ مَنِ الأَعَزُّ الأَكْبَرُ

إذ حَالَفَتْ جَزَعاً رَبِيعَةُ كُلُّهَا ... وتَفَرَّقَتْ مُضَرٌ وَمَنْ يَتَمَضَّرُ

وتقدَّمتْ أَزْدُ العِرَاقِ وَمَذْحِجٌ ... لِلمَوْتِ يَجْمَعُهَا أَبُوهَا الأَكْبَرُ

قحطَانُ تَضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ مُدَجَّجٍ ... تَحمي بصائِرَهنَّ إذْ لا تبصرُ

وَالأَزْدُ تَعْلَمُ أنْ تَحْتَ لِوَائِهَا ... مُلْكاً قُرَاسِيَةً وَمَوتٌ أَحْمَرُ

فَبِعِزِّنَا نُصِرَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... وبِنَا تَثَبَّتَ في دمشقَ المِنْبَرُ

وقد بسط ابن جرير [تاريخه: ٦/٥٠٦-٥٢٢] هذه القصيدة بسطا كثيراً وذكر أشعاراً كثيرة جداً.

وقال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤/٨٨] وقال جرير في قتيبة بن مسلم رحمه اللّه وسامحه:

نَدِمْتُم عَلَى قَتْلِ الأَمِيرِ ابن مُسلِمٍ ... وأنتم إذا لاقَيْتُم اللّهَ أَنْدَمُ

لقـد كُنتُـم مِـن غَـزوِهِ في غَنِيمَـةٍ ... وأنتـم لِمَـن لاقَيتُـم اليـومَ مَغنَـمُ
عَلَـى أنـه أفضَـى إلى حُـورٍ جَنَّـةٍ ... وتُطبِـقُ بـالبَلوَى عَلَيكُـم جَهَنَّـمُ

قال: وقد ولي من أولاده وذريته جماعة الإمرة في البلدان، فمنهم عمرو بن سعيد بن سَلْم بن قتيبة بن مسلم وكان جواداً ممدحاً، رثاه حين مات أبو عمرو أشجع بن عمرو السلمي الرقي نزيل البصرة بقوله:

مَضَى ابـن سَعيد حَيثُ لَـم يَبقَ مَشرِقٌ ... ولا مَغـربٌ إلا لَـهُ فيـهِ مَـادحُ
ومَـا كُنـتُ أدري مـا فَوَاضِـلُ كَفِّـهِ ... عَلـى النـاسِ حَتّـى غَيَّبَتـهُ الصَفَـائِحُ
وأصبَحَ فِـي لَحـدٍ مِـنَ الأرضِ ضَيِّـقٍ ... وكـانت بِـهِ حَيّـاً تَضِيـقُ الصَّحَاصِـحُ
سَأبكِيكَ مـا فـاضت دُمُوعِي فـإن تَغِضْ ... فَحَسـبُكَ مِـني مـا تُجِـنُّ الجَوَانِـحُ
فَمَـا أنـا مِـن رُزْءٍ وإِن جَـلَّ جَـازِعٌ ... ولا بِسُـرورٍ بَعـدَ مَوتِـكَ فَـارِحُ
كَـأن لَـم يَمُـت حَـيٌ سِـوَاكَ ولَم يَقُـمْ ... علـى أحَـدٍ إلا عليـكَ النَّوَائِـحُ
لَئِـن حَسُـنَت فِيـكَ المَرَاثِـي وذِكرُهـا ... لقـد حَسُـنت مِـن قَبـلُ فِيـكَ المَدَائِـحُ

قال ابن خلكان: وهي من أحسن المراثي وهي في الحماسة، ثـم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مرذولة عند العرب، قـال: وقد رأيت في بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال: يا رسول الله أتتكافأ دماؤنا؟ قال: «نَعَمْ! وَلَوْ قَتَلْتَ رَجُلاً مِن بَاهِلَةَ لَقَتَلْتُكَ بِـهِ». وقيـل لبعض العرب: أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟ قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك، وسأل بعض الأعراب رجلاً: ممن أنت؟ فقال: من باهلة، فجعل يرثـي لـه فقال: وأزيدك أني لست من الصميم وإنما أنـا مـن مواليهم، فجعـل يقبل يديه ورجليه، فقال: ولم تفعل هذا؟ فقال: لأن الله تعالى ما ابتلاك بهـذه الرزية في الدنيا إلا ليعوضك الجنة في الآخرة.

ثم قال ابن جرير [تاريخه: ٥٢٢/٦]: وفي هذه السنة توفي

■ قرة بن شريك القيسيُّ أمير مصـر وحاكمهـا. قلت: هـو قـرة بـن شريك أمير مصر من جهة الوليد بن عبد الملـك، وهـو الـذي بنـى جامع الفيوم.

قال: وفيها حج بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكان هو الأمير على المدينة، وكان على مكة عبد العزيز بن عبد اللـه بـن خـالد بـن أسيد، وعلى حرب العـراق وصلاتها يزيـد بـن المهلـب، وعلـى خراجها صالح بن عبد الرحمن، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب سفيان بن عبـد الله الكندي، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة، وعلى قضاء الكوفـة أبـو بكر بن أبي موسى، وعلى حرب خراسان وكيع بن أبي سود والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية، وفيها أمـر ابنه داود على الصائفة، ففتح حصن المرأة.

قال الواقدي: وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الوضاحيـة ففتـح الحصن الذي فتحه الوضاح صاحب الوضاحية.

وفيها غزا مسلمة أيضاً برجمة ففتـح حصوناً وبرجمة وحصـن الحديـد وسَرْدَ وسل، وشتى بأرض الروم.

وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم وشتى بها.

وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وقدم برأسه علـى سـليمان بن عبد الملك حبيبُ بن أبي عبيد الفهري.

وفيها ولى سليمان نيابة خراسان ليزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق، وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبي سود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريته، بعث برأس قتيبة إلى سليمان فحظي عنده وكتب له بإمرة خراسان، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن بن الأهتم إلى سـليمان بـن عبـد الملك ليحسِّن عنده أمر يزيد بن المهلب في إمرة خراسان، وينتقص عنده وكيع بن أبي سود، فسار ابن الأهتم ـ وكان ذا دهاء ومكر ـ إلى سليمان بـن عبـد الملك، فلم يزل به حتى عزل وكيعاً عن خراسان، وولى عليها يزيد مع إمرة العراق، وبعث بعهده مع ابن الأهتم، فسار في سبع حتى جاء يزيد، فأعطاه عهد خراسان مع العراق وكان يزيد وعده بمائة ألف فلم يف له بها، وبعث يزيد ابنه مخلداً بين يديه إلى خراسان، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونـه أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خلـع الطاعة، فـإن كـان وكيـع قـد تعرض له وثار عليه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيـده وابعث بـه إلي، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً فعاقبه وحبسه قبل أن يجيء أبوه، فكانت إمرة وكيـع بن أبي سود على خراسان تسعة أشهر، أو عشرة أشهر، ثم قـدم يزيـد بـن المهلب فتسلم خراسان وأقام بها، واستناب في البلاد نواباً ذكرهم ابن جرير [تاريخه: ٥٢٦/٦] رحمه الله تعالى.

قال: ثم سار يزيد بـن المهلـب فغزا جرجـان، ولم يكـن يومئـذ مدينـة بأبواب وصور، وإنما هي جبال وأودية، وكان ملكها يقال له صول، فتحول عنها إلى قلعة هناك، وقيل إلى جزيرة في بحيرة هناك، ثم أخذوه من البحـيرة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا وغنموا.

قال: وفيها حج بالناس سليمان بـن عبـد الملـك، ونـواب البـلاد هـم المذكورون في التي قبلها، غير أن خراسان عزل عنها وكيـع بـن أبـي سـود، ووليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مع العراق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: أبو محمد القرشي الهاشمي، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً: «مَنْ عَالَ أهلَ بَيتٍ مِـنَ المُسـلِمِينَ يَومَهُـم ولَيلَتَهُم غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ»، وعن عبد اللـه بـن جعفر عـن علي في دعـاء الكرب [س كبرى (١٠٤٧٨، ١٠٤٧٩، ١٠٤٨٠)]، وعن زوجتـه فاطمـة بنـت الحسين، وعنه ابنه عبد الله وجماعة، وفد على عبد الملك بن مروان فأكرمـه ونصره على الحجاج، وأقره وحده علـى ولايـة صدقة علي، وقـد ترجمـه الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٦١/١٣] فأحسن، وذكر عنه آثاراً تدل علـى سيادته وعلمه وتسننه رحمه الله.

وقيل: إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة: إن الحسـن بـن الحسن كاتب أهل العراق، فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة، وقفـه للناس، ولا أراني إلا قاتله. فأرسل خلفه فعلمه علي بن الحسـين كلمـات الكرب فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم، وهي: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السـموات السـبع ورب الأرض رب العرش العظيم. توفي بالمدينة، وكـانت أمـه خولـة بنـت منظور الفزاري.

وقال يوماً لرجل من الرافضة: والله إن قتلك لقربة إلى الله عز وجـل، فقال له الرجل: إنك تمزح، فقال: الله ما هذا مني بمزح ولكنه الجد.

وقال له آخر منهم: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَنْ كُنـتُ مَـولاهُ فَعَلِـي

مَولاة؟ فقال: بلى، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال: أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، واللّه لئن كان اللّه ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ثم تركه علي لكان أول من ترك أمر اللّه ورسوله.

وقال لهم أيضاً: واللّه لئن ولينا من الأمر شيئاً لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم لا نقبل لكم توبة، ويلكم غررتمونا من انفسنا، ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤنا قد غشونا إذ لم يعلمونا بذلك قد ظلمونا وكتموا عنا أفضل الأمور، واللّه إني لأخشى أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين، كما إني لأرجو للمحسن منا أن يكون له الأجر مرتين، ويحكم احبونا إن أطعنا اللّه على طاعته، وأبغضونا إن عصينا اللّه على معصيته.

■ **موسى بن نصير أبو عبد الرحمن اللخمي**: مولاهم، كان مولى لامرأة منهم، وقيل: كان مولى لبني أمية، افتتح بلاد المغرب، وغنم منها أموالا لا تعد ولا توصف، وله بها مقامات مشهورة هائلة، ويقال: إنه كان أعرج، ويقال: إنه ولد في سنة تسع عشرة، وأصله من عين التمر، وقيل إنه من إراشة من بلي، سُبي أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق، وكان اسم أبيه نصراً فصغر.

روى عن تميم الداري، وروى عنه ابنه عبد العزيز، ويزيد بن مسروق اليحصبي، وولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن يانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان.

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب.

قال الفسوي: وولي موسى بن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين فافتتح بلاداً كثيرة جداً مدناً وأقاليم، وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف، فسبى منها ومن غيرها خلقاً كثيراً، وغنم أموالا جزيلة، من الذهب واللالئ والجواهر النفيسة شيئاً لا يحصى ولا يعد، وأما الآلات والمتاع والدواب فشيء لا يدرى ما هو، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً، حتى قيل: إنه لم يسلب احد مثله من الأعداء، وأسلم أهل المغرب على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العَجَل لكثرتها وعجز الدواب عنها.

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب، وقتيبة يفتح في بلاد المشرق، فجزاهما اللّه خيراً، فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً، ولكن موسى بن نصير حظي بأشياء لم يحظ بها قتيبة، حتى قيل: إنه لما فتح الأندلس جاءه رجل فقال له: ابعث معي رجالا حتى ادلك على كنز عظيم، فبعث معه رجالا فأتى بهم إلى مكان فقال: احفروا فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حسنة، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم، وأما الذهب فشيء لا يعبر عنه، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتخر، والطنفسة منظومة بالجوهر المثمن، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها، ولقد سمع يومئذ منادٍ ينادي لا يرون شخصه: أيها الناس، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذركم، وقيل: إنهم وجدوا في هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التي كان يأكل عليها. وقد جمع أخباره وما جرى له في حروبه وغزواته رجل من ذريته يقال له أبو معاوية معاركُ بنُ مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير النصيري.

وروى الحافظ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شيء رآه في البحر، فقال: انتهينا مرة إلى جزيرة فيها ست عشرة جرة خضراء مختومة عليها بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام، قال: فأمرت بأربعة منها فأخرجت، وأمرت بواحدة منها فنقبت فإذا قد خرج منها شيطان ينفض رأسه وهو يقول: والذي أكرمك بالنبوة لا أعود بعدها أُفسِدُ في الأرض، قال: ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال: واللّه لا أرى بها سليمان وملكه، فانساخ في الأرض فذهب، قال: فأمرت بالثلاث البواقي فردت إلى مكانها.

وقد ذكر السمعاني وغيره عنه أنه سار إلى مدينة النحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر، في أقصى بلاد المغرب، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها، ثم أرسل رجلا من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها، فقيل: إنه سار يوماً وليلة حول سورها، ثم رجع اليه فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها، فأمرهم فجمعوا ما معهم من المتاع بعضه على بعض، فلم يبلغوا أعلى سورها، فأمر فعمل سلالم فصعدوا عليها، وقيل: إنه أمر رجلا فصعد على سورها، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن القاها في داخلها فكان آخر العهد به، ثم آخر فكذلك، ثم امتنع الناس من الصعود إليها، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علماً، ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها، فقيل: إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها، ووجد عليها رجلاً قائماً، فقال له: ما أنت؟ قال: رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره، فقال له: هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو داخلا إليها؟ قال: لا، إلا أن رجلا يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياماً ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها، واللّه اعلم ما هو. ثم رجع إلى إفريقية، واللّه أعلم بصحة ذلك، والعهدة على من ذكر ذلك أولا.

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس في سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا بأفريقية، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة عن المسلمين، وفرق بين البهائم وأولادها، ثم أمر برفع الضجيج والبكاء، وهو يدعو اللّه تعالى حتى انتصف النهار، ثم نزل فقيل له: ألا دعوت لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا موطن لا يذكر فيه إلا اللّه عز وجل، فسقاهم اللّه عز وجل لما قال ذلك.

وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه، فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم، والأسبان، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة، وجاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله، فحمد اللّه الوليد وشكره على ما أيده به ووسع ملكه،

وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة، ثم نـزل فصلى بالناس، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطـاه شيئاً كثيراً، وكان موسى بن نصير قد قدم معه بشيء كثير، من ذلك مائدة سليمان بـن داود عليهما السلام، التي كـان يـأكل عليهـا، وكـانت مـن خليطين ذهـب وفضة، وعليها ثلاثة أطواق لؤلـؤ وجوهـر لم يـر مثلهـا، وجدهـا في مدينـة طليطلة من بلاد الأندلس مع أموال كثيرة. وقيل: إنه بعث ابنه مروان على جيش فأصاب مـن السبي مائة ألـف رأس، وبعـث ابـن أخيـه في جيـش فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضـاً مـن البربر، فلمـا جـاء كتابـه إلى الوليد وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس. قـال النـاس: إن هـذا أحمق، من أين له أربعون ألـف رأس خمـس الغنـائم؟ فبلغـه ذلـك فأرسـل أربعين ألف رأس وهي خمس ما غنـم، ولم يسمع في الإسـلام بمثـل سـبايا موسى بن نصير أمير المغرب.

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال: لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى افتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنـج - ثم ليفتحنها الله على يدي إن شاء الله تعالى، ولما قدم على الوليـد قـدم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا، وذلك خمس ما كان غنمه في آخر غـزاة غزاهـا بـبلاد المغـرب، وقـدم معـه مـن الأمـوال والتحـف واللآلـئ والجواهر ما لا يحد ولا يوصف.

ولم يزل مقيماً بدمشق حتى توفي الوليـد وتـولى سـليمان، وكـان عاتبـاً على موسى فحبسه عنده وطالبه بأموال عظيمة، ولم يزل في يده حتى حـج سليمان في هذه السنة وأخذه معه فمات بالمدينة، وقيل بوادي القـرى، وقـد قارب الثمانين، وقيل: توفي سنة تسع وتسعين فالله أعلم ورحمه اللـه وعفـا عنه بمنه وفضله آمين.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففي هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين أخـاه مـسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية، وراء الجيش الذين هم هناك، فسـار إليهـا ومعه جيش عظيم، ثم التف عليه ذلك الجيش الذين هـم هنـاك وقـد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه على ظهر فرسه مدين من طعـام، فلمـا وصل إليها جمعوا ذلك فإذا هو أمثال الجبال، فقال لهم مسلمة: اتركوا هـذا الطعام وكلوا مما تجدونه في بلادهم، وازرعـوا في أمـاكن الـزرع واسـتغلوه، وابنوا لكم بيوتاً من خشب، فإنا لا نرجع عن هذا البلدة إلا أن نفتحهـا إن شاء الله. وقد داخلَ مسلمةَ رجلٌ من النصارى يقال له إليـون، وواطـأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم، فظهر منه نصح في بادئ الأمـر، ثـم إنـه تـوفي ملك القسطنطينية، فدخل إليون في رسـالة مـن مسـلمة وقـد خافتـه الـروم خوفاً شديداً، فلما دخل إليهم إليون قالوا له: رده عنا ونحـن نملكـك علينـا فخرج فأعمل الحيلة في الغدر والمكر، ولم يزل قبحه الله حتى أحـرق ذلـك الطعام الذي للمسلمين، وذلك لأنه قال لمسلمة: إنهم ما دامـوا يـرون هـذا الطعام عندك يظنون أنك تطـاولهم في القتـال، فلـو أحرقتـه لتحققـوا منـك العزم، وسلموا لك البلد سريعاً، فأمر مسلمة بالطعـام فـأحرق، ثـم انشـمر إليون في السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيـش في الليـل، وأصبـح وهـو بالبلد محاربا للمسلمين، وأظهر العداوة الأكيدة، وتحصن بـالبلد واجتمعـت عليه الروم، وضاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كل شـيء إلا الـتراب، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتوليـة عمـر بن عبد العزيز، على ما سيأتي فكروا راجعين إلى الشام، وقد جهدوا جهداً شديداً، لكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شـديد البنـاء محكماً، رحب الفناء شاهقاً في السماء.

وقال الواقدي: لما ولي سليمان بـن عبـد الملـك أراد الإقامـة ببيـت المقدس، ثم أرسل العساكر إلى القسطنطينية، فأشار عليه موسـى بـن نصـير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون، حتـى يبلـغ المدينـة، فـلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها، فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد، ثـم استشـار أخـاه مسـلمة فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة، فمتى ما فتحت فإن باقي ما دونها من البلاد والحصون بيدك، فقال سليمان: هذا هو الرأي، ثم أخذ في تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة فجهز في البر مائة وعشرين ألفـاً، وفي البحر مائة وعشرين ألفا من المقاتلة، وأخرج لهم الأعطية، وأنفق فيهـم الأمـوال الكثـيرة، وأعلمهـم بغـزو القسـطنطينية والإقامـة عليهـا إلى أن يفتحوها، ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق وقد اجتمعت لـه العساكر فأمر عليهم أخاه مسلمة، ثم قال: سيروا على بركـة اللـه، عليكـم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف، ثم سار سليمان حتى نـزل مـرج دابق، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهـم علـى اللـه، فاجتمع له جند عظيم لم ير مثله، ثم أمر مسلمة أن يرحل بـالجيوش وأخـذ معه إليـون الرومي المرعشـي، ثـم سـاروا حتى نزلـوا علـى القسـطنطينية فحاصرها إلى أن برَّح بهم وعرض أهلها الجزية علـى مسـلمة فـأبى إلا أن يفتحها عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون نشاوره، فأرسله إليهم، فقالوا لـه: رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا، فرجع إلى مسلمة، فقال لـه: قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لا يفتحونها ما لم تتحَّ عنهـم، فقـال مسـلمة: إني أخشى غدرك، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها، فلمـا تنحـى عنهم أخذوا في ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصـار، وغـدر إليون بالمسلمين قبحه الله.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٣١/٦، ٥٣٢]: وفي هذه السنة أخذ سـليمان بـن عبد الملك العهد لولده أيوب أن يكون الخليفة من بعده، وذلك بعـد مـوت أخيه مروان بن عبد الملك بن مروان، فعدل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولايـة ولده أيوب، وتربـص بأخيـه الـدوائر، فمـات أيـوب في حيـاة أبيـه، فبـايع سليمان لابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده، ولنعم ما فعل.

وفيها فتحت مدينة الصقالبة.

قال الواقدي: وقد أغارت البرجان على جيش مسلمة وهو في قلة من الناس في هذه السنة، فبعث إليه سليمان جيشاً فقاتل البرجان حتى هزمهـم الله عز وجل.

وفي هـذه السنة غـزا يزيـد بـن المهلـب دهسـتان مـن أرض الصـين فحاصرها وقاتل عندها قتالا شديداً، ولم يزل حتى تسلمها، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة مالا يحد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً، ثم سار منها إلى جرجان فاستجاش صاحبها بالديلم، فقدموا لنجدته فقاتلهم يزيد بن المهلب وقـاتلوه، فحمـل محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي - وكان فارساً شجاعاً باهراً - على ملك الديلم فقتله وهزمهم الله عز وجل، ولقد بـارز ابـن أبـي سـبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك، فضربه التركي بالسيف على البيضـة فنشـب فيها، وضربه ابن أبي سبرة فقتله، ثم أقبل إلى المسـلمين وسيفه يقطر دماً

وسيف التركي ناشب في خوذته، فنظر إليه يزيد بن المهلب قال: ما رأيت منظراً أحسن من هذا، من هذا الرجل؟ قالوا: ابن أبي سبرة، فقال: نعم الرجل لولا انهماكه في الشراب. ثم صمم يزيد بن المهلب على محاصرة جرجان، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف دينار، ومائتي ألف ثوب، وأربعمائة حمار موقرة زعفراناً، وأربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس: على الترس طيلسان وجام من فضة وسَرَقَةٌ من حرير.

وهذه المدينة كان سعيد بن العاص قد افتتحها صلحاً على أن يؤدوا الخراج في كل سنة فكانو يحملون في كل سنة مائة ألف، وفي سنة مائتي ألف، وفي بعض السنين ثلاثمائة ألف، ويمنعون ذلك في بعض السنين، ثم امتنعوا جملة وكفروا، فغزاهم يزيد بن المهلب وردها صلحاً على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العاص، قالوا: وأصاب يزيد بن المهلب من جرجان أموالا كثيرة جداً، فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة، فقال: أترون أحداً يزهد في هذا؟ قالوا: لا نعلمه، فقال: واللّه إني لأعلم رجلا لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه، فدعا بمحمد بن واسع - وكان في الجيش مغازياً - فعرض عليه أخذ التاج فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: أقسمت عليك لتأخذنه، فأخذه وخرج به من عنده، فأمر يزيد رجلا أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج، فمر بسائل فطلب منه شيئاً فأعطاه التاج بكماله وانصرف، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوضه عنه مالا كثيراً.

وقال علي بن محمد المدائني: قال أبو بكر الهذلي: كان شهر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب فرفعوا إليه أنه أخذ خريطة فيها مائة دينار، فسأله عنها فقال: نعم وأحضرها، فقال له يزيد: هي لك، ثم استدعى الذي وشى به فشتمه، فقال في ذلك القطامي الكلبي، ويقال: إنها لسنان بن مكمل النميري:

لَقَد بَاعَ شَهر دِينَهُ بِخَرِيطَةٍ		فَمَن يَأْمَن القُرّاءَ بَعدَكَ يَا شَهرُ
أَخَذتَ بِهِ شَيئاً طَفِيفاً وَبِعتَهُ		مِن ابنِ جَنبوذ إنّ هَذَا هُوَ الغَدرُ

وقال مرة النخعي:

يا ابن المُهلبِ مَا أردتَ إلى امرئ		لَولاكَ كَانَ كَصَالحِ القُرّاءِ

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٣٩/٦]: ويقال: إن يزيد بن المهلب كان في غزوة جرجان في مائة ألف وعشرين ألفاً، منهم ستون ألفاً من جيش الشام أثابهم اللّه تعالى، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسلكت الطرق، وكانت قبل ذلك مخوفة جداً، ثم عزم يزيد على المسير إلى طبرستان، وقدم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس، فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة آلاف فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ثم عزم يزيد على فتح البلاد لا محالة، وما زال حتى صالحه صاحبها - وهو الإصبهبذ - بمال كثير، سبعمائة ألف في كل عام، وغير ذلك من المتاع والرقيق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عُبَيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة: كان إماماً حجة، وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة.

■ أبو الحفص النخعي.

■ عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية. وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

وفيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين يوم الجمعة لعشر مضين، وقيل: بقين من صفر منها، عن خمس وأربعين سنة، وقيل: عن ثلاث وأربعين، وقيل: إنه لم يجاوز الأربعين.

وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر.

وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان منها، وأنه استكمل في خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام وله من العمر تسع وثلاثون سنة، والصحيح قول الجمهور وهو القول الأول، واللّه أعلم.

وهو

■ سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أبو أيوب.

كان مولده بالمدينة في بني جَزيلة، ونشأ بالشام عند أبيه، وروى الحديث عن أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين في قصة الإفك، رواه ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ١٠/ ١٧٠] من طريق ابنه عبد الواحد بن سليمان عنه، وروى عن عبد الرحمن بن هنيدة أنه صحب عبد اللّه بن عمر إلى الغابة قال: فسكت فقال لي ابن عمر: مالك؟ فقلت: كنت أتمنى. فهل تتمنى يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: لو أن لي أحداً هذا ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك، أو قال: ما خشيت أن يضرني. رواه محمد بن يحيى الذهلي عن أبي صالح عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن الزهري عنه.

قال الحافظ ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق: ١٧٠/١٠]: وكانت داره بدمشق موضع ميضأة جيرون الآن في تلك المساحة جميعها، وبنى داراً كبيرة مما يلي الباب الصغير، موضع الدرب المعروف بدرب محرز، وجعلها دار الإمارة، وعمل فيها قبة صفراء تشبيهاً بالقبة الخضراء، قال: وكان فصيحاً مؤثراً للعدل محباً للغزو، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحوهم على بناء الجامع بها.

وقد روى أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيه، الوليد وسليمان ومسلمة، بين يديه فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى، فلامهم على ذلك، ثم قال: لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب ولا يفحش، هات يا وليد، فقال الوليد:

ما مركب وركوب الخيل يعجبني		كمركب بين دملوج وخلخال

فقال عبد الملك: وهل يكون من الشعر أرفث من هذا؟ هات يا سليمان، فقال:

حبذا رجعها يديها إليها		في يدي درعها تحل الإزارا

فقال: لم تصب، هات يا مسلمة، فأنشده قول امرئ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي		بسهميك في أعشار قلبٍ مقتَّل

فقال: كذب امرؤ القيس ولم يصب، إذا ذرفت عيناها بالوجد فما بقي إلا اللقاء، وإنما ينبغي للعاشق أن يقتضي منها الجفاء ويكسوها المودة، ثم

قال: أنا مؤجلكم في هذا البيت ثلاثة أيام فمن أتى به فله حُكْمه - أي مهما طلب أعطيته - فنهضوا من عنده فبينما سليمان في موكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول:

لو حُزَّ بالسيف رأسي في مودتها لكان يهوي سريعا نحوها راسي

فأمر سليمان بالأعرابي فاعتقل، ثم جاء إلى أبيه فقال: قد جئتك بما سألت، فقال: هات، فأنشده البيت فقال: أحسنت، وأنى لك هذا؟ فأخبره خبر الأعرابي، فقال: سل حاجتك ولا تنس صاحبك. فقال: يا أمير المؤمنين إنك عهدت بالأمر من بعدك للوليد، وإني أحب أن أكون ولي العهد من بعده، فأجابه إلى ذلك، وبعثه على الحج في سنة إحدى وثمانين، وأطلق له مائة ألف درهم، فأعطاها سليمان لذلك الأعرابي الذي قال: ذلك البيت من الشعر، فلما مات أبوه سنة ست وثمانين وصارت الخلافة إلى أخيه الوليد، كان بين يديه كالوزير والمشير، وكان هو المستحث على عمارة جامع دمشق، فلما توفي أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، كان سليمان بالرملة، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس، وقيل: إنهم ساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه هناك، وعزم على الإقامة بالقدس، وأتته الوفود إلى بيت المقدس، فلم يروا وفادة هناك، وكان يجلس في قبة في صحن المسجد مما يلي الصخرة من جهة الشمال، وتجلس أكابر الناس على الكراسي، وتقسم فيهم الأموال، ثم عزم على المجيء إلى دمشق. فدخلها وكمل عمارة الجامع.

وفي أيامه جددت المقصورة واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مشاوراً ووزيراً، وقال له: إنا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج وإخراج أهل السجون منها، وإطلاق الأسراء، وبذل الأعطية بالعراق، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول، بعدما كان من كان قبله يؤخرونها إلى آخر وقتها، مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز رحمهما الله.

وأمر بغزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر عليهم عمر بن هبيرة، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة بن عبد الملك، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك في جماعة من أهل بيته، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير، حين قدم عليه من بلاد المغرب، والصحيح أنه قدم في أيام أخيه الوليد كما قدمنا والله أعلم.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا [ذم الدنيا (٦٧)]: حدثني محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الكوفي عن جابر بن عون الأسدي. قال: أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة أن قال:

الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء رفع وما شاء وضع، ومن شاء أعطى ومن شاء منع.

إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، وزينةٌ تقلَّب، تضحك باكياً وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً وتؤمن خائفاً، تفقر مثريها، وتثري فقيرها، سالبة لاعبة بأهلها.

يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده. اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس إدبار الليل إذا عسعس.

وقال يحيى بن معين عن حجاج بن محمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال: سمعت سليمان بن عبد الملك يقول في خطبته: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

وقال حماد بن زيد عن يزيد بن حازم. قال: كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول في خطبته: وإنما أهل الدنيا على رحيل، لم تمض بهم نية ولم تطمئن لهم دار حتى يأتي أمر وعد الله وعد وهم على ذلك، كذلك لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها ولا يُتّقى من شر أهلها ثم يتلو ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥] [ذم الدنيا (٦٧)].

وروى الأصمعي أن نقش خاتم سليمان كان: آمنت بالله مخلصا.

وقال أبو مسهر عن أبي مسلم سلمة بن العيار الفزاري. قال: قال محمد بن سيرين: يرحم الله سليمان بن عبد الملك: افتتح خلافته بخير وختمها بخير، افتتحها بإحيائه الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

قد أجمع علماء الناس والتواريخ أنه حج بالناس في سنة سبع وتسعين وهو خليفة.

قال الهيثم بن عدي قال الشعبي: حج سليمان بن عبد الملك فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ولا يسع رزقهم غيره، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غداً خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاءً شديداً ثم قال: بالله أستعين.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير عن عطاء بن السائب. قال: كان عمر بن عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك فأصابتهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة، حتى فزعوا لذلك، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك، فقال له سليمان: ما يضحكك يا عمر؟ أما ترى ما نحن فيه؟ فقال له: يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيه شدائد ما ترى، فكيف بآثار سخطه وغضبه؟!

ومن كلامه الحسن رحمه الله قوله: الصمت منام العقل والنطق يقظته، ولا يتم هذا إلا بهذا.

ودخل عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقه ثم فتشه فلم يحمد عقله، فقال: فضل منطق الرجل على عقله خدعة، وفضل عقله على منطقه هجنة، وخير ذلك ما أشبه بعضه بعضاً.

وقال: العاقل أحرص على إقامة لسانه منه على طلب معاشه.

وقال أيضاً: إن من تكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على أن يتكلم فيحسن.

ومن شعره يتسلى عن صديق له مات:

وهَوَّنَ وجْدِي في شَرَاحِيلَ أنني متى شِئتُ لاقَيتُ امرءاً مَاتَ صَاحِبُهْ

ومن شعره أيضا:

ومِن شِيمتي ألا أُفَارِقَ صَاحِبِي وإن مَلَّنِي إلا سَألتُ لـه رُشـدَا
وإن دَامَ لي بـالوُدِّ دُمـتُ ولم أكُـنْ كَـآخَرَ لا يَرعَى ذِمَامـاً ولا عَهـدَا

وسمع سليمان ليلة صوت غناء في معسكر فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرَّمَكة، وإن الجمل ليحظر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينب فكشرت له العنز وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة، ثم أمر بهم ليخصوهم، فيقال: إن عمر بن عبد

العزيز قال: يا أمير المؤمنين إنها مثلة فتركهم.

وفي رواية أنه خصى أحدهم، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل: إنه بالمدينة، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم يأمره أن يخصي من عنده من المغنين المخنثين.

وقال الشافعي: دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فدعاه إلى أكل الفالوذج وقال له: إنَّ أكلها يزيد في الدماغ فقال الأعرابي: لو كان هذا صحيحاً لكان ينبغي أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل رأس البغل.

وذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الأكل، وقد نقلوا عنه أشياء في ذلك غريبة، فمن ذلك أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية، وأربع وثمانين كَلْوةً بشحمها، وثمانين جردقة، ثم أكل مع الناس على العادة في السماط العام.

ودخل ذات يوم بستاناً له قد أمر قَيِّمه أن يجبس ثماره وقطفت له ومعه أصحابه فأكل القوم، واستمر هو يأكل أكلا ذريعاً من تلك الفواكه، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها ثم أقبل على أكل الفاكهة، ثم أتي بدجاجتين فأكلهما، ثم عاد إلى الفاكهة، ثم أتي بقعب يقعد فيه الرجل مملوءاً بسويق وسمن وسكر فأكله ثم عاد إلى دار الخلافة، وأتي بالسماط فما فقد من أكله شيئاً.

وقد روي أنه عرضت له حمى أدته إلى الموت، وقد قيل: إن سبب مرضه كان من أكل أربعمائة بيضة وسلتين من تين فالله أعلم.

وذكر الفضل بن المهلب وغيره أنه لبس في يوم جمعة حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء، واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وقد بسط ما حوله بالخضرة، ثم نظر في المرآة فأعجبه حسنه، وشمر عن ذراعيه وقال: أنا الخليفة الشاب.

وقيل: إنه كان ينظر في المرآة من فرقه إلى قدمه ويقول: أنا الملك الشاب.

وفي رواية: أنه كان ينظر فيها ويقول: كان محمد نبياً ﷺ، وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقاً، وكان عثمان حيياً، وكان علي شجاعاً، وكان معاوية حليما، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب.

قالوا: فما دار عليه شهر، وفي رواية: جمعة، حتى مات. قالوا: ولما حم شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيرَ أن لا بَقاءَ للإنسانِ
ليس فيما علمتُه فيك عَيبٌ ... كان في الناس غيرَ أنَّكَ فانِ

قالوا: فصاح بها وقال: عَزَّتْنِي في نفسي وصرّفها، ثم أمر خاله الوليد بن القعقاع العَبْسي أن يصب عليه وقال:

قَرِّبْ وَضُوءَكَ يا وَلِيدُ فَإنَّما ... هَذِي الحياةُ تعلّةٌ ومَتاعُ

فقال الوليد:

فَاعمَل لِنَفسِكَ فِي حَياتِكَ صَالِحاً ... فالدهر فيه فرقة وجِمَاعُ

ويروى أن الجارية لما جاءته بالطست جعلت تضطرب من الحمى، فقال: أين فلانة؟ فقالت: محمومة، قال: ففلانة؟ قالت: محمومة، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين، فأمر خاله فوضأه ثم خرج يصلي بالناس فأخذته بحة في الخطبة، ثم نزل وقد أصابته حمى فاستمر فيها حتى مات في الجمعة المقبلة.

ويقال: إنه أصابه ذات الجنب فمات بها رحمه الله.

وكان قد أقسم أنه لا يبرح بمرج دابق حتى يرجع اليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، فمات قبل ذلك رحمه الله وأكرم مثواه، قالوا: وجعل يلهج في مرضه ويقول:

إنّ بَنِيَّ صِبيَةٌ صِغَارُ ... أفلَحَ مَن كَانَ لَه كِبَارُ

فيقول له عمر بن عبد العزيز: قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين، ثم يقول:

إنّ بَنِيَّ صِبيَةٌ صَيْفِيُّونْ ... أفلَحَ مَن كَانَ لَهُ شِتْوِيُّون

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به، والصحيح أن آخر ما تكلم به أن قال: أسألك منقلباً كريماً. ثم قضى.

وروى ابن جرير [تاريخه: ٥٥٠/٦] عن رجاء بن حيوة - وكان وزير صدق لبني أمية - قال: استشارني سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي ابناً له صغيراً لم يبلغ الحلم، فقلت: إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المسلمين من بعده الرجل الصالح، ثم شاورني في ولاية ابنه داود، فقلت: إنه غائب عنك بالقسطنطينية ولا تدري أحي هو أو ميت، فقال: فمن ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيِّراً فاضلا مسلماً يحب الخير وأهله فقال: هو والله على ذلك، أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك، ولكن أتخوف إخوتي لا يرضون بذلك. فأشار رجاء أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليُرضي بذلك بني مروان، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليّتك الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولاتختلفوا فيطمع فيكم عدوكم.

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة، فقال له: اجمع أهل بيتي فمرهم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً، فمن أبى منهم فاضرب عنقه. فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين، فقال لهم: هذا الكتاب عهدي إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه، فبايعوا رجلا رجلا.

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: أنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتى استعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة، فقلت: والله لا أخبرك حرفاً واحداً. قال: ولقيه هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة، فأخبرني هذا الأمر فإن كان إلي علمت، وإن كان إلى غيري تكلّمت، فما مثلي قُصِّر به عن هذا. فقلت: والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أُسِرُّ إليَّ.

قال رجاء: ودخلت على سليمان فإذا هو يموت، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة، فإذا أفاق يقول: لم يأن لذلك بعد يا رجاء، ففعلت ذلك مرتين فلما كانت الثالثة قال لي: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فحرفته إلى القبلة ومات رحمه الله. فغطيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه وأرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق، فقلت: بايعوا لمن في هذا الكتاب، فقالوا: قد بايعنا، فقلت: بايعوا ثانية، ففعلوا ثم قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات، وقرأت الكتاب

عليهم، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان، فلما قرأت: وإن يزيد بن عبد الملك من بعده، تراجعوا بعض الشيء. ونادى هشام: لا نبايعه أبداً، فقلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخر المسجد، فلما تحقق ذلك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه فأصعدوه على المنبر، فسكت حيناً، فقال رجاء بن حيوة: الا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعوه، فنهض القوم فبايعوه، ثم قام إليه هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول: إنا لله وإنا اليه راجعون، فقال عمر: نعم! إنا لله وإنا إليه راجعون الذي صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر. ثم قام فخطب الناس خطبة بليغةً وبايعوه، فكان مما قال في خطبته: أيها الناس، لست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن هم إطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال.

ثم نزل، فشرعوا في جهاز سليمان.

قال الأوزاعي: فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب، فصلى عمر بن عبد العزيز بالناس صلاة المغرب، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب، فلما انصرف عمر بن عبد العزيز أتي بمراكب الخلافة فلم يركبها وركب دابته ثم سار مع الناس حتى أتوا دمشق، فمالوا به نحو دار الخلافة فقال: لا أنزل إلا في منزلي حتى تفرغ دار أبي أيوب، فاستحسن ذلك منه، ثم استدعى بالكاتب فجعل يملي عليه نسخة الكتاب الذي يبايع عليه الأمصار، قال رجاء: فما رأيت أفصح منه.

قال محمد بن إسحاق: وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين، على رأس ستين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد، وكذا قال الجمهور في تاريخ وفاته، ومنهم من يقول: لعشر بقين من صفر، وقالوا: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، زاد بعضهم: إلا خمسة أيام والله أعلم.

وقول الحاكم أبي أحمد: إنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة تسع وتسعين، وكانت خلافته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة فقد حكاه ابن عساكر، وهو غريب جداً، وقد خالفه الجمهور في كل ما قاله، وعندهم أنه جاوز الأربعين فقيل: بثلاث وقيل بخمس والله أعلم.

قالوا: وكان طويلا جميلا أبيض نحيفاً، حسن الوجه، مقرون الحاجبين، وكان فصيحاً بليغاً، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله.

وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قرية من بلاد حلب - لما جهّز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت، فمات هنالك كما ذكرنا، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٤٢/٢٢] في ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلي ما مضمونه: أن مسلمة بن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية، وتتبع المسالك واستحوذ على أكثر ما هنالك من الممالك، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان يستنصره على مسلمة، ويقول له: إن هؤلاء القوم ليس لهم همة إلا في الدعوة إلى دينهم، الأقرب منهم فالأقرب، وإنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك، فمهما كنت صانعاً حينئذٍ فاصنعه الآن، فعند ذلك شرع لعنه الله في المكر والخديعة، فكتب إلى مسلمة يقول له: إن إليون كتب إلي يستنصرني عليك، وأنا معك فمرني بما شئت. فكتب اليه مسلمة: إني لا أريد منك رجالا ولا عدداً، ولكن أرسل إليّ بالميرة فقد قلّ ما عندنا من الأزواد.

فكتب اليه: إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها.

فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج اليه، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقاً هائلة، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة، فأقبلوا يشترون، واشتغلوا بذلك، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من الكمائن بين تلك الجبال التي هنالك، فخرجوا عليهم بغتة واحدة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وأسروا آخرين، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم، فإنا لله وإنا اليه راجعون.

فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان بن عبد الملك يخبره بما وقع من ذلك، فأرسل جيشاً كثيفاً صحبة شراحيل بن عبيدة هذا، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولا فيقاتلوا ملك البرجان، ثم يعودوا إلى مسلمة، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقطعوا إليهم تلك الخلجان، فاقتتلوا معهم قتالا شديداً، فهزمهم المسلمون بإذن الله، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً وخلصوا أسرى المسلمين، ثم تحيزوا إلى مسلمة بن عبد الملك فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم، ومن ضيق العيش، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أثابهم الله تعالى.

خلافة عمر بن عبد العزيز أشج بني مروان رضي الله عنه وأكرمه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين - وقيل: بقين من صفر من هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - يوم مات سليمان بن عبد الملك، عن عهد منه اليه من غير علم من عمر كما قدمنا، وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة، من أول حركة بدت منه، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة، ويقال: إنه خطب الناس فقال في خطبته:

أيها الناس، إن لي نفساً تواقة لا تعطى شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعلى منها، وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهو الجنة، فأعينوني عليها يرحمكم الله. وستأتي ترجمته عند وفاته إن شاء الله تعالى.

وكان مما بادر إليه عمر بن عبد العزيز في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم وهم محاصرو القسطنطينية، وقد اشتد عليهم الحال وضاق عليهم المجال، لأنهم عسكر كثير، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم. وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عتاق، يقال: خمسمائة فرس، ففرح الناس بذلك.

وفي هذه السنة أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين، فوجه إليهم عمرُ بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الأتراك، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وبعث منهم أسارى إلى عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة. وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله، لكثرة الأشغال، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك فالله أعلم.

فروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٣٨/١٢] في ترجمة حريز بن عثمان الرحبي الحمصي قال: رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة: السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة حي على الفلاح، الصلاة قد قاربت.

وفي هذه السنة عزل عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب عن إمرة العراق وبعث عدي بن أرطاة الفزاري على إمرة البصرة، فاستقضى عليها الحسن البصري، فاستعفاه فأعفاه، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور، وبعث على إمرة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه، واستقضى عليها عامراً الشعبي.

قال الواقدي: فلم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز.

وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى إمرة المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة، وعزل عن إمرة مصر عبد الملك بن رفاعة وولى عليها أيوب بن شرحبيل، وجعل الفتيا إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر، فهؤلاء الذين كانوا يفتون الناس، واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله المخزومي، وكان حسن السيرة، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن محمد بن الحنفية: تابعي جليل، يقال: إنه أول من تكلم في الإرجاء، وقد تقدم أن أبا عبيد قال: توفي في سنة خمس وتسعين. وذكر خليفة [طبقاته: ٥٩٩/٢] أنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وذكر شيخنا الذهبي في الأعلام [سير أعلام النبلاء: ١٣٠/٤٠، وعنده أنه توفي سنة مئة أو في التي قبلها نقلاً عن خليفة بن خياط] أنه توفي هذا العام، والله أعلم.

وفيها توفي

■ سليمان بن عبد الملك بن مروان كما تقدم.

■ عبد الله بن محيريز بن جنادة بن وهب: القرشي الجمحي المكي، نزيل بيت المقدس، تابعي جليل، روى عن زوج أمه أبي محذورة المؤذن، وعبادة بن الصامت، وأبي سعيد، ومعاوية، وغيرهم، وعنه خالد بن معدان، ومكحول، وحسان بن عطية، والزهري، وآخرون.

وقد وثقه غير واحد، وأثنى عليه جماعة من الأئمة، حتى قال رجاء بن حيوة: إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر، فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز.

وقال بعض ولده: كان يختم القرآن كل جمعة، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه.

قالوا: وكان صموتاً معتزلا للفتن، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يذكر شيئاً من خصاله المحمودة، ورأى على بعض الأمراء حلة من حرير فأنكر عليه، فقال: إنما ألبسها من أجل هؤلاء ـ وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ـ فقال له ابن محيريز: لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من الناس.

وقال الأوزاعي: من كان مقتديا فليقتد بمثله، فإن الله لا يضل أمة فيها مثله. قال بعضهم: توفي أيام الوليد.

وقال خليفة بن خياط [طبقاته: ٧٥٥/٢]: توفي أيام عمر بن عبد العزيز.

وذكر الذهبي في الأعلام [سير أعلام النبلاء: ٤٩٦/٤، وعنده أنه توفي في خلافة الوليد] أنه توفي في هذا العام، والله سبحانه أعلم.

دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشتري منه ثوباً فرفع في السوم، فقال له جاره: ويحك هذا ابن محيريز ضع له، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال: اذهب بنا، إنما جئت لنشتري بأموالنا لا بأدياننا، فذهب وتركه.

■ محمود بن لبيد بن عقبة: أبو نعيم الأنصاري الأشهلي المدني: ولد في حياة النبي ﷺ، وروى عنه أحاديث لكن حكمها الإرسال.

وقال البخاري [التاريخ الكبير: ٤٠٢/٧ لم يذكر أنَّ له صحبة]: له صحبة.

وقال ابن عبد البر [الاستيعاب: ١٣٧٩/٣]: هو أسنُّ من محمود بن الربيع.

قيل: إنه توفي في سنة ست وقيل: سبع وتسعين.

وذكر الذهبي في الأعلام [سير أعلام النبلاء: ٤٨٦/٣، وعنده أنه توفي سنة سبع وتسعين، أو ست وسبعين] أنه توفي في هذا العام أعني سنة تسع وتسعين والله أعلم باليقين.

■ نافع بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل القرشي النوفلي المدني، روى عن أبيه وعثمان وعلي والعباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم، وكان ثقة عابداً يحج ماشياً ومركوبه يقاد معه.

قال غير واحد: توفي سنة تسع وتسعين بالمدينة. والله اعلم.

■ كريب بن مسلم: مولى ابن عباس، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم، وكان عنده حمل كتب، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة.

■ محمد بن جبير بن مطعم: كان من علماء قريش وأشرافها، وله روايات كثيرة، توفي في المدينة، ودفن في البقيع.

■ محمد بن الربيع الأنصاري، أبو محمد: له روايات كثيرة، وكان يعقل مجة مجها النبي ﷺ في وجهه وعمره أربع سنين، توفي وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة.

■ مسلم بن يسار: أبو عبد الله البصري، الفقيه الزاهد، له روايات، كان لا يفضل عليه أحد في زمانه، وكان عابداً ورعاً زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع، وقيل: إنه وقع في داره حريق فأطفؤوه وهو في الصلاة لم يشعر به، وله مناقب كثيرة رحمه الله.

قلت: وانهدمت مرة ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لفي المسجد في صلاته فما التفت.

وقال ابنه: رأيته ساجداً وهو يقول: متى ألقاك وأنت عني راض؟ ثم يذهب في الدعاء، ثم يقول: متى ألقاك وأنت عني راض؟ وكان إذا كان في غير صلاة كأنه في الصلاة، وقد تقدمت ترجمته.

■ حنش بن عبد الله بن عمرو الصنعاني: كان والي إفريقية وبلاد المغرب، وبإفريقية توفي غازياً، وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة.

■ خارجة بن زيد بن الضحاك الأنصاري المدني الفقيه، كان يفتي بالمدينة، وكان من فقهائها المعدودين، كان عالما بالفرائض وتقسيم المواريث، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم.

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الإمام أحمد [١/٩٣]: حدثنا علي بن حفص أنبأنا ورقاء عن منصور عن المنهال بن عمرو عن نعيم بن دجاجة قال: دخل أبو مسعود على علي فقال: أنت القائل قال رسول الله ﷺ: «لا يَأتِي عَلَى النّاسِ مَائَةُ عَامٍ وعَلَى الأرضِ نَفْسٌ مَنفُوسَةٌ»؟ إنما قال رسول الله ﷺ: «لا يَأتِي عَلَى النّاسِ مَائَةُ عَامٍ وعَلَى الأرضِ نَفْسٌ مَنفُوسَةٌ مِمّنْ هُوَ حَيٌّ»، وإنّ رَخَاءَ هَذِهِ الأمّةِ بَعدَ المَائةِ. تفرد به أحمد.

وفي رواية [المسند: ١/١٤٠] لابنه عبد الله أن عليا قال له: يا فروخ أنت القائل: لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف؟ أخطأت استك الحفرة، إنما قال رسول الله ﷺ: «لا يأتي على الناس مائة سنة، وعلى الأرض عين تطرف ممن هو اليوم حيّ» وإنما رخاء هذه الأمة وفرجها بعد المئة. تفرد به وهكذا جاء في الصحيحين [خ(١١٦)، م(٢٥٣٧)] عن ابن عمر، فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك وإنما أراد انخرام قرنه.

وفيها خرجت خارجة من الحرورية بالعراق فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق، ويتلطف بهم، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا في الأرض، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً فكسرهم الحرورية، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم، فأظفره الله بهم، وقد أرسل عمر بن عبد العزيز إلى كبير الخوارج - وكان يقال له بسطام - يقول له: ما أخرجك علي؟ فإن كنت خرجت غضباً لله فأنا أحق بذلك منك، ولست أولى بذلك مني وهلم أناظرك، فإن رأيت حقاً اتبعته، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه.

فبعث طائفة من أصحابه إليه فاختار منهم عمر بن عبد العزيز رجلين فسألهما: ماذا تنقمون؟ فقالا: جعلك يزيد بن عبد الملك من بعدك، فقال: إني لم أجعله أبداً وإنما جعله غيري. قالا: فكيف ترضى به أميناً للأمة من بعدك؟ فقال: أنظرني ثلاثة، فيقال: إن بني أمية دست إليه سماً فقتلوه خشية أن يخرج الأمر من أيديهم ويمنعهم الأموال والله أعلم.

وفي هذه السنة غزا عمر بن الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، الصائفة.

وفيها ولى عمر بن عبد العزيز عمر بن هبيرة نيابة الجزيرة فسار إليها.

وفيها حمل يزيد بن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز من العراق، أرسله عدي بن أرطاة نائب البصرة وقد كان أظهر الامتناع مع موسى بن وجيه، وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته، ويقول: هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم، فلما دخل على عمر طالبه بما قبله من الأموال التي كان قد كتب إلى سليمان أنها حاصلة عنده، فقال: إنما كتبت بذلك لأرهب الأعداء بذلك، ولم يكن بيني وبين سليمان شيء، وقد عرفت مكانتي عنده فقال له عمر: لا أسمع منك هذا، ولست أطلقك حتى تؤدي أموال المسلمين، وأمر بسجنه.

وكان عمر قد بعث على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي عوضه، وقدم ولد يزيد بن المهلب، مخلد بن يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قد من على هذه الأمة بولايتك عليها، فلا نكونن أشقى الناس بك فعلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم بما تصالحني عنه؟ فقال عمر: لا أصالحك عنه إلا أن تقوم بجميع ما يطلب منه، ولا آخذ منه إلا جميع ما عنده من مال المسلمين. فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينة عليه بما تقول وإلا فاقبل يمينه أو فصالحني عنه، فقال: لا آخذ منه إلا جميع ما عنده. فخرج مخلد بن يزيد من عند عمر، فلم يلبث أن مات مخلد. فكان عمر يقول: هو خير من أبيه.

ثم إن عمر أمر بأن يلبس يزيد بن المهلب جبة من صوف ويركب على بعير إلى جزيرة دهلك التي كان ينفى إليها الفساق، فشفعوا فيه فرده إلى السجن، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه، فهرب من السجن وهو مريض، وعلم أنه يموت في مرضه ذلك، وبذلك كتب إليه كما سيأتي، وأظنه كان عالماً أن عمر قد سقي سماً.

وفي هذه السنة في رمضان منها عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان، بعد ستة وخمسة أشهر، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ويقول: أنتم إنما تسلمون فراراً منها. فامتنعوا من الاسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية.

فكتب إليه عمر: إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً، ولم يبعثه جابياً. وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري على الحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج.

وفيها كتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، ويبين لهم الحق ويوضحه لهم ويعظهم فيما بينه وبينهم، ويخوفهم بأس الله وانتقامه، وكان فيما كتبه إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيري:

أما بعد فكن عبداً لله ناصحاً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، ولا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم. وأداء الأمانة فيما استرعي، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

وكتب مثل ذلك مواعظ كثيرة إلى العمال.

وقال البخاري في صحيحه [كتاب الإيمان - باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»]: وكتب عمر إلى عدي بن عدي:

إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

وفي هذه السنة كان بدوّ دعوة بني العباس

وذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وكان مقيما بأرض الشراة - فبعث من جهته رجلا يقال له ميسرة، إلى العراق، وأرسل طائفة أخرى وهم محمد بن خُنيس وأبو عكرمة السراج، وهو أبو محمد الصادق، وحيان العطار - خال إبراهيم بن سلمة - إلى خراسان، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمي قبل أن يعزل في رمضان، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى ميسرة الذي بالعراق، فبعث بها إلى محمد بن علي ففرح بها واستبشر وسره، وكان مبادىء أمر قد كتب الله إتمامه، وأول رأي قد أحكم الله إبرامه، وذلك أن دولة بني أمية كان قد بان عليها مخايل الوهن والضعف، ولاسيما بعد موت عمر بن عبد العزيز، كما سيأتي بيانه. وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً، وهم سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن

كعب التيمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التيمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم - مولى لآل أبي معيط - ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زُريق الخزاعي، وعمرو بن أعين أبو حمزة - مولى لخزاعة - وشبل بن طهمان أبو علي الهروي - مولى لبني حنيفة - وعيسى بن أعين مولى لخزاعة أيضاً. واختار منهم سبعين رجلاً أيضاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرة يقتدون بها ويسيرون بها.

وقد حج بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، نائب المدينة.

والنواب على الأمصار هم المذكورون في التي قبلها، سوى من ذكرنا ممن عزل وتولى غيره والله أعلم.

ولم يحج عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته لشغله بالأمور، ولكنه كان يبرد البريد إلى المدينة فيقول له: سلم على رسول الله ﷺ عني، وسيأتي بإسناده إن شاء الله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ سالم بن أبي الجعد الأشجعي: مولاهم الكوفي. أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران ومسلم، وهو تابعي جليل، روى عن ثوبان وجابر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير وغيرهم. وعنه قتادة والأعمش وآخرون، وكان ثقة نبيلا جليلا توفي في هذه السنة على المشهور.

■ أبو أمامة بن سهل بن حنيف: الأنصاري الأوسي المدني، ولد في حياة النبي ﷺ، ورآه وحدث عن أبيه وعمر وعثمان وزيد بن ثابت ومعاوية وابن عباس. وعنه الزهري وأبو حازم وجماعة.

قال الزهري: كان من عِلْيَة الأنصار وعلمائهم، ومن أبناء الذين شهدوا بدراً.

وقال يوسف بن الماجشون عن عتبة بن مسلم، قال: آخر خرجة خرجها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الجمعة حصبه الناس وحالوا بينه وبين الصلاة، فصلى بالناس يومئذٍ أبو أمامة بن سهل بن حنيف.

قالوا: توفي سنة مائة والله أعلم.

■ أبو الزاهرية حدير بن كريب الحمصي تابعي جليل، سمع أبا أمامة صدي بن عجلان، وعبد الله بن بسر، ويقال إنه أدرك أبا الدرداء والصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسلة، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده، وقد وثقه ابن معين وغيره.

ومن أغرب ما روي عنه قول قتيبة: حدثنا شهاب بن خراش عن حميد بن أبي الزاهرية عن أبيه قال: أغفيت في صخرة بيت المقدس فجاءت السدنة فأغلقوا علي الباب، فما انتبهت إلا بتسبيح الملائكة فوثبت مذعوراً فإذا الملائكة صفوف، فدخلت معهم في الصف.

قال أبو عبيد وغيره: مات سنة مائة.

■ أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني، صحابي، وهو آخر من رأي النبي صلى الله عليه وسلم وفاة بالإجماع قال: روى عن النبي ﷺ أنه رآه يستلم الركن بمحجنه، وذكر صفة النبي ﷺ، وروى عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود، وحدث عنه الزهري وقتادة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين، وكان من أنصار علي بن أبي طالب، شهد معه حروبه كلها، لكن نقم بعضهم عليه كونهُ كان مع المختار بن أبي عبيد، ويقال: إنه كان حامل رايته، وقد روي أنه دخل على معاوية فقال له: ما أبقى لك الدهر من ثُكْلِك عليّاً؟ فقال: ثُكْلَ العجوز المقلاتِ والشيخ الرقوب، قال: كيف حبك له؟ قال حب أم موسى لموسى، وإلى الله أشكو التقصير.

قيل إنه أدرك من حياة النبي ﷺ ثمان سنين، ومات سنة مائة وقيل سنة سبع ومائة وقيل سنة عشر ومائة فالله أعلم.

قال مسلم بن الحجاج: وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً ومات سنة مائة.

■ أبو عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مل البصري، أدرك الجاهلية وحج في زمن الجاهلية مرتين، وأسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، وأدى في زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي ﷺ، ومثل هذا يسميه أئمة الحديث مخضرماً، وهاجر إلى المدينة في زمان عمر بن الخطاب، فسمع منه ومن علي وابن مسعود وخلق من الصحابة وصحب سلمان الفارسي ثنتي عشرة سنة حتى دفنه، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم، منهم أيوب، وحميد الطويل، وسليمان بن طرخان التيمي.

وقال عاصم الأحول: سمعته يقول: أدركت في الجاهلية يغوث صنماً من رصاص يحمل على جمل أجرد، فإذا بلغ واديا برك فيه فيقولون: قد رضي ربكم لكم هذا الوادي فينزلون فيه.

قال: وسمعته وقد قيل له: أدركت النبي ﷺ؟ فقال: نعم! أسلمت على عهده، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات، ولم ألقه، وشهدت اليرموك والقادسية وجلولاء ونهاوند وتُسْتَر وأذربيجان ورستم.

وقال غيره: كان البشير إلى عمر في فتح نهاوند.

قالوا: وكان أبو عثمان صواماً قوّاماً، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه، وكان يصلي حتى يغشى عليه، وحج ستين مرة ما بين حجة وعمرة.

قال سليمان التيمي: إني لأحسبه لا يصيب ذنباً، لأنه كان ليله قائماً ونهاره صائماً، وقال بعضهم: سمعت أبا عثمان النهدي يقول: أتت عليَّ ثلاثون ومائة سنة وما مني شيء إلا وقد أنكرته خلا أملي فإني أجده كما هو.

وقال ثابت البناني عن أبي عثمان. قال: إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل، قال فنقول له: من أين تعلم ذلك؟ فيقول: قال الله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فإذا ذكرت الله تعالى ذكرني.

قال: وكنا إذا دعونا الله قال: والله لقد استجاب الله لنا، قال الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

قالوا: وعاش مائة وثلاثين سنة، وقيل: وأربعين سنة قاله هشيم وغيره.

قال المدائني وغيره: توفي سنة مائة.

وقال الفلاس: توفي سنة خمس وتسعين. والصحيح سنة مائة والله أعلم.

وفيها توفي

■ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وكان يفضل على والده في العبادة والانقطاع عن الناس، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه.

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها كان هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز فواعد غلمانه يلقونه بالخيل في بعض الأماكن، وقيل: بإبل له، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية، فلما جاءه غلمانه ركب رواحله وسار، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز: إني والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك، ولو رجوت حياتك ما خرجت، ولكني خشيت من يزيد بن عبد الملك فإنه يتوعدني بالقتل، وكان يزيد بن عبد الملك يقول: لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة، وذلك أنه لما ولي العراق عاقبت أصهاره آل أبي عقيل، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان يزيد بن عبد الملك مزوّجاً ببنت محمد بن يوسف أخي الحجاج، وله منها ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول كما سيأتي.

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال: اللّهم إن كان يريد بهذه الأمة سوءاً فاكفهم شره واردد كيده في نحره.

ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بخناصرة، من دير سمعان بين حماة وحلب، في يوم الجمعة، وقيل في يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة - أعني سنة إحدى ومائة - عن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر فالله أعلم.

وكانت خلافته فيما ذكر غير واحد سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان حكماً مقسطاً، وإماماً عادلا ورعاً ديناً، لا تأخذه في الله لومة لائم رحمه الله تعالى.

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز الأموي الإمام المشهور رحمه الله وأكرم مثواه

هو

■ عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو حفص القرشي الأموي المعروف أمير المؤمنين، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ويقال له: أشج بني مروان، وكان يقال: الأشج والناقص أعدلا بني مروان. فهذا هو الأشج وسيأتي ذكر الناقص.

كان عمر تابعياً جليلا، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد، ويوسف بن عبد الله بن سلام، ويوسف صحابي صغير. وروى عن خلق من التابعين. وعنه جماعة من التابعين وغيرهم.

قال الإمام احمد بن حنبل: لا ارى قول احد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز.

بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك، عن عهد منه له بذلك كما تقدم، ويقال: كان مولده في سنة إحدى وستين، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما بمصر، قاله غير واحد.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٥/٣٣٠]: ولد سنة ثلاث وستين.

وقيل: سنة تسع وخمسين، فالله أعلم.

وكان له جماعة من الأخوة ولكن الذين هم من أبويه أبو بكر وعاصم ومحمد.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن بكير عن الليث. قال: بلغني أن عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة كان يحدث أن رجلا رأى في المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولي الخلافة شك أبو بكر - أن منادياً بين السماء والأرض ينادي: أتاكم اللّين والدين وإظهار العمل الصالح في المصلين، فقلت: ومن هو؟ فنزل فكتب في الأرض عمر.

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا ضمرة، حدثنا أبو علي ثروان مولى عمر بن عبد العزيز. قال: دخل عمر ابن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه وهو غلام فضربه فرس فشجه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد.

رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف عن ضمرة.

وقال نعيم بن حماد: حدثنا ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه فقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت، فبكت أمه. وكان قد جمع القرآن وهو صغير.

وقال الضحاك بن عثمان الحزامي. كان أبوه قد جعله عند صالح بن كيسان يؤدبه، فلما حج أبوه اجتاز به في المدينة فسأله عنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام. وروى يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ١/٥٦٨، ٥٦٩] أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً فقال صالح بن كيسان: ما شغلك؟ فقال: كانت مرجِّلتي تسكِّن شعري، فقال له: أقدّمتَ ذلك على الصلاة؟ وكتب إلى أبيه وهو على مصر يعلمه بذلك، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق رأسه.

وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه، فبلغ عبيد الله أن عمر يتنقص علياً، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلي، فجلس عمر ينتظره، فلما سلم أقبل على عمر مغضباً وقال له: متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟ قال: ففهمها عمر وقال: معذرة إلى الله ثم إليك، والله لا أعود، قال: فما سمع بعد ذلك يذكر عليا إلا بخير.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا أبي، حدثنا المفضل بن عبد الله عن داود بن أبي هند. قال: دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب - يعني باباً من أبواب مسجد النبي ﷺ - فقال رجل من القوم: بعث إلينا الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة، ويسير بسيرة عمر بن الخطاب. قال داود: فوالله ما مات حتى رأينا ذلك فيه.

قال الزبير بن بكار: حدثني العتبي قال: إن أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب، قال: إن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه، فأراد إخراجه معه، فقال: يا أبه أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك؟ قال: وما هو؟ قال: ترحّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بآدابهم، فوجّهه إلى المدينة، وأرسل معه الخدام، فقعد مع مشايخ قريش، وتجنب شبابهم، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

بِنْتُ الخَلِيفَةِ والخَلِيفَةُ جَدُّها ... أُخْتُ الخَلائِفِ والخَلِيفَةُ زَوجُها

قال: ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها.

قال العتبي: ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى

متابعته في النعمة، والاختيال في المشية، وقد قال الأحنف بن قيس: الكامل من عُدت هفواته ولا تعد إلا من قلة.

وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته ما لم يرثه غيره فيما نعلم، كما تقدم ذلك.

ودخل يوماً على عمه عبد الملك وهو يتجانف في مشيته فقال له: يا عمر مالك تمشي غير مشيتك؟ قال: إن في جُرحاً، فقال: وأين هو من جسدك؟ قال: بين الرانفة والصفن - يعني بين طرف الألية وجلدة الخصية - فقال عبد الملك لروح بن زنباع: بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب هذا الجواب.

قالوا: ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوماً، ولما وُلِّيَ الوليد عامله بما كان أبوه يعامله به، وولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين، وسنة تسعين، وحج بالناس الوليد سنة إحدى وتسعين، ثم حج بالناس عمر سنة ثنتين وثلاث وتسعين.

وبنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي ﷺ ووسعه عن أمر الوليد له بذلك، فدخل فيه قبر النبي ﷺ، وقد كان في هذه المدة من أحسن الناس معاشرة، وأعدلهم سيرة، كان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه، وقد عين عشرة منهم، وكان لا يقطع أمراً بدونهم أو من حضر منهم، وهم عروة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت.

وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب، وقد كان سعيد بن المسيب لا يأتي أحداً من الخلفاء، وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة.

قال ابن وهب، عن عبد الجبار الأيلي، عن إبراهيم بن أبي عبلة: قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره، وقد ندبهم عمر يومئذٍ رأياً.

وقال ابن وهب: حدثني الليث حدثني قادم البربري أنه ذاكر ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيئاً من قضايا عمر بن عبد العزيز إذ كان بالمدينة، قال: فقال له ربيعة: كأنك تقول: أخطأ، والذي نفسي بيده ما أخطأ قط. وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك. قال: ما صليت وراء إمام قط أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة [س(٩٨٠)].

قالوا: وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود.

وفي رواية صحيحة [د(٨٨٨)، س(١١٣٤)] أنه كان يسبح في الركوع والسجود عشراً عشراً.

وقال ابن وهب: حدثني الليث عن أبي النضر المديني، قال: لقيت سليمان بن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له: من عند عمر خرجت؟ قال: نعم! قلت: تعلّمونه؟ قال: نعم، فقلت: هو والله أعلمكم.

وقال مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه.

وقال ميمون بن مهران: كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة، وفي رواية قال ميمون: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء.

وقال الليث: حدثني رجل كان قد صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، قال: ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة.

وقال عبد الله بن طاوس: رأيت أبي تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا، فلما افترقا قلت: يا أبه من هذا الرجل؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز، وهو من صالحي هذا البيت - يعني بني أمية -.

وقال عبد الله بن كثير: قلت لعمر بن عبد العزيز: ما كان بدء إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي: اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

وقال الإمام مالك: لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة - يعني في سنة ثلاث وتسعين - وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه: يا مزاحم، أخشى أن نكون ممن نفت المدينة - يعني أن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد - وتنصع طيبها.

قلت: خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له السويداء حيناً، ثم قدم دمشق على بني عمه.

قال محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبي حكيم قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: خرجت من المدينة وما من رجل أعلم مني، فلما قدمت الشام نسيت.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن زيد عن معمر عن الزهري قال: سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته، فقال: كل ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيتُ.

وقال ابن وهب عن الليث عن عقيل عن الزهري قال قال عمر بن عبد العزيز: بعث إليّ الوليد ذات ساعة من الظهيرة، فدخلت عليه فإذا هو عابس، فأشار إليّ أن اجلس، فجلست بين يديه فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء أيقتل؟ فسكت، ثم عاد فسكت، ثم عاد فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن سب، فقلت: ينكّل به، فغضب وانصرف إلى أهله، وقال لي ابن الريان السياف: اذهب، قال: فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردني إليه.

وقال عثمان بن زفر: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال له سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها، ونعَبَ نعبة، فقال له سليمان: ما تقول في هذا ياعمر؟ فقال: لا أدري، فقال: ما ظنك أنه يقول قال: كأنه يقول: من أين جاءت وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: اعجب منى مَن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها.

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعرفة وجعل سليمان يعجب من كثرة الناس فقال له عمر: يا أمير المؤمنين: هؤلاء رعيتك اليوم وأنت مسئول عنهم غداً.

وفي رواية وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين.

وتقدم أنه لما أصابهم في بعض الأسفار رعد شديد وبرق وظلمة شديد فجعل عمر يضحك من ذلك فقال له سليمان: أتضحك ونحن فيما ترى؟ فقال: نعم هذه آثار رحمته ونحن في هذه الحال، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن في تلك الحال؟.

وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام: كذبت، فقال: تقول لي: كذبت؟ واللّه ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر، فلم يمكنه سليمان، ثم بعث إليه فصالحه وقال له: ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي.

وقد ذكرنا أنه لما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة أوصى بالأمر من بعده وإلى عمر بن عبد العزيز فانتظم الأمر على ذلك وللّه الحمد.

فصل وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد العزيز بن عبد اللّه بن أبي سلمة الماجشون حدثنا عبد اللّه بن دينار قال قال ابن عمر: يا عجباً!! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر، قال: فكانوا يرونه بلال بن عبد اللّه بن عمر، قال: وكان بوجهه أثر، فلم يكن هو، وإذا هو عمر بن عبد العزيز، وأمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهم.

وقال البيهقي: أنبأنا الحاكم أنبأنا أبو حامد أحمد بن علي المقري حدثنا أبو عيسى الترمذي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية بن أسماء عن نافع. قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلا بوجهه شَيْن يلي فيملأ الأرض عدلا.

قال نافع من قِبَله: ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز.

ورواه مبارك بن فضالة عن عبيد اللّه عن نافع. وقال: كان ابن عمر يقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا؟.

وقال وهيب بن الورد: بينما أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب بني شيبة وهو يقول: يا أيها الناس! ولي عليكم كتاب اللّه. فقلت: من؟ فأشار بيده إلى ظهره فإذا مكتوب عليه ع م ر، قال فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز.

وقال بقية عن عيسى بن أبي رزين حدثني الخزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول اللّه ﷺ في روضة خضراء فقال له: «إِنَّكَ سَتَلِي أَمْرَ أُمَّتِي فَزَغْ عَنِ الدَّمِ، فإن اسمَكَ في الناسِ عمر بن عبد العزيز، واسمك عند اللّه جابر».

وقال أبو بكر بن المقري: حدثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحراني حدثنا أيوب بن محمد الوزّان حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا السري بن يحيى عن رياح بن عبيدة. قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكىء على يده، فقلت في نفسي: إن هذا الشيخ جافٍ، فلما صلى ودخل لحقته فقلت: أصلح اللّه الأمير، من كان متكئاً الشيخ الذي أتكأته يدك؟ فقال: يا رياح رأيته؟ قلت: نعم! قال: ما أحسبك يا رياح إلا رجلا صالحاً، ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٥٧٨/١]: حدثنا أبو عمير حدثنا ضمرة عن علي بن أبي حملة عن أبي الأعيس. قال: كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد، فقال: هل علينا من عين؟ فقال أبو الأعيس: فقلت: عليكما من اللّه عين: بصيرة، وأذن سميعة، قال: فترقرقت عينا الفتى. فأرسل يده من يد خالد وولى، فقلت: من هذا؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخي أمير المؤمنين، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى.

قلت: قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شيء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم، وكان ينظر في النجوم والطب.

وقد ذكرنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة عزم أن يكتب العهد باسم أحد أولاده، فما زال به وزيره الصادق رجاء بن حيوة حتى صرفه عن ذلك، وأشار عليه أن يجعل الأمر من بعده لأصلح الناس لهم، فألهم اللّه الخليفة رشده فعيَّن لها ابن عمه عمر بن عبد العزيز فجوَّد رأيه رجاء بن حيوة وصوَّبه فكتب سليمان العهد من بعده لعمر بن عبد العزيز في صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة، ثم انصرفوا، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة، ثم فتحها فقرأها عليهم، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة.

وقد اختلف العلماء في مثل هذا الصنيع في الرجل يوصي الوصية في كتاب ويشهد على ما فيه من غير أن يقرأ على الشهود. ثم يشهدون على ما فيه فينفذ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم، قال القاضي أبو الفرج المعافي بن زكريا الجريري: أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز.

وروي ذلك عن سالم بن عبد اللّه. وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومي ومكحول، ونمير بن أوس وزرعة بن إبراهيم، والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، ومن وافقهم من فقهاء الشام.

وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه وقضاة جنده، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم.

ورُوي عن قتادة وعن سوار بن عبد اللّه وعبيد اللّه بن الحسين ومعاذ بن معاذ العنبري فيمن سلك سبيلهم، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه.

قلت: وقد اعتنى به البخاري في صحيحه.

قال المعافى: وأبى ذلك جماعة من فقهاء العراق، منهم إبراهيم وحماد والحسن، وهو مذهب الشافعي وأبي ثور، قال: وهو قول شيخنا أبي جعفر، وكان بعض أصحاب الشافعي بالعراق يذهب إلى القول الأول، قال الجريري: وإلى القول الأول نذهب.

وتقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان بن عبد الملك أتي بمراكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول: ـ

فَلَوْلا التُّقَى ثُمَّ النُّهَى خَشْيَةَ الرَّدَى ... لَعَاصَيْتُ في حُبِّ الصِّبَا كُلَّ زَاجِرِ
قَضَى مَا قَضَى فِيمَا مَضَى ثُمَّ لا تُرَى ... لَهُ صَبْوَةٌ أُخْرَى اللَّيَالِي الغَوَابِرِ

ثم قال: ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه. قدموا إلي بغلتي، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية فيمن يريد، وكانت من الخيول الجياد المثمنة، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال.

قالوا: فلما رجع من الجنازة وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه،

انقلب وهو مغتم مهموم، فقال له مولاه: مالك هكذا مغتماً مهموماً وليس هذا بوقت هذا؟ فقال: ويحك ومالي لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه، كتب إليّ في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب.

قالوا: ثم إنه خيَّر امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله.

وقال له رجل: تفرغ لنا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول:

قَدْ جَاءَ شُغْلٌ شَاغِلٌ　　وعَدَلْتُ عَن طُرقِ السَّلامَهْ

ذَهَبَ الفَراغُ فَلا فَرَاغَ　　لنا إلى يوم القيامَه

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فكان أول خطبة خطبها حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا. يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعرضن فيما لا يعنيه. فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله.

وقال سفيان بن عيينة: لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم: قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي، فما عندكم؟ فقال محمد بن كعب: اجعل الشيخ أباً، والشاب أخاً، والصغير ولداً، فبرَّ أباك وصل أخاك، وتعطف على ولدك.

وقال رجاء: ارض للناس ما ترضى لنفسك، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم، واعلم أنك أول خليفة تموت.

وقال سالم: اجعل الأمر يوماً واحداً صم فيه عن شهوات الدنيا، واجعل آخر فطرك فيه الموت فكأن قد. فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال غيره: خطب عمر بن عبد العزيز يوماً الناس فقال ـ وقد خنقته العبرة ـ: أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله لكم دنياكم، وأصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، والله إن عبداً ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات، إنه لمعرق له في الموت.

وقال في بعض خطبه: كم من عامر مؤنَّق عما قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن. فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس فيها قرير العين قانعاً، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلا وتحزن طويلا.

وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، وإني لست بقاض ولكني منفذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ألا إن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل.

وفي رواية أنه قال فيها: وإني لست بخير من أحد منكم، ولكني أثقلكم حملا، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا هل أسمعت؟.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني حدثنا محمد بن عبيد حدثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان حدثني ابن لسعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدىً، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه، وباع نافذاً بباق، وقليلا بكثير، وخوفاً بأمان ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم للباقين، كذلك حتى تُردُّ إلى خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء مراقبته ونزول الموت بكم، أما إني أقول هذا. ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكي وأبكى من حوله.

وفي رواية: وايم الله أني لأقول قولي هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة، أمر فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته، واستغفر الله، ووضع كمه على وجهه فبكى حتى بل لحيته، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول: «ادن يا عمر»، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه، فقال: «إذا وليت فاعمل نحواً من عمل هذين»، فإذا كهلان قد اكتنفاه، فقلت: ومن هذان؟ فقال: « هذا أبو بكر وهذا عمر».

ورويناً أنه قال لسالم بن عبد الله بن عمر: اكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها، فقال له سالم: إنك لا تستطيع ذلك، قال: ولم؟ قال: إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر، لأنه كان يجد على الخير أعواناً، وأنت لا تجد من يعينك على الخير.

وقد روى أنه كان نقش خاتمه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وفي رواية: آمنت بالله، وفي رواية الوفاء عزيز.

وقد جمع يوماً رؤوس الناس فخطبهم فقال: إن فدك كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك، قال الأصمعي: وما أدري ما قال في عثمان، قال: ثم إن مروان اقطعها فحصل لي منها نصيب، ووهبني الوليد وسليمان نصيبهما، ولم يكن من مالي شيء أرد علي منها، وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله ﷺ. قال: فيئس الناس عند ذلك من المظالم، ثم أخذ بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم، فاستشفعوا إليه بالناس، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه ولم يردُّه عن الحق شيء، وقال لهم: لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به، وقال: والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل، وإني لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم.

وقال الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال: إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز.

ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد.

وقال طاوس: هو مهدي وليس به، إنه لم يستكمل العدل كله، إذا كان المهدي رتيب على المسيء من إساءته، وزيد المحسن في إحسانه، سمح بالمال

شديد على العمال رحيم بالمساكين.

وقال مالك عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخلفاء أبو بكر والعمران، فقيل له: أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر؟ فقال: يوشك إن عشت أن تعرفه. يريد عمر بن عبد العزيز.

وفي رواية أخرى عنه أنه قال: هو أشج بني مروان. وقال عباد السماك وكان يجالس سفيان الثوري ـ: سمعت الثوري يقول: الخلفاء خمسة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز.

وهكذا روي عن أبي بكر بن عياش والشافعي وغير واحد.

وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين. وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح: «لا يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» [م:(١٨٢٢)] .

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل هو أو معاوية بن أبي سفيان؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدلته وزهده وعبادته، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته، حتى قال بعضهم: ليوم شهده معاوية من رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته.

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جواري زوجته فاطمة بنت عبد الملك، فكان يسألها إياها؛ إما بيعةً أو هبةً، فكانت تأبى عليه ذلك، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها له، فلما أخلتها به أعرض عنها، فتعرضت له فصدف عنها، فقالت: يا سيدي فأين ما كان يظهر لي من محبتك إياي؟ فقال: والله إن محبتك لباقية كما هي، ولكن لا حاجة لي في النساء، فقد جاءني أمر شغلني عنك وعن غيرك، ثم سألها عن أصلها ومن أين جلبوها، فقالت: يا أمير المؤمنين إن أبي أصاب جناية ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت في الجناية، وبعث بي إلى الوليد فوهبني الوليد لأخته فاطمة زوجتك، فأهدتني إليك. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، كدنا والله نفتضح ونهلك، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها.

وقالت زوجته فاطمة: دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور. والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت.

وقال ميمون بن مهران ولأني عمر بن عبد العزيز عمالة ثم قال لي: إذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض.

وكتب إلى بعض عماله: إذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك، ونفاد ما تأتي إليهم، وبقاء ما يأتون إليك.

وقال عبد الرحمن بن مهدي عن جرير بن حازم عن عيسى بن عاصم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإسلام سنناً وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أبينها لكم لتعملوا بها، وإن أمت فوالله ما أنا على صحبتكم بحريص. وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً مجزوماً به [كتاب الإيمان - باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»] .

وذكر الصولي أن عمر كتب إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله فإنها هي التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثاب إلا عليها، وإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.

وقال أيضا: من علم أن كلامه من عمله أقلَّ منه إلا فيما ينفعه، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير.

وقال أيضاً: من لم يعدَّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

وكلمه رجل يوماً حتى أغضبه فهم به عمر ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أردت أن يستفزّني الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله مني غداً؟ قم عافاك الله لا حاجة لنا في مقاولتك.

وكان يقول: إن أحب الأمور إلى الله القصد في الجد، والعفو في المقدرة، والرفق في الولاية، وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة.

وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم، فإذا مُرَيْئة تقول: إنه ابني وإنه يتيم، فقال لها عمر: هوني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا! قال: فاكتبوه في الذرية. فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟ فعل الله به وفعل، إنْ لم يشج ابنك ثانية. فقال: ويحك، إنه يتيم وقد أفزعتموه. وقال مالك بن دينار: يقولون مالك زاهد، أي زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة.

قالوا: ولم يكن له سوى قميص واحد فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس.

وقد وقف مرة على راهب فقال له: ويحك عظني، فقال له: عليك بقول الشاعر:

تَجَرَّدْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا خَرَجتَ إلى الدنيا وأنتَ مُجَرَّدُ

قالوا: ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهماً أو فلوساً يشتري له بها عنباً، فلم يجد عندها شيئاً، فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً؟ فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال، والأنكال غداً في نار جهنم.

قالوا: وكان سراج بيته على ثلاث قصبات في رأسهن طين.

قالوا: وبعث يوما غلامه ليشوي له لحمة فجاءه بها سريعاً مشوية، فقال: أين شويتها؟ قال: في المطبخ، فقال: في مطبخ المسلمين؟ قال: نعم. فقال: كلها فاني لم أرزقها، هي رزقك. وسخنوا له ماء في المطبخ، العام فرد بدل ذلك بدرهم حطباً. وقالت زوجته: ما جامع ولا احتلم وهو خليفة.

قالوا: وبلغ عمر بن عبد العزيز عن أبي سلام الأسود أنه يحدث عن ثوبان في الحوض فبعث إليه فأحضره على البريد وقال له كالمتوجع: ما أردنا المشقة عليك يا أبا سلام، ولكن أردت أن تشافهني بالحديث مشافهة، فقال: سمعت ثوبان يقول: قال رسول الله ﷺ: «حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنَ إلى

عَمّان البَلْقاء مَاؤُه أشدُّ بَياضاً مِن اللبن، وأحلَى مِن العَسَل، أكاويبُه عدد نُجُومُ السَّمَاء، مَن شَرِبَ مِنهُ شَرْبَةً لم يَظْمَأ بَعدَها أبَداً، وأول الناس وُرُوداً عليه فُقَراء المُهَاجرين، الشُّعثِ رُؤُوساً، الدُّنُسُ ثِياباً، الذين لا يَنكِحُون المتنعمات، ولا تفتح لهم السُّدَدُ». فقال عمر: لكني نكحت المتنعمات، فاطمة بنت عبد الملك، وفُتحت لي السُّدَد، فلا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا ألقي ثوبي حتى يتسخ.

قالوا: وكان له سراج يكتب عليه حوائجه، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً. وكان يقرأ في المصحف كل يوم أول النهار، ولا يطيل القراءة، وكان له ثلاثمائة شرطي، وثلاثمائة حرسي، وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً فاشتمه ثم رده مع الرسول، وقال له: قل له: قد بلغت محلّها، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية، وهذا رجل من أهل بيتك، فقال: إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية، فأما نحن فهي لنا رشوة.

قالوا: وكان يوسع على عماله في النفقة، يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار، ومائتي دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقالوا له: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم. وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً من قبل ذلك.

وقال يوماً لرجل من ولد علي: إني لأستحي من الله أن تقف ببابي ولا يؤذن لك، وقال لآخر منهم: إني لأستحي من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به.

وقال أيضاً: كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا، نلجأ إليهم ويلجؤون إلينا، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق، وأخرست كل منافق، وأسكتت كل ناطق.

وقال احمد بن مروان: حدثنا أبو بكر أخو خطاب حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بن زيد عن موسى بن أعين الراعي - وكان يرعى الغنم لمحمد بن أبي عيينة - قال: كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد، فعرض لشاة منها ذئب فقلت: إنا لله ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك. قال: فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة. ورواه غيره عن حماد فقال: كان يرعى الشاة بكرمان فذكر نحوه، وله شاهد من وجه آخر.

ومن دعائه: اللّهم إن رجالا أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم، اللّهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك، فوفقني.

ومنه: اللّهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر.

وقال له رجل: أبقاك اللّه ما كان البقاء خيراً لك، فقال: هذا شيء قد فرغ منه، ولكن قل: أحياك اللّه حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار.

وقال له رجل: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت بطيئاً بطيناً، متلوثاً بالخطايا، أتمنى على اللّه عز وجل.

ودخل عليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر:

وإذَا الـدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وُجُوهٍ		كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنُ وَجهِكَ زَيْنَا

قال: فأعرض عنه عمر.

وقال رجاء بن حيوة: سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فعشي السراج فقلت: ألا أنبه هذا الغلام يصلحه؟ فقال: لا! دعه ينام، لا أحب أن أجمع عليه عملين. فقلت: أفلا أقوم أصلحه؟ فقال: لا! ليس من مروؤة الرجل استخدام ضيفه، ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتاً ثم جاء وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجئت وأنا عمر بن عبد العزيز.

وقال: أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها.

وقال: إنه ليمنعني من كثرة الكلام مخافة المباهاه.

وبلغه أن رجلا من أصحابه توفي، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه، فقال: مه، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حفركم، وإنما سد حفرة نفسه، ألا وإن لكل امرئ منكم حفرة لابد واللّه أن يسدها، إن اللّه عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار حبرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتى يكون اللّه هو الذي يرث الأرض ومن عليها، فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم كلكم يصير إليه غداً.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر إلى القبور فقال لي: يا أبا أيوب! هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد خلت فيهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء؟ ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلقوا بنا فواللّه لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب اللّه عز وجل، ينتظر ثواب اللّه.

وقال غيره: خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة فلما دفنت قال لأصحابه: قفوا حتى آتي قبور الأحبة، فأتاهم فجعل يبكي ويدعو، إذ هتف به التراب فقال: يا عمر ألا تسألني ما فعلت في الأحبة؟ قال: قلت: وما فعلت بهم؟ قال: مزقت الأكفان، وأكلت اللحوم، وشدخت المقلتين، وأكلت الحدقتين، ونزعت الكفين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من المنكبين والمنكبين من الصلب، والقدمين من الساقين، والساقين من الفخذين، والفخذين من الورك، والورك من الصلب. وعمر يبكي فلما أراد أن يذهب قال له: يا عمر ألا أدلك على أكفان لا تبلى؟ قال: وما هي؟ قال: تقوى اللّه والعمل الصالح.

وقال مرة لرجل من جلسائه: لقد أرقت الليلة مفكراً، قال: وفيم يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثالثةٍ في قبره، وما صار إليه، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه وتخترقه الديدان الصديد، مع تغير الريح، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقاء الثوب، قال:: ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه.

وقال مقاتل بن حيان: صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] فجعل يكررها وما يستطيع أن يجاوزها.

وقالت امرأته فاطمة: ما رأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه، ولا أحداً أشد فَرقا من ربه منه، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عينه، قالت: ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف رحمة له، وأنا أقول: يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين، فواللّه ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها.

وقال علي بن زيد: ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز.

وقال بعضهم: رأيته يبكي حتى بكى دماً.

قالوا: وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية، ويقرأ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] ونحو هذه الآيات، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة.

وقال أبو بكر الصولي عن المبرد: كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ ... سِوى حَنوطٍ غَداةَ البَيْنِ في خِرَقِ

وغَيرَ نَفحَةِ أعوادٍ تُشَبُّ لَهُ ... وقَلَّ ذلكَ مِن زادٍ لِمُنطَلِقِ

بأيِّما بَلَدٍ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ ... إن لا يَسِرْ طَائِعاً في قَصدِها يُسَقِ

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل فبكى وأنشد:

مَنْ كَانَ حِينَ تُصِيبُ الشمسُ جَبْهَتَهُ ... أو الغبارُ يَخَافُ الشَّينَ والشَّعَثَا

ويَألَفُ الظِلَّ كَي تَبقَى بَشاشَتُهُ ... فَسَوفَ يَسكُنُ يَوماً رَاغِماً جَدَثَا

في قَعرِ مُظلِمةٍ غَبرَاءَ مُوحِشَةٍ ... يُطِيلُ في قَعرِها تَحتَ الثَّرَى لُبثَا

تَجَهَّزِي بِجَهَازٍ تَبْلُغِينَ بِهِ ... يا نفسُ قبلَ الرَّدَى لَم تُخلَقِي عَبَثَا

هذه الأبيات ذكرها الآجري في أدب النفوس بزيادة فيها فقال: أخبرنا أبوبكر أنبأنا أبو حفص عمر بن سعد القراطيسي حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا حدثني محمد بن صالح القرشي أخبرني عمر بن الخطاب الأزدي حدثني ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبي عمرة قال: أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى اليون طاغية الروم يدعوه إلى الاسلام، فقال له عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين! ائذن لي في بعض بني يخرج معي ـ وكان عبد الأعلى له عشرة من الذكور ـ فقال له: انظر من يخرج معك من ولدك. فقال: عبد الله، فقال له عمر: إني رأيت ابنك عبد الله يمشي مشية كرهتها منه ومقته عليها، وبلغني أنه يقول الشعر. فقال عبد الأعلى: أما مشيته تلك فغريزة فيه، وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح بها على نفسه، فقال له: مر عبد الله يأتيني وخذ معك غيره، فراح عبد الاعلى بابنه عبد الله إليه، فاستنشده فأنشده ذلك الشعر المتقدم:

تجهزي بجهازٍ تبلغين به ... يا نفسُ قبلَ الرَّدى لمْ تخلقي عبثا

ولا تكدي لمن يبقي وتفتقري ... إنَّ الردى وارثُ الباقي وما ورثا

واخشي حوادثَ صرفِ الدهرِ في مهلٍ ... واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا

عنْ مديةٍ كان فيها قطعُ مدتهِ ... فوافتِ الحرثَ موفورا كما حرثا

لا تأمني فجعَ دهرٍ مترفٍ ختلٍ ... قد استوى عندهُ منْ طابَ أو خبثا

يا ربَّ ذي أملٍ فيهِ على وجلٍ ... أضحى به آمنا أمسى وقدْ حدثا

منْ كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتَهُ ... أو الغبارُ يخافُ الشينَ والشعثا

ويألفُ الظلَّ كي تبقي بشاشتهُ ... فكيفَ يسكنُ يوماً راغماً جدثا

قفراءَ موحشةً غبراءَ مظلمةً ... يطيلُ تحتَ الثرى مِنْ قعرها اللبثا

وقد ذكرها ابن أبي الدنيا فعمر أنشدها عنه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكان عمر يتمثل بها كثيراً ويبكي.

وقال المفضل بن غسان الغلابي: كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت:

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكن لهُ ... منَ اللهِ في دارِ القرارِ نصيبُ

وزاد غيره معه بيتاً حسناً وهو قوله:

فإن تُعجبُ الدنيا أناساً فإنها ... متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريبُ

ومن شعره الذي أنشده ابن الجوزي:

أنا ميتٌ وعزَّ منْ لا يموتُ ... قدْ تيقنتُ أنني سأموتُ

ليسَ ملكٌ يزيلهُ الموتُ ملكاً ... إنما الملكُ ملكُ منْ لا يموتُ

وقال عبد الله بن المبارك: كان عمر بن عبد العزيز يقول:

تسرُّ بما يبلى وتفرحُ بالمنى ... كما اغترَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ

وسعيكَ فيما سوفَ تكرهُ غبهُ ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وقال محمد بن كثير: قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه ويعاتبها:

أيقظانُ أنتَ اليومَ أمْ أنتَ نائمُ ... وكيفَ يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ

فلو كنتَ يقظانَ الغداةَ لحرّقتْ ... مدامعُ عينيكَ الدموعُ السواجمُ

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ ... وليلك نوح والرَّدى لك لازمُ

بل اصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنتْ ... إليكَ أمورٌ مفظعاتٌ عظائمُ

وشغلك فيما سوفَ تكرهُ غبه ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

فلا أنتَ في النوامِ يوماً بسالمٍ ... ولا أنت في الأيقاظِ يقظانُ حازمُ

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت: اتيت عمر بن عبد العزيز ذات ليلة وهو يقول: لقد رأيت الليلة رؤيا معجبة، فقلت: أخبرني بها، فقال: حتى نصبح، فلما صلى الصبح بالمسلمين دخل فسألته عنها: فقال: رأيت كأني دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة فخرج منه خارج فنادى: أين محمد بن عبد الله، أين رسول الله ﷺ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ، حتى دخل ذلك القصر، ثم خرج آخر فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى: أين عمر الخطاب؟ فأقبل فدخل. ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فأقبل فدخل، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن عبد العزيز؟ فقمت فدخلت فجلست إلى جانب أبي عمر بن الخطاب، وهو عن يسار رسول الله ﷺ، وأبو بكر عن يمينه، وبينه وبين رسول الله ﷺ رجل، فقلت لأبي: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم، ثم سمعت هاتفاً يهتف بيني وبينه نور لا أراه، وهو يقول: يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه، واثبت على ما أنت عليه، قال: ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت، فالتفت فإذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني ربي، وإذا علي في إثره وهو يقول: الحمد لله الذي غفر لي ربي.

مجدِّدُ القرنِ الأول

وقد ذكرنا في دلائل النبوة الحديث الذي رواه أبو داود في سننه [٤٢٩١] أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ يَبعَثُ لِهَذِه الأمةِ عَلَى رَأسِ كلِ مَائة سَنةٍ مَن يُجَدِّد لَها أمرَ دِينِهَا».

فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزي [صفة الصفوة: ١١٣/٢] وغيره: إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى.

وقال آخرون: هو من جملة من جدّد الله به أمرَ الدين على رأس المئة الأولى وإن كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق، لإمامته وعموم ولايته، وقيامه واجتهاده وقيامه في تنفيذ الحق، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان كثيراً ما يتشبّه به. وقد جمع الشيخ أبو الفرج بن الجوزي سيرة العمرين؛ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب في مجلد على حدة، ومسنده في مجلد ضخم، وأما سيرة عمر بن عبد العزيز فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا، يستدل به على ما لم نذكره.

وقد كان عمر رحمه الله يعطي من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها، للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن، في كل عام من بيت المال مائة دينار، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا الناس بالسنة، ويقول: إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله، وكتب إلى سائر البلاد أن لا يركب ذمي من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج، ولا يلبس قباءً ولا طيلساناً ولا السراويل، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنار من جلد، وهو مقرون الناصية، ومن وجد منهم في منزله سلاح أخذ منه.

وكتب أيضاً أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عندهم خير.

وكان يكتب إلى عماله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً.

وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع بها قلبه، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ.

وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة، وقد كتب إليه الحسن البصري بمواعظ حسان ولو تقصينا ذلك لطال هذا الفصل، ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك.

وكتب إلى بعض عماله: أما بعد: فإني أذكرك ليلة تمخض بالساعة وصباحها القيامة، فيا لها من ليلة ويا له من صباح، وكان يوماً على الكافرين عسيراً.

وكتب إلى آخر: أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك، وانقطاع الرجاء منك، قالوا: فخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له: ما لك؟ فقال: خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين، والله لا أعود إلى ولاية أبداً.

فصل

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا، حتى إنه رد فص خاتم كان في يده، قال: أعطانيه الوليد من غير حقه، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملبس والمأكل والمتاع، حتى إنه ترك التمتع بزوجته الحسناء فاطمة بنت عبد الملك، يقال كانت من أحسن النساء، ويقال إنه رد جهازها وما كان من أموالها إلى بيت المال، والله أعلم.

وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار في كل سنة وكان حاصله في خلافته ثلاثمائة درهم، وكان له من الأولاد جماعة، وكان ابنه عبد الملك أجلهم، فمات في حياته في زمن خلافته، حتى يقال: إنه كان خيراً من أبيه، فلما مات لم يظهر عليه حزن، وقال: أمر رضيه الله فلا أكرهه، وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول: ما أحسنه لولا خشونة فيه، فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جداً، ويقول: ما أحسنه لولا لينه. وكان يلبس الفروة الغليظة.

وكان سراجه على ثلاث قصبات في رأسهن طين، ولم يبن شيئاً في أيام ولايته، وكان يخدم نفسه بنفسه، وقال: ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه.

وكان يأكل الغليظ من الطعام أيضاً ولا يبالي بشيء من النعيم، ولا يتبعه نفسه ولا يوده. حتى قال أبو سليمان الداراني: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون؟ ليس من جرب كمن لم يجرب.

وتقدم قول مالك بن دينار: الناس يقولون مالك زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فردّها.

وقال عبد الله بن دينار: لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً.

وذكروا أنه أمر جارية تروحه حتى ينام فروحته، فنامت هي، فأخذ المروحة من يدها وجعل يروحها ويقول: أصابك من الحر ما أصابني.

وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً.

ويقال: إنه كان يلبس تحت ثيابه مسحاً غليظاً من شعر، ويضع في رقبته غلا إذا قام يصلي من الليل، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد، وكانوا يظنونه مالا أو جوهراً من حرصه عليه، فلما مات فتحوا ذلك المكان فإذا فيه غل ومسح.

وكان يبكي حتى بكي الدمّ مع الدموع، ويقال: إنه بكى فوق سطح حتى سال دمعه من الميزاب، وكان يأكل من العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته.

وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله، وقرأ رجل عنده ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى بكاءً شديداً ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه، وكان يكثر أن يقول: اللّهم سلم سلم.

وكان يقول: اللّهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد ﷺ، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ.

وقال: أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم.

وقال: لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة.

وقال: الدنيا عدوة أولياء الله، وولية أعداء الله، أما الأولياء فغمتهم

وأحزنتهم، وأما الأعداء فغرتهم وشتّتهم وأبعدتهم عن اللَّه.

وقال: قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع.

وقال لرجل: من سيد قومك؟ قال: أنا، قال: لو كنت كذلك لم تقله.

وقال: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب.

وقال لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها من الدعاء، أعطي أو منع.

وقال: قيدوا العلم بالكتاب.

وقال لرجل: علم ولدك الفقه الأكبر: القناعة وكف الأذى.

وتكلم رجل عنده فأحسن فقال: هذا هو السحر الحلال. وقصته مع أبي حازم مطولة حين رآه خليفة وقد شحب وجهه من التقشف، وتغير حاله، فقال له: ألم يكن ثوبك نقياً؟ ووجهك وضياً؟ وطعامك شهياً؟ ومركبك وطياً؟ فقال له: ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنَّ مِنْ وَرَائِكُم عَقَبَةً كَؤُوداً لا يَجُوزُها إلا كل ضَامِرٍ مهزول»؟ ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فذكر أنه رأى في غشيته تلك أن القيامة قد قامت، وقد استدعي بكل من الخلفاء الأربعة، فأمر بهم إلى الجنة، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم، ثم دعي هو فأمر به إلى الجنة، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره، ثم قال للسائل: فمن أنت؟ قال: أنا الحجاج بن يوسف، قتلني ربي بكلّ قتلة قتلة، ثم ها أنا أنتظر ما ينتظره الموحدون.

وفضائله ومآثره كثيرة جدا، وفيما ذكرنا كفاية ولله الحمد والمنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة لنا إلا به.

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل، وقيل: سببها أن مولى له سمّه في طعام أو شراب، وأعطي على ذلك ألف دينار، فحصل له بسبب ذلك مرض، فأخبر أنه مسموم، فقال: لقد علمت يوم سقيت السّم، ثم استدعى مولاه الذي سقاه، فقال له: ويحك!! ما حملك على ما صنعت؟ فقال: ألف دينار أعطيتها. فقال: هاتها، فأحضرها فوضعها في بيت المال، ثم قال له: اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك. ثم قيل لعمر: تدارك نفسك، فقال: والله لو أن شفائي أن أمسح شحمة أذني أو أوتي بطيب فأشمه ما فعلت.

فقيل له: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الذي نَزَّلَ الكِتَابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] والله لا أعطيهم حق أحد وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه.

وفي رواية فلا أبالي في أي واد هلك.

وفي رواية أفأدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟ ما كنت لأفعل. ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم. قال: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم من الأموال الفانية، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٦٠٨/١]: حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتاً دفنت في القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فقال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب، إلا النار فإنه لا صبر لي عليها، أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل.

قالوا: وكان مرضه بدير سمعان من قرى حمص وكانت مدة مرضه عشرين يوماً، ولما احتضر قال: أجلسوني. فأجلسوه فقال: إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت. ثلاثاً، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر، فقالوا: إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين، فقال: إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جان. ثم قبض من ساعته.

وفي رواية أنه قال لأهله: اخرجوا عني، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ ﴿تِلْكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا للذينَ لا يُريدُون عُلُوّاً في الأرض ولا فَسَاداً والعَاقِبَةُ للمُتَّقِين﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غُمِّض وسوِّي إلى القبلة وقبض.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن الدراوردي عن عبد العزيز بن أبي سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب فقرؤوها فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار. فأدخلوها بين أكفانه ودفنوها معه.

وروي نحو هذا من وجه آخر.

وروى ابن عساكر في ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده عن عمير بن الحباب السلمي، قال: أسرت أنا وثمانية في زمان بني أمية، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا، فقتل أصحابي وشفع في بطريق من بطارقة الملك، فاطلقني له، فأخذني إلى منزله، وإذا له ابنة مثل الشمس، فعرضها علي وعلى أن يقاسمني نعمته، وأدخل معه في دينه فأبيت، وخلت بي ابنته فعرضت نفسها علي فامتنعت، فقالت: ما يمنعك من ذلك؟ فقلت: يمنعني ديني، فلا أترك ديني لامرأة ولا لشيء. فقالت: تريد الذهاب إلى بلادك؟ قلت: نعم، فقالت: سر على هذا النجم بالليل واكمن بالنهار فإنه يلقيك إلى بلادك، قال: فسرت كذلك، قال: فبينا أنا في اليوم الرابع مكمن وإذا بخيل مقبلة فخشيت أن تكون في طلبي، فإذا أنا بأصحابي الذين قتلوا ومعهم آخرون على دواب شهب، فقالوا: عمير؟ فقلت: عمير. فقلت: أو ليس قد قتلتم؟ قالوا: بلى، ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز، قال: ثم قال لي بعضهم: ناولني يدك يا عمير، فأردفني فسرنا يسيراً ثم قذف بي قذفة وقعت قرب منزلي بالجزيرة، من غير أن يكون لحقني شر.

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلي أن أغسله وأكفنه وأدفنه، فإذا حللت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه، قال: فلما فعلت ذلك فإذا وجهه مثل القراطيس بياضاً، وكان قد أخبرني أنه دفن ثلاثة من الخلفاء فيحلّ عن وجوههم فإذا هي مسودة. وروى ابن عساكر في ترجمة يوسف بن ماهك قال: بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار.

ساقه من طريق إبراهيم بن بشار عن عباد بن عمرو عن محمد بن يزيد البصري عن يوسف بن ماهك فذكره، وفيه غرابة شديدة والله أعلم.

وقد رثيت له منامات صالحة، وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء والزهاد والعباد. ورثاه الشعراء، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيباني لكثير عزة يرثي عمر بن عبد العزيز:

عمّت صنائعهُ فعمّ هلاكُهُ ... فالناسُ فيه كلهمْ مأجورُ
والناسُ مأتمهمْ عليه واحد ... في كلِّ دار رنةٌ وزفيرُ
يثني عليكَ لسانُ مَنْ لم توله ... خيراً لأنكَ بالثناء جديرُ
ردّت صنائعهُ عليه حياتَهُ ... فكأنهُ من نشرها منشورُ

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

ينعى النعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا ... يا خيرَ منْ حج بيتَ اللهِ واعتمرا
حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاضطلعتَ بهِ ... وقمتَ فيه بأمر اللهِ يا عمرا
الشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكي عليكَ نجومُ الليل والقمرا

وقال محارب بن دثار رحمه الله يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

لو أعظم الموتَ خلقاً أن يواقعهُ ... لعدله لم يصبكَ الموتُ يا عُمرُ
كم منْ شريعةِ عدلٍ قد نعشتَ لهمْ ... كادت تموتُ وأخرى منكَ تنتظرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدينَ معي ... على العدولِ التي تغتالها الحفرَ
ثلاثةٌ ما رأتْ عيني لهم شبهاً ... تضُم أعظمهم في المسجدِ الحفرُ
وأنتَ تتبعهمَ لمْ تألُ مجتهداً ... سقياً لها سننٌ بالحقِّ تقتفرُ
لوْ كنتُ أملكُ والأقدارُ غالبةٌ ... تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكرُ
صرفتُ عنْ عمرَ الخيراتِ مصرعهُ ... بديرِ سمعانَ لكن يغلبُ القدرُ

قالوا: وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص، يوم الخميس، وقيل: الجمعة لخمس مضين، وقيل: بقين من رجب، وقيل: لعشر بقين منه، سنة إحدى وقيل: ثنتين ومائة والله أعلم.

وقال الهيثم بن عدي في جمادى سنة ثنتين ومائة وصلى عليه ابن عمه مسلمة بن عبد الملك، وقيل: صلى عليه يزيد بن عبد الملك، وقيل: ابنه عبد العزيز بن عمرو بن عبد العزيز، وكان عمره يوم مات تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً، وقيل: إنه جاوز الأربعين بأشهر، وقيل: بسنة. وقيل بأكثر، وقيل إنما عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: ستاً وثلاثين، وقيل سبعاً وثلاثين، وقيل ثمانياً وثلاثين سنة، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها.

وقال أحمد عن عبد الرزاق عن معمر: مات عمر على رأس خمس وأربعين سنة.

قال ابن عساكر: وهذا وهم، والصحيح الأول يعني تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وقيل: وأربعة عشر يوماً، وقيل: سنتان ونصف.

وكان رحمه الله أسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين، بجبهته أثر شجة وكان قد شاب وخضب رحمه الله، والله سبحانه أعلم.

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز، فلما توفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله في رجب من هذه السنة - أعني سنة إحدى ومائة - بايعه الناس البيعة العامة، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة، فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، فجرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات وضغائن، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحده حدين فيها.

وفيها كانت وقعة بين الخوارج، وهم أصحاب بسطام الخارجي، وبين جند الكوفة، وكانت الخوارج جماعة قليلة، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس، فكادت الخوارج أن تكسرهم، فتذامروا فيما بينهم فطحنوا الخوارج طحناً عظيماً، وقتلوهم عن آخرهم، فلم يبقوا منهم ثائراً.

وفي هذه السنة خرج يزيد بن المهلب فخلع يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة، وذلك بعد محاصرة طويلة، وقتال طويل، فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها، وبذل الأموال، وحبس عاملها عدي بن أرطاة، لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة، حين هرب يزيد بن المهلب من محبس عمر بن عبد العزيز، كما ذكرنا، ولما ظهر على قصر الإمارة أتى بعدي بن أرطاة فدخل عليه وهو يضحك، فقال يزيد بن المهلب: إني لأعجب من ضحكك، إنك هربت من القتال كما تهرب النساء، وإنك جئتني وأنت تتل كما يتل العبد. فقال له عدي: إني لأضحك لأن بقاني بقاء لك وإن من ورائي طالباً لا يتركني، قال: ومن هو؟ قال: جنود بني أمية بالشام ولا يتركونك، فدارك نفسك قبل أن يرمي إليك البحر بأمواجه، فتطلب الإقالة فلا تقال. فرد عليه يزيد جواب ما قال، ثم سجنه كما سجن أهله، واستقر أمر يزيد بن المهلب بالبصرة، وبعث نوابه في النواحي والجهات واستناب في الأهواز، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان، ومعه جماعة من المقاتلة، فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف، مقدمة بين يدي عمه مسلمة بن عبد الملك، وهو في جنود الشام، قاصدين البصرة لقتاله، ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مروان بن المهلب وجاء حتى نزل واسطاً فنزلها، واستشار من معه من الأمراء في ماذا يعتمده؟ فاختلفوا عليه في الرأي، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز في ليتحصن في رؤوس الجبال، فقال: إنما تريدون أن تجعلوني طائراً في رأس جبل؟ وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها ويتحصن بأجود حصن فيها ويُعض عليه رجال أهل العراق ويجتمع عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام، وانسلخت هذه السنة ويزيد بن المهلب نازل بواسط وجيش الشام قاصده.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعلى قضائها عامر الشعبي، وعلى البصرة يزيد بن المهلب. قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك.

وفيها توفي عمر بن عبد العزيز، وربعي بن حراش ومسلم بن يسار وأبو صالح السمان وكان عابداً صادقاً ثبتاً، وكل قد ترجمناه في كتابنا التكميل والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

ففيها كان اجتماع مسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من واسط واستخلف عليها ابنه معاوية، وسار هو في جيش، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب، حتى بلغ مكانا يقال له العقر، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك في جنود لا قبل ليزيد بها، وقد التقت المقدمتان أولا فاقتتلوا قتالا شديداً، فهزم أهل البصرة أهل الشام، ثم تذامر أهل الشام فحملوا على أهل البصرة فكشفوهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان، منهم المنتوف، وكان شجاعا مشهورا، وكان من موالي بكر بن وائل، فقال في ذلك الفرزدق:

تبكّي على المنتوف بكر بن وائل وتنهى عن ابني مسمع من بكاهما

فأجابه الجعد بن درهم مولى الثوريين من همدان، وهذا الرجل هو أول الجهمية، وهو الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى فقال الجعد

نبكّي على المنتوف في نصر قومه ولسنا نبكّي الشائدَيْن أباهما
أراد فناء الحي بكر بن وائل فعزُّ تميم لو أصيب فناهما
فلا لقيا روحاً من الله ساعة ولا رقأت عينا شجي بكاهما
أفي الغشِّ نبكي إن بكينا عليهما وقد لقيا بالغشِّ فينا رداهما

ولما اقترب مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب، خطب يزيد بن المهلب الناس فحرضهم على القتال - يعني قتال أهل الشام - وكان مع يزيد نحو من مائة ألف، وعشرين ألفا، قد بايعوه على السمع والطاعة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى أن لا تطأ الجنود بلادهم، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن خالفنا قاتلناه.

وكان الحسن البصري في هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة، وينهاهم أشد النهي، وذلك لما وقع من الشر الطويل العريض في أيام ابن الأشعث، وما قتل بسبب ذلك من النفوس العديدة، وجعل الحسن يخطب الناس ويعظهم في ذلك، ويحرضهم على الكف، فبلغ ذلك نائب البصرة مروان بن المهلب، فقام في الناس خطيبا فأمرهم بالجد والجهاد والنفير إلى القتال، ثم قال: ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يسمه - يثبط الناس عنا، أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولأفعلن، وتوعد الحسن، فلما بلغ الحسن قوله قال: أما والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه، فسلمه الله منه حتى زالت دولتهم، وذلك أن الجيوش لما تواجهت تبارز الناس قليلا، ولم تنشب الحرب شديداً فلم يثبت أهل العراق حتى فرُّوا سريعاً، وبلغهم أن الجسر الذي جاؤوا عليه قد حرق فانهزموا، فقال يزيد بن المهلب: ما بال الناس؟ ولم يكن من الأمر ما يفر من مثله، فقيل له: إنه بلغهم أن الجسر الذي جاؤوا عليه قد حرق. فقال: قبحهم الله، ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ذلك، فثبت في عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي في شرذمة منهم قليلة، وهو مع ذلك يسير قدما لا يمر بخيل إلا هزمهم، وأهل الشام يتحازون عنه يمينا وشمالا، وقد قتل قبله أخوه حبيب بن المهلب، فازداد حنقا وغضباً، وهو على فرس له أشهب، ثم قصد نحو مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره، فلما واجهه حملت عليه خيول الشام فقتلوه، وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب، وقتلوا السميدع، وكان من الشجعان، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب رجل يقال له القحل بن عياش، فقتل إلى جانب يزيد بن المهلب، وجاؤوا برأس يزيد بن المهلب إلى مسلمة بن عبد الملك، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان، واستحوذ مسلمة بن عبد الملك على ما في معسكر يزيد بن المهلب، وأسر منهم نحواً من ثلاثمائة، فبعث بهم إلى الكوفة، وبعث إلى أخيه فيهم، فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين بقتلهم، وسار مسلمة فنزل الحيرة.

ولما انتهت هزيمة يزيد بن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيراً في يده فقتلهم، منهم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، عدي بن أرطاة رحمه الله وابنه، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع، وجماعة من الأشراف، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال، وجاء معه عمه المفضل بن المهلب إليه، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أتم الجهاز واستعدوا للهرب، فساروا بعيالهم وأثقالهم فلم يزالوا سائرين حتى أتوا جبال كرمان فنزلوها، واجتمع عليهم جماعة ممن فل من الجيش الذي كان مع يزيد بن المهلب، وقد أمروا عليهم المفضل بن المهلب، فأرسل مسلمة بن عبد الملك جيشاً عليهم هلال بن أحوز المازري في طلب آل المهلب، ويقال: إنهم أمروا عليهم رجلا يقال له مدرك بن ضب الكلبي، فلحقهم بجبال كرمان فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، فقتل جماعة من أصحاب المفضل وأسر جماعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم، ثم لحقوا المفضل فقتلوه وحمل رأسه إلى مسلمة بن عبد الملك، وأقبل جماعة من اصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أمانا من أمير الشام منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ثم ارسلوا بالأثقال والأموال والنساء والذرية فوردت على مسلمة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب، فبعث مسلمة بالرؤوس وتسعة من الصبيان الأحداث الحسان إلى أخيه يزيد بن عبد الملك، فأمر بضرب أعناق أولئك، ونصبت رؤوسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها، وحلف مسلمة بن عبد الملك ليبيعن ذراري آل المهلب، فاشتراهم منه بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف، فأعتقهم وخلى سبيلهم، ولم يأخذ مسلمة بن عبد الملك من ذلك الأمير شيئاً.

وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ذكرها ابن جرير [تاريخه: ٦٠٣/٦، ٦٠٤].

ولاية مسلمة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة، وبعث إلى خراسان ختنه - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، الملقب بخذينة، فسار إليها فحرض أهلها على الصبر والشجاعة، وعاقب عمالا ممن كان ينوب ليزيد بن المهلب، وأخذ منهم أموالا جزيلة، ومات بعضهم تحت العقوبة.

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك، بعث جيشاً إلى الصغد لقتال المسلمين، عليهم رجل منهم يقال له كورصول، فأقبل حتى نزل على

قصر الباهلي، فحصره وفيه خلق من المسلمين، فصالحهم نائب سمرقند - وهو عثمان بن عبد الله بن مطرف - على أربعين ألفاً، ودفع إليهم سبعة عشر دهقاناً رهائن عندهم، ثم ندب عثمان الناس فانتدب رجل يقال له المسيب بن بشر الرياحي في أربعة آلاف، فساروا نحو الترك، فلما كان ببعض الطريق خطب الناس فحثهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة، فرجع عنه أكثر من ألف، ثم لم يزل في كل منزل يخطبهم ويرجع عنه بعضهم، حتى بقي في سبعمائة مقاتل، فسار بهم حتى غالق جيش الأتراك، وهم محاصرون ذلك القصر، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه على قتل نسائهم وذبح أولادهم أمامهم، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم، فبعث إليهم المسيب يثبتهم يومهم ذلك، فثبتوا ومكث المسيب حتى إذا كان وقت السحر كبر وكبر أصحابه، وقد جعلوا شعارهم يا محمد، ثم حملوا على الترك حملة صادقة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعقروا دواب كثيرة، ونهض إليهم الترك فقاتلوهم قتالا شديداً، حتى فر أكثر المسلمين، وضربت دابة المسيب في عجزها فترجل عنها وترجل معه الشجعان، فقاتلوا وهم كذلك قتالا عظيماً، والتفت الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لا يلوون على شيء، وقد كان الأتراك في غاية الكثرة، فنادى منادي المسيب: أن لا تتبعوا أحداً منهم، وعليكم بالقصر وأهله، فاحتملوهم وحازوا ما في معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين، وجاءت الترك من الغد إلى القصر فلم يجدوا به داعياً ولا مجيباً، فقالوا فيما بينهم: هؤلاء الذين أتونا بالأمس لم يكونوا إنساً، إنما كانوا جناً ثم غزا سعيد الملقب خُذَينه أمير خراسان بلاد السغد وذلك لأنهم أعانوا الترك على المسلمين في هذه الغزوة التي ذكرناها فسار إليهم فقاتلهم قتالا شديداً حتى نصره الله عليهم وولوا مدبرين، واخذ منهم أموالا جزيلة، وقبض ما وجد لهم من الأموال والحواصل.

وفيها عزل أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة عن إمرة العراق وخراسان، وذلك لأنه كان يصرف أموال الغنيمة -فيما يريد ولم يصرف إلى أخيه شيئا في هذه المدة، فطمع في أخيه فعزله عنها، وولى عليها بدله عمر بن هبيرة على العراق وخراسان.

وحج بالناس فيها أمير المدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس.

وفيها توفي

■ **عديُّ بنُ أرطاةَ الفَزاريُّ**، نائبُ عمرَ بنِ عبد العزيز على البصرة، وهو الذي قبض على يزيدَ بن المهلب، وبعث به مقيّداً إلى عمرَ بن عبد العزيز، فلمّا قدم عليه أمَر بسَجنِه، فلمّا مرض عمرُ هرَب من السجن، فلما توفّي عمرُ ظهرَ يزيدُ بنُ المهلب، ونصَب راياتٍ سوداً، وطلَب البصرةَ وملكها، وجرَت له فصولٌ قد ذكرها ابنُ جرير، ثم إنَّ معاويةَ بنَ يزيدَ بنِ المهلبِ لمّا بَلغه قتلُ أبيه أخرَج عديَّ بنَ أرطاةَ هذا من الحبس وقتَله، وقتَل معه جماعةً نحوَ ثلاثين إنساناً.

■ **يزيد بنُ المهلَّب**، كان من الشجعان المشهورين، وله فتوحاتٌ كثيرةٌ، وكان جوّاداً مُمَدَّحاً، له أخبارٌ في الكرم والشجاعة، وآخرُ أمرِه أنّه قُتِل، وقُتِل من إخوتِه وأولادِه جماعةٌ، وأخِذت أموالُه ونساؤه وأولادُه، وزال ما كان فيه، وقد كانوا نحوَ ثمانين نفساً آلَ المهلَّب بن أبي صفرةَ، وقد جمعوا شيئاً كثيراً من الأموال والجواهر، فما أفادهم ذلك شيئاً بل سلبوا ذلك جميعه.

قال: وفيها توفي في هذه السنة من الأعيان والسادة:

■ **الضحاك بن مزاحم الهلالي**: أبو القاسم، ويقال أبو محمد، الخراساني، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسابور، وهو تابعي جليل روى عن أنس وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة، وجماعة من التابعين، وقيل: إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس، وإن كان قد روي عنه أنه جاوره سبع سنين، وكان الضحاك إماماً في التفسير.

قال الثوري: خذوا التفسير عن أربعة، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك.

وقال الإمام أحمد: مأمون.

وقال ابن معين وأبو زرعة هو ثقة.

وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس، وقال: إنما أخذ عن سعيد عنه.

وقال يحيى بن سعيد القطان: كان ضعيفاً.

وذكره ابن حبان في الثقات [الثقات: ٦/٤٨٠]، وقال: لم يشافه أحداً من الصحابة، ومن قال: إنه لقي ابن عباس فقد وهم، وحملت به أمه سنتين، ووضعته وله أسنان، وكان يعلم الصبيان حسبة، قيل: إنه كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبي وكان يركب حماراً ويدور من العلماء عليهم وقيل: إنه مات سنة خمس وقيل: سنة ست ومائة وقد بلغ الثمانين والله أعلم.

■ **أبو المتوكل علي بن داود الناجي**: تابعي جليل، ثقة، رفيع القدر، مات وقد بلغ الثمانين رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

فيها عزل أمير العراق وهو عمر بن هبيرة سعيداً - الملقب خذينة - عن نيابة خراسان، وولى عليها سعيد بن عمرو الحَرَشيّ، بإذن أمير المؤمنين، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين، انزعج له الترك وخافوه خوفاً شديداً، وتقهقروا من بلاد الصغد الى ما وراء ذلك، من بلاد الصين وغيرها.

وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس بين إمرة المدينة وإمرة مكة، وولّى عبد الرحمن بن الواحد بن عبد الله النضري نيابة الطائف. وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **يزيد بن أبي مسلم**: أبو العلاء المدني.

■ **عطاء بن يسار الهلالي**، أبو محمد القاص المدني، مولى ميمونة، وهو أخو سليمان، وعبد الله، وعبد الملك، وكلهم تابعي. وروى هذا عن جماعة من الصحابة، ووثقه غير واحد من الأئمة.

وقيل: إنه توفي سنة ثلاث أو اربع ومائة، وقيل: توفي قبل المائة بالإسكندرية، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم.

■ **مجاهد بن جبر المكي**: أبو الحجاج القرشي المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، أحد أئمة التابعين والمفسرين ومن أخصاء أصحاب، حبر الأمة وترجمان القران عبد الله بن عباس وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، حتى قيل إنه لم يكن في زمانه أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وعطاء وطاوس.

وقال مجاهد: أخذ ابن عمر بركابي وقال: وددت أن ابني سالماً وغلامي

نافعاً يحفظان حفظك.

وقال مجاهد: عرضتُ القرآن على ابن عباس مرتين، أَقِفُه عند كل آية وأساله عنها.

مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة، وقيل: إحدى وقيل: اثنتين وقيل: ثلاث ومائة، وقيل أربع ومائة، وقد جاوز الثمانين والله أعلم.

■ مصعب بن سعد بن أبي وقاص: تابعي ثقة جليل القدر.

■ موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي، كان يلقب بالمهدي لصلاحه، كان تابعياً جليل القدر من سادات المسلمين رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع مائة

فيها قاتل سعيد بن عمرو الحرشي نائب خراسان أهل الصغد وحاصر أهل خجندة وقتل خلقاً كثيراً، وأخذ أموالا جزيلة، وأسر رقيقاً كثيراً جداً، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين، فوجد فيها عليه أمير العراق عمر بن هبيرة إذ لم يكتب إليه فيكتب هو إلى أمير المؤمنين لأنه هو الذي ولاه. وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد بن عبد الملك تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكىء على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن الضحاك ركب إلى دمشق فاستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل على أخيه فقال: إن لي إليك حاجة، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله -حاجتي، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف، فسأل الناس بالمدينة، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهراً، وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل، ولم يفعل. فأبغضه الناس وذمه الشعراء ثم كان هذا آخر أمره.

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي، وذلك أنه كان يستخف بأمر عمر بن هبيرة، ولما عزله أحضره بين يديه وعاقبه وأخذ منه أموالا كثيرة، وأمر بقتله ثم عفا عنه، وولى على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، فسار إليها فاستخلص أموالا كانت منكسرة في أيام سعيد بن عمرو الحرشي.

وفيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان، أرض الترك، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذراريهم في الماء، وسبى منهم خلقا كثيرا، وفتح عامة الحصون التي تلي بلنجر، وأجلى عامة أهلها، والتقى هو الخاقان الملك فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان، وتبعهم المسلمون، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، قتل فيها خلق كثير لا يحصون.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن عبد الله النضري أمير الحرمين والطائف، وعلى نيابة العراق وخراسان عمر بن هبيرة ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ.

وفي هذه السنة ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو الملقب بالسفاح، أول خلفاء بني العباس وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق.

وفيها توفي من الأعيان

■ خالد بن معدان الكلاعي: له روايات عن جماعة من الصحابة، وكان تابعياً جليلا، وكان من العلماء وأئمة الدين المعدودين المشهورين وكان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم، وكان إمام أهل حمص، وكان يصلي التراويح في شهر رمضان، فكان يقرأ فيها في كل ليلة ثلث القرآن، وروى الجوزجاني عنه أنه قال: من اجترأ على الملاوم في مراد الحق، قلب الله تلك المحامد عليه ذماً.

وروى ابن أبي الدنيا عنه قال: ما من عبد إلا وله أربعة أعين. عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته وهما غيب، فأمن الغيب بالغيب، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه، فتراه ينظر فلا ينتفع، فإذا نظر بقلبه نفع.

وقال: بصر القلب من الآخرة، وبصر العينين من الدنيا.

وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى.

و■ عامر بن سعد بن أبي وقاص: له روايات كثيرة عن أبيه وغيره، وهو تابعي جليل، ثقة مشهور.

و■ عامر بن شراحيل الشعبي: توفي فيها في قول.

كان الشعبي من شعب همدان، كنيته أبو عمرو، وكان علامة أهل الكوفة، كان إماماً حافظاً، ذا فنون، وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من كبار التابعين، وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين.

قال أبو مجلز: ما رأيت أفقه من الشعبي.

وقال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه.

وقال داود الأودي: قال لي الشعبي: قم معي ها هنا حتى أفيدك علماً، بل هو رأس العلم. قلت: أي شيء تفيدني؟ قال: إذا سئلت عما لا تعلمه فقل: الله أعلم، فإنه علم حسن.

وقال: لو أن رجلا سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعاً، ولو سافر في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد، لرأيت سفره عقوبة وضياعاً.

وقال: العلم أكثر من عدد الشعر، فخذ من كل شيء أحسنه.

■ أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: تولى قضاء الكوفة قبل الشعبي، فإن الشعبي تولى في خلافة عمر بن عبد العزيز، واستمر إلى أن مات، وأما أبو بردة فإن كان قاضياً في زمن الحجاج، ثم عزله الحجاج وولى أخاه أبا بكر، وكان أبو بردة فقيهاً حافظاً عالماً، له روايات كثيرة.

■ أبو قلابة الجرمي: عبد الله بن يزيد البصري، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم، وكان من كبار الأئمة والفقهاء، وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب، قدم الشام فنزل داريا وبها مات رحمه الله.

قال أبو قلابة: إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولم يكن همك ما تحدث به الناس، فلعل غيرك ينتفع ويستغني وأنت في الظلمة تتعثر، وإني لأرى هذه المجالس إنما هي مناخ البطالين.

وقال: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد اللان، وفتح حصوناً كثيرة، وبلاداً متسعة الأكناف من وراء بلنجر، وأصاب غنائم جمة، وسبى خلقاً من أولاد الأتراك.

وفيها غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد، فصالحه ملكها على مال كثير يحمله إليه.

وفيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم، فبعث بين يديه سرية ألف فارس، فأصيبوا جميعاً.

وفيها لخمس بقين من شعبان منها توفي أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بأربد من أرض البلقاء، وكان ذلك يوم الجمعة، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين، وهذه ترجمته:

هو

■ **يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو خالد القرشي الأموي**، أمير المؤمنين، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ، قيل: إنها دفنت بقبر عاتكة فنسبت المحلة إليها والله أعلم.

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومائة بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله يوم الجمعة. لخمس بقين من رجب.

قال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان حدثني الزهري قال: كان لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلما ولي الخلافة معاوية ورث المسلم من الكافر. ولم يورث الكافر من المسلم، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده، فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى، وتبعه في ذلك يزيد بن عبد الملك، فلما قام هشام أخذ بسنة الخلفاء يعني أنه ورث المسلم من الكافر.

وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال: بينما نحن عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسع له، فقال مكحول: دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس، يتعلم التواضع.

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، فلما ولي عزم أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم، كما قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: لما ولي يزيد بن عبد الملك قال: سيروا بسيرة عمر، فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب، وقد اتهمه بعضهم في الدين، وليس بصحيح، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي، وأما يزيد هذا فما كان به بأس، وقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإني لا أراني إلا لِمَا بي، ولا أرى الأمر إلا سيفضي إليك، فالله الله في أمة محمد ﷺ، فإنك عما قليل ميت فتدع الدنيا لمن لا يحمدك وتفضي إلى من لا يعذرك، والسلام.

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام: أما بعد فإن أمير المؤمنين قد بلغه، أنك استبطأت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة، وكتب في آخره:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... متى مت ما الباغي علي بمخلد
منيته تجري لوقت وحتفه ... يصادفه يوماً على غير موعد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

فكتب إليه هشام: جعل الله يومي قبل يومك، وولدي قبل ولدك، فلا خير في العيش بعدك.

وقد كان يزيد هذا يحب حظية من حظاياه يقال لها حبابة - بتشديد الباء الأولى - والصحيح تخفيفها - واسمها العالية، وكانت جميلة جداً، وكان قد اشتراها في زمن أخيه سليمان بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار، من عثمان بن سهل بن حنيف، فقال أخوه سليمان: لقد هممت أن أحجر على يزيد، فباعها يزيد، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته - سعدة يوماً: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء؟ قال: نعم، حبابة، فبعثت امرأته فاشترتها له ولبستها وصنعتها وأجلستها من وراء الستارة، وقالت له أيضاً: يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء؟ قال: أو ما أخبرتك فقالت: فهذه حبابة وأبرزتها له وأخلته بها وتركته وإياها فحظيت الجارية عنده، وكذلك زوجته أيضاً، فقال يوماً: أشتهي أن أخلو بحبابة في قصر مدة من الدهر، لا يكون عندنا أحد، ففعل ذلك، وجمعها إليه في قصره ذلك حبابة، وليس عنده فيه أحد، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط الهائلة، والنعمة الكثيرة السابغة فبينما هو معها في ذلك القصر على أسر حال وأنعم بال، وبين يديهما عنب يأكلان منه، إذ رماها بحبة رمان، ويروى بعنبة في فمها وهي تضحك فشرقت بها فماتت، فمكث أياماً يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى أنتنت وجيفت فأمر بدفنها، فلما دفنها أقام أياماً عند قبرها هائماً، ثم رجع إلى المنزل ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول

فإن تَسْلُ عنك النفس أو تدع الصبا ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل ... من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه وكان مرضه بالسل. وذلك بالسواد سواد الأردن يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة خمس ومائة -.

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور، وقيل: أقل من ذلك، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: خمساً وقيل: ستاً وقيل ثمانياً وقيل تسعاً وثلاثين، وقيل: إنه بلغ الأربعين فالله أعلم.

وكان طويلا جسيماً أبيض مدور الوجه أفقم الفم لم يشب، وقيل إنه مات بالجولان، وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد، وعمره خمس عشرة سنة، وقيل: بل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك، وهو الخليفة بعده، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام، ومن بعده لولده الوليد بن يزيد، فبايع الناس من بعده هشاماً.

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة خمس ومائة - وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر، لأنه وُلد لما قتل أبوه عبد الملك مصعب بن الزبير في سنة ثنتين وسبعين، فسماه منصوراً تفاؤلا، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام فأقرّه.

قال الواقدي: أتته الخلافة وهو بالزيتونة في منزل له، فجاءه البريد بالعصا والخاتم، فسلم عليه بالخلافة فركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فقام بأمر الخلافة أتم القيام، فعزل في شوال منها عن إمرة العراق وخراسان عمر بن هبيرة، وولى عليها خالد بن عبد اللّه القسري، وقيل إنما استعمله على العراق في سنة ست ومائة، والمشهور الأول.

وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال أمير المؤمنين، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل، ولم تلد من عبد الملك سواه حتى طلقها، لأنها كانت حمقاء.

وفيها قوي أمر دعوة بني العباس في السر بأرض العراق، وحصل لدعاتهم أموالا جزيلة يستعينون بها على أمرهم، وما هم بصدده.

وفيها توفي فيها من الأعيان

■ أبان بن عثمان بن عفان: كان من فقهاء التابعين وعلمائهم تقدم ذكر وفاته سنة خمس وثمانين.

قال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه، وقال يحيى بن سعيد القطان: فقهاء المدينة عشرة، فذكر أبان بن عثمان أحدهم، وخارجة بن زيد، وسالم بن عبد اللّه، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة، وعروة، والقاسم، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

قال محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٢/٥]: كان به صمم ووضح، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة، وتوفي سنة خمس ومائة.

■ أبو رجاء العطاردي من رجال الصحيحين.

و■ عامر بن شراحيل الشعبي: في قول وقد تقدم.

و■ كثير عزة في قول. وقيل في التي بعدها كما سيأتي:

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف، عبد الواحد بن عبد اللّه النضري، وولى على ذلك كله خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة.

وفيها غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها، فلقيه عندها الترك، وكانت بينهم وقعة هائلة، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك.

وفيها أوغل الجراح الحكمي في أرض الخزر، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج.

وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللان، فقتل خلقاً كثيراً وغنم وسلم.

وفيها عزل خالد بن عبد اللّه القسري عن إمرة خراسان مسلم بن سعيد، وولى عليها أخاه أسد بن عبد اللّه القسري.

وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، وكتب إلى أبي الزناد قبل دخوله إلى المدينة ليتلقاه ويكتب له مناسك الحج، ففعل وتلقاه الناس من المدينة النبوية إلى أثناء الطريق، وفيهم أبو الزناد وقد امتثل ما أمره به، وتلقاه فيمن تلقاه سعيد بن عبد اللّه بن الوليد بن عثمان بن عفان، فقال له: يا أمير المؤمنين إن أهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب، فالعنه أنت أيضاً، قال أبو الزناد: فشق ذلك على هشام واستثقله، وقال: ما قدمت لشتم أحد، ولا للعنة أحد، إنما قدمنا حجاجاً. ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد يحادثه ولما انتهى إلى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة فتظلم إليه في أرض، فقال له: أين كنت عن عبد الملك؟ قال: ظلمني، قال: فالوليد؟ قال: ظلمني، قال: فسليمان؟ قال: ظلمني، قال: فعمر بن عبد العزيز؟ قال: ردها علي، قال: فيزيد؟ قال: انتزعها من يدي، وهي الآن في يدك، فقال له هشام: أما لو كان فيك مضرب لضربتك، فقال: بلى في مضرب بالسيف والسوط، فانصرف عنه هشام وهو يقول لرجل معه: ما رأيت أفصح من هذا.

وفيها كان العامل على مكة والمدينة والطائف، إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، وعلى العراق وخراسان خالد بن عبد اللّه القسري واللّه سبحانه أعلم.

وممن توفي فيها

■ سالم بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب أبو عمرو الفقيه، أحد الفقهاء وله روايات كثيرة عن الصحابة وغيرهم، وكان من أفضل أهل المدينة وأعلم أهل زمانه، قُتل أبوه بمصر وهو صغير، فأخذته خالته عائشة فنشأ عندها وساد، وله مناقب كثيرة.

■ طاوس بن كيسان اليماني: من أكبر أصحاب ابن عباس ﷺ وقد ترجمناهما في كتابنا التكميل وللّه الحمد.

ثم دخلت سنة سبع ومائة

وفيها خرج باليمن رجل يقال له عباد الرعيني فدعا إلى مذهب الخوارج واتبعه فرقة من الناس وحكموا فقاتلهم يوسف بن عمر فقتله وقتل أصحابه، وكانوا ثلاثمائة وللّه الحمد.

وفيها وقع بالشام طاعون شديد.

وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة وعلى جيش أهل الشام ميمون بن مهران، فقطعوا البحر إلى قبرص وغزا مسلمة في البر في جيش آخر.

وفيها ظفر أسد بن عبد اللّه القسري بجماعة من دعاة بني العباس بخراسان فصلبهم وأشهرهم.

وفيها غزا أسد القسري جبال نمرون، ملك الغرشستان، مما يلي جبال الطالقان، فصالحه نمرون وأسلم على يديه.

وفيها غزا أسد الغور- وهي جبال هراة- فعمد أهلها إلى حواصلهم وأموالهم وأثقالهم فجعلوا ذلك كله في كهف منيع، لا سبيل لأحد عليه، وهو مُسْتَقِلّ جداً، فأمر أسد بالرجال فجعلوا في توابيت ودلاهم إليه، وأمرهم بوضع ما هنالك في التوابيت فلما جمعوا ما هنالك قعد الرجال في التوابيت ورفعوهم فسلموا وغنموا، وهذا رأي سديد.

وفيها أمر أسد بجمع ما حول بلخ إليها. واستناب عليها برمك والد خالد بن برمك وبناها بناءً جيداً جديداً محكماً. وحصنها وجعلها معقلا للمسلمين.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام بن إسماعيل أمير الحرمين.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ سليمان بن يسار أحد التابعين: وهو أخو عطاء بن يسار، له روايات كثيرة، وكان من المجتهدين في العبادة، وكان من أحسن الناس وجهاً، توفي بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس

وجهاً فأرادته على نفسها فأبى وتركها في منزله وخرج هارباً منها، فرأى يوسف عليه السلام في المنام. فقال له: أنت يوسف؟ فقال: نعم أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم. وقيل إن هذه الحكاية إنما وقعت في بعض منازل الحجاج، وكان معه صاحب له، فبعثه إلى سوق الحجاج ليشتري شيئاً فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له: هيت لك، فبكى واشتد بكاؤه فلما رأت ذلك منه ارتفعت في الجبل، وجاء صديقه فوجده يبكي فقال له: ما لك تبكي؟ فقال: خير، فقال: لعلك ذكرت بعض ولدك أو بعض أهلك؟ فقال: لا فقال: والله لتخبرني ما أبكاك أنت. قال: أبكاني حزني على نفسي، لو كنت مكانك لم أصبر عنها، ثم ذكر أنه نام فرأى يوسف في منامه كما تقدم والله أعلم.

و■ عكرمة مولى ابن عباس: أحد التابعين، والمفسرين المكثرين والعلماء الربانيين، والرحالين الجوالين.

و■ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: كان أحد الفقهاء المشهورين له روايات كثيرة، عن الصحابة وغيرهم، وكان من أفضل أهل المدينة، وأعلم أهل زمانه، قتل أبوه بمصر وهو صغير، فأخذته خالته فنشأ عندها، وساد وله مناقب كثيرة.

■ أبو رجاء العطاردي، تقدم له ذكر ووفاة، واسمه عمر بن ملحان البصري، له روايات كثيرة. قيل: إنه عاش مئة وعشرين. وقيل: مئة وثلاثين سنة. وقيل: أكثر من ذلك، وكان يذكر أنه ولد قبل المبعث، وكان من المشهورين بالعلم والفضل والزهد والعبادة، رحمه الله تعالى.

■ كُثَيِّر عزة الشاعر المشهور: وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، أبو صخر الخزاعي الحجازي، المعروف بابن أبي جمعة، وعزة هذه المشهور بها المنسوب إليها، لتغزله فيها، هي أم عمرو عزة بالعين المهملة، بنت جميل بن حفص، من بني حاجب بن غفار، وإنما صغر اسمه فقيل كثير، لأنه كان دميم الخلق قصيراً، طوله ثلاثة أشبار.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١١٣/٤]: كان يقال له زبّ الذباب، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له: طاطىء رأسك لا يؤذيك السقف، وكان يضحك إليه، وكان يفد على عبد الملك ووفد على عبد الملك بن مروان مرات، ووفد على عمر بن عبد العزيز، وكان يقال إنه أشعر الإسلاميين، على أنه كان فيه تشيع، وربما نسبه بعضهم إلى مذهب التناسخية، وكان يحتج على ذلك من جهله وقلة عقله إن صح النقل عنه، بقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ [الانفطار: ٨] وقد استأذن يوماً على عبد الملك فلما دخل عليه قال عبد الملك: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: حيهلا يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان، وأنا الذي أقول:

وجرّبتُ الأمور وجربتني ... وقد أبدت عريكتي الأمور
وما تخفى الرجال علي إنني ... بهم لأخو مثاقبة خبير
ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد عزير
ويعجبك الطرير فتجتبيه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
وما عظم الرجال لها بزين ... ولكن زينها كرم وخير
بغاث الطير أطولها جسوماً ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
فيركب ثم يضرب بالهراوى ... ولا عرف لديه ولا نكير
وعود النبع ينبت مستمراً ... وليس يطول والقصباء خور

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل.

قالوا: ودخل كثير عزة يوماً على عبد الملك بن مروان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها

على ابن أبي العاصي دروع حصينة ... أجاد المسدي سردها وأذالها

فقال له عبد الملك: أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معدي كرب:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلماً أبطالها

فقال: يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ووصفتك بالحزم.

ودخل يوماً على عبد الملك وهو يتجهز للخروج إلى مصعب بن الزبير فقال: ويحك يا كثير، ذكرتك الآن بشعرك فإن أصبته أعطيتك حكمك، فقال: يا أمير المؤمنين كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكى لبكائها حشمها فذكرت قولي:

إذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه ... حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه ... بكت فبكى مما عراها قطينها

قال: أصبت فاحتكم، قال: مائة ناقة من نوقك المختارة، قال: هي لك، فلما سار عبد الملك إلى العراق نظر يوماً إلى كثير عزة وهو مفكر في أمره فقال: علي به، فلما جيء به قال له: أرأيت إن أخبرتك بما كنت تفكر به تعطيني حكمي؟ قال: نعم، قال: والله؟ قال: والله، قال له عبد الملك: إنك تقول في نفسك: هذا رجل ليس هو على مذهبي، وهو ذاهب إلى قتال رجل آخر ليس هو على مذهبي، فإن أصابني سهم غرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة، فقال: أي والله يا أمير المؤمنين فاحتكم، قال: حكمي أن أردك إلى أهلك وأحسن جائزتك، فأعطاه مالا وأذن له في الانصراف.

وقال حماد الراوية عن كثير عزة: وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة، ونحن نمت إليه بصحبتنا إياه ومعاشرتنا له لما كان بالمدينة، فكل منّا يظن أنه سيشركه في الخلافة، فنحن نسير ونختال في رحالنا، فلما انتهينا إلى خناصرة ولاحت لنا أعلامها، تلقانا مسلمة بن عبد الملك فقال: ما أقدمكم؟ أو ما علمتم أن صاحبكم لا يحب الشعر ولا الشعراء؟ قال: فوجمنا لذلك، فأنزلنا مسلمة عنده وأجرى علينا النفقات وعلف دوابنا، وأقمنا عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر، فلما كان في بعض الجمع دنوت منه لأسمع خطبته فأسلم عليه بعد الصلاة، فسمعته يقول في خطبته: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من عذابه وثوابه فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يمسي بعد إصباحه ولا يصبح بعد إمسائه، وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات المنايا، وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة، فأما من لا يداوي من الدنيا كلماً إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يطمئن، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتبدو مسكنتي في

يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل. قال: فانصرفت إلى صاحبي فقلت: خذا شرحاً من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه فإنه رجل آخري ليس برجل دنيا. قال: ثم استأذن لنا مسلمة عليه يوم الجمعة فلما دخلنا عليه سلمت عليه ثم قلت: يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب. فقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ [التوبة: ٦٠] وقرأ الآية، فإن كنتم من هؤلاء أعطيتكم وإلا فلا حق لكم فيها، فقلت: يا أمير المؤمنين إني مسكين وعابر سبيل ومنقطع به، فقال: ألستم عند أبي سعيد؟ يعني مسلمة بن عبد الملك، فقلنا: بلى! فقال: إنه لا ثواب على من هو عند أبي سعيد، فقلت: ائذن لي يا أمير المؤمنين بالإنشاد، قال: نعم ولا تَقُل إلا حقاً، فأنشدته قصيدة فيه:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... بريّاً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغه ... من الأود البادي ثقاف المقوم
وقد لبست تسعى إليك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مدوفاً من سقام وعلقم
وقد كنت من إجبالها في ممنع ... ومن بحرها في مزبد الموج مفعم
ومازلت تواقاً إلى كل غاية ... بلغت بها أعلى البناء المقدم
فلما أتاك الملك عفواً ولم تكن ... لطالب دنيا بعده في تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً ... وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وشمرت للذي ... أمامك في يوم من الشر مظلم
وما لك إذ كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رغيب ولا دم
سما لك هَمٌ في الفؤاد مؤرق ... بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمتني ... بأخذك ديناري ولا أخذ درهمي
ولابسط كف لامرئ غير مجرم ... ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت بها ما حج لله راكب ... ملب مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال: فأقبل علي عمر بن عبد العزيز وقال: إنك تسأل عن هذا يوم القيامة، ثم استأذنه الأحوص فأنشده قصيدة أخرى فقال: إنك تسأل عن هذا يوم القيامة. ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له وأمر لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهما، وأغزى نصيباً إلى مرج دابق.

وقد وفد كثير عزة بعد ذلك على يزيد بن عبد الملك وامتدحه بقصائد فأعطاه سبعمائة دينار.

وقال الزبير بن بكار: كان كثير عزة شيعياً خشبياً يرى الرجعة، وكان يرى التناسخ ويحتج بقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ [الانفطار: ٨].

وقال موسى بن عقبة: هُوّل كثير عزة ليلة في منامه فأصبح يمتدح آل الزبير ويرثي عبد الله بن الزبير، وكان يسيء الرأي فيه:

بمفتضح البطحاء ثاو لو أنه ... أقام بها مالم ترمها الأخاشب
سرحنا سروباً آمنين ومن يخف ... بوائق ما يخشى تنبه النوائب
تبرأت من عيب ابن أسماء إنني ... إلى الله من عيب ابن أسماء تائب
هو المرء لا تزري به أمهاته ... وآباؤه فينا الكرام الأطايب

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: قالت عائشة بنت طلحة لكثير عزة: ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في عزة وليست على ما تصف من الحسن والجمال؟ فلو قلت ذلك في وفي أمثالي فأنا أشرف وأفضل منها ـ وكانت عائشة بنت طلحة قد فاقت النساء حسناً وجمالا وأصالة ـ وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه فقال:

ضحى قلبه يا عزة أو كاد يذهل ... وأضحى يريد الصُرم أو يتبدل
وكيف يريد! الصُرم من هو وامق ... لعزة لا قال ولا متبدِّل
إذا وصلتنا خلة كي تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبية أول
سنوليك عرفاً إن أردت وصالنا ... ونحن لتيك الحاجبية أوصل
وحدثها الواشون أني هجرتها ... فحملها غيظاً علي المحمَّل

فقالت له عائشة: لقد جعلتني خلة ولست في بخلة، وهلاً قلت كما قال جميل فهو والله أشعر منك حيث يقول:

يا رب عارضة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر ... حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي بقدر قلامة ... فضل وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال: والله ما أنكر فضل جميل، وما أنا إلا حسنة من حسناته، واستحيا.

ومما أنشده ابن الأنباري لكثير عزة:

بأبي وأمي أنت من معشوقة ... ظَبِن العدو لها فغير حالها
ومشى إلي بعيب عزة نسوة ... جعل الإله خدودهن نعالها
الله يعلم لو جمعن ومثلت ... لاخترت قبل تأمل تمثالها
ولو أن عزة خاصمت شمس الضحى ... في الحسن عند موفق لقضى لها

وأنشد غيره لكثير عزة:

فما أحدث النأي الذي كان بيننا ... سلواً ولا طول اجتماع تقاليا
وما زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

وقال كُثَيِّر عزة أيضاً وفيه حكمة:

ومن لايغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص أحد بني حاجب بن عبد الله بن غفار أم عمرو الضمرية وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامة فقال: لا أقضيها لك حتى تنشديني شيئاً من شعره، فقالت: لا أحفظ لكثير شعراً ولكن سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيّ:

قضى كل ذي دين علمت غريمه ... وعزة ممطول معنًى غريمها

فقال: ليس عن هذا أسألك ولكن أنشديني قوله:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخليقة كالذي ... عهدت ولم يخبر بذاك مخبر

فاستحيت وقالت: أما هذا فلا أحفظه ولكني سمعتهم يحكونه عنه، ولكن أحفظ له قوله:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوح فما تلقاك إلا بخيلة ... ومن مل منها ذلك الوصل ملت

قال: فقضى لها حاجتها وردها ورد عليها ظلامتها وقال: أدخلوها على الحرم ليتعلموا من أدبها.

وروي عن بعض نساء العرب قالت: اجتازت بنا عزة فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حسنها، فإذا هي حمراء حلوة لطيفة فلم تقع من النساء بذاك الموقع حتى تكلمت فإذا هي أبرع الخلق وأحلاه حديثاً، فما بقي في أعيننا امرأة تفوقها حسناً وجمالا وحلاوة. وذكر الأصمعي عن سفيان بن عيينة قال: دخلت عزة على سكينة بنت الحسين فقالت لها: إني أسألك عن شيء فاصدقيني، ما الذي أراد كثير في قوله لك:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنًى غريمها

فقالت: كنت وعدته قبلة فمطلته بها، فقالت: أنجزيها له وإثمها علي، وقد كانت سكينة بنت الحسين من أحسن النساء حتى كان يضرب بحسنها المثل. وقد روي أن أم المؤمنين أخت عمر بن عبد العزيز قالت لها مثل هذا سواء، والله أعلم.

وروي أن عبد الملك بن مروان أراد أن يزوج كثيراً من عزة فأبت عليه وقالت: يا أمير المؤمنين أبعدما فضحني بين الناس وشهرني في العرب؟ وامتنعت من ذلك كل الامتناع، ذكره ابن عساكر [تاريخ دمشق، جزء تراجم النساء ص٢٤٣].

وروي أنها اجتازت مرة بكثير وهو لا يعرفها فتنكرت عليه وأرادت أن تختبر ما عنده، فتعرض لها فقالت له: فأين حبك عزة؟ فقال: أنا لك الفداء لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك، فقالت: ويحك لا تفعل ألست القائل:

إذا وصلتنا خلة كي تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبية أول؟

فقال: بأبي أنت وأمي، أقصري عن ذكرها واسمعي ما أقول ثم قال:

هل وصل عزة إلا وصل غانية ... في وصل غانية من وصلها بدل

قالت: فهل لك في المجالسة؟ قال: ومن لي بذلك؟ قالت: فكيف بما قلت في عزة؟ فقال: أقلبه فيتحول لك، قال: فسفرت عن وجهها وقالت: أغدراً وتنكاثاً يا فاسق، وإنك لها هنا يا عدو الله، فبهت وأبلس ولم ينطق وتحير وخجل، ثم قالت: قاتل الله جميلا حيث يقول:

لحى الله من لاينفع الود عنده ... ومن حبله إن مُدَّ غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم ... على العهد حلافاً بكل يمين

ثم شرع كثير يعتذر ويتنصل مما وقع منه ويقول في ذلك الأشعار ذاكراً وآثراً.

وقد ماتت عزة بمصر في أيام عبد العزيز بن مروان وزار كثير قبرها ورثاها وتغير شعره بعدها، فقال له قائل: ما بال شعرك تغير وقد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال.

وكانت وفاته ووفاة عكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد، ولكن في سنة خمس ومائة على المشهور. وإنما ذكره شيخنا أبو عبد الله الذهبي في هذه السنة - أعني سنة سبع ومائة - والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

ففيها افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم، وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك حصناً من حصون الروم أيضاً.

وفيها غزا أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان فكسر الأتراك كسرة فاضحة.

وفيها زحف خاقان إلى أذربيجان وحاصر مدينة ورثان ورماها بالمجانيق، فسار إليه أمير تلك الناحية الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه وقتل من جيشه خلق كثير، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل في جملة من قتل من جيشه، وقتل الحارث بن عمرو شهيداً، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقاً كثيراً.

وفيها غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض الروم، وبعث البطال على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئاً كثيراً.

وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي أمير الحرمين والطائف.

والعمال فيها هم العمال في التي قبلها بأعيانهم.

وفيها توفي

■ **بكر بن عبد الله المزني.**

■ **راشد بن سعد المقرائي الحمصي:** عمر دهراً طويلاً، وروى عن جماعة من الصحابة، وقد كان عابداً صالحاً زاهداً، رحمه الله تعالى، وله ترجمة طويلة.

■ **محمد بن كعب القرظي:** في قول وأبو نضرة. المنذر بن مالك بن قطعة العبدي.

وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان وأمره أن يقدم إلى الحج، فأقبل منها في رمضان، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي، واستناب هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي، وأمره أن يكاتب خالد بن عبد الله القسري، وكان أشرس فاضلا خيراً، وكان سمي الكامل لذلك، وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان، واستعمل عليها عبد الملك بن دثار الباهلي، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها، ففرح به أهلها.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين والطائف.

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها قاتل مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان، في جموع عظيمة فتواقفوا نحواً من شهر، ثم هزم الله خاقان في زمن الشتاء، ورجع

مسلمة سالماً غانماً، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام، وتسمى هذه الغزاة غزاة الطين، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة، وتوحل فيها خلق كثير، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالا صعاباً وشداداً عظاماً.

وفيها دعا أشرس بن عبد الله السلمي نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الدخول في الإسلام، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك، وأسلموا غالبهم، ثم طالبهم بالجزية فنصبوا له الحرب وقاتلوه، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة، قد أطال ابن جرير بسطها وشرحها فوق الحاجة.

وفيها أرسل أمير المؤمنين هشام عبيدة إلى إفريقية متولياً عليها، فلما وصل جهز ابنه وأخاه في جيش فالتقوا مع المشركين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بطريقهم وانهزم باقيهم، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً.

وفيها افتتح معاوية بن هشام حصنين من بلاد الروم، وغنم غنائم جمة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام وعلى العراق خالد القسري، وعلى خراسان أشرس السلمي

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **جرير الشاعر**: وهو

■ **جرير بن الخطفي** ويقال: جرير ابن عطية بن الخطفي واسم الخطفي حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن إلياس بن مضر، بن نزار، أبو حزرة الشاعر البصري، قدم دمشق مراراً، وامتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده، ووفد على عمر بن عبد العزيز، وكان في عصره من الشعراء الذين يقارنونه الفرزدق والأخطل، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم.

قال غير واحد: هو أشعر الثلاثة.

قال ابن دريد حدثنا الأشناندانى حدثنا الثوري عن أبي عبيدة عن عثمان البَتّي قال: رأيت جريراً وما تضم شفتاه من التسبيح، فقلت: وما ينفعك هذا وأنت تقذف المحصنة؟ فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [هود:١١٤]، وَعْدٌ من الله حق.

وقال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: دخل رجل من بني عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة، جرير والفرزدق والأخطل، فلم يعرفهم الأعرابي، فقال عبد الملك للأعرابي: هل تعرف أهجى بيت في الإسلام؟ قال: نعم! قول جرير:

فَغُضِّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ ... فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

فقال: أحسنت، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الإسلام؟ قال نعم! قول جرير:

ألستُم خيرَ من ركبَ المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

فقال: أصبت وأحسنت، فهل تعرف أرق بيت قيل في الإسلام؟ قال: نعم! قول جرير:

إن العيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ ... قَتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحيينَ قَتلانا

يصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به ... وهنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أرْكانا

فقال: أحسنت، فهل تعرف جريراً؟ قال: لا والله، وإني إلى رؤيته لمشتاق، قال: فهذا جرير وهذا الأخطل وهذا الفرزدق. فأنشأ الأعرابي يقول:

فحيَّا الإلهُ أبا حَزْرَةٍ ... وأرغمَ أنفكَ يا أخطلُ

وجدُّ الفرزدقِ أتعِسْ بهِ ... ودقّ خياشيمَه الجندلُ

فأنشأ الفرزدق يقول:

يا أرغمَ اللهُ أنفاً أنتَ حاملُهُ ... يا ذا الخنا ومقالِ الزُّورِ والخطَلِ

ما أنتَ بالحكمِ التُّرضي حكومتُهُ ... ولا الأصيلِ ولا ذي الرأيِ والجدلِ

ثم أنشأ الأخطل يقول:

يا شرَّ من حملتْ ساقٌ على قدمٍ ... ما مثلُ قولِكَ في الأقوامِ يحتملُ

إن الحكومةَ ليستْ في أبيكَ ولا ... في معشرٍ أنتَ منهمْ إنهمْ سفلُ

فقام جرير مغضباً وهو يقول:

شتمتما قائلا بالحق مهتدياً ... عند الخليفة والأقوال تتصل

أتشتمان سَفاهاً خَيْرَكُمْ حَسَباً ... ففيكما - وإلهي - الزورُ والخطل

شتمتماهُ على رفعي ووضْعِكما ... لا زِلتما في سَفالٍ أيها السُّفلَ

ثم وثب جرير فقبل رأس الأعرابي وقال: يا أمير المؤمنين جائزتي له، وكانت خمسة عشر آلاف، فقال عبد الملك: وله مثلها من مالي، فقبض الأعرابي ذلك كله وخرج.

وحكي يعقوب بن السكيت أن جريراً دخل على عبد الملك مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج فأنشده مديحه الذي يقول فيه:

ألستمْ خيرَ من ركبَ المطايا ... وأندى العالمين بُطونَ راحِ

فأطلق له مائة ناقة وثمانية من الرعاء أربعة من النوبة وأربعة من السبي الذين قدم بهم من الصغد قال جرير: وبين يدي عبد الملك جاماتٌ من فضة قد أهديت له، وهو لا يعبأ بها شيئاً، فهو يقرعها بقضيب في يده، فقلت: يا أمير المؤمنين المحلب، فألقى إليّ واحداً من تلك الجامات، ولما رجع إلى الحجاج أعجبه إكرام أمير المؤمنين له فأطلق الحجاج له خمسين ناقة تحمل طعاماً لأهله.

وحكي نفطويه أن جريراً دخل يوماً على بشر بن مروان وعنده الأخطل، فقال بشر لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا، ومن هذا أيها الأمير؟ فقال: هذا الأخطل، فقال الأخطل: أنا الذي شتمت عرضك، وأسهرت ليلك، وآذيت قومك، فقال جرير: أما قولك: شتمت عرضك. فما ضر البحر أن يشتمه من غرق فيه، وأما قولك: وأسهرت ليلك. فلو تركتني أنام لكان خيراً لك، وأما قولك: وآذيت قومك. فكيف تؤذي قوماً أنت تؤدي الجزية إليهم؟ وكان الأخطل من نصارى العرب المتنصرة قبحه الله وأبعد مثواه، وهو الذي أنشد بشر بن مروان قصيدته التي يقول فيها:

قدِ استوى بشرٌ على العراقِ ... من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهراقِ

وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً، فإنه إنما يقال: استوى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه، كاستيلاء بشر على العراق، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه،

وعرش الرب تعالى لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً، حتى يقال: استوى عليه، أو معنى الاستواء الاستيلاء، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية، حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم.

وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم، فساءهم ذلك وهموا بالرجوع إلى بلادهم، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير:

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتَهُ ... هذا زمانكَ فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، فمرّ بهم عدي بن أرطاة فقال له جرير منشداً:

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتَهُ ... هذا زمانكَ إني قدْ مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنتَ لاقيَهُ ... أني لدى البابِ كالمصفودِ في قرنِ

لا تنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً ... قد طالَ مكثي عنْ أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، فقال: ويحك يا عدي، مالي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة فأعطاه حلة، فقال له عمر: أتروي منها شيئاً؟ قال: نعم فأنشده:

رأيتكَ يا خيرَ البريةِ كلها ... نشرتَ كتاباً جاءَ بالحقِّ معلَمَا

شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جوْرنا ... عَنِ الحقِّ لما أصبحَ الحقُّ مظلما

ونوّرتَ بالبرهانِ أمراً مدلّساً ... واطفأتَ بالقرآنِ ناراً تضرّما

فمن مبلغٌ عنّي النّبي محمداً ... وكلّ امرئٍ يجزى بما كانَ قدّما

أقمتَ سبيلَ الحقّ بعدَ اعوجاجهِ ... وكانَ قديماً ركنهُ قدْ تهدّما

تعالى علواً فوقَ عرشِ إلهنا ... وكانَ مكانُ اللّهِ أعلى وأعظَما

فقال عمر بن عبد العزيز: ويحك يا عدي من بالباب منهم؟ فقال: عمر بن أبي ربيعة، فقال أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبتْ كعاباً ... طفلةً ما تبينُ رجعَ الكلامِ

ساعةً ثم إنها بعدُ قالتْ ... ويلنا قد عجلتَ يا بنَ الكرامِ

أعلى غيرِ موعدٍ جئتَ تسري ... تتخطى إلي روسَ النيامِ

ما تجشمتَ ما تريدُ من الأمرِ ... ولا جئتَ طارقاً لخصامِ

ثم قال: فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه، لا يدخل والله عليّ أبداً، فمن بالباب سواه؟ قال: همام بن غالب - يعني الفرزدق - فقال عمر: أو ليس هو الذي يقول:

هما دلّياني من ثمانينَ قامةً ... كما انقضَّ بازٌ أقتمُ الريشِ كاسره

فلما استوتْ رجلاي بالأرضِ قالتا ... أحيٌ يُرجّى أم قتيلٌ نحاذره

لايطأ والله بساطي وهو كاذب، فمن سواه بالباب؟ قال: الأخطل، قال: أوليس هو القائل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعاً ... ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولستُ بزاجرٍ عَنْساً بكوراً ... إلى بَطحاءِ مكّةَ للنجاحِ

ولستُ بزائرٍ بيتاً بعيداً ... بمكةَ أبتغي فيهِ صلاحي

ولستُ بقائمٍ كالعيرِ أدعو ... قبيلَ الصبحِ حيّ على الفلاحِ

ولكني سأشربها شمولا ... وأسجدُ عندَ منبلجِ الصباحِ

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نعم الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

اللّهُ بيني وبينَ سيّدها ... يفرُّ منّي بها وأتبعهُ

فما هو دون من ذكرتَ، فمن ههنا غيره؟ قال جميل بن معمر، قال: الذي يقول:

ألا ليتَنا نحيا جميعاً وإن نَمُتْ ... يوافقُ في الموتى ضريحي ضريحها

فما أنا في طولِ الحياةِ براغبٍ ... إذا قيلَ سُوّيَ عَلَيها صفيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً! والله لا يدخل علي أبداً، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟ قلت: جرير، قال أما إنه الذي يقول:

طرقتكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حينَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فإن كان لا بد فاذن لجرير، فأذن له فدخل وهو يقول:

إن الذي بعثَ النبي محمداً ... جعلَ الخلافةَ للإمامِ العادلِ

وسع الخلائقَ عدلهُ ووفاؤهُ ... حتى ارعوى وأقامَ ميلَ المائلِ

إني لأرجو منكَ خيراً عاجلا ... والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ

فقال له عمر بن عبد العزيز: ويحك يا جرير، اتق الله فيما تقول. ثم إن جريراً استاذن عمر في الإنشاد فلم يأذن له ولم ينهه، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها، فقال له: ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً، فقال: إني مسكين وابن سبيل، فقال له: إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة، فأمر له بها، فخرج على الشعراء فقالوا: ماوراءك يا جرير؟ فقال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رقى الشيطانِ لاتستفزُّهُ ... وقد كانَ شيطاني مِنَ الجنّ راقيا

وقال بعضهم فيما حكاه المعافى بن زكريا الجريري: قالت جارية للحجاج بن يوسف في جرير: إنك تدخل هذا علينا، فقال: إنه ما علمت إلاّ عفيفاً، فقالت: أما إنك لو أخليتني وإياه سترى ما يصنع، فأمر بإخلائها مع جرير في مكان يراهما، ولا يشعر جرير بشيء من ذلك، فقالت له: يا جرير، فاطرق رأسه، وقال: هاأنذا، فقالت: أنشدني من قولك كذا وكذا من قولك كذا وكذا. لشعر فيه رقة وتَحَنُّن فقال: لست أحفظه ولكن أحفظ كذا وكذا - ويعرض عن ذاك وينشدها شعرا في مدح الحجاج - فقالت: لست أسألك هذا، ولكن عن كذا وكذا - فيعرض عن ذلك وينشدها في الحجاج - حتى انقضى المجلس فقال الحجاج: للّه درك، أبيت إلا كرماً وتكرماً.

وقال عكرمة أنشدت أعرابيا بيتا لجرير الخطفي:

أبُدّلَ الليلُ لا تسري كواكبهُ ... أو طالَ حتى حسبتُ النجمَ حيرانا

فقال الأعرابي: إن هذا حسن في معناه وأعوذ بالله من مثله، ولكني أنشدك في ضده من قولي:

وليـــلٍ لم يقصـــرهُ رقـــادٌ وقصـــرهُ لنـــا وصـــلُ الحبيـــبِ
نعيمُ الحُبِّ أورقَ فيـهِ حتـــى تناولنـــا جنـــاهُ مـــن قريـــبِ
بمجلـــسِ لـــذةٍ لم نقـــفُ فيـــهِ على شـــكوى ولا عيـــبِ الذنـــوبِ
فَخُلْنـــا أنْ نقطعـــهُ بلفـــظٍ فـــترجمتِ العيـــونُ عـــن القلـــوبِ

فقلت له: زدني، فقـال: أما من هـذا فحسبك ولكن أنشـدك غيره فأنشدني:

وكنـتُ إذا عقـــدتُ حبـــال قـــومٍ صحبتُهـــمْ وشـــيمتي الوفـــاءُ
فأحسـنُ حـينَ يحسـنُ محسـنوهمْ وأجتنـبُ الإسـاءةَ إنْ أسـاؤوا
أشـاءُ سـوى مشـيئتِهمْ فـآتي مشـيئتَهمْ وأتـركُ مـا أشـاءُ

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١/٣٢١]: كان جرير أشعر من الفرزدق عند الجمهور، وأفخر بيت قاله جرير:

إذا غضبـتْ عليـكَ بنـو تميـمٍ حسـبتَ النـاسَ كلَّهـمُ غِضَابـا

قال: وقد سأله رجل: من أشعر الناس؟ فأخذ بيده وأدخله على أبيه، وإذا هو يرتضع من ثدي عنز، فاستدعاه فنهض واللبن يسيل على لحيته، فقال جرير للذي سأله: أتبصر هذا؟ قال: نعم، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال: هذا أبي، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب فيطلبوا منه لبناً، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعراً فغلبهم.

وقد كان بين جرير والفرزدق مقاولات ومهاجاة كثيرة جداً يطول ذكرها، وقد ماتا في سنة عشر ومائة، قاله خليفة بن خياط وغير واحد.

قال خليفة [تاريخه: ٢/٤٩٨]: مات الفرزدق وجرير بعده بأشهر.

وقال الصولي: ماتا في سنة إحدى عشرة ومائة، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً.

وقال الكُدَيمي عن الأصمعي عن أبيه قال: رأى رجل جريراً في المنام بعد موته فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: بتكبيرة كبرتها بالبادية، قيل له: فما فعل الفرزدق؟ قال: أيهات أهلكه قذف المحصنات. قال الأصمعي: لم يدعه في الحياة ولا في الممات.

وأما

■ الفرزدق فاسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة أبو فراس بن أبي خطل التميمي البصري الشاعر المعروف بالفرزدق، وجده صعصعة بن ناجية صحابي، وفد إلى رسول الله ﷺ، وكان يحيي الموؤودة في الجاهلية.

حدث الفرزدق عن علي أنه ورد مع أبيه عليه، فقال: من هـذا؟ قال: ابني وهو شاعر. قال علِّمه القرآن فهو خير له من الشعر.

وسمع الحسين بن علي ورآه وهو ذاهب إلى العراق وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وعرفجة بن أسعد، وزرارة بن كرب، والطرماح بن عدي الشاعر.

وروى عنه خالد الحذاء ومروان الأصغر وحجاج بن حجاج الأحول، وجماعة، وقد وفد على معاوية يطلب ميراث عمه الحتات، وعلى الوليد بن عبد الملك قيل: وعلى أخيه هشام ولم يصح ذلك، وقال أشعث بن عبد الملك عن الفرزدق قال: نظر أبو هريرة إلى قدمي فقال: يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرتين فاطلب لهما موضعاً في الجنة، فقلت: إن ذنوبي كثيرة، فقال: لا تيأس فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها».

وقال معاوية بن عبد الكريم عن أبيه قال: دخلت على الفرزدق فتحرك فإذا في رجله قيد، فقلت: ما هذا؟ فقال: حلفت أن لا أنزعه حتى أحفظ القرآن.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت بدوياً أقام بالحضر إلا فسد لسانه إلا رؤبة بن العجاج والفرزدق فإنهما زادا على طول الإقامة جدة وحدة.

وقال راويته أبو شَفْقَل طلق الفرزدق امرأته النوار ثلاثاً ثم جاء فأشهد على ذلك الحسن البصري، ثم ندم على طلاقها وإشهاده الحسن على ذلك فأنشأ يقول:

ندمـتُ ندامـةَ الكُسَـعي لمـا غـدتْ مـني مطلقـةً نـوارُ
وكـانتْ جنـتي فخرجـتُ منهـا كـآدمَ حـينَ أخرجـهُ الضـرارُ
فلـو أنـي مَلَكـتُ يـدي وقلْبـي لَكـان علـيّ للقَـدَرِ الخِيـارُ

قوله: «الكُسَعيّ». والكُسعي كان رجلاً جاهلياً. وكان من أرمى العرب، فخرج يوماً متصيّداً في ضوء القمر، فعَنّ له حُمر وحشية فرماها، فأصاب منها حماراً فأنفذه، وخرج سهمه منه فأصاب صخرة فقدح ناراً، فظنّ أنه لم يُصب، فقال: أنا أرمي ولا أصيب! فقطع يده، فلما أصبح إذا الحمار مطروح وسهمه على جنبه، فندم على قطع يده.

وقال الأصمعي وغير واحد: لما ماتت النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق - وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري- فشهدها أعيان أهل البصرة والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق: ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس - يعنونك - وشر الناس يعنوني- فقال له: يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس، ثم قال له الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها لدفنها فأنشأ الفرزدق يقول:

أخـافُ وراءَ القـبرِ إنْ لمْ يعـافني أشـدَّ مِـنَ القـبرِ التهابـاً وأضيقـا
إذا جـاءني يـومَ القيامـةِ قـائدٌ عنيـفٌ وسـواقٌ يسـوقُ الفرزدقـا
لقدْ خـابَ مِـنْ أولادِ آدمَ مَـنْ مشـى إلى النـارِ مغلـولَ القـلادةِ أزرقـا
يسـاقُ إلى نـارِ الجحيـمِ مسـربَلاً سـرابيلَ قطـرانٍ لباسـاً مُخرقـا
إذا شـربوا فيهـا الصديـدَ رأيتهـمْ يذوبـونَ مِـنْ حـرِّ الصديـدِ تمزقـا

قال: فبكى الحسن حتى بل الثرى ثم التزم الفرزدق، وقال: لقد كنت من أبغض الناس إلي، وإنك اليوم من أحب الناس إلي.

وقال له بعضهم: ألا تخاف من الله في قذف المحصنات؟ فقال: والله لله أحب إلي من عيني اللتين أبصر بهما، فكيف يعذبني؟!

وقد قدمنا أنه مات سنة عشر ومائة وأنه توفي قبل جرير بأربعين يوماً، وقيل بأشهر والله أعلم.

وأما الحسن وابن سيرين فقد ذكرنا ترجمة كل منهما مبسوطة في كتابنا التكميل وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فأما

■ الحسن بن أبي الحسن: واسمه يسار أبو سعيد البصري مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى جابر بن عبد الله وقيل غير ذلك، وأمه خيرة مولاة أمّ سلمة كانت تخدمها، فربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن

وهو رضيع، فتشاغله أم سلمة بثديها فيدر عليه فيرتضع منها، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله ﷺ ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب، قال: اللّهم فقهه في الدين، وحببه إلى الناس.

وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال: سلوا عنها مولانا الحسن، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا.

وقال ابن مرة: إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين ـ الحسن وابن سيرين .

وقال قتادة: ما جالست رجلا فقيهاً إلا رأيت فضل الحسن عليه.

وقال أيضاً: ما رأت عيناي أفقه من الحسن.

وقال أيوب: كان الرجل يجالس الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن مسألة هيبة له.

وقال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة: إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن، فأقرأه مني السلام.

وقال يونس بن عبيد: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم يسمع كلامه ولم يَرَ عملَه.

وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ١٥٧/٧، ١٥٨]: قالوا: كان الحسن جامعاً للعلم والعمل، عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم والعمل فصيحاً جميلا وسيماً، وقدم مكة فأجلس على سرير، حوله، واجتمع الناس إليه فحدثهم وكان فيهم مجاهد وعطاء وطاوس وعمرو بن شعيب فقالوا: لم نر مثل هذا قط.

قال أهل التاريخ: مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة، عام عشر ومائة في مستهل رجب منها، بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم.

وأما

■ ابن سيرين: فهو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرة الأنصاري مولى أنس بن مالك البصري، كان أبو محمد من سبي عين التمر، أسره خالد بن الوليد في جملة السبي، فاشتراه أنس ثم كاتبه، ثم ولد له من الأولاد الأخيار جماعة، محمد هذا، وأنس بن سيرين، ومعبد ويحيى وحفصة وكريمة، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء رحمهم الله.

قال البخاري [التاريخ الصغير: ٢٨٠/١]: ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان.

وقال هشام بن حسان: هو أصدق من أدركت من البشر.

وقال محمد بن سعد [الطبقات:١٩٣/٧]: كان ثقة مأموناً عالياً رفيعاً فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً. وكان به صمم.

وقال مورق العجلي: ما رأيت رجلا أفقه في ورعه، وأورع في فقهه منه.

قال ابن عون: كان محمد بن سيرين أرجى الناس لهذه الأمة، وأشد الناس إزراءً على نفسه، وأشدهم خوفاً عليها.

قال ابن عون: لم أر في الدنيا مثل ثلاثة، محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد في الحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام. وكانوا يأتون بالحديث على حروفه.

وكان الشعبي يقول: عليكم بذاك الأصم ـ يعني محمد بن سيرين.

وقال ابن شوذب: ما رأيت أحداً أجرا على تعبير الرؤيا منه ولا أجبن عن فتيا منه.

وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه.

قالوا: ومات في تاسع شوال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم.

وفيها توفي

■ وهب بن منبه اليماني: وهو تابعي جليل، وله معرفة بكتب الأوائل، وهو يشبه كعب الأحبار، وله صلاح وعبادة، ويروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، وقد بسطنا ترجمته في كتابنا التكميل ولله الحمد.

قال الواقدي: توفي بصنعاء سنة عشر ومائة.

وقال غيره: بعدها بسنة، وقيل بأكثر، والله أعلم.

ويزعم بعض الناس أن قبره في بُصْرى بقرية يقال لها عصم، ولم أجد لذلك أصلا، والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى، حتى بلغ قيسارية من بلاد الروم.

وفيها عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمي عن إمرة خراسان وولّى عليها الجنيد بن عبد الرحمن، المري وولي الجراح بن عبد الله الحكمي أرمينية.

وفيها قصدت الترك بلاد أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم.

ولما وصل الجنيد بن عبد الرحمن إلى خراسان أميراً عليها تلقته خيول الأتراك منهزمين من المسلمين، وهو في سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالا شديداً، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم، ومعهم ملكهم خاقان، فكاد الجنيد أن يهلك، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة، وأسر ابن أخي ملكهم، وبعث به إلى الخليفة.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وهو أمير الحرمين والطائف، وأمير العراق خالد بن عبد الله القسري، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المري.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح حصوناً من ناحية ملاطية.

وفيها سارت الترك من اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه، فاستشهد الجراح رحمه الله وجماعة معه بمرج أردبيل، وأخذ العدو أردبيل. فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الحرشي في جيش سريعاً، فلحق الترك وهم يسيرون بأسارى المسلمين إلى نحو ملكهم خاقان، فاستنقذ منهم من كان معهم من المسلمين، ومن أهل الذمة أيضاً، وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبراً، وشفى ما كان تغلث من القلوب، ولم يكتف هشام بن عبد الملك بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك، فسار إليهم في برد شديد وشتاء عظيم، فوصل إلى باب الأبواب واستخلف عنده أميراً وسار هو بمن معه في طلب الأتراك وملكهم خاقان، وكان من أمره معهم ما سنذكره.

ونهض أمير خراسان في طلب الأتراك أيضاً في جيش كثيف، فوصل إلى نهر بلخ ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفاً، وأخرى عشرة آلاف يمنة

ويسرة، وجاشت الترك، فأتوا سمرقند فكتب أميرها إليه يعلمه بهم، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم، ومعهم ملكهم الأعظم خاقان، فالغوث الغوث.

فسار الجنيد مسرعاً في جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقي بينه وبينها أربعة فراسخ، فصبحه خاقان في جمع عظيم، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فانحازوا إلى العسكر والترك تتبعهم من كل جانب، فتراءى الجمعان والمسلمون يتغدون ولا يشعرون بانهزام مقدمتهم وانحيازها إليهم، فنهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم، وذلك في مجال واسع، ومكان بارز، فالتقوا فحملت الترك على الميمنة وفيها بنو تميم والأزد، فقتل منهم ومن غيرهم خلق كثير، ممن أراد الله تعالى كرامته بالشهادة، وقد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم، فناداه ترجمان الملك: إن صرت إلينا جعلناك فيمن يرفض الصنم الأعظم فنعبدك. فقال: ويحكم، إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله. ثم تناخى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان، وصبروا وصابروا، وحملوا على الترك حملة رجل واحد، فهزمهم الله عز وجل، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً حتى لم يبق سوى ألفين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة فحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشعب. وقد بسطها ابن جرير [تاريخه: ٧/٧٠-٧١] جداً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **رجاء بن حيوة الكندي**: أبو المقدام، ويقال أبو نصر، وهو تابعي جليل، كبير القدر، ثقة فاضل عادل، وزير صدق لخلفاء بني أمية، وكان مكحول إذا سئل يقول: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه في الرواية، وله روايات وكلام حسن رحمه الله.

■ **شهر بن حوشب الأشعري الحمصي**: ويقال إنه دمشقي، تابعي جليل، روى عن مولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرها، وحدث عنه جماعة من ثقات التابعين وغيرهم، وكان عالماً عابداً ناسكاً، لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بغير إذن ولي الأمر، فعابوه، وتَرَكوا عِرْضَه وتركوا حديثه وأنشدوا فيه الشعر، منهم شعبة وغيره، ويقال إنه سرق غيرها فالله أعلم. وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثنوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده، وقالوا: لا يقدح في روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه، وقد كان والياً عليه متصرفاً فيه فالله أعلم.

قال الواقدي: توفي شهر في هذه السنة - أعني سنة اثنتي عشرة ومائة وقيل قبلها بسنة وقيل سنة مئة، والله فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش، وفيها صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها، وقد أخذ أميرها رجلاً منهم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك.

وفيها وغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الترك وقتل منهم خلقاً كثيراً وأمماً منتشرة حتى قتل ابن خاقان وفتح بلاداً كثيرة، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها.

وفيها حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك. قاله الواقدي وأبو معشر.

وحكى ابن جرير [تاريخه: ٨٩/٧] عن بعضهم أنه حج بالناس إبراهيم بن هاشم بن إسماعيل المخزومي: فالله أعلم.

ونواب البلاد هم الذين في التي قبلها.

وممن توفي فيها من الأعيان

قال ابن جرير: فيها كان مهلك: **الأمير**

■ **عبد الوهاب بن بخت**: وهو مع البطال عبد الله بأرض الروم قتل شهيداً وهذه ترجمته: هو عبد الوهاب بن بخت أبو عبيدة ويقال أبو بكر، مولى آل مروان مكي، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة، روى عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجماعة من التابعين. وعنه خلق منهم أيوب السختياني ومالك بن أنس ويحيى بن سعيد الأنصاري وعبيد الله العمري، حديثه عن أنس مرفوعاً: «نضّر الله امرأً سمع مقالتي هذه فوعاها ثم بلغها غيره، فرُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» [ج مختصرا (٢٣٦) أحمد: ٢٢٥/٣] .

وروى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه فإن حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه» [د (٥٢٠٠)].

وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعات من أئمة العلم.

وقال مالك: كان كثير الحج والعمرة والغزو، حتى استشهد ولم يكن أحق بما في رحله من رفقائه.

وكان سمحاً جواداً، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبي محمد عبد الله البطال في بلاد الروم ودفن هناك رحمه الله تعالى.

وكانت وفاته في هذه السنة قاله خليفة وغيره، وذلك أنه لقي العدو ففر بعض المسلمين، فجعل ينادي ويركض فرسه نحو العدو: أن هلموا إلى الجنة، ويحكم أتفرُّون من الجنة؟ أتفرون من الجنة؟ إلى أين ويحكم لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء؟ ثم قاتل حتى قتل رحمه الله.

■ **مكحول الشامي**: تابعي جليل كبير القدر، إمام أهل الشام في زمانه، وكان مولى لامرأة من هذيل، وقيل مولى امرأة من آل سعيد بن العاص، وكان نوبياً، وقيل من سبي كابل، وقيل كان من الأبناء من سلالة الأكاسرة وقد ذكرنا نسبه في كتابنا التكميل.

وقال محمد بن إسحاق: سمعته يقول: طفت الأرض كلها في طلب العلم.

وقال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالحجاز، والحسن البصري بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام.

وقال بعضهم: كان لا يستطيع أن يقول: قل، وإنما يقول: كل. وكان له وجاهة عند الناس، مهما أمر به من شيء في الشام يُفعل.

وقال سعيد بن عبد العزيز: كان أفقه أهل الشام، وكان أفقه من الزهري.

وقال غير واحد: توفي في هذه السنة، وقيل بعدها فالله أعلم.

مكحول الشامي هو ابن أبي مسلم، واسم أبي مسلم شهزاب بن شاذل. كذا نقلته من خط ابن عبد الهادي.

وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال: من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زيد في عقله. وقال مكحول في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال: بارد الشراب، وظلال المساكن وشبع البطون، واعتدال الخلق، ولذاذة النوم.

وقال: إذا وضع المجاهدون أثقالهم عن دوابهم أتتها الملائكة، فمسحت ظهورها ودعت لها بالبركة، إلا دابة في عنقها جرس.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وعلى اليمنى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان.

وفيها التقى عبد الله البطال وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين، وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي ﷺ فأسره البطال، فأرسله إلى سليمان بن هشام، فسار به إلى أبيه.

وفيها عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، وولى عليها أخاه محمد بن هشام فحج بالناس في هذه السنة في قول.

وقال الواقدي وأبو معشر: إنما حج بالناس في هذه السنة خالد بن عبد الملك بن مروان والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عطاء بن أبي رباح: الفهري مولاهم أبو محمد المكي، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال: إنه أدرك مائتي صحابي.

وقال محمد بن سعد: سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود أعور أفطس أشل أعرج، ثم عمي بعد ذلك، وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث.

وقال أبو جعفر الباقر وغير واحد: ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حج سبعين حجة، وعمر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف ويفدي عن إفطاره، ويتأول الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] وكان ينادي منادي بني أمية في أيام منى: لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح.

وقال أبو جعفر الباقر: ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه.

وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس به صلاة.

وقال قتادة: كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار.

وقال عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أكن سمعته، وقد سمعته قبل أن يولد، فأريه أني إنما سمعته الآن منه. وفي رواية: أنا أحفظ منه له فأريه أني لم أسمعه.

الجمهور على أنه مات في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها وقع طاعون بالشام.

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل وهو نائب الحرمين والطائف.

والنواب في سائر البلاد هم المذكورون في التي قبلها والله أعلم

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو جعفر الباقر: وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي، وهو تابعي جليل القدر كثير العلم، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملا وعبادة ونسباً وشرفاً، وهو أحد من تدعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر، وذلك عنه صحيح في الأثر.

وقال أيضاً: ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما. رضي الله عنهما وعنه.

وقد روى عن غير واحد من الصحابة، وحدث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم.

فممن روى عنه ابنه جعفر الصادق، والحكم بن عتيبة، وربيعة والأعمش، والأوزاعي والأعرج، وهو أسن منه، وابن جريج وعطاء وعمرو بن دينار والزهري وأبو إسحاق السبيعي.

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال: حدثني أبي وكان خير محمدي على وجه الأرض.

وقال العجلي: هو مدني تابعي ثقة.

وقال محمد بن سعد [الطبقات: ٣٢٤/٥]: كان ثقة كثير الحديث.

وكانت وفاته في هذه السنة في قول وقيل: في التي قبلها، وقيل: في التي بعدها أو في التي هي بعدها أو بعد بعدها فالله أعلم، وقد جاوز السبعين وقيل لم يجاوز الستين والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست عشر ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة.

وفيها وقع طاعون بالشام والعراق، وكان معظم ذلك في واسط.

وفي المحرم منها توفي

■ الجنيد بن عبد الرحمن المري أمير خراسان من مرض أصابه في بطنه، وقد كان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فتغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فعزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان، وقال له: إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه. فما قدم عاصم بن عبد الله أرض خراسان حتى مات الجنيد في المحرم منها بمرو، وقد قال فيه أبو الجويرية عيسى بن عصبة يرثيه:

هلك الجود والجنيد جميعا ... فعلى الجود والجنيد السلام

أصبحا ثاويين في بطن مرو ... ما تغنى على الغصون الحمام

كنتما نزهة الكرام فلما ... مت مات الندى ومات الكرام

ولما قدم عاصم بن عبد الله خراسان أخذ نواب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات، وعسفهم في المصادرات والجنايات، فخرج عن طاعته الحارث بن سريج وبارزه بالحرب، وجرت بينهم أمور يطول ذكرها، ثم آل الأمر إلى ان انكسر الحارث بن سريج وظهر عاصم عليه.

قال الواقدي: وفي هذه السنة حج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو ولي الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى.

وفيها بعث مروان بن محمد وهو على أرمينية بعثين ففتح حصوناً من بلاد اللان، ونزل كثير منهم على الإيمان.

وفيها عزل هشام عاصم بن عبد الله الهلالي عن إمرة خراسان وضمها إلى خالد بن عبد الله القسري مع العراق معادة إليه جرياً على ما سبق له من العادة وكان ذلك عن كتاب عاصم بن عبد الله الهلالي إن ولاية خراسان لا تصلح إلا مع ولاية العراق، فأجابه هشام إلى ذلك قبولا لنصيحته.

وفيها توفي

■ قتادة بن دعامة السدوسي: أبو الخطاب البصري الأعمى، أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين.

روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين، منهم سعيد بن المسيب، وأبو العالية وزرارة بن أوفى، وعطاء ومجاهد ومحمد بن سيرين ومسروق، وأبو مجلز وغيرهم، وحدث عنه جماعات من الكبار كأيوب وحماد بن سلمة وحميد الطويل وسعيد بن أبي عروبه، والأعمش وشعبة والأوزاعي والليث، ومسعر، ومعمر وهمام.

قال سعيد بن المسيب: ما جاءني عراقي أفضل منه.

وقال بكر المزني: ما رأيت أحفظ منه.

وقال محمد بن سيرين: وهو من أحفظ الناس.

وقال مطر الوراق: كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه.

وقال الزهري: هو أعلم من مكحول.

وقال معمر: ما رأيت أفقه من الزهري وحماد وقتادة وقال قتادة. ما سمعت شيئاً إلا وعاه قلبي.

وقال أحمد بن حنبل: هو أحفظ أهل البصرة وقال: قلّما تجد مَن يتقدّمه، أمّا المِثْل فلعل لا يسمع شيئاً إلا حفظه.

وقرأ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها وكان من العلماء وذكر يوماً فأثنى على علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك.

وقال أبو حاتم: كانت وفاته بواسط في الطاعون - يعني في هذه السنة - وعمره ست أو سبع وخمسون سنة.

وفيها توفي:

■ أبو الحباب سعيد بن يسار والأعرج.

و■ ابن أبي مليكة.

و■ عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي. وميمون بن مهران.

و■ موسى بن وردان.

■ (ميمون بن مهران) [هذه الترجمة زيادة من الناسخ]

يقول: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، حتى يعلن من أين مطعمه، ومن أين مشربه، أمن حلال ذلك أم من حرام؟ وقال أبو زرعة الدارمي: حدثنا سعيد بن حفص النفيلي حدثنا أبو المليح عن ميمون قال: الفاسق بمنزلة السبع فإذا كلمت فيه فخليت سبيله فقد خليت سبعاً على المسلمين وقال جعفر بن برقان: قلت لميمون بن مهران: إن فلاناً يستبطىء نفسه في زيارتك، قال: إذا ثبتت المودة في القلوب فلا بأس وإن طال المكث. وقال أحمد: حدثنا ميمون الرقي حدثنا الحسن أبو المليح عن ميمون قال: لا تجد غريماً أهون عليك من بطنك أو ظهرك. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن ميمون حدثنا الحسن عن حبيب بن أبي مرزوق قال: رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له: ما هذا؟ قال: نعم! فلا تخبر به أحدا وقال عبد الله بن أحمد: حدثني يحيى بن عثمان حدثنا أبو المليح عن ميون قال: ما أساء سراً فليتب سراً، ومن أساء علانية فليتب علانية، فإن الله يغفر ولا يعير، وإن الناس يعيرون ولا يغفرون.

وقال جعفر قال ميمون: في المال ثلاث آفات، إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين، وإن نجا من اثنتين كان قميناً أن لا ينجو من الثالثة، ينبغي أن يكون حلالا طيباً، فأيكم الذي يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيباً؟ فإن سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله، فإن سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر. وقال: سمعت ميموناً يقول: أهون الصوم ترك الطعام والشراب. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا يحيى بن عثمان الحربي حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران قال: ما نال رجل من جسيم الخير نبي أو غيره إلا بالصبر. وبهذا الإسناد قال: الدنيا حلوة خضرة قد حفت بالشهوات، والشيطان عدو حاضر، فيظن أن أمر الآخرة آجل، وأمر الدنيا عاجل. وقال يونس بن عبيدة: كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران فكتب إليه أسأله عن أهله، فكتب إلي: بلغني كتابك تسألني عن أهلي، وأنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً، وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدبر لم يسرني أنه لم يكن، وأما أنت فعليك بكتاب الله، فإن الناس قد بهتوا عنه - يعني أيسوا - واختاروا الأحاديث، أحاديث الرجال، وإياك والمرائي في الدين. قال أبو عبيد في الغريب بهتوا به مهموزا، ومعناه أنسوا به.

وقال عمرو بن ميمون: كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة فلقي أبي شيخ فعانقه ومع الشيخ فتى نحو مني، فقال له أبي: من هذا؟ قال: ابني. فقال: كيف رضاك عنه؟ فقال: ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه، إلا واحدة. قال: وما هي؟ قال: أن يموت فأوجر فيه - أو قال فأحتسبه - ثم فارقه أبي، فقلت: من هذا الشيخ؟ فقال: مكحول. وقال: شر الناس العيابون، ولا يلبس الكتاب إلا غني أو غوي

وروى الإمام أحمد عنه قال: يا ابن آدم خفف عن ظهرك فإن ظهرك لا يطيق كل هذا الذي يحمل، ومن ظلم هذا، وأكل مال هذا، وغشم هذا، وكل هذا على ظهرك تحمله، فخفف عن ظهرك. وقال: إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل وقال: ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم. وروى عبد الله بن أحمد عنه أنه قرأ: ﴿وامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ثم فارق حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه. وقال أبو عوانة: حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا

قتيبة بن سعيد حدثنا خالد عن حصين بن عبد الرحمن عن ميمون قال: أربع لا تكلم فيهم: علي، وعثمان والقدر، والنجوم، وقال: احذروا كل هوى يسمى بغير الإسلام.

وروى شبابة عن فرات بن السائب قال: سألت ميمون أعليّ أفضل عندك أم أبو بكر وعمر؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال: ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهما غيرهما، إنهما كانا رداءي الإسلام، ورأس الإسلام، ورأس الجماعة. فقلت: فأبو بكر كان أول إسلاماً أم علي؟ فقال: والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرا الراهب حين مر به، وكان أبو بكر هو الذي يختلف بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه. وذلك كله قبل أن يولد علي، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك. وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «قل ما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال أو أخ يوثق به» وروي عن ابن عمر أيضاً عن النبي ﷺ قال: «شر المال في آخر الزمان المماليك» وروى ابن أبي الدنيا عنه قال: من طلب مرضاة الإخوان بلا شيء فليصادق أهل القبور. وقال: من ظلم أحداً ففاته أن يخرج من مظلمته فاستغفر له دبر كل صلاة خرج من مظلمته. وهذا إن شاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم. وقال ميمون: القاتل والآمر والظالم والمأمور والراضي بالظلم، كلهم في الوزر سواء وقال: أفضل الصبر الصبر على ما تكره نفسك من طاعة الله عز وجل.

روى ميمون عن جماعة من الصحابة، وكان يسكن الرقة، رحمه الله تعالى.

نافع مولى ابن عمر: أبو عبد الله المدني أصله من بلاد المغرب، وقيل من نيسابور، وقيل من كابل وقيل غير ذلك. روى عن مولاه عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة، مثل رافع بن خديج، وأبي سعيد وأبي أمامة وأبي هريرة وعائشة أم سلمة وغيرهم: وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم، وكان من الثقات النبلاء، والأئمة الأجلاء قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وقال غيره. كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه ومات في هذه السنة على المشهور رحمه الله.

وممن توفي سنة سبع عشرة ومائة:

ذو الرمة الشاعر واسمه غيلان بن عتبة بن بهيس، من بني عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مضر أبو الحارث أحد فحول الشعراء، وله ديوان مشهور، وكان يتغزل في مية بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، وكانت جميلة، وكان هو دميم الخلق أسود اللون، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ولم يكن رآها قط ولا رأته وإنما كانت تسمع به ويسمع بها، ويقال: إنها كانت تنذر إن هي رأته أن تذبح جزوراً فلما رأته قالت: وا سوأتاه وا سوأتاه، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة، فأنشأ يقول:

على وجه مي لمحة من حلاوة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا

قال فانسلخت من ثيابها فأنشأ يقول:

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيض صافيا

فقالت: تريد أن تذوق طعمه؟ فقال: إي والله، فقالت: تذوق الموت قبل أن تذوقه

فأنشأ يقول:

فوا ضيعة الشعر الذي راح وانقضى ... بمي ولم أملك ضلال فؤاديا

قال القاضي ابن خلكان: ومن شعره السائر بين الناس ما أنشده

إذا هبت الأرواح من نحو جانب ... به أهل مي هاج شوقي هبوبها

هوى تذرف العينان منه وإنما ... هوى كل نفس أين حل حبيبها

وأنشد عند الموت:

يا قابض الأرواح في جسمي إذا احتضرت ... وغافر الذنب زحزحني عن النار

ثم دخلت سنة ثماني عشرة ومائة

وفيها غزا معاوية وسليمان ابنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بلاد الروم، وفيها قصد شخص يقال له: عمار بن يزيد، ثم سمي بخداش، إلى بلاد خراسان فدعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاستجاب له خلق كثير، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخرمية الزنادقة، وأباح لهم نساء بعضهم بعضا، وزعم لهم أن محمد بن علي يقول ذلك وقد كذب عليه فأظهر الله عليه الدولة فأخذ فجيء به إلى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق وخراسان، فأمر به فقطعت يده وشل لسانه ثم صلب بعد ذلك لعنه الله. وفيها حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة ومكة والطائف، وقيل إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك بن مروان، والصحيح أنه كان قد عزل وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل، وكانت إمرة العراق إلى خالد بن عبد الله القسري ونائبه على خراسان وأعمالها أخوة أسد بن عبد الله القسري.

وفيها كانت وفاة

علي بن عبد الله بن عباس: بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي أبو الحسن، ويقال أبو محمد، وأمه زرعة بنت مسرح بن معديكرب الكندي، أحد الملوك الأربعة الأقيال المذكورين في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وهم مسرح، وحمد ومخوس وأبضعه: وأختهم العمردة وكان مولد علي هذا ليلة قتل علي بن أبي طالب، فسماه أبوه باسمه، وكناه بكنيته، وقيل إنه ولد في حياة علي وهو الذي سماه وكناه ولقبه بأبي الأملاك، فلما وفد على عبد الملك بن مروان أجلسه معه على السرير وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره. فقال له: ألك ولد؟ قال: نعم ولد لي ولد سميته محمداً، فقال له: أنت أبو محمد، وأجزل عطيته، وأحسن إليه. وقد كان علي هذا في غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والعدالة والثقة كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، قال عمرو بن علي الفلاس: كان من خيار الناس، وكانت وفاته بالحميمة من أرض السراة من هذه السنة، وقد قارب الثمانين وذكر القاضي ابن خلكان أنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر، التي كانت تحت عبد الملك بن مروان، فطلقها، وكان سبب طلاقه إياها أنه عض تفاحة ثم رمى بها عبد الملك إليها فأخذت السكين فألقت ما مس فمه منها، فقال: ولم تفعلين هذا؟ فقالت: أزيل الأذى عنها ـ وذلك لأنه كان أبخر ـ فطلقها عبد الملك، فلما تزوجها علي بن عبد الله بن عباس هذا نقم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك، فضربه بالسياط، وقال إنما أردت أن تذل بنيها من الخلفاء،

وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال: الخلافة صائرة إلى بيته، فوقع الأمر كذلك. وذكر المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناه السفاح والمنصور وهما صغيران، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه وأطلق له مائة وثلاثين ألفاً، وجعل علي بن عبد الله يوصيه بابنيه خيراً، ويقول: إنهما سيليان الأمر، فجعل هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه في ذلك إلى الحمق، فوقع الأمر كما قال قالوا: وقد كان علي في غاية الجمال وتمام القامة، كان بين الناس كأنه راكب، وكان إلى منكب أبيه عبد الله وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب، وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن يموت عليّ هنا قيل هذه السنة بسنوات، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده عبد الله أبو العباس السفاح، وكان ظهوره في سنة اثنتين وثلاثين على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومن توفي في هذه السنة

عمرو بن شعيب، وعبادة بن نسي، وأبو صخرة جامع بن شداد، وأبو عشانة المعافري.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

وفيها غزا الوليد بن القعقاع العبسي أرض الروم. وفيها قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم وهو خاقان، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله على العراق، ثم سار بجيوشه إلى مدينة ختل فافتتحها، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان بأن جيش أسد قد تفرق في بلاد ختل، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد بن عبد الله وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً، وقديداً وملحاً وساروا في خلق عظيم، وجاءت العين الصافية إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم كثيف، فتجهز لذلك وأخذ أهبته، فأرسل من فوره إلى أطراف جيشه، فلمها عليه وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعوا إلى أسد، فرد الله كيدهم في نحورهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقاً على عدوهم، وعزموا على الأخذ بالثأر، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد بن عبد الله، فإذا هو حي قد اجتمعت عليه العساكر من كل جانب، وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح، وأراد أن يخوض نهر بلخ، وكان معهم أغنام كثيرة فكره أسد أن يتركها وراء ظهره، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة على عنقه، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دهم، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة، فلما وقفوا على حافة النهر احجموا وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر، فتشاور الأتراك فيما بينهم، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة ـ وكانوا خمسين ألفاً فيقتحموا النهر، فضربوا بكوساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية رجل واحد فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون في معسكرهم، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه، فبات الجيشان تتراءى نارهما، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي للمسلمين فقتل منهم خلقاً وأسر أمماً وأخذ أموالاً كثيرة وإبلاً موقرة ثم إن الجيشين تواجهوا في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن يصلوا صلاة العيد، فما صلوها إلا على وجل.

ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ، حتى انقضى الشتاء، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم في لقاء خاقان، فمنهم قال: فتحصّن ببلخ، ومن قائل يشير بالذهاب إلى مرو، وأشار آخرون بملتقاه والتوكل على الله فوافق ذلك رأي أسد الأسْد، فقصد بجيشه نحو خاقان، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما ثم دعا بدعاء طويل ثم انصرف وهو يقول: نُصرتم إن شاء الله تعالى ثلاثاً، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه، ثم ساق أسد فانتهى إلى أغنامهم فاستاقها، فإذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة، ثم التقى معهم، وكان خاقان في هذا اليوم إنما معه أربعة آلاف أو نحوها، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه، يقال له الحارث بن سُريج، فهو يدله على عورات المسلمين، فلما اقتتل الناس هربت الأتراك في كل جانب، وانهزم خاقان ومعه الحارث بن سريج المذكور يحميه ويثبته، فتبعهم أسد فلما كان عند الظهيرة انخذل خاقان في أربعمائة من أصحابه، عليهم الخز ومعهم الكؤوسات فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤوسات فضربت ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الانصراف، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه بما فيه من الأمتعة العظيمة، والأواني من النقد، والنساء والصبيان، من الأتراك ومن معهم من الأسارى من المسلمات وغيرهم، مما لا يحد ولا يوصف لكثرته وعظم قيمته وحسنه. غير أن خاقان كان قد ضرب امرأته بخنجر فقتلها، فوصل المسلمون إلى المعسكر وهي بآخر رمق تتحرك ووجدوا قدورهم تغلي بأطعماتهم، وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض أمرائه فغلبه الأمير فتوعده خاقان بقطع اليد، فحنق عليه ذلك الأمير ثم عمل على قتله فقتله، وتفرقت الأتراك فرقاً يعدو بعضهم على بعض، وينهب بعضهم بعضاً وبعث أسد إلى أخيه خالد يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان، وبعث إليه بطوق خاقان ـ وكانت كباراً لها أصوات كالرعد وبشيء كثير من حواصله وأمتعته، فوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحاً شديداً جدّاً، وأطلق للرسل أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المال وقد قال بعض الشعراء في أسد يمدحه على ذلك:

لو سرت في الأرض تقيس الأرضا تبين منها طولها والعرضا
لم تلق خيراً برَّةً ونقضا من الأمير أسد وأمضى
أفضى إلينا الخير حين أفضى وجمع الشمل وكان رَفْضا
ما فاته خاقان إلا ركضا قد فض من جوعه ما فضا
يا ابن سُريج قد لقيت حمضا حمضا به يُشفى صداع المرضى

وفيها قتل خالد بن عبد الله القسري أمير العراق المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابعوه على باطله، وكان هذا الرجل ساحراً فاجراً شيعياً خبيثاً.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٢٨/٧]: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن الأعمش قال: سمعت المغيرة بن سعيد يقول: لو أراد عليٌ أن يحيي عاداً

وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لأحياهم.

قال الأعمش: وكان المغيرة هذا يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور او نحوا من هذا الكلام.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ١٢٨/٧] له غير ذلك من الأحوال التي تدل على سحره وفجوره. ولما بلغ خالداً أمره أمر بإحضاره فجيء به في ستة نفر أو سبعة نفر، فأمر خالد فأبرز سريره إلى المسجد، وأمر بإحضار أطنان القصب والنفط فصب فوقها، وأمر المغيرة أن يحتضن طناً منها، فامتنع فضرب حتى احتضن منها طنباً واحداً وصب فوق رأسه النفط، ثم أضرم بالنار وكذلك فعل ببقية أصحابه قبحهم الله

وفي هذه السنة خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ويلقب بكُثارة واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة، وقصدوا قتل خالد بن عبد الله القسري فبعث إليهم البعوث فكسروا الجيوش واستفحل أمرهم جداً لشجاعتهم وجلدهم، وقلة نصح من يقاتلهم من الجيوش، فردوا العساكر من الألوف المؤلفة، الموقرة بالأسلحة والخيل المسمومة ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة هشام، فقصدوا نحوها، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة فاقتتلوا معهم قتالا عظيماً، فقتلوا عامة أصحاب بهلول الخارجي. ثم إن رجلا من جديلة يكنى أبا الموت ضرب بهلولا ضربة فصرعه وتفرق بقية أصحابه وكان جميعهم سبعين رجلا، وقد رثاهم بعض أصحابهم فقال

بدلت بعد أبي بشرٍ وصحبته ... قوماً عليَّ مع الأحزاب أعوانا
بانوا كأن لم يكونوا من صحابتنا ... ولم يكونوا لنا بالأمس خلانا
يا عين أذري دموعاً منك تهتانا ... وابكي لنا صحبة بانوا وإخوانا
خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها ... وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم فقاتلوا وقتلوا وقُتلوا وجهزت إليهم العساكر من عند خالد القسري، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ولم يبق لهم باقية ولله الحمد والمنة.

وفيها غزا أسد القسري بلاد الترك، فعرض عليه ملكهم بدر طرخان خان ألف ألف فلم يقبل منه شيئاً، وأخذه قهراً فقتله صبراً بين يديه، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله ونساءه وأمواله.

وفيها خرج الصُّحاري بن شبيب الخارجي واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلا، فبعث إليهم خالد بن عبد الله القسري جنداً فقتلوه وجميع أصحابه، فلم يتركوا منهم رجلا واحداً ولله الحمد والمنة.

وحج بالناس في هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك، وحج معه ابن شهاب الزهري ليعلمه مناسك الحج، وكان أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وأمير العراق والمشرق وخراسان خالد بن عبد الله القسري، ونائبه على خراسان بكمالها أخوه أسد بن عبد الله القسري، وقد قيل إنه توفي في هذه السنة، وقيل لم يتوف أسد إلا في سنة عشرين فالله أعلم، ونائب أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد الملقب بالحمار والله أعلم

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم وافتتح هنالك حصوناً.

وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلي قلاع تومان شاه، وافتتحها وخرب أراضيه.

وفيها غزا مروان بن محمد الحمار بلاد الترك.

وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان وكان سبب وفاته أنه كانت له دبيلة في جوفه، فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين وهم أمراء المدن الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد، وكان ممن قدم نائب هراة ودهقانها، خراسان شاه، فقدم بهدايا عظيمة وتحف غزيرة، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب وقصر من فضة، وأباريق من ذهب، وصحاف من ذهب وفضة، وتفاصيل من جرير تلك البلاد الوان ملونة، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ المجلس، ثم قام الدهقان خطيباً فامتدح أسداً بخصال حسنة، من عقله ورياسته وعدله ومنعه أهله وخاصته أن يظلموا أحداً من الرعايا بشيء قل أو كثر، وأنه قهر الخان الأعظم وكان في مائة ألف فكسره وقتله، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال، وهو بما خرج من عنده أفرح وأشدُ سروراً فأثنى عليه أسد وأجلسه ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هنالك أجمع على الأمراء والأكابر بين يديه، حتى لم يبق منه شيء، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدبيلة، ثم أفاق إفاقة وجيء بهدية كُمثرى فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة، فألقى إلى دهقان خراسان واحد فانفجرت دبيلته فكان فيها حتفه واستخلف على عمله جعفر بن حنظلة البهراني، فمكث أميراً أربعة أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار في رجب منها، فعلى هذا تكون وفاة أسد في صفر من هذه السنة، وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه:

نعى أسد بن عبد الله ناع ... فريع القلب للملك المطاع
ببلخ وافق المقدار يسري ... وما لقضاء ربك من دفاع
فجودي عين بالعبرات سَحَّاً ... ألم يحزنك تفريق الجماع
أتاه حمامه في جوف صيغ ... وكم بالصِّيْغِ من بَطَلٍ شجاعٍ
كتائب قد يجيبون المنادي ... على جُرْدٍ مسوَّمةٍ سراع
سقيت الغيث إنك كنت غيثاً ... مريعاً عند مرتاد النّجاع

وفيها عزل هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين خالد بن عبد الله القسري عن نيابة العراق، وذلك لأنه انحصر منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه، وأنه كان يقول عنه: إنه ابن الحمقاء، وكتب إليه كتاباً فيه غلظة، فرد عليه هشام رداً عنيفاً، ويقال: إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات، حتى قيل: إنه كان دخله في كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار، وقيل درهم، ولولده يزيد بن خالد عشرة آلاف ألف.

وقيل: إنه وفد إليه رجل من ألزام أمير المؤمنين من قريش يقال له: ابن عمرو، فلم يرحب به ولم يعبأ به، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك، أنه حال وصول هذا الكتاب إليه من ليل أو نهار يقوم من فوره بمن حوله من أهل مجلسه فينطلق على قدميه حتى يأتي باب ابن عمرو صاغراً ذليلاً مستأذناً عليه، متنصلاً إليه مما وقع، فإن أذن لك وإلا فقف على ببابه حولاً غير متحلحل من مكانك ولا زائل، ثم أمْرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقاك وإن شاء انتصر، وإن شاء عفا. وكتب إلى ابن عمرو يعلمه بما كتب إلى خالد، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطا على رأسه، إن رأى ذلك مصلحة.

ثم إن هشاماً عزل خالداً وأخفى ذلك، وبعث البريد إلى نائبه على

اليمن وهو يوسف بن عمر فولاه إمرة العراق، وأمره بالمسير إليها والقدوم عليها في ثلاثين راكباً من أصحابه، فقدموا الكوفة وقت السحر، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالإقامة: فقال: إلى أن يأتي الإمام - يعني خالداً - فانتهره وأمره بالإقامة وتقدم يوسف فصلى وقرأ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] و﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] ثم انصرف فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما، فأحضروا فأخذ منهم أموالا كثيرة، صادر خالداً بمائة ألف ألف درهم وكانت ولاية خالد في شوال سنة خمس ومائة، وعُزل عنها في جمادي الأولى من هذه السنة - أعني سنة عشرين ومائة.

وفي هذا الشهر قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد اللّه القسري، واستناب على خراسان جديع بن علي الكرماني، وعزل جعفر بن حنظلة الذي كان استنابه أسد بن عبد اللّه.

ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعاً في هذه السنة عن خراسان، وولى عليها نصر بن سيار، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأملاك وهلة واحدة، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه، فما أحب منها أخذه وما شاء ترك، وقالوا له: لأن يذهب البعض ويبقى البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والإخراق فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل، ففجأه العزل، وذهب ما كان حصله وجمعه ومنعه، واستقرت ولاية يوسف بن عمر على العراق وخراسان، واستقرت ولاية نصر بن سيار نائباً على خراسان، فتمهدت البلاد وأمن العباد وللّه الحمد والمنة، وقد قال سوار بن الأشعر في ذلك:

أضحت خراسان بعد الخوف آمنةً ... من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت ... اختار نصراً لها نصر بن سيار

وفي هذه السنة استبطأت شيعة آل العباس كتاب محمد بن علي إليهم، وقد كان عتب عليهم في اتباعهم ذلك الزنديق الملقب بخداش، وكان خرمياً، وهو الذي أحل لهم المنكرات ودنس المحارم والمصاهرات، فقتله خالد القسري كما تقدم، فعتب عليهم محمد بن علي في تصديقهم له واتباعهم إياه على الباطل، فلما استبطؤوا كتابه إليهم بعث إليهم رسولا يخبر لهم أمره، وبعثوا هم أيضاً رسولا، فلما جاء رسولهم أعلمه محمد بماذا عتب عليهم بسبب الخرمي -قبّحه اللّه - ثم أرسل مع الرسول كتاباً مختوماً، فلما فتحوه لم يجدوا فيه سوى: بسم اللّه الرحمن الرحيم، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرمي. ثم أرسل هو رسولا فلم يصدقه كثير منهم وهموا به، ثم جاءتهم من جهته عصاً ملوياً عليها حديد ونحاس، فعلموا أن هذا إشارة لهم إلى أنهم عصاة، وأنهم مختلفون كاختلاف ألوان النحاس والحديد.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٥٩/٧] ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي فيما قاله أبو معشر.

وقال: وقد قيل إنه حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل: ابنه يزيد بن هشام، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها غزا مسلمة بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فافتتح بها مطامير وهي حصن.

وغزا مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب، فافتتح قلاعه وخرب أرضه، فأذعن له بالجزية في كل سنة بألف رأس يؤديها إليه، وأعطاه رهناً على ذلك وللّه الحمد والمنة.

وفيها في صفر منها قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي تنسب إليه الطائفة الزيدية، في قول الواقدي.

وقال هشام بن الكلبي: إنما قتل في صفر من سنة ثنتين وعشرين فاللّه أعلم.

وقد ساق محمد بن جرير [تاريخه: ١٦١/٧-١٦٢] سبب مقتله في هذه السنة تبعاً للواقدي رحمه اللّه، وهو أن زيداً وفد على يوسف بن عمر فسأله: هل أودع عندك خالد القسري مالا؟ فقال له زيد بن علي: كيف يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره في كل جمعة! فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئاً، فأمر يوسف بن عمر بإحضار خالد بن عبد اللّه القسري من السجن فجيء به في عباءة، فقال: أنت أودعت هذا شيئاً نستخلصه منه؟ قال: لا، وكيف وأنا أشتم أباه كل جمعة؟ فتركه يوسف بن عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فعفا عن ذلك، ويقال: بل استحضرهم فحلفوا بما حلفوا.

ثم إن طائفة من الشيعة التفت على زيد بن علي، وكانوا نحواً من أربعين ألفاً، فنهاه بعض النصحاء عن الخروج، وهو محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وقال له: إن جدك خير منك، وقد التفت على بيعته من أهل العراق ثمانون ألفا ثم خانوه أحوج ما كان إليهم وإني أحذرك من أهل العراق. فلم يقبل بل استمر يبايع الناس في الباطن بالكوفة، على كتاب اللّه وسنة رسوله حتى استفحل أمره بها في الباطن، وهو يتحول من منزل إلى منزل في الكوفة، وما زال كذلك حتى دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً.

وفي هذه السنة غزا نصر بن سيار أمير خراسان غزوات متعددة في الترك، وأسر ملكهم كورصول في جملة تلك الحروب وهو لا يعرفه، فلما تيقنه وتحققه، سأل منه كورصول أن يطلقه على أن يرسل له ألف بعير من إبل الترك - وهي البخاتي - وألف برذون، وهو مع ذلك شيخ كبير جداً، فشاور نصر من بحضرته من الأمراء في ذلك، فمنهم من أشار بإطلاقه، ومنهم من أشار بقتله. ثم سأله نصر بن سيار: كم غزوت من غزوة؟ فقال: ثنتين وسبعين غزوة، فقال له نصر: ما مثلك يطلق، وقد شهدت هذا كله، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يجعرون ويبكون عليه، وجذوا لحاهم وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياماً كثيرة، وقتلوا أنعاماً كثيرة، فلما أصبح أمر نصر بإحراقه لئلا يأخذوا جثته، فكان ذلك أشد عليهم من قتله، وانصرفوا خائبين صاغرين خاسرين، ثم كر نصر على بلادهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر أمماً لا يحصون كثرة، وكان فيمن حضر بين يديه عجوز كبيرة جداً من الأعاجم أو الأتراك، وهي من بيت مملكة، فقالت لنصر بن سيار: كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك: وزير صادق يفصل خصومات الناس ويشاوره ويناصحه، وطباخ يصنع له ما يشتهيه، وزوجة حسناء إذا دخل عليها مغتماً فنظر إليها سرته وذهب غمه، وحصن منيع إذا فزع رعاياه لجؤوا إليه، وسيف إذا قارع به الأقران لم يخش خيانته، وذخيرة إذا حملها فأينما وقع من الأرض عاش بها.

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف، ونائب العراق يوسف بن عمر، ونائب خراسان نصر بن سيار، وعلى أرمينية مروان بن محمد.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: والمشهور أنه قتل في التي بعدها كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

■ مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو سعيد وأبو الأصبغ الدمشقي.

قال ابن عساكر: وداره بدمشق في مَحَلَّة القباب عند باب الجامع القبلي، ولي الموسم أيام أخيه الوليد، وغزا الروم غزوات وحاصر القسطنطينية، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين، ثم عزله وولي أرمينية، وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز، وعنه عبد الملك بن أبي عثمان، وعبيد الله بن قزعة، وعيينة والد سفيان بن عيينة وابن أبي عمران ومعاوية بن خديج، ويحيى بن يحيى الغساني.

قال الزبير بن بكار: كان من رجال بني أمية، وكان يلقب بالجرادة الصفراء، وله آثار كثيرة، وحروب ونكاية في الروم وغيرهم.

قلت: وقد فتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم. ولما ولي أرمينية غزا الترك فبلغ باب الأبواب فهدم المدينة التي عنده، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين. وفي سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية. فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة، وكسر ملكهم البرجان، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية.

قال الأوزاعي: فأخذه وهو يغازيهم صداع عظيم في رأسه، فبعث ملك الروم إليه بقلنسوة وقال: ضعها على رأسك يذهب صداعك، فخشي أن تكون مكيدة فوضعها على رأس بهيمة فلم ير إلا خيراً، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه فلم ير إلا خيراً، فوضعها على رأسه فذهب صداعه، ففتقها فإذا فيها مكتوب سبعون سطراً هذه الآية مكرّرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [فاطر: ٤١] رواه ابن عساكر.

وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالقفول إلى الشام، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا له بها جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

قلت: وهي آخر ما يفتحه المسلمون قبل خروج الدجال في آخر الزمان، كما سنورده في الملاحم والفتن من كتابنا إن شاء الله. ونذكر الأحاديث الواردة في ذلك هناك.

وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة، ومساع مشكورة، وغزوات متالية مثورة، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحيا بعزمه وحزمه قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه نظير خالد بن الوليد في أيامه، في كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزمه، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه، هذا مع الكرم والفصاحة والرياسة والسماحة، والأصالة والرجاحة والدين والعفة رحمه الله.

ومن كلامه الحسن قوله: مروءتان ظاهرتان الرياش والفصاحة.

وقال يوماً لنصيب الشاعر: سلني: قال، لا، قال: ولمَ؟ قال: لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان. فأعطاه ألف دينار.

وقال أيضاً: الأنبياء لا يتثاءبون كما يتثاءب الناس ما تثاءب نبي قط وقد أوصى بثلث ماله لأهل الأدب، وقال: إنها صناعة يجفو أهلها.

وقال الوليد بن مسلم وغيره: توفي يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة، وقيل في سنة عشرين ومائة، وكانت وفاته بموضع يقال له الحانوت، وقد رثاه بعضهم وهو ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال:

أقول وما البعد إلا الردى　أَمَسْلَمُ لا تبعدن مسلمه
فقد كنت نوراً لنا في البلاد　مضيئاً فقد أصبحت مظلمه
ونكتم موتك نخشى اليقين　فأبدى اليقين عن الجمجمه

■ نمير بن أوس الأشعري قاضي دمشق، تابعي جليل:

روى عن حذيفة مرسلا وأبي موسى مرسلا وأبي الدرداء وعن معاوية مرسلا وغير واحد من التابعين، وحدث عنه جماعة كثيرون، منهم الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ويحيى بن الحارث الذماري. ولاه هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن بن الخشخاش العذري، ثم استعفى هشاماً فأعفاه وولى مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ملك، وكان نمير هذا لا يحكم باليمين مع الشاهد، وكان يقول: الآداب من الآباء، والصلاح من الله.

قال غير واحد: توفي سنة إحدى وعشرين ومائة، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة، وقيل سنة خمس عشرة ومائة، وهو غريب والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة

ففيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة، أمرهم في أول هذه السنة بالخروج والتأهب له، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك. فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ- خبر زيد بن علي وعند من يكون من أهل الكوفة، فبعث يوسف بن عمر يطلبه ويلح في طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له: ما قولك يرحمك الله في أبي بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، قد ولوا فعدلوا، وعملوا بالكتاب والسنة. قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل. فرفضوا وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية، وفيه حق، وهو تعديل الشيخين، وباطل وهو اعتقاد تقديم علي عليهما، وليس علي مقدماً عليهما، بل ولا على عثمان على أصح قولي أهل السنة، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة رضي الله عنهم، وقد ذكرنا ذلك في سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وباليمن طوائف من الزيدية ولا سيّما أهل صنعاء وغيرها؛ والزيدية لا تُسَبُّ ولا تُحبّ وإنما مذهبهم التقديم والتأخير والأذان بـ «حي على خير العمل» ولا يصلون إلا خلف إمام منهم.

ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه، فواعدهم ليلة الأربعاء في مستهل صفر من هذه السنة، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم في المسجد الجامع، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء سلخ المحرم، قبل خروج زيد بيوم، وخرج زيد بمن معه ليلة الأربعاء في برد شديد، ورفع أصحابه النيران، وجعلوا ينادون: يا منصور يا منصور، فلما طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلا، فجعل زيد يقول: سبحان الله!! أين الناس؟ فقيل: هم في المسجد محصورون، وكتب الحكم بن الصلت إلى يوسف بن عمر يعلمه بخروج زيد بن علي. فبعث إليه سرية إلى الكوفة، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة، وجاء يوسف بن عمر أيضاً في طائفة كبيرة من الناس، فالتقى زيد بمن معه جرثومة منهم خمسمائة فارس فهزمهم، ثم أتي الكناسة فحمل على جمع من أهل الشام فهزمهم، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل، وزيد في مائتي فارس ولو قصد يوسف بن عمر لقتله، ولكن أخذ ذات اليمين، وكلما التقى بطائفة من أهل الكوفة هزمهم، وجعل أصحابه ينادون: يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا، ثم لما أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة، وقد قتل بعض أصحابه في أول يوم، فلما كان في اليوم الثاني اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلا، وانصرفوا عنه بشر حال، وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد بن علي في أصحابه فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثم تبعهم في خيله ورجله حتى أخذوا على المُسَنَّاة، ثم اقتتلوا هناك قتالا شديداً جداً، حتى كان جنح الليل رمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى، فوصل إلى دماغه، فرجع ورجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل، وأدخل زيد إلى دار في سكة البريد، وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله، فاختلف أصحابه أين يدفنونه:

فقال بعضهم: ألبسوه درعه وألقوه في الماء، وقال بعضهم: احتزوا رأسه واتركوا جثته في القتلى، فقال ابنه: لا والله لا تأكل أبي الكلاب. وقال بعضهم: ادفنوه في العباسية، وقال بعضهم: ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين، ففعلوا ذلك وأجروا على قبره الماء لئلا يعرف، وانفتل أصحابه ولم يبق لهم رأس يقاتلون به، فما أصبح الفجر ولهم قائمة ينهضون بها، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى هل يجد زيداً بينهم، وجاء مولى لزيد سندي قد شهد دفنه فدل على قبره فأخذ من قبره، فأمر يوسف بن عمر بصلبه فصُلب على خشبة بالكناسة، ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، وزياد النهدي، ويقال إن زيداً مكث مصلوباً أربع سنين، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق فالله أعلم.

وقد ذكر أبو جعفر بن جرير الطبري [تاريخه: ١٨٨/٧] أن يوسف بن عمر لم يعلم بشيء من أمر زيد بن علي حتى كتب إليه هشام بن عبد الملك يقول له: إنك لغافل، وإن زيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة يبايع له، فألحّ في طلبه وأعطه الأمان، وإن لم يقبل فقاتله، فتطلبه يوسف بن علي حتى كان من أمره ما ذكرناه، فلما ظهر على قبره حز رأسه وبعث به إلى هشام بن عبد الملك فنصبه على باب دمشق ثم أمر به فساروا به إلى المدينة حتى نصبوه على أحد أبوابها، وأما جثته فلم تزل مصلوبة تحرس ليلا ونهاراً حتى انقضت دولة هشام، وقام من بعده الوليد بن يزيد فأمر به فأنزل وحرق في أيامه قبح الله الوليد هذا.

وأما ابنه يحيى بن زيد بن علي فاستجار بعبد الملك بن بشر بن مروان، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهدده حتى يحضره، فقال له عبد الملك بن بشر: ما كنت لأؤوِيَ مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا. فصدقه يوسف بن عمر في ذلك، ولما هدأ الطلب عنه سيره إلى خراسان فخرج يحيى بن زيد في جماعة من الزيدية إلى خراسان فأقاموا بها هذه المدة.

قال أبو مخنف: ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي خطب أهل الكوفة فتهددهم وتوعدهم وشتمهم وأنبهم وقال لهم فيما قال: والله لقد استأذنت أمير المؤمنين في قتل خلق منكم، ولو أذن لي لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم، وما صعدت هذا المنبر إلا لأسمعكم ما تكرهون.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٩١/٧]: وفي هذه السنة قتل عبد الله هذا البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم. ولم يزد ابن جرير على هذا، وقد ذكر هذا الرجل الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير [٣٥٦/٣٩] فقال:

■ **عبد الله أبو يحيى المعروف بالبطال:** كان ينزل أنطاكية، حكى عنه أبو مروان الأنطاكي، ثم روى بإسناده أن عبد الملك بن مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم، ولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال، وقال لابنه مسلمة: سيره على طلائعك، وأمره فليعس بالليل العسكر، فإنه أمين ثقة مقدام شجاع. وخرج معهم عبد الملك يشيعهم إلى باب دمشق. قال: فقدم مسلمة البطال على عشرة آلاف يكونون بين يديه ترسا من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين.

قال محمد بن عائذ الدمشقي: حدثنا الوليد بن مسلمة حدثني أبو مروان ـ شيخ من أنطاكية ـ قال: كنت أغازي البطال وقد أوطأ الروم ذلا، قال البطال: فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري فيهم، فقلت له: خرجت في سرية ليلا فدفعنا إلى قرية فقلت لأصحابي: ارخوا لجم خيلكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بسبي حتى تشحنوا القرية فإنهم في نومة، ففعلوا وافترقوا في أزقتها، فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيت يزهر سراجه، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه، وهي تقول: لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطال يذهب بك، وانتشلته من سريره وقالت: أمسك يا بطال، قال: فأخذته.

وروى محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم عن أبي مروان الأنطاكي عن البطال قال: انفردت مرة على فرسي ليس معي أحد من الجند، وقد سمّطت خلفي مخلاة فيها شعير، ومعي منديل فيه خبز وشواء، فبينا أنا أسير لعلي ألقى أحداً منفرداً، أو أطلع على خبر، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة، فنزلت وأكلت من ذلك بالخبز والشواء مع البقل، فأخذني إسهال عظيم قمت منه مراراً، فخفت أن أضعف من كثرة الإسهال، فركبت فرسي والإسهال مستمر على حاله، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب، وأفرط بي الإسهال في السرج حتى خشيت أن أسقط من الضعف، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهي ولا أدري أين يسير الفرس بي، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط، فأرفع رأسي فإذا دير، وإذا قد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جداً، فجعلت تقول لمن بلسانها: أنزلنه، فأنزلنني فغسلن عني ثيابي وسرجي وفرسي، ووضعنني على سرير وعملن لي طعاماً وشراباً، فمكثت يوماً وليلة مسبوتاً، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى تُرادَّ إلي حالي، فبينا أنا كذلك إذ قيل: جاء البطريق فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه، وإذا هو بطريق كبير فيهم، قد جاء لخطبتها، فأخبره بعض من كان هنالك

بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس، فهم بالهجوم علي فمنعته المرأة من ذلك، وأرسلت تقول له: إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته، فثناه ذلك عن الهجوم علي، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم، ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق. قال البطال: فنهضت في أثرهم فهمت أن تمنعني خوفاً عليّ منهم فلم أقبل، وسقت حتى لحقتهم، فحملت عليهم فانفرج عنه أصحابه، وأراد الفرار فألحقه وأضرب عنقه واستلبته وأخذت رأسه مسمطاً على فرسي، ورجعت إلى الدير، فخرجن إلي ووقفن بين يدي، فقلت: اركبن، فركبن ما هنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش فدفعتهن إليه، فنفلني ما شئت منهن، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها، فهي أم أولادي. والبطريق في لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم، وكان أبوها بطريقاً كبيراً فيهم وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويهاديه.

وذكر محمد بن عائذ عن الوليد سمعت عبد الله بن راشد مولى خزاعة يخبر عمن سمعه من البطال أن هشام بن عبد الملك لما ولاه المصيصة بعث البطال سرية إلى أرض الروم، فغاب عنه خبرها فلم يدر ما صنعوا، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل إلى عمورية، فطرق بابها ليلا فقال له البواب: من هذا؟ قال البطال: فقلت: أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق، فخذ لي طريقاً إليه، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه على السرير إلى جانبه، ثم قلت له: إني قد جئتك في رسالة فمر هؤلاء فلينصرفوا، فأمر من عنده فذهبوا، قال: ثم قام فغلق باب الكنيسة عليّ وعليه، ثم جاء فجلس مكانه، فاخترطت سيفي وضربت به رأسه صفحاً وقلت له: أنا البطال فاصدقني عما أسألك عنه وإلا ضربت عنقك قال: وما هو؟ قلت: السرية التي بعثتها ما خبرها، فقال: هم في بلادي يتهبون ما تهيأ لهم، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادي كذا وكذا، والله لقد صدقتك. قلت: فهات الأمان، فأعطاني الأمان، فقلت: إيتني بطعام، فأمر أصحابه فجاؤوا بطعام فوضع لي، فأكلت ثم قمت لأنصرف فقال لأصحابه: اخرجوا بين يدي رسول الملك، فانطلقوا يتعادون بين يدي، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكر فإذا أصحابي هنالك، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة، فهذا أغرب ما جرى.

قال الوليد: وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطال وهو قافل من حجته، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج، وكان يسأل الله دائماً الحج ثم الشهادة، فلم يتمكن من الحج إلا في السنة التي استشهد فيها رحمه الله تعالى، وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فبعث البطريق ـ الذي البطال متزوّج بابنته التي ذكرنا أمرها ـ إلى البطال يخبره بذلك، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك، وكان الأمير مالك بن شبيب، وقال له: إن المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة خراب، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالا شديداً والبطال يجول بين يدي الأبطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفاً عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطاً منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة، فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، وساقوا وراء الناس يقتلون منهم ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلق الناس إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا بها، وأصبح ليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له ليون: ما هذا يا أبا يحيى؟ قال: هكذا تقتل الأبطال، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد نفذت إلى مقاتله، فقال له ليون: هل من حاجة؟ قال: نعم قال: وما هي؟ قال: تأمر من معك من أسارى المسلمين أن يلوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل. وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى، وانطلق ليون إلى أولئك المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم، فبينما هم كذلك إذا جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففر ليون في جيشه هارباً راجعاً إلى القسطنطينية، قبحه الله.

قال خليفة بن خياط [تاريخه: ٢/٥٢٤]: كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة.

وقال ابن جرير [تاريخه: ٧/١٩١]: في سنة ثنتين وعشرين ومائة.

وقال أبو حسان الزيادي: قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة.

قلت: وقد قاله غيره وأنه قتل هو والأمير عبد الوهاب بن بخت في سنة ثلاث عشرة ومائة، كما ذكرنا ذلك فالله أعلم، ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا في هذه السنة فالله أعلم.

وقال أبو بكر بن عياش: قيل للبطال: ما الشجاعة؟ قال: صبر ساعة

قلت: فهذا ملخص ما ذكره الحافظ ابن عساكر في ترجمة البطال مع تقصّيه للأخبار واطلاعه عليها، وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقضاضي عقبة، فكذب وافتراء ووضع بارد، وجهل كبير وتخبيط فاحش، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي. كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة، وكذلك سيرة البكري والدنف وغير ذلك، والكذب المفتعل في سيرة البكري أشد إثماً وأعظم جرماً من غيرها، لأن واضعها يدخل في قول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [خ: (١٠٧)، م(٣)] .

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ إياس الذكي: وهو إياس بن معاوية بن قُرّة بن إياس بن هلال بن رئاب بن عبد بن دريد بن أوس بن سواءة بن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، هكذا نسبة خليفة بن خياط [طبقاته: ١/٥٠٨] ، وقيل غير ذلك في نسبه.

وهو أبو واثلة المزني قاضي البصرة، وهو تابعي ولجده صحبة، وكان يضرب المثل بذكائه، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً في الحياء وعن أنس بن مالك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وأبي مجلز، وعنه الحمادان وشعبة والأصمعي وغيرهم.

قال عنه محمد بن سيرين: إنه لفهم إنه لفهم.

وقال محمد بن سعد: والعجلي وابن معين والنسائي: ثقة. زاد ابن سعد وكان عاقلا من الرجال فطناً. وزاد العجلي: وكان فقيهاً عفيفاً.

وقد قدم دمشق في أيام عبد الملك بن مروان، ووفد على عمر بن عبد العزيز، ومرة أخرى حين عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة.

قال أبو عبيدة وغيره: تحاكم إياس وهو صبي شاب وشيخ إلى قاضي عبد الملك بن مروان بدمشق، فقال له القاضي: إنه شيخ وأنت شاب فلا تُساوره في الكلام، فقال إياس: إن كان كبيراً فالحق أكبر منه، فقال له القاضي: اسكت، فقال: فمن يتكلم بحجتي إذا سكت؟ فقال القاضي: ما احسبك تنطق بحق في مجلسي هذا حتى تقوم، فقال إياس: أشهد أن لا إله

إلا الله - زاد غيره: فقام القاضي: ما أظنك إلا ظالماً لـه، فقال: ما على ظن القاضي خرجت من منزلي. فقال القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره خبره فقال: اقض حاجته وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد عليَّ الناس.

وقال بعضهم: لما عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة فر منه إلى عمر بن عبد العزيز فوجده قد مات، فكان يجلس في حلقة في جامع دمشق، فتكلم رجل من بني أمية فرد عليه إياس، فأغلظ له الأموي فقام إياس، فقيل للأموي: إن هذا إياس بن معاوية المزني، فلما عاد من الغد اعتذر إليه وقال: لم أعرفك، وقد جلست إلينا بثياب السوقة وكلمتنا بكلام الأشراف فلم نحتمل ذلك.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٩٣/٢، ٩٤]: حدثنا نعيم بن حماد حدثنا ضمرة عن أبي شوذب قال: كان يقال يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم.

وقال العجلي: دخلت على إياس ثلاث نسوة فلما رآهن قال: أما إحداهن فمرضع، والأخرى بكر، والأخرى ثيب فقيل له: بم علمت هذا؟ فقال: أما المرضع فكلما قعدت أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت نظرت ورمت بعينيها.

وقال: يونس بن حبيب: حدثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان حدثنا حماد بن سلمة قال: سمعت إياس بن معاوية يقول: أذكر الليلة التي ولدت فيها، وضعت أمي على رأسي جفنة.

وقال المدائني: قال إياس بن معاوية لأمه: ما شيء سمعته وأنت حامل بي وله جلبة شديدة؟ قالت: تلك يا بني طست سقطت من فوق الدار إلى أسفل، ففزعت فولدتك تلك الساعة.

وقال أبو بكر الخرائطي عن عمر بن شبة النميري قال: بلغني أن إياس بن معاوية قال: ما يسرني أن أكذب كذبة لا يطلع عليها أبي معاوية لا أحاسب عليها يوم القيامة وأن لي الدنيا بحذافيرها.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام حدثنا حماد بن زيد عن حبيب ابن الشهيد عن إياس بن معاوية. قال: ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية، قلت لهم: أخبروني عن الظلم ما هو؟ قالوا: أخذ الإنسان ما ليس له، قلت: فإن الله له كل شيء.

وقال بعضهم عن إياس قال: كنت في الكتاب وأنا صبي فجعل أولاد النصارى يضحكون من المسلمين ويقولون: إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة، فقلت للفقيه ـ وكان نصرانياً ـ: ألست تزعم أن من الطعام ما ينصرف في غذاء البدن؟ قال: بلى، قلت: فما تنكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم؟ فقال له معلمه: ما أنت إلا شيطان.

وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بعقله قد ورد به الحديث الصحيح كما سنذكره إن شاء الله في صفة أهل الجنة أن طعامهم ينصرف جشاء وعرقاً كالمسك، فإذا البطن ضامر.

وقال سفيان بن حسين: قدم إياس واسطاً فجاءه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها، فقال له: أتأذن لي أن أسالك؟ قال: سل وقد ارتبت حين استأذنت، فسأله عن سبعين مسألة يجيبه فيها، ولم يختلفا إلا في أربع مسائل، رده إياس إلى قوله ثم قال له إياس: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم؟ قال: أتحفظ قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؟ قال: ال: وما قبلها وما بعدها؟ قال: نعم! قال: فهل أبقت هذه الآية لآل شبرمة رأياً؟

وقال عباس عن يحيى بن معين: حدثنا سعيد بن عامر حدثنا عمر بن علي قال: قال رجل لإياس بن معاوية: يا أبا واثلة حتى متى يبقى الناس؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون؟ فقال لجلسائه: أجيبوه.فلم يكن عندهم جواب، فقال إياس: حتى تتكامل العِدَّتان، عدة أهل الجنة، وعدة أهل النار.

وقال بعضهم: اكترى إياس بن معاوية من الشام قاصداً الحجَّ، فركب معه في المَحْمِل غيلان القدري، ولا يعرف أحدهما صاحبه، فمكثا ثلاثاً لا يكلم أحدهما صاحبه، فلما كان بعد ثلاث تحادثا فتعارفا وتعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع الآخر، لمباينة ما بينهما في الاعتقاد في القدر، فقال له إياس: هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة: ﴿الحمدُ للّه الذي هَدَانَا لهذَا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. وتقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا علَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]. ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم ما فيه إثبات القدر ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز فناظر بينهما فقهره إياس، وما زال يحصره في الكلام حتى اعترف غيلان بالعجز وأظهر التوبة، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذباً، فاستجاب الله منه، فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك ولله الحمد والمنة.

ومن كلام إياس الحسن: لأن يكون في فعال الرجل فضل عن قوله خير من أن يكون في مقاله فضل عن فعاله.

وقال سفيان بن حسين: ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر في وجهي وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا! قال: فالسند والهند والتُّرك؟ قلت لا: قال: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم؟ قال: فلم أعد بعدها.

وقال الأصمعي عن أبيه: رأيت إياس بن معاوية في بيت ثابت البناني، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب، يلوث عمامته، وإذا هو قد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه.

وقد **قال** له بعضهم: ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك، فقال: أفي حقٍّ أتكلم أم بباطل؟ فقيل: بل بحق، فقال: كلما كثر الحق فهو خير، ولامه بعضهم في لبسه الثياب الغليظة فقال: إنما ألبس ثوباً يخدمني ولا ألبس ثوباً أخدمه.

وقال الأصمعي: قال إياس بن معاوية: إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه.

وقال بعضهم: سأل رجل أياساً عن النبيذ فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء فقال: حلال، قال: فالكَشُوثُ؟، قال: حلال، قال: فالتمر؟ قال: حلال، قال: فما باله إذا اجتمع يحرم؟ فقال إياس: أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التبن؟ قال: لا ، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا قال: أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طيناً ثم حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك؟ قال: إي والله ويقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت.

وقال المدائني: بعث عمر بن عبد العزيز عدي بن أرطاة إلى البصرة نائباً وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشني، فأيهما كان أفقه فليوله القضاء، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى: أيها الرجل سل فقيهي البصرة، الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال القاسم لعدي: والله الذي لا إله إلا هو إن إياساً

أفضل مني وأفقه، وأعلم بالقضاء، فإن كنت من أهل الصدق فوله، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن إليّ القضاء. فقال إياس: هذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، فقال عدي: أما إذا فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء. فمكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم، وإذا تبين له الحق حكم به، ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستعفى من القضاء، فولى عدي بعده الحسن البصري.

قالوا: لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيوب: لقد رموها بحجرها. وجاءه الحسن وابن سيرين فسلما عليه، فبكى إياس وذكر حديث «القضاة ثلاثة، اثنان في النار وواحد في الجنة» [د(٣٥٧٣)، ج(٢٣١٥)] . فقال الحسن فقد قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] قالوا: ثم جلس للناس في المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات، فما قام حتى فصل سبعين قضية، حتى كان يشبه بشريح القاضي. وروي عنه أنه كان إذا أشكل عليه شيء بعث إلى محمد بن سيرين فسأله عنه.

وقال إياس: إني لأكلم الناس بنصف عقلي، فإذا اختصم إلي اثنان جمعت عقلي كله.

وقال له رجل: إنك لتعجب برأيك، فقال: لولا ذلك لم أقض به.

وقال له آخر: إن فيك خصالا لا تعجبني، فقال: ما هي؟ قال تحكم قبل أن تفهم، وتجالس كل أحد، وتلبس الثياب الغليظة. فقال له: أيها أكثر الثلاثة أو الاثنان؟ فقال: الثلاثة. فقال: ما أسرع ما فهمت وأجبت، فقال: أو يجهل هذا أحد؟ فقال: وكذلك ما أحكم أنا به، وأما مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدري أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري، وأما الثياب فأنما ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا. قالوا: وتحاكم إليه اثنان أودع أحدهما عند الآخر مالا، وجحده الآخر، فقال إياس للمودع: أين أودعته؟ قال: عند شجرة في بستان. فقال: انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر، وفي رواية أنه قال له: هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي بورق منها؟ قال: نعم! فانطلق، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه، ثم استدعاه فقال له: أوصل صاحبك بعد إلى المكان؟ فقال: لا بعد أصلحك الله. فقال له: قم يا عدو الله فأد إليه حقه، وإلا جعلتك نكالا. وجاء ذلك الرجل فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها.

وجاءه آخر فقال له: إني قد أودعت عند فلان مالا وقد جحدني، فقال له: اذهب الآن وائتني غداً، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له: إنه قد اجتمع عندنا هاهنا مال، فضعه عندك في مكان حريز. فقال له: سمعاً وطاعة فقال: اذهب الآن وائتني غداً، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء إلى إياس فقال له: اذهب الآن إليه فقل له: أعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي، فذهب فقال له ذلك فخاف أن لا يودع عنده الحاكم، فدفع إليه حقَّه، فجاء إلى إياس فأعلمه، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رجاء أن يودع فانتهره إياس وطرده وقال له: أنت خائن.

وتحاكم إليه اثنان في جارية فادعى المشتري أنها ضعيفة العقل، فقال لها إياس: أي رجليك أطول؟ فقالت: هذه، فقال لها: أتذكرين ليلة ولدت؟ فقالت نعم. فقال للبائع: رد رد.

وروى ابن عساكر أن إياساً سمع صوت امرأة من بيتها فقال: هذه امرأة حامل بصبي، فلما ولدت، ولدت كما قال، فسئل بم عرفت ذلك؟ قال: سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل، وفي صوتها صَحَل فعلمت أنه غلام.

قالوا: ثم مر يوماً ببعض المكاتب فإذا صبي هنالك فقال: إن كنت أدري شيئاً فهذا الصبي ابن تلك المرأة، فإذا هو ابنها.

وقال مالك عن الزهري عن أبي بكر قال شهد رجل عند إياس فقال له: ما اسمك؟ فقال أبو العنقز. فلم يقبل شهادته.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش: دعوني إلى إياس فإذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ في آخر.

وقال إياس: كل رجل لا يعرف عيب نفسه فهو أحمق، فقيل له: فما عيبك؟ فقال: كثرة الكلام. قالوا: ولما ماتت أمه بكى. فقيل له في ذلك فقال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة فغلق أحدهما.

وقال أبوه: إن الناس يلدون أبناء وولدت أنا أباً.

وكان أصحابه يجلسون حوله ويكتبون عنه الفراسة، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه، ثم قام فنظر في وجه رجل ثم عاد، فقال لأصحابه: هذا فقيه كتّاب قد أبق له غلام أعور فهو يتطلبه، فقاموا إلى ذلك الرجل فسألوه فوجدوه كما قال إياس، فقالوا لإياس: من أين عرفت ذلك؟ فقال: لما جلس على دكة الحانوت علمت أنه ذو ولاية، ثم نظرت فإذا هو لا يصلح إلا لفقاهة المكتب، ثم جعل ينظر إلى كل من يمر، فعرفت أنه قد فقد غلاماً، ثم لما قام فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر، عرفت أن غلامه أعور.

وقد أورد القاضي ابن خلكان أشياء كثيرة في ترجمته، من ذلك أنه قال: شهد عنده رجل في بستان فقلت له: كم عدد أشجاره؟ فقال: كم عدد جذوع هذا المجلس الذي أنت فيه من مدة سنين؟ قال: فقلت: لا أدري وأقررت شهادته. قال خليفة وغير واحد: توفي بواسط سنة ثنتين وعشرين ومائة.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرين ومائة

ذكر المدائني عن شيوخه أن خاقان ملك الترك لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله القسري على خراسان، تفرق شمل الأتراك، وجعل بعضهم يغير على بعض، وبعضهم يقتل بعضاً، حتى كادت أن تخرب بلادهم، واشتغلوا عن المسلمين.

وفيها السنة سأل أهل الصغد من أمير خراسان نصر بن سيار أن يردهم إلى بلادهم، وسألوه شروطاً أنكرها العلماء، منها أن لا يعاقب من ارتد منهم عن الإسلام، ولا تؤخذ أُسراء المسلمين منهم، وغير ذلك، فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم في المسلمين، فعاب عليه الناس ذلك، فكتب إلى هشام في ذلك فتوقف، ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على معاندتهم للمسلمين كان ضررهم أشد، أجابهم إلى ذلك.

وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفداً إلى أمير المؤمنين يسأل منه أن يضم إليه نيابة خراسان، وتكلموا في نصر بن سيار أمير خراسان بأنه وإن كان شهماً شجاعاً، إلا أنه قد كبر وضعف بصره فلا يعرف الرجل إلا من قريب بصوته، وتكلموا فيه كلاماً كثيراً، فلم يلتفت إلى ذلك هشام، واستمر به على إمرة خراسان وولايتها.

قال ابن جرير [تاريخه: ٧/١٩٧]: وحج بالناس في هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك، والعمال فيها من تقدم ذكرهم في التي قبلها.

وتوفي في هذه السنة ربيعة بن يزيد القصير من أهل دمشق، وأبو يونس

سُليم بن جبير، وسماك بن حرب، ومحمد بن واسع بن جابر، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل ولله الحمد والمنة.

■ (محمد بن واسع) [زيادة من الناسخ]

قال محمد بن واسع: أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة.

وقال: خمس خصال تميت القلب: الذنب على الذنب، ومجالسة الموتى، قيل له: ومن الموتى؟ قال: كل غني مترف، وسلطان جائر. وكثرة مثافنة النساء، وحديثهن، وملاحاة الأحمق؛ تقول له ويقول لك، وكثرة مشاهدة الباطل وإشاعته ومخالطة أهله.

وقال مالك بن دينار: إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافاً فيقنع به. فقال محمد بن واسع: أغبط منه والله عندي من يصبح جائعاً ويُمسي جائعاً وهو عن الله راض.

وقال: ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قومني، وصلاة في جماعة يحمل عني سهوها وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة، ولا لله علي فيه تبعة. وروى زياد بن الربيع عن أبيه قال: رأيت محمد بن واسع بسوق مرو وهو يعرض حماراً له للبيع، فقال له رجل: أترضاه لي؟ فقال: لو رضيته لم أبعه.

ولما ثقل محمد بن واسع كثر عليه الناس في العيادة، قال بعض أصحابه: فدخلت عليه فإذا قوم قعود وآخرون قيام، فقال: ماذا يغني هؤلاء عني إذا أخذ بناصيتي وقدمي غداً وألقيت في النار؟!.

وبعث بعض الخلفاء مالا مستكثراً إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه فلم يقبله ولم يلتمس منه شيئاً، وأما مالك بن دينار فإنه قبل ما أمر له به، واشترى به أرقاء وأعتقهم ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان. فقال له: يا مالك قبلت جوائز السلطان؟! فقال له مالك: يا أبا عبد الله! سل أصحابي ماذا فعلت منه، فقالوا له: إنه اشترى به أرقاء وأعتقهم، فقال له: سألتك بالله أقلبك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يصلوك. فقام مالك وحثا على رأسه التراب وقال: إنما يعرف الله محمد بن واسع، إنما مالك حمار إنما مالك حمار.

وكلام محمد بن واسع كثير جداً رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فلقي ملك الروم أليون فسلم سليمان وغنم ولله الحمد والمنة.

وفيها قدم جماعة من دعاة بني العباس من بلاد خراسان قاصدين إلى مكة فمروا بالكوفة فبلغهم أن في السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد بن عبد الله القسري، قد حبسهم يوسف بن عمر، فاجتمعوا بهم في السجن فدعوهم إلى البيعة لبني العباس، وإذا عندهم من ذلك جانب كبير، فقبلوا منهم ووجدوا عندهم في السجن أبا مسلمَ الخراساني، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن معقل العجلي، وكان محبوساً فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر، فاشتراه بكير بن ماهان منه بأربعمائة درهم وخرجوا به معهم فاستنذبوه لهذا الأمر، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب ونتج ما يوجهونه إليه، ثم كان من أمره ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: ومات في هذه السنة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو الذي يدعون إليه دعاة بني العباس، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح، والصحيح أنه إنما توفي في التي بعدها.

قال الواقدي وأبو معشر: وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل.

قال: أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ١٩٩/٧]: حج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومعه امرأته أم سلمة بن هشام بن عبد الملك، وكان نائب الحجاز والطائف، وهو محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على بهابها ويهدي إليها الألطاف والتحف ويعتذر إليها من التقصير، وهي لا تلتفت إلى ذلك.

ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وفيها توفي

■ **القاسم بن أبي بزة: أبو عبد الله المكي القارئ**، مولى عبد الله بن السائب، تابعي جليل، روى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، وعنه جماعة، ووثقه الأئمة. توفي في هذه السنة على الصحيح، وقيل بعدها بسنة. وقيل سنة أربع عشرة، وقيل سنة خمس عشرة ومائة فالله أعلم.

■ **الزهري: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، أبو بكر القرشي الزهري**: أحد الأعلام من أئمة الإسلام، تابعي جليل، سمع من غير واحد من الصحابة وروى عنه غير واحد من التابعين وغيرهم.

روى الحافظ ابن عساكر عن الزهري قال: أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق، وكان عندي عيال كثيرة، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فقال: إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة - وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئاً وقد شذ عنه - في أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب ﷺ - فقلت: إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب، فأخذني فأدخلني على عبد الملك فسألني: ممن أنت؟ فانتسبت له، وذكرت له حاجتي وعيالي، فسألني هل تحفظ القرآن؟ قلت: نعم والفرائض والسنن، فسألني عن ذلك كله فأجبته، فقضى ديني وأمر لي بجائزة، وقال لي: اطلب العلم فإني أرى لك عيناً حافظة وقلباً ذكياً، قال: فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه، فبلغني أن امرأة بقباء رأت رؤيا عجيبة، فأتيتها فسألتها عن ذلك، فقالت: أن بعلي مات وترك لنا خادماً وداجناً ونخيلات، نشرب من لبنها، ونأكل من ثمرها، فبينما أنا بين النائمة واليقظى رأيت كأن ابني الكبير - وكان مشتداً - قد أقبل فأخذ الشفرة فذبح ولد الداجن، وقال: إن هذا يضيق علينا اللبن، ثم نصب القدر وقطعه ووضعه فيه، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه، وأخوه صغير كما قد جاء، ثم استيقظت مذعورة، فدخل ولدي الكبير فقال: أين اللبن؟ فقلت: يا بني شربه ولد الداجن، فقال: إنه قد ضيق علينا اللبن، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه في القدر، فبقيت مشفقة خائفة مما رأيت، فأخذت ولدي الصغير فغيبته في بعض بيوت الجيران، ثم أقبلت إلى المنزل وأنا مشفقة جداً مما رأيت، فأخذتني عيني فنمت فرأيت في المنام قائلا يقول: ما لك مغتمة؟ فقلت: إني رأيت مناماً فأنا أحذر منه فقال: يا رؤيا يا رؤيا، فأقبلت امرأة حسناء جميلة، فقال: ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة؟ قالت: ما أردت إلا خيراً، ثم قال: يا أحلام يا أحلام، فأقبلت امرأة دونها في الحسن والجمال،

فقال: ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة؟ فقالت: ما أردت إلا خيراً، ثم قال: يا أضغاث يا أضغاث، فأقبلت امرأة سوداء شنيعة فقال: ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة؟ فقالت: إنها امرأة صالحة فأحببت أن أَغُمَّها ساعة، ثم استيقظت فجاء ابني فوضع الطعام وقال: أين أخي؟ فقلت: درج إلى بيوت الجيران. فذهبت وراءه فكأنما هدي إليه، فأقبل به يقبله، ثم وضعه وجلسنا جميعاً فأكلنا من ذلك الطعام.

وولد الزهري في سنة ثمان وخمسين في آخر خلافة معاوية، وكان قصيراً قليل اللحية، له شعرات طوال خفيف العارضين.

قالوا: وقد قرأ القرآن في نحو من ثمانين يوماً، وجالس سعيد بن المسيب ثمان سنين أو عشر سنين، تمس ركبته ركبته.

وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستقي له الماء المالح، ويدور على مشايخ الحديث، ومعه ألواح يكتب عنهم الحديث، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه، وقد احتاج أهل عصره إليه.

وقال عبد الرزاق [المصنف: (٢٠٤٨٧)]: أخبرنا معمر عن الزهري قال: كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين.

وقال أبو إسحاق: كان الزهري يرجع من عند عروة فيقول لجارية عنده فيها لُكْنة: حدثنا عروة حدثنا فلان. ويسرد عليها ما سمعه منه، فتقول له الجارية: والله ما أدري ما تقول، فيقول لها: اسكتي لكاع، فإني لا أريدك، إنما أريد نفسي.

ثم وفد على عبد الملك بن مروان بدمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دَيْنه وفرض له في بيت المال ثم كان بعد من أصحابه وجلسائه، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده، الوليد وسليمان، وكذا عند عمر بن عبد العزيز، وعند يزيد بن عبد الملك، واستقضاه يزيد مع سليمان بن حبيب، ثم كان حظياً عند هشام، وحج معه وجعله معلم أولاده إلى أن توفي في هذه السنة قبل هشام بسنة.

وقال ابن وهب: سمعت الليث يقول: قال ابن شهاب: ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته.

قال: وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفأر، ويقول: إنه يُنْسِي، وكان يشرب العسل ويقول: إنه يُذكِّر.

وفيه يقول فأيد بن أقرم.

ذر ذا وأثن على الكريم محمد	واذكر فواضله على الأصحاب
وإذا يقال من الجواد بماله	قيل الجواد محمد بن شهاب
أهل المدائن يعرفون مكانه	وربيع ناديه على الأعراب
يشري وفاء جفانه ويمدها	بكسور أثباج وفتق لباب

وقال ابن مهدي: سمعت مالكاً يقول: حدث الزهري يوماً بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال: أتستفهمني؟ ما استفهمت عالماً قط، ولا رددت على عالم قط. ثم جعل ابن مهدي يقول: فَتِيكَ الطوال وتلك المغازي.

وروى يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٦٤٠/١] عن هشام بن خالد السلامي عن الوليد بن مسلم عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شيئاً من حديثه، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها، ثم إن هشاماً قال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع، فقال: لا عليك، فأملى عليهم تلك الأحاديث ثم أخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادر حرفاً واحداً، وإنما أراد هشام امتحان حفظه.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما رأيت أحداً أحسن سوقاً للحديث إذا حدث من الزهري.

وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أنص للحديث من الزهري، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده، وما الدراهم والدنانير عند الزهري إلا بمنزلة البعر.

قال عمرو بن دينار: ولقد جالست جابراً وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت أحداً أسبق للحديث من الزهري.

وقال الإمام أحمد: أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهري.

وقال النسائي: أحسن الأسانيد الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي عن رسول الله ﷺ.

وقال شعيب عن الزهري: مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى الحجاز، فما كنت أسمع حديثاً أستطرفه.

وقال الليث: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت: ما يحسن غير هذا، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت: لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعاً جامعاً، يقول: اللّهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك في الدنيا والآخرة وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة.

قال الليث: وكان الزهري أسخى من رأيت، كان يعطي كل من جاء وسأله، حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف. وكان يطعم الناس الثريد ويسقيهم العسل، وكان يسمر على شراب العسل كما يسمر أهل الشراب على شرابهم، ويقول: اسقونا وحدثونا، فإذا نعس أحدهم يقول له: ما أنت من سمار قريش.

وكانت له قبة معصفرة وعليه ملحفة معصفرة، وتحته بساط معصفر.

وقال الليث قال يحيى بن سعيد: ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب.

وقال عبد الرزاق: أنبأ معمر قال: قال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه، وكذا قال مكحول.

وقال أيوب: ما رأيت أحداً أعلم من الزهري، فقيل له: ولا الحسن؟ فقال: ما رأيت أعلم من الزهري.

وقيل لمكحول: من أعلم من لقيت؟ قال: الزهري، قيل: ثم من؟ قال: الزهري قيل: ثم من؟ قال الزهري.

وقال مالك: كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج.

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة: محدثو أهل الحجاز ثلاثة: الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج.

وقال علي بن المديني: الذين أفتوا أربعة، الزهري، والحكم، وحماد، وقتادة، والزهري أفقههم عندي.

وقال الزهري: ثلاثة إذا كن في القاضي فليس بقاض، إذا كره اللوائم وأحب المحامد، وكره العزل.

وقال أحمد بن صالح: كان يقال: فصحاء زمانهم: الزهري وعمر بن

عبد العزيز وموسى بن طلحه وعبيد الله، رحمهم الله.

وقال مالك عن الزهري: أنه قال: إن هذا العلم الذي أدب الله به رسوله ﷺ، وأدب رسول الله به أمته أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما ادى إليه، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل.

وقال مخلد بن الحسين عن يونس عن الزهري قال: الاعتصام بالسنة نجاة.

وقال الوليد عن الأوزاعي عن الزهري قال: أمروا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت.

وقال محمد بن إسحاق عن الزهري: إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه، وفي رواية أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب، فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه، ومن غوائله النسيان والكذب، وهو أشد الغوائل.

وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد عن محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال: القراءة على العالم والسماع عليه سواء إن شاء الله تعالى.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب.

وقد قضى عنه هشام بن عبد الملك مرة ثمانين ألفاً، وفي رواية سبعة عشر ألفاً، وفي رواية عشرين ألفاً.

وقال الشافعي: عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف وكان يستدين، فقال له: لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانتك، قال: فوعده الزهري أن يقصر، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل، فوقف به رجاء وقال: يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقتنا عليه، فقال له الزهري: انزل فإن السخي لا تؤدبه التجارب.

وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

له سحائب جودٍ في أنامله	أمطارها الفضة البيضاء والذهب
يقول في العسر إن أيسرت ثانية	أقصرت عن بعض ما أعطي وما أهب
حتى إذا عاد أيام اليسار له	رأيت أمواله في الناس تنتهب

وقال الواقدي: ولد الزهري سنة ثمان وخمسين، وقدم في سنة أربع وعشرين ومائة إلى أمواله ليلة الثلاثاء بشعب وبدا، فأقام بها فمرض هناك ومات وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق، وكانت وفاته لسبع عشرة من رمضان في هذه السنة، وهو ابن خمس وسبعين سنة، قالوا: وكان ثقة كثير الحديث والعلم والرواية، فقيهاً جامعاً.

وقال الحسين بن المتوكل العسقلاني: رأيت قبر الزهري بأداقى - وهي خلف شغب وبَدَا من فلسطين مسنّماً مجصصاً.

وقد وقف الأوزاعي يوماً على قبره فقال: يا

قبر كم فيك من علم ومن حلم	يا قبر كم فيك من علم ومن كرم

وقال الزبير بن بكار: توفي الزهري بأمواله بشغب، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، عن اثنتين وسبعين سنة، ودفن على قارعة الطريق ليدعو له المارة، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقال أبو معشر: سنة خمس وعشرين ومائة والصحيح الأول والله أعلم.

ومن توفي في خلافة هشام بن عبد الملك

كما أورده ابن عساكر.

■ بلال بن سعد بن تميم السكوني أبو عمرو ويقال: أبو زرعة إمام جامع دمشق أيام هشام وقاص أهل الشام. كان أحد الزهاد الكبار، والعباد الصوام القوام، روى عن أبيه وكانت له صحبة، وعن جابر وابن عمر وأبي الدرداء وغيرهم، وعنه جماعة منهم أبو عمرو الأوزاعي وكان الأوزاعي يكتب عنه ما يقوله من الفوائد العظيمة في قصصه ووعظه، وقال: ما رأيت واعظاً قط مثله. وقال أيضاً: ما بلغني عن أحد من العبادة ما بلغني عنه، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

وقال غيره وهو الأصمعي: كان إذا نعس في ليل الشتاء ألقى نفسه بثيابه في البركة، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال: إن ماء البركة أهون علي من صديد جهنم.

وقال آخر، وهو الوليد بن مسلم: كان إذا كبّر في المحراب سمع تكبيره من الأوزاع. قلت: وهي خارج باب الفراديس بمحلة سوق قميلة اليوم. قال: وكنّا نتبيّن قراءته من عقبة الشيخ عند دار الضيافة. يعني من عند دار الذهب داخل باب الفراديس.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: هو شامي تابعي ثقة.

وقال أبو زرعة الدمشقي: كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص، وقد اتهمه رجاء بن حيوة بالقدر حتى قال بلال يوماً في وعظه: رب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل لا يشعر، يأكل ويشرب، ويضحك، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار، فيا ويل لك روحاً، ويا ويل لك جسداً فلتبك ولتبك عليك البواكي لطول الأمد.

وقد ساق الحافظ ابن عساكر شيئاً حسناً من كلامه في مواعظه البليغة، فمن ذلك قوله: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها، زاهدكم راغب، وعالمكم جاهل، ومجتهدكم مقصر.

وقال أيضاً: أخ لك كلما لقيك ذكّرك بنصيبك من الله، أو أخبرك بعيب فيك، أحب إليك، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً.

وقال أيضاً: لا تكن ولياً لله في العلانية وعدواً له في السر ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السر، ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر.

وقال أيضاً: أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما خلقتم للبقاء، تتقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الجنة أو النار.

وقال أيضاً: عباد الرحمن إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقام، ودار حزن ونصب لدار نعيم وخلد، فمن لم يعمل على يقين فلا يتعنّ، عباد الرحمن لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغل، ولو عملتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقاً، عباد الرحمن أما ما وكلكم الله به فتضيعونه، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه، ما هكذا نعت الله عبادة الموقنين، أذوو عقول في الدنيا وبله في الآخرة، وعمي عما خلقتم له بصراء في أمر الدنيا؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته، فكذلك أشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه، عباد الرحمن! هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم قد تقبل منكم؟ أو

شيئاً من خطاياكم قد غفر لكم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٦] والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم ما فرض عليكم، أترغبون في طاعة الله لتعجيل دار معمورة بالآفات؟ ولا ترغبون وتنافسون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال أيضاً: الذكر ذكران ذكر الله باللسان حسن جميل، وذكر الله عندما أحل وحرم أفضل. عباد الرحمن يقال لأحدنا: تحب أن تموت؟ فيقول: لا! فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أعمل، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت، ولا يحب أن يعمل، وأحب شيء إليه أن يؤخر عمل الله، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه. عباد الرحمن إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها، فما يزال يمنيه الشيطان ويزين له حتى ما يرى شيئاً دون الجنة، مع إقامته على معاصي الله. عباد الله، فقبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ماذا تريدون بها، فإن كانت خالصة لله فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، فإنه قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال أيضاً: إن الله ليس إلى عذابكم بسريع، يُقيل العثرة. يقبل المقبل ويدعو المدبر.

وقال أيضاً: إذا رأيت الرجل متحرجاً لحوحاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وقال الأوزاعي: خرج الناس بدمشق يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فقال: يا معشر من حضرتم! ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إنك قلت: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فاعف عنا واسقنا. قال: فسقوا يومهم ذلك.

وقال أيضاً: سمعته يقول: لقد أدركت أقواماً يشتدون بين الأعراض، ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا جنهم الليل كانوا رهباناً.

وسمعته أيضاً يقول: لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر من عصيت.

وسمعته يقول: من باداك بالود فقد استرقك بالشكر.

وكان من دعائه: اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب، ومن تبعات الذنوب، ومن مرديات الأعمال ومضلات الفتن.

وقال الأوزاعي عنه أنه قال: عباد الرحمن لو أنكم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها ولا معصية إلا اجتنبتموها، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفاكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل، وقال: إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة.

■ الجعد بن درهم: هو أول من قال بخلق القرآن، وهو الذي كان ينسب إليه مروان الجعدي، وهو مروان الحمار، آخر خلفاء بني أمية. كان شيخه الجعد بن درهم، أصله من حرّان، ويقال: إنه من موالي بني مروان، سكن الجعد دمشق، وكانت له بها دار بالقرب من القلانسيِّين إلى جانب الكنيسة، ذكره ابن عساكر.

قلت: وهي المحلة بالقرب من الخواصين اليوم غربيها عند حمام القطانين الذي يقال له حمام قلينس.

قال الحافظ ابن عساكر وغيره: وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم وزوج ابنته عن لبيد بن أعصم الساحر لعنه الله الذي سحر رسول الله ﷺ عن يهودي باليمن، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري، وقيل الترمذي، وقد أقام ببلخ، وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران، حتى نفي إلى ترمذ، ثم قتل الجهم بأصبهان، وقيل بمرو، قتله نائبها سلم بن أحوز بن أبي دؤاد رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً وأخذ بشر المريسي عن الجهم، وأخذ أحمد بن أبي داود عن بشر، وأما الجعد لعنه الله فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول لعنهما الله، ثم قتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك أن خالداً خطب الناس فقال في خطبته تلك: أيها الناس ضحُّوا تقبّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا. ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر بيده أثابه الله تعالى وتقبل منه وذلك في أيام هشام بن عبد الملك، وقد كان هشام طلبه بدمشق حين أظهر ما أظهر، ثم إنه هرب بعد ذلك فكتب إلى نائبه خالد بن عبد الله القسري أن يقتله فقتله كما ذكرنا.

وقد روى قصته مع خالد البخاري في «أفعال العباد» [ص٨] وابن أبي حاتم وغير واحد ممن صنف في السنة كالطبراني وابن أبي عاصم وعبد الله بن أحمد وذكره الحافظ ابن عساكر في التاريخ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه، وأنه كان كلما راح إلى وهب يغتسل ويقول: أجمع للعقل، وكان يسأل وهباً عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوماً: ويلك يا جعد، أقصر المسألة، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك، وأن له عيناً ما قلنا ذلك، وأن له نفساً ما قلنا ذلك، وأن له سمعاً ما قلنا ذلك، وذكر له الصفات من العلم والكلام وغير ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ثم قتل.

وذكر في ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف ويروي لعمران بن حطان:

ليثٌ علي وفي الحروب نعامةٌ فتخاء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالةَ في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار [البحر الزخار (١٠٢٧)]: حدثنا رزق الله بن موسى حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك حدثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة».

وكذا رواه أبو يعلى في مسنده [٨٥١] عن أبي كريب عن ابن أبي فديك عن عبد الملك بن زيد بن سعيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب عن الزهري به.

قلت: وهذا حديث غريب منكر، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري تكلم فيه وضعفه علي بن الحسين بن الجنيد. وكذا تكلم في الراوي عنه أيضاً والله أعلم.

وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة من بلاد الروم، وفي ربيع الآخر منها توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان.

ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

هو

■ هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي، أمير المؤمنين. وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد رحمه الله التي يقال لها النورية الكبيرة، وتعرف بدار القبابين ـ يعني الذين يبيعون القباب وهي الخيام ـ والله أعلم.

وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك بعهد منه إليه، وذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة، وكان جميلا أبيض أحول يخضب بالسواد، وهو الرابع من ولد عبد الملك لصلبه الذين ولوا الخلافة، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في المحراب أربع مرات، فدس إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها ففسرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة، فوقع ذلك، فكان هشام آخرهم، وكان في خلافته حازم الرأي جماعاً للأموال يبخل، وكان ذكياً مدبراً، له بصر بالأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال: أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟! فاستحيا وقال: اقتص مني بدلها أو قال: بمثلها، فقال: إذن أكون سفيهاً مثلك، قال: فخذ عوضاً منها قال: لا أفعل، قال: فاتركها لله، قال: هي لله ثم لك، فقال هشام عند ذلك: والله لا أعود إلى مثلها.

وقال الأصمعي: أسمع رجلا هشاماً كلاماً فقال له: أتقول لي مثل هذا وأنا خليفتك؟! وغضب مرة على رجل فقال له: اسكت وإلا ضربتك سوطاً.

وكان علي بن الحسين قد اقترض من مروان بن الحكم مالا أربعة آلاف دينار. فلم يتعرض له أحد من بني مروان، حتى استخلف هشام بن عبد الملك فقال: ما فعل حقنا قِبَلك؟ قال: موفور مشكور، فقال: هو لك.

قلت: هذا الكلام فيه نظر، ذلك أن علي بن الحسين مات سنة الفقهاء، وهي سنة أربع وتسعين، قبل أن يلي هشام الخلافة بإحدى عشرة سنة، فإنه إنما ولي الخلافة سنة خمس ومائة، فقول المؤلف: إن أحداً من خلفاء بني مروان لم يتعرض لمطالبة علي بن الحسين حتى ولي هشام فطالبه بالمال المذكور. فيه نظر ولا يصح لتقدم موت علي على خلافة هشام، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد وقال: وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك.

وقال المدائني عن رجل من غَنِيٍّ عن بشر مولى هشام قال: أتي هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه وقرنه، فبكى الشيخ، قال بشر: فضربه، فقلت له وأنا أعزّيه: عليك بالصبر. فقال: أتراني أبكي للضرب، إنما أبكي لاحتقاره البربط حتى سمّاه طنبوراً.

قال: واغلظ رجل يوماً لهشام في الكلام فقال: ليس لك أن تقول هذا لإمامك.

قال: وتفقد أحد ولده يوم الجمعة فبعث إليه: مالك لم تشهد الجمعة؟ فقال: إن بغلتي عجزت عني، فبعث إليه: أما كان يمكنك المشي، ومنعه أن يركب سنة.

وذكر المدائني أن رجلا أهدى إلى هشام طيرين فأوردهما السفير إلى هشام، وهو جالس على سرير في وسط داره، فقال له: أرسلهما في الدار، فأرسلهما، ثم قال: جائزتي يا أمير المؤمنين فقال: ويحك وما جائزتك على هدية طيرين؟ خذ أحدهما، فجعل الرجل يسعى خلف أحدهما، فقال: ويحك ما لك؟ فقال: أختار أجودهما. قال: وتختار أيضاً الجيد وتترك الرديء؟! ثم أمر له بأربعين أو خمسين درهماً.

وذكر المدائني عن قحذم كاتب يوسف بن عمر. قال: بعثني يوسف إلى هشام بياقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرائقة، جارية خالد بن عبد الله القسري، مشترى الياقوتة ثلاثة وسبعون ألف دينار، قال: فدخلت عليه وهو على سرير فوقه فرش لم أر رأس هشام من علو تلك الفرش فأوردتها له، فقال: كم زنتها؟ فقلت: إن مثل هذه لا مثل لها، فسكت.

قالوا: ورأى قوماً يفرطون الزيتون فقال: القطوه لقطاً ولا تنفضوه نفضاً، فتفقأ عيونه وتتكسر غصونه.

وكان يقول: ثلاثة لا يضعن الشريف: تعاهد الصنيعة، وإصلاح المعيشة، وطلب الحق وإن قل.

وقال أبو بكر الخرائطي: يقال إن هشاماً لم يقل من الشعر سوى هذا البيت:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

وقد روي له شعر غير هذا.

وقال المدائني عن وسنان الأعرجي حدثني ابن أبي نُحيلة عن عقال بن شبة قال: دخلت على هشام وعليه قباء فَنَك أخضر، فوجهني إلى خراسان، ثم جعل يوصيني وأنا أنظر إلى القباء، ففطن فقال: ما لك؟ قلت: رأيت عليك قباء فنك أخضر، قبل أن تلي الخلافة، فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره، قال: هو والله الذي لا إله غيره، أهو ذاك ما لي قباء غيره؟ وأما ما ترون من جمعي لهذا المال وصونه فإنه لكم. قال عقال: وكان هشام محشواً عقلاً.

وقال عبد الله بن علي عم السفاح: جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

وقال المدائني عن هشام بن عبد الحميد: لم يكن أحد من بني مروان أشد نظراً في أمر أصحابه ودواوينه، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام.

وهو الذي قتل غيلان القدري، ولما أحضر بين يديه قال له: ويحك قل ما عندك، إن كان حقاً اتبعناه، وإن كان باطلا رجعت عنه، فناظره ميمون بن مهران فقال لميمون: أشاء الله أن يعصى؟ فقال له ميمون: أيُعصى الله كارهاً؟ فسكت غيلان فقيده حينئذ هشام وقتله.

وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي ثور قال: أصبنا في خزائن هشام أثني عشر الف قميص كلها قد أثر بها.

وشكى هشام إلى أبيه ثلاثاً إحداها أنه يهاب الصعود على المنبر، والثانية قلة تناول الطعام، والثالثة أن عنده في القصر مائة جارية من حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن، فكتب إليه أبوه: أما صعودك إلى المنبر فإذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى مؤخر الناس فإنه أهون عليك، وأما قلة الطعام فمر الطباخ فليكثر الألوان فلعلك أن تتناول من كل لون لقمة، وعليك بكل بيضاء بضة ذات جمال وحسن.

وقال أبو عبد الله الشافعي: لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة قال:

أحب أن أخلو بها يوماً لا يأتيني فيه خبر غم، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور، فقال: ولا يوماً واحداً.

وقد رويت هذه الحكاية من وجه آخر وأنه لم يمكث بعد ذلك إلا شهراً واحداً.

وقال سفيان بن عيينة: كان هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسين بن زيد عن شهاب بن عبد ربه عن عمر بن علي قال: مشيت مع محمد بن علي ـ يعني ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ إلى داره عند الحمام فقلت له: إنه قد طال ملك هشام وسلطانه، وقد قرب من العشرين سنة، وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فزعم الناس أنها العشرون، فقال: ما أدري ما أحاديث الناس، ولكن أبي حدثني عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ قال: «لن يعمّر اللّه ملكا في أمة نبي مضى قبله ما بلغ ذلك النبي من العمر في أمته». فإن اللّه عمر نبيه ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة وعشراً بالمدينة.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: ليس حديث فيه توقيت غير هذا، قرأه يحيى بن معين على كتابي فقال: من حدثك به؟ فقلت: إبراهيم، فتلهف أن لا يكون سمعه. وقد رواه ابن جرير في تاريخه [٧/٢٠٨] عن أحمد بن زهير عن إبراهيم بن المنذر الحزامي.

وروى مسلم بن إبراهيم حدثنا القاسم بن الفضل حدثني عباذ بن المعراء العتكي عن عاصم بن المنذر بن الزبير عن عبد اللّه بن الزبير أنه سمع علياً يقول: هلاك ملك بني أمية على يد رجل أحول ـ يعني هشاماً ـ.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن أبي معاذ النميري عن أبيه عن عمرو بن كليع عن سالم كاتب هشام بن عبد الملك قال: خرج علينا يوماً هشام وعليه كآبة وقد ظهر عليه الحزن، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه فقال: يا أمير المؤمنين ما لي أراك هكذا؟ فقال: ما لي لا أكون وقد زعم أهل العلم بالنجوم أني أموت إلى ثلاث وثلاثين من يومي هذا. قال: فكتبنا ذلك، فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءني رسول هشام في الليل يقول: احضر معك دواء للذُّبحة، وكانت قد أصابته قبل ذلك، فاستعمل منه فعوفي، فذهبت إليه ومعي ذلك الدواء فتناوله وهو في وجع شديد، واستمر فيه عامة الليل، ثم قال: يا سالم اذهب إلى منزلك فقد وجدت خفة وذر الدواء عندي، فذهبت فما هو إلا أن وصلت إلى منزلي حتى سمعت الصياح عليه، فجئت فإذا هو قد مات.

وذكر غيره أن هشام بن عبد الملك نظر إلى أولاده وهم يبكون عليه حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم عليه ما كسب، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر اللّه له.

ولما مات جاءت الخزنة فختموا على حواصله وأرادوا تسخين الماء فلم يقدروا له على قمقم حتى استعاروا له، وكان نقش خاتمه الحُكْم للحَكَم الحكيم.

وكانت وفاة هشام بالرصافة يوم الأربعاء لست بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن بضع وخمسين سنة، وقيل: إنه جاوز الستين، وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذي ولي الخلافة بعده، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً، وقيل وثمانية أشهر وأياماً، فاللّه أعلم.

وقال ابن أبي فديك: حدثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال: «ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة».

قال ابن أبي فديك: زينتها نور الإسلام وبهجته. وقال غيره ـ يعني الرجال ـ واللّه أعلم.

قلت: لما مات هشام بن عبد الملك تولّى ملك بني أمية، واضطرب أمرهم جداً، وإن كان قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهيج، وما زالوا حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى ذلك مبسوطاً مقرّراً في مواضعه، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق، قبّحه اللّه وأبعده

قال الواقدي: والمدائني بويع له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

وقال هشام بن الكلبي: بويع له يوم السبت في ربيع الآخر، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة. وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخلطاء السوء ومجالس اللّهو، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمّره على الحج سنة ست عشرة ومائة، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه، حتى يقال: إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فيه كلب فسمع صوته فأحالوا ذلك على الجمّال فضرب على ذلك.

قالوا: واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمور وغير ذلك من المنكرات، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه، من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس ومن إنكارهم عليه، فلما تحقق عمه ذلك منه نهاه مراراً فلم ينته، واستمر على حاله القبيح، وعلى فعله الرديء، فعزم عمه على خلعه من الخلافة ـ وليته فعل ـ وأن يولي بعده مسلمة بن هشام، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء، ومن أخواله، ومن أهل المدينة ومن غيرهم، وليت ذلك تم. ولكن لم يتنظم حتى قال هشام يوماً للوليد: ويحك! واللّه ما أدري أعَلَى الإسلام أنت أم لا، فإنك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر. فكتب إليه الوليد بن يزيد:

يا أيها السائلُ عن ديننا ... ديني على دين أبي شاكرِ
نشربها صِرْفاً وممزوجةً ... بالسُّخنِ أحياناً وبالفاترِ

فغضب هشام على ابنه مسلمة، وكان يُكنّى أبا شاكر، وقال له: يُعيّرني بك الوليد بن يزيد وأنا اريد أن أرقيك إلى الخلافة؟! وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار واللين، وقسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة:

يَا أيها السائلُ عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكرِ
الواهب الجُرْدَ بأرسانها ... ليس بزنديق ولا كافرِ

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي

الوليد ما كان يتعاطاه من الفواحش والمنكرات، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد، ففر منه الوليد إلى الصحراء، وجعلا يتراسلان بأقبح المراسلات، وجعل هشام يتوعده وعيداً شديداً، ويتهدده، ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البرية، فلما كانت الليلة التي قدم في صبيحتها عليه البرد بالخلافة، قلق الوليد تلك الليلة قلقاً شديداً، وقال لبعض أصحابه: ويحك قد أخذني الليلة قلق عظيم فاركب لعلنا تبسط، فسارا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به، من كتبه إليه بالتهديد والوعيد، ثم رأيا من بعد رهجاً وأصواتاً وغباراً ثم انكشف ذلك عن برد يقصدونه بالولاية، فقال لصاحبه: ويحك! إن هذه رسل هشام، اللَّهم أعطنا خيرها، فلما اقتربت البرد منه وتبيّنوه ترجلوا إلى الأرض وجاؤوا فسلموا عليه بالخلافة، فبهت وقال: ويحكم أمات هشام؟ قالوا: نعم، قال: فمن بعثكم؟ قالوا: سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل، وأعطوه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن أحوال الناس وكيف مات عمه هشام، فأخبروه. فكتب من فوره بالاحتياط على أموال هشام وحواصله بالرصافة وقال:

ليت هِشاماً عاش حتى يرى ... مِكيالَه الأوفرَ قد طُبِّعا
كِلْناه بالصاعِ الذي كالَه ... وما ظَلَمناهُ به إصبَعَا
وما أتينا ذاك عن بدعةٍ ... أحَلّهُ الفرقانُ لي أجْمَعَا

وقد كان الزهري يحث هشاما على خلع الوليد هذا ويستنهضه في ذلك، فيحجم هشام عن ذلك خوف الفضيحة من الناس، ولئلا تتنكر قلوب الأجناد من أجل ذلك، وكان الوليد يفهم ذلك من الزهري ويبغضه ويتوعده ويتهدده، فيقول له الزهري: ما كان الله ليسلطك عليّ يا فاسق. ثم مات الزهري قبل ولاية الوليد، ثم فر الوليد من عمه إلى البرية فلم يزل بها حتى مات، فاحتاط على أموال عمه ثم ركب من فوره من البرية، ثم سار إلى دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق، وجاءته الوفود، وكتب إليه مروان بن محمد - وهو إذ ذاك نائب أرمينية وأذربيجان - يبارك له في خلافة الله له على عباده والتمكين في بلاده، ويهنئه بموت هشام وظفره به، والتحكم في أمواله وحواصله، ويذكر له أنه جدد البيعة له في بلاده، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك، ولولا خوفه من الثغر لاستناب عليه وركب بنفسه شوقاً إلى رؤيته، ورغبة في مشافهته، ثم إن الوليد سار في الناس سيرة حسنة بادي الرأي، وأمر بإعطاء الزمنى والمجذومين والعميان لكل إنسان خادماً، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين، وزاد في أعطيات الناس، ولاسيما أهل الشام والوفود، وكان كريماً ممدحاً شاعراً مجيداً، لا يسأل شيئاً قط فيقول: لا، ومن شعره قوله يمدح نفسه بالكرم:

ضَمِنتُ لكم إن لم تَعُقْني عوائقٌ ... بأن سماء الضر عنكم ستُقلِعُ
سيوشِك إلحاقٌ معاً وزيادةٌ ... وأعطيةٌ مني إليكم تبرّعُ
محرّمكم ديوانُكم وعطاؤكم ... به تكتُبُ الكتّابُ شهراً وتطبعُ

وفي هذه السنة عقد الوليد بن يزيد البيعة لابنه الحكم ثم عثمان، على أن يكونا وليي العهد من بعده، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر نائب العراق وخراسان، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيار، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمة بليغة طويلة، ساقها ابن جرير [تاريخه: ٢١٨/٧] بكمالها. واستوسق للوليد الممالك في المشارق والمغارب، وأخذت البيعة لولديه من بعده في الآفاق، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردها إليه كما كانت في أيام هشام، وأن يكون نصر بن سيار ونوّابه من تحت يده، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف. فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل، وألف وصيفة وشيئاً كثيراً من أباريق الفضة والذهب، وغير ذلك من التحف، وكتب إليه الوليد يستحثه سريعاً ويطلب منه أن يحمل معه طنابير وبرابط ومغنيات وبازات وبراذين فُرْهاً، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق، فكره الناس ذلك منه وكرهوه. وقال المنجمون لنصر بن سيار: إن الفتنة قريباً تقع بالشام، فجعل يتثاقل في سيره، فلما أن كان ببعض الطريق جاءته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت فتنة عظيمة في الناس بالشام، فعدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور، وذلك بسبب قتل الخليفة على ما سنذكره. وبالله المستعان.

وفي هذه السنة ولى الوليد بن يزيد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ولاية المدينة ومكة والطائف، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمداً ابني هشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة مهانين لكونهما خالي هشام، ثم يبعث بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه. فما زال يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالا كثيرة.

وفي هذه السنة ولي يوسف بن محمد يحيى بن سعيد الأنصاري قضاء المدينة.

وفيها بعث الوليد بن يزيد إلى أهل قبرص جيشاً مع أخيه وقال: خيِّرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام، ومن شاء أن يتحول إلى الروم، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٢٧/٧، ٢٢٨]: وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب مكة فلقوا - في قول بعض أهل السير - محمد بن علي فأخبروه بقصة أبي مسلم فقال: أحر هو أم عبد؟ فقالوا: أما هو فيزعم أنه حر، وأما مولاه فيزعم أنه عبد، فاشتروه فأعتقوه، ودفعوا إلى محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفاً، وقال لهم: لعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا، فإن مت فإن صاحبكم إبراهيم بن محمد - يعني ابنه - فإنه ابني، فأوصيكم به. ومات محمد بن علي في مستهل ذي القعدة في هذه السنة بعد أبيه علي بسبع سنين.

وفيها قتل يحيى بن زيد بن علي بخراسان.

وحج بالناس فيها يوسف بن محمد الثقفي أمير مكة والمدينة والطائف.

وأمير العراق يوسف بن عمر، وأمير خراسان نصر بن سيار، وهو في همة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف فقُتل الوليد قبل أن يجتمع

ومن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو عبد الله المدني، وهو أبو السفاح والمنصور، روى عن أبيه وجده وسعيد بن جبير وجماعة، وحدث عنه جماعة منهم ابناه الخليفتان، أبو العباس عبد

الله السفاح، وأبو جعفر عبد الله المنصور، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده وكان عنده علم بالأخبار. فبشره بأن الخلافة ستكون في ولده، فدعا إلى نفسه في سنة سبع وثمانين، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفي في هذه السنة، وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها، عن ثلاث وستين سنة، وكان من أحسن الناس شكلا، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم، فما أبرم الأمر إلا لولده السفاح، فاستلب من بني أمية الأمر في سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتي تفصيل ذلك.

وأما

■ يحيى بن زيد: بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فإنه لما قتل أبوه زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة، لم يزل يحيى مختفياً في خراسان عند الحريش بن عمرو بن داود ببلخ، حتى مات هشام بن عبد الملك فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد، فكتب نصر بن سيار إلى نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلي، فأحضر الحريش فعاقبه ستمائة سوط فلم يدل عليه، وجاء ولد الحريش فدلهم عليه فحُبس، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بذلك، فبعث إلى الوليد بن يزيد يخبره بذلك، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره بإطلاقه من السجن وإرساله إليه صحبة أصحابه ويجهزهم إليه، فأطلقهم وأطلق لهم وجهزهم إلى دمشق، فلما كانوا ببعض الطريق توسم نصر منه غدراً، فبعث إليه جيشاً عشرة آلاف فكسرهم يحيى بن زيد، وإنما معه سبعون رجلا، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالا كثيرة، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله.

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته:

هو

■ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو العباس الأموي الدمشقي، بويع له بالخلافة بعد عمه هشام بن عبد الملك في السنة الخالية بعهد من أبيه كما قدمنا. وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي. وكان مولده سنة تسعين، وقيل: سنة ثنتين وتسعين، وقيل: سبع وثمانين، وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، ووقعت فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله، وهو خليفة لفسقه، وقيل وزندقته.

وقد قال الإمام أحمد [١٨/١]: حدثنا أبو المغيرة حدثنا ابن عياش حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال: ولد لأخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسموه الوليد، فقال النبي ﷺ: «سميتموه بأسماء فراعنتكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو شرٌّ على هذه الأمة من فرعون لقومه».

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه الوليد بن مسلم وهقل بن زياد ومحمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعي فلم يذكروا عمر في إسناده وأرسلوه، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب.

ثم ساق طرقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها. وحكى عن البيهقي أنه قال: هو مرسل حسن.

ثم ساق من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن عمرو بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: دخل عليٌّ النبي ﷺ وعندي غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال: «من هذا يا أم سلمة؟» قالت: هذا الوليد، فقال النبي ﷺ: «قد اتخذتم الوليد حنانا غيروا اسمه، فإنه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد».

وروى الحافظ ابن عساكر من حديث عبد الله بن محمد بن مسلم، حدثنا محمد بن غالب الأنطاكي، حدثنا محمد بن سليمان بن أبي داود حدثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح عن النبي ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية».

صفة مقتله وزوال دولته

كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش مصراً عليها، منتهكاً محارم الله عز وجل، لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين، فالله أعلم، لكن الذي يظهر أنه كان عاصياً شاعراً ماجناً متعاطياً للمعاصي، لا يتحاشاها بها من أحد، ولا يستحي من أحد، قبل أن يلي الخلافة وبعد أن ولي.

وقد روي أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى في قتله، قال: اشهد، بُعْداً له، أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد أرادني على نفسي الفاسق.

وحكى المعافى بن زكريا عن ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي أن الوليد بن يزيد نظر إلى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفرى فأحبها، فبعث يراودها عن نفسها فأبت عليه، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه، فاتفق اجتماع النصارى في بعض كنائسهم لعيد لهم، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتنكر وأظهر أنه مصاب، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان، فرأينه فأحدقن به، فجعل يكلم سفرى ويمازحها وتضاحكه ولا تعرفه، حتى اشتفى من النظر إليها، فلما انصرفت قيل لها: ويحك أتدرين من هذا الرجل؟ فقالت: لا! فقيل لها: هو الوليد. فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها. فقال الوليد في ذلك:

أضحى فؤادُكَ يا وليد عميدا ... صَبّاً قديماً للحسان صَيُودا
من حب واضحة العوارض طَفْلةٍ ... برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني وامِقٍ ... حتى بصُرتُ بها تقبِّل عُودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى ... منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه ... وأكون في لهب الجحيم وقودا

وقال فيها أيضا لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس. وقيل: إن هذا وقع قبل أن يلي الخلافة:

ألا حبذا سَفْري وإن قيل إنني ... كَلِفتُ بنصرانية تشرب الخمرا
يهون علينا أن نظل نهارَنا ... إلى الليل لا أُولى نصلِّي ولا عصرا

قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار النهرواني ثم البغدادي بعد إيراده هذه الأبيات: للوليد في هذا النحو من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره، وقد ناقضناه في أشياء من منظوم شعره المتضمن ركيك ضلاله وكفره.

وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صلف بالحيرة فقصده حتى شرب منه ثلاثة أرطال من الخمر، وهو راكب على فرسه، ومعه اثنان من أصحابه، فلما انصرف أمر للخمار بخمسمائة دينار.

وقال القاضي أبو الفرج: أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة، وقد جمعت شيئاً من سيره وآثاره، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من خُرْقه وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه، وما صرح به من الإلحاد في القرآن العزيز، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف، وباطله بحق نبيه شريف، وتوخيت رضاء الله عز وجل واستيجاب مغفرته.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا سليمان بن أبي شيخ حدثنا صالح بن سليمان، قال: أراد الوليد بن يزيد الحج وقال: أشرب فوق ظهر الكعبة. فهمّ قوم أن يفتكوا به إذا خرج، فجاؤوا إلى خالد بن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى، فقالوا له: فاكتم علينا، فقال: أما هذا فنعم، فجاء إلى الوليد فقال له: لا تخرج فإني أخاف عليك، فقال: ومن هؤلاء الذين تخافهم علي؟ قال: لا أخبرك بهم. قال: إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر، قال: وإن بعثت بي إلى يوسف بن عمر، فبعثه إلى يوسف فعذّبه حتى قتله. وذكر ابن جرير [تاريخه: ٧/٢٣٣، ٢٣٤] أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله، وقد قيل: إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف يخلصها منه، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله، فغضبت أهل اليمن من قتله، وخرجوا على الوليد.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا مصعب بن عبد الله قال: سمعت أبي يقول: كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس: كان زنديقاً، فقال المهدي: خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها في زنديق.

وقال أحمد بن عمير بن جوصاء الدمشقي: حدثنا عبد الرحمن بن الحسن حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا حصين بن الوليد عن الأزهري بن الوليد قال: سمعت أم الدرداء تقول: إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم تزل طاعة مستخفاً بها ودم مسفوكاً على وجه الأرض بغير حق.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري [تاريخه: ٧/٢٣١].

ذكر قتل يزيد بن الوليد الذي يقال له الناقص للوليد بن يزيد وكيف قُتل

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته وفسقه وما ذكر عن تهاونه واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته. ولمّا ولي الخلافة وأفضت إليه لم يزدد في الذي كان فيه من اللّهو واللذة والركوب إلى الصيد وشرب المسكر ومنادمة الفساق، إلا تمادياً وجدّاً، فثقل ذلك على رعيته وجنده، وكرهوه كراهة شديدة، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه، إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده اليمانية، وهي أعظم جند خراسان، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك، فلم يزل يعاقبه حتى هلك، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءهم قتله كما سنذكره في ترجمته.

ثم روى ابن جرير [تاريخه: ٧/٢٣١، ٢٣٢] بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك فكلمه فيها عمر بن الوليد فقال: لا أردها، فقال: إذن تكثر الصواهل حول عسكرك. وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وبايع لولديه الحكم وعثمان، وكانا دون البلوغ، فشق ذلك على الناس أيضاً ونصحوه فلم يتصح، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل.

قال المدائني في روايته: ثقل ذلك على الناس ورماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر والزندقة وغشيان أمهات أولاد أبيه، وباللواط وغيره.

وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل من بني أمية ليقتله بها، ورموه بالزندقة، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الناس إلى قوله أميل، لأنه أظهر النسك والتواضع، وجعل يقول: ما يسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس على الفتك به.

قالوا: وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاعة واليمانية وخلق من أعيان الأمراء وآل الوليد بن عبد الملك وآل هشام بن عبد الملك، وكان القائم بأعباء ذلك كله والداعي إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وهو من سادات بني أمية، وكان ينسب إلى الصلاح والدين والورع، فبايعه الناس على ذلك، وقد نهاه عن ذلك أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل، فقال: والله لولا أني أخاف عليك الوليد لقيدتك وأرسلتك إليه. واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين في طائفة من أصحابه نحو المائتين، إلى ناحية مشارف دمشق، فانتظم ليزيد بن الوليد أمره وجعل أخوه العباس ينهاه عن ذلك أشد النهي، فلا يقبل، فقال العباس في ذلك:

إنـي أعيذُكُـمُ باللّـه مـنْ فِتَـنٍ ... مِثْـل الجِبَـالِ تَسَـامَى ثُـمّ تَنْدَفِـعُ
إن البَرِيّـةَ قَـد مَلّـت سِيَاسَـتَكُمْ ... فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الديـنِ وارْتَدِعُـوا
لا تُلحِمُـنّ ذئـابَ النّـاسِ أنفُسَـكُم ... إنّ الذئـابَ إذا مَـا أُلْحِمَـتْ رَتَعُـوا
لا تَبْقَـرُنّ بِـأَيدِيكُم بُطُونَكُـمُ ... فَثَـمّ لا حَسْـرَةٌ تغنـي ولا جَـزَعُ

فلما استوسق ليزيد بن الوليد أمره، وبايعه من بايعه من الناس، قصد دمشق فدخلها في غيبة الوليد فبايعه أكثر أهلها في الليل، وبلغه أن أهل المزة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مصاد فمضى إليه يزيد ماشياً في نفر من أصحابه، فأصابهم في الطريق مطر شديد، فأتوه فطرقوا بابه ليلا ثم دخلوا فكلمه يزيد في ذلك فبايعه معاوية بن مصاد، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القناة وهو على حمار أسود، فحلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا في السلاح، فلبس سلاحاً من تحت ثيابه فدخلها، وكان الوليد قد استناب على دمشق في غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد خرج منها أيضاً من الوباء فهو مقيم بقَطَنا واستخلف ابنه على دمشق وعلى شرطتها أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد بين العشائين عند باب الفراديس، فلما أذن لعشاء الآخرة دخلوا المسجد، فلما لم يبق في المسجد غيرهم بعثوا إلى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصدوا باب المقصورة ففتح لهم خادم، فدخلوا فوجدوا أبا العاج وهو سكران، فأخذوه وأخذوا خزّان بيت المال وتسلموا الحواصل، وتقووا بالأسلحة. وأمر يزيد بإغلاق أبواب البلد، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف، فلما أصبح الناس قدم أهل الحواضر من كل جانب فدخلوا من سائر أبواب البلد، كل أهل محلة من الباب الذي يليهم، فكثرت الجيوش حول يزيد بن الوليد بن عبد الملك في نصرته، وكلهم قد بايعه بالخلافة. وقد قال بعض الشعراء في ذلك:

فجاءتهم أنصارُهم حين أصبحوا ... سَكَاسِكُها أهلُ البيوتِ الصنادِدِ
وَكلبٌ فجاؤوهم بخيلٍ وعُدَّةٍ ... من البيضِ والأبدانِ ثم السواعِدِ
فأكرمْ بها أحياءَ أنصارِ سُنَّةٍ ... هم منعوا حرماتِها كلَّ جاحِدِ
وجاءتهم شعبانُ والأزدُ شُرَّعاً ... وعبسٌ ولَخْمٌ بين حامٍ وذائِدِ
وغسانُ والحَيَّانِ قيسٌ وتَغْلِبٌ ... وأحجمَ عنها كلُّ وانٍ وزاهِدِ
فما أصبحوا إلا وهم أهلُ مُلْكِها ... قد استوثقوا من كل عاتٍ ومارِدِ

وبعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس إلى قطنا ليأتوه بعبد الملك بن محمد بن الحجاج نائب دمشق وله الأمان، وكان قد تحصن في قصر هناك، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار، فلما مروا بالمزة قال أصحاب ابن مصاد: خذ هذا المال فهو خير لك من يزيد بن الوليد، فقال: لا والله لا تحدث العرب أني أول من خان، ثم أتوا به يزيد بن الوليد فاستخدم من ذلك المال جنداً للقتال قريباً من ألفي فارس، وبعث بهم مع أخيه عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك ليأتوا به، وركب بعض موالي الوليد فرساً سابقاً فساق به حتى انتهى إلى مولاه من الليل، وقد نفق الفرس، فأخبره الخبر فلم يصدقه وأمر بضربه، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حمص فإنها حصينة. وقال الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي: انزل على قومي بتدمر، فأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، بل ركب بمن معه، وهو في مائتي فارس، وقصده أصحاب يزيد فالتقوا بثقله في أثناء الطريق فأخذوه، وجاء الوليد فنزل حصن البحراء الذي كان للنعمان بن بشير، وجاءه رسول العباس بن الوليد إني آتيك ـ وكان من أنصاره ـ فأمر الوليد بإبراز سريره فجلس عليه وقال: أعلي يتوثب الرجال وأنا أثب على الأسد وأتخصر الأفاعي؟ وقدم عبد العزيز بن الوليد بمن معه، وإنما كان قد خلص معه من الألفي فارس ثمانمائة فارس، فتصافوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من أصحاب العباس جماعة حملت رؤوسهم إلى الوليد، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد، فبعث إليه أخوه عبد العزيز فجيء به قهراً حتى بايع لأخيه يزيد بن الوليد، واجتمعوا على حرب الوليد بن يزيد، فلما رأى الناس اجتماعهم فروا من الوليد إليهم، وبقي الوليد في ذل وقل من الناس، فلجأ إلى الحصن فجاؤوا إليه وأحاطوا به من كل جانب يحاصرونه، فدنا الوليد من باب الحصن فنادى: ليكلمني رجل شريف، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي، فقال الوليد: ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال له يزيد: إنما ننقم عليك انتهاك المحارم وشرب الخمور ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله عز وجل، فقال: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله لي لسعة عما ذكرت. ثم قال: أما والله لئن قتلتموني لا يُرْتَقُ فَتْقُكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم، ورجع إلى الدار فجلس ووضع بين يديه مصحفاً فنشره، وأقبل يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان، واستسلم، وتسور عليه أولئك الحائط، فكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة، فتقدم إليه وإلى جانبه سيفه فقال: نحه عنك، فقال الوليد: لو أردت القتال به لكان غير هذا، فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد، فبادره عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتلوه، ثم جروه برجله ليخرجوه، فصاحت النسوة فتركوه، واحتز أبو علاقة القضاعي رأسه، وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر، منهم منصور بن جمهور وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفلس، فلما انتهوا إليه بشروه بقتل الوليد وسلموا عليه بالخلافة، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف، فقال له روح بن بشر بن مقبل: أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق، فسجد شكراً لله عز وجل ورجعت الجيوش إلى يزيد، فكان أول من أخذ يده للمبايعة يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده وقال: اللّهم إن كان هذا رضى لك فاعني عليه، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف درهم، فلما جيء به ـ وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء ـ لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد، فقيل له: إنما ينصب رأس الخارجي، فقال: والله لأنصبنه، فشهره في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد، فقال أخوه بعداً له: أشهد أنك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد أرادني على نفسي الفاسق وأنا أخوه، لم يأنف من ذلك. وقد قيل: إن رأسه لم يزل معلقاً بحائط جامع دمشق الشرقي مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أميه، وقيل: إنما كان ذلك أثر دمه، وكان عمره يوم قتل ستاً وثلاثين سنة، وقيل ثمانياً وثلاثين، وقيل إحدى وثلاثين، وقيل ثنتان وقيل خمس، وقيل ست وأربعون سنة، ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر، وقيل ثلاثة أشهر.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٥٣/٧]: كان شديد البطش طويل أصابع الرجلين، كانت تضرب له سكة الحديد في الأرض ويربط فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس، فتنقلع تلك السكة من الأرض مع وثبته.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو الملقب بالناقص لنقصه الناس من أعطياتهم ما كان زادهم الوليد بن يزيد في أعطياتهم، وهي عشرة عشرة، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام.

ويقال: إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد.

بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة ـ أعني سنة ست وعشرين ومائة ـ وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوليد زادهم، وذلك في كل سنة عشرة عشرة، فسمي الناقص لذلك، ويقال في المثل: الأشج والناقص أعدلا بني مروان ـ يعني عمر بن عبد العزيز وهذا ـ ولكن لم تطل أيامه، فإنه توفي من آخر هذه السنة، واضطربت عليه الأمور، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان فنهض سليمان بن هشام، وكان معتقلاً في سجن الوليد بعمان فاستحوذ على أموالها وحواصلها، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعن الوليد ويعيبه ويرميه بالكفر، فأكرمه يزيد ورد عليه أمواله التي كان أخذها منه الوليد، وتزوج يزيد أخت سليمان، وهي أم هشام بنت هشام، ونهض أهل حمص إلى دار العباس بن الوليد التي عندهم فهدموها، وحبسوا أهله وبنيه، وهرب هو من حمص فلحق بيزيد بن الوليد إلى دمشق، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوليد بن يزيد، وأغلقوا أبواب البلد، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد، وكاتبوا الأجناد في طلب ثار الوليد، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم، على أن يكون الحكم بن الوليد بن يزيد الذي أخذ له العهد هو الخليفة،

وخلعوا نائبهم، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمَّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتاباً مع يعقوب بن هانئ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شورى، فقال عمرو بن قيس: فإذا كان الأمر كذلك فقد رضينا بولي عهدنا الحكم بن الوليد، فأخذ يعقوب بلحيته وقال: ويحك! لو كان هذا الذي تدعو إليه يتيماً تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله، فكيف أمر الأمة، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم. وقال لهم أبو محمد السفياني: لو قدمت دمشق لم يختلف علي منهم اثنان، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمروا عليهم السفياني، فتلقاهم سليمان بن هشام في جيش كثيف قد جهزهم يزيد بن الوليد، وجهز أيضاً عبد العزيز بن الحجاج في ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب، وجهز هشام بن مصاد المزي في ألف وخمسمائة ليكونوا على عقبة السلمية، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان بن هشام ذات اليسار وَعَدَّوه، فلما سمع بهم سليمان ساق في طلبهم فلحقهم عند السليمانية فجعلوا الزيتون عن أيمانهم والجبل عن شمائلهم والجباب من خلفهم، ولم يبق تخلص إليهم إلا من جهة واحدة، فاقتتلوا هنالك في قبالة الحر قتالا شديداً، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الحجاج بمن معه فحمل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب التل الذي في وسطهم، وكانت الهزيمة، فتفرقوا واتبعهم الناس، ثم تنادوا بالكف عنهم على أن يبايعوا ليزيد بن الوليد، وأسروا منهم جماعة، منهم أبو محمد السفياني ويزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز فنزلا عذراء ومعهم الجيوش وأشراف الناس، وأشراف أهل حمص من الأسارى ومن استجاب من غير أسر، بعدما قتل منهم ثلاثمائة نفس، فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم، وأطلق الأعطيات لهم، لا سيما لأشرافهم، وولى عليهم الذي اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين، وطابت عليه أنفسهم، وأقاموا عنده بدمشق سامعين مطيعين له.

وفي هذه السنة بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وذلك أن بني سليمان كانت لهم أملاك هناك، وكانوا ينزلونها، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سعيد بن روح بن زنباع ـ وكان رئيس تلك الناحية ـ إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوه إلى المبايعة له، فأجابه إلى ذلك. فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضاً محمد بن عبد الملك بن مروان، وأمروه عليهم، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام في الدماشقة وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني، فصالحهم أهل الأردن أولا ورجعوا إلى الطاعة، وكذلك أهل فلسطين. وكتب يزيد بن الوليد ولاية الإمرة بالرملة وتلك النواحي إلى أخيه إبراهيم بن الوليد، واستقرت الممالك هنالك، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد بن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أما بعد أيها الناس، أنا والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي إني لظلوم لنفسي، إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ولدينه، وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد ، لما هدمت معالم الدين، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب كل بدعة، مع أنه والله ما كان يصدق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، وإنه لابن عمي في النسب، وكُفْئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد، بحول الله وقوته لا بحولي ولا بقوتي.

أيها الناس! إن لكم عليَّ أن لا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً ولا أكثّر مالا ولا أعطيه زوجة، ولا ولداً. ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد، وخصاصة أهله بما يُغنيهم، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أجمّركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم، وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعوني وإلا أن تستتيبوني، فإن تبت قبلتم مني، وإن علمتم أحداً من أهل الصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته.

أيها الناس! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله تعالى فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع الله، فإذا عصى فدعا إلى معصيته فهو أهل أن يعصى ويقتل ويهان، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الحنق على اليمانية، وهم قوم خالد بن عبد الله القسري، حتى قتل الوليد بن يزيد، وكان قد سجن غالب من ببلاده منهم، وجعل الأرصاد على الثغور خوفاً من جند الخليفة، وولى عليها منصور بن جمهور أعرابياً جلفاً، وكان يُزَنُّ بمذهب الغيلانية القدرية، ولكن كانت له آثار حسنة، وعناء كثير في مقتل الوليد بن يزيد، فحظي بذلك عند يزيد بن الوليد، ويقال إنه لما فرغ الناس من مقتل الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها ليزيد، وقرر بالأقاليم نواباً وعمالا وكر راجعاً في أواخر رمضان، فلذلك ولاه الخليفة ما ولاه والله أعلم.

وأما يوسف بن عمر فإنه فر من العراق فلحق ببلاد البلقاء، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره وإليه، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته ـ وكان كبير اللحية جداً، ربما كانت تجاوز سرته وكان قصير القامة ـ فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه. ولما انتهى منصور بن جمهور إلى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم في كيفية مقتل الوليد، وأن الله أخذه أخذ عزيز مقتدر، وأنه قد ولى عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد، وكذلك أهل السند وسجستان.

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فإنه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور، وأبى أن ينقاد لأوامره، وقد كان جهز هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له.

وفي هذه السنة كتب مروان بن محمد الملقب بالحمار كتاباً إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد بن يزيد، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد بن يزيد، وكان مروان يومئذ أميراً على أذربيجان وأرمينية.

ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن ولاية العراق، وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وقال له: إن أهل العراق يحبون أباك

فقد وليتكها، وذلك في شوال منها، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق يوصيهم به خشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه فسلم إليه وسمع وأطاع.

وكتب الخليفة إلى نصر بن سيار بولاية خراسان مستقلا بها، فخرج عليه رجل يقال له الكرماني، لأنه ولد بكرمان، وهو أبو علي جديع بن علي بن شبيب المعني، واتبعه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة في نحو من ألف وخمسمائة، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده، فتحير نصر بن سيار وأمراؤه فيما يصنع به، فاتفق رأيهم بعد جهد على سجنه، فسجن قريباً من شهر، ثم أطلقه فاجتمع إليه ناس كثير، وجم غفير، وركبوا معه، فبعث إليهم نصر بن سيار من قاتلهم وقهرهم وكسرهم.

واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمته، وألحوا عليه في أعطياتهم وأسمعوه غليظ ما يكره وهو على المنبر، بسفارة سلم بن أحوز أدى إليه ذلك، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب، وانفض كثير من الناس عنه، فقال لهم نصر فيما قال: والله لقد نشرتكم وطويتكم وطويتكم ونشرتكم فما عندي منكم عشرة على دين، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين الرجل منكم أن ينخلع من أهله وماله وولده، ولم يكن رآها، ثم تمثل بقول النابغة:

فإن يَغلِب شقاؤكم عليكم ... فإني في صلاحكم سعيتُ

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن الورد الجعدي:

أبيتُ أرعى النجومَ مُرتفِقاً ... إذا استقلت تهوي أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة ... قد عمَّ أهل الصلاة شاملها
مَن بخراسان والعراق ومن ... بالشام كلٌّ شجاهُ شاغلها
يمشي السفيه الذي يعنّف بالـ ... جهل سواءً فيها وعاقلها
فالناس منها في لون مُظلمة ... دَهماء ملتجّة غياطلها
والناس في كُربة يكاد لها ... تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في ظل مُبهمة ... عمياء تغتالهم غَوائلها
لا ينظر الناس من عواقبها ... إلا التي لا يُبينُ قائلها
كرَغوة البَكر أو كصيحة حبـ ... لى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا يزري بوجهته ... فيها خُطُوب جَمٌّ زلازلها

وفي هذه السنة أخذ الخليفة البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان، وذلك بسبب مرضه الذي مات فيه. وكان ذلك في شهر الحجة منها، وقد حرضه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء.

وفيها عزل يزيد عن إمرة الحجاز يوسف بن محمد الثقفي وولى عليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فقدمها في أواخر ذي القعدة منها.

وفيها أظهر مروان الحمار الخلاف ليزيد بن الوليد، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه طالب بدم الوليد بن يزيد، فلما وصل إلى حران أظهر الموافقة وبايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد.

وفيها أرسل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبا هاشم بُكير بن ماهان إلى أرض خراسان، فاجتمع بجماعة من أهل خراسان بمرو، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمد الإمام إليه، ووصيته، فتلقوا ذلك بالقبول، وأرسلوا معه ما كان عندهم من النفقات.

وفي سلخ ذي القعدة، وقيل في سلخ ذي الحجة، وقيل لعشر مضين منه، وقيل بعد الأضحى منها كانت وفاة أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، رحمه الله؛ وهذه ترجمته:

هو

■ **يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أبو خالد الأموي، أمير المؤمنين**، بويع له بالخلافة أول ما بويع بها في قرية المزة، من قرى دمشق، ثم دخل دمشق فغلب عليها، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله، واستحوذ على الخلافة في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يلقب بالناقص لنقصه الناس العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيد، وقيل إنما سماه بذلك مروان بن محمد الملقب بالحمار، وكان يقول: الناقص ابن الوليد، وأمه شاهفرند بنت فيروز بن كسرى، كسروية.

وقال ابن جرير [تاريخ الطبري: ٢٩٨/٧]: وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار من كسرى، وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبي مروان ... وقيصر جدّي وجدٌّ خاقان

وإنما قال ذلك لأن جده فيروز، وأم أمه بنت قيصر، وأمه شيرويه وهي بنت خاقان ملك الترك، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم، هي وأخت لها فبعثهما إلى الحجاج، فأرسل بهذه إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى، فولدت هذه للوليد يزيد الناقص، وكان مولده في سنة تسعين، وقيل في سنة ست وتسعين.

وقد روى عنه الأوزاعي مسألة في السلم.

وقد ذكرنا كيفية ولايته فيما سلف في هذه السنة، وأنه كان عادلا ديناً محباً للخير مبغضا للشر، قاصداً للحق.

وقد خرج يوم عيد الفطر من هذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسلّة عن يمينه وشماله، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك، وكان رجلا صالحاً، يقال في المثل الأشجّ والناقص أعدلا بني مروان، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا.

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني إبراهيم بن محمد المروزي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد الناقص: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فإنه داعية الزنى.

وقال ابن عبد الحكيم عن الشافعي: لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان.

قال ابن عساكر: ولعله قرب أصحاب غيلان، لأن غيلان قتله هشام بن عبد الملك.

وقال محمد بن المبارك: آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد الناقص: واحسرتاه، واأسفاه. وكان نقش خاتمه العظمة لله.

وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه، وذلك يوم السبت لسبع مضين من ذي الحجة، وقيل مستهله، وقيل يوم الأضحى منه، وقيل بعده بأيام، وقيل لعشر بقين منه، وقيل في سلخه، وقيل في سلخ ذي القعدة من

هذه السنة. وأكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة، وقيل ثلاثون سنة، وقيل غير ذلك فالله أعلم.

وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر، وقيل خمسة أشهر وأيام. وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله.

وذكر سعيد بن كثير بن عفير أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير، وقيل: إنه دفن بباب الفراديس، وكان أسمر نحيفاً حسن الجسم حسن الوجه. وقال علي بن محمد المديني: كان يزيد أسمر طويلا صغير الرأس بوجهه خال، وكان جميلا، في فمه بعض السعة وليس بالمفرط.

وحج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز، وأخوه عبد الله نائب العراق، ونصر بن سيار على نيابة خراسان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان:

■ **خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبقري، أبو الهيثم البجلي القسري الدمشقي،** أمير مكة والحجاز للوليد بن عبد الملك ثم لأخيه سليمان، وأمير العراقين لأخيهما هشام خمس عشرة سنة.

قال ابن عساكر: كانت داره بدمشق في مربعة القز وتعرف اليوم بدار الشريف الزيدي، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب توما.

روى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أسد أتحب الجنة؟ قال: نعم! قال: فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك». رواه أبو يعلى [مسنده: (٩١١)] عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك.

وممن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد، وحبيب بن أبي حبيب، وحميد الطويل.

وروي أنه روى عن جده عن النبي ﷺ في تكفير المرض الذنوب:

وكانت أمه نصرانية، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف، ممن أمه نصرانية.

وقال المدائني: أول ما عرف من رياسته أنه أوطأ صبياً بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه، فإن مات فعليه ديته، وقد استنابه الوليد على الحجاز سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم استنابه سليمان، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة، ثم سلمه إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فعاقبه وأخذ منه أموالا جزيلة ثم أطلقه، فأقام بدمشق إلى المحرم من هذه السنة فسلمه الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر ليستخلص منه خمسين ألف ألف. فمات تحت العقوبة البليغة، كسر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه، ثم صدره، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة، ولا تأوه حتى خرجت روحه رحمه الله.

قال العتبي عن أبيه: خطب خالد القسري يوماً فارتج عليه فقال: أيها الناس! إن هذا الكلام يجيء أحياناً ويعزب أحياناً، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتعذر عنه عزوبه مطلبه، وقد يرد إلى السليط بيانه ويثيب إلى الحصر كلامه، وسيعود إلينا ما تحبون، ونعود لكم كما تريدون.

وقال الأصمعي وغيره: خطب خالد القسري يوماً بواسط فقال:

«يا أيها الناس تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالمطل ذماً، ولا تعتدّوا بمعروف لم تعجّلوه، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فالله أحسن له جزاء، وأجزل عطاء، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقما، فإن أفضل المال ما كسب أجراً وأورث ذكراً، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه رجلا حسناً جميلا يسر الناس إذا نظروا إليه، ويفوق العالمين. ولو رأيتم البخل لرأيتموه رجلا مشوهاً قبيحاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار. إنه من جاد ساد ومن بخل ذل، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، ومن عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل مَن قطعه، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته، والفروع عند مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو.

وروى الأصمعي عن عمر بن الهيثم أن أعرابياً قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها:

إليكَ ابن كرز الخيرِ أقبلتُ راغباً ... لتجبر مني ما وَهَى وتبدَّدا
إلى الماجد البهلول ذي الحِلم والندى ... وأكرم خلق الله فرعاً ومحتدا
إذا ما أناس قصروا بفعالهم ... نهضت فلم تُلفى هنالك مُقعدا
فيا لك بحراً يغمر الناس موجه ... إذا يُسأل المعروف جاش وأزبدا
بلوت ابن عبد الله في كل موطنٍ ... فألفيت خيرَ الناسِ نفساً وأمجدا
فلو كان في الدنيا من الناس خالد ... لجودٍ بمعروف لكنت مخلدا
فلا تحرمني منك ما قد رجوته ... فيصبح وجهي كالحَ اللون أربدا

قال: فحفظها خالد، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشدها فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال: أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه. فنهض الشيخ فولى ذاهباً فأتبعه خالد من يسمع ما يقول فإذا هو ينشد هذه الأبيات:

ألا في سبيل الله ما كنت أرتجي ... لديه وما لاقيتُ من نكد الجُهدِ
دخلتُ على بحرٍ يجودُ بمالهِ ... ويعطي كثير المال في طلب الحمدِ
فخالفني الجَدُّ المشومُ لشقوتي ... وقاربني نحسي وفارقني سعدي
فلو كان لي رزق لديه لنلته ... ولكنه أمر من الواحد الفردِ

فردّه إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وقال الأصمعي: سأل أعرابي خالداً القسري أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه له دراهم، فقيل للأعرابي حين خرج من عنده: ما فعل معك؟ فقال: سألته بما أشتهي فأمر لي بما يشتهي هو.

وقال بعضهم: بينما خالد يسير في موكبه إذ تلقاه أعرابي فسأله أن يضرب عنقه، فقال: ويحك ولم؟ أقطعت السبيل؟ أخرجت يدا من طاعة؟ فكل ذلك يقول: لا! قال: فلم؟ قال: من الفقر والحاجة. فقال: سل حاجتك، فقال: ثلاثين ألفاً. فقال خالد: ما ربح أحد مثل ما ربحت اليوم، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسأل ثلاثين فربحت سبعين ألفاً. ارجعوا بنا اليوم، وأمر له بثلاثين ألفاً.

وكان إذا جلس توضع الأموال بين يديه ويقول: إن هذه الأموال ودائع لابد من تفرقتها.

وسقط خاتم لجاريته رائقة يساوي ثلاثين ألفا، في بالوعة الدار، فسألته أن يؤتى بمن يستخرجه، فقال: إن يدك أكرم علي من أن تلبسه بعد ما صار إلى هذا الموضع القذر، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله. وقد كان لرائقة هذه من الحلي شيء عظيم، من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار.

وقد روى البخاري في كتاب أفعال العباد، وابن أبي حاتم في كتاب السنة، وغير واحد ممن صنف في كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسري خطب الناس في عيد أضحى فقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله

ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر.

قال غير واحد من الأئمة: كان الجعد بن درهم من أهل الشام، وهو مؤدب مروان الحمار، ولهذا يقال له مروان الجعدي، فنسب إليه، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون إن الله في كل مكان بذاته، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له بيان بن سمعان، وأخذه بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر تركه تحت راعوفة ببئر ذي أروان الذي كان ماؤها نقاعة الحناء. وقد ثبت الحديث بذلك في الصحيحين [خ: (٣١٧٥)، م(٢١٨٩)] وغيرهما.

وجاء في بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتي المعوذتين [الدلائل للبيهقي ٩٢/٧-٩٤].

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي سمعت أبا بكر بن عياش قال: رأيت خالداً القسري حين أُتي بالمغيرة وأصحابه، وقد وضع له سرير في المسجد، فجلس عليه ثم أمر برجل من أصحابه فضربت عنقه ثم قال للمغيرة بن سعيد: أحيه - وكان المغيرة يزعم أنه يحيي الموتى - فقال: والله أصلحك الله ما أحيي الموتى. قال: لتحيينه اولا أو لأضربن عنقك. قال: والله ما أقدر على ذلك. ثم أمر بطن قصب فاضرموا فيه ناراً ثم قال للمغيرة: اعتنقه، فأبى، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه، قال أبو بكر: فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة. قال خالد: هذا والله أحق بالرياسة منك. ثم قتله وقتل أصحابه.

وقال المدائني: أُتي خالد بن عبد الله برجل تنبأ بالكوفة فقيل له: ما علامة نبوتك؟ قال: قد أُنزل علي قرآن قيل: ما هو؟ قال: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك ولا تجاهر، ولا تطع كل كافر وفاجر. فأمر به فصلب فقال وهو يصلب: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، فأنا ضامن لك ألا تعود.

وقال المبرد: أُتي خالد بشاب قد دخل في دار قوم وادعي عليه السراق، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت فتاة حسناء فقالت:

أخالدُ قد أوطأتَ والله عُشوة ... وما العاشقُ المسكين فينا بسارقِ
أقر بما لم يجنِهِ غير أنه ... رأى القطعَ أولى من فضيحةِ عاشقِ

فأمر خالد بإحضار أبيها فزوجها من ذلك الفتى وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم.

وقال الأصمعي: دخل أعرابي على خالد فقال: إني قد امتدحتك ببيتين ولست أنشدهما إلا بعشرة آلاف وخادم، فقال: نعم! فأنشأ يقول:

لَزِمتَ نَعَم حتى كأنك لم تكن ... سمعتَ من الأشياء شيئاً سوى نَعَمْ
وأنكرتَ لا حتى كأنك لم تكن ... سمعت بها في سالفِ الدهرِ والأمم

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها.

قال: ودخل عليه أعرابي فقال له: سل حاجتك فقال له: مائة ألف. فقال: أكثرت حط منها. قال: أضع منها تسعين ألفاً، قال: فتعجب منه خالد فقال: أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعت على قدري، فقال له: لن تغلبني، وأمر له بمائة ألف.

قال: ودخل عليه أعرابي، فقال: إني قد قلت فيك شعراً وأنا أستصغره فيك، فقال: قل فأنشأ يقول:

تَعرضتَ لي بالجود حتى نعشتني ... وأعطيتني حتى ظننتكَ تلعبُ
فأنت النَّدى وابن النَّدى وأخو النَّدى ... حليفُ النَّدى ما للنَّدى عنك مذهبُ

فقال: سل حاجتك. قال: على خمسون ألف ديناً، فقال: قد أمرت لك بها وشفعتها لك، فأعطاه مائة ألف. قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى ابن الوشاء: دخل أعرابي على خالد القسري فأنشده:

كَتَبتَ نَعَم ببابك فهي تدعو ... إليكَ الناسَ مُسفرَةَ النقابِ
وقلتَ لا عليكَ بباب غيري ... فإنكَ لن تُرى أبداً ببابي

قال: فأعطاه على كل بيت خمسين ألفاً. وقد قال فيه ابن معين: كان رجل سوء يقع في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وذكر الأصمعي عن أبيه: أن خالداً حفر بئراً بمكة ادعى فضلها على زمزم.

وله في رواية عنه تفضيل الخليفة على الرسول، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم.

ولعل هذا لا يصح عنه، وقد رأيت صاحب «العقد» [٤٢٨/٤-٤٣٠] سبَّ به ويقرِّره عنه؛ لأن صاحب العقد كان فيه تشيُّع شنيع، وربما لا يفهمه كل أحد، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره ولم يفهم تشيُّعه، والله أعلم.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٢٣٣/٧] وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج في إمارته ومن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله وتولية غيره من الجماعة، فحذر خالد أمير المؤمنين منهم، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فعاقبه عقاباً شديداً، ثم بعث به إلى يوسف بن عمر فعاقبه حتى مات شر قتلة وأسوأها، وذلك في محرم من هذه السنة - أعني سنة ست وعشرين ومائة.

وذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات وقال: كان يُتّهم في دينه، وقد بنى لأمه كنيسة في داره، فنال منه بعض الشعراء.

وقال صاحب الأعيان [٢٣٠/٢، ٢٣١] كان في نسبه يهود فانتموا إلى العرب، وكان يقرب من شق وسطيح.

قال القاضي ابن خلكان: وقد كانا ابني خالة، وعاش كل منهما ستمائة سنة، وولدا في يوم واحد، وذلك يوم ماتت طريفة بنت الحر بعد ما تفلت في فم كل منهما وقالت: إنه سيقوم مقامي في الكهانة، ثم ماتت من يومها.

ومن توفي في هذه السنة

جبلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق في قول، وسليمان بن حبيب المحاربي، قاضي دمشق، وعبد الرحمن بن القاسم شيخ مالك وعبيد الله ابن أبي يزيد وعمرو بن دينار. وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية

أخيه يزيد الناقص إليه، ومبايعة الأمراء له بذلك، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه، وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب بالحمار كان نائباً بأذربيجان وأرمينية، وتلك كانت لأبيه من قبله، وقد كان نقم على يزيد بن الوليد في قتله الوليد بن يزيد، وأقبل في طلب دم الوليد، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد، فلم يلبث إلا قليلا حتى بلغه موته، فأقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فنزلوا على طاعته، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد يحاصرهم حتى يبايعوا لإبراهيم بن الوليد، وقد أصروا على عدم مبايعته، فلما بلغ عبد العزيز قرب مروان بن محمد ترحل عنها، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق، ومعهم جند الجزيرة وجند قنسرين، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفاً، وقد بعث إبراهيم بن الوليد سليمان بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألفاً، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع، فدعاهم مروان إلى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابني الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق، فأبوا عليه ذلك، فاقتتلوا قتالا شديداً من حين ارتفاع النهار إلى العصر، وبعث مروان سرية تأتي جيش سليمان بن هشام من ورائهم، فتم لهم ما أرادوه، وأقبلوا من ورائهم يكبرون، وحمل الآخرون من تلقائهم عليهم، فكانت الهزيمة من أصحاب سليمان، فقتل منهم أهل حمص خلقاً كثيراً، واستبيح عسكرهم، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريباً من سبعة عشر ألفاً أو ثمانية عشر ألفاً وأسر منهم مثلهم، فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابني الوليد، الحكم وعثمان، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان، فضربهما بين يديه بالسياط وحبسهما فماتا في السجن، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حتى قتل. وأما سليمان بن هشام وبقية أصحابه فإنهم استمروا منهزمين، فما أصبح لهم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع، فاجتمع معهم رؤوس الأمراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري، وأبو علاقة السكسكي، والأصبغ بن ذؤالة الكلبي ونظراؤهم، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان، خشية أن يليا الخلافة فيهلكا من عاداهما وقتل أباهما، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا، ويقال: وولد لأحدهما ولد فشدخهما بالعمد، وقتل يوسف بن عمر - وكان مسجوناً معهما - وكان في سجنهما أيضاً أبو محمد السفياني فهرب فدخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردماً، فحاصروه فامتنع، فأتوا بنار ليحرقوا الباب. ثم اشتغلوا عن ذلك بقدوم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين.

دخول مروان الحمار دمشق فيها وولايته الخلافة، وعزله إبراهيم بن الوليد عنها

لما أقبل مروان بمن معه من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس، هرب إبراهيم بن الوليد وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحه وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش، وثار موالي الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية، ودخل مروان بن محمد دمشق فنزل في أعاليها وأتي بالغلامين الحكم وعثمان مقتولين وكذلك يوسف بن عمر فأمر بهم فدُفنوا. وأتي بأبي محمد السفياني وهو في كبوله فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان: مه، فقال: إن هذين الغلامين جعلاها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم في السجن وهي طويلة، فمنها قوله:

ألا مَن مُبلغٌ مروان عني ... وعمي الغَمرَ طال به حَنينا
بأني قد ظُلِمتُ وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا
فإن أهلِك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا

ثم قال أبو محمد السفياني لمروان: ابسط يدك، فكان أول من بايعه بالخلافة، معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير ثم بايعه رؤوس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم، ثم قال لهم مروان: اختاروا أمراء نوليهم عليكم، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم، فعلى دمشق زامل بن عمرو الحُبْراني، وعلى أهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وعلى أهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي.

ولما استوسق الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فآمنهما، وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه.

ثم لما استقر مروان بحرّان أقام فيها ثلاثة أشهر فنقض أهل حمص وغيرهم، فأرسل إلى حمص جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين، فنازلها مروان في جنود كثيرة، ومعه يومئذٍ إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء، فلما حاصر حمص نادوه: إنا على طاعتك، فقال: افتحوا باب البلد ففتحوه، ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستمائة فأمر بهم فصلبوا حول البلد، وأمر بهدم بعض سورها.

وأما أهل دمشق فإنّ أهل الغوطة حاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد بن خالد القسري وثبت في المدينة نائبها، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكراً نحواً من عشرة آلاف، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقوا هم والعسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها، واستجار يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة الكلبي برجل من أهل المزة من لخم، فدل عليهم زامل بن عمرو فأتي بهما فقتلهما وبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بحمص.

وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها، فبعث الخليفة إليهم جيشاً فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم، وفر ثابت بن نعيم هارباً إلى فلسطين فأتبعه الأمير أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق عنه أصحابه، وأسر أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمداواتهم، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان، فما زال يتلطف به حتى أخذه أسيراً، وذلك بعد شهرين، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه، وكذلك جماعة كانوا معه، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب إلى مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها، فأرسل به إليهم مقطوع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا.

وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنيه عبيد

الله ثم عبد الله وزوجهما ابنتي هشام، وهما أم هشام وعائشة، وكان مجمعاً حافلا وعقداً هائلا، وبيعة عامة، ولكن لم تكن في نفس الأمر تامة. وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعد ما كانوا قُطعوا أن يصلبوا على أبواب البلد، ولم يستبق منهم أحداً إلا واحداً وهو عمرو بن الحارث الكلبي، وكان عنده فيما زعم علم بودايع كان ثابت بن نعيم أودعها عند أقوام.

واستوسق أمر الشام لمروان ما عدا تدمر، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حمص، وبلغه أن أهل تدمر قد عوروا ما بينه وبينهم من المياه، فاشتد غضبه عليهم ومعه جحافل من الجيوش، فتكلم الأبرش ابن الوليد وكانوا قومه وسأل منه أن يرسل إليهم أولا ليعذر إليهم، فبعث عمرو بن الوليد أخا الأبرش، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولا فرجع، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يدعه يذهب إليهم بنفسه فأرسله، فلما قدم عليهم الأبرش كلمهم واستمالهم إلى السمع والطاعة، فأجابه أكثرهم وامتنع بعضهم، فكتب إلى الخليفة يعلمه بما وقع فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه، ففعل. فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية، ومعه من الرؤوس إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان، فأقام بالرصافة أياماً ثم شخص إلى الرقة، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له، والمحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فأقام ثلاثاً ثم مضى إلى قرقيسيا، وابن هبيرة بها ليبعثه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري، واشتغل مروان بهذا الأمر.

وأقبل عشرة آلاف فارس ممن كان مروان قد بعثهم في بعض السرايا، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان استأذن الخليفة في المقام هناك للراحة، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربته، فاستزله الشيطان فأجابهم إلى ذلك، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين، وكاتب أهل الشام فانفضوا إليه من كل وجه، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذي جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي يأمره بالمسير إليه، فالتف عليه نحو من سبعين ألفاً، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم في نحو من سبعين ألفاً أيضاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالا شديداً، وجاء مروان والناس في الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزمهم وقتل يومئذٍ إبراهيم بن سليمان بن هشام، وكان أكبر ولده، وقتل منهم نيفاً على ثلاثين ألفاً، وذهب سليمان مغلولاً فأتى حمص فالتف عليه من انهزم من الجيش فعسكر بهم فيها، وبني ما كان مروان هدم من سورها. فجاءهم مروان فحاصرهم بها ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً، فمكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلا ونهاراً، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلون ثم يرجعون. هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان في الطريق وهموا بالفتك به وأن يبيتوه فلم يمكنهم ذلك، وتهيأ لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريباً من ستة آلاف وهم تسعمائة، وانصرفوا إلى تدمر، ولزم مروان محاصرة حمص كمال عشرة أشهر، فلما تتابع عليهم البلاء، ولزمهم الذل، سألوه أن يؤمنهم فأبى إلا ان ينزلوا على حكمه، ثم سألوه الأمان على أن يمكنوه من سعيد بن هشام وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكي الذي كان معه على جيشه، ومن حبشي يشتمه ويفتري فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك، ثم سار إلى الضحاك الخارجي، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق قد صالح الضحاك الخارجي على ما بيده من الكوفة وأعمالها، وكانت خيول مروان قاصدة إلى الكوفة، فتلقاهم نائبها من جهة الضحاك - ملحان الشيباني - فقاتلهم فقتل ملحان، فاستناب الضحاك عليها المثنى بن عمران من بني عائذة، وسار الضحاك في ذي القعدة إلى الموصل، وسار ابن هبيرة إلى الكوفة فانتزعها من أيدي الخوارج، وأرسل الضحاك جيشاً إلى الكوفة فلم يجد شيئاً.

وفي هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيباني، وكان سبب خروجه أن رجلا يقال له سعيد بن بهدل - وكان خارجياً - اغتنم غفلة الناس واشتغالهم بمقتل الوليد بن يزيد، فثار في جماعة من الخوارج بالعراق، فالتف عليه أربعة آلاف - ولم تجتمع قبله لخارجي - فقصدتهم الجيوش فاقتتلوا معهم، فتارة يَكْسِرون وتارة يُكْسَرون، ثم مات سعيد بن بهدل في طاعون أصابه، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا، فالتف أصحابه عليه، والتقى هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقاً كثيراً، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز - أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - فرثاه بأشعار. ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز الكوفة، فنهض إليه أهلها فكسرهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها، واستناب بها رجلا اسمه حسان، ثم استناب ملحان الشيباني في شعبان من هذه السنة، وسار هو في طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق، فالتقوا فجرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها.

وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعهم أبو مسلم الخراساني، فدفعوا إليه نفقات كثيرة، وأعطوه خمس أموالهم، ولم يتنظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة، والفتن الواقعة بين الناس.

وفي هذه السنة خرج بالكوفة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فدعا إلى نفسه فحاربهأمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فجرت بينهما حروب يطول ذكرها، ثم أجلاه عنها فلحق بالجبال فتغلب عليها.

وفي هذه السنة خرج الحارث بن سُريج الذي كان لحق ببلاد الترك ومالأهم على المسلمين فمن الله عليه بالهداية ووفقه حتى خرج إلى بلاد الشام، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد له إلى الرجوع إلى الإسلام وأهله فأجابه إلى ذلك، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائبها وفرح المسلمون بذلك وجاؤوا لتهنئته ثم وقع بينه وبين نصر بن سيار خصومة واستمر الحارث بن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الامام، وعنده بعض المناوأة لنصر بن سيار.

قال الواقدي وأبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير الحجاز ومكة والمدينة والطائف.

وأمير العراق النضر بن سعيد الحرشي، وقد خرج عليه الضحاك الحروري، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز. وأمير خراسان نصر بن سيار، وقد خرج عليه الكرماني والحارث ابن سريج.

ومن توفي في هذه السنة

بكير بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الكريم بن مالك الجزري وعمير بن هانيء ومالك بن دينار ووهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعي.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الحارث بن سريج، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب إليه كتاب أمان، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاة المشركين إلى نصرة الإسلام وأهله. وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار أمير خراسان وحشة ومنافسات كثيرة يطول شرحها، فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك. وتولى ابن هبيرة نيابة العراق، وجاءت البيعة لمروان، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم في مروان، وجاءه سَلْم بن أحوز أمير الشرطة، وجماعة من رؤوس الأجناد والأمراء، وطلبوا منه أن يكف لسانه ويده، وأن لا يفرق جماعة المسلمين، فأبى وبرز ناحية عن الناس، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته، واستمر هو على خروجه على الإسلام. وأمر الجهم بن صفوان مولى بني راسب ويكنى بأبي محرز ـ وهو الذي نسبت إليه الفرقة الجهمية ـ أن يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث على الناس، وكان الحارث يقول: أنا صاحب الرايات السود. فبعث إليه نصر يقول: لئن كنت ذاك فلعمري إنكم الذين تخربون سور دمشق وتزيلون بني أمية، فخذ مني خمسمائة رأس ومائتي بعير وما شئت من الأموال، وإن كنت غيره فقد أهلكت عشيرتك. فبعث إليه الحارث يقول: لعمري إن هذا الأمر لكائن. فقال له نصر: فابدأ بالكرماني أولاً، ثم سر إلى الري، وأنا في طاعتك إذا وصلتها. ثم تناظر نصر والحارث ورضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان فحكما أن يعزل نصر ويكون الأمر شورى. فامتنع نصر من قبول ذلك، ولزم الجهم بن صفوان وغيره قراءة سيرة الحارث على الناس في الجامع والطرق، فاستجاب له خلق كثير، وجم غفير فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار، فقصدوه فجاحف دونه أصحابه، فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان، طعنه رجل في فيه فقتله، ويقال بل أسر الجهم فأوقف بين يدي سلم بن أحوز فأمر بقتله، فقال: إن لي أماناً من أبنك، فقال: ما كان له أن يؤمنك، ولو فعل ما أمنتك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، وأنزلت إليَّ عيسى بن مريم، ما نجوت، والله ولو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك. وأمر عبد ربه بن سيسّن فقتله. ثم اتفق الحارث بن سريج والكرماني على نصر ومخالفته، والدعوة إلى الكتاب والسنة واتباع أئمة الهدى وتحريم المنكرات إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة، ثم اختلفا فيما بينهما واقتتلا قتالا شديداً، فغلب الكرماني وانهزم أصحاب الحارث عنه. وكان راكباً على بغل فتحول إلى فرس فحرنت أن تمشي، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه منهم سوى مائة، فأدركه أصحاب الكرماني فقتلوه تحت شجرة زيتون، وقيل: تحت شجرة غُبيراء. وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة، وقتل معه مائة من أصحابه، واحتاط الكرماني على حواصله وأمواله، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب مدينة مرو، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث قال في ذلك:

يا مُدخلَ الذل على قومه ... بُعداً وسحقاً لك من هالكِ

شؤمك أردى مُضَراً كلها ... وغَضَّ من قومك بالحاركِ

ما كانت الأزدُ وأشياعها ... تطمعُ في عمرو ولا مالكِ

ولا بني سعد إذ ألجموا ... كلُّ طِمِرٍّ لونه حالكُ

وقد أجابه عباد بن الحارث بن سريج فيما قال:

ألا يا نصرُ قد بَرِحَ الخفاءُ ... وقد طال التمني والرجاءُ

وأصبحت المزون بأرض مرو ... تقضي في الحكومة ما تشاءُ

يجوز قضاؤها في كل حكم ... على مُضر وإن جار القضاءُ

وحِمْيَرُ في مجالسها قعود ... ترقرق في رقابهم الدماءُ

فإن مُضر بذا رضيت وذلت ... فطال لها المذلة والشقاءُ

وإن هي أعتبت فيها وإلا ... فحلَّ على عساكرها العفاءُ

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبا مسلم الخراساني إلى خراسان وكتب معه كتاباً إلى شيعتهم بها: إن هذا أبو مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان، فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب، لم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم، فرجع إلى إبراهيم بن محمد أيام الموسم، فاشتكاهم إليه وأخبره بما قابلوه من المخالفة، فقال له: يا عبد الرحمن! إنك رجل منا أهل البيت، ارجع إليهم وعليك بهذا الحي من اليمن فالزمهم وانزل بين أظهرهم فإن الله لا يتمم هذا الأمر إلا بهم. ثم حذره من بقية الأحياء وقال له: إن استطعت أن لا تدع بتلك البلاد لساناً عربياً فافعل، ومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله، وعليك بذاك الشيخ فلا تعصه ـ يعني سليمان بن كثير ـ وسيأتي ما كان من أمر أبي مسلم الخراساني فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجي في قول أبي مخنف، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط ووافقه على محاصرته منصور بن جمهور، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه: أنه لا فائدة لك في محاصرتي ولكن عليك بمروان بن محمد فسر إليه، فإن قتلته اتبعتك. فاصطلحا على مخالفة مروان بن محمد وترحل الضحاك عنه وسار قاصداً إلى قتال مروان بن محمد أمير المؤمنين، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها فمال إليهم فدخلها، وقتل نائبها واستحوذ عليها، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حمص، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان وهو نائب الجزيرة يأمره أن يقاتل الضحاك بالموصل فسار الضحاك إلى عبد الله بن مروان ـ وكان الضحاك قد التف عليه مائة ألف وعشرون ألفاً فحاصروا نصيبين ـ وساق مروان في طلبه فالتقيا هنالك، فاقتتلا قتالا شديداً جداً فاقتحم الضحاك عن فرسه وترجل معه جماعة من كبار الأمراء فاقتتلوا قتالا شديداً فقتل الضحاك في المعركة وحجز الليل بين الفريقين، وفقد أصحاب الضحاك الضحاك وشكوا في أمره حتى أخبرهم من شاهده قد قتل، فبكوا عليه وناحوا، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى، فلما وجدوه جاؤوا به إلى مروان وهو مقتول، وفي رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة، فأمر برأسه فطيف به في مدائن الجزيرة.

واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلا يقال له الخيبري، فالتف عليه بقية جيش الضحاك، والتف مع الخيبري سليمان بن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه، والجيش الذين كانوا قد بايعوه في السنة الماضية على الخلافة، وخلعوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله. فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان، فحمل الخيبري في أربعمائة من شجعان أصحابه على مروان، وهو في القلب، فكر منهزماً واتبعوه حتى أخرجوه

من الجيش، ودخلوا عسكره وجلس الخيبري على فرشه، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله، وميسرته أيضاً ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي، ولما رأى عبيد العسكر قِلَّةَ مَن مع الخيبري، وأن الميمنة والميسرة في جيشهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها، وبلغ مقتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة، فرجع مسروراً وانهزم أصحاب الخيبري، وقد ولوا عليهم شيبان، فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس فهزمهم.

وفيها بعث مروان الحمار على إمرة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل من بها من الخوارج.

وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف، وأمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وأمير خراسان نصر بن سيار.

وممن توفي في هذه السنة

بكر بن سوادة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان، مقتولا كما تقدم، والحارث بن سريج أحد كبراء الأمراء، وقد تقدم شيء من ترجمته، وعاصم بن بهدلة، وأبو حصين عثمان بن عاصم، ويزيد بن أبي حبيب، وأبو التياح يزيد بن حميد، وأبو جمرة الضبعي، وأبو الزبير المكي وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المعافري. وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخيبري على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلا لهم، فتحولوا إليها وتبعهم مروان بن محمد أمير المؤمنين، فعسكروا بظاهرها وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان. وقد خندق مروان على جيشه أيضاً من ناحيتهم، وأقام سنة يحاصرهم ويقتتلون في كل يوم بكرة وعشية، وظفر مروان بابن أخ لسليمان بن هشام، وهو أمية بن معاوية بن هشام، أسره بعض جيشه، فأمر به فقطعت يداه ثم ضُربت عنقه، وعمه سليمان والجيش ينظرون إليه، وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن عمر بن هبيرة. يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده. فجرت له معهم وقعات عديدة، فظفر بهم ابن هبيرة. وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقيه بالعراق، واستنقذ الكوفة من أيديهم، وكان عليها المثنى بن عمران العائذي ـ عائذة قريش ـ في رمضان من هذه السنة وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمده بعامر بن ضبارة ـ وكان من الشجعان ـ فبعثه إليه في ستة آلاف أو ثمانية آلاف، فارسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاعترضوه في الطريق فهزمهم ابن ضبارة وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي، وأقبل نحو الموصل، ورجع فَلُّ الخوارج إليهم. فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل، فإنه لم يكن يمكنهم الإقامة بها، ومروان من أمامهم وابن ضبارة من ورائهم، قد قطع عنهم الميرة حتى لم يجدوا شيئاً يأكلونه، فارتحلوا عنها وساروا على حلوان إلى الأهواز، فأرسل مروان ابن ضبارة في آثارهم في ثلاثة آلاف، فاتبعهم يقتل من تخلف منهم ويلحقهم في مواطن فيقاتلهم. ومازال وراءهم حتى فرق شملهم شذر مذر، وهلك أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة القابلة، قتله خالد بن مسعود بن جعفر بن خليد الأزدي.

وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند، ورجع مروان من الموصل فأقام بمنزله بحران وقد وجد سروراً بزوال الخوارج، ولكن لم يتم سروره، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعاً، وأشد بأساً من الخوارج، وهو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس

أول ظهور أبي مسلم الخراساني بخُراسان

وفي هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الإمام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان، فسار إليه في سبعين من النقباء، لا يمرون ببلد إلا سألوهم: إلى أين تذهبون؟ فيقول أبو مسلم: نريد الحج. وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلا إليه دعاه إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك، فلما كان أبو مسلم في أثناء الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الإمام: إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة فامتثل أبو مسلم ذلك، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه بها في الموسم، ورجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من أيام رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه: أن أظهر دعوتك ولا تتربص. فقدَّموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان ونواحيها، وأمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلِّم عليه أصحابه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة.

ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في هذه السنة، عقد أبو مسلم اللواء الذي بعثه إليه الإمام، وكان يدعى الظل، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وعقد الراية التي بعث بها الإمام أيضاً، وتدعى السحاب، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وهما سوداوان، وهو يتلو قوله تعالى ﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلون بأنَّهُمْ ظُلِمُوا وإنَّ اللَّهَ علَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة السواد، وصارت شعارهم، وأوقدوا في هذه الليلة ناراً عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي. وكانت علامة ما بينهم فتجمعوا. ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يُطَبِّق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم الأرض، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لاتخلو من الظل أبداً، وكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم. وأقبل الناس إلى أبي مسلم من كل جانب، وكَثُر جيشه جداً.

ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس، ونصب له منبراً، وأن يخالف في ذلك بني أمية، ويعمل بالسنة، فنودي للصلاة: الصلاة جامعة، ولم يؤذن ولم يقم خلافاً لهم، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة، وكبر سبعاً في الأولى قبل القراءة، لا أربعاً، وخمساً في الثانية لا ثلاثاً، خلافاً لهم. وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة، وانصرف الناس من صلاة العيد وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدي الناس، وكتب إلى نصر بن سيار كتاباً بدأ فيه بنفسه ثم قال: إلى نصر بن سيار. بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن الله عَيَّر أقواماً في كتابه فقال سبحانه: ﴿وأقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمانِهِم لَئِنْ جاءَهُمْ نَذيرٌ لَيَكُونُنَّ أهْدَى مِنْ

إحْدَى الأُمَم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلاّ نفوراً. استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنّت الأولين فلن تجد لسُنّة اللّه تبدلا ولن تجد لسُنة اللّه تحْويلا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣] فعظم على نصر أن قدم اسمه على اسمه، وأطال الفكرة، وقال: هذا كتاب له جواب.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٥٨/٧، ٣٥٩]: ثم بعث نصر بن سيار خيلا عظيمة لمحاربة أبي مسلم، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعي، فالتقوا هنالك، فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول اللّه ﷺ فأبوا ذلك، فتصافوا من أول النهار إلى العصر، ثم جاءه مدد فقوي مالك عليهم وظفر بهم مالك، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه دعاة بني العباس وجند بني أمية.

وفي ذي القَعْدة من هذه السنةِ غَلَب خازمُ بنُ خُزيْمةَ على مَرْو الرُّوذِ، وقتل عاملَها مِن جهةِ نصرِ بنِ سَيّار، وهو بشرُ بن جعفرٍ السَّعْديُّ، وكتَب بالفتح إلى أبي مسلم.

وكان أبو مسلم إذ ذاك شابّاً حَدَثاً قد اختاره إبراهيمُ الإمامُ لدَعْوتِهم، وذلك لشهامتِه وصَرامتِه وقُوةِ فَهْمِه لله وجَوْدةِ عَقْلِه، وأصلُه مِن سَوادِ الكُوفة، وكان مَوْلًى لإدريسَ بنِ مَعْقِلٍ العِجْليِّ، فاشتَراه بعضُ دُعاةِ بني العباس بأربعمائةِ درهم، ثم أخذَه محمدُ بنُ عليٍّ، ثم آلَ وَلاؤُه لآلِ العباس، وقد زَوَّجه إبراهيمُ ابنُ محمدٍ الإمامُ بابنه أبي النَّجْم عِمْرانَ بنِ إسماعيل، وأصْدَقَها عنه، وكتَب إلى نُقبائِهم بخراسانَ والعراق أن يَسْمَعوا له ويُطيعوا، فامْتَثلوا أمْرَه في هذه المدةِ، وقد كانوا في السنة الماضية ردُّوا عليه أمْرَه فيه لصِغَره في أعينِهم، فلما كانتْ هذه السنةُ أكَّد كتابه إليهم في سببِه، فلم يَكُنْ لهم عنه مَعْدِلٌ، وكان في ذلك الخِيَرةُ، وكان أمرُ اللهِ قَدَراً مقدوراً.

ولما استَفْحل أمرُ أبي مسلم بخُراسانَ تَعاقَدَت طَوائفُ من أحياء العربِ الذين بها على حَرْبِه ومُقاتلتِه، ولم يَكْرَهْ أمرَه الكِرْمانيُّ وشَيْبانُ؛ لأنهما خرَجا على نصر، وهذا مُخالفٌ له، وهو مع ذلك يَدْعُو إلى خَلْع مَرْوان الحِمار، وقد طَلَب نصرٌ من شَيْبان أن يَكونَ معه على حرب أبي مسلم، أو يَكُفَّ عنه حتى يَتَفرَّغَ لحربه، فإذا قتَله وتفرَّغَ منه عادا إلى عَداوتِهما، فبَلَغ ذلك أبا مسلم، فبَعَث إلى ابنِ الكِرْمانيِّ يُعْلِمُه بذلك، فثنى ابنُ الكِرْماني شَيبان عن ذلك الرأي، وبَعَثَ أبو مسلم إلى هَرَاةَ النَّضْرَ بنَ نُعَيْم، فافتتحها وطرَد عنها عاملَها عيسى بنَ عَقيلٍ اللَّيْثيَّ، واستَحْوذ على البلدِ، وكتَب إلى أبي مسلم بذلك، وجاء عاملُها إلى نصرٍ هارباً. ثم إن شَيبانَ وادَعَ نصرَ بنَ سَيّار سنةً على تَرْكِ الحربِ بينَه وبينَه، وذلك عن كُرْهٍ من ابنِ الكِرْمانيِّ، فبَعَثَ ابنُ الكِرْمانيِّ إلى أبي مسلم: إني معك على قتال نصر. وركب أبو مسلم إلى خدْمةِ ابن الكِرْمانيِّ، فنزلَ عنده واجتمعا، فاتفقا على حَرْبه ومُخالفتِه، وتَحَوّل أبو مسلم إلى مَوْضعٍ فَسيحٍ، وكثُر جندُه، وعَظُم جيشُه، واستَعْمَل على الشُّرَطِ والحَرَسِ والرَّسائلِ والدِّيوان وغير ذلك مما يَحتاجُ الملكُ إليه، وجَعَل القاسمَ بنَ مُجاشعٍ التَّميميَّ - وكان أحدَ النُّقَباء - على القَضاء، وكان يُصلِّي بأبي مسلمٍ الصَّلَواتِ، ويَقُصُّ بعدَ العصر، فيَذْكُرُ مَحاسِنَ بني هاشم، ويَذُمُّ بني أمية. ثم تَحَوَّل أبو مسلم فنزَل بقريةٍ يُقالُ لها: آلينُ. وكان في مكان مُنْخفِضٍ، فخشِي أن يَقْطَعَ عنه نصرُ ابنُ سَيّار الماء، وذلك في سادس ذي الحِجّةِ من هذه السنةِ، وصَلّى بهم يومَ النَّحْرِ القاضي القاسمُ بنُ مُجاشِع، وصار نصرُ بنُ سَيّار في جحافِلَ قاصِداً قِتالَ أبي مسلم، واستَخْلَف على البلادِ نُوّاباً، فكان مِنَ الأمرِ ما سنَذْكُرُه في السنةِ الآتية إن شاء اللّهُ تعالى.

مقتل الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين الكرماني - وهو جديع بن علي الكرماني - فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير، وجعل أبو مسلم يكاتب كلا من الطائفتين ويستميلهم إليه، يكتب إلى نصر وإلى الكرماني: إن الإمام قد أوصاني بكم خيراً ولست أعدو رأيه فيكم، وكتب إلى الكور يدعو إلى بني العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير، وأقبل أبو مسلم فنزل بين خندق نصر بن سيّار وخندق جُديع الكرماني، فهابه الفريقان جميعاً، وكتب نصر بن سيار إلى الخليفة مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب في كتابه:

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحْرِ يكون له ضِرامُ
فإن النار بالعودين تُذكى ... وإن الحرب مبدؤها الكلامُ
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظٌ أمية أم نيامُ

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فقال نصر: إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نُصرة عنده.

وبعضهم يرويها بلفظ آخر:

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نارِ ... فيوشكُ أنْ يكون لها ضِرامُ
فإن النارَ بالزَّندين تُورى ... وإن الحرب أولها الكلامُ
فإن لم يُطفها عُقلاء قوم ... يكونُ وقودها جثث وهامُ
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أميةُ أم نيامُ
فإن كانوا لحينهم نياماً ... فقل قُوموا فقد حان القيام

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٥٠/٣]: وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد اللّه ابن الحسن على المنصور أخي السفاح:

أرَى ناراً تَشُبُّ على بقاعٍ ... لها في كل ناحية شُعاعُ
وقد رَقَدت بنو العباسِ عنها ... وباتت وهي آمنة رِتاعُ
كما رقدت أميةُ ثم هَبّت ... تُدافعُ حين لا يُغني الدفاعُ

وكتب نصر إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده كتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقُهُ ... وقد تبيّنتُ أن لاخير في الكذبِ
بأن خراسان أرض قد رأيت بها ... بَيضاً لو افرخَ حُدِّثتَ بالعجبِ
فراخ عامين إلا أنها كَبِرت ... ولم يَطِرن وقد سُرْبِلْن بالزَّغبِ
فإن يَطِرنَ ولم يُحتَل لهن بها ... يُلهبن نيران حرب أيما لَهَبِ

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان، واتفق في وصوله إليه أن وجدوا رسولا من جهة إبراهيم بن محمد ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم. وهو يشتمه ويسبه، ويأمره أن يناهض نصر بن سيار والكرماني، ولا يترك هناك من يحسن الكلام بالعربية. فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك، يأمره أن يرسل كتاباً إلى نائبه بالبلقاء ويأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة، البلدة التي فيها

إبراهيم بن محمد الملقب بالإمام، فيقيده ويرسله إليه. فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم بن محمد جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان بن محمد أمير المؤمنين، فأمر به فسجن وكان من أمره ما سيأتي في السنة الآتية.

وأما أبو مسلم فإنه لما توسط بين جيش نصر والكرماني، كاتب الكرماني: إني معك فمال إليه، فكتب إليه نصر: ويحك لا تغتر فإنه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك معك، فهلم حتى نكتب كتاباً بيننا بالموادعة، فدخل الكرماني داره ثم خرج إلى الرحبة في مائة فارس، وبعث إلى نصر أن هلمَّ حتى نتكاتب، فأبصر نصر غرة من الكرماني فنهض إليه في خلق كثير، فحملوا عليهم فقتلوا منهم جماعة، وقتل الكرماني في المعركة، طعنه رجل في خاصرته فخر عن دابته، ثم أمر نصر بصلبه فصُلب وصلب معه سمكة، وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه طوائف من الناس من أصحاب أبيه، فصاروا كتفاً واحدة على نصر بن سيار.

قال ابن جرير [تاريخه: ٧/٣٧١-٣٧٤]: وفي هذه السنة تغلب عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر على فارس وكورها، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري، بعد حروب يطول ذكرها وبسطها، ثم التقى عامر بن ضبارة معه بإصطخر فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا. فكان منهم عبد اللّه بن على بن عبد اللّه بن عباس، فنسبه ابن ضبارة وقال له: ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمير المؤمنين مروان؟ فقال: كان عليَّ دين فأتيته. فقام إليه حرب بن قطن بن وهب الكناني فاستوهبه منه وقال: هو ابن أختنا فوهبه له، وقال: ما كنت لأقدم على رجل من قريش، ثم استعلم ابن ضبارة من عبد اللّه بن علي عن أخبار ابن معاوية فذمه ورماه هو وأصحابه باللواط، وجيء من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة، فحمل ابن ضبارة عبد اللّه بن علي على البريد إلى ابن هبيرة ليخبره بذلك، فبعثه ابن هبيرة إلى مروان في أجناد أهل الشام، فأخبره بما أخبر به ابن ضبارة عن ابن معاوية. وقد كتب اللّه عز وجل أن زوال ملك بني أمية يكون على يدي هذا الرجل، وهو عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس، ولا يشعر واحد منهم بذلك.

قال ابن جرير [تاريخه: ٧/٣٧٣-٣٧٥]: وفي هذه السنة وافى الموسم أبو حمزة الخارجي فأظهر التحكم والمخالفة لمروان بن محمد بن مروان، والتبرُّؤ منه. فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو يومئذٍ أمير مكة والمدينة والطائف، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر، فوقفوا على حِدة من الناس بعرفات، ثم تحيروا عنهم، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة فدخلها الخارجي بغير قتال، فقال بعض الشعراء في ذلك:

زار الحجيجَ عِصابةٌ قد خالفوا ... دين الإله ففر عبدُ الواحدِ
تَـرَكَ الحلائلَ والإمارةَ هارباً ... ومضى يُخبِّط كالبعير الشاردِ
لو كان والده تنصل عِرقُهُ ... لصفت مَشاربُه بعرقِ الوالدِ

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى الخارجي، وبذل النفقات وزاد في أعطية الأجناد، وسيرهم إليه سريعاً.

وكانت إمرة العراق إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، وإمرة خراسان إلى نصر بن سيار، وكان قد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

سالم أبو النضر، وعلي بن زيد بن جدعان، في قول، ويحيى بن أبي كثير. وقد ذكرنا تراجمهم في كتاب التكميل وللّه الحمد والمنّة.

سنة ثلاثين ومائة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأولى منها، دخل أبو مسلم الخراساني مدينة مرو، ونزل دار الإمارة بها، وانتزعها من يد نصر بن سيار، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني، وهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلة من الناس، نحو من ثلاثة آلاف، ومعه امرأته المرزبانة، ثم عجل الهرب حتى لحق بسرخس وترك امرأته وراءه، ونجا بنفسه، واستفحل أمر أبي مسلم بخراسان جداً، والتفَّت عليه الطوائف من الناس وجماعة من أحياء العرب.

مقتل شيبان بن سلمة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيبان الحروري وكان ممالئا له على أبي مسلم، فبعث إليه أبو مسلم رسلا فحبسهم شيبان فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله، فسار إليه فاقتتلا فهزمه بسام وقتله واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابني الكرماني وكان سبب ذلك أن أبا مسلم كان وجه موسى بن كعب إلى أبيورد فافتتحها وكتب إلى أبي مسلم يعلمه بذلك، ثم وجه أبو مسلم أبا داود إلى بلخ فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري فجمع زياد خلقا من الجنود من أهل تلك الناحية لقتال المسوِّدة فنهض إليه أبو داود فقتلهم حتى كسرهم واستباح معسكرهم وقتل منهم خلقا واصطفى أموالا جزيلة واستفحل أمره هنالك ثم وقعت كائنة اقتضت أن اتفق رأي أبي مسلم مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا وكذا، وفي ذلك اليوم بعينه يقتل أبو مسلم علي بن جديع الكرماني، فوقع ذلك كذلك.

وفي هذه السنة توجّه قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء، منهم خالد بن برمك وخلق منهم، فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مدداً في عشرة آلاف فارس، عليهم علي بن معقل، ولما التقوا قتلوا من أصحاب نصر خلقاً، وقتلوا تميم بن نصر، وغنموا أموالا جزيلة جداً، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية مدداً لنصر بن سيار على أبي مسلم فأرسل أبو مسلم من جهته بن شبيب، فالتقى معهم قحطبة في مستهل ذي الحجة من هذه السنة بجرجان وذلك يوم الجمعة فقام قحطبة في الناس خطيباً فحثهم على الجهاد والقتال وذمرهم وأمرهم بالمصابرة ووعدهم عن الإمام أنهم ينصرون في هذا اليوم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم جند بني أمية، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف، منهم أمير المدد نباتة بن حنظلة عامل جرجان، ورساتيقها لابن هبيرة فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم.

ذكر دخول أبي حمزة الخارجي المدينة النبوية واستيلائه عليها مدة ثلاثة اشهر حتى ارتحل منها

قال ابن جرير [تاريخه: ٧/٣٩٣-٣٩٥]: وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد من أرض الحجاز بين أبي حمزة الخارجي الذي حكم في أيام الموسم وبين أهل المدينة، فقتل الخارجي خلقاً كثيراً من قريش، ثم دخل الخارجي المدينة وهرب نائبها عبد الواحد بن سليمان، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة، ثم خطب الخارجي أهل المدينة على المنبر النبوي فوبخهم، وأنبهم، وكان فيما ويُخهم به أن قال: يا أهل المدينة إني مررت بكم أيام الأحول - يعني هشام بن عبد الملك - وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فكتبتم إليه تسألونه أن يضع الخرص عنكم فوضعه عنكم، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً، فكتبتم إليه: جزاك الله خيراً، فلا جزاه الله خيراً، في كلام طويل غير هذا، فأقام أبو حمزة عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهري ربيع وبعض جمادى الأولى فيما قاله الواقدي وغير واحد.

وقد روى المدائني أن أبا حمزة رقي يوما منبر رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار، ولا لثار قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وضعف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢] أقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحداً قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا والله بنعمة الله إخوانا، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن. ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتان لعمر الله بين الغي والرشد، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب، بكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون، وانتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بايدنا، ويشف صدور قوم مؤمنين، يا أهل المدينة أولكم خير أول، وآخركم شر آخر.

يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم، إلا مشركا عابد وثن أو كافر أهل كتاب، أو إماما جائراً.

يا أهل المدينة من زعم أن الله يكلف نفسا فوق طاقتها، أو سألها مالم يؤتها، فهو لله عدو، ولنا حرب.

يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوي والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد، فأخذها لنفسه، مكابراً محارباً لربه.

يا أهل المدينة بلغني أنكم تتقصون أصحابي قلتم شباب احداث، وأعراب جفاة! ويحكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثا، شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم، غضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله أنفسا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآيه خوف شهقوا خوفا من النار، وإذا مروا بآيه شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت، وإلى الرماح قد شرعت، وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة. فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من من خوف الله تعالى، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله. أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب.

ثم روى المدائني عن العباس عن هارون عن جده قال: كان أبو حمزة الخارجي قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس حين سمعوه على منبر رسول الله ﷺ يقول: برح الخفاء أين ما بك يذهب؟ من زنا فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، فعند ذلك أبغضوه ورجعوا عن محبته، وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبد الملك بن محمد بن عطية أحد بني سعد في خيل أهل الشام أربعة آلاف، قد انتخبها مروان من جيشه، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرساً عربية، وبغلا لثقله، وأمره أن يقاتله، ولو لم يلحقه إلا باليمن فليتبعه إليها، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى. فسار ابن عطية حتى بلغ وادي القرى فتلقاه أبو حمزة الخارجي قاصداً مروان، فاقتتلوا هنالك إلى الليل، فقال له: ويحك يا ابن عطية! إن الله قد جعل الليل سكناً، فأبى عليه أن يقلع عن القتال، وما زال يقاتلهم حتى غلبهم وكسرهم ورجع فلهم إلى المدينة، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقا كثيرا، ودخل ابن عطية المدينة، وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها، فيقال: إنه اقام بها شهرا ثم سار إلى مكة وقد استخلف على المدينة، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن فخرج إليه عبد الله بن يحيى نائب صنعاء، فاقتتلا فقتل ابن عطية وبعث برأسه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليه يأمره بعجلة السير إلى مكة ليحج بالناس عامهُ هذا. فخرج من صنعاء في اثني عشر راكبا، وترك جيشه بصنعاء، ومعه خرج فيه أربعون ألف دينار، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا هنالك إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جمانة من سادات تلك الناحية، ومعهما طائفة من أصحابهما فاحدقوا بابن عطية وأصحابه فقالوا: ويحكم أنتم لصوص. فقال: ويحكم هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ بإمرة الحج هذا العام، فنحن نعجل السير لنلحق الموسم وأنا ابن عطية، فقالوا: هذا باطل، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد، وأخذوا ما معهم من المال.

قال أبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان، وقد جعلت إليه إمرة المدينة ومكة والطائف.

ونائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وإمرة خراسان إلى نصر بن سيار، غير أن أبا مسلم قد انتزع منه أماكن كثيرة من خراسان وكوراً ورساتيق، وقد أرسل نصر إلى ابن هبيرة يستمده ويستنجده ويطلب أن يمده من عنده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائة ألف، وكتب أيضا إلى مروان يستمده، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يمده بما أراد.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

شعيب بن الحبحاب، وعبد العزيز بن صهيب، وعبد العزيز بن رفيع، وكعب بن علقمة، ومحمد بن المنكدر.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

في المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قومس لقتال نصر بن سيار، وأردفه بالأمداد، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فنزل الري، فأقام بها يومين ثم مرض فسار منها إلى همذان. فلما كان بساوة قريبا من همذان توفي لمضي ثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة. فلما مات نصر تمكن أبو مسلم الخراساني وأصحابه من بلاد خراسان، وقويت شوكتهم جدا، وسار قحطبة من جرجان، وقدم أمامه زياد ابن زرارة القشيري، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة، فبعث قحطبة وراءه جيشا فقتلوا عامة أصحابه، وأقبل قحطبة وراءه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها، وبعث ابنه بين يديه إلى الري ثم ساق وراءه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك. وارتحل أبو مسلم من مرو فنزل نيسابور واستفحل أمره، وبعث قحطبة بعد دخوله الري بثلاث ابنه الحسن بين يديه إلى همذان، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدهم وجماعة من أجناد الشام وخراسان، فنزلوا نهاوند، فافتتح الحسن همذان ثم سار وراءهم إلى نهاوند، وبعث إليه أبوه بالأمداد وراءه فحاصرهم بها حتى افتتحها.

وفي هذه السنة مات

■ **عامر بن ضبارة**، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى قحطبة وأمده بالعساكر، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة وابن ضبارة في مائة وخمسين ألفاً، وكان يقال له عسكر العساكر وقحطبة في عشرين ألفا، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادي: يا أهل الشام، إنا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف، فشتموا المنادي وشتموا قحطبة، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة، واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خلقا كثيراً، وقتلوا ابن ضبارة في العسكر وأخذوا من عسكرهم ما لا يحد ولا يوصف.

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصارا شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يشغل أهلها حتى يفتحوا له الباب، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أمانا، فقال لهم من بها من أهل خراسان: ما فعلتم؟ فقالوا: أخذنا لنا ولكم أمانا، فخرجوا ظانين أنهم في أمان، فقال قحطبة للأمراء الذين معه: كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان هرب من أبي مسلم أحد، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً. ثم بعث قحطبة عن أمر أبي مسلم أبا عون إلى شهرزور، في ثلاثين ألفا فحاصرها حتى افتتحها، وقتل نائبها عثمان بن سفيان. وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبُعِثَ إلى قحطبة بذلك.

ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما، تحول من حران فنزل بمكان يقال له: الزاب الأكبر.

وفي هذه السنة قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، فلما اقترب منه تقهقر ابن هبيرة إلى ورائه، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات، وجاء قحطبة فجازه وراءه، وكان من أمرهما ما سنذكره في السنة الآتيه إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلي الفلوجة، في خلق كثير وجم غفير، وقد أمده مروان بجنود كثيرة، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة. ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها، فاتبعه ابن هبيرة. فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضين من المحرم اقتتلوا قتالا شديداً وكثر القتل في الفريقين، ثم ولى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان، وفقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأنه أوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن، ولم يكن الحسن حاضراً، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر، وقتل في هذه الليلة جماعة من سادات الأمراء. والذي قتل قحطبة معن بن زائدة، ويحيى بن حضين. وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثأر بني نصر بن سيار فالله أعلم. ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك، وسار الحسن بن قحطبة نحو الكوفة، وقد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوَّد، وكان خروجه ليلة عاشوراء في المحرم من هذه السنة، وأخرج عاملها من جهه ابن هبيرة، وهو زياد بن صالح بن الحارثي، وتحول محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فقصده حوثرة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة، فلما اقترب حوثرة من الكوفة جعل أصحابه يذهبون إلى محمد بن خالد فيبايعونه لبني العباس، فلما رأى حوثرة ذلك ارتحل إلى واسط، ويقال: بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال، وهو بالكوفة، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن، وبعث البعوث إلى كل جانب من تلك النواحي يفتتحونها، وفتحوا البصرة، افتتحها سَلْم بن قتيبة لابن هبيرة، فلما قتل ابن هبيرة - كما سيأتي تفصيله - جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني.

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر منها، أخذت البيعة لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الملقَّب بالسفاح قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي.

وقال الواقدي: في جمادى الأولى من هذه السنة كانت خلافةُ السفاح فالله أعلم.

ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني، يأمره فيه بأن لا يُبقي أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له: هو بالبلقاء، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره وبعث رسولاً في ذلك ومعه صفته ونعته، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح، فاعتقد أنه هو فأخذه فقيل له: إنه ليس به، وإنما هو أخوه. فدل على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له يحبها، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة، فارتحلوا من فورهم إليها وكانوا جماعة، منهم أعمامه الستة وهم:

عبد اللّه، وداود، وعيسى، وصالح، وإسماعيل، وعبد الصمـد، بنـو علـي، وأخواه أبو العباس عبد اللّه ويحيى ابنا محمد بن علـي، وابنـاء محمـد وعبـد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام المسموك، وخلق سـواهم، فلمـا دخلـوا الكوفـة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد، مـولى بـني هاشـم في بـني أود، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من القواد والأمـراء، ثـم ارتحـل بهـم إلى موضع آخر، حتى فتحت البلاد. ثم بويع للسفاح.

وأما إبراهيم بن محمد الإمام فإنـه سـير بـه إلى أمـير المؤمنـين في ذلـك الزمان مروان بن محمد وهو بحران فحبسه، كما قدمنا ومـا زال في السـجن إلى هذه السنة، فمات في صفر منها في السجن، عـن ثمـان وأربعـين سـنة، وقيل إنه غمّ بمرفقة وضعت على وجهه حتى مـات عـن إحـدى وخمسـين سنة، وصلى عليه رجل يقال له مُهلهل بن صفوان، وقيـل إنـه هـدم عليـه بيت حتى مات، وقيل بل سقي لبنا مسموماً فمات.

وقيل إن إبراهيم الإمام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين، واشتهر أمره هنالك لأنه وقف في أبهة عظيمة، ونجائب كثيرة، وحرمة وافرة، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له: إن أبا مسلم إنما يدعو الناس إلى هذا ويسمونه الخليفـة، فبعث إليه في المحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر من هذه السنة.

وهذا أصح مما تقدم.

وقيل: إنه إنما أخذه من الكوفة لا من حميمة البلقاء فاللّه أعلم.

وقد كان إبراهيم هذا كريماً جواداً له فضائل وفواضل، وروى الحديث عن أبيه وجده، وأبي هاشم عبد اللّه بن محمد بن الحنفية، وعنه أخواه عبـد اللّه السفاح، وأبو جعفر عبد اللّه المنصـور، وأبـو مسـلم عبـد الرحمـن بـن مسلم الخراساني، ومالك بـن الهيثـم. ومـن كلامـه الحسـن قولـه: الكـامل المروءة من أحرز دينه، ووصل رحمه، واجتنب ما يلام عليه.

خلافة أبي العباس السفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد، أراد أبـو سـلمة الخـلال أن يحوّل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب، فغلبه بقية النقبـاء والأمـراء علـى أمره، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلّموا عليه بالخلافة، وذلك بالكوفـة، وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة. وكان أول من سـلم عليـه بالخلافـة أبو سلمة الخلال، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشـرة ليلـة خلـت مـن ربيـع الآخر من هذه السنة، فلما كان وقـت صـلاة الجمعـة خـرج أبـو العبـاس السفاح على برذوْن أبلق، والجنود ملبسة معه، حتى دخل دار الإمـارة، ثـم خرج إلى المسجد الجامع وصلى بالناس، ثم صعد المنبر وبايعه الناس يومئذ وهو على المنبر في أعلاه، وعمه داود بن علـي واقـف دونـه بثـلاث درج، وتكلّم السفاح، وكان أول ما نطق به أن قـال: الحمـد للّـه الـذي اصطفى الإسلام لنفسه دينا، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنـا أهله وكهفه والقوام به والذابين عنه والناصرين لـه، وألزمنـا كلمـة التقـوى وجعلنا أحق بها وأهلها، خصنا برحم رسول اللّه وقرابته، واشتقّنا من نبعته وو ضعنا بالإسـلام وأهلـه في الموضـع الرفيـع، وأنـزل بذلـك علـى أهـل الإسلام كتابا يتلى عليهم. فقـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[الأحزاب: ٣٣] وقـال: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[الشـورى: ٢٣] وقـال:﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] وقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾[الحشـر: ٧] الآيـة.

فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفـيء والغنيمة نصيبنا تكرمه لنا، وفضلة علينا، واللّه ذو الفضل العظيم، وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسـة والسياسـة والخلافـة منـا، فشـاهت وجوههـم. بمَ ولمَ أيهـا النـاس؟ وبنـا هـدى اللّـه النـاس بعـد ضلالتهـم، ونصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنـا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنـا الخسيسـة، وأتم النقيصـة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهـل تعـاطف وبـر ومواسـاة في دنياهم، وإخوانا على سرر متقابلين في أخراهم، فتح اللّـه علينـا ذلـك منـة ومنحة بمحمد ، فلما قبضه اللّه إليه قام بذلـك الأمـر مـن بعـده أصحابـه، وأمرهم شورى بينهـم، فحـووا مواريـث الأمـم فعدلـوا فيهـا، ووضعوهـا مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجـوا خماصـا منهـا. ثـم وثـب بنـو حـرب ومروان فابتزوها لأنفسهم، وتداولوها. فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلمـوا أهلها، فأملى اللّه لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، ووَلِيَ نصرنا والقيام بأمرنا ليمنَّ بنا على الذين استُضعِفُوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجـو أن لا يـأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفسـاد من حيث جاءكم الصـلاح، ومـا توفيقنا أهل البيت إلا باللّه.

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنـا، وأنتـم أسـعد النـاس بنـا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السـفاح الهائج والثائر المبير.

وكان به وعك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهـض عمـه داود فقال: الحمد للّه شكراً شكراً شكراً الذي أهلك عدونا وأصار إلينـا ميراثنـا من نبيِّنا.

أيهـا النـاس الآن انقشـعت حنـادس الظلمـات وانكشـف غطاؤهـا، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت شمس من مطلعها، وبزغ القمر مـن مبزغه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكـم والعطف عليكم.

أيها الناس إنا واللّه ما خرجنـا في طلـب هـذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقياناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبني قصراً، وإنما أخرجنـا الأنفـة مـن ابـتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا، ولسوء سيرة بني أمية فيكـم، واسـتذلالهم لكـم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم، فلكم علينا ذمـة اللّـه وذمـة رسـوله وذمـة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل اللّه، ونعمل بكتاب اللّه، ونسير في العامـة والخاصة بسيرة رسول اللّه ﷺ، تبا تبا لبني أمية وبني مروان، آثروا العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام وظلموا الأنـام، وارتكبوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسـنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصـار، ومرحـوا في أعنـة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي، جهلا باستدراج اللّه، وأمنـاً لمكـر اللّـه، فأتاهم بأس اللّه بياتا وهم نائمون، فأصبحوا أحـاديث ومزقـوا كـل ممـزق، فبعدا للقوم الظالمين، وأدالنا اللّه من مروان، وقد غره باللّه الغرور، وأرسـل لعدوّ اللّه في عنانه حتى عثر جواده في فضل خطامه، أظن عدو اللّه أن لـن يقدر عليه؟ فنادى حزبه وجمع جنده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر اللّه وبأسه ونقمته مـا أمـات باطلـه، ومحـق ضلالـه، وجعل دائرة السوء به وأحيا شرّفنا وعزّنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس! إن أمير المؤمنين نصره اللّه نصراً عزيزاً، إنما عـاد إلى المنبر بعد الصلاة الجمعة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعـه عـن

استتمام الكلام بعد أن استحفر فيه شدة الوعك، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى، ومناهج التقى.

قال فعج الناس له بالدعاء ثم قال: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد هذا ـ وأشار بيده إلى السفاح ـ واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا، حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر. ثم دخل الناس يبايعون إلى العصر، ثم من بعد العصر إلى الليل.

ثم إن أبا العباس خرج فعسكر بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود بن علي، وبعث عمه عبد الله بن علي إلى أبي عون بن أبي يزيد، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة. وهو يومئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف. وأقام هو بالعسكر أشهراً، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الإمارة، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال، وذلك لما كان بلغه عنه من العدول بالخلافة عن بني العباس إلى آل علي بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أميه، وتحول الخلافة إلى بني العباس؛ وذلك من قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ [آل عمران ٢٦].

وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه، تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل، يقال له الزاب من أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفت عليه الجنود، واجتمع له أمره، شق عليه ذلك جداً، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن يزيد في جيش كثيف، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح، ثم ندب السفاح الناس من يلي القتال من أهل بيته، فانتدب عمه عبد الله بن علي فقال سر على بركة الله، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرادقه، وخلاه له وما فيه، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش بن حبيب الطائي، وعلى حرسه نصير بن المحتفز، ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور، وتبرد نيران الحرب.

فتقدم عبد الله بن علي بمن معه حتى واجه جيش مروان، ونهض مروان في جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفاً، ويقال: مائة وعشرون ألفاً، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفاً. فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله الموادعة، فقال عبد الله: كذب ابن زريق، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله تعالى، وكان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة، فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤوهم بقتال، وجعل ينظر إلى الشمس فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان ـ وهو ختن مروان على ابنته ـ فحمل، فغضب مروان فشتمه فقاتل أهل الميمنة فانحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي، فأمر الناس فليترلوا، ونودي الأرض، فنزل الناس وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلوهم، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يدفعون، وجعل عبد الله يمشي قدما، وجعل يقول:يا رب حتى متى نقتل فيك، ونادى: يا أهل خراسان، يا لثارات إبراهيم، يا محمد يا منصور، واشتد القتال بين الناس جداً، فلا تسمع إلا وقعاً كالمرازب على النحاس فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، وأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا: قل لبني عامر أن يحملوا، فأرسل إلى السكون أن احملوا فقالوا: قل لغطفان فليحملوا. فقال لصاحب شرطته: انزل فقال: لا والله لا أجعل نفسي غرضا. قال: أما والله لأسوءنك. قال: وددت والله لو قدرت على ذلك، ويقال: إنه قال ذلك لابن هبيرة.

قالوا: ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر، واستخراج من هلك من الغرق، وجعل يتلو قوله تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة ٥٠] وأقام عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام، وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص في مروان وفراره يومئذ:

لجَّ الفرارُ بمروان فقلتُ له ... عاد الظلومُ ظليماً همُّهُ الهربُ
أين الفرار وتركُ المُلكِ إذ ذهبتْ ... عنك الهُوينى فلا دينٌ ولا حسَبُ
فَراشةُ الحِلْمِ فرعونُ العِقاب وإن ... تطلُبْ نداهُ فَكَلْبٌ دونه كَلِبُ

واحتاز عبد الله ما في معسكر مروان من الأموال والأمتعة والحواصل، ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان، وكتب إلى أمير المؤمنين أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر، وما حصل لهم من الأموال. فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة، ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين، وجعل يتلو قوله: الآية﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة ٢٤٩].

صفة مقتل مروان الحمار

لما انهزم مروان سار لا يلوي على أحد، فأقام عبد الله بن علي في مقام المعركة سبعة أيام، ثم سار في طلبه بمن معه من الجنود، وذلك عن أمر السفاح له بذلك، فلما مر مروان بحران اجتازها وأخرج أبا محمد السفياني من سجنه، واستخلف عليها أبان بن يزيد ـ وهو ابن أخيه، وزوج ابنته أم عثمان ـ فلما قدم عبد الله بن عليّ حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبد الله بن علي وأقره على عمله، وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم بن محمد الإمام، واجتاز مروان قنسرين قاصداً حمص، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخص منها، فلما رأوا حمص قلة من معه اتبعوه طمعاً فيه، وقالوا: مرعوب مهزوم، فأدركوه بواد عند حمص فأكمن لهم أميرين، فلما تلاحقوا عطف عليهم

فناشدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته، فثار القتال بينهم وثار الكمينان من ورائهم، فانهزم الحمصيون، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتها من جهته زوج ابنته أم الوليد وهو الوليد بن معاوية بن مروان، فتركه بها واجتاز عنها قاصدا إلى الديار المصرية، وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد إلا خرجوا وقد سودوا فيبايعونه ويعطيهم الأمان، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد بن علي في أربعة آلاف، قد بعثهم السفاح مدداً له، ثم سار عبد الله حتى أتى حمص، ثم سار منها إلى بعلبك، وجاء دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين، ثم جاءه أخوه صالح بن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح، فنزل صالح بمرج عذراء، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي، ونزل صالح بن علي على باب الجابية، ونزل أبو عون على باب كيسان، ونزل بسام على الباب الصغير، وحميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس، فحاصروها أياما ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات، وهدم سورها، ويقال إن أهل دمشق لما حاصرهم عبد الله بن علي اختلفوا فيما بينهم، ما بين عباسي وأموي، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضا، وقتلوا نائبهم ثم سلموا البلد، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي ومن ناحية باب الصغير بسام بن إبراهيم، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفا.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق، أنهم أقاموا محاصريها خمسة أشهر، وقيل مائة يوم، وقيل شهراً ونصفاً، وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيما، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب اليمانية والمضرية، وكان ذلك سبب الفتح، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين حتى في المسجد الجامع منبرين، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين، وهذا من عجيب ما وقع، وغريب ما اتفق، وفظيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية، نسأل الله السلامة والعافية، وقد بسط ذلك ابن عساكر في الترجمة المذكورة.

وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال: كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق، دخلها بالسيف ثلاث ساعات، وجعل مسجد جامعها سبعين يوماً اصطبلاً لدوابه وجماله، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو، إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياما ثم أحرقه بالنار ودق رماده ثم ذره في الريح، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير، سبعمائة سوط، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء. قال: ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين نفساً عند نهر بالرملة. وبسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سماطا فأكل وهم يختلجون تحته، وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه الله عليه، وقد مضى ولم يدم له ما أراده ورجاه، كما سيأتي في ترجمته. وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها فما زالوا يزنزن بها ثم قتلوها.

ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم.

وقد استدعى الأوزاعي فأوقف بين يديه فقال له: يا أبا عمرو ما تقول في هذا الذي صنعناه؟ قال: فقلت له: لا أدري، غير أنه قد حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات [خ(١)، م(١٩٠٧)] فذكر الحديث. قال الأوزاعي: وانتظرت رأسي يسقط بين رجلي ثم أخرجت، وبعث إلي بمائة دينار.

وأقام بها عبد الله بن علي خمسة عشر يوماً ثم سار وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائبا على دمشق، ثم ارتحل إلى الأردن فأتوه وقد سودوا ثم سار إلى بيسان ثم سار فنزل مرج الروم، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر، وجاءه كتاب السفاح: أن وجه صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائبا عليها، فسار صالح يطلب مروان في ذي القعدة من هذه السنة، ومعه أبو عون وعامر بن إسماعيل، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما، وقيل الفيوم، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد، فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله من العلف والطعام، ومضى صالح في طلبه. فالتقى بخيل لمروان فهزمهم، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان فدلهم عليه، وإذا به في كنيسة بوصير، فوافوه من آخر الليل فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير فأحاطوا به حتى قتلوه، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له مغود، ولا يعرفه حتى قال رجل: صرع أمير المؤمنين. فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيمة بن يزيد بن هانئ كان على شرطته، لأمير المؤمنين السفاح.

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة، وقيل يوم الخميس لست بقين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور، واختلفوا في سنه يوم قتل فقيل أربعون سنة، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة، وقيل ثمانون فالله أعلم.

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو

■ **مروان بن محمد بن مروان بن الحكم** بن أبي العاص بن أمية، القرشي الأموي، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة، وكانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا، ويقال: إنها كانت أولا لمصعب بن الزبير، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكافين. قاله الحافظ ابن عساكر.

بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، وبعد موت يزيد بن الوليد، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد، واستتب له الأمر في النصف من

صفر سنة سبع وعشرين ومائة.

وقال أبو معشر: بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائة، وكان يقال له مروان الجعدي، نسبة إلى رأي الجعد بن درهم، وتلقب بالحمار، وهو آخر من ملك من بني أمية، كانت خلافته منذ سلم إليه إبراهيم بن الوليد إلى أن بويع للسفاح خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وقيل خمس سنين وشهراً، وبقي مروان بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر.

وكان أبيض مشرباً، أزرق العينين، كبير اللحية، ضخم الهامة، ربعة، ولم يكن يخضب، ولاه هشام نيابة أذربيجان وأرمينية والجزيرة، في سنة أربع عشرة ومائة، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة، وكان لا يفارق الغزو، قاتل طوائف من الناس والترك والخزر واللان وغيرهم، فكسرهم وقهرهم، وقد كان شجاعاً بطلا مقداماً حازم الرأي، ولولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته. ولكن من يخذل الله يخذل، ومن يهن الله فما له من مكرم.

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله: كان بنو أميه يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أمه أمة، فلما وليها مروان بن محمد كانت أُمُّه أَمَة ، فأخذت الخلافة من يده في سنة اثنتين وثلاثين ومائة لأبي العباس السفاح.

وقد قال الحافظ ابن عساكر: أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسن أخبرنا سهل بن بشر أنبأ الخليل بن هبة الله بن الخليل أنبأ عبد الوهاب الكلابي حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبأ العباس بن الوليد بن صبح حدثنا عباس بن نجيح أبو الحارث حدثني الهيثم بن حميد حدثني راشد بن داود عن أبي أسماء عن ثوبان قال. قال رسول الله ﷺ: «لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الأكُرَة، فإذا خرجت منهم فلا خير في عيش».

هكذا أورده ابن عساكر وسكتَ عليه وهو منكر جداً.

وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش: من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية؟ فقال: هم كانوا أنفع للناس، وأنتم أقوم للصلاة. فأعطاه ستة آلاف.

قالوا: وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب، يعجبه اللّهو والطرب، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب.

قال ابن عساكر: قرأت بخط أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له: كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزما:

وما زالَ يدعونى إلى الصبر ما	فأبى ويُدْنِيني الذي لكِ في صدري
وكان عزيزاً أن تبيتي وبيننا	حجاب فقد أمسيت مني على عشر
وأنكاهما واللّه للقلبِ فاعلمي	إذا زدْت مثليها فَصِرت على شهرِ
وأعظمُ مِنْ هَذينِ واللّه أنني	أخافُ بأنْ لا نلتقي آخر الدهرِ
سأبكيكِ لا مستبقياً فيضَ عبرةٍ	ولا طالباً بالصَّبرِ عاقبةَ الصبرِ

وقال بعضهم: اجتاز مروان وهو هارب براهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له: يا راهب هل عندك علم بالزمان؟ قال: نعم! عندي مِنْ تلوُّنه ألوان. قال: هل تبلغ الدنيا من الإنسان أن تجعله مملوكاً بعد أن كان مالكاً؟ قال: نعم! قال: كيف؟ قال: تُحبُّها؟ قال: نعم. قال: فأنت مملوك لها. قال: فما السبيل في العتق؟ قال: بُغضها والتخلي عنها. قال: هذا ما لا يكون. قال الراهب: أم تخلّها منك فسيكون، فبادر بالهرب منها قبل أن تبادرك. قال: هل تعرفني؟ قال: نعم! أنت ملك العرب مروان، تقتل في بلاد السودان وتدفن بلا أكفان، فلولا أن الموت في طلبك لدللتك على موضع هربك.

قال بعض أهل ذلك الزمان: كان يقال: يقتل ع بن ع بن ع بن ع م بن م بن م. يعنون يقتل عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس مروان بن محمد بن مروان.

وقال بعضهم: جلس مروان يوما وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم، فقال مروان يوماً لبعض من يخاطبه: ألا ترى ما نحن فيه؟ لهفي على أيد ما ذكرت. ونعم ما شكرت، ودولة ما نصرت. فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وأخر فعل اليوم لغد، حل به أكثر من هذا، فقال مروان: هذا القول أشد عليَّ من فقد الخلافة.

وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وقد جاوز الستين، وبلغ الثمانين.

وقيل: إنما عاش اربعين سنة. والصحيح الأول وكانت خلافته خمس سنين. وهو آخر خلفاء بني أمية به انقضت دولتهم.

ذكر ما ورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء دولة بني العباس من الأخبار النبوية وغيرها

قال العلاء بن عبد الرحمن بن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا اتخذوا دين اللّه دغلا، وعباد اللّه خولا، ومال اللّه دولا».

ورواه الأعمش عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه [الدلائل للبيهقي: ٥٠٧/٦].

وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن موهب أنه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فكلّمه في حاجة فقال: اقض حاجتي فإني لأبو عشرة، وعم عشرة وأخو عشرة. فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير: أما تعلم أن رسول اللّه ﷺ قال: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال اللّه بينهم دولا، وعباد اللّه خولا، وكتاب اللّه دغلا، فاذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة، كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة. فقال ابن عباس: اللّهم نعم قال: وذكر مروان حاجة له فردَّ مروان عبدَ الملك إلى معاوية فكلمه فيها فلما أدبر عبد الملك قال معاوية: أنشدك باللّه يا ابن عباس أما تعلم أن رسول اللّه ﷺ ذكر هذا فقال: «أبو الجبابرة الأربعة». فقال ابن عباس: اللّهم نعم [الدلائل للبيهقي:٥٠٧/٦، ٥٠٨].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا القاسم بن الفضل حدثنا يوسف بن مازن الراسبي قال: قام رجل إلى الحسين بن علي بعدما بايع معاوية فقال: يا مسود وجوه المؤمنين! فقال الحسين: لا تؤنبني رحمك اللّه، فإن رسول اللّه ﷺ رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: ١) وهو نهر في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلةِ القَدْرِ وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شهرٍ﴾ (القدر: ١-٣) يملكه بنو أمية. قال: فحسبنا ذلك فإذا هو كما قال لا يزيد يوماً ولا ينقص.

وقد رواه الترمذي [٣٣٥٠] عن محمود بن غيلان عن أبي داود

الطيالسي ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي. قال: وشيخه يوسف بن سعد ويقال: يوسف بن مازن، رجل مجهول، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه.

وأخرجه الحاكم في مستدركه [١٧٠/٣، ١٧١] من حديث القاسم بن الفضل الحداني، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث في التفسير بكلام مبسوط ولله الحمد والمنة، وإنما يتجه أن يكون دولة بني أمية ألف شهر إذا أسقط منها أيام عبد الله بن الزبير، وذلك أن معاوية بويع به مستقلا بالملك في سنة اربعين، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد ستة أشهر من قتل علي، ثم زالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة، أعني هي سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وذلك ثنتان وتسعون سنة، وإذا أسقط منها تسع سنين بقي ثلاث وثمانون سنة، وهي مقاربة لما ورد في هذا الحديث، ولكن ليس هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، أنه فسر هذه الآية بهذا، وإنما هذا من بعض الرواة، وقد تكلمنا على ذلك مطولا في التفسير، وتقدم في الدلائل أيضا تقريره والله أعلم.

وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال: رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي فأنزلت. ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ فيه ضعف وإرسال.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا يحيى بن معين حدثنا عبد الله بن نمير عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ (الإسراء: ٦٠) قال: رأى ناساً من بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فقيل له: إنما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسُرّي عنه.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع قال: لما أسري برسول الله ﷺ رأى فلاناً وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ (الأنبياء: ١١١) يقول: هذا الملك فتنة لكم ومتاع إلى حين.

وقال مالك بن دينار: سمعت أبا الجوزاء يقول: والله ليُغيّرن الله ملك بني أمية كما غيّر ملك من كان قبلهم، ثم ليذلنّ ملكهم كما أذلّ ملك من كان قبلهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٤٠).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني إبراهيم بن سعيد حدثنا أبو أسامة حدثنا عمر بن حمزة أخبرني عمر بن سيف مولى لعثمان بن عفان قال: سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكر بن عبد الرحمن ولأبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة - وذكروا بني أمية - فقال: لا يكون هلاكهم إلا بينهم. قالوا: كيف؟ قال: يهلك خلفاؤهم ويبقى شرارهم فيتنافسونها، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم.

وقال يعقوب بن سفيان: أنبأ أحمد بن محمد الأزرقي حدثنا الزنجي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت في النوم بني الحكم أو بني أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة قال: فما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا بعدها حتى توفي.

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - عن علي بن الحكم البناني عن أبي الحسن هو الحمصي عن عمرو بن مرة - وكانت له صحبة - قال: جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقال: ائذنوا له حيّة أو ولد حيّة، عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم، يشرّفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطّون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق.

وقال أبو بكر الخطيب البغدادي: أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد بن المظفر الحافظ أنبأ أبو القاسم عامر بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقي أنبأ أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملاس حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد مولى أم الحكم بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعاني عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ نائما واضعاً رأسه على فخذ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فنحب ثم تبسم، فقالوا: يا رسول الله رأيناك نحبت ثم تبسمت، فقال:رأيت بني مروان يتعاورون على منبري فساءني ذلك، ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرني ذلك».

وقال يعقوب بن سفيان: حدثني محمد بن خالد بن العباس حدثنا الوليد بن مسلم حدثني أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطي عن أبان بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط. قال: قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته، ثم قال: يا أبا العباس! هل تكون لكم دولة؟ فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، فقال: لتخبرني، قال: نعم! قال: فمن أنصاركم؟ قال: أهل خراسان. ولبني أمية من بني هاشم نطحات.

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير: سمعت ابن عباس يقول: يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح، والمنصور، والمهدي.

رواه البيهقي من غير وجه، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً.

وروى ابن أبي خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي معبد عن ابن عباس قال: كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يختمه بنا.

وهذا إسناد صحيح إليه، وكذا وقع ويقع للمهدي إن شاء الله تعالى.

وروى البيهقي عن الحاكم [الدلائل: ٥١٤/٦] عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد. قال قال رسول الله ﷺ: يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن، يقال له السفاح، يعطي المال حثياً.

وقال عبد الرزاق: حدثنا الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: يقتتل عند كنزكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحد منهم، ثم تقبل الرايات السود من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها. ثم ذكر شيئاً فإذا كان ذلك فأتوه ولو حبوا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي.

ورواه بعضهم عن ثوبان فوقفه وهو أشبه والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٣٦٥/٢]: حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا: حدثنا رشدين بن سعد حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بايلياء.

وقد رواه البيهقي في الدلائل [٥١٦/٦] من حديث رشدين بن سعد المصري، وهو ضعيف. ثم قال: قد روي قريبا من هذا عن كعب الأحبار وهو أشبه.

ثم قال من طريق يعقوب بن سفيان: حدثنا محدّث، عن أبي المغيرة

عبد القدوس، عن ابن عياش، عمن حدثه عن كعب الأحبار قال: تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم.

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل عن ابن أبي أويس عن ابن أبي فُديك عن محمد بن عبد الرحمن العامري عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة.رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للعباس: فيكم النبوة وفيكم المملكة. [الدلائل للبيهقي: ٦/٥١٧]

وقال عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال: سمعت العباس قال: كنت عند رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: أنظر هل ترى في السماء من شيء؟ قلت: نعم! قال: «ما ترى؟» قلت: الثريا، قال: «أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك». [الدلائل للبيهقي:٦/٥١٨]

قال البخاري [التاريخ الكبير: ٦/٢]: عبيد بن أبي قرة لا يتابع على حديثه في قصة العباس.

وروى ابن عديّ من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: مررت برسول الله ﷺ ومعه جبريل وأنا أظنه دحية الكلبي، فقال جبريل لرسول الله ﷺ: إنه لوسخ الثياب، وسيلبس ولده من بعده السواد.

وهذا منكر من هذا الوجه، ولا شك أن شعار بني العباس كان السواد، وأخذوا ذلك من دخول رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء، فأخذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد والجمع والمحافل. وكذلك كان جندهم لا بد من أن يكون على أحدهم شيء من السواد، ومن ذلك وما يلبسه الملوك للأمراء حين يُخلع عليهم بالإمرة لا بدّ وأن يُلبس شيئاً من السواد وهو الشربوش. وكذلك دخل عبد الله بن علي يوم دخل دمشق وعليه السواد، فجعل النساء والغلمان يعجبون من لباسه، وكان دخوله من باب كيسان. وقد خطب بالناس يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد.

وقد روى ابن عساكر [مختصر تاريخ دمشق:٢٣/١٤٦] عن بعض الخراسانيين قال: لما خطب بالناس عبد الله بن علي بالناس فصلى؛ صلى رجل إلى جانبي فقال: الله أكبر، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ثم قال، ونظر إلى عبد الله بن علي: ما أقبح وجهك وأشنع سوادك؟! وشعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد.

ذكر استقلال أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح وما اعتمده في أيامه من السيرة الحسنة والعدالة التامة

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة اول ما بُويع بها بالكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر، وقيل: الأول من هذه السنة، سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ثم جرد الجيوش نحو مروان الحمار فطردوه من ممالكه وأجلوه عنها، وما زالوا وراءه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد، بالديار المصرية، في العشر الأخيرة من ذي الحجة من هذه السنة على ما تقدم بيانه وتفصيله وبسطه وحينئذ استقل بالخلافة السفاح واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية، لكن لم يحكم بلاد الأندلس،ولا على بلاد المغرب، وذلك لأن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي تفصيله.

وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف، فمنهم أهل قنسرين بعد ما بايعوه على يدي عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم وهو أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي، وكان من أصحاب مروان وأمرائه، فخلع السفاح ولبس البياض، وحمل أهل البلد على ذلك فوافقوه، وكان السفاح يومئذ بالحيرة، وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المري ومن وافقه من أهل البلقاء والبثنية وحوران على خلع السفاح، وبيّض فلما بلغه عن أهل قنسرين ما فعلوا صالح حبيب بن مرة وركب نحو قنسرين، فلما اجتاز بدمشق - وكان بها أهله وثقله - استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حمص، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة. فخلعوا السفاح وبيضوا وقاتلوا الأمير أبا غانم فهزموه وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله، ولم يتعرضوا لأهله. وتفاقم الأمر على عبد الله بن علي وذلك أن أهل قنسرين تراسلوا مع أهل حمص وتدمر واجتمعوا على أبي محمد السفياني، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فبايعوه عليهم بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفا فقصدهم عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم، فقدّم عبد الله بن علي أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف من الفرسان بين يديه فاقتتلوا مع مقدمة السفياني وعليها أبو الورد فاقتتلوا قتالا شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألوف، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتتلوا قتالا شديداً، وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد. وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد، وثبت أبو الورد في خمسمائة من أهل بيته وقومه، فقتلوا جميعا وهرب أبو محمد السفياني ومن معه حتى لحقوا بتدمر، وآمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة، ثم كر عبد الله راجعا إلى دمشق وقد بلغه ما صنعوا، فلما دنا منها تفرّقوا عنها وهربوا ولم يكن بينه وبينهم قتال فأمنهم ودخلوا في الطاعة وسوَّدوا؛ موافقةً للخليفة، وكان ذلك شعار السمع والطاعة.

وأما أبو محمد السفياني فإنه ما زال متغيِّباً ومشتَّتاً من بلد إلى بلد حتى لحق بارض الحجاز فقاتله نائب أبي جعفر المنصور في أيامه، فقتله وبعث برأسه وبابنين له اخذهما أسيرين فاطلقهما المنصور وخلى سبيلَهما.

وقد قيل: إن وقعة أبي محمد السفياني كانت يوم الثلاثاء آخر يوم من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة فالله أعلم.

وممن خلع السفاح ايضا أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا، فوافقوهم وبيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح - وهو موسى بن كعب - وكان في ثلاثة آلاف فارس قد اعتصم بالبلد، فحاصروه قريبا من شهرين، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسط محاصري ابن هبيرة، فمر في مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فغلقوا أبوابها دونه، ثم مر بالرقة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك، ثم جاء حرّان وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة يحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرُّها، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جند حران فتلقوا أبا جعفر المنصور ودخلوا في جيشه، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا

ومارِدين، ورئيسهم حروري يقال له بريكة، فصارا حزبا واحداً، فقصد إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالا شديداً، فقتل بريكة في المعركة، وهرب بكار إلى أخيه بالرها، فاستخلفه بها ومضى في عظم العسكر حتى نزل سميساط فخندق على عسكره، واقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها، وجرت له معه وقعات. وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة،فسار إليهم عبد الله بن علي واجتمع إليه أبو جعفر المنصور، فكاتبهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك، عن إذن أمير المؤمنين.السفاح وولى السفاح اخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، فلم يزل عليها حتى ولي الخلافة بعد أخيه، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلي إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان بن محمد قد قتل، وذلك بعد مضي سبعة أشهر وهو محاصر، وقد كان صاحبا لأبي جعفر المنصور فآمنه.

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني وهو أميرها، ليستطلع رأيه في قتل أبي سلمة حفص بن سليمان الوزير وكان سبب ذلك أن السفاح سَمر ليلة مع أهل بيته فتذاكروا ما كان من أمر أبي سلمة حين كان أراد أن يصرف الخلافة عن بني العباس فسأل سائل: هل كان ذلك عن ممالأة أبي مسلم له في ذلك أم لا؟ فسكت القوم، فقال السفاح: لئن كان هذا عن رأيه إنّا لبِعُرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا. قال أبو جعفر: فقال لي أخي: ما ترى؟ فقلت: الرأي رأيك. فقال: ليس أحد أخصّ بأبي مسلم منك، فاذهب إليه فاعلم علمه، فإن كان عن رأيه احتلنا له، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا. قال أبو جعفر: فخرجت إليه قاصداً على وجل. فلما وصلت إلى الري إذا كتاب أبي مسلم إلى نائبها يستحثني إليه في المسير، فازددت وجلا، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثني أيضاً وقال لنائبها: لا ندعه يقر ساعة واحدة. فإن أرضك بها خوارج، فانشرحت لذلك. فلما صرت من مرو على فرسخين، أتى يتلقاني ومعه الناس، فلما واجهني ترجلّ وجاء فقبّل يدي، فأمرته فركب، فلما دخلت مرو نزلت في داره فمكث ثلاثا لا يسألني عن شيء، فلما كان في اليوم الرابع: سألني ما أقدمك؟ فأخبرته. فقال: أفعلها أبو سلمة؟ أنا أكفيكموه. فدعا مرار بن أنس الضبي فقال: اذهب إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله، وانته في ذلك إلى رأي الإمام. فقدم مرار الكوفة الهاشمية، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح، فلما خرج قتله مرّار وشاع أن الخوارج قتلوه، وغلقت البلد. ثم صلى عليه يحيى بن محمد بن علي أخو أمير المؤمنين، ودفن بالهاشمية، وكان يقال له وزير آل محمد. ويقال لأبي مسلم أمير آل محمد. قال الشاعر:

إن الوزيرَ وزيرَ آلِ محمدٍ أودى فمن يَشْناك كَان وزيراً

ويقال: إنه إنما سار جعفر إلى أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة وإن أبا جعفر كان معه ثلاثون رجلا، منهم الحجاج بن أرطاة، وإسحاق بن الفضل الهاشمي، في جماعة من السادات. ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه: لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً حتى تقتله، لما رأى من طاعة الجيش والأمراء له، فقال له السفاح: اكتمها فسكت.

ولما رجع أبو جعفر من خراسان بعثه أخوه إلى حصار ابن هبيرة بواسط، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه، فلما أُحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبايع له بالخلافة فابطأ عليه جوابه، فمال إلى مصالحة أبي جعفر، فاستأذن أبو جعفر اخاه السفاح في ذلك فأذن له في المصالحة، فكتب له أبو جعفر كتابا بالصلح، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء اربعين يوماً. ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية، فلما دنا من سرادق أبي جعفر همّ أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام: انزل أبا خالد، فنزل، وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان، ثم اذن له في الدخول فقال: أنا ومن معي؟ قال: لا بل أنت وحدك، فدخل ووضعت له وسادة فجلس عليها، فحادثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره. ثم جعل يأتيه يوما بعد يوم في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر فقال أبو جعفر للحاجب: مره فليأت في حاشيته، فكان يأتي في ثلاثين نفسا، فقال الحاجب: كأنك تأتي متأهبا؟ فقال: لو أمرتموني بالمشي لمشيت إليكم، ثم كان يأتيه في ثلاثة أنفس. وقد خاطب ابن هبيرة يوما لأبي جعفر فقال له في غبون كلامه: يا هناه - أو قال: يا أيها المرء - ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك، فأعذره. وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشيره في مصالحة ابن هبيرة فنهاه عن ذلك، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون مراجعة أبي مسلم، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يعجب السفاح ذلك، وكتب إلى أبي جعفر يامره بقتله، فراجعه أبو جعفر مراراً لا يفيد شيئا، حتى جاء كتاب السفاح إليه أن اقتله لا محالة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كيف يعطي الأمان وينكث؟ هذا فعل الجبابرة واقسم عليه في ذلك. فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود وفي حجره صبي له صغير، وحوله مواليه وحاجبه، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه، وخلصوا إليه، فالقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد، واضطرب الناس، فنادى أبو جعفر في الناس بالأمان إلا الحكم بن عبد الملك بن بشر وخالد بن سلمة المخزومي وعمر بن ذر. فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضهم.

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن ياخذ عمال أبي سلمة الخلال فيضرب أعناقهم، ففعل ذلك.

وفيها ولى السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة، وعزله عن الكوفة وولى مكانه عليها عيسى بن موسى، وولى قضاءها ابن أبي ليلى، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبي. وعلى قضائها الحجاج بن أرطاه، وعلى السند منصور بن جهور، وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور، وعلى الشام وأعماله عبد الله بن علي عم السفاح، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد. وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك.

وحج بالناس فيها داود بن علي.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموي**، آخر خلفاء بني أمية، فقتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة كما قدمنا ذكره.

ووزيره

■ عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي، الكاتب البليغ الذي يضرب به المثل، فيقال: فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

وكان إماماً في الكتابة وجميع فنونها، وهو القدوة فيها. وله رسائل في ألف ورقة، وأصله من الأنبار ثم سكن الشام، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه، وعليه تخرج، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً في الكتابة أيضا، وقد كان أولا يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال حتى وَزَرَ لمروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية وأُخذ بعده، فقتله السفاح ومثّل به.

ومن مستجاد كلامه: العلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة.

ومن كلامه ورأى رجلا يكتب خطا رديئا: أطل جلفة قلمك وأسمنها، وحرِّف قطتك وأيمنها. قال الرجل: ففعلت ذلك فجاد خطي.

وسأله رجل أن يكتب له كتابا إلى بعض الأكابر يوصيه به، فكتب إليه: حقُّ موصِّل كتابي إليك كحقه علي إذ رآك موضعاً لأمله، ورآني أهلا لحاجته، وقد قضيت أنا حاجته فصدِّق أمله.

وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت:

إذا خرج الكتّاب كان دُوِيُّهم　　قسيًا وأقلام الدُّوِيِّ لها نبلا

وأبو سلمة

■ حفص بن سليمان: أول من وزر لآل العباس، قتله أبو مسلم عن أمر السفاح، بعد ولايته بأربعة أشهر وكانت بيعة السفاح ليلة الجمعة وهي ليلة الثالث عشر من ربيع الآخر من هذه السنة وكان مقتله، في رجب منها.

وكان داهية فاضلا حسن المفاكهة، وكان السفاح يأنس إليه ويحب مسامرته لطيب محاضرته، ولكن توهم ميله لآل علي فدس عليه أبو مسلم عليه من قتله غيلة كما تقدم، فأنشد السفاح عند ذلك:

إلى النار فليذهب ومن كان مثله　　على أي شيء فاتنا منه نأسف

كان يقال له وزير آل محمد، ويعرف بالخلال، لسكناه في درب الخلالين بالكوفة، وهو أول من سُمِّي بالوزير.

وقد حكى ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٩٧/٢] عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل، فكأن السلطان حمله أثقالا لاستناده إلى رأيه.

وقال الزجاج: وهو مشتق من الوزر وهو الجبل فكان السلطان لجأ إلى رأيه، كما يلجأ الخائف إلى جبل يعتصم به. والله أعلم

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

فيها ولى السفاح عمه سليمان بن علي البصرة وأعمالها. وكور دجلة والبحرين وعمان. ووجه عمه إسماعيل بن علي إلى كور الأهواز.

وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية.

وفيها توفي داود بن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول، واستخلف ابنه موسى على عمله، وكانت ولايته على أرض الحجاز ثلاثة أشهر، ولما بلغت السفاح وفاته استناب على الحجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي، وولّي اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد المدان، وجعل إمرة الشام لعميه عبد الله وصالح ابني علي، وقرّ أبا عون على الديار المصرية نائبا عليها.

وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتلهم قتالا شديداً حتى فتحها، وفيها خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني وقال: ما على هذا بايعنا آل محمد، على سفك الدماء؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفا، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله.

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل، وولّى عليه عمه إسماعيل بن علي.

وفيها وَلِّيَ الصائفة من جهته صالح بن علي بن سعيد بن عبد الله فغزا وراء الدروب.

وحج بالناس خال أمير المؤمنين السفاح زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي.

ونواب البلدان هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه عزل في هذه السنة

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح، فبعث إليه خازم بن خزيمة فقاتله فقتل عامة أصحابه، واستباح عسكره. ورجع فمر بملأ من بني عبد المدان أخوال السفاح فسألهم عن بعض ما فيه نصرة للخليفة، فلم يردوا عليه، واستهانوا به، فأمر بضرب أعناقهم - وكانوا قريباً من عشرين رجلا ومثلهم من مواليهم - فاستعدى بنو عبد المدان على خازم بن خزيمة إلى أمير المؤمنين السفاح، وقالوا: قتل أخوالك بلا ذنب، فهمّ السفاح بقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليبعثه مبعثا صعبا، فإن سلم فذاك، وإن قتل فذلك الذي أردت. فبعثه إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجهز معه سبعمائة رجل، وكتب إلى عمه سليمان بن علي بالبصرة أن يحملهم في السفن إلى عمان ففعل، فقاتل الخوارج فكسرهم وقهرهم واستحوذ على تلك البلاد، وقتل أمير الخوارج الصفرية وهو الجلندى، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف، وبعث برؤوسهم إلى البصرة، فبعث بها نائب البصرة إلى الخليفة، ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً.

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصغد وغزا أبو داود أحد نواب أبي مسلم بلاد كش، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأواني الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً.

وفيها بعث السفاح موسى بن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً، فالتقاه موسى بن كعب في ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره.

وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد المدان، فاستخلف السفاح عليها عمه، وهو خال الخليفة زياد بن عبيد الله.

وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار.

وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى، ونواب الأقاليم هم هم.

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو هارون العبدي، عمارة بن جوين.

■ يزيد بن يزيد بن جابر الدمشقي، والله أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبي مسلم الخراساني فاظفره الله بهم فبدد شملهم واستأصل خضراءهم، واستقر أمره بتلك النواحي معظما.

وحج بالناس فيها سليمان بن علي نائب البصرة. والنواب هم المذكورون قبلها.

وممن توفي فيها من الأعيان

برد بن سنان، وأبو عقيل زهرة بن معبد، وعطاء الخراساني.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح بالعراق، وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم، فكتب إليه أن اقدم في خمسمائة من الجند، فكتب إليه: إني قد وترت الناس، وإني أخشى من قلة الخمسمائة. فكتب إليه أن يقدم في ألف، فقدم في ثمانية آلاف، فرقهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئاً كثيراً. ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند، فتلقاه القواد الكبراء إلى ظاهر البلد، ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريبا منه، وكان يأتي إلى الخدمة كل يوم، واستأذن الخليفة في الحج فأذن له، وقال: لولا أني عينت إمرة الحج لأخي أبي جعفر لأمرتك على الحج، وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم خرابا، وذلك لما رأى من الجفوة منه حين قدم عليه نيسابور في البيعة للسفاح وللمنصور من بعده، فحقد عليه أبو جعفر وأشار على السفاح بقتله. وحين قدم حرّضه على قتله أيضا، فقال له السفاح: قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال له أبو جعفر: يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدولتنا، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا، وإنك إن لم تتغدّ به تعشى بك هو. فقال له: كيف السبيل إلى ذلك؟ فقال: إذا دخل عليك فحادثته جئت أنا من ورائه فضربته بالسيف. قال: فكيف بمن معه؟ قال:هم أذل وأقل.، فأذن له في قتله، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه فبعث إليه الخادم يقول له: إن ذاك الذي بينك وبينه قد ندم عليه فلا تفعله. فلما جاءه الخادم وجده محتبيا بالسيف متهيئاً لما يريد من قتل أبي مسلم. فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً.

وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراساني عن أمر الخليفة، وإذنه له في الحج في هذا العام، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر إلى أبي جعفر - وكان يسير قبل أبي مسلم بمرحلة - بموت أبي العباس السفاح، فكتب إلى أبي مسلم أن قد حدث أمر فالعجل العجل، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه، فلحقه إلى الكوفة وكانت بيعة المنصور على ما سيأتي بيانه وتفصيله قريبا الله تعالى.

وهذه ترجمة أبي العباس السفاح وذكر وفاته

هو عبد الله

■ السفاح - ويقال له المرتضى، والقائم أيضاً - ابن محمد الإمام ابن علي السجاد بن عبد الله الحبر بن العباس ذي الرأي بن عبد المطلب شيبة الحمد بن هاشم عمرو بن عبد مناف بن قصي أبو العباس القرشي الهاشمي أمير المؤمنين. وأمه ريطة - ويقال رائطة - بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثي، كان مولد السفاح بالحميمة من أرض الشراة من أرض البلقاء بالشام، ونشأ بها حتى طُلب أخوه إبراهيم فقتله مروان الحمار بحران فانتقلوا إلى الكوفة. وبويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول ويقال: في جمادى سنة ثنتين وثلاثين ومائة كما تقدم. وتوفي بالجدري بالأنبار يوم الأحد الحادي عشر، وقيل: الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان عمره ثلاثا، وقيل: ثنتين، وقيل: إحدى وثلاثين سنة، وقيل: ثمانياً وعشرين سنة، قاله غير واحد. وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

وكان أبيض جميلا طويلا. أقنى الأنف، جعد الشعر، حسن اللحية، حسن الوجه، فصيح الكلام، حسن الرأي، جيد البديهة.

دخل عليه في أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم، فقال له: يا أمير المؤمنين أعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف. قال: فأشفق الحاضرون أن يعجل السفاح بشيء أو يعيا بجوابه، فيبقى ذلك سُبّة عليه وعليهم. فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا مزعج، فقال: إن جدك علياً وكان خيراً مني وأعدل، وولي هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيراً منك، شيئا قد أعطيتكه وزدتك عليه، فما كان هذا جزائي منك. قال: فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً، وتعجب الناس من سرعة جوابه وحدته وجودته على البديهة.

وقد ورد في حديث ذكره، رحمه الله، فقال الإمام أحمد في مسنده [٨٠/٣]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري. قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حثيا».

وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به.

وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وقد تكلموا فيه. وفي كون المراد بهذا الحديث المذكور السفاح نظر والله أعلم. وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بني أمية أخباراً وآثاراً في مثل هذا المعنى.

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن مسلمة بن محمد بن هشام أخبرني محمد بن عبد الرحمن المخزومي حدثني داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو والد السفاح - قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر بن عبد العزيز: من تجدون الخليفة بعد سليمان؟ قال له النصراني: أنت. فأقبل عمر بن عبد العزيز عليَّ فقال: وهي في ثيابك، يا أبا عبد الله. قال محمد بن علي: فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصراني من بالي فرأيته يوما فأمرت غلامي أن يحبسه علي، وذهبت به إلى منزلي فسألته عما يكون في خلفاء بني أمية فذكرهم واحداً واحداً، وتجاوز عن مروان بن محمد. قلت: ثم من؟ قال: ثم ابن الحارثية، قال: وكان إذ ذاك حملا.

ووفد أهل المدينة على السفاح فبادروا إلى تقبيل يده وترك ذلك عمران بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع العدوي، وإنما حيّاه بالخلافة وهنأه بها فقط وقال: والله يا أمير المؤمنين لو كانت نزيدك رفعةً وتزيدني وسيلة إليك ما سبقني إليها أحد من هؤلاء، وإني لغني عما لا أجر فيه، ثم جلس. قال: فو الله ما نقصه ذلك من حظ أصحابه.

وذكر القاضي المعافى بن زكريا أن السفاح بعث رجلا ينادي في عسكر مروان بهذين البيتين في عسكر مروان بن محمد ليلا ثم رجع وهما هذان:

يا آل مروان إن اللّه مُهلككم ومُبدل أمْنَكُم خوفاً وتشريدا
لا عمَّرَ اللّهُ من أنسالِكُم أحدا وبثّكم في بلادِ الخوفِ تطريدا

وروى الخطيب البغدادي أن السفاح نظر يوماً في المرآة ـ وكان من أجمل الناس وجها ـ فقال: اللّهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك: أنا الخليفة الشاب. ولكني أقول: اللّهم عمرني طويلا في طاعتك ممتعاً بالعافية. فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لآخر: الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام. فتطير من كلامه وقال: حسبي اللّه لا قوة إلا باللّه عليه توكلي وبه أستعين. فمات بعد شهرين وخمسة أيام.

وذكر محمد بن عبد اللّه بن مالك الخزاعي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة النهار فوجده صائما، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده.

قال: فحادثته حتى أخذه النوم فقمت عنه وقلت: أقيل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك. فذهبت فنمت قليلا ثم قمت فأقبلت إلى داره فإذا على بابه بشير من أهل السند ببيعتهم للخليفة وتسليم الأمور إلى نوابه. قال: فحمدت اللّه الذي وفقني لأن أجيئه ببشارة، فدخلت الدار فإذا آخر معه البشارة بفتح إفريقية، فحمدت اللّه أيضاً فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء، فسقط المشط من يده ثم قال: سبحان اللّه، كل شيء بائد سواه، نعيت واللّه نفسي؛ حدثني إبراهيم الإمام عن أبي هاشم عبد اللّه بن محمد بن علي بن أبي طالب عن علي بن أبي طالب عن رسول اللّه ﷺ أنه يقدم عليّ في مدينتي هذه وافدان وافد السند والآخر وافد إفريقية بسمعهم وطاعتهم وبيعتهم، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت. قال: وقد أتاني الوافدان فأعظم اللّه أجرك يا عم في ابن أخيك. فقلت: كلا، يا أمير المؤمنين إن شاء اللّه. قال: بلى إن شاء اللّه! لئن كانت الدنيا حبيبة إليّ فصحّة الرواية عن رسول اللّه ﷺ أحب إليّ منها، واللّه ما كذبت ولا كذبت. ثم نهض فدخل منزله وأمرني بالجلوس، فلما جاء المؤذن يعلمه بوقت الظهر خرج الخادم يأمرني أن أصلي عنه، وكذلك العصر والمغرب والعشاء، كل ذلك يخرج الخادم فيأمرنيان أصلي عنه، وبتُّ هناك، فلما كان وقت السحر خرج الخادم بكتاب معه يأمرني أن أصلي عنه العيد ثم أرجع إلى داره، وفيه يقول: يا عم إذا مت فلا تعلم الناس بموتي حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبايعوا لمن فيه. قال: فصليت بالناس ثم رجعت إليه فإذا ليس به بأس مما أنكره، ثم دخلت عليه من آخر النهار فإذا هو على حاله غير أنه قد خرجت في وجهه حبتان صغيرتان، ثم كثُرتا، ثم صار في وجهه حب صغار بيض يقال إنه جدري، ثم بكّرت إليه في اليوم الثاني من أيام التشريق فإذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتي ومعرفة غيري، ثم رجعت إليه بالعشي فإذا هو قد انتفخ حتى صار مثل الزق، وتوفي في اليوم الثالث من أيام التشريق، فسجيته كما أمرني، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم الكتاب فإذا فيه: من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى الرسول والأولياء وجماعة المسلمين، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين الخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا له وأطيعوا، وقد قلد الخلافة من بعد عبد اللّه عيسى بن موسى إن كان. قال: فاختلف الناس في قوله « إن كان » قيل: إن كان أهلا لها. وقال آخرون إن كان حيّاً.

وهذا القول الثاني هو الصواب، ذكره الخطيب وابن عساكر مطولا، وهذا ملخص منه، وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جداً.

وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ السفاح يقول عند ذلك:

انظر إلى ضعف الحرا ك وذله بعد السكون
يُنبيك أن بيانه هذا مقدمة المنون

فقال له الطبيب: أنت صالح، فأنشأ يقول:

يبشرني بأني ذو صلاح يبين له وبي داء دفين
لقد أيقنت أني غير باق ولا شك إذا وضح اليقين

قال بعض أهل العلم: كان آخر ما تكلم به أبو العباس السفاح حين حضره الموت:الملك للّه الحي القيوم، ملك الملوك، وجبار الجبابرة.

وكان نقش خاتمه اللّه ثقة عبد اللّه. وكان موته بالجدري في يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأنبار العتيقة، عن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال. وصلى عليه عمه عيسى بن علي. ودفن في قصر الإمارة من الأنبار. وترك تسع جبات وأربعة اقمصة وخمس سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز، وقد ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردناه واللّه أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الخليفة السفاح كما تقدم، وأشعث بن سوار، وجعفر بن ربيعة، وحصين بن عبد الرحمن، وربيعة الرأي، وزيد بن أسلم. وعبد الملك بن عمير، وعبد اللّه بن أبي جعفر، وعطاء بن السائب. وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل وللّه الحمد. والمنة

خلافة أبي جعفر المنصور

قد تقدم أن السفاح مات وأخوه أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس: بالحجاز فأخذ البيعة له بالعراق عمه عيسى بن علي، وبلغه خبر موته وهو بذات عرق فعجّل السير، وكان معه أبو مسلم الخراساني، فبايعه أبو مسلم في الطريق وعزاه في أخيه أمير المؤمنين السفاح فبكى أبو جعفر المنصور عند ذلك، فقال له أبو مسلم: اتبكي وقد جاءتك الخلافة؟ فأنا أكفيكها إن شاء اللّه. فسرُي عن المنصور، وأمر زياد بن عبيد اللّه أن يرجع إلى مكة والياً عليها، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد اللّه بن معبد بن عباس وأقرّ بقية النواب على أعمالهم حتى انسلخت هذه السنة، وقد كان عبد اللّه بن علي قدم على السفاح الأنبار فأمّره على الصائفة، فركب في جيوش عظيمة إلى بلاد الروم، فلما كان ببعض الطريق بلغه موت السفاح فكر راجعا إلى حران، ودعا إلى نفسه. وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولي العهد من بعده، فالتفت عليه جيوش عظيمة، وكان من أمره ما سنذكره في السنة الآتية إن شاء اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس على ابن أخيه المنصور

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم الجمعة، ثم ارتحل منها إلى الأنبار. وقد أخذت له البيعة من أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام، وقد ضبط عيسى بن موسى بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم، فسلم إليه الأمر، وكتب إلى عمه عبد الله بن علي يعلمه بوفاة السفاح، فلما بلغه الخبر نادى في الناس الصلاة جامعة، فاجتمع إليه الأمراء والناس، فقرأ عليهم وفاة السفاح، ثم قام فيهم خطيبا فذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أن يكون الأمر إليه من بعده، وشهد له بعض أمراء خراسان بذلك، ونهضوا إليه فبايعوه، ورجع إلى حرّان فتسلمها من نائب المنصور بعد محاصرة أربعين ليلة، وقتل مقاتل العكي نائبها. فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه عبد الله بن علي بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن علي بحرّان، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئا كثيراً جداً، وسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي، فلما تحقق عبد الله بن علي قدوم أبي مسلم إليه خشي من جيش خراسان الذين معه أن لا يناصحوه، فقتل منهم سبعة عشر ألفا، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم، وركب عبد الله بن علي فنزل نصيبين وخندق حول عسكره، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية وكتب إلى عبد الله: إني لم أومر بقتالك، وإنما بعثني أمير المؤمنين واليا على الشام فأنا أريدها. فخاف جنود الشام من هذا الكلام وقالوا: إنا نخاف على ذرارينا وأموالنا، فنحن نذهب إليها نمنعهم منه. فقال عبد الله بن علي: ويحكم! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا. فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام، فتحول عبد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام فنهض أبو مسلم فنزل في موضع عسكر عبد الله وعوّر ما حوله من المياه - وكان نزل عبد الله منزلاً جيداً جداً - واحتاج عبد الله وأصحابه فنزلوا في الموضع الذي نزل فيه أبو مسلم فوجدوه منزلا رديئا، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فحاربهم خمسة أشهر، وكان على خيل عبد الله أخوه عبد الصمد بن علي، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي، وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى ميسرته أبو نصر خزيمة بن خزيم، وقد جرت بينهم وقعات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول:

من كان ينوي أهله فلا رجع … فرَّ من الموت وفي الموت وقع

وكان يعمل له عريش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى في جيشه من خلل أرسل فأصلحه. فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتتلوا قتالا شديداً، فمكر بهم أبو مسلم! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة يأمره أن يتحول بمن معه إلا القليل إلى الميسرة، فلما رأى ذلك أهل الشام انحازوا إلى الميمنة بإزاء الميسرة التي تعمرت، فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم، فجال أهل القلب والميمنة من الشاميين فحمل عليهم الخراسانيون فكانت الهزيمة، وانهزم عبد الله بن علي بعد تلوم، واحتاز أبو مسلم ما كان في معسكرهم من الأموال والحواصل، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً، وكتب إلى المنصور بذلك، فأرسل المنصور مولاه أبا الخصيب ليحصي ما وجدوا في معسكر عبد الله بن علي، فغضب من ذلك أبو مسلم الخراساني. واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور في المشارق والمغارب، ومضى عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد على وجوههما، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبد الصمد، فلما رجع أبو الخصيب وجده بها، فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأمن له من المنصور، وقيل بل استأمن له إسماعيل بن علي.

وأما عبد الله بن علي فإنه ذهب إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأقام عنده زماناً مختفياً، فلبث في السجن تسع سنين ثم سقط عليه البيت الذي هو فيه فمات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكر مهلك أبي مسلم الخراساني

في هذه السنة ذكر أن ابا مسلم لما نفر الناس من الحجيج سبق الناس بمرحلة، فلما جاءه خبر السفاح في الطريق كتب إلى أبي جعفر يعزيه في الخليفة ولم يهنه بالخلافة، ولا رجع إليه. فغضب المنصور من ذلك مع ما كان مضمراً له من السوء إذا أفضت إليه الخلافة، وقيل إن المنصور هو الذي كان قد تقدم بين يدي الحج بمرحلة، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبي مسلم يستعجله في السير كما قدمنا. فقال لأبي أيوب:اكتب له كتاباً غليظاً، فلما بلغه الكتاب بعث يهنئه بالخلافة وانقمع من ذلك. وقال بعض الأمراء لأبي جعفر: إنا نرى من المصلحة أن لاتجامعه في الطريق فإن معه من الجنود من لا يخالفه. وهم له أهيب، وليس معك احد، فاخذ المنصور برأيه ثم كان من أمره في مبايعته لأبي جعفر ما ذكرنا، ثم بعثه إلى عمه عبد الله بن علي فكسره كما تقدم، وقد بعث في غبون ذلك الحسن بن قحطبة إلى يوم أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بان ابا مسلم يُتّهم في أبي جعفر، فإنه إذا جاءه الكتاب منه يقرأه ثم يلوي شدقيه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر ويضحكان استهزاء، فقال أبو أيوب: إن تهمة أبي مسلم عندنا أظهر من هذا.

ولما بعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يقطين ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها، غضب أبو مسلم فشتم أبا جعفر وهمَّ بأبي الخصيب، أن يقتله حتى كُلّم فيه وقيل له: إنما هو رسول فتركه ورجع. أبو الخصيب فأخبر المنصور بما كان وبما همَّ به أبو مسلم من قتله، فغضب المنصور وخشي أن يذهب أبو مسلم إلى خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك، فكتب إليه مع يقطين إني قد وليتك الشام ومصر وهما خير من خراسان. فابعث إلى مصر من شئت وأقم أنت بالشام، لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً، فغضب أبو مسلم من ذلك وقال: قد ولاني الشام ومصر، ولي خراسان، فإذاً أذهب إليها واستخلف على الشام ومصر، فكتب إلى المنصور بذلك فقلق المنصور من ذلك كثيراً. ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور. فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمصير إليه، فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان: إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه.

وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إراداتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي.

فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم: قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، وإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة، وقد حمل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من وأقرب من ظنّه من الباب الذي فتحه عليك.

ويقال: إن أبا مسلم كتب إلى المنصور:أما بعد فإني اتخذت رجلا إماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلا وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه، فكان كالذي دُلّي بغرور، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرّفكم الله من كان يجهلكم، وأطاعكم من كان عدوكم، وأظهركم الله بي بعد الإخفاء والحقارة والذل، ثم استنقذني الله بالتوبة، فإن يعف عني فقِدْماً عرف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فيما قدمت يداي، وما الله بظلام للعبيد.

ذكره المدائني عن شيوخه.

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي ـ وقد كان واحد أهل زمانه ـ في جماعة من الأمراء وقد كان المنصور قال له: كلّم أبا مسلم بألين كلام بألين كلام تقدر عليه، وقل له: إنه يريد رفعك وعلوّ قدرك، والإطلاق لك، فإن جاء بهذا فذاك، وإن أبى أن يرجع، فقل: إنه يقول: هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليلين قتالك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك. ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن، فلما قدم عليه أمراء المنصور بحلوان دخلوا عليه ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين. ورغّبوه في الرجوع إليه، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه، وجنوده طوع له، فإن استقام له الخليفة وإلا كان في عز ومنعة من الجند. فأرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به. فلما سمع ذلك كسره جداً وقال: قوموا عني الساعة.

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهمه: إن ولاية خراسان لك ما بقيت، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عزم عليه من منابذة الخليفة: إنه ليس لنا منابذة خلفاء بيت رسول الله ﷺ فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً، فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم: إني سابعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به. فبعثه إليه فأكرمه ووعده بنيابة خراسان إن هو رده. فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك. فغره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة، فاستشار أميراً يقال له نيزك، فنهاه، فصمم على الذهاب، فلما رآه نيزك عازماً على الذهاب تمثل بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له: احفظ عني واحدة. قال: وما هي؟ قال: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه.

قال أبو أيوب كاتب الرسائل: فدخلت على المنصور وهو في خباء شعر بالرُّومية جالساً في مصلاه بعد العصر، وبين يديه كتاب فألقاه إليَّ فإذا هو كتاب أبي مسلم إليه، ثم قال الخليفة: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. قال أبو أيوب: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. وبت تلك الليلة لا يأتيني نوم، وفكّرت في هذه الواقعة، وقلت: إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما أنه يبدو منه شيء إلى الخليفة، والمصلحة أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة. فلما أصبحت طلبت رجلا من الأمراء وقلت له: هل لك أن تتولى مدينة كسكر فإنها مغلة في هذه السنة؟ فقال: ومن لي بذلك؟ فقلت له: اذهب إلى أبي مسلم فتلقَّه في الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه، واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له وقال له: سلم عليه وقل له: إنا بالأشواق إليه. فسار ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن سعيد بن جابر ـ إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسره ذلك وانشرح، وإنما هو غرور ومكر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني. فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها. قال: فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ قال: فوجم ساعة ثم قال أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أقتله. ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم الخليفة على قتله، وقال: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلا تترى يتبع بعضها بعضاً، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة، فيعتذر عن ذلك كله فيما اعقده من الأمور التي تسرّع فيها. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت عليَّ. فقال المنصور: أما والله ما زادني هذا إلا غضباً عليك. ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفوه في عباءة ثم أمر بإلقائه في دجلة، وكان آخر العهد به، وكان مقتله في يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة.

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور أن قال: كتبت إليَّ مرات تبدأ بنفسك، وأرسلت تخطب عمتي أمينة، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك. فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين لا يقال هذا لي

وقد سعيت في أمركم بما علمه كل أحد. فقال: ويلك! لو قامت في ذلك أمة سوداء لأتمه الله لجدنا وحظّنا. ثم قال: والله لأقتلنك. فقال: استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك. فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم أمر بقتله وقتل كما ذكرنا. فقال له بعض الأمراء: يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة.

ويقال: إن المنصور أنشد عند ذلك:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وذكر القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٥٣/٣] أن المنصور لما عزم على قتل أبي مسلم تحير في أمره هل يستشير أحداً في ذلك أو يستبد هو برأيه؛ لئلا يشيع وينتشر، ثم إنه استشار واحداً من نصحائه في قتل أبي مسلم فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فقال له: لقد أودعتها أذناً واعية. ثم عزم على ذلك.

وهذه ترجمة أبي مسلم الخراساني

هو

■ عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة ويقال دعوة بني العباس، وكان يقال له أمين آل بيت رسول الله ﷺ.

وقال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٢٠٧/١٠]: يقال له عبد الرحمن بن سنفيرون بن أسفنديار أبو مسلم المروزي، صاحب الدولة العباسية، يروي عن أبي الزبير وثابت البناني وإبراهيم وعبد الله ابني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

زاد ابن عساكر في شيوخه محمد بن علي وعبد الرحمن بن حرملة وعكرمة مولى ابن عباس.

قال ابن عساكر: روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ، وبشر والد مصعب بن بشر، وعبد الله بن شبرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزي وقديد بن منيع صهر أبي مسلم.

قال الخطيب: وكان أبو مسلم فاتكاً شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم، قتله أبو جعفر المنصور بالمدائن.

وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان [١٠٩/٢]: كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار، قيل إنه ولد بأصبهان، وروى عن السّدي وغيره، وقال بعض الحفاظ: كان اسم أبي مسلم صاحب الدعوة إبراهيم بن عثمان بن يسار بن شيدوس بن جودرن، من ولد بزرجمهر، وكان يكنى أبا إسحاق، ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبو ه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له: غيرّ اسمك وكنيتك، فتسمى بعبد الرحمن بن مسلم، واكتنى بأبي مسلم، فسار إلى خراسان وهو ابن تسع عشرة سنة راكباً على حمار بإكاف، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة من عنده، فرحل إلى خراسان وهو كذلك، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها، وذكر بعضهم أنه في مروره إلى خراسان عدا رجل من بعض الخانات على حماره، فهلب ذنبه فلما تمكن أبو مسلم وحكم على ذلك المكان جعله دكاً فكان بعد ذلك خراباً لا يُسكن.

وذكر بعضهم أنه أصابه سباء في صغره وأنه اشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم. ثم إن إبراهيم بن محمد الإمام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم عمران بن إسماعيل الطائي، أحد دعاتهم، لما بعثه إلى خراسان، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقبت، وفاطمة ولم تعقب.

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة، وكيف نشر دعوة بني العباس.

وقد كان ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور.

وقد روى ابن عساكر من طريق مصعب بن بشر، عن أبيه قال: قام رجل إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء. وهذه ثياب الهيئة وثياب الدولة. يا غلام اضرب عنقه.

وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد هوان قريش أهانه الله».

وقد كان إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة، وكان يعده إذا ظهر أن يقيم الحدود والعدل، فلما تمكن أبو مسلم ما زال إبراهيم بن ميمون يُلحُّ عليه في القيام بما وعده به حتى أحرجه، فضرب عنقه بعدما قال له: هلاّ كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أواني الخمر من الذهب فيبعثها إلى بني أمية؟ فقال له: إن أولئك لم يعدوني من أنفسهم ما وعدتني أنت. وقد رأى بعضهم في المنام لإبراهيم منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رحمه الله.

وقد ذكرنا ما اعقده أبو مسلم في أيام السفاح من الطاعة الأكيدة، والمبادرة إلى أوامره وامتثال مراسيمه، ثم لما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحتقره، ومع هذا كسر عمّه عبد الله بن علي حين دعا إلى نفسه بالشام فاستنقذها منه وردها إلى حكم المنصور. ثم شمخت نفسه على المنصور وهم بقلعه، ففطن لذلك المنصور مع ما كان مبطناً له من البغضة، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله فيصدف عن ذلك وذكرنا أيضاً ما كان من أمر أبي مسلم والمنصور من المراسلات والمكاتبات حين استوحش منه المنصور واتهمه بسوء النية، وما زال يراسله ويستدعيه ويخدعه ويُماكره حتى استحضره فقتله، كما قدمنا بيانه. قال بعضهم: كتب المنصور إلى أبي مسلم أما بعد فإنه يرين على القلوب وتطبع عليها المعاصي، فقع أيها الطائر، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها الحالم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، وفي برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سوالف القرون ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم صاولوك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلا مهلا، احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلى الله منه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم، واحذر أن تكون سنة في الذي خلوا من قبل، فقد قامت الحجة وأعذرت إليك وإلى أهل طاعتي فيك. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]

فأجابه أبو مسلم: أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً، وعن الحق حائداً إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها، وتضرب فيه آيات منزلة من الله للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإني والله ما انسلخت من آيات الله، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما، فكنت لهما

شيعة متديّناً أحسبني هادياً، وأخطأت في التأويل وقديماً أخطأ المتأولون، وقد قال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]

وكتب فيه أبو مسلم: وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالا، أمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم، وتوطئة سلطانكم، حتى عرفكم من كان جهلكم. ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة. فان يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد.

فكتب إليه أبو جعفر: أما بعد أيها المجرم العاصي، فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من الله، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً، ولأغواهما موافقاً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرين، وتحكم بالجور حكم المفسدين. وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته ان يقيم بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجه للقائك أقرانك، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل.

ولم يزل المنصور يراسله تارة بالرغبة وتارة بالرهبة، ويستخف احلام من حوله من الأمراء والرسل الذين يبعثهم أبو مسلم، حتى حسنوا له في رأيه القدوم على أبي جعفر سوى أمير معه يقال له نيزك، فإنه لم يوافق على ذلك، فلما رأى أبا مسلم قد اصاع معهم قال:

ما للرجال مع القضاء محالة		ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وأشار عليه، كما تقدم، بأن يبادر إلى قتل الخليفة إن أمكنه، فما أمكنه كما تقدم، وذلك أن أبا مسلم لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة، فما وصل إلا آخر النهار، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل على الخليفة أن لا يقتله يومه هذا فلما وقف بين يدي الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه، وقال: اذهب الليلة فأذهب عنك وعثاء السفر ثم ائتني من الغد فلما كان الغد أرصد له من الأمراء من يقتله، منهم عثمان بن نهيك، وشبيب بن واج، فقتلوه كما تقدم وأرسل إليه رسلاً تترى ليقدم عليه، ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الإكرام والاحترام، ثم بدا له منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به، وقال: إني أخافه على نفسي. فقال: لا بأس عليك فانطلق فاني آت وراءك، أنت في ذمتي حتى آتيك. ـ ولم يكن مع عيسى بن موسى خبر بما يريد به الخليفة ـ فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له: اجلس ههنا فإن أمير المؤمنين يتوضأ، فجلس وهو يودّ أن يطول مجلسه ليجيء عيسى بن موسى فأبطأ، وأذن له الخليفة فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً، حتى قال له: فلم قتلت سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ـ فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدوّ لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطّعوه قطعاً قطعاً ولفوه في عباءة، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا أبو مسلم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له المنصور: أحمد الله فإنك هجمت على نعمة. ولم تهجم على نقمة، ففي ذلك يقول أبو دلامة:

أبا مسلم ما غير اللّه نعمة		على عبده حتى يغيرها العبد

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى		عليك بما خوفتني الأسد الورد

وذكر ابن جرير [تاريخه:٧/٤٨٨-٤٩٢] أن المنصور تقدم إلى عثمان بن نهيك وشبيب بن واج وأبي حنيفة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريبا منه، فإذا دخل علي أبو مسلم وخاطبه وضرب بإحدى يديه على الأخرى فليقتلوه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور قال له: ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن علي؟ فقال: هذا أحدهما. فقال: ارنيه، فناوله السيف فوضعه تحت ركبتيه ثم قال له: ما حملك على أن كتبت إلى أبي العباس يعني السفاح تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين؟! قال: إنني ظننت أن أخذه لا يحل، فلما جاءني كتابه أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم. قال: فلم تقدمت عليَّ في طريق الحج؟ قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس، فتقدمت التماس الرفق. قال: فلم لا رجعت إليَّ حين أتاك خبر موت أبي العباس؟ قال: كرهت التضييق على الناس في طريق الحج، وعرفت أنا نجتمع بالكوفة، وليس عليك مني خلاف. قال: فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك؟ قال: لا! ولكن خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها. ثم قال له: ألست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك والكاتب إلي تخطب أمينة بنت علي؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ هذا كله ويد المنصور في يده يعركها ويقبّلها ويعتذر، ثم قال له: فما حملك على مراغمتي ودخولك إلى خرسان؟ قال: خفت أن يكون دخلك مني شيء فقتلت: آتي خراسان وأكتب إليك بعذري. قال: فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك؟ قال: أراد خلافي. فقال: ويحك وأنت أردت خلافي وعصيتني، قتلني الله إن لم أقتلك. ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليه أولئك فضربه عثمان فقطع حمائل سيفه، وضربه شبيب فقطع رجله، واعتوَرَه بقيتهم، والمنصور يصيح: ويحكم اضربوا قطع الله أيديكم، ثم ذبحوه وقطّعوه قطعاً قطعاً. ثم القي في دجلة.

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال: رحمك اللّه أبا مسلم، بايعتنا وبايعناك، وعاهدتنا وعاهدناك، ووفيت لنا فوفينا لك، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا احد في هذه الأيام إلا قتلناه، فخرجت علينا فقتلناك، وحكمنا عليك حكمك على نفسك.

ويقال: إن المنصور قال: الحمد للّه الذي أراني يومك يا عدو اللّه.

قال ابن جرير [تاريخه:٧/٤٩١] وقال المنصور عند ذلك:

زعمت أن الدين لا يقتضى		فاستوف بالكيل أبا مجرم

سقيت كاساً كنت تسقي بها		أمر في الحلق من العلقم

وقد خطب المنصور الناس بعد قتل أبي مسلم فقال: أيها الناس، لا تنفّروا أطيار النعمة بقلّة الشكر، فتحل بكم النقمة، ولا تسروا غش الأئمة فإن أحداً لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه، وطوالع نظره وإنا لن نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا، ولا ننسى الإحسان

إليكم ما ذكرتم فضلنا، ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه، حتى يستقيم جاهلكم، ويرتدع عالمكم. وإن أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه، فنكث وغدر وفجر وكفر، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء معقباً، وأخذ من الناس بنا أكثر مما أعطانا. ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لما لام، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله، وعنفنا في إمهاله، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه، فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان - يعني ابن المنذر-

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادْ لله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقد روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن كان الحجاج شراً منه.

قلت: قد اتهمه بعضهم على الإسلام، ورموه بالزندقة، ولم أر فيما ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة مما كان سفك من الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره.

وقد روى الخطيب [تاريخ بغداد: ٢٠٨/١٠] عنه أنه قال: ارتديت الصبر، وآثرت الكتمان، وحالفت الأحزان والأشجان. وسامحت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همتي، وأدركت نهاية بغيتي. ثم أنشأ يقول:

قد نلت بالعزم والكتمان ما عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أضربهم بالسيف فانتبهوا من رقدةٍ لم ينمها قبلهم أحد
طفقت أسعى عليهم في ديارهم والقوم في ملكهم في الشام قد رقدوا
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقد كان قتل أبي مسلم بالمدائن يوم الأربعاء لسبع خلون، وقيل لخمس بقين، وقيل لأربع، وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة - أعني سنة سبع وثلاثين ومائة - وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين، وهذا غلط من قائله، فإن بغداد لم تكن بنيت بعد وقد ردّ هذا القول أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخه والله أعلم.

ثم إن المنصور شرع في تأليف أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرهبة والولايات، واستدعى أبا إسحاق - وكان من أعز أصحاب أبي مسلم - وكان على شرطته، وهمَّ بضرب عنقه فقال: يا أمير المؤمنين والله ما أمنت قط إلا في هذا اليوم، وما من مرة كنت أدخل عليك إلا تحنطت ولبست أكفاني. ثم كشف عن ثيابه التي تلي جسده، فإذا هو محنط وعليه ادراع أكفان، فرق له المنصور وأطلقه.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٩١/٧-٤٩٤] أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك. وقد قال للمنصور وهو يعاتبه على ما كان يصنعه: يا أمير المؤمنين لا يقال لي مثل هذا بعد بلائي وما كان مني. فقال: يا ابن الخبيثة، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت عنك، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا، لو كان ذلك إليك لما قطعت فتيلاً.

ولما قتله المنصور لف في كساء وهو مقطع إربا إربا، فدخل عيسى بن موسى الذي كان وعده أن يلحقه ليشفع فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم؟ قال: قد كان ها هنا آنفاً. فقال: يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأي إبراهيم الإمام فيه. فقال له: يا أنْوَكُ والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه، ها هو ذاك في البساط. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له المنصور: خلع الله قلبك! وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم؟

ثم استدعى المنصور برؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله، فكلهم يشير بقتله، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه لئلا ينقل عنه إلى أبي مسلم، فلما أطلعهم الخليفة على قتله أفرحهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً. ثم خطب المنصور عامة الناس بذلك كما قدمناه.

ثم كتب الخليفة إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبي مسلم وختم عليه بخاتم ابي مسلم أن يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال، وختم فلما وصل الكتاب إلى نائبه وعليه الخاتم بكماله مطبوعاً استراب في الأمر، وقد كان أبو مسلم تقدم إليه: إني إذا بعثت إليك كتابي فإنما أختم بنصف فصه على كتبي، وإذا جاءك الكتاب مختوماً عليه بكماله فلا تقبل ولا تمض ما فيه. فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن.

وكتب المنصور إلى أبي داود خالد بن إبراهيم بأمرة خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم. ولله الأمر.

وفي هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبي مسلم الخراساني، وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على قومس وأصبهان والري، وتسمَّى بفيروز أصبهبذ، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً هم عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار العجلي - فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً.وأخذ ما كان استحوذ عليه من أموال أبي مسلم التي كانت بالري.

وخرج في هذه السنة أيضاً رجل يقال له مُلَبَّد في ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز له المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة، فهزمه ملبد وتحصن منه حميد في بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وانقلع عنه.

وحج بالناس في هذه السنة عم الخليفة إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس قاله الواقدي.

وكان نائب الموصل وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سليمان بن علي، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة، وعلى مصر صالح بن علي، وعلى خراسان أبو داود خالد بن إبراهيم، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله.

ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل الخليفة بسنباذ.

ومن مشاهير من توفي في هذه السنة

■ أبو مسلم الخراساني وقد تقدمت ترجمته، ويزيد بن أبي زياد أحد

من المتكلّم فيهم كما ذكرنا في التكميل، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عمن قدر عليه من مقاتلتها.

وفيها غزا الصائفة صالح بن علي نائب مصر، فبنى ما كان هدمه ملك الروم من سور ملطية، وأطلق لأخيه عيسى بن علي أربعين ألف دينار، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن علي أربعين ألف دينار.

وفيها بايع عبد الله بن علي الذي فتح دمشق ثم كسره أبو مسلم كما تقدم وانهزم إلى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن علي، حتى بايع للخليفة في هذه السنة ورجع إلى طاعته. ولكن حبس في سجن بغداد كما سيأتي.

وفيها خلع جهور بن مرار العجلي الخليفة المنصور وذلك بعد ما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وما كان عنده من أموال أبي مسلم، فقويت نفسه بذلك وظن أنه يقدر على منابذة الخليفة بتلك الأموال، فأرسل إليه الخليفة محمد بن الأشعث الخزاعي في جيش كثيف فاقتتلوا قتالا شديداً، فهزم جهور وقتل عامة أصحابه، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل، ثم لحقوه فقتلوه.

وفيها قتل الملبد الخارجي على يدي خازم بن خزيمة في ثمانية آلاف، وقتل من أصحاب الملبد ما يزيد على ألف وانهزم بقيتهم. ولله الحمد والمنة.

قال الواقدي: وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن صالح بن علي، والنواب فيها هم المذكورون بالتي قبلها.

ومن توفي فيها

زيد بن واقد، والعلاء بن عبد الرحمن، وليث بن أبي سليم في قول.

وفيها كانت خلافة الداخل على بلاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الهشامي، كان قد دخل إلى بلاد المغرب، فاجتاز بمن معه من أصحابه بقوم يقتتلون على عصبية اليمانية والمضرية، فبعث مولاه بدراً إليهم فاستمالهم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الأندلس واستحوذ عليها وانتزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقتله. وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد من هذه السنة أعني سنة ثمان وثلاثين ومئة إلى سنة ثنتين وسبعين ومائة. فتوفي فيها وله في الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر.

ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهراً. ثم مات فولي بعده الحكم بن هشام ستاً وعشرين سنة وأشهراً ثم مات. ثم من بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثاً وثلاثين سنة ثم مات. ثم من بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستاً وعشرين سنة. ثم ابنه المنذر بن محمد، ثم أخوه عبد الله بن محمد ثم ابن ابنه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن المنذر. وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر، ثم زالت تلك الدولة كما سنذكره ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم على ميعاد.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة

فيها أكمل صالح بن علي بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث، فوغل في بلاد الروم، وغزا معه أختاه أم عيسى ولبابة بنتا علي، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أميه أن يجاهدا في سبيل الله عز وجل.

وفيها كان الفداء الذي حصل بين المنصور وبين ملك الروم، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة من هذه السنة إلى سنة ست وأربعين، وذلك لاشتغال المنصور الخليفة بأمر ابني عبد الله بن حسن كما سنذكره. ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام سنة أربعين فالله أعلم.

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام، وكانت هذه السنة خصبة جداً أي فكان يقال لها سنة الخصب ـ وقيل: إنما كان ذلك في سنة أربعين. والله أعلم.

وفيها عزل المنصور عمه سليمان بن علي عن إمرة البصرة، فاختفى عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة. وهو سفيان بن معاوية، يستحثه في إحضار عبد الله بن علي إليه، فبعثه في أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن علي، وبعث بقية أصحابه إلى أبي داود نائب خراسان فقتلهم هناك.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها توفي

عمرو بن مجاهد، ويزيد بن عبد الله بن الهاد، ويونس بن عبيد، أحد العباد وصاحب الحسن البصري.

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فيها ثار جماعة من الجند على أبي داود نائب خراسان، وحاصروا داره، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بجنده ليحضروا إليه، واتكأ على آجرة في الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره، فمات رحمه الله، فخلفه على خراسان عصام، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير عليها من جهة الخليفة، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، فتسلم بلاد خراسان، وقتل جماعة من الأمراء بها لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب، وحبس آخرين، وأخذ نواب أبي داود بجباية الأموال المنكسرة عندهم.

وفيها حج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره وصلى فيه، ثم سلك الشام إلى الرقة، ثم سار إلى هاشمية الكوفة .

ونواب الأقاليم هم المذكورون في التي قبلها، سوى خراسان فإنه مات نائبها أبو داود، فخلفه مكانه عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي.

وفيها توفي

داود بن أبي هند، وأبو حازم سلمة بن دينار، وسهيل بن أبي صالح، وعمارة بن غزية، وعمرو بن قيس السكوني.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

فيها خرجت طائفة يقال لهم الراوندية على المنصور.

ذكر ابن جرير [تاريخه:٧/٥٠٥-٥١١] عن المدائني أن أصلهم من خراسان، وهم على رأي أبي مسلم الخراساني، كانوا يقولون بالتناسخ يزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نهيك، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور. وأن الهيثم بن معاوية جبريل، قبحهم الله تعالى.

قال: فأتوا يوماً قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فغضبوا من ذلك وقالوا: علام تحبسهم؟ ثم عمدوا إلى نعش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة، واجتازوا بباب السجن، فألقوا النعش ودخلوا السجن قهراً واستخرجوا من فيه من أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور وهو في ستمائة، فتنادى الناس وغلقت أبو اب البلد، وخرج المنصور من القصر ماشياً، لأنه لم يكن في القصر دابة يركبها، ثم جيء بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية، وجاء معن بن زائدة، فلما رأى الخليفة ترجل وأخذ بلجام دابة الخليفة، وقال: يا أمير المؤمنين ارجع نحن نكفيكهم. فأبى وقام أهل السوق إليهم فقاتلوهم، وجاءت الجيوش فالتقوا عليهم من كل ناحية فحصدوهم عن آخرهم، ولم يبق منهم بقية، وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه، فمرض أياماً ثم مات، فولي الصلاة عليه الخليفة المنصور، وقام على قبره حتى دفن ودعا له، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة.

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر في آخر وقتها، ثم أتي بالطعام فقال: أين معن بن زائدة؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جانبه، ثم أخذ في شكره لمن بحضرته لما رأى من شهامته يومئذ. فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإني لوجل، فلما رأيت استهانتك بهم وإقدامك عليهم قوي قلبي بذلك، وما ظننت أن أحداً يكون في الحرب هكذا، فذاك الذي شجعني يا أمير المؤمنين. فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضي عنه وولاه اليمن. وكان معن بن زائدة قبل ذلك مختفياً، لأنه قاتل المسودة مع ابن هبيرة، فلم يظهر إلا في هذا اليوم. فلما رأى الخليفة صدقه في قتاله رضي عنه.

ويقال: إن المنصور قال: أخطأت في ثلاث: قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً. وهذا من حزمه وصرامته.

وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً المهدي وليَّ عهده من بعده بلاد خراسان وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة، فشكاه المنصور إلى أبي أيوب الخوزي كاتب الرسائل فقال: يا أمير المؤمنين اكتب إليه ليبعث جيشاً من خراسان لغزو الروم، فإذا خرجوا من عنده بعثت إليه من شئت فأخرجوه منها ذليلا. ليس عنده كثير أحد فكتب إليه المنصور بذلك فردّ الجواب بأن بلاد خراسان قد عاثت بها الأتراك، ومتى خرج منها جيش فسد أمرها. فقال الخليفة لأبي أيوب: ماذا ترى؟ قال: فاكتب إليه: بأن بلاد خراسان أحق بالمدد من غيرها، وقد جهزت إليك بالجنود. فأجاب بأن بلاد خراسان في هذا العام مضيقة أقواتها، ومتى دخلها جيش أفسدها، فقال الخليفة لأبي أيوب: ما تقول؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره، فحينئذٍ بعث المنصور ابنه محمداً المهدي ليقيم بالري، فبعث المهدي خازم بن خزيمة مقدمةً بين يديه إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن، فما زالوا عليه حتى هزموا من معه وأخذوه هو فأركبوه بعيراً محولا وجهه إلى ناحية ذنب البعير. وسيروه كذلك في البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله، فضرب المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه من أهله إلى جزيرة دَهْلَك في طرف اليمن، فأسرتهم الهنود بعد ذلك، ثم فودي بعضهم بعد ذلك.

واستقر المهدي نائباً على خراسان، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان، وأن يحارب الأصبهبذ بمن معه من الجنود وأمده بجيش عليهم عمر بن العلاء، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان، وهو الذي يقول فيه بشار الشاعر:

فَقُلْ للخليفة إن جئته نَصيحاً ولا خير في المُتَّهَمْ
إذا أيقظتك حروب العِدَى فنَبِّه لها عُمَراً ثم نم
فتًى لا ينام على دِمنةٍ ولا يشرب الماء إلا بِدَمْ

فلما تواقفت الجيوش على طبرستان فتحوها وحصروا الأصبهبذ حتى الجؤوه إلى قلعته فصالحهم على ما فيها من الذخائر، وكتب المهدي إلى أبيه بذلك، ودخل الأصبهبذ بلاد الديلم فمات هناك. وكسروا أيضا ملك الترك الذي يقال له المصمغان، وأسروا أمماً من الذراري، فهذا فتح طبرستان الأول.

وفي هذه السنة فرغ من بناء المصيصة على يدي جبريل بن يحيى الخراساني.

وفيها رابط محمد بن إبراهيم الإمام ببلاد ملطية.

وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري وقدمها في رجب، وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العتكي.

وفيها توفي موسى بن كعب وهو على شُرَط المنصور. وعلى مصر والهند ونائبه في الهند ابنه.

وفيها ولي مصر محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات.

وحج بالناس فيها صالح بن علي وهو نائب قنسرين وحمص ودمشق، وبقية البلاد عليها من ذكرنا في التي قبلها والله أعلم.

وفيها توفي

أبان بن تغلب، وموسى بن عقبة، صاحب المغازي، وأبو إسحاق الشيباني في قول والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة

فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة، فجهز إليه العساكر صحبة عمر بن حفص بن أبي صفرة، وولاه السند والهند، فحاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه.

وفيها نكث أصبهبذ طبرستان العهد الذي كان بينه وبين المسلمين، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان، فجهز إليه الخليفة الجيوش صحبة خازم بن خزيمة، وروح بن حاتم، ومعهم مرزوق أبو الخصيب، مولى المنصور،

فحاصروه مدة طويلة، فلما أعياهم فتح الحصن الذي هو فيه احتالوا عليه، وذلك أن أبا الخصيب قال: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي، ففعلوا ذلك، فذهب إليه كأنه مغاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته، فدخل الحصن ففرح به الأصبهذ وأكرمه وقربه، وجعل أبو الخصيب يظهر له النصح والخدمة حتى خدعه، وحظي عنده جداً وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه، فلما تمكن عنده كاتب المسلمين وأعلمهم أنّ الليلة الفلانية في حرسه فاقتربوا من الباب حتى أفتحه لكم، فلما كانت تلك الليلة فتح للمسلمين باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامتص الأصبهذ خاتماً مسموماً فمات، وكان ممن أُسر يومئذ أم منصور بن المهدي، وأم إبراهيم بن المهدي، وكانتا من بنات الملوك.

وفيها بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التي يصلون عندها بالجبّان، وتولى بناءها سلمة بن سعيد بن جابر نائب الفرات والأبلة، وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد في ذلك المصلى.

وفيها عزل الخليفة نوفل بن الفرات عن إمارة مصر وولى عليها حميد بن قحطبة.

وحج بالناس في هذه السنة إسماعيل بن علي.

وفيها توفي

■ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة. وكان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة، وهو ابن تسع وخمسين سنة، وصلى عليه أخوه عبد الصمد.

روى عن أبيه وعكرمة وأبي بردة بن أبي موسى. وعنه جماعة منهم بنوه جعفر، ومحمد، وزينب والأصمعي. وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب في ذلك السن، وكان كريماً جواداً ممدحاً. كان يعتق عشية عرفة في كل سنة مائة نسمة، وبلغت صلاته لبني هاشم وسائر قريش والأنصار خمسة آلاف ألف.

واطلع يوماً من قصره فرأى نسوة يغزلن في دار من دور البصرة، فاتفق أن قالت واحدة منهن: ليت الأمير اطّلع علينا واطلع فأغنانا عن الغزل؟ فنهض فجعل يدور في قصره ويجمع من حلي نسائه من الذهب والجواهر وغير ذلك ما ملأ به منديلاً، ثم دلاه إليهن ونثر عليهنّ من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً، فماتت إحداهن من شدة الفرح.

فأعطى ديتها وما تركته من ذلك لورثتها.

وقد ولي الحج في أيام السفاح، وولي البصرة للمنصور، وكان من خيار بني العباس، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد، وهو عم السفاح والمنصور.

وممن توفي فيها:

خالد الحذاء، وعاصم الأحول،

و■ عمرو بن عبيد القدري في قول.وهو عمرو بن عبيد بن باب. ويقال: ابن كيسان، التيمي مولاهم أبو عثمان البصري، من أبناء فارس، شيخ القدرية والمعتزلة. روى الحديث عن الحسن البصري وعبيد الله بن أنس، وأبي العالية وأبي قلابة، وعنه الحمادان وسفيان بن عيينة والأعمش - وكان من أقرانه - وعبد الوارث بن سعيد، وهارون بن موسى، ويحيى القطان، ويزيد بن زريع.

قال الإمام أحمد بن حنبل: ليس بأهل أن يحدث عنه.

وقال علي بن المديني ويحيى بن معين: ليس بشيء، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع. وقال الفلاس: متروك صاحب بدعة. كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدي لا يحدث عنه.

وقال أبو حاتم: متروك وقال النسائي: ليس بثقة. وقال شعبة عن يونس بن عبيد: كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث.

وقال حماد بن سلمة: قال لي حميد: لا تأخذ عنه فإنه كان يكذب على الحسن البصري. وكذا قال أيوب وعوف وابن عون.

وقال أيوب: ما كنت أعدُّ له عقلاً.

وقال مطر الوراق: والله لا أصدقه في شيء. وقال ابن المبارك: إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر.

وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل، وأثنى عليه آخرون في عبادته وزهده وتقشفه. قال الحسن البصري: هذا سيد شباب القُرى ما لم يحدث.

قالوا: فأحدث والله أشد الحدث.

وقال ابن حبان: كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث، وهماً لا تعمداً، وقد روي عنه أنه قال: إن كانت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ في اللوح المحفوظ فما لله على ابن آدم حجة.

وروي له حديث ابن مسعود: حدثنا الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً» حتى قال: «فيؤمر بأربع كلمات. رزقه وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد» [خ(٣٢٠٨)، م(٢٦٤٣)] إلى آخره. فقال: لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أحببته، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته، ولو سمعته من رسول الله ﷺ لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ما على هذا أخذت علينا الميثاق.

وهذا من أقبح الكفر، لعنه الله إن كان قال هذا. وإذا كان مكذوبا عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه.

وقد قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

أيها الطالبُ علماً ... إيتِ حَمّادَ بنَ زيدْ
فخذِ العلمَ بحلمٍ ... ثم قيِّدهُ بقَيْدْ
وَذَرِ البدعةَ من ... آثارِ عمرو بن عبيدْ

وقال ابن عدي: كان عمرو يغر الناس بتقشفه، وهو مذموم ضعيف الحديث جداً، معلن بالبدع.

وقال الدارقطني: ضعيف الحديث.

وقال الخطيب البغدادي: جالس الحسن واشتهر بصحبته ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن، وكان له سمت وإظهار زهد. وقد قيل: إنه وواصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين. وحكى البخاري أنه مات سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة، وقد كان عمرو محظياً عند أبي جعفر المنصور، وكان خطيًا عند أبي جعفر المنصور؛ لأنه كان يفد مع القراء فيعطيهم المنصور فيأخذون، ولا يقبل عمرو منه شيئاً، فكان ذلك يُعجب المنصورلأن المنصور كان بخيلا وكان يقول:

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد، والزهد لا يدل على صلاح، فإن بعض الرهابين قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه كثير من المسلمين في زمانه.

وقد روينا عن إسماعيل بن مسلمة القعنبي قال: رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بعبادان فقال لي: أيوب ويونس وابن عون في الجنة. قلت: فعمرو بن عبيد؟ قال: في النار. ثم رآه مرة ثانية ويروى ثالثة، ويقول له مثل ذلك.

وقد رئيت له منامات قبيحة، وقد طوّل شيخنا في «تهذيبه» [١٢٣/٢٢-١٣٥] ترجمته ولخصنا حاصلها في كتابنا التكميل، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقاً، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً أن يذهب مع الجيش إلى الديلم، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك.

وحج بالناس في هذه السنه عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها.

وفيها توفي

حجاج الصواف، وحميد بن تيرويه الطويل، وسليمان بن طرخان التيمي، وعمرو بن عبيد في قول، وقد ذكرناه في التي قبلها، وليث بن أبي سليم على الصحيح. ويحيى بن سعيد الأنصاري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائه

فيها سار محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة.

وفيها قدم محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور على أبيه من بلاد خراسان ودخل بابنة عمه ريطة بنت السفاح بالحيرة.

وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الميرة والعسكر خازم بن خزيمة، وولى رياح بن عثمان المزني المدينة وعزل عنها محمد بن خالد بن عبد الله القسري.

وتلقى الناس أبا جعفر المنصور في أثناء طريق مكة في حجه في سنة أربعين ومائة. وكان في جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فأجلسه المنصور معه على السماط، ثم جعل يحادثه وأقبل عليه إقبالاً زائداً بحيث اشتغل بذلك عن عامة غدائه، وسأله عن ابنيه إبراهيم ومحمد لم لا جاءاني مع الناس؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدري أين صارا من أرض الله. وصدق في ذلك، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان في جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً، وذلك لأنه توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجا عليه والذي خاف منه المنصور وقع فيه، ولما خافاه ذهبا منه هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند ثم تحوّلا إلى المدينة فاختفيا بها، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر، فاستدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما، ثم كذلك، وانتصب ألباً عليهما عند المنصور. والعجب أنه من أتباعهما، واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك إلى الآن. فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدري أين صارا إليه من البلاد، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما. فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بحبس بني حسن عن آخرهم فحبسهم، وجد في طلب إبراهيم ومحمد جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما من ينم عليهما ولله الحمد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولي عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما، ويبذل الأموال في طلبهما، وتعجزه المقادير عنهما لما يريده الله عز وجل.

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان، فعزموا في بعض الحجات على الفتك بالمنصور بين الصفا والمروة. فنهاهم عبد الله بن حسن لشرف البقعة. وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما ما لأهما ذلك الأمير، فعذبه حتى أقر بما كانوا تمالؤوا عليه من الفتك به. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك. فأمر به الخليفة فغيب في الأرض فلم يظهر حتى الآن.

وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه ووزرائه من ذوي الرأي في أمر ابني عبد الله بن حسن، وبعث الجواسيس والقصاد إليهما فلم يقع لهما على خبر، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر، والله غالب على أمره.

وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه! إني قد شفقت على أبي وعمومتي، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي. فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا، بل نصبر على أمره فلعل الله ان يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله وتمالؤوا كلهم على ذلك رحمهم الله.

وفي هذه السنة نُقلوا من المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال. وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبي جعفر المنصور، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وقد حملت قريباً، فاستحضره الخليفة وقال: قد حلفت بالعتاق والطلاق إنك لم تغشني، وهذه ابنتك حامل، فإن كان من زوجها فقد حَنِثتَ، وإن كان من غيره فأنت ديوث. فأجابه العثماني بجواب أحفظه به، فأمر به فجردت عنه ثيابه فإذا جسمه مثل الفضة النقية. ثم ضُرب بين يدي الخليفة مائة وخمسين سوطاً، منها ثلاثون فوق رأسه، أصاب أحدها عينه فسالت، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقة الضرب، وتراكم الدماء فوق جلده، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن، فاستسقى ماء فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلاوزة الموكلين بهم. ثم ركب الخليفة هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة، وعليهم القيود والأغلال، فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه، فناداه عبد الله بن حسن:

والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر، فأخساه المنصور وتَفَل عليه ونفر عنهم.

ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وكان جميلا يذهب الناس لينظروا إليه من حسنه. وكان يقال له: الديباج الأصفر. فأحضره المنصور بين يديه وقال له: أما والله لأقتلنك قتلة ما قُتلها أحد. ثم ألقاه بين أسطوانتين وسد عليه حتى مات. وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم فيما بعد على ما سنذكره.

فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وقد قيل وهو الأظهر أنه قتل صبراً، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما، وقل من خرج منهم من الحبس، وقد كانوا في سجن لا يسمعون فيه التأذين، ولا يعرفون فيه وقت الصلاة إلا بالتلاوة، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العثماني، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان.

وهو

■ **محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي**، أبو عبد الله المدني المعروف بالديباج، لحسن وجهه. وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجة بن زيد وطاوس وأبي الزناد والزهري ونافع وغيرهم، وحدث عنه جماعة. ووثقه النسائي وابن حبان، وكان أخا عبد الله بن حسن بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله، وبسببها قتله أبو جعفر المنصور في هذه السنة. وكان كريماً جواداً ممدحاً.

قال الزبير بن بكار: أنشدني سليمان بن عياش السعدي لأبي وجزة السعدي يمدحه:

وجدنا المحض الأبيض من قريش ... فتى بين الخليفة والرسول

أتاك المجد من هنا وهنا ... وكنت له بمعتلج السيول

فما للمجد دونك من مبيت ... وما للمجد دونك من مقيل

ولا مُنْضىً وراءك تبتغيه ... ولا هو قابل بك من بديل

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

فمما كان فيها من الأحداث خروج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

أما محمد فإنه خرج على إثر ذهاب أبي جعفر المنصور ببني حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والنعت الذي تقدم ذكره، وسجنهم في مكان ساء مستقراً ومقاماً، لا يسمعون فيه التأذين ولا يعرفون دخول أوقات الصلوات إلا بالأذكار والتلاوات. وقد مات أكثر أكابرهم هنالك رحمهم الله. هذا كله ومحمد بن عبد الله بن حسن مختف بالمدينة، حتى إنه في بعض الأحيان اختفى في بئر نزل فيها، فلم يبق منه سوى رأسه، وباقيه مغمور بالماء، وقد تواعد هو وأخوه وقتاً معيناً يظهران فيه، هو بالمدينة وإبراهيم بالبصرة، ولم يزل الناس من أهل المدينة يؤنبون محمد بن عبد الله في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج، وذلك لما أضرَّ به شدة الاختفاء من كثرة إلحاح رياح نائب المدينة في طلبه ليلا ونهاراً، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور في الليلة الفلانية، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولي المدينة فأعلمه بذلك، فضاق ذرعاً بذلك وانزعج انزعاجاً شديداً، وركب في جحافل فطاف بالمدينة وحولها ليستعلم مكان محمد بن حسن فأعياه ذلك، وقد مرَّ في رجوعه على دار مروان، وهم بها مجتمعون، فلم يشعر بهم. فلما رجع إلى منزله بعث إلى بني حسين بن علي فجمعهم ومعهم رؤوس من سادات قريش وغيرهم، فوعظهم وأنّبهم وقال: يا معشر أهل المدينة، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل في المشارق والمغارب وهو بين أظهركم، ثم ما كفاكم كتمانه حتى بايعتموه على السمع والطاعة؟ والله لا يبلغني عن أحد منكم خرج معه إلا ضربت عنقه. فأنكر الذين هم هنالك أن يكون عندهم علم أو شعور بشيء مما وقع مما يقوله، وقالوا: نحن نأتيك برجال متسلحين يقاتلون دونك إن وقع شيء من ذلك. فنهضوا فجاؤوه بجماعة مسلحين فاستأذنوه في دخولهم عليه، فقال: لا إذن لهم، إني أخشى أن يكون ذلك خديعة. فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم لا يتكلم إلا قليلا حتى ذهبت طائفة من الليل، ثم ما فجيء الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير، فانزعج الناس في جوف الليل، وأشار بعض الحاضرين على الأمير أن يضرب أعناق بني حسين، فقال أحدهم: علام ونحن مقرون بالسمع والطاعة؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر، فاغتنموا الغفلة ونهضوا سراعاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك.

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن في مائتين وخمسين فارساً، فأقبل بمن معه فمر بالسجن فأخرج من فيه، وجاء دار الإمارة فحاصرها فافتتحها وأمسك على رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه في دار مروان، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة، وهو الذي أشار بقتل بني حسين في أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به. وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استظهر على المدينة ودان له أهلها. فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾. وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السنة. وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة في هذا اليوم، فتكلم في بني العباس وذكر عنهم أشياء ذمهم بها وأخبرهم أنه لم ينزل بلداً من البلدان إلا وقد بايعوه على السمع والطاعة، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل.

وقد روى ابن جرير [تاريخه: ٧/٥٦٠] عن الإمام مالك أنه أفتى الناس بمبايعته، فقيل له: إنّ في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة، فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك، ولزم مالك بيته. وقد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته: يا ابن أخي إنك مقتول. فارتدع بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه، فاستناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى شرطتها عثمان بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن مسور بن مخرمة، وتلقب بالمهدي طمعاً أن يكون هو الموعود به في الأحاديث التي سنوردها في كتاب الفتن والملاحم فلم يكن إيّاه، ولا تم له ما تمناه.

وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ابن الحسن، فطوى المراحل البعيدة إلى المنصور في سبع ليال، فورد عليه فوجده نائماً في الليل، فقال للربيع الحاجب: استأذن لي على الخليفة، فقال: إنه لا يوقظ هذه الساعة. فقال: إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال: ويحك! ما وراءك؟ فقال: إنه خرج ابن حسن بالمدينة. فلم يظهر لذلك اكتراثا ولا انزعاجاً، بل قال: أنت رأيته؟ قال: نعم! فقال: هلك والله وأهلك معه من

اتبعه. ثم أمر بالرجل فسجن، ثم جاءت الأخبار بذلك وتواترت. فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم.

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً بذلك، فقال له بعض المنجمين: يا أمير المؤمنين لا عليك منه، فوالله لو ملك الأرض بحذافيرها فإنه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً.

ثم أمر الخليفة جميع رؤوس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن علي فيخبروه بما وقع وبخروج محمد ويسمعوا ما يقول لهم. فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال: ما ترون ابن سلامة فاعلاً؟ - يعني المنصور - فقالوا: لا ندري. فقال: والله لقد قتل صاحبكم البخل ينبغي له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال، فإن ظهر فاسترجاع ما أنفق من الأموال عليه سهل، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن. فرجعوا إلى الخليفة فأخبروه بذلك.

وأشار الناس على الخليفة بمناجزته، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك، ثم قال: إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] ثم قال: فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله، إن أنت أقلعت ورجعت إلى الطاعة لأؤمننك ومن اتبعك، ولأعطينك ألف ألف درهم، ولأدعنك تقيم في أحب البلاد إليك، ولأقضين لك جميع حوائجك، في كلام طويل.

فكتب إليه محمد جواب كتابه:

من عبد الله محمد بن عبد الله بن حسن: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص من ١-٥] ثم قال: وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ، فأنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا، فإن علياً كان الوصيّ وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً، فرسول الله ﷺ خير الناس وهو جدنا، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته، وفاطمة أمُنا وهي أكرم بناته، وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن حسناً ولده عبد المطلب مرتين، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين، وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم نسباً، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأخفهم عذاباً في النار، فأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد، فإنك أعطيت ابن هبيرة العهد ونكثته، وكذلك بعمك عبد الله بن علي، وبأبي مسلم الخراساني.

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله: أما بعد فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، وقد أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وكان له حينئذ أربعة أعمام، فاستجاب له اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبو ك فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينهما إلاً ولا ذمة، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقد فخرت به لأنه أخف أهل النار عذاباً، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن الفخر بأهل النار، وفخرت بأن علياً ولده هاشم مرتين. وأن حسناً ولده عبد المطلب مرتين، فهذا رسول الله ﷺ خير الأولين والآخرين إنما ولده عبد المطلب وهاشم مرة واحدة، وقولك إنك لم تلدك أمهات الأولاد، فهذا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية، وهو خير منك، وعلي بن الحسين من أم ولد وهو خير منك، وكذلك ابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، جدتهما أم ولد وهما خير منك.

وأما قولك: إنكم بنو رسول الله ﷺ:فقد قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله ﷺ بنص الحديث، وقد مرض رسول الله ﷺ وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس، بل أمر غيره، ولما توفي رسول الله ﷺ لم يعدل الناس بأبي بكر ثم عمر، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى، ثم ولّوه بعد مقتل عثمان واتهمه بعضهم به، وقاتله طلحة والزبير، وامتنع سعد من مبايعته، ثم بايع بعد ذلك معاوية، ثم طلبها أبو ك وقاتل عليها الرجال، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودراهم، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله، وسلم الأمر إلى غير أهله، وترك شيعته في أيدي معاوية. فإن كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمنها، ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وحرقوكم بالنيران، وحملوا نساءكم على الإبل كالسبايا إلى الشام، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وذكرنا فضل سلفكم، فجعلت ذلك حجة علينا، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله تقدمةً منّا له على حمزة والعباس وجعفر، وليس الأمر كما زعمت، فإن هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن، وسلموا من الدنيا وابتلي بذلك أبوك. وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلوات المكتوبات، فذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وخدمة زمزم، وحكم لنا بها رسول الله ﷺ في الإسلام ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس، وتوسل به إلى ربه وأبو ك حاضر، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله ﷺ إلا العباس، فالسقاية سقايته، والوراثة وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف في الجاهلية والإسلام في الدنيا والآخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.

في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة وبلاغه. وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم.

فصل في ذكر مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسلاً إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه، وقالوا: قد ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال. ولم يكترثوا بأصحابه فرجعوا إليه بعد ما خافوا على أنفسهم وجعل يستميل رؤوس أهل المدينة، فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى

قتل محمد بن عبد الله بن حسن. وبعث محمد الحسنَ بن معاوية في سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس على مكة إن هو دخلها فساروا إليها، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في ألوف من المقاتلة، فقال لهم الحسين بن معاوية: علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر المنصور؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة: إن برده جاءتنا من أربع ليال وقد أرسلت إليه فأنا أنتظر جوابه إلى أربع، فإن كان ما تقولون حقاً سلمتكم البلد وعليّ مؤنة رجالكم وخيلكم. فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة، وحلف لا يبيت الليلة إلا بمكة، إلا أن يموت. وأرسل إلى السري أن ابرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء في الحرم. فلم يخرج، فتقدموا إليهم فصافُّوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموهم وقتلوا منهم نحو سبعة، ودخلوا مكة، فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وعزّاهم في أبي جعفر، ودعا لمحمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالمهدي.

خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وجاء البريد إلى أخيه محمد بن بذلك فانتهى إليه ليلا فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها. فقال: اللّهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير. ثم خرج فأخبره عن أخيه بذلك فاستبشروا جداً وفرح بذلك كثيراً، وكان يقول للناس بعد صلاتي الصبح والمغرب: ادعوا للّه لإخوانكم أهل البصرة، وللحسين بن معاوية بمكة، واستنصروه على أعدائكم.

وأما ما كان من المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد الله بن حسن، صحبة عيسى بن موسى أربعة آلاف فارس من الشجعان المتخبين، منهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة وجعفر بن حنظلة البهراني، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال: يا أمير المؤمنين ادع بمن شئت ممن تثق به من مواليك فينزل وادي القرى فيمنعه من ميرة الشام، فيموت هو ومن معه جوعاً، فإنه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح، وقدم بين يديه كثير بن الحصين العبدي وقد قال أبو جعفر المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه: يا عيسى! إني أبعثك إلى ما بين جنبي هذين، فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان. وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به، فإنهم أعلم بمذاهبه. وكتب معه كتباً إلى رؤساء قريش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة. فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيوداً ثقالا، وأودعهم السجن. ثم إن محمداً استشار أصحابه في المقام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصرهم بها، أو أن يخرج بمن معه فيقاتل أهل العراق. فمنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار بذلك، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة، لأن رسول الله ﷺ ندم يوم أحد على الخروج منها، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، فأجاب إلى ذلك كله، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول الله ﷺ، وقد ظهر لهم لبنة من الخندق الذي كان حفره رسول الله ﷺ، ففرحوا بذلك واستبشروا وكبروا وبشروه بالنصر. وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض، وفي وسطه منطقة، وكان شكلا ضخماً أسمر عظيم الهامة.

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد وندبهم إليه - وكانوا قريباً من مائة ألف - فقال لهم في جملة ما قال: إني جعلتكم في حل من بيعتي، فمن احب منكم أن يقيم عليها فليفعل. ومن أحب أن يتركها فليفعل. فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه، ولم يبق معه إلا شرذمة من الناس، وخرج أكثر أهل المدينة بأهليهم منها لئلا يشهدوا القتال بها، فنزلوا الأعراض ورؤوس الجبال. وقد بعث محمد أبا القَلَمَّس ليردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم، واستمروا ذاهبين. وقال محمد لرجل: أتأخذ سيفاً ورمحاً وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة؟ فقال: نعم إن أعطيتني رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض، وسيفاً أضربهم به وهم في رؤوس الجبال فعلت. فسكت محمد ثم قال: ويحك! إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا - يعني لبسوا البياض - موافقة لي وخلعوا السواد، فقال: وما ينفعني أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء وأنا في مثل صوفة الدواة، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص. ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة: على ميل منها، فقال له دليله ابن الأصم: إني أخشى إذا كشفتموهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهم الخيل. ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبد الملك على أربعة أميال من المدينة، وذلك يوم السبت لصبح ثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة. وقال: إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة في طريق مكة، وقال لهم إن هرب هذا الرجل فليس له ملجأ إلا مكة فاقتلوه، وحولوا بينه وبينها. ثم أرسل عيسى إلى محمد يدعوه إلى السمع والطاعة أو الرجوع إلى المبايعة لأمير المؤمنين المنصور، فإنه قد أعطاه الأمان له ولأهل بيته إن هو أجاب إلى ذلك، فقال محمد للرسول: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك. ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له: إني أدعوك إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل. أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى الله وسنة رسوله ﷺ، ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام يدعوه فيها عيسى بن موسى إلى السمع والطاعة والرجوع إلى الجماعة. وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي: يا أهل المدينة إن دماءنا علينا حرام فمن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل مسجد رسول اللّه ﷺ فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، فليس لنا في قتالكم أرب، وإنما نريد محمداً وحده لنذهب به إلى الخليفة. فجعلوا يسبونه وينالون من أمه، ويتكلمون معه بكلام شنيع، ويخاطبونه مخاطبة فظيعة. وقالوا: هذا ابن رسول الله ﷺ معنا ونحن معه، نقاتل دونه.

فلما كان اليوم الثالث أتاهم في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها، فناداه يا محمد! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى السمع الطاعة، فإن فعلت أمنك وقضى دينك وأعطاك أموالا وأراضي، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة. فناداه محمد: إنه ليس لكم عندي إلا القتال. فنشبت الحرب حينئذ بينهم، وكان جيش عيسى بن موسى فوق الأربعة آلاف، وعلى المقدمة حميد بن قحطبة، وعلى ميمنته محمد بن السفاح، وعلى ميسرته داود بن كراز، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة، ومعهم عدد لم ير مثلها. وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة. وكان محمد

وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر، واقتتل الفريقان قتالا شديداً جداً، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلا من أبطالهم، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن، فاقتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعملوا أبو اباً على قدره، وقيل إنهم ردموه بحدائج الإبل حتى أمكنهم أن يجوزوه، وقد يكونون هذا في موضع منه، وهذا في موضع آخر والله أعلم.

ولم يزل القتال ناشباً بينهم من بكرة النهار حتى صليت العصر. فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحميت الحرب حينئذٍ جداً، فاستظهر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله ﷺ.

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا: دُخِلت المدينة، وهربوا وبقي محمد في شرذمة قليلة جداً ثم بقي وحده، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه، فلا يقوم له شيء إلا أنامه، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجعان، ويقال إنه كان في يده يومئذٍ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبتيه وجعل يحمي نفسه ويقول: ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم. وجعل حميد بن قحطبة يقول: ويحكم! دعوه لا تقتلوه، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه. وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه، فما أدركه إلا كذلك، ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش.

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع رأسه بين يديه: ما تقولون فيه؟ فنال منه أقوام وتكلموا فيه، فقال رجل منهم: كذبتم والله! لقد كان صواماً قواماً، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصى المسلمين فقتلناه على ذلك. فسكتوا حينئذٍ.

وأما سيفه ذو الفقار فإنه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جربه بعضهم فضرب به كلباً فانقطع السيف. ذكره ابن جرير وغيره.

وقد بلغ المنصور في غبون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال: لا إنا أهل بيت لا نفر.

وقال ابن جرير [تاريخه:٥٩٧/٧]: حدثني عبد الله بن راشد حدثني أبو الحجاج قال: إني لقائم على رأس أبي جعفر المنصور وهو مسائلي عن مخرج محمد، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد هُزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال: كلا، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ ما أني لذلك بعد، وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام، ثم أمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلع. ثم نقلوا إلى خندق هناك. وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له أبو جعفر المنصور، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم، حكاه ابن جرير.

ونودي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد، وجعل ينتاب المسجد من الجرف، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد بن عبد الله بن حسن، وكان محمد قد كتب إليه ليقدم عليه، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد بن عبد الله، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى إبراهيم بن عبد الله. الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنذكره.

ولما جيء المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشراف أهل المدينة، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضربا مبرحاً، ومنهم من يعفو عنه.

ولما توجه عيسى بن موسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيابتها عبد الله بن الربيع، فعاث جنده في المدينة فساداً واشتروا من الناس أشياء لا يعطونهم ثمنها، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب، وخوفوه بالقتل، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة. وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة، لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة، وقيل: لخمس بقين من شوال منها، فقتلوا منهم طائفة كثيرة بالمزاريق وغيرها، وهرب نائب المدينة الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة. وكان رؤساء السودان: وثيق ويعقل ورمقة وحديا وعنقود، ومسعر، وأبو قيس وأبو النار.

فركب عبد الله بن الربيع في جنوده والتقى مع السودان فهزموه أيضاً فلحقوه بالبقيع فألقى لهم دراهم شغلهم بها، حتى نجا بنفسه ومن اتبعه، فلحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة، ووقع السودان على طعام لأبي جعفر المنصور كان مخزوناً في دار مروان قد قدم به في البحر لأجل الجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وزيت وقَسْب، فانتهبوه وباعوه بأرخص ثمن. وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان، وخاف أهل المدينة من معرة ذلك. فاجتمعوا في المسجد وخطبهم ابن أبي سبرة - وكان مسجوناً - فصعد المنبر وفي رجليه القيود، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور، وخوفهم شر ما صنعه مواليهم، فاتفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم وأن يذهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله، ففعلوا ذلك، فسكن الأمر وهدأ الناس وانطفأت الشرور، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبي النار ويعقل ومسعر.

ذكر خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة وكيفية مقتله

كان إبراهيم قد نزل في بني ضبيعة من البصرة، في دار الحارث بن عيسى، وكان لا يرى بالنهار، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة. وانعقد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة، بعد منصرف الحجيج.

وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة النبوية. قاله الواقدي. [تاريخ الطبري:٦٣٤/٧]

قال: وكان يدعو في السر إلى أخيه، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة، والمشهور أنه قدمها قبل ذلك وأنه أظهر

الدعوة في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما قدمنا والله أعلم.

ولما دخل البصرة أول قدومه إليها نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي، فاختفى عنده هذه المدة كلها، حتى ظهر في هذه السنة وكان أول ظهوره في دار أبي فروة، وكان أول من بايعه نميلة بن مرة، وعفوُ الله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمر بن سلمة الهجيمي، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي، وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثيرة فتحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة، واستفحل أمره، وبايعه فئام من الناس، وتفاقم الخطب به، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بأخيه محمد، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان السبب في تعجيله الظهور بالبصرة كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه، فانتظم أمره بالبصرة، وكان نائبها للمنصور سفيان بن معاوية وكان ممالئاً لإبراهيم في الباطن، ويبلغه أخباره فلا يكترث بها، ويكذب بما يُخبر منها ويودّ أن لو صح أمر إبراهيم، وقد أمده المنصور بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع في عمارتها - إلى الكوفة، وجعل كلّما اتهم رجلا من أهل الكوفة في أمر إبراهيم بعث إليه من يقتله في الليل في منزله، وكان الفرافصة العجلي قد هَمّ بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم، ويفدون إليها جماعات وفرادى. وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطرقات ويأتونه برؤوسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ بها الناس. وأرسل المنصور إلى حرب الراوندي - وكان مرابطاً بالجزيرة في ألفي فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إلى الكوفة، فأقبل بمن معه فلما اجتاز ببلدة بها أنصار لإبراهيم فقالوا له: لا ندعك تجتاز، لأنك إنما طلبك ليحارب إبراهيم. فقال: ويحكم! دعوني، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤوسهم إلى المنصور. فقال: هذا أول الفتح. ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، خرج إبراهيم بن عبد الله في الليل إلى مقبرة بني يشكر في بضعة عشر فارساً، وقدم في هذه الليلة أبو حماد الأبرص في ألفي فارس مدداً لسفيان بن معاوية، فأنزلهم الأمير في القصر، ومال إبراهيم وأصحابه ومن التف عليه وصار إليه على دواب أولئك العسكر وأسلحتهم فأخذوها جميعاً، فكان هذا أول ما أصاب. وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً، فصلى بالناس صلاة الصبح في المسجد الجامع، والتفّت الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر، وتحصن سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الإمارة وجلس عنده الجنود فحاصرهم إبراهيم بمن معه، فطلب سفيان بن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان، ودخل إبراهيم قصر الإمارة فبسطت له حصير ليجلس عليها في مقدم إيوان القصر، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن، فتطير الناس بذلك، فقال إبراهيم: إنا لا نتطير. وجلس على ظهر الحصير، وأمر بحبس سفيان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك أن يبرئ ساحته عند أبي جعفر المنصور، واستحوذ على ما كان ببيت المال فإذا فيه ستمائة ألف، وقيل ألفا ألف. فقوي بذلك جداً

وكان في البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي، وهما ابنا عم الخليفة المنصور، فركبا في ستمائة فارس فأرسل إليهما إبراهيم المضاء بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلا فهزم بهؤلاء ستمائة فارس. وآمن من بقي منهم، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه له وأطاعوه، وأرسل إلى نائبها مائتي فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد في أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها، وكذلك واسط والمدائن والسواد، واستفحل أمره جداً، ولكن لما جاءه نعي أخيه محمد انكسر جداً، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور. فقال بعضهم: والله لقد رأيت الموت في وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً، فازداد الناس حنقاً على المنصور وأصبح فعسكر بالناس واستناب على البصرة نميلة وخلف ابنه حسناً معه.

ولما بلغ المنصور خبره تحير في أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده في الممالك، وكان قد بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفاً إلى الري. وبعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية في أربعين ألفا والباقون مع عيسى بن موسى بالحجاز، ولم يبق معه في معسكره سوى ألفي فارس. وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلا، فيحسب الناظر إليها أن هناك جنوداً كثيراً. ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى وهو بالحجاز بعد قتل محمد بن عبد الله بن حسن: إذا قرأت كتابي هذا فاقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه. فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له: اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولنك كثرة من معه، فإنهم جملا بني هاشم المقتولان جميعاً، فابسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور.

وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن يوجه خازم بن خزيمة في أربعة آلاف إلى الأهواز، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم - وهو المغيرة - وأباحها ثلاثة أيام، ورجع المغيرة إلى البصرة، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التي خلعت بيعته جنداً يردُّونهم إلى الطاعة. قالوا: ولزم المنصور موضع مصلاه فلم يبرح منه ليلا ولا نهاراً في بِذْلَةٍ ثياب عليه قد اتسخت، فلم يزل مقيماً هناك بضعاً وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه، وقد قيل له في غبون ذلك يا أمير المؤمنين: إن نساءك قد خبثت أنفسهن لغيبتك عنهن، فانتهر القائل وقال: ويحك ليست هذه أيام نساء، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي، أو يحمل رأسي إليه.

وقال بعضهم: دخلت على المنصور وهو مهموم من كثرة ما وقع من الشرور والفتوق والخروق، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة كربه وهمه، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله، وقد خرجت عن يده البصرة، والأهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد. وفي الكوفة عنده مائة ألف سيف مغمدة تنتظر به صيحة واحدة، فيثبون عليه مع إبراهيم، وهو في ذلك يحرك النوائب ويمرسها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر:

نفس عصام سودت عصاما　وعلمته الكر والإقداما
فصيرته ملكا هماما

وأقبل إبراهيم بن عبد الله قاصداً من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفا، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وجاء إبراهيم فنزل في باخمرا في جحافل عظيمة، فقال له بعض الأمراء: إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك هذا لأخذت بقفاه فإنه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه. فقال آخرون منهم: إن الأولى أن نناجز هؤلاء الذين بإزائنا، ثم هو في قبضتنا. فثناهم ذلك على الرأي الأول، ولو فعلوه لتم لهم الأمر. ثم قال بعضهم: خندق حول الجيش. وقال آخرون: إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله، فترك ذلك. ثم أشار بعضهم أن يبيت

جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم: إني لا أرى ذلك، فتركه. ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فإن غلب كردوس ثبت الآخر، وقال آخرون: إن الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والأمر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لتم له الأمر مع تقدير الله تعالى.

وأقبل الجيشان فتصافوا في باخمرا وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالا شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة، فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والكرة فلا يلوي عليه أحد، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله، فقيل له: لو تنحيت من مكانك هذا لئلا يحطمك جيش إبراهيم فقال: والله لا أزول عنه حتى يفتح الله لي أو أقتل ها هنا. وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة مع عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له، فاستمر المنهزمون ذاهبين فانتهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم، فكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كان أول من انهزم. ثم اجتلدوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالا شديداً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة، وقيل في أربعمائة. وقيل في سبعين رجلا، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤوس أصحابه، فجعل حميد يأتي بالرؤوس فيعرضها على عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور، وكان نيبخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيء البشير على المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فاحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت لك فاقتلني. فبينا هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم، ولما جيء بالرأس تمثل المنصور ببيت معقر بن أوس بن حمار البارقي:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وقيل إن المنصور لما نظر رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال: والله لقد كنت لهذا كارهاً، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك، ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق، وأقطع نيبخت المنجم الكذاب ألفي جريب.

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة، فهم كذبة كفرة وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز.

وذكر صالح مولى المنصور قال: لما جيء برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور، والمنصور واجم متغير اللون لا يتكلم. حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فوقف فسلم ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرّط فيه من حقك. قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له: يا أبا خالد مرحباً وأهلا، ههنا فاجلس؟! فعلم الناس أن ذلك وقع منه. فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة.

قال أبو نعيم الفضل بن دكين: كان ذلك في ليلة الثلاثاء لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة. يعني سنة خمس وأربعين ومائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

وقد قتل في هذه السنة جماعة من أعيان أهل البيت منهم عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم، وأخوه حسن بن حسن، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج. وقد تقدمت ترجمته في آخر الجزء الذي قبله.

فأما

■ **عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي** الهاشمي فتابعي، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو صحابي جليل، وغيرهم. وعنه جماعة منهم سفيان الثوري والدراوردي ومالك، وكان معظماً عند العلماء مبّجلاً، وكان عابداً كبير القدر.

قال يحيى بن معين: كان ثقة مأموناً، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه، ووفد على السفاح فعظمه وأعطاه ألف ألف درهم، فلما ولي المنصور عكس هذا الإكرام الله عز وجل، وأخذه وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية. فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا، فمات أكثرهم فيه، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة، وقد قيل إنه قتل عمداً. وقيل بل مات حتف أنفه والله أعلم وكان عمره يوم مات خمساً وسبعين سنة، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي.

ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ثم قتل بعده وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم.

وأما محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فروى عن أبيه ونافع، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهويّ إلى السجود، وحدث عنه جماعة، ووثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين، وكان طويلا سميناً أسمر مفخّماً ضخماً ذا همة سامية، وسطوة عالية وكان مقتله بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وله خمس وأربعين سنة. وقد حملوا رأسه إلى المنصور، وطيف به في الأقاليم.

■ (إبراهيم بن حسن)

وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكانت وفاته بعد وفاته في ذي القعدة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة.

وقد حكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال: كان إبراهيم واخوه محمد خارجيّين. ثم قال أبو داود: وبئسما قال، هذا رأي الزيدية.

قلت: وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما. وفي هذا نظر والله أعلم

وفيها توفي أيضاً من المشاهير

الأجلح بن عبد الله، وإسماعيل بن أبي خالد في قول، وحبيب بن الشهيد، وعبد الملك ابن أبي سليمان، وعمر مولى عفرة، ويحيى بن الحارث الذماري، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمي،

و■ **رؤبة بن العجاج** والعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة، أبو محمد التميمي البصري، الراجز بن الراجز، ولكل منهما ديوان رجز، وكل منهما بارع في فنه لا يجارى ولا يمارى، عالم باللغة.

و■ **عبد الله بن المقفع** الكاتب المفوه، أسلم على يد عيسى بن عليّ

عمّ السفاح والمنصور، وكتب له، وله رسائل وألفاظ صحيحة، وكـان يُتّهم بالزندقة، وهو الذي صنف كتاب كليلة ودمنة، ويقال: بل هو الذي عربها من المجوسية إلى العربية.

قال المهدي بن المنصور: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع.

وقال الجاحظ: الزنادقة ثلاثة ابن المقفع ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد.

قالوا: ونسي الجاحظ نفسه وهو رابعهم. وكان مع هذا فاضلا بارعاً فصيحاً.

قال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدبك؟ قال: نفسي. إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيته، وإذا رأيت حسناً أتيته.

ومن كلامه: شربت من الخطب ريّاً، ولم أضبط لها رويّاً، فغاضت ثم فاضت، فلا هي نظاماً، وليست غيرها كلاماً.

وكان قتله على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه، وإنما كـان يسميه ابن المغتلمة وكان كبير الأنف، وكان إذا دخل عليه يقول: السلام عليكما ـ على سبيل التهكم .

وقال سفيان بن معاوية مرة: ما ندمت على سكوت قط. فقال: صدقت، الخرس خير لك فاتفق أن المنصور تغضّب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله، فأخذه فأحمى له تنوراً وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق، وقيل غير ذلك في صفة قتله. قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان:٢/١٥٥]: ومنهم من يقول: ابن المقفع نسبة إلى بيع القفاع وهي من الجريد كالزنبيل بلا آذان، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبوه داذويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت يداه والله أعلم.

وفيها خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة.

وحج بالناس في هذه السنة السريّ بن عبد الله بن الحارث بن عباس بن عبد المطلب نائب مكة وكان نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي. وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سَلْم بن قتيبة، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام بغداد، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة، وكان مقيماً قبل ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة. وكـان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة، وقيل: في سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم.

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم، فقهرهم وقتلهم، كما تقدم بقيت منهم بقية فخشي على جنده منهم، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موضعاً لبناء مدينة، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موضعاً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن، وذلك بأنه موضع يُغدى إليه ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر، وهو محصن بدجلة والفرات. لا يقدر احد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح ليلا ونهاراً وطيب الهواء في تلك المحلة وقد كان موضعها قرى وديورة لعباد النصارى وغيرهم ـ ذكر ذلك مفصلا بأسمائه وتعداده أبو جعفر بن جرير رحمه الله ـ فحينئذٍ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشى في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك، ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه، وأحضر من كل البلاد فُعّالا وصُنّاعاً ومهندسين، فاجتمع عنده ألوف منهم، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال: بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله. وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفله خمسون ذراعاً، ومن أعلاه عشرون ذراعاً، وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني، ومثلها في الجواني، وليس كل واحد تجاه الآخر، ولكن جعله أزور عن الذي يقابله، ولهذا سميت بغداد الزوراء، لازورار أبوابها بعضها عن بعض، وقيل سميت بذلك لانحراف دجله عندها والله أعلم.

وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة.

وقال ابن جرير [تاريخه:٧/٦٥٢]: ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصلي فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بني قبل القصر، وجامع المدينة بني على القصر، فاختلت قبلته بسبب ذلك.

وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فامتنع فحلف المنصور أن يتولى له، وحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن وعدّه، وأخذ الرجال بالعمل، فكان أبو حنيفة المتولي لذلك حتى فرغوا من استمام حائط المدينة مما يلي الخندق، وكان استمامه في سنة تسع وأربعين ومائة.

قال ابن جرير [تاريخه:٧/٦١٩]: وذكر عن الهيثم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع، فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل، فاخبر بذلك أبو حنيفة فدعا بقصبة فعد اللبن ليبر بذلك يمين أبي جعفر، ومات أبو حنيفة ببغداد.

وذكر أن خالد بن برمك هو الذي أشار على المنصور ببنائها. وأنه كان مستحثاً فيها، وقد شاور المنصور الأمراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الإمارة بها، فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه آية في العالم، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه، ونقل أبو اب قصر واسط إلى أبواب بغداد. وقد كان الحجاج نقلها من مدينه هناك كانت من بناء سليمان بن داود، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب.

وقد كانت الأسواق قريباً من قصر الإمارة. فكانت أصوات الباعة وهوشات الأسواق تسمع منه، فعاب ذلك بعض بطارقة النصارى ممن قدم في بعض الرسائل من الروم، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر، وأمر المنصور بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً، ومن بنى في شيء من ذلك هدم.

وقال ابن جرير [تاريخه:٧/٦٥٥]: وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال: وجدت في خزائن المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام

ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها، أربعة آلاف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين درهماً، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة.

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٦٩/١]: وقد رأيت ذلك في بعض الكتب. وحكى عن بعضهم أنه قال: أنفق عليها ثمانية عشر ألف ألف فالله أعلم.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٦٥٤/٧، ٦٥٥] أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهماً عمّا ساومه، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهماً فحبسه حتى أحضرها.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد [٦٧/١]: وبناها مدورة، ولا يعرف في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم، ثم ذكر عن بعض المنجمين قال: قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد: خذ الطالع فنظرت في طالعها - وكان المشتري في القوس - فأخبرته بما تدل عليه النجوم، من طول زمانها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها. قال: ثم قلت له: وأبشرك يا أمير المؤمنين ببشارة أخرى؛ وهي أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً. قال: فرأيته يبتسم ثم قال: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه:

قضى ربها أن لا يموت خليفة بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب أبو بكر البغدادي وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء مع اطلاعه ومعرفته.

قال: وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن المحسِّن التنوخي فقال: محمد الأمين أيضاً لم يقتل بالمدينة، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة ليتنزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك. وذكر ذلك الصولي وغيره.

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال: اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً، وذلك يعدل ميلين في ميلين.

قال الإمام أحمد بن حنبل: بغداد من الصراة إلى باب التبن.

وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ٧١/١-٧٣] عن بعضهم أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلا، وقيل أقل من ذلك. وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ٧١/١-٧٣] صفة قصر الإمارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فإلى أي جهة استقبلها واستمر مستقبلها، علم أن في تلك الجهة قد وقع حدث فيتظر في أمره الخليفة وهذه القبة على مجلس في صدر إيوان الحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً. وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

وذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٧٠/١] أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور ببغداد الكبش بدرهم والحمل بأربعة دوانق، وينادى على لحم الغنم كل ستين رطلا بدرهم، ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم، والتمر كل ستين رطلا بدرهم، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم، والسمن كل ثمانية أرطال بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم.

ولهذا الأمن والرخص كثر ساكنوها وعظم أهلوها وكثر الدارج في أسواقها وأزقتها، حتى كان المار فيها لا يكاد يجتاز في الأسواق لكثرة أهلها. قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق: طالما طردت خلف الأرانب في هذا المكان.

وذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد:٧٨/١، ٧٩] أن المنصور جلس يوماً في قصر الإمارة وعنده بعض رسل الروم فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب: ما هذا؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة في الأسواق، فقال الرومي: يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك، وفيه ثلاثة عيوب، بعده من الماء، وقرب الأسواق منه، وليس عنده خضرة، والعين خضرة تحب الخضرة. فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك، بعد ذلك وساق إليه الماء وبنى عنده البساتين، وحوَّل الأسواق من ثم إلى الكرخ.

قال يعقوب بن سفيان: كمل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ذراعاً، وبعد شهر من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد، فكمل سنة ثمان وخمسين ومائة. كما سيأتي.وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح، تبنى قصر الوضّاح وبُني للعامة جامعٌ للصلاة والجمعة لئلا يدخلون إلى جامع مدينة المنصور، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد فإنها كانت أولا للحسن بن سهل، فانتقلت من بعده إلى ابنته بوران التي كان تزوّجها المأمون، فطلبها منها المعتضد - وقيل المعتمد - فأنعمت له بها، واستنظرته أياماً حتى تنتقل منها ثم شرعت في ترميمها وتبييضها وتحسينها، ثم فرشتها بأنواع الفرش، وعلقت فيها أنواع الستور، وأرصدت فيها ما ينبغي للخليفة من الجواري والخدم، بأنواع الملابس، وجعلت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمآكل، وجعلت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه، ثم دخلها وجد فيها ما أرصدته بها، فهاله ذلك واستعظمه جداً، وكان أول خليفة سكنها وبنى عليها سوراً، ذكره الخطيب البغدادي

وأما التاج فبناه المكتفي على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش.

وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن المقتدر بالله، وما فيها من الفرش والستور والخدم والمماليك والحشمة الباذخة، وأنه كان بها أحد عشر ألف طواشي، وسبعمائة حاجب. وأما المماليك فألوف لا يحصون كثرة، وسيأتي ذكر ذلك مفصلا في أيامهم ودولتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم، بعد سنة ثلاثمائة.

وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ١٠٥/١-١١٧] دار الملك التي بالمخرم، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمعات، وذكر الأنهار والجسور التي بها، وما كان في ذلك في زمن المنصور، وما أحدث بعده إلى زمانه، وأنشد لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة:

يوم سرقنا العيش فيه خِلْسَةً في مجلس بفِنَاء دجلةَ مُفْرَدِ
رَقَّ الهواء برقةٍ قدامةٍ فغدوت رِقّاً للزمان المُسعدِ
فكأن دجلة طيلسانٌ أبيضٌ والجسر فيها كالطراز الأسودِ

وقال آخر:

يا حبَّذا جسرٌ على مَتنِ دجلةٍ ... بإتقان تأسيسٍ وحسنٍ وروْنقِ
جمالٌ وحسنٌ للعراق ونزهةٌ ... وسلوةُ مَنْ أضناهُ فَرْطُ التَشوُّقِ
تراهُ إذا ما جئتهُ متأملا ... كسطرِ عبيرٍ خُطَّ في وسطِ مُهرَقِ
أو العاجِ فيهِ الآبنُوسُ مُرقَّشٌ ... مثالُ فُيولٍ تحتها أرض زئبقِ

وذكر الصولي قال: ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب وسبع مئة وخمسون جريباً وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء، وأن بإزاء كل حمام خمسة مساجد، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس - يعني إماماً وقيّماً ومأذوناً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى. على ما سيأتي بيانه في موضعه.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١/١١٩]: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها، وسعة أطرارها، وكثرة دورها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد، ثم ذكر تناقص أحوالها بعد ذلك وهلم جرا إلى زمانه.

قلت: وكذا من بعده إلى زماننا هذا، ولا سيما في أيام هولاكو بن تولى بن جنكز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها وخرب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام، وأخذ الأموال والحواصل، ونهب الذراري والأصائل، وأورث بها حزناً يعدد به في البكرات والأصائل، وصيرها مثلة في الأقاليم، وعبرة لكل معتبر عليم، وتذكرة لكل ذي لبّ مستقيم، وبدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات، والألحان، وإنشاد الأشعار، وكان، وكان، وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية. وبعد العلماء بالحكماء، وبعد الخليفة العباسي بشر الولاة من الأناسي، وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة، وبعد العُبّاد بالأنكاد، وبُعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين وبعد الاشتغال بفنون العلوم من التفسير والفقه والحديث وتعبير الرؤيا بالزجل والموشح ودوبيت ومواليا. وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم وما ربُّكَ بظلام للعبيد.

والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية، وأكل الحشيشة، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل اللَّه بأهله افضل وأكمل وأجمل.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» [٥/٢٤٩] عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَحَوَّلَ خِيَارُ أَهْلِ العِرَاقِ إلى الشَّامِ، وشِرَارُ أَهْلِ الشَّامِ إلى العِرَاقِ».

ذِكر ما ورد في مدينة بغداد من الآثار والتنبيه على ضعف ما روي فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداذ بإهمال الدال الثانية، وإعجامها، وبغدان بالنون آخره وبالميم مع ذلك أولا مغدان ، وهي كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغ وداذ فقيل بغ بستان وداذ اسم رجل، وقيل بغ اسم صنم وقيل شيطان وداذ عطية الصنم، ولهذا كره عبد اللَّه بن المبارك والأصمعي وغيرهما تسميتها بغداذ وإنما يقال لها مدينة السلام، وكذا سماها بانيها أبو جعفر المنصور، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام، ومنهم من يسميها الزوراء وهو لقب لها.

فروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١/٢٧، ٢٨] من طريق عمار بن سيف - وهو متهم - قال: سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفيان الثوري عن أبي عثمان عن جرير بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبى إليها خزائن الأرض، وجبابرتها، لهي أسرع ذهاباً في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة.

قال الخطيب: وقد رواه عن عاصم الأحول سيف ابن أخت سفيان الثوري، وهو أخو عمار بن محمد.

قلت: وكلاهما ضعيف متهم يرمى بالكذب، ومحمد بن جابر اليمامي وهو ضعيف أيضاً، وأبو شهاب الحناط. وروى عن سفيان الثوري عن عاصم ثم أسند ذلك كله.

وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي بكير عن عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي ﷺ؛ فذكره.

وقال أحمد ويحيى بن معين: ليس لهذا الحديث أصل. وقال الإمام أحمد: ما حدّث به إنسان ثقة. وقد علله الحافظ أبو بكر الخطيب من جميع طرقه وساقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل، عن أنس بن مالك، ولا يصح أيضاً.

ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربعي عن حذيفة مرفوعاً بنحوه، ولا يصح.

ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس، وفي بعضها ذكر السفياني «وأنه يخربها » ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث.

وقد أوردها الخطيب بأسانيدها وألفاظها، وفي كل منها نكارة، وأقرب ما في ذلك عن كعب الأحبار وقد جاء في آثار عن كتب متقدمة أن بانيها يقال له مقلاص وذو الدوانيق وقد كان المنصور يلقب بمقلاص في حفره ولما ولي لقب بذي الدوانيق لبخله.

فصل في ذكر محاسن بغداد وما روي فيها عن الأئمة الثقات

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري: قال لي الشافعي: هل رأيت بغداد؟ قلت: لا! فقال: لم تَرَ الدنيا.

وعن الشافعي قال: ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً، إلا بغداد فإني

حين دخلتها عددتها وطناً.

وقال بعضهم: الدنيا بادية وبغداد حاضرتها.

وقال ابن علية: ما رأيت أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد، ولا أحسن رغبة. وقال ابن مجاهد: رأيت أبا عمرو بن العلاء في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: دعني من هذا، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نقل من جنة إلى جنة.

وقال أبو بكر بن عياش: الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومن لم يرها لم ير الدنيا.

وقال أبو معاوية: بغداد دار دنيا وآخرة.

وقال بعضهم: من محاسن الإسلام الجمعة ببغداد، وصلاة التراويح بمكة، ويوم العيد بطرسوس.

قال الخطيب: من شهد يوم الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الإسلام، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد في غيرها من البلاد.

وقال بعضهم:كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائلا يقول: تركت الصلاة في بالجامع وإنه ليصلي فيه كل جمعة سبعون ولياً.

وقال آخر: أردت الانتقال من بغداد إلى غيرها فرأيت كأن قائلا يقول لي في المنام: أتنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل؟

وقال بعضهم: رأيت كأن ملكين أتيا بغداد فقال أحدهما لصاحبه: اقلب بها. فقد حق القول عليها: فقال الآخر كيف: اقلب ببلد خُتم فيه القرآن الليلة خمسة آلاف ختمة؟

وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى قال: إذا كان علم الرجل حجازياً وخلقه عراقياً وطاعته شامية فقد كمل.

وقالت زبيدة لمنصور النمري قل شعراً تحبب فيه بغداد إلي الرشيد. فقد اختار عليها الرافقة فقال:

ماذا ببغداد من طيب الأفانين ومن منازل للدنيا وللدين
تحيي الرياح بها المرضى إذا نسمت وجوشت بين أغصان الرياحين

قال: فأعطته ألفي دينار، وقال الخطيب: وقرأت في كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن بخطه من شعره:

سقى الله صوب الغاديات محلةً ببغداد بين الكرخ فالخلد فالجسر
هي البلدة الحسناء خصت لأهلها بأشياء لم يجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة وماء له طعم ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
تراها كمسك والمياه كفضة وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وفيما ذكرنا كفاية.

وقد كان الفراغ من بناء بغداد في هذه السنة - أعني سنة ست وأربعين ومائة - وقيل في سنة ثمان وأربعين، وقيل إن خندقها وسورها كملا في سنة تسع وأربعين، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى فيها قصر الخلد، فنعد كماله مات. توفي كما سيأتي بيانه.

قال ابن جرير [تاريخه:٦٥٥/٧، ٦٥٦]: وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن سليمان بن علي، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن فتوانى في ذلك فعزله، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً، وهدم دوراً كثيرة، وعزل عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان، وعزل عن مكة السري بن عبد الله وولاها عبد الصمد بن علي.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره.

قال: وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة البهراني.

وفيها توفي من الأعيان

أشعث بن عبد الملك، ومحمد بن السائب الكلبي، وهشام بن عروة. ويزيد بن أبي عبيد في قول.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار استرخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا خلقاً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وممن قتل يومئذٍ حرب بن عبد الله الراوندي الذي تنسب إليه الحربية ببغداد، وكان مقيماً بالموصل في ألفين لمقاتلة الخوارج، فسيّره المنصور لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية، وكان في جيش جبريل بن يحيى، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله.

وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور، الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية، وكان عليها والياً حتى مات السفاح، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان بن علي والي البصرة فاختفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعاه وسجنه.

فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب ابن عمه عيسى بن موسى ــ وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح ـ وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له: إن هذا عدوي وعدوك، فاقتله في غيبتي عنك ولا تتوانى. وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه في ذلك ويقول له: ماذا صنعت فيما أوعزت إليك فيه؟ مرة بعد مرة.

وأما عيسى بن موسىفإنه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأي أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وأخفه عندك وأظهر قتله فإنا نخشى أن يطالبك به جهرة فتقول: قتلته، فيأمر بالقود فتدعي أنه أمرك بقتله بالسر فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معاً، فتبصّر عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله. فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا في عمه عبد الله بن علي فجاؤوا كلهم فدخلوا عليه وشفعوا في عبد الله بن علي، وألحوا في ذلك فأجابهم إليه، واستدعى عيسى بن موسى وقال له: إن هؤلاء قد شفعوا في عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ما طلبوا فسلمه إليهم، فقال عيسى: وأين عبد الله؟ ذاك قتلته منذ أمرتني. فقال المنصور: لم آمرك بذلك، وجحد أن يكون تقدم إليه منه أمر في ذلك، فأحضر عيسى الكتب باستحثاثه في ذلك مرة بعد مرة فأنكر أن يكون أراد ذلك، وصمم على الإنكار، وصمم عيسى بن موسى أنه قد قتله، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله،

فخرج به بنو هاشم ليقتلوه، فلما جاؤوا بالسيف قال: ردوني إلى الخليفة، فردوه إليه فقال له: إن عمك حاضر ولم أقتله، فقال: هلم به. فأحضره فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك.رحمه الله

ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه، ثم كان بعد ذلك لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الإذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده بعد ما كان حظياً عنده قبل ذلك جداً، ثم ما زال يقصيه ويبعده ويتهدده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه، وبايع لمحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند المنصور، وأقبل عليه بعد ما كان قد أعرض عنه، وكان قد جرت بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً، ومراوضات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه، وأن العامة لا يعدلون بالمهدي أحداً. وكذلك الأمراء والخواص. ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرهاً، فعوضه عن ذلك ما ذكرنا، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

وفيها توفي. عبد الله بن عمر العمري، وهاشم بن هاشم، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بعث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين كانوا قد عاثوا في بلاد تفليس، فلم يجد منهم أحداً لأنهم انشمروا إلى بلادهم.

وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر المنصور، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان، منهم

■ **جعفر بن محمد الصادق** المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه.

■ **سليمان بن مهران الأعمش** أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها

وعمرو بن الحارث، والعوام بن حوشب، والزبيدي، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. ومحمد بن عجلان.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها.

وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث.، ومات محمد بن الأشعث. في الطريق.

وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي. وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها.

وفيها توفي

زكريا بن أبي زائدة، وكهمس بن الحسن، والمثنى بن الصباح.

و■ **عيسى بن عمر أبو عمر الثقفي البصري النحوي** شيخ سيبويه. يقال إنه من موالي خالد بن الوليد، وإنما نزل في ثقيف فنسب إليهم. كان إماماً كبيراً جليلا في اللغة والنحو والقراءات، أخذ ذلك عن عبد الله بن كثير وابن محيصن وعبد الله بن أبي إسحاق. وسمع الحسن البصري وغيرهم. وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه. ولزمه وعرف به وانتفع به، وأخذ كتابه الذي سماه الجامع فزاد عليه وبسطه، فهو كتاب سيبويه اليوم، وإنما هو كتاب شيخه، وكان سيبوية يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه، وقد سأل الخليل يوماً سيبويه عما صنف عيسى بن عمر فقال: جمع بضعاً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب الإكمال، وهو بأرض فارس. وكتابه الجامع وهو الذي اشتغل فيه وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة ثم أنشد:

ذَهَبَ النَّحْوُ جميعاً كُلُّهُ ... غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمر
ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ ... وهما للناسِ شمسٌ وقمر

وقد كان عيسى بن عمر يغرب ويتقعَّر في عبارته جداً.

وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح [٦٦/١] أنه سقط يوماً عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال: ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جِنَّة افرنقعوا عني. معناه: مالكم تجمعتم علي تجمعكم على مجنون؟ انكشفوا عني.

وقال غيره:كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع. فجعلوا يعودونه ويقرؤون عليه، فلما أفاق من غشيته قال، ما قال. فقال بعضهم: إن جِنِّيَّه بالفارسية ـ

وذكر القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤٨٦/٣] أنه كان صاحبا لأبي عمرو بن العلاء، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معدّ بن عدنان. فقال له أبو عمرو: كيف تنشد هذا البيت.

قد كُنَّ يَخْبَأْنَ الوجوهَ تَسَتُّراً ... فاليومَ حين بدأنَ للنُّظَّارِ

أو «بدين؟» فقال بدين. فقال أبو عمرو: أخطأت، ولو قال: بدأن لأخطأ أيضاً. وإنما أراد أبو عمرو تغليطه، وإنما الصواب «بدون» من بدا يبدو: إذا ظهر، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء.

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف، وقتلوا من المسلمين هنالك خلقا، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد، وسبوا خلقاً كثيراً، واستحكم الفساد بسببهم، وتفاقم أمرهم، فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى ابنه المهدي ليوليه حرب تلك البلاد، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك. فنهض المهدي في ذلك نهضة رجل هاشمي، وجمع لخازم بن خزيمة الإمرة على تلك الجيوش، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة حتى فاجأهم بالحرب. وواجههم بالطعن والضرب، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز في جبل، فجاء خازم إلى

تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم، ضرب أعناقهم ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته، وأن يعتق من معه من الأجناد ـ وكانوا ثلاثين ألفاً ـ فعزم خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع أستاذ سيس ثوبين، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور.

وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاها الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة.

وتوفي فيها جعفر ابن أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ودفن ليلاً بمقابر بني هاشم من بغداد، ثم نقل منها إلى موضع آخر

وفيها توفي

■ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز، ويقال: إنه أول من جمع السنن. وعثمان بن الأسود، وعمر بن محمد بن زيد. وفيها توفي الإمام أبو حنيفة.

ذكر ترجمته:

هو الإمام

■ أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، فقيه العراق، وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلماء، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، وهو أقدمهم وفاة، لأنه أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك، قيل وغيره. وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة فالله أعلم.

وهم أنسُ بنُ مالك، وجابرُ بن عبد الله، وعبد الله بن أنيس، وعبد الله ابن أبي أوفى، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، ومعقل بن يسار، وواثلة ابن الأسقع، وعائشة بنت عجرد، رضي الله عنهم. وقد روِّينا عن أبي حنيفة نظر؛ فإن في الإسناد إليه من لا يعرف، وفي متن بعضها نكارة شديد. فالله أعلم.

وأخبرنا شيخنا الرحلة أبو العباس الحجار، عن الزبيدي، وهو الحسين بن المبارك البغدادي، عن والده، عن أبي المكارم عبيد الله بن الحسين الشعري، عن محمد بن منصور، عن الخطيب أبي الحسن عليِّ بن أحمد، عن القاضي أبي سعيد صاعد بن محمد، عن أبي مالك نصرويه بن أحمد البلخيِّ، عن الحسين ابن إبراهيم العيانيِّ، عن أبي الحسين عليِّ بن الخطيب، عن أبي الحصر عليِّ بن بدر، عن هلال بن العلاء، عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن أنس مرفوعاً: «من قال: لا إله إلا الله. خالصاً مخلصاً من قلبه دخل الجنة، ولو توكَّلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصا وتعود بطاناً».

وعن جابر: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم ومسلمة.

وعن عبد الله بن أُنيس مرفوعاً: «رأيت في عارضتي الجنة مكتوباً ثلاثة أسطر بالذهب الأحمر، لا بماء الذهب؛ السطر الأول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. الثاني: الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذِّنين. الثالث: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدَّمنا، خسرنا ما خلَّفنا، قدمنا على رب غفور».

وعن عبد الله بن أبي أوفى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حبُّك للشيء يعمي ويصمُّ، والدالُّ على الخير كفاعله، وإن الله يحبُّ إغاثة الملهوف». وفي لفظ: «اللَّهفان».

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء مرفوعا: «إغاثة الملهوف فرضٌ على كل مسلم، ومن تفقَّه في دين الله كفاه الله همَّه، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وعن معقل بن يسار مرفوعاً: «علامة المؤمن ثلاثٌ؛ إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا حدَّث لم يخن».

وعن واثلة مرفوعاً: «الجراد أكثر جنود الله في الأرض، لا آكله».

وروىعن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبي سليمان، وسلمة بن كهيل، وعامر الشعبي، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والزهري، ونافع مولى ابن عمر، ويحيى بن سعيد الأنصاري وأبو إسحاق السبيعي.

وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان، وإسحاق بن يوسف الأزرق، وأسد بن عمرو القاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وحمزة الزيات، وداود الطائي، وزفر، وعبد الرزاق، وأبونعيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وهشيم، ووكيع، وأبو يوسف القاضي.

قال يحيى بن معين: كان ثقة، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضياً. قال: ان يحيى بن سعيد يختار قوله في الفتوى، وكان يحيى يقول: لا نكذب الله! ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله.

وقال عبد الله بن المبارك: لولا أن الله أغاثني حنيفة وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس.

وقال الشافعي عن مالك: رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته:

وقال الشافعي: من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ومن أراد السيرة فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان،

وقال عبد الله بن داود الخريبي: ينبغي للناس أن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة، لحفظه الفقه والسنن عليهم.

وقال سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه.

وقال أبو نعيم: كان صاحب غوص في المسائل.

وقال مكي بن إبراهيم: كان أعلم أهل الأرض.

وروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٣/٣٥٤] بسنده عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة كان يصلي في الليل ويقرأ القرآن في كل ليلة، ويبكي حتى يرحمه جيرانه. ومكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وأنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة الآف مرة، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة ـ أعني سنة خمسين ومائة.

وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين ومئة.

وقال غيره: سنة ثلاث وخمسين.

والصحيح الأول.وكان مولده في سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنة، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام، وقبره هناك رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها عزل الخليفة المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام

بن عمرو التغلبي، وكان سبب عزله عمر بن حفص عن السند أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر كان بعث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية خيول عتاق إلى عمر بن حفص بالسند فقبلها، فدعوه إلى دعوة محمد بن عبد الله بن حسن في السر فأجابهم إلى ذلك أيضاً ولبسوا البياض. ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة أسقط في أيدي عمر بن حفص وأصحابه وأخذ في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد، فقال له عبد الله: إني أخشى على نفسي، فقال: إني سأبعثك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا، وإنه من أشد الناس تعظيما لرسول الله ﷺ، وإنه متى عرف أنك من سلالته أحبك. فأجابه إلى ذلك، وسار عبد الله بن محمد إلى ذلك الملك فكان عنده آمناً، وصار عبد الله يركب في موكب من الناس، ويتصيد في جحفل من الجنود، وانضم إليه ووفد عليه طوائف من الزيدية.

وأما المنصور فإنه بعث يعتب على عمر بن حفص نائب السند، فقال رجل من الأمراء: ابعثني إليه واجعل القضية مسندة إلي، فاني سأعتذر إليه من ذلك، فإن سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء، فأرسله سفيراً في القضية، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد، فجعل يتوانى في ذلك، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك، ثم اتفق سفنْجاً أخا هشام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتلى فلم يقدروا عليه. فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله. فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها ولداً أسماه محمداً فإذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام إلى المنصور ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة، وكتب إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لئلا يضيع نسبه، فهو الذي يقال له أبو الحسن بن الأشتر.

وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من بلاد خراسان فتلقاه أبوه والأمراء والأكابر إلى أثناء الطريق، وقدم نواب البلاد من الشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر.

بناء الرصافة

قال ابن جرير [تاريخه:٣٧/٨]: وفي هذه السنة المباركة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان، وهي في الجانب الشرقي من بغداد، وجعل له سوراً وخندقاً، وعمل عندها ميداناً وبستاناً، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي.

قال ابن جرير [تاريخه:٣٩/٨]: وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده، ولعيسى بن موسى من بعدهما، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبلون يد المنصور ويد ابنه المهدي ويلمسون يد عيسى بن موسى ويشيرون بالتقبيل إليها ولا يقبلونها.

قال الواقدي: وولى المنصور معن بن زائدة سجستان.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، وهو نائب مكة والطائف، وعلى المدينة الحسن بن زيد، وعلى الكوفة محمد بن سليمان، وعلى البصرة جابر بن توبة الكلابي، وعلى مصر يزيد بن حاتم. ونائب خراسان حميد بن قحطبة، ونائب سجستان معن بن زائدة.

وغزا الصائفة في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد.

وفيها توفي من الأعيان

حنظلة بن أبي سفيان، وعبد الله بن عون، ومحمد بن إسحاق بن يسار، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علماً يهتدى به، وفجراً يستجلى به، والناس كلهم عيال عليه في ذلك، كما قال محمد بن إدريس الشافعي وغيره من أئمة الإسلام.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاها محمد بن سعيد، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصى وخالف، فلما جيء به أمر بضرب عنقه، وعزل عن البصرة جابر بن توبة الكلابي، وولاها يزيد بن منصور.

وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان.

وفيها توفي

عباد بن منصور، ويونس بن يزيد الأيلي.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة

فيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً، وطالبهم بالأموال الكثيرة.

وكان سبب ذلك ما ذكره ابن الحافظ عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور، وهو أنه كان في زمن شبيبته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه، فآجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير إليهم الملك سريعاً، فاتفق حبلها منه، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها وتركها حاملاً، ووضع عندها رقعة فيها نسبه، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمرها إذا بلغها أمره أن تأتيه، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفراً. فولدت غلاماً فسمته جعفراً. ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب وأتقن ذلك إتقانا جيداً، ثم آل الأمر إلى بني العباس، فسألت عن السفاح فإذا هو ليس صاحبها، ثم قام المنصور وسافر الولد إلى بغداد فاختلط بكتّاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الإنشاء للمنصور، وحظي عنده وقدمه على غيره، فاتفق حضوره معه بين يدي الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكاتب فدخل ومعه ذلك الغلام، فكتب بين يدي الخليفة كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله، ثم ساله عن أسمه فأخبره أنه جعفر، فقال: ابن من؟ فسكت الغلام، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت، فتغير وجه الخليفة ثم ساله عن أمه فأخبره، وساله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب. ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال: أنت ابني. ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة حال الزوج.

وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال: ما أبطأ بك عند الخليفة؟ فقال: إنه استكتبني في رسائل كثيرة، ثم تقاولا ثم فارقه الغلام مغضباً ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد، إلى مكان منها أمر به الخليفة. فسار مراحل، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أنّ هذا قد أفشى شيئاً من أسراره إلى الخليفة وفر منه، فبعث في طلبه رسولا وقال: حيث وجدته فرده علي.

فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنقه وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب. فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده وندم على بعثه خلفه. وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه فبعث من كشف خبره فإذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله. فحينئذٍ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة، وما زال تحت العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله، وقال: هذا قتل حبيبي. وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً.

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية. فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً، ما بين فارس وراجل، وعليهم أبو حاتم الإباضي، وأبو عاد. وانضم إليهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفرة الذي كان نائب السند فعزله المنصور عنها بسبب مبايعته محمد بن عبد اللّه بن حسن وولاه هذه البلاد فقتله الخوارج رحمه اللّه. وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد وقتلوا الحريم والأولاد وآذوا عامة العباد.

وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب، فقال أبو دلامة الشاعر في ذلك:

وكنا نُرجِّي من إمامٍ زيادةً ... فزادَ الإمامُ المصطفى في القلانسِ
تراها على هامِ الرجالِ كأنها ... دِنانُ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانِسِ

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري فأسر خلقاً كثيراً من الروم ما ينيف على ستة آلاف أسير، وغنم أموالا جزيلة.

وحج بالناس المهدي ابن أمير المؤمنين المنصور .

وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور، وعلى مصر محمد بن سعيد.

وذكر الواقدي أن يزيد بن منصور كان ولاه المنصور في هذه السنة اليمن. فاللّه أعلم

فيها توفي

أبان بن صمعة، وأسامة بن زيد الليثي، وثور بن يزيد الحمصي، والحسن بن عمارة. وفطر بن خليفة، ومعمر وهشام بن الغاز واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجهز يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وولاه بلاد إفريقية، وأمره بقتال الخوارج، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف ألف درهم.

وغزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم.

ونواب الأقاليم هم المذكورون في التي قبلها، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان.

وفيها توفي

■ أبو أيوب المورياني الكاتب وأخوه خالد، وأمر المنصور في بني أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم.

وفيها توفي:

■ أشعب الطامع: هو بن جبير أبو العلاء، ويقال أبو إسحاق المديني، ويقال له أبو حميدة. وكان أبوه مولى لابن الزبير، فقتله المختار، وهو خال الواقدي.

روى عن عبد اللّه بن جعفر أن رسول اللّه ﷺ كان يتختم في اليمين [ت(١٧٤٤)، س كبرى(٩٥٢٧)].

وروى عن أبان بن عثمان، وسالم وعكرمة، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه، وكان حميد الغناء، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة ذكر عنه فيها أشياء مضحكة، وأسند عنه حديثين.

وروي عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال: حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ. قال: خصلتان من عمل بهما دخل الجنة ثم سكت فقيل له: وما هما؟ فقال: نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى.

وكان سالم بن عبد اللّه بن عمر يستخليه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة، وكذلك كان غيره من أكابر الناس.

وقال الشافعي: عبث الولدان يوماً بأشعب فقال: إن ههنا أناساً يفرّقون الجوز فتسارعوا إلى ذلك، فلما رآهم مسرعين قال: لعله حق فتبعهم.

وقال له رجل: ما بلغ من طمعك؟ فقال: ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلي فكسحت داري ونظفت ثيابي.

واجتاز يوما برجل يصنع طبقاً من قش فقال له: زد فيه طوراً أو طورين لعله يهدي يوماً لنا فيه هدية.

وروى الحافظ ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد اللّه بن عمر قول بعض الشعراء:

مُغَيْرِيةٌ كالبدرِ سُنَّةُ ... مُطَهَّرَةُ الأثوابِ والدينُ وافرُ
لها حسبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مُهذبٌ ... وعن كل مكروهٍ من الأمرِ زاجرُ
من الخفراتِ البيضِ لم تلقَ ريبةً ... ولم يَسْتَمِلْها عن تُقى اللّهِ شاعرُ

فقال له سالم: أحسنت فزدنا فغناه:

ألمَّتْ بنا والليلُ داجٍ كأنه ... جناحُ غرابٍ عنه قد نفض القطر
فقلتُ أَعَطَّارٌ ثوى في رحالِنا ... وما حملتْ ليلى سوى ريحها عطرا

فقال له: أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزلت لك الجائزة، وإنك من الأمر بمكان.

وفيها توفي

جعفر بن برقان، والحكم بن أبان، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وقرة بن خالد، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء، واسمه كنيته، وقيل اسمه زبّان والصحيح الأول.

وهو

■ أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري، وقيل غير ذلك في نسبه.

كان علامة زمانه في اللغة والفقه والنحو وعلم القراءات، وكان من كبار العلماء العاملين، ويقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب، ثم تزهد فأحرقه، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب، وكان قد لقي خلقا كثيراً من أعراب الجاهلية، كان مقدماً أيام الحسن البصري وبعده.

ومن اختياراته في الغريبة قوله في تفسيره الغرة في الجنين: إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية. فهم ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: «غرة عبد أو أمة» قال: ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة، وإنما الغرة البياض.

قال القاضي ابن خلكان: وهذا غريب ولا أعلم هل يوافق قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا.

وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد فيه بيتاً من الشعر حتى ينسلخ، وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً وريحاناً طرياً، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين.

كانت وفاته في هذه السنة، وقيل في سنة ست وخمسين. وقيل سبع وخمسين ومئة فالله أعلم. وقد قارب التسعين، وقيل إنه جاوزها فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس مرفوعاً لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب خير له من أن يربي ولداً لصلبه. وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر. ذكره من فوائد تمام [الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام(١٧١٩)] عن خيثمة بن سليمان عن محمد بن عوف الحمصي عن أبي المغيرة عن عبد الله بن السمط عن صالح به. وعبد الله بن السمط هذا لا أعرفه، وقد ذكره شيخنا الحافظ ابو عبد الله الذهبي في كتابه الميزان [٤٣٦/٢] وقال: روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عوداً على بدء، وقتل من كان تغلب عليها من الخوارج، وقتل أمراءهم وأسر كبراءهم وأذل أشرافهم وأرغم أنافهم وبدد آلافهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمناً وسلامة، وبالإهانة كرامة، وكان في جملة من قتل من أمرائهم أبو حاتم وأبو عاد الخارجيان. ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فمهدها وأطّدها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محذورها والله سبحانه أعلم.

بناء الرافقة المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ولده المهدي ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد ففعل ذلك في هذه السنة المباركة، وأمر المنصور فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها، من كل إنسان من ذوي اليسار أربعين درهماً. وكان قد فرضها أولا خمسة دراهم، خمسة دراهم، وجُبيت أربعين أربعين، فقال في ذلك بعضهم:

يا لقومي ما لقينا من أمير المؤمنينا
قَسَمَ الخمسةَ فينا وجبانا الأربعينا

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي.

وفيها طلب ملك الروم الصلح من أبي جعفر المنصور على أن يحمل إليه الجزية.

وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالا كثيرة.

وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة، فقيل لأمور بلغته عنه في تعاطي منكرات، وأمور لا تليق بالعمال، وقيل لقتله عبد الكريم بن أبي العوجاء - وقد كان ابن أبي العوجاء هذا زنديقاً - يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال، ويصوّم الناس يوم الفطر ويفطرهم في أيام الصيام، فأراد المنصور أن يجعل قتله له ذنباً فعزله، وأراد أن يقيده منه، فقال له عيسى بن علي: يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا، فإنه إنما قتله على الزندقة، ومتى عزلته به شكرته العامة وذموك، فتركه حيناً ثم عزله عن الكوفة وولى عليها عمرو بن زهير.

وفيها عزل المنصور عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفاً عليه.

وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد، وعلى الكوفة عمرو بن زهير وعلى البصرة الهيثم بن معاوية، وعلى مصر محمد بن سعيد، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم.

وفيها توفي صفوان بن عمرو وعثمان بن أبي العاتكة الدمشقيان، وعثمان بن عطاء، ومسعر بن كدام

و■ حماد الراوية. هو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي، مولى مكنف بن زيد الخيل الطائي، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها، وهو الذي جمع السبع المعلقات الطوال، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين فأنشده تسعاً وعشرين قصيدة على حروف المعجم، كل قصيدة نحواً من مائة بيت، وزعم أنه لا يسمي شاعراً من شعراء العرب إلا أنشد له ما لا يحفظه غيره. فأطلق له مائة ألف درهم.

وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص [ص(١١٠، ١١١)]، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام والذهب، وإذا عنده جاريتان حسناوان جداً، فاستنشده شيئاً فأنشده، فقال له: سل حاجتك: فقال: كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين؟ فقال: وما هي؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين. فقال: هما لك وما عليهما، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم.

هذا ملخص الحكاية. والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد، فإنه ذكر أنه شرب معه، وهشام لم يكن يشرب. ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز. كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة.

قال ابن خلكان: وقيل: إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فالله أعلم.

وفيها قتل

■ حماد عجرد على الزندقة. وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي، ويقال إنه واسطي، مولى بني سواءة، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً خليعاً، لكنه كان متهماً على الإسلام، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية، ولكنه ما اشتهر إلا في أيام بني العباس، وكان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة، ولما قتل بشار على الزندقة أيضاً دفن مع حماد هذا في قبره، وقيل: إن حماد عجرد مات سنة ثمان وخمسين، وقيل إحدى وستين ومائة فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب البصرة، بعمرو بن شداد الذي كان عاملا لإبراهيم بن محمد على فارس، فقتل بالبصرة قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب.

وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله، فجمع له بين القضاء والصلاة، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج، ورجع الهيثم بن معاوية إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة، وهو على بطن جارية له، وصلّى عليه المنصور ودفن في مقابر بني هاشم.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن محمد أخو أمير المؤمنين المنصور.

ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وعلى فارس والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو.

وفيها توفي

■ حمزة الزيات في قول.

وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة.

وسعيد بن أبي عروبة، وهو أول من جمع السنن في قول، وعبد الله بن شوذب، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وعمر بن ذر.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه.

وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الإمارة إلى باب الكرخ. وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك.

وفيها أمر بتوسعة الطرقات.

وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير.

وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيماً، وكان ذلك عند دجلة.

وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها معبد بن الخليل.

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فأوغل في بلاد الروم، وبعث سنانا مولى البطال بين يديه ففتح حصوناً وسبى وغنم.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي.

ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها.

وفيها توفي

الحسين بن واقد.

■ أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فقيه أهل الشام وإمامهم. وقد بقي أهل الشام وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة.

وهذا ذكر شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو

■ عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد أبو عمرو الأوزاعي. والأوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم، قاله محمد بن سعد.

وقال غيره: لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع، وكانت قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني.

قال أبو زرعة: وأصله من سباء السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها. وقال غيره: ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك. والوزراء أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من يجالسه أن يكتبها عنه، من حسنها، وكان يعاني الرسائل والكتابة. وقد اكتتب في بعث إلى اليمامة فسمع الحديث من يحيى بن أبي كثير وانقطع إليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة ليسمع من الحسن وابن سيرين. يتردد لعيادته، فقوي المرض به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً. وجاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراديس، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام.

وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس والثوري والزهري، وهو من شيوخه. وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته.

قال مالك: كان الأوزاعي إماماً يقتدى به.

وقال سفيان بن عيينة وغيره: كان الأوزاعي إمام أهل زمانه.

وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه.

وقد تذاكر مالك والأوزاعي بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه. أو في شيء من الفقه.

وتناظر هو والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه. فاحتج الأوزاعي بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الركوع والرفع منه.

واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد. فغضب الأوزاعي وقال: أتعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف؟! فاحمار وجه الثوري، فقال الأوزاعي: لعلك كرهت ما قلت؟ قال: نعم. قال: فقم بنا حتى نلتعن عند الركن أينا على الحق. فسكت الثوري.

وقال هقل بن زياد: أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة يحدثنا. وأخبرنا.

وقال أبو زرعة: روي عنه ستون ألف مسألة.

وقال غيرهما: افتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله زاك.

وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي.

وقال محمد بن عجلان: ما رأيت أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي.

وقال غيره: ما رئي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط، ولكن كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط وكان إذا خلى بكى حتى يرحم.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي.

والأوزاعي ثقة، وليس هو في الزهري بذاك، أخذ كتاب الزبيدي عن الزهري، وما أقلّ ما رواه عن الزهري.

قال أبو حاتم: كان ثقة متبعاً لما سمع.

قالوا: وكان الأوزاعي لا يلحن في كلامه، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوتها. فقال يوماً لأحظى كتابه عنده ـ وهو سليمان بن مجالد ـ: ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه. فقال: والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك، وإنا لتستعين بكلامه فيما نكاتب به أهل الآفاق ممن لا يعرف كلام الأوزاعي. وقال الوليد بن مسلم: كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس، ويأثر عن السلف ذلك. قال: ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث.

وعن الأوزاعي قال: رأيت رب العزة في المنام فقال: أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقلت: بفضلك يا رب. قلت: يا رب أمتني على الاسلام. فقال: وعلى السنة.

وقال محمد بن شعيب بن شابور: قال لي شيخ بجامع دمشق: أنا ميت في يوم كذا وكذا. فلما كان ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتفلى، فقال لي: اذهب إلى سرير الموتى فأحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه. فقلت: ما تقول؟ فقال: هو ما أقول لك، إني رأيت كأن قائلا يقول: فلان قدري، وفلان كذا وعثمان بن أبي العاتكة نعم الرجل، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض، وأنت ميت في يوم كذا وكذا. قال محمد بن شعيب: فما جاء الظهر حتى مات وصُلي عليه بعدها وأخرجت جنازته.

رواها ابن عساكر.

وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً طويل الصمت، وكان يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة وكأنه، أخذ ذلك من القرآن وهو﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيلاً طَوِيلا، إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوماً ثَقِيلا﴾ [الإنسان: ٢٦ ـ٢٧]

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة.

وقال غيره: حج فما نام على الراحلة، إنما هو في صلاة، فإذا نعس استند إلى القتب.

وقال غيره: كان من شدة الخشوع كأنه أعمى.

ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولا فقالت لها: لعل الصبي بال ههنا. فقالت: لا، هذا من أثر دموع الشيخ في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم.

وقال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه وبالقول. فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم.

وقال أيضاً: اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم.

وكان يقول: العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم.

وكان يقول: لا يجتمع حب عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن. وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل.

قالوا: وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال على الخلفاء إقطاع فصار إليه من بني أمية وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، فلم يقتن منها شيئاً، ولا اقتنى شيئا من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء.

ولما دخل عبد الله بن علي دمشق وسلب الملك من بني أمية تطلب الاوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم أُحضر بين يديه. قال: دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسوّدة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة ـ والعمد الحديد ـ فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك أرباطاً هو؟ قال: فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّات وإِنَّمَا لكُلِّ امْرِىءٍ ما نَـوَىَ، فمنْ كانت هِجْرَتُـهُ إلى اللّـه ورسوله فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورسولِه، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُها أو امرأةٍ يتزوجُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه». قال: فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت. وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثَّيِّبُ الزاني، والتاركُ لدينه المُفارِقُ للجماعة» [خ(٦٤٨٤)، م(١٦٧٦)] . فنكت أشد من ذلك ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي. فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، وإني أحب أن يُتِمَّ ما ابتدؤوني به من الإحسان، فقال: كأنك تحبّ الانصراف؟ فقلت: إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهم وسترهم. قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف. فلما خرجت إذا رسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الأمير: استنفق هذه. قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً.

قال: وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال: إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الأفطار عنده فأبى أن يفطر عنده رحمه الله.

قالوا: ثم رحل الأوزاعي من دمشق فنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده، قال: وأعجبني فيها أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء فقلت لها:

أين العمارة يا هنتاه؟ فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه ـ وأشارت إلى القبور ـ وإن كنت تريد الخراب فأمامك ـ وأشارت إلى البلد ـ فعزمت على الإقامة بها.

وقال محمد بن كثير: سمعت الأوزاعي يقول: خرجت يوماً إلى الصحراء فإذا رجل من جراد في السماء وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل باطل ما فيها.

وقال الأوزاعي: كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة فخسف ببغلته فلم يبق منها إلا أذنها.

وخرج الأوزاعي يوماً من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه ناطف وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول: يا أحلى من الناطف. فقال: سبحان الله! ما يرى هذا بالكذب بأساً؟

وقال الواقدي: قال الأوزاعي: كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذ صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ.

وكتب إلى أخ له: أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والقيام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك بك والسلام.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح ـ كاتب الليث ـ يذكر عن الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس: تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم فيها مرحَّلون، خلائف بعد القرون التي استقبلوا من الدنيا أُنُفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً، وأعظم آثاراً، فخددوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم وعفت آثارهم، وأخربت منازلهم، وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من احد ولا تسمع لهم ركزاً؟ كانوا بلهو الأمل آمنين، ولميقات يوم غافلين، أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمته، وزوال نعمته ومساكن خاوية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلوب إليها مصروفة، والأعين نحوها ناظرة. فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه، فلم يبق منه إلا حُمة شر، وصبابة كدر، وأهاويل غِيَر، وعقوبات عِبَر وإرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغرّه طول الأجل، وتبلّغ بالأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى نُذره وانتهى، وعقل مثواه فمهد لنفسه.

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه، ولما أراد الانصراف استأذنه في أن لا يلبس السواد فأذن له، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب: الحقه فاسأله لم كره لبس السواد؟ ولا تعلمه أني قلت لك. فسأله الربيع فقال: لأني لم أر محرماً أحرم فيه، ولا ميتاً كفن فيه، ولا عروساً جليت فيه، فلهذا أكرهه.

وقد كان الأوزاعي في الشام معظماً مكرماً أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وهمَّ به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه: دعه عنك فوالله لو أمر الشاميين أن يقتلوك لقتلوك.

ولما مات جلس عند قبره بعض الولاة فقال: رحمك الله، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني. وقد قال أبو مسهر: ما مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه

وقال أبو خيثمة: حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: كنت جالساً عند الثوري فجاءه رجل فقال: رأيت كأن ريحانة من المغرب يعني قلعت. قال: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي.، فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعي في ذلك اليوم أو في تلك الليلة.

وقال أبو مسهر: بلغنا أن سبب موت الأوزاعي أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه، ولم تكن عامدة لذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة. قال: وما خلف ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، ولا متاعاً إلا ستة دنانير، فضلت من عطائه. وكان قد اكتتب في ديوان الساحل.

وقال غيره: كان الذي أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام، وذهب إلى حاجة ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله.

قلت: لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً، واختلفوا في سنه ووفاته:

فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال: قال أحمد: قال يحيى: رأيت الأوزاعي وتوفي سنة خمسين ومائة وقال الوليد بن مسلم: سنة ست وخمسين ومئة.

قال العباس بن الوليد البيروتي: أخبرني أبي قال: توفي يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة.

وهو الذي عليه الجمهور وهو الصحيح، وهو قول أبي مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم ـ في أصح الروايات عنه ـ ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبي عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد.

قال العباس بن الوليد: ولم يبلغ سبعين سنة.

قلت: وقال غيره: جاوز السبعين. والصحيح تسع وستون سنة، لأن كان ميلاده في سنة ثمان وثمانين على الصحيح. وقيل: إنه ولد سنة ثلاث وتسعين، وهذا ضعيف.

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: دلني على عمل يقربني إلى الله. فقال: ما رأيت في الجنة درجة أعلى من درجة العلماء، ثم المحزونين.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

فيها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه.

وفيها مات طاغية الروم.

وفيها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل، وأن يولي عليها خالد بن برمك، وكان ذلك بعد نكتة غريبة اتفقت ليحيى بن خالد، وذلك أن المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف، فضاق ذرعاً بذلك. ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثر ما طلب منه، وقد أجله ثلاثة أيام، فإن لم يحمل ذلك في هذه الأيام فدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم، فكان منهم من أعطاه مائة ألف، ومنهم أقل وأكثر.

قال يحيى بن خالد: فبينا أنا ذات يوم من تلك الأيام على جسر بغداد، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا ولا طاقة لنا به، إذ وثب إليَّ زاجرٌ يعني من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية، فقال لي: أبشر، فلم ألتفت إليه، فتقدم حتى أخذ بلجام فرسي ثم قال لي: أنت مهموم، والله ليفرجن الله همك ولتمرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك، فإن كان ما قلت حقاً فلي عليك خمسة آلاف. فقلت: نعم. ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم، لبعد ذلك عندي. قال: وذهبت لشأني وقد بقي علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد بها، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح للموصل فأشار بعضهم بخالد بن برمك، فقال له المنصور: ويحك! أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ما فعلنا؟ فقال: نعم! وأنا الضامن أنه يصلح لها، فأمر بإحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه، وعقد له اللواء، وولى ابنه يحيى بن خالد أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما. قال يحيى: فمررنا بالجسر فثار إليّ ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به، فأمرت له به، فقبض خمسة آلاف.

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدي معه، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات فيه، وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه في الهواجر، وأخذه إسهال وأفرط به، فقوي مرضه، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لست مضين من ذي الحجة، وصلى عليه ودفن بِكُداء عند ثنية المَعْلَى التي بأعلى مكة، وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وقيل أربعاً وقيل خمساً وستين سنة، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة فالله أعلم. وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القوّاد ورؤوس بني هاشم، ثم دفن. وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة.

وهذه ترجمة المنصور أبي جعفر

هو

■ عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور. وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح، وأمه أم ولد اسمها سلامة.

روى عن جده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه.

أورده ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به.

بويع له بالخلافة بعد أخيه في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين على المشهور في صفر منها بالحميمة من بلاد البلقاء، وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا أياماً.

وكان أسمر اللون موفر اللمة خفيف اللحية، رحب الجبهة، أقنى الأنف، بيِّن القَنا أعين كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملك، وتقبله القلوب، وتتبعه العيون، يعرف الشرف في تواضعه، والعتق في صورته، والليث في مشيته. هكذا وصفه بعض من رآه.

وقد صح عن ابن عباس أنه قال: «منا السفاح والمنصور والمهدي».

وفي رواية «حتى يسلّمها إلى عيسى ابن مريم» وقد روي مرفوعاً ولا يصح رفعه.

وذكر الخطيب البغدادي أن أمه سلامة قالت: رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزأر وأقعى على يديه، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له.

وقد رأى المنصور في صغره مناماً غريباً كان يقول: ينبغي أن يكتب في ألواح الذهب، ويعلق في أعناق الصبيان. قال: رأيت كأني في المسجد الحرام وإذا رسول الله ﷺ في الكعبة والناس مجتمعون حولها، فخرج من عنده منادٍ فنادى: أين عبد الله؟ فقام أخي السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود. ثم نودي: أين عبد الله؟ فقمت أنا وعمي عبد الله بن علي نستبق، فسبقته إلى باب الكعبة فدخلتها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وبلال، فعقد لي لواء وأوصاني بأمته وعممني عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً، وقال: «خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة».

وقد اتفق سجن المنصور في أيام بني أمية فاجتمع به في السجن نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له: ممن تكون؟ فلما عرف منه نسبه وكنيته قال: أنت الخليفة الذي تلي الأرض. فقال له: ويحك ماذا تقول؟ فقال: هو ما أقول لك، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وليت. فكتب له، فلما ولي أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه، وكان قبل ذلك مجوسياً. ثم كان من أخص أصحاب المنصور عنده.

وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة. وأحرم من الحيرة، وفي سنة أربع وأربعين، وفي سنة سبع وأربعين. وفي سنة ثنتين وخمسين، ثم في هذه السنة التي كانت فيها وفاته. وبنى مدينة السلام بغداد والرافقة وقصره الخلد.

قال الربيع بن يونس الحاجب: سمعت المنصور يقول: الخلفاء أربعة: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، وأنا.

وقال مالك: قال لي المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقلت: أبو بكر. وعمر. فقال: أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين.

وعن إسماعيل الفهري قال: سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول: أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني. فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، إذ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، فإنه سميع مجيب.

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل، فقال: يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذاكره، واتق الله فيما تأتيه وتذره. فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال: أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] أو أن أكون جباراً عصياً.

أيها الناس! إن الموعظة علينا نزلت ومن عندنا بُيِّنت. ثم قال للرجل: ما أظنك في مقالتك هذه تريد وجه الله، وإنما أردت أن يقال: وعظ أمير المؤمنين.

أيها الناس لا يغرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها، ثم قال لمن هو عنده: أعرض عليه الدنيا فإن قبلها

فأعلمني، وإن ردها فأعلمني، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال والجواري، وولاّه الحسبة والمظالم وادخله على الخليفة في بزة حسنة، وثياب وشارة حسنة، فقال له الخليفة: ويحك! لو كنت محقاً لما قبلت شيئاً مما ارى، ولكن أردت أن يقال عنك: إنك وعظت أمير المؤمنين، وخرجت عليه، ثم أمر به فضربت عنقه.

وقد قال المنصور لابنه المهدي: إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة. والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

وقال أيضاً: يا بني استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن تضرب عنقه وأحضر النطع والسيف، فقال له مبارك: سمعت الحسن يقول قال رسول الله ﷺ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ نادى منادٍ لِيَقُمْ مَنْ أجرُه على اللّٰه فلا يقومُ إلا مَنْ عفا» فأمر بالعفو عن ذلك الرجل. ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائمه وما صنعه.

وقال الأصمعي: أُتي المنصور برجل ليعاقبه فقال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والعفو فضل، ونُعيذ أمير المؤمنين باللّٰه أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين. قال: فعفا عنه.

وقال الأصمعي: قال المنصور لرجل من أهل الشام: احمد اللّٰه يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا. فقال: إن اللّٰه لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل، ولايتكم والطاعون.

والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً.

ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال: إن اللّٰه أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده، قال: فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال فقال: لو احتجت إلى مالك ما وعظتك.

وروي عن عمرو بن عبيد القدري أنه دخل على المنصور فأكرمه وأدناه وقربه وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عظني. فقرأ عليه سورة الفجر إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] قال: فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل تلك الساعة، ثم قال له: زدني. فقال: إن اللّٰه قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة. فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت جفناه. فقال له سليمان بن مجالد: رفقاً بأمير المؤمنين. فقال عمرو: وماذا على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية اللّٰه عز وجل. ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال: لا حاجة لي فيها. فقال المنصور: واللّٰه لتأخذنها. فقال: واللّٰه لا آخذنها. فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه: أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت إلى المنصور فقال: ومن هذا؟ فقال: هذا ابني محمد المهدي ولي العهد من بعدي. فقال: أسمَيْتَه اسما لم يستحقه بعمله هذا، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه. ثم التفت إلى المهدي فقال: يا بن أخي! إذا حلف أبوك حلف عمك، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك. ثم قال المنصور: يا أبا عثمان هل من حاجة؟ قال: نعم! قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيك. فقال: إذاً واللّٰه لا نلتقي. فقال: عن حاجتي سألتني. فودعه وانصرف. فلما ولى أتبَعَه بصره وهو يقول:

كلكم يمشي رويد ... كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

ويقال: إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في موعظته إياه وهي قوله:

يا أيُّهَا الذي قد غرَّه الأملُ ... ودونَ ما يأمُلُ التنغيصُ والأجلُ
ألا ترى أنما الدنيا وزينتُها ... كَمَنزِلِ الرَّكْبِ حَلُّوا ثُمَّتَ ارتحلوا
حُتُوفُها رَصَدٌ وعَيْشُها نَكَدٌ ... وصفوُها كَدَرٌ ومُلْكُها دُوَلُ
تَظَلُّ تقرعُ بالرَّوعاتِ ساكنَها ... فما يسوغُ له لينٌ ولا جَذَلُ
كأنَّه للمَنايا والرَّدى غَرَضٌ ... تَظَلُّ فيه بناتُ الدهرِ تَنْتَضِلُ
تُديرُه ما أدارته دوائرُها ... منها المُصيبُ ومنها المُخطىءُ الزَّلِلُ
والنفسُ هاربةٌ والموتُ يطلُبها ... وكلُّ عَثْرةِ رِجْلٍ عِنْدَها جَلَلُ
والمَرْءُ يسعى بما يسعى لوارثِه ... والقبرُ وارثُ ما يسعى له الرَّجُلُ

وقال ابن دريد عن الرياشي عن محمد بن سلام قال: رأت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فقالت: خليفة وقميصُه مرقوع؟ فقال: ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة

قد يُدرِكُ الشرفَ الفتى ورِدَاؤُه ... خَلَقٌ وبعضُ قميصِهِ مَرْقُوعُ

ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم الخراساني:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرَّأيِ أن تترددا
ولا تُمْهِلِ الأعداءَ يوماً بقُدرةٍ ... وبادِرْهُم أن يملكوا مثلَها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكْتَنَفَتْكَ خَلاتٌ ثلاثٌ ... جَلَبْنَ عليكَ محتومَ الحِمامِ
خِلافُكَ وامتناعُكَ من يميني ... وقَوْدُكَ للجماهيرِ العِظامِ

ومن شعره أيضاً:

المرءُ يأمُلُ أن يعيـ ... ـشَ وطولُ عُمْرٍ قد يضرُّهُ
تَبْلى بشاشتُه ويبـ ... ـقى بعدَ حُلْوِ العيشِ مُرُّهُ
وتخونُه الأيامُ حتى ... لا يَرى شيئاً يسرُّهُ
كم شامتٍ بي إنْ هَلَكـ ... ـتُ وقائلٍ للّٰه دَرُّهُ

قالوا: وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح من بعد ذلك إلى العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

وقد ولى بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلاباً والبُزاة، فكتب إليه المنصور: ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ويحك إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش، فسلم

ما كنت تلي من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً.

وأُتي يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور: ويحك يا ابن الفاعلة! مثلك يهزم الجيوش؟ فقال الخارجي: ويلك سوأة لك بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقيلها أبداً. قال فاستحيى منه المنصور وأطلقه. فما رأى له وجهاً إلى الحول.

وقال أيضاً: يا بني ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه.

وقال المنصور أيضاً يوماً لابنه المهدي: يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندك من أهل العلم من يحدثك، فإن الزهري قال: علم الحديث لا يحبه إلا ذكران الرجال، ولا يكرهه إلا مؤنثوهم، وصدق أخو زهرة.

وقد كان المنصور في شبيبته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال من ذلك جانباً جيداً وطرفاً صالحاً، وقد قيل له يوماً: يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: لا، سوى شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدث للشيخ من ذكرت رحمك الله؟ فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا: ليمل علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث، فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، بُرُد الآفاق ونقلة الحديث.

وقال المنصور يوماً لابنه المهدي: كم عندك رابة؟ فقال: لا ادري. فقال: هذا هو التقصير، فأنت لأمر الخلافة أشد تضيعاً فاتق الله يا بني.

وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي: دخلت يوماً على المنصور وهو يشتكي ضرسه ويداه على صدغيه فقال لي: كم عندك من المال يا خالصة؟ فقلت: ألف درهم.، فقال: ضعي يدك على رأسي واحلفي، فقلت: عندي عشرة آلاف دينار. قال: اذهبي فاحمليها إلي. قالت: فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت إليه ما قال أمير المؤمنين، فوكزني برجله وقال: ويحك! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأمس مالا فتمارض، وإنه لا يسعك إلا ما أمرك به، فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار، فاستدعى بالمهدي فقال له: تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة!

وقال المنصور لخازنه: إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلقان الثياب قبل أن يجيء، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقلبها، فجعل المنصور يضحك فقال: يا بني من ليس له خلق ما له جديد، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد. فقال المهدي: علي كسوة أمير المؤمنين وعياله. فقال: دونك فافعل.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٨٤/٨] عن الهيثم أن المنصور اطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم. وفي هذا اليوم فرق في بيته عشرة الاف درهم، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد.

وقرأ بعض القرّاء عند المنصور ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] فقال: والله لولا أن المال حصن للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما ما بت ليلة واحدة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً لما أجدُ لبذل المال من اللذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة.

وقرأ عنده قارئ آخر ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. فقال: ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل.

وقال المنصور: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن عبد الله يقول: سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين ومائة دعا ولده المهدي وليّ عهده فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً، وعلمه كيف يفعل الأشياء ويسد الثغور، بوصايا يطول بسطها وحرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فإن بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجبِ إليهم من الخراج درهم عشر سنين، وعهد إليه أن يقضي ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار، فإنه لم ير قضاءها من بيت المال. فامتثل المهدي ذلك كله. وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال: يا بني إني ولدت في ذي الحجة وقد وقع لي أن أموت في ذي الحجة، وهذا الذي حدّاني على الحج عامي هذا، وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو مُثقَل جداً، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا في صدر منزله مكتوب: (بسم الله الرحمن الرحيم)

أبا جعفر حانتْ وفاتُك وانقضتْ ... سِنُوكَ وأَمرُ اللهِ لا بُدَّ واقِعُ
أبا جعفرٍ هل كاهِنٌ أو مُنَجِّمٌ ... لَكَ اليومَ مِنْ كَرْبِ المَنِيةِ مانِعُ

فدعا بالحجبة فأمرهم بقراءة ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعي إليه.

قالوا: ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول:

أما وربِّ السُّكُونِ والحَرَكْ ... إنَّ المَنايا كثيرةَ الشَّرَكْ
عليكِ يا نَفْسُ إنْ أساتِ وإنْ ... أحسنتِ يا نفسُ كانَ ذاكَ لَكْ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارتْ نجومُ السماءِ في الفَلَكْ
إلا بنقلِ السلطانِ عن مَلِكٍ ... إذا انقضى مُلْكُه إلى مَلِكْ
حتى يصيرا به إلى مَلِكٍ ... ما عِزُّ سُلْطانِه بِمُشْتَرَكْ
ذاكَ بديعُ السماءِ والأرضِ والمُر ... سي الجبالِ المُسَخِّرُ الفَلَكْ

فقال المنصور: هذا والله أوان حضور أجلي وانقضاء عمري.

وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد الذي بناه وتأنّق فيه مناماً أفزعه فقال للربيع: ويحك ياربيع! لقد رأيت مناماً هالني، رأيت قائلا وقف في باب هذا القصر وهو يقول:

كأني بهذا القصرِ قد بادَ أهلُهُ ... وعُرِّيَ منه أَهْلُهُ ومنازِلُهْ
وصارَ رئيسُ القصرِ مِنْ بعدِ بهجةٍ ... إلى جَدَثٍ تُبْنى عليه جنادلُه

فما أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى خرج إلى الحج عامه هذا ومرض في طريق مكة، فدخلها مدنفاً ثقيلا. وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذي الحجة. وكان آخر ما تكلم به أن قال: اللهم بارك لي في لقائك. وقيل: إنه قال يا رب إن كنت عصيتك في أمور كثيرة فقد اطعتك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً. ثم مات.

وكان نقش خاتمه. الله ثقة عبد الله وبه يؤمن.

وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة على المشهور، منها اثنتان وعشرون سنة خليفة. ودفن بباب المَعْلَى رحمه الله.

قال ابن جرير [تاريخه:١٠١/٨/٨، ١٠٢]: ومما رثي به أبو جعفر المنصور رحمه الله قول سلم الخاسر الشاعر:

عجباً للذي نعى الناعيان ... كيف فاهت بموته الشفتان

ملك أن عدا على الدهر يوماً أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفاً حثت عليه تراباً لم تعد في يمينها ببنان
حين دانت له البلاد على العسـ ـف وأغضى من خوفه الثقلان
أين رب الزوراء قد قلدته الـ ـملك عشرين حجة واثنتان
إنما المرء كالزناد إذا ما أخذته قوادح النيران
ليس يثني هواه زجر ولا يقـ ـدح في حبله ذوو الأذهان
قلدته أعنة الملك حتى قاد أعداءه بغير عنان
يكسر الطرف دونه وترى الأيـ ـدي من خوفه على الأذقان
ضم أطراف ملكه ثم أضحى خلف أقصاهم ودون الداني
هاشمي التشمير لايحمل الثقـ ـل على غارب الشرود الهدان
ذو أناة ينسى لها الخائف الخو ف وعزم يلوي بكل جنان
ذهبت دونه النفوس حذاراً غير أن الأرواح في الأبدان

وقد دفن المنصور عند باب المعلى بمكة ولا يعرف قبره لأنه عُمّي قبره، فإن الربيع الحاجب حفر مائة قبر ودفنه في غيرها لئلا يعرف.

ذكر أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده من بعده، وجعفر الأكبر مات في حياته، وأمهما أروى بنت منصور: وعيسى، ويعقوب، وسليمان، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله. وجعفر الأصغر من أم ولد كردية، وصالح المسكين من أم ولد رومية - يقال لها قالي الفراشة - والقاسم من أم ولد أيضاً والعالية من امرأة من بني أمية.

ذكر خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبو المنصور بمكة لست أو لسبع مضين من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت له البيعة بمكة من رؤوس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه، وبعث بالبيعة مع البريد إلى المهدي وهو ببغداد، فوصله البريد يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة، فسلم عليه بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة، وبايعه أهل بغداد، ونفذت البيعه إلى سائر الآفاق والأقاليم وقد كان ولي العهد من بعد أبيه.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٨/١١٤] أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجدد لهم البيعة لابنه المهدي، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه إليه في ذلك، وهو الذي صلى عليه، وقيل: إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي، والصحيح الأول، لأنه كان نائب مكة والطائف.

وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن علي، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي - أخو المسيب بن زهير أمير الشرطة للخليفة - وعلى خراسان حميد بن قحطبة، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة بن حمزة، وعلى صلاتها وقضائها عبد الله بن الحسن العنبري، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج.

قال الواقدي: وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم غفير.

منهم أفلح بن حميد، وحيوة بن شريح، ومعاوية بن صالح بمكة، و■ زفر بن الهذيل بن قيس بن سليم بن مكمّل بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجود بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم بن مرة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، التميمي العنبري الكوفي الفقيه الحنفي، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة، وأكثرهم استعمالا للقياس، وكان عابداً، اشتغل أولا بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس. ولد سنة ست عشرة ومائة، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله المهدي بن أبي جعفر المنصور، فبعث في أولها العباس بن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف، وركب معهم مشيعاً لهم، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد من المسلمين أحد.

وفيها توفي

■ حميد بن قحطبة نائب خراسان، فولى المهدي مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد، وولى حمزة بن مالك سجستان، وولى جبريل بن يحيى سمرقند.

وفيها بنى المهدي مسجد الرصافة وخندقها.

وفيها جهز المهدي جيشاً كثيفاً إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتيه، وكان من أمرهم ما سنذكره.

وفيها توفي نائب السند

■ معبد بن الخليل فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله.

وفيها أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوساً على دم، أو ممن يسعى في الأرض فساداً، أو عنده حق لأحد. وكان في جلة من اخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم، والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وأمر الخليفة بصيرورة الحسن بن إبراهيم إلى نصير الخادم ليحترز عليه. وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه، فلما خرج يعقوب بن داود من السجن ناصح الخليفة بما كان عزم عليه الحسن بن إبراهيم فنقله الخليفة من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه، وحظي يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان، وجعله الخليفة على أمور كثيرة فوّضها إليه، وأطلق له مائة ألف درهم. وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عند المهدي. وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد وولىّ بدلهم عليها.

وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً، وهي أم الرشيد.

وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي بدجلة بغداد.

ولما ولي المهدي سأل عيسى بن موسى - وكان ولي العهد من بعد المهدي - أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي، وسأل من المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فاذن له، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم، فكتب إلى المهدي: إن عيسى بن موسى لا يأتي

الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلي الناس، فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى الجامع إلا مشاة.، فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته ـ وكانت ملاصقة المسجدِ ـ وكان يأتي إليها من يوم الخميس، فإذا كان وقت الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل عنه وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله، ثم ألح المهدي على عيسى بن موسى في أن يخلع نفسه من ولاية وتوعده إن لم يفعل، ووعده إن فعل فأجابه إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة. وجعل له من المال عشرة آلاف ألف درهم، وقيل عشرين ألف ألف، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي، ثم هارون الرشيد كما سيأتي.

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي وكان نائباً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه.

وغالب نواب البلاد قد تغيّروا في هذه السنة، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة، وعلى خراسان أبو عون، وعلى السند بسطام بن عمرو، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة، وعلى اليمن رجاء بن روح، وعلى اليمامة بشر بن المنذر، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح، وعلى المدينة عبد الله بن صفوان الجمحي، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عباس، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح الكندي، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاتها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري.

ومن توفي فيها من الأعيان

عبد العزيز بن أبي روّاد، وعكرمة بن عمار، ومالك بن مغول.

و■ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب المدني: نظير مالك بن أنس في الفقه، وربما أنكر على مالك أشياء في تركه الأخذ ببعض الأحاديث، لمآخذ كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل.

ثم دخلت سنة ستين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكراً عليه أحواله وسيرته، يقال له يوسف البرم، والتف عليه خلق كثير، وتفاقم أمره وعظم الخطب به، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقيه فاقتتلا حتى تنازلا وتعانقا، فأسر يزيد بن مزيد يوسف هذا، وأسر جماعة من أصحابه فبعثه وبعثهم إلى المهدي فأدخلوا عليه، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذناب الإبل، فأمر الخليفة هرثمة بن أعين أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأكبر مما يلي عسكر المهدي وأطفأ الله نائرتهم وكفى شرهم.

ذكر البيعة لموسى الهادي وهارون الرشيد

كان الخليفة المهدي قد ألحّ على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه عن ولاية وهو في ذلك كله يمتنع وهو مقيم بالكوفة، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لإحضاره إليه، وأمرهم أن يصحبوا مع كل واحد منهم طبلا، فإذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم بطبله، ففعلوا ذلك فارتجت الكوفة، وخاف عيسى بن موسى، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فاظهر أنه التشكّي، فلم يقبلوا وأخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع، ثم لم تزل الناس به بالرغبة والرهبة حتى أجاب في يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم بعد العصر، وبويع لولدي أمير المؤمنين موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة صبيحة في إيوان الخلافة، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المهدي المنبر وجلس ابنه موسى الهادي تحته، وقام عيسى بن موسى على أول درجة منه، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الإيمان التي له في أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهادي. فصدق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدي على ذلك. ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم، وكتب على عيسى بن موسى مكتوباً مؤكداً بالأيمان البالغة من الطلاق والعتاق، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم.

وفيها وصل عبد الملك بن شهاب المسمعي مدينة باربد من الهند في جحفل كثير معه فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة، وهلك بشر كثير من أهلها، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاغتلام البحر، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قُرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فغرق منهم أيضاً، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير، فيهم بنت ملكهم.

وفيها حكم المهدي بإلحاق سب أبي بكرة الثقفي إلى ولاء رسول الله ﷺ وقطع نسبهم من ثقيف، وكتب بذلك كتاباً إلى والي البصرة. وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففي ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار:

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي من أعجب العجب

ذا قرشي كما يقول وذا مولى وهذا بزعمه عربي

فذكر ابن جرير [تاريخه:١٣٢/٨] أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك.

وفي هذه السنة حج بالناس أمير المؤمنين المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء، منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكانته، وكان الحسن بن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته، وفرق المهدي في أهل مكة مالا عظيما جداً كان قد قدم معه بثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب، وجاء من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار، فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة.

وشكت الحجبة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوي، فأمر بتجريدها من الكسوة، فلما انتهوا إلى كساوي هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جداً، وبقيّة كساوي الخلفاء قبله وبعده من أهل اليمن، فلما جردها طلاها بالخلوف وكساها كسوة

حسنة جداً، ويقال إنه استفتى مالكاً في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير من موضعها على الوجه الذي كان يَوَدُّه رسول ﷺ، فقال مالك: دعها على حالها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة. فتركها كما كانت.

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها. ولما دخل المدينة النبوية وسع المسجد النبوي، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك: إنه يخشى أن ينكسر الخشب العتيق إذا زعزع، فتركه ولم يتعرض له.

وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وانتخب من أهلها من الأنصار خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرساً بالعراق وأنصاراً له وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الربيع بن صبيح، وسفيان بن حسين، أحد أصحاب الزهري.

و■ شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي، ثم انتقل إلى البصرة. رأى شعبة الحسن وابن سيرين، وروى عن أمم من التابعين، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الإسلام، وهو شيخ المحدثين الملقب فيهم بأمير المؤمنين قاله الثوري.

وقال يحيى بن معين: هو إمام المتقين، وكان في غاية الورع والزهد والتقشف والحفظ وحسن الطريقة.

وقال الشافعي: لولاه ما عرف الحديث بالعراق.

وقال الإمام أحمد: كان أمة وحده في هذا الشأن، ولم يكن في زمانه مثله.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة مأمونا حجة صاحب حديث.

وقال وكيع: إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبِّه عن حديث رسول الله ﷺ.

وقال صالح بن محمد، جزرة: كان شعبة أول من تكلم في الرجال وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين.

وقال ابن مهدي: ما رأيت أعقل من مالك، ولا أشد تقشفاً من شعبة، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك، ولا أحفظ للحديث من الثوري.

وقال مسلم بن إبراهيم: ما دخلت على شعبة في وقت صلاة الا ورأيته يصلي، وكان أباً الفقراء وأُمهم.

وقال النضر بن شميل: ما رأيت أرحم بمسكين منه، كان إذا رأى مسكيناً لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه.

وقال بعضهم: ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بعظمه.

وقال يحيى القطان: ما رأيت أرق للمسكين منه، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه.

قال محمد بن سعد وغيره: مات في أول سنة ستين ومائة بالبصرة عن ثمان وسبعين سنة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل دابق، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من الدخول إليها بسبب ذلك.

وفيها امر المهدي بحفر الركايا وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة وولى على ذلك يقطين بن موسى على ذلك، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة، حتى صارت طريق الحجاز من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها.

وفيها وسع المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه.

وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد جماعة، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله ﷺ، ففعل ذلك في المدائن كلها.

وفيها اتضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي عنده، وظهرت عنده خيانته فضم إليه المهدي من يشرف عليه، وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علية، ثم أبعده وأقصاه وأخرجه من معسكره.

وفيها ولي القضاء عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علاثة في عسكر المهدي بالرصافة.

وفيها خرج رجل يقال له المقنع بخراسان في قرية من قرى مرو، وكان يقول بالتناسخ واتبعه على ضلالته خلق كثير، فجهز له المهدي عدة من امرائه وانفذ إليه جيوشاً كثيرة، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان، وكان من أمره وأمرهم ما سنذكره.

وحج بالناس في هذه السنة موسى الهادي بن أمير المؤمنين وهو ولي عهد أبيه كما قدمنا.

وفيها توفي

إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي.

و■ زائدة بن قدامة.

و■ سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أحد أئمة الإسلام وعُبّاده والمقتدى بهم أبو عبد الله الكوفي.

روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم.

قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين في الحديث.

وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم.

وقال أيوب: ما رأيت كوفياً أفضله عليه.

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أفضل منه.

وقال عبد الله بن داود: ما رأيت أفقه من الثوري.

وقال شعبة: ساد الناس بالورع والعلم.

وقال سفيان بن عيينة: أصحاب المذاهب ثلاثة: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه.

وقال الإمام أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد. ثم قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري.

وقال عبد الرزاق: سمعت الثوري يقول: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني. وقال الثوري: لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس.

قال محمد بن سعد: اجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة.

وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة، ورآه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة، وهو يقرأ ﴿الحمدُ لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ [الزمر: ٧٤].

■ **أبو دلامة زيد بن الجون الشاعر الماجن**، أحد الظرفاء، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحكه وينشده ويمدحه، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور وابنة عمه حمادة بنت عيسى، وكان المنصور قد وَجدَ عليها، فلما شهد القبر نظر إليه المنصور ثم قال لأبي ولامة: ويحك يا أبا دلامة، ما أعددت لهذا؟ فقال: ابنة عم أمير المؤمنين. فضحك المنصور حتى استلقى، ثم قال: ويحك فضحتنا بين الناس.

ودخل يوماً على المهدي يهنّه بقدومه من سفره وأنشده:

إني حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصلين على النبي محمد ... ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا. فقال: هما كلمتان فلا يفرّق بينهما. فملأ حجره دراهم، ثم قال له: قم! فقال: إذاً ينخرق قميصي فأفرغت في أكياسها ثم قام واخذها.

وذكر عنه القاضي ابن خلكان أنه مرض ابنه فداواه طبيب فلما عوفي قال له: ليس عندنا ما نعطيك، ولكن ادّع على فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور. فادّعى عليه عند قاضي الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وقيل ابن شبرمة - فأنكر اليهودي فشهد عليه أبو دلامة وابنه، فلم يستطع القاضي أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فاعطى المدعي المال من عنده وأطلق اليهودي. وجمع القاضي بين المصالح.

وتوفي أبو دلامة في هذه السنة، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري بأرض قنسرين واتبعه خلق كثير، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء، وجهز اليه المهدي جيوشاً وانفق فيهم أموالا جزيلة فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك.

وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفاً من المرتزقة سوى المطوّعة، فقهر الروم وحرق بلداناً كثيرة، وخرب أماكن وأسر خلقاً من الذراري.

وكذلك غزا يزيد بن أبي أسيد السلمي بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبى خلقا كثيراً.

وفيها خرجت طائفة بجرجان فلبسوا الحمرة لهذا يقال لهم المحمرة مع رجل يقال له عبد القهار، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان فقهر عبد القهار وقتله وأصحابه.

وفيها أجرى المهدي الأرزاق في سائر الأقاليم والآفاق على المجذّمين والمحبسين، وهذه مثوبة عظيمة ومكرمة جسيمة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور

وفيها توفي من الأعيان

إبراهيم بن أدهم: أحد مشاهير العباد ومن وأكابر الزهاد. كانت له همة عالية من العباد.

و■ **داود الطائي**، أحد أئمة الصوفية وزهير بن محمد، ويزيد بن إبراهيم التستري.

فأما

■ **إبراهيم بن أدهم** بن منصور بن يزيد بن جابر، أبو إسحاق التميمي، ويقال العجلي، فهو أحد الزهّاد أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة وأبي إسحاق السبيعي وخلق.

وحدث عنه خلق منهم بقية والثوري وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن حِمْيَر، وحكى عنه الأوزاعي.

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزري عن الثوري عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة. قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالساً فقلت: يا رسول الله إنك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة». قال: فبكيت فقال: لا تبك فإن شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا.

ومن طريق بقية عن إبراهيم بن أدهم حدثني أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزية عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ: «إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفا، وينجو العالم منها بعلمه».

قال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهاد.

وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان، وكان قد حبب إليه الصيد، قال: فخرجت مرة فأثرت ثعلباً فهتف بي هاتف من قربوس سرجي: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. قال: فوقفت وقلت: انتهيت انتهيت، جاءني نذير من رب العالمين. فرجعت إلى أهلي فخليت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فاخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد، وكان يقول: ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام. أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل، فمن يراني يقول: هو موسوس. ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك.

وما روي عنه أنه وجد رجلا في البادية فعلمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له: إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم.

ذكره القشيري وابن عساكر عنه: بإسناد لا يصح. وفيه أنه قال له: إن إلياس علمك اسم الله الأعظم. وقال إبراهيم: أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار.

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللّهمّ انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللحم قد غلا فقال: أرخصوه. أي لا تشتروه.

وقال بعضهم: هتف به الهاتف قائلاً له من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خلقناكُمْ عَبَثاً وأنكُمْ إلينا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة.

وروى ابن عساكر بإسناد فيه نظر عن ابتداء أمر إبراهيم بن أدهم قال: بينما أنا يوماً في منظرة لي ببلخ وإذا شيخ حسن قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي، فأمرت غلامي فطلبه فدخل فعرضت عليه الطعام فأبى فقلت: من أين أقبلت؟ قال: من وراء النهر. قلت: أين تريد؟ قال الحج. قلت في هذا الوقت؟ - وكان أول يوم من ذي الحجة أو ثانيه - فقال: يفعل الله ما يشاء. فقلت: الصحبة. قال: إن أحببت ذلك فموعدك الليل فلما كان الليل جاءني فقال: قم بسم الله فأخذت ثياب سفري وسرنا نمشي كأنما الأرض تجذب من تحتنا، ونحن نمر على البلدان وتقول: هذه فلانة هذه فلانة، فاذا كان الصباح فارقني ويقول: موعدك الليل، فاذا كان الليل جاءني. فانتهينا إلى مدينة النبي ﷺ ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلاً فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بين المقدس وقال: إني عازم على المقام بالشام، ورجعت أنا إلى بلدي بلخ أسير سير الضعفاء حتى رجعت إليها ولم أسأله عن اسمه، فكان ذلك أول أمري.

وروي من وجه آخر فيه نظر.

وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً.

وقال عبد الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من علمه ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يديه.

وقال بشر بن الحارث الحافي: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم، إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص ووهيب بن الورد، ويوسف بن أسباط.

وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال: إنما سمع إبراهيم بن أدهم من منصور حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه. قال: حدثنا منصور عن ربعي بن خراش قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: إذا أردت أن يحبك الله فابغض الدنيا، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال: جلس إبراهيم بن أدهم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت، ثم قال: حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك! فقال: إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم. وقال رشدين بن سعد: مر إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال: لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم. فقام الأوزاعي وتركهم.

وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن أدهم: لم تكتب الحديث؟ فقال: إني مشغول بثلاث، بالشكر على النعم، وبالاستغفار من الذنوب، وبالاستعداد للموت، ثم صاح وغشي عليه فسمعوا هاتفاً يقول: لا تدخلوا بيني وبين أوليائي.

وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن أدهم: قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وقوام الدين. فقال له إبراهيم: وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك وإلا هلكت.

وقال إبراهيم بن أدهم: ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم، إنما يسأل هؤلاء المساكين؛ يعني: الأغنياء.

وقال شقيق بن إبراهيم: لقيت ابن أدهم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكرياً. فقلت له: تركت خراسان، وخرجت من نعمتك؟ فقال: قد تهنيت بالعيش ههنا، أفر بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول: هو موسوس أو حمال أو ملاح، ثم قال: بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له: يا عبدي ما لك لم تحج؟ فيقول: يا رب لم تعطني شيئاً أحج به، فيقول الله: صدق عبدي اذهبوا به إلى الجنة.

وعن إبراهيم بن أدهم وقال: أقمت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز الحلال.

وقال: الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك، فحزنك على الآخرة وخيرها لك. وحزنك على الدنيا وزينتها عليك.

وقال: الزهد ثلاثة، واجب، ومستحب وزهد سلامة، فالزهد في الحرام واجب، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب، والزهد عن الشبهات سلامة.

وكان هو وأصحابه يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يجعلون في ملحهم أبزاراً.

وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بطيبها إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون.

وقال إبراهيم بن أدهم: قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع.

وقال له رجل: هذه جبة أحب أن تقبلها مني. فقال: إن كنت غنياً قبلتها، وإن كنت فقيراً لم أقبلها. قال: أنا غني. قال: كم عندك؟ قال ألفان قال: تود أن تكون أربعة آلاف؟ قال: نعم، قال: فأنت فقير، لا أقبلها.

وقال له رجل: لو تزوجت؟ فقال: لو أمكنني أن اطلق نفسي لطلقتها.

ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء معه ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء، وصلى بوضوء واحد خمس عشرة صلاة.

وأكل يوماً على حافة الشريعة كسيرات مبلولة وضعها بين يديه أبو يوسف الغسولي، ثم قام فشرب من الشريعة ثم جاء واستلقى على قفاه وقال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش. فقال له أبو يوسف: طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم. فتبسم إبراهيم وقال: من أين لك هذا الكلام!

وبينما هو يوما بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال: أيكم إبراهيم بن أدهم؟ فارشد إليه، فقال: يا سيدي أنا غلامك، وإن أباك قد مات وترك مالا هو عند القاضي، وقد جئتك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ، وفرس وبغلة. فسكت إبراهيم طويلا ثم رفع رأسه فقال: إن كنت صادقاً فالدراهم والفرس والبغلة لك، ولا تخبر به أحداً. ويقال: إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله.

وكان معه بعض أصحابه فمكثوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلون، فقال له إبراهيم: أدخل إلى هذه الغيضة - وكان ذلك في يوم شات - قال: فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فملأت منه جرابي ثم خرجت، فقال: ما معك؟ قلت: خوخ. فقال: يا ضعيف اليقين! لو صبرت لوجدت رطباً جنياً، كما رزقت مريم بنت عمران.

وشكا إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فإذا حوله دنانير كثيرة

فقال لصاحبه: خذ منها ديناراً، فأخذه واشترى لهم به طعاماً.

وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشتري الخبز الأبيض والزبد وتارة الشواء والجوذبات والخبيص فيطعمه أصحابه وهو صائم، فإذا أفطر يأكل من رديء الطعام ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم وتحبباً وتودداً إليهم.

وأضاف الأوزاعي إبراهيم بن أدهم فقصر إبراهيم في الأكل فقال: ما لك قصرت؟ فقال: لأنك قصرت في الطعام. ثم عمل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي: أما تخاف أن يكون سرفاً؟ فقال: لا! إنما السرف ما كان في معصية الله، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين.

وذكروا أنه حصد مرة بعشرين ديناراً، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال: ماذا تريدون؟ قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم تلك العشرين ديناراً، وقال: أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً.

وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة.

وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يخدمه إبراهيم، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا.

وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة التامّة إلى الصباح، وكان الثوري يتحرز معه في الكلام.

ورأى رجلا فقيل له: هذا قاتل خالك، فذهب إليه وسلّم عليه وأهدى له وقال: بلغني أن الرجل لا يبلغ درجة المتقين حتى يأمنه عدوه.

وقال له رجل: طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وتركت الدنيا والزوجات. فقال: ألك عيال؟ قال: نعم. فقال: لروعة الرجل بعياله ـ يعني في بعض الأحيان من الفاقة ـ أفضل من عبادة كذا وكذا سنة.

ورآه الأوزاعي ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال: يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا. فقال له: اسكت يا أبا عمرو! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة.

وخرج إبراهيم ابن أدهم من بيت المقدس فمر بطبرية فأخذته المسلحة في الطريق فقالوا: أنت عبد؟ قال: نعم. قالوا: آبق؟ قال: نعم فسجنوه. فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاؤوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا: علام حُبستَ؟ إبراهيم بن أدهم؟ قال: ما سجنته. قالوا: بلى هو في سجنك. فاستحضره فقال: علام سجنت. فقال: سل المسلحة، قالوا: أنت عبد؟ قلت: نعم وأنا عبد الله. قالوا: وأنت آبق؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبي، فخلى سبيله.

وذكروا أنه مر مع رفقة فإذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن أدهم فقال له: يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فعودك على بدئك. قالوا: فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبه، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال: قولوا: اللّهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله، يا الله. قال خلف بن تميم فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لي لص ولا غيره.

وقد رُوي لهذا شواهد من وجوه أخر.

وروي أنه كان يصلي ذات ليلة فجاءه أسد ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه، وجاء الثاني ففعل كذلك، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك، واستمر إبراهيم في صلاته، فلما كان وقت السحر قال لهم: إن كنتم أمرتم بشيء فهلمّ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا.

وصعد مرة جبلا بمكة ومعه جماعة فقال لهم: لو أن ولياً من أولياء الله قال لجبل زل لزال، فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال: اسكن فإنما ضربتك مثلا لأصحابي، وفي رواية: وكان الجبل أبا قبيس.

وركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج أصحاب السفينة بالضجيج، وأيقظوه وقالوا: ألا ترى ما نحن فيه من الشدة؟ فقال: ليس هذه بشدّة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس. ثم قال: اللّهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، فصار البحر كأنه قدح زيت.

وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حمله دينارين وألح عليه، فقال له: اذهب معي حتى أعطيك ديناريك، فخرج معه مرة إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قد ملئ دنانير، فقال له: خذ حقك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد.

وعن حذيفة المرعشي قال: أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً، فقال لي: كأنك جائع، قلت: نعم. فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال، المشار إليه بكل معنى.

أنا حامد شاكر أنا ذاكر أنا ... أنا جائع أنا نائع أنا عاري

هي ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري

مدحي لغيرك وهج نار خضتها ... فأجز عبيدك من دخول النارِ

ثم قال لي: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إليّ ستمائة دينار وانصرفت، فسألت رجلا: من هذا الذي على البغلة؟ فقال: هذا رجل نصراني. فجئت إبراهيم فأخبرته فقال: الآن يجيء فيسلم. فما كان غير قريب حتى جاء فأكبّ على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم.

وكان إبراهيم يقول: دارنا أمامنا وحياتنا بعد وفاتنا. فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

وكان يقول: مثّل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون، ومثّل له هول المطّلع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون. ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب، وانظر كيف تكون. ثم صرخ صرخة خر مغشّياً عليه.

ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له: لا تطمع فيما لا يكون، ولا تيأس مما يكون. فقيل له: كيف هذا يا أبا إسحاق؟ فقال: لا تطمع في البقاء والموت يطلبك، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين يذهب إلى جنة أم إلى نار؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساء. ثم قال: أوّه أوّه! ثم خر مغشياً عليه.

وكان يقول: ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا. ثم يقول: ثكلت عبداً أمه أحب الدنيا ونسي ما في خزائن مولاه.

وقال: إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف

يرضى من كان هو بأمورك قائماً.

ورآه بعض أصحابه بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وقال: إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبيح شين المعصية.

وكتب إلى الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

وسأله بعض الولاة: من أين معيشتك؟ فأنشأ يقول:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

لما توعد الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأروح مما كان فيه وأوسع
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما ... يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع

وكان يتمثل أيضاً:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويتبعها الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ للنفس عصيانها
وما أهلك الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا ... ولم يغل بالبيع أثمانها
لقد وَقَع القوم في جيفة ... تبين لذي اللب أنتانها

وقال إبراهيم بن أدهم: إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل، فكر في ذنبك وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك، واقطع الطمع إلا من ربك.

وقال أيضاً: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك، ذمّ مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها، ووعدكم خراب الدنيا فحصنتموها، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها، وأنذركم الكنوز فكنزتموها، دعتكم إلى هذه الغرارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مناديها، خدعتكم بغرورها، ومنتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها تتمرغون في زهراتها، وتتنعمون في لذاتها وتتقلبون في شهواتها، وتتلوثون بتبعاتها، تنبشون بمخالف الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها.

وشكى رجل إلى إبراهيم بن أدهم كثرة العيال فقال: ابعث إلي منهم من لا رزقه على الله فسكت الرجل.

وقال إبراهيم بن أدهم: مررت في بعض جبال الشام فإذا بحجر مكتوب عليه بالعربية:

كل حي وإن بقي ... فمن العمر يستقي
فاعمل اليوم واجتهد ... واحذر الموت يا شقي

قال: فبينا أنا واقف أقرأ وأبكي، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال: مم تبكي؟ فقلت: من هذا. فأخذ بيدي ومضى غير بعيد فإذا صخرة عظيمة مثل المحراب فقال: اقرأ وابك ولا تقصر. وقام هو يصلي فإذا في أعلاه نقش عربي بيّن:

لا تبتغي جاهاً وجاهك ساقط ... عند المليك وكن لجاهك مصلحا

وفي الجانب الآخر نقش بيّن لعربي:

من لم يثق بالقضاء والقدر ... لاقى هموماً كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي:

ما أزين التقى وما أقبح الخنا ... وكل مأخوذ بما جنى وعند الله الجزا

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر:

إنما الفوز والغنى ... في تقى الله والعمل

قال: فلما فرغت من القراءة التفت فإذا ليس الرجل هناك، فما أدري انصرف أم حجب عني.

وقال إبراهيم بن أدهم: أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وفى العمل وفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير.

وقال أيضاً: كل سلطان لا يكون عادلا فهو واللص بمنزلة واحدة، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة، وكل من خدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة.

وقال: ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في مجاعته، فكيف بمن هو يتقلب في نعم الله وكفايته.

وقال أيضاً: أعربنا في كلامنا فلم نلحن، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب.

وقال: كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره.

وقال إبراهيم لأصحابه: جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة.

وقال الحافظ ابو بكر الخطيب: أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الأستراباذي قال: أخبرنا عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن محمود بن خرزاد الأهوازي حدثني علي بن محمد القصري حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سريا السقطي يقول: سمعت بشر بن الحارث الحافي يقول: قال إبراهيم بن أدهم: وقفت على راهب في جبل لبنان فأشرف عليّ فقلت له: عظني فأنشأ يقول:

خذ عن الناس جانباً ... كي يعدّوك راهبا
إنّ دهراً أظلني ... قد أراني العجائبا
قلب الناس كيف شئـ ... ـت تجدهم عقاربا

قال بشر: فقلت لإبراهيم: هذه موعظة الراهب لك، فعظني أنت. فأنشأ يقول:

توحش من الإخوان لا تبغ مؤنساً ... ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحبا
وكن سامري الفعل من نسل آدم ... وكن أوحدياً ما قدرت مجانبا
فقد فسد الإخوان والحب والإخا ... فلست ترى إلا مذوقاً وكاذبا
فقلت ولولا أن يقال مدهده ... وتنكر حالاتي لقد صرت راهبا

قال سري: فقلت لبشر: هذه موعظة إبراهيم لك فعظني أنت، فقال: عليك بلزوم بيتك. فقلت: بلغني عن الحسن أنه قال: لولا الليل وملاقاة الإخوان ما كنت أبالي متى مت. فأنشأ بشر يقول:

يا من يسرُّ برؤية الإخوان ... مهلا أمنت مكايد الشيطان
خلت القلوب من المعاد وذكره ... وتشاغلوا بالحرص والخسران

صارت مجالس من ترى وحديثهم … في هتك مستور وخلق قرآني

قال الحلبي: فقلت لسريّ: هذه موعظة بشر لك فعظني أنت. فقال: عليك بالإخمال فقلت إني أحب ذاك، فأنشأ يقول:

يا من يروم بزعمه إخمالا … إن كان حقاً فاستعدّ خصالا

ترك المجالس والتذاكر يا أخي … واجعل خروجك للصلاة خيالا

بل كن بها حيّاً كأنك ميتٌ … لا يرتجى منه القريب وصالا

قال علي بن محمد القصري: قلت للحلبي: هذه موعظة سري لك فعظني أنت. فقال: يا أخي أحب الأعمال إلى الله ما أصدر إليه من قلب زاهد في الدنيا، فازهد في الدنيا يحبك الله. ثم أنشأ يقول:

أنت في دار شتات … فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيوم … صمته عن شهواتك

واجعل الفطر إذا ما … صمته يوم وفاتك

قال ابن خرزاد: فقلت لعلي: هذه موعظة الحلبي لك فعظني أنت. فقال لي: احفظ وقتك واسخ بنفسك لله عز وجل، وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سرك ويزكو به ذكرك. ثم أنشدني:

حياتك أنفاسٌ تعدُّ فكلما … مضى نفس منها انتقصت به جزءاً

فتصبح في نقصٍ وتمسي بمثله … ومالك معقول تحسُّ به رزءا

يميتك ما يحييك في كل ساعة … ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

قال أبو محمد قلت لأحمد: هذه موعظة علي لك فعظني. فقال: يا أخي عليك بلزوم الطاعة وإياك أن تبرح من باب القناعة، وأصلح مثواك، ولا تؤثر هواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، واشتغل بما يعنيك بترك ما لا يعنيك. ثم أنشدني:

ندمت على ما كان مني ندامةً … ومن يتبع ما تشتهي النفس يندم

فخافوا لكيما تأمنوا بعد موتكم … ستلقون رباً عادلا ليس يظلم

فليس لمغرور بدنياه زاجرٌ … سيندم إن زلت به النعلُ فاعلم

قال القاضي أبو محمد بن رامين: فقلت لأبي محمد: هذه موعظة أحمد لك فعظني أنت. فقال: اعلم رحمك الله أن الله عز وجل ينزل العبيد حيث نزلت قلوبهم بهمومها، فانظر أين أنزلت قلبك، واعلم أن تقرب القلوب على حسب ما قرُب إليها، وتقرب منه على حسب ما قرب إليها، فانظر من القريب من قلبك. وأنشدني:

قلوب رجال في الحجاب نزول … وأرواحهم فيما هناك حلول

بروح نعيم الأنس في عز قربه … بإفراد توحيد المليك تجول

لهم بفناء القرب من محض بره … عوائد بذلٍ خطبهن جليل

قال الحافظ أبو بكر الخطيب: فقلت للقاضي أبي محمد بن رامين: هذه موعظة الحميدي لك فعظني أنت. فقال: اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدني:

اتخذ اللَّه صاحبا … وذر الناس جانبا

جرب الناس كيف شئـ … ـت تجدهم عقاربا

قال أبو الفرج غيث الصوري: فقلت للخطيب البغدادي: هذه موعظة ابن رامين لك فعظني أنت. فقال: احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها، فذاك أعضل دائك، واستشعر الخوف من اللّه تعالى بخلافها، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها، فإنها الأمارة بالسوء والفحشاء، والمورِدة من أطاعها موارد العطب والبلاء، واعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه. وقد ضمن اللّه لمن خالف هواه أن يجعل دار الخلد قراره ومأواه ثم أنشد لنفسه:

إن كنت تبغي الرشاد محضا … في أمر دنياك والمعاد

فخالف النفس في هواها … إنّ الهوى جامع الفساد

قال الحافظ ابن عساكر: المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفي سنة ثنتين وستين ومائة.

وقال غيره: سنة إحدى وقيل: سنة ثلاث. والصحيح ما قاله ابن عساكر كما ذكرنا و لله الحمد.

وذكروا أنه توفي في جزيرة من جزائر بحر الروم وهو مرابط، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة وفاته نحواً من عشرين مرة، وكل مرة يجدد الوضوء بعدها، فلما كانت غشية الموت قال: أوتروا لي قوسي، وقبض على التوس ومات وهو كذلك رحمه اللّه وأكرم مثواه.

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا محمد بن علي بن زيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول سمعت السريَّ بن حيان يقول وكان سفيان معجباً به

أجاعتهم الدنيا فجاعوا ولم يزل … كذلك ذو التقوى عن العيش ملجما

أخو طيىء داود منهم ومسعر … ومنهم وهيب والغريب ابن أدهما

وفي ابن سعيد قدوة البر والنهى … وفي الوارث الفاروق صدقا مقدّما

وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه … ويوسف إن لم يأل أن يتسلما

أولئك أصحابي وأهل مودتي … فصلى عليهم ذو الجلال وسلما

فما ضر ذا التقوى نصال أسنةٍ … وما زال ذو التقوى أعز وأكرما

وما زالت التقوى تريك على الفتى … إذا محّض التقوى من العز ميسما

وروى البخاري في كتاب الأدب [١٢٥٣] عن إبراهيم بن أدهم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً معلقاً [٩٤] في المسح على الخفين. واللّه سبحانه أعلم.

وأما ■ داود الطائي فهو:

■ داود بن نصير الطائي أبو سليمان الكوفي الفقيه الزاهد، أخذ الفقه عن أبي حنيفة.

وقال سفيان بن عيينة: ثم ترك طلب الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه.

قال عبد اللّه بن المبارك: وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي.

وقال يحيى بن معين: كان ثقة. وقال الخطيب البغدادي. ترك الفقه وأقبل على العبادة حتى مات وقد قدم على المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة.

مات في سنة ستين ومائة، وقيل: في سنة خمس وستين ومائة. وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة ـ أعني سنة ثنتين وستين ومائة فاللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

فيها حصر المقنع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأنام، والسفلة من العوام، ومنعوه من الجنود في ذلك العام فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحرشي فألح عليه في الحصار، فلما أحس بالغلبة تحسى سمّاً وسمّ نساءه فماتوا جميعاً، عليهم لعائن الله، ودخل الجيش الإسلامي قلعته فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي، وكان المهدي حين جاءه رأس المقنع بحلب.

قال ابن خلكان: كان اسم المقنع عطاء، وقيل حكيم، والأول أشهر، وكان أولا قصاراً ثم ادعى الربوبية، مع أنه كان أعور قبيح المنظر، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب، وتابعه على جهالته خلق كثير، وكان يرى الناس قمراً يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب، فعظم اعتقادهم فيه ومنعوه بالسلاح، وكان يزعم لعنه الله وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة، ثم في نوح، ثم في الأنبياء واحداً واحداً، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إليه. ولما حاصره المسلمون في قلعته التي كان جددها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنام، سقى نساءه وأهله سماً وتحسى هو أيضاً منه فماتوا؛ واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله.

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم، وأمّر على الجميع ولده هارون الرشيد، وخرج من بغداد مشيعاً له، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادي، وكان في هذا الجيش الحسن بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك - وهو مثل الوزير للرشيد ولي العهد - ويحيى بن خالد - وهو كاتبه وإليه النفقات - وما زال المهدي مع ولده مشيعاً له حتى بلغ درب الروم عند جيحان، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة، وغنموا أموالا جزيلة جداً، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجزل عطاءه.

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة، وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي.

وفيها ولى المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك، وولى وعزل جماعة من النواب.

وحج بالناس فيها علي بن المهدي.

وفيها توفي

■ إبراهيم بن طهمان.

و■ حريز بن عثمان الرحبي الحمصي

و■ موسى بن عُلَيّ اللخمي المصري.

و■ شعيب بن أبي حمزة.

و■ عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، وإليه ينسب قصر عيسى، ونهر عيسى ببغداد قال يحيى بن معين: كان له مذهب جميل، وكان معتزلا للسلطان. توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة رحمه الله.

و■ همام بن يحيى.

و■ يحيى بن أبي أيوب المصري.

و■ عبيدة بنت أبي كلاب العابدة، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت. وكانت تقول: أشتهي الموت فإني أخشى أن أجني على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة.

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم، فأقبل إليه ميخائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً، فيهم طازاذ الأرمني البطريق ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف - فأراد المهدي ضرب عنقه فكلم فيه فحبسه في المطبق.

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصراً من لبن بعيسا باذ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فقلّ الماء أصابه حمى فرجع من أثناء الطريق، فعطش الناس في الرجعة حتى كاد بعضهم يهلك، فغضب المهدي على يقطين صاحب المصانع، وبعث من حيث رجع صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ.

وفيها توفي

■ حماد الراوية في قول، وكان من أعلم الناس بأيام الناس، والشعر والعربية والأدب، وقد كانت بنو أمية تعظمه وتُسني جائزته، وقد دخل على المنصور والمهدي، وشيبان بن عبد الرحمن النحوي، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري.

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده هارون الرشيد لغزو الصائفة، وأنفذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وأربعة وتسعين رجلا، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار، وثلاثة وتسعون ألف دينار، وأربعمائة وخمسون ديناراً، ومن الفضة أحدٌ وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم.

قاله ابن جرير [تاريخه: ١٥٢/٨، ١٥٣] .

فبلغ هارون بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة أليون، ومعها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة، فقبل ذلك منها، وذلك بعد ما قتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفاً وأسر من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً، وقتل من الأسرى ألفي أسير صبراً، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفاً بدرهم. فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة:

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سُورها

ومـا رمتهـا حتـى أتتـك ملوكهـا بجزيتهـا والحـرب تغلـي قدورهـا

وحج بالناس في هذه السنة صالح بن أبي جعفر المنصور.

وفيها توفي:

■ سليمان بن المغيرة.

و■ عبد اللّه بن العلاء بن زَبْر.

و■ عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان.

و■ وهيب بن خالد.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في المحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهـة عظيمـة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره.

وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي، ولقـب هارون بالرشيد.

وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظي عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة، وفي ذلك يقول بشار بن برد:

بـني أميـة هبـوا طـال نومكـم إن الخليفـة يعقـوب بـن داود

ضـاعت خلافتكم يـا قـوم فـاطّلبوا خليفـة اللّـه بـين الـدُّفّ والعـود

فلم تزل السعاة والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجوه عليه، كلما سعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره عنده، حتى وقع من أمره مـا سـأذكره، وهو أنه دخل ذات يوم علـى المهـدي في مجلس عظيم قـد فـرش بـأنواع الفرش وألوان الحرير، وحول ذلك المكان أشجار مزهـرة بـأنواع الأزاهـير، فقال: يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنـين مـا رأيـت شيئا أحسن منه. فقال: هو لك بما فيه، وهذه الجارية ليتم بها سـرورك، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها لي. قال: وما هـي يـا أمير المؤمنـين؟ فقـال: حتى تقول نعم. فقلت يأمر أمير المؤمنـين وعلـيّ السـمع والطاعـة: فقـال: آللّه؟ فقلت: آللّه. قال: وحياة رأسي قلت: وحياة رأسك. فقال: ضع يـدك على رأسي وقل ذلك، ففعلت. فقال: إن ههنا رجلا من العلويين أحب أن تكفينيه. والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب. فقلت: نعم، فقال: وعجل علي، ثم أمر بتحويل ما في ذلك المجلس من الفرش إلى منزلي وأمر لي بمائة ألف درهم وتلـك الجاريـة، فما فرحت بشيء فرحي بها، فلما صارت بمنزلي حجبتهـا في جـانب الـدار في الخدر، فأمرت بذلك العلوي فجيء به فجلـس إليّ فتكلـم، فمـا رأيـت أعقل منه ولا أفهم. ثم قال لي: يا يعقوب تلقى اللّه بدمي وأنـا رجـل مـن ولد فاطمة بنت رسول اللّـه ﷺ؟ فقلت: لا واللّـه ولكـن اذهـب حيـث شئت. فقال: إني أختار بلاد كذا وكذا. فقلـت: اذهـب كيـف شـئت، ولا يظهرن عليك المهدي فتهلك أهلك فخرج من عندي وجهزت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علماً بمـا جرى، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمه بذلك، وقالت له: هذا الـذي قـد آثرته بي، قد فعل كـذا وكـذا. فغضـب المهـدي، وبعـث المهـدي إلى تلـك الطريق فردوا ذلك العلوي فحبسه عنده في بيت مـن دار الخلافـة، وأرسـل إليّ في اليوم فذهبت وأنا لا أستشعر أمر العلوي، فلما دخلت عليه قال: ما فعل العلوي؟ قلت: مات. قال: آللّه! قلت: آللّـه. قـال: فضـع يـدك على رأسي واحلف بحياته، ففعلت. فقال: يـا غـلام أخرج مـا في هـذا البيت، فخرج العلوي فأسقط في يدي، فقال المهدي: دمك لي حلال، ثـم أمـر بـه فألقى في بئر في المطبق. قال يعقـوب: فكنـت في مكـان لا أسمـع فيـه ولا أبصر، فذهب بصري وطال شعري حتى صرت مثل البهـائم، ثـم مضـت عليّ مدد متطاولة، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر الـتي في ذلك المطبق فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين. فسلمت وأنـا أظنـه المهـدي، فلما ذكرت المهدي في كلامي قـال: رحـم اللّـه المهـدي. فقلـت: الهـادي؟ فقال: رحم اللّه الهادي. فقلت: الرشيد؟ قال نعم. فقلت: يا أمـير المؤمنـين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعلة، فإن رأيت أن تطلقني. فقال: أيـن تريد تذهب؟ قلت: مكة. فقال: اذهب راشداً، فسار إلى مكة فما لبـث بهـا إلا قليلا حتى مات رحمه اللّه تعالى.

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في تعاطيه شـرب النبيـذ بـين يديـه، وكثرة سماع الغناء ويلومه على ذلك ويقول: ما على هذا اسـتوزرتني، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الحرام يشرب عندك النبيذ ويغني بين يديك؟ فيقول: فقد سمع عبد اللّـه بـن جعفـر، فقـال: إن ذلك لم يكن من حسناته، ولو كان هذا قربة لكـان كلمـا داوم عليـه العبـد كان أفضل.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

فـدع عنـك يعقـوب بـن داود جانبـاً وأقبـل علـى صهبـاء طيبـة النشـر

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بقصر السلام بعيسا باذ - بني لـه بالآجر بعد القصر الأول الذي كان باللبن - فسكنه وضرب هناك الدراهم والدنانير.

وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعـل هـذا قبل هذه السنة.

وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان. وقـد جعـل علـى القضـاء أبـا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة.

ولم يكن في هذه السنة صائفـة للهدنـة الـتي كـانت بـين الرشـيد وبـين الروم.

وفيها توفي:

■ صدقة بن عبد اللّه السمين.

و■ أبو الأشهب العطاردي.

■ أبو بكر النهشلي.

و■ عفير بن معدان.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيـف لم يـر مثله، وجعل على رسائله أبان بن صدقة.

وفيها توفي عيسى بن موسى الذي كـان وليّ العهـد مـن بعـد المهـدي فخلع وكانت وفاته بالكوفة فأشهد نائبها روح بن حاتم على وفاته القـاضي وجماعة من الأعيان، ثم دفن. وكان قد امتنع من الصلاة عليه فبلـغ ذلـك المهدي فكتب إليه يعنفه أشد التعنيف، وأمر بمحاسبته على عمله.

وفيها عزل المهدي أبا عبيد اللّه معاوية بن عبيد اللّه عن ديوان الرسائل

وولاه الربيع بن يونس الحاجب، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته.

وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة، وأظلمت الدنيا فكانت كالليل حتى تعالى النهار، وكان ذلك لليال بقين من ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه، وكان المتولي أمر الزنادقة عمر الكلواذي.

وفيها أمر المهدي بزيادة كبيرة في المسجد الحرام، فدخل في ذلك دور كثيرة، وولى ذلك يقطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتي. ولم يكن للناس صائفة للهدنة.

وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد. وتوفي بعد فراغه من الحج بأيام، وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل، ولد أعمى، وقال الشعر وهو دون عشر سنين وله التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء. وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة، وقال: له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر. فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات عن بضع وتسعين سنة.

وقد ذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات [١/٢٧١-٢٧٣]، فقال: بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي مولاهم، وقد نسبه صاحب الأغاني [٣/١٣٥، ١٣٦] فأطال نسبه، وهو بصري قدم بغداد، وأصله من طخارستان، وكان ضخما عظيم الخلق، وشعره في أول طبقات المولدين، ومن شعره البيت المشهور:

هل تعلمين وراء الحب منزلة ... تدني إليك فإن الحب أقصاني

وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيـ ... ـك وأخشى مصارع العشاق

وله أيضاً:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ماكانا

وله أيضاً:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي تابع للقوادم

وما خير كف أمسك الغلُّ أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

كان بشار يمدح المهدي حتى وشى إليه الوزير أنه هجاه وقذفه ونسب إلى شيء من الزندقة، وأنه يقول بتفضيل النار على التراب، وعذر إبليس في ترك السجود لآدم، وأنه أنشد:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات.

ويقال: إنه غُرِّق ثم نقل إلى البصرة في هذه السنة.

وفيها توفي:

■ الحسن بن صالح بن حيّ، وحماد بن سلمة، والربيع بن مسلم، وسعيد بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن مسلم.

و■ عتبة الغلام: وهو عتبة بن أبان بن صمعة أحد العباد المشهورين والبكائين المذكورين، كان يأكل من عمل يده في الخوص، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح.

والقاسم الحُدّاني، وأبو هلال محمد بن سليم، ومحمد بن طلحة، وأبو حمزة السُّكري محمد بن ميمون.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

فيها في رمضان منها نقضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذي عقده هارون الرشيد عن أمر أبيه المهدي، ولم يستمروا على الصلح إلا ثنتين وثلاثين شهراً، فبعث نائب الجزيرة خيلا إلى الروم فقتلوا وأسروا وغنموا وسلموا ولله الحمد.

وفيها اتخذ المهدي دواوين الأزمة ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك.

وفيها حج بالناس علي بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ريطة.

وفيها توفي من الأعيان

■ الحسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، ولاه المنصور المدينة خمس سنين، ثم غضب عليه فعزله وحبسه وأخذ جميع ماله.

و■ حماد عجرد، كان ظريفاً ماجناً شاعراً، وكان ممن يعاشر الوليد بن يزيد ويهاجي بشار بن برد. وقدم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة.

قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء: ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة. حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان النحوي. وكانوا يتعاشرون ويتماجنون.

و■ خارجة بن مصعب.

و■ عبيد الله بن الحسن بن الحصين بن أبي الحر العنبري، قاضي البصرة بعد سوار. سمع خالداً الحذاء وداود بن أبي هند، وسعيداً الجريري. وروى عنه ابن مهدي. وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تعزى إليه غريبة في الأصول والفروع، وقد سئل مرة عن مسألة فأخطأ في الجواب فقال له قائل: الحكم فيها كذا وكذا. فأطرق ساعة ثم قال: إذاً أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل، توفي في ذي القعدة من هذه السنة. وقيل بعد ذلك بعشر سنين فالله أعلم.

■ غوث بن سليمان بن زياد بن ربيعة بن نعيم أبو يحيى الجرمي، قاضي مصر، كان من خيار الحكام، ولي الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي.

و■ فليح بن سليمان.

و■ قيس بن الربيع في قول.

و■ محمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة بن مالك، أبو اليسير العقيلي، قاضي الجانب الشرقي من بغداد للمهدي، هو وعافية بن يزيد القاضي. وكان يقال لابن علاثة قاضي الجن، لأنه كانت بئر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال: أيها الجن! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار. فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء. قال ابن معين: كان ثقة. وقال البخاري: في حفظه شيء.

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فيها في المحرم منها توفي أمير المؤمنين المهدي بن المنصور العباسي رحمه الله بمكان يقال له ماسبذان، بالحمى، وقيل مسموماً وقيل بعضة فرس فمات.على ما سيأتي بيانه

وهذه ترجمته:

■ محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، أبو عبد الله المهدي، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي طمعاً أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به، وإن اشتركا في الاسم لأنه لم يشبهه في الفعل، ذاك يأتي في آخر الزمان وعند فساده فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً.

وقد قيل إن في أيامه ينزل عيسى ابن مريم بدمشق كما سيأتي ذكر ذلك في أحاديث الفتن والملاحم.

وقد جاء في حديث [الفتن لنعيم بن حماد (١٠٨٦-١٠٨٨، ١١٠٥)] من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأحبار ولا يصح ذلك، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون هذا على التعيين.

وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو [ج (٤٠٨٦)] يعارض هذا والله أعلم.

وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله الحميري.

روى عن أبيه عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم. رواه عنه يحيى بن حمزة البتلهي قاضي دمشق، وذكر أنه صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فجهر في السورتين بالبسملة، وأسند ذلك عن رسول الله ﷺ ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة، ورواه المهدي عن المبارك بن فضالة، ورواه عنه أيضاً جعفر بن سليمان الضبعي، ومحمد بن عبد الله الرقاشي، وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدي.

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وقيل: سنة إحدى وعشرين ومائة بالحميمة من أرض البلقاء واستُخلف بعد موت أبيه في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة، وله بالحميمة من أرض البلقاء، وتوفي في المحرم من هذه السنة عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وبعض شهر، وكان أسمر طويلا جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء، فقيل: عينه اليمنى، وقيل اليسرى.

قال الربيع الحاجب: رأيت المهدي يصلي في ليلة مقمرة في بهو له عليه ثياب حسنة. فما أدري أهو أحسن أم القمر، أم بهوه، أم ثيابه. فقرأ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. ثم أمرني فأحضرت رجلا من قرابته كان مسجوناً فأطلقه. ولما جاءه خبر موت أبيه بمكة وهو ببغداد مع منارة البربري مولاه، في السادس عشر من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومئة، وكان ولي العهد من بعد أبيه، كتم الأمر يومين ثم نودي في الناس يوم الخميس الصلاة جامعة، فقام فيهم خطيباً فأعلمهم بموت أبيه فقال: إن أمير المؤمنين دعي فأجاب وقد قلدت بعده جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة المسلمين. ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ. وقد عزاه أبو دلامة وهناه في قصيدة التي يقول فيها:

عيناي واحدة ترى مسرورة ... بأميرها جذلا وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأراف
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى ... شعراً أرجله وآخر ينتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد ... وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف

وقد قال المهدي يوماً في خطبته: أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهنكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى ثوب الأصر عنكم. وأهال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله، مقدماً ذلك فعل من تقدمه، والله لأفنين عمري من عقوبتكم، الإحسان إليكم. قال: فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه، ثم استخرج المهدي حواصل أبيه من الذهب والفضة التي لا تحد ولا توصف كثرة، ففرقها في الناس، ولم يعط أهله ومواليه شيئاً منها، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات وقد كان أبوه المنصور حريصاً على توفير بيت المال، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال الشراة، وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها، وبنى مدنا ذكرناها فيما تقدم.

وقد ذكر له عن شريك بن عبد الله القاضي أنه لا يرى الصلاة خلفه. فأحضره إليه فتكلم معه ثم قال له المهدي في كلام: يا ابن الزانية! فقال له: مه مه يا أمير المؤمنين. فلقد كانت صوامة قوامة. فقال له: يا زنديق لأقتلنك. فضحك شريك، فقال: يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها، شربهم القهوات، واتخاذهم القينات، فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه.

وذكروا أنه هاجت ريح شديدة، فدخل المهدي بيتاً في داره فألزق خده بالتراب وقال: اللَّهم إن كنت أنا المطلوب بهذه الجناية دون الناس فها أنا ذا بين يديك، اللَّهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان. فلم يزل كذلك حتى انجلت.

ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال: هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك. فقال: هاتها، فناولها إياها، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف الرجل قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذه النعل، فضلا عن أن يلبسها، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أعطيته إليه نعل رسول الله ﷺ فردها عليّ. فيصدقه أكثر الناس، لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم، ورأينا هذا أرجح وأنجح.

واشتهر عنه أنه كان يحب الحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر» [أحمد: ٢/٢٥٦، د(٢٥٧٤)، ت(١٧٠)، س(٣٥٧٨)]. وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأرى قفال قفا كذاب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر غياثاً بعدها.

وقال الواقدي: دخلت يوماً على المهدي فحدثته بأحاديث فكتبها عني ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلىء غيظاً فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلت على الخيزران فقامت إليّ ومزقت ثوبي وقالت: ما

رأيت منك خيراً، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس، وقد نالت عندي ما نالت، وقد بايعت لولديها بامرة المؤمنين من بعدي. فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام». وقال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» [ج(١٩٧٧)]، وقال: «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته» [خ(٣٣٣١)، م(١٤٦٨)] . وحدثته في هذا الباب بكلام حضرني. فأمر لي بألفي دينار، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير، وإذا معه أثواب أخر، وبعثت تشكرلي وتثني عليّ معروفاً.

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف، فدخل الرجل بغداد متنكراً فبينما هو يوماً في أزقة بغداد إذ لقيه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى: هذا طلبة أمير المؤمنين. وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر، فبينا هما، كذلك، إذ مر امير في موكبه وقد أقبل وإذا هو معن بن زائدة ـ فقال الرجل: يا أبا الوليد خائف مستجير. فقال: ويحك ما لك وله؟ فقال: هذا طلبة أمير المؤمنين.، جعل لمن جاء به مائة ألف. قال معن: ويحك، وأما علمت أني قد أجرته؟ أرسله من يدك. ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة فأنهى إليه الخبر، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه المهدي وقال: يا معن أبلغ من أمرك أن تجير عليّ؟ قال: نعم قال: ونعم أيضاً قال: نعم! قد قتلت في دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال: قد أجرنا من أجرت يا معن. فقال: يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف، فأمر له المهدي بثلاثين ألفاً، فقال: إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر ذنوب الرعية. فأمر له بمائة ألف، فحملت بين يدي معن إلى ذلك الرجل، فقال له معن: ادع لأمير للخليفة وأصلح نيتك في المستقبل.

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ فأمرهم المهدي بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يكبر حتى قيل له: هذا لأعرابي قد جاء. فكبّر. فتعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول: هذا كتاب امير المؤمنين، أين الرجل الذي يقال له الربيع؟ فدلّوه على الربيع الحاجب فأخذ الكتاب وجاء به إلى امير المؤمنين وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا هو قطعة أديم فيه كتابة ضعيفة، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة، فتبسم المهدي وقال: صدق الأعرابي، هذا خطي، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضعت من الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعوّذ رسول الله ﷺ فرُفع لي نار من بُعد فقصدتها فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان ناراً، فسلمت فردا السلام وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن مشوب بماء، فما شربت شيئاً إلا وهي أطيب منه، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها. فقام إلى شويهة له فذبحها فسمعت امرأته تقول له: عمدت إلى معيشتك ومعيشة أولادك فذبحتها! أهلكت نفسك وعيالك. فما التفت إليها، واستيقظت من النوم فاشتويت من تلك الشويهة وقلت له: أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا؟ فأتاني بهذه الرُقعة عن الأديم فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف، وإنما أردت خمسين ألفاً، والله لأنفذنها له كلها ولو لم يكن في بيت المال سواها. فقبضها الأعرابي واستمر مقيماً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يقري الناس في ذلك الموضع فعرف بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي

وعن سوار ـ صاحب رحبة سوار ـ قال: انصرفت يوماً من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم، فاستدعيت ببعض حظاياي لأتلهى بها فلم يقر لي قرار، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم، فقلت: من أين هذه؟ فقال: من ملكك الجديد. فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد أتشاغل عما أنا فيه من الضجر، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات، فنزلت لأصلي فيه، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال: إن لي إليك حاجة، فقلت: وما حاجتك؟ فقال: إني رجل ضرير ولكنني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة، فأحببت أن أفضي بحاجتي إليك. فقلت: وما هي؟ فقال: إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان وباعه وأخذني معه وأنا صغير، فافترقنا هناك وأصابني الضرر، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعلي أجتمع بسوار، فإنه كان صاحباً لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي. فقلت: ومن أبوك؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إلي، فقلت: إني أنا سوار صاحب أبيك، وقد منعني الله في يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك. وأجلسني بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألفين التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا. وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أتحف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا. فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر للأعمى بألفي دينار. وقال لي: عليك دين؟ قلت نعم! قال: كم؟ قلت: خمسون ألف دينار. فسكت وحادثني ساعة ثم لما قمت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الحمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار والفي دينار للأعمى، فانتظرت الأعمى أن يجيء في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت جلست إلى المهدي فقال: قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى. فلما كان اليوم الثالث جاءني المكفوف فقلت: قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً، ودفعت إليه الألفي الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً.

ووقفت امرأة للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحد غيرها، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول: ـ

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فبدّدت ما عندي

قال: فنمى ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

وبالجملة فله مآثر ومحاسن كثيرة، وقد كانت وفاته بماسبذان. كان قد خرج إليها ليبعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخلعه من ولاية العهد ويجعله بعد هارون الرشيد، فامتنع الهادي من ذلك، فركب المهدي من بغداد قاصداً إحضاره، فلما كان بماسبذان مات بها على ما سنذكره. وكان قد رأى في النوم وهو بقصره ببغداد ـ وأظنهالمسمى بقصر

السلامة - كان شيخاً وقف بباب القصر، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول:

كأني بهذا القصر قد باد آهله	وأوحش منه أهله ومنازله

وصار عميد القوم من بعد بهجة	وملك إلى قبر عليه جنادله

ولم يبق إلا ذكره وحديثه	تنادي عليه معولات حلائله

فما عاش بعدها إلا عشراً حتى توفي رحمه اللّه وسامحه وأدخله الجنة برحمته.

ويُروى أنه لما قال له الهاتف:

كأني بهذا القصر قد باد آهله	وقد درست أعلامه ومنازله

فأجابه المهدي:

كذاك أمور الناس يبلى جديدها	وكل فتى يوماً ستبلى فعائله

فقال الهاتف:

تزوّد من الدنيا فإنك ميت	وإنك مسؤول فما أنت قائله

فأجابه المهدي:

أقول بأن اللّه حق شهدته	فذلك قول ليس تحصى فضائلة

فقال الهاتف:

تزوّد من الدنيا فإنك راحل	وقد أزف الأمر الذي بك نازله

فأجابه المهدي:

متى ذاك خبرني هديت فإنني	سأفعل ما قد قلت لي وأعاجله

فقال الهاتف:

تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلة	إلى منتهى شهر وما أنت كامله

قالوا: فلم يعش بعدها إلا تسعة وعشرين يوماً حتى مات رحمه اللّه تعالى.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه:٨/١٦٨-١٧٠] اختلافاً في سبب موته، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل به في مشواره فدخل الخربة فكسر ظهره الخليفة فكان ذلك سبب وفاته.

وقيل إن بعض حظاياه بعثت إلى أخرى لبنا مسموماً فمر الرسول بالمهدي فأكل منه فمات. وقيل بل بعثت إليها بصينية فيها كُمَّثرى وفي أعلاها واحدة كبيرة فيها سمٌّ، وكان المهدي يعجبه الكمثرى،فمرت الجارية تحمل تلك الصينية فرآها فاستدعاها فأخذ التي في أعلاها فأكلها فمات من ساعته، فجعلت الحظية تندبه وتقول: وا أمير المؤمنيناه، أردت أن يكون لي وحدي فقتلتك.

وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة - أعني سنة تسع وستين ومائة - وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً، ورثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة وقد أورد منها الحافظ ابن عساكر طرفاً وكذلك أبو جعفر بن جرير رحمهما اللّه.

وفيها توفي:

عبيد اللّه بن إياد، ونافع بن عمر الجمحي، ونافع بن أبي نعيم القارئ.

خلافة موسى الهادي بن المهدي

توفي أبوه في المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه، لكن كان أبوه قد عزم على تقديم أخيه هارون الرشيد عليه في ولاية العهد، فلم يتفق ذلك حتى مات أبوه بماسبذان في شهر اللّه المحرم. وكان الهادي إذ ذاك بجرجان، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له، وكان الرشيد حاضراً ببغداد، وعزموا على النفقة في الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك. فأسرع الهادي السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر، فساق منها إليها في عشرين يوماً، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً، وأخذ البيعة منهم فبايعوه، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه، فعفا عنه وأحسن إليه وأقرّه على وظيفة الحجوبية، وزاده الوزارة وولايات أخر. وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة، واقتدى في ذلك بأبيه، وقد كان موسى الهادي من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما يعلوه من المهابة والرياسة، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وستين ومائة - خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين، والتف عليه جماعة فبايعوه على كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ والرضى من أهل البيت. وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد لتلقّي أمير المؤمنين وتهنئته بالولاية وتعزيته في أبيه المهدي. ثم جرت أمور اقتضت أن خرج حسين هذا، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي، ومنعوا الناس من الصلاة فيه، ولم يجبه أهل المدينة وجعلوا يدعون عليه لامتهانهم المسجد، حتى ذكر أنهم كانوا يقذرون في جنبات المسجد، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتلوا منهم وقُتل منهم. ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج، فبعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذر مذر، فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقد كان كريماً من أجود الناس. دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة، وما خرج منها وعليه قميص، إنما كان عليه فروة وليس دونها قميص.

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة.

وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معيوميي بن يحيى في جحفل كثيف، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث.

وفيها توفي من الأعيان

■ الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قتل في أيام التشريق كما ذكرنا.

و■ الربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور، وحاجبه ووزيره، وقد وزر أيضاً للهادي وقيل: إنه وزر أيضاًللمهدي، وكان بعضهم يطعن في نسبه. وقد أورد الخطيب في ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكر، وفي صحته عنه نظر واللّه أعلم. وقد ولي الحجوبية بعده ولده الفضل بن

الربيع، ولاه إياها الخليفة الهادي.

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

فيها عزم الهادي على خلع أخيه هارون من الخلافة وولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر بن الهادي فانقاد هارون لذلك ولم يظهر المنازعة بل المطاوعة، واستدعى الهادي جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك، وأبت ذلك أم أمير المؤمنين الخيزران، وكانت أميل إلى ابنها هارون، وكان الهادي قد منعها من التصرف في شيء من المملكة، بعدما كانت قد استحوذت عليه في أول ولايته، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء يلوذ ببابها، فحلف الهادي لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل لها شفاعة أبداً، فامتنعت من الكلام في ذلك. وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر. وألح هو على أخيه هارون في الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك - وكان من أكابر القوّاد الذين هم في صف الرشيد - فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يا أمير المؤمنين: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، وهو دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس فينالها بعض أهلك لا هذا ولا هذا. فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلا - ثم أمر بسجنه ثم أطلقه.

وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً ثم قال: يا هارون! أتطمع أن تكون رؤيا المهدي حقاً؟ فقال: إي والله، ووالله لئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادي ليجلسنَّ معه على السرير فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد، وإذا جاء الخراج فليدفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد. ثم سافر الهادي إلى حديثة الموصل بعد ذلك، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول، وقيل الآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، وكانت خلافته سنة وشهراً وثلاثة وعشرون يوماً. وكان طويلا جميلا، أبيض، بشفته العليا تقلص.

وقد توفي في هذه الليلة خليفة وهو الهادي، وولي خليفة وهو الرشيد، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد. وقد كانت الخيزران أم الخليفة في أول الليل: إنه بلغني أنه يولد الليلة خليفة ويموت خليفة ويتولى خليفة، يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمدة، وقد سرها ذلك جداً. وقال: إنها سمت ولدها الهادي خوفاً على ابنها الرشيد منه، وأيضاً فإنه كان قد أبعدها وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها فالله المستعان.

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو

■ موسى بن محمد المهدي بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي أمير المؤمنين بن المهدي بن المنصور، ولي الخلافة كما ذكرنا في محرم سنة تسع وستين ومائة. وكانت وفاته في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث، وقيل أربع، وقيل ست وعشرون سنة، والصحيح الأول.

قال الخطيب: ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنه.

وكان حسناً جميلا طويلا، أبيض في شفته العليا تقلص، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان، وكان أبوه يسميه ريحانتي.

ذكر عيسى بن دأب قال: كنت يوماً عند الهادي إذ جيء بطست فيه رأس جاريتين، لم أر أحسن منهما، ولا مثل شعورهما، وفي شعورهما اللآلىء والجواهر منضدة، ولا مثل طيب ريحهما. فقال: أتدرون ما شأن هاتين؟ قلنا: لا. فقال: إنه ذكر لي عنهما أنهما يرتكبان الفاحشة، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال: إنهما مجتمعتان، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة، فأمرت بحز رقابهما. ثم أمر برفع رؤوسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً.

ومن كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات القريبة، ليقل الطمع عن الملك.

وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار.

وعزى الهادي رجلا في ولد له توفي فقال له: أسرّك وهو عدو وفتنة، وأحزنك وهو صلاة ورحمة.

وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها:

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي: أيهما أحب إليك؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين؟ قال: يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: ثلاثون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين. فقال الهادي: أو أحسن من ذلك، نعجل الجميع لك، فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة.

قال الخطيب البغدادي: حدثني الأزهري حدثنا سهل بن أحمد الديباجي حدثنا الصولي حدثنا الغلابي حدثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المكي حدثني المطلب بن عكاشة المزني قال: قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا شتم قريشا وتخطى إلى ذكر رسول الله ﷺ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه، فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال: إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عباس قال: من أراد هوان قريش أهانه الله، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن أردت ذلك من قريش حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ اضربوا عنقه. فما برحنا حتى قتل.

توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة. وصلى عليه أخوه هارون الرشيد ولي العهد، ودفن الهادي في قصر بناه وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد، وكان له من الولد تسعة، سبعة ذكور وابنتان، فالذكور جعفر وهو الذي كان رشّحه للخلافة، وعباس، وعبد الله، وإسحاق، وإسماعيل، وسليمان، وموسى الأعمى، الذي ولد بعد وفاته فسمي باسم أبيه. والبنتان هما أم عيسى التي تزوجها المأمون، والأخرى أم العباس تلقب نونة.

خلافة هارون الرشيد بن المهدي

بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادي، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان عمر الرشيد يومئذٍ ثنتين وعشرين سنة، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن، وقد كان الهادي عزم في تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد، فأخرجه الرشيد وكان ابنه من الرضاعة، وولاّه حينئذٍ الوزارة، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الإنشاء. وكان هو الذي قام خطيباً بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال له: قم يا أمير المؤمنين. فقال: كم تروعني، ولو سمع بهذا الكلام هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده؟ فقال له يحيى: قد مات الرجل. فجلس هارون فقال: أشر علي. فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد، فبينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال: هو عبد الله وهو المأمون. ثم أصبح فصلى على أخيه الهادي، ودفنه بعيساباذ، وحلف لا يصلي الظهر إلا ببغداد. فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي، فزاحموا هارون على جسر فقال أبو عصمة: قف حتى يجوز ولي العهد. فقال الرشيد: السمع والطاعة للأمير. فجاز جعفر ووقف الرشيد. فلما ولي أمر بقتل أبي عصمة، ثم سار إلى بغداد. فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال إني سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف، فلما كان من أيام بعث ورائي الهادي يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا. فغاصوا وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً.

ولما ولي الرشيد يحيى بن خالد الوزارة قال له: قد فوضت إليك أمر الرعية وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك، فول من رأيت واعزل من رأيت. ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي النّدى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي المشاورة في الأمور كلها لا يقطع أمراً يحيى بن خالد أمراً حتى يشاورهما فيها يبرمه ويحلّه ويمضيه ويحكمه.

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوي القربى أن يقسم في بني هاشم على السواء.

وفيها تتبع الرشيد خلقاً من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة.

وفيها خرج عليه بعض أهل البيت.

وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد بن زبيدة. وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة.

وفيها كمل بناء مدينة طرسوس على يدي فرج الخادم التركي ونزلها الناس.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وأعطى أهل الحرمين أموالاً كثيرة جداً، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضاً. وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر:

بهارون لاح النور في كل بلدة ... وقام به في عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغله ... وأكثر ما يعنى به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهه ... إذا ما بدا للناس منظره البلج
وإن أمين الله هارون ذا الندى ... ينيل الذي يرجوه أضعاف ما يرجو

وغزا الصائفة في هذه السنة سليمان بن عبد الله البكائي.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدي**. ويقال الفرهودي الأزدي اليحمدي، شيخ النحاة، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شميل، وغير واحد من أكابرهم، وهو الذي اخترع علم العروض. قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بحراً، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبب، وقد قال بعض الشعراء:

قد كان شعر الورى صحيحاً ... من قبل أن يخلق الخليل

وقد كان له معرفة بعلم النغم، وله فيه تصنيف أيضاً، وله كتاب «العين» في اللغة، ابتدأه وأكمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحابه، كمؤرج السدوسي، ونصر بن علي الجهضمي. فلم يناسبوا ما وضعه الخليل رحمه الله. وقد وضع ابن درستويه كتابا بيّن فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد.

وقد كان الخليل رجلا صالحاً عاقلا وقوراً كاملا، وكان متقللا من الدنيا، صبوراً على العيش الخشن الضيق، وكان يقول: لا يجاوز همي ما وراء بابي، وكان ظريفاً حسن الخلق.

وذكر أنه اشتغل عليه رجل في العروض قال: وكان بعيد الفهم. قال فقلت له يوماً: كيف تقطع هذا البيت؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته، ثم إنه نهض من عندي فلم يعد إلي، وكأنه فهم ما أشرت إليه. ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي ﷺ بأحمد سوى أبيه. رُوي ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم.

ولد الخليل سنة مائة من الهجرة. ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور، وقيل سنة ستين، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة. وهذا غريب جداً. والمشهور الأول والله أعلم

■ **الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم**، المصري المؤدب راوية الشافعي، وآخر من روى عنه. وكان رجلا صالحاً تفرس فيه الشافعي وفي البويطي والمزني وابن عبد الحكم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر رحمه الله.

ومن شعر الربيع هذا:

صبراً جميلا ما أسرع الفرجا ... من صدق الله في الأمور نجا
من خشي الله لم ينله أذى ... ومن رجا الله كان حيث رجا

[وهم المؤلف في ذكره هنا إنما مات سنة ٢٧٠هـ]

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فإنه روى عن الشافعي أيضاً، وقد مات في سنة ست وخمسين ومائتين رحمهما الله.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة.

وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه.

وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتل.

وفيها قدم روح بن حاتم إفريقية.

وخرجت أم أمير المؤمنين الخيزران إلى مكة فأقامت بها حتى شهدت الحج، وكان الذي حج بالناس عم الخلفاء عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.

وفيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موضعاً يسكنه غيرها فلم يبرح إلا أن تشوّش فيها ثم رجع.

وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم هارون الرشيد.

وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي:

■ محمد بن سليمان بالبصرة فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً جدّاً فقبضوه من الذهب والفضة والأمتعة التي يستعان بها على الحرب وعلى تقوّي المسلمين من العدد والبرك وغير ذلك.

وهو ■ محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وامه ام حسن بنت جعفر بن حسن بن حسن بن علي، وكان من رجالات قريش وشجعانهم. جمع له المنصور بين البصرة والكوفة، وزوجه المهدي ابنته العباسة، وكان له من الأموال شيء كثير، كان دخله في كل يوم مائة ألف. وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم ير مثله.

وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر وهو ابن عباس، حديثاً مرفوعاً في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه، ومسح رأس من له أب إلى مؤخره.

وقد وفد على الرشيد فهنّأه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً. ولما أراد الخروج خرج معه الرشيد يشيعه إلى كلواذى.

توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين سنة، وقد أرسل الرشيد من اصطفى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الدراهم ستين ألف ألف، خارجاً عن الأملاك والجواهر.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه:٨/٢٣٨] أن وفاته ووفاة الخيزران في يوم واحد، وقد وقفت جارية من جواريه على قبره فأنشأت تقول:

أمسى التراب لمن هويت مبيتا ... الق التراب فقل له حييتا

إنا نحبك يا تراب وما بنا ... إلا كرامة من عليه حثيتا

وفيها توفيت:

■ الخيزران جارية المهدي وأم أميري المؤمنين الهادي والرشيد، اشتراها المهدي وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين: موسى الهادي وهارون الرشيد. ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا لولادة بنت العباس العبسية، زوجة عبد الملك بن مروان، وهي أم الوليد وسليمان. وإلا لشاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد، ولدت لمولاها الوليد بن عبد الملك بن مروان: يزيد وإبراهيم. وكلاهما ولي الخلافة.

وقد روي من طريق الخيزران عن مولاها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «من اتقى الله وقاه الله كل شيء». ولما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبته إلا دقة ساقيها، فقال لها: يا جارية إنك لعلى غاية المنى لولا خموشة في ساقيك. فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً. وقد حجت الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب إليها وهي بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها يقول:

نحن في غاية السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب مانحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غيّب ونحن حضور

فأجدّوا في السير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته أو أمرت من أجابه:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... ق فكدنا وما فعلنا نطير

ليت أن الرياح كن يؤدين ... إليكم ما قد يُجنّ الضمير

لم أزل صبة فإن كنت بعدي ... في سرور فدام ذاك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة مائة وصيف، مع كل وصيف جام من فضة مملوء مسكاً، فكتبت إليه: إن كان ما بعثته ثمنا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت، وقد بخستنا في الثمن، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتني في المودة. وردت ذلك عليه، وقد اشترت الدار المشهوره بها بمكة المعروفة بدار الخيزران، فزادتها في المسجد الحرام.

وكان مغلّ ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفاً واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة. فخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يخب في الطين. فلما انتهى الى المقبرة أتي بماء فغسل رجليه ولبس خفاً وصلى عليها، ونزل في لحدها. فلما خرج من القبر أتي بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات. وأنشد الرشيد قول متمم ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران:

وكنا كندماني جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ومن توفي في هذه السنة:

■ غادر: جارية كانت لموسى الهادي، كان يحبها حباً شديداً جداً، وكانت تحسن الغناء جيداً، فبينما هي يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه، فسأله بعض الحاضرين: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: أخذتني فكرة أني أموت وأن أخي هارون يتولى الخلافة بعدي ويتزوج جاريتي هذه. ففداه الحاضرون ودعوا له بطول العمر. ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع في فكره فعوذه الرشيد من ذلك، فاستحلفه الهادي بالأيمان المغلظة من الطلاق والعتاق والحج ماشياً حافياً أن لا يتزوجها، فحلف له واستحلف

الجارية بالحج والعتاق فحلفت له، فلم يكن إلا أقل من شهر حتى مات، فلما كان بعد ذلك بعث الرشيد إليها يخطبها، فقالت: كيف بالأيمان التي حلفتها وحلفتها. فقال: أنا أكفر عني وعنك، فتزوجها وحظيت عنده جداً، حتى كانت تنام في حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها من منامها. فبينما هي ذات ليلة نائمة معه إذ انتبهت مذعورة تبكي، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين رأيت الهادي مولاي في منامي هذا وهو يقول:

أخلفت عهدي بعد ما	جاورت سكان المقابر
ونسيتي وحنثت في	أيمانك الكذب الفواجر
ونكحت غادرة أخي	صدق الذي سماك غادر
امسيت في أهل البلى	وغدوت في الحور الغرائر
لا يهنك الإلف الجديد	د ولا تدر عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا	ح وصرت حيث غدوت صائر

فقال لها الرشيد: إنما هذا أضغاث أحلام. فقالت: كلا والله يا أمير المؤمنين، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي. ثم ما زالت تضطرب وترتعد حتى ماتت قبل الصباح.

■ هيلانة جارية الرشيد، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لانه.

قال الأصمعي: وكان لها محباً، وكانت قبله ليحيى بن خالد بن برمك، فدخل الرشيد يوماً منزله قبل الخلافة فاعترضته في الطريق فقالت: أما لنا منك نصيب؟ فقال لها:وكيف السبيل إلى ذلك؟ فقالت: استوهبني من هذا الشيخ. فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها واسترثاها وكان من قوله فيها:

قد قلت لما ضمنوك الثرى	وجالت الحسرة في صدري
اذهب فلا والله لا سرني	بعدك شيء آخر الدهر

وقال العباس بن الأحنف في موتها:

يامن تباشرت القبور بموتها	قصد الزمان مساتي فرماك
أبغي الأنيس فما أرى لي مؤنساً	إلا التردد حيث كنت أراك
ملك بكاك وطال بعدك حزنه	لو يستطيع بملكه لفداك
تحمي الفؤاد عن النساء حفيظة	كي لا يحل حمى الفؤاد سواك

قال: فأمر له الرشيد بأربعين ألفاً، لكل بيت عشرة آلاف.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة

فيها وقعت عصبية بالشام وتخبيط بين أهلها.

وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه حي.

وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف فوقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين، وعمره إذ ذاك خمس سنين، فقال في ذلك سلم الخاسر:

قد وفق الله الخليفة إذ بنى	بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده	شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى	لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقد كان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون، ويقول: والله إن فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي. ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت، وإني لأقدم محمد بن زبيدة عليه وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك. ثم أنشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني	غلبت على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما	توزع حتى صار نهباً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه	وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح، في قول الواقدي.

وحج بالناس الخليفة هارون الرشيد.

وفيها سار يحيى بن عبد الله بن حسن إلى الديلم وتحرك هنالك.

وفيها توفي من الأعيان

■ شعوانة العابدة الزاهدة، كانت أمة سوداء كثيرة العبادة، روي عنها كلمات حسان، وقد سألها الفضيل بن عياض الدعاء فقالت: أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك؟ فشهق الفضيل ووقع مغشيا عليه.

و■ الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٧/٤]: كان مولى قيس بن رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمي، كان الليث إمام الديار المصرية ولد بقرقشندة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين. وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ونشأ بالديار المصرية.

وقال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٨/٤]: أصله من قلقلشندة وضبطه بلامين الثانية متحركة.

وحكى عن بعضهم أنه كان حنفي المذهب، وأنه ولي القضاء بمصر، وأنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة، وذلك غريب جداً.

وذكروا أنه كان يدخله من ملكه في كل سنة خمسة آلاف دينار.

وقال آخرون: كان يدخل له من الغلة في كل سنة ثمانون ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة.

وكان إماماً في الفقه والحديث والعربية.

قال الشافعي: كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه.

وبعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصفر لأجل جهاز ابنته، فبعث إليه بثلاثين حملا، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار. وبقي عنده بقية.

وحج مرة فأهدى له مالك طبقاً فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار.

وكان يهب الرجل من أصحابه من العلماء والعُبّاد الألف دينار وما يقارب ذلك.

وكان يخرج الى الإسكندرية في البحر هو وأصحابه في مركب ومطبخه في مركب. ومناقبه كثيرة جداً، وقد ذكرنا في «التكميل».

وحكى ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٨/٤] أنه سمع قائلٌ يقول يوم مات الليث:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريباً وقبر

فالتفتوا فلم يروا أحداً.

و[redacted] المنذر بن عبد الله بن المنذر القرشي: عرض عليه المهدي أن يلي القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم، فقال: إني كنت عاهدت الله أن لا إلي شيئاً، وأعيذ أمير المؤمنين بالله أن اخيس بعهدي. فقال له المهدي: آلله؟ قال: الله. قال: انطلق فقد أعفيتك.

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم، واتبعه خلق كثير وجم غفير، وقويت شوكته، وارتحل إليه الناس من الكور والأمصار، فانزعج لذلك الرشيد وقلق من أمره، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس والرُّويان وغير ذلك. فسار الفضل ابن يحيى إلى تلك الناحية في أبهة عظيمة، وكتب الرشيد تلحقه مع البرد في كل منزلة، وأنواع التحف والبر، وكاتب الفضل صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى بن عبدالله إليهم، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يعده ويمنيه ويؤمله ويرجيه، ويبسط أمله إن هو خرج إليه أن يقيم له العذر عند الرشيد. فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده. فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعاً عظيماً. وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم، منهم عبد الصمد بن علي، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز وتحفاً كثيرة جداً، فلما وصلت إلى الفضل بعثها بكمالها إلى يحيى بن عبد الله، فخرج يحيى بن عبد الله إليهم، فسار به الفضل فدخل به بغداد، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له العطاء، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة، بحيث إن يحيى بن خالد كان يتولى: خدمته بنفسه: وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى في الإصلاح بين العباسيين والفاطميين.

ففي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على سعيه هذا:

ظفرت فلا شلت يد برمكية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم
ومازال قدح الملك يخرج فائزاً لكم كلما ضمت قداح المساهم

قالوا: ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه، ويقال: إنه سجنه ثم استحضره الرشيد وعنده القاضيان محمد بن الحسن وأبو البختري وعنده الجماعات من الهاشميين وغيرهم، وأحضر الأمان الذي كان بعثه إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحيح هو؟ قال: نعم! فتغيظ الرشيد عليه. وقال أبو البختري: ليس وهو بصحيح فاحكم فيه بما شئت، ومزق الأمان. وبصق فيه أبو البختري، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال: هيه هيه، وهو يتبسّم تبسم المغضب، وقال: إن الناس يزعمون أنا سممناك. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبني وتحبسني؟ فرق له الرشيد، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرنك كلام هذا، فإنه عاص شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث. وقد أفسد علينا مدينتنا واظهر فيها العصيان فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائي وآباء هذا ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم والله يا أمير المؤمنين. لقد جاء إليَّ هذا حين قتل أخي محمد بن عبد الله فقال: لعن الله قاتله، وأنشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال: إن تحركت في هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال: فتغير وجه الزبيري وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة: إنه لكاذب في ذلك، وتنمّر الرشيد وقال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال: نعم. وأنشده منها جانباً. فازداد الزبيري في الإنكار، فقال له يحيى بن عبد الله: فقل: إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلني الله إلى حولي وقوتي. فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته. ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتلته، فالله أعلم.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله بن حسن وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بالشام بين النزارية، وهم قيس، واليمانية، وهذا كان أول بدو أمر العشرين بحوران، وهم قيس ويمن، أعادوا ماكانوا عليه في الجاهلية في هذا الأوان، فقتل منهم في بشر كثير.

وكان على نيابه الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى، وقيل عبد الصمد بن علي فالله أعلم.

وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندي بن شاهك أحد موالي ابي جعفر المنصور، وقد هدم سور دمشق حين هاجت الفتنة خوفاً من أن يتغلب عليها أبو الهيذام المري رأس القيسية، وقد كان سيندي هذا دميم الخلق.

قال الحافظ: وكان لا يحلف المكاري ولا الملاح ولا الحائك، يقول: القول قولهم، ويستخير الله في الجمال ومعلم الكتاب. وقد توفي سيندي سنة أربع ومائتين.

فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد ورؤوس الكتاب، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الشام، وحملوا جماعات من رؤوس الفتنة إلى دار السلام فرد الرشيد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
فصَبَّ موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لما أتى نسيجُ وحيده
هذا الجواد الذي بُذ كل جود بجوده

أعـــــداه جــــود أبيـــــه يحيـــى وجـــود جـــدوده
فجـاد موســـى بـــن يحيـــى بطـــــارف وتليــــده
ونـــال موســـى ذرى المجـــد وهـــو حشـــو مهـــوده
خصصتـــه بمديحـــي مشــــوره وقصيـــده
مـــن الـــبرامك عُـــودٌ لــه فـــاكرم بعـــوده
حـــووا علـــى الشـــعر طـــراً خفيفـــه ومديـــده

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خراسان وولاهـا حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس.

وفيها ولى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك نيابة مصر، جعفر فاستناب عليها عمر بن مهران، وكان شنيع الشكل، زريَّ الخَلْق، بيِّن الكِنْبة أحول، وما كان سبب ولاية الرشيد إياه الديار المصرية أن نائبها موسى بـن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد. فقال الرشيد: والله لأعزلنه ولأولين عليها أخسَّ الناس. فاستدعى عمر بن مهران هذا فـولاه عليها نيابة عـن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي فسار إليهـا عمر بـن مهـران على بغـل وغلامه أبو درة على بغل آخـر، فدخلها كذلك فـانتهى إلى مجلس نائبهـا موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو، فقال: ألك حاجة يا شيخ؟ قـال: نعم أصلح اللّه الأمير. ثم قام بالكتب، فدعها إليه، فلما قرأهـا قـال: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم! قال: لعن اللّـه فرعـون حـين قـال: ﴿أليـس لي ملك مصر﴾؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل عنها، وأقبل عمر بن مهران على عمله، وكان لايقبل شيئاً من الهدايا إلا مـا كـان ذهبـاً أو فضـة أو قماشـاً، ويكتب على كل هدية اسم مهديه، ثم إنه طالب بـالخراج وألحَّ عليهـم في ذلك، فشرع بعضهم في مما طلته فأقسم لا يماطله أحد إلا فعـل بـه وفعـل. فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، وكان يبعث ما جمعه الى بغداد، ومن ماطله بعثه الى بغداد. فتأدب الناس معه. ثم جاءهم القسط الثـاني فعجـز كثير منهـم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا، فإن كان نقـداً أداه عنهم، وإن كان براً باعه وأداه عنهم. وقال لهم: إني إنما ادخرت هـذا لكـم الى وقت حاجتكم. ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصـر ولم يفعـل ذلك أحد قبله. ثم انصرف عنها لأنه كان قد شـرط علـى الرشـيد أنـه إذا مهد البلاد وجبى الخراج، فذاك إذنه في الإنصـراف. ولم يكـن معـه بالديـار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه، وهو منفذ أموره.

وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً.

وفيها حجت زبيدة زوجة الخليفة ومعها أخوها، وكـان أمـير الحـج في هذه السنة سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عبـاس، كـان أمـيراً علـى مصر، توفي في شعبان، حكى عنه عبدالله بن وهب.

و■ إبراهيم ابن هرمة الشاعر، وهو إبراهيم بـن علـي بـن سـلمة بـن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهري المدني شاعر مُفْلِق، وفـد علـى المنصـور ببغداد في وفد أهل المدينة حين استوفدهم إليـه، فقدمـوا عليـه فجلسـوا إلى ستر دون المنصور، يرى الناس من ورائه ولا يرونه، وأبو الخصيب الحاجب واقف يقول: يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب، فيأمره فيخطـب، ويقـول: هذا فلان الشاعر فيستنشده. حتى كان من آخرهم ابن هرمة هـذا، قـال: فسمعته يقول: لامرحباً ولا أهلا ولا أنعم اللّه به عيناً. قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت واللّه نفسي، ثـم رجعـت إلى نفسـي هلكـت، ثـم استنشدني فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها:

سرى ثوبه عنـك الصِّبـا المتخـايل وقـرب للبـين الخليـط المزايـل

حتى انتهيت الى قولي:

فأمـا الـذي أمنتـه يـأمن الـردى وأمـا الـذي حـاولت بـالثكل ثـاكل

قال: فأمر برفع الحجاب فإذا وجهه كأنه فلقـة قمـر، فاستنشـدني بقيـة القصيدة وأمرني بـالقرب إليـه والجلـوس بـين يديـه، ثـم قـال: ويحـك يـا إبراهيم! لولا ذنـوب بلغتـني عنـك لفضلتـك علـى أصحـابك فـأقرَّ علـيَّ بذنوبك أعفها عنك، فقلت: هذا رجل فقيه عالم، وإنما يريد أن تقيلني بحجة تجب علي، فقلت: يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغك مما عنوته عني فأنا مقرُّبه. فتناول المخصرة فضربني بها ضربتين وأمر لي بعشـرة آلاف درهـم وخلعـة وعفا عنى وألحقني بنظرائي.

وكان من جملة ما ينقمه المنصور عليه قوله:

ومهمـــا الام علــى حبهــم فـــإني أحــــب بـــني فاطمـــه
بـــني بنـــت مـــن جـــاء بالمحكمـــا ت وبـــالدين والســـنة القائمـــه
فلســـت أبـــالي بحـــبي لهـــم ســـواهم مـــن النعـــم الســـائمه

قال الأخفش. قال لنا ثعلب قال الأصمعي: ختم الشعراء بـابن هرمـة وهو آخر المُجج.

ذكر وفاته في هذه السنة أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم [٢١/٩].

و■ الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح.

و■ سعيد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن جميل أبـو عبـد اللّـه المديـني، ولي قضاء بغداد سبع عشرة سنة بعسكر المهدي، وثقه ابن معين وغيره.

■ صالح بن بشير المرّي: أحد العباد الزهـاد، كـان كثـير البكـاء وكـان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري فيقول: هـذا نذيـر قـوم، وقـد اسـتدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء راكباً على حمـار فدنـا مـن بسـاط الخليفـة فـأمر المهدي ابنيه ـ وليَّي العهد موسى الهادي وهارون الرشيد، فـابتدراه، فـأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن كنت عملـت لهـذا اليـوم، إليه ليتزلاه. ثم جلس الى المهدي فوعظه فقال له: اعلم أن رسول اللّـه ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد ﷺ خصمـه كـان اللّـه خصمـه، فاعد لمخاصمة اللّه ومخاصمة رسوله ﷺ حججاً تضمن لـك النجـاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى يدَّعيه إلى اللّه قُربة، وأن أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخذهم بكتاب اللّـه وسـنة رسـوله ﷺ، في كلام طويل. فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه.

و■ عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. قـدم قاضياً بالعراق فمات في هذا العام.

و■ فرج بن فضالة الحمصي التوخي، كان على بيت المـال ببغـداد في خلافة الرشيد، فتوفي في هذه السـنة، وكان مولده سنة ثمان وثمانين فمـات وله ثمان وثمانون سنة.

ومن مناقبه أن المنصور دخل يومـاً إلى قصر الذهـب فقـام النـاس إلا الفرج بن فضالة فقال لـه وقـد غضـب عليه: لم لم تقـم؟ قـال: خفـت أن يسألني اللّه عن ذلك ويسألك لم رضيت وقد كرهه رسول اللّه ﷺ. قـال:

فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه.

و■ المسيب بن زهير بن عمرو أبو مسلم الضبي، كان والي الشرطة ببغداد في أيام المنصور والمهدي والرشيد، وولي خراسان مرة للمهدي. وكانت وفاته في هذه السنة عن ست وسبعين سنة.

و■ الوضاح بن عبد الله أبو عوانة اليشكري مولاهم، كان من أئمة المشايخ في الرواية. توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافاً إلى ما كان بيده من الأعمال بالري وسجستان وغير ذلك.

وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر المحرم من هذه السنة، وكذلك في أواخر صفر منها.

وحج بالناس وأمير المؤمنين هارون الرشيد.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ شريك بن عبد الله القاضي الكوفي النخعي، سمع أبا إسحاق السبيعي وغير واحد، وكان مشكوراً في حكمه وتنفيذه وتضمينه، وكان لايجلس للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من قمطره فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصوم إليه، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما في تلك الرقعة فإذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل. كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها.

و■ عبد الواحد بن زيد

و■ محمد بن مسلم

و■ موسى بن أعين.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاعة بعامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثمة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لإسحاق بن سليمان، فقاتلوهم حتى أذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم من الخراج والوظائف، واستمر هرثمة نائباً على مصر نحواً من شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبدالملك بن صالح.

وفيها وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب، فبعث إليهم الرشيد هرثمة فرجعوا إلى الطاعة على يديه.

وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها، ثم مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سنذكره.

وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة بها، وبنى فيها الربط والمساجد، وغزا ما وراء النهر. واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد، فكانوا يعرفون بها بالكرنبيَّة، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
حامٍ على ملك قوم عزَّ سهمهم ... من الوراثة في أيديهم سبب
أمست يد لبني ساقي الحجيج بها ... كتائب مالها في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت ... ما ألّف الفضل منها العجم والعربُ
أثبت خمس مئين في عدادهم ... من الألوف التي أحصت لها الكتبُ
يقارعون عن القوم الذين هم ... أولى بأحمد في القرآن إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لاوَرِقٌ ... يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له مذ شدَّ مئزره ... إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية في الندى والبأس أحرزها ... للطالبين مداها دونها تعب
يعطي اللُّهى حين لا يعطي الجواد لا ... ينبو إذا سُلّت الهنديّة القضب
ولا الرضى والرضى للّه غايته ... إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضبُ
قد فاض عرفك حتى مايعادله ... غيث مغيث ولا بحر له حدب

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان:

ألم تر أن الجود من لدن آدم ... تحدر حتى صار في راحة الفضل
إذا ما أبو العباس راحت سماؤه ... فيالك من هطل ويا لك من وَبْلُ
إذا أم طفل راعها جوع طفلها ... دعته باسم الفضل فاستطعم الطفلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عزه ... وإنك من قوم صغيرهم كهل

قال فأمر له بمائة ألف درهم. ذكر ذلك كله أبوجعفر بن جرير.

وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً:

وكيف تخاف من بؤس بدار ... تكنفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى ... نفير ما يوازنه نفير
له يومان يوم ندى وبأس ... كأن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكي غدا ابن عشر ... فهمته أمير أو وزير

وقد اتفق للفضل بن يحيى في هذه السفرة إلى خراسان أشياء غريبة، وفتح بلاداً كثيرة، منها كابل وما وراء النهر، وقهر ملك الترك هناك وكان ممتنعاً، وأطلق أموالا كثيرة جداً، ثم قفل راجعاً إلى بغداد، فلما اقترب منها خرج الرشيد ووجوه الناس إليه، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس، فجعل يطلق الألف ألف، والخمسمائة ألف ونحوها، وصرف من الأموال في ذلك شيئاً كثيراً جدّاً لا يمكن حصره إلا بكلفة عظيمة، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة مختومة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال:

كفى الله بالفضل بن يحيى بن ... وجود يديه بخل كل بخيل

فامر له بمال جزيل.

وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم. وغزا الشاتية سليمان بن راشد.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن

عباس وهو نائب مكة كرمها الله.

وفيها توفي

جعفر بن سليمان، وعبثر بن القاسم، عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد، وصلى عليه الرشيد ودفن بها، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فالله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمرو بن شرحبيل، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري.

وفيها عزل الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن الحجبة وردها إلى الفضل بن الربيع.

وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني، وكان من أمره ما سيأتي طرف من ذكره.

وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه، فقالت الفارعة في أخيها الوليد بن طريف ترثيه:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتىً لايحبُّ الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قناً وسيوف

وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد معتمراً شكراً لله عز وجل، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة، فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة.

وذكر من توفي فيها من السادة الأعيان

■ السيد الحميري الشاعر الرافضي

■ إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد، كان من الشعراء المشهورين والمبرزين في هذه الصناعة المفوهين، ولكنه كان رافضياً خبيثاً، وشيعياً غثياً، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة ـ أي بالدور .

قال يوماً لرجل: أقرضني ديناراً ولك عندي مائة دينار إذا عدنا إلى الدنيا. فقال له الرجل: إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي.

وكان قبحه الله يسب الصحابة في شعره ويشتم الخيرة.

قال الأصمعي: ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته، ولا سيما الشيخين وابنتيهما، رضي الله عنهم، ولعنه وأسحقه وأبعده .

وقد أورد ابن الجوزي [المنتظم:٩/٤٠] شيئاً من شعره في ذلك كرهت كتابته، وقد اسود وجهه قبل موته وأصابه كرب شديد جداً. ولما مات لم يدفنوه لسبه الصحابه رضي الله عنهم

وفيها توفي:

■ حماد بن زيد أحد أئمة الحديث.

و■ خالد بن عبد الله الطّحان، من سادات المسلمين، وشَرَى نفسه من الله أربع مرات.

و■ مالك بن أنس الإمام.

و■ الهقل بن زياد صاحب الأوزاعي.

و■ أبو الأحوص. وكلهم قد ذكرناهم في كتابنا التكميل. بما فيه مقنع وكفاية بما يغني عن ذكرهم هنا. ولكن الإمام مالك هو أشهرهم فإنه أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة فهو

■ مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خُثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح الحميري، أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه.

روى مالك عن غير واحد من التابعين، وحدث عنه خلق من الأئمة، منهم السفيانان، وشعبة، وابن المبارك، والأوزاعي، وابن مهدي وابن جريج والليث والشافعي والزهري شيخه، ويحيى بن سعيد الأنصاري وهو شيخه، ويحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن يحيى الأندلسي، ويحيى بن يحيى النيسابوري.

قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر.

وقال سفيان بن عيينة: ما كان أشد انتقاده للرجال.

وقال يحيى بن معين: كل من روى عنه مالك فهو ثقة، إلا أبا أمية.

وقال غير واحد: هو أثبت أصحاب نافع والزهري.

وقال الشافعي: إذا جاء الحديث فمالك النجم.

وقال أيضاً: من أراد الحديث فهو عيال على مالك.

ومناقبة وفضائله كثيرة جداً، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان.

قال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون اني اهل لذلك.

وكان إذا أراد التحديث تنظف وتطيب ولبس أحس ثيابه، وكان يلبس حسناً. وكان نقش خاتمه حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان إذا دخل منزله يقول: ما شاء الله لاقوة إلا بالله. وكان منزله مبسوطاً بأنواع الفُرش. ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يتردّد إلى أحد لا لعزاء ولا لهناء، حتى قيل: ولا يخرج إلى جماعة ولا جمعة، ويقول: ما كل ما يعلم يقال، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر رحمه الله شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ثم جعل يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد، ثم قبض في ليلة أربعة عشر من صفر، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة، وله خمس وثمانون سنة.

قال الواقدي: بلغ تسعين سنة ودفن بالبقيع.

وقد روى الترمذي [٢٦٨٠] عن سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن ابي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة رواية: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة» ثم قال: هذا حديث حسن وهو حديث ابن عيينة، وقد روي عن ابن عيينة أنه قال: هو مالك بن أنس. وكذا قال عبد الرزاق.

وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري. وقد ترجمه القاضي ابن خلكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمنية. فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفراً البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود، فدخل الشام

فانقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا رمحاً إلا استلبه من الناس، وأطفأ الله به نار تلك الفتنة.

وقد ذلك يقول بعض الشعراء في ذلك:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد تراضى به قحطانها ونزارها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى بن العكي، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه، وشرع جعفر يذكر كثرة وحشته له في الشام، ويحمد الله الذي من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه.

وفيها ولى الرشيد جعفراً خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة، ثم عزل الرشيد جعفراً عن خراسان بعد عشرين ليلة.

وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج هناك، وجعل الرشيد جعفراً على الحرس، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقين، وعزل هرثمة بن أعين عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس.

وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الإسكندرية.

وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي.

وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة لبسوا الحمرة واتبعوا رجلا يقال لهم: عمرو بن محمد العمركي، وكان ينسب إلى الزندقة، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل بمرو وأطفأ الله نارهم في ذلك الوقت.

وفيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم.

وحج بالناس موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان

■ إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري: قارىء أهل المدينة ومؤدب عليّ بن المهدي ببغداد. وقد أقام مدة ببغداد يؤدب عليّ بن المهدي في هذه السنة.

وفيها كانت وفاة

■ علي بن المهدي وقد ولي إمارة الحج غير مرة، كما تقدم وكان أسن من الرشيد بشهور.

■ حسان بن أبي سنان بن أبي أوفى بن عوف التوخي الأنباري، ولد سنة ستين، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء من نسله قضاة ووزراء وصلحاء، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية، وكان يعرّب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار.

وفيها توفي:

■ عبد الوارث بن سعيد التّنّوري أحد الثقات

و■ عافية بن يزيد بن قيس القاضي للمهدي على الجانب الشرقي من بغداد، هو وابن علاثة، وكانا يحكمان بجامع الرصافة، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً، دخل يوماً على المهدي في وقت الظهيرة فقال: يا أمير المؤمنين أعفني، فقال له المهدي: ولم؟ أعترض عليك أحد من الأمراء؟ فقال: لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدى إلي منه طبقاً لايصلح إلا لأمير المؤمنين، فرددته عليه، فلما أصبحا: وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندي في قلبي ولا نظري، ومال قلبي إلى المهدي منهما، هذا وما قبلت منه فكيف لو قبلت منه؟ فاعفني يا أمير المؤمنين عفا الله عنك فأعفاه. وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية القاضي وقد أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب الخليفة عما يسأله. وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية، فقال له الرشيد: لم لم تشمتني مع الناس؟ فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث في ذلك. فقال له الرشيد: ارجع لعملك فو الله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها. ثم رده رداً جميلا إلى ولايته.

وفيها توفي: -

■ سيبويه: إمام النحاة، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، المعروف بسيبويه النحوي، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل مولى آل الربيع بن زياد، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، ومعنى سيبويه رائحة التفاح، وقد كان في ابتداء أمره يصحب المحدّثين والفقهاء، وكان يستملي على حماد بن سلمة، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، ودخل بغداد وناظر الكسائي.

وكان سيبويه شاباً حسناً جميلا نظيفاً، وقد تعلق من كل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم، مع حداثة سنة وبراعته في النحو.

وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من جواهر حاصيله، ولم يبلغوا إلى قعره. وقد زعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه، وقد تساعد جماعة في تصنيفه نحو من أربعين نفساً هو أحدهم، وهو أصول الخليل، فادعاه سيبويه لنفسه. وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة. قال: وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب الأخفش وغيره وكتابه المشهور «بالكتاب» لم يُسبق إلى مثله، ولا يلحقه في أحد.

وكان سيبويه يقول: سعيد بن أبي العروبة، والعروبة يوم الجمعة، وكان يقول: من قال عروبة فقد أخطأ، فذكر ذلك ليونس فقال أصاب لله دره.

وقد ارتحل الى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فإنه كان يحب النحو فمرض هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت:

يؤمل دنيا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثاً يُروّي أصولَ الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

ويقال: إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكي فقال:

وكنا جميعاً فرق الدهر بيننا الى الأمد الأقصى فمن يأمن

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد:١٢/١٩٩]: يقال إنه توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة.

وفيها توفيت

■ **عفيرة العابدة**: كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء. قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي، فقيل لها: ليس هذا وقت بكاء! فقالت: لقد ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله، فمسرور ومثبور.

وفيها مات:

■ **مسلم بن خالد الزنجي** شيخ الشافعي. كان من أهل مكة، وقد تكلموا فيه لسوء حفظه.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة

فيها غزا أمير المؤمنين هارون الرشيد بلاد الروم فافتتح حصناً يقال له الصفصاف، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة:

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة.

وفيها تغلبت المحمِّرة على جرجان.

وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عز وجل.

وفيها حج بالناس الرشيد وتعجل في النفر، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بمكة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

■ **الحسن بن قحطبة** أحد أكابر الأمراء العباسية.

و■ **حمزة بن مالك**، ولي إمرة خراسان في أيام الرشيد.

و■ **خلف بن خليفة** شيخ الحسن بن عرفة عن مائة سنة.

و■ **عبد الله بن المبارك**: أبو عبد الرحمن المروزي، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم، وكانت أمه خوارزمية، ولد سنة ثمان عشرة ومائة.

وسمع إسماعيل بن خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحميداً الطويل، وغيرهم من أئمة التابعين.

وحدث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة، له التصانيف الحسان، والشعر المتضمن حكماً جمة، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العلم والعبادة، وربما أنفق من رأس المال.

قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا بصحبتهم رسول الله ﷺ.

وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم.

وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد. فلما دخلها وانجفل الناس إلى ابن المبارك وازدحم الناس حوله، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت: ما للناس؟ فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه. فقالت المرأة: هذا هو الملك، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة.

وخرج مرة الى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت فكشف عن أمرها وفحص، حتى سألها فقالت: أنا وأختي ههنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة. وقد حلت لنا الميتة، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل. فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عد منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع.

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم على الحج، فيأخذ نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا المناسك فيقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم شعثها، وإذا رجعوا إلى أوطانهم عمل وليمة بعد قدومهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل.

وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، يطعمه وهو صائم لله عز وجل في الحر الشديد.

وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون في غذائهم الشواء والفالوذج، وقد كان يكفيه قطعة. فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الشواء والفالوذج فلا بدّ من عشرة دراهم يا غلام: رده وادفع وأعطه عشرة دراهم.

وفضائله ومناقبه كثيرة جداً.

قال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله.

توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة.

و■ **مفضل بن فضالة** ولي قضاء مصر مرتين، وكان ديناً ثقة، سأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهبه، فكان بعد ذلك لايهنته عيش ولاشيء من الدنيا، فسأل الله أن يرده عليه فرده فرجع إلى حاله.

و■ **يعقوب التائب**: العابد الكوفي، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار: خرجت ذات ليلة وأنا أظن أني قد أصبحت، فإذا عليَّ ليل، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سولت لي نفسي، وغلبتني شقوتي، وغرني سترك المرخى عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي: يا ويلي كم أتوب وكم أعود، قد حان لي أن أستحي من ربي عز وجل. قال منصور فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

مَايُؤمَرونَ﴾ [التحريم ٦] قال: فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً فذهبت لحاجتي، فلما رجعت مررت بذلك الباب فإذا جنازة، فسألت عنه فإذا هو قد مات من سماع هذه الآية.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد ابن زبيدة الأمين وذلك بالرقة بعد مرجعه من الحج، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكي ثم أرسله إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له، وولاه خراسان وما يتصل بها، وسماه المأمون.

وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكي من مجاورته بمكة إلى بغداد.

وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف.

وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون وملكوا عليهم امه ريني وتلقب اغسطة.

وحج بالناس فيها موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس.

وفيها توفي من الأعيان

■ إسماعيل بن عياش الحمصي أحد المشاهير من أئمة الشاميين، وفيه كلام.

و■ مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور المشكور، كان يمدح الخلفاء والبرامكة.

و■ معن بن زائدة وكان قد تحصّل له حصل من الأموال شيء كثير جداً، وكان مع ذلك من أبخل الناس، لا يكاد يأكل اللحم من بخله، ولا يشعل في بيته سراجاً. ولا يلبس من الثياب إلا الكرباس والفرو الغليظ، وكان رفيقه سلم الخاسر إذا ركب الى دار الخلافة يأتي على برذون وبدلة سنية تساوي ألف دينار، والطيب ينفح من ثيابه، ويأتي مروان في شر حالة وأسوئها.

وخرج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لي منه شيئاً. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك.

والقاضي أبو يوسف: هو

■ يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة، وهي امه، وأبوه بَحير بن معاوية، وسعدٌ هذا له صحبة استصغر يوم أحد، وأبو يوسف القاضي هذا كان أكبر أصحاب أبي حنيفة رحمه الله.

روى الحديث عن الأعمش وهشام بن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم.

وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني امي إلى قصار فكنت أمر على حلقه أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك قالت أمي لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد افسدته علي. فقال لها: اسكتي يا رعناء. ها هو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق فقالت له: إنك شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء ـ وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستتيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة.

قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتي بفالوذج وكنت لا أعرفها فقال لي: كل من هذا، فإنه لايصنع لنا كل وقت. فقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال: فتبسمت فقال: مالك تبسم؟ فقلت: لاشيء أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة من أولها فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة ـ فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه.

وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه.

وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث.

وقال عليّ بن المديني: كان صدوقاً.

وقال ابن معين: كان ثقة.

وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم.

وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال: القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته.

ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من طلب المال بالكيماء أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب. ومن طلب العلم بالكلام تزندق.

ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقوله عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم تكن الخضراوات في زمن الخلفاء الراشدين. فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. وهذا انصاف.

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم، حتى إن أحمد بن حنبل كان شاباً وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون، وهو مع ذلك يحكم ويصنِّف أيضاً.

وقال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولاميل إلى أحد، إلا يوماً واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين، فدخلت الى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه. فأحضره فادعى بالبستان فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: هو بستاني. فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب. فقال الرجل: يحلف، فقلت، اتحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك. فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان للمدعي. قال: فكنت في أثناء الخصومة أودُ أن تنفصل ولم يمكني أن أُجلس الرجل مع الخليفة. وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل.

وروى المعافى بن زكريا الجريري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي أسحاق الموصلي عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف. قال: بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش، إذا رسول الخليفة يطرق الباب، فخرجت منزعجاً فقال: أمير المؤمنين يدعوك، فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى بن جعفر فقال لي الرشيد: إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل، أو يبعنيها، فلم يفعل، وإني أشهدك إن لم يجبني إلى ذلك قتلته. فقلت لعيسى: لم لم تفعل؟ فقال: إني حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالي كله أن لاأبيعها ولاأهبها. فقال لي الرشيد: فهل له من مخلص؟ فقلت: نعم يبيعك

نصفها ويهبك نصفها. فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية، فلما رآها الرشيد قال: هل لي من سبيل عليها الليلة؟ قلت: إنها مملوكة ولا بد من استبرائها، إلا أن تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لاتستبرأ. قال: فأعتقها وزوجتها منه بعشرين ألف دينار، وأمر لي بمائتي ألف درهم وعشرين تختاً من ثياب، وأرسلت اليّ الجارية بعشرة آلاف دينار.

وقال يحيى بن معين: كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب دَبيقيٍّ وطيب وتماثيل ند وغير ذلك، فذاكرني رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف: إنما ذاك في الأقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا ما ترون، ياغلام شِلْ الى الخزائن.

وقال بشر بن غياث المريسي: سمعت أبا يوسف يقول: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت عليَّ الدنيا سبع عشرة سنة، وما أظن أجلي إلا قد اقترب. كان شهور حتى مات.

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة، وقد مكث في القضاء ست عشرة سنة وولي القضاء من بعده ولده يوسف. وقد كان نائبه على الجانب الغربي من بغداد. ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبدالله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك، إنما ورد الشافعي بغداد في أول قدمة قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شنآن كما يذكره بعض من لاخبرة له في هذا الشأن والله أعلم.

وفيها توفي:

■ يعقوب بن داود بن طهمان: أبو عبد الله مولى عبد الله بن خازم السلمي، استوزره المهدي، وسلم إليه أزمة الأمور وحظي عنده جداً، ثم لما أمره بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأرسله ونمّت عليه تلك الجارية وتحقق أنه لم يفعل سجنه المهدي في بئر وبنيت عليه قبة، ونبت عليه شعر كما ينبت شعر الأنعام، وعمي، ويقال بل عشي بصره، ومكث نحواً من خمسة عشرة سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يعلمونه بذلك، ويدلى إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء، فمكث كذلك حتى انقضت أيام المهدي وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد، قال يعقوب: فأتاني آت في منامي فقال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه　　يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان　　ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة، ودلي إليّ حبل وقيل لي: اربط هذا الحبل في وسطك، فأخرجوني، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً، وأوقفت بين يدي الخليفة، فظننته المهدي فسلمت عليه أنه المهدي، فقال: لست به، فقلت الهادي؟ فقال: لست به. فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد. فقال: نعم ثم قال: والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد، ولكني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك. ثم أنعم عليه وأحسن إليه. فغار منه يحيى بن خالد بن برمك، وخشي أن يعيده إلى المنزلة التي كان عليها أيام المهدي، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب الى مكة فأذن له، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله.

ويزيد بن زريع أبو معاوية العيشي، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة ألف درهم، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً، وكان يعمل الخوص ويأكل منه. توفي بالبصرة في هذه السنة، وقيل قبل ذلك فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

فيها خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية فعاثوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، وانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد في جيوش كثيفة إلى تلك البلاد، فأصلحوا ما وقع فيها من العيث والفساد.

وحج بالناس العباس بن موسى الهادي.

وفيها توفي من الأعيان

■ علي بن الفضيل بن عياض في حياة أبيه. كان كثير العبادة والورع والخوف.

و■ محمد بن صبيح أبو العباس مولى بني عجل المذكّر، ويعرف بابن السماك.

روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم.

ودخل يوماً على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين: إن لك بين يدي الله موقفاً فانظر أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت.

و■ موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الهاشمي، ويقال له: الكاظم. ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وكان كثير العبادة والمروءة، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالتحف والذهب، ولد له من الذكور والإناث أربعون نسمة. وأهدى له مرة عبد عصيدة فاشتراه واشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه، ووهبها له.

وقد استدعاه المهدي الى بغداد فحبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له: يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلا فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال: صدقت، وأمر له بثلاثة آلاف دينار، وأمر به فرد الى المدينة، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فحج، فلما دخل ليسلم على قبر النبي ﷺ ومعه موسى بن جعفر فقال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن‌عم. فقال موسى: السلام عليك يا أبه. فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسن. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وسبعين وسجنه فأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لن ينقضيَ عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون.

توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور.

■ هُشَيم بن بشير بن أبي خازم القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباخاً للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الصَّحناةَ والكوامخ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على صناعته، فأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أن هُشيماً مرض فجاءه أبو شيبة قاضي واسط ليعوده ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال له: يا بني أبلغ من أمرك أن جاء القاضي الى منزلي؟ لا امنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث.

كان هو من سادات العلماء، وحدث عنه مالك وشعبة والثوري وأحمد بن حنبل وخلق سواهم، وكان من الصلحاء العباد. ومكث يصلي الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت عشر سنين.

و■ يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قاضي المدائن، كان من الأئمة الثقات.

و■ يونس بن حبيب أحد النحاة النجباء، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وأخذ عنه الكسائي والفراء، وقد كانت له حلقة بالبصرة يتنابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والعرب. توفي في هذه السنة عن ثمان وتسعين سنة.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذي عليهم، وولى رجلا يضرب على ذلك ويحبس، وولى على أطراف البلاد. وعزل وقطع ووصل.

وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشاري فبعث إليه الرشيد من قتله بشهرزور.

وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس العباسي.

ومن توفي من الأعيان

■ (أحمد بن الرشيد)

أحمد ابن أمير المؤمنين الرشيد: كان زاهداً عابداً قد تنسك، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه، يعمل في الطين، وليس يملك الا مرّاً وزنبيلا - أي مجرفة وقفة - وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط، ثم يُقبل على العبادة بقية أيام الجمعة، وكان لايعمل إلا في يوم السبت فقط. ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة. وكان من زبيدة في قول بعضهم، والصحيح أنه من امرأة غيرها كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام، ثم أحدرها الى البصرة وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر، وأشياء منها نفيسة، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه. فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها،، وبلغه أنهما ماتا، ولم يكن كذلك،، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها، فاتفق مرضه في دار من كان يستعمله في الطين فمرضه عنده، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل: اذهب بهذا الى الرشيد وقل له: صاحب هذا الخاتم يقول لك: إياك أن تموت في سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه، واحذر انصرافك من بين يدي الله الى الدارين، وأن يكون آخر العهد بك، فإن ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك، وسيصير الى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى.

قال: فلما مات دفنه وطلب الحضور بين يدي الخليفة، فقال: ما حاجتك؟ قلت: هذا الخاتم دفعه اليّ رجل وأمرني أن أدفعه إليك، وأوصاني أن أقول كلاماً، فلما نظر عرفه فقال: ويحك وأين صاحب هذا الخاتم؟ قال فقلت: مات يا أمير المؤمنين، ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق، أو بدرهم ودانق، يتقوت به سائر أيام الجمعة، ثم يقبل على العبادة. قال: فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول: والله لقد نصحتني يا بني، ثم بكى، ثم قال: أتعرف قبره؟ قلت: نعم! قال: إذا كان العشي فائتني، قال: [illegible]يته فذهب الى قبره فلم يزل يبكي عنده حتى أصبح، ثم أمر لذلك [illegible]رجل بعشرة آلاف درهم. وكتب له ولعياله رزقاً.

■ عبد الله بن مصعب: بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي، والد بكار. ألزمه الخليفة الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط عدة اشترطها، فأجابه إلى ذلك، ثم أضاف إليه نيابة اليمن، فكان من أعدل الولاة، وكان عمره يوم توفي نحواً من سبعين سنة.

■ عبد الله بن عبد العزيز العمري: أدرك أبا طوالة. وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد، وكان عابداً زاهداً، وعظ الرشيد يوماً فأطنب وأطيب. قال له وهو واقف على الصفا: أتنظر كم حولها من الناس؟ فقال: بشر كثير. فقال: كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تسأل عنهم كلهم. فبكى الرشيد بكاء كثيراً، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل للدموع. ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليسرع في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يُسرع في أموال المسلمين كهلم؟ ثم تركه وانصرف والرشيد يبكي. وله معه مواقف محمودة في غير هذا الموضع. توفي عن ست وستين سنة.

و■ محمد بن يوسف بن معدان: أبو عبد الله الأصبهاني، أدرك التابعين، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة. كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد.

وقال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت أفضل منه، وكان كأنه قد عاين.

وقال ابن مهدي:ما رأيت مثله قالوا لا يشتري زاده من خباز واحد، ولا من بقال واحد، كان لا يشترى إلا ممن لا يعرفه، يقول: أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه. وكان لايضع جنبه للنوم صيفاً ولاشتاء. ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متوليهم مهرويه الرازي، فولى الرشيد عليهم عبدالله بن سعيد الحرشي.

وفيها قتل عبد الرحمن الأبناري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج القلعة.

وفيها عاث حمزة الشاري باذغيس من خراسان، فنهض عيسى بن علي بن عيسى الى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم، وسار وراء جيش حمزة الى كابل وزابلستان.

وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوي أمره.

وفيها توفي

■ يزيد بن مزيد ببرذعة، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن يزيد.

واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له، فاعتمر في رمضان ثم رابط بجُدَّه الى وقت الحج فحج مع الناس.

وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **عبد الصمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي:** عم السفاح والمنصور. ولد سنة أربع ومائة، وكان ضخم الخلق جداً ولم يبدل أسنانه، وكانت أصولها صفيحة واحدة. قال يوماً للرشيد: يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين، وعم عمه، وعم عم عمه، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان، وعبد الصمد بن علي عم السفاح. وتلخيص ذلك أن عبد الصمد عم عم عم الرشيد لأنه عم جده.

روى عبدالصمد عن أبيه عن جده عبد اللّه بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن البر والصلة ليطيلان الأعمار، ويعمران الديار، ويثريان الأموال، ولو كان القوم فجاراً».

وبه أن رسول اللّه ﷺ قال «إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة» ثم تلا رسول اللّه ﷺ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. [الرعد: ٢١] وغير ذلك من الأحاديث.

و■ **محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس**، المعروف بالإمام، كان على إمارة الحاج، وإقامة شعائر الحج في خلافة المنصور عدة سنين. توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من هذه السنة. ودفن بالعباسية.

وفيها توفي من مشايخ الحديث:

■**ضمام بن إسماعيل، وعمر بن عبيد. والمطلب بن زياد. والمعافى بن عمران. في قول. ويوسف بن الماجشون.**

و■ **أبو إسحاق الفزاري** إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة.

■ **رابعة العدوية:** هي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك، العدوية البصرية العابدة المشهورة، ذكرها القشيري في الرسالة وأبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في صفة الصفوة، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف. وأثنى عليها أكثر الناس، وتكلم فيها أبو داود السجستاني، واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر. وأنشد لها السهروردي في المعارف:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقد ذكر لها أحوال وأعمال صالحة، وصيام نهار وقيام ليل، ورئيت لها منامات صالحة فاللّه سبحانه وتعالى أعلم. توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصيب الى نسا فقاتله بها، وسبى نساءه وذراريه. واستقامت خراسان.

وحج بالناس فيها أمير المؤمنين هارون الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين، وعبد اللّه المأمون، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار، وذلك أنه كان يعطي ثم يذهب الناس من بعده إلى ولده محمد الأمين فيعطي، ثم يذهبون إلى ولده عبد اللّه المأمون فيعطي.

وكان إلى الأمين ولاية الشام والعراق، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق. ثم بايع الرشيد لولده القاسم من بعد أخويه، ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان الباعث له على ذلك ان ابنه القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح، فلما بايع الرشيد لولديه الأمين والمأمون كتب إليه:

يا أيها الملك الذي ... لو كان نجماً كان سعدا
اعقد لقاسم بيعة ... واقدح له في الملك زندا
فاللّه فرد واحد ... فاجعل ولاة العهد فردا

ففعل الرشيد ذلك، وقد حمده قوم على ذلك، وذمه آخرون. ولم يتنظم للقاسم هذا أمر، بل اخترمته الأقدار عن بلوغ والأوطار.

ولما قضى هارون الرشيد حجه ومناسكه أحضر من معه من الأمراء والوزراء، وأحضر وليي العهد محمداً الأمين وعبد اللّه المأمون. وأشهد على كلٍّ منهما السمع والطاعة لأخيه، وألاّ ينازعه ما ولاّه اللّه من ذلك وكتب بمضمون ذلك صحيفة. وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة عليها بذلك، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فقيل: هذا أمر سريع انتقاضه. وكذا وقع كما سيأتي بيانه.

وقال إبراهيم الموصلي في عقد هذه البيعة في الكعبة:

خير الأمور مغبة ... وأحق أمر بالتمام
أمر قضى أحكامه الر ... حمن في البلد الحرام

وقد أطال القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزي في المنتظم.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **أصبغ بن عبد العزيز** بن مروان بن الحكم أبو زبّان في رمضان منها.

و■ **حسان بن إبراهيم** قاضي كرمان عن مائة سنة.

و■ **سلم الخاسر الشاعر:** وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى به ديوان شعر لامرىء القيس وقيل للاعشى، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب وقد كان شاعراً منطبقاً له قدرة على الإنشاء على حرف واحد، فمن ذلك قوله لموسى الهادي:

موسى المطر ... غيث بكر
ثم انهمر ... كم اعتسر
ثم ايتسر ... وكم قدر
ثم غفر ... عدل السير
باقي الأثر ... خير البشر
فرع مضر ... بدر بدر
لمن نظر ... هو الوزر

لمـــن حضــــر والمفتخـــــــر

لمـــن غــــبر والجنـــــــبر

لمـــن عـــشر

وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق، وأنه كان من تلاميذ بشار بن برد، وأن نظمه أحسن من نظم بشار، فمما غلب فيه بشاراً قوله:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فقال سلم:

من راقب الناس مات غمّا وفاز باللذة الجسور

فغضب بشار وقال: أخذ معاني فكساها ألفاظاً أخف من ألفاظي.

وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحو من أربعين ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك. ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي السمراء الغساني، فغنى إبراهيم الموصلي الرشيد يوماً فاطربه فقال له: سل فقال: يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً لا أرزؤك. قال: وما هو؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر، وأنه لم يترك وارثاً. فأمر له بها. ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار.

■ العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد، كان من سادات قريش، ولي إمارة الجزيرة في أيام الرشيد، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلاف ألف درهم، وإليه تنسب العباسية، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة وصلى عليه الأمين.

■ يقطين بن موسى: كان أحد الدعاة الى دولة بني العباس، وكان داهية ذا رأي، وقد احتال مرة حيلة عظيمة وذلك حين حبس مروان الحمار إبراهيمَ بن محمد بحرّان، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يكون ولي الأمر من بعده فذهب يقطين هذا الى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال: يا أمير المؤمنين إني قد بعت بضاعة من رجل ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك فحبسوه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالي. قال: نعم! فارسل به إليه مع غلام، فلما رآه قال: يا عدو الله الى من تركت بعدك آخذ مالي منه؟ فقال: الى ابن الحارثية ـ يعني أخاه عبد الله السفاح ـ فرجع يقطين الى الدعاة الى بني العباس فأعلمهم بما قال، فبايعوا السفاح، وكان ما قد كان.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

مهلك البرامكة

فيها كان مقتل الرشيد، جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ودمار ديارهم واندثار آثارهم، وذهاب صغارهم وكبارهم، وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها أبوجعفر بن جرير وغيره من علماء التاريخ فمما قيل: إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن الى جعفر البرمكي فسجنه عنده، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه جعفر، فنمّ الفضل بن الربيع على جعفر في ذلك فقال له الرشيد: ويلك لا تدخل بيني وبين جعفر، فلعله قد أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر. ثم سأل الرشيد جعفراً عن ذلك فصدقه الحال فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه، وكره البرامكة، ومقتهم وقلاهم بعد ذلك، بعدما كانوا أحظى الناس عنده، وأحبهم إليه.

وكانت أم جعفر والفضل أمه من الرضاعة. وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء، بحيث إن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد.

ويقال: إن الرشيد كان لا يكاد يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولابستان إلا قيل هذا لجعفر، وقيل: إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة. وقيل إنما قتلهم بسبب العباسة. ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره.

وذكر ابن الجوزي [المنتظم: ١٣٢/٩] أن الرشيد سئل عن السبب الذي من أجله أهلك البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته.

وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى إنه كان ربما دخل عليه وهو في الفراش مع حظاياه ـ وهذه وجاهة عظيمة ومنزلة عالية ـ وكان من أحظى العشراء على الشراب ـ فإن الرشيد كان يستعمل في أواخر أيام ملكه المسكر ـ وكان أحب أهله إليه أخته العباسة بنت المهدي، وكان يحضرها معه، وجعفر البرمكي حاضر أيضاً، فزوجه بها ليحل له النظر إليها، واشترط عليه أن لا يطأها. وكان الرشيد ربما قام وتركهما وهما ثملان من الشراب فربما واقعها جعفر فاتفق حملها منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواريها الى مكة، وكان يربى بها.

وذكر القاضي ابن خلكان في الوفيات [٣٣٣/١، ٣٣٤ صفة أخرى] في مقتل جعفر وذلك أنه لما زوج الرشيد جعفراً من العباسة أحبته حباً شديداً، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفا من الرشيد، فاحتالت عليه ـ وكانت أمه تهدي إليه في كل ليلة جمعة جارية حسناء بكراً ـ فقالت لأمه: ادخليني عليه في صفة جارية. فهابت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك. فلما دخلت عليه وكان لم يتحقق وجهها من مهابة الرشيد فواقعها فقالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك فقال: ومن أنت؟ فقالت: أنا العباسة وحملت من تلك الليلة، فدخل على أمه فقال لها: بعتيني والله برخيص. ثم إن والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقة حتى شكت زبيدة ذلك الى الرشيد مرات، ثم أفشت له سر العباسة، فاستشاط غضباً، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به الى مكة حج عامة ذلك حتى تحقق الأمر. ويقال: إن بعض الجواري نمّت عليها الى الرشيد وأخبرته بما وقع من الأمر، وأن الولد بمكة وعنده جوار ومعه أموال وحلي كثير. فلم يصدق حتى حج في السنة الحالية، ثم فكشف عن الحال، فإذا هو كما ذكرت تلك الجارية.

وقد حج في هذه السنة يحيى بن خالد الوزير وقد استشعر الغضب من الرشيد، فجعل يدعو عند الكعبة: اللّهم إن كان يرضيك عني سلب مالي وولدي وأهلي فافعل ذلك بي وأبق عليّ منهم الفضل، ثم خرج. فلما كان عند باب المسجد رجع فقال: اللّهم والفضل معهم فإني راضٍ برضاك عني ولا تستثن منهم أحداً.

فلما قفل الرشيد من الحج صار الى الحيرة ثم ركب في السفن الى الغمر من أرض الأنبار، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أعني سنة سبع وثمانين أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً، فدخل عليه مسرو الخادم وعنده بختيشوع المتطبب، وأبو زكّار الأعمى المغني الكلوذاني، وهو في أمره،

وأبو زكّار يغنيه:

فـلا تبعـد فكـلُّ فتـىً سـيأتي		عليـه المـوت يَطْـرقُ أو يغـادي

فقال الخادم له: يـا أبا الفضل هـذا الموت قـد طرقـك، أجب أمير المؤمنين. فقام إليه فقبّـل قدميـه ودخل عليـه أن يدخـل إلى أهلـه فيوصـي إليهم، فقال: أما الدخول فلا سبيل إليه. فأوصى جعفر وأعتـق جماعـة مـن مماليكه وجـاءت رسـل الرشيد تستحثه فـأخرج إخراجـاً عنيفـاً، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذي فيـه الرشيد، فحبسه وقيـده بقيد حمار، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل، فأمر بضرب عنقه، فجاء السياف الى جعفر فقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن آتيه برأسك. فقال: يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران، فإذا صحا عـاتبك علـى ذلـك، فعـاوده. فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين: لعلك مشغول. فقال: ويحك يا ماص بظر أمه ائتني برأسه. فكرر عليه جعفر المعاودة، فقال له: برئت من المهـدي لئـن لم تـأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه. فرجع الى جعفر فحز رأسـه وأتـى به الى الرشيد فألقاه بين يديه، وأرسل الرشيد من ليلتـه البـرد في الاحتيـاط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها، ومن كان منهم بسبيل. فأخذوا كلهـم عن آخرهم. فلم يفلـت منهـم أحـد. وحبـس يحيـى بـن خـالد في منزلـه، وحبس الفضل بن يحيى في منزل آخر وأخـذ جميـع مـا كـانوا يملكونـه مـن الأموال والموالي والحشم والخدم وبعـث الرشيد بـرأس جعفـر وجثتـه ثـم قطعت باثنين فنصب الرأس عند الجسر الأعلى، وشـق الجثة عنـد الجسر الأسفل، وشقها الآخر عند الجسر الآخر، ثم أحرقت بعد ذلك. ونودي في بغداد: أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه استثناه من البرامة لنصحه الخليفة.

وأتى الرشيد بأنس بن أبي شيخ وكان يتهم بالزندقـة، وكـان مصاحبـاً لجعفر بن يحيى البرمكي وذلك ليلة قتـل جعفـر، فـدار بينـه وبـين الرشـيد كلام، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفا وأمر بضرب عنقه به. وجعل يتمثل ببيت قيل في أنس قبل ذلك:

تلمظ السيف مـن شـوق إلى أنـس		فالسـيف يلحـظ والأقـدار تنتظـر

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد: رحم الله عبد الله بن مصعب، فقال النـاس: إن السـيف كـان للزبـير بـن العـوام. وشـحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها.

وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل في آخره جعفراً، هو وإيـاه راكبـين في الصيد، وقد خلا بـه دون ولاة العهـود، وطيبـه في ذلـك اليـوم بالغاليـة بيده، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال: لولا أن الليلـة ليلة خلوتي بالنساء ما فارقتك، فاذهب الى منزلك واشرب واطرب لتكـون على مثل حالي. فقـال: واللّـه ياأمير المؤمنين لا أشـتهي ذلـك إلا معـك. فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره. وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة مـن المحـرم، وقيل إنها كانت مستهلّ صفر سنة سبه وثمانين، وكان عمر جعفـر إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة، ولما جاء الخبر الى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال: قتل اللّه ابنه. ولما قيل له: قد خربت دارك قال: خرب اللّه داره. ويقال: إن يحيى لما نظر الى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها، وانتهـب مـا فيهـا. قال: هكذا تقوم الساعة.

وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما وقع، فكتب جواب التعزية:أنا بقضاء اللّه راض، وبالخيار عالم، ولا يؤاخذ اللّـه العبـاد إلا بذنوبهـم، ومـا اللّه بظلام للعبيد. وما يغفر اللّه أكثر وللّه الحمد.

وقد أكثر الشعراء من المراثي في البرامكـة فمـن ذلـك قـول الرقاشي، ويُذكر أنها لأبي نواس:

الآن اسـترحنا واسـتراحت ركابنـا		وأمسك من يجدى ومن كـان يجتـدي

فقل للمطايا قـد أمنـت مـن السُّرى		وطـي الفيـافي فدفـداً بعـد فدفـد

وقـل للمنايـا قـد ظفـرت بجعفـر		ولـن تظفـري مـن بعـده بمسـوّد

وقل للعطايـا بعـد فضـل تعطلـي		وقـل للرزايـا كـل يـوم تجـددي

ودونـك سـيفاً برمكيـاً مهنّـداً		أصيـب بسـيف هـاشمي مهنّـد

وقال الرقاشي، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعة مصلوب:

أمـا واللّـه لـولا خـوف واش		وعـين للخليفـة لا تنـام

لطفنـا حـول جذعـك واسـتلمنا		كمـا للنـاس بـالحجر اسـتلام

فما أبصرت قبلـك يـا بـن يحيـى		حسـاماً فلـه السـيف الحسـام

علـى اللـذات والدنيـا جميعـاً		ودولـة آل برمـك السـلام

قال فاستدعا به الرشيد وقال له: كم كان يعطيك جعفر كل عام؟ قال: ألف دينار. فأمر له بألفي دينار.

وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قـال: لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى وقفت امرأة على حمار فاره فقالت بلسان فصيح: واللّـه يـا جعفر لئن صرت اليوم آية فلقد كنت في المكارم غاية، ثم أنشأت تقول:

ولما رأيت السـيف خـالط جعفـراً		ونـادى منـاد للخليفـة في يحيـى

بكيـت علـى الدنيا وأيقنـت أنمـا		قصارى الفتى يوماً مفارقـة الدنيـا

ومـا هـي إلا دولـة بعـد دولـة		تخـوّل ذا نعمـى وتعقـب ذا بلـوى

إذا أنزلـت هـذا منـازل رفعـة		مـن الملك حطـت ذا إلى الغايـة

قال: ثم حركت حمارها فكأنها كانت ريحاً لا أثر لهـا، ولا يعـرف أيـن ذهبت.

وذكر ابوالفرج بن الجوزي في كتابه المنتظم [١٣٠/٩] أن جعفراً كان له جارية يقال لها فتفنة مغنية، لم يكن لها في الدنيا نظير، وكـان مشتراها عليه بمن معها من الجواري مائة ألف دينار، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلـك، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرهـا ليلـة في مجلس شرابه وعنـده جماعـة مـن جلسائه وسمّاره، وأحبابه فـأمر مـن معها أن يغنـين فاندفعت كل واحدة تغني، حتى انتهـت النوبـة الى فتفنـة، فأمرهـا بالغنـاء فأسبلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا. فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقـد وهبهـا لـه، ثـم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه: لاتطأها. ففهم أنـه يريـد بذلـك كسرها. فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهـر أنـه قـد رضـي عنهـا وأمرهـا بالغنـاء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا. فغضب الرشيد أشـد من الأول وقال: النطع والسيف، وجاء السياف فوقف علـى رأسـها وقـال له: إذا أمرتك ثلاثاً وعقدت أصابعي ثلاثا فاضرب. ثم قال لها غني فبكـت وقالت: أما بعد السادة فلا. فعقد أصبعه الخنصر، ثم أمرها الثانية فامتنعت، فعقد اثنتـين، فـارتعد الحـاضرون وأشـفقوا غايـة الإشـفاق وأقبلـوا عليهـا يسألونها أن لا تقتل نفسها، وأن تجيب أمير المؤمنين الى ما يريـد منهـا. ثـم أمرها الثالثة فاندفعت تغني:

لما رأيت الديار وقد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

قال: فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر، وأقبلت الدماء وتطايرنا من حولها، وحملت الجارية من بين يديه فماتت بعد ثلاث.

وروي أن الرشيد كان يقول: لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رخاء، ووددت والله أني شوطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على أمرهم.

وحكى ابن خلكان أن جعفراً اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار، فالتفتت إلى بائعها وقالت له: اذكر العهد الذي بيني وبينك، لا تأكل من ثمني شيئاً. فبكى سيدها وقال: اشهدوا أنها حرة، وأني قد تزوجتها. فقال جعفر: اشهدوا أن الثمن له أيضاً.

قال: وكتب إلى نائب له: أما بعد فقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما أن تعدل، وإما أن تعتزل.

ومن أحسن ما وقع منه من التلطف في إزالة هم الرشيد، وقد دخل عليه منجم يهودي فأخبر أنه سيموت في هذه السنة، فحمل الرشيد هماً عظيماً،فدخل جعفر فسأل: ما الخبر؟ فأخبره بقول اليهودي للخليفة أنه سيموت من عامه هذا فاستدعى جعفر اليهودي فقال له: كم وجدت بقي لك من العمر؟ فذكر مدة طويلة فاقبل على الرشيد. فقال: يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن موتك كما علمت كذبه فيما اخبر عن عمره. فأمر الرشيد باليهودي فقتل، وسري عن الرشيد همُه الذي كان يجده، و لله الحمد.

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وذلك أنه حزن على مقتل البرامكة، ولا سيما على جعفر، وكان يكثر البكاء عليهم، ثم خرج من حيز البكاء الى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته: ائتني بسيفي، فيسله ثم يقول: والله لأقتلن قاتله، فأكثر أن يقول ذلك، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه، فأخبر الفضل الخليفة، فاستدعى به فاستخبره فأخبره، فقال: ومن يشهد معك؟ فقال: فلان الخادم فجاء به فأخبره، فقال الرشيد: لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي، لعلهما قد تواصيا على ذلك،. فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال له: ويحك يا إبراهيم إن عندي سراً أحب أن أطلعك عليه، قد أقلقني في الليل والنهار. قال: وما هو؟ قال: إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أني قد خرجت من نصف ملكي ونقصت نصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت، فإني لم أجد بعدهم لذة ولاراحة. فقال: رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكى، وقال: والله ياسيدي لقد أخطأت في قتله. فقال له: قم لعنك الله، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام، وسلم اهله وولده.

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة، واشتد غضبه بسببه أيضاً على البرامكة الذين هم في الحبوس، وسجنه فلم يزل في السجن حتى توفي الرشيد فأخرجه الأمين وعقد له على نيابة الشام.

وفي هذه السنة ثارت العصبية بالشام بين المضرية واليمانية، فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فانهدم بعض سورها ونضب ماؤهم ساعة من الليل.

وفيها بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة. وجعله قرباناً ووسيلة بين يديه، وولاه العواصم، فسار إلى بلاد الروم فحاصرهم حتى افتدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم، ففعل ذلك.

وفيها نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، الذي كان عقده الرشيد بينه وبين ريني ملكة الروم الملقبة أغسطة. وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور، وكان شجاعاً، يقال إنه من سلالة آل جفنة، وإنه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج، وملكوا نقفور هذا عليهم فخلعوا ريني وسملوا عينيها. فكتب نقفور إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلُ أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إليّ ما حصل لك من الأموال وافتد نفسك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ هارون الرشيد الكتاب استفزّه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه، دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه خوفاً منه واستدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.

ثم شخص من يومه حتى اقام بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرب وأحرق، واصطلم فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد الى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم وعليه، حتى ينفصل الشتاء.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن عباس بن محمد بن علي.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي الوزير ابن الوزير، ولاه الرشيد الشام وغيرها من البلاد، وذكر ابن عساكر أن الرشيد بعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة بين العِشرين بحوران بين قيس ويمن، وكان ذلك أول ما أنشؤوه في الإسلام، كان خامداًفأثاروه في هذا الأوان، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور، وقيلت في ذلك أشعار حسان، قد ذكرها في ترجمته من «تاريخه»؛ فمنها:

لقد أوقدت في الشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النَّقيبة ماجدٍ تَراضى به قَحْطانُها ونِزارُها
هو الملك المأمول للبر والتقى وصولاته لايستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ومديته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه فعندك مأواها وأنت قرارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة يؤمَّلُ جدواها ويُخشى دمارها

وهي قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر، وكانت له فصاحة وبلاغة وكرم زائد، وكان أبوه قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف فتفقه عليه، وصار له اختصاص بالرشيد، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه.

وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثابت كاتب الوحي. قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه». رواه الخطيب [تاريخ بغداد: ١٢/٣٤٠] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٠/٤٧] من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي - كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به. وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر بن يحيى للرشيد: يا أمير المؤمنين! قال لي أبي يحيى: إذا أقبلت الدنيا عليك فأعط؛ فإنها لا تفني، وإذا أدبرت عنك، فأعط، فإنها لاتبقى، قال جعفر: وأنشدني أبي:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب البغدادي: ولقد كان جعفر من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها، ولم يشاركه فيها. وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر. أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكروأبين من أن يظهر. وكان أيضاً من ذوي الفصاحة والمذكورين والبلاغة.

وروى ابن عساكر عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته ضائقة، فألحَّ عليه المطالبون وعنده سفط فيه جوهر شراؤه عليه ألف ألف درهم، فحمله إلى منه فاشتراه بثمنه ووزن له ألف ألف، وقبض منه السفط وأجلسه عنده في تلك الليلة فلما رجع إلى منزله إذا السفط قد سبقه إلى منزله. فلما أصبح غدا إليه ليشكره فوجده مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه، فقال له جعفر: إني قد ذكرت أمرك للفضل، وقد أمر لك بألف ألف. وما أظنها إلا قد سبقتك الى أهلك، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين. فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار.

وكان جعفر ليلة في سمره عند رجل من أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال: إن الناس يقولون: إنّ من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه. فأمر له جعفر بألف دينار. ثم عادت الخنفساء، فرجعت الى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى.

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه: انظر جارية أشتريها تكون فائقة في جمالها وغناءها وذكائها، ففتش الرجل فوجد جارية على النعت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر، فذهب جعفر الى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها، فلما غنته أعجبته أكثر، فساومه صاحبها فيها، وقال: قد أحضرنا مالا فإن أعجبك وإلا زدناك، فقال لها سيدها: إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور، وإنه قد انقبض على حالي، وإني قد أحببت أن أبيعك لهذا الملك، لتكوني عنده كما كنت عندي. فقالت: ياسيدي لو ملكت منك ما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتني أن لاتبيعني ولا تأكل من ثمني. فقال سيدها لجعفر وأصحابه: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأني قد تزوجتها. فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل الدراهم. فقال جعفر: والله لاتبعني، وقال للرجل: قد ملكتُها فأنفقها على أهلك، وذهب وتركه.

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا.

وروى ابن عساكر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجدوا له في جرة ألف دينار، زنة كل دينار مائة دينار، مكتوب على صفحة الدينار الواحدة جعفر والأخرى:

واصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائةٍ واحداً ... متى تعطه معسراً يوسر

وقال أحمد بن المعلى الراوية: كتبت عنان جارية الناطفي إلى جعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها، وكتبت إليه بهذه الأبيات من شعرها في جعفر:

يا لائمي جهلا ألا تقصر ... من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحني إذا شربت الهوى ... صرفاً فممزوج الهوى يسكر
أحاط بي الحب فخلفي له ... بحر وقدّامي له أبحر
تخفق رايات الهوى بالردى ... فوقي وحولي للهوى عسكر
سيان عندي في الهوى لائم ... أقل فيه والذي يكثر
أنت المصفى من بني برمك ... يا جعفر الخيرات ياجعفر
لا يبلغ الواصف في وصفه ... ما فيك من فضل ولا يعشر
من وفر المال بأغراضه ... فجعفر أعراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه ... وفي يديه العارض الممطر
سحت علينا منهما ديمة ... ينهل منها الذهب الأحمر
لو مسحت كفاه جلمودة ... أنضر فيها الورق الأخضر
لا يستتم المجد إلا فتى ... يصبر للبذل كما يصبر
يهتز تاج الملك من فوقه ... فخراً ويزهي تحته المنبر
أشبهه البدر إذا مابدا ... أو غرة في وجهه تزهر
والله ما أدري أبدر الدجى ... في وجهه أم وجهه أنور
يستمطرُ الزوارُ منكَ الندى ... وأنتَ بالزوارِ تستبشرُ

وكتبت تحت أبياتها حاجتها، فركب من فوره إلى أبيه فادخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها فقال: لا والله لا أشتريها، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس:

إنّ عِنانَ النطافِ جاريةٌ ... أصبح حِرُها للنَّيك ميدانا
لا يشتريها إلا ابنُ زانيةٍ ... أو قلطبانٌ يكونُ من كانا

وعن ثمامة بن أشرس قال: بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد فانتبه من منامه يبكي مذعوراً فقلت: ما شأنك؟ قال: رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب وقال:

كان لم يكنْ بينَ الحجونِ إلى الصفا ... أنيسٌ ولمْ يسمرْ بمكة سامرُ

قال فأجبته:

بـل نحـنُ كنـا أهلهـا فأبادنـا صـروفُ الليـالي والجـدودُ العواثـرُ

قال ثمامة بن أشرس: فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر إليه فتأمله ثم أنشأ يقول:

تقاضـاكَ دهـركَ مـا أسـلفا وكـدرَ عيشـك بعـدَ الصفـا
فـلا تعجـبنَّ فـإنَّ الزمـانَ رهـينٌ بتفريـقِ مـا ألفـا

قال: فنظرت إلى جعفر وقلت: أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الخير غاية، قال: فنظر الي الرشيد كأنه جمل صؤول ثم أنشأ يقول:

مـا يعجـبُ العـالمُ مِـنْ جعفـرٍ مـا عـاينوهُ فبنـا كانـا
مَـن جعفـرٌ أو مـنْ أبـوهُ ومَـنْ كـانت بنـو برمـكٍ لولانـا

ثم حول وجه فرسه وانصرف.

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وكان له في الوزارة سبع عشرة سنة.

وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد شاة تتدفأ به، وسألوها عن امرهم فقالت: أذكر اصبحت في مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأقول: إن ابني جعفراً عاق بي.

وروى الخطيب البغدادي أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفراً وما أحل بالبرامكة من النقمة، استقبل القبلة وقال: اللّهم إن جعفراً كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة.

حكاية غريبة:

ذكر أبوالفرج بن الجوزي في كتابه المنتظم [٩/١٤٦-١٤٨] أن المأمون بلغه أن رجلا يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكي عليهم ويندبهم، فبعث من جاءه به فدخل عليه وقد يئس من الحياة، فقال له: ويحك! ما يحملك على صنيعك هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنهم أسدوا إليّ معروفاً وخيراً كثيراً ولي خبر طويل. فقال: قل قال: أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت في نعمة عظيمة، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري، ولم يبق لي شيء، فأشار بعض أصحابي عليَّ بقصد البرامكة ببغداد، فأتيت أهلي وتحملت بعيالي، فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيّاً فأنزلتهن في مسجد مهجور ثم قصدت مسجدا مأهولا أصلي فيه. فدخلت فإذا فيه جماعة لم أر أحسن منهم، فجلست إليهم فجعلت أدير في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال، فيمنعني من ذلك ذُلّ السؤال، فبينا أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فاستدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم،فدخلوا داراً عظيمة، فإذا الوزير يحيى بن خالد فيها فجلسوا حوله، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا علينا سحيق المسك وبنادق العنبر، ثم جاءت الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار، ومعها فتات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت بين يدي الصينية التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها عندي، فقال لي بعض الحاضرين: الا تأخذها وتقوم؟ فمددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبي وأخذت الصينية تحت إبطي وقمت، وأنا خائف أن تؤخذ مني، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلي وأنا لا أشعر، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فيئست من المال، فلما رجعت قال لي: ما شأنك خائف؟ فقصصت عليه خبري، فبكى ثم قال لأولاده: خذوا هذا فضموه إليكم. فجاءني خادم فأخذ مني الذهب والصينية وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد، وخاطري كله عند عيالي، ولا يمكنني الانصراف، فلما انقضت العشرة الأيام جاءني خادم فقال: الا تذهب إلى أهلك؟ فقلت: بلى والله، فقام يمشي أمامي ولم يعطني الذهب، فقلت: يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ مني الصينية والذهب، يا ليت عيالي رأوا ذلك. فسار يمشي أمامي إلى دار لم أر أحسن منها، فدخلتها فاذا عيالي يتمرغون في الذهب والحرير فيها، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وكتابٌ فيه تمليك الدار بما فيها، وبقريتين جليلتين، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش، فلما أصيبوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين وألزمني بخراجهما، فكلما لحقتني فاقة قصدت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم. فأمر المأمون برد القريتين، عليه وخراجهما فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال له المأمون: ألم أستأنف بك جميلا؟ قال: بلى! ولكن هو من بركة البرامكة. فقال المأمون: امض مصاحباً فإن الوفاء مبارك، وحسن العهد من الإيمان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ الفضيل بن عياض: أبو علي التميمي أحد أئمة العباد وعلم الزهاد،وواحد العلماء الأولياء، ولد بخراسان بكورة أبيورد وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم. ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام، وكان سيداً كبير الشأن ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه. وله مع الرشيد قصة موعظته له، وقد روينا ذلك مطولا في كيفية دخول الرشيد عليه منزله، وما قال له الفضيل بن عياض، وعرض الرشيد عليه المال فابى ذلك ولم يقبل منه شيئاً. وكانت وفاته بمكة في هذا العام في الحرم منه.

وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق، وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: بلى! ويا رب. وأقلع عما هو فيه. ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون: خذوا حذركم إن فضيلا أمامكم يقطع عليهم الطريق، فأمّنهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، حتى صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله.رحمه الله

قال الفضيل: لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

وقال: العمل لأجل الناس شرك، وترك العمل لأجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال له الرشيد يوماً: ما أزهدك، فقال: أنت أزهد مني، لأني زهدت في الدنيا الفانية، وأنت زهدت في الآخرة الباقية.

ومن كلامه: لو أن لي دعوة مستجابة لدعوت بها لإمام عامّةٍ فإنه إذا صلح أمنت العباد والبلاد.

وقال أيضاً: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وقال في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الملك:٢] قال: يعني أخلصه وأصوبه، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله، وصواباً على متابعة النبي ﷺ.

وفيها توفي

بشر بن المفضل. وعبد السلام بن حرب. وعبد العزيز بن محمد الدراوردي. وعبد العزيز العمّي.

و■ علي بن عيسى، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في

الصائفة.

و■ معتمر بن سليمان

و■ أبو شعيب البرالي الزاهد، وكان أول من سكن براثاً في كوخ له يتعبد فيه، فهويته امرأة من بنات الرؤساء فانخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة، وتزوجته وأقامت معه يتعبّدان في ذلك الكوخ حتى ماتا رحمهما اللّه، ويقال: إن اسمها: جوهرة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النقفور للقائه فجرح النقفور ثلاث جراحات، وانهزم، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً، وغنموا أكثر من أربعة آلاف دابة.

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وكانت آخر حجاته.

وقد قال أبوبكر بن عياش حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج - وقد اجتاز بالكوفة - لا يحج الرشيد بعدها، ولا يحج بعده خليفة أبداً. وقد لقيه بهلول المولّه العاقل فوعظه موعظة حسنة، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال: حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت. فلما حاذاه الهودج قال: يا أمير المؤمنين حدّثني أيمن بن نابل حدثنا قدامة بن عبد اللّه العامري قال. رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل وتحته رَحْلٌ رث، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك. فقلت: يا أمير المؤمنين إنه بهلول المجنون، فقال: قد عرفته، قل يا بهلول فقال:

فهبْ أنْ قَدْ ملكتَ الأرضَ طراً ... ودانَ لـك العبادُ فكانَ ماذا
أليسَ غداً مصيرك جوفَ قبرٍ ... ويحثو التُربَ هذا ثمَّ هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه اللّه مالا وجمالا فعف في جماله، وواسى في ماله، كتب في ديوان الأبرار. قال: فظن أنه يريد شيئاً، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا تقض دَيناً بدين، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني. وها أنا قد عشت عمراً لم تجر علي رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خذها. فقال: اردها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أبو اسحاق الفزاري**: إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك.

أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما، توفي في هذه السنة. وقيل قبلها.

و■ **إبراهيم الموصلي**: النديم، هو إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نُسْك أبو إسحاق، أحد الشعراء والمغنين والندماء، أصله من الفرس وولاؤه للحنظليين وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء، فأجاد في عمله ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا له: الموصلي. ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد، وكان من جملة سماره وندمائه ومغنيه، وقد أثرى وكثر ماله جداً، حتى إنه يقال: إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف درهم، وكانت له طرف وحكايات غريبة، وكان مولده سنة خمس وعشرين ومائة في الكوفة، ونشأ في كفالة بني تميم، فتعلم منهم ونسب إليهم، وكان فاضلا بارعاً في صناعة الغناء، وكان مزوّجاً بأخت منصور الملقب بزلزل، الذي كان يضرب معه، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس. وكانت وفاته في هذه السنة على الصحيح.

وحكى ابن خلكان في الوفيات [٤٣/١] قولاً أنه توفي هو وأبو العتاهية وأبو عمرو الشيباني النحوي ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين. وصحح الأول. ومن أشعاره شعره عند احتضاره قوله:

ملَّ واللّهِ طبيبي ... من مقاساة الذي بي
سوف أنعى عن قريبٍ ... لعدوٍّ وحبيبِ

وفيها مات:

جرير بن عبد الحميد. ورشدين بن سعد. وعبدة بن سليمان. وعقبة بن خالد. وعمر بن أيوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل. وعيسى بن يونس في قول.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري فولى وعزل. وقطع ووصل.

وفيها ردّ علي بن عيسى إلى ولاية خراسان، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده، ودخل بغداد لثلاث بقين من ذي الحجة، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت، وكانت مصلوبة من قتله إلى هذا اليوم، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد:

ما أَنخْنا حتى ارتَحلْنا فما ... نفرقُ بينَ المُناخِ والارتحالِ
ساءلونا عَنْ حالنا إذ قدمنا ... فقرنّا وداعهمْ بالسؤالِ

وفي هذه السنة فادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين. فقال فيه بعض الشعراء الألبّاء:

وفكّت بكَ الأسرى التي شيدت ... محابسُ ما فيها حميمٌ يزورها
على حين أعيا المسلمينَ فكاكُها ... وقالوا سجونُ المشركين قبورُها

وفيها رابط القاسم بن هارون الرشيد بمرج دابق محاصراً الروم.

وفيها حج بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **علي بن حمزة بن عبد اللّه بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم، الكوفي المعروف بالكسائي** لإحرامه في كساء، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات في كساء، النحوي اللغوي أحد أئمة القراء، أصله من الكوفة ثم

استوطن بغداد، فأدب الرشيد وولده الأمين، وكان قد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته، وكان يقرئ بها، ثم اختار لنفسه قراءة فكان يقرأ بها.

وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبوعبيد.

وقد قال الشافعي: من أراد أن يتبحّر النحو فهو عيال على الكسائي.

وقد كان الكسائي أخذ عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً: عمن أخذت هذا؟ قال: من بوادي الحجاز. فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً، ثم عاد ومن همّته العود إلى الخليل فإذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها يونس، وأجلسه في موضعه.

قال الكسائي: صليت يوماً بالرشيد فأعجبتني قراءتي، فغلطت غلطة ما غلطها صبيٌّ، أردت أن أقول ﴿لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف:١٨٦]، فقلت لعلهم يرجعين، فما تجاسر الرشيد أن يردها. لكن لما سلمت قال: أي لغة هذه؟ فقلت: إن الجواد قد يعثر. فقال: أما هذا فنعم.

وقال بعضهم: لقيت الكسائي فإذا هو مهموم، فقلت: ما لك؟ فقال: إن يحيى بن خالد قد وجه إليّ يسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ، فقلت: قل ما شئت فأنت الكسائي. فقال: قطعه الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم.

وقال الكسائي يوماً قلت لنجار: بكم هذان البابان؟ فقال: بسَلْحتان يا مصفعان.

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور، عن سبعين سنة. وكان في صحبة الرشيد ببلاد الريّ فمات بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد، وكان الرشيد يقول: دفنت الفقه والعربية بالري.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢٩٦/٣]: وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة فالله أعلم.

وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجه كالبدر فقال له: ما فعل ربك بك؟ فقال: غفر لي بالقرآن. فقلت: ما فعل حمزة؟ قال: ذاك في عليين ما نراه إلا كما ترى الكوكب.

■ محمد بن الحسن بن فرقد: أبو عبد الله الشيباني مولاهم، صاحب أبي حنيفة. أصله من قرية من قرى دمشق، قدم أبوه العراق فولد محمد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسعر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف، وسكن بغداد وحدث بها، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة وقْرَ بعير، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله وخرج مع الرشيد الى الريّ فمات بها.

وكان يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي. وخذوا ما شئتم من وكيلي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي.

وقال الشافعي: ما رأيت حبراً سميناً مثله، ولا رأيت أخف روحاً منه، ولا أفصح منه. كنت إذا سمعته يقرأ وكأنَّ القرآن نَزَل بلغته.

وقال أيضاً ما رأيت أعقل من محمد بن الحسن، كان يملأ العين والقلب.

قال الطحاوي: كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن كتاب السير فلم يجبه إلى الإعارة فكتب إليه:

قل للذي لم ترَ عيـ ... ـنا من رآه مثله
حتى كأنَّ من رآ ... هُ قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله ... أن يمنعوهُ أهله
لعله يبذله ... لأهله لعله

قال: فوجه به إليه في الحال هدية لا عارية.

وقال إبراهيم الحربي: قيل لأحمد بن حنبل: هذه المسائل الدقاق من أين هي لك؟ قال: من كتب محمد بن الحسن رحمه الله وكانت وفاة محمد بن الحسن والكسائي في يوم واحد من هذه السنة. فقال الرشيد: دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً. وكان عمر محمد بن الحسن ثمانياً وخمسين سنة.

سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية، واستفحل أمره، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به.

وفيها سار هارون الرشيد لغزو بلاد الروم لعشر بقين من رجب، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المعلى الكلابي:

فمن يطلبْ لقاءكَ أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففي أرضِ العدوِ على طمرٍّ ... وفي أرضِ الترفهِ فوقَ كورِ

ثم وصل إلى الطوانة فعسكر بها وبعث نقفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأسه ورأس ولده، وأهل مملكته، في كل سنة خمسين ألف دينار، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقلة، وكان قد خطبها على ولده، فبعث بها الرشيد مع هدايا وتحف وطيب بعث بطلبه، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وأن لا يعمر هرقلة. ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً. وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله.

وحج بالناس في هذه السنة عيسى بن موسى الهادي.

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

■ أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة، وحكم ببغداد وبواسط، فلما أنكر بصره عزل نفسه عن القضاء.

روى عنه أحمد بن حنبل وقال: كان صدوقاً. ووثقه ابن معين، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري.

و■ سعدون المجنون صام ستين سنة فخف دماغه فسماه الناس المجنون، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول:

ولا خيرَ في شكوى إلى غيرِ مشتكى ... ولابد من شكوى إذا لم يكنْ صبرُ

وقال الأصمعي: مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه، فقلت له: ما لي أراك عند رأس هذا الشيخ؟ فقال: إنه مجنون. فقلت: أنت المجنون أو هو؟ قال: لا بل هو، لأني صلّيت الظهر والعصر جماعة وهو لم يصلِّ جماعة ولا فرادى. وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها. قلت: فهل قلت في هذا شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشأ يقول:

تركـتُ النبيـذَ لأهـلِ النبيـذِ ... وأصبحتُ أشـربُ مـاءً قراحـا
لأن النبيـذَ يـذلُ العزيـزَ ... ويكسـو بـذاك الوجـوهَ الصُّباحـا
فـإنْ كـانَ ذا جـائزاً للشـباب ... فما العـذرُ منـهُ إذا الشيبُ لاحـا

قال الأصمعي: فقلت له: صدقت، وانصرفت.

و■ عبيدة بن حميد بن صهيب أبو عبد الرحمن التيمي الكوفي، مؤدب الأمين. روى عن الأعمش وغيره، وعنه أحمد بن حنبل. وكان يثني عليه.

■ يحيى بن خالد بن برمك: أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه، وأرضعته امرأته مع الفضل بن يحيى، فلما ولي الرشيد عرف له حقه، وكان يقول: قال أبي. وفوض إليه أمور الخلافة وأزمَّتها، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفراً وخلد أباه يحيى في الحبس حتى مات في هذه السنة.

وكان كريماً فصيحاً، ذا رأي سديد، يظهر من أموره خير وصلاح.

قال يوماً لولده: خذوا من كل شيْ طرفاً، فإن من جهل شيئاً عاداه. وقال لأولاده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون.

وكان يقول لهم: إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فإنها لا تبقى.

وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً:

يـا سمـيَّ الحصـور يحيـى ... أتيحتْ لكَ مِنْ فضلِ ربنا جنتانْ
كـلُّ مَـنْ مـرَّ في الطريـقِ عليكـم ... فلـهُ مِـنْ نوالكـمْ مائتـانْ
مائتـا درهـمٍ لمثلـي قليـلٌ ... هـي منكـم للقـابس العجـلانْ

فقال: صدقت. وأمر أن فسبق به إلى الدار، فلما رجع سأل عنه فإذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف، وثمن دار أربعة آلاف، وعن الأمتعة أربعة آلاف. وثمن الدخول أربعة آلاف، وأربعة آلاف يستظهر بها.

وجاءه رجل يوماً فسأله شيئاً فقال: ويحك لقد جئتني في وقت لا أملك فيه مالاً، ولكن قد بعث إلي صاحب إلي يطلب مني أن يهدي إلي ما أحب، وقد بلغني أنك تريد أن تبيع جارية لك، وأنك قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار، وإني سأطلبها منه فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار. فلما جاءني يساومني فيها الحجتُ أن لا أبيعها بأقلَّ من ثلاثين ألف دينار، فبلغ في ثمنها عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، وأجبت إلى بيعها، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار. فأهداها إلى يحيى، فلما اجتمعت بيحيى قال: بكم بعتها؟ قلت: بعشرين ألف دينار. قال: إنك لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلي نائب فارس يطلب مني أن أستهديه شيئاً، وإني ساطلبها منه فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار. فجاؤوني فوصلوا إلى ثلاثين ألف دينار، فبعتها. فلما جئته لامني أيضاً وردها عليّ، فقلت: أشهدك أنها حرة وقد تزوجتها، وقلت: جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم.

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم، فضاق ذرعاً، وقد توعده إن لم يحملها في يومه ذلك بالقتل وخراب الديار، فدخل على يحيى بن خالد وذكر له أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف، واستطلق له من ابنه الفضل ألفي ألف، وقال لابنه: يا بني بلغني أنك تريد أن تشتري بها ضيعة. وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر. وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف، وأخذ له من جاريته دنانير عقداً مُشتراه بمائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار، وقال للمترسم عليه: قد حسبناه عليك بألفي ألف. فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد، وكان قد وهبه لجارية يحيى، فلم يعد فيه بعد أن وهبه لها. وقال له بعض بنيه وهم في السجن والقيود: يا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال، فقال: يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها. ثم أنشأ يقول:

ربَّ قـومٍ قـدْ غـدوْا في نعمـةٍ ... زمنـاً والدهْـرُ ريـانُ غـدقْ
سـكتَ الدهـرُ زمانـاً عنهـمُ ... ثـمَّ أبكـاهم دمـاً حـينَ نطـقْ

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول: اللّهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته. فلما مات رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل اللّه لك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان.

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه اللّه في الحبس بالرافقة لثلاث خلون من المحرم في هذه السنة عن سبعين سنة، وصلى عليه ابنه الفضل، ودفن على شط الفرات، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: قد تقدم الخصم والمدعى عليه بالأثر، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة. فحملت إلى الرشيد فلما قرأها ما زال يبكي يومه ذلك، وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه. وقد قال بعض الشعراء في يحيى بن خالد هذا:

سألتُ النـدا هـلْ أنتَ حرٌ فقال لا ... ولكنـي عبـدٌ ليحيـى بـن خـالدِ
فقلـتُ شِـراءً قـال لا بـلْ وراثـةً ... توارثنـي عـن والـدٍ بعـدَ والـدِ

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه، وكتب بالفتح إلى الرشيد.

وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام.

وفيها وقع الثلج ببغداد.

وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضم إليه ثلاثين ألفاً فيهم مسرور الخادم، وإليه النفقات.

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم. وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وألزم أهل الذمة بتميز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلاد.

وفيها عزل الرشيد علي بن موسى عن إمرة خراسان وولاها هرثمة بن أعين.

وفيها فتح الرشيد هرقلة في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وخرجت الروم إلى عين زَرْبـي، والكنيسة السوداء.

وكان خراج هرقلة في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرفوق، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار، باعهم أبو البختري القاضي.

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدي المأمون.

وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن علي العباسي وكان والي مكة، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ سلمة بن الفضل الأبرش.

و■ عبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوي عن مالك الذي هو العمدة في مذهب مالك فيما يرويه عن الإمام مالك، وكان من كبار الصالحين.

و■ عيسى بن يونس بن أبي إسحاق، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل، نحواً من خمسين ألفا فلم يقبله.

و■ الفضل بن موسى السيناني.

و■ محمد بن سلمة.

و■ مخلد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات. قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الإعتذار منها منذ خمسين سنة. ومعمر الرقي.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

فيها دخل هرثمة بن أعين إلى خراسان نائباً عليها، وقبض على علي بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على راحلة ونادى عليه ببلاد خراسان، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره على ذلك، ثم سيَّره إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد.

وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطمورة.

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم على يدي ثابت بن نصر.

وفيها خرجت الخُرَّمية بالجبل وبلاد أذربيجان. فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس فقتل منهم خلقا وأسر وسبى ذراريهم، وقدم بهم بغداد فأمر الرشيد بقتل الرجال منهم، وبالذرية فبيعوا بها. وكان قد غزاهم قبل ذلك خزيمة بن خازم.

وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمة بن خازم، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين، فأذن له فسار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاة العهد من بعده، وأراه داء في جسده، وقال إن لكل واحد من الأمين والمأمون والقاسم عندي عيناً علي، وهم يعلون أنفاسي، ويتمنون انقضاء أيامي، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون. فدعا له ذلك الأمير ثم أمره الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه، وكان آخر العهد به.

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة.

وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني.

ومات.

■ عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق.

وفيها حج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن جامع: بن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم، أحد المشاهير بالغناء، وممن يضرب به المثل فيه فيقال: غناء ابن جامع، وقد كان أولا يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن، وذكر عنه أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب الأغاني حكايات غريبة، من ذلك أنه قال: كنت يوماً مشرفاً في غرفة بحران إذ أقبلت جارية سوداء معها قربة تستقي فيها من مشرعة، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني:

إلى اللهِ أشكو بخلَهَا وسماحتي ... لها عَسَلٌ مني وتبذلُ عَلْقَما

فردِّي مصابَ القلبِ أنتِ قتلتِهِ ... ولا تبعدي فيما تجشَّمتُ كُلْثما

قال: فسمعت ما لا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت، فنزلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت: إن علي خراجاً كل يوم درهمين، فأعطيتها درهمان فأعادته فحفظته وسلكته يومي ذلك، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فنزلت فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين، ثم قالت: كأنك تستكثر أربعة دراهم. كأني بك وقد أخذت به أربعة آلاف دينار.

قال ابن جامع: فغنيته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار، ثم استعادنيه ثلاثاً أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار، فتبسمت فقال: مم تتبسَّم؟ فذكرت له القصة، فضحك وألقى إلي كيساً آخر فيه ألف دينار. وقال لا تكذب السوداء.

وحكي عنه أيضاً قال: أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم فإذا جارية على رقبتها جرة تريد الركي وهي تسعى وتترنم بصوت شجي وتقول:

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا

وذاكَ لأنَّ النومَ يغشى عيونَهم ... سراعاً ولا يغشى لنا النومُ أعينا

إذا ما دنا الليلُ المضرُ لذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرونَ إذا دنا

فلو أنهم كانوا يلاقونَ مثلما ... نلاقي لكانوا في المضاجعِ مثلنا

قال: فاستعدته منها وأعطيتها الثلاثة دراهم فقالت: لتأخذن بدلها ألف دينار، وألف دينار وألف دينار. فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت.

■ بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور، نزل بغداد زمن الرشيد، وكان يعاشر أبا العتاهية.

قال أبو هفان: أشعر أهل الغزل من المحدثين أربعة، أولهم بكر بن النطاح.

وقال المبرد: سمعت الحسن بن رجاء يقول: اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يتناشدون، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن

النطاح لنفسه:

ما ضرها لو كتبت بالرضى … فجف جفن العين أو أغمضا
شفاعةٌ مردودةٌ عندها … في عاشقٍ تندم لو قد قضى
يا نفسُ صبراً واعلمي أنما … يأمل منها مثلما قد مضى
لم تمرضِ الأجفانُ مِنْ قاتلٍ … بلحظه إلا لأن أمرضا

قال: فابتدروه يقبلون رأسه.

ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال:

ماتَ ابنُ نطاح أبو وائلٍ … بكرٌ فأمسى الشعرُ قَدْ بانا

■ **بهلول المجنون**، كان يأوي إلى مقابر الكوفة، وكان يتكلم بكلمات حسنة، وقد لقي الرشيد وهو ذاهب الى الحج فوعظه وذلك في سنة ثمان وثمانين كما تقدم.

■ **عبد الله بن إدريس: الأودي الكوفي**، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكا وخلقاً سواهم.

وروى عنه جماعات من الأئمة، وقد استدعاه الرشيد ليوليه القضاء فقال: لا اصلح، وامتنع أشد الامتناع، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً، فطلب حفص بن غياث فقبل.

وأطلق لكل واحد خمسة آلاف درهم عوضاً عن كلفة السفر، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس، وقبل ذلك حفص، فحلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً.

وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون، فأمر الرشيد بجمع شيوخ الحديث ليسمعوا الأمين والمأمون، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا، وعيسى بن يونس. فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعهما مائة حديث، فقال له المأمون: يا عم إن أردت أعدتها من حفظي، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها، فتعجب لحفظه ابن ادريس. ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها، فظن أنه استقلها فاضعفها فقال: والله ولا إهليلَجة، لو ملأت لي المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله ﷺ.

ولما احتضر ابن إدريس بكت ابته فقال: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.

■ **صعصعة بن سلام**: ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقي، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنها في زمن عبد الرحمن بن معاوية وابنه هشام، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس، وولي الصلاة بقرطبة، وفي أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه.

وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز.

وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه، وذكره في كتاب الفقهاء، وذكره ابن يونس في تاريخه ـ تاريخ مصر ـ والحميدي في تاريخ الأندلس، وحرر وفاته في هذه السنة أعني سنة ثنتين وسبعين ومائة.

وحكى عن شيخه ابن حزم أن صعصعة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس.

وقال ابن يونس: هو أول من أدخل علم الحديث إليها. وذكر أنه توفي قريباً من سنة ثمانين ومائة، والذي حرره الحميدي في هذه السنة أثبت.

■ **علي بن ظبيان: أبو الحسن العبسي الكوفي** قاضي الشرقية من بغداد، زمن الرشيد. كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة، ثم ولاه الرشيد قاضي القضاة، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده، مات بقرميسين في هذه السنة.

■ **العباس بن الأحنف: بن الأسود بن طلحة الشاعر المشهور**، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولا حسن الشعر.

قال أبو العباس: قال عبدالله بن المعتز: لو قيل لي: من أحسن الناس شعراً تعرفه؟ لقلت: العباس:

قد سَحَبَ الناسُ أذيال الظنون بنا … وفرَّقَ الناسُ فينا قَوْلَهُم فِرَقا
فكاذبٌ قد رمى بالحبِّ غيركم … وصادقٌ ليسَ يدْري أنه صَدَقا

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فانزعج لذلك، وخاف نساؤه، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: ويحك إنه قد عن لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمثله، فقال: يا أمير المؤمنين ما خفت قط أعظم من هذه الليلة، فقال: ولم؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال: ما قلت يا أمير المؤمنين؟ فقال:

جنان قد رأيناها … فلم نرَ مثلها بشرا

فقال العباس:

يزيدكَ وجهها حسناً … إذا ما زدته نظرا

فقال الرشيد: زد. فقال:

إذا ما الليلُ مال عليـ … ـكَ بالإظلام واعتكرا
ودجَّ فلم ترى قمراً … فأبرزها ترى قمرا

فقال: إنا قد رأيناها، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم.

ومن شعره الذي أقر له فيه بشار بن برد وأثبته في سلك الشعراء بسببه قوله:

أبكي الذينَ أذاقوني مودتهمْ … حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمتُ منتصباً … بثقل ما حملوني منهمُ قعدوا

وله أيضاً:

وحدثتني يا سعدُ عنها فزدتني … جنوناً فزدني مِن حديثكَ يا سعدُ
هواها هوى لم يعرفِ القلبُ غيرَه … فليسَ لهُ قبلٌ وليسَ لهُ بعدُ

قال الأصمعي: دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو يقول:

يا بعيدَ الدار عَن وطنهِ … مفرداً يبكي على شجنهْ
كلما شدَّ النَّجاءُ بهِ … زادتِ الأسقامُ في بدنهْ

ثم أغمي عليه فانتبه بصوت طائر على شجرة فقال:

ولقدْ زاد الفؤادُ شجىً … هاتفٌ يبكي على فننهْ
شاقهُ ما شاقني فبكى … كلنا يبكي على سكنهْ

قال: ثم أغمي عليه أخرى فحركته فإذا هو قد مات.

قال الصولي: كانت وفاته في هذه السنة.

وحكى القاضي ابن خلكان أنه توفي بعدها.

وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة والله أعلم.

وزعم بعضهم أنه بقي بعد الرشيد.

■ عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور: أخو زبيدة كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فمات في أثناء هذه السنة.

■ الفضل بن يحيى: بن خالد بن برمك أخو جعفر وإخوته، كان هو والرشيد يتراضعان. أرضعت الخيزران فضلا هذا، وأرضعت أم الفضل - وهي زبيدة بنت سنين، بربرية - هارون الرشيد. وكانت زبيدة هذه من مولدات المدينة، وقد قال في ذلك بعض الشعراء:

كفى لكَ فضلا أن أفضلَ حرةٍ ... غذتكَ بثدي والخليفةَ واحدِ

لقد زنتَ يحيى في المشاهدِ كلها ... كما زان يحيى خالداً في المشاهدِ

قالوا: وكان الفضل بن يحيى أكرم من أخيه جعفر، ولكن كان فيه كبر شديد، وكان عبوساً، وكان جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهاً، وأقل عطاء. وكان الناس إليه أميل، ولكن خصلة الكرم تغطي جميع القبائح، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل.

وقد وهب الفضل لطباخه مائة ألف درهم فعابه أبوه في ذلك، فقال له: يا أبت إن هذا كان يصحبني في العسر واليسر والعيش الخشن، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي، وقد قال الشاعر:

إنّ الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا ... مَن كانَ يؤنسهم في المنزل الخشنِ

ووهب يوماً لبعض الأدباء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له: مم تبكي، أستقللتها؟ قال: لا والله، ولكني أبكي أسفاً أن الأرض تواري مثلك.

وقال علي بن الجهم عن أبيه: أصبحت يوماً لا أملك شيئاً ولا علف الدابة. فقصدت الفضل بن يحيى، فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس، فلما رآني رحب بي وقال: هلم. فسرت معه، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار، وإذا هي باسم جارية له يحبها، فانزعج لذلك وشكا الي ما لقي من ذلك، فقلت: أصابك ما أصاب أخي بني عامر حيث يقول:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منىً ... فهيج أحزان الفؤاد ولا يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

فقال: اكتب لي هذين البيتين. قال: فذهبت إلى بقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له، فأخذهما وقال: انطلق راشداً. فرجعت إلى منزلي فقال لي غلامي: هات خاتمك حتى نرهنه على طعام لنا وعلف للدابة، فقلت: إني رهنته. فما أمسينا حتى أرسل إلي الفضل بثلاثين ألفاً، وعشرة آلاف درهم، سلفاً لشهرين من رزق أجراه عليّ.

ودخل عليه بعض الأكابر فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير، فشكا إليه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين. فقال: نعم، وكم دينك؟ قال ثلاثمائة ألف درهم. فخرج من عنده وهو مهموم لضعف رده عليه، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فإذا المال قد سبقه إليه. وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء:

لك الفضل يافضل بن يحيى بن خالد ... وما كل من يدعى بفضل له الفضلُ

رأى اللهُ فضلا منك في الناس واسعاً ... فسماك فضلا فالتقى الاسم والفعلُ

وقد كان الفضل أكبر رتبة من جعفر، ولكنّ جعفراً أحظى عند الرشيد منه واخص. وقد ولي الفضل أعمالا كباراً، منها نيابة خراسان وغيرها.

ولما قتل الرشيد جعفراً وحبس البرامكة جلد الفضل بن يحيى بن خالد هذا مائة سوط وخلده في السجن حتى مات في هذه السنة، قبل الرشيد بشهور خمسة بالرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة، وكان سبب موته ثقل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة، وتوفي قبل أذان الغداة من يوم السبت.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤١/٨]: وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة.

وقال ابن الجوزي في المنتظم [٢٠٩/٩] كان ذلك: في سنة ثنتين وتسعين فالله أعلم.

وقد أطال القاضي ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائبا على خراسان، وكان بها بيت النار التي كانت تعبدها المجوس، وقد كان جده برمك من خدامها، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله، لقوة إحكامه، وبنى مكانه مسجداً لله تعالى. وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبكي:

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى ... ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلانحن في الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

و■ محمد بن أميه الشاعر الكاتب، وهو من بيت كلهم شعراء، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض. وله شعر رائق ومديح فائق.

■ منصور بن الزبرقان: بن سلمة أبو الفضل النميري الشاعر، امتدح الرشيد، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجده مطعم الكبش الرخم، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم تحملق حولهم، فأمر بكبش يذبح للرخم حتى لا يتأذى بها أضيافه فقيل، ففعل له ذلك لذلك فقال الشاعر فيه:

أبـوك زعيـم بـني قاسـط ... وخالك ذو الكبش يَقْري الرخم

وله أشعار حسنة، وكان يروي عن كلثوم بن عمرو، وكان شيخه الذي أخذ عنه الغناء.

■ يوسف ابن القاضي أبي يوسف: يعقوب بن ابراهيم سمع الحديث من السريّ بن يحيى ويونس بن أبي إسحاق، ونظر في الرأي وتفقه، وولي قضاء الجانب الشرقي ببغداد في حياة أبيه، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد. توفي في رجب من هذه السنة وهو قاضٍ ببغداد.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤١/٨]: ففي المحرم منها توفي

■ الفضل بن يحيى، وقد أرّخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثنتين وتسعين كما تقدم.

قال: وفيها توفي

■ سعيد الجوهري.

قال: وفيها وصل الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير، وذلك في صفر منها، ثم تحول منها إلى

طوس وهو عليل، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها.

وفيها تواقع هرثمة نائب العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمة وافتتح بخارى وأسر أخاه بشير بن الليث، فبعثه إلى الرشيد وهو بطوس مُثقل عن السير، فلما أُوقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه، بل قال: والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من رافع كما مكنه من أخيه بشير.

ذكر وفاة هارون الرشيد

كان قد رأى وهو بالرقة رؤيا أفزعته وغمه ذلك، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت كأنَّ كفاً فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري هذا وقائلا يقول: هذه تربة أمير المؤمنين. فهون عليه جبريل أمرها وقال: هذه من أضغاث الأحلام ومن حديث النفس، فتناسها يا أمير المؤمنين. فلما سار يريد خراسان ومر بطوس واعتقلته العلة بها، ذكر رؤياه التي كان رأى فهاله ذلك وانزعج جداً، فدخل الناس عليه فقال لجبريل ويحك! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين فكان ماذا؟ فدعا مسروراً الخادم وقال: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض، فجاءه بتربة حمراء في يده، فلما رآها قال: والله هذه الكف التي رأيت، والتربة التي كانت فيها. قال جبريل: فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي رحمه الله.

وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول: يا بن آدم تصير إلى هذا. ثم أمر بقرّاء فقرؤوا في القبر القرآن حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة وجلس يقاسي سكرات الموت، فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين لو اضطجعت كان أهون عليك. فضحك ضَحِك صحيح ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم　　شماساً وصبراً شدة الحدثان

وكانت وفاته ليلة السبت، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، عن خمس، وقيل سبع وأربعين سنة. وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة.

وهذه ترجمته

هو

■ هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد المهدي ابن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو محمد، ويقال أبو جعفر. وأمه الخيزران أم ولد. وكان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع، وقيل ثمان وأربعين ومائة، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة، بعهد من أبيه المهدي كما تقدم.

روى الحديث عن أبيه وجده، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». أورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس.

وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق، ونباتة بن عمرو.

وكان الرشيد أبيض طويلا سميناً جميلا.

وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية، وقد لقي المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفاً شديداً، وكان الصلح مع امرأة أليون وهي الملقبة بأغسطة على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام، ففرح المسلمون بذلك في المشارق والمغارب كما تقدم، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة، ثم لما أفضت الخلافة إليه بعد أخيه في سنة سبعين ومائة كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجاً بنفسه، ولهذا قال فيه أبو السعلي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده　　فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمر　　وفي أرض البَنيَّة فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق　　من المستخلفين على الأمور

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء، فإنه كان سريع العطاء جزيله، وكان يحب الفقهاء والشعراء والأدباء ويعطيهم كثيراً، ولا يضيع لديه بر ولا معروف، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله. وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً، إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

وكان ابن أبي مريم المدني هو الذي يضحكه، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله. نبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ في الصلاة: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ [يس: ٢٢] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله. فضحك الرشيد وقطع الصلاة، ثم أقبل عليه وقال: ويحك اجتنب الصلاة والقرآن ولَكَ ما عدا ذلك.

ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالية من أحسن الطيب، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مريم فوهبها له، فقال له العباس: ويحك! جئت بشيء منعته نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته. فحلف ابن أبي مريم ليطيبن به استه، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك. ثم قال لخادم قائم يقال له خاقان: اطلب لي غلامي. فقال الرشيد: ادع له غلامه. فقال له: خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فمرها فلتطيب منها استها حتى أرجع إليها فأنيكها. فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب، ثم أقبل ابن أبي مريم على العباس بن محمد فقال له: جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذي ما تمطر السماء شيئاً ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده؟ وأعجب من هذا أن قيل لملك الموت: ما أمرك به هذا فأنفذه. وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه بقال أو خباز أو طباخ أو تمار، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك. ثم أمر لابن أبي مريم بمائة ألف درهم.

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مريم أن يلي الحجابة في هذا اليوم، ومهما حصل له فهو بينه وبين أمير المؤمنين، فولاه الحجابة، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب. من عند زبيدة والبرامكة وكبار الأمراء، فكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار، فسأله الرشيد في اليوم

الثاني عما تحصل فأخبره قال: فأين نصيبي؟ قال: معزول. قال: قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاحة.

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن خازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية: ما ذكرت عنده في حديث رسول الله ﷺ إلا قال: صلى الله وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبلّ الثرى.

وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء علي وأنا لا أراه. ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يصبّ عليك الماء؟ قلت: لا. قال: أنا. فدعا له أبو معاوية: الضرير، فقال: إنما أردت تعظيم العلم. وقد حدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث: «احتجَّ آدم وموسى» فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعترض على الحديث؟ عليّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد: هذه زندقة. ثم أمر بسجنه وقال: أقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فأطلقه.

وقال بعضهم: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، فقتلتُه قربة إلى الله عز وجل.

وقال له بعض أهل العلم: يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم يعز سلطانك، فقال الرشيد: أو لست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما.

وقال له ابن السماك أو غيره: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك. فقال: لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة.

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا. فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة، فاكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك.

ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأتي بقلة فيها ماء مبرد فقال لابن السماك: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها؟ فقال: بنصف ملكي. فقال: اشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بملكي كلّه. فقال: إن ملكاً قيمته شربة ماء، لخليق أن لا يتنافس فيه. فبكى هارون الرشيد.

وقال ابن قتيبة: حدثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول: دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال: أخذ الأظفار يوم الخميس من السُّنة، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر. فقلت: يا أمير المؤمنين أو تخشى الفقر؟ فقال: يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني؟.

وروى ابن عساكر عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم، ألوان منه. فقال: أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: ممَّ تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلاماً دارَ بيني وبين جاريتي البارحة. فقال: بحقي عليك لما أخبرتني به. قال: حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال: والله لتخبرني. فقال: يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوّم عليك؟ قال: بأربعة دراهم. قال: لا والله، يا أمير المؤمنين بل بأربعمئة ألف درهم. قال: وكيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك هذا لحم الجزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده، فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنا لا نشتري لحم الجزور من السوق. فصُرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم الجزور إلا هذا اليوم. قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة. فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكت والله يا هارون وأمر برفع السماط من بين يديه، ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. ثم خرج لصلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة. فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد، أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس. فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسره الله عليك من الصدقة في هذا اليوم على الفقراء، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف. ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاء.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده، كان أبو يوسف قاضيه، والبرامكة وزراءه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظماً، ونديمه عمُّ أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية. وشاعره مروان بن أبي حفصة، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته، وضاربه زلزل وزامره برصوما. وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف، ادخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها.

وروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٤/٨] أن الرشيد كان يقول: إنا من قوم عظمت رزيتهم، وحسنت بقيَّتهم، ورثنا رسول الله ﷺ وبقيت فينا خلافة الله عز وجل.

وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فامره أن يقول له قولا ليناً.

وعن شعيب بن حرب قال: رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخوفتني وقالت: إنه الآن يضرب عنقك. فقلت: لا بد من ذلك، فناديته فقلت: يا هارون! قد أتعبت الأمة والبهائم. فقال: خذوه. فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين. فقال: ثكلتك أمك ممن أنت؟ فقلت: من الأبناء. فقال:

ما حملك على أن دعوتني باسمي؟ قال: فخطر ببالي شيء لم يخطر ببالي قبل ذلك، فقلت: أنا أدعو الله باسمه يا الله، يا رحمن، أفلا أدعوك باسمك؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه محمداً، وكنى أبغض الخلق إليه فقال: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: ١] فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه.

وقال له ابن السماك يوماً: يا أمير المؤمنين: إنك تموت وحدك، وتُقْبَر وحدك فاحذر المقام بين يدي الجبار، والوقوف بين الجنة والنار حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُنال، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي.

وقال له الفضيل بن عياض - في جملة موعظته تلك الليلة بمكة -: يا صبيح الوجه إنك المسؤول عن هؤلاء كلهم، وقد قال تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ [البقرة: ١٦٦] قال حدثنا ليث عن مجاهد قال: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق.

وقال الأصمعي: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فأنشا يقول:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور
يُسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرَّواح وفي البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين لتُسرَّه فأحزنته؟ فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى.

ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فأنشأ يقول:

لا تأمن الموت في طرف ولا ... ولو تمتعت بالحجَّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدَّرع منها ومتَّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فخر الرشيد مغشياً عليه.

وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول، فكتب مرة على جدار الحبس:

أما واللّه إن الظلم لُـومَ ... وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند اللّه تجتمع الخصوم

قال: فاستدعاه واستعجله في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه.

وقال الحسين بن الفهم: حدثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال: دخلت على الرشيد فقال: ما خبرك؟ فقلت:

بعين اللّه ما تخفى البيوت ... فقد طال التحمل والسكوت

فقال: يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه، ولا تضر الرشيد شيئاً.

وقال الأصمعي: كنت مع الرشيد في الحج فمررنا بواد فإذا على شفيره امرأة صبية حسناء بين يديها قصعة وهي تسأل فيها وتقول:

طَحْطَحَتْنا طحاطح الأعوام ... ورمتنا حوادث الأيام
فأتيناكم نمد أكفنا ... لفضالات زادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيت الحرام
من رآني فقد رآني ورحلي ... فارحموا غربتي وذل مقامي

قال الأصمعي: فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً، فملأها حتى جعلت تفيض يميناً وشمالاً.

وسمع مرة الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج وهو يقول:

يا أيها المُجمع همّاً لا تُهَمّ
أنك إن تُقضَى لك الحُمَّى تُحَمّ
كيف توقِّيك وقد جفَّ القلمْ
وحطَّتِ الصحَّةُ منك والسُّقَمْ

فقال الرشيد لبعض خدمه: ما معك؟ قال: أربعمائة دينار، فقال: ادفعها إلى هذا الأعرابي. فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلا:

وكنت جليس قعقاع بن عمرو ... ولا يشقى بقعقاعٍ جليس

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطي المتمثل ما معه من الذهب فإذا معه مائتا دينار.

قال أبو عبيد إن أصل هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات من ذهب ففرَّقها على جلسائه وإلى جانبه قعقاع بن عمرو، وإلى جانب القعقاع أعرابي لم يفضل له منها شيء. فأطرق الأعرابي حياء فدفع إليه القعقاع الجام الذي حصل له، فنهض الأعرابي وهو يقول:

وكنت جليس قعقاع بن عمرو ... ولا يشقى بقعقاع جليس

وخرج الرشيد يوماً من عند زبيدة وهو يضحك فقيل له: ممَّ تضحك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زوجته زبيدة - فأكلت عندها ونمت، فما استيقظت إلا بصوت ذهب يُصَبُّ، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذه ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت زبيدة: هبها لي يا ابن عم، فقلت: هي لك، ثم ما خرجت حتى عربدت عليَّ وقالت: أي خير رأيت منك؟.

وقال الرشيد مرة للمفضل الضبي: ما أحسن ما قيل في الذئب، ولك هذا الخاتم، وشراؤه ألف وستمائة دينار؟ فأنشد قول الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى الرزايا فهو يقظان هاجع

فقال: ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم. ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة دينار، وبعثت به إلى الرشيد وقالت: إني رأيتك معجباً به. فرده إلى المفضل والدنانير، وقال: ما كنا لنهب شيئاً ونرجع فيه.

وقال الرشيد يوماً للعباس بن الأحنف: أي بيت قالت العرب أرق؟ فقال: قول جميل في بثينة:

ألا ليتني أعمى أصم تقودُني ... بثينة لا يخفى علي كلامها

فقال له الرشيد: فقولك أرقُّ من هذا حيث قلت:

طاف الهوى في عباد اللّه كلهم ... حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

فقال العباس: فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذه كله:

أمــا يكفيــك أنــك تملكيــني ... وأن النــاس كلهــم عبيــدي
وأنك لـو قطعت يـدي ورجلـي ... لقلت من الهوى أحسنت زيـدي

قال: فضحك الرشيد وأعجبه ذلك.

ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كنَّ عنده من الخواص:

ملـك الثـلاث الآنسـاتُ عنـاني ... وحللـن مـن قلـبي بكـل مكـان
مـا لي تطـاوعني البريـة كلهـا ... وأطيعهــن وهــن في عصيــاني
مـا ذاك إلا أن سـلطان الهـوى ... وبـه قوين أعـز مـن سـلطاني

ومن شعره فيما أورده صاحب العقد في كتابه:

تُبـدي صـدوداً وتخفـي تحتـه مِقَـةً ... فالنفس راضيـة والطـرف غضبـانُ
يـا مَـن بذلـتُ لـه خـدِّي فزلَّلَـهُ ... وليس فوقـي سـوى الرحمن سـلطانُ

وذكر أبو هِفَّان أنه كان في دار الرشيد من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلف جارية، وأنهن حضـرن كلهـن يومـاً بـين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً، وأمر بمال فنثر عليهن. فكـان مبلغـة ستة الآف ألف درهم في ذلك اليوم. رواه ابن عساكر.

وروري أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بهـا جـداً فـأمر بإحضـار مواليها ومن يلوذ بهم ليقضـي حوائجهـم، فقدمـوا في ثمـانين نفسـاً فـأمر الحاجب - وهو الفضل بن الربيع - أن يتلقاهم ويكتب حوائجهم؛ فكـان فيهم رجل أعرابي قـد أقـام بالمدينة وهـو يهـوى تلـك الجارية، فقـال لـه الحاجب: ما حاجتك؟ قال: حـاجتي أن يجلسـني أمـير المؤمنـين مـع فلانـة فأشرب ثلاثة أرطال من شـراب، وتغنيـني ثلاثـة أصـوات. فقـال: أمجنـون أنت؟ فقال: لا ولكن اعـرض ذلـك علـى أمـير المؤمنين. فلمـا رجـع إلى الخليفة، ذكر له ما قال ذلك الرجل فأمر بإحضاره وأن تجلس معـه الجاريـة بحيث ينظر إليهما ولا يريانـه فجلسـت علـى كرسـي والخـدام بـين يديهـا، وجلس الرجل على كرسي فشرب رطلا وقال لها غنيني:

خليلـي عوجـا بـارك اللّـه فيكمـا ... وإن لم تكن هنـد بأرضكمـا قصـدا
وقـولا لهـا ليـس الضـلال أجازنـا ... ولكنـا جزنـا لنلقـاكم عمـدا
غـدا يكـثر البـاكون منـا ومنكـم ... وتـزداد داري مـن ديـاركم بعـدا

قال: فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلا آخر، وقال: غنيني جعلـت فداك:

تكلـم منـا في الوجـوه عيوننـا ... فنحـن سـكوت والهـوى يتكلـم
ونغضـب أحيانـا ونرضـى بطرفنـا ... وذلـك فيمـا بيننـا ليـس يعلـم

قال: فغنته: ثم شرب رطلا ثالثاً وقال: غنيني جعلني اللّه فداك:

أحسـن مـا كنـا تفرقنـا ... وخاننـا الدهـر ومـا خنـا
فليـت ذا الدهـر لنـا مـرة ... عـاد لنـا يومـاً كمـا كنـا

قال: ثم قام الشاب إلى درجة هناك فعلاها، ثم ألقى نفسه من أعلاهـا على أم رأسه فمات. فقال الرشيد: عجل الفتى، واللّه لو لم يعجل لوهبتها له.

وفضائل الرشيد ومكارمه ومآثره وأشعاره كثيرة جداً. وقد أورد الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجاً صالحاً وللّه الحمد.

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: ليس موتـاً مـن هـارون أحد أعـز علينا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعـو اللّـه أن يزيد في عمره من عمري قالوا: فلمـا مـات الرشيد وظهـرت تلـك الفـتن والحوادث والاختلافات، والقول بخلق القرآن، فعرفنا ما كان يحمل الفضيل بن عياض على ذلك.

وقد تقدم ما رآه في منامه من ذلك وفيه تربة حمراء وقائل يقـول: هـذه تربة أمير المؤمنين وكانت بطوس.

وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى في منامه قائلا يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله. الشعر إلى آخره.

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسـى الهـادي. وأبـوه محمـد المهـدي فاللّه أعلم.

وقدمنا أنه أمر بحفر قبره في حياته، وأمر بقراءة ختمـة فيـه، وأنـه حمـل حتى نظر إليه فجعل يقول: إلى هنـا تصـير يـا ابـن آدم. ويبكـي، وأمـر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجليه، ثم جعل يقول: ﴿ما أغنى عـني ماليه هلك عني سلطانيه﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩] ويبكي.

ويقال: إن آخر ما تكلم به حين احتضر: اللّهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت ارحم من يموت.

وكان مرضه بالدم، وقيل بالسل، وكان جبريل بن بختيشوع يكتمه ما به من العلة، فأمر الرشيد رجلا أن يأخذ ماءه في قارورة ويذهب به إلى جبريل فيريه إياه، على أنه لمريض عنده. فلما رآه جبريل قال لرجل عنده: هذا مثل ماء ذلك الرجل. ففهم صاحب القارورة من عنى به، فقال له: باللّه عليـك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء. فإن لي عليه مالا، فـإن كـان بـه رجـاء وإلا أخذته منه. فقال: اذهب فتخلص منه فإنه لا يعيش إلا أيامـاً. فلمـا جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشـيد. وقـال قـال الرشيد وهو في هذه الحال:

إنـــي بطـــوس مقيـــم ... مـــالي بطـــوس حميـــم
أرجـــو إلهـــي لمـــا بـــي ... فإنـــه بـــي رحيـــم
لقـــد أتـــاني بطـــوس ... قضـــاؤه المحتـــوم
وليـــس إلا رضـــائي ... والصـــبر والتســـليم

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثـلاث وتسعين ومائة، وقيل إنه توفي في جمادى الأولى، وقيل في ربيـع الأول، ولـه من العمر خمس وقيل ست، وقيل سبع، وقيل ثمان وأربعـون سـنة. ومـدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً. وقيـل ثلاثـة أشـهر. وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لهـا سـناباذ رحمـه اللّه وسامحه وأدخله الجنة.

وقال بعضهم: قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون مـن طوس من بعد موته.

منـازل العسـكر معمـورة ... والمـنزل الأعظـم مهجـور
خليفـةُ اللّـه بـدار البلـى ... تسـفي علـى أجداثـه المـور
أقبلـت العـير تبـاهي بـه ... وانصرفـت تندبـه العـير

وقد رثاه أبو الشيص فقال:

غربـت في الشـرق شمـس ... فلهـا العينـان تدمـع
مـا رأينـا قـط شمسـا ... غربـت مـن حيـث تطلـع

وقد رثاه الشعراء بقصائد.

قال أبو الفرج بن الجوزي: في المنتظم [٢٣٢/٩]: وقد ترك الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار، وخمسة وثلاثون ألف ألف دينار.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤٦/٨]: وكان في بيت المال لمصالح الناس سبعمائة ألف ألف ونيف.

ذكر زوجاته وبنيه وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور، في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي، فولدت له محمداً الأمين. وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي. وتزوج أمة العزيز أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد. وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفتا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقة، وتزوج عزيزة بنت الغطريف، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية، ويقال لها الجرشية، لأنها ولدت بجُرش باليمن، وتوفي الرشيد عن أربع حرائر: زبيدة، وعباسة، وابنة صالح، والعثمانية هذه.

وأما الحظايا من الجوار فكثير جداً حتى.

قال بعضهم: إنه كان عنده في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان.

وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراجل، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف. وعليّ المؤتمن أمه أمة العزيز. وصالح من جارية اسمها رئم. ومحمد أبو يعقوب. ومحمد أبو عيسى. ومحمد أبوالعباس. ومحمد أبو علي كل هؤلاء من أمهات أولاد.

وكان من الإناث سكينة من قصف. وأم حبيب من ماردة. وأروى. وأم الحسن. وأم محمد حمدونة وفاطمة وأمها غصص. وأم سلمة. وخديجة. وأم القاسم ورملة. وأم علي. وأم الغالية. وريطة كلهن من أمهات أولاد.

خلافة محمّد الأمين ابن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور

لما توفي الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد بن الرشيد الملقب الأمين وهو ابن زبيدة ببغداد يعلمه بوفاة أبيه ويعزيه فيه، فلما وصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة، يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الآخرة، فركب الأمين من قصره بالخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور - الذي يقال له: قصر الذهب - على شط بغداد وكان ذلك يوم جمعة النصف من جمادى، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير. فبايعه الخواص من قومه ووجوه الأمراء، وأمر بصرف أعطيات الجند عن سنتين، نزل وأمر عمه سليمان بن أبي جعفر أن يأخذ البيعة له من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين ببغداد واستقام حاله فيها حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

اختلاف الأمين والمأمون

وكان السبب في ذلك أن الرشيد لما كان مد وصل إلى أول بلاد خراسان ذهب جميع ما كان معه من الحواصل والدواب والسلاح لولده المأمون، وجدد له البيعة، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين، وارتحل الفضل بن الربيع الحاجب بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تحرّج من البيعة التي أخذت منهم للمأمون، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه، فوقعت الوحشة بين الأخوين، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك، وهو نائبه عليها، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصَّوالجة، فقال في ذلك بعض الشعراء:

بنى أمين اللّه ميداناً　وصير الساحة بستانا
وكانت الغزلان فيه بانا　يهدى إليه فيه غزلانا

وفي هذه السنة في شعبان منها قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف والثياب، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس.

وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم.

وممات في هذه السنة

نقفور ملك الروم، قتلته البرجان، وكان ملكه سبع سنين، وأقام بعده ولده إستبراق شهرين فمات، فملكهم ميخائيل زوج أخت نقفور لعنهم الله.

وفيها تواقع هرثمة بن أعين نائب خراسان ورافع بن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره.

وحج بالناس في هذه السنة نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

وفيها توفي من الأعيان

■ إسماعيل ابن علية: وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل، وقد ولي المظالم ببغداد، وكان ناظر الصدقات بالبصرة، وكان ثقة نبيلا جليلا كبير القدر، قليل التبسم وكان يتجر في البز وينفق على عياله منه ويحج منه، وبر أصحابه من العلماء، منهم السفيانين وغيرهما، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ عبد اللّه بن المبارك أنه ولي القضاء بعث إليه يعتب عليه ويلومه نظماً ونثراً، فاستعفى ابن علية الرشيد من القضاء فأعفاه.

وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك.

■ محمد بن جعفر: الملقب بغندر. روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وقد حدث عن خلق، وعنه جماعة من الأئمة منهم أحمد بن حنبل،

وكان ثقة جليلا حافظاً متقناً في الحديث. وقد ذكر عنه حكايات تدل على تغفيله في أمور الدنيا.

كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة، وقيل في التي بعدها.

وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المحدثين من المتقدمين والمتأخرين.

وممن توفي فيها:

■ هارون الرشيد: أمير المؤمنين، وقد تقدمت ترجمته قريباً.

■ أبو بكر بن عياش: أحد الأئمة، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام بن عروة وجماعة.

وحدث عنه خلق من الثقات منهم أحمد بن حنبل.

وقال يزيد بن هارون: كان خيِّراً فاضلا لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة.

قالوا: ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة، وصام ثمانين رمضاناً، وتوفي وله ست وتسعون سنة. ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال: يا بني علام تبكي؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فعزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرق نواحيها بالنار، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً.

وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور، وولى على ذلك خزيمة بن خازم، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد.

وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار وبالإمرة من بعده، وسماه الناطق بالحق، ثم يدعى بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم، ومن نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته في أخويه، وحسن له خلع المأمون والقاسم، وصغر عنده شأن المأمون. وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة يوماً من الدهر، فيسعى في خلعه وزوال الولاية عنه. فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى بولاية العهد من بعده، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة.

فلما بلغ ذلك المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز، وتنكر لأخيه الأمين. وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه، وجاء هرثمة على إثره فتلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس، فلما بلغ الأمين أن الجنود قد التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلا ثلاثة من أكابر الأمراء، يسأله أن يجيبه إلى تقديم ولده موسى عليه، وأنه قد سماه الناطق بالحق، فأظهر المأمون الامتناع وشرعوا في مطايبته وملاينته، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الإباء، فقال له العباس بن موسى بن عيسى: فقد خلع أبي نفسه فماذا كان؟ فقال المأمون: إن أباك كان امرءاً مُكْرَهاً، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة، ثم لما رجع إلى بغداد كان يراسله بما كان من الأمر ببغداد ويناصحه، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من جوابه، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون فخلعه وأمر بالدعاء لولده في العراق كله وبلاد الحجاز وغيرها من البلاد وسماه الناطق بالحق، وجعلوا من يتكلم في المأمون ويذكر مساوئه، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة، فمزقه الأمين وأكدوا البيعة للناطق بالحق موسى بن الأمين على ما يليه أبوه من الأعمال، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها، وقد استقصاها الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه [٨/٣٧٥-٣٨٥].

ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيأ الجيوش والجنود وتألف الرعايا.

وفي هذه السنة غدت الروم على ملكهم ميخائيل فراموا خلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم ليون.

وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى، وقيل علي بن الرشيد.

وقد توفي فيها من الأعيان

■ سَلْم بن سالم أبو محمد البلخي: قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري. وعنه الحسن بن عرفة.

وكان عابداً زاهداً، مكث أربعين سنة لم نَرَ له فراشاً، وصامها كلها إلا يومي العيد، ولم يرفع رأسه إلى السماء، وكان داعية إلى الإرجاء ضعيف الحديث، إلا أنه كان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان قد قدم بغداد فشنَّع على الرشيد فحبسه وقيده باثني عشر قيداً، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى تركوه في أربعة قيود، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله.

فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع إلى أهله وكانوا بمكة قد جاؤوا حجاجاً - فمرض بمكة. واشتهى يوماً برداً فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه. مات في ذي الحجة من هذه السنة.

و■ عبد الوهاب بن عبد المجيد: الثقفي كانت غلته في السنة قريباً من خمسين ألفاً ينفقها كلها على أهل الحديث. توفي عن أربع وثمانين سنة.

و■ أبو النصر الجهني المصاب: كان مقيماً بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالي منه، وكان يطيل السكوت، فإذا سئل أجاب بجواب حسن، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب، وكان يخرج يوم الجمعة قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول: ﴿يا أيها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يوماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلُود هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان: ٣٣] و﴿يَومَ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ثم ينتقل من جماعة إلى جماعة، حتى يدخل المسجد فيصلي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة.

وقد وعظ مرة هارون الرشيد بكلام حسن فقال: اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فاعد لذلك جواباً، وقد قال عمر بن الخطاب: لو ماتت سخلة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عزّ وجلّ عنها. فقال الرشيد: إني لست كعمر، وإن دهري ليس كدهره. فقال: ما هذا بمغن عنك شيئاً. فأمر له بثلاثمائة دينار، فقال: أنا رجل من أهل الصفة فمر بها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

ففي صفر منها أمر الأمين أن لا يُتعامل بالدراهم والدنانير التي عليها

اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر، وأن يقتصر على الدعاء له ثم من بعده لولده الناطق بالحقّ.

وفيها تسمى المأمون بإمام المؤمنين.

وفي ربيع الآخر منها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الإمارة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد، وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشا كثيراً، وأنفق فيهم نفقات عظيمة، وأعطاه مائتي ألف دينار، ولولده خمسين ألف دينار وألفي سيف محلى، وستة آلاف ثوب للخلع. فخرج علي بن عيسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس، ومعه قيد من فضة ليأتي بالمأمون فيه وخرج الأمين معه مشيعاً فسار حتى وصل إلى الري فتلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف، فكانت بينهم أمور آل الحال فيها إلى أن اقتتلوا، فقتل علي بن عيسى وانهزم أصحابه وحمل رأسه وجثته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذي الرياستين، وكان الذي قتل علي بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمي ذا اليمينين، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به علي بن عيسى بن ماهان، ففرح بذلك المأمون وذووه، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة، فقال: ويحك دعني من هذا فإن كوثراً قد صاد سمكتين. ولم أصد بعد شيئاً. وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون، وما وقع من الأمر الفظيع. وكان رجوع الخبر إليه بذلك في شوال من هذه السنة.

ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية، فلما اقتربوا منهم تواجهوا فتقاتلوا قتالا شديداً فكثرت القتلى بينهم من الفريقين، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن جبلة فلجؤوا إلى همذان فحاصرهم فيها طاهر حتى اضطرهم إلى أن دعوا إلى الصلح، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم، وانصرف عبدالرحمن بن جبلة وقد بقي منهم أنهم راجعين، ثم غدروا بأصحاب طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة، وفر أصحابه خائبين.

فلما رجعوا إلى بغداد واضطربت الأمور وكثرت الأراجيف، وكان ذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وطرد طاهر عمال محمد الأمين عن قزوين وتلك النواحي، وقوي أمر المأمون جداً بتلك البلاد.

وفي ذي الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفياني بالشام، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقة، ثم كان من أمره ما سنذكره بعدُ.

وحج بالناس في هذه السنة نائب الحجاز داود بن عيسى.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان

منهم:

■ إسحاق بن يوسف الأزرق: أحد أئمة الحديث. روى عنه الإمام أحمد وغيره.

■ بكار بن عبد الله: بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، وكان نائب المدينة للرشيد ثنتي عشرة سنة وأشهراً، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، وكان شريفاً جواداً معظماً ممدّحاً.

■ أبو نواس الشاعر المشهور واسمه الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن وهيب بن ذوة بن غنم بن سليم بن حكم بن سعد العشيرة بن مالك بن عمرو بن الغوث بن طيىء بن أدد بن شبيب بن سبيع بن الحارث بن زيد بن عدي بن عوف بن زيد بن هميسع بن عمرو بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح كذا نسبه عبدالله بن سعد الورّاق أبو علي الحكمي نسبة إلى ولاء الجراح بن عبد الله الحكمي.

ويقال له أبو نواس البصري، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها جلبان، فولدت له أبا نواس هذا وابناً آخر يقال له أبا معاذ، ثم صار أبو نواس إلى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر، وصحب يونس بن حبيب الضبي النحوي.

وقد قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢/٩٥]: صحب أبا أسامة والبة الحباب الكوفي، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان، ويحيى القطان.

وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي. حكى عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل والجاحظ وغندر ومشاهير العلماء.

ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنّة.

وقال محمد بن إبراهيم: دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي: يا أبا علي! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وبينك وبين الله هنات، فتب إلى الله عز وجل من عملك. فقال: إياي تخوّف بالله فقال: أسندوني. فأسندوه فقال: حدثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكلّ نبيّ شفاعة وإنّي اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة» [م(٢٠١)، ت(٢٤٣٦)، جه(٤٣١٠)]. ثم قال: أفتراني لا أكون منهم.

وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن خنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟.

وقال يعقوب بن السكيت إذا رويت الشعر عن امرىء القيس والأعشى من أهل الجاهلية، ومن الإسلاميين لجرير والفرزدق، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك.

وقد أثنى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام.

قال أبو عمرو الشيباني: لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقذار لاحتججنا به - يعني شعره الذي قاله في الخمريات والأحداث، وقد كان يميل إليهم - ونحو ذلك مما هو معروف من شعره.

وقد اجتمع طائفة من الشعراء عند المأمون فقال لهم: أيكم القائل:

فلمّا تحسّاها وقفنا كأنّنا ... نرى قمراً في الأرض يبلع كوكبا

قالوا: أبو نواس. قال: فأيكم القائل:

إذا نزلت دون اللّهاة من الفتى ... دعا همُّهُ عن صدره برحيل

قالوا أبو نواس. قال: فأيكم القائل:

فتمشّت في مفاصليهم كتمشّي السُّبْرء في السّقم

قالوا: أبو نواس. قال: فهو أشعركم.

وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر: ما أشعر ظريفكم أبا نواس في قوله:

يا قمراً أبصرت في مأتم يندب شجواً بين أتراب
أبرزه المأتم لي كارهاً برغم ذي باب وحُجّاب
يبكي فيذري الدُّرَّ من نرجس ويلطم الورد بعُنّاب
لازال موتاً دأب أحبابه ولا تزل رؤيته دابي

قال ابن الأعرابي: أشعر الناس أبو نواس في قوله:

تغطّيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درتْ وأين مكاني ماعرفن مكاني

وقال أبو العتاهية: قلت في الزهد عشرين ألف بيت، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي هذه، وكانت مكتوبة على قبره:

يا نواسيّ توقّرْ تَغَيّرْ وتصبّرْ
إن يكن ساءك دهر فلما سرّك أكثر
يا كبيرَ الذّنب عفو اللّه من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس - رحمة اللّه عليه - يمدح بعض الأمراء:

أوجده اللّه فما مثله لطالبٍ ذاك ولا ناشد
وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وأنشدوا لسفيان بن عيينة قول أبي نواس:

ماهوى إلا له سبب يبتدي منه وينشعب
فتنت قلبي مُحَجَّبة وجهها بالحسن منتقب
خليتْ والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب
فاكتست منه طرائفه واستزادت بعض ما تهب
فهي لو صيرت فيه لها عودة لم يثنها أرب
صار جسداً ما مزحت به ربّ جدّ جرّه اللّعب

فقال ابن عينية: آمنت بالذي خلقها.

وقال ابن دريد: قال أبو حاتم: لولا أن العامة بدلت هذين البيتين لكتبتهما بماء الذهب:

ولو أني استزدتك فوق مابي من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وقد سمع أبو نواس حديث سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: ألقلوب جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف. [خ (٣٣٣٦) من حديث عائشة، م (٢٦٣٨)، د (٤٨٣٤) من حديث أبي هريرة]. فنظم ذلك في قصيدة له يقول فيها:

إن القلوب لأجناد مجندة للّه في الأرض بالأهواء تعترف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

ودخل يوماً أبو نواس مع جماعة من المحدثين على عبد الواحد بن زياد فقال لهم عبد الواحد: ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث أحدثه بها، فاختار كل واحد عشرة إلا أبا نواس، فقال له: مالك لاتختار كما اختاروا؟ فأنشأ يقول:

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب ثم سعد بن عباده
وعن الشعبي والشعب بي شيخ ذو جلاده
وعن الأخيار نحكيه وعن أهل الإفاده
أن من مات محباً فله أجر شهاده

فقال له عبد الواحد: قم ماجن، لاحدثتك ولا حدثت أحداً من هؤلاء من أجلك. فبلغ ذلك مالك بن أنس وإبراهيم بن أبي يحيى فقالا: كان ينبغي أن يحدثه لعل اللّه أن يصلحه.

قلت: وهذا الذي أنشده أبو نواس في شعره قد رواه ابن عدي في كامله عن ابن عباس موقوفاًومرفوعاً من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً. ومعناه أن من ابتلي بالعشق من غير اختيار منه فصبر وعف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير. فإن صح هذا كان ذلك له نوع شهادة واللّه أعلم.

وروى الخطيب البغدادي أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له: حدّثنا من طرفك، فقال مرتجلا:

حدّثنا الخَفّافُ عن وائلِ وخالدُ الحذّاءُ عن جابرِ
ومِسْعرٌ عن بعض أصحابه يرفَعُه الشّيخُ إلى عامرِ
قالُوا جميعاً أيما طفلةٍ عُلّقها ذو خُلُقٍ طاهرِ
فواصَلَتْهُ ثم دامَتْ له على وصال الحافظِ الذّاكرِ
كانت له الجنةُ مفتوحةً يرتعُ في مرتَعِهَا الزّاهرِ
وأيُّ معشوق جفا عاشقاً بعدَ وصالٍ دائمٍ ناضرِ
ففي عذابِ اللّهِ بُعْداً له نعم وسحقٍ دائمٍ داحرِ

فقال له شعبة: إنك لجميل الأخلاق، وإني لأرجو لك.

وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحر المقلتين والجيد وقاتلي منك بالمواعيد
تُوعِدُني الوصلَ ثم تُخْلِفُني فوابلائي من خُلف موعودي
حدثني الأزرق المحدِّث عن شمْر وعوفٍ عن ابن مسعود
ما يُخلِفُ الوعد غيرُ كافرةٍ وكافرٍ في الجحيم مصفود

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرق فقال: كذب عدو اللّه عليّ وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد ﷺ.

وعن سليم بن منصور قال: رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبكي بكاء شديداً فقلت: إني لأرجو أن لا يعذبك اللّه بعد هذا البكاء أبداً فأنشأ يقول:

لم أبك في مجلس منصور شوقاً إلى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله ولا من النفخة في الصور
ولا من النار وأغلالها ولا من الخذلان والجور
لكن بكائي لبكا شادن تقيه نفسي كلّ محذور

ثم قال: إنما بكيت لبكاء هذا الأمرد الذي إلى جانب أبيك - وكان

صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفا من الله عز وجل

قال: أبو نـواس: دعاني يوماً بعض الحاكة وألح عليّ ليضيفني في منزله، ولم يزل بي حتى أجبته فسار إلى منزله وسرت معه فإذا منزل لا بأس به، وقد احتفل الحائك فلم يقصِّر، فأكلنا وشربنا ثم قال: يا سيدي أشتهي أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر ـ وكان مغرماً بجارية له ـ قال: فقلت: أرنيها حتى أنظم على شكلها وحسنها، فكشف عنها الحجاب فإذا هي من أسمج خلق الله وأوحشهم سوداء شمطاء دندانية يسيل لعابها على صدرها. فقلت لسيدها: ما اسمها؟ فقال تسنيم، فأنشأت أقول:

أسهر ليلي حبُّ تسنيم ... جارية في الحسن كالبوم
كأنما نكهتها كامخ ... أو حزمة من حزم الثوم
ضرطت من حبيّ لها ضرطة ... أفزعت منها ملك الروم

قال: فقام الحائك يرقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول: شبهها والله بملك الروم.

ومن شعره أيضاً.

أبرمني الناس يقولون تُبْ ... بزعمهم كثرت أوزاريه
إن كنت في النار وفي جنة ... ماذا عليكم يابني الزانية

وبالجملة فقد ذكروا له أموراً كثيرة، وأشعاراً منكرة، ومجوناً كثيرة وله في الخمريات والقاذورات والتشبب بالمردان والنسوان أشياء بشعة شنيعة، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة، ومنهم من يرميه بالزندقة، ومنهم من يقول: إنما كان يجرب على نفسه، والأول أظهر، لما في أشعاره. فأما الزندقة فبعيدة عنه، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة. وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها، والعامة تنقل عنه أشياء كثيرة لاحقيقة لها. وفي صحن جامع دمشق قبة يفور الماء من وسطها يقول الدماشقة: قبة أبي نواس، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة، فما أدري لماذا تسمّى بهذا، والله أعلم.

وقال محمد بن أبي عمير: سمعت أبا نواس يقول: والله ما فتحت سراويلي لحرام قط.

وقال محمد الأمين بن هارون الرشيد لأبي نواس: أنت زنديق. فقال: يا أمير المؤمنين، كيف وأنا أقول:

أصلّي الصلاة الخمس في حين وقتها ... وأشهد بالتوحيد للّه خاضعا
وأحسن غسلاً إن ركبت جنابةً ... وإن جاءني المسكين لم أك مانعا
وإني وإن حانت من الكأس دعوة ... إلى بيعة الساقي أجبت مسارعا
وأشربها صرفاً على جنب ماعز ... وجدي كثير الشحم أصبح راضعا
وجوذاب حواري وجوز وسكر ... وما زال للمخمور ذلك نافعا
وأجعل تخليط الروافض كلهم ... لفقحة بختيشوع في النار طابعاً

فقال له الأمين: ويحك! وما الذي ألجاك إلى فقحة بختيشوع؟ فقال: به تمت القافية. فأمر له بجائزة.

وقال الجاحظ: لا أعرف في كلام الشعراء أرفع ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول:

أيةَ نار قدحَ القادحُ ... وأيُّ جدٍّ بلغ المازح
للّه درُّ الشيب من واعظٍ ... وناصحٍ لو خطىء الناصح

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهنَّ العملُ الصالح
لايجتلي العذراء من في خدرها ... إلا امرؤٌ ميزانُهُ راجح
من اتقى اللّه فذاك الذي ... سيق إليه المتجر الرابح
فاغد فما في الدين أغلوطة ... ورح لما أنت له رائح

وقد استنشده أبو هِفّان قصيدته التي في أولها:

لا تنس ليلى ولا تطرب إلى هند

فلما فرغ منها سجد له أبو هِفّان، فقال له أبو نواس: والله لا أكلمك مدة. قال: فغمني ذلك، فلما أردت الانصراف قال: متى أراك؟ فقلت: ألم تقسم؟ فقال: الدهر أقصر من أن يكون معه هجر.

ومن مستجاد شعره قوله:

ألا ربُّ وجه في التراب عتيق ... ويارب حسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ونجدةٍ ... ويارب رأي في التراب وثيق
أرى كل حي هالكاً وابن هالك ... وذا حسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن ... إلى سفر نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقوله:

لاتشرهن فإن الذلَّ في الشره ... والعزُّ في الحلم لا في الطيش والسَّفهِ
وقل لمغتبط في التيه من حمق ... لو كنت تعلم مافي التيه لم تته
التيه مفسدةٌ للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وجلس أبو العتاهية القاسم بن إسماعيل في دكان وراق فكتب على ظهر دفتر.

أيا عجباً كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

ثم جاء أبو نواس فقرأها ثم قال: أحسن، قاتله والله. والله لوددت أنها لي بجميع شيء قلته، لمن هذه؟ قيل له: لأبي العتاهية، فأخذ الدفتر فكتب إلى جانبها:

سبحان من خلق الخلـ ... ـق من ضعيف مهين
يسوقه من قرار ... إلى قرار مكين
يَحورُ شيئاً فشيئاً ... في الحجب دون العيون
حتى بدت حركاتٌ ... مخلوقةٌ من سكون

ومن شعر أبي نواس المستجاد قوله:

انقضت شرتي فعفت الملاهي ... إذ رمى الشيب مفرقي بالدواهي
ونهتني النهى فَمِلتُ إلى العدل ... وأشفقت من مقالة ناهِ
أيها الغافل المقر على السهو ... ولا عذر في المعاد لساهِ
لا بأعمالنا نطيق خلاصاً ... يوم تبدو السماتُ فوق الجباه
غير أنا على الإساءة والتفـ ... ـريط نرجو من حسن عفو الإله

وقوله:

نموت ونبلى غير أن ذنوبنا ... إذا نحن متنا لاتموت ولا تبلى
ألا ربّ ذي عينين لاتنفعانه ... وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

وقوله:

لو أنّ عيناً وهمتها نفسها ... يوم الحساب ممثلا لم تطرف
سبحان ذي الملكوت أية ليلة ... مخضتْ صبيحتها بيوم الموقف
كتب الفناء على البرية ربها ... فالناس بين مقدمٍ ومخلفِ

وذكر أن أبا نواس لما أراد الإحرام بالحج قال:

إلهنا ما أعدلَكْ ... مليكَ كُلِّ مَن ملَكْ
لبيكَ قد لبيتُ لكْ ... لبيك إن الحمد لك
والملكَ لا شريكَ لكْ ... ما خابَ عبدٌ سألَكْ
لبيك إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لاشريكَ لكْ
أنتَ له حيثُ سلَكْ ... لولاكَ يا ربّي هلَكْ
لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لا شريكَ لكْ
والليلُ لَمّا أن حلَكْ ... والسابحاتُ في الفَلَكْ
على مجاري المُنسلَكْ ... كلُّ نبيٍّ وملَكْ
وكلُّ مَن أهلَّ لك ... سبَّحَ أو صلّى فَلَكْ
لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لا شريكَ لكْ
ياخاطئاً ما أغفَلَكْ ... عجِّلْ وبادِرْ أمَلَكْ
واختِمْ بخيرٍ عملَكْ ... لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ

وقال المعافى بن زكريا الجريري: حدثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى - ثعلباً - يقول: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كان النيران قد سعرت بين يديه، فما زلت أترفق به وتوسلت إليه بأني من موالي شيبان حتى قال: في أي شيء نظرت من العلوم؟ فقلت: في اللغة والشعر. فقال: مررت بالبصرة وجماعة يكتبون عن رجل الشعر، قيل لي: هذا أبو نواس. فتخللت الناس ورائي فلما جلست أملى علينا:

إذا ماخلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ... ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر مامضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب

وزاد بعضهم في رواية عن أبي نواس بعد هذه الأبيات:

أقول إذا ضاقت عليّ مذاهبي ... وحلّ بقلبي للهموم ندوب
لطول جناياتي وعظم خطيئتي ... هلكت ومالي في المتاب نصيب
وأغرق في بحر المخافة آيساً ... وترجع نفسي تارة فتتوب
ويُذكر عفو للكريم عن الورى ... فأحيا وأرجو عفوه فأنيب
فأخضع في قولي وأرغب سائلا ... عسى كاشف البلوى عليّ يتوب

قال ابن طرارا الجريري: وقد رويت هذه الأبيات: لمن؟ قيل: لأبي نواس وهي في زهدياته. وقد استشهد بها النحاة في أماكن كثيرة قد ذكرناها.

قال حسن بن الداية: دخلت على أبي نواس وهو في مرض الموت فقلت: عظني فأنشأ يقول:

تكثّر مااستطعت من الخطايا ... فإنك لاقيٌ رباً غفورا
ستبصر إذ وردت عليه عفواً ... وتلقى سيداً ملكاً قديراً
تعض ندامةً كفيك مما ... تركت مخافة النار السُّرورا

فقلت: ويلك، في مثل هذه الحال تعظني بهذه الموعظة؟ فقال: اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال النبي ﷺ: "أدخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي". وقد تقدم له بهذا الإسناد: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال: دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فأنشأ يقول:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منةً وتكرُّما
ولولاك لم يُغوَى بإبليس عابد ... وكيف وقد أغوى صفيك آدما

رواه الحافظ ابن عساكر.

وروي أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوباً فيها بخطه:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلمُ

وقال يوسف بن الداية: دخلت عليه وهو في السياق فقلت: كيف تجدك؟ فاطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال:

دبّ فيّ الفناء سفلا وعلوا ... وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس تأتي من ساعة بي إلا ... نقصتني بمرها في جزواً
ذهبت جدتي بلذة عيشي ... وتذكرت طاعة الله نِضْواً
قد أسأنا كل الإساءة فاللـ ... ـهم صفحاً عنا وغفرا وعفواً

ثم مات من ساعته سامحه الله.

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصاً، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك.

ولما مات لم يجدوا له من المال سوى ثلاثمائة درهم وثيابه وأثاثه، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشونيزية في تل اليهود. وله خمسون سنة. وقيل ستون سنة، وقيل تسع وخمسون سنة. وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما فعل المليك
عيون من لُجَيْنٍ فاخرات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال: غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤوا فوجدوها في رقعة بخطه، وهي هذه الأبيات:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمت بأنّ عفوك أعظم

الأبيات. وقد تقدمت.

وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم: رأيته في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قلت: بماذا وقد كنت مخلطاً على نفسك؟ فقال: جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألفي مرة ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جملتهم، فغفر الله لي.

وقال ابن خلكان: لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب قدم به بغداد، فكان أول شعر قاله أبو نواس:

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحبُّ ينتحب
تعجبين من سقمي صحتي هي العجب

وقال المأمون: ما أحسن قوله:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوٍّ في ثياب صديق

قال القاضي ابن خلكان: وما أشد رجاءه بربه حيث يقول:

تكثّر ماستطعت من الخطايا فإنّك بالغ رباً غفوراً
ستبصر إن وردتَ عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعضُّ ندامة كفَّيك مما تركت مخافة النار السرورا

وفيها توفي

■ أبو معاوية الضرير، محمد بن خازم، أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين.

و■ الوليد بن مسلم الدمشقي تلميذ الأوزاعي.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومئة

فيها حبس محمد بن الأمين أسد بن يزيد بن مزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه في أمر الرعية، وارتكابه اللعب والصيد في هذا الوقت.

وفيها وجه الأمين أحمد بن مزيد وعبد الله بن حميد بن قحطبة في أربعين ألفاً مع كل واحد منهما عشرون ألفاً إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين أمير الحرب من جهة المأمون، فلما وصلوا إلى قريب من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين الأميرين، فاختلفا فرجعا ولم يقاتلاه، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين، وأن يتوجه هو إلى الأهواز. ففعل ذلك.

وفيها رفع المأمون منزلة الفضل بن سهل وولاه أعمالا كباراً وسماه ذا الرياستين.

وفيها ولى الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن علي ـ وقد كان أخرجه من سجن الرشيد ـ وأمره أن يبعث له رجالا وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة، فلما وصل عبد الملك بن صالح إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة، فقدم عليه منهم خلق كثير، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس، ومات عبد الملك بن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، فتلقاه أهل بغداد بالإكرام والاحترام، وذلك في شهر رجب من هذه السنة. فلما وصل إليها جاءه رسول الأمين يطلبه فقال: والله ما أنا بسامر ولا مضحك، ولا وليت له عملا ولا جاء له على يدي مال، فلأي شيء يريدني في هذه الليلة؟

سبب خلع محمد الأمين وكيف أفضت الخلافة إلى أخيه عبد الله المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الرقة، قام في الناس خطيباً وألّبهم على الأمين، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللّهو وغير ذلك من المعاصي، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه، وندبهم لذلك، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير، وبعث محمد الأمين إليه خيلا فاقتتلوا ملياً من النهار، فأمر الحسين أصحابه أن يترجّلوا إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح، فانهزم جيش الأمين وخلع محمدٌ الأمين، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، وضيق عليه وقيده واضطهده، وأمر العباس بن موسى بن عيسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فقنّعها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها.

فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين، فرقة مع الخليفة وفرقة عليه. فاقتتلوا قتالا شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك، وأسروا الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على السرير، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن، فانتهب الناس خزائن السلاح بسبب ذلك، وامر الأمين وأُتي الأمين بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك. فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه الخاتم وولاه ما وراء بابه، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم وقاتلوه فقتلوه لمنتصف رجب، وجاؤوا برأسه إلى الأمين، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة.

ولما قتل الحسين بن علي بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين نائب المأمون على أكثر البلاد واستناب بها النواب، من جهة المأمون وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون، وتدنّى طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل.

وفي شعبان منها عقد محمد الأمين أربعمائة لواء مع كل لواء أمير، وبعثهم لقتال هرثمة بن أعين، فالتقوا في شهر رمضان فكسرهم هرثمة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وبعث به إلى المأمون، وهرب جماعة من جند طاهر نحو من خمسة آلاف فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالا كثيرة، وأكرمهم وغلف لحاهم بالغالية فسموا جيش

الغالية. ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشاً كثيفاً لقتال طاهر فهزمهم وفرق شملهم، وأخذ ما كان معهم، واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً، ثم وقع بين الجيش وسعت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بعض البغادذة:

قل لأمين اللّه في نفسه	ما شتت الجند سوى الغاليه
وطاهر؛ نفسي تقي طاهراً	برسله والعدة الكافيه
أضحى زمام الملك في كفه	مقاتلا للفئة الباغيه
يا ناكثاً أسلمه نكثه	عيوبه في جيشه فاشيه
قد جاءك الليث بشداته	مستكلباً في أسد ضاريه
فاهرب ولا مهرب من مثله	إلا إلى النار أو الهاويه

فتفرق على الأمين شمله، وحار في أمره، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، واشتد الحال على أهل البلد وأخذت الدعار والشطار أهل الصلاح، وخربت الديار، وثارت الفتنة بين الناس، حتى قاتل الأخ أخاه للأهواء المختلفة، والابن أباه. وجرت شرور عظيمة، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي من قبل طاهر، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة النبوية، وهو أول موسم دعي فيه للمأمون. بالخلافة.

وفيها توفي

■ بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وفقيهها ومحدثها.

و■ حفص بن غياث القاضي: عاش فوق التسعين ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له: لا تبك! واللّه ما حللت سراويلي على حرام قط، ولا جلس بين يديّ خصمان فباليت على من وقع الحكم منهما، قريباً كان أو بعيداً، ملكاً أو سوقة.

و■ عبد اللّه بن مرزوق أبو محمد الزاهد، كان وزيراً للرشيد فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل اللّه يرحمه.

■ أبو شيص: الشاعر محمد بن رزين بن سليمان، كان إنشاد الشعراء، وإنشاؤه ونظمه أسهل عليه من شرب الماء، كذا قال ابن خلكان وغيره.

وكان هو مسلم بن الوليد - الملقب صريع الغواني - وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون. وقد عمي أبو الشيص في آخر عمره، ومن جيد شعره قوله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي	متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذةً	حباً لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم	إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً	ما من يهون عليك ممن يكرم

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين بن مصعب وهرثمة بن أعين ومن معهما من الجنود في حصار بغداد والتضييق على محمد الأمين، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرمهما، وولى أخاه القاسم جرجان، واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرّادات. وضاق الأمين بهم ذرعاً، ولم يبق معه ما ينفق في الجند، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير، وهرب كثير من جنده إلى طاهر، وقتل من أهل البلد خلق كثير، وأخذت أموال كثيرة من التجار، وبعث محمد الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة، فعل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم، وقُتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تخرب بكمالها، فقال بعضهم في ذلك:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع اللّه قوماً ما ذكرتهم	إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقد أكثر الشعراء في ذلك.

وقد أورد ابن جرير [تاريخه: ٨/٤٤٨-٤٥٤] من ذلك طرفاً صالحاً، وأورد في ذلك قصيدة طويلة جداً لبعض أهل ذلك الزمان، فيها بسط ما وقع، وهي هول من الأهوال اقتصرناها بالكلية.

واستحوذ طاهر على ما كان في الضياع من الغلات والحواصل للأمراء وغيرهم، ودعاهم إلى الأمان وخلع الأمين والبيعة للمأمون فاستجاب له جماعة منهم عبد اللّه بن حميد بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العباس الطوسي، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء، وصارت قلوبهم معه، واتفق في بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح، فلما جرى ذلك بطر الأمين وأقبل على اللّهو والشرب واللعب، ووكل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن عيسى بن نهيك، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأمين جداً، والحاز الناس إلى جيش طاهر - وكان جانبه آمنا جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولانهب ولاغير ذلك - وقد احتاز طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خالفه، ليضيق عليهم فغلت الأسعار جداً، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك، ومنعت التجار من القدوم إلى بغداد بشيء من البضائع أو الدقيق، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها، وجرت بين الفريقين حروب كثيرة، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغادذة يأتي عرياناً ومعه بارية مقيرة، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة، فإذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه بباريته فلا يؤذيه، وإذا اقترب منه رماه بحجر في المقلاع فأصابه، فهزموهم بذلك.

ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين، فشق ذلك على طاهر وأمر

بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم من أصحابه، فشق ذلك على محمد الأمين وقال في ذلك:

منيت بأشجع الثقلين قلباً ... إذا ما طال ليس كما يطول
له مع كل ذي بدن رقيب ... يشاهده ويعلم ما يقول
فليس بمغفل أمراً عناداً ... إذا ما الأمر ضيّعه الغفول

وضعف أمر محمد الأمين ابن زبيدة جداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه، وتفرق أكثر أصحابه عنه، وبقي مضطهداً ذليلا.

وانقضت هذه السنة بكمالها والناس ببغداد في قلاقل وزلازل وهيشهات، وقتال وحصار وحرق وغرق وسرق، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي ودعا للمأمون.

وفيها توفي من السادة الأعيان

■ شعيب بن حرب أحد الزهاد.

و■ عبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية.

و■ عبد الرحمن بن مسهر قاضي جَبُّل، أخو علي بن مسهر.

و■ عثمان أبو سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم.

و■ وكيع بن الجراح الرؤاسي أحد أعلام المحدثين. مات عن ست وستين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمة بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر. ودخل هرثمة بن أعين من الجانب الشرقي. وفي يوم الأربعاء لثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه. ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد الأمين، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه، ونادى بالأمان لمن لزم منزله، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعات، وأحاط بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر زبيدة، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة، ورماه بالمنجنيق، فخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرق عنه عامة أصحابه في الطريق، لا يلوي أحد على أحد، ودخل قصر الأمين أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمي المنجنيق، وأمر بتحريق ما كان فيه من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك، فحُصر فيه حصراً شديداً. ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول لها: غيّري هذا، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته أن قالت:

أما وربِّ السكون والحركْ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشركْ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفلكْ
إلا لنقلِ السلطانِ من ملكٍ ... غاوٍ يحبُّ الدنيا إلى ملكْ
وملكُ ذي العرشِ دائمٌ أبداً ... ليسَ بفانٍ ولا بمشتركْ

قال: فسبها وأقامها من حضرته فعثرت في قدح كان له من بلور فكسرته فتطير بذلك. ولما ذهبت الجارية سمع صارخاً يقول ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] فقال لجليسه: ويحك ألا تسمع، فتسمع فلم يسمع شيئاً، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم الأحد، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق عنده طعام ولا شراب فجاع ليلة فما أُتي برغيف ودجاجة إلا بعد كُلفة كبيرة، ثم طلب ماء فلم يوجد له فبات عطشاناً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب ماءً.

ذكر كيفية مقتله

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند، فشاورهم في أمره فقالت طائفة: تذهب بمن بقي معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال. وقال بعضهم: تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفي أهلك من أمر الدنيا، وغاية مرادك الدعة والراحة، وذلك يحصل لك. وقال بعضهم: بل هرثمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم أحنى عليكم. فمال إلى ذلك.

فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخر واعد هرثمة أن يخرج إليه، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال: أستودعكما الله، ومسح دموعه بطرف كمه، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة، فلما انتهى إلى هرثمة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال: أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري، وينسب هذا كله إلى هرثمة فلحقهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه فغرقت في الماء، فغرق من فيها، غير أن محمداً الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند. وجاء فأعلم طاهراً بذلك فبعث إليه جنداً من العجم فجاؤوا إلى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له: ادن مني فإني أجد وحشة شديدة، وجعل يلتف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً، كاد يخرج من صدره. فلما دخل عليه أولئك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته، ثم جاؤوا بكرة إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها. وكان ذلك في ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة. أعني سنة ثمان وتسعين ومائة.

وهذا شيء من ترجمة الأمين

هو محمد أمير المؤمنين

■ الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمي العباسي البغدادي، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور.

كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا عياش بن هشام عن أبيه قال: ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة. وأتته الخلافة بمدينة السلام ببغداد لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقُتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم، يعني سنة ثمان وتسعين ومائة، قتله قريش الدنداني، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على رمح وتلا هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران ٢٦] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام، وكان طويلا سميناً أبيض أقنى الأنف صغير العينين، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين. وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٩٨/٨] طرفاً من سيرته في إكثاره من اقتناء السودان والخصيان، وإعطائهم الأموال والجواهر، وأمره بإحضار الملاهي والمغنين من سائر البلاد، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس، وأنفق على ذلك أموالا جزيلةً جداً، وقد امتدحه أبو نواس على ذلك بشعر أقبح في معناه من صنيع الأمين فإنه قال في أوله:

سخّرَ اللّه للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحبِ المحرابِ

فإذا ما ركابُهُ سرنَ براً ... سار في الماءِ راكباً ليث غابِ

ثم وصف كلا من تلك الحراقات.

واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغير ذلك، وأنفق في ذلك أموالا كثيرة جداً. فكثر النكير عليه بسبب ذلك.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٥١٢/٨] أنه جلس يوماً في مجلس أنفق عليه مالا جزيلا في الخلد، وقد فرش له بأنواع الحرير، ونضد بآنية الذهب والفضة، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانة أن تهيىء له مائة جارية حسناء وأمرها أن تبعثهن إليه عشراً بعد عشر يغنينه، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد:

همُ قتلوهُ كي يكونوا مكانَه ... كما غَدَرتْ يوماً بكسرى مَرازبهْ

فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس، وأمر بها أن تلقى إلى الأسد فأكلها. ثم استدعى بعشرة فاندفعن يغنين:

منْ كانَ مسروراً بمقتلِ مالكٍ ... فليأتِ نسوتنا بوجهِ نهارِ

يجدِ النساءَ حواسراً يندبنهُ ... يلطمنَ قبلَ تبلّجِ الأسحارِ

فطردهن واستدعى بعشر غيرهن، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً ... وأيسرَ ذنباً منكَ ضرجَ بالدم

فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحريق ما فيه.

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويحبُّه ويعطي عليه الجوائز الكثيرة، وكان شاعره أبا نواس، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حساناً، وقد وجده مسجوناً في حبس الرشيد مع الزنادقة فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجعله من ندمائه، ثم حبسه مرة أخرى في شرب الخمر وأطال حبسه ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتي الذُكران من العالمين فامتثل ذلك، وكان لا يفعل شيئا من ذلك بعد ما استتابه الأمين، وقد تأدب على الكسائي وقرأ عليه القرآن.

وروى الخطيب [تاريخ بغداد: ٣٣٨/٣] من طريقه حديثاً أورده عنه لما عُزّي في غلام له توفي بمكة فقال: حدّثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبدالله عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات محرماً حشر ملبياً».

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله، ثم إلى التضييق عليه وقتله، رحمه اللّه وسامحه، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرثمة، فخرج إليه ليجتمع به، فأُلقي من الحرّاقة، فسبح إلى الشط الآخر من دجلة فدخل داراً لبعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعُري، فجعل الرجل يلقنه الصبر والاستغفار، فاشتغل بذلك ساعة من الليل، ثم جاء الطلب وراءه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فدخلوا يتدافعون وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة كانت في يده، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه وخاصرته بالسيوف، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما إلى طاهر بن الحسين ففرح بذلك فرحاً شديداً، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس فنظروا إليه فوق الرمح عند باب الأنبار، وكثر عدد الناس ينظرون إليه. ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب، وبعث معه بالبردة والقضيب والمصلّى - وكان من خوص مبطن - فسلمه إلى ذي الرياستين، فدخل به على المأمون على ترس، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم.

وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر: أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به عقيراً. فقال المأمون: قد مضى ما مضى. وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع من القتال حتى آل الحال إلى ما آل إليه.

ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخمدت الشرور، وأمن الناس، وطابت النفس، ودخل طاهر بن الحسين إلى بغداد يوم الجمعة فصلّى بالناس الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن، وأن اللّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى معسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، وبعث بموسى وعبد اللّه ابني الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان، وكان ذلك رأياً سديداً.

وقد وثب طائفة من الجند بطاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال، فتحزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه ونادوا: يا موسى يا منصور، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق بالحقّ هناك، وإذا هو قد سيره طاهر إلى عمه المأمون وانحاز طاهر بمن معه من القواد ناحية وعزم على قتالهم ومناجزتهم بمن معه، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندموا على ما كانوا فعلوا، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس، فطابت الخواطر واتسق الحال وصلح أمر بغداد.

وكان إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورثاه بأبيات، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٩٩/٨] مراثي كثيرة للناس في الأمين، وذكر من أشعار الذين هجوه طرفا، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله:

ملكتُ الناسَ قسراً واقتداراً	وقتَّلتُ الجبابرةَ الكبارا
ووجّهتُ الخلافةَ نحو مروٍ	إلى المأمون تُبتدرُ ابتدارا

خلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد

لما قتل أخوه محمد بن هارون الرشيد ببغداد في رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في آخر المحرم، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون [عبدالله بن الرشيد]: فولى الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم، وكتب إلى طاهر بن الحسين وهو ببغداد أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب. وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ سفيان بن عيينة. وعبد الرحمن بن مهدي. ويحيى القطان بن سعيد. فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في زمانهم في الحديث وأسماء الرجال.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائباً عليها من جهة المأمون، ووجه نوابه إلى بقية أعماله، وتوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب. وسار هرثمة إلى نيابة خراسان.

وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذي الحجة منها، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ، فجبى الأموال وانتهب الأنعام وعاث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة.

وفي هذه السنة خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة، يدعو إلى الرضى من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وهو الذي يقال له ابن طباطبا، وكان القائم بأمره وتدبير الحرب بين يديه أبو السرايا السري بن منصور الشيباني، وقد أصفقَ أهل الكوفة على وفاقه واجتمعوا عليه من كل فج عميق، ووفدت إليه الأعراب من ضواحي الكوفة، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان بن أبي جعفر المنصور، فبعث الحسن بن سهل إلى سليمان يلومه ويؤنبه على ذلك، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس صحبة بن زهير بن المسيب، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زهيراً واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة، فلما كان الغد من الوقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة، يقال إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وانعزل زهير بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس، مدداً لزهير فالتقوا وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس احد، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير في الكوفة، ونقش عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ الآية [الصف ٤].

ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها ودخلوها قهراً، وقويت شوكتهم، فاهتمَّ لذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة من خراسان يستدعيه لحرب أبي السرايا فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فنهبوها وخربوا ضياعهم، وفعلوا أفعالا قبيحة.

وبعث أبو السرايا إلى أهل المدينة فاستجابوا له، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ليقيم لهم الموسم فتهيّب أن يدخلها جهرة، ولما سمع نائب مكة - وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بقدومه هرب من مكة طالباً أرض العراق، وبقي الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي أن يصلّي بهم فأبى، فقيل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن المخزومي فامتنع، وقال: لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد. فقدم الناس رجلا من عُرْضهم فصلى بهم الظهر والعصر، وبلغ الخبر إلى حسين بن حسن الأفطس فدخل مكة في عشرة رهط قبل الغروب فطاف بالبيت، ثم وقف بعرفة ليلا وصلّى بالناس الفجر بمزدلفة ودفع بهم وأقام بقية المناسك في أيام منى، فدفع الناس من عرفة بغير إمام.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إسحاق بن سليمان. وابن نمير. وابن شابور. وعمرو العنقزي. وأبو مطيع البلخي. ويونس بن بكير.

ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة النبوية

في أول يوم من هذه السنة جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد الكعبة مما عليها من كساوى بني العباس، وقال: نطهرها من كساويهم. وكساها ملاءتين صفراوين عليهما اسم أبي السرايا، ثم أخذ ما في كنز الكعبة من الأموال، وتتبع ودائع بني العباس فأخذها، حتى إنه ليأخذ مال ذي المال ويلزمه بإقرار للمسودة فيأخذه. وهرب منه الناس إلى الجبال، وحكّ ما على رؤوس الأساطين من الذهب، وكان ينزل من السارية مقدار يسير بعد جهد جهيد، وقلعوا ما في المسجد الحرام من الشبابيك وباعوها بالاثمان البخسة، وأساؤوا السيرة جداً. فلما بلغه مقتل أبي السرايا كتم ذلك وأمرّ رجلا من الطالبيين شيخاً كبيراً، واستمر على سوء السيرة.

وفي سادس عشر المحرم منها، قهر هرثمة بن أعين أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبيين من الكوفة، ودخلها هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد. وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية، ثم سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزموهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً، وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبي السرايا برأس العين، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهروان حين طردته الحربية، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بجسده ان يقطع باثنين وينصب على جسر بغداد، فكان بين خروجه وقتله عشرة

أشهر. فبعث الحسن سهل محمد بن محمد إلى المأمون مع رأس ابي السرايا.
وقد قال بعض الشعراء:

ألم تر ضربة الحسن بن سهل بسيفك يا أمير المؤمنينا
أدارت مرو رأس أبي السرايا وأبقت عبرة للعابرين

وكان الذي في يده البصرة من الطالبيين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، ويقال له زيد النار، لكثرة ما حرق من البيوت التي للمسودة، فأسره علي بن أبي سعيد وأمنه وبعث به وبمن معه من القواد إلى اليمن لقتال من هناك من الطالبيين[الذين قد خرجوا بها].

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، ويقال له الجزّار لكثرة من قتل من أهل اليمن، وأخذ من أموالهم. وقد كان مقيماً بمكة، فلما بلغه خبر أبي السرايا وظهوره بأرض الكوفة، طمع فسار إلى أهل اليمن، فلما بلغ نائبها قدومه ترك له وسار إلى خراسان إلى أمير المؤمنين واجتاز بمكة وأخذ أمه منها. واستحوذ إبراهيم بن موسى على بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة وخطوب كبيرة يطول ذكرها، ورجع محمد بن جعفر العلوي لذي ادّعى الخلافة بمكة عما كان يزعمه، وقال: كنت أظن أن المأمون قد مات كما سُمع ذلك وقد تحققت حياته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين. وهزم أبو السرايا وأصحابه ومحمد بن محمد الذي تأمّر بالكوفة وادّعى الخلافة، وتفرّق أصحابهما على يدي هرثمة بن أعين، فوشى بعض الناس إلى المأمون أن هرثمة لو شاء ما ظهر أبو السرايا وأصحابه فاستدعى به إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام، وانطوى خبره بالكلية.

ولما وصل خبر قتله إلى بغداد سعت العامة والحربية بالحسن بن سهل نائب العراق وغيرها وقالوا: لا نرضى به ولا بعماله ببلادنا، وأقاموا إسحاق بن موسى بن المهدي نائباً، واجتمع أهل الجانبين على ذلك، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد، وراسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة. ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان، فما زال يمطلهم إلى ذي القعدة حتى يدرك الزرع، فخرج في ذي العقده زيد بن موسى بن جعفر الذي يقال له زيد النار، وهو أخو ابي السرايا، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمدائن إذ ذاك فأخذ وأتي به إلى علي بن هشام، وأطفأ الله نائرته.

وبعث المأمون في هذه السنة يطلب جماعة من العباسيين، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً، ما بين ذكور وإناث.

وفيها قتلت الروم ملكهم إليون، وقد ملكهم سبع سنين، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه.

وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل، لأنه قال للمأمون: يا أمير الكافرين. فقتل صبراً بين يديه.

وفيها حج بالناس أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد.

وفيها توفي من الأعيان

■ أسباط بن محمد. وأبو ضمرة أنس بن عياض. وسلم بن قتيبة. وعمر بن عبد الواحد. وابن أبي فديك. ومبشر بن إسماعيل. ومحمد بن حمير. ومعاذ بن هشام.

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فيها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك، فراوده على أن يكون نائباً للمأمون يدعو له في الخطبة فأجابهم إلى ذلك، وذلك بعد إخراج أهل بغداد علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك.

وفيها عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى، كانوا يأتون الرجل يسألونه ما لا يقرضهم أو يصلهم به فيمتنعوا عليهم فيأخذون جميع ما في منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان، ويأتون أهل القرية فيستاقون ما فيها من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان، ونهبوا أهل قطربل ولم يدعوا لهم شيئاً أصلا، فانتدب رجل يقال له خالد الدريوش، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان. والتف عليهما جماعة من العامة فكفوا شرهم وقاتلوهم ومنعوهم من العيث في الأرض فساداً، واستقرت الأمور كما كانت، وذلك في شعبان ورمضان و لله الحمد والمنة.

وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء.

وفي هذه السنة بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده، وسماه الرضى من آل محمد، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة، وألزم جنده بذلك، وكتب بذلك إلى الآفاق الأقاليم، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وذلك أن المأمون رأى أن علياً الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه، فجعله ولي عهده من بعده.

ذكر بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر إلى بغداد أن المأمون بايع لعلي بن موسى الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم، فمن مجيب مبايع، ومن آب مانع، وجمهور العباسيين على الامتناع، وقام في ذلك ابنا المهدي إبراهيم ومنصور، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك ـ وكان أسود اللون ـ ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون. فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة: لا نرضي إلا بإبراهيم فقط، واختلف الناس واضطربوا فيما بينهم، ولم يصلوا الجمعة، وصلّى الناس فرادى أربع ركعات.

وفي هذه السنة افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيزر.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٥٥٦/٨] أن سلماً الخاسر قال في ذلك شعراً. وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ١٢٠/٩] وغيره أن سلماً توفي قبل ذلك بسنين فالله أعلم.

وفيها أصاب أهل خراسان والري وأصبهان مجاعة شديدة وعزّ الطعام جداً.

وفي هذه السنة تحرك بابك الخرميّ واتبعه طوائف من السفلة والجهلة

وكان يقول بالتناسخ قبحه الله ولعنه. وسيأتي ما آل أمره إليه.

وفيها حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس.

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو أسامة حماد بن أسامة. وحماد بن مسعدة وحرمي بن عمارة. وعلي بن عاصم.

و■ محمد بن محمد صاحب أبي السرايا الذي قد كان بايعه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها بويع لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المأمون، فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك، وغلب على الكوفة وأرض السواد، وطلب منه الجند أرزاقهم فماطلهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد، فخرجوا لا يمرون بشيء إلا انتهبوه، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان، واستناب إبراهيمُ على الجانب الشرقي العباس بن موسى الهادي، وعلى الجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي.

وفيها خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم بن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده و لله الحمد.

وفيها خرج أخو أبي السرايا فبيض بالكوفة فأرسل إليه إبراهيم بن المهدي من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم، ولما كان ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون، واقتتلوا قتالا شديداً. وعلى أصحاب إبراهيم السواد، وعلى أصحاب المأمون الخضرة واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب.

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوعي فسجنه، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة، وصار باب داره كأنه باب السلطان، عليه السلاح والرجال وغير ذلك من أبهة الملك، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة ثم اختفى في بعض الدروب، فأخذ وجيء به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة.

وفيها أقبل المأمون من خراسان قاصداً العراق، وذلك أن علي بن موسى بن جعفر العلوي أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن والاختلاف بأرض العراق، وبأن الهاشميين قد أنهوا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومجنون، وأنهم قد نقموا عليك بيعتك لعلي بن موسى، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم بن المهدي. فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا علياً فيما قال، بعد أخذهم الأمان منه، وقالوا له: إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هرثمة، وقد كان ناصحاً لك. فعاجله فقتله، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فقعد لاعمل له ولا تستنهضه في أمر، وإن الأرض قد تفتقت بالشرور والفتن من أقطارها.

فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد، وقد فطن الفضل بن سهل بما تمالأ عليه أولئك الناصحون للمأمون، فضرب قوماً ونتف لحى بعضهم.

وسار المأمون فلما كان بسرخس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان وله ستون سنة، فبعث المأمون في آثارهم فجيء بهم وهم أربعة من المماليك فقتلهم، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزيه فيه، وولاه الوزارة مكانه، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمدائن، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون.

وفي هذه السنة تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بابنته الأخرى أم الفضل.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي الرضى، ودعا لأخيه بعد المأمون، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن علي بن موسى بن ماهان.

وفيها توفي من الأعيان

■ أيوب بن سويد. وضمرة. وعمر بن حبيب. والفضل بن سهل الوزير. وأبو يحيى الحماني.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

فيها وصل المأمون - في سيرة خراسان إلى العراق - إلى مدينة طوس، فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنباً فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر، والله أعلم.

وكتب إلى الحسن بن سهل يعزيه في علي الرضا ويخبره بما حصل له من الحزن عليه، وكتبَ إلى بني العباس ببغداد يقول لهم: إنكم إنما نقمتم علي بسبب توليتي العهد من بعدي لعلي بن موسى الرضى، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة. فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد.

وفي هذه السنة غلبت السوداءُ على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون، فكتب إليهم: إني واصل على إثر كتابي هذا. ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد، وتنكروا عليه وأبغضوه. وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد وتفاقم الأمر، وصلوا يوم الجمعة ظهراً، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة، صلوا أربع ركعات، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون، ثم غلبت المأمونية عليهم

ذكر خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودعائهم للمأمون

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس للمأمون وخلعوا إبراهيم، وأقبل

حميد بن عبد الحميد في جيش من جهة المأمون فحاصر بغداد. وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون. وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي، ثم احتال عيسى حتى صار في أيد المأمونية أسيراً، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة. وكانت أيامه سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. وقد وصل المأمون في هذا الوقت إلى همذان وجيوشه قد استعادوا بغداد إلى طاعته.

وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **علي بن موسى: بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القرشي الهاشمي العلوي الملقب بالرضى**، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك، فجعله ولي العهد من بعده كما قدمنا ذلك. فتوفي في صفر من هذه السنة بطوس.

وقد روى الحديث عن أبيه وغيره، وعنه جماعة منهم المأمون وأبو الصلت الهروي وأبو عثمان المازني النحوي، وقال سمعته يقول: الله أعدل من أن يكلف العباد ما لا يطيقون، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون. ومن شعره:

كلنا يأملُ مداً في الأجلْ والمنايا هنَّ آفاتُ الأملْ
لا تغرنكَ أباطيلُ المنى والزم القصدَ ودعْ عنك العللْ
إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ حلّ فيه راكبٌ ثمّ ارتحلْ

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق، وذلك أنه مر بجرجان فأقام بها شهراً، ثم سار منها وكان ينزل في المنزل يوماً أو يومين، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام، وقد كتب إلى طاهر بن الحسين وهو بالرقة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه بها وتلقاه رؤوس أهل بيته والقواد وجمهور الجيش، فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد ارتفاعَ النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر، في أبهة عظيمة وجيش عظيم، وعليه وعلى جميع أصحابه، وقِبابهم وجميع لباسهم الخضرة فلبس أهل بغداد وجميع بني هاشم الخضرة، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصره على دجلة، وجعل الأمراء ووجوه الدولة يترددون إلى منزله على العادة، وقد تحول لباس البغادذة إلى الخضرة، وجعلوا يحرقون كل ما يجدونه من السواد، فمكثوا بذلك ثمانية أيام. ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين فكان أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد، فإنه لباس آبائه من دولة ورثة الأنبياء. فلما كان السبت الآخر وهو الثالث والعشرون من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضرة، ثم إنه أمر بخلعة سوداء فألبسها طاهر بن الحسين، ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد، فلبس الناس السواد وعادوا إلى ذلك، بعدما علم منهم الطاعة والموافقة، وقيل إنه مكث يلبس الخضرة بعد قدومه بغداد سبعاً وعشرين يوماً، فالله أعلم.

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون: أنت الخليفة الأسود، فأخذ في الاعتذار والاستغفار، ثم قال للمأمون: أنا الذي مننتَ عليه يا أمير المؤمنين بالعفو، وأنشد المأمونُ عند ذلك:

ليسَ يزري السوادُ بالرجلِ الشهمِ ولا بالفتى الأديبِ الأريبِ
إن يكن للسوادِ منكَ نصيبٌ فبياضُ الأخلاقِ منكَ نصيبي

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤١/١]: وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلاقس الإسكندري فقال:

ربَّ سوداءَ وهي بيضاءُ فعلٍ حسدَ المسكَ عندها الكافورُ
مثلُ حبِّ العيونِ يحسبهُ الناسُ سواداً وإنما هو نورُ

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير الأحول: يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك، وإن عفوت عنه فما لك نظير.

ثم شرع المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره بها، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور، وأمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف. واتخذ القفيز الملجم وهو عشرة مكاكي بالمكوك الهاروني ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى، ورفق بالناس في مواضع كثيرة.

وولّى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة، وولّى أخاه صالحا البصرة، وولى عبيد الله بن الحسن بن عبدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة. وفيها واقع يحيى بن معاذ بابك الخرّمي فلم يظفر به.

وفيها توفي جماعة من الأعيان منهم:

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

وقد أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين، ولنذكر ههنا ملخصاً من ذلك وبالله المستعان.

هو الإمام العالم أبوعبدالله

■ **محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد** بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، القرشي المطلبي، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر، وابنه شافع بن السائب من صغار الصحابة، وأمه أزدية. وقد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية. وقد ولد الشافعي بغزة، وقيل بعسقلان، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة. وقيل ابن ثماني عشرة سنة، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي، وعني باللغة والشعر، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين، وقيل عشرين سنة، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبته قراءته وهمته، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي.

وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد

عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل.

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة، منهم عمر وعلي وبن مسعود، وزيد بن ثابت، وغيرهم. كلهم عن رسول الله ﷺ.وتفقه أيضاً على مالك عن مشايخه، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد ولله الحمد والمنة.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد - هارون - أنه يروم الخلافة، فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده.

وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة، وقيل بسنتين، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقْرَ بعير، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار. وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه، ثم عاد الشافعي إلى بغداد في سنة خمس وتسعين ومائة، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن سُريج النُّقَّال، وأبو عبد الرحمن الشافعي، والزعفراني، وغيرهم. ثم رجع إلى مكة ورجع إلى بغداد أيضاً سنة ثمان وتسعين ومائة، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة، سنة أربع ومائتين، كما سيأتي. وصنف بها كتابه «الأم» وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع بن سليمان، وهو مصري. وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم.

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له «الرسالة»، وكان يدعو له في الصلاة دائماً، وشيخه مالك بن أنس.

وقتيبة بن سعيد. وقال: هو إمام.

وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وكان يدعو له أيضاً في صلاته.

وأبو عبيد، وقال: ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أورع من الشافعي.

ويحيى بن أكثم القاضي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن الحسن، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم.

وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود [٤٢٩١] من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي علقمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».

قال: فعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٣٠٩)]: حدثنا جعفر بن سليمان عن النضر بن معبد الكندي - أو العبدي - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً، اللهم إنك أذقت أولها عذاباً أو وبالا فأذق آخرها نوالا».

وهذا غريب من هذا الوجه.

وقد رواه الحاكم في مستدركه [مناقب الشافعي للبيهقي (٢٧/١) عن الحاكم] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الإسفراييني: لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي. حكاه الخطيب [تاريخ بغداد: ٦١/٢].

وقال يحيى بن معين عن الشافعي: هو صدوق لا بأس به. وقال مرة: لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: الشافعي فقيه البدن، صدوق اللسان.

وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال: ما عند الشافعي حديث غلط فيه.

وحُكي عن أبي دواد نحوه.

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل: هل سنة لم تبلغ الشافعي؟ - فقال: لا.

ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها، وتارة مرسلة، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: سميت ببغداد ناصر السنة.

وقال أبو ثور: ما رأينا مثل الشافعي ولا رأى هو مثل نفسه.

وكذا قال الزعفراني وغيره.

وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي: للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه، وصحة دينه ومعتقده، وسخاوة نفسه، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف، وجودة الأصحاب والتلامذة، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه، وإقامته على السنة. ثم سرد أعيان أصحابه من البغادة والمصريين، وكذا عد أبو داود من جلة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل.

وقد كان - رحمه الله - من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة، وأشد الناس انتزاعاً للدلائل منهما، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً، كان يقول: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلى شيء منه أبداً فأؤجر عليه ولا يحمدوني.

وقد قال غير واحد عنه: إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قولي، فإني أقول به، وإن لم تسمعوه مني.

وفي رواية فلا تقلدوني.

وفي رواية: فلا تلتفتوا إلى قولي.

وفي رواية: فاضربوا بقولي عرض الحائط، فلا قول لي مع رسول الله ﷺ.

وقال: لأن يلقَى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء.

وفي رواية: خير له من أن يلقاه بعلم الكلام.

وقال: لو علم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

وقال أيضاً: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل وينادي عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم

الكلام.

وقال البويطي: سمعت الشافعي يقول: عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صواباً.

وكان يقول: إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، جزاهم الله خيراً، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل.

ومن شعره في هذا المعنى قوله:

كلُّ العلوم سوى القرآن مشغلةٌ ... إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدينِ

العلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حدثنا ... وما سوى ذاكَ وسواسُ الشياطينِ

وكان يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر.

وقد روي عن الربيع وغير واحد من رؤوس أصحابه ما يدل على أنه كان يُمِرُّ آياتِ الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف، على طريقة السلف.

وقال ابن خزيمة: أنشدني المزني وقال أنشدنا الشافعي لنفسه:

ما شئتَ كانَ وإنْ لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ... ففي العلمِ يجري الفتى والمسنّ

فمنهم شقي ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيح ومنهم حسنْ

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لمْ تعنْ

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي.

وعن الربيع قال: أنشدني الشافعي:

قد عوجَ الناسُ حتى أحدثوا بِدَعاً ... في الدين بالرأي لم تبعثْ بها الرسُلُ

حتى استخفَّ بحقِّ اللهِ أكثرهم ... وفي الذي حملوا من حقهِ شغلُ

وقد ذكرنا من شعره في السُّنة وكلامه فيها وفي الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول «طبقات الشافعية».

وقد كانت وفاته بمصر يوم الخميس، وقيل يوم الجمعة، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، وعن أربع وخمسين سنة، وكان أبيض جميلا طويلا مهيباً يخضب بالحناء مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه وجعل الجنة مأواه.

وممن توفي فيها أيضاً من الأعيان

■ إسحاق بن الفرات. وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي. والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي. وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند، أحد الحفاظ. وأبو بدر شجاع بن الوليد. وأبو بكر الحنفي، عبد الكبير. وعبد الوهاب بن عطاء الخفاف. والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة. وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أحد علماء التاريخ.

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فيها ولّى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق، ورضي عنه ورفع منزلته جداً، وذلك لمرض الحسن بن سهل بالسواد. وولّى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ. وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث. وولّى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي مقاتلة الزط. وولّى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان وإرمينية، وأمره بمحاربة بابك الخرّمي. ومات نائب مصر السري بن الحكم بها.

ونائب السند داود بن يزيد، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم.

وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين الشريفين.

وفيها توفي من الأعيان

إسحاق بن منصور السلولي. وبشر بن بكر الدمشقي. وأبو عامر العقدي. ومحمد بن عبيد الطنافسي. ويعقوب الحضري.

و■ أبو سليمان الداراني عبدالرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، وسكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا.

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة.

وأسند الحافظ ابن عساكر من طريقه قال: سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى قبل الظهر أربعاً غُفرت ذنوبه يومه ذلك».

وقال أبو القاسم القشيري: حكي عن أبي سليمان الداراني قال: اختلفت إلى مجلس قاصٍ فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت ثانية فأثر كلامه في قلبي بعدما قمت وفي الطريق، ثم عدت ثالثة فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيّاً ـ يعني بالعصفور القاص وبالكركي أبا سليمان الداراني.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه من في الأثر، فإذا سمعه من الأثر عمل به وحمد الله حين وافق ما في قلبه فكان نوراً على نور.

وقال الجنيد قال أبو سليمان الداراني: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة. قال: وقال أبو سليمان: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

وقال: لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله.

وقال: لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن.

وقال: كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم.

وقال: كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان فغلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها، وغلبتني عيني فنمت فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت

الأخرى لوضعنا فيها.

قال: فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان، حراً كان أو برداً.

وقال أبو سليمان: نمت ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور، ينشئ الله خلق إحداهنّ إنشاء فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام، جالسة على كرسي من ذهب ميل في ميل، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرسي، فيجيء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤوا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن. قال أبو سليمان: كيف يكون في الدنيا حال من يريد افتضاض الأبكار عل شاطئ تلك الأنهار في الجنة؟

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد إلاّ الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها، ولربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل، فسبحان من يرده بعد!

وسمعته يقول: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال لي يوماً: يا أحمد جوع جوِّع قلبك، وذلِّ قلبك، وعَرِّ قلبك، وفقِّر قلبك وصبِّر قلبك، وقد انقضت عنك أيام الدنيا.

وقال أحمد: اشتهى أبو سليمان رغيفاً حاراً بملح فجئته به فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول: يا رب عجلت لي شهوتي، لقد أطلت جهدي وشقوتي وأنا تائب، فاقبل توبتي فلم يذق الملح حتى لحق بالله عز وجل.

قال: وسمعته يقول: ما رضيت عن نفسي طرفة عين، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما أحسنوا.

وسمعته يقول: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

وسمعته يقول: إذا تكلّف المتعبِّدون أن لا يتكلموا إلا بالإعراب، ذهب الخشوع.

وسمعته يقول: من حسَّن ظنه بالله ثم لا يخاف فهو مخدوع.

وقال: ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء، فإذا غلب من الرجاء على الخوف فسد القلب.

وقال لي يوماً: هل فوق الصبر منزلة؟ فقلت: نعم - يعني الرضا - فصرخ صرخة غشي عليه ثم أفاق فقال: إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب، فما ظنك بالآخرين وهم الذين رضي عنهم.

وقال بعضهم: سمعت أبا سليمان يقول: ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقه في وجوه البر، وأنني أغفل عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان: قال زاهد لزاهد: أوصني، فقال: لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، فقال: زدني. فقال: ما عندي زيادة.

وقال أيضاً: من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له.

وقال: إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة، وقال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة، أن والآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: بت ليلة عند أبي سليمان فسمعته يقول: وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بسخائك ولئن أمرت بي إلى النار لأخبرن أهل النار أني أحبك.

وكان أبو سليمان يقول: لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي.

وكان يقول: ما خلق الله خلقا أهون عليّ من إبليس، ولولا أن الله امرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً، ولو تبدى لي ما لطمت إلا صفحة وجهه.

وقال: إن اللص لا يجيء إلى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أي مكان شاء، وإنما يجيء إلى بيت المعمور، كذلك إبليس لا يجيء إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله عن شيء.

وقال: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوسواس والرياء الوساوس والرؤيا.

وقال: الرؤيا - يعني الجنابة.

وقال: مكثت عشرين سنة لم أحتلم فدخلت سمكه ففاتتني صلاة العشاء في جماعة فاحتلمت تلك الليلة.

وقال: إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف تشتغلون بالدنيا عنه؟.

وقال: الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها، وإنما الزهد في الجنان والحور العين، حتى لا يرى الله في قلبك غيره.

وقال الجنيد: شيء يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله: من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس.

وقال: خير السخاء ما وافق الحاجة.

وقال أبو سليمان: من طلب الدنيا حالا واستعفافاً عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا حلالا مفاخراً ومكاثراً لقي الله - عز وجل - يوم يلقاه وهو عليه غضبان. وقد روي نحو هذا مرفوعاً. وقال أبو سليمان: إن قوماً طلبوا الغنى فحسبوا أنه في جمع المال، ألا وإنما الغنى في القناعة، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى، وطلبوا النعمة في اللباس الرقيق اللين، وفي طعام طيب، والنعمة في الإسلام والستر والعافية. وقال: لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما احب البقاء في الدنيا لتشقق الأنهار ولا لغرس الأشجار. وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل.

وقال: أهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل اللّهو في لهوهم. وقال: ربما استقبلني الفرح في جوف الليل، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً.

وقال: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بها - يعني الحوراء - قد ركضتني برجلها فقالت: حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم؟ بؤساً لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أُربيُّ لك في الخدور منذ كذا وكذا؟ فوثبت فزعاً وقد عرقت استحياءً من

توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي.

وقال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان فإذا هو يبكي فقلت: ما لك؟ فقال: زجرت البارحة في منامي. قلت: ما الذي حلَّ بك؟ قال: بينا أنا قد غفوت في محرابي إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا حسناً، وبيدها ورقة وهي تقول: أتنام يا شيخ؟ فقلت: من غلبته عيناه نام قالت: كلا إن طالب الجنة لا ينام، ثم قالت: أتقرأ؟ قلت: نعم، فأخذت الورقة من يدها فإذا فيها مكتوب:

لهتْ بكَ لذةٌ عن حسنِ عيشٍ ... مع الخيراتِ في غرفِ الجنانِ

تعيشُ مخلداً لا موتَ فيها ... وتنعمُ في الجنانِ مع الحسانِ

تيقَّظ من منامك إنَّ خيراً ... من النومِ التهجدُ بالقرآنِ

وقال أبو سليمان: أما يستحي أحدهم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم؟.

وقال أيضاً: لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه، فإذا لم يبق في قلبه شيء من شهوات الدنيا جاز له أن يظهر للناس الزهد بلبس العباء، فإنها علم من أعلام الزهاد، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم لزهده من لبس العباء.

وقال: إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي. وخيار هذه الأمة أصحاب القطن، أبو بكر الصديق وأصحابه.

وقال غيره: إذا رأيت ضوء الفقير في لباسه فاغسل يديك من فلاحه.

وقال أبو سليمان: إنما الأخ الذي يعظك برؤيته قبل كلامه، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابي بالعراق فأنتفع برؤيته شهراً.

وقال أبو سليمان: قال الله تعالى: عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك في الحساب يوم القيامة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سألت أبا سليمان عن الصبر فقال: والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف فيما تكره؟.

وقال أحمد: تنهدت عنده يوما فقال: إنك مسؤول عنها يوم القيامة، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك، وإن كانت على الدنيا فويل لك.

وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل الوصول، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا.

وقال إنما عصى الله من عصاه لهوانهم عليه. ولو كَرُوا عليه وكرموا لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها.

وقال: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالا الكرم والحلم والعلم والحكمة والرقة والرحمة والفضل والصفح والإحسان والبر والعفو واللطف.

وذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «محن المشايخ» أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق وقالوا: إنه يزعم أنه يرى الملائكة ويكلمونه، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل دمشق أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا. فخرجوا في طلبه وتشفعوا إليه حتى ردوه.

وقد اختلف في وفاته على أقوال فقيل: سنة أربع ومائتين، وقيل سنة خمس ومائتين، وقيل خمس عشرة ومائتين، وقيل: سنة خمس وثلاثين ومائتين فالله أعلم.

وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان: لقد أصيب به أهل الإسلام كلهم.

قلت: وقد دفن في قرية داريا في قبلتها، وقبره بها مشهور وعليه بناء، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر المهراني، ووقف على المقيمين عنده وقفاً يدخل عليهم منه غلة، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أر الحافظ ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالكلية، وهذا منه عجيب.

وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الحواري قال: كنت أشتهي أن أرى أبا سليمان في المنام فرأيته بعد سنة فقلت: ما فعل الله بك يا معلم؟ فقال: يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حِمل شيح فأخذت منه عوداً فما أدري تخللت به أو رميته، فأنا في حسابه إلى الآن.

وقد توفي ابنه سليمان بعده بنحو من ستين رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست ومائتين

فيها ولى المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وأمره بمحاربة الزط.

وفيها جاء مد كثير فغرّق بلاد أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً.

وفيها ولّى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث، وذلك أن نائبها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأمور، وحثه على قتال نصر بن شبث، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر له بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة، وقد ذكره ابن جرير [تاريخه: ٨/٥٨٢-٥٩١] بطوله، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه وتهادوه بينهم، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فقرىء بين يديه فاستجاده جداً، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال في الأقاليم.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين.

وفيها توفي من الأعيان

■ إسحاق بن بشر الكاهلي أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ. وحجاج بن محمد الأعور. وداود بن المحبر الذي وضع كتاب العقل. وشبابة بن سوار ومحاضر بن المورِّع. وقطرب صاحب «المثلث» في اللغة. ووهب بن جرير. ويزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد.

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد علكّ في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ، وذلك لما أن العمّال باليمن أساؤوا السيرة إلى الرعايا، فلما ظهر عبد الرحمن هذا بايعه الناس فلما بلغ أمره إلى المأمون بعث إليه دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع وأطاع! فحضروا الموسم فلما انتهوا إلى عبد الرحمن بعث دينار بكتاب الأمان فقبله وسمع وأطاع، وجاء حتى وضع يده في يد دينار، فسار معه إلى بغداد ولبس السواد فيها.

وفيها توفي

■ طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق بكمالها، وخراسان

بكمالها وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلّى العشاء الآخرة والتف في الفراش، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً، فلما بلغ موته المأمون قال: لليدين والفم الحمد للّه قدمه وأخرنا. وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر، ومع هذا ولّى ولده عبداللّه مكانه مع إضافة أرض الجزيرة والشام إلى نيابته فاستخلف عبد اللّه على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين. ثم توفي طلحة فاستقل عبد اللّه بجميع تلك البلاد، وكان نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله أيضاً، واستوسق الأمر للمأمون، كما ذكرنا في سنة خمس وتسعين، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له. ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يخبره، فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فقال له: لاتخبر به أحداً [وإلا] أقتلك، ذكرت مقتل أخي وما ناله من الإهانة على يدي طاهر، وواللّه لاتفوته مني. فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يديه، ولم يزل حتى ولاه المأمون خراسان وأطلق له خادماً من خدامه، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمه، ودفع إليه سمّاً لا يطاق. فلما خطب يوم الجمعة طاهر ولم يدع للمأمون سمّه الخادم في كامخ فمات من ليلته.

وقد كان طاهر بن الحسين هذا يقال له ذو اليمينين، وكان بفرد عين. فقال فيه عمرو بن بانة:

يا ذا اليمينين وعين واحده		نقصان عين ويمين زائده

واختلف في معنى كونه ذا اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلا بشماله فقده نصفين، ويحتمل أنه لُقب بذلك لأنه ولّي العراق وخراسان.

وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعر ويجزي عليه، ركب يوماً في حرّاقة فقال فيه شاعر:

عجبت لحرّاقة ابن الحسين		لاغرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد		وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذلك أعوادها		وقد مسّها كيف لا تورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار. وقال إن زدتنا زدناك.

قال ابن خلكان: وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر:

ولما امتطى البحر ابتهلت تضرعاً		إلى اللّه يا مجري الرياح بلطفه
جعلت الندى من كفه مثل موجه		فسلمه واجعل موجه مثل كفه

وقال القاضي ابن خلكان: مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين، وكان مولده سنة تسع وخمسين ومائة، وكان الذي سار إلى ولده عبد اللّه بن طاهر وهو بأرض الرقة يعزيه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد، القاضي يحيى بن أكثم عن أمر المأمون.

وفي هذه السنة غلا السعر ببغداد والكوفة والبصرة، حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة أربعين درهماً.

وفيها حج بالناس في هذه السنة أبو علي بن الرشيد أخو المأمون.

وفيها توفي من الأعيان

■ بشر بن عمر الزهراني، وجعفر بن عون، وعبد الصمد بن عبد الوارث، وقراد أبو نوح، وكثير بن هشام، ومحمد بن كناسة، ومحمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي، وأبو النضر هاشم بن القاسم، والهيثم بن عدي صاحب التصانيف.

و■ يحيى بن زياد بن عبد اللّه بن منظور: أبو زكريا الكوفي نزيل بغداد مولى بني سعد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو.

وروى الحديث عن خازم بن الحسين البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك. قال:«قرأ رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ﴿مالك يوم الدين﴾ بالألف »رواه الخطيب [تاريخ بغداد: ١٤٩/١٤] قال: وكان ثقة إماماً.

وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملاه وكتبه الناس عنه، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، وأنه كان يؤدب ولديه وليي العهد، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما نعلا، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار، وللفراء عشرة آلاف درهم. وقال له: لا أعز منك إذ يقدم نعليك وليا العهد.

وروى أن بشراً المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهو فقال: لا شيء عليه، قال: ولم؟ قال: لأن أصحابنا قالوا المصغّر لا يصغّر. فقال: ما ظننت أن امرأة تلد مثلك.

والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء.

وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي: توفي الفراء سنة سبع ومائتين.

قال الخطيب: كانت وفاته ببغداد، وقيل بطريق مكة، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته.

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فاراً من خراسان إلى كرمان فعصى بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهراً، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه.

وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولىّ مكانه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة.

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومي القضاء بعسكر المهدي في شهر المحرم، ثم عزله عن قريب وولّى مكانه بشر بن الوليد الكندي في شهر ربيع الأول منها. فقال المخزومي في ذلك:

ألا أيها الملِكُ المُوحّدُ ربَّه		قاضيك بِشْرُ بنُ الوليدِ حِمَارُ
ينفي شهادةَ من يدينُ بما به		نَطَقَ الكتابُ وجاءتِ الأخبارُ
ويعدّ عَدلا من يقولُ بأنه		شيخٌ يحيطُ بجسمِهِ الأقطارُ

وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون.

وفيها توفي من الأعيان

■ الأسود بن عامر. وسعيد بن عامر. وعبد اللّه بن بكر أحد مشايخ

الحديث. والفضل بن الربيع الحاجب. ومحمد بن مصعب. وموسى بن محمد الأمين الذي كان قد ولاه العهد من بعده ولقبه بالناطق بالحقّ فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم. ويحيى بن أبي بكر،. ويحيى بن حسان،. ويعقوب بن إبراهيم الزهري. ويونس بن محمد المؤدب.

وفاة السيدة

■ نفيسة:

وهي بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين، ثم غضب عليه أبو جعفر المنصور فعزله عنها وأخذ منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها، وأودعه السجن ببغداد. فلم يزل به حتى توفي المنصور فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة. فلما كان بالحاجر توفي الحسن بن زيد عن خمس وثمانين سنة.

وقد روى له النسائي [كبرى (٣٢١٥)] حديثه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرمٌ.

وقد ضعفه ابن معين وابن عدي، ووثقه ابن حبان. وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته.

والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق، فأقامت بها وكانت ذات مال وإحسان إلى الناس والجذمى والزمنى والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير.

ولما ورد الشافعي الديار المصرية كانت تحسن إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان. وحين توفي أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت عليه. ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فمنعه أهل مصر من ذلك وسألوه أن يتركها عندهم، فدفنت في المنزل الذي كان تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع بين مصر والقاهرة اليوم، وقد بادت تلك المحلة فلم يبق سوى قبرها وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٥/٤٢٤].

قال: ولأهل مصر فيها اعتقاد.

قلت: وإلى الآن وقد بالغ العامة أمرها كثيراً جداً، ولا سيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات بشعة فيها مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظاً كثيرة ينبغي ان يعرفوا أنها لا يجوز إطلاقها في مثل أمرها . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته. والذي ينبغي أن يعتقد فيها من الصلاح ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام. ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك. رحمها الله وأكرمها وجعل الجنة منزلها.

■ الفضل بن الربيع: بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان، الذي كان زوال دولة البرامكة على يديه، وقد وزر مرة للرشيد كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد، وكان شديد التشبه بالبرامكة، وكانوا يستهينون به، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكو كما تقدم.

وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة بل يتعلل عليه في كل واحدة منها، فجمعهن الفضل بن الربيع وقال: ارجعن خائبات خاسئات ثم نهض وهو يقول:

عسّى وعَسَى يَثْني الزمانُ عِنانه ... بتصريفِ حالٍ والزمانُ عثورُ
فتُقضى لبانات وتشفى حسائف ... وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له: اقسمت عليك لما رجعت، فأخذ منه القصص فوقع عليها. ثم لم يزل يحفر خلفهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم، وفي ذلك يقول أبو نواس:

ما رعى الدهر آل برمك لما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرعَ عهداً ليحيى ... غير راع ذمام آل الربيع

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فارسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه، ولم يزل خاملا حتى مات في هذه السنة، وله ثمان وستون سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبث بعدما حاربه خمس سنين فلما حصره في هذه السنة وضيق عليه جداً حتى الجأه إلى أن طلب منه الأمان، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك، فارسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين. فكتب له كتاب أمان فنزل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها، وذهب شره.

وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الإسلام وأحد مقدمي العساكر، فاشتد ذلك على المسلمين.

وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة.

وفيها توفي ملك الروم

■ ميخائيل بن جرجس وكان له عليهم تسع سنين، فملكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل.

وفيها توفي من مشايخ الحديث

■ الحسن بن موسى الأشيب، وأبو علي الحنفي، وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور. وعثمان بن عمر بن فارس. ويعلى بن عبيد الطنافسي.

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شبث إلى بغداد، بعثه عبد الله بن طاهر من الرقة فدخلها ولم يتلقّه أحد من الجند بل دخلها وحده، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر.

وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فعاقبهم وحبسهم في المطبق.

ظهور إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه

ولما كان ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي ـ وكان مختفياً مدة ست سنين وشهوراً متنقباً في زي امرأة ومعه امرأتان ـ في بعض دروب بغداد في أثناء الليل، فقام الحارس فقال: إلى أين هذه الساعة؟ ومن أين؟ ثم أراد أن يمسكهن فأعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت، فلما نظر إليه الحارس استراب وقال: إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن، فذهب بهن إلى متولي الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فإذا هو هو، فعرفه فذهب به إلى صاحب الحرس فسلمه إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون، فأصبح في دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس، وليعلموا كيف أخذ. فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة، ثم أطلقه ورضي عنه. هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن، فصلب منهم أربعة.

وقد ذكروا أن إبراهيم بن المهدي لما وقف بين يدي المأمون شرع في تأنيبه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً، وقال: يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك. فقال: بل أعفو يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل، وهو أكبر مما تسأله، فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل.

وقد امتدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها، فلما سمعها المأمون قال: أقول كما قال يوسف لأخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وذكر ابن عساكر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يغنيه شيئاً فقال: إني تركته. فأمره فأخذ العود في حجره وقال:

هذا مقامُ مسوَّدٍ خربت منازلُهُ ودوره ... نمت عليه عداته كذباً فعاقبه أميرُه

ثم عاد فقال:

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبت عني ... لوى الدهر بي عنها وولّى بها عني
فإن أبك نفسي أبك نفساً عزيزةً ... وإن أحتقرها أحتقرها على ضنِّي
وإني وإن كنتُ المسيءَ بعينه ... بربي تعالى جدُّه حسن الظنّ
عدوت على نفسي فعاد بعفوه ... عليَّ فعاد العفو مَنّاً على منّ

فقال المأمون: أحسنت يا أمير المؤمنين حقّاً، فرمى العود من حجره ووثب قائماً فزعاً من هذا الكلام، فقال له المأمون: اقعد واسكن مرحباً بك، لم يكن ذلك لشيء تتوهمه، ووالله لا رأيت طول أيامي شيئاً تكرهه وتغتمّ به. ثم أمر له برد جميع ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه، وأمر له بعشرة الآف دينار وخلع عليه، وخرج من عنده مكرماً معظماً.

عرس بوران

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، وقيل إنه خرج من بغداد في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفم الصلح، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ذلك، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم، فدخل ببوران في شوّال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع العنبر، ونثر على رأسه الدر والجوهر، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر. وكان عدد الجوهر منه ألف درة، فأمر به فجمع في صينية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا: يا أمير المؤمنين إنما نثرناه لتلتقطه الجواري، فقال: لا أنا أعوضهن خيراً من ذلك. فجمع ذلك كله، فلما جاءت العروس ومعها جدتها وزبيدة أم أخيه الأمين ـ من جملة من جاء معها ـ فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال لها: هذه نحلة مني إليك وسلي حاجتك، فأطرقت حياء فقالت جدتها: كلمي سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك. فقالت: يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي، وأن ترده إلى منزلته التي كان فيها قبل ذلك، فقال: نعم! فقالت: وأم جعفر ـ تعني زبيدة ـ تأذن لها في الحج، قال نعم! فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأموية وأطلقت له قرية مقورة.

وأما والد العروس الحسن بن سهل فإنه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه في رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس، فمن وقعت في يده منها رقعة بعث إلى القرية التي فيها نوابه فسلموها إليه ملكاً خالصاً. وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة إقامته عنده سبعة عشر يوما ما يعادل خمسين ألف ألف درهم. ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه البلد الذي هو نازل بها، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الإقطاعات.

ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة.

وفي هذه السنة ركب عبد الله بن طاهر إلى الديار المصرية فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السري بن الحكم المتغلب عليها، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها.

وفيها توفي من الأعيان

أبو عمرو الشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مرار. ومروان بن محمد الطاطري. ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو الجواب. وطلق بن غنام. وعبد الرزاق بن همام الصنعاني صاحب المصنف والمسند. وعبد الله بن صالح العجلي.

■ أبو العتاهية الشاعر المشهور: واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز، وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار أولاً، ثم حظي عند الخلفاء، لا سيما المهدي وقد كان يعشق جارية للمهدي اسمها عتبة. وقد طلبها من الخليفة غير مرة فإذا سمح له بها لا تريده الجارية، وتقول للخليفة: أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار؟ فكان يكثر التغزل فيها، وشاع أمره واشتهر بها، وكان المهدي يفهم ذلك منه. وقد اتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه فاجتمعوا، وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى، فسمع صوت أبي العتاهية. فقال بشار لجليسه: أثم ههنا أبو العتاهية؟ قال: نعم، فوّجَم لها بشار، ثم استنشد المهدي أبا العتاهية فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها:

ألا مـــا لســـيدتي مـــا لهـــا ... أدلـــت فـــأحمل إدلالهـــا

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا. حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

أتتــه الخلافـــةُ مُنْقَـــادةً ... إليـــهِ تُجَـــرِّرُ أذيَالَهـــا

فَلَـمْ تَـــكُ تَصلـــح إلا لَـــه ... ولم يَـــكُ يَصْلُـــحُ إلا لَهـــا

ولـــو رَامَهَـــا أحَـــد غـــيرُه ... لَزُلْزِلَـــتِ الأرضُ زِلزالَهَـــا

ولـــو لم تُطِعـــه بنـــاتُ القلـــوبِ ... لمـــا قبـــلَ اللّـــهُ أعْمَالَهَـــا

فقال بشار لجليسه: انظر ويحك أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟ قال: فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره.

قال ابن خلكان: اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس - وكان في طبقته وطبقة بشار فقال أبو العتاهية لأبي نواس: كم تعمل في اليوم من الشعر؟ قال: بيتاً أو بيتين. فقال: لكني أعمل المائة والمائتين. فقال أبو نواس: لأنك تعمل مثل قولك:

يـــاعُتْبُ مـــا لي ولـــك ... يـــا ليتـــني لم أرَكِ

ولو أردت أنا مثل هذا الألف والألفين لقدرت عليه وأنا أعمل مثل قولي:

من كفّ ذات حر في زيّ ذي ذكر ... لهـا محبّـان لوطـيّ وزنّـاءُ

ولو أردت مثل هذا لأعجزك الدهر.

قال ابن خلكان: ومن لطيف شعر أبي العتاهية:

ولقـــد صبّـــوت إليـــك حـــتى صـرت مـن فـرط التصـابي

يجـــد الجليـــس إذا دنـــا ريـــح التصـــابي في ثيـــابي

قال ابن خلكان: وأشعاره كثيرة وكان مولده سنة ثلاثين ومائة. وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل ثلاث عشرة ومائتين، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد:

إن عيشـاً يكـون آخـره المـو ... ت لعيـش معجـل التنغيـص

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض أذربيجان، فأخذ جماعة من المتغلبين فيها، فبعث بهم إلى المأمون أسراء إلى بغداد.

وفي ربيع الأول أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطم من الأخرى، وهي القول بخلق القرآن، والثانية تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله ﷺ وقد أخطأ في كل من هذين المذهبين خطأً كبيراً فاحشاً، وأثم إثماً عظيماً ومن العلماء من يقول بخلق القرآن، كما سيأتي ذلك في موضعه.

وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي.

وفيها توفي

■ أسد بن موسى الذي يقال له أسد السنة، والحسين بن جعفر. وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد. وأبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي. ومحمد بن يونس الفريابي شيخ البخاري.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها ثار رجلان بمصر، وهما عبد السلام وابن جليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية، وبايعهما طائفة من القيسية واليمانية، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فلم ير يوماً أكثر إطلاقاً منه، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار.

وفيها ولى المأمون السند غسان بن عباد.

وحج بالناس فيها أمير السنة الماضية رضي الله عنه.

وفيها توفي من الأعيان

■ عبد الله بن داود الخُرَيبي. وعبد الله بن يزيد المقرئ البصري. وعبد الله بن موسى العبسي. وعمرو بن أبي سلمة الدمشقي.

وحكى ابن خلكان في «الوفيات» [٤٣/١] عن بعضهم أن في هذه السنة توفي

إبراهيم بن ماهان الموصلي النديم. وأبو العتاهية. وأبو عمرو الشيباني النحوي في يوم واحد ببغداد. ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفي سنة ثمان وثمانين ومائة.

قال السهيلي: في هذه السنة توفي

■ عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن ابن إسحاق حكاه ابن خلكان عنه، والصحيح أنه توفي في سنة ثماني عشرة ومائتين كما نص عليه أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر.

■ العكوك الشاعر: أبو الحسن بن علي بن جبلة بن المسلم بن عبد الرحمن الخراساني ويلقب بالعكوك، لقصره وسِمَنه وكان من الموالي وولد أعمى وقيل بل أصابه جدري وهو ابن سبع سنين فعمي، وكان أسود أبرص، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً، وقد أثنى عليه في شعره الجاحظ فمن بعده.

قال الجاحظ: ما رأيت بدوياً ولا حضرياً أحسن إنشاداً منه. فمن ذلك قوله:

بـأبي مـن زارنـي مكتتمـاً ... خائفـاً مـن كـل شـي جَزِعَـا

زائـر نمّ عليـه حسـنه ... كيـف يخفـي الليـلُ بـدراً طَلَعَـا

رصـدَ الغفلـة حتـى أمكنـت ... ورعـى السـامرَ حتـى هَجَعَـا

رَكِـب الأهـوالَ في زَوْرَتِـهِ ... ثـم مـا سَـلَّم حتـى وَدَّعَـا

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي يمتدحه:

إنمـا الدنيـا أبـو دُلَـف ... بـين مغـزاه ومحتضـرِهْ

فـإذا وَلّـى أبـو دلـف ... ولـت الدنيـا علـى أثـرِهْ

كـلّ مـن في الأرضِ مـن عَـرَبٍ ... بـين باديـه إلى حضـرِهْ

مسـتعيرٌ منـك مكرمـةً ... يلبسـها يـوم مُفتخـرِهْ

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات - وهي في قصيدة طويلة - عارض فيها

أبا نواس الحسن بن هانئ فتطلبه المأمون فهرب منه ثم أحضر بين يديه فقال له: ويحك فضلت القاسم بن عيسى علينا. فقال: يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده، وآتاكم ملكاً عظيماً، وإنما فضلته على أشكاله وأقرانه. فقال: والله ما أبقيت أحداً ولقد أدخلتنا في الكلّ حيث تقول:

كلّ من في الأرض من عرب

البيتين ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا، ولكن بشركك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله يفعله، أخرجوا لسانه من قفاه، فأخرجوا لسانه من قفاه، فمات في هذه السنة سامحه الله.

وقد امتدح حميد بن عبد الحميد الطوسي:

إنما الدنيا حميد ... وأياديه الجسام

فإذا ولى حميد ... فعلى الدنيا السلام

وقوله:

تكفّل ساكني الدنيا حميدٌ ... فقد أضحوا له فيها عيالا

كأنّ أباه آدم كان أوصى ... إليه أن يَعُولَهم فَعَالا

ولما مات حميد هذا في سنة عشر مع المأمون بفم الصلح، قال العَكَوَّك - يرثيه قصيدة؛ منها قوله:

فأدّبنا ما أدّب الناسَ قبلنا ... ولكنه لم يبقَ للصبر موضعُ

وقال أبو العتاهية يرثي حميداً هذا:

أبا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكم

وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقد أورد ابن خلكان لعكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لخمس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمي لعنه الله، فقتل الخرمي خلقاً كثيراً من جيشه، وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد، فإنّا لله وإنا إليه راجعون فبعث المأمون إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر يخيرانه بين خراسان، ونيابة الجبال وأذربيجان وأرمينية ومحاربة بابك الخرميّ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى الضبط، وللخوف من ظهور الخوارج بها.

وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية فافتحها واستعادها إلى السمع والطاعة، وظفر بعبد السلام وابن جليس وقتلهما.

وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابي الشاري فبعث إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من الأمراء فقتلوا بلالاً وعادوا سالمين.

وفيها ولّى المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان.

وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها توفي من الأعيان

أحمد بن خالد الوهبي وحسن بن محمد المروزي شيخ الإمام أحمد. وعبد الله بن الحكم المصري. ومعاوية بن عمرو.

■ **أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح**: أبو جعفر الكاتب ولي ديوان الرسائل للمأمون. ترجمه ابن عساكر وأورد من شعره قوله:

قد يرزق المرء لا من حسن حيلته ... ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الدّاهي

ما مسّني من غنى يوماً ولا عدم ... إلا وقولي عليه الحمد للّه

وله أيضاً:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل لا، تسترحْ وتُرحْ بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

وله:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ... فلام عليه غيره فهو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذي استودعته السر أضيقُ

أبو محمد

■ **عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري**: أحد من قرأ الموطأ على الإمام مالك وتفقه بمذهبه. وكان معظما ببلاد مصر، وله بها ثروة وأموال وافرة. وحين قدم الشافعي مصر أعطاه ألف دينار، وجمع له من أصحابه ألفي دينار، أخرى.

وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذي صحب الشافعي. ولما توفي في هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعي. ولما توفي ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب أبيه من القبلة.

قال ابن خلكان فهي ثلاثة أقبر الشافعي شاميها. وهما قبلته. رحمهم الله.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

في أواخر المحرم منها ركب المأمون في العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم. واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلما كان بتكريت تلقاه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من المدينة النبوية. فأذن له المأمون في الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون. وكان معقود العقد عليها في حياة أبيه علي بن موسى، فدخل بها، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز. وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل. وسار المأمون في جحافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الأولى، وفتح حصناً هناك عنوة وأمر بهدمه، ثم رجع المأمون من بلاد الروم إلى دمشق فنزلها وعمر دير مران بسفح قاسيون، وأقام بدمشق مدة.

وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيدالله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو زيد الأنصاري وأبو سليمان الداراني ومحمد بن عبد اللّه الأنصاري. ومحمد بن المبارك الصوري. وقبيصة بن عقبة. وعلي بن الحسن بن شقيق. ومكي بن إبراهيم.

فأما

■ أبو زيد الأنصاري: فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى القدر.

قال أبو عثمان المازني: رأيت الأصمعي جاء إلى مجلس أبي زيد الأنصاري فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة.

قال ابن خلكان: وله مصنفات كثيرة، منها «خلق الإنسان»، و«كتاب الإبل»، وكتاب «المياه»، وكتاب «القوس» و «الترس»، وغير ذلك.

توفي في هذه السنة، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها، وقد جاوز التسعين، وقيل إنه قارب المائة.

وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

في هذه السنة عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل فقتل جماعة من المسلمين في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ويقال إنه أيضاً كتب إلى المأمون فبدأ بنفسه، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره فركب في الجيوش إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر، فافتتح بلداناً كثيرة صلحاً وعنوة، وافتتح أخوه ثلاثين حصناً، وبعث المأمون يحيى بن أكثم في سرية إلى طوانة فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً من الذراري وغيرهم، وقتل خلقاً من الروم وحرق حصوناً عدة، ثم عاد سالماً مؤيداً إلى العسكر. وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر، فتغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد وقويت شوكته واتبعه خلق كثير، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة إلى الديار المصرية، فكان من أمره ما سنذكره.

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد وما والاها من البلاد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس، فكان أول ما بدىء به في جامع المدينة والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة، وذلك أنهم كانوا إذا قضوا الصلاة قام الناس قياماً فكبّروا ثلاث تكبيرات، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات. وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد، فإن هذا لم يفعله قبله أحد، ولكن ثبت في الصحيح [خ (٨٤١)، م (٥٨٣)] عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول اللّه ﷺ ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره.

وقال ابن بطال [مسلم بشرح النووي: ٨٤/٥، فتح الباري: ٣٢٥/٢، ٣٢٦]: المذاهب الأربعة وغيرهم على عدم استحبابه.

قال النووي [مسلم بشرح النووي: ٨٤/٥]: وقد رُوي عن الشافعي أنه قال: إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنىً.

وهذا كما روي عن ابن عباس [خ (١٣٣٥)، د (٣١٩٨)، ت(١٠٢٧)] أنه كان يجهر بالفاتحة في صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة، ولهذا نظائر واللّه أعلم.

وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فإنها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف.

وفيها وقع برد شديد جداً.

وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي، وقيل غيره واللّه أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

حيان بن هلال. وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك. ومحمد بن بكار بن بلال. وهوذة بن خليفة.

زبيدة امرأة هارون الرشيد وابنة عمه

■ (زبيدة امرأة هارون)

وهي ابنة جعفر أمّه العزيز الملقبة بزبيدة بنت جعفر بن المنصور القرشية الهاشمية العباسية، امرأة هارون الرشيد وأحب الناس إليه في زمانها، مع ما كان معها من الحظايا والزوجات كما ذكرنا ذلك في ترجمته، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول: إنما أنت زبيدة، لبياضها، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به، وأصل اسمها أمة العزيز.

كانت من الجمال والمال والخير والديانة على جانب، ولها من الصدقات والأوقاف ووجوه القربات شيء كثير.

وروى الخطيب البغدادي أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم، وأنها لما هنأت المأمون بالخلافة حين دخل بغداد قالت له: لقد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل اللّه أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما عوض. وذكر أنها توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

ثم قال الخطيب: حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظاً قال: وجد بخط أبي الفتح القواس قال حدثنا صدقة بن هبيرة الموصلي حدثنا محمد بن عبد اللّه الواسطي قال: قال عبد اللّه بن المبارك الزَّمِن: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل اللّه بك؟ فقالت: غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة. قلت: فما هذه الصفرة في وجهك؟ قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدي فهذه الصفرة من تلك الزفرة.

وذكر القاضي ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ، وكان يسمع لهن في القصر دوي كدوي النحل، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن، وورد أنها رئيت في المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت: ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن في السحر.

وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في المحرم منها دخل المأمون الديار المصرية وظفر بعبدوس الفهري فأمر فضربت عنقه، ثم كر راجعاً إلى الشام.

وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لؤلؤة مائة يوم، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً فخدعته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام، ثم انفلت من أيديهم واستمر محاصراً لهم، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه، فبلغ المأمون فسار إليه، فلما أحس توفيل بقدومه انصرف هارباً من وجهه وبعث إليه الوزير الذي يقال له: الصُّنغل فسأله الأمان والمصالحة والمهادنة، ولكنه بدأ بنفسه في كتابة إلى المأمون المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التقريع والتوبيخ، وإني إنما أقبل منك الدخول في الحنيفية وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى.

وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.

وفيها توفي من الأعيان

■ حجاج بن منهال، وسُريج بن النعمان. وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

في أول يوم من جمادى منها وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوانة وتجديد عمارتها. وبعث إلى سائر الأقاليم والآفاق في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها، من مصر والشام والعراق، فاجتمع عليها خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأمره أن يجعلها ميلا في ميل، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب عند كل باب حصن.

ذكر أول المحنة والفتنة

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم، وكتب إليه يستحثه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير [تاريخه: ٦٣١/٨]، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وليس بقديم، وعنده أنّ كل محدث فهو مخلوق، وهذا أمر لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين ولا المحدثين، فإن القائلين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة بعد أنْ لم يكن مخلوق، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً، وقد قال الله تعالى ﴿ما يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء ٢] وقال تعالى ﴿ولقد خَلَقْنَاكُم ثمّ صَوّرْنَاكم ثُمّ قلنا للملائكةِ اسْجُدُوا لآدم﴾ [الأعراف: ١١] فالأمر بالسجود صدر منه تعالى بعد خلق آدم، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقاً، وهذا له موضع آخر.

وقد صنف البخاري - رحمه الله - كتاباً في هذا المعنى سماه «خلق أفعال العباد».

والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد بغداد قرئ على الناس، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن إبراهيم الدورقي. فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته وهم كارهون، فردهم إلى بغداد وأمر بإشهار أمرهم بين الفقهاء، ففعل إسحاق بن إبراهيم ذلك. وأحضر خلقاً من مشايخ الحديث والفقهاء والقضاء وأئمة المساجد وغيرهم، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم كتب المأمون كتاباً ثانياً إلى إسحاق بن إبراهيم يستدل فيه على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها، بل هي من المتشابهات وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه. لا له، وقد أورده ابن جرير بطوله - وأمره أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن، فأحضر إسحاق ابن إبراهيم جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل. وقتيبة. وأبو حسان الزيادي. وبشر بن الوليد الكندي. وعلي بن أبي مقاتل. وسعدويه الواسطي. وعلي بن الجعد. وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ويحيى بن عبد الحميد العمري. وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضياً على الرقة، وأبونصر التمار، وأبو معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح الجنديسابوري المضروب، وابن الفرخان، والنضر بن شميل. وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وأبو شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة.

فلما دخلوا على إسحاق بن إبراهيم قرأ عليهم كتاب المأمون. فلما فهموه قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله. قال: ليس عن هذا أسألك. وإنما أسألك أهو مخلوق؟ قال: ليس بخالق. قال: ولا عن هذا أسألك. فقال: ما أحسن غير هذا، وصمم على ذلك. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه؟ قال: نعم! فقال للكاتب: اكتب بما قال. فكتب.

ثم امتحنهم رجلا رجلا فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن، فكان إذا امتنع الرجل منهم يمتحنه بما في الرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد الكندي، من أنه تعالى لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول: نعم: كما قال بشر.

ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له: أتقول: إن القرآن مخلوق؟ فقال: القرآن كلام الله لا أزيد على هذا. فقال له: ما تقول في هذه الرقعة؟ فقال: أقول: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾ [الشورى: ١١] فقال رجل من المعتزلة: إنه يقول: سميع بأذن بصير بعين. فقال له إسحاق: ما أردت بقولك: سميع بصير؟ فقال: أردت منها ما أراده الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك. فكتب جوابات القوم رجلا رجلا وبعث بها إلى المأمون.

فصل: قد تقدّم أنّ إسحاقَ بنَ إبراهيم نائب بغداد لما امتحن الجماعة في القول بخلق القرآن، ونفي التشبيه، فأجابوا كلُّهم إلى نفي المماثلة، وأما القولُ بخلق القرآن فامتنعوا من ذلك، وقالوا كلُّهم: القرآن كلامُ الله. قال الإمامُ أحمدُ: ولا أزيدُ على هذا حرفاً أبداً. وقرأ في نفي المماثلة قوله تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البصير﴾ [الشورى: ١١]. فقالوا ما أردت

بقولك: السميع البصير؟ فقال: أردتُ منها ما أراد اللّهُ منها. كان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث ردع عن الإسماع والأداء. ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم العزيز الحكيم.

فصل:

وأمر النائب إسحاق بن إبراهيم الكاتب، فكتب عن كل واحد منهم جوابه بعينه، وبعث به إلى المأمون، فجاء الجواب بمدح النائب على ما فعل، والرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله. وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس، ومن لم يجب منهم إلى القول بخلق القرآن فابعث به إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه رأيه. ومن مذهبه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله. فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي، وقد نص المأمون على قتلهما إن لم يجيبا على الفور، فلما امتحنهم إسحاق بن إبراهيم ثانياً بعد قراءة كتاب الخليفة أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى ﴿إلا مَن أُكْرِهَ وقلبُهُ مُطمَئِنٌ بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦] الآية. إلا أربعة وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والحسن بن حماد سجّادة، وعبيد الله بن عمر القواريري. فقيدهم وأرصدهم ليبعث بهم إلى المأمون، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجّادة إلى القول بخلق القرآن فأطلق قيده وأطلقه. ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده أيضاً وأطلقه. وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري على الامتناع من ذلك، فأكد قيودهما وجمعهما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس، وكتب معهما كتاباً بإرسالهما إليه. فسارا مقيدين في محارة على جمل متعادلين رضي الله عنهما. وجعل الإمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون، وأن لا يرياه ولا يراهما.

وجاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى: ﴿إلا من أُكرِهَ وقلبه مُطمَئِنٌ بالإيمان﴾ [النحل ١٠٦]. وقد أخطؤوا في ذلك خطأ كبيراً، فارسلهم كلهم إلى أمير المؤمنين. فاستدعاهم إسحاق وألزمهم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة، ثم أذن لهم في الرجوع إلى بغداد. وكان أحمد بن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس، ولكن لم يجتمعا به. حتى مات واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فلم يجتمعوا بالمأمون وردوا إلى بغداد. وسيأتي تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المعتصم بن الرشيد، وتمام الكلام على ذلك في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وبالله المستعان.

وهذه ترجمة المأمون

هو عبد الله

■ المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس القرشي الهاشمي العباسي أبو جعفر أمير المؤمنين، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي، وولي أبوه هارون الرشيد، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم.

قال ابن عساكر: روى الحديث عن أبيه وهشيم بن بشير، وأبي معاوية الضرير، ويوسف بن عطية، وعباد بن العوام، وإسماعيل بن علية، وحجاج بن محمد الأعور.

وروى عنه أبو حنيفة إسحاق بن بشر - وهو أسن منه - ويحيى بن أكثم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمر بن شبيب وأبو يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشيعي - واليزيدي - وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن طاهر بن الحسين، ومحمد بن إبراهيم السلمي ودعبل بن علي الخزاعي.

قال: وقدم دمشق دفعات وأقام بها مدة.

ثم روى ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال: سمعت المأمون في الشماسية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكثم: أما ترى كثرة الناس؟ ثم قال: حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

ومن حديث أبي بكر الميانجي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكثم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «الحياء من الإيمان» [خ (٦١١٨)، م (٣٦)]. ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى العصر يوم عرفة خلف المأمون بالرصافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول: لا يا غوغاء لا يا غوغاء، غدا سنة أبي القاسم ﷺ. فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال: أنبأ هشيم بن بشير حدثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن نيار. قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم قدمه لأهله، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أصاب السنة». الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا، اللّهم أصلحني واستصلحني وأصلح على يدي.

وكان مولد المأمون ليلة مات عمه الهادي وولي أبوه الرشيد وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة تسعين ومائة.

تولى المأمون الخلافة في المحرم لخمس بقين منه بعد مقتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر. وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، وخلع السواد ولبس الخضرة كما قدمنا، فأعظم ذلك العباسيون من البغادة وغيرهم، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي كما تقدم، ثم ظفر المأمون بهم واستقام أمره في الخلافة، وذلك بعد موت علي الرضا بطوس، وعفا عن عمه إبراهيم بن المهدي، كما تقدم بسطُ ذلك في موضعه.

أما كونه على مذهب الاعتزال فإنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل، وراج عنده الباطل. ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً. وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته.

وقال ابن أبي الدنيا: كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب تعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقها ضيق الجبين، على خده خال. أمه أم ولد يقال لها مراجل.

وروى الخطيب البغدادي عن القاسم بن محمد بن عباد قال: لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون.

وهذا غريب جداً لا يوافق عليه، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء.

قالوا: كان يتلو في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة.

وجلس يوماً لإملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى بن أكثم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً. وكانت له بصيرة بعلوم متعددة، من فقه وطب وشعر وفرائض وكلام ونحو وعربية وغريب حديث، وعلم النجوم. وإليه ينسب الزيج المأموني. وقد اختبر مقدار الدرجة في وطأة سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء.

وروى ابن عساكر أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار، فلم يحصل لها سوى دينار واحد. فقال لها المأمون على البديهة: قد وصل إليك حقك، كان أخاك قد ترك بنتين وأماً وزوجة واثني عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت، قالت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: للبنتين الثلثان أربعمائة دينار، وللأم السدس مائة دينار، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً، يبقى خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران، ولك دينار واحد. فعجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه. وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب ﷺ.

ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيماً، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلاً، فخرج من عنده محروماً، فلقيه شاعر آخر فقال له: ألا أعجبك! أنشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً. فقال: وما هو؟ قال قلت فيه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً	بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال له ذلك الشاعر الآخر: ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها. فهلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه	ولا عرض الدنيا عن الدين شاغِلُه

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه: بيتان اثنان لاثنين ما لحقهما أحد، قول أبي نواس:

إذا اختَبَرَ الدنيا لبيب تكشّفت	له عن عدوٍّ في ثياب صديق

وقول شريح:

تهون على الدنيا الملامة إنه	حريصٌ على استصلاحها من يلومُها

قال المأمون: وقد ألجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوقة فرأيت رجلا في دكان عليه أثواب خلقة، فنظر إلي نظر من يرحمني أو من يتعجب من أمري فقال:

أرى كلّ مغرور تمنيه نفسه	إذا ما مَضَى عامٌ سلامة قابل

وقال يحيى بن أكثم: سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ﷺ ثم قال: عباد الله! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العاملين، وطالت مدة الفريقين، فوالله إنه للجد لا اللعب، وإنه للحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والصراط ثم العقاب والثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز. ومن هوى يومئذٍ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

وروى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال: دخلت على المأمون فقال: كيف أصبحت يا نضر؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون من دينهم. قال: صدقت. ثم قال: يا نضر أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم؟ قلت: أنّى لي بعلم الغيب. فقال: قلت:

أصبح ديني الذي أدينُ به	ولست منه الغداة معتذرًا
حُبُّ عليٍّ بعد النبي ولا	أشتم صديقنا ولا عُمرًا
ثم ابن عفان في الجنان مع	الأبرار ذاك القتيل مصطبرًا
لا لا ولا أشتم الزبير ولا	طلحة إن قال قائل غدرًا
وعائش الأم لست أشتمها	من يفتريها فنحن منه بَرَا

وهذا المذهب ثاني مراتب التشيُّع وفيه تفضيل عليّ على عثمان.

وقد قال بعضُ السلف والدارقطني: من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار - يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان على عليّ بعد مقتل عمر رضي الله عنهم - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع، على ما ذكره صاحب كتاب «البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم»، تنتهي إلى أكفر الكفر.

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: لا أوتَى بأحد فضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري.

وتواتر عنه أنه قال: خير الناس بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان.

فقد خالف المأمون بن الرشيد في مذهبه الصحابة كلهم حتى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأنصار، وخالفهم في ذلك، البدعة الأخرى والطامة العظمى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك على تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال فعال التي تعدد فيها المنكر، ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة وله همة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم في بلدانهم، وقتل رجالهم وسبي نسائهم. وكان يقول: كان معاوية بعَمْرة، وعبد الملك بحجّاجه وأنا بنفسي.

وكان يقصد العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل، جاءته امرأة ضعيفة فتظلّمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته، ثم حكم لها بحقها وأغرم لها ولده بعشره عشرة آلاف درهم.

وكتب إليّ بعض الأمراء: ليس من المروءة أن يكون آنيتك من ذهب وفضة وغريمك عار، وجارك طاو والفقير جائع.

ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون: والله لأ قتلنك. فقال: يا أمير المؤمنين تأن علي فإن الرفق نصف العفو، فقال: ويلك - ويحك! قد حلفت لأقتلنك، فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن تلق اللـه عزّ وجّل حانثاً خير من أن تلقاه قاتلا، فعفا عنه.

وكان يقول: ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب

الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم.

وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه: ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يتبسّم ويقول: كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل؟.

وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ما تناثر منها من اللباب وغيره، فقال له المأمون: أما شبعت يا شيخ؟ فقال: بلى، ولكن حدّثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "من أكل ما تحت مائدته أمن من الفقر". قال فأمر له المأمون بألف دينار.

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عبّاد بن المهلب: يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف وأنّ عليك دَيناً؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود. فقال: احسنت يا أبا عبد الله! اعطوه ألف ألف وألف ألف.

ولما أراد المأمون أن يدخل ببوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء. فاهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب، ومزوداً فيه أشنان جيد. وكتب إليه: إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، وبالمختوم به لطيبه ونظافته. وكتب إليه:

بضَاعتي تقصُر عن هِمّتي ... وهمّتي تقصرُ عن مالي
فالملحُ والأشنانُ يا سيدي ... احسنُ ما يهديه أمثالي

قال: فدخل بهما الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا وملئا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب.

وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهاني، ودخل عليه لشعراء فقال يهنيه بولده:

مدّ لك الله الحياة مدّا ... حتى ترى ابنك هذا جدّا
ثم يُفدّي مثل ما تفدّى ... كأنه أنت إذا تَبدّى
أشبه منك قامة وقدّا ... مؤزّرا بمجده مُردّا

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه المعتصم ذلك، فوردت عليه خزائن من خراسان وبها ثلاثون ألف ألف درهم، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال، ومعه يحيى بن أكثم القاضي، فلما دخلت البلد قال: ليس من المروءة أن نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون. ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه.

ومن لطيف شعره:

لساني كتوم لأسراركم ... ودمعي نموم لسرّي مذيع
فلولا دموعي كتمت الهوى ... ولولا الهوى لم تكن لي دموع

وقد بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث، وتمنعت الجارية من المجيء إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه، فأنشأ المأمون يقول:

بعثتك مشتاقاً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنّا
وناجيتَ من أهوى وكنت مقرّباً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى
وردّدت طرفاً في محاسن وجهها ... ومتّعت باستسماع نغمتها أذنا
أرى أثراً في صحن خدّك لم يكن ... لقد سرقت عيناك من عينها حُسْناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال، فرح بذلك بشر المريسي- وكان بشر هذا شيخ المأمون - فأنشأ المريسي يقول:

قد قال مأموننا وسيّدنا ... قولا له في الكتاب تصديقُ
إن علياً أعني أبا حسن ... أفضل من قد أرْقَلَتْ به النُوق
بعد نبي الهدى وإنّ لنا ... أعمالَنا، والقرآنُ مخلوقُ

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة فقال:

يا أيها الناس لا قولٌ ولا عملٌ ... لمن يقول: كلام الله مخلوقُ
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر ... ولا النبي ولم يذكره صديقُ
ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع ... على الإله وعند الله زنديقُ
عمداً أراد به إمحاق دينكم ... لأنّ دينهمُ واللهِ ممحوقُ
أصْبحَ يا قوم عقلاً من خليفتكم ... يُمسي ويُصبح في الأغلال موثوقُ

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك، فقال: ويحك لو كان فقيهاً لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له.

ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفرة سافرها إلى طرسوس استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت: قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك هذا ثم أنشأت تقول:

سأدعو دعوة المضطر ربّاً ... يُثيب على الدّعاء ويستجيبُ
لعلّ الله أن يكفيك حرباً ... ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلا:

فيا حسنها إذ يغسل الدمعُ كُحلها ... وإذ هي تذري الدمعَ منها الأناملُ
صبيحةَ قالت في العتاب قَتَلْتَنِي ... وقتلي بما قالت هناك تحاولُ

ثم أمر مسروراً الخادم بالإحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع، ثم قال: نحن كما قال الأخطل:

قومٌ إذا حَاربُوا شدّوا مآزرَهم ... دون النساءِ ولو باتت بأطهار

ثم ودعها وسار فمرضت الجارية في غيبته هذه، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق:

إن الزمان سقانا من مرارته ... بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارةً منه فأضحكنا ... ثم انثنى تارةً أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا ... من القضاء ومن تلوينِ دنيانا
دنيا تراها ترينا من تصرّفها ... ما لا يدوم مصافاة وأحزانا
ونحن فيها كأنّا لا يزايلنا ... للعيش أحياؤنا يبكون موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهراً، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولي العهد من بعده، ودفن

بطرسوس في دار خاقان الخادم، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء، وقيل يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب من هذه السنة، وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها، وقيل إنه نقل إلى بعد ذلك أذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم. وقد قال أبوسعيد المخزومي:

أما رأيت النجوم أغنت عن المأ مون في عزِّ ملكه المأسوسِ
خلّفوه بِعَرْصَتي طرسوس مثل ما خلّفوا أباه بطُوسِ

وقد كان أوصى إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم وكتب وصيته بحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب. وفيها القول بخلق القرآن ولم يتب من ذلك حتى أدركه أجله وانقضى عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه، وأوصى أن يكبر عليه الذي يصلي عليه خمساً، وأوصى أخاه أبا إسحاق المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية، وأوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده أخوه المأمون في القرآن، وأن يدعو الناس إلى ذلك، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم وأحمد بن أبي دواد القاضي، وقال: شاوره في أمورك كلها ولا تفارقه، وحذّره من يحيى بن أكثم ونهاه عنه وذمه وقال: خانني ونفر الناس عني ففارقته غير راضٍ عنه. ثم أوصاه بالعلويين خيراً، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٨/٦٤٦-٦٦٦] للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها الحافظ ابن عساكر مع كثرة ما يورده، وفوق كل ذي علم عليم.

خلافة المعتصم بالله أبي إسحاق بن هارون الرشيد

بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثامن عشر من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين، وكان إذ ذاك مريضاً، وهو الذي صلّى على أخيه المأمون، وقد شَغَب بعض الجند فأرادوا أن يولُّوا العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس بن المأمون فقال: ما هذا الحب البارد؟ أنا قد بايعت عمي المعتصم. فسكن الناس وخمدت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الآفاق، وبالتعزية بالمأمون. فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون في مدينة طوانة، وأمر بإبطال ذلك ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم، ثم ركب المعتصم في الجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان في أبهة عظيمة وتجمل تام.

وفيها دخل خلق كثير من أهل همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان في دين الخرمية، فتجمع منهم بشر كثير، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخر من جهز إليهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب في جيش عظيم، وعقد له على الجبال، فخرج من بغداد في ذي القعدة وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية. وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم، و لله الحمد والمنّة وعلى يدي هذا جرت فتنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وضرب بين يديه كما سيأتي بسط ذلك في ترجمة أحمد في سنة إحدى وأربعين ومائتين إن شاء الله، ربه الثقة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بشر المريسي: وهو بشر بن غياث بن أبي كريمة أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، وقد كان هذا الرجل ينظر أولا في شيء من الفقه، وأخذ عن القاضي أبي يوسف. وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم، ثم غلب عليه علم الكلام، وقد نهاه الشافعي عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه.

وقال الشافعي: لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إليّ من أن يلقاه بعلم الكلام. وقد اجتمع بشر بالشافعي عندما قدم الشافعي بغداد.

قال القاضي ابن خلكان: جرّد القول بخلق القرآن وحكي عنه أقوال شنيعة، وكان مرجئياً وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة الكفر، وكان يناظر الشافعي وكان لا يحسن النحو، وكان يلحن لحناً فاحشاً. ويقال: إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة، وكان يسكن درب المريسي ببغداد. والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر. قال: ومَرِّيس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها في الشتاء ريح باردة. قلتُ: ثم راج بشرٌ المريسيُّ عند المأمون وحظي عنده، وقُدِّم في حضرته، ونفق سُوقه الكاسدُ، واستُجيد ذهنُه الباردُ.

ولَمّا تُوفي في ذي الحجة من هذا العام - أو الذي قبله في قول - صَلّى عليه رجلٌ من المحدِّثين يُقال له: عبيدٌ الشُّونيزي. فلامه بعضُ المحدثين، فقال لهم: ألا تسمعون كيف دعوتُ له في صلاتي عليه؟ قلتُ: اللّهمّ إنّ عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر، اللّهمّ فأذِقْه من عذاب القبر، وكان ينكر شفاعة نبيّك فلا تجعله من أهلها، وكان ينكر رؤيتك في الدّار الآخرة فاحجُبْ وجهَك الكريمَ عنه. فقالوا له: أصبْت. وهذا الذي نطَق به بعضُ السّلف حيث قالوا: مَن كذّب بكرامةٍ لم يَنلْها.

وفي هذا العام توفي:

■ عبد الله بن يوسف التّيسي.

وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي.

ويحيى بن عبد الله البابلتي.

و■ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري: راوي السيرة عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق مصنفها، وإنما نسبت إليه فيقال سيرة ابن هشام، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها، وحرر أماكن واستدرك أشياء.

وكان إماماً في اللغة والنحو، وقد كان مقيماً بمصر واجتمع به الشافعي حين وردها، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً، وكانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة، قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فالله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد، واجتمع عليه خلق كثير وقاتله قواد عبد الله بن طاهر، ثم ظهروا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر من هذه السنة فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين، فمكث فيه ثلاثاً، ثم حول إلى أوسع منه وأُجري

عليه رزقٌ من يخدمه، فلم يزل محبوساً هنالك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلي له حبل من كوة كان يأتيه الضوء منها، فذهب فلم يدر كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض.

وفي يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية، ومعه أسارى منهم، وقد قتل في حربه هذه من الخُرّمية منهم مائة ألف مقاتل منهم.

وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات، فمكث في قتالهم تسعة أشهر، فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراءهم. وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سملق، وهو داهيتهم وشيطانهم، فأراح الله المسلمين منه ومن شرهم.

وفيها توفي من الأعيان

■ سليمان بن داود الهاشمي شيخ الإمام أحمد. وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الإمام الشافعي وعلي بن عياش. وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري. وأبو غسان النهدي.

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء دخل عجيف في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفاً قد جاؤوا بالأمان إلى الخليفة، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم الخليفة إلى عين زُربة، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم أحد. فكان آخر العهد بهم.

وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كاوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لعنه الله، وكان قد استفحل أمره جداً، وقويت شوكته جدّاً، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجيماً، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإيصال المدد، وأرسل إليه المعتصم بالله مع بغا الكبير أموالا جزيلة نفقة لمن معه من الجند والأتباع، وقد اتّفق فالتقى هو وبابك في هذه السنة فاقتتلا قتالا شديداً، فقتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً أزيد من ألف، وانهزم هو إلى مدينته فأوى إليها مكسوراً، فكان هذا أول ما تضعضع من أمر بابك، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها، وقد استقصاها الإمام أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٩/١١-١٧] رحمه الله.

وفي هذه السنة خرج المعتصم من بغداد فنزل القاطول فأقام بها.

وفيها غضب المعتصم على الفضل بن مروان بعد المكانة العظيمة، وعزله عن الوزارة وحبسه وأخذ أمواله وجعل مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات.

وحج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية.

وفيها توفي من الأعيان

آدم بن أبي إياس. وعبد الله بن رجاء. وعفان بن مسلم. وقالون أحد مشاهير القراء. وأبو حذيفة النهدي.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بغا الكبير وبابك الخرّميّ فهزم بابك بغا وقتل خلقاً من أصحابه. فإنّا لله وإنا إليه راجعون. ثم اقتتل الأفشين وبابك فهزمه أفشين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير رحمه الله في تاريخه [٩/٢٣-٢٧].

وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

وفيها توفي من الأعيان

■ عاصم بن علي. وعبد الله بن مسلمة القعنبي. وعبدان. وهشام بن عبيد الله الرازي.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

فيها وجه المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفشين على محاربة الخرمية وبعث إليه ثلاثين ألف ألف درهم نفقة للجند والأتباع.

وفيها اقتتل الأفشين والخرمية قتالا عظيماً، وافتتح الأفشين البذ مدينة بابك واستباح ما فيها ولله الحمد، وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان. وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد. وقد أطال ابن جرير [تاريخه: ٩/٣١-٥١] وبسطه جداً. وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما احتوى عليه من الأموال مما قدر عليه.

ذكر مسك بابك الخُرّمي وأسره وقتله

لما احتوى المسلمون على بلده المسمى بالبذّ وهي دار ملكه ومقرّ سلطانه هرب بمن معه من أهله وولده ومعه أمه وامرأته، فانفرد في شرذمة قليلة من خدمه ولم يبق معهم طعام، فاجتاز بحراث فبعث غلامه إليه ومعه ذهب فقال: أعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد وهو يأخذ منه الخبز، فظن أنه قد اغتصبه منه، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له سهل بن سنباط ليستعدي على ذلك الغلام، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال:ما خبرك؟ فقال:لا شيء، إنما أعطيته دنانير وأخذت منه هذا الخبز. فقال: ومن أنت؟ فأراد أن يعمّي عليه الخبر فألح عليه فقال: من غلمان بابك، فقال: وأين هو؟ فقال: ها هو ذا جالس يريد الغداء. فسار إليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وجاءه فقبّل يده وقال: يا سيدي أين تريد؟ قال: أريد أن أدخل بلاد الروم، فقال:إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه إلى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات الكثيرة والتحف وغير ذلك، وكتب إلى الأفشين يعلمه بذلك، فأرسل إليه أميرين لقبضه، فنزلا قريباً من الحصن وكتبا إلى ابن سنباط فقال: أقيما مكانكما حتى يأتيكما أمري.، ثم قال لبابك: إنك قد حصل لك غمٌّ وضيق من هذا الحصن وقد عزمت على الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزاة وكلاب، فإن أحببت أن تخرج معنا لتنشرح. قال: نعم! فخرجوا وبعث ابن سنباط إلى الأميرين أن كونا بمكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار، فلما كانوا بذلك الموضع أقبل الأميران بمن معهما من الجنود

فأحاطوا ببابك وبابن سنباط، فلما رأوه جاؤوا إليه فقالوا: ترجل عن دابتك. فقال: ومن أنتما؟ فذكرا أنهما من عند الأفشين، فترجل حينئذٍ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وعمامة بيضاء وخف قصير وفي يده باز، فنظر إلى ابن سنباط فقال: قبحك الله فهلا طلبت مني من المال ما شئت فكنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء! ثم أركبوه وأخذوه معهما إلى الأفشين، فلما اقتربوا من بلاد الأفشين خرج فتلقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين. وأن يترجّل بابك فيدخل بين الناس وهو ماش، ففعل ذلك، وكان يوماً مشهوداً جداً. وكان ذلك في شوال من هذه السنة. ثم احتفظ به وهو في السجن عنده. ثم كتب الأفشين إلى المعتصم يخبره بأن بابك في أسره وقد استحضر أخاه عبد الله أيضاً فكتب إليه المعتصم يأمره أن يقدم بهما عليه إلى بغداد، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد.

وحج بالناس فيها محمد بن داود المتقدم ذكره.

وفيها توفي

أبو اليمان الحكم بن نافع وعمر بن حفص بن غياث، ومسلم بن إبراهيم، ويحيى بن صالح الوحاظي.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين على المعتصم سامراء ومعه بابك الخرمي وأخوه عبد الله، في تجمل عظيم، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الواثق أن يتلقى الأفشين، وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه، فنظر إليه ثم رجع، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سماطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليشهر أمره ويعرفوه، عليه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة، وقد هُيِّىء الفيل وخُضبت أطرافه وأُلبس من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً، وقد قال فيه بعضهم:

قد خُضِّب الفيل كعاداته — يحمل شيطان خُراسان
والفيل لا تُخضَّبُ أعضاؤه — إلا لذي شأنٍ من الشان

ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرّا، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة أسفر صباحُها عن قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة. وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره لعنه الله- وهي عشرون سنة - مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير [تاريخه: ٥٤/٩، ٥٥] - وأسر خلقاً لا يحصون كثرة، وكان من جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحو من سبعة آلاف وستمائة إنسان، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلاً، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثاً وعشرين امرأة من الخواتين، وقد كان أصل بابك لعنه الله من جارية زرية الشكل جداً، فآل به الحال إلى ما آل به إليه، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام.

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم، وكتب له بولاية السند، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين، وعلى تخريبه بلد بابك التي يقال لها البذ وتركه إياها يباباً خراباً. فقالوا في ذلك فأحسنوا، وكان من جملتهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتمامها ابن جرير في تاريخه [٥٥/٩] وهي قوله:

بذُّ الجلاد البذُّ فهو دفين — ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يقر هذا السيف هذا الصبر في — هيجاء إلا عز هذا الدّين
قد كان عذرة سؤددٍ فافتضُّها — بالسيف فحل المشرق الأفشين
فأعادها تعوي الثعالب وسْطها — ولقد ترى بالأمس وهي عرين
هطلت عليها من جماجم أهلها — دِيَمٌ أمارتها طلىً وشؤون
كانت من المهجات قبل مفازة — عسراً فأضحت وهي منه معين

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل لعنه الله بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها منهم خلقاً كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات. ومثّل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وآنافهم وسمل أعينهم قبحه الله.

وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به من كل جانب في مدينته البذ واستوسقت الجيوش حوله كتب إلى ملك الروم يقول له: إن ملك العرب قد جهز إليّ جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها فإنك لا تجد أحداً يمانعك عنها. فركب توفيل لعنه الله في مئة ألف وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلم يقدر عليهم وتحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى زبطْرة فقتلوا من رجالها خلقاً كثيراً وأسروا من نسائها أمة كثيرة، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره فأمر بتعبئة الجيوش واستدعى بالقاضي والعدول فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه.

وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر إلى بلاده راجعاً وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه، فرجعوا إلى الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر، فقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

ذكر فتح عمورية على يد المعتصم

لما تفرغ المعتصم من شأن بابك لعنه الله وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إليها في جحافل كالجبال، وبعث الأفشين خيذر بن كاوس من ناحية سروج، وعبّا الخليفة جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها. وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب، فانتهى في سيره إلى

نهر اللَّمِس وهو قريب من طرسوس، وذلك في رجب من هذه السنة المباركة.

وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى، فجاء من وراء ملك الروم، فحار في أمره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاء الأفشين من خلفه فالتقيا عليه فيهلك، وإن سار إلى أحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه. ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم في شرذمة من الجيش واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقى هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها، فثبت الأفشين في ثاني الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين، وتَفَلَّتَ فئةُ ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فإذا نظام الجيش قد انحل، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك جداً، فركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هنالك، فوجدوا أهلها قد هربوا منها وتفرقوا عنها فتقووا منها بطعام وعلوفة كثيرة ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالميمنة عليها الأفشين، والميسرة عليها أشناس، والمعتصم في القلب، وبين كل عسكرين فرسخان، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة وساقة، وأنهم مهما مروا عليه من القرى حرّقوا وخرّبوا وأسروا. وغنموا، وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية، وكان بينها وبين أنقرة سبع مراحل، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان من هذه السنة، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها، ثم جاء المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، ثم قدم الأفشين يوم السبت فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملئوا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كبيرة، وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قباله بمكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين الأسراء، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين معه رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبُني بناء فاسداً بلا أساس فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي نصح فيه ذلك الأسير، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق فكسرها فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلمّا ألحّ عليها المنجنيق لم تغن شيئاً، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش في طريقهم أنكروا أمرهما فسألوهما ممن أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لرجل من المسلمين فحُملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب ياطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة فيناجز المسلمين كائناً في ذلك ما كان.

فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل واحد منهما بدرة، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت الحصن الذي فيه ياطس فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به ياطس معهما إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما. ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتفاظ فيه من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد أعدّ المعتصم عليها المجانيق الكثيرة والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب. ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها عمل المجانيق في مقاومة سورها، وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وقال: ليأكل الرجل الرأس وليجيء بملء جلده ترابا فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج اللّه إلى ذلك.

وبينما الناس في الحرس إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب من السور، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من ينادي في الناس: إنما ذلك سقوط السور. ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، لكن لم يكن يتّسع أن يدخُل منه الجيشُ لضيقه عنهم، فأمر المعتصمُ بالمجانيق المتفرقة فجُمعت هنالك ونصبت حَولَ ذلك الموضع الذي سقط، ليضرب بها ما حوله ليتّسع لدخول الخيل والرجال إذا دخلوا. وقوي الحصار وقد وكلت الروم لكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، واتُّفق أنّ ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور ضُعف عن مقاومة ما يلقاه من الحصار، فذهب إلى ياطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون في حفظه.

فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به. فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد انهدمت وخلت من المقاتلة، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم لا تَحيَوا ولا يقدرون على دفاعهم، فلم يلتفت إليهم المسلمون، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وأين ثقفوهم، وقد حصروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها نهراً. وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب، وهو ياطس في حصن منيع، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه ياطس فناداه المنادي ويحك يا ياطس: هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك. فقال: ليس ياطس ههنا مرتين. فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى ياطس هذا ياطس هذا ياطس. فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين. فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف من عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة فمشى مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل، فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالا عظيمة وغنائم لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين، وانصرف راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة. وكانت إقامته على عمورية خمسة وخمسين يوماً.

ذكر مقتل العباس بن المأمون

كان العباس بن المأمون مع عمه المعتصم في غزوة عمورية، وكان عجيف بن عنبسة قد ندَّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون حين مات بطرسوس، ولامه على مبايعته عمه المعتصم، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه المعتصم وأخذ البيعة من الأمراء له، وجهز رجلا يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلي متى ما فتك بعمِّه، فليقتل كل واحد منهم مَن يقدر عليه من رؤوس أصحاب المعتصم؛ كالأفشين وأشناس وغيرهم من الكبار، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد، فقال العباس: إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة.

فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يفتك، فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم واجتهد في العزم، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقرَّ له بجلية، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس بن المأمون. فقيده وغضب عليه وأهانه ثم أظهر له أنه قد رضي عنه وعفا عنه، فأرسله من القيد وأطلق سراحه، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستخلاه حتى سقاه واستحكاه عن الذي كان قد دبره من الأمر، فشرح له القضية، وأنهى له القصة، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي. فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرة، فقال: ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلا بصدقك إياي في هذه القصة.

ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين، وأمر بعجيف وبقية من ذكرهم من الأمراء فاحتيط عليهم وأُحيط بهم، ثم أخذ في أنواع النقمات يقترحها لهم، فقتل كل واحد منهم بنوع من القِتْلات، ومات العباس بن المأمون بمنبج فدفن هناك، وكان سبب موته أنه جاع جوعاً شديداً، ثم جيء بأكل كثير فأكل وطلب الماء فمنع منه حتى مات، وأمر المعتصم بلعنه على المنابر وسماه اللعين. وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود وفُتح فيها عمورية كما تقدم.

وفيها توفي من الأعيان

■ بابك الخرمي قتل وصلب كما قدمنا ذلك مبسوطاً. وخالد بن خِداش وعبد اللّه بن صالح كاتب الليث بن سعد. ومحمد بن سنان العَوَقي. وموسى بن إسماعيل

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من آمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن واندهُرْمز، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه، فبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد فيقبضه منه ثم يدفعه إلى عبد اللّه بن طاهر ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر المخالفة للمعتصم. وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر.

ويقال إن الذي قوى رأس المازيار هو الأفشين ليعجز عبد اللّه بن طاهر عن مقاومته فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير [تاريخه: ٩/٨٠-١٠١]، وكان آخر ذلك أن أسر المازيار وحمله إلى عبد اللّه بن طاهر، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التي اصطفيت للخليفة، وهي أشياء كثيرة جداً، من الجواهر والذهب والثياب. فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد، وقتل عيون أصحابه وأتباعه.

وفيها تزوج الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى، وكان عرساً عظيماً، وليه المعتصم بنفسه، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية.

وفيها خرج منكجور الأشروسني قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك فظفر منكجور بمال عظيم مخزون لبابك في بعض البلدان، فاحتجبه لنفسه وأخفاه عن المعتصم، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد اللّه بن عبد الرحمن، وكاتب الخليفة في ذلك فكتب منكجور يكذبه في ذلك، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل. فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فحاربه وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة.

وفيها مات

■ ياطس الرومي الذي كان نائباً على عمورية، حين فتحها المعتصم ونزل من حصنه على حكم المعتصم فأخذه معه أسيراً، فاعتقله بسامراء حتى توفي هذا العام وفي رمضان منها مات:

■ إبراهيم بن المهدي بن المنصور عم المعتصم ويعرف بابن شكله، وقد كان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلا.

قال ابن ماكولا [الإكمال: ١/٥١٨]: وكان يقال له التنين يعني لسواده وقد كان ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة وذكر أنه ولي إمرة دمشق نيابة عن أخيه الرشيد مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية وأقام بها أربع سنين. وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين، ثم عاد إلى دمشق، وقد كان بايعه أهل بغداد في أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين كما ذكرنا وقد قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد، فهزمه إبراهيم هذا، فقصده حميد الطوسي فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون مدة طويلة، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه سنة عشر، فعفا عنه وأكرمه واستمر به في منزلته التي كان عليها قبل ذلك.

وكانت مدة ولايته على بغداد ومعاملتها سنة واحد عشر شهرا واثنى عشر يوماً، وكان بدء اختفائه في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين، فمكث مختفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشراً وكان الظفر به في ثالث عشر ربيع الأول من سنة عشر ومئتين وقد جرت له في اختفائه هذا أمور عجيبة يطول بسطها.

قال الخطيب البغدادي: كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخي الكف، وكان معروفا بصناعة الغناء، حاذقاً بها وذكر الخطيب قل المال على إبراهيم بن المهدي في أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه في أخذ أعطياتهم فجعل يسوف بهم. ثم خرج إليهم رسوله يقول: إنه لا مال عنده اليوم، فقال بعضهم: فليخرج الخليفة إلينا فليغن لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات. فقال في ذلك دعبل بن علي شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدي في ذلك:

يا معشر الأعراب لا تغلطوا ... خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية ... لا تدخل الكيس ولا تربط
والمعبديات لقوادكم ... وما بهذا أحد يغبط
فهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربط

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء: وليُّ الثار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو، كما جعل كل ذي ذنب دونه، فإن عفا فبفضله وإن عاقب فبحقه.

فوقع المأمون في جواب ذلك. القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء.

ولما دخل إبراهيم عليه أنشأ يقول:

إن أكن مذنباً فحظي أخطأت ... فدع عنك كثرة التأنيب
قل كما قال يوسف لبني يعقو ... ب لما أتوه: لا تثريب

فقال المأمون: لا تثريب.

وروى الخطيب البغدادي أن إبراهيم بن المهدي لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤنبه على ما فعل فقال: يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر بقتله فقال مبارك بن فضالة: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك حديثاً، فقال: قل. فقال: حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: ألا ليقم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم الجزاء، فلا يقوم إلا من عفا فقال المأمون: قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك يا عم وقد ذكرنا في سنه أربع ومائتين زيادة على هذا. وكانت أشعاره جيدة بليغة سامحه الله وقد ساق من ذلك ابن عساكر في تاريخه [١٩٠/٧] أشياء حسنة كثيرة.

كان مولد إبراهيم بن المهدي هذا في مستهل ذي القعدة سنة اثنتين وستين ومائة، وتوفي يوم الجمعة لسبع خلون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة رحمه الله.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان أيضاً

■ سعيد بن أبي مريم المصري. وسليمان بن حرب وأبو معمر المقعد.

و■ علي بن محمد المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه.

و■ عمرو بن مرزوق شيخ البخاري. وقد تزوج هذا الرجل ألف امرأة.

و■ أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين العلماء، حتى يقال: إن الإمام أحمد كتب كتابه في الغريب بيده، ولما وقف عليه عبد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة درهم، وأجراها على ذريته من بعده.

وذكر ابن خلكان أن ابن طاهر بن الحسن استحسنه وقال: ما ينبغي لعقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن يُحوَج صاحبه إلى طلب المعاش. وأجرى له عشره آلاف درهم في كل شهر.

وقال محمد بن وهب المسعودي: سمعت أبا عبيد يقول: مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة.

وقال هلال بن العلاء الرقي: منَّ الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة: الشافعي تفقه في والحديث، وأحمد بن حنبل ثبت في المحنة. ويحيى بن معين في نفي الكذب عن الحديث وبأبي عبيد في تفسير غريب الحديث. ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ.

وذكر ابن خلكان أن أبا عبيد ولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، وذكر له من العبادة والاجتهاد شيئاً كثيراً.

وقد روى العربية عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وابن الأعرابي، والفراء والكسائي وغيرهم.

قال إسحاق بن راهويه: نحن نحتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا.

وقدم بغداد وسمع الناس منه من تصانيفه.

وقال إبراهيم الحربي: كان كأنه جبل نفخ فيه روح، يحسن كل شيء.

وقال أحمد بن كامل القاضي: كان أبو عبيد فاضلا ديناً ربانياً عالماً متقناً في أصناف علوم الإسلام: من القرآن والفقه والعربية الأخبار حسن الرواية صحيح النقل، لا أعلم أحداً طعن عليه في شيء من علمه وكتبه.

وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله.

توفي في هذه السنة قاله البخاري. وقيل في التي قبلها بمكة، وقيل بالمدينة وله سبع وستون سنة رحمه الله. وقيل جاوز السبعين فالله أعلم.

و■ محمد بن عثمان أبو الجماهر الدمشقي الكفرسوسي أحد مشايخ الحديث.

و■ محمد بن الفضل أبو النعمان السدوسي الملقب بعارم شيخ البخاري ومحمد بن عيسى بن الطباع. ويزيد بن عبد ربه الجرجسي الحمصي شيخها في زمانه.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

فيها دخل بغا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان.

وفيها عزل المعتصم جعفر بن بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن ايتاخ.

وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالمازيار فدخل بغداد على بغل بإكاف لخمس خلون من ذي القعدة فضربه المعتصم بين يديه أربعمائة وخمسين سوطاً ثم سقي الماء حتى مات، وأمر بصلبه إلى جنب بابك الخرمي، وأقر في ضربه أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له خلع الطاعة، فغضب المعتصم وأمر بسجنه، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة يسمّى الكوة، إنما يسعه فقط وذلك حين تحقق الخليفة أنه كان يريد مخالفته والخروج عليه، وأنه يعزب على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات، ونائبه إسحاق

بن إبراهيم بن مصعب، فاتهم الأفشين في هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس. منها أنه غير مختتن فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك فقال له الوزير وهو الذي كان يناظره من بين القوم فأنت تطاعن بالرماح في الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلفة ببدنك؟ ومنها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدما بيت أصنام فاتخذاه مسجداً. أنه عنده كتاب كليلة وفيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب، فاعتذر أنه ورثه من آبائه واتهم بأن الأعاجم يكاتبونه فتقول: إلى إله الآلهة من عبيده وأنه يقرهم على ذلك. فجعل يعتذر بأنه أجراهم على ما كانوا يكاتبون به أباه وأجداده، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فيتضع عندهم فقال له الوزير: ويحك فماذا أبقيت لفرعون حين قال أنا ربكم الأعلى؟ وأنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديماً ويظهره على دين العرب، والمغاربة والأتراك وأنه كان يستطيب المنخنقة على المذبوحة، وأنه كان في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلهما، فعند ذلك أمر المعتصم بغا الكبير أن يسجنه مهاناً ذليلا فجعل يقول: إني كنت أتوقع منكم ذلك.

وفي هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بنت أشناس إلى سامرا.

وحج بالناس فيها محمد بن داود.

وفيها توفي من الأعيان

أصبغ بن الفرج، وسعدويه، ومحمد بن سلام البيكندي شيخ البخاري، وأبو عمر الجرمي. وأبو عمر الحوضي وأبو دلف العجلي التميمي الأمير أحد الأجواد.

و■ سعيد بن مسعدة: أبو الحسن الأخفش الأوسط البلخي ثم البصري النحوي، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في معاني القرآن، وكتاب الأوسط في النحو وغير ذلك، وله كتاب في العروض زاد فيه بحر الخبب على الخليل.

وسمي الأخفش لصغر عينيه وضعف بصره، وكان أيضاً أجلع، وهو الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه، كان أولا يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير، أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الهجري، شيخ سيبويه وأبي عبيدة، فلما ظهر علي بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط، والهجري الأكبر، وعلي بن سليمان الأصغر.

قال القاضي ابن خلكان: وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين.

■ الجرمي النحوي: وهو صالح بن إسحاق البصري، قدم بغداد وناظر بها الفراء، وكان قد أخذ النحو عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي وصنف كتباً منها الفرخ يعني فرخ كتاب سيبويه وكان فقيهاً فاضلا نحوياً بارعاً عالماً باللغة حافظاً لها، ديناً ورعاً حسن المذهب، صحيح الاعتقاد وروى الحديث. قاله كله ابن خلكان وروى عنه المبرد، وذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان.

ثم دخلت سنة ست وعشرون ومائتين

في شعبان منها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وذري رماده في دجلة واحتيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكللة بذهب وجواهر، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان يتهم بها، تدل على كفره وزندقته، ويتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانتماء إلى دين آبائه المجوس لعنهم الله.

وفيها توفي:

محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين.

وحج بالناس فيها محمد بن داود.

وفيها توفي من سادات المحدّثين

إسحاق الفروي. وإسماعيل بن أبي أوس. مُسْند بن داود صاحب التفسير. وغسان بن الربيع. ويحيى بن يحيى التميمي شيخ مسلم بن الحجاج.

و■ أبو دلف العجلي: القاسم بن عيس بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزّى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قواد المأمون والمعتصم وإليه ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا، صاحب كتاب الإكمال.

وكان القاضي جلال الدين القزويني خطيب دمشق يزعم أنه من سلالته ويذكر نسبه إليه، وكان أبو دلف هذا كريماً جواداً معطاء ممدحاً، قد قصده الشعراء من كل أوب وكان أبو تمام الطائي من جملة من يغشاه ويستمنح نداه، وكانت لديه فضيلة في الأدب والغناء، وصنف كتباً منها سياسة الملوك، ومنها في الصيد والبزاة. وفي السلاح وغير ذلك. وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاح الشاعر:

يا طالباً للكيمياء وعلمه ... مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم

لو لم يكن في الأرض إلا درهم ... ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

فيقال: إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم. وكان شجاعاً فاتكاً ومعطاء لا يمل من العطاء، وكان يستدين على ذمته ويعطي، وكان أبوه قد شرع في بناء مدينة الكرج فمات ولم يتمها فأتمها أبو دلف هذا، وكان فيه تشيع. وكان يقول: من لم يكن مغالياً في التشيع فهو ولد زنى. فقال له ابنه دلف: لست على مذهبك يا أبة. فقال: والله لقد وطئت أمك قبل أن استبرئها، فهذا من ذاك.

وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى في المنام بعد وفاة أبيه أن آتياً أتاه فقال: أجب الأمير! قال: فقمت معه فأدخلني دارا وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلّعة السقوف والأبواب. ثم أصعدني في درج منها ثم أدخلني غرفة في حيطانها أثر النيران، وفي أرضها أثر الرماد، وإذا بأبي فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم: دلف؟ فقلت دلف. فأنشأ يقول:

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم ... ما لقينا في البرزخ الخناق

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا ... فارحموا وحشتي وما قد ألاقي

ثم قال: أفهمت؟ قلت: نعم!

فلـو أنـا إذا متنـا تركنـا لكـان المـوت راحـة لكـل حـي
ولكنـا إذا متنـا بعثنـا ونسـأل بعـده عـن كـل شـي

ثم قال: أفهمت؟ قلت: نعم. وانتبهت.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من أهل الثغور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع اليماني، فخلع الطاعة ودعا إلى نفسه. وكان سبب خروجه أن رجلا من الجند أراد أن ينزل في منزله وذلك في غيبة أبي حرب فمانعته المرأة فضربها الجندي في يدها فأثرت الضربة في معصمها فلما جاء بعلها أبو حرب أخبرته فذهب إلى الجندي وهو غافل فضربه فقتله ثم تحصن في رؤوس الجبال وهو مبرقع، فإذا جاءه أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذم من السلطان، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحراثين وغيرهم، وقالوا: هذا هو السفياني المذكور أنه يملك الشام، واستفحل أمره جدا، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل، فنفّذ إليه الخليفة المعتصم وهو في مرض موته جيشاً نحواً من ألف مقاتل، فلما قدم أمير المعتصم بمن معه وجد أمة كثيرة، قد اجتمعوا حوله، فخشي أن يناجزه والحالة هذه، فانتظر حتى جاء وقت حرث الأراضي فتصرّم عنه الناس إلى أراضيهم، وبقي في شرذمة قليلة من أصحابه فناهضه فأسره جيش الخليفة وتفرق عنه أصحابه، وحمله أمير السرية وهو رجاء بن أيوب حتى قدم به على المعتصم، فلامه المعتصم في تأخره عن مناجزته أول ما قدم الشام، فاعتذر بأنه كان معه مائة ألف أو يزيدون فلم يزل يطاوله حتى أمكن الله منه، فشكره على ذلك وقد ذكر قصته مبسوطة الحافظ ابن عساكر في ترجمته من الكنى.

ذكر وفاة المعتصم

وفي يوم الخميس - لساعتين مضتا منه - الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور.

وهذه ترجمة الخليفة المعتصم: هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن أمير المؤمنين هارون الرشيد بن أمير المؤمنين المهدي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يقال له المثمن لوجوه منها أنه ثامن ولد العباس، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات، بلادَ بابك على يدِ الأفشين، وعمُّورية بنفسه، والزُّطَّ بعُجيفٍ، وبحرَ البصرة، وقلعة الأجراف، وأعراب ديار ربيعة، والشارَك، وفتح مصرَ بعد عصيانها، وقتل ثمانية أعداءً، بابك، ومازيار، وياطس الرومي، والأفشين، وعُجيفاً، وقارن، وقائد الرافضة، ومنها أنه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام. وقيل ويومين، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة، ومنها أنه خلّف ثمانية بنين وثماني بنات، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثماني عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون.

قالوا: وكان أمياً لا يحسن الكتابة، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد: ما فعل غلامك؟ قال: مات فاستراح من الكتاب، فقال الرشيد: وقد بلغ منك كراهة الكتاب إلى أن تجعل الموت راحة منه؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتاب بعدها. فتركوه فكان أمياً، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة.

وقد أسند الخطيب البغدادي من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء. والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس.

وذكر بسنده عن المعتصم أن ملك الروم كتب إليه كتاباً يتهدده فيه فقال للكاتب: اكتب قد قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾.

قال الخطيب: غزا المعتصم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، فأنكى نكاية عظيمة في العدو، نصب على عمورية المجانيق وأقام عليها حتى فتحها ودخلها فقتل ثلاثين ألفا وسبى مثلهم، وكان في سبيه ستون بطريقاً، وطرح النار في عمورية في سائر نواحيها فأحرقها وجاء ببابها إلى العراق وهو باق حتى الآن منصوب على أحد أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر.

وروي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أنه قال: ربما أخرج المعتصم ساعده إلي وقال لي: عض يا أبا عبد الله بكل ما تقدر عليه، فأقول إنه لا تطيب نفسي يا أمير المؤمنين ان أعض ساعدك، فيقول: إنه لا يضرني. فأكدم بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك في يده.

قال: ومر يوماً في خلافة أخيه بمخيم الجند فإذا امرأة تقول: ابني ابني، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: ابني أخذه صاحب هذه الخيمة. فجاء إليه المعتصم فقال له: أطلق هذا الصبي، فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بإخراج الصبي إلى أمه.

ولما ولي الخلافة كان شهماً في أيامه وله همة عالية في العرب ومهابة عظيمة في القلوب.

وقال بعضهم: وإنما كانت همّته في الحرب لا في البناء ولا في غيره.

وقال القاضي أحمد بن أبي دؤاد: تصدق المعتصم على يدي ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم.

وقال غيره: كان المعتصم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لي: كيف تراها؟ فقلت: يا أمير المؤمنين: أراها تقهره بحذق وتختله برفق، ولا تخرج من شيء إلا إلى أحسن منه، وفي صوتها قطع شذور، أحسن من نظم الدر على النحور. فقال: والله لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها، ثم قال لابنه هارون الواثق ولي عهده من بعده: اسمع هذا الكلام.

وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً كان له من المماليك الترك قريب من عشرين ألفاً، وتمّ له من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره. ولما حضرته الوفاة جعل يقول: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقال: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت وقال: إني أُخذت من بين هذا الخلق، وجعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة.

وروي عنه أنه قال في مرض موته: اللّهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي.

وكانت وفاته بسر من رأى في يوم الخميس ضحى لتسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة أعني سنة سبع وعشرين ومائتين وكان

مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة، وولي الخلافة في رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، وكان المعتصم أبيض أصهب اللحية طويلها مربوعاً ومشرب اللون أمه أم ولد اسمها ماردة، وهو أحد أولاد ستة من أولاد الرشيد، كل منهم اسمه محمد، وهم أبو إسحاق محمد المعتصم، وأبو العباس الأمين، وأبو عيسى، وأبو أحمد، وأبو يعقوب، وأبو أيوب قاله، هشام بن الكلبي.

وقد ولي الخلافة بعده ولده هارون الواثق.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١١٩/٩] أن وزيره محمد بن الملك عبد بن الزيات رثاه فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت	عليك أيدي التراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا	ونعم الظهير للدين
لا جبر اللّه أمة فقدت	مثلك إلا بمثل هارون

وقال مروان بن أبي الجنوب، وهو ابن أبي حفصة:

أبو إسحاق مات ضحىً فمتنا	وأمسينا بهارون حيينا
لئن جاء الخميس بما كرهنا	لقد جاء الخميس بما هوينا

خلافة الواثق هارون بن المعتصم

بويع له بالخلافة قبل أن مات أبوه المعتصم يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة أعني سنة سبع وعشرين ومائتين ويكنى بأبي جعفر، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة، ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى، وذلك لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة، وكان الذي أقام للناس الحج في هذه السنة جعفر بن المعتصم.

وممن توفي في هذه السنة من المشاهير

ملك الروم

■ **توفيل بن ميخائيل**، وكانت مدة ملكه ثنتي عشرة سنة، فملكت الروم بعده امرأته تدورة. وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صغيراً.

وفيها توفي:

■ **بشر الحافي** الزاهد المشهور: وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد اللّه المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي، نزيل بغداد.

قال ابن خلكان: وكان اسم جده عبد اللّه بعبور، أسلم على يدي علي بن أبي طالب.

قلت: وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة، وسمع بها شيئاً كثيراً من حماد بن زيد وعبد اللّه بن المبارك، وابن مهدي، ومالك، وأبي بكر بن عياش، وغيرهم.

وعنه جماعة منهم أبو خيثمة، وزهير بن حرب، وسري السقطي، والعباس بن عبد العظيم ومحمد بن حاتم.

قال محمد بن سعيد: سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث. وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهده وو رعه ونسكه وتقشفه.

قال الإمام أحمد يوم بلغه موته: لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس، ولو تزوج لكان قد تمّ أمره وفي رواية عنه أنه قال: ما ترك بعده مثله.

وقال إبراهيم الحربي: ما أخرجت بغداد أتم عقلاً، ولا أحفظ للسانه منه، ما عرف له غيبة لمسلم، وكان في كل شعرة منه عقل. ولو تمّ عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء.

وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً في بدء أمره، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم اللّه عز وجل في أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال: سيدي اسمك ههنا ملقى يداس! ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالية وضمخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال، فأحيى اللّه قلبه وألهمه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة.

ومن كلامه: من أحب الدنيا فليتهيأ للذل.

وكان بشر يأكل الخبز وحده فقيل له: بماذا تتأدم؟ فقال: أذكر العافية فأجعلها أدماً. وكان لا يلبس نعلا بل يمشي حافياً، طرق يوماً باباً، فقيل من؟ فقال: بشر الحافي. فقالت جارية صغيرة: أما وجد هذا دانقين يشتري بهما ويستريح من هذا الاسم.

قالوا: وكان سبب تركه النعل أنه جاء مرة إلى حذاء فطلب منه شراكاً لنعله فقال له: ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس؟ فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نعلا أبداً.

قال ابن خلكان: وكانت وفاته يوم عاشوراء وقيل في رمضان ببغداد وقيل بمرو.

قلت الصحيح ببغداد في هذه السنة، وقيل في سنة ست وعشرين والأول أصح واللّه أعلم.

وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم، فأخرج من بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة. وكان علي بن المديني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلى صوته في الجنازة: هذا واللّه شرف الدنيا قبل شرف الآخرة.

وروي أن الجن كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنه. وأنه رآه بعضهم في المنام فقيل له: ما فعل اللّه بك؟ فقال غفر لي ولكل من شهد جنازتي ولكل من أحبني إلى يوم القيامة.

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان له أخوات ثلاث وهن: مخة، ومضغة، وزبدة. وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعاً أيضاً. ذهبت إحداهن فاستأذنت على الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه فقالت: إني ربما طفئ السراج وأنا أغزل فإذا كان ضوء القمر غزلت فيه، فعليَّ عند البيع أن أميز هذا من هذا؟ فقال: إن كان بينهما فرق فأعلمي به المشتري.

وقالت له مرة إحداهن: ربما تمر بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصني من ذلك. فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار.

وسألته عن أنين المريض أفيه شكوى. قال لا: إنما هو شكوى إلى اللّه عز وجل. ثم خرجت فقال لابنه عبد اللّه: يا بني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة؟ قال عبد اللّه: فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر الحافي، وإذا هي أخته.

وروى الخطيب البغدادي أيضاً عن زبدة قالت: جاء ليلة أخي بشر فدخل برجله في الدار وبقيت الأخرى خارج الدار، فاستمر كذلك ليلته حتى أصبح، فقلت له: فيم تفكرت ليلتك؟ فقال: تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي وفي نفسي واسمي بشر، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصك بالإسلام من بينهم؟ فتفكرت في تفضّله

علي وحمدته على أن جعلني من خاصته، وألبسني لباس أحبابه. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فأطنب وأطيب وأطال من غير ملال، وقد ذكر له أشعاراً حسنة، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات:

تعاف القذى في الماء لا تستطيعه ... وتكرع من حوض الذنوب فتشرب

وتؤثر من كلِّ الطعام ألذه ... ولا تذكر المختار من أين يكسبُ

وترقد يا مسكين فوق نمارق ... وفي حشوها نار عليك تلهب

فحتى متى لا تستفيق جهالة ... وأنت ابن سبعين بدينك تلعب

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ **أحمد** بن عبد الله بن يونس اليربوعي، **وإسماعيل** بن عمرو البجلي، **وسعيد بن منصور** صاحب السنن المشهورة التي لا يشاركه في مثلها إلا القليل. **ومحمد** بن الصباح الدولابي، وله سنن أيضاً، **وأبو الوليد** الطيالسي، **وأبو الهذيل** العلاف المتكلم المعتزلي، والله أعلم

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

في رمضان منها خلع الخليفة الواثق على أشناس الأمير، وتوجه وألبسه وشاحين من جوهر.

وحج بالناس فيها محمد بن داود الأمير، وغلا السعر على الناس في طريق مكة جداً، وأصابهم حر شديد وهم بعرفة، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم، كل ذلك في ساعة واحدة، ونزل عليهم وهم بمنى مطر لم ير مثله، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٢٤/٩]: وفيها مات

■ **أبو الحسن المدائني** أحد أئمة هذا الشأن في منزل إسحاق بن إبراهيم الموصلي.

■ **وحبيب** بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر.

قلت: أما أبو الحس علي بن محمد المدائني أحد أئمة هذا الشأن، وإمام الأخباريين في زمانه، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة والله أعلم.

أما

■ **أبو تمام الطائي الشاعر:** صاحب الحماسة التي جمعها في فصل الشتاء بهمذان في دار وزيرها. فهو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مُرينا بن سَهْمِ بن خلجانَ بنِ مروانَ بن دفافةَ بن مَرِّ بنِ سعد بنِ كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن الحارث بن طيِّيء - وهو جُلهمةُ - بن أدد بن زيد بن يشجبَ بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، أبو تمام الطائي الشاعرُ الأديبُ المشهورُ.

ونقل الخطيب عن محمد بن يحيى الصولي أنه حكي عن بعض الناس أنهم قالوا: أبو تمام حبيب بن تدرس النصراني، فسماه أبوه حبيب أوساً بدل تدرس

قال ابن خلكان: وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدور بالقوب من طبرية، وكان بدمشق يعمل عند حائك، ثم سار به إلى مصر في شبيبته. وابن خلكان أخذ ذلك عن تاريخ [١٦/١٢] الحافظ ابن عساكر، وقد ترجم أبا تمام ترجمة حسنة.

وقال الخطيب البغدادي: وهو شامي الأصل، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلَّم منهم وكان فطناً فهماً، وكان يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد، وشاع ذكره وسار شعره وبلغ المعتصم خبره فحمله إليه وهو بسر من رأى، فعمل فيه قصائد فأجازه المعتصم فقدم على شعراء وقته، قدم بغداد فجالس الأدباء وعاشر العلماء، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر وغيره أخباراً بسنده.

قال ابن خلكان: كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع وغير ذلك، وكان يقال: في طيِّئ ثلاثة: حاتم في كرمه، وداود الطائي في زهده، وأبو تمام في شعره.

قلت: وقد كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيص ودعبل بن علي، وابن أبي قيس، وقد كان أبو تمام من خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً، ومن رقيق شعره قوله:

يا حليف الندى ويا معدن الجود ... ويا خير من حبوتُ القريضا

ليت حُمّاك بي وكان لك الأجـ ... ـر فلا تشتكي وكنت المريضا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة ثمان وعشرين ومئتين وكذا قال ابن جرير، وحكي عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين، وقيل سنة اثنتين وثلاثين فالله أعلم.

وكانت وفاته بالموصل، وبنيت على قبره، قُبَّة وحلى الصولي عن الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أنه قال يرثيه:

نبأ أتى من أعظم الأنباء ... لما ألمَّ مقلقل الأحشاء

قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم ... ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

وقال غيره:

فجع القريض بخاتم الشعراء ... وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معاً فتجاورا في حفرة ... وكذاك كانا قبل في الأحياء

وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المعجم.

قال القاضي ابن خلكان: وقد امتدح أحمد بن المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له بعض الحاضرين: أتقول هذا لأمير المؤمنين وهو أكبر قدراً من هؤلاء؟ فإنك ما زدت على أن شبهته بأجلاف من العرب البوادي، فأطرق ساعة، ثم قال:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

قال: فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين، وإنما قالهما ارتجالا. فقال بعضهم: لا يعيش هذا بعد هذا إلا قليلا فكان كذلك.

وقيل إن الخليفة أعطاه الموصل لما مدحه بهذه القصيدة، فأقام بها أربعين يوماً ثم مات. وليس هذا بصحيح، ولا أصل له، وإن كان قد لهج به بعض الناس كالزمخشري وغيره، وقد أورد له ابن عساكر أشياء مستظرفة من شعره الرائق ونظمه الفائق، فمن ذلك قوله:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجَا ... هلكن إذا من جهلهن البهائم

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ... ولا المجد في كف امرئ والدراهمُ

ومنه قوله:

وما أنا بالغيران من دون غرسه ... إذا أنا لم أصبح غيوراً على العلم

طبيب فؤادي مذ ثلاثين حجة ... ومذهب همي والمفرج للغم

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو نصر التمّار، والعَيشي، وأبو الجهم، ومسدَّد، وداود بن عمر الضبي، ويحيى بن عبد الحميد الحماني.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

في هذه السنة أمر الواثق بالله بضرب الدواوين واستخلاص الأموال منهم، لظهور خياناتهم وإسرافهم في أمورهم، فمنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار، ودون ذلك وجاهر الوزير محمد بن عبد الملك لسائر ولاة الشرط بالعداوة فكشفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيماً، وجهداً جهيداً، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر في أمرهم، وأقيموا للناس وافتضحوا هم والدواوين فضيحة بليغة، وكان سبب ذلك أن الواثق جلس ليلة في دار الخلافة فسُمر عنده، فقال: هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدي الرشيد للبرامكة؟ فقال بعض الحاضرين: نعم يا أمير المؤمنين: سبب ذلك أن الرشيد عرضت عليه جارية فأعجبه جمالها فساوم سيدها فيها فقال: يا أمير المؤمنين إني أقسمت بكل يمين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار، فاشتراها منه بها وبعث إلى يحيى بن خالد الوزير ليبعث بها إليه من بيت المال، فاعتل بأنها ليست عنده، فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول: أليس في بيت مالي مائة ألف دينار؟ وألح في طلبها فقال يحيى بن خالد: أرسلوها إليه دراهم ليستكثر ذلك ولعله يرد الجارية، فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة، فلما اجتاز بها رأى كوماً من دراهم، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثمن الجارية، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خدمه في دار الخلافة، وأعجبه جمع المال في حواصله، ثم شرع في تتبع أموال بيت المال فإذا البرامكة قد استهلكوها، فجعل يهم بأخذهم تارة ويحجم أخرى، حتى إذا كان في بعض الليالي سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفاً من الدراهم، فذهب إلى الوزير يحيى بن خالد بن برمك فماطله مدة طويلة، فلما كان في بعض الليالي في السمر عرَّض أبو العود بذلك للرشيد بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ... ليت هنداً أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

فجعل الرشيد يكرر قوله:

إنما العاجز من لا يستبد

ويعجبه ذلك. فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد؟ فقيل له: أبو العود. فبعث إليه فأنجز له الثلاثين ألفا وأعطاه من عنده عشرين ألفاً، وكذلك ولداه الفضل وجعفر، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة، وكان من أمره وأمرهم ما كان.

فلما سمع ذلك كله الواثق أعجبه ذلك وجعل يكرر قول الشاعر:

إنما العاجز من لا يستبد

ثم بطش بالكتاب على إثر ذلك، وأخذ منهم أموالا عظيمةً جداً.

وفيها حج بالناس محمد بن داود وهو: أمير الحجيج في السنين الماضية.

وفيها توفي من الأعيان

■ خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء، وعبد الله بن محمد المسندي

و■ نعيم بن حماد الخزاعي أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية، وله المصنفات المشهورة في الفتن وغيرها ودينار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه، وهي عالية الإسناد إليه ولكنها موضوعة.

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعاثوا في الأرض فساداً، وأخافوا السبيل، وقاتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة وتلك المناهل والقرى، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركي في جيش فقاتلهم في شعبان فقتل منهم خمسين فارساً وأسر مثلهم وانهزم بقيتهم، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين، فاجتمع إليه منهم خلق كثير، فدخل بهم المدينة وسجن رؤوسهم في دار يزيد بن معاوية وخرج إلى الحج في هذه السنة، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق.

وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم.

وفي هذه السنة توفي

■ عبد الله بن طاهر بن الحسين: نائب خراسان وما والاها من البلدان. وكان خراج ما تحت يده في كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، فولى الواثق مكانه ابنه طاهراً. وكانت وفاة عبد الله بن طاهر بعد موت اشناس التركي بتسعة أيام، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة.

وقد حكى القاضي ابن خلكان: أنه توفي سنة ثمان وعشرين بمرو، وقيل بنيسابور، وكان كريماً جواداً ممدحاً، وله شعر حسن، قال: أورد له منه وقد ولي نيابة مصر بعد العشرين ومائتين. وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربي أن البطيخ العبدلاوي الذي بمصر منسوب إلى عبد الله بن طاهر هذا.

قال القاضي ابن خلكان: إما إنه كان يستطيبه، أو لأنه أول من زرعه هناك والله أعلم.

ومن جيد شعره:

اغتفر زلتي لتحرز فضل الشـ ... ـكر مني ولا يفوتك أجري

لا تكلني إلى التوسل بالعذ ... ر لعلي أن لا أقوم بعذري

ومن شعره أيضاً قوله:

نحن قوم تليننا الحَدَق النُّجل ... على أننا نلين الحديدا

طوع أيـدي الظبـاء تقتادنـا العيـ ـن ونقتـاد بالطعـان الأسـودا
تملك الصيـد ثـم تملكنـا البيـ ـض المصونـات أعينـاً وخـدودا
تتقي سخطنا الأسـود ونخشـى سخط الخشف حين يبدي الصدودا
فترانـا يـوم الكريهـة أحـرا را وفي السلم للغوانـي عبيـدا

قال ابن خلكان: وكان خزاعياً من موالي طلحة الطلحات الخزاعي، وقد كان أبو تمام يمدحه، فدخل عليه مرة فاعتاقه الثلج بهمذان فصنف له كتاب الحماسة عند بعض رؤسائها، وروى له الحافظ ابن عساكر. ولما ولاه المأمون نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواصل فحمل إليه وهو في أثناء الطريق ثلاثة آلاف ألف دينار، ففرقها كلها في مجلس واحد، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال: قبح الله فرعون، ما كان أخسه وأضعف همته حين ملك هذه القرية، وقال: أنا ربكم الأعلى.

وممن توفي فيها:

■ **علي** بن الجعد الجوهري. **ومحمد** بن سعد كاتب الواقدي وله كتاب الطبقات وغيره. من المصنفات. **وسعيد** بن محمد الجرمي رضي الله عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

فيها وقعت مفاداة بجماعة من المسلمين الذين كانوا في أيدي الروم على يدي الأمير خاقان الخادم، وذلك في المحرم من هذه السنة، وكان عدة الأسارى الذين استعيدوا من أيدي الكفار أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين أسيراً ولله الحمد والمنة.

وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه.

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وجده مالك بن الهيثم من أكبر الدعاة في الناس إلى دولة بني العباس وكانت له وجاهة ورياسة وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث، وقد بايعه العامة في سنة إحدى ومائتين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي حين كثرت الشطار والدعار في غيبة المأمون عن بغداد كما قدمنا بسط ذلك. وبه تعرف سويقة نصر ببغداد.

وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وكان هارون الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلا ونهاراً سراً وجهاراً، اعتمادا على ما كان أبوه المعتصم قبله وعمه المأمون عليه، من غير دليل ولا برهان، ولا حجة ولا بيان، ولا سنة ولا قرآن.

فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها. فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد، والتف عليه من الألوف أعداد، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي، طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة، وجماعات غزيرة، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان وهي ليلة الجمعة يضرب طبل في الليل فيجتمع الناس الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابه ديناراً ديناراً، وكان من جملة من أعطوه رجلان من بني أشرس، وكانا يتعاطيان الشراب، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد، وكان ذلك قبله بليلة، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس، فلم يجئ أحد وانخرم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة، وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب، وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم، لغيبته عن بغداد، فأصبح الناس متخبطين، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فأحضرا فعاقبهما فأقرا على أحمد بن نصر في الحال فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان، فجمع جماعة من رؤوس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى، وذلك آخر يوم من شعبان من هذه السنة فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد بن نصر عتب، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الواثق لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعة العامة له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره، بل أعرض عن ذلك كله وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله. قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله. وكان أحمد بن نصر قد استقتل وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما سترها فقال له: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك قال الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» [خ (٥٥٤)، م(٦٣٣)]، فنحن على الخبر.

زاد الخطيب قال الواثق: ويحك: أيرى كما يرى المحدود المتجسم؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته.

قلت: وهذا الذي قاله الخليفة الواثق لا يرد ولا يلزم ولا يُردّ به مثل هذا الخبر الصحيح والله أعلم.

ثم قال أحمد بن نصر الخزاعي للواثق: وحدثني سفيان بحديث يرفعه: «إنّ قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء» وكان النبي ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك، انظر ما تقول. فقال: أنت أمرتني بذلك. فأشفق إسحاق من ذلك وقال: أنا أمرتك بذلك؟ قال نعم، أنت أمرتني أن أنصح له. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟ فأكثروا القول فيه.

فقال عبد الرحمن بن إسحاق وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل وكان موادا لأحمد بن نصر قبل ذلك: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم.

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. فقال الواثق: يأتي على ما تريد.

وقال القاضي أحمد بن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطاي. ثم نهض إليه بالصمصامة وقد كانت سيفاً لعمرو بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة موصولة في أسفلها مسمورة بثلاثة مسامير فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع، ثم ضربه أخرى

على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط رحمه الله صريعاً على النطع ميتاً، فإنا ما وإنا إليه راجعون رحمه الله وعفا عنه ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل معترضاً حتى أتي به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقميص، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً، وفي الجانب الغربي أياماً، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه.

ثم أمر الواثق بتتبع رؤوس أصحابه فأخذ منهم نحواً من سبعة وعشرين رجلا فأودعوا في السجون وسموا الظلمة، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين، وهذا ظلم عظيم هذا ملخص ما قاله ابن جرير [تاريخه: ٩/١٣٥-١٣٩] رحمه الله.

وقد كان أحمد بن نصر هذا رحمه الله من أكابر العلماء العاملين وممن كان قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسمع الحديث من حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، وهشيم بن بشير، وكانت عنده مصنفاته كلها، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة، ولم يحدث بكثير من حديثه.

وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين، وذكره يوماً فترحم عليه وقال: قد ختم الله له بالشهادة، وقد كان لا يحدث يقول: لست أهل ذاك.

وأحسن يحيى بن معين الثناء عليه جداً.

وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوماً فقال: رحمه الله ما كان أسخاه، لقد جاد بنفسه لله عز وجل.

وقال جعفر بن محمد الصائغ: بصر عيناي وإلا فعميتا وسمع أذناي وإلا فصمتا أحمد بن نصر الخزاعي حيث ضربت عنقه يقول رأسه: لا إله إلا الله.

وقد سمعه بعض الناس ورأسه مصلوب على الجذع: ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ [العنكبوت: ١-٢]. قال: فاقشعر جلدي.

ورآه بعضهم في النوم فقال له: ما فعل بك ربك؟ فقال: ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلي.

ورأى بعض الناس رسول الله ﷺ في المنام ومعه أبو بكر وعمر، قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر فلما حاذوه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم عنه فقيل له: يا رسول الله ما لك أعرضت عن أحمد بن نصر؟ فقال: «استحياء منه حين قتله رجل من أهل بيتي».

ولم يزل رأس أحمد بن نصر منصوباً ببغداد من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة أعني سنة إحدى وثلاثين ومائتين إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين، فجمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمه الله. وذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق بالله، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكناني صاحب كتاب الحيدة على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون فإنهم أساءوا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم، فأمره أن ينزل جثة أحمد بن نصر ويدفنه ففعل.

وقد كان المتوكل يكرم الإمام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتي بيانه في موضعه.

والمقصود أن عبد العزيز الكناني قال للمتوكل: يا أمير المؤمنين رئي أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن. فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع في أخيه الواثق، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل: في قلبي من قتل أحمد بن نصر. فقال: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً ودخل عليه هرثمة فقال له في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين قطعني الله إرباً إرباً إن قتله الواثق إلا كافراً.

ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي داؤد فقال له مثل ذلك فقال: ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً. قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه. فقطعوه إرباً إرباً. وأما ابن أبي داؤد فقد سجنه الله في جلده يعني بالفالج ضربه الله به قبل موته بأربع سنين، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

وروى أبو داود في كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن أحمد بن نصر قال: سألت سفيان بن عيينة: «القلوب بين إصبعين من أصابع الله، وإن الله يضحك ممن يذكره في الأسواق». فقال: ارووها كما جاءت بلا كيف.

وفي هذه السنة كان الواثق قد عزم على الحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامئذ.

وفيها تولى جعفر بن دينار نيابة اليمن فسار إليها في أربعة آلاف فارس.

وفيها عدا قوم من العامة على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة، فأخذوا وسجنوا.

وفيها ظهر خارجي ببلاد ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهزم بقية أصحابه.

وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو من خمسمائة في القيود، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوها، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة وسبعين ألف دينار، وخلع عليه خلعة سنية.

وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه وبين الروم، وقدم معه جماعة من رؤوس أهل الثغور، فأمر الواثق بامتحانهم في القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فأجابوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة.

وأمر الواثق أيضاً بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودي وإلا ترك في أيدي الكفار وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر في

موضعه. وبالله المستعان.

وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس، عند سلوقية بالقرب من طرسوس، بدل كل مسلم أو مسلمة في أيدي الروم أو ذمي أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدي المسلمين ممن لم يسلم، فنصبوا جسرين على النهر فإذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرهم فانتهى إلى المسلمين كبر وكبر المسلمون، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرهم فإذا انتهى إليهم تكلم بكلام يشبه التكبير أيضاً. ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس، ثم بقي مع خاقان جماعة من الروم الأسارى فأطلقهم للروم يكون له الفضل عليهم.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٤٥/٩]: وفي هذه السنة مات

■ **الحسن بن الحسين** أخو طاهر بن الحسين بطبرستان في شهر رمضان.

وفيها مات الخطاب بن وجه الفلس.

وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من شعبان، وهو ابن ثمانين سنة.

وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت علي بن موسى الرضا.

وفيها مات مخارق المغني، وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعي. وعمرو بن أبي وعمرو الشيباني. ومحمد بن سعدان النحوي.

قلت: وممن توفي فيها من الأعيان أيضاً:

■ **أحمد بن نصر الخزاعي** كما تقدم. **وإبراهيم بن محمد بن عروة**. **وأمية بن بسطام**. **وأبو تمام الطائي الشاعر** في قول. والمشهور ما تقدم. **وكامل بن طلحة**. **ومحمد بن سلام الجمحي**. وأخوه **عبد الرحمن**. **ومحمد بن منهال الضرير**، **ومحمد بن منهال** أخو حجاج. **وهارون بن معروف**.

و■ **البويطي** صاحب الشافعي مات في السجن مقيداً حتى يقول بخلق القرآن فامتنع من ذلك رحمه الله.

و■ **يحيى بن عبد الله بن بكير** راوي الموطا عن مالك.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

فيها عاثت قبيلة يقال لها بنو نمير باليمامة في الأرض فساداً فكتب الواثق إلى بغا الكبير وهو مقيم بأرض الحجار فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسر منهم آخرين، وهزم بقيتهم، ثم التقى مع بني تميم وهو في ألفي فارس وهم في ثلاثة آلاف، فجرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم آخراً، وذلك في النصف من جمادى الآخرة. ثم عاد بعد ذلك كله إلى بغداد ومعه من أعيان رؤوس العرب في القيود والأسر جماعة، وقد قتل من أشرافهم في الوقائع المتقدم ذكرها ما ينيف على ألفي رجل من بني من بني سليم ونمير وكلاب ومُرّة وفزارة وثعلبة وطيِّئ وتميم وغيرهم.

وفي هذه السنة أصاب الحجيج في الرجوع عطش شديد حتى بيعت الشربة بالدنانير الكثيرة، ومات خلق كثير من العطش رحمهم الله.

وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر.

وفاة الخليفة أبي جعفر هارون

■ **الواثق بن محمد المعتصم** بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد الله ذي الدوانيق بن محمد الإمام بن علي السجاد بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي. كان هلاكه في ذي الحجة من هذه السنة بعلة الاستقاء، فلم يقدر على حضور العيد عامئذ فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه ابن أبي دؤاد الأيادي المعتزلي. وكانت وفاته لست بقين من ذي الحجة، وذلك أنه قوي به الاستسقاء فأقعد في تنور قد أحمي له بحيث يمكن إجلاسه فيه ليسكن وجعه، فلان عليه أمره بعض الشيء اليسير، فلما كان من الغد أمر بأن يحمى أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع في محفة فحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه وقاضيه، فمات وهو محمول فيها، فما شعروا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت، مغمِّض القاضي عينيه بعد ذلك وولي غسله والصلاة عليه ودفنه في قصر الهادي، عليهما من الله ما يستحقانه.

وكان أبيض اللون مشرباً حمرة جميلاً ربعة حسن الجسم قائم العين اليسرى، فيها نكتة بيضاء، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام، وقيل سبعة أيام واثنتي عشرة ساعة، فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة.

وقد جمع الواثق أصحاب النجوم في زمانه حين اشتدت علته، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعي ليلحقه إلى بين يدي الله فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا في مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته، فاجتمع عنده من رؤوسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل بن إسحاق الهاشمي، وإسماعيل بن نوبخت، ومحمد بن موسى الخوارزمي المجوسي القطربلي وسند صاحب محمد بن الهيثم، وعامة من يتكلم في النجوم، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عندهم ثم أجمعوا على أنه يعيش في الخلافة دهراً طويلا، وقدّروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا نظر من لم يبصر فإنه لم يلبث بعد قولهم وتقديرهم إلا عشرة أيام حتى مات.

ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله [تاريخه: ١٥٠/٩، ١٥١].

قال ابن جرير [تاريخه: ١٥٠/٩، ١٥١]: وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام وقد قعد مجلساً كان أول مجلس قعده، فكان أول ما غنّي به في ذلك المجلس أن تغنت شارية جارية إبراهيم بن المهدي:

ما درى الحاملون يوم استقلوا ... نعشه للثواء أم للقاء
فليقل فيك باكيات ماشـ ... ـن صباحاً وعند كل مساء

قال: فبكى وبكينا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه. ثم اندفع بعضهم يغني:

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

فازداد والله بكاؤه وقال: ما سمعت كاليوم قط تعزية بأب ونَعْي نفس، ثم ارفض ذلك المجلس.

وروى الخطيب البغدادي أن دعبل بن علي الشاعر لما تولى الواثق عمد إلى طومار فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء إلى الحاجب فدفعه إليه وقال: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل: هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضها الواثق إذا فيها:

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد ... وآخر لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه ... وقام هذا فقام الويل والنكد

قال: فتطلبه الواثق بكل ما يمكنه من الطلب فلم يقدر عليه حتى مات الواثق.

وروي أيضاً أنه لما استخلف الواثق ابن أبي دؤاد على الصلاة في يوم العيد فرجع إليه بعد أن قضاها قال له: كيف كان عيدكم يا أبا عبد الله؟ قال: كنا في نهار لا شمس فيه، فضحك وقال: يا أبا عبد الله أنا مؤيد بك.

قال الخطيب: وكان ابن أبي دؤاد قد استولى على الواثق وحمله على التشديد في المحنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن.

قال ويقال: إن الواثق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرني عبيد الله بن أبي الفتح أنبا أحمد بن إبراهيم بن الحسن، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدثني حامد بن العباس عن رجل عن المهتدي أن الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن.

وروي أن الواثق دخل عليه يوما مؤدبه فأكرمه إكراماً كثيرا فقيل له في ذلك فقال: هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله.

وكتب إليه بعض الشعراء:

جذبت دواعي النفس عن طلب الغنى ... وقلت لها عفي عن الطلب النزر

فإن أمير المؤمنين بكفه ... مدار رحى الأرزاق دائبة تجري

فوقع له في رقعته: جذبتك نفسك عن امتهانها، ودعتك إلى صونها فخذ ما طلبته هنيئاً. وأجزل له العطاء.

ومن شعره قوله:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال

ومن شعر الواثق قوله:

تنح عن القبيح ولا ترده ... ومن أوليته حسناً فزده

ستكفى من عدوك كل كيد ... إذا كاد العدو ولم تكده

وقال القاضي يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق: ما مات وفيهم فقير. ولما احتضر الواثق جعل يردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك ... لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضرَّ أهلَ قليلٍ في تفاقُرهم ... وليس يُغني عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وقال بعضهم: لما احتضر الواثق ونحن حوله غشي عليه فقال بعضنا لبعض: انظروا هل قضى نحبه؟ قال: فدنوت، من بينهم إليه لأنظر هل هدأ نفسه، فأفاق فلحظ إلي بعينه فرجعت القهقرى خوفاً منه، فتعلقت قائمة سيفي في شيء فكدت أن أهلك، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه الباب الذي هو فيه وبقي فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل، وجلست أنا أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فإذا جرذ قد أكل عينه التي لحظ إلي بها، وما كان بين الحالين إلا اليسير.

وكانت وفاته بسر من رأى التي كان يسكنها في القصر الهاروني، في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة ثنتين وثلاثين ومائتين عن ست وثلاثين سنة، وقيل ثنتين وثلاثين سنة. وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام، وقيل خمس سنين وشهران واحد وعشرين يوماً، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم.

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله

بويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق هارون وكانت بيعته وقت زوال الشمس من يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة. وكانت الأتراك قد عزموا على تولية محمد بن الواثق فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة، وكان الذي ألبسه خلعة الخلافة أحمد بن أبي دؤاد القاضي وهو أول من سلم عليه بالخلافة وبايعه الخاصة ثم العامة، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنتصر بالله، إلى صبيحة يوم الجمعة فقال أحمد بن أبي دؤاد: رأيت ان يلقب أمير المؤمنين بالمتوكل على الله فاتفقوا على ذلك، وكتب به إلى الآفاق وأمر بإعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور، وللمغاربة أربعة شهور، ولغيرهم ثلاثة شهور، واستبشر الناس به.

وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئاً نزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله، فعبرها فقيل له: هي الخلافة، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حيناً ثم أرسله.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود أمير مكة شرفها الله.

وفيها توفي من الأعيان:

■ **الحكم بن موسى.**

و■ عمرو بن محمد الناقد.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد بن عبد الملك بن الزيات وزير الواثق، وكان المتوكل يبغضه لأمور:

منها أن أخاه الواثق تغضّب عليه المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيد الواثق غضباً على أخيه، فبقي ذلك في نفسه منه، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فحظي لذلك عنده في أيام ملكه.

ومن ذلك أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه، ولف عليه الناس، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله، رغم أنف ابن الزيات. فلهذا أمر بالقبض عليه سريعاً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بعث إليه، فأتت به الرسل إلى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتيط عليه وقُيِّد وبعثوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما كان فيها من الأموال واللآلئ والجواهر والحواصل والجواري والأثاث: ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشراب وبعث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسامرا وضياعه وما فيها فاحتاط عليها، وأمر به أن يعذب ومنعوه من الكلام، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد، فمكث كذلك أياماً حتى مات وهو كذلك. ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت

الضرب، ويقال إنه أحرق ثم دفعت جثته إلى أولاده فدفنوه، فنبشت عليه الكلاب فأكلت لحمه وجلده سامحه الله.

وكانت وفاته لإحدى عشرة من ربيع الأول منها. وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف ألف دينار وقد قدمنا أن المتوكل سأله عن قتل أخيه الواثق أحمدَ بن نصر الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن كان الواثق قتله يوم قتله إلا وهو كافر. قال المتوكل: فأنا أحرقته بالنار.

وفيها في جمادى الأولى منها فلج أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي، فلم يزل كذلك حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن قتل أحمد بن نصر كما تقدم، ثم غضب المتوكل على جماعة من الكتاب والعمال، وأخذ منهم أموالا جزيلة جداً.

وفيها ولى المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان منها.

وفيها عمد ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدورة فأقامها بالشمس وألزمها الدير وقتل الرجل الذي اتهمها به، وكان ملكها ست سنين.

وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة حرسها الله تعالى وشرفها.

وفيها توفي:

إبراهيم بن الحجاج السامي. وحبان بن موسى المروزي. **وسليمان** بن عبد الرحمن الدمشقي **وسهل** بن عثمان العسكري. **ومحمد** بن سماعة القاضي. **ومحمد** بن عائذ الدمشقي صاحب المغازي. **ويحيى** بن أيوب المقابري. **ويحيى** بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل، وأستاذ أهل صناعة الحديث في زمانه.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها خرج محمد بن البعيث بن الجليس عن الطاعة في بلاده أذربيجان، وأظهر أن المتوكل قد مات والتف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق، ولجأ إلى مدينة مرند فحصنها، وجاءته البعوث من كل جانب، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضاً، فنصبوا على بلده المجانيق من كل جانب، وحاصروه محاصرة عظيمة جداً وقاتلهم مقاتلة هائلة، وصبر هو وأصحابه صبراً بليغاً، وقدم بغا الشرابي لمحاصرته، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحرمه وقتل خلقاً من رؤوس أصحابه، وأسر سائرهم وانحسمت مادة ابن البعيث و لله الحمد.

وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن.

وفيها حج إيتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والي مكة والمدينة والموسم، ودعي له على المنابر، وقد كان إيتاخ هذا غلاماً خزرياً طباخاً، لرجل يقال له سلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة، فرفع منزلته وحظي عنده، وكذلك الواثق من بعده، ضمّ إليه أعمالا كثيرة، وكذلك عامله المتوكل وذلك لرُجْله إيتاخ وشهادته ونهضته، ولما كان في هذه السنة شرب ليلة مع المتوكل فعربد عليه المتوكل فهم إيتاخ بقتله، فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له: أنت أبي وأنت ربيتني. ثم دس إليه من يشير إليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له، وأمرّه على كل بلدة يحلُّ بها وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج، وولى المتوكل الحجابة لوصيف الخادم عوضاً عن إيتاخ.

وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة.

وفيها توفي من الأعيان:

■ **أبو خيثمة زهير بن حرب. وسليمان** بن داود الشاذكوني أحد الحفاظ. **وعبد الله** بن محمد النفيلي. **وأبو ربيع الزهراني. وعلي** بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث. **ومحمد** بن عبد الله بن نمير. **ومحمد** بن أبي بكر المقدمي. **والمعافى** الرسعني. **ويحى** بن يحيى الليثي راوي الموطأ للمغاربة عن مالك بن أنس

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السجن وذلك أنه رجع من الحج فتلقته هدايا الخليفة، فلما اقترب يريد دخول سامرا التي فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه إليها ليتلقاه وجوه الناس وبني هاشم فدخلها في أبهة عظيمة، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنيه مظفر ومنصور وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني فأسلم تحت العقوبة، وكان هلاك إيتاخ بالعطش، وذلك أنه أكل أكلا كثيراً بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخرة منها. ومكث ولداه في السجن مدة خلافة المتوكل، فلما ولي المنتصر ولد المتوكل أخرجهما.

وفي شوال منها قدم بغا سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخواه صقر وخالد، ونائبه العلاء ومعهم من رؤوس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنساناً فادخلوا على الجمال ليراهم الناس، فلما أوقف ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون فوقفوا حوله، فقال له المتوكل: ويلك ما دعاك إلى ما فعلت؟ فقال: الشقوة يا أمير المؤمنين، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو. ثم اندفع يقول بديهة:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمام الهدى والصفح بالمرء أجمل

وهل أنا إلا جبلة من خطيّة ... وعفوك من نور النبوة يجبل

فإنك خير السابقين إلى العلى ... ولا شك أن خير الفَعَالَيْن تفعل

فقال المتوكل إن معه لأدباً ثم عفا عنه ويقال: بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشفعه فيه، ويقال بل أودع في السجن في قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك، وقد قال حين هرب:

كم قد قضيت أموراً كان غيري ... غيري وقد أخذ الإفلاس بالكظم

لا تعذليني فيما ليس ينفعني ... إليك عني جرى المقدار بالكرم

سأتلف المال في عسر وفي يسر ... إن الجواد الذي يعطي على العَدَم

وفي هذه السنة أمر المتوكل على الله أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالعسلي وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة بثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم وأن يحملوا في رقابهم كُراتٍ من خشب كثيرة وأن لا يركبوا خيلا ولتكن ركبهم من خشب إلى غير ذلك من الأمور المذلّة لهم المهينة لنفوسهم وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم

وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة وبتضييق منازلهم المتسعة، فيؤخذ منها العشر وأن يعمل ما كان متسعاً كبيراً مسجداً وأمر بتسوية قبورهم بالأرض وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق وإلى كل بلد ورستاق.

وفيها خرج رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري، وهو ممن كان يتردد إلى خشبة بابك الخرمي وهو مصلوب فيقعد قريباً منه، وذلك بقرب دار الخلافة من سُرَّ من رأى فادعى أنه نبي وأنه ذو القرنين وقد اتبعه على هذه الضلالة ووافقه على هذه الجهالة جماعة قليلون وهم سبعة وعشرون رجلا وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبحه الله زعم لعنة الله أن جبريل جاءه به من الله، فأخذ فرفع أمره إلى المتوكل فأمر به فضرب بين يديه بالسياط، فاعترف بما نسب إليه وما هو معول عليه، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه أن يصفعه عشر صفعات ففعلوا فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسماوات ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة.

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة من هذه السنة المباركة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم. محمد المنتصر، ثم أبو عبد الله المعتز، واسمه محمد، وقيل الزبير، ثم لإبراهيم وسماه المؤيد بالله ولم يل هذا الخلافة وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائباً عليها ونوّابه فيها ويضرب له السكة بها، وقد عين ابن جرير [تاريخه: ١٧٦/٩] ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم الرساتيق، وعقد لكل واحد منهم لواءين لواء أسود للعهد، ولواء أبيض للعمالة، وكتب بينهم كتاباً بالرضى منهم بمبايعته الأمراء والكبراء لهم على ذلك وكان يوماً مشهوداً.

وفيها في شهر ذي الحجة هذا منها تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء المدود ففزع الناس لذلك.

وفي هذه السنة أتى المتوكل بيحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي، وكان قد اجتمع إليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثماني عشرة مقرعة ثم حبس في المطبق.

وحج بالناس محمد بن داود.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٨١/٩]: وفيها توفي:

■ **إسحاق بن إبراهيم** صاحب الجسر يعني نائب بغداد يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وصير ابنه محمد مكانه، وخلع عليه خمس خلع وقلد سيفاً.

قلت: وقد كان له في نيابة بغداد والعراق من زمن المأمون، وهو من أكبر الدعاة تبعاً لسادته وكبرائه إلى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. وهو الذي كان يمتحن الناس ويرسلهم إلى المأمون.

وفيها توفي:

■ **إسحاق بن إبراهيم بن ماهان: الموصلي النديم** الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته، المجموع الفضائل من كل فن يعرفه أبناء. عصره، من الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة. والشعر، ولكن اشتهر بالغناء لأنه لم يكن له في الدنيا نظير فيه.

قال المعتصم: كان إسحاق إذا غنى يخيل إلي أنه قد زيد في ملكي.

وقال المأمون: لولا اشتهاره بالغناء لوليته القضاء لما أعلمه من عفته ونزاهته وأمانته.

وله شعر حسن وديوان كبير. وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن.

توفي في هذه السنة قال ابن خلكان: وقيل في التي بعدها.

وقد ترجمه الحافظ بن عساكر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشعاراً بديعة رائقة وحكايات مدهشة يطول استقصاؤها.

فمن غريب ذلك أنه غنى يوماً يحيى بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه جعفر بمثلها، وابنه الفضل بمثلها، في حكاية طويلة.

قلت: وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

■ **سريج بن يونس. وشيبان** بن فروخ. **وعبيد الله** بن عمر القواريري، **وأبو بكر بن أبي شيبة** أحد الأعلام وأئمة الإسلام. وصاحب المنصف الذي لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور، ونودي في الناس: من وجد ههنا بعد ثلاثة أيام رُفع إلى المطبق. فلم يبق هناك بشر واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث وتستغل.

وفيها حج بالناس محمد المنتصر بن المتوكل.

وفيها توفي

■ **محمد بن إبراهيم بن مصعب**، سمه ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء الكبار.

وفيها توفي

■ **الحسن بن سهل الوزير** والد بوران زوجة المأمون التي تقدم ذكرها وكان من سرات الناس ورؤسائهم، ويقال: إن إسحاق بن إبراهيم المغني توفي في هذه السنة فالله أعلم.

وفيها توفي أبو سعيد

■ **محمد بن يوسف المروزي** فجأة، فولي ابنه يوسف مكانه على نيابة ارمينية.

وفيها توفي

■ **إبراهيم بن المنذر الحزامي. ومصعب** بن عبد الله الزبيري. **وهدبة** بن خالد القيسي. **وأبو الصلت** الهروي أحد الضعفاء.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب الخليفة، واتفق بعد بعثه إياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد، فتحزب أهل ذلك البطريق وجاءوا فحاصروا البلد التي بها يوسف بن محمد فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك كثير من الناس في الثلج من شدة البرد، ولما بلغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك الناحية بغا الكبير في جيش كثيف جداً فقتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة وقتل الأمير نحواً من ثلاثين ألفاً وأسر منهم طائفة كبيرة، ثم سار إلى بلاد الباق من كورة البسفرجان وسلك إلى مدن كثيرة كبار ومهد الممالك وو طد البلاد والنواحي.

وفي صفر من هذه السنة منها غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد

القاضي المعتزلي وكان على المظالم، فعزله عنها واستدعى بيحيى بن أكثم فولاه قضاء القضاة والمظالم أيضا.

وفي ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد فحبسه في يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، ومن الجواهر النفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينار، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم. وكان ابن أبي دؤاد قد أصابه الفالج كما ذكرنا، ثم نفي أهله من سامرا إلى بغداد مهانين.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٨٩/٩] فقال في ذلك أبو العتاهية:

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رَشَد	وكان عزمك عزماً فيه توفيق
لكان في الفقه شغل لو قنعت به	عن أن تقول كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم	ما كان في الفرع لولا الجهل الموقُ

وفي يوم عيد الفطر منها أمر المتوكل بإنزال جثة أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلّم إلى أوليائه، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، واجتمع من العامة في جنازته خلق كثير جداً، وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه، وكان يوماً مشهوداً. ثم أتوا إلى الجذع الذي صلب عليه فجعلوا يتمسحون به، وأرهج العامة في ذلك فرحاً وسروراً، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردعهم عن تعاطي مثل هذا وعن المغالاة في البشر، ثم كتب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت. وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير وأظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنية فلم يقبلها، وخلع عليه خلعة سنية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيراً فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلا فيه ثم نزعها نزعاً عنيفاً وهو يبكي رحمه الله تعالى. وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ويظن أنه يأكل منه، وكان الإمام أحمد لا يأكل لهم طعاماً بل كان صائماً مواصلا يطوي تلك الأيام، لأنه لم يتيسر له شيء يرتضي أكله، ولكن كان ابناه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشي على أحمد أن يموت جوعاً، وارتفعت شأن السُّنة جداً في أيام المتوكل عفا الله عنه، وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد بن حنبل، وكان ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة موضع ابن أبي دؤاد عن مشورته أيضاً، وقد كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة السنة، وعلماء الناس، ومن المعظمين للفقه والحديث. واتباع الأثر، وكان قد ولى من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية، وسوار بن عبد الله العنبري قضاء الجانب الغربي، وكان كلاهما أعور. فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دؤاد:

رأيت من الكبائر قاضيين	هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين قدّاً	كما اقتسما قضاء الجانبين
وتحسب منهما من هز رأساً	لينظر في مواريث ودين
كأنك قد وضعت عليه دناً	فتحت بزاله من فرد عين
هما فأل الزمان بهلك يحيى	إذ افتتح القضاء بأعورين

وغزا الصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرمني.

وحج بالناس فيها علي بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور أمير الحجاز. وفيها توفي حاتم الأصم وعبد الأعلى بن حماد. وعبيد الله بن معاذ العنبري. وأبو كامل الفضيل بن الحسين الجحدري.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

في ربيع الأول منها حاصر بغا مدينة تفليس وعلى مقدمته زيرك التركي، فخرج إليه صاحب تفليس إسحاق بن إسماعيل فقاتله فأسر بغا إسحاق فأمر بغا بضرب عنقه وصلبه وأمر بإلقاء النار في النفط إلى نحو المدينة، وكان أكثر بنائها من خشب الصنوبر، فأحرق أكثرها وأحرق من أهلها نحواً من خمسين ألفاً، وطفئت النار بعد يومين، لأن نار الصنوبر لا بقاء لها. ودخل الجند فأسروا من بقي من أهلها واستلبوهم حتى استلبوا الموتى. ثم سار بغا إلى مدن أخرى ممن كان يمالئ أهلها مع من قتل نائب ارمينية يوسف بن محمد بن يوسف، أخذاً بثأره وعقوبة لمن من تجرأ عليه.

وفي هذه السنة جاءت الفرنج في نحو من ثلاثمائة مركب قاصدين مصر من جهة دمياط فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وحرقوا المسجد الجامع والمنبر، وأسروا من النساء نحواً من ستمائة امرأة، من المسلمات مائة وخمسة وعشرون امرأة، والباقيات من نساء القبط، وأخذوا من الأمتعة والمال والأسلحة شيئاً كثيراً جداً، وفر الناس منهم في كل جهة، فكان من غرق في بحيرة تنيس أكثر ممن أسروه، ثم رجعوا على حمية ولم يعرض لهم أحد حتى عادوا إلى بلادهم لعنهم الله وقبحهم.

وفي هذه السنة غزا الصائفة علي بن يحيى الأرمني.

وحج بالناس أمير السن التي قبلها.

وفيها توفي

■ إسحاق بن راهويه أحد الأعلام وعلماء الإسلام، والمجتهدين من الأنام. وبشر بن الوليد الفقيه الحنفي. وطالوت بن عباد. ومحمد بن بكار بن الريان. ومحمد بن الحسين البُرجلاني. ومحمد بن أبي السري العسقلاني.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

في المحرم منها زاد المتوكل في التغليظ على أهل الذمة في التمير في اللباس عن المسلمين وأكد الأمر بتخريب الكنائس المحدثة في الإسلام.

وفيها نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان.

وفيها اتفق شعانين النصارى ويوم النيروز في يوم واحد وهو يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، وزعمت النصارى أن هذا لم يتفق مثله في الإسلام إلا في هذا العام.

وغزا الصائفة علي بن يحيى المذكور.

وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي والي مكة.

قال ابن جرير [تاريخه: ١٩٦/٩]: وفيها توفي:

■ أبو الوليد محمد ابن القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي المعتزلي.

قلت: وممن توفي فيها من الأعيان فيها

■ داود بن رشيد . وصفوان بن صالح مؤذن أهل دمشق. وعبد الملك بن حبيب الفقيه المالكي أحد المشاهير وعثمان بن أبي شيبة صاحب التفسير والمسند المشهور. و محمد بن مهران الرازي. ومحمود بن غيلان.

ووهب بن بقية:

و■ **أحمد بن عاصم الأنطاكي**: أبو علي الواعظ الزاهد أحد العباد، لـه كلام حسن في الزهد ومعاملات القلوب.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: كان من طبقـة الحـارث المحاسـبي، وبشـر الحافي. وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته.

روى عن أبي معاوية الضرير وطبقته، وعنـه أحمـد بـن أبـي الحـواري، ومحمود بن خالد، وأبو زرعة الدمشقي. وغيرهم.

روى عنه أحمد بن أبي الحواري عن مخلد بن الحسـين عـن هشـام بـن حسان قال: مررت بالحسن البصري وهو جالس وقت السحر فقلت: يا أبا سعيد مثلك يجلس في هذا الوقت؟ قال: إني قد توضأت فأردتهـا أن تقـوم فتصلي فأبت علي، وأرادتني على أن تنام فأبيت عليها.

ومن مستجاد كلامه قوله: إذا أردت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

وقال: من الغنيمة الباردة ما بقي من عمرك فيغفر لك ما مضى منه.

وقال: يسير اليقين يخرج الشك كله من القلـب، ويسـير الشـك يخـرج اليقين كله منه.

وقال: من كان بالله أعرف كان له أخوف.

وقال: خير صاحب لك في دنياك الهم، يقطعك عـن الدنيـا ويوصلـك إلى الآخرة. ومن شعره رحمه الله:

هممت ولم أعزم ولـو كنت صادقاً ... عزمـت ولكـن الفطـام شـديد

ولـو كـان لي عقـل وإيقـان موقـن ... لما كنت عن قصد الطريـق أحيـد

ولا كـان في شـك مطـامعي ... ولكـن عـن الأقـدار كيـف أحيـد

ومن شعره أيضاً:

داعيـات الهـوى تخـف علينـا ... وخـلاف الهـوى علينـا ثقيـل

فقـد الصـدق في الأمـاكن حتـى ... وصفـه اليـوم مـا عليـه دليـل

لا نـرى خائفـاً فيلزمنـا الخـوف ... ولا صادقـاً بمـا مـد يقـول

فبقينـا مذنبيـن حيـارى ... نطلـب الصدق مـا إليـه سـبيل

ومن شعره أيضاً:

هـون عليـك فكـل الأمـر ينقطـع ... وخـل عنـك عنـان الهـم يندفـع

فكـل هـم لـه مـن بعـده فـرج ... وكـل كـرب إذا مـا ضـاق يتسـع

إن البـلاء وإن طـال الزمـان بـه ... المـوت يقطعـه أو سـوف ينقطـع

وقد أطال الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته، وإنما ذكرتـه ههنـا تقريباً والله أعلم.

سنة أربعين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها عدا أهل حمص علـى عـاملهم أبي المغيـث موسـى بـن إبراهيـم الرافقي وكـان قـد قتـل رجـلا مـن أشـرافهم فقتلـوا جماعـة مـن أصحابـه وأخرجوه من بين أظهرهم، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقـال للسـفير معه: إن قبلوا وإلا فأعلمني. فقبلوه فعمل فيهم الأعـاجيب وأهـانهم غايـة الإهانة.

وفيها عزل المتوكل القاضي يحيى بن أكثم عن قضاء القضـاة وصـادره بما مبلغه ثمانون ألف دينار، وأخذ منه أراضي كثيرة في أرض البصـرة، وو لى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي علـى قضـاء القضاة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٩/١٩٧]: وفي المحرم منها توفي أحمد بـن أبـي دؤاد بعد ابنه بعشرين يوماً.

وهذه ترجمة: أحمد بن أبي دؤاد القاضي.

هو

■ **أحمد بن أبي دواد** واسمه الفرج وقيل دعمي، والصحيح أن اسمـه كنيته بن جرير القاضي أبو عبد الله الأيادي المعتزلي.

قال ابن خلكان في نسبه: هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فـرج بـن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن برجان بن دوس بن الديل بن أمية بـن حذاقـة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان.

قال الخطيب البغدادي: ولي ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصـم ثـم للواثق. وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق وو فور الأدب، غـير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلـق القـرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة.

قال الصولي: لم يكن بعد البرامكة أكرم منه، ولولا ما وضع مـن نفسـه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الألسن.

قالوا: وكان مولده في سنة ستين ومائة، وكان أسن من يحيى بـن أكثـم بعشرين سنة.

قال ابن خلكان: وأصله من بلاد قنسرين، وكـان أبـوه تـاجراً يفـد إلى الشام ثم أخذ ولده هذا معه إلى العراق، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بـن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنـه الاعـتزال، وذكـر أنه كان يصحب يحيى بن أكثم القاضي ويأخذ عنه العلم. ثم سرد له ترجمة طويلة في كتاب الوفيات، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال:

رسـول اللـه والخلفـاء منـا ... ومنـا أحمـد بـن أبـي دواد

فرد عله بعض الشعراء فقال:

فقـل للفـاخرين علـى نـزار ... وهـم في الأرض سـادات العبـاد

رسـول اللـه والخلفـاء منـا ... ونـبرأ مـن دعـي بـني إيـاد

ومـا منـا إيـاد إذا أقـرت ... بدعـوة أحمـد بـن أبـي دواد

قال: فلما بلغ ذلك أحمد بن أبـي دواد قـال: لـولا أنـي أكره العقوبـة لعاقبت هذا الشاعر عقوبة ما فعلها أحد. وعفا عنه.

قال الخطيب: حدثني الأزهري، حدثنا عمر بـن أحمـد الواعـظ، حدثنـا عمر بن الحسن بن علي بن مالك، حدثني جرير بن أحمد أبـو مـالك قـال: كان أبي يعني أحمد بن أبي دؤاد إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول:

مـا أنـت بالسـبب الضعيـف وإنمـا ... نُجحُ الأمـور بقـوة الأسـباب

واليـوم حاجتنـا إليـك وإنمـا ... يدعـى الطبيـب لسـاعة الأوصـاب

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل يوماً على أحمد بـن أبـي دؤاد فقـال له: أحسبك عاتباً، فقال: إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعاً. فقال له:

أنى لك هذا؟ فقال: من قول أبي نواس:

وليس للّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وامتدحه أبو تمام يوماً فقال:

لقد أنست مساوئ كل دهر محاسن أحمد بن أبي دواد
وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتي وزادي
يقيم الظن عندك والأماني وإن قلقت ركابي في البلاد

فقال له: هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك؟ فقال: هو لي، غير أني ألمت بقول أبي نواس:

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

وقال محمد بن يحيى الصولي: ومن مختار مديح أبي تمام لأحمد بن أبي دواد قوله:

أأحمد إن الحاسدين كثير وما لك إن عد الكرام نظير
حللت محلا فاضلا متقدماً من المجد والفخر القديم فخور
فكل غني أو فقير فإنه إليك وإن نال السماء فقير
إليك تناهى المجد من كل وجهة يصير فما يعدوك حيث يصير
وبدر إياد أنت لا يكرونه كذاك إياد للأنام بدور
تجنبت أن تدعى الأمير تواضعاً وأنت لمن يدعى الأمير أمير
فما من ندىً إلا إليك محله ولا رفعة إلاّ إليك تسير

قلت: قد أخطأ الشاعر في هذا خطأ كبيراً وأفحش في المبالغة كثيراً، ولعله إن اعتقد هذا في مخلوق ضعيف مسكين بل ضال مضل، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً.

وقال أحمد بن أبي دؤاد يوماً لبعضهم: لم لا تسألني؟ فقال له: لأني لو سألتك أعطيتك ثمن ما تعطيني. فقال له: صدقت. وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم.

وقال ابن الأعرابي: سأل رجل أحمد بن أبي دؤاد أن يحمله على عير فقال: يا غلام أعطه عيراً وبغلا وبرذوناً وفرساً وجارية. وقال له: لو أعلم مركوباً غير هذا لأعطيتك.

ثم أورد الخطيب بأسانيده عن جماعة من الناس أخباراً تدل على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات، وعظيم منزلته عند الخلفاء.

وذكر عن محمد المهتدي بن الواثق أن شيخاً دخل يوماً على الواثق فسلم فلم يرد عليه الواثق بل قال: لا سلم اللّه عليك. فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك معلمك. قال اللّه تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ [النساء: ٨٦] فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها. فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين الرجل متكلم. فقال: ناظره. فقال ابن أبي دؤاد: ما تقول يا شيخ في القرآن أمخلوق هو؟ فقال الشيخ: لم تنصفني، المسألة لي. فقال: قل. فقال: هذا الذي تقوله علمه رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو ما علموه؟ فقال ابن أبي دؤاد: لم يعلموه. قال: فأنت علمت ما لم يعلموا؟ فخجل وسكت. ثم قال: أقلني بل علموه، قال: فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت، أما وسعك ما وسعهم؟ فخجل وسكت وأمر الواثق له بجائزة نحو أربعمائة دينار فلم يقبلها. قال المهتدي: فدخل أبي المنزل فاستلقى على قفاه وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول: أما وسعك ما وسعهم؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعده أحداً. رواها الخطيب في تاريخه بإسناد فيه بعض من لا أعرفه وساقها مطولة وفيها نكارة.

وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأعرابي أنه قال في ابن أبي دؤاد:

نكست الدين يا بن أبي دؤاد فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً أما لك عند ربك من معاد
كلام اللّه أنزله بعلم وأنزله على خير العباد
ومن أمسى ببابك مستضيفاً كمن حل الفلاة بغير زاد
لقد أطرفت يا بن أبي دؤاد بقولك إنني رجل إيادي

ثم قال الخطيب: أنبأ القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد اللّه الطبري قال: أنشدنا المعافى بن زكريا الجريري عن محمد بن يحيى الصولي لبعضهم يهجو ابن أبي دؤاد:

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رَشَد وكان عزمك عزماً فيه توفيق
لكان في الفقه أشغل لو قنعت به عن أن تقول كتاب اللّه مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفرع لا في الجهل والموق

وقد تقدمت هذه الأبيات.

وروى الخطيب البغدادي عن يحيى الجلاء أو علي بن الموفق أنه قال: ناظرني رجل من الواقفية في خلق القرآن فنالني منه ما أكره، فلما أمسيت أتيت امرأتي فوضعت لي العشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئاً، فنمت فرأيت رسول اللّه ﷺ في المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه وحلقة فيها ابن أبي داود وأصحابه، فجعل رسول اللّه ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ [الأنعام: ٨٩] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد ﴿فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام: ٨٩] ويشير إلى حلقة أحمد بن حبل وأصحابه رحمهم اللّه.

وقال بعضهم: رأيت في المنام ليلة مات ابن أبي دواد كأن قائلا يقول: هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد. فقلت له: وما سبب هلاكه؟ فقال: إنه أغضب اللّه عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات.

وقال بعضهم: رأيت في تلك الليلة كأن النار زفرت زفرة عظيمة فخرج منها اللّهب فقلت: ما هذا؟ فقيل هذه اتخذت لابن أبي دواد.

وقد كان موته في يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة، وصلى عليه ابنه العباس ودفن في داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة، وابتلاه اللّه بالفالج قبل موته بأربع سنين وبقي طريحاً في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك.

وقد دخل عليه بعضهم فقال: واللّه ما جئتك عائداً وإنما جئت لأحمد اللّه على أن سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيده اللّه ولا ينقصه مما هو فيه، فازداد مرضاً إلى مرضه.

وقد صودر في العام الماضي بأموال جزيلة جداً، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل.

قال ابن خلكان: كان مولده في سنة ستين ومائة.

قلت: فعلى هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يحيى بن أكثم

الذي ذكر ابن خلكان أنه كان سبب اتصال ابن أبي دؤاد بالخليفة المأمون، فحظي عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه المعتصم، فولاه المعتصم القضاء وعزل ابن أكثم، وكان لا يقطع أمراً دونه، فكان عنده خصيصاً ولاه القضاء والمظالم، وكان ابن الزيات الوزير يبغضه، وجرت بينهما منافسات وهَجْوٌ، كما تقدم، وقد بالغ ابن خلكان في ترجمته ومدحه، وذكر من مآثره ومحاسنه فأطنب وأكثر وما أطيب، ولم يذكر من مساوئه بل ذكر امتحانه للإمام أحمد بن حنبل ذكراً موجزاً بأطراف الأنامل وهي المحنة التي هي أس ما بعدها من المحن، والفتنة التي فتحت على الناس باب الفتن.

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال، الرابح وأن ابنه أبا الوليد محمداً صودر بألف ألف دينار وأنه مات قبل أبيه بشهر.

وأما ابن عساكر فإنه بسط القول في ترجمته وشرحها شرحاً جيداً.

وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر العطاء على المنع، والتفرقة على الجمع وقد روى ابن عساكر بإسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون خروج الواثق فقال ابن أبي دؤاد إنه ليعجبني هذان البيتان:

ولي نظرة لو كان يحبل ناظر	بنظرته أنثى لقد حبلت مني
فإن ولدت ما بين تسعة أشهر	إلى نظرتي ابنا فإن ابنها مني

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء المشاهير.

قال الإمام أحمد: هو عندنا في مسلاخ الثوري.

و■ خليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحدثاني وسويد بن نصر. وعبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون أحد فقهاء المالكية المشهورين. وعبد الواحد بن غياث. وقتيبة بن سعيد شيخ أئمة السنة.

و■ أبو العميثل عبد الله بن خليد كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة، ومن شعره يمدح عبد الله بن طاهر

يا من يحاول أن تكون صفاته	كصفات عبد الله أنصت واسمع
فلأنصحنك في المشورة والذي	حج الحجيج إليه فاسمع أو دع
اصدق وعف وبر واصبر واحتمل	واصفح وكافو ودار واحلم واشجع
والطف ولن وتأن وارفق واتئد	واحزم وجد وحام واحمل وادفع
فلقد محضتك إن قبلت نصيحتي	وهديت للنهج الأسد المهيع

أما

■ سحنون المالكي صاحب المدونة:

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي، أصله من مدينة حمص، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها، وانتهت إليه رياسة مذهب مالك هنالك، وكان قد تفقه على ابن القاسم، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات المالكي من بلاد العراق إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه عنها، فعقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ورجع عن أشياء منها فرتبها سحنون ورجع بها إلى بلاد المغرب.

وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها فلم يقبل، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه، وسارت الرحلة إلى سحنون وانتشرت عنه المدونة، وساد أهل ذلك الزمان، وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفي في هذه السنة عن ثمانين سنة رحمه الله وإيانا.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جمادى الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه فأرادوا قتله، وساعدهم نصارى أهلها أيضاً عليه، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم، وكتب إلى متولي دمشق أن يمده بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص، وكتب إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا، ثم يصلبهم على أبواب البلد وأن يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلاثمائة ثلاث مئة، وأن يرسلهم إلى سامرا مقيدين في الحديد، وأن يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيستها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع، وأن يضيفها إليه، وأمر له بخمسين ألف درهم، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سنية. فامتثل ما أمره به الخليفة فيهم.

وفي هذه السنة أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً، يقال: إنه ضرب ألف سوط حتى مات. وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلا عند قاضي الشرقية أبي حسان الزيادي أنه يشتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم أجمعين. فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضرب هذا الرجل بين الناس حد السب، ثم يضرب بالسياط حتى يموت ويلقى في دجلة ولا يصلى عليه، ليرتاع بذلك أهل الإلحاد والمعاندة. ففعل معه ذلك قبحه الله ولعنه.

ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة أم المؤمنين بالإجماع، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين قولان، والصحيح أن يكفر أيضاً، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ ورضي عنهن.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٠١/٩]: وفي هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت، وذلك ليلة الخميس لليلة خلت من جمادى الآخرة.

قال: وفيها مطر الناس في آب مطراً شديداً جداً.

قال: وفيها مات شيء كثير من الدواب البقر.

قال: وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط وأخذوا نساءهم وذراريهم ودوابهم.

قال: وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم في بلاد طرسوس بحضرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد، عن إذن الخليفة له في ذلك، واستنابته ابن أبي الشوارب. وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة، وقد كانت أم الملك تدورة لعنها الله عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى، وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته فقتلت اثني عشر ألفاً وتنصر بعضهم، وبقي منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجالا ونساء.

وفيها أغارت البجة على حرس من أرض مصر، وقد كانت البجة لا

يغزون المسلمين قبل ذلك، لهدنة كانت لهم من المسلمين، فنقضوا الهدنة وصرحوا والمخالفة.

والبجة طائفة من سودان بلاد المغرب، وكذا النوبة والفروية وينوز وزعروين ويكسوم وأمم كثيرون لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم. وفي بلاد هؤلاء معادن الذهب والجوهر، وكان عليهم حمل في كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن، فلما كانت دولة المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة، فكتب نائب مصر وهو يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي وهو المعروف بقوصرة بذلك كله إلى المتوكل، فغضب المتوكل من ذلك غضباً شديداً، وشاور في أمر البجة فقيل له: يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية، وإن بلادهم بعيدة ومعطشة، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماء، فصده ذلك عن البعث إليهم، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم، فجهز لحربهم محمد بن عبد الله القمي، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم، وكتب إلى عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك، فتخلص وتخلص معه من الجيوش الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل، وحمل معه الطعام والإدام في مراكب سبعة، وأمر الذين هم بها أن يُلجِّجوا بها في البحر ثم يوافوه بها إذا توسط بلاد البجة، ثم سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادنهم وأقبل إليه ملك البجة واسمه علي بابا في جمع عظيم أضعاف من مع محمد بن عبد الله القمي، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام، فجعل الملك يطاول المسلمين في القتال لعله تنفد أزوادهم فيأخذونهم بالأيدي، فلما نفد ما عند المسلمين وطمع فيهم السودان يسَّر الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغير ذلك مما يحتاجون إليه شيء كثير جداً فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم، فيئس السودان من هلاك المسلمين جوعاً فشرعوا في التأهب لقتال المسلمين، وكانوا يركبون على إبل شبيهة بالهجن زعرة جداً كثيرة النفار، لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً إلا جفلت منه.

فلما كان يوم الحرب عمد الأمير إلى جميع الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل واحد، فهرب السودان فرار رجل واحد ونفرت إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كل وجه، وتفرقوا شذر مذر، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاءوا، لا يمتنع منهم أحد، فلا يعلم عدد من قُتل منهم إلا الله عز وجل. ثم أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ ملكهم بالأمان، وأدى ما كان عليه من الحمل، وأخذه معه أسيراً إلى الخليفة.

وكانت هذه الوقعة في أول يوم من هذه السنة وكان وصوله إلى الخليفة في أواخر هذه السنة، فولاه الخليفة على بلاده كما كان، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية والنظر في أمرها ولله الحمد والمنة.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٠٦/٩]: ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة.

قلت: وهذا الرجل كان نائباً على الديار المصرية من جهة المتوكل على الله.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود، وحج جعفر بن دينار فيها وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم، ولم يتعرض ابن جرير لوفاة أحد من المحدثين في هذه السنة.

وقد توفي فيها من الأعيان

الإمام

■ أحمد بن حنبل. وجبارة بن المغلس الحماني. وأبو توبة الحلبي. والحسن بن حماد سجادة. ويعقوب بن حميد بن كاسب.

ولنذكر شيئاً من أخبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

وفضائله ومناقبه وآثره على سبيل الاختصار.

فنقول وبالله المستعان: هو

■ أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي.

هكذا ساق نسبه الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في الكتاب الذي جمعه في مناقب الإمام أحمد عن شيخه الحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرك.

ورُوي عن صالح ابن الإمام أحمد قال: رأى أبي هذا النسب في كتاب لي فقال: وما تصنع بهذا؟ ولم ينكر النسب.

قالوا: وقدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعته أمه ببغداد في ربيع الأول من سنة أربع وستين ومائة، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاثين سنة فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فثقبت أذني وجعلت فيهما لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلي فبعتهما بثلاثين درهماً.

وتوفي أبو عبد الله أحمد بن حبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله.

وقد كان في حداثته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه في سنة تسع وسبعين ومائة، وله من العمر ست عشرة سنة، وأول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة إحدى وتسعين.

وفيها حج الوليد بن مسلم، ثم في سنة ست وتسعين، وجاور في سنة سبع وتسعين، ثم حج في سنة ثمان وتسعين، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق في باليمن، فكتب عنه هو ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه.

قال الإمام أحمد: حججت خمس حجج منها ثلاث راجلاً، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً. قال: وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول: يا عباد الله دلوني على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق.

قال: وخرجت إلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأسي لبنة، ولو كان عندي خمسون درهما كنت رحله إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري وخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي شيء.

وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن حرملة: سمعت الشافعي رضي الله عنه وعدني

أحمد بن حنبل أن مقدم على مصر فلم يقدم. قال ابن أبي حاتم: يشبه أن تكون خفة ذات اليد حالت بينه وبين الوفاء بالعِدَة.

وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والآفاق، وسمع من مشايخ العصر وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال سماعه منهم، وقد سرد شيخنا في تهذيبه [٤٣٧/١] أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم، وكذلك الرواة عنه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الإمام أحمد: وقد أكثر أحمد بن حنبل في المسند وغيره الروايه عن الشافعي، وأخذ عنه جمله من كلامه في أنساب قريش، وأخذ عنه من الفقه ما هو مشهور، وحين توفي أحمد وجدوا في تركته رسالتي الشافعي القديمة والجديدة.

قلت: قد أفرد ما رواه الإمام أحمد عن الإمام أبي عبد الله الشافعي وهي أحاديث لا تبلغ عشرين حديثاً.

ومن أحسن ما رويناه عن الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» [المسند: ٤٥٥/٣].

وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد بعد سنة تسعين ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة. قال له: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً يعني أنه لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب.

وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه في ذلك.

وقد كان الإمام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بعلو المكانة وارتفاع المنزلة في العلم والحديث رحمهم الله، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شبيبته في الآفاق.

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الإيمان وأنه قول وعمل ويزيد وينقص، وكلامه في أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وإنكاره على من يقول: إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن.

قال: وفيما حكى أبو عمارة وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال: اللفظ محدث. واستدل بقوله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]. قال: فاللفظ كلام الآدميين.

وروى غيرهما عن أحمد أنه قال: القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق، وأما أفعالنا فهي مخلوقة.

قلت: وقد قرر البخاري هذا المعنى في أفعال العباد [٩، ٣٣] وذكره أيضاً في الصحيح [كتاب التوحيد، تحت باب (٥٢)]، واستدل بقوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» [د (١٤٦٨)، س (١٠١٤، ١٠١٥)، جه (١٣٤٢)]. ولهذا قال غير واحد من الأئمة: الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري. وقد قرر البيهقي [الأسماء والصفات ص٢٥٩] ذلك أيضاً.

وروى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال: من قال: القرآن محدث فهو كافر.

ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقول تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ [الأنبياء: ٢]. قال: يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث، لا الذكر نفسه هو المحدث.

وعن حنبل عن أحمد أنه قال: يحتمل أن يكون ذكراً آخر غير القرآن، وهو ذكر رسول الله ﷺ أو وعظه إياهم.

ثم ذكر البيهقي كلام الإمام أحمد في إثبات رؤية الله في الدار الآخرة، واحتج بحديث صهيب في الرؤية [م (١٨١)] وهي الزيادة، وكلامه في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة من الآثار عن النبي ﷺ أصحابه.

وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأول قول الله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر: ٢٢]. أنه جاء ثوابه. ثم قال البيهقي: وهذا إسناد لا غبار عليه.

وقال الإمام أحمد [٣٧٩/١]: حدثنا أبو بكر بن عياش، حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله، هو ابن مسعود قال: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ. وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر ﷺ إسناده صحيح.

قلت: وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة في تقديم الصديق ﷺ. والأمر كما قاله ابن مسعود ﷺ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل حين اجتاز بحمص وقد حمل إلى المأمون في زمن المحنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمصي فقال له: ما تقول في الخلافة؟ فقال الإمام أحمد: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ومن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فصل: ورعه وزهده وتقشفه رحمه الله ورضي عنه:

روى البيهقي [مناقب الشافعي ١٥٤/١] من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد: إن اليمن تحتاج إلى قاض، فقال له: اختر رجلا نوله إياها. فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه: ألا تقبل قضاء اليمن، فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي: إني إنما اختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا، فتأمرني أن ألي القضاء؟ ولولا العلم لما أكلمك بعد اليوم. فاستحيى الشافعي منه.

وروي أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل. ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً، لأنهم أخذوا جائزة السلطان.

ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد له ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقاً فعرف أهله حاجته إلى الطعام فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً فقال: ما هذه العجلة؟ كيف خبزتم سريعاً؟ فقالوا: وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه. فقال: ارفعوا. ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح.

قال البيهقي: لأن صالحاً أخذ جائزة المتوكل على الله.

وقال عبد الله: مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا ربع مد سويقاً يفطر بعد كل ثلاث ليال على سُفّة منه حتىّ رجع إلى بيته، ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر. وقد رأيت موقيه دخلتا في حدقتيه.

قال البيهقي: وقد كان الخليفة يبعث لمائدته شيئاً كثيراً وكان أحمد لا يتناول من طعامه شيئاً. قال: وبعث المأمون مرة ذهباً ليقسم على أصحاب الحديث فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى.

وقال سليمان الشاذكوني: حضرت أحمد وقد رهن سطلا له عند فامي باليمن، فلما جاءه بفكاكها أخرج له سطلين فقال: خذ متاعك. فاشتبه عليه أيهما الذي له فقال: أنت في حل منه ومن الفكاك، وتركه.

وحكى ابنه عبد الله قال: كنا في زمن الواثق في ضيق شديد، فكتب رجل إلى أبي: إن عندي أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وليست صدقة ولا زكاة، فإن رأيت أن تقبلها. فامتنع من ذلك، وكرر عليه فأبى فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبي: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت. وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه فأبى أن يقبلها وقال: نحن في كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً.

وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه.

ونفدت نفقة أحمد وهو في اليمن فعرض عليه شيخه عبد الرزاق ملء كفه دنانير فقال: نحن في كفاية ولم يقبلها.

وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس في بيته ورد عليه الباب فافتقده أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منه إلا ديناراً واحدا ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمه الله.

وقال أبو داود. كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط.

وروى البيهقي [طبقات الحنابلة: ٤١٦/١] أن أحمد سئل عن التوكل فقال: هو قطع الاستشراف باليأس من الناس، فقيل له: هل من حجة على هذا؟ قال: نعم: إن إبراهيم لما رمي به في النار من المنجنيق عرض له جبريل فقال: هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال: فسل من لك إليه حاجة. فقال: أحب الأمرين إلي أحبهما إليه.

وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال: كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى فقلنا: ادع الله لنا فقال: اللّهم إنك تعلم أنا نعلم أنك لنا على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما تحب، ثم سكت. فقلنا: زدنا فقال: اللّهم إنا نسألك بالقدرة التي قلت للسماوات والأرض: ﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] اللّهم وفقنا لمرضاتك، اللّهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ونعوذ بك من الذل إلا لك، اللّهم لا تكثر لنا فنطغى ولا تقل علينا فننسى وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا في دنيانا وغنى من فضلك.

قال البيهقي: وفي حكاية أبي الفضل التميمي عن أحمد: وكان دعاؤه في السجود: اللّهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق.

وكان يقول: اللّهم إن قبلت من عصاة أمة محمد ﷺ فداء فاجعلني فداءً لهم.

وقال صالح ابن الإمام أحمد: كان أبي لا يدع أحدا يستقي له الماء للوضوء، بل كان يلي ذلك بنفسه، فإذا خرج الدلو ملآن قال: الحمد للّه. فقلت: يا أبه ما الفائدة في ذلك؟ فقال: يا بني أما سمعت قول اللّه عز وجل: ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾ [الملك: ٣٠].

والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً. وقد صنف أحمد في الزهد كتاباً حافلا عظيماً لم يسبق إلى مثله، ولم يلحقه أحد فيه. والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه من ذلك رحمه اللّه وأكرم مثواه وجعل جنة الفردوس منقلبه ومأواه.

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج: قال لي أحمد بن حنبل: هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك؟ فقلت: نعم! وفرحت بذلك، ثم ذهبت إلى الحارث فقلت له: إني أحب أن تحضر الليلة أنت وأصحابك. فقال: إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكُسْب. فلما كان بين العشاءين جاءوا وكان الإمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه، فلما صلوا العشاء لم يصلوا بعدها شيئاً، حتى جاءوا فجلسوا بين يدي الحارث سكوتاً، كأنما على رؤوسهم الطير حتى إذا كان قريباً من نصف الليل ثم سأله رجل عن مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ، فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا يزعق، قال: فصعدت إلى الغرفة فإذا الإمام أحمد يبكي حتى يكاد يغشى عليه، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح، فلما أرادوا الانصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد اللّه؟ فقال: ما رأيت أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل، وما رأيت مثل هؤلاء، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم.

قال البيهقي: يحتمل أنه كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد، وإن كان زاهداً، لكنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع.

قلت: بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف الذي لم يرد بها الشرع والتدقيق والتنقير والمحاسبة البليغة ما لم يأت بها أمر، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث بن أسد المسمى بالرعاية قال: هذا بدعة. ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث بن سعد، ودع هذا فإنه بدعة.

وقال إبراهيم الحربي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إن أحببت أن يدوم اللّه لك على ما تحب فدم له على ما يحب. وكان يقول: الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر.

وكان يقول: الفقر أشرف من الغنى فإن الصبر عليه أعظم مرارة وانزعاجه أعظم حالا من الشكر. وقال: لا أعدل بفضل الفقر شيئاً.

وكان يقول: على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس، ولا يقبله إذا تقدمه طمع أو استشراف. وكان يحب التقلل طلباً خفة الحساب.

وقال إبراهيم: قال رجل لأحمد: هذا العلم تعلمته للّه؟ فقال له أحمد: هذا شرط شديد ولكن حبب إلي شيء فجمعته.

وفي رواية أنه قال: أما للّه فعزيز، ولكن حبب إلي شيء فجمعته.

وروى البيهقي [مناقب الإمام أحمد (٣٩٨)] أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد فقال: إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو اللّه لها فكأنه غضب من ذلك وقال: نحن أحوج أن تدعو هي لنا. ثم دعا اللّه عز وجل لها. فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجليها وقالت: قد وهبني اللّه العافية.

وروي أن سائلا سأل فأعطاه الإمام قطعة فقام رجل إلى السائل فقال: هبني هذه القطعة حتى أعطيك عوضها، ما تساوي درهماً. فأبى فرقاه إلى خمسين درهماً وهو يأبى وقال: إني أرجو من بركتها ما ترجوه أنت من بركتها. ثم قال البيهقي رحمه اللّه:

باب ذكر ما جاء في محنة أبي عبد اللّه أحمد بن حنبل رضي الله عنه:

في أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب، وقلة مبالاته بما كان منهم من ذلك إليه وصبره عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم، وكان أحمد عالماً بما ورد بمثل حاله من الآيات المتلوة، والأخبار المأثورة وبلغه ما أوصي به في المنام واليقظة فرضي وسلم إيماناً واحتساباً، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة، وهيأه

الله بما آتاه من ذلك لبلوغ أعلى منازل أهل البلاء في الله من أولياء الله، والحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والعصمة.

قال الله تعالى: ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١-٣]. وقال الله تعالى في سورة لقمان لابنه: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان: ١٧] في آي سواها في معنى ما كتبنا. وقد روى الإمام أحمد الممتحن في مسنده [١٧٣/١] قائلاً فيه: حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن بهدلة سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذلك، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذلك، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة».

وقد روى مسلم في صحيحه [(٤٣)] قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس. قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه». أخرجاه في الصحيحين [خ (١٦)، م (٤٣)].

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو السكسكي حدثنا عمرو بن قيس السكوني، حدثنا عاصم بن حميد قال: سمعت معاذ بن جبل يقول: «إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة، ولن يزداد الأمر إلا شدة، ولا الأنفس إلا شحاً».

وبه قال معاذ: «لن تروا من الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه».

قال البغوي: سمعت أحمد يقول: اللّهم رضينا.

وروى البيهقي عن الربيع قال: بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل، فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ فقلت: لا! فأخذه فقرأه فدمعت عيناه، فقلت: يا أبا عبد الله وما فيه؟ فقال: يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: اكتب إلى عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم، يرفع الله لك عَلَماً إلى يوم القيامة.

قال الربيع: فقلت: حلاوة البشارة. فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال: إني لست أفجعك فيه، ولكن بُلَّه بالماء وأعطنيه حتى أتبرك به.

ذكر ملخص الفتنة والمحنة مجموعاً من كلام أئمة السنة رحمهم الله وأثابهم الجنة:

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد اجتمع استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله عز وجل.

قال الحافظ البيهقي: ولم يكن في الخلفاء قبله لا من بني أمية ولا من بني العباس خليفة إلا على منهج السلف، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له.

قالوا: اتفق خروجه إلى طرسوس لغزو بلاد الروم فعَنَّ له أن يكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، واتفق ذلك في آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثماني عشرة ومائتين.

فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا، فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين. واستمر على الامتناع في ذلك الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح الجنديسابوري، فحملا على بعير وسيرهما إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد فلما كانوا ببلاد الرحبة جاء رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر، فسلم على الإمام أحمد وقال له: يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن مشؤوماً عليهم وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإن ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً.

قال أحمد: فكان ذلك ما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه. فلما اقتربوا من جيش المأمون ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه وهو يقول: يعز علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك، وبسط نطعاً لم يبسطه قبل ذلك وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف. قال: فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى يتجبّر على أوليائك بالضرب والقتل اللّهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته. قال: فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل.

قال الإمام أحمد: ففرحت، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد، وأن الأمر شديد، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى، ونالني معهم أذى كثير وكان في رجليه القيود، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها وهو مريض وذلك في رمضان، فأودع السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم كما سيأتي إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وقد كان الإمام أحمد هو الذي يصلي بأهل السجن وعليه قيوده في رجليه.

ذكر ضربه ﷺ بين يدي المعتصم:

لما أحضره المعتصم من السجن زيدَ في قيوده.

قال أحمد: فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها في التكة وحملتها بيدي، ثم جاءوني بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني، فسلم الله حتى جئنا دار الخلافة فأدخلت في بيت وأغلق علي وليس عندي سراج، فأردت الوضوء فمددت يدي فإذا إناء فيه ماء فتوضأت منه، ثم قمت أصلي ولا أعرف القبلة، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة ولله الحمد.

قال: ثم دعيت فأدخلت على المعتصم، فلما نظر إلي وعنده ابن أبي دؤاد قال: أليس قد زعمتم أنه حدث السن وهذا شيخ مكتهل؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي: ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال: اجلس فجلست وقد أثقلني الحديد فمكث ساعة ثم قلت: يا أمير المؤمنين إلامَ دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. قلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله. قال: ثم ذكرت له حديث ابن عباس

في وفد عبد القيس [خ (٥٣)، م (١٧)] ثم قلت: فهذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ.

قال: ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه وذلك لأني لم أتفقه كلامه، ثم قال المعتصم: لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك ثم قال: يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة؟ قال أحمد: فقلت: الله أكبر، هذا فرج للمسلمين ثم قال: ناظروه يا عبد الرحمن، كلمه. فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبه، فقال المعتصم: أجبه فقلت: ما تقول في العلم؟ فسكت، فقلت: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، فسكت فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا فلم يلتفت إلى ذلك، فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن، فقلت: كان الله ولا علم؟ فسكت. فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله حتى أقول به فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا؟ فقلت: وهذا يقوم الإسلام إلا بهما؟.

وجرت بينهما مناظرات طويلة واحتجوا عليه بقوله: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ [الأنبياء: ٢] وعنه في ذلك أجوبة بحدث إنزاله، أو ذكر غير القرآن مُحْدَثٌ - كما تقدم - ورشح هذا بقوله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ [ص:١] يعني به القرآن - بخلاف الذكر فإنه غير القرآن. وبقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ [الرعد: ١٦].

وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فقال ابن أبي دؤاد: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم، فقال لهم: ما تقولون فيه؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً في اليوم الثالث فناظروه أيضاً، وفي ذلك كله يعلو صوته عليهم وتغلب حجته حججهم. قال: فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد وكان من أجهل الناس بالعلم والكلام، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها.

قال: سمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها، وقد تكلم معي برغوث بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلت: لا أدري ما تقول، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد، ليس كمثله شيء، فسكت عني.

وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه، وهيهات، ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ [سبأ: ٥٢] وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي. فأقول: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها.

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الاحتجاج بالآثار بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ [مريم: ٤٢] وبقوله: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ [النساء: ١٦٣] وبقوله: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ [طه: ١٤] وبقوله: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠] وغير ذلك من الآيات. فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة في ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمي واشتد غضبه، وكان ألينهم عريكة، وهو يظن أنهم على شيء. قال أحمد: فعند ذلك قال لي: لعنك الله، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني، ثم قال: خذوه واخلعوه واسحبوه.

قال أحمد: فأخذت وسحبت وخلعت وجيء بالعُقابين والسياط وأنا أنظر، وكان معي شعر من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي، فجردوني منه وصرت بين العقابين، فقلت: يا أمير المؤمنين الله الله، إن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث» وتلوت الحديث [خ (٦٨٧٨)، م (١٦٧٦)]، وإن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» [خ (١٣٩٩)، م (٢٠)]. فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى كوقوفي بين يديك، فكأنه أمسك. ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر، فأمر بي فأُقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم، فتخلّعت يداي وجيء بالضرّابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له يعني المعصم: شد قطع الله يدك!، ويجيء الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك، فضربوني أسواطاً فأغمي علي وذهب عقلي مراراً، فإذا سكن الضرب يعود إليَّ عقلي، وقام المعتصم إلي يدعوني إلى قولهم فلم أجبه وجعلوا يقولون: ويحك. الخليفة على رأسك، فلم أقبل فأعادوا الضرب ثم عاد إلي فلم أجبه، فأعادوا الضرب ثم جاء إلي الثالثة، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت، وقد أطلقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً، وقيل ثمانين سوطاً، لكن كان ضرباً مبرحاً شديداً جداً.

وقد كان الإمام أحمد رجلا طوالا رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله ورضي عنه وأكرم مثواه.

ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم. أتوه بسويق وماء ليفطر من الضعف فامتنع من ذلك وأتم صومه، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي: صليت في دمك؟ فقال له أحمد: قد صلى عمر وجرحه يثعب دما. فسكت.

ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فتتكشف عورته فحرك شفتيه بدعاء فعاد سراويله كما كان، ويروى أنه قال: يا غياث المستغيثين، يا إله العالمين، إن كنت تعلم أني قائم لك بحق فلا تهتك لي عورة.

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحماً ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب يبعث كثيراً في كل وقت يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد وجعل كل من سعى في أمره في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ [النور: ٢٢]. ويقول: ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم في سبيلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠] وينادي المنادي يوم القيامة: «ليقم من أجره على

الله فلا يقوم إلا من عفا».

وفي صحيح مسلم [٢٥٨٨] عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله».

وكان الذين ثبتوا على المحنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم، ومحمد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري، ومات في الطريق حين ذهب هو وأحمد إلى المأمون. ونعيم بن حماد الخزاعي، وقد مات في السجن، وأبو يعقوب البويطي، وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن. لم يجبهم إلى ذلك وكان مثقلا بالحديد وأوصى أن يدفن فيها. وأحمد بن نصر الخزاعي وقد ذكرنا كيفية قتله رحمه الله في أيام الواثق.

ذكر ثناء الأئمة على الإمام أحمد بن حنبل المعظم المبجَّل:

قال البخاري: لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول: لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثة.

وقال إسماعيل بن الخليل: لو كان أحمد بن حنبل في بني إسرائيل لكان عجباً.

وقال المزني: أحمد بن حنبل يوم المحنة، وأبو بكر يوم الردة، وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار، وعلي يوم صفين.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: خرجت من العراق فما خلَّفت رجلا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال شيخه يحيى بن سعيد القطان: ما قدم عليَّ من بغداد أحد أحب إلي من أحمد بن حنبل.

وقال قتيبة: مات سفيان الثوري ومات الورع، ومات الشافعي ومات السنن، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع. وفي رواية قال قتيبة: إن أحمد بن حنبل قام في الأمة مقام النبوة.

قال البيهقي: يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله عزّ وجل.

وقال أبو عمر بن النحاس وذكر أحمد يوماً فقال: رحمه الله في الدين ما كان أبصره، وعن الدنيا ما كان أصبره، وفي الزهد ما كان أخبره، وبالصالحين ما كان ألحقه وبالماضين ما كان أشبهه، عرضت له الدنيا فأباها والبدع فنفاها.

وقال بشر بن الحارث الحافي بعدما ضرب أحمد بن حنبل: ادخل أحمد الكير فخرج ذهباً أحمر.

وقال الميموني: قال لي علي بن المديني بعدما امتحن أحمد وقبل قبل أن يمتحن: يا ميموني ما قام أحد في الإسلام ما قام أحمد بن حنبل. فعجبت من هذا عجباً شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال: صدق، إن أبا بكر الصديق وجد يوم الردة أنصاراً وأعوانا وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول: لست أعلم في الإسلام مثله.

وقال إسحاق بن راهويه: أحمد حجة بين الله وبين عبيده في أرضه.

وقال علي بن المديني: إذا ابتليت بشيء فأفتاني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي كيف كان.

وقال عليٌّ أيضاً: إني اتخذت أحمد بن حنبل حجة فيما بيني وبين الله عز وجل، ثم قال: ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله!.

وقال يحيى بن معين أيضاً: كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في عالم قط، كان محدثاً، وكان حافظاً، وكان عالماً، وكان ورعاً وكان زاهداً، وكان عاقلا.

وقال يحيى بن معين أيضاً: أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل: والله ما نقوى أن نكون مثل أحمد ولا نطيق سلوك طريقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: اتخذت أحمد بن حنبل حجة فيما بيني وبين الله عز وجل. وقال هلال بن العلاء الرقي: مَنَّ الله على هذه الأمة بأربعة: بالشافعي فهم الأحاديث وفسرها، وبين المجمَل من المفصّل، والخاص والعام والناسخ من المنسوخ. وبأبي عبيد عرَّف الغريب وفسَّره. وبيحيى بن معين نفى الكذب عن الأحاديث، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة لولا هؤلاء الأربعة لهلك الناس.

وقال أبو بكر بن أبي داود: أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلماً ومحبرة يعني في عصره.

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله.

وقال أبو زرعة الرازي: ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه منه.

وروى البيهقي عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبري قال: أنشدنا أبو عبد الله البوشنجي في أحمد بن حنبل رحمه الله:

إن ابن حنبل إن سألت إمامنا ... وبه الأئمة في الأنام تمسكوا
خلف النبي محمداً بعد الألى ... كانوا الخلائف بعده واستهلكوا
حذو الشراك على الشراك وإنما ... يحذوا المثال مثاله المتمسِّكُ

وقد ثبت في الصحيح [خ (٧٣١١)، م (١٠٣٧، ١٩٢٠، ١٩٢٣)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

قال عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: هم أهم الحديث.

وروى البيهقي [الدلائل: ٤٣/١، ٤٤، والسنن الكبرى ٢٠٩/١٠] عن أبي سعيد الماليني عن ابن عدي عن أبي القاسم البغوي عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن مُعان بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، قال البغوي: وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر عن مُعان عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. قال البغوي قال قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

وهذا الحديث مرسل وإسناده فيه ضعف. والعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من نُسب إلى حمل العلم، والإمام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله وأكرم مثواه.

ذكر ما كان من أمر الإمام أحمد بعد المحنة:

حين خرج من دار الخلافة بعد الضرب صار إلى منزله فدُووي حتى برئ، و لله الحمد والمنّة، ولزم منزله فلا يخرج منه إلى جمعة ولا جماعة، وامتنع من التحديث، وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهماً ينفقها على عياله ويتقنع بذلك رحمه الله صابراً محتسباً. ولم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق.

فلما ولي المتوكل على الله جعفر بن المعتصم استبشر الناس بولايته، فإنه كان محباً للسنة وأهلها ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق أن لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد وهو إسحاق بن إبراهيم أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه فأكرمه إسحاق وعظمه، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه، وسأله

فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له الإمام أحمد: سؤال تنعت أو استرشاد. فقال بل سؤال استرشاد. فقال: هو كلام الله منزل غير مخلوق، فسكن إلى قولة في ذلك، ثم جهزه إلى الخليفة بسُرَّ من رأى ثم سبقه إليه.

وبلغه أن أحمد بن حنبل اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأته ولم يسلّم عليه، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل: يرد وإن كان قد وطئ بساطي فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد. وقد كان الإمام أحمد متكرِّهاً لذلك ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه.

ثم إن رجلا من المبتدعة يقال له ابن الثلجي وشى إلى الخليفة شيئاً فقال: إن رجلا من العلويين قد ضَوَى إلى منزل أحمد بن حبل وهو يبايع له الناس في الباطن. فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل الإمام أحمد من الليل. فلم يشعروا إلا بالمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة فوجدوا الإمام أحمد جالساً في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال: ليس عندي من هذا علم، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي، وأثرة علي، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار. في كلام كثير.

قال: ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة وهو أحد الحجبة بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام ويقول لك: استنفق هذه، فامتنع من قبولها. فقال: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها، فوضعها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعى الإمام أحمد أهله وبني عمه وعياله وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال فجلسوا معه وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين فلم يبق منها درهماً، وأعطى منها لأبي كُريب، وأبي سعيد الأشج، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والحاجة، وجاء بُنَيٌّ ابنه فقال: أعطني درهماً. فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي فسكت أحمد ﷺ.

وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى لم يُبْقِ منها شيئاً، وأنه تصدَّق بكيسها، فقال علي بن الجهم: يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك، وما يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف فقال: صدقت.

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب، وتولى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك فقال: إني شيخ كبير وضعيف، فرد الجواب على الخليفة بذلك، فأرسل يعزم عليه لتأتيني، وكتب إلى أحمد يقول له: إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك، ويحصل لي بركه دعائك. فسار إليه الإمام أحمد وهو عليل في بنيه وبعض أهله، فلما قارب العسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم، فسلم وصيف على الإمام أحمد فرد السلام ثم قال له وصيف: قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد. فلم يرد عليه جواباً، وجعل ابنه يدعو للخليفة ولوصيف. فلما وصلوا إلى العسكر بسر من رأى، أنزل أحمد في دار إيتاخ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها.

وكان رؤوس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام، ولا يدخلون عليه حتى يخلعوا ما عليهم من الزينة والسلاح، وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة.

وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنه وما بعدها من السنين المتطاولة، وهو محجوب في داره، لا يخرج إلى جماعة ولا إلى جمعة أيضاً، فاعتذر إليه بأنه عليل وأسنانه تتحرك وهو ضعيف وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يطعم شيئاً من ذلك بالكلية، بل كان صائماً يطوي، فمكث ثمانية أيام لم يستطعم بطعام، ومع ذلك هو عليك، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلا من السويق بعد ثمانية أيام وجاءه عبيد الله يحيى بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع من قبولها، فألح عليه الأمير فلم يقبل. فأخذها الأمير ففرقها على بنيه وأهله، وقال: إنه لا يمكن أن تُردَّ على الخليفة جائزته. وكتب المتوكل لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم، فمانع أبو عبد الله في ذلك، فقال الخليفة: لا بد من ذلك، وما هذا إلا لولدك. فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته ثم أخذ يلوم أهله وعمه وبني عمِّه، وقال لهم: إنما بقي لنا أيام قلائل، وكأننا قد نزل بنا الموت، فإما إلى جنة وإما إلى نار، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء. في كلام طويل يعظهم به. فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح [خ (٧١٦٤)، م (١٠٤٥)]: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه». وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان. فقال: ما هذا وذاك سواء. ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس فيه ظلم ولا جور لم أبال.

ولما استمر ضعف أبي عبد الله جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه ، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين إن أحمد بن حنبل ليس به علة في بدنه، وإنما علته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة. فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له، ويكون في حجره. فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رجاء أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغداد. وبعث الخليفة. إليه بخلعة سنية ومركوب من مراكبه، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثرة نمور، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس، من وراء ستر رقيق. فلما جاء أحمد قال: سلام عليكم. وجلس ولم يسلم عليه بالإمرة، فقالت أم الخليفة: الله الله يا بني في هذا الرجل! ترده إلى أهله، فإن هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه. وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه: يا أمه قد أنارت الدار.

وجاء الخادم ومعه خلعة سنية مبطنة وثوب وقلنسوة وطيلسان، فألبسها الإمام أحمد بيده، وأحمد لا يتحرك بالكلية.

قال الإمام أحمد: ولما جلست إلى المعتز قال مؤدبه: أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك. فقال: إن علمني شيئاً تعلمته، قال أحمد: فعجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقته وغضبه.

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهيأ له حراقة فلم يقبل أن ينحدر فيها، بل ركب في زورق فدخل بغداد مختفياً، وأمر أن تباع تلك

الخلعة وأن يتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين. وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول: سلمت منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره. وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد يهلك من الجوع. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل على الله الخليفة: إن أحمد بن حنبل لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس على فرشك، ويحرم ما تشربه. فقال لهم: والله لو نُشِرَ المعتصم وكلمني في أحمد ما قبلت منه. وجعلت رسل المتوكل تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره وكيف حاله. وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشيء، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها.

قال عبد الله بن أحمد: وحين رجع أبي من سامرا إلى بغداد وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيتاً هم فيه أو ينتفع بشيء مما هم فيه لأجل قبولهم أموال السلطان.

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين، ثم مكث إلى سنة وفاته، قلَّ يومٌ إلا ورسالة المتوكل تفد إليه في أمور يشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له.

ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى، فامتنع من قبولها وتفرقتها، وقال: إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردها. وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول فيها: يا أمير المؤمنين إن أحمد بن حنبل يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة. فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه، وأما أبي المعتصم فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه. ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط. فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوط؟ فقال: مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ورسوله، ومائة لكونه قذف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل.

وقد كتب الخليفة إلى الإمام أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولاعناد. فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم، وأحاديث مرفوعة. وقد أوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها، وهي مروية عنه، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ.

ذكر وفاة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

قال ابنه صالح: كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف، فقلت: يا أبت ما كان غداؤك؟ فقال: ماء الباقلا. ثم إن صالحاً ذكر كثرة مجيء الناس من الأكابر وعموم الناس لعيادته وكثرة جزع الناس عليه، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملكه وأن يكفِّر عنه كفارة يمين، فأخذ شيئاً من الأجرة فاشترى تمرا وكفر عن أبيه، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم. وكتب الإمام أحمد وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين، وأُوصي أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً، وأوصي أنَّ لعبد الله بن محمد المعروف بفوران عليَّ نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيما قال فيقضى ما له علي من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أعطي ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم.

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً فسماه سعيداً، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض الإمام أحمد فدعاه فالتزمه وقبله ثم قال: ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل له: ذرية تكون بعدك يدعون لك. قال وذاك إن حصل. وجعل يحمد الله تعالى. وقد بلغه في مرضه عن طاوس أنه كان كره الأنين في المرض فترك الأنين فلم يئنّ حتى كانت الليلة التي توفي في صبيحتها أنَّ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، فأنَّ حين اشتد به الوجع. وقد روي عن ابنه عبد الله ويروى عن صالح وقد يكون عن كلٍّ منهما أنه قال: لما احتضر أبي رحمه الله جعل يكثر أن يقول: لا بعدُ، لا بعدُ، فقلت: يا أبتِ ما هذه اللفظة التي لهجت بها في هذه الساعة؟ فقال: يا بني إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على اصبعه وهو يقول: فتني يا أحمد؟ فأقول: لا بعدُ لا بعدُ ـ يعني أنه لا يفوته حتى تخرج روحه من جسده على التوحيد ـ كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس: يا رب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضئوه فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك، فلما أكملوا الوضوء توفي رحمه الله ورضي عنه.

وقد كانت الإمام أحمد، رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة حين مضى نحو من ساعتين من النهار، فاجتمع الناس في الشوارع وبعث محمد بن عبد الله بن طاهر حاجبه ومعه غلمان يحملون مناديل فيها أكفان، وأرسل يقول: هذا نيابة عن الخليفة، فإنه لو كان حاضراً لبعث بهذا. فأرسل أولاده يقولون: إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره وهذا مما يكره، وأبوا أن يكفنوه في تلك الأثواب وأتوا بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه فيه واشتروا معه عوز لفافة وحنوطاً، واشتروا له راوية ماء وامتنعوا أن يغسلوه بماء من بيوتهم، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً، وكان لا يزال متغضباً عليهم لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم وكانوا عالة فقراء. وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بني هاشم، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله.

وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لا يعلم عددهم إلا الله، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس، فتقدم خطوات فعزى أولاد الإمام أحمد فيه، وكان هو الذي أمَّ الناس في الصلاة عليه، وقد أعاد جماعة من الناس الصلاة على القبر بعد الدفن من أجل ذلك، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق.

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن عبدالله بن طاهر أمر بحَزْر الناس فوجدوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن وأقلُّ ما قيل: سبع مئة ألف.

وقال ابن أبي حاتم [الجرح والتعديل: ٣١٢/١]: سمعت أبا زرعة يقول: بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس عليه حيث صُلّي على الإمام أحمد بن حنبل فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ألف.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول سمعت محمد بن يحيى الزنجاني سمعت عبد الوهاب الوراق يقول: ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية الإسلام كان أكثر من الجمع على جنازة أبي عبد الله. وقال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم حدثني محمد بن العباس المكي سمعت الوركاني - جار أحمد بن حنبل - قال: أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس، ووقع المأتم في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وفي بعض النسخ: أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفا فالله أعلم.

وقال الدارقطني: سمعت أبا سهل بن زياد، سمعت عبد الله بن أحمد يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز حين تمر. وقد صدق الله قوله في هذا، فإنه رحمه الله، كان إمام السنة في زمانه، وعيون مخالفيه أحمد بن أبي دؤاد القاضي لم يحتفل أحد بموته، ولا شيّعه أحدٌ من الناس إلا القليل وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس. وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

وقد روى البيهقي عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال: ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصلّ على الإمام أحمد.

وروي عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد: دفن اليوم سادس خمسة، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رحمهم الله. وكان عمره رحمه الله يوم توفي سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر.

ذكر ما رئي من المنامات الصالحة التي رآها الإمام أحمد ورُئيت له:

وقد صح في الحديث: لم يبق من النبوة إلا المبشرات. وفي رواية إلا الرؤيا الصالحة - يراها المؤمن أو ترى له [خ (٦٩٩٠)، م (٤٧٩)].

وروى البيهقي عن الحاكم سمعت علي بن حمشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول: كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال: من منكم أحمد بن حنبل؟ فقال أحمد: أنا ما حاجتك؟ فقال: ضربت إليك من اربعمائة فرسخ، أريت الخضر في المنام فقال لي: سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له: إن ساكن العرش والملائكة راضون عنك بما صبرت نفسك لله عز وجل.

وعن أبي عبد الله محمد بن خزيمة الإسكندراني. قال: لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غماً شديداً فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته فقلت له: يا أبا عبد الله أي مشية هذه؟ فقال: مشية الخدام في دار السلام. فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال لي: يا أحمد هذا بقولك: القرآن كلامي، ثم قال لي: يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري وكنت تدعو بهن في دار الدنيا، قال: قلت: يا ربُّ كل شيء، بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء حتى لا تسألني عن شيء. فقال لي: يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها. فدخلت فإذا أنا بسفيان الثوري وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة، ومن شجرة إلى شجرة، وهو يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤). قال فقلت له: ما فعل بشر الحافي؟ فقال: بخ بخ، ومن مثل بشر؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب، وانعم يا من لم ينعم، أو كما قال.

وقال أبو محمد بن أبي حاتم عن محمد بن مسلم بن وارة قال: لما مات أبو زرعة رأيته في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي الجبار: ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله، مالك والشافعي وأحمد بن حنبل.

وقال أحمد بن خرّزاذ الأنطاكي: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله، لفصل القضاء، وكأن منادياً ينادي من تحت بطنان العرش: أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة. قال: فقلت للملك إلى جنبي: من هؤلاء؟ فقال: مالك، والثوري، والشافعي وأحمد بن حنبل.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسي قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو نائم وعليه ثوب مغطى به وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذبان عنه.

وتقدم في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤاد في حلقة أخرى وكان رسول الله ﷺ واقف بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ (الأنعام: ٨٩) ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد وأصحابه ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(الأنعام: ٨٩) ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

فيها كانت زلازل هائلة في البلاد، فمن ذلك ما كان بمدينة قومس، تهدمت منها دور كثيرة، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً. وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة.

وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا شيئاً كثيراً وأسروا نحواً من عشرة آلاف من الذراري. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج بالناس فيها عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي نائب مكة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور.

و■ أبو حسان الزيادي: قاضي الشرقية، واسم أبي حسان الزيادي الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد البغدادي سمع الوليد بن مسلم، ووكيع بن الجراح، والواقدي، وخلقاً سواهم.

وعنه أبو بكر ابن أبي الدنيا وعلي بن عبد الله الفرغاني الحافظ المعروف بكفط، وجماعة.

ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه [١٣٢/١٣]. قال: وليس هو من سلالة زياد بن أبيه، إنما تزوج بعض أجداده بأم ولد لزياد، فقيل له الزيادي. ثم أورد من حديثه بسنده عن جابر الحلال بين والحرام بين. الحديث.

وروي عن الخطيب أنه قال: كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة، ولي قضاء الشرقية في خلافة المتوكل، وله تاريخ حسن، وله حديث كثير.

وقال غيره: كان صالحاً ديناً قد عمل الكتب، وكانت له معرفة جيدة بأيام الناس، وله تاريخ حسن، وكان كريماً مفضالاً.

وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء حسنة، منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر أنه قد أصابته ضائقة في عيد من الأعياد، ولم يكن عنده غير مائة دينار، فأرسلها بصرتها إليه، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضا يشكو مثل تلك الحال، فأرسل بها إليه. وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الذي أخذ المئة يستقرض منه شيئاً وهو لا يشعر بالأمر، فأرسل إليه بالمائة في صرتها، فلما رآها تعجب من أمرها وركب إليه وسأله عن ذلك فذكر أن فلاناً أرسلها إليه، فاجتمعوا الثلاثة واقتسموا المائة الدينار رحمهم اللّه وجزاهم عن مروءاتهم خيراً.

و■ أبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن مالك، **وعبد اللّه** بن ذكوان أحد القراء المشاهير. **ومحمد** بن أسلم الطوسي. **ومحمد** بن رمح. **ومحمد** بن عبد اللّه بن عمار الموصلي أحد أئمة الجرح والتعديل. **والقاضي يحيى** بن أكثم.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجه المتوكل على اللّه من العراق قاصداً مدينة دمشق ليجعلها له دار إقامة ومحلة إمامته، فأدركه عيد الأضحى وهو بمدينة بلد، فضحى بها، وتأسف أهل العراق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم، فقال في ذلك يزيد بن محمد المهلبي:

أظنُّ الشام تشمت بالعراق　　إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها　　فقد تُبلى المليحة بالطلاق

وحج بالناس فيها عبد الصمد المذكور في التي قبلها وهو نائب مكة.

وفيها توفي

قال ابن جرير [تاريخه: ٩/٢٠٩]:

■ **إبراهيم بن العباس**: متولي ديوان الضياع الحسن بن مخلد بن الجراح خليفة إبراهيم في شعبان.

قلت: إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي الشاعر الكاتب المشهور، وهو عم محمد بن يحيى الصولي، وكان جده صول ملك جرجان وكان أصله منها، ثم تمجس ثم أسلم على يدي يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ولإبراهيم هذا ديوان شعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله:

ولربَّ نازلة يضيق بها الفتى　　ذرعا وعند اللّه منها مخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها　　فرجت وكان يظنها لا تفرج

ومنها قوله:

كنت السواد لمقلتي　　فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت　　فعليك كنت احاذر

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعتصم محمد بن عبد الملك بن الزيات.

وكنت أخي بإخاء الزمان　　فلما نبا صرت حرباً عوانا
وكنت أذمّ إليك الزمان　　فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات　　فها أنا أطلب منك الأمانا

وله:

لا يمنعنّك خفض العيش في دعة　　نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها　　أهلا بأهل وجيراناً بجيران

كانت وفاته في منتصف شعبان من هذه السنة بسر من رأى رحمه اللّه.

قال: ومات هاشم بن بنجور في ذي الحجة.

قلت: وفيها توفي:

■ **أحمد بن سعيد الرباطي. والحارث** بن أسد المحاسبي. أحد أئمة الصوفية. **وحرملة** بن يحيى التجيبي صاحب الشافعي. **وعبد اللّه** بن معاوية الجمحي. **ومحمد** بن عمر العدني. **وهارون** بن عبد اللّه الحمّال. **وهناد** بن السري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة وكان يوماً مشهوداً، وكان عازماً على الإقامة بها، وأمر بنقل دواوين الملك إليها، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا، فأقام بها مدة، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواءها بارد ندي وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل، ورأى كثرة البراغيث بها، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج، فضجر منها ثم جهز بغا إلى بلاد الروم، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام، ففرح به أهل بغداد فرحاً شديداً.

وفي هذه السنة أُتي أتى المتوكل بالحربة التي كانت تحمل بين يدي رسول اللّه ﷺ يوم العيد وغيره، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام، فوهبها الزبير للنبي ﷺ، فلما صارت إلى المتوكل على اللّه فرح بها فرحاً شديداً وأمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول اللّه ﷺ.

وفيها غضب المتوكل على الطبيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله.

وحج بالناس فيها: عبد الصمد المذكور قبلها.

واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وعيد الفطر لليهود وشعانين النصارى وهذا أمرٌ عجيب غريب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد** بن منيع. **وإسحاق** بن موسى الخطمي. **وحميد** بن مسعدة. **وعبد الحميد** بن بيان. **وعلي** بن حجر. **والوزير محمد** بن عبدالملك بن الزيات. **ويعقوب** بن السكيت صاحب إصلاح المنطق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهر بها، فيقال: إنه أنفق على بنائها وبناء قصر للخلافة فيها يقال له: اللؤلؤة. ألفي ألف دينار.

وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى، فمن ذلك بمدينة أنطاكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً، وسمعت من كوى دورها أصوات مزعجة جداً فخرجوا من منازلهم سراعاً يهرعون، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الأقرع فساخ في البحر، فهاج البحر عند ذلك وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن، وغار نهر على فرسخ منها فلا يدرى أين ذهب.

ذكر أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٢١٣/٩] قال: وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير.

قال: وزلزلت فيها بالس والرقة وحران ورأس العين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة، وأذنة وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية بأهلها فما بقي منها منزل إلا انهدم، ومابقي من أهلها إلا اليسير، وذهبت جبلة بأهلها.

وفيها غارت مشاش - عين بمكة - حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً. حتى بعث المتوكل فأنفق عليها مالا جزيلا حتى خرجت.

وفيها مات:

■ إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي. وهلال الرازي.

وفيها هلك:

■ نجاح بن سلمة. وقد كان على ديوان التوقيع. وقد كان حظيّاً عند المتوكل، ثم جرت له كائنة أفضت به إلى أن أمر المتوكل بأخذ أمواله وأملاكه وحواصله، وقد أورد قصته ابن جرير مطولة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن عبدة الضبي، وأبو الحيس القواس مقرئ مكة، وأحمد بن نصر النيسابوري. وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإسماعيل بن موسى ابن بنت السدي. وذو النون المصري، وسوّار القاضي وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، ومحمد بن رافع، وهشام بن عمار، وأبو تراب النخشبي.

و■ ابن الراوندي الزنديق، أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي، نسبة إلى قرية ببلاد قاسان، ثم نشأ كان ببغداد، كان بها يصنف الكتب في الزندقة، وكانت لديه فضيلة، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا الآخرة. وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسب ماذكرها ابن الجوزيّ وإنما ذكرناها ههنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفي في هذه السنة، وقد تلبس عليه ولم يجرّحه بشيء أصلاً بل مدحه فقال: أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي العالم المشهور، له مقالة في علم الكلام، وكان من الفضلاء في عصره، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشر كتاباً، منها كتب فضيحة المعتزلة، وكتاب التاج، وكتاب الزمردة، وكتاب القصب، وغير ذلك. وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام في كتبهم.

توفي سنة خمس وأربعين ومائتين، برحبة مالك بن طوق التغلبي، وقيل ببغداد. وتقدير عمره أربعون سنة، وذكر في «البستان» أنه توفي سنة خمسين، فالله أعلم. هذا لفظه بحروفه وإنما أرخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتي له هناك ترجمة مطولة.

■ ذو النون المصري: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: الفيض بن إبراهيم، أبو الفيض المصري أحد المشايخ المذكورين في رسالة القشيري وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله، وأرخ وفاته في هذه السنة، وقيل في التي بعدها، وقيل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فالله أعلم.

وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن مالك. وذكره ابن يونس في تاريخ مصر، قال: كان أبوه نوبياً وقيل إنه كان من أهل إخميم، وكان حكيماً فصيحاً، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قُنبرة عمياء نزلت من وكرها فانشقت الأرض عن سكرجتين من ذهب وفضة في إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فأكلت من هذه وشربت من هذه.

وقد شكي مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق، فلما دخل عليه وعظه فأبكاه، فرد مكرماً إلى بلده. فكان بعد ذلك إذا ذكر عنده بكى عليه.

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فنزل بقصر الخلافة منها، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق، وكان يوماً مشهوداً.

وفي صفر منها وقع الفداء بين المسلمين والروم، ففودي من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير.

وفي شعبان منها أمطرت بغداد مطرا عظيما استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً، ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط.

وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزينبي، وحج فيها من الأعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولي هو أمر الموسم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن إبراهيم الدورقي. والحسين بن الحسن المروزي. وأبو عمر الدوري. أحد القراء المشاهير. ومحمد بن مصفى الحمصي.

و■ دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي، مولاهم الشاعر الماجن البليغ في المدح، وفي الهجاء أكثر.

قال: حضر يوماً عند سهل بن هارون الكاتب وكان بخيلا، فاستدعى بغدائه فإذا ديك في قصعة، وإذا هو عاس لا يقطعه سكين إلا بشدة، ولا يعمل فيه ضرس. فلما حضر بين يديه فقد رأسه فقال للطباخ: ويلك، ماذا صنعت به؟ أين رأسه، قال: ظننت أنك لا تأكله فألقيته، فقال: ويحك، والله إني لأعيب على من يلقي الرجلين فكيف بالرأس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يصوت، وبه فضّل وعيناه يُضرب بهما المثل، وعرفه وبه يتبرك، وعظمه أهشُّ العظام، فإن كنت رغبت عن أكله فأحضره. فقال: لا أدري أين هو؟ فقال: بل أنا أدري، هو في بطنك قاتلك الله. فهجاه بأبيات ذكر فيها بخله ومسكه.

■ أحمد بن أبي الحواري: واسمه عبد الله بن ميمون بن عباس بن الحارث أبو الحسن التغلبي الغطفاني، أحد الزهاد المشهورين، والعباد المذكورين، والأبرار المشكورين، ذوي الأحوال الصالحة، والكرامات الصادقة، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتتلمذ للشيخ أبي سليمان

الداراني رحمهما الله.

وروى الحديث عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وخلق. وعنه أبو داود وابن ماجه وأبوحاتم وأبو زرعة الدمشقي، وأبو زرعة الرازي وخلق كثير. وذكره أبوحاتم فأثنى عليه.

وقال يحيى بن معين: إني لأظن أن الله يسقي أهل الشام به. وكان الجنيد بن محمد يقول: هو ريحانة الشام.

وقد روى الحافظ ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الداراني الا يغضبه ولا يخالفه، فجاءه يوماً وهو يحدث الناس فقال: ياسيدي، قد سجروا التنور فماذا تأمر؟ فلم يرد عليه أبو سليمان، لشغله بالناس، ثم أعادها أحمد ثانية وثالثة، فقال له في الثالثة:اذهب فاقعد فيه. ثم اشتغل أبو سليمان في حديث الناس ثم استفاق فقال لمن حضره: إني قلت لأحمد:اذهب فاقعد في التنور، وإني أخشى أن يكون قد فعل ذلك، فقوموا بنا إليه. فذهبوا فوجدوه جالساً في التنور ولم يحترق منه شعرة واحدة.

وروى أيضاً أن أحمد بن أبي الحواري أصبح ذات يوم وقد ولد له ولد ولا يملك شيئاً يصلح به الولد، فقال لخادمه: اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق، فبينما هو في ذلك إذ جاءه رجل بمائتي درهم فوضعها بين يديه، فدخل عليه رجل في تلك الساعة فقال: يا أحمد إنه قد ولد لي الليلة ولد ولا أملك شيئاً، فرفع أحمد طرفه إلى السماء وقال: يامولاي هكذا بالعجلة. وقال للرجل: خذ هذه الدراهم، لك، ولم يأخذ منها درهماً، واستدان لأهله دقيقاً.

وروى عنه خادمه أنه خرج إلى الثغر للرباط فما زالت الهدايا تفد إليه من بكرة النهار إلى الزوال، ثم فرقها كلها إلى وقت الغروب ثم قال لي: كن هكذا لا ترد على الله شيئاً، ولا تدخر عنه شيئاً.

ولما جاءت المحنة زمن المأمون إلى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبي الحواري وهشام بن عمار، وسليمان بن عبد الرحمن، وعبد الله بن ذكوان، فكلهم أجابوا إلا أحمد بن أبي الحواري فحبس بدار الحجارة، ثم هدد فأجاب تورية مكرهاً، ثم أطلق رحمه الله. وقد قام ليلة بالثغر يكرر هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] حتى أصبح. وقد ألقى كتبه في البحر وقال: نعم الدليل كنت لي على الله عزّ وجل وإليه، ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال. ومن كلامه: لا دليل على الله سواه، وإنما يطلب العلم لآداب الخدمة.

وقال: من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الآخرة رغب فيها، ومن عرف الله آثر رضاه.

وقال: من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه. وقال أيضاً: قلت لأبي سليمان الداراني في ابتداء أمري:أوصني، فقال: أمستوص أنت؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى. فقال: خالف نفسك في كل مراد لها فإنها الأمارة بالسوء، وإياك أن تحقر أحداً من المسلمين، واجعل طاعة الله دثاراً، والخوف منه شعاراً، والإخلاص زاداً، والصدق جُنّة، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ولا تفارقها ولا تغفل عنها: إنه من استحى من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله، بلغه إلى مقام الأولياء من عباده. قال فجعلت هذه الكلمات أمامي في كل وقت أذكرها وأطالب نفسي بها. والصحيح أنه توفي في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاثين ومائتين، وقيل غير ذلك فالله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يدي ولده المنتصر، وكان سبب ذلك أنه أمر ابنه عبد الله المعتز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخطب بالناس في يوم جمعة، فأداها أداء عظيماً بليغاً، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ، وحنق على أبيه وأخيه، ثم اتفق أن أحضره أبوه بين يديه فأهانه وأمر بضربه في رأسه وصفعه، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان. فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل على الله بالناس وعنده بعض التشكي من علة به، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال الشهر بندمائه على عادته في سمره وحضرته وشربه، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه في ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال، ويقال من شعبان من هذه السنة، وهو على السماط فابتدروه بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر كما سنذكره.

ترجمة المتوكل على الله

■ جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو الفضل المتوكل. وأمه أم ولد يقال لها شجاع، وكانت من سروات النساء سخاء وحزماً. كان مولده بفم الصلح سنة سبع ومائتين، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة لسنة ثنتين وثلاثين ومائتين كما تقدم.

وقد روى الخطيب [تاريخ بغداد: ١٦٦/٧] من طريقه عن يحيى بن أكثم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: "من حرم الرفق حرم الخير". ثم أنشأ المتوكل يقول:

الرفق يمن والأناة سعادة ... فاستأن في رفق تلاق نجاحا

لا خير في حزم بغير روية ... والشك وهن إن اردت سراحا

وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه: وحدث عن أبيه المعتصم ويحيى بن أكثم القاضي.

وروى عنه علي بن الجهم الشاعر، وهشام بن عمار الدمشقي، وقدم المتوكل دمشق في خلافته وابتنى بها قصراً بأرض داريا. وقال يوماً لبعضهم: إن الخلفاء كانت تتصعّب على الرعية لتطيعها، وإني ألين لهم ليحبوني ويطيعوني. وقال أحمد بن مروان المالكي:حدثنا أحمد بن علي البصري قال: وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المعذل. فقال المتوكل لعبيد الله:إن هذا لا يرى بيعتنا؟ فقال له: بلى يا أمير المؤمنين! ولكن في بصره سوء. فقال أحمد بن المعذل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء، ولكن نزهتك من عذاب الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من احب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار" [د (٥٢٢٩)، ت (٢٧٥٥)]. فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه.

وروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٦٧/٧] أن علي بن الجهم دخل على المتوكل وفي يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

وإذا مررت ببئر عروة فاسقني من مائها

فأعطاه التي في يمينه وكانت تساوي مائة ألف. ثم أنشده:

بِسُرَّ من رَا أميرٌ عدل تَغرف من بحره البحارُ
يُرجى ويُخشى لكل خطب كأنه جنةٌ ونارُ
الملك فيه وفي بنيه ما اختلف الليلُ والنهارُ
يداه في الجود ضرّتان عليه كلتاهما تغارُ
لم تأت منه اليمين شيئاً إلا أتت مثلَهُ اليسارُ

قال: فأعطاه التي في يساره أيضاً.

قال الخطيب: وقد رويت هذه الأبيات عن علي بن هارون للبحتري في المتوكل.

وروى ابن عساكر عن علي بن الجهم قال: وقفت قبيحةُ حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدها بالغالية جعفر فتأمل ذلك ثم أنشأ يقول:

وكاتبةٍ في الخد بالمسك جعفراً بنفسي مَخطُّ المسك من حيث أثّرا
لئن أودعتْ سطراً من المسك خدَّها لقد أودعت قلبي من الحب أسْطُرا
فيا من مناها في السّريرة جعفر سقى اللّه من سقيا ثناياك جعفرا
ويا من لمملوك يملك يمينه مطيع له فيما أسَرَّ وأظهرا

قال: ثم أمر المتوكل عريباً فغنت به.

وقال الفتح بن خاقان: دخلت يوماً على المتوكل فإذا هو مطرق مفكر فقلت: يا أمير المؤمنين ما لك مفكراً؟ فواللّه ما على الأرض أطيب منك عيشاً، ولا أنعم منك بالاً. قال: أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج إلينا فنزدريه.

وقد كان المتوكل محبباً إلى رعيته قائماً بالسُّنة فيهم، وقد شبهه بعضهم بالصديق في ردّه على أهل الردة، حتى رجعوا إلى الدين. وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية. وهو أظهر السنة بعد البدعة، وأخمد البدعة بعد انتشارها واشتهارها فرحمه اللّه.

وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور فقال المتوكل؟ فقال: المتوكل. قلت: فما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها.

وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلا يصعد به إلى السماء وقائلا يقول:

ملك يُقاد إلى مليكٍ عادلٍ متفضلٍ في العفو ليس بجائر

وروي عن عمرو بن شيبان الحلبي قال: رأيت ليلة قُتل المتوكل قائلا يقول:

يا نائم العين في أقطار جثمان أفِضْ دموعك يا عمرو بن شيبان
أما ترى الفتية الأرجاس ما فعلوا بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
وافى إلى اللّه مظلوماً فضجّ له أهل السموات من مثنى ووحدان
وسوف تأتيكم أخرى مسوّمةٌ توقّعوها لها شأن من الشان
فابكوا على جعفر وارثوا خليفتكم فقد بكاه جميع الإنس والجان

قال: فأصبحت فأخبرت الناس، فجاء نعيُه أنه قتل في تلك الليلة، قال ثم رأيته بعد هذا بشهر وهو واقف بين يدي اللّه عز وجل فقلت: ما فعل بك ربك؟ فقال: غفر لي. قلت بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها. قلت فما تصنع ههنا؟ قال: أنتظر ابني محمداً أخاصمه إلى اللّه الحليم العظيم الكريم.

وقد ذكرنا قريباً كيفية مقتله وأنّ ابنه محمداً المستنصر مالأ جماعة من الأمراء على قتله فقُتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وأربعين ومائتين ـ بالمتوكلية وهي الماحوزة، وصلي عليه يوم الأربعاء ودفن بالجعفرية وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام. وكان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر واللّه سبحانه أعلم.

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدم أنه تمالأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه، وحين قتل الخليفة المتوكل بويع له بالخلافة في الليل، فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعث إلى أخيه المعتز فأحضره إليه فبايعه المعتز، وقد كان المعتز هو ولي العهد قبله، ولكن أكرهه وخافه فسلَّم وبايع. فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه، وقتل الفتح أيضا، ثم بعث البيعة له إلى الآفاق.

وفي ثاني يوم من خلافته ولى المظالم لأبي عمرة أحمد بن سعيد مولى بني هاشم فقال الشاعر:

يا ضيعة الإسلام لما ولي مظالم الناس أبو عَمْرَهْ
صُيِّر مأموناً على أمةٍ وليس مأموناً على بَعْرَهْ

وكانت البيعة له بالمتوكلية، وهي الماحوزة، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع قوّاده وحشمه منها إلى سامرا.

وفي ذي الحجة من هذه السنة أخرج المنتصر عمه علي بن المعتصم من سامرا إلى بغداد ووكل به.

وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن سعيد الجوهري وسفيان بن وكيع بن الجراح، وسلمة بن شبيب.

و■ أبو عثمان المازني النحوي: واسمه بكر بن محمد بن عثمان البصري شيخ النحاة في زمانه، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وأكثر عنه، وللمازني مصنفات كثيرة في هذا الشأن وكان شبيهاً بالفقهاء ورعاً زاهداً ثقة مأموناً.

روى عنه المبرد أن رجلا من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب سيبويه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك فلامه بعض الناس في ذلك فقال: إنما تركت هذا لما فيه من آيات اللّه تعالى فاتفق بعد هذا أن جاريةً غنّت بحضرة الواثق:

أظلوم إنَّ مُصابكم رجلا ردَّ السلام تحيّةً ظُلْمُ

فاختلف من بحضرة الواثق في إعراب هذا البيت، وهل يكون رجلا مرفوعاً أو منصوباً، وبم نصب؟ أهو اسم أو ماذا؟ وأصرت الجارية على أن

المازني حفّظها هذا وهكذا. قال فأرسل الخليفة إليه، فلما مثل بين يديه قال له: أنت المازني؟ قال: نعم. قال من مازن تميم أم من مازن ربيعة أم من مازن قيس؟ فقلت: من مازن ربيعة. فأخذ يكلمني بلغتي، فقال: باسمك؟ وهم يقلبون الباء ميماً والميم باء، فكرهت أن أقول مكر فقلت: بكر، فأعجبه إعراضي عن المكر إلى البكر، وعرف ما أردت. فقال: علامَ تنصبُ رجلا؟ فقلت: لأنه معمول المصدر «مصابكم». فأخذ اليزيدي يعارضه فعلاه المازني بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً. فعوّضه الله عن المائة دينار لما تركها لله سبحانه ولم يمكن الذمي من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن ـ ألف دينار عشرة أمثالها.

وروى المبرد عنه قال: أقرأت رجلا كتاب سيبويه إلى آخره، فلما انتهى إلى آخره قال لي: أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفاً.

توفي المازني في هذه السنة وقيل في سنة ثمان وأربعين ومئتين، وأغرب من قال: سنة ست وثلاثين. فالله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

فيها أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة لقتال الروم، وذلك أن ملك الروم قصد بلاد الشام، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهّز معه جيشاً كثيفاً ورجالاً وعُدداً، وأمر له بنفقات كثيرة، وأمره إذا فرغ من قتال الروم أن يقيم بالثغر أربع سنين، وكتب له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتاباً عظيماً فيه آيات كثيرة في التحريض للناس على القتال والترغيب فيه.

وفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر من هذه السنة المباركة خلع أبو عبد الله محمد المعتز والمؤيد إبراهيم أخوَا أمير المؤمنين، وليّا العهد أنفسهما من الخلافة، وأشهدا عليهما بذلك، وأنهما عاجزان عن الخلافة، وأنّ المسلمين في حل من بيعتهما، وذلك بعد ما تهددهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلا ذلك، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب بإشارة أمراء الأتراك بذلك. وخطب بذلك على رؤوس الأشهاد بحضرة القواد والقضاة وأعيان بني هاشم والناس عامة، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر، ويتوالى على محال الكتابة، والله غالب على أمره، فأراد أن يسلبهما الملك ويجعله في عقبه، والأقدار تكذبه وتخالفه، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر، ففي أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه على ما سنذكره.

وقد كان المنتصر رأى في منامه كأنه يصعد سلماً فبلغ إلى آخر خمس وعشرين درجة، فقصها على بعض المعبرين فقال له: هذه خمسة وعشرون: تلي فيها الخلافة، وإذا بها مدة عمره قد استكملها في هذه السنة.

وقال بعضهم: دخلنا عليه يوماً فإذا هو يبكي وينتحب شديداً، فسأله بعض أصحابه عن بكائه فقال: رأيت أبي المتوكل في منامي هذا وهو يقول: ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغصبتني خلافتي، والله لا متّعت بها بعدي إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار.

قال: فما أملك عيني ولا جزعي. فقال له بعض أصحابه من الغرّارين الذين يغرون الناس ويفتنونهم: هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب، فَقُم بنا إلى الشراب ليذهب همك وحزنك. فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماؤه فأخذ في الخمر وهو منكسر الهمة، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات.

وقد اختلفوا في علته التي كان فيها هلاكه، فقيل: إنه أصابه داء في رأسه فقطر في أذنه دهن فلما وصل إلى دماغه عوجل بالموت، وقيل: بل ورمت معدته فانتهى الورم إلى قلبه فمات، وقيل بل أصابته ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فمات، وقيل بل فصده الحجام بمفصد مسموم فمات من يومه.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢٥١/٩]: أخبرني بعض أصحابنا أن هذا الحجام رجع إلى منزله وهو محموم فدعا تلميذاً له ليفصده فأخذ مبضع أستاذه ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام فما ذكر حتى رآه قد فصده به وتحكم فيه السم، فأوصى عند ذلك ومات من يومه.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٢٥٢/٩] أن أم الخليفة دخلت عليه وهو في مرضه الذي مات فيه فقالت له: كيف حالك؟ فقال: ذهبت مني الدنيا والآخرة.

ويقال إنه أنشد لما أحيط به وأيس من الحياة وهو في السِّياق:

فما فَرِحتْ نفسي بدنيا أصبتُها ... ولكن إلى الربِّ الكريم أصيرُ

فمات يوم الأحد لخمس مضين من ربيع الآخر من هذه السنة، وقت صلاة العصر، عن خمس وعشرين سنة، قيل: وستة أشهر، ولا خلاف أنه إنما ولي الخلافة ستة أشهر لا أزيد منها.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٢٥٤/٩] عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون العامة وغيرهم حين ولي المنتصر -: إنه لا يمكث في الخلافة سوى ستة أشهر، وذلك مدة خلافة من قتل أباه لأجلها، كما مكث شيرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك، وكذلك وقع سواءً.

وقد كان المنتصر أعين أقنى قصيراً مهيباً جيد البدن، وهو أول خليفة من بني العباس أبرز قبره، وذلك بإشارة أمه حبشية الرومية.

ومن جيد كلامه قوله: والله ما عز ذو باطل قط، ولو طلع القمر من جبينه، ولا ذلّ ذو حقّ قط ولو أصفق العالم عليه.

خلافة المستعين بالله

وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم بويع له بالخلافة يوم مات المنتصر، بايعه عموم الناس، ثم خرجت عليه شرذمة من الأتراك، يقولون: يا معتز يا منصور فالتف عليهم خلق، وقام بنصر المستعين جمهور الجيش، فاقتتلوا قتالا شديداً أياما، فقتل خلق من الفريقين، وانتهبت أماكن كثيرة من بغداد، وجرت فتن منتشرة كثيرة جدّا، ثم استقر الأمر للمستعين، فعزل وولى، وقطع ووصل، وأمر ونهى أياماً ومدة غير طويلة.

وفيها مات

■ **بغا الكبير** في جمادى الآخرة منها، فولى الخليفة مكانه ولده موسى بن بغا، وقد كانت له همّة عالية وآثار سامية، وغزوات في المشارق والمغارب متوالية.

وفي هذه السنة ابتاع المستعين من أبي عبد الله المعتز شيئاً كثيراً من المتاع والضياع بما قيمته عشرة آلاف ألف دينار، وترك عشر حبات جوهر ومن إبراهيم بما قيمته ثلاثة آلاف ألف دينار، وثلاث حبات سلا ذهباً وورقا.

وفيها عدا أهل حمص على عاملهم، فأخرجوه من بين أظهرهم، فبعث إليهم المستعين، فأخذ منهم مائة رجل من سرواتهم، وأمر بهدم سورهم.

وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزينبي.

وفيها توفي من الأعيان

أحمد بن صالح؛ والحسين بن علي الكرابيسي. وعبد الجبار بن العلاء، وعبد الملك بن شعيب، وعيسى بن حماد، ومحمد بن حميد الرازي، ومحمد بن زنبور ومحمد بن العلاء أبو كريب، ومحمد بن يزيد أبو هشام الرفاعي.

و■ **أبو حاتم السجستاني** واسمه سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي أبو حاتم النحوي اللغوي، صاحب المصنفات الكثيرة، وكان بارعاً في اللغة اشتغل فيها على أبي عبيدة، والأصمعي، وأكثر الرواية عن أبي زيد الأنصاري وأخذ عنه المبرّد، وابن دريد، وغيرهما، وكان عبداً صالحاً، كثير الصدقة والتلاوة، وكان يتصدق كل يوم بدينار، ويقرأ في كل أسبوع ختمة، وله شعر كثير فمن قوله:

أبرزوا وجهَهُ الجميلَ ... ولاموا من افتتن

لَو أرادوا صيَانتي ... ستَروا وجهَهُ الحسن

قال ابن خلكان: وكانت وفاته في المحرم، وقيل في رجب من هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائتين

في يوم الجمعة، للنصف من رجب منها، التقى جمع من المسلمين، وخلق من الروم بالقرب من ملطية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، قُتِل من الفريقين خلق كثير، وقُتِل أمير المسلمين عمر بن عبد الله بن الأقطع، وقُتِل معه ألفا رجل من المسلمين، وكذلك قُتِل الأمير علي بن يحيى الأرمني، في طائفة من المسلمين أيضاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد كان هذان الأميران من أكبر أنصار الإسلام.

ووقعت فتنة عظيمة ببغداد في أول يوم من صفر من هذه السنة، وذلك أن العامة كرهوا جماعة من الأمراء الذين قد تغلبوا على أمر الخلافة، وقتلوا المتوكل، واستضعفوا المنتصر، والمستعين بعده، فنهضوا إلى السجن، فأخرجوا من كان فيه، وجاؤوا إلى الجسر، فقطعوه، وضربوا الآخر بالنار، فأحرقوه، ونادوا بالنفير، فاجتمع خلق كثير، وجم غفير، ونهبوا أماكن متعددة، وذلك بالجانب الشرقي من بغداد ثم جمع أهل اليسار من أهل بغداد أموالا كثيرة، لتصرف إلى من ينهض إلى ثغور الروم لقتالهم، عوضاً عن من قتل من المسلمين هناك، فأقبل خلق كثير من نواحي الجبال، والأهواز، وفارس، وغيرها، لغزو الروم، وذلك أن الخليفة والجيش تأخروا عن النهوض إلى بلاد الروم، وقتال أعداء الإسلام، وقد ضعف جانب الخلافة، واشتغلوا بالقيان، والملاهي، فعند ذلك غضبت العامة من ذلك، وفعلوا ما ذكرنا.

ولتسع بقين من ربيع الأول، نهض عامة أهل سامرا إلى السجن، فأخرجوا من فيه أيضاً كما فعل أهل بغداد، وجاءهم قوم من الجيش يقال لهم الزرافة فهزمتهم العامة، فركب عند ذلك وصيف، وبغا الصغير، وعامة الأتراك، فقتلوا من العامة خلقاً كثيراً، وجرت فتن طويلة كثيرة، ثم سكنت.

وفي النصف من ربيع الآخر وقعت فتنة بين الأتراك، وذلك أن الخليفة المستعين كان قد فوض أمر الخلافة، والتصرف في أموال بيت المال، إلى ثلاثة وهم أتامش التركي، وكان أخص مَنْ عنده وهو بمنزلة الوزير، وفي حجره العباس بن المستعين يربيه ويعلمه الفروسية. وشاهك الخادم، وأم الخليفة وكان لا يمنعها شيئاً تريده، وكان لها كاتب يقال له سلمة بن سعيد النصراني فاقبل اتامش فاسرف في أخذ الأموال، حتى لم يُبق ببيت المال شيئاً، فغضبت الأتراك من ذلك، وغارت منه، فاجتمعوا عليه عند ذلك وركبوا إليه، فأحاطوا بقصر الخلافة، وهو عند المستعين، ولم يمكنه منعه منهم، ولا دفعهم عنه، فأنزلوه صاغراً فقتلوه، وانتهبوا أمواله، وحواصله، ودوره، واستوزر الخليفة بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وولّى بغا الصغير فلسطين، وولّى وصيفاً الأهواز، وجرى خبط كبير ووهنٌ كثير من أمر الخليفة وضعف وتحركت المغاربة بسامرا في يوم الخميس لثلاث خلون من جمادى الآخرة، فكانوا يجتمعون، فيركبون، ثم يتفرقون.

وفي يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الأولى، وهو اليوم السادس عشر من تموز، مُطِر أهل سامرا مطراً عظيماً برعد، وبرق، وغيم مطبق، والمطر مستهل كثير من أول النهار إلى اصفرار الشمس.

وفي ذي الحجة أصاب أهل الري زلزلة شديدة جداً، ورجفة هائلة، تهدمت منها الدور، ومات منها خلق كثير، وخرج بقية أهلها إلى الصحراء.

حج بالناس هذه السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام وهو والي مكة.

وممن توفي فيها من الأعيان

أيوب بن محمد الوزان. والحسن بن الصباح البزار صاحب كتاب السنن، **ورجاء بن مرجا الحافظ، وعبد بن حميد** صاحب المسند والتفسير الحافل، **وعمرو بن علي الفلاس.**

و■ **علي بن الجهم** بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسد القرشي السامي من ولد سامة بن لـؤيّ الخراساني، ثم البغدادي، أحد الشعراء المشهورين وأهل الديانة المعتبرين وله ديوان شعر فيه أشعار حسنة وكان فيه تحامل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان له خصوصية بالمتوكل، ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان، وأمر نائبه بها أن ينصبه يوماً مجرداً، ففعل به ذلك، ومن مستجاد شعره:

بلاء ليس يعدله بلاء ... عداوة غير حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون

وإنما قال ذلك في مروان بن حفصة حين هجاه فقال في هجائه له:

لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر ... وهذا علي بعده يدعي الشعرا

ولكن أبي قد كان جاراً لأمه ... فلما ادعى الأشعار أوهمني أمرا

كان علي بن الجهم قد قدم الشام، ثم عاد قاصداً العراق، فلما جاوز حلب ثار عليه أناس من بني كلب، فقاتلهم، فجرح جرحاً بليغاً، فكان فيه حتفه، فوجد بين ثيابه رقعة مكتوب فيها:

يا رحمتا للغريب في البلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده وما انتفعا

كانت وفاته بهذا السبب في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمسين ومائتين من الهجرة

فيها كان ظهور أبي الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة، وأمه أم الحسين فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وذلك أنه أصابته فاقة شديدة، فرحل إلى سامرا، فسأل وصيفاً أن يجري عليه رزقاً، فأغلظ له القول فرجع إلى أرض الكوفة، فاجتمع عليه خلق من الأعراب، وخرج إليه خلق من أهل الكوفة، فنزل على الفلوجة، وقد كثر الجمع معه، فكتب محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق إلى عامل الكوفة- وهو أبو أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان- يأمره بمقاتلته ودخل يحيى بن عمر قبل ذلك في طائفة من أصحابه إلى الكوفة، فاحتوى على بيت مالها، فلم يجد فيه سوى ألفي دينار وسبعين ألف درهم، وظهر أمره بالكوفة، وفتح السجنين، وأطلق من فيهما، وأخرج نواب الخليفة منها وأخذ أموالهم واستحوذ عليها، واستحكم أمره بها، والتف عليه خلق من الزيدية، وغيرهم، ثم خرج من الكوفة إلى سوادها، ثم كرّ راجعاً إليها، فتلقاه عبد الرحمن بن الخطاب الملقب وجه الفلس، فقاتله قتالاً شديداً، فانهزم وجه الفلس، ودخل يحيى بن عمر الكوفة، ودعا إلى الرضى من آل محمد، وقوي أمره جداً، وصار إليه جماعة من الناس من أهل الكوفة وغيرها، وتولاه أهل بغداد من العامة وغيرهم ممن ينسب إلى التشيع، وأحبوه أكثر مما كانوا يحبُّون أحداً من الخارجين من أهل البيت، وشرع في تحصيل السلاح، وإعداد آلات الحرب، وجمع الرجال وقد خرج نائب الكوفة منها وهو الحسين بن إسماعيل إلى ظاهرها، واجتمع إليه أمداد كثيرة من جهة الخليفة ومحمد بن عبد الله بن طاهر، واستراحوا وجمّت خيولهم، فلما كان اليوم الثالث عشر من رجب أشار من أشار على يحيى بن عمر ممن لا رأي له، أن يركب، ويناجز الحسين بن إسماعيل، ويكبس جيشه، فركب في جيش كثير فيه خلق من الفرسان، والمشاة أيضاً من عامة أهل الكوفة بغير أسلحة فساروا فلما انتهوا إليهم نهضوا إليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً في ظلمة آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وقد انكشف أصحاب يحيى بن عمر وداستهم الخيول ووجدوا يحيى بن عمر قد تقنطر به فرسه وطعن في ظهره فخر أيضاً فأخذوه وحزوا رأسه، وحملوه إلى الأمير، فبعثه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فأرسله إلى الخليفة من الغد مع رجل يقال له عمر بن الخطاب، أخي عبد الرحمن بن الخطاب، لينصب بسامرا ساعة من النهار، ثم بعث به إلى بغداد فنصب عند الجسر، ولم يمكن نصبه من كثرة العامة فجعل في خزائن السلاح ولما جيء برأس يحيى بن عمر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، دخل الناس يهنونه بالفتح والظفر، فدخل عليه أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفري، فقال له: أيها الأمير! إنك لتهنّى بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حياً لعزي به، فما رد عليه شيئاً، ثم خرج أبو هاشم الجعفري وهو يقول:

يا بني طاهر كلوهُ وبيـاً إن لحم النبي غيرُ مريٍّ
إن وتراً يكونُ طالبه اللـ ـهُ لَوترٌ نجاحه بالحري

وكان الخليفة المستعين قد وجه أميراً إلى الحسين بن إسماعيل نائب الكوفة، فلما قتل يحيى بن عمر دخلوا الكوفة، فأراد ذلك الأمير أن يضع في أهلها السيف، فمنعه الحسين بن إسماعيل، وأمن الأسود والأبيض، وأطفأ الله هذه الفتنة.

ثم خرج آخرَ من أهل البيت أيضاً

فلما كان رمضان من هذه السنة خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب بناحية طبرستان، وكان سبب ذلك أنه لما قُتِل يحيى بن عمر أقطع المستعين لمحمد بن عبد الله بن طاهر طائفة من أرض تلك الناحية، فبعث كاتباً له يقال له جابر بن هارون، وكان نصرانياً، ليتسلم تلك الأراضي، فلما انتهى إليهم كرهوا ذلك جداً وراسلوا الحسن بن زيد هذا، فجاء إليهم فبايعوه، والتفت عليه جملة الديلم، وجماعة الأمراء في تلك النواحي، فركب فيهم، ودخل آمل طبرستان، وأخذها قهراً، وجبى خراجها واستفحل أمره جداً، ثم خرج منها طالباً لقتال سليمان بن عبد الله أمير تلك النواحي، فالتقيا هنالك، وكانت بينهما حروب، ثم انهزم سليمان هزيمة منكرة، وترك أهله وماله، ولم يرجع دون جرجان، فدخل الحسن بن زيد سارية، فاستحوذ على ما بها من الأموال والحواصل، وسير أهل سليمان إليه مراكب مكرمين، واجتمع للحسن بن زيد إمرة طبرستان بكمالها ثم بعث إلى الري فأخذها أيضاً وأخرج منها الطاهرية، وصار له إلى حدِّ همذان ولما بلغ خبره المستعين- وكان مدبر ملكه يومئذٍ وصيف التركي- اغتم لذلك جداً واجتهد في بعث الجيوش والأمداد لقتال الحسن بن زيد هذا.

وفي يوم عرفة من هذه السنة ظهر بالري أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فصلى بالناس يوم العيد أحمد بن عيسى هذا، ودعا إلى الرضى من آل محمد، فحاربه محمد بن علي بن طاهر، فهزمه أحمد بن عيسى، واستفحل أمره.

وفي هذه السنة وثب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن، أخي المازيار بن قارن فقتلوه في رجب، فوجه المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير، فاقتتلوا بأرض الرستن، فهزمهم وقتل جماعة من أهلها، وأحرق أماكن كثيرة منها، وأسر أشراف أهلها.

وفيها وثبت الشاكرية والجند في أرض فارس على عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فهرب منهم، فانتهبوا داره، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن.

وفيها غضب الخليفة على جعفر بن عبد الواحد ونفاه إلى البصرة.

وفيها أسقطت مرتبة جماعة من الأمويين في دار الخلافة.

وحج بالناسفيها جعفر بن الفضل أمير مكة شرفها الله.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أبو الطاهر احمد بن عمرو بن السرح، والبزّي أحد القراء المشاهير، والحارث بن مسكين، وأبو حاتم السجستاني، أحد أئمة اللغة، وعبّاد بن يعقوب الرواجني، وعمرو بن بحر الجاحظ صاحب الكلام والمصنفات، وكثير بن عبيد الحمصي، ونصر بن علي الجهضمي.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين

فيها اجتمع رأي المستعين وبغا الصغير ووصيف على قتل باغر التركي، وكان من قواد الأمراء الكبار الذين باشروا قتل المتوكل، وقد اتسع

إقطاعه، وكثرت أعماله، فقُتِل ونُهبت دار كاتبه دليل بن يعقوب النصراني، ونهبت أمواله وحواصله، فركب الخليفة في حراقة من سامرا إلى بغداد فاضطربت الأمور بسبب خروجه إليها، وذلك في خامس المحرم، فنزل الخليفة دار محمد بن عبد اللّه بن طاهر.

وفي هذه السنة وقعت فتنة شنعاء بين جند بغداد، وجند سامرا، ودعا أهل سامرا إلى بيعة المعتز، واستقر أمر أهل بغداد على المستعين، وأخرج المعتز وأخوه المؤيد من السجن، فبايع أهل سامرا المعتز، واستحوذ على حواصل بيت المال بها، فإذا فيها خمسمائة ألف دينار، وفي خزانة أم المستعين ألف ألف دينار، وفي حواصل العباس بن المستعين ستمائة ألف دينار، واستفحل أمر المعتز بسامرا. وأمر المستعين لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر أن يحصن بغداد، ويعمل في السورين، والخندق، وغرم على ذلك ثلاثمائة ألف دينار، وثلاثين ألف دينار، ووكل بكل باب أميراً يحفظه، ونصب على السور خمسة مجانيق، منها واحد كبير جداً، يقال له الغضبان، وست عرادات، وأعدوا آلات الحرب، والحصار، والعدد، وقطعت القناطر من كل ناحية، لئلا يصل الجيش إليهم.

وكتب المعتز إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر يدعوه إلى الدخول معه في أمره، ويذكره ما كان أخذه عليهم أبوه المتوكل من العهود والمواثيق، أن تكون الخلافة بعد المنتصر له، فلم يلتفت إليه بل ردّ عليه واحتج بحجج يطول ذكرها.

وكتب كل واحد من المستعين والمعتز إلى موسى بن بغا الكبير وهو مقيم بأطراف الشام لحرب أهل حمص، يدعوه إلى نفسه، وبعث إليه بألوية يعقدها لمن اختار من أصحابه، وكتب إليه المستعين يأمره بالمسير إليه إلى بغداد، ويأمره أن يستنيب في عمله، فركب مسرعاً فسار إلى سامرا، فكان مع المعتز على المستعين. وكذلك هرب عبد اللّه بن بغا الصغير من عند أبيه من بغداد إلى سامرا، وكذلك غيره من الأمراء والأتراك.

وعقد المعتز لأخيه أبي أحمد بن المتوكل على حرب المستعين، وجهز معه جيشاً لذلك، فسار في خمسة آلاف من الأتراك، وغيرهم نحو بغداد، وصلّى بعكبرا يوم الجمعة، ودعا لأخيه المعتز، ثم وصل إلى بغداد في ليلة الأحد لسبع خلون من صفر، فاجتمعت العساكر هنالك، وقد قال رجل يقال له باذنجانة كان في عسكر أبي أحمد:

يا بني طاهر أتتكم جنود الـ ... ـلـه والموتُ بينها منثورُ
وجيوشٌ أمامهنّ أبو أحـ ... ـمدَ نعمَ المولى ونعمَ النصيرُ

ثم جرت بينهما حروب طويلة وفتن مهولة جداً قد ذكرها ابن جرير مطولة [تاريخه: ٩/٢٩٩]، ثم بعث المعتز مع موسى بن أشناس ثلاثة آلاف مدداً لأخيه أبي أحمد بن المتوكل، فوصلوا لليلة بقيت من ربيع الأول، فوقفوا في الجانب الغربي عند باب قطربّل، وأبو أحمد، وأصحابه على باب الشماسية، والحرب مستعرة، والقتال كثير جداً، والقتل واقع.

قال ابن جرير [تاريخه: ٩/٣١٦]: وذكر أن المعتز كتب إلى أخيه أبي أحمد يلومه على التقصير في قتال أهل بغداد، فكتب إليه أبو أحمد:

لأمر المنايا علينا طريق ... وللدهر فينا اتساع وضيق
وأيامنا عبر للأنام ... فمنها البكور ومنها الطروق
ومنها هنات تشيب الوليد ... ويخذل فيها الصديقَ الصديقُ
وسور عريض له ذروة ... تفوت العيون وبحر عميق
قتال مبيد وسيف عتيد ... وخوف شديد وحصن وثيق
وطول صياح لداعي الصباح الـ ... ـسلاحَ السلاحَ فما يستفيق
فهذا طريح وهذا جريح ... وهذا حريق وهذا غريق
وهذا قتيل وهذا تليل ... وآخر يشدخه المنجنيق
هناك اغتصاب وثم انتهاب ... ودور خراب وكانت تروق
إذا ما سمونا إلى مسلك ... وجدناه قد سد عنا الطريق
فباللّه نبلغ ما نرتجيه ... وباللّه ندفع ما لا نطيق

قال ابن جرير [تاريخه: ٩/٣١٧]: هذا الشعر ينشد لعلي بن أمية في فتنة المخلوع والمأمون.

وقد استمرت الفتنة والقتال ببغداد بين أبي أحمد أخي المعتز، وبين محمد بن عبد اللّه بن طاهر نائب المستعين، والبلد محصور، وأهله في ضيق شديد جداً، بقية شهور هذه السنة، وقتل من الفريقين خلق كثير في وقعات متعددات، وأيام نحسات، فتارة يظهر أصحاب أبي أحمد، ويأخذون بعض الأبواب، فتحمل عليهم الطاهرية، فيزيحونهم عنها، ويقتلون منهم خلقاً ثم يتراجعون إلى مواقفهم ويصابرونهم مصابرة عظيمة، لكن أهل بغداد كل ما لهم إلى ضعف بسبب قلة الميرة والجلب إلى داخل البلد.

ثم شاع بين العامة أن محمد بن عبداللّه بن طاهر يريد أن يخلع المستعين، ويبايع للمعتز، وذلك في أواخر السنة، فتنصل من ذلك واعتذر إلى الخليفة وإلى العامة وحلف بالأيمان الغليظة، فلم تبرأ ساحته من ذلك حق البراءة عند العامة، واجتمعت العامة والغوغاء إلى دار ابن طاهر، والخليفة نازل بها، فسألوا أن يبرز الخليفة ليروه، ويسألوه عن ابن طاهر أهو راض عنه أم لا؟ وما زالت الضجة والأصوات مرتفعة، حتى برز لهم الخليفة من فوق المكان الذي هم فيه وعليه السواد ومن فوقه البردة النبوية وبيده القضيب وقال لهم فيما خاطبهم به: أقسمت عليكم بحق صاحب هذه البردة والقضيب لما رجعتم إلى منازلكم ورضيتم عن ابن طاهر، فإنه غير متهم لدي، فسكت الغوغاء ورجعوا إلى منازلهم، ثم انتقل الخليفة من دار ابن طاهر إلى دار رزق الخادم، وذلك في أوائل ذي الحجة، وصلى بهم العيد يوم الأضحى في الجزيرة التي بحذاء دار ابن طاهر، وبرز الخليفة يومئذٍ للناس، وبين يديه الحربة، وعليه البردة، وبيده القضيب، وكان يوماً مشهوداً ببغداد على ما بأهلها من الحصار، وغلاء الأسعار المترجين لباس الجوع والجوع نسأل اللّه العافية في الدنيا والآخرة.

ولما تفاقم الأمر، واشتد الحال، وضاق المجال، وجاع العيال، وجهد الرجال، شرع ابن طاهر يظهر ما كان كامناً في نفسه من خلع المستعين، فجعل يعرض له في ذلك، ولا يصرح، ثم كاشفه به، وأظهره له وناظره فيه وقال له: إن المصلحة تقتضي أن تصالح عن الخلافة على مال تأخذه سلفاً وتعجيلا، وأن يكون لك من الخراج في كل عام ما تختاره وتحتاجه، ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب، حتى أجاب إلى ذلك وأناب، فكتب فيما اشترطه المستعين في خلعه نفسه من الخلافة كتاباً، فلما كان يوم السبت لعشر بقين من ذي الحجة ركب محمد بن عبد اللّه بن طاهر إلى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء، وأدخلهم على المستعين فوجاً فوجاً يشهدون عليه، أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر، وكذلك جماعة الحجاب والخدم، ثم تسلم منه جوهر الخلافة، وأقام عند المستعين إلى هوي من الليل وأصبح الناس يذكرون ويتنوعون فيما يقولون من الأراجيف. وأما

ابن طاهر، فإنه أرسل بالكتاب مع جماعة من الأمراء إلى المعتز بسامرا، فلما قدموا عليه بذلك أكرمهم، وخلع عليهم وأجازهم فأسنى جوائزهم، وسيأتي ما كان من أمره أول السنة الداخلة.

وفي هذه السنة في ربيع الأول منها كان ظهور رجل من أهل البيت أيضاً بأرض قزوين وزنجان وهو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويعرف بالكوكبي.وسيأتي ماكان من أمره هناك.

وفيها خرج إسماعيل بن يوسف العلوي، وهو ابن أخت موسى بن عبد الله الحسني وسيأتي ماكان من أمره أيضاً.

وفيها خرج بالكوفة أيضا رجل من الطالبيين وهو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان، فاقتتلا فهزم العلوي، وقتل من أصحابه بشر كثير، ولما دخل مزاحم الكوفة حرق بها ألف دار، ونهب أموال الذين خرجوا معه، وباع بعض جواري الحسين بن محمد هذا، وكانت معتقة على باب المسجد الجامع.

وفيها ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب بمكة، فهرب منه نائبها جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى، فانتهب إسماعيل بن يوسف منزله، ومنازل أصحابه، وقتل جماعة من الجند وغيرهم من أهل مكة، وأخذ ما في الكعبة من الذهب، والفضة، والطيب، وكسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار، ثم خرج إلى المدينة النبوية، فهرب منه عاملها علي بن الحسين بن إسماعيل، ثم رجع إسماعيل بن يوسف إلى مكة في رجب، فحصر أهلها، حتى هلكوا جوعاً وعطشاً، فبيع الخبز ثلاث أواق بدرهم، واللحم الرطل بأربعة، وشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقي منه أهل مكة كل بلاء، ثم رجع عنهم إلى جدة بعد مُقام سبعة وخمسين يوماً، فانتهب أموال التجار هنالك، وأخذ المراكب، وقطع الميرة عن أهل مكة، حتى جُلبت إليها من اليمن، ثم عاد إلى مكة لا جزاه الله خيراً عن المسلمين، فلما كان يوم عرفة لم يمكن الناس من الوقوف نهاراً ولا ليلا، وقتل من الحجيج ألفاً ومائة، وسلبهم أموالهم، ولم يقف بعرفة عامئذٍ سواه، ومن معه من أصحابه، لا تقبّل الله منهم صرفاً ولا عدلا. وفيها وهن أمر الخلافة جداً.

وفيها توفي من الأعيان

إسحاق بن منصور الكوسج، وحميد بن زنجويه، وعمرو بن عثمان بن كثير بن دينار الحمصي، وأبو التقي هشام بن عبد الملك اليزني.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين

ذكر خلافة المعتز بالله بن المتوكل على الله
بعد خلع المستعين نفسه

استهلت هذه السنة، وقد استقرت الخلافة باسم أبي عبد الله المعتز محمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وقيل: إن اسم المعتز أحمد وقيل الزبير وهو الذي عوّل عليه الحافظ ابن عساكر وترجمه في تاريخه [٣٠٧/١٨]. فلما خلع المستعين أحمد بن محمد المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع للمعتز دعا الخطباء يوم الجمعة رابع المحرم من هذه السنة بجوامع بغداد على المنابر للخليفة المعتز بالله، وانتقل المستعين من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل هو وعياله وولده وجواريه، ووكّل بهم سعيد بن رجاء في جماعة معه، وأخذ من المستعين البردة، والقضيب، والخاتم، وبعث بذلك إلى المعتز، ثم أرسل إليه المعتز يطلب منه خاتمين من جوهر ثمين بقيا عنده يقال لأحدهما برج وللآخر جبل. فأرسلهما وطلب المستعين أن يسير إلى مكة، فلم يمكن، فطلب البصرة، فقيل له إنها وبيئة. فقال: إن ترك الخلافة أوبأ منها. ثم أذن له في المسير إلى واسط، فخرج ومعه حرس يوصلونه إليها نحو من أربعمائة.

واستوزر المعتز أحمد بن أبي إسرائيل، وخلع عليه، وألبسه تاجاً على رأسه. ولما تمهد أمر بغداد، واستقرت البيعة للمعتز بها، ودان له أهلها، واجتمع شملها وقدمتها الميرة من كل جانب، واتسع الناس في الأرزاق والأطعمة، ركب أبو أحمد منها في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم إلى سامرا، وشيّعه محمد بن عبد الله بن طاهر في وجوه القوّاد، فخلع أبو أحمد على ابن طاهر خمس خلع، وسيفاً، ورده من الرُوذبار.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٥٠/٩-٣٥٣] مدائح الشعراء في المعتز، وتشفّيهم بخلع المستعين، فأكثر من ذلك جداً، فمن ذلك قول محمد بن مروان بن أبي الجنوب بن مروان في مدح المعتز وذم المستعين كما جرت به عادة الشعراء:

ان الأمور إلى المعتز قد رجعت ... والمستعين إلى حالاته رجعا
وكان يعلم ان الملك ليس له ... وأنه لك لكن نفسه خدعا
ومالك الملك مؤتيه ونازعه ... آتاك ملكاً ومنه الملك قد نزعا
إن الخلافة كانت لا تلائمه ... كانت كذات حليل زوجت متعا
ما كان اقبح عند الناس بيعته ... وكان أحسن قول الناس قد خلعا
ليت السفين إلى قاف دفعن به ... نفسي الفداء لملاح به دفعا
كم ساس قبلك أمر الناس من ملكٍ ... لو كان حُمّل ما حُمّلته ظلعا
أمسى بك الناس بعد الضيق في سَعَةٍ ... والله يجعل بعد الضيق متسعا
والله يدفع عنك السوء من ملكٍ ... فإنه بك عنا السوء قد دفعا

وكتب أمير المؤمنين المعتز من سامرا إلى نائب بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر أن يسقط اسم وصيف وبغا ومن كان في رسمهما في الدواوين، وعزم على قتلهما، ثم استرضي عنهما فرضي عنهما.

وفي رجب من هذه السنة خلع المعتز أخاه إبراهيم الملقب بالمؤيد من ولاية العهد وحبسه، وأخاه أبا أحمد، بعدما ضرب المؤيد أربعين مقرعة. ولما كان يوم الجمعة سابعه خطب بخلعه، وأمره أن يكتب كتاباً على نفسه بذلك، وكانت وفاته بعد ذلك كلّه بخمسة عشر يوماً، فقيل إنه أدرج في لحاف سمور وأمسك طرفاه حتى مات غماً، وقيل بل ضُرب بحجارة من ثلج حتى مات برداً وبعد ذلك أخرج من السجن ولا أثر به، فأحضر القضاة والأعيان، فشهدوا على موته من غير سبب وليس به أثر، ثم حمل على حمار، ومعه كفنه أُرسل به إلى أمه، فدفنته.

ذكر مقتل المستعين

في شوّال من هذه السنة كتب المعتز إلى نائبه محمد بن عبد اللّه بن طاهر يأمره بتجهيز جيش نحو المستعين فجهز أحمد بن طولون التركي فوافاه فأخرجه لست بقين من رمضان فقدم به القاطول لثلاث مضين من شوّال، ثم قتل، فقيل ضرب حتى مات، وقيل بل غرّق في دجيل، وقيل بل ضربت عنقه.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٦٤/٩] أن المستعين سأل من سعيد بن صالح التركي حين أراد قتله أن يمهله حتى يصلّي ركعتين، فأمهله، فلما كان في السجدة الأخيرة قتله وهو ساجد، ودفن جثته في مكان صلاته، وعفا أثره وحمل رأسه إلى المعتز، فدخل به عليه وهو يلعب بالشطرنج، فقيل هذا رأس المخلوع. فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست. فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه، ثم أطلق لسعيد بن صالح الذي قتله خمسين ألف درهم، وولاه معونة البصرة.

وفي هذه السنة مات

■ إسماعيل بن يوسف العلوي الذي فعل بمكة ما فعل والحدَ في حرم اللّه ما ألحد فأهلكه اللّه في هذه السنة عاجلا ولم ينظره ربه عز وجل.

و■ أحمد بن محمد المعتصم وهو المستعين باللّه كما تقدم، وإسحاق بن بهلول، وزياد بن أيوب، ومحمد بن بشار، بُقدار، ومحمد بن المثنى الزمن، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين

في رجب منها عقد المعتز لموسى بن بغا الكبير على جيش قريب من أربعة آلاف، ليذهبوا إلى قتال عبد العزيز بن أبي دلف بناحية همذان، وذلك لأنه خرج عن الطاعة وهو في نحو من عشرين ألفاً، فهزموا عبدالعزيز في أواخر هذا الشهر هزيمة فظيعة، ثم كانت بينهما وقعة أخرى في رمضان عند الكرج، فهزم عبد العزيز أيضاً، وقتل من أصحابه بشر كثير، وأسروا ذراري كثيرة، حتى أسروا أم عبد العزيز، وبعثوا إلى الخليفة سبعين حملا من الرؤوس، وأعلاماً كثيرة، وأخذ من عبد العزيز ما كان استحوذ عليه من بلاد الخليفة.

وفي رمضان منها خلع المعتز على بغا الشرابي، وألبسه التاج والوشاحين.

وفي يوم عيد الفطر كانت وقعة هائلة عند البوازيج، وذلك أن رجلا يقال له مساور بن عبد الحميد حكم فيها، والتف عليه نحو من سبعمائة من الخوارج، فقصد له رجل يقال له بندار الطبري في نحو من ثلاثمائة من أصحابه، فالتقوا في هذا اليوم فاقتتلوا قتالا شديداً، فقتل من الخوارج نحو من خمسين، وقتل من أصحاب بندار مائتان، وقيل وخمسون رجلا وقتل بندار فيمن قتل رحمه اللّه ثم صمد مساور إلى حلوان، فقاتله أهلها وأعانهم حجاج أهل خراسان، فقتل مساور منهم نحواً من أربعمائة إنسان قبّحه اللّه. وقتل من أصحابه جماعة كثيرون أيضاً، ولثلاث بقين من شوال قتل وصيف التركي، وأرادت العامة أن تنهب داره بسامرّا، ودور أولاده، فلم يمكنهم ذلك، وجعل الخليفة المعتز ما كان إليه إلى بغا الشرابي.

وفي ليلة أربع عشرة من ذي القعدة من هذه السنة خسف القمر، حتى غاب أكثره وغرق نوره، وعند انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد اللّه بن طاهر نائب العراق ببغداد وكانت علّته قروحاً في رأسه وحلقه، فذبحته، ولما أُتي به ليصلى عليه، اختلف أخوه عبيد اللّه، وابنه طاهر أيهما يصلي عليه، وتنازعا، حتى جذبت السيوف، وترامى الناس بالحجارة، وصاحت الغوغاء يا طاهر يا منصور: فمال عبيد اللّه إلى الشرقية، ومعه القواد وأكابر الناس، فدخل داره، وصلى عليه ابنه وكان أخوه قد أوصى إليه. وحين بلغ المعتز ما وقع بعث بالخلع والولاية إلى عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، فأطلق عبيداللّه للذي قدم بالخلع خمسين ألف درهم.

وفيها نفى الخليفة المعتز أخاه أبا أحمد من سر من رأى إلى واسط، ثم إلى البصرة، ثم رد إلى بغداد فأُنزل في الشرقية في قصر دينار بن عبد اللّه.

وفيها نُفي عليّ بن المعتصم إلى واسط ثم رُدَّ إلى بغداد أيضاً.

وفي يوم الاثنين سلخ ذي القعدة التقى موسى بن بغا الكبير، هو والحسين بن أحمد الكوكبي الطالبي الذي خرج في سنة إحدى وخمسين عند قزوين فاقتتلا قتالا شديداً، ثم هزم الكوكبي، وأخذ موسى بن بغا قزوين، وهرب الكوكبي إلى الديلم.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٣٧٨/٩] عن بعض من حضر هذه الوقعة أن الكوكبي حين التقى أمر أصحابه أن يتترسوا بالجحف- فكانت السهام لا تعمل فيهم- فأمر موسى بن بغا أصحابه عند ذلك أن يطرحوا ما معهم من النفط بالأرض، ثم حاولوهم وأروهم أنهم قد انهزموا منهم، فتبعهم أصحاب الكوكبي، فلما توسطوا الأرض التي فيها النفط، أمر عند ذلك بإلقاء النار فيه، فجعلت النار تحرق أصحاب الكوكبي، ففروا سراعاً هاربين، وكرّ عليهم موسى وأصحابه، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الكوكبي إلى الديلم، وتسلم موسى بن بغا قزوين.

وفيها حج بالناس عبد اللّه بن محمد بن سليمان الزينبي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو الأشعث. وأحمد بن سعيد الدارمي.

و■ سري السقطي: أحد كبار مشايخ الصوفية وهو السريّ بن المغلس أبو الحسن السقطي البغدادي تلميذ معروف الكرخي، حدث عن هُشيم، وأبي بكر بن عياش، وعلي بن غراب، ويحيى بن يمان، ويزيد بن هارون، وغيرهم.

وعنه ابن أخته الجنيد بن محمد، وأبو الحسن النوري، ومحمد بن الفضل بن جابر السقطي وجماعة.

وكانت له دكان يتجر فيها، فمرت به جارية قد انكسر إناء كان معها تشتري فيه شيئاً لسادتها، فجعلت تبكي، فأعطاها سريّ شيئاً تشتري به بدله، فنظر معروف إليه، وما صنع بتلك الجارية فقال له: بغّض اللّه إليك الدنيا، فوجد الزهد من يومه.

وقال سري: مررت في يوم عيد، فإذا معروف، ومعه صبيّ صغير شعث الحال، فقلت: ما هذا؟ فقال: هذا كان واقفاً والصبيان يلعبون، وهو منكسر، فقلت له: مالك لا تلعب كما يلعبون؟ فقال: أنا يتيم ولا شيء معي أشتري به جوزاً ألعب به، فأخذته لأجمع له نوى يشتري به جوزاً يفرح به، فقلت ألا أكسوه، وأعطيه شيئاً يشتري به جوزاً؟ فقال أوَ تفعل؟ فقلت: نعم. فقال: خذه أغنى اللّه قلبك. قال: فسويت الدنيا عندي أقل

شيء.

وكان عنده مرة لوز، فساومه رجل على الكر بثلاثة وستين ديناراً، ثم ذهب الرجل فإذا اللوز يساوي الكرّ تسعين ديناراً فقال له: إني أشتري منك الكر بتسعين ديناراً فقال له: إني ساومتك بثلاثة وستين ديناراً، وإني لا أبيعه إلا بذلك، فقال الرجل: أنا أشتري منك بتسعين ديناراً، فقال: لا أبيعه إلا بما ساومتك عليه، فقال له الرجل: إن من النصح أن لا أشتري منك إلا بتسعين ديناراً، وذهب فلم يشتر منه.

وجاءت امرأة يوماً إلى سري فقالت: إن ابني قد أخذه الحرس، وإني أحب أن تبعث إلى صاحب الشرطة لئلا يضرب، فقام فكبّر، وطول في الصلاة وجعلت المرأة تحترق في نفسها، فلما انصرف من الصلاة قالت المرأة: اللّه اللّه في ولدي، فقال هاأنذا في حاجتك، فما قام من مجلسه حتى جاءت امرأة إلى تلك المرأة فقالت: أبشري، فقد أطلق المتولي ولدك وها هو في المنزل، فانصرفت إليه، وقال سريٌّ: أشتهي أن آكل أكله - ليس للّه عليّ فيها تبعة ولا لأحد عليّ فيها منّه فما أجد إلى ذلك سبيلا.

وفي رواية عنه أنه قال: إني لأشتهي البقل من ثلاثين سنة فما أقدر عليه.

وعن السريّ أنه قال: احترق سوقنا، فقصدت المكان الذي فيه دكاني، فتلقاني رجل فقال: أبشر فإن دكانك قد سلمت، فقلت: الحمد للّه. ثم تذكّرت ذلك التحميد إذ حمدت اللّه على سلامة دنياي، وإني لم أواس الناس فيما هم فيه، فأنا أستغفر اللّه منذ ثلاثين سنة رواها الخطيب [تاريخ بغداد: ٩/١٨٨].

وقال: صليت وردي ذات ليلة، ثم مددت رجلي في المحراب، فنوديت: ياسري هكذا تجالس الملوك؟ قال: فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبداً.

وقال الجنيد بن محمد: ما رأيت أعبد من سريّ السقطي. أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت.

وقال الخطيب، عن أبي نعيم، عن جعفر الخلدي، عن الجنيد بن محمد قال: دخلت عليه أعوده فقلت: كيف تجدك؟ فقال: كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي.

قال: فأخذت المروحة أروحه فقال لي: كيف يجد روح المروحة من جوفه يحترق من داخل؟ ثم أنشأ يقول:

القلب محترقٌ والدمعُ مستبقٌ ... والكربُ مجتمع والصبر مفترق
كيف القرارُ على منْ لا قرارَ لـهُ ... مما جناهُ الهوى والشوقُ والقلقُ
يارب إنْ كان شيء لي به فرجٌ ... فامنن عليّ به ما دام بي رمق

قال: وقلت له: أوصني، قال: لا تصحب الأشرار، ولا تشتغل عن اللّه بمجالسة الأبرار الأخيار.

وقد ذكر الخطيب وفاته، يوم الثلاثاء، لست خلون من رمضان، سنة ثلاث وخمسين ومائتين، بعد أذان الفجر، ودفن بعد العصر قال: ودُفن بمقبرة الشونيزية، وقبره ظاهر معروف، وإلى جنبه قبر الجنيد.

وروى عن القاضي، عن أبي عبيد بن حربويه قال: رأيت سريّا في المنام فقلت: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي، ولكل من شهد جنازتي، قلت: فإني ممنّ حضر جنازتك، وصلّى عليك قال: فأخرج درجاً، فنظر فيه، فلم ير فيه اسمي، فقلت: بلى! قد حضرت، فإذا اسمي في الحاشية.

وحكى ابن خلكان قولا أن سرياً توفي سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ست وخمسين، فاللّه أعلم

قال ابن خلكان: ومما كان ينشده السريّ رحمه اللّه:

إذا ما شكوت الحب قالت كذبْتَني ... فما لي أرى الأعضاء منكَ كواسيا
فلا حبٌ حتى يلصق الجلدُ بالحشى ... وتذهل حتى لا تجيب المناديا

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائتين

فيها أمر الخليفة المعتز، بقتل بغا الشرابي، ونصب رأسه بسامرا، ثم ببغداد، وحُرقت جثته،وأخذت أمواله وحواصله.

وفيها ولّى الخليفة أحمد بن طولون الديار المصرية، وهو باني الجامع المشهور بها.

وحج بالناس فيها علي بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد.

ومن توفي فيها من الأعيان

زياد بن أيوب الحساني، وعلي بن محمد بن عليّ بن موسى الرضى، يوم الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة ببغداد وصلّى عليه أبو أحمد بن المتوكل في الشارع المنسوب إلى أبي أحمد، ودفن بداره ببغداد ومحمد بن عبد اللّه المخرمي، ومؤمّل بن إهاب.

■ (علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق)

وأما أبو الحسن علي الهادي، فهو ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، أحد الأئمة الاثنى عشرية، وهو والد الحسن بن علي العسكري المنتظر عند الفرقة الضالة الجاهلة الكاذبة الخاطئة.

وقد كان عابداً زاهداً نقله المتوكل إلى سامرا، فأقام بها أزيد من عشرين سنة بأشهر ومات بها في هذه السنة.

وقد ذكر للمتوكل أن بمنزله سلاحاً، وكتباً كثيرة من الناس، فأرسل فكبسه، فوجدوه جالساً مستقبل القبلة، وعليه مدرعة من صوف، وهو على بسيط الأرض ليس دونها حائل، فأخذوه كذلك فحملوه إلى المتوكل وهو على شرابه فلما مثل بين يديه أجلّه، وعظمه، وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس الذي في يده فقال: يا أمير المؤمنين إنه يخالط لحمي ودمي قط، فأعفني منه، فأعفاه، ثم قال له: أنشدني شعراً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكِلَل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

قال: فبكى المتوكل، حتى بلّ الثرى، وبكى من حوله بحضرته، وأمر برفع الشراب، وأمر له بأربعة آلاف دينار، وتحلل منه، ورده إلى منزله مكرماً رحمه اللّه.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين

فيها كانت وقعة بين مفلح وبين الحسن بن زيد الطالبي، فهزمه مفلح، ودخل آمل طبرستان وحرق منازل الحسن بن زيد، ثم سار وراءه إلى الديلم.

وفيها كانت محاربة شديدة بين يعقوب بن الليث، وبين علي بن الحسين بن قريش بن شبل، فبعث علي بن الحسين رجلا من جهته يقال له طوق بن المغلس، فصابره أكثر من شهر ثم ظفر يعقوب بطوق فأسره وأسر وجوه أصحابه، ثم سار إلى علي بن الحسين هذا فأسره أيضاً وأخذ بلاده -وهي كرمان- فأضافها إلى ما بيده من مملكة سجستان: ثم بعث يعقوب بن الليث بهدية سنية إلى المعتز بالله: دواب، وبُزاة، وثياب فاخرة.

وفيها ولّى الخليفة سليمان بن عبد الله بن طاهر نيابة بغداد والسواد في ربيع الأول منها.

وفيها أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل كاتب المعتز والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز، وأبا نوح عيسى بن إبراهيم، وكانوا قد تمالؤوا على أكل أموال بيت المال، وكانوا دوّاوين وغيرهم، فضربهم وأخذ خطوطهم بأموال جزيلة يحملونها، وذلك بغير رضى من المعتز في الباطن، واحتيط على أموالهم وحواصلهم وضياعهم وسُمُّوا الكتّاب الخونة، وولى الخليفة عن قهر غيرهم.

وفي رجب من هذه السنة ظهر عيسى بن جعفر، وعلي بن زيد الحسنيان بالكوفة وقتلا بها عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى، واستفحل أمرهما بها.

موت الخليفة المعتز بالله

ولثلاث بقين من رجب من هذه السنة خلع الخليفة المعتز بالله، ولليلتين مضتا من شعبان أظهر موته وكان سبب خلعه أن الجند اجتمعوا، فطلبوا منه أرزاقهم، فلم يكن عنده ما يعطيهم، فسأل من أمه أن تقرضه مالا يدفعهم عنه به فلم تعطه وأظهرت أنه لاشيء عندها، فاجتمع الأتراك على خلعه، فأرسلوا إليه ليخرج إليهم، فاعتذر بأنه قد شرب دواء وأن عنده ضعفاً، ولكن ليدخل إليّ بعضكم، فدخل إليه بعض الأمراء، فتناولوه بالدبابيس يضربونه، وجروا برجله وأخرجوه وعليه قميص مخرق ملطخ بالدم، فأقاموه في وسط دار الخلافة في حر شديد، حتى جعل يراوح بين قدميه من شدة الحر، وجعل بعضهم يلطمه، وهو يبكي ويقول له الضارب اخلعها والناس مجتمعون، ثم أدخلوه حجرة مضيّقاً عليه فيها.

وما زالوا عليه بأنواع العذاب، حتى خلع نفسه من الخلافة، وولّى بعده المهتدي بالله كما سيأتي، ثم سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات، ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام، حتى جعل يطلب شربة من ماء البئر، فلم يسق، ثم أدخلوه سرباً فيه جص جير، فدسوه فيه، فأصبح ميتاً، فاستلوه من الجص سليم الجسد، فأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنه مات وليس به أثر، وكان ذلك في اليوم الثاني من شعبان من هذه السنة، وكان يوم السبت، وصلّى عليه المهتدي بالله، ودفن عند أخيه المنتصر إلى جانب قصر الصوامع، عن أربع وعشرين سنة.

وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وكان طويلا جسيماً وسيماً أقنى الأنف مدور الوجه،حسن الضحك أبيض أسود الشعر جعده كثيفه، كثيف اللحية، حسن العينين والوجه، ضيق الجبين أحمر الوجنتين رحمه الله.

وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل على جودة ذهنه، وحسن فهمه، وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل بسامرّا، كما قدمنا في ترجمة الإمام أحمد.

وروى الخطيب عن علي بن حرب قال: دخلت على المعتز بالله فما رأيت خليفة أحسن وجهاً منه، فلما رأيته سجدت، فقال: يا شيخ تسجد لأحد من دون الله؟ فقلت: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد النبيل، حدثنا بكار بن عبدالعزيز بن أبي بكرة، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ما يفرح به أو بشّر بما يسره سجد شكرا لله عزّ وجّل [د (٢٧٧٤)، ت (١١٥٧٨)، ج (١٣٩٤)].

وقال الزبير بن بكار: صرتُ إلى المعتز وهو أمير، فلما سمع بقدومي خرج مستعجلا إليّ فعثر فأنشأ يقول:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانهِ ... وليس يموتُ المرءُ من عثرةِ الرِّجْلِ
فعثرتهُ من فيه ترمي برأسه ... وعثرتهُ في الرجل تبرا على مهل

وذكر الحافظ ابن عساكر أن المعتز لما حذق القرآن في حياة أبيه المتوكل، اجتمع أبوه والأمراء لذلك، واجتمعت الأمراء والكبراء، والرؤساء بسر من رأى، واختلفوا لذلك أياماً عديدة، وجرت أحوال عظيمة. ولما جلس وهو صبي على المنبر، وسلم على أبيه بالخلافة، وخطب الناس نثرت الجواهر في الصواني والذهب، والدراهم على الخواص والعوام بدار الخلافة، وكان قيمة ما نثر من الجواهر يساوي مائة ألف دينار، ومثلها ذهباً، وألف ألف درهم غير ما كان من خلع، وأسمطة، وأقمشة مما يفوت الحصر، وكان وقتاً مشهوداً لم يكن سرور بدار الخلافة أبهج منه ولا أحسن وخلع الخليفة على أم ولده المعتز وهي قبيحة خلعاً سنية، وأعطاها وأجزل لها العطاء، وكذلك خلع على مؤدب المعتز وهو محمد بن عمران، أعطاه من الجوهر، والذهب، وغير ذلك شيئاً كثيراً جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلافة المهتدي بالله

أبي عبد الله محمد بن الواثق هارون بن المعتصم. وكانت بيعته يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب من هذه السنة، بعد خلع المعتز نفسه بين يديه، وإشهاده على نفسه بأنه عاجز عن القيام بأمر الخلافة، وأنه قد رغب إلى من يقوم بأعبائها محمد بن الواثق بالله، ثم مد يده، فبايعه قبل الناس كلهم، ثم بايعه الخاصة، ثم كانت بيعة العامة، وكُتب على المعتز كتابٌ أشهد عليه فيه بالخلع، والعجز، والمبايعة للمهتدي وفي يوم من رجب هذا وقعت في بغداد فتنة هائلة، وثبت فيها العامة على نائبها سليمان بن عبد الله بن طاهر، ودعوا إلى بيعة أبي أحمد بن المتوكل أخي المعتز، وذلك لعدم علم أهل بغداد بما وقع بسامرا من بيعة المهتدي بالله بن الواثق، وقتل من أهل بغداد وغرق منهم خلق كثير، ثم لما بايع الناس بيعة العامة للمهتدي بالله فس سابع شعبان، وبلغ أهل بغداد ذلك، سكنوا، واستقرت الأمور، واستقل المهتدي بالخلافة.

وفي رمضان من هذه السنة، ظهر عند قبيحة أم المعتز أموال عظيمة، وجواهر نفيسة كان من جملة ذلك ما يقارب ألفي ألف دينار، ومن الزمرد الذي لم ير مثله مقدار مكوك، ومن الحب الكبار مكوك، وكيلجة ياقوت أحمر، مما لم ير مثله أيضاً وقد كانت قبل ذلك مختفية عند صالح بن وصيف

عدو ولدها، ثم تزوجت به، وكانت تدعو عليه تقول: اللّهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري وقتل ولدي، وبدّد شملي، وأخذ مالي، وغرّبني عن بلدي، وركب الفاحشة مني، وقد كان الأتراك قد طلبوا من ابنها المعتز خمسين ألف دينار، تصرف في أرزاقهم وضمنوا له أن يقتلوا صالح بن وصيف، فلم يكن عنده من ذلك شيء، فطلب من أمه قبيحة هذه قبّحها اللّه فامتنعت أن تقرضه ذلك، فأظهرت أنه لا شيء عندها ثم لما قتل ابنها، وكان ما كان، ظهر عندها من الأموال ما ذكرنا. وكان عندها من الغلات في كل سنة، ما يعدل عشرة آلاف دينار، واستقرت الخلافة للمهتدي باللّه، وكان - و لله الحمد - خليفة صالحاً قال يوماً للأمراء: إني ليست لي أم لها من الغلات ما يقاوم عشرة آلاف ألف دينار، ولست أريد إلا القوت فقط لا أريد فضلا على ذلك، إلا لإخوتي، فإنهم قد مستهم الحاجة.

وفي يوم الخميس لثلاث بقين من رمضان أمر صالح بن وصيف بضرب أحمد بن إسرائيل الذي كان وزيراً، وأبي نوح عيسى بن إبراهيم الذي كان نصرانياً، فاظهر الإسلام، وكان كاتب قبيحة، فضرب كل واحد منهما خمسمائة سوط بعد استخلاص أموالها، ثم طيف بهما على بغلين منكسين فماتا وهما كذلك، ولم يكن ذلك عن رضى المهتدي باللّه ولكن لا يقدر على الإنكار على صالح بن وصيف في بادئ الأمر.

وفي رمضان في هذه السنة وقعت فتنة ببغداد أيضاً بين محمد بن أوس، ومن تبعه من الشاكرية والجند وغيرهم، وبين العامة والرعاع، فاجتمع من العامة نحو من مائة ألف، وكان بين الناس قتال بالنبال، والرماح، والسيوف، وقُتل خلق كثير، ثم انهزم محمد بن أوس وأصحابه، فنهبت العامة ما وجدوا من أمواله، وكان منه شيء يعدل ألفي ألف أو نحو ذلك.

ثم اتفق الحال على إخراج محمد بن أوس من بغداد إلى أينما أراد، من سائر البلاد فخرج منها خائفاً طريداً وذلك لأنه لم يكن عند الناس مرضيّ السيرة، بل كان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً وفاسقاً شديداً، وأمر الخليفة المهتدي باللّه بأن ينفي القيان، والمغنون من سامرا، وأمر بقتل السباع، والنمور التي في دار السلطان، وقتل الكلاب المعدة للصيد أيضاً وإبطال الملاهي، ورد المظالم، وأن يؤمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وجلس للعامة.

وكانت ولايته والدنيا كلها من أرض الشام، وغيرها مفترقة ثم استدعى الخليفة المهتدي موسى بن بغا الكبير إلى حضرته ليتقوى به على من عنده من الأتراك، ولتجتمع كلمة الخلافة، واعتذر من استدعائه بما هو فيه من الجهاد بتلك البلاد.

ذكر خارجي آخر ادعى أنه من أهل البيت ظهر بالبصرة

وفي النصف من شوّال من هذه السنة ظهر رجل بظاهر البصرة، زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يكن صادقاً في دعواه هذا النسب، وإنما كان عبقسيّاً بن عبد القيس، واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه قرة بنت علي بن رحيب من محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، وأصله من قرية من قرى الري. قاله ابن جرير [تاريخه: ٩/٤١٠].

قال: وقد خرج أيضاً في سنة تسع وأربعين ومائتين بالبحرين، فادعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسين بن عبد اللّه بن عباس بن علي بن أبي طالب، فدعا الناس بهجَرَ إلى طاعته، فاتبعه جماعة من أهلها، فوقع بسببه قتال كثير، وفتن كبار، وحروب كثيرة ومتشره.

ولما خرج خرجته هذه الثانية بظاهر البصرة التف عليه خلق من الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ، فعبر بهم دجلة، فنزل الديناري، وكان يزعم لبعض الجهله من أتباعه أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة وكان يدعي أنه حفظ سوراً من القرآن في ساعة واحدة جرى بها لسانه لا يحفظها غيره في مدة، وهنّ سبحان، والكهف، وص، وعمّ. وأنه فكرّ يوماً وهو في البادية إلى أي البلاد يصير، فخوطب من سحابة أن يقصد البصرة، فقصدها، فلما اقترب منها وجد أهلها مفترقين على شعبتين، سعدية، وبلالية، فطمع أن ينضم إلى إحداهما فيستعين بها على الأخرى فلم يقدر على ذلك، فارتحل إلى بغداد، فأقام بها سنة، وانتسب بها إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وكان يزعم بها أنه يعلم ما في ضمائر أصحابه، وأن اللّه يُعلّمه بذلك، فتبعه على ذلك جهلة من الطغام، وطائفة من رعاع الناس العوام.

ثم عاد إلى أرض البصرة في رمضان من هذه السنة، فاجتمع معه بشر كثير، ولكن لم يكن معهم عُدَد يقاتلون بها، فأتاهم جيش من ناحية البصرة، فاقتتلوا جميعاً، ولم يكن في جيش هذا الخارجي سوى ثلاثة أسياف، وأولئك الجيش معهم عدد، وعُدد، ولبوس، ومع هذا هزم أصحاب هذا الخارجي ذلك الجيش، وكانوا في أربعة آلاف مقاتل، ثم مضى نحو البصرة بمن معه فأهدى له رجل من أهل جُبّا فرساً فلم يجد لها سرجاً ولا لجاماً، فألقى عليها حبلا وركبها، وشنق حنكها بليف،ثم صادر رجلا وتهدده بالقتل فأخذ منه مائة وخمسين ديناراً وألف درهم، فكان هذا أول مال غنمه من هذه البلاد،وأخذ من آخر ثلاثة براذين، وأخذ من موضع آخر شيئاً من الأسلحة والأمتعة، ثم سار في جيشه قليل سلاح وخيول، ثم جرت بينه وبين نائب البصرة وقعات متعددة، يهزمهم فيها وكلما لأمره يقوى ويتزايد أصحابه، ويعظم أمره، ويكثر جيشه، وهو مع ذلك لا يتعرض لأموال الناس، وإنما يريد أخذ أموال السلطان.

وقد انهزم أصحابه في بعض تلك الحروب هزيمة فظيعة،ثم تراجعوا إليه،واجتمعوا حوله، ثم كرّوا على أهل البصرة، فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وأسروا آخرين، فكان لا يؤتى بأحد من الأسرى إلا قتله ثم قوي أمره بعد ذلك وخافه أهل البصرة، وبعث الخليفة إليها مدداً يكونون لهم على صاحب الزنج ليقاتلوا هذا الخارجي،وهو صاحب الزنج هذا الخارجي قبحه اللّه، ثم أشار عليه رؤوس أصحابه أن يهجم بهم على أهل البصرة،فيدخلونها عنوة فهجن آراءهم وقال: بل نكون منها قريباً،حتى يكونوا هم الذين يطلبوننا إليها،ويخطبوننا عليها. وسيأتي ما كان من أمره وأمر أهل البصرة في السنة المستقبلة إن شاءاللّه تعالى.

وحج بالناس في هذه السنة علي بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **الجاحظ المتكلم المعتزلي:** وإليه تنسب الفرقة الجاحظية منهم وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري المعروف بالجاحظ لجحوظ عينيه، ويقال له الحدقي، وكان شنيع المنظر، سيئ المخبر رديء الاعتقاد، ينسب إلى البدعة وربما جاوز به بعضهم إلى الانحلال، حتى يقال في المثل: يا ويح من كفره الجاحظ واللّه اعلم بحاله.

وكان بارعاً فاضلا قد أتقن علوماً كثيرة، وصنف كتباً جمة تدل على

قوة ذهنه وجودة تصرفه ومن أجلِّ كتبه كتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين.

قال ابن خلكان: وهما أحسن مصنفاته وأمتعها، وقد أطال ترجمته بحكايات ذكرها عنه وذكر أنه أصابه الفالج في آخر عمره، وحكي عنه أنه قال: أنا من جانبي الأيسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت به، وجانبي الأيمن منقرس فلو مرت به الذبابة لألمتُ، وبي حصاة، وأشد ما عليّ ست وتسعون سنة. وكان ينشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيامَ الشبابِ
لقد كذبتكَ نفسُكَ ليس ثوبٌ دريس كالجديدِ من الثيابِ

■ عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي صاحب المسند المشهور وقد سمعناه بعلو، وعبد الله بن هاشم الطوسي والخليفة أبو عبد الله المعتز بالله بن جعفر المتوكل على الله في رجب كما تقدم، ومحمد بن عبدالرحيم الملقب صاعقة.

و■ محمد بن كرّام المتكلم: الذي تنسب إليه الفرقة الكرّامية، وقد نسب إليهم جواز وضع الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه، وغيرهم، وهو محمد بن كرام -بفتح الكاف وتشديد الراء، على وزن جمّال - بن عراق بن حُزابة بن البراء، أبو عبد الله السجستاني العابد، يقال إنه من بني نزار، ومنهم من يقول محمد بن كِرَام بكسر الكاف وتخفيف الراء جمع كريم وفرق البيهقي بينهما فجعل الذي ينسب إليه الكرامية بفتح الكاف وتشديد الراء وهو الذي سكن بيت المقدس إلى أن مات، وجعل الآخر شيخاً من أهل نيسابور. والصحيح الذي يظهر من كلام الحاكم أبي عبد الله وابن عساكر الحافظ أنهما واحد.

وقد روى ابن كرام، عن علي بن حجر، وعلي بن إسحاق الحنظلي السمرقندي، سمع منه التفسير، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، وإبراهيم بن يوسف الماكياني، ومالك بن سليمان الهروي، وأحمد بن حرب، وعتيق بن محمد الجُرَشي، وأحمد بن الأزهر النيسابوري، وأحمد بن عبد الله الجويباري، ومحمد بن تميم الفارياني وكانا كذابين وضاعين وغيرهم.

وعنه محمد بن إسماعيل بن إسحاق، وأبو إسحاق بن سفيان. وعبد الله بن محمد القيراطي، وإبراهيم بن الحجاج النيسابوري.

وذكر الحاكم أنه حُبس في حبس طاهر بن عبد الله، فلما أطلقه، ذهب إلى ثغور الشام، ثم عاد إلى نيسابور، فحبسه محمد بن طاهر بن عبد الله، وأطال حبسه، وكان يتأهب لصلاة الجمعة، ويأتي إلى السجان فيقول: دعني أخرج إلى الجمعة، فيمنعه السجان فيقول: اللّهم إنك تعلم أن المنع من غيري.

وقال غيره: أقام ببيت المقدس أربع سنين، وكان يجلس للوعظ عند العمود الذي عند مشهد عيسى عليه السلام، واجتمع عليه خلق كثير، ثم تبين لهم أنه يقول إن الإيمان قول بلا عمل، فتركه أهلها، ونفاه متوليها إلى غور زغر، فمات بها، ونقل إلى بيت المقدس، وكانت وفاته في صفر من هذه السنة.

وقال الحاكم: توفي ببيت المقدس ليلا، ودفن بباب أريحا، عند قبور الأنبياء عليهم السلام، وله ببيت المقدس من الأصحاب نحو من عشرين ألفاً والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين

في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من المحرم، قدم موسى بن بغا الكبير إلى سامرا، فدخلها في جيش هائل، قد عباه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، فقصد دار الخلافة التي فيها المهتدي بالله جالس للعامة لكشف المظالم، فاستأذنوا عليه، فتمادى الإذن ساعة، وتأخر عنهم، فظنوا في أنفسهم أن الخليفة إنما طلبهم خديعة منه، ليسلط عليهم صالح بن وصيف، فدخلوا عليه هجماً، فجعلوا يراطنونهم بالتركي، ثم عزموا، فأقاموه من مجلسه، وانتهبوا ما كان فيه، ثم أخذوه مهاناً إلى دار أخرى، فجعل يقول لموسى بن بغا: ما لك ويحك؟ إني إنما جئت بك لأتقوى بك على صالح بن وصيف، فقال له موسى: لا بأس عليك، احلف لي أنك لا تريد لي خلاف ما أظهرت فحلف له المهتدي، فطابت أنفسهم، وبايعوه بيعة ثانية، مشافهة، وأخذوا عليه العهود والمواثيق، أن لا يمالئ صالحاً عليهم، واصطلحوا على ذلك. ثم بعثوا إلى صالح بن وصيف ليحضرهم، للمناظرة في أمر المعتز، ومن قتله صالح بن وصيف من الكتاب وغيرهم، فوعدهم أن يأتيهم، ثم اجتمع بجماعة من الأمراء من أصحابه، وأخذ يتأهب لجمع الجيوش عليه، ثم اختفى من ليلته، فلم يدر أحد أين ذهب في تلك الساعة، فبعثت المنادية تنادي عليه في أرجاء البلد، وتهدَّدُ من أخفاه، فلم يزل في خفاءٍ إلى آخر صفر على ما سنذكر.

وورد سليمان بن عبد الله بن طاهر إلى نيابة بغداد، وسُلِّم الوزير عبد الله بن محمد بن يزداد إلى الحسن بن مخلد الذي كان أراد صالح بن وصيف قتله مع ذينك الرجلين، فبقي في السجن حتى رجع إلى الوزارة.

ولما أبطأ خبر صالح بن وصيف على موسى بن بغا وأصحابه، قال بعضهم لبعض: اخلعوا هذا الرجل يعني الخليفة المهتدي بالله فقال بعضهم: أتقتلون رجلًا صوّاماً قواماً لا يشرب النبيذ ولا يأتي الفواحش؟ والله إن هذا ليس كغيره من الخلفاء، ولا يطاوعكم الناس عليه. وبلغ ذلك الخليفة، فخرج إلى الناس، وهو متقلد سيفاً، فجلس على السرير، واستدعى بموسى بن بغا وأصحابه، فقال: قد بلغني ما تمالأتم عليه من أمري، وإني والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنّط، وقد أوصيت إلى أخي بولدي، وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن، أو ليذهبن بها أكثركم أما دين؟ أما حياء؟ أما رعة؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء، والإقدام والجرأة على الله عز وجل، سواء عندكم من قصد الإبقاء عليكم، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بأرطال الشراب، فشربها، سروراً بمكروهكم واذهبوا فانظروا في منزلي ومنازل إخوتي، ومن يتصل بي، هل فيها من آلات الخلافة، أو فرشها غير شيء غير ما يكون في بيوت آحاد الناس، وتقولون إني أعلم علم صالح بن وصيف، وهل هو إلا كواحد منكم؟ فاذهبوا، فاعلموا علمه، فأبلغوا شفاء نفوسكم منه، وأما أنا فلست أعلم علمه. قالوا: فاحلف لنا على ذلك، قال أما اليمين فإني أبذلها لكم، ولكني أؤخرها حتى تكون بحضرة الهاشميين والقضاة والمعدلين وأصحاب المراتب في غدٍ إذا صليت صلاة الجمعة قال: فكأنهم لانوا لذلك قليلا.

ولما كان يوم الأحد لثمان بقين من صفر، ظفروا بصالح بن وصيف، فَقُتلَ وجيء برأسه إلى المهتدي بالله، وقد انفتل من صلاة المغرب، فلم يزد على أن قال: واروه. ثم أخذ في تسبيحه وذكره. ولما أصبح الصباح من يوم الاثنين رُفعَ الرأس على رمح ونودي عليه في أرجاء البلد: هذا جزاء من

قتل مولاه. وما زال الأمر مضطرباً متفاقماً، وعظم الخطب.

ذكر خلع المهتدي بالله وولاية المعتمد أحمد بن المتوكل وإيراد شيء من فضائل المهتدي

لما بلغ موسى بن بغا أن مساوراً الشاري قد عاث بتلك الناحية فساداً، ركب إليه في جيش كثيف، ومعه مفلح وبايكباك التركي، فاقتتلوا هم ومساور الخارجي، ولم يظفروا منه بشيء يعجبهم وهرب منهم، وأعجزهم، وكان قد فعل قبل مجيئهم الأفاعيل المنكرة.

والمقصود أنّ الخليفة المهتدي بالله أراد أن يخالف بين كلمة الأتراك، فكتب إلى بايكباك أن يتسلم الجيش من موسى بن بغا، ويكون هو الأمير على الناس، وأن يقبل بهم إلى سامرا، فلما وصل إليه الكتاب أقرأه موسى بن بغا، فاشتد غضبه على المهتدي، واتفقا عليه، وقصدا إليه بلد سامرا، وتركا ما كانا فيه فلما بلغ ذلك المهتدي، استخدم من فوره جنداً من المغاربة والفراغنة والأشروسنية والأزكشية والأتراك أيضاً، وركب في جيش كثيف، فلما سمعوا به، رجع موسى بن بغا إلى طريق خراسان، وأظهر بايكباك السمع والطاعة، فدخل في ثاني عشر رجب إلى الخليفة سامعاً مطيعاً، فلما أوقف بين يديه وحوله الأمراء والسادة من بني هاشم شاورهم فيه، فقال له صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين لم يبلغ أحد من الخلفاء في الشجاعة والإقدام ما بلغت، وقد كان أبو مسلم الخراساني شراً من هذا وأكثر جنداً، ولما قتله أبو جعفر المنصور سكنت الفتنة، وخمد صوت أصحابه فأمر عند ذلك المهتدي بالله بضرب عنق بايكباك ثم ألقى رأسه إلى الأتراك، فلما رأوا ذلك أعظموه وأصبحوا من الغد مجتمعين على أخيه طغوتيا، فخرج إليهم الخليفة فيمن معه، فلما التقوا، خامرت الأتراك الذين مع الخليفة إلى أصحابهم، وصاروا ألباً واحداً على الخليفة وأصحابه، فحمل الخليفة فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف ثم حملوا عليه فهزموهم وانهزم والمهتدي بالله وبيده السيف صلتاً، وهو ينادي: يأيها الناس انصروا خليفتكم فدخل دار أحمد بن جميل صاحب المعونة، فوضع فيها سلاحه ولبس البياض وأراد أن يذهب فيختفي، فعاجله أحمد بن خاقان منها فأخذه قبل أن يذهب، ورُمي بسهم، وطعن في خاصرته وحمل على دابة وخلفه سائس وعليه قميص وسراويل، حتى حصل فيه دار أحمد بن خاقان، فجعل من هناك يصفعونه ويبزقون في وجهه، وأخذ خطه بستمائة ألف دينار، وسلموه إلى رجل، فلم يزل يطأ خصيتيه حتى مات رحمه الله وذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب.

وكانت خلافته أقل من سنة بخمسة أيام، وولد في سنة تسع عشرة، وقيل خمس عشرة ومائتين، وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد، ودفن بمقبرة المنتصر بن المتوكل وكان أسمر رقيقاً أجلى حسن اللحيه اشهب عظيم حسن العينين البطن عريض المنكبين قصيراً طويل اللحية يكنى أبا عبد الله.

قال الخطيب [تاريخ بغداد: ٣/٣٤٨، ٣٤٩]: وكان من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجملهم طريقة، وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة وإنما روى حديثاً واحداً، ثم أسند عنه قال: حدثني علي بن أبي هاشم بن طبراخ، عن محمد بن الحسن الفقيه، عن ابن أبي ليلى عن داود بن علي- عن أبيه عن ابن عباس قال قال العباس: يا رسول الله ما لنا في هذا الأمر؟ قال: لي النبوة، ولكم الخلافة، بكم يفتح هذا الأمر، وبكم يختمْ وقال للعباس: مَن أحبك نالته شفاعتي، ومن أبغضك لا نالته شفاعتي.

وروى الخطيب أن رجلا استعدى المهتدي على خصمه فحكم بينهما بالعدل فأنشأ الرجل يقول:

حكّمتموهُ فقضى بينكمْ ... أبلجُ مثلُ القمرِ الزاهرِ
لا يقبلُ الرِّشْوةَ في حكمهِ ... ولا يبالي غَبنَ الخاسرِ

فقال له المهتدي بالله: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك. وأما أنا فإني ما جلست حتى قرأت ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال: فبكى الناس حوله فما رئي باكياً أكثر من ذلك اليوم.

وقال بعضهم: سرد المهتدي الصوم منذ ولي إلى أن قتل رحمه الله.

وكان يحب الاقتداء بما سلكه عمر بن عبد العزيز الأموي في أيام خلافته، من الورع، والتقشف، وكثرة العبادة، وشدة الاحتياط.

وقال أحمد بن سعيد الأموي: كنا جلوساً بمكة، وعندي جماعة، ونحن نبحث في النحو وأشعار العرب، إذ وقف علينا رجل مجنون فأنشأ يقول:

اما تستحون اللّه يا معدن الجهل ... شُغلتمْ بذا والناسُ في أعظم الشّغْل
إمامكمُ أضحى قتيلا مجدّلا ... وقد أصبح الإسلام مفترق الشمل
وانتم على الأشعار والنحو عُكّف ... تضجون بالأصوات في قلة العقل

قال: فنظرنا، وأرخنا ذلك اليوم فإذا المهتدي بالله قد قتل في ذلك اليوم، وكان يوم الاثنين لأربع عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين.

خلافة المعتمد على الله بن المتوكل على الله ويعرف بابن فتيان

بويع له بالخلافة يوم الثلاثاء، لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب من سنة ست وخمسين ومائتين، في دار الأمير يارجوخ، وذلك قبل خلع المهتدي بأيام، ثم كانت بيعة العامة يوم الاثنين، لثمان بقين من رجب.

ولعشر بقين من رجب، دخل موسى بن بغا ومفلح إلى سر من رأى، فنزل موسى في داره، وسكن الناس، وخمدت الفتن هنالك.

وأما صاحب الزنج المدّعي أنه علوي، فهو محاصر للبصرة، والجيوش الخليفية في وجهه دونها، وهو في كل يوم يقهرها، ويغنم ما يفد إليهم في المراكب من الأطعمة وغيرها، واستحوذ بعد ذلك على الأبلة، وعبادان، وغيرهما من البلاد، وخاف منه أهل البصرة خوفاً شديداً وكل ما لأمره يقوى، ولجيوشه تكثر ولعدوه يتزايد ولم يزل ذلك دأبه إلى انسلاخها.

وفي هذه السنة خرج رجل آخر بالكوفة، يقال له علي بن زيد الطالبي، وجاءه جيش من جهة الخليفة فكسره الطالبي، واستفحل أمره بالكوفة، وقويت شوكته، وتفاقم أمره.

وفيها وثب محمد بن واصل التميمي على نائب فارس الحارث بن سيما الشرابي، فقتله، واستحوذ على بلاد فارس.

وفي رمضان منها، تغلب الحسن بن زيد الطالبي على بلاد الري، فتوجه إليه موسى بن بغا في شوال من عند المعتمد، وخرج الخليفة لتوديعه.

وفيها كانت وقعة عظيمة على باب دمشق، بين أماجور نائب دمشق -

ولم يكن معه إلا قريب من أربعمائة فارس - وبين ابن لعيسى بن الشيخ، وهو في قريب من عشرين ألفاً، فهزمه أماجور، وجاءت من الخليفة ولاية لابن الشيخ؛ بلاد أرمينية، على أن يترك أهل الشام، فقبل ذلك، وانصرف عنهم.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن أحمد بن عيسى بن أبي جعفر المنصور، وكان في جملة الحجاج أبو أحمد بن المتوكل فتعجل وعجل السير إلى سامرا، فدخلها، ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة من هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الخليفة المهتدي بالله في رجب كما تقدم.

و■ الزبير بن بكار: بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري قاضي مكة، قدم بغداد وحدث بها، وله كتاب أنساب قريش، وكان من أعلم الناس بذلك، وكتابه في ذلك حافل جداً.

وقد روى عنه ابن ماجه وغيره، وقد وثقه الدارقطني، والخطيب، وأثنى عليه وعلى كتابه.

وتوفي بمكة، عن أربع وثمانين سنة في ذي القعدة من هذه السنة ودفن بمكة رحمه الله.

■ البخاري: صاحب الصحيح، وقد ذكرنا له ترجمة حافلة في أول شرحنا «الصحيحه»، ولنذكر ها هنا نبذة يسيرة من ذلك فنقول وبالله المستعان:

هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، ويقال: بذدزبه الجعفي مولاهم أبو عبد الله البخاري الحافظ، إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدم على سائر أضرابه وأقرانه، وكتابه الصحيح يستسقى بقراءته الغمام، وأجمع على قبوله وصحة ما فيه أهل الإسلام.

ولد البخاري رحمه الله في ليلة الجمعة الثالث عشر من شوال، سنة أربع وتسعين ومائة، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر أمه، فألهمه الله حفظ الحديث وهو في المكتب، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة، حتى قيل: إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً، وحج وعمره ثماني عشرة سنة فأقام بمكة يطلب بها الحديث، ثم ارتحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث، في البلدان التي أمكنه الرحلة إليها، وكتب عن أكثر من ألف شيخ وروى عنه خلائق وأمم.

وقد روى الخطيب البغدادي عن الفربري أنه قال: سمع الصحيح من البخاري معي نحو من تسعين ألفاً لم يبق منهم أحد غيري.

وقد روى البخاري من طريق الفربري كما هي رواية الناس اليوم من طريقه، وحماد بن شاكر، وإبراهيم بن معقل، وطاهر بن مخلد وآخر من حدث عنه أبو طلحة منصور بن محمد بن علي البزدوي النسفي، وقد توفي النسفي هذا في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ووثقه الأمير أبو نصر بن ماكولا [الإكمال: ٧/٢٤٣].

وممن روى عن البخاري مسلم في غير الصحيح، وكان مسلم يتلمذ له ويعظمه، وروى عنه الترمذي في جامعه، والنسائي في سننه في قول بعضهم.

وقد دخل بغداد ثمان مرات، وفي كل منها يجتمع بالإمام أحمد بن حنبل، فيحثه أحمد على المقام ببغداد، ويلومه على الإقامة بخراسان.

وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيوري السراج، ويكتب الفائدة تمر بخاطره ثم يطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى حتى يتعدد ذلك منه قريباً من عشرين مرة.

وقد كان أصيب بصره وهو صغير، فرأت أمه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فقال يا هذه، قد رد الله على ولدك بصره بكثرة دعائك أو قال: بكائك فأصبح وهو بصير.

وقال البخاري: فكرت البارحة، فإذا أنا قد كتبت في مصنفاتي نحواً من مائتي ألف حديث مسندة وكان يحفظها كلها.

ودخل مرة إلى سمرقند فاجتمع به أربع مئة من علماء الحديث بها، فركبوا له أسانيد وأدخلوا إسناد الشام في إسناد اهل العراق، وخلطوا الرجال في الأسانيد، وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها، ثم قرؤوها على البخاري فرد كل حديث إلى إسناده وقوّم تلك الأحاديث والأسانيد كلها، وما تعلّقوا عليه بسقطة في إسناد ولا في متن وكذلك صنع بمئة محدِّث من أهل بغداد.

وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة، فيحفظه من نظرة واحدة والأخبار عنه في ذلك كثيرة.

وقد أثنى عليه علماء زمانه من شيوخه وأقرانه.

فقال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثله.

وقال علي بن المديني: لم ير البخاري مثل نفسه.

وقال إسحاق بن راهويه: لو كان في زمن الحسن، لاحتاج الناس إليه لمعرفته في الحديث وفقهه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير: ما رأينا مثله.

وقال علي بن حجر: لا أعلم مثله.

وقال محمود بن النضر أبو سهل الشافعي: دخلت البصرة، والشام، والحجاز، والكوفة، ورأيت علماءها كلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل البخاري، فضلوه على أنفسهم.

وقال أبو العباس الدغولي: كتب أهل بغداد إلى البخاري:

المسلمونُ بخيرٍ ما حييتَ لهم ... وليسَ بعدكَ خيرٌ حينَ تفتقدُ

وقال الفلاس: كل حديث لا يعرفه البخاري فليس بحديث.

وقال نعيم بن حماد: هو فقيه هذه الأمة.

وكذا قال يعقوب بن إبراهيم الدورقي.

ومنهم من فضله في الفقه والحديث على الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

وقال قتيبة بن سعيد: رُحِل إليَّ من شرق الأرض وغربها، فما رحل إليَّ مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

وقال رجاء بن مُرجّى: فضْلُ البخاري على العلماء - يعن في زمانه - كفضل الرجال على النساء وقال: هو آية من آيات الله يمشي على الأرض.

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: محمد بن إسماعيل البخاري، أفقهنا، وأعلمنا، وأغوصنا، وأكثرنا طلباً.

وقال إسحاق بن راهويه: هو أبصر مني.

وقال أبو حاتم الرازي: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق.

وقال عبيد العجل: رأيت أبا حاتم، وأبا زرعة، يجلسان إليه، يستمعان

ما يقول، ولم يكن مسلم يبلغه، وكان أعلم من محمد بن يحيى الذهلي بكذا وكذا، وكان ديِّناً فاضلا يحسن كل شيء.

وقال غيره: رأيت محمد بن يحيى الذهلي يسأل البخاري عن الأسامي، والكنى، والعلل، وهو يمر فيه كالسهم، كأنه يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقال أحمد بن حمدون القصار: رأيت مسلم بن الحجاج، جاء إلى البخاري، وقبّل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله. ثم سأله عن حديث كفارة المجلس، فذكر له علّته، فلما فرغ، قال مسلم: لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك.

وقال الترمذي: لم أر بالعراق، ولا بخراسان، في معنى العلل، والتاريخ، ومعرفة الأسانيد، أعلم من البخاري وكنا يوما عند عبد الله بن منير، فقال للبخاري: جعلك الله زين هذه الأمة.

قال الترمذي: فاستجيب له فيه.

وقال ابن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء، أعلم بحديث رسول الله ﷺ، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري ولو ذهبنا نسطّر ما أثنى عليه الأئمة، في حفظه، وإتقانه، وعلمه، وفقهه، وورعه، وزهده، وتبحُّره، لطال علينا، ونحن على عجل من أجل الحوادث، وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً في أول شرح «الصحيح» والله سبحانه المستعان.

وقد كان البخاري رحمه الله في غاية الحياء، والشجاعة، والسخاء والورع، والزهد في الدنيا دار الفناء، والرغبة في الآخرة دار البقاء.

وقال: أرجو أن ألقى الله، وليس أحد يطالبني أني اغتبته فذكر له «التاريخ»، وما ذكر فيه من الجرح، والتعديل، وغير ذلك فقال: ليس هذا من هذا، قال النبي ﷺ: "إيذنوا له، فلبئس أخو العشيرة" [خ (٦٠٣٢)، م (٢٥٩١)] ونحن إنما روينا ذلك رواية، ولم نقله من عند أنفسنا.

وقد كان رحمه الله يصلّي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة، وكان يختم القرآن في كل ليلة من رمضان ختمة، وكانت له جدة ومال جيد ينفق منه سراً وجهراً، وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار سراً وعلانية، وكان مستجاب الدعوة، مسدد الرمية، شريف النفس، بعث إليه بعض السلاطين ليأتيه، حتى يسمع أولاده عليه، فأرسل إليه: في بيته يؤتى الحكم، إن كنتم تريدون ذلك فهلموا إلي - وأبى أن يذهب إليهم - وهو خالد بن أحمد الذهلي نائب الظاهرية ببخارى،فبقي في نفس الأمير من ذلك، فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي، من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق - وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي، وبين البخاري في ذلك كلام، وصنف البخاري في ذلك كتابه «أفعال العباد» - فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري، وقد كان الناس يعظمونه جداً، وحين رجع إليهم، نثروا على رأسه الذهب والفضه -، يوم دخل بخارى عائداً إلى أهله، وكان له مجلس الإملاء بجامعها، فلم يقبلوا من الأمير، فأمر عند ذلك بنفيه من البلد، فخرج منها، ودعا على خالد بن أحمد، فلم يمض شهر، حتى أمر ابن طاهر، بأن ينادى على خالد بن أحمد على أتان، وزال ملكه، وسجن في بغداد، حتى مات، ولم يبق أحد ساعده على ذلك، إلا ابتلي ببلاء شديد، فنزح البخاري من بلده إلى بلدة يقال لها خرتنك، على فرسخين من سمرقند، فنزل عند أقارب له بها، وجعل يدعو الله أن يقبضه إليه، حين رأى الفتن؛ كما جاء في الحديث: "وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين" [ت (٣٢٣٣، ٣٢٣٥)]

ثم اتفق مرضه على إثر ذلك فكانت وفاته ليلة السبت - عند صلاة العشاء، وصلّي عليه يوم العيد بعد الظهر من هذه السنة - أعني سنة ست وخمسين ومائتين- وكفن في ثلاثة أثواب بيض، ليس فيها قميص ولا عمامة، وفق ما أوصى به، وحين دفن، فاحت من قبره رائحه غالية، أطيب من المسك، فدام ذلك أياماً، ثم علت سوار بيض مستطيلة بحذاء قبره وكان عمره يوم مات اثنتين وستين سنة.

وقد ترك رحمه الله علما نافعاً لجميع المسلمين، فعمله فيه لم ينقطع، بل هو موصول بما أسداه من الصالحات في الحياة، وقد قال رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، من علم ينتفع به" الحديث رواه مسلم [١٦٣١].

وشرطه في صحيحه هذا، أعز من شرط كل كتاب صنف في الصحيح، لا يوازيه فيه غيره، لا صحيح مسلم ولا غيره. وما أحسن ما قال بعض الفصحاء من الشعراء:

صحيح البخاريّ لو أنصفوه ... لما خط إلا بماء الذهب
هو الفرق بين الهدى والعمى ... هو السد بين الفتى والعطب
أسانيد مثل نجوم السماء ... أمام متون كمثل كالشهب
بها قام ميزان دين الرسول ... ودان به العجم بعد العرب
حجاب من النار لا شك فيه ... تميَّز بين الرضى والغضب
وستر رقيق إلى المصطفى ... ونص مبين لكشف الريب
فيا عالماً أجمع العالمون ... على فضل رتبته في الرتب
سبقت الأئمة فيما جمعت ... وفزت على زعمهم بالقصب
نفيت الضعيف من الناقلين ... ومن كان متهماً بالكذب
وأبرزت في حسن ترتيبه ... وتبويبه عجباً للعجب
فأعطاك مولاك ما تشتهيه ... وأجزل حظّك فيما وهب

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائتين

فيها ولّى الخليفة المعتمد على الله، ليعقوب بن الليث، بلخ، وطخارستان، وما يلي ذلك من كرمان، وسجستان، والسند، وغيرها وفي صفر منها.

عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد، على الكوفه، وطريق مكة، والحرمين، واليمن، واضاف إليه في رمضان، نيابة بغداد، والسواد وواسط، وكور دجلة، والبصرة، والأهواز، وفارس، وأذن له أن يستنيب في ذلك كله.

وفيها تواقع سعيد الحاجب، وصاحب الزنج، في أراضي البصرة، فهزمه سعيد الحاجب، واستنقذ من يده خلقاً من النساء والذرية، واسترجع منه أموالا جزيلة. وأذلّ الزنج غاية الإهانة والمذلة. ثم إن الزنج بيتوا سعيداً وجيشه، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ويقال: إن سعيد بن صالح قتل أيضاً، ثم التقىمع منصور ابن جعفر الخياط، في جيش كثيف، فهزمهم صاحب الزنج المدعي أنه طالبي، وهو كاذب.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٧٩/٩]: وفيها ظُفر ببغداد، بموضع يقال له بركة زلزل، برجل خناق قد قتل خلقاً من النساء، فحمل إلى المعتمد فضرب بين يديه ألفي سوط وأربعمائة أرْزَن، فلم يمت حتى ضرب الجلادون على أنثيه بخشب العُقابين، فمات، ورد إلى بغداد وصلب هناك، ثم أحرقت

جثته.

وفي ليلة الرابع عشر من شوال من هذه السنة كسف القمر، وغاب أكثره وفي صبيحة هذا اليوم، دخل جيش الخبيث الزنجي إلى البصرة قهراً، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وهرب نائبها بغراج ومن معه، وأحرقت الزنج جامع البصرة، ودوراً كثيرة، وانتهبوها، ثم نادى فيهم إبراهيم بن يحيى المهلبي أحد أصحاب الزنجي الخارجي: من أراد الأمان فليحضر فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة، فرأى أنه قد أصاب فرصة، فغدر بهم، وأمر بقتلهم، فلم يفلت منهم إلا الشاذ، كانت الزنج تحيط بالجماعة من أهل البصرة، ثم يقول بعضهم لبعض: كيلوا -وهي الإشارة بينهم إذا أرادوا قتل أحد- فيحملون عليهم بالسيوف، فلا تسمع إلا تشهد أولئك وضجيجهم عند القتل فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهكذا كل محلة من محال البصرة، في عدة أيام، وهرب الناس منهم كل مهرب، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل، فحرقت النار ما وجدت من شيء من إنسان، أو بهيمة، أو أثاث، أو غير ذلك، وأحرقوا المسجد الجامع أيضاً، وقد قتل في هؤلاء، جماعة كثيرة من الأعيان، والأدباء، والفضلاء، والمحدثين والعلماء فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان هذا الخبيث قد أوقع في أهل فارس وقعة عظيمة ثم بلغه أن أهل البصرة قد جاءهم من الميرة شيء كثير، وقد اتسعوا بعد الضيق، فحسدهم على ذلك، فروى ابن جرير [تاريخه: ٤٨١/٩] عن من سمعه يقول: دعوت الله على أهل البصرة، فخوطبت، فقيل لي: إنما أهل البصرة خبزة، تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف، خربت البصرة، فأولتُ ذلك بانكساف القمر. وقد كان هذا شائعاً في أصحابه حتى وقع الأمر طبق ذلك. ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه، كما كان يأتي شيطان مسيلمة إلى مسيلمة.

ولما أوقع أصحابه من الزنج وغيرهم ما أوقع أصحابه من الزنج وغيرهم ما أوقعوا بأهل البصرة، قال لمن معه: إني صبيحة ذلك، دعوت الله على أهل البصرة، فرفعت لي بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يقتلون، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابي، وإني لمنصور على الناس، والملائكة تقاتل معي، وتثبت جيوشي، وتؤيدني في حروبي.

ولما صار إليه العلوية الذين كانوا بالبصرة، انتسب هو حينئذ إلى يحيى بن زيد، وهو كاذب في ذلك بالإجماع، لأن يحيى بن زيد لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع، فقبح الله هذا اللعين، ما أكذبه، وأفجره، وأغدره!

وفي مستهل ذي القعدة، وجه الخليفة من سامرا جيشاً كثيفاً مع الأمير محمد - المعروف بالمولد - لقتال صاحب الزنج، فقبض في طريقه على سعد بن أحمد الباهلي الذي كان قد تغلب على أرض البطائح، وأخاف السُّبل.

وفيها خالف محمد بن واصل السلطان، بأرض فارس، وتغلب عليها.

وفيها وثب رجل من الروم يقال له بسيل الصقلبي، على ملك الروم ميخائيل بن توفيل، فقتله، واستحوذ على مملكة الروم، وقد كان لميخائيل في ملك الروم أربع وعشرون سنة.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن إسحاق بن اسماعيل بن العباس بن محمد بن علي العباسي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن عرفة بن يزيد: صاحب الجزء المشهور المروي، وقد جاوز المائة بعشر سنين، وقيل بسبع، وكان له عشرة من الولد سماهم بأسماء العشرة وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وكان يتردد إلى الإمام أحمد بن حنبل، ولد في سنة خمسين ومائة، وتوفي في هذه السنة عن مائة وسبع سنين.

■ زيد بن أخزم الطائي. والرؤاسي ذبحهما الزنج في جملة من قتلوا من أهل البصرة. كما قدمنا قصتهم قبحهم الله، وما قتلوا من المسلمين رحمهم الله. وعلي بن خشرم.

و■ أبو سعيد الأشج، أحد مشايخ مسلم الذين يكثر الرواية عنهم.

و■ العباس بن الفرج أبو الفضل الرياشي النحوي اللغوي، كان عالماً بأيام العرب والسير وكان كثير الاطلاع، ثقة عالماً، روى عن الأصمعي، وأبي عبيدة، وغيرهما، وعنه إبراهيم الحربي، وأبو بكر بن أبي الدنيا وغيرهما، قتل الرياشي في هذه السنة بالبصرة، قتله الزنج فيمن قتلوا. ذكره ابن خلكان في الوفيات [٢٧/٣]، وحكى عنه الأصمعي أنه قال: مرّ بنا أعرابي ينشد ابنه، فقلنا له: صفه لنا فقال: كأنه دنينير فقلنا: لم نره، فلم نلبث أن جاء يحمله على عنقه أُسيِّداً كأنه جُعل فقلنا لو سألتنا عن هذا لأرشدناك اليه، إنه منذ اليوم يلعب ههنا مع الغلمان ثم أنشد الأصمعي:

نعْمَ ضجيعُ الفتى إذا بَرَدَ ... الليلُ سَحَيراً وقرقفَ الصَّردُ
زيّنها اللّه في الفؤادِ كما ... زُيِّنَ في عينِ والدٍ ولَدُ

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين

في يوم الاثنين، لعشر بقين من ربيع الأول، عقد الخليفة المعتمد على الله لأخيه أبي أحمد على ديار مصر، وقنسرين، والعواصم، وجلس يوم الخميس في مستهل ربيع الآخر، فخلع على أخيه، وعلى مفلح، وركبا نحو البصرة، في جيش كثيف، في عدد وعُدَد، فاقتتلوا هم والزنج قتالا شديداً، فقُتل مفلح، للنصف من جمادى الأولى، أصابه سهم بلا نصل في صدره فأصبح ميتاً، وحملت جثته إلى سامرا، فدفن بها.

وفيها أسر يحيى بن محمد البحراني أحد أمراء صاحب الزنج الكبار، وحمل إلى سامرا، فضرب بين يدي المعتمد مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيوف، ثم ذبح، ثم أحرق، وكان الذين اسروه، جيش أبي أحمد، في وقعة هائلة مع الزنج قبحهم الله، ولما بلغ خبره صاحب الزنج أسف على ذلك ثم قال: لقد خوطبت فيه فقيل لي: قتله كان خيراً لك لأنه كان شرهاً، يخفي من المغانم خيارها، وقد كان هذا اللعين أعني صاحب الزنج المدعى الى غير أبيه يقول لأصحابه: لقد عرضت علي النبوة، فخفت أن لا أقوم بأعبائها، فلم أقبلها.

وفي ربيع الآخر منها، وصل سعيد بن أحمد الباهلي، إلى باب السلطان فضرب سبعمائة سوط، حتى مات ثم صلب.

وفيها قُتل قاض، وأربعة وعشرون رجلا من أصحاب صاحب الزنج عند باب العامة بسامرا.

وفيها رجع محمد بن واصل إلى طاعة السلطان، وحمل خراج فارس، وتمهدت الأمور هناك واستقلّت على السّداد.

وفيها في أواخر رجب، كانت بين أبي أحمد، وبين الزنج وقعة هائلة، فقتل منها خلق من الفريقين، ثم استوخم أبو أحمد منزله فتحيَّز إلى واسط فنزلها في أوائل شعبان فوقعت هناك زلزلة شديدة، وهدة عظيمة، تهدمت بسبب ذلك بيوت ودور كثيرة، ومات من الناس نحو من عشرين ألفاً وفي هذه السنة وقع في الناس وباء شديد ببغداد وسامرا وواسط وغيرها من البلاد وحصل للناس ببغداد داء يقال له القفاع فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الخميس لسبع خلون من رمضان أخذ رجل من باب العامة بسامرا، ذكر عنه أنه يسب السلف، فضرب ألف سوط حتى مات.

وفي يوم الجمعة ثامنه توفي الأمير يارجوخ، فصلّى عليه أخو الخليفة أبو عيسى، وحضره جعفر بن المعتمد على الله.

وفيها كانت وقعة هائلة بين موسى بن بغا وبين أصحاب الحسين بن زيد ببلاد خراسان، فهزمهم موسى بن بغا هزيمة فظيعة.

وفيها كانت وقعة بين مسرور البلخي، وبين مساور الخارجي، فأسر مسرور من أصحابه جماعة كثيرة.

وفيها حج بالناس الفضل بن إسحاق المتقدم ذكره.

ومن توفي فيها من الأعيان

أحمد بن بديل، وأحمد بن حفص وأحمد بن سنان القطان وأحمد بن الفرات وحميد بن الربيع، ومحمد بن سنجر، صاحب المسند، ومحمد بن يحيى الذهلي. ويحيى بن معاذ الرازي.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين

في يوم الجمعة لأربع بقين من ربيع الآخر، رجع أبو أحمد بن المتوكل من واسط إلى سامرا، وقد استخلف على حرب الخبيث صاحب الزنج محمداً الملقب بالمولّد، وكان شجاعاً شهماً.

وفيها بعث الخليفة إلى نائب كنجور نائب الكوفة، جماعة من القواد، فذبحوه، وأخذوا ما كان معه من المال، فإذا هو أربعون ألف دينار.

وفيها تغلب رجل جمال، يقال له شركب على مدينة مرو فانتهبها من كان معه من أتباعه وتفاقم أمره، هناك.

ولثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة، توجه موسى بن بغا الكبير من سامرّا لحرب الخبيث، وخرج الخليفة المعتمد لتوديعه، وخلع عليه عند مفارقته له، وخرج عبد الرحمن بن مفلح إلى بلاد الأهواز نائباً عليها، وليكون عوناً لموسى بن بغا على حرب صاحب الزنج الخبيث لعنه اللّه، فهزم عبد الرحمن بن مفلح جيشاً للخبيث، وقتل من الزنج خلقاً كثيراً، وأسر طائفة كبيرة منهم، وأرعبهم إرعاباً كثيراً، بحيث لم يتجاسروا على مواقفته مرة ثانية، وقد حرّضهم الخبيث كل التحريض، فلم ينجع ذلك فيهم.

ثم تواقع عبد الرحمن بن مفلح، وعلي بن أبان المهلبي، وهو مقدم جيوش صاحب الزنج، فجرت بينهما حروب يطول شرحها، ثم كانت الدائرة على الزنج ولله الحمد والمنة. فرجع علي بن أبان إلى الخبيث مغلوباً مقهوراً مذموماً مدحوراً، وبعث عبد الرحمن بن مفلح بالأسارى إلى سامرا، فبادر إليهم العامة فقتلوا أكثرهم، وسلبوهم.

وفيها دنى ملك الروم لعنه اللّه إلى بلاد سميساط، ثم إلى ملطية فقاتله أهلها، فهزموه، وقتلوا بطريق البطارقة الذي كان معه، ورجع إلى بلاده خاسئاً وهو حسير.

وفيها دخل يعقوب بن الليث إلى نيسابور، فظفر بالخارجي، الذي كان بهراة ينتحل الخلافة منذ ثلاثين سنة، فقتله، وحمل رأسه على رمح، وطيف به في الآفاق والأقاليم ومعه رقعة مكتوب فيها ذلك.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق أبو إسحاق الجوزجاني خطيب دمشق، وإمامها، وعالمها، وله المصنفات المشهورة المفيدة منها المترجم فيه علوم غزيرة وفوائد كثيرة.

و■ أحمد بن إسماعيل السهمي وحجاج بن يوسف الشاعر ومحمود بن آدم.

ثم دخلت سنة ستين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها وقع غلاء عظيم ببلاد الإسلام كلها، حتى أجلى أكثر أهل البلدان منه يتجعون غيرها، ولم يبق بمكة أحد من المجاورين ومن يسبُّهم، حتى ارتحلوا إلى المدينة، وغيرها من البلاد، وخرج نائب مكة منها وبلغ كرّ الشعير ببغداد مائة وعشرين ديناراً، واستمر ذلك شهوراً.

وفيها قتل صاحب الزنج المستحوذ على البصرة علي بن زيد صاحب الكوفة.

وفيها أخذت الروم من المسلمين حصن لؤلؤة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المذكور قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحسن بن محمد الزعفراني، وعبد الرحمن بن بشر، ومالك بن طوق الذي تنسب إليه رحبة مالك بن طوق.

و■ حنين بن إسحاق العبادي الطبيب المشهور، الذي عرّب كتاب إقليدس، وحرره بعده ثابت بن قرة وعرّب حنين أيضاً كتاب المجسطي أيضاً، وغير ذلك من كتب الطب من لغة اليونان إلى لغة العرب، وكان المأمون شديد الاعتناء بذلك جداً، وكذلك جعفر البرمكي قبله، ولحنين مصنفات كثيرة في الطب، وإليه تنسب مسائل حنين، وكان بارعاً في فنه جداً، وكانت وفاته يوم الثلاثاء لست خلون من صفر من هذه السنة، قاله ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢/٢١٨].

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين

فيها انصرف الحسن بن زيد من بلاد الديلم إلى طبرستان، وأحرق مدينة شالوس، لممالأتهم يعقوب بن الليث عليه.

وفيها قتل مساور الخارجي يحيى بن حفص الذي كان يلي طريق خراسان، في جمادى الآخرة، فشخص إليه مسرور البلخي، ثم تبعه أبو أحمد بن المتوكل، فهرب مساور فلم يُلْحَق.

وفيها كانت وقعة بين ابن واصل، الذي تغلب على فارس، وبين عبد الرحمن بن مفلح، فكسره ابن واصل، وأسره، وقتل طاشتمر، واصطلم الجيش الذي كان معهما، فلم يفلت منهم إلا اليسير، ثم سار ابن واصل إلى واسط يريد حرب موسى بن بغا، فرجع موسى بن بغا إلى باب السلطان وسأل أن يعفى من نيابة بلاد المشرق رأى من كثرة المتغلبين بها، فعُزل عنها، وولي ذلك أبو أحمد أخو الخليفة المعتمد.

وفيها سار أبو الساج إلى حرب الزنج، فاقتتلوا قتالا شديداً، وغلبتهم الزنج، ودخلوا الأهواز، فقتلوا خلقاً من أهلها، وحرقوا منازل كثيرة، ثم صرف أبو الساج عن نيابة الأهواز، وخربها الزنج، وولىّ الخليفة ذلك إبراهيم بن سيما. وفيها تجهز مسرور البلخي في جيش لقتال الزنج أيضاً.

وفيها ولى الخليفة نصر بن أحمد بن أسد الساماني ما وراء نهر بلخ، وكتب إليه بذلك في شهر رمضان منها.

وفي شوال من هذه السنة قصد يعقوب بن الليث الى ابن واصل، فالتقيا في ذي القعدة، فهزمه يعقوب وفل عسكره، وأسر خاله، وطائفة من حُرَمه، وأخذ من أمواله ما قيمته أربعون ألف ألف درهم وقتل من كان يمالئه، وينصره من أهل تلك البلاد، وأطّد تلك الناحية.جزاه اللّه خيراً.

ولاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة، ولي المعتمد على اللّه ولده جعفراً العهد من بعده وسمّاه المفوض إلى اللّه، وولاه المغرب، وضم إليه موسى بن بغا وولاية إفريقية، ومصر والشام، والجزيرة، والموصل، وأرمينية، وطريق خراسان، وغير ذلك، وجعل الأمر من بعد جعفر إلى أبي أحمد بن المتوكل، ولقبه الموفق باللّه، وولاه المشرق، وضم إليه مسروراً البلخي وولاه بغداد، والسواد، والكوفة، وطريق مكة، والمدينة واليمن، وكسكر، وكور دجلة والأهواز، وفارس، وأصبهان وقم، والكرخ، والدينور والري وزنجان، والسند وكتب بذلك مكاتبات وقرئت في الآفاق، وعلق منها نسخة بالكعبة المعظمة.

وحج بالناس فيها الفضل بن إسحاق.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن سليمان الرهاوي، وأحمد** بن عبد اللّه العجلي، والحسن بن أبي الشوارب بمكة، وداود بن القاسم الجعفري، وشعيب بن أيوب.

و■ **عبد اللّه بن الواثق** أخو المهتدي باللّه وأبو شعيب السوسي، وأبو يزيد البسطامي أحد أئمة الصوفية وعلي بن إشكاب وأخوه محمد، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح. رحمهم اللّه تعالى.

وهذا ذكر شيء من أخبار مسلم بن الحجاج على سبيل الاختصار رحمه اللّه واكرم مثواه

هو

■ **مسلم بن الحجاج بن مسلم**، أبو الحسين القشيري النيسابوري،أحد الأئمة من حفاظ الحديث، صاحب الصحيح، الذي هو تلو صحيح البخاري، عند أكثر العلماء، وذهب المغاربة وأبو علي النيسابوري شيخ الحاكم النيسابوري من المشارقة إلى تفضيل صحيح مسلم على صحيح البخاري، فإن أرادوا تقديمه عليه في كونه ليس فيه شيء من التعليقات إلا القليل، وأنه يسوق الأحاديث بتمامها في موضع واحد، ولا يقطعها كتقطيع البخاري لها في الأبواب، فهذا القدر لا يوازي قوة أسانيد البخاري، واختياره في تصحيح ما أورده في جامعه، معاصرة الراوي لشيخه، وسماعه منه، وفي الجملة فإن مسلماً لا يشترط في كتابه الشرط الثاني، كما هو مقرر في علوم الحديث، وقد بسطت ذلك في أول شرح البخاري و للّه الحمد والمنّة في ترجمة الإمام البخاري رحمه اللّه.

والمقصود الآن أن مسلماً دخل إلى العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وسمع من جماعة كثيرين، قد أوردهم شيخنا الحافظ المزي في تهذيبه مرتبين على حروف المعجم.

وروى عنه جماعة كثيرون منهم الترمذي في جامعه [٦٨٧] حديثا واحداً، وهو حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ان رسول اللّه ﷺ قال: أحصوا هلال شعبان لرمضان. وصالح بن محمد جزرة، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن صاعد، وأبو عوانة الإسفراييني.

وقال الخطيب البغدادي: أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب، أخبرنا أحمد بن نعيم الضبي. أخبرنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم، سمعت أحمد بن سلمة يقول: رأيت أبا زرعة، وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج، في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما.

وأخبرني ابن يعقوب أخبرنا محمد بن نعيم سمعت الحسين بن محمد الماسرجسي يقول: سمعت أبي يقول سمعت مسلماً بن الحجاج يقول: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة.

وروى الخطيب قائلا: حدثني أبو القاسم عبد اللّه بن أحمد بن علي السوذرجاني ـ بأصبهان ـ سمعت محمد بن إسحاق بن منده، سمعت أبا علي الحسين بن علي النيسابوري يقول: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث.

وقد ذكر مسلم عند إسحاق بن راهويه قال بالعجمية ما معناه: أي رجل كان هذا؟!

وقال إسحاق بن منصور لمسلم: لن نعدم الخير ما أبقاك اللّه للمسلمين.

وقد أثنى عليه جماعة من العلماء من أهل الحديث وغيرهم.

وقال أبو عبد اللّه محمد بن يعقوب الأخرم: قلّ ما يفوت البخاري، ومسلماً مما يثبت من الحديث.

وروى الخطيب، عن أبي عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيري قال: سألت أبا العباس أحمد بن سعيد بن عقدة الحافظ عن البخاري ومسلم أيهما أعلم؟ فقال: كان البخاري عالماً، ومسلم عالماً. فكررت ذلك عليه مراراً، وهو يرد عليّ هذا الجواب ثم قال: يا أبا عمرو، قد يقع للبخاري الغلط في أهل الشام، وذلك أنه أخذ كتبهم، فنظر فيها، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته، ويذكره في موضع آخر باسمه، ويتوهم أنهما اثنان، وأما مسلم فقل ما يقع له الغلط لأنه كتب المسانيد ولم يكتب المقاطيع والمراسيل.

قال الخطيب: إنما قفا مسلم طريق البخاري، ونظر في علمه، وحذا حذوه. ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمه مسلم، وأدام الاختلاف إليه، وقد حدثني عبيد اللّه بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال: سمعت أبا الحسن الدارقطني يقول: لولا البخاري، ما ذهب مسلم، ولا جاء.

قال الخطيب: وأخبرني أبو بكر المنكدري، حدثنا محمد بن عبد اللّه الحافظ حدثني أبو نصر بن محمد الوراق، سمعت أبا حامد أحمد بن حمدان

القصار، سمعت مسلم بن الحجاج، وجاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري، فقبَّل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك، يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله حدثك محمد بن سلام، حدثنا مخلد بن يزيد الحراني، حدثنا ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في كفارة المجلس فما علته؟ فقال البخاري: هذا حديث مليح، ولا أعلم في الدنيا في هذا الباب غير هذا الحديث، إلا أنه معلول، حدثنا به موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، عن سهيل، عن عون بن عبد الله قوله قال البخاري: وهذا أولى، فإنه لا يعرف لموسى بن عقبة سماع من سهيل.

قلت: وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة، وأوردت فيه طرقه وألفاظه، ومتنه، وعلله ولله الحمد والمنة.

قال الخطيب: وقد كان مسلم يناضل عن البخاري رحمهما الله. ثم ذكر ما كان وقع بين البخاري ومحمد بن يحيى الذهلي في مسألة اللفظ بالقرآن في نيسابور، وكيف نودي على البخاري بسبب ذلك بنيسابور، وأن الذهلي قال يوماً لأهل مجلسه، وفيهم مسلم بن الحجاج: ألا من كان يقول بقول البخاري، في مسألة اللفظ بالقرآن، فليعتزل مجلسنا فنهض مسلم من فوره إلى منزله، وجمع ما كان سمعه من الذهلي جميعه، وأرسل به إليه، وترك الرواية عن الذهلي بالكلية، فلم يرو عنه شيئاً لا في صحيحه ولا في غيره، واستحكمت الوحشة بينهما. هذا ولم يترك البخاري محمد بن يحيى الذهلي، بل روى عنه في صحيحه، وغيره وعذره رحمه الله.

وقد ذكر الخطيب سبب موت مسلم رحمه الله، أنه عقد له مجلس للمذاكرة، فسئل يوماً عن حديث، فلم يعرفه، فانصرف إلى منزله، فأوقد السراج، وقال لأهله: لا يدخل أحد الليلة علي. وقد أهديت له سلة من تمر، فهي عنده يأكل تمرة، ويكشف عن حديثاً، ثم يأكل أخرى، ويكشف عن آخر، ولم يزل ذلك دأبه حتى أصبح، وقد أكل تلك السلة، وهو لا يشعر فحصل له بسبب ذلك ثقل، ومرض من ذلك، حتى كانت وفاته عشية يوم الأحد، ودفن يوم الاثنين، لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور، وكان مولده في السنة التي توفي فيها الشافعي، وهي سنة أربع ومائتين، وكان عمره سبعاً وخمسين سنة رحمه الله تعالى.

■ **أبو يزيد البسطامي:** اسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي، أحد مشايخ الصوفية، وكان جده مجوسياً فأسلم، وكان لأبي يزيد أخوان صالحان عابدان، وهو أجلّ منهما قيل لأبي يزيد: بأي شيء وصلت إلى هذه المعرفة؟ فقال ببطن جائع، وبدن عار.

وكان يقول: دعوت نفسي إلى طاعة الله، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة.

وقال أيضاً: إذا نظرتم إلى الرجل أعطي من الكرامات، حتى يرتفع في الهواء، فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

قال القاضي ابن خلكان: وله مقامات كثيرة،ومجاهدات مشهورة، وكرامات ظاهرة. وكانت وفاته سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله.

قلت: وقد حُكي عنه كلمات فيها شطح، وقد تكلم كثير من العلماء من الفقهاء،والصوفية، عليها، فمن متأول على المحامل البعيدة، أو قائل: إن ذا قاله في حال الاصطلام والسكر، ومن مبدِّع ومخطِّئ، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائتين

فيها قدم يعقوب بن الليث في جحافل، فدخل واسطاً قهراً، فخرج الخليفة المعتمد بنفسه، من سامرا لقتاله، فتوسط بين بغداد وواسط، فانتدب له أبو أحمد الموفق بالله أخو الخليفة، في جيش عظيم على ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته مسرور البلخي، فاقتتلوا في رجب من هذه السنة أياماً قتالا عظيماً هائلا، ثم كانت الغلبة على يعقوب وأصحابه، وذلك يوم عيد الشعانين: فقتل منهم خلق كثيرون، وغنم منهم أبو أحمد شيئاً كثيراً من الذهب والفضة، والمسك، والدواب، ويقال إنهم وجدوا في جيش يعقوب هذا رايات عليها صلبان ثم انصرف المعتمد إلى المدائن، ورد محمد بن طاهر إلى نيابة بغداد، وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وفيها غلب يعقوب بن الليث على بلاد فارس، وهرب ابن واصل منها.

وفيها كانت حروب كثيرة بين صاحب الزنج وجيش الخليفة.

وفيها ولي القضاء علي بن محمد بن أبي الشوارب.

وفيها جمع للقاضي إسماعيل بن إسحاق قضاء جانبي بغداد.

وفيها حج بالناس الفضل بن إسحاق العباسي.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٢٦/٩، ٥٢٧]: وفيها وقع بين الحناطين والجزارين بمكة، فاقتتلوا يوم التروية، أو قبله بيوم فقتل منهم سبعة عشر نفساً، وخاف الناس أن يفوتهم الحج بسببهم، ثم توادعوا إلى ما بعد الحج.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور** في ربيع الآخر منها، **وعمر** بن شبة النميري، **ومحمد** بن عاصم.

و■ يعقوب بن شيبة صاحب المسند الحافل المشهور والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائتين

فيها جرت حروب كثيرة، منتشرة في بلدان شتى، فمن ذلك مقتلة عظيمة في الزنج لعنهم الله حصرهم في بعض المواقف، بعض الأمراء، من جهة الخليفة، فقتل الموجودين عنده عن آخرهم ولله الحمد والمنة.

وفيها سلمت الصقالبة حصن لؤلؤة إلى طاغية الروم لعنه الله:

وفيها تغلب أخو شركب الجمال على نيسابور، وأخرج منها عاملها الحسين بن طاهر، وأخذ من أهلها ثلث أموالهم مصادرة قبحه الله.

وحج بالناس فيها الفضل بن إسحاق العباسي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **مساور بن عبد الحميد الشاري الخارجي**، وقد كان من الأبطال المذكورين والشجعان المشهورين، والتف عليه خلق من الأعراب وغيرهم، وطالت مدته حتى قصمه الله.

ووزير الخلافة

■ **عبيد الله بن يحيى بن خاقان**، صدمه في الميدان خادم يقال له رشيق، فسقط عن دابته على أم رأسه، فخرج دماغه من أذنيه، وأنفه، فمات بعد ثلاث ساعات وصلى عليه أبو أحمد الموفق بن المتوكل، ومشى في جنازته،

وذلك يوم الجمعة لعشر خلون من ذي القعدة من هذه السنة، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد، فلما قدم موسى بن بغا سامرا، عزله، واستوزر مكانه سليمان بن وهب، وسلمت دار عبد الله بن يحيى بن خاقان إلى الأمير المعروف بكيغلغ.

و■ أحمد بن الأزهر، والحسن بن أبي الربيع، ومعاوية بن صالح الأشعري.

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائتين

في المحرم منها عسكر أبو أحمد، وموسى بن بغا، بسامرا، وخرجا منها لليلتين مضتا من صفر، وخرج المعتمد لتوديعهما، وسارا، فلما وصلا إلى بغداد، توفي الأمير موسى بن بغا بها، وحمل إلى سامرا ودفن بها.

وفيها وليّ محمد بن المولد واسطا فحاربة سليمان بن جامع نائبها من جهة الخبيث صاحب الزنج، فهزمه محمد بن المولد بعد حروب طويلة بينهما.

وفيها سار ابن الديراني إلى مدينة الدينور فاجتمع عليه دلف بن عبد العزيز بن أبي دلف، وابن عياض، فهزماه، ونهبا أمواله، ورجع مغلولا، ولما توفي موسى بن بغا، عزل الخليفة المعتمد الوزير الذي كان من جهته، وهو سليمان بن وهب، وحبسه مقيداً، وأمر بنهب دوره ودور أقربائه، ورد الحسن بن مخلد إلى الوزارة، فبلغ ذلك أبا أحمد، وهو ببغداد، فسار بمن معه إلى سامرا، فتحصن منه أخوه المعتمد بجانبها الغربي، فلما كان يوم التروية، عبر جيش أبي أحمد إلى الجانب الذي فيه المعتمد، فلم يكن بينهم قتال، بل اصطلحوا على رد سليمان بن وهب إلى الوزارة، وهرب الحسن بن مخلد، فنهبت أمواله، وحواصله، واختفى أبو عيسى بن المتوكل، ثم ظهر، وهرب جماعة من الأمراء إلى الموصل، خوفاً من أبي أحمد.

وفيها حج بالناس هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي الكوفي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن عبد الرحمن بن وهب

و■ إسماعيل بن يحيى المزني، أحد رواة الحديث عن الشافعي من أهل مصر، وقد ترجمناه في طبقات الشافعيين. وترجمه ابن خلكان في الوفيات [٢١٧/١] أيضاً فأحسن وأطنب وأطيب.

و■ أبو زرعة: عبيد الله بن عبد الكريم الرازي أحد الحفاظ المشهورين، قيل إنه كان يحفظ سبعمائة ألف حديث، وكان فقيهاً، ورعاً، زاهداً، عابداً، خاشعاً، متواضعاً، أثنى عليه أهل زمانه بالحفظ، والديانة وشهدوا له بالتقدم على أقرانه، وكان في حال شبيبته، إذا اجتمع بأحمد بن حنبل، للمذاكرة يقتصر أحمد على الصلوات المكتوبات، ولا يفعل المندوبات، اكتفاء بالمذاكرة عن ذلك.

وكانت وفاته في يوم الاثنين سلخ ذي الحجة من هذه السنة وكان مولده سنة مائتين، وقيل سنة تسعين ومائة، وقد ذكرنا ترجمته مبسوطة في التكميل.

و■ محمد بن إسماعيل بن علية قاضي دمشق.

و■ يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري، وهو ممن روى عن الشافعي، وقد ذكرناه في التكميل وفي الطبقات.

و■ قبيحة أم المعتز إحدى حظايا المتوكل على الله، وقد جمعت من الجواهر، واللآلئ والذهب والمصاغ ما لم يعهد لمثلها ثم سلبت ذلك كله، وقتل ولدها المعتز؛ لأجل نفقات الجند، وشحت عليه بخمسين ألف دينار تدارئ بها عنه وكانت وفاتها في ربيع الأول من هذه السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائتين

فيها كانت وقعة بين ابن ليثويه، عامل أبي أحمد على جنبلاء، وبين سليمان بن جامع، فظفر بها ابن ليثويه بابن جامع الذي من جهة الخبيث صاحب الزنج، فقتل خلقاً من أصحابه، وأصابه منهم سبعة وأربعين أسيراً، وحرق له مراكب كثيرة، وغنم منهم أموالا جزيلة ولله الحمد والمنة.

وفي المحرم من هذه السنة، حاصر أحمد بن طولون، نائب الديار المصرية، مدينة أنطاكية، وفيها سيما الطويل، فلم يزل حتى فتحها بعد حروب يطول ذكرها، وقتل سيما المذكور، وأقام بها حتى جاءته هدايا ملك الروم وفي جملتها أسارى من المسلمين، مع كل أسير مصحف، منهم عبد الله بن رشيد بن كاوس، الذي كان عامل الثغور، فاجتمع لأحمد بن طولون ملك الشام بكماله مع الديار المصرية، لأنه لما مات نائب دمشق أماجور، ركب ابن طولون من مصر، فتلقاه ابن أماجور إلى الرملة، فأقره عليها، وسار إلى دمشق، فدخلها ثم إلى حمص، فتسلمها، ثم إلى حلب، فاستحوذ عليها، ثم ركب إلى أنطاكية، فكان من أمره ما تقدم وكان أحمد بن طولون قد استخلف على مصر ابنه العباس، فلما بلغه قدوم أبيه عليه من الشام، أخذ ما كان في بيت المال من الحواصل ووازره جماعة على ذلك، ثم ساروا إلى برقة، خارجاً عن طاعة أبيه، فبعث إليه من أخذه ذليلا حقيراً، وردوه إلى مصر، فحبسه، وقتل جماعة من أصحابه.

وفيها خرج رجل يقال له القاسم بن مهارة، على دلف بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، فقتله، واستحوذ على أصبهان، فانتصر أصحاب دلف له، فقتلوا القاسم هذا، ورأسوا عليهم أحمد بن عبد العزيز.

وفيها لحق محمد المولد بيعقوب بن الليث فسار إليه في المحرم منها، فأمر الخليفة بنهب حواصله، وأمواله وأملاكه وضياعه.

وفيها دخل صاحب الزنج إلى النعمانية، فقتل، وحرق، ثم سار إلى جرجرايا، فانزعج الناس ودخل أهل السواد إلى بغداد فلجأوا إليها محصورين.

وفيها ولّي أبو أحمد عمرو بن الليث خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، وكرمان، والسند، ووجهه إليها بذلك، وبالخلع، والتحف.

وفيها حاصرت الزنج تستر، حتى كادوا يفتحونها، فوافاهم تكين البخاري، فلم يضع ثياب سفره، حتى ناجز الزنج، فهزمهم هزيمة فظيعة منكرة جداً فقتل منهم خلقاً لا يحصون كثيرة، وهرب أميرهم علي بن أبان المهلبي مخذولا.

قال ابن جرير [تاريخه: ٥٤٦/٩]: وهذه وقعة باب كودك المشهورة، ثم إن علي بن أبان المهلبي أخذ في مكاتبة تكين، واستمالته إليه، وإلى صاحب الزنج، فسارع تكين في إجابته إلى ذلك، فبلغ خبره مسروراً البلخي، فسار نحوه، وأظهر له الأمان، حتى أخذه، فقيده، وتفرق جيشه عنه، ففرقة صارت إلى الزنج، وفرقة إلى محمد بن عبيد الله الكردي، وفرقة انضافت إلى مسرور البلخي بعد إعطائه إياهم الأمان، وولّى مكانه على عمالته أميراً

آخر يقال له أغرتمش.

وحج بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد** بن منصور الرمادي، راوية عبد الرزاق، وقد صحب الإمام أحمد، وكان يعد من الأبدال، توفي عن ثلاث وثمانين سنة، **وسعدان** بن نصر، **وعبد الله** بن محمد المخرّمي، وعلي بن حرب الطائي الموصلي، **وأبو حفص** النيسابوري علي بن موفق الزاهد، **ومحمد** بن سحنون.

قال ابن الأثير في كامله [٣٢٨/٧]: وفيها قتل أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي صاحب أبي عبيدة، والأصمعي، قتلته الزنج بالبصرة.

و■ **يعقوب بن الليث الصفار**: أحد الملوك العقلاء الأبطال. فتح بلاداً كثيرة، من ذلك بلد الرخج،التي كان فيها ملك صاحب الزنج،وكان يحمل في سرير من ذهب،على رؤوس اثني عشر رجلا، وكان له بيت في رأس جبل عال سماه مكة،فما زال حتى قتله،وأخذ بلده،واستسلم أهلها،فأسلموا على يديه،ولكن كان قد خرج عن طاعة الخليفة،وقاتله أبو أحمد الموفق كما تقدم، ولما مات ولّوا أخاه عمرو بن الليث ما كان يليه أخوه يعقوب،مع شرطة بغداد وسامرا كما سيأتي.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائتين

في صفر منها تغلب إسكاتكين على بلد الري، وأخرج عاملها منها، ثم مضى إلى قزوين، فصالحه أهلها، فدخلها، وأخذ منها أموالا جزيلة ثم عاد إلى الري، فمانعه أهلها عن الدخول إليها، فقاتلهم، ودخلها قهراً.

وفيها غارت سرية من الروم، على ناحية ديار ربيعة، فقتلوا، ومثلوا، وسبوا، ومثلوا وأخذوا نحواً من مائتين وخمسين أسيراً، فنفر إليهم أهل نصيبين، وأهل الموصل، فهربت منهم الروم، ورجعوا إلى بلادهم لعنهم الله.

وفيها ولّى عمرو بن الليث شرطة بغداد، وسامرا، لعبيد الله بن طاهر، وبعث إليه أبو أحمد بالخلعة، وخلع عليه عمرو بن الليث أيضاً، وأهدى إليه عمودين من ذهب،وذلك مضافاً إلى ما كان يليه أخوه من البلدان.

وفيها سار اغرتمش إلى قتال علي بن أبان المهلبي، بتستر، فأخذ من كان في السجن من أصحاب علي بن أبان المهلبي، من الأمراء، فقتلهم عن آخرهم، ثم سار إلى علي بن أبان، فاقتتلا قتالا شديداً في مرات عديدة، كان آخرها لعلي بن أبان المهلبي، قتل خلقاً كثيراً من أصحاب أغرتمش، وأسر بعضهم، فقتلهم أيضاً وبعث برؤوسهم إلى الخبيث صاحب الزنج، فنصبت رؤوسهم على سور مدينته قبحه الله.

وفيها وثب أهل حمص، على عاملهم عيسى الكرخي، فقتلوه، في شوال منها.

وفيها دعا الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن حسين الأصغر العقيقي أهل طبرستان إلى نفسه، وأظهر لهم أن الحسن بن زيد قد أسر، ولم يبق من يقوم بهذا الأمر غيره، فبايعوه، فلما بلغ ذلك الحسن بن زيد، قصده، فقاتله، فقتله، ونهب أمواله، وأموال من اتبعه، وأحرق دورهم.

وفيها وقعت فتنة بالمدينة، ونواحيها، بين الجعفرية والعلوية وتغلب عليها رجل من أهل البيت، من سلالة الحسن بن زيد، الذي تغلب على طبرستان، وجرت شرور كثيرة هنالك، بسبب قتل الجعفرية والعلوية، يطول ذكرها.

وفيها وثبت طائفة من الأعراب، على كسوة الكعبة فانتهبوها، وسار بعضها إلى صاحب الزنج، وأصاب الحجيج منهم شدة عظيمة وبلاء شديد، وأمور كريهة.

وفيها أغارت الروم أيضاً على ديار ربيعة.

وفيها دخل أصحاب صاحب الزنج، إلى رامهرمز، فافتتحوها، بعد قتال طويل.

وفيها دخل ابن أبي الساج مكة، فقاتله المخزومي، فقهره ابن أبي الساج، وحرق داره، واستباح ماله، وذلك يوم التروية في هذه السنة، ثم جعلت إمرة الحرمين إلى ابن أبي الساج من جهة الخليفة.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد المتقدم ذكره قبلها.

وفي هذه السنة عمل محمد بن عبد الرحمن الداخل إلى خليفة بلاد الأندلس وبلاد المغرب. مراكب في نهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط لتسير الجيوش في أطرافه إلى بعض البلدان ليقاتلوهم، فلما دخلت المراكب البحر المحيط، تكسرت، وتقطعت، ولم ينج من أهلها إلا اليسير، بل غرق أكثرهم.

وفيها التقى أسطول المسلمين، وأسطول الروم، ببلاد صقلية، فاقتتلوا، فقتل من المسلمين خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها حارب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون، لموسى بن أتامش فكسره جيشه وأسره لؤلؤ وبعث به إلى مولاه أحمد بن طولون، وهو إذ ذاك نائب الشام ومصر وإفريقية من جهة الخليفة، ثم اقتتل لؤلؤ هذا، وطائفة من الروم، فقتل من الروم خلقا كثيراً.

قال ابن الأثير [الكامل: ٣٣٦/٧]: وفيها اشتد الحال، وضاق الناس ذرعاً بكثرة الهيج وتغلب القواد، والأجناد، على كثير من البلاد، بسبب ضعف الخليفة المعتمد، واشتغال أخيه أبي أحمد بقتال الزنج.

وفيها اشتد الحر في تشرين الثاني جداً ثم قوي به البرد حتى جمد الماء.

وفيها توفي من الأعيان

إبراهيم بن أورمة، **وصالح** ابن الإمام أحمد بن حنبل قاضي أصبهان، **ومحمد** بن شجاع الثلجي أحد عباد الجهمية، **ومحمد** بن عبد الملك الدقيقي.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائتين

فيها وجه أبو أحمد الموفق، ولده أبا العباس، في نحو من عشرة آلاف فارس وراجل في أحسن هيئة، وأكمل تجمل، لقتال الزنج، فساروا نحوهم، فكان بينهم من القتال والنزال في أوقات متعددات، ووقعات مشهورات، ما يطول بسطه، وقد استقصاه الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في تاريخه [٥٥٧/٩] مبسوطاً.

وحاصل ذلك أنه آل الحال وانتهى الحرب والجدال والنزال إلى، أن استحوذ أبو العباس بن الموفق،على ما كان استولى عليه الزنج، ببلاد واسط، وأراضي دجلة، هذا وهو شاب حدث، لا خبرة له بالحرب، ولكن سلمه الله، وغنمه، وأعلى كلمته، وسدد رميته، وأجاب دعوته، وفتح على

يديه، وأسبغ نعمته عليه، وهذا الشاب هو الذي ولي الخلافة بعد عمه المعتمد ولقب بالمعتضد كما سيأتي.

ثم ركب أبو أحمد الموفق ناصر دين الله، من بغداد، في صفر من هذه السنة في جيوش كثيفة، فدخل واسطاً في ربيع الأول منها، فتلقاه ابنه، وأخبره عن الجيوش الذين معه، وتحملوا من أعباء الجهاد، فخلع عليه وعلى الأمراء كلهم خلعاً سنية، ثم سار بجميع الجيوش إلى صاحب الزنج، وهو بالمدينة التي أنشأها، وسماها المنيعة، فقاتلوا الزنج دونها قتالا شديداً، فقهرهم، ودخلها عنوة، وهربوا منها، فبعث في آثارهم جيشاً، فلحقوهم إلى البطائح يقتلون ويأسرون وغنم أبو أحمد من المنيعة شيئاً كثيراً، واستنقذ من النساء المسلمات خمسة آلاف امرأة، وأمر بإرسالهن إلى أهاليهن بواسط، ثم أمر بهدم سور البلد، وطمّ خندقها، وجعلها بلقعاً بعدما كانت للبشر مجمعاً وعادت يباباً بعدما كانت للخبيث جناباً.

ثم سار الموفق إلى المدينة، التي يقال لها المنصورة، وبها سليمان بن جامع، فحاصروها، وقاتلوه دونها، فقتل خلق كثير، من الفريقين، ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن مهدي بسهم فأصابه في دماغه فقتله، وكان من أكابر أمراء صاحب الزنج، فشق ذلك على الزنج جداً، وأصبح الناس محاصرين مدينة الزنج وذلك يوم السبت لثلاث بقين من ربيع الآخر، والجيوش الموفقية مرتبة أحسن ترتيب، فتقدم الموفق فصلّى أربع ركعات، وابتهل إلى الله في الدعاء، واجتهد في حصارها فهزم الله مقاتلتها وانتهى إلى خندقها فإذا هو قد حصن غاية التحصين، وإذا هم قد جعلوا حول البلد خمسة خنادق، وخمسة أسوار، فجعل كلما جاوز سوراً، قاتلوه دون الآخر فيقهرهم، ويجوزه إلى الذي يليه، حتى انتهى إلى البلد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وهرب بقيتهم، وأسر من نساء الزنج من حلائل سليمان بن جامع وذويه، نساء كثيرة، وصبياناً، واستنقذ من أيديهم من النساء المسلمات، والصبيان من أهل البصرة، والكوفة وواسط، نحواً من عشرة آلاف نسمة، فسيرهم إلى أهليهم، جزاه الله خيراً، ثم أمر بهدم فنادقها، وأسوارها، وردم خنادقها، وأنهارها وأقام بها سبعة عشر يوماً، وبعث في آثار من انهزم من الزنج، فكان لا يؤتى بأحد منهم، إلا استماله إلى الخير برفق، ولين، وصفح، وأضافه إلى بعض الأمراء ـ وكان مقصوده رجوعهم إلى الدين والحق ـ ثم ركب إلى الأهواز، فأجلاهم عنها، وطردهم منها، وقتل خلقاً كثيراً من أشرافهم، منهم أبو عيسى محمد بن إبراهيم البصري، وكان رئيساً فيهم مطاعاً، وغنم شيئاً كثيراً من أموالهم، وكتب الموفق إلى صاحب الزنج قبحه الله كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة، والرجوع عما ارتكبه، من المآثم، والمظالم، والمحارم، ودعوى النبوة، والرسالة، وخراب البلدان، واستحلال الفروج والأموال يبذل له الأمان إن هو رجع إلى الحق، فلم يرد عليه صاحب الزنج جواباً.

ذكر مسير أبي أحمد الموفق إلى المدينة التي فيها صاحب الزنج وهي المختارة ليحاصرها

لما كتب أبو أحمد إلى صاحب الزنج، يدعوه إلى الحق، فلم يجبه، استهانة به، ركب من فوره في جيوش عظيمة، قريب من خمسين ألف مقاتل، قاصداً إلى مدينته التي أنشأها وسماها المختارة، فلما انتهى إليها، وجدها في غاية الإحكام، وقد حوط عليها من آلات الحصار شيئاً كثيراً، وقد التف على صاحب الزنج، نحو من ثلاثمائة ألف مقاتل، بسيف ورمح ومقلاع، ومن يكثر سوادهم، فقدم الموفق ولده أبا العباس بين يديه، فتقدم حتى وقف تحت قصر الملك، فحاصره محاصرة لم ير مثلها، وتعجب الزنج من إقدامه وجرأته مع صغر سنه وحداثة عمره، ثم تراكمت الزنج عليه من كل مكان، فهزمهم، وأثبت بهبوذ أكبر أمراء صاحب الزنج، بالسهام، والحجارة، ثم خامره جماعة من أصحاب أمرائه، إلى الموفق، فأكرمهم، وأعطاهم خلعاً سنية، ثم رغب إلى ذلك جماعة كثيرون منهم، فصاروا إليه ثم ركب أبو أحمد، في يوم النصف من شعبان، ونادى في الناس كلهم بالأمان، إلا صاحب الزنج، فتحول خلق كثير من جيش صاحب الزنج وأجناده إلى الموفق، وابتنى الموفق مدينة تجاه مدينة صاحب الزنج، وسماها الموفقية، وأمر بحمل الأمتعة والتجارات إليها، فاجتمع بها من أنواع الأشياء، وصنوفها، ما لم يجتمع في بلد قبلها، وعظم شأنهم، وامتلأت من المعايش، والأرزاق، وصنوف التجارات، والسكان والدواب، وغيرهم، وإنما بناها ليستعين بها على قتال صاحب الزنج، ثم جرت بينهم حروب عظيمة، وما زالت الحرب ناشبة بينهم حتى انسلخت هذه السنة، وهم محاصرون البلد الخبيث ومن فيه، وقد تحول منهم خلق كثير، فصاروا على صاحب الزنج، بعد أن كانوا معه، ويبلغ عددهم قريباً من خمسين ألفاً من الأمراء والخواص، والأجناد، و لله الحمد كل ما لهم في زيادة وقوة، ونصر، وظفر.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن سمويه، وإسحاق بن إبراهيم شاذان، وبحر بن نصر الخولاني، وعباس الترقفي، ومحمد بن حماد بن بكر بن حماد أبو بكر المقرئ، صاحب خلف بن هشام البزار، ببغداد في ربيع الأول، ومحمد بن عزيز الأيلي. ويحيى بن محمد بن يحيى الذهلي حيكان. ويونس بن حبيب راوي مسند أبي داود الطيالسي عنه.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائتين

في المحرم منها استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان ـ وكان من أكابر أمراء صاحب الزنج وثقاتهم في أنفسهم ـ الموفق، فأمنه، وفرح به، وخلع عليه، وأمره، فركب في سمرته، فوقف تجاه قصر الملك، فنادى في الناس، وأعلمهم بكذب صاحب الزنج، وفجوره، وأنه في غرور، هو ومن اتبعه، فاستأمن بسبب ذلك بشر كثير منهم، وبرد قتال الزنج عند ذلك إلى ربيع الآخر، فعند ذلك أمر الموفق أصحابه بمحاصرة السور، وأمرهم، إذا نقبوا السور أن لا يدخلوا البلد حتى يأمرهم، فنقبوا السور، حتى انثلم، ثم عجّلوا الدخول، فدخلوا فقاتلهم الزنج، فهزمهم المسلمون، وتقدموا إلى وسط المدينة، فجاءتهم الزنج من كل مكان، وخرجت عليهم الكمائن، من أماكن لا يهتدون إليها، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، واستلبوهم، وفرّ الباقون، فلامهم أبو أحمد الموفق على مخالفته، من العجلة، وأجرى الأرزاق على ذرية من قتل منهم، فحسن ذلك عند الناس جداً، وظفر أبو العباس بن الموفق، بجماعة من الأعراب وغيرهم، كانوا يجلبون الطعام، إلى الزنج، فقتلهم، وظفر ببهبوذ بن عبد الوهاب فقتله، وكان ذلك من أكبر الفتح عند

المسلمين، وأعظم الرزايا عند الزنج، ولله الحمد.

وبعث عمرو بن الليث إلى أبي أحمد الموفق ثلاثمائة ألف دينار، وخمسين مناً من مسك، وخمسين مناً من عنبر، ومائتي منٍّ من عود، وفضة بقيمة مائة ألف، وثياباً من وشي، وغلماناً كثيرة جداً.

وفيها خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلبية فحاصر أهل ملطية فأعانهم أهل مرعش، وفرّ الخبيث خاسئاً.

وغزا الصائفة من ناحية الثغور، عامل ابن طولون، فقتل من الروم سبعة عشر ألفاً.

وحج بالناس فيها هارون بن محمد الهاشمي المتقدم.

وفيها قُتل أحمد بن عبد الله الخجستاني.

توفي من الأعيان

أحمد بن سيار، **وأحمد** بن شيبان، **وأحمد** بن يونس الضبي، **وعيسى** بن أحمد البلخي، **ومحمد** بن عبد الله بن عبد الحكم المصري الفقيه المالكي. وقد صحب الشافعي وروى عنه.

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائتين

في هذه السنة اجتهد الموفق بالله في تخريب سور مدينة صاحب الزنج، فخرب منه شيئاً كثيراً، وتمكن الجيوش من العبور إلى البلد، ولكن جاءه في أثناء هذه الحالة، سهم في صدره، من يد رجل رومي، يقال له قرطاس، فكاد يقتله، فاضطرب الحال لذلك، وهو يتجلد ويحض على القتال مع ذلك، وأقام ببلده الموفقية أياماً يتداوى فاضطربت الأحوال وخاف الناس جداً من صاحب الزنج، وأشاروا على الموفق بالمسير إلى بغداد، فلم يقبل، فقويت علّته، ثم منَّ الله عليه بالعافية في شعبان، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، فنهض مسرعاً إلى الحصار، فوجد الخبيث قد رمم كثيراً، مما كان الموفق قد خربه، وهدمه، فأمر بتخريبه، وما حوله، وما قرب منه، ثم لازم الحصار، وما انفكَّ حتى فتح المدينة الغربية وخرب قصور صاحب الزنج، ودور أمرائه، وأخذ من أموالهم شيئاً كثيراً، وغنم ما لا يحد، ولا يوصف كثرة، وأسر من نساء الزنج، واستنقذ من نساء المسلمين، وصبيانهم، خلقاً كثيراً، فأمر بردهم إلى أهاليهم مكرمين، وقد تحول صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي، وعمل الجسور، والقناطر الحائلة بينه وبين وصول السمريات إليه، فأمر الموفق بتخريبها، وقطع الجسور، واستمر الحصار في هذه السنة، وما برح حتى تسلم الجانب الشرقي أيضاً واستحوذ على حواصله، وأمواله، وفر الخبيث ذاهباً وكرّ هارباً، وترك حلائله، وأولاده، وحواصله، فأخذها الموفق ولله الحمد والمنّة وشرح ذلك يطول جداً، وقد حرره مبسوطاً ابن جرير [تاريخه: ٦١٤/٩-٦٢٠]، ولخصه ابن الأثير [الكامل: ٣٧٤/٧]، واختصره ابن كثير، والله أعلم، وهو الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

ولما رأى الخليفة المعتمد، أن أخاه أبا أحمد، قد استحوذ على أمور الخلافة، وصار هو الحاكم الآمر الناهي، الذي إليه تجلب التقادم وتحمل الأموال والخراج، وهو الذي يولّي ويعزل، كتب إلى أحمد بن طولون، يشكو إليه، ذلك فكتب إليه ابن طولون، أن يتحول إلى عنده ببلاد مصر، ووعده النصر والقيام معه، فاستغنم غيبة أخيه الموفق، وركب في جمادى الأولى، ومعه جماعة من القواد، وقد أرصد له ابن طولون جيشاً بالرقة يتلقونه، فلما اجتاز الخليفة بإسحاق بن كنداج، نائب الموصل، وعامة الجزيرة، اعتقله عنده، عن المسير إلى ابن طولون، وفنّد أعيان الأمراء الذين معه، وعاتب الخليفة، ولامه على هذا الصنع أشد اللوم، ثم ألزمه العود إلى سامرا، ومن معه من الأمراء، فرجعوا إليها في غاية الذُّلّ والإهانة.

ولمّا بلغ ذلك الموفق، شكر سعي إسحاق، وولاه جميع أعمال أحمد بن طولون إلى أقصى بلاد إفريقية، وكتب إلى ابن أخيه أن يلعن ابن طولون في دار العامة، فلم يمكن المعتمد إلا إجابته إلى ذلك، وهو كاره، وكان ابن طولون قد قطع ذكر الموفق في الخطب، وأسقط اسمه عن الطرازات.

وفيها في ذي القعدة وقعت فتنة بمكة، بين أصحاب الموفق، وأصحاب ابن طولون، فقتل من أصحاب ابن طولون مائتان، وهرب بقيتهم، واستلبهم أصحاب الموفق شيئاً كثيراً.

وفي هذه السنة قطعت الأعراب على الحجيج الطريق، وأخذوا منهم خمسة آلاف بعير بأحمالها.

وفيها توفي

إبراهيم بن منقذ الكناني **وأحمد** بن خالد مولى المعتصم - وكان من دعاة المعتزلة، أخذ الكلام عن جعفر بن معشر المعتزلي- **وسليمان** بن حفص المعتزلي، صاحب بشر المريسي، وأبي الهذيل العلاف، **وعيسى** بن الشيخ بن السليل الشيباني، نائب أرمينية وديار بكر، **وأبو فروة** يزيد بن محمد الرهاوي أحد الضعفاء.

سنة سبعين ومائتين من الهجرة

فيها كان مقتل صاحب الزنج قبّحه الله: وذلك أن الموفق لما فرغ من شأن مدينة صاحب الزنج وهي المختارة، واحتاز ما كان بها من الأموال وقتل من كان بها من الرجال، وسبى من وجد فيها من النساء، والأطفال، وقد هرب صاحب الزنج عن حومة، الجلاد، والنزال وسار إلى بعض البلاد، طريداً شريداً، بشر حال، عاد الموفق - وفقه الله - إلى مدينته، الموفقية، مؤيداً منصوراً، وقدم عليه لؤلؤة غلام أحمد بن طولون منابذاً لسيده سمعاً مطيعاً لأبي أحمد الموفق، وكان وروده عليه في ثالث المحرم من هذه السنة، فأكرمه، وعظّمه وأعطاه، وخلع عليه، وأحسن إليه، وبعثه طليعة بين يديه، لقتال صاحب الزنج، وركب الموفق في الجيوش الكثيفة الهائلة، وراءه فقصدوا الخبيث، وقد تحصن ببلدة أخرى، فلم يزل به محاصراً له، حتى أخرجه منها ذليلا وهو صاغر، واستحوذ على ما كان بها من الأموال، والمغانم، ثم بعث السرايا والجيوش، فأسروا عامة من كان معه، من خاصته، وجماعته، منهم سليمان بن جامع، فاستبشر الناس بأسره، وكبروا الله وحمدوه، فرحاً بالنصر، والفتح، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة، على أصحاب الخبيث، فاستحر فيهم القتل، وما انجلت الحرب، حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج في المعركة، وأُتي برأسه مع غلام لؤلؤ الطولوني، فلما تحقق الموفق، أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه بذلك، خرّ ساجداً لله ثم انكفأ راجعاً إلى الموفقية، ورأس الخبيث يحمل بين يديه، وسليمان معه أسير، فدخل البلد وهو كذلك، وكان يوماً مشهوداً، وفرح المسلمون بذلك في المغارب والمشارق، ثم جيء

بأنكلاي، ولد صاحب الزنج، وأبان بن علي المهلبي، مسعر حربهم، مأسورين، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير، فتم السرور، وهرب قرطاس الذي رمى الموفق بصدره، بذلك السهم، إلى رامهرمز، فأخذ، وبعث به إلى الموفق، فقتله أبو العباس ولد الموفق واستأمن من بقي من أصحاب صاحب الزنج، فأمنهم الموفق، ونادى في الناس بالأمان، وأن يرجع كل من كان أخرج من دياره، بسبب فتنة الزنج إلى أوطانهم وبلدانهم، ثم قدم ولده أبا العباس، بين يديه إلى بغداد، ومعه رأس الخبيث، يحمل، ليراه أهل بغداد، فدخلها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، من هذه السنة، وكان يوماً مشهوداً، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحه الله تعالى.

وقد كان ظهوره في يوم الأربعاء، لأربع بقين من شهر رمضان، سنة خمس وخمسين، ومائتين، وكان هلاكه يوم السبت، لليلتين خلتا من صفر، سنة سبعين، ومائتين وكانت دولته أربع عشرة سنة، وأربعة أشهر، وستة أيام، ولله الحمد والمنة.

وقد قيل في انقضاء دولة الزنج، وما كان من النصر عليهم، أشعار كثيرة، من ذلك قول يحيى بن محمد الأسلمي:

أقول وقد جاء البشير بوقعة أعزت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناس للناس بعدما أبيح حماهم خير ما كان جازيا
تفرد إذ لم ينصر اللّه ناصر بتجديد دين كان أصبح باليا
وتجديد ملك قد وهى بعد عزّه وأخذ بثارات تبير الأعاديا
ورد عمارات أزيلت وأخربت ليرجع فيء قد تخرم وافيا
وترجع أمصار أبيحت وأحرقت مراراً وقد أمست قواه عوافيا
ويشفي صدور المسلمين بوقعة يقر بها منّا العيون البواكيا
ويتلى كتاب الله في كل مسجد ويلقى دعاء الطالبيّين خاسيا
فأعرض عن أحبابه ونعيمه وعن لذة الدنيا وأصبح عاريا

وهي قصيدة طويلة هذا طرف منها.

وفي هذه السنة أقبلت الروم، في مائة ألف مقاتل، فنزلوا قريباً من طرسوس، فخرج إليهم المسلمون، فبيتوهم، فقتلوا منهم في ليلة واحدة حتى الصباح نحواً من سبعين ألفاً من المقاتلة ولله الحمد والمنة.

وقتل المقدم الذي عليهم، وهو بطريق البطارقة، وجرح أكثر الباقين، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة، من ذلك سبعة صلبان من ذهب وفضة، وصليبهم الأعظم عندهم، وهو من ذهب صامت، مكلل بالجواهر، وأربعة كراسي من ذهب، ومئتا كرسي من فضة، وآنية كثيرة من فضة، وعشرة آلاف علم من ديباج وغنموا حريراً كثيراً، وأموالا جزيلة، وخمسة عشر ألف دابة، وسروجاً، وسلاحاً وسيوفاً محلاة، وغير ذلك ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن طولون: أبو العباس أمير الديار المصرية، وباني الجامع بها المنسوب إلى طولون، وإنما بناه أحمد ابنه، وقد ملك دمشق، والعواصم، والثغور مدة طويلة، وقد كان أبوه طولون من الأتراك، الذين أهداهم نوح بن أسد بن سامان الساماني، عامل بخارى، إلى المأمون في سنة مائتين، ويقال إلى الرشيد في سنة تسعين ومائة.

ولد أحمد هذا في سنة أربع عشرة وقيل في سنة عشرين ومائتين، ومات أبوه طولون في سنة ثلاثين، وقيل في سنة أربعين ومائتين.

وحكى ابن خلكان، أنه لم يكن ابنه، وإنما تبناه، والله أعلم.

وحكى ابن عساكر، أنه من جارية تركية، اسمها هاشم، ونشأ أحمد هذا في صيانة، وعفاف، ورياسة، ودراسة للقرآن العظيم، مع حسن الصوت، وكان يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونه، من المحرمات والأشياء المنكرات، وكانت أمه جارية اسمها هاشم.

وحكى ابن عساكر، في تاريخه [مختصر تاريخ دمشق: ١٢٢/٣] عن بعض مشايخ مصر، أن طولون لم يكن أباه وإنما كان قد تبناه وأنه كان ظاهر النجابة من صغره، وأنه اتفق، أن بعثه طولون، في حاجة ليأتيه بها، من دار الإمارة، فذهب، فإذا حظية من حظايا طولون، مع بعض الخدم، في فاحشة، فأخذ حاجته التي أمره بها، وكرّ راجعاً إليه سريعاً، ولم يخبره بشيء مما رأى من ذلك، فتوهمت الحظية أن يكون أحمد قد أخبر طولون بما رأى، فجاءت إلى طولون فقالت: إن أحمد جاءني الآن إلى المكان الفلاني، وراودني عن نفسي. وانصرفت إلى قصرها، فوقع في نفسه صدقها، فاستدعى أحمد وكتب معه كتاباً، وختمه إلى بعض الأمراء، أن إذا وصل إليك حامل هذا الكتاب فاضرب عنقه، وابعث برأسه سريعاً إليّ. فذهب أحمد، وهو لا يدري ما فيه، فاجتاز في طريقه، بقصر تلك الحظية فاستدعته إليها، فقال: إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلى فلان فقالت: هلم، فلي إليك حاجة وأرادت أن تحبسه ليكتب لها كتاباً، ثم استوهبت من أحمد الكتاب، الذي أمره طولون أن يوصله، إلى ذلك الأمير، فدفعه إليها فأرسلت به ذلك الخادم، الذي وجده معها على الفاحشة، وظنت أن به جائزة، تريد أن تخص بها الخادم المذكور، فذهب بالكتاب إلى ذلك الأمير، فلما قرأه أمره بضرب عنق ذلك الخادم، وأرسل برأسه إلى الملك طولون، فتعجب الملك من ذلك وقال: أين أحمد؟ فطلب له، فقال: ويحك، أخبرني كيف صنعت، منذ خرجت من عندي؟ فأخبره بما جرى من الأمر. ولما سمعت تلك الحظية، بأن رأس الخادم قد أتي به إلى طولون، أسقط في يديها، وتوهمت أن الملك قد تحقق الحال، فقامت إليه تعتذر، وتستغفر، مما وقع منها مع الخادم، واعترفت بالحق، وبرأت ساحة أحمد، مما نسبته إليه، فحظي عند الملك طولون، وأوصى له بالملك من بعده.

ثم ولي نيابة الديار المصرية، للمعتز، فدخلها يوم الأربعاء، لسبع بقين من رمضان، سنة أربع وخمسين ومائتين، فأحسن إلى أهلها إحساناً كثيراً، وأنفق فيهم من بيت المال، ومن صدقاته: واستغل الديار المصرية في بعض السنين أربعة آلاف ألف دينار، وبنى بها الجامع، غرم عليه مائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، وكان فراغه في سنة تسع وخمسين، وقيل في سنة ست وستين ومائتين، وكانت له مائدة في كل يوم، يحضرها الخاص، والعام، وكان يتصدق في كل شهر من خالص ماله، بألف دينار، وقد قال له وكيله يوماً: إنه تأتيني المرأة، وعليها الإزار، وبذلة وهيئة وتسألني، ولها الهيئة الحسنة، تسألني، افأعطيها؟ فقال: من مدّ يده إليك فأعطه.

وكان من أحفظ الناس للقرآن، ومن أطيبهم به صوتاً.

وقد حكى ابن خلكان عنه أنه قتل صبراً نحواً من ثمانية عشر ألف نفس، فالله أعلم.

وبنى البيمارستان فغرم عليه ستين ألف دينار، وعلى الميدان مائة وخمسين ألفاً، وكانت له صدقات كثيرة جداً، وإحسان زائد، ثم ملك

دمشق بعد أميرها أماجور، في سنة أربع وستين ومائتين، فأحسن إلى أهلها أيضاً، إحساناً بالغاً، واتفق أن وقع بها حريق عند كنيسة مريم، فنهض بنفسه إليه، ومعه أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الحافظ الدمشقي، وكاتبه أبو عبد الله أحمد بن محمد الواسطي، فأمر كاتبه أن يخرج من مال الأمير سبعين ألف دينار، تصرف إلى أهل الدور، والأموال التي أحرقت فصرف إليهم جميع قيمة ما ذكره، وبقي أربعة عشر ألف دينار فاضلة عن ذلك، فأمر بها أن توزع عليهم، على قدر حصصهم، ثم أمر بمال عظيم يفرق على فقراء دمشق، وغوطتها، فأقل ما حصل للفقير دينار، رحمه الله.

ثم خرج إلى أنطاكية، فحاصر بها صاحبها سيما، حتى قتله، وتسلم البلد كما ذكرنا. ذلك فيما تقدم.

ثم كانت وفاته بمصر في أوائل ذي القعدة، من هذه السنة، من علة أصابته، من أكل لبن الجواميس، فأصابه ذرب، فداواه الأطباء، وأمروه أن يحتمي منه، فلم يقبل منهم، فكان يأكل منه في الخفية، فمات رحمه الله.

وقد ترك من الأموال، والأثاث والدواب، شيئاً كثيراً جداً، من ذلك عشرة آلاف ألف دينار، ومن الفضة شيئاً كثيراً، وكان له ثلاثة ثلاثون ولداً، منهم سبعة عشر ذكراً، فقام بالأمر من بعده ولده خمارويه كما سيأتي ما كان من أمره وكان له من الغلمان أربعة وعشرون ألف غلام ومن الموالي سبعة آلاف مولى، ومن البغال، والخيل، والجمال شيء كثير جداً نحو سبعين ألف دابة، وقيل أكثر من ذلك.

قال ابن خلكان: وإنما تغلب على البلاد، لاشتغال الموفق طلحة بن المتوكل عنه بحرب صاحب الزنج، وقد كان الموفق نائب أخيه المعتمد على الله وهو والد المعتضد رحمهم الله.

و■ **أحمد بن محمد** بن عبد الكريم بن سهل الكاتب صاحب كتاب الخراج قاله ابن خلكان.

و■ **أحمد بن عبد الله بن البرقي**، وأسيد بن عاصم الجمال، وبكار بن قتيبة المصري في ذي الحجة من هذه السنة...

و■ **الحسن بن زيد العلوي**: صاحب طبرستان في رجب من هذه السنة، وكانت ولايته تسع عشرة سنة، وثمانية أشهر، وستة أيام، وقام من بعده بالأمر أخوه محمد بن زيد، وكان الحسن بن زيد هذا كريماً جواداً ممدحاً يعرف الفقه والعربية، قال له مرة شاعر من الشعراء في جملة قصيدة مدحه بها «الله فرد» وابن زيد فرد فقال له: ويلك، لا تقل، هلا قلت: «الله فرد، وابن زيد عبد» ثم نزل عن سريره وخر لله ساجداً لله عزّ وجلّ وألصق خده بالتراب ولم يعط ذلك الشاعر شيئاً.

وامتدحه بعضهم فقال في أول قصيدة:

لا تقُلْ بُشْرى ولكن بُشْريَان   عـزّة الداعـي ويَـومُ المِهْرجَـان

فقال له الحسن بن زيد: لو ابتدأت بالمصراع الثاني كان أحسن، وأبعد لك أن تبتدئ شعرك بحرف لا فقال له الشاعر: ليس في الدنيا كلمة أجل من قول لا إله إلا الله فقال: أصبت، وأمر له بجائزة سنية.

و■ **الحسن بن علي بن عفان العامري**.

و■ **داود بن علي**: الأصبهاني، ثم البغدادي الفقيه الظاهري، إمام أهل الظاهر.

روى عن أبي ثور، وإبراهيم بن خالد، وإسحاق بن راهويه، وسليمان بن حرب، وعبد الله بن سلمة القعنبي، ومسدد بن مسرهد،وغير واحد.

روى عنه ابنه الفقيه أبو بكر بن داود، وزكريا بن يحيى الساجي.

قال الخطيب: كان فقيهاً زاهداً، وفي كتبه حديث كثير، والرواية عنه غزيرة جداً.

كانت وفاته ببغداد، في هذه السنة، وكان مولده في سنة مائتين وقيل في سنة ثنتين ومائتين.

وذكر أبو إسحاق الشيرازي في طبقاته، أن أصله من أصبهان، وولد بالكوفة، ونشأ ببغداد وأنه انتهت إليه رياسة العلم بها،وكان يحضر مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر، وكان من المتعصبين للشافعي، وصنّف مناقبه.

وقال غيره: كان حسن الصلاة والتواضع

قال الأزدي: ترك حديثه، ولم يتابع الأزدي على ذلك ولكن روى عن الإمام أحمد، أنه تكلم فيه، بسبب كلامه في القرآن، وأن لفظه به مخلوق كما نسب ذلك إلى الإمام البخاري رحمهما الله.

قلت: وقد كان من الفقهاء المشهورين، ولكن حصر نفسه بنفيه القياس الصحيح، فضاق بذلك ذرعه،في أماكن كثيرة من الفقه، فلزمه القول بأشياء قطعية، صار إليها بسبب اتباعه الظاهر المجرد، من غير تفهم لمعنى النص، وقد اختلف الفقهاء القياسيون بعده، في الاعتداد بخلافه، وأنه هل ينعقد الإجماع بدونه، مع خلافه أم لا؟ على أقوال ليس هذا موضع بسطها.

وممن توفي فيها:

■ **الربيع بن سليمان المرادي**، صاحب الشافعي، وقد ترجمناه في طبقات الشافعية، **والقاضي بكار بن قتيبة**، الحاكم بالديار المصرية، من سنة ست وأربعين ومائتين، إلى أن توفي مسجوناً بحبس أحمد بن طولون، لكونه لم يخلع الموفق في سنة سبعين رحمه الله، وكان عالماً، عابداً، زاهداً، كثير التلاوة، والمحاسبة لنفسه، وقد شغر منصب القضاء بعده بمصر ثلاث سنين.

وقد بسط ابن خلكان ترجمته في الوفيات [١/٢٧٩-٢٨٠] رحمه الله

■ **ابن قتيبة الدينوري**:

عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضيها، النحوي اللغوي صاحب المصنفات البديعة، المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة، اشتغل ببغداد، وسمع بها الحديث على إسحاق بن راهويه، وطبقته، وأخذ اللغة عن أبي حاتم السجستاني وذويه وصنف وجمع وألف الكتب المشهورة، فمن ذلك كتاب المعارف، وأدب الكاتب الذي شرحه أبو محمد بن السيد البطليوسي وكتاب مشكل القرآن والحديث، وغريب القرآن والحديث، وعيون الأخبار، وإصلاح الغلط، وكتاب الخيل، وكتاب الأنوار، وكتاب المسائل والجوابات، وكتاب الميسر والقداح،وغير ذلك.

كانت وفاته في هذه السنة، وقيل في التي بعدها، ومولده في سنة ثلاث عشرة ومائتين، ولم يجاوز الستين رحمه الله.

وروى عنه ولده أحمد جميع مصنفاته وقد ولي ولده أحمد قضاء مصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وتوفي بها بعد سنة رحمه الله

و■ **محمد بن إسحاق بن جعفر الصاغاني** ومحمد بن مسلم بن وارة ومصعب بن أحمد أبو أحمد الصوفي، وكان من أقران الجنيد.

وفيها توفي ملك الروم بن الصقلبية لعنه الله.

وفيها ابتدأ إسماعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة من بلاد الأندلس.

ثم دخلت سنة مائتين وإحدى وسبعين

فيها عزل الخليفة، عمرو بن الليث عن ولاية خراسان، وأمر بلعنه

على المنابر، وفوض أمر خراسان إلى محمد بن طاهر، وبعث جيشاً إلى عمرو بن الليث فهزمه عمرو.

وفيها كانت وقعة بين أبي العباس المعتضد بن الموفق أبي أحمد، وبين خمارويه ابن أحمد بن طولون، وذلك أن خمارويه لما ملك بعد أبيه بلاد مصر والشام، جاءه جيش من جهة الخليفة، عليهم إسحاق بن كنداج، نائب الجزيره وابن أبي الساج فقاتلوه بأرض شيزر فامتنع من تسليم الشام إليهم، فاستنجدوا بأبي العباس بن الموفق، فقدم عليهم، فكسر جيش خمارويه ابن أحمد، وتسلم دمشق، واحتازها ثم سار خلف خمارويه إلى بلاد الرملة، فأدركه عند ماء عليه طواحين، فاقتتلوا هنالك، وبذلك تسمى هذه وقعة الطواحين، فكانت النصرة أولا لأبي العباس على خمارويه، فهزمه حتى هرب خمارويه، لا يلوي على شيء، فلم يرجع حتى دخل الديار المصرية، فأقبل أبو العباس وأصحابه على نهب معسكرهم، فبينما هم كذلك، إذ أقبل كمين لجيش خمارويه، وهم مشغولون بالغنيمة، فوضع المصريون فيهم السيوف، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وانهزم الجيش، وهرب أبو العباس المعتضد، فلم يرجع حتى وصل دمشق، فلم يفتح له أهلها بابها، فانصرف حتى وصل إلى طرسوس، وبقي الجيشان المصري والعراقي يقتتلان، وليس في واحد منهما أمير ثم كان الظفر للمصريين، لأنهم أقاموا أبا العشائر أخا خمارويه عليهم أميراً، فغلبوا بسبب ذلك، واستقرت أيديهم على دمشق وسائر الشام، وهذه الوقعة من أعجب الوقعات.

وفيها جرت حروب كثيرة بأرض الأندلس من بلاد المغرب.

وفيها دخل إلى المدينة النبوية محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقتلا خلقاً كثيراً من أهلها، وأخذا أموالا جزيلة، وتعطلت الصلوات في المسجد النبوي أربع جمع، لم يحضر الناس فيه جمعة ولا جماعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجرت بمكة فتنة إخرى، واقتتل الناس على باب المسجد الحرام أيضاً وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق العباسي

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عباس بن محمد الدوري، تلميذ ابن معين، وغيره من أئمة الجرح والتعديل وعبد الرحمن بن محمد بن منصور البصري، ومحمد بن حماد الطهراني، ومحمد بن سنان ويوسف بن مسلم.

و■ بوران بنت الحسن بن سهل: زوجة المأمون ويقال إن اسمها خديجة، وبوران لقب لها، والصحيح الأول عقد عليها المأمون بفم الصلح، سنة ست ومائتين، ولها عشر سنين، فنثر أبوها، على الناس يومئذ بنادق المسك، مكتوب في ورقة وسط كل بندقة، اسم قرية، أو ملك أو جارية، أو غلام، أو فرس، فمن التقط من ذلك شيئاً ملكه، ونثر ذلك على عامة الناس الدنانير، ونوافج المسك، وبيض العنبر وأنفق على المأمون، وعسكره مدة مقامه تلك الأيام خمسين ألف ألف درهم فلما ترحل المأمون عنه، أطلق له عشرة آلاف درهم وأقطعه فم الصلح، وبنى بها في سنة عشر فلما جلس المأمون، فرشوا له حصيراً من ذهب، ونثروا على قدميه ألف حبة جوهر، وهناك تور من ذهب، فيه شمعة من عنبر، زنة أربعين مناً من عنبر، فقال: هذا سرف، ونظر إلى ذلك الحب على الحصر فقال: قاتل اللّه أبا نواس حيث يقول في صفة الخمر:

كأنَّ صغرى وكُبرى مِنْ فواقعها حَصْباءُ دُرٌ على أرْض مِن الذَّهبِ

ثم أمر بالدر فجمع، فوضع في حجر العروس، وقال: هذا نحلة مني لك، وسلي حاجتك فقالت لها جدتها: سلي سيدك فقد استنطقك فقالت: أسأل أمير المؤمنين أن يرضى عن إبراهيم بن المهدي، فرضي عنه، ثم أراد الاجتماع بها فإذا هي حائض، وكان ذلك في شهر رمضان ثم توفي المأمون في سنة ثماني عشرة ومئتين، وتأخرت هي بعده حتى كانت وفاتها في هذه السنة ولها ثمانون سنة.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائتين

في جمادى الأولى منها، سار نائب قزوين، وهو أذكوتكين في أربعة آلاف مقاتل إلى محمد بن زيد العلوي، صاحب طبرستان بعد أخيه الحسن بن زيد، وهو بالري، في جيش عظيم من الديلم وغيرهم، فاقتتلوا قتالا شديداً، فهزمه أذكوتكين، وغنم ما في معسكره، وقتل من أصحابه ستة آلاف، ودخل الري، فأخذها، أهلها مائة ألف ألف دينار، وفرق عماله في نواحي الري.

وفيها وقع بين أبي العباس بن الموفق، وبين صاحب ثغر طرسوس، وهو يازمان الخادم، فثار أهل طرسوس على أبي العباس، فأخرجوه عنهم، فرجع إلى بغداد.

وفيها دخل حمدان بن حمدون وهارون الشاري مدينة الموصل، وصلى بهم الشاري في جامعها الأعظم.

وفيها عاثت بنو شيبان في أرض الموصل وسَعْوا في الأرض فساداً.

وفيها تحركت بقية الزنج في أرض البصرة، ونادوا: يا أنكلاي يا منصور، وكان أنكلاي ابن صاحب الزنج، وسليمان بن جامع، وأبان بن علي المهلبي، وجماعة من وجوه أمرائهم، في حبس الموفق، فبعث إليهم، فقتلوا، وحملت رؤوسهم إليه، وصلبت أبدانهم ببغداد، وسكنت الشرور.

وفيها صلح أمر المدينة النبوية، وتراجع الناس إليها ولله الحمد.

وفيها جرت حروب كثيرة ببلاد الأندلس، وتسلّمت الروم من المسلمين بلدين عظيمين من الأندلس، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفيها قدم صاعد بن مخلّد، الكاتب من فارس، إلى واسط، فأمر الموفق القُوّاد أن يتلقوه، فدخل في أبهة عظيمة، ولكن ظهر منه تيه وعجب شديد، فأمر الموفق عما قريب بالقبض عليه، وعلى أهله، وأمواله وحواصله واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل.

وحج بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق العباسي المتقدم منذ دهر.

ومن توفي فيها من الأعيان

إبراهيم بن الوليد بن الجشّاش، وأحمد بن عبد الجبار بن محمد بن عطارد العطاردي التميمي، راوي السيرة، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بن يسار، وغير ذلك وأبو عتبة الحجازي، وسليمان بن سيف، وسليمان بن وهب الوزير في حبس الموفق وشعيب بن بكار يروي عن أبي عاصم النبيل، ومحمد بن صالح بن عبد الرحمن الأنماطي، ويلقب بكيلجة، وهو من تلاميذ يحيى بن معين، ومحمد بن عبد الوهاب الفراء، ومحمد بن عبيد المنادي، ومحمد بن عوف الحمصي.

و■ **أبو معشر المنجم**: واسمه جعفر بن محمد البلخي، أستاذ عصره في صناعة التنجيم، وله فيه التصانيف المشهورة، كالمدخل، والزيج، والألوف وغيرها، وتكلم على ما يتعلق بالتسيير وكذلك بالأحكام.

قال القاضي ابن خلكان: وله إصابات عجيبة، ثم حكى أن بعض الملوك تطلب رجلا، فذهب ذلك الرجل، فاختفى، وخاف من أبي معشر، أن يدل عليه بصنعة التنجيم، فعمد إلى طست، فملأه دماً، وضع أسفله هاوناً، وجلس على ذلك الهاون، فاستدعى الملك أبا معشر المنجم، وأمره أن يظهر هذا الرجل، فضرب رمله وحرر أمره ثم قال: هذا عجيب! أجد، هذا الرجل جالس على جبل من ذهب، في وسط بحر من دم، ولكن ليس هذا في الدنيا ثم أعاد الضرب فوجده كذلك، فتعجب الملك أيضاً، ونادى في البلد بأمان المذكور، فلما مثل بين يدي الملك، سأله أين اختفى؟ فأخبره بأمره، فتعجب الناس من ذلك.

قلت: والظاهر أن الذي ينسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزُجر، والطرف، واختلاج الأعضاء ونحو ذلك إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمد هذا وليس بالصادق والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين

وفيها وقع بين إسحاق بن كنداج نائب الموصل والجزيرة، وبين صاحبه ابن أبي الساج، نائب قنسرين وغيرها، بعدما كانا متفقين، وكاتب ابن أبي الساج خمارويه صاحب مصر، وخطب له ببلاده، وقدم خمارويه إلى الشام، فاجتمع به ابن أبي الساج، ثم سار إلى إسحاق بن كنداج، فتواقعا، فانهزم ابن كنداج، وهرب إلى قلعة ماردين، فحاصره بها، ثم ظهر أمر ابن أبي الساج، واستحوذ على الموصل، وبلاد الجزيرة وغيرها، وخطب بها لخمارويه، واستفحل أمره جداً.

وفيها قبض الموفق على لؤلؤ غلام ابن طولون، وصادره بأربعمائة ألف دينار، وسجنه، فكان يقول: ليس لي ذنب إلا كثرة مالي، ثم أخرج بعد ذلك من السجن، وهو فقير ذليل، فعاد إلى الديار المصرية في أيام هارون بن خمارويه، ومعه غلام واحد، فدخلها على برذون وهذا جزاء من كفر نعمة سيده عليه.

وفيها عدا أولاد ملك الروم، على أبيهم فقتلوه، وتملّك بعده أحد أولاده.

وفيها كانت وفاة:

■ **محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأموي**: صاحب الأندلس عن خمس وستين سنة. وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة، واحد عشر شهراً، وكان أبيض مشرباً بحمرة، ربعة، أوقص، يخضب بالحناء، والكتم، وكان عاقلا لبيباً، يدرك الأشياء المشتبهة، وخلف ثلاثاً وثلاثين ذكراً، وقام بالأمر بعده ولده المنذر، فأحسن إلى الناس، فأحبُّوه.

وفيها كانت وفاة:

■ **خالد بن أحمد أبي الهيثم الذُهلي**: الذي كان أمير خراسان، في حبس المعتمد على الله، وهذا الرجل هو الذي أخرج البخاري محمد بن إسماعيل من بخارى، وطرده عنها، فدعا عليه البخاري، فلم يفلح بعدها، ولم يبق في الإمرة إلا أقل من شهر، حتى احتيط عليه، وعلى أمواله وحواصله، وأركب حماراً، ونودي عليه في بلده، ثم سجن من ذلك الحين، فمكث في السجن حتى مات في هذه السنة، وهذا جزاء من تعرض لأهل السُّنة وأئمة الحديث.

ومن توفي فيها أيضاً من الأعيان

■ **إسحاق بن سيّار**،

و■**حنبل بن إسحاق** ابن عم الإمام أحمد بن حنبل، وأحد الرواة المشهورين عنه، على أنه قد اتهم، في بعض ما يرويه، ويحكيه والله أعلم، **وأبو أمية الطرسوسي**

و■ **الفتح بن شخرف** أحد مشايخ الصوفية، وذوي الأحوال، والكرامات، والمقامات والكلمات النافعات، وقد وهم ابن الأثير في قوله في كامله [٤٢٥/٧]: إن أبا داود صاحب السنن توفي في هذه السنة، وإنما توفي سنة خمس وسبعين كما سيأتي في.

■ **ابن ماجه القزويني**: صاحب السنن، وهو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، مولى ربيعة صاحب كتاب السنن المشهورة، وهي دالة على عمله، وعلمه، وتبحره، واطلاعه، واتّباعه للسنة النبوية في الأصول، والفروع، ويشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً، وألف وخمسمائة باب، ويحتوي على اربعة آلاف حديث، كلها جياد سوى اليسير.

وقد حكي عن أبي زرعة الرازي، أنه انتقد منها بضعة عشر حديثاً ربما يقال إنها موضوعة أو منكرة جداً، وله تفسير حافل، وتاريخ كامل، من لدن الصحابة إلى عصره.

وقال أبو يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي القزويني: أبو عبد الله محمد بن يزيد، ويعرف يزيد بماجه مولى ربيعة، كان عالماً بهذا الشأن، صاحب التصانيف في التاريخ والسنن، ارتحل إلى العراقين، ومصر، والشام، ثم ذكر طرفاً من مشايخه وقد ترجمناهم في كتابنا التكميل، ولله الحمد والمنة.

قال: وقد روى عنه الكبار القدماء: ابن سيبويه، ومحمد بن عيسى الصفار، وإسحاق بن محمد، وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وجدي أحمد بن إبراهيم، وسليمان بن يزيد.

وقال غيره: كانت وفاة ابن ماجه يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من رمضان، سنة ثلاث وسبعين ومائتين عن أربع وستين سنة، وصلى عليه أخوه أبو بكر، وتولى دفنه مع أخيه الآخر أبي عبد الله، وابنه عبد الله بن محمد بن يزيد رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائتين

فيها نشبت الحرب بين أبي أحمد الموفق، وبين عمرو بن الليث بفارس، فقصده أبو أحمد فهرب منه عمرو من بلد إلى بلد وتبعه، ثم لم يقع بينهما قتال ولا مواجهة، وقد تحيّز إلى أبي أحمد الموفق مقدم جيش عمرو بن الليث، وهو أبو طلحة شركب الجمال، ثم أراد العود، فقبض عليه الموفق، وأباح ماله لولده أبي العباس المعتضد، وذلك بالقرب من شيراز.

وفيها غزا يازمان الخادم نائب طرسوس بلاد الروم فأوغل فيها، فقتل، وغنم وسلم.

وفيها دخل صديق الفرغاني سامرا، فنهب دور التجار بها، وكرّ راجعاً، وقد كان هذا الرجل ممن يحرس الطرقات، فترك ذلك، وأقبل يقطع الطرقات، وضعف الجند بسامرا عن مقاومته.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **إبراهيم بن أحمد بن يحيى بن الأصم أبو إسحاق**.

قال ابن الجوزي في المنتظم [٢٦١/١٢]: كان حافظاً فاضلا، روى عن حرملة وغيره، توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ إسحاق بن إبراهيم بن زياد أبو يعقوب المقرئ حدّث عن هدبة وعنه ابن مخلد، توفي في ربيع الأول منها.

■ أيوب بن سليمان بن داود الصُّغدي يروي عن آدم بن أبي إياس وعلي بن الجعد وعنه ابن صاعد وابن السماك، وكان ثقة.

توفي في رمضان منها

■ الحسن بن مكرم بن حسان بن علي البزار، سمع عفان، وأبي النضر، ويزيد بن هارون، وغيرهم، وعنه المحاملي، وابن مخلد النجاد وكان ثقة توفي في رمضان منها، عن ثلاث وسبعين سنة.

■ خلف بن محمد بن عيسى أبو الحسين الواسطي الملقب بكردوس، روى عن يزيد بن هارون، وغيره، وعنه المحاملي، وابن مخلد.

قال ابن أبي حاتم: صدوق، وقال الدارقطني ثقة توفي في ذي الحجة منها، وقد نيف على الثمانين.

■ عبد الله بن روح بن عبد الله أبو محمد المدائني المعروف بعبدروس، روى عن شبابة ويزيد بن هارون، وعنه المحاملي، وابن السماك، وأبو بكر الشافعي، وكان من الثقات توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ عبد الله بن أبي سعد أبو محمد الوراق أصله من بلخ وسكن بغداد، وروى الحديث عن سُريج بن يونس وعفان وعلي بن الجعد وغيرهم، وعنه ابن أبي الدنيا والبغوي والمحاملي وكان ثقة صاحب أخبار وآداب وملح، توفي بواسط في جمادى الآخرة منها عن سبع وسبعين سنة.

■ محمد بن إسماعيل بن زياد أبو عبد الله، وقيل أبو بكر الدولابي، سمع أبا النضر وأبا اليمان، وأبا مسهر، وعنه أبو الحسين بن المنادي ومحمد بن مخلد وابن السماك وكان ثقة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائتين

في المحرم منها وقع الخُلْف بين بن أبي الساج وبين خمارويه فاقتتلا عند ثنية العقاب شرقي دمشق فغلب ابن أبي الساج وانهزم، وكانت له حواصل بحمص فبعث خمارويه من سبقه إليها فأخذها ومنع منه حمص فذهب إلى حلب فمنعه خمارويه فسار إلى الرقة فاتبعه، فذهب إلى الموصل ثم انهزم منها خوفاً من خمارويه ووصل خمارويه إلى بلد واتخذ له بها سريراً طويل القوائم، فكان يجلس عليه في الفرات، فعند ذلك طمع فيه إسحاق بن كنداج فسار وراءه ليظفر منه بشيء فلم يقدر، وقد التقيا في بعض الأيام فصبر له ابن أبي الساج صبراً عظيماً، فسلم وانصرف إلى الموفق ببغداد فأكرمه وخلع عليه واستصحبه معه إلى الجبل، ورجع إسحاق بن كنداج إلى ديار بكر ومُضر من الجزيرة.

وفي هذه السنة في شوال منها سجن أبو أحمد الموفق ابنه أبا العباس المعتضد في دار الإمارة، وكان سبب ذلك أنه أمره بالمسير إلى بعض الوجوه فامتنع أن يسير إلا إلى الشام التي كان عمه المعتمد ولاه إياها فغضب عليه وأمر بسجنه فثارت الأمراء واختبطت بغداد فركب الموفق إلى بغداد وقال للناس: أتظنون أنكم أشفق على ولدي أشفق مني؟ فسكن الناس عند ذلك وتراجعوا إلى منازلهم ثم أفرج عنه ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة سار رافع إلى محمد بن زيد أخي الحسن بن زيد العلوي فأخذ منه مدينة جرجان فهرب إلى استراباذ فحاصره بها سنتين فغلا بها السعر حتى بيع الملح بها وزن الدرهم بدرهمين، فهرب محمد بن زيد منها ليلا إلى سارية فأخذ منه رافع بلاداً كثيرة بعد ذلك في مدة متطاولة.

وفي المحرم منها أو في صفر كانت وفاة

■ المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأمَوِيُّ صاحب الأندلس عن ست وأربعين سنة وكانت ولايته سنة وأحد عشر شهراً، وعشرة أيام، وكان أسمر طويلا بوجهه أثر جدري، جواداً ممدحاً يحب الشعراء ويصلهم بمال كثير وخلف من الأولاد ستة ذكور، ثم قام بالأمر من بعده أخوه عبد الله بن محمد فامتلأت بلاد الأندلس في أيامه فتناً وشراً حتى هلك كما سيأتي.

ومن توفي فيها من الأعيان:

أبو بكر

■ أحمد بن محمد بن الحجاج المَرُّوذي صاحب الإمام أحمد، كان من الأئمة الأذكياء، وكان أحمد يقدمه على جميع أصحابه ويأنس به ويبعثه في الحاجة ويقول له: قل ما شئت وهو الذي أغمض الإمام أحمد وكان فيمن غسله أيضاً، وقد نقل عن أحمد مسائل كثيرة وحصلت له رفعة عظيمة شيّعه إلى سامرا حين أراد الغزو خمسون ألفاً.

■ أحمد بن محمد بن غالب بن خالد بن مرداس أبو عبد الله الباهلي البصري المعروف بغلام خليل، سكن بغداد، روى عن سليمان بن داود الشاذكوني، وشيبان بن فروخ، وقرة بن حبيب وغيرهم، وعنه ابن سماك وابن مخلد وغيرهما، وقد أنكر عليه أبو حاتم وغيره أحاديث رواها منكرة عن شيوخ مجهولين.

قال أبو حاتم: ولم يكن ممن يفتعل الحديث، كان رجلا صالحاً.

وكذبه أبو داود وغير واحد.

وروى ابن عدي عنه أنه اعترف بوضع الحديث، ليرقق به قلوب الناس.

وكان عابداً زاهداً، يقتات الباقلاء الصرف، وحين مات أغلقت أسواق بغداد وحضر الناس للصلاة عليه ثم حُمل في زورق وشيع إلى البصرة فدفن بها في رجب من هذه السنة.

و■ أحمد بن ملاعب روى عن يحيى بن معين وغيره وكان ثقة ديناً عالما فاضلا انتشر به كثير من الحديث.

وأبو سعيد

■ الحسن بن الحسين بن عبد الله السكري النحوي اللغوي، صاحب التصانيف.

و■ إسحاق بن إبراهيم بن هانئ أبو يعقوب النيسابوري، كان من أخصاء أصحاب الإمام أحمد، وعنده اختفى أحمد في زمن المحنة.

و■ عبد الله بن يعقوب بن إسحاق التميمي العطار الموصلي.

قال ابن الأثير: كان كثير الحديث معدلا عند الحكام

و■ يحيى بن أبي طالب.

و■ أبو داود السجستاني: صاحب السنن، اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن يحيى بن عمران أبو داود الأزدي السجستاني.

أحد أئمة الحديث الرحالين الجوّالين في الآفاق والأقاليم، جمع وصنف وخرج وألف وسمع الكثير عن مشايخ البلدان في الشام ومصر والجزيرة

والعراق وخراسان وغير ذلك، وله السنن المشهورة المتداولة بين العلماء، التي قال فيها أبو حامد الغزالي: يكفي المجتهد معرفتها من الأحاديث النبوية.

وحدث عنه جماعة منهم ابنه أبو بكر عبد الله وأبو عبد الرحمن النسائي وأحمد بن سليمان النجاد، وهو آخر من روى عنه في الدنيا.

سكن أبو داود البصرة وقدم بغداد غير مرة وحدث بكتابه السنن بها، ويقال إنه صنفه بها وعرضه على الإمام أحمد فاستجاده واستحسنه.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب: حدّثني أبو بكر محمد بن علي بن إبراهيم القاري الدينوري بلفظه، قال: سمعت أبا الحسين محمد بن عبد الله بن الحسن الفرضي قال سمعت أبا بكر بن داسه يقول سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب يعني كتاب السنن، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث.

قوله عليه السلام: «الأعمال بالنيات» [خ (١)، م (١٩٠٧)]

الثاني قوله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [ت (٢٣١٧)، ج (٣٩٧٦)].

والثالث قوله: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه» [خ (١٣)، م (٤٥)].

الرابع قوله: «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات» [خ (٥٢)، م (١٥٩٩)].

وحدثت عن عبد العزيز بن جعفر الحنبلي أن أبا بكر الخلال قال: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الإمام المقدم في زمانه رجل لم يسبقه إلى معرفة تخريج العلوم وبصره بمواضعها أحد من أهل زمانه، رجل ورع مقدم قد سمع منه أحمد بن حنبل حديثاً واحداً كان أبو داود يذكره، وكان إبراهيم الأصبهاني وأبو بكر بن صدقة يرفعان من قدره ويذكر انه بما لا يذكران أحداً في زمانه بمثله.

قلت: الحديث الذي كتبه عنه وسمعه منه الإمام أحمد بن حنبل هو ما رواه أبو داود من حديث حماد بن سلمة عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ سئل عن العتيرة فحسنها».

وقال إبراهيم الحربي وغيره: ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود الحديد

وقال غيره: كان أحد حفاظ الإسلام للحديث وعلله وسنده. في أعلى درجة النسك والعفاف والصلاح والورع من فرسان الحديث.

وقال غيره: كان ابن مسعود يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودله وسمته، وكان علقمة يشبهه، وكان إبراهيم يشبه علقمة، وكان منصور يشبه إبراهيم، وكان سفيان يشبه منصور، وكان وكيع يشبه سفيان، وكان أحمد يشبه وكيعاً، وكان أبو داود يشبه أحمد بن حنبل

وقال محمد بن بكر بن عبد الرزاق: كان لأبي داود كم واسع وكم ضيق فقيل له: ما هذا يرحمك الله؟ فقال: هذا الواسع للكتب، والآخر لا يحتاج إليه.

وقد كان مولد أبي داود، في سنة ثنتين ومائتين، وتوفي بالبصرة يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة ودفن إلى جانب قبر سفيان الثوري. وقد ذكرنا ترجمته في كتابنا التكميل وذكرنا ثناء الأئمة عليه.

■ محمد بن إسحاق بن إبراهيم أبو العنبس الصَّيمري الشاعر كان مجيداً في شعره أديباً كثير الملح، وكان هجاءً، ومن جيد شعره قوله:

كم مريض عاش من بعد يأس ... بعد موت الطبيب والعوادِ

قد يصاد القطا فينجو سليماً ... ويحل القضاء بالصيادِ

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائتين

في المحرم منها أعيد عمرو بن الليث إلى شرطة بغداد وكتب اسمه على الفرش والمقاعد والستور ثم أسقط اسمه في شوال منها وعزل عن ذلك وولي عبيد الله بن طاهر.

وفيها ولّى الموفق ابنَ أبي الساج نيابة أذربيجان.

وفيها قصد هارون الشاري الخارجي مدينة الموصل فنزل شرقي وجلتها فحاصرها فخرج إليه أشراف أهلها فاستأمنوه فأمنهم.

وفيها حج بالناس هارون بن محمد العباسي أمير الحرمين والطائف، ولما رجع حجاج اليمن نزلوا في بعض الأماكن فجاءهم سيل لم يشعروا به فغرقهم كلهم لم يفلت منهم أحد فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وذكر ابن الجوزي في منتظمه [٢٧٣/١٢] وابن الأثير في كامله [٤٣٧/٧] أن في هذه السنة انفرج تل بنهر الصلة في أرض البصرة يعرف بتل بني شقيق عن سبعة أقبر في مثل الحوض، وفيهم سبعة أبدانهم صحيحة وأكفانهم يفوح منهم ريح المسك، أحدهم شاب وله جمّة وعلى شفتيه بلل كأنه قد شرب ماء الآن، وكأن عينيه مكحلتان وبه ضربه في خاصرته، وأراد بعض من حضره أن يأخذ من شعره شيئاً فإذا هو قويّ كشعر الحيّ.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ أحمد بن حازم بن أبي غرزة الحافظ صاحب المسند المشهور له حديث كثير وروايته عالية.

و■ بقيّ بن مخلد: أبو عبد الرحمن الأندلسي الحافظ الكبير، له المسند المبوب على الفقه، روى فيه عن ألف وستمائة صحابي، وقد فضله ابن حزم على مسند الإمام أحمد بن حنبل، وعندي في ذلك نظر، والظاهر أن مسند أحمد أجود منه فإنه ليس هو ببلادهم، ولا وقع لهم روايته، ولو اطّلع عليه ووقف على ما فيه لما فضل عليه مُسنداً من المسندات، اللّهم إلاّ أن يكونَ بَقيٌّ قد سمع من أحمد جميع «المسند»، وزاد عليه، كما قد يسّر اللّه من الزيادات التي ألحقناها بـ «مسند» الإمام أحمد. و لله الحمدُ والمنّة. وقد رحل بقي إلى العراق فسمع من الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث بالعراق وغيرها يزيدون على المائتين بأربعة وثمانين شيخاً، وله تصانيف أخر، وكان مع ذلك رجلا صالحاً عابداً زاهداً مجاب الدعوة.

ذكر القشيري أن امرأة جاءته فقالت: إن ابني قد أسرته الإفرنج، وإني لا أنام الليل من شوقي إليه، ولي دويرة أريد أن أبيعها لأستفكه، فإن رأيت أن تشير إلى أحد بأخذها لأسعى في فكاكه بثمنها، فليس لي ليل ولا نهار ولا صبرٌ ولا قرارٌ. فقال: نعم انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء اللّه. وأطرق الشيخ وحرّك شفتيه يدعو اللّه عزّ وجّل لولدها بالخلاص من أيدي الفرنج، فذهبت المرأة فما كان إلا عن قليل حتى جاءت الشيخ وابنها معها فقالت: اسمع خبره يرحمك اللّه فقال: كيف كان أمرك؟ فقال: إني كنت فيمن يخدم الملك ونحن في القيود، فبينما أنا ذات يوم أمشي سقط

القيد من رجلي، فأقبل عليّ الموكل بي فشتمني وقال: لم أزلت فككْتَ من رجليك؟ فقلت: لا والله ما شعرت به ولكنه سقط ولم أشعر بـه، فجاؤوا بالحداد فأعادوه وشد المسمار وأيّده، ثم قمت فسقط أيضاً فأعاده وأكدوه فسقط أيضاً، فسألوا رهبانهم عن سبب ذلك فقالوا: له والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها قد استجيب دعاؤها أطلقوه فأطلقوني وخفروني حتى وصلت إلى بلاد الإسلام فسأله بقي بن مخلد عن الساعة التي سقط فيها القيد من رجليه فإذا هي الساعة التي دعا فيها الله له.

■ صاعد بن مخلد الكاتب كان كثير الصدقة والصلاة وقد أثنى عليه أبو الفرج بن الجوزي في منتظمه [١٢/٢٧٥] وتكلم فيه ابن الأثير في كامله [٧/٤١٩]، وذكر أنه كان فيـه تيه وحمق، وقد يمكن الجمع بين القولين والصفتين.

■ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري ثم البغدادي، أحد العلماء والأدباء والحفاظ الأذكياء، روى عن إسحاق بن راهويه، وغير واحد، وله التصانيف المفيدة المشهورةُ الأنيقةُ؛ كـ: «غريب القرآن» و «مشكله» و «المعارف»، و «أدب الكاتب»، و «عيون الأخبار» وغير ذلك، وكان ثقة نبيلاً جليلاً من الأئمة، وكان أهل العلم يتهمون من لم يكن في منزله شيء من تصانيفه.

وكان سبب وفاته أنه أكل لقمة من هريسة فإذا هي حارة فصاح صيحة شديدة ثم أغمي عليه إلى وقت الظهر ثم أفاق ثم لم يزل يشهد أن لا إله إلا الله إلى أن مات وقت السحر أول ليلة من رجب، من هذه السنة وقيل إنه توفي في سنة سبعين ومائتين، والصحيح في هذه السنة.

■ عبد الملك بن محمد بن عبد الله أبو قلابة الرقاشي، أحد الحفاظ، كان يكنى بأبي محمد، ولكن غلب عليه لقب أبو قلابة، سمع يزيد بن هارون وروح بن عبادة وأبا داود الطيالسي وغيرهم.

وعنه ابن صاعد والمحاملي والبخاري وأبو بكر الشافعي وغيرهم.

وكان صدوقاً عابداً يصلي في كل يوم أربعمائة ركعة، وروى من حفظه ستين ألف حديث غلط في بعضها على سبيل العمد، كانت وفاته في شوّال من هذه السنة عن ست وثمانين سنة.

و■ محمد بن أحمد بن أبي العوام.

و■ محمد بن إسماعيل الصائغ.

و■ يزيد بن عبد الصمد.

و■ أبو الرداد المؤذن، وهو عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد المؤذن صاحب المقياس بمصر، الذي هو مسلم إليه وإلى ذريته إلى يومنا هذا. قاله القاضي ابن خلكان في الوفيات [٣/١١٢] والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائتين

فيها خطب يازمان نائب طرسوس لخمارويه، وذلك أنه هاداه بذهب كثير وتحف هائلة من حرير وغير ذلك.

وفيها قدم قائد عظيم من أصحاب خمارويه إلى بغداد.

وفيها ولي المظالم ببغداد يوسف بن يعقوب ونودي في الناس: من كانت له مظلمة ولو عند الأمير الناصر لدين الله أبي أحمد الموفق، أو عند أحد من الناس فليحضر. وسار في الناس سيرة حسنة، وأظهر صرامة لم ير مثلها.

وحج بالناس هارون بن محمد الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنبس. أبو إسحاق الكوفي قاضي بغداد بعد ابن سماعة، سمع يعلى بن عبيد وغيره، وحدث عنه ابن أبي الدنيا وغيره، توفي عن ثلاث وتسعين سنة، وكان ثقة فاضلا ديناً صالحاً.

و■ أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز: أحد مشاهير الصوفية بالعبادة والمجاهدة والورع والمراقبة، ولـه تصانيف في ذلك ولـه كرامات وأحوال وصبر على الشدائد وضيق الحال.

وروى عن إبراهيم بن بشار صاحب إبراهيم بن أدهم وغيره.

وعنه علي بن محمد المصري وجماعة.

ومن جيد كلامه قوله رحمه الله: إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم.

وقوله رحمه الله: العافية تستر البر والفاجر فإذا نزل البلاء تبين عنده الرجال.

وقوله: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل. وقوله: الاشتغال بوقت ماض تضييع وقت حاضر.

وقوله ذنوب المقربين حسنات الأبرار.

وقوله: الرضا قبل القضاء تفويض، والرضا مع القضاء تسليم.

وقد روى البيهقي [شعب الإيمان: ١/٣٨١] بسنده إليه أنه سئل عن قول النبي ﷺ:"جبلت القلوب على حب من أحسن إليها" فقال يا عجباً لمن لم ير محسناً غير الله كيف لا يميل إليه بكليته؟

قلت: وهذا الحديث ليس بصحيح، ولكن كلامه عليه أحسنُ.

وقال ابنه سعيد: طلبت من أبي دانق فضة فقال: يا بني أصبر فلو أحب أبوك أن يركب الملوك إلى بابه ما تأبوا عليه.

وروى الحافظ ابن عساكر عنه قال: أصابني مرة جوع شديد فهممت أن أسأل الله طعاماً فقلت: هذا ينافي التوكل فهممت أن أسأله صبراً فهتف بي هاتف يقول:

ويزعمُ أنه منّا قريبٌ وأنّا لا نضيع من أتانا
ويسألُنا القِرى جُهداً وصَبْراً كأنّا لا نَراهُ ولا يَرانا

قال: فقمت ومشيت فراسخ بلا زاد.

وقال: أبو سعيد الخراز: المحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء، ولا يتسلى عنه بشيء يتبع آثاره ولا يدع استخباره ثم أنشد:

أُسائِلُكم عنها فهل مِن مخبِّرٍ فمالي بنُعمى بعدَ مكْثنا عِلمُ
فلو كنتُ أدري أين خيَّم أهلُها وأي بلادِ اللَّه إذْ ظَعَنوا أمُّوا
إذاً لَسَلكنا مَسْلَكَ الريحِ خلفَها ولو أصبحتْ نُعمى ومِنْ دُونها النَّجمُ

وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل في سنة سبع وأربعين، وقيل في سنة ست وثمانين والأول أصح.

■ عيسى بن عبد الله بن سنان بن دلّويه بن موسى الطيالسي الحافظ، يلقّب زغاث.

سمع عفان وأبا نعيم، وعنه أبو بكر الشافعي وغيره واحد.

وثقه الدارقطني. كانت وفاته في شوال من هذه السنة عن أربع وثمانين سنة.

■ أبو حاتم الرازي: محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران أبو

حاتم الحنظلي الرازي، أحد الأئمة الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل، وهو قرين أبي زرعة الرازي تغمدهما الله برحمته.

سمع كثير وطاف الأقطار والأمصار، وروى عن خلق من الكبار، وحدث عنه الربيع بن سليمان، ويونس بن عبد الأعلى وهما أكبر منه، وقدم بغداد وحدث بها.

وروى عنه من أهلها إبراهيم الحربي وابن أبي الدنيا والمحاملي وغيرهم.

قال لابنه عبد الرحمن: يا بني مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ.

وذكر أنه لم يكن له شيء ينفق عليه في بعض الأحيان، وأنه مكث ثلاثاً لا يأكل شيئاً حتى استقرض من بعض أصحابه نصف دينار.

وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء والفقهاء، وكان يتحدى من حضر عنده من الحفاظ وغيرهم، ويقول: من أغرب علي بحديث واحد صحيح فله علي درهم أتصدق به قال: ومرادي أن أسمع ما ليس عندي، فلم يأت أحد بشيء من ذلك. وكان في جملة من حضر ذلك أبو زرعة الرازي.

كانت وفاة أبي حاتم في شعبان من هذه السنة.

■ محمد بن الحسين بن موسى بن الحسن أبو جعفر الكوفي الخزاز المعروف بالحنيني، له مسند كبير، روى عن عبيد الله بن موسى والقعنبي وأبي نعيم وغيرهم، وعنه ابن صاعد والمحاملي وابن السماك كان ثقة صدوقاً.

■ محمد بن سعدان أبو جعفر البزاز، سمع من أكثر من خمسمائة شيخ، ولكن لم يحدث إلا اليسير، توفي في شعبان منها.

قال ابن الجوزي: وثَمَّ محمد بن سعدان البزاز عن القعنبي وهو غير مشهور ومحمد بن سعدان النحوي مشهور توفي في سنة إحدى وثلاثين مائتين

قال ابن الأثير في كامله [٧/٤٤٠]: توفي فيها

■ يعقوب بن سفيان بن جوان الإمام الفسوي، وكان يتشيع.

و■ يعقوب بن يوسف بن معقل الأموي مولاهم، والد أبي العباس أحمد الأصم.

عُريب المغنية المأمونية، وقيل إنها ابنة جعفر بن يحيى البرمكي.

فأما:

■ يعقوب بن سفيان بن جوان: فهو أبو يوسف بن أبي معاوية الفارسي الفسوي، سمع الحديث الكثير، وروى عن أكثر من ألف شيخ من الثقات، منهم هشام بن عمار، ودحيم، وأبو الجماهر، وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقيون، وسعيد بن منصور وأبو عاصم، ومكي بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، ومحمد بن كثير وعبيد الله بن موسى والقعنبي.

روى عنه النسائي في سننه وأبو بكر بن أبي داود والحسن بن سفيان وابن خراش وابن خزيمة وأبو عوانة الأسفراييني وخلق سواهم.

وصنف كتاب التاريخ والمعرفة وغيره من الكتب المفيدة النافعة، وقد رحل في طلب الحديث إلى البلدان النائية، وتغرب عن وطنه في ذلك نحو ثلاثين سنة.

وقد روى ابن عساكر عنه أنه قال: كنت أكتب في الليل على ضوء السراج في زمن الرحلة فبينا أنا ذات ليلة إذ وقع شيء على بصري فلم أبصر معه السراج فجعلت أبكي على ما فاتني من ذهاب بصري، وما يفوتني بسبب ذلك من كتابة حديث رسول الله ﷺ، وما أنا فيه من الغربة، ثم غلبتني عيني فنمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال: ما لك؟ فشكوت إليه ما أنا فيه من الغربة، وما فاتني من كتابة السنة فقال: أدن مني، فدنوت منه فوضع يده على عيني وجعل كأنه يقرأ شيئا من القرآن ثم استيقظت فأبصرت وجلست أسبح الله.

وقد أثنى عليه أبو زرعة الدمشقي والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، وقال: هو إمام أهل الحديث بفارس. وقدم نيسابور وسمع منه مشايخنا وقد نسبه بعضهم إلى التشيع.

وذكر ابن عساكر أن يعقوب بن الليث صاحب فارس بلغه عنه أنه يتكلم في عثمان بن عفان فأمر بإحضاره فقال له وزيره: أيها الأمير إنه لا يتكلم في شيخنا عثمان بن عفان السجزي، إنما يتكلم في عثمان بن عفان الصحابي، فقال: دعوه مالي وللصحابة، إني إنما حسبته يتكلم في شيخنا عثمان بن عفان السجزي.

قلت: وما أظن هذا صحيحاً عن يعقوب بن سفيان فإنه إمام محدث كبير القدر، وقد كانت وفاته قبل أبي حاتم بشهر في رجب من هذه السنة بالبصرة رحمه الله.

وقد رآه بعضهم في المنام فقال: ما فعل بك ربك؟ فقال له: غفر لي وأمرني أن أملي الحديث في السماء كما كنت أمليه في الأرض، فجلست للإملاء في السماء الرابعة، وجلس حولي جماعة من الملائكة منهم جبريل يكتبون ما أمليه من الحديث بأقلام الذهب.

وأما

■ عريب المأمونية: فقد ترجمها الحافظ ابن عساكر في تاريخه [تراجم النساء ص٢٢٩] وحكى قولا لبعضهم أنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، سرقت وهي صغيرة عند ذهاب دولة البرامكة، وبيعت فاشتراها المأمون بن الرشيد.

ثم روى عن حماد بن إسحاق عن أبيه أنه قال: ما رأيت امرأة قط أحسن وجهاً وأدباً وغناء وضرباً وشعراً ولعباً بالشطرنج والنرد منها، وما تشاء أن تجد خصلة ظريفة بارعة في امرأة إلا وجدتها فيها.

وقد كانت شاعرة مطبقة بليغة فصيحة، وكان المأمون يتعشقها ثم أحبها بعده المعتصم، وكانت هي تتعشّق لرجل يقال له محمد بن حامد، وربما أدخلته إليها في دار الخلافة قبحها الله على ما ذكره ابن عساكر عنها في تاريخه، ثم تعشقت صالحاً المنذري وتزوجته سراً، وكانت تقول فيه الشعر، وربما غنّته بين يدي المتوكل وهو لا يشعر فيمن هو، فتضحك جواريه من ذلك فيقول: يا سحاقات هذا خير من عملكن.

وقد أورد ابن عساكر شيئاً كثيراً من شعرها، فمن ذلك قولها لما دخلت على المتوكل تعوده من حمى أصابته فقالت:

أتوني فقالوا بالخليفة علة ... فقلت ونار الشوق توقد في صدري
ألا ليت بي حمى الخليفة جعفر ... فكانت بي الحمى وكان له أجري
كفى حزنا أن قيل حم فلم أمت ... من الحزن إني بعد هذا لذو صبر
جعلت فداءً للخليفة جعفر ... وذاك قليل للخليفة من شكري

ولما عوفي دخلت عليه فغنّته من قيلها:

شكراً لأنعم من عافاك من سقم ... دمت المعافى من الآلام والسقم
عادت ببرئك للأيام بهجتها ... واهتز نبت رياض الجود والكرم

ما قام للدين بعد المصطفى من ملك   أعف منك ولا أرعى إلى النعم
فعمر اللّه فينا جعفراً ونفى   بنور سنته عنا دجى الظلم

ولها في عافيته أيضاً:

حمدنا الذي عافى الخليفة جعفراً   على رغم أشياخ الضلالة والكفر
وما كان إلا مثل بدر أصابه   كسوف قليل ثم أجلى عن البدر
سلامته للدين عز وقوة   وعلته للدين قاصمة الظهر
مرضت فأمرضت البرية كلها   وأظلمت الأمصار من شدة النُّعْر
فلما استبان الناس منك إفاقة   أفاقوا وكانوا كالنيام على الجمر
سلامة دنيانا سلامة جعفر   فدام معافىً سالماً آخر الدهر
إمام يعم الناس بالفضل والتُقى   قريباً من التقوى بعيداً من الوزر

ولها من الأشعار الرائقة الفائقة شيء كثير، وفيما ذكرنا كفاية، واللّه الموفق للصواب.

قال ابن عساكر: بلغني أنّ مولدها في سنة إحدى وثمانين ومائة وماتت في سنة سبع وسبعين ومائتين بسر من رأى، ولها ست وتسعون سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

قال ابن الجوزي [المنتظم: ٢٨٧/١٢]: في المحرم من هذه السنة طلع نجم ذو جمة ثم صارت الجمة ذؤابة.

قال: وفي هذه السنة غار ماء النيل وهذا شيء لم يعهد مثله ولا بلغنا في الأخبار السابقة. فغلت الأسعار بمصر بسبب ذلك جداً.

قال: وفيها خلع على عبد اللّه بن سليمان بن وهب بالوزارة.

وقال: وفي المحرم منها قدم الموفق أبو أحمد من الغزو فتلقاه الناس إلى النهروان فدخل بغداد وهو مريض بالنقرس فاستمر في داره في أوائل صفر، ومات بعد أيام كما ستأتي ترجمته في هذه السنة.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة تحركت القرامطة قبحهم اللّه وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك، وكانا يبيحان المحرمات. ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما يدخلون من جهة الرافضة، لأنهم أقل الناس عندهم وعند غيرهم عقولا ويقال لهم الإسماعيلية، لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق. ويقال لهم القرامطة، قيل نسبة إلى قرمط بن الأشعث البقار.

وقيل: إن رئيسهم كان في أول دعوته يامر من اتبعه بخمسين صلاة في كل يوم وليلة ليشغلهم بذلك عما يريد تدبيره من المكيدة. ثم اتخذ نقباء اثني عشر، وأسس لأتباعه دعوة ومسلكاً يسلكونه ودعا إلى إمام من أهل البيت، ويقال لهم الباطنية لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض، والخرمية والبابكية نسبة إلى بابك الخرمي الذي ظهر في أيام المعتصم فلم يزل يبعث خلفه الجيوش حتى جيء به أسيراً فقتله كما ذكرنا فيما سبق. ويقال لهم المحمرة نسبة إلى صبغ الحمرة شعاراً مضاهاة لبني العباس ومخالفة لهم، لأن بني العباس يلبسون السواد. ويقال لهم التعليمية نسبة إلى التعلم من الإمام المعصوم وترك الرأي ومقتضى العقل ويقال لهم السبعية نسبة إلى القول بأن الكواكب السبعة المتحيزة السيّارة مدبرة لهذا العالم فيما يزعمون لعنهم اللّه. وهي القمر في الأولى، وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة.

قال ابن الجوزي: وقد بقي من البابكية جماعة يقال إنهم يجتمعون في كل سنة ليلة هم ونساؤهم ثم يطفئون المصباح وينتهبون النساء فمن وقعت في يده امرأة حلت له ويقولون هذا اصطياد مباح لعنهم اللّه.

وقد بسط أبو الفرج بن الجوزي في هذا الموضع من تاريخه المسمى بالمنتظم [٢٩٢/١٢] تفصيل قولهم لعنهم اللّه وقد سبقه إلى ذلك أبو بكر الباقلاني المتكلم المشهور في كتابه «هتك الأستار وكشف الأسرار» في الرد على الباطنية، وردّ على كتابهم الذي جمعه بعض قضاتهم بديار مصر في أيام الفاطميين الذي سماه «البلاغ الأعظم والناموس الأكبر» وجعله ست عشرة درجة أول درجة أن يدعو من يجتمع به أولا إن كان من أهل السنة إلى القول بتفضيل علي على عثمان بن عفان ثم ينتقل به إذا وافقه على ذلك إلى تفضيل عليٍّ على الشيخين أبي بكر وعمر، ثم يترقى بعد ذلك إلى سبهما، لأنهما ظلما علياً وأهل البيت، ثم يترقى به إلى تجهيل الأمة وتخطئتها في موافقة أكثرهم على ذلك، ثم يشرع في القدح في دين الإسلام من حيث هو. وقد ذكر لمخاطبته لمن يريد أن يخاطبه بذلك شبهاً وضلالات لا تروج إلا على كل غبي جاهل شقي كما قال تعالى: ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٧ - ٩] أي يضل به من هو ضالٌ وقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. ولِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ولِيَرْضَوْهُ ولِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة ومضمونها أن الجهل والضلالة لا ينقاد لها إلا شرار الناس كما قال بعض الشعراء:

إن هوُ مستحوذاً على أحدٍ   إلا على أضعفِ المجانينِ

ثم بعد هذا كله لهم مقامات في الكفر والجهل والسخافة والرعونة مما لا ينبغي لضعيف عقل أو دين أو تصور سماعه مما فتح عليهم إبليس من الأبواب وأنواع الجهالات، وربما أفاد بعضَهم إبليسَ أشياء لم تكن عنده كما قال بعضهم:

وكنتُ امرأً من جندِ إبليسَ برهةً   من الدهر حتى صارَ إبليسُ من جندي

والمقصود أن هذه الطائفة تحركت في هذه السنة، ثم استفحل أمرهم وتفاقم الحال بهم كما سنذكره، حتى آل بهم الحال إلى أن دخلوا المسجد الحرام فسفكوا دم الحجيج في وسط المسجد حول الكعبة المكرمة وكسروا الحجر الأسود واقتلعوه من موضعه وذهبوا به إلى بلادهم في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، ثم لم يزل عندهم إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فمكث غائباً عن موضعه من البيت ثنتين وعشرين سنة فإنا للّه وإنا إليه راجعون وكل ذلك من ضعف الخليفة وتلاعب الترك بمنصب الخلافة واستيلائهم على البلاد وتشتت الأمر.

واتفق في هذه السنة شيئان

أحدهما: ظهور هؤلاء.

والثاني موت حسام الإسلام وناصر الدين أبي أحمد الموفق تغمده اللّه برحمته وأسكنه بحبوحة جنته بكرمه ومنه، لكن أبقى اللّه للمسلمين بعده

ولده أبا العباس أحمد من الموفّق الملقب بالمعتضد وقد كان شهماً شجاعاً فاتكاً كريماً جواداً ممدّحاً.

ترجمة أبي أحمد الموفق

■ (الموفق بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد)

هو الأمير الناصر لدين اللّه، أبو أحمد محمد طلحة بن المتوكل على اللّه جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد.

كان مولده في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين، وكان أخوه المعتمد حين صارت الخلافة إليه قد عهد إليه بالولاية بعد أخيه جعفر، ولقبه الموفق باللّه، ثم لما قتل صاحب الزنج وكسر جيشه تلقب بناصر دين اللّه، وصار إليه العقد والحل والولاية والعزل، وإليه يجبى الخراج، وكان يخطب له على المنابر، فيقال: اللّهم أصلح الأمير الناصر لدين اللّه أبا أحمد الموفق باللّه ولي عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين ثم اتفق موته قبل أخيه المعتمد بستة أشهر، وكان غزير العقل حسن التدبير كريماً جواداً ممدّحاً شجاعاً مقداماً رئيساً، حسن المحادثة والمجالسة، عادلاً حسنَ السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جداً.

وكان سبب موته أنه أصابه مرض النقرس في السفر فقدم إلى بغداد وهو عليل،فاستقر في داره في أوائل صفر وقد تزايد به المرض وتورمت رجله حتى عظمت جداً، وكان يوضع عليها الأشياء المبردة كالثلج ونحوه، وكان يحمل سريره أربعون رجلا بالنوبة، عشرون عشرون فقال لهم ذات يوم: ما أظنكم إلا قد مللتم فيا ليتني كواحد منكم آكل كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، وأرقد كما ترقدون في عافية.

وقال أيضاً: في ديواني مائة ألف مرتزق ليس فيهم أسوأ حالا مني.

ثم كانت وفاته في القصر الحسني ليلة الخميس لثمان بقين من صفر

قال ابن الجوزي: له سبع وأربعون سنة تنقص شهراً وأياماً.

ولما توفي أبو أحمد الموفّق اجتمع الأمراء على أخذ البيعة لولاية العهد من بعده لولده أبي العباس أحمد، فبايع له المعتمد بولاية العهد بعد أبيه المفوّض، وخطب له على المنابر وجعل إليه ما كان لأبيه من الولاية والعزل والقطع والوصل والعقد والحل، ولقب المعتضد باللّه.

وممن توفي فيها أيضاً:

■ إدريس بن سليم الفقعسي الموصلي قال ابن الأثير: كان كثير الحديث والصلاح.

و■ إسحاق بن كنداج نائب الجزيرة، كان من ذوي الرأي الشجعان المشهورين، وقام بما كان إليه ولده محمد.

و■ يازمان نائب طرسوس جاءه حجر منجنيق من بلدة كان يحاصرها ببلاد الروم فمات منه وذلك في رجب من هذه السنة ودفن بطرسوس، فولي نيابة الثغر بعده أحمد العجيفي بأمر خمارويه بن أحمد بن طولون، ثم عزله عن قريب بابن عمه موسى بن طولون.

و■ عبدة بن عبد الرحيم قبحه اللّه. ذكر ابن الجوزي [في المنتظم: ١٢/٣٠١ - ٣٠٢] أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد العدو، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصرون بلدة من بلاد الروم إذ نظر إلى امرأة في ذلك الحصن فهويها فراسلها وما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت أن تتنصر، وتصعد إلي فأجابها إلى ذلك قبحه اللّه فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غماً شديداً، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن فقالوا: يا فلان ما فعل قراءتك؟ ما فعل علمك؟ما فعل صيامك؟ ما فعل علمك وصلاتك؟ فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله:﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢ - ٣] وقد صار لي فيهم مال وولد.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

في أواخر المحرم منها خُلِع جعفر المفوض من المعهد واستقل بولاية العهد من بعد المعتمد أبو العباس بن الموفق ولُقب بالمعتضد وجُعل له السلطنة كما كان أبوه، وخطب له بذلك المعتمد على رؤوس الأشهاد وكان يوماً مشهوداً وفي ذلك يقول يحيى بن علي يهنئ المعتضد:

ليهنك عقد أنت فيه المقدم	حباك به رب بفضلك أعلم
فإن كنت قد أصبحت والي عهدنا	فأنت غداً فينا الإمام المعظم
ولا زال من والاك فيه مبلغاً	مناه ومن عاداك يشجى ويندم
وكان عمود الدين فيه تأوّدٌ	فعاد بهذا العهد وهو مقوم
وأصبح وجه الملك جذلان ضاحكاً	يضيء لنا منه الذي كان يظلم
فدونك شدد عقد ما قد حويته	فإنك دون الناس فيه المحكم

وفيها نودي ببغداد أن لا يمكن أحد من القصاص والطرقية والمنجمين ومن أشبههم من الجلوس في المساجد ولا في الطرقات، وأن لا تباع كتب الكلام والفلسفة والجدل بين الناس، وذلك بهمة أبي العباس المعتضد سلطان الإسلام.

وفي هذه السنة وقعت حروب بين هارون الشاري وبين بني شيبان في أرض الموصل وقد بسط ذلك ابن الأثير في كامله [٧/٤٥٣].

وفي رجب منها كانت وفاة المعتمد على اللّه ليلة الاثنين لتسع عشرة ليلة خلت منه وهذه ترجمته:

■ (المعتمد بن المتوكل بن المعتصم)

هو أمير المؤمنين المعتمد على اللّه بن المتوكل على اللّه بن المعتصم بن الرشيد واسمه أحمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن محمد بن عبد اللّه أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

استمرت أيامه في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام، وكان عمره يوم مات خمسين سنة وستة أشهر،وكان أسن من اخيه أبي أحمد الموفق بستة أشهر، وتأخر بعده أقل من سنة، ولم يكن إليه من الأمر شيء وإنما كان الأمر كله فيما يتعلق بتدبير الخلافة إلى الموفق وقد اتفق أن المعتمد طلب في بعض الأيام ثلاثمائة دينار يحصل له إليها فقال في ذلك:

أليس من العجائب أن مثلي	يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً	وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طراً	ويمنع بعض ما يجبى إليه

وكان أول خليفة انتقل من سامرا إلى بغداد بعد ما بنيت سامرا ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء، بل جعلوا دار إقامتهم ببغداد.

وكان سبب هلاكه في ما ذكر ابن الأثير أنه شرب في تلك الليلة شراباً كثيراً وتعشى عشاء كثيراً، وكانت وفاته في القصر الحسيني من بغداد، وحين مات أحضر المعتضد القضاة والأعيان وأشهدهم أنه مات حتف أنفه، ثم غسل وكفن وصلى عليه ثم حمل فدفن بسامرا وفي صبيحة العزاء بويع للمعتضد بالله.

خلافة المعتضد بالله

أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن أحمد الموفق بن جعفر المتوكل، كان من خيار خلفاء بني العباس ورجالهم. بويع له بالخلافة صبيحة موت المعتمد وذلك لعشر بقين من رجب منها.

وقد كان أمر الخلافة داثراً فأحياه الله على يديه بعدله وشهامته وجرأته، واستوزر عبيد الله بن سليمان بن وهب وولّى مولاه بدراً الشرطة في بغداد وجاءته هدايا عمرو بن الليث وسأل منه أن يوليه إمرة خراسان فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه بالخلع واللواء فنصبه عمرو بن الليث في داره ثلاثة أيام فرحاً وسروراً بذلك، وعزل رافع بن هرثمة عن إمرة خراسان ودخلها عمرو بن الليث فلم يزل يتبع رافعاً من بلد إلى بلد حتى قتله في سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي، وبعث برأسه إلى المعتضد وصفت إمرة خراسان لعمرو بن الليث.

وفي هذه السنة قدم الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من الديار المصرية بهدايا عظيمة من خمارويه صاحب مصر إلى المعتضد فتزوج المعتضد بابنة خمارويه فجهّزها أبوها بجهاز لم يسمع بمثله، حتى قيل إنه كان من الهواوين الذهب مائة هاون، فحمل ذلك كله من الديار المصرية إلى دار الخلافة ببغداد صحبة العروس، وكان وقتاً مشهوداً.

وفي هذه السنة تملك أحمد بن عيسى بن الشيخ قلعة ماردين وكانت قبل ذلك لإسحاق بن كنداج.

وفيها حج بالناس هارون بن محمد العباسي وهي آخر حجة حجها بالناس، وقد كان يحج بالناس من سنة أربع وستين ومائتين إلى هذه السنة

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ أحمد أمير المؤمنين المعتمد كما تقدم ترجمته قريباً.

و■ أبو بكر بن أبي خيثمة أحمد بن زهير بن خيثمة صاحب التاريخ وغيره.

سمع أبا نعيم وعفان وأخذ علم الحديث عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وعلم النسب عن مصعب الزبيري، وأيام الناس عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني. وعلم الأدب عن محمد بن سلام الجمحي.

وكان ثقة حافظاً ضابطاً مشهوراً، وفي تاريخه هذا فوائد كثيرة وفرائد غزيرة.

روى عنه البغوي وابن صاعد وابن أبي داود وابن المنادي. توفي في جمادى الأولى من هذه السنة عن أربع وتسعين سنة رحمه الله.

و■ خاقان أبو عبد الله الصوفي، كانت له أحوال وكرامات.

■ البلاذري المؤرخ: أحد المشاهير أحمد بن يحيى بن جابر بن داود أبو الحسن ويقال أبو جعفر ويقال أبو بكر البغدادي البلاذري صاحب «التاريخ» المنسوب إليه، سمع هشام بن القاسم بن سلام، وأبا الربيع الزهراني وجماعة، وعنه يحيى بن النديم وأحمد بن عمار وأبو يوسف يعقوب بن نعيم بن قرقارة الأزدي

قال الحافظ ابن عساكر: كان أديباً راوية، له كتب جياد، ومدح المأمون بمدائح، وجالس المتوكل، وتوفي أيام المعتمد، ووُسوسَ في آخر عمره.

وروى ابن عساكر قال: قال لي محمود الوراق: قل من الشعر ما يبقى لك ذكره، يزول عنك إثمه فقلت:

استعدي يا نفس للموت واسْعَي ... لنجاة فالحازم المستعد
قد تبيّنتِ أنه ليس للحيّ ... خلودٌ ولا من الموت بُدُّ
إنما أنت مستعيرة ما سوف ... تردين والعواري ترد
أنت تسهين والحوادث لا تسـ ... ـهو وتلهين والمنايا تَجِدُّ
أي ملك في الأرض أو أي حظ ... لامرىء حظه من الأرض لحد
لا ترجي البقاء في معدن المو ... ت ودار حتوفها لك ورد
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا ... م عليه الأنفاس فيها تعد

■ الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، وقيل محمد بن عيسى بن يزيد بن سورة بن السكن، ويقال محمد بن عيسى بن سورة بن شداد أبو عيسى السلمي الترمذي الضرير، ويقال إنه ولد أكمه.

وهو أحد أئمة هذا الشأن في زمانه، وله المصنفات المشهورة، منها الجامع، والشمائل، وأسماء الصحابة وغير ذلك. وكتاب الجامع أحد الكتب الستة التي يرجع إليها العلماء في سائر الآفاق، وجهالة ابن حزم لأبي عيسى الترمذي حيث قال في «محلاّه»: ومَن محمد بن عيسى بن سورة؟ لا تضرُّه في دينه ودنياه ولا تضع من قدره، عند أهل العلم، بل تحطُّ من منزلة ابن حزم عند الحفاظ

وكيف يَصِحُ في الأذهان شيء ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دَليل

وقد ذكرنا مشايخ الترمذي في التكميل.

وروى عنه غير واحد من العلماء منهم محمد بن إسماعيل البخاري في غير «الصحيح»: والهيثم بن كليب الشاشي صاحب المسند، ومحمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي، راوي الجامع عنه. ومحمد بن المنذر بن شكُر.

قال الحافظ أبو يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي القزويني في كتابه علوم الحديث: محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الحافظ متفق عليه، له كتاب في السنن وكتاب في الجرح والتعديل، روى عنه ابن محبوب والأجلاء، وهو مشهور بالأمانة والعلم. مات بعد الثمانين ومائتين. كذا قال في تاريخ وفاته. وقد قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الغنجار في تاريخ بخارى: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي الحافظ، دخل بخارى وحدث بها، وهو صاحب الجامع والتاريخ، توفي بالترمذ ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين.

وذكره الحافظ أبو حاتم بن حبان في الثقات، فقال: كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر.

وقال الترمذي: كتب عني البخاري حديث عطية عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «لا يحل لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» [٣٧٢٧].

وروى ابن نُقطة في تقييده عن الترمذي أنه قال: صنفت هذا المسند الصحيح فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته على علماء

العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان، فرضوا بـه ومـن كـان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم.

قالوا: وجملة «الجامع» الذي صنفه الترمذي مائة واحد وخمسون كتاباً، وكتاب «العلل» صنفه بسمرقند، وكان فراغه منه في يوم عيد الأضحى سنة سبعين ومائتين.

قال ابن نقطة: سمعت محمد بن طاهر المقدسي سمعت أبـا إسمـاعيل عبد الله بن محمد الأنصاري يقول: كتاب الترمذي عندي أفيـد مـن كتـاب البخاري ومسلم. قلت: ولِمَ؟ قال لأنه لا يصل إلى الفائدة منهما إلا مَن هو من أهل المعرفة التامة، وهذا كتاب قد شرح أحاديثه وبينها، فيصل إليها كل أحد من الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهما.

قلت: والذي يظهر من حال الترمذي أنه إنما طرأ عليه العمـى بعـد أن رحل وسمع وكتب وذاكر وناظر وصنف، ثم اتفق موته في بلده في رجـب من هذه السنة على الصحيح المشهور والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين من الهجرة

في المحرم منها قتل المعتضد رجلا مـن أمـراء الزنـج كـان قـد لجـأ إليـه بالأمان ويعرف بشيملة، ذكر له أنه يدعو إلى رجل لا يعرف من هـو، وقـد أفسد جماعة، فاستدعى به فقرره فلم يقر، وقال: لـو كـان تحـت قدمـي مـا أقررت به، فأمر به فَشُدَّ على عمود خيمة ثم لوّحه على النار حتى تسـاقط جلده عن عظامه، ثم أمر بضرب عنقه وصلبه لسبع ليال خلون من المحرم.

وفي أول صفر ركب المعتضد بالله أبو العبـاس بـن الموفـق مـن بغـداد قاصداً بني شيبان من أرض الموصل فأوقع بهم بأساً شديداً عند جبل يقـال له توباذ وكان مع المعتضد حادٍ جيد الحـداء، فقـال في بعـض تلـك الليـالي يحدو بالمعتضد.

فأجهشـت للتوبـاذ حـين رأيتـه ... وهللـت لـلرحمن حـين رآنـي
وقلـت لـه أيـن الذيـن عهدتهـم ... بظلـك في أمـن ولـين زمـان
فقال مضوا واستخلفوني مكـانهم ... ومـن ذا الـذي يبقـى على الحدثـان

قال فتغرغرت عينا المعتضد وقال: من ذا الذي يبقى على الحدثان

وفي هذه السنة أمر المعتضد بتسهيل عقبة حلوان فغرم عليهـا عشـرين الف دينار، وكان الناس يلقون منها شدة عظيمة.

وفيها وسع المعتضد جامع المنصور بإضافة دار المنصور إليه، وغرم عليه عشرين ألف دينار، وكانت الدار قِبْلِيَّة فبناها مسجداً على حدة وفتح بينهما سبعة عشر باباً وحوّل المنبر والمحراب إلى المسجد ليكون في قبلة الجامع على عادته.

قال الخطيب البغدادي: وزاد بدر مولى المعتضـد المسـقطات مـن قصـر المنصور المعروفة بالبدرية في هذا الوقت.

بناء دار الخلافة ببغداد

أول من بناها المعتضد في هذه السنة وكان أول من سكنها مـن الخلفـاء إلى آخر دولتهم، وكانت أولا داراً للحسن بن سهل تعرف بالقصر الحسني، ثم صارت بعد ذلك لابنته بوران التي تزوّج بها المأمون، فعمرت فيها حتى استنزلها المعتضد عنها فأجابته إلى ذلك، ثم أصلحت ما وهى منهـا ورممـت ما كان قد شَعَثَ فيها، وفرّشـت في كـل موضـع منهـا مـا يليـق بـه مـن المفارش، وأسكنت فيه ما يليق به من الجواري والخدم، وأعدت بها المـآكل الشـهية ومـا يحسـن ادخـاره في ذلـك الزمـان، ثـم أرسـلت بمفاتيحهـا إلى المعتضد، فلما دخلها أذهله ما رأى فيها من الخيرات، ثم وسعها وزاد فيهـا وجعل لها سوراً حولها، وكانت قدر مدينة شيراز، وبنى الميدان ثم بنى فيهـا قصراً مشرفاً على دجلة ثم بنى المكتفي التاج، فلما كـانت أيـام المقتـدر زاد فيها زيادات عظيمة جـداً، ثـم بعـد هـذا كلـه خربـت حتـى كـأن لم يكـن موضعها عمارة وتأخرت آثارها إلى أيام التتار الذين خربوها وخربوا بغـداد وسبوا من كان بها من الحرائر الآمنات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شـاء الله تعالى من سنة ست وخمسين وستمائة

قال الخطيب: والذي يشـبه أن تكـون بـوران سـلّمت دار الخلافَـة إلى المعتمد، فإنها لم تعش إلى أيام المعتضد.

وفيها زلزلت أردبيل ست مرات فتهدمـت دورهـا ولم يبـق منهـا مائـة دار، ومات تحت الردم مائة ألف وخمسون ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها غارت المياه ببلاد الريّ وطبرستان حتى بيع الماء كل ثلاثة أرطال بدرهم وغلت الأسعار هنالك جداً.

وفيها غزا إسماعيل بن أحمد الساماني ببلاد الترك ففتح مدينـة ملكهـم وأسر امرأته الخاتون وأباه ونحواً من عشرة آلاف أسير وغنـم مـن الـدواب والأمتعة والأموال شيئا كثيراً، أصاب الفارس ألف درهم

وحج بالناس في هذه السنة أبـو بكـر محمـد بـن هـارون بـن إسـحاق العباسي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن سيار بن أيوب الفقيه الشافعي المشهور بالعبادة والزهد.

و■ أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى أبو جعفر البغدادي، كان من أكابر الحنفية، تفقه على محمد بن سماعة وهو أستاذ أبي جعفر الطحـاوي وكان ضريراً، سمع الحديث من علي بن الجعد وغيره وقدم مصر فحـدث بها من حفظه، وتوفي بها في المحرم من هذه السنة، وقد وثقه ابـن يونـس في تاريخ مصر.

و■ أحمد بن محمد بن عيسى بن الأزهر أبو العباس البِرْتي: القـاضي بواسط، صاحب المسند.

روى عن مسلم بن إبراهيم وأبـي سـلمة التبوذكـي وأبـي نعيـم وأبـي الوليد وخلق، وكان ثقة ثبتاً تفقه بأبي سليمان الجوزجـاني صـاحب محمـد بن الحسن وقد حكم بالجانب الشرقي من بغداد في أيام المعتز، فلمـا كـان أيام الموفق طلب منه ومن إسماعيل القـاضي أن يعطيـاه مـا بأيديهمـا مـن أموال اليتامى الموقوفة فبادر إلى ذلك إسماعيل القاضي واستنظره إلى ذلـك أبو العباس البرتي هذا، ثم بادر إلى كل من آنـس منـه رشـداً مـن اليتـامى فدفع إليه ماله فلما طولب به قال: ليس عندي منه شـيء، دفعتـه إلى أهلـه فعزل عن القضاء ولزم بيته وتعبد إلى أن توفي في ذي الحجة من هذه السنة.

وقد رآه بعضهم في المنام وقد دخل علـى رسـول اللـه ﷺ فقـام إليـه وصافحه وقبل بين عينيه وقال: مرحباً بمن يعمل بسنتي وأثري.

وفيها توفي:

■ جعفر بن المعتمد، وكان يسامر أباه.

و■ راشد مولى الموفق بمدينة الدينور فحمل إلى بغداد.

و■ عثمان بن سعيد الدارمي مصنف الردّ على بشر المريسي فيما ابتدعه من التأويل لمذهب الجهمية وقد ذكرناه في طبقات الشافعية.

و■ مسرور الخادم وكان من أكابر الأمراء.

و■ محمد بن إسماعيل الترمذي صاحب التصانيف الحسنة في رمضان في هذه السنة، قاله ابن الأثير، وشيخنا الذهبي.

و■ هلال بن العلاء المحدث المشهور وقد وقع لنا من حديثه طرف.

و■ سيبويه أستاذ النحاة [هذا وهمٌ، حقُه ان يكونَ في سنة (١٨٠هـ) أو نحوها]

:

وهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب، وقيل: مولى الربيع بن زياد الحارثي البصري. ولقب سيبويه لجماله وحمرة وجنتيه حتى كانتا كالتفاحتين. وسيبويه في لغة فارس رائحة التفاح. وهو الإمام العلامة العلم، شيخ النحاة من لدن زمانه إلى زماننا هذا، والناس عيال على كتابه المشهور في هذ الفن وقد شرح بشروح كثيرة وقل من يحيط علماً به.

أخذ سيبويه العلم عن الخليل بن أحمد ولازمه، وكان إذا قدم يقول الخليل: مرحباً بزائر لا يمل. وأخذ أيضاً عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب وأبي زيد الأنصاري، وأبي الخطاب الأخفش الكبير وغيرهم، قدم من البصرة إلى بغداد أيام كان الكسائي يؤدب الأمين بن الرشيد، فجمع بينهما فتناظرا في شيء من مسائل النحو فانتهى الكلام إلى أن قال الكسائي: تقول العرب: كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها قال سيبويه: إنما يقولون: فإذا هو هي. فطال النزاع في ذلك فقال سيبويه: بيني وبينك أعرابي لم يشبه شيء من كلام الناس المولّد، وكان الأمين يحب نصرة أستاذه فسأل رجلا من الأعراب فنطق بما قال سيبويه فكره الأمين ذلك وقال له: إن الكسائي يقول خلافك فقال: إن لساني لا يطاوعني على ما يقول فقال: أحب أن تحضر وأن تصوب كلام الكسائي، فطاوعه على ذلك وانفصل المجلس عن قول الأعرابي: إن الكسائي أصاب فحمل سيبويه على نفسه وعرف أنهم تعصبوا عليه ورحل عن بغداد فمات ببلاد شيراز في قرية يقال لها البيضاء، وقيل إنه ولد بهذه وتوفي بمدينة ساوة في هذه السنة، وقيل سنة سبع وسبعين، وقيل ثمان وثمانين، وقيل إحدى وتسعين وقيل أربع وتسعين ومائة فاللّه أعلم، وقد نيف على الأربعين، وقيل بل إنما عمر ثنتين وثلاثين سنة فاللّه أعلم.

قرأ بعضهم على قبره هذه الأبيات:

ذهب الأحبة بعد طول تزاور	ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة	لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا
فقضي القضاء وصرت صاحب حُفرة	عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين

فيها دخل المسلمون بلاد الروم فغنموا وسلموا وللّه الحمد.

وفيها تكامل غور المياه ببلاد الري وطبرستان وغلت الأسعار جداً وجهد الناس وقحطوا حتى أكل بعضهم بعضاً فكان الرجل يأكل ابنه وابنته فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفيها حاصر المعتضد قلعة ماردين وكانت بيد حمدان بن حمدون ففتحها قسراً وأخذ ما كان فيها، ثم أمر بتخريبها فهدمت.

وفي هذه السنة وصلت قطر الندى بنت خمارويه سلطان الديار المصرية إلى بغداد في تجمل عظيم ومعها من الجهاز شيء عظيم حتى قيل إنه كان في الجهاز مائة هاون من ذهب غير الفضة وما يتبع ذلك من القماش وغير ذلك مما لا يحصى ثم بعد كل حساب أرسل معها أبوها مائة ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما ليس بمصر مثله بالديار المصرية.

وفيها خرج المعتضد إلى بلاد الجبل وولىّ ولده علياً المكتفي نيابة الري وقزوين وزنجان وقُمّ وهمذان والدينور، وجعل على كتابته أحمد بن الأصبغ، وولىّ عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف نيابة أصبهان ونهاوند والكرخ، ثم عاد راجعاً إلى بغداد.

وحج بالناس محمد بن هارون بن إسحاق، وأصاب الحجاج في الأجفر مطر عظيم فغرق كثير منهم، كان الرجل يغرق في الرمل فلا يقدر أحد على خلاصه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن الحسين بن ديزيل الحافظ صاحب كتاب المصنفات، منها في وقعة صفين مجلد كبير

و■ أحمد بن محمد الطائي بالكوفة في جمادى منها.

و■ إسحاق بن إبراهيم: المعروف بابن الجُبّلي سمع الحديث وكان يفتي الناس بالحديث وكان يوصف بالفهم والحفظ

■ ابن أبي الدنيا القرشي: مولى بني أمية، وهو عبد اللّه بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر بن أبي الدنيا الحفاظ المصنف في كل فن، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة في الرقائق وغيرها، تزيد على مائة مصنف وقيل إنها نحو الثلاثمائة مصنف، وقيل أكثر وقيل أقلّ.

سمع ابن أبي الدنيا إبراهيم بن المنذرالحزامي، وخالد بن خراش وعلي بن الجعد وخلقاً، وكان مؤدّباً للمعتضد وابنه علي بن المعتضد الملقب بالمكتفي باللّه، وكان له عليه في كل شهر خمسة عشر ديناراً، وكان ثقة صدوقاً حافظاً ذا مروءة، لكن قال صالح بن محمد جزرة: إلا أنه كان يروي عن رجل يقال له محمد بن إسحاق البلخي وكان هذا الرجل كذاباً يضع للكلام إسناداً، ويروي أحاديث منكرة.

ومن شعر ابن أبي الدنيا أنه جلس أصحاب له يتظرونه ليخرج إليهم، فجاء المطر فحال بينه وبينهم، فكتب إليهم رقعة فيها:

أنـا مشـتاقٌ إلى رُؤيَتِكـم	يـا أخلاّئي وسمعي والبَصَرْ
كيف أنساكمْ وقلبي عندكم	حالَ فيما بيننا هذا المطرْ

توفي ببغداد في جمادى الأولى من هذه السنة عن سبعين سنة، وصلى عليه يوسف بن يعقوب القاضي ودفن بالشونيزية رحمه اللّه.

■ عبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة الدمشقي الحافظ الكبير الشهير بين أهل العلم.

■ محمد بن إبراهيم بن المواز الفقيه المالكي، له اختيارات في مذهب الإمام مالك، فمن ذلك وجوب الصلاة على رسول اللّه ﷺ في الصلاة.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائتين

في خامس ربيع الأول منها يوم الثلاثاء دخل المعتضد باللّه بزوجته ابنة خمارويه، وكان قدومها إلى بغداد صحبة عمها وصحبة ابن الجصاص،

وكان الخليفة غائباً وكان دخولها إليه يوماً مشهوداً، منع الناس من المرور في الطرقات .

وفيها نهى الخليفه المعتضد الناس أن يعمل الناس في يوم النيروز ما كانوا يتعاطونه من إيقاد النيران وصب الماء وغير ذلك من الأفعال المشابهة لأفعال المجوس ومنع من حمل هدايا الفلاحين إلى المقطعين في هذا اليوم وأمر بتأخير ذلك إلى الحادي عشر من حزيران وسمّي النيروز المعتضدي، وكتب بذلك إلى الآفاق.

وفيها في ذي الحجة قدم إبراهيم بن أحمد الماذرائي من دمشق على البريد فأخبر الخليفة بأن خمارويه.

ذبحه خدامه على فراشه وولّوا بعده ولده جيشاً ثم قتلوه ونهبوا داره، ثم ولّوا هارون بن خمارويه، وقد التزم في كل سنة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار تحمل إلى باب الخليفة، فأقره المعتضد على ذلك، فلما كان المكتفي عزله وولى مكانه محمد بن سليمان الواثقي فاصطفى أموال آل طولون، وكان ذلك آخر العهد بهم.

وفيها أطلق لؤلؤ غلام أحمد بن طولون من الحبس فعاد إلى مصر في أذل حال. وفيها حج بالناس الأمير المتقدم ذكره.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري اللغوي صاحب كتاب النبات.

■ إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد أبو إسحاق الأزدي القاضي، أصله من البصرة ونشأ ببغداد وسمع مسلم بن إبراهيم ومحمد بن عبد الله الأنصاري، والقعنبي وعلي بن المديني، وكان حافظاً فقيهاً مالكياً جمع وصنف وشرح في المذهب عدة مصنفات في التفسير والحديث والفقه، وغير ذلك، وقد ولي القضاء في أيام المتوكل بعد سوار بن عبد الله ببغداد، ثم عزل ثم ولي وصار مقدم القضاة. وكانت وفاته فجاءة ليلة الأربعاء لثمان بقين من ذي الحجة من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

■ الحارث بن محمد بن أبي أسامة صاحب المسند المشهور.

■ خمارويه بن أحمد بن طولون: صاحب الديار المصرية بويع لـه بملك الديار المصرية بعد أبيه سنة إحدى وسبعين ومائتين، فقصده المعتضد بن الموفق في حياة أبيه، فاقتتلوا قتالاً شديداً في أرض الرملة، وقيل في أرض الصعيد. فانهزم خمارويه هارباً. على حمار، وكرّ جيشه على المعتضد، فهرب، كما قدمنا. ثم تزوج ابنته وتصافيا بعد ذلك فلما كان في ذي الحجة من هذه السنة عدا أحد الخدم من الخصيان على خمارويه فذبحه وهو على فراشه، وذلك لأنه اتهمهم بجواريه فمات عن ثنتين وثلاثين سنة، فقام بالأمر من بعده ولده هارون بن خمارويه، وهو آخر الطولونية.

وذكر ابن الأثير فيمن توفي في هذه السنة

■ عثمان بن سعيد بن خالد أبو سعيد الدارمي الفقيه الشافعي، أخذ الفقه عن البويطي صاحب الشافعي .

■ الفضل بن محمد بن المسيب بن موسى بن زهير بن يزيد بن كيسان بن باذان ملك اليمن، أسلم باذان في حياة رسول الله ﷺ.

■ أبو محمد الشعراني: الأديب الفقيه العابد الحافظ الرحال تلميذ ليحيى بن معين، روى عنه «الفوائد في الجرح والتعديل» وغير ذلك، وكذلك أخذ عن أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وقرأ على خلف بن هشام البزار وتعلم اللغة من ابن الأعرابي، وكان ثقة كبير القدر رحمه الله.

■ محمد بن القاسم بن خلاد أبو العيناء البصري الضرير الشاعر الأديب البليغ اللغوي تلميذ الأصمعي. وكنيته أبو عبد الله وإنما لقب بأبي العيناء لأنه قال لأبي زيد الأنصاري: كيف تصغّر عيناً؟ فقال: عُيينا يا أبا العيناء، فبقي عليه، وله معرفة تامة بالأدب والحكايات والملح أما الحديث فليس له منه إلا القليل.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين

في المحرم منها خرج المعتضد من بغداد قاصداً بلاد الموصل لقتال هارون الشاري الخارجي فظفر به وهزم أصحابه وكتب بذلك إلى بغداد، ولما رجع الخليفة إلى بغداد أمر بصلب هارون الشاري وكان صفرياً. فلما صلب قال: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون وكان الحسين بن حمدان بن حمدون قد قاتل الخوارج في هذه الغزوة قتالا شديداً مع الخليفة، فأطلق الخليفة أباه حمدان بن حمدون من القيود بعدما كان قد سجنه حيناً من وقت أخذ قلعة ماردين من يده وهدمها عليه فأطلقه وخلع عليه وأحسن إليه.

وفيها كتب المعتضد إلى الآفاق برد ما فضل عن سهام ذوي الفروض إذا لم تكن عصبة إلى ذوي الأرحام وذلك عن فتيا أبي حازم القاضي. وقد قال في فتياه: إن هذا اتفاق من الصحابة إلا زيد بن ثابت فإنه تفرد برد ما فضل والحالة هذه إلى بيت المال. ووافق علي بن محمد بن أبي الشوارب لأبي حازم، أفتى القاضي يوسف بن يعقوب، بقول زيد فلم يلتفت إليه المعتضد، وأمضى فتيا أبي حازم، ومع هذا ولّى القضاء يوسف بن يعقوب في الجانب الشرقي، وخلع عليه خلعاً سنية، وقلد أبا حازم قضاء أماكن كثيرة وكذلك لابن أبي الشوارب وخلع عليه خلعاً سنية أيضاً.

وفيها وقع الفداء بين المسلمين والروم فاستنقذ من أيديهم من المسلمين ألفان وخمسمائة وأربعة أنفس و لله الحمد والمنّة.

وفيها حاصرت الصقالبة الروم في القسطنطينية فاستعان ملك الروم بمن عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم سلاحاً كثيراً فخرجوا معهم فهزموا الصقالبة، ثم خاف ملك الروم من غائلة أولئك المسلمين ففرقهم في البلاد.

وفيها خرج عمرو بن الليث من نيسابور لبعض أشغاله فخلفه فيها رافع بن هرثمة ودعا على منابرها لمحمد بن زيد المطلبي ولولده من بعده، فرجع إليه عمرو وحاصره فيها، ولم يزل به حتى أخرجه منها وقتله على بابها.

وفيها بعث الخليفة وزيره عبيد الله بن سليمان لقتال عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف، فلما وصل إليه طلب منه عمر الأمان فأمنّه وأخذه معه إلى الخليفة فتلقاه الأمراء عن أمر الخليفة وخلع عليه وأحسن إليه.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران أبو إسحاق الثقفي السراج النيسابوري، كان الإمام أحمد يدخل إلى منزله ـ وكان بقطيعة الربيع في الجانب الغربي من بغداد ـ وينبسط فيه ويفطر عنده، وكان من الثقات العلماء العباد، توفي في صفر منها.

■ إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن حازم أبو القاسم الخُتُلي، وليس هو بالذي تقدم ذكره في السنين المتقدمة سمع داود بن عمرو وعليّ بن الجعد

وخلقاً كثيراً. وقد لينّه الدارقطني فقال ليس بالقوي. توفي في هذه السنة عن نحو ثمانين سنة.

■ **سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد** أحد أئمة الصوفية، لقي ذا النون المصري. ومن كلام سهل الحسن قوله: أمس قد مات واليوم في النزع وغد لم يولد. وهذا كما قال بعض الشعراء:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

قال القاضي ابن خلكان: وكان سلوكه على يدي خاله محمد بن سوار، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين فالله أعلم.

■ **عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن خراش أبو محمد الحافظ** المروزي أحد الجوالين الرحالين حفاظ الحديث والمتكلمين في الجرح والتعديل، وقد يتستر بشيء من التشيع فالله أعلم.

روى الخطيب عنه أنه قال: شربت بولي في هذا الشأن خمس مرات - يعني أنه اضطر إلى ذلك في الأسفار في طلبه الحديث.

■ **علي بن محمد بن أبي الشوارب عبد الملك الأموي البصري** قاضي سامرا. وقد ولي في بعض الأحيان قضاء القضاة، وكان من الثقات، سمع أبا الوليد وأبا عمر الحوضي وعنه النجاد وابن صاعد وابن قانع، وحمل الناس عنه علماً كثيراً.

■ **ابن الرومي الشاعر** صاحب الديوان في الشعر علي بن العباس بن جريج أبو الحسن المعروف بابن الرومي وهو مولى عبد الله بن جعفر وكان شاعراً مشهوراً مطبقاً فمن ذلك قوله:

إذا ما مدحت الباخلين فإنما تذكرهم ما في سواهم من الفضل
وتهدي لهم غماً طويلا وحسرةً فإن منعوا منك النوال فبالعدل

ومن ذلك قوله:

إذا ما كساك الدهر سربال صحةٍ ولم تخل من قوت يَلَذُّ ويعذب
فلا تغبطن المترفين فإنه على قدر ما يكسوهم الدهر يَسلُبُ

وقال أيضا:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام والشراب
إذا انقلب الصديق غدا عدوا مبينا والأمور إلى انقلاب
ولو كان الكثير يطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلّ ما استكثرت إلا وقعت على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمرويات ويكفي الري في النطف العذاب

وقوله أيضاً:

وما الحسب الموروث لا در دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
فلا تتكل إلا على ما فعلته ولا تحسبن المجد يورث بالنسب
فليس يسود المرء إلا بنفسه وإن عد آباء كراماً ذوي حسب
إذا العود لم يثمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الحطب
وللمجد قوم شيدوه بأنفس كرام ولم يعنوا بأم ولا بأب

ومن لطيف شعره:

قلبي من الطرف السقيم سقيم لو أن من أشكو إليه رحيم
في وجهها أبداً نهار واضح من فرعها ليل عليه بهيم
إن أقبلت فالبدر لاح وإن مشت فالغصن راح وإن رنت فالريم
نعمت بها عيني فطال عذابها ولكم عذاب قد جناه نعيم
نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها ثم انثنت نحوي فكدت أهيم
ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم
يا مستحل دمي محرم رحمتي ما أنصف التحليل والتحريم

وله أيضاً وكان يزعم أنه ما سبق إليه وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة ومما أوردناه من ذلك قوله، وكان يزعم أنه لم يسبق إليه:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا زجرن نجوم
منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم

وذكر له ابن خلّكان أشياء كثيرة غير ما أوردناه، من ذلك قوله - وكان يزعم أنه لم يُسبق إليه -:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجَوْن نجومُ
منها معالمُ للهدى ومصابحٌ تجلو الدُّجَى والأخرياتُ رُجُومُ

وذكر أنه ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين. وأنه مات في هذه السنة، وقيل في التي بعدها، وقيل في سنة ست وسبعين ومائتين، وذكر أن سبب وفاته أن وزير المعتضد القاسم بن عبيد الله كان يخاف من هجوه ولسانه فلسّ إليه من أطعمه وهو بحضرته خُشكَنانجةً مسمومة، فلما أحسّ السم قال فقال له الوزير: إلى أين؟ قال: إلى المكان الذي بعثتني إليه. قال: سلّم على والدي فقال: لست أجتاز على النار.

■ **محمد بن سليمان بن الحارث أبو بكر الباغندي الواسطي**، كان من الحفاظ، وقد ذكر أن أبا داود كان يسأله عن الحديث، ومع هذا تكلموا فيه وضعفوه.

■ **محمد بن غالب بن حرب أبو جعفر الضبي المعروف** بتَمتام سمع سفيان وقبيصة والقعنبي، وكان من الثقات.

قال الدارقطني: وربما أخطأ. توفي في رمضان عن تسعين سنة.

■ **البحتري الشاعر**: صاحب الديوان المشهور، اسمه الوليد ابن عبادة، ويقال الوليد بن عبيد بن يحيى أبو عباد الطائي البحتري الشاعر، أصله من منبج وقدم بغداد ومدح المتوكل والرؤساء، وكان شعره في المدح خيراً منه في المراثي فقيل له في ذلك فقال: المديح للرجاء والمراثي للوفاء وبينهما بعد.

وقد روى شعره المبرد وابن درستويه وابن المرزبان وقيل له: إنهم يقولون إنك أشعرُ من أبي تمام. فقال: لولا أبو تمام ما أكلت الخبز، كان أبو تمام أستاذنا.

وقد كان البحتري شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً رجع إلى بلده فمات بها في هذه السنة، وقيل في التي بعدها عن ثمانين سنة.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائتين

في المحرم منها دخل رأس رافع بن هرثمة إلى بغداد فأمر الخليفة بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر، ثم بالجانب الغربي إلى الليل.

وفي ربيع الأول منها خلع على محمد بن يوسف بن يعقوب بالقضاء

بمدينة أبي جعفر المنصور عوضاً عن ابن أبي الشوارب بعد موته بخمسة أشهر وأيام، وهي شاغرة.

وفي ربيع الآخر منها ظهرت بمصر ظلمة شديدة وحمرة في الأفق حتى صار الرجل ينظر إلى وجه صاحبه فيراه أحمر اللون جداً. وكذلك الجدران. فمكثوا كذلك من العصر إلى الليل ثم خرجوا إلى الصحراء يدعون الله ويتضرعون إليه حتى كشف عنهم.

وفي هذه السنة عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر فحذره ذلك وزيرهُ عبيدالله بن سليمان بن وهب من ذلك؛ فإنّ العامة تنكر قلوبهم وهم يترحمون عليه ويترضون عنه في أسواقهم ومجامعهم، فلم يلتفت إليه بل أمر بذلك وأمضاه وكُتبت نسخٌ بلعن معاوية وذكر فيها ذمه وذم ابنه يزيد بن معاوية وجماعة من بني أمية، وأورد فيها أحاديث باطلة في ذم معاوية وقرئت في الجانبين من بغداد، ونهيت العامة عن الترحم على معاوية والترضي عنه، فلم يزل به الوزير حتى قال له فيما قال: يا أمير المؤمنين إن هذا الصنيع مما يرغب العامة في الطالبيين وقبول الدعوة إليهم، فوجم لذلك المعتضد وترك ما كان عزم عليه خوفاً على الملك، وقدر الله تعالى أن هذا الوزير كان ناصبياً يبغض علياً فكان هذا من هفوات المعتضد سامحه الله.

وفيها نودي في البلاد لا يجتمع العامة على قاص ولا كاهن ولا منجم ولا جدلي ولا غير ذلك، وأمرهم أن لا يهتموا لأمر النوروز، ثم أطلق لهم أمر النوروز فكانوا يصبون المياه على المارة وتوسعوا في ذلك وغلوا فيه حتى جعلوا يصبون الماء على الجند وعلى أصحاب الشرط وغيرهم، وهذا أيضاً من هفواته.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة وعد المنجمون الناس أن أكثر الأقاليم ستغرق في زمن الشتاء من كثرة الأمطار والسيول وزيادة الأنهار، وأجمعوا على هذا الأمر فأخذ الناس كهوفاً في الجبال خوفاً من ذلك، فأكذب الله تعالى المنجمين في قولهم فلم تكن سنة أقل مطراً منها. وقلت العيون جداً وقحط الناس في كل بقعة حتى استسقى الناس ببغداد وغيرها من البلاد مراراً كثيرة فلله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

قال: وفي هذه السنة كان يتبدى بالليل في دار الخلافة شخص بيده سيف مشهور فإذا أرادوا أخذه انهزم فدخل في بعض الأماكن والزروع والأشجار والعطفات التي بدار الخلافة فلا يطلع له على خبر، فقلق من ذلك المعتضد قلقاً شديداً وأمر بتجديد سور دار الخلافة والاحتفاظ به، وأمر الحرس من كل جانب بشدة الاحتراس فلم يفد ذلك شيئاً، ثم استدعى بالمعزمين ومن يعاني علم السحر وأمر المجانين فعزَّموا واجتهدوا فلم يفد ذلك شيئاً فأعياهم أمره، فلما كان بعد مدة اطلع على جلية الأمر وحقيقة الخبر فوجده خادماً خصياً من الخدام كان يتعشق بعض الجواري من من خواص الحظايا اللاتي التي لا يصل إليها مثله ولا النظر إليها من بعيد، فاتخذ لحيّ مختلفة الألوان يلبس كل ليلة واحدة، واتخذ لباساً مزعجاً فكان يلبس ذلك ويتبدى في الليل في شكل مزعج فيتزعج الجواري والخدم فيثورون إليه من كل جانب فإذا قصدوه دخل في بعض العطفات ثم يلقي ما عليه أو يجعله في كمه أو في مكان قد أعده لذلك ثم يظهر أنه من جملة الخدم المتطلبين لكشف هذا الأمر، ويسأل هذا وهذا ما الخبر؟ والسيف في يده صفة أنه من جملة من رهب من هذا الأمر، وإذا اجتمع الحظايا تمكن من النظر إلى تلك المعشوقة ولاحظها وأشار إليها بما يريده منها وأشارت إليه، فلم يزل هذا دأبه إلى زمن المقتدر فبعثه في سرية إلى طرسوس فنمّت عليه تلك الجارية وانكشف زيفه ومِحالُه وأهلكه الله. عز وجل.

وفي هذه السنة اضطرب الجيش المصري على هارون بن خمارويه بمصر فأقاموا له بعض أمراء أبيه يدير الأمور ويصلح الأحوال، وهو أبو جعفر بن آبا، فبعث إلى دمشق ـ وكانت قد منعت بيعة جيش بن خمارويه في مدة ولايته تسعة أشهر بعد أبيه، واضطربت أحوالها ـ فبعث إليهم جيشاً كثيفاً مع بدر الحمامي والحسين بن أحمد الماذرائي فأصلحا أمرها واستعملا على نيابتها طغج بن جُفّ ورجعا إلى الديار المصرية والأمور مختلفة جداً. وهكذا يكون انقضاء الدول في أواخرها ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ **احمد بن المبارك أبو عمرو المستملي**: الزاهد النيسابوري يلقب بحكمويه العابد، سمع قتيبة وأحمد وإسحاق وغيرهم، واستملى الزاهد النيسابوري على المشايخ ستاً وخمسين سنة، وكان فقيراً رث الهيئة زاهداً، دخل يوماً على أبي عثمان سعيد بن إسماعيل وهو في مجلس التذكير، فبكى أبو عثمان وقال للناس: إنما أبكاني رثاثة ثياب رجل كبير من أهل العلم أنا أجله عن أن أسميه في هذا المجلس، فجعل الناس يلقون الخواتيم والثياب والدراهم حتى اجتمع من ذلك شيء كثير بين يدي الشيخ أبي عثمان، فنهض عند ذلك أبو عمرو المستملي فقال: أيها الناس أنا الذي قصدني الشيخ بكلامه، ولولا أني كرهت أن يتهم بإثم لسترت ما ستره. فتعجب أبو عثمان من إخلاصه ثم أخذ أبو عمرو ذلك المجتمع من المال فما خرج من باب المسجد حتى تصدق بجميعه على الفقراء والمحاويج رحمه الله كانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ **إسحاق بن الحسن بن ميمون بن سعد أبو يعقوب الحربي**، سمع عفان وأبا نعيم وغيرهما. وكان أسن من إبراهيم الحربي بثلاث سنين، ولما توفي إسحاق الحربي نودي عليه بالبلد فقصد الناس داره للصلاة عليه، واعتقد بعض العامة أنه إبراهيم الحربي فجعلوا يقصدون داره فيقول لهم إبراهيم. ليس إلى هذا الموضع قصدتم، وغداً تأتونه أيضاً، فما عمّر بعده إلا دون السنة. رحمهما الله.

■ **إسحاق بن محمد أبو يعقوب السدوسي** عمّر تسعين سنة وكان ثقة صالحاً.

■ **إسحاق بن موسى بن عمران الفقيه أبو يعقوب الإسفراييني** الشافعي.

■ **عبيد الله بن علي بن الحسن بن إسماعيل أبو العباس الهاشمي**، كانت إليه الحسبة ببغداد وإمامة جامع الرصافة

و■ **عبد العزيز بن معاوية العتابي** من ولد عتاب بن أسيد بصري، قدم بغداد وحدث عن أزهر السمان وأبي عاصم النبيل.

■ **يزيد بن الهيثم بن طهمان أبو خالد الدقاق ويعرف بالبادا.**

قال ابن الجوزي: والصواب أن يقال: البادي لأنه ولد توأماً وكان هو الأول في الميلاد. روى عن يحيى بن معين وغيره وكان ثقة صالحاً. عالماً عاملاً.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائتين

فيها خرج صالح بن مدرك الطائي على الحاج بالأجفر فأخذ اموالهم ونساءهم وخلعهم، يقال: إنه أخذ منهم ما قيمته ألفا ألف دينار.

وفي ربيع الأول منها يوم الأحد لعشر بقين منه ارتفعت بنواحي الكوفة ظلمة شديدة جداً ثم سقطت أمطار برعود وبروق لم ير مثلها، وسقط في بعض القرى مع المطر حجارة بيض، وسود، وسقط برد كبار وزن البردة مائة وخمسون درهماً، واقتلعت الرياح شيئاً كثيراً من النخيل والأشجار مما حول دجلة، وزادت دجلة زيادة كثيرة حتى خيف على بغداد من الغرق.

وفيها غزا راغب الخادم مولى الموفق بلاد الروم ففتح حصوناً كثيرة وأسر ذراري كثيرة جداً، وقتل من أسارى الرجال الذين يُحصِّلوا معه ثلاثة آلاف رقبة، ثم عاد سالماً مؤيداً منصوراً.

وحج بالناس فيها محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي.

وفيها توفي

■ أحمد بن عيسى بن الشيخ صاحب آمد فقام بأمرها من بعده ولده محمد، فقصده المعتضد ومعه ابنه أبو محمد المكتفي بالله فحاصره بها فخرج إليه سامعاً مطيعاً فتسلمها منه وخلع عليه وأكرم أهله، وأحسن إليه، واستخلف عليها ولده المكتفي، ثم سار إلى قنسرين والعواصم فتسلمها عن كتاب هارون بن خمارويه، وإذن له في ذلك ومصالحته له على ذلك.

وفيها غزا ابن الإخشيد بأهل طرسوس بلاد الروم ففتح الله على يديه حصوناً كثيرة ولله الحمد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن إسحاق: بن بشير بن عبد الله بن دَيْسَم أبو إسحاق الحربي أحد الأئمة في الفقه والحديث وغير ذلك، وكان زاهداً عابداً تخرج بأحمد بن حنبل، وروى عنه كثيراً.

قال الدارقطني: إبراهيم الحربي إمام مصنف عالم بكل شيء بارع في كل علم صدوق، كان يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وورعه.

وقال إبراهيم الحربي: أجمع عقلاء كل أمة أن من لم يجر مع القدر لم يتهن بعيشه. وكان يقول: الرجل الذي يدخل غمه على نفسه ولا يدخله على عياله، وقد كانت بي شقيقة منذ خمس وأربعين سنة ما أخبرت بها أحداً قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت بهذا أحداً قط.

وذكر أنه مكث نيفاً وسبعين سنة من عمره ما يسال أهله غداء ولا عشاء، بل إن جاؤوه بشيء أكله وإلا طوى إلى الليلة القابلة.

وذكر أنه أنفق في بعض الرماضانات على نفسه وعياله درهماً واحداً وأربعة دوانيق ونصفاً، وما كنا نعرف من هذه الطبائخ شيئاً إنما هو باذنجان مشوي أو باقة فجل أو نحو هذا.

وقد بعث إليه أمير المؤمنين المعتضد في بعض الأحيان بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها وردها، فرجع الرسول وقال: يقول لك الخليفة: فرقها على من تعرف من فقراء جيرانك. فقال: هذا شيء لم نجمعه ولا نسال عن جمعه، فلا نسال عن تفريقه، قل لأمير المؤمنين: إما يتركنا وإما نتحول من بلده.

ولما حضرته الوفاة دخل عليه بعض أصحابه يعوده فقامت ابنته تشكو إليه ما هم فيه من الجهد وأنه لا طعام لهم إلا الخبز اليابس بالملح، وربما عدموا الملح في بعض الأحيان فقال لها إبراهيم: يا بنية تخافين الفقر؟ انظري إلى تلك الزاوية ففيها اثنا عشر ألف جزء قد كتبتها في العلم ففي كل يوم بيعي منها جزءاً بدرهم فمن عنده اثنا عشر ألف درهم فليس بفقير.

ثم كانت وفاته لسبع بقين من ذي الحجة وصلّى عليه يوسف بن يعقوب القاضي عند باب الأنبار، وكان الجمع كثيراً جداً.

■ المبرد النحوي: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس الأزدي الثمالي المعروف بالمبرد النحوي البصري إمام في اللغة العربية، أخذ ذلك عن المازني وأبي حاتم السجستاني، وكان ثقة ثبتاً فيما ينقله وكان مناوئاً لثعلب وله كتاب الكامل في الأدب، وإنما سمي بالمبرد لأنه اختبأ من الوالي عند أبي حاتم تحت المُزَمَّلة.

قال المبرد: دخلنا يوماً على المجانين نزورهم أنا وأصحاب معي بالرقة فإذا فيهم شاب قريب العهد بالمكان عليه ثياب ناعمة فلما أبصر بنا قال: حياكم الله ممن أنتم؟ قلنا: من أهل العراق. فقال: بأبي العراق وأهلها أنشدوني أو أنشدكم؟ قال المبرد فقلت: بل أنشدنا أنت فقال:

اللّه يعلم إنني كمد ... لا أستطيع أبثُّ ما أجد
روحان لي روح تضمنها ... بلد وأخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها ... صبر ولا يقوى لها جلد
واظن غائبتي كشاهدتي ... بمكانها تجد الذي أجد

قال المبرد فقلت: واللّه إن هذا لظريف، فزدنا منه فأنشا يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيرهم ... ورحَّلوها فثارت بالهوى الإبل
وأبرزت من خلال السجف ناظرها ... ترنو إلي ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان عقدهُ عنم ... ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
ويلي من البين ماذا حل بي وبهم ... من نازل البين حان البين وارتحلوا
يا راحل العيس عجل كي أُودِّعهم ... يا راحل العيس في ترحالك
إني على العهد لم أنقض مودتهم ... فليت شعري لطول العهد ما فعلوا

فقال رجل من البغضاء الذين معي: ماتوا فقال الشاب: إذاً أموت، فقال له: إن شئت فتمطَّى واستند إلى سارية عنده ومات، وما برحنا حتى دفناه رحمه اللّه ومات المبرد وقد جاوز السبعين

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائتين

فيها وقع تسلم آمد من ابن الشيخ في ربيع الآخر ووصل كتاب هارون بن أحمد بن طولون من مصر إلى المعتضد وهو مخيم بآمد أن يسلم إليه قنسرين والعواصم على أن يقره على إمارة الديار المصرية، فأجابه إلى ذلك، ثم ترحل عن آمد قاصداً العراق وأمر بهدم سور آمد فهدم البعض ولم يقدر على ذلك فقال ابن المعتز يهنته بفتح آمد:

اسلم أمير المؤمنين ودم ... في غبطة وليهنك النصر
فلرب حادثة نهضت لها ... متقدماً فتأخر الدهر
ليث فرائسه الليوث فما ... يبيض من دمها له ظفر

ولما رجع الخليفة إلى بغداد جاءته هدية عمرو بن الليث من نيسابور

فكان وصولها بغداد يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة، وكان مبلغها ما قيمته أربعة آلاف ألف درهم خارجاً عن الدواب وسروج وغير ذلك.

وفيها تحارب إسماعيل بن أحمد الساماني وعمرو بن الليث، وذلك أن عمرو بن الليث لما قتل رافع بن هرثمة وبعث برأسه إلى الخليفة سأل منه أن يعطيه ما وراء النهر مضافاً إلى ما بيده من ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك فانزعج لذلك إسماعيل بن أحمد الساماني نائب ما وراء النهر، وكتب إليه: إنك قد وليّت دنيا عريضة فاقتنع بها عن ما في يدي من هذه البلاد. فلم يقبل فأقبل إليه إسماعيل في جيوش عظيمة، جداً فالتقيا عند بلخ فهزم أصحاب عمرو، وأسر عمرو بن الليث فلما جيء به إلى إسماعيل بن أحمد قام إليه وقبّل بين عينيه وغسل وجهه وخلع عليه وأمنه وكتب إلى الخليفة في أمره، ويذكر أن أهل تلك البلاد قد ملّوا وضجروا من ولايته عليهم، فجاء كتاب الخليفة بأن يتسلم حواصله وأمواله فسلبه إياها، فآل به الحال بعد أن كان مطبخه يحمل على ستمائة جمل إلى القيد والسجن ومن العجائب أن عمراً كان معه خمسون ألف مقاتل لم يصب أحد منهم ولا أسر سواه.

ظهور أبي سعيد الجنابي رأس القرامطة قبحهم الله ولعنهم

وهو أخبث من الزنج وأشد فساداً

كان ظهوره في جمادى الآخرة من هذه السنة بنواحي البصرة، فالتف عليه من الأعراب وغيرهم بشر كثير، وقويت شوكته جداً، وقتل من حوله من أهل القرى، ثم صار إلى القطيف قريباً من البصرة، ورام دخولها فكتب الخليفة المعتضد إلى نائبها يأمره بتحصين سورها، فعمروه وجددوا معالمه بنحو من أربعة آلاف دينار، فامتنعت البصرة من القرامطة بسبب ذلك. وتغلب أبو سعيد الجنابي ومن معه من القرامطة على هجر وما حولها من البلاد، وأكثروا في الأرض الفساد.

وكان أصل أبي سعيد الجنابي هذا أنه كان سمساراً في الطعام يبيعه ويحسب للناس الأثمان، فقدم رجل به يقال له: يحيى بن المهدي في سنة إحدى وثمانين ومائتين فدعا أهل القطيف إلى بيعة المهدي، فاستجاب له رجل يقال له علي بن العلاء بن حمدان الزيادي، وساعده في الدعوة إلى المهدي، وجمع الشيعة الذين كانوا بالقطيف فاستجابوا له، فكان من جملة من استجاب له أبو سعيد الجنابي هذا قبحه الله، ثم تغلب على أمرهم وأظهر فيهم القرمطة فاستجابوا له والتفوا عليه، فتأمّر عليهم وصار هو المشار إليه فيهم وأصله من بلدة هناك يقال لها جنّابة، وسيأتي ما يكون من أمره وأمر أصحابه

قال ابن الجوزي في المنتظم [١٢/٤٠٢، ٤٠٣]: ومن عجائب ما وقع من الحوادث في هذه السنة ثم روى بسنده أن امرأة جاءت إلى قاضي الري فادعت على زوجها بصداقها خمسمائة دينار فأنكره فجاءت ببينة تشهد لها به، فقالوا: نريد أن تسفر لنا عن وجهها حتى نعلم أنها الزوجة أم لا، فلما صمموا على ذلك قال الزوج: لا تفعلوا هي صادقة فيما تدعيه، فأقر بما ادعت ليصون زوجته عن النظر إلى وجهها. فقالت المرأة حين عرفت ذلك منه وأنه إنما أقر ليصون زوجته عن النظر إلى وجهها، فقالت المرأة: وغذ قد أراد ذلك، فهو في حل من صداقي عليه في الدنيا والآخرة.

وممن توفي فيها من الأعيان المشاهير

■ **أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز** فيما ذكره شيخنا الذهبي.

وقد أرخه ابن الجوزي في سنة سبع وسبعين ومائتين فالله أعلم.

■ **إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان: أبو يعقوب النخعي الأحمر**، وإليه تنسب الطائفة الإسحاقية من الشيعة. وقد ذكر ابن النوبختي والخطيب وابن الجوزي أن هذا الرجل كان يعتقد إلهية علي بن أبي طالب، وأنه انتقل إلى الحسن ثم إلى الحسين، وأنه كان يظهر في كل وقت، وقد اتبعه على هذا الكفر خلق من الحمير قبّحه الله وقبّحهم.

وإنما قيل له الأحمر لأنه كان أبرص، فكان يطلي برصه بما يغير لونه، وقد أورد له النوبختي أقوالا عظيمة في الكفر لعنه الله. وقد روى شيئاً من الحكايات والملح عن المازني وطبقته، ومثل هذا أقل وأذل من أن يروى عنه.

■ **بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الأندلسي الحافظ** أحد علماء الغرب، له التفسير والمسند والسنن، والآثار التي فضلها ابن حزم على تفسير ابن جرير ومسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة، وفيما زعم ابن حزم نظر. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه فأثنى عليه خيراً، ووصفه بالحفظ والاتقان، وأنه كان مجاب الدعوة رحمه الله. وأرخ وفاته بهذه السنة عن خمس وسبعين سنة.

و■ **الحسين بن بشار بن موسى: أبو علي الخياط** روى عن أبي بلال الأشعري، وعنه أبو بكر الشافعي وكان ثقة، رأى في منامه - وقد كانت به علة - قائلا يقول له: كل لا، واشرب لا. ففسره بقوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ﴾ فأكل زيتوناً وشرب زيتاً فبرأ من علته تلك.

■ **محمد بن إبراهيم أبو جعفر الأنماطي المعروف بمربع** تلميذ يحيى بن معين، كان ثقة حافظاً.

■ **عبد الرحيم بن البرقي**.

و■ **محمد بن وضاح المصنف**.

و■ **علي بن عبد العزيز البغوي** صاحب المسند.

■ **محمد بن يونس بن موسى بن سليمان بن عبيد بن ربيعة بن كديم أبو العباس القرشي البصري الكديمي**، وهو ابن امرأة روح بن عبادة، ولد سنة ثلاث وثمانين ومائة، وسمع عبد الله بن داود الخريبي، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وأبا داود الطيالسي، والأصمعي وخلقاً.

وعنه ابن السماك والنجاد. وآخر من حدث عنه أبو بكر بن مالك القطيعي، وقد كان حافظاً مكثراً مغرباً، وقد تكلم فيه الناس لأجل غرائبه في الروايات وقد ذكرنا ترجمته في التكميل.

دُفن يوم الجمعة قبل الصلاة للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة، وقد جاوز المائة، وصلى عليه يوسف بن يعقوب القاضي رحمه الله.

■ **يعقوب بن إسحاق بن، تحيّة أبو يوسف الواسطي**، سمع من يزيد بن هارون وقدم بغداد وحدث بها: أربعة أحاديث، ووعد الناس أن يحدثهم من الغد فمات من ليلته عن مائة واثنتي عشرة سنة رحمه الله.

و■ **الوليد أبو عبادة البحتري** فيما ذكره شيخنا الذهبي، وقد تقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين كما ذكره ابن الجوزي فالله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائتين

في ربيع الأول منها تفاقم أمر القرامطة صحبة أبي سعيد الجنابي فقتلوا وسبوا وأفسدوا في بلاد هجر، فجهز الخليفة إليهم جيشاً كثيفاً وأمر عليهم العباس بن عمرو الغنوي، وأمره على اليمامة والبحرين ليحارب أبا سعيد هذا، فالتقوا هنالك وكان العباس في عشرة آلاف مقاتل، فأسرهم أبو سعيد كلهم ولم ينج منهم إلا الأمير وحده، وقتل الباقون عن آخرهم صبراً بين يديه. ويقال إن العباس لما قتل أبو سعيد أصحابه صبراً بين يديه والعباس ينظر، أقام عند أبي سعيد أياماً ثم أطلقه وحمله على رواحل وقال: ارجع إلى صاحبك وأخبره بما رأيت.

وقد كانت هذه الواقعة في أواخر شعبان منها، فلما وقع هذا الأمر الفظيع انزعج الناس لذلك انزعاجاً عظيماً جداً؛ وهمَّ أهل البصرة بالجلاء منها فمنعهم من ذلك نائبها أحمد الواثقي وفيها أغارت الروم على بلاد طرسوس وكان نائبها ابن الإخشيد قد توفي في العام الماضي واستخلف على الثغر أبا ثابت فطمعت الروم في تلك الناحية وحشدوا عساكرهم إلى هنالك، فالتقاهم أبو ثابت فلم يقدرعلى مقاومتهم، فقتلوا من أصحابه جماعة وأسروه فيمن أسروا فاجتمع أهل الثغر على ابن الأعرابي فولّوه أمرهم وذلك في ربيع الآخر.

وفيها قتل

■ محمد بن زيد العلوي: امير طبرستان والديلم وكان سبب ذلك أنه لما ظفر إسماعيل الساماني بعمرو بن الليث نائب خراسان ظن محمد أن إسماعيل لا يجاوز عمله، وأن خراسان قد خلت له، فارتحل من بلده يريدها وسبقه إلى خراسان، إسماعيل بن أحمد، وكتب إليه أن الزم عملك ولا تتجاوزه إلى غيره فلم يقبل، فبعث إليه جيشاً مع محمد بن هارون الذي كان ينوب عن رافع بن هرثمة، فلما التقيا هرب منه محمد بن هارون خديعة، فسار الجيش وراءه في الطلب فكر عليهم راجعاً فانهزموا منه فأخذ ما في معسكرهم وجرح محمد بن زيد جراحات شديدة فمات بسببها بعد أيام، وأسر ولده زيد فبعث به إلى إسماعيل بن أحمد فأكرمه وأنزله بخارى.

وقد كان محمد بن زيد هذا فاضلا ديناً حسن السيرة فيما وليه من تلك البلاد، وكان فيه تشيع فتقدم إليه يوماً خصمان اسم أحدهما معاوية واسم الآخر علي، فقال محمد بن زيد: إن الحكم بينكما ظاهر، فقال معاوية: أيها الأمير لا تغترن بنا، فإن أبي كان من كبار الشيعة، وإنما سماني معاوية مداراة لمن ببلدنا من أهل السنة وهذا كان أبوه من كبار النواصب فسماه علياً تقاة لكم، فتبسم محمد بن زيد وأحسن إليه. رحمه الله

قال ابن الأثير في كامله [٥٠٨/٧]: ومن توفي في هذه السنة:

■ إسحاق بن أيوب بن عمر بن الخطاب العدوي ـ عدي ربيعة وكان أميراً على ديار ربيعة من الجزيرة، فوليّ مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعتمر.

و■ علي بن عبد العزيز البغوي صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام وفهد بن أحمد بن فهد الأزدي الموصلي ـوكان من الأعيان ـ وذكر هو وأبو الفرج بن الجوزي أن قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون امرأة المعتضد بالله توفيت في هذه السنة

قال ابن الجوزي: لسبع خلون من رجب منها، ودفنت داخل القصر الرصافة.

■ يعقوب بن يوسف بن أيوب أبو بكر المطوعي، سمع أحمد بن حنبل وعلي بن المديني، وعنه النجاد والخلدي، وكان ورده في كل يوم قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ إحدى وثلاثين ألف مرة، أو إحدى وأربعين ألف مرة.

قلت: وممن توفي فيها:

■ أبو بكر بن أبي عاصم صاحب السنة والمصنفات وهو:

■ أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك: بن مخلد النبيل، له مصنفات في الحديث كثيرة، منها كتاب السنة في أحاديث الصفات على طريقة السلف، وكان حافظاً كبيراً جليلا، قد ولي قضاء أصبهان بعد صالح ابن الإمام أحمد، وكان قد طاف البلاد في طلب الحديث، وصحب أبا تراب النخشبي وغيره من مشايخ الصوفية، وقد اتفق له مرة كرامة هائلة، كان هو واثنان من كبار الصالحين في سفر فنزلوا يوماً على رمل أبيض، فجعل أبو بكر هذا يقبله بيده ويقول: اللّهم ارزقنا خبيصاً يكون بلون هذا. فلم يكن بأسرع من أن أقبل أعرابي وبيده قصعة فيها خبيص بلون ذلك الرمل في بياضه، فأكلوا منه رحمه الله وكان يقول: لا أحب أن يحضر مجلسي مبتدع ولا مدع ولا طعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء، ولا منحرف عن الشافعي وأصحاب الحديث.

وكانت وفاته في هذه السنة بأصبهان. وقد رآه بعضهم بعد وفاته وهو يصلّي فلما انصرف قال له: ما فعل بك؟ فقال: يؤنسني ربي عزّ وجلّ.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين

اتفق في هذه السنة آفات ومصائب عديدة منها أن الروم قصدوا بلاد الرقة في جحافل عظيمة وعساكر من البحر والبر، فقتلوا خلقاً وأسروا نحواً من خمسة عشر ألفاً من الذرية.

ومنها أن بلاد أذربيجان أصاب أهلها وباء شديد حتى لم يبق أحد يقدر على دفن الموتى فتركوا في الطرق لا يوارون عن الأبصار.

ومنها أن بلاد أردبيل أصابها ريح شديدة من بعد العصر إلى ثلث الليل ثم زلزلوا زلزالا شديداً، واستمر ذلك عليهم أياماً فتهدمت الدور والمساكن وخسف بآخرين، منهم وكان جملة من مات تحت الهدم مائة ألف وخمسين ألفاً، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفيها اقترب القرامطة من البصرة فخاف أهلها منهم خوفاً شديداً، وهموا بالرحيل منها فمنعهم واليها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بشر بن موسى بن صالح أبو علي الأسدي: ولد سنة تسعين ومائة، وسمع من روح بن عبادة حديثاً واحداً، وسمع الكثير من هوذة بن خليفة والحسن بن موسى الأشيب وأبي نعيم وعلي بن الجعد والأصمعي وغيرهم.

وعنه ابن المنادى وابن مخلد وابن صاعد والنجاد وأبو عمر الزاهد والخلدي والخطبي وأبو بكر الشافعي وابن الصواف وغيرهم. وكان ثقة أميناً حافظاً، وكان من أهل البيوتات وكان الإمام أحمد يكرمه

ومن شعره:

ضعفت ومن جاز الثمانين يضعف وينكرمنه كل ما كان يعرف

ويمشـي رويـداً كالأسـير مقيـداً   يدانـي خطـاه في الحديـد ويرسـف

■ ثابت بن قرة بن هارون ويقال: زهرون بـن ثـابت بـن كدايـي بـن إبراهيم الصابئ الفيلسوف الحراني صاحب التصانيف، من جملتها أنه حـرر كتاب إقليدس الذي عربه حنين بن إسحاق العبادي. وكان أصلـه صيرفيـاً بحران فترك ذلك واشتغل بعلم الأوائل، فنال منه رتبة سامية عند أهله، ثـم صار إلى بغداد فعظم شأنه بها، وكان يدخل مع المنجمين على الخليفة وهو باق على دين الصابئة وحفيده ثابت بن سنان له تاريخ أجاد فيـه وأحسـن، وكان بليغاً ماهراً حاذقاً بالغاً. وعمه إبراهيم بن ثـابت بـن قـرة كـان طبيبـاً عارفاً أيضاً. وقد سردهم كلهم في هذه الترجمة القاضي ابـن خلكـان رحمـه الله.

■ الحسن بن عمرو بن الجهم أبو الحسن الشيعي - من شيعة المنصـور لا من الروافض - حدث عن علي بن المديـني، وحكـى عـن بشـر الحـافي وعنه أبو عمرو بن السماك.

■ عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، كان حظياً عنده، وقد عز عليه موته وتألم لفقده وأهمه من يجعله من بعده، فعقد لولده القاسم بن عبيد الله الوزارة من بعد أبيه جبراً لمصابه به.

وأبو القاسم

■ عثمان بن سعيد بن بشار المعروف بالأنمـاطي أحـد كبـار الشـافعية. وقد ذكرناه في طبقاتهم.

و■ هارون بن محمد بـن إسـحاق بـن موسـى بـن عيسـى أبـو موسـى الهاشمي إمام الناس في الحج عدة سنين متوالية، وقد سمع وحدث. وتوفي بمصر في رمضان من هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائتين

فيها عاثت القرامطة بسواد الكوفة فظفر بعـض العمـال بطائفـة منهـم فبعث برئيسهم إلى المعتضد وكان يقال له أبو الفوارس، فنـال مـن العبـاس بين يدي الخليفة فأمر بـه فقلعـت أضراسـه وخلعـت يـداه ثـم قطعتـا مـع رجليه، ثم قتل وصلب ببغداد وأُشهر أمره.

وفيها قصدت القرامطة دمشق في جحفل عظيم فقـاتلهم نائبهـا طغـج بن جف من جهة هارون بن خمارويه، فهزموه مرات متعددة، وتفاقم الحـال بينهم، وكان ذلك بسفارة يحيى بن زكرويـه بـن مهرويـه الـذي ادعـى عنـد القرامطة أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد كذب في ذلك وزعم لهم أنـه قد اتبعه على أمره مائة ألف، وأن ناقته مأمورة حيث ما توجهت بـه نصـر على أهل تلك الجهة فراج ذلك عندهم ولقبوه الشـيخ، واتبعـه طائفـة مـن بني الأصبغ وسموا بالفاطميين. وقد بعث إليهم الخليفة جيشاً كثيفاً فهزموه ثم اجتازوا بالرصافة فأحرقوا جامعها، ولم يجتازوا بقرية إلا انتهبوها ولم يزل ذلك دأبهم حتى وصلوا إلى دمشق فقاتلهم نائبها فهزموه مرات وقتلوا مـن أهلها خلقاً كثيراً وانتهبوا من أموالها شيئاً كثيرا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الحالة الشديدة اتفق موت الخليفة المعتضد بالله في ربيع الأول من هذه السنة أحسن الله خاتمته.

وهذه ترجمة المعتضد

■ (المعتضد بن الموفّق بن المتوكّل)

أحمد ابن الأمير أبي أحمد الموفق الملقب بنـاصر ديـن اللـه، واسـم أبـي أحمد محمد، وقيل طلحة بن جعفر المتوكل على الله بن محمـد المعتصـم بـن هارون الرشيد أبو العباس أمير المؤمنين الخليفة المعتضد بالله.

ولد في سنة ثنتين وقيل ثلاث وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد.

وكان أسمر نحيف الجسم معتدل القامة، قـد وخطـه الشـيب في مقـدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء.

بويع له بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيـت مـن رجـب سنة تسع وسبعين ومائتين، واستوزر عبيد الله بن سليمان بن وهـب، وولى القضاء إسماعيل بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وابن أبي الشوارب.

وكان أمر الخلافة قد ضعف في أيام عمه المعتمـد على اللـه فلمـا ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها، وشيَّد دعائمها وحيطانها، وأطَّد أركانهـا وكان شجاعاً فاضلا من رجـالات قريـش حزمـاً وجـرأة وإقدامـاً وحرمـة وكذلك كان أبوه من قبله، وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعـض أسـفاره بقريـة فيهـا مقثـاة فوقـف صاحبهـا صائحـاً مسـتصرخاً بالخليفة، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئاً من القثاء وهم من غلمانك. فقال: أتعرفهـم؟ فقـال نعـم. فعرضهـم عليـه فعرف منهم ثلاثة فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم فلمـا كـان الصبـاح نظـر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين علـى جـادة الطريـق، فاستعظم النـاس ذلـك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة وقالوا: قتل ثلاثة بسبب قثاء أخـذوه؟ فلما كان بعد قليل أمر الخواص مسامره أن ينكـر عليـه ذلـك ويتلطـف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور، فدخل عليـه ذات ليلـة وقـد عـزم علـى ذلك ففهم الخليفة ما في نفسه من كلام يريد أن يبديه، فقال له: إني أعـرف أن في نفسك كلاماً فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين وأنـا آمـن؟ قـال: نعـم. قلت له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء. فقـال: واللـه ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة إلا بحقه فقلـت لـه: فعـلام قتلـت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهـر لـه جنايـة؟ فقـال: ويحـك إنـه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه، فلما دعـاني إلى ذلـك قلـت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة، وأنا منتصب في منصبه فأكفر حتـى أكون من غير قبيلته فقتلته على الكفر والزندقة فقلت له: فمـا بـال الثلاثـة الذين قتلتهم في القثاء؟ فقال: والله ما كان أولئك الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصاً قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم، فبعثت فجئت بهم مـن السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثـاء، وأردت بذلـك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويتعـدوا علـى النـاس ويكفـوا عـن الأذى. ثم أمر بإخراج أولئك الذين حبسهم بسبب القثاء فأطلقهم بعدمـا استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرزاقهم التي كانت لهم.

قال ابن الجوزي: وخرج المعتضد يوماً فعسكر ببـاب الشماسـية ونهـى أن يأخذ أحد من بستان أحد شيئاً، فأتي بأسـود قـد أخـذ عذقـاً مـن بسـر فتأمله طويلا ثم أمر بضرب عنقه، ثم التفت إلى أصحابه وقـال: إن العامـة ينكرون هذا ويقولون إن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع في ثمـر ولا كثـر» [د (٤٣٨٨)، ت (١٤٤٩)، س (٤٩٧٥ - ٤٩٨٥)] ولم يكفـه أن يقطـع يـده حتـى قتله، وإني لم أقتل هذا على سرقته، وإنما هذا الأسود رجل من الزنج كـان قد استأمن في حياة أبي وإنه تقاول هو ورجل من المسلمين فضرب المسـلم

فقطع يده فمات المسلم، فأهدر أبي دم الرجل المقتول تأليفاً للزنج، فآليت على نفسي لئن أنا قدرت عليه لأقتلنه، فما وقعت عيني عليه إلا هذه الساعة فقتلته بذلك الرجل.

وقال أبو بكر الخطيب: أخبرنا محمد بن أحمد بن يعقوب حدثنا محمد بن نعيم الضبي سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول سمعت أبا العباس بن سريج يقول سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم فلما أردت القيام أشار إلي فمكثت ساعة فلما خلا قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال: دخلت يوماً على المعتضد فدفع إلي كتاباً فقرأته فإذا قد جُمع فيه الرخص من زلل العلماء فقلت: يا أمير المؤمنين إنما جمع هذا زنديق فقال: كيف؟ فقلت: إن من أباح النبيذ لم يُبح المتعة، ومن أباح الغناء لم يبح النبيذ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه. فأمر بتحريق ذلك الكتاب.

وروى الخطيب بسنده عن صافي الحرمي الخادم قال: انتهى المعتضد وأنا بين يديه إلى منزل شغب وابنه المقتدر جعفر جالس فيه وحوله نحو من عشرة من الوصائف، والصبيان من أصحابه في سنه عنده، وبين يديه طبق من فضة فيه عنقود عنب، وكان العنب إذ ذاك عزيزاً جدّاً، وهو يأكل عنبة واحدة ثم يفرق على كل واحد من جلسائه عنبة عنبة فتركه المعتضد وجلس ناحية في بيت مهموماً فقلت له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك والله لولا النار والعار لأقتلن هذا الغلام، فإن في قتله صلاحاً للأمة. فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين العن الشيطان فقال: ويحك يا صافي هذا الغلام في غاية السخاء لما أراه يفعل مع الصبيان فإن طباع الصبيان تأبى الكرم، وهذا في غاية الكرم وإن الناس من بعدي لا يولون عليهم إلا من هو من ولدي، فسيلي عليهم المكتفي ثم لا تطول أيامه لعلته التي به وهي داء الخنازير ثم يموت فيولّي الناس جعفر هذا الغلام فيذهب جميع أموال بيت المال إلى الحظايا لشغفه بهن، وقرب عهده من تشبيه بهن، فتضيع أمور المسلمين وتعطل الثغور وتكثر الفتن والهرج والخوارج والشرور. قال صافي: فوالله لقد شاهدت ما قاله سواء بسواء.

وروى ابن الجوزي عن بعض خدم المعتضد قال: كان المعتضد يوماً نائماً وقت القائلة ونحن حول سريره فاستيقظ مذعوراً ثم صرخ بنا فجئنا إليه فقال: ويحكم اذهبوا إلى دجلة فأول سفينة تجدونها فارغة منحدرة فأتوني بملاحها واحتفظوا بالسفينة. فذهبنا سراعاً فوجدنا ملاحاً في سميرية فارغة منحدراً فأتينا به الخليفة فلما رأى الملاح الخليفة كاد يتلف، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة فكادت روح الملاح تخرج فقال له الخليفة: ويحك يا ملعون، اصدقني عن قصتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك قال فتعلثم ثم قال: نعم يا أمير المؤمنين كنت اليوم سحراً في مشرعتي الفلانية، فنزلت امرأة لم أر مثلها وعليها ثياب فاخرة وحلي كثير وجوهر، نطمعت فيها واحتلت عليها حتى شددت فاها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها من الحلي والثياب، وخشيت أن أرجع به إلى منزلي فيشتهر خبرها، فأردت الذهاب إلى واسط فلقيني هؤلاء الخدم فأخذوني فقال: وأين حليها؟ فقال: في صدر السفينة تحت البواري فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به فإذا هو حلي كثير يساوي أموالا كثيرة، فأمر الخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرق فيه المرأة، وأمر أن ينادى على أهل المرأة ليحضروا حتى يتسلموا مال وليّهم فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد وأزقتها فحضروا بعد ثلاثة أيام فسلم إليهم ما كان مع تلك المرأة من الحلي والثياب فقال له خدمه: يا أمير المؤمنين من أين علمت هذا؟ قال: رأيت في نومي تلك الساعة شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أحمد يا أحمد، خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلبها فأقم عليه الحد فكان ما شاهدتم.

وعن خفيف السمرقندي الحاجب قال: كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته وكان قد انقطع عن العسكر وليس معه غيري، إذ خرج علينا أسد فقصد فقصدنا فقال لي المعتضد: يا خفيف أفيك خير؟ قلت: لا والله يا مولاي، فقال: ولا حتى تمسك فرسي وأنزل أنا؟ فقلت: بلى قال: فنزل عن فرسه فامسكتها وغرز أطراف ثيابه في منطقته واستل سيفه ورمى بقرابه إلّي ثم تقدم إلى الأسد فوثب الأسد عليه فضربه المعتضد بالسيف فأطار يده فاشتغل الأسد بيده فضربه ثانية على هامته ففلقها، فخر الأسد صريعاً فدنا منه فمسح سيفه في صوفه ثم أقبل إليّ فأغمد سيفه في قرابه، ثم ركب فرسه ثم عدنا إلى العسكر. قال وصحبته إلى أن مات فوالله ما سمعته ذكر ذلك لأحد، فما أدرى من أي شيء أعجب؟ أمن شجاعته أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحد؟ أم من عدم عتبه عليّ حيث ضننت بنفسي عنه؟ والله ما عاتبني في ذلك قط.

وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي الحسين النوري أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح، فقال: ما هذه؟ ولمن هذه؟ فقال له: هذه خمر للمعتضد فصعد أبو الحسين إليها فجعل يضرب الدنان بعمود في يده حتى كسرها كلها سوى واحد تركه واستغاث الملاح فجاءت الشرطة فأخذوا أبا الحسين فأوقفوه بين يدي المعتضد فقال له: من أنت؟ فقال أنا المحتسب فقال: ومن ولاك الحسبة؟ فقال: الذي ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين فأطرق رأسه ثم رفعها فقال: ما الذي حملك على ما فعلت؟ فقال: شفقة عليك لدفع الضرر عنك فأطرق رأسه ثم رفعه فقال: ولم تركت من الدّنان واحداً؟ فقال: إني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالا لعظمة اللّه تعالى، فلم أبال أحداً حتى انتهيت إلى هذا الدن فتخوفت على نفسي كبراً على أني قد أقدمت على مثلك فتركته، فقال له المعتضد: اذهب فقد أطلقت يدك فغيرّ ما أحببت أن تغيره من المنكر فقال النوري: الآن نقص عزمي عن التغيير، فقال: ولم؟ فقال: لأني كنت أغيّر عن اللّه، وأنا الآن أغير عن شرطي. فقال: سل حاجتك فقال: أحب أن تخرجني من بين يديك سالماً فأمر به فأخرج فصار إلى البصره، فأقام بها مختفياً خشية أن يشق عليه أحد في حاجته عند المعتضد. فلما توفي المعتضد رجع إلى بغداد.

وذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ويأمر غلمانه يؤذونني فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يفد ذلك شيئاً، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئاً، وما زاده ذلك إلا منعاً وجحوداً، فأيست من المال الذي عليه ودخلني هم من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلاناً الخياط - إمام مسجد هناك- فقلت وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجاً قال: فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت

من هذا الظالم فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملا من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذنت. فتغير لون الأمير ودفع إليّ حقي.

وقال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال فلم يقبل مني شيئاً، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا ههنا رجل تركي، شاب حسن أمير، فلما كان ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمين أنا امرأة ذات زوج، وهذا يريدني على نفسي ليدخلني منزله، وقد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله، ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لا ترخصه الأيام ولا تغسله المدامع. قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهراً، فرجعت أنا فغلست الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء ثم قلت لهم: إن هذا قد فعل ما قد فعل فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بين الناس فضربني ضرباً شديداً مبرحاً حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق، من شدة الوجع وكثرة الدماء فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرساناً ورجالة، وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه فقالوا: إنزل فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئاً ومازالوا بي حتى أدخلوني على الخليفة المعتضد بالله، فلما رأيته جالساً في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعاً شديداً، فقال: ادن، فدنوت فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك وما زال يلاطفني حتى اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فيغترّ بذلك الصوام والمسافر والمصلي وغيرهم، فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن فذكرت له القصة قال: فغضب غضباً شديداً وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأحضرا سريعاً فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضاً، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة. ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجوار والزوجات؟ فذكر له شيئاً كثيراً فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان، وما كفاك ذلك حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب فأمر به فجعل في رجله قيد وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضرباً شديداً حتى خفت صوتُه، ثم أمر به فألقي في دجله فكان ذلك آخر العهد به. ثم أمر بدراً صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال بغير حلها، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكراً صغيراً كان أو كبيراً ولو على هذا - وأشار إلى صاحب الشرطة - فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك أن تؤذّن في مثل وقت أذانك هذا، قال: فبهذا السبب لا آمر أحداً من هؤلاء الدولة بشيء من الخير، أو أنهاه عن الشر إلا بادر إلى امتثاله وقبوله؛ خوفاً من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن.

وذكر الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قال: كنت يوماً عند المعتضد وخادم واقف على رأسه يذب عنه بمذبة في يده إذ حركتها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسه، فأعظمت أنا ذلك جداً وخفت من هول ما وقع، ولم يكترث الخليفة لذلك، بل أخذ قلنسوته فوضعها على رأسه ثم قال لبعض الخدم: مر هذا البائس ليذهب لراحته فإنه قد نعس، وزيدوا في عدة من يذب بالنوبة. قال الوزير: فأخذنا في الثناء على الخليفة والشكر له على حلمه، فقال: إن هذا البائس لم يتعمد ما وقع منه وإنما نعس، وليس العتاب والمعاتبة إلا على المتعمد لا على المخطئ والساهي.

وقال خفيف السمرقندي الحاجب: لما جاء الخبر إلى المعتضد بموت وزيره عبيد الله بن سليمان وتحقق ذلك خر ساجداً طويلاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين: لقد كان عبيد الله يخدمك وينصح لك فقال: إنما سجدت شكراً لله أني لم أعزله ولم أوذه. ثم استشار الحاضرين فيمن يستوزره من بعده، وذكر هو رجلين، أحدهما جرادة وكان ابن سليمان حازم الرأي قوياً، والآخر أحمد بن محمد بن الفرات فعدل به بدر صاحب الشرطة عنه وأشار عليه بالقاسم بن عبيد الله فسفّه رأيه فألح عليه فولاه وبعث إليه يعزيه في أبيه ويهنيه بالوزارة، فما لبث القاسم بن عبيد الله حتى ولي المكتفي الخلافة من بعد أبيه المعتضد حتى قتل بدراً. وكان المعتضد ينظر إلى ما بينهما من العداوة من وراء ستر رقيق، وهذه فراسة عظيمة وتوسم قوي.

وقد رُفع يوماً إلى المعتضد ان أقواماً يجتمعون على المعصية فاستشار وزيره في أمرهم فقال: ينبغي أن يصلب بعضهم ويحرق بعضهم فقال: ويحك لقد بردت لهب غضبي عليهم بقسوتك هذه، أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها، وأنه سائله عنها؟ ولم يقابلهم بما قال الوزير فيهم.

ولهذه النية لما ولي الخلافة كان بيت المال صفراً من المال وكانت الأحوال فاسدة، والأعراب تعيث في الأرض فساداً في كل جهة، فلم يزل برأيه وتدبيره حتى كثرت الأموال في بيت المال وصلحت الأحوال في سائر الأقاليم والآفاق.

ومن شعره في جارية له توفيت فوجد عليها وجداً عظيماً فقال:

يا حبيباً لم يكن يَعْـ ... ـدله عندي حبيب

أنت عن عيني بعيد ... ومن القلب قريب

ليس لي بعدك في شيء ... من اللهو نصيب

لك من قلبي على قلبي ... وإن بنت رقيب
وخيالي منك مذ غبـ ... ـت خيالٌ ما يغيبُ
لو تراني كيف لي بعـ ... ـدك عول ونحيب
وفؤادي حشوه من ... حرق الحزن لهيب
لتيقَّنتَ بأنِّي ... بك محزونٌ كئيبُ
ما أرى نفسي وإن طيـ ... ـبتها عنك تطيب
ليس دمع لي يعصيـ ... ـني وصبري ما يجيب

وقال فيها أيضاً:

لم أبك للدار ولكن لمن ... قد كان فيها مرة ساكنا
فخانني الدهر بفقدانه ... وكنت من قبل له آمنا
ودعت صبري عنه توديعه ... وبان قلبي معه ظاعنا

وكتب إليه ابن المعتز يعزيه ويسلّيه عن مصيبته فيها:

يا إمام الهدى بنا لا بك الغمُّ ... وأفنيْنا وعشت أنت سليما
أنت علمتنا على النعم الشكـ ... ـر وعند المصائب التسليما
فتسلى عن ما مضى فإن التي ... كانت سروراً صارت ثواباً
قد رضينا بأن نموت وتحيى ... إن عندي في ذاك حظاً جسيما
من يمت طائعاً لديك فقد ... أعطي فوزاً ومات موتاً كريما

واجتمع ليلة عند المعتضد ندماؤه فلما انقضى السمر وصار إلى حظاياه ونام القوم السُّمار نبَّههم من نومهم خادم من عند الخليفة، وقال: يقول لكم أمير المؤمنين، إنه أصابه أرق من بعدكم وقد عمل بيتاً أعياه ثانيه فمن عمل ثانيه فله جائزة وهو هذا البيت:

ولما انتبهنا للخيالِ الذي سرى ... إذا الدار قفْرى والمزارُ بعيد

قال: فجلس القوم من فرشهم يفكرون في ثانيه فبدر واحد منهم فقال:

فقلتُ لعيني عاودي النومَ واهجعي ... لعلَّ خيالا طارقاً سَيَعودُ

قال: فلما رجع به الخادم إلى المعتضد وقع منه موقعاً جيداً وأمر له بجائزة سنية.

واستعظم المعتضد يوما من بعض الشعراء قول الحكم بن عمرو المازني البصري:

لهفي على من أطار النوم فامتنعا ... وزاد قلبي على أوجاعه وجعا
كأنما الشمس من أعطافه طلعت ... حسناً أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإن عظمت ... منه الإساءة معذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب وجيهٌ حيثما شفعا

ولما كان في ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة تسع وثمانين ومائتين - اشتد وجع الخليفة المعتضد بالله فاجتمع رؤساء القواد؛ منهم يونس الخادم وغيره إلى الوزير القاسم بن عبيد الله فأشاروا بأن يجتمع الناسُ لتجديد البيعة للمكتفي بالله علي بن المعتضد بالله، ففعل ذلك وتأكدت البيعة وكان في ذلك خير كثير.

وحين حضرت المعتضد الوفاة أنشد لنفسه:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى ... وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرّنقا
ولا تأمننَّ الدهر إني أمنته ... فلم يبق لي حالا ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدواً ولم أمهل على خلق خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاجلا ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد ... لذي ملك الأحياء في حيها رفقا
وأفسدت دنياي وديني سفاهةً ... فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى
فياليت شعري بعد موتي ما ألقى ... إلى نعمة للّه أم ناره ألقى

وكانت وفاته رحمه اللّه ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الأول من هذه السنة. ولم يبلغ الخمسين. فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً وخلف من الأولاد الذكور: عليّاً المكتفي، وجعفراً المقتدر، وهارون. ومن البنات إحدى عشر بنتاً. ويقال: سبع عشرة بنتاً وترك في بيت المال سبعة عشر ألف ألف دينار. وكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان بعض الناس يبخّله، ومن الناس من يجعله من الخلفاء الراشدين المذكورين في الحديث، الاثنى عشر المنصوص عليهم في حديث جابر بن سمرة فاللّه أعلم.

وقد رثى أبو العباس عبد اللّه بن المعتز العباسي ابن عمه المعتضد بمرثاة حسنة يقول فيها:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً ... وأنت والد سوء تأكل الولدا
أستغفر اللّه بل ذا كله قدر ... رضيت باللّه رباً واحداً صمداً
يا ساكن القبر في غبراء مظلمة ... بالظاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التي قد كنت تسحبها ... أين الكنوز التي أحصيتَها عددا
أين السرير الذي قد كنت تملؤه ... مهابة من رأته عينه ارتعدا
أين القصور التي شيدتها فعلت ... ولاح فيها سنا الإبريز فاتقدا
أين الأعادي الأُلى ذللت صعبهم ... أين الليوث التي صيرتها نقدا
أين الوفود على الأبواب عاكفة ... ورد القطا صفر ماء جال واطردا
أين الرجال قياماً في مراتبهم ... من راح منهم ولم يطمر فقد سعدا
أين الجياد التي قد حجلتها بدم ... وكن يحملن منك الضيغم الأسدا
أين الرماح التي غذيتها مهجاً ... مذ مت ما وردت قلباً ولا كبدا
أين السيوف وأين النبل مرسلةً ... يصبن من شئتَ من قرن وإن بَعُدا
أين المجانيق أمثال الفيول إذا ... رمين حائط حصن قائم قعدا
أين الجنان التي تجري جداولها ... وتستجيب إليها الطائر الغردا
أين الوصائف كالغزلان رائحة ... يسحبن من حلل موشية جددا
أين الملاهي وأين الراح تحسبها ... ياقوتة كسيت من فضة زردا
أين الوثوب إلى الأعداء مبتغيا ... صلاح ملك بني العباس إذ فسدا
ما زلت تقسر منهم كل قسورة ... وتحطم العاتي الجبار معتمدا
ثم انقضيت فلا عين ولا أثر ... حتى كأنك يوماً لم تكن أحداً
لا شيء يبقى سوى خير تقدمه ... ما دام ملك لإنسان ولا خلدا

ذكرها ابن عساكر في تاريخه.

خلافة المكتفي بالله أبي محمد

علي بن المعتضد بالله أمير المؤمنين رحمه الله تعالى. بويع له بالخلافة بعد موت أبيه في ربيع الأول من هذه السنة، وليس في الخلفاء من اسمه علي سوى هذا وعلي بن أبي طالب. وليس فيهم من يكنى بأبي محمد إلا هذا والحسن بن علي بن أبي طالب والهادي، والمستضيء بالله.

وحين ولي المكتفي كثرت الفتن وانتشرت في البلاد.

وفي رجب منها زلزلت الأرض زلزلة عظيمة جداً.

وفي رمضان منها تساقط وقت السحر من السماء نجوم كثيرة ولم يزل الأمر كذلك حتى طلعت الشمس.

ولما أفضت الخلافة إليه كان بالرقة، فكتب إليه الوزير وأعيان الأمراء فركب فدخل بغداد في يوم مشهود، وذلك يوم الاثنين لثمان خلون من جمادى الأولى من هذه السنة.

وفي هذا اليوم أمر بقتل عمرو بن الليث الصفار ـ وكان معتقلا في سجن أبيه ـ وأمر بتخريب المطامير التي كان اتخذها أبوه للسجن وأمر ببناء جامع مكانها وخلع في هذا اليوم على الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ست خلع وقلّده سيفاً، وكان عمره يومئذٍ خمساً وعشرين سنة وبعض أشهر.

وفي هذه السنة انتشرت القرامطة بعد موت المعتضد في الآفاق وقطعوا الطريق على الحجيج، وتسمى بعضهم بأمير المؤمنين. فبعث المكتفي إليهم جيوشاً كثيرة وانفق أموالا جزيلة، حتى اطفأ الله بعض شرهم.

وفيها خرج محمد بن هارون عن طاعة إسماعيل بن أحمد الساماني، وكاتب أهل الري بعد قتله محمد بن زيد الطالبي، فصار إليهم فسلموا إليه البلد فاستحوذ عليها، فقصده إسماعيل بن أحمد الساماني بالجيوش فقهره وأخرجه منها مذموماً مدحوراً.

قال ابن الجوزي في المنتظم [٦/١٣]: وفي يوم التاسع من ذي الحجة منها صلى الناس العصر في زمن الصيف وعليهم ثياب الصيف، فهبت ريح باردة جداً حتى احتاج الناس مع ذلك إلى الاصطلاء بالنار، ولبسوا الفراء والمحشوات وجمد الماء كفصل الشتاء.

قال ابن الأثير [الكامل: ٥٢٢/٧]: وكذا وقع بمدينة حمص؛ قال: وهبّت ريح عاصف بالبصرة فاقتلعت شيئاً كثيراً من نخيلها، وخسف بموضع منها، فمات تحته ستة آلاف نسمة.

قال ابن الأثير وابن الجوزي [المنتظم: ٦/١٣]: وزلزلت بغداد في رجب من هذه السنة مرات متعددة ثم سكنت ولله الحمد والمنة.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي:

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ **إبراهيم بن محمد بن إبراهيم** أحد الصوفية الكبار.

قال ابن الأثير: وهو من أقران السري السقطي.

قال: لأن ترد إلى الله ذرة من همك خير لك مما طلعت عليه الشمس.

و■ **أحمد بن محمد المعتضد بالله** غلب عليه سوء المزاج والجفاف من كثرة الجماع، وكان الأطباء يصفون له ما يرطب بدنه به فيستعمل ضد ذلك حتى سقطت قوته. وقد ذكرنا كيفية وفاته في ترجمته آنفاً.

■ **بدر غلام المعتضد ورأس الجيش**: كان القاسم بن عبيد الله الوزير قد عزم في حياة المعتضد على أن يصرف الخلافة عن أولاد المتعضد وفاوض بذلك بدراً هذا فامتنع عليه وأبى إلا البيعة لأولاد مولاه فلما ولي المكتفي بن المعتضد خاف الوزير من غائلة ما كان أسرَّ به إلى بدر، فعمل عليه عند المكتفي ولم يزل حتى احتاط الخليفة على حواصله وأمواله وهو بواسط، ثم بعث إليه بالأمان فقدم، فأمر الوزير مَن قتله، فقُتل يوم الجمعة لست خلون من رمضان من هذه السنة، ثم قطع رأسه وبقيت جثته فأخذها أهله فبعثوا بها إلى مكة في تابوت فدفن بها، وذلك أنه أوصى بذلك وكان قد أعتق كل مملوك له قبل وفاته. وحين أرادوا قتله صلى ركعتين لله عز وجل، ثم قتلوه.

■ **الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن فهم بن محرز بن إبراهيم، أبو علي، الحافظ البغدادي،** سمع خلف بن هشام ويحيى بن معين ومحمد بن سعد وغيرهم.

وعنه أخذ الخُطَبي والطوماري، وكان عسراً في التحديث إلا لمن لازمه، وكانت له معرفة جيدة بالأخبار والنسب والشعر وأسماء الرجال، يميل إلى مذهب العراقيين في الفقه، توفي عن ثمان وسبعين سنة، وقد قال الدارقطني: ليس بالقوي.

■ **عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسي** صاحب التاريخ على السنين، ولد بمصر وحدث عن أبي صالح كاتب الليث وغيره.

■ **عمرو بن الليث الصفار** أحد الأمراء الكبار، قتل في السجن أول ما قدم المكتفي بغداد.

ثم دخلت سنة تسعين ومائتين

فيها أقبل يحيى بن زكرويه بن مهرويه أبو قاسم القرمطي المعروف بالشيخ في جحافل عظيمة من القرامطه فعاث بناحية الرقة فساداً فجهز إليه الخليفة جيشاً نحو عشرة آلاف فارس.

وفيها ركب الخليفة المكتفي من بغداد إلى سامرا يريد الإقامة بها فثنى رأيه عن ذلك الوزير القاسم بن عبيد الله ورجع به إلى بغداد.

وفيها قتل يحيى بن زكرويه على باب دمشق قتله جيش المصريين زرقه رجل من المغاربة بمزراق من نار فحرقه،وذلك بعدما كان قتل خلقاً كثيراً من جيشها من أصحاب طغج بن جُف نائبها، ثم مَنَّ الله على الناس بقتله، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، فقام بأمر القرامطة من بعده أخوه الحسين وتسمى بأحمد وتكنى بأبي العباس وتلقب بأمير المؤمنين وأطاعته القرامطة، كما كانوا يطيعون أخاه فحاصر دمشق فصالحه أهلها على مال، ثم سار إلى حمص فافتتحها وخطب له على منابرها، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان فقهر أهل تلك النواحي واستباح أموالهم وحريمهم، وكان يقتل الدواب والصبيان في المكاتب، ويبيح لمن معه وطء النساء، فربما وطئ الواحدة الجماعة الكثيرة من الرجال، فإذا ولَدت ولداً هنأ به كل واحد منهم الآخر، فكتب أهل الشام إلى الخليفة يشكون إليه ما يلقون من هذا اللعين، فجهز إليهم جيوشاً كثيفة، وانفق أموالاً جزيلة لحربه وركب في رمضان فنزل الرقة وبث الجيوش في كل جانب لقتال القرمطي وكان القرمطي هذا يكتب إلى أصحابه: من عبد الله المهدي أحمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله، الداعي إلى كتاب الله، الذاب عن حريم الله، المختار من ولد رسول الله وكان يدعي أنه من سلالة علي بن أبي طالب من فاطمة، وهو كاذب

أفاك أثيم قبحه الله، فإنه كان من أشد الناس عداوة لقريش، ثم لبني هاشم، ثم دخل سلمية فلم يدع بها أحداً من بني هاشم حتى قتلهم وقتل أولاده واستباح حريمهم.

وفيها ولي ثغر طرسوس أبو العشائر أحمد بن نصر عوضاً عن مظفر بن حاج عزل عنها لشكوى أهل الثغر منه.

وحج بالناس الفضل بن محمد العباسي رحمه الله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (عبد الله بن أحمد بن حنبل)

عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الرحمن الشيباني: كان إماماً ثقة حافظا ثبتاً مكثراً عن أبيه وغيره.

قال ابن المنادي: لم يكن أحد أروى عن أبيه منه. سمع منه المسند ثلاثين ألفاً، والتفسير مائة ألف حديث وعشرين ألفاً، من ذلك سماع ومن ذلك وجادة، ومن ذلك الناسخ والمنسوخ، والمقدم والمؤخر، في كتاب الله والتاريخ، وحديث شعبة وجوابات القرآن، والمناسك الكبير، والصغير. وغير ذلك من التصانيف، وحديث الشيوخ.

قال: وما زلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال وعلل الحديث والأسماء والكنى والمواظبة على طلب الحديث في العراق وغيرها، ويذكرون عن أسلافهم الإقرار له بذلك، حتى إن بعضهم أسرف في تقريظه إيّاه بالمعرفة وزيادة السماع للحديث على أبيه.

ولما مرض قيل له أين تدفن؟ فقال: صح عندي أن بالقطيعة نبياً مدفوناً، ولأن أكون بجوار نبي أحب إليّ من أن أكون في جوار أبي. مات في جمادى الآخرة من هذه السنة عن سبع وسبعين سنة، كما مات لها أبوه، وكان الجمع كثيراً جدّاً، وصلى عليه زهير ابن أخيه، ودفن في مقابر باب التين رحمه الله تعالى.

■ عبد الله بن أحمد بن سعيد أبو محمد الرباطي المروزي، صحب أبا تراب النخشبي، وكان الجنيد يمدحه ويثني عليه.

■ عمر بن إبراهيم أبو بكر الحافظ المعروف بأبي الآذان، كان ثقة ثبتاً.

■ محمد بن الحسين بن الفرج أبو ميسرة الهمداني، صاحب المسند،وكان أحد الثقات المشهورين والمصنفين المنصفين.

■ محمد بن عبد الله أبو بكر الزَّقَّاق:أحد أئمة الصوفية وعبادهم، رُوي عن الجنيد أنه قال: رأيت إبليس في المنام وكأنه عريان فقلت له: أما تستحي من الناس؟ فقال: هؤلاء أناس وأنا أتلعّب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، إنما الناس جماعة غير هؤلاء فقلت له: من هم؟ فقال: قوم في مسجد الشونيزي قد أضنوا قلبي وأتعبوا جسدي،كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل فأكاد أحترق. قال: فلما انتبهت ولبست ثيابي وقصدت مسجد الشونيزي فاذا فيه ثلاثة جلوس ورؤوسهم في مرقعاتهم، فرفع أحدهم رأسه من جيبه فقال: يا أبا القاسم لا تغتر بحديث الخبيث، وأنت كلما قيل لك شيء تقبل؟ فإذا هم أبو بكر الزقّاق وأبو الحسين النوري وأبو حمزة.

■ محمد بن علي بن علوية بن عبد الله الجرجاني الفقيه الشافعي تلميذ المزني. ذكره ابن الأثير.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين

فيها جرت وقعة عظيمة هائلة بين القرامطة وجند الخليفة فهزمت القرامطة هزيمة عظيمة وأُسر رئيسهم الحسن بن زكرويه الملقب بأمير المؤمنين الذي يقال له ذو الشامة وقد تسمى كما ذكرنا بأحمد وتكنى بأبي العباس والتف عليه خلائق من الأعراب وغيرهم واستفحل أمره جدا، فلما أسر حمل إلى الخليفة في جماعة كثيرة من رؤوس أصحابه، وأدخل بغداد على فيل مشهور للناس، وأمر الخليفة بعمل دَكَّةٍ مرتفعة فأجلس عليها القرمطي وجيء بأصحابه فجعل يضرب أعناقهم بين يديه وهو ينظر، وقد جعل في فمه خشبة معترضة مشدودة إلى قفاه، ثم أنزل فضرب مائتي سوط ثم قطعت يداه ورجلاه، وكوي، ثم أحرق وحمل رأسه على خشبة وطيف به في أرجاء بغداد، وذلك في شهر ربيع الأول منها.

وفيها قصدت الأتراك بلاد ما وراء النهر في جحافل عظيمة، فبيتهم المسلمون فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجما غفيرا ما لا يحصون كثرة ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفيها بعث ملك الروم عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف، فغاروا على أطراف البلاد وقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا أُناساً من الذرية.

وفيها دخل نائب طرسوس بلاد الروم ففتح مدينة أنطاكية - وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر تعادل عندهم القسطنطينية - وخلّص من المسلمين خمسة آلاف أسير، وأخذ من الروم ستين مركباً وغنم شيئاً كثيراً، فبلغ نصيب كل واحد من الغزاة ألف دينار

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار: أبو العباس الشيباني مولاهم، الملقب بثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة، مولده في سنة مائتين، سمع محمد بن زياد الأعرابي والزبير بن بكار والقواريري وغيرهم، وعنه ابن الأنباري وابن عرفة وأبو عمر والزاهد وكان ثقة حجة ديناً صالحاً مشهوراً بالصدق والحفظ، وذكر أنه سمع من القواريري مائة ألف حديث. وكانت وفاته يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة عن إحدى وتسعين سنة.

قال ابن خلكان: وكان سبب موته أنه خرج من الجامع وفي يده كتاب ينظر فيه وقد كان قد أصابه صمم شديد فصدمته فرس فألقته في هوة فاضطرب دماغه فمات من اليوم الثاني رحمه الله.

قال: وهو مصنف كتاب الفصيح، وهو صغير الحجم كثير الفائدة، وله كتاب المصون، واختلاف النحويين ومعاني القرآن وكتاب القراءات ومعاني الشعر وما يلحن فيه العامة وذكر أشياء كثيرة أيضاً. ومما نسب إليه من الشعر قوله:

إذا كنت قوت النفس ثم هجرتها ... فكم تلبث النفس التي أنت قُوتُها

ستبقى بقاء الضبّ في الماء أو كما ... يعيش ببيداء المهامِهِ حوتها

اغرك مني أن تصبرت جاهداً ... وفي النفس مني منك ما سيميتها

فلو كان ما بي بالصخور لهدها ... وبالريح ما هبت وطال خفوتها

فصبراً لعل الله يجمع بيننا ... فاشكو هموماً منك فيك لقيتها

■ القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير، تولى بعد أبيه الوزارة في آخر أيام المعتضد، ثم وزر لولده المكتفي من بعده، فلما كان رمضان من هذه السنة مرض فبعث إلى السجون فأطلق من فيها من المظلومين، ثم توفي في ذي القعدة منها، وقد قارب ثلاثاً وثلاثين سنة، وقد كان حظياً عند الخليفة جداً، وخلف من الأملاك ما يعدل سبعمائة ألف دينار.

و■ محمد بن محمد بن إسماعيل بن شداد أبو عبد الله البصري القاضي بواسط، المعروف بالجذوعي، حدث عن مسدد وعن علي بن المديني وابن نمير وغيرهم، وكان من الثقات والقضاة الأجواد العدول الأمناء.

ومن توفي فيها:

■ محمد بن إبراهيم البوشنجي.

و■ محمد بن علي الصايغ.

و■ قنبل أحد مشاهير القراء. وأئمة العلماء.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائتين

فيها دخل محمد بن سليمان في نحو من عشرة آلاف مقاتل من جهة الخليفة المكتفي إلى الديار المصرية لقتال هارون بن خمارويه، فبرز إليه هارون فاقتتلا فقهره محمد بن سليمان وجمع آل طولون فكانوا سبعة عشر رجلا فقتلهم واستحوذ على أموالهم وأملاكهم. وانقضت دولة الطولونية عن الديار المصرية وكتب بالفتح إلى المكتفي.

وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي أمير الحاج في السنين المتقدمة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن عبد الله بن مسلم أبو مسلم الكجي أحد المشايخ المعمرين، كان يحضر مجلسه نحو من خمسين ألفاً ممن معه محبرة، سوى النظارة، ويستملي عليه سبعة مستملين كلٌ يبلغ صاحبه، ويكتب بعض الناس وهم قيام وكان كلما حدث بعشرة آلاف حديث تصدق بصدقة. ولما فرغ من قراءة السنن عليه عمل مأدبة غرم عليها ألف دينار، وقال: شهدت اليوم على رسول الله ﷺ فقبلت شهادتي وحدي، أفلا أعمل شكراً لله عز وجل؟.

وروى ابن الجوزي [المنتظم: ٣٦/١٣] والخطيب [تاريخ بغداد: ١٢٢/٦] عن أبي مسلم الكَجّي قال: خرجت ذات ليلة من المنزل بليل فمررت بحمام وعليّ جنابة فدخلته فقلت للحمامي: أدخل حمامك أحد بعد؟ فقال: لا، فدخلت فلما فتحت باب الحمام الداخل إذا قائل يقول: أبا مسلم أسلم تسلم: ثم أنشأ يقول:

لـك الحمدُ إما على نعمةٍ		وإما على نقمة تدفعُ
تشاء فتفعلُ ما شئتهُ		وتسمعُ من حيثُ لا تسمعُ

قال: فبادرت فخرجت فقلت للحمامي: أنت زعمت أنه لم يدخل حمامك أحد. فقال: نعم! وما ذاك؟ فقلت: إني سمعت قائلا يقول: كذا وكذا فقال: أوسمعته؟ قلت: نعم. فقال: يا سيدي هذا رجل من الجان يتبدى لنا في بعض الأحيان فينشد الأشعار ويتكلم بكلام حسن فيه مواعظ. فقلت: هل حفظت من شعره شيئاً؟ فقال: نعم. ثم أنشدني من شعره فقال:

أيها المذنبُ المفرطُ مهلا		كم تمادى وتركب الذنبَ جهلا
كمْ وكم تُسخط الجليل بفعل		سَمِج وهو يحسِنُ الصّنعَ فِعلا
كيفَ تهدا جفون من ليس يدري		أرضي عنهُ منْ على العرش أمْ لا

■ عبد الحميد بن عبد العزيز أبو حازم القاضي الحنفي، كان من خيار القضاة وأعيان الفقهاء ومن أئمة العلماء، ورعاً نزهاً كثير الصيانة والديانة والأمانة. وقد ذكر له ابن الجوزي في المنتظم [١٣/٣٨ - ٤٣] آثاراً حسنة وأفعالا جميلة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين

فيها التف على أخي الحسين القرمطي المعروف بذي الشامة - الذي قدمنا ذكر مقتله في السنة الماضية - خلائق من القرامطة والأعراب واللصوص وأهل البوادي بطريق الفرات، فعاث بهم في الأرض فسادا، ثم قصد طبرية فامتنعوا من إيوائه فدخلها قهراً وقتل بها خلقاً كثيراً من الرجال، وأخذ شيئاً كثيراً من الأموال، ثم كر راجعاً إلى البادية، ودخلت فرقة أخرى من القرامطه إلى هيت فقتلوا أهلها إلا القليل، وأخذوا منها اموالا جزيلة حملوها على ثلاثة آلاف بعير، فبعث إليهم الخليفة المكتفي جيشاً فقاتلوهم وأخذوا رئيسهم فضربت عنقه. ونبغ رجل من القرامطة يقال له الداعية باليمن، فحاصر صنعاء فدخلها قهراً وقتل خلقاً من أهلها، ثم سار إلى بقية مدن اليمن فأكثر فيها الفساد وقتل خلقاً من العباد، ثم قاتله أهل صنعاء فظفروا به وهزموه، فانحاز إلى بعض مدنها، وبعث الخليفة إليها المظفر بن حاجّ نائباً وخلع عليه، فسار إليها فلم يزل بها حتى مات.

وفي يوم عيد الأضحى دخلت طائفة من القرامطة نحو من ثمانمائة إلى الكوفة والناس في عيدهم فنادوا: يا ثارات الحسين يعنون المصلوب ببغداد وشعارهم: يا أحمد يا محمد يعنون الذين قتلوا معه فبادر الناس الدخول من المصلى إلى الكوفة فولج خلفهم القرامطة فرمتهم العامة بالحجارة وغير ذلك فقتلوا منهم نحواً من عشرين، ورجع الباقون خاسئين، ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة ظهر رجل بمصر يقال له الخلنجي فخلع الطاعة واجتمع إليه طائفة من الجند فأمر الخليفة أحمد بن كيغلغ نائب دمشق وأعمالها فركب إليه فاقتتلا بظاهر مصر فهزمه الخلنجي هزيمة منكرة، فبعث الخليفة إليه جيشاً آخر فهزموا الخلنجي وهرب فاستتر بمصر فأحضر وسُلّم إلى الأمير الخليفة وانطفأ خبره و لله الحمد.

واشتغل الجيش بأمر الديار المصرية، فبعث زكرويه بن مهرويه بعد مقتل ابنه الحسين ببغداد جيشاً صحبة رجل كان يعلم الصبيان، فقصد بصرى وأذرعات والبثنية فحاربه أهلها ثم أمنهم فلما أن تمكن منهم قتل المقاتلة وسبى الذرية، ورام الدخول إلى دمشق فحاربه نائب دمشق أحمد بن كيغلغ بدمشق وهو صالح بن الفضل، فهزمه القرمطي وقتل صالح فيمن قتل وحاصر دمشق فلم يمكنه فتحها، فانصرف إلى طبرية فقتلوا أكثر أهلها ونهبوا منها شيئاً كثيراً كما ذكرنا، ثم ساروا إلى هيت ففعلوا كذلك، ثم جهز الخليفة إليهم جيشاً فأخذ رئيسهم من بينهم ونجا بقيتهم، ثم ساروا إلى الكوفة في يوم عيد الأضحى كما ذكرنا فلم يتح لهم أمر، و لله الحمد

والمنّة. وكل ذلك بإشارة زكرويه بن مهرويه وهو مختف في بلده بين ظهراني قومه من القرامطة، فإذا أُلحَّ في طلبه نزل بئراً قد اتخذها ليختفي فيها وعلى بابه تنور فتقوم امرأة فتسجره وتخبز فيه فلا يشعر به أصلا، ولا يدري أحد أين هو، فبعث الخليفة إليه جيشاً فقاتلهم زكرويه بنفسه ومن أطاعه فهزم جيش الخليفة وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً جداً فتقوى به واشتد أمره، فندب الخليفة إليه جيشاً آخر كثيفاً فكان من أمره وأمرهم ما سنذكره.

وفيها افتتح إسماعيل بن أحمد الساماني نائب خراسان وما وراء النهر طائفة كبيرة من بلاد الأتراك.

وفيها أغارت الروم على بعض أعمال حلب فقتلوا ونهبوا وسبوا.

وفيها حج بالناس الفضل عبد الملك الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ **أبو العباس الناشي الشاعر عبد الله بن محمد**: المعتزلي، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة، ثم انتقل إلى مصر فمات بها، وكان يعاكس الشعراء ويرد على المنطقين والعروضيين، وكان شاعراً مطبقاً إلا أنه كان فيه هوس وقد ارتحل إلى مصر فمات بها في هذه السنة وله قصيدة حسنة في نسب رسول الله ﷺ قد ذكرناها في السيرة.

قال ابن خلكان: كان متبحراً في عدة علوم من جملتها علم المنطق وكان ذكياً فطناً وله قصيدة في فنون من العلوم على رَوِيٍّ واحد تبلغ أربعة آلاف بيت، وله عدة تصانيف جميلة وأشعار كثيرة.

■ **عبيد بن محمد بن خلف أبو محمد البزار** أحد الفقهاء من أصحاب أبي ثور، وكان عنده فقه أبي ثور، وكان من الثقات النبلاء.

■ **نصر بن أحمد بن عبدالعزيز أبو محمد الكندي** الحافظ المعروف بنصرك، كان أحد حفاظ الحديث المشهورين وكان الأمير خالد بن أحمد الذهلي نائب بخارى قد ضمه إليه وصنف له المسند. وكانت وفاته ببخارى في هذه السنة.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين

في المحرم من هذه السنة اعترض زكرويه لعنه الله وأصحابه الحُجّاج من أهل خراسان وهم قافلون من مكة فقتلهم عن آخرهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم فكان قيمة ما أخذه منهم ألفي ألف دينار، وعدة من قتل عشرين ألف إنسان، وكانت نساء القرامطة يطفن بين القتلى من الحجاج صفة أنهن يسقين الجرحى، فمن كلمهن من الجرحى قتلنه وأجهزن عليه، لعنهن الله وقبح أزواجهن.

ذكر مقتل زكرويه لعنه الله

لما بلغ الخليفة خبر الحجيج وما أوقع بهم الخبيث زكرويه جهز إليه جيشاً كثيفاً فالتقوا معه فاقتتلوا قتالا شديداً جداً، قتل من القرامطة خلق كثير ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك في أول ربيع الأول منها. وضُرب زكرويه - لعنه الله - بالسيف في رأسه فوصلت الضربة إلى دماغه وأخذ أسيراً فمات بعد خمسة أيام، فشقوا بطنه وصبروه وحملوه في جماعة من رؤوس أصحابه إلى بغداد، واحتوى عسكر الخليفة على ما كان بأيدي القرامطة من الأموال والحواصل ولله الحمد، وأمر الخليفة بقتل أصحاب القرمطي، وأن يطاف برأسه في سائر بلاد خراسان، لئلا يمتنع الناس عن الحج بسبب ما وقع، وأطلق من كان بأيدي القرامطة من النساء والصبيان الذين أسروهم.

وفيها غزا أحمد بن كيغلغ نائب دمشق بلاد الروم من ناحية طرسوس فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف وأسر من ذراريهم نحوا من خمسين ألفاً، وأسلم بعض البطارقة من الروم وجاء معه بنحو من مئتي أسير كانوا في حصنه، فأرسل ملك الروم، رجاء معه بنحو من مئتي أسير كانوا في حصنه فركب هو في جماعة من المسلمين فكبس جيش الروم فقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم منهم غنيمة كثيرة جداً، ولما قدم على الخليفة أكرمه وأحسن إليه وأعطاه ما تمناه.

وفيها ظهر بالشام رجل فادعى أنه السفياني فأخذ وبعث به إلى بغداد فادعى أنه موسوس.

وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ **الحسين بن محمد بن حاتم بن يزيد بن علي بن مروان أبو علي** المعروف بعبيد العجل، كان حافظاً مكثراً متقناً ثقة مقدماً في حفظ المسندات، توفي في صفر منها.

■ **صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي الأسدي** أسد خزيمة المعروف بجزرة لأنه قرأ على بعض المشايخ أنّ أبا أُمامة كانت له خرزة يرقى بها المريض فقرأها هو جزرة تصحيفاً منه فلقب بذلك لذلك، وقد كان حافظاً مكثراً جوالا رحالا، طاف الشام ومصر وخراسان، وسكن بغداد ثم انتقل منها إلى بخارى فسكنها، وكان ثقة صدوقاً أميناً وله رواية كثيرة عن يحيى بن معين، وسؤالات كثيرة كان مولده بالكوفة سنة عشر ومائتين.

وتوفي في هذه السنة:

■ **محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن** العباس المعروف بالبياضي لأنه حضر مجلس الخليفة وعليه ثياب البياض، فقال الخليفة: من ذاك البياضي؟ فعرف به وكان ثقة، روى عن ابن الأنباري وابن مقسم. قتله القرامطة في هذه السنة.

■ **(محمد بن إسحاق بن راهويه)**

محمد ابن الإمام إسحاق بن راهويه، سمع أباه، وأحمد بن حنبل وغيرهما، وكان عالماً بالفقه والحديث، جميل الطريقة وقدم بغداد فحدث بها وقتله القرامطة فيمن قتلوا من الحجيج في هذه السنة.

■ **محمد بن نصر أبو عبد الله المروزي**: الفقيه ولد ببغداد ونشأ بنيسابور واستوطن سمرقند، وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أئمة الإسلام، في الأحكام، وقد رحل إلى الآفاق و٠سمع من المشايخ الكثير النافع وصنف الكتب المفيدة الحافلة النافعة، وكان من أحسن الناس صلاة وأكثرهم فيها خشوعاً، وقد صنف كتاباً عظيماً في الصلاة.

وقد روى الخطيب البغدادي أنه قال: خرجت من مصر قاصداً مكة فركبت البحر ومعي جارية فغرقت السفينة فذهب لي في الماء ألفا جزء وسلمت أنا والجارية فلجأنا إلى جزيرة فطلبنا بها ماء فلم نجد، فوضعت رأسي على فخذ الجارية ويئست من الحياة، فبينا أنا كذلك إذا رجل قد

أقبل وفي يده كوز فقال: هاه، فأخذته فشربت منه وسقيت الجارية ثم ذهب فلم أدر من أين أقبل ولا إلى أين ذهب ثم إن الله سبحانه أغاثنا فنجانا من ذلك الغم وقد كان من أكرم الناس وأسخاهم نفسا. وكان إسماعيل بن أحمد يصله في كل سنة بأربعة آلاف، ويصله أخوه إسحاق بن أحمد بأربعة آلاف أيضاً، ويصله أهل سمرقند بأربعة آلاف فينفق ذلك كله، فقيل له: لو ادخرت منها شيئاً لنائبة، فقال: يا سبحان الله أنا كنت في مصر أنفق فيها في كل سنة عشرين درهماً فرأيت إذا لم يحصل لي شيء من هذا لا يتهيأ لي في السنة عشرون درهماً.

وكان محمد بن نصر المروزي إذا دخل على إسماعيل بن أحمد الساماني ينهض له ويكرمه، فعاتبه يوماً أخوه إسحاق، فقال له: تقوم لرجل في مجلس حكمك وأنت ملك خراسان؟ قال إسماعيل: فبت تلك الليلة وأنا مشتت القلب من قول أخي - وكانوا هم ملوك خراسان وما وراء النهر - قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول: يا إسماعيل ثبت ملكك وملك بنيك بتعظيمك محمد بن نصر، وذهب ملك أخيك باستخفافه بمحمد بن نصر.

وقد روي أنه اجتمع بالديار المصرية محمد بن نصر. ومحمد بن جرير الطبري. ومحمد بن المنذر، فجلسوا في بيت يكتبون الحديث ولم يكن عندهم في ذلك اليوم شيء يقتاتونه، فاقترعوا فيما بينهم من يسعى لهم في شيء يأكلونه، ليدفعوا عنهم ضرورتهم، فجاءت القرعة على أحدهم، فنهض إلى الصلاة فجعل يصلي ويدعو الله عز وجل، وذلك وقت القيلولة، فرأى نائب مصر - وأظنه أحمد بن طولون - في منامه في ذلك الوقت رسول الله ﷺ وهو يقول له:أنت ههنا، والمحمّدون ليس عندهم شيء يقتاتونه فانتبه من ساعته فسأل: من ها هنا من المحدثين؟ فذكر له هؤلاء الثلاثة، فأرسل إليهم في الساعة الراهنة بألف دينار، فدخل بها عليهم وأزال الله ضرورتهم ويسر أمرهم، واشترى طولون تلك الدار وبناها مسجداً وجعلها على أهل الحديث وأوقف عليها أوقافاً جزيلة.

وقد بلغ محمد بن نصر سناً عالية وكان يسأل الله ولداً فأتاه يوماً إنسان فبشّره بولد ذكر قد وُلد له، فرفع يديه فحمد الله وأثنى عليه وقال: ﴿الحمدُ للهِ الذي وهَبَ لي عَلَى الكِبَرِ إسماعيل﴾ [إبراهيم: ٣٩] فاستفاد الحاضرون من ذلك عدة فوائد: منها أنه قد ولد له على الكبر السن ولد ذكر بعدما كان يسأل الله عز وجل في ذلك.

ومنها أنه سمّاه يوم مولده كما سمي رسول الله ﷺ ولده إبراهيم قبل السابع، ومنها اقتداؤه بالخليل في تسميته أول ولد له بإسماعيل.

■ موسى بن هارون بن عبد الله أبو عمران المعروف والده بالحمال، ولد سنة أربع عشرة ومائتين وسمع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وكان إمام أهل عصره في حفظ الحديث ومعرفة الرجال والإتقان، وكان ثقة متقناً شديد الورع عظيم الهيبة.

قال عبد الغني بن سعيد الحافظ المصري: كان أحسن الناس كلاماً على الحديث علي بن المديني ثم موسى بن هارون ثم الدارقطني.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين

فيها كانت المفاداة بين المسلمين والروم، وكان من جملة من استنقذ من أيدي الروم من نساء ورجال نحو من ثلاثة آلاف نسمة ولله الحمد.

وفي المنتصف من صفر منها كانت وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان وما وراء النهر، وقد كان عاقلا عادلا حسن السيرة في رعيته حليماً كريماً، جواداً ممدّحاً وهو الذي كان يحسن إلى محمد بن نصر المروزي ويعظمه ويكرمه ويحترمه ويقوم له في مجلس ملكه، وقد ولّي بعده ولده أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني وبعث إليه الخليفة المكتفي بالله بالولاية والتشريف. وقد تذاكر الناس يوماً عند إسماعيل بن أحمد هذا الفخر بالأنساب فقال: ينبغي أن يكون الإنسان عصامياً لا عظامياً- أي ينبغي أن يفتخر بنفسه لا بنسبه وبلده وجده -كما قال بعضهم:

ويجدي سموتُ لا بجدودي

وقال آخر:

حسبي فخاراً وشيمتي أدبي ... ولستُ من هاشم ولا العربِ
إنّ الفتى من يقولُ ها أنا ذا ... وليس الفتى من يقولُ كان أبي

وفي ذي القعدة من هذه السنة كانت.

وفاة الخليفة المكتفي بالله أبي محمد علي بن المعتضد وهذه ترجمته وذكر وفاته

■ (المكتفي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكّل)

أبو محمد علي ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله، بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدي بن المنصور رحمهم الله، وقد ذكرنا أنه ليس من الخلفاء العباسيين من اسمه علي سواه بعد علي بن أبي طالب، ولم يكن من الخلفاء من يكنى بأبي محمد سوى الحسن بن علي بن أبي طالب وموسى الهادي وهو المستضيء بأمر الله، وكان مولده في رجب سنة أربع وستين ومائتين، وبويع له بالخلافة بعد أبيه - في حياته - في يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين ومائتين، وعمره نحو من خمس وعشرين سنة، وكان ربعة من الرجال جميلا، رقيق اللون حسن الشعر، وافر اللحية عريضها. ولما مات أبوه المعتضد وباشر هو منصب الخلافة دخل عليه بعض الشعراء فأنشده:

أجل الرزايا أن يموت إمام ... وأسنى العطايا أن يقوم إمام
فأسقى الذي مات الغمام وجاده ... ودامت تحيات له وسلام
وأبقى الذي قام الإله وزاده ... مواهب لا يفنى لهن دوام
وتمت له الآمال واتصلت بها ... فوائد موصول بهن تمام
هو المكتفي بالله يكفيه كلما ... عناه بركن منه ليس يرام

فأمر له بجائزة سنية.

وقد كان يقول الشعر، فمن ذلك قوله:

من لي بأن يعلم ما ألقى ... فتعرف منيّ الصبوةَ والعشقا
ما زال لي عبداً وحبي له ... صيرني عبداً له رقا
العتق من شأني ولكنني ... من حبه لا أملك العتقا

وكان نقش خاتمه: علي متوكّل على ربه. وكان له من الولد محمد وجعفر وعبد الصمد وموسى وعبد الله وهارون والفضل وعيسى والعباس

وعبد الملك.

وفي أيامه فتحت أنطاكية واستنقذت من أيدي الروم وكان فيها من أسارى المسلمين بشر كثير وجم غفير، وأخذ المسلمون من غنائمهم شيئاً كثيراً جداً كما تقدم ولما حضرته الوفاة سأل عن أخيه أبي الفضل جعفر بن المعتضد وقد صح عنده أنه بالغ، فأحضره في يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من هذه السنة وأحضر القضاة وأشهدهم على نفسه بأنه قد جعل الخلافة إليه من بعده، ولقبه بالمقتدر بالله.

وتوفي المكتفي بالله بعد ثلاثة أيام رحمه الله وقيل في آخر يوم السبت بعد المغرب، وقيل بين الظهر والعصر وقيل بعد المغرب ليلة الأحد، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، ودفن في دار محمد بن عبد الله بن طاهر، عن ثنتين وقيل: عن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان قد أوصى بصدقة من خالص ماله ستمائة ألف دينار، كان قد جمعها وهو صغير، وكان مرضه بداء الخنازير رحمه الله تعالى.

خلافة المقتدر بالله أمير المؤمنين أبي الفضل جعفر بن المعتضد

جددت له البيعة بعد موت أخيه وقت السحر لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة خمس وتسعين ومائتين وعمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وعشرون يوماً ولم يل الخلافة أحد قبله أصغر سناً منه، ولما أُجلس في منصب الخلافة صلى أربع ركعات ثم سلم ورفع صوته بالدعاء والاستخارة، ثم بايعه الناس بيعة العامة، وكتب اسمه على الرقوم وغيرها: المقتدر بالله، وكان في بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار، وفي بيت مال العامة ستمائة ألف دينار ونيف، وكانت الجواهر الثمينة في الحواصل من لدن بني أمية وأيام بني العباس، قد تناهى جمعها، فما زال يفرقها في حظاياه وأصحابه حتى أنفدها، وهذا حال الصبيان وسفهاء الولاة وقد استوزر جماعة من الكتاب يكثر تعدادهم، منهم أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، ولاه ثم عزله بغيره، ثم أعاده ثم عزله بغيره، ثم أعاده، ثم عزله، ثم قتله، وقد تقصّى ذكرهم الشيخ أبو الفرج بن الجوزي.

وكان له من الخدم والحشمة التامة والحجاب شيء كثير جداً وكان كريماً جداً وفيه عبادة - مع هذا كله وكثرة صلاة وصيام وتطوّع.

وفي يوم عرفة في أول ولايته فرق من الأغنام والأبقار ثلاثين ألف رأس، ومن الإبل ألفي بعير، ورد الرسوم والأرزاق، والكلف إلى ما كانت عليه في الأوائل العباسيين، وأطلق أهل الحبوس الذين يجوز إطلاقهم، فوكل أمر ذلك إلى القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، وكان قد بنيت أبنية في الرحبة دخلها في كل شهر ألف دينار، فأمر بهدمها ليوسع على المسلمين الطرقات، وسيأتي ذكر شيء من أيامه ترجمته فيما بعد.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ **إبراهيم بن محمد بن نوح بن عبد الله أبو إسحاق المزكي** الحافظ الزاهد، إمام أهل عصره بنيسابور، في معرفة الحديث والرجال والعلل، وقد سمع خلقاً من المشايخ الكبار ودخل على الإمام أحمد وذاكره وكان مجلسه مهيباً، ويقال إنه كان مجاب الدعوة، وكان لا يملك إلا داره التي يسكنها وحانوتاً يستغله كل شهر سبعة عشر درهماً ينفقها على نفسه وعياله، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، وكان يطبخ له الجزر بالخل فيأتدم به طول الشتاء، وقد قال أبو علي الحسين بن علي الحافظ النيسابوري: لم تر عيناي مثله.

■ **أبو الحسين النوري أحد أئمة الصوفية:** اسمه أحمد بن محمد، ويقال محمد بن محمد والأول أصح أبو الحسين النوري ويعرف بابن البغوي، أصله من خراسان وحدث عن سري السقطي ثم صار هو من أكابر أئمة القوم.

قال أبو أحمد المغازلي: ما رأيت أحداً قط أعبد من أبي الحسين النوري، قيل له: ولا الجنيد؟ قال: ولا الجنيد.

وقال غيره: صام عشرين سنة لا يعلم به أحد لا من أهله ولا من غيرهم وكانت وفاته في مسجد وهو مقنع فلم يعلم به أحد إلا بعد أربعة أيام.

■ **إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان الساماني:** أحد ملوك خراسان للخلفاء، وهو الذي قتل عمرو بن الليث الصفار الخارجي، وكتب بذلك إلى الخليفة المعتضد فولاه خراسان ثم ولاه المكتفي الري وما وراء النهر وبلاد الترك، وقد غزا بلادهم فأوقع بهم بأساً شديداً، وبنى الربط في الطرقات يسع الرباط منها ألف فارس، وأوقف عليهم أوقافاً جزيلة، وقد أهدى إليه طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث هدايا جزيلة منها ثلاث عشرة جوهرة زنة كل جوهرة منها ما بين السبع مثاقيل إلى العشرة، وبعضها أحمر وبعضها أزرق قيمتها مائة ألف دينار، فبعث بها إلى الخليفة المعتضد وشفع في طاهر فشفعه فيه، ولما مات إسماعيل بن أحمد وبلغ المكتفي موته تمثل بقول أبي نواس:

لنْ يخلفَ الدهرُ مثلهمْ أبداً ... هيهاتَ هيهاتَ شأنهم عجبُ

■ **المَعْمَري الحافظ:** صاحب «عمل يوم وليلة»، وهو الحسن بن علي بن شبيب أبو علي المعمري الحافظ، رحل وسمع من الشيوخ وأدرك خلقاً منهم علي بن المديني ويحيى بن معين، وعنه ابن صاعد والنجاد والخلدي، وكان من بحور العلم وحفاظ الحديث، صدوقاً ثبتاً، وقد كان يشبك أسنانه بالذهب من الكبر لأنه جاوز الثمانين، وكان يكنى أولا بأبي القاسم، ثم بأبي علي، وقد ولي القضاء للبرتي على القصر وأعمالها وإنما قيل له المعمري بأمه أم الحسن بنت أبي سفيان صاحب معمر بن راشد وقد صنف المعمري كتاباً جيداً في عمل يوم وليلة، واسمه الحسن بن علي بن شبيب أبو علي المعمري، وكانت وفاته ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم من هذه السنة.

■ **عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب** واسم أبي شعيب عبد الله بن مسلم أبو شعيب الأموي الحراني المؤدب المحدث ابن المحدث. ولد سنة ست ومائتين سمع أباه وجده وعفان بن مسلم وأبا خيثمة، كان صدوقاً ثقة مأموناً. توفي في ذي الحجة من هذه السنة.

■ **علي بن أحمد المكتفي بالله بن المعتضد بالله** تقدم ذكر ترجمته قريباً من هذه السنة.

■ **أبو جعفر الترمذي محمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذي** الفقيه الشافعي، كان من أهل العلم والزهد، قال الدارقطني: هو ثقة كان مأموناً ناسكاً.

وقال القاضي أحمد بن كامل: لم يكن لأصحاب الشافعي بالعراق

أراس منه، ولا أشد ورعاً: وكان من التقلُّل في المطعم في حالة عظيمة فقراً وورعاً وصبراً، وكان ينفق في كل شهر أربعة دراهم، وكان لا يسأل أحداً شيئاً، وكان قد اختلط في آخر عمره توفي في المحرم من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين

في ربيع الأول منها اجتمع جماعة من القواد والجند والأمراء على خلع المقتدر بالله وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة عوضاً عنه، فأجابهم على أنه لا يسفك بسببه دم، وكان المقتدر قد خرج للعب بالصوالجة فقصد إليه الحسين بن حمدان يريد أن يفتك به، فلما سمع المقتدر الصيحة بادر إلى دار الخلافة فأغلقها دون الجيش، واجتمع الأمراء والأعيان والقضاة في دار الخلافة فبايعوا عمه عبد الله بن المعتز وخوطب بالخلافة، ولقب بالمرتضي بالله.

وقال الصولي: إنما لقبوه المنتصف بالله، واستوزر أبا عبد الله محمد بن داود وبعث إلى المقتدر يأمره بالتحول من دار الخلافة إلى دار ابن طاهر لينتقل هو إليها، فأجيب بالسمع والطاعة، فركب الحسين بن حمدان من الغد إلى دار الخلافة ليتسلمها فقاتله الخدم ومن فيها، ولم يسلموها إليه، وهزموه فلم يقدر على تخليص أهله وبعض ماله إلا بالجهد الجهيد ، فلما قدر عليهم ارتحل من فوره إلى الموصل وتفرق نظام ابن المعتز وجماعته، فأراد ابن المعتز أن يتحول إلى سامرا لينزلها فلم يتبعه أحد من الأمراء، فدخل إلى دار ابن الجصاص فاستجار به، ووقع النهب في البلد واختبط الناس وبعث المقتدر إلى أصحاب ابن المعتز فقبض عليهم وقتل أكثرهم وأعاد ابن الفرات إلى الوزارة فجدد البيعة للمقتدر وأرسل إلى دار ابن الجصاص فكبسها وأحضر ابن المعتز وابن الجصاص فصادر ابن الجصاص بمال جزيل جداً، يقال: إنه وزن ستة عشر ألف ألف درهم، ثم أطلقه واعتقل ابن المعتز، فلما دخل في ربيع الآخر ليلتان ظهر للناس موته وأخرجت جثته فسلمت إلى أهله فدفن، وصفح المقتدر عن بقية من سعى في هذه الفتنة حتى لا تفسد نيات الناس.

قال ابن الجوزي: ولا يعرف خليفة خلع ثم أعيد سوى الأمين والمقتدر.

وفي يوم السبت لأربع بقين من ربيع الأول سقط ببغداد ثلج عظيم حتى اجتمع على الأسطحة منه نحو من أربعة أصابع وهذا يستغرب في بغداد جداً، ولم تخرج السنة حتى خرج الناس يستسقون لأجل تأخر المطر عن إبانه.

وفي شعبان منها خلع على مؤنس الخادم وأمر بالمسير إلى طرسوس لغزو الروم.

وفي هذه السنة أمر المقتدر بأن لا يستخدم أحد من اليهود والنصارى في الدواوين، وألزموا بيوتهم، وأمروا بلبس العسلي وجعل الرقاع بين أظهرهم ليعرفوا بها وألزموا بالذل حيث كانوا.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي، ورجع كثير من الناس من قلة الماء بالطريق فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ أحمد بن محمد بن زكريا بن أبي عتاب أبو بكر البغدادي الحافظ، ويعرف بأخي ميمون.

روى عن نصر بن علي الجهضمي وغيره، وروى عنه الطبراني، وكان يمتنع من أن يحدث وإنما يسمع منه في المذاكرات. توفي في شوال منها.

أبو بكر الأثرم:

■ أحمد بن محمد بن هانيء أبو بكر الطائي الأثرم تلميذ الإمام أحمد. وقد سمع عفان وأبا الوليد والقعنبي وأبا نعيم وخلقاً كثيراً، وكان حاذقاً صادقاً قوي الذاكرة، كان ابن معين يقول عنه: كان أحد أبويه جنيّاً لسرعة فهمه وحفظه وحذقه، وله كتب مصنفة في العلل والناسخ والمنسوخ، وكان من بحور العلم.

■ خلف بن عمرو بن عبد الرحمن بن عيسى: أبو محمد العكبري، سمع الحديث، وكان ظريفاً وكان له ثلاثون خاتماً وثلاثون عكازاً، يلبس في كل يوم من الشهر خاتماً ويأخذ في يده عكازاً، ثم يستأنف ذلك في الشهر الثاني، وكان له سوط معلق في منزله، فإذا سئل عن ذلك يقول: ليرهب العيال منه.

ابن المعتز الشاعر الذي بويع بالخلافة

■ عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون، يكنى أبا العباس الشاعر الهاشمي العباسي، الفصيح البليغ المطبق، وقريش قادة الناس في الخير ودفع الشر.

وقد سمع المبرد وثعلباً وقد روي عنه من الحكم والآداب شيء كثير، فمن ذلك قوله: أنفاس الحي خطاه. أهل الدنيا ركب يسار بهم وهم نيام. ربما أورد الطمع ولم يصدر. ربما شرق شارب الماء قبل ريه. من تجاوز الكفاف لم يغنه الإكثار. كلما عظم قدر المنافس فيه عظمت الفجيعة به. من ارتحله الحرص أضناه الطلب. وروي أنضاه الطلب أي أضعفه، والأول معناه أمرضه. الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في حظه. أشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً. من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة. يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك. الفرصة سريعة الفوت بعيدة العود. الأسرار إذا كثُر خزانها ازدادت ضياعاً. العزل يضحك من تيه الولاية. الجزع أتعب من الصبر، لا تشن وجه العفو بالتقريع، تركة الميت عز للورثة وذل له. إلى غير ذلك من كلامه وحكمه.

ومن شعره في الحكم مما يناسب هذا المعنى الأخير قوله:

سابق إلى مالك ورّاثه	ما المرء في الدنيا بلبّاث
كم صامت يخنق أكياسه	قد صاح في ميزان ميراث

وله أيضاً:

يا ذا الغنى والسطوة القاهره	والدولة الناهية الآمرة
ويا شياطين بني آدم	ويا عبيد الشهوة الفاجرة
انتظروا الدنيا فقد أقربت	وعن قليل تلد الآخرة

وله أيضاً:

ابك يا نفس وهاتي	توبة قبل الممات
قبل أن يفجعنا الدهر	ببين وشتات
لا تخونيني إذا مت	وقامت بي نعاتي

إنما الـوافي بعهدي من وفى بعد وفاتي

قال الصولي: نظر ابن المعتز في حياة أبيه الخليفة إلى جارية فأعجبته فمرض من حبّها، فدخل أبوه عليه عائداً فقال له: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

أيها العاذلون لا تعذلوني وانظروا حسن وجهها تعذروني

وانظروا هل ترون أحسن منها إن رأيتم شبيهها فاعذلوني

قال: ففحص أبوه عن القضية واستعلم خبر الجارية ثم بعث إلى سيدها فاشتراها منه بسبعة آلاف دينار، وبعثها إليه.

وقد ذكرنا أن في ربيع الأول من هذه السنة اجتمع القوّاد والأعيان والقضاة على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز هذا ولقب بالمرتضى أو المنتصف بالله، فما مكث بالخلافة إلا يوماً أو بعض يوم، ثم غالب المقتدر وقتل عامة من خرج عليه واعتقله في دار السلطان ووكل به يونس الخادم فقتل في أوائل ربيع الآخر لليلتين خلتا منه، ويقال إنه أنشد في آخر يوم من حياته:

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك خانتك من بعد طول الأمن دنياك

مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني إياك طوباك

إن كان قصدك شرقاً فالسلام على شاطي الصراة ابلغي إن كان مسراك

من موثق بالمنايا لا فكاك له يبكي الدماء على إلف له باكي

فرب آمنة جاءت منيتها ورب مفلت من بين أشراك

أظنه آخر الأيام من عمري وأوشك اليوم أن يبكي لي الباكي

ولما قدم ليقتل أنشأ يقول:

فقل للشامتين بنا رويداً أمامكم المصائب والخطوب

هو الدهر الذي لا بد من أن يكون إليكم منه ذنوب

ثم كان ظهور قتله لليلتين خلتا من ربيع الآخر من هذه السنة. وقد ذكر له القاضي ابن خلكان مصنفات كثيرة، منها طبقات الشعراء وكتاب أشعار الملوك، وكتاب الآداب وكتاب البديع، وكتاب في الغناء وغير ذلك.

وذكر أن طائفة من الأمراء خلعوا المقتدر وبايعوه بالخلافة يوماً وليلة، ثم تمزق شمله واختفى في بيت ابن الجصاص الجوهري ثم ظهر عليه فقتل وصودر ابن الجصاص بألفي ألف دينار، وبقي معه سبع مئة ألف دينار..

وقيل: كان أسمر اللون مسنون الوجه يخضب بالسواد، عاش خمسين سنة وذكر شيئاً من كلامه وأشعاره رحمه الله.

■ **محمد بن الحسين بن حبيب:** أبو حصين الوادعي القاضي، صاحب المسند، من أهل الكوفة، قدم بغداد وحدث بها عن أحمد بن يونس اليربوعي ويحيى بن عبد الحميد، وجندل بن والق، وعنه ابن صاعد والنجاد والمحاملي، قال الدارقطني: كان ثقة، توفي بالكوفة في هذه السنة.

■ **محمد بن داود بن الجراح أبو عبد الله الكاتب عم الوزير علي بن عيسى،** كان من أعلم الناس بالأخبار وأيام الخلفاء، له مصنفات في ذلك روى عن عمر بن شبة وغيره، كانت وفاته في ربيع الأول منها عن ثلاث وخمسين سنة.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين

فيها غزا القاسم بن سيما الصائفة، وفادى يونس الخادم الأسارى الذين بأيدي الروم.

وحكى ابن الجوزي عن ثابت بن سنان أنه رأى في أيام المقتدر ببغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين، وإنما كفّاها ملصقان بكتفيها، لكن لا تعمل بهما شيئاً، وإنما كانت تعمل برجليها ما تعمله النساء بأيديهن من الغزل والفتل ومشط الرأس وغير ذلك.

وفيها تأخرت الأمطار عن بغداد وارتفعت الأسعار بها، وجاءت الأخبار بأن مكة شرفها الله جاءها سيل عظيم بحيث إنّ أركان البيت غرقت من السيول، وإنّ زمزم فاضت، ولم يُرَ ذلك قبل هذه السنة.

وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن داود بن علي:** أبو بكر الفقيه ابن الفقيه الظاهري، كان عالماً بارعاً أديباً شاعراً فقيهاً ماهراً، وهو مصنف كتاب الزهرة اشتغل على أبيه وتبعه في مذهبه وما كان يسلكه ويختاره من الطريق ويرتضيه، وكان أبوه يحبه ويقربه ويدنيه.

قال رويم بن محمد: كنا يوماً عند داود إذ دخل ابنه محمد باكياً فقال: ما لك؟ فقال: إن الصبيان يلقبونني عصفور الشوك. فضحك أبوه فاشتد غضب ولده وقال: أنت أضر عليّ منهم، فضمه أبوه إليه وقال: لا إله إلا الله ما الألقاب إلا من السماء ما أنت يا بني إلا عصفور الشوك.

ولما توفي أبوه أجلس ابنه محمد هذا في مكانه في الحلقة فاستصغره الناس عن ذلك، فسأله سائل يوماً عن حد السكر فقال: إذ عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم، فاستحسن ذلك منه وعظم في أعين الناس.

قال ابن الجوزي في المنتظم [٩٩/١٣]: وقد ابتلي بحب صبي اسمه محمد بن جامع ويقال محمد بن زخرف فاستعمل العفاف والدين في حبه، ولم يزل ذلك دأبه فيه حتى كان سبب وفاته في ذلك.

قلت: فدخل في الحديث المروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً عنه: من عشق فكتم فعف فمات مات شهيداً [تاريخ بغداد: ١٥٦/٥، ٢٦٢، ٥٠/٦، ٥١].

وقد قيل عنه إنه كان يبيح العشق بشرط العفاف.

وحكى هو عن نفسه أنه لم يزل يتعشق منذ كان في الكتّاب وأنه صنف كتاب الزهرة في ذلك من صغره، وربما وقف أبوه داود على بعض ذلك، وكان يتناظر هو وأبو العباس بن سريج كثيراً بحضرة القاضي أبي عمر محمد بن يوسف فيعجب الناس من مناظرتهما وحسنها، وقد قال له ابن سريج يوماً في مناظرة: أنت بكتاب الزهرة أشهر منك بهذا. فقال له: تعيّرني بكتاب الزهرة وأنت لا تحسن تستتمّ قراءته، وهو كتاب جمعناه هزلا فاجمع أنت مثله جداً.

وقال القاضي أبو عمر محمد بن يوسف: كنت يوماً أنا وأبو بكر بن داود راكبين فإذا جارية تغني بشيء من شعره:

أشكو عليل فؤادٍ أنت متلفه شكوى عليل إلى إلف يعلله

سُقمي تزيد على الأيام كثرته وأنت في عظم ما ألقى تنلله

اللّه حرم قتلي في الهوى أسفاً ... وأنت يا قاتلي ظلماً تحلله

فقال أبو بكر محمد بن داود كيف السبيل إلى استرجاع هذا؟ فقلت: هيهات سارت به الركبان.

كانت وفاة محمد بن داود رحمه اللّه في رمضان من هذه السنة، وجلس ابن سريج لعزاه وقال: ما آسى إلا على التراب الذي أكل لسان محمد بن داود رحمه اللّه تعالى.

■ **محمد بن عثمان بن أبي شيبه أبو جعفر**، حدث عن يحيى بن معين وعلي بن المديني، وخلق، وعنه ابن صاعد والخلدي والباغندي وغيرهم، وله كتاب في التاريخ وغيره من المصنفات، وقد وثقه صالح بن محمد جزرة وغيره، وكذبه عبد اللّه ابن الإمام أحمد فقال: هو كذاب بيّن الأمر، وتعجب ممن يرويه عنه. وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة.

■ **محمد بن طاهر بن عبد اللّه بن الحسين بن مصعب** من بيت الإمارة والحشمة، باشر نيابة العراق مدة ثم خراسان ثم ظفر به يعقوب بن الليث في سنة ثمان وخمسين فأسره وبقي معه يطوف به في الآفاق أربع سنين، ثم نجا في بعض الوقعات بنفسه، ولم يزل مقيماً ببغداد إلى أن توفي في هذه السنة.

■ **موسى بن إسحاق بن موسى بن عبد اللّه أبو بكر الأنصاري** الخطمي، مولده سنة عشر ومائتين، سمع أباه وأحمد بن حنبل وعلي بن الجعد وغيرهم، وحدث عنه الناس وهو شاب وقرؤوا عليه القرآن، وكان ينتحل مذهب الشافعي، وولي قضاء الرّي والأهواز، وكان ثقة فاضلا نبيلا عفيفاً فصيحاً كثير الحديث. توفي في المحرم من هذه السنة.

■ **يوسف بن يعقوب**: بن إسماعيل بن حماد بن زيد والد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف قاتل الحلاج، وكان يوسف هذا من أكابر القضاة وأعيان العلماء، ولد سنة ثمان ومائتين، وسمع سليمان بن حرب وعمرو بن مرزوق وهدبة ومسدداً غيرهم، وكان ثقة وقد ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد، وكان ثقة نزهاً عفيفاً شديد الحرمة، جاءه يوماً بعض خدم الخليفة المعتضد فرفع في المجلس فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالا بجاهه عنده، فنهره القاضي وقال: ائتوني بدلال النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة، وجاء حاجب القاضي فأخذه بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه فقال له: ما لك؟ فأخبره بالخبر، وما أراد القاضي من بيعه، فقال: واللّه لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبداً، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الحكم فإنه عمود السلطان وقوام الأديان، كانت وفاته في رمضان من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين

فيها قدم القاسم بن سيما من بلاد الروم فدخل بغداد ومعه الأسارى والعلوج بأيديهم أعلام عليها صلبان من ذهب، وخلق من الأسارى.

وفيها قدمت هدايا نائب خراسان أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني، من ذلك مائة وعشرون غلاماً بمراكبهم وأسلحتهم وما يحتاجون إليه، وخمسون بازيّاً وخمسون جملا تحمل من مرتفع الثياب، وخمسون رطلا من مسك وغير ذلك.

وفيها فلج القاضي عبد اللّه بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، فقلّد مكانه على الجانب الشرقي والكرخ ابنه محمد.

وفي شعبان منها أخذ رجلان يقال لأحدهما: أبو كثيرة والآخر يعرف بالشمري. فذكرا أنهما من أصحاب رجل يقال له محمد بن بشر، وأنه يدعي الربوبية.

وفيها وردت الأخبار بأن الروم قصدت اللاذقية.

وفيها وردت الأخبار بأن ريحاً صفراء هبت بحديثة الموصل فمات من حرها خلق كثير.

وفيها حج بالناس الفضل الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن الراوندي الزنديق أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين المعروف بابن الراوندي** أحد مشاهير الزنادقة الملحدين عليه اللعنة من رب العالمين، كان أبوه يهودياً فأظهر الإسلام، ويقال إنه حرّف في التوراة كما عادى ابنه القرآن بالقرآن والحد فيه، وصنف كتاباً في الرد على القرآن سماه الدامغ. وكتاباً في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمرد. وله كتاب التاج في معنى ذلك، وله كتاب الفريد وكتاب إمامة المفضول.

وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه، وقد أجاد في ذلك. وكذلك ولده أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي.

قال الشيخ أبو علي الجبائي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء.

قال: وقد وضع كتاباً في قدم العالم ونفي الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد، ووضع كتاباً في الرد على محمد رسول اللّه ﷺ في سبعة عشر موضعاً من كتابه، ونسبه إلى الكذب- يعني النبي ﷺ - وطعن على القرآن، ووضع كتاباً لليهود والنصارى وفضل دينهم على المسلمين والإسلام، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام. نقله ابن الجوزي عنه.

وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه [١٣/١١٢ - ١١٧] طرفاً من كلامه وزندقته وطعنه على الآيات والشريعة. ورد عليه في ذلك، وهو أقل وأخس وأذلّ من أن يلتفت إليه وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وخذلانه وتمويهه وترويجه وطغيانه.

وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة، يخرجونها في قوالب مسخره وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدعي الإسلام وهو منافق، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال اللّه تعالى فيهم: ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّه وآيَاتِهِ ورَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥]..

وقد كان أبو عيسى الوراق مصاحباً لابن الراوندي هذا قبحهما اللّه تعالى فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى فأودع السجن حتى مات. وأما ابن الراوندي فهرب ولجأ إلى ابن لاوي اليهودي، وصنف له في مدة مقامه عنده، كتابه الذي سماهالدامغ للقرآن فلم يلبث بعده إلا أياماً يسيره حتى مات لعنه اللّه. ويقال: إنه أخذ وصلب.

قال أبو الوفاء بن عقيل: ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستاً وثلاثين

سنة مع ما انتهى إليه من التوغل في المخازي في هذا العمر القصير لعنه الله وقبحه ولا رحم عظامه.

وقد ذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات [٩٤/١] ودلس عليه ولم يجرّحه بشيء، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً، على عادته في العلماء والشعراء، فالشعراء يطيل تراجمهم، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة، والزنادقة يترك ذكر زندقتهم. وأرخ وفاته في سنة خمس وأربعين ومائتين، وقد وهم وهماً فاحشاً، والصحيح أنه توفي في هذه السنة كما أرخه ابن الجوزي وغيره.

■ **الجنيد شيخ الصوفية، رحمه الله**، الجنيد بن محمد بن الجنيد: أبو القاسم الخزاز، ويقال القواريري، أصله من نهاوند، ولد ببغداد ونشأ بها. وسمع الحديث من الحسن بن عرفة. وتفقه بأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، وكان يفتي بحضرته وعمره عشرون سنة، وقد ذكرناه في «طبقات الشافعية»، واشتهر بصحبة الحارث بن أسد المحاسبي، وخاله سري السقطي، ولازم التعبد، ففتح الله عليه بسبب ذلك علوماً كثيرة. وتكلم على طريقة الصوفية. وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة. ومكث أربعين سنة، لا يأوي إلى فراش، ففتح عليه من العلم النافع والعمل الصالح بأمور لم تحصل لغيره في زمانه، وكان مع ذلك يعرف سائر فنون العلم وإذا أخذ فيها لم يكن له فيها وقفة ولا كبوة، حتى كان يقول في المسألة الواحدة وجوهاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال، وكذلك في التصوف وغيره.

ولما حضرته الوفاة جعل ويتلو القرآن، فقيل له: لو رفقت بنفسك؟ فقال: لا أحد أحوج إلى ذلك مني الآن، وهذا أوان طيّ صحيفتي.

قال القاضي ابن خلكان: أخذ الفقه عن أبي ثور صاحب الشافعي ويقال: كان يتفقه على مذهب سفيان الثوري، وكان ابن سريج يصحبه ويلازمه وربما استفاد منه أشياء في الفقه لم تخطر له ببال، ويقال: إنه سأله مرة عن مسألة فأجابه فيها بجوابات كثيرة، فقال: يا أبا القاسم لم أكن أعرف فيها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت، فأعدها علي، فأعادها بجوابات أخرى كثيرة فقال: والله ما سمعت هذا قبل اليوم، فأعده. فأعاده بجوابات أخرى غير ذلك، فقال له: لم أسمع بمثل هذا فأمله عليّ حتى أكتبه. فقال الجنيد: لئن كنت أجريه فأنا أمليه، أي إن الله هو الذي يجري ذلك على قلبي وينطق به لساني، وليس هذا مستفاد من كتب ولا من تعلُّم، وإنما هذا من فضل الله عز وجل يلهمنيه ويجريه على لساني. فقال: فمن أين استفدت هذا العلم؟ قال: من جلوسي بين يدي الله أربعين سنة. والصحيح أنه كان على مذهب سفيان الثوري وطريقه والله أعلم.

قال: وسئل الجنيد عن العارف؟ فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت.

وكان يقول: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في مذهبنا وطريقتنا.

ورأى بعضهم معه مسبحة فقال له: أنت مع شرفك تتخذ مسبحة؟ فقال: طريق وصلت به إلى الله لا أفارقه.

وقال له خاله سري السقطي: تكلم على الناس، فلم ير نفسه لذلك موضعاً، فرأى في المنام رسول الله ﷺ وهو يقول له: تكلم على الناس فغدا على خاله فقال له: لم تصدقنا حتى قيل لك. قال: فتكلم على الناس، فجاءه يوماً شاب نصراني في صورة مسلم، فقال له: يا أبا القاسم ما معنى قول النبي ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»؟ [ت (٣١٢٧)] قال: فأطرقت ثم رفعت رأسي إليه فقلت له: أسلم فقد آن وقت إسلامك: قال فأسلم الغلام.

وقال الجنيد: ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها من جارية تغني بها في غرفة وهي تقول:

إذا قلت: أهدى الهجر لي حلل البلَى ... تقولين: لولا الهجر لم يطب الحبُّ
وإن قلت: هذا القلب أحرقه الجوى ... تقولين نيران الجوى شرف القلب
وإن قلت: ما أذنبت، قلت مجيبةً ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

قال: فصعقت وصحت، فخرج صاحب الدار فقال: يا سيدي مالك؟ قلت: مما سمعت. قال هي هبة مني إليك. فقلت: قد قبلتها وهي حرة لوجه الله. ثم زوجتها لرجل فأولدها ولداً صالحاً حج على قدميه ثلاثين حجة.

■ **سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور أبو عثمان الواعظ**: ولد بالريّ، ونشأ بها، ثم انتقل إلى نيسابور فسكنها إلى أن مات بها، وقد دخل بغداد. ويقال: إنه كان مجاب الدعوة.

قال الخطيب: أخبرنا عبد الكريم بن هوازن قال سمعت أبا عثمان يقول: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال كرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته.

وكان أبو عثمان ينشد:

أساتُ ولم أحسنْ، وجئتكَ هارباً ... وأينَ لعبدٍ عن مواليه مهربُ؟
يؤملُ غفراناً، فإن خابَ ظنهُ ... فما أحدٌ منهُ على الأرضِ أخيبُ

وروى الخطيب عنه أنه سئل: أي أعمالك أرجى عندك؟ فقال: إني لما ترعرعت وأنا بالريّ، وكانوا يريدونني على التزويج فأمتنع، فجاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان قد أحببتك حباً أذهب نومي وقراري، وأنا أسألك بمقلّب القلوب وأتوسل به إليك لَمّا تزوجتني.

فقلت: ألك والد؟ فقالت: نعم فأحضرته فاستدعى بالشهود فتزوجتها فلما خلوت بها إذا هي عوراء عرجاء شوهاء مشوهة الخلق، فقلت: اللّهم لك الحمد على ما قدرته لي وكان أهل بيتي يلومونني على تزويجي بها، فكنت أزيدها براً وإكراماً، وربما احتبستني عندها ومنعتني من الحضور إلى بعض المجالس، وكأني في بعض أوقاتي على الجمر وأنا لا أبدي لها من ذلك شيئاً. فمكثت كذلك خمس عشرة سنة، فما شيء أرجى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي.

■ **سمنون بن حمزة**: ويقال ابن عبد الله، أحد مشايخ الصوفية، كان ورده في كل يوم وليلة خمسمائة ركعة، وسمى نفسه سمنوناً الكذاب لدعواه في قوله:

فليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فامتحني

فابتلي بعسار البول فكان يطوف على المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب. وله كلام متين في المحبة، وقد وسوس في آخر عمره، وله كلام في المحبة مستقيم.

■ **صافي الحُرَمي**: كان من أكابر أمراء الدولة العباسية. ورؤوس الدولة المقتدرية أوصى في مرضه أن ليس له عند غلامه القاسم شيء فلما توفي حمل غلامه القاسم إلى الوزير مائة ألف دينار وسبعمائة وعشرين منطقة من الذهب مكللة، فاستمر غلامه على إمرته ومنزلته.

■ **إسحاق بن حنين بن إسحاق: أبو يعقوب العبادي**- نسبة إلى قبائل

الحيرة- الطيب بن الطيب، له ولأبيه مصنفات كثيرة في هذا الشأن، وكان أبوه يعرف كلام أرسطاطاليس وغيره من حكماء اليونان. توفي في هذه السنة.

■ **الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا: أبو عبد الله الشيعي**، الذي أقام الدعوة للمهدي، وهو عبيد الله بن ميمون الذي يزعم أنه فاطمي وقد زعم غير واحد من أهل التاريخ أنه كان يهودياً صباغاً بسلمية.

والمقصود الآن: أن أبا عبد الله الشيعي هذا دخل بلاد إفريقية وحده فقيراً لا مال له ولا رجال، فلم يزل يعمل الحيلة حتى انتزع الملك من يدي أبي مضر زيادة الله، آخر ملوك بني الأغلب على بلاد إفريقية، واستدعى حينئذ مخدومه المهدي من بلاد المشرق، فقدم فلم يخلص إليه إلا بعد شدائد طوال، وحبس في أثناء الطريق فاستنقذه الشيعي وسلمه المملكة، فندمه أخوه أحمد وقال له: ماذا صنعت؟ وهلا كنت استبددت بالأمر دون هذا؟ فندم وشرع يعمل الحيلة في المهدي، فاستشعر المهدي بذلك فدس إليهما من قتلهما في هذه السنة وكان مقتلهما بمدينة رقادة من بلاد القيروان، من إقليم إفريقية. هذا ملخص ما ذكره ابن خلكان.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين

قال ابن الجوزي [المنتظم: ١٣/١٢٤]: وفيها ظهرت ثلاث كواكب مذنبة. أحدها في رمضان، والثاني في ذي القعدة تبقى أياما ثم تضمحل.

وفيها وقع طاعون بأرض فارس مات بسببه سبعة آلاف إنسان.

وفيها غضب الخليفة على الوزير علي بن محمد بن الفرات وعزله عن الوزارة وأمر بنهب داره فنهبت أقبح نهب، واستوزر أبا علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان، وكان قد التزم لأم ولد المقتدر بمائة ألف دينار، حتى سعت في ولايته.

وفيها وردت هدايا كثيرة من الأقاليم من ديار مصر وخراسان وغيرها، من ذلك خمسمائة ألف دينار من مصر استخرجت من كنز وجد هناك من غير موانع كما يدعيه كثير من جهلة بني آدم حيلة ومكراً وخديعة ليأكلوا أموال الأغشام والجهلة الطغام من قليلي العقول والأحلام، وقد وجد في هذا الكنز ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبراً وعرضه شبر، وذكر أنه من قوم عاد فالله أعلم.

وكان من جملة هدية مصر تيس له ضرع يحلب لبناً. ومن ذلك بساط أرسله ابن أبي الساج في جملة هداياه، طوله سبعون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً، عمل في عشر سنين لا قيمة له، وهدايا فاخرة أرسلها أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني من بلاد خراسان كثيرة جداً.

وحج بالناس فيها الفضل بن عبد الملك العباسي أمير الحجيج من مدة طويلة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن نصر بن إبراهيم أبو عمرو الخفاف**: الحافظ. كان يذاكر بمائة ألف حديث، سمع إسحاق بن راهويه وطبقته، وكان كثير الصيام سرده نيفاً وثلاثين سنة، وكان كثير الصدقة، سأله سائل فأعطاه درهمين فحمد الله فجعلها خمسة فحمد الله فجعلها عشرة، ثم ما زال يزيده ويحمد السائل الله حتى بلغ مائة فقال: جعل الله عليك واقية باقية فقال للسائل: والله لو لزمت الحمد لأزيدنك ولو إلى عشرة آلاف درهم.

■ **البهلول بن إسحاق بن البهلول: بن حسان بن سنان أبو محمد التوخي**: سمع إسماعيل بن أبي أويس وسعيد بن منصور ومصعباً الزبيري وغيرهم، وعنه جماعة آخرهم أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني الحافظ.

وكان ثقة حافظاً ضابطاً بليغاً فصيحاً في خطبه توفي فيها عن خمس وتسعين سنة. رحمه الله آمين.

■ **الحسين بن عبد الله بن أحمد أبو علي الخرقي**: صاحب المختصر، في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. كان خليفة للمروذي. توفي يوم عيد الفطر ودفن عند قبر الإمام أحمد بن حنبل.

■ **محمد بن إسماعيل أبو عبد الله المغربي**: حج على قدميه سبعاً وتسعين حجة، وكان يمشي في الليل المظلم حافياً كما يمشي الرجل في ضوء النهار، وكان المشاة يأتمون به فيرشدهم إلى الطريق، وقال: ما رأيت ظلمة منذ سنين كثيرة، وكانت قدماه مع كثرة مشيه كأنهما قدما عروس مترفة، وله كلام مليح نافع ولما مات أوصى أن يدفن إلى جانب شيخه علي بن رزين، فهما على جبل الطور.

قال أبو نعيم: كان أبو عبد الله المغربي من المعمرين، توفي عن مائة وعشرين سنة، وقبره بجبل طور سيناء عند قبر أستاذه علي بن رزين.

■ **محمد بن أبي بكر بن أبي خيثمة**: أبو عبد الله الحافظ بن الحافظ كان أبوه يستعين به في جمع التاريخ، وكان فهماً حاذقاً حافظاً، توفي في ذي العقدة منها.

■ **محمد بن أحمد بن كيسان النحوي**: أحد حفاظه والمكثرين منه، كان يحفظ طريقة البصريين والكوفيين معاً.

قال ابن مجاهد: كان ابن كيسان أنحى من الشيخين المبرد وثعلب.

■ **محمد بن يحيى: أبو سعيد**، سكن دمشق، روى عن إبراهيم بن سعد الجوهري، وأحمد بن منيع، وابن أبي شيبة وغيرهم، روى عنه أبو بكر النقاش وغيره، وكان محمد بن يحيى هذا يدعى بحامل كفنه، وذلك ما ذكره الخطيب.

قال: بلغني أنه توفي فغسل وكفن وصلّي عليه ودفن، فلما كان الليل جاء نباش ليسرق كفنه ففتح عليه قبره فلما حل عنه كفنه استوى جالساً وفر النباش هارباً من الفزع، ونهض محمد بن يحيى هذا فأخذ كفنه معه وخرج من القبر وقصد منزله فوجد أهله يبكون عليه، فدق عليهم الباب فقالوا: من هذا؟ فقال أنا فلان. فقالوا: يا هذا، لا يحل لك أن تزيدنا حزناً إلى حزننا فقال: افتحوا والله أنا فلان، فعرفوا صوته فلما رأوه فرحوا به فرحاً شديداً وأبدل الله حزنهم سروراً، ثم ذكر لهم ما كان من أمره وأمر النباش. وكأنه قد أصابته سكتة ولم يكن قد مات حقيقة فقدر الله بحوله وقوته أن بعث هذا النباش ففتح عليه قبره، فكان ذلك سبب حياته، فعاش بعد ذلك عدة سنين، ثم كانت وفاته في هذه السنة.

■ **فاطمة القهرمانة**: غضب عليها المقتدر مرة فصادرها، وكان في جملة ما أخذ منها مائتي ألف دينار ثم غرقت في طيارة لها في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاثمائة من الهجرة النبوية

فيها كثر ماء دجلة وتراكمت الأمطار ببغداد، وتناثرت نجوم كثيرة في ليلة الأربعاء لسبع بقين من جمادى الآخرة.

وفيها كثرت ببغداد الأمراض والأسقام وكلبت الكلاب حتى الذئاب

بالبادية. وكانت تقصد الناس والبهائم بالنهار فمن عضته أهلكته.

وفيها انحسر جبل بالدينور يعرف بالتل فخرج من تحته ماء عظيم غرّق عدة من القرى.

وفيها سقطت شرذمة أي قطعة من جبل لبنان إلى البحر.

وفيها حملت بغلة ووضعت مهرة.

وفيها صلب الحسين بن منصور الحلاج وهو حي أربعة أيام، يومين في الجانب الشرقي، ويومين في الجانب الغربي، وذلك في ربيع الأول منها.

وحج بالناس أمير الحجيج المتقدم ذكره في السنين قبلها وهو الفضل بن عبد الملك الهاشمي العباسي أثابه الله وتقبل منه...

وفيها توفي من الأعيان

■ **الأحوص بن الفضل بن غسان بن المفضل بن معاوية بن عمرو بن خالد بن غلاب أبو أمية الغلابي** القاضي بالبصرة وغيرها، روى عن أبيه التاريخ، استتر عنده مرة ابن الفرات فلما أعيد إلى الوزارة ولاه قضاء البصرة والأهواز وواسط. وكان عفيفاً نزهاً، فلما نكب ابن الفرات قبض عليه نائب البصرة فأودعه السجن فلم يزل به حتى مات فيه.

قال ابن الجوزي: ولا نعلم قاضياً مات في السجن سواه.

■ **عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب أبو أحمد الخزاعي**، ولي إمرة بغداد. وحدث عن الزبير بن بكار وعنه الصولي والطبراني، وكان أديباً فاضلا شاعراً، ومن شعره:

حق التنائي بين أهلِ الهوى ... تكاتُبٌ يُسْخِنُ عينَ النوى

وفي التداني لا انقضى عُمرُهُ ... تزاورٌ يَشْفي غليلَ الجوى

وقد اتفق له مرة أن جارية له مرضت فاشتهت ثلجاً. وكانت حظية عنده جدّاً، فلم يوجد الثلج إلا عند رجل فساومه وكيله على رطل منه فامتنع من بيعه إلا كل رطل بالعراقي بخمسة آلاف درهم ـ وذلك لعلم صاحب الثلج بحاجتهم إليه ـ فرجع الوكيل ليشاوره فقال: ويحك! اشتره ولو بما عساه أن يكون فرجع فقال له صاحب الثلج: لا أبيعه إلا بعشرة آلاف. فاشتراه بعشرة آلاف ثم اشتهت الجارية ثلجاً أيضاً ـ وذلك لموافقته لها ـ فرجع فاشترى منه رطلا آخر بعشرة آلاف. ثم آخر بعشرة آلاف وبقي عند صاحب الثلج رطلان فنطفت نفسه إلى أكل رطل منه ليقول: أكلت رطلا من الثلج بعشرة آلاف فأكله وبقي عنده رطل فجاءه الوكيل فامتنع أن يبيعه الرطل إلا بثلاثين ألفا فاشتراه منه فشفيت الجارية وتصدقت بمال جزيل فاستدعى سيدها صاحب الثلج فأعطاه من تلك الصدقة مالا جزيلا فصار من أكثر الناس مالا بعد ذلك، واستخدمه ابن طاهر عنده والله أعلم.

وممن توفي في حدود الثلاثمائة من الهجرة تقريبا

■ **الصنوبري الشاعر**: وهو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرّار أبو بكر الضبي الصنوبري الحلبي.

قال الحافظ ابن عساكر. كان شاعراً محسناً. وقد حكى عن علي بن سليمان الأخفش، ثم ذكر أشياء من لطائف شعره فمن ذلك قوله:

لا النوم أدري به ولا الأرق ... يدري بهذين من به رمق

إن دموعي من طول ما استبقت ... كلت فما تستطيع تستبق

ولي مليك لم تبد صورته ... مذ كان إلا صلت له الحدق

نويت تقبيل نار وجنته ... وخفت أدنو منها فأحترق

وله أيضاً:

شمس غدا يشرب شمساً غدت ... وحدُها في النور من حدِّه

تغيب في فيه ولكنها ... من بعد ذا تطلع في خده

قد روى الحافظ البيهقي عن شيخه الحاكم عن أبي الفضل نصر بن محمد الطوسي قال: أنشدنا أبو بكر الصنوبري فقال:

هدم الشيب ما بناه الشباب ... والغواني ما عُضْن غِضابُ

قَلّب الآبنوسَ عاجاً فللأ ... عين منه وللقلوب انقلاب

وضلال في الراي أن يشنأ البا ... زي على حسنه ويُهوى الغرابُ

وله أيضاً وقد أورده ابن عساكر في ابن له فطم فجعل يبكي على ثديه:

منعوه أحب شيء إليه ... من جميع الورى ومن والديه

منعوه غذاه ولقد كان ... مباحاً له وبين يديه

عجباً منه ذا على صغر السن ... هوى فاهتدى الفراق إليه

■ **إبراهيم بن أحمد بن محمد بن المولد، أبو إسحاق الصوفي الواعظ** الرقي أحد مشايخها، روى الحديث وصحب أبا عبد الله بن الجلاء الدمشقي، والجنيد وغير واحد. وروى عنه تمام بن محمد وأبو عبد الرحمن السلمي. وقد أورد ابن عساكر من شعره قوله:

لك مني على البعاد نصيب ... لم ينله على الدنو حبيب

وعلى الطرف من سواك حجابٌ ... وعلى القلب من هواك رقيب

زين في ناظري هواك وقلبي ... والهوى فيه زائغ ومشوب

كيف يغني قرب الطبيب عليلا ... أنت أسقمته وأنت الطبيب

وقوله:

الصمت آمن من كل نازلة ... من ناله نال أفضل القِسَمِ

ما نزلت بالرجال نازلة ... أعظم ضراً من لفظه بفم

عثرة هذا اللسان مهلكة ... ليست لدينا كعثرة القدم

احفظ لساناً يلقيك في تلف ... فرب قول أذل ذا كرم

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثمائة من الهجرة النبوية

فيها غزا الحسين بن حمدان الصائفة ففتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم وقتل منها أمماً لا يحصون كثرة.

وفيها عزل المقتدر محمد بن عبيد الله عن وزارته وقلدها عليّ بن عيسى وكان من خيار الوزراء وأقصدهم للعدل والإحسان. واتباع الحق.

وفيها كثرت الأمراض الدموية ببغداد في تموز وآب، فمات من ذلك خلق كثير وجمٌ غفير من أهلها.

وفيها وصلت هدايا صاحب عمان وفيها بَبْغة بيضاء وغزال أسود.

وفي شعبان منها ركب المقتدر إلى باب الشماسية على الخيل ثم انحدر إلى داره في دجلة وكانت أول ركبة ركبها جهرة للعامة.

وفيها استأذن الوزير علي بن عيسى الخليفة المقتدر بالله في مكاتبة رأس القرامطة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي فأذن له، فكتب إليه كتاباً طويلا يدعوه فيه إلى السمع والطاعة، ويوبخه على ما يتعاطاه من ترك الصلوات والزكوات وارتكاب المنكرات، وإنكارهم على من يذكر الله ويسبحه ويحمده، واستهزائهم بالدين واسترقاقهم الحرائر، ثم توعده بالحرب وتهدده بالقتل، فلما سار بالكتاب نحوه قتل أبو سعيد قبل أن يصله، قتله بعض خدمه، وعهد بالأمر من بعده لولده سعيد، فغلبه على ذلك أخوه أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد، فلما قرأ كتاب الوزير أجابه بما حاصله: إن هذا الذي تنسب إلينا مما ذكرتم لم يثبت عندكم إلا من طريق من يشنع علينا، وإذا كان الخليفة ينسبنا إلى الكفر بالله فكيف يدعونا إلى السمع والطاعة له؟.

وفيها جيء بالحسين بن منصور الحلاج إلى بغداد وهو مشهور على جمل وغلام له راكب جملا آخر، ينادى عليه: هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، ثم حبس ثم أحضر إلى مجلس الوزير فناظره فإذا هو لا يقرأ القرآن ولا يعرف من الحديث ولا الفقه، ولا اللغة ولا الأخبار ولا الشعر شيئاً، وكان الذي نقم عليه: أنه وجدت له رقاع يدعو فيها الناس إلى الضلالة والجهالة بأنواع من الرموز، يقول في مكاتباته كثيراً: تبارك ذو النور الشعشعاني: فقال له الوزير عليّ بن عيسى: تعلمك الطهور والفروض أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها، وما أحوجك إلى الأدب. ثم أمر به فصلب حياً صلب الاشتهار لا القتل، ثم أنزل فأجلس في دار الخلافة، فجعل يظهر لهم أنه على السنة، وأنه زاهد، حتى اغتر به كثير من الخدام وغيرهم من أهل دار الخلافة من الجهلة والطغام، حتى صاروا يتبركون به ويتمسحون بثيابه وسيأتي ما صار إليه أمره حين قتل بإجماع الفقهاء وأكثر الصوفية.

ووقع في هذه السنة في آخرها ببغداد وباء شديد جداً مات بسببه بشر كثير، ولا سيما بالحربية غلقت عامة دورها.

وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **إبراهيم بن هانئ بن خالد الشافعي:** جمع العلم والزهد، من تلاميذه أبو بكر الإسماعيلي.

■ **جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض أبو بكر الفريابي** قاضي الدينور، طاف البلاد في طلب العلم، وسمع الكثير من المشايخ الكثيرين، مثل قتيبة وأبي كريب وعلي بن المديني وبندار، وعنه أبو الحسين بن المنادى والنجاد وأبو بكر الشافعي وخلق، واستوطن بغداد وكان ثقة حافظاً حجة، وكان عدة من يحضر مجلسه نحواً من ثلاثين ألفاً، والمستملون عنه فوق الثلاثمائة، وأصحاب المحابر نحواً من عشرة آلاف. وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة عن أربع وتسعين سنة، وكان قد حفر لنفسه قبراً قبل وفاته بخمس سنين، وكان يأتيه فيقف عنده. ثم لم يقض له الدفن فيه بل دفن بمكان آخر. رحمه الله حيث كان.

■ **أبو سعيد الجنابي القرمطي:** وهو الحسن بن بهرام قبحه الله وهو رأس القرامطة، والذي يعول عليه في بلاد البحرين وما والاها.

■ **علي بن أحمد الراسبي:** كان يلي بلاد واسط إلى شهرزور وغيرها، وقد خلف من الأموال شيئاً كثيراً، من ذلك ألف ألف دينار، ومن آنية الذهب والفضة نحو مائة ألف دينار، ومن الخز ألف ثوب، ومن الخيل والبغال والجمال ألف رأس.

■ **محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب:** يعرف بالأحنف. كان قد ولي قضاء مدينة المنصور نيابة عن أبيه حين فلج، فمات في جمادى الأولى من هذه السنة. وتوفي أبوه في رجب بينهما ثلاثة وسبعون يوماً، ودفنا في موضع واحد. رحمهما الله تعالى.

أبو بكر

■ **محمد بن هارون البردعي الحافظ.**

و■ ابن ناجية.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثمائة

فيها ورد كتاب مؤنس الخادم بأنه قد أوقع بالروم بأساً شديداً، وإنه قد أسر منهم مائة وخمسين بطريقاً - أي أميراً - ففرح المسلمون بذلك.

وفيها ختن المقتدر خمسة من أولاده فغرم على هذا الختان ستمائة ألف دينار، من ذلك خمسة آلاف نثاراً ومئة ألف درهم. وقد ختن قبلهم ومعهم خلقاً من اليتامى وأحسن إليهم بالمال والكساوى، وهذا صنيع حسن رحمه الله.

وفيها صادر المقتدر أبا علي بن الجصاص بستة عشر ألف ألف دينار غير الآنية والثياب الثمينة.

وفيها أرسل الخليفة المقتدر أولاده إلى المكتب فكان يوماً مشهوداً.

وفيها بنى الوزير المارستان بالحربية من بغداد، وأنفق عليها أموالا جزيلة جداً جزاه الله خيراً.

وحج بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشمي. وقطعت الأعراب وطائفة من القرامطة الطريق على الراجعين من الحجيج، وأخذوا منهم أموالا كثيرة، وقتلوا منهم خلقاً وأسروا أكثر من مائتي امرأة حرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **بشر بن نصر بن منصور: أبو القاسم الفقيه الشافعي،** من أهل مصر ويعرف بغلام عِرْق، وعرق خادم من خدام السلطان كان يلي البريد، فقدم معه بهذا الرجل مصر فأقام بها حتى كانت وفاته فيها رحمه الله.

■ **بدعة جارية عريب المغنية،** بذل لسيدتها فيها مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار من بعض من رغب فيها فعرضت ذلك عليها فكرهت مفارقة سيدتها، فأعتقتها سيدتها في يومها ذلك عليها، وتأخرت وفاتها إلى هذه السنة، وقد تركت من المال العين والأملاك ما لم يملكه رجل.

القاضي

■ **أبو زرعة محمد بن عثمان الشافعي:** قاضي مصر ثم دمشق، وهو أول من حكم بمذهب الشافعي بالشام وأشاعه به، وقد كان أهل الشام على مذهب الأوزاعي من حين مات إلى هذه السنة. وثبت على مذهب الأوزاعي بقايا كثيرون لم يفارقوه، وكان ثقة عدلا من سادات القضاة، وكان أصله من أهل الكتاب من اليهود، ثم أسلم وصار إلى ما صار إليه.

وقد ذكرنا ترجمته في طبقات الشافعية.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة

فيها وقف المقتدر بالله أموالا جزيلة وضياعاً على الحرمين الشريفين، واستدعى بالقضاة والأعيان وأشهدهم على نفسه بما وقفه من ذلك.

وفيها قدم إلى بغداد بجماعة من الأسارى من الأعراب الذين كانوا قد عدوا على الحجيج في تلك السنة، فلم يتمالك العامة أن عدت عليهم فقتلوهم، فأخذ بعضهم فعوقب لكونه افتات على السلطان.

وفيها وقع حريق شديد في سوق النجارين ببغداد فاحترق السوق بكماله.

وفي ذي الحجة من هذه السنة مرض المقتدر ثلاثة عشر يوماً، ولم يمرض في مدّة خلافته مع طولها إلا هذه المرضة.

وحج بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشمي، ولما خاف الوزير على الحجاج من شأن القرامطة كتب إليهم رسالة ليشغلهم بها عن أمر الحج فاتهمه بعض الكتاب بمراسلته القرامطة، فلما انكشف أمره وما قصده حظي بذلك عند الناس جداً.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **النسائي أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن النسائي** صاحب السنن، الإمام في عصره والمقدم على أضرابه وأشكاله وفضلاء دهره، رحل إلى الآفاق، واشتغل بسماع الحديث والاجتماع بالأئمة الحذاق، ومشايخه الذين روى عنهم مشافهة. قد ذكرناهم في كتابنا التكميل ولله الحمد والمنة وترجمناه أيضاً هنالك.

وروى عنه خلق كثير وجم غفير، وقد جمع السنن الكبير، وانتخب منه ما هو أقل حجماً منه بمرات. وقد وقع لنا سماع كل منهما. وقد أبان في تصنيفه عن حفظ وإتقان وصدق وإيمان وتوفيق وعرفان.

قال الحاكم عن الدارقطني: أبو عبد الرحمن النسائي مقدم على كل من يذكر بهذا العلم من أهل عصره، وكان يسمي كتابه الصحيح.

وقال أبو علي الحافظ: إن للنسائي شرطاً في الرجال أشد من شرط مسلم بن الحجاج، وكان من أئمة المسلمين. وقال أيضاً: هو الإمام في الحديث بلا مدافعة.

وقال أبو الحسين محمد بن المظفر الحافظ: سمعت مشايخنا بمصر، يعترفون له بالتقدم والإمامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته على الحج والاجتهاد.

وقال غيره: كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكانت له أربع زوجات وسريتان، وكان كثير الجماع، حسن الوجه مشرق اللون. قالوا: وكان يقسم للإماء كما يقسم للحرائر.

وقال الدارقطني: كان أبو بكر بن الحداد كثير الحديث ولم يحدث عن أحد سوى النسائي وقال: رضيت به حجة بيني وبين الله عز وجل.

وقال ابن يونس: كان النسائي إماماً في الحديث ثقة ثبتاً حافظاً، كان خروجه من مصر في سنة ثنتين وثلاثمائة.

وقال ابن عدي: سمعت منصوراً الفقيه وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي يقولان: أبو عبد الرحمن النسائي إمام من أئمة المسلمين، وكذلك أثنى عليه غير واحد من الأئمة وشهدوا له بالفضل والتقدم في هذا الشأن والحفظ والمعرفة.

قد ولي الحكم بمدينة حمص. سمعته من شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله عليه عن رواية الطبراني في معجمه الأوسط حيث قال: حدثنا أحمد بن شعيب الحاكم بحمص.

وذكروا أنه كان له من النساء أربع نسوة، وكان في غاية الحسن، وجهه كأنه قنديل، وكان يأكل في كل يوم ديكاً ويشرب عليه نقيع الزبيب الحلال، وقد قيل عنه: إنه كان ينسب إليه شيء من التشيع. قالوا: ودخل إلى دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية فقال: أما يكفي معاوية أن يذهب رأساً برأس حتى يروى له فضائل؟ فقاموا إليه فجعلوا يطعنون في حِضْنَيه حتى أُخرج من المسجد الجامع، فسار من عندهم فقصد مكة فمات بها في هذه السنة، وقبره بها.

هكذا حكاه الحاكم عن محمد بن إسحاق الأصبهاني عن مشايخه [تهذيب الكمال: ١/٣٣٩].

وقال الدارقطني: كان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه فخرج إلى الرملة، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه فضربوه في الجامع، فقال: اخرجوني إلى مكة، فأخرجوه وهو عليل، فتوفي بمكة مقتولاً شهيداً.

وقال الحاكم: مع ما رزق النسائي من الفضائل رزق الشهادة في آخر عمره، مات بمكة سنة ثلاث وثلاثمائة.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغني بن نقطة في تقييده [ص: ١٤٣] نقلت من خط أبي عامر محمد بن سعدون العبدري الحافظ: مات أبو عبد الرحمن النسائي بالرملة مدينة فلسطين يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة، ودفن ببيت المقدس.

وحكى ابن خلكان في الوفيات [١/٧٨] أنه توفي في شعبان من هذه السنة، وأنه إنما صنف الخصائص في فضل علي، وأهل البيت، لأنه رأى أهل دمشق حين قدمها في سنة ثنتين وثلاثمائة عندهم نفرة من علي، وسألوه عن معاوية فقال ما قال، فدفعوا في حِضْنَيه فمات.

وهكذا ذكر ابن يونس وأبو جعفر الطحاوي: أنه توفي بفلسطين في صفر من هذه السنة، وكان مولد النسائي في سنة خمس عشرة أو أربع عشرة ومائتين تقريباً عن قوله رحمه الله، فكان عمره ثمانياً وثمانين سنة.

■ **الحسن بن سفيان بن عامر بن عبد العزيز بن النعمان بن عطاء، أبو العباس الشيباني النسوي**، محدث خراسان، والذي كان يضرب إليه آباط الإبل في معرفة الحديث والفقه.

رحل إلى الآفاق وتفقه على أبي ثور، وكان يفتي بمذهبه، وأخذ الأدب عن أصحاب النضر بن شميل، وكانت إليه الرحلة بخراسان. ومن غريب ما اتفق له: أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم لطلب الحديث، فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئاً، ولا يجدون ما يبيعونه للقوت، واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال، وأنفت أنفسهم من ذلك وعزت عليهم وامتنعت كل الامتناع، والحاجة تضطرهم إلى تعاطي ذلك، فاقترعوا فيما بينهم أيهم يقوم بأعباء هذا الأمر، فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان هذا فقام عنهم فاختلى في زاوية المسجد الذي هم فيه فصلى ركعتين أطال فيهما واستغاث بالله عز وجل، وسأله بأسمائه العظام، فما انصرف من الصلاة حتى دخل المسجد شاب حسن الهيئة مليح الوجه فقال: أين الحسن بن سفيان؟ فقلت: أنا. فقال: الأمير

طولون يقرأ عليكم السلام ويعتذر إليكم في تقصيره عنكم، وهذه مائة دينار لكل واحد منكم. فقلنا له: ما الحامل له على هذا؟ فقال: إنه أحب أن يختلي اليوم بنفسه، فبينما هو الآن نائم إذ جاءه فارس في الهواء بيده رمح فدخل عليه منزله ووضع عقب الرمح في خاصرته فوكزه وقال: قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم فأدركهم، قم فأدركهم، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع في المسجد الفلاني. فقال له: من أنت؟ فقال: أنا رضوان خازن الجنة. فاستيقظ الأمير وخاصرته تؤلمه ألماً شديداً، فبعث بالنفقة في الحال إليكم ثم جاء لزيارتهم واشترى ما حول ذلك المجلس ووقفه على الواردين إليه من أهل الحديث، جزاه الله خيراً.

وقد كان الحسن بن سفيان رحمه الله من أئمة هذا الشأن وفرسانه، وحفاظه، وقد اجتمع عنده جماعة من الحفاظ منهم ابن خزيمة وغيره، فقرؤوا عليه شيئا من الحديث وجعلوا يقلبون الأسانيد ليستعلموا ما عنده من العلم فما قلبوا شيئاً من الإسناد إلا ردّهم فيه إلى الصواب وعمره إذا ذاك تسعون سنة، وهو في هذا السن حافظ ضابط لا يشذ عنه شيء من حديثه، ومن فوائده: العبسي كوفي، والعيشي بصري، والعنسي مصري.

■ **رويم بن أحمد**: ويقال ابن محمد بن يزيد بن رويم، أبو الحسن ويقال أبو الحسين ويقال أبو محمد، أحد أئمة الصوفية.

كان عالماً بالقرآن ومعانيه، وكان يتفقه على مذهب داود بن علي الظاهري.

قال بعضهم: كان رويم يكتم حب الدنيا أربعين سنة، ومعناه أنه تصوف أربعين سنة، ثم لما ولي إسماعيل بن إسحاق القضاء ببغداد جعله وكيلا في بابه، فترك التصوف ولبس الخز والقصب والدُّبيقي وركب الخيل وأكل الطيبات وبنى الدور.

■ **زهير بن صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل**: روى عن أبيه وعنه أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد، قال الدارقطني: كان ثقة، مات وهو شاب.

■ **أبو علي الجُبّائي**: شيخ المعتزلة، وهو محمد بن عبد الوهاب أبو علي الجبائي شيخ الطائفة المعتزلة في زمانه، وعليه اشتغل أبو الحسن الأشعري ثم رجع عنه، وللجبائي تفسير حافل مطول، له فيه اختيارات غريبة في التفسير، وقد رد عليه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيه وقال: وكان القرآن نزل بلغة أهل جبّاء. كان مولده في سنة خمس وثلاثين ومائتين، ومات في هذه السنة.

■ **ابن بسام الشاعر أبو الحسن**: علي بن أحمد بن منصور بن نصر بن بسام البسامي الشاعر المطبق للهجاء، فلم يترك أحداً حتى هجاه، حتى أباه وأمه أمامة بنت حمدون النديم.

وقد أورد له ابن خلكان أشياء كثيرة من شعره، فمن ذلك قوله في تخريب المتوكل قبر الحسين بن علي، وأمره بأن يزرع ويُمحى رسمه، وكان شديد التحامل على علي وولده. فلما وقع ما ذكرناه، وكان ذلك في سنة ست وثلاثين ومائتين. قال ابن بسام هذا في ذلك:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة

فيها عزل الخليفة المقتدر بالله وزيره أبا الحسن علي بن عيسى بن الجراح، وذلك لأنه وقعت بينه وبين أم موسى القهرمانة نفرة شديدة، فسأل الوزير أن يعفى من الوزارة فعزل ولم يتعرضوا لشيء من أملاكه.

وطلب أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات فأعيد إلى الوزارة بعد عزله عنها خمس سنين، وخلع عليه الخليفة يوم التروية سبع خلع، وأطلق إليه ثلاثمائة ألف درهم، وعشرة تخوت ثياب، ومن الخيل والبغال والجمال شيء كثير، وأقطع الدار التي بالمُخرِّم فسكنها، وعمل فيها ضيافة تلك الليلة فسقى فيها أربعين ألف رطل من الثلج.

وفي الصيف من هذه السنة اشتهر ببغداد أن حيواناً عجيباً يقال له الزِّبزب يطوف بالليل يأكل الأطفال من الأسرّة ويعدو على النيام فربما قطع يد الرجل وثدي المرأة وهو نائم. فجعل الناس يضربون على أسطحتهم بالنحاس من الهواوين والطسوت وغير ذلك ينفرونه عنهم، حتى كانت بغداد بالليل ترتج من شرقها وغربها، واصطنع الناس لأولادهم مكبّات من السعف وغير ذلك، واغتنمت اللصوص هذه الشوشة فكثرت النقوب وأخذ الأموال، فأمر الخليفة بأن يؤخذ حيوان من كلاب الماء فيصلب على الجسر ليسكن الناس عن ذلك، ففعلوا فسكن الناس ورجعوا إلى أنفسهم، واستراح الناس من ذلك.

وفيها قلد ثابت بن سنان الطبيب المؤرِّخ أمر المارستانات ببغداد في هذه السنة، وكانت خمسة.

وفيها ورد كتاب من خراسان بأنهم وجدوا قبور شهداء قد قتلوا في سنة سبعين من الهجرة مكتوبة أسماؤهم في رقاع مربوطة بآذانهم، وأجسادهم طرية كما هي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن أحمد بن الهيثم بن صالح**: بن عبد الله بن الحصين بن علقمة بن لبيد بن نعيم بن عطارد بن حاجب بن زرارة، أبو الحسن التميمي الملقب فروجة، قدم بغداد وحدث بها، وكان ثقة حافظاً.

■ **يوسف بن الحسين بن علي**: أبو يعقوب الرازي، سمع أحمد بن حنبل وصحب ذا النون المصري، وروى عنه أبو بكر النجاد.

روى الخطيب بسنده إليه أنه بلغه أن ذا النون يحفظ اسم الله الأعظم فقصده ليعلمه إياه قال: فلما وردت عليه استهان بي وكانت لي لحية طويلة ومعي ركوة طويلة. فجاءه رجل يوماً فناظر ذا النون فأسكت ذا النون، فناظرت أنا الرجل فأسكته، فقام ذو النون فجلس بين يدي وهو شيخ وأنا شاب، واعتذر إلي. فخدمته سنة ثم سألته أن يعلّمني الاسم الأعظم، فلم يبعد مني ووعدني، فمكثت عنده بعد ذلك ستة أشهر، ثم أخرج إلي طبقاً عليه مكبة مشدوداً بمنديل، فقال لي: اذهب بهذا إلى صاحبنا فلان. قال: فجعلت أفكر في الطريق ما هذا الذي قد أرسلني به؟ فلما وصلت الجسر فتحته فإذا فيه فأرة فقفزت وذهبت، فاغتظت غيظا شديداً، وقلت: ذو النون يسخر بي، فرجعت إليه وأنا حنق فقال لي: ويحك إنما اختبرتك، فإذا لم تكن أميناً على فارة فأن لا تكون أمينا على الاسم الأعظم بطريق الأولى، اذهب عني فلا أراك بعدها.

وقد رئي أبو الحسين الرازي هذا في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل

الله بك؟ فقال: غفر لي بقولي عند الموت: اللّهم إني نصحت الناس قولا وخنت نفسي فعلا فهب خيانة فعلي لنصح قولي.

■ يموت بن المزرع بن يموت: أبو بكر العبدي من عبد القيس، وهو ثوري، وهو ابن أخت الجاحظ.

قدم بغداد وحدث بها عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي، وكان صاحب أخبار وآداب وملح.

وقد كان غير اسمه بمحمد فلم يغلب عليه إلا الأول، وكان إذا ذهب يعود مريضاً ودقّ الباب فقيل: من؟ فيقول: ابن المزرع. ولا يذكر اسمه لئلا يتفاءل أهل المريض بسماع ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثمائة

فيها قدم رسول ملك الروم في طلب المفاداة والهدنة، وهو شاب حدث السن، ومعه شيخ منهم وعشرون غلاماً، فلما قدم بغداد شاهد أمراً هائلا جداً، وذلك أن الخليفة المقتدر بالله أمر بالاحتفال بذلك ليشاهد ما فيه إرهاب الأعداء، فركب الجيش بكماله يومئذٍ وكان مائة ألف وستين ألفاً، ما بين فارس وراجل، غير العساكر الخارجة في سائر البلاد مع نوابها، فركبوا في الأسلحة والعدد التامة، وغلمان الخليفة سبعة آلاف، أربعة آلاف بيض، وثلاثة آلاف سود، وهم في غاية الملابس والعدد، والحجبة يومئذ سبعمائة حاجب، وأما الطيارات التي بدجلة والزبازب والسميريات فشيء كثير مزينة، وحين دخل الرسول دار الخلافة انبهر وشاهد أمراً أدهشه، ورأى من الحشمة والزينة والحرمة ما يبهر الأبصار، وحين اجتاز بالحاجب ظن أنه الخليفة فقيل له: هذا الحاجب الكبير، فمر بالوزير في أبهته فظنه الخليفة فقيل له: هذا الوزير.

وقد زينت دار الخلافة بزينة لم يسمع بمثلها، كان فيها يومئذٍ من الستور ثمانية وثلاثون ألف ستر، منها اثنا عشر ألف ستر وخمسمائة مذهبة، وقد بسط فيها اثنان وعشرون ألف بساط، وفيها من الوحوش قطعان متأنسة بالناس، بحيث تأكل من بين أيديهم ومائة سبع من السباعة، ثم أدخل إلى دار الشجرة، وهي عبارة عن بركة فيها ماء صاف وفي وسط ذلك الماء شجرة من ذهب وفضة لها ثمانية عشر غصناً أكثرها من ذهب، وفي الأغصان الشماريخ والأوراق الملونة عليها طيور مصبوغة من الذهب والفضة واللآلىء واليواقيت، وهي تصوت بأنواع الأصوات من الماء المسلط عليها، والشجرة بكمالها تتمايل كما تتمايل الأشجار بحركات عجيبة تدهش من يراها وينظر إليها ثم أدخل إلى مكان يسمونه الفردوس، فيه من أنواع المفارش والآلات ما لا يحد ولا يوصف كثرة وحسناً. وفي دهاليزه ثمانية عشر ألف جوشن مذهبة. فما زال كلما مر على مكان أدهشه وأخذ ببصره حتى انتهى إلى المكان الذي فيه الخليفة المقتدر بالله، وهو جالس على سرير من آبنوس، قد فُرض بالدّبيقى المطرز، وعن يمين السرير تسعة عقود معلقة، وعن يساره مثلها وهي جوهر من أفخر الجواهر، كل جوهرة يعلو ضوؤها على ضوء النهار، ليس لواحدة منها قيمة ولا يستطاع ثمنها، فأوقف الرسول والذين معه بين يدي الخليفة على نحو من مائة ذراع، والوزير علي بن محمد بن الفرات واقف بين يدي الخليفة، والترجمان دون الوزير فجعل الخليفة يخاطب الوزير، والوزير يخاطب الترجمان والترجمان يخاطبهما، ثم خلع عليهما وأطلق لهما خمسين سقرقاً في كل سقرق خمسة آلاف درهم، وأخرجا من بين يديه وطيف بهما في بقية دار الخلافة، وعلى حافات دجلة الفيلة والزرافات والسباع والفهود وغير ذلك، ودجلة داخله في دار الخلافة، وهذا من أغرب ما وقع من الحوادث في هذه السنة.

وحج بالناس فيها الفضل الهاشمي.

وفيها توفي فيها من الأعيان

■ **سليمان بن محمد بن أحمد أبو موسى: النحوي الكوفي المعروف** بالحامض، صحب ثعلباً أربعين سنة وخلفه في حلقته، وصنف «غريب الحديث»، و «خلق الإنسان»، و «الوحوش» و «النبات»، وكان ديناً صالحاً، روى عنه أبو عمر الزاهد. توفي ببغداد في ذي الحجة منها، ودفن بباب التين.

و■ **عبد الله بن شيرويه الحافظ.**

و■ **عمران بن مجاشع.**

و■ **أبو خليفة الفضل بن الحباب.**

و■ **قاسم بن زكريا بن يحيى المطرز المقرئ أحد الثقات الأثبات،** سمع أبا كريب، وسويد بن سعيد، وعنه الخلدي وابن الجعاني. توفي ببغداد في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة

في أول يوم من المحرم وهو مستهل هذه السنة فتح المارستان الذي بنته السيدة أم المقتدر وجلس فيه سنان بن ثابت الطبيب ورتبت الأطباء والخدم والقومة، وكانت نفقته في كل شهر ستمائة دينار، وأشار سنان بن ثابت على الخليفة ببناء مارستان، فقبل منه وبُني وسمّي المقتدري.

وفيها وردت الأخبار عن أمراء الصوائف بما فتح الله عليهم من الحصون في بلاد الروم.

وفيها شغب العامة وأرجفوا بموت المقتدر بالله فركب في الجحافل حتى بلغ الثريا ورجع من باب العامة ووقف طويلا لبراه الناس، ثم ركب إلى الشماسية وانحدر إلى دار الخلافة في دجلة فسكنت الفتن.

وفيها قلد المقتدر حامد بن العباس الوزارة وخلع عليه وخرج من عنده وخلفه أربعمائة غلام لنفسه، وخرج من عنده وخلفه أربع مئة غلام لنفسه، ثم تبين عجزه عن القيام بالأمور فأضيف إليه علي بن عيسى وجعل معه لينفذ الأمور وينظر معه في الأعمال، وكان أبو علي بن مقلة ممن يكتب أيضاً بحضرة حامد بن العباس الوزير، ثم صارت المنزلة كلها لعلي بن عيسى، واستقل بالوزارة في السنة الآتية.

وفيها أمرت السيدة أم المقتدر قهرمانة لها تعرف بثمل أن تجلس في التُربة التي بنتها بالرصافة في كل يوم جمعة وأن تنظر في المظالم التي ترفع إليها في القصص، وحضر في مجلسها القضاة والفقهاء.

وحج بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **إبراهيم بن أحمد بن الحارث: أبو القاسم الكلابي الشافعي،** سمع الحارث بن مسكين وغيره، وكان رجلا صالحاً ثقة، على مذهب الشافعي، وكان يحب الخلوة والانقباض، توفي في شعبان منها.

■ **أحمد بن الحسن الصوفي أحد مشايخ الحديث المكثرين المعمرين.**

■ أحمد بن عمر بن سريج: أبو العباس القاضي بشيراز، له نحو أربعمائة مصنف، وكان أحد أئمة الشافعية، كان يلقب بالباز الأشهب وكان قد أخذ الفقه عن أبي قاسم الأنماطي، وعن أصحاب الشافعي، كالمزني وغيره، وعنه انتشر مذهب الشافعي في الآفاق، وقد ذكرنا ترجمته في طبقات الشافعية بما فيه مقنع. توفي في جمادى الأولى منها عن سبع وخمسين سنة وستة أشهر رحمه الله.

قال ابن خلكان: توفي يوم الاثنين، الخامس والعشرين من ربيع الأول، وعمره سبع وخمسون سنة وستة أشهر، وقبره يزار رحمه الله.

■ أحمد بن يحيى أبو عبد الله الجلاء بغدادي سكن الشام، وصحب أبا تراب النخشبي، وذا النون المصري.

روى أبو نعيم [حلية الأولياء: ٣١٤/١٠] بسنده عنه قال: قلت لأبوي وأنا شاب: إني أحب أن تهباني لله عز وجل فقالا: قد وهبناك لله فغبت عنهما مدة طويلة، ثم رجعت إلى بلدنا عشاء، في ليلة مطيرة، فانتهيت إلى الباب، فدققته، فقالا: من هذا؟ فقلت: أنا ولدكما فلان، فقالا: إنه قد كان لنا ولد، ووهبناه لله عز وجل، ونحن من العرب، لا نرجع فيما وهبنا ولم يفتحا لي الباب.

■ الحسن بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد: القاضي أبو يعلى، وهو أخو القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، كان إليه ولاية القضاء بالأردن.

■ عبد الله بن أحمد بن موسى بن زياد: أبو محمد الجواليقي القاضي، المعروف بعبدان، الأهوازي، ولد سنة ست عشرة ومائتين، كان أحد الحفاظ الأثبات، يحفظ مائة ألف حديث، جمع المشايخ والأبواب، روى عن هدبة، وكامل بن طلحة، وغيرها، وعنه ابن صاعد، والمحاملي، وغيرهما.

■ محمد بن بابشاذ أبو عبيد الله البصري. سكن بغداد، وحدث بها، عن عبيد الله بن معاذ العنبري، وبشر بن معاذ العقدي، وغيرهما. وفي حديثه غرائب ومناكير، توفي في شوال من هذه السنة.

■ محمد بن الحسين بن شهريار: أبو بكر القطان البلخي الأصل، روى عن الفلاس، وبشر بن معاذ. وعنه أبو بكر الشافعي، وابن الجعابي كذبه ابن ناجية.

وقال الدارقطني: ليس به بأس.

■ محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد.: أبو بكر الضبي القاضي المعروف بوكيع، كان عالماً، فاضلا، عارفاً بأيام الناس، فقيهاً، قارئاً، نحوياً، له مصنفات، منها كتاب «العدد»، ولي القضاء بالأهواز وحدث عن الحسن بن عرفة، والزبير بن بكار، وغيرهما، وعنه أحمد بن كامل، وأبو علي الصواف، وغيرهما.

ومن شعره قوله:

إذا ماغدتْ طلابة العلم تبتغي ... من العلم يوماً ما يخلدُ في الكتبِ

غدوتُ بتشمير وجدٌ عليهم ... ومحبرتي أذني ودفترها قلبي

■ منصور بن إسماعيل بن عمر: أبو الحسن الفقيه، أحد أئمة الشافعية، وله مصنفات في المذهب، وله الشعر الحسن.

قال ابن الجوزي: ويظهر في شعره التشيع، وكان جندياً، ثم كف بصره، وسكن الرملة، ثم قدم مصر حتى كانت وفاته بها.

■ أبو نصر المحب: أحد مشايخ الصوفية، كان له كرم، وسخاء، ومروءة، ومر بسائل سأل وهو يقول: شفيعي إليكم رسول الله ﷺ، فشق أبو نصر إزاره، وأعطاه نصفه، ثم مشى خطوتين، ثم رجع إليه فأعطاه النصف الآخر وقال: هذا نذالة.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثمائة

في صفر منها وقع حريق بالكرخ، في الباقلانيين، هلك فيه خلق كثير من الناس.

وفي ربيع الآخر منها، دخل بأسارى من الكرخ نحو مائة وخمسين اسيراً، أنقذهم الأمير بدر الحمّامي.

وفي ذي القعدة منها، انقض كوكب عجيب عظيم غالب الضوء وتقطع ثلاث قطع، وسمع بعد انقضاضه، صوت رعد شديد هائل، من غير غيم ذكره ابن الجوزي.

وفيها دخلت القرامطة إلى البصرة، فأكثروا فيها الفساد.

وفيها عزل حامد بن العباس، عن الوزارة، وأعيد إليها أبو الحسن بن الفرات المرة الثالثة.

وفيها كسرت العامة أبواب السجون، فأخرجوا من كان بها، فأدركت الشرطة من أخرجوا من السجن، فلم يفتهم أحد منهم، بل ردوا كلهم إلى السجون.

وحج بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس، أخو أم موسى القهرمانة.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ أحمد بن علي بن المثنى: أبو يعلى الموصلي صاحب المسند المشهور، سمع الإمام أحمد بن حنبل، وطبقته، وكان حافظاً، خيراً، حسن التصنيف ثقة، عدلاً فيما يرويه، ضابطاً لما يحدث به.

■ إسحاق بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن سلمة: أبو يعقوب البزاز الكوفي، رحل إلى الشام ومصر، وكتب الكثير، وصنف المسند، واستوطن بغداد، وكان من الثقات، روى عنه ابن المظفر الحافظ، وكانت وفاته في شوّال منها.

■ جعفر بن محمد بن موسى أبو محمد الأعرج النيسابوري الحافظ، قدم بغداد، وروى عنه الطبراني، والأزدي، وغيرهما من الحفاظ، وكان ثقة حافظاً عارفاً، توفي بحلب في هذه السنة.

■ زكريا بن يحيى الساجي: الفقيه المحدث شيخ أبي الحسن الأشعري في السنة والحديث.

■ علي بن سهل بن الأزهر: أبو الحسن الأصبهاني، كان أولا مترفاً، ثم صار زاهداً عابداً يبقى الأيام لا يأكل شيئاً، وكان يقول: ألهاني الشوق إلى الله عن الطعام، والشراب وكان يقول: أنا لا أموت، بما يموتون بالأعلال والأسقام، إنما هو دعاء، وإجابة، ادعي، فأجيب فكان كما قال، بينما هو جالس في جماعة، إذ قال: لبيك، ووقع ميتاً.

و■ محمد بن هارون الروياني صاحب المسند

و■ ابن ذريح العكبري

و■ الهيثم بن خلف.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة

فيها غلت الأسعار في هذه السنة ببغداد فاضطربت العامة، وقصدوا دار حامد بن العباس، الذي ضمن قرايا من الخليفة، فغلت الأسعار، بسبب ذلك وعدوا في ذلك اليوم -وكان يوم الجمعة- على الخطيب، فمنعوه الخطبة، وكسروا المنابر، ودكّوا الشرط، وحرقوا جسوراً كثيرة، فأمر الخليفة بقتال العامة ثم نقض الضمان، الذي كان حامد بن العباس ضمنه، فانحطت الأسعار، وبيع الكر بناقص خمسة دنانير، فطابت أنفس الناس بذلك، وسكنوا.

وفي تموز من هذه السنة وقع برد شديد جداً، حتى نزل الناس عن الأسطحة وتدثروا باللحف، والأكسية، ووقع في شتاء هذه السنة، ثلج عظيم، وكان فيها برد شديد جداً، بحيث أضر ذلك ببعض النخيل.

وحج بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس أخو القهرمانة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقية: راوي صحيح مسلم عنه.

■ أحمد بن الصلت بن المغلس أبو العباس الحماني أحد الوضاعين للأحاديث، روى عن خاله جبارة بن المغلس، وأبي نعيم، ومسلم بن إبراهيم، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهم: أحاديث، كلها وضعها هو، في مناقب أبي حنيفة، وغير ذلك.

وحكى عن يحيى بن معين، وعلي بن المديني، وبشر بن الحارث أخباراً كلها كذب.

قال أبو الفرج بن الجوزي: قال لي محمد بن أبي الفوارس: كان أحمد بن الصلت يضع الحديث.

و■ إسحاق بن أحمد الخزاعي.

و■ المفضل الجندي.

و■ عبد الله بن محمد بن وهب الدينوري.

و■ عبد الله بن ثابت بن يعقوب: أبو عبد الله التوزي المقرئ النحوي، سكن بغداد، وروى عن عمرو بن شبة، وعنه أبو عمرو بن السماك. ومن شعره:

إذا لم تكنْ حافظاً واعياً فعلمك في البيت لاينفعُ
وتحضرُ بالجهل في مجلسٍ وعلمكَ في الكتبِ مستودعُ
ومن يكُ في دهرهِ هكذا يكن دهرهُ القهقرى يرجعُ

ثم دخلت سنة تسع وثلاثمائة

فيها وقع حريق كثير، في نواحي بغداد،وذلك بسبب زنديق، قتل، فألقي من كان من جهته الحريق، في أماكن كثيرة، فهلك بسبب ذلك خلق كثير من الناس.

وفي جمادى الأولى منها قلد المقتدر بالله مؤنساً الخادم بلاد مصر والشام، ولقبه المظفر وأمر بكتب ذلك في المراسلات إلى الآفاق.

وفي ذي القعدة، أحضر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله، إلى دار الوزير عيسى بن علي، لمناظرة الحنابلة، في أشياء نقموها عليه، فلم يحضروا، ولا واحد منهم.

وفيها قدم الوزير حامد بن العباس للخليفة، بستانا بناه، وسماه الناعورة، قيمته مائة ألف دينار، وفرش مساكنه، بأنواع المفارش المفتخرة.

وفي هذه السنة كان مقتل الحسين بن منصور الحلاج، ولنذكر أشياء من ترجمته وسيرته، وكيفية قتله، على وجه الإيجاز، وبيان المقصود بطريق الإنصاف والعدل، من غير تحمل، ولا هوى، ولا جور.

وهذه نبذة من سيرته وأحواله وكشف سريرته وأقواله:

■ الحسين بن منصور بن مَحْميٍّ الحلاج أبو مغيث، ويقال أبو عبد الله، كان جده مجوسياً، اسمه مَحْميٍّ من أهل فارس، من بلدة يقال لها البيضاء، ونشأ بواسط، ويقال بتستر، ودخل بغداد، وتردد إلى مكة مراراً وجاور بها في وسط المسجد، في البرد، والحر، مكث على ذلك سنوات متفرقة، وكان يصابر نفسه، ويجاهدها، ولا يجلس إلا تحت السماء في وسط المسجد في البرد والحرّ، ولا يأكل إلا بعض قرص، ويشرب قليلا من الماء، معه وذلك وقت الفطور، مدة سنة كاملة، ويجلس على صخرة في قُبالة الحرم، في جبل أبي قبيس، وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية، كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسين النوري.

قال الخطيب البغدادي: والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم، وأبى أن يعده فيهم، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصر أباذي النيسابوري، وصححوا له حاله، ودونوا كلامه، حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي -واسمه محمد بن الحسين- سمعت إبراهيم بن محمد النصر أباذي، وعوتب في شيء، حكي عن الحلاج، في الروح، فقال لمن عاتبه: إن كان بعد النبيين، والصديقين، موحد فهو الحلاج

قال أبو عبد الرحمن: وسمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر، وكتمت وقد روى عن الشبلي، من وجه آخر، أنه قال: وقد رأى الحجاج مصلوباً: ألم ننهكَ عن العالمين؟

قال الخطيب: والذين نفوه من الصوفية، نسبوه إلى الشعبذة في فعله، وإلى الزندقة في عقله، قال: وله إلى الآن، أصحاب ينسبون إليه، ويغلون فيه، وقد كان الحلاج حسن العبارة، حلو المنطق، وله شعر على طريقة الصوفية.

قلت: لم يزل الناس منذ قتل الحلاج، مختلفين في أمره، فأما الفقهاء، فقد حكي عن غير واحد من العلماء والأئمة، إجماعهم على قتله، وأنه كان كافراً ممخرقاً مموهاً مشعبذاً، وكذلك قول أكثر الصوفية منهم ومنهم طائفة كما تقدم، أجملوا القول فيه، وغرّهم ظاهره، ولم يطلعوا على باطنه، وقد كان في ابتداء أمره، فيه تعبد، وتأله، وسلوك، ولكن لم يكن له علم، يَسلك به في عبادته، فدخل عليه الداخل بسبب ذلك، كما قال بعض السلف من عبدَ الله بغير علم كان ما يفسده، أكثر مما يصلحه.

وعن سفيان بن عيينة أنه قال: من فسد من علمائنا، كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا، كان فيه شبه من النصارى، ولهذا دخل على الحلاج باب الحلول، والاتحاد، فصار من أهل الانحلال، والإلحاد.

وقد ورد من وجه أنه تقلبت به الأحوال، وتردد إلى البلدان، وهو في ذلك كله، يظهر للناس، أنه من الدعاة إلى الله عز وجل وصح أنه دخل

إلى الهند، ليتعلم السحر، وقال: أدعو به إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه، بالمغيث - أي أنه من رجال الغيث - ويكاتبه أهل خراسان، بالمقيت، ويكاتبه أهل خراسان، بالمميز، وأهل فارس، بأبي عبد الله الزاهد. وأهل خوزستان، بأبي عبد الله الزاهد حلاج الأسرار. وكان بعض البغاددة، حين كان عندهم، يقولون له: المصطلم. وأهل البصرة يقولون له: المحير.

ويقال إنما سماه الحلاج، أهل الأهواز؛ لأنه كان يكاشفهم، عما في ضمائرهم، وقيل لأنه مرة قال لحلاج: اذهب لي في حاجة كذا وكذا، فقال: إني مشغول، فقال: اذهب فأنا أَسُدُّ عنك، فذهب، ورجع سريعاً، فإذا جميع ما في ذلك المخزن قد حلجه، يقال إنه أشار بالمرود، فامتاز الحب عن القطن، وفي صحة هذا نظر، وإن كان قد جرى مثل هذا، فالشياطين تعين أصحابها، ويستخدمونهم وقيل: لأن أباه كان حلاجاً ومما يدل على أنه كان ذا حلول، في بدء أمره، أشياء كثيرة، منها شعره فمن ذلك قوله:

جبلت روحك في روحي كما ... يجبل العنبر بالمسك الفتق
فإذا مسك شيء مسني ... فإذا أنت أنا لا نفترق

وقوله أيضاً:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني ... فإذا أنت أنا في كل حال

وله أيضاً:

قد تحققتك في سر ... ي فخاطبك لساني
فاجتمعنا لمعان ... وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيـ ... ـم عن لحظ العيان
قد صيرك الوجـ ... ـد من الأحشاء دان

وقد أنشد لابن عطاء قول الحلاج:

أريدك لا أريدك للثواب ... ولكني أريدك للعقاب
وكل مآربي قد نلت منها ... سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

فقال ابن عطاء: هذا، مما تزايد به، عذاب الشغف، وهيام الكلف، واحتراق الأسف، فإذا صفا ووفى علا إلى مشرب عذب، وهطل من الحق، دائم سكب.

وقد أنشد لأبي عبد الله بن خفيف قول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

فقال ابن خفيف: على من يقول هذا لعنة الله؟ فقيل له: إن هذا من شعر الحلاج، فقال: ربما يكون مقولا عليه.

ومما ينسب إليه من الشعر قوله:

ارسلت تسأل عني كيف كنت وما ... لاقيت بعدك من هم ومن حزن
لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا ... لا كنت أدري كيف لم أكن

قال القاضي ابن خلكان: ويروى لسمنون لا للحلاج.

ومن شعره أيضاً قوله:

متى سهرت عيني لغيرك أو بكت ... فلا أعطيك ما أملت وتمنت
وإن أضمرت نفسي سواك فلا رعت ... رياض المنى من وجنتيك وجُنَّتِ

ومن شعره أيضاً:

دنيا تغالطني كأني ... لست أعرف حالها
حظر المليك حرامها ... وأنا احتميت حلالها
فوجدتها محتاجة ... فوهبت لذتها لها

وقد كان الحلاج يتلوّن في ملابسه، فتارة يلبس لباس الصوفية، وتارة يتجرد في ملابس زرية، وتارة في لباس الأجناد، ويعاشر أبناء الدنيا.

وقد رآه بعض أصحابه في ثياب رثة وبيده ركوة، وعكاز وهو سائح، فقال له: ما هذه الحالة يا حلاج؟ فأنشأ يقول:

لئن أمسيت في ثوبي عديم ... لقد بليا على حر كريم
فلا يغررك أن أبصرت حالا ... مغيرة عن الحال القديم
فلي نفس ستتلف أو سترقى ... لعمرك بي إلى أمر جسيم

ومن مستجاد كلامه، وقد سأله رجل أن يوصيه، بشيء ينفعه الله به فقال: عليك نفسك، إن لم تشغلها بالحق، وإلا شغلتك عن الحق.

وقال له رجل: عظني فقال: كن مع الحق، بحكم ما أوجب.

وروى الخطيب بسنده إليه أنه قال: علم الأولين، والآخرين، مرجعه إلى أربع كلمات: حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

قلت: وقد أُصيب الحلاج في المقامين، الأخيرين، فلم يتبع التنزيل، ولم يبق على الاستقامة، بل تحوّل عنها، إلى الاعوجاج، والبدعة، والضلالة، نسأل الله العافية.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي، عن عمرو بن عثمان المكي: أنه قال: كنت أماشي الحلاج، في بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن، فسمع قراءتي، فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقته.

قال الخطيب: وحدثني مسعود بن ناصر، أنبأنا ابن باكويه الشيرازي سمعت أبا زرعة الطبري يقول: الناس فيه - يعني حسين بن منصور الحلاج - بين قبول، ورد، ولكن، سمعت محمد بن يحيى الرازي يقول سمعت عمرو بن عثمان يلعنه، ويقول: لو قدرت عليه، لقتلته، بيدي. فقلت له: أيش الذي وجد الشيخ عليه؟ قال قرأت آية من كتاب الله فقال: يمكنني أن أؤلف مثله، وأتكلم به

قال أبو زرعة الطبري: وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول: زوّجت ابنتي من الحسين بن المنصور الحلاج، لما رأيت من حسن طريقته، واجتهاده، فبان لي بعد مدة يسيرة، أنه ساحر محتال، خبيث كافر.

قلت: كان تزويجه بها بمكة، وهي أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع، فأولدها ولده أحمد بن الحسين بن منصور، وقد ذكر سيرة أبيه، كما ساقها من طريقه الخطيب.

وذكر أبو القاسم القشيري في كتاب «الرسالة»، في باب حفظ قلوب المشايخ: أن عمرو بن عثمان، دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئاً في أوراق فقال له: ما هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن قال: فدعا عليه فلم يفلح بعدها، وأنكر على أبي يعقوب الأقطع، تزويجه إياه ابنته. وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتباً كثيرة يلعنه فيها ويحذّر الناس منه، فشرد الحلاج في البلاد فعاث يميناً وشمالاً، وجعل يظهر للناس أنه يدعو إلى الله عز وجل، ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه، وشأنه

حتى أحل اللّه به بأسه، الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع، الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق، واللّه أعدل من أن يسلطه على صديق، كيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته في البلد الحرام، حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى:﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] ولا إلحاد أعظم من هذا. وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم، الذي قال تعالى فيهم:﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

ذكر أشياء من حيل الحلاج:

روى الخطيب البغدادي، أن الحلاج أنفذ رجلاً بين يديه إلى بعض بلاد الجبل، فأقام بتلك البلدة يظهر لهم الصلاح والنُّسك ويقرأ القرآن، فأقام مدةً على ذلك، ثم أظهر لهم أنه قد عمي، فمكث حيناً على ذلك، ثم أظهر أنَّه قد زمن وكان أوَّلاً يقاد إلى المسجد ثم صار يحمل فمكث سنةً كذلك، ثم قال لهم: إني رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهو يقول: سيردُ إلى هذه البلدة رجلٌ صالحٌ، يكون شفاءك على يديه. فما كان عن قريب حتى كان الوقت الذي واعده فيه الحلّاج، ودخل الحلّاج البلدة مختفياً وعليه ثياب صوفٍ بيضٌ، فلزم ساريةً من المسجد يتعبد فيها، لا يلتفت إلى أحد، فابتدر الناس إلى ذلك المتعامي المتزامن فقيل له: قدم رجل صالح ، فهلمَّ إليه. فحملوه حتى وضعوه بين يديه، فكلمه فعرفه، فقال له: يا عبد اللّه إني رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في المنام، وهو يقول لي: كذا وكذا، فعسى أن يكون أنت إياه. فرفع يديه ودعا اللّه عز وجل، والناس حضور متكاثرون ينظرون ماذا يكون من أمره، ففتح الرجل عينيه، وقام قائماً على قدميه، فضجَّ الناس، وعظموا الحلاج تعظيماً زائداً، وليس ذلك بحقٍّ، فأقام عندهم مدة ثم خرج من بين أظهرهم، وبقي ذلك الرجل عندهم عدةَ شهور، ثم قال: إنَّ من نعمة اللّه عليَّ أن ردَّ عليَّ بصري، وشفاني، وينبغي أن أجاهد في سبيله بثغر طرسوس، فعزم على ذلك فجمعوا له من بينهم مالاً جزيلاً؛ ألوفاً من الذهب والفضة، ثم ودعهم، وودَّعوه، فذهب إلى الحلّاج، فاقتسما ذلك المال.

ورويَ عن بعضهم قال: كنت أسمع أن الحلاج له أحوال، وكرامات، فأحببت، أن أختبره، فجئته، فسلمت عليه، فقال لي: تَشْتَهْ عليَّ الساعة شيئاً؟ فقلت: أشتهي سمكاً طريّاً.فدخل منزله، فغاب ساعة، ثم خرج ومعه سمكة تضطرب، ورجلاه عليهما الطين فقال: دعوت اللّه، فأمرني أن آتي البطائح، لآتيك بهذه السمكة، فخضت الأهواز، وهذا الطين منها. فقلت: إن شئت، أدخلتني منزلك، لأكشف أمرك، فإن ظهرت على شيء، وإلا آمنت بك فقال: ادخل، فدخلت، فلم أجد فيه منفذاً إلى غيره، فتحيرت في أمره، ثم نظرت فإذا تأزير فكشفته فإذا من ورائه باب فدخلت فخرجت منه إلى بستان هائل، فيه من سائر الثمار الجديدة، والمعتَّقة، قد أحسن إبقاؤها وإذا أشياء كثيرة، معدَّة للأكل، وإذا هناك بركة كبيرة، فيها سمك كثير كبار، فدخلتها، فأخرجت منها واحدة فنال رجلي من الطين، كما نال رجليه، فجئت إلى الباب، فقلت: افتح قد آمنت بك فلما خرجت ورآني على مثل حاله، جرى ورائي ليقتلني فضربته بالسمكة في وجهه، وقلت: يا عدو اللّه، أتعبتني في هذا اليوم ولما خلصت منه، لقيني بعد أيام، فضاحكني، وقال: لا تفش هذا لأحد، أبعث إليك من يقتلك، على فراشك قال: فعرفت أنه يفعل، إن أفشيت عليه، فلم أحدث به أحداً حتى صلب.

وقد قال الحلاج يوماً لرجل: آمن بي، حتى أبعث لك بعصفورة، تأخذ من ذرقها وزن حبة، فتضعه على كذا وكذا رطلا، من نحاس، فيصير ذهباً فقال له الرجل: آمن بي أنت، حتى أبعث إليك، بفيل إذا استلقى، على قفاه، بلغت قوائمه السماء، وإذا أردت أن تخفيه، وضعته في إحدى عينيك قال: فبهت، وسكت.

ولما ورد بغداد جعل، يدعو إلى نفسه، ويظهر أشياء من المخاريق، وغيرها من الأحوال الشيطانية، وأكثر ما كان يروج على الرافضة، لقلة عقولهم، وضعف تمييزهم، بين الحق والباطل وقد استدعى يوماً، برئيس من الرافضة، فدعاه إلى الإيمان به،فقال له الرجل: إني رجل أحب النساء وإني أصلع الرأس، وقد شبت، فإن أنت أذهبت عني هذا، وهذا، آمنت بك، وأنك الإمام المعصوم، وإن الحلاج ولم يحر إليه جواباً.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: كان الحلاج متلوناً كثير التلون تارة يلبس المسوح، وتارة يلبس الدراعة، وتارة يلبس القباء، وهو مع كل قوم على مذهبهم: إن كانوا أهل سنة، أو رافضة أو معتزلة أو غير ذلك.

ولما أقام بالأهواز جعل ينفق من دراهم، يخرجها، يسميها دراهم القدرة، فسئل الشيخ أبو علي الجبائي عن ذلك فقال: إن هذا كله مما يُنال بالحلية، ولكن ادخلوه بيتاً لا منفذ له، ثم سلوه أن يخرج لكم جوزتين من شوك فلما بلغ ذلك الحلاج كلام أبي علي الجبائي فيه تحول من الأهواز.

وقال الخطيب: أنبأ إبراهيم بن مخلد، أنبأ إسماعيل بن علي الخطبي في تاريخه قال: وظهر أمر رجل يعرف بالحلاج، يقال له: الحسين بن منصور، وكان في حبس السلطان، بسعاية وقعت به، وذلك في وزارة علي بن عيسى الأولى، وذكر عنه ضروب من الزندقة، ووضع الحيل، على تضليل الناس، من جهات تشبه الشعوذة، والسحر، وادعاء النبوة، فكشفه علي بن عيسى، عند قبضه عليه، وأنهى خبره إلى السلطان -يعني الخليفة المقتدر باللّه - فلم يقر بما رُمي به من ذلك، فعاقبه، وصلبه حياً، أياماً متوالية في رحبة الجسر، في كل يوم غدوة، وينادى عليه بما ذكر عنه، ثم ينزل به، ثم يحبس، فأقام في الحبس سنين كثيرة، ينقل من حبس إلى حبس، خوفاً من إضلاله أهل كل حبس، إذا طالت مدته عندهم، إلى أن حبس بأَخَرة في دار السلطان، فاستغوى جماعة من غلمان السلطان، وموَّه عليهم، واستمالهم، بضروب من حيله، حتى صاروا يحمونه، ويدفعون عنه ويرفهونه، ثم راسل جماعة من الكتاب، وغيرهم ببغداد، وغيرها، فاستجابوا له، وتراقى به الأمر، إلى أن ادعى الربوبية، وسعى بجماعة من أصحابه إلى السلطان، فقبض عليهم، ووجد عند بعضهم، كتب تدل على تصديق ما ذكر عنه، وأقر بعضهم بذلك بلسانه، وانتشر خبره، وتكلم الناس في قتله، فأمر الخليفة بتسليمه إلى حامد بن العباس، وأمره أن يكشفه، بحضرة القضاة، والعلماء، ويجمع بينه، وبين أصحابه، فجرى في ذلك خطوب طوال ثم استيقن السلطان أمره، ووقف على ما ذكر له عنه، وثبت ذلك على يد القضاة، وأفتى به العلماء، فأمر بقتله وإحراقه بالنار، فأحضر مجلس الشرطة، بالجانب الغربي، في يوم الثلاثاء، لسبع بقين من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثمائة فضرب بالسياط نحواً من ألف سوط، وقطعت يداه ورجلاه، ثم ضربت عنقه وأحرقت جثته بالنار، ونصب رأسه للناس، على سور الجسر الجديد، وعلقت يداه ورجلاه إلى جانب رأسه.

وقال أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: سمعت إبراهيم بن محمد الواعظ يقول: قال أبو القاسم الرازي: قال أبو بكر بن ممشاذ: حضر عندنا بالدينور رجل، ومعه مخلاة، فما كان يفارقها بالليل ولا بالنهار،

ففتشوا مخلاته، فوجدوا فيها كتاباً للحلاج عنوانه: من الرحمن الرحيم إلى فلان ابن فلان يدعوه إلى الضلالة والإيمان به فبعث بالكتاب إلى بغداد، فسئل الحلاج عن ذلك، فأقر بأنه كتبه، فقالوا له: كنت تدعي النبوة، فصرت تدعي الألوهية، والربوبية؟ فقال: لا، ولكن هذا عين الجمع عندنا. هل الكاتب إلا الله، وأنا واليد آلة؟ فقيل له: معك على هذا أحد؟ قال: نعم ابن عطاء، وأبو محمد الحريري، وأبو بكر الشبلي. فسئل الحريري عن ذلك فقال: من يقول بهذا كافر. وسئل الشبلي عن ذلك فقال: من يقول بهذا يمنع، وسئل ابن عطاء عن ذلك فقال بقول الحلاج في ذلك فعوقب، حتى كان سبب هلاكه.

ثم روى أبو عبد الرحمن السلمي عن محمد بن عبد الله الرازي أن الوزير حامد بن العباس، لما أحضر الحلاج، سأله عن اعتقاده، فأقر به، فكتبه، فسأل عن ذلك فقهاء بغداد، فأنكروا ذلك، وقيل للوزير إن أبا العباس بن عطاء يقول بهذا فقالوا: من قال بهذا فهو كافر ثم طلب الوزير ابن عطاء إلى منزله، فجاء، فجلس في صدر المجلس، فسأله عن قول الحلاج فقال: من لا يقول بهذا القول فهو بلا اعتقاد، فقال الوزير لابن عطاء: ويحك، تصوب مثل هذا القول، وهذا الاعتقاد؟ فقال ابن عطاء: مالك ولهذا عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم، فما لك ولكلام هؤلاء السادة من الأولياء فأمر الوزير عند ذلك بضرب شدقيه، ونزع خفيه وأن يضرب بهما على رأسه، فما زال يفعل به ذلك حتى سال الدم، من منخريه وأمر بسجنه فقيل له: أيها الوزير إن العامة تتشوّش بهذا. فحمل إلى منزله، فقال ابن عطاء: اللّهم اقتله أخبث قِتْلةٍ، واقطع يديه، ورجليه ثم مات ابن عطاء بعد سبعة أيام، وقتل الوزير شرّ قتلة، وقطعت يداه، ورجلاه وأحرقت داره.

وكان العوام يرون ذلك بدعوة ابن عطاء، على عادتهم في مرائيهم، فيمن أوذي، ممن لهم معه هوى: بل قد قال ذلك جماعة، ممن ينسب إلى العلم، فيمن يؤذي ابن عربي، أو يحط على حسين الحلاج أو غيره: هذا بخطيئة فلان.

وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته وأجمعوا على قتله وصلبه.

قال أبو بكر محمد بن داود الظاهري، حين أحضر الحلاج، في المرة الأولى، قبل وفاة أبي بكر وسئل عنه فقال: إن كان ما أنزل اللّه على نبيه ﷺ حقاً وما جاء به حقاً فما يقوله الحلاج باطل. وكان شديداً عليه

وقال أبو بكر الصولي: قد رأيت الحلاج، وخاطبته، فرأيته، جاهلا يتعاقل، وغبياً يتبالغ، وخبيثاً مدعياً، وراغباً يتزهد، وفاجراً يتعبد.

ولما صلب في أول مرة، ونودي عليه أربعة أيام، سمعه بعضهم وقد جيء به ليصلب، وهو راكب على بقرة يقول: ما أنا بالحلاج، ولكن ألقي علي شبهه، وغاب، فلما أُدني إلى الخشبة، ليصلب عليها سمعته يقول: يا معين الضَّنا عليَّ، أعني على الضَّنا.

وقال بعضهم سمعته وهو مصلوب يقول: إلهي، أصبحت في دار الرغائب، أنظر إلى العجائب،إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف بمن يؤذَى فيك.

ذكر صفة مقتل الحلاج:

قال الخطيب البغدادي وغيره: كان الحلاج قد قدم آخر قدمة، إلى بغداد، فصحب الصوفية، وانتسب إليهم، وكان الوزير، إذ ذاك حامد بن العباس، فبلغه أن الحلاج، قد أضلّ خلقاً من الحشم، والحجاب، في دار السلطان، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب، وزعم لهم، في جملة ما ادعاه، أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه، ويحضرون له ما يختاره ويشتهيه وقال: إنه أحيا عدة من الطير.

وذُكر لعلي بن عيسى، أن رجلا، يقال له محمد بن علي القنّائي الكاتب، يعبد الحلاج، ويدعو الناس إلى ذلك، فطلبه، وكبس منزله، فأقر أنه من أصحاب الحلاج، ووجد في منزله، أشياء بخط الحلاج، مكتبة بماء الذهب، في ورق الحرير، مجلدة بأفخر الجلود ووجد عنده سفطاً، فيه من رجيع الحلاج وبوله وأشياء من آثاره، وبقية خبز من زاده فطلب الوزير من الخليفه المقتدر، أن يتكلم في أمر الحلاج، ففوض أمره إليه فاستدعى بجماعة من أصحاب الحلاج، فتهددهم، فاعترفوا له، أنه قد صح عندهم، أنه إله، وأنه يحيي الموتى، وأنهم كاشفوا الحلاج بذلك، ورموه به في وجهه، فجحد ذلك، وكذبهم، وقال: أعوذ باللّه، أن أدعي الربوبية، أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد اللّه، وأكثر الصوم، الصلاة، وفعل الخير، لا أعرف غير ذلك وجعل لا يزيد على الشهادتين، والتوحيد، ويكثر أن يقول: سبحانك لا إله إلا أنت، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وكانت عليه مدرعة سوداء، وفي رجليه، ثلاثة عشر قيداً، وهي واصلة إلى ركبتيه قالوا: وكان مع ذلك يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة.

وكان قبل احتياط الوزير حامد بن العباس عليه، في حجرة من دار نصر القشوري الحاجب، مأذوناً لمن يدخل إليه، وكان يسمي نفسه تارة بالحسين بن منصور، وتارة محمد بن أحمد الفارسي، وكان نصر الحاجب قد افتتن به، وظن أنه رجل صالح، وكان قد أدخله على المقتدر باللّه، فرقاه من وجع حصل له، فاتفق زواله، وكذلك وقع لوالدته السيدة أم المقتدر، فزالت علتها، فنفق سوقه، وحظي في دار السلطان، فلما انتشر الكلام فيه، سلم إلى الوزير حامد بن العباس، فحبسه، في قيود كثيرة، في رجليه وجمع له الفقهاء، فأجمعوا على كفره، وزندقته، وأنه ساحر ممخرق

ورجع رجلان صالحان، ممن كان اتبعه، أحدهما أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي، والآخر يقال له الدباس، فذكرا من فضائحه، وما كان يدعو الناس إليه، من الكذب، والفجور والمخرقة، والسحر شيئاً كثيراً، وكذلك أحضرت زوجة ابنه سليمان، فذكرت عنه، فضائح كثيرة من ذلك، أنه أراد أن يغشاها، وهي نائمة، فانتبهت فقال: قومي إلى الصلاة، وإنما كان يريد أن يطأها وأمرتها ابنته بالسجود له، فقالت: أو يسجد بشر لبشر؟ فقال: نعم إله في السماء، وإله في الأرض ثم أمرها أن تأخذ من تحت بارية هنالك، ما أحبت، فوجدت تحتها، دنانير كثيرة مبذورة

ولما كان معتقلا في دار حامد بن العباس الوزير، دخل عليه بعض الغلمان، ومعه طبق فيه طعام، ليأكل منه، فوجده قد ملأ البيت من سقفه إلى أرضه، فذعر ذلك الغلام، وفزع فزعاً شديداً، وألقى ماكان في يده، من ذلك الطبق والطعام ورجع محموماً فمرض عدة أيام.

ولما كان آخر مجلس من مجالسه، أُحضر القاضي أبو عمر محمد بن يوسف، وجيء بالحلاج، وقد أحضر له كتاب، من دور بعض أصحابه وفيه: من أراد الحج، ولم يتيسر له، فليبن في داره بيتاً، لا يناله شيء من النجاسة، ولا يمكن أحداً من دخوله، فإذا كان في أيام الحج، فليصم ثلاثة أيام، وليطف به، كما يطاف بالكعبة، ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة، ثم يستدعي بثلاثين يتيماً، فيطعمهم من طعامه، ويتولى خدمتهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصا قميصا، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم - أو قال ثلاثة دراهم - فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج، وإن من صام ثلاثة

أيام، لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندبا أجزأه ذلك عن صيام رمضان ومن صلّى في ليلة ركعتين، من أول الليل، إلى آخره، أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك. وأن من جاور بمقابر الشهداء، بمقابر قريش، عشرة أيام، يصلي، ويدعو، ويصوم، ثم لا يفطر، إلا على شيء من خبز الشعير، والملح الجريش، أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره. فقال له القاضي أبو عمر: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري فقال له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة، وليس فيه شيء من هذا فأقبل الوزير حامد بن العباس على القاضي أبي عمر فقال له: قد قلت يا حلال الدم، فاكتب ذلك في هذه الورقة، وألح عليه، وقدم له الدواة، فكتب ذلك في تلك الورقة، وكتب من حضر خطوطهم فيها، وأنفذها الوزير إلى المقتدر، وجعل الحلاج يقول لهم: ظهري حمىً، ودمي حرام، وما يحل لكم، أن تتأولوا علي، ما يبيحه، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل أبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح، ولي كتب في السنة، موجودة في الوراقين، فالله الله في دمي. فلا يلتفتون إلى شيء مما يقول. وهو يكرره وهم يكتبون خطوطهم، بما كان من الأمر، وردّ الحلاج إلى محبسه، وتأخر جواب المقتدر ثلاثة أيام، حتى ساء ظن الوزير حامد بن العباس، فكتب إلى الخليفة يقول: إن الحلاج قد اشتهر أمره، ولم يختلف فيه اثنان، وقد افتتن كثير من الناس به، فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة فليضربه ألف سوط، فإن مات، وإلا ضربت عنقه، ففرح الوزير بذلك، وطلب صاحب الشرطة، فسلمه إليه، وبعث معه طائفة من غلمانه، يوصّلونه معه إلى محل الشرطة، من الجانب الغربي، خوفاً من أن يستنقذ من أيديهم وذلك بعد عشاء الآخرة في ليلة الثلاثاء، لست بقين من ذي القعدة، من هذه السنة، وركب على بغل، عليه إكاف، وحوله جماعة من أعوان السيّاسة. على مثل شكله، فاستقر منزله، بدار الشرطة في هذه الليلة، فذكر أنه بات يصلي في هذه الليلة، ويدعو دعاء كثيراً.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا بكر الشاشي يقول قال أبو الحديد- يعني المصري -: لما كانت الليلة، التي قتل في صبيحتها الحلاج، قام من الليل، فصلى ما شاء الله، فلما كان آخر الليل، قام قائماً، فتغطى بكسائه، ومد يده نحو القبلة، فتكلم بكلام جائز الحفظ، فكان مما حفظت منه قوله: نحن شواهدك، فلو دلتنا عزتك، لتبّدى ما شئت، من شأنك ومشيئتك، وأنت الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، تتجلى لما تشاء، مثل تجليك في مشيئتك، كأحسن الصورة، والصورة فيها الروح الناطقة، بالعلم، والبيان، والقدرة، ثم أوعزتّ إلى شاهدك؛ لأني في ذاتك الهُويّ، كيف أنت إذا مثلتّ بذاتي، عند عَقيب كراتي، ودعوت إلى ذاتي بذاتي، وأبديت حقائق علومي، ومعجزاتي، صاعداً في معارجي إلى عروش أزلياتي، عند القول عن برياتي، إني احتضرت، وقتلت، وصلبت، وأحرقت، واحتملت سافياتي الذاريات ولجت في الجاريات، وأن ذرة من ينجوج مكان هالوك متجلياتي، لأعظم من الراسيات ثم أنشأ يقول:

انعى إليك نفوساً طاح شاهدها ... فيما ورا الحيث بل في شاهد القِدَمِ
انعى إليك قلوباً طالما هطلت ... سحائب الوحي فيها أبحر الحكم
انعى إليك لسان الحق منك ومَن ... أودى وتذكاره في الوهم كالعدم
انعى إليك بياناً تستكين له ... أقوال كل فصيح مِقْوَل فَهِم
انعى إليك إشارات العقول معاً ... لم يبق منهن إلا دارس العلم
انعى وحبك أخلاقاً لطائفة ... كانت مطاياهم من مكمد الكِظَمِ
مضى الجميع فلا عين ولا أثر ... مُضِيَّ عاد وفقدان الأولى إرم
وخلفوا معشراً يحذون لبستهم ... أعمى من البهم بل أعمى من النَّعَمِ

قالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب به إلى القتل أنشد:

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مستقراً
وذقت من الزمان وذاق مني ... وجدت مذاقه حلواً ومراً
أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لعشت حراً

وقيل: إنه قالها حين قدّم إلى الجذع ليصلب عليه، والمشهور ما ذكرناه، ثم مشى وهو يتبختر في مشيته، وفي رجليه ثلاثة عشر قيداً، وجعل ينشد ويتمايل:

نديمي غير منسوب ... إلى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب ... ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس ... دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح ... مع التنين في الصيف

ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] ثم ما نطق بعد ذلك حتى فعل به ما فعل.

قالوا: ثم قدم فضرب ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه، وهو في ذلك كله ساكت، ما نطق بكلمة، ولم يتغير لونه، ويقال إنه جعل يقول، مع كل سوط: أحد أحد.

وقال أبو عبد الرحمن: سمعت عبد الله بن علي يقول سمعت عيسى القصار يقول: آخر كلمة تكلم بها الحلاج حين قتل أن قال: حسب الواحد إفراد الواحد له، فما سمع بهذه الكلمة، أحد من المشايخ إلا رق له، واستحسن هذا الكلام منه.

وقال السلمي: سمعت أبا بكر البجلي يقول سمعت أبا الفاتك البغدادي - وكان صاحب الحلاج - قال: رأيت في النوم، بعد ثلاث من قتل الحلاج، كأني واقف بين يدي ربي عز وجل، وأنا أقول: يا رب، ما فعل الحسين بن منصور؟ فقال: كاشفته بمعنى، فدعا الخلق إلى نفسه،، فأنزلت به ما رأيت.

ومنهم من قال: بل جزع عند ذلك جزعاً شديداً، وبكى بكاء كثيراً، فالله أعلم.

وقال الخطيب: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال قال لنا أبو عمر بن حيويه: لما أخرج الحسين بن منصور الحلاج، ليقتل، مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم، حتى رأيته، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا، فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً. ثم قتل.

وذكر الخطيب، أنه قال، وهو يضرب لمحمد بن عبد الصمد والي الشرطة: ادع بي إليك، فإن عندي نصيحة، تعدل فتح القسطنطينية، فقال له: قد قيل لي إنك ستقول مثل هذا، وليس إلي رفع الضرب عنك سبيل. ثم قطعت يداه، ورجلاه، وحز رأسه، وأحرقت جثته، وألقي برمادها في دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر، ثم حمل إلى خراسان، وطيف به في تلك النواحي، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم، برجوعه إليهم

بعد أربعين يوماً.

وزعم بعضهم أنه رأى الحلاج من آخر ذلك اليوم، وهو راكب على حمار في طريق النهروان فقال: لعلك مثل هؤلاء البقر، الذين ظنوا أني، أنا هو المضروب المقتول، إني لست به، وإنما ألقي شبهي على رجل، ففعل به ما رأيتم وكانوا بجهلهم يقولون: إنما قتل عدو من أعداء الحلاج فذكر هذا لبعض علماء ذلك الزمان فقال: إن كان هذا الرأي صادقاً فلعل دابة - يعني من الشياطين تبدّى، على صورة الحلاج، ليضل به الناس. كما ضلت فرقة النصارى بالمصلوب.

قال الخطيب: واتفق أن دجلة زادت في هذا العام، زيادة كثيرة فقالوا: إنما زادت؛ لأن رماد الحلاج خالطها.

وللعوام في مثل هذا، وأشباهه، ضروب من الهذيانات، قديماً، وحديثاً.

ونودي ببغداد، أن لا يشتري أحد من كتب الحلاج شيئاً، ولا يبيعه.

وكان قتل الحلاج في يوم الثلاثاء، لست بقين من ذي القعدة، من سنة تسع وثلاثمائة، ببغداد. وذكره القاضي ابن خلكان، في الوفيات [١٤٠/٢ - ١٥٦]، وحكى اختلاف الناس فيه، ونقل عن الغزالي، «في مشكاة الأنوار»، أنه كان يتأوّل كلامه، ويحمله على ما يليق، ثم نقل ابن خلكان، عن إمام الحرمين، أنه كان يذمه، ويقول إنه اتفق هو والجنابي، وابن المقفع، على إفساد عقائد الناس وتفرقوا في البلاد، فكان الجنابي، في هجر، والبحرين، وابن المقفع ببلاد الترك، ودخل الحلاج العراق، فحكم صاحباه عليه بالهلكة، لعدم انخداع أهل العراق بالباطل.

قال ابن خلكان: وهذا لا ينتظم، فإن ابن المقفع، كان قبل الحلاج، بدهر في أيام السفاح والمنصور، ومات سنة خمس وأربعين ومئة أو قبلها ولعل إمام الحرمين، أراد ابن المقنّع الخراساني، الذي ادعى الربوبية، وأدنى القمر، واسمه عطاء، وقد قتل نفسه بالسم، في سنة ثلاث وستين ومائة، ولا يمكن اجتماعه مع الحلاج أيضاً، وإن أردنا تصحيح كلام إمام الحرمين، فنذكر ثلاثة، قد اجتمعوا في وقت واحد، على إضلال الناس، وإفساد العقائد، كما ذكر، فيكون المراد بذلك، الحلاج، وهو الحسين بن منصور، الذي ذكره، وابن الشلمغاني- يعني أبا جعفر محمد بن علي- والقرمطي الجنّابي، وهو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام، الذي قتل الحجاج، وأخذ الحجر الأسود، وردم زمزم بالقتلى ونهب أستار الكعبة، فهؤلاء يمكن اجتماعهم، في وقت واحد، كما ذكرنا ذلك مبسوطا، ذكره ابن خلكان ملخصا.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

أبو العباس بن عطاء أحد أئمة الصوفية: وهو

■ أحمد بن محمد بن عطاء الأدمي حدث عن يوسف بن موسى القطان، والفضل بن زياد، وغيرهما، وكان أبو العباس هذا، يقرأ في كل يوم وليلة ختمة، فإذا كان شهر رمضان قرأ في كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وكانت له ختمة يتدبر فيها معاني القرآن، فمكث فيها سبعة عشرة سنة، ومات ولم يختمها، وهذا الرجل ممن كان اشتبه عليه أمر الحلاج، وأظهر موافقته، فعاقبه الوزير حامد بن العباس، بالضرب البليغ على شدقيه، وأمر بنزع خفيه، وضربه بهما على رأسه، حتى سال الدم من منخريه، ومات بعد سبعة أيام من ذلك، وكان قد دعا على الوزير، بأن تقطع يداه، ورجلاه، ويقتل شر قتلة. فما مات الوزير إلاكذلك.

و■ أبو إسحاق إبراهيم بن هارون الطبيب الحراني

و■ أبو محمد عبد الله بن حمدون النديم.

ثم دخلت سنة عشر وثلثمائة

فيها اطلق يوسف بن أبي الساج من الضيق وكان معتقلا، وردت إليه أمواله، وأعيد إلى عمله، وأضيف إليه بلدان أخرى، ووظف عليه في كل سنة خمسمائة ألف دينار، يحملها إلى الحضرة، فبعث حينئذ إلى مؤنس الخادم، يطلب منه أبا بكر بن الأدمي القارئ. وكان قد قرأ بين يديه، حين اعتقل في سنة إحدى وسبعين ومائتين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فخاف القارئ سطوته واستعفى من مؤنس الخادم فقال له مؤنس: اذهب وأنا شريكك في الجائزة، فلما دخل عليه قرأ بين يديه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فقال: بل أحب أن تقرأ ذلك العشر الذي قرأته عند إشهاري ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فإن ذلك كان سبب توبتي إلى الله عز وجل، وكان ذلك على يديك. ثم أمر له بمال جزيل، وأحسن إليه.

وفيها مرض علي بن عيسى الوزير، فجاءه هارون ابن المقتدر، ليعوده، فبسط له الطريق، فلما اقترب من داره، تحامل، وخرج إليه، فبلغه سلام الخليفة، وجاء مؤنس الخادم معه، ثم جاء الخبر بأن الخليفة قد عزم، على عيادته، فاستعفى من مؤنس الخادم، ثم ركب على جهد عظيم، حتى سلم على الخليفة، لئلا يكلفه الركوب إليه.

وفي هذه السنة، قبض على القهرمانه أم موسى، ومن ينسب إليها، وكان حاصل ماحمل إلى بيت المال من جهتها، ألف ألف دينار.

وفي يوم الخميس منها، لعشر بقين من ربيع الآخر، ولى المقتدر منصب القضاء، أبا الحسين عمر بن الحسين بن علي الشيباني، المعروف بابن الأشناني - وكان من حفاظ الحديث، وفقهاء الناس - ولكنه عزل بعد ثلاثة أيام، وكان قبل ذلك محتسبا ببغداد.

وفيها عزل محمد بن عبد الصمد، عن شرطة بغداد، ووليها نازوك، وخلع عليه.

وفيها في جمادي الآخرة فيها ظهر كوكب، له ذنب، طوله ذراعان، وذلك في برج السنبلة.

وفي شعبان منها، وصلت هدايا نائب مصر، وهو الحسين بن الماذرائي، وفيها بغلة، معها فلوها، وغلام يصل لسانه، إلى طرف أنفه. وفي هذا الشهر قرئت الكتب على المنابر، بما كان من الفتوح ببلاد الروم.

وفيها ورد الخبر، بأنه انشق بأرض واسط، فلوع من الأرض، في سبعة عشر موضعاً، أكبرها طوله ألف ذراع، وأقلها مائتا ذراع، وأنه غرق من أمهات القرى، ألف وثلثمائة قرية.

وحج بالناس إسحاق بن عبد الملك الهاشمي.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو بشر الدولابي:

■ محمد بن أحمد بن حماد أبو سعيد أبو بشر الدولابي، مولى الأنصار، ويعرف بالوراق، أحد أئمة حفاظ الحديث، وله تصانيف حسنة في التاريخ، وغير ذلك، وروى عن جماعة كثيرة

قال ابن يونس: وكان يضعف، توفي وهو قاصد إلى الحج بين مكة والمدينة، بالعرج، في ذي القعدة.

أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله:

■ **محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الإمام أبو جعفر الطبري،** كان مولده في سنة أربع وعشرين ومائتين، وكان أسمر، أعين مليح الجسم، مديد القامة، فصيح اللسان.

روى الكثير عن الجم الغفير، ورحل إلى الآفاق، في طلب الحديث، وله «التاريخ» الحافل، و «التفسير» الكامل، وغيرهما من المصنفات النافعة، في الأصول، والفروع ومن ذلك «تهذيب الآثار»، ولو كمل، لما احتيج معه إلى شيء، ولكان فيه الكفاية، لكنه لم يتمه.

وقد روى عنه، أنه مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم أربعين ورقة

قال الحافظ أبو بكر الخطيب: استوطن ابن جرير بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد أئمة العلماء، ويحكم بقوله، ويرجع إليه لمعرفته، وفضله، وكان قد جمع من العلوم، ما لم يشاركه فيه أحد، من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالما بالسنن، وطرقها، وصحيحها، وسقيمها، وناسخها، ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، عارفا بأيام الناس، وأخبارهم، وله الكتاب المشهور، في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير، لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه «تهذيب الآثار»، لم أر سواه في معناه، إلا أنه لم يتمه، وله في أصول الفقه، وفروعه، كتب كثيرة، واختيارات، وتفرد بمسائل، حفظت عنه.

قال الخطيب: وبلغني عن الشيخ أبي حامد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين، حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري، لم يكن ذلك كثيراً، أو كلاماً هذا معناه.

وروى الخطيب، عن إمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، أنه طالع «التفسير» لابن جرير في سنين من أوله إلى آخره، ثم قال: ما أعلم على أديم الأرض، أعلم من ابن جرير،ولقد ظلمته الحنابلة، وقال لرجل رحل إلى بغداد يكتب الحديث، عن المشايخ- ولم يتفق له سماع من ابن جرير؛ لأن الحنابلة كانوا يمنعون أن يجتمع به أحد- فقال ابن خزيمة: لو كتبت عنه، لكان خيراً لك، من كل من كتبت عنه.

قلت: وكان من العبادة، والزهادة، والورع، والقيام في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وحُسن القراءة على أحسن الصفات، وكان من كبار الصالحين، وهواحد المحدثين، الذين اجتمعوا بمصر، في أيام الأمير طولون، وهم محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني ومحمد بن جرير الطبري هذا.

وقد ذكرنا ذلك في ترجمة محمد بن نصر المروزي، وكان الذي قام يصلي محمد بن إسحاق بن خزيمة، وقيل محمد بن نصر، فرزقهم الله ببركة صلاته.

وقد أراد الخليفة المقتدر بالله، في بعض الاحيان، أن يكتب كتاب وقف، تكون شروطه متفقا عليها بين الفقهاء، فقيل له: لا يقدر على استحضار هذا، إلا محمد بن جرير الطبري، فطلب منه ذلك، فكتب له، فاستدعاه الخليفة إليه، وقال له: سل حاجتك، فقال: لا حاجة لي. فقال لابد أن تسألني شيئا فقال: أسأل من أمير المؤمنين، أن يتقدم أمره إلى الشرطة، حتى يمنعوا السؤال يوم الجمعة، أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع، فأمر الخليفة بذلك. وكان يتفق على نفسه من مَغَلِّ قرية تركها له أبوه بطبرستان.

ومن شعره.

إذا أعسرتُ لم يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

ومن شعره أيضاً:

خلقان لا أرضى طريقهما ... بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فَتِه على الدهر

وقد كانت وفاته وقت المغرب، عشية يوم الأحد، ليومين بقيا من شوال، من سنة عشر وثلاثمائة وقد جاوز الثمانين سنة بخمس، أو ست سنين، وفي شعر رأسه، ولحيته سواد كثير، ودفن في داره؛ لأن بعض الرعاع من عوام الحنابلة،منعوا من دفنه نهاراً، ونسبوه إلى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد، وحاشاه من هذا ومن ذاك أيضاً بل كان أحد أئمة الإسلام في العلم بكتاب الله، وسنة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك، عن أبي بكر محمد بن داود حيث كان يتكلم فيه، ويرميه بالعظائم، وبالرفض.

ولما توفي، اجتمع الناس، من سائر أقطار بغداد، وصلوا عليه بداره، ودفن بها، ومكث الناس يترددون إلى قبره، شهوراً، يصلون عليه رحمه الله.

قلت: وقد رأيت له كتابا، جمع فيه أحاديث غديرخم، في مجلدين ضخمين، وكتابا جمع فيه طرق حديث الطير ونسب إليه، أنه كان يقول، بجواز مسح القدمين في الوضوء، وأنه لا يوجب الغَسْل، وقد اشتهر عنه هذا فمن العلماء، من يزعم أن ابن جرير،اثنان،أحدهما شيعي،وإليه ينسب ذلك،وينزهون أبا جعفر هذا،عن هذه الصفات والذي عول عليه كلامه في التفسير،أنه يوجب غسل القدمين ويوجب مع الغسل دلكهما،ولكنه عبر عن الدلك بالمسح،فلم يفهم كثير من الناس مراده جيداً، فنقلوا عنه،أنه يوجب الجمع بين الغسل، والمسح، والله أعلم.

وقد رثاه جماعة من أهل العلم،منهم ابن الأعرابي حيث يقول:

حدث مفظع وخطب جليل ... دق عن مثله اصطبار الصبور
قام ناعي العلوم أجمع لما ... قام ناعي محمد بن جرير
فهوت أنجم لها زاهرات ... مؤذنات رسومها بالدثور
وتغشى ضياءها النير الإشـ ... ـراق ثوب الدجنة الديجور
وغدا روضها الأنيق هشيماً ... ثم عادت سهولها كالوعور
يا أبا جعفر مضيت حميداً ... غير وان في الجد والتشمير
بين أجر على اجتهادك موفو ... ر وسعي إلى التقى مشكور
مستحقاً به الخلود لدى جنـ ... ـة عدن في غبطة وسرور

ولأبي بكر بن دريد رحمه الله فيه مرثاة طويلة طنانة، وأوردها الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١٦٧/٢] بتمامها، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلاث مئة

فيها دخل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي، أمير القرامطة، في ألف وسبعمائة فارس، إلى البصرة ليلا، نصب السلالم الشعر، في سورها فدخلها قومه، وفتحوا أبوابها، وقتلوا من لقوه من أهلها، وهرب أكثر الناس، فألقوا أنفسهم في الماء، فغرق كثير منهم، ومكث بها سبعة عشر يوماً، يقتل، ويأسر من شاء من نسائها، وذراريها، ويأخذ ما يختاره من أموال أهلها ثم عاد إلى بلده هجر، وذلك لما بعث إليه الخليفة جنداً، من قبله، فرّ، وترك البلد يباباً، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة عزل المقتدر عن الوزارة حامد بن العباس، وعلي بن عيسى، وردها، إلى أبي الحسن بن الفرات الولاية الثالثة، وسلم إليه، حامد بن العباس، وعلي بن عيسى، فأما حامد، فإن المحسن بن الوزير ضمنه، من المقتدر، بخمسمائة ألف دينار، فتسلمه، فعاقبه بأنواع العقوبات، وأخذ منه أموالا جزيلة، لا تحصى، كثرة، ثم أرسل به، مع موكلين عليه، إلى واسط، ليحتاطوا على أمواله، هناك وحواصله، وأمرهم أن يسقوه سماً في الطريق، فسقوه ذلك، في بيض مشوي، كان قد طلبه منهم، فمات في رمضان، من هذه السنة، وأما علي بن عيسى، فإنه صودر بثلاثمائة ألف دينار، وصودر قوم آخرون، من كتّابه، فكان جملة ما أخذ من هؤلاء، مع ما كان صودرت به القهرمانة، من الذهب شيئاً كثيراً جداً، آلاف ألف من الدنانير، وغير ذلك وأشار الوزير ابن الفرات، على الخليفة المقتدر بالله، أن يبعد عنه، مؤنساً الخادم ويأمره بالذهاب إلى الشام - وكان قد قدم من بلاد الروم من الجهاد، وقد فتح شيئاً كثيراً من بلدانهم، وغنم مغانم كثيرة جداً - فسأل أن ينظر، إلى سلخ رمضان، وكان قد أعلم الخليفة، بما كان يعتمده ابن الوزير، من تعذيب الناس، ومصادرتهم الأموال فأجاب الخليفة الوزير إلى إبعاد مؤنس فأخرجه إلى الشام.

وفيها كثر الجراد، وأفسد كثيراً من الغلات.

وفي رمضان منها، أمر بردّ بقية المواريث إلى ذوي الأرحام.

وفيها في رمضان، أحرق على باب العامة، صورة ماني وأربعة أعدال، من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب كثير، كانت محلاة به.

وفيها اتخذ أبو الحسن بن الفرات الوزير، مارستاناً في درب الفضل، ينفق عليه من ماله، في كل شهر، مائتي دينار.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الخلاّل أحمد بن محمد بن هارون: أبو بكر الخلال**، صاحب كتاب «الجامع لعلوم الإمام أحمد»، ولم يصنف في مذهب الإمام أحمد، مثل هذا الكتاب، وقد سمع الحديث من الحسن بن عرفة، وسعدان بن نصر وغيرهما وكانت وفاته يوم الجمعة قبل الصلاة ليومين مضيا من ربيع الأول منها

أبو محمد الجريري: أحد أئمة الصوفية

■ **أحمد بن محمد بن الحسين أبو محمد الجريري**، أحد كبار الصوفية، صحب سرياً السقطي، وكان الجُنيد يكرمه، ويحترمه ولما حضرت الجنيد الوفاة، أوصى أن يجالس الجريري، وقد اشتبه على الجريري هذا شأن الحلاج، فكان ممن أجمل القول فيه، على أن الجريري هذا، مذكور بالصلاح، والديانة، وحسن الأدب مع الله عز وجل

■ **الزجاج صاحب معاني القرآن:**

■ **إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج**، كان فاضلاً ديّناً حسن الاعتقاد، وله المصنفات الحسنة، منها كتاب «معاني القرآن»، وغيره من المصنفات، العديدة المفيدة، وقد كان في أول أمره، يخرط الزجاج، فأحب علم النحو، فذهب إلى المبرد، فكان يعطي المبرد كل يوم درهماً، ثم استغنى الزجّاج، وكثر ماله، ولم يقطع عن المبرّد ذلك الدرهم، حتى مات المبرِّد، وقد كان الزجّاج مؤدباً للقاسم بن عبيد الله فلما ولي الوزارة، كان الناس يأتونه بالرقاع، ليقدمها إلى الوزير، فحصل له بسبب ذلك، ما يزيد على اربعين ألف دينار.وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، وعنه أخذ أبو علي الفارسي النحوي، وأبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، نسب إليه لأخذه عنه، وهو صاحب كتاب «الجُمَل» في النحو.

■ **بدر مولى المعتضد**: وهو بدر الحمامي، ويقال له: بدر الكبير، كان في آخر وقت على نيابة فارس،وولي من بعده ولده محمد.

■ **حامد بن العباس**: الوزير، استوزره المقتدر، في سنة ست وثلاثمائة، وكان كثير المال، والغلمان، كثير النفقات كريماً سخياً، كثير المروءة وله حكايات، تدل على بذله، وإعطائه الأموال الجزيلة، ومع هذا، كان يجمع شيئاً كثيراً، وُجد له في مطمورة ألوف من الذهب، كان في كل يوم، إذا دخل إليها، ألقى فيها ألف دينار، فلما امتلأت طمها، فلما صودر،دل عليها، فاستخرج منها، مال جزيل جداً، ومن أكبر مناقبه، أنه كان من أكبر السعاة، في الحسين بن منصور الحلاج حتى قُتل، كما ذكرنا قبل هذا [تقدم في ٨٣٣/١٤]، ثم كانت وفاة الوزير حامد بن العباس، في رمضان من هذه السنة، مسموماً.

وفيها توفي

■ **عمر بن محمد بن بُجير البحيري**: صاحب «الصحيح».

■ **ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي**، مولى مُجشّر بن مزاحم الإمام أبو بكر بن خزيمة، الملقب بإمام الأئمة، كان من أوعية العلم وبحوره وممن طاف البلدان، ورحل إلى الآفاق، في طلب العلم وسماع الحديث، وكتب الكثير، وصنّف، وجمع، وله كتاب «الصحيح» من أنفع الكتب، وأجلها، وهو من المجتهدين في دين الإسلام، وحكى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، في «طبقات الشافعية» عنه، أنه قال: ما قلدت أحداً، منذ بلغت ست عشرة سنة وقد ذكرنا له ترجمة مطولة، في كتابنا طبقات الشافعية بما فيه كفاية، وهو الذي قام يصلي حين وقعت القرعة عليه ليسترزق الله في صلاته حين أرمل هو ومحمد ابن جرير، ومحمد بن هارون الروياني، وقد أوردها ابن الجوزي من طريقين في ترجمته وذلك ببلد مصرفي دولة أحمد بن طولون فرزقهم الله على يديه. وقد ذكرنا نحو ذلك، في ترجمة الحسن بن سفيان.

وفيها توفي:

■ **محمد بن زكريا الطبيب**، صاحب المصنف الكبير في الطب.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة

في المحرم منها اعترض القرمطي، أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي - لعنه الله، ولعن معه أباه - للحجيج، وهم راجعون من بيت الله الحرام، وقد أدوا فرض الله عليهم، فقطع عليهم الطريق، فقاتلوه، دفعاً عن أموالهم، وأنفسهم، وحريمهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، لا يعلمهم إلا الله عز

وجل، وأسر من نسائهم، وأبنائهم، ما اختاره،واصطفى من أموالهم، ما أراد، فكان مبلغ ما أخذ من الأموال، ما يقاوم ألف ألف دينار، ومن الأمتعة، والمتاجر نحو ذلك، وترك بقية الناس - بعدما أخذ جمالهم، وزادهم، وأموالهم، ونساءهم، على بعد الديار- في البرية، بلا زاد ولا ماء لا محمل وقد حاجف عن الناس، نائب الكوفة، أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان، فقهره، وأسره، فإنا لله وإنا إليه راجعون وكان عدة من مع القرمطي ثمانمائة مقاتل، وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة قصمه الله.

ولما انتهى خبرهم إلى بغداد، قام نساؤهم، وأهاليهم في النياحة، ونشرن شعورهن، ولطمن وجوههن، وانضاف إليهن، نساء الذين نكبوا، على يدي الوزير ابن الفرات فكان ببغداد يوم مشهود، بسبب ذلك في غاية الفظاعة، والشناعة، ولما سأل الخليفة عن الخبر، ذكر له، أنه هذه نسوة الحجيج، ومعهن نساء الذين صادرهم ابن الفرات، وجاءت على يد الحاجب نصر بن القشوري المشورة، على الوزير، وقال: يا أمير المؤمنين، إنما استولى هذا القرمطي، بسبب إبعادك المظفر مؤنساً الخادم المظفر، فطمع هؤلاء في الأطراف، وما أشار عليك بإبعاده، إلا ابن الفرات، وبعث الخليفة المقتدر إلى الوزير ابن الفرات يقول له: إن الناس، يتكلمون فيك، لنصحك إياي وأرسل يطيب قلبه، فركب هو وولده إلى الخليفة، فدخلا عليه، فأكرمهما، وطيب قلوبهما، فخرجا من عنده، فنالهما أذى كثير، من نصر الحاجب، وغيره من كبار الأمراء، وجلس الوزير في دسته، فحكم بين الناس كعادته، وبات ليلته تلك مفكراً في أمره، وأصبح كذلك وهو ينشد:

فأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراءه

ثم جاءه في ذلك اليوم أميران من جهة الخليفة المقتدر، فدخلا عليه داره، إلى بين حرمه، وأخرجوه مكشوفاً رأسه، وهو في غاية المذلة، والإهانة فأركبوه في حراقة إلى الجانب الآخر، وفهم الناس ذلك فرجموا ابن الفرات بالآجر، وتعطلت الجوامع، وسخمت العامة المحاريب ولم يصلِّ الناس الجمعة فيها وأخذ خطه بألفي ألف دينار وأخذ خط ابنه بثلاثة آلاف ألف دينار وسلما إلى نازوك أمير الشرطة فاعتقلا حيناً حتى وخلّص منهما الأموال ثم فلما قدم مؤنس الخادم سلّم إليه الوزير ابن الفرات فأهانه غاية الإهانة، بالضرب، والتقريع له، ولولده المحسن المجرم، الذي ليس بمحسن، ثم قتلا بعد ذلك. فكانت وزارته هذه الثالثة، عشرة أشهر وأياماً واستوزر أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن خاقان، وذلك في تاسع ربيع الأول من هذه السنة وكان الخليفة قد أرسل إلى مؤنس الخادم ليحضر، فدخل بغداد في تجمّل عظيم، وسلم إليه ابن الفرات كما ذكرنا، فعاقبه، وشفع إلى الخاقاني في أن يرسل إلى علي بن عيسى - وكان قد صار إلى صنعاء من اليمن مطروداً- فعاد إلى مكة، ويبعث إليه الوزير، أن ينظر في أمر الشام، ومصر، وأمر الخليفة مؤنساً الخادم، بالمسير إلى ناحية الكوفة، لأجل القرامطة، وأنفق على خروجه إلى هنالك ألف ألف دينار، وأطلق القرمطي من كان أسره من الحجيج، وكانوا ألفي رجل وخمسمائة امرأة، وأطلق أبا الهيجاء نائب الكوفة معهم أيضا، وكتب إلى الخليفة يسأل منه البصرة، والأهواز، فلم يجب إلى ذلك، وركب المظفر مؤنس الخادم في جحافل إلى بلاد الكوفة، فسكن أمرها، ثم انحدر منها إلى واسط خوفاً عليها من القرامطة، واستناب على الكوفة ياقوت الخادم، فتمهدت الأمور، وانصلحت.

وفي هذه السنة، ظهر رجل، بين الكوفة وبغداد، فادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وصدّقه على ذلك طائفة من الأعراب، والطغام، والتفوا عليه، وقويت شوكته في شوال، فأرسل إليه الوزير جيشاً، فقاتلوه، فهزموه، وقتلوا خلقاً من أصحابه، وتفرق بقيتهم وهذا المدعي المذكور هو رئيس الإسماعيلية، أولهم وظفر نازوك صاحب الشرطة بثلاثة من أصحاب الحلاج: وهم حيدرة، والشعراني، وابن منصور، فطالبهم بالرجوع فلم يرجعوا، فضرب رقابهم، وصلبهم في الجانب الشرقي. ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق لكثرة خوف الناس من القرامطة لعنهم الله

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **إبراهيم بن حَمْش أبو إسحاق الواعظ الزاهد النيسابوري**، كان يعظ الناس، فكان من جملة كلامه الحسن، قوله: يضحك القضاء من الحذر، ويضحك الأجل من الأمل، ويضحك التقدير من التدبير، وتضحك القسمة من الجهد والعناء.

■ **علي بن محمد بن الفرات أبو الحسن الوزير**: ولاه المقتدر الوزارة، ثم عزله، ثم ولاه، ثم عزله، ثم ولاه، ثم عزله، هذه السنة، وقتله، وكان ذا مال جزيل جداً: ملك عشرة آلاف ألف دينار، وكان يدخله من ضياعه في، كل سنة ألفاً ألف دينار، وكان ينفق على خمسة آلاف من العلماء والعباد، ويجري عليهم الأرزاق، في كل شهر، أثابه الله، وكان فيه كفاية ونهضة ومعرفة بالوزارة، والحساب، يقال: إنه نظر يوماً في ألف كتاب، ووقع على ألف رقعة، فتعجب من حضره من ذلك، وكانت فيه مروءة وكرم وحسن سيرة، في ولاياته، غير المرة الثالثة فإنه ظلم وغشم وصادر الناس، عن أموالهم، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وقد كان فيه كرم، وسعة في النفقة، ذكر عنده ذات ليلة، أهل الحديث، والصوفية، وأهل الأدب والشعراء والفقهاء، فأطلق من ماله لكل طائفة عشرين ألفا.

وكتب رجل على لسانه، إلى نائب مصر كتاباً، فيه الوصية به إليه فلما وقف عليه المكتوب إليه استراب به، وقال: ما هنا خطة، وأرسل به إلى الوزير فلما وقف عليه الوزير، عرف أنه كذب، وزور، واستشار الحاضرين عنده في الذي زور عليه، فقال بعضهم: ينبغي أن تقطع يده وقال آخر: يقطع إبهامه، وقال «آخر: يضرب ضرباً عنيفاً. فقال الوزير: أو خير من ذلك؟ فأخذ الكتاب، وكتب عليه: نعم هذا خطي، وهو من أخص أصحابي، فلا تترك شيئا مما تقدر عليه من الإحسان، إلا وصلته به فلما عاد الكتاب أحسن نائب مصر، إلى ذلك الرجل، ووصله بنحو من عشرين ألف دينار.

واستدعى ابن الفرات يوماً ببعض الكتاب، فقال له: ويحك! إن نيتي فيك سيئة، وإني في كل وقت، أريد أن أقبض عليك، وأصادرك، مالك، فرأيت في المنام من ليال، وإني قد أمرت بالقبض عليك، فجعلت تمتنع مني، فأمرت جندي أن تقاتل، فجعلوا كلما ضربوك، بشيء من سهام، أو غيرها من السلاح تتقي الضرب برغيف في يدك، فلا يصل إليك بسببه شيء فاعلمني ماقصة هذا الرغيف فقال: أيها الوزير، إن أمي منذ كنت صغيراً، كانت تضع في كل ليلة تحت وسادتي رغيفاً، ثم تصبح فتصدق به عني،ولم يزل ذلك دأبها حتى ماتت ففعلته بعدها فأنا في كل ليلة، أبيت تحت وسادتي رغيفاً، ثم أصبح فأتصدق به، فعجب الوزير من ذلك، وقال: والله لا ينالك مني سوء أبداً، ولقد حسنت نيتي فيك، وأحببتك،

وقد أطال ابن خلكان ترجمته وذكر بعض ما أوردناه [وفيات الأعيان ٣/٤٢١-٤٢٩].

■ محمد بن محمد بن سليمان بن الحارث بن عبد الرحمن: أبو بكر الأزدي الواسطي، المعروف بالباغندي، سمع محمد بن عبد الله بن نمير، وابن أبي شيبة وشيبان بن فروخ، وعلي بن المديني، وخلقاً من أهل الشام، ومصر، والكوفة، والبصرة، وبغداد، ورحل إلى الأمصار البعيدة، وعني بهذا الشأن، واشتغل فيه، فأفرط، حتى قيل: إنه كان ربما سرد بعض الأحاديث بأسانيدها، في الصلاة، وهو لا يشعر، فيسبّح، حتى يتذكر أنه في الصلاة، وكان يقول: أنا أجيب في ثلثمائة ألف مسألة، من الحديث وقد رأى رسول الله ﷺ في المنام، فقال له: يارسول الله، أيما أثبت في الحديث منصور، أو الأعمش؟ فقال له: منصور منصور وقد كان يعاب بالتدليس، حتى قال الدارقطني: هو كثير التدليس، يحدث بما لم يسمع، وربما سرق بعض الأحاديث.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٣/٢٤٧]: لليلة بقيت من المحرم، انقضّ كوكب من ناحية الجنوب، إلى الشمال قبل مغيب الشمس، فأضاءت الدنيا منه، وسمع له صوت كصوت الرعد الشديد.

وفي صفر بلغ الخليفة المقتدر بالله، أن جماعة من الرافضة، يجتمعون في مسجد براثا، فينالون من الصحابة، ولا يصلون الجمعة ويكاتبون القرامطة، ويدعون إلى ولاية محمد بن إسماعيل، الذي ظهر بين الكوفة، وبغداد، ويدعون أنه المهدي، ويتبرءون من المقتدر، وممن يتبعه فأمر بالاحتياط عليهم، واستفتى العلماء في المسجد المذكور فأفتوا بأنه مسجد ضرار يهدم كما هدم مسجد الضرار فضرب من قدر عليه منهم، الضرب المبرح، ونودي عليهم وأمر الخليفة بهدم المسجد المذكور، فهدمه نازوك، وأمر الوزير الخاقاني، فجعل مكانه مقبرة، فدفن فيها جماعة من الموتى.

وخرج الناس للحج في ذي القعدة، فاعترضهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي لعنهما الله، فرجع أكثر الناس إلى بلدانهم، ولم يمكنهم الحج عامهم هذا ويقال: إن بعضهم سأل منه الأمان، ليذهبوا، فأمنهم. وقد قاتله جند الخليفة، فلم يفد ذلك فيه شيئاً، لتمرده، وشدة بأس من معه، وانزعج أهل بغداد من ذلك، وترحل أهل الجانب الغربي، إلى الجانب الشرقي، خوفاً من القرامطة ودخل القرمطي إلى الكوفة، فأقام بها وستة أيام، يأخذ من أموالها، ما يحتاج إليه.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٣/٢٤٩]: وكثر الرطب في هذه السنة ببغداد، حتى بيع كل ثمانية أرطال بحبة، وعمل منه، تمر وحمل إلى البصرة. وعزل المقتدر، وزيره الخاقاني عن الوزارة بعد أن ولاه سنة وستة أشهر ويومين، وولي مكانه أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب الخصيبي لأجل مال بذله من جهة زوجة المحسن بن الفرات وكان ذلك المال سبعمائة ألف دينار، فأمر الخصيبي علي بن عيسى، على الإشراف على ديار مصر، وبلاد الشام، وهو مقيم بمكة، يسير إلى إليها في بعض الأوقات فيعمل ما ينبغي عمله، ثم يرجع إلى مكة شرفها الله سبحانه وتعالى.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ علي بن عبد الحميد بن عبد الله بن سليمان: أبو الحسن الغضائري، سمع القواريري، وعباساً العنبري، وكان من العباد الثقات. قال: جئت يوماً إلى السري السقطي، فدققت عليه بابه، فخرج إليّ، ووضع يده على عضادتي الباب، وهو يقول: اللّهم، اشغل من شغلني عنك بك. قال: فنالتني بركة هذه الدعوة فحججت على قدمي، من حلب إلى مكة، أربعين حجة ذاهباً وآيباً.

أبو العباس السراج الحافظ:

■ محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران بن عبد الله الثقفي مولاهم، أبو العباس السراج، أحد الأئمة الثقات الحفاظ، مولده سنة ثماني عشرة ومائتين، سمع قتيبة، وإسحاق بن راهويه، وخلقاً كثيراً، من أهل خراسان، وبغداد والكوفة، والبصرة، والحجاز، وقد حدث عنه البخاري، ومسلم، وهما أكبر منه، وأقدم ميلاداً، ووفاة، وله مصنفات كثيرة نافعة جداً، وكان يعد من مجابي الدعوة.

وقد رأى في منامه، كأنه يرقى في سُلّم، فصعد فيه تسعاً وتسعين درجة، فما أوّلها على أحد، إلا قال له: تعيش تسعاً وتسعين سنة، فكان كذلك وقد ولد ابنه أبو عمرو، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

قال الحاكم: فسمعت أبا عمرو يقول: فكنت، إذا دخلت المسجد، على أبي، والناس عنده، يقول لهم: هذا عملته، في ليلة، ولي من العمر ثلاث وثمانون سنة.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة

كتب ملك الروم وهو الدمستق لعنه الله إلى أهل السواحل، أن يحملوا إليه الخراج وإلا قاتلهم فأبوا عليه، فركب إليهم، في أول هذه السنة، فعاث في الأرض فساداً، ودخل ملطية، فقتل من أهلها كثيراً وأسر وأقام بها ستة عشر يوماً، وجاء أهلها إلى بغداد، يستنجدون الخليفة عليه.

ووقع ببغداد حريق في مكانين، مات بسببهما خلق كثير، واحترق في أحدهما ألف دار ودكان، وجاءت الكتب بموت الدمستق ملك النصارى لعنه الله فقرئت الكتب على المنابر بذلك. وجاءت الكتب من مكة أن أهلها في غاية الانزعاج، بسبب اقتراب القرمطي إليهم، وقصده إياهم، فرحلوا منها إلى الطائف، وتلك النواحي. وفيها هبت ريح عظيمة، بنصيبين، اقتلعت الأشجار وهدمت البيوت.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٣/٢٥٥]: وفي يوم الأحد، لثمان مضين من شوال منها - وهو سابع كانون الأول - سقط ببغداد ثلج عظيم، جداً، وحصل بسببه برد شديد، بحيث أتلف كثيراً من النخيل، والأشجار، وجمدت الأدهان، حتى الأشربة، وماء الورد، والخل والخلجان الكبار، ودجلة، وعقد بعض مشايخ الحديث مجلس التحديث، على متن دجلة، من فوق الجمد، وكتب عنه الحديث هنالك ثم انكسر البرد بمطر، وقع، فأزال ذلك كله ولله الحمد.

قدم الحجاج من خراسان، إلى بغداد، فاعتذر إليهم مؤنس الخادم، بأن القرامطة قد قصدوا مكة، فرجعوا، ولم يتهيأ الحج في هذه السنة، من ناحية العراق بالكلية.

وفي ذي القعدة عزل الخليفة، وزيره أبا العباس الخصيبي بعد سنة

وشهرين، وأمر بالقبض عليه، وحبسه، وذلك لإهماله أمر الوزارة، والنظر في المصالح، لاشتغاله بالخمر، في كل ليلة، فيصبح مخموراً، لا عقل له، وقد وكل الأمور إلى نوابه، فخانوا، وعملوا مصالحهم، ووُلّي مكانه أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذاني، نيابة عن علي بن عيسى، حتى يقدم، ثم أرسل في طلب علي بن عيسى، وهو في دمشق، فقدم بغداد، في أبهة عظيمة، فنظر في المصالح العامة والخاصة، وردّ الأمور إلى السداد والاستقامة، وتمهدت القواعد واستدعى بالخصيبي، فتهدده، ولامه، وناقشه على ما كان يعتمده، ويفعله، في خاصة نفسه، وفي الأمور العامة، وذلك بحضرة القضاة والأعيان، ثم رده إلى السجن.

وفيها أخذ نصر بن أحمد الساماني، الملقب بالسعيد بلاد الري، وسكنها، إلى سنة ست عشرة.

وفيها غزت الصائفة من بلاد طرسوس، بلاد الروم، فغنموا وسلموا ولم يحج ركب العراق خوفاً من القرامطة لعنهم الله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **سعيد النوبي**، صاحب باب النوبي، من دار الخلافة، ببغداد، توفي في صفر من هذه السنة وأقيم أخوه مكانه، في حفظ هذا الباب الذي صار ينسب بعده إليه.

و■ **محمد بن محمد الباهلي**

و■ **محمد بن عمر بن لبابة القرطبي**.

و■ **نصر بن القاسم الفرائضي الحنفي أبو الليث**، سمع القواريري، وكان ثقة عالماً بالفرائض، على مذهب أبي حنيفة، مقرئاً جليلاً.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة

في صفر منها كان قدوم علي بن عيسى الوزير، من دمشق إلى بغداد وقد تلقاه الناس إلى أثناء الطريق، فمنهم من لقيه إلى الأنبار، ومنهم دون ذلك. وحين دخل إلى الخليفة المقتدر خاطبه الخليفة، فأحسن مخاطبته، وانصرف إلى منزله، فبعث الخليفة وراءه بالفرش، والقماش، وعشرين ألف دينار، واستدعاه من الغد، فخلع عليه، فأنشد وهو في الخلعة:

ما الناسُ إلا معَ الدنيا وصاحبها ... فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظمونَ أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يوماً عليه بما لا يُشتهى وثبوا

وجاءت الكتب، بأن الروم دخلوا سميساط، وأخذوا جميع ما فيها، ونصبوا فيها خيمة الملك، وضربوا الناقوس في الجامع بها، فأمر الخليفة مؤنساً الخادم، بالتجهز للمسير إليهم، وخلع عليه خلعة سنية. ثم جاءت الكتب بأن المسلمين وثبوا على الروم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا غنائم كثيرة جدا، ولله الحمد.

ولما تجهز مؤنس للمسير، جاءه بعض الخدم، فأعلمه، بأن الخليفة، يريد أن يقبض عليه، إذا دخل لوداعه وقد حفرت له زبية في دار الخلافة، مغطاة ليتردى فيها، فأحجم عن الذهاب وجاءت الأمراء إليه، من كل جانب، ليكونوا معه على المقتدر، فبعث إليه المقتدر، رقعة بخطه يحلف له فيها، أن هذا الأمر الذي بلغه ليس بصحيح، فطابت نفسه، وركب إلى دار الخلافة في غلمان قلائل، فلما دخل على الخليفة، خاطبه مخاطبة عظيمة وحلف له أنه طيب القلب عليه، وله عنده الصفاء الذي يعرفه وخرج من بين يديه معظماً مكرماً، وركب أبو العباس ابن المقتدر، والوزير علي بن عيسى ونصر الحاجب في خدمته، لتوديعه، وكبار الأمراء بين يديه مثل الحجبة،وكان خروجه يوما مشهوداً، قاصداً بلاد الثغور لقتال الروم.

وفي جمادى الأولى قبض على رجل خنّاق، قد قتل خلقاً من النساء، لأنه ادّعى أنه يعرف العطف، والتنجيم، فقصده النساء لذلك فإذا انفرد بالمرأة، قام إليها، فخنقها بوتر وأعانته امرأته على ذلك، ثم حفر لها في داره، فدفنها، فإذا امتلأت تلك الدار انتقل عنها إلى غيرها ولما ظهر عليه، وُجد في داره سبع عشرة امرأة قد خنقهن، ثم تتبعت الدور التي سكنها فوجدوه، شيئاً كثيراً قد قُتل من النساء، فضُرب ألف سوط ثم صُلب حياً حتى مات قبّحه الله.

في هذه السنة كان ظهور الديلم ببلاد الري، فكان فيهم ملك، غلب على أمرهم، يقال له: مرداويج، يجلس على سرير من ذهب، وبين يديه سرير من فضة، ويقول: أنا سليمان بن داود وقد سار في أهل الري، وقزوين، وأصبهان، سيرة قبيحة جداً، فكان يقتل النساء والصبيان في المهود ويأخذ أموال الناس، وهو في غاية الجبروت، والشدة والجرأة على محارم الله عز وجل، فقتلته الأتراك، وأراح الله المسلمين من شره و لله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين يوسف بن أبي الساج، وبين أبي طاهر القرمطي، عند الكوفة، فسبقه إليها أبو طاهر، فحال بينه وبينها، فكتب إليه يوسف بن أبي الساج: اسمع، وأطع، وإلا فاستعد للقتال، يوم السبت تاسع شوال من هذه السنة، فقال: هَلُمّ فلما تراءى الجمعان، استقل يوسف بن أبي الساج، وكان معه عشرون ألفاً جيش القرمطي، وكان معه ألف فارس وخمسمائة راجل فقال: وما قيمة هؤلاء الكلاب؟ وأمر الكاتب، أن يكتب بالفتح، قبل اللقاء إلى الخليفة، فلما اقتتلوا ثبتت القرامطة ثباتاً عظيماً، ونزل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي لعنه الله، فحرض أصحابه، وحمل بهم حملة صادقة، فهزموا جند الخليفة، وأسروا يوسف بن أبي الساج، وقتلوا خلقاً كثيراً، من جند الخليفة، واستحوذ على الكوفة، وجاءت الأخبار بذلك إلى بغداد، وشاع بين الناس أن القرمطي يريد أن يقصد بغداد ليأخذها، فانزعج المسلمون لذلك،وظنوا صدقه، فاجتمع الوزير بالخليفة فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأموال إنما تدخر، لتكون عوناً على قتال أعداء الله، وإن هذا الأمر لم يقع بعد زمن الصحابة أفظع منه، قد قطع هذا الكافر طريق الحج على الناس، وفتك في المسلمين مرة بعد مرة، وإن بيت المال ليس فيه شيء، فاتق الله يا أمير المؤمنين وخاطب السيدة ـ يعني أمه ـ فإن كان عندها مال ادخرته لشدة، فهذا وقته. فدخل على أمه فكانت هي التي ابتدأته بذلك، وبذلت له خمسمائة ألف دينار، وكان في بيت المال مثلها، فسلّمها الخليفة إلى الوزير ليصرفها في تنفيذ الجيوش نحو القرامطة، فجهز الوزير جيشاً أربعين ألفاً مع أمير يقال له يلبق، فأخذوا عليه الطرقات، وكان يريد دخول بغداد، ثم التقوا معه فلم يلبث جيش الخليفة أن انهزم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان يوسف بن أبي الساج معهم مقيداً في خيمة فجعل ينظر إلى محل الوقعة، فلما رجع القرمطي قال: أردت أن تهرب؟ ثم أمر به فضربت عنقه. ورجع القرمطي من ناحية بغداد إلى الأنبار. ثم انصرف إلى هيت فأكثر أهل بغداد الصدقة، وكذلك الخليفة وأمه والوزير شكراً لله عز وجل على صرفه عنهم هذا الخبيث ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة بعث المهدي المدعي أنه فاطمي الذي ظهر ببلاد

المغرب ولده أبا القاسم في جيش، فانهزم جيشه وقتل من أصحابه خلق كثير.

واختطت في هذه السنة المحمدية.

وفيها حاصر عبد الرحمن بن الداخل الأموي مدينة طليطلة، وكانوا مسلمين، لكنهم نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه، ففتحها قهراً وقتل خلقاً من أهلها.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن الجصاص الجوهري: الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري أبو عبد الله البغدادي**، كان ذا مال عظيم وثروة متسعة جداً، وكان أصل نعمته من بيت أحمد بن طولون، كان قد جعله جوهرياً له يتسوق له ما يقع من نفائس الجواهر بمصر، فاكتسب بسبب ذلك أموالاً جزيلة جداً.

قال ابن الجصاص: كنت يوماً بباب ابن طولون إذ خرجت القهرمانة وبيدها عقد فيه مائة حبة من الجوهر، تساوي كل واحدة ألف دينار. فقالت: أريد أن تأخذ هذا فتخرطه حتى يكون أصغر من هذا الحجم. فإن هذا نافر على ما يريدونه. فأخذته منها وذهبت به إلى المنزل وحصّلت جواهر أصغر منها تساوي أقل من عشر قيمة تلك الجواهر بكثير، فدفعتها إليها وفزت أنا بذلك الذي جاءت به. فكانت قيمته مائتي ألف دينار. وقد اتفق أنه صودر في أيام المقتدر مصادرة عظيمة، أُخذ منه ما يقاوم ستة عشر ألف ألف دينار، وبقي معه من الأموال شيء كثير جداً. قال بعضهم: دخلت عليه وهو يتردد في منزله كأنه مجنون، فقلت له: ما لك ذا؟ فقال: ويحك! أخذ مني كذا وكذا فأنا أحس أن روحي ستخرج، فعذرته ثم أخذت في تسليته فقلت له: إن دارك وبساتينك وضياعك الباقية لك تساوي سبعمائة ألف دينار، واصدقني كم بقي عندك من الجواهر والمتاع؟ فإذا هو يساوي ثلاثمائة ألف دينار. فقلت: إن هذا الأمر لا يشاركك فيه أحد من التجار ببغداد مع ما لك من الوجاهة عند الدولة والناس. قال: فسري عنه وتسلى عما كان عليه وأكل ـ وكان له ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً ـ ولما خلص من مصادرة المقتدر بشفاعة أمة السيدة فيه حكى عن نفسه قال: نظرت في دار الخلافة إلى مائة خيشة، فيها متاع رث مما حمل إليّ من مصر، وهو عندهم بدار مضيعة وكان لي في كل حمل منها ألف دينار موضوعة فيه من مصر لا يشعر بها أحد، فاستوهبت ذلك من أم المقتدر فكلمت في ذلك ولدها فأطلقه لي فتسلمته فإذا الذهب لم ينقص منه شيء.

وقد كان مع ذلك مغفلاً شديد التغفل في كلامه وأفعاله، وقد ذكر عنه أشياء تدل على ذلك، وقيل: إنه إنما كان يفعل ذلك ليظهر أنه مغفل، وقيل: إنه كان يقول ذلك على سبيل البسط والدعابة والله تعالى أعلم.

وفيها توفي:

■ **عبد الله بن محمد القزويني.**

و■ علي بن سليمان بن المفضل: أبو الحسن الأخفش، روى عن المبرد وثعلب واليزيدي وغيرهم، وعنه المرزباني والمعافى وغيرهما. وكان ثقة في نقله، فقيراً في ذات يده، توصل إلى أبي علي بن مقلة حتى كلم فيه الوزير علي بن عيسى في أن يرتب له شيئاً فلم يجبه إلى ذلك، وضاق به الحال حتى كان يأكل اللفت النيء فمات فجأة من كثرة أكله وذلك في شعبان من هذه السنة. وهذا هو الأخفش الصغير، والأوسط هو سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه. وأما الأكبر فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، من أهل هجر، وهو شيخ سيبويه وأبي عبيد وغيرهما.

أبو بكر

■ **محمد بن السري السراج النحوي** صاحب «الأصول» في النحو. قاله ابن الأثير.

و■ **محمد ابن المسيب الأرغياني.**

ثم دخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة

فيها عاث القرمطي -لعنه الله وهو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي - في الأرض فساداً، حاصر الرحبة فدخلها قهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وطلب منه أهل قرقيسيا الأمان فأمنهم، وبعث سرايا إلى ما حولها من الأعراب فقتل منهم خلقاً أيضاً، حتى صاروا إذا سمعوا بذكره يهربون من سماع اسمه، وقرر على الأعراب إتاوة يحملونها إلى هجر في كل سنة، عن كل رأس ديناران. وعاث في نواحي الموصل فساداً، وسنجار، وتلك الديار وقتل وسلب ونهب. فقصده مؤنس الخادم فلم يتواجها بل رجع إلى بلده فابتنى بها داراً سماها دار الهجرة، ودعا إلى المهدي الذي ببلاد المغرب باني المهدية. وتفاقم أمره وكثر أتباعه وصاروا يكبسون القرية من أرض السواد فيقتلون أهلها وينهبون أموالها، ورام في نفسه دخول الكوفة وأخذها فلم يقدر على ذلك وعصمها الله منه. ولما رأى الوزير علي بن عيسى ما يفعل هذا الهجري القرمطي ببلاد الإسلام، والخليفة وجيشه ضعفاء عن مقاومته استعفى من الوزارة، وعزل نفسه عنها، فسعى فيها أبو علي بن مقلة الكاتب المشهور، فوليها بسفارة نصر الحاجب وأبي عبد الله البريدي ـ بالباء الموحدة من البريد ـ، ويقال: اليزيدي لخدمة جده يزيد بن منصور الحميري. ثم جهز الخليفة جيشاً كثيفاً مع مؤنس الخادم فاقتتلوا مع القرامطة فقتلوا من القرامطة خلقاً كثيراً، وأسروا منهم طائفة كثيرة من أشرافهم، ودخلوا مع مؤنس الخادم إلى بغداد والأسارى بين يديه وأعلام من أعلامهم بيض منكسة مكتوب عليها: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: ٥]. ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، وطابت أنفس أهل بغداد، وانكسر شر القرامطة الذين كانوا قد نشؤوا وكثروا وأظهروا رؤوسهم بأرض العراق ونهبوا كثيراً من القرى، وفوّضوا أمرهم إلى رجل يقال له حريث بن مسعود لا أسعده الله، ودعوا إلى المهدي الذي ظهر ببلاد المغرب وبنى المهدية جد الخلفاء الفاطميين، وهم أدعياء فيما ذكروا لهم من النسب، كما نص ذلك غير واحد من أئمة العلماء. كما سيأتي تفصيله وبيانه في موضعه.

وفيها وقعت وحشة بين مؤنس الخادم والمقتدر، وسبب ذلك أن نازوك أمير الشرطة وقع بينه وبين هارون بن غريب ـ وهو ابن خال المقتدر ـ فانتصر هارون على نازوك وشاع بين العامة أن هارون سيصير أمير الأمراء. فبلغ ذلك مؤنساً الخادم وهو بالرقة فأسرع الأوبة إلى بغداد، واجتمع بالخليفة فتصالحا، ثم إن الخليفة نقل هارون إلى دار الخلافة فقويت الوحشة بينهما، وانضم إلى مؤنس جماعة من الأمراء وترددت الرسل بينهما، وانقضت هذه السنة والأمر كذلك. وهذا كله من ضعف الأمور واضطرابها وكثرة الفتن وانتشارها.

وفيها كان مقتل

■ **الحسن بن القاسم الداعي العلوي** صاحب الري على يد صاحب

الديلم وسلطانهم مرداويج المجرم قبحه اللّه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بُنان بن محمد بن حمدان بن سعيد: أبو الحسن الزاهد، ويعرف بالحمال، روى الحديث عن الحسن بن عرفة وكان يضرب بزهده المثل. وكانت له كرامات كثيرة، ومنزلة كبيرة عند الناس، وكان لا يقبل من السلطان شيئاً، وقد أنكر يوماً على ابن طولون شيئاً من المنكرات وأمره بالمعروف، فأمر به فألقي بين يدي الأسد، فكان الأسد يشمّه ويحجم عنه، فرُفع من بين يديه، وعظّمه الناس جداً.

وقد سأله بعض الناس: كيف كان حالك وأنت بين يدي الأسد؟ فقال: لم يكن عليّ بأس. قد كنت أفكر في سؤر السباع أهو طاهر أم نجس.

قالوا: وجاءه رجل فقال له: إن لي على رجل مائة دينار، وقد ذهبت الوثيقة، وأنا أخشى أن ينكر الرجل، فأسألك الدعاء. فقال له: إني رجل قد كبرت، وأنا أحب الحلواء، فاذهب فاشتر لي منها رطلاً وأتني به حتى أدعو لك. فذهب الرجل فاشترى ثم جاء ففتح الورقة التي فيها الحلواء فإذا هي حجته بالمائة دينار. فقال له الشيخ: أهذه حجتك؟ قال: نعم. قال: خذها وخذ الحلواء فأطعمها صبيانك. ولما توفي خرج أهل مصر في جنازته تعظيماً لشأنه وإكراماً له.

و■ محمد بن خُريم.

و■ محمد بن عقيل البلخي.

و■ أبو بكر بن أبي داود السجستاني الحافظ ابن الحافظ رحمهما اللّه.

و■ أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الإسفراييني، صاحب «الصحيح» المخرج على «صحيح مسلم»، وقد كان من الحفاظ المكثرين، والأئمة المشهورين.

و■ نصر الحاجب للخليفة المقتدر، كان من خيار الأمراء، ديناً عاقلاً، أنفق من ماله في حرب القرامطة مائة ألف دينار. وخرج بنفسه محتسباً فمات في أثناء الطريق من هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة

فيها كان خلع المقتدر وتولية القاهر محمد بن المعتضد باللّه أخي المقتدر باللّه: في المحرم من هذه السنة اشتدت الوحشة بين مؤنس الخادم والخليفة فالتف الأمراء على مؤنس الخادم، وتفاقم الحال وآل إلى أن اجتمعوا على خلع المقتدر باللّه وتوليه محمد بن المعتضد، فبايعوه بالخلافة وسلموا عليه بها، ولقبوه القاهر باللّه. وذلك ليلة السبت للنصف من المحرم من هذه السنة، وقُلّد علي بن مُقْلَة وزارته، ونهبت دار المقتدر، ووُجد منها شيئاً كثيراً جداً، وأخذوا لأم المقتدر ستمائة ألف دينار قد دفنتها في قبر بتربتها ـ فحملت إلى بيت المال، وأخرج المقتدر وأمه وخالته وخواصّ جواريه من دار الخلافة، وذلك بعد محاصرة دار الخلافة، وهرب من كان بها من الحَجَبة والخدم منها، وولي نازوك الحجوبة مُضافاً إلى ما بيده من الشرطة، وألزم المقتدر بأن كتب على نفسه كتاباً بالخلع من الخلافة وأشهد على نفسه بذلك جماعة من الأمراء والأعيان، وسلّم الكتاب إلى القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، فقال لولده أبي الحسين: احتفظ بهذا الكتاب فلا يرينّه أحدٌ من خلق اللّه. فلما أعيد المقتدر إلى الخلافة بعد يومين رده إليه، فشكره على ذلك جداً وولاّه قضاء القضاة. ولما كان يوم الأحد السادس عشر من المحرم جلس القاهر باللّه في منصب الخلافة، وجلس بين يديه الوزير أبو علي بن مقلة، وكتب إلى العمال بالآفاق يخبرهم بولاية القاهر بالخلافة عوضاً عن المقتدر، وأطلق علي بن عيسى من السجن، وزاد في أقطاع جماعة من الأمراء الذين قاموا بنصره، منهم أبو الهيجاء بن حمدان.

فلما كان يوم الاثنين جاء الجند وطلبوا أرزاقهم وشغبوا، وساروا إلى نازوك فقتلوه - وكان مخموراً - ثم صلبوه. وهرب الوزير ابن مقلة، والحجبة ونادوا يا مقتدر يا منصور، ولم يكن مؤنس يومئذ حاضراً، وجاءت الجنود إلى بابه يطالبونه بالمقتدر، فأغلق بابهم وحاجف دونه خدمه. فلما رأى مؤنس أنه لا بد من تسليم المقتدر إليهم أمره بالخروج، فخاف أن يكون حيلةً عليه، ثم تجاسر فخرج فحمله الرجال على أعناقهم حتى أدخلوه دار الخلافة، فسأل عن أخيه القاهر وأبي الهيجاء بن حمدان ليكتب لهما أماناً، فما كان عن قريب حتى جاءه خادم ومعه رأس أبي الهيجاء قد احتزه وأخرجه من بين كتفيه وجاء المقتدر باللّه فجلس في الدَّسْت، واستدعى القاهر فأجلسه بين يديه واستدناه إليه، وقبّل بين عينيه، وقال: يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك قُهِرْت ـ والقاهر يقول: اللّه اللّه! نفسي نفسي يا أمير المؤمنين. فقال: وحق رسول اللّه ﷺ لا جرى عليك مني سوء أبداً. وعاد ابن مقلة فكتب إلى الآفاق يعلمهم بعود المقتدر، وتراجعت الأمور إلى حالها الأول ببغداد، واستقر المقتدر في الخلافة كما كان وحُمل رأس نازوك وأبي الهيجاء بن حمدان، فنودي عليهما: هذا جزاء من عصى مولاه وهرب أبو السرايا بن حمدان إلى الموصل، وكان ابن نفيس من أشد الناس على المقتدر، فلما عاد إلى الخلافة خرج من بغداد مُتنكراً فدخل الموصل، ثم صار إلى أرمينية، ثم لحق بمدينة القسطنطينية فتنصر مع أهلها لعنه اللّه وإياهم وأما مؤنس فإنه لم يكن في الباطن على المقتدر وإنما وافق جماعة الأمراء مُكرهاً، ولهذا لما أودع المقتدر في داره لم ينله منه سوء، بل كان يطيّب قلبه، ولو شاء لقتله لما طلب من داره. فلهذا لما عاد إلى الخلافة رجع إلى دار مؤنس فبات بها عنده، لثقته به. وقرر أبا علي بن مقلة على الوزارة، وولى محمد بن يوسف أبا عمر قضاء القضاة، وجعل محمداً أخاه ـ وهو القاهر باللّه ـ عند والدته بصفة مُحتَبَس عندها، فكانت تحسن إليه غاية الإحسان، وتشتري له السراري وتكرمه غاية الإكرام.

ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم ما كان منهم إلى الحجيج لعن اللّه القرامطة

فيها خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمي فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافت الركوب هناك من كل جانب، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج عليهم في جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل الناس في رحاب مكة وشعابها حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابيّ - لعنه اللّه - على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، في المسجد الحرام في الشهر الحرام ثم في يوم التروية، الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول:

أنا باللّه وباللّه أنا ... يَخلُقُ الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يُجدي ذلك عنهم

شيئاً، بل يُقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فلما وجب أنشد وهو كذلك:

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لايدرون كم لبثوا

فلما أمر القرمطي لعنه الله أن تدفن القتلى ببئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم وحتى في المسجد الحرام - ويا حبذا تلك القتلة وتلك الضجعة - ولم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم لأنهم شهداء في نفس الأمر، بل من خيار الشهداء وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلاً أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فأراد أن يقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات لعنه الله وصار إلى أمة الهاوية. فانكف اللعين عند ذلك عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، وجاءه رجل فضرب الحجر بمثقل في يده وقال: أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود شرفه الله وكرمه وعظمه وأخذوه معهم حين راحوا إلى بلادهم، فكان عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردوه، كما سنذكره في موضعه في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما رجع القرمطي إلى بلاده تبعه أمير مكة هو وأهل بيته وجنده وسأله وتشفّع إليه في أن يرد الحجر ليوضع في مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال فلم يفعل - لعنه الله - فقاتله أمير مكة فقتله القرمطي وقتل أكثر أهله وجنده، واستمر ذاهباً إلى بلاده ومعه الحجر الأسود وأموال الحجيج.

وقد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذي ﴿لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ [الفجر: ٢٦] وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنيع أنهم كانوا كفاراً زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنين ببلاد إفريقية من أرض المغرب، ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح. وقد كان صبّاغاً بسَلَمْيَة، يهودياً فادعى أنه أسلم ثم سار منها إلى بلاد إفريقية، فادعى أنه شريف فاطمي، فصدّقه على ذلك طائفة كثيرة من البربر وغيرهم من الجهلة، وصارت له دولة، فملك مدينة سجلماسة، ثم ابتنى مدينة وسماها المهدية، وكان قرارُ ملكه بها، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويَدْعون إليه، ويترامَوْن عليه، ويقال: إنهم إنما كانوا يفعلون ذلك سياسة ودولة لا حقيقة له.

وذكر ابن الأثير [الكامل ٢٠٨/٨] أن المهدي هذا كتب إلى أبي طاهر القرمطي يلومه على فعله بمكة حيث سلط الناس على الكلام في عرضهم، وانكشفت أسرارهم التي كانوا يبطنونها بما ظهر من صنيعهم هذا القبيح، وأمره برد ما أخذ منها، وعَوْده إليها. فكتب إليه بالسمع والطاعة، وأنه قد قبل ما أشار إليه من ذلك.

وقد أُسِر بعض أهل الحديث في أيدي القرامطة، فمكث في أيديهم مدة، ثم فرّج الله عنه، وكان يحكي أن الذي أسره كان يستخدمه في أشق الخدمة وأشدها وأنه كان يُعربد عليه إذا سكر. فقال لي ذات ليلة وهو سكران: ما تقول في محمدكم؟ فقلت: لا أدري. فقال: كان رجلاً سائساً. ثم قال: ما تقول في أبي بكر؟ فقلت: لا أدري. فقال: كان ضعيفاً مهيناً. وكان عمر فظاً غليظاً. وكان عثمان جاهلاً أحمق. وكان علي مُمَخْرَقاً أليس كان عنده أحد يُعلّمه ما ادّعى أنه في صدره من العلم، أما كان يمكنه أن يُعلِّم هذا كلمة وهذا كلمة؟ ثم قال: هذا كله مخرقة. فلما كان الغد قال لي: لا تخبر بهذا الذي قلته لك أحداً. رواه ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ٢٨٢/١٣، ٢٨٣].

وروى [المنتظم ٢٨١/١٣، ٢٨٢] عن بعضهم أنه قال: كنت في المسجد الحرام يوم اقتُلع الحجر الأسود إذ دخل رجل وهو سكران راكب على فرسه فصفر لها حتى بالت في المسجد الحرام في مكان الطواف، ثم حمل على رجل كان إلى جانبي فقتله، ثم نادى بأعلى صوته: يا حمير، أليس قُلتم في بيتكم هذا ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ [آل عمران: ٩٧]؟ فأين الأمن؟ قال: فقلت له: أتسمع جواباً؟ قال: نعم: قلت: إنما أراد الله: فأمِّنوه. قال: فثنى رأس فرسه وانصرف. وقد سأل بعضهم ههنا سؤالاً. فقال: قد أحلّ الله عز وجل بأصحاب الفيل - وكانوا نصارى وهؤلاء شر منهم - ما ذكره في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾، ومعلوم أن القرامطة شر من اليهود والنصارى والمجوس، بل ومن عبدة الأصنام، فهلاً عوجلوا بالعقوبة، كما عوجل أصحاب الفيل؟ وقد أجيب عن ذلك بأن أصحاب الفيل إنما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت الحرام، ولما يُراد به من التشريف والتعظيم بإرسال النبي الكريم ﷺ، من البلد الذي كان هذا البيت فيه ليعلم شرف هذا الرسول الكريم الذي هو خاتم الأنبياء، فلما أراد هؤلاء إهانة هذه البقعة التي يراد تشريفها عما قريب أهلكهم سريعاً عاجلاً غير آجل عما جاء في كتابه، وأما هؤلاء فكان من أمرهم ما كان بعد تقرير الشرائع وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة، وكل مؤمن يعلم أن هؤلاء من أكبر الملحدين الكافرين، بما تبين من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فلهذا لم يَحْتج الحال إلى معاجَلتهم بالعقوبة، بل أخّرهم الرب جل جلاله ليوم تشخص فيه الأبصار، والله سبحانه وتعالى يُمهل ويُملي ويستدرج ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، كما قال رسول الله ﷺ [البخاري (٤٦٨٦)(٢٥٨٣)] «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ [هود: ١٠٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقال تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وقال تعالى ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٧٠].

وفيها وقعت فتنة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروزي الحنبلي، وبين طائفة من العامة، اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء: ٧٩]. فقال الحنابلة: يجلسه معه على العرش. وقال الآخرون: المراد بذلك الشفاعة العظمى فاقتتلوا بسبب ذلك وقُتل بينهم قتلى، فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد ثبت في «صحيح البخاري» [البخاري (١٤٧٥، ٦٥٦٥، ٧٤٤٠، ٤٧١٨)] أن المراد بذلك مقام الشفاعة العظمى، يشفع عند الله عز وجل في أن يأتي لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ويغبطه به الأولون والآخرون.

وفيها وقعت فتنة بالموصل بين العامة فيما يتعلق بأمر المعاش،

وانتشرت وكثر أهل الشر فيها واستظهروا، وجرت بينهم شرور ثم سكنت.

وفيها وقعت فتنة ببلاد خراسان بين بني سامان وأميرهم نصر بن أحمد الملقب بالسعيد.

وخرج في شعبان خارجي بالموصل. وخرج آخر بالبواريج، فقاتلهم أهل تلك الناحية حتى سكن شرهم وتفرق أصحابهم.

وفيها التقى مفلح الساجي وملك الروم الدمستق، فهزمه مفلح وطرد وراءه إلى أرض الروم، وقتل منهم خلقاً كثيراً ولله الحمد.

وفيها هبت ريح شديدة ببغداد تحمل رملاً أحمر يشبه رمل أرض الحجاز. فامتلأت منه البيوت.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن الحسن بن الفرج بن شقير أبو بكر النحوي، كان عالماً بمذهب الكوفيين وله فيه تصانيف.

■ أحمد بن مهدي بن رستم: العابد الزاهد أنفق في طلب العلم ثلاثمائة ألف درهم ومكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراش.

وقد روى الحافظ أبو نعيم بسنده عنه أنه جاءته امرأة ذات ليلة فقالت له: إني قد امتحنت بمحنة أكرهت على الزنى وأنا حُبلى منه، وقد تسترتُ بك وزعمت أنك زوجي، وأن هذا الحمل منك، فاسترني سترك الله ولا تفضحني. فسكتُّ عنها، فلما وضعت جاءني أهل المحلّة وإمام مسجدهم يهنئونني بالولد، فأظهرت البشر وبعثت فاشتريت بدينارين شيئاً حلواً وجعلتُ أُرسل إليها مع إمام المسجد كل شهر دينارين صفة نفقة الولد، وأقول: اقرئها مني السلام فإنه قد سبق مني ما فرق بيني وبينها. فمكثت كذلك سنتين، ثم مات المولود فجاؤوني يعزونني فيه، فأظهرت التغمم والحزن عليه، ثم جاءتني المرأة بالدنانير التي كنت أرسل بها إليها قد جعلتها عندها، فقالت لي: سترك الله وجزاك خيراً، وهذه الدنانير التي كنت ترسل بها. فقلت: يا هذه إني إنما كنت أرسل بها صلةً للولد فخذيها. فافعلي بها ما شئت.

■ بدر بن الهيثم بن خلف بن خالد بن راشد بن الضحاك بن النعمان بن محرق بن النعمان بن المنذر، أبو القاسم اللخمي القاضي الكوفي. نزل بغداد وحدّث بها عن أبي كُريب وغيره، وكان سماعه للحديث بعد ما جاوز أربعين سنة، وكان ثقةً نبيلاً، عاش مائة سنة وسبع عشرة سنة. وكانت وفاته في شوال من هذه السنة بالكوفة.

■ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه أبو القاسم البغوي، ويعرف بابن بنت أحمد بن منيع، ولد سنة ثلاث عشرة، وقيل: أربعةَ عشرة ومائتين. ورأى أبا عبيد القاسم بن سلّام، ولم يسمع منه، وسمع من أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى ابن معين، وعلي بن الجعد، وخلف بن هشام البزار، وخلق، وكان معه جُزء فيه سماعه من ابن معين فأخذه منه موسى بن هارون الحافظ فرماه في دجلة، وقال: أتريد أن يُجمع بين الثلاثة؟! وقد تفرد عن سبع وثمانين شيخاً، وكان ثقة حافظاً ضابطاً، روى عنه الحفاظ وله مصنفات.

قال موسى بن هارون الحافظ: كان ابن صنيع ثقة صدوقاً، فقيل له: إن ههنا ناساً يتكلّمون فيه. فقال: يحسدونه، ابن منيع لا يقول إلا الحق.

وقال ابن أبي حاتم وغيره: يَدْخل في الصحيح.

وقال الدارقطني: كان البغوي قلما يتكلم على الحديث، فإذا تكلم كان كلامه كالمسمار في الساج. وقد ذكره ابن عدي في «كامله» [الكامل ٤/١٥٧٨، ١٥٧٩] فتكلم فيه، وقال: حدث بأشياء أُنكرت عليه. وكان معه طرف من معرفة الحديث والتصانيف، وقد انتدب ابن الجوزي للرد على ابن عدي في هذا الكلام [المنتظم ٣/٢٨٨، ٢٨٩]، وذكر أنه توفي ليلة عيد الفطر منها. وقد استكمل مائة سنة وثلاث سنين وشهوراً، وهو مع ذلك صحيح السمع والبصر والأسنان، يطأ الإماء. وكانت وفاته ببغداد ودفن بمقبرة باب التبن. رحمه الله وأكرم مثواه.

■ محمد بن أبي الحسين بن محمد بن عمّار: الشهيد الحافظ أبو الفضل الهروي، يعرف بابن أبي سعد، قدم بغداد وحدث بها عن محمد بن عبد الله الأنصاري. وحدث عنه ابن المظفر الحافظ، وكان من الثقات الأثبات الحفاظ المتقنين، له مناقشات على بضعة وثلاثين حديثاً من «صحيح مسلم»، قتلته القرامطة يوم التروية بمكة في هذه السنة في جملة من قتلوا، رحمه الله وأكرم مثواه. وجعل جنات الفردوس متقلبه ومثواه.

■ الكعبي المتكلم: هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي، نسبةً إلى بني كعب، وهو أحد مشايخ المعتزلة، وتنسب إليه الطائفة الكعبية منهم.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣/٤٥]: كان من كبار المتكلمين، وله اختيارات في علم الكلام. من ذلك أنه كان يزعم أن أفعال الله تقع بلا اختيار منه ولا مشيئة.

هكذا أورده عنه. وقد خالف الكعبي نص القرآن في غير ما موضع. قال الله تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٨]. وقال: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ [الإسراء: ١٦] إلى غير ذلك مما هو معلوم بالضرورة بصريح العقل والنقل.

ثم دخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة

فيها عزل الخليفة المقتدر بالله وزيره أبا علي بن مقلة، فكانت مدة وزارته سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام، واستوزر مكانه سليمان بن الحسن بن مخلد، وجعل علي بن عيسى ناظراً معه.

وفي جمادى الأولى منها أُحرقت دار أبي علي بن مقلة، وكان قد أنفق عليها مائة ألف دينار، فانتهب الناس أخشابها وما وجدوا فيها من حديد ورصاص وغير ذلك، وصادره الخليفة بمائتي ألف دينار.

وفيها طرد الخليفة الرجّالة الذين كانوا بدار الخلافة عن بغداد، وذلك أنهم لما ردّوا المقتدر إلى الخلافة شرعوا يُنفِّسون بكلام كثير عليه، يقولون: من أعان ظالماً سُلّط عليه، ومَنْ أصعد الحمار إلى السطح يقدر أن ينزله. فأمر بإخراجهم عن بغداد، ومن أقام منهم عوقب. فأحرقت دور كثيرة من قراباتهم، واحترق بعض نسائهم وأولادهم، فخرجوا منها في غاية الإهانة، فنزلوا واسطاً وتغلّبوا عليها وأخرجوا عاملها منها، فركب إليهم مؤنس الخادم فأوقع بهم بأساً شديداً، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فلم تقم لهم بعد ذلك راية.

وفي ربيع الأول منها عزل الخليفة ناصر الدولة بن حمدان عن الموصل، وولى عليها عميه سعيداً ونصراً ابني حمدان. وولاّه ديار ربيعة: نصيبين

وسنجار والخابور ورأس العين، ومعها ميَّافارقين وأرزن، ضمن ذلك من الخليفة بمال يحمله في كل سنة.

وفي جمادى الأولى منها خرج رجل ببلاد البوازيج يقال له: صالح بن محمود، فاجتمع عليه جماعة من بني مالك، ثم سار إلى سنجار فحاصرها فدخلها وأخذ شيئاً كثيراً من أموالها، وخطب بها خطبة ووعظ فيها وذكّر وحذّر، فقال في جملة ما قال: نتولى الشيخين ونتبرأ من الخبيثين، ولا نرى المسح على الخفين. ثم سار فعاث في الأرض فساداً. فانتدب له نصر بن حمدان فقاتله فأسر صالح بن محمود ومعه ابنان له. فحمل إلى بغداد فدخلها وقد اشتهر شهرة فظيعة.

وخرج آخر ببلاد الموصل فاتبعه ألف رجل، فحاصر أهل نصيبين فخرجوا إليه فاقتتلوا معه، فقتل منهم مائةً وأسر ألفاً، ثم باعهم نفوسهم وصادر أهلها بأربعمائة ألف درهم، فانتدب إليه ناصر الدولة بن حمدان فقاتله فظفر به فأسره، وأرسله إلى بغداد أيضاً و لله الحمد.

وفيها خلع ا الخليفة على ابنه هارون وركب معه الوزير والجيش، وأعطاه نيابة فارس وكرمان وسجستان ومكران، وخلع على ابنه أبي العباس الراضي وجعله نائب بلاد المغرب ومصر والشام، ويكون مؤنس الخادم يسد عنه أمورها.

وحج بالناس في هذه السنة عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي. وخرج الحجيج بخُفارة وبَذرقة حتى سلموا في الذهاب والإياب من القرامطة و لله الحمد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن إسحاق بن البُهْلول بن حسان بن أبي سنان أبو جعفر التنوخي** القاضي الحنفي، العدل الثقة الرِّضي. وكان فقيهاً ثقةً نبيلاً، سمع الحديث الكثير، وروى عن أبي كريب حديثاً واحداً، وكان عالماً بالنحو، فصيح العبارة، جيد الشعر، محموداً في الأحكام. اتفق أن السيدة أم المقتدر وقفت وقفاً وجعل الحاكم هذا عنده نسخة به في سلة الحكم، ثم أرادت أن تنقض ذلك الوقف فطلبت الحاكم وأن يُحضر معه كتاب الوقف لتأخذه منه فتعدمه، فلما حضر من وراء الستارة فهم المقصود فقال لها: لا يمكن هذا، لأني خازن المسلمين، فإما أن تعزلوني عن القضاء وتولوا على هذا غيري، وإما أن تتركوا هذا الذي تريدونه، فلا سبيل إليه وأنا حاكم. فشكته إلى ولدها المقتدر فشفع عنده المقتدر بذلك، فذكر له صورة الحال. فرجع إلى أمه فقال لها: إن هذا الرجل ممن يُرغب فيه، ولا سبيل إلى عزله ولا التلاعب به. فرضيت عنه وبعثت تشكره على ما صنع من ذلك. فقال: من قدم أمر الله على أمر العباد كفاه الله شرَّهم. وقد كانت وفاته في هذه السنة. وقد جاوز الثمانين.

■ **يحيى بن محمد بن صاعد أبو محمد** مولى أبي جعفر المنصور، رحل في طلب الحديث، وكتب وسمع وحفظ، وكان من كبار الحفاظ وشيوخ الرواية، وكتب عنه جماعة من الأكابر، وله تصانيف تدل على حفظه وفقهه وفهمه. وكانت وفاته بالكوفة في هذه السنة وله تسعون سنة.

■ **الحسن بن علي بن أحمد بن بشار بن زياد**: المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني، الشاعر المشهور، وكان أحد سُمّار الخليفة المعتضد بالله وله مرثاة طنّانة في هرٍّ له، قتله جيرانه؛ لأكله أفراخ الحمام من أبراجهم. وفيها آداب ورقة، ويقال إنه أراد بها رثاء ابن المعتز لكنه لم يتجاسر أن ينسبها إليه من الخليفة المقتدر بالله، لأنه هو الذي قتله. وأولها:

يا هرُّ فارقتنا ولم تعُد ... وكنت عندي بمنزل الولد

وهي خمسةٌ وستون بيتاً.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة

في المحرم من هذه السنة دخل الحجيج بغداد، وقد خرج مؤنس الخادم للحج في هذه السنة في جيش كثيف، خوفاً من القرامطة، ففرح المسلمون بذلك وزُينت بغداد يومئذ وضربت الخيام والقباب لمؤنس الخادم، وقد بلغ مؤنساً في أثناء الطريق أن القرامطة أمامه، فعدل بالناس عن جادة الطريق، فأخذ بهم في شعاب وأودية فتاهوا هناك أياماً، فشاهد الناس هنالك عجائب وغرائب، رأوا عظاماً في غاية الضخامة، وشاهدوا ناساً قد مُسخوا حجاراً - ورأى بعضهم امرأة واقفةً على تنّور قد مسخت حجراً، والتنور قد صار حجرا. وحمل مؤنس من ذلك شيئاً كثيراً إلى الحضرة ليُصدِّق ما يخبر به من ذلك. ذكره ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ٢٩٩/١٣]. فيقال: إنهم من قوم عاد من ثمود فالله أعلم.

وفيها عزل المقتدر سليمان بن الحسن الوزير بعد سنة وشهرين وتسعة أيام، واستوزر مكانه أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذاني، ثم عزله بعد شهرين وثلاثة أيام، واستوزر الحسين بن القاسم ثم عزله أيضاً.

وفيها وقعت وحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم، بسبب أن الخليفة ولّى الحسبة لرجل اسمه محمد بن ياقوت، وكان أميراً على الشرطة أيضاً، فقال مؤنس: إن الحسبة لا يتولاها إلا القضاة والعدول وهذا لا يصلح لها. ولم يزل بالخليفة حتى عزل محمد بن ياقوت عن الحسبة والشرطة أيضاً، وانصلح الحال بينهما. ثم تجددت الوحشة بينهما في ذي الحجة من هذه السنة، وما زالت تتزايد حتى آل الحال إلى قتل المقتدر بالله كما سنذكره.

وفي هذه السنة أوقع ثملٌ متولي طرسوس بالروم وقعةً عظيمةً جداً، قتل منهم خلقاً كثيراً وأسر نحوا من ثلاثة آلاف، وغنم من الذهب والفضة والديباج شيئاً كثيراً جداً، ثم أوقع بهم مرة ثانية كذلك. وكتب ابن الديراني الأرمني إلى الروم يحضهم على الدخول إلى بلاد الإسلام ووعدهم منه النصر والإعانة، فدخلوا في جحافل كثيرة جداً، وانضاف إليهم الأرمن، فركب إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي الساج وهو يومئذ نائب أذربيجان واتبعه خلق كثير من المُطَّوِّعة، فقصد أولاً بلد ابن الديراني فقتل من الأرمن نحوا من مائة ألف، وأسر خلقاً كثيراً، وغنم أموالاً جزيلة جداً، وتحصن ابن الديراني في قلعة له هناك، وجاءت الروم فوصلوا إلى سميساط فحاصروها، فبعث أهلها يستصرخون بسعيد ابن حمدان نائب الموصل، فسار إليهم مسرعاً، فوجد الروم قد كادوا يفتحونها، فلما علموا بقدومه أجْلَوا عنها واجتازوا بملطية فنهبوها، ورجعوا خاسئين إلى بلادهم، ومعهم ابن نفيس المتنصِّر، وقد كان من أهل بغداد قبل ذلك كما ذكرناه قبل [تقدم في ص٣٦، ٣٧] وركب ابن حمدان في آثار الروم، فدخل بلادهم، فقتل خلقاً كثيراً منهم، وغنم أشياء كثيرة.

قال ابن الأثير [الكامل ٢٣٥/٨]: وفي هذه السنة في شوال جاء سيل عظيم إلى تكريت ارتفع في أسواقها أربعة عشر شبراً، وغرق بسببه أربعمائة دار، وخلق لا يعلمهم إلا الله، حتى كان المسلمون والنصارى يُدفنون جميعاً، لا يُعرف هذا من هذا. قال [الكامل ٢٣٦/٨]: وفيها هاجت بالموصل

ريح فيها حمرة ثم اسودّت حتى كان الإنسان لا يبصر صاحبه، وظن الناس أن القيامة قد قامت، ثم انجلى ذلك بمطر أرسله الله عليهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن الحسين بن عبد الرحمن أبو عبد الله الأنطاكي** قاضي ثغور الشام، يعرف بابن الصابوني، وكان ثقة نبيلا قدم بغداد وحدث بها.

■ **علي بن الحسين بن حرب بن عيسى أبو عبيد بن حَرْبَوَيْه**، القاضي بمصر، تولى القضاء بمصر مدة طويلةً جداً، وكان ثقةً عالماً جليلاً من خيار القضاة وأعدلهم، وكان يتفقه على مذهب أبي ثور، وقد ذكرناه في «طبقات الشافعية» بما فيه مقنع وكفاية، وقد استعفى عن القضاء فعزل عنه في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، ورجع إلى بغداد فأقام بها حتى مات بها في هذه السنة، في صفر، وصلّى عليه أبو سعيد الإصطخريّ، ودفن بداره.

قال الدارقطني: حدّث عنه أبو عبد الرحمن النسائي في الصحيح، ولعله مات قبله بعشرين سنة. وذكر من جلالته وفضله رحمه الله.

■ **محمد بن الفضل بن العباس أبو عبد الله البلخي الزاهد**: حُكي عنه أنه مكث أربعين سنة، لم يخط فيها خطوة، لغير الله ولا نظر في شيء، فاستحسنه، حياء من الله عز وجل، وأنه مكث ثلاثين سنة، لم يُملِ على مَلَكَيْه قبيحاً.

■ **محمد بن سعد بن أبو الحسين الورّاق**: صاحب أبي عثمان النيسابوري وكان فقيها، يتكلم على المعاملات.

ومن جيد كلامه قولُه: من غض بصره عن مُحرّم، أورثه الله بذلك حكمة على لسانه، يهتدي بها سامعوه، ومن غض بصره عن شُبهة، بنور الله قلبه، بنور يهتدي به، إلى طريق مرضاته.

■ **يحيى بن عبد الله بن موسى أبو زكريا الفارسي** كتب بمصر عن الربيع بن سليمان، وكان ثقة صدوقا حسن الصلاة عدلاً عند الحُكّام.

ثم دخلت سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة

فيها كان مقتل الخليفة المقتدر بالله، وكان سبب ذلك، أن مؤنساً الخادم، خرج من بغداد في المحرم من هذه السنة، مغاضبا للخليفة، في مماليكه، وحشمه، متوجهاً نحو الموصل، وردَّ من أثناء الطريق مولاه بُشرى، إلى المقتدر ليستعلم له، وبعث معه رسالة، يخاطب بها أمير المؤمنين، فلما وصل أمره الوزير الحسين بن القاسم وكان من أكبر أعداء مؤنس- بأن يؤديها إليه، فامتنع من أدائها إلا إلى الخليفة، فأحضره بين يديه، فأمره أن يقولها للوزير، فامتنع، وقال ما أمرني صاحبي بهذا، فشتمه الوزير، وشتم صاحبه، وأمر بضربه، ومصادرته، ثلاثمائة ألف دينار، وأخذ خطّه بها،وأمر بنهب داره، ثم أمر الوزير بالقبض على أقطاع مؤنس، وأملاكه، وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم، وارتفع أمر الوزير عند المقتدر، ولقبه عميد الدولة، وضرب اسمه على الدراهم، والدنانير، وتمكّن من الأمور جداً، فعزل، وولّى، وقطع، ووصل، وفرح بنفسه حيناً قليلاً. وأرسل إلى هارون بن غريب في الحال، وإلى محمد بن ياقوت، يستحضرهما إلى الحضرة، عوضاً عن مؤنس، فصمم المظفر مؤنس في مسيره إلى الموصل، وجعل يقول لأمراء الأعراب: إن الخليفة قد ولاني الموصل، وديار ربيعة فالتف عليه خلقٌ كثيرٌ، وجعل ينفق فيهم الأموال الجزيلة، وله إليهم قبل ذلك أيادٍ سابغة.

وقد كتب الوزير إلى آل حمدان- وهم ولاة الموصل، وتلك النواحي- يأمرهم بمحاربة مؤنس الخادم، فركبوا إليه في ثلاثين ألفاً، وواجههم مؤنس في ثمانمائة من مماليكه وخَدَمه، فهزمهم، ولم يقتل منهم سوى رجل واحد، يقال له داود كان من أشجعهم، وقد كان مؤنس ربّاه، وهو صغير ودخل مؤنس الموصل، فقصدته العساكر، من كل جانب، يدخلون في طاعته، لإحسانه إليهم قبل ذلك، من أهل بغداد، والشام، ومصر، ومن الأعراب، حتى صار في جحافل من الجنود.

وأما الوزير المذكور، الحسين بن القاسم فإنه ظهرت خيانته، وعجزه فعزله المقتدر في ربيع الآخر، وولى مكانه الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، فكان آخر وزراء المقتدر، وأقام مؤنس بالموصل تسعة أشهر. ثم ركب في الجيوش في شوال، قاصداً بغداد، ليطالب المقتدر بأرزاق الأجناد، وإنصافهم، فسار- وقد بعث بين يديه الطلائع- حتى جاء، فنزل بباب الشماسيّة من بغداد، وقابله عنده ابن ياقوت، وهارون ابن غريب، عن كره منه وأشير على الخليفة، بأن يستدين من والدته ما ينفق في الأجناد، فقال: لم يبق عندها شيء، وعزم الخليفة على الهرب إلى واسط، وأن يترك بغداد لمؤنس، حتى يتراجع أمر الناس، ثم يعود إليها فرده عن ذلك ابن ياقوت وأشار عليه بمواجهة مؤنس وأصحابه، فإنهم متى رأوه كروا كلهم إليه، وتركوا مؤنساً فركب وهو كاره، وبين يديه الفقهاء، ومعهم المصاحف منشّرة، وعليه البرد والناس حوله، فوقف على تلّ عال بعيدٍ من المعركة، ونودي في جيشه: من جاء برأس فله خمسة دنانير، ومَن جاء بأسير فله عشرة دنانير. ثم بعث إليه أمراؤه، يعزمون عليه، أن يتقدم فامتنع من التقدم إلى محلة المعركة، ثم ألحّوا عليه، فجاء، بعد تمنع شديد، فما وصل إليهم، حتى انهزموا، وفروا راجعين، ولم يلتفتوا إليه، ولا عطفوا عليه، فكان أول من لقيه من أمراء مؤنس، علي بن يَلْبَقَ، فلما رآه، ترجّل، وقبّل الأرض بين يديه وقال: لعن الله من أشار عليك بالخروج في هذا اليوم. ثم وكل به قوماً من المغاربة البربر، فلما تركهم وإياه، شهروا عليه السلاح، فقال لهم: ويلكم أنا الخليفة. فقالوا: قد عرفناك ياسفلة، إنما أنت خليفة إبليس، تنادي في جيشك، من جاء برأس فله خمسة دنانير؟ ومن جاء بأسير فله عشرة دنانير وضربه أحدهم بسيفه، على عاتقه، فسقط إلى الأرض وذبحه آخر، وتركوا جُثّته، وقد سلبوه كل شيء كان عليه، حتى سراويله، وبقي مكشوف العورة، مُجدّلاً على الأرض، حتى جاء رجل، فغطى عورته بحشيش، ثم دفنه في موضعه، وعفا أثره، وأخذت المغاربة، راس المقتدر على خشبة، قد رفعوها، وهم يلعنونه، فلما انتهوا به إلى مؤنس- ولم يكن حاضراً الوقعة- فحين نظر إلى رأس المقتدر، لطم رأسه،ووجهه وقال: ويلكم! لم آمركم بهذا، لعنكم الله تقتلتموه، والله لنقتلنّ كُلّنا. ثم ركب، فوقف عند دار الخلافة، حتى لا تنهب، وهرب عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب وابنا رائق إلى المدائن، وكان صنيع مؤنس هذا سبباً، لطمع أصحاب الأطراف في الخلفاء، وضعف أمر الخلافة جداً مع ما كان المقتدر يعتمده في التبذير والتفريط في الأموال، وطاعة النساء، وعزل الوزراء حتى قيل إن جملة ما صرفه في الوجوه الفاسدة والتبذير ما يقارب ثمانين ألف ألف دينار.

ترجمة المقتدر بالله أمير المؤمنين

■ (المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكّل)

هو جعفر أمير المؤمنين المقتدر بالله بن المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد المُوفَّق بن جعفر المتوكّل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يكنى أبا الفضل العباسي، مولده في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان، سنة ثنتين وثمانين ومائتين، وأمه أم ولد اسمها شغب، ولقبت في خلافة ولدها بالسيدة، بويع له بالخلافة، بعد أخيه المكتفي يوم الأحد، لأربع عشرة مضت من ذي القعدة، سنة خمس وتسعين ومائتين، وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وشهر وأيام، ولهذا أراد الجند خلعه في ربيع الأول من سنة ست وتسعين، محتجين بصغره، وعدم بلوغه، وتولية عبد الله بن المعتز، فلم يتم ذلك، وانتقض الأمر في ذلك اليوم، كما ذكرنا ثم لمّا كان شهر الله المحرم من سنة سبع عشرة وثلاثمائة أحضره مؤنس واجتمع الأمراء والقواد وألزموه بخلع نفسه وأحضروا أخاه بن المعتضد، فبايعوه بالخلافة ولقّبوه محمد القاهر، فلم يتم ذلك سوى يومين، ثم رجع المقتدر إلى الخلافة كما ذكرنا وقد كان المقتدر بالله ربعة من الرجال، حسن الوجه، والعينين، بعيد ما بين المنكبين، حسن الشعر مُدَوَّر الوجه، مشربا بحمرة، حسن الخلق، قد شاب رأسه، وعارضاه، وقد كان كريماً، جواداً مُمَدَّحاً له عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وقد كان كثير التحجب، والتوسع في النفقات، وزاد في رسوم الخلافة، وأمور الرياسة، وما زاد شيءٌ إلا نقص، كان في داره إحد عشر ألف خادم خصيٍّ غير الصقالبة، والروم، والسودان، وكان له دار، يقال لها دار الشجرة، فيها من الأثاث، والأمتعة شيء كثير جداً، كما ذكرنا ذلك في سنة خمس وثلاثمائة حين قدم رسول ملك الروم وقد ركب المقتدر يوماً في حَرّاقة، وجعل يستعجل الطعام، فأبطؤوا به، فقال لملاح حراقته: ويلك! أعندك شيء نأكله؟ قال: نعم، فأتاه بشيء من لحم الجدي، وخبز حسن، وملوحات وغير ذلك. فأعجبه ثم استدعاه فقال: هل عندك شيء من الحلواء، فإني لا أُحِسّ بالشبع حتى آكل شيئاً من الحلواء. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما حلاوتنا التمر، والكسب. فقال هذا شيء لا أطيقه ثم جيء بطعامه، فأكل منه، وأُتي بالحلواء، فأكل، وأطعم الملاحين، وأمر بترتيب حلاوة تعمل في كل يوم تكون في الحراقة بنحو مائتي درهم، إذا اتفق ركوبه فيها يأكل منها، فكان الملاح يأخذ ذلك في كل يوم مدة سنين متعددة ولم يتفق ركوب المقتدر فيها مرة أخرى.

وقد أراد بعض خواصّه أن يطهر ولده، فعمل أشياء هائلة، ثم طلب من أم الخليفة، أن يُعار القرية التي عملت في طهور المقتدر، من فضة، ليراها الناس في هذا المُهِمّ، فتلطفت أم المقتدر، عنده، حتى أطلقها له بالكُلية، وكانت صفة قرية من القرى كلها من فضة، بيوتها، وأهاليها، وأبقارها، وأغنامها وجمالها وخيولها، وزروعها، وثمارها، وأنهارها، وما يتبع ذلك، مما يكون في القرى، الجميع من فضة مصور، وأمر بنقل سماطة إلى دار هذا الرجل، وأن لا يُكلَّف شيئاً من المطاعم، سوى سمك طري، فاشترى الرجل بثلاثمائة دينار سمكاً وكان جملة ما أنفق الرجل على سماط المقتدر يومئذ ألفا وخمسمائة دينار.

وكان كثير الصدقة، والإحسان إلى أهل الحرمين، وأرباب الوظائف، وكان كثير التنفّل، بالصلاة، والصيام والعبادة، ولكنه كان مؤثراً لشهواته، مطيعاً لحظيّاته، كثير التلون والولاية والعزل، ومازال ذلك دأبه، حتى كان هلاكه على يدي مؤنس الخادم كما ذكرنا، فقتل عند باب الشماسية، لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة ـ أعني سنة عشرين وثلاثمائة ـ وله من العمر ثمان وثلاثون سنة وشهر وخمسة أيام وكانت مدة خلافته، أربعا وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً، وأربعة عشر يوماً، كان أكثر مدة ممن تقدمه من الخلفاء.

خلافة القَاهِر

لما قتل المقتدر بالله كما ذكرنا، عزم مؤنس الخادم على تولية أبي العباس بن المقتدر، بعد أبيه ليطيب قلب أم المقتدر، فعدل عن ذلك جمهور من حضر من الأمراء، فقال أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي: بعد التعب، والكدّ، نبايع لخليفة له أم، وخالات يطيعهن، ويشاورهن؟ ثم أُحضر محمد بن المعتضد ـ وهو أخو المقتدر ـ فبايعه القضاة، والأمراء، والوزراء، ولقبوه بالقاهر بالله، وذلك في سحر يوم الخميس، لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة عشرين وثلاثمائة واستوزر له أبو علي بن مُقلة، ثم أبو جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، ثم أبو العباس، بن الخصيب. وشرع القاهر في مصادرة أصحاب المقتدر، وتتبع أولاده، واستدعى بأم المقتدر، وهي مريضة بالاستسقاء، وقد تزايد بها الوجع، من شدة جزعها على ولدها، حين بلغها قتله، وكيف بقي مكشوف العورة. فبقيت أياما، لا تأكل شيئاً، ثم وعظها النساء، حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح، ومع هذا كله، استدعى بها القاهر، فقررها على أموالها، فذكرت له ما يكون للنساء من الحلي، والمصاغ، والثياب، ولم تقر بشيء من الأموال، والجواهر، وقالت له: لو كان عندي من هذا شيء ما سلمت ولدي. فأمر بضربها، وعلّقت برجليها، ومسها بعذاب شديد من العقوبة، وأشهدت على نفسها، ببيع أملاكها، فأخذه الجند، مما يحاسبون عليه من أرزاقهم، وأرادها على بيع أوقافها، فامتنعت من ذلك، وأبت أشد الإباء واستدعى القاهر بجماعة من أولاد المقتدر، منهم أبو العباس الراضي، وهارون، والعباس، وعلي، والفضل، وإبراهيم، فأمر بمصادرتهم، وحبسهم، وسلمهم إلى حاجبه علي بن يَلْبَق، وتمكن الوزير أبو علي بن مقلة فعزل، وولّى، وأخذ، وأعطى أياما، ومنع بني البريدي من أعمالهم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن عمير بن جَوْصاء أبو الحسن الدمشقي: أحد المحدثين الحفاظ، والرواة الأيقاظ.

و■ إبراهيم بن محمد بن علي بن بطحاء بن علي بن مقلة أبو إسحاق التميمي، المحتسب، ببغداد، روى عن عباس الدوري، وعلي بن حرب، وغيرهما، وكان ثقة فاضلاً، مرّ يوماً على باب القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، والخصوم عكوف على بابه، والشمس قد ارتفعت عليهم، فبعث حاجبه إليه، يقول له: إما أن تخرج، فتفصل بينهم، وإما أن تبعث، فتعتذر إليهم، إن كان لك عذر، حتى يعودوا إليك بعد هذا الوقت.

أبو علي

■ ابن خَيْران: الفقيه الشافعي، أحد أئمة المذهب، هو الحسين بن صالح بن خيران أبو علي الفقيه الكبير الورع البارع، عرض عليه منصب القضاء، فلم يقبل فختم الوزير علي ابن عيسى على بابه فبقي كذلك ستة عشر يوماً، ولم يجد أهله ماءً، إلا من بيوت الجيران، وهو مع ذلك كله

يتمنع عليه وعليهم، ولم يلِ لهم شيئا، فقال الوزير: إنما أردنا أن نُعلم الناس، أن ببلدنا، وفي مملكتنا، من عُرض عليه قضاء القضاة شرقاً وغرباً، فلم يقبل، وقد كانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وقد ذكرنا ترجمته في طبقات الشافعية بما فيه كفاية رحمه الله.

■ **عبد الملك بن محمد بن عدي الفقيه الإستراباذي**، أحد أئمة المسلمين، والحفاظ المحدِّثين، وقد ذكرناه أيضاً في «طبقات الشافعية».

القاضي أبو عمر المالكي

■ **محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد أبو عمر**، القاضي ببغداد، ومعاملاتها، في سائر البلاد، كان من أئمة الإسلام، عِلْماً ومعرفة وفصاحة، وبلاغة وعقلا ورياسة، بحيث كان يضرب بعقله وحِلْمِهِ المثل وقد روى الكثير عن المشايخ، وحدَّث عنه الدارقطني، وغيره من الحفاظ، وحمل الناس عنه علما كثيراً من الفقه والحديث، وقد جمع له قضاء القضاة في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وله مصنفات كثيرة. وجمع مسنداً حافلا، وكان إذا جلس للتحديث، جلس أبو القاسم البغوي عن يمينه، وهو قريب من سن أبيه، وعن يساره ابن صاعد، وبين يديه أبو بكر النيسابوري، وسائر الحفاظ حول سريره، من كل جانب، قالوا: ولم ينتقد عليه حكم من أحكامه، أخطأ فيه قط.

قلت: وكان من أعظم صواب أحكامه، قتله الحسين بن منصور الحلاج قبحه الله وأخزاه وذلك في سنة تسع وثلاثمائة كما تقدم.

وكان هذا جميل الأخلاق حسن المعاشرة، اجتمع عنده يوماً عنده أصحابه، فجيء بثوب فاخر، ليشتريه، بنحو من خمسين ديناراً، فاستحسنه الحاضرون، فدعا بالقلانسيِّ، وأمره أن يقطع ذلك الثوب قلانس.بعدد الحاضرين. وله مناقب، ومحاسن رحمه الله تعالى. وكانت وفاته في رمضان من هذه السنة عن ثمان وسبعين سنه، وقد رآه بعضهم في المنام، فقال له ما فعل بك ربُّك؟ فقال: غفر لي، بدعوة الرجل الصالح، إبراهيم الحربي رحمهما الله

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة

في صفر منها، أحضر الخليفة رجلاً، كان يقطع الطريق بدجلة فضرب بين يديه ألف سوط، ثم ضربت عنقه، وقُطِعت أيدي أصحابه، وارجلهم.

وفيها أمر القاهر بالله بإبطال الخمور، والمغاني، والقيان، وأمر ببيع الجواري المغنّيات، بسوق النخس، على أنهن سواذج. قال ابن الأثير [الكامل ٢٧٣/٨]: وإنما فعل القاهر ذلك، لأنه كان محبا للغناء، فأراد أن يشتري الجواري بأرخص الأثمان نعوذ بالله من هذه الأخلاق.

وفيها أشاعت العامة بينهم، بأن الحاجب علي بن يَلْبَق، يريد أن يلعن معاوية على المنابر. فلما بلغ ذلك الحاجب، بعث إلى رئيس الحنابلة أبي محمد البربهاري الواعظ، ليقابله على ذلك، فهرب، واختفى، فأمر بجماعة من أصحابه، فحُدِروا إلى البصرة.

وفيها عظم الخليفة، وزيره علي بن مقلة، وخاطبه بالاحترام، والإكرام، ثم إن الوزير، ومؤنساً الخادم، وعلي بن يَلْبَق، وجماعة من الأمراء اشتوروا فيما بينهم، على خلع القاهر بالله، وتولية أبي أحمد بن المكتفي، وبايعوه فيما بينهم سراً، وضيقوا على القاهر بالله في رزقه ومن يجتمع به. وأرادوا القبض عليه سريعاً، فبلغ ذلك الخليفة على يدي طريف السبكري- فسعى في القبض عليهم، فوقع في مخاليبه الأمير الكبير المظفر مؤنس الخادم، وأمر بحبسه، قبل أن يراه، والاحتياط على دوره، وأملاكه- وكانت فيه عجلة، وجراة، وهوج وخرق شديد- وجعل في منزلته- إمرة الأمراء، ورياسة الجيش- طريفاً السبكريّ، وقد كان أحد الأمراء عند مؤنس الخادم، قبل ذلك وقبض على يَلْبَق، واختفى ولده علي بن يَلْبَق، وهرب الوزير أبو علي بن مقلة، فاستوزر بدله، أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله في مستهل شعبان وخلع عليه، وأمر بتحريق دار أبي علي بن مقلة، ووقع النهب ببغداد، وهاجت الفتنة، وأمر القاهر، بأن يجعل أبو أحمد المكتفي بين حائطين، ويُسدُّ عليه بالآجر والكلس، وهو حي، فمات،وارسل إلى المختفين فنادى: إن من خرِّبت داره. فوقع بعلي فقتله، ذُبح بين يديه، كما تنبح الشاة، فأخذ رأسه في طست، ودخل القاهر بنفسه على أبيه يلبق، فوضع الرأس بين يديه، فلما رآه بكى، وأخذ يقبّله، ويترشفه، فأمر بذبحه أيضاً، فذبح، ثم أخذ الراسين في طستين، فدخل بهما على مؤنس الخادم، فلما رآهما، تشهدّ، ولعن قاتلهما فقال القاهر عند ذلك: جُرّوا برجل الكلب، فأخذ، فذُبح أيضاً، وأخذ رأسه، فوُضع في طست، وطيف بالرؤوس في بغداد، ونودي عليهم: هذا جزاء من يخون الإمام، ويسعى في الدولة فساداً ثم أعيدت بالرؤوس إلى خزائن السلاح.

وفي ذي القعدة قبض القاهر على الوزير أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وسجنه، وكان مريضا بالقولَنْج، فبقي ثمانية عشر يوماً، ومات فكانت وزارته ثلاثة أشهر واثني عشر يوما، واستوزر مكانه أبا العباس احمد بن عبيد الله بن سليمان الخصيبي، ثم قبض على طريف السبكريّ، الذي وسجنه فلم يزل السبكريّ فيه، حتى خلع القاهر. وفيها جاء الخبر، بموت تكمين الخاصة بديار مصر، وأن ابنه محمداً، قد قام بالأمر بعده فيها، وسارت الخلع إليه من القاهر بالله تنفيذاً لولايته واستقرارها.

ذكر ابتداء أمر بني بُوَيْه
وظهور دولتهم في هذه السنة

وهم ثلاثة إخوة: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين احمد، اولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر بن شيركيده ابن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنّه بن سستان شاه بن سيس بن فيروز بن شيرزيل بن سنادَرَ بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك بن سابور الملك بن سابور ذي الأكتاف الفارسي. كذا نسبهم الأمير أبو نصر بن ماكولا في «كتابه». وإنما قيل لهم الديالمة؛ لأنهم جاوروا الديلم، وكانوا بين أظهرهم مدة، وقد كان ابوهم، أبو شجاع بُوَيْه، فقيراً، مدقعاً، يصطاد السمك، ويحتطب بنوه الحطب، على رؤوسهم، فماتت امرأته، وخلّفت له هؤلاء الأولاد الثلاثة، فحزن عليها، فبينما هو ذات يوم عند بعض أصحابه، وهو شهريار بن رستم الديلمي، إذ مر منجم، فاستدعاه، فقال له: إني رأيت مناماً غريباً، رأيت كأني أبول، فخرج من ذكري نار عظيمة، حتى كادت تبلغ عنان السماء ثم انفرقت، ثلاث شعب، ثم انتشرت كل شعبة،إلى شعب كثيرة، فأضاءت الدنيا بتلك النار، ورأيت البلاد، والعباد، قد خضعت لهذه النار. فقال له المنجم: هذا منامٌ عظيمٌ، لا أفسره لك إلا بمال جزيل. فقال: والله لا شيء عندي أعطيك، ولا أملك غير فرسي هذه فقال: هذا يدل على أنه، يملك من صلبك ثلاثة ملوك، ثم يكون من سلالة كل واحد منهم ملوك عدة فقال له: ويحك،أتسخر بي؟ وأمر بنيه فصفعوه، ثم أعطاه عشرة

دراهم. فقال لهم المنجم: اذكروا هذا، إذا قدمت عليكم، وأنتم ملوك. وخرج وتركهم وهذا من أعجب الأشياء، وذلك أن هؤلاء الإخوة الثلاثة، كانوا عند ملك يقال له ماكان بن كالي في بلاد طبرستان، فتسلط عليه مرداويج، فضعُف أمرُ ما كان، فشاوروه في مفارقته حتى يكون من أمره خير، فخرجوا عنه، ومعهم جماعة من الأمراء، فصاروا إلى مرداويج، فأكرمهم، واستعملهم على الأعمال في البلدان، فأعطى عماد الدولة علي بن بويه نيابة الكَرَج، فأحسن فيها السيرة، والتف عليه الناس؛ وأحبوه، فحسده مرداويج وبعث إليه يعزله عنها ويستدعيه إليه فامتنع من القدوم عليه وإنما كان معه تسعمائة فارس، فردّ بها عشرة آلاف، وعظم في أعين الناس فلما بلغ ذلك مرداويج، قلق منه، وأرسل إليه جيشا، فأخرجوه من أصبهان وقصد أرّجان، فأخذها من نائبها، وحصل له من الأموال، شيء كثير جداً، ثم أخذ بلداناً كثيرة، واشتهر أمره وبعد صيته وحسنت سيرته واجتمع إليه من الجند خلقٌ كثيرٌ، وجمٌ غفير، وقد آل بهم الحال. إلى أن ملكوا بغداد، من أيدي الخلفاء العباسيين، لهم القطع والوصل، والولاية والعزل، وإليهم تُجبى الأموال، ويُرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال، على ما سنذكر ذلك مبسوطا والله المستعان والمحمود على كل حال.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك أبو جعفر الطحاوي:** نسبة إلى طَحَا وهي قرية بصعيد مصر، الفقيه الحنفي، صاحب المصنفات المفيدة، والفوائد، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة. وهو ابن أخت المُزَني، رحمهما الله. وكانت وفاته في مستهل ذي القعدة من هذه السنة، عن اثنين وثمانين سنة.

وذكر أبو سعيد السمعاني [الأنساب ٥٣/٤] ، أنه ولد في سنة تسع وعشرين ومائتين، فعلى هذا يكون قد جاوز التسعين والله أعلم.

وذكر ابن خلكان في «الوَفَيات» [وفيات الأعيان ٧١/١]، أن سبب انتقاله إلى مذهب أبي حنيفة، ورجوعه عن مذهب خاله المزني، أن خاله قال له يوما: والله لا يجيء منك شيء فغضب، واشتغل على أبي جعفر بن أبي عمران الحنفي، حتى برع، وفاق أهل زمانه وصنّف كتباً كثيرة منها «أحكام القرآن»، و«اختلاف العلماء»، و«معاني الآثار» و«التاريخ الكبير». وله في الشروط كتاب، وكان بارعاً فيها. وقد كتب للقاضي أبي عبيد الله محمد بن عبدة، وعدّله القاضي أبو عبيد بن حَرْبَوَيْه، وكان يقول: رحم الله المزني، لو كان حيّاً لكفّر عن يمينه.

وكانت وفاته في مستهل ذي القعدة. ودفن بالقرافة، وقبره مشهور بها، رحمه الله تعالى. وترجمه ابن عساكر، وذكر أنه قدم دمشق، سنة ثمان وستين ومائتين، وأخذ الفقه عن قاضيها أبي خازم رحمه الله.

■ **أحمد بن محمد بن موسى بن النضر بن حكيم بن علي بن زربيّ أبو بكر بن أبي حامد،** صاحب بيت المال. سمع عباسا الدوري، وخلقاً، وعنه الدارقطني، وغيره. وكان ثقةً صدوقاً، جواداً ممدّحاً، اتفق في أيامه أن رجلاً من أهل العلم كانت له جارية، يحبها حباً شديداً، فركبَتْه ديون كثيرة، اقتضى الحال أن باع تلك الجارية في الدين، فلما قبض ثمنها، ندم ندامة عظيمة جداً، وبقي متحيراً في أمره فباعها الذي كانت عنده، فبلغ سيدها أن الجارية قد اشتراها ابنُ أبي حامد صاحب بيت المال، فتشفّع إليه ببعض أصحابه في أن يردها إليه بثمنها. فلما قال له ذلك، لم يكن عنده شعورٌ بها

وذلك أن امرأته، كانت اشترتها له، ولم تعلمه بعد بأمرها، حتى تحل من استبرائها، وكان ذلك اليوم آخرَه فلبّسوها الحلي، والمصاغ وصنّعوها له، وحين شفع عنده في أمرها، بهت لعدم علمه بها ثم دخل، يستكشف خبرها من منزله، فإذا بها هيئت له، ففرح فرحاً شديداً، إذ وجدها، من أجل ذلك الرجل. فأخرجها معه، وهو يُظهر السرور، فقال لسيِّدها: هذه جاريتك؟ فلما رآها اضطرب كلامه، واختلط في عقله، مما رأى من حسن منظرها وهيئتها وقال: نعم، قال: خذها بارك الله لك فيها ففرح الفتى فرحاً شديداً، وقال: يا سيدي تأمر من يحمل معي المال؟ فقال: لا حاجة لي به، وأنت في حل منه، فإني أخشى إن لم يبق معك شيء أن تبيعها ثانية ممن لا يردها عليك. فقال: يا سيدي، فهذا الحلي، والمصاغ الذي عليها؟ فقال: هذا شيء وهبناه لها لا نعود فيه أبداً، فاشتد فرح الفتى، وأخذها معه، فلما ودّع ابن أبي حامد، قال للجارية: أيما كان أحب إليك، نحن، أو سيدك هذا؟ فقالت: امّا أنتم فأغنيتموني فجزاكم الله خيراً، وأما سيدي هذا، فلو أني ملكت منه ما ملك مني لم أبعه بالأموال الجزيلة، فاستحسن الحاضرون ذلك من قولها، مع صغر سنها.

■ **شغب أم أمير المؤمنين المقتدر بالله الملقبة بالسيدة:** كان دَخْل أملاكها، في كل سنة، ألف ألف دينار، وكانت تتصدق بأكثر ذلك، على الحجيج، في أشربة، وأزواد، وأطباء يكونون معهم، وتسهيل الطرقات، والموارد.

وكانت في غاية الحشمة، والرياسة، ونفوذ الكلمة، أيام خلافة ولدها، فلما قتل، كانت مريضةً، فزادها قتله مرضاً إلى مرضها، ولما استقر أمر القاهر في الخلافة، وهو ابن زوجها المعتضد، وأخو ابنها المقتدر، وقد كانت حضنته، حين توفيت أمه، وخلصته من ابنها لما كان مؤنس قد بايعه ولم يتم ذلك - عاقبها القاهر عقوبةً عظيمةً جداً، حتى كان يعلقها برجلها، ورأسها منكوس، فربما بالت، فينحدر على وجهها، ليقررها على الأموال التي في يدها فلم يجد لها شيئاً، سوى ثيابها، ومصاغها وحُليها في صناديق لها قيمتها مائة ألف، وثلاثون ألف دينار، وجميع ما كان يدخلها تتصدق به، ووقف شيئاً كثيراً، ولكن كان لها أملاك، أمر ببيعها، وأتى بالشهود، ليشهدوا عليها بالتوكيل في بيعها، فامتنع الشهود من أداء الشهادة، حتى، يحلوها، فرفع الستر بإذن الخليفة فقالوا لها: أنت شغب جارية المعتضد أم جعفر المقتدر؟ فبكت بكاء طويلا، ثم قالت: نعم وكتبوا حليتها، عجوز سمراء اللون، دقيقة الجبين. وبكى الشهود وتفكروا، في تقلب الزمان، وتنقُّل الحَدَثان، وكانت وفاتها في جمادى الأولى من هذه السنة، ودفنت بالرصافة رحمها الله.

■ **عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان، وهو أبو هاشم بن أبي علي الجبائي** المتكلم ابن المتكلم، المعتزلي ابن المعتزلي، وإليه تنسب البَهْشَمِيّة من المعتزلة، وله مصنفات في الاعتزال، كما لأبيه من قبله، مولده في سنة سبع وأربعين ومائتين، توفي في شعبان من هذه السنة.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ١٨٣/٣]: وكان له ابن، يقال له: أبو علي، دخل يوماً على الصاحب بن عبّاد، فأكرمه، واحترمه، وسأله عن شيء، فقال: لا أعرف نصف العلم. فقال: صدقت، وسبقك أبوك، إلى النصف الآخر.

■ **محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية أبو بكر بن دريد الأزدي** اللغوي النحوي الشاعر صاحب المقصورة، ولد بالبصرة في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتنقل في البلاد، لطلب العلم والأدب، وكان أبوه من

ذوي اليسار، وقدم بغداد، وقد أسنَّ فأقام بها، إلى أن توفي روى عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وأبي حاتم، والرِّياشيِّ، وعنه أبو سعيد السيرافي، وأبو بكر بن شاذان، وأبو عبيد الله بن المرزباني، وغيرهم، ويقال: كان أعلم الشعراء وأشعر العلماء وقد كان متهتكا في الشراب. قال أبو منصور الأزهري: دخلت عليه، فوجدته سكران، فلم أعد إليه.

وسئل عنه الدارقطني فقال: تكلَّموا فيه. وقال ابن شاهين: كنا ندخل عليه، فنستحي مما نرى، من العيدان المعلقة، والشراب المصفى، وقد جاوز التسعين، وقارب المائة. وكانت وفاته في يوم الأربعاء، لثنتي عشرة بقيت من شعبان.

وفي هذا اليوم كانت وفاة أبي هاشم بن أبي علي، فصُلِّي عليهما معا، ودفنا في مقبرة الخيزرانية، وقال الناس: مات اليوم علم اللغة، وعالم الكلام. وكان ذلك يوما مطيراً ومن مصنفات ابن دريد «الجمهرة» في اللغة في نحو عشر مجلدات، وكتاب المطر، والمقصورة، والقصيدة الأخرى في المقصور والممدود، وغير ذلك سامحه الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة

فيها قصد ملك الروم مَلَطْية، في خمسين ألفاً، فحاصرها، ثم أعطاهم الأمان، حتى تمكن منهم، فقتل خلقاً كثيراً، وأسر ما لا يحصون كثرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها وردت الأخبار، بأن مرداويج، قد تسلَّم أصبهان، وانتزعها من علي بن بويه، وأن علي ابن بويه، توجه إلى أرّجان فأخذها وقد أرسل ابن بويه إلى الحضرة الخليفية بالطاعة والمعونة، وإن أمكن أن يقبل العتبة الشريفة، ويحضر بين يدي الخليفة، إن رسم أو يذهب إلى شيراز، فيكون مع ياقوت. ثم اتفق الحال بعد ذلك، أن صار إلى شيراز، وأخذها من نائبها ياقوت، بعد قتال عظيم، ظفر فيه ابن بويه بياقوت وأصحابه، فقتل منهم خلقا وأسر جماعة، فلما تمكن أطلقهم، وأحسن إليهم، وخلع عليهم، وعدل في الناس.

وكانت معه أموال كثيرة، قد استفادها من أصبهان، وقبلها من الكرج وبن، وهمذان، وغيرها، إلا أنه كان كريماً، جواداً، معطاءً للجيوش، الذين قد التفوا عليه، ثم إنه أملق في بعض الأحيان وهو بشيراز، وطالبه الجند بأرزاقهم وخاف أن ينحل نظام أمره، فاستلقى يوماً على قفاه يوماً، مفكراً في أمره، وإذا حية، قد خرجت من سقف المكان، الذي هو فيه، ودخلت في آخر، فأمر بنزع تلك السقوف، فوجد هنالك مكاناً، فيه من الذهب شيء كثير جداً، نحو من خمسمائة ألف دينار فأنفق في جيشه ما أراد وبقي عنده شيء كثير وركب ذات يوم يتفرج، في خراب البلد، وينظر إلى ما أبنية الأوائل، ويتعظ بمن كان فيه قبله، فانخسفت الأرض من تحت قائمة جواده، فأمر، فحفر هنالك، فوجد من الأموال شيئاً كثيراً أيضاً، واستعمل عند رجل خياط قماشاً، ليلبسه، فاستبطأه، فأمر بإحضاره، فلما وقف بين يديه، تهدده وكان الخياط أصم لا يسمع جيداً فقال: والله، ما لابن ياقوت عندي سوى اثنَيْ عشر صندوقاً لا أدري ما فيها فأمر بإحضارها، فإذا فيها أموال عظيمة، تقارب ثلاثمائة ألف دينار.

واطّلع على ودائع، كانت ليعقوب وعمرو ابني الليث، فيها من الأموال ما لا يحد ولا يوصف كثرة، فقوي أمره، وعظم سلطانه جداً. وهذا كله من الأمور المقدرة، لما يريده الله بهم من السعادة الدنيوية﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] و﴿ لله الأمرُ من قبل ومن بعد﴾ [الروم: ٤]

وكتب إلى الراضي، ووزيره أبي علي بن مقلة، يطلُب أن يُقاطَعَ على ما قِبَله من البلاد، على ألف ألف في كل سنة، فأجابه الراضي إلى ذلك، وبعث إليه بالخلع، واللواء، وأبهة الملك وفيها قتل القاهر أميرين كبيرين، وهما إسحاق بن إسماعيل النوبختي، وهو الذي كان قد أشار على الأمراء بخلافة القاهر وأبو السرايا بن حمدان أصغر ولد أبيه، وكان في نفس القاهر منهما، بسبب أنهما، زايداه قرةً من قبل أن يلي الخلافة، في جاريتين مغنيَّتين فاستدعاهما إلى المسامرة، فتطيبا وحضرا، فأمر بإلقائهما في بئر هنالك، فتضرعا إليه، فلم يرحمهما، بل ألقيا فيها وطينها عليهما.

ذكر خلع القاهر وسمل عينيه

وكان سبب ذلك، أن الوزير أبا علي بن مقلة، كان قد هرب من القاهر، حين قبض على مؤنس الخادم، واختفى في داره، وكان يراسل الجند، ويكاتبهم، ويغريهم بالقاهر، ويخوِّفهم سَطْوته، وإقدامه، وسرعة بطشه، وأخبرهم أن، القاهر قد أعدّ لأكابر الأمراء، أماكن، يسجنهم فيها، فهيّجهم ذلك وأشْبَهُم على القبض على القاهر، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم، على مناجزته في هذه الساعة، وركبوا مع الأمير المعروف بسيما، وقصدوا دار الخلافة، فأحاطوا بها، ثم هجموا على القاهر، فخرج الوزير الخصيبي، مستتراً في زي امرأة، وانهزم القاهر وهو مخمور، فاختفى في سطح حمام، فظهروا عليه فقبضوه وحبسوه في مكان طريف السبكري، وأخرجوا طريفاً، فذهب واضطربت بغداد، ونهبت، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم أحضروه فسملوا عينيه، حتى سالتا على خديه وارتكب منه أمر عظيم، لم يسمع بمثله في الإسلام، ثم أرسلوه فكان تارة يحبس، وتارة يخلى سبيله وقد تأخر موته إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وافتقر، حتى قام يوما بجامع المنصور، فسأل، فأعطاه رجل خمسمائة درهم، ويقال: إنه إنما أراد بهذا الصنيع التشنيع على المستكفي بالله فالله أعلم. وستأتي ترجمته إذا ذكرنا وفاته.

خلافة الراضي بالله أبي العباس محمد بن المقتدر بالله

لما خلعت الجندُ القاهر، وسملوه أحضروا أبا العباس محمد بن المقتدر بالله، فبايعوه على الخلافة ولقبوه الراضي بالله كان أبو بكر الصولي قد أشار، بأن يلقب بالمرضي بالله فلم يقبل وعَدَل إلى هذا اللقب. وذلك يوم الأربعاء، لست خلون من جمادى الأولى من هذه السنة - أعني سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة -. وجاؤوا بالقاهر وهو أعمي، قد سملت عيناه، فأوقف بين يديه، فسلم عليه بالخلافة، وسلمها إليه، فقام الراضي بأعبائها، وكان من خيار الخلفاء، على ما سنذكره وأمر بإحضار أبي علي بن مقلة، فولاه الوزارة وجعل علي بن عيسى ناظراً، عليه وأطلق كل من كان في حبس القاهر، واستدعى عيسى طبيب القاهر، فصادره بمائتي ألف دينار، وتسلم منه الوديعة، التي كان القاهر أودعها عنده، وكانت جملة مستكثرة، من الذهب، والفضة، والجواهر النفيسة.

وفي هذه السنة عظم أمر مرداويج بأصبهان، وتحدث الناس، أنه يريد

قصد بغداد، وأنه ممالئ لصاحب البحرين، وقد اتفقا على رد الدولة من العرب، إلى العجم، وأساء السيرة في رعيته، لا سيما في خواصه من الأتراك، فتمالؤوا على، قتله فقتلوه، قبّحه اللّه، وكان القائم بأعباء ذلك، أخصَّ مماليكه، وأحظاهم عنده وهو بجكم بيض اللّه وجهه، هو الذي استنقذ الحجر الأسود، من أيدي القرامطة، وافتداه منهم بخمسين ألف دينار بذلها لهم حتى ردوه إلى مكة كما سيأتي. ولما قتل مرداويج بن زيّار الديلمي، عظم أمر علي بن بويه، وارتفع قدره بين الناس، وعلا شأنه في الملوك وسيأتي ماآل إليه حاله.

ولما خلع القاهر، وولي الراضي، طمع هارون بن غريب في الخلافة، لكونه ابن خال المقتدر، وكان نائباً على ماه الكوفة الدينور، وماسبذان، فدعا إلى ذلك، واتبعه خلق كثير، من الجند، والأمراء، وجبى الأموال، واستفحل أمره، وقويت شوكته، وقصد بغداد فخرج إليه محمد بن ياقوت، رأس الحجبة، في جميع جيش بغداد، فاقتتلوا هنالك، فخرج في بعض الأيام هارون بن غريب، يتقصد، لعله يعمل حيلة، في أسر محمد بن ياقوت، فتقنطر به فرسه، فسقط في نهر، فضربه غلام له، حتى قتله، وأخذ رأسه وجاء به إلى محمد بن ياقوت، فانهزم أصحاب هارون، ورجع محمد بن ياقوت، فدخل بغداد، ورأس هارون بن غريب يحمل بين يديه على رمح، ففرح الناس بذلك، وكان يوما مشهوداً.

وفيها ظهر رجل ببغداد يُعرف بأبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني، ويقال له ابن أبي العَزاقر. فذُكر عنه، أنه يدعي ما كان يدعيه الحلاج، من الإلهية، وكان قد مُسك، في دولة المقتدر، عند حامد بن العباس، واتُهم بأنه يقول بالتناسخ، فأنكر ذلك ولما كانت هذه المرة أحضره الراضي، وادعى عليه بما ذكر عنه، فأنكر، ثم أقر بأشياء، فأفتى قوم أن دمه حلال، إلا أن يتوب من هذه المقالة، فضرب ثمانين سوطا، ثم ضربت عنقه وصلب، وألحق بالحلاج، قبحهما اللّه وقتل معه صاحبه ابن أبي عون، لعنه اللّه. وكان هذا اللعين من جملة طائفة قد اتّبعوه وصدّقوه فيما يزعمه من الكفر لعنهم اللّه.

وقد بسط ابن الأثير في «كامله» [الكامل ٨/٢٩٠-٢٩٤] مذهب هؤلاء الكفرة، بسطاً جيداً، وشبه مذهبهم بمذهب النصيرية لعنهم اللّه أجمعين.

وادعى رجل، ببلاد الشاش، النبوة، وأظهر مخاريق، وأشياء كثيرة من الحيل، فجاءته الجيوش، فقاتلوه، فقتلوه، وانطفأ خبره واضمحل أمره.

وفاة المهدي صاحب إفريقية

أول خلفاء الفاطميين فيما زعموا

■ **(المهدي)**

وفيها مات أبو محمد عبيد اللّه المدعي أنه علوي الملقب بالمهدي، باني المهدية بمدينته، عن ثلاث وستين سنة، وكانت ولايته ـ منذ دخل رقادة وادعى الإمامة ـ أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، وهو أول الخلفاء الفاطميين.

وقد كان شهماً شجاعاً، ظفر بجماعة ممن خالفه، وناواه، وقاتله، وعاداه، وقد قام بأمر الخلافة من بعده، ولده أبو القاسم الملقب بالخليفة القائم بأمر اللّه وحين توفي أبوه، كتم موته سنة، حتى دبر ما أراده من الأمور، ثم أظهر ذلك، وعزاه الناس فيه وقد كان شهماً شجاعاً كأبيه: فتح البلاد، وأرسل السرايا إلى بلاد الروم، ورام أخذ الديار المصرية، فلم يتفق له ذلك، وإنما جرى ذلك على يدي، ابن ابنه المعز الفاطمي، الذي بنى القاهرة المعزية، كما سنذكره إن شاء اللّه.تعالى

قال القاضي ابن خلكان في «الوفيات» [وفيات الأعيان ٣/١١٧]: وقد اختلف في نسب المهدي هذا اختلافاً كثيراً جداً، فقال صاحب «تاريخ القيروان»: هو عبيد اللّه بن الحسن بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وقال غيره: هو عبيد اللّه ابن التقي وهو الحسين بن الوفي أحمد بن الرضيّ، عبد اللّه وهؤلاء الثلاثة يقال لهم: المستورون لخوفهم من خلفاء بني العباس والرضيُّ عبد اللّه، هذا وهو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق: وقيل غير ذلك في نسبه

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣/١١٧، ١١٨]: والمحققون ينكرون دعواه في النسب.

قلت: قد كتب غير واحد من الأئمة، منهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني، والقاضي الباقلاني، والقُدُوري، أن هؤلاء أدعياء، ليس لهم نسب صحيح، فيما يزعمونه، وأن والد عبيد اللّه هذا، كان يهودياً، صباغاً، بسلمية، وقيل، كان اسمه سعيد، وإنما لقب بعبيد اللّه وكان زوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن ميمون القداح، وسمي القداح؛ لأنه كان كحالاً يقدح العيون وكان الذي وطأ له الأمر، بتلك البلاد، أبو عبد اللّه الشيعي، كما قدمنا ذلك، ثم استدعاه، فلما قدم من بلاد المشرق، وقع في يد صاحب سجلماسة، فسجنه، فلم يزل الشيعي، حتى استنقذه، وسلم إليه الأمر، ثم ندم الشيعي وهمَّ بقتله ففطن عبيد اللّه له فقتله وقتل أخاه معه. ويقال: إن الشيعي لما دخل السجن وجد صاحب سجلماسة قد قتله، ووجد في السجن رجلا مجهولا، فأخرجه للناس، وقال: هذا هو المهدي ـ وروّج به الأمر: فهؤلاء من سلالته حكاه القاضي ابن خلكان. وكان مولد المهدي هذا، في سنة ستين ومائتين، وقيل قبلها، وقيل بعدها، بسلمية، وقيل بالكوفة، وأول ما دُعي له، على منابر رقّادة، والقيروان يوم الجمعة لتسع بقين من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، بعد رجوعه من سجلماسة، وكان ظُهوره بها في ذي الحجة من السنة الماضية ـ سنة ست وتسعين وزالت دولة بني العباس من تلك الناحية، من هذا الحين إلى أن هلك العاضد في سنة سبع وستين وخمسمائة، وكانت وفاته بالمهدية ـ التي بناها في أيامه ـ ليلة الثلاثاء للنصف من ربيع الأول من هذه السنة، وقد جاوز الستين على المشهور، وإلى اللّه عاقبة الأمور وسيفصل بين الآمر، والمأمور، يوم البعث والنشور.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر.** حدث عن أبيه بكتبه المشهورة، وتوفي وهو على قضاء الديار المصرية في ربيع الأول من هذه السنة

■ **محمد بن أحمد بن القاسم أبو علي الروذباري:** وقيل: اسمه أحمد ابن محمد، ويقال: الحسن بن همّام، والصحيح الأول. أصله من بغداد، وسكن مصر، وكان من أبناء الرؤساء، والوزراء، والكتبة، وصحب الجنيد، وسمع الحديث، وحفظ منه كثيراً، وتفقه بإبراهيم الحربي وأخذ النحو عن ثعلب، وكان كثير الصدقة، والبر للفقراء، وكان إذا أعطى الفقير شيئاً، جعله في كفّه ثم يتناوله الفقير، يريد أن لا تكون يدُ الفقير تحت يده.

ومن شعره:

لو مضى الكلُّ منّي لم يكُنْ عَجَباً ... وإنما عجبي في البعض كيفَ بَقـي

أدركْ بقيـة روح منـكَ قـد تَلفـت ... قبـلَ الفـراق فهـذا آخـرُ الرَّمـقِ

■ محمد بن إسماعيل: المعروف بخير النساج أبو الحسن الصوفي، من كبار المشايخ، ذوي الأحوال الصالحة، والكرامات المشهورة أدرك سَرِيّاً السَقَطيَّ، وغيره من مشايخ القوم، وعاش مائة وعشرين سنة ولما حضرته الوفاة، نظر إلى زاوية البيت، فقال: قف رحمك الله، فإنك عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وما أُمِرْتُ به، لا يفوت، وما أُمِرْت به، يفوت ثم قام فتوضأ وصلى وتمدد فمات، رحمه الله. وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: استرحنا من دنياكم الوَضِرَة.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

فيها أُحضر ابن شَنْبوذ المقرئ، فأنكر عليه جماعة من الفقهاء، والقراء عليه حروفاً انفرد بها، فاعترف ببعضها، وأنكر بعضها، فاستتيب من ذلك، واستكتب بخطه، بالرجوع عما نقم عليه، وضرب سبع درر، بإشارة الوزير أبي علي بن مقلة، ونُفي إلى البصرة أو غيرها، فدعا علي الوزير، أن تقطع يده، ويشتت شمله، فكان ذلك عما قريب، وفيها في جمادى الآخرة، نادى بدر الخَرْشني، صاحب الشرطة، في الجانبين، من بغداد أن لا يجتمع اثنان من أصحاب أبي محمد البربهاري الواعظ الحنبلي وحبس منهم جماعة، واستتر ابن البربهاري، فلم يظهر مدة.

قال ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ٣٤٩/١٣]: وفي شهر أيار، تكاثفت الغيوم، واشتد الحر جدا، فلما كان آخر يوم منه ـ وهو الخامس والعشرون من جمادى الآخرة من هذه السنة ـ هبّت ريح شديدة جداً، واظلمت الأرض، واسودّت إلى بعد العصر، ثم خفّت، ثم عادت إلى بعد عشاء الآخرة.

وفيها استبطأ الأجناد أرزاقهم، فقصدوا دار الوزير، أبي علي بن مقلة، فنقبوها، وأخذوا ما فيها.

ووقع حريق عظيم، في طريق البزازين، فاحترق بسببه للناس شيء كثير، فعوض عليهم الراضي بالله، بعض ما كان ذهب لهم.

وفي رمضان، اجتمع جماعة من الأمراء، علي بيعة جعفر بن المُكتفي وظهر الوزير على أمرهم، فحبس جعفراً، ونهبت داره، وحبس جماعة ممن كان بايعه، وانطفأت ناره.

وخرج الحُجّاج في خفارة الأمير لؤلؤ، فاعترضهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي لعنه الله، فقتل أكثرهم، ورجع من انهزم منهم إلى بغداد، وبطل الحج في هذه السنة، من طريق العراق وكان قتله لهم في ليلة الأربعاء لثنتي عشرة خلت من ذي القعدة.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة بعينها تساقطت كواكب كثيرة، ببغداد، والكوفة، على صفة لم يُرَ مثلها، ولا ما يقاربها، قال: وغلا السعر في هذه السنة، حتى بيع الكر من الحنطة بمائة وعشرين ديناراً.

وفيها على الصحيح كان مقتل مرداويج بن زيّار الديلمي، وكان قبحه الله سيئ السيرة، والسريرة، يزعم أن روح سليمان بن داود حلّت فيه، وله سرير من ذهب، يجلس عليه، والأتراك بين يديه، ويزعم أنهم الجن الذين سخروا لسليمان بن داود، وكان يسيء المعاملة لهم، ويحتقرهم غاية الاحتقار، فما زال ذلك دأبه، حتى أمكنهم الله منه، فقتلوه، في حمام، وكان الذي مالأ على قتله، غلامه بجكم التركي، جزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً وكان ركن الدولة بن بويه، رهينةً عنده، فلما قُتل أُطلق من السجن والقيد فذهب إلى أخيه عماد الدولة وذهبت طائفة من الأتراك معه إلى أخيه والتفت طائفة أخرى من الأتراك على بجكم، فسار بهم إلى بغداد بإذن الخليفة له في ذلك، ثم صرفوا إلى البصرة، فكانوا بها.

وأما الديلم، فإنهم بعثوا إلى أخي مرداويج، وهو وُشْمَكير، فلما قدم عليهم، تلقوه إلى أثناء الطريق، حُفاةً مشاة، فملكوه عليهم، لئلا يذهب ملكهم، فانتدب إلى محاربته، السعيد نصر بن أحمد الساماني، نائب خراسان، وما والاها من تلك البلاد والأقاليم، فانتزع منه بلدانا هائلة.

وفيها بعث القائم بأمر الله الفاطمي، جيشاً من إفريقية، في البحر، إلى ناحية الفرنج، فافتتحوا مدينة جنوه، وغنموا غنائم كثيرة، وثروة ورجعوا سالمين غانمين.

وفيها بعث عماد الدولة بن بُويه أخاه ركن الدولة إلى أصبهان، فاستولى عليها، وعلى بلاد الجبل، واتسعت مملكة عماد الدولة وقويت شوكته وعظمت منزلته.

وفيها كان غلاء شديد بخراسان، وفناء كثير، بحيث كان يهمهم أمر دفن الموتى، وفيها قتل ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، نائب الموصل، عمه أبا العلاء سعيد بن حمدان؛ لأنه أراد أن ينتزعها منه، فبعث إليه الخليفة، وزيره أبا علي بن مقلة في جيوش، فهرب منه ناصر الدولة، فلما طال مقام ابن مقلة بالموصل رجع إلى بغداد، فاستقرّت يد ناصر الدولة علي الموصل. وبعث إلى الخليفة يسأل أن يضمن تلك الناحية، فأجيب إلى ذلك، واستمر الحال على ما كان وخرج الحجيج، فلقيهم القرمطي في القادسية فقاتلوه، فظفر بهم، فسألوه الأمان، فأمنهم، على أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا، وتعطّل عليهم الحج عامهم ذلك.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ نِفْطَوَيْه النحوي: إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان ابن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي أبو عبد الله العتكي المعروف بنفطويه النحوي، له مصنفات فيه وقد سمع الحديث، وروى عن المشايخ، وحدّث عنه الثقات من الناس، وكان صدوقا، وله أشعار حسنة.

وروى الخطيب [تاريخ بغداد ١٦١/٦] عن نفطويه، أنه مرّ يوماً على بقّال، فقال له: أيها الشيخ، كيف الطريق إلى درب الرُءاسين - يعني درب الروّاسين فالتفت البقال إلى جاره، فقال له: قبّح الله غلامي، أبطأ علي بالسِّلْق، ولو كان عندي، لصفعت هذا بجُرْزةٍ منه فانصرف عنه نفطويه، ولم يرد عليه، توفي نفطويه في شهر صفر، من هذه السنة، عن ثلاث وثمانين سنة وصلى عليه البربهاري رئيس الحنابلة، ودفن بمقابر باب الكوفة.

ومما أنشده له أبو علي القالي في «الأمالي» [الأمالي ٢٠٩/١]:

قلبي أرقُّ عليك من خدّيكا ... وقُوايَ أوهى من قوى جفنَيكا

لِمَ لا ترق لمنْ يعذِّبُ نفسه ... ظلماً ويعطفُهُ هواهُ عليكا

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٤٨/١]: وفي نفطويه، يقول أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي، المتكلم المشهور، صاحب «الإمامة»، و«إعجاز القرآن»، وغير ذلك:

مـن سـره أن لا يـرى فاسـقاً　　فليجتهـد أن لا يـرى نفطويـه
أحرقـه اللّـه بنصـف اسمـه　　وصيّر البـاقي صراخـاً عليـه

قال الثعالبي لطائف المعارف ص٤٧: إنما سُمي نفطويه لدَمامته وأُدْمَتِه وقال ابن خالويه: لا يعرف من اسمه إبراهيم وكنيته أبو عبد اللّه سواه.

■ **عبيد اللّه بن عبد الصمد بن المهتدي باللّه أبو عبد اللّه الهاشمي العباسي**: حدث عن سيّار بن نصر الحلبي وغيره. وعنه الدارقطني، وغيره، وكان ثقة فاضلاً، فقيهاً شافعياً.

■ **عبد الملك بن محمد بن عدي أبو نعيم الإستراباذي**: المحدث، الفقيه، الشافعي أيضاً، توفي عن ثلاث وثمانين سنة.

■ **علي بن الفضل بن طاهر بن نصر بن محمد أبو الحسن البلخي**، كان من الجوّالين في طلب الحديث، وكان ثقة حافظاً، سمع أبا حاتم الرازي وغيره وعنه الدارقطني وغيره.

■ **محمد بن أحمد بن أسد أبو بكر الحافظ**، ويعرف بابن البُسْتُنْبان، سمع الزبير بن بكار وغيره، وعنه الدارقطني وغيره جاوز الثمانين سنة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

فيها جاءت الجند، فأحدقوا بدار الخلافة، وقالوا: ليخرج إلينا الخليفة الراضي بنفسه، فيُصَلِّ بالناس فخرج، إليهم فصلّى بهم، وخطبهم. وقبض الغلمان على الوزير أبي علي بن مقلة، وسألوا من الخليفة، أن يستوزر، غيره، فرد الخيرة، إليهم فاختاروا علي بن عيسى فلم يقبل وأشار باخيه عبد الرحمن بن عيسى فاستوزره وأحرقت دار ابن مقلة، وسلم هو إلى عبد الرحمن بن عيسى، فضرب ضرباً عنيفاً، وأخذ خطه بألف ألف دينار، ثم عجز عبد الرحمن بن عيسى، فعزل بعد خمسين يوماً، وقلد الوزارة أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي، فصادر علي بن عيسى بمائة ألف دينار، وصادر أخاه عبد الرحمن بن عيسى بسبعين ألف دينار، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر ونصف، وقلد سليمان بن الحسن، ثم عزل بأبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، وذلك في السنة الآتية، وأحرقت داره، كما أحرقت دار ابن مقلة، في اليوم الذي أحرقت تلك فيه، بينهما سنة واحدة، وهذا كله من تخبيط الأتراك والغلمان، ولما أحرقت دار ابن مقلة في هذه السنة، كتب بعض الناس، على بعض جُدرانها:

أحسنتَ ظنكَ بالأيـام إذ حسـنتْ　　ولم تخفْ سوءَ ما يـأتي بـهِ القـدرُ
وسـالمتكَ الليـالي فاغـتررتَ بهـا　　وعند صفو الليـالي يحـدثُ الكـدرُ

وضعف أمر الخلافة جداً، وبعث الراضي إلى محمد بن رائق ـ وكان بواسط ـ يستدعيه إليه، ليوليه إمرة الأمراء ببغداد، وأمر الخراج، والمعاون في جميع البلاد، والدواوين، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه بالخلع فقدم ابن رائق إلى بغداد، على ذلك كله، ومعه الأمير بجكم التركي، غلام مرداويج وهو الذي ساعد على قتله وأراح المسلمين منه واستحوذ ابن رائق على أمر العراق بكماله، ونقل أموال بيت المال إلى داره، ولم يبق للوزير تصرف في شيء بالكلية ووهى أمر الخلافة جداً، واستقل نواب الأطراف بالتصرف فيها، ولم يبق للخليفة حُكْمٌ في غير بغداد ومعاملاتها ومع هذا ليس له مع ابن رائق نفوذ في شيء، ولا كلمة تطاع، وإنما يحمل إليه ابن رائق، ما يحتاج إليه من الأموال، والنفقات، وغيرها وهكذا صار أمر من جاء بعده من الأمراء الأكابر، وأما بقية الأطراف، فالبصرة مع ابن رائق هذا، وأمر خوزستان في يدي أبي عبد اللّه البريدي، وقد غلب ياقوت في هذه السنة حواصله وأمواله على ما كان بيده من مملكة تستر وغيرها، واستحوذ على حواصله، وأمواله. وأمر فارس إلى عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه والري وأصبهان والجبل بيد أخيه ركن الدولة بن بويه ومنازعه في ذلك وشمكير أخوه مرداويج وكرمان بيد أبي علي محمد بن إلياس ابن اليسع، وبلاد الموصل، والجزيرة، وديار بكر، ومضر، وربيعة مع بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، وبلاد إفريقية، والمغرب في يد القائم بأمر اللّه ابن المهدي المدّعي أنه فاطمي، وقد تلقب بأمير المؤمنين والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد، الملقب بالناصر الأموي، وخراسان، وما وراء النهر في يد السعيد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان، وجرجان في يد الديلم، والبحرين، واليمامة، وهجر، في يد أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي لعنه اللّه.

وفيها وقع ببغداد غلاء عظيم، وفناء كثير، بحيث عدم الخبز منها خمسة أيام، ومات من أهل البلد خلق كثير، وأكثر ذلك كان في الضعفاء، وكان الموتى يلقون في الطرقات، ليس لهم من يقوم بأمرهم، ويحمل على الجنازة الواحدة الاثنان من الموتى، وربما يوضع بينهم صبي، وربما حفرت الحفرة الواحدة فتوسّع حتى يوضع فيها جماعة ومات من أهل أصبهان نحو من مائتي ألف إنسان.

ووقع فيها حريق بعُمان، أحرق فيه من السودان ألف، ومن البيضان خلق كثير، وكان من جملة ما احترق فيه أربعمائة حمل كافور.

وعزل الخليفة أحمد بن كيغلغ عن نيابة الشام، وأضاف ذلك إلى ابن طغج نائب الديار المصرية.

وفيها ولد عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة بن بويه بأصبهان.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ **ابن مجاهد المقرئ**: أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقرئ، أحد الأئمة في هذا الشأن حدث عن خلق كثير، وروى عنه الدراقطني، وغيره وكان ثقة مأموناً، سكن الجانب الشرقي من بغداد، وكان ثعلب يقول: ما بقي في عصرنا أحد أعلم بكتاب اللّه منه، وكانت وفاته يوم الأربعاء، وأخرج يوم الخميس، لعشر بقين من شعبان من هذه السنة وقد رآه بعضهم في المنام، وهو يقرأ، فقال له: أما مت؟ فقال: بلى، ولكن كنت أدعو اللّه عقب كل ختمة، أن أكون ممن يقرأ في قبره، فأنا ممن يقرأ في قبره رحمه اللّه.

■ **جَحْظَةَ الشاعر البرمكي**: أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، أبو الحسن النديم، المعروف بجحظة، الشاعر الماهر، الأديب الإخباري، ذو الفنون في العلوم، والنوادر الحاضرة، وكان جيّد الغناء ومن شعره:

قـد نـادت الدنيـا علـى نفسـها　　لـو كـان في العـالم مـن يسـمعُ
كـم واثـقٍ في العُمـر وارَيْتُـه　　وجـامع بـددتُ مـا يجمـعُ

وكتب له بعض الملوك رقعة، على صيرفي بمال أطلقه له، فلم يتحصَّل منها على شيء وتعذر عليه قبضها، فكتب إلى الملك يذكر له صورة الحال:

إذا كـانت صلاتكـم رقاعـاً　　تخطـط بالأنـامل والأكـفّ
وَلَـمْ تُجْـدِ الرقـاعُ علـيّ نفعـاً　　فهـا خطـي خُـذوه بـألف ألـفِ

ومن شعره يهجو صديقاً له وينمُّه على شدة بخله وحرصه:

لنا صاحب من أبرع الناس في البخل ... وأفضلهم فيه وليس بذي فضل

دعاني كما يدعو الصديق صديقه ... فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي

فلما جلسنا للغداء رأيته ... يرى أنما من بعض أعضائه أكلي

ويغتاظ أحياناً ويشتم عبده ... وأعلم أن الغيظ والشتم من أجلي

أمد يدي سراً لآكل لقمة ... فيلحظني شزراً فأعبَثُ بالبقل

إلى أن جنت كفي لحيني جنايةً ... وذلك أن الجوع أعدمني عقلي

فأهوت بيمني نحو رجل دجاجة ... فجُرَّتْ كما جرّت يدي رِجْلها رجلي

ومن قويِّ شعره وجيِّده قوله:

رحلتُم فكم من أنّةٍ بعد حنّة ... مبينة للناس حزني عليكم

وقد كنت أعتقتُ الجفُون من البُكا ... فقد ردّها في الرّقّ شوْقي إليكمُ

ومما أورده له القاضي ابن خلكان من الشعر الرائق قوله [وفيات الأعيان ١٣٤/١]:

فقلت لها بخلت عليّ يَقْظَى ... فجودي في المنام لمستهام

فقالت لي وَصِرْتَ تنام أيضاً ... وتطمع أن أزورك في المنام؟

قال: وإنما لقبه بجحظة عبد الله بن المعتز، وذلك لسوء منظره كما قال فيه بعض من هجاه:

نُبِّئْتُ جحظة يستعير جحوظه ... من فيل شطرنج ومن سرطان

وارحمتا لمنادميه تحملوا ... ألم العيون للذة الآذان

قال ابن خلكان: وكانت وفاته في سنة ست وعشرين وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسط وحُمِل إلى بغداد قال الخطيب: وكان مولده في سنة أربع وعشرين ومائتين.

■ **ابن المغلِّس**، الفقيه الظاهري عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس أبو الحسن الفقيه الظاهري المشهور. له المصنفات المفيدة في مذهبه. أخذ الفقه عن أبي بكر بن داود وروى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، وعلي بن داود القنطري، وأبي قلابة الرقاشي، وآخرين، وكان فقيهاً ثقةً فاضلاً، وهو الذي نشر علم داود، في تلك البلاد توفي بالسكتة.

■ **أبو بكر بن زياد النيسابوري**

■ **عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل بن ميمون، أبو بكر الفقيه** الشافعي النيسابوري، مولى أبان بن عثمان، رحل إلى العراق، والشام، ومصر، وسكن بغداد، وحدّث عن محمد بن يحيى الذهلي، وعباس الدوري، وخلق، وعنه الدارقطني، وغير واحد من الحفاظ.

قال الدارقطني: لم نَرَ في مشايخنا أحفظ منه للأسانيد، والمتون. وكان أفقه المشايخ، جالس المزني، والربيع.

وقال عبد الله بن بطة: كنا نحضر مجلس ابن زياد، وكان يحزر من يَحْضُرُه، من أصحاب المحابر ثلاثين ألفاً.

وقال الخطيب [تاريخ بغداد ١٢٢/١٠]: أخبرنا أبو سعد الماليني، أنا يوسف بن عمر بن مسرور، سمعت أبا بكر بن زياد النيسابوري يقول: أعرف من قام الليل أربعين سنة، لم ينم إلا جاثياً، ويتقوَّت كل يوم خمس حبات، ويصلي صلاة الغداة بطهارة العشاء، ثم يقول: أنا هو هذا كله، قبل أن أعرف أم عبد الرحمن أيش أقول لمن زوجني! ثم قال في إثر هذا: ما أراد إلا الخير توفي في هذه السنة عن ست وثمانين سنة.

■ **عفان بن سليمان بن أيوب أبو الحسن التاجر**، أقام بمصر، وأوقف بها أوقافا، دارَّةً على أهل الحديث، وعلى سلالة العشرة رضي الله عنهم، وكان تاجراً مُوَسَّعاً عليه، مقبول الشهادة عند الحكام، توفي في شعبان من هذه السنة

■ **أبو الحسن الأشعري**: علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق ابن سالم بن إسماعيل بن موسى بن بلال بن أبي بردة ابن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قدم بغداد، وأخذ الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي، وتفقه بابن سريج وقد ذكرنا ترجمته في «طبقات الشافعية».

وقد ذكر القاضي ابن خلكان في «الوفيات» [وفيات الأعيان ٢٨٤/٣-٢٨٦] أنه كان يجلس في حلقة الشيخ أبي إسحاق المروزي، وقد كان معتزلياً،قبل ذلك فتاب منه بالبصرة، فوق المنبر، ثم أظهر فضائحهم، وقبائحهم، وذكر له من التصانيف: الموجز، وغيره، وحكي عن ابن حزم أنه صنّف خمسة وخمسون تصنيفاً وذكر أن مغله، كان في كل سنة كان سبعة عشر درهماً، وأنه كان من أكثر الناس دعابة، وأنه ولد سنة سبعين ومائتين، وقيل سنة ستين ومائتين، ومات في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاثين، وقيل في سنة بضع وثلاثين وثلاثمائة فالله أعلم.

■ **محمد بن الفضل بن عبد الله، أبو ذر التميمي**، كان رئيس جرجان، سمع الكثير وتفقه بمذهب الشافعي، وكانت داره مجمع العلماء، وله إفضال كثير، على طلبة العلم، من أهل زمانه.

■ **هارون ابن المقتدر**، أخو الخليفة الراضي، توفي في ربيع الأول منها، فحزن عليه أخوه الراضي، وأمر بنفي بَخْتَيْشوع بن يحيى المتطبب إلى الأنبار لأنه اتُّهم في علاجه، ثم شفعت فيه أم الراضي فرده.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

في المحرم منها خرج الخليفة الراضي، وأمير الأمراء محمد بن رائق، من بغداد قاصدين واسطاً، لقتال أبي عبد الله البريدي، نائب الأهواز، الذي قد تجبر بها، ومنع الخراج، فلما سار ابن رائق إلى واسط، خرج عليه الحُجَرِيَّة وقاتلوه فسلّط عليهم بَجْكَم، فطحنهم، ورجع فَلّهم إلى بغداد، فتلقاهم لؤلؤ أمير الشرطة، فاحتاط على أكثرهم، ونهبت دورهم، ولم يبق لهم رأس يرتفع، وقطعت أرزاقهم من بيت المال بالكلية.

وبعث الخليفة وابن رائق إلى أبي عبد الله البريدي، يتهددانه، فأجاب إلى حمل كل سنة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار يقوم بحمل كل شهر على حدته، وإلى أن يُجهِّز جيشاً إلى قتال عضد الدولة بن بويه. فلما رجع الخليفة إلى بغداد، لم يحمل شيئا، ولم يبعث أحداً، ثم بعث ابن رائق بجكم وبدراً الخَرْشَنِيّ، لقتال البريدي، فجرت بينهم حروب وخطوب، وأمور يطول ذكرها، ثم لجأ البريدي إلى عماد الدولة، واستجار به، واستحوذ بجكم على بلاد الأهواز، وجعل إليه ابن رائق خراجها وكان بجكم هذا شجاعا فاتكاً.

وفي ربيع الأول خلع الخليفة على بجكم، وعقد له الإمارة ببغداد، وولاه نيابة المشرق إلى خراسان.

وفيها توفي من الأعيان

■ **أبو حامد بن الشرقي، أحمد بن محمد بن الحسن:** أبو حامد بن الشرقي، مولده سنة أربعين ومائتين، وكان حافظاً كبير القدر، كثير الحفظ، كثير الحج رحل إلى الأمصار، وجاب الأقطار، وسمع من الكبار نظر إليه ابن خزيمة يوماً فقال: حياة أبي حامد، تحجزُ بين الناس، وبين الكذب على رسول الله ﷺ.

■ **عبد الله بن محمد بن سفيان أبو الحسن الخزاز النحوي،** حدّث عن المبرد، وثعلب، وكان ثقة. له مصنفات في علوم القرآن، غزيرة الفوائد.

■ **محمد بن إسحاق بن يحيى أبو الطيب النحوي،** ابن الوشّاء له مصنفات مليحة في الأخبار وقد حدث عن الحارث بن أبي أسامة والمبرد وثعلب، وغيرهم

■ **محمد بن أحمد بن هارون أبو بكر العسكري، الفقيه،** على مذهب أبي ثور، روى عن الحسن بن عرفة، وعباس الدوري، وعنه الدارقطني، والآجري، وغيرهما.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة

فيها ورد كتاب من ملك الروم، إلى الخليفة الراضي، مكتوب بالرومية، والتفسير بالعربية، فأما الرومي فبالذهب، والعربي بالفضة، وحاصله، طلب الهدنة، بينه وبينه ووجه مع الكتاب بهدايا، وألطاف كثيرة فاخرة، فأجابه الخليفة إلى ذلك، وفودي من المسلمين ستة آلاف أسير، ما بين ذكر، وأنثى، على نهر البذندون.

وفيها ارتحل الوزير أبو الفتح بن الفرات، من بغداد إلى الشام، وترك الوزارة، فوليها أبو علي بن مقلة، وكانت ولايته ضعيفة جداً، ليس له من الأمر شيء مع ابن رائق، وطلب من ابن رائق، أن يفرغ له عن أملاكه، فجعل يماطله، فكتب إلى بجكم، يطمعه في بغداد، وأن يكون عِوَضاً عن ابن رائق، وكتب ابن مقلة أيضا إلى الخليفة يطلب منه أن يسلم إليه ابن رائق وابن مقاتل ويضمنهم بألفي ألف دينار فبلغ ذلك ابن رائق، فأخذه، فقطع يده، وقال: هذا أفسد في الأرض ثم جعل يُحَسِّنُ للخليفة، أن يستوزره، وأن قطع يده، لا يمنعه من الكتابة، وأنه يشد القلم على يده اليمنى المقطوعة، فيكتب بها، ثم بلغ ابن رائق، أنه قد كتب إلى بجكم بما تقدم، وأنه يدعو عليه، فأخذه فقطع لسانه، وسجنه في مكان ضيق، وليس عنده من يخدمه، فكان يستقي الماء بنفسه، يتناول الحبل من البئر بيده اليسرى، ثم يُمسكه بفيه، ولقي شدة وعناء، ومات في محبسه هذا وحيداً، فدفن هناك ثم سأل أهله نقله، فدفن في داره، ثم نقل منها إلى غيرها، فاتفق له أشياء غريبة: منها أنه وزر ثلاث مرات، وعزل ثلاث مرات، وولي لثلاثة من الخلفاء، ودفن ثلاث مرات، وسافر في عمره ثلاث سفرات، مرتين منفيّاً، ومرةفي وزارته إلى الموصل، كما تقدم.

وفيها دخل بجكم بغداد، فقلده الراضي إمرة الأمراء، مكان ابن رائق، وقد كان بجكم هذا من غلمان أبي علي العارض، وزير ماكان ابن كالي الديلمي فاستوهبه ما كان من الوزير، فوهبه له، ثم فارق ما كان، ولحق بمرداويج، وكان في جملة من قتله في الحمام، كما تقدم، [وسكن بجكم بدار مؤنس الخادم، وعظم أمره جداً، وانفصل ابن رائق، وكانت أيامه سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً.

وفيها بعث عماد الدولة بن بُوَيه، أخاه معز الدولة، فأخذ بلاد الأهواز لأبي عبد الله البريدي، وانتزعها من يد بجكم، وأعادها إليه.

وفيها استولى لُشْكرى، أحد أمراء وشمكير الديلمي، على بلاد أذربيجان، وانتزعها من رستم بن إبراهيم الكردي، أحد أصحاب ابن أبي الساج، بعد قتال شديد طويل.

وفيها اضطراب أمر القرامطة جداً، وقتل بعضهم بعضا، وانكفوا بسبب قلتهم، عن التعرض للفساد في الأرض، ولزموا بلدهم هجر، لا يرومون منه انتقالاً إلى غيره، ولله الحمد والمنة.

وفيها توفي

■ **أحمد بن زياد بن عبد الرحمن الأندلسي،** كان أبوه من أصحاب مالك، وهذا الرجل هو أول من أدخل فقه مالك إلى الأندلس، وقد عرض عليه القضاء بها، فلم يقبل.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

في المحرم منها، خرج الراضي بالله أمير المؤمنين من بغداد، إلى الموصل، لمحاربة ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان نائبها، وبين يديه بجكم أمير الأمراء، وقاضي القضاة أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف، وقد استخلف علي بغداد ولده القاضي أبا نصر يوسف بن عمر، عن أمر الخليفة له بذلك وكان عالماً فاضلاً، ولما انتهى بجكم إلى الموصل والجزيرة، واقع الحسن بن عبد الله بن حمدان، فهزم بجكم الحسن بن حمدان، وقرّر الخليفة أمر الموصل والجزيرة.

وأما محمد بن رائق، فإنه اغتنم غيبة الخليفة عن بغداد، واستجاش بألف من القرامطة، فدخل بهم بغداد، فأكثر فيها الفساد، غير أنه لم يتعرض لدار الخلافة، ثم بعث إلى الخليفة، يطلب منه المصالحة، والعفو عما جنى، فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه قاضي القضاة أبا الحسين عمر بن محمد بن يوسف، وترحل ابن رائق عن بغداد، ودخلها الخليفة في جمادى الأولى في هذه السنة ففرح المسلمون بذلك.

ونزل عند غروب الشمس، أول ليلة من شهر آذار وذلك في جمادى الأولى، مطر عظيم، وبرد كبار، كل واحدة نحو الأوقيتين، واستمر، فسقط بسببه، دور كثيرة من بغداد، وظهر جراد كثير، في هذه السنة، وكان الحج من جهة درب العراق، قد تعطّل من سنة سبع عشرة وثلاثمائة إلى هذه السنة، فشفع الشريف أبو علي عمر بن يحيى العلوي عند القرامطة، وكانوا يحبونه، لشجاعته، وكرمه، في أن يُمكّنوا الحجيج من الحج، وأن يكون لهم على كل جمل خمسة دنانير، وعلى المحمل سبعة دنانير، فخرج الناس للحج في هذه السنة، على هذا الشرط، فكان من جملة من خرج الشيخ أبو على بن أبي هريرة أحد أئمة الشافعية، فلما اجتاز بهم، طالبوه بالخفارة، فثنى رأس راحلته، ورجع، وقال: ما رجعت شُحّاً، ولكن سقط عني وجوب الحج، بطلب هذه الخفارة.

وفي هذه السنة وقعت فتنة بالأندلس، وذلك أن عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، الملقب بالناصر لدين الله، قتل وزيره أحمد، فغضب له أخوه أمية بن إسحاق ـ وكان نائباً على مدينة شنترين ـ فارتد، ودخل بلاد النصارى، واجتمع بملكهم رُدمير، ودَلّه على عورات المسلمين، فسار إليهم في جيش كثيف من الجلالقة، فخرج إليه الأموي، فاوقع به بأساً شديداً، وَقتل من الجلالقة خلقاً كثيرا، ثم كر الفرنج على المسلمين، فقتلوا

منهم خلقاً، قريباً ممن قتلوا منهم، ثم والى المسلمون الغارات، على بلاد الجلالقة، فقتلوا منهم أمما لا يحصون كثرة، ثم ندم أمية بن إسحاق على ما صنع، وطلب الأمان من عبد الرحمن، فبعث إليه بالأمان، فلما قدم عليه قبله واحترمه.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **الحسن بن القاسم بن دُحَيْم: أبو علي الدمشقي**، من أبناء المحدثين، وكان أخباريا له في ذلك مصنفات، وقد حدث عن العباس بن الوليد البيروتي، وغيره. وكانت وفاته بمصر في محرم هذه السنة وقد أناف على الثمانين سنة.

■ **الحسين بن القاسم بن جعفر بن محمد بن خالد بن بشر أبو علي الكوكبي الكاتب**، صاحب الأخبار، والآداب، روى عن أحمد ابن أبي خيثمة، وأبي العيناء، وابن أبي الدنيا. روى عنه الدارقطني، وغيره.

■ **عثمان بن الخطاب بن عبد الله أبو عمرو البلوي، المغربي الأشج،** ويعرف بأبي الدنيا. قدم هذا الرجل بغداد بعد الثلاثمائة، وزعم أنه ولد أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ببلاد المغرب، وأنه وفد هو وأبوه على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأصابهم في الطريق عطش شديد، فذهب يرتاد لأبيه ماء، فرأى عينا، فشرب منها، واغتسل، ثم جاء لابيه ليسقيه، فمات أبوه، وقدم هو على علي بن أبي طالب، فأراد أن يُقبل ركبته، فصدمه الركاب، فشج رأسه، فكان يعرف بالأشج، صدقه في هذا الزعم طائفة من الناس، ورووا عنه نسخة، فيها أحاديث من روايته عن علي، ممن صدّقه في ذلك الحافظ محمد بن أحمد المفيد، ورواها عنه، ولكن كان المفيد متهما بالتشيع، فسمح له في ذلك، لانتسابه إلى علي، وأما جمهور المحدثين، قديماً، وحديثاً،فكذبوه في ذلك، وردوا عليه كذبه، ونصوا على أن النسخة التي رواها موضوعة، ومنهم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، وأشياخنا الذين أدركناهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والجهبذ أبو الحجاج المزي، والحافظ مؤرخ الإسلام أبو عبد الله الذهبي، وقد حرّرتُ ذلك في كتابي «التكميل»، ولله الحمد والمنة.

قال المفيد: بلغني أن الأشج هذا، مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وهو راجع إلى بلده.

■ **محمد بن جعفر بن محمد بن سهل: أبو بكر الخرائطي**، صاحب المصنفات، أصله من أهل سُرَّ من رأى، وسكن الشام، وحدث بها عن الحسن بن عرفة، وغيره.

ومن توفي فيها:

الحافظ الكبير ابن الحافظ الكبير أبو محمد

■ **عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي:** صاحب كتاب «الجرح والتعديل»، وهو من أجل الكتب المصنفة، في هذا الشأن، وله التفسير الحافل، الذي اشتمل على النقل الكامل، الذي يربي فيه على تفسير ابن جرير، وغيره من المفسرين، وله كتاب «العِلَل» المصنَّفَة المرتبة، على أبواب الفقه، وغير ذلك من المصنفات النافعة، وكان من العبادة، والزهادة، والورع والحفظ، والكرامات الكثيرة، المشهورة على جانب كبير، رحمه الله تعالى. وأكرم مثواه.

وقد صلّى مرة، فلما سلم، قال له رجل، من بعض من صلى معه: لقد أطلت علينا، قد سبحت في سجودي سبعين مرة. فقال عبد الرحمن: لكني والله ما سبّحتُ إلا ثلاثا، وتهدّم سور بعض بلاد الثغور، فتكلّم عبد الرحمن بن أبي حاتم يوما على الناس: حثهم على عمارته، فقال: من يَعْمُره، وأضمن له على الله الجنة؟ فقام رجل من التجار، فقال: اكتب لي بخطّك هذا الضمان، وهذه ألف دينار لعمارته فكتب له رقعة بذلك، وعمر ذلك السور، ثم اتفق موت ذلك الرجل عما قريب، فلما حضر الناس جنازته، طارت من كفنه رقعة، وهي التي كان كتبها ابن أبي حاتم وإذا في ظهرها مكتوب: قد أمضينا لك هذا الضمان، ولا تعد إلى ذلك.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ٣٨٢/١٣]: في غرة المحرم منها، ظهرت في الجو، حمرة شديدة، من ناحية الشمال، والمغرب، وفيها أعمدة بيض، عظيمة، كثيرة العدد.

وفيها وصل الخبر، بأن ركن الدولة، أبا علي الحسن بن بويه الديلمي، قد وصل إلى واسط، فركب الخليفة وبجكم لقتاله فانصرف راجعاً، ورجعا إلى بغداد.

وفي هذه السنة ملك ركن الدولة بن بويه مدينة أصبهان، أخذها من وشمكير أخي مرداويج، لقلة جيشه في ذلك الحين.

وفي شعبان زادت دجلة، زيادة عظيمة، وانتشرت في الجانب الغربي، وسقطت دور كثيرة، وانبثق بثق من نواحي الأنبار، فغرق قرى كثيرة، وهلك بسببه حيوانات وسباع كثيرة في البرية.

وفيها تزوج بجكم بسارة بنت أبي عبد الله البريدي وهومحمد بن أحمد بن يعقوب الوزير يومئذ ببغداد ثم صُرف عن الوزارة بسليمان بن الحسن وضمن البريدي بلاد واسط وأعمالها بستمائة ألف دينار.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحسين

■ **عمر بن محمد بن يوسف**، وتولى مكانه ولده أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف، وخلع عليه الخليفة الراضي، يوم الخميس، لخمس بقين من شعبان منها، ولما خرج أبو عبد الله البريدي إلى واسط، كتب إلى بجكم، يحثه على الخروج إلى بلاد الجبل، ليفتحها، ويساعده هو على اخذ الأهواز، من يد عماد الدولة بن بويه، وإنما كان مقصوده، أن يستغيبه عن بغداد، ليأخذها فلما انفصل بجكم بالجنود، بلغه ما يؤمله أبو عبد الله البريدي من المكيدة، فرجع سريعاً إلى بغداد، وركب في جيش كثيف إليه، وأخذ الطرق من كل جانب لئلا يشعر به، إلا وهو عنده على حافة السفينة فاتفق أنه كان راكبا في زورق، وعنده كاتب له إذ سقطت حمامة على جانب السفينة في ذنبها كتاب، فأخذه بجكم، فقرأه، فإذا فيه كتاب من هذا الكاتب، إلى أصحاب البريدي، يعلمهم بخبر بجكم، فقال له: ويحك! أهذا خطك؟ قال: نعم. ولم يقدرعلى الإنكار، فأمر بقتله، فقتل، وألقي في دجلة وحين احس البريدي، بقدوم بجكم، هرب إلى البصرة، ولم يقم بها أيضاً، فاستولى بجكم على بلاد واسط، وتسلط الديلم على جيشه، الذين خلفهم بالجبل، ففروا سراعا إلى بغداد.

وفي هذه السنة استولى محمد بن رائق على بلاد الشام، فدخل حمص أولا، فأخذها، ثم جاء إلى دمشق، وعليها بدر بن عبد الله الإخشيدي، المعروف ببدير من جهة الأخشيد، محمد بن طغج، فأخرجه ابن رائق منها قهراً، واستولى عليها.

ثم ركب في جيش إلى الرملة، فأخذها، ثم قصد عريش مصر ليدخلها، فلقيه محمد بن طغج فاقتتلا هناك، فهزمه ابن رائق، واشتغل أصحابه بالنهب، ونزلوا في خيام المصريين، فكر عليهم المصريون فقتلوهم قتلا عظيما، وهرب محمد بن رائق في سبعين رجلا من أصحابه، فدخل دمشق في أسوأ حالةٍ وشرها، وسير اليه محمد بن طغج أخاه نصر بن طغج، في جيش، فاقتتلوا عند اللجون، في رابع ذي الحجة، فهزم المصريون، وقتل أخو الإخشيد فيمن قتل، فغسله محمد بن رائق، وكفنه، وبعث به إلى أخيه بمصر، وأرسل معه ولده، وكتب إليه، يحلف له أنه ما أراد قتله، وهذا ولدي فاقتد منه فأكرم الإخشيد ولد محمد بن رائق، واصطلحا، على أن تكون الرملة، وما بعدها إلى ديار مصر للإخشيد، ويحمل إليه الإخشيد، في كل سنة، مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، وما بعد الرملة يكون لمحمد بن رائق.

ومن توفي في هذه السنة

■ **جعفر المرتعش، أبو محمد** أحد مشايخ الصوفية، كذا ذكره الخطيب وقال أبو عبد الرحمن السلمي: اسمه عبد الله بن محمد أبو محمد النيسابوري، كان من ذوي الأموال، فتخلى منها، وصحب الجنيد، وأبا حفص، وأبا عثمان، وأقام ببغداد، حتى صار شيخ الصوفية، فكان يقال عجائب بغداد ثلاث إشارات الشبلي، ونكت المرتعش، وحكايات جعفر الخواص.

سمعت أبا الفرج الصائغ يقول: قال المرتعش: من ظن أن أفعاله، تنجيه من النار، أو تبلغه الرضوان، فقد جعل لنفسه، ولفعله، خطرا، ومن اعتمد على فضل الله، بلغه الله أقصى منازل الرضوان.

وقيل للمرتعش: إن فلانا يمشي على الماء. فقال: إن مخالفة الهوى، أعظم من المشي على الماء.

ولما حضرته الوفاة، وهو بمسجد الشونيزية، حسبوا ما عليه من الدين، فإذا عليه سبعة عشر درهماً، فقال: بيعوا خريقاتي هذه، واقضوا بها ديني، وأرجو أن يرزقني الله كفنا، وقد سألت الله ثلاثا: سألته أن يميتني وأنا فقير، وأن يجعل وفاتي في هذا المسجد، فإني صحبت فيه أقواما، وأن يجعل عندي، من آنس به، وأحبه ثم أغمض عينيه، ومات.

■ **أبو سعيد الإصطخري الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل بن بشار،** أبو سعيد الإصطخري أحد أئمة الشافعية، وكان زاهد ورعاً ناسكا عابدا، ولي القضاء بقم، ثم حسبة بغداد، فكان يدور بها، ويصلي على بغلته، وهو سائر بين الأزقة، وكان متقللاً جداً، وقد ذكرنا ترجمته في «طبقات الشافعية»، وله كتاب «القضاء»، لم يصنف مثله في بابه، توفي وقد قارب التسعين رحمه الله تعالى.

■ **علي بن محمد أبو الحسن المزين الصغير:** أحد مشايخ الصوفية، أصله من بغداد، وصحب الجنيد، وسهلا التستري، وجاور بمكة، حتى توفي بها في هذه السنة، وقال: يحكي عن نفسه، وردت بئرا، في أرض تبوك، فلما دنوت منها، زلقت فسقطت في البئر، وليس أحد يراني. فلما كنت في أسفلها، إذا فيها مصطبة، فعلوتها وقلت: إن مت، لا أفسد على الناس الماء، وسكنت نفسي، وطابت للموت فبينا أنا كذلك، إذا أفعى، قد تدلت علي، فلفت علي ذنبها ثم رفعتني، حتى أخرجتني إلى وجه الأرض، وانسابت فلم أدر أين ذهبت، ولا من أين جاءت.

وفي مشايخ الصوفية، آخر يقال له أبو جعفر المزين الكبير، جاور بمكة، ومات بها أيضا، وكان من العباد.

روى الخطيب عن علي بن أبي علي، عن إبراهيم بن محمد الطبري، عن جعفر الخلدي قال: ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير، فقلت له: زودني. فقال لي: إذا فقدت شيئا، فقل يا جامع الناس، ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، اجمع بيني وبين كذا، فإن اللّه يجمع بينك، وبين ذلك الشيء، قال: فجئت إلى الكتاني، فودعته، وسألته أن يزودني، فأعطاني خاتما، على فصه نقش، فقال: إذا اغتممت، فانظر إلى هذا الفص، يزل غمك. قال: فكنت لا أدعو بذلك الدعاء، إلا استجيب لي، ولا أنظر في ذلك الفص، إلا زال عني ما أجده، فبينا أنا ذات يوم في سُمَيْرِيّة، إذ هبت ريح شديدة، فأخرجت الخاتم لأنظر إليه، فلم أدر كيف ذهب، فجعلت أدعو بذلك الدعاء يومي كله، فلما رجعت إلى المنزل، فتشت المتاع الذي في المنزل، فإذا الخاتم في بعض ثيابي، التي كانت بالمنزل.

صاحب كتاب «العقد الفريد»

■ **أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير بن سالم أبو عمر القرطبي،** مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي. كان من الفضلاء المكثرين، والعلماء بأخبار الأولين، والمتأخرين، وكتابه «العقد»، يدل على فضائل جمة، وعلوم كثيرة مهمة، ولكنه يدل كثير من كلامه، على تشيع فيه، وميل إلى الحط على بني امية، وهذا عجيب منه، لأنه أحد مواليهم، وكان الأولى به، أن يكون ممن يواليهم، لا ممن يعاديهم.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١/١١٠]: وله ديوان شعر حسن، ثم أورد منه أشعاراً، في التغزل في المردان والنسوان أيضاً. وكان مولده في رمضان سنة ست وأربعين ومائتين، وتوفي بقرطبة، يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، من هذه السنة.

■ **عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم، أبو الحسين الأزدي،** الفقيه المالكي، القاضي ابن القاضي، ناب عن أبيه وعمره عشرون سنة، وكان حافظا للقرآن والحديث والفقه على مذهب مالك والفرائض، والحساب واللغة والنحو والشعر وصنّف مسنداً، وَرُزِق قوة الفهم، وجودة القريحة، وشرف الأخلاق، وله الشعر الرائق الحسن، وكان مشكور السيرة في القضاء، عدلاً ثقةً إماماً.

قال الخطيب [تاريخ بغداد ١١/٢٣٢]: أخبرنا أبو الطيب الطبري، سمعت المعافى بن زكريا الجريري يقول: كنا نجلس في حضرة القاضي أبي الحسين فجئنا يوما ننتظره على العادة، فجلسنا عند بابه، وإذا أعرابي جالس، كان له حاجة، إذ وقع غراب على نخلة في الدار، فصرخ، ثم طار فقال الأعرابي: إن هذا الغراب يقول، إن صاحب هذا الدار يموت، بعد سبعة أيام. قال: فزبرناه، فقام، وانصرف، ثم خرج الإذن من القاضي إلينا أن هَلمَّ فادخلوا، فدخلنا، فإذابه متغير اللون فعتم، فقلنا: ما الخبر؟ فقال: إني رأيت البارحة في المنام شخصا يقول:

منازل آل حَمَّادِ بنِ زيدٍ ... على أهليك والنِّعم السلام

وقد ضاق لذلك صدري قال: فدعونا له، وانصرفنا فلما كان اليوم السابع من ذلك اليوم، دفن.

وقد كانت وفاته ليوم الخميس، لسبع عشرة مضت من شعبان من هذه السنة، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وصلى عليه ابنه أبو نصر، وولي

بعده القضاء.

قال الصّولي: بلغ القاضي أبو الحسين من العلم، مبلغاً عظيماً، مع حداثة السن وحين توفي، كان الخليفة الراضي يبكي عليه، بحضرتنا، ويقول: كنت أضيق بالشيء ذرعاً، فيوسّعه علي، ثم يقول: والله لا بقيت بعده.

■ ابن شنبوذ المقرىء محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت أبو الحسن المقرئ المعروف بابن شَنَبُوذ روى عن أبي مسلم الكجّي، وبشر بن موسى، وخلق، وكان يختارحُروفاً أنكرها أهل زمانه عليه، وصنف أبو بكر الأنباري كتاباً في الرد عليه، وقد ذكرنا فيما تقدم]، كيف أنه عُقِد لـه مجلس، في دار الوزير ابي علي محمد بن علي بن مقلة، وأنه ضُرب، حتى رجع عن الكثير من القراءات الشاذة التي أنكرها القراء من أهل عصره عليه. وكانت وفاته في صفر منها، وقد دعا ابن شنبوذ على ابن مُقلة، حين أمر بضربه، فلم يفلح ابن مقلة بعدها.

■ ابن مُقلة الوزير أحد الكتاب المشاهير، محمد بن علي بن الحسن بن عبد الله: أبو علي المعروف بابن مقلة الوزير، وقد كان في أول عمره ضعيف الحال، ثم آل به الحال، إلى أن ولي الوزارة، لثلاثة من الخلفاء وهم المقتدر، والقاهر، والراضي، وعزل ثلاث مرات، وقطعت يده ولسانه، في آخر أمره، وحبس، فكان يستقي الماء بيده اليسرى، وأسنانه، وكان مع ذلك، يكتب بيده اليمنى بعد قطعها، كما كان يكتب بها، وهي صحيحة. وقد كان خطة من أقوى الخطوط، كما هو مشهور عنه وقد بني له داراً في زمن وزارته، فجمع عند بنيانها، خلقاً من المنجّمين، فاتفقوا على أن تُبنى في الوقت الفلاني، فأسس جدرانها بين العشاءين، كما أشاروا فما لبث بعد استتمامها إلا يسيرا، حتى خربت، وصارت كوماً، كما ذكرنا ذلك، وذكرنا ما كتبوا على جدرانها. وقد كان له بستان كبير جداً، فيه عدة أجْرِبَة - أي فدادين- وعليه جميعه شبكة من إبريسم، وفيه من الطيور من القماريّ، والهزار،والببغ، والبلابل، والطواويس والقَبْج شيء كثير، وفي أرضه من الغزلان، وبقر الوحش وحميره، والنعام، والإبل شيء كثير أيضاً ثم صار هذا كله عما قريب بعد النضرة، والبهجة، والبهاء إلى الهلاك والفناء، وقد أنشد فيه بعض الشعراء، حين بنى داره.

قـل لابـن مقلـة: لا تكـنْ عجـلاً ... واصبـرْ فـإنّك في أضغـاثِ أحـلامِ
تبـني بأنقـاض دور النـاسِ مجتهـداً ... داراً سـتنقض ايضـاً بعـد أيـام
مـا زلت تختارُ سعدَ المشـتري لهـا ... فلـم تـوق بـه مـن نحـس بهـرام
إن القرآن وبطليمـوس مـا اجتمعـا ... في حالِ نقـضٍ ولا في حـال إبـرامِ

فعزل ابن مقلة عن وزارته، ببغداد، وخربت داره، وأتلفت أشجاره، وقطعت يده، ثم قطع لسانه، وأغرم بألف ألف دينار، ثم سجن وحده، مع الكبر، والضعف، والضرورة، فكان يستقي الماء لنفسه، من بئر عميق، فكان يمد الحبل، بيده اليسرى، ويمسكه بفيه، وقاسى جهداً جهيداً بعدما ذاق عيشاً رغيداً. ومن شعره حين قطعت يده:

مـا سَئِمْتُ الحيـاةَ، لكـن توثقـتُ ... بأيمـانهم فَبـانَت يَمينـي
بعْتُ دينـي لهـم بدنيـايَ حتـى ... حرمونـي دنيـاهم بعـد دينـي
ولقـد حُطتُ مـا استطعتُ بجهـدي ... حِفـظَ أرواحهـم فمـا حَفِظُونـي
ليـس بَعْـدَ اليميـنِ لَـذَّةُ عيـشٍ ... يـا حيـاتي بـانت يمينـي فبينـي

وكان يبكي على يده كثيراً، ويقول: بعدما خدمت بها ثلاثة من الخلفاء وكتبت بها القرآن مرتين تقطع، كما تقطع أيدي اللصوص، ثم ينشد:

إذا مـا مـاتَ بعضُـكَ فـابْكِ بعضـاً ... فـإن البعـض مـن بعـضٍ قريـبُ

وقد مات رحمه الله، في محبسه هذا، ودفن في دار السلطان، ثم سأل ولده أبو الحسين ان يحول فأُجيب، فنبشوه، ودفنه ولده عنده في داره ثم سألت زوجته المعروفة بالدينارية، أن يدفن في دارها، فنبش، ودفن عندها فهذه ثلاث مرات أيضا مات رحمه الله وله من العمر ست وخمسون سنة.

■ أبو بكر بن الأنباري: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة أبو بكر الأنباري، صاحب كتاب «الوقف والابتداء» وغير المصنفات. وكان من بحور العلم في اللغة والعربية وغير ذلك، سمع الكديمي، وإسماعيل القاضي، وثعلبا، وغيرهم، وكان ثقة صدوقاً أديباً، ديِّناً فاضلاً، من أهل السنة. من أعلم الناس بالنحو والأدب، وأكثرهم حفظا له وكانت له من المحافيظ مجلدات عظيمة كثيرة، أحمال أجمال، وكان لا يأكل إلا النّقالي ولا يشرب ماء، إلى قريب العصر، مراعاة لحفظه، ويقال: إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً، وحفظ تعبير الرؤيا في ليلة، وكان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة، وكانت وفاته ليلة عيد النحر من هذه السنة.

■ أم عيسى بنت إبراهيم الحربي كانت عالمة فاضلة، تفتي في الفقه، توفيت في رجب منها ودفنت إلى جانب أبيها، رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

في المتصف من ربيع الأول، منها كانت وفاة الخليفة الراضي بالله، أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق أبي أحمد بن جعفر بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي استخلف بعد عمه القاهر، لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأمه ام ولد رومية تسمى ظلوم كان مولده في رجب سنة سبع وتسعين ومائتين فكانت خلافته ست سنين، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعمره يوم مات إحدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وكان أسمر، رقيق السمرة، دُرِّيُّ اللون، أسود الشعر، سبطه، قصير القامة، نحيف الجسم،في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعرها رقة، هكذا وصفه من شاهده.

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١٤٣/٢]: كان للراضي فضائل كثيرة، وختم الخلفاء في أمور عدة منها أنه كان آخر خليفة له شعر مُدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الجلساء، ووصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت نفقته، وجوائزه، وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه، وحجّابه وأموره كل ذلك يجري على ترتيب المتقدمين من الخلفاء، وقال غيره: كان فصيحاً، بليغاً، كريماً، جواداً، ممدّحاً.

ومن جيد كلامه الذي سمعه منه محمد بن يحيى الصولي: للّه أقوام، هم مفاتيح الخير، وأقوام مفاتيح الشر، فمن أراد الله به خيراً، قصد به أهل الخير، وجعله الوسيلة إلينا، فنقضي حاجته، وهو الشريك في الثواب والشكر، ومن أراد الله به شراً، عدل به إلى غيرنا، فهو الشريك في الوزر، والإثم، والله المستعان على كل حال.

ومن الطف الاعتذارات، ما كتب به الراضي إلى أخيه المتّقي، وهما في المكتب ـ وكان المتقي للّه قد اعتدى على الراضي، والراضي هو الكبير

منهما - فكتب إليه الراضي: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا معترف لك بالعبودية فرضاً، وأنت معترفٌ لي بالأخوة فضلاً، والعبد يذنب والمولى يعفو. وقد قال الشاعر:

يا ذا الذي يغضب من غير شيْ ... اعتب فعُتباك حبيبٌ إليْ
أنت على أنك لي ظالمٌ ... أعزُّ خلق الله طراً عليْ

قال: فجاء إليه أخوه المتقي فاكب عليه يقبل يديه وتعانقا واصطلحا.

ومن لطيف شعره قوله فيما ذكره ابن الأثير في «الكامل» [الكامل ٣٦٦/٨]:

يصفر وجهي إذا تأمله ... طرفي ويحمرُّ وجهه خَجَلا
حتى كأن الذي بوجنته ... من دم جسمي إليه قد نُقِلا

قال: ومما رثى به أباه المقتدر:

ولو أن حياً كان قبراً لميت ... لصيرت احشائي لأعظمه قبرا
ولو أن عمري كان طوع مشيئتي ... وساعدني المقدور قاسمْتُه العمرا
بنفسي ثرًى ضاجعتَ في تربه البلى ... لقد ضم منك الليثَ والغيثَ والبدرا

ومن شعره الذي رواه الخطيب من طريق أبي بكر محمد ابن يحيى الصولي النديم عنه قوله [تاريخ بغداد ١٤٤/٢]:

كل صفو إلى كَدَرْ ... كل أمن إلى حذرْ
ومصيرُ الشباب للمو ... تِ فيه أو الكبرْ
درُّ درِّ المشيب من ... واعظٍ ينذرُ البشرْ
أيها الآمل الذي ... تاه في لجة الغررْ
أين من كان قبلنا؟ ... درس العين والأثرْ
سيرُدُّ المعارَ من ... عمرُه كله خطرْ
ربِّ إني ذخرتُ عنـ ... ـدك أرجوك مُدخرْ
إنني مؤمنٌ بما ... بيَّنَ الوحيُ في السورْ
واعترافي بترك نفـ ... ـعي وإيثاري الضررْ
ربِّ فاغفر لي الخطيـ ... ـئة يا خير من غفرْ

وقد كانت وفاته بعلّة الاستسقاء، في ليلة السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة، وكان قد أرسل إلى بَجْكم، وهو بواسط، ليعهد إلى ولده الأصغر أبي الفضل، فلم يتّفق له ذلك، وبايع الناس أخاه المتقي لله إبراهيم بن المقتدر، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً.

ذكر خلافة المتقي أبي إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله

لما مات أخوه الراضي، اجتمع القضاة، والأعيان، بدار بجكم، واشْتَوَروا فيمن يولون عليهم، فاتفق رأيهم كلهم على المتقي بالله إبراهيم هذا، فأحضروه إلى دار الخلافة، وأرادوا بيعته، فصلى ركعتين، صلاة الاستخارة، وهو على الأرض، لم يصعد إلى الكرسي بعد، ثم صعد إلى السرير، وبايعه الناس، وكان ذلك يوم الأربعاء، لعشر بقين من ربيع الأول من هذه السنة أعني سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، فلم يُغيِّر على أحد شيئاً، ولا غدر بأحد، حتى ولا على سُرِّيّته، لم يُغيِّرها، ولم يتسرَّ عليها.

وكان كما سُمّي المتقي لله، كثير الصلاة والصيام،والتعبد. وقال: لا أريد أحداً من الجلساء حسبي المصحف نديماً، لا أريد نديما غيره فقعد عنه الجلساء، والندماء والتفوا على بجكم، وكان يجالسهم، فيحادثونه، ويتناشدون عنده الأشعار فكان لا يفهم كثير شيء مما يقولون، لعُجمته، وكان في جملتهم، سنان بن ثابت الصابئُ المتطبب، فكان بجكم يشكو إليه قوة النفس الغضبية فيه، وكان سنان يهذّب من أخلاقه، ويسكن جاشه، ويروض نفسه، حتى يسكن عن بعض ما كان يتعاطاه، من سفك الدماء، وكان المتقي، حسن الوجه، معتدل الخلق، قصير الأنف، أبيض مشربا حمرة، وفي شعره شقرة، وجعودة، كث اللحية، أشهل العينين أبي النفس لم يشرب النبيذ قط، فالتقى فيه الاسم والفعل، ولله الحمد.

ولما استقر المتقي في الخلافة، أنفذ الرسل، والخلع، إلى بجكم وهو بواسط، ونفذت المكاتبات إلى الآفاق بولاية المتقي لله

وفي هذه السنة تحارب أبو عبد الله البريدي، وبجكم بناحية الأهواز، فقُتل بجكم في الحرب، واستظهر البريدي عليه، وقوي أمره، فاحتاط الخليفة على حواصل بجكم، فكان في جملة ما أخذ من أمواله ألف ألف دينار، ومائة ألف دينار. وكانت أيام بجكم على بغداد سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ثم إن البريدي حدثته نفسه ببغداد، فأنفق المتقي أموالاً جزيلة في الجند، ليمنعوه من ذلك، وركب بنفسه، فخرج إلى أثناء الطريق، ليمنعه من ذلك، فخالفه البريدي، ودخل بغداد في ثاني رمضان، ونزل بالشفيعي، فلما تحقق المتقي ذلك، بعث إليه يهنئه، وأرسل إليه بالأطعمة، وخوطب بالوزير، ولم يخاطبْ بإمرة الأمراء، فأرسل البريدي يطلب من المتقي خمسمائة ألف دينار، فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث يتهدده، ويتوعده، ويذكره ما حلّ بالمعتزّ، والمستعين والمهتدي، واختلفت الرسل بينهما، ثم كان آخر ذلك، أن بعث الخليفة إليه بذلك قهراً، ولم يتفق اجتماع الخليفة، والبريدي ببغداد، حتى خرج البريدي منها إلى واسط، وذلك أنه ثارت عليه الديالمة، والتفوا على كبيرهم كورتكين، وراموا حريق دار البريدي حين قبض المال من الخليفة ولم يعطهم شيئاً، وكانت البجكمية، طائفة أخرى، قد اختلفت معه أيضاً، وهم والديالم قد صاروا حزبين، فانهزم البريدي من بغداد، يوم سلخ رمضان، فاستولى كورتكين على الأمور ببغداد، ودخل إلى المتقي، فقلده إمرة الأمراء، وخلع عليه، واستدعى المتقي لله علي بن عيسى، وأخاه عبد الرحمن، ففوض إلى عبد الرحمن تدبير الأمور من غير تسمية بوزارة، ثم قبض كورتكين على رئيس الأتراك تكينك، غلام بجكم، وغرّقه ثم تظلمت العامة من الديلم لأنهم يأخذون منهم دورهم فشكوا ذلك إلى كورتكين، فلم يشكهم، فمنعت العامة الخطباء أن يصلوا في الجوامع، واقتتل الديلم والعامة، فقتل من الفريقين خلق كثير، وجم غفير.

وكان الخليفة قد كتب إلى أبي بكر محمد بن رائق صاحب الشام، يستدعيه إليه، ليخلصه من الديلم والبريدي، فركب إلى بغداد، في العشرين من رمضان، ومعه جيش عظيم، وقد صار إليه من الأتراك البجكمية خلق كثير، وحين وصل إلى الموصل حاد عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان، فتراسلا، ثم اصطلحا، وحمل ابن حمدان إلى ابن رائق مائة ألف دينار، فلما اقترب ابن رائق من بغداد، خرج كورتكين في جيشه، ليقاتله، فدخل ابن رائق بغداد من غربيها، ورجع كورتكين بجيشه، من شرقيها، ثم تصافوا ببغداد للقتال، فساعدت العامة ابن رائق على كورتكين، فانهزم الديلم، وقُتل منهم خلق كثير، وهرب كورتكين، فاختفى، واستقر أمر ابن رائق على بغداد، وخلع عليه الخليفة، وركب هو وإياه في دجلة، وظفر ابن رائق

بكورتكين، فأودعه السجن الذي في دار الخلافة.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٤/١٤، ٥]: وفي يوم الجمعة الثاني عشر من جمادى الأولى، حضر الناس لصلاة الجمعة، بجامع براثا، وقد كان المقتدر أحرق هذا الجامع؛ لأنه كُبس، فوجد فيه جماعة من الشيعة، يجتمعون فيه للسب والشتم، فلم يزل خراباً، حتى عمره، بجكم في أيام الراضي، ثم أمر المُتقي بوضع منبر فيه، كان عليه اسم الرشيد، وصلى الناس فيه هذه الجمعة، قال: فلم يزل تقام فيه إلى ما بعد سنة خمسين وأربعمائة.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٥/١٤، ٦]: وفي جمادى الآخرة في ليلة سابعة، كانت ليلة برد، ورعد، وبرق، فسقطت القبة الخضراء من قصر المنصور، وقد كانت هذه القبة تاج بغداد وعَلَم البَلَد، ومأثرة من مآثر بني العباس عظيمة، بنيت أول ملكهم، وكان بين بنائها، وسقوطها، مائة وسبعة وثمانون سنة.

وقال ابن الجوزي [المنتظم ٦/١٤، ٧]: وخرج التشرينان، والكانونان من هذه السنة، ولم تمطر بغداد فيها شيئاً، سوى مطرة واحدة، لم يسل منها ميزاب، فغلت الأسعار ببغداد، حتى بيع الكر بمائة وثلاثين ديناراً. ووقع الفناء في الناس حتى كان الجماعة، يدفنون في القبر الواحد، من غير غسل ولا صلاة، وبيع العقار والأثاث بأرخص الأسعار، واشتري بالدرهم، ما كان يساوي الدينار، ورأت امرأة رسول الله ﷺ في منامها، وهو يأمرها بخروج الناس إلى الصحراء، لصلاة الاستسقاء، فأمر الخليفة بامتثال ذلك، فصلى الناس، واستسقوا، فجاءت الأمطار فزدات الفرات شيئاً لم ير مثله، وغرقت العباسية، ودخل الماء شوارع ببغداد، فسقطت القنطرة العتيقة، والجديدة، وقطعت الأكراد، على قافلة من خراسان الطريق، فأخذوا منها ما قيمته ثلاثة آلاف دينار، وكان أكثر ذلك من أموال بجكم التركي.

وخرج الناس للحج في هذه السنة، ثم رجعوا من أثناء الطريق، بسبب رجل من العلويين، قد ظهر بالمدينة النبوية، ودعا إلى نفسه وخرج عن الطاعة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن إبراهيم بن تُوْمَرْد الفقيه، أحد أصحاب ابن سريج، خرج من الحمام، فسقط عليه، فمات من فوره. رحمه الله

■ بجكم التركي الذي تولّى إمرة الأمراء ببغداد، قبل بني بويه وكان عاقلاً، يفهم بالعربية، ولا يتكلم بها، يقول أخاف أن أخطئ، والخطأ من الرئيس قبيح وكان مع ذلك، يحب العلم، وأهله، وكان كثير الأموال، والصدقات، ابتدأ بعمل مارَسْتان، ببغداد، فلم يتم، فجدده عضد الدولة ابن بويه.

وكان يقول: العدل أربح للسلطان في الدنيا والآخرة، وكان يدفن أموالا كثيرة في الصحارى فلما مات،لم يدر أين هي، وكان ندماء الراضي، قد انحدروا إلى بجكم، وهو بواسط، وكان قد ضمنها بثمانمائة ألف دينار، فكانوا يسامرونه كالخليفة، فكان لا يفهم أكثر ما يقولون، وراض له مزاجه الطبيب سنان بن ثابت الصابئ، حتى لان خُلُقه، وحسنت سيرته، وقلت سطوته، ولكن لم يعمر إلا قليلا بعد ذلك.

ودخل عليه مرة رجل، فوعظه، فأبكاه، فأمر له بألف درهم، فلحقه بها الغلام، فقال بجكم لجلسائه: ما أظنه يقبلها، ولا يريدها، وما يصنع هذا بالدنيا؟ هذا رجل مُحرّقٌ بالعبادة، فرجع الغلام، وليس معه شيء، فقال بجكم: قبلها؟ قال: نعم! فقال بجكم: كلنا صيّادون، ولكن الشباك تختلف.

وكانت وفاته لسبع بقين من رجب من هذه السنة وسبب موته، أنه خرج يتصيّد، فلقي طائفة من الأكراد، فاستهان بهم، فقاتلوه فضربه رجل منهم، فقتله وكانت إمرته على بغداد ستين وثمانية أشهر وتسعة أيام وخلف من الأموال والحواصل ما ينيف على ألفي ألف دينار، أخذها المتقي لله كلها.

■ أبو محمد البربهاري الواعظ

■ الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري: العالم الزاهد الفقيه الحنبلي الواعظ، صاحب المروذي، وسهلا التستري، وتنزه عن ميراث أبيه- وكان سبعين ألف -لأمر كرهه وكان شديداً على أهل البدع، والمعاصي، وكان كبير القدر، عند الخاصة، والعامة، وقد عطس يوماً، وهو يعظ، الناس فشمته الحاضرون، ثم شمته من سمعهم، حتى شمته أهل بغداد، فانتهت الضجة إلى دار الخلافة، فغار الخليفة من ذلك، وتكلم فيه جماعة من أرباب الدولة، فطلب، فاستتر عند أخت توزون شهراً، ثم أخذه القيام فمات عندها، فأمرت خادمها أن يصلي عليه، فصلي عليه، فامتلأت الدار رجالاً، عليهم ثياب بيض فدفنته عندها، ثم أوصت أن تدفن عنده، وكان عمره يوم مات ستاً وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

■ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول: أبو بكر الأزرق - لأنه كان أزرق العينين - التنوخي الكاتب، سمع جده، والزبير بن بكار والحسين بن عرفة، وغيرهم، وكان خشن العيش، كثير الصدقة يقال: إنه تصدّق بمائة ألف دينار، وكان أماراً بالمعروف، نهاء عن المنكر، روى عنه الدارقطني، وغيره من الحفاظ، وكان ثقة عدلاً توفي في ذي الحجة من هذه السنة، عن ثنتين وتسعين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٩/١٤، ٢٠]: في المحرم منها ظهر كوكب بذنب، رأسه إلى المغرب، وذنبه إلى المشرق،وكان عظيما جداً، وذنبه منتشر،وبقي ثلاثة عشر يوما إلى أن اضمحل.

قال: وفي نصف ربيع الأول،بلغ الكر من الحنطة مائتي دينار وعشرة دنانير، ومن الشعير مائةً وعشرين ديناراً، ثم بلغ كرُّ الحنطة ثلاثمائة وستة عشر ديناراً، وأكل الضعفاء الميتة، ودام الغلاء وكثر الموت، وتقطعت السبل، وشغل الناس بالمرض والفقر، وترك دفن الموتى، وشُغِل الناسُ عن الملاهي واللعب. قال: ثم جاء مطر، كأفواه القرب. وبلغت زيادة دجلة عشرين ذراعا وثلثا.

وذكر ابن الأثير في «كامله»، أن محمد بن رائق، الذي هو أمير الأمراء ببغداد وقعت بينه وبين البريدي الذي بواسط وحشة،بسبب منع البريدي، الخراج الذي عنده فركب إليه ابن رائق، ليتسلم ما عنده من المال، فوقعت مصالحة، ورجع ابن رائق إلى بغداد، فطالبه الجند بأرزاقهم، وضاق عليه حاله، وتحيز جماعة من الأتراك إلى البريدي، فضعف جانب ابن رائق، فكاتب البريدي بالوزارة ببغداد، ثم قطع اسم الوزارة عنه، فاشتد حنق البريدي عليه، وعزم على أخذ بغداد، فبعث أخاه أبا الحسين، في جيش، فتحصن ابن رائق مع الخليفة، بدار الخلافة، ونصبت فيها المجانيق، والعرادات وعلى دجلة أيضا، فاضطربت أهل بغداد، ونهب الناس بعضهم بعضا، ليلاً ونهاراً، وجاء أبو الحسين، أخو أبي عبد الله البريدي، بمن معه،

فقاتلهم الناس، في البر، وفي دجلة، وتفاقم الحال وأشتد الخطب جداً، مع الغلاء والوباء والفناء فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم إنَّ الخليفة وابن رائق، انهزما، في جمادى الآخرة - ومع الخليفة ابنه أبو منصور - في عشرين فارساً، فقصدوا نحو الموصل، واستحوذ أبو الحسين على دار الخلافة، فقتل أصحاب البريدي من وجدوا بدار الخلافة من الحاشية، ونهبوها، حتى وصل النهب إلى الحريم، ولم يتعرضوا للقاهر، وهو إذ ذاك مكفوفٌ، وأخرجوا كورتكين من الحبس، فبعثه أبو الحسين إلى أخيه أبي عبد الله البريدي، فكان آخر العهد به ونهبوا بغداد، جهاراً علانية، ونزل أبو الحسين بدار مؤنس، التي كان يسكنها ابن رائق وكانوا يكبسون الدور ويأخذون ما فيها من الأموال، فكثر الجور، وغلت الأسعار جداً، وضرب أبو الحسين المكْسَ على الحنطة والشعير، وذاق أهل بغداد لباس الجوع والخوف. وكان مع ابي الحسين في الجيش طائفة كبيرة من القرامطة، فأفسدوا في البلد، فساداً عظيماً، فوقعت أيضاً بينهم، وبين الأتراك، حروب طويلة شديدة، فغلبهم الترك، وأخرجوهم من بغداد، فوقعت الحرب بين العامة، والديلم أيضاً.

وفي شعبان من هذه السنة، اشتد الحال أيضا، ونهبت المساكن، وكبس أهلها ليلا ونهاراً، وخرجت الجند من أصحاب البريدي، فنهبوا الغلات من القرى والحيوانات، وجرى ظلم، لم يسمع بمثله، فأنا لله وأنا اليه راجعون.

قال ابن الأثير: وإنما ذكرنا هذا، ليعلم الظلمة، أن أخبارهم، تنقل، وتبقى بعدهم، على وجه الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا، إن لم يتركوه لله عزَّ وجلَّ.

وقد كان الخليفة أرسل وهو ببغداد، إلى ناصر الدولة بن حمدان، نائب الموصل، يستمده، ويستحثه على البريدي، فأرسل ناصر الدولة أخاه سيف الدولة عليا في جيش كثيف، فلما كان بتكريت، إذا الخليفة وابن رائق، قد هربا، فرجع معهما سيف الدولة إلى أخيه، وخدم سيف الدولة للخليفة المتقي لله خدمةً عظيمةً في مسيرة هذا ولما وصلوا إلى الموصل، خرج عنها ناصر الدولة، فنزل شرقيها، وأرسل التحف والضيافات، ولم يجئ إلى الخليفة، خوفا من الغائلة من جهة ابن رائق نائب العراق وصاحب الشام، فأرسل الخليفة ولده أبا منصور، ومعه ابن رائق، للسلام على ناصر الدولة، فصارا إليه، فأمر ناصر الدولة، أن ينثر الذهب والفضة، على رأس ولد الخليفة، وجلسا عنده ساعة، ثم قاما، ليرجعا، فركب ابن الخليفة، وأراد ابن رائق أن يركب معه، فقال له ناصر الدولة: اجلس اليوم عندي، حتى نفكر، فيما نصنع، في أمرنا هذا، فاعتذر إليه بابن الخليفة، واستراب بالأمر، فقبض ابن حمدان بكمه، فجبذه ابن رائق منه فانقطع كمه، وركب سريعاً، فسقط عن فرسه، فأمر ناصر الدولة بقتله فقتل، وذلك يوم الاثنين لسبع بقين من رجب من هذه السنة.

فأرسل الخليفة إلى ابن حمدان، فاستحضره وخلع عليه، ولقبه ناصر الدولة يومئذ، وجعله أمير الأمراء، وخلع على أخيه أبي الحسن، ولقبه سيف الدولة يومئذ، ولما قتل ابن رائق، وبلغ خبر مقتله إلى صاحب مصر، الإخشيد محمد بن طغج، ركب إلى دمشق، فتسلمها، من محمد بن يزداد نائب ابن رائق ولم يتطح فيها عنزان.

ولما بلغ خبر مقتله إلى بغداد، فارق أكثر الأتراك أبا الحسين البريدي، لسوء سيرته، وخبث سريرته قبحه الله وقصدوا الخليفة، وابن حمدان في الموصل فقوى بهم ناصر الدولة، وركب هو والخليفة المتقي لله إلى بغداد، فلما اقتربوا منها هرب عنها أبو الحسين البريدي، ودخل الخليفة المتقي لله إلى بغداد، ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة،وذلك في شوال من هذه السنة، ففرح به المسلمون فرحاً شديداً، وبعث إلى أهله - وقد كان أخرجهم إلى سامراء - فردهم، وتراجع أعيان الناس إلى بغداد، بعد ما كانوا قد رحلوا عنها. وورد الخليفة أبا إسحاق القراريطي إلى الوزارة، وولى توزون شرطة جانبي بغداد، وبعث ناصر الدولة أخاه سيف الدولة في جيش، وراء أبي الحسين البريدي، فلقيه، عند المدائن فاقتتلوا قتالا شديداً، في أيام نحسات، ثم كان آخر الأمر، أن انهزم أبو الحسين إلى أخيه، بواسط، وقد ركب ناصر الدولة بنفسه، فنزل المدائن، قوة لأخيه.

وقد انهزم سيف الدولة مرة من أبي الحسين، فرده أخوه، وزاده جيشاً آخر، حتى كسر البريدي، وأسر جماعة من أعيان أصحابه، وقتل منهم خلق كثير وجم غفير، ثم أرسل أخاه سيف الدولة إلى واسط، لقتال عبد الله البريدي، فانهزم منه البريدي، وأخوه إلى البصرة، وتسلم سيف الدولة واسطاً، وسيأتي ماكان من خبره مع البريدي في السنة الآتية ان شاء الله تعالى.

وأما ناصر الدولة، فإنه عاد إلى بغداد، فدخلها في ثالث عشر ذي الحجة، وبين يديه الأسارى، على الجمال، ففرح الناس، واطمأنوا، ونظر في المصالح العامة، وأصلح معيار الدينار وذلك أنه وجده قد غُيِّر، عما كان عليه، فضرب دنانير، سماها الإبريزية، فكانت تباع كل دينار، بثلاثة عشر درهماً، وإنما كان يباع الذي قبلها بعشرة، وعزل الخليفة، بدراً الخرشني عن الحجابة، وولاها سلامة الطولوني، وجعل بدراً على طريق الفرات، فسار إلى الإخشيد، فأكرمه، واستنابه على دمشق، فمات بها.

وفيها وصلت الروم إلى قريب حلب، فقتلوا خلقاً، وأسروا نحوا من خمسة عشر ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها دخل الثمليّ من طرسوس إلى بلاد الروم، فقتل، وسبى وغنم وسلم وأسر من بطارقتهم المشهورين فيهم خلقاً كثيراً، ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **إسحاق بن محمد بن يعقوب النهرجوري:** أحد مشايخ الصوفية، صحب الجنيد بن محمد وغيره، من أئمة القوم، وجاور بمكة، حتى مات بها.

ومن كلامه الحسن قوله: مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

■ **الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعيد بن أبان:أبو عبد الله الضبي القاضي المحاملي،** الفقيه، الشافعي المحدث، سمع الكثير، وأدرك خلقا من أصحاب ابن عيينة، نحواً من سبعين رجلا. وروى عن جماعة من الأئمة، وعنه الدارقطني،وخلق، وكان يحضر مجلسه نحو من عشرة آلاف. وكان صدوقاً، ديناً فقيهاً، محدثاً، ولي قضاء الكوفة ستين سنة، وأضيف إليه قضاء فارس، وأعمالها، ثم استعفى من ذلك كله، ولزم منزله، واقتصر على إسماع الحديث وسماعه. وكانت وفاته في ربيع الآخر من هذه السنة، عن خمس وتسعين سنة رحمه الله.

وقد تناظر، هو وبعض الشيعة، بحضرة بعض الأكابر، فجعل الشيعي، يذكر مواقف علي، يوم بدر، واحد، والخندق، وخيبر، وحنين، وشجاعته. ثم قال للمحاملي: أتعرفها؟ قال: نعم، ولكن أتعرف أنت، أين كان

الصديق يوم بدر؟ كان مع رسول الله ﷺ في العريش، بمنزلة الرئيس، الذي يحامي عنه، كما يحامى عن رسول الله وعلي في مقام المبارزة، ولو فرض أنه انهزم، أو قتل،لم يُهزم الجيش بسببه، فأفحم الشيعي، وقال له المحاملي، وقد قدمه الذين رووا لنا الصلاة، والزكاة، بعد رسول الله ﷺ، حيث لا مال له، ولا عبيد، ولا عشيرة، تمنعُه وتُحاجفُ عنه وقد كان أبو بكر يمنع عن رسول الله، وإنما قدموه لعلمهم، أنه خيرهم. فأُفحِم أيضاً.

■ علي بن محمد بن سهل:أبو الحسين الصائغ، أحد العباد الزهاد، أصحاب الكرامات. روي عن ممشاد الدينوري، أنه شاهد أبا الحسين الصائغ يُصلي في الصحراء، في شدة الحر، ونسرٌ قد نشر عليه جناحه، يُظله من الحر.

قال ابن الأثير: وفيها توفي علي بن إسماعيل الأشعري، المتكلم صاحب المذهب المشهور، وكان مولده سنة ستين ومائتين، وهو من ولد أبي موسى الأشعري.

قلت: والصحيح أن الأشعري توفي سنة أربع وعشرين كما تقدم.

قال [الكامل ٣٩٣/٨]: وفيها توفي

■ محمد بن يوسف بن النضر الهروي الفقيه الشافعي، وكان مولده سنة تسع وعشرين ومائتين، وأخذ عن الربيع بن سليمان صاحب الشافعي.

قلت:وقد توفي فيها

■ أبو حامد بن بلال.

و■ زكريا بن أحمد البلخي.

و■ عبد الغافر بن سلامة الحافظ.

و■ محمد بن رائق الأمير.

وفيها الشيخ:

■ أبو صالح مفلح الحنبلي: واقف مسجد أبي صالح، ظاهر باب شرقي من دمشق، وكانت له كرامات، وأحوال، ومقامات وهذه ترجمة أبي صالح الدمشقي الذي ينسب إليه المسجد ظاهر باب شرقي بدمشق:

■ مفلح بن عبد الله أبو صالح المتعبد صحب الشيخ أبا بكر بن سيِّد حَمْدَوَيْه الدمشقي، وتأدب به، وروى عنه الموحد بن إسحاق بن البُرِّي، وأبو الحسن علي بن القُجَّة قيّم المسجد، وأبو بكر محمد بن داود الدينوري الدقّي.

روى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق ٨٠/١٩]، من طريق الدقي، عن الشيخ أبي صالح. قال: كنت أطوف بجبل اللكّام، أطلب الزهّاد، فمررت برجل، وهو جالس، على صخرة، مطرقاً، فقلت له: ما تصنع ههنا؟ فقال: أنظر، وأرعى فقلت له: لا أرى بين يديك إلا الحجارة، فقال: أنظر خواطر قلبي وأرعى أوامر ربي، وبحق الذي أظهرك عليّ، إلا جُزْتَ عني. فقلت له: كلّمْني بشيء، أنتفع به، حتى أمضي عنك، فقال: من لزم الباب، أُثبت في الخَدَم، ومن أكثر ذكر الذنوب، أكثر الندم، ومن استغنى بالله، أمن العدم، ثم تركني، ومضى. وعن الشيخ أبي صالح قال: مكثت ستة أيام، أو سبعة أيام، لم آكل، ولم أشرب، ولحقني عطشٌ عظيم، فجئت إلى النهر، الذي وراء المسجد، فجلست، أنظر إلى الماء، فتذكرت قوله تعالى:﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[هود: ٧] فذهب عني العطش، فمكثت تمام العشرة أيام.

وعنه قال: مكثت أربعين يوماً، لم أشرب ماءً فلقيني الشيخ أبو بكر محمد بن سيد حمدويه، فأخذ بيدي وأدخلني منزله، وجاءني بماء وقال لي: اشرب فشربتُ، فأخذ فضلتي، وذهب إلى امرأته، وقال لها: اشربي فضل رجل، قد مكث أربعين يوماً، لم يشرب الماء. قال أبو صالح: ولم يكن اطلع على ذلك مِنّي أحد إلا الله عز وجل.

ومن كلام أبي صالح: الدنيا حرامٌ على القلوب، حلالٌ على النفوس، لأن كل شيء، يحل لك، أن تنظر إليه بعين رأسك فيحرم عليك، أن تنظر إليه بعين قلبك.

وكان يقول: البدن لباس القلب، والقلب لباس الفؤاد، والفؤاد لباس الضمير، والضمير لباس السِّر، والسِّر لباس المعرفة.

ولأبي صالح مناقب كثيرة، رحمه الله. وقد كانت وفاته في جمادى الأولى، من هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة دخل سيف الدولة إلى واسط، وقد انهزم عنها أبو عبد الله البريدي، وأخوه أبو الحسين، ثم اختلف الترك على سيف الدولة ومالوا إلى توزون، وهمّ بالقبض على سيف الدولة، فهرب منهم قاصداً إلى بغداد، وبلغ أخاه ناصر الدولة أبا محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان الملقب بأمير الأمراء، ببغداد الخبر فخرج من بغداد، إلى الموصل، فنهبت داره ببغداد وكانت إمارة ناصر للدولة على بغداد، ثلاثة عشر شهراً، وخمسة أيام. وجاء أخوه سيف الدولة، بعد خروجه منها، فنزل بباب حرب، وطلب من الخليفة، المتقي لله أن يمده بمال، يتقوى به على حرب توزون، فبعث إليه بأربعمائة ألف درهم، ففرقها في أصحابه وحين سمع بقدوم توزون، خرج من بغداد، ودخلها توزون في الخامس والعشرين من رمضان، فخلع عليه الخليفة، وجعله أمير الأمراء، واستقر أمره ببغداد وعند ذلك، رجع أبو عبد الله البريدي إلى واسط، وأخرج من كان بها من أصحاب توزون، وكان في أسر توزون، غلام لسيف الدولة، يقال له: ثمال، فأرسله إلى مولاه فحَسُن موقع ذلك، وعند آل حمدان.

وفيها كانت زلزلة عظيمة، ببلاد نَسا، سقط منها عمارات كثيرة، وهلك بسببها خلق كثيرٌ.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٦/١٤]: وكان ببغداد في أيلول وتشرين حر شديد، يأخذ بالأنفاس. وفي صفر، ورد الخبر، بورود الروم إلى أرزن، وميّافارقين، وأنهم سبوا وأحرقوا، وفي ربيع الآخر من هذه السنة، عقد عقْد أبي منصور إسحاق ابن الخليفة المتقي للّه، على علوية بنت ناصر الدولة بن محمد بن حمدان، على صداق مائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وولي العقد على الجارية، أبو عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي، ولم يحضر ناصر الدولة، وضرب ناصر الدولة سكّة، زاد في الكتابة عليها: عبدُ آل محمد.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٦/١٤]: وفي آذار من هذه السنة غلت الأسعار، حتى أكل الناس الكلاب، ووقع الوباء في الناس، ووافى من الجراد شيء كثير جداً، حتى بيع منه كل خمسين رطلاً بدرهم، فارتفق الناس به في الغلاء.

وفيها ورد كتاب ملك الروم إلى الخليفة يطلب فيه منديلاً. بكنيسة الرها، كان المسيح قد مسح وجهه به، فصارت صورة وجهه فيه، ويَعِدا المسلمين أنه إذا أرسل إليه، يبعث من أسارى المسلمين خلقاً كثيراً، فأحضر الخليفة العلماء، فاستشارهم في ذلك فمن قائل: نحن أحق بعيسى منهم، وفي بعثه إليهم غضاضة على المسلمين، ووهن. فقال علي بن عيسى الوزير: يا أمير المؤمنين، إنقاذ أسارى المسلمين،من أيدي الكفار خيرٌ، وأنفع للمسلمين

من بقاء ذلك المنديل، بتلك الكنيسة فأمر الخليفة بإرسال ذلك المنديل إليهم، وتخليص الأسارى من أيديهم.

قال الصولي: ووصل الخبر بأن القرمطي، ولد له مولود، فأهدى إليه أبو عبد الله البريدي هدايا عظيمة، منها مهد من ذهب، مرصّعٌ بالجوهر. وكثر الرفض ببغداد، فنودي بها: من ذكر أحداً من الصحابة بسوء، فقد برئت منه الذمة.

وبعث الخليفة إلى عماد الدولة بن بويه خلعاً فقبلها، ولبسها، بحضرة القضاة، والأعيان.

وفيها كانت وفاة

■ السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني، صاحب خراسان، وما وراء النهر، وقد مرض قبل موته بالسلّ سنة وشهراً، واتخذ في داره بيتاً، سماه بيت العبادة، فكان يلبس ثياباً نظافاً، ويمشي إليه حافياً، ويصلي فيه، ويتضرع، ويُكثر الصلاة. وكان يجتنب المنكرات، والآثام، إلى أن مات رحمه الله، فقام بالأمر من بعده ولده نوح بن نصر ولُقب بالأمير الحميد، فقَتل محمد بن أحمد النسفي - وكان قد طعن فيه عنده - وصَلَبه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ سنان بن ثابت بن قرة الصابيء: أبو سعيد المتطبب أسلم على يد القاهر بالله، ولم يسلم ولده، ولا أحد من أهل بيته، وقد كان مقدَّماً في الطب، وفي علوم كثيرة، وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة، بعلة الذَّرَب، فلم تغن عنه صناعته شيئا، حين جاءه الموت. وما أحسن ما قال بعض الشعراء في هذا المعنى:

قلْ للذي صنع الدواءَ بكفهِ ... أتردُّ مقدوراً عليكَ إذا جرَى

ماتَ المُداوَى والمداوي والذي ... صنعَ الدواءَ بكفهِ ومنْ اشترى

■ أبو الحسن الأشعري: ذكر ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ٢٩/١٤]، وفاة الأشعري في هذه السنة، وتكلم فيه وحطّ عليه، كما جرت عادة الحنابلة، يتكلمون في الأشعرية، قديماً وحديثاً. وذكر أنه ولد سنة ستين ومائتين، وأنه توفي في هذه السنة وأنه صحب الجبائيّ أربعين سنة، ثم رجع عنه، وأنه توفي ببغداد، ودفن بمشرعة الروايا.

■ محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة بن الصلت السدوسي، مولاهم أبو بكر، سمع جده، وعباساً الدوري، وغيرهما، وعنه أبو عمر بن مهدي، وكان ثقة.

روى الخطيب [تاريخ بغداد ٣٧٤/١]، أن والد محمد هذا، حين ولد، أخذ طالع مولده المنجمون، فحسبوا عمره، وقالوا: إنه يعيش كذا وكذا، فأرصد له أبوه حُبّاً فيه عن كل يوم من عمره، ديناراً، ثم أرصد له حُبّاً آخر، كذلك، ثم آخر كذلك فكان يعدل كل يوم بثلاثة دنانير، على عدد، ومع هذا ما أفاده شيئاً، بل افتقر، حتى صار يستعطي من الناس، وكان يحضر مجلس السَّماع، عليه بلا إزار، يتصدّق عليه أهل المجلس، بشيء يقوم بأوده والسعيد من أسعده الله.

■ محمد بن مخلد بن حفص أبو عمر الدوري العطار، كان يسكن الدُّور- وهي محلّة بطرف بغداد - سمع الحسن بن عرفة، والزبير بن بكار، ومسلم بن الحجاج، وغيرهم، وعنه الدارقطني، وجماعة من الحفاظ، وكان ثقة، فهماً واسع الرواية، مشكور الديانة، مشهوراً بالعبادة. وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، وقد استكمل سبعاً وتسعين سنة وثمانية أشهر واحداً وعشرين يوماً.

■ المجنون البغدادي روى ابن الجوزي من طريق أبي بكر الشبلي، قال: رأيت مجنوناً عند جامع الرصافة، وهو عُرْيان، وهو يقول: أنا مجنون الله، أنا مجنون الله، فقلت له: مالك؟ الا تستتر، وتدخل الجامع، وتُصلي؟ فأنشأ يقول:

يقولونَ زُرنا واقضِ واجبَ حقِّنا ... وقد أسقَطَت حالي حقوقهمُ عني

إذا هم رأوا حالي ولمْ يأنفوا لها ... ولم يأنفوا منها أنفتُ لهمْ مني

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة

فيها خرج المتقي لله من بغداد، إلى الموصل، مغاضباً لتوزون، أمير الأمراء وكان إذ ذاك بواسط، وقد زوج ابنته من أبي عبد الله البريدي، وصارا يداً واحدة على الخليفة أرسل ابن شيرزاد، في ثلاثمائة إلى بغداد، فأفسد فيها، وقطع، ووصل، واستقلّ بالأمور من غير مراجعة المتقي فغضب المتقي لله، وخرج منها، مغاضباً له بأهله، وأولاده، ووزيره، ومن اتبعه من الأمراء واعيان اهل بغداد، قاصداً بني حمدان، فتلقاه سيف الدولة إلى تكريت، ثم جاءه ناصر الدولة، وهو بتكريت أيضاً، وحين خرج المتقي من بغداد، أكثر ابن شيرزاد الفساد، وظلم أهلها، وصادرهم، وأرسل يعلم توزون، فأقبل مسرعاً نحو تكريت، فتواقع هو وسيف الدولة فهزم توزونُ سيفَ الدولة، وأخذ معسكره، ومعسكر أخيه ناصر الدولة، ثم كر إليه سيف الدولة فهزمه توزون أيضاً، وانهزم المتقي وناصر الدولة وسيف الدولة، من الموصل إلى نصيبين، وجاء توزون، فدخل الموصل، وأرسل إلى الخليفة، يطلب رضاه، فأرسل الخليفة يقول:لا سبيل إلى ذلك، إلا أن تصالح بني حمدان، فاصطلحوا، وضمن ناصر الدولة بلاد الموصل، بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف، ورجع توزون إلى بغداد، وأقام الخليفة عند بني حمدان.

وفي غيبة توزون عن واسط، أقبل إليها معز الدولة بن بويه في خلق من الديلم كثيرين، فانحدر توزون مسرعاً إلى واسط، فاقتتل مع معز الدولةُ بضعة عشر يوماً، فكان آخر الأمر أن انهزم معز الدولة، ونهبت حواصله، وقتل من جيشه خلق كثير، وأسر جماعة من أشراف أصحابه ثم عاود توزون ما كان يعتريه من مرض الصرع، فشغل بنفسه، فرجع إلى بغداد.

وفيها قتل أبو عبد الله البريدي أخاه أبا يوسف، وكان سبب ذلك، أن أبا عبد الله قلّ ما في يده من الأموال، فكان يستقرض من أخيه أبي يوسف، فيقرضه القليل، ثم يشنع عليه، ويذم تصرفه فمال الجند، إلى أبي يوسف، وأعرضوا عن أبي عبد الله، فخشي أبو عبد الله أن يبايعوه ويتركوه، فأرسل إليه طائفة من غلمانه، فقتلوه غيلة، ثم انتقل إلى داره، وأخذ جميع حواصله، وأمواله، فكان قيمة ما استحوذ عليه من الأموال، يقارب ثلاثة آلاف ألف دينار. ولم يُمتّع بعده إلا ثمانية أشهر، مرض فيها مرضا شديدا بالحمى الحادة، حتى كانت وفاته في شوال من هذه السنة، فقام بالأمر بعده اخوه أبو الحسين قبحه الله فأساء السيرة في أصحابه، فثاروا به، فلجأ إلى القرامطة فاستجار بهم، فقام بالأمر من بعده أبو القاسم ابن أبي عبد الله البريدي، في بلاد واسط، والبصرة وتلك النواحي من الأهواز، وغيرها.

وأما الخليفة المتقي لله، فإنه لما أقام عند آل حمدان، بالموصل، ظهر له

منهم تضجُّر، وأنهم يرغبون في مفارقته. فكتب إلى توزون في الصلح، فاجتمع توزون مع القضاة، والأعيان ببغداد، وقرأوا كتاب الخليفة، وقابله بالسمع والطاعة، وحلف له، ووضع خَطّه بالإقرار له، ولمن معه، بالإكرام، والاحترام والخضوع، فكان من الخليفة، ودخوله إلى بغداد، ما سيأتي في السنة الآتية.

وفي هذه السنة أقبلت طائفة من الروس، في البحر، إلى نواحي أذربيجان، فقصدوا بَرْذَعة فحاصروها، فلما ظفروا بأهلها، قتلوهم عن آخرهم، وغنموا أموالهم، وسبوا من استحسنوا من نسائهم، ثم مالوا إلى مَراغة، فوجدوا فيها ثمارا كثيرة، فأكلوا منها، فأصابهم وباءٌ شديد، فمات أكثرهم، وكان إذا مات أحدهم، دفنوا معه سلاحه وماله، فيأخذه المسلمون، وأقبل إليهم المرزبان بن محمد فقاتلهم فقتل منهم خلقاً كثيراً أيضاً، مع ما أصابهم من الوباء الشديد، وطهّر الله تلك البلاد منهم.

وفي ربيع الأول من هذه السنة، جاء الدمستق ملك الروم، إلى رأس العين، في ثمانين ألفاً، فدخلها، ونهب ما فيها، وقتل أهلها وسبى منهم نحوا من خمسة عشر ألفاً، وأقام بها ثلاثة أيام، فقصدته الأعراب من كل وجه، فقاتلوه قتالاً عظيماً، حتى انجلى عنها.

وفي جمادى الأولى منها، غلت الأسعار ببغداد جداً، وكثرت الأمطار جداً حتى تهدّم البناء، ومات كثير من الناس، تحت الهدم، وتعطلت كثير من الحمامات، والمساجد، من قلة الناس، ونقصت قيمة العقار، حتى كان يباع بالدرهم، ما كان يساوي الدينار، وخلت أكثر الدور. فكان الملاك يعطون من يسكنها أجرة، ليحفظها عليهم من الداخلين إليها لتخريبها. وكثرت الكبسات من اللصوص بالليل، حتى كان الناس، يتحارسون بالبوقات والطبول، وكثرت الفتن من كل جهة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

وفي رمضان من هذه السنة، كانت وفاة أبي طاهر

■ سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي الهجري القرمطي رئيس القرامطة، لعنه الله، وهذا هو الذي قتل الحجيج حول الكعبة، وفيها وسلبها ستورها، وبابها وحليتها، واقتلع الحجر الأسود من ركنها، وحمله إلى بلده هَجَر، وهو في هذه المدة كلها عنده من سنة سبع عشرة كما ذكرنا لم يرده إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة كما سيأتي. ولما مات أبو طاهر أبو طاهر هذا، قام بالأمر من بعده، إخوته الثلاثة، وهم أبو العباس الفضل، وأبو القاسم سعيد، وأبو يعقوب يوسف بنو أبي سعيد الجنابي لعنهم الله، وكان أبو العباس ضعيف البدن، مقبلاً على قراءة الكتب، وكان أبو يعقوب مقبلاً على اللّهو واللعب، ومع هذا كانت كلمة الثلاثة، واحدة، لا يختلفون في شيء، وكان لهم سبعة من الوزراء مُتّفقون أيضاً. قبّحهم الله أجمعين.

وفي شوال منها توفي

■ أبو عبد الله البريدي كما ذكرنا، فاستراح المسلمون من هذا وهذا.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو العباس

■ ابن عقدة الحافظ أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن: أبو العباس الكوفي المعروف بابن عقدة، عقدة أبوه بذلك، من أجل تَعقيده، في التصريف والنحو، وكان أيضاً عقدة ورعاً نسكاً، وكان أبو العباس بن عقدة من الحفاظ الكبار، سمع الحديث الكثير، ورحل، فسمع من خلائق من المشايخ، وسمع منه الطبراني والدارقطني وابن الجعابي، وابن عدي، وابن المظفر، وابن شاهين.

قال الدارقطني: أجمع أهل الكوفة، على أنه لم ير من زمن ابن مسعود، إلى زمان ابن عقدة، أحفظ منه.

ويقال: إنه كان يحفظ نحواً من ستمائة ألف حديث منها ثلاثمائة ألف في فضائل أهل البيت، بما فيها من الصِّحاح والضِّعاف، وكانت كتبه ستمائة حمل جمل، وكان ينسب مع هذا كله إلى التشيُّع.

قال الدارقطني: كان رجل سوء.

ونسبه ابن عدي [الكامل ٢٠٨/١، ٢٠٩] إلى أنه كان يعمل النسخ لأشياخ، ويأمرهم بروايتها

وقال الخطيب [تاريخ بغداد ٢٢/٥]: حدثني علي بن محمد بن نصر قال: سمعت حمزة ابن يوسف، سمعت أبا عمر بن حيوية يقول: كان ابن عقدة يجلس في جامع براثا يملي مثالب الصحابة- أو قال الشيخين - فتركت حديثه، لا أحدِّث عنه بشيء.

قلت: وقد حرّرتُ الكلام فيه بما فيه كفاية، في كتابي «التكميل» و لله الحمد والمنة، وكانت وفاته في ذي القعدة منها.

■ أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المرورُّوذي: نسبة إلى مَرْوالرُّوذ، والروذ النهر الفقيه الشافعي، تلميذ الشيخ أبي إسحاق المروذي- نسبة إلى مرو الشاهجان، وهي أعظم من تلك شرح «مختصر المزني»، وله كتاب «الجامع» في المذهب، وصنف في أصول الفقه، وكان إماماً لا يُشق غُباره توفي في هذه السنة رحمه الله. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

فيها رجع الخليفة المتقي إلى بغداد، وخُلِع من الخلافة، وسُملت عيناه، كان المتقي وهو مقيم بالموصل قد أرسل إلى الإخشيد، محمد بن طغج، صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية، فأقبل إليه وقدم عليه، في المنتصف من المحرم، من هذه السنة، وخضع للخليفة، غاية الخضوع، وكان يقوم بين يديه، كما يقوم الغلمان، ويمشي، والخليفة راكب، ثم عرض عليه، أن يسير معه إلى الديار المصرية، أو يقيم ببلاد الشام فأبى عليه ذلك، فأشار عليه بالمقام، بمكانه الذي هو فيه، ولا يذهب إلى توزون ببغداد، وحذّره من توزون ومكره وخديعته، فلم يقبل ذلك، وكذلك أشار على الوزير أبي حسين بن مقلة، فلم يسمع فأهدى ابن طغج للخليفة هدايا كثيرة فاخرة، وكذلك فأهدى إلى الأمراء والكبراء، والوزير، ثم كرّ راجعاً إلى بلاده، وقد اجتاز بحلب، فانحاز عنها صاحبها أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان وكان ابن مقاتل بها، فأرسله إلى الديار المصرية نائباً عنه، حتى يعود إليها.

وأما الخليفة، فإنه ركب من الرقة، في دجلة، إلى بغداد، وأرسل إلى توزون، فاستوثق منه، ما كان حلف من الأيمان، فأكدّها، وقرّرها، فلما اقترب منها بغداد خرج إليه توزون، ومعه العساكر، فلما رأى الخليفة، قبّل الأرض بين يديه، وأظهر له، أنه قد وفّى له بما كان حلف عليه، وأنزله في مِضْربه، ثم جاء، فاحتاط على من معه من الكبراء، وأمر بسمل عيني الخليفة، فسملت عيناه، فصاح صيحةً عظيمةً، سمعها الحُرَمُ، فضجت الأصوات بالبكاء، فأمر توزون، بضرب الدبادب حتى لا تسمع أصوات الحرَم، ثم انحدر من فوره، إلى بغداد، فبايع للمستكفي بالله فكانت خلافة

المتقي لله، ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوماً، وقيل: وأحد عشر شهراً وستأتي ترجمته عند ذكر وفاته.

خلافة المستكفي بالله أبي القاسم عبد الله بن المكتفي ابن المعتضد

لما رجع توزون إلى بغداد، وقد خلع المتقي لله وسَمَلَه، استدعى بعبد الله بن المكتفي، فبايعه على الخلافة ولقب بالمستكفي بالله، وذلك في العشرة الأواخر من صفر من هذه السنة، وجلس توزون بين يديه، وخلع عليه المستكفي، خلعة سَنِيَّة وكان المستكفي مليح الشكل، ربعة، حسن الجسم، والوجه، أبيض اللون، مشرباً حُمرة، أكحل أقنى الأنف، خفيف العارضَيْن، وكان عمره يوم بويع بالخلافة، إحدى وأربعين سنة وأحضر المتقي بين يديه، وبايعه، وأخذ منه البردة، والقضيب، واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامَرِّي، ولم يكن إليه من الأمر شيء، وإنما الذي يتولى الأمور ابن شيرزاد، وحُبس المتقي في السجن وطلب المستكفي أبا القاسم الفضل بن المقتدر، وهو الذي ولي الخلافة بعد ذلك، ولُقِّب المطيع لله، فاختفى منه، ولم يظهر مدة خلافة المستكفي فأمر المستكفي بهدم داره التي عند دجلة.

وفي رمضان من هذه السنة - والصحيح في شوال من التي بعدها - توفي القائم بأمر الله القاسم بن المهدي وقد عهد بالأمر من بعده لولده المنصور إسماعيل موت القائم الفاطميّ وولاية ولده المنصور فكتم موت أبيه مدة، حتى استقرّ أمره، ثم أظهره. وقد كان أبو يزيد الخارجي قد حاربهم في هذه السنة، وأخذ منهم مدناً كباراً، وكسروه مراراً متعددة، ثم يثور عليهم، ويجمع الرجال، ويقاتلهم بمن قدر عليه، فانتدب المنصور لقتال أبي يزيد بنفسه، وركب في الجيوش وجرت بينهم حروب، يطول ذكرها، وقد بسطها ابن الأثير في «كامله» وقد انهزم في بعض الأحيان، جيش المنصور عنه، ولم يبق إلا في عشرين نفساً فقاتل بنفسه قتالاً عظيماً، فهزم أبا يزيد بعد ما كاد يقتله، وثبت المنصور ثباتاً عظيماً، فعظُم في أعين الناس، وزادت حُرمته، وهيبته، واستنقذ بلاد القيروان منه، وما زال يحاربه المنصور، حتى ظفر به، وقتله ولما جيء برأسه، سجد شكراً لله عز وجل وكان أبو يزيد هذا قبيح الشكل، أعرج، قصيراً، خارجياً شديداً يرى تكفير أهل الملة. قبّحه الله في الدنيا والآخرة.

وفي ذي الحجة من هذه السنة، قتل أبو الحسين البريدي، وصُلب، ثم أحرق، وذلك لأنه قدم بغداد، يستنجد بتوزون، وأبي جعفر بن شيرزاد على ابن أخيه، فوعدوه النصر، ثم شرع يفسد ما بين توزون وابن شيرزاد، فعلم بذلك ابن شيرزاد، فأمر بسجنه، وضربه، وأحضر له بعض الفقراء فُتيا عليها خطوط الفقهاء، بإباحة دمه، فاستظهر عليه بذلك وأمر بقتله، وصلبه، ثم أحرقه، وانقضت أيام البريديين، وزالت دولتهم لاجمع الله بهم شملاً.

وفيها أخرج المستكفي بالله القاهر، الذي كان خليفة ثم سملت عيناه، وأنزله بدار ابن طاهر، وقد افتقر حتى لم يبق له من اللباس من دار الخلافة - سوى قطعة جُبّة، يلتف بها، وفي رجله قَبْقابٍ من خشب.

وفي هذه السنة ركب معز الدولة في رجب منها إلى واسط ليحاصرها، فبلغ خبره إلى توزون، فركب هو والمستكفي بالله، فلما سمع بهم معز الدولة رجع عنها إلى بلاده، وتسلمها الخليفة، وضمنها أبو القاسم بن أبي عبد الله فضمّنه توزون، ثم رجع هو، والخليفة إلى بغداد، في شوال من هذه السنة.

وفيها ركب سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان إلى حلب، فتسلمها من يأنس المؤنسي، ثم سار إلى حمص، ليأخذها، فجاءته جيوش الإخشيد محمد بن طغج، مع مولاه كافور، فاقتتلوا فانهزم كافور الإخشيدي، واستولى سيف الدولة على حمص، ثم ركب إلى دمشق فحاصرها، فلم يفتحها أهلُها، فرجع عنها، وقصده الإخشيد بجيوش كثيفة، فالتقيا بقنسرين، فلم يظفر أحد منهما بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، ثم عاد إلى حلب، فاستقر ملكه بها، فقصدته الروم في جحافل عظيمة، فالتقى معهم، فظفر بهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

في المحرم منها زاد الخليفة في لقبه إمام الحق، وكتب ذلك على سكة المعاملة، وقاله الخطباء على المنابر أيام الجمع.

وفي المحرم من هذه السنة، مات توزون التركي، في داره ببغداد، وكانت إمارته ستين وأربعة أشهر وعشرة أيام. وكان ابن شيرزاد كاتبه، وكان بهيت، لتخليص المال، فلما بلغه الخبر، أراد أن يعقد البيعة لناصر الدولة بن حمدان، فاضطربت الأجناد، وعُقدت الرياسة لنفسه ودخل بغداد في مستهل صفر، وخرج إليه الأجناد كلهم وحلفوا له وحلف له الخليفة، والقضاة، والأعيان، ودخل على الخليفة، فخاطبه بأمير الأمراء، فزاد في أرزاق الأجناد، وبعث إلى ناصر الدولة، يطالبه بالخراج، فبعث إليه بخمسمائة ألف درهم، وبطعام ففرقه في الناس، وأمر، ونهى، وولى وعزل، وقطع، ووصل، وفرح بنفسه ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ثم جاءت الأخبار، بأن معز الدولة بن بويه، قد أقبل في الجيوش، قاصداً إلى بغداد، فاختفى ابن شيرزاد، والخليفة أيضاً، وخرج أكثر الأتراك، قاصدين إلى الموصل، ليكونوا مع ناصر الدولة بن حمدان.

ذكر أول دولة بني بويه وحكمهم ببغداد

أقبل معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه، في جحافل فلما اقترب من بغداد، بعث إليه الخليفة المستكفي بالله، الهدايا، والإنزالات، وقال للرسول: أخبره، أني مسرور به، وأني إنما اختفيت من شرّ الأتراك، الذين انصرفوا إلى الموصل، وبعث إليه بالخلع والتحف، ودخل معز الدولة بن بويه بغداد في حادي عشر جُمادى الأولى من هذه السنة، فنزل بباب الشمّاسية، ودخل من الغد إلى الخليفة، فبايعه، وخلع عليه المستكفي، ولقبه بمعز الدولة، ولقّب أخاه أبا الحسن علياً بعماد الدولة، وأخاه أبا علي الحسن بركن الدولة، وكتب ألقابهم على الدراهم والدنانير.

ونزل معز الدولة بدار مؤنس الخادم، ونزل أصحابه من الديلم في دور الناس، فلقي الناس من ذلك كُلفة شديدة، وأمن معز الدولة ابن شيرزاد، فلما ظهر استكتبه على الخراج، ورتُب للخليفة بسبب نفقاته خمسة آلاف درهم في كل يوم، واستقرت الأمور على هذا النظام.

ذكر القبض على الخليفة المستكفي وخلعه

لما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة، حضر معز الدولة إلى

الحضرة، فجلس على سرير بين يدي الخليفة، وجاء رجلان من الديلم فمدّا أيديهما إلى الخليفة فأنزلاه عن كرسيه، وسحباه، فتحزّبت عمامته في حلقه، ونهض معز الدولة واضطربت دار الخلافة، حتى خَلص إلى الحريم، وتفاقم الحال، وسيق الخليفة ماشياً، إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، وأحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر، فبويع بالخلافة، وسملت عينا المستكفي، وأودع السجن، فلم يزل به مسجوناً، حتى كانت وفاته في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة كما سيأتي بيانه وذكر ترجمته هنالك.

خِلافة المطيع للّه

لما قدم معز الدولة بغداد، وقبض على المستكفي، وسُملت عيناه، استدعى بأبي القاسم الفضل بن المقتدر باللّه، وقد كان مختفيا من المستكفي، وهو يحثُ في طلبه، ويجتهد، فلم يقدر عليه، ويقال إنه اجتمع بمعز الدولة سراً فحرّضه على المستكفي، حتى كان من أمره ما كان، ثم أُحضر أبو القاسم بن المقتدر فبويع بالخلافة، ولُقب بالمطيع للّه، وبايعه الأمراء، والأعيان، ومعز الدولة والعامة، وضعف أمر الخلافة جداً، حتى لم يبق للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير أيضاً، وإنما يكون له كاتب على أقطاعه فقط، وإنما مورد أمور المملكة، ومصدرها، راجع إلى معز الدولة، وإنما كان ذلك لأن بني بويه، ومن معهم من الديلم، كان فيهم تشيعٌ شديد، فكانوا يرون أن بني العباس، قد غصبوا الأمر من العَلَويين، حتى عزم معز الدولة على تحويل الخلافة عنهم إلى العلويين، واستشار أصحابه،في ذلك فكلهم أشار عليه بذلك، إلا رجلاً واحداً من أصحابه، كان سديد الرأي فيهم، فإنه قال له: لا أرى لك هذا قال: ولم ذاك؟ قال: لأن هذا خليفة ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الإمارة،فمتى أمرت بقتله قتله أصحابك، ولو وليت رجلاً من العلويين، لكنت أنت، وأصحابك تعتقدون، صحة ولايته فلو أمر بقتلك، لقتلك أصحابك فلما فهم ذلك، صرفه عن رأيه الأول، للدنيا لا للّه عز وجل.

ثم نشبت الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان، وبين معز الدولة ابن بويه، فركب ناصر الدولة، بعدما خرج معز الدولة، والخليفة، المطيع إلى عكبرا فدخل بغداد، فأخذ الجانب الشرقي، ثم الغربي، وضعف أمر معز الدولة، والديالمه الذين معه، ثم مكر به معز الدولة، وخدعه، حتى استظهر عليه، وانتصر أصحابه، فنهبوا بغداد، وما قدروا عليه من أموال التجار، وغيرهم، فكان قيمة ما أخذ أصحاب معز الدولة من الناس عشرة آلاف ألف دينار، ثم وقع الصلح بين ناصر الدولة، ومعز الدولة، ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقر معز الدولة بمدينة السلام بغداد، ثم شرع في استعمال السعاة، ليبلغوا أخاه ركن الدولة أخباره، فغوى العامة في ذلك، وعلّموا أبناءهم ذلك، حتى كان من الناس من كان يقطع نيفا وثلاثين فرسخا في يوم وأعجبه المصارعون، والملاكمون وغير ذلك من أرباب هذه الصناعات، التي لا ينتفع بها إلا قليلاً كالسباحة، ونحوها، وكانت تضرب الطبول بين يديه، ويُصارَع بين الرجال، والكوسات تُدق حول سور المكان، الذي هو فيه، هذه رعونة، شديدة وسخافة عقل منه وممن وافقه على ذلك ثم احتاج معز الدولة إلى صرف أموال في أرزاق الأجناد، فأقطعهم البلاد عوضاً عن أرزاقهم، فأدّى ذلك إلى تخريبها، وترك عمارتها، إلا الأراضي التي بأيدي أصحاب الجاهات.

وفي هذه السنة، وقع غلاء شديد ببغداد، حتى أكلوا الميتة، والكلاب والسنانير وكان من الناس من يسرق الأولاد، فيشويهم، ويأكلهم، وكثر الموت في الناس، حتى كان لا يدفن أحدٌ أحداً بل يُتركون على الطرقات، فيأكلُ كثيراً منهم الكلاب، وبيعت الدور، والعَقارُ بالخبز، وانتجع الناس البصرة، فكان منهم من مات في الطريق، ومنهم من وصل إليها بعد مُدَيْدة.

وفيها كانت وفاة

■ **القائم بأمر اللّه أبي القاسم محمد بن عبيد اللّه المهدي**، وولي الأمر من بعده ولدُه المنصورُ إسماعيل، وكان حازم الرأي، شديداً شجاعاً، كما ذكرنا ذلك في السنة الماضية، وكانت وفاته في شوال من هذه السنة على الصحيح.

وفيها توفي

■ **الإخشيد محمد بن طُغج**، صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية، وكانت وفاته بدمشق، وله من العمر بضع وستون سنة، وأقيم ولده أبو القاسم أنوجُورُ ـ وكان صغيراً ـ وأُقيم كافور الإخشيدي أتابكه، فكان يدبّر الممالك بالبلاد كلها، واستحوذ على الأمور كلها، وسار إلى مصر، فقصد سيف الدولة بن حمدان دمشق، فأخذها من أصحاب الإخشيد، ففرح بها فرحاً شديداً، واجتمع بمحمد بن محمد بن نصر الفارابي التركي، الفيلسوف بها. وركب سيف الدولة يوماً مع الشريف العقيقي، في بعض نواحي دمشق، فنظر سيف الدولة إلى الغُوطة فأعجَبَته، وقال: ينبغي أن تكون هذه كلها للديوان السلطان ـ كأنه يعرض بأخذها من مُلاكها ـفأوعز ذلك العقيقي، إلى أهل دمشق، فكتبوا إلى كافور الإخشيدي، يستنجدونه، فأقبل إليهم، في جيوش كثيرة كثيفة، فأجلى عنهم سيف الدولة، وطرده عن حلب أيضاً، واستناب عليها، ثم كرّ راجعاً فاستناب على دمشق، بدراً الإخشيدي،ـ ويعرف ببُدَير ـ فلما صار كافور إلى الديار المصرية، رجع سيف الدولة إلى حلب، فأخذها كما كانت أولاً له، ولم يَبْقَ له في دمشق شيء وكافور هذا هو الذي هجاه المتنبي ومدحه أيضاً.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الخرقي صاحب «المختصر» المشهور في الفقه:**

■ **عمر بن الحسين بن عبد اللّه أبو القاسم الخرقي**: صاحب «المختصر» في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد شرحه القاضي أبو يعلى بن الفرّاء، والشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي، وقد كان الخرقي هذا من سادات الفقهاء، والعباد، كثير الفضائل والعبادة، خرج من بغداد لما كثر بها السب للصحابة، وأودع كتبه ببغداد، فاحترقت الدار التي هي فيها، وعُدِمت مصنفاته، وقصد دمشق، فأقام بها حتى مات في هذه السنة، وقبره بباب الصغير، يزار قريباً من قبور الشهداء.

وفي مصنفه هذا «المختصر» في كتاب الحج: ويأتي الحجر الأسود، ويقبّله إن كان هناك وإنما قال ذلك، لأن تصنيفه لهذا الكتاب، كان وحال كون الحجر الأسود، بأيدي القرامطة، حين أخذوه من مكانه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة كما ذكرنا، ولم يردّوه إلا سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة كما سيأتي بيانه في موضعه.

قال الخطيب: [تاريخ بغداد ٢٣٤/١١]: قال لي القاضي أبو يعلى: كانت له مصنفات كثيرة، وتخريجات على المذهب، لم تظهر؛ لأنه خرج من مدينة السلام، لما ظهر سب الصحابة، وأودع كتبه، فاحترقت الدار التي هي فيها، واحترقت الكتب فيها، ولم تكن قد انتشرت لبعده عن البلد.

ثم روى الخطيب من طريقه عن أبي الفضل بن عبد السميع الهاشمي عن الفتح بن شخرف قال: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في المنام، فقال لي: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء!! قال: قلت: زدني يا أمير المؤمنين. قال: وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء قال: ورفع لي كفّه فإذا فيها مكتوب:

قد كنتَ ميتاً فصرتَ حياً   وعن قليلٍ تصيرُ ميتا
فابْنِ بدارِ البقاء بيتاً   ودعْ بدارِ الفناء بيتا

قال ابن بطة: مات الخرقي بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وزرت قبره.

■ **محمد بن عيسى أبو عبد الله بن أبي موسى**، الفقيه الحنفي، أحد أئمة العراقيين في زمانه، وولي القضاء، ببغداد، للمتقي، ثم للمستكفي، وكان ثقة فاضلاً، كبَسَت اللصوص داره، فظنوه أنه ذو مال، فضَربه بعضُهم ضربة أثخنته،فهرب منهم إلى السطوح فألقى نفسه من شدة الفزع إلى الأرض، فمات رحمه الله وذلك في ربيع الأول من هذه السنة.

■ **محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله أبو الفضل السلمي**: الوزير الفقيه المحدّث الشاعر، سمع الكثير – وجمع، وصنف، وكان يصوم الاثنين والخميس، ولا يدع صلاة الليل، والتصنيف، وكان يسأل الله الشهادة كثيراً، فولي الوزارة للسلطان، فقصده الأجناد، يطالبونه بأرزاقهم، واجتمع منهم ببابه خلق كثير، فاستدعى بحلاّق، فحلق رأسه، وتنور وتطيب، ولبس كفنه، وقام يصلي، فدخلوا عليه، فقتلوه وهو ساجد، رحمه الله، في ربيع الآخر من هذه السنة. والله تعالى أعلم

■ **الإخشيد محمد بن عبد الله بن طُغج بن جُفٍّ أبو بكر**، الملقّب بالإخشيد، ومعناه ملك الملوك، لقبه بذلك الراضي؛ لأنه كان ملك فرغانة، وكل من ملكها، كان يسمى الإخشيد، كما أن من ملك أشروسَنَة، يسمى الإفشين. ومن ملك خوارزم، يسمى خوارزم شاه، ومن ملك جُرجان، يسمى صول، ومن ملك أذربيجان، يسمى إصْبَهْبَذ، ومن ملك طبرستان، يسمى سالار، قاله ابن الجوزي في «المنتظم» [١٤/٥٠].

قال السهيلي: وكانت العرب، تسمي مَن مَلَكَ الشام مع الجزيرة كافرا قيصر، ومن ملك الفرس يسمّى كسرى، ومن ملك اليمن يسمّى تبعاً، ومن ملك الحبشة يسمّى النجاشي، ومن ملك الهند يسمّى بطليموس، ومن ملك مصر كافراً يسمّى فرعون. ومن ملك الإسكندرية المقوقس. وذكر غير ذلك.

وكانت وفاته بدمشق، ونقل إلى بيت المقدس، فدفن هناك، رحمه الله.

أبو بكر

■ **الشبلي**: أحد مشايخ الصوفية، اختلفوا في اسمه على أقوال، فقيل: دلف بن جعفر، ويقال: دُلَف بن جَحْدَر، وقيل: جعفر بن يونس، أصله من قرية، يقال لها: شبليّة، من بلاد أشْروسَنَة، من خراسان، وولد بسامرا، وكان أبوه، حاجب الحجاب للموفق، وكان خاله نائب إسكندرية، وكانت توبة الشبلي على يدي خير النساج، سمعه يعظ، فوقع كلامه في قلبه، فتاب من فوره، ثم صحب الفقراء والمشايخ، ثم كان بعد ذلك من أئمة القوم.

قال الجنيد بن محمد: كان الشبلي تاج هؤلاء.

وقال الخطيب [تاريخ بغداد ١٤/٣٩٥]: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمود الزوزَني قال: سمعت علي بن المثنى التميمي يقول: دخلت على الشبلي في داره، وهو يهيج ويقول:

على بُعدِك لايصْبرُ   مَن عادتُه القُربُ
ولا يقوى على حجبك   مَن تيّمه الحبُّ
فإن لم ترَكَ العينُ   فقد يُصبِرُكَ القلبُ

وقد ذُكر له أحوال، وكرامات، وقد ذكرنا أنه ممن اشتبه عليه أمر الحلاّج، ووافقه في بعض ما نُسب إليه، من الأقوال، من غير تأمُّل لما تحتها، مما كان الحلاج يحاوله، من الإلحاد، والاتحاد.

ولما حضرته الوفاة، قال لخادمه: قد كان عليّ درهم من مظلمة، فتصدَّقتُ عن صاحبه، بالوف، ومع هذا ما على قلبي شغل، أعظم منه. ثم أمره أن يوضّئه، فوضّأه، وترك تخليل لحيته فرفع يده – وكان قد اعتُقل لسانه – فجعل يخلل لحية نفسه.

وذكره القاضي ابن خلكان في «الوفيات» [وفيات الأعيان ٢/٢٧٣] وحكى عنه، أنه دخل يوماً على الجنيد، فوقف بين يديه، وصفّق وأنشد:

عوّدوني الوصال والوَصْلُ عذْبُ   ورَمَوني بالصدّ والصدُّ صعب
زعموا حين أزمعوا أن ذنبي   فرطُ حبّي لهم وما ذاك ذنبُ
لا وحقِّ الخضوع عند التلاقي   ما جزاء من يُحب إلا يُحبُّ

ومما كان ينشده الشّبلي من الأشعار الرقيقة. وقد أورده ابنُ عساكر في ترجمته من «تاريخه»:

أسائلكُم عنها فهل من مُخبرٍ   فما لي بنعمي بعد مُكثنا علمُ
فلو كنتُ أدرى أين خيَّم أهلُها   وأيُّ بلادِ اللّه إذ ظعنوا أمُّوا
إذاً لسلكنا مسلك الريح خلفها   ولو أصبحت نُعمى ومن دونها النجمُ

ومن ذلك:

أُسائلُ عن سلمى فهل من مُخبرٍ   بأنَّ له علماً بها أين تنزلُ

ثم يقولُ: لا وعزتك، وما في الدارين عنك مُخبرٌ.

قلتُ: وفي هذا شطحٌ؛ فقد خبرت عنه تعالى الرسلُ بالحقّ ونطقوا بالصدق. وكان يقول: ليس لعارف علامةٌ، ولا لمحبٌّ شكوى، ولا لعبدٍ دعوى، ولا لخائفٍ قرار، ولا من اللّه فرار.

وكان الشبليُّ يقول: العارفُ صدرُه مشروح، وقلبه مجروح، وجسده مطروح، والعارف من عرف اللّه، وعرف مراد اللّه، وعمل بما أمر اللّه، وأعرض عمّا نهى اللّه، ودعا عباد اللّه إلى اللّه، والصوفى من صفى قلبه من الكدر فصفا، وسلك طريق المصطفى، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا.

وقال أيضاً: الصوفى من صفا الكدر، وخلص من الغير، وامتلأ من الفكر، وتساوى عنده الذهب والمدر.

ومما كان ينشده:

أظلت علينا منك يوماً سحابةٌ   أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلو فييأس طامعٌ   ولا غيثُها يأتي فيروى عطاشها

وسُئل: هل يتحقق العارف بما يبدو له من الآثار؟ فقال: كيف يتحقق بما لا يثبتُ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر؟ وكيف يأنس بما يخفى؟ فهو الظاهر الباطن. ثم أنشأ يقول:

فمن كان في طول الهوى ذاق سلوةً   فإنّي من ليلى لها غير ذائقِ

واكثرُ شيءٍ نلتُه مِن وصالها أمانيُّ لم تصدقْ كلَمحةِ بارقِ

وكان يقولُ: الدنيا خيال، وظلُّها وبال، وتَرْكُها جمال، والإعراضُ عنها كمال، والمعرفةُ باللّه اتصال:

لتُحشَرنَّ عظامي بعدَ إذ بليت يومَ الحساب وفيها حبُّكم عَلِقُ

وسئل الشِّبليُّ: هل يتسلى الحبيبُ بشيءٍ من حبيبه دونَ مشاهدته؟ فأنشد:

واللّهِ لو أنك توَّجْتني بتاجِ كسرى ملكِ المشرقِ

ولو بأموال الورَى جُدْتَ لي أموال مَن بادَ ومن قد بقي

وقلتَ لا نلتقي ساعةً اخترتُ يا مولاي أن نلتقي

وكان يُنشد أيضاً:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بذكرك هاديا

وكان يُنشد أيضاً:

ولو أنَّ ركباً أمَّموك لقادهم نسيمك حتى يستدلَّ بك الركبُ

إذا أبصرتْك العينُ من بعد غايةٍ وعارض فيك الشك أثبتَكَ القلبُ

وكان يُنشدُ أيضاً:

ليس تخلو جوارحي منك وقتاً هي مشغولةٌ بحمل هَواكا

ليس يجرى على لساني شيءٌ علم اللّهُ ذا سوى ذِكراكا

وتمثَّلتَ حيث كنتَ بعيني فهي إن غبتَ أو حضرت تراكا

وكان يُنشدُ أيضاً:

عجبتُ لمن يقولُ نسيتُ إلفي وهل أنسى فأذكر مَن هَويتُ

أموتُ إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا ما أؤمِّل ما حييتُ

فأحيا بالمُنى وأموتُ شوقاً فكم أحيا عليك وكم أموتُ

جعلتُ الصمت ستر الحبُّ حتى تكلَّمت الجفونُ بما لقيتُ

شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأس فما نفد الشرابُ وما رويتُ

وقال أيضاً: التصوُّفُ ترويحُ القلب بمراوح الصفاء، وتجليلُ الخواطر بأردية الوفاء، والتخلُّقُ بالسَّخاء، والبِشرُ في اللقاء.

ونظر يوماً إلى جماعة من المتصوفة فأنشأ:

أما الخيامُ فإنها كخيامهم وأرى نساء الحيِّ غيرَ نسائها

وقال أيضاً:

إذا أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها، فانظر إلى المزبلة، وإذا أردت أن تنظر إلى نفسك فخذْ كفّاً من تراب؛ فإنك منها خُلقت، وفيها تعودُ، ومنها تُخرجُ، وإذا أردت أن تعرف ما أنت، فانظر إلى ما يخرج منك عند الخلاء، فلا تتطاول ولا تتكبر على من هو مِثلك.

وكان يُنشدُ:

وتحسبني حيّاً وإنّي لميِّتٌ وبعضي من الهجران يبكي على بعضي

وأنشد أيضاً:

وكذَّبتُ طرفي فيك والطَّرْفُ صادقٌ واسمعتُ أُذني فيك ما ليس تسمعُ

ولم أسكن الأرض التي تسكنونها لكي لا يقولوا إنني بك مولعُ

فلا كبدي تَهدا ولا فيك رحمةٌ ولا عنك إقصارٌ ولا فيك مطمعُ

وأنشد أيضاً:

فيا ساقي القوم لا تنسني ويا ربَّةَ الخِدر غنّي رَمَلْ

خليلي إن دام هذا الصدود على ما أراه سريعاً قَتَلْ

وقد كان شيئاً يُسمى السرور قديماً سمعنا به ما فعلْ

وسئل الشِّبليُّ عن الرجل يسمعُ الشيء فلا يفهمه، ويتواجدُ مع ذلك، فأنشأ يقول:

رُبَّ ورقاءَ هَتُوفٍ بالضُحى ذاتِ شجوٍ صَدَحتْ في فَنَنِ

ذكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً فبكتْ حُزناً فهاجتْ حَزَني

فبكائي رُبَّما أرَّقها وبكاها رُبَّما أرَّقني

ولقد أشكو فما أُفهِمُها ولقد تشكو فما تُفهِمُني

ووُجد في كلام الشِّبليِّ: ما ظنك بمعانٍ هي شموس كلُّها؛ بل الشموس فيها ظلمةٌ.

وقال أيضاً: الوجدُ اصطلامٌ. ثم أنشأ يقول:

الوجدُ عندي جحودٌ ما لم يكن عن شهود

وشاهدُ الحقِّ عندي يُفني شهودَ الوجود

وكان يُنشدُ:

الكلُّ مني بلائي وراحتي في فنائي

وسمع القوَّال يوماً، فتواجد كثيراً والمشايخُ سكوتٌ لم يتواجد منهم أحدٌ، فعاتبه بعضُ المشايخ في ذلك، فأنشأ يقول:

لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

وأنشأ يقول:

لي سكرتان وللنُّدمان واحدةٌ شيءٌ خُصصتَ به من بينهم وَحْدي

وكان يقولُ:

وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ لعلَّةٍ فأفنيتُ عِلَّاتي فكيف أقولُ

إذا لم يكنْ بيني وبينك مرسَلٌ فريحُ الصَّبا منّي إليك رسولُ

ومنه أيضاً:

وكم كَذْبةٍ لي فيك لا أستقيلها أقولُ لمن ألقاه إني صالحُ

فأيُّ صلاحٍ لي وجسمي ناحلُ وقلبي مَشغوفٌ ودمعي سافحُ

وأنشد يوماً، وجلس عنده شابٌّ أمردُ، وعليه ثيابٌ حسانٌ، فطرده من عنده، ثم قال:

طَرَحُوا اللَّحم للبُزا ةِ على ذِرْوَتي عَدَنْ

ثم لاموا البزاة كم طوَّلوا فيهم الرَّسَنْ

لو أرادوا صلاحنا ستَروُا وجهةَ الحسَنْ

وقد روى ابنُ عساكر عن أبي علي بن مقلة الكاتب أنه أنشد له في المعنى هذا بيتين أخطأ فيهما:

يا ربُّ تَخلُقُ أقمارَ ليلٍ وأغصانَ بانٍ وكُثبانَ رمْلْ

وتُبدعُ في كلِّ طرْفٍ بسحرٍ وفي كلِّ قَدٍّ رَشيقٍ بكلْ

وتنهى عبداك أن يعشقوا ... أيا حَكَم العَدْل احْكُمْ بعَدْلِ

قلتُ: نعم، إن الله إنما ينهى عن الفحشاء، وهو الحكم بالعدل في كلِّ ما أمر به وكلِّ ما ينهى عنه.

وللشِّبْليِّ:

فيوماً ترانا في الخزوز نُجرُّها ... ويوماً ترانا في الحديد عوابسا

ويوماً ترانا للثريد نبثُّه ... ويوماً ترانا نَأكُلُ الخبز يابسا

وسافرَ الشِّبليُّ مرةً إلى البصرة، فلما عاد إلى بغداد سمع جاريةً للخليفة المقتدر تُغنيه وهو في التاج من دار الخلافة:

أيا قادماً من سفرة الهجر مرحباً ... أيا ذاك لا أنساك ما هبَّتِ الصَّبا

قدمت على قلبي كما قد تركته ... كئيباً حزيناً بالصبابة مُتعباً

فصاح الشِّبْليُّ صَيْحةً، وخرَّ مَغشياً عليه في دجلة، فتداركه الناسُ، فأخرجوه، وأمر الخليفة بإحضاره، فقال: أنت مجنونٌ. قال: لا، ولكني قدمتُ من سفرٍ، فسمعت هذه تُغنيك بهذين البيتين، فحصل لي ما حصل. فبكى الخليفة.

وكان الشِّبليُّ يُنشد، وسمعته كثيراً من شيخنا العلامة أبي العباس ابن تيمية، رحمه اللّهُ، يُنشدُ:

عوَى الذئبُ فاستأنَسْتُ للذئب إذ عوى ... وصوَّت إنسانٌ فكِدت أطيرُ

وله أيضاً:

الناس بالعيد قد سُرُّوا وقد فرحوا ... وما سُررتُ به والواحد الصمد

لَمَّا تَيَقَّنْتُ أنِّي لا أُعاينُكم ... غمَّضتُ عيني فلا أنْظُرْ إلى أحدِ

وقيل له: إن فلاناً مات فجاءةً. فأنشأ يقولُ:

قضى اللّه في القتلى قِصاص دمائهم ... ولكن دماءُ العاشقين جُبارُ

وله أيضاً:

جُننَّا على ليلى وجُنَّتْ بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونةٌ ما نُريدها

وله أيضاً:

يا راحتي وعذابي من عذابي ... أنت ما بي فكيف أكتُمُ ما بي

وله أيضاً:

فلو قلت طأ في النار بادرت نحوها ... سُروراً لأني قد خطرت ببالكا

ولما مرض الشِّبْليُّ بعث إليه المقتدر طبيباً نَصرانياً، فقال له الطبيب: فلو علمت أن قطع بعض جسدي يَشفيك لقطعته. فقال له: يشفيني قطعُ ما هو أيسر عليك من ذلك. فقال: وما هو؟ قال قطع زنارك. فقطعه وأسلم، فبلغ ذلك الخليفة فقال: بعثنا طبيباً إلى عليل، فإذا هو عليلٌ إلى طبيب.

قالوا: وما احتضر جعل من عنده يقولون: قل: لا إله إلا اللّه. فقال:

إن بيتاً أنت ساكنه ... غيرُ محتاجٍ إلى السُّرُجِ

وجهُك المأمولُ حُجتنا ... يومَ يأتي الناس بالحجج

وقد ذكر ابنُ عساكر أنه كان يقولُ: أَخْشى أن أموت بين النفي والإثبات؛ لا إله إلا اللّه، وإنما ذكره: اللّه اللّه، ويحتجُّ بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفيما نحاه نظرٌ، فقد قال اللّه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال النبي ﷺ: «أفضَلُ ما قلتُ أنا والنَّبيُّون قبْلي: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له».

ذكر عنه إنه قال: رأيتُ مجنوناً على باب جامع الرصافة، يوم جمعة وهو عريان، وهو يقول: أنا مجنون اللّه أنا مجنون اللّه فقلت: ألا تستتر، وتدخل مع الناس، فتصلي. فأنشأ يقول:

يقولون زُرْنا واقض واجب حقّنا ... وقد أسقطت حالي حقوقهم عني

اذا ابصروا حالي ولم يأنفوا لها ... ولم يأنفوا منها أنِفْتُ لهم مني

وذكر الخطيب في «تاريخه» [تاريخ بغداد ٣١٥/٦، ٣١٦] عنه أنه أنشد لنفسه:

مضت الشبيبةُ والحبيبةُ فانبرى ... دمْعان في الأجفان يزدحمان

ما انصفتني الحادثاتُ رمَيْنَني ... بمودِّعَيْن وليس لي قلبان

وكانت وفاته رحمه اللّه، ليلة الجمعة، لليلتين بقيتا من هذه السنة، وله سبع وثمانون سنة، ودفن في مقبرة الخيزران ببغداد، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة استقرَّ أمر الخليفة المطيع للّه، في دار الخلافة، واصطلح معز الدولة بن بويه، وناصر الدولة بن حمدان، على ذلك، ثم حارب ناصر الدولة، تكين التركي، فاقتتلا مرات متعددة، ثم ظفر ناصر الدولة، بتكين، فسمله بين يديه، واستقر أمره بالموصل والجزيرة.

وفيها استحوذ ركن الدولة بن بويه على الري، وانتزعها من الخراسانية، فاتسعت مملكة بني بويه، فإنه صار بأيديهم، أعمال الري، والجبل، وأصبهان، وفارس، والأهواز، والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل، وديار مُضَرَ ربيعة من الجزيرة.

ثم اقتتل جيش معز الدولة، وجيش أبي القاسم بن البريدي، فهزم أصحاب البريدي، وأسر من أعيانهم جماعة كثيرة.

وفيها وقع الفداء بين الروم والمسلمين، على يد نصر الثمليّ، أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان، فكان عدّة الأسارى، نحواً من ألفين وخمسمائة مسلم، وللّه الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن حَمُّويه بن الحسين القاضي الإستراباذي** روى الكثير وحدَّث، وكان له مجلس للإملاء، وحكم ببلده مدة طويلة، وكان من المجتهدين بالأسحار، ويُضرب به المثل في مروءته ووجاهته وقد مات فجأةً على صدر جاريته عند إنزاله. رحمه اللّه.

■ **عبد الرحمن بن أحمد بن عبد اللّه، أبو عبد اللّه الخُتّليّ**، سمع ابن أبي الدنيا وغيره. وحدث عنه الدارقطني وخلق، وكان ثقة ثبتاً حافظاً، حدث من حفظه بخمسين ألف حديث.

■ **عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد اللّه ابن رغبان بن زيد بن تميم أبو محمد الكلبي، الملَقّب بديك الجنّ** الشاعر الماجن الشيعي ويقال: إنه من موالي بني تميم، وكانت له أشعار قوية. خُماريّة، وغير خُماريّة، وقد استجاد أبو نواس من شعره في الخماريات.

■ **علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح: أبو الحسن الوزير**، وزر

للمقتدر، والقاهر، ولد سنة خمس وأربعين ومائتين، وسمع الكثير، وعنه الطبراني، وغيره، وكان ثقةً ثبتاً فاضلاً عفيفاً كثير التلاوة والصلاة والصيام، يحب أهل العلم، ويكثر مجالستهم، وكان أصله من الفرس، وكان من أكبر القائمين على الحلاّج.

وقد روي عنه أنه قال: ملكتُ سبعمائة ألف دينار، أنفقت منها في وجوه الخير، ستمائة ألف وثمانين ألفاً.

ولما دخل مكة، حين نفي من بغداد، طاف بالبيت، وبالصفا والمروة وكان حرٌّ شديد،فجاء المنزل، فألقى نفسه كالميت، وقال: أشتهي على الله شربةً بثلج فقال له بعض أصحابه: إن هذا مما لا يتهيأ ههنا. فقال: أعرف، ولكني استروحتُ إلى المُنى فلما كان في أثناء النهار، جاءت سحابة، فأمطرت، ثم سقط بَردٌ شديد، كثير، فجمع له صاحبه ذاك من البرد شيئاً كثيراً، وخبأه له وكان الوزير صائماً، فلما أمسى، فلما جاء المسجد، فأقبل إليه صاحبه، بأنواع من الأشربة، كلها بثلج، فجعل يسقيه، من حوله من الصوفية، والمجاورين، ولم يشرب هو شيئاً من ذاك، فلما رجع إلى المنزل، جئته بشيء من ذلك الشراب، كنا قد خبأناه له، وأقسمت عليه ليشربنه، فشربه بعد جهد جهيد، وقال: كنت أشتهي لو كنت تمنيت المغفرة، رحمه الله وغفر له.

ومن شعر الوزير أبي الحسن علي بن عيسى قوله:

فمن كان عني سائلاً بشماتةٍ لما نابني أو شامتاً غيرَ سائلِ
فقدْ أبرزتْ مني الخطوبُ ابنَ حرةٍ صبوراً على أهوال تلكَ الزلازلِ

وقد روى أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، عن أبيه، عن جماعة، أن عطاراً من أهل الكرخ، كان مشهوراً بالسنة، ركبه ستمائة دينار دَيْناً، فغلّق دكّانه، وانكسر عن كسبه، ولزم منزله، وأقبل على الدعاء، والتضرع والصلاة ليالي كثيرة، فلما كان في بعض تلك الليالي، رأى رسول الله ﷺ في المنام، وهو يقول: اقصدْ علي بن عيسى الوزير، فقد أمرته لك بأربعمائة دينار. فلما أصبح الرجل، قصد باب الوزير، فلم يعرفه أحد، فجلس، لعل أحداً يستأذن له عليه، حتى طال عليه المجلس، وهمّ بالانصراف، ثم إنه قال لبعض الحجبة، قل للوزير: إني رجل رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وأنا أُريد أن أقُصّه على الوزير. فقال له الحاجب: وأنت الرائي؟ إن الوزير قد انفذ في طلبك رسُلاً متعددةً. ثم دخل فما كان بأسرع من أن ادخلني عليه، فاقبل عليه الوزير، يستعلم عن اسمه وصفته ومنزله، فذكر ذلك له، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله ﷺ، وهو يأمرني بإعطائك أربعمائة دينار، فأصبحت لا أدري من أسأل عنك ، وقد أرسلت في طلبك، إلى الآن، عدة من الرسل، فجزاك الله خيراً، في قصدك إياي، ثم أمر بإحضار ألف دينار فقال: هذه أربعمائة دينار لأمر رسول الله ﷺ، وستمائة هبةً من عندي فقال الرجل: لا والله، لا أزيد على ما أمرني به رسول الله ﷺ، فإني أرجو الخير، والبركة فيه. ثم أخذ منها أربعمائة دينار، فقال الوزير: هذا هو الصدق، واليقين. فخرج الرجل، فعرض على أرباب الديون أموالهم، فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين، وافتح بهذا الذهب دُكّانك، ودُمْ على كسبك فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث، فدفع إليهم مائتي دينار، وفتح الدكان بالمائتين الأخرى، فما حال عليه الحول، حتى كسب ألف دينار.

ولعلي بن عيسى أخبار كثيرة صالحة وكانت وفاته في هذه السنة عن تسعين سنة ويقال: في التي قبلها والله أعلم.

■ **محمد بن إسماعيل بن إسحاق بن بحر أبو عبد الله الفارسي** الفقيه الشافعي، كان ثقة ثبتاً فاضلاً، سمع أبا زرعة الدمشقي، وغيره. وعنه الدارقطني، وغيره، وآخر من حدث عنه أبو عمر بن مهدي وكانت وفاته في شوال من هذه السنة.

■ **هارون بن محمد بن هارون بن علي بن موسى بن عمرو بن جابر بن يزيد بن جابر بن عامر بن أسيد بن تيْم بن صبح بن ذُهَل ابن مالك بن بكر بن سعد بن خبّة أبو جعفر**، والد القاضي أبي عبد الله الحسين بن هارون .

كان أسلافه ملوكَ عمان في قديم الزمان، ويزيد بن جابر أدركه الإسلام فأسلم، وحسن إسلامه، وكان هارون هذا أول من انتقل من أهله من عمان فنزل بغداد وحدث بها، وروى عنه ابنه، وكان فاضلاً متضلعاً من كل فن، وكانت داره مجمع العلماء في سائر الفنون ونفقاته دارة عليهم، وكانت له منزلة عالية، ومهابة وافرة ببغداد، وقد أثنى عليه الدارقطني ثناء كثيراً، وقال: كان مبرزاً في النحو واللغة والشعر، ومعاني القرآن والكلام.

قال ابن الأثير [الكامل ٤٦٨/٨]: وفيها توفي:

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صُول

■ **الصولي**، وكان عالما بفنون الآداب والأخبار، وإنما ذكره ابن الجوزي في التي بعدها [المنتظم ٦٨/١٤] كما سيأتي.

أبو العباس

■ **ابن القاصِّ أحمد بن أبي أحمد الطبري** الفقيه الشافعي، تلميذ ابن سريج، له كتاب «التلخيص»، وكتاب «المفتاح»، وهو مختصر شرحه أبو عبد الله الختَن، وأبو عليّ السنجي أيضاً، وكان أبوه يقص على الناس الأخبار والآثار، وأمّا هو، فتولّى قضاء طرسوس، وكان يعظ الناس أيضاً، فحصل له مرة خشوع، فسقط مغشياً عليه، فمات في سنة خمس وثلاثمائة. وقيل: سنة ست وثلاثين. فالله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة

فيها خرج معز الدولة، والمطيع لله، من بغداد، إلى البصرة، فاستنقذاها من يد أبي القاسم بن البريدي، وهرب هو وأكثر أصحابه، واستولى معز الدولة على البصرة، وبعث يتهدّد القرامطة، ويتوعّدهم بأخذ بلادهم، وزاد في أقطاع الخليفة ضياعاً، تعمل في السنة مائتي ألف دينار، ثم سار معز الدولة لتلقي أخيه عماد الدولة بالأهواز، فقبل الأرض بين يدي أخيه، وقام ماثلاً أيضاً، ويأمره بالجلوس فلا يفعل، ثم عاد إلى بغداد، ورجع الخليفة، إليها أيضاً وقد تمهدّت أمور جيدة.

وفي هذه السنة استحوذ ركن الدولة على بلاد طَبَرِسْتان، وجرجان، وانتزعها من يد وشمكير، أخي مرداويج ملك الديْلم، فذهب وشمكير إلى خُراسان، يستنجد بصاحبها.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الحسين

■ **ابن المُنادي أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله ابن يزيد**، سمع جده، وعباساً الدوري، ومحمد بن إسحاق الصاغاني وكان ثقة أميناً حجة صادقاً صنّف كثيراً، وجمع علوماً جمة، ولم يسمع الناس منها إلا اليسير،

وذلك لشراسة أخلاقه، وآخر من روى عنه محمد بن فارس الغوري.

ونقل ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٦٦]، عن أبي يوسف القزويني أنه قال: صنّف أبو الحسين بن المُنادي، في علوم القرآن، أربعمائة كتاب، ونيفاً وأربعين كتاباً، ولا يوجد في كلامه حشو، بل هو نقي الكلام، جمع بين الرواية، والدراية.

وقال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٦٦]: ومن وقف على مصنفاته، علم فضله واطلاعه، ووقف على فوائد، لا توجد في غير كتبه. وكانت وفاته في محرم من هذه السنة عن ثمانين سنة.

■ **الصولي محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول** أبو بكر الصولي، كان أحد العلماء بفنون الأدب، حَسَن المعرفة بأخبار الملوك، وأيام الخلفاء، ومآثر الأشراف، وطبقات الشعراء روى عن أبي داود السجستاني، والمُبردُ وثعلب، وأبي العيناء، وغيرهم. وكان واسع الرواية، جيد الحفظ، حاذقاً بتصنيف الكتب وله كتب كثيرة هائلة، ونادم جماعة من الخلفاء، وحظي عندهم، وكان جدُّه صول، وأهله ملوكا بجرجان، ثم كان أولاده من أكابر الكتاب، وكان الصولي هذا جيد الاعتقاد، حسن الطريقة، وله شعر حسن، وقد روى عنه الدارقطني، وغيره من الحفاظ.

ومن شعره قوله:

أحببتُ مِنْ أجلهِ مَنْ كانَ يُشبهُهُ ... وكلُّ شيءٍ منَ المعشوقِ معشوقٌ
حتى حكيتُ بجسمي ما بمُقلتِه ... كأنَّ سُقمي من عينيهِ مسروقُ

خرج الصولي من بغداد، إلى البصرة، لحاجةٍ لَحِقَتْه، فمات بها، في هذه السنة.

■ **(بنت أبي الحسن الزاهد المكي)**

وفيها كانت وفاة ابنة الشيخ أبي الحسن الزاهد المكي، وكانت من العابدات، الناسكات، المقيمات بمكة، وإنما كانت تقتات من كسب أبيها، مما كان يكتسبه من عمل الخوص، في كل سنة بثلاثين درهماً، يرسلها إليها، فاتفق أن أرسلها مرةً مع بعض أصحابه، فزاد عليها ذلك الرجل عشرين درهما- يريد بذلك برها، وزيادة في نفقتها - فلما اختبرتها، قالت: هل وضعت على هذه شيئاً؟ اصدقني بحق الذي حججت له، فقال: نعم، فقالت: ارجع بها، فلا حاجة لي فيها، ولولا أنك قصدْت الخير، لدعوتُ عليك، فإنك أجَعْتني عامي هذا، ولم يبق لي رزقٌ إلا من المزابل إلى قابل فقلت: ألا تأخذي منها الثلاثين درهماً. فقالت: إنها قد اختلطت بمالك، ولا أدري ما هو، قال الرجل: فرجعت بها إلى أبيها، فأبى أن يُقْبلها، وقال: شققْتَ يا هذا عليّ، وضيَّقتَ عليها، ولكن اذهب فتصدَّق بها.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

فيها ركب معز الدولة، من بغداد، إلى الموصل، فانهزم منه ناصر الدولة إلى نصيبين، فتملَّك معز الدولة بن بويه الموصل، في رمضان من هذه السنة، فعسف أهلها، وأخذ أموالهم، وكثر الدعاء عليه ثم عزم على أخذ البلاد كلها من يد ناصر الدولة بن حمدان، فجاءه خبر من أخيه ركن الدولة، يستنجده على مَن قِبَلَه من الخراسانية، فاحتاج إلى مصالحة ناصر الدولة، على أن يحمل عما تحت يده من بلاد الجزيرة والشام في كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم، وأن يخطب له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة على منابر بلاده كلها ففعل، وعاد معز الدولة إلى بغداد، وبعث إلى أخيه بجيش هائل، وأخذ له عهد الخليفة بولاية خراسان.

وفيها دخل سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب إلى بلاد الروم، فلقيه جمعٌ كثيفٌ من الروم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم سيف الدولة، وأخذت الروم مرعش، وأوقعوا بأهل طرسوس بأساً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٧٢]: وفي رمضان، انتهت زيادة دجلة، إلى إحدى وعشرين ذراعاً وثلث فغرقت الضياع والدور التي عليها وأشرف الجانب الشرقي على الغرق وهمَّ الناس بالهرب منه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الله بن محمد بن حمدويه: بن نُعيم بن الحكم أبو محمد البَيّع**، وهو والد الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، أذن ثلاثا وثلاثين سنة، وغزا اثنتين وعشرين غزوة، وأنفق على العلماء مائة ألف، وكان يقوم الليل، كثير الصدقة، أدرك عبد الله بن أحمد، ومسلم بن الحجاج، وروى عن ابن خزيمة وغيره، وتوفي عن ثلاث وتسعين سنة.

■ **قُدامة الكاتب المشهور: هو قُدامة بن جعفر بن قُدامة أبو الفرج** الكاتب، له مصنف في الخراج، وصناعة الكتابة، وبه يقتدي علماء هذا الشأن، وقد سأل ثعلبا عن أشياء.

■ **محمد بن علي بن عمر أبو علي**: المذكِّر الواعظ بنيسابور، كان كثير التدليس، عن المشايخ الذين لم يلقهم توفي في هذه السنة عن مائة وسبع سنين سامحه الله.

■ **محمد بن مطهر بن عبد الله أبو النَّجاء الفقيه الفَرَضي الضرير** المالكي، له كتاب في الفقه على مذهب مالك، وله مصنفات في الفرائض قليلة النظير وكان أديباً فَهِماً فاضلاً صادقاً، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة

في ربيع الأول منها وقعت فتنة بين الشيعة، وأهل السُنَّة، ونُهبت الكرخ.

وفي جمادى الآخرة تقلد القاضي أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمداني قضاء القضاة.

وفيها خرج رجل يقال له: عمران بن شاهين، كان قد استوجب بعض العقوبات، فهرب من السلطان، إلى ناحية البطائح، فكان يقتات مما يصيده من السمك والطيور، والتفّ عليه خلقٌ من الصيادين وقطّاع الطريق فقويت شوكته، واستعمله أبو القاسم بن البريدي على جباية بعض تلك النواحي، وأرسل إليه معز الدولة بن بويه جيشاً مع وزيره أبي جعفر الصيمريّ، فهُزم الوزير، لكنه دهمه أمر اشتغل به عنه وذلك وفاة عماد الدولة بن بويه.

وهو: أبو الحسن

■ **علي بن بويه وهو أكبر أولاد بويه**، وأول مَن تملَّك منهم، وكان عاقلا، حازماً، حميد السيرة، رئيساً في نفسه. كان أول ظهوره في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة كما ذكرنا.

فلما كان في هذا العام، قويت عليه الأسقام، وتواترت لديه الآلام، فأحسّ من نفسه بالهلاك، ولم يعادل ما هو فيه من، والملك، وكثرة الأموال

والرجال، من الديالم، والأتراك، ولم يحصّلوا له الفكاك ولم يكن له ولد ذكر، فأرسل إلى أخيه ركن الدولة، يستدعي ولده عضد الدولة، ليجعله ولّي عهده من بعده، فلما قدم عليه، فرح به فرحاً شديداً، وخرج بنفسه، في جميع جيشه لتلقّيه، فلما دخل به دار المملكة، أجلسه على السرير، وقام بين يديه، كأحد الأمراء، ليرفع من شأنه، عند أمرائه، ووزرائه، وأعوانه ثم عقد له البيعة، على ما يملكه، من البلدان، والأموال، وتدبير المُلْك والرجال، وفَهِم من بعض رؤوس الأمراء كراهية لذلك، فشرع في القبض عليهم، وقتل من شاء منهم، وسجن آخرين، حتى تمهدت الأمور لعضد الدولة ثم كانت وفاة عماد الدولة بشيراز، في هذه السنة، عن سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه، ست عشرة سنة، وكان من خيار الملوك في زمانه، وكان ممن حاز قصب السبق دون أقرانه، وكان هو في الحقيقة أمير الأمراء، وبذلك كان يكاتبه الخلفاء، ولكن أخوه معز الدولة، كان ينوب عنه ببغداد والعراق والسواد.

ولما مات عماد الدولة، اشتغل الوزير أبو جعفر الصيمريّ عن محاربة عمران بن شاهين ـ وقد كتب إليه معز الدولة، أن يسير إلى شيراز، ويضبط أمورها ـ فقوي أمر عمران بعد ضعفه، وكان من أمره ما سيأتي في موضعه.

وممن توفي فيها من الأعيان

أبو جعفر

■ النحاس النحوي أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس: أبو جعفر المرادي المصري النحوي المعروف بالنحاس، اللغوي المفسر الأديب، له مصنفات كثيرة في التفسير وغيره، وقد سمع الحديث، ولقي أصحاب المبرّد.

وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ١/١٠٠]: لخمس خلون منها يوم السبت وكان سبب وفاته، أنه جلس عند المقياس، يقطّع شيئاً من العروض، فظنه بعض العامة يسحر النيّل لئلا يوفي، فرفسه برجله، فسقط فغرق، ولم يدر أين ذهب رحمه الله تعالى.

وكان قد أخذ النحو عن علي بن سليمان الأخفش، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي إسحاق الزجاج، ونفطويه، وغيرهم، وله مصنفات كثيرة، مفيدة منها «تفسير القرآن»، «والناسخ والمنسوخ»، وشرح أبيات سيبويه، ولم يُصنَّف مثله، و«شرح المعلقات»، و«الدواوين العشرة»، وغير ذلك، وروى الحديث عن النسائي، وكان بخيلاً جداً، وانتفع الناس به رحمه الله وفيها كانت:

وفاة الخليفة المستكفي بالله

■ عبد الله بن علي المكتفي بالله، وقد ولي الخلافة سنة وأربعة أشهر ويومين، ثم خلع، وسملت عيناه كما تقدم ذكره]. وكانت وفاته في هذه السنة، وهو معتقل في داره، وله من العمر ست وأربعون سنة وشهران.

■ علي بن حَمْشاء بن سَخْتويه بن نصر: أبو الحسن المعدَّل، محدِّث عصره بنيسابور، رحل إلى البلدان، وسمع الكثير، وحدّث، وصنّف مسنداً في أربعمائة جزء، وله غير ذلك مع شدة الإتقان والحفظ وكثرة العبادة، والصيانة، والخشية لله عز وجل.

قال بعضهم: صحبته في السفر، والحضر، فما أعلم، أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

وله تفسير في مائتي جزء ونيِّف، دخل الحمام من غير مرض، فتوُفّي فيه فجأة، وذلك يوم الجمعة الرابع عشر من شوال من هذه السنة رحمه الله.

■ علي بن محمد بن أحمد بن الحسن: أبو الحسن الواعظ البغدادي، ارتحل إلى مصر، فأقام بها حتى عرف بالمصري، ثم رجع إلى بغداد وقد سمع الكثير، وروى عنه الدارقطني، وغيره، وكان له مجلس وعظ، يحضر فيه الرجال والنساء، وكان يتكلم، وهو متبرقع لئلا يرى النساء حُسنه وجماله، وقد حضر وعظه أبو بكر النقاش، مستخفياً، فلما سمع كلامه، قام قائماً، وشهر نفسه وقال له: القصص بعدك حرام.

قال الخطيب [تاريخ بغداد ١٢/٧٦]: وكان ثقة أميناً عارفاً، جمع حديث الليث، وابن لهيعة، وله كتبٌ كثيرة في الزهد، وكانت وفاته في ذي القعدة منها، وله سبع وثمانون سنة.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة المباركة في ذي القعدة منها، رُدَّ الحجر الأسود المكي إلى مكانه، وكانت القرامطة قد أخذوه، في سنة سبع عشرة وثلاثمائة كما تقدم، وكان ملكهم إذ ذاك أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي، ولما وقع ذلك أعظم المسلمون ذلك، وقد بذل لهم الأمير بجكم التركي خمسين ألف دينار، ليردوه إلى موضعه، فلم يقبلوا، وقالوا: نحن أخذناه بأمر، ولا نرده إلا بأمر من أخذناه بأمره.

فلما كان في هذا العام، حملوه إلى الكوفة، وعلّقوه على الأسطوانة السابعة من جامعها، ليراه الناس، وكتب إخوة أبي طاهر كتاباً فيه: إنا أخذنا هذا الحجر، بأمر، وقد رددناه بأمرٍ من أمرنا بأخذه، ليتمّ حجّ الناس ومناسكهم ثم أرسلوه إلى مكة بغير شيء على قعود، فوصل في ذي القعدة من هذه السنة، ولله الحمد والمنة، وكان مدة مقامه عندهم ثنتين وعشرين سنة، ففرح المسلمون بذلك فرحا شديداً.

وقد ذكر غير واحد، أن القرامطة، حين أخذوه، حملوه على عدة جمال، فعطبت تحته، واعترى أسنمتها العَقْرُ، ولما ردّوه، حمله قعود واحد، ولم يصبه بأس ولله الحمد والمنة

وفيها دخل سيف الدولة بن حمدان، بجيش كثيف، نحو من ثلاثين ألفاً، إلى بلاد الروم، فوغل فيها، وفتح حصوناً، وقتل خلقاً، وأسر أمما وغنم شيئا كثيراً ثم رجع، فأخذت عليه الروم الدرب الذي يخرج منه، فقتلوا عامّة من معه، وأسروا بقيتهم، واستردوا ما كان أخذه، لهم ونجا سيف الدولة في نفر يسير من أصحابه فانا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها مات الوزير أبو جعفر الصيمري، فاستوزر معز الدولة مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي في جمادى الأولى. فاستفحل أمر عمران بن شاهين الصياد، وتفاقم الحال به، وبعث إليه معز الدولة جيشاً بعد جيش، يهزمهم مرة بعد مرة، ثم عدل معز الدولة إلى مصالحته، واستعماله له، على بعض تلك النواحي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن داود بن بابشاذ: أبو سعيد المصري قدم بغداد.** وكان من أفاضل الناس، وعلمائهم، بمذهب أبي حنيفة، مُفرط الذكاء، قوي الفهم، كتب الحديث، وكان ثقة.

مات ببغداد، في هذه السنة، ودفن بمقبرة الشونيزية، ولم يبلغ من العمر أربعين سنة.

■ **(القاهر بن المعتضد)**

محمد القاهر بالله أمير المؤمنين ابن المعتضد بالله، ولي الخلافة سنةً وستة أشهر وسبعة أيام، وكان بطّاشاً، سريع الانتقام فخاف منه وزيره أبو علي بن مقلة، فاستتر، وشرع في العمل عليه عند الأتراك فخلعوه، وسملوا عينيه وأودع دار الخلافة برهة من الدهر ثم أخرج في سنة ثلاث وثلاثين إلى دار ابن طاهر وقد نالته فاقة وحاجة شديدة، وسأل في بعض الأيام. ثم كانت وفاته في هذا العام، وله ثنتان وخمسون سنة، ودفن إلى جانب أبيه المعتضد.

■ **محمد بن عبد الله بن أحمد: أبو عبد الله الصفّار الأصبهاني،** محدّث عصره بخراسان، سمع الكثير، وحدث عن ابن أبي الدنيا ببعض كتبه، وكان مجاب الدعوة، ومكث لا يرفع رأسه إلى السماء نيفا وأربعين سنة.

وكان يقول: اسمي محمد واسم أبي عبد الله واسم أمي آمنة، يفرح بهذه الموافقة في الاسم واسم الأب والأم.

■ **أبو نصر الفارابي محمد بن محمد أبو نصر الفارابي التركي الفيلسوف،** وكان من أعلم الناس بالموسيقى، بحيث كان يتوسل بصناعته إلى التأثير في الحاضرين، من مستمعيه، إن شاء حرّك ما يبكي، أو يضحك، أو ما يُنوم.

وكان حاذقاً في الفلسفة، ومن كتبه تفقه ابن سينا.

وكان يقول بالمعاد الروحاني لا الجُثماني، ويُخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة، وله مذاهب في ذلك، يخالف المسلمين، والفلاسفة من سلفه الأقدمين، فعليه إن كان مات على ذلك لعنة رب العالمين.

بدمشق، فيما قاله ابن الأثير في «كامله»، ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه، لنتنه، وقباحته، فالله أعلم.

سنة أربعين وثلاثمائة

فيها قصد صاحبُ عُمان، البصرة ليأخذها، في مراكب كثيرة، وجاء لنصرة أبو يعقوب الهجري، فمانعه عنها الوزير أبو محمد المهلبي، وصدّه عنها، وأسر جماعةً من أصحابه، وسبى كثيراً من مراكبه، فساقها معه في دجلة، ودخل بها إلى بغداد، في أبهة عظيمة، ولله الحمد.

وفيها رُفع إلى الوزير أبي محمد المهلبي، رجل من أتباع أبي جعفر محمد بن علي بن أبي العزاقر، الذي كان قتل على الزندقة، كما قتل الحلاّج، وأن هذا الرجل يدعي ما كان يدّعيه ابن أبي العزاقر، وقد اتبعه جماعة من الجهلة ببغداد، وصدقوه في دعواه الربوبية، وأن أرواح الأنبياء، والصدّيقين، انتقلت إليهم ووجد في منزله، كتب تدل على ذلك.

فلما تحقق أنه هالك، ادّعى أنه شيعي، ليحظى عند معز الدولة بن بويه وقد كان يحب الرافضة قبّحه الله فلما اشتهر عنه ذلك، لم يتمكن الوزير منه، خوفا على نفسه من معز الدولة، وأن تقوم عليه الشيعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون غير أنه أحاط على شيء من أموالهم، فكان يسميها أموال الزنادقة.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٨٤/١٧]: وفي رمضان منها، وقعت فتنة عظيمة بسبب المذهب.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الحسن

■ **الكرخي: عبيد الله بن الحسين بن دلاّل بن دلهم أبو الحسن الكرخي** أحد أئمة الحنفية المشهورين، ولد سنة ستين ومائتين، وسكن بغداد، ودرس بها فقه أبي حنيفة، وانتهت إليه رئاسة أصحابه وانتشر أصحابه ببغداد، وكان متعبداً كثير الصلاة والصوم، صبوراً على الفقر، عزوفا عما في أيدي الناس، وكان مع ذلك رأساً في الاعتزال، وقد سمع الحديث من إسماعيل بن إسحاق القاضي، وروى عنه ابن حَيُّوَيه، وابن شاهين.

وأصابه الفالج في آخر عمره، فاجتمع عنده بعض أصحابه، واشتوروا فيما بينهم، أن يكتبوا إلى سيف الدولة بن حمدان، ليساعده بشيء يستعين به في مرضه، فلما علم بذلك، رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتني. فمات عقب ذلك، قبل أن يصل إليه ما أرسل به سيف الدولة، وهو عشرة آلاف درهم فتُصدِّق بها بعد وفاته، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، عن ثمانين سنة، وصلى عليه أبو تمام الحسن بن محمد الزينبي، وكان صاحبه ودفن في درب أبي زيد على نهر الواسطيين.

■ **محمد بن صالح بن زيد أبو جعفر الورّاق** سمع الكثير، وكان يفهم، ويحفظ وكان ثقة زاهداً، لا يأكل إلا من كسب يده، ولا يقطع صلاة الليل. وقال بعضهم: صحبته سنين كثيرة، فما رأيته فعل ما لا يرضي الله عز وجل. ولا قال إلا ما يُسأل عنه، وكان يقوم أكثر الليل.

وفيها كانت وفاة

■ **منصور بن قراتكين،** صاحب الجيوش الخراسانية، من جهة الأمير نوح الساماني، وكانت وفاته لمرض حصل له، وقيل: لأنه أدمن شرب الخمر، أياماً متتابعة فهلك بسبب ذلك، فأقيم بعده في الجيوش أبو علي بن محتاج

■ **الزجاجي مصنف «الجمل» وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق النحوي، البغدادي الأصل. ثم الدمشقي،** مصنف «الجمل» في النحو، وهو كتاب نافع، كثير الفائدة، صنّفه بمكة، وكان يطوف بعد كل باب منه، ويدعو الله تعالى، أن ينفع به.

اخذ النحو أولاً عن محمد بن العباس اليزيدي، وأبي بكر بن دريد، وابن الأنباري.

وكانت وفاته في رجب سنة سبع، وقيل: سنة تسع وثلاثين، وقيل: سنة أربعين، توفي في دمشق، وقيل بطبرية. وقد شُرحت «الجمل»، بشروح كثيرة، من أحسنها، وأجمعها، ما وضعه ابن عصفور، والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة

فيها ملكت الروم سَرُوج، وقتلوا أهلها، وخرّبوا مساجدها.

قال ابن الأثير [الكامل ٨/٤٩٦]: وفيها قصد موسى صاحب عمان البصرة، فمنعه منها المهلبي، كما تقدم.

قال [الكامل ٨/٤٩٩]: وفيها نقم معز الدولة على وزيره، فضربه مائة وخمسين مقرعة، ولم يعزله، بل رسم عليه.

وفيها اختصم المصريون، والعراقيون، بمكة، فخُطب لصاحب مصر، ثم غلبهم العراقيون، فخطبوا لركن الدولة بن بويه.

وفيها كانت وفاة، المنصور الفاطمي: وهو أبو طاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم بن محمد بن عبيد الله المهدي صاحب المغرب وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته سبع سنين وستة عشر يوماً، وكان عاقلاً شجاعاً، فاتكاً، قهر أبا يزيد الخارجي،الذي كان لا يطاق شجاعة، وإقداماً، وصبراً، وكان فصيحاً بليغاً، يرتجل الخطبة على البديهة في الساعة الراهنة.

وكان سبب موته، ضعف الحرارة الغريزية، كما أورده ابن الأثير في «كامله»، فاختلف عليه الأطباء، وقد عهد بالأمر من بعده لولده المعز الفاطمي، وهو باني القاهرة المعزية، كما سيأتي بيان ذلك، واسمه مَعَدٌّ، وكان عمره إذ ذاك، أربعاً وعشرين سنة، وكان شجاعاً عاقلاً، أيضاً حازم الرأي، أطاعه من البربر، وأهل تلك الناحية، خلقٌ كثير، وبعث مولاه جوهراً القائد، فبنى له القاهرة، المتاخمة لمصر، واتخذ له فيها دار الملك، وهما القصران اللذان هنالك ـ وذلك في سنة أربع وستين وثلاثمائة كما سيأتي بيانه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن زياد: بن بشر بن درهم أبو سعيد بن الأعرابي البصري، سكن مكة، وصار شيخ الحرم، وصحب الجنيد بن محمد، والنوري، وغيرهما، وأسند الحديث، وصنّف كتباً للصوفية.

■ إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح: أبو علي الصفار النحوي، أحد المحدثين، لقي المبرد، واشتهر بصحبته، وكان مولده في سنة سبع وأربعين ومائتين، وسمع الحسن بن عرفة، وعباساً الدوري، وغيرهما، وروى عنه جماعة منهم الدارقطني.

وقال: صام أربعة وثمانين رمضانا، وقد كانت وفاته، في هذه السنة، عن أربع وتسعين سنة، رحمه الله تعالى.

■ إسماعيل بن القائم بن المهدي الملقب بالمنصور العُبيدي الذي يزعم أنه فاطمي، صاحب بلاد المغرب.

وهو والد المعزّ باني القاهرة، وهو باني المنصورية، بالمغرب.

كان شجاعاً فصيحاً بليغاً قال أبو جعفر المرْوَرُّذيّ: خرجت معه، لما كسر أبا يزيد الخارجي، فبينما أنا أسير معه، إذ سقط رمحه، فنزلت فناولته إياه، وذهبت أفاكهه، بقول الشاعر:

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النوى كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المسافِرُ

فقال: هلا قلت كما قال الله تعالى:﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف ١١٧ ـ ١١٩] قال: فقلت له: أنت ابن بنت رسول الله ﷺ، قلت كما علمْتَ، وأنا قلت كما بلغ إليه علمي.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ١/٢٣٤، ٢٣٥]: وهذا كما جرى لعبد الملك بن مروان، حين أمر الحجاج أن يبني باباً ببيت المقدس ويكتب عليه اسمه فبنى له بابا وبني لنفسه باباً آخر فوقعت صاعقةٌ على باب عبد الملك، فأحرقته، فكتب إليه الحجاج من العراق، يسليه عما أهمّه من ذلك، يقول:يا أمير المؤمنين ما أنا وأنت، إلا كما قال الله تعالى:﴿واتلُ عَلَيهِم نَبَأَ ابْنَي آدَمَ بالحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة ٢٧] فسرِّي عن الخليفة كانت وفاة المنصور هذا في هذه السنة لما أصابه برد شديد، فمات به.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة

فيها دخل سيف الدولة بن حمدان، صاحب حلب، إلى بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر آخرين، وغنم أموالا جزيلة، ورجع سالماً غانماً.

وفيها اختلف الحجيج بمكة، ووقعت حرب بين أصحاب ابن طغج، وأصحاب معز الدولة، فغلبهم العراقيون، وخطبوا لمعز الدولة، ثم بعد انقضاء الحج، اختلفوا فغلبهم العراقيون أيضاً، وجرت حروب كثيرة وخطوب كبيرة بين الخراسانية والسامانية، تقصى ذكرها ابن الأثير في «كامله» والله تعالى أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ علي بن محمد بن أبي الفهم: أبو القاسم التنوخي، جدّ القاضي أبي القاسم التنوخي، شيخ الخطيب، ولد بأنطاكية، وقدم بغداد، فتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، وكان يعرف الكلام على طريقة المعتزلة، ويعرف النجوم، ويقول الشعر، ولي القضاء بالأهواز، وغيرها، وقد سمع الحديث من البغوي، وغيره، وكان فَهِماً، ذكياً، حفظ وهو ابن خمس عشر سنة، قصيدة لدعْبل الشاعر، في ليلة واحدة وهي ستمائة بيت، وعرضها على أبيه، صبيحتها، فقام إليه، وضمه، وقبّل بين عينيه، وقال: يا بنيَّ، لا تُخبر بهذا أحداً، لئلا تصيبك العين.

وذكر ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣/٣٦٦، ٣٦٧] أنه كان نديماً للوزير المهلبي، ووفد على سيف الدولة بن حمدان، فأكرمه، وأحسن إليه، وأورد له من شعره أشياء حسنة فمن ذلك قوله في الخمر:

وراحٍ مِن الشمسِ مَخْلُوقَةٌ بَدَتْ لك في قَدَحٍ مِن نَهَارِ
هواءٌ ولكنهُ جامدٌ وماءٌ ولَكِنّه غَيرُ جَارِ
كأنَّ المديرَ لهُ باليمين إذا مالَ للسقي أو باليسار
تدرَّعَ ثوباً من الياسَمين لهُ فردُ كُمٍّ من الجُلّنارِ

■ محمد بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن عبد الخالق أبو الفرج البغدادي الفقيه الشافعي، يعرف بابن سُكّرة، سكن مصر، وحدث بها، وسمع منه أبو الفتح بن مسرور، وذكر أن فيه ليناً.

■ محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون بن الرشيد هارون أبو بكر، ولي إمره مكة، في سنة ثمان وستين ومائتين، وقدم مصر، فحدّث بها، عن علي بن عبد العزيز البغوي، بموطأ مالك. وكان ثقة مأمونا، توفي بمصر، في ذي الحجة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت وقعة بين سيف الدولة بن حمدان، وبين الدمستق، فقتل خلقاً من أصحاب الدمستق، وأسر جماعة من رؤساء بطارقته ولله الحمد، وكان في جملة من قتل، قُسطنطين بن الدمستق، وسبى خلقاً كثيراً وأسر آخرين، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة، ثم جمع الدمستق خلقاً كثيرا، فالتقوا مع سيف الدولة، في شعبان، فجرت بينهم حروب عظيمة، وقتال شديد، فكانت الدائرة للمسلمين، وخذل الله الكافرين، فقُتل منهم خلقٌ كثير، وأُسر جماعة من الرؤوس، وكان منهم صهر الدمستق، وابن بنته أيضاً.

وفيها حصل للناس أمراض كثيرة، وحميات، وأوجاع في الحلق.

وفيها مات: الأمير الحميد بن نوح بن نصر الساماني، صاحب خراسان، وما وراء النهر، وقام بالأمر من بعده ولده عبد الملك.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن أحمد**: أبو علي الكاتب المصري، صحب أبا علي الروذباري وغيره، وكان أبو عثمان المغربي، يعظم أمره، ويقول: أبو علي الكاتب، من السالكين.

ومن كلامه الذي حكاه عنه أبو عبد الرحمن السلمي قوله: روائح نسيم المحبة، تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتبدو عليهم وإن ستروها، وأنشد:

إذا ما أسرَّت أنفسُ الناسِ ذكرهُ ... تبيَّنه فيهمْ ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهمْ فيذيعُها ... وهلْ سِرُّ مِسْكٍ أودِعَ الريحَ يكتمُ؟

■ **علي بن محمد بن محمد بن عقبة بن همام: أبو الحسن الشيباني الكوفي**، قدم بغداد، فحدث بها عن جماعة، وروى عنه الدارقطني. وكان ثقة عدلاً، كثير التلاوة، فقيهاً، مكث يشهد على الحُكّام ثلاثاً وسبعين سنة، مقبولا عندهم، وأذن في مسجد حمزة الزيات، نيفاً وسبعين سنة، وكذلك أبوه من قبله.

■ **محمد بن علي بن أحمد أبو العباس الكرخي الأديب**، كان عالماً زاهداً ورعاً، يختم القرآن كل يوم، ويديم الصيام، سمع الحديث من عبدان وأقرانه.

■ **أبو الخير التيناتيّ**: العابد الزاهد، أصله من المغرب، وكان مقيماً بقرية يقال لها تينات، من عمل أنطاكية، ويعرف بالأقطع لأنه كان مقطوع اليد، كان قد عاهد الله عهداً، ثم نكثه، فاتفق أن مُسك جماعة من اللصوص في الصحراء، وهو هناك فأخذ معهم، فقطعت يده معهم، وكانت له أحوال، وكرامات، وكان ينسج الخوص بيده الواحدة. ودخل عليه بعضهم، فشاهد منه ذلك، فأخذ عليه العهد، أن لا يخبر به أحداً، ما دام حياً، فوفّى له بذلك.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٩٨]: فيها شمل الناس ببغداد، وواسط، وأصبهان، والأهواز داء مركّب من دم، وصفراء ووباء، مات بسبب ذلك خلق كثير بحيث كان يموت في كل يوم، قريب من ألف نفس، وجاء فيها جراد عظيم، أكل الخضروات، والأشجار، والثمار.

وفي المحرم عقد مُعزّ الدولة لابنه أبي منصور بختيار الأمر من بعده بإمرة الأمراء.

وفيها خرج رجل من بأذربيجان، ادّعى أنه يعلم الغيب، وكان يحرم اللحم، وما يخرج من الحيوانات، فأضافه مرة رجل، فجاءه بطعام كَشْكيّة بشحمٍ، فأكله، فقال له الرجل بحضرة من معه: إنك تدعي أنك تعلم الغيب، وهذا الطعام فيه شحم، وأنت تحرمه، فلم لا علمته؟ قال: فتفرق الناس عنه.

وفيها جرت حروب كثيرة، بين المعز الفاطمي، وبين صاحب الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي، استقصاها ابن الأثير.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عثمان بن أحمد بن عبد الله بن يزيد أبو عمرو الدقّاق**، المعروف بابن السمّاك، روى عن حنبل بن إسحاق وغيره، وعنه الدارقطني، وغيره، وكان ثقة ثبتا، كتب المصنفات الكثيرة بخطه، توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بمقبرة باب التبن، وحضر جنازته خمسون ألفاً.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد: أبو جعفر القاضي السِّمَناني**، وُلد سنة إحدى وستين ومائتين، وسكن بغداد، وحدّث بها، وكان ثقة، عالماً سخياً، حسن الكلام، عِراقيّ المذهب، وكانت داره مجمعاً للعلماء، ثم ولي قضاء الموصل، وتوفي بها في هذه السنة في ربيع الأول منها.

■ **محمد بن أحمد بن بُطّة بن إسحاق الأصبهاني: أبو عبد الله** سكن نيسابور ثم عاد إلى أصبهان وليس هذا بأبي عبد الله بن بطة العُكبري وهذا بضم الباء من بطة الفقيه الحنبلي بفتحها وقد كان جدُّ هذا، وهو بطة بن إسحاق أبو سعيد، من المحدثين أيضاً، ذكره ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ١٤/١٠٠].

■ **محمد بن محمد بن يوسف بن الحجاج: أبو النضر الفقيه الطوسي**، كان فقيهاً عالماً ثقة عابداً. يصوم النهار، ويقوم الليل، ويتصدق بالفاضل من قوته، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وقد رحل في طلب الحديث إلى الأقاليم النائية، والبلدان المتباينة، وكان قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء، فثلثٌ للنوم، وثلثٌ للتصنيف، وثلثٌ للقراءة.

وقد رآه بعضهم في المنام، بعد وفاته، فقال له: وصلت إلى ما طلبته؟ فقال: إي والله، نحن عند رسول الله ﷺ، وقد عرضت مصنفاتي في الحديث عليه، فقبلها.

أبو بكر بن الحداد: الفقيه الشافعي، هو

■ **محمد بن أحمد بن محمد أبو بكر بن الحداد**، أحد أئمة الشافعية، روى عن النسائي، وقال: رضيتُ به حجةً بيني وبين الله عز وجل.

وقد كان ابن الحداد فقيهاً فُروعياً، ومُحدِّثاً، ونحوياً، وفصيحاً في العبارة، دقيق النظر في الفروع، له كتاب في ذلك، غريبُ الشكل، وقد ولي القضاء بمصر، نيابة عن أبي عبيد بن حَرْبَوَيْه. وذكرناه في «طبقات الشافعية».

أبو يعقوب الأذرعي

■ **إسحاق بن إبراهيم بن هاشم بن يعقوب بن إبراهيم النهدي**، قال ابن عساكر: من أهل أذرعات، مدينة بالبلقاء، أحد الثقات، من عباد الله

الصالحين. رحل، وحدّث عن جماعة، وعنه آخرون.

وقال غيره: كان من أجلة أهل دمشق، وعُبَّادها، وعلمائها.

وقد روى عنه ابن عساكر أشياء تدلّ على صلاحه، وخرق العادة له، فمن ذلك أنه قال: إني سألت الله أن يقبض بصري، فعميت، فلما استضررت بالطهارة، سألتُ اللّه عوده، فردّه علي. توفي بدمشق في هذه السنة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وصححه ابن عساكر، وقد نيّف على التسعين.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة

فيها عصى الروزبهان على معز الدولة، وانحاز إلى الأهواز، ولحق به عامة من كان مع المهلبي، الذي كان يحاربه، فلما بلغ ذلك معز الدولة، لم يصدق؛ لأنه كان قد أحسن إليه، ورفع من قَدْره، بعد الضعة والخمول، ثم ركب إليه لقتاله، فاتبعه الخليفة المطيع للّه، خوفاً من ناصر الدولة بن حمدان، فإنه بلغه، أنه قد جهّز جيشاً مع ولده، أبي المرجّى جابر إلى بغداد ليأخذها حين بلغه أن معز الدولة قد خرج منها، فأرسل معز الدولة، حاجبَه، سُبُكْتِكين إلى بغداد، ليحفظها وقصد معز الدولة إلى الروزبهان فاقتتلوا قتالاً عظيماً فهزمه معز الدولة، وفرق أصحابه، وأخذه أسيراً إلى بغداد في أبهة عظيمة فسجنه، ثم أخرجه ليلاً، وغرقه؛ لأن الديلم أرادوا إخراجه من السجن قهرا. وانطوى ذكر روزبهان وإخوته، وكان قد اشتعل اشتعال النار وحظيت الأتراك عند معز الدولة، وانحطّت الديلم عنده، لأنه ظهر له خيانتهم في أمر الروزبهان وإخوته.

وفيها دخل سيف الدولة إلى بلاد الروم، فقتل، وسبى ورجع إلى أذنة، ثم عاد إلى حلب، فحميت الروم، فجمعوا، وأقبلوا إلى ميّافارقين، فقتلوا وسبوا، وحرّقوا ورجعوا، وركبوا في البحر إلى طرسوس، فقتلوا من أهلها ألفاً وثمانمائة، وسبوا، وحرّقوا قرىً كثيرة.

وفيها زُلزلت همذان زلزالاً عظيماً، انهدمت البيوت، وانشق قصر شيرين بصاعقة، ومات تحت الهدم خلق كثير لا يُحصَوْن كثرة، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

ووقعت فتنة عظيمة بين أهل أصبهان وأهل قم، بسبب سبّ الصحابة من أهل قم فثار عليهم أهل أصبهان، فقتلوا منهم خلقا كثيراً، ونهبوا أموال التجار، فغضب ركن الدولة لأهل قم، لأنه كان شيعياً، فصادر أهل أصبهان بأموال كثيرة واللّه تعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ غلام ثعلب: محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم أبو عمر الزاهد غلام ثعلب، روى عن الكديمي وموسى بن سهل الوشاء، وغيرهما، وروى عنه جماعة، وآخر من حدث عنه أبو علي بن شاذان.

وكان كثير العلم والزهد، حافظاً، مُطيِّقاً، يُملي من حفظه شيئا كثيراً، ضابطاً لما يحفظه.

ولكثرة إغرابه، اتهمه بعضهم، ورماه بالكذب، وقد اتفق له مع القاضي أبي عمر وكان يؤدب ولده ـ أنه أملى من حفظه ثلاثين مسألة، بشواهدها، وأدلتها، من لغة العرب، واستشهد على بعضها ببيتين غريبين جداً، فعرضهما القاضي أبو عمر على ابن دريد وابن الأنباري، وابن مقسم، فلم يعرفوا منها شيئاً. حتى قال ابن دريد: هذا ما وضعه أبو عمر من عنده، فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضي، ما قاله ابن دريد عنه، فطلب أبو عمر من القاضي أن يحضر له من كتبه دواوين العرب فلم يزل يأتيه بشاهد لما ذكره بعد شاهد، حتى خرج من الثلاثين مسألة، ثم قال: وأما البيتان، فإن ثعلباً أنشدناهما، وأنت حاضر، فكتبتهما في دفترك، فطلب القاضي دفتره، فإذا هما فيه، فلما بلغ ذلك ابن دُرَيد، كفّ لسانه عن أبي عُمَر الزاهد، فلم يذكره حتى مات.

وتوفي أبو عمرو هذا، يوم الأحد، ودفن يوم الاثنين، الثالث عشر من ذي القعدة، ودفن في الصُّفَّة المقابلة لقبر معروف الكرخي، ببغداد، رحمه اللّه.

■ محمد بن علي بن أحمد بن رستم: أبو بكر المادرائي الكاتب، كان مولده في سنة سبع وخمسين ومائتين بالعراق، ثم صار إلى مصر، هو وأخوه أحمد مع أبيهما، وكان على الخراج لخمارويه بن أحمد بن طولون، ثم صار هذا الرجل من رؤساء الناس، وأكابرهم، وقد سمع الحديث من أحمد بن عبد الجبار وطبقته.

وقد روى الخطيب [تاريخ بغداد ٣/٨٠، ٨١] عنه أنه قال: كان ببابي شيخ كبير من الكُتاب، قد بطَل عن وظيفته، فرأيت والدي في المنام، وهو يقول: يابُني، أما تتقي اللّه؟ أنت مشغول بلذاتك، والناس ببابك، يهلكون من العري والجوع، هذا فلان قد تقطّع سراويله، ولا يقدر على إبداله، فلا تهمل أمره. فاستيقظت مذعوراً، وأنا ناو له الإحسان،فنمت ثم استيقظت وقد أُنسيت المنام، فبينا أنا أسير إلى دار الملك، إذا بذلك الشيخ على دابة ضعيفة، فلما رآني، أراد أن يترجّل، فبدا لي فخذه وقد لَبس الخفّ بلا سراويل، فلما رأيته، ذكرت المنام، فاستدعى به عند ذلك وأطلق له ألف دينار، وثياباً، ورتب له على وظيفته، مائتي دينار كل شهر، ووعده بخير في الأجل أيضاً.

■ أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طَبَاطَبَا بن إسماعيل ابن إبراهيم بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، الشريف الحسني الرَّسِّيُّ ـ قبيلة من الأشراف ـ أبو القاسم المصري الشاعرـ كان نقيب الطالبيين بمصر.

ومن شعره قوله:

قالت لطيفِ خيالٍ زارَني ومَضَى ... باللّهِ صِفْهُ ولا تَنْقُصْ ولا تَزِدِ

فقال أبصرتُهُ لو مَاتَ مِن ظَمَأٍ ... وقُلْتِ: قِفْ لا تَرِدْ للماءِ لم يَرِدِ

قالت صَدَقْتَ وفاءُ الحبِّ عَادَتُهُ ... يا بَرْدَ ذَاكَ الذي قَالَت عَلَى كَبِدِي

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ١/١٣٠]: توفي ليلة الثلاثاء لخمس بقين ـ من شعبان ـ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت فتنة بين أهل الكرخ، وأهل السُّنة، في المذهب بسبب السبّ، فقُتل من الفريقين خلق كثير.

وفيها نقص البحر ثمانين ذراعا، ويقال: باعاً فبدت به جبال، وجزائر، لم تكن تُرى قبل ذلك.

وفيها كان بالعراق وبلاد الري والجبل وقم، ونحوها زلازل كثيرة، مستمرة نحو أربعين يوماً، تسكن، ثم تعود، فتهدمت بسبب ذلك أبنية كثيرة، وغارت مياه كثيرة، ومات خلقٌ كثير فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفيها تجهّز معز الدولة بن بويه، لقتال ناصر الدولة بن حمدان، الذي بالموصل، فراسله ناصر الدولة، والتزم له بأموال، يحملها إليه كل سنة، ثم إنه منع حَمْل ما اشترط على نفسه،فقصده معز الدولة في السنة الآتية، كما سيأتي. وفيها في تشرين منها، كثُرت في الناس أوجاع، في الحلق، والماشَرَا وكثر فيهم موت الفجأة، حتى إن لصاً، نقب داراً، ليدخلها، فمات وهو في النقب، ولبس القاضي خلعة القضاء، ليخرج للحكم بين الناس فلبس إحدى خفيه، فمات قبل أن يلبس الأخرى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن عبد الله بن الحسن**، أبو هريرة العَدَوِيّ، المستملي على المشايخ، كتب عن أبي مسلم الكَجّي، وغيره، وكان ثقة، توفي في ربيع الآخر منها.

■ **الحسن بن خلف بن شاذان: أبو علي الواسطي** روى عن إسحاق الأزرق، ويزيد بن هارون، وغيرهما، وروى عنه البخاري في «صحيحه»، توفي في هذه السنة. هكذا رأيت هذه الترجمة في هذه السنة من «المنتظم» لأبي الفرج بن الجوزي، والله أعلم.

أبو العباس الأصم:

■ **محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان بن عبد الله الأموي مولاهم أبو العباس الأصم**، مولده في سنة سبع وأربعين ومائتين، ورأى الذهلي، ولم يسمع منه، ورحل به أبوه إلى أصبهان ومكة ومصر والشام والجزيرة وبغداد، وغيرها من البلاد، فسمع الكثير عن الجم الغفير، ثم رجع إلى خراسان، وهو ابن ثلاثين سنة، وقد صار محدِّثاً كبيراً، ثم طرأ عليه الصمم، واستحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار، وكان مؤذنا في مسجده سبعين سنة، وحدّث ستاً وسبعين سنة، فألحق الأحفاد بالأجداد، وكان ثقةً صادقاً ضابطاً، لما سمعه ويسمعه ثم كُفَّ بصره قبل موته بشهر، وكان يحدث من حفظه، بأربعة عشر حديثا، وسبع حكايات ومات، وقد بقي له سنة من المائة.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت زلزلة ببغداد، في شهر نيسان، وفي غيرها من البلاد الشرقية، فمات بسببها خلق كثير، وخربت دور كثيرة، وظهر في آخر نيسان، وشهر آيار جرادٌ كثيرٌ، أتلف الغلات الصيفية، والثمار. ودخلت الروم آمد، وميافارقين، فقتلوا ألفاً وخمسمائة إنسان، وأخذوا مدينة سُمَيْساط، وأخربوها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي المحرم منها، ركب معز الدولة إلى الموصل، فأخذها من يد ناصر الدولة، وهرب ناصر الدولة إلى نصيبين، ثم إلى ميّافارقين، ثم لحقه معز الدولة، فصار، إلى أخيه سيف الدولة بحلب، ثم راسل سيف الدولة حَمْل، كل سنة ألفي ألف وتسعمائة ألف، ورجع معز الدولة إلى بغداد، بعد انعقاد الصلح.

وفيها بعث المعز الفاطمي، مولاه أبا الحسن جوهراً القائد، في جيوش، ومعه زيري بن مَنادٍ الصنهاجي، ففتحوا بلاداً كثيرة، من أقصى المغرب، حتى انتهوا إلى البحر المحيط، فأمر جوهر بأن يُصطاد له منه سمك، فأرسل به في قلال الماء، إلى المعز الفاطمي، وحظي جوهر عنده، وعظُم شأنه، حتى صار له بمنزلة الوزير.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **الزبير بن عبد الواحد بن محمد بن زكريا بن صالح بن إبراهيم أبو عبد الله الأسداباذيّ**، رحل وسمع الحديث، وطوف الأقاليم، سمع الحسن بن سفيان، وابن خزيمة وأبا يعلى وخلقاً، وكان حافظاً مُتقناً صدوقاً صنف الشروح، والأبواب.

أبو سعيد

■ **ابن يونس: صاحب «تاريخ مصر»: هو عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري المؤرخ**، كان حافظاً، مُكثراً، خبيراً بأيام الناس، وتواريخهم، له تاريخ مفيد جداً لأهل مصر، ومن ورَد إليها.

وله ولد يقال له: أبو الحسن علي، كان مُنجماً، له زيجٌ مفيد، يرجع إليه أصحاب هذا الفن، كما يرجع المحدِّثون إلى أقوال أبيه، وما يؤرخه، وينقله، ويحكيه، وُلد سنة إحدى وثمانين ومائتين، وتوفي في هذه السنة يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة، في القاهرة. رحمه الله تعالى.

■ **ابن دَرَسْتَوَيْه النحوي: عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَوَيْه** ابن المَرْزُبان أبو محمد الفارسي النحوي، سكن بغداد، وسمع عباسا الدوري، وابن قتيبة، والمبرد، وسمع منه الدارقطني، وغيره من الحفاظ، وأثنى عليه غير واحد، منهم أبو عبد الله بن منده، وكانت وفاته في صفر من هذه السنة، وذكر له القاضي ابن خلكان، مصنفات كثيرة مفيدة، فيما يتعلق باللغة، والنحو، وغير ذلك

■ **محمد بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك ابن أبي الشوارب، أبو الحسن القرشي الأموي** قاضي بغداد، كان حسن الأخلاق، طلاّبةً للحديث، ومع هذا نُسب إلى أخذ الرِّشْوة في الأحكام، والولايات والله تعالى أعلم بالصواب.

■ **محمد بن علي: أبو عبد الله الهاشمي الخاطب الدمشقي** وأظنه الذي تنسب إليه حارة الخاطب، من نواحي باب الصغير،كان خطيب دمشق في أيام الإخشيد، وكان شاباً حسن الوجه، مليح الشكل، كامل الخَلْق.

توفي يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأول، من هذه السنة، وحضر جنازته نائب السُّلْطنة، وخلقٌ كثير، لا يُحْصَون كثرة، هكذا أرّخه ابن عساكر، ودفن بباب الصغير.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت فتنة بين الرافضة، وأهل السنة، قتل فيها خلقٌ كثير، ووقع حريق بباب الطاق، وغرق في دجلة خلق كثير، من الحجاج من أهل الموصل، نحوٌ من ستمائة نفس،فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها دخلت الروم طرسوس والرها فقتلوا وسبوا، وغنموا ورجعوا سالمين لعنهم الله.

وفيها قلّت الأمطار، وغلت الأسعار واستسقى الناس، فلم يسقوا، وظهر جراد عظيم، في آذار، فأكل كل ما نَبت من الخضروات، فاشتدّ الأمر جداً، فما شاء الله كان، ومالم يشأ، لم يكن.

وفيها عاد معز الدولة إلى بغداد، من الموصل، وزوج ابنته من ابن أخيه مؤيِّد الدولة بن معز الدولة، وسيرها معه إلى الري.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن شيبان القرميسينيّ ابو اسحاق القرميكيني: شيخ الصوفية بالجبل، صحب أبا عبد اللّه المغربي. ومن جيد كلامه قوله: إذا سكن الخوفُ القلب، أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد عنه الرغبة في الدنيا.

أبو بكر

■ النجّاد: أحمد بن سلمان بن الحسن بن إسرائيل ابن يونس، أبو بكر النجّاد الفقيه، أحد أئمة الحنابلة، وُلد سنة ثلاث وخمسين ومائتين، سمع عبد اللّه بن أحمد، وأبا داود، والباغندي، وابن أبي الدنيا، وخلقاً كثيراً، وكان يطلب الحديث ماشياً حافياً، وقد جمع المسند، وصنّف في السنن كتاباً كبيراً، وكان له بجامع المنصور حلقتان، واحدة للفقه، وأخرى لإملاء الحديث.

وحدث عنه الدارقطني، وابن رَزْقَوَيْه، وابن شاهين، وأبو بكر بن مالك القطيعي، وغيرهم، وكان يصوم الدهر، ويفطر كل ليلة على رغيف، ويعزل منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة، أكل تلك اللقم، وتصدّق برغيف ليلة الجمعة.

وكانت وفاته ليلة الجمعة، لعشر بقين من ذي الحجة، عن خمس وتسعين سنة، ودفن قريباً من قبر بشر بن الحارث الحافي، رحمه اللّه.

■ جعفر بن محمد بن نصير بن القاسم: أبو محمد الخواص، المعروف بالخُلديّ، سمع الكثير، وحدث كثيراً، وحجّ ستين حجة، وكان ثقةً صدوقاً ديناً.

■ محمد بن إبراهيم بن يوسف بن محمد: أبو عمرو الزجّاجيّ النيسابوري، صحب أبا عثمان، والجنيد، والنوري، والخواص، وغيرهم، وأقام بمكة، وكان شيخ الصوفية بها، وحج ستين حجة، ويقال: إنه مكث أربعين سنة، لم يتغوط، ولم يبل، إلا خارج الحرم بالكلّيّة.

■ محمد بن جعفر بن محمد بن فَضالة بن يزيد بن عبد الملك أبو بكر الأدمي، صاحب الألحان، وكان من أحسن الناس صوتاً الصوت بتلاوة القرآن، وربما سمع أهل كلواذا صوته من بغداد في الليل.

وحجّ مرةً مع أبي القاسم البغوي، فلما كانوا بالمدينة، رأوا شيخاً أعمى، يقصُّ على الناس أخباراً موضوعة، فقال البغوي: ينبغي الإنكار عليه، فقال له بعض الجماعة: إنك لست ببغداد، يعرفك الناس، والجمع كثيرٌ ههنا، ولكن نرى أن تأمر أبا بكر الأدمي، فيقرأ لنا، فاستفتح، فقرأ، فانجفل الناس إليه وتركوا الأعمى فلم يبق عنده أحد، فأخذ الأعمى بيد قائده، وقال له: اذهب بي، هكذا تزول النعم.

وكانت وفاته يوم الأربعاء، لليلتين بقيتا من ربيع الأول، من هذه السنة، عن ثمان وثمانين سنة.

وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته بمدة فقال له: ما فعل بك ربُّك؟ فقال: أوقفني بين يديه، وقاسيت شدائد، فقلت له: فتلك الليالي والمواقف والقراءة فقال: ما كان شيءٌ أضرُّ عليَّ منها، لأنها كانت للدنيا فقلت: فإلى أي شيء انتهى أمرك؟ فقال: قال لي اللّه عز وجل: آليت على نفسي، أن لا أعذب أبناء الثمانين.

أبو محمد

■ عبد اللّه بن احمد بن علي بن الحسن بن ابراهيم طَبَاطَبَا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي المصري، كان من ساداتها، وكبرائها، وأجوادها لا تزال الحلواء تعقد بداره، ولا يزال رجل يكسر اللوز بسببها كل يوم ببابه، وللناس عليه رواتب من الحلواء، فمنهم من يُهدي إليه كل يوم، ومنهم في الجمعة، وفي الشهر. وكان لكافور الإخشيدي في كل يوم جامان، ورغيف من الحُوَّارَى، ولما قدم المعز الفاطمي إلى القاهرة، تلقاه، وسأله: إلى من يتتسب مولانا من أهل البيت؟ فقال: الجواب إلى أهل البلد. فلما دخل القصر، جمع الأشراف، وسَل نصف سيفه، وقال: هذا نسبي. ثم نثر عليهم الذهب، وقال: هذا حسبي فقالوا: سمعنا واطعنا، والصحيح أن القائل للمعز هذا الكلام ابن هذا أو شريف آخر، واللّه أعلم. فإن وفاة هذا، كانت في هذا العام، عن ثنتين وستين سنة، والمعز إنما قدم مصر في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة كما سيأتي.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة

فيها ظهر رجل بأذربيجان من اولاد عيسى بن المكتفي باللّه، فتلقّب بالمُسْتَجير باللّه، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وذلك لفساد دولة المرزبان في ذلك الزمان، فاقتتلوا قتالاً كثيراً، ثم انهزم أصحاب المستجير، وأُخذ أسيراً فمات واضمحل أمره و لله الحمد.

وفيها دخل سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وفتح حصونا، وأحرق بلاداً كثيرة، وسبى، وغنم، وكَرَّ راجعاً، فأخذت عليه الروم الدرب، فمنعوه من الرجوع، ووضعوا السيف في أصحابه، فما نجا في ثلاثمائة فارس، إلا بعد جهد جهيد.

وفيها كانت فتنة عظيمة، ببغداد، بين الرافضة، السُّنة، قُتل فيها خلق كثير.

وفيها في آخرها توفي أَنُوجور بن الإخشيد صاحب مصر، وقام بالأمر بعده أخوه علي.

وفيها مات أبو القاسم عبد اللّه بن أبي عبد اللّه البريدي، الذي كان صاحب الأهواز وواسط.

وفيها رجع حجيج مصر من مكة، فنزلوا وادياً، فجاءهم سيلٌ، فأخذهم كلهم، فألقاهم في البحر عن آخرهم.

وفيها أسلم من الترك مائتا ألف خركاه، فسُمّوا ترك إيمان، ثم خفف اللفظ بذلك، فقيل: تُرْكُمان:

ومن توفي فيها من الأعيان

■ جعفر بن حرب الكاتب، كانت له نعمة، وثروة عظيمة، تقارب أُبهة الوزارة، فاجتاز يوماً، وهو راكب في موكب له عظيم، فسمع رجلا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهمْ لِذِكْرِ اللّه وما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] فصاح:اللّهم بلى. وكرَّرها دفعات، ثم بكى، ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه ودخل إلى دجلة فاستتر بالماء،ولم يخرج منه حتى فرق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه،وردُّها إلى أهلها، وتصدق بالباقي،ولم يبق له شيء بالكلية،فاجتاز به رجل، فتصدق عليه بثوبين، فلبسهما، وخرج فانقطع إلى العلم، والعبادة، حتى مات رحمه اللّه.

أبو علي الحافظ:

■ الحسين بن علي بن يزيد بن داود أبو علي الحافظ النيسابوري، أحد أئمة الحفاظ المتقنين المكثرين المصنفين.

قال الدارقطني: كان إماماً مهذباً.

وكان ابن عُقْدة لا يتواضع لأحدٍ، كتواضعه له، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة عن ثنتين وسبعين سنة. رحمه الله.

■ حسان بن محمد بن أحمد بن هارون، أبو الوليد القرشي الفقيه الشافعي، إمام أهل الحديث، بخراسان، في زمانه، وأزهدهم، وأعبدهم، أخذ الفقه عن ابن سُرَيج، وسمع الحديث من الحسن بن سفيان، وغيره، وله التصانيف المفيدة، وقد ذكرنا ترجمته في «طبقات الشافعيين».

وكانت وفاته ليلة الجمعة، لخمس مضين من ربيع الأول، من هذه السنة، عن ثنتين وسبعين سنة.

■ حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب: أبو سليمان الخطّابي، سمع الكثير، وصنّف التصانيف، منها «المعالم»، شرح فيها سنن أبي داود، و«الأعلام»، شرح فيه البُخاري، و«غريب الحديث». وله فَهْمٌ مليح وعلم غزير ومعرفة باللغة والمعاني والفقه.

ومن أشعاره:

ما دُمْتَ حياً فدارِ النّاسَ كلَّهُم ... فإنما أنتَ في دار المداراةِ

مَنْ يَدْرِ دارَى ومَنْ لم يَدْرِ سوفَ يري ... عما قليلٍ نديماً للنّداماتِ

هكذا ترجمه أبو الفرج بن الجوزي في «منتظمه» حرفاً بحرف.

■ عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم، كان من أعلم الناس بحروف القرآن ووجوه القراءات، وله في ذلك مصنفات، وكان من الأمناء الثقات، روى عن ابن مجاهد، وأبي بكر بن أبي داود، وعنه أبو الحسن الحمّاني، توفي في شوال منها، ودفن بمقبرة الخيزران.

أبو أحمد

■ العسال الحافظ محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان ابن محمد أبو أحمد العسال الأصبهاني، أحد الأئمة الحفاظ أكابر العلماء سمع الحديث وحدّث به.

قال ابن منده: كتبت عن ألف شيخ، لم أر فيهم أتقن من أبي أحمد العسال توفي في رمضان منها.

ثم دخلت سنة خمسين وثلاثمائة

في المحرم منها، مرض معز الدولة بن بويه، بانحصار البول، فقلق من ذلك، وجمع بين حاجبه سُبُكْتِكين ووزيره المهلبي، وأصلح بينهما، ووصّاهما بولده بختيار خيراً، ثم عوفي من ذلك، فعزم على الرحيل إلى الأهواز، واعتقد أن ما أصابه من هواء بغداد، ومائها، فأشير عليه بالمُقام بها، وأن يبني بها داراً في أعلاها، حيث الهواء أرق، والماء أصفى، فبنى له داراً، غرم عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم، فاحتاج لذلك أن يصادر بعض أصحابه، ويقال: أنفق على هذه الدار ألفي ألف دينار، ومات وهو يبني فيها، وقد خرب أشياء كثيرة، من معالم بغداد في بنائها، وكان مما خرّب، فيها المعشوق من سُرَّ من رأى، وقلع الأبواب الحديد، التي على مدينة المنصور، والرصافة وقصرها وحوّلها إلى داره هذه، لا تمت فرحته بها.

وفيها مات القاضي أبو السّائب، عتبة بن عبد الله، وقبضت أملاكه، وولي بعده القضاء أبو عبد الله الحسن بن أبي الشوارب، وضمن أن يؤدي في كل سنة إلى معز الدولة مائتي ألف درهم، فخلع عليه معز الدولة، وسار ومعه والدبادب، والبوقات إلى منزله، وهو أول من ضمن القضاء، ولم يأذن له الخليفة المطيع للّه، في الحضور عنده، ولا في حضور الموكب، لأجل ذلك، ثم ضمن معز الدولة الشرطة، وضمن الحسبة أيضاً.

وفيها سار قَفَلٌ من أنطاكية، يريدون طرسوس، وفيهم نائب أنطاكية، فثار عليهم الفرنج، فأخذوهم عن بكرة أبيهم، فلم يفلت منهم سوى النائب جريحاً، في مواضع من بدنه.

وفيها دخل نجا غلام سيف الدولة، بلاد الروم فقتل وسبى، وغنم، ورجع سالماً.

وفيها توفي الأمير.

■ عبد الملك بن نوح الساماني: صاحب خراسان، سقط عن فرسه، فمات، فقام بالأمر من بعده أخوه منصور بن نوح الساماني.

وفيها توفي

■ الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس، وكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر، وله من العمر يوم مات ثلاث وسبعون سنة، وترك أحد عشر ولداً، وكان أبيض، حسن الوجه عظيم الجسم، طويل الظهر، قصير الساقين، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين، من أولاد الأمويين الداخلين إلى المغرب، وذلك حين بلغه ضعف الخلفاء بالعراق، وتغلُّب الفاطميين ببلاد المغرب، فتلقب بأمير المؤمنين قبل موته بثلاثٍ وعشرين سنة، ولما توفي قام بالأمر من بعده ولده الحكم وتلقّب بالمستنصر، ومن جملة أولاد الناصر عبدُ الله، وكان شافعي المذهب، ناسكاً، شاعراً، ولا يعرف في الخلفاء أطولُ مدةً من الناصر الأموي - فإنه مكث خمسين سنة - سوى المستنصر بن الحاكم الفاطمي صاحب مصر، فإنه مكث ستين سنة، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو سهل بن زياد القطّان:

■ أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد أبو سهل القطان، كان ثقةً، حافظاً، كثير التلاوة للقرآن، حسن الانتزاع للمعاني منه، فمن ذلك، أنه استدل على تكفير المعتزلة، بقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تَكُونوا كالَّذينَ كَفَروا وقَالوا لإِخْوَانِهِم إذَا ضَرَبُوا فِي الأرضِ أو كَانوا غُزًى لَوْ كانوا عِندَنَا مَا مَاتوا ومَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

■ إسماعيل بن علي بن إسماعيل بن بيان أبو محمد الخُطَبي: سمع الحارث ابنَ أبي أسامة، وعبد الله بن أحمد الكديمي، وغيرهم، وعنه الدارقطني، وغيره من الحفّاظ، وكان ثقة، حافظاً، فاضلاً نبيلاً، عارفاً بأيام الناس والخلفاء، وله تاريخ مرتب على السنين، وكان أديباً لبيباً، عاقلاً، صدوقاً، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة، عن إحدى وثمانين سنة.رحمه الله.

■ أحمد بن محمد بن سعيد: بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن سعيد بن أبي مريم أبو بكر القُرَشي الورّاق، ويُعرف بابن فطيس، وكان حسن الكتابة، مشهوراً بها، وكان يكتب الحديث لابن جوصا، ترجمه ابن عساكر، وأرّخ وفاته، بثاني شوال، من هذه السنة.

■ تَمّام بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو بكر الهاشمي العباسي، حدّث عن عبد الله بن أحمد، وعنه ابن رَزْقَوَيْه، توفي في هذه السنة، عن إحدى وثمانين سنة. أيضاً رحمه الله.

■ **الحسين بن القاسم: أبو علي الطبري الفقيه الشافعي**، أحد الأئمة، له «المحرر» في الخلاف، وهو أولُ مُصنَّفٍ فيه، وله «الإفصاح» في المذهب، وكتابٌ في الجَدَل، وكتاب في أصول الفقه، وغير ذلك من المصنفات، وقد ذكرناه ترجمته في «الطبقات».

■ **عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور أبو جعفر الهاشمي الإمام**، ويعرف بابن بُرَيْه وُلد سنة ثلاث وستين ومائتين، روى عن ابن أبي الدنيا وغيره، وعنه ابن رزقوية، وكان خطيباً بجامع المنصور مدة طويلة وقد خطب فيه سنة ثلاثين وثلاثمائة وقبلها بمئة سنة خطب فيه الواثق سنة ثلاثين ومائتين وهما في النسب إلى المنصور سواء توفي في صفر منها.

■ **عُتبة بن عبد الله بن موسى بن عبيد الله أبو السائب الهمذاني القاضي الشافعي**، كان فاضلاً بارعاً، تقدم. وولي القضاء، وكان فيه تخليط في الأمور، وقد رآه بعضهم في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وأمر بي إلى الجنة، على ما كان مني من التخليط، وقال لي: إني آليتُ، أن لا أعذب أبناء الثمانين.

وهذا الرجل، أول من ولي قضاء القضاة ببغداد، من الشافعية.

■ **محمد بن أحمد بن خُنْب بن أحمد بن راجيان: أبو بكر الدُّهقانُ**، بغدادي، سكن بُخارى، وحدّث بها، عن يحيى بن أبي طالب، والحسن بن مُكرم، وغيرهما، وتوفي عن سبع وثمانين سنة.

■ **أبو علي الخازن**: توفي في شعبان منها، فوجد في داره من الدفائن، وعند الناس من الودائع، ما يقارب أربعمائة ألف دينار والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

دخول الروم إلى حلب

فيها دخل الدمستق ملك الروم لعنه الله إلى حلب، في مائتي ألف مقاتل، وكان سبب ذلك، أنه ورد إليها بغتة، فنهض إليه سيف الدولة بن حمدان، بمن حضر من أصحابه فقاتله، فلم يقو به، لكثرة جنوده، وقتل من أصحاب سيف الدولة خلقاً كثيراً، وكان سيف الدولة قليل الصبر، ففرَّ منهزماً في نفر يسير من أصحابه، فكان أول ما استفتح به أن استحوذ على دار سيف الدولة، ظاهر البلد، فأخذ ما منها أموالاً عظيمة وحواصل، وعُدَداً للحرب لا تُحصى كثرة، ثم تدنّى فحاضر السور فقاتل أهل البلد دونه، قتالاً عظيماً، وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وثلمَتِ الروم بسور حلب ثلمة عظيمة، فوقف فيها الروم فحمل المسلمون عليهم، فأزاحوهم عنها، فلما جن الليل، جد المسلمون في عِمارتها، فما أصبح الصباح، إلا وهي كما كانت، وحفظوا السور حفظاً عظيماً، ثم بلغ المسلمون أن رجّالة الشُّرَط، قد عاثوا في البلد، ينهبون البيوت، فرجع الناس إلى منازلهم،ودخلوا البلد، يقتلون من لقوه، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً يمنعونها منهم، وغلَبتِ الرومُ على السور، فَعَلوْهُ وانتهبوا الأموال والأولاد والنساء، وخلّصوا مَن كان بأيدي المسلمين من أسارى الروم، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فأخذوا السيوف، وقاتلوا مع قومهم، وكانوا أضرى على المسلمين، وأسروا نحواً من بضعة عشر ألفاً، مابين صبي، وصبية، ومن النساء شيئاً كثيراً، ومن الرجال ألفين، وخربوا المساجد، وأحرقوها، وصبُّوا في جباب الزيت الماء، حتى فاض الزيت على وجه الأرض، وهلك وكل شيء لا يقدرون على حمله، أحرقوه وأقاموا في البلد تسعة أيام، يفعلون هذه المفاسد العظيمة، ثم عزم الدمستق على الانصراف، خوفاً من رجوع سيف الدولة، فقال له ابن أُخته: أتذهب وتترك القلعة، وراءك؟ فقال له: إنا قد بلغنا فوق ما كنا نؤمله، وإن بها مُقاتلة، ورجالاً غزاة، فقال: لا بد لنا منها فقال له: اذهب إليها فصمد ليها ليحاصرها فرموه بحجر، فقتله في الساعة الراهنة، من بين الجيش كله، فغضب الدمستق عند ذلك الدمستق، وأمر بإحضار من في يديه من أسارى المسلمين، وكانوا قريباً من ألفين، فضربت أعناقهم بين يديه لعنه الله ثم كر راجعاً قبّحة الله ولعنة الله عليه.

وقد دخلوا عين زربة، قبل ذلك في المحرم من هذه السنة، فاستأمَنَهم أهلها، فأمنهم الملك وأمر بأن يدخلوا كلهم إلى المسجد، ومن بقي في منزله، قتل، فصار أهلها كلهم في المسجد ، ومن تأخر منهم قُتل، ثم قال: لا يبقين أحد من منكم اليوم، إلا ذهب حيث شاء، ومن تأخر قتل، فازدحموا في خروجهم من المسجد، فمات كثير منهم، وخرجوا على وجوههم، لا يدرون، أين يذهبون، فمات في الطرقات منهم خلق كثير. ثم هدم الجامع، وكسر المنبر، وقطع من حول البلد أربعين ألف نخلة،وهدم سور البلد، والمنازل المشار إليها منها، وأقام بها مدة، وفتح حولها أربعة وخمسين حصناً، بعضها بالسيف، وبعضها بالأمان، وقتل خلقاً كثيراً، وأسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان نائب منبج من جهة سيف الدولة، وكان شاعراً مُطبِّقاً، له ديوان شعر حسن، وكان مدة مقامه بعين زربة أحداً وعشرين يوماً، ثم سار إلى قيسارية، فلقيه أربعة آلاف من أهل طرسوس، مع نائبها ابن الزيات، فقتل أكثرهم، وأدركه صوم النصارى، فاشتغل به، حتى فرغ منه، ثم هجم على حلب بغتة، وكان من أمره ماذكرناه أيضاً.

وفي هذه السنة كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد ببغداد: لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن الله من غصب فاطمة حقها، يعنون أبا بكر رضي الله عنه، ومن أخرج العباس من الشورى، يعنون عمر ش ومن نفى أبا ذر - يعنون عثمان ش - ومن منع دفن الحسن عند جده - يعنون مروان بن الحكم، ولما بلغ ذلك معز الدولة لم ينكره، ولم يغيره، ثم بلغه أن أهل السنة، مَحَوا ذلك فأمر بأن يُكتب لعن الله الظالمين لآل محمد من الأولين والآخرين، والتصريح باسم معاوية في اللعن، فأمر بكتب ذلك، قبحه الله شيعته من الروافض، وكذلك سيف الدولة بن حمدان بحلب، فيه تشيّع، وميلٌ إلى الروافض، ولا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، ويديل عليهم أعداءهم، لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم، وكبراءهم، وآباءهم، وترك متابعتهم أنبياءهم، وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد الشام، استحوذ على سواحل الشام، وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس الفرنج، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب، وحمص، وحماة، ودمشق، وبعض أعمالها، وجميع السواحل مع الفرنج، والنواقيس النصرانية، والقُسوس الإنجيلية، تضرب في شواهق الحصون، والقلاع، وتكفر في أماكن المساجد، شريف البقاع.

وفيها وقعت فتنة، بين أهل البصرة، بسبب المذاهب، فقُتل فيها خلقٌ كثير، وجم غفير.

وفيها أعاد سيف الدولة بناء عين زربة، وبعث مولاه نجا، فدخل بلاد الروم، فقتل منها خلقاً كثيراً وسبى جماً غفيراً، وغنم وسلم وبعث حاجبه مع جيش طرسوس، فدخلوا بلاد الروم، فغنموا، وسبوا ورجعوا سالمين ولله الحمد والمنة.

وفيها فتح المعز الفاطمي حصن طبرمين من بلاد المغرب ـ وكان من أحصن بلاد الفرنج ـ افتتحه قسراً بعد محاصرة سبعة أشهر ونصف، وقصد الفرنج جزيرة إقريطش، فاستنجد أهلها بالمعز، فسير إليهم جيشاً، فانتصروا على الفرنج، ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن محمد بن هارون: أبو محمد المهلبي الوزير لمعز الدولة ابن بويه**، مكث في وزارته ثلاث عشرة سنة، وكان فيه حلم وكرم وأناة.

حكى أبو إسحاق الصابىء قال: كنت يوماً عنده، وقد جيء بدواة، قد صُنعت له ومرفع، قد حليا بحلية كثيرة، فقال لي أبو محمد الفضل بن عبد الله الشيرازي ـ سرا بيني وبينه ـ: ما كان أحوجني إليهما، لأبيعهما، وانتفع بها. قلت: وأي شيء يفعل الوزير؟ فقال: يدخلُ في حِرِ أمِهِ فسمعها الوزير، ـ وكان مصغ لنا ولا نشعر ـ فلما أمسى، بعث بالدواة إلى أبي محمد الشيرازي، ومرفعها، وعشرة ثياب، وخمسة آلاف درهم، واصطنع له غيرها فاجتمعنا يوما آخر عنده، وهو يوقّع من تلك الدُّواة الجديدة، فنظر إلينا، فقال: هِيِهِ منكما يريدها مع الإعفاء مِن الدخول؟ قال: فاستحيينا وعلمنا أنه كان سمع كلامنا يومئذ وقلنا: بل يمتع الله الوزير بها ويبقيه ليهب ألفاً مثلها.

توفي أبو محمد المهلبي في هذه السنة عن أربع وستين سنة.

■ **دَعْلَج بن أحمد بن دعلج بن عبد الرحمن: أبو محمد السجستاني المُعدّل**، سمع بخراسان، وحلوان، وبغداد، والبصرة، والكوفة ومكة، وكان من ذوي اليسار، والمشهورين بالبر والإفضال، وله صدقات، جارية، وأوقاف دارّة، على أهل الحديث، ببغداد، ومكة وسجستان.

وكانت له دار عظيمة ببغداد، فكان يقول: ليس في الدنيا مثلها؛ لأنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا في بغداد مثل القطيعة، ولا في القطيعة مثل درب أبي خلف، ولا في درب أبي خلف مثل داري.

وصنّف الدارقطني له مسندا وكان إذا شك في حديث، تركه، وكان الدارقطني يقول: لم أر في مشايخنا أثبت منه.

وقد أنفق في أهل العلم وذوي الحاجات، اموالاً جزيلة، كثيرة جداً، اقترض منه بعض التجار عشرة آلاف دينار،فضمن بها ضياعاً، فربح في مدة ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار، فعزل منها عشرة آلاف دينار، وجاءه بها، فأضافه دَعْلج ضيافةً حسنة، فلما فرغ من شأنها قال: ما شأنك؟ قال له: هذه الدنانير التي تفضلت بها، قد أحضرت، فقال: يا سبحان الله! إني لم أعطكها لتردها، فحَلّ بها الأهل. فقال: إني قد ربحتُ ثلاثين ألف دينار، فهذه منها. فقال له دعلج: اذهب بها بارك الله لك، فقال له: كيف يتسع مالك لهذا؟ ومن أين أفدت هذا المال؟ فقال: إني كنت في حداثة سني، أطلب الحديث، فجاءني رجل تاجر، من أهل البحر، فدفع إلى ألف ألف درهم، وقال: اتجرْ في هذه، فما كان من ربح فبيني وبينك، وما كان من خسارة فعلي دونك، وعليك عهد الله وميثاقه، إن وجدت ذا حاجة، أو خلة، إلا سددتها من مالي هذا. ثم جاءني فقال: إني أريد الركوب في البحر، فإن هلكت، فالمال في يدك، على ما شرطت عليك فهو في يدي على ما قال لي، ثم قال: لا تُخبر بهذا أحداً مدة حياتي، فلم أخبر به أحدا حتى مات.

وقد كانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة عن أربع أو خمس وتسعين سنة رحمه الله.

■ **عبد الباقي بن قانع: بن مرزوق أبو الحسين الأموي مولاهم**، سمع الحارث بن أبي أسامه، وعنه الدارقطني، وغيره، وكان من أهل الثقة والأمانة والحفظ، ولكنه تغير في آخر عمره.

قال الدارقطني: كان يخطيء، ويُصرُّ على الخطأ، توفي في شوال منها.

أبو بكر

■ **النقاش المفسر: محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون بن جعفر، أبو بكر النقاش المفسر المقرئ**، مولى أبي دُجانة سماك بن خرشة، وأصله من الموصل، كان عالماً بالتفسير، والقراءات، وسمع الكثير في بلدان شتى عن خلق من المشايخ، وحدث عنه أبو بكر بن مجاهد، والخلدي وابن شاهين وابن زرقويه وخلق، وآخر من حدث عنه أبو علي بن شاذان، وتفرّد بأشياء منكرة وقد وقّفه الدارقطني، على كثير من أخطائه، فرجع عن ذلك، وصرح بعضهم بتكذيبه، والله أعلم، وله كتاب التفسير، الذي سماه «شفاء الصدور»، وقال بعضهم بل هو سقام الصدور.

وقد كان رجلاً صالحاً في نفسه، عابداً ناسكاً، حكى من حضره، يجود بنفسه، ويدعو بدعاء، ثم رفع صوته يقول﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] يرددها ثلاث مرات، ثم خرجت روحه، رحمه الله. وقد كانت وفاته يوم الثلاثاء، الثاني من شوال من هذه السنة، ودفن بداره، بدار القطن.

■ **محمد بن سعيد أبو بكر الحربي الزاهد**، ويعرف بابن الضرير،كان ثقة عابداً. ومن قوله: دافعتُ الشهوات حتى صارت شهوتي المدافعة.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرم من هذه السنة أمر معز الدولة بن بويه قبحه الله أن تغلق الأسواق، وأن يلبس الناس المسوح من الشعر، وأن تخرج النساءُ، حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن،في الأسواق يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب فَفُعل ذلك، ولم يمكن أهل السنة منع ذلك، لكثرة الشيعة، وظهورهم، وكون السلطان معهم.

وفي ثامن عشر ثامن الحجة منها، أمر معز الدولة بن بويه، بإظهار الزينة في بغداد، وأن تفتح الأسواق بالليل، كما في الأعياد، وأن تضرب الدبادب والبوقات، وأن تشعل النيران في أبواب الأمراء، وعند الشرط، فرحاً بعيد الغدير ـ غدير خُمّ ـ فكان وقتا عجيباً ويوماً مشهوداً، وبدعةً ظاهرة مُنكرةً.

وفيها أغارت الأرمن على الرها، فقتلوا وأسروا، ورجعوا موقرين لعنهم الله، ثم ثارت الروم بملكهم، فقتلوه، وولوا غيره، ومات الدمستق ملك الأرمن، واسمه النقفور، وهو الذي أخذ حلب، ولتُكتَبُ ترجمته في آخر الجزء.

وفيها عزل ابن أبي الشوارب عن القضاء، ونُقِضت سجلاّته، وأبطلت أحكامه مدة أيامه، وولي القضاء أبو بشر عمر بن أكثم بلا رزق، ورفع عنه ما كان يحمله ابن أبي الشوارب في كل سنة ولله الحمد.

وفي ذي الحجة استسقى الناس، لتأخر المطر وذلك في كانون الثاني.

وحكى ابن الجوزي في «المنتظم»، عن ثابت بن سنان المؤرخ قال: حدثني جماعة من أهل الموصل ممن أثق بهم، أن بعض بطارقة الأرمن، أنفذ في سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة، إلى ناصر الدولة بن حمدان رجلين من

الأرمن، مُلْتَصِقين، سنهما خمس وعشرون سنة، ملتحمين، ومعهما أبوهما، ولهما سرتان، وبطنان، ومعدتان، وجوعهما يختلف وكان أحدهما يميل إلى النساء، والآخر يميل إلى الغلمان، وكان يقع بينهما خصومة، وتشاجر، وربما حلف أحدهما لا يكلم الآخر، فيمكث كذلك أياماً، ثم يصطلحان، فوهبهما ناصر الدولة ألفي درهم، وخلع عليهما، ودعاهما إلى الإسلام، فيقال إنهما أسلما. وأراد أن يبعثهما إلى بغداد، ليراهما الناس، ثم رجع عن ذلك، ثم إنهما رجعا إلى بلدهما، مع أبيهما، فاعتلّ أحدهما ومات، وأنتن ريحه، وبقي الآخر، لا يمكنه التخلص منه، وقد كان اتصال ما بينهما من الخاصرتين، وقد كان ناصر الدولة أراد فصل أحدهما عن الآخر، وجمع الأطباء لذلك، فلم يمكن، فلما مات أحدهما، حار أبوهما في فصله عن أخيه، فاتفق اعتلال الآخر، من غمه، ونتن رائحة أخيه، فمات غمّاً، فدفنا جميعاً في قبر واحد.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ عمر بن أكثم بن أحمد بن حيّان بن بشر أبو بشر الأسدي الفقيه الشافعي، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين، وولي القضاء في زمن المطيع، نيابة عن أبي السائب عتبة بن عبيد الله، ثم ولي قضاء القضاة، وهو أول من ولي قضاء القضاة من الشافعية، سوى أبي السائب. وكان محمود السيرة في القضاء، وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة

فى عاشر المحرم منها عملت الرافضة عزاء الحُسين، كما تقدّم فى السنة الماضية، فاقتتل الروافض وأهل السنة فى هذا اليوم قتالاً شديداً، وانتهبت الأموال.

وفيها عصى نَجَا غلام سيف الدولة عليه، وذلك أنه كان فى العام الماضي، قد صادر أهل حران، فأخذ منهم أموالاً كثيرة فتمرّد بها، وذهب إلى أذربيجان، وأخذ طائفةً منها، من يد رجل من الأعراب، يقال له أبو الورد، فقتله، وأخذ من أمواله شيئاً كثيراً، وقويت شوكته بسبب ذلك، فسار إليه سيف الدولة فأخذه، وأمر بقتله فقتل بين يديه، وألقيت جيفتُه فى الأقذار ومحل الجيف والنتن.

وفيها جاء الدمستق إلى المصيصة في جيش كثيف فحاصرها ونقب سورها، فدافعه أهلها فأحرق رستاقها، وقتل ممن حولها خمسة عشر ألف إنسان، وعاثوا فساداً فى بلاد أذنة وطرسوس، وكروا راجعين إلى بلادهم قبّحهم الله.

وفيها قصد معز الدولة الموصل وجزيرة ابن عمر، فأخذها من يد ناصر الدولة بن حمدان ثم سار في طلب ناصر الدولة فكرّ ناصر الدولة في جيش قد هيأة، فاسترجع المُلْك من يد المعز الدولة، فعاد معز الدولة فأخذ الموصل، وأقام بها، فراسله فى الصلح صاحبها، فاصطلحا على أن يكون الحمل فى كل سنة، وأن يكون أبو تغلب بن ناصر الدولة، ولي عهد أبيه من بعده، فأجاب معز الدولة إلى ذلك وكر راجعا إلى بغداد، بعد ما جرت له خطوب عظيمةٌ طويلةٌ قد استقصاها ابن الأثير في «كامله» وبسطها.

وفيها ظهر رجل ببلاد الديلم، وهو أبو عبد الله محمد بن الحسين من أولاد الحسن بن علي، ويُعرف بابن الداعي، فالتف عليه خلقٌ كثيرٌ، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالمهدي، وكان أصله من بغداد، وعَظُم شأنه بتلك البلاد، وهرب منه ابن الناصر العلوي.

وفيها قصد ملك الروم، وفي صحبته الدمستق ملك الأرمن، بلاد طرسوس، فحاصروها مدة، ثم غلت عليهم الأسعار، وأخذ فيهم الوباء، فمات كثير منهم فكرّوا راجعين، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَروا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالوا خَيْراً وكَفَى اللَّهُ المُؤمِنِينَ القِتَالَ وكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب:٢٥] وكان من عزمهم، أنهم يستحوذون على البلاد كلها، فرجعوا خاسئين.

وفيها كانت وقعة المجاز ببلاد صقلية؛ وذلك أنه أقبل من الروم خلقٌ كثيرٌ، ومن الفرنج ما يقارب المائة ألف، فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمي يستنجدونه، فبعث إليهم بجيوش كثيرة فى الأسطول، فكانت بين المسلمين والمشركين وقعة عظيمة، صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويلُ، وفرّت الروم، وانهزموا هزيمة قبيحة، فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وسقط الفرنج فى واد من الماء عميق فغرق أكثرهم، وركب الباقون فى المراكب، فبعث الأمير أحمد، صاحب صقلية، في آثارهم مراكب أخر، فقتلوا أكثر المشركين فى البحر أيضاً، وغنم المسلمون في هذه الغزوة شيئاً كثيراً من الأموال والحيوانات والأمتعة والأسلحة، فكان في جملة ذلك سيف مكتوب عليه: هذا سيف هنديٌّ، زنته مائة وسبعون مثقالا، طالما قوتل به بين يدي رسول الله ﷺ، فبُعث فى جملة تحف، إلى المعز الفاطمي إلى إفريقية. وفيها قصدت القرامطة مدينة طبرية ليأخذوها من يد الإخشيد صاحب مصر والشام، وطلبوا من سيف الدولة أن يمدهم بحديد يتّخذون منه سلاحاً، فقلع لهم أبواب الرقة وكانت من حديد، حتى أخذ أواقي الباعة وأرسل بذلك كله إليهم، حتى قالوا: اكتفينا.

وفيها طلب معز الدولة من الخليفة المطيع لله أن يأذن له فى دخول دار الخلافة، ليتفرج فيها، فأذن له، فدخلها، فبعث خادمه وحاجبه، معه، فطافوا معه فيها، وهو مُسرعٌ خائفٌ، ثم خرج، وقد خاف من غائلة ذلك، وخشى أن يقتل في بعض الدهاليز، فتصدق بعشرة آلاف لما خرج، شكراً لله على سلامته، وازداد حباً في الخليفة المطيع لله من يومئذ، وكان في جملة ما رأى من العجائب فيها صنم من نحاس، على صورة امرأة حسناء جداً، وحولها أصنامٌ صغار، فى هيئة الخدم لها، كان قد أُتِيَ به فى زمن المقتدر، فأقيم هناك ليتفرج عليه الجواري والنساء، فهمّ معز الدولة، أن يطلبه من الخليفة، ثم ارتأى فترك ذلك.

وفي ذي الحجة منها، خرج رجل بالكوفة، فادّعى أنه علوي، وكان يتبرقع، فسمي المُبَرْقَع، وغلظت قفيته، وبعد صيته، وذلك فى غيبة معز الدولة عن بغداد، واشتغاله بأمر الموصل، وناصر الدولة بن حمدان، فلمّا توطدت الأمور وعاد إلى بغداد، اختفى المُبَرْقَع، وذهب فى البلاد، فلم يُفتح له أمر بعد ذلك.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بكار بن أحمد بن بكار بن بُنان بن بكار بن زياد بن درستويه أبو عيسى المقرئ، روى الحديث عن عبد الله بن أحمد، وعنه أبو الحسن الحمّاميُّ، وكان ثقة، أقرأ القرآن أزيَدَ من ستين سنة، رحمه الله وكانت وفاته في ربيع الأول منها، وقد جاوز السبعين، وقارب الثمانين، ودفن بمقبره

الخيزران عند قبر أبي حنيفة.

أبو إسحاق

■ الهُجَيْميّ: وُلد سنة خمسين ومائتين، وسمع الحديث، وكان إذا سئل أن يحدث، يقسم أن لا يحدث حتى يجاوز المائة، فأبر اللّه قسمه، وجاوزها فأسمع، توفي عن مائة سنة وثلاث سنين رحمه اللّه.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرم منها، عملت الشيعة المآتم، على ما تقدّم في السنتين الأولتين، وغلقت الأسواق، وعلقت المسوح، وخرجت النساء سافرات، ناشرات، ينحن، ويلطمن وجوههن في الأسواق والأزقة، وهذا تكلف لا حاجة إليه في الدين ولا في الدنيا، ولو كان هذا أمراً محموداً لكان صدر هذه الأمة وخيرتها هم أولى به إذ لَوْ كَانَ خَيْراً لسبقونا إِلَيْهِ وأهل السنة يقتدون، ولا يبتدعون، ثم تسلطت أهلُ السنة على الروافض، فكبسوا مسجد بَرَاثا الذي هو عُشّ الروافض، وقتلوا بعض من كان فيه من القومة.

وفيها، في رجب منها، جاء ملك الروم، بجيوش كثيفة إلى المصيصة، ففتحها قسراً، وقتل من أهلها خلقاً، واستاق بقيتهم معه أسارى، وكانوا قريباً من مائتي ألف إنسان، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وجاء إلى طرسوس، فسأل أهلها منه الأمان، فأمّنهم، وأمرهم بالجلاء عنها، والانتقال منها، فاتخذ الجامع اسطبلاً لخيوله، وحرّق المنبر، ونقل قناديله إلى كنائس بلده، وتنصر بعض أهلها معه لعنه اللّه.

وكان أهل طرسوس، والمصيصة، قد أصابهم قبل هذا البلاء غلاء عظيم، ووباء شديد، بحيث كان يموت منهم في اليوم الواحد ثلاثمائة نفر، ثم دهمهم هذا الأمر الشديد، فانتقلوا من شهادة، إلى شهادة، أعظم منها.

وعزم ملك الروم على المقام بطرسوس، ليكون أقرب إلى بلاد المسلمين، ثم عنّ له، فسار إلى القسطنطينية، وفي خدمته الدمستق، ملك الأرمن لعنهما اللّه.

وفيها جُعل أمر تسفير الحجيج إلى نقيب الطالبيّن وكتب له منشور بالنقابة والحجيج وهو أبو أحمد الحسن بن موسى الموسوي، وهو والد الرضي والمرتضى.

وفيها توفيت أخت معز الدولة، فركب الخليفة في طيّارة، وجاء إليه فعزّاه، فقبّل معز الدولة الأرض بين يديه، وشكر له سعيه إليه، وصدقاته عليه.

وفي ثامن عشر ذي الحجة عملت الروافض عيد غدير خُمٍّ، على العادة الجارية التي ذكرناها.

وفيها تغلّب على أنطاكية، رجل يقال له: رشيقٌ النُّسَيْمي، بمساعدة رجل يقال له: ابن الأهوازي، وكان يضمن الطواحين، فأعطاه أموالاً، وأطمعه في أخذ أنطاكية، وأخبره أن سيف الدولة قد اشتغل عنه بميافارقين، وعجز عن الرجوع إلى حلب، فتم لهما ما راماه من أخذ أنطاكية، ثم ركبا منها في جيوش إلى حلب، فجرت بينهما، وبين نائب سيف الدولة حروب عظيمة، ثم أخذ البلد، وتحصن النائب بالقلعة، وجاءت النجدة من سيف الدولة إلى حلب، مع غلام له اسمه بشارة، فانهزم رشيق، فسقط عن فرسه، فابتدره بعض الأعراب، فقتله، وأخذ رأسه، فجاء به إلى حلب، واستقل ابن الأهوازي سائراً إلى أنطاكية، فأقام رجلاً من الروم، اسمه دزبر فسمّاه الأمير، وأقام آخر من العلويين، ليجعله خليفة، وسماه الأستاذ، فقصده نائب حلب وهو قرعويه، فاقتتلا قتالا شديداً فهزمه ابن الأهوازي واستقر بأنطاكية، فلما عاد سيف الدولة إلى حلب، لم يبت بها إلا ليلة واحدة، حتى سار إلى أنطاكية، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، ثم انهزم دزبر وابن الأهوازي، وأسرا، فقتلهما سيف الدولة بن حمدان.

وفيها ثار رجل من القرامطة، اسمه مروان، كان يحفظ الطرقات لسيف الدولة بحمص، فملكها وما حولها، فقصده جيش من حلب، مع الأمير بدر، فاقتتلوا معه، فرماه بدر بسهم مسموم، فأصابه، واتفق أن أسر أصحاب مروان بدراً، فقتله مروان بين يديه صبراً، ومات مروان بعد أيام، وتفرق أصحابه قبحهم اللّه.

وفيها عصى أهل سجستان أميرهم خلف بن أحمد، وذلك أنه حجّ في سنة ثلاث وخمسين، واستخلف عليهم طاهر بن الحسين، فطمع في الملك بعده، واستمال أهل البلد، فلما رجع من الحج، لم يسلمه البلد، وعصى عليه، فذهب إلى بخارى، إلى الأمير منصور بن نوح الساماني، فاستنجده، فبعث معه جيشاً، فاستنقذ البلد من طاهر، وسلمها إلى الأمير خلف بن أحمد وقد كان خلف عالماً محبّاً للعلماء -فذهب طاهر، فجمع جموعاً ثم جاء فحاصر خلفاً، وأخذ منه البلد. فرجع خلف إلى الأمير منصور الساماني، فبعث معه من استرجع له البلد ثانية، وسلمها إليه، فلما استقر خلف بها، وتمكن فيها، منع ما كان يحمله من الهدايا، والتحف، والخلع، إلى الأمير منصور الساماني ببخارى، فبعث إليه جيشاً فتحصّن خلف في حصن، يقال له: حصن أَرْكَ، فنازله الجيش فيه، تسع سنين، لم يقدروا عليه، وذلك لمناعة هذا الحصن، وصعوبته، وعمق خندقه، وارتفاعه، وسيأتي ما آل إليه أمره بعد ذلك.

وفيها قصدت طائفة من الأتراك بلاد الخزر، فاستنجد الخزر، بأهل خوارزم، فقالوا: لو أسلمتم،لنصرناكم فأسلموا إلا ملكهم، فقاتلوا معهم الترك، فأجلوهم عنهم، ثم أسلم الملك بعد ذلك، وللّه الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ المتنبي الشاعر المشهور أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجُعْفيّ الشاعر المعروف بالمتنبي، كان أبوه يعرف بعيدان السقاء، وكان يستقي الماء لأهل الكوفة، على بعير له، وهو شيخ كبير.

وعبدان هذا، قال ابن ماكولا، والخطيب: هو بكسر العين، وبعدها ياء مثناة من تحت، وقيل: بفتح العين لا كسرها، فاللّه أعلم.

كان مولد المتنبي بالكوفة، سنة ست وثلاثمائة، ونشأ بالشام، بالبادية، وطلب الأدب، ففاق أهل زمانه فيه، ولزم جناب سيف الدولة بن حمدان، وامتداحه، وحظي عنده، ثم صار إلى مصر، فامتدح كافوراً الإخشيدي، ثم هجاه، وهرب منه، وورد بغداد، فامتدح بعض أهلها وقُرئ عليه ديوانه فيها.

وقدم الكوفة، فامتدح ابن العميد، فوصله من جهته ثلاثون ألف دينار، ثم سار إلى فارس، فامتدح عضُد الدولة بن بويه، فأطلق له أموالاً جزيلة، تقارب مائتي ألف درهم، وقيل: بل حصل له نحو من ثلاثين ألف دينار، ثم دس إليه من يسأله: أيما أحسن عطايا، عضد الدولة بن بويه، أو عطايا سيف الدولة بن حمدان؟ فقال: هذه أجزل، ولكن فيها تكلُّف، وتلك أقل، ولكن عن طيب نفس من معطيها، لأنها عن طبيعة، وهذه عن تكلف.

فذكر ذلك لعضد الدولة، فتغيظ عليه، ودس إليه طائفة من الأعراب، فوقفوا له في أثناء الطريق.

وهو راجع إلى بغداد، ويقال: إنه قد كان هجا مُقدَّمَهم ابن فاتك الأسدي وقد كانوا يقطعون الطريق فلهذا أوعز إليهم عضد الدولة، أن يتعرضوا له، فيقتلوه، ويأخذوا ما معه من الأموال، فانتهوا إليه وهم ستون راكباً، في يوم الأربعاء، وقد بقي من رمضان ثلاثة أيام، وقيل: بل قُتل في يوم الاثنين، لخمس بقين من رمضان، ويقال: بل كان ذلك في شعبان، وقد نزل عند عين تحت شجرة إنجاص، وقد وضعت سفرته ليتغدى، ومعه ولده مُحَسَّد، وخمسة عشر غلاماً له، فلما رآهم قال: هلموا يا وجوه العرب، فلما لم يُكلّموه، أحسّ بالشر، فنهض إلى سلاحه وخيله، فتواقفوا ساعةً، فقُتل ابنه مُحَسَّد، وبعض غلمانه، وأراد هو أن ينهزم فقال له مولى له: أين تذهب وأنت القائل:

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ

فقال له: ويحك! قتلتني، ثم كرَّ راجعاً، فطعن زعيم القوم، برمح في عنقه، فقتله، فاجتمعوا عليه فشجروه بالرماح، حتى قتلوه، وأخذوا جميع ما كان معه من الأموال، وذلك بالقرب من النعمانية، وهو آيب إلى بغداد، ودفن هنالك، وله من العمر ثمان وأربعون سنة.

وذكر ابن عساكر، أنه لما نزلَ في المنزلة، التي كانت قبل منزلته هذه، سأله بعض الأعراب، أن يعطيهم خمسين درهماً، ويخفرونه، فمنعه الشحُّ، والكبر، ودعوى الشجاعة من ذلك.

وقد كان المتنبي جعفي النسب صُلْبُهُ منهم، وقد ادّعى، حين كان مع بني كلب، بأرض السماوة، قريباً من حمص، أنه علوي، ثم حَسَنِيٌّ ثم ادعى أنه نبي، فاتبعه جماعة من جهلتهم، وسفلتهم، وزعم أنه أُنزل عليه قرآن، فمن ذلك: والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سنتك واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن اللّه قامع بك من ألحد في دينه، وضل عن سبيله» وهذا من خذلانه، وكثرة هذيانه، في قرآنه، ولو لزم قافية مدحه، والهجاء، لكان أشعر الشعراء، وأفصح الفصحاء. ولكن أراد بجهله، وقلة عقله، أن يقول ما يشبه كلام رب الأرض والسماء، الذي لا يشبهه شيء من الأشياء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأحواله، تعالى اللّهُ خالق الأشياء.

ولما اشتهر خبره بأرض السماوة، وأنه قد التف عليه جماعة من أهل الغباوة، خرج إليه نائب حمص من جهة بني الإخشيد، وهو الأمير لؤلؤ بيض اللّه وجهه، فقاتله، وشرّد شمله، وأسره وسجنه دهراً طويلاً، فمرض في السجن، وأشرف على التلف، فاستحضره، واستتابه، وكتب عليه كتاباً، اعترف فيه ببطلان ما ادعاه، وأنه قد تاب من ذلك، ورجع إلى دين الإسلام، وأطلق سراحه، فكان بعد ذلك، إذا ذكر بهذا، يجحده إن أمكنه جحده، وإلا اعتذر منه، واستحيا، وقد اشتهر بلفظة، تدل على كذبه، فيما كان ادعاه من الإفك والبهتان وهي لفظة «المتنبي»، الدالة على الكذب، وللّه الحمد والمنة.

وقد قال بعضهم يهجوه:

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضل من الناس بكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ءَ وحيناً يبيعُ ماء المحيا

وللمتنبي ديوان مشهور في الشعر، فيه أشعار رائقة، ومعان ليست بمسبوقة، بل مبتكرة سابقة. وهو في الشعراء المحدثين، كامرئ القيس في الشعراء المتقدمين، وهو عندي بخط يده، فيما ذكر من له خبرة بهذه الأشياء، مع تقدم أمره، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في «منتظمه»، قطعاً رائقة، استحسنها من ديوانه، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر، شيخ إقليمه حافظُ زمانه.

فمما استحسنه أستاذ الوعاظ الشيخ أبو الفرج بن الجوزي قول المتنبي:

عزيزٌ أسى من داؤه الحَدَق النُّجْلُ عياء به مات المُحِبّون من قبلُ
فمن شاء فلينظر إليَّ فَمَنْظَري نذير إلى من ظنّ أنّ الهوى سَهْلُ
جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عَن كل شُغْلٍ بها شُغْلُ
ومن جسدي لم يترك السُّقْمُ شَعْرةً فما فوقها إلا وفيه له فِعْلُ
كأن رقيباً منك سدُّ مسامِعي عن العذل حتى ليس يدخلُها العَذْلُ
كأن سهاد الليل يعشق مُقْلتي فبينهما في كل هَجْرٍ لنا وَصْلُ

ومن ذلك قوله:

كشفت ثلاث ذوائب من شَعْرِها في ليلة فأرت لياليَ أربَعا
واستقبلت قمر السماء بوجْهِها فأرتني القمرين في وقتٍ معاً

ومن ذلك قوله:

ما نال أهلُ الجاهلية كلُّهم شعري ولا سمعت بسحري بابلُ
وإذا أتتْكَ مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضِلُ
من لي بفهم أهيل عصر يدّعي أن يحسب الهندي منهم باقِلُ

ومن ذلك قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بُدُّ

وقوله:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

وقوله:

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت على عينه حتى يرى صدقَها كِذْبا

وله أيضاً:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعتَ به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ

وله في مدح بعض الملوك الذين كانوا يستمنح منهم العطاء

تمضي المواكب والأبصارُ شاخصةٌ منها إلى الملك الميمون طائرُه
قد حزن في بشر في تاجه قمر في درعه أسد تَدْمَى أظافرُه
حلو خلائقه شوس حقائقه يحصى الحصى قبل أنْ تُحصى مآثِرُهُ

ومنها قوله:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أُحاذرُه
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنتَ جابرُه

وقد بلغني عن شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه اللّه أنه كان ينكر على المتنبي، هذه المبالغة، ويقول: إنما يصلح هذا، لجناب اللّه عزوجل.

وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم رحمه اللّه أنه سمع الشيخ يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود.

ومما أورده الحافظ أبو القاسم بن عساكر من شعر المتنبي في ترجمته قوله:

ويعين مفتقر إليك رأيتني ... فهجرتني ونزلت بي من عالقِ
لست الملوم أنا الملوم لأنني ... أنزلتُ حاجاتي بغير الخالقِ

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ١٢١/١]: وهذان البيتان ليسا في ديوانه، وقد عزاهما الحافظ الكندي إليه، بسند صحيح.

ومن ذلك قوله:

إذا غامرت في شرفٍ مرومِ ... فلا تقنع بما دونَ النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

ومن ذلك قوله:

وما أنا بالباغي على الحب رِشوةً ... قبيح هوى يرجى عليه ثَوابُ
إذا نلت منك الود فالكُلُّ هينٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

وقد تقدَّم، أنه ولد بالكوفة، سنة ست وثلاثمائة، وأنه قتل في رمضان، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ١٢٢/١، ١٢٣]: وقد فارق سيف الدولة بن حمدان، ست وأربعين، لما كان من ابن خالويه، ما كان من ضربه إياه، بمفتاح في وجهه، فأدماه، فصار إلى مصر، فامتدح كافوراً الإخشيدي، وأقام عنده أربع سنين، وكان المتنبي يركب في جماعة من مماليكه، فتوهم منه كافور فجأة، فخاف منه المتنبي، فهرب، فأرسل في إثره، فأعجزَه، فقيل لكافور: ما قيمة هذا حتى تتوهم منه؟ فقال: هذا رجل أراد أن يكون نبياً بعد محمد ﷺ، أفلا يروم أن يكون ملكاً بديار مصر؟.

ثم صار المتنبي إلى عضد الدولة، فامتدحه، فأعطاه مالاً كثيراً، ثم رجع من عنده، فعرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي، فقتله، وابنه محسِّداً، وغلامه مُفْلحاً، يوم الأربعاء لست بقين من رمضان وقيل: لليلتين بقيتا من رمضان. وقيل: يوم الاثنين لثمانٍ - وقيل: لخمسٍ - بقين منه. وذلك بسواد بغداد.

وقد رثاه الشعراء، وقد شرح ديوانه العلماء، بالشعر، واللغة نحواً من ستين شرحاً، وجيزاً، وبسيطاً.

ومن توفي فيها من الأعيان أيضاً

أبو حاتم البستي بن حبّان صاحب الصحيح.

■ **محمد بن حبّان بن أحمد بن حبّان بن معاذ بن معبد أبو حاتم البُستي،** صاحب «الأنواع والتقاسيم»، وأحد الحفاظ الكبار، المصنفين المجتهدين، رحل إلى البلدان، وسمع الكثير من المشايخ، ثم ولي قضاء بلده، ومات بها، في هذه السنة، وقد حاول بعضهم الكلام فيه، من جهة معتقده، ونسبه إلى القول بأنَّ النبوة مكتسبة، وهي نزعة فلسفية، والله أعلم بصحتها عنه، وقد ذكرته في «طبقات الشافعية».

■ **محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن الحسين بن مقسم أبو بكر بن مقسم العطار المُقرئ،** ولد سنة خمس وستين ومائتين، وسمع الكثير من المشايخ، روى عنه الدارقطني، وغيره، وكان من أعرف الناس بالقراءات، وله كتاب في النحو، على طريقة الكوفيين، سماه كتاب «الأنوار».

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٧٠/١٤]: ما رأيت مثله، وله تصانيف أخرى، ولكن تكلم الناس فيه، بسبب تفرده بقراءات لا تجوز عند الجميع، وكان يذهب إلى أن كل ما لا يخالف الرسم، ويسوغ من حيث المعنى، واللفظ تصحُ القراءة به كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[يوسف:٨٠] أي يتناجون. قال لو قرئ نجيباً من النجابة لكان قوياً وقد ادُّعي عليه، وكتب عليه مكتوب، أنه قد رجع عن مثل ذلك، ومع هذا لم ينته، عما كان يذهب إليه، حتى مات قاله ابن الجوزي.

■ **محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عَبْدَوَيْه: بن موسى أبو بكر الشافعي،** ولد بجُبُل سنة ستين ومائتين، وسمع الكثير، وسكن بغداد، وكان ثقة ثبتاً، كثير الرواية، سمع منه الدارقطني، وغيره من الحفاظ، وكان يحدِّث بفضائل الصحابة، حين مَنَعَت الديلم من ذلك جهرةً في الجامع، بمدينة المنصور، مخالفةً لهم، وكذلك في مسجده بباب الشام. توفي في هذه السنة، عن أربع وتسعين سنة، رحمه الله تعالى بمنّه وكرمه.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرم عملت الروافض ببغداد بدعتهم الشنعاء، وفتنتهم الصلعاء.

وفيها أخذت القرامطة الهجريون عمان.

وفيها قصدت الروم آمد، فحاصروها، فلم يقدروا عليها، ولكن قتلوا من أهلها ثلاثمائة، وأسروا منهم أربعمائة، ثم ساروا إلى نصيبين وفيها سيف الدولة فهم بالهرب مع العرب، ثم تأخر مجيء الروم، فثبت مكانه، وقد كادوا يزيلون أركانه.

وفيها وردت طائفة من جيش خراسان في بضعة عشر ألفاً يظهرون أنهم يريدون غزو الروم، فأكرمهم ركن الدولة بن بويه، وأمنوا إليهم، فنهضوا إليهم، ليأخذوا الديلم على غرة، فقاتلهم ركن الدولة فظفر بهم، - لأن البغي مَصْرَعةٌ - وهرب أكثرهم.

وفيها خرج معز الدولة من بغداد، إلى واسط، لقتال عمران بن شاهين، حيث تفاقم الحال بأمره، واشتهر في تلك النواحي صيت ذكره، فقوي المرض بمعز الدولة، فاستناب على الحرب، ورجع إلى بغداد، فكانت وفاته في السنة الآتية، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها قوِيَ أمرُ أبي عبد الله بن الداعي، ببلاد الديلم، وأظهر النسك والعبادة، ولبس الصوف، وكتب إلى الآفاق، حتى إلى بغداد، يدعو إلى الجهاد.

وفيها تمَّ الفداء بين سيف الدولة، وبين الروم،فاستنقذ منهم أسارى كثيرة، منهم ابن عمه أبو فراس بن سعيد بن حمدان، وأبو الهيثم بن حصن القاضي، وذلك في رجب منها.

وفي جمادى الآخرة، نودي برفع المواريث الحشرية، وأن ترد إلى ذوي الأرحام.

وفيها ابتدأ معز الدولة بن بويه، في بناء مارستان وأرصد له أوقافاً جزيلة.

وفيها قطعت بنو سليم السابلة، على الحجيج من أهل الشام، ومصر، والمغرب، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها، وكان عليها من الأموال والأمتعة، ما لا يُقَوَّمُ كثرة، وكان لرجل يقال له: ابن الخواتيمي، قاضي طرسوس، مائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار عيناً، وذلك أنه أراد

التحول من بلاد الشام، إلى العراق، بعد الحج، وكذلك وقع لكثير من الناس، وحين أخذتِ الجمال، تركوهم على بردِ الدِّيار، لا شيء لهم، فقل منهم من سلم، وما أكثر من عطب، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحجّ بالناس الشريف أبو أحمد نقيب الطالبيين من ناحية العراق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن داود بن علي بن عيسى بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله العَلَوِيّ الحَسَنِي**، قال الحاكم: أبو عبد الله النيسابوري: اكان شيخ آل رسول الله ﷺ، في عصره، بخراسان، وسيِّد العَلَوية في زمانه، وكان من أكثر الناس صلاةً، وصدقةً، ومحبةً للصحابة، وصحبته مدة، فما سمعته ذكر عثمان إلا قال: الشهيد، وبكى، وما سمعته ذكر عائشة إلا قال: الصِّديقة بنت الصِّدِّيق، حبيبة حبيب الله، وبكي.

وقد سمع الحديث من ابن خزيمة، وطبقته، وكان آباؤه بخراسان، وفي سائر بلدانهم، سادات نجباء، حيث كانوا منْ آل بيتِ رسول الله منهم لهـمْ دانتْ رقابُ بني مَعَدّ.

■ **محمد بن الحسين بن علي بن الحسن**: بن يحيى بن حسان بن الوضّاح، **أبو عبد الله الأنباري** الشاعر المعروف بالوضاحي، كان يذكر أنه سمع الحديث من المحاملي، وابن مخلد، وأبي روق. وروى عنه الحاكم أبو عبد الله شيئاً من شعره، كان أشعر من في وقته.

ومن شعره:

سقى الله بـاب الكرخ ربعاً ومنزلاً ... ومن حله صوب السحاب المُجلْجِلِ

فلو أن باكي دمنة الـدار بـالكوَى ... وجارتهـا أم الربـاب بمأسَـلِ

رأى عرصات الكرخ أو حل أرْضَها ... لأمسك عن ذكر الدَّخُول فحَوْمَلِ

أبو بكر

■ **ابن الجعابي: محمد بن عمر بن محمد بن سلم بن البراء بن سَبْرة ابن سيّار، أبو بكر بن الجعابي**، قاضي الموصل، ولد في صفر سنة أربع وثمانين ومائتين، سمع الكثير، وتخرج بأبي العباس بن عقدة، وأخذ عنه علم الحديث، وشيئاً من التشيع أيضاً، وكان حافظاً مكثراً مُطبِّقاً، يقال: إنه كان يحفظ أربعمائة ألف حديث، بأسانيدها، ومتونها، ويذاكر بستمائة ألف حديث، ويحفظ من المراسيل، والمقاطيع، والحكايات قريباً من ذلك، ويحفظ أسماء الرجال، وجرحهم، وتعديلهم، وأوقات وفياتهم،ومذاهبهم، حتى تقدم على أهل زمانه، وفاق سائر أقرانه.

وكان يجلس للإملاء، فيزدحم الناس عند منزله، وإنما كان يملي من حفظه إسناد الحديث، ومتنه محرراً جيداً، صحيحاً، وقد نُسب إلى التَّشيع، كأستاذه ابن عقدة، وكان يسكُن باب البصرة عندهم.

وقد سُئل عنه الدارقطني فقال: خلَّط.

وقال أبو بكر البرقاني: كان صاحب غرائب، ومذهبه معروف في التشيع، وقد حكى عنه، قلة دين، وشرب خمر، فالله أعلم.

ولما احتضر، أوصى أن تحرق كتبه، فحرقت، وحُرق معها كتب كثير من الناس، كانت عنده، فبئس ما عمل وحين أُخرج بجنازته، كانت سكينة نائحة الرافضة تنوح عليه في جنازته.

ترجمة النقفور ملك الأرمن واسمه الدُّمُسْتُق

■ **(النقفور)**

الذي توفي في سنة ثنتين ـ وقيل: خمس وقيل ست ـ وخمسين وثلاثمائة لا رحمه الله.

كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً، وأشدِّهم كُفراً، وأقواهم بأساً، وأحدِّهم شَوْكةً، وأكثرهم قتالاً للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه لعنه الله على كثير من السواحل، أو أكثرها، وانتزعها من أيدي المسلمين قسرا، واستمرت في يده قهرا، وأضيفت إلى مملكة الروم قدرا، وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم، وكثرة العصيان.

وقد ورد حلب في مائتي ألف مقاتل بغتةً، في سنة إحدى وخمسين، وجال فيها جَوْلة، ففرَّ من بين يديه صاحبها سيف الدولة، ففتحها اللعينُ عنوةً، وقتل من أهلها من الرجال والنساء ما لا يعلمه إلا الله، وخرب دار سيف الدولة التي كانت ظاهر حلب، وأخذ أموالها، وحواصلها، وعُدَدَها، وبدَّد شملها، وفرّق عِدَدها، واستفحل أمرُ الملعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون وبالغ في الاجتهاد في قتال الإسلام، وأهله، وجد في التشمير، فالحكم لله العلي الكبير، وقد كان لعنه الله لا يدخل في بلد، إلا قتل المقاتلة، وبقية الرجال، وسبى النساء والأطفال، وجعل جامعها إصطبلاً لخيوله، وكسر منبرها، وأسكت مؤذِّنيها بخيله، ورجله، وطبوله ولم يزل ذلك من دأبه، وديدنه حتى سلَّط الله عليه زوجته فقتلته، بجواريها، في وسط مسكنه وأراح الله منه الإسلام وأهله وأزاح عنهم قتامَ ذلك الغمام، ومزق شمله، فلله النعمة والإفضال، وله الحمد على كل حال.

واتفق في سنة وفاته، موت صاحب القسطنطينية فتكاملت المسرات، وحصلت الأمنيّة، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتذهب السيئات، وبرحمته تُغفرُ الزلاّت.

والمقصود أن هذا اللعين – أعني النَّقْفورَ المُلقَّب بالدُّمُسْتُق ملك الأرمن – كان قد أرسل قصيدة، إلى الخليفة المطيع لله، نظمها له بعض كتابه، ممن كان قد خذله الله وأذلَّه، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوةً، وصرفه عن الإسلام وأصله. يفتخر فيها بهذا اللعين، ويتعرَّضُ لسبِّ الإسلام، والمسلمين، ويتوعد فيها أهل حوزة الإسلام، بأنه سيملكها كلَّها، حتى الحرمين الشريفين، عما قريب من الأعوام، وهو أقلُّ، وأذل، وأخس، وأضلُّ من الأنعام، ويزعم أنه ينتصر لدين المسيح عليه السلام ابن البتول، وربما يعرض فيها بجناب الرسول عليه من ربه التحية والإكرام، ودوام الصلاة مدى الأيام. ولم يبلغني عن أحد من أهل ذلك العصر، أنه رد عليه جوابه، ربما أنَّها لم تشتهر، أو أنهم رأوا أنه أقلُّ من أن يردوا خطابه، لأنه كالمعاند الجاحد. ونفس ناظمها يدلّ على أنه شيطان مارد وقد انتَخى للجواب عنها فيما بعد ذلك أبو محمد بن حزم الظاهري: فأفاد، وأجاد، وأجاب عن كل فصلٍ باطلٍ، بالصواب، والسداد، فبل الله بالرحمة ثراه وجعل الجنة مُنْقَلبه ومثواه.

وها أنا أذكرُ القصيدة الأرمنية المخذولة الملعونة، وأتبعها بالفريدة الإسلامية المنصورة الميمونة.

قال المرتدُّ الكافر الأرمني على لسان ملكه لعنهما الله وأهل ملتهم، أجمعين، أكتعين، أبتعين، أبصعين آمين يارب العالمين ومن خط ابن عساكر كتبتها، وقد نقلوها من كتاب «صلة الصلة» للفرغاني:

مِنَ المَلِكِ الطُّهرِ المَسِيحيِّ مَالِكٍ ... إلى خَلَفِ الأَمْلاكِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
إلى المَلِكِ الفَضْلِ المُطِيعِ أخِي العُلا ... ومَنْ يُرْتَجَى لِلْمُعْضِلاتِ العَظَائِمِ
أَمَا سَمِعَتْ أُذْنَاكَ مَا أَنَا صَانِعٌ ... بلى فَدَهَاكَ الوَهْنُ عن فِعْلِ حَازِمِ
فَإنْ تَكُ عَمَّا تقلَّدتَ نائماً ... فَإنِّي عما هَمَّنِي غيرُ نائمِ
ثُغورُكُم لم يَبْقَ فيها لِوَهْيِكُمْ ... وضَعْفِكُمُ الا رُسُومُ المَعَالِمِ
فَتَحْنَا الثُّغُورَ الأَرْمَنِيَّةَ كُلَّهَا ... بِفِتيانِ صِدْقٍ كَاللُّيُوثِ الضَّرَاغِمِ
ونَحنُ جَلَبْنا الخَيْلَ تَعْلُكُ لُجْمَها ... ويَبْلُغُ مِنها قَضْمُها للشَّكائِمِ
إلى كُلِّ ثَغْرٍ بالجَزِيرَةِ آهِلٍ ... إلى جُنْدِ قِنْسرِينكُمْ فَالعَوَاصِمِ
مَلَطْيه من بعد مع سُمَيْساطَ وكَرْكَرٍ ... وفي البَحْرِ أضْعَافُ الفُتوحِ التَّواجِمِ
وبِالحَدَثِ الحمراءِ جَالَتْ عساكري ... وكَيْسُومُ بعدَ الجَعفريِّ المَعَالِمِ
وكَمْ قد ذَلَلْنا مِنْ أعِزَّةِ أهْلِها ... فَصاروا لَنا مِنْ بَيْنِ عَبْدٍ وخادِمِ
وسَدُّ سَرُوجٍ إذْ خَرَبْنا بجَمْعِنا ... لَنا رَنَّةٌ تَعلو على كلِّ قَائِمِ
وأهلُ الرُّهَا لاذوا بنا وتَحزَّمُوا ... بمنديلِ مَولًى جَلَّ عَن وَصفِ آدَمِ
وصَبَّحَ رَأْسَ العَيْنِ مِنا بطارِقٌ ... بِبِيضٍ عَلَوْنَاها بِضَرْبِ الجَمَاجِمِ
ودَارَا ومِيَّافَارِقِينَ وأرزَنَا ... صبحناهُمُ بالخَيْلِ مثلَ الضراغِمِ
وأَقْرِيطِشْ جرت إليها مَراكِبي ... عَلى ظَهْرِ بَحْرٍ مُزْبِدٍ مُتلاطِمِ
فَحُزْتُهُمْ أَسْرَى وسِيقَتْ نِساؤُهُمْ ... ذَوَاتُ الشُّعورِ المُسْبَلاتِ الفواحِمِ
هُنَاكَ فَتَحْنا عَيْنَ زَرْبَةَ عَنْوَةً ... نَعَمْ وأَبَدْنا كُلَّ طاغٍ وظَالِمِ
إلى حَلَبٍ حتى اسْتَبَحنا حَرِيمَها ... وهَدَّمَ مِنها سُورَها كُلُّ هادِمِ
أخَذْنا النِّسا ثُمَّ البَناتِ نَسُوقُهُمْ ... وصِبيانُهُم مِثْلُ المَماليكِ خادِمِ
وقد فَرَّ عنها سيفُ دولةِ دِينِكُمْ ... وناصِرُها مِنَّا على رَغْمِ رَاغِمِ
ومِلْنا على طَرَسُوسَ مَيْلَةَ هائِلٍ ... أَذَقْنا لِمَنْ فيها لِحَزِّ الحَلاقِمِ
فَكَمْ ذَاتِ عِزٍّ حُرَّةٍ عَلَوِيَّةٍ ... مُنَعَّمَةِ الأطْرَافِ رَيَّا المَعاصِمِ
سَبَيْنا فَسُقْنا خاضِعاتٍ حَواسِرًا ... بِغَيْرِ مُهُورٍ لا ولا حُكْمِ حاكِمِ
وكَمْ مِن قتيلٍ قد تَرَكْنا مُجَدَّلاً ... يَصُبُّ دَماً بَينَ اللُّها واللَّهازِمِ
وكَم وَقْعَةٍ في الدَّرْبِ أَفْنَتْ كُماتَكُم ... وسُقْناهُمُ قَسْراً كَسَوقِ البَهائِمِ
ومِلْنا على أرتاحِكم وحَرِيمِها ... مُدَوَّخَةً تحتَ العَجاجِ السَّواهِمِ
فَأَهْوَتْ أَعالِيهَا وبُدِّلَ رَسْمُها ... مِنَ الأُنسِ وَحْشاً بعدَ بِيضٍ نَواعِمِ
إذا صاحَ فيها البُومُ جاوَبَهُ الصَّدى ... وأتْبَعَهُ في الرَّبْعِ نَوْحُ الحَمائِمِ
وأنطاكُ لَمْ تَبْعُدْ عَلَيَّ وإنَّني ... سَأَفْتَحُها يوماً بِهَتْكِ المَحارِمِ
ومَسْكَنُ آبائي دِمَشْقُ فإنَّني ... سَأَرْجِعُ فيها مُلْكَنا تحت خاتَمي
ومِصْرٌ سأفتحُها بسَيفي عَنْوةً ... وآخُذُ أموالاً بها لِبَهائِمي
وأَجْزي كافُوراً بما يَستحِقُّهُ ... بِمُشْطٍ ومِقْراضٍ وقَصِّ مَحاجِمِ
ألا شَمِّرُوا يا أهلَ حَرَّانَ شَمِّروا ... أَتَتْكُم جُيوشُ الرُّومِ مِثْلَ الغَمائِمِ
فإنْ تَهْرُبُوا تَنْجُوا كِراماً وتَسْلَموا ... مِنَ المَلِكِ الضَّاري بِقَتلِ المُسالِمِ
هناكَ نِصِيبِينٌ ومُوصِلُها إلى ... جَزِيرةِ آبائي ومُلْكِ الأقادِمِ
سَأَفْتَحُ سَامَرًّا وكُوثَى وعُكْبَرًا ... وتَكْرِيتَها مع مَارِدِينَ العَواصِمِ
وأَقْتُلُ أهلِيها الرِّجالَ بِأَسْرِهِم ... وأَغْنَمُ أموالاً بها لِكَتائِمِ
ألا شَمِّروا يا أهلَ بَغدادَ ويلَكُم ... فكلُّكُم مُسْتَضْعَفٌ غيرُ رائِمِ
رَضِيتُم بِحُكْمِ الدَّيلَميِّ خليفةً ... فَصِرْتُم عبيداً للعبيدِ الدَّيالِمِ
ويا قاطِني الرَّمْلاتِ وَيلَكُم ارجِعوا ... إلى أرضِ صَنْعاءَ وأرضِ التَّهائِمِ
وعُودوا إلى أرضِ الحِجازِ أذِلَّةً ... وخَلُّوا بِلادَ الرُّومِ أهلِ المَكارِمِ
سَأُلْقِي جيوشي نحوَ بَغدادَ سائِراً ... إلى بابِ طاقٍ حيثُ دارُ القَماقِمِ
وأُحرِقُ أعلاها وأَهدِمُ سُورَها ... وأَسبي ذَرارِيها على رَغْمِ راغِمِ
وأُحْرِزُ أموالاً بها وأَسِرَّةً ... وأَقتلُ مَنْ فيها بِسَيفِ النَّقائِمِ
وأَسْرِي بجيشي نحوَ الأهوازِ مُسْرِعاً ... لإحْرازِ دِيباجٍ وخَزِّ السَّواسِمِ
وأُشْعِلُها نَهْباً وأُخْرِبُ قُصورَها ... وأَسبي ذَرارِيها كَفِعْلِ الأقادِمِ
ومِنها إلى شِيرازَ والرَّيِّ فاعْلَمُوا ... خُراسانُ قَصْدي والجيوشُ لِخادِمِ
إلى شاسِ بَلْخٍ بعدَها وخَواتِها ... وفَرْغانَةٍ مع مَرْوِها والمَخازِمِ
فَسَابورُ أُخْرِبُها وأَهْدِمُ حِصْنَها ... وأُورِدُها يوماً كَيَومِ المَآزِمِ
إلى السُّوسِ أقصاها أُدَقِّرُ مُلْكَها ... إلى أصبهانَ الأرضِ شرقَ الأعاجِمِ
وكَرْمانُ لا أنسى سِجِسْتانَ كُلَّها ... وكابُلَها الثاني ومُلْكَ الأعاجِمِ
أَسيرُ بِجُندي نحوَ بَصْرَتِها التي ... لها بَحْرُ عاجٍ رائِعٍ مُتلازِمِ
إلى واسِطٍ وَسْطَ العِراقِ وكُوفَةٍ ... بما كانَ يوماً جَدُّنا ذو العَزائِمِ
وأُسْرِعُ منها نحوَ مَكَّةَ سائِراً ... أَجُرُّ جيوشاً كاللَّيالي السَّواجِمِ
فأملِكُها دَهْراً عَزِيزاً مُسَلَّماً ... أُقِيمُ بها للحقِّ كُرْسِيَّ عالِمِ
وأَحْوِي لِجِدّاً كُلَّها وتِهامَها ... وسَرْواتِها مِن مَذْحِجٍ وقَحاطِمِ
وأغزو يَماناً كُلَّها وزَبِيدَها ... وصَنْعاءَها مع صَعْدَةٍ والتَّهائِمِ
إلى حَضْرَمَوْتٍ بِسَهلِها وجِبالِها ... إلى هَجَرٍ أَحْسائِها والتَّهائِمِ
فأتركُها أيضاً يَباباً بَلاقِعاً ... خَلاءً مِنَ الأهلِينَ أرضَ نَعائِمِ
وأَحْوِي أموالَ اليَمانِينَ كُلَّها ... وما جَمَعَ القِرْماطُ يومَ مَحارِمِ
أعودُ إلى القُدسِ التي شَرُفَتْ لنا ... بِعِزٍّ مَكِينٍ ثابِتِ الأصلِ قائِمِ
وأَعْلُو سَرِيري لِلسُّجودِ فيشتَفي ... مُلوكُ بني حَوَّا بِحَمْلِ الدَّراهِمِ
هُنالِكَ تَخلو الأرضُ من كُلِّ مُسلِمٍ ... لِكُلِّ نَقِيِّ الدِّينِ أَغْلَفَ ناعِمِ
نُصِرْنا عليكم حينَ جارَتْ وُلاتُكُم ... وأَعْلَنْتُمُ بِالمُنكَراتِ العَظائِمِ
قُضاتُكُم باعُوا القَضاءَ بِدِينِهِم ... كَبَيعِ ابنِ يعقوبَ بِبَخْسِ الدَّراهِمِ
عُدولُكُم بِالزُّورِ يَشهَدُ كُلُّهُم ... وبالبِرِّ والبِرْطِيلِ مع كُلِّ قائِمِ
سأفتحُ أرضَ اللهِ شَرقاً ومَغْرِباً ... وأَنشُرُ بينَ الصُّلْبِ نَشْرَ العَمائِمِ
فَعِيسى عَلا فَوقَ السَّمواتِ عَرْشُهُ ... فَفازَ الذي والاهُ يومَ الخَصائِمِ
وصاحِبُكُم في التُّرْبِ أَوْدَى بِهِ الثَّرَى ... فَصارَ رُفاتاً بَينَ تِلكَ الرَّمائِمِ
تَناوَلتُمُ أصحابَهُ بعدَ موتِهِ ... بِسَبٍّ وقَذْفٍ وانتِهاكِ مَحارِمِ

هذا آخرها لعن اللّه ناظمها وأسكنه النار ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُم ولَهُمُ اللَّعْنَةُ ولَهُم سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] يوم يدعو ناظمها ثبوراً ويصلى سعيراً، ويباشرُ ذلاً طويلاً، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان ٢٧ ـ ٢٩].

وهذا جوابها لأبي محمد بن حزم الفقيه الظاهري الأندلسي قالها ارتجالا حين بلغته هذه الملعونة غضبًا للّه ولرسوله كما شاهده من رآه فرحمه اللّه وأكرم مثواه وغفر له زلَلَه وخطاياه:

مِنَ المُحْتَمي باللّهِ رَبِّ العَوالِمِ   ودِينِ رَسولِ اللّهِ من آلِ هاشِمِ
محمدٍ الهادي إلى اللّهِ بالتُّقَى   وبالرُّشْدِ والإسلامِ أفضلِ قائِمِ
عليهِ من اللّهِ السلامُ مُرَدَّدًا   إلى أن يُوافي البَعْثُ كُلُّ العوالِمِ
إلى قائلٍ بالإفكِ جَهلا وضِلَّةً   عن النَّقفورِ المُفتري في الأعاجِمِ
دَعَوْتَ إماماً ليس من أمرِ آلِه   بكَفَّيْهِ إلا كالرسومِ الطَّواسِمِ
دَهَتْهُ الدواهي في خِلافتِه كما   دَهَتْ قبلَه الأملاكَ دُهْمُ الدواهِمِ
ولا عَجَبٌ من نكبةٍ أو مُلِمَّةٍ   تُصيبُ الكريمَ الحُرَّ وابنَ الأكارِمِ
ولو أنَّه في حالِ ماضي جُدودِه   لجُرِّعْتُم منه سُمومَ الأراقِمِ
عسى عَطفةٌ للّهِ في أهلِ دِينِه   تُجدِّدُ منهم دارساتِ المعالِمِ
فَخَرْتُم بما لو كان فَهْمٌ يُريكُمُ   حقائقَ حكمِ اللّهِ أحكمِ حاكِمِ
إذَنْ لَعَرَتْكُمْ خَجْلَةٌ عندَ ذِكْرِه   وأُخْرِسَ منكم كُلُّ فاهٍ مُخاصِمِ
سَلَبْناكم كَرًّا فَفُزْتُم بغِرَّةٍ   من الكَرِّ أفعالُ الضِّعافِ العزائِمِ
فَطِرْتُم سروراً عند ذاكَ ونخوةً   كفِعلِ المَهينِ الناقِصِ المُتعاظِمِ
وما ذاكَ إلا في تضاعيفِ غَفْلَةٍ   عَرَتْنا وصَرْفُ الدَّهرِ جَمُّ الملاحِمِ
ولَمَّا تنازَعْنا الأمورَ تَخاذُلاً   وَدالَتْ لأهلِ الجهلِ دولةُ ظالِمِ
وقد شَغَلَت فينا الخلائفَ فتنةٌ   لِعُبْدانِهِم من تُرْكِهِم والديالِمِ
بكُفْرِ أياديهم وجَحْدِ حُقوقِهم   بمَنْ رَفَعوه من حَضيضِ البَهائِمِ
وَثَبْتُم على أطرافِنا عند ذاكُم   وُثوبَ لصوصٍ عند غفلةِ نائِمِ
ألَمْ ننتزِعْ منكم بأيدٍ وقوةٍ   جميعَ بلادِ الشامِ ضربةَ لازِمِ
ومصرَ وأرضَ القَيْرَوانِ بأسْرِها   وأندلُساً قَسْراً بضربِ الجماجِمِ
ألَمْ تنتصِفْ منكم على ضعفِ حالِها   صِقِلِّيَّةٌ في بحرِها المُتلاطِمِ
أحلَّتْ بقُسْطَنطينيةَ كُلَّ نَكْبَةٍ   وسامَتْكُمُ سُوءَ العذابِ المُلازِمِ
مَشاهِدُ تقديساتِكم وبُيوتُها   لنا وبأيدينا على رَغْمِ راغِمِ
أمَا بيتُ لحمٍ والقُمامةُ بعدها   بأيدي رجالِ المسلمينَ الأعاظِمِ
وكُرْسيُّكُمْ في أرضِ إسْكَنْدَرِيَّةٍ   وكُرْسيُّكُمْ في القُدسِ في أورَشالِمِ
ضَمَمْناهُمُ قسراً برَغْمِ أُنوفِكُم   كما ضَمَّتِ الساقَيْنِ سودُ الأداهِمِ
وكُرْسيُّ أنطاكيَّةٍ كان بُرْهَةً   ودهراً بأيدينا بذُلِّ الملاغِمِ
فليس سوى كرسيِّ رومةَ فيكُمُ   وكرسيِّ قُسْطَنْطينةٍ في القَمادِمِ
ولا بُدَّ من عَوْدِ الجميعِ بأسْرِه   إلينا بعِزٍّ قاهرٍ مُتعاظِمِ
ألَيْسَ يزيدٌ حَلَّ وَسْطَ دِيارِكُم   على بابِ قُسْطَنْطينةٍ بالصَّوارِمِ
ومَسْلَمَةٌ قد داسَها بعدَ ذاكُمُ   بجَيْشٍ لُهامٍ كالليوثِ الضَّراغِمِ
وأخْدَمَكُم بالذُّلِّ مَسْجِدَنا الذي   بُني فيكُمُ في عصرِه المُتقادِمِ
إلى جنبِ قصرِ المُلكِ من دار مُلْكِكُم   ألا هذه حقاً صريعةُ صارِمِ
وأدَّى لهارونَ الرشيدِ مَليكُكُم   إتاوةَ مغلوبٍ وجِزيةَ غارِمِ
سَلَبْناكُمُ مَسْرى شُهوراً بقُوَّةٍ   حَبانا بها الرَّحمنُ أرحمُ راحِمِ
إلى بيتِ يعقوبٍ وأرباقِ نَوْمَةٍ   إلى لُجَّةِ البحرِ البعيدِ المحارِمِ
فهل سِرْتُمُ في أرضِنا قَطُّ جُمْعَةً   أبَى اللّهُ ذاكم يا بقايا الهزائِمِ
فما لكم إلا الأمانيُّ وخَنْعُها   بضائعُ نَوْكَى تلك أحلامُ نائِمِ
رويداً يَعُدْ نَحْوَ الخِلافةِ نُورُها   ويُسْفِرُ مُغْبَرُّ الوجوهِ السواهِمِ
وحينئذٍ تدرونَ كيفَ فِرارُكُم   إذا صَدَمَتْكُم خَيْلُ جيشٍ مُصادِمِ
على سالفِ العاداتِ مِنَّا ومنكُمُ   ليالي أنتم في عِدادِ الغَنائِمِ
سُبيتُم سبايا يَحْصُرُ العَدُّ دونَها   وسَبْيُكُم فينا كقَطْرِ الغمائِمِ
فلو رامَ خَلْقٌ عَدَّها رامَ مُعْجِزاً   وأنَّى بتِعْدادٍ لريشِ الحمائِمِ
بأبناءِ حَمْدانَ وكافورَ صُلْتُمُ   أراذِلَ أنْجاسٍ قِصارِ المعاصِمِ
دَعِيٌّ وحَجّامٌ سَطَوْتُم عليهما   وما قَدْرُ مَصّاصٍ دِماءَ المحاجِمِ
فَهَلاَّ على دِمْيانةٍ قبلَ ذاكَ أو   على مَحَلٍ أرْبا رُماةِ الضراغِمِ
ليالي قادوكم كما اقتادَ جازِرٌ   حلائبَ أتْياسٍ لِحَزِّ الحلاقِمِ
وساقوا على رِسْلٍ بناتِ مُلوكِكُم   سبايا كما سِيقَتْ ظِباءُ الصَّرائِمِ
ولكن سَلُوا عَنّا هِرَقْلاً ومَن خَلا   لكم من مُلوكٍ مُكْرَمينَ قُماقِمِ
يُخَبِّرْكُم عنّا المُتَوَّجُ منكم   وقيصرُكم عن سَبْيِنا لِلكرائِمِ
وعَمّا فَتَحْنا مِن مَنيعِ بلادِكم   وعَمّا أقَمْنا فيكم من مآتِمِ
ودَعْ كُلَّ نَذْلٍ مُفْتَرٍ لا تَعُدُّه   إماماً ولا من مُحْكَماتِ الدعائِمِ
فهيهاتَ سامَرَّا وتَكْريتُ منكمُ   إلى جَبَلٍ تلكم أمانيُّ هائِمِ
متى يَتَمَنّاها الضعيفُ ودُونَها   تَطايُرُ هاماتٍ وحَزُّ الغَلاصِمِ
ومِن دون بغدادٍ سيوفٌ حديدةٌ   مسيرةَ شهرٍ للفَنيقِ القَواصِمِ
مَحَلَّةُ أهلِ الزُّهدِ والخيرِ والتُّقى   ومَنْزِلَةٌ مُخْتَلُّها كُلُّ عالِمِ
دَعُوا الرَّمْلَةَ الصَّهْباءَ عنكم فلونَها   مِنَ المسلمينَ الصِّيدِ كُلُّ مُقاوِمِ
ودونَ دِمَشْقٍ جَمْعُ جيشٍ كأنّه   سحائبُ طيرٍ تنتحي بالقوادِمِ
وضَرْبٌ يُلقي الكُفْرَ كُلَّ مَذَلَّةٍ   كما ضَرَبَ السِّكِّيُّ بِيضَ الدراهِمِ
ومن دونِ أكنافِ الحجازِ جَحافِلٌ   كقَطْرِ الغيوثِ الهاملاتِ السواجِمِ
بها من بني عَدْنانَ كُلُّ سَمَيْدَعٍ   ومن حَيِّ قحطانَ كِرامُ العمائِمِ
وأموالُكُمْ حِلٌّ لهم ودماؤكُمْ   بها يُشْتَفَى حَرُّ النفوسِ الحوائمِ
ولو قد لَقِيتُم من قُضاعةَ كُبَّةً   لَقِيتُم ضِراماً في يَبِيسِ الهشائِمِ
إذا صَبَّحوكُم ذَكَّروكُم بما خَلا   لهمْ معكم من مأزِقٍ مُتلاحِمِ
زَمانَ يقودونَ الصَّوافِنَ نَحْوَكُم   فَجِئْتُم ضَماناً أنكم في المغانِمِ
سيأتيكُمُ منهمْ قريباً عَصائِبٌ   تُنَسِّيكُم تَذْكارَ أخْذِ العواصِمِ
وأموالُكم حِلٌّ لهم ودماؤكُم   بها يَشْتَفي حَرُّ الصُّدورِ الحَوائِمِ
وأرضُكُمُ حقاً سيقتسِمونَها   كما فعلوا دهراً بعَدْلِ المقاسِمِ
ولو طَرَقَتْكُم من خُراسانَ عُصْبَةٌ   وشِيرازُ والرَّيُّ القِلاعِ القوائِمِ
لَمَا كان منكُمْ عند ذلك غيرُ ما   عَهِدْنا لكم: ذُلٌّ وعَضُّ الأباهِمِ
فقد طالَ ما زاروكم في ديارِكُمْ   مسيرةَ عامٍ بالخيولِ الصلادِمِ
وأمّا سِجِسْتانٌ وكَرْمانُ والأُلى   بكابُلَ حَلُّوا في بلادِ البَراهِمِ
وفي فارسٍ والسُّوسِ جَمْعٌ عَرَمْرَمٌ   وفي أصبَهانَ كُلُّ أروعَ عارمِ

فلو قد أتاكم جمعُهُم لغدوتُم … فرائسَ للآسادِ مِثْلَ البهائمِ
وبالبَصْرَةِ الزَّهراءِ والكُوفَةِ التي … سَمَتْ وبأدنى واسطٍ كالكظائمِ
جُموعٌ تُسامي الرَّمْلَ جمٌّ عَديدُها … فما أحدٌ ينوي لقاءهمُ بسالمِ
ومِن دونِ بيتِ اللّهِ في مكةَ التي … حَبَاها بمَجْدٍ للثُّرَيَّا مُزاحِمِ
مَحَلُّ جميعِ الأرضِ منها تيقُّناً … مَحَلَّةُ سُفْلِ الخُفِّ من فَصِّ خاتِمِ
دِفاعٌ من الرَّحمنِ عنها بحقِّها … فما هو عنها كَرُّ طَرْفٍ برائمِ
بها دفع الأحْبوشَ عنها وقبلَهُمْ … بحَصْباءِ طَيْرٍ في ذُرا الجوِّ حائمِ
وجَمْعٌ كمَوْجِ البحرِ ماضٍ عَرَمْرَمٍ … حَمَى سُرَّةَ البَطْحاءِ ذاتِ المحارمِ
ومن دونِ قَبْرِ المُصطفى وَسْطَ طَيْبَةٍ … جُموعٌ كمُسْوَدٍّ من الليلِ فاحِمِ
يقودُهم جيشُ الملائكةِ العُلا … كِفاحاً ودَفْعاً عن مُصَلٍّ وصائمِ
فلو قد لقيناكُم لَعُدتُم رَمائِماً … بمن في أعالي نَجْدِنا والتَّهائمِ
وبالْيَمَنِ المَمْنوعِ فِتيانُ غارةٍ … إذا ما لقوكُمْ كنتُمُ كالمطاعِمِ
وفي حِلَّتَيْ أرضِ اليمامةِ عُصبَةٌ … مَغاويرُ أنجادٍ طِوالُ البراجِمِ
سَتُفْنيكُمُ والقرمطيينَ دولةٌ … تعودُ لِمَيْمونِ النَّقِيبةِ حازمِ
خليفةُ حقٍّ ينصُرُ الدينَ حُكْمُهُ … ولا يتقي في اللّهِ لَوْمَةَ لائمِ
إلى وَلَدِ العباسِ تُنْمَى جُدودُه … بفَخْرٍ عميمٍ أو لِزُهْرِ العباشِمِ
مُلوكٌ جَرَى بالنَّصرِ طائِرُ سَعْدِهم … فأهلاً بماضٍ منهم وبقادِمِ
مَحِلَّتُهم في مَسْجِدِ القدسِ أو لدى … منازلِ بَغْدادٍ مَحَلُّ المكارمِ
وإن كان من عُلْيا عَدِيٍّ وتَيْمِها … ومن أسدِ أهلِ الصلاحِ الخضارمِ
فأهلاً وسهلاً ثم نُعْمَى ومَرْحَباً … بهم من خيارِ السالفينَ أقادِمِ
هم نصروا الإسلامَ نصراً مُؤَزَّراً … وهم فتحوا البُلْدانَ فَتْحَ المُراغِمِ
رويداً فوعدُ اللّهِ بالصدْقِ واردٌ … بتجريعِ أهلِ الكُفْرِ طَعْمَ العَلاقِمِ
سنفتحُ قُسْطَنْطينَةَ وذَوَاتِهَا … ونجعلُكم قوتَ النُّسورِ القَشاعِمِ
ونملكُ أقصى أرضِكُم وبلادَكُم … ونُلْزِمُكم ذُلَّ الجِزَى والمَغارِمِ
ونفتحُ أرضَ الصينِ والهِنْدِ عَنْوَةً … بجيشٍ لأرضِ التُّركِ والخَزَرِ حاطِمِ
مواعيدُ للرَّحمنِ فينا صحيحةٌ … ولَيْسَتْ كأمثالِ العقولِ السقائِمِ
إلى أن يُرى الإسلامُ قد عَمَّ حُكْمُهُ … جميعَ البلادِ بالجيوشِ الصوارمِ
أتَقْرِنُ يا مَخْذولُ دينَ مُثَلِّثٍ … بعيداً عن المَعْقولِ بادي المآثِمِ
تَدينُ لِمَخْلوقٍ يَدينُ عِبادُهُ … فَيالَكَ سُحْقاً ليس يَخْفى لكاتِمِ
أناجيلُكم مَصْنوعَةٌ بتكاذُبٍ … كلامِ الأولى فيها أتَوا بالعظائمِ
وعُودُ صليبٍ ما تزالون سُجَّداً … لَهُ يا عُقولَ الهاملاتِ السَّوائِمِ
تَدينونَ تَضْلالاً بصَلْبِ إلهِكُم … بأيدي يهودٍ أرذَلينَ ألائمِ
إلى مِلَّةِ الإسلامِ توحيدِ رَبِّنا … فما دينُ ذي دينٍ لنا بمُقاوِمِ
وصِدْقِ رسالاتِ الذي جاءَ بالهُدَى … مُحمَّدٍ الآتي بنَفْعِ المظالمِ
وأذعنتِ الأملاكُ طوعاً لِدينِهِ … بِبُرهانِ صِدْقٍ طاهرٍ في المواسِمِ
كما دانَ في صنعاءَ مالِكُ دولةٍ … وأهلُ عُمَانٍ حيثُ رَهْطُ الجَهاضِمِ
وسائِرُ أملاكِ اليمانين أسلموا … ومن بلدِ البحرينِ قومُ اللهازمِ
أجابوا لِدينِ اللّهِ دونَ مَخافَةٍ … ولا رغبةٍ تَحْظى بها كَفُّ عادِمِ
فَحَلُّوا عُرَى التيجانِ طَوْعاً ورَغْبَةً … بحقٍّ يقينٍ بالبراهينِ ناجمِ
وحاباه بالنصرِ المَكينِ إلهُهُ … وصَيَّرَ مَنْ عاداهُ تحتَ المناسِمِ
فقيرٌ وحيدٌ لم تُعِنْهُ عشيرةٌ … ولا دفعوا عنه شَتيمةَ شاتِمِ
ولا عنده مالٌ عتيدٌ لناصرٍ … ولا دَفْعَ مَرْهوبٍ ولا لِمُسالِمِ
ولا وَعَدَ الأنصارَ مالاً يَخُصُّهُم … بَلَى كان مَعْصوماً لأقدرِ عاصِمِ
فلم تَمْتَهِنْهُ قطُّ قوةُ آسِرٍ … ولا مُكِّنَتْ مِن جِسْمِهِ يَدُ لاطِمِ
كما يَفتري إفكاً وزُوراً وضِلَّةً … على وَجْهِ عيسى منكم كُلُّ آثِمِ
على أنكم قد قلتُم هو ربُّكُم … فيا لَضَلالٍ في الحماقةِ عائمِ
أبى اللّهُ أنْ يُدْعَى له ابنٌ وصاحبٌ … سَتَلْقى دُعاةُ الكفرِ حالةَ نادِمِ
ولكِنَّهُ عَبْدٌ نبيٌّ مُكَرَّمٌ … مِن الناسِ مَخْلوقٌ ولا قولُ زاعِمِ
أيُلْطَمُ وَجْهُ الربِّ؟ تبّاً لِنَوْكِكُم … لقد فُقْتُم في ظُلْمِكُم كُلَّ ظالِمِ
وكَمْ آيةٍ أبدى النبيُّ مُحَمَّدٌ … وكَمْ عَلَمٍ أبداهُ للشركِ حاطِمِ
تساوى جميعُ الناسِ في نصرِ حَقِّهِ … فَلِلْكُلِّ في إعظامِهِ حالُ خادِمِ
فَعُرْبٌ وأحْبوشٌ وفُرْسٌ وبَرْبَرٌ … وكُرْدِيُّهُم قد فازَ قِدْحَ المُراحِمِ
وقِبْطٌ وأنباطٌ وخَزْرٌ ودَيْلَمٌ … ورُومٌ رَمَوكُم دونه بالقواصِمِ
أبَوا كُفْرَ أسلافٍ لهم فتَحَنَّفوا … فآبوا بحَظٍّ في السعادةِ جاثِمِ
به دخلوا في مِلَّةِ الحقِّ كُلُّهُم … ودانوا لأحكامِ الإلهِ اللوازمِ
به صَحَّ تفسيرُ المنامِ الذي أتى … به دانيالٌ قبلَهُ خَتْمَ خاتِمِ
وسِنْدٌ وهِنْدٌ أسلموا وتدَيَّنوا … بدينِ الهُدى في رَفْضِ دينِ الأعاجِمِ
وشَقَّ له بَدْرُ السمواتِ آيةً … وأشْبَعَ مِن صاعٍ له كُلَّ طاعِمِ
وسالتْ عيونُ الماءِ في وَسْطِ كفِّهِ … فأرْوى به جيشاً كثيرَ الهَماهِمِ
وجاءَ بما تقضي العقولُ بصِدْقِهِ … ولا كدَعاوٍ غَيْرِ ذاتِ قوائِمِ
عليه سلامُ اللّهِ ما ذَرَّ شارقٌ … تعاقَبَهُ ظَلْماءُ أسْحَمُ قاتِمِ
بَراهينُهُ كالشمسِ لا مِثْلُ قولِكُم … وتخليطُكُم في جَوْهَرٍ وأقانِمِ
لنا كُلُّ عِلْمٍ من قديمٍ ومُحْدَثٍ … وأنتُم حَميرٌ دامياتُ المحازِمِ
أتيتُم بشِعْرٍ بارِدٍ مُتَخاذِلٍ … ضعيفِ معاني النظمِ جَمِّ البلاغِمِ
فدُونَكَها كالعِقْدِ فيه زُمُرُّدٌ … ودُرٌّ وياقوتٌ بإحكامِ حاكِمِ

ثم دخلت سنة ست وخمسين وثلاثمائة

استهلّت هذه السنة، والخليفة المطيع لله، والسلطان معز الدولة ابن بُوَيْه الديلمي.

وعملت الروافض في يوم عاشوراء عزاء الحسين، على ما ابتدعوه من النوح.

ولما كان ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة، توفي معز الدولة أبو الحسن

■ **أحمد بن بويه الديلمي** – الذي أظهر الرفض، ويقال له: معز الدولة– بعلة الذرب، فصار لا يثبت في معدته شيء بالكُلّية، ولما أحس بالموت، أظهر التوبة، وأناب إلى الله عز وجل، ورد كثيراً من المظالم، وتصدق بكثير من أمواله، وأعتق خلقاً كثيراً من مماليكه، وعهد إلى ابنه

بختيار عز الدولة.

وقد اجتمع ببعض العلماء، فكلمه في السنة، وأخبره أن علياً زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب، فقال: والله ما سمعتُ بهذا قط. ورجع إلى السنة، ومتابعتها، ولما حضر وقت الصلاة، خرج ذلك الرجل إلى الصلاة، فقال له: أما تصلي ههنا؟ قال: لا، قال: ولِمَ؟ قال: لأن دارك مغصوبة. فاستحسن منه ذلك.

وكان معز الدولة حليماً، كريماً، عاقلاً، وكانت إحدى يديه مقطوعة، وهو أول من أحدث السعاة بين يدي الملوك، ليبعث بأخباره إلى أخيه ركن الدولة، إلى شيراز سريعاً، وحظي عنده أهل هذه الصناعة وتعلّم أهل بغداد ذلك، حتى كان بعضهم يجري في اليوم الواحد نيِّفاً وأربعين فرسخاً، وكان في البلد ساعيان ماهران، وهما فضل، وعرعوش، يتعصّبُ لهذا عوامّ أهل السُّنة، ولهذا عوام أهل الشيعة، وجرت لهما مناصف ومواقف.

ولما مات معز الدولة، دفن بباب التبن، في مقابر قريش، وجلس ابنه للعزاء وأصاب الناس مطر ثلاثة أيام تباعاً، فبعث عز الدولة إلى رؤوس الدولة، في هذه الأيام، بمال جزيل، لئلا تجتمع الدولة على مخالفته، قبل استحكام مبايعته، وهذا من عقله ودهائه.

وكان عمر معز الدولة ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ولايته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويومين، وقد كان نادى في أيامه بردِّ المواريث، إلى ذوي الأرحام، قبل بيت المال.

وقد سمع بعض الناس ليلة توفي معز الدولة هاتفاً يقول:

لما بلغتَ أبا الحسين ... مرادَ نفسك في الطَّلَبْ
وأمنتَ من حدثِ الليا ... لي واحتَجَبْتَ عن النُّوَبْ
مدتْ إليكَ يدُ الرَّدى ... وأخذتَ من بيتِ النَّهَبْ

ولما مات معز الدولة، قام بالأمر بعده ولده عز الدولة، فأقبل على اللّهو واللعب والاشتغال بأمر النساء، فتفرق شمله، واختلفت الكلمة عليه، وطمع الأمير منصور بن نوح الساماني، صاحب بلاد خراسان، في ملك بني بويه، وأرسل الجيوش الكثيفة، صحبة الملك وُشْمَكير، فلما علم بذلك ركن الدولة بن بويه، أرسل إلى ابنه عضد الدولة، وابن أخيه عز الدولة، يستنجدهما، فأرسلا إليه بجنود كثيرة، فركب فيها ركن الدولة، وبعث إليه وشمكير، يتهدده، ويتوعده، ويقول: لئن قدرت عليك، لأفعلن بك، ولأفعلن، فكتب إليه ركن الدولة يقول: لكني إن قدرت عليك، لأحسننّ إليك، ولأصفحنّ عنك فكانت العاقبة لهذا، فدفع الله عنه شره، وذلك أن وشمكير ركب فرساً صَعْبةً فتصيَّد عليها، فحمل عليه خنزير، فنفرت الفرس، فألقته على الأرض، فخرج الدم من أذنيه، فمات من ساعته، وتفرقت العساكر.

وبعث ابن وشمكير يطلب الأمان، من ركن الدولة، فأمّنه وأرسل إليه بالمال والرجال، ووفَّى بما قال، وصرف اللّه عنه كيد السامانية، وذلك بصدق النية، وحسن الطوية.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الفرج

■ علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد اللّه بن مروان بن الحكم الأموي، الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني»، وكتاب «أيام العرب»، ذكر فيه ألفاً وسبعمائة يوم من أيامهم ووقائعهم، وكان شاعراً أديباً كاتباً، عالماً بالأخبار وأيام الناس إلا أنه كان يتشيَّع.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٨٥/١٤]: ومثله لا يوثق به، فإنه يصرح في كتبه، بما يوجب عليه العشق، ويُهوِّن شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب «الأغاني»، رأى فيه كل قبيح ومنكر، وقد روى الحديث عن محمد بن عبد اللّه بن مُطَيَّن، وخلق، وروى عنه الدارقطني، وغيره.

توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وقال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣٠٨/٣، ٣٠٩]: وقيل: في التي بعدها وكان مولده في سنة أربع وثمانين ومائتين، التي توفي فيها البحتري الشاعر، وقد ذكر له مصنفاتٍ عديدة، منها «الأغاني»، و«الدّيارات»، و«أيام العرب» وغير ذلك.

■ **سيف الدولة بن حمدان، صاحب حلب، أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد اللّه ابن حمدان بن حمدون التغلبي الربعي الملقب بسيف الدولة** أحد الأمراء الشجعان، والملوك الكثيري الإحسان، على ما كان فيه من تشيع، وقد ملك دمشق في بعض الأوقات، واتفق له أشياء غريبة، منها أن خطيبه كان مصنف «الخُطَب النُباتيَّة»، أحد الفصحاء البلغاء وشاعره المتنبي، ومطربه أبو نصر الفارابي. وكان كريماً، جواداً معطياً للجزيل.

ومن شعره في أخيه ناصر الدولة صاحب الموصل:

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها ... وقلت لهم بيني وبين أخي فَرْقُ
وما كان لي عنها نكولٌ، وإنما ... تجاوزت عن حقي فتم لك الحقُّ
اما كُنْتَ ترضى أن أكون مُصَلّياً ... إذا كنت أرضى أن يكون لك

وله أيضاً:

قد جرى في دمعه دمُهُ ... فإلى كم أنت تظلِمُهُ
رُدْ عنه الطرف منك فقدْ ... جرَحَتْه منك أسهُمُهُ
كيف يَسْطيعُ التَّجلُّدَ مَنْ ... خطرات الوهم تُؤْلِمُهُ

وكان سبب موته الفالج، وقيل عسر البول: وتوفي بحلب، وحمل تابوته إلى ميّافارقين، فدفن بها، وعمره ثلاث وخمسون سنة، وقام بمُلك حلب من بعده، ولده سعد الدولة، أبو المعالي شريف، ثم تغلب عليه مولى أبيه، قَرْغُويه، فأخرجه من حلب، إلى أمه بميّافارقين، ثم عاد إليها كما سيأتي بيانه.

وذكر ابن خلكان، شيئاً كثيراً، مما قاله سيف الدولة، وقيل فيه، قال [وفيات الأعيان ٤٠١/٣]: ولم يجتمع بباب أحدٍ من الملوك، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من الشعراء، وقد أجاز لجماعة من الكبار منهم كالمتنبي الخالديّين والسري الرفّاء والنامي، والبَبْغاء، والوَأْواء، وغيرهم. وذكر ابن خلكان أنه ولد سنة ثلاث، وقيل: إحدى - وثلاثمائة، وأنه ملك حلب بعد الثلاثين وثلاثمائة، وكان قبل ذلك يملك واسطاً، ونواحيها، ثم تنقّلت به الأحوال حتى ملك حلب - انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي، صاحب الإخشيد ملك دمشق في وقت، وقد قال يوماً لندمائه: أيكم يجيزُ قولي؟ وما أظنُّ أحداً يجيزه:

لك جسمي تُعِلُّه ... فدمي لم تحله

فقال أخوه أبو فراس بديهة:

إن كنت مالكاً فلي الأمر كله

وفيها توفي

■ كافور الإخشيدي: مولى محمد بن طُغْج الإخشيد، وقد قام بالأمر من بعده، مولاه لصغر أولاده فملك كافور مصر، ودمشق، وناوأ سيف الدولة، وغيره.

وقد كتب على قبره:

انظرْ إلى غير الأيام ما صَنَعتْ ... أفنت أناساً بها كانوا وما فَنِيَتْ

دنياهمُ ضحكتْ أيامَ دولتهمْ ... حتى إذا فنيتْ ناحتْ لهمْ وبَكَتْ

■ أبو علي القالي صاحبُ «الأمالي»: إسماعيل بن القاسم بن عَيْذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، أبو علي، القالي، اللغوي، الأموي، مولاهم، لأن سليمان هذا كان مولى لعبد الملك بن مروان، والقالي نسبة إلى قاليقلا. ويقال: إنها أرزن الروم، فالله أعلم.

وكان مولده بمَنازْجِرْد، من أرض الجزيرة، من ديار بكر، وسمع الحديث من أبي يعلى الموصلي، وغيره، وأخذ النحو، واللغة عن ابن دريد، وأبي بكر بن الأنباري، ونفطويه، وغيرهم، وصنّف «الأمالي»، وهو مشهور، وله كتاب «البارع»، على حروف المعجم، في خمسة آلاف ورقة، وغير ذلك من المصنفات في اللغة.

ودخل بغداد، وسمع بها، ثم ارتحل إلى قرطبة، فدخلها في سنة ثلاثين وثلاثمائة، واستوطنها، وصنّف كتباً كثيرة فيها، إلى أن توفي بها، في هذه السنة، عن ثمان وستين سنة، قاله ابن خلكان.

وفيها توفي أبو علي

■ محمد بن إلياس، صاحب بلاد كرمان، ومعاملاتها، فأخذ عضد الدولة بن ركن الدولة بلاد كرمان، من أولاد محمد بن إلياس وهم ثلاثة اليسع، وإلياس وسليمان. الملك الكبير وشمكير، كما قدمنا ذكْرَه هذه السنة.

ومن توفي فيها من الملوك.

■ الحسن بن الفيرزان صاحبُ بلاد جُرجان.

■ معز الدولة بن بويه الديلمي كما تقدم ذكره، وسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب كما قدمنا ذكر ذلك.

قال ابن الأثير [الكامل ٥٨٠/٨]: وفيها هلك

■ النقفور ملك الروم، يعني الدمستق، صاحب بلاد الأرمن، وقد ذكرنا ترجمته وما ورد عنه من الشعر وأوردنا جوابها للإمام العلاّمة أبي محمد بن حزم الفقيه الظاهري رحمه الله تعالى.

ومن توفي بها

■ كافور الإخشيدي في قول ابن خلكان.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة

فيها شاع الخبر ببغداد، وغيرها من البلاد، أن رجلاً ظهر يقال له محمد بن عبد الله، وتلقب بالمهدي، وزعم أنه الموعود به في الحديث الوارد في المهدي، وأنه يدعو إلى الخير، وينهى عن الشر، ودعا إليه ناس ببغداد فإن دعوا سنّياً قالوا: هو من سلالة العباس، وإن كان المدعو شيعياً قالوا له: هو علويّ. وكان هذا الرجل إذ ذاك مقيماً بمصر، عند كافور الإخشيدي، قبل أن يموت، وكان يكرمه، وكان من جملة المستحسنين له، سبكتكين الحاجب، وكان شيعياً، فظنه علوياً، وكتب إليه أن يقدم إلى بغداد، ليأخذ له البلاد، فترحل من مصر، فلقيه سبكتكين إلى قريب الأنبار، فلما رآه، عرفه وإذا هو

محمد بن المستكفي بالله العباسي، فلما تحقق أنه عباسي، وليس بعلوي، انثنى رأيه عنه، فتفرق شمله، وتمزّق أصحاب كل مُمَزَّق، وحمل إلى عز الدولة بن معز الدولة، فأمنه، وتسلّمه المطيع لله فجدع أنفه، واختفى أمره، فلم يظهر له خبر بالكلية بعد ذلك.

وفيها وردت طائفة من الروم لعنهم الله، إلى بلاد أنطاكية، فقتلوا خلقاً، من حواضرها، وسبوا اثني عشر ألفاً من أهلها، ورجعوا إلى بلادهم، ولم يعرض لهم أحد.

عملت الروافض، في عاشوراء، المأتم، وفي يوم غدير خم الهناء والسرور.

وفيها عرض للناس في تشرين داء الماشرا، فمات به خلق كثير فجأة.فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفيها مات أكثر جمال الحجيج، في الطريق من العطش، ولم يصل منهم إلى مكة، إلا القليل، ومات أكثر من وصل منهم عامه ذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها اقتتل أبو المعالي شريف بن سيف الدولة، هو وخاله، وابن عم أبيه، أبو فراس بن سعيد بن حمدان الشاعر عند قرية يقال لها: صَدَدُ فقُتل أبو فراس في المعركة.

قال ابن الأثير [الكامل ٥٨٨/٨]: وقد صدق من قال: إن الملك عقيم.

وفيها أظهرت الشيعة الحزن الشديد يوم عاشوراء من الحرم وعملوا عيد غدير خُمٍّ في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وأظهروا الفرح والسرور.

ومن توفي فيها أيضاً

■ إبراهيم المتقي لله بن جعفر المقتدر، وكان قد ولي الخلافة، ثم أُلجئ إلى أنه خلع عنها في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة كما ذكرنا، ولَزِم بيته، فمات في هذه السنة، ودفن بداره، عن ستين سنة.

■ عمر بن جعفر بن عبد الله بن أبي السري: أبو جعفر البصري الحافظ ولد سنة ثمانين ومائتين وكان ينتخب على المشايخ حدّث عن أبي خليفة الفضل بن الحباب، وغيره، وقد انتقد عليه مائة موضع قال الدارقطني: فنظرت فيها، فإذا الصواب مع عمر بن جعفر.

■ محمد بن أحمد بن علي بن مخلد، أبو عبد الله الجوهري المحتسب، ويعرف بابن المُحْرِم، كان أحد أصحاب ابن جرير الطبري، وقد روى عن الكديمي، وغيره، وقد اتفق له، أنه تزوج امرأة، فلما أُدخلت عليه، جلس يكتب الحديث، فجاءت أمها، فأخذت الدواة، فرمت بها، وقالت: هذه أضر على ابنتي من ثلاثمائة ضَرَّة. وقد توفي في هذه السنة، عن ثلاث وتسعين سنة، وكان يُضعّفُ في الحديث.

■ كافور بن عبد الله الإخشيدي: كان مولى السلطان محمد بن طغج الإخشيدي، اشتراه من بعض أهل مصر، بثمانية عشر ديناراً، وقرّبه، وأدناه، واختصه من بين الموالي، واصطفاه، ثم جعله أتابكاً، حين ملك ولداه، ثم استقل بالأمور بعد موتهما، في سنة خمس وخمسين، واستقرت المملكة باسمه، يُدْعى له على المنابر، بالديار المصرية، والشامية، وبلاد الحجاز جميعاً، وكان شهماً، ذكياً فاتكاً جيد السيرة، مدحه الشعراء، وفد إليه المتنبي، حين ذهب مُغاضباً على سيف الدولة بن حمدان فآوى إلى كافور وحصل له منه رِفْد، ثم تغيّر عليه فأبعده كافور، فهجاه، ورحل عنه، وصار إلى عضد الدولة بن بويه وكان هنالك حتفه كما تقدم بيانه وأما كافور فإنه لما

توفي. دفن بتربته، المشهورة به، وقام بالمُلْكِ بعده أبو الحسن علي بن الإخشيد، ومنه أخذ الفاطميون الأدعياء، بلاد مصر، كما سيأتي. وكانت مملكة كافور سنتين وثلاثة أشهر رحمه.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

في عاشوراء، عملت الروافض بدعتهم، وفي يوم غدير خُمٍّ، عملوا الفرح، المبتدع.

وحصل بالعراق غلاء عظيم، كان يُعْدَم الخبز بالكلية، وعاثت الروم في البلاد فساداً، وحرَّقوا حمص، وأفسدوا فيها فسادا عريضا، وسبوا من المسلمين، نحواً من مائة ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

دخول جَوْهرِ القائد إلى الدِّيار المِصْرية

ودخل أبو الحسن جوهر القائد الرومي، في جيشٍ كثيف، من جهة المعز الفاطمي، إلى ديار مصر، يوم الثلاثاء، لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، فلما كان يوم الجمعة، خطب للمعز الفاطمي، على منابر الديار المصرية، وسائر أعمالها، وأمر جوهر المؤذنين بالجامع العتيق وبجامع ابن طولون، أن يؤذنوا بحي على خير العمل، وأن يجهر الأئمة بالبسملة. وذلك توفي كافور الإخشيدي، لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه، وأصابهم غلاء شديد، أضعفهم، فلما بلغ ذلك المعز وهو ببلاد إفريقية، بعث جوهراً القائد الرومي مولى أبيه المنصور في جيش كثيف إلى الديار المصرية. فلما بلغ ذلك أصحاب كافور، هربوا منها، قبل وصول جوهر إليها، فدخلها بلا ضربة، ولا طعنة ولا مُمانعة، ففعل ما ذكرنا من الأمور واستقرت أيديهم على تلك البلاد بعد كافور الإخشيدي.

وفي هذه السنة شرع جوهر القائد، في بناء القاهرة المعزية، وبناء القصرين عندها، على ما سنذكره. وهيأ الإقامات لمولاه المعز الفاطمي.

وفيها أرسل جوهر جعفر بن فلاح، في جيش كثيف، إلى الشام، فاقتتلوا قتالا شديداً. وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، وكان مطاعاً فيهم، فحاجف عن العباسيين مدة طويلة، ثم آل الحال إلى أن خُطِب للمعز بدمشق، وحمل الشريف أبو القاسم إلى الديار المصرية، وأسر الحسن بن عبد الله بن طغج، وجماعة من الأمراء، فحملوا إلى الديار المصرية فحملهم جوهر إلى المعز بإفريقية، واستقرت يد الفاطميين على دمشق، في سنة ستين كما سيأتي وأذن بها: حيٌّ على خير العمل، أكثر من سبعين سنة، وكُتِبت لعنة الشيخين رضي الله عنهما ولعن من لعنهما، على أبواب الجوامع بها، وأبواب المساجد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يزل ذلك كذلك، حتى أزالت ذلك دولة الأتراك، على ما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها دخلت الروم إلى حمص، فوجدوا أكثر أهلها قد جَلَوْا عنها وانتقلوا منها، فحرقوها، وأسروا ممن بقي فيها، ومن حولها، نحواً من مائة ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي ذي الحجة، نقل عز الدولة والده معز الدولة بن بويه، من داره إلى تربته، بمقابر قريش.

وممن توفي فيها من الأعيان على ما ذكره ابن الجوزي في «منتظمه»

■ كافور الإخشيدي؛ قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/١٩٩، ٢٠٠]: وقد رأيت مدح المتنبي لكافور تَحْملُ الذم والمدح وكأنه تَلَعَّب به والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرم منها، عملت الروافض بدعتهم الشنعاء، فغلقت الأسواق، وتعطلت المعايش، ودارت النساء سافرات عن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي، ويلطمن وجوههن، والمسوح معلقة في الأسواق، والتبن مَذْرورٌ فيها.

وفيها دخلت الروم الملاعين أنطاكية، فقتلوا من أهلها الشيوخ، والعجائز، وسبوا من النساء، والأطفال، نحواً من عشرين ألفاً، وذلك كله بتدبير ملك الأرمن، نقفور لعنه الله.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٢٠١]: وكان قد قهر، وطغى، وتمرّد، قد تزوج مع ذلك بامرأة الملك، الذي كان قبله، ولها منه ابنان،فأراد أن يخصيهما، ويجعلهما في الكنيسة، لئلا يصلحا بعد ذلك للملك، فلما فهمت ذلك أمهما عملت عليه، وسلَّطت عليه الأمراء، فقتلوه وهو نائم، وملَّكوا عليهم أكبر ولديها. وفي ربيع الأول صرف عن القضاء أبو بكر أحمد بن سيّار، وأعيد إليه أبو محمد بن معروف.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٢٠٢]: في هذه السنة نقصت دجلة، حتى غارت الآبار. وحج بالناس الشريف أبو أحمد النقيب.

قال: وانقضّ كوكبٌ في ذي الحجة، فأضاءت منه الدنيا، حتى بقي له شعاع كالشمس، ثم سمع له صوت كالرعد.

قال ابن الأثير [الكامل ٨/٥٩١]: وفي المحرم من هذه السنة، خطب للمعز الفاطمي بدمشق، عن أمر جعفر بن فلاح، الذي سيره جوهر القائد، من مصر إلى الشام، فقاتله أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة، فغلبه ابن فلاح، وأسره، وسيره إلى جوهر، فأرسله جوهر إلى المعز، وهو بإفريقية. واستقرت يد الفاطميين على دمشق أيضاً بعد حروب يطول ذكرها تطاول أمرها إلى آخر هذه السنة.

وفي هذه السنة وقعت المنافرة بين ناصر الدولة بن حمدان، وبين ابنه أبي تغلب، وسببه، أنه لما مات معز الدولة بن بويه ببغداد، عزم أبو تغلب ومن وافقه من أهل بيته، على الدخول إلى بغداد وأخذ مملكة العراق، فقال لهم أبوهم: إن معز الدولة، قد ترك لابنه، أموالاً جزيلةً، فلا تقدرون عليه، ما دامت في يده، ولكن اصبروا، حتى ينفقها، فإنه مبذر، فإذا أفلس، فثوروا عليه، فإنكم تغلبونه لا مَحالة فحقد عليه ولده أبو تغلب، بسبب ذلك، ولم يزل بأبيه، حتى سجنه بالقلعة، فاختلف أولاده بينهم، وصاروا أحزاباً، وضعفوا عن حفظ ما بأيديهم، حتى بعث أبو تغلب إلى عز الدولة، فضمن منه بلاد الموصل بألف ألف درهم كل سنة يحملها إليه، واتفق موت أبيه ناصر الدولة في هذه السنة، واستقر أبو تغلب بالموصل، وملكها، إلا أنهم فيما بينهم مختلفون متحاربون.

وفي هذه السنة دخل ملك الروم إلى طرابلس، فأحرق كثيراً منها، ومَلَك قلعة عِرْقَةَ، ونَهَبها وسبى أهلها وكان في قلعتها صاحب طرابُلُسَ، كان لجأ إليها حين أخرجه أهلُ طرابلس منها، لشدة ظلمه، فأسرته الروم، واستحوذوا على جميع أمواله، وحواصله، وكانت كثيرة جداً. ثم مالوا على السواحل، فملكوا ثمانية عشر منبراً، سوى القرى، وتنصر خلق كثير على

أيديهم، لعنهم الله تعالى.

وجاؤوا إلى حمص، فحرّقوا، ونهبوا، ومكث ملك الروم شهرين، يأخذ ما شاء من البلاد، ويأسر من قدر عليه من العباد، وصارت له مهابة عظيمة في قلوب الناس، ثم عاد إلى بلده، ومعه من السبي نحو من مائة ألف صبي وصبية، وكان سبب عوده إلى بلاده، كثرة الأمراض في جيشه، واشتياقهم إلى أولادهم وأهليهم وأوطانهم.

وبعث سرية إلى الجزيرة، فنهبوا، وسبوا، وكان قرعويه غلام سيف الدولة، قد استحوذ على حلب، وأخرج منها ابن أستاذه أبا المعالي شريف بن سيف الدولة، فسار إلى حران، وهي تحت حكمه، فأبوا أن يُدْخلوه إليهم، فذهب إلى أمه بميافارقين، وهي ابنة سعيد بن حمدان، فمكث عندها حينا، ثم سار إلى حَماةَ، فملكها، ثم عاد إلى حلب، بعد ستين كما سنذكره فيما بعد.

ولما عاثت الروم في هذه السنة بالشام، صانعهم قرعويه عن حلب، وبعث إليهم بأموال، وتحف، ثم عادوا إلى أنطاكية، فملكوها، وقتلوا خلقا كثيراً منها، وسبوا عامة أهلها، وركبوا إلى حلب، وأبو المعالي شريفٌ محاصرٌ غلامه قرعويه بها، فخافهم، أبو المعالي فهرب عنها، وحاصرها الروم، فأخذوا البلد، وامتنعت القلعة عليهم، ثم اصطلحوا مع قرعويه، على هدنةٍ مؤبّدةٍ، ومال، يحمله إليهم كل سنة، وسلموا إليه البلد، ورجعوا عنه. وفي هذه السنة خَرج على المعز الفاطمي، وهو بإفريقية، رجل يقال له: أبو خزر، فنهض إليه المعز بنفسه، وجنوده، فهرب منه، فأرسل في طلبه يوسف بن بلكين بن زيرى فشرّده، وطرده، ثم عاد، فاستأمن، فقبل منه المعز ذلك، وصفح عنه، وجاءه الرسول من جوهر القائد إلى المعز في هذه السنة، يبشره بفتح الديار المصرية، وإقامة الدعوة له بها، وطلبه إليها، ففرح بذلك المعز الفاطمي فرحاً شديداً، وامتدحه الشعراء، فكان ممن امتدحه شاعره محمد بن هانئ في قصيدة أولها:

يقول بنو العباس هل فُتِحتْ مصر فقلْ لبني العباس قد قضي الأمرُ

وذكر ابن الأثير [الكامل ٦٠٦/٨ - ٦٠٨]، أن في هذه السنة توفي النقفور الذي كان دمستقاً، ثم صار ملك الروم، وأراد قتل ابني الملك الذي كان قبله فغارت أمهما لهما فقتلته غيلة، قال: وقد كان من أبناء المسلمين، كان أبوه من أهل طرسوس، من خيار المسلمين، يعرف بابن الفقاس، فتنصر ولده هذا، وحظي عند النصارى، حتى صار من أمره ما صار، وكان من أشد الناس على المسلمين، وقد أخذ بلاداً كثيرةً عنوةً، من ذلك طرسوس، وأذنة، وعين زربة، والمصيصة، وغير ذلك من البلاد، وقتل خلقا كثيراً لا يعلمهم إلا الله عزوجل، وسبى من المسلمين والمسلمات ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وهذا اللعين، وهو الذي بعث تلك القصيدة إلى المطيع لله، وقد أوردناها في آخر الجزء الذي قبل هذا في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، ثم انتدب لها فيما بعد ذلك الفقيه الإمام. أبو محمد بن حزم الظاهري، فأجاب عنها جواباً شافياً كافياً، فجزاه الله عن الإسلام خيراً.

وفيها رام عزّ الدولة صاحب بغداد، محاصرة عمران بن شاهين، فلم يقدر عليه، فصالحه، ورجع إلى بغداد.

وفيها اصطلح قرعويه، وأبو المعالي شريف، فخطب بحلب وله قرعوية بحلب، وخطبا جميعاً في معاملتيهما للمعز الفاطمي، حمص، وخُطب بمكة للمطيع بالله، وللقرامطة أيضاً، وبالمدينة للمعز الفاطمي، وخطب أبو أحمد الموسوي بظاهرها للمطيع لله.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن أحمد بن الحسن بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله أبو علي الصواف**، روى عن عبدالله بن أحمد وطبقته، وعنه خلق منهم الدارقطني. وقال ما رأت عيناي مثله، في تحرُّزه، ودينه وقد بلغ تسعاً وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ **محارب بن محمد بن محارب أبو العلاء القاضي الفقيه الشافعي** من ذرية محارب بن دثار، وكان ثقة عالماً فاضلا روى عن جعفر الفريابي وغيره.

أبو الحسين

■ **أحمد بن محمد: المعروف بابن القطان** أحد أئمة الشافعية، تفقه بابن سريج، ثم بالشيخ أبي إسحاق المروزي، وتفرد برياسة المذهب، بعد موت أبي القاسم الداركي، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وكانت الرحلة إليه ببغداد، ودرس بها، وكتب شيئا كثيرا، وكانت وفاته رحمه الله تعالى في جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ستين وثلاثمائة

في عاشر محرم منها، عملت الروافض بدعتهم المحرمة، على عادتهم المتقدم ذكرها. وفي ذي القعدة منها، أخذت القرامطة دمشق، وقتلوا نائبها جعفر بن فلاح من جهة المعز الفاطمي،وكان رئيس القرامطة وأميرهم الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمده عز الدولة من بغداد بسلاح، وعدد كثيرة، ثم ساروا إلى الرملة، فأخذوها، وتحصّن بها من كان فيها من المغاربة بيافا، فتركوا عليها من يحصرها ثم ساروا نحو الديار المصرية في جمع كثير من الأعراب والإخشيدية والكافورية، فوصلوا عين شمس فاقتتلوا هم وجنود جوهر قتالاً شديداً، والظفر للقرامطة وحصروا المغاربة حصراً عظيماً.

ثم حملت المغاربة في بعض الأيام على ميمنة القرامطة فهزمتها ورجعت القرامطة إلى الشام فجدوا في حصار يافا فأرسل جوهر إلى أصحابه خمسة عشر مركباً ميرة لأصحابه، فأخذتها القرامطة سوى مركبين أخذتها مراكب الفرنج. وجرت خطوب كثيرة.

ومن شعر الحسين بن أحمد بن بهرام أمير القرامطة:

زعمت رجال الغرب أني هبْتُها فدمي إذن ما بينهم مَطْلُولُ

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النِّيلُ

وفيها تزوج أبو تغلب بن حمدان ابنة بختيار عز الدولة وعمرها ثلاث سنين على صداق مائة ألف دينار، ووقع العقد في صفر.

وفيها استوزر مؤيد الدولة بن ركن الدولة الصاحب أبا القاسم بن عباد فأصلح أموره كلَّها وساس دولته جيداً.

وفيها أُذّن بدمشق وسائر الشام بحي على خير العمل.

قال الحافظ ابن عساكر في ترجمة جعفر بن فلاح نائب دمشق: وأول من تأمرَّ بها عن الفاطميين وهو الذي أمر بذلك نيابة عن المعز الفاطمي صاحب القاهرة، اخبرنا أبو محمد بن الألْهاني قال: قال أبو بكر أحمد بن محمد بن شرام: وفي يوم الخميس لخمس خلون من صفر سنة ستين

وثلاثمائة أعلن المؤذنون في الجامع بدمشق وسائر مآذن البلد، ومآذن المساجد بحي على خير العمل بعد حي على الفلاح، أمرهم بذلك جعفر بن فلاح، ولم يقدروا على مخالفته، ولا وجدوا من المسارعة إلى طاعته بُدّاً.

وفي يوم الجمعة الثامن من جُمادى الآخرة منها أمر المؤذنون أن يُثنّوا الأذان والتكبير في الإقامة مثنى مثنى. وأن يقولوا في الإقامة: حي على خير العمل، فاستعظم الناس ذلك وصبروا على حكم الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الرفاء الشاعر السري بن أحمد بن السري أبو الحسن: الكندي الرفا الشاعر الموصلي، أرخ وفاته ابن الأثير في هذه السنة أعني سنة ستين وثلاثمائة، وكانت وفاته ببغداد، ذكر ابن الجوزي [المنتظم ٢١٨/١٤] أنه توفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة كما سيأتي.

■ محمد بن جعفر: بن محمد بن الهيثم بن عمران بن يزيد أبو بكر البُنْدار أصله أنباري. سمع من أحمد بن الخليل البُرْجُلاني، ومحمد بن أبي العوام الرياحي، وجعفر بن محمد الصائغ، وأبي إسماعيل الترمذي.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٠٧/١٤]: وهو آخر من روى عنهم. قالوا: وكانت أصوله جياداً بخط أبيه، وسماعه صحيحاً، وقد انتقى عليه عُمر البصري وكانت وفاته. فجأةً يوم عاشوراء وقد جاوز التسعين.

■ محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر الآجُرّيُّ: سمع جعفراً الفريابي، وأبا شعيب الحراني، وأبا مسلم الكجي وخلقاً، وكان ثقة صدوقاً ديناً، وله تصانيف كثيرة مفيدة، منها «الأربعون الآجُرّيّة»، وقد حدث ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة، ثم انتقل إلى مكة فأقام بها حتى مات بعد إقامته بها ثلاثين سنة رحمه الله تعالى.

■ محمد بن جعفر بن محمد بن مظفر، أبو عمرو الزاهد، سمع الكثير ورحل إلى الآفاق المتنائية، وسمع منه الحفاظ الكبار، وكان فقيراً متقللا يضرب اللبن لقبور الفقراء، ويتقوت برغيف بجزرة أو بصلة، ويقوم الليل كله. وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة عن خمس وتسعين سنة.

■ محمد بن داود أبو بكر الصوفي: ويعرف بالدقي أصله من الدينور وأقام ببغداد، ثم انتقل إلى دمشق، وقد قرأ على ابن مجاهد وسمع الحديث من محمد بن جعفر الخرائطي، وصحِبَ ابن الجلاّء، والدقاق. وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز المائة رحمه الله تعالى.

■ محمد بن القُرْخان بن روزبه أبو الطيب الدوريّ، دخل بغداد وحدث بها عن أبيه بأحاديث منكرة، وروى عن الجنيد وابن مسروق، قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٠٩/١٤]: وقد كان فيه ظرف ولباقة، غير أنهم كانوا يتّهمونه بوضع الحديث.

■ الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب: أبو القاسم الطبراني اللخمي الحافظ الكبير صاحب المعاجم الثلاثة: «الكبير»، و«الأوسط»، و«الصغير». وكتاب «السُّنة» وكتاب «مسند الشاميين»، وغير ذلك، من المصنفات المفيدة، عمر مائة سنة. وكانت وفاته في هذه السنة بأصبهان ودفن على بابها عند قبر حممة الدوسي الصحابي ﷺ، قاله أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ٢٠٦/١٤].

وقال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٤٠٧/٢]: وسمع من ألف شيخ، قال: وكانت وفاته في يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة من هذه السنة وقيل في شوال منها.

■ أحمد بن محمد بن الفتح - ويقال: ابن أبي الفتح - بن خاقان، أبو العباس بن النجاد، إمام جامع دمشق.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق ٤٣٩/٥]: كان عابداً صالحاً، وذكر أن جماعة جاؤوا لزيارته فسمعوه يتأوّه من وجع كان به، فأنكروا عليه، فلما خرج إليهم قال لهم: إن آه اسم من أسماء الله يستروح إليه الأعِلاّءُ، قال: فزاد في أعينهم وعظّموه.

قلت: هذا الذي قاله لا يؤخذ عنه مسلماً بلا دليل، بل يحتاج إلى نقل صحيح عن المعصوم، فإن أسماء الله تعالى توقيفية على الصحيح والله تعالى أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة

في عاشر المحرم منها عملت الروافض ببغداد البدعة التي تقررت من النوح على الحسين بن علي، رضي الله عنه وقبّحهم وفي المحرم منها أغارت الروم على الجزيرة وديار بكر فقتلوا خلقاً كثيراً من أهل الرُّها، وساروا في البلاد كذلك يقتلون ويأسرون ويغنمون إلى أن وصلوا نصيبين وفعلوا كذلك ببلاد بكر، ولم يغن عن أهل تلك النواحي أبو تغلب بن حمدان متوليها شيئاً، ولم يكن عنده دفاع ولا له قوة، فعند ذلك ذهب أهل الجزيرة إلى بغداد يستنصرون ويستصرخون، فرثى لهم أهل بغداد وأرادوا إدخالهم على الخليفة المطيع لله فلم يمكن ذلك، وكان بختيار بن معز الدولة مشغولا بالصيد فذهبت الرسل وراءه فبعث الحاجب سبكتكين يستنفر الناس، فتجهز خلق كثير من العامة، وكتب إلى أبي تغلب أن يعد الميرة والإقامات، فأظهر السرور بذلك والفرح والابتهاج، ولما تجهزت العامة للغزاة وقعت بينهم فتنة شديدة بين الروافض والسُّنّة، فأحرقت السنة دور الروافض بالكرخ وقالوا: الشر كله منكم، وصارت العَيّارون ببغداد يأخذون أموال الناس، وتناقض النقيب أبو أحمد الموسوي والوزير أبو الفضل الشيرازي، وأرسل بختيار بن معز الدولة إلى الخليفة يطلب منه أموالاً يستعين بها في هذه الغزوات، فبعث إليه يقول: لو كان الخراج يُجْبى إلي لدفعت منه ما يحتاج المسلمون إليه، ولكن أنت تصرف منه ما للمسلمين به ضرورة وأما أنا فليس عندي شيء أبعث به إليك، فترددت البرد بينهما وأغلظ بختيار للخليفة في ذلك وتهدده فاحتاج الخليفة أن يحصل له شيئاً فباع بعض ثياب بدنه وشيئاً من أثاثه، ونقض بعض سقوف داره وحصل له أربعمائة ألف درهم فصرفها بختيار في مصالح نفسه وأبطل تلك الغزاة، فنغمّم الناس للخليفة وساءهم ما فعل به ابن بويه من أخذه مال الخليفة وتركه الجهاد في سبيل الله، فلا جزاه الله خيراً عن المسلمين ولا عن إمامهم.

وفيها تسلم أبو تغلب بن حمدان قلعة ماردين فنقل حواصلها وما فيها إلى الموصل.

وفيها اصطلح الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان هو وركن الدولة بن بويه وابنه عضد الدولة على أن يحملا إليه في كل سنة مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار، وتزوج بابنة ركن الدولة، فحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يُحدُّ ولا يوصَفُ.

وفي شوال منها خرج المعز الفاطمي بأهله وحاشيته وجنوده من مدينة المنصورة من بلاد المغرب قاصداً البلاد المصرية، بعدما مهّد له مولاه جوهر

القائد أمرها وأطَّدها له وبنى له بها القصرين، واستخلف المعز الفاطمي على بلاد المغرب ونواحيها وصقلية وأعمالها نواباً من حزبه وأنصاره من أهل تلك البلاد، واستصحب معه شاعره محمد بن هانئ الأندلسي، فتوفي في أثناء الطريق، على ما سنذكره وكان قدوم المعز إلى القاهرة في رمضان من السنة الآتية على ما سيأتي.

وفيها حج بالناس الشريف أبو أحمد الموسوي النقيبُ على الطالبيين كلهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **سعيد بن أبي سعيد الجنابي، أبو القاسم القرمطي الهجري**، وقام بالأمر من بعده أخوه أبو يعقوب يوسف، ولم يبق من سلالة أبي سعيد سواه.

■ **عثمان بن عمر بن خفيف، أبو عمرو المقرئ المعروف بالدرّاج**، حدث عن أبي بكر بن أبي داود وعنه ابن رَزْقَوَيْه، وكان من أهل القرآن والفقه والدراية والديانة والستر، جميلَ المذهب، وكان يعد من الأبدال. وكانت وفاته يوم الجمعة في رمضان من هذه السنة رحمه الله.

■ **علي بن إسحاق بن خلف، أبو الحسن القطان**، الشاعر المعروف بالزاهي، ومن شعره:

قـم نهنئْ عاشقَيْن ... أصبحا مُصْطَلِحين
جمعا بعد فراقٍ ... فُجِعا منه وتبين
ثم عادا في سرورٍ ... من صُدودٍ آمِنَيْن
بهما روح ولكن ... ركبت في بَدَنَيْن

■ **محمد بن حميد بن سهل بن إسماعيل بن شداد أبو بكر المُخَرِّمِيّ**، سمع أبا خليفة وجعفراً الفريابي، وابن جرير وغيرهم، وعنه الدارقطني وابن رزقويه وأبو نعيم، وقد ضعفه البرقاني وابن أبي الفوارس وغيرهما.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وثلاثمائة

عملت الروافض بدعتهم في عاشوراء من النياحة وتعليق المسوح وغلق الأسواق.

وفيها اجتمع الفقيه أبو بكر الرازي الحنفي وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني وابن الدقاق الحنبلي بعز الدولة بختيار بن معز الدولة بنبويه وحرّضوه على غزو الروم فبعث جيشاً لقتالهم فأظفره الله بهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وبعثوا برؤوسهم إلى بغداد فسكنت أنفس الناس و لله الحمد والمنة.

وفيها سارت الروم مع الدمستق لعنه الله إلى حصار آمد وعليها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه فبعث إليه أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان، فاجتمعا لقتاله فلقياه في آخر يوم من رمضان في مكان ضيق لا مجال للخيل فيه، فاقتتلوا مع الروم قتالاً شديداً فعزمت الروم على الفرار فلم تقدر فاستحر فيهم القتل وأخذ الدمستق أسيراً فأودع في السجن فلم يزل فيه حتى مرض ومات في السنة القابلة، وقد جمع له أبو تغلب الأطباء له فلم ينفعه شيء.

وفيها احترق الكرخ ببغداد وكان سببه أن صاحب المعونة ضرب رجلا من العامة فمات فثار به العامة وجماعة من الأتراك، فهرب منهم فدخل داراً فأخرجوه مسحوباً وقتلوه وحرقوه، فركب الوزير أبو الفضل الشيرازي ـ وكان شديد التعصب للسنة ـ وبعث حاجبه إلى أهل الكرخ فألقى في دورهم النار فاحترقت طائفة كثيرة من الدور والأموال من ذلك ثلاثمائة دكان وثلاثة وثلاثون مسجداً، وسبعة عشر ألف إنسان، فعند ذلك عزل عز الدين بختيار ابن معز الدولة وزيره هذا عن الوزارة وولاّها محمد بن بقية، فتعجب الناس من ذلك كثيراً، وذلك أن هذا الرجل كان وضيعاً عند الناس لا حرمة له، كان أبوه فلاحاً بقرية أوانا، وكان هو ممن يخدم عز الدولة، يقدم له الطعام ويحمل منديل الزفر على كتفه، إلى أن ولي الوزارة، ومع هذا كان أشد ظلماً للرعية من الذي قبله، وكثر في زمانه العيارون ببغداد، وفسدت الأمور ببغداد. ووقع الخلاف بين عز الدولة وبين حاجبه سبكتكين ثم اصطلحا على دخن.

وفيها كان دخول المعز الفاطمي إلى الديار المصرية وصحبته توابيت آبائه، فوصل إلى الإسكندرية في شعبان منها، وقد تلقاه أعيان مصر إليها، فخطب الناس هنالك خُطبةً بليغةً ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم، وقد كذب فقال فيها إن الله أغاث الرعايا بهم وبدولتهم. وحكى ذلك عنه قاضي بلاد مصر وكان جالساً إلى جنبه فسأله: هل رأيت خليفةً أفضل مني؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائق سوى أمير المؤمنين. فقال له: أحججت؟ قال: نعم قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلني عنهما رسول الله كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، ونهضت إليه فسلمت عليه ورجعت فانفسح المجلس إلى غيري.

ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها في الخامس من رمضان من هذه السنة فنزل، القَصْرَيْن فقيل: إنه أول ما دخل إلى محل ملكه خر ساجداً شكرا لله عز وجل.

ثم كان أول حكومة انتهت إليه أن امرأة كافور الإخشيدي تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلا من اليهود الصُّوَّاغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحد ذلك، فاستحضره وقرره فجحد اليهودي ذلك وأنكره. فأمر عند ذلك المعز بأن تحفر داره ويستخرج منها ما فيها، فوجدوا القباء بعينه قد جعله في جَرَّةٍ ودفنها فيها، فسلمه المعز إليها فقدمته إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها وردّه عليها فاستحسن منه ذلك الحاضرون من مؤمن وكافر. وقد ثبت في الحديث [البخاري (٤٢٠٣)] عن النبي ﷺ: «إن الله لَيؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **السري الرفَّاءُ الشاعرُ بن أحمد بن السري أبو الحسن الكندي الموصلي**، الشاعر، له مدائح في سيف الدولة بن حمدان وغيره من الملوك والأمراء، وقد قدم بغداد فاتفق موته بها في هذه السنة، قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣٦٢/٢]: وقيل: في سنة أربع وقيل: خمس وستين. وقيل: سنة أربع وأربعين. قال [وفيات الأعيان ٣٦٠/٢]: وكانت بينه وبين محمد وسعيد ابنيْ هاشم الخالديَّيْن معاداة، وادعى عليهما سرقة شعره، وكان مُعتَنِياً بنسخ ديوان كُشاجِمَ الشاعر، وربما زاد فيه من شعر الخالديين ليكثر حجمه

ويزِّنُهما بالكذب.

وكان قد امتدح سيفَ الدولة فأجرى له رزقاً فلم يزل به الخالديّان حتى قطعا رَسْمَه من عنده، فدخل بغداد وامتدح الوزير المهلّبيّ، فرحلا وراءه فلم يزالا في ثَلْبه عنده حتى هجره وقلاه، فركبه الدَّينُ ومات في هذه السنة.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢/٣٦٠، ٣٦١]: وللسري الرفاء هذا ديوان شعر كبيرٌ جيد فمن شعره قوله:

يلقى الندى برقيق وجهٍ مسفرٍ فإذا التقى الجمعان عاد صَفيقا
رحب المنازل ما أقام، فإنْ سَرى في جحفل ترك الفضاء مَضيقا

وقوله:

ألبستني نعماً رأيتُ بها الدُّجى صبحاً وكنت أرى الصباح بَهيما
فغدوت يحسدني الصديقُ وقبلَها قد كان يلقاني العدوُّ رحيما

وقوله:

بنفسي من أجود له بنفسي ويبخلُ بالتحية والسلامِ
وحتفي كامنٌ في مقلتيه كُمُونَ الموت في حدِّ الحسامِ

■ محمد بن هانئ، الأندلسي الشاعر كان قد استصحبه المعز الفاطمي من بلاد القيروان حين توجه إلى يمدح الديار المصرية، فلما كان ببعض الطريق، وجد محمد بن هانئ مقتولا مجدلا على حافة البحر وذلك في رجب منها، وقد كان شاعراً مطبقاً قوي النظم إلا أنه كفَّره غير واحد من العلماء في مبالغاته في مدائحه، فمن ذلك قوله يمدح المعز قبّحهما الله.

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهّارُ

وهذا خطأ كبير، وكفرٌ كثير.

وقال أيضاً قبحه الله وأخزاه وفضّ فاه:

ولطالما زاحمتُ تحت ركابه جبريلا

ومن ذلك قوله ـ قال ابن الأثير: ولم أجد ذلك في ديوانه:

حلَّ بِرَقَّادةَ المسيح حلَّ بها آدم ونوحُ
حلَّ بها الله ذو المعالي فكل شيءٍ سواه ريحُ

قال ابن الأثير [الكامل ٦٢١/٨]: وقد شرع بعض المتعصبين في الاعتذار عنه. فالله أعلم.

قلت: هذا الشعر إن صح عنه فليس عنه اعتذار، لا في الدار الآخرة ولا في هذه الدار.

وممن توفي فيها:

■ إبراهيم بن محمد بن سَخْتَوَيْه بن عبد الله المزكي أحد الحفاظ المبرزين أنفق على الحديث وأهله أموالا جزيلة وسمع الناس بتخريجه، وعقد له مجلس للإملاء بنيسابور، ورحل وسمع من المشايخ شرقاً وغرباً، ومن مشايخه ابن جرير وابن أبي حاتم، وكان يحضر مجلسه خلق كثير من كبار المحدثين، منهم أبو العباس الأصم وأضرابه، وكانت وفاته في هذه السنة عن سبع وستين سنة.

■ سعيد بن القاسم بن العلاء بن خالد: أبو عمرو البَرْذَعيّ أحد الحفّاظ، روى عنه الدار قطني وغيره.

■ محمد بن الحسن بن كوثر بن علي: أبو بحر البربهاري، روى عن إبراهيم الحربي وتمّام والباغندي والكديمي وغيرهم، وقد روى عنه ابن رزقويه وأبو نعيم وانتخب عليه الدارقطني، وقال: اقتصروا على ما خرجته له فقد اختلط صحيح سماعه بفاسده. وقد تكلم فيه غير واحد من حفاظ زمانه بسبب تخليطه وغفلته واتهمه بعضهم بالكذب أيضاً.

القاضي

■ الحسين بن محمد بن أحمد أبو علي المَرْوَرُّوذيّ أحد مشايخ المذهب في زمانه وله التعليقة المشهورة تفقه بأبي بكر القفال المروزي، وأخذ عنه جماعة منهم البغوي صاحب «التهذيب» و«التفسير» و«شرح السنة» و«المصابيح» وغير ذلك، وقد ذكرته في «الطبقات» بما فيه كفاية. قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ١٣٤/٢]: وإذا قال الإمام والغزالي: قال القاضي، فهو هذا، والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة

فيها عُملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض، ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والروافض، وكلا الفريقين قليل عقل، بعيد عن السداد، وذلك أن جماعة من السُّنة أركبوا امرأة وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة، وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير، وعاثت العيارون في البلد بالفساد، ونهب الأموال وقتل الرجال، ثم أخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت النفوس.

وفيها أخذ عز الدولة بختيار بن معز الدولة الموصل، وزوج ابنته من أبي تغلب بن حمدان.

وفيها وقعت الفتنة بالبصرة، بين الديالم والأتراك، فقويت الديلم على الترك بسبب أن الملك فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وحبسوا رؤوسهم ونهبوا كثيراً من أموالهم. وكتب عز الدولة إلى أهله إني سأكتب إليكم أني قد مِتُّ فإذا وصل إليكم الكتاب فأظهروا النوح واجلسوا للعزاء، فإذا جاء سبكتكين للتعزية فاقبضوا عليه فإنه ركن الأتراك ورأسهم. فلما جاء البريد إلى بغداد بذلك أظهروا النوح والصُّراخ ففهم سبكتكين أن هذه مكيدة فلم يقربهم، وتحقق العداوة بينه وبين عز الدولة، وركب من فوره في الأتراك فحاصروا دار عز الدولة ببغداد يومين، ثم أنزل أهله منها ونهب ما فيها وأحدرهم من دجلة إلى واسط منفيين، وكان قد عزم على بعث الخليفة إليه، فعفا عنه وأقره بداره، وقويت شوكة سبكتكين والأتراك ببغداد، ونهبت الأتراك دور الديلم، وخلع سبكتكين على رؤساء العامة، لأنهم كانوا معه على الديلم، وقويت السنة على الشيعة وأحرقوا الكرخ حريقاً ثانياً، وظهرت السُّنة على أيدي الأتراك، وخلع المطيع وولي ولده الطائع لله على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

خلافةُ الطائع وخلع أبيه المطيع لله

ذكر ابن الأثير [الكامل ٦٣٧/٨] أنه لما كان اليوم الثالث عشر من ذي القعدة، وقال ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ٢٢٥/١٤]: كان ذلك يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة من هذه السنة، خلع المطيع لله وذلك لفالج أصابه فثقل لسانه، فسأله سبكتكين أن يخلع نفسه ويُولّيَ من بعده ولده الطائع، فأجاب فعقدت البيعة للطائع بدار الخلافة على يدي الحاجب

سبكتكين، وخلع أبوه المطيع بعد تسع وعشرين سنة كانت له في الخلافة، ولكن تعوض منها بولاية ولده.

واسم الطائع أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله أبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد أبي العباس أبي أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفّق بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ، ولم يل الخلافة من اسمه عبد الكريم سواه، ولا من أبوه حي سواه، وسوى أبي بكر الصديق ﷺ. ولم يل الخلافة من بني العباس أسنُّ منه حال الولاية، كان عمره ثمانياً وأربعين سنة، وكانت أمه أم ولد اسمها عُتُبُ، وكانت تعيش أيضاً يوم بويع بالخلافة. ولما بويع الطائع ركب وعليه البردة وبين يديه سبكتكين والجيش، ثم خلع من الغد على سبكتكين خلع الملوك ولقّبه نَصْرَ الدولة، وعقد له لواء الإمارة. ولما حضر الأضحى ركب الطائع وعليه السَّواد، فخطب الناس بعد الصلاة خطبةً خفيفةً حسنةً.

وحكى ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ٢٢٤/١٤] أن المطيع للّه كان يسمى بعد خلعه بالشيخ الفاضل.

ذِكْر الحرب بين المعز الفاطمي والحسن بن أحمد القرمطي

لما استقر المعز الفاطمي بالديار المصرية وابتنى فيها القاهرة والقصرين وتأطّد ملكه، سار إليه الحسن بن أحمد القرمطي من الأحساء في جمعٍ كثيفٍ من أصحابه، والتف معه أمير العرب ببلاد الشام وهو حسان بن الجرّاح الطائي، في عرب الشام بكمالهم، فلما سمع بهم المعز الفاطمي أسقط في يده لكثرتهم، وكتب إلى القرمطي يستميله ويقول له: إن دعوة آبائك إنما كانت إلى آبائي قديماً، فدعوتنا واحدة، ويذكر فيه فضله وفضل آبائه، فرد الجواب: وصل كتابك الذي كثر تفضيله وقل تحصيله ونحن سائرون إليك على إثره والسلام. فلما انتهوا إلى ديار مصر عاثوا فيها قتلاً ونهباً وإفساداً وحار المعز فيما يصنع لكثرة من مع القرمطي وضعف جيشه عن مقاومتهم، فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسّان بن الجراح أمير العرب ووعده بمائة ألف دينار إن هو خذل بين الناس، فأرسل إليه أن ابعث إليّ بما التزمت وتعال بمن معك، فإذا التقينا انهزمت بمن معي فأرسل إليه المعز بمائة ألف دينار في أكياس، ولكن أكثرها زَغَل أكثرها ضرب النحاس ولبسه الذهب وجعله في أسفل الأكياس، ووضع في رؤوس الأكياس الدنانير الخالصة، ولما بعثها إليه ركب في إثرها بجيشه فالتقى الناس ولما تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهم انهزم حسان بن الجرّاح بالعرب فضعف جانب القرمطي وقوي عليه الفاطمي فكسره، وانهزمت القرامطة بين يديه فرجعوا إلى أذرعات في أذل حال وأفلّه، وبَعث المعز في آثارهم القائد أبا المحمود بن إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف فارس، ليحسم مادة القرامطة.

ملك المعز الفاطمي دمشق وانتزاعه إياها من يد القرامطة

لما انهزم القرمطي وأصحابه بعث المعز سرية عليهم ظالم بن موهوب العقيلي، أميراً على دمشق فتسلمها من القرامطة بعد حصار شديد واعتقل متوليها أبا المُنَجَّا القرمطي وابنه، واعتقل رجلاً يقال له: أبو بكر من أهل نابلس، كان يتكلم في الفاطميين ويقول: لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم ورميتُ المغاربة - يعني الفاطميين - بتسعة، فسلخ بين يدي المعز وحشي جلده تبناً وصلب بعد ذلك. ولما تفرغ أبو محمود القائد من قتال القرامطة أقبل نحو دمشق فخرج إليه ظالم بن موهوب فتلقاه إلى ظاهر البلد وأكرمه وأنزله ظاهر دمشق، فأفسد أصحابه في الغوطة والمرج ونهبوا الفلاحين وقطعوا الطرقات على الناس، وتحوّل أهل الغوطة إلى البلد من كثرة النهب، وجيء بجماعة من القتلى فألقوا في الجامع فكثر الضجيج، وغلقت الأسواق، واجتمعت العامة للقتال، والتقوا مع المغاربة فقتل من الفريقين جماعة وانهزمت العامة غير مرة، وأحرقت المغاربة ناحية باب الفراديس، فاحترق شيء كثير من الأموال والدور، ولبثت الحرب بينهم إلى سنة أربع وستين وأُحرق البلد مرة أخرى بعد عزل ظالم بن موهوب وتوليةِ جيش بن صمصامة ابن أخت أبي محمود قبحه اللّه، وقطعت القنوات وسائر المياه عن البلد، ومات كثير من الفقراء في الطرقات من كثرة الجوع والعطش، ولم يزل الحال كذلك حتى ولي عليهم الطواشي ريان الخادم من جهة المعز، فسكنت الأمور و لله الحمد.

ولما قويت الأتراك ببغداد تحيّر عز الدولة بختيار بن معز الدولة في أمره وما يصنع وهو بالأهواز فأرسل إلى عمّه ركن الدولة يستنجده فأرسل إليه بعسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وأرسل إلى ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة فتباطأ عليه وأرسل إلى عمران بن شاهين فلم يجبه، وأرسل إلى أبي تغلب بن حمدان فأظهر نصره وإنما يريد في الباطن أخذ بغداد، وخرجت الأتراك من بغداد في جحفل كثير ومعهم الخليفة الطائع، وأبوه المطيع، فلما انتهوا إلى واسط توفي المطيع للّه وبعد أيام توفي سبكتكين أيضاً، فحملا إلى بغداد فالتفّت الترك على أمير يقال له: افْتِكين، فاجتمع شملهم والتقوا مع بختيار فضعف أمره جداً وقوي عليه ابن عمه عضد الدولة فأخذ منه ملك العراق وتمزق شمله، وتفرق أمره.

وفيها خطب للمعز الفاطمي بالحرمين مكة والمدينة النبوية.

وفيها خرج جمعٌ من بني هلال وطائفة من العرب على الحجاج فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعطّلوا على من بقي منهم الحج في هذا العام.

وفي هذا العام انتهى «تاريخ» ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة وأوله من أول دولة المقتدر سنة خمس وتسعين ومائتين.

وفيها كانت زلزلة شديدة بواسط.

وحجّ بالناس في هذه السنة الشريف أبو أحمد الموسوي، ولم يحصل لأحدٍ حج في هذه السنة سوى من كان معه على درب العراق، وقد أخذ بالناس على طريق المدينة فتمّ حجُّهم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **العباس بن الحسين: أبو الفضل الشيرازيّ** الوزير لعزّ الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، وكان من المتعصبين للسنة، عكس مخدومه، فعزله وولّى محمد بن بقية البابا كما تقدم، وحبس هذا فقتل في محبسه في ربيع الآخر منها، عن تسع وخمسين سنة، وكان فيه ظلم وحيف واللّه أعلم.

أبو بكر

■ **عبد العزيز بن جعفر بن أحمد الفقيه الحنبلي** المعروف بغلام الخلال، أحد مشاهير الحنابلة الأعيان وممن صنف وجمع وناظر، وسمع الحديث من أبي القاسم البغوي وطبقته، وكان عمره يوم توفي فوق الثمانين.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٣١/١٤]: وله «المُقْنع» في مائة جزء، و«الشافي»

في ثمانين جزءاً، و«زاد المسافر» و«الخلاف مع الشافعي» وكتاب «القولين» و«مختصر السُّنة»، وغير ذلك في التفسير والأصول.

■ علي بن محمد: أبو الفتح البستي الشاعر المشهور، له ديوان جيد قوي، وله في المطابقة والمجانسة يد طولى، ومبتكرات أولى. وقد ذكر ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ١٤/٢٣١-٢٣٣] من ذلك قطعة كبيرة مرتبة على حروف المعجم، فمن ذلك قوله:

إذا قنعتُ بميسور من القوتِ ... بقيت في الناس حراً غير ممقوتِ
يا قوت يومي إذا ما در خَلْفُك لي ... فلست آسى على درٍّ وياقوتِ

وله:

يا أيها السائل عن مَنْعَجي ... ليقتدي فيه بمنهاجي
منهاجي العدلُ وقمع الهوى ... فهل لِمُنهاجي من هاجي

وله:

أفد طبعك المكدود بالجدِّ راحةً ... تَجُمُّ، وعلله بشيء من المَزحِ
ولكن إذا أعطيت ذلك فليكُنْ ... بمقدار ما تعطي الطعام من المِلْحِ

وله:

إذا خدمت الملوك فالْبَسْ ... من التوقي أعز مَلْبَسْ
وادخل عليهم وأنت أعمى ... واخرج إذا ما خرجت أخْرَسْ

وله:

إذا شئت أن تلقى عدوك راغماً ... وتقتله وتحرقه غَمّا
فسام العُلا وازدد من الفضل إنهُ ... من ازداد فضلا زاد حاسِدُهُ غَمّا

وله:

إن أسيافنا العِضَابَ الدوامي ... صَيَّرتْ ملكنا طويلَ الدوام
لم نزل نحن في سداد ثغورِ ... واصطلام الأعداء من وسطٍ لام
واقتحام الأهوال من وقتٍ حامٍ ... واقتسام الأموال من وقتٍ سام

وله:

يا خادم الجسم كم تَشْقى بخِدْمَتِه ... أتطلب الربحَ مِمّا فيه خُسْرانُ
أقبِلْ على النفس واستكمل فضائلَها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

■ أبو فراس بن حمدان الشاعر: له ديوان مشهور. استنابه أخوه سيف الدولة على حران ومنبج، فقاتل مرةً الروم فأُسر، ثم استنقذه سيف الدولة، واتفق موته في هذه السنة عن ثمان وأربعين سنة، وله شعر رائق ومعانٍ حسنة.

وقد رثاه أخوه سيف الدولة:

المرء نَصْبُ مصائبٍ لا تَنْقضي ... حتى يواري جسمه في رَمْسِهِ
فمؤجل يلقى الردى في غيْرِهِ ... ومُعَجَّلٌ يلقى الردى في نَفْسِهِ

واتّفق، أنه كان عند سيف الدولة رجل من العرب، فقال: قُلْ في معناهما فقال الأعرابي:

مَنْ يتمَنَّ العمر فليتَّخِذْ ... صبراً على فقد أحِبّائِهِ
ومن يعمر يلق في نفسه ... ما يتمناه لأعْدائِهِ

كذا ذكر ابن الساعي هذين البيتين، من شعر سيف الدولة، في أخيه أبي فراس، وإنما ذكرها ابن الجوزي في «المنتظم» من شعر أبي فراس نفسه، وأن الأعرابي أجازهما بالبيتين المذكورين بعدهما.

وذكر من شعر أبي فراس. أشياء حسنة فمن ذلك قوله في قصيدة [المنتظم ٤/٢٢٩]:

سيفقدني قومي إذا جدَّ جِدُّهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البَدْرُ
ولو سَدَّ غيرى ما سددت اكتفوا به ... وما كان يغلو التبر لو نفق الصُّفْرُ

ومن ذلك قوله من قصيدة [المنتظم ١٤/٢٣٠]:

إلى اللّه أشكو إننا في منازل ... تحكم في آسادهن كِلابُ
فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذى بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خَرابُ

ثم دخلت سنة أربع وستين وثلاثمائة

فيها جاء عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، إلى واسط، ومعه وزير أبيه أبو الفتح بن العميد فهرب منه أفتكين في جماعة الأتراك إلى بغداد فسار وراءهم فنزل في الجانب الشرقي وأمر بختيار أن ينزل على الجانب الغربي، وحصر الترك حصراً شديداً، وأمر أمراء الأعراب، أن يغيروا على الأطراف، ويقطعوا الميرة الواصلة إلى بغداد فغلت الأسعار ببغداد جداً، وامتنع الناس من المعاش من كثرة العيارين والنَّهْب وكبس أفتكين البيوت لطلب الطعام واشتد الحال ثم التقت الأتراك وعضد الدولة، فكسرهم، وهربوا إلى تكريت، واستحوذ عضد الدولة على بغداد، وما والاها من البلاد، وكانت الترك قد أخرجوا معهم الخليفة فرده عضد الدولة إلى دار الخلافة مُكْرماً، ونزل هو بدار الملك، فضَعُف أمر بختيار جداً، ولم يبق معه شيء بالكلية فأغلق بابه وطرد الحجبة والكتبة عن بابه، واستعفى عن الإمارة، وكان ذلك بمشورة عضد الدولة، فاستعطفه عضد الدولة في الظاهر، وقد أشار عليه في الباطن، أن لا يقبل فلم يقبل.

وترددت الرسل بينهما، فصمم بختيار على الامتناع ظاهراً، فألزمه عضد الدولة بذلك وأظهر للناس أنه إنما يفعل هذا عجزا منه عن القيام بأعباء الملك، فأمر بالقبض على بختيار وعلى أهله وإخوته، ففرح بذلك الخليفة الطائع لله وسرَّ به، وأظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارساً، وجدد دار الخلافة، حتى صار كل محل منها آنساً، وأرسل إلى الخليفة بالأموال الكثيرة والأمتعة الحسنة، وقتل جماعة المفسدين مردة الترك، وشطّار العيّارين.

قال ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٢٣٤، ٢٣٥]: وفي هذه السنة، عظم البلاء بالعيارين ببغداد وأحرقوا سوق باب الشعير وأخذوا أموالاً كثيرة وركبوا الخيول وتلقّبوا بالقُوّاد وأخذوا الخفر من الأسواق والدروب، وعظمت المحنة بهم جداً، واستفحل أمرهم كثيراً، حتى إن رجلاً منهم، أسود كان مستضعفاً، نجم فيهم، فكثُر ماله، حتى اشترى جاريةً بألف دينار، فلما حصلت عنده، حاولها عن نفسها، فأبت عليه فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كلك فقال: فما تحبين؟ قالت: تبيعني، قال: أو خير من ذلك؟ فحملها إلى القاضي، فأعتقها، وأعطاها ألف دينار، وأطلقها، فتعجب الناس من حلمه، وكرمه، مع فسقه، وتمرُّده.

قال: وورد الخبر في المحرم، بأنه خطب للمعز الفاطمي بمكة والمدينة في

الموسم، ولم يخطب للطائع.

قال: وفي رجب منها، غلت الأسعار ببغداد، حتى بيع الكُرُّ الدقيق الحُوَّاري بمائة ونيف وسبعين ديناراً.

قال: وفيها اضمحلَّ أمر عضد الدولة بن رُكن الدولة بن بويه، وتفرق جنده عنه، ولم يبق معه سوى بغداد وحدها، فبعث إلى أبيه، يشكو له ذلك، فأرسل يلومه على الغدر بابن عمه عز الدولة فلمّا بلغه ذلك خرج من بغداد إلى فارس، بعدما أخرج ابن عمه بختيار من السجن، وخلع عليه، وأعاده إلى ما كان عليه، وشرط عليه أن يكون نائبا له بالعراق، يخطب له بها، وجعل معه أخاه أبا إسحاق أمير الجيوش لضعف بختيار عن تدبير الأمور، واستمرّ ذاهباً إلى بلاد فارس، وذلك كله عن أمر أبيه له بذلك، وغضبه عليه، بسبب غدره بابن عمه، وتكرار مكاتباته إليه في ذلك.

ولما سار عضد الدولة ترك بعده وزير أبيه أبا الفتح بن العميد ليلحقه بعد ثلاث فتشاغل بالقصف مع عز الدولة واللعب واللهو فأوجد ذلك وحشةً بين عضد الدولة وبين ابن العميد فكان ذلك سبب هلاك ابن العميد، ولما استقر أمر عز الدولة بختيار ببغداد، وملك العراق لم يف لابن عمه عضد الدولة بشيء مما كان عاهده عليه، ولا ما كان التزم له به بين يديه، بل تمادى في ضلاله القديم، واستمر على سنته الذي هو غير مستقيم.

قال: وفي يوم الخميس لعشر خلون من ذي القعدة، تزوج الخليفة الطائع لله شاه ناز بنت عز الدولة، على صداق مائة ألف دينار.

وفي سلخ ذي القعدة، عزل القاضي أبو الحسن محمد بن صالح ابن أم شيبان وقلده أبو محمد بن معروف.

وأقام الحج في هذه السنة أصحاب المعز الفاطمي، وخطب له بالحرمين الشريفين، دون الخليفة الطائع، والله سبحانه أعلم.

ذكر أخذ دمشق من أيدي الفاطميين

ذكر ابن الأثير في «كامله» [الكامل ٦٥٦/٨] أن أفتكين غلام معز الدولة الذي كان قد خرج عن طاعته، كما تقدم، والتف عليه عساكر وجيوش من الديلم، والترك، والأعراب، نزل في هذه السنة على دمشق ليأخذها من أيدي الفاطميين، وكان عليها ريان الخادم من جهة المعز الفاطمي، فلما نزل بظاهرها، خرج إليه كُبراؤها، وشيوخها، فذكروا له ما هم فيه من الظلم، والغشم ومخالفة الاعتقاد، بسبب ملك الفاطميين عليهم، وسألوه، أن يصمم على أخذ البلد ليستنقذها منهم فعند ذلك صمم على أخذها ولم يزل حتى أخذها وأخرج ريان الخادم منها، واستقلّ بأمرها وكسر أهل الشر، ورفع أهل الخير، ووضع العدل فيهم، وقمع أهل اللعب واللّهو، وكفّ أيدي الأعراب، الذين كانوا قد عاثوا في الأرض فساداً، وأخذوا عامة المرج، والغوطة، ونهبوا أهلها.

ولما استقامت الأمور على يديه، وصلح أمر أهل الشام عليه، كتب إليه المعز الفاطمي من مصر يشكر سعيه ويطلبه إليه ليخلع عليه ويجعله نائباً من جهته فلم يجبه إلى ذلك وخاف غائلته، وقطع خطبته من الشام وخطب للطائع العباسي، وقصد صيدا، وبها خلق من المغاربة، عليهم ابن الشيخ، وفيهم ظالم بن موهوب العقيلي الذي كان نائبا على دمشق للمعز الفاطمي كما تقدم فأساء بها السيرة، فحاصرهم، ولم يزل حتى أخذ البلد منهم، وقتل منهم نحواً من أربعة آلاف من سراتهم، ثم قصد طبرية، ففعل بأهلها

مثل ذلك، فعند ذلك، عزم المعز الفاطمي على المسير إليه وقتاله، فبينما هو يجمع له ويرتِّب الجيوش، إذ توفي المعز بمصر في سنة خمس وستين كما سيأتي، وقام بعده ولده العزيز، فاطمأن عند ذلك أفتكين بالشام، واستفحل أمره وقويت شوكته، فتشاوروا المصريون في أمره، فاتفق رأيهم على أن بعثوا جوهراً القائد إليه، وذلك على رأي الوزير يعقوب بن كِلِّس، فلمّا تجهّز جوهر القائد لقصد الشام حلّف أفتكين أهل دمشق على مناصرّته ومناصَحَته، فحلفوا له بذلك وجاء جوهر، فحصر دمشق سبعة أشهر، حصراً شديداً، ورأى من شجاعة أفتكين ما بهره، وحين طال الحال، أشار من أشار من الدماشقة على أفتكين أن يكتب إلى الحسن بن أحمد القرمطي وهو بالاحساء ليجيء إليه، فلما كتب إليه، أقبل لنصره، حين سمع به جوهر بقدومه لم يمكنه أن يبقى بين عدوين من داخل البلد ومن خارجها فارتحل قاصداً الرملة، فتبعه أفتكين والقرمطي في نحو من خمسين ألفا، فتواقعوا عند نهر الطواحين على ثلاثة فراسخ من الرملة وحصروا جوهراً بالرملة، فضاق حاله جداً، من قلة الطعام والشراب، حتى أشرف هو ومن معه على الهلاك سريعاً، فسأل أن يجتمع هو وأفتكين، على ظهور الخيل، فأجابه إلى ذلك، فلم يزل يترفق له، أن يطلقه، ليرجع بمن معه من أصحابه إلى أستاذه شاكراً له، مثنياً عليه الخير، ولا يسمع من القرمطي رأيه فيه وكان جوهر داهية فأجابه إلى ذلك، فندّمه القرمطي، وقال: الرأي أنّا كنا نحصرهم، حتى يموتوا عن آخرهم، فإنه الآن سيذهب إلى سيّده فيخبره، ثم يخرجه إلينا، ولا طاقة لنا به. فكان الأمر كما قال، فإنه لما أطلقه أفتكين من الحصر، لم يكن له دأب، إلا أنه حث العزيز على الخروج إلى أفتكين بنفسه وجيوشه، فأقبل في جحافل أمثال الجبال، وفي كثرة من الرجال، والعدد والأثقال، والأموال، وعلى مقدمته جوهر القائد. وجمع أفتكين والقرمطي الجيوش والأعراب، وساروا إلى الرملة، فالتقوا في محرم، سنة سبع وستين، ولما تواجهوا، رأى العزير من شجاعة أفتكين ما بهره، فأرسل إليه، يعرض عليه، إن أطاعه، ورجع إليه، أن يجعله مقدم عساكره، وأن يحسن إليه غاية الإحسان فترجل أفتكين عن فرسه، بين الصفين، وقبل الأرض نحو العزيز، وأرسل يقول إليه: لو كان هذا قبل هذا لأمكنني، وسارعت، وأطعت، وأما الآن فلا. ثم ركب فرسه، وحمل على الميسرة، ففرق شملها، وبدد خيلها، ورجلها، فبرز عند ذلك العزيز من القلب، وأمر الميمنة، فحملت حملة صادقة، فانهزم القرمطي، وتبعه بقية الشاميين، وركبت المغاربة أقفيتهم، يقتلون، ويأسرون من شاؤوا، وتحول العزيز فنزل خيام الشاميين بمن معه من الجيوش وأرسل السرايا وراءهم، وجعل العزيز لا يؤتى بأسير، إلا خلع على من جاء به، وجعل لمن جاءه بأفتكين مائة ألف دينار، فاتفق أن أفتكين عطش وهو منهزمٌ عطشاً شديداً، فاجتاز بمفرج بن دغفل، وكان صاحبه، فاستسقاه فسقاه ماء، وأنزله عنده في بيوته، وأرسل إلى العزيز يخبره، بأن الذي يطلُب عنده، فليحمل إليه الذهب، فأرسل إليه بمائة ألف دينار، وجاء من تسلمه منه، فلما أحيط بأفتكين، لم يشك أنه مقتول، فما هو إلا أن حضر عند العزيز أكرمه غاية الإكرام واحترمه غاية الاحترام وردَّ إليه حواصله، وأمواله، لم يفقد منها شيئا، وجعله من أخص أصحابه، وأمرائه، وأنزله إلى جانب منزله، ورجع به إلى الديار المصرية، مكرّماً، معظّماً، واقطعه هنالك إقطاعات جزيلة، وأرسل إلى القرمطي يعرض عليه، أن يقدم عليه، ويكرمه، كما أكرم أفتكين، فامتنع، وخاف على نفسه، فأرسل إليه بعشرين ألف دينار، وجعلها له في كل سنة، يكف بها شره، ولم يزل أفتكين مكرماً عند العزيز حتى وقع بينه وبين

الوزير يعقوب بن كلس، فعمل عليه، حتى سقاه سُمًّا، فمات، وحين علم الخليفة بذلك غضب على الوزير، وحبسه بضعاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار، ثم رأى أنه لا غنى به عن الوزير، وأعاده إلى الوزارة وذهب افتكين في حال سبيله. وهذا ملخص ما ذكره ابن الأثير في «كامله».

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **سبكتكين الحاجب التركي، مولى المعز الديلمي وحاجبه**، وقد ترقى في المراتب، حتى آل به الحال، إلى أن قلده الطائع الإمارة، وخلع عليه، وأعطاه اللواء، ولقبه بنور الدولة، وكانت مدة دولته في هذا المقام شهرين وثلاثة عشر يوماً، ودفن ببغداد، وداره هي دار الملك ببغداد، وهي دار عظيمةٌ جداً، وقد اتفق له، أنه سقط يوماً عن فرسه، فانكسر ضلعه، فداواه الطبيب، حتى استقام ظهره وقدر على الصلاة، إلا أنه لم يستطع الركوع، فأعطاه شيئا كثيراً من الأموال، وكان يقول للطبيب: إذا ذكرت مرضي، ومداواتك لي، لا أقدر على مكافأتك، ولكن إذا تذكرت، وضعك قدميك على ظهري، اشتدّ غيظي منك.

وكانت وفاته ليلة الثلاثاء، لسبع بقين من المحرم، وقد ترك من الأموال شيئاً كثيراً جداً، من ذلك ألف ألف دينار، وعشرة آلاف ألف درهم، وصندوقان من جوهر، وخمسة عشر صندوقاً من البلّور، وخمسة وأربعون صندوقا من آنية الذهب، ومائة وثلاثون مركباً من ذهب، منها خمسون وزن كل واحد ألف دينار، وستمائة مركب من فضة، وأربعة آلاف ثوب من ديباجاً، وعشرة آلاف دبيقيٍّ وعتّابي، وثلاثمائة عدل معكومة من الفرش، وثلاثة آلاف فرس، وبغل وألف جمل، وثلاثمائة غلام، وأربعون خادماً، وذلك غير ما أودع عند أبي بكر البزار صاحبه والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمائة

فيها قسم ركن الدولة بن بويه ممالكه بين أولاده، عندما كبرت سنه، فجعل لولده عضد الدولة بلاد فارس، وكرمان، وأرجان، ولولده مؤيِّد الدولة، الري وأصبهان، ولفخر الدولة، هَمَذان، والدينور، وجعل ولده أبا العباس، في كنف عضد الدولة، وأوصاه به.

وفيها جلس قاضي القضاة، ببغداد أبو محمد بن معروف، في دار عز الدولة وفي مجلسه، عن أمره له في ذلك لفصل الحكومات، وحكم بين الناس بين يديه، وفيها حج بالناس أمير المصريين من جهة العزيز بن المعزّ الفاطمي، بعدما حوصر أهل مكة، ولقوا شدةً عظيمةً، وغلت الأسعار عندهم جداً.

ذكر ابن الأثير [الكامل ٦٦٥/٨]، أن في هذه السنة ذهب يوسف بلكين - نائب المعز الفاطمي على بلاد إفريقية - إلى سبتة، فأشرف عليها من جبل، مطلٌّ عليها، فجعل يتأمل من أين يحاصرها، نصف يوم، فخافه أهلها خوفاً شديداً، ثم انصرف عنها، إلى مدينة هنالك، يقال لها: بصرة في المغرب، فأمر بهدمها، ونهبها، ثم سار إلى مدينة برغواطة، وبها رجل يقال له عيسى ابن أم الأنصار، وهو ملكها، وقد اشتدت المحنة به، لسحره، وشعبذته، وادعى أنه نبي، فأطاعوه، ووضع لهم شريعة، يقتدون به فيها فقاتلهم بلكين، فهزمهم، وقتل هذا الفاجر و لله الحمد والمنة، ونهب أموالهم وسبى ذراريهم، فلم ير سبي أحسن أشكالاً منهم، فيما ذكره أهل تلك البلاد، في ذلك الزمان.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن جعفر بن محمد بن سَلْم أبو بكر الخُتُلِّيّ**، له مسند كبير، روى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبي محمد الكجي، وخلق، وروى عنه الدارقطني، وغيره، وكان ثقة، قارب التسعين.

■ **ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي**: المؤرخ فيما ذكره ابن الأثير في «الكامل» [الكامل ٦٦٨/٨].

■ **الحسين بن محمد بن أحمد: أبو علي الماسرجسيّ** الحافظ، رحل، وسمع الكثير، وصنّف مسنداً في ألف وثلاثمائة جزء، بطرقه وعلله، وله «المغازي» و«القبائل»، وخرّج على الصحيحين، وغيرهما.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٩٢/١٤]: وفي بيته، وسلفه، تسعة عشر مُحدِّثاً، توفي في رجب من هذه السنة.

الحافظ أبو أحمد

■ **عبد الله بن عدي بن عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن أبي أحمد الجرجاني** الكبير، المفيد، الإمام، العالم، الجوّال النقّال، الرحّال، له كتاب «الكامل» في الجرح والتعديل،لم يسبق إلى مثله، ولا يلحق في شكله.

قال حمزة عن الدارقطني: فيه كفاية، لا يزاد عليه. ولد ابن عدي، في سنة سبع وسبعين ومائتين وهي السنة التي توفي فيها أبو حاتم الرازي، وتوفي ابن عدي في جمادى الآخرة من هذه السنة.

المعز الفاطمي

باني القاهرة المُعِزِّيَّة معد بن إسماعيل بن سعيد ابن عبيد الله أبو تميم المدعي أنه فاطمي، صاحب الديار المصرية، وهو أول من ملكها من الفاطميين، وكان ملكهم ببلاد إفريقية، وما والاها من بلاد المغرب، فلما كان في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، بعث بين يديه جوهراً القائد، فأخذ له البلاد المصرية، من كافور الإخشيدي، بعد حروب تقدّم ذكرها، واستقرت يد جوهر القائد عليها، فبنى بها القاهرة المعزية، ونزل الملك المكان المسمى بالقصرين ثم أُقيمت الخطبة للمعز الفاطمي، في سنة ثنتين وستين وثلاثمائة، وقدم المعز كما ذكرنا، في جحافل عظيمة، ومعه الأمراء من المغاربة، والأكابر والقوّاد، وحين نزل الإسكندرية، تلقاه وجوه الناس إليها، فخطبهم بها خطبة بليغة افتخر فيها بنسبه ومُلكه وادعى أنه يعدل وينصف المظلوم من ظالمه، وأن الله قد رحم الأمة بهم واستنقذهم من أيدي الظلمة إلى عدلهم وإنصافهم، وهو مع ذلك يدّعي ظاهر الرفض، ويُبطن - كما قال القاضي الباقلاني - الكفر المحض، وكذلك أهل طاعته، ومن نصره، ووالاه واتبعه في مذهبهم، قبحهم الله وإياه.

وقد أحضر إلى بين يديه، الزاهد، العابد، التقي، أبو بكر النابلسي، فاوقف بين يديه فقال له المعز: بلغني، أنك قلت: لو كان معي عشرة أسهم، لرميت الروم بسهم، ورميت المعزيين بتسعة، فقال: ما قلت هذا فظن أنه قد رجع، وقال: فكيف قلت؟ قال: قلت ينبغي أن يرميكم بتسعة، ثم نرميهم بالعاشر قال: ولِمَ؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية. فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضرب بالسياط في اليوم الثاني ضربا شديداً مبرحاً، ثم أمر بسلخه في اليوم

الثالث، فجيء بيهودي، فجعل يسلخه، وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه، طعنته بالسكين، فمات رحمه اللّه تعالى. فقيل له: الشهيد، وإليه ينسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم.

وقد كان المعز ذا شهامة، وقوة، وشدة عزم، وله سياسة، ويظهر أنه يعدل، وينصر الحق، ولكنه مع ذلك كان مُنجِّماً، يعتمد ما يُرصد من حركات النجوم، قال له منجمه: إن عليك قطعاً في هذه السنة، فتوار عن وجه الأرض، حتى تنقضي هذه المدة فعمل له سِرْداباً، وأحضر الأمراء، وأوصاهم بولده نزار، ولقبه بالعزيز، وفوض إليه الأمر، حتى يعود إليهم، فبايعوه على ذلك، ودخل ذلك السرداب، فتوارى فيه سنة فكانت المغاربة، إذا رأى الفارس منهم سحاباً سارياً، ترجل عن فرسه، وأومأ إليه بالسلام، ظانين أن المعز في ذلك الغمام:﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] ثم برز إليهم بعد مُضيّ سنة، وجلس في مقام الملك، وحكم على عادته، ولكنه لم تطل مدته بعد ذلك، بل عاجله القضاء المحتوم، والحين المقسوم، فكانت وفاته في هذه السنة، وكانت مدة أيامه في الملك، ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، منها بمصر سنتان وتسعة أشهر، وجملة عمره كله خمس وأربعون سنة وستة أشهر، لأنه ولد بإفريقية في حادي عشر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وكانت وفاته بمصر، في اليوم السابع عشر، من ربيع الآخر، سنة خمس وستين وثلاثمائة، وهي هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة

فيها توفي

■ ركن الدولة أبو علي بن بويه، وقد جاوز السبعين سنة، وكانت أيام ولايته نيِّفاً وأربعين سنة، وقبل موته في السنة الماضية، قسم ممالكه بين أولاده، كما ذكرنا، وقد عُملت ضيافة في دار ابن العميد بأصبهان حافلة، حضرها ركن الدولة، وبنوه، وأعيان دولته، فعهد في هذا اليوم إلى ابنه عضد الدولة، وخلع عضد الدولة على إخوته وسائر الأمراء الأقبية والأكسية على عادة الديلم، وحيَّوْه بالريحان، على عادتهم أيضاً، وكان يوماً مشهوداً. ثم توفي ركن الدولة بعده بقليل في هذه السنة، وقد كان سائساًحليماً، وقوراً، كثير الصدقات، محباً للعلماء، فيه إيثار وكرم كثير، وحسن عشرة، ورياسة على أقاربه ودولته ورعيته.

وحين تمكن ابنه عضد الدولة، قصد العراق، ليأخذها من ابن عمه عز الدولة بختيار، لسوء سيرته، ورداءة سريرته، فالتقوا في هذه السنة بأرض الأهواز، فهزمه عضد الدولة، وأخذ أثقاله، وأمواله، وبعث إلى البصرة، فأخذها، وأصلح بين أهلها حيي ربيعة ومضر وقد كان بينهما خُلْفٌ متقادم من نحو مائة وعشرين سنة، وكانت مضر تميل إليه، وربيعة عليه، ثم اتفق الحيان واجتمع عليه الفريقان، وقويت شوكة عضد الدولة فعزل عز الدولة، وقبض على وزيره ابن بقية لأنه استحوذ على الأمور دونه وجبى الأموال إلى خزائنه، فاستظهر عز الدولة، بما وجده من الحواصل لابن بقية، ولم يبق له منها بقية.

وكذلك أمر عضد الدولة، بالقبض على وزير أبيه، أبي الفتح بن العميد، لموجدة تقدمت منه إليه، وقد سلف ذكرها [فلم يبق لابن العميد أيضا في الأرض بقية، وقد كانت الأكابر تتقي منهم المتقية. وقد كان ابن العميد من الفسوق والعصيان، بأوفر مكان، فخانته المقادير، وعاجله غضب السلطان، نعوذ باللّه من غضب الرحمن.

وفي منتصف شوال من هذه السنة توفي الأمير منصور بن نوح الساماني، صاحب بلاد خراسان، ببخارى وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وقام بالأمر بعده، ولده أبو القاسم نوح، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، ولقب بالمنصور.

وفيها توفي الحكم، ولقبه

■ المستنصر باللّه بن الناصر لدين اللّه عبد الرحمن الأموي، وقد كان هذا من خيار الملوك، وعلمائهم، عالماً بالفقه، والخلاف، والتواريخ، محبا للعلماء، محسنا إليهم، وكانت وفاته وله من العمر ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر، مدة خلافته منها خمسة عشرة سنة وخمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده، ولده هشام، وله عشر سنين، ولقب بالمؤيد باللّه، وقد اختلف عليه في أيامه، واضطربت الرعايا عليه، وحبس مدة، ثم أخرج، وأعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري، وابناه المظفر والناصر، فساس الرعايا جيداً وعدل فيهم وغزا الأعداء واستقر لهم الحال كذلك نحواً من ست وعشرين سنة. وقد ساق ابن الأثير [الكامل ٨/٦٧٧-٦٨٢] ههنا قطعةً من اخبارهم وأطال شرقها.

وفيها رجع ملك حلب إلى أبي المعالي شريف بن سيف الدولة ابن حمدان، وذلك أنه لما مات أبوه، وقام من بعده تغلَّب مولاهم قرعويه عليهم، وأخرجه منها، خائفا يترقب، فسار إلى أمِّه بميّافارقين في سنة سبع وخمسين ثم جاء، فنزل حماة، وكانت الروم قد خربت حمص، فسعى في عمارتها، وترميمها، وسكنها، ثم إن قرعويه استناب في حلب مولىً له يقال له: بكجور فتغلب عليه وسجن مولاه قرعويه بقلعتها نحواً من ست سنين فكتب أهل حلب إلى أبي المعالي، وهو بحمص، أن يأتي إليهم، فسار فحاصر حلب أربعة أشهر، فافتتحها، وامتنعت القلعة عليه، وقد تحصن بها بكجور، ثم اصطلح مع أبي المعالي على أن يؤمنه على نفسه، ويستنيبه بحمص ففعل فناب له بكجور بحمص، ثم انتقل في وقت إلى نيابة دمشق، وإليه تنسب هذه المزرعة، ظاهر دمشق من غربها التي تعرف بالقصر البَكْجوري.

ابتداء ملك بني سبكتكين والد محمود صاحب غزنة

وقد كان سبكتكين هذا مولىً للأمير أبي إسحاق بن البتكين صاحب جيش غزنة وأعمالها للسامانية، وليس هذا بحاجب معز الدولة، ذاك توفي قبل هذه السنة كما تقدم، وأما هذا، فإنه لما مات مولاه، لم يترك أحداً يصلح للملك من بعده من ولده، ولا من قومه، فاصطلح الجيش على مبايعة سبكتكين هذا، لخيره فيهم، وحسن سيرته، وكمال عقله، وشجاعته، وديانته، فاستقر الملك بيده، واستمر من بعده، في ولده السعيد محمود بن سبكتكين، وقد غزا سبكتكين هذا بلاد الهند، ففتح شيئاً كثيراً من حصونهم، وغنم شيئاً كثيراً من أموالهم، وكسر من أصنامهم، ونذورهم، أمراً هائلاً، وباشر بمن معه من الجيوش حروبا تشيب الولدان، وقد قصده جيبال، ملك الهند بنفسه، وجنوده، التي تعم السهول، والجبال، فكسره مرتين، وردهم إلى بلادهم، في أسوأ حال، وأردأ بال.

وذكر ابن الأثير في «كامله» [الكامل ٨/٦٨٦]، أن سبكتكين، لما التقى مع جيبال، ملك الهند، في بعض الغزوات، كان بالقرب منهم، عين في عقبة غورك، من عادتهم، أنه إذا وضعت فيها نجاسة، أو قذر، اكفهرت السماء، وأرعدت، وأبرقت، وأمطرت، ولا تزال كذلك حتى تطهر تلك العين، من

ذلك الشيء، الذي ألقي فيهـا، وأن سبكتكين أمر بإلقاء نجاسة في تلك العين عند ذلك ـ وكانت قريبةً من نحر العدو فلم يزالوا في رعود، وبروق، وأمطار، وصواعق، حتى ألجأهم ذلك الحال إلى الهرب، والرجوع إلى بلادهم خائبين هاربين، وأرسل ملك الهند، يطلب من سبكتكين الصلح، فأجابه بعد امتناع من ولده محمود، على مال جزيل يحمله إليه، وبلادٍ كثيرةٍ يسلمها إليه، وخمسين فيلا، ورهائن من رؤوس قومه، يتركها عنده، حتى يقوم بما التزم له من ذلك.

وفيها توفي أبو يعقوب

■ **يوسف بن الحسن الجنابيّ**، صاحب هجر، ومقدم القرامطة، وقام بالأمر من بعده ستة من قومه، وكانوا يسمَّوْن بالسادة، وقد اتفقوا على تدبير الأمر من بعده، ولم يختلفوا، فمشى حالهم.

وفيها كانت وفاة

■ **الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي أبي محمد القرمطي**، قال ابن عساكر [تاريخ دمشق ٦/١٣]: واسم أبي سعيد الحسن بن بهرام، ويقال: الحسن بن أحمد بن الحسن بن يوسف بن كوذْكارَ يقال أصله من الفرس قال: ويعرف أبو محمد هذا بالأعْصَم. قال: وولد بالأحساء في سنة ثمان وسبعين ومائتين، وقد تغلب على الشام، في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ثم عاد إلى الأحساء، بعد سنة، ثم عاد إلى دمشق، في سنة ستين، وكسر جيش جعفر بن فلاح، أول من ناب بالشام عن المعز الفاطمي، وقتله، ثم توجه إلى مصر فحاصرها، في مستهل ربيع الأول سنة إحدى وستين. واستمر محاصرها شهوراً، وقد كان استخلف على دمشق ظالم بن موهوب العقيلي، ثم عاد إلى الأحساء، ثم رجع إلى الرملة، فتوفي بها في هذه السنة، وقد قارَبَ التسعين، وهو يظهر طاعة عبد الكريم الطائع لله بن المطيع.

وقد أورد له ابن عساكر [تاريخ دمشق ٧/١٣، ٨] أشعاراً حسنة رائقةً فائقةً، من ذلك ما كتب به إلى جعفر بن فلاح، قبل الحرب بينهما:

الكتب معذرة والرسل مُخْبِرةٌ ... والحق متبع والخير موجودُ
والحرب ساكنة والخيل صافنةٌ ... والسلم مبتذل والظل ممدودُ
فإن أنبتم فمقبول إنابتُكُم ... وإنْ أبيتم فهذا الكور مَشْدودُ
على ظهور المنايا أو تَرِدُن بنا ... دمشق والباب مهدوم ومَردودٌ
إني امرؤ ليس من شأني ولا أرَبي ... طَبْلٌ يرن ولا ناي ولا عودُ
ولا اعتكاف على خمرٍ بمجمرةٍ ... وذات دل لها دل وتفنيدُ
ولا أبيت بطين البطن من شبعٍ ... ولي رفيق خميص البطن مَجْهودُ
ولا تسامت بي الدنيا إلى طَمَعٍ ... يوماً ولا غرني فيها المواعيدُ

ومن شعره أيضاً:

يا ساكن البلد المنيف تَعَزُّزاً ... بقلاعه وحصونه وكُهوفِهِ
لا عز إلا للعزيز بنَفْسِه ... وبخيله وبرجله وسُيوفِهِ
وبقبة بيضاء قد ضُرِبَت على ... شرف الخيام بجاره وحليفِهِ
قرْمٌ إذا اشتدَّ الوغى أردى العِدا ... وشفى النفوس بضربه ووقوفِهِ
لم يرض بالشرف التليد لنفسه ... حتى أشاد تليدَهُ بطريفِهِ

وفيها تملّك قابوس بن وشمكير بلاد جرجان، وطبرستان، وتلك النواحي.

وفيها دخل الخليفة الطائع لله بشاه نازَ بنت عز الدولة بن بويه، وكان عُرساً حافلاً.

وفي هذه السنة حجت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان، في تجمُّل عظيم، حتى كان يضرب المثل بحجِّها، وذلك أنها عملت أربعمائة محمل، ولا يُدرى في أيها هي، ولما وصلت إلى الكعبة، نثرت عليها عشرة آلاف دينار، وكست المجاورين بالحرمين كلهم، وأنفقت أموالا جزيلة في ذهابها وإيابها.

وحج بالناس من العراق الشريف أبو عبد الله أحمد بن أبي الحسين بن محمد بن عبد الله العلوي، وكذلك حج بالناس إلى سنة ثمانين وثلاثمائة، وكانت الخطبة في هذه السنة بالحرمين في هذه السنة للفاطميين أصحاب مصر دون العباسيين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم أبو عمرو السلمي**، صحب الجنيد، وغيره، وروى الحديث، وكان ثقة.

ومن جيِّد كلامه: من لم تهذبك رؤيته، فليس بمُهذَّب.

وقد احتاج شيخه أبو عثمان مرة إلى شيء، فسأل أصحابه فيه، فجاءه ابن نجيد بكيس فيه ألفا درهم، فقبضه منه، وجعل يشكره إلى أصحابه، فقال له ابن نجيد: ياسيدي، إن المال الذي دفعته إليك، كان من مال أمي وهي كارهة، فأُحبُّ أن تردَّه إليها فأعطاه تلك الدراهم، فلما كان الليل جاءه بها، وقال: أحب أن تصرفها في أمرك، من غير أن يعلم بذلك أحد. فكان أبو عثمان يقول: أنا أخْشى من همة أبي عمرو بن نجيد، رحمهم الله تعالى.

■ **الحسن بن بويه: أبو علي ركن الدولة بن بُويه**، عرض له قولنج، فمات ليلة السبت الثامن والعشرين من المحرم منها، وكانت مدة إمارته أربعاً وأربعين سنة وشهراً وتسعة أيام، ومدة عمره ثمان وسبعون سنة، وكان حليماً كريماً.

■ **محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أفلح بن رافع بن إبراهيم بن أفلح بن عبد الرحمن بن عبيد بن رفاعة بن رافع أبو الحسن الأنصاري الزُّرَقيّ**، كان نقيب الأنصار ببغداد، وقد سمع الحديث من أبي القاسم البغوي وغيره، وكان ثقة يعرف أيام الأنصار ومناقبهم وأمورهم، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ **محمد بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل أبو الحسن السرّاج**، سمع يوسف بن يعقوب القاضي وغيره، وكان شديد الاجتهاد في العبادة صلى حتى أقعد، وبكي حتى عمي، وكانت وفاته يوم عاشوراء من هذه السنة.

القاضي

■ **منذر بن سعيد أبو الحكم البلوطيّ** الظاهري مذهبا: قاضي قضاة الأندلس، وكان إماماً فقيهاً عالماً فصيحاً خطيباً شاعراً ديِّناً كثير الفضل وله مصنفات واختيارات منها أن الجنة التي أدخلها آدم وأخرج منها كانت في الأرض وله في ذلك مصنف مفرد له وقع في النفوس وله تفسير القرآن وغير ذلك.

دخل يوماً على الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، وقد فرغ من بناء المدينة الزهراء، وقصورها، وقد بني له فيها قصرٌ عظيمٌ منيفٌ، وزخرف بأنواع الدهانات، والستور، وجلس عنده رؤوس دولته، وأمراؤه، وجاء القاضي، فجلس إلى جانبه، وجعل الحاضرون يثنون على هذا البناء

والقاضي ساكت، لا يتكلم، فالتفت إليه الملك، وقال: ما تقول يا أبا الحكم؟ فبكى القاضي، وانحدرت دموعه على لحيته، وقال: ما كنت أظنُّ، أن الشيطان أخزاه الله تعالى، يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أنك تمكنه من قيادك، هذا التمكين مع ما آتاك الله، وفضلك به، حتى أنزلك منازل الكافرين. قال الله تعالى:﴿ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكفرُ بالرَّحمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِن فِضَّةٍ ومَعَارِجَ عَلَيها يَظْهَرُونَ. ولِبُيُوتِهِمْ أبوابًا وسُرُرًا عَليها يَتَّكِئُونَ وزُخْرُفًا وإن كلُّ ذلك لَمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥] قال: فوجم الملك عند ذلك، وبكى، وقال: جزاك الله خيراً، وأكثر في المسلمين مثلك.

وقد قحط الناس في بعض السنين، فأمر الملك القاضي منذر بن سعيد البلوطي أن يستسقي بالناس فلما جاءته الرسالة بذلك ليخرج من الغد قال للرسول: كيف تركت الملك وما حاله؟ فقال: رأيته أخشع ما يكون وأكثره دعاء، فقال القاضي: رحمتم وسقيتم والله، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء. ثم قال لغلامه: أخرج بالمِمْطَر معك فلما خرج الناس، وجاء القاضي صَعِد، والناس ينظرون إليه، ويستمعون لما يقول، فلما أقبل عليهم، كان أولُ ما خاطبهم به أن قال: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] ثم أعادها، فأخذ الناسُ في البكاء والنحيب، والتوبة، والإنابة، فلم يزالوا كذلك، حتى سقوا، ورجعوا يخوضون الماء وقد صنف الحافظ أبو عمر بن عبد البر مصنفا في مناقبه رحمه الله.

أبو الحسن

■ علي بن أحمد بن المرزبان البغدادي الفقيه الشافعي، تفقه بأبي الحسين بن القطان، وأخذ عنه الشيخ أبو حامد الإسفراييني.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٨١/٣]: كان ورعاً زاهداً، ليس لأحد عنده مظلمة، وله وجه في المذهب، وكان له درس ببغداد، توفي في رجب من هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين وثلاثمائة

في هذه السنة دخل عضد الدولة إلى بغداد، وخرج منها عز الدولة بختيار ابن معز الدولة، واتبعه عضد الدولة لبقاتله وأخذ معه الخليفة الطائع لله فاستعفاه الخليفة من الخروج فأعفاه، وسار عضد الدولة وراءه، فأخذه أسيراً، ثم قتل سريعاً، وتصرمت دولته، واستقر أمر عضد الدولة ببغداد، وخلع عليه الخليفة، الخلع السَّنيَّة، والأسورة في يديه، والطوق في عنقه، وأعطاه لواءين أحدهما فضة والآخر ذهب، ولم يكن هذا الثاني يصْنَعُه، إلا لأولياء العهد، وأرسل إليه الخليفة بتحف سنية، وبعث عضد الدولة إلى الخليفة أموالاً جزيلةً من الذهب والفضة، واستقرت يده على بغداد، وما والاها، من البلاد.

وزلزلت بغداد مراراً في هذه السنة.

وزادت دجلة، زيادة كثيرة، وانبثقتْ بُثوقٌ كثيرةٌ غرق بسببها خلق كثير وجمٌّ غفير.

وقيل لعضد الدولة: إن أهل بغداد، قد قلوا كثيراً، بسبب الطاعون، وما وقع بينهم من الفتن بسبب الرفض، والسنة، وأصابهم حريق وغرق، فقال: إنما يُهيِّجُ بين الناس في السُّنَّة والروافض هؤلاء القصاص والوعاظ ثم رسم أن أحداً لا يقص، ولا يعظ في سائر بغداد، ولا يسأل سائل باسم أحد من الصحابة، وإنما يقرأ السائل القرآن، فمن أعطاه أخذ منه.

فعمل بذلك في البلد، ثم بلغه أن أبا الحسين بن سمعون الواعظ - وكان من الصالحين - قد استمر يعظ الناس على عادته، فأرسل إليه من جاء به، فأُخذ من مجلسه، وقيل له: إذا دخلت على الملك، فقبِّل التراب وتواضع في الخطاب والجواب فلما دخل دار الملك، وجده السلطان قد جلس في حجرة وحده، لئلا يَنْدُر من ابن سمعون في حقه كلام بحضرة الناس، يؤثر عنه فدخل الحاجب بين يديه ليستأذن له عليه، فوجده قد دخل وراءه، فإذا الملك جالسٌ وحده، فتنحَّى ابنُ سمعون بوجهه نحو دار عز الدولة، ثم استفتح القراءة بسم الله الرحمن الرحيم:﴿وكذلك أخْذُ ربكَ إذا أخَذَ القُرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديد﴾ [هود: ١٠٢] ثم استدار نحو الملك وقال: بسم الله الرحمن الرحيم:﴿ثم جعلناكمْ خلائفَ في الأرضِ منْ بَعْدِهم لننظرَ كيف تعملون﴾ [يونس: ١٤] ثم أخذ في مخاطبة الملك، ووعظه فبكى عضد الدولة بكاءً كثيراً وجزاه خيراً.

فلما خرج من عنده قال للحاجب: اذهب فخذ ثلاثة آلاف درهم، وعشرة أثواب، وادفعها إليه، لنفسه أو لنفقة أهله فإن قبلها، جئني برأسه، قال الحاجب: فجئته فقلت: هذه أثواب أرسل بها إليك الملك لتلبسها فقال: لا حاجة لي بها، هذه ثيابي من عهد أبي، منذ أربعين سنة كلما خرجت إلى الناس لبستها، فإذا رجعت طويتها، قلت: وهذه نفقة. فقال: لا حاجة لي فيها؛ لي آكل من أجرتها، تركها لي أبي، فأنا في غنية عنها فقلت: فرقها في فقراء أهلك فقال: أهله أحق من أهلي وافقر إليها منهم فرجعت إلى الملك لأشاوره وأخبره بما قال فسكت ساعة ثم قال: الحمد لله الذي سلمه منا، وسلمنا منه.

ثم إن عضد الدولة أخذ ابن بقية الوزير لعز الدولة فأمر به فوضع بين قوائم الفيلة فتخبطته بأرجلها حتى هلك ثم صلب على رأس الجسر في شوال منها فرثاه أبو الحسين بن الأنباري بأبيات يقول فيها:

علـو في الحياة وفي الممات	بحقٍّ أنت إحدى المُعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصِّلاتِ
كأنك واقف فيهم خطيباً	وكلهم وقوف للصلاةِ
مددت يديك نحوهم احتفاءً	كمدهما إليهم بالهباتِ

وهي قصيدة طويلة أورد كثيرا منها ابن الأثير في «كامله» [الكامل ٦٩٠/٨].

صفة مقتل عِزّ الدولة بختيار بن معز الدولة وأخذ عضد الدولة الموصل وأعمالها

لما دخل عضد الدولة بغداد، وتسلمها من عز الدولة وأخرجه منها ذليلا طريدا في فل من الناس، ومن عزم عز الدولة أن يمضي إلى الشام فيأخذها، وقد حلفه عضد الدولة أن لا يتعرض لأبي تغلب صاحب الموصل وذلك لمودة كانت بينهما، ومكاتبة ومراسلات منهما، فحلف له على ذلك، وحين خرج من بغداد، كان معه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان، فحسن لعز الدولة أخذ بلاد الموصل لأنها أطيب، وأكثر مالاً، وأقرب إليه الآن، وكان عز الدولة ضعيف العقل، قليل الدين، فلما بلغ ذلك أبا تغلب، أرسل إلى عز الدولة يقول له: لئن بعثت إليَّ بأخي حمدان بن ناصر الدولة أعنتك بجيشي وبنفسي، حتى أرُدَّكَ إلى ملك بغداد وأقاتل

معك عضد الدولة، فأمسك حمدان، وأرسله إلى عمِّه، أبي تغلب، فسجنه في بعض القلاع، وبلغ ذلك عضد الدولة، وأنهما قد اجتمعا على حربه، فركب إليهما بجيشه، وأراد إخراج الخليفة الطائع معه فاستعفاه فأعفاه، واستمر هو ذاهباً إليهما، فالتقى معهما، فكسرهما، وهزمهما، وأخذ عز الدولة أسيراً، فلما جيء به لم يأذن له، بل أرسل إليه من قتله في الحال، ثم سار من فوره، فأخذ الموصل، ومعاملتها، وكان قد حمل معه ميرة كثيرة، وتشرّد أبو تغلب في البلاد، وبعث وراءه السرايا من كل جهة وأقام عضد الدولة بالموصل وضيّق على أبي تغلب تلك البلاد، واستحوذ على أكثر تلك الناحية بصرامتهِ وشجاعته وهمّته وعزيمته، وأقام بالموصل إلى أواخر سنة ثمان وستين وفتح ميّافارقين، وآمد وغيرهما من بلاد بكر وربيعة، وتسلم بلاد مضر من أيدي نواب أبي تغلب، وأخذ منهم الرحبة، ورد بقيتها على صاحب حلب سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، وتسلط سعد الدولة على بلاد عمه أبي تغلب يتسلمها بلداً بلداً، وحين رجع عضد الدولة من الموصل، استناب عليها أبا الوفاء، وعاد إلى بغداد، فتلقاه الخليفة الطائع لله، ورؤوس الناس إلى ظاهر البلد، وكان يوما مشهوداً.

ومما وقع من الحوادث في هذه السنة الوقعة التي كانت بين العزيز بن المعز الفاطمي، وبين أفتكين غلام معز الدولة، صاحب دمشق، فهزمه وأَسَرَه وأخذه معه إلى الديار المصرية مكرماً، ومعظماً، كما تقدم[وتسلم العزيز دمشق وأعمالها، وقد تقدم في سنة أربعٍ وستين. بسط هذه الكائنة بما أغنى عن إعادته.

وفيها خلع على القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي بقضاء قضاة الريّ وما تحت حكم مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه من البلاد وله مصنفات حسنة منها «دلائل النبوة» و«عمد الأدلة»، وغيرهما.

وحجّ بالناس في هذه السنة نائب المصريين،وهو الأمير باديس بن زيري أخو يوسف بن بلكين.

ولما دخل مكة اجتمع إليه اللصوص وسألوا منه أن يُضمنهم الموسم هذا العام بما شاء من الأموال فأظهر لهم الإجابة إلى ما سألوا، وقال لهم اجتمعوا كلُّكم، حتى أضمنكم كلَّكم، فاجتمع عنده بضع وثلاثون حرامياً، فقال: هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا له، إنه لم يبق منهم أحد. فعند ذلك أمر بقطع أيديهم كلهم، ونعمَ ما فعل وكانت الخطبة في هذه السنة للفاطميين بمكة والمدينةدون العباسيين.

ومن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ عِزُّ الدولة بختيار بنُ مُعزِّ الدولة أبي الحسين أحمدَ بن بويه الديلمي: ملك بعد أبيه، وعمره فوق العشرين سنة بقليل، وكان حسن الجسم، شديد البطش، قوي القلب جداً، يقال: إنه كان يأخذ بقوائم الثور الشديد، فيلقيه إلى الأرض، من غير أعوان، ويتقصَّد الأسود في مُتَصَيَّداتِه، ولكنه كان كثير اللّهو، واللعب، والإقبال على اللذات.

ولما كسره ابن عمه، ببلاد الأهواز، كان في فيما أخذ من أمواله غلامٌ له كان يحبه حباً شديداً، فبعث يترقّق لابن عمه فيه حتى يردّه، وأرسل إليه بتحف عظيمة، وأموال جزيلة، وجاريتين عوادتين، لا قيمة لهما، وبعث نقيب الأشراف في ذلك، فرد عليه الغلام المذكور، فكثر تعنيف الناس لعز الدولة، وسقط من أعين الملوك، فإنه كان يقول: ذهاب هذا الغلام، أشد علي من أخذ بغداد، بل وأرض العراق، ثم آل من أمره أنه أسره ابن عمه عضد الدولة كما ذكرنا، وأمر بقتله سريعاً، فكانت مدة حياته ستاً وثلاثين سنة، ومدة دولته منها إحدى عشرة سنة وشهور.

■ محمد بن عبد الرحمن: أبو بكر القاضي، المعروف بابن قريعة، ولي القضاء بالسندية، وكان فصيحاً، يأتي بالكلام المسجوع، من غير تكلُّف ولا تردد، وكان جميل المعاشرة ظريف المحاضرة.

ومن شعره

لي حيلةٌ في مَنْ يَنِمُّ ... وليسَ في الكذابِ حيلهْ
مَنْ كانَ يَخلقُ ما يقو ... لُ فحيلتي فيهِ قَليلهْ

وكان يقول للرجل من أصحابه إذا تماشيا: إذا تقدَّمْتُ فحاجبٌ وإن تأخرت فواجب، وكانت وفاته يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة منها رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمائة

في شعبان منها أمر الطائع لله أن يُدعى لعضد الدولة بعد الخليفة على المنابر ببغداد، وأن تضرب الدبادب على بابه، وقت الفجر، وبعد المغرب، وبعد العشاء.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٢٦٠/١٤]: وهذا شيء لم يتفق لغيره، من بني بويه، وقد كان معز الدولة، سأل من المطيع لله، أن يضرب الدبادب على بابه ببغداد، فلم يأذن له في ذلك.

وقد افتتح عضد الدولة في هذه السنة، وهو مقيم بالموصل، أكثر بلاد أبي تغلب بن حمدان، كآمد وميافارقين والرحبة وغير ذلك من المدن الكبار والصغار وحين عزم على العود إلى بغداد استناب على الموصل أبا الوفاء الحاجب ورجع إلى بغداد فدخلها، في سلخ ذي القعدة من هذه السنة، وتلقاه الخليفة، والأعيان، إلى أثناء الطريق وكان يوماً مشهوداً

ذكر ملك قسّام التراب لدمشق في هذه السنة لما اتَّفق أفتكين مع العزيز بأرض الرملة، وانهزم أفتكين والحسَنُ القرمطي معه، وأُسر أفتكين فذهب مع العزيز إلى ديار مصر، نهض رجل من أهل دمشق، يقال له: قسام التراب، كان أفتكين يقربه، ويدنيه، ويأتمنه على أسراره، فاستحوذ على دمشق، وطاوعه أهلها، وقصدته عساكر العزيز من مصر، فحاصروه بها، فلم يتمكنوا منه بشيء، وجاء أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان، فحاصره، فلم يمكنه أن يدخل دمشق، فانصرف عنه خائباً إلى طبرية، فوقع بينه وبين بني عقيل، وغيرهم من العرب، حروب طويلة، آل به الحال إلى أن قتل أبو تغلب، وكانت معه أخته، جميلة وامرأته، وهي بنت عمّه سيف الدولة، فردتا إلى سعد الدولة ابن سيف الدولة بحلب، فأخذ أخته، وبعث بجميلة إلى بغداد، فحبست في دار، وأخذ منها أموال جزيلة.

وأما قسام - وهو الحارثي وأصله من بني الحارث بن كعب من اليمن - فأقام بدمشق يَسُدُّ خللها، وقام بمصالحها مدة سنين عديدة، وكان مجلسه بالجامع، يجتمع الناس عنده، فيأمرهم وينهاهم، ويقوم فيمتثلون ما يرسم به.

قال ابن عساكر [تاريخ دمشق ٤٢٠/١٤]: أصله من قرية تلفيتا، وكان ترابا.

قلت: والعامة يقولون قسيم الزبال، وإنما هو قسام، ولم يكن زبالاً، بل

ترابا، من قرية تلفيتا بالقرب من قرية منين، وكان بدو أمره، أنه انتمى إلى رجل من أحداث دمشق، يقال له: أحمد بن الجسطار، فكان من حزبه، ثم استحوذ على الأمور، وغلب الولاة، والأمراء وصارت إليه ازمة الأحكام، إلى أن قدم بلكين التركي من مصر، في يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ست وسبعين وثلاثمائة، فأخذها منه ودخلها، واختفى قسام التراب مدة، ثم ظهر، فأخذه أسيرا، وأرسله مقيّداً إلى الديار المصرية، فأطلق، وأحسن إليه، وأقام بها أيضاً مكرما والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب بن عبد الله أبو بكر بن مالك القطيعي** - من قطيعة الدقيق ببغداد - راوي «مسند أحمد» عن ابنه عبد الله، وقد روى عنه غير ذلك من مصنفات أحمد، وحدث عن غيره من المشايخ أيضاً، وكان ثقة كثير الحديث، وقد حدث عنه الدارقطني، وابن شاهين، والبرقاني، وأبو نعيم، والحاكم، ولم يمتنع أحد من الرواية عنه، ولا التفتوا إلى ما شغب به بعضهم من الكلام فيه، بسبب غرق بعض كتبه، حين غرقت القطيعة بالماء الأسود، فاستحدث بعضها من نسخٍ أُخَر، وهذا ليس بشيء؛ لأنها قد تكون معارضةً على كتبه التي غرقت، والله أعلم. ويقال إنه تغير في آخر عمره فكان لا يدري ما قُرئ عليه، وقد جاوز التسعين رحمه الله.

■ **تميم بن المعز الفاطمي**: وبه كان يكنى، وقد كان من أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه العزيز وفيه كرم وله فضيلة، وقد اتفقت له كائنة غريبة، وهي أنه أرسل إلى بغداد، فاشتريت له جارية مغنية، بمبلغ جزيل، فلما حضرت عنده، أضاف أصحابه، ثم أمرها، - فغنت وكانت تحب شخصا ببغداد:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى		برق تألق موهناً لمعانُهُ
يبدو كحاشية الرداء ودونه		صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق		نظراً إليه وصدّه أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه		والماء ما سمحت به أجفانُهُ

ثم غنته بأبيات أُخرَ، فاشتد طرب تميم وقال لها: لا بد أن تسأليني حاجة، فقالت: عافيتك فقال: ومع هذا والح عليها فقالت: تردني إلى بغداد، حتى أغني بهذه الأبيات فوجم، ثم لم يجد بداً من الوفاء، فارسلها مع بعض أصحابه، فأحجّها، ثم سار بها إلى بغداد على طريق العراق، فلما أمسوا في الليلة التي يدخلون، من صبيحتها بغداد، ذهبت في الليل، فلم يدر أين ذهبت، فلما راح الخبرُ إلى مولاها تالم الما شديدا، وندم، حيث لا ينفعه الندم.

■ **العقيقي** صاحب الحمام، والدار، المنسوبين إليه، بمحلة باب البريد بدمشق، واسمه أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي بن محمد العقيقي بن جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب،الشريف أبو القاسم الحسيني العقيقيّ.

قال ابن عساكر: كان من وجوه الأشراف بدمشق، وإليه تنسب الدار، والحمّام، بمحلة البريد، وقد امتدحه الوأواء الدمشقي، وذكر أنه توفي يوم الثلاثاء، لأربع خلون من جمادى الأولى من هذه السنة، وأنه دفن من الغد، وأُغلق البلد بسبب جنازته، وحضرها بكجور وأصحابه يعني نائب دمشق ودفن خارج باب الصغير.

قلت: وقد اشترى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس داره، وبناها مدرسة، ودار حديث، وتربة، وبها قبره، وذلك في حدود سنة سبعين وستمائة كما سيأتي بيانه.

■ **أبو سعيد السيرافي النحوي: الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي النحوي القاضي**، سكن بغداد، وولي القضاء بها نيابة، وله «شرح كتاب سيبويه»، و«طبقات النحاة».

وروى عن أبي بكر بن دريد، وغيره، وكان أبوه مجوسيا، وكان أبو سعيد السيرافي هذا عالماً باللغة، القراءات والنحو والعروض، والفرائض، والحساب، وغير ذلك من فنون العلم.

وكان زاهداً، لا يأكل إلا من عمل يده، وكان ينسخ كل يوم عشر ورقات بعشرة دراهم، تكون منها نفقته وقوته، رحمه الله تعالى وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، ينتحل مذهب أهل العراق في الفقه، وقرأ القرآن على ابن مجاهد، واللغة على ابن دريد، والنحو على ابن السراج، والمبَرْمَان، ونسبه بعضهم إلى الاعتزال، وأنكره آخرون.

وكانت وفاته في رجب من هذه السنة عن أربع وثمانين سنة، ودفن بمقبرة الخيزران.

■ **عبد الله بن إبراهيم بن أبي القاسم الزَّنْجَانيُّ، ويعرف بالآبَنْدُونيّ**، رحل في طلب الحديث إلى الآفاق، ووافق ابن عدي، في بعض ذلك، ثم سكن بغداد، وحدّث بها، عن أبي يعلى، والحسن ابن سفيان، وابن خزيمة، وغيرهم.

وكان ثقةً ثبتاً، له مصنفات، زاهداً، روى عنه البرقاني، وأثنى عليه خيراً، وذكر أن أكثر أكله الخبز المادوم بمرق الباقِلاّء، وذكر أشياء من تقلله، وزهده، وورعه، وتوفي عن خمس وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

■ **عبد الله بن محمد بن ورقاء، الأمير أبو أحمد الشيبانيّ**، من أهل البيوتات والحشمة، بلغ التسعين، روى عن ابن الأعرابي، أنه أنشد في صفة النساء:

هي الضلعُ العوجاءُ لستَ تُقيمُها		ألا إن تقويمَ الضلوعِ انْكِسارُها
أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى		أليسَ عجيباً ضعفها واقْتِدارُها؟

قلت: وهذا الشاعر أخذ هذا المعنى من الحديث الصحيح [خ (٣٣٣١)، م (٦٠-٦٢)]:«إن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج».

وفيها توفي

■ **محمد بن عيسى، بن عمرويه الجلودي**، راوي «صحيح مسلم»، عن إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه، عن مسلم بن الحجاج، وكان من الزهاد يأكل من كسب يده، من النسخ، وبلغ ثمانين سنة رحمه الله تعالى وإيّانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة تسع وستين وثلاثمائة

في المحرم منها، توفي الأمير عمران بن شاهين، صاحب بلاد البطيحة، منذ أربعين سنة، تغلب عليها، وعجز عنه الأمراء والملوك، والخلفاء، وبعثت إليه الجنود، والسرايا، والجيوش غير مرة، فكل ذلك يفلها،

ويكسرها، وكل ما له في تمكن، وقوة، ومكث كذلك هذه المدة كلها، ومع هذا كله، مات على فراشه، حتف أنفه، فلا نامت أعين الجبناء. وقام بالأمر من بعده، ولده الحسن، فرام عضد الدولة أن ينتزع الملك من يده، فأرسل إليه سرية فيها خلقٌ من الجنود فكسرهم الحسن بن عمران بن شاهين وردّهم خائبين، وكاد أن يتلفهم بالكلية، حتى أرسل إليه عضد الدولة، فصالحه على مال، يرسله إليه كل سنة، وأخذوها من عضد الدولة على ذلك، وهذا من العجائب الغريبة.

وفي صفر، قبض على الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي، نقيب الطالبيين، اتهم بأنه يفشي الأسرار، وأن عز الدولة أودع عنده عقداً ثميناً، وأُتي بكتاب أنه خطُّه في إفشاء الأسرار، فأنكر أنه خطه، وكان مزوراً عليه، واعترف بالعقد، فأخذ منه، وعزل عن النقابة، ووليَ غيره فيها، وكان مظلوما في ذلك.

وفي هذا الشهر أيضاً، عزل عضد الدولة، قاضي القضاة، أبا محمد بن معروف، وولى غيره.

وفي شعبان ورد البريد من مصر، إلى عضد الدولة بمراسلات كثيرة، فرد الجواب بما مضمونه، صدق النية، وحسن الطويَّة، ثم سأل عضد الدولة من الطائع أن يجدد عليه الخلع، والجواهر، وأن يزيد في ألقابه تاج الدولة، فأجابه إلى ذلك كله، وخلع عليه من أنواع الملابس، مالم يتمكن من تقبيل الأرض، من كثرتها، وفوض إليه ما وراء داره من الأمور ومصالح المسلمين، في مشارق الأرض، ومغاربها، وحضر ذلك الرؤساء والأمراء وأعيان الناس، وكان يوما مشهودا.

وأرسل في رمضان إلى الأعراب من بني شيبان، وغيرهم، فعقرهم، وكسرهم وقهرهم، وكان أميرهم ضَبَّة بن محمد الأسدي متحصنا بعين التمر، مدة نيِّفاً وثلاثين سنة، فأُخذت ديارهم وأُخذت وأموالهم وحالت أحوالُهم. و لله الحمد والمنة.

وفي يوم الثلاثاء، لتسع بقين من ذي القعدة، تزوج الخليفة الطائع للّه بنت عضد الدولة الكبرى، وعقد العقد بحضرة الأعيان والرؤساء وكان عقداً هاتلاً حافلا، على صداق مبلغه مائة ألف دينار ويقال: مائتا ألف دينار، وكان وكيل عضد الدولة الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي النحوي، صاحب «الإيضاح والتكملة»، وكان الذي خطب خطبة العقد القاضي أبو علي المُحسِّن بن علي التنوخي وكان يوماً مشهوداً.

وفيها كان مقتل أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بالشام قريباً من نَوى وأعمالها وكانت معه أخته جميلة وزوجته بنت عمه سيف الدولة فردتا إلى ابن عمه سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب.

قال ابن الأثير [الكامل ٨/٧٠٤، ٧٠٥]: وفيها جدد عضد الدولة عمارة بغداد ومحاسنها، وجدد المساجد والمشاهد، وأجرى على الفقهاء والأئمة الأرزاق، والجرايات من الفقهاء، والمحدثين والمتكلّمين،والأطباء، والحساب، وغيرهم، وأطلق الصلات لأرباب البيوتات والشرف، وألزم أصحاب الأملاك ببغداد بعمارة بيوتهم ودورهم، ومهد الطرقات، وأطلق المكوس، وأصلح طريق الحجاج من بغداد إلى مكة، وأرسل الصدقات والصِّلات للمجاورين بالحرمين. قال: فأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا بعمارة البيع، والدَّيرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم.

وفيها توفي

■ **حسنويه بن الحسين الكردي**، وكان قد استحوذ على نواحي بلاد الدينور، وهمدان، ونهاوند، مدة خمسين سنة، وكان حسن السيرة، كثير الصدقة بالحرمين، وغيرهما، فلما توفي، اختلف أولاده من بعده، وتمزق شملهم، وتمكن عضد الدولة من أكثر بلادهم، وقويت شوكته في تلك الأرض.

وفي هذه السنة ركب عضد الدولة في جيوش كثيفة، إلى بلاد أخيه فخر الدولة، وذلك لما كان بلغه من ممالآت عز الدولة، واتفاقهما عليه فلما تفرغ من أعدائه ركب، فتسلم بلاد أخيه، فخر الدولة، وهمدان، والري، وما بينهما من البلاد، وسلم ذلك إلى أخيه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة؛ ليكون نائبه عليها، ثم سار إلى بلاد حسنويه الكردي، فتسلم بلاده، وأخذ حواصله، وذخائره، وكانت جليلة كبيرة جداً، وحبس بعض أولاده، وأمرَّ بعضهم، وأرسل إلى الأكراد الهكارية فأخذ منهم بعض بلادهم وعظم شأنُ عضد الدولة وارتفع صيته وذكره، إلا أنه أصابه في هذا السفرة داء الصَّرع، وكان قد تقدم له مثله في الموصل فكان يكتمه، ولكنه غلب عليه كثرة النسيان، فلا يذكر الشيء، إلا بعد جهد جهيد، والدنيا لا تسر بقدر ما تضر:

دارٌ متى ما أضحكت في يومها   أبكت غداً بعداً لها من دارِ

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين اللغوي**، صاحب كتاب الجمل في اللغة وغيره، ومن شعره قبل موته بيومين:

يارب إن ذنوبي قد احطت بها   علماً وبي وبإعلاني وإسراري

أنا الموحِّدُ لكني المقرُ بها   فهب ذنوبي لتوحيدي وإقراري

ذكره ابن الأثير [الكامل ٨/١٧].

■ **أحمد بن عطاء بن أحمد أبو عبد اللّه الروذباري** ابن أخت أبي علي الروذباري أسند الحديث، وكان يتكلم على مذهب الصوفية، وكان قد انتقل من بغداد، فأقام بصور، وتوفي بها في هذه السنة.

■ **الحسن بن علي أبو عبد اللّه البصري**، أحد مشايخ المعتزلة ويعرف بالجعل، سكن بغداد وانتحل مذهب العراقيين فصنَّف للمعتزلة، وكان اشتغاله في الفروع على أبي الحسين الكرخي وعنده دفن وقد قارب الثمانين.

■ **ثابت بن إبراهيم أبو الحسن الحرّانيّ الصابئ المتطبب**. الحاذق في فنه توفي وقد جاوز الثمانين.

■ **حسنويه بن الحسين الكردي** أمير تلك البلاد وكان كثير الصدقات كما قدمنا رحمه اللّه تعالى.

■ **عبد اللّه بن إبراهيم، بن أيوب بن ماسي أبو محمد البزّاز**، اسند الكثير وبلغ خمساً وتسعين سنة، وكان ثقة ثبتاً. توفي في رجب من هذه السنة.

■ **محمد بن صالح بن علي بن يحيى أبو الحسن الهاشمي** قاضي بغداد، ويعرف بابن أم شيبان، كان عالما فاضلا، له تصانيف، وقد ولي الحكم ببغداد قديما، وكان جيد السيرة، توفي في هذه السنة، وقد جاوز السبعين وقارب الثمانين رحمه اللّه وإيانا بمنه.

ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمائة

فيها ورد الصاحب بن عباد، من جهة مؤيد الدولة، إلى أخيه عضد الدولة، فتلقاه عضد الدولة إلى ظاهر البلد، وأكرمه، وأمر الدولة باحترامه، وخلع عليه، وزاده في أقطاعه، ورد معه هدايا كثيرة جداً.

وفي جمادى الآخرة منها، رجع عضد الدولة إلى بغداد، فتلقاه الخليفة الطائع، وضربت له القباب، وزينت الأسواق. وفي هذا الشهر دخل الخليفة بزوجته بنت عضد الدولة وحمل معها من الجهاز شيء عظيم.

وفي هذا الشهر أيضاً، وصلت هدايا من صاحب اليمن، إلى عضد الدولة، وفيها أشياء حسنة، وكانت الخطبة بالحرمين في هذه السنة لصاحب مصر، وهو العزيز بن المعز الفاطمي.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **أحمد بن علي أبو بكر الفقيه الحنفي الرازي**، احد أئمة أصحاب الرأي، وله من المصنفات المفيدة كتاب «أحكام القرآن»، وهو تلميذ أبي الحسن الكرخي، وكان عابدا زاهداً ورعا، انتهت إليه رياسة الحنفية في وقته، ورحل إليه الطلبة من الآفاق، وقد سمع الحديث من أبي العباس الأصم، وأبي القاسم الطبراني وغيرهما، وقد أراده الطائع لله، على أن يوليه القضاء، فلم يقبل.

وكانت وفاته في ذي الحجة من هذا العام، وصلى عليه أبو بكر بن محمد بن موسى الخوارزمي.

■ **محمد بن جعفر بن محمد بن زكريا أبو بكر الوراق**، ويلقب بغندر أيضاً، كان جوالا رحالا، سمع الحديث الكثير ببلاد فارس وخراسان، وسمع الباغندي، وابن صاعد، وابن دريد، وغيرهم، وعنه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، وكان ثقة حافظا رحمه الله تعالى.

■ **ابن خالويه: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، النحوي اللغوي**، صاحب المصنفات، أصله من همذان، ثم دخل بغداد، فأدرك بها مشايخ هذا الشأن: كأبي بكر بن الأنباري وابن دريد؛ وابن مجاهد، وأبي عمر الزاهد، واشتغل على أبي سعيد السيرافي، ثم صار إلى حلب، فعظمت مكانته عند آل حمدان، وكان سيف الدولة يكرمه، وهو أحد جلسائه، وله مع المتنبي مناظرات.

وقد سرد له ابن خلكان مصنفات كثيرة، منها «كتاب ليس»لأنه كان يكثر أن يقول فيه: ليس في كلام العرب كذا و «كتاب الآل»، تكلم فيه على اقسامه، وترجم فيه الأئمة الاثني عشر، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن، وشرح الدريدية، وغير ذلك، وله شعر حسن، وكان فردا في زمانه رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدي وسبعين وثلاثمائة

في ربيع الأول منها، وقع حريق عظيم بالكرخ من بغداد.

وفيها سرق شيء نفيس لعضد الدولة، فعجب الناس من ذلك، لشدة هيبة عضد الدولة، ثم مع هذا اجتهدوا كل الاجتهاد، فلم يُعرف من أخذه. ويقال: إن صاحب مصر، بعث من فعل ذلك، فالله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني**، الحافظ الكبير، الرحال الجوال، سمع الكثير، وحدث، وخرج، وصنف، فأفاد، وأجاد، وأحسن الانتقاد والاعتقاد، صنف كتابا على «صحيح البخاري»، فيه فوائد كثيرة، وعلوم غزيرة.

قال الدارقطني: كنت عزمت غير مرة على الرحلة إليه، فلم أرزق.

وكانت وفاته يوم السبت، عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وهو ابن أربع وسبعين سنة، رحمه الله.

■ **الحسن بن أحمد بن صالح، أبو محمد السبيعي**، سمع ابن جرير، وقاسما المطرز،وغيرهما، وعنه الدارقطني، والبرقاني، وكان ثقة حافظاً مكثراً، وكان عسر الرواية رحمه الله.

■ **الحسن بن علي بن الحسن بن الهيثم بن طهمان أبو عبد الله الشاهد**، المعروف بالبادي، سمع الحديث، وكان ثقة، عُمِّر سبعا وتسعين سنة، منها خمس عشرة سنة مقعداً أعمى رحمه الله.

■ **عبد الله بن الحسين، بن إسماعيل بن محمد أبو بكر الضبي القاضي**، ولي الحكم بعدة بلاد كثيرة، وكان عفيفاً نزهاً صينا دينا.

عبد العزيز بن الحارث: بن أسد بن الليث أبو الحسن التميمي الفقيه الحنبلي. له كلام ومصنف في الخلاف، وسمع الحديث، وروى عنه غير واحد.

وقد ذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٤٦١/١٠، ٤٦٢] أنه وضع حديثا. ورد ذلك أبو الفرج بن الجوزي، وقال: مازال هذا دأب الخطيب في أصحاب أحمد بن حنبل. قال: وشيخ الخطيب الذي حكى عنه هذا،هو أبو القاسم عبد الواحد بن أسد العكبري، لا يعتمد على قوله، فإنه كان معتزليا، وليس من أهل الحديث، وكان يقول بأن الكفار لا يخلدون في النار.

قلت: وهذا غريب،فإن المعتزلة يقولون بوجوب تخليد أصحاب الكبائر. فكيف لا يقول هذا بتخليد الكفار. قال: وعنه حكى الكلام في ابن بطة أيضاً.

■ **علي بن إبراهيم أبو الحسن الحصري، الصوفي الواعظ شيخ** المتصوفة ببغداد، أصله من البصرة وكان قد صحب الشبلي، وغيره، وكان يعظ الناس بالجامع، ثم لما كبرت سنه، بني له الرباط المقابل لجامع المنصور، ثم عرف بصاحبه الزُوزنيّ، وكان لا يخرج إلا من الجمعة إلى الجمعة، وله كلام جيد في التصوف على طريقهم.

ومما نقله ابن الجوزي عنه أنه قال [المنتظم ٢٨٦/١٤]: ما عليّ منِي؟ وأي شيء لي في؟ حتى أخاف وأرجو، إن رحم رحم ماله، وإن عذب عذب ما له.

توفي في ذي الحجة، وقد نيف على الثمانين، ودفن بمقبرة باب حرب من بغداد.

■ **علي بن محمد الأحدب المزور**، كان قوي الخط، له ملكة على التزوير، لا يشاء يكتب على كتابة أحد، إلا فعل، فلا يشك ذلك المزور عليه أنه خطه، وبلا الناس ببلاء عظيم، وختم السلطان على يده مراراً، فلم يفد، ثم كانت وفاته في هذه السنة.

الشيخ أبو زيد

■ **محمد بن أحمد بن عبد الله ابن محمد المروزي الشافعي**، شيخ

الشافعية في زمانه، وإمام أهل عصره في الفقه، والزهد، والعبادة، والورع، سمع الحديث، ودخل بغداد، وحدث بها فسمع منه الدارقطني، وغيره.

قال أبو بكر البزار: عادلت الشيخ أبا زيد في طريق الحج، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

وقد ذكرت ترجمته بتمامها في «طبقات الشافعية». قال الشيخ أبو نعيم: توفي بمرو يوم الجمعة، الثالث عشر من رجب من هذه السنة رحمه الله وأكرم مثواه.

■ محمد بن خفيف أبو عبد الله الشيرازي أحد مشاهير الصوفية، صحب الجريري، وابن عطاء، وغيرهما. قال ابن الجوزي [المنتظم١٤/٢٨٨]: وقد ذكرت في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس»، عنه حكايات، تدل على أنه كان يذهب مذهب الإباحية.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم١٤/٢٨٩]: في المحرم، جرى الماء الذي ساقه عضد الدولة إلى داره وبستانه.

وفي صفر، فتح المارستان الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربي من بغداد، وقد رتب فيه الأطباء والخدم، ونقل إليه من الأدوية، والأشربة، والعقاقير شيءٌ كثيرٌ.

وقال [المنتظم١٤/٢٨٩]: وفيها توفي عضد الدولة، فكتم أصحابه وفاته، حتى أحضروا ولده صمصام الدولة، فولوه الأمر، وراسلوا الخليفة، فبعث إليه بالخلع والولاية.

ذكر شيء من أخبار عضد الدولة

■ (عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي)

أبو شجاع بن ركن الدولة أبو علي الحسن ابن بويه الديلمي، صاحب العراق وملك بغداد وغيرها.

وهو أول من تسمى «شاهنشاه»، ومعناه: ملك الملوك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:«أوضع اسْمٍ وفي رواية: أخنَعُ اسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك لا ملك إلا الله عز وجل». وهو أول من ضربت له الدبادب ببغداد، وأول من خطب له بها مع الخليفة.

وذكر ابن خلكان [وفيات الأعيان٤/٥٢] أنه امتدحه الشعراء بمدائح هائلة، كالمتنبي وغيره، فمن ذلك قول أبي الحسن محمد بن عبد الله السلامي في قصيدة له:

إليك طوى عرض البسيطة جاعل ... قصارَى المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ... ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر
وبشرت آمالي بملك هو الورى ... ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

ثم قال ابن خلكان [وفيات الأعيان٤/٥٣] وهذا هو السحر الحلال.

المتنبي:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ... ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان٤/٥٣]: وليس في الطلاوة كقول السلامي ولا استوفى المعنى كله فإنه لم يذكر الدهر.

وقال أبو بكر أحمد الأرجاني القاضي في قصيدة له بيتا فلم يلحق السلامي أيضاً، وهو قوله:

لقيته فرأيت الناس في رجل ... والدهر في ساعة والأرض في دار

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان٤/٥٤]: وكتب إليه أفتكين، مولى أخيه صاحب دمشق، يستمده بجيش، يقاتل به الفاطميين، فكتب إليه عضد الدولة «غرك عزّك، فصار قصار ذلك، فاخش فاحش فعلك، فعلّك بهذا تهدأ. قال ابن خلكان [وفيات الأعيان٤/٥٤]: ولقد أبدع فيها كل الإبداع.

وقد جرى له من التعظيم من الخليفة، ما لم يقع لأحد ممن كان قبله، وقد ذكرنا أنه كان ذا همة وصرامة وعزم، اجتهد في عمارة بغداد، والطرقات، وأجري النفقات والصدقات على المجاورين بالحرمين وأهل البيوتات، وحفر الأنهار وبنى المارستان العضدي، وأدار السور على مدينة الرسول ﷺ، وهذا كله في مدة ملكه على العراق، وكانت خمس سنين، وقد كان عاقلا، فاضلا، حسن السياسة، شديد الهيبة بعيد الهمة، إلا أنه كان يتجاوز في سياسته الأمور الشرعية، كان يحب جارية، فألهته عن تدبير المملكة، فأمر بتغريقها.

وبلغه أن غلاماً له، أخذ لرجل بطيخة، فضربه بسيف، فقطعه نصفين وهذه مبالغة. وكان سبب موته داء الصرع وحين أخذته علة موته، لم يكن له كلام، سوى تلاوة قوله تعالى:﴿مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه. هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَه﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩].

وحكى ابن الجوزي [المنتظم١٤/٢٩٣]، أنه كان يحب العلم والفضيلة، وكان يقرأ عنده «كتاب إقليدس»، وكتاب النحو لأبي علي الفارسي، وهو «الإيضاح والتكملة» الذي صنفه له وغير ذلك.

وقد ذكر أن له شعراً، فمنه قوله وقد خرج مرة إلى بستان له، فقال: أود لو جاء المطر، فنزل المطر فأنشأ يقول:

ليس شرب الكأس إلا في المطر ... وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى ... ناعمات في تضاعيف الوتر
راقصات زاهرات نجل ... رافلات في أفانين الحبر
مطربات محسنات مجن ... رافضات الهم إبان الفكر
مبرزات الكأس من مخزنها ... مسقيات الخمر من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ... مالك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بُغيته في ملو ... ك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير في أولاده وليساس ... الملك فيهم بالغرر

قال [المنتظم١٤/٢٩٤]: فيقال: إنه منذ قال: غلاب القدر، لم يفلح بعدها. وذكر غيره أن الأبيات آخرُ ما أنشدت فيه يديه، ثم كانت وفاته عقب ذلك، وكانت وفاته في شوال من هذه السنة، عن سبع أو ثمان وأربعين سنة،وحمل إلى مشهد علي، فدفن فيه.

وقد كتب على قبره في التربة التي بنيت له عند مشهد علي: هذا قبر عضد الدولة، وتاج المملكة، أبي شجاع بن ركن الدولة، أحب مجاورة هذا الإمام المتقي، لطمعه في الخلاص﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] والحمد لله، وصلواته على محمد، وعترته الطاهرة.

وقد تمثل عند موته بهذه الأبيات وهي للقاسم بن عبيد الله:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدواً ولم أمهل على ظنه حلقا
وأخليت دور الملك من كلّ نازلِ ... فشردتهم غرباً وشردتهم شرقا

فلما بلغت النجم عزاً ورفعة ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهما فأخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاطلاً ملقى
فأذهبت دنياي وديني سفاهة ... فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى

ثم جعل يكرر هذه الآية: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه﴾ إلى أن مات كما ذكرنا.

وأجلس ابنه صمصام الدولة على الأرض، وعليه ثياب السواد، وجاءه الخليفة الطائع معزيا، وناح النساء عليه في الأسواق، أياما كثيرة، ولما انقضى العزاء، ركب صمصامة إلى دار الخلافة فخلع عليه الخليفة سبع خلع، وطوقٌ وسوِّر، وألبسه التاج، ولقبه شمس الدولة، وولاه ما كان يتولاه أبوه من قبله، وكان يوما مشهوداً.

■ **محمد بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن الحسن بن وهب أبو بكر الحريري، المعروف بزوج الحرة،** سمع ابن جرير، والبغوي، وابن أبي داود، وغيرهم، وعنه ابن رزقويه، وابن شاذان، والبرقاني، وقال: كان جليلا أحد العدول الثقات.

قال الخطيب وابن الجوزي [تاريخ بغداد٢/١٥٣ المنتظم ١٤/٢٩٧]: سبب تسميته بزوج الحرة، أنه كان يدخل إلى مطبخ ابنة بدر مولى المعتضد، التي كانت زوجة المقتدر بالله، فلما توفي المقتدر، بقيت هذه المرأة سالمة من الكتّات، والمصادرات، كثيرة الأموال، وكان هذا وهو غلامٌ شابٌ، حدث السن، يحمل شيئا من حوائج الطعام على رأسه، فيدخل به إلى مطبخها، مع جملة الخدم، وكان شابا رشيقا حركا، فنفق على القهرمانة، فقدمته حتى جعلته كاتبا على المطبخ، ثم ترقت به الحال، إلى أن صار وكيلا، ينظر في الضعياع والعقار، ثم آل به الحال، حتى صارت الست تحدثه من وراء حجاب، فعلقت به، وأحبته، وسألته أن يتزوج بها، فاستصغر نفسه، وخاف من غائلة ذلك، فشجعته وأعطته مالاً جزيراً، ليظهر من الحشمة والسعادة، ما يناسبها ليتأهل لذلك، ثم شرعت تهادي القضاة والأكابر، ثم عزمت على تزويجه، ورضيت به عند حضور القضاة، واعترض أولياؤها عليها، فغلبتهم بالمكارمات والهدايا، ودخل عليها فمكثت معه دهرا طويلا، ثم توفيت قبله، فورث منها نحو ثلاثمائة ألف دينار، وطال عمره بعدها، حتى كانت وفاته في هذه السنة رحمه الله وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

فيها غلت الأسعار ببغداد، حتى بلغ الكر من الطعام إلى أربعة آلاف وثمانمائة، ومات كثير من الناس من الضعف في الطرقات جوعاً، ثم تساهل الحال في ذي الحجة منها، وجاء الخبر بموت مؤيد الدولة بن ركن الدولة، وأن أبا القاسم بن عباد الوزير، بعث إلى أخيه فخر الدولة، فولاه الملك مكان أخيه، فاستوزر ابن عباد أيضاً على ما كان عليه وخلع عليه وأحسن إليه، ولما بلغ القرامطة موت عضد الدولة، قصدوا البصرة، ليأخذوها مع الكوفة، فلم يتم لهم ذلك، ولكن صولحوا على مال كثير، فأخذوه وانصرفوا.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **بويه مؤيد الدولة بن ركن الدولة،** كان ملكا على بعض ما كان أبوه يملكه، كما تقدم وكان الصاحب أبو القاسم بن عباد وزيره، وقد تزوج مؤيد الدولة هذا بزبيلة بنت عمه معز الدولة، فغرم على عرسه سبعمائة ألف دينار، وهذا سرف عظيم.

■ **بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي،** ويسمى أيضا يوسف، وكان من أكابر أمراء المعز وقد استخلفه على بلاد إفريقية، حين سار إلى القاهرة، وكان حسن السيرة، له أربعمائة حظية، وقد بُشر في ليلة واحدة بسبعة عشر ولدا وهو جد باديس المغربي.

■ **سعيد بن سلام: أبو عثمان المغربي،** أصله من بلاد القيروان، ودخل الشام، وصحب أبا الخير الأقطع، وجاور بمكة مدة سنين، وكان لا يظهر في المواسم، وكانت له كرامات، وقد أثنى عليه أبو سليمان الخطابي وغيره، وروي له أحوال صالحة رحمه الله تعالى.

■ **عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عثمان بن المختار أبو محمد المزني الواسطي،** يعرف بابن السقا، سمع عبدان وأبا يعلى الموصلي، وابن أبي داود، والبغوي، وكان فهماً حافظا، دخل بغداد، فحدث بها مجالس كثيرة من حفظه، وكان يحضره الدارقطني، وغيره من الحفاظ، فلم ينكروا عليه شيئا. غير أنه حدث مرة عن أبي يعلى بحديث أنكروه عليه، ثم وجدوه في أصله بخط الصِّبا، كما حدث به سواء، فبرئ من عهدته رحمه الله تعالى والله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة

فيها جرى الصلح بين صمصام الدولة الملقّب بشمس الدولة وبين عمه فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه، فأرسل الخليفة لفخر الدولة خلعا سنيّةً وتحفا.

قال ابن الجوزي [المنتظم١٤/٣٠٦]: وفي رجب منها، عمل عرس في درب رباح، فسقطت الدار على من فيها، فهلك أكثر النساء بها، ونبش من تحت الرّدم، فكانت المصيبة عامة.

وفيها كانت وفاة

الحافظ أبي الفتح

■ **محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين الأزدي الموصلي،** المصنف في الجرح والتعديل، وقد سمع الحديث من أبي يعلى وطبقته، وضعفه كثير من حفاظ زمانه، واتهمه بعضهم بوضع حديث رواه لابن بويه، حين قدم عليه بغداد، فساق، بإسناده عن النبي ﷺ أن جبريل كان ينزل عليه في مثل صورة ذلك الأمير. فأجازه، وأعطاه دراهم كثيرة. والعجب إن كان هذا صحيحا، كيف راج على أحد ممن له أدنى فهم وعقل، وقد أرخ ابن الجوزي وفاته في هذه السنة، وقد قيل إنه توفي سنة تسع وستين.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الخطيب أبو يحيى

■ **عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة بطن من قضاعة، وقيل: من إياد الفارقي،** خطيب حلب، أيام سيف الدولة بن حمدان، ولهذا أكثر ديوانه الخطب الجهادية، ولم يسبق إلى مثل ديوانه هذا، ولا يلحق فيه إلا أن يشاء الله لأنه كان فصيحاً، بليغاً، دينا، ورعا، روى الشيخ تاج الدين الكندي عنه، أنه خطب يوم جمعةٍ، بخطبة المنام، ثم رأى في ليلة السبت رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، بين المقابر، فلما أقبل عليه، قال له: مرحبا بخطيب الخطباء، ثم أومأ إلى القبور، فقال لابن نباتة: كيف تقول؟

قال: فقلت: كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ولم يعدوا في الأحياء مرة فتمم الكلام ابن نباته حتى انتهى إلى قوله﴿لِتَكونوا شُهداء على النَّاس﴾ وأشار إلى الصحابة ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً﴾ وأشار إلى رسول الله ﷺ فقال: أحسنت أحسنت، ادنه ادنه، فقبل رسول الله ﷺ وجهه، وتفل في فيه وقال وفقك الله. فاستيقظ، وبه من السرور أمر كبير، وعلى وجهه نورٌ وبهاءٌ، ولم يعش بعد ذلك إلا ثمانية عشر يوما، لم يستطعم فيها بطعام، يوجد منه فيه مثل رائحة المسك، حتى مات رحمه الله.

قال ابن الأزرق الفارقي [وفيات الأعيان٣/١٥٧]: ولد ابن نباته في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي في سنة أربع وسبعين وهي هذه السنة رحمه الله وإيانا. حكاه ابن خلكان.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمائة

فيها خلع الخليفة على صمصام الدولة، وسوره وطوقه وأركب على فرس بسرج ذهب، وبين يديه جنيب مثله.

وفيها ورد الخبر، بأن اثنين من سادة القرامطة، وهما إسحاق، وجعفر، دخلا الكوفة، في جحفل كبير، فانزعجت النفوس بسبب ذلك، وذلك لصرامتهم، وشهامتهم، ولأن عضد الدولة مع شجاعته، قد كان يصانعهم، وأقطعهم أراضي من واسط، وكذلك عز الدولة من قبله أيضا. فجهز إليهم جيشٌ من بغداد، فطردوهم عن تلك النواحي، التي قد أكثروا فيها الفساد، وبطل ما كان في النفوس منهم، و لله الحمد والمنة.

وفيها عزم صمصام الدولة على أن يضع مكسا على الثياب الإبريسميات فاجتمع الناس بجامع المنصور، وهمّوا بتبطيل الجمعة، وكادت الفتنة تقع بينهم، فأعفوا من ذلك.

وفي ذي الحجة، ورد الخبر بموت ابن مؤيد الدولة، فجلس صمصام الدولة للعزاء، وجاء إليه الخليفة الطائع في ثياب السواد والقراء والأولياء بين يديه، فقام إليه صمصام الدولة، وقبّل الأرض بين يديه، وتخاطبا في العزاء بألفاظ حسنة. وانصرف الخليفة راجعاً إلى داره وكان وقتاً مشهوداً.

وفيها توفي الشيخ

■ أبو علي بن أبي هريرة، واسمه الحسن بن الحسين، وهو أحد مشايخ الشافعية، وله اختيارات كثيرة غريبة، وقد ترجمناه في «الطبقات» بما فيه كفاية و لله الحمد.

■ الحسين بن علي، بن محمد بن يحيى أبو أحمد النيسابوري، المعروف بحسينك، كانت تربيته عند ابن خزيمة، وتلميذا له، وكان يقدمه على أولاده، ويقرأ له ما لا يقرأه لغيره، وإذا تخلف ابن خزيمة عن مجالس السلطان، بعث حسينك مكانه. ولما توفي ابن خزيمة، كان عمر حسينك ثلاثا وعشرين سنة، ثم عمر بعده دهراً طويلا، وكان من أكثر الناس عبادة، وقراءة، لا يترك قيام الليل، في حضر ولا سفر، ولا صيف ولاشتاء كثير الصدقات والبرّ، والصلات، وكان يحكي وضوء ابن خزيمة، وصلاته، ولم يكن في الأغنياء أحسن صلاة منه، رحمه الله وأكرم مثواه، وصلى عليه الحافظ أبو أحمد النيسابوري.

أبو القاسم الداركي:

■ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد أبو القاسم الداركي، أحد أئمة الشافعية في زمانه، نزل نيسابور، ثم سكن بغداد، إلى أن مات بها، قال الشيخ أبو حامد الإسفراييني: ما رأيت أفقه منه، وحكى الخطيب البغدادي عنه، أنه كان يسأل عن الفتوى، فيجيب بعد تفكر طويل، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي، وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول: ويلكم! روى فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي وأبي حنيفة، ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث.

وقال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان٣/١٨٩]: وله في المذهب وجوه جيدة،دالة على متانة علمه، وكان يتهم بالاعتزال، وكان قد أخذ الفقه عن الشيخ أبي إسحاق المروزي، والحديث عن جده لأمه الحسن بن محمد الداركي،وهو أحد مشايخ الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وأخذ عنه عامة شيوخ بغداد؛ وغيرهم من أهل الآفاق، وكانت وفاته في شوال، وقيل في ذي القعدة من هذه السنة، وقد نيف على السبعين رحمه الله تعالى.

■ محمد بن أحمد بن محمد بن حسنويه، أبو سهل النيسابوري، ويعرف بالحسنوي، كان فقيها شافعياً، أديباً، محدثاً، مشتغلا بنفسه عما لا يعنيه رحمه الله تعالى.

■ محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح، أبو بكر الفقيه المالكي، سمع من ابن أبي عَروبة، والباغندي، وأبي بكر بن أبي داود، وغيرهم، وعنه البرقاني، وله تصانيف في شرح مذهب مالك، وانتهت إليه رياسة مذهب مالك، وعرض عليه القضاء، فأباه، وأشار بأبي بكر الرازي الحنفي، فلم يقبل الآخر أيضاً. توفي في شوال منها، عن ست وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم١٤/٣١٧، ٣١٨]: في المحرم منها، كثرت الحميات في بغداد، فهلك خلق كثير. ولسبع خلون من ربيع الأول وهو العشرون من تموز وقع مطر كثير، ببرق. وفي رجب غلت الأسعار جداً ببغداد، وورد الخبر فيه، بأنه كانت بالموصل زلزلة عظيمة، سقط منها عمران كثير، ومات من أهلها أمة عظيمة.

وفيها وقع بين صمصام الدولة، وبين أخيه شرف الدولة، فاقتتلا فغلبه شرف الدولة، وأسره ودخل بغداد، فتلقاه الخليفة، وهنأه بالسلامة، ثم استدعى شرف الدولة بفراش، ليكحل صمصام الدولة، فاتفق موته، فكحُل بعد موته، وهذا من غريب ما وقع.

وفي ذي الحجة، قبل قاضي القضاة أبو محمد بن معروف شهادة الحافظ أبي الحسن الدارقطني، وأبي محمد بن عقبة، فذكر أن الدارقطني ندم على ذلك، وقال: كان يقبل قولي على رسول الله ﷺ وحدي، فصار لا يقبل قولي على نقلي إلا مع غيري فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

في صفر منها، عقد مجلس بحضرة الخليفة، فيه القضاة، وأعيان الدولة، وجددت البيعة بين الطائع لله وبين شرف الدولة بن عضد الدولة، وكان يوما مشهودا.

ثم في ربيع الأول منها، ركب شرف الدولة من داره في طيّار إلى دار الخليفة، وزينت البلد، وضربت الطبول، والدبادب، فخلع عليه الخليفة

وطوقه، وسوره، وأعطاه لواءين، وعقد له على ماوراء داره، واستخلفه على ذلك، وكان في جملة من قدم مع شرف الدولة القاضي أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف، فلما رآه الخليفة قال:

مرحبـــا بالأحبـــة القادمينـــا		أوحشُـــونا وطالَمـــا آنسُـــونا

فقبل الأرض بين يدي الخليفة، ولما قضيت البيعة، دخل شرف الدولة إلى عند أخته امرأة الخليفة، فمكث عندها إلى العصر، والناس ينتظرونه، ثم خرج وسار إلى داره للتهنئة. وجاء الخاصة والعامة يهنئونه.

وفي هذه السنة اشتد الغلاء جدا، ثم لحقه فناء كثير.

وفيها توفيت أم شرف الدولة وكانت تركية أم ولد فجاءه الخليفة فعزاه فيها.

وفيها ولد لشرف الدولة ابنان توأمان فهنئ بهما، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن الحسين بن علي، أبو حامد المروزي، ويعرف بابن الطبري، كان حافظا للحديث، مجتهدا في العبادة، متقنا بصيرا بالأثر متفنناً، فقيها حنفيا، درس على أبي الحسن الكرخي، وصنف كتباً في الفقه والتاريخ، وولي قضاء القضاة بخراسان، ثم دخل بغداد، وقد علت سنه، فحدث بها، وكتب الناس عنه، بإنتخاب الدارقطني.

■ إسحاق بن المقتدر بالله، كانت وفاته ليلة الجمعة، لسبع عشرة من ذي الحجة، عن ستين سنة، وصلى عليه ابنه القادر بالله، وهو إذ ذاك أمير، ودفن في تربة جدته شغب أم المقتدر، وحضر جنازته الأمراء والحجّاب، والأعيان من جهة الخليفة، ومن جهة شرف الدولة، وأرسل شرف الدولة من عزى الخليفة فيه، واعتذر إليه من عدم الحضور لوجع حصل له.

■ جعفر بن المكتفي بالله، وكان فاضلا توفي في هذه السنة أيضا رحمه الله تعالى.

■ أبو علي الفارسي: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبو علي النحوي، صاحب المصنَّفات، منها: «الإيضاح والتكملة»، ولد ببلده، ثم دخل بغداد، وخدم الملوك، وحظي عند عضد الدولة، بحيث كان يقول: أنا غلام أبي علي في النحو، وحصَّل له الأموال، وقد اتهمه قوم بالاعتزال، وفضله قوم من النحاة من أصحابه على المبرد، وممن أخذ عنه: أبو الفتح عثمان بن جني، وغيره، وكانت وفاته في هذه السنة عن بضع وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

■ ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي، وتكنى أمة الواحد، قرأت القرآن، وحفظت الفقه، والفرائض، والحساب، والدور، والنحو، وغير ذلك، وكانت من أعلم الناس في وقتها بمذهب الشافعي، وكانت تفتي به مع الشيخ أبي علي بن أبي هريرة، وكانت فاضلة في نفسها، كثيرة الصدقة، مسارعة إلى فعل الخيرات، وقد سمعت الحديث وحدّثت أيضاً، وكانت وفاتها في رمضان عن بضع وتسعين سنة رحمها الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة

في المحرم منها، كثر الغلاء، والفناء، ببغداد، وفي شعبان، كثرت الرياح العواصف، بحيث هدمت شيئاً كثيراً من الأبنية، وغرقت سفناً كثيرة، واحتملت بعض الزوارق، فألقته بالأرض من ناحية جوخى، وهذا أمر هائل، وخطب شامل. وفي ذلك الوقت، لحق أهل البصرة حر شديد، بحيث سقط كثير من الناس في الطرقات، وماتوا من شدة الحر.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسين بن علي بن ثابت: أبو عبد الله المقرئ، ولد أعمى، وكان يحضر مجلس ابن الأنباري، فيحفظ ما يمليه كله، وكان ظريفا حسن الزي، وقد سبق الشاطبي إلى قصيدة عملها في القراءات السبع، وذلك في حياة النقاش الحضرُ، وكانت تعجبه وتُعجب شيوخ زمانه.

■ الخليل بن أحمد القاضي، شيخ الحنفية في زمانه، وكان مقدماً في الفقه والحديث، سمع ابن خزيمة، والبغوي، وابن صاعد، وغيرهم، وهذا سمي النحوي المتقدم.

■ زياد بن محمد بن زياد بن الهيثم، أبو العباس الخرخاني بخاءين معجمتين نسبة إلى قرية من قرى قومس، ولهم الجرجاني بجيمين، وهم جماعة، ولهم الخرجاني بخاء ثم جيم. وقد حرر هذا الموضع الشيخ ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم١٤/٣٣٠، ٣٣١] رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وثلاثمائة

فيها كانت وفاة شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه الديلمي، وكان قد انتقل إلى قصر معز الدولة، عن إشارة الأطباء لصحة الهواء، وذلك لشدة ماكان يجده من الداء، فلما كان في جمادى الأولى، تزايد به المرض ومات في هذا الشهر، وقد عهد إلى ابنه أبي نصر، وجاء الخليفة في طيّار لتعزية أبي نصر في والده شرف الدولة، فتلقاه أبو نصر، والترك والديلم بين يديه، فقبل الأرض بين يدي الخليفة، وكذلك بقية العسكر، والخليفة في الطيار، وهم يقبلون الأرض إلى ناحيته وجاء الرئيس أبو الحسن علي بن عبد العزيز من عند الخليفة، إلى أبي نصر، فبلغه تعزية الخليفة له، فقبل الأرض ثانية، وعاد الرسول إلى الخليفة، فبلغه شكر أبي نصر، ثم عاد الرسول من جهة الخليفة، لتوديع أبي نصر، فقبل الأرض ثالثا، ورجع الخليفة في طيارة إلى داره.

فلما كان يوم السبت، عاشر هذا الشهر، ركب الأمير أبو نصر إلى حضرة الخليفة الطائع لله ومعه الأشراف، والأعيان، والقضاة والأمراء، وجلس الخليفة في الرواق، فلما وصل الأمير أبو نصر، بن شرف الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه خلع عليه الخليفة سبع خلع، أعلاهن السواد، وعمامة سوداء، وفي عنقه طوق، وفي يده سواران، ومشى الحجاب بين يديه بالسيوف والمناطق، فلما حصل بين يدي الخليفة قبل الارض فأوما اليه بالجلوس فقبل الأرض ثانية، ووضع له كرسي، فجلس عليه، وقرأ الرئيس أبو الحسن علي بن عبد العزيز عهده، وقدم إلى الطائع لواءه، فعقده بيده، ولقبه بهاء الدولة، وضياء الملة، ثم خرج من بين يديه، والعسكر معه حتى عاد إلى دار المملكة، وأقر الوزير أبا منصور بن صالحان على الوزارة، وخلع عليه.

وفي هذه السنة بني جامع القطيعة قطيعة أم جعفر بالجانب الغربي من بغداد، وكان أصل بنائه مسجداً، أن امرأة رأت في المنام رسول الله ﷺ. في ذلك المكان يصلي، ووضع يده في جدار هناك، فلما أصبحت تذكّرت

ذلك المنام، فوجدوا أثر الكف في ذلك الموضع، فبنى مسجدا ثم توفيت تلك المرأة في ذلك اليوم، ثم إن الشريف أبا أحمد الموسوي، جدد هذا المسجد فوسعه وجعله جامعا، واستأذن الخليفة الطائع لله في عقد جمعة فيه فأذن له، وصلّى بالناس فيه في هذه السنة.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **شرف الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي،** تملك بغداد بعد أبيه، وكان يحب الخير، ويبغض الشر، وأمر بترك المصادرات. وكان مرضه بالاستسقاء، فتزايد به حتى كانت وفاته، ليلة الجمعة، الثاني من جمادى الآخرة، عن ثمان وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكانت مدة ملكه سنتين وثمانية أشهر، وحمل تابوته إلى تربة أبيه، بمشهد علي، وكلهم ليه تشيع.

■ **محمد بن جعفر بن العباس بن جعفر، أبو بكر النجار،** ويلقب غندراً أيضا، روى عن أبي بكر النيسابوري وطبقته، وكان فهما، يحفظ القرآن حفظاً حسناً، ومن ثقات الناس.

■ **محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الكريم، بن بديل أبو الفضل الخزاعي الجرجاني،** قدم بغداد، وحدث بها. قال الخطيب [تاريخ بغداد ٢/١٥٨]: كانت له عناية بالقراءات، وصنف أسانيدها، ثم ذكر لي أنه كان يخلط، ولم يكن مأمونا على ما يرويه، وأنه وضع كتابا في الحروف، ونسبه إلى أبي حنيفة، فكتب الدارقطني، وجماعة، أن هذا الكتاب موضوع لا أصل له، فافتضح، وخرج من بغداد إلى الجبل، فاشتهر أمره هناك، وحبطت منزلته، وكان يسمي نفسه أولا كُميلاً، ثم غيره إلى محمد.

■ **محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن سلمة بن إياس، أبو الحسين البزّاز الحافظ،** ولد في محرم سنة ثلاثمائة، ورحل إلى بلاد شتى، وروى عن ابن جرير، والبغوي، وخلق، وروى عنه جماعة من الحفاظ - منهم الدارقطني - شيئا كثيراً، وكان يعظمه، ويجله، ولا يستند بحضرته، وكان ابن مظفر ثقة ثبتا، وكان قديما ينتقي على المشايخ، ثم كانت وفاته يوم الجمعة ودفن يوم السبت، لثلاث خلون من جمادى الأولى، أو الآخرة من هذه السنة.

ثم استهلت سنة ثمانين وثلاثمائة من الهجرة

فيها قلد الشريف أبو أحمد الحسن بن موسى الموسوي، نقابة الأشراف الطالبيين، والنظر في المظالم، وإمرة الحاجّ، وكتب عهده بذلك، واستخلف له ولداه المرتضى أبو القاسم، والرضى أبو الحسن، على النقابة، وخلع عليهما من دار الخلافة، وفيها تفاقم أمر العيارين ببغداد، وصار الناس أحزابا في كل محلة أمير مقدم، واقتتل الناس، وأخذت الأموال، واتصلت الكبسات، وأحرقت الدور الكبار، ووقع حريق بالنهار في نهر الدجاج، فاحترق بسببه شيء كثير للناس.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **يعقوب بن يوسف، أبو الفرج بن كلس،** وزير صاحب مصر العزيز بن المعز الفاطمي، وكان شهما فهماً، ذا همة عالية، وتدبير جيد، وكلمة نافذة عند مخدومه وقد فوض إليه أموره في سائر مملكته، ولما مرض عاده العزيز ووصاه الوزير فيما يتعلق بمملكته، ولما مات، دفنه في قصره، وتولى دفنه بيده، وحزن عليه كثيرا، وأغلق الديوان أياماً من شدة حزنه عليه.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

فيها كان القبض على الخليفة الطائع للّه، وخلافة القادر باللّه أبي العباس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر باللّه، وكان ذلك في يوم السبت، التاسع عشر من شعبان من هذه السنة، وذلك أنه جلس الخليفة على عادته في الرواق، وقعد الملك بهاء الدولة على السرير، ثم أرسل من اجتذب الخليفة بحمائل سيفه عن السرير، ولفوه في كساء، وحملوه إلى الخزانة، بدار المملكة، وتشاغل الناس بالنهب، ولم يدر أكثر الناس ما الخطب، ولا ما الخبر، حتى إن كثيراً منهم يظن أن الملك بهاء الدولة، هو الذي مسك، فنهبت الخزائن، والحواصل، وشيءٌ كبيرٌ من أثاث دار الخلافة، حتى أخذت ثياب الأعيان، والقضاة، والشهود، وجرت كائنة عظيمة جدا، ورجع بهاء الدولة إلى داره، وكتب على الطائع كتابا بالخلع، وشهد عليه الأشراف، والقضاة، أنه قد خلع نفسه عن الخلافة، وسلمها إلى القادر باللّه، ونودي بذلك في الأسواق، وتشغّبت الديلم والأتراك، وطالبوا برسم البيعة، وراسلوا بهاء الدولة في ذلك، وتطاول الأمر في يوم الجمعة، فلم يمكنوا من الدعاء له على المنبر بصريح اسمه، بل قالوا: اللّهم اصلح عبدك وخليفتك القادر باللّه ولم يُسمٍّ. ثم أرضى وجوههم وأكابرهم، وأخذت البيعة على الجماعة، واتفقت الكلمة، وأمر بهاء الدولة بتحويل جميع ما في دار الخلافة من الأواني والفرش، والأثاث، وغير ذلك إلى داره، وأبيحت للعامة والخاصة، فقلعوا أبوابها وشبابيكها وشعثوا أبنيتها ثم منعوا بعد ذلك، هذا كله والخليفة القادر باللّه قد هرب إلى أرض البطيحة من الطائع للّه، حين كان يطلبه، ولما ركب إلى بغداد، منعته الديلم من الدخول إليها، حتى يعطيهم رسم البيعة، وجرت بينهم خطوب طويلة، ثم رضوا عنه، ودخل بغداد، وكان يوما مشهودا وكانت مدة هربه إلى أرض البطيحة قريباً من ثلاث سنين، جلس في اليوم الثاني من مَقدَمه جلوسا عاماً للتهنئة وسماع المدائح، والقصائد فيه، وذلك في العشر الأواخر من رمضان، وفي العشر الأواخر من شوال اجتمع الناس لبيعة بهاء الدولة وتفويض الخليفة ما وراء بابه، وكان يوماً مشهوداً.

وقد كان الخليفة القادر باللّه من خيار الخلفاء، وسادات العلماء في أهل زمانه وأقرانه، رحمه اللّه، وكان كثير الصدقة، حسن الاعتقاد، وصنف عقيدة فيها فضائل الصحابة، وغير ذلك، فكانت تقرأ في حلق أصحاب الحديث، كل جمعة في جامع المهدي، وتجتمع الناس لسماعها مدة خلافته، وكان ينشد هذه الأبيات يترنم بها وهي لسابق البربري:

سبق القضاء بكل ما هو كائن ... واللّه يا هذا لرزقك ضامن
تعنى بما تكفى وتترك ما به ... تعنى كأنك للحوادث آمن
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها ... فاعمل ليوم فراقها يا خائن
واعلم بأنك لا أبا لك في الذي ... أصبحت تجمعه لغيرك خازن
يا عامر الدنيا أتعمر منزلا ... لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شيء أنت تعلم أنه ... حق وأنت بذكره متهاون
إن المنية لا تؤامر من أتت ... في نفسه يوما ولا تستأذن

وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من هذه السنة وهو يوم غدير خم - جرت فتنة بين الروافض، والسنة، واقتتلوا، فقتل خلق كثير، واستظهر أهل باب البصرة، وحرقوا أعلام السلطان، فقتل جماعة اتهموا بفعل ذلك، وصلبوا على القنطرة، ليرتدع أمثالهم.

وفيها السنة ظهر أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة، وادعى أنه خليفة، وسمى نفسه الراشد بالله، فمالأه أهل مكة، وحصل له أموال من رجل من أوصى له بها، فانتظم أمره بسببها، وتقلد سيفا، وزعم أنه ذو الفقار، وأخذ بيده قضيبا، زعم أنه كان لرسول الله ﷺ، ثم قصد بلاد الرملة، ليستعين بعرب الشام، فتلقوه بالرحب، وقبلوا له الأرض، وسلموا عليه بأمير المؤمنين، وأظهر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود. ثم إن الحاكم صاحب مصر وكان قد قام بالأمر من بعد أبيه العزيز في هذه السنة بعث إلى عرب الشام مُلطِّفات، ووعدهم من الذهب بألوف ومئات، وكذلك إلى عرب الحجاز، واستناب على مكة أميرا، وبعث إليه بجارية وخمسين ألف دينار، فانتظم أمر الحاكم، وتمزق شملُ الراشد، وتسحَّب إلى بلاده، كما بدأ منها، وعاد إليها وكان عوده إليها كما رحل عنها، واضمحل حاله، وانتقضت حباله، وتفرق عنه رجاله والله يفعل ما يشاء ويختار.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن الحسين بن مهران:** أبو بكر المقرئ، وكانت وفاته في شوال منها عن ست وثمانين سنة، واتفق له أنه مات في يوم وفاته أبو الحسن العامري الفيلسوف، فرأى بعض الصالحين أحمد بن الحسين هذا في المنام، فقال له: يا أستاذ أي شيء فعل الله بك؟ فقال: أقام أبا الحسن العامري إلى جانبي، وقال: هذا فداؤك من النار.

■ **عبيد الله بن أحمد بن معروف،** أبو محمد قاضي قضاة ببغداد، روى عن ابن صاعد، وعنه الخلال، والأزهري، وغيرهما، وكان من العلماء الثقات، الألبّاء العقلاء، الفطناء حسن الشكل، جميل الملبس، عفيفاً عن الأموال، وكان عمره يوم توفي خمساً وسبعين سنة، وصلى عليه أبو أحمد الموسوي، فكبّر عليه خمساً، ثم صلى عليه ابنه بجامع المنصور، فكبر عليه أربعاً، ثم دفن في داره، رحمه الله تعالى.

■ **جوهر بن عبد الله،** القائد باني القاهرة المعزية، أصله رومي، ويعرف بالكاتب، أرسله مولاه المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي المدعي أنه فاطمي من إفريقية لأخذ مصر عند اضطراب جيشها بعد موت كافور الإخشيدي، فأقاموا عليهم أحمد بن علي بن الإخشيد، فلم يجتمعوا عليه فأرسل بعضهم إلى المعز يستنجد به فأرسل مولاه جوهرا هذا في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فوصل إلى القاهرة في شعبان منها، في مائة ألف مقاتل، ومعه من الأموال ألف ومائتا صندوق، لينفقه في ذلك، فانزعج الناس وأرسلوا يطلبون منه الأمان فأمَّنهم، فلم يرض الجيش بذلك، وبرزوا لقتاله، فكسرهم، وجدد الأمان لأهلها، ودخلها يوم الثلاثاء، لثمان عشرة خلت من شعبان، فشق مصر، ونزل في مكان القاهرة اليوم، وأسس من ليلته القصرين، وخطب يوم الجمعة الآتية، فقطع خطبة بني العباس وعوّض بمولاه، وذكر الأئمة الاثني عشر، وأذّن بحي على خير العمل، وكان يظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس كل يوم سبت مع الوزير جعفر بن الفرات والقاضي، واجتهد في تكميل القاهرة. وفرغ من جامعها سريعاً، وخطب به في سنة إحدى وستين، وهو الذي يقال له: جامع الأزهر، ثم أرسل جعفر بن فلاح إلى الشام، فأخذها للمعز، وقدم مولاه المعز في سنة اثنتين وستين كما تقدم] فنزل بالقصرين ولم تزل منزلته عالية عنده، ثم كانت وفاته في هذه السنة، وقام منصبه وعظمته ابنه الحسين، الذي كان يقال: له قائد القواد، وهو أكبر أمراء الحاكم بن العزيز بن المعزّ، ثم كان قتله على يديه في سنة إحدى وأربعمائة، وقتل معه صهره زوج أخته القاضي عبد العزيز بن النعمان، وأظن هذا القاضي هو منصف كتاب «البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم»، الذي فيه من الكفر، ما لم يصل إبليس إلى مثله، وقد رد على هذا الكتاب القاضي أبو بكر الباقلاني، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وثلاثمائة

في عاشر المحرم منها، رسم الوزير أبو الحسن علي بن محمد الكوكبي - ويعرف بابن المعلم وكان قد استحوذ على أمور السلطان لأهل الكرخ، وباب الطاق من الرافضة، بأن لا يفعلوا شيئاً من تلك البدع، التي كانوا يتعاطونها في عاشوراء: من تعليق المسوح، وتغليق الأسواق، والنياحة على الحسين، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك ولله الحمد.

وكان هذا الرجل من أهل السنة، إلا أنه كان طماعاً، رسم بأن لا يقبل استحدثَ من الشهود، ممن أستحدثت عدالته بعد ابن معروف، وكان كثير منهم قد بذل أموالا جزيلة في ذلك، فاحتاجوا إلى أن جمعوا له شيئاً فوقّع لهم بالاستمرار.

ولما كان في جمادى الآخرة سعت الديلم، والترك على ابن المعلم هذا، وخرجوا بخيامهم إلى باب الشماسية، وراسلوا بهاء الدولة ليسلمه إليهم، لسوء معاملته إياهم، فدافع عنه السلطان مدافعة عظيمة في مرات متعددة ولم يزالوا يراسلونه في أمره، حتى خنقَ أبا الحسن بن المعلّم في حبل، ومات، ودفن بالمخرِّم.

وفي رجب من هذه السنة سُلم الخليفة الطائع لله الذي خلع، إلى أمير المؤمنين خليفة الوقت أبي العباس القادر بالله، فأمر بوضعه في حجرة من دار الخلافة، وأمر أن تجرى عليه الأرزاق، والتحف، والألطاف، مما يستعمله الخليفة القادر، من مأكل وملبس، وطيب، ووكل به من يحفظه ويخدمه، وكان يتعنت ويتعتب على القادر في تقلله في المأكل والملبس، فرتب من يخدمه ويحضر له ما يشتهيه من سائر الأنواع، ولم يزل كذلك حتى توفي وهو في السجن. وفي شوال منها، ولد للخليفة القادر ولد ذكر، وهو أبو الفضل محمد بن القادر بالله، وقد ولاه العهد من بعده، وسماه الغالب بالله، فلم يتم له الأمر.

وفي هذا الوقت غلت الأسعار ببغداد، حتى بيع رطل الخبز بأربعين درهماً، والجوزةُ بدرهم.

وفي ذي القعدة، قدم صاحب الأصَيفر الأعرابي، والتزم بحراسة الحجاج في ذهابهم وإيابهم، ويشرط أن يخطب للقادر من اليمامة والبحرين إلى الكوفة، فأجيب إلى ذلك، وأطلقت له الخلع والأموال والألوية.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى بن معاذ أبو عمر الخزّاز** المعروف بابن حيُّويه، سمع البغوي والباغندي وابن صاعد، وخلقاً

كثيرا، وانتقى عليه الدارقطني، وسمع منه الأعيان، وكان ثقة ديناً متيقظاً ذا مروءة، وكتب من الكتب الكبار كثيراً بيده، وكانت وفاته في ربيع الآخر منها، وقد قارب التسعين رحمه الله.

■ **الحسن بن عبد الله بن سعيد، أبو أحمد العسكري** أحد الأئمة في اللغة، والأدب، والنحو والنوادر، وله في ذلك تصانيف مفيدة، منها «التصحيف»، وغيره، وكان الصاحب بن عباد، يود الاجتماع به فسافر إلى عسكر مُكْرم، حتى اجتمع به، فأكرمه وراسله بالأشعار توفي فيها وله تسعون سنة. كذا أرخه القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ٨٣/٢]. وذكره ابن الجوزي فيمن توفي في سنة سبع وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

فيها أمر القادر بالله بعمارة مسجد الحربية وكسوته، وأن يجرى مجرى الجوامع في الخطب، وغيرها، وذلك بعد أن استفتى العلماء في جواز ذلك فلمّا أفتوه به فعَله وأقربه.

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١١١/١]: أدركت الجمعة، تقام ببغداد في مسجد المدينة، ومسجد الرصافة، ومسجد دار الخلافة، ومسجد براثا، ومسجد قطيعة أم جعفر، ومسجد الحربية. قال: ولم يزل الأمر على هذا، إلى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، فتعطلت في مسجد براثا.

وفي جمادى الأولى فرغ من الجسر الذي بناه بهاء الدولة في مشرعة القطانين، واجتاز عليه هو بنفسه، وقد زين المكان واحتُفل به. وفي جمادى الآخرة، شغَبت الديالم، والأتراك، لتأخر العطاء عنهم، وغلاء الأسعار، وراسلوا بهاء الدولة فأزيحت أعذارهم وعللهم.

وفي يوم الخميس الثاني من ذي الحجّة من هذه السنة، تزوج الخليفة سكينة بنت بهاء الدولة، على صداق مائة ألف دينار، وكان وكيل أبيها الشريف أبو أحمد الموسوي، ثم توفيت هذه المرأة قبل دخول الخليفة بها.

وفي هذه السنة ابتاع الوزير أبو نصر سابور بن أزدشير داراً بالكرخ، وجدد عمارتها وبيضها، ونقل إليها كتبا كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسماها دار العلم. وأظن أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، والله أعلم. وارتفعت الأسعار في أواخر هذه السنة جداً، وضاق الحال، وجاع العيال.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن شاذان بن حرب بن مهران، أبو بكر البزّاز**، سمع الكثير من البغوي، وابن صاعد وابن دريد، وابن أبي داود، وعنه الدارقطني، والبرقاني، والأزهري، وغيرهم، وكان ثقة ثبتاً، صحيح السماع، كثير الحديث، متحريا ورعاً. توفي في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

فيهاعظم الخطب بأمر العيارين، وعاثوا ببغداد فسادا، وأخذوا العملات الثقال، ليلا ونهارا، وحرّقوا أماكن كثيرة، وأخذوا من الأسواق الجبايات، وتطلبهم الشرط، فلم يفد ذلك شيئا، ولا فكروا فيهم، بل استمروا على ما هم عليه من أخذ الأموال، وقتل الرجال، وإرعاب النساء والأطفال، في سائر المحال. فلما تفاقم الحال بهم، تطلبهم السلطان بهاء الدولة، وألح في طلبهم، فهربوا من بين يديه، واستراح الناس من شرهم.

وفي ذي القعدة، عزل الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي وولداه اللذان كانا وليي عهده من بعده عن نقابة الطالبيين.

ورجع ركب العراق في هذه السنة من أثناء الطريق بعد ما فاتهم وقت الحج، وذلك أن الأصَيفِرَ الأعرابي، الذي كان قد تكفل بحراستهم اعترض لهم في أثناء الطريق، وذكر لهم أن الدنانير التي أُطلِقت له من دار الخلافة كانت دراهم مطلية، وأنه يريد بدلها من الحجيج، وإلا لم يتركهم يجاوزوا هذا الموضع، فمانعوه، وراجعوه، فحبسهم عن المسير، حتى ضاق الوقت، ولم يبق منه ما يلحقوا الحج فيه، فرجعوا إلى بلادهم: ولم يحج منهم أحد، وكذلك لم يحج من الركب الشامي ولا أهل اليمن، أحد، وإنما حج أهل مصر والمغرب خاصة.

وفي يوم عرفة، قلد الشريف أبو الحسن الزينبي محمد بن علي بن أبي تمام الزينبي نقابة العباسيين، وقرئ عهده بين يدي الخليفة، بحضرة القضاة والأعيان.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أبو أسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون الحراني** الكاتب الصابئ، صاحب التصانيف والرسائل للخليفة، ولعزّ الدولة بن بويه، وكان على دين الصابئة إلى أن مماته، وكان مع هذا يصوم رمضان ويقرأ القرآن من حفظه، وكان يحفظه حفظا حسنا، ويستعمل منه في رسائله، وكانوا يحرصون على أن يسلم فلم يفعل، وله شعر جيد قوي. وكانت وفاته في شوال من هذه السنة وقد جاوز السبعين، وقد رثاه الشريف الرضي وقال: إنما رثيت فضائله.

■ **عبيد الله بن محمد بن نافع بن مكرم أبو العباس البُشتيّ الزاهد**، ورث من آبائه أموالا كثيرة، فأنفقها كلها في وجوه الخير، والقربات، وكان كثير العبادة، يقال: إنه مكث سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى شيء، ولا يتكئُ على وسادة، وحج من نيسابور ماشيا حافيا، ودخل الشام، وأقام ببيت المقدس شهوراً، ثم دخل مصر، وبلاد المغرب، وحج من هناك، ثم رجع إلى بلده بُشْتَ، وكانت له بقية أموال وأملاك، فتصدق بها، ولما حضرته الوفاة، جعل يتألم، ويتوجع، فقيل له: ما هذا؟ فقال: ارى بين يدي أموراً هائلة، ولا أدري كيف أنجو منها.

وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة، وليلة موته رأت امرأة أمها بعد وفاتها، وعليها ثياب حسان، وزينة، فقالت: يا أمه، ما هذا؟ فقالت: نحن في عيد، من قدوم عبيد الله الزاهد علينا. رحمه الله تعالى.

■ **علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن النحوي**، المعروف بالرماني، روى عن ابن دريد، وكانت له يد طولى في النحو واللغة والمنطق والكلام، وله تفسير كبير، وشهد عند ابن معروف، فقبله، وروى عنه التنوخي، والجوهري توفي عن ثمان وثمانين سنة، ودفن في الشونيزية، عند قبر أبي علي الفارسي.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٩٩/٣]: والرماني نسبة إلى بيع الرمان أو إلى قصر الرمان بواسط.

■ **محمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن الفرات، أبو الحسن الكاتب**، المحدث، الثقة المأمون. قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١٢٢/٣، ١٢٣]: كان ثقة، كتب الكثير، وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته، بلغني أنه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ، وخلف ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا، أكثرها بخطه، سوى ما سرق منه، وكان خطُّه في غاية الصحة، ومع هذا كانت له جارية تعارض معه ما يكتبه ـ رحمه اللّه تعالى.

■ **محمد بن عمران بن موسى بن عبيد اللّه أبو عبيد اللّه الكاتب** المعروف بابن المرزبان، روى عن البغوي، وابن دريد، وغيرهما، وكان صاحب أخبار، وآداب وصنف كتبا كثيرة في فنون مستحسنة، وكان مشايخه، وغيرهم، يحضرون عنده، ويبيتون في داره في فرش وأطعمة، وغير ذلك، وكان عضد الدولة إذا مر بداره، لا يجتاز، حتى يرسل إليه ليخرج فيسلِّم عليه، وكان أبو علي الفارسي، يقول: هو من محاسن الدنيا. وقال العتيقي: كان ثقة. وقال الأزهري: ما كان ثقة. وقال ابن الجوزي [المنتظم ٣٧٢/١٤]: لم يكن من الكذابين، وإنما كان فيه تشيع، واعتزال، ويخلط السماع بالإجازة وبلغ ثمانية وثمانين سنة رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

فيها استوزر فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه أبا العباس أحمد بن إبراهيم الضبي، الملقب بالكافي، وذلك بعد وفاة الصاحب إسماعيل بن عباد، وكان من مشاهير الوزراء.

وفيها قبض بهاء الدولة على القاضي عبد الجبار، وصادره بأموال جزيلة، فكان من جملة ما بيع في المصادرة، ألف طيلسان وألف ثوب مغربي.

وحج بالناس في هذه السنة، وما قبلها، وما بعدها، المصريون، والخطبة في الحرمين لهم الفاطميين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الصاحب بن عباد، وهو إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني، أبو القاسم** الوزير الشهير الملقب بكافي الكفاة، وزر لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، وقد كان من العلم، والفضيلة، والبراعة، والكرم، والإحسان إلى العلماء، على جانب عظيم، كان يبعث في كل سنة إلى بغداد بخمسة آلاف دينار، لتفرق على أهل العلم، وله اليد الطولى في الأدب، وله مصنفات في فنون العلم، واقتنى كتبا كثيرة، وكانت تحمل على أربعمائة بعير، ولم يكن في وزراء بني بويه الديالمة مثله، ولا قريب منه، في مجموع فضائله، وقد كانت دولة بني بويه مائة وعشرين سنة وكانت وزارته ثمانية عشر سنة وأشهراً، وفتح خمسين قلعة لمخدومه مؤيد الدولة، وابنه فخر الدولة، لصرامته وشهامته، وحسن تدبيره، وجودة آرائه، وكان يحب العلوم الشرعية، ويبغض الفلسفة، وما يُشبهها من الآراء البدعية، وقد مرض مرة بالإسهال، فكان كلما قام عن المطهرة، وضع عندها عشرة دنانير، لئلا يتبرم به الفراشون، فكانوا يودون أن لو طالت علته، ولما عوفي، أنهب داره الفقراء، وكان قيمة ما تحتوي عليه نحواً من خمسين ألف دينار، وقد سمع الحديث من المشايخ الجياد، عوالي الإسناد، وعقد له في وقت مجلس للإملاء، فاحتفل الناس لحضوره، فلما خرج لبس زي الفقهاء، وأشهد على نفسه بالتوبة والإنابة مما يعانيه من أمور السلطان. وذكر للناس أنه إنما يأكل من حين نشأ وإلى يومه هذا من أموال أبيه، وجده، ولكن يخالط السلطان، وهو تائب مما مارسه في شؤونه، واتخذ بيتاً في داره، سماه بيت التوبة، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته، وحين حدث استملى عليه جماعة، لكثرة مجلسه، فكان من جملة من يكتب ذلك اليوم من الطلبة، القاضي عبد الجبار الهمذانيّ، من شابهه من رؤوس الفضلاء، وسادات المحدِّثين والفقهاء.

وقد بعث إليه قاضي قزوين بهدية كتب كثيرة، وكتب معها:

العُمـيريُّ عبـد كـافي الكفـاة　　　وإن اعتـلَّ في وجـوه القضـاة
خـدم المجلسَ الرفيـعَ بكتـبٍ　　　مفعمـاتٍ مـن حسـنها مترعـاتِ

فلما وصلت إليه، أخذ منها كتابا واحدا، ورد باقيها، وكتب تحت البيتين:

قـد قبلنـا مـن الجميـع كتابـاً　　　ورددنـا لوقتهـا الباقيـاتِ
لسـتُ أسـتغنم الكثـير وطبعـي　　　قـول خـذْ، ليس مذهبي قولُ هاتِ

وجلس الوزير ابن عباد مرة في مجلس شراب، فناوله الساقي كأسا، فلما أراد شربها، قال له بعض خدامه: يا سيدي إن هذا الذي في يدك مسموم. قال: وما الشاهد على صحة قولك؟ قال: تجربه. قال: فيمن؟ قال: في الساقي. قال: ويحك! لا أستحل ذلك. قال: ففي دجاجة. قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوز. ثم أمر بصب مافي ذلك القدح، وقال للساقي: لا تدخل داري بعد هذا، ولم يقطع عنه معلومه.

وقد عمل عليه الوزير أبو الفتح بن ذي الكفايتين حتى عزله عن وزارة مؤيد الدولة، وباشرها عوضه، واستمر مدة فبينما هو ليلة في بعض أيامه قد اجتمع عنده أصحابه ونُدماؤُه، وهو في اتم سرور، قد هيئ له مجلس حافل بأنواع اللذات من المآكل والملابس والتحف، وقد نظم أبياتاً، والمغنون يُلحِّنونَها له، وهو في غاية الطرب، والسرور، والفرح، وهي هذه:

دعـوت الهنـا ودعـوت العـلا　　　فلمـا أجابـا دعـوت القـدح
وقلـت لأيـام شـرخ الشـباب　　　إليّ، فهـذا أوان الفـرح
إذا بلـغ المـرء آمالـه　　　فليـس لـه بعدهـا منـترح

ثم قال لأصحابه: باكروني غدا إلى الصبوح. ونهض إلى بيت منامه، فما أصبح حتى قبض عليه مؤيد الدولة، وأخذ جميع ما في داره من الحواصل، والأموال، وجعله مثلة في العباد، وأعاد إلى وزارته الصاحب بن عباد.

وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم ٣٧٧/١٤] أن الصاحب بن عباد، حين حضرته الوفاة جاءه الملك فخر الدولة بن مؤيد الدولة، يعوده، ليوصيه في أموره، فقال له: إني موصيك أن تستمر في الأمور على ما تركتها عليه، ولاتغيرها، فإنك إن استمْرَرتَ بها، نسبت إليك من أول الأمر إلى آخره، وإن غيرتها، وسلكت غيرها، نسبت هي والخير المتقدم إليّ لا إليك، وأنا أحب أن تكون نسبة الخير إليك، وإن كنت أنا المشير بها عليك فأعجبه منه ذلك، واستمر بما أوصاه به من الخير، وكانت وفاته في عشية يوم الجمعة لست بقين من صفر منها.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٢٩/١]: وهو أول من تسمى من الوزراء بالصاحب، ثم استعمل بعده فيهم، وإنما سمي بذلك، لكثرة صحبته الوزير أبا الفضل بن العميد، فكان يقال له: صاحب ابن العميد ثم

أطلق عليه أيام وزارته. وقال الصابئ في كتابه «التاجي»: إنما سماه الصاحب مؤيد الدولة بن بويه، لأنه كان صاحبه من الصغر، فكان يسميه الصاحب، فلما ملك، واستوزره، سماه الصاحب، فاشتهر به، وتسمّي به الوزراء بعده، ثم ذكر ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٢٩/١-٢٣١] قطعة صالحة من مكارمه، وفضائله، وثناء الناس عليه، وعدد له مصنفات كثيرة، منها كتابه «المحيط» في اللغة في سبعة مجلدات، يحتوي على أكثر اللغة وأورد من شعره أشياء منها قوله وهو صنيعٌ لطيفٌ:

رقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ ... وتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولاخمرُ

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان٢٣١/١]: توفي بالري في هذه السنة، وله نحو ستين سنة ونقل إلى أصبهان، رحمه الله.

■ الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد أبو محمد الأديب، كان شاعرا مُتموِّلا، كثير المكارم، روى عن علي بن محمد بن سعيد الموصلي وعنه الصوري، وكان صدوقا. وهو الذي أنزل المتنبي في داره، حين قدم بغداد، وأحسن إليه وأجرى عليه النفقات، حتى قال له المتنبي: لو كنت مادحاً تاجراً لمدحتك، وقد كان أبو محمد هذا شاعراً ماهراً، فمن جيّد شعره قوله:

شريتُ المعالي غيرَ منتظرٍ بها ... كساداً ولا سوقاً يقامُ لها أخرى
وما أنا من أهلِ المكاسبِ، كلّما ... توفرتْ الأثمانَ كنتُ لها أشرى

■ ابن شاهين الواعظ عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزدان، أبو حفص بن شاهين الواعظ المشهور، سمع الكثير، وحدث عن الباغندي، وأبي بكر بن أبي داود، والبغوي، وابن صاعد، وخلق. وكان ثقة أمينا، يسكن الجانب الشرقي من بغداد، وكانت له المصنفات العديدة المفيدة. ذكر عنه أنه صنف ثلاثمائة وثلاثين مصنفا، من ذلك «التفسير» في ألف جزء، و «المسند» في ألف وخمسمائة جزء، و «التاريخ» في مائة وخمسين جزءا، و «الزهد» في مائة جزء. توفي وكانت وفاته في ذي الحجة منها، وقد قارب التسعين، رحمه الله تعالى.

الحافظ

■ الدارقطني، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله أبو الحسن الدارقطني، الحافظ الكبير، أستاذ هذه الصناعة، في زمانه، وقبلها بمدة وبعدها إلى زماننا هذا، سمع الكثير، وجمع، وصنف، وألف، وأجاد، وأفاد، وأحسن النظر، والتعليل، والانتقاء والانتقاد، والاعتقاد، وكان فريد عصره، ونسيج وحده، وإمام أهل دهره، في أسماء الرجال، وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، وحسن التصنيف، والتأليف، واتساع الرواية، والاطلاع التام في الدراية، له كتاب «السنن الكبير» المشهور من أحسن المصنفات في بابه، لم يسبق إلى مثله، ولا يُلحق في شكله، إلا من استمد من بحره، وعمل كعمله، وله كتاب «العلل» بين فيه الصواب من الزلل، والمتصل من المرسل، والمنقطع، والمعضل، وكتاب «الأفراد»، الذي لا يفهمه، فضلا عن أن ينظمه، إلا من هو من الحفاظ الأفراد، والأئمة النقاد، والجهابذة الجياد، وله غير ذلك من المصنفات، التي هي كالعقود في الأجياد.

وقد كان الدارقطني من صغره موصوفا بالحفظ الباهر، جلس مرة في مجلس إسماعيل الصفار، وهو يملي على الناس الأحاديث، والدارقطني ينسخ في جزء حديث، فقال له بعض المحدثين في أثناء المجلس: إن سماعك لا يصح، وأنت تنسخ. فقال الدارقطني: فهمي خلاف فهمك أتحفظ كم أملى حديثا؟ فقال: لا. فقال: إنه أملى ثمانية عشر حديثا إلى الآن، فالحديث الأول منها عن فلان عن فلان ثم ساقها كلها، بأسانيدها، وألفاظها، فتعجب الناس منه.

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: لم ير الدارقطني مثل نفسه، وقال ابن الجوزي [المنتظم٣٨٠/١٤]: وقد اجتمع له مع معرفة الحديث، العلم بالقراءات، والنحو، والفقه والشعر، مع الأمانة، والعدالة، وصحة العقيدة، وقد كانت وفاته يوم الثلاثاء، السابع من ذي القعدة في هذه السنة، وله من العمر تسع وسبعون سنة ويومان، ودفن من الغد، بمقبرة معروف الكرخي. رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٩٧/٣، ٢٩٨]: وقد رحل إلى الديار المصرية، فأكرمه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل ابن خنزابة، وزير كافور الإخشيدي، وساعده هو والحافظ عبد الغني على إكمال «مسنده»، وحصل للدارقطني منه مال جزيل. قال [وفيات الأعيان ٢٩٨/٣، ٢٩٩]: والدارقطني: نسبة إلى دار القطن، وهي محلة كبيرة ببغداد.

وقال عبد الغني بن سعيد المصري: لم يتكلم على الأحاديث، مثل علي بن المديني في زمانه، وموسى بن هارون في زمانه، والدارقطني في زمانه.

وسئل الدارقطني: هل رأى مثل نفسه؟ قال: أما في فن واحد فربما رأيت من هو أفضل مني، وأما فيما اجتمع فيَّ من الفنون فلا.

وقد روى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١٤/١٢] ، عن الأمير أبي نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن ماكولا قال: رأيت في المنام، كأني أسأل عن حال أبي الحسن الدارقطني، وما آل إليه أمره في الآخرة، فقيل لي: ذاك يدعى في الجنة الإمام رحمه الله ورضيَ عنه.

■ عباد بن عباس بن عباد، أبو الحسن الطالقاني، والد الوزير إسماعيل بن عباد، سمع أبا خليفة الفضل بن الحباب، وغيره من البغداديين، والأصفهانيين، والرازيين، وغيرهم، وحدث عنه ابنه الوزير أبو القاسم، وأبو بكر بن مردويه، ولعباد هذا، كتاب في أحكام القرآن، وقد اتفق موته، وموت ابنه، في هذه السنة، رحمهما الله.

■ عقيل بن محمد بن عبد الواحد، أبو الحسن الأحنف العكبري، الشاعر المشهور، له ديوان مفرد، ومن مستجاد شعره ما ذكره الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ٣٨٠/١٤] قوله:

أقضى عليَّ من الأجل ... عذل العذول إذا عذل
وأشدُّ من عذل العذو ... ل صدود إلفٍ قد وصلْ
وأشدُّ منَ هذا وذا ... طلبُ النوال من السفلْ

ومن شعره الجيد أيضاً قوله أيضاً:

من أراد الملك والرا ... حة من هم طويل
فليكن فردا من النا ... س ويرضى بالقليل
ويرى أن قليلا ... نافعا غير قليل
ويرى بالحزم أن الـ ... حزم في ترك الفضول
ويداوي مرض الوحـ ... دة بالصبر الجميل
لا يماري أحدا ما ... عاش في قال وقيل
يلزم الصمت فإن الصّـ ... مت تهذيب العقول

يسذر الكبر لأهليه ويرضى بالخمول
أي عيش لامرئ يصبح في حال ذليل
بين قصد من عدو ومداراة جهول
واعتلال من صديق وتجن من ملول
واحتراس من ظنون الناس ومع عذل العذول
ومماشاة بغيض ومقاساة ثقيل
أف من معرفة الناس على كل سبيل
وتمام الأمر لا يعرف سمحاً من بخيل
فإذا أكمل هذا كان في ملك جليل

■ **محمد بن عبد اللّه بن سكرة: أبو الحسن الهاشمي**، من ولد علي بن المهدي باللّه، كان شاعراً أديباً خليعاً ظريفا، وكان ينوب في نقابة الهاشميين. فترافع إليه رجل اسمه علي، وامرأة اسمها عائشة، يتحاكمان في جمل، فقال: هذه قضية لا أحكم فيها بشيء، لئلا يعود الحال خدعة.

ومن مستجاد شعره ولطيفه قوله:

في وجه إنسانةٍ كلفت بها أربعة ما اجتمعن في أحد
الوجه بدروالصدع غالية والريق خمر، والثغر من برد

ومن مُجون شعره قوله وقد دخل حماما فسرق نعلُه فعاد إلى منزله حافيا، فقال:

إليك أذم حمام ابن موسى وإن فاق المنى طيبا وحرا
تكاثرت اللصوص عليه حتى ليحفى من يطيف به ويعرى
ولم أفقد به ثوبا ولكن دخلت محمدا وخرجت بشرا

■ **يوسف بن عمر بن مسرور، أبو الفتح القواس**، سمع البغوي، وابن أبي داود، وابن صاعد، وغيرهم، وعنه الخلال، والعشاري والتنوخي، وغيرهم، وكان ثقة نبيلا، يعد من الأبدال. قال الدارقطني: كنا نتبرك به وهو صغير. وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الآخر، عن خمس وثمانين سنة، ودفن بباب حرب رحمه اللّه تعالى.

■ **يوسف بن أبي سعيد، السيرافي أبو محمد النحوي** بن النحوي، وهو الذي تمم شرح أبيه لكتاب سيبويه، وكان يرجع إلى علم ودين، وكانت وفاته في ربيع الأول منها، عن خمس وخمسين سنة رحمه اللّه تعالى وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثلاثمائة

في المحرم من هذه السنة، كشف أهل البصرة عن قبر عتيق، فإذا هم بميت طري، عليه ثيابه وسيفُه، فظنوه الزبير بن العوام، فأخرجوه، وكفنوه، ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجدا، ووقفت عليه أوقاف كثيرة، وجعل عنده خدام، وقوام، وفرش، وتنوير. وفيها ملك الحاكم العُبيديّ بلاد مصر، بعد أن هلك أبوه العزيز بن المعز الفاطمي، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وقام بتدبير المملكة معه أرجوان الخادم وأمين الدولة الحسن بن عمّار شيخ كتامة، فلما تمكن الحاكم قتلهما، وأقام غيرهما، ثم قتل خلقا، حتى استقام له الأمر على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير الذي من جهة المصريين، والخطبة لهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن إبراهيم، بن محمد بن يحيى بن سختَويه أبو حامد بن أبي إسحاق المزكي النيسابوري**، سمع الأصم، وطبقته، وكان كثير العبادة، من صغره إلى كبره، وصام من دهره سرداً تسعا وعشرين سنة، قال الحاكم: وعندي أن الملائكة لم تكتب عليه خطيئة، توفي في شعبان من هذه السنة، عن ثلاث وستين سنة.

■ **أبو طالب المكي: صاحب «قوت القلوب»، محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي الواعظ المذكر، الزاهد المتعبد، الرجل الصالح**، سمع الحديث، وروى عنه غير واحد.

قال العتيقي: كان رجلا صالحا، مجتهدا في العبادة.

وصنف كتابا سماه «قوت القلوب»، وذكر فيه أحاديث لا أصل لها، وكان يعظ الناس في جامع بغداد.

وحكى ابن الجوزي [المنتظم ١٤/٣٨٥]، أن أصله من الجبل، وأنه نشأ بمكة، وأنه دخل البصرة، بعد وفاة أبي الحسن بن سالم، فانتمى إلى مقالته، ودخل بغداد، فاجتمع عليه الناس، وعقد له مجلس الوعظ، فغلط في كلامه، وحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين اضر من الخالق. فبدعه الناس، وهجروه، وامتنع من الكلام على الناس. وقد كان أبو طالب ممن يبيح السماع، فدخل عليه عبد الصمد بن علي، فعاتبه على ذلك، فأنشد أبو طالب:

فيا ليل كم فيك من متعة ويا صبح ليتك لم تقرب

فخرج عبد الصمد مغضبا.

وقال أبو القاسم بن بشران: دخلت على شيخنا أبي طالب المكي، وهو يموت، فقلت: أوْصني فقال: إذا ختم لي بخير، فانثر على جنازتي لوزا وسكراً، فقلت: كيف أعلم ذلك؟ فقال: اجلس عندي، ويديك في يدي، فإن قبضت على يدك، فاعلم أنه قد ختم لي بخير. قال: فجلست عنده ويدي في يده، فلما حان فراقه، قبض على يدي قبضاً شديداً، فلما رفع على جنازته، نثرت اللوز والسكر على نعشه. قال ابن الجوزي: توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، وقبره ظاهر بالقرب من جامع الرصافة والله أعلم.

العزيز بن المعز الفاطمي صاحب مصر

■ **نزار بن المعز معد أبي تميم**، ويكنى نزار هذا بأبي منصور، ويلقب بالعزيز، توفي عن ثنتين وأربعين سنة، منها ولايته بعد أبيه إحدى وعشرون سنة، وخمسة أشهر وعشرة أيام، وقام بالأمر من بعده، ولده الحاكم والحاكم، هو الذي تنسب إليه الفرقة الضالة، المضلة، الزنادقة، الحاكمية، وإليه ينسب أهل وادي التيم من الدرزية، أتباع هستكين، غلام الحاكم، الذي بعثه إليهم، يدعوهم إلى الكفر المحض، فأجابوه، لعنه اللّه وإياهم، وأما العزيز هذا، فإنه كان قد استوزر رجلا نصرانيا، يقال له: عيسى بن نسطورس، وآخر يهوديا اسمه ميشا، فعز بسببهما أهل هاتين الملتين في ذلك الزمان على المسلمين، حتى كتبت إليه امرأة قصة في حاجة لها تقول فيها: بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بميشا، وأذل

المسلمين بك، إلاما كشفت ظلامتي. فعند ذلك أمر بالقبض على هذين الرجلين، وأخذ من النصراني ثلاثمائة ألف دينار.

وفيها توفيت

■ **بنت عضد الدولة**، التي كانت زوجة الطائع لله، فحملت تركتها إلى ابن أخيها بهاء الدولة، وكان فيها جوهرٌ كثيرٌ وتحف ولطائف وغير ذلك والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

فيها توفي فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه، ورُتِّب ولده رستم في الملك بعده، وكان عمره أربع سنين، وقام خواص أبيه، بتدبير الممالك والرعايا.

ممن توفي فيها من الأعيان

أبو أحمد

■ **العسكري اللغوي وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد أبو أحمد العسكري اللغوي**، العلامة في فنه وتصانيفه، المفيدة في اللغة وغيرها، ويقال: إنه كان يميل إلى المعتزلة، ولما قدم الصاحب بن عباد، هو وفخر الدولة، البلدة التي كان فيها أبو أحمد العسكري وقد كبر وأسن بعث إليه الصاحب بن عباد برقعة، فيها هذه الأبيات:

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ... ضعفنا فما نقوى على الوحدان

أتيناكم من بعد أرض نزوركم ... فكم منزل بكر لنا وعوان

نناشدكم هل من قرى لنزيلكم ... بطول جوار لا بملء جفان

فكتب العسكريُّ الجواب في ظهرها:

أرومُ نهوضاً ثم يثني عزيمتي ... تعوُّدُ أعضائي من الرَّجفان

فضمنت بيت ابن الشريد كأنما ... تعمَّد تشبيهي به وعناني

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

ثم تحامل وركب بغلته، وسار إلى الصاحب، فوجده مشغولا في خيمته، بأُبهة الوزارة، فصعد أكمة ثم نادى بأعلى صوته متمثلا بقول أبي تمام:

ما لي أرى القبة الفيحاء مقفلة ... دوني وقد طال ما استفتحت

كأنها جنة الفردوس معرضة ... وليس لي عمل زاكٍ فأدخلها

فلما سمع الصاحب صوته ناداه: ادخلها يا أبا أحمد، فلك السابقة الأولى، فلما صار إليه، وقدم عليه أكرمه وعظمه وأحسن إليه.

توفي العسكري يوم التروية من هذه السنة، قال ابن خلكان [وفيات الأعيان ٨٤/٢]: وُلد سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وتوفي سنة ثنتين وثمانين.

■ **عبد الله بن محمد بن عبد الله، بن إبراهيم بن عبيد الله بن زياد بن مهران، أبو القاسم، الشاهد، المعروف بابن الثلاج**؛ لأن جده أهدى لبعض الخلفاء ثلجاً، فوقع منه موقعا، فعرف عند الخليفة بالثلاج، وقد سمع أبو القاسم هذا، من البغوي، وابن صاعد، وابن أبي داود، وحدث عنه التنوخي، والأزهري، والعتيقي، وغيرهم من الحفاظ، قال ابن الجوزي [المنتظم ٣٨٩/١٤]: وقد اتهمه المحدثون، منهم الدارقطني، ونسبوه إلى أنه كان يركب الإسناد، ويضع الحديث على الرجال فالله أعلم. وكانت وفاته في ربيع الأول فجأة.

■ **ابن زولاق، الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي ابن خلف بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق، أبو محمد المصري الحافظ**، صنف كتابا في قضاة مصر، ذيل به على كتاب أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي في ذلك انتهى الكندي إلى سنة ست وأربعين ومائتين وذيل ابن زولاق من القاضي بكار إلى سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ومبلّغاً به أيام محمد بن النعمان قاضي العبيديين، وأظنُّه مُصنِّف كتاب «البلاغ» الذي انتصب للرد عليه القاضي الباقلاني، أو هو مُصنِّفه عبد العزيز بن النعمان، والله أعلم.

وكانت وفاة ابن زولاق في أواخر ذي القعدة من هذه السنة، عن إحدى وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ **ابن بطة عبيد الله بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله العكبري**، المعروف بابن بطة، أحد علماء الحنابلة، وله التصانيف الكثيرة، الحافلة، في فنون من العلم، سمع الحديث من البغوي، وأبي بكر النيسابوري، وابن صاعد، وخلق في أقاليم متعددة، وعنه جماعة من الحفاظ، منهم أبو الفتح بن أبي الفوارس، والأزجي، والبرمكي، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، وكان ممن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وقد رأى بعضهم في المنام رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد اختلفت علينا المذاهب. فقال: عليك بأبي عبد الله بن بطة، فلما أصبح ذهب إليه ليبشره بالمنام، فحين رآه ابن بطة، تبسم إليه، وقال له قبل أن يخاطبه صدق رسول الله ﷺ ثلاث مرات. وقد تصدى الخطيب البغدادي للكلام في ابن بطة، والطعن فيه، بسبب ادّعائه سماع «السنن» لرجاء بن مُرجًّى و «معجم البَغَوِيّ»، وأسند بعض الجرد إلى شيخه عبد الواحد ابن علي الأسدي، المعروف بابن برهان اللغوي، فانتدب ابن الجوزي [المنتظم ٣٩١/١٤-٣٩٣] للرد على الخطيب، والطعن عليه أيضاً، بسبب بعض مشايخه، والانتصار لابن بطة، فحكى عن أبي الوفاء بن عقيل أن ابن برهان كان يرى مذهب مرجئة المعتزلة في أن الكفار لا يخلدون في النار دائماً، وقالوا: لأن دوام ذلك ممن لا يتشفّى، ولا معنى له هنا، مع أنه قد وصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، ثم شرع ابن عقيل يرد على ابن برهان. قال ابن الجوزي: فكيف يقبل الجرح والتعديل من مثل هذا؟ ثم روى ابن الجوزي بسنده، عن ابن بطة، أنه سمع «المعجم» من البغوي، قال: والمثبت مقدم على النافي.

قال الخطيب [تاريخ بغداد ٣٧٥/١٥]: وحدثني عبد الواحد بن برهان، قال: حدثنا محمد ابن أبي الفوارس: روى ابن بطة، عن البغوي، عن أبي مصعب، عن مالك، عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

قال الخطيب: وهذا باطل من حديث مالك، والحمل فيه على ابن بطة. قال ابن الجوزي: وجواب هذا من وجهين: أحدهما: أنه وجد بخط ابن برهان أن ماحكاه عن الخطيب من القدح في ابن بطة باطل، وهو شيخي، أخذت عنه العلم في البداية. الثاني: أن ابن برهان قد تقدم القدح فيه، بما خالف فيه الإجماع، فكيف قبلت منه القول في رجل قد حكيت عن مشايخ العلماء، أنه رجل صالح، مجاب الدعوة نعوذ بالله من الهوى.

■ **علي بن عبد العزيز بن مَردك، أبو الحسن البرذعي**، روى عن ابن أبي حاتم وغيره، وكان كثير المال، فترك الدنيا، وأقبل على الاعتكاف في المسجد، وكثرة الصلاة والعبادة.

■ فخر الدولة علي بن ركن الدولة بن بويه الديلمي، ملك بلاد الري ونواحيها، وحين مات أخوه مؤيد الدولة كتب إليه الصاحب بن عباد بالإسراع إليه فولاه الملك بعد أخيه، واستوزر ابن عباد على ما كان عليه في أيام أخيه مؤيد الدولة. توفي عن ست وأربعين سنة، منها مدة ملكه ثلاث عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة عشر يوماً، وترك من الأموال شيئاً كثيراً من ذلك من الذهب ما يقارب ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الجواهر نحواً من خمسة عشر ألف قطعة، يقارب قيمتها ثلاثة آلاف ألف دينار. وغير ذلك من أواني الذهب زنته ألف ألف دينار، ومن الفضة زنته ثلاثة آلاف ألف دره، ومن الثياب ثلاثة آلف حمل، وخزانة السلاح ألفا حمل، ومن الفرش ألف وخمسمائة حمل، ومن الأمتعة مما يليق بالملوك، ومع هذا ليلة توفي لم يكن لهم وصولٌ إلى شيء من المال ولم يحصُل له كفن إلا ثوب رجل من المجاورين في المسجد، واشتغلوا عنه بالملك حتى تم لولده رستم من بعده، فأنتن الملك ولم يتمكن أحد من الوصول إليه فربطوه في حبال وجروه على درج القلعة، فتقطع، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم.

■ ابن سمعون الواعظ: محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو الحسين بن سمعون الواعظ، أحد الصلحاء والعلماء، وكان يقال له الناطق بالحكمة، روى عن أبي بكر بن داود وطبقته، وكان له يد طولى في الوعظ، والتدقيق في المعاملات، وكانت له كرامات، ومكاشفات، كان يوما وهو يعظ الناس على المنبر، وتحته أبو الفتح بن القواس، وكان من الصالحين المشهورين، فنعس ابن القواس، فأمسك ابن سمعون عن الوعظ، حتى استيقظ، فحين استيقظ، قال ابن سمعون: رأيت رسول اللّه ﷺ في منامك؟ قال: نعم! قال: فلهذا أمسكت عن الوعظ، حتى لا أزعجك عما كنت فيه.

وكان لرجل ابنةٌ مريضة مدنفة، فرأى أبوها رسول اللّه ﷺ في المنام وهو يقول له: اذهب إلى ابن سمعون، ليأتي منزلك، فيدعو لابنتك، وهي تبرأ بإذن اللّه تعالى. فلما أصبح، ذهب إلى ابن سمعون ليأتي، فلما رآه، نهض ولبس ثيابه، وخرج معه، فظن الرجل، أنه يذهب إلى مجلس وعظه، فقال: أقول له في أثناء الطريق فلما مر بدار الرجل، دخل إليها الشيخ، فأحضر إليه ابنته، فدعا لها، وانصرف فبرأت من ساعتها.

وبعث إليه الخليفة الطائع للّه، من أحضره، وهو مغضب، فخيف على ابن سمعون منه، فلما جلس بين يدي الخليفة، أخذ في الوعظ، وكان أكثر ما أورده من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فبكى الخليفة حتى سمع شهيقه، ثم خرج من بين يديه، وهو مكرم، فقيل للخليفة: رأيناك طلبته وأنت غضبان، فقال: بلغني أنه يتنقص عليا، فأردت أن أعاقبه، فلما حضر، أكثر من ذكر علي، فعلمت أنه موفق، قد كوشف بما كان في خاطري عليه.

ورأى بعضهم في المنام رسول اللّه ﷺ، وإلى جانبه عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو يقول: أليس من أمتي الأحبار، أليس من أمتي الرهبان أليس من أمتي أصحاب الصوامع. فبينما هما كذلك إذ دخل ابن سمعون، فقال له رسول اللّه ﷺ: أفي أمتك مثل هذا؟ فسكت عيسى عليه السلام.

كان مولد ابن سمعون في سنة ثلاثمائة، وتوفي يوم الخميس الرابع عشر من ذي القعدة، في هذه السنة، ودفن بداره، قال ابن الجوزي [المنتظم١٥/٦]: ثم أخرج بعد سنين إلى مقبرة أحمد، وأكفانه لم تبل، رحمه اللّه تعالى.

آخر ملوك السامانية

■ نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل، أبو القاسم السامانى، ملك خراسان، وغزنة، وما وراء النهر، ولي الملك وله ثلاث عشرة سنة، واستمر في الملك إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر، ثم قبض عليه خواصه وأجلسوا أخاه عبد الملك مكانه فقصدهم محمود بن سبكتكين فانتزع الملك من أيديهم، وقد كان لهم في الملك مائة سنة وستين وشهوراً، فباد ملكهم في هذا العام، وللّه النقض والإبرام.

أبو الطيب

■ سهل بن محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان الصعلوكي الفقيه الشافعي إمام أهل نيسابور، وشيخ أهل تلك الناحية، كان يحضر مجلسه نحوٌ من خمسمائة محبرة، وكانت وفاته في هذه السنة على المشهور. وقال الحافظ أبو يعلى الخليلي في «الإرشاد» [الإرشاد٣/٨٦٢]: إنه مات في سنة ثنتين وأربعمائة فاللّه تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم١٥/٨، ٩]: في ذي الحجة من هذه السنة سقط في بغداد برد شديد، بحيث جمد الماء في الحمامات، وبول الدواب في الطرقات.

وفيها جاءت رسل أبي طالب رستم بن فخر الدولة فبايعه الخليفة وأمرّه على معاملته ببلاد الري ولقبه مجد الدولة وكهف الأمة، وبعث إليه بالخلع والألوية، وكذلك لبدر بن حسنويه ولقبه ناصر الدين والدولة، وكان كثير الصدقات.

وفيها هرب عبد اللّه بن جعفر المعروف بابن الوثاب، المنتسب إلى جده الطائع ، من السجن بدار الخلافة، إلى البطيحة، فآواه صاحبها مهذب الدولة، ثم أرسل القادر باللّه في أمره فجيء به مضيقا عليه فاعتقله، ثم هرب من الاعتقال أيضا فذهب إلى بلاد كيلان فادعى أنه الطائع للّه، فصدقوه وبايعوه وأدوا إليه العشر، وغير ذلك من الحقوق، ثم اتفق مجيء بعضهم إلى بغداد فسألوا عن الأمر فإذا به ليس له صحة ولا حقيقة، فرجعوا عنه واضمحل أمره وفسد حاله، فانهزم عنهم.

وحج بالناس في هذه السنة أمير المصريين، والخطبة بالحرمين للحاكم العبيدي قبحه اللّه.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو سليمان حمد ويقال: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب

■ الخطابي البستي، أحد المشاهير الأعيان، والفقهاء المحدثين المكثرين له من المصنفات «معالم السنن» و «شرح البخاري»، وغير ذلك. من التصانيف النافعة المفيدة. وله شعر حسن. فمنه قوله:

مادمتَ حياً فدارِ الناس كلهم … فإنما أنتَ في دارِ المداراةِ

من يدرِ داري ومن لم يدرِ سوف … عما قليل نديماً للندامات

وكانت وفاته بمدينة بست في ربيع الأول من هذه السنة. قاله ابن خلكان [وفيات الأعيان٢/٢١٥].

■ الحسين بن أحمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن بكير أبو عبد اللّه الصيرفي الحافظ المطبق، سمع إسماعيل الصفار وابن السماك والنجاد، والخلدي، وأبا بكر الشافعي، وعنه ابن شاهين، والأزهري، والتوخي، وحكى الأزهري أنه دخل عليه، وبين يديه أجزاء كبار، فجعل إذا ساق

إسنادا، أورد متنه من حفظه، وإذا سرد متنا، ساق إسناده. قال: وفعلت هذا معه مراراً، كل ذلك يورد الحديث، إسنادا، ومتنا، كما في كتابه. قال: وكان ثقة، فحسدوه. وتكلموا فيه. وحكى الخطيب [تاريخ بغداد ١٤/٨] أن ابن أبي الفوارس، اتهمه بأنه يزيد في سماع الشيوخ، ويلحق رجالا في الأسانيد، ويصل المقاطيع، وكانت وفاته في ربيع الآخر منها عن إحدى وستين سنة.

■ **صمصام الدولة ابن عضد الدولة،** صاحب بلاد فارس، خرج عليه ابن عمه أبو نصر بن بختيار، فهرب منه، ولجأ إلى جماعة من الأكراد، فلما وغلوا به في بلادهم، نهبوا خزائنه، وحواصله، ولحقه أصحاب ابن بختيار، فقتلوه، وحملوا رأسه في طست، فلما وضع بين يدي ابن بختيار قال: هذه سنة سنها أبوك. وكان ذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان عمره يوم قتل خمسا وثلاثين سنة، ومدة ملكه منها تسع سنين وأشهر.

■ **عبد العزيز بن يوسف الجكّار، أبو القاسم،** كاتب الإنشاء لعضد الدولة، ثم وزر لابنه بهاء الدولة خمسة أشهر، وكان يقول الشعر. توفي في شعبان من هذه السنة.

■ **محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج المعروف بغلام الشنبوذي،** كان عالما بالقراءات، وتفسيرها، يقال إنه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر، شواهد للقرآن، ومع هذا تكلموا في روايته عن أبي الحسين بن شنبوذ، وأساء الدارقطني القول فيه. توفي في صفر من هذه السنة وكان مولده سنة ثلاثمائة.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

في هذه السنة قصد محمود بن سبكتكين بلاد خراسان، فاستلب ملكها من أيدي السامانية، وواقعهم مرات متعددة، في هذه السنة، وما قبلها، حتى أزال اسمهم، ورسمهم عن البلاد بالكلية، وانقرضت دولتهم على يديه، ثم صمد لقتالهم إيلك ملك الترك، بما وراء النهر، وذلك بعد موت الخان، الذي يقال له: فائق، وجرت له معهم حروب، وخطوب.

وفيها استولى بهاء الدولة على بلاد فارس، وخوزستان.

وفيها أرادت الشيعة أن تعملّ ما كانوا يصنعونه، من الزينة يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة فيما يزعمونه، فقاتلهم جهلة آخرون من المتسبين للسنة، فادعوا أن في مثل هذا اليوم حصر النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ في الغار، فامتنعوا من ذلك، وهذا أيضا جهل من هؤلاء، فإن هذا إنما كان أوائل شهر ربيع الأول من أول سني الهجرة، فإنهما أقاما فيه ثلاثا، وحين خرجا منه قصدا المدينة فدخلاها بعد ثمانية أيام أو نحوها، وكان دخولهما المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهذا أمر معلوم مقرر. ولما كانت الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتما، يظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة أهل السنة، فادعوا أن في اليوم الثامن عشر من المحرم، قتل مصعب بن الزبير، فعملوا له مأتما، كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره، كما يزار قبر الحسين، وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها، ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة وبالله التوفيق.

وفيها وقع برد شديد مع غيم مطبق، وريح قوية جداً، بحيث أتلفت شيئا كثيرا من النخيل ببغداد، فلم يتراجع حملها إلى عادتها إلا بعد سنين.

وحج بركب العراق الشريفان الرَّضيُّ والمرتضى، فاعتقلهما أمير الأعراب ابن الجراح، فافتديا منه بتسعة آلاف دينار من أموالهما، فأطلقهما.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسي المقرئ، الفقيه، المحدث،** شيخ عصره بخراسان، قرأ على ابن مجاهد، وتفقه بأبي إسحاق المروزي، إمام الشافعية، وأخذ علم اللغة، والأدب، والنحو، عن أبي بكر بن الأنباري، وكانت وفاته في ربيع الآخر، عن ست وتسعين سنة.

■ **عبيد الله بن محمد بن إسحاق بن سليمان بن مخلد بن إبراهيم ابن مَرْوان أبو القاسم المعروف بابن حبابة،** روى عن أبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود، وطبقتهما، وكان ثقة مأمونا مسندا، ولد ببغداد سنة تسع وتسعين ومائتين، وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، عن تسعين سنة، وصلى عليه الشيخ أبو حامد الإسفراييني، شيخ الشافعية، ودفن في مُقابل جامع المنصور رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة

في هذه السنة ظهر بأرض سجستان، معدن من ذهب، كانوا يحفرون فيه مثل الآبار، ويخرجون منه ذهباً أحمر.

وفيها قتل الأمير أبو نصر بن بختيار، صاحب بلاد فارس، واستولى عليها بهاء الدولة.

وفيها قلد القادر بالله القضاء بواسط، وأعمالها، لأبي خازم محمد بن الحسن الواسطي، وقرئ عهده بدار الخلافة، وكتب له القادر وصية حسنة طويلة، أوردها بحروفها أبو الفرج بن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ١٨/١٥، ١٩]، وفيها مواعظ، وأوامر، ونواهٍ، حسنة جداً والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن أبي موسى أبو بكر الهاشمي،** الفقيه المالكي، القاضي بالمدائن، وغيرها، وخطب بجامع المنصور، وسمع الكثير، وروى عن الجم الغفير، بانتخاب أبي الحسن الدارقطني الحافظ الكبير، وكان عفيفا، نزهاً، ثقة دينا. توفي في محرم هذه السنة عن خمس وسبعين سنة.

■ **عبيد الله بن عثمان بن يحيى، أبو القاسم الدقاق،** ويعرف بابن جَنيقا، قال العلامة القاضي أبو يعلى بن الفراء ـ وهذا جده ـ: بالصواب جليقاً باللام لا بالنون. وقد سمع الحديث سماعا صحيحاً، وروى عنه الأزهري والعتيقي. قال ابن أبي الفوارس: وكان ثقة مأمونا، حسن الخلق، ما رأينا مثله في معناه.

■ **الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء،** والد القاضي أبي يعلى، وكان صالحا، فقيها على مذهب أبي حنيفة، أسند الحديث، وروى عنه ابنه أبو حازم محمد بن الحسين.

■ **عبد الله بن أحمد بن علي بن أبي طالب البغدادي،** نزيل مصر، وحدث بها، فسمع منه الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري.

■ **عمر بن إبراهيم بن أحمد أبو حفص المعروف بالكتاني المقرئ،** ولد سنة ثلاثمائة، روى عن البغوي، وابن مجاهد، وابن صاعد، وعنه الأزهري، وغيره، وكان ثقة صالحا.

■ **محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن هارون، أبو الحسين الدقاق،** المعروف بابن أخي ميمي، سمع البغوي، وغيره، وعنه جماعة، ولم

يزل مع كبر سنه، يكتب الحديث، إلى أن توفي، وله تسعون سنة، وكان ثقة مأمونا، دينا، فاضلا، حسن الأخلاق، توفي وكانت وفاته ليلة الجمعة، لثمان وعشرين من شعبان هذه السنة.

■ **محمد بن عمر بن يحيى بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، الشريف أبو الحسن العلوي**، الكوفي، ولد سنة خمس عشرة، وسمع من أبي العباس بن عقدة، وغيره، وسكن بغداد، وكانت له أموال كثيرة، وضياع ودخل عظيم، زحشمةٌ وافرة، وهمة عالية، وكان مقدما على الطالبيين في وقته، وقد صادره عضد الدولة في وقت، واستحوذ على جمهور أمواله، وسجنه، ثم أطلقه شرف الدولة بن عضد الدولة، ثم صادره بهاء الدولة بألف ألف دينار وأكثر، ثم سجنه، ثم أطلقه، واستنابه على بغداد. ويقال إن غلاله، كانت تساوي في كل سنة ألفي ألف دينار، وله وجاهة كبيرة جداً. ورياسة باذخة.

الأستاذ

■ **أبو الفتوح برجوان**، الناظر في الأمور بالديار المصرية في الدولة الحاكمية، وإليه تنسب حارة برجوان بالقاهرة المعزية، كان أولا من غلمان العزيز بن المعز، ثم صار عند الحاكم نافذ الأمر، مطاعاً، كبيرا في الدولة، ثم أمر بقتله في القصر، فضربه الأمير ريدان - الذي تنسب إليه الريدانية خارج باب الفتوح - بسكين في بطنه فقتله. وقد ترك شيئا كثيراً من الأثاث والثياب، من ذلك ألف سراويل دَبيقيٌ بألف تكة من حرير، قاله ابن خلكان في كتابه [وفيات الأعيان ١/٢٧٠، ٢٧١]. وولى الحاكم بعده في منصبه، الأمير حسين ابن القائد جوهر.

الجريري المعروف بابن طرارا اسمه

■ **المعافى بن زكريا بن يحيى ابن حميد** بن حماد بن داود أبو الفرج النهرواني القاضي لأنه ناب في الحكم - المعروف بابن طرارا الجريري لاشتغاله على ابن جرير الطبري، وسلوكه وراءه في مذهبه، سمع الحديث من البغوي، وابن صاعد، وخلق، وروى عنه جماعة، وكان ثقة، عالما، فاضلا، كثير الآداب، والتفنن في أصناف العلوم، وله المصنفات الكثيرة، منها كتابه المسمى بـ «الجليس والأنيس»، فيه فوائد جمة كثيرة.

وكان الشيخ أبو محمد الباقيُّ أحد أئمة الشافعية يقول: إذا حضر المعافى، فقد حضرت العلوم كلها، ولو أوصى رجل بثلث ماله لأعلم الناس، لوجب أن يصرف إليه.

قال غيره: اجتمع جماعة من الفضلاء، في دار بعض الرؤساء، وفيهم المعافى، فقالوا: هلم نتذاكر في فن من العلوم فقال المعافى لصاحب المنزل - وكانت عنده كتب كثيرة في خزانة عظيمة -: مر غلامك هذا أن يأتي بكتاب من هذه الكتب، أي كتاب، فنَتذاكر فيه. فتعجب الحاضرون من هذا التمكن، والتبحر.

وقال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ١٣/٢٣٠]: أنشدنا الشيخ أبو الطيب الطبري، أنشدنا المعافى بن زكريا لنفسه:

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدبْ
أسأت على الله في فِعْله ... لأنك لم ترضَ لي ما وهبْ
فجازاك عني بأن زادني ... وسدَّ عليك وجوه الطلبْ

وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة، رحمه الله.

■ **ابن فارس**: صاحب «المجمل»، وقيل: إنه توفي في سنة خمس وتسعين كما سيأتي.

■ **أمة السلام بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة، أم الفتح**، سمعت من محمد بن إسماعيل البصلاني وغيره، وعنها الأزهري، والتنوخي، وأبو يعلى بن الفراء، وغيرهم، وأثنى عليها غير واحد في دينها، وفضلها، وسيادتها، وكان مولدها في رجب من سنة ثمان وتسعين، وتوفيت في رجب أيضا من هذه السنة، عن ثتين وتسعين سنة، رحمها الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

فيها بايع الخليفة القادر بالله، لولده أبي الفضل، بولاية العهد من بعده، وخطب له، ولقب بالغالب بالله، وكان عمره حينئذ ثماني سنين وشهوراً، ولم يتم له ذلك، وكان سبب هذه العجلة، أن رجلا يقال له عبد الله بن عثمان الواثقي، ذهب إلى بعض الأطراف من بلاد الترك، وادعى أن القادر بالله، جعله ولي عهده من بعده، فخطبوا له هنالك، فلما بلغ القادر أمرُه، بعث يتطلبه، فهرب منه في الأفاق، وتمزق شمله، ثم أخذه بعض الملوك، فسجنه في قلعة إلى أن مات، فلهذا بادر القادر إلى هذه البيعة. وفي يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة، ولد الأمير أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله، وهذا هو الذي صارت إليه الخلافة، وهو القائم بأمر الله.

وفيها قتل الأمير حسام الدولة المقلد بن المسيب العقيلي غيلة، ببلاد الأنبار، وكان قد عظم شأنه بتلك البلاد، ورام المملكة، فجاءه القدر المحتوم، فقتله بعض غلمانه الأتراك، وقام بالأمر من بعده، ولده قرواش. وحج بالناس المصريون.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات أبو الفضل، المعروف بابن حنزابة الوزير**، ولد سنة ثمان وثلاثمائة ببغداد، ونزل الديار المصرية، ووزر بها لأميرها كافور الإخشيدي، وكان أبوه وزيراً للمقتدر، وقد سمع الحديث من محمد بن هارون الحضرمي، وطبقته من البغداديين، وكان قد سمع مجلساً من البغوي، ولم يكن عنده، فكان يقول: من جاءني به أغنيته، وكان له مجلس لإملاء الحديث بديار بمصر، وبسببه رحل الدارقطني إلى هناك، فنزل عنده، وخرج له مسندا، وحصل له منه مال جزيل، وحدث عنه الدارقطني، وغيره من الأكابر. ومن مستجاد شعره قوله:

من أخملَ النَّفسَ أحياها وروَّحها ... ولم يبتْ طاويا منها على ضجرِ
إن الرياح إذا اشتدتْ عواصفها ... فليس ترمي سوى العالي من الشجرِ

قال ابن خلكان [وفيات الأعيات ١/٣٤٩]: كانت وفاته في صفر. وقيل: في ربيع الأول من هذه السنة، عن ثتين وثمانين سنة، ودفن بالقرافة، وقيل: بداره، وقيل: إنه كان قد اشترى داراً بالمدينة النبوية، فجعلها تربة له، فلما نقل إليها، تلقته الأشراف لإحسانه إليهم، فحملوه، وحجوا به، وأوقفوه به بعرفات، ثم أعادوه إلى المدينة، فدفنوه بتربته.

■ **ابن الحجاج الشاعر، الحسين بن أحمد بن الحجاج أبو عبد الله** الشاعر الماجن، المقذع في نظمه، بألفاظ يستنكف اللسان عن التلفظ بها،

والأذنان عن الاستماع إليها، وقد كان أبوه من كبار العمال، وولي هو حسبة بغداد في أيام عز الدولة بن معز الدولة بن بويه، فاستخلف عليها نوابا ستة، وتشاغل هو بالشعر السخيف، والرأي الضعيف، إلا أن شعره جيد من حيث اللفظ، وفيه قوة جيدة تدل على تمكّن واقتدار على سبك المعاني القبيحة، التي هي في غاية الفضيحة، في الألفاظ الفصيحة، وله غير ذلك من الأشعار المستجادة، وقد امتدح مرة صاحب مصر، فبعث إليه بألف دينار.

وقول القاضي ابن خلكان: ويقال: إنه عزل عن حسبة بغداد، بأبي سعيد الإصطخري، قول ضعيف، لا يسامح بمثله القاضي، فإن أبا سعيد توفي في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، فكيف يعزل به ابن الحجاج؟! وهو لا يمكن عادةً أن يلي الحسبة بعد أبي سعيد الإصطخري، ولكبر قدر ابن خلكان في هذه الصناعة ناقشناه، فإنه أرخ وفاة هذا الشاعر بهذه السنة، ووفاة الإصطخري بما تقدم. وقد جمع الشريف الرضي أشعاره الجيدة على حدة، في ديوان مفرد، ورثاه حين توفي هو وغيره من الشعراء.

■ **عبد العزيز بن أحمد أبو الحسن الخَوْزيّ**، القاضي بالمخرَّم، وحريم دار الخلافة، وغير ذلك من الجهات، وكان ظاهريا على مذهب داود، وكان لطيفاً ظريفاً، تحاكم إليه وكيلان، فبكى أحدهما في أثناء الخصومة، فقال له القاضي: أرني وكالتك فناوله، فقرأها، ثم قال له: لم يجعل إليك أن تبكي عنه فاستضحك الناس، ونهض الوكيل خجلا.

■ **عيسى ابن الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو القاسم البغدادي**، كان أبوه من كبار الوزراء، وكتب هو للطائع أيضاً، وسمع الحديث الكثير، وكان صحيح السماع، كثير العلوم، وكان عارفا بالمنطق، وعلم الأوائل، فرموه بشيء من مذهب الفلاسفة، ومن جيد شعره قوله:

رُبَّ ميتٍ قد صار بالعلم حيّاً ... ومبقّىً قد مات جهلاً وغيّاً
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً ... لا تعدُّوا الحياة في الجهل شيّاً

كان مولده سنة ثنتين وثلاثمائة، وتوفي في هذه السنة، عن تسع وثمانين سنة، ودفن في داره ببغداد.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة

في المحرم منها، غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فقصد له ملكها جيبال، في جيش عظيم، فاقتتلوا قتالا شديدا، ففتح الله على المسلمين، وانهزمت الهنود، وأسر ملكهم جيبال، وأخذوا من عنقه، قلادة قيمتها ثمانون ألف دينار، وغنم المسلمون منهم أموالا عظيمة وفتحوا بلادا كثيرة، ثم أطلق محمودا ملك الهند احتقارا له، واستهانة به، ليراه أهل مملكته، في لباس المذلة، فحين وصل جيبال لعنه الله إلى بلاده، ألقى نفسه في النار، التي يعبدونها من دون الله، فاحترق، لعنه الله.

وفي ربيع الآخر منها، ثارت العوام على النصارى، ببغداد، فنهبوا كنيستهم التي بقطيعة الرّقيق، وأحرقوها، فسقطت على خلق، فماتوا، وفيهم جماعة من المسلمين رجال ونساء وصبيان وفي رمضان منها، قوي أمر العيارين، وكثرت العملات، والنهب ببغداد، وانتشرت الفتنة.

قال ابن الجوزي [المنتظم ٣٢/١٥]: وفي ليلة الاثنين، ثالث ذي القعدة، انقض كوكب، أضاء كضوء القمر ليلة التمام، ومضى الضياء، وبقي جرمه، يتموج نحو ذراعين في ذراع، برأي العين، ثم توارى بعد ساعة.

وفي هذا الشهر، قدم الحجاج من خراسان إلى بغداد، ليسيروا إلى الحجاز، فبلغهم عيث الأعراب بالفساد، وأنه لا قاهر لهم، ولا ناظر ينظر في أمورهم، فرجعوا إلى بلادهم، ولم يحج من بلاد المشرق أحد في هذه السنة.

وفي يوم عرفة، ولد لبهاء الدولة ابنان توأمان، فمات أحدهما بعد سبع سنين، وبقي الآخر حتى قام بالأمر من بعد أبيه، ولقب مشرِّف الدولة، وحج المصريون فيها بالناس.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الفتح عثمان

■ **ابن جني الموصلي، النحوي، اللغوي**، صاحب التصانيف الفائقة المتداولة في النحو واللغة، وكان أبوه جني عبدا روميا، مملوكا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، ومن شعره في ذلك قوله:

فإن أصبح بلا نسبٍ ... فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى ... قرومٍ سادةٍ نجبِ
قياصرة إذا نطقوا ... أرمَّ الدهرُ ذو الخطبِ
أولاك دعا النبيُّ لهم ... كفى شرفاً دعاءُ نبي

وقد أقام ببغداد، ودرس بها العلم، إلى أن توفي ليلة الجمعة، لليلتين خلتا من صفر منها، قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان ٢٤٦/٣]: ويقال: إنه كان أعور. وله في ذلك:

صدودك عنّي ولا ذنب لي ... يدُلُّ على نيةٍ فاسده
فقد وحياتك مما بكيت ... خشيت على عينيَ الواحده
ولولا مخافة أن لا أراك ... لما كان في تركها فائده

ويقال: إن هذه الأبيات لغيره.

وله في مملوك حسن الصورة أعور:

له عينٌ أصابتْ كلَّ عينٍ ... وعينٌ قد أصابتها العيونُ

أبو الحسن

■ **علي بن عبد العزيز الجرجاني: القاضي بالري، الشاعر الماهر**، سمع الحديث، وترقى في العلوم، حتى أقر له الناس بالتفرد، وله أشعار حسان من ذلك قوله:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزةُ النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلّما ... بدا طمع صيرته لي سلما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه، فهان، ودنَّسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهّما

ومن مُستجاد شعره أيضاً قوله:

ما تطعّمت لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شيء أعزُّ عندي من العلـ ... م فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذل في مخالطة النا ... س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

ومن شعره أيضاً:

إذا شئتَ أن تستقرضَ المال منفقاً ... على شهوات النفس في زمن العُسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإنظاراً إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغني وإن أبت ... فكل منوع بعدها واسع العذر

توفي رحمه الله في هذه السنة، وحمل تابوته إلى جرجان، فدفن بها.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة

فيها كانت وفاة الطائع لله، على ماسنذكره.

وفيها منع عميد الجيوش، الشيعة من النوح على الحسين، في عاشوراء، ومنع جهلة السنة، بباب البصرة، وباب الشعير، من النياحة على مصعب بن الزبير، بعد ذلك بثمانية أيام، فامتنع الفريقان، ولله الحمد والمنة.

وفي أواخر المحرم خلع بهاء الدولة وزيره أبا غالب محمد بن خلف عن الوزارة، وصادره بمائة ألف دينار قاسانية.

وفي أوائل صفر منها، غلت الأسعار ببغداد جداً، وعدمت الحنطة حتى بيع الكر منها بمائة وعشرين ديناراً.

وفيها برز عميد الجيوش إلى سورا، واستدعى سيد الدولة أبا الحسن، علي بن مزيد، وقرر عليه في كل سنة أربعين ألف دينار، فالتزم ذلك، وقرّره على بلاده.

وفيها هرب أبو العباس الضبي، وزير مجد الدولة بن فخر الدولة من الري، إلى بدر بن حسنويه، فأكرمه، وولي بعد ذلك وزارة مجد الدولة أبو علي الخطير.

وفيها استتاب الحاكم على دمشق وجيوش الشام أبا محمد الأسود، ثم بلغه أنه عزر رجلا مغربياً، على حبه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وطاف به في البلد، فخاف من معرة ذلك، فبعث إليه، فعزله مكرا وخديعة.

وانقطع الحج في هذه السنة من العراق بسبب الأعراب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **إبراهيم بن أحمد بن محمد، أبو إسحاق الطبري،** الفقيه المالكي، مقدم المعدلين ببغداد، وشيخ القراءات، وقد سمع الكثير من الحديث، وخرج له الدارقطني خمسمائة جزء حديث، وكان كريما مفضلا على أهل العلم رحمه الله تعالى.

■ **الطائع لله عبد الكريم بن المطيع،** تقدم كيف خلعه، بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة وأنه أودع في غرفة بدار الخلافة وأجري عليه أرزاق كثيرة وألطاف غزيرة إلى أن توفي ليلة عيد الفطر من هذه السنة، عن ست وسبعين سنة، وقد باشر الخلافة سبع عشرة سنة وستة أشهر وخمسة أيام، وصلى عليه القادر بالله، فكبر عليه خمساً، وشهد جنازته الأكابر، والأعيان ودفن بالرصافة.

■ **محمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا، أبو طاهر المخلص،** شيخ كبير كثير الرواية، سمع البغوي، وابن صاعد، وخلقا، وعنه البرقاني، والأزهري، والخلال، والتنوخي، وكان ثقة من الصالحين. توفي في رمضان من هذه السنة، عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله.

■ **محمد بن عبد الله: أبو الحسن السلامي،** الشاعر المجيد، له شعر مشهور، ومدائح في عضد الدولة وغيره.

■ **ميمونة بنت شاقولة،** الواعظة التي هي للقرآن حافظة، ذكرت يوما في وعظها، أن ثوبها الذي عليها، وأشارت إليه له في صحبتها تلبسه منذ سبع وأربعين سنة، وما تغير، وأنه كان من غزل أمها. قالت: والثوب إذا لم يعص الله فيه، لا يتخرق سريعا وقال ابنها عبد الصمد: كان في دارنا حائط، يريد أن ينقض، فقلت لها: ألا ندعو البناء ليصلح هذا الجدار؟ فأخذت رقعة، فكتبت فيها شيئا، ثم أمرتني أن أضعها في موضع من الجدار، فوضعتها، فمكث على ذلك عشرين سنة، فلما توفيت، أردت أن أستعلم ما كتبت في الرقعة، فحين أخذتها من الجدار سقط، وإذا في الرقعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَـزُولا﴾ [فاطر: ٤١] بسم الله يا ممسك السموات والأرض أمسكه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثلاثمائة

وفيها ولى بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الحسين بن أحمد بن موسى الموسوي، قضاء القضاة، والحج، والمظالم، ونقابة الطالبيين، ولقب بالطاهر الأوحد، ذي المناقب، وكان التقليد له بشيراز، فلما وصل الكتاب إلى بغداد، لم يأذن له الخليفة القادر في قضاء القضاة، فتوقف حاله بسبب ذلك.

وفيها ملك أبو العباس بن واصل بلاد البطيحة، وأخرج منها مهذب الدولة، فقصده زعيم الجيوش، ليأخذها منه، فهزمه ابن واصل، ونهب أمواله، وحواصله، وكان في جملة ما أصاب في خيمة الخزانة ثلاثون ألف دينار، وخمسون ألف درهم.

وفيها خرج الركب العراقي إلى الحجاز، في جحفل كبير، وتجمل كثير، فاعترضهم الأصيفر أمير الأعراب لينهبهم، فبعثوا إليه بشابين، قارئين مجيدين، كانا معهم يقال لهما: أبو الحسن بن الرّفّاء، وأبو عبد الله بن الدجّاجيّ وكانا من أحسن الناس قراءة، ليكلماه في شيء يأخذه من الحجيج، ويطلق سراحهم، ليدركوا الحج، فلما جلسا بين يديه، قرآ جميعا عشراً بأصوات هائلة، مطبوعة، فأدهشه ذلك، وأعجبه جدا، وقال لهما: كيف عيشكما ببغداد؟ فقالا: بخير، لا يزال الناس يكرموننا، ويبعثون إلينا بالذهب والفضة والتحف. فقال: هل أطلق لكما أحد منهم ألف ألف دينار فقالا: لا، ولا ألف دينار في يوم واحد. قال: فإني أطلق لكما ألف ألف دينار. فأطلق بسببهما الحجيج فلم يعرض لأحد منهم، وذهب الناس إلى الحج وهم سالمون شاكرون لذينك الرجلين المقرئين. ولما وقف الناس بعرفات، قرأ هذان الرجلان قراءة عظيمة، على جبل الرحمة، فضج الناس من سائر الركوب لقراءتهما، وقالوا لأهل العراق: ما كان ينبغي، أن تخرجوا بهذين الرجلين في سفرة واحدة، لاحتمال أن يصابا جميعا، بل كان ينبغي أن تخرجوا بأحدهما، فإذا أصيب سلم الآخر. وكانت الحجة، والخطبة في هذه السنة، للمصريين، كما هي لهم من سنين متقدمة.

وقد كان أمير العراقيين، عزم على العود سريعاً إلى بغداد، على طريقهم التي جاؤوا منها، وأن لا يسيروا إلى المدينة النبوية، خوفا من الأعراب، وكثرة الخفارات، فشق ذلك على الناس، فوقف هذان الرجلان القارئان، على جادة الطريق، التي منها يعدل إلى المدينة النبوية، وقرآ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ولا

﴿يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآيات فضج الناس بالبكاء، وأمالت النوق أعناقها نحوهما، فمال الناس والأمير بأجمعهم ميلةً واحدة إلى المدينة النبوية، فزاروا، وعادوا سالمين إلى بلادهم، ولله الحمد والمنة.

ولما رجع هذان القارئان، رتبهما ولي الأمر مع أبي بكر بن البهلول وكان مقرئا مجيداً أيضاً ليصلوا بالناس صلاة التراويح في رمضان، فكثر الجمع وراءهم، لحسن تلاوتهم، وكانوا، يتناوبون في الإمامة.

وقد قرأ ابن البهلول يوماً في جامع المنصور قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] فنهض إليه رجل صوفي، وهو يتمايل، فقال: كيف قلت؟ فأعاد الآية، فقال الصوفي: بلى والله وسقط ميتا، رحمه الله. قال ابن الجوزي [المنتظم١٥/٤٤]: وكذلك وقع لأبي الحسن بن الخشاب، شيخ ابن الرفا، وكان تلميذا لأبي بكر بن الآدمي المتقدم ذكره، وكان جيد القراءة حسن الصوت أيضا، قرأ ابن الخشاب ليلةً في جامع الرصافة، في الإحياء، هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ [الحديد: ١٦] فتواجد رجل صوفي، وقال: بلى قد آن وجلس، وبكى بكاء طويلا، ثم سكت سكتة، فحركوه فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن محمد بن إسماعيل أبو علي الإسكافيّ: ويلقب بالموفَّق، وكان مقدما عند بهاء الدولة، فولاه بغداد، فأخذ أموالا كثيرة من اليهود، ثم هرب إلى البطيحة، فأقام بها سنتين، ثم قدم بغداد، فولاه بهاء الدولة الوزارة، وكان شهما، منصورا في الحروب، ثم عاقبه بعد ذلك، وقتله في هذه السنة، عن تسع وأربعين سنة.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

فيها عاد مهذب الدولة إلى البطيحة، ولم يمانعه ابن واصل، وتقرّر عليه في كل سنة لبهاء الدولة خمسون ألف دينار. وفيها كان غلاء عظيم وفناءٌ ببلاد إفريقية، بحيث تعطلت المخابز والحمامات، وذهب خلق كثير من الفناء، وهلك آخرون من شدة الغلاء، فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو المسئول المأمول أن يحسن العاقبة.

وفيها أصاب الحجيج في الطريق عطش شديد بحيث هلك كثير منهم. وكانت الخطبة للمصريين كما تقدم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن أحمد بن محمد بن موسى بن جعفر: أبو نصر البخاري، المعروف بالملاحمي، أحد الحفاظ، قدم بغداد وحدث بها عن محمود بن إسحاق عن البخاري، وروى عن الهيثم بن كليب وغيره، وحدث عنه الدارقطني، وكان من أعيان أصحاب الحديث. توفي ببخارى في شعبان من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين.

■ محمد بن أبي إسماعيل: علي بن الحسين بن الحسن بن القاسم أبو الحسن العلوي، ولد بهمذان ونشأ ببغداد، وكتب الحديث عن جعفر الخلدي، وغيره، وسمع بنيسابور من الأصم وغيره، ودرس فقه الشافعي على أبي علي بن أبي هريرة، ثم دخل الشام فصحب الصوفية حتى صار من كبارهم، وحج مرات على الوحدة، وكانت وفاته في محرم هذه السنة.

■ ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي، صاحب «المجمل» في اللغة، وكان مقيما بهمذان، وله رسائل حسان، أخذ عنه البديع صاحب «المقامات»، ومن رائق شعره قوله:

مرت بنا هيفاء مجدولة ... تركية تنمي لتركي
ترنو بطرف فاتر فاتن ... أضعف من حجة نحوي

وله أيضاً:

إذا كنت في حاجة مرسلا ... وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان١/١١٩]: توفي سنة تسعين وثلاثمائة، وقيل سنة خمس وتسعين. والأول أشهر.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزي [المنتظم١٥/٤٩]: في ليلة الجمعة مستهل شعبان طلع نجم يشبه الزهرة في كبره ضوئه عن يسرة القبلة يتموج، وله شعاع على الأرض كشعاع القمر، وثبت إلى النصف من ذي القعدة ثم غاب.

وفيها ولي محمد بن الأكفاني قضاء جميع بغداد. وفيها جلس القادر للأمير قرواش بن أبي حسان وأفردهُ في إمارة الكوفة ولقبه معتمد الدولة.

وفيها قلد الشريف الرضي نقابة الطالبيين، ولقب بالرضي ذي الحَسَبَيْن، ولقب أخوه المرتضي ذا المجدين. وفيها غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند فافتتح مدنا كبارا منها، وأخذ أموالا جزيلة، وأسر بعض ملوكهم وهو ملك كَوَاشي حين هرب منه لما افتتحها، وكسر أصنامها، فألبسه مِنطقةً وشدها على وسطه بعد تمنع شديد وقطع خنصره ثم أطلقه إهانة له، وإظهاراً لعظمة الإسلام وأهله.

وفيها كانت الخطبة بالحَرَمَيْن للحاكم العبيدي، وتجدد في حل الخطبة أنه إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم، وكذلك بديار مصر مع زيادة السجود، وكانوا يسجدون عند ذكره، يسجد من هو في الصلاة ومن هو في الأسواق أيضاً يسجدون لسجودهم، لعنهم الله سبحانه وتعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو سعد

■ إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو سعد الجرجاني، المعروف بالإسماعيلي، ورد بغداد والدارقطني حيٌّ وحدّث عن أبيه أبي بكر الإسماعيلي والأصم وابن عدي، وحدث عنه الخلال والتنوخي، وكان ثقة فاضلا فقيها، على مذهب الشافعي، عارفا بالعربية، سخياً جوادا على أهل العلم، وله ورع والرياسة إلى اليوم في بلده في ولده. قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد٩/٣١٠]: سمعت الشيخ أبا الطيب الطبري يقول: ورد أبو سعد الإسماعيلي بغداد فعقد له الفقهاء مجلسين تولى أحدهما أبو حامد الإسفراييني، وتولى الثاني أبو محمد الباقيُّ، فبعث الباقيُّ إلى القاضي المعافى بن زكريا الجريري يستدعيه إلى حضور المجلس ليتجمّل بحضوره، وكانت الرسالة مع ولده أبي الفضل، وكتب على يده هذين البيتين:

إذا أكـرم القـاضي الجليـل وليـه　　وصاحبـه ألفـاه للشـكر موضعـا
ولي حاجـة يـأتي بـني بذكرهـا　　ويسـأله فيهـا التطـول أجمعـا

فأجابه الحريري مع ولد الشيخ:

دعـا الشيخ مطواعا سميعـا لأمـره　　يواتيـه باعـا حيـث يرسـم أصبعـا
وهـا أنـا غـاد في غـد نحـو داره　　أبـادر مـا قـد حـده لي مسـرعا

وكانت وفاه أبو سعد الإسماعيلي فجأة بجرجان في ربيع الآخر وهو قائم يصلي في المحراب، في صلاة المغرب، فلما قرأ: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] فاضت نفسه فمات رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن بحير أبو عمرو المزكي**، الحافظ النيسابوري، ويعرف بالبحيري، رحل إلى الآفاق في طلب العلم، وكان حافظا جيد المذاكرة، ثقة ثبتا، حدث ببغداد وغيرها من البلاد، وتوفي في شعبان هذه السنة عن ثلاث وستين سنة.

أبو عبد الله

■ **ابن منده الحافظ: محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده أبو عبد الله الأصفهاني الحافظ**، من بيت الحديث والحفظ، رحل إلى البلاد الشاسعة، وسمع الكثير وصنف «التاريخ» و«الشيوخ»، قال أبو العباس جعفر بن محمد الحافظ: ما رأيت أحفظ من أبي عبد الله بن منده، توفي في بأصفهان في صفر من هذه السنة رحمه الله تعالى وإيانا برحمته.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة

فيها كان خروج أبي ركوة على الحاكم العبيدي صاحب مصر. وملخص أمر هذا الرجل أنه كان من سلالة هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، واسمه الوليد، وإنما لقب بأبي ركوة لركوة كان يستصحبها في أسفاره على طريقة الصوفية، وكان قد سمع الحديث بالديار المصرية، ثم أقام بمكة باليمن ثم دخل الشام، وهو في غضون ذلك يبايع من انقاد له، ممن يرى عنده همة ونهضة للقائم من في نصرة ولد هشام بن عبد الملك الأموي، ثم إنه أقام ببعض بلاد مصر في حلة من حلال العرب، يعلم الصبيان ويظهر النسك والتقشف والعبادة والورع، ويخبر بشيء من المغيبات، حتى خضعوا له وعظموه جدا، ثم دعا إلى نفسه وذكر لهم أنه الذي يدعو إليه من الأمويين، فاستجابوا له وخضعوا، وخاطبوه بأمير المؤمنين، ولقب بالثائر بأمر الله المنتصر من أعداء الله، ودخل برقة في جحفل، فجمع له أهلها نحوا من مائتي ألف دينار، وأخذ رجلا من اليهود اتهم بشيء من الودائع، فأخذ منه مائتي ألف دينار أيضا، ونقشوا الدراهم والدنانير بألقابه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ولعن الحاكم في خطبته، ونعما فعل، فالتف على أبي ركوة من الجنود نحو من ستة عشر ألفا، فلما بلغ الحاكم أمره وما آل إليه حاله بعث بخمسمائة ألف دينار وخمسة آلاف ثوب إلى مقدم جيوش أبي ركوة وهو الفضل بن عبد الله يستميله إليه ويثنيه عن أبي ركوة فحين وصلت الأموال إليه رجع عن أبي ركوة وقال: إنا لا طاقة لنا بالحاكم، وما دمت بين أظهرنا فنحن مطلوبون بسببك، فاختر لنفسك بلدا تكون فيها. فسأل أن يبعثوا معه فارسين يوصلانه إلى النوبة فإن بينه وبين ملكها مودة وصحبة، فأرسله، ثم بعث وراءه من رده إلى الحاكم بمصر، فلما وصل إليه أركبه جملا وأشهره، ثم قتله في اليوم الثاني، ثم أكرم الحاكم الفضل وأقطعه أقطاعا كثيرة. واتفق مرض الفضل فعاده الحاكم مرتين، فلما عوفي قتله وألحقه بصاحبه أيضاً. وكافأه مكافأة التمساح.

وفي رمضان عزل قرواش عما كان بيده ووليه أبو الحسن علي بن مزيد، ولقب بسند الدولة.

وفيها هزم يمين الدولة محمود بن سبكتكين أتلك ملك الترك عن بلاد خراسان وقتل من الأتراك خلقا كثيراً.

وفيها قتل أبو العباس بن واصل صاحب البصرة، وحمل رأسه إلى بهاء الدولة فطيف به بخراسان وفارس.

وفيها ثارت على الحجيج وهم بالطريق ريح سوداء مظلمة جدا، واعترضهم ابن الجراح أمير الأعراب فاعتاقهم عن الذهاب ففاتهم الحج في هذا العام ورجعوا إلى بغداد فدخلوها في يوم التروية. وكانت الخطبة بالحرمين للمصريين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الصمد بن عمر بن محمد بن إسحاق، أبو القاسم الدينوري** الواعظ الزاهد، قرأ القرآن ودرس على مذهب الشافعي على أبي سعيد الإصطخري،وسمع الحديث من أبي بكر أحمد بن سلمان النجاد، وروى عنه الأزجي والصيمري، وكان ثقة صالحاً، يضرب به المثل في مجاهدة النفس،واستعمال الصدق المحض،والتعفف والتقشف،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وحسن وعظه ووقعه في القلوب.

جاءه يوماً رجل بمائة دينار فقال: أنا غني عنها،قال: خذها ففرقها على أصحابك هؤلاء،فقال: ضعها على الأرض. فوضعها ثم قال للجماعة: ليأخذ كل واحد منكم حاجته منها،فجعلوا يأخذون بقدر حاجاتهم حتى أنفذوها، وجاء ولده بعد ذلك فشكى إليه حاجتهم، فقال: اذهب إلى البقال فخذ عليّ ربع رطل تمر.

ورآه رجل وقد اشترى دجاجة وحلواء فتعجب من ذلك فاتبعه فانتهى إلى دار فيها امرأة ولها أيتام فدفعها إليهم. وقد كان يدق السعد للعطارين بالأجرة ويقتات منه، ولما حضرته الوفاة جعل يقول: سيدي لهذه الساعة خبأتك. كانت وفاته يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة، وصلي عليه بجامع المنصور، ودفن بمقبرة الإمام أحمد.

أبو العباس

■ **ابن واصل** صاحب سيراف والبصرة وغيرهما من البلاد، كان أولا يخدم بالكرخ، وكان متصوراً له أنه سيملك، كان أصحابه يهزؤون به، ويمجنون عليه، فيقول أحدهم: إذا ملكت فاستخدمني، ويقول الآخر: اخلع عليّ. ويقول الآخر: عاقبني فقدر له أنه تقلبت به الأحوال حتى ملك سيراف ثم البصرة، وأخذ بلاد البطيحة من مهذب الدولة، وأخرجه منها طريدا، بحيث إنه احتاج في بعض الطريق إلى أن ركب بقرة واستحوذ ابن واصل على ما هناك من الاموال والحواصل، وقصد الأهواز وهزم بهاء الدولة بها، ثم ظفر به بهاء الدولة فقتله في شعبان من هذه السنة، وطيف برأسه في البلاد.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة

فيها غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند، ففتح حصوناً

كثيرة، وأخذ أموالا جزيلة وجواهر نفيسة، وكان في جملة ما وجد بيت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسه عشر ذراعاً مملوء فضة، ولما رجع إلى غزنة بسط هذه الأموال كلها في صحن داره وأذن لرسل الملوك فدخلوا عليه فرأوا ما بهرهم وهالهم.

وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع الآخر وقع ببغداد ثلج عظيم، بحيث بقي على وجه الأرض ذراعاً ونصفا، ومكث أسبوعاً لم يذب، وبلغ سقوطه إلى تكريت والكوفة وعبادان والنهروانات. وفي هذا الشهر كثرت العملات جهرة وخفية، حتى من المساجد والمشاهد ثم ظفر أصحاب الشرطة بكثير منهم فقطعوا أيديهم وكحلوهم وشهروهم فخمدت الفتنة ولله الحمد والمنة.

قصة مصحف عبد الله بن مسعود ﷺ وتحريقه عن فتيا الشيخ أبي حامد الإسفراييني

مما ذكره ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ١٥/٥٨، ٥٩]

وفي عاشر رجب جرت فتنة بين السنة والرافضة، سببها أن بعض الهاشميين قصد أبا عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم وكان فقيه الشيعة في مسجده بدرب رياح، فعرض له بالسب فثار أصحابه له واستنفر أصحاب الكرخ وصاروا إلى دار القاضي أبي محمد بن الأكفاني والشيخ أبي حامد الإسفراييني، وجرت فتنة طويلة، وأحضرت الشيعة مصحفاً ذكروا أنه مصحف عبد الله بن مسعود، وهو يخالف المصاحف كلها، فجمع الأشراف والقضاة والفقهاء يوم جمعة لليلة بقيت من رجب، وعرض المصحف عليهم فأشار الشيخ أبو حامد الإسفراييني والفقهاء بتحريقه، ففعل ذلك بمحضر منهم، فغضب الشيعة من ذلك غضباً شديداً، وجعلوا يدعون ليلة النصف من شعبان على من فعل ذلك ويسبونه، وقصد جماعة من أحداثهم دار الشيخ أبي حامد ليؤذوه فانتقل منها إلى دار القطن، وصاحوا: يا حاكم يا منصور، وبلغ ذلك الخليفة فغضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنة، فحرقت دور كثيرة من دور الشيعة، وجرت خطوب شديدة، وبعث عميد الجيوش إلى بغداد لينفي عنها ابن المعلم، فأخرج منها ثم شفع فيه، ومنعت القصاص من التعرض للفتن والسؤال باسم أحد من الصحابة، وعاد الشيخ أبو حامد إلى داره على عادته.

وفي شعبان منها زلزلت الدينور زلزالا شديدا، وسقطت منها دور كثيرة، وهلك تحت الهدم ستة عشر ألفا غير من ساخت به الأرض وهلك للناس شيء كثير من الأثاث والأمتعة.

وهبت ريح سوداء بدقوقاء وتكريت وشيراز، فقلعت كثيراً من المنازل والنخيل والزيتون، وقتلت خلقا كثيراً.

وسقط بعض شيراز ووقعت رجفة بشيراز غرق بسببها مراكب كثيرة في البحر ووقع بواسط برد زنة الواحدة مائة درهم وستة دراهم.

ووقع ببغداد في رمضان وذلك في أيار مطر عظيم سالت منه المزاريب.

ذكر تخريب قمامة في هذه السنة

وفيها أمر الحاكم العبيدي بتخريب قمامة وهي كنيسة النصارى ببيت المقدس، وأباح للعامة ما كان فيها من الأموال والأمتعة وغير ذلك، وكان سبب ذلك ما أنهى من البهتان الذي يتعاطاه النصارى في يوم الفصح من النار التي يحتالون لها، وهي التي يوهمون جهلتهم أنها نزلت من السماء، وإنما هي مصنوعة بدهن البلسان في خيوط الإبريسم والرفاع المدهونة بالكبريت وغيره، بالصنعة اللطيفة التي تروج على الطغام منهم والعوام، وهم إلى الآن يستعملونها في ذلك المكان بعينه. وكذلك أمر بهدم في هذه السنة عدة كنائس ببلاد مصر، ونودي في النصارى بمصر: من أحب الدخول في دين الإسلام دخل ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمنا، ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زاد فيها على العمرية، من تعليق الصلبان على صدورهم، وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرطال، وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرطال. وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قربة زنة خمسة أرطال، وأجراس، وأن لا يركبوا خيلا. ثم بعد هذا كله أمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه. وقال نتزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه، قبحه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

أبو محمد الباقي: اسمه

■ عبد الله بن محمد الباقي البخاري الخوارزمي؛ أحد أئمة الشافعية في وقته، تفقه على أبي القاسم الداركي ودرس مكانه، وله معرفة جيدة بالأدب والفصاحة والشعر.

جاء مرة ليزور بعض أصحابه فلم يجده في المنزل فكتب إليه:

قد حضرنا وليس يقضى التلاقي ... نسأل الله خير هذا الفراق
إن تغب لم اغب وإن لم تغب غبـ ... ـت كأن افتراقنا باتفاق

وقد كانت وفاته في محرم هذه السنة، وقد ذكرنا ترجمته في «طبقات الشافعية».

■ عبيد الله بن أحمد بن علي بن الحسين، أبو القاسم المقرئ المعروف بالصيدلاني، وهو آخر من حدث عن ابن صاعد من الثقات، وروى عنه الأزهري، وكان ثقة مأموناً صالحاً. توفي في رجب من هذه السنة وقد جاوز التسعين رحمه الله تعالى.

■ الببغاء الشاعر: عبد الواحد بن نصر بن محمد، أبو الفرج المخزومي، الملقب بالببغاء، توفي في شعبان من هذه السنة، وكان أديباً فاضلا مترسلا شاعراً مجيداً، فمن ذلك قوله:

يا من تشابه منه الخلق والخلق ... فما تسافر إلا نحوه الحدق
توريد دمعي من خديك مختلس ... وسقم جسمي من جفنيك مسترق
لم يبق لي رمق أشكو هواك به ... وإنما يتشكى من به رمق

■ محمد بن يحيى، أبو عبد الله الجرجاني، أحد العلماء الزهاد العباد، المناظرين لأبي بكر الرازي، وكان يدرس في قطيعة الربيع، وقد فلج في آخر عمره، وحين مات دفن مع أبي حنيفة.

■ بديع الزمان: صاحب المقامات، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد أبو الفضل الهمداني، الحافظ المعروف ببديع الزمان صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة، وعلى منواله نسج الحريري، واقتفى أثره وشكر تقدمه، واعترف بفضله، وكان قد أخذ اللغة عن ابن فارس، ثم برز، وكان أحد

الفضلاء الفصحاء، ويقال إنه سُمَّ واخذته سكتة، فدفن سريعاً، ثم عاش في قبره وسمعوا صراخه فنبشوا عنه فإذا هو قد مات وهو آخذ على لحيته من هول القبر، وذلك يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة، رحمه الله تعالى وعفى عنه وسامحه وإيانا بمنه.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة

فيها قتل أبو علي بن ثمال نائب الرحبة من جهة الحاكم العبيدي، قتله عيسى بن خلاط العقيلي، وملكها، فأخرجه منها عباس بن مرداس صاحب حلب ومَلَكها.

وفيها صُرف عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ووليه أبو الحسن بن أبي الشوارب، فذهب الناس يهنون هذا ويعزون هذا، فقال في ذلك العصفري:

عندي حديث طريف	بمثله يتغنى
من قاضيين يعزى	هذا وهذا يهنا
فذا يقول اكرهونا	وذا يقول استرحنا
ويكذبان ونهذي	فمن يصدق منا

وفي شعبان من هذه السنة عصفت ريح شديدة فألقت رملا أحمر في طرقات بغداد.

وفيها هبت على الحجاج ريح سوداء مظلمة واعترضهم الأعراب فصدوهم عن السبيل، وأعاقوهم حتى فاتهم الحج في هذه السنة ايضاً ورجعوا، وأخذت بنو هلال طائفة من حجاج البصرة نحواً من ستمائة واحد، وأخذوا منهم نحواً من ألف ألف دينار، وكانت الخطبة بالحرمين للمصريين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الله بن بكر بن محمد بن الحسين، أبو أحمد الطبراني**، سمع ببغداد ومكة وغيرهما من البلاد، وكان مكثراً، سمع منه الدارقطني وعبد الغني بن سعيد ثم أقام بالشام بالقرب من جبل عند بانياس يعبد الله تعالى إلى أن مات في ربيع الأول من هذه السنة.

■ **محمد بن أحمد بن علي بن الحسين، أبو مسلم** كاتب الوزير ابن حنزابة، روى عن البغوي وابن صاعد وابن دريد وابن أبي داود وابن عرفة وابن مجاهد وغيرهم، وكان آخر من بقي من أصحاب البغوي، وكان من أهل العلم والحديث والمعرفة والفهم، وقد تكلم بعضهم في روايته عن البغوي لأن أصوله كان غالبها مفسودا. وذكر الصوري أنه خلط في آخر عمره والله أعلم.

أبو الحسن

■ **علي بن أبي سعيد، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس ابن عبد الأعلى الصدفي المصري**، صاحب كتاب «الزيج الحاكمي» في أربع مجلدات، كان أبوه من كبار المحدثين من الحفاظ، وقد وضع لمصر تاريخاً نافعاً يرجع العلماء إليه فيه، وأما هذا فاشتغل في علم النجوم فنال منه منالا جيداً، وكان شديد الاعتناء بعلم الرصد وكان مع هذا مغفلا سيء الحال، رثّ الثياب، طويلا يتعمم على طرطور طويل، ويتطيلس فوقه، ويركب حماراً، فمن رآه ضحك منه، وكان يدخل على الحاكم صاحب مصر فيكرمه ويذكر من تغفله ما يدل على عدم اعتنائه بأمر نفسه، وكان شاهداً معدلا، وله شعر جيد، فمنه ما ذكره ابن خلكان:

أحمل نشر الريح عند هبوبه	رسالة مشتاق لوجه حبيبه
بنفسي من تحيا النفوس بقربه	ومن طابت الدنيا به وبطيبه
وجدد وجدي طائف منه في الكرى	سرى موهناً في خيفة من رقيبه
لعمري لقد عطلت كاسي بعده	وغيبتها عني لطول مغيبه

■ **تمني أم أمير المؤمنين القادر بالله** مولاة عبد الواحد بن المقتدر، وكانت من العابدات الصالحات، ومن أهل الفضل والدين توفيت ليلة الخميس الثاني والعشرين من شعبان من هذه السنة، وصلى عليها ابنها القادر، وحملت بعد العشاء إلى الرصافة.

سنة أربعمائة من الهجرة النبوية

في ربيع الآخر منها نقصت دجلة نقصاً كثيراً، حتى ظهرت جزائر لم تعرف، وامتنع سير السفن في أماكنها من أوانا والراشدية، فأمر بِكَرْيِ تلك الأماكن ولم تكن قبل ذلك.

وفيها كمل السور على المشهد بالحائر، وكان الذي بناه أبو محمد الحسن بن الفضل بن سهلان عن نذر نذره حين زاره.

وفي رمضان أرجف الناس بالخليفة القادر بالله فجلس للناس يوم جمعة بعد الصلاة وعليه البردة وبيده القضيب، وجاء الشيخ أبو حامد الإسفراييني فقبل الأرض بين يديه وقرأ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١] فتباكى الناس ودعوا وانصرفوا.

وفي هذه السنة ورد الخبر بأن الحاكم أنفذ إلى دار جعفر بن محمد الصادق بالمدينة فأخذ منها مصحفا وآلات كانت بها، وهذه الدار لم تفتح بعد موت صاحبها إلى هذه المدة، وكان مع المصحف قعب خشب مطوق بحديد ودرقة خيزران وحربة وسرير، حمل ذلك كله جماعة من العلويين إلى الديار المصرية، فأطلق لهم الحاكم أنعاما كثيرة ونفقات زائدة، ورد السرير وأخذ الباقي، وقال: أنا أحق به، فردوا وهم ذامون له داعون عليه.

وبنى الحاكم في هذه السنة داراً للعلم وأجلس فيها الفقهاء، ثم بعد ثلاث سنين هدمها وقتل خلقا كثيرا ممن كان فيها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير والديانة.

وفيها عمر الجامع المنسوب إليه بمصر وهو جامع الحاكم، وتأنق في بنائه في هذه السنة. وفي ذي الحجة منها أعيد المؤيد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الأموي إلى ملكه بعد خلعه وحبسه مدة طويلة.

وكانت الخطبة بالحرمين هذه السنة للحاكم العبيدي صاحب مصر والشام.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو أحمد الموسوي النقيب،

■ **الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر أبو أحمد الموسوي النقيب**، والد الرضي والمرتضي، ولي نقابة الطالبيين مرات

ببغداد نحوا من خمس مرات، يعزل ويعاد، ثم أضر في آخر عمره، وتوفي عن سبع وتسعين سنة، وصلى عليه ابنه المرتضى، ودفن في مشهد الحسين.

وقد رثاه ابنه المرتضى هذا بقصيدة حسنة قوية المنزع والمطلع فمنها قوله:

سلام اللّه تنقله الليالي ... وتهديه الغدو إلى الرواح
على جدث تشبث من لؤي ... بينبوع العبادة والصلاح
فتى لم يرو إلا من حلال ... ولم يك زاده غير المباح
ولا دنست له إزر بوزر ... ولا علقت له راح براح
خفيف الظهر من ثقل الخطايا ... وعريان الجوانح من جناح
مشوق في الأمور إلى علاها ... ومدلول على باب النجاح
من القوم الذين لهم قلوب ... بذكر اللّه عامرة النواح
بأجسام من التقوى مراض ... لبصرها وأديان صحاح

رحمه اللّه تعالى ورضي عنه وتجاوز بمنه وكرمه.

■ **الحجاج بن هرمز أبو جعفر نائب بهاء الدولة على العراق**، وكان يتدبه لقتال الأعراب والأكراد، وكان من المقدمين على عهد عضد الدولة، وكانت له خبرة تامة بالحرب، وحرمة شديدة، وشجاعة تامة وافرة، وهمة عالية وآراء سديدة. ولما خرج عن بغداد في سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة كثرت بها الفتن والشرور. وكانت وفاته بالأهواز في هذه السنة وله من العمر مائة سنة وخمس سنين. رحمه اللّه.

أبو عبد اللّه

■ **القمي المصري التاجر** كان ذا مال جزيل جداً، اشتملت تركته على أزيد من ألف ألف دينار، من سائر أنواع المال. وكانت وفاته بأرض الحجاز ودفن بالمدينة النبوية عند قبر الحسن بن علي، ﷺ.

أبو الحسين

■ **ابن الرفاء المقرئ**: المتقدم ذكره كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن وأحلاهم أداء رحمه اللّه تعالى وقد تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، [بما أغنى عن إعادته هنا.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعمائة

في يوم الجمعة الرابع من المحرم منها خطب بالموصل للحاكم العبيدي عن أمر صاحبها قرواش بن مقلد أبي منيع، وقهر رعيته على ذلك، وقد سرد ابن الجوزي صيغة الخطبة بحروفها. وفي آخرها صلوا على آبائه من الخلفاء المهدي ثم ابنه القائم ثم ابنه المنصور، ثم ابنه المعز، ثم ابنه العزيز، ثم ابنه الحاكم صاحب الوقت، وبالغوا في الدعاء لهم ولا سيما للحاكم المذكور، وكذلك بقية أعمالها من الأنبار والمدائن وغيرهما. وكان سبب ذلك أن الحاكم ترددت مكاتباته ورسله وهداياه إلى قرواش يستميله إليه، وليقبل بوجهه عليه، حتى فعل ما فعل عما ذكرنا، فلما بلغ الخبر القادر باللّه العباسي كتب يعاتب قرواش بن مقلد على ما صنع، ونفذ بهاء الدولة إلى عميد الجيوش بمائة ألف دينار لمحاربة قرواش. فلما بلغ ذلك قرواشاً رجع عن رأيه وندم على ما كان منه، وأمر بقطع الخطبة للحاكم من بلاده، وخطب للقادر العباسي على عادته.

قال ابن الجوزي: ولخمس بقين من رجب زادت دجلة زيادة كثيرة واستمرت الزيادة إلى رمضان، وبلغت أحدا وعشرين ذراعاً وثلثاً، ودخل الماء إلى أكثر دور بغداد.

وفيها رجع الوزير أبو غالب بن خلف إلى بغداد ولقب فخر الملك بعد عميد الجيوش.

وفيها عصى أبو الفتح الحسن بن جعفر العلوي ودعا إلى نفسه وتلقب بالراشد باللّه. ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن توفي فيها من الأعيان والأشراف

■ **أبو مسعود الدمشقي إبراهيم بن محمد بن عبيد، أبو مسعود الدمشقي**، الحافظ الكبير، مصنف كتاب «الأطراف على الصحيحين» رحل إلى بلاد شتى كبغداد والبصرة والكوفة وواسط والأهواز وأصبهان وخراسان، وكان من الحفاظ الصادقين، والأمناء الضابطين، ولم يرو إلا اليسير، روى عنه أبو القاسم الطبري وأبو ذر الهروي، وحمزة السهمي، وغيرهم. وكانت وفاته ببغداد في رجب وأوصى إلى الشيخ أبي حامد الإسفراييني فصلى عليه، ودفن في مقبرة جامع المنصور قريباً من السكك رحمه اللّه. وقد ترجمه ابن عساكر وأثنى عليه واللّه أعلم.

■ **عميد الجيوش: الحسن بن أبي جعفر أستاذ هرمز أبو علي** الملقب بعميد الجيوش وزير بهاء الدولة، ولد سنة خمسين وثلاثمائة، وكان أبوه من حجاب عضد الدولة، وولاه بهاء الدولة النظر في وزارته سنة اثنتين وتسعين، والشرور كثيرة منتشرة، فمهد البلاد وأخاف العيارين واستقامت به الأمور، وأمر بعض غلمانه أن يحمل صينية فيها دراهم مكشوفة من أول بغداد إلى آخرها وأن يدخل بها في جميع الأزقة، فإن اعترضه أحد فليدفعها إليه وليعرف ذلك المكان، فذهب الغلام فلم يعترضه أحد، و لله الحمد والمنة، ومنع الروافض مما كانوا يتعاطونه من النياحة في يوم عاشوراء، وإقامة العيد المبتدع في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة الذي يقال له: عيد غدير خم،وكان عادلا منصفا رحمه اللّه.

■ **خلف بن محمد بن علي بن حمدون، أبو محمد الواسطي**، رحل إلى البلاد وسمع الكثير ثم عاد إلى بغداد، ثم رحل إلى الشام ومصر، وكتب الناس عنه بانتخابه، وصنف أطرافاً على الصحيحين، وكانت له معرفة تامة، وحفظ جيد، ثم عاد إلى بغداد واشتغل بالتجارة وترك النظر في العلم حتى توفي في هذه السنة رحمه اللّه وسامحه. وممن روى عنه الأزهري.

■ **أبو عبيد الهروي**، صاحب «الغريبين» **أحمد بن محمد بن محمد بن أبي عبيد العبدي**، اللغوي البارع، كان من علماء الناس في الأدب واللغة، وكتابه «الغريبين» في معرفة غريب القرآن والحديث، يدل على اطلاعه وتبحره في هذا الشأن، وكان من تلامذة أبي منصور الأزهري.

قال ابن خلكان: وقيل كان يحب البذلة ويتناول في الخلوة ويعاشر أهل الأدب في مجلس اللذة والطرب، سامحه اللّه تعالى.

قال: وكانت وفاته في رجب سنة إحدى وأربعمائة.

وذكر ابن خلكان أن في هذه السنة أو التي قبلها كانت وفاة أبي الفتح البستي الشاعر وهو:

■ **علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز** الكاتب: صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، والحذاقة والنظم والنثر، وقد ذكرناه، ومما أورد له ابن خلكان قوله: من

أصلح فاسده أرغم حاسده، ومن أطاع غضبه أضاع أدبه. من سعادة جدك وقوفك عند حدك. المنية تضحك من الأمنية. الرشوة رشاء الحاجات. حد العفاف الرضى بالكفاف.

ومن شعره:

إن هز أقلامه يوما ليعملها ... انساك كل كمي هز عامله
وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وله:

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم ... بما تحدث من ماض ومن آت
فلا تعد لحديث إن طبعهم ... موكل بمعاداة المعادات

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعمائة

في المحرم منها أذن فخر الملك الوزير للروافض أن يعملوا بدعتهم الشنعاء، والفضيحة الصلعاء، من الانتحاب والنوح والبكاء، وتعليق المسوح وأن تغلق الأسواق من الصباح إلى المساء، وأن تدور النساء حاسرات عن وجوههن ورؤوسهن، يلطمن خدودهن، كفعل الجاهلية الجهلاء، على الحسين بن علي، فلا جزاه الله عن السنة خيراً، وسود الله وجهه يوم الجزاء، إنه سميع الدعاء رب الأرض والسماء.

وفي ربيع الآخر أمر القادر بالله بعمارة مسجد الكف بقطيعة الدقيق، وأن يعاد إلى أحسن ما كان، ففعل ذلك وزخرف زخرفة عظيمة جداً.

ذكر الطعن في نسب الفاطميين من أئمة

بغداد وغيرها من البلاد

وفي ربيع الآخر من هذه السنة كتب هؤلاء ببغداد محاضر تتضمن الطعن والقدح في نسب الفاطميين وهم ملوك مصر وليسوا كذلك، وإنما نسبهم إلى ريصان بن سعيد الخرمي، وكتب في ذلك جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدّلين، والصالحين، وشهدوا جميعا أن الحاكم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والدمار والنكال والاستئصال، ابن معد بن إسماعيل ابن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله فإنه لما صار إلى بلاد المغرب تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي، وأن من تقدم من سلفه من الأنجاس والأرجاس، عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، ولا يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن باطلهم، وأن الذي ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أحدا من أهل بيوتات علي بن أبي طالب توقف عن إطلاق القول في أنهم خوارج كذبة، وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعاً في الحرمين، وفي أول أمرهم بالمغرب منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس امرهم على أحد، أو يذهب وهم إلى تصديقهم بما ادعوه، وأن هذا الحاكم بمصر هو وسلفه كفّار فُساق فُجار، ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمر وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية. وكتب في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة.

وقد كتب خطه في المحضر خلق كثير، فمن العلويين: المرتضى والرضى وابن الأزرق الموسوي، وأبو طاهر بن أبي الطيب، ومحمد بن محمد بن عمر، وابن أبي يعلى. ومن القضاة أبو محمد بن الأكفاني وأبو القاسم الخزري، وأبو العباس بن السوري. ومن الفقهاء أبو حامد الإسفراييني وأبو محمد بن الكشفلي، وأبو الحسن القدوري، وأبو عبد الله الصيمري، وأبو عبد الله البيضاوي، وأبو علي بن حمكان. ومن الشهود أبو القاسم التنوخي في كثير منهم. وكتب فيه خلق كثير. هذه عبارة أبي الفرج بن الجوزي.

قلت: ومما يدل على أن هؤلاء أدعياء كذبة، كما ذكر هؤلاء السادة العلماء، والأئمة الفضلاء، وأنهم لا نسب لهم إلى علي بن أبي طالب، ولا إلى فاطمة كما يزعمون، قول عبد الله بن عمر للحسين بن علي حين أراد الذهاب إلى العراق، وذلك حين كتب عوام أهل الكوفة بالبيعة إليه فقال له ابن عمر: لا تذهب إليهم فإني أخاف عليك أن تقتل، وإن جدك قد خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، وأنت بضعة منه، وإنه والله لا تنالها لا أنت ولا أحد من أهل بيتك. فهذا الكلام الحسن الصحيح المتوجه المعقول، من هذا الصحابي الجليل، يقتضي أنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت إلا محمد بن عبد الله المهدي الذي يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى ابن مريم، من السماء إلى الأرض كما سيأتي بيان ذلك مفصلا في أحاديث الملاحم. ومعلوم أن هؤلاء قد ملكوا ديار مصر مدة طويلة، فدل ذلك دلالة قوية ظاهرة على أنهم ليسوا من أهل بيت النبوة، كما نص عليه سادة القضاة والشهود والفقهاء والكبراء. وقد صنف القاضي الباقلاني كتاباً في الرد على هؤلاء القوم المنتسبين إلى الفاطميين وسماه «كشف الأسرار وهتك الأستار» نشر فيه فضائحهم وقبائحهم، ووضح أمرهم لكل أحد، يفهم شيئاً من مطاوي أفعالهم، واقوالهم، وقد كان الباقلاني يقول في عبارته عنهم: هؤلاء قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض.

وفي رجب وشعبان ورمضان أجرى الوزير فخر الملك صدقات كثيرة على الفقراء والمساكين والمقيمين بالمشاهد والمقابر، وزار بنفسه المساجد والمشاهد وغير ذلك، وأخرج خلقاً من المحبوسين وأظهر نسكاً كثيراً، وعمر داراً عظيمة عند سوق الدقيق هائلة.

وفي شوال عصفت ريح شديدة سوداء، فقصفت كثيرا من النخل وغيره أكثر من عشرة آلاف نخلة.

وورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة أيده الله تعالى بأنه ركب بجيشه إلى أرض العدو فجازوا بمفازة فأعوزهم فيها الماء حتى كادوا يهلكون عن آخرهم عطشاً، فبعث الله لهم سحابة فأمطرت عليهم حتى شربوا وسقوا واستقوا، ثم تواقفوا هم وعدوهم، ومع عدوهم نحو من ستمائة فيل، فهزموا العدو وغنموا شيئا كثيرا من الأموال ولله الحمد.

وفيها عملت الشيعة يوم غدير خم وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة بالبدعة التي ابتدعوها لا لابتغاء وجه الله، وزينت الحوانيت وتمكنوا بسبب الوزير وكثير من الأتراك تمكنا كثيراً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن الحسين بن علي بن العباس بن إسماعيل بن أبي سهل نوبخت أبو محمد النوبختي الكاتب، ولد سنة عشرين وثلاثمائة، وروى عن

المحاملي وغيره، وعنه البرقاني وقال: وكان شيعياً معتزلياً، إلا أنه تبين لي أنه كان صدوقاً، وروى عنه الأزهري وقال: كان رافضياً، رديء المذهب. وقال العتيقي: كان ثقة في الحديث، ويذهب إلى الاعتزال.

■ **عثمان بن عيسى أبو عمرو الباقلاني**، أحد الزهاد الكبار المشهورين، كانت له نخلات يأكل منها ويعمل بيده في البواري، ويأكل من ذلك، وكان في غاية الزهادة والعبادة الكثيرة، وكان لا يخرج من مسجده إلا من يوم الجمعة إلى الجمعة، يصلي في الجامع ثم يعود إلى مسجده، وكان لا يجد شيئا يشعله في مسجده، فطلب منه بعض الأمراء أن يقبل شيئا ولو زيتاً يشعله في قناديل مسجده، فأبى الشيخ ذلك.

لما مات رأى بعضهم بعض الأموات من جيران قبره فسأله عن جواره فقال: وأين هو؟! لما مات ووضع في قبره، سمعنا قائلا يقول: إلى الفردوس الأعلى، إلى الفردوس الأعلى أو كما قال. وكانت وفاته في رجب من هذه السنة عن ستة وثمانين سنة.

■ **محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن فروة بن ناجية أبو الحسن النحوي** المعروف بابن النجار التيمي الكوفي قدم بغداد وروى عن ابن دريد والصولي ونفطوية وغيرهم وكانت وفاته في جمادى الأولى منها عن تسع وتسعين سنة.

أبو الطيب

■ **سهل بن محمد الصعلوكي النيسابوري**، قال أبو يعلى الخليلي توفي هذه السنة وقد قدمناه في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعمائة

في سادس عشر محرمها قلد الشريف الرضي أبو الحسن الموسوي نقابة الطالبيين في سائر الممالك وقرئ تقليده في دار الوزير فخر الملك، بمحضر القضاة والأعيان، وخلع عليه السواد وهو أول طالبي خلع عليه السواد.

وفيها جيء بأمير بني خفاجة أبو فليتة، قبحه الله وجماعة من رؤوس قومه أسارى، وكانوا قد اعترضوا الحجيج في السنة الماضية وهم راجعون، وغوروا المناهل التي يردها الحجاج، ووضعوا فيها الحنظل بحيث إنه مات من الحجاج من العطش نحو من خمسة عشر ألفاً، وأخذوا بقيتهم فجعلوهم رعاة لمواشيهم في أسوأ حال، وأخذوا جميع ما كان معهم من الأحمال والجمال، فحين حضروا عند دار الوزير فخر الملك سجنهم ومنعهم الماء، ثم صلبهم تلقاء دجلة يرون صفاء الماء ولا يقدرون على شيء منه، حتى ماتوا عطشاً جزاء وفاقاً، وقد أحسن في هذا الصنيع اقتداء بحديث أنس في الرعاء الذين اعتقلوا في زمن النبي ﷺ والحديث في «الصحيحين». ثم بعث إلى أولئك الذين اعتقلوا في بلاد بني خفاجة من الحجاج فجيء بهم، وقد تزوجت نساؤهم وقسمت أموالهم، فردوا إلى أهاليهم وأموالهم و لله الحمد والمنة.

قال ابن الجوزي: وفي رمضان منها انقض كوكب من المشرق إلى المغرب غلب ضوءه على ضوء القمر، وتقطع قطعاً وبقي ساعة طويلة.

قال: وفي شوال توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى، فخرجت النوائح والصلبان معها جهرة، فأنكر ذلك بعض الهاشميين فضربه بعض غلمان ذلك الرئيس النصراني بدبوس في رأسه فشجه، فثار المسلمون بهم فانهزموا ولجؤوا إلى كنيسة لهم هناك، فدخلت العامة إليها فنهبوا ما فيها، وما قرب منها من دور النصارى، وتتبعوا النصارى في البلد، وقصدوا دار المناصح وابن أبي إسرائيل فقاتلهم غلمانهم، وانتشرت الفتنة ببغداد، ورفع المسلمون المصاحف في الأسواق، وعطلت الجمع في بعض الأيام. واستعانوا بالخليفة، فأمر بإحضار ابن أبي إسرائيل فامتنع، فعزم الخليفة على الخروج من بغداد، وقويت الفتنة جداً ونهبت دور كثير من النصارى، ثم أحضر ابن أبي إسرائيل فبذل أموالا جزيلة، فعفى عنه وسكنت الفتنة.

وفي ذي القعدة ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى الخليفة فذكر أنه ورد إليه رسول من الحاكم صاحب مصر ومعه كتاب يدعوه إلى طاعته فبصق فيه وأمر بتحريقه، وأسمع رسوله أغلظ ما يقال.

وفيها قلد أبو نصر بن مروان الكردي إمرة آمد وميافارقين وديار بكر، وخلع عليه بطوق وسوار، ولقب نصير الدولة.

ولم يتمكن ركب العراق وخراسان في هذه السنة من الحج لفساد الطريق، وغيبة فخر الملك في إصلاح الأراضي.

وفي هذه السنة عادت مملكة الأمويين ببلاد الأندلس فتولى فيها سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، ولقب بالمستعين بالله، وبايعه الناس بقرطبة.

وفيها مات

■ **بهاء الدولة أبو نصير** فيروز بن عضد الدولة بن بويه الديلمي صاحب بغداد والعراق، وقام من بعده ولده سلطان الدولة أبو شجاع.

وفيها مات ملك الترك الأعظم واسمه

■ **إيلك خان**، وتولى مكانه أخوه طغان خان.

وفيها هلك شمس المعالي قابوس بن وشمكير، أدخل بيتاً بارداً في الشتاء وليس عليه ثياب حتى مات كذلك، وولي الأمر من بعده ولده منوجهر، ولقب فلك المعالي، وخطب لمحمود بن سبكتكين، وقد كان شمس المعالي قابوس عالماً فاضلا أديباً شاعراً، فمن شعره قوله:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطر

أما ترى البحر يطفو فوقه جيف ... ويستقر بأقصى قعره الدرر

فإن تكن نشبت أيدي الخطوب بنا ... ومسنا من توالي صرفها ضرر

ففي السماء نجوم غير ذي عدد ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ومن شعره المستجاد الحسن قوله:

خطرات ذكرك تستثير مودتي ... فأحس منها في الفؤاد دبيبا

لا عضو لي إلا وفيه صبابة ... فكأن أعضائي خلقن قلوبا

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن علي أبو الحسن البتي**، كان يكتب للقادر وهو بالبطيحة، ثم كتب له على ديوان الخبر والبريد، وكان يحفظ القرآن حفظاً حسناً، مليح الصوت والتلاوة، حسن المجالسة، ظريف النادرة والمجانة، خرج في بعض الأيام هو والشريفان الرضي والمرتضى وجماعة من رؤوس الأكابر لتلقي بعض الملوك، فخرج عليهم بعض اللصوص فجعلوا يرمونهم بالحذافات ويقولون: يا أزواج القحاب، فقال البتي: ما خرج هؤلاء علينا ألا بعين، فقالوا: ومن أين علمت هذا؟ فقال: وإلا من أين علموا أننا أزواج قحاب.

■ **الحسن بن حامد بن علي بن مروان أبو عبد الله الوراق الحنبلي**، كان مدرس أصحاب أحمد وفقيههم في زمانه، وله المصنفات المشهورة، منها كتاب «الجامع» في اختلاف العلماء في أربعمائة جزء، وله في أصول الفقه

والدين، وعليه اشتغل القاضي أبو يعلى بن الفراء، وكان معظماً في النفوس، مقرباً عند السلطان، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه من النسج، وروى الحديث عن أبي بكر الشافعي، وابن مالك القطيعي، وغيرهما، وخرج من هذه السنة إلى الحج فلما عطش الناس في الطريق استند هو إلى حجر هناك في الحر الشديد، فجاءه رجل بقليل من ماء فقال له ابن حامد: من أين لك هذا؟ فقال: ما هذا وقت سؤالك اشرب، فقال: بلى هذا وقته عند لقاء الله عز وجل، فلم يشرب ومات من فوره رحمه الله.

■ **الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، أبو عبد الله الحليمي،** صاحب «المنهاج» في أصول الديانة، كان أحد مشايخ الشافعية، ولد بجرجان وحمل إلى بخارى، وسمع الحديث الكثير حتى انتهت إليه رياسة المحدثين في عصره، وولي القضاء ببخارى. قال ابن خلكان: انتهت إليه الرياسة فيما وراء النهر، وله وجوه حسنة في المذهب، وروى عنه الحاكم أبو عبد الله رحمه الله تعالى.

■ **فيروز أبو نصر الملقب بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي،** صاحب بغداد والعراق وغيرها، وهو الذي قبض على الطائع وولى القادر، وكان يحب المصادرات فجمع من الأموال ما لم يجمعه أحد ممن قبله من بني بويه، وكان بخيلا جداً، توفي بأرجان في جمادى الآخرة من هذه السنة عن ثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً وكانت مدة ملكه أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أيام، وكان مرضه الصرع، ودفن بمشهد علي إلى جانب أبيه.

■ **قابوس بن وشمكير:** كان أهل دولته قد تغيروا عليه فبايعوا ابنه منوجهر وقتلوه كما ذكرنا، وكان قد نظر في النجوم فرأى أن ولده يقتله، وكان يتوهم أنه ولده دارا، لما يرى من مخالفته له، ولا يخطر بباله منوجهر لما يرى من طاعته له، فكان هلاكه على يد منوجهر، وقد قدمنا شيئاً شعره الحسن الجيد في الحوادث.

القاضي أبو بكر

■ **الباقلاني: محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني،** رأس المتكلمين على مذهب الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهو من أكثر الناس كلاماً وتصنيفاً في الكلام، يقال إنه كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب عشرين ورقة في مدة طويلة من عمره، فانتشرت عنه تصانيف كثيرة، من جيدها كتاب «التبصرة»، «ودقائق الحقائق»، و «التمهيد» في أصول الفقه، و «شرح الإبانة»، وغير ذلك من الجاميع الكبار والصغار، ومن أحسن تصانيفه كتابه في الرد على الباطنية، الذي سماه «كشف الأسرار وهتك الأستار»، وقد اختلفوا في مذهبه في الفروع: فقيل: شافعي وقيل: مالكي، حكى ذلك عنه أبو ذر الهروي، وقد قيل إنه كان يكتب على الفتاوى: كتبه محمد بن الطيب الحنبلي، وهذا غريب جداً، وقد كان في غاية الذكاء والفطنة.

ذكر الخطيب البغدادي وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم، فلما انتهى إليه إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع، ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه له كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار استه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقرى، فلما وصل إليه انفتل فسلم عليه، فعرف الملك ذكاه ومكانه من العلم والفهم، فعظمه.

ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل، ليستفز عقله بها، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك، فجعل لا يألو جهداً أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة، فعجب الملك من كمال عقله، ثم إن الملك استكشف عن أمره فإذا هو قد جرح نفسه بما أشغله عن الطرب، فتحقق الملك وفور علمه وعلو فهمه.

وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ فقال الباقلاني مجيباً له على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل، وكانت هذه ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم عليهما السلام، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحي من الله عز وجل رضي الله عنهما

وقد سمع الباقلاني الحديث من أبي بكر بن مالك القطيعي وأبي محمد بن ماسي وغيرهما، وقد قبله الدارقطني يوماً بين عينه وقال: هذا يرد على أهل الأهواء باطلهم، ودعا له. وكانت وفاة البلاقاني يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة، ودفن بداره ثم نقل إلى مقبرة باب حرب.

■ **محمد بن موسى بن محمد: أبو بكر الخوارزمي** شيخ الحنفية وفقيههم، أخذ العلم عن أبي بكر أحمد بن علي الرازي، وانتهت إليه رياسة الحنفية ببغداد، وكان معظماً عند الملوك، ومن تلامذته الرضى والصيمري، وقد سمع الحديث من أبي بكر الشافعي وغيره، وكان ثقة ديناً على طريقة السلف، ويقول في الاعتقاد: ديننا دين العجائز، لسنا من الكلام في شيء، وكان فصيحاً حسن التدريس، دعي إلى ولاية القضاء غير مرة فلم يقبل، كانت وفاته ليلة الجمعة الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة، ودفن بداره من درب عبدة.

الحافظ أبو الحسن

■ **علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي مصنف «التلخيص»** أصله قروي وإنما غلب عليه القابسي لأن عمه كان يتعمم قابسية، فقيل لهم ذلك، وقد كان حافظاً بارعاً في علم الحديث، رجلا صالحاً جليل القدر، ولما توفي في ربيع الآخر من هذه السنة عكف الناس على قبره ليالي يقرؤون القرآن ويدعون له، وجاء الشعراء من كل أوب يرثون ويترحمون.

ولما أجلس للمناظرة أنشد لغيره:

لعمر أبيك ما نسب المعلى … إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت … وصوح نبتها رعي الهشيم

ثم بكى وأبكى، وجعل يقول: أنا الهشيم أنا الهشيم. رحمه الله تعالى.

الحافظ

■ **ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الفرضي،** قاضي بلنسية، سمع الكثير وجمع وصنف «التاريخ»، وفي المؤتلف والمختلف، ومشتبه النسبة وغير ذلك، وكان علامة زمانه، قتل شهيداً على يد البربر فسمع وهو جريح طريح يقرأ على نفسه الحديث الذي في الصحيح [خ(٢٨٠٣)، م(١٠٣-١٨٧٦)]: «ما يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمي، اللون لون الدم، والريح ريح المسك». وقد كان سأل الله تعالى الشهادة عند أستار الكعبة فأعطاه الله ذلك، ومن شعره قوله:

أسير الخطايا عند بابك واقف … على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غيبها … ويرجوك فيها فهو راج وخائف

ومن ذا الذي يرجي سواك ويتقي وما لك في فضل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يصد ذوو القربى ويجفو المؤالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أرجي لإسرافي فإني تالف

ثم دخلت سنة أربع وأربعمائة

في يوم الخميس غرة ربيع الأول منها جلس الخليفة القادر بالله في أبهة الخلافة وأحضر بين يديه فخر الدولة والحجبة بين يديه. فخلع عليه سبع خلع على العادة، وعممه بعمامة سوداء، وقلد سيفاً وتاجاً مرصعاً، وسوارين وطوقاً، ولواءين عقدهما الخليفة بيده، ثم أعطاه سيفاً وقال للخادم: قلده به، فهو شرف له ولعقبه، يفتح به شرق الأرض وغربها، وكان ذلك يوماً مشهوداً، بمحضر من القضاء والأمراء والوزراء والأماثل والأعيان والكبراء بدار الخلافة.

وفيها غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند ففتح وقتل وسبى وغنم، وسلم، وكتب إلى الخليفة القادر بالله أن يوليه ما بيده من مملكة خراسان وغيرها من البلاد، فأجابه إلى ما سأل.

وفيها عاثت بنو خفاجة ببلاد الكوفة فبرز إليهم نائبها أبو الحسن بن مزيد فواقعهم فقتل منهم خلقاً وأسر محمد بن ثمال وجماعة من رؤوسهم، وانهزم الباقون، فأرسل الله عليهم ريحاً حارة فأهلكت منهم خمسمائة إنسان.

وحج بالناس في هذه السنة أبو الحسن محمد بن الحسن الأقساسي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن أحمد بن جعفر بن عبد الله المعروف بابن البغدادي**، سمع الحديث، وكان زاهداً عابداً كثير المجاهدة، لا ينام إلا عن غلبة، وكان لا يدخل الحمام ولا يغسل ثيابه إلا بالماء وحده رحمه الله.

■ **الحسين بن عثمان بن علي أبو عبد الله المقرئ الضرير المجاهدي**، قرأ على ابن مجاهد القرآن وهو صغير، وكان آخر من بقي من أصحابه، كانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة وقد جاوز المائة سنة، ودفن في مقابر الفراديس.

■ **علي بن سعيد الإصطخري** أحد شيوخ المعتزلة، صنف للقادر بالله «الرد على الباطنية» فأجرى عليه جراية سنية، وكان يسكن درب رباح، كانت وفاته في شوال وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة خمس وأربعمائة

فيها منع الحاكم صاحب مصر النساء من الخروج من منازلهن، أو أن يطلعن من الأسطحة أو من الطاقات، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهن، ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقاً من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهز عجائز يطفن في البيوت يستعلمن أحوال النساء من منهن تَعشق أو تُعشق، بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن، فمن وجد منهن كذلك أطفأها وأهلكها، ثم إنه أكثر من الدوران ليلاً في البلد. في طلب ذلك، وغرق خلقاً من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم، فضاق النطاق على النساء الفساق، ولم يتمكن أحد أن يصل إلى أحد إلا نادراً، حتى أن امرأة نادت قاضي القضاة بالديار المصرية وهو مالك بن سعيد الفارقي وحلفته بحق الحاكم لما وقف لها واستمع كلامها، فرحمها فوقف لها فبكت إليه بكاء شديداً، وقالت له: إن لي أخاً ليس لي غيره، وهو في السياق وإني أسألك لما أوصلتني إلى منزله، لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا. فرق لها القاضي رقة شديدة وأمر رجلين كانا معه يكونان معها حتى يبلغانها إلى المنزل الذي تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح لجارتها، وذهبت معهما حتى وصلت إلى منزل، فطرقت ودخلت وقالت لهما: اذهبا راشدين فإذا هو منزل رجل تهواه ويهواها. فأخبرته بما احتالت به من الحيلة على القاضي فأعجبه ذلك، وجاء زوجها من آخر النهار فوجد بابه مغلقاً، فسأل الجيران عن أمرها فذكرت له جارتها ما صنعت فاستغاث على القاضي، وذهب إليه وقال له: ما أريد امرأتي إلا منك، فإن امرأتي ليس لها أخ بالكلية، وإنما ذهبت إلى معشوقها، فخاف القاضي من معرة هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكى لديه، فسأله عن شأنه فأخبره بما اتفق له من الأمر مع المرأة، فأرسل الحاكم مع الرجلين اللذين سارا بها من جهة القاضي من يحضر المرأة والرجل جميعاً، على أي حال كانا عليه فوجدوهما متعانقين سكارى، فسألهما الحاكم عن أمرهما فأخذا يعتذران بما لا يجدي شيئاً، فأمر بتحريق المرأة في بارية وضرب الرجل ضرباً مبرحاً، ثم ازداد احتياطاً على النساء حتى مات. ذكره ابن الجوزي.

وفي رجب منها ولي أبو الحسن أحمد بن محمد بن أبي الشوارب قضاء الحضرة بعد موت أبي محمد بن الأكفاني.

وفيها عمّر فخر الدولة مسجد الشرقية ونصب عليه الشبابيك من الحديد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **بكر بن شاذان بن بكر: أبو القاسم المقرئ الواعظ**، سمع أبا بكر الشافعي، وجعفراً الخلدي، وعنه الأزهري والخلال، وكان ثقة أميناً صالحاً عابداً زاهداً، له قيام ليل، وكريم أخلاق. مات في هذه السنة وقد نيف على الثمانين، ودفن بباب حرب.

■ **بدر بن حسنويه بن الحسين: أبو النجم الكردي**، كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمذان، وله سياسة وصدقة كثيرة، وكناه القادر بالله أبا النجم، ولقبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه وكانت أعماله في غاية الأمن، بحيث إذا أعيا جمل أحد من المسافرين فتركه بما عليه في البرية رد عليه، ولو بعد حين بما كان عليه لا ينقص منه شيء، ولما عاثت امراؤه في الأرض فساداً عمل لهم ضيافة حسنة، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز، فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما طال ذلك سألوا عنه فقال لهم: إذا كنتم تهلكون الحرث، فمن أين تؤتون بالخبز؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في الأرض إلا أرقت دمه.

واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك؟ فقال: إنني كان معي رغيفان أريد أن أتقوت بهما، فأخذهما مني بعض الجند، فقال له: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في مضيق حتى مر عليه الجند، فلما اجتاز به ذلك الرجل الذي أخذ

رغيفيه، قال: هذا هو، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه، حتى تأدب به الجيش كلهم.

وكان يصرف في كل جمعة عشرة آلاف درهم على الفقراء والأرامل والأيتام، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى، ويصرف في كل سنة ألف دينار إلى عشرين نفساً يحجون عن والديه وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تمليكه، وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين للمنقطعين بين همذان وبغداد، يصلحون لهم الأحذية ونعال دوابهم، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين، وعمارة المصانع، وإصلاح المياه في طريق الحجاز وإطلاقاً لأهل المنازل وحفر الآبار وإصلاحها، وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء اجار إلا بنى عنده قرية، وعمر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان، هذا كله خارجاً عما يصرف من ديوانه من الجرايات، والنفقات والصدقات، والبر والصلات، على أصناف الناس، من الفقهاء والقضاة والمؤذنين والأشراف، والشهود والفقراء والمساكين والأيتام والضعفاء. وكان مع هذا كثير الصلاة والذكر له من الدواب المرتبطة في سبيل الله وفي الحشر ما ينيف على عشرين ألفاً. وكانت وفاته في هذه السنة ومدة إمارته اثنتان وثلاثون سنة، ودفن في مشهد علي، وترك من الأموال أربعة عشر ألف بدرة، ونيفاً وأربعين بدرة، البدرة عشرة آلاف، رحمه الله تعالى.

■ **الحسن بن الحسين بن حمكان: أبو علي الهمذاني**، أحد الفقهاء الشافعيين ببغداد، عني أولا بالحديث فسمع شيئاً كثيراً حتى قيل: إنه كتب بالبصرة عن نحو من خمسمائة شيخ ثم اشتغل بالفقه على أبي حامد المروروذي، وروى عن الأزهري، وقال: كان ضعيفاً ليس بشيء في الحديث.

■ **عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم: أبو محمد الأسدي** المعروف بابن الأكفاني، قاضي قضاة بغداد، ولد سنة ست عشرة وثلثمائة وروى عن القاضي المحاملي، ومحمد بن مخلد، وابن عقدة وغيرهم، وعنه البرقاني والتنوخي، يقال إنه أنفق على طلب العلم مائة ألف دينار، وكان عفيفاً نزهاً صين العرض. وكانت وفاته في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة، ولي الحكم منها أربعين سنة نيابة واستقلالا، رحمه الله تعالى.

■ **عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أبو سعد الحافظ الإستراباذي**، المعروف بالإدريسي، رحل في طلب العلم والحديث، وعني به وسمع الأصم وغيره، وسكن سمرقند، وصنف لها تاريخاً وعرضه على الدارقطني فاستحسنه، وحدث ببغداد فسمع منه الأزهري والتنوخي، وكان ثقة حافظاً رحمه الله تعالى.

أبو نصر

■ **عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي**، الشاعر المشهور، امتدح سيف الدولة بن حمدان وغيره من الأكابر والوزراء وشعره الموصوف بالجودة والإحسان وهو القائل البيت المطروق المشهور:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والداء واحد

ومن شعره أيضاً قوله:

وإذا عجزت عن العدو فداره ... وامزح له إن المزاح وفاق

فالماء بالنار الذي هو ضدها ... تعطي النضاج وطبعها الإحراق

وكانت وفاته في شوال من هذه السنة، رحمه الله.

■ **عبد الغفار بن عبد الرحمن أبو بكر الدينوري**، الفقيه السفياني، وهو آخر من كان يفتي بمذهب سفيان الثوري ببغداد، في جامع المنصور، وكان إليه النظر في الجامع والقيام بأمره.

وكانت وفاته في شوال من هذه السنة ودفن خلف الجامع رحمه الله.

■ **الحاكم النيسابوري**، صاحب «المستدرك»، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم، أبو عبد الله الحاكم الضبي الحافظ ويعرف بابن البيع، من أهل نيسابور، وكان من أهل العلم والحفظ للحديث، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وأول سماعه في سنة ثلاثين وثلاثمائة، فسمع الكثير وطوف في الآفاق، وصنف الكتب الكبار والصغار، فمن ذلك «المستدرك على الصحيحين»، «علوم الحديث» و «الإكليل» و «تاريخ نيسابور»، وقد روى عنه من مشايخه الدارقطني وابن أبي الفوارس وغيرهما، وقد كان من أهل العلم والحفظ والأمانة والديانة والصيانة والضبط، والثقة، والتحرز، والورع رحمه الله لكن قال الخطيب البغدادي: كان ابن البيع يميل إلى التشيع، فحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأرموي، قال: جمع الحاكم أبو عبد الله أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم، يلزمهما إخراجها في «صحيحيهما»، فمنها حديث الطير، و«من كنت مولاه فعلي مولاه»، فأنكر عليه أصحاب الحديث ولم يلتفتوا إلى قوله ولا صوبوه في فعله.

وقال محمد بن طاهر المقدسي: قال الحاكم: حديث الطير لم يخرج في «الصحيح» وهو صحيح، قال ابن طاهر: بل هو موضوع لا يروى إلا عن سقاط أهل الكوفة من المجاهيل، عن أنس: فإن كان الحاكم لا يعرف هذا فهو جاهل، وإلا فهو معاند كذاب.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: دخلت على الحاكم وهو مختف من الكرامية لا يستطيع أن يخرج منهم، فقلت له: لو خرجت فأمليت حديثاً في فضائل معاوية لاسترحت مما أنت فيه، فقال: لا يجيء من قلبي، لا يجيء من قلبي توفي في صفر من هذه السنة عن أربع وثمانين سنة.

■ **يوسف بن أحمد بن كج أبو القاسم القاضي**، أحد أئمة الشافعية، وله وجوه غريبة يحكيها في المذهب، وكانت له نعمة عظيمة جداً، وولي القضاء بالدينور لبدر بن حسنويه فلما تغيرت البلاد بعد موت بدر وثب عليه جماعة من العيارين فقتلوه ليلة سبع وعشرين من رمضان من هذه السنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وأربعمائة

في يوم الثلاثاء مستهل المحرم من هذه السنة وقعت فتنة بين أهل السنة والروافض، فسكّن الفتنة الوزير فخر الملك، على أن تعمل الروافض بدعتهم يوم عاشوراء من تعليق المسوح والنوح.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بوقوع وباء شديد في البصرة أعجز الحفارين والناس عن دفن موتاهم، وأنه أظلت البلد سحابة في حزيران، فأمطرتهم مطراً شديداً كثيراً.

وفي يوم السبت ثالث صفر قلد الشريف المرتضى أبو القاسم نقابة الطالبيين والمظالم والحج، وجميع ما كان يتولاه أخوه الرضي، وقرئ تقليده بمحضر من الوزير فخر الملك والقضاة والأعيان، وكان يوما مشهودا.

وفيها ورد الخبر عن الحجاج بأنه هلك منهم بسبب العطش أربعة

عشر ألفا، وسلم ستة آلاف، وأنهم شربوا بول الجمال من العطش.

في هذه السنة غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند فسلك به الأدلاء على بلاد غريبة فانتهوا إلى أرض قد غمرها الماء من البحر فخاض بنفسه الماء أياماً، حتى خلصوا بعد ما غرق كثير من جيشه، وعاد إلى خراسان بعد جهد جهيد.

ولم يذهب الركب في هذه السنة من العراق، لفساد البلاد من الأعراب والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ **أبو حامد الإسفرايني أحمد بن محمد بن أحمد الشيخ أبو حامد**: إمام الشافعية في زمانه، ولد في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وقدم بغداد وهو صغير، سنة ثلاث أو أربع وستين وثلاثمائة، فدرس الفقه على أبي الحسن بن المرزبان، ثم على أبي القاسم الداركي، ولم يزل تترقى به الأحوال، حتى صارت إليه رياسة الشافعية، وعظم جاهه عند السلطان والعوام، وكان ثقة إماماً فقيهاً، جليلا نبيلا، شرح المزني في تعليقة حافلة نحواً من خمسين مجلداً، وله تعليقة أخرى في أصول الفقه، وروى عن أبي بكر الإسماعيلي وغيره.

قال الخطيب البغدادي: ورأيته غير مرة، وحضرت تدريسه بمسجد عبد الله بن المبارك، في صدر قطيعة الربيع، وحدثنا عنه الأزجي والخلال، وسمعت من يذكر أنه كان يحضر تدريسه سبعمائة متفقه، وكان الناس يقولون: لو رآه الشافعي لفرح به.

وقال أبو الحسين القدوري: ما رأيت في الشافعيين أفقه من أبي حامد رحمه الله. وقد ذكرت ترجمته مستقصاة في «طبقات الشافعية» ولله الحمد.

وذكر ابن خلكان في «الوفيات» [وفيات الأعيان ٧٣/١] أن القدوري كان يقول: هو أفقه وأنظر من الشافعي، قال الشيخ أبو إسحاق: وليس هذا مُسلّماً إلى القدوري، فإن أبا حامد وأمثاله بالنسبة إلى الشافعي كما قال الشاعر:

نزلوا بمكة في قبائل نوفل ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل

قال ابن خلكان: وله من المصنفات: «التعليقة الكبرى»، وله كتاب «البستان»، وهو صغير فيه غرائب؛ قال: وقد اعتذر إليه بعض الفقهاء في بعض المناظرات، فأنشأ الشيخ أبو حامد يقول:

جفاء جرى جهرا لدي الناس وانبسط ... وعذر أتى سرا فأكد ما فرط

ومن ظن أن يمحو جلي جفائه ... خفي اعتذار فهو في أعظم الغلط

كانت وفاته ليلة السبت، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال من هذه السنة، ودفن بداره بعدما صلي عليه بالصحراء، وكان الجمع كثيرا، والبكاء غزيرا، ثم نقل إلى مقبرة باب حرب، في سنة عشر وأربعمائة.

قال ابن الجوزي: وبلغ من العمر إحدى وستين سنة وأشهراً رحمه الله تعالى.

أبو أحمد

■ **الفرضي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن مهران، أبو أحمد بن أبي مسلم الفرضي المقرئ** سمع المحاملي، ويوسف ابن يعقوب، وحضر مجلس أبي بكر بن الأنباري، وكان إماما ثقة، ورعا وقورا، كثير الخير، يقرأ القرآن كثيرا، ثم يسمع الحديث، وكان معظما جليلا إذا قدم على الشيخ أبي حامد الإسفرايني، نهض إليه حافيا فتلقاه إلى باب المسجد، توفي وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

■ **الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى ابن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب** أبو الحسن العلوي، لقبه بهاء الدولة بالرضي، ذي الحسبين، ولقب أخاه بالمرتضى ذي المجدين، وُلّي نقابة الطالبيين ببغداد بعد أبيه، وكان فاضلا ديناً قرأ القرآن بعد ثلاثين سنة من عمره، وحفظ طرفا جيدا من الفقه وفنون العلم، وكان شاعرا مطبقا، سخياً جواداً ورعاً.

وقال بعضهم: كان الشريف الرضي في كثرة شعره أشعر قريش، فمن شعره المستجاد قوله:

اشتر العز بما شئـ ... ـت فما العز بغال

بالقصار الصفر إن شئـ ... ـت أو السمر الطوال

ليس بالمغبون عقلا ... من شرى عزاً بمال

إنما يذخر المال ... لحاجات الرجال

والفتى من جعل الأم ... وال أثمان المعالي

ومن شعره رحمه الله تعالى:

يا طائر البان غريدا على فنن ... ما هاج نوحك يا طائر البان

هل أنت مبلغ من هام الفؤاد به ... إن الطليق يؤدي حاجة العاني

جناية ما جناها غير مقلته ... يوم الوداع وواشوقي إلى الجاني

لولا تذكر أيام بذي سلم ... وعند رامة أوطاري وأوطاني

لما قدحت بنار الوجد في كبدي ... ولا بللت بماء الدمع أجفاني

وقد نسب إلى الرضي قصيدة. يترامى فيها على الحاكم العبيدي ويود لو كان ببلده وفي حوزته، ويا ليت أن ذلك كان حتى يرى كيف تكون منزلته عنده، وأن الخليفة لما بلغه ذلك أراد أن يسيره إليه ليقضي أربه، ويعلم الناس كيف حاله لكن علم العباسيين غزير. يقول في هذه القصيدة:

ألبس الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي!

من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي

لف عرقي بعرقه سيد النا ... س جميعا محمد وعلي

إن خوفي بذلك الربع أمن ... وأوامي بذلك الورد ري

فلما سمع الخليفة القادر بأمر هذه القصيدة، انزعج وبعث إلى أبيه الشريف الطاهر أبي أحمد الموسوي يعاتبه، فأرسل إلى ابنه الرضي، فأنكر أن يكون قالها بالمرة، والروافض من شأنهم التقية. فقال له أبوه: فإذا لم تكن قلتها فقل أبياتا تذكر فيها أن الحاكم بمصر دعي لا نسب له فقال: إني أخاف من غائلة ذلك، وأصر على أن لا يقول ما أمره به أبوه، وترددت الرسل من الخليفة إليهم في ذلك، وهم ينكرون ذلك، حتى بعث الشيخ أبا حامد الإسفرايني والقاضي أبا بكر إليهما، فأحلفاه بالله وبالأيمان المؤكدة أنه ما قالها، والله أعلم بحقيقة الحال.

وكانت وفاته في خامس المحرم منها، عن سبع وأربعين سنة، وحضر جنازته الوزير والقضاة والأعيان وصلى عليه الوزير فخر الملك، ودفن بداره بمسجد الأنبار، وولي أخوه الشريف المرتضى ما كان يليه، وزيد على

ذلك مناصب أخر، وقد رثاه أخوه رحمه الله تعالى بمرثاة حسنة المطلع.

■ **باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري أبو المعز** مناد بن باديس نائب الحاكم على بلاد إفريقية وابن نائبها، لقبه الحاكم بنصير الدولة، كان ذا هيبة وسطوة وحرمة وافرة، كان إذا هز رمحا كسره، توفي فجأة ليلة الأربعاء، سلخ ذي القعدة من هذه السنة، ويقال: إن بعض الصالحين دعي عليه تلك الليلة، وقام بالأمر من بعده ولده المعز.

ثم دخلت سنة سبع وأربعمائة

في ربيع الأول منها، احترق مشهد الحسين بن علي بكربلاء وأروقته، وكان سبب ذلك أن القومة أشعلوا شمعتين كبيرتين، فمالتا في الليل على التأزير فاحترق، وتعدت النار منه إلى غيره حتى كان منه ما كان. وفي هذا الشهر أيضاً احترقت دار القطن ببغداد وأماكن كثيرة بباب البصرة، واحترق جامع سامرا.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بتشعيث الركن اليماني من المسجد الحرام، وسقوط جدار بين يدي قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأنه سقطت القبة الكبيرة على صخرة بيت المقدس، وهذا من أغرب الاتفاقات وأعجبها.

وفي هذه السنة قتلت الشيعة الذين ببلاد إفريقية ونهبت أموالهم، ولم يترك منهم إلا من لا يعرف.

وفيها كان امتداد دولة العلويين ببلاد الأندلس، وليها علي بن حمود بن أبي العيش العلوي، فدخل قرطبة في المحرم من هذه السنة وقتل سليمان بن الحكم الأموي، وقتل أباه أيضا، وكان شيخا صالحا، وبايعه الناس، وتلقب بالمتوكل على الله، ثم قتل في الحمام في ثامن عشر ذي القعدة من هذه السنة، عن ثمان وأربعين سنة، وقام بالأمر من بعده أخوه القاسم بن حمود، وتلقب بالمأمون، فأقام في الملك ست سنين، ثم كان ابن أخيه يحيى ثم إدريس أخو يحيى، ثم ملك الأمويون ثم أجانب حتى ملك أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

وفي هذه السنة ملك محمود بن سبكتكين يمين الدولة بلاد خوارزم بعد ملكها خوارزم شاه مأمون.

وفيها استوزر سلطان الدولة أبو شجاع أبا الحسن علي بن الفضل الرامهرمزي، عوضا عن فخر الملك، وخلع عليه خلع الوزارة. ولم يحج أحد في هذه السنة من بلاد العراق، لفساد البلاد والطرقات وعيث الأعراب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن يوسف بن دوست أبو عبد الله البزاز،** أحد حفاظ الحديث وأحد الفقهاء على مذهب مالك، كان يذكر بحضرة الدارقطني، ويتكلم في علم الحديث، فيقال: إن الدارقطني تكلم فيه لذلك السبب، وقد تكلم فيه غيره، بما لا يقدح فيه كبير شيء. قال الأزهري: رأيت كتبه كلها طرية، وكان يذكر أن أصوله العتق غرقت، وقد أملى الحديث من حفظه والمخلص وابن شاهين حيان موجودان. وكانت وفاته في رمضان عن أربع وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

الوزير فخر الملك

■ **أحمد بن علي بن خلف أبو غالب الوزير:** كان من أهل واسط، وكان أبوه صيرفيا، فتنقلت به الأحوال إلى أن وزّر لبهاء الدولة بن عضد الدولة، وقد اقتنى أموالا جزيلة، وبنى دارا عظيمة تعرف بالفخرية، وكانت أولا للخليفة المتقي لله، فأنفق عليها أموالا كثيرة ونفقات غزيرة وكان كريما جوادا بذّالا، كثير الصدقات، كسا في يوم واحد ألف فقير، وكان كثير الصلاة أيضا، وهو أول من فرق الحلاوة ليلة النصف من شعبان، وكان فيه ميل إلى التشيع، وقد قتله سلطان الدولة في هذه السنة بالأهواز، وأخذ من أمواله شيئاً كثيراً من ذلك أزيد من ستمائة ألف دينار، خارجا عن الأملاك والأثاثات والمتاع، وكان عمره يوم قتل ثنتين وخمسين سنة وأشهرا، وقد قيل: إن سبب هلاكه أن رجلا قتله بعض غلمانه، فاستعدت امرأة الرجل عليه إلى الوزير، ورفعت إليه قصتها، وكل ذلك لا يلتفت إليها، فقالت له ذات يوم: أيها الوزير، أرأيت القصص التي رفعتها إليك فلم تلتفت إليها، قد رفعتها إلى الله عز وجل، وأنا أنتظر التوقيع عليها، فلما مسك الوزير قال: قد والله خرج توقيع المرأة؛ فكان من أمره ما كان.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعمائة

فيها وقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض ببغداد، قتل فيها خلق كثير من الفريقين.

وفيها ملك أبو المظفر أرسلان خان بلاد ما وراء النهر وغيرها، وتلقب بشرف الدولة، وذلك بعد وفاة أخيه طغان خان، وقد كان طغان خان هذا دينا فاضلا، يحب أهل العلم والدين، وقد غزا الترك مرة، فقتل منهم مائتي ألف مقاتل، وأسر منهم مائة ألف، وغنم من أواني الذهب والفضة وأواني الصين شيئا لم يعهد لأحد مثله، فلما مات ظهرت ملوك الترك على البلاد الشرقية.

وفي جمادى الأولى منها ولي أبو الحسين أحمد بن مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر بلاد البطائح بعد أبيه، فقاتله ابن عمته، فغلبه عليها وضربه حتى قتله، ثم لم تطل مدته فيها، حتى قتل، ثم آلت تلك البلاد بعد ذلك إلى سلطان الدولة صاحب بغداد.

وفي هذه السنة ضعف أمر الديلم ببغداد، وطمع فيهم العامة، فنزلوا إلى واسط فقاتلهم أهلها مع الترك أيضاً.

وفيها ولي نور الدولة أبو الأغر دبيس بن أبي الحسن علي بن مزيد بعد وفاة أبيه.

وفيها قدم سلطان الدولة إلى بغداد، وضرب الطبل في أوقات الصلوات، ولم تجر بذلك عادة، وعقد عقده على بنت قرواش على صداق خمسين ألف دينار.

ولم يحج أحد من أهل العراق لفساد البلاد، وعيث الأعراب وضعف الدولة.

قال أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ١٥/١٢٥، ١٢٦]: أخبرنا سعد الله بن علي البزاز، أنبأ أبو بكر الطريثيثي، أنبأ هبة الله بن الحسن الطبري قال: وفي سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع، وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك، واستن بسنته

في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها، في قتل المعتزلة والرافضة، والإسماعيلية والقرامطة، والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على المنابر، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع، وطردهم عن ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحاجب الكبير

■ شباشي أبو طاهر: مولى شرف الدولة، ولقبه بهاء الدولة بالسعيد، وكان كثير الصدقات والأوقاف على وجوه القربات، فمن ذلك أنه وقف دباها على المارستان، وكانت تغل شيئا كثيرا من الزروع والثمار والخراج، وبنى قنطرة الخندق، والياسرية، وغير ذلك، ولما مات دفن بمقبرة الإمام أحمد، وأوصى أن لا يبنى عليه فخالفوه فعقدوا قبة عليه، فسقطت بعد موته بنحو من سبعين سنة، واجتمع نسوة عند قبره ينحن ويبكين، فلما رجعن رأت عجوز منهن كانت هي المقدمة فيهن في المنام كأن تركيا خرج إليها من قبره، ومعه دبوس فحمل عليها، وزجرها، وإذا هو الحاجب السعيد، فانتبهت مذعورة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعمائة

في يوم الخميس السابع عشر من المحرم قرئ بدار الخلافة في الموكب كتاب في مذاهب أهل السنة، وفيه أن من قال: القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم.

وفي النصف من جمادى الأولى من هذه السنة فاض ماء البحر المالح ووافى الأبلة، ودخل البصرة بعد يومين.

وفيها غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند، وتواقع هو وملك الهند فاقتتل الناس قتالا عظيما،ثم انجلت عن هزيمة عظيمة على الهند، وأخذ المسلمون منهم أموالا عظيمة من الجواهر والذهب والفضة، وأخذوا منهم مائتي فيل، واقتصوا آثار المنهزمين منهم، وهدموا معاقل كثيرة. ثم عاد إلى غزنة مؤيدا منصورا.

وفيها استوزر سلطان الدولة ذا السعادتين أبا غالب الحسن ابن منصور ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق لفساد البلاد، وعبث الأعراب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ رجاء بن عيسى بن محمد أبو العباس الأنصناوي، نسبة إلى قرية من قري مصر، يقال لها: أنصنا، قدم بغداد فحدث بها، وسمع منه الحفاظ، وكان ثقة، فقيها مالكيا، عدلا مقبولا عند الحكام، مرضيا فرضيا. ثم عاد إلى بلده،وتوفي بها في هذه السنة وقد جاوز الثمانين رحمه اللّه تعالى.

■ عبد اللّه بن محمد بن أبي علاّن أبو أحمد قاضي الأهواز، كان ذا يسرة كثيرة، وله مصنفات، منها كتاب في معجزات النبي صلي اللّه عليه وسلم، جمع فيه ألف معجزة، وكان من كبار شيوخ المعتزلة، توفي فيها عن تسع وثمانين سنة.

■ علي بن نصر أبو الحسن: مهذب الدولة، صاحب بلاد البطيحة، كانت له مكارم كثيرة، وكان الناس يلجؤون إليه في الشدائد، فيؤويهم ويحسن إليهم، ومن أكبر مناقبه في ذلك إحسانه إلى أمير المؤمنين القادر باللّه لما استجار به ونزل عنده بالبطائح فارا من الطائع للّه، فآواه وأحسن إليه، وكان في خدمته حتى ولي إمرة المؤمنين، فكانت له بها عنده اليد البيضاء، وقد ولي البطائح ثنتين وثلاثين سنة وشهورا، وتوفي في هذا العام عن ثنتين وسبعين سنة، وكان سبب موته أنه افتصد فانتفخ ذراعه حتى مات رحمه اللّه تعالى.

الحافظ

■ عبد الغني بن سعيد بن علي بن بشر بن مروان بن عبد العزيز: أبو محمد الأزدي المصري الحافظ، كان عالما بالحديث وفنونه، وله فيه المصنفات الكثيرة الشهيرة.

قال أبو عبد اللّه الصوري الحافظ: ما رأت عيناي مثله في معناه. وقال الدارقطني: ما رأيت بمصر مثل شاب يقال له: عبد الغني، كأنه شعلة نار، وجعل يفخم أمره ويرفع ذكره.

وقد صنف الحافظ عبد الغني هذا كتابا فيه أوهام الحاكم، فلما وقف عليه الحاكم جعل يقرؤه على الناس، ويعترف لعبد الغني بالفضل، ويشكره على ذلك، ويرجع إلى ما أصاب فيه من الرد عليه رحمهما اللّه ولد الحافظ عبد الغني لليلتين بقيتا من ذي القعدة، سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي في صفر من هذه السنة، رحمه اللّه تعالى.

■ (محمد بن القادر با لله)

محمد بن أمير المؤمنين القادر باللّه، ويكنى بأبي الفضل، كان أبوه قد جعله ولي عهده من بعده، وضربت السكة باسمه، وخطب له الخطباء على المنابر، ولقب بالغالب باللّه، فلم يقدر ذلك. وتوفي في هذه السنة عن سبع وعشرين سنة.

■ محمد بن إبراهيم بن محمد بن يزيد: أبو الفتح البزاز الطرسوسي، ويعرف بابن البصري، سمع الكثير من المشايخ، وسمع منه الصوري ببيت المقدس حين أقام بها، وكان ثقة مأمونا رحمه اللّه تعالى ورحمنا أجمعين بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة عشر وأربعمائة

فيها ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين، يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند في السنة الخالية، وفيه أنه دخل مدينة وجد بها زهاء ألف قصر مشيد وألف بيت للأصنام. وفيها من الأصنام شيء كثير، ومبلغ ما على الصنم من الذهب ما يقارب مائة ألف دينار، ومبلغ الأصنام الفضة زيادة على ألف صنم، وعندهم صنم معظم، يؤرخون مدته بجهالتهم ثلاثمائة ألف عام، وقد عم المجاهدون هذه المدينة بالإحراق، فلم يتركوا منها إلا الرسوم، وبلغ عدد القتلى من الهنود خمسين ألفا، وأسلم منهم نحو من عشرين ألفا، وأفرد خمس الرقيق فبلغ ثلاثا وخمسين ألفا، واستعرض من الأفيال ثلاثمائة وست وخمسون فيلا، وحصل من الأموال عشرون ألف ألف درهم.

وفي ربيع الآخر منها، جلس القادر باللّه وقرئ عهد الملك أبي الفوارس، ولقب قوام الدولة، وخلع عليه خلعا حملت إليه بولاية كرمان، ولم يحج في هذه السنة أحد من العراق لفساد الأعراب في الطرقات.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الأصيفر المنتفقي: الذي كان يخفر الحجاج.

■ أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك أبو بكر الحافظ الأصبهاني: توفي في رمضان من هذه السنة.

■ هبة الله بن سلامة: أبو القاسم الضرير المقرئ المفسر، كان من أعلم الناس وأحفظهم للتفسير، وكانت له حلقة في جامع المنصور.

روى ابن الجوزي بسنده إليه، قال: كان لنا شيخ نقرأ عليه، فمات بعض أصحابه، فرآه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قال: فما كان حالك مع منكر ونكير؟ قال: لما أجلساني وسألاني ألهمني الله تعالى أن قلت: بحق أبي بكر وعمر دعاني، فقال أحدهما للآخر: قد أقسم علينا بعظيمين فدعه، فتركاني وذهبا.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة

فيها عدم الحاكم العبيدي صاحب مصر، وذلك أنه لما كان ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال، فقد الحاكم بن العزيز بن المعز الفاطمي صاحب مصر، فاستبشر المؤمنون والمسلمون بذلك، وذلك لأنه كان جبارا عنيدا، وشيطانا مريدا. ولنذكر شيئا من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله.

كان قبحه الله كثير التلون في أفعاله وأحكامه وأقواله، جائرا، في كيفية بلوغه ما يأمله من ضميره الملعون، لأنه كان يروم أن يدعي الألوهية، كما ادعاها فرعون في زمان موسى عليه السلام.

فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفا، إعظاما لذكره واحتراما لاسمه، فعل ذلك في سائر ممالكه، حتى في الحرمين الشريفين، وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص، إذا قاموا عند ذكره، خروا سجدا له، حتى أنه ليسجد بسجودهم من في الأسواق من العامة وغيرهم.

وأمر في وقت أهل الكتابين بالدخول في دين الإسلام كرهاً، ثم أذن لهم في العود إلى أديانهم، وخرب كنائسهم، ثم عمرها، وخرب القمامة، ثم أعادها، وابتنى المدارس. وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وأخربها.

وألزم الناس بغلق الأسواق نهاراً، وفتحها ليلا، فامتثلوا ذلك دهراً طويلا، حتى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة في أثناء النهار، فوقف عليه، فقال: ألم ننهكم عن هذا؟ فقال: يا سيدي، لما كان الناس يتعيشون بالنهار، كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار، فهذا من جملة السهر؛ فتبسم وتركه. وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، وكل هذا تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة له، ليرقى في ذلك إلى ما هو أشر وأعظم منه لعنه الله. وقد كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له وكان لا يركب إلا حمارا فمن وجده قد غش في معيشته، أمر عبدا أسود معه، يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى جهارا، وهذا أمر منكر ملعون، لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن، وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمرا، ومنعهم من طبخ الملوخية، وأشياء من الرعونات، التي لا تنضبط ولا تنحصر وكانت العامة موتورين منه تبغضه كثيرا، ويكتبون له الأوراق بالشتيمة البالغة له ولأسلافه في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد غيظا وحنقا عليهم، حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة من الشتم واللعن والمخالفة له شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها، وأخذ القصة من يدها، فقرأها، فرأى ما فيها، فأغضبه ذلك جدا، فأمر بقتل المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظا إلى غيظه، ثم لما وصل إلى القاهرة أمر السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا، فامتثلوا ما أمرهم به، فقاتلهم أهل مصر قتالا شديدا ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم وهو في كل يوم قبحه الله يخرج، فيقف من بعيد، وينظر ويبكي، ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا؟ ثم اجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وصاروا إلى الله عز وجل، واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشارقة وانحازوا إليهم، وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم وتفاقم الحال جدا، ثم ركب الحاكم لعنه الله ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل مما فعله العبيد، وأنهم ارتكبوا ذلك من غير علمه وإذنه، وكان ينفذ إليهم السلاح، ويحثهم على ذلك في الباطن لعنه الله تعالى، فما انجلى الأمر حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونُهبَ قريب من نصفها، وسبيت نساء وبنات كثيرة، وفُعل بهن الفواحش والمنكرات، حتى إن منهن من قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبى لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

قال ابن الجوزي: ثم ازداد ظلم الحاكم، حتى عن له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي يا مميت. قبحهم الله جميعاً.

صفة مقتله لعنه الله:

كان قد تعدى شره إلى الناس كلهم حتى إلى أخته، وكان يتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فتبرمت منه، وعملت على قتله، فراسلت فيه أكبر الأمراء، أميرا يقال له ابن دواس، فتوافقت هي وهو على قتله ودماره، وتواطآ على ذلك، فجهز من عنده عبدين أسودين من عبيده شهمين، فقالت لهما: إذا كانت الليلة الفلانية، فكونا في جبل المقطم، ففي تلك الليلة يكون الحاكم هناك في الليل، لينظر في النجوم، وليس معه أحد إلا ركابي وصبي، فاقتلاه واقتلاهما معه؛ واتفق الحال على ذلك وتقرر. فلما كانت تلك الليلة، قال الحاكم لأمه: علي في هذه الليلة قطع عظيم، فإن نجوت منه عمرت نحوا من ثمانين سنة، ومع هذا فانقلي حواصلي إليك، فإن أخوف ما أخاف عليك من أختي، وأخوف ما أخاف على نفسي منها، فنقل حواصله إلى أمه، وكان له في صناديق قريب من ثلاثمائة ألف دينار وجواهر أخر، فقالت له أمه: يا مولانا، إذا كان الأمر كما تقول فارحمني ولا تركب في ليلتك هذه إلى موضع، وكان يحبها. فقال: أفعل؛ وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر، فنام إلى قريب من ثلث الليل الأخير، فاستيقظ، وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسي. فثار، فركب فرسا وصحبه صبي، وصعد الجبل المقطم، فاستقبله ذانك العبدان، فأنزلاه عن مركوبه، وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه، وحملاه فأتيا به مولاهما ابن دواس، فحمله إلى أخته، فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير، وقد أطلعته على الحيلة فبايعوا لولد الحاكم أبي الحسن علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وكان بدمشق، فاستدعت به وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لي: إنه يغيب

عنكم سبعة أيام ثم يعود؛ فاطمأن الناس بذلك، وجعلت ترسل ركابيين إلى الجبل، فيصعدونه، ثم يرجعون، فيقولون: تركناه في الموضع الفلاني؛ ويقول الذين بعدهم لأمه: تركناه في موضع كذا وكذا. حتى اطمأن الناس، وقدم ابن أخيها واستصحب معه من تنيس ألف ألف دينار، وألفي ألف درهم، فحين وصل ألبسته تاج المعز جد أبيه، وحلة عظيمة، وأجلسته على السرير، وبايعه الأمراء، والرؤساء، وأطلق لهم الأموال، وخلعت على ابن دواس خلعة سنية هائلة، وعملت عزاء أخيها الحاكم ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم وقوفا في خدمته، ثم أمرتهم أن يقولوا له في بعض الأيام: أنت قاتل مولانا؛ ثم يهبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كل من اطلع على سرها في قتل أخيها، فعظمت هيبتها، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها. وقد كان عمر الحاكم حين قتل سبعا وثلاثين سنة، وكانت مدة ملكه من ذلك خمسا وعشرين سنة لعنه الله تعالى.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وأربعمائة

فيها تولى القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني الحسبة والمواريث ببغداد، وخلع عليه بالسواد.

وفيها قال جماعة من العلماء والمسلمين للملك الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين: أنت أكبر ملوك الأرض. وفي كل سنة تفتح طائفة من بلاد الكفر، وهذه طريق الحج قد تعطلت من مدة سنين، وفتحك لها أوجب من غيرها. فتقدم إلى قاضي القضاة بعمله أبي محمد الناصحي أن يكون أمير الحج في هذه السنة، وبعث معه بثلاثين ألف دينار للأعراب، غير ما جهز معه من الصدقات إلى الحرمين، فسار الناس صحبته، فلما كانوا بفَيد، اعترضهم الأعراب، فصالحهم القاضي أبو محمد الناصحي بخمسة آلاف دينار فامتنعوا، وصمم كبير الأعراب وهو جماز بن عدي على أخذ الحجيج، وركب فرسه، وجال جولة واستنهض من معه من شياطين العرب، فتقدم إليه غلام من أهل سمرقند فرماه بسهم، فوصل إلى قلبه، فسقط ميتا، وانهزمت الأعراب، وسلك الحجيج الطريق، فحجوا، ورجعوا سالمين، ولله الحمد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبو سعد الماليني: **أحمد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن حفص، أبو سعد الماليني الصوفي**، ومالين قرية من قرى هراة، كان من الحفاظ المكثرين، الرحالين في طلب الحديث إلى الآفاق، وكتب كثيرا، وكان ثقة صدوقا صالحا، كانت وفاته بمصر في شوال من هذه السنة.

■ **الحسن بن الحسين ين محمد بن الحسين بن رامين القاضي، أبو محمد الإستراباذي**، نزل بغداد، وحدث بها عن الإسماعيلي وغيره، وكان من كبار الشافعية، فاضلا صالحا رحمه الله تعالى.

■ **الحسن بن منصور** أبو غالب، الوزير الملقب ذا السعادتين، ولد بسيراف، سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة وانتقلت به الأحوال حتى وزر ببغداد، ثم قتل، وصودر ابنه على ثمانين ألف دينار.

■ **الحسين بن عمر**، أبو عبد الله الغزال، سمع النجاد، والخلدي، وابن السماك، وغيرهم. قال الخطيب: كتبت عنه، وكان ثقة صالحا، كثير البكاء عند الذكر رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن عمر: أبو بكر العنبري الشاعر**، كان أديبا ظريفا، حسن الشعر، فمن ذلك قوله:

إنـي نظـرت إلى الزمـا ... ن وأهلـه نظـرا كفـاني
فعرفتـه وعرفتهـم ... وعرفـت عـزي مـن هوانـي
فلـذاك أطـرح الصـدي ... ق فـلا أراه ولا يرانـي
وزهـدت فيمـا في يديـ ... ه ودونـه نيـل الأمـاني
فتعجبـوا لمغـالب ... وهـب الأقـاصي للأداني
وانسـل مـن بـين الزحـا ... م فمـا لـه في الكـون ثـاني

قال ابن الجوزي: وقد كان متصوفاً، ثم خرج عنهم، وذمهم بقصائد ذكرتها في «تلبيس إبليس». كانت وفاته يوم الخميس، ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد** بن رزق بن عبد الله بن يزيد ابن خالد، **أبو الحسن البزاز**، المعروف بابن رزقويه.

قال الخطيب: هو أول شيخ كتبت عنه في سنة ثلاث وأربعمائة، وكان يذكر أنه درس القرآن ودرس الفقه على مذهب الشافعي، وكان ثقة صدوقا، كثير السماع والكتابة، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، مديماً لتلاوة القرآن، شديدا على أهل البدع، وأكب دهرا على الحديث، وكان يقول: لا أحب الدنيا إلا لذكر الله، وتلاوة القرآن، وقراءتي عليكم الحديث، وقد بعث بعض الأمراء إلى العلماء بذهب، فقبلوا كلهم غيره، فإنه لم يقبل منه شيئا، وكانت وفاته يوم الاثنين، السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، عن سبع وثمانين سنة، ودفن بالقرب من مقبرة معروف الكرخي رحمه الله تعالى.

■ **أبو عبد الرحمن السلمي: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري**، روى عن الأصم، وغيره، وعنه مشايخ البغادذة، كالأزهري، والعشاري، وغيرهما، وروى عنه البيهقي، وغيره.

قال ابن الجوزي: كانت له عناية بأخبار الصوفية، فصنف لهم تفسيرا على طريقتهم، وسنناً وتاريخاً، وجمع شيوخاً وتراجم أبوابا، وله بنيسابور دار معروفة، وفيها صوفية، وبها قبره، ثم ذكر كلام الناس في تضعيفه في الرواية، فحكى عن الخطيب عن محمد بن يوسف القطان أنه قال: لم يكن بثقة، ولم يكن سمع من الأصم شيئا كثيرا، فلما مات الحاكم روى عنه أشياء كثيرة جدا، وكان يضع للصوفية الأحاديث، قال ابن الجوزي: وكانت وفاته في ثالث شعبان منها.

أبو علي

■ **الحسن بن علي الدقاق النيسابوري**، كان يعظ الناس، ويتكلم على الأحوال والمعرفة، فمن كلامه: من تواضع لأحد لأجل دنياه ذهب ثلثا دينه، لأنه خضع له بلسانه وأركانه، فلو خضع له بقلبه، ذهب دينه كله.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] اذكروني وأنتم أحياء أذكركم وأنتم أموات تحت التراب.

وقال: البلاء الأكبر أن تريد ولا تراد وتدنو فترد إلى الطرد والإبعاد.

وأنشد عنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

جننـا بليلـى وهـي جنـت بغيرنـا ... وأخـرى بنـا مجنونـة لا نريدهـا

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم: «حفت الجنة بالمكاره» إذا كان هذا المخلوق لا وصول إليه إلا بتحمل المشاق، فما الظن بمن لم يزل؟

■ **صريع الدلاء الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الواحد**، الفقيه البغدادي الشاعر الماجن، المعروف بصريع الدلاء، قتيل الغواشي، ذي الرقاعتين، له قصيدة مقصورة في الهزل عارض بها مقصورة ابن دريد، يقول فيها:

وألف حمل من متاع تستر ... أنفع للمسكين من لقط النوى
من طبخ الديك ولا يذبحه ... طار من القدر إلى حيث انتهى
من أدخلت في عينه مسلة ... فسله من ساعته كيف العمى
والذقن شعر في الوجوه طالع ... وإنما العقصة من خلف القفا
من أكل الكرش ولا يغسله ... سال على لحيته شبه الخرا

إلى أن ختمها بالبيت الذي حسد عليه وهو قوله:

من فاته العلم وأخطاه الغنى ... فذاك والكلب على حد سوا

قدم مصر في سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، وامتدح فيها خليفتها الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم، واتفقت وفاته بها في رجب هذه السنة سامحه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وأربعمائة

فيها جرت كائنة غريبة، ومصيبة عظيمة، وهي أن رجلا من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنه لما كان يوم الجمعة وهو يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليقبله، فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات، وقال: إلى متى نعبد هذا الحجر؟ ولا محمد ولا علي يمنعني فما أفعله، فإني أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين، وتأخروا عنه، وذلك لأنه كان رجلا طوالا، جسيما، أحمر اللون، أشقر الشعر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل وأراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر، فوجأه بها، وتكاثر عليه الناس، فقتلوه وقطعوه قطعا وحرقوه بالنار، وتتبعوا أصحابه، فقتلوا منهم جماعة، ونهبت أهل مكة الركب المصري، وتعدى النهب إلى غيرهم، وجرت خبطة عظيمة وفتنة كبيرة جدا، ثم سكن الحال بعد أن تتبع أولئك النفر الذين تمالؤوا على الإلحاد في أشرف البلاد، غير أنه قد سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار، وبدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة، محببا مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق فعجنوها بالمسك واللك، وحشوا بها تلك الشقوق التي بدت، فاستمسك الحجر، واستمر على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله.

في هذه السنة فتح المارستان الذي بناه الوزير مؤيد الملك أبو علي الحسن الرخجي، وزير شرف الملك بواسط، ورتب له الخزان والأشربة والأدوية والعقاقير، وغير ذلك مما يحتاج إليه. والله تعالى أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن البواب الكاتب: علي بن هلال أبو الحسن بن البواب**، صاحب الخط المنسوب، صاحب أبا الحسين بن سمعون الواعظ، وكان يقص بجامع المدينة وقد أثنى على ابن البواب غير واحد في دينه وأمانته، وأما خطه وطريقته فيه فأشهر من أن ننبه عليها، وخطه أوضح تعريبا من خط أبي علي بن مقلة، ولم يكن بعد ابن مقلة أكتب منه، وعلى طريقته الناس اليوم في سائر الأقاليم إلا القليل.

قال ابن الجوزي: كانت وفاته يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من هذه السنة، ودفن بمقبرة باب حرب، وقد رثاه بعضهم بأبيات منها قوله:

فللقلوب التي أبهجتها حزن ... وللعيون التي أقررتها سهر
فما لعيش وقد ودعته أرج ... وما لليل وقد فارقته سحر

قال ابن خلكان: ويقال له ابن الستري، لأن أباه كان ملازما لستر الباب، ويقال له: ابن البواب، وكان قد أخذ الخط عن عبد الله بن محمد بن أسد ابن علي بن سعيد البزار، وقد سمع ابن أسد هذا على النجاد وغيره، وتوفي سنة عشر وأربعمائة، وأما ابن البواب فإنه توفي في جمادى الأولى من هذه السنة، وقيل في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وقد رثاه بعضهم فقال:

استشعر الكتاب فقدك سالفا ... وقضت بصحة ذلك الأيام
فلذاك سودت الدوي كآبة ... أسفا عليك وشقت الأقلام

ثم ذكر القاضي ابن خلكان أول من كتب بالعربية، فقيل إسماعيل عليه السلام، وقيل أول من كتب بالعربية من قريش حرب بن أمية بن عبد شمس، أخذها من بلاد الحيرة عن رجل يقال له: أسلم بن سدرة، وسأله عمن اقتبستها؟ فقال: من واضعها، رجل يقال له: مرامر بن مرة، وهو رجل من أهل الأنبار، فأصل الكتابة في العرب من أهل الأنبار. وقال الهيثم بن عدي: وقد كان لحمير كتابة يسمونها المسند، وهي حروف متصلة غير منفصلة، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها، وجميع كتابات الناس تنتهي إلى اثني عشر صنفا، وهي العربية، والحميرية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، والقبطية، والبربرية، والهندية، والأندلسية، والصينية. وقد اندرس كثير منها، فقل من يعرف كثيرا منها.

■ **علي بن عيسى بن سليمان بن محمد بن أبان، أبو الحسن الفارسي** المعروف بالسكري الشاعر، وكان يحفظ القرآن، ويعرف القراءات، وصحب القاضي أبا بكر الباقلاني، وأكثر شعره في مديح الصحابة وذم الرافضة. وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ودفن بالقرب من قبر معروف الكرخي، وقد كان أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات التي عملها وهي قوله:

نفس يا نفس كم تمادين في الغي ... وتأتين في الفعال المعيب
راقبي الله واحذري موقف العر ... ض وخافي يوم الحساب العصيب
لا تغرنك السلامة في العيـ ... ش فإن السليم رهن الخطوب
كل حي فللمنون ولا يد ... فع كأس المنون كيد الأريب
واعلمي ان للمنية وقتا ... سوف يأتي عجلان غير هيوب
إن حب الصديق في موقف الحشـ ... ر أمان للخائف المطلوب

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن منصور: أبو جعفر البيع**، ويعرف بالعتيقي، ولد سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وأقام بطرسوس مدة، وسمع بها، وبغيرها، وحدث بشيء يسير رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن محمد بن النعمان أبو عبد الله المعروف بابن المعلم**، شيخ الإمامية الروافض، والمصنف لهم، والحامي عن حوزتهم، وكانت له وجاهة عند ملوك الأطراف لميل كثير منهم إلى التشيع، وكان مجلسه يحضره خلق كثير من العلماء من سائر الطوائف، وكان من جملة تلاميذه الشريف المرتضى، وقد رثاه بقصيدة بعد وفاته في رمضان من هذه السنة، منها قوله:

من لفضل أخرجت منه حساما ... ومعان فضضت عنها ختاما؟

من يثير العقول من بعد ما ... كن همودا ويفتح الافهاما؟

من يعير الصديق رأيا إذا ما ... سله في الخطوب كان حساما

ثم دخلت سنة أربع عشرة وأربعمائة

فيها قدم الملك مشرف الدولة إلى بغداد، فخرج الخليفة في الطيار لتلقيه، وصحبته الأمراء والقضاة والفقهاء والوزراء والرؤساء، فلما واجهه مشرف الدولة قبل الأرض بين يديه مرات، والجيش واقف برمته، والعامة من الجانبين والخليفة يبعث الرسل إليه بالسلام عليه، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى الخليفة، يذكر فيه أنه دخل بلاد الهند أيضا، وأنه فتح بلادا، وقتل خلقا منهم، وأنه صالحه بعض ملوكهم، وحمل إليه هدايا سنية، منها فيول كثيرة، ومنها طائر على هيئة القمري، إذا وضع عند الخوان وفيه سم دمعت عيناه وجرى منهما ماء، وتحجر، ويحك ويؤخذ ما تحصل منه، فيطلي به الجراحات ذات الأفواه الواسعة، فيلحمها، وغير ذلك.

وحج الناس من أهل العراق في هذه السنة ولكن رجعوا على طريق الشام، لاحتياجهم إلى ذلك والله تعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن الفضل بن سهلان: أبو محمد الرامهرمزي**، وزير سلطان الدولة، وهو الذي بنى سور الحائر عند مشهد الحسين، قتل في شعبان من هذه السنة.

■ **الحسين بن محمد بن عبد الله: أبو عبد الله الكشفلي الطبري**، الفقيه الشافعي،تفقه على أبي القاسم الداركي، وكان فهما فاضلا صالحا زاهدا، وهو الذي درس بعد الشيخ أبي حامد الإسفراييني في مسجده، مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع، وكان الطلبة عنده مكرمين، اشتكى بعضهم إليه حاجة، وأنه قد تأخرت عنه نفقته التي ترد إليه من أبيه، فأخذه بيده، وذهب إلى بعض التجار بقطيعة الربيع، فاستقرض له منه خمسين دينارا. فقال التاجر: حتى تأكل شيئا فمد السماط، فأكلوا، وقال: يا جارية هاتي المال فأحضرت شيئا من المال، فوزن منها خمسين دينارا ودفعها إلى الشيخ، فلما قاما إذا بوجه ذلك الطالب قد تغير، فقال له الكشفلي: ما لك؟ فقال: يا سيدي، قد سكن قلبي حب هذه الجارية فرجع به إلى التاجر، فقال له: وقد وقعنا في فتنة أخرى فقال: وما هي؟ فقال: إن هذا الفقيه قد هوى الجارية فأمر التاجر الجارية أن تخرج، فتسلمها الفقيه، وقال: ربما أن يكون قد وقع في قلبها منه مثل الذي وقع في قلبه منها. فلما كان عن قريب قدم على ذلك الطالب نفقته من أبيه ستمائة دينار، فوفى ذلك التاجر ما كان له عليه من ثمن الجارية والقرض، وذلك بسفارة الشيخ أبي محمد الكشفلي.

وكانت وفاته في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بمقبرة باب حرب رحمه الله تعالى.

■ **علي بن عبد الله بن جهضم: أبو الحسن الجهضمي الصوفي المكي**، صاحب «بهجة الأسرار»، كان شيخ الصوفية بمكة، وبها توفي في هذه السنة.

قال ابن الجوزي: وقد ذكر أنه كان كذابا، ويقال: إنه الذي وضع حديث صلاة الرغائب.

■ **القاسم بن جعفر بن عبد الواحد: أبو عمر الهاشمي البصري**، قاضي البصرة، سمع الكثير، وكان ثقة أمينا، وهو راوي سنن أبي داود، عن أبي علي اللؤلؤي، توفي في هذه السنة وقد جاوز التسعين رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن أحمد بن الحسن بن يحيى بن عبد الجبار: أبو الفرج القاضي الشافعي**، ويعرف بابن سميكة، روى عن النجاد وغيره، وكان ثقة، توفي في ربيع الأول منها، ودفن بمقبرة باب حرب.

■ **محمد بن أحمد: أبو جعفر النسفي**، عالم الحنفية في زمانه، وله طريقة في الخلاف والجدل، وكان فقيرا متزهدا، بات ليلة قلقا لما عنده من الفقر والحاجة، فعرض له فكر في فرع من الفروع كان يشكل عليه، فاتضح له، فقام يرقص، ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك؟ فسألته امرأته عن خبره، فأعلمها بما حصل له فتعجبت من شأنه رحمه الله، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

■ **هلال بن محمد بن جعفر بن سعدان، أبو الفتح الحفار**، سمع إسماعيل الصفار، والنجاد، وابن السماك وابن الصواف، وكان ثقة، توفي في صفر منها، عن اثنتين وتسعين سنة رحمه الله وإيانا بمنه.

ثم دخلت سنة خمسة عشرة وأربعمائة

فيها ألزم الوزير المغربي جماعة من الأتراك والمولدين والشريف المرتضى ونظام الحضرة أبا الحسن الزينبي وقاضي القضاة أبا الحسن بن أبي الشوارب والشهود، بالحضور لتجديد البيعة لمشرف الدولة، فلما بلغ ذلك الخليفة توهم أن تكون هذه البيعة لنية فاسدة من أجله، فبعث إلى القاضي والرؤساء ينهاهم عن الحضور، فاختلفت الكلمة بين الخليفة ومشرف الدولة، واصطلحا، وتصافيا وجددت البيعة لكل منهما من الآخر.

ولم يحج في هذه السنة من ركب خراسان أحد، واتفق أن بعض الأمراء من جهة محمود بن سبكتكين شهد الموسم في هذه السنة، فبعث إليه صاحب مصر بخلع عظيمة ليحملها للملك محمود بن سبكتكين، فلما رجع بها إلى أستاذه الملك محمود أرسل بها إلى بغداد فحرقت بالنار على باب النوبي للخليفة القادر بالله العباسي رحمه الله تعالى وجازاه خيرا عن قصده وسيرته الحسنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبيد بن عمرو ابن خالد بن الرفيل أبو الفرج المعدل المعروف بابن المسلمة**، ولد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وسمع أباه وأحمد بن كامل والنجاد والخطبي، ودعلج بن أحمد، وغيرهم، وكان ثقة. يسكن الجانب الشرقي من بغداد، وكان يملي في أول كل سنة مجلسا في المحرم، وكان عاقلا فاضلا، كثير المعروف، داره

مألف لأهل العلم، وتفقه بأبي بكر الرازي، وكان يصوم الدهر، ويقرأ في كل يوم سبعا، ويعيده بعينه في تهجده، كانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعيد بن أبان الضبي، أبو الحسن المحاملي**، نسبة إلى بيع المحامل، تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وبرع في الفقه، حتى إن الشيخ أبو حامد كان يقول: هو أحفظ للفقه مني. وله المصنفات المشهورة، منها «اللباب»، و «الأوسط»، و «المقنع»، وله في الخلاف، وعلق على أبي حامد تعليقة كبيرة قاله ابن خلكان.

ولد سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وتوفي في يوم الأربعاء لتسع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة، وهو شاب رحمه الله تعالى.

■ **سلطان الدولة بن بهاء الدولة**، توفي بشيراز، عن ثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر.

■ **عبيد الله بن عبد الله بن الحسين، أبو القاسم الخفاف**، المعروف بابن النقيب، كان من أئمة السنة، وحين بلغه موت ابن المعلم، جلس للتهنئة وقال: ما أبالي أي وقت مت بعد أن شاهدت موت ابن المعلم. ومكث دهرا طويلا يصلي الفجر بوضوء العشاء.

قال الخطيب البغدادي: وسألته عن مولده، فقال: في سنة خمس وثلاثمائة. وأذكر من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي والمتقي لله والمستكفي والمطيع والطائع والقادر والغالب بالله، الذي خطب له بولاية العهد، وكانت وفاته في سلخ شعبان من هذه السنة، عن مائة وعشر سنين رحمه الله تعالى.

■ **عمر بن عبد الله بن عمر بن تعويذ أبو حفص الدلال**، قال: سمعت الشبلي ينشد قوله:

وقد كان شيء يسمى السرور ... قديما سمعنا به ما فعل

خليليّ إن دام هم النفوس ... قليلا على ما نراه قتل

يؤمل دنيا لتبقى له ... فمات المؤمل قبل الأمل

■ **محمد بن الحسن، أبو الحسن الأقساسي العلوي**، نائب الشريف المرتضى في إمرة الحج، حج بالناس في سنين متعددة، وله فصاحة وشعر جيد، وهو من سلالة زيد بن علي بن الحسين.

ثم دخلت سنة ست عشرة وأربعمائة

فيها قوي أمر العيارين ببغداد، ونهبوا الدور جهرة، واستهانوا بأمر السلطان، وفي ربيع الأول منها توفي شرف الدولة بن بويه الديلمي صاحب بغداد والعراق وغير ذلك، فكثرت الشرور ببغداد، ونهبت الخزائن، واستقر الأمر على تولية جلال الدولة أبي الطاهر، وخطب له على المنابر، وهو إذ ذاك على البصرة، وخلع على شرف الملك أبي سعيد بن ماكولا وزيره، ولقب علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك، وهو أول من لقب بالألقاب الكثيرة، ثم طلب من الخليفة أن يبايع لأبي كاليجار إذ كان ولي عهد أبيه سلطان الدولة، الذي استخلفه بهاء الدولة عليهم، فتوقف في الجواب، ثم وافقهم على ما أرادوا، وأقيمت الخطبة للملك أبي كاليجار يوم الجمعة سادس عشر شوال من هذه السنة، ثم تفاقم أمر العيارين ببغداد، وكبسوا الدور ليلا ونهارا، وضربوا أهلها كما يضرب المصادرون، ويستغيث أحدهم فلا يغاث، واشتد الحال، وهربت الشرط من بغداد، ولم تغن الأتراك شيئا، وعملت الشرايج على أفواه السكك، فلم يفد ذلك شيئا، وأحرقت دار الشريف المرتضى، فانتقل منها، وغلت الأسعار ببغداد جدا، ولم يحج أحد من أهل العراق وخراسان في هذه السنة والله أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **سابور بن ازدشير**: وزر لبهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة ثلاث مرات ووزر لمشرف الدولة أيضا وكان كاتبا سديدا، عفيفا عن الأموال، كثير الخير، سليم الباطن، وكان إذا سمع المؤذن لا يشغله شيء عن الصلاة، وقد وقف دارا للعلم في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وجعل فيها كتبا كثيرة جدا،ووقف عليها غلة كبيرة، فبقيت سبعين سنة، ثم احرقت عند مجيء الملك طغرلبك في سنة خمسين وأربعمائة، وكانت محلتها بين السورين، وقد كان حسن المعاشرة، إلا أنه كان يعزل عماله سريعا، توفي في هذه السنة وقد قارب التسعين.

■ **عثمان النيسابورى: الخركوشي الواعظ**، قال ابن الجوزي: صنف كتابا في الوعظ من أبرد الأشياء، وفيه أحاديث كثيرة موضوعة، وكلمات مرذولة، إلا أنه كان خيرا صالحا، وكانت له وجاهة عند الخلفاء والملوك، وكان الملك محمود بن سبكتكين إذا رآه قام له، وكانت محلته حمى يحتمى بها من الظلمة، وقد وقع في بلده نيسابور موت، وكان يغسل الموتى مؤتجرا، فغسل نحوا من عشرة آلاف ميت، رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن الحسن بن صالحان: أبو منصور الوزير** لمشرف الدولة، ولبهاء الدولة أيضا، كان وزير صدق جيد المباشرة، حسن الصلاة، محافظا على أوقاتها، وكان محسنا للشعراء، والعلماء، توفي في هذه السنة عن ست وسبعين سنة.

■ **(مشرف الدولة بن بهاء الدولة)**

الملك مشرف الدولة: أبو علي بن بهاء الدولة، أبي نصر بن عضد الدولة بن بويه الديلمي، صاحب بغداد وغيرها من البلاد، أصابه مرض حاد، فتوفي منه لثمان بقين من ربيع الآخر عن ثلاث وعشرين سنة، وثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما.

■ **التهامي الشاعر: علي بن محمد التهامي أبو الحسن**، له ديوان مشهور، وله مرثاة في ولد له صغير، أولها:

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار

ومنها:

أني لارحم حاسدي لحر ما ... ضمن صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار

ومنها في ذم الدنيا وكل هذه القصيدة مليح مختار:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الدنيا جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار

ومنها قوله في ولده بعد موته:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

وقد ذكر القاضي ابن خلكان، أن بعضهم رآه في النوم في هيئة حسنة، فقال: بم نلت هذا؟ فقال: بهذا البيت توفي بحبس خزانة البنود من القاهرة في هذه السنة، رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وأربعمائة

في العشرين من محرمها، وقعت فتنة بين الأسفهسلارية وبين العيارين، وركبت لهم الأتراك بالدبابات،كما يفعل في الحرب، وأحرقت أبواب كثيرة من الدور التي احتمى فيها العيارون،وأحرق من الكرخ جانب كبير، ونهب أهله، وتعدى النهب إلى غيرهم، كانت الفتنة هائلة شنيعة ثم خمدت في اليوم الثاني، وقرر على أهل الكرخ مائة ألف دينار مصادرة، لإثارتهم الفتن والشرور.

وفي شهر ربيع الآخر منها شهد أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري عند قاضي القضاة ابن أبي الشوارب، بعدما كان استتابه عما ذكر عنه من الاعتزال.

وفي رمضان منها، انقض كوكب سمع له دوي كدوي الرعد، ووقع في سلخ شوال برد لم يعهد مثله،واستمر ذلك إلى العشرين من ذي الحجة، وجمد الماء طول هذه المدة، حتى حافات دجلة والأنهار الكبار وقاسى الناس شدة عظيمة، وتأخر المطر. وزيادة دجلة، وقلت الزراعة،وامتنع كثير من الناس عن التصرف. ولم يحج أحد من أهل العراق وخراسان في هذه السنة، لفساد البلاد والطرقات، والله اعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

قاضي القضاة

■ **ابن أبي الشوارب أحمد بن محمد بن عبد الله ابن العباس بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، أبو الحسن القرشي الأموي**، قاضي قضاة بغداد بعد ابن الأكفاني بثنتي عشرة سنة، وكان عفيفا نزها، وقد سمع الحديث من أبي عمر الزاهد، وعبد الباقي بن قانع، إلا أنه لم يحدث. قاله ابن الجوزي.

وحكى الخطيب البغدادي عن شيخه أبي العلاء الواسطي أن أبا الحسن هذا كان آخر من ولي الحكم ببغداد من سلالة محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، وقد ولي الحكم من سلالته أربعة وعشرون منهم ثمانية ولوا قضاء قضاة بغداد. قال أبو العلاء: وما رأينا مثل أبي الحسن هذا، جلالة، ونزاهة وصيانة وشرفا.

وقد ذكر القاضي الماوردي أنه كان له صديقا وصاحبا، وأن رجلا من خيار الناس أوصى له بمائتي دينار، فحملها إليه الماوردي، فأبى القاضي أن يقبلها، فجهد عليه كل الجهد فلم يفعل، وقال له: سألتك بالله، لا تذكر هذا لأحد ما دمت حيا. ففعل الماوردي، فلم يخبر عنه إلا بعد موته، وكان ابن أبي الشوارب فقيرا إليها، وإلى ما هو دونها، فلم يقبلها، رحمه الله. توفي في شوال من هذه السنة.

■ **جعفر بن باى: أبو مسلم الجيلي**، سمع ابن بطة، ودرس فقه الشافعي، على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وكان ثقة دينا فاضلا، توفي في رمضان من هذه السنة.

■ **عمرو بن أحمد بن إبراهيم بن عبدويه: أبو حازم الهذلي النيسابوري**، سمع ابن نجيد، والإسماعيلي، وخلقا، وسمع منه الخطيب وغيره، وكان الناس ينتفعون بإفادته وانتخابه، توفي في يوم عيد الفطر منها.

■ **علي بن أحمد بن عمر بن حفص: أبو الحسن المقرئ المعروف بالحمامي**، سمع النجاد والخلدي وابن السماك وغيرهم، وكان صدوقا فاضلا حسن الاعتقاد، وتفرد بأسانيد القراءات، وعلوها، توفي في شعبان من هذه السنة، عن تسع وثمانين سنة.

■ **صاعد بن الحسن ابن عيسى الربعي البغدادي اللغوي**، صاحب كتاب «الفصوص» في اللغة، على طريقة القالي في «الأمالي»، صنفه للمنصور بن أبي عامر، فأجازه عليه خمسة آلاف دينار، ثم قيل له إنه كذاب متهم فيما ينقله فأمر بإلقاء الكتاب في النهر، فقال في ذلك بعض الشعراء:

قد غاص في الماء كتاب الفصوص   وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما بلغ صاعداً هذا البيت قال:

عاد إلى عنصره إنما   خرج من قعر البحور الفصوص

قلت: كأنه سمى هذا الكتاب بهذا الاسم ليشاكل به «الصحاح» للجوهري، لكنه كان مع فصاحته وبلاغته وعلمه متهما بالكذب فيما يرويه وينقله، فلهذا رفض الناس كتابه، ولم يشتهر بينهم وقد كان ظريفا، ماجنا سريع الجواب، سأله رجل أعمى على سبيل التهكم بحضرة جماعة فقال له: ما الجرنفل؟ فاطرق ساعة، وعرف أنه افتعل هذا من عند نفسه، ثم رفع رأسه إليه، فقال: هو الذي يأتي نساء العميان ولا يتعداهن إلى غيرهن. فاستحيى ذلك الأعمى، وضحك الحاضرون. وقد كانت وفاته في هذه السنة، سامحه الله والله أعلم بالصواب.

■ **القفال المروزي: هو أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله القفال** أحد أئمة الشافعية الكبار علما وزهدا وحفظا وتصنيفا وورعا، وإليه تنسب الطريقة الخراسانية، ومن أصحابه الشيخ أبو محمد الجويني، والقاضي حسين، وأبو علي السنجي، قال ابن خلكان: وأخذ عنه إمام الحرمين، وفيما قاله نظر. لأن سن إمام الحرمين لا يحتمل ذلك، فإن القفال هذا مات في هذه السنة وله تسعون سنة، ودفن بسجستان، وإمام الحرمين ولد سنة تسع عشرة وأربعمائة بعد وفاة القفال بستين ومات سنة ثمان وسبعين كما سيأتي، وإنما قيل له القفال، لأنه كان أولا يعمل الأقفال، ولم يشتغل إلا وهو ابن ثلاثين سنة، ثم أقبل على الاشتغال بعد ذلك رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وأربعمائة

في ربيع الأول منها، وقع برد أهلك شيئا كثيرا من الزروع والثمار، وقتل خلقا كثيرا من الغنم والوحوش.

قال ابن الجوزي: وقد قيل: إنه كان في كل بردة رطلان وأكثر، وفي واسط بلغت البردة أرطالا، وفي بغداد بلغت قدر البيض.

وفي ربيع الآخر سألت الإسفهسلارية والغلمان الخليفة أن يعزل عنهم أبا كاليجار، لتهاونه بأمرهم، وفساده وفساد الأمور في أيامه، ويولى عليهم جلال الدولة، الذي كانوا قد عزلوه عنهم، فماطلهم الخليفة في ذلك، وكتب إلى أبي كاليجار أن يتدارك أمره، وأن يسرع الأوبة إلى بغداد قبل أن يفوت الأمر. وألح أولئك على الخليفة في تولية جلال الدولة، وأقاموا له الخطبة ببغداد، وتفاقم الحال، وفسد النظام.

في هذه السنة ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين يذكر أنه دخل بلاد الهند أيضا، وأنه كسر الصنم الأعظم، الذي لهم، المسمى بسومنات، وقد كانوا يفدون إليه من كل فج عميق، كما يفد الناس إلى الكعبة البيت الحرام وأعظم، وينفقون عنده النفقات، والأموال الكثيرة، التي لا توصف، ولا تعد، وكان عليه من الأوقاف عشرة آلاف قرية مشهورة، وقد امتلأت خزائنه أموالا، وعنده ألف رجل يخدمونه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس حجيجه، وثلاثمائة وخمسون رجل يغنون ويرقصون على باب الصنم وقد كان العبد يعني الملك محمود بن سبكتكين يتمنى قلع هذا الصنم، وكان يعوقه طول المفاوز، وكثرة الموانع والآفات، ثم استخار اللّه تعالى السلطان محمود، لما بلغه خبر هذا الصنم وعباده، وكثرة الهنود في طريقه والمفاوز المهلكة، والأرض الخطرة، في تجشم ذلك في جيشه، وأن يقطع تلك الأهوال إليه، فندب جيشه لذلك، فانتدب معه ثلاثون ألفا من المقاتلة، ممن اختارهم لذلك، سوى المتطوعة، فسلمهم اللّه، حتى انتهوا إلى بلد هذا الوثن، ونزلوا بساحة عباده، فإذا هو بمكان بقدر المدينة العظيمة، قال: فما كان بأسرع من أن ملكناه، وقتلنا من أهله خمسين ألفا، وقلعنا هذا الوثن، وأوقدنا تحته النار.

وقد ذكر غير واحد أن الهنود بذلوا أموالا جزيلة للملك محمود بن سبكتكين ليترك لهم هذا الصنم الأعظم، فأشار من أشار من الأمراء على السلطان محمود بأخذ الأموال، وإبقاء هذا الصنم لهم فقال: حتى أستخير اللّه عز وجل. فلما أصبح، قال: إني فكرت في الأمر، الذي ذكر، فرأيت أنه إذا نوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحب إلي من أن يقال: أين محمود الذي ترك الصنم؟. ثم عزم فكسره رحمه اللّه، فوجد عليه وفيه من الجواهر واللآلئ والذهب والجواهر النفيسة، ما ينيف على ما بذلوه له بأضعاف مضاعفة، ونرجو من اللّه له في الآخرة الثواب الجزيل، الذي مثقال دانق منه خير من الدنيا وما فيها، مع ما حصل له من الثناء الجميل الدنيوي، فرحمه اللّه وأكرم مثواه.

وفي يوم السبت، ثالث رمضان، دخل جلال الدولة إلى بغداد، فتلقاه الخليفة في دجلة في الطيار، ومعه الأكابر، والأعيان، فلما واجه جلال الدولة الخليفة قبل الأرض دفعات، ثم سار إلى دار الملك، وعاد الخليفة إلى داره، وأمر جلال الدولة أن يضرب له الطبل في أوقات الصلوات الثلاث، كما كان الأمر في زمن عضد الدولة، وصمصامها، وشرفها، وبهائها، فكان الخليفة يضرب له الطبل في أوقات الصلوات الخمس، فأراد جلال الدولة ذلك، فقيل: لا يحسن مساواة الخليفة في ذلك، ثم صمم على ذلك في أوقات الصلوات الخمس.

قال ابن الجوزي: وفيها وقع برد شديد، حتى أجمد الخل والنبيذ وأبوال الدواب، والمياه الكبار، وحافات دجلة.

ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل المشرق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن عبد الصمد بن المهتدي باللّه، أبو عبد اللّه الشاهد**، خطب له في جامع المنصور، في سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ولم يخطب إلا بخطبة واحدة في كل جمعة فكان إذا سمعها الناس منه ضجوا بالبكاء، وخشعوا لصوته.

■ **الحسين بن علي بن الحسين: أبو القاسم الوزير المغربي**، ولد بمصر في ذي الحجة، سنة سبعين وثلاثمائة، وهرب منها حين قتل صاحبها الحاكم أباه وعمه، وقصد مكة، ثم الشام، ووزر في عدة أماكن وقد وزر لشرف الدولة بعد الرخجي، وكان يقول الشعر الحسن وقد تذاكر هو وبعض الصالحين، فأنشده ذلك الرجل الصالح شعرا:

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها

فاعتزل المناصب والسلطان، فقال له بعض أصحابه: تركت المناصب في عنفوان شبابك؟ فأنشأ يقول:

كنت في سفرة البطالة والجهـ ... ـل زمانا فحان مني القدوم
تبت من كل مأثم فعسى يمـ ... ـحى بهذا الحديث ذاك القديم
بعد خمس وأربعين لقدها ... طلت إلا أن الغريم كريم

وقد كانت وفاته بميافارقين، في رمضان من هذه السنة، عن خمس وأربعين سنة، ودفن بمشهد علي بحيلة احتالها قبل وفاته رحمه اللّه تعالى.

■ **محمد بن الحسن بن إبراهيم: أبو بكر الوراق، المعروف بابن الخفاف**، روى عن القطيعي وغيره، وقد اتهموه بوضع الأسانيد والأحاديث، قاله الخطيب وغيره.

أبو القاسم

■ **اللالكائي: هبة اللّه بن الحسن بن منصور الرازي**، وهو طبري الأصل، أحد تلامذة الشيخ أبي حامد الإسفرايني، كان يفهم، ويحفظ، وعني بالحديث، فصنف فيه أشياء كثيرة، ولكن عاجلته المنية قبل أن تشتهر كتبه، وله كتاب في السنة وشرحها، وذكر طريقة السلف الصالح في ذلك، وقع لنا سماعه على الحجار عاليا عنه، وقد كانت وفاته بالدينور في رمضان من هذه السنة، ورآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا؟ قال: بشيء قليل من السنة أحييته رحمه اللّه تعالى.

■ **(أبو القاسم بن القادر با لله)**

أبو القاسم ابن أمير المؤمنين القادر باللّه، توفي ليلة الأحد الثاني من جمادى الآخرة، وصلي عليه غير مرة، ومشى الناس في جنازته، وحزن عليه أبوه حزنا شديدا، وقطع الطبل أياما.

■ **ابن طباطبا الشريف** كان شاعرا مجيداً وله شعر حسن.

الأستاذ

■ **أبو إسحاق الإسفرايني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران**، الشيخ أبو إسحاق الإمام العلامة، ركن الدين الفقيه الشافعي، المتكلم الأصولي، صاحب التصانيف في الأصلين، منها «جامع الجلي» في خمس مجلدات، وتعليقة نافعة في أصول الفقه، وغير ذلك، وقد سمع الكثير من الحديث من أبي بكر الإسماعيلي ودعلج وغيرهما، وأخذ عنه البيهقي، والشيخ أبو الطيب الطبري، والحاكم النيسابوري وأثنى عليه، وكانت وفاته يوم عاشوراء من هذه السنة بنيسابور، ثم نقل إلى بلده، فدفن في مشهده رحمه اللّه تعالى.

■ **أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين القدوري** الفقيه الحنفي، صاحب المصنف المختصر الذي يحفظ، كان إماما بارعا عالما، دينا مناظرا، وهو الذي تولى مناظرة الشيخ أبي حامد الإسفرايني من الحنفية،وكان القدوري يطريه ويقول: هو أعلم من الشافعي وأنظر منه كانت وفاته يوم الأحد الخامس من رجب هذه السنة، عن ست وخمسين سنة، ودفن إلى جانب الفقيه أبي بكر الخوارزمي الحنفي.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وأربعمائة

فيها وقع بين الجيش وبين جلال الدولة، ونهبوا دار وزيره، وجرت له أمور طويلة آل الحال فيها إلى أنهم اتفقوا على إخراجه من البلد، فهيئ له زبزب رث، فخرج وفي يده طبر نهارا، فجعلوا لا يلتفتون إليه، ولا يفكرون فيه، فلما عزم على الركوب في ذلك الزبزب الرث رثوا له ورقوا له ولهيئته، وقبلوا الأرض بين يديه، وانصلحت قضيته بعد فسادها.

وفي هذه السنة قل الرطب جدا بسبب هلاك النخل، في السنة الماضية بالبرد، فبيع الرطب كل ثلاثة أرطال بدينار جلالي، ووقع برد شديد أيضا، فأهلك شيئا كثيرا من النخيل أيضا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يحج أحد من أهل المشرق، ولا من أهل الديار المصرية في هذه السنة، إلا أن قوما من خراسان، ركبوا في البحر من مدينة مكران فانتهوا إلى جدة فحجوا رضي الله عنهم ورحمهم بمنه وكرمه.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **حمزة بن إبراهيم، أبو الخطاب المنجم**، حظي عند بهاء الدولة وعلمه النجوم، وكان له بذلك وجاهة عنده، حتى إن الوزير والأمراء كانوا يكارمونه ويراسلونه، ويتوسلون به إليه في أمورهم ثم صار حار أمره، حتى مات يوم مات بالكرخ من سامرا غريبا فقيرا مفلوجا، قد ذهب ماله وجاهه.

■ **محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد ، أبو الحسن التاجر**، سمع الكثير على المشايخ المتقدمين، وتفرد بعلو الإسناد، وكان ذا مال جزيل، فخاف من المصادرة ببغداد، فانتقل إلى مصر، فأقام بها سنة، ثم عاد إلى بغداد، فاتفق مصادرة أهل محلته، فقسط عليه ما أفقره، ومات حين مات ولم يوجد له كفن رحمه الله.

■ **مبارك الأنماطي**، كان ذا مال جزيل، خلف يوم توفي ثلاثمائة ألف دينار ولم يترك وارثا سوى بنت واحدة ببغداد وكانت وفاته بمصر.

■ **أبو الفوارس بن بهاء الدولة**، كان ظالما ماردا، إذا سكر، يضرب الرجل من أصحابه، أو وزيره مائتي مقرعة، بعد أن يحلفه بالطلاق أنه لا يتأوه، ولا يخبر بذلك أحدا. فيقال إن حاشيته سموه، فلما مات نادوا بشعار ابن أخيه أبي كاليجار.

أبو محمد

■ **ابن باشاذ**، وزير أبي كاليجار، لقبه معز الدولة، فلك الدولة، سيد الأمة، وزير الوزراء، عماد الملك، ثم سلم بعد ذلك إلى جلال الدولة، فاعتقله، ومات في هذه السنة.

■ **أبو عبد الله المتكلم**، توفي في هذه السنة، هكذا رأيت ابن الجوزي ترجمه مختصرا.

■ **ابن غلبون الشاعر، أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب ابن غلبون الشامي، ثم الصوري**، الشاعر المطبق، له ديوان شعر مليح بليغ، كان قد نظم قصيدة بليغة في بعض الرؤساء، ثم أنشدها لرئيس آخر يقال له ذو المنقبتين، وزاد فيها بيتا واحدا يقول فيه:

ولـــك المنـــاقب كلهـــا فلـــم اقتصـــرت علـــى اثنتـــين

فأجازه جائزة سنية، فقيل له: إنها ليست فيك، فقال: إن هذا البيت وحده بقصيدة.

وله أيضا في بخيل نزل عنده:

وأخ مســـه نـــزولي بقـــرح	مثل ما مسني من الجوع قرح
بت ضيفاً له كما حكم الده	ر وفي حكمه على الحر قبح
فابتداني يقول وهو من السـ	ـكر بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت؟ قلت قال رسول اللـ	ـه والقول منه نصح ونجح
"سافروا تغنموا" فقال وقد قا	ل تمام الحديث "صوموا تصحوا"

ثم دخلت سنة عشرين وأربعمائة

فيها سقط بناحية المشرق مطر شديد، معه برد كبار، قال ابن الجوزي: حزرت البردة الواحدة منه بمائة وخمسون رطلا، وغاصت في الأرض نحوا من ذراع.

وفيها ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين، أنه أحل بطائفة من أهل الري من الباطنية والروافض قتلا ذريعا، وصلبا شنيعا، وأنه انتهب أموال رئيسهم، رستم بن علي الديلمي، فحصل منها ما يقارب ألف ألف دينار، وقد كان في حبالته نحو من خمسين امرأة حرة، وقد ولدن له ثلاثا وثلاثين ولدا بين ذكر وأنثى، وكانوا يرون إباحة ذلك.

وفي رجب منها، انقضت كواكب كثيرة، شديدة الضوء، شديدة الصوت.

وفي شعبان منها، كثرت العملات، وضعفت رجال المعونة عن مقاومة العيارين.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر منه، غار ماء دجلة، حتى لم يبق منه إلا القليل، ووقفت الأرحاء عن الطحن، وتعذر ذلك. وفي هذا اليوم، جمع القضاة، والعلماء، في دار الخلافة، وقرئ عليهم كتاب جمعه أمير المؤمنين القادر بالله، فيه مواعظ، وتفاصيل مذاهب أهل السنة، وفيه الرد على أهل البدع، من المعتزلة وغيرهم.

وفي العشرين من رمضان جمعوا أيضاً، وقرئ عليهم كتاب آخر. جمعه الخليفة أيضاً في أخبار ومواعظ، والرد على أهل البدع وتفسيق من قال بخلق القرآن، وصفة ما وقع بين بشر المريسي، وعبد العزيز ابن أحمد الكتاني من المناظرة، ثم ختم القول بالوعظ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وأخذ خطوط الحاضرين بالموافقة على ما سمعوه.

وفي يوم الاثنين، غرة ذي القعدة، جمعوا أيضا كلهم، وقرئ عليهم كتاب آخر طويل، يتضمن بيان السنة، والرد على أهل البدع، ومناظرة بشر المريسي، والكتاني أيضا، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفضل الصحابة، وذكر فضائل أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، ولم يفرغوا منه إلا بعد العتمة، وأخذت خطوطهم بموافقة ما سمعوا. وعزل خطباء الشيعة، وولى خطباء غيرهم من أهل السنة، ولله الحمد والمنة على ذلك وغيره.

وجرت فتنة عظيمة بمسجد براثا، وضربوا الخطيب السني بالآجر، حتى كسروا أنفه، وخلعوا كتفه، فانتصر له الخليفة، وأهان الشيعة وأذلهم، حتى جاؤوا يعتذرون عما صنعوا، وأن ذلك إنما تعاطاه السفهاء منهم.

ولم يتمكن أحد من أهل العراق وخراسان في هذه السنة من الحج والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسن بن أبي الهيش، أبو علي الزاهد**، أحد العباد، والزهاد، وأصحاب الأحوال، دخل على بعض الوزراء فقبل يده، فعوتب الوزير بذلك، فقال: كيف لا أقبل يدا ما امتدت إلا إلى الله عز وجل.

■ **علي بن عيسى بن الفرج بن صالح: أبو الحسن الربعي النحوي**، أخذ العربية أولا عن أبي سعيد السيرافي، ثم عن أبي علي الفارسي، ولازمه عشرين سنة، حتى كان يقول: قولوا له: لو سار من المشرق إلى المغرب، لم يجد أحدا أنحى منه. كان يوما يمشي على شاطئ دجلة، إذ نظر إلى الشريفين الرضي والمرتضى في سفينة، ومعهما عثمان بن جني، فقال لهما مداعبا: من أعجب الأشياء أن عثمان معكما، وعلي بعيد منكما، يمشي على شاطئ دجلة. توفي في المحرم منها، عن ثنتين وتسعين سنة، ودفن بباب الدير، ويقال إنه لم يشيع جنازته إلا ثلاثة أنفس.

■ **أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي**، أول ملوك بني مرداس بحلب، انتزعها من يدي نائبها، الظاهر بن الحاكم العبيدي، في ذي الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة، ثم جاءه جيش كثيف من مصر، فاقتتلوا، فقتل أسد الدولة هذا في سنة تسع عشرة، وقام حفيده نصر.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وأربعمائة

لما كان في ربيع الأول من هذه السنة، توفي الملك العادل الكبير المثاغر المرابط، المؤيد المنصور، يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين، صاحب بلاد غزنة، ومالك تلك الممالك الكبار، وفاتح أكثر بلاد الهند قهرا، وكاسر بدورهم، وأوثانهم كسراً، وقاهر وهنودهم، وسلطانهم الأعظم قهرا، وقد مرض رحمه الله نحوا من سنتين، لم يضطجع فيهما على فراش، ولا توسد وسادا، بل كان يتكئ جالسا، حتى مات وهو كذلك، وذلك لشهامته وصرامته وقوة عزمه، وله من العمر ستون سنة رحمه الله. وقد عهد بالأمر من بعده لولده محمد، فلم يتم أمره حتى غافصه أخوه مسعود ابن محمود، فاستحوذ على ممالك أبيه، مع ما كان يليه مما فتحه هو بنفسه من بلاد الكفار، من الرساتيق الكبار والصغار، فاستقرت له الممالك شرقا وغربا في تلك النواحي في أواخر هذا العام، وجاءته الرسل بالسلام من كل ناحية، ومن كل ملك همام، وبالتحية والإكرام، وبالخضوع التام، وسيأتي ترجمة أبيه في الوفيات.

وفيها استحوذت السرية التي كان بعثها الملك محمود إلى بلاد الهند على أكثر مدائن الهنود، وأكبرها مدينة وهي المدينة المسماة نرسي، دخلوها في نحو من مائة ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، فنهبوا سوق العطر والجوهر بها نهارا كاملا، ولم يستطيعوا أن يحولوا ما فيه من أنواع الطيب، والمسك، والجواهر واللآلئ، واليواقيت، ومع هذا لم يدر أكثر أهل البلد بشيء من ذلك لاتساعها، وذلك أنها كانت في غاية الكبر: طولها مسيرة منزلة من منازل الهند، وعرضها كذلك، وأخذوا منها من الأموال والتحف والأثاث ما لا يحد ولا يوصف، حتى قيل: إنهم اقتسموا الذهب والفضة بالكيل، ولم يصل جيش من جيوش المسلمين إلى هذه المدينة قط، لا قبل هذه السنة ولا بعدها.

وفيها عملت الرافضة بدعتهم الشنعاء، وحادثتهم الصلعاء في يوم عاشوراء، من تعليق المسوح، وتغليق الأسواق، والنوح والبكاء في الأزقة والأرجاء، فأقبل أهل السنة إليهم في الحديد، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل من الفريقين طوائف كثيرة وجرت بينهم فتن وشرور مستطيرة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة مرض أمير المؤمنين القادر بالله، وعهد بولاية العهد من بعده إلى ولده أبي جعفر القائم بأمر الله، بمحضر من القضاة والوزراء والأمراء والكبراء، وخطب له بذلك على المنابر، وضرب اسمه على السكة المتعامل بها في البادي والحاضر.

وفيها أقبل ملك الروم من قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل، فسار حتى بلغ بلاد حلب، وعليها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، فنزلوا على مسيرة يوم منها، ومن عزم ملك الروم قبحه الله، أن يستحوذ على بلاد الشام كلها، وأن يستردها إلى دين النصرانية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» وقيصر هو من ملك الشام من الروم، مع بلاد الروم، فلا سبيل لملك الروم إلى هذا، فلما نزل من حلب كما ذكرنا أرسل الله عليهم عطشا شديدا، وخالف بين كلمتهم، وذلك أنه كان معه الدمستق، فعامل طائفة من الجيش على قتله، ليستقل هو بالأمر من بعده، ففهم الملك ذلك، فكر من فوره راجعا﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ولما كروا راجعين إلى بلادهم اتبعهم الأعراب ينهبونهم ليلا ونهارا، وكان من جملة ما أخذوا منهم اربعمائة بغل، محملة مالاوثيابا للملك، وهلك أكثر الروم جوعا وعطشا، ونهبتهم الأعراب من كل جانب، ولله الحمد والمنة.

وفيها ملك جلال الدولة واسطا، واستناب عليها ولده، وبعث وزيره أبا علي بن ماكولا إلى البطائح ففتحها، وسار في الماء إلى البصرة، وعليها نائب لأبي كاليجار، فهزمهم البصريون، فسار إليهم جلال الدولة بنفسه، فدخلها في شعبان هذه السنة. ودقت البشائر فرحاً ببغداد، فرحا بنصره.

وفيها جاء سيل عظيم بغزنة، فأهلك شيئا كثيرا من الزروع والأشجار.

وفي رمضان منها، تصدق مسعود بن محمود بن سبكتكين بألف ألف درهم، وأجرى أرزاقا كثيرة للفقهاء، والعلماء ببلاده، على عادة أبيه من قبله، وفتح بلدانا كثيرة، واتسعت ممالكه جدا، وعظم شأنه، وقويت أركانه، وكثرت جنده وأعوانه.

وفيها دخل خلق كثير من الأكراد، إلى بغداد يسرقون خيل الأتراك ليلا، فتحصن الناس منهم، وحصنوا خيولهم حتى خيل السلطان.

وفيها سقط جسر بغداد، وهو الذي عند الزياتين على نهر عيسى.

وفيها وقعت فتنة، بين الأتراك النازلين بباب البصرة، وبين الهاشميين، فرفعوا المصاحف، ورمتهم الأتراك بالنشاب، وجرت خبطة عظيمة ثم اصطلحت الحال بين الفريقين.

وفيها كثرت العملات ببغداد، وأخذت الدور جهرة، وكثر العيارون، ولصوص الأكراد.

وفيها تعطل الحج أيضا من بلاد العراق وخراسان لفساد البلاد ولم يحج، سوى سرية من أهل العراق، ركبوا من جمال البادية مع الأعراب مخاطرة ففازوا بالحج والله أعلم.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **أحمد بن عبد الله بن أحمد، أبو الحسن الواعظ،** المعروف بابن المران، صاحب كرامات، ومعاملات، كان من أهل الجزيرة، فسكن دمشق، وكان يعظ الناس بالرفادة القبلية، حيث كان يجلس القصاص. قاله ابن عساكر. قال: وصنف كتبا في الوعظ، وحكى حكايات كثيرة، قال: سمعت أبا القاسم بن السمرقندي يقول سمعت أبا طاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر يقول: سمعت أبا الحسن أحمد بن عبد الله المران، الواعظ، ينشد أبياتا:

أنا ما أصنع باللذا ت شغلي بالذنوب
انما العيد لمن فا ز بوصل من حبيب
اصبح الناس على رو ح وريحان وطيب
ثم أصبحت على نو ح وحزن ونحيب
فرحوا حين أهلوا شهرهم بعد المغيب
وهلالي متوار من ورا حجب الغيوب
فلهذا يا خليلي قلت للذات غيبي
وجعلت الهم والحز ن من الدنيا نصيبي
يا حياتي ومماتي وسقامي وطبيبي
جد لصب يتلظى منك بالرحب الرحيب

ثم أرخ وفاته لعشر بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ودفن بمسجد القدم.

■ **الحسين بن محمد الخالع:** الشاعر، له ديوان شعر حسن مليح، عمر طويلا، توفي في هذه السنة عن سن عالية.

الملك الكبير الشهير العادل:

■ **محمود بن سبكتكين، أبو القاسم الملقب يمين الدولة، وأمين الملة،** وصاحب بلاد غزنة وما والاها، وجيشه يقال لهم السامانية، وكان أبوه قد تملك عليهم، وتوفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فتملك عليهم بعده ولده محمود هذا، فسار فيهم وفي سائر رعاياه سيرة عادلة، وقام بأعباء الإسلام قياما تاما، وفتح فتوحات كثيرة، في بلاد الهند وغيرها، وعظم شأنه في العالمين، واتسعت مملكته، وامتدت رعاياه، وطالت أيامه، لعدله، وجهاده و لله الحمد والمنة، وكان يخطب في سائر ممالكه للخليفة العباسي القادر بالله، وكانت رسل الفاطميين من مصر تفد عليه بالكتب والهدايا والتحف، لأجل أن يكون من جهتهم، فيحرق بهم، ويحرق كتبهم وهداياهم، ويخرق حللهم وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة لم يتفق لغيره من الملوك، لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم منهم كثيرة، لا تنحصر ولا تنضبط، من الذهب والألئ والسبي، وكسر من أصنامهم وأبداءهم شيئا كثيرا، بيض الله وجهه وأكرم مثواه وقد تقدم ذلك مفصلا متفرقا في السنين المتقدمة من أيامه ومن جملة ما كسر من أصنامهم صنم يقال له: سومنات، بلغ ما تحصل من حليته من الذهب عشرين ألف ألف دينار، وكسر ملك الهند الأكبر الذي يقال له: جيبال، وقهر ملك الترك الأعظم الذي يقال له إيلك خان، وأباد ملك السامانية وقد ملكوا بخراسان مائة سنة بلاد سمرقند وما حولها، ثم هلكوا. وبنى على جيحون جسرا تعجز الملوك والخلفاء عنه، غرم عليه ألفي ألف دينار، وهذا شيء لم يتفق لغيره من الملوك، وكان في جيشه أربعمائة فيل تقاتل، وهذا شيء عظيم هائل، وجرت له فصول يطول تفصيلها، وكان مع هذا في غاية الديانة، والصيانة، يحب العلماء والمحدثين، ويكرمهم، ويجالسهم ويحسن إليهم. وكان حنفيا، ثم صار شافعيا على يدي أبي بكر القفال الصغير، على ما ذكره إمام الحرمين، وغيره. وكان على مذهب الكرامية في الاعتقاد، وكان من جملة من يجالسه منهم محمد ابن الهيضم. وقد جرى بينه وبين أبي بكر بن فورك مناظرات بين يدي السلطان محمود بن سبكتكين، في مسألة العرش، ذكرها ابن الهيضم في مصنف له، فمال السلطان محمود إلى قول ابن الهيضم، ونقم على ابن فورك كلامه، وأمر بطرده وإخراجه، لموافقته لرأي الجهمية.

وكان عادلا جيدا، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه وعلى أهله في كل وقت فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته، وقد حار في أمره، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر، لا يجسر أحد عليه، خوفا وهيبة للملك. فلما سمع الملك ذلك، غضب غضبا شديدا، وقال للرجل: ويحك! متى جاءك فائتني فأعلمني، ولا تسمعن من أحد منعك من الوصول إلي، ولو كان في الليل تقدم إلى الحجبة أن هذا لا يمنعه أحد متى جاء من ليل أو نهار فذهب الرجل مسرورا داعيا، فما كان إلا ليلة أو ليلتان، حتى هجم عليه ذلك الشاب، فأخرجه واختلى بأهله، فذهب باكيا إلى دار الملك، فقيل له إن الملك نائم، فقال: قد تقدم إليكم، بما سمعتم فنبهوا الملك، فخرج معه بنفسه، وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل، فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد، وعندهما شمعة تقد فتقدم الملك، فأطفأ الضوء، ثم جاء فاحتز رأس الغلام، وقال للرجل: ويحك! ألحقني بشربة ماء، فأتاه بها فشرب، ثم انطلق الملك ليذهب، فقال له الرجل: سألتك بالله لم أطفأت الشمعة؟ قال: ويحك، إنه ابن أختي، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح فقال: ولم طلبت الماء سريعا؟ فقال الملك: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أقوم بحقك، فكنت عطشانا هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت. فدعا له الرجل، وانصرف رحمه الله.

وكان مرض الملك محمود هذا بسوء المزاج، اعتراه معه انطلاق البطن سنتين، فكان فيهما لا يضطجع على فراش، ولا يتكئ على شيء، لقوة بأسه، وسوء مزاجه، وكان يستند على مخاد، توضع له، ويحضر مجلس الملك، ويفصل على عادته بين الناس، حتى مات كذلك، في يوم الخميس، لسبع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة عن ثلاث وستين سنة، ملكه منها ثلاث وثلاثين سنة، وخلف من الأموال شيئا كثيرا، من ذلك سبعون رطلا من جوهر، سامحه الله تعالى. وقام بالأمر من بعده ولده محمد، ثم صار الملك إلى ولده الآخر مسعود بن محمود، فأشبه أباه، وقد صنف بعض العلماء مصنفا في سيرته وأيامه وأحكامه وفتوحاته وممالكه فأفاد.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة

فيها كانت وفاة القادر بالله الخليفة، وخلافة ابنه القائم بأمر الله، على ما سيأتي تفصيله وبيانه.

وفيها وقعت فتنة عظيمة، بين السنة والروافض، فقويت عليهم السنة، وقتلوا خلقا منهم ونهبوا الكرخ، ودار الشريف المرتضى، ونهبت العامة دور اليهود، لأنهم نسبوا إلى معاونة أهل الكرخ من الروافض، وتعدى النهب إلى دور كثيرة، وانتشرت الفتنة جدا، ثم سكنت بعد ذلك.

وفيها كثرت العملات، وانتشرت المحنة،بأمر العيارين، في أرجاء البلد،

وتجاسروا على أمور كثيرة، ونهبوا دورا وأماكن سرا وجهرا، ليلا ونهارا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

خلافة القائم بالله

أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله، بويع له بالخلافة، لما توفي أبوه

■ القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، في ليلة الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة من هذه السنة، عن ست وثمانين سنة، وعشرة أشهر، وأحد وعشرين يوما، ولم يعمر أحد من الخلفاء قبله، هذا العمر، ولا بعده، مكث من ذلك خليفة إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وهذا أيضا شيء لم يسبقه أحد في ذلك، وأمه أم ولد اسمها تمنى، مولاة عبد الواحد بن المقتدر، وقد كان رحمه الله حليما كريما، محبا لأهل العلم والدين والصلاح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان على طريقة السلف في الاعتقاد، وله في ذلك مصنفات كانت تقرأ على الناس، وكان أبيض، حسن الجسم، طويل اللحية، عريضها، يخضبها، وكان يقوم الليل، كثير الصدقة، محبا للسنة، وأهلها، مبغضا للبدعة وأهلها، وكان يكثر الصوم، ويبر الفقراء من أقطاعه، يبعث منه إلى المجاورين بجامع المنصور وجامع الرصافة، وكان يخرج من داره في زي العامة فيزور قبور الصالحين، وقد ذكرنا طرفا صالحا من سيرته، عند ذكر ولايته، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وجلسوا في عزائه سبعة أيام لعظم المصيبة به، ولتوطيد البيعة لولده القائم بالله أبي جعفر عبد الله بن القادر، وأمه قطر الندى، أرمنية أدركت خلافته في هذه السنة. وكان مولده في يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة، سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، ثم بويع له بحضرة القضاة والأمراء والكبراء والأعيان في هذه السنة، وكان أول من بايعه الشريف المرتضى، وأنشده أبياتا:

فإما مضى جبل وانقضى … فمنك لنا جبل قد رسا
وإما فجعنا ببدر التمام … فقد بقيت منه شمس الضحى
لنا حزن في محل السرور … فكم ضحك في خلال البكا
فيا صارما أغمدته يد … لنا بعدك الصارم المنتضى
ولما حضرناك عقد البياع … عرفنا بهديك طرق الهدى
فقابلتنا بوقار المشيب … كمالا وسنك سن الفتى

طالبته الأتراك، برسم البيعة، فلم يكن مع الخليفة شيء يعطيهم، لأن أباه لم يترك حالها، وكادت الفتنة تقع بين الناس بسبب ذلك، حتى دفع عنه الملك جلال الدولة مالا جزيلا لهم، نحوا من ثلاثة آلاف ألف دينار، واستوزر الخليفة أبا طالب محمد بن أيوب، واستقضى ابن ماكولا.

ولم يحج أحد من أهل المشرق، سوى شرذمة خرجوا من الكوفة مع العرب فحجوا.

وممن توفي فيها من الأعيان والكبراء غير الخليفة رحمه الله تعالى

■ الحسن بن علي بن جعفر، أبو علي بن ماكولا الوزير لجلال الدولة وقد تقدم أنه بعث إلى البطيحة ففتحها ورام أخذ البصرة فلم يمكنه ذلك وقاتلوه دونها فأسروه فسأل أن يذهب به إلى الملك أبي كاليجار فعفا عنه وأطلقه، فلما صار إلى الأهواز تعامل عليه غلام له وجارية، فقتلاه في ذي الحجة من هذه السنة، عن ست وخمسين سنة.

■ عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون ابن مالك بن طوق، صاحب الرحبة، التغلبي البغدادي، أحد أئمة المالكية، ومصنفيهم، له كتاب «التلقين» يحفظه الطلبة، وله غيره في الفروع والأصول، وقد أقام ببغداد دهرا، وولي قضاء باداريا وباكسايا، ثم خرج من بغداد لضيق حاله بها، فلما دخل مصر، أكرمه المغاربة، وأعطوه ذهبا كثيرا، وتمول وسعد جدا، فأنشأ يقول متشوقا إلى بغداد ومعالمها:

سلام على بغداد في كل موقف … وحق لها مني السلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها … وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها … ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
فكانت كخل كنت أهوى دنوه … وأخلاقه تنأى به وتخالف

قال الخطيب البغدادي: سمع القاضي عبد الوهاب من ابن السماك، وكتبت عنه، وكان ثقة، ولم نر في المالكية أحدا أفقه منه.

وقال القاضي ابن خلكان في «الوفيات» عنه [وفيات الأعيان ٣/٢٢٠]: وعندما وصول إلى الديار المصرية حصل له شيء من المال، وحسن حاله، مرض من أكلة اشتهاها، فذكر عنه أنه كان يتقلب ويقول: لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا. قال: وله أشعار رائقة طريفة فمن ذلك قوله:

ونائمة قبلتها فتنبهت … وقالت تعالوا واطلبوا اللص
فقلت لها إني فديتك غاصب … وما حكموا في غاصب بسوى
خذيها وكفي عن أثيم ظلامة … وإن أنت لم ترضي فألفا على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه … على كبد الجاني ألذ من الشهد
فباتت يميني وهي هميان خصرها … وباتت يساري وهي واسطة العقد
فقالت ألم أخبر بأنك زاهد … فقلت بلى ما زلت أزهد في الزهد

ومما أنشده ابن خلكان للقاضي عبد الوهاب:

بغداد دار لأهل المال طيبة … وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها … كأنني مصحف في دار زنديق

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة

في سادس المحرم منها، استسقي أهل بغداد، لتأخر الأمطار عن إبانها، فلم يسقوا، وكثر الموت في الناس.

ولما كان يوم عاشوراء، عملت الروافض البدعة والشنعاء، وكثر النوح والبكاء، وامتلأت بذلك الطرقات والأسواق والأرجاء.

ثم في صفر منها أمر الناس بالخروج إلى الاستسقاء لقحوط البلاد، فلم يخرج من أهل بغداد مع اتساعها مائة إنسان في الجوامع كلها.

وفيها وقع بين الجيش وبين جلال الدولة، فاتفق على خروجه إلى البصرة، ورد كثيرا من جواريه إلى أستاذهن قبله واستبقى بعضهن معه، وخرج من بغداد ليلة الاثنين، سادس ربيع الأول من هذه السنة. وكتب الغلمان الإسفهسلارية إلى الملك أبي كاليجار ليقدم عليهم، فلما قدم، تمهدت البلاد، ولم يبق أحد من أهل العناد والإلحاد، ونهبوا دار جلال

الدولة وغيرها، وتأخر مجيء أبي كاليجار، وذلك أن وزيره العادل بن مافنة أشار عليه بعدم القدوم إلى بغداد، فكثر العيارون ببغداد، وتفاقم الحال بهم، وفسد البلد، وافتقر جلال الدولة، بحيث أن احتاج إلى أن باع بعض ثيابه في الأسواق، وجعل أبو كاليجار يتوهم من الأتراك ويطلب منهم رهائن، فلم يتفق ذلك، وطال الفصل، فرجعوا إلى مكاتبة جلال الدولة، وأن يرجع إلى بلده، وشرعوا يعتذرون إليه، وخطبوا له في البلد على عادته ثم رجع بعد ثلاث وأربعين ليلة إلى بغداد، وأرسل الخليفة الرسل إلى الملك أبي كاليجار، وكان فمن بعث إليه القاضي أبو الحسن الماوردي، فسلم عليه مستوحشا منه، فدخلوا عليه وقد تحمل أمرا عظيما، فسأل من القضاة أن يلقب بالسلطان المعظم، مالك الأمم، فقال الماوردي: هذا ما لا سبيل إليه، لأن السلطان المعظم هو الخليفة، وكذلك مالك الأمم، ثم اتفقوا على تلقيبه بملك الدولة، فأرسل مع الماوردي بتحف عظيمة، منها ألف ألف دينار سابورية، وغير ذلك من الدراهم آلاف مؤلفة، والتحف والألطاف، واجتمع الجند على طلب أرزاقهم من الخليفة، فتعذر ذلك، فراموا أن يقطعوا خطبته، فلم تصل الجمعة في هذا الوقت، ثم خطب له من الجمعة القابلة، وتخبط البلد جدا، وكثر العيارون.

ثم في ربيع الآخر من هذه السنة حلف الخليفة لجلال الدولة بخلوص النية وصفائها، وأنه على ما يجب، من الصدق، وصلاح النية والسريرة. ثم وقع بينهما بسبب لعب جلال الدولة، وشربه النبيذ، وتهتكه به. ثم اعتذر إلى الخليفة، واصطلحا على فساد.

وفي رجب غلت الأسعار جدا ببغداد وغيرها من أراضي العراق. ولم يحج أحد منهم.

وفي هذه السنة وقع موتان عظيم، ببلاد الهند، وغزنة وخراسان وجرجان والري وأصبهان، خرج منها في أدنى مدة أربعون ألف جنازة. وفي نواحي الموصل، والجبل وبغداد طرف قوي من ذلك بالجدري، بحيث لم تخل دار من مصاب به، واستمر ذلك في حزيران، وتموز، وو آب، وأيلول، وتشرين الأول، والثاني، وكان في الصيف أكثر منه في الخريف. قاله ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ١٥/٢٣٠]. وقد رأى رجل في منامه، من أهل أصبهان، في هذه السنة، مناديا ينادي بصوت جهوري: يا أهل أصبهان سكت، نطق، سكت، نطق، فانتبه الرجل مذعورا، فلم يدر أحد تأويلها حتى قيل ذلك لرجل لبيت أبي، فقال: احذروا يا أهل أصبهان، فإني قرأت في شعر أبي العتاهية قوله:

سكت الدهر زمانا عنهم ... ثم أبكاهم دما حين نطق

فما كان إلا قليل، حتى جاء الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين، فقتل منهم خلقا كثيرا، حتى قتل الناس في الجوامع.

وفي هذه السنة ظفر الملك أبو كاليجار بالخادم صندل فقتله، وكان قد استحوذ على مملكته، ولم يبق معه سوى الاسم، فاستراح منه.

وفيها مات ملك الترك الكبير صاحب بلاد ما وراء النهر، واسمه ■ قدرخان. والله تعالى أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **روح بن محمد بن أحمد، أبو زرعة الرازي**. قال الخطيب: سمع جماعة، وقدم علينا حاجا، فكتبت عنه، وكان صدوقا فهما، أديبا، يتفقه على مذهب الشافعي، وولي قضاء أصبهان. قال: وبلغني أنه مات بالكرخ، سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة.

■ **علي بن أحمد بن الحسن بن محمد بن نعيم أبو الحسن البصري**، المعروف بالنعيمي، الحافظ الشاعر، المتكلم الفقيه الشافعي

قال البرقاني: هو كامل في كل شيء، لولا بأوة فيه، وقد سمع على جماعة.

ومن شعره الحسن قوله:

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعا وريا

فكن رجلا رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريا

أبيا لنائل ذي ثروة ... تراه بما في يديه أبيا

فإن إراقة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيا

■ **محمد بن الطيب بن سعيد بن موسى، أبو بكر الصباغ**، حدث عن النجاد، وأبي بكر الشافعي، وكان صدوقا، وقد حكى الخطيب البغدادي أنه تزوج تسعمائة امرأة، وتوفي عن خمس وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

■ **علي بن هلال**، الكاتب المشهور، ذكر ابن خلكان أنه توفي في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاث عشرة كما قدمنا ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وأربعمائة

فيها تفاقم الحال بأمر العيارين، وتزايد أمرهم، وأخذوا العملات الكثيرة، وقوي أمر مقدمهم البرجمي، وقتل صاحب الشرطة غيلة، وتواترت النهبات في الليل والنهار، وحرس الناس دورهم، حتى دار الخليفة منه، وكذلك سور البلد، وعظم الخطب بهم جدا، وكان من شأن هذا البرجمي أنه لا يؤذي امرأة، ولا يأخذ مما عليها شيئا، وهذه مروءة في الظلم فيقال له كما قال الشاعر:

حنانيك بعض الشر ... أهون من بعض

وفيها أخذ جلال الدولة البصرة، وأرسل إليها ولده العزيز، فأقام بها الخطبة لأبيه، وقطعت منها خطبة أبي كاليجار في هذه السنة والتي بعدها، ثم استرجعت من يد جلال الدولة، وأخرج منها ولده ورجعت الخطبة لأبي كاليجار.

وفيها ثارت الأتراك بالملك جلال الدولة، ليأخذوا أرزاقهم، وأخرجوه من داره، ورسموا عليه في مسجده، وأخرجت حريمه، فذهب في الليل إلى دار الشريف المرتضى، فنزلها، ثم اصطلحت الأتراك معه، وحلفوا له بالسمع والطاعة، ورجع إلى داره، وكثر العيارون ببغداد، واستطالوا على الناس ليلا ونهارا وإسرارا وإجهارا. ولم يحج أحد من أهل العراق، وخراسان، لفساد البلاد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن الحسين بن أحمد، أبو الحسين الواعظ المعروف بابن السماك**، ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة، وسمع جعفراً الخلدي، وغيره، وكان يعظ بجامع المنصور وجامع المهدي ويتكلم على طريق التصوف، وقد تكلم بعض الأئمة فيه، ونسب إليه الكذب. توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة، ودفن بباب حرب والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وأربعمائة

فيها غزا السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند، وفتح حصونا كثيرة، فكان من جملتها، أنه حاصر قلعة حصينة، فخرجت من السور عجوز كبيرة ساحرة، فأخذت مكنسة فبلتها ورشتها على ناحية جيش المسلمين، فمرض السلطان مسعود تلك الليلة مرضا شديدا، فارتحل عن تلك القلعة، فلما استقل ذاهبا عنها عوفي عافية كاملة، ورجع إلى غزنة سالما.

وفيها ولي البساسيري حماية الجانب الغربي من بغداد، لما تفاقم أمر العيارين وكثر سوءهم وفسادهم.

وفيها ولي سنان بن سيف الدولة غريب بن محمد بن مقن، بعد وفاة أبيه، فقصد عمه قرواشا، فأقره، وساعده على استقامة أموره.

وفيها هلك ملك الروم أرمانوس، فملكهم من بعده رجل ليس من بيت ملكهم، قد كان صيرفيا في بعض الأحيان، إلا أنه كان من سلالة الملك قسطنطين باني المدينة التي لهم.

وفيها كثرت الزلازل بمصر والشام، فهدمت شيئا كثيرا، ومات تحت الردم خلق كثير، وانهدم من الرملة ثلثها، وتقطع جامعها تقطيعا، وخرج أهلها منها هاربين، فأقاموا بظاهرها ثمانية أيام،ثم سكن الحال فعادوا إليها، وسقط بعض حائط بيت المقدس، ووقع من محراب داود قطعة كبيرة، ومن مسجد إبراهيم قطعة، وسلمت الحجرة، وسقطت منارة عسقلان، ورأس منارة غزة، وسقط نصف بنيان نابلس، وخسف بقرية بإزائها وبأهلها وبقرها، وغنمها، وساخت في الأرض. وكذلك قرى كثيرة هنالك، ذكر ذلك ابن الجوزي.

ووقع غلاء شديد ببلاد إفريقية، وعصفت ريح سوداء بنصيبين، فأتلفت شيئا كثيرا من الأشجار، كالتوت، والجوز، والعناب، واقتلعت قصرا مشيدا بحجارة وآجر وكلس، ثم سقط مطر معه برد أمثال الأكف والزنود والأصابع، وجزر البحر من تلك الناحية ثلاث فراسخ، فذهب الناس خلف السمك، فرجع الماء عليهم، فهلك منهم خلق كثير.

وفيها كثر الموت بالخوانيق، حتى كان يغلق الباب على من في الدار، كلهم قد مات، وكان أكثر ذلك كان ببغداد، فمات من أهلها في شهر ذي الحجة سبعون ألفا.

وفيها وقعت الفتنة بين السنة والروافض، حتى بين العيارين من الفريقين ومنع ابنا الأصبهاني، وهما مقدما عياري أهل السنة، منعا أهل الكرخ من ورود ماء دجلة، فضاق عليهم الحال، وقتل ابن البرجي وأخوه في هذه السنة. ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة والله تعالى أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الحافظ أبو بكر المعروف بالبرقاني،** ولد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وسمع الكثير، ورحل إلى البلاد، وجمع كتبا كثيرة جدا، وكان عالما بالقرآن، والحديث، والفقه، والنحو، وله مصنفات في الحديث، حسنة نافعة، قال الأزهري: إذا مات البرقاني ذهب هذا الشان، وما رأيت أتقن منه، وقال غيره: ما رأيت أعبد منه في أهل الحديث. توفي يوم الخميس، مستهل رجب، وصلى عليه أبو علي بن أبي موسى الهاشمي، ودفن في مقبرة الجامع ببغداد، وقد أورد له الحافظ ابن عساكر من شعره قوله:

أعلل نفسي بكتب الحديث	وأجمل فيه لها الموعد
وأشغل نفسي بتصنيفه	وتخريجه دائما سرمدا
فطورا أصنفه في الشيوخ	وطورا أصنفه مسندا
وأقفو البخاري فيما نحاه	وصنفه جاهدا مجهدا
ومسلم إذ كان زين الأنام	بتصنيفه مسلما مرشدا
ومالي فيه سوى أنني	أراه هوى صادف المقصدا
وأرجوا الثواب بكتب الصلاة	على السيد المصطفى أحمدا
وأسال ربي إله العبا	د جريا على ما به عودا

■ **أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن سعيد: أبو العباس الأبيوردي،** أحد أئمة الشافعية، من تلاميذ الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وكانت له حلقة في جامع المنصور للفتيا: وكان يدرس في قطيعة الربيع، وولي الحكم ببغداد نيابة عن ابن الأكفاني، وقد سمع الحديث، وكان حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، فصيح اللسان، صبورا على الفقر، كاتما له، وكان يقول الشعر الجيد، وكان كما قال الله تعالى عزّ وجلّ ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة: ٢٧٣] توفي رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة، ودفن بمقبرة باب حرب.

أبو علي

■ **البندنيجي، الحسن بن عبد الله بن يحيى، الشيخ أبو علي البندنيجي،** أحد أئمة الشافعية، وتلاميذ أبي حامد أيضاً ولم يكن في أصحابه مثله، تفقه، ودرس، وأفتى، وحكم ببغداد، وكان دينا ورعا. توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة أيضا رحمه الله تعالى.

■ **عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، أبو الفرج التميمي،** الفقيه الحنبلي الواعظ، سمع من أبيه أثرا مسلسلا عن علي الحنان: الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنان: الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال توفي في ربيع الأول ودفن في مقبرة أحمد بن حنبل.

■ **غريب بن محمد بن مقن بن سيف الدولة أبو سنان،** كان قد ضرب السكة باسمه، وكان ملكا متمكنا في الدولة، وخلف خمسمائة ألف دينار، وقام ابنه سنان بعده، وتقوى بعمه قرواش، فاستقامت أموره به، كانت وفاته بكرخ سابور عن سبعين سنة رحمه الله وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة

في محرمها، كثر تردد الأعراب في قطع الطرقات إلى حواشي بغداد وما حولها، بحيث كانوا يسلبون النساء ما عليهن، ومن أسروه أخذوا ما معه وطالبوه بفداء نفسه، واستفحل أمر العيارين ببغداد وكثرت شرورهم وإفسادهم.

وفي مستهل صفر، زادت دجلة، بحيث ارتفع الماء على الضياع ذراعين، وسقط من البصرة في مدة ثلاثة أيام نحو من ألفي دار.

وفي شعبان منها، ورد كتاب من مسعود بن محمود بن سبكتكين، بأنه قد فتح فتحا عظيما في الهند، وقتل منهم خمسين ألفا، وأسر تسعين ألفا، وغنم شيئا كثيرا و لله الحمد والمنة.

ووقعت فتنة بين البغاددة والعيارين، ووقع حريق كثير في أماكن متعددة من بغداد، واتسع الخرق على الراقع ولم يحج أحد من أهل العراق وخراسان في هذا العام.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن كليب الشاعر**: وهو أحد من هلك بالعشق، روى ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم١٥/٢٤٦-٢٤٩] بسنده، من طريق أبي عبد اللّه الحميدي بسنده أن أحمد بن كليب هذا المسكين العثري عشق غلاما يقال له أسلم بن أبي الجعد من بني خالد وكان فيهم وزارة، وحجابة، فأنشد فيه أشعارا تحدث الناس بها، وكان أسلم هذا الشاب يطلب العلم في مجالس المشايخ، فاستحيا من الناس، وانقطع في داره، وكان لا يجتمع بأحد من الناس فازداد غرام ابن كليب به، حتى مرض من ذلك مرضا شديدا، بحيث عاده الناس منه، وكان في جملة من عاده بعض المشايخ من العلماء، فسأله عن مرضه، فقال: أنتم تعلمون دائي ودوائي لو زارني أسلم ونظر إلي نظرة ونظرته نظرة واحدة، لبرئت وإلا فأنا هالك فرأى ذلك العالم من المصلحة أن لو دخل على أسلم وسأله أن يزوره ولو مرة واحدة مختفيا، ولم يزل ذلك الرجل العالم بأسلم حتى أجابه إلى زيارته، فانطلقا إليه، فلما دخلا دربه ومحلته تغير الغلام واستحيا من الدخول عليه ورجع فحرص به الرجل كل الحرص ليدخل عليه، فأبي وانصرف راجعا إلى دارهم، فدخل الرجل على ابن كليب فذكر له ما كان من أمر أسلم معه، وقد كان غلام ابن كليب دخل عليه قبل ذلك وبشره بقدوم معشوقه عليه، ففرح بذلك جدا؛ فلما تحقق رجوعه عنه، اختلط كلامه، واضطرب في نفسه، ثم قال لذلك الرجل: اسمع يا أبا عبد اللّه مني، واحفظ عني ما أقول، ثم أنشأ يقول:

أسلم يا راحة العليل ... رفقا على الهائم النحيل
وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقال له الرجل: ويحك اتق اللّه تعالى، ما هذه العظيمة؟ فقال: قد كان: فخرج الرجل من عنده، فما توسط الدراب حتى سمع الصراخ عليه، وقد فارق الدنيا.

وهذه زلة شنعاء، وعظيمة صلعاء، وداهية دهياء، ولولا أن هؤلاء الأئمة ذكروها ما ذكرتها، ولكن فيها عبرة لأولي الألباب،وتنبيه لذوي البصائر والعقول أن يسألوا اللّه رحمته ولطفه بهم، وأن يستعيذوا باللّه من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقهم حسن الخاتمة عند الممات، إنه كريم جواد.

قال الحميدي: وأنشدني أبو محمد علي بن أحمد، قال: أنشدني محمد بن عبد الرحمن النحوي، لأحمد بن كليب، وقد أهدى إلى أسلم كتاب «الفصيح» لثعلب وكتب عليه:

هذا كتاب الفصيح ... بكل لفظ مليح
وهبته لك طوعا ... كما وهبتك روحي

■ **الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان بن حرب بن مهران أبو علي بن شاذان البزاز**، أحد مشايخ الحديث، سمع الكثير، وكان ثقة صدوقا، جاءه يوما شاب غريب فقال له: إني رأيت رسول اللّه ﷺ في المنام، فقال لي: اذهب إلى أبي علي بن شاذان، فسلم عليه، وأقرئه مني السلام ثم انصرف الشاب، فبكى الشيخ، وقال: ما أعلم لي عملا أستحق به هذا، غير صبري على إسماع الحديث، وصلاتي على رسول اللّه ﷺ كلما ذكر. ثم توفي بعد شهرين أو ثلاثة من هذه الرؤيا في محرمها، عن سبع وثمانين سنة، ودفن بباب الدير رحمه اللّه تعالى.

■ **الحسن بن عثمان بن أحمد بن الحسين بن سورة، أبو عمر الواعظ المعروف بابن الفلو**، سمع الحديث عن جماعة، قال ابن الجوزي: وكان يعظ، وله بلاغة، وفيه كرم وكان ثقة يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ومن شعره:

دخلت على السلطان في دار عزه ... بفقر ولم أجلب بخيل ولا رجل
وقلت: انظروا ما بين فقري ... بمقدار ما بين الولاية والعزل

توفي في صفر منها وقد قارب الثمانين، ودفن بمقبرة باب حرب إلى جانب ابن السماك رحمهما اللّه.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمائة

في المحرم منها، تكاملت عمارة قنطرة عيسى التي كانت قد سقطت، وكان الذي ولي مشارفة الإنفاق عليها الشيخ أبو الحسين القدوري الحنفي.

وفي المحرم وما بعده تفاقم أمر العيارين وكبسوا الدور وتزايد شرهم جدا.

وفيها توفي صاحب مصر

■ **الظاهر لإعزاز دين اللّه أبو الحسن علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز الفاطمي**، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وأ شهر وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وتسعة أشهر وكانت سيرته جيدة، وقام بالأمر من بعده ولده المستنصر وعمره سبع سنين،واسمه معد،وكنيته أبو تميم، وتكفل بأعباء المملكة بين يديه الأفضل أمير الجيوش، واسمه بدر بن عبد اللّه الجمالي، وكان الظاهر هذا قد استوزر الصاحب أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي،وكان مقطوع اليدين من المرفقين، في سنة ثماني عشرة،فاستمر في الوزارة مدة ولاية الظاهر، ثم لولده المستنصر،حتى توفي الوزير الجرجرائي المذكور في سنة ست وثلاثين، وكان قد سلك في وزارته العفة العظيمة،وكان الذي يعلم عنه القاضي أبو عبد اللّه القضاعي صاحب كتاب «الشهاب»، وكانت علامته عنه: الحمد للّه شكرا لنعمته، وكان الذي قطع يديه من المرفقين الحاكم،لخيانة ظهرت منه في سنة أربع وأربعمائة، ثم استعمله في بعض الأعمال سنة تسع، فلما فقد الحاكم لعنه اللّه في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة، ثم تملك من بعده ولده الظاهر المذكور تنقلت بالجرجرائي المذكور الأحوال، حتى استوزر سنة ثماني عشرة كما ذكرنا وقد هجاه بعض الشعراء، فقال:

يا أحمقا إسمع وقل ... ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك في الثقا ... ت وهبك فيما قلت صادق
أمن الأمانة والتقى ... قطعت يداك من المرافق؟

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبي**، ويقال: الثعلبي أيضا وهو لقب أيضا وليس بنسبة النيسابوري المفسر المشهور، له «التفسير الكبير»، وله

كتاب «العرائس» في قصص الأنبياء عليهم السلام وغير ذلك، وكان كثير الحديث، واسع السماع، ولهذا يوجد في كتبه من الغرائب شيء كثير، ذكره عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في «تاريخ نيسابور»، وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل، موثوق به، توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وقال غيره: توفي يوم الأربعاء، لسبع بقين من المحرم منها،ورئيت له منامات صالحة، رحمه الله، وقال السمعاني: ونيسابور كانت مقصبة، فأمر سابور الثاني ببنائها مدينة و «نَيْ» هو القصب بالفارسية. والله اعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

فيها خلع الخليفة على أبي تمام محمد بن محمد بن علي الزينبي، وقلده ما كان إلى أبيه من نقابة العباسيين والصلاة.

وفيها وقعت الفرقة بين الجند وبين جلال الدولة، وقطعوا خطبته وخطبة الملك أبي كاليجار، ثم أعادوا الخطبة، لما وصلحت حال جلال الدولة وحلف الخليفة له وعزل وزيره ابن ماكولا واستوزر أبا المعالي بن عبد الرحيم، وكان جلال الدولة قد جمع خلقا كثيرا معه، منهم البساسيري، ودبيس بن علي بن مزيد، وقرواش بن مقلد العقيلي، ونازل بغداد من جانبها الغربي حتى أخذها قهرا، واصطلح هو وأبو كاليجار نائب جلال الدولة على يدي قاضي القضاة الماوردي، وتزوج أبو منصور بن أبي كاليجار، بابنة جلال الدولة على صداق خمسين ألف دينار، واتفقت كلمتهما، وحسن حال الرعية.

وفيها نزل مطر ببلاد فم الصلح ومعه سمك، وزن السمكة رطل ورطلان.

وفيها بعث ملك مصر بمال لإصلاح نهر بالكوفة إن أذن الخليفة العباسي في ذلك، فجمع القائم بالله الفقهاء وسألهم عن هذا المال، فأفتوا بأن هذا المال فيء للمسلمين يصرف في مصالحهم. فأذن في صرفه في مصالح المسلمين.

وفيها ثار العيارون ببغداد، وفتحوا السجن بالجانب الشرقي وأخذوا منه رجالا، وقتلوا من رجال الشرطة سبعة عشر رجلا، وانتشرت الفتن والشرور في البلد جدا.

وفيها ولي عبد الله بن الحسين بن سلامة إمارة تهامة بعد أبيه وفيها ولي عمان القاسم بن علي بن الحسين بن مكرم بعد وفاة أبيه أيضاً. ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة لفساد البلاد واختلاف الكلمة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **القدوري الحنفي احمد بن محمد بن احمد بن جعفر، أبو الحسين القدوري** قال الخطيب: سمع الحديث من عبيد الله بن محمد الحوشبي، ولم يحدث إلا بشيء يسير كتبت عنه وكان صدوقاً وكان ممن انجب في الفقه لذكائه وانتهت إليه في العراق رياسة أصحاب أبي حنيفة وارتفع جاهه وكان مبرزا في القراءات توفي يوم الأحد الخامس من رجب من هذه السنة عن ست وستين سنة ودفن بداره، في درب خلف رحمه الله تعالى.

■ **الحسن بن شهاب بن الحسن بن علي أبو علي العكبري، الفقيه الحنبلي الشاعر**، ولد سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة سمع من أبي بكر بن مالك وغيره، وكان ثقة أمينا كما قال البرقاني، وكان يسترزق من الوراقة وهو النسخ يقال: إنه كان يكتب ديوان المتنبي في ثلاث ليال، فيبيعه بمائتي درهم، ولما توفي أخذ السلطان من تركته ألف دينار سوى الأملاك، وكان قد أوصى بثلث ماله في نفقة الحنابلة، فلم تصرف.

■ **لطف الله بن أحمد بن عيسى: أبو الفضل الهاشمي**، ولي القضاء والخطابة بدرزيجان، وكان ذا لسان، وقد أضر في آخر عمره، وكان يروي حكايات وأناشيد من حفظه، توفي في صفر منها.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن أبي موسى عيسى بن أحمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن معبد ابن العباس بن عبد المطلب، أبو علي الهاشمي القاضي**، أحد أئمة الحنابلة وفضلائهم.

■ **محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن موسى أبو الحسن الأهوازي**، ويعرف بابن أبي علي الأصبهاني، ولد سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وقدم بغداد وخرج له أبو الحسن النعيمي أجزاء من حديثه، فسمع منه البرقاني، إلا أنه بان كذبه، حتى كان بعضهم يسميه جراب الكذب، أقام ببغداد سبع سنين،ثم عاد إلى الأهواز فمات بها في هذه السنة.

■ **مهيار الديلمي الشاعر: مهيار بن مرزويه أبو الحسن الكاتب الفارسي**، ويقال له: الديلمي، كان مجوسيا فأسلم. إلا أنه سلك سبيل الرافضة، وفكان ينظم الشعر القوي الفحل في مذاهبهم من سب الصحابة وغير ذلك، حتى قال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار، انتقلت من زاوية في النار إلى زاوية أخرى في النار، كنت مجوسياً فأسلمت وصرت تسب الصحابة. وقد كان منزله بدرب رباح من الكرخ، وله ديوان شعر كبير مشهور منه قوله:

استنجد الصبر فيكم وهو مغلوب ... وأسأل النوم عنكم وهو مسلوب

وأبتغي عندكم قلباً سمحت به ... وكيف يرجع شيء وهو موهوب

ما كنت أعرف ما مقدار وصلكم ... حتى هجرتم وبعض الهجر تأديب

ولمهيار أيضاً قوله:

أجارتنا بالغور والركب منهم ... أيعلم خال كيف بات المتيم

رحلتم عمر القلب فينا وفيكم ... سواء ولكن ساهرون ونوم

بنا أنتم من ظاعنين وخلفوا ... قلوباً أبت أن تعرف الصبر عنهم

ولما جلا التوديع عما حذرته ... ولم يبق إلا نظرة لي تتغنم

بكيت على الوادي فحرمت ماءه ... وكيف يحل الماء أكثره دم

قال ابن الجوزي: ولما كان شعره أكثره جيدا، اقتصرت على هذا القدر. وكانت وفاته في جمادى الآخرة.

■ **هبة الله بن الحسن، أبو الحسين المعروف بالحاجب**، كان من أهل الفضل، والأدب، والدين، وله شعر حسن، فمنه قوله:

يا ليلة سلك الزما ... ن بطيبها في كل مسلك

إذ ارتعي روض المسر ... ة مدركا ما ليس يدرك

والبدر قد فضح الظلا ... م والستر فيه مهتك

وكأنما زهر النجو ... م بلمعها شعل تحرك

والغيم أحيانا يلو ... ح كأنه ثوب ممسك

وكأن تجعيد الريا ... ح لدجلة ثوب مفرك

وكأن نشر المسك ينـ ... ـفح في النسيم إذا تحرك

وكأنمــا المثــور مصــ	فــرّ الــذرى ذهــب مسـبك
والنــور يبسـم في الربـا	ض فـإن نظـرت إليـه سـرك
شـارطت نفسـي أن أقـو	م بحقهـا والشـرط أملـك
حتـى تـولى الليـل مُـن	هزمـاً وجـاء الصبـح يضحـك
واه الفتـى لـو أنـه	في ظـل طيـب العيـش يـترك
والدهـر يحسـب عمـره	فـإذا أتـاه الشـيب فذلـك

وكان وفاته في رمضان من هذه السنة رحمه الله تعالى.

أبو علي

■ ابن سينا: الطبيب الفيلسوف، الحسين بن عبد الله بن سينا الشيخ الرئيس، الذي كان نادراً في زمانه، كان أبوه من أهل بلخ، وانتقل إلى بخارى، واشتغل بها ابن سينا، فقرأ القرآن وأتقن علومه وهو ابن عشر سنين، وأتقن الحساب، والجبر، والمقابلة، «وإقليدس»، و «المجسطي»، ثم اشتغل على أبي عبد الله الناتلي الحكيم فبرع فيه، وفاق أهل زمانه في ذلك، وتردد الناس إليه، واشتغلوا عليه، وهو ابن ست عشرة سنة، وقد عالج بعض الملوك السامانية، وهو الأمير نوح بن نصر، فأعطاه جائزة سنية، وحكمه في خزانة كتبه، فرأى فيها من العجائب، فيقال: إنه عزا بعض تلك الكتب إلى نفسه، وله في الإلهيات، والطبيعيات كتب كثيرة.

قال ابن خلكان: له نحو من مائة مصنف، صغار وكبار، منها «القانون» و «الشفا» و «النجاة» و «الإشارات»، و «سلامان، وإيسال»، و «حي بن يقظان»، وغير ذلك. قال: وكان من فلاسفة الإسلام، ثم أورد له من الأشعار قصيدته في نفسه التي يقول فيها:

هبطـت إليـك مـن المقـام الأرفـع	ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع
محجوبـة عـن كـل مقلـة عـارف	وهـي الـتي سـفرت ولم تتبرقع
وصلـت علـى كـره إليـك وربمـا	كرهـت فراقـك وهـي ذات تفجـع

وهي طويلة وله أيضا:

اجعـل غـذاءك كـل يـوم مـرة	واحـذر طعامـاً قبـل هضـم طعـام
واحفـظ منيـك مـا اسـتطعت	فإنـه مـاء الحيـاة يـراق في الأرحـام

وذكر أنه مات بالقولنج في همذان وقيل بأصبهان، والأول أصح، يوم الجمعة في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة عن ثمان وخمسين سنة.

قلت: قد لخص الغزالي كلامه في «مقاصد الفلاسفة»، ثم رد عليه في «تهافت الفلاسفة» في عشرين مسألة، كفره في ثلاث منها، وهي قوله بقدم العالم، وعدم المعاد الجسماني، وأن الله لا يعلم الجزئيات، وبدعه في البواقي، ويقال إنه تاب عند الموت، فالله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وأربعمائة

فيها كان بدو ملك السلاجقة.

وفيها استولى ركن الدولة أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق على نيسابور وجلس على سرير ملكها، وبعث أخاه داود إلى بلاد خراسان، فملكها، وانتزعها من نواب الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين.

وفيها قتل جيش المصريين لصاحب حلب، وهو شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، واستولوا على حلب وأعمالها.

وفيها سأل جلال الدولة الخليفة أن يلقب ملك الدولة، فأجابه إلى ذلك بعد تمنع.

وفيها استدعى الخليفة القضا الفقهاء، وأحضر جاثليق النصارى، ورأس جالوت اليهود، وألزموا بالغيار.

وفي رمضان منها لقب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، بأمر الخليفة، وخطب له بذلك على المنابر، فنفرت العامة من ذلك ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك، واستفتوا القضاة والفقهاء في ذلك، فأفتى أبو عبد الله الصيمري أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّه قد بعثَ لكُمْ طالُوتَ ملكاً﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال ﴿وكانَ وراءَهُمْ ملكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] وإذا كان في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض لتفاضلهم في القوة والإمكان وجاز أن يكون بعضهم أعظم من بعض، وليس في ذلك ما يوجب التكبر والمماثلة بين الخالق والمخلوق. وكتب القاضي أبو الطيب الطبري، إن إطلاق ملك الملوك جائز، ويكون معناه ملك ملوك الأرض، وإذا جاز أن يقال كافي الكفاة، وقاضي القضاة، جاز أن يقال ملك الملوك، وإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملوك الأرض زالت الشبهة، ومنه قولهم: اللّهم أصلح الملك، فيصرف الكلام إلى المخلوقين. وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك أيضاً، وأما الماوردي صاحب «الحاوي الكبير»، فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزي والشيخ أبو عمرو بن الصلاح في «أدب المفتي» أنه منع من ذلك، وأصر على المنع من ذلك، مع صحبته للملك جلال الدولة، وكثرة تردداه إليه، ووجاهته عنده، وأنه امتنع من الحضور عن مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة في يوم عيد، فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروها، فلما واجهه قال له جلال الدولة: قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي، ووجاهتك عندي دينك واتباعك الحق، ولو حابيت أحدا من الناس لحابيتني، وقد زادك ذلك عندي صحبة ومحبة وعلو مكانة.

قلت: والذي صار إليه القاضي الماوردي من المنع هو السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه.

قال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»:

حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ أنه قال: «أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك»

قال أحمد: سألت أبا عمرو الشيباني عن أخنع اسم قال: أوضع. وقد رواه البخاري عن علي بن المديني، عن ابن عيينة، وأخرجه مسلم من طريق همام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله عز وجل». وقال الإمام أحمد حدثني محمد بن جعفر. حدثنا عوف عن خلاس عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من قتله نبي، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل» والله تعالى أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الثعالبي صاحب «يتيمة الدهر» أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري**، كان إماما في اللغة، والأخبار، وأيام الناس، بارعا مفيدا، له التصانيف الكبار، في النظم، والنثر، والبلاغة، والفصاحة، وأكبر كتبه «يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر». وفيها يقول بعضهم:

أبيات أشعار اليتيمة ... أبكار أفكار قديمة
ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سميت اليتيمة

وإنما سمي الثعالبي لأنه كان فرّاء يخيط جلود الثعالب، وله أشعار كثيرة مليحة، ولد سنة خمسين وثلاثمائة، ومات في هذه السنة.

الأستاذ أبو منصور:

■ **عبد القاهر بن طاهر بن محمد، البغدادي الفقيه الشافعي**، أحد الأئمة في الأصول والفروع، وكان ماهرا في فنون كثيرة من العلوم، منها علم الحساب والفرائض، وكان ذا مال وثروة، أنفقه كله على أهل العلم، وصنف، ودرس في سبعة عشر علما، وكان اشتغاله على أبي إسحاق الإسفراييني، وأخذ عنه ناصر المروزي، وغيره.

ثم دخلت سنة ثلاثين وأربعمائة

فيها التقى الملك مسعود بن محمود سبكتكين، والملك طغرلبك السلجوقي ومعه أخوه داود في شعبان، فهزمهما مسعود، وقتل من أصحابهما خلقا كثيرا. وفي هذه السنة خطب شبيب بن وثاب للقائم العباسي بحران والرقة، وقطع خطبة المستنصر العبيدي.

وفيها خوطب أبو منصور بن جلال الدولة بالملك العزيز، وهو مقيم بواسط، وهذا العزيز آخر من ملك بغداد من بني بويه، لما طغوا، وتمردوا، وبغوا، وتسموا بملك الأملاك، فسلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وجعل الملك في غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] الآية.

وفيها خلع الخليفة على القاضي أبي عبد الله بن ماكولا خلعة تشريف.

وفيها وقع ثلج عظيم ببغداد مقدار شبر على الإسطحه حتى جرمه الناس.

قال ابن الجوزي: وفي جمادى الآخرة تملك بنو سلجوق بلاد خراسان، والجبل، وتقسموا الأطراف، وهو أول ملك السلجوقية، ولم يحج أحد فيها من العراق، وخراسان، ولا من أهل الشام، ولا مصر إلا القليل.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحافظ

■ **أبو نعيم الأصبهاني: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران أبو نعيم الأصبهاني**، الحافظ الكبير، ذو التصانيف المفيدة، الكثيرة الشهيرة، منها «حلية الأولياء»، في مجلدات كثيرة، دلت على اتساع روايته، وكثرة مشايخه، وقوة اطلاعه على مخارج الحديث وتشعب طرقه، وله «معجم الصحابة» وهو عندي بخطه وله «صفة الجنة»، و «دلائل النبوة»، وكتاب في الطب النبوي، وغير ذلك من المصنفات المفيدة.

وقد قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي كان أبو نعيم يخلط المسموع له بالمجاز، ولا يوضح أحدهما من الآخر.

وقال عبد العزيز النخشبي: لم يسمع أبو نعيم «مسند الحارث بن أبي أسامة» من أبي بكر بن خلاد بتمامه، فحدث به كله.

وقال ابن الجوزي: سمع الكثير، وصنف الكثير، وكان يميل إلى مذهب الأشعري في الاعتقاد ميلا كثيرا، وكانت وفاته في الثامن عشر من المحرم من هذه السنة، عن أربع وتسعين سنة، رحمه الله، لأنه ولد فيما، ذكره ابن خلكان في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. قال: وله «تاريخ أصبهان» وذكر أبو نعيم في ترجمة والده أن مهران أسلم، وأن ولاءهم لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وذكر أن معنى أصبهان، وأصله بالفارسية شباهان، أي مجمع العساكر، وأن الإسكندر بناها قاله السمعاني.

■ **الحسن بن حفص: أبو الفتوح العلوي، أمير مكة**

الحسن بن الحسين، أبو علي الرخجيّ، وزر لشرف الدولة أبي علي بن بهاء الدولة سنتين، ثم عزل، وكان عظيم الجاه في زمانه، وهو الذي بني المارستان بواسط، ورتب فيه الأشربة، والأطباء، والأدوية وغير ذلك مما يحتاج إليه، ووقف عليه كفايته. كانت وفاته في هذه السنة، وقد قارب الثمانين رحمه الله تعالى.

■ **الحسين بن محمد بن الحسن بن علي أبو عبد الله المؤدب، وهو أبو محمد الخلال**، سمع «صحيح البخاري»، من إسماعيل بن محمد الكشميهني، وسمع غيره، كانت وفاته في جمادى الأولى، ودفن بباب حرب.

■ **عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن محمد بن بشران مهران، أبو القاسم الواعظ**، سمع النجاد، ودعلج بن أحمد، والآجري، وغيرهم، وكان ثقة صدوقا، وكان يشهد عند الحكام، فترك ذلك رغبة عنه، ومات في ربيع الآخر من هذه السنة، وقد جاوز التسعين، وصلي عليه في جامع الرصافة، وكان الجمع كثيرا حافلا، ودفن إلى جانب أبي طالب المكي، وكان قد أوصى بذلك.

■ **محمد بن الحسين بن خلف بن الفراء، أبو خازم القاضي أبو يعلي الحنبلي**، سمع الدارقطني وابن شاهين.

قال الخطيب: كان لا بأس به، ورايت له أصولا سماعه فيها، ثم بلغنا أنه خلط في الحديث بمصر، واشترى من الوراقين صحفا، فروى منها، وكان يذهب إلى الاعتزال. وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة بتنيس من بلاد مصر.

■ **محمد بن عبيد الله: أبو بكر الدينوري الزاهد**، كان خشن العيش، وكان ابن القزويني يثني عليه، وكان جلال الدولة صاحب بغداد يزوره، وقد سأله مرة أن يطلق للناس مكس الملح، وكان في السنة مبلغه ألفي دينار، فتركه من أجله، ولما توفي اجتمع أهل بغداد لجنازته، وصلي عليه مرات، ودفن بباب حرب، رحمه الله تعالى.

■ **الفضل بن منصور أبو الرضي، ويعرف بابن الظريف**، وكان شاعرا ظريفا ومن شعره الفائق ونظمه الرائق قوله:

يا قالة الشعر قد نصحت لكم ... ولست أدهى إلا من النصح
قد ذهب الدهر بالكرام ... وفي ذاك أمور طويلة الشرح
وتطلبون النوال من رجل ... قد طبعت نفسه على الشح
وأنتم تمدحون بالحسن والظر ... ف وجوهاً في غاية القبح
من أجل ذا تحرمون رزقكم ... لأنكم تكذبون في المدح

صونـوا القـوافي فمـا أرى أحـدا يعـثر فيـه الرجـاء بـالنجح

فـإن شـككتم فيمـا أقـول لكـم فكذبونـي بواحـد سمـح

■ هبة الله بن علي بن جعفر، أبو القاسم بن ماكولا، وزر لجلال الدولة مرارا، وكان حافظا للقرآن، عارفا بالشعر والأخبار، ختق بهيت، في جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ أبو زيد الدبوسي: عبد الله بن عمر بن عيسى الفقيه الحنفي، أول من وضع علم الخلاف، وأبرزه إلى الوجود.

قاله ابن خلكان، قال: وكان يضرب به المثل، والدبوسي نسبة إلى قرية من أعمال بخارى، قال: وله كتاب «الأسرار»، و «التقويم الأدلة»، وغير ذلك من التصانيف والتعاليق، قال: وروى أنه ناظر فيها الفقهاء، فبقي كلما ألزمه أبو زيد إلزاما تبسم أو ضحك، فأنشد أبو زيد في ذلك:

مـالي إذا ألزمتـه حجـة قـابلني بـالضحك والقهقهـة

إن كـان ضحـك المـرء مـن فقهـه فـالدب بـالصحراء مـا أفقهـه

■ الحوفي صاحب «إعراب القرآن» أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي النحوي، له كتاب في النحو كبير، و «إعراب القرآن» في عشر مجلدات، وله «تفسير القرآن» أيضا، وكان إماما في العربية، والنحو، والأدب، وله تصانيف كثيرة انتفع بها الناس.

قال ابن خلكان: والحوفي نسبة لناحية بمصر، يقال لها الشرقية، وقصبتها مدينة بلبيس؛ فجميع ريفها يسمون حوف، واحدهم حوفي، وهو من قرية يقال لها شبر اللجنة، من أعمال الشرقية المذكورة، رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

فيها زادت دجلة زيادة عظيمة، بحيث حملت الجسر ومن عليه، فألقتهم بأسفل البلد، وسلموا.

وفيها وقع بين الجند وبين جلال الدولة شغب، وقتل من الفريقين خلق كثير، وجرت شرور يطول ذكرها. ووقع فساد عريض، واتسع الخرق على الراقع، ونهبت الاتراك دور الناس ولم يبق للملك عندهم حرمة ببغداد جداً ولا كلمة، وغلت الأسعار.

وفيها بعث الملك أبو كاليجار وزيره العادل بن مافنة إلى البصرة فملكها له.

وفيها زار الملك أبو طاهر مشهد علي ومشهد الحسين، ومشى حافيا في بعض تلك الزيارات.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن أحمد بن عبد الله أبو عبد الرحمن الضرير الحيري، من أهل نيسابور، كان من أعيان الفضلاء الأذكياء، والثقات الأمناء، قدم بغداد حاجا، في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، فقرأ عليه الخطيب جميع «صحيح البخاري» في ثلاث مجالس بروايته له عن أبي الهيثم الكشميهني،عن الفربري، عن البخاري، توفي في هذه السنة وقد جاوز التسعين رحمه الله تعالى.

■ بشري الفاتني: وهو بشرى بن مسيس، من سبي الروم، أهداه أمراء بني حمدان الفاتن غلام المطيع، فأدبه،وسمع الحديث عن جماعة من المشايخ، وروى عنه الخطيب. وقال: كان صدوقا صالحا دينا،توفي يوم عيد الفطر منها.رحمه الله تعالى.

■ محمد بن علي بن أحمد بن يعقوب بن مروان أبو العلاء الواسطي، وأصله من فم الصلح،سمع الحديث، وقرأ القراءات، ورواها، وقد تكلموا في روايته في القراءات والحديث، فالله أعلم. توفي في جمادى الآخرة منها وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة

فيها عظم شأن السلجوقية، وارتفع شأن ملكهم طغرلبك محمد وأخيه جغريبك داود، وهما ابنا ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، وقد كان جدهم دقاق هذا من مشايخ الترك القدماء، الذين لهم الرأي والمكيدة والمكانة عند ملكهم الأعظم، ونشأ ولده سلجوق نجيبا شهما، فقدمه الملك ولقبه سباش، فأطاعته الجيوش، وانقادت له الناس، بحيث تخوف منه الملك، وأراد قتله، فهرب منه إلى بلاد المسلمين، فأسلم، فازداد عزا وعلوا، ثم توفي عن مائة وسبع سنين، وخلف أرسلان وميكائيل، وموسى فأما ميكائيل، فإنه اعتني بقتال الكفار من الأتراك حتى قتل شهيدا، وخلف ولديه طغرلبك محمد، وجغريبك داود، فعظم شأنهما، في بني عمهما، واجتمع عليهما الترك من المؤمنين، وهم ترك الإيمان، الذين يقال لهم اليوم تركمان، وهم السلاجقة بنو سلجوق جدهم هذا، فقتحوا بلاد خراسان بكمالها بعد موت محمود بن سبكتكين، وقد كان يتخوف منهم محمود بعض التخوف، فلما وتوفي قام ولده مسعود من بعده، قاتلهم وقاتلوه مرارا، فكانوا يهزمونه في أكثر المواقف، واستكمل لهم ملك خراسان بأسرها، ثم قصدهم مسعود في جنود يضيق بهم الفضاء فكسروه فيها، وكبسه مرة داود، فانهزم منه مسعود، فاستحوذ على حواصله وخيامه، وجلس على سريره، وفرق الغنائم على جيشه، ومكث جيشه على خيولهم لا ينزلون عنها ثلاثة أيام، خوفا من دهمة العدو، وبمثل هذا الاحتراس تم لهم ما راموه، وكمل لهم جميع ما أملوه، ثم كان من سعادتهم أن الملك مسعود توجه نحو بلاد الهند ليشتي بها، وترك مع ولده مودود جيشا كثيفا بسبب قتال السلاجقة، فلما عبر الجسر الذي على سيحون، نهبت جنوده حواصله، واجتمعوا على أخيه محمد وخلعوا مسعودا، فرجع إليهم مسعود، فقاتلهم، فهزموه وأسروه، فقال له أخوه: والله لأقاتلنك على شر صنيعك إلي، ولكن اختر لنفسك أي بلد تكون فيه أنت وعيالك، فاختار قلعة كبري، وكان بها، ثم إن الملك محمدا أخا مسعود جعل لولده الأمر من بعده، وبايع الجيش له، وكان ولده اسمه أحمد، هوجٌ وكان فيه هوج وقلة عقل، فاتفق هو ويوسف بن سبكتكين على قتل مسعود ليصفوا لهم الأمر ويتم لهم الملك، فسار إليه أحمد من غير علم أبيه فقتله، فلما علم أبوه بذلك غاظه وعتب على ابنه عتبا شديدا، وبعث إلى ابن أخيه يعتذر إليه ويقسم له أنه لم يعلم بذلك، حتى كان ما كان. فكتب إليه مودود بن مسعود: رزق الله ولدك المعتوه عقلا يعيش به، فقد ارتكب أمرا عظيما، وأقدم على إراقة دم مثل والدي، الذي لقبه أمير المؤمنين بسيد الملوك والسلاطين، وستعلمون اي حيف تورطتم، واي شر تابطتم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ثم سار إليهم في جنود، فقاتلهم، فقهرهم، وأسرهم، فقتل عمه محمدا وابنه أحمد وبني عمه كلهم إلا

عبد الرحيم، وخلقا من رؤوس أمرائهم، وابتنى قرية هنالك، وسماها فتحا بدا، ثم سار إلى غزنة، فدخلها في شعبان، فأظهر العدل، وسلك سيرة جده محمود، فأطاعه الناس، وكتب إليه أصحاب الأطراف، بالانقياد، والاتباع، والطاعة، غير أنه أهلك قومه بيده، وهذا من جملة سعادة السلاجقة.

وفيها خالف أولاد حماد على العزيز باديس صاحب إفريقية، فسار إليهم، فحاصرهم قريبا من سنتين، ووقع بإفريقية في هذه السنة غلاء شديد بسبب تأخر الأمطار عنهم.

ووقع ببغداد فتنة عظيمة بين الروافض والسنة من أهل الكرخ، وأهل باب البصرة، فقتل بينهم خلق كثير من الفريقين، ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق وخراسان.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن الحسين بن الفضل بن العباس، أبو يعلى البصري الصوفي، أذهب عمره في السفر والتغرب، وقدم بغداد في سنة ثنتين وثلاثين، فحدث بها عن أبي بكر بن أبي الحديد الدمشقي، وأبي الحسين بن جميع الغساني، وكان ثقة صدوقا أديبا حسن الشعر.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة

فيها ملك طغرلبك جرجان وطبرستان، ثم عاد إلى نيسابور مؤيدا منصورا.

وفيها ولي ظهير الدولة أبو منصور بن بن علاء الدولة أبي جعفر ابن كاكويه بعد وفاة أبيه، فوقع الخلف بينه وبين أخويه أبي كاليجار وكرشاسف.

وفيها دخل أبو كاليجار همذان ودفع الغز عنها. وفيها شغبت الأتراك ببغداد لسبب تأخر العطاء عنهم. وفيها سقطت قنطرة بني زريق على نهر عيسى، وكذا القنطرة العتيقة التي تقاربها.

وفيها دخل بغداد رجل من البلغر، يريد الحج، وذكر أنه من كبارهم، فأنزل بدار الخلافة، وأجرى عليه الأرزاق، وذكر أنهم مولدون من الترك والصقالبة، وأنهم في أقصى بلاد الترك، وأن النهار يقصر عندهم، حتى يكون ست ساعات، وكذلك الليل، وعندهم عيون، وزروع، وثمار، على غير المطر والسقي. وفي هذه السنة قرئ الاعتقاد القادري، الذي جمعه الخليفة القادر بالله أمير المؤمنين، وأخذت خطوط العلماء والزهاد عليه بأنه اعتقاد المسلمين، ومن خالفه كفر وفسق، وكان أول من كتب عليه الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القزويني، ثم كتب بعده العلماء، وقد سرده الشيخ أبو الفرج بن الجوزي بتمامه في «منتظمه» [المنتظم ١٥/٢٧٩، ٢٨٠]، وفيه جملة جيدة من اعتقاد السلف.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بهرام بن منافية، أبو منصور الوزير لأبي كاليجار، كان عفيفا نزها صينا، عادلا في سيرته، وقد وقف خزانة كتب بمدينة فيروز أباد، تشتمل على سبعة آلاف مجلد من ذلك أربعة آلاف ورقة بخط أبي علي وأبي عبد الله ابني مقلة.

■ محمد بن جعفر أبو الحسين، المعروف بالجهرمي قال الخطيب البغدادي: هو أحد الشعراء الذين لقيناهم وسمعنا منهم، وكان يجيد القول ومن شعره:

يا ويح قلبي من تقلبه ... أبدا يحن إلى معذبه
قالوا: كتمت هواه عن جلد ... لو أن لي جلدا لبحت به
بأبي حبيب غير مكترث ... عني ويكثر من تعتبه
حسبي رضاه من الحياة ويا ... قلقي وموتي من تغضبه

■ مسعود الملك بن الملك محمود ابن الملك سبكتكين، صاحب غزنة، وابن صاحبها، قتله ابن عمه أحمد بن محمد بن محمود، فانتقم له ابنه مودود بن مسعود، فقتل عمه وابن عمه وأهل بيته من أجل أبيه، واستتب له الأمر وحده من غير منازع من قومه، كما تقدم.

■ (بنت المتقي لله)

بنت أمير المؤمنين المتقي لله، تأخرت مدتها حتى توفيت في هذه السنة في رجب منها، عن إحدى وتسعين سنة، بالحريم الطاهري، ودفنت بالرصافة رحمها الله وإيانا بمنه وكرمه لا إله إلا هو.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

فيها أمر الملك جلال الدولة أبو طاهر بجباية أموال الجوالي، ومنع أصحاب الخليفة من قبضها، فانزعج لذلك الخليفة القائم بأمر الله، وعزم على الخروج من بغداد وأرسل الفقهاء والقضاة والأعيان في التأهب للخروج صحبته وارتجت بغداد بسبب ذلك.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة تبريز، فهدمت قلعتها، وسورها، وأسواقها ودورها حتى من دار الإمارة عامة قصورها، ومات تحت الهدم خمسون ألفا، ولبس أهلها المسوح لشدة مصابهم.

وفيها استولى السلطان طغرلبك على أكثر البلاد الشرقية، من ذلك مدينة خوارزم، ودهستان، وطبس، والري، وبلاد الجبل، وكرمان، وأعمالها، وقزوين، وخطب له في تلك النواحي كلها، وعظم شأنه جدا، واتسع صيته.

وفيها ملك سماك بن صالح بن مرداس حلب، أخذها من الفاطميين، فبعث إليه المصريون من حاربه.

ولم يحج أحد من أهل العراق وغيرها، في هذه السنة ولا في فيما قبلها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أبو ذر الهروي: عبد بن أحمد بن محمد الحافظ الفقيه المالكي، سمع الكثير، ورحل إلى الأقاليم، وخرج إلى مكة، ثم تزوج في العرب وأقام بالسروات، وكان يحج كل سنة، ويقيم بمكة أيام الموسم، ويسمع الناس، عليه وأخذ عنه المغاربة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، عن القاضي الباقلاني وكان يقول إنه أخذ مذهب مالك عن الباقلاني، وقد كان ثقة حافظا ضابطا، توفي في ذي القعدة من هذه السنة.

■ محمد بن الحسين بن محمد بن جعفر، أبو الفتح الشيباني العطار، ويعرف بقطيط، سافر الكثير إلى البلاد الشاسعة، وسمع الكثير، وكان شيخا ظريفا، يسلك طريق التصوف، وكان يقول: لما ولدت سميت قطيطا، على أسماء البادية، ثم سماني بعض أهلي محمدا.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وأربعمائة

فيها ردت الجوالي إلى نواب الخليفة. وفيها ورد كتاب من جلال الملك طغرلبك، إلى جلال الدولة يأمره بالإحسان إلى الرعايا والوصاة بهم.

ذكر ملك أبي كاليجار بغداد بعد وفاة أخيه جلال الدولة بن بهاء الدولة

وفيها توفي جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة، فملك بغداد بعده أخوه سلطان الدولة أبو كاليجار بن بهاء الدولة، وخطب له بها عن ممالأة أمرائها، وأخرجوا منها الملك العزيز أبا منصور بن جلال الدولة، فتنقل في البلاد، تشرد من مملكته إلى غيرها، حتى توفي سنة إحدى وأربعين، وحمل فدفن عند أبيه بمقابر قريش.

وفيها أرسل الملك مودود بن مسعود عسكرا كثيفا إلى خراسان، فبرز إليهم ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، في عسكر آخر فاقتتلا قتالا عظيما.

وفيها في صفر منها أسلم من الترك الذين كانوا يطرقون بلاد المسلمين نحوا من عشرة آلاف خركاة، وضحوا في يوم عيد الأضحى بعشرين ألف رأس من الغنم، وتفرقوا في البلاد، ولم يسلم من الخطا والتتر أحد، وهم بنواحي الصين.

وفيها نفى ملك الروم من القسطنطينية، كل غريب له فيها دون العشرين سنة.

وفيها خطب المعز أبو تميم بن باديس صاحب إفريقية ببلاده للخليفة العباسي، وقطع خطبة الفاطميين، وأحرق أعلامهم، وأرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله الخلع، واللواء والمنشور، وفيه تعظيم له، وثناء عليه.

وفيها أرسل الخليفة القائم بأمر الله أقضى القضاة، أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، قبل وفاة جلال الدولة، إلى الملك المظفر طغرلبك، ليصلح بينه، وبين جلال الدولة، وأبي كاليجار، فسار إليه، فالتقاه بجرجان، فتلقاه الملك على أربعة فراسخ، إكراما للخليفة، وأقام عنده إلى السنة القابلة. فلما قدم على الخليفة، أخبره بطاعته، وإكرامه واحترامه من أجل الخليفة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسين بن عثمان بن سهل بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، أبو سعد، أحد الرحالين في طلب الحديث، إلى البلاد المتنائية، ثم أقام ببغداد مدة، وحدث بها، وروى عنه الخطيب،وقال: كان صدوقا متنبهاً. ثم انتقل في آخر عمره إلى مكة، فأقام بها، حتى مات في شوال من هذه السنة.

■ عبيد الله بن أبي الفتح، أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر، أبو القاسم الأزهري، الحافظ المحدث المشهور، ويعرف بابن السوادي، سمع من أبي بكر بن مالك، وخلق يطول ذكرهم، وكان ثقة صدوقا، دينا، صحيح الاعتقاد حسن السيرة، كانت وفاته ليلة الثلاثاء، التاسع عشر من صفر من هذه السنة، عن ثمانين سنة وعشرة أيام.

■ (جلالُ الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة)

الملك جلال الدولة: أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة ابن ركن الدولة بن بويه الديلمي، صاحب بغداد وغيرها من البلاد، كانت فيه محبة عظيمة للعباد، ويزورهم، ويلتمس دعائهم، وقد نكب مرات عديدة، وخالفه الأتراك غير مرة وأخرج من داره، وتارة أخرى من بغداد بالكلية، ثم يعود إليهم ويرضون عنه، حتى اعتراه وجع كبده في هذه السنة، فمات من ذلك، في ليلة الجمعة خامس شعبان من هذه السنة، وله من العمر إحدى وخمسون سنة وأشهر، وولي بغداد من ذلك، ستة عشرة ست وأحد عشر شهرا، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وأربعمائة

فيها دخل الملك أبو كاليجار بغداد، وأمر بضرب الطبل،في أوقات الصلوات الخمس، ولم تكن الملوك تفعل ذلك، إنما كان يضرب لعضد الدولة ثلاثة أوقات، وما كان يضرب في الأوقات الخمس إلا للخليفة، وكان دخوله إليها في رمضان، وقد فرق على الجند أموالا جزيلة، وبعث إلى الخليفة بعشرة آلاف دينار، وخلع على مقدمي الجيوش، وهم البساسيري، والنشاووري، والهمام أبو اللقاء، ولقبه الخليفة محيي الدولة، وخطب له في بلاد كثيرة، بأمر ملوكها، وخطب له بهمذان، ولم يبق لنواب طغرلبك فيها أمر.

وفيها استوزر طغرلبك أبا القاسم علي بن عبد الله الجويني، وهو أول وزير وزر له.

وفيها وزر أبو نصر أحمد بن يوسف لصاحب مصر، وكان يهوديا، فأسلم بعد موت الجرجرائي.

وفيها ولي نقابة العلويين الشريف أبو أحمد بن عدنان بن الشريف الرضي، وذلك بعد وفاة عمه المرتضى أبي القاسم علي. وستأتي ترجمته.

وفيها ولي القضاء أبو الطيب الطبري، قضاء الكرخ، مضافا إلى ما كان يتولاه، من القضاء، بباب الطاق، وذلك بعد موت القاضي أبي عبد الله الصيمري.

وفيها نظر رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة، في كتابة ديوان الخلافة، وكان عنده بمنزلة عالية.

ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق لفساد الطريق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسين بن علي بن محمد بن جعفر، أبو عبد الله الصميري، نسبة إلى نهر البصرة يقال له: الصيمر، عليه عدة قري، أحد أئمة الحنفية، ولي قضاء المدائن، ثم قضاء ربع الكرخ، وحدث عن أبي بكر المفيد، وابن شاهين، وغيرهما، كان صدوقا وافر العقل، جميل المعاشرة، حسن العبارة، عارفا بحقوق العلماء، توفي في شوال، عن خمس وثمانين سنة.

■ عبد الوهاب بن منصور بن أحمد، أبو الحسين المعروف بابن المشتري الأهوازي، كان قاضيا بالأهواز ونواحيها، شافعي المذهب، كان له منزلة كبيرة عند السلطان، وكان صدوقا كثير المال، حسن السيرة رحمة الله تعالى.

■ الشريف المرتضى: علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب الشريف الموسوي، الملقب بالمرتضى، ذي المجدين، كان أكبر من أخيه

الرضي ذي الحسبين، نقيب الطالبيين وكان جيد الشعر على مذهب الإمامية والاعتزال، يناظر على ذلك، وكان يناظر عنده في كل المذاهب، وله تصانيف في التشيع، أصولا وفروعا، وقد نقل ابن الجوزي في ترجمته أشياء من تفرداته في التشيع، فمن ذلك، أنه لا يصح السجود إلا على الأرض، أو ما كان من جنسها، وأن الاستجمار إنما يجزئ من الغائط لا من البول، وأن الكتابيات حرام، وكذا ذبائح أهل الكتاب، وما ولدوه هم وسائر الكفار من الأطعمة حرام، وأن الطلاق لا يقع إلا بحضرة شاهدين، والمعلق منه لا يقع وإن وجد شرطه، ومن نام عن صلاة العشاء حتى انتصف الليل وجب قضاؤها، ويجب عليه أن يصبح صائما، كفارة لما وقع منه، ومن ذلك أن المرأة إذا جزت شعرها يجب عليها كفارة قتل الخطأ، ومن شق ثوبه في مصيبة، وجب عليه كفارة اليمين، ومن تزوج امرأة لها زوج لا يعلمه وجب عليه أن يتصدق بخمسة دراهم، وأن قطع السارق من أصول الأصابع.

قال ابن الجوزي: نقلته من خط أبي الوفاء بن عقيل. قال: وهذه مذاهب عجيبة، تخرق الإجماع، وأعجب منها ذم الصحابة رضي الله عنهم. ثم سرد من كلامه شيئا قبيحا في تكفير عمر بن الخطاب، وعثمان، وعائشة، وحفصة رضي الله عنهم، وقبحه وأمثاله، إن لم يكن قد تاب، فقد روى ابن الجوزي قال: أنبأنا ابن ناصر، عن أبي الحسن بن الطيوري، قال: سمعت أبا القاسم بن برهان يقول: دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العلوي في مرضه، وإذا هو قد حول وجهه إلى الجدار، وهو يقول: أبو بكر وعمر وليا فعدلا واسترحما فرحما فأنا أقول: ارتدا، بعدما أسلما؟ قال: فقمت فما بلغت عتبة الباب حتى سمعت الزعقة عليه. توفي في هذه السنة عن إحدى وثمانين سنة. وقد ذكره ابن خلكان، وأورد شيئاً من أشعاره الرائقة .قال: ويقال: إنه هو الذي وضع كتاب «نهج البلاغة» تجاوز الله عنه ورحمه.

■ **محمد بن أحمد بن شعيب بن عبد الله بن الفضل،أبو منصور الروياني**، صاحب الشيخ أبي حامد الإسفراييني.

قال الخطيب: سكن بغداد، وحدث بها، وكتبنا عنه، وكان صدوقا، يسكن قطيعة الربيع. توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بباب حرب.

■ **أبو الحسين البصري المعتزلي، محمد بن علي بن الطيب، أبو الحسين البصري المتكلم**، شيخ المعتزلة، والمنتصر لهم، والحامي عن ذمارهم بالتصانيف الكثيرة كانت وفاته في ربيع الآخر من هذه السنة، وصلى عليه القاضي أبو عبد الله الصيمري، ودفن في الشونيزية ولم يرو من الحديث سوى حديث واحد، رواه الخطيب البغدادي في تاريخه: حدثنا محمد بن علي بن الطيب قرئ على هلال بن محمد بن أخي هلال الراي، بالبصرة وأنا أسمع، قيل له حدثكم أبو مسلم الكجي، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي، والغلابي، والمازني، والزريقي قالوا: حدثنا القعنبي، عن شعبة، عن منصور، عن ربعي، عن أبي مسعود البدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» والغلابي اسمه محمد، والمازني اسمه محمد بن حيان، والزريقي أبو علي محمد بن أحمد بن خالد البصري.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وأربعمائة

فيها بعث السلطان طغرلبك السلجوقي، أخاه إبراهيم، إلى بلاد الجبل، فملكها، وأخرج عنه صاحبها كرشاسف بن علاء الدولة، فالتحق بالأكراد ثم سار إبراهيم ينال إلى الدينور فملكها أيضا، وأخرج منها صاحبها وهو أبو الشوك، فسار إلى حلوان، فتبعه إبراهيم، فملكها عليه قهرا، وأحرق داره وغنم أمواله، فعند ذلك تجهز الملك أبو كاليجار صاحب بغداد لقتال السلاجقة الذين تعدوا على أتباعه فلم يمكنه ذلك لقلة الظهر وذلك أن الآفة اعترت في هذه السنة الخيل، فمات له فيها نحو من اثني عشر ألف فرس،بحيث جافت بغداد من جيف الخيل.

وفيها وقع ببغداد بين الروافض والسنة، ثم اتفق الفريقان على نهب دور اليهود، وإحراق الكنيسة العتيقة التي لهم، واتفق في هذه السنة موت رجل من أكابر النصارى بواسط، فجلس أهله لعزائه على باب مسجد هناك، وأخرجوا جنازته جهرة، ومعها طائفة من الأتراك يحرسونها، فحملت عليهم العامة، وأخذوا الميت منهم، واستخرجوه من أكفانه، فأحرقوه، ورموا رماده في دجلة، ومضوا إلى الدير فنهبوه وعجز الأتراك عن دفعهم.

لم يحج فيها أحد من أهل العراق في هذا العام.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **فارس بن محمد بن عنان** صاحب الدينور وحلوان وغيرهم، كانت وفاته في هذا الأوان.

■ **خديجة بنت موسى بن عبد الله الواعظة**، وتعرف ببنت البقال، وتكنى أم سلمة.

قال الخطيب: كتبت عنها، وكانت فقيرة، صالحة، فاضلة.

■ **أحمد بن يوسف المنازي**: الشاعر الكاتب، وزير أحمد بن مروان الكردي،صاحب ميافارقين وديار بكر، كان فاضلا، بارعا، لطيفا، تردد في الترسل إلى القسطنطينية غير مرة، وحصل كتبا كثيرة أوقفها على جامعي آمد، وميافارقين، ودخل يوما على أبي العلاء المعري،فقال له: إني معتزل الناس،وهم يؤذونني، فقال: ولم وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟! وله ديوان قليل النظير، عزيز الوجود، حرص عليه القاضي الفاضل، فلم يقدر عليه، كانت وفاته في هذه السنة فيها ومن شعره في وادي بزعا:

وقانا لفحة الرمضاء واد … وقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا … حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا … ألذ من المدامة للنديم
يراعي الشمس أنى قابلته … فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى … فتلمس جانب العقد النظيم

قال ابن خلكان: وهذه الأبيات بديعة في بابها.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة

استهلت هذه السنة والموتان كثير في الدواب كثيراً جدا، حتى جافت بغداد.

قال ابن الجوزي: وربما أحضر بعض الناس الأطباء لأجل دوابهم، فيسقونها ماء الشعير، ويطببونها.

وفيها حاصر السلطان بن طغرلبك أصبهان، فصالحه أهلها على مال يحملونه إليه، وأن يخطب له بها، فأجابوه إلى ذلك.

وفيها ملك مهلهل قرميسين والدينور. وفيها تأمر على بني خفاجة رجل يقال له: رجب بن أبي منيع بن ثمال بعد وفاة بدران بن سلطان بن ثمال وهؤلاء الأعراب هم أكثر من يصد الحجيج عن البيت الحرام فلا جزاهم الله خيرا وقبحهم يوم تقوم الأشهاد ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة وسوء الدار﴾.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ أبو محمد

■ **عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد ابن حيويه الشيخ أبو محمد الجويني**، إمام الشافعية في زمانه، وهو والد إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك بن أبي محمد، وأصله من قبيلة يقال لها: سنبس، وجوين من نواحي نيسابور، سمع الحديث من بلاد شتى على جماعة، وقرأ الأدب على أبيه، وتفقه بأبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي، ثم خرج إلى مرو، إلى أبي بكر عبد الله بن أحمد القفال، ثم عاد إلى نيسابور، وعقد مجلس المناظرة، وكان مهيبا، لا يجري بين يديه إلا الجد، وصنف التصانيف الكثيرة في أنواع من العلوم، وكان ورعاً زاهدا شديد الاحتياط لدينه، حتى ربما أخرج الزكاة مرتين. وقد ذكرته في «طبقات الشافعية»، وذكرت ما قاله الأئمة في مدحه، توفي في ذي القعدة منها.

قال ابن خلكان: «صنف التفسير الكبير»، المشتمل على أنواع العلوم، وله في الفقه «التبصرة» و «التذكرة»، وصنف «مختصر المختصر»، و «الفرق والجمع»، و «السلسلة» وغير ذلك، وكان إماما في الفقه والأصول والأدب والعربية. توفي في هذه السنة وقيل سنة أربع وثلاثين.قاله السمعاني في كتابه «الأنساب» وهو في سن الكهولة رحمه الله وأيانا بفضله ورحمته.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة

فيها اصطلح الملك طغرلبك، وأبو كاليجار صاحب بغداد، وتزوج طغرلبك بابنة كاليجار، وتزوج أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك.

وفيها أسرت الأكراد خان أخا أبي الشوك، وأحضروه، بين يدي إبراهيم ينال، فأمر بقلع إحدى عينيه.

وفيها استولى أبو كاليجار على بلاد البطيحة، ونجا صاحبها أبو نصر بنفسه. وفيها ظهر رجل يقال له: الأصفر التغلبي، وادعى أنه من المذكورين في الكتب، فاستغوى خلقا من الناس، وقصد بلاد الروم، فغنم منها أموالا فتقوى بها وعظم أمره. ثم اتفق له أسر وحمل إلى نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر فاعتقله، وسد عليه باب السجن.

وفيها كان وباء شديد بالعراق والجزيرة، بسبب جيف الدواب التي ماتت، فمات فيها خلق كثير حتى خلت الأسواق، وغلت الأسعار التي يحتاج إليها المرضى، وورد كتاب من الموصل بأنه لا يصلي الجمعة من أهلها، إلا نحو أربعمائة، وأن أهل الذمة لم يبق منهم إلا نحو مائة وعشرين نفسا.

وفيها وقع غلاء شديد أيضا، ووقعت فتنة بين الروافض والسنة ببغداد، قتل فيها خلق كثير.

ولم يحج فيها أحد من ركب العراق في هذا العام فلا قوة، إلا بالله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد: أبو الفضل القاضي الهاشمي، الرشيدي**، من ولد الرشيد، ولي القضاء بسجستان، وسمع الحديث من الغطريفي. قال الخطيب: أنشدني لنفسه:

قالوا اقتصد في الجود إنك منصف ... عدل وذو الإنصاف ليس يجور

فأجبتهم إني سلالة معشر ... لهم لواء في الندى منشور

تالله إني شائد ما قدموا بني ... جدي الرشيد وقبله المنصور

■ **عبد الواحد بن محمد بن يحيى بن أيوب أبو القاسم الشاعر المعروف بالمطرز**، ومن شعره:

يا عبدكم لك من ذنب ومعصية ... إن كنت ناسيها فالله أحصاها

لا بد يا عبد من يوم تقوم له ... ووقفه لك يدمي القلب ذكراها

إذا عرضت على قلبي تذكرها ... وساء ظني أقول استغفر الله

■ **محمد بن الحسن بن علي بن عبد الرحيم أبو سعد الوزير**، وزر للملك أبي طاهر ست مرات، ثم كان موته بجزيرة ابن عمر فيها عن ست وخمسين سنة.

■ **محمد بن أحمد بن موسى: أبو عبد الله الواعظ الشيرازي.**

قال الخطيب: قدم بغداد، وأظهرالزهد، والتقشف، والورع، وعزوف النفس عن الدنيا، فافتتن الناس به، وكان يحضر مجلسه خلق كثير، ثم إنه بعد حين كان يعرض عليه فيأبى قبوله، فكثرت أمواله، ولبس الثياب الناعمة، وجرت له أمور، وكثرت أتباعه، وأظهر أنه يريد الغزو، فاتبعه خلق كثير، فعسكر بظاهر البلد، وكان يضرب له الطبل في أوقات الصلوات، وسار إلى ناحية أذربيجان، فالتف عليه خلق كثير، وضاهى أمير تلك الناحية، وكانت وفاته هنالك في هذه السنة.

قال الخطيب: وقد حدث ببغداد، وكتبت عنه أحاديث يسيرة، وحدثني بعض أصحابنا عنه، بشيء يدل على ضعفه في الحديث، وأنشد هو لبعضهم:

إذا ما أطعت النفس في كل لذة ... نسبت إلى غير الحجاج والتكرم

إذا ما أجبت النفس في كل دعوة ... دعتك إلى الأمر القبيح المحرم

■ **محمد بن الحسين، بن عمر بن برهان، أبو الحسن الغزال**، سمع محمد بن المظفر وغيره، وكان صدوقا رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن علي بن إبراهيم، أبو الخطاب الحنبلي الشاعر**، ومن شعره قوله:

ما حكم الحب فهو ممتثل ... وما جناه الحبيب محتمل

يهوى ويشكو الضنى وكل هوى ... لا ينحل الجسم فهو منتحل

وقد سافر إلى الشام، فاجتاز بمعرة النعمان، فامتدحه أبو العلاء المعري بأبيات، فأجابه مرتجلا عنها.وقد كان حسن العينين حين سافر،فما رجع إلى

بغداد إلا وهو أعمى.توفي في ذي القعدة منها،ويقال إنه كان شديد الرفض، فالله أعلم.

الشيخ أبو علي

■ السنجي: الحسين بن شعيب بن محمد شيخ الشافعية في زمانه، أخذ عن أبي بكر القفال، وشرح «الفروع» لابن الحداد، وقد شرحها قبله شيخه،وبعده القاضي أبو الطيب الطبري، وشرح أبو علي السنجي كتاب التلخيص لابن القاص شرحا كبيرا، وله كتاب «المجموع»، أخذ منه الغزالي في «الوسيط».

قال ابن خلكان: وهو أول من جمع بين طريقتي العراقيين وخراسان. كانت وفاته سنة بضع وثلاثين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربعين وأربعمائة

في جمادى الأولى منها مرض الملك أبو كاليجار، صاحب بغداد، وهو في برية، ففصد في يوم ثلاث مرات، وحمل في محفة، فمات ليلة الخميس، ونهبت الغلمان الخزائن، وأحرق الجواري الخيام، سوي الخيمة التي هو فيها، والخركاه التي كان بها، وولي بعده ابنه أبو نصر، وسموه الملك الرحيم، ودخل دار الخلافة،في يوم مشهود وخلع عليه الخليفة سبع خلع، وسوره، وطوقه، وجعل على رأسه التاج، والعمامة السوداء الرصافية، ووصاه الخليفة، ورجع إلى داره، وجاء الناس ليهنئوه.

وفيها دار السور على شيراز، وكان دوره اثني عشر ألف ذراع، وارتفاعه ثمانية أذرع، وعرضه ستة أذرع، وفيه أحد عشر بابا.

وفيها غزا إبراهيم بن ينال بلاد الروم، فغنم مائة ألف رأس، وأربعة آلاف درع، وقيل: تسع عشرة ألف درع. ولم يبق بينه وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوما، وحمل ما حصل له من المغانم على عشرة آلاف عجلة.

وفيها خطب لذخيرة الدين أبي العباس أحمد ابن الخليفة القائم بأمر الله على المنابر بولاية العهد بعد أبيه وحيّي بذلك.

وفيها اقتتل الروافض والسنة، وجرت ببغداد فتن يطول ذكرها، ولم يحج أحد من أهل العراق في هذا العام أيضا.

وممن توفي فيها من الأعيان

السيد الكبير

■ الحسن بن عيسى بن المقتدر بالله: أبو محمد العباسي، ولد في المحرم، سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة،وسمع من مؤدبه أحمد بن منصور اليشكري، وأبي الأزهر عبد الوهاب بن عبد الرحمن الكاتب، وكان فاضلا دينا، حافظا لأخبار الخلفاء، عالماً بأيام الناس، صالحا، أعرض عن الخلافة مع قدرته عليها وآثر بها القادر بالله. كانت وفاته في هذه السنة عن سبع وتسعين سنة. وأوصى أن يدفن بباب حرب بغير تابوت، فدفن قريبا من قبر الإمام أحمد بن حنبل وكان يوم جنازته مشهودا،مشى الأمراء والوزراء والبساسيري إلى المقبرة وجلس رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة للعزاء من الغد.

■ عبيد الله بن عمر بن أحمد بن عثمان: أبو القاسم الواعظ المعروف بابن شاهين، سمع من أبي بكر بن مالك، وابن ماسي، وأبي بحر البربهاري وابن المظفر، قال الخطيب: كتبت عنه، وكان صدوقا، ولد في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وتوفي في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بباب حرب رحمه الله.

■ علي بن الحسن بن محمد بن المنتاب أبو محمد القاسم، المعروف بابن أبي عثمان الدقاق، قال الخطيب: سمع القطيعي، وغيره، وكان شيخا صالحا، صدوقا دينا، حسن المذهب.

■ محمد بن جعفر بن أبي الفرج بن فسانجس الوزير أبو الفرج، الملقب بذي السعادات، وزر لأبي كاليجار بفارس وبغداد وكان ذا مروءة غزيرة، مليح الشعر والترسل، ومن محاسنه أنه كتب إليه في رجل مات عن ولد له ثمانية أشهر، وله من المال ما يقارب مائة ألف دينار، فإن رأى الوزير أن يقترض من الحين إلى حين بلوغ الطفل. فكتب الوزير على ظهر الورقة: المتوفى رحمه الله، والطفل جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله، ولا حاجة بنا إلى مال الأيتام. اعتقل، ثم قتل في رمضان في هذه السنة، عن إحدى وخمسين سنة.

■ محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان بن عبد الله بن غيلان ابن حكيم بن غيلان، أبو طالب البزار، روى عن جماعة وهو آخر من حدث عن أبي بكر الشافعي، وكان صدوقا، دينا، صالحا، قوي النفس على كبر السن، كان يملك ألف دينار، وكان يصبها كل يوم في حجره فيقبلها ثم يردها إلى موضعها وقد خرج له الدارقطني الأجزاء الغيلانيات، وهي سماعنا. وكانت وفاته يوم الاثنين،سادس شوال من هذه السنة، عن أربع وتسعين سنة، ويقال إنه بلغ مائة وخمس سنين، فالله أعلم.

الملك أبو كاليجار واسمه

■ المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة، وكانت وفاته في هذه السنة عن أربعين سنة وأشهر، وقد ولي العراق نحوا من أربع سنين،ونهبت له قلعة كان فيها من المال ما يزيد على ألف ألف دينار، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك الرحيم أبو نصر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وأربعمائة

في عاشر المحرم، تقدم إلى أهل الكرخ أن لا يعملوا بدع النوح، فجرى بينهم، وبين أهل باب البصرة ما يزيد على الحد من الجراح، والقتل.

وفيها بنى أهل الكرخ سورا على الكرخ، وبنى أهل السنة سورا على سوق القلائين، ثم نقض كل من الفريقين أبنية الآخرين، وحملوا الآجر إلى مواضعه، بالطبول، والمزامير، وجرت بينهم مفاخرات في ذلك، وسخف لا تنحصر ولا تنضبط. ثم وقعت بينهم فتن يطول أمرها، وأحرقوا دورا كثيرة جدا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها وقعت وحشة بين الملك طغرلبك، وأخيه إبراهيم ينال فأمر طغرلبك بضربه وسمل إحدى عينيه وقطع شفتيه فسار إبراهيم، فجمع جموعا كثيرة، واقتتل هو وأخوه طغرلبك، ثم أسره من قلعة قد تحصن بها، بعد محاصرة أربعة أيام، فاستنزله منها مقهورا. فأحسن إليه، وأكرمه، وأقام عنده مكرما.

وكتب ملك الروم إلى طغرلبك في فداء بعض ملوكهم، ممن كان أسره إبراهيم نيال، وبذل له مالا كثيرا، فبعثه إليه مجاناً من غير عوض اشترطه عليه، فأرسل إليه ملك الروم هدايا كثيرة وتحفا غزيرة، وأمر بعمارة المسجد الذي بالقسطنطينية، وأقيمت فيه الصلاة، والجمعة، وخطب فيه للملك طغرلبك، فبلغ هذا الأمر العجيب سائر الملوك، فعظموا الملك طغرلبك

تعظيما زائدا، وخطب له نصر الدولة بن مروان بالجزيرة.

وفيها ولي مسعود بن مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين الملك بعد وفاة أبيه، وكان صغيرا، فمكث أياما، ثم عدل عنه إلى عمه علي بن مسعود ثم نازعه عمه عبد الرشيد بن محمود فاستقر الملك بيده وانعزل علي بن مسعود، وهذا أمر غريب جدا، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

وفيها ملك المصريون مدينة حلب، وأجلوا عنها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس.

وفيها كان بين البساسيري، وبين بني عقيل حرب.

وفيها ملك البساسيري الأنبار من يد قرواش، فأصلح أمورها.

وفي شعبان منها، سار البساسيري إلى طريق خراسان، وقصد ناحية الدزدار وملكها، وغنم مالا كثيرا كان فيها، وقد كان سعدى ابن أبي الشوك قد حصنها.

قال ابن الجوزي: وفي ذي الحجة منها ارتفعت سحابة سوداء ليلا، فزادت على ظلمة الليل، وظهر في جوانب السماء، كالنار المضرمة فانزعج الناس لذلك، وخافوا، وأخذوا في الدعاء والتضرع، فانكشف في باقي الليل بعد ساعة، وكانت قد هبت ريح شديدة جدا قبل ذلك، فأتلفت شيئا كثيرا من الأشجار، وهدمت رواشن كثيرة في دار الخلافة ودار المملكة.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

وفيها توفي من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور: أبو الحسن المعروف بالعتيقي، نسبة إلى جد له كان يسمى عتيقا سمع من ابن شاهين وغيره، وكان صدوقا. توفي في صفر منها، وقد جاوز السبعين.

■ علي بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم العلوي، ويعرف بابن الشبيه، قال الخطيب: سمع من ابن مظفر، وكتبت عنه، وكان صدوقا، دينا، حسن الاعتقاد يورق بالأجرة ويأكل منه، ويتصدق. توفي في رجب منها وقد جاوز الثمانين.

■ عبد الوهاب بن أقضى القضاة أبي الحسن الماوردي، يكنى أبا الفائز، شهد عند ابن ماكولا، في سنة إحدى وثلاثين، فأجاز شهادته، احتراما لأبيه، كانت وفاته في المحرم من هذه السنة.

الحافظ أبو عبد الله

■ محمد بن علي بن عبد الله بن محمد الصوري الحافظ، طلب الحديث بنفسه بعد ما كبر وأسن، فرحل في طلب الحديث إلى الآفاق، وكتب الكثير، وصنف، واستفاد على الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري، وكتب عنه شيخه عبد الغني شيئا في تصانيفه، وكان من أعظم أهل الحديث، همة في الطلب وهو شاب، ثم كان من أقوى الناس على العمل الصالح عزيمة، كان يسرد الصوم كل يوم إلا يومي العيدين وأيام التشريق، وكان مع ذلك حسن الخلق، جميل المعاشرة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وكان يكتب بالأخرى المجلد في جزء، قال أبو الحسن بن الطيوري: يقال إن عامة كتب الخطيب، سوى «التاريخ»، مستفادة من كتب أبي عبد الله الصوري؛ كان قد مات الصوري وترك كتبه اثني عشر عدلا عند أخيه، فلما صار الخطيب إلى الشام أعطى أخاه شيئا، وأخذ بعض تلك الكتب فحولها في كتبه.

ومن شعر أبي عبد الله الصوري:

تولى الشباب بريعانه ... وأتى المشيب بأحزانه
فقلبي لفقدان ذا مؤلم ... كئيب بهذا ووجدانه
وإن كان ما جار في سيره ... ولا جاء في غير إبانه
ولكن أتى مؤذنا بالرحيل ... فويلي من قرب إيذانه
ولولا ذنوب تحملتها ... لما راعني حال إتيانه
ولكن ظهري ثقيل بما ... جناه شبابي بطغيانه
فمن كان يبكي شبابا مضى ... ويندب طيب أزمانه
فليس بكائي وما قد ترو ... ن مني لوحشة فقدانه
ولكن لما كان قد جره ... علي بوثبات شيطانه
فويلي وعَوْلي إن لم يجد ... علي مليكي برضوانه
ولم يتغمد ذنوبي وما ... جنيت بواسع غفرانه
ويجعل مصيري إلى جنة ... يحل بها أهل قربانه
فإن كنت مالي من قربة ... سوى حسن ظني بإحسانه
وإني مقر بتوحيده ... عليم بعزة سلطانه
أخالف في ذاك أهل الجحود ... وأهل الفسوق وعدوانه
وأرجو به الفوز في منزل ... مقر لأعين سكانه
ولن يجمع الله أهل الجحود ... ومن قد أقر بإيمانه
فهذا ينجيه إيمانه ... وهذا يبوء بخسرانه
وهذا ينعم في جنة ... وذاك في قعر نيرانه

ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى:

قل لمن عاند الحديث وأضحى ... عائبا أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا أبن لي ... أم بجهل فالجهل خلق السفيه
أيعاب الذين هم حفظوا الدي ... ن من الترهات والتمويه
وإلى قولهم وما قد رووه ... راجع كل عالم وفقيه

كان سبب وفاته رحمه الله، أنه افتصد فورمت يده، لأنه على ما ذكر كانت ريشة الحاجم مسمومة لغيره، فغلط ففصده بها، فكانت فيها منيته بإذن الله وقدره، فحمل إلى المارستان، فمات به في يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة من هذه السنة، ودفن بمقبرة جامع المدينة، وقد نيف على الستين، أسأل الله تعالى أن يرحمه وإيانا بمنّه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وأربعمائة

فيها فتح السلطان طغرلبك أصبهان، بعد حصار سنة، فنقل إليها حواصله من الري وجعلها دار إقامته، وخرب قطعة من سورها، وقال: إنما يحتاج إلى السور من تضعف قوته، وإنما حصني عساكري وسيفي. وقد كان فيها أبو منصور قرامرز بن علاء الدولة، أبي جعفر بن كاكويه، فأخرجه منها، وأقطعه بعض بلادها.

وفيها سار الملك الرحيم إلى الأهواز، وأطاعه عسكر فارس وملك عسكر مكرم.

وفيها استولت الخوارج على عمان، وأخربوا دار الإمارة منها، وأسروا

أبا المظفر بن أبي كاليجار.

وفيها دخلت العرب بإذن المستنصر الفاطمي بلاد إفريقية، وجرت بينهم وبين المعز بن باديس حروب طويلة، وعاثوا في الأرض فسادا عدة سنين.

وفيها اصطلح الروافض والسنة، ببغداد، وذهبوا كلهم لزيارة مشهد علي ومشهد الحسين، وترضوا في الكرخ، على الصحابة كلهم، وترحموا عليهم، وهذا عجيب جدا، إلا أن يكون من باب التقية.

ورخصت الأسعار ببغداد جدا، ولم يحج أحد من أهل العراق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **علي بن عمر بن محمد بن الحسن، أبو الحسن الحربي**، المعروف بالقزويني، ولد في مستهل المحرم، في سنة ستين وثلاثمائة، وهي الليلة التي توفي فيها أبو بكر الآجري،وسمع أبا بكر بن شاذان، وأبا حفص ابن الزيات وابن حيويه، وكان وافر العقل، من كبار عباد الله الصالحين، له كرامات كثيرة، وكان يقرئ القرآن، ويروي الحديث، ولا يخرج إلا إلى الصلاة. كانت وفاته في شعبان من هذه السنة، فغلقت بغداد لموته يومئذ، وحضر الناس جنازته، وكان يوما مشهودا رحمه الله.

■ **عمر بن ثابت الثمانيني**، النحوي الضرير، شارح «اللمع»، كان في غاية العلم بالنحو، وكان يأتجر عليه.

وذكر ابن خلكان، أنه اشتغل على ابن جني، وشرح كلامه، وكان ماهرا في صناعة النحو، قال: ونسبته إلى قرية من نواحي جزيرة ابن عمر، عند الجبل الجودي، يقال لها: ثمانين، باسم الثمانين الذين كانوا مع نوح عليه السلام في السفينة والله اعلم.

■ **قرواش بن مقلد: أبو المنيع**، صاحب الموصل، والكوفة، وغيرها، كان من الجبارين وقد كاتبه الحاكم صاحب مصر، في بعض الأحيان، فاستماله إليه، فخطب له ببلاده، ثم تركه، واعتذر إلى القادر، فعذره، وقد جمع هذا الجبار بين أختين في النكاح، فلامته العرب، فقال: وأي شيء نعمله مما هو مباح في الشريعة؛ وقد نكب في أيام المعز الفاطمي، ونهبت حواصله، وحين توفي، قام بالأمر من بعده، ابن أخيه قريش بن بدران بن مقلد.

■ **مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين**، صاحب غزنة: توفي في هذه السنة، وقام بالأمر من بعده، عمه عبد الرشيد بن محمود ابن سبكتكين والله اعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة

في صفر منها، وقع الحرب بين الروافض والسنة، فقتل من الفريقين خلق كثير، وذلك أن الروافض نصبوا أبراجا، وكتبوا عليها بالذهب: محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر، فأنكرت السنة إقتران علي مع محمد ﷺ في هذا، فنشبت الحرب بينهم، واستمر القتال بينهم، إلى ربيع الأول، فقتل رجل هاشمي، فدفن عند الإمام أحمد، ورجع السنة من دفنه، فنهبوا مشهد موسى بن جعفر وأحرقوه، وأحرقوا ضريح موسى، ومحمد الجواد، وقبور ملوك بني بويه، من هناك من الوزراء، وأحرق قبر جعفر بن المنصور، ومحمد الأمين، وأمه زبيدة، وقبور كثيرة جدا، وانتشرت الفتنة، وتجاوزوا الحدود، وقد قابلهم أولئك الرافضة أيضا بمفاسد كثيرة، فأحرقوا محال كبيرة وبعثروا قبورا قديمة وأحرقوا من فيها من الصالحين، حتى هموا بقبر الإمام أحمد، فمنعهم النقيب، وخاف من غائلة ذلك، وتسلط على الرافضة، عيار يقال له: الطقيطقي، وكان يتتبع رؤوسهم وكبارهم فيقتلهم جهارا، وغيلة، وعظمت المحنة بسببه جدا، ولم يقدر عليه أحد، وكان في غاية الشجاعة، والبأس، والمكر، ولما بلغ ذلك دبيس بن علي بن مزيد وكان رافضيا قطع خطبة الخليفة القائم بأمر الله، ثم روسل فأعادها. وفي رمضان منها، جاءت الهدايا من الملك طغرلبك رسل شكر للخليفة، على إنعامه إليه وإحسانه إليه، بما كان بعثه له من الخلع، والتقليد، وأرسل إلى الخليفة، بعشرين ألف دينار، وإلى الحاشية بخمسة آلاف، وإلى رئيس الرؤساء بألفي دينار، وقد كان طغرلبك حين عمر الريّ، وخرب فيها أماكن، ليصلحها وجد فيها دفائن كثيرة من الذهب والجوهر، فعظم شأنه بذلك، وقوي ملكه بسببه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن محمد بن أحمد، أبو الحسن الشاعر البصروي**، نسبة إلى قرية دون عكبرا، يقال لها: بصرى،، باسم المدينة التي هي أم حوران، وقد سكن بغداد، وكان متكلما مطبوعا، له نوادر، ومن شعره الذي رواه عنه الخطيب قوله:

ترى الدنيا وزهرتها فتصبو	وما يخلو من الشهوات قلب
فضول العيش أكثرها هموم	وأكثر ما يضرك ما تحب
فلا يغررك زخرف ما تراه	وعيش لين الأعطاف رطب
إذا ما بلغة جاءتك عفوا	فخذها فالغنى مرعى وشرب
إذا اتفق القليل وفيه سلم	فلا ترد الكثير وفيه حرب

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وأربعمائة

فيها كتبت محاضرة بذكر الخلفاء المصريين، وأنهم أدعياء كذبة، لا نسب لهم صحيحا إلى رسول الله ﷺ وكتب فيها الفقهاء، والقضاة، والأشراف.

وفيها كانت زلازل عظيمة في نواحي أرجان، والأهواز، وتلك البلاد تهدم بسببها شيء كثير من العمران، والدور وشرفات القصور، وحكى بعض من يعتد قوله، أنه انفرج إيوانه وهو يشاهد ذلك، حتى رأى السماء منه، ثم عاد إلى حاله لم يتغير.

وفي ذي القعدة منها، تجددت الحرب بين أهل السنة والروافض، وأحرقوا أماكن كثيرة، وقتل من الفريقين خلائق، وكتبوا على مساجدهم: محمد وعلي خير البشر، وأذنوا بحي على خير العمل، واستمرت الحرب بينهم، وتسلط الطقيطقي العيار على الروافض، بحيث كان لا يقر لهم معه قرار، وهذا من جملة ما جرت به الأقدار.

وفيها توفي من الأعيان

■ **الحسن بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن وهب بن شبيل ابن فروة بن واقد، أبو علي التميمي** الواعظ، المعروف بابن المذهب، ولد سنة

خمس وخمسين وثلاثمائة، وسمع «مسند الإمام أحمد» من أبي بكر بن مالك القطيعي،عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، وقد سمع الحديث من أبي محمد بن ماسي، وابن شاهين، والدارقطني، وخلق، وكان دينا خيرا، وذكر الخطيب أنه كان صحيح السماع لـ «مسند أحمد» من القطيعي،غير أنه ألحق اسمه في أجزاء.قال ابن الجوزي: وليس هذا بقدح في سماعه، لأنه إذا تحقق سماعه، جاز أن يلحق اسمه الذي غفل عنه الكاتب، والعجب أن يجاز قول الشيخ: أخبرني فلان. ولا يسمع منه إلحاقه اسمه فيما تحقق سماعه له، وقد عاب عليه الخطيب أشياء لا حاجة إليها رحمه الله تعالى.

■ علي بن الحسين، بن محمد، أبو الحسن المعروف بالشباش البغدادي، وقد أقام بالبصرة، واستحوذ هو وعمه عليها وعلى أهلها، وعمل أشياء من الحيل، يوهم بها أنه من ذوي الأحوال والمكاشفات، وهو في ذلك كاذب فاجر، قبحه الله، وقبح عمه، وقد كان مع هذا رافضيا، خبيثا، قرمطيا، لا كثر الله من أمثاله في العالمين كانت وفاته في هذا العام، فلله الحمد والشكر على الإنعام.

القاضي

■ محمد بن محمد بن أحمد أبو جعفر السمناني القاضي، أحد المتكلمين على طريقة الشيخ أبي الحسن الأشعري، وقد سمع الحديث من الدارقطني وغيره، وكان عالما، فاضلا، سخيا، تولى القضاء بالموصل، وكان لـه في داره مجلس للمناظرة، وتوفي لما كف بصره بالموصل، وهو قاضيها، في ربيع الأول منها، وقد بلغ خمسا وثمانين سنة، سامحه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وأربعمائة

فيها تجدد الشر، والقتال، والحريق، بين السنة والروافض، وسرى الأمر، وقوي وتفاقم الحال.

وفيها وردت الأخبار بأن الغز على قصد العراق.

وفيها نقل إلى الملك طغرلبك أن الشيخ أبا الحسن الأشعري يقول بكذا وكذا، وذكر أشياء من الأمور التي لا تليق بالدين والسنة، فأمر بلعنه، وصرح أهل نيسابور، بتكفير من يقول ذلك، فضج أبو القاسم القشيري عبد الكريم بن هوازن من ذلك، وصنف رسالة سماها «شكاية أهل السنة، لما نالهم من المحنة»، واستدعى السلطان جماعة من رؤوس الأشاعرة، منهم القشيري، فسألهم عما أنهى إليه من ذلك. فأنكروا ذلك، وأن يكون الأشعري قال ذلك. فقال السلطان: نحن إنما لعنا من يقول هذا. وجرت فتنة عظيمة طويلة.

وفيها استولى فولاستون أبو منصور بن الملك أبي كاليجار على شيراز، وأخرج منها أخاه أبا سعد.

وفي شوال سار البساسيري إلى أكراد، وأعراب، أفسدوا بالبوازيج فقهرهم، وأخذ أموالهم، ولم يحج فيها أحد من أهل العراق أيضاً.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن عمر بن روح: أبو الحسين النهرواني، كان ينظر في العيار بدار الضرب، وله شعر حسن، قال: كنت يوما على شاطئ النهروان، فسمعت رجلا يتغنى في سفينة منحدرة يقول:

وما طلبوا سوى قتلي ... فهان عليّ ما طلبوا

قال: فاستوقفته، وقلت: أضف إليه أيضاً:

على قتلي الأحبة بالتـ ... ـمادي في الجفا غلبوا

وبالهجران طيب النو ... م من عيني قد سلبوا

وما طلبوا سوى قتلي ... فهان عليّ ما طلبوا

■ إسماعيل بن علي بن الحسين بن محمد بن زنجويه، أبو سعد الرازي، المعروف بالسمان، شيخ المعتزلة، سمع الحديث الكثير، وكتب عن أربعة آلاف شيخ، وكان عالما عارفا بارعا فاضلا، مع اعتزاله، ومن كلامه: من لم يكتب الحديث، لم يتغرغر بحلاوة الإسلام. وكان حنفي المذهب، عالما بالخلاف، والفرائض، والحساب، وأسماء الرجال، وقد ترجمه ابن عساكر في «تاريخه»، فأطنب في شكره، والثناء عليه.

■ (عمر بن أبي طالب المكي)

عمر ابن الشيخ أبي طالب المكي، محمد بن علي بن عطية، سمع أباه، وابن شاهين، وكان صدوقا، يكنى بأبي حفص.

■ محمد بن أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر، أبو طالب المعروف بابن السوادي، وهو أخو أبي القاسم الأزهري، توفي عن نيف وثمانين سنة.

■ محمد بن محمد بن أبي تمام، أبو تمام الزينبي نقيب النقباء، وقام ابنه، مكانه بالنقابة.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وأربعمائة

فيها غزا السلطان طغرلبك بلاد الروم، بعد أخذه بلاد أذربيجان، فغنم من بلاد الروم، وسبى، وعمل أشياء حسنة، ثم عاد سالما، إلى أذربيجان فأقام بها سنة.

وفيها أخذ قريش بن بدران الأنبار، وخطب بها وبالموصل للسلطان طغرلبك، وأخرج منها نواب البساسيري.

وفيها دخل أبو الحارث المظفر البساسيري بغداد، مع بني خفاجة، منصرفه من الوقعة، وظهرت منه آثار النفرة للخلافة، فراسله الخليفة لتطيب نفسه، وخرج في ذي الحجة إلى الأنبار، فأخذها، وكان معه دبيس بن علي بن مزيد، وخرب أماكن، وحرق غيرها، ثم أذن له الخليفة في الدخول إلى بيت النوبة، ليخلع عليه، فجاء إلى أن حاذى بيت النوبة، فخدم وانصرف، ولم يعبر، فقويت الوحشة.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة أيضاً والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسين بن جعفر بن محمد بن جعفر بن داود، أبو عبد الله السلماسي، سمع ابن شاهين، وابن حيويه، والدارقطني، وكان ثقة أميناً، مشهورا باصطناع المعروف، وفعل الخير، وافتقاد الفقراء، وكثرة الصدقة، وكان قد أريد على الشهادة، فأبى ذلك، وكان له في كل شهر عشرة دنانير نفقة لأهله.

■ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن: أبو عبد الله الأصبهاني، المعروف بابن اللبان، أحد تلامذة أبي حامد الإسفراييني، وولي قضاء إينج، وكان يصلي بالناس التراويح، ثم يقوم بعد انصرافهم، فيصلي إلى أن يطلع

الفجر، وربما انقضى الشهر عنه، ولم يضطجع إلى الأرض، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وأربعمائة

فيها ملك طغرلبك بغداد، وهو أول ملوك السلجوقية، لبلاد العراق وآخر ملك بني بويه.

وفيها تأكدت الوحشة بين الخليفة والبساسيري، واشتكت الأتراك منه، وأطلق رئيس الرؤساء عبارته فيه،وذكر قبيح أفعاله،وأنه كاتب المصريين بالطاعة وخلع ما كان عليه من بيعة العباسيين، وقال الخليفة: وليس إلا إهلاكه.

وفيها غلت الأسعار بنواحي الأهواز حتى بيع الكر بشيراز بألف دينار.

وفيها وقعت الفتنة بين السنة والرافضة، على العادة، فاقتتلوا قتالا شديدا مستمرا، ولا تمكن الدولة أن يحجزوا بين الفريقين.

وفيها وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، فقوي جانب الحنابلة قوة عظيمة، بحيث إنه كان ليس لأحد من الأشاعرة، أن يشهد الجماعات قاله ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم ١٥/٣٤٧].

قال الخطيب: كان أرسلان التركي،المعروف بالبساسيري قد عظم أمره واستفحل،لعدم أقرانه من متقدمي الأتراك، واستولى على البلاد، وطار اسمه، وخافته أمراء العرب والعجم، ودعي له على كثير من المنابر العراقية، والأهواز ونواحيها وجبي الأموال، ولم يكن للخليفة القائم بأمر الله قطع ولا وصل دونه، ثم صح عند الخليفة سوء عقيدته، وشهد عنده جماعة من الأتراك عرفهم وهو بواسط أنه عازم على نهب دار الخلافة، وأنه يريد القبض على الخليفة، فعند ذلك كاتب الخليفة أبا طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، الملقب طغرلبك، يستنهضه على المسير إلى العراق، فانفض أكثر من كان مع البساسيري، وعادوا إلى بغداد سريعا، ثم أجمع رأيهم على قصد دار البساسيري، وهي في الجانب الغربي، فأحرقوها، وهدموا أبنيتها.

ووصل السلطان طغرلبك إلى بغداد، في رمضان سنة سبع وأربعين، وقد تلقاه إلى أثناء الطريق الأمراء، والوزراء، والحجاب، فدخل بغداد في أبهة عظيمة جدا، وخطب له بها، ثم بعده للملك الرحيم، ثم قطعت خطبة الملك الرحيم في أواخر شهر رمضان، ورفع إلى القلعة معتقلا، وكان آخر ملوك بني بويه، وكانت مدة ولايته لبغداد ست سنين وعشرة أيام وطغرلبك أول ملوك السلجوقية، ونزل وطغرلبك دار المملكة بعد الفراغ من عمارتها، ونزل أصحابه دور الأتراك، وكان معه ثمانية أفيلة، ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامة، ونهب الجانب الشرقي بكماله، وجرت خطوب وخبطة عظيمة. وأما البساسيري فإنه فر من الخليفة إلى بلاد الرحبة، وكتب إلى صاحب مصر بأنه على إقامة الدعوة له بالعراق، فأرسل إليه بولاية الرحبة، ونيابته بها، ليكون على أهبة التمكن من الأمر الذي يحاوله قبحمها الله تعالى.

وفي يوم الثلاثاء، عاشر ذي القعدة، قلد أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني، قضاء القضاة، وخلع عليه به، وذلك بعد موت أبي عبد الله الحسين بن علي بن ماكولا، ثم خلع الخليفة على الملك طغرلبك بعد دخوله بغداد بيوم، ورجع إلى داره وبين يديه الدبادب والبوقات.

وفي هذا الشهر، توفي ذخيرة الدين، أبو العباس محمد بن الخليفة القائم بأمر الله، وهو ولي عهد أبيه، فعظمت الرزية به وجلس رئيس الرؤساء للعزاء، وجاء الناس، وقد أمروا بتمزيق ثيابهم ونشر عمائمهم والتحفي، وقطعت الدبادب أيام العزاء بدار الخلافة ودار الملك على ولي عهد الخلافة.

وفيها استولى أبو كامل علي بن محمد الصليحي الهمداني، على أكثر أعمال اليمن، وخطب للفاطميين، وقطع خطبة العباسيين.

وفيها كثر فساد الغز، ونهبهم، فثاروهم العوام واقتتلوا، ونهبوا العامة، حتى بيع الثور بخمسة قراريط والحمار بقيراطين إلى خمسة قراريط.

وفيها اشتد الغلاء بمكة، وعدمت الأقوات، وأرسل الله عليهم جرادا، ملء الأرض فتعوضوا به عن الطعام.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة أيضاً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دلف بن أبي دلف العجلي قاضي القضاة أبو عبد الله،** المعروف بابن ماكولا الشافعي أصله من أهل جرباذقان، وقد ولي القضاء بالبصرة، ثم ولاه القادر بالله قضاء القضاة ببغداد، سنة عشرين وأربعمائة، وأقره ابنه القائم بأمر الله إلى أن مات في هذه السنة عن تسع وسبعين سنة منها في القضاء سبع وعشرون سنة، وكان صينا، دينا، لا يقبل من أحد هدية، ولا من الخليفة، وكان يذكر أنه سمع من أبي عبد الله بن منده، وله شعر حسن فمنه:

تصابى برهة من بعد شيب ... فما أغنى مع المشيب التصابي

وسود عارضيه بلون خضب ... فلم ينفعه تسويد الخضاب

وأبدى للأحبة كل لطف ... فما زادوا سوى فرط اجتناب

سلام الله عودا بعد بدء ... على أيام ريعان الشباب

تولى غير مذموم وأبقى ... بقلبي حسرة تحت الحجاب

■ **علي بن المحسن بن علي، بن محمد بن أبي الفهم أبو القاسم التنوخي،** قال ابن الجوزي: وتنوخ اسم لعدة قبائل، اجتمعوا بالبحرين، وتحالفوا على التناصر والتآزر، فسموا تنوخا. ولد بالبصرة سنة خمس وستين وثلاثمائة، وسمع الحديث سنة سبعين، وقبلت شهادته عند الحكام في حداثته، وولي القضاء بالمدائن وغيرها، وكان صدوقا محتاطا، إلا أنه كان يميل إلى الاعتزال والرفض.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

في يوم الخميس لثمان بقين من المحرم، عقد عقد الخليفة على خديجة بنت أخي السلطان طغرلبك وقيل: ابنة أخيه داود، واسمها خديجة، الملقبة أرسلان خاتون ـ على صداق مائة ألف دينار، وحضر هذا العقد عميد الملك الكندري، ونقيب العلويين وزير طغرلبك، ونقيب الهاشميين، وقاضي القضاة الدامغاني، وأقضى القضاة الماوردي، ورئيس الرؤساء ابن المسلمة وهو الذي خطب الخطبة وقبل الخليفة العقد. فلما كان شعبان، ذهب رئيس الرؤساء إلى الملك طغرلبك، وقال له: أمير المؤمنين يقول لك: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨] وقد أمرني أن أنقل الوديعة إلى داره العزيزة، فقال: السمع والطاعة. فذهبت أم

الخليفة لدار الملك لاستدعاء العروس، فجاءت معها، وفي خدمتها الوزير عميد الملك، والحشم، فدخلوا داره، وشافه الخليفة ابن عمها، وسأله اللطف بها، والإحسان إليها فلما دخلت إليه، قبلت الأرض مرارا بين يديه، فأدناها إليه، وأجلسها إلى جانبه، وأفاض عليها خلعا سنية، وتاجا من جوهر ثمين وأعطاها من الغد مائة ثوب ديباجا وقصبات من ذهب، وطاسة من ذهب قد رصع فيها الجوهر والياقوت والفيروزج، وأقطعها في كل سنة من عمل الفرات اثني عشر ألف دينار.

وفي هذه السنة أمر السلطان طغرلبك ببناء دار الملك العضدية، فخربت محال كثيرة في عمارتها، ونهبت العامة أخشابا كثيرة بسببها من دور الأتراك والجانب الغربي، وباعوه على الخبازين، وغيرهم.

وفيها وقع غلاء شديد على الناس، وخوف، ونهب كثير ببغداد، ثم أعقب ذلك فناء كثير، بحيث دفن كثير من الناس بغير غسل ولا تكفين، وغلت الأشربة وما تحتاج إليه المرضى كثيرا، واغبر الجو، وفسد الهواء وكثر الذباب.

قال ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم ٥/١٦] وعم هذا الوباء، والغلاء مكة والحجاز، وديار بكر، والموصل، وبلاد الروم، وخراسان، والجبال، والدنيا كلها. هذا لفظه في «المنتظم». قال: وورد كتاب من مصر، أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور، فوجدوا عند الصباح موتى، أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثياب المكمورة.

وفيها أمر رئيس الرؤساء بنصب أعلام سود في الكرخ، فانزعج أهلها لذلك، وكان كثير الأذية للرافضة، وإنما كان يدافع عنهم عميد الملك الكندري وزير طغرلبك.

وفيها هبت ريح شديدة، وارتفعت سحابة ترابية، فأظلمت الدنيا، واحتاج الناس في الأسواق إلى السرج في النهار.

قال ابن الجوزي في «المنتظم» [المنتظم٦/١٦] وفيها في العشر الثاني من جمادى الآخرة، ظهر وقت السحر نجم له ذؤابة، طولها في رأي العين نحو من عشرة أذرع، وفي عرض نحو الذراع، ولبث على هذا الحال إلى النصف من رجب، ثم اضمحل. وذكروا أنه طلع مثله بمصر، فملكت. وكذلك بغداد، لما طلع فيها، ملكت، وخطب بها للمصريين.

وفيها ألزم الروافض بترك الأذان بحي على خير العمل، وأمروا أن ينادي مؤذنهم في أذان الصبح بعد الحيعلتين: الصلاة خير من النوم، مرتين، وأزيل ما كان على أبواب مساجدهم ومشاهدهم وأبوابهم من كتابة: محمد وعلي خير البشر، ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة، وذلك أن النوء الأول اضمحل، لأن بني بويه كانوا حكاما، وكانوا يقوونهم، وينصرونهم، فزالوا، وبادوا، وذهبت دولتهم، وجاء بعدهم قوم آخرون، من الأتراك السلجوقية، الذين يحبون أهل السنة، ويوالونهم، ويرفعون قدرهم، والله المحمود أبدا على طول المدى.

وأمر رئيس الرؤساء وزير الخلافة للوالي بقتل أبي عبد الله ابن الجلاب شيخ البزاز بباب الطاق، لما كان تظاهر به من الرفض والغلو فيه، فقتل وصلب على باب دكانه، وهرب أبو جعفر الطوسي، ونهبت داره و لله الحمد والمنة.

وفيها جاء البساسيري قبحه الله إلى الموصل، ومعه نور الدولة دبيس في جيش كثيف، فاقتتل مع صاحبها قريش، ونصره قتلمش ابن عم طغرلبك، وهو جد ملوك الروم، فهزمهما البساسيري، وأخذ البلد قهرا، فخطب بها للمصريين الفاطميين، وأخرج كاتبه من السجن، وقد كان أظهر الإسلام، ظنا منه أنه ينفعه، فلم ينفعه، فقتل، وكذلك خطب للمصريين في هذه السنة بالكوفة، وواسط، وغيرها من البلاد. وعزم طغرلبك الملك على المسير إلى الموصل، لمناجزة البساسيري، فنهاه الخليفة عن الخروج، ذلك لضيق الحال، وغلاء الأسعار، فلم يقبل، فخرج بجيشه قاصدا الموصل في جحفل عظيم، ومعه الفيلة والمنجنيقات، وكان جيشه لكثرتهم ينهبون القرى، وربما سطوا على بعض الحريم، فكتب الخليفة إلى السلطان ينهاه عن ذلك، فبعث إليه يعتذر لكثرة من معه، واتفق أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، فسلم عليه، فأعرض عنه وقال له: يحكمك الله في البلاد، ثم لا ترفق بخلقه، ولا تخاف من جلال الله عز وجل؟! فاستيقظ مذعورا، وأمر وزيره أن ينادي في الجيش بالعدل، وأن لا يظلم أحد أحدا. ولما اقترب من الموصل، فتح دونها بلادا، ثم فتحها وسلمها إلى أخيه داود، ثم سار منها إلى بلاد بكر، ففتح أماكن كثيرة هناك.

وفيها ظهرت دولة الملثمين ببلاد المغرب، وأظهروا إعزاز الدين، وكلمة الحق، واستولوا على بلاد كثيرة بالمغرب،منها سجلماسة، وأعمالها، والسوس، وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها، وأول ملوك الملثمين رجل يقال له أبو بكر بن عمر، وقد أقام بسجلماسة، إلى أن توفي سنة ثنتين وستين، كما سيأتي بيانه، ثم ولي بعده أبو نصر يوسف بن تاشفين، وتلقب بأمير المسلمين، وقوي أمره، وعلا قدره ببلاد المغرب.

وفيها ألزم أهل الذمة بلبس الغيار ببغداد، عن أمر السلطان طغرلبك بيض الله وجهه.

وفيها ولد لذخيرة الدين بعد موته من جارية له ولد ذكر، وهو أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله.

وفيها كان الغلاء، والفناء أيضا، مستمرين على الناس ببغداد، وغيرها من البلاد، على ما كان عليه الأمر في السنة الماضية، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **علي بن أحمد بن علي بن سلك، أبو الحسن المؤدب،** المعروف بالفالي صاحب «الأمالي» وفالة قرية قريبة من إيذج، أقام بالبصرة مدة، وسمع بها من أبي عمر بن عبد الواحد الهاشمي وغيره، وقدم بغداد فاستوطنها، وكان ثقة في نفسه، كثير الفضائل.ومن شعره الحسن:

لما تبدلت المجالس أوجها ... غير الذين عهدت من علمائها
ورأيتها محفوفة بسوى الأولى ... كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشدت بيتا سائرا متقدما ... والعين قد شرقت بجاري مائها
أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

ومن شعره أيضاً قوله:

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

■ **محمد بن عبد الواحد بن محمد بن الصباغ،** الفقيه الشافعي، وليس بصاحب «الشامل»، ذاك متأخر، وكان هذا من تلاميذ الشيخ أبي حامد الإسفرايني، كانت له حلقة للفتوى بجامع المدينة، وشهد عند قاضي القضاة

أبي عبد الله ابن الدامغاني الحنفي، فقبله، وقد سمع الحديث من ابن شاهين، وغيره، وكان ثقة جليل القدر رحمه الله تعالى.

■ **هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال**، أبو الخير الكاتب الصابئ، صاحب «التاريخ»، وجده أبو إسحاق الصابئ صاحب الرسائل، وكان أبوه صابئيا أيضا، أسلم هلال هذا متأخرا، وحسن إسلامه، وقد سمع في حال كفره، من جماعة من المشايخ، وذلك أنه كان يتردد إليهم، يطلب العلم والأدب، فلما أسلم، نفعه ذلك، وكان ذلك سبب إسلامه، على ما ذكره ابن الجوزي في «منتظمه» [المنتظم١٣/١٦] مطولا، أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام مرارا، يدعوه إلى الله عز وجل، ويأمره بالدخول في الإسلام، ويقول له: أنت رجل عاقل،فلم تدع دين الإسلام الذي قامت عليه الدلائل؟ وأراه آيات في المنام، شاهدها في اليقظة، فمنها أنه قال له: إن امرأتك حامل بولد ذكر، فسمه محمدا. فولدت ذكرا، فسماه محمدا، وكناه أبا الحسن، في أشياء كثيرة سردها ابن الجوزي مطولة، فأسلم وحسن إسلامه، وكان صدوقا رحمه الله تعالى. توفي في هذه السنة وله تسعون سنة، منها في الإسلام نيف وأربعون سنة تغمده الله برحمته.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وأربعمائة

فيها كان الغلاء والفناء مستمرين ببغداد وغيرها من البلاد، بحيث خلت أكثر الدور. وسدت على أهلها أبوابها بما فيها، وأهلها موتى فيها، وصار المار في الطريق لايلقى إلا الواحد بعد الواحد، وأكل الناس الجيف والميتات من قلة الطعام، ووجد مع امرأة فخذ كلب قد اخضر، وأروح وشوى رجل صبية في الأتون وأكلها، فقتل: وسقط طائر ميت من سطح، فاحتوشه خمسة أنفس، فاقتسموه، وأكلوه، وورد كتاب من بخارى أنه مات في يوم واحد منها ومن معاملتها ثمانية عشر ألف إنسان، وأحصى من مات في هذا الوباء من تلك البلاد إلى يوم كتب فيه هذا الكتاب، يعني الوارد من بخارى بألف ألف وخمسمائة ألف وخمسين ألف إنسان، والناس يمرون في هذه البلاد، فلا يرون إلا أسواقا فارغة، وطرقات خالية، وأبوابا مغلقة، حكاه ابن الجوزي. قال: وجاء الخبر من أذربيجان، وتلك البلاد، بالوباء العظيم، وأنه لم يسلم من تلك البلاد إلا العدد اليسير جدا. قال: ووقع وباء بالأهواز وأعمالها، وبواسط والنيل والكوفة، وطبق الأرض، وكان أكثر سبب ذلك الجوع، حتى كان الفقراء يشوون الكلاب، وينبشون القبور، ويشوون الموتى ويأكلونهم، وليس للناس شغل في الليل والنهار إلا غسل الأموات وتجهيزهم ودفنهم، وقد كانت تحفر الحفيرة فيدفن فيه العشرون والثلاثون، وكان الإنسان بينما هو جالس، إذ انشق قلبه عن دم المهجة، فيخرج منه إلى الفم قطرة، فيموت الإنسان من وقته، وتاب الناس، وتصدقوا بأكثر أموالهم، وأراق الناس الخمور وكسروا آلات اللهو وتصالحوا، ولزموا المساجد للعبادة، وقراءة القرآن، وقل دار يكون فيها خمر إلا مات أهلها كلهم ودخل على مريض له سبعة أيام في النزع، فأشار بيده إلى مكان فوجدوا فيه خابية من خمر، فأراقوها فمات من فوره بسهولة، ومات رجل في مسجد، فوجدوا معه خمسين ألف درهم، فعرضت على الناس، فلم يقبلها أحد، فتركت في المسجد تسعة أيام، لا يريدها أحد، فلما كان بعد ذلك، دخل أربعة ليأخذوها، فماتوا عليها، فلم يخرج من المسجد منهم أحد حي، بل ماتوا جميعا.

وكان الشيخ أبو محمد عبد الجبار بن محمد، يشتغل عليه سبعمائة متفقه، فمات، وماتوا كلهم إلا اثني عشر نفرا منهم رحمهم الله تعالى.

ولما اصطلح السلطان دبيس بن علي مع الملك طغرلبك، رجع إلى بلاده فوجدها خرابا لقلة أهلها، فأرسل رسولا منهم، إلى بعض النواحي، فتلقاه طائفة فقتلوه وأكلوه.

قال ابن الجوزي: وفي يوم الأربعاء لسبع بقين من جمادى الآخرة، احترقت قطيعة عيسى،وسوق الطعام، والكنيس،وأصحاب السقط، وباب الشعير، وسوق العطارين، وسوق العروس، والأنماط، والخشابين، والجزارين، والتمارين، والقطيعة،وسوق مخول، ونهر الدجاج، وسويقة غالب، والصفارين، والصباغين، وغير ذلك من المواضع، وهذه مصيبة أخرى، إلى ما بالناس من الغلاء، والفناء.

وفيه كثر العيارون ببغداد، وأخذوا الأموال جهارا، وكبسوا الدور ليلا ونهارا، وكبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة، وأحرقت كتبه، ومنابره، ودفاتره، التي كان يستعملها في ضلالته، وبدعته، ويدعو إليها أهل، ونحلته، ولله الحمد.

وفيها دخل الملك طغرلبك بغداد عائدا إليها من الموصل وقد تسلمها واستعادها من البساسيري وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال، فأحسن فيهم السيرة وحسنت منه العلانية والسريرة، فلله الحمد. فتلقاه إلى أثناء الطريق، وأحضر له رئيس الرؤساء خلعة من الخليفة فرجية مجوهرة، فلبسها، وقبل الأرض، ثم بعد ذلك دخل دار الخلافة، وقد ركب إليها فرسا من مراكب الخليفة، فلما دخل على الخليفة، إذا هو على سرير طوله سبعة أذرع، وعلى كتفه البردة النبوية، وبيده القضيب، فقبل الأرض، وجلس الملك على سرير دون سرير الخليفة، ثم قال الخليفة لرئيس الرؤساء: قل له أمير المؤمنين حامد لسعيك، شاكر لفعلك، آنس بقربك، وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده، فاتق الله فيما ولاك، واجتهد في عمارة البلاد، وإصلاح العباد،ونشر العدل،وكف الظلم،ففسر له عميد الدولة ما قال الخليفة، فقام وقبل الأرض، وقال: أنا خادم أمير المؤمنين وعبده، ومتصرف على أمره ونهيه، ومتشرف بما أهلني له، واستخدمني فيه، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق. ثم أمره الخليفة أن ينهض للبس الخلعة، فقام إلى بيت في ذلك البهو، فأفيض عليه سبع خلع وتاج، ثم عاد فجلس على السرير بعدما قبل يد الخليفة، ورام تقبيل الأرض فلم يتمكن من التاج، فأخرج الخليفة سيفا فقلده إياه، وخوطب بملك الشرق والغرب، وأحضرت ثلاثة ألوية، فعقد منها الخليفة لواء بيده يقال له: لواء الحمد، وأحضر العهد إلى الملك، وقرئ بين يديه بحضرة الملك، وأوصاه الخليفة بتقوى الله تعالى، والعدل في الرعية؛ ثم نهض فقبل يد الخليفة، ثم وضعها على عينيه، ثم خرج في أبهة عظيمة إلى داره، وبين يديه الحجاب والجيش بكماله، وجاء الناس للسلام عليه والتهنئة له، وأرسل إلى الخليفة بتحف عظيمة، منها خمسون ألف دينار، وخمسون غلاما أتراكا، بمراكبهم، وأسلحتهم، ومناطقهم، وخمسمائة ثوب أنواعا، وأعطى رئيس الرؤساء خمسة آلاف دينار، وخمسين قطعة قماش.

وفيها قبض صاحب مصر على وزيره أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن البازوري، وأخذ خطه بثلاثة آلاف ألف دينار، وأحيط على ثمانين من أصحابه، وقد كان هذا الوزير فقيها حنفيا، يحسن إلى أهل العلم وأهل الحرمين، وقد كان الشيخ أبو يوسف القزويني يثني عليه ويمدحه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (أبو العلاء المعري التوخي الشاعر)

■ أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد ابن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن غطفان ابن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، أبو العلاء المعري التوخي الشاعر، المشهور بالزندقة، اللغوي، صاحب الدواوين والمصنفات في الشعر واللغة، ولد يوم الجمعة، عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وأصابه جدري وله أربع سنين أو ست أو سبع، فذهب بصره، وقال الشعر وله إحدى عشرة أو ثنتا عشرة سنة، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فاقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريدا منهزما لأنه قال شعرا، يدل على قلة دينه، وعلمه وعقله وهو قوله:

تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد فديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

وهذا من إفكه يقول: اليد ديتها خمسمائة دينار، فما لكم تقطعونها إذا سرقت ربع دينار، وهذا من قلة عقله، وعمى بصيرته. وذلك أنها إذا جني عليها، يناسب أن يكون ديتها كثيرة، لينزجر الناس عن العدوان، وأما إذا جنت هي بالسرقة، فيناسب أن تقل قيمتها، لينزجر الناس عن أموال الناس، وتصان أموالهم، ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب، ورجع إلى بلده، ولزم منزله، فكان لا يخرج منه.

وكان يوما عند الخليفة، وكان الخليفة يكره المتنبي ويضع منه، وكان أبو العلاء يحب المتنبي ويرفع من قدره، ويمدحه، فجرى ذكر المتنبي في ذلك المجلس، فذمه الخليفة، فقال أبو العلاء: لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي أولها:

لك يا منازل في القلوب منازل

لكفاه ذلك. فغضب الخليفة، وأمر به فسحب برجله على وجهه، وقال: أخرجوا عني هذا الكلب. وقال الخليفة: أتدرون ما أراد هذا الكلب من هذه القصيدة؟ وذكره لها؟ أراد قول المتنبي فيها:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الدليل على أني كامل

وإلا فالمتنبي له قصائد أحسن من هذه، وإنما أراد هذا. وهذا من فرط ذكاء الخليفة، حيث تنبه لهذا. وقد كان المعري أيضا من الأذكياء، ومكث المعري خمسا وأربعين سنة من عمره لا يأكل اللحم، ولا اللبن، ولا البيض، ولا شيئا من حيوان، على طريقة البراهمة من الفلاسفة ويقال: إنه اجتمع براهب في بعض الصوامع، في مجيئه من بعض السواحل، آواه الليل عنده، فشككه في دينه، وكان يتقوت بالنبات وغيره، وأكثر ما كان أكله العدس، ويتحلى بالدبس وبالتين، وكان لا يأكل بحضرة أحد، ويقول: أكل الأعمى عورة؛ وكان في غاية الذكاء المفرط، على ما ذكر، وأما ما ينقلونه عنه من الأشياء المكذوبة المختلقة من أنه وضع تحت سريره درهم، فقال: إما أن تكون السماء قد انخفضت مقدار درهم، أو ارتفعت الأرض مثل ذلك. فهذا ما لا أصل له وهو كذب عليه.وكذلك يذكرون عنه، أنه مر في بعض أسفاره بمكان، فطأطأ رأسه، فقيل له في ذلك، فقال: أما هنا شجرة؟ قالوا: لا. فنظروا، فإذا أصل شجرة كانت هناك في الموضع الذي طأطأ رأسه فيه، وقد قطعت، وكان قد اجتاز بها قديما مرة فأمره من كان معه بمطأطأة رأسه هناك فاستحضره في هذه المرة، فهذا لا يصح وهو كذب. وكذلك ما شاكل هذا من الكذب البحت ولكن كان ذكيا، ولم يكن زكيا، وله مصنفات كثيرة، أكثرها في الشعر، وفي بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: كان في الباطن مسلماً، وإنما يقول زلل بلسانه، قال ابن عقيل: وما الذي ألجاه أن يقول في دار الإسلام ما يكفره به الناس؟ قال: والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم ودينهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا، وستروها، وهذا أظهر الكفر الذي تسلط عليه به الناس، وزندقوه، والله يعلم أن باطنه كظاهره.

قال ابن الجوزي: وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتابا سماه «الفصول والغايات، في معارضة السور والآيات»، على حروف المعجم في آخر كلماته، وهو في غاية الركاكة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته. قال: وقد نظرت في كتابه المسمى «لزوم مالا يلزم»، ثم أورد ابن الجوزي من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الإسلام أشياء كثيرة فمن ذلك قوله:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ ... رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

ومن ذلك أيضاً قوله:

وهيهات البرية في ضلال ... وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسى ... وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أتاه ... وقال الناظرون بل افتراها
وما حجي إلى أحجار بيت ... كؤوس الخمر تشرب في ذراها
إذا رجع الحليم إلى حجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراها

ومن ذلك أيضا قوله:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ... دين وآخر ذو دين لا عقل له

ومن ذلك أيضا قوله:

فلا تحسب مقال الرسل حقا ... ولكن قول زور سطروه
فكان الناس في عيش رغيد ... فجاؤوا بالمحال فكدروه

وقلت أنا في معارضة هذا:

فلا تحسب مقال الرسل كذباً ... ولكن قول حق بلغوه
وكان الناس في جهل عظيم ... فجاؤوا بالبيان فأذهبوه

ومن ذلك أيضا قوله:

إن الشرائع ألقت بيننا إحنا ... وأورثتنا أفانين العداوات
وهل أبيح نساء الروم عن عرض ... للعرب إلا بأحكام النبوات

وقوله:

وما حمدي لآدم أو بنيه ... وأشهد أن كلهم خسيس

ومن ذلك أيضا قوله:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء

ومن ذلك أيضا قوله:

صرف الزمان مفرق الإلفين ... فاحكم إلهي بين ذاك وبيني

أنهيت عن قتل النفوس تعمدا ... وبعثت أنت لقبضها ملكين

وزعمت أن لها معادا ثانيا ... ما كان أغناها عن الحالين

ومن ذلك أيضاً قوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ومن ذلك أيضا قوله:

أمور تستخف بها حلوم ... وما يدري الفتى لمن الثبور

كتاب محمد وكتاب موسى ... وإنجيل ابن مريم والزبور

وقوله:

قالت معاشر لم يبعث إلهكم ... إلى البرية عيساها ولا موسى

وإنما جعلوا الرحمن ماكلة ... وصيروا دينهم في الناس ناموساً

وذكر له أشياء غير ذلك، بل كل قطعة من هذه الأشياء، تدل على كفره، وزندقته، وانحلاله، ويقال إنه أوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيت على أحد

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك، إلى ما إليه صار، وهو لم يجن على أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد قبحه الله وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب منه، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله ويتنصل منه، وهي القصيدة التي يقول فيها:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

امنن علي بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

وقد كانت وفاته في ربيع الأول، من هذه السنة بمعرة النعمان، عن ست وثمانين سنة إلا أربعة عشر يوما، وقد رثاه جماعة من أصحابه وتلامذته، وأنشدت عند قبره ثمانون مرثاة، حتى قال بعضهم في رثاءه:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفني دما

قال ابن الجوزي: وهؤلاء الذين رثوه، والذين اعتقدوه، إما جهال بأمره، وإما ضلال على مذهبه وطريقته. وقد رأى بعضهم في النوم رجلا ضريراً، على عاتقيه حيتان مدليتان على صدره، رافعتان رؤوسهما إليه، وهما ينهشان من لحمه، وهو يستغيث، وقائل يقول: هذا المعري الملحد. وقد ذكره القاضي ابن خلكان في «الوفيات»، فرفع في نسبه، كما ذكرنا. وقد ذكر له من المصنفات كتبا كثيرة، وذكر أن بعضهم وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتابه المسمى بـ «الأيك والغصون»، وهو المعروف بـ «الهمز والردف»، وأنه أخذ العربية عن أبيه، واشتغل بحلب على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي، وأخذ عنه أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، والخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي وذكر أنه مكث خمسا وأربعين سنة لا يأكل اللحم، على طريقة الحكماء، وأنه أوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيت على أحد

قال ابن خلكان: وهذا أيضا متعلق باعتقاد الحكماء، فإنهم يقولون: ايجاد الولد، وإخراجه إلى هذا الوجود، جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث، والآفات.

قلت: وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده، وهو ما يعتقده الحكماء، إلى آخر وقت، وأنه لم يقلع عن ذلك، كما ذكره بعضهم، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها. وذكر ابن خلكان أن عينه اليمنى كانت ناتئة وعليها بياض، وعينه اليسرى غائرة، وكان نحيفا. ثم أورد من أشعاره الجيدة أبياتا، فمنها قوله:

لا تطلبن بآلة لك رتبة ... قلم البليغ بغير جد مغزل

سكن السماكان السماء كلاهما ... هذا له رمح وهذا أعزل

الأستاذ أبو عثمان

■ **الصابوني: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عامر بن عابد النيسابوري،** الحافظ الواعظ المفسر، قدم دمشق وهو ذاهب إلى الحج، فسمع بها، وذكّر الناس، وقد ترجمه ابن عساكر ترجمة عظيمة، وأورد له أشياء حسنة، من أقواله وشعره، فمن ذلك قوله:

إذا لم أصب أموالكم ونوالكم ... ولم آمل المعروف منكم ولا البرا

وكنتم عبيدا للذي أنا عبده ... فمن أجل ماذا أتعب البدن الحرا؟

وروى ابن عساكر عن إمام الحرمين أنه قال: كنت أتردد، وأنا بمكة في المذاهب، فرأيت النبي ﷺ وهو يقول: عليك باعتقاد أبي عثمان الصابوني. رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة النبوية

فيها كانت فتنة الخبيث البساسيري، وهو أرسلان التركي قبحه الله تعالى، وذلك أن إبراهيم بن ينال أخا الملك طغرلبك، ترك الموصل، الذي كان قد استعمله أخوه عليها، وعدل إلى ناحية بلاد الجبل، فاستدعاه أخوه، وخلع عليه، وأصلح أمره، ولكن في غضون ذلك، ركب البساسيري، ومعه قريش بن بلدران أمير العرب، إلى الموصل، فأخذها، وأخرب قلعتها، فسار إليه الملك طغرلبك سريعا من بغداد إلى الموصل، فاستردها، وهرب منه البساسيري وقريش خوفا منه، فتبعهما إلى نصيبين، وفارقه أخوه إبراهيم، وعصى عليه، وهرب إلى همذان، وذلك بإشارة البساسيري عليه، فسار الملك طغرلبك، وراء أخيه، وترك عساكره وراءه، فتفرقوا، وقل من لحقه منهم، ورجعت زوجته الخاتون، ووزيره الكندري إلى بغداد، ثم جاء الخبر بأن أخاه قد استظهر عليه، وأن طغرلبك محصور بهمذان، فانزعج الناس لذلك، واضطربت بغداد، وأرجف الناس بأن البساسيري عازم على قصد بغداد، وأنه قد اقترب من الأنبار، فقوي عزم الكندري على المقام ببغداد، فأرادت الخاتون أن تقبض عليه، فتحول عنها إلى الجانب الغربي، ونهبت داره، وقطع الجسر بين الجانبين، وركبت الخاتون في جمهور الجيش، وذهبت إلى همذان لتنصر زوجها، وسار الكندري، ومعه أنوشروان بن تومان وأمه

الخاتون المذكورة، ومعها بقية الجيش إلى بلاد الأهواز، وبقيت بغداد ليس بها أحد من المقاتلة، فعزم الخليفة على الترحل عن بغداد إلى غيرها، وليته فعل، ثم أحب داره، والمقام مع أهله، فمكث فيها، اغترارا ودعة، ولما خلا البلد من المقاتلة، قيل للناس: من أراد الرحيل من بغداد فليذهب حيث شاء، فانزعج الناس، وبكى الرجال، والنساء، والأطفال، وعبر كثير من الناس إلى الجانب الغربي، وبلغت المعبرة دينارا، ودينارين، لعدم الجسر.

قال ابن الجوزي: وطار في تلك الليلة على دار الخليفة نحو عشر بومات مجتمعات، يصحن صياحا مزعجا، وقيل لرئيس الرؤساء: من المصلحة أن الخليفة يرتحل من بغداد لعدم المقاتلة بها فلم يقبل.

وشرعوا في استخدام طائفة من العوام، ودفع إليهم السلاح من دار المملكة، فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة، من هذه السنة، دخل البساسيري إلى بغداد، ومعه الرايات البيض المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها: الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين، فتلقاه أهل الكرخ فتضرعوا إليه، وسألوه أن يجتاز من عندهم، فدخل الكرخ، وخرج إلى مشرعة الروايا فخيم بها، والناس إذ ذاك في مجاعة، وضر شديد ونزل قريش بن بدران في نحو من مائتي فارس، على مشرعة باب البصرة، وكان البساسيري قد جمع العيارين، وأطمعهم في نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدامغاني، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكمية، وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بخدمة الخليفة، وأعادت الروافض الأذان بحي على خير العمل، وأذن به في سائر جوامع بغداد، في الجمعات والجماعات وخطب ببغداد للخليفة المستنصر العبيدي، الذي يقال له الفاطمي، على منابرها وغيرها، وضربت له السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة، فحاجف الوزير أبو القاسم بن المسلمة، الملقب برئيس الرؤساء، بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يفد ذلك شيئا، فركب الخليفة بالسواد، والبردة على كتفيه، وعلى رأسه اللواء، وبيده سيف مصلت، وحوله زمرة من الهاشميين، والجواري حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رؤوس الرماح، وبين يديه الخدم بالسيوف المسلولة. ثم إن الخليفة أخذ ذماما من أمير العرب قريش، ليمنعه وأهله ووزيره ابن المسلمة،فأمنه على ذلك كله، وأنزله في خيمة، فلامه البساسيري على ذلك، وقال: قد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بيني وبينك، من أنك لا تستبد برأي دوني، ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبيني وبينك. ثم إن البساسيري أخذ القاسم بن مسلمة، فوبخه، ولامه لوما شديدا، ثم ضربه ضربا مبرحا، واعتقله مهانا عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يحصى ما أخذوا منها من الجواهر، والنفائس، والديباج، والذهب، والفضة، والثياب والأثاث، والدواب، وغير ذلك، مما لا يحد ولا يوصف. ثم اتفق رأي البساسيري، وقريش، على أن يسيروا الخليفة إلى أمير حديثة عانة، وهو مهارش بن مجلي البدوي، وهو من بني عم قريش بن بدران، وكان رجلا فيه دين وله مروءة. فلما بلغ ذلك الخليفة، دخل على قريش، أن لا يخرج من بغداد، فلم يفد ذلك شيئا، وسيره مع أصحابهما في هودج إلى حديثة عانة، فكان عند مهارش أميرها حولا كاملا، وليس معه أحد من أهله، فحكي عن الخليفة القائم بأمر الله، أنه قال: لما كنت بحديثة عانة، قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت في قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله عز وجل، بما سنح لي، ثم قلت: اللهم أعدني إلى وطني، واجمع بيني وبين أهلي وولدي، ويسر اجتماعنا، وأعد روض الأنس زاهرا، وربع القرب عامرا، فقد قل العزاء وبرّح الجفاء، قال: فسمعت قائلا على شاطئ الفرات يقول: نعم نعم. فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت في السؤال والابتهال، فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول؛ فعلمت أنه هاتف أنطقه الله بما جرى الأمر عليه. وكان كذلك، خرج من دار الخلافة، في ذي القعدة من هذه السنة ورجع إليها في ذي القعدة من السنة المقبلة، وقد قال الخليفة القائم بأمر الله في مدة مقامه بالحديثة شعرا، يذكر فيه حاله فمنه قوله:

ساءت ظنوني فيمن كنت آمله ... ولم يجل ذكر من واليت في خلدي

تعلموا من صروف الدهر كلهم ... فما رأى أحدا يحنو على أحد

ومن ذلك أيضاً قوله:

ما لي من الأيام إلا موعد ... فمتى أرى ظفرا بذاك الموعد

يومي يمر وكلما قضيته ... عللت نفسي بالحديث إلى غد

أحيا بنفس تستريح إلى المنى ... وعلى مطامعها تروح وتغتدي

وأما البساسيري، وما اعتمده في بغداد: فإنه ركب يوم عيد الأضحى وألبس الخطباء والمؤذنين البياض، وكذلك أصحابه، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والروافض في غاية السرور، والأذان في سائر بلاد العراق بحي على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاما عظيما، وغرق خلقا ممن كان يعاديه، وبسط على آخرين الأرزاق، والعطايا وأظهر العدل.

ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة، أحضر إلى بين يديه الوزير أبا القاسم بن المسلمة، الملقب برئيس الرؤساء، وعليه جبة صوف، وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملا، وطيف به في البلد، وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خلقان المداسات، وبصقوا في وجهه، ولعنوه، وسبوه، وأوقف بإزاء دار الخلافة، وهو في ذلك كان يتلو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ثم لما فرغوا من التطواف به في محال البلد أعيد إلى المعسكر فألبس جلد ثور بقرنيه وعلق بكلوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيا فجعل يضرب إلى آخر النهار فمات رحمه الله تعالى. وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيدا وأماتني شهيدا.

في هذه السنة وقع برد بأرض العراق، أهلك كثيرا من الغلات، وقتل بعض الفلاحين، وزادت دجلة زيادة كثيرة، وزلزلت بغداد في شوال قبل الفتنة بشهر، زلزالا شديدا، فتهدمت دور كثيرة، ووردت الأخبار أن هذه الزلزلة اتصلت بهمذان، وواسط، وعانة وتكريت، وذكر أن الطواحين وقفت من شدتها.

وفي هذه السنة كثر النهب ببغداد، حتى كانت العمائم تخطف جهرة من الرؤوس، حتى إن الشيخ أبا نصر بن الصباغ خطفت عمامته وطيلسانه وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة.

وفي أواخر السنة، خرج السلطان طغرلبك من همذان، فقاتل أخاه، وانتصر عليه ولله الحمد والمنة، فتباشر الناس، بذلك وكثر سرورهم وفرحهم، ولم يظهروا ذلك خوفا من البساسيري، واستنجد طغرلبك بأولاد أخيه داود ـ وكان قد مات ومن معهم من الجنود ـ على أخيه إبراهيم ينال، فغلبوه، وأسروه وذلك، في أوائل سنة إحدى وخمسين، واجتمعوا

على عمهم طغرلبك، فسار بهم نحو العراق، فكان من أمرهم ما سيأتي ذكره، في السنة الآتية، إن شاء الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن محمد أبو عبد الله الوني**: الفرضي، وهو شيخ الخبري، وكان شافعي المذهب، قتل ببغداد في فتنة البساسيري، ودفن في يوم الجمعة يوم عرفة منها رحمه الله تعالى.

■ **داود أخو طغرلبك الأكبر**: كان مقيما ببلخ بإزاء أولاد محمود بن سبكتكين توفي هذه السنة وقام أولاده مقامه.

■ **أبو الطيب الطبرى**: **طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر أبو الطيب الطبري الفقيه**، شيخ الشافعية، ولد بآمل طبرستان، سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، سمع الحديث بجرجان، من أبي أحمد الغطريفي، وبنيسابور من أبي الحسن الماسرجسي، وعليه درس الفقه وتفقه أيضا، على أبي علي الزجاجي، وأبي القاسم بن كج، ثم اشتغل ببغداد،على والشيخ أبي حامد الإسفراييني، وشرح «المختصر»، و «فروع ابن الحداد»، وصنف في الأصول، والجدل، وغير ذلك من العلوم الكثيرة النافعة، وسمع ببغداد من الدارقطني، وغيره، وولي القضاء بربع الكرخ، بعد موت أبي عبد الله الصيمري، وكان ثقة دينا ورعا، عالما بأصول الفقه وفروعه وله المصنفات الباهرة في ذلك، حسن الخلق، سليم الصدر، مواظبا على تعليم العلم، ليلا ونهارا. وقد ترجمته في «طبقات الشافعية».

وحكى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي عنه وكان شيخه، وقد أجلسه بعده في الحلقة أن أبا الطيب أسلم خفا له عند خفاف ليصلحه له، فأبطأ عليه، فكان كلما مر عليه أخذه فغمسه في الماء، وقال: أيها الشيخ الساعة الساعة. فقال الشيخ: إنما أسلمته لك لتصلحه، ولم أسلمه، لتعلمه السباحة.

وحكى ابن خلكان، أنه كان له ولأخيه عمامة واحد، وقميص إذا لبسهما هذا، جلس الآخر في البيت وقد قال في ذلك أبو الطيب:

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم ... لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

وكان قد بلغ من العمر مائة سنة وستين، وهو صحيح العقل، والفهم، والأعضاء، يفتي ويشتغل، إلى أن مات في هذه السنة، رحمه الله تعالى.

■ **علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي البصري**، شيخ الشافعين، صاحب التصانيف الكثيرة، في الأصول، والفروع، والتفسير، و «الأحكام السلطانية»، و «أدب الدنيا والدين». قال: بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة. يعني «الحاوي الكبير» واختصرته في أربعين ورقة يعني «الإقناع». وقد ولي الحكم في بلاد كثيرة، وكان حليما، وقورا، اديبا، لم ير أصحابه ذراعه يوما من الدهر، من شدة تحرزه وأدبه، وقد استقصيت ترجمته في «الطبقات»، كانت وفاته في هذه السنة عن ست وثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

وقد أنشد له ابن خلكان أشعارا منها قوله:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة:

■ **علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر، أبو القاسم وزير القائم بأمر الله**، كان أولا قد سمع الحديث من أبي أحمد الفرضي وغيره، ثم صار احد المعدلين، ثم استكتبه الخليفة القائم بأمر الله، واستوزره، ولقبه: رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الورى، كان متضلعا بعلوم شتى مع سداد رأي، ووفور عقل، وقد مكث في الوزارة ثنتي عشرة سنة وشهرا، ثم قتله البساسيري. بعدما شهره ثم صلبه معلقا بشدقيه كما تقدم، وله من العمر ثنتان وخمسون سنة وخمسة أشهر.

■ **عبد الواحد بن الحسين بن شيطا**، المسند للحديث وكان ثقة بصيرا بالعربية ووجوه القراءات ومذاهب القراء.بلغ الثمانين وله كتاب في التجويد رحمه الله تعالى.

■ **منصور بن الحسين، أبو الفوارس الأسدي**، صاحب الجزيرة، كانت وفاته في هذه السنة فاجتمعت العشيرة على إقامة ولده صدقة من بعده والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة

استهلت هذه السنة وبغداد في قبضه البساسيري، يخطب فيها للمستنصر الفاطمي، والخليفة العباسي بحديثة عانة، ثم لما كان يوم الاثنين ثاني عشر صفر، أحضر البساسيري قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني وجماعة من الوجوه والأعيان من العلويين والعباسين، وأخذ عليهم البيعة لصاحب مصر المستنصر الفاطمي، ثم دخل دار الخلافة وهؤلاء المذكورون معه، وأمر بنقض تاج دار الخلافة، فنقضت بعض الشراريف، ثم قيل له: إن القبح في هذا أكثر من المصلحة. فتركه، ثم ركب إلى زيارة المشهد بالكوفة، وعزم على حفر نهر يساق إلى الحائر لوفاء نذر كان عليه، وأمر بأن تنقل جثة ابن مسلمة إلى ما يقارب الحريم الطاهري، وأن تنصب على دجلة. وكتبت إليه أم الخليفة وكانت عجوزا كبيرة، قد بلغت التسعين، وهي مختفية في مكان تشكو إليه الحاجة، والفقر، وضيق الحال، فارسل إليها من نقلها إلى الحريم، وأخدمها جاريتين، ورتب لها كل يوم اثني عشر رطلا من خبز، وأربعة أرطال من لحم ولا يفي هذا قيراطا مما فعله بولدها وبأهل السنة.

فصل

ولما خلص السلطان طغرلبك من حصره بهمذان، وقاتل أخاه إبراهيم ينال، وأسره وقتله، وتمكن في أمره، وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له في تلك البلاد منازع، كتب إلى قريش بن بدران أمير الأعراب، يأمره بأن يعيد الخليفة إلى وطنه وداره، وتوعده، على ترك ذلك، بأسا شديدا، فكتب إليه قريش يتلطف به، ويدخل عليه، ويقول: أنا معك على البساسيري، بكل ما أقدر عليه، حتى يمكنك الله منه، ولكن أخشى ان أتسرع في أمر يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو تبدر إليه بادرة سوء يكون عليّ عارها، ولكن سأعمل على ما أمرتني به، بكل ما يمكنني، وأمر برد امرأة الخليفة الخاتون المعظمة أرسلان خاتون إلى دارها وقرارها، ثم إنه راسل البساسيري وأشار عليه بعود الخليفة إلى داره، وخوفه من جهة الملك طغرلبك، وقال له فيما قال: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر الفاطمي، وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا رسول ولا أحد من عنده، ولم يفكر في شيء مما أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد، قريب منا، وقد جاءني من الملك طغرلبك كتاب عنوانه: إلى الأمير الجليل، علم الدين، أبي المعالي

قريش بن بدران، مولى أمير المؤمنين، من شاهنشاه المعظم، ملك المشرق والمغرب طغرلبك، أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، وعلى رأس الكتاب العلامة السلطانية بخط السلطان. حسبي الله. وكان في الكتاب: والآن قد سرت بنا المقادير إلى قتال كل عدو للدين والملك، ولم يبق علينا من المهمات إلا خدمة سيدنا ومولانا القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وإطلاع أبهة إمامته على سرير عزه، فإن الذي يلزمنا ذلك، ولا فسحة في التفجيع فيه ساعة من الزمان، وقد أقبلنا بجنود المشرق وخيولها، إلى هذا المهم العظيم، ونريد من الأمير الجليل علم الدين، إتمام السعي النجح الذي وفق له وتفرد به، وهو أن يتم وفاءه، من أمانته، وخدمته، في باب سيدنا ومولانا القائم بأمر الله أمير المؤمنين من أحد وجهين، إما أن يقبل به مكرما إلى وكر عزخ: ومثوى إمامته، وموقف خلافته، من مدينة السلام، ويتمثل بين يديه، متوليا أمره، ومنفذا حكمه، وشاهرا سيفه وقلمه، وذلك المراد، وهو خليفتنا، وتلك الخدمة المفروضة، ونحن نوليك العراق بأسرها، ونصفي لك مشارع برها، وبحرها، ولا يطؤها حافر خيل من خيول العجم، شبرا من أراضي تلك المملكة، إلا ملتمسا لمعاونتك، ومظاهرتك، وإما أن تحافظ على شخصه الغالي، بتحويله من القلعة إلى حلته أو في القلعة إلى حين لحاقنا بخدمته، فتتكفل بإعادته، ويكون الأمير الجليل مخيراً بين أن يلقانا، أو يقيم حيث شاء، فنوليه العراق كلها، ونستخلفه في الخدمة الإمامية، ونصرف أعنتنا إلى الممالك الشرقية، فهمتنا لا تقتضي إلا هذا الغرض المفترض ولا تسف إلا مملكة من تلك الممالك بل الهمة دينية وهو أدام الله تمكينه يتيقن ما ذكرنا ويعلم أن توجهنا إثر هذا الكتاب بهذا الغرض المعلوم ولا غرض سواه فلا يشعرن قلوب عشائره رهبته فإنهم كلهم إخواننا وفي ذمتنا وعهدنا وعلينا به عهد الله وميثاقه ما داموا موافقين للأمير الأجلّ في موالينا ومن اتصل به من سائر العرب والعجم والأكراد فإنهم مقرون في جملتهم وداخلون في عهدنا وذمتنا وعهده وذمته ولكل مجترم في العراق عفونا وأمننا مما بدر منه إلا البساسيري فإنه لا عهد له ولا أمان منا وهو موكول إلى الشيطان وأقاويله وقد ارتكب في دين الله عظيماً وهو إن شاء الله مأخوذ حيث وجد ومعذب على ما عمل فقد سعى في دماء خلق كثير بسوء دخيلته ودلت أفعاله على فساد عقيدته وكتب في رمضان من سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وبعث بهذا الكتاب مع رسولين من أهل العلم وبعث معهما بتحف عظيمة للخليفة وأمرهما أن يخدما الخلفية نيابة عنه جزاه الله عن الإسلام خيراً.

ولما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران استعلم عن أخبار طغرلبك من الرسل وغيرهم، فإذا معه جنود عظيمة فخاف من ذلك خوفاً شديداً وبعث إلى البرية فأمر بحفر أماكن للماء وتجهيز علوفات كثيرة إلى هناك، ونفذ الكتاب والأخبار إلى البساسيري فانزعج لذلك البساسيري قبحه الله فخارت قوته وضعف أمره وبعث إلى أهله فنقلهم إلى بغداد وأرصد له إقامات عظيمة بواسط، وجعلها دار مقره، ووافق على عود الخليفة إلى بغداد، ولكن اشترط شروطاً كثيرة لتذهب خجله. ولما انتقل أهل البساسيري من بغداد وصحبهم أهل الكرخ والروافض قبحهم الله تعالى، وانحدروا في دجلة إلى واسط، كان خروجهم من بغداد في سادس ذي القعدة من هذه السنة. وفي مثله من العام الماضي دخلوا بغداد وعند ذلك ثار الهاشميون وأهل السنة من باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا منه محال كثيرة جدا واحترق من جملة ذلك دار العلم التي كان وقفها الوزير أردشير من مدة سبعين سنة وفيها من الكتب شيء كثير، وكان من جملة ما أحرق درب الزعفران وفيه ألف ومائتا دار لكل منها قيمة جليلة عظيمة وترحل قريش بن بدران إلى أرض الموصل وبعث إلى حديثه عانة يقول لأميرها مهارش بن مجلي، الذي عنده الخليفة، يقول له: إن المصلحة تقتضي تسليم الخليفة إليَّ حتى نستأمن لأنفسنا بسببه، ولا تسلمه حتى تستأمن لنا وتأخذ أماناً في يدك دون يدي فامتنع عليه مهارش، وقال: قد غررني البساسيري، ووعدني بأشياء لم أرها، ولست بمرسله إليك أبدا، وله في عنقي أيمان كثيرة لا أغدرها. وكان مهارش هذا رجلا صالحا ثقة أمينا رحمه الله، فقال للخليفة: إن المصلحة تقتضي أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل، وننظر ما يكون من أمر السلطان طغرلبك، فإن ظهر دخلنا بغداد، وإن كانت الأخرى، نظرنا لأنفسنا، فإني أخشى من البساسيري، أن يأتينا، فيحضرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة. فسارا في الحادي عشر من ذي القعدة إلى أن حصلا بقلعة تل عكبرا، فتلقته رسل السلطان طغرلبك، بالهدايا التي كان أنفذها، إليه وهو متشوق إليه كثيراً وجاءت الأخبار بأن السلطان طغرلبك قد دخل بغداد، وكان يوما مشهودا، غير أن الجيش نهبوا البلد، سوى دار الخليفة، وصودر خلق كثير من التجار، وأخذت منهم أموال كثيرة وشرعوا في عمارة دار الملك وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول، وغيرها، وسرادق عظيمة، وملابس سنية، وما يليق بالخليفة في السفر، أرسل ذلك مع الوزير عميد الملك الكندري، ولما انتهوا إلى الخليفة، أرسلوا بتلك الآلات إليه، قبل أن يصلوا إليه، وقالوا لمن حوله: اضربوا السرادق، وليلبس الخليفة ما يليق به، ثم نجيء نحن، ونستأذن عليه، فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة، فلما فعلوا ذلك دخل الوزير ومن معه فقبلوا الأرض بين يديه، وأخبروه بسرور السلطان بسلامته، وبما حصل من العود إلى بغداد واشتياقه إليه جداً، وأخبروا مهارشاً بشكر السلطان له ونيته له بما ينبغي لمثله من الإكرام. وكتب عميد الملك كتابا إلى السلطان يعلمه بصفة ما جرى الأمر عليه، وأحب أن يأخذ خط الخليفة في أعلى الكتاب، ليكون أقر لعين السلطان، وأحضر الوزير دواته، ومعها سيف، وقال: هذه خدمة السيف، والقلم، فأعجب الخليفة ذلك، وترحلوا من منزلهم ذلك بعد يومين، فلما وصلوا النهروان، خرج السلطان لتلقي الخليفة، فلما وصل السلطان من بغداد إلى سرادق الخليفة، قبل الأرض سبع مرات بين يدي الخليفة، فأخذ الخليفة مخدة، فوضعها بين يديه، فأخذها الملك فقبلها، ثم جلس عليها كما أشار الخليفة، وقدم إلى الخليفة الحبل الياقوت الأحمر، الذي كان لبني بويه، فوضعه بين يديه، وأخرج اثني عشرة حبة من لؤلؤ كبار، وقال: أرسلان خاتون يعني زوجة الخليفة تخدم. وتسأل أن تسبح بهذه المسبحة، وجعل يعتذر من تأخره عن الحضرة، بسبب عصيان أخيه إبراهيم: فقتلته، واتفق موت أخي الأكبر داود أيضا، فاشتغلت بترتيب أولاده من بعده، وكنت عزمت على أن أصمد إلى الحديثة لأصون المهجة الشريفة، ولكن بلغني بحمد الله أمر مولاي أمير المؤمنين الخليفة فرحت بذلك، وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا ذاهب إن شاء الله أمض خلف هذا الكلب البساسيري فأقتله إن شاء الله، ثم أدخل الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغي أن يجازى به من سوء المقابلة بما كان من فعل البساسيري ها هنا. فدعا له الخليفة وشكره على ذلك كل ذلك يترجمه عميد الملك بين الخليفة والملك طغرلبك، وأعطى الخليفة للملك سيفا كان معه، لم يبق معه من أمور الخلافة سواه، واستأذن الملك لبقية الجيش أن يخدموا الخليفة، فرفعت الأستار عن جوانب الخركاة، فلما شاهد الأتراك الخليفة قبلوا الأرض ثم

دخلوا بغداد يوم الاثنين، لخمس بقين من ذي القعدة، وكان يوما مشهودا: الجيش كله معه، والقضاة، والأعيان بين يديه والسلطان آخذ بلجام بغلته، إلى أن وصل باب الحجرة، ثم إنه لما وصل الخليفة إلى دار مملكته، استأذنه السلطان في الذهاب وراء البساسيري فأذن له، وكان قد عزم على أن يمضي معه فقال: يا أمير المؤمنين أنا أكفيك ذلك إن شاء الله. وأطلق الملك لهارش عشرة آلاف دينار فلم يرض، وشرع السلطان في ترتيب الجيوش للمسير وراء البساسيري، فأرسل جيشا من ناحية الكوفة، ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو والناس في التاسع والعشرين من الشهر. وأما البساسيري فإنه مقيم بواسط، في جمع غلات، وتمور يهيئها لقتال أهل بغداد ومن فيها من الغز، وعنده أن الملك طغرلبك، ومن معه، ليسوا بشيء يخاف منه، وذلك لما يريده الله تعالى من إهلاكه، على يدي الملك طغرلبك، جزاه الله عن الإسلام خيراً. آمين.

صفة أخذ البساسيري قبحه الله تعالى

لما سار السلطان نحوه، وصلت إليه السرية الأولى، فلقوه بأرض واسط، ومعه ابن مزيد، فاقتتلوا هنالك، وانهزم أصحابه عنه، ونجا البساسيري بنفسه على فرس، فتبعه بعض الغلمان، فرمى فرسه بنشابة فألقته إلى الأرض، فجاء الغلام فضربه على وجهه، ولم يعرفه، وأسره واحد منهم يقال له: كمشتكين، فحز رأسه، وحمله إلى السلطان وأخذت الأتراك من جيش البساسيري من الأموال فاعجزوا عن حمله.

ولما وصل الرأس إلى السلطان أمر أن يذهب به إلى بغداد، وأن يرفع على قناة، وأن يطاف به في المحال، الدبادب، والبوقات، والنفاطون معه، وأن يخرج الناس، والنساء، للفرجة عليه، ففعل ذلك، ثم نصب على الطيار، تجاه دار الخلافة ولله الحمد والمنة، وقد كان مع البساسيري خلق من البغاددة، خرجوا معه، ظانين أنه سيعود إلى بغداد محبة فيه، فهلكوا، ونهبت أموالهم، ولم ينج من أصحابه إلا القليل، وفر ابن مزيد في ناس قليل إلى البطيحة، ومعه أولاد البساسيري وأمهم، وقد سلبتهم الأعراب فلم يتركوا لهم شيئا فوردوا البطيحة مسلوبين محروبين. ثم استؤمن لابن مزيد من السلطان، ودخل معه بغداد، وقد نهبت العساكر السلطانية ما بين واسط والبصرة، والأهواز، وذلك لكثرة الجيش، وانتشاره، وكثافته، وأما الخليفة، فإنه لما عاد إلى دار الخلافة، جعل لله عليه أن لا ينام على وطاء، ولا يأتيه أحد بطعام إذا كان صائما، ولا يخدمه في وضوئه وغسله أحد، بل يتولى ذلك كله بنفسه لنفسه، وعاهد الله أن لا يؤذي أحدا ممن آذاه، وأن يصفح عمن ظلمه، وكان يقول: ما عاقبت من عصى الله فيك، بأكثر من أن تطيع الله فيه.

وفيها ولي الملك ألب أرسلان بن داود جغريبك بن ميكائيل بن سلجوق بلاد خراسان بعد وفاة أبيه، بتقرير عمه الملك طغرلبك، وكان له من الإخوة ثلاثة، سليمان، وقاروتبك، وياقوتي، فتزوج طغرلبك بأم سليمان. هذا وأوصى له بالملك من بعده.

وكان في هذه السنة بمكة رخص، لم يسمع بمثله، بيع التمر، والبر، كل مائتي رطل بدينار.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أرسلان أبو الحارث البساسيري التركي**، وكان من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة، وكان أولا مملوكا لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليه، فقيل له: البساسيري، وتلقب المظفر، ثم كان مقدما كبيرا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرا دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغا، وبغى، وتمرد، وعتا، وخرج على الخليفة والمسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين، فتم له ما رامه من الأمل الفاسد واستدرج، ثم كان في هذه السنة، وكان دخوله إلى بغداد بأهله في سادس ذي القعدة من سنة خمسين وأربعمائة، ثم اتفق خروجهم منها في سادس ذي القعدة أيضا من سنة إحدى وخمسين بعد سنة هلالية كاملة، ثم كان خروج الخليفة من بغداد، في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول، واتفق قتل البساسيري في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول بعد سنة شمسية، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة.

■ **الحسن بن أبي الفضل: أبو علي الشرمقاني**، المؤدب، المقرئ، الحافظ للقراءات، واختلافها، كان ضيق الحال فرآه شيخه ابن العلاف ذات يوم وهو يأخذ أوراق الخس من دجلة ويأكلها، فأعلم ابن المسلمة بحاله، فأرسل ابن المسلمة غلاما له وأمره أن يذهب إلى الخزانة التي له بمسجده، فيتخذ لها مفتاحا غير مفتاحه، ثم كان كل يوم يضع فيها ثلاثة أرطال من خبز السميد، ودجاجة، وحلاوة السكر، فظن أبو علي الشرمقاني أن ذلك كرامة أكرمه الله بها، وأن هذا الطعام الذي يجده في خزانته من الجنة، فكتمه زمانا وجعل ينشد:

من أطلعوه على سر فباح به … لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

فلما كان في بعض الأيام، ذاكره ابن العلاف في أمره، وقال له فيما قال: أراك قد سمنت فما هذا الأمر، وأنت رجل فقير؟ فجعل يلوح ولا يصرح، ويكني، ولا يفصح، ثم ألح عليه فأخبره أنه يجد كل يوم في خزانته من طعام الجنة ما يكفيه، فقال له: ادع لابن المسلمة، فإنه الذي يفعل معك ذلك، وشرح له صورة الحال، فانكسر ولم يعجبه ذلك.

■ **علي بن محمود بن إبراهيم بن ماخرة أبو الحسن الزوزني**، شيخ الصوفية. وإليه ينسب رباط الزوزني، وقد كان بني لأبي الحسن الحصري شيخه، وقد صحب أبا عبد الرحمن السلمي، وقال: صحبت ألف شيخ، وأحفظ عن كل شيخ حكاية، توفي في رمضان عن خمس وثمانين سنة.

■ **محمد بن علي، بن الفتح بن محمد بن علي أبو طالب الحربي**، المعروف بالعشاري وإنما قيل له ذلك لطول جسده، وقد سمع الدارقطني وغيره، وكان ثقة، دينا، صالحا، كانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، وقد نيف على الثمانين.

■ **الوني الفرضي: الحسين بن محمد أبو عبد الله الوني**، نسبة إلى ون قرية من أعمال قهستان، الفرضي شيخ الخبري، وهو أبو حكيم عبد الله بن إبراهيم، كان الوني إماما في الحساب والفرائض، وانتفع الناس به، توفي في هذه السنة، ببغداد شهيدا، في فتنة البساسيري، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة

في يوم الخميس السابع عشر من صفر، دخل السلطان بغداد، مرجعه

من واسط، بعد قتل البساسيري، وفي يوم الحادي والعشرين منه جلس الخليفةبدار الخلافة، وحضر الملك طغرلبك، ومد سماطا عظيما بين يديه، فأكل الأمراء منه، والعامة، ثم في يوم الخميس ثاني ربيع الأول، عمل الملك طغرلبك سماطاً عظيماً أيضاً.

وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة، قدم الأمير عدة الدين أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين ابن أمير المؤمنين القائم بأمر الله. وجدته وعمته، وله من العمر يومئذ أربع سنين، صحبه أبي الغنائم بن المحلبان، فتلقاه الناس إجلالا لجده، وقد ولي الخلافة بعد ذلك، وسمي المقتدي بأمر الله.

وفي رجب، وقف أبو الحسن محمد بن هلال العتابي دار كتب، وهي دار بشارع ابن أبي عوف من غربي مدينة السلام، ونقل إليها ألف كتاب، عوضا عن دار ازدشير التي أحرقت بالكرخ. وفي شعبان، ملك محمود بن نصر حلب، وقلعتها، فامتدحه الشعراء.

وفيها ملك عطية بن صالح بن مرداس الرحبة، وذلك كله ينتزع من أيدي الفاطميين.

وفيها عاد الملك طغرلبك إلى الجبل وعقد بغداد على العميد بمائة ألف دينار في السنة ولستين بعدها بثلاثمائة ألف دينار فشرع العميد في عمارة الكرخ وأسواقه.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة، غير أن جماعة اجتمعوا إلى الكوفة، وذهبوا مع طائفة من الخفر.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **باي بن جعفر بن باي أبو منصور الجيلي**: من تلامذة الشيخ أبي حامد الإسفراييني، ولي القضاء بباب الطاق، وبحريم دار الخلافة، وسمع الحديث من جماعة، قال الخطيب: وكتبنا عنه، وكان ثقة رحمه الله تعالى.

■ **الحسن بن محمد بن أبي الفضل أبو محمد النسوي الوالي**، سمع الحديث، وكان ذكيا في صناعة الولاية، ومعرفة التهم، من بين الغرماء، بلطيف من الصنيع، كما نقل عنه، أنه أوقف بين يديه جماعة، اتهموا بسرقة، فأتي بكوز ليشرب منه، فرمى به، فانزعج الواقفون إلا واحدا، فأمر به أن يقرر، وقال: السارق يكون جريئا قويا، فوجد الأمر كذلك.

وقد قتل مرة رجلا، في ضرب بين يديه فادعى عليه، عند القاضي أبي الطيب الطبري، فحكم عليه بالقصاص ثم فادى عن نفسه بمال جزيل حتى خلص من القتل.

■ **محمد بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن عمروس، أبو الفضل البزار**، انتهت إليه رياسة الفقهاء المالكين ببغداد، وكان من القراء المجودين، وأهل الحديث المسندين، مع ابن حبابة، والمخلص، وابن شاهين، وقد قبل شهادته أبو عبد الله الدامغاني، وكان أحد المعدلين.

■ **قطر الندى**، ويقال: بدر الدجى، ويقال: علم، أم الخليفة القائم بأمر الله، كانت عجوزا كبيرة، وقد بلغت التسعين وكانت أرمنية، وهي التي احتاجت في زمان البساسيري وألجأتها الحاجة حتى كتبت إليه رقعة تشكو فقرها وحاجتها، فأجرى عليها رزقا، وأخدمها جاريتين وهذا كان من أحسن ما صنع، ثم لم تمت، حتى أقر الله عينها بولدها وأهله، ورجوعهم إلى دار الخلافة، واستمر أمرهم على ما كانوا عليه، ثم توفيت في رجب من هذه السنة، فحضر ولدها الخليفة جنازتها، وكانت حافلة جدا رحمها الله تعالى وأكرم مثواها بمنه وكرمه، آمين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

فيها خطب الملك طغرلبك ابنة الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وقال: هذا شيء لم تجر العادة بمثله، ثم طلب شيئا كثيراً كهيئة الفرار. من ذلك ما كان لزوجته، التي توفيت من الإقطاعات بأرض واسط، وصداق ثلاثمائة ألف دينار، وأن يقيم الملك ببغداد، لا يترحل عنها، ولا يحيد عنها يوما واحدا، فوقع الاتفاق على بعض ذلك، وأرسل إليها بمائة ألف دينار، مع ابنة أخيه داود زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأشياء كثيرة، من آنية الذهب، والفضة، والنثار والجواري والكراع، ومن الجواهر ألفان ومائتي قطعة، من ذلك سبعمائة قطعة من جوهر، وزن القطعة ما بين الثلاث مثاقيل إلى المثقال، وأشياء أخرى. فتمنع الخليفة لفوات بعض الشروط، فغضب عميد الملك الوزير لمخدومه السلطان، وجرت شرور طويلة، اقتضت أن أرسل السلطان كتابا، يأمر فيه، بانتزاع ابنة أخيه السيدة أرسلان خاتون، ونقلها من دار الخلافة إلى دار الملك، حتى تنفصل هذه القضية، فعزم الخليفة على الرحيل من بغداد، وأصلح الطيار فانزعج الناس لذلك، وجاء كتاب السلطان إلى رئيس شحنة بغداد برشق، يأمره بعدم المراقبة، وكثرة العسف في مقابلة رد أصحابه بالحرمان، ويعزم على نقل الخاتون إلى دار المملكة، وأرسل من يحملها إلى البلد التي هو فيها، كل ذلك غضبا على الخليفة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابن الجوزي: وفي رمضان منها، رأى إنسان من الزمنى، رسول الله ﷺ في المنام، وهو قائم، ومعه ثلاثة أنفس، فجاءه أحدهم فقال له: ألا تقوم؟ فقال: لا أستطيع، أنا رجل مقعد. فأخذ بيده فقال: قم فقام، وانتبه، فإذا هو قد برأ، وأصبح يمشي في حوائجه.

وفي ربيع الآخر، استوزر الخليفة أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست الأهوازي، وخلع عليه، وجلس في مجلس الوزارة.

وفي جمادى الآخرة، لليلتين بقيتا منه، كسفت الشمس كسوفا عظيما، جميع القرص، فمكث الناس أربع ساعات، حتى بدت النجوم، وآوت الطيور إلى أوكارها، وتركت الطيران لشدة الظلمة.

وفيها ولي أبو تميم بن معز بن باديس بلاد إفريقية بعد وفاة أبيه صاحبها. وفيها ولي نصر بن نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي ديار بكر بعد أبيه أيضاً.

وفيها ولي شرف الدولة بن قريش بن بدران بلاد الموصل، ونصيبين بعد أبيه، وفيها خلع على طراد ابن محمد الزينبي، الملقب بالكامل وولي نقابة العباسين. وخلع على أسامة بن أبي عبد الله بن علي وقلد، نقابة الطالبيين، ولقب المرتضي. وفيها ضمن أبو إسحاق إبراهيم بن علان اليهودي، ضياع الخليفة من صرصر إلى أوانا، كل سنة بستة وثمانين ألف دينار، وسبعة عشرة ألف كر من غلة. ولم يحج أحد من أهل العراق هذه السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن مروان: أبو نصر الكردي**، صاحب بلاد بكر، وميافارقين، لقبه القادر بالله نصر الدولة، وملك هذه البلاد، ثنتين وخمسين سنة، وتنعم

تنعما لم يقع لأحد من أهل زمانه، ولا أدركه فيه أحد من بعده، وكان عنده خمسمائة سرية، سوى من يخدمهن، وعنده خمسمائة خادم، وكان عنده من المغنيات شيء كثير، كل واحدة مشتراها خمسة آلاف دينار، وأكثر، وكان يحضر في مجلسه من آلات اللّهو والأواني ما يساوي مائتي ألف دينار، وتزوج بعدة من بنات الملوك، وكان كثير المهادنة للملوك. إذا قصده عدو أرسل إليه بمقدار ما يغرمه على حربه ويصالحه بذلك فيرجع عنه.

وقد أرسل إلى الملك طغرلبك بهدية عظيمة، حين ملك العراق، من ذلك حبل من ياقوت، كان لبني بويه، اشتراه منهم بشيء كثير، ومائة ألف دينار عيناً، وغير ذلك، وقد وزر له أبو القاسم المغربي مرتين، ووزر له أيضا أبو نصر محمد بن محمد بن جهير فخر الملك وكانت بلاده من آمن البلاد، وأطيبها، وأكثرها عدلا، وقد بلغه أن الطيور تنجع، فتجمع في الشتاء في الجبال إلى القرى، فيصطادها الناس، فأمر بفتح الأهراء، وإلقاء ما يكفيها من الغلات في مدة الشتاء، فكانت تكون في ضيافته طول الشتاء مدة عمره، توفي في هذه السنة، وقد قارب الثمانين.

قال ابن خلكان: قال ابن الأزرق في «تاريخه»: إنه لم يصادر أحدا من رعيته، سوى رجل واحد، ولم تفته صلاة مع كثرة مباشرته للذات، وكانت له ثلاثمائة وستون حظية، يبيت عند كل واحدة ليلة من السنة، وخلف أولادا كثيرة، ولم يزل على ذلك الحال إلى أن توفي في التاسع والعشرين من شوال من هذه السنة رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة

فيها وردت الكتب الكثيرة من الملك طغرلبك، تشكو من قلة إنصاف الخليفة، وعدم موافقته له، ويذكر ما أسداه إليه من الخير والنعم إلى ملوك الأطراف وقاضي القضاة الدامغاني، فلما رأى الخليفة ذلك، وأن الملك أرسل إلى نوابه بالاحتياط، على أموال الخليفة، كتب إلى الملك يجيبه إلى ما سأل، فلما وصل ذلك إلى الملك، فرح فرحا شديدا، وأرسل إلى نوابه أن يطلقوا أملاك الخليفة فلما انتهت الركابية بذلك إلى بغداد، دقت البشائر بدار الخلافة، وطيف بالركابية وبين أيديهم الدبادب والبوقات، وفرح الناس بإجابة الخليفة إلى ذلك واتفقت الكلمة، بعد أن كادت تتفرق، فوكل الخليفة في العقد، وكتب بذلك وكالة فوقع العقد بمدينة تبريز، بحضرة الملك طغرلبك، وعمل سماطا عظيما، فلما جيء بالوكالة، قام لها الملك، وقبل الأرض عند رؤيتها، ودعا للخليفة دعاء كثيرا، ثم أوجب العقد على صداق أربعمائة ألف دينار، وذلك في يوم الخميس، الثالث عشر من شعبان، من هذه السنة، ثم بعث ابنة أخيه الخاتون أرسلان خاتون زوجة الخليفة في شوال بتحف كثيرة، وجوهر، وذهب كثير، وجواهر عديدة ثمينة، وهدايا عظيمة لأم العروس وأهلها كلهم، وقال الملك جهرة للناس: أنا عبد قن للخليفة ما بقيت، لا أملك شيئا سوى ما عليّ من الثياب.

وفيها عزل الخليفة وزيره. واستوزر أبا نصر محمد بن محمد بن جهير، استقدمه من ميافارقين.

وفيها عم الرخص جميع الأرض، حتى بيع بالبصرة، كل ألف رطل تمر بثمان قراريط واللّه أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **ثمال بن صالح: معز الدولة**، صاحب حلب، كان كريما، حليما، وقورا. ذكر ابن الجوزي، أن الفراش تقدم إليه ليغسل يده، فصدمت بلبلة الإبريق ثنيته، فسقطت في الطست، فعفا عنه رحمه اللّه تعالى.

■ **الحسن بن علي بن محمد، أبو محمد الجوهري**، ولد في شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وسمع الحديث على جماعة، وتفرد بمشايخ كثيرين، منهم أبو بكر بن مالك القطيعي، وهو آخر من حدث عنه، توفي في ذي القعدة منها.

■ **الحسين بن أبي زيد: أبو علي الدباغ**، قال: رأيت رسول اللّه ﷺ في المنام: فقلت: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يحييني على الإسلام، فقال: وعلى السنة وعلى السنة، وعلى السنة رحمه اللّه تعالى.

■ **سعد بن محمد بن منصور: أبو المحاسن الجرجاني**، كان من الرؤساء القدماء، وجه رسولا إلى الملك محمود بن سبكتكين، في حدود سنة عشر، وكان من الفقهاء العلماء تخرج به جماعة، وروى الحديث عن جماعة، وعقد له مجلس المناظرة ببلدان كثيرة، وقتل ظلما، بإستراباذ، في رجب من هذه السنة، رحمه اللّه تعالى وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وأربعمائة

فيها دخل السلطان طغرلبك بغداد، وعزم الخليفة على تلقيه، ثم ترك ذلك، وأرسل وزيره أبا نصر عوضا عنه، وكان من جيش الملك، أذية كثيرة للناس، في الطريق، وتعرضوا للحريم، حتى هجموا على النساء في الحمامات، فخلصهن منهم العامة، بعد جهد جهيد، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

دخول الملك طغرلبك علي بنت الخليفة

لما استقر السلطان طغرلبك ببغداد، أرسل وزيره عميد الملك إلى الخليفة، يطالبه بنقل السيدة من الدار العزيزة النبوية إلى دار المملكة، فتمنع الخليفة من ذلك، وقال: إنكم إنما سألتم أن يعقد العقد فقط لحصول التشريف، والتزمتم لنا بعدم المطالبة بها. فتردد الناس في ذلك بين الخليفة والملك، وأرسل الملك زيادة على النقد مائة ألف دينار، ومائة وخمسين ألف درهم، وتحفا أخر، وأشياء لطيفة، فلما كان ليلة الاثنين، الخامس عشر من صفر، زفت السيدة ابنة الخليفة إلى دار المملكة، فضربت لها السرادقات من دجلة إلى دار المملكة، وضربت الدبادب والبوقات عند دخولها إلى الدار وكانت ساعة عظيمة، فأجلست على سرير مكلل بالذهب، وعلى وجهها برقع، ودخل الملك طغرلبك، فوقف بين يديها، وقبل الأرض، ولم تقم له، ولم تره، ولم يجلس حتى انصرف إلى صحن الدار، والحجاب والأتراك يرقصون هناك فرحا وسرورا، وبعث لها مع الخاتون أرسلان ابنة أخيه زوجة الخليفة عقدين فاخرين، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة هائلة، ودخل من الغد فقبل الأرض، وجلس على سرير مكلل بالفضة بإزائها ساعة، ثم خرج، وأرسل لها جواهر كثيرة ثمينة، وفرجية نسيج بالذهب مكللة باللؤلؤ، وما زال كذلك كل يوم، يدخل، ويقبل الأرض، ويجلس على سرير بإزائها، ثم يخرج، ويبعث بالتحف والهدايا، ولم يكن منه إليها شيء

مقدار سبعة أيام، ويمد كل يوم من هذه الأيام السبعة سماطا هائلا، وخلع في يوم السابع على جميع الأمراء، ثم عرض له سفر، واعتراه مرض، فاستأذن الخليفة في الانصراف بالسيدة معه إلى تلك البلاد مدة قريبة ثم يعود بها، فأذن له الخليفة، بعد تمنع شديد، وحزن عظيم، فخرج بها، وليس معها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة، برسم خدمتها، وقد تألمت والدتها لفقدها ألما شديدا لا يعبر عنه، وخرج السلطان وهو مريض مدنف، مأيوس منه مثقل لا ترجى منه العافية. فلما كانت ليلة الأحد، الرابع والعشرين من رمضان، جاء الخبر بأن الملك طغرلبك توفي في ثامن الشهر رحمه الله تعالى، فثار العيارون بهمذان، فقتلوا العميد والشحنة، وسبعمائة من أصحابه، ونهبوا الأموال، وجعلوا يأكلون ويشربون على القتلى نهارا، حتى انسلخ الشهر لعنهم الله وقبحهم، وأخذت البيعة بعده لولد أخيه سليمان ابن داود، وكان طغرلبك قد نص عليه، وأوصى إليه، لأنه كان قد تزوج بأمه بعد أبيه، واتفقت الكلمة عليه وأنفقت في الأمراء والأتراك الأموال والخلع، ولم يبق عليه خوف إلا من جهة أخي سليمان وهو الملك عضد الدولة، ألب أرسلان، محمد بن داود، فإن الجيش كانوا يميلون إليه ويقبلون عليه، وقد خطب له أهل الجبل، ومعه نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق وزيره، ولما رأى الكندري قوة أمره، خطب له بالري، ثم من بعده لأخيه سليمان بن داود.

وقد كان الملك طغرلبك عاقلا حليما،كثير الاحتمال، شديد الكتمان للسر، محافظا على الصلوات،وعلى صوم الاثنين والخميس،مواظبا على لبس البياض،وكان عمره يوم مات سبعين سنة،ولم يترك ولدا، وكان مدة ملكه بحضرة القائم بأمر الله سبع سنين،وإحدى عشر شهرا،واثني عشر يوما،ولما مات،اضطربت الأحوال،وانتقضت الأمور بعده جدا،وعاثت الأعراب في سواد بغداد وأرض العراق، ينهبون الأموال ويشلحون الرجال ، وتعذرت الزراعة إلا على المخاطرة، فانزعج الناس لذلك.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بواسط وأرض الشام، فهدمت قطعة من سور طرابلس.

وفيها وقع بالناس موتان بالجدري والفجاة، ووقع بمصر وباء شديد، كان يخرج منها كل يوم ألف جنازة.

وفيها ملك الصليحي صاحب اليمن مكة، وجلب الأقوات إليها، وأحسن إلى أهلها.

وفي أوائل هذه السنة طلبت الست أرسلان خاتون، زوجة الخليفة، النقلة من عنده إلى عمها، وذلك لما هجرها بالكلية، وبارت عنده، فبعثها مع الوزير الكندري إلى عمها، فلما وصلت إليه، كان مريضا مدنفاً مثقلاً، فأرسل إلى الخليفة يعتب عليه في تهاونه بها، فكتب الخليفة إليه ارتجالا:

ذهبت شرتي وولى الغرام وارتجاع الشباب ما لا يرام
أذهبت مني الليالي جديدا والليالي يضعفن والأيام
فعلى ما عهدته من شبابي وعلى الغانيات مني السلام

ومن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ زهير بن علي بن الحسن بن حذام أبو نصر الحذامي، ورد بغداد، فتفقه على الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وسمع بالبصرة «سنن أبي داود»، على القاضي أبي عمر، وحدث بالكثير، وكان يرجع إليه في الفتاوى وحل المشكلات، وكانت وفاته بسرخس في هذه السنة.

■ سعيد بن مروان، صاحب آمد، ويقال: إنه سم، فانتقم سعيد صاحب ميافارقين ممن سمه، فقطعه قطعا.

الملك الكبير أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب

■ طغرلبك، كان أول ملوك السلاجقة، وكان خيرا مصليا، محافظا على الصلوات في أول أوقاتها، يديم صيام الاثنين والخميس، حليما عمن أساء إليه، كتوما للأسرار، سعيدا في حركاته وتقلباته، ملك في أيام مسعود بن محمود سبكتكين عامة بلاد خراسان، واستناب أخاه داود، وأخاه لأمه إبراهيم بن ينال، وأولاد إخوته، على كثير من البلاد. ثم استدعاه الخليفة لملك العراق حين فسد الحال ببغداد من البساسيري وضعف الملك الرحيم فقدمها وجلس له الخليفة وخلع عليه سبع خلع ولقبه بملك المشرق والمغرب ثم اشتغل بقتال أخيه إبراهيم حتى كان من أمر البساسيري ما ذكرناه في سنة خمسين والتي تليها ثم ظفر بأخيه إبراهيم فقتله ثم عاد إلى بغداد فاستعادها وأعاد الخليفة من حديثة عانة إلى دار خلافته ومقر سعادته ثم سعى في التزويج ببنت الخليفة فتزوجها بعد تمنع من الخليفة ودخل بها في هذه السنة ففرح فرحاً شديداً كما ذكرنا ولكنه لم يتمتع بها فإنه عرض له مرض متلف واستمر به حتى كانت وفاته في ثامن رمضان من هذه السنة، وله من العمر سبعون سنة، وكان له في الملك مدة ثلاثين سنة، منها في مملكة العراق، ثمان سنين إلا ثمانية عشر يوما.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وأربعمائة

فيها قبض السلطان ألب أرسلان على وزير عمه عميد الملك الكندري، وسجنه بعض القلاع سنة، ثم أرسل إليه من قتله، واعتمد في الوزارة على نظام الملك، وكان وزير صدق، يكرم العلماء والفقراء ولما عصى الملك شهاب الدولة قتلمش، وخرج عن الطاعة، وطمع في أخذ الملك من ألب أرسلان وكان من بني عم طغرلبك فجمع وحشد واحتفل له ألب أرسلان فقال له الوزير: أيها الملك، لا تخف، فإني قد استخدمت لك جنداً ليلياً يدعون لك، وينصرونك، بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء، والصلحاء. فطابت نفس الملك بذلك، فحين التقى مع قتلمش، لم ينظره أن كسره، وقتل خلقا من جنوده، وقتل قتلمش في المعركة، واجتمعت الكلمة على ألب أرسلان.

وفيها أرسل ولده ملكشاه، ووزيره نظام الملك هذا، في جنود عظيمة، إلى بلاد الكرج، ففتحوا حصونا كثيرة، وغنموا أموالا جزيلة، وفرح المسلمون بنصرهم، وكتب كتاب ولده على ابنة الخان الأعظم، صاحب ما وراء النهر، وزوج ابنه الآخر بابنة صاحب غزنة، واجتمع شمل البيتين السلجوقي، والمحمودي.

وفيها أذن ألب أرسلان للسيدة ابنة الخليفة في الرجوع إلى بغداد، وأرسل معها بعض القضاة والأمراء، فدخلت بغداد، في تجمل عظيم، وخرج الناس لينظروا إليها، فدخلت ليلا في أبهة عظيمة، ففرح الخليفة وأهلها بذلك، وأمر الخليفة بالدعاء للملك ألب لألب أرسلان على المنابر في الخطب، فقيل في الدعاء: اللّهم، وأصلح السلطان المعظم، عضد الدولة، وتاج الملة ألب ارسلان، أبا شجاع محمد بن داود. وجلس الخليفة للناس جلوساً عاماً وبايعهم للملك ألب ارسلان ثم أرسل الخليفة إلى الملك، بالخلع، والتقليد، مع الشريف نقيب النقباء، طراد بن محمد الزينبي، وأبي محمد التميمي، وموفق الخادم ولقب الوزير نظام الملك قوام الدين والدولة

رضيّ أمير المؤمنين، وإنما كان يقال له قبل ذلك: خواجا بزرك. وأرسل الملك ألب أرسلان بالهدايا والتحف النفسية المتخرة. واستقر أمر السلطان ألب أرسلان على بغداد وجميع بلاد العراق.

قال ابن الجوزي: وفي ربيع الأول شاع في بغداد أن قوما من الأكراد خرجوا يتصيدون، فرأوا في البرية خياما سودا، سمعوا بها لطما شديدا، وعويلا كثيرا، وقائلا يقول: قد مات سيدوك ملك الجن، وأي بلد لم يلطم به عليه، ولم يقم له مأتم فيه قلع أصله وأهلك أهله. قال: فخرج النساء العواهر من حريم بغداد إلى المقابر، يلطمن ثلاثة أيام، ويخرقن ثيابهن، وينشرن شعورهن، وخرج رجال من السفهاء يفعلون ذلك، وفعل هذا بواسط، وخوزستان، وغيرها من البلاد، قال: وهذا من الحمق، لم ينقل مثله.

قال ابن الجوزي: وفي يوم الجمعة ثاني عشر شعبان، هجم قوم من أصحاب عبد الصمد، علي أبي علي بن الوليد، المدرس للمعتزلة فسبوه،وشتموه، لامتناعه من الصلاة في الجامع، وتدريسه للناس بهذا المذهب وأهانوه، وجروه، ولعنت المعتزلة في جامع المنصور، وجلس أبو سعيد بن أبي عمامة، وجعل يلعن المعتزلة. وفي شوال، ورد الخبر أن السلطان غزا بلدا عظيما، فيه سبعمائة ألف دار وألف بيعة، وقتل منهم خلقا كثيرا، وأسر خمسمائة إنسان.

وفي ذي القعدة، حدث بالناس وباء شديد ببغداد وغيرها من بلاد العراق، وغلت أسعار الأدوية، وقل التمرهندي، وزاد الحر في تشارين، وفسد الهواء. وفي هذا الشهر، خلع على أبي الغنائم المعمر بن محمد بن عبيد الله العلوي بنقابة الطالبيين، وولاية الحج، والمظالم، ولقب بالطاهر ذي المناقب وقرئ تقليده في الموكب. وحج أهل العراق في هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن حزم الظاهري:** هو الإمام الحافظ العلامة، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي، أصل جده من فارس، أسلم، وخلف المذكور، وهو أول من دخل منهم بلاد المغرب، وكانت بلدتهم قرطبة، فولد ابن حزم هذا بها، في سلخ رمضان، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، فقرأ القرآن، واشتغل بالعلوم الشرعية، فبرز فيها، وفاق أهل زمانه، وصنف الكتب المفيدة الشهيرة، يقال: إنه صنف أربعمائة مجلد، في قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان أديبا، طبيبا شاعرا، فصيحا، له في الطب، والمنطق اليد العالية، وكان من بيت وزارة، ورياسة، ووجاهة، ومال، وثروة، وكان مصاحبا للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري، ومناوئا للشيخ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، وقد جرت بينهما مناظرات يطول شرحها. وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء يخالفون الأحاديث الصحيحة، بلسانه، وقلمه، فأورثه ذلك حقدا في قلوب أهل زمانه، وما زالوا به حتى بغضوه إلى ملوكهم، فطردوه عن بلاده، حتى كانت وفاته في قرية له، في ثاني شعبان من هذه السنة، وقد جاوز التسعين.

والعجب كل العجب منه، أنه كان ظاهريا حائرا في الفروع، لا يقول بشيء من القياس، لا الجلي، ولا غيره، وهذا الذي وضعه عند العلماء، وأدخل عليه خطأ كبيرا في نظره وتصرفه، وكان مع هذا من أشد الناس تأويلا، في باب الأصول، وآيات الصفات، وأحاديث الصفات، لأنه كان أولا، قد تضلع من علم المنطق، أخذه عن محمد بن الحسن المذحجي الكناني القرطبي، ذكره ابن ماكولا، وابن خلكان رحمه الله تعالى، ففسد بذلك حاله في باب الصفات.

■ **عبد الواحد بن برهان بن علي بن هاني:** أبو القاسم النحوي، كان شريف الأخلاق جدا، لم يلبس سراويل قط، ولا غطي رأسه، ولم يقبل غطاء لأحد، وذكر عنه أنه كان يقبل المرد من غير ريبة.

قال ابن عقيل: وكان على مذهب مرجئة المعتزلة، وينفي خلود الكفار في النار، ويقول: دوام العقاب في حق من لا يجوز عليه التشفي، لا وجه له، مع ما وصف الله به نفسه من الرحمة، ويتأول قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة ١٠٠] أي أبدا من الآباد. قال ابن الجوزي: وقد كان ابن برهان يقدح في أصحاب أحمد، ويخالف اعتقاد المسلمين، لأنه قد خالف الإجماع، ثم ذكر كلامه في هذا وغيره، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وأربعمائة

فيها سار جماعة للحج بخفارة، فلم يمكنهم المسير، فعدلوا إلى الكوفة، ورجعوا.

وفي ذي الحجة منها، شرع في بناء المدرسة النظامية ببغداد، ونقض لأجلها دور كثيرة، من مشرعة الزوايا، وباب البصرة.

وفيها كانت حروب كثيرة، بين تميم بن المعز بن باديس، وأولاد حماد والعرب، والمغاربة، بصنهاجة، وزناتة.

وحج بالناس من بغداد النقيب أبو الغنائم.

وفيها كان مقتل عميد الملك الكندري، وهو محمد بن منصور بن محمد أبو نصر الكندري، وزير طغرلبك، وكان مسجونا له سنة تامة، ولما قتل،حمل فدفن عند أبيه، بقرية كندر من عمل طريثيث وليست بكندر التي هي بالقرب من قزوين واستحوذ السلطان على أمواله وحواصله، وقد كان ذكيا، فصيحا، شاعرا، لديه فضائل جمة، حاضر الجواب، سريعه. ولما أرسله طغرلبك إلى الخليفة يخطب إليه ابنته، وامتنع الخليفة من ذلك، وأنشد متمثلا بقول المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

فتمّمه الوزير:

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فسكت الخليفة، وأطرق.

وكان عُمر الكندري حي. قتل نيفاً وأربعين سنة. ومن شعره الجيد قوله:

إن كان في الناس ضيق عن منافستي ... فالموت قد وسع الدنيا على الناس

مضيت والشامت المغبون يتبعني ... كلٌ لكأس المنايا شارب حاسي

وقد كان الملك طغرلبك بعثه مرة ليخطب له امرأة خوارزم شاه، فتزوجها هو، فخصاه وأقره الملك، على عمله، فدفن ذكره بخوارزم، وسفح دمه حين قتل بمرو الروذ، ودفن جسده بكندر، وحمل رأسه، فدفن بنيسابور، ونقل قحف رأسه إلى كرمان.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

في يوم عاشوراء، أغلق أهل الكرخ دكاكينهم، وأحضروا نساء ينحن على الحسين، كما جرت به عادتهم السالفة، في بدعتهم المتقدمة المخالفة، فحين وقع ذلك، أنكرته العامة، وطلب الخليفة أبا الغنائم نقيب الطالبيين، وأنكر عليه ذلك. فاعتذر إليه بأنه لم يعلم به، وأنه حين علم به أزاله، وتردد أهل الكرخ إلى الديوان يعتذرون من ذلك، ويتنصّلون منه وخرج التوقيع بكفر من سب الصحابة وأظهر البدع.

قال ابن الجوزي: في ربيع الأول، ولد بباب الأزج صبية لها رأسان، ووجهان، ورقبتان وأربع أيد، على بدن كامل، ثم ماتت.

قال: وفي جمادى الآخرة، كانت بخراسان زلزلة مكثت أياما، تصدعت منها الجبال، وهلك جماعة، وخسف بعدة قري، وخرج الناس إلى الصحراء، وأقاموا هنالك، ووقع حريق بنهر معلى من بغداد فأحرق مائة دكان، وثلاثة دور، وذهب للناس شيء كثير، ونهب بعضهم بعضا.

قال ابن الجوزي: وفي شعبان، وقع قتال بدمشق، فضربوا دارا كانت قريبة من الجامع، فاحترق جامع دمشق. كذا قال ابن الجوزي. والمشهور، أن حريق جامع دمشق، إنما كان في سنة إحدى وستين وأربعمائة، بعد ثلاث سنين. وأن غلمان الفاطميين اقتتلوا مع غلمان العباسيين فألقيت نار بدار الإمارة وهي الخضراء فاحترقت، وتعدى حريقها حتى وصل إلى الجامع، فسقطت سقوفه، وبادت زخرفته،وتلف رخامه، وبقي كأنه خربة، وبادت الخضراء، فصارت كوما من تراب، بعد ما كانت في غاية الإحكام، والإتقان، وطيب الغناء وحسن البناء، فهي إلى يومنا هذا لا يسكنها لرداءة مكانها إلا سفلة الناس وسقاطهم، بعد ما كانت دار الملك والإمارة، منذ أسسها معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه.

وأما الجامع الأموي، فإنه لم يكن على وجه الأرض، بناء أحسن منه، ولا أبهى منظرا، إلى أن احترق، فبقي خرابا مدة طويلة، ثم شرع الملوك في تجديده وترميمه، حتى بلط في زمن العادل أبي بكر بن أيوب، ولم يزل في تحسين معالمه إلى زماننا هذا، فتماثل حاله بعض التماثل، وهو بالنسبة إلى حاله الأول كلا شيء، ولا زال التحسين فيه إلى أيام الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الناصري، في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وما قبلها، وما بعدها بيسير رحمه الله.

وفيها رخصت الأسعار ببغداد، رخصاً بيّناً، ونقصت دجلة نقصا ظاهراً.

وفيها أخذ الملك ألب أرسلان العهد، بالملك من بعده، لولده ملكشاه، ومشى بين يديه بالغاشية، والأمراء بين يديه يتماشون بالخلع، وكان يوماً مشهوداً.

وحج بالناس في هذه السنة، نور الهدى أبو طالب الحسين بن نظام الحضرتين الزينبي، وجاور بمكة.

وممن توفي فيها من الأعيان

الحافظ الكبير أبو بكر: أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى بكر

■ البيهقي، أحد الحفاظ الكبار له التصانيف التي سارت بها الركبان في سائر الأمصار والأقطار، ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وكان واحد زمانه، في الإتقان، والحفظ، والفقه، والتصنيف كان فقيها، محدثا، أصوليا، أخذ العلم عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، وسمع على غيره شيئا كثيرا، وجمع أشياء كثيرة نافعة جداً لم يسبق إلى مثلها، ولا يدرك فيها، من ذلك كتاب السنن الكبير، ونصوص الشافعي، كل في عشرة مجلدات، والسنن، والآثار، والمدخل، والآداب، وشعب الإيمان، والخلافيات، ودلائل النبوة، والبعث والنشور، وغير ذلك من المصنفات الكبار والصغار المفيدة، التي لا تسامى، ولا تدانى، وكان زاهدا، متقللا من الدنيا، كثير العبادة والورع رحمه الله تعالى.

وكانت وفاته بنيسابور، ونقل تابوته إلى بيهق في جمادى الأولى من هذه السنة.

■ الحسن بن غالب بن علي بن غالب بن منصور بن صعلوك، أبو علي التميمي، ويعرف بابن المبارك المقرئ، صحب ابن سمعون، وقرأ القرآن على حروف أنكرت عليه، وجرب عليه الكذب، إما عمداً وإما خطأ، واتهم في روايات كثيرة، وكان أبو الحسن القزويني ممن ينكر عليه، وكتب عليه محضر وأُلزم بعدم الإقراء.

قال أبو محمد بن السمرقندي: كان كذاباً وكانت وفاته في هذه السنة عن اثنين وثمانين سنة، ودفن عند إبراهيم الحربي.

قال ابن خلكان: أخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي، ثم غلب عليه الحديث، واشتهر به، ورحل في طلبه.

القاضي

■ أبو يعلى الحنبلي: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء القاضي أبو يعلى شيخ الحنابلة، وممهد مذهبهم في الفروع، ولد في محرم، سنة ثمانين وثلاثمائة، وسمع الحديث الكثير، وحدث عن ابن حبابة.

قال ابن الجوزي: وكان من سادات العلماء الثقات، وشهد عند ابن ماكولا، وابن الدامغاني، فقبلاه، وتولى النظر في الحكم بحريم دار الخلافة، وكان إماما في الفقه، له التصانيف الحسان الكثيرة في مذهب أحمد، ودرس، وأفتى سنين، وانتهت إليه رياسة المذهب، وانتشرت تصانيفه، وأصحابه، وجمع الإمامة، والفقه، والصدق، والعفة وحسن الخلق، والتعبد، والتقشف، والخشوع، وحسن السمت، والصمت عما لا يعني.

كانت وفاته في العشرين من رمضان من هذه السنة، عن ثمان وسبعين سنة، واجتمع في جنازته القضاة والأعيان من الفقهاء والشهود، وكان يوما حارا، فأفطر بعض من اتبع جنازته ذلك اليوم، وترك من البنين عبيد الله أبا القاسم، وأبا حازم وأبا الحسين.

ورآه بعضهم في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال له: رحمني، وغفر لي، وأكرمني، ورفع منزلتي وجعل يعدّ ذلك بأصبعه، فقال: أبالعلم؟ فقال: بل بالصدق رحمه الله تعالى.

■ ابن سيده اللغوي: أبو الحسين علي بن إسماعيل المرسي، كان إماما حافظا للغة،وكان ضرير البصر، أخذ علم العربية واللغة عن أبيه، وكان أبوه ضريرا أيضا، واشتغل على أبي العلاء صاعد البغدادي، وله المحكم في مجلدات عديدة، وله شرح الحماسة في ستة مجلدات، وغير ذلك، وقرأ على الشيخ أبي عمر الطلمنكي كتاب الغريب لأبي عبيد سردا من حفظه، وكان الشيخ يقابل بما يقرأ في الكتاب فسمع الناس بقراءته من حفظه وتعجبوا لذلك.

توفي في ربيع الأول منها، وله ستون سنة، وقيل إنه توفي في سنة ثمان

وأربعين، والأول أصح، والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وأربعمائة

فيها بنى أبو سعد المستوفى، الملقب بشرف الملك، مشهد الإمام أبي حنيفة النعمان ببغداد، وعقد عليه قبة، وعمل بإزائه مدرسة، وأنزلها المُدَرِّسَ والفقهاء فدخل أبو جعفر بن البياضي زائرا لأبي حنيفة، فأنشد ارتجالا:

ألم تـر أن العلـم كـان مضيعـا		فجمعـه هـذا المغيـب في اللحـد

كذلـك كـانت هـذه الأرض ميتـة		فأنشرها جود العميـد أبي السـعود

وفي شعبان هبت ريح حارة، فمات بسببها خلق كثير، ودواب ببغداد وأتلفت شجر كثير من الليمون والأترج.

وفيها احترق قبر معروف الكرخي، وكان سببه أنّ القيم طبخ له ماء الشعير لمرضه، فتعدت النار إلى الأخشاب، فاحترق المشهد بكماله.

وفيها وقع غلاء وفناء بدمشق، وحلب، وحران، وأعمال خراسان بكمالها، وقع الفناء في الدواب وكانت تنتفخ رؤوسها، وأعينها، حتى كان الناس يأخذون حمر الوحش بالأيدي، ولكن يأنفون من أكلها.

قال ابن الجوزي في المنتظم [١٠٢/١٦]: وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة، جمع العميد أبو سعد القاضي الناس لحضور الدرس بالنظامية ببغداد، وعين لتدريسها ومشيختها الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، فلما تكامل اجتماع الناس، وجاء أبو إسحاق ليدرس، لقيه فقيه شاب، فقال: يا سيدي، تذهب تدرس في مكان مغصوب؟ فامتنع أبو إسحاق من الحضور، ورجع إلى بيته، فأقيم الشيخ أبو نصر الصباغ، فدرس، فلما بلغ نظام الملك ذلك، تغيظ على العميد، وأرسل إلى الشيخ أبي إسحاق، فرده إلى التدريس بالنظامية، في ذي الحجة من هذه السنة، وكان لا يصلي فيها مكتوبة، بل كان يخرج إلى بعض المساجد فيؤدي المكتوبة، لما ذُكر من كونها في بعض أرضها غصب، وقد كان مدة تدريس ابن الصباغ فيها عشرين يوما، ثم عاد أبو إسحاق إليها.

وفي ذي القعدة، من هذه السنة، قتل الصليحي أمير اليمن وصاحب مكة، قتله بعض أمراء اليمن، وخطب بها للقائم بالله العباسي.

وفيها حج بالناس في هذه السنة أبو الغنائم النقيب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن إسماعيل بن محمد: أبو علي الطوسي**، ويقال له العراقي، لظرفه، وطول مقامه بها.

سمع الحديث من أبي طاهر المخلص، وتفقه على أبي محمد الباقي، ثم على الشيخ أبي حامد الإسفرايني، وولي قضاء بلدة طوس، وكان من الفقهاء الفضلاء المبرزين رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ستين وأربعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

قال ابن الجوزي: في جمادى الأولى، كانت زلزلة شديدة بأرض فلسطين، أهلكت بلد الرملة، ورمت شرافتين من مسجد رسول الله ﷺ ولحقت وادي الصفر وخيبر، وانشقت الأرض عن كنوز كثيرة من المال، وبلغ حسها إلى الرحبة والكوفة، وجاء كتاب بعض التجار في هذه الزلزلة، يقول: إنها خسفت الرملة جميعا، حتى لم يسلم منها إلا داران فقط، وهلك منها خمس عشرة ألف نسمة، وانشقت الصخرة التي ببيت المقدس، ثم عادت فالتأمت، بقدره الله تعالى وغار البحر مسيرة يوم، وساخ في الأرض، وظهر مكان الماء أشياء من جواهر وغيرها، ودخل الناس إلى أرضه يلتقطون، فرجع عليهم، فأهلك كثيرا منهم، أو أكثرهم.

وفي يوم السبت النصف من جمادى الآخرة، قرئ الاعتقاد القادري، الذي فيه مذهب أهل السنة، والجماعة والإنكار على أهل البدع، وقرأ أبو مسلم الليثي البخاري المحدث كتاب التوحيد لابن خزيمة على الجماعة الحاضرين وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير، وجماعة الأعيان من الفقهاء، وأهل الكلام، واعترفوا بالموافقة، ثم قرئ الاعتقاد القادري على الشريف أبي جعفر بن المهتدي بالله بباب البصرة، وذلك لسماعه له من الخليفة القادر بالله مصنفه.

وفيها عزل الخليفة وزيره أبا نصر بن محمد بن محمد بن جهير، الملقب فخر الدولة، وبعث إليه يعاتبه في أشياء كثيرة، فاعتذر منها، وأخذ في الترفق، والتذلل، فأجيب بأن يرحل إلى أي الجهات شاء، فاختار حلة ابن مزيد، فباع أصحابه أموالهم وأملاكهم، وطلقوا نساءهم، وأخذ أولاده وأهله، وجاء ليركب في سُميرية، لينحدر منها إلى الحلة، والناس حوله يتباكون لبكائه، فلما اجتاز بدار الخلافة، قبل الأرض دفعات، والخليفة في الشباك، والوزير يقول: يا أمير المؤمنين، ارحم شيبتي وغربتي، وأولادي وعيالي. فأعيد إلى الوزارة، بشفاعة دبيس بن مزيد في السنة الآتية، وامتدحه الشعراء، وفرح الناس برجوعه إلى الوزارة، وكان يوم دخوله ببغداد يوما مشهودا بكثرة الناس وتباكيهم فرحا بقدومه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الملك بن محمد بن يوسف أبو منصور**: الملقب بالشيخ الأجل، كان أوحد زمانه، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمبادرة إلى فعل الخيرات، واصطناع الأيادي عند أهلها من أهل السنة مع شدة القيام على أهل البدع وقمعهم، وافتقاد المستورين، بالبر والصدقة على المحاويج، وإخفاء ذلك جهده وطاقته، ومن غريب ما وقع له: أنه كان يبرُّ إنسانا في كل سنة بعشرة دنانير، يكتب له بها على رجل يقال له ابن رضوان، فلما توفي الشيخ جاء الرجل إلى ابن رضوان، فقال: ادفع إليّ ما كان يصرف لي الشيخ فقال له ابن رضوان: الذي كان يكتب لك عليّ قد مات ولا أقدر أن أصرف لك شيئا فجاء الرجل إلى قبر الشيخ الأجل، فقرأ شيئا من القرآن، ودعا له، وترحم عليه، ثم التفت، فإذا هو بكاغد فيه عشرة دنانير، فأخذها، وجاء بها إلى ابن رضوان، فذكر له ذلك، فقال له ابن رضوان: هذه سقطت مني اليوم عند قبره، فخذها، ولك عليَّ في كل يوم مثلها.

كانت وفاته في المتصف من محرم من هذه السنة، عن خمس وستين سنة، وكان يوم موته يوما مشهودا، حضره خلق لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل، فرحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

أبو جعفر

■ **محمد بن الحسن الطوسي**: فقيه الشيعة توفي في هذه السنة، ودفن بمشهد علي، وكان مجاورا به حين احترقت داره بالكرخ،وكتبه،سنة ثمان

وأربعين إلى المحرم من هذه السنة، فتوفي، ودفن هناك.

■ خديجة بنت محمد بن علي بن عبد الله الواعظ المعروفة بالشاهجانية ولدت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وكانت صالحة صادقة وكانت قد صحبت ابن سمعون وروت عنه وعن ابن شاهين ودفنت إلى جانب ابن سمعون رحمها الله

ثم دخلت سنة إحدى وستين وأربعمائة

في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة، كان حريق جامع دمشق، وكان سببه أن غلمان الفاطميين والعباسيين اختصموا فيما بينهم، فألقيت نار بدار الملك، وهي الخضراء، المتاخمة للجامع، من جهة القبلة، فاحترقت، وسرى الحريق إلى الجامع، فسقطت سقوفه، وتناثرت فصوصه المذهبة التي على جدرانه وتقلعت الفسيفساء التي كانت في أرضه، وعلى جدرانه، وتغيّرت معالمه ومحاسنه وتبدلت بهجته بضدها، وقد كانت سقوفه مذهبة مبطنة كلها، والجملونات من فوقها، وجدرانه بالفصوص المذهّبة الملونة، مصور فيها جميع بلاد الدنيا، بحيث إن الإنسان إذا أراد أن يتفرج في إقليم، أو بلد، وجده في الجامع مصورا كهيئته، فلا يسافر إليه، ولا يعنى في طلبه، فقد وجده من قرب، الكعبة، ومكة في المحراب، والبلاد كلها، شرقا، وغربا، كل إقليم في مكانه اللائق به، ومصور فيه كل شجرة مثمرة، وغير مثمرة، مشكلة مصور في بلدانه، وأوطانه، والستور مرخاة على أبوابه النافذة إلى الصحن، وعلى أصول الحيطان، إلى مقدار الثلث منها وباقي الجداران بالفصوص الملونة، وأرضه كلها بالفصوص، ليس فيها بلاط، بحيث إنه لم يكن في الدنيا بناء أحسن منه، لا قصور الملوك، ولا دور الخلفاء فضلا عن غيرها، ثم لما وقع هذا الحريق فيه، تبدل الحال الكامل بضده، وصارت أرضه طينا في زمن الشتاء، وغبارا في زمن الصيف، محفورة مهجورة، ولم يزل كذلك حتى بلط أرضه في زمن العادل أبي بكر بن أيوب بعد الستمائة سنة من الهجرة، وكان جميع ما سقط منه من الرخام وغيره من الأخشاب مودعا في المشاهد الأربعة، شرقية وغربية حتى فرغها من ذلك القاضي كمال الدين الشهرزوري، في زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، حين ولاه نظره، مع القضاء، ونظر الأوقاف كلها، ونظر دار الضرب، وغير ذلك، ولم تزل الملوك تجدد في محاسنه إلى زماننا هذا، فتقارب حاله في زمن الأمير سيف الدين تانكز بن عبد الله الناصري نائب الشام أثابه الله تعالى، وقد أرّخ الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في المنتظم [٩٦/١٦] هذا الحريق في سنة ثمان وخمسين، وتبعه ابن الساعي في تاريخه، والصواب أنه في هذه السنة كما ذكره ابن الساعي أيضاً في هذه السنة وشيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي مؤرخ الإسلام في تاريخه، وغير واحد والله أعلم.

وفيها نقمت الحنابلة، على الشيخ أبي الوفاء بن عقيل، وهو من كبرائهم، بتردده إلى أبي علي بن الوليد، المتكلم، المعتزلي، واتهموه بالاعتزال، وإنما كان يتردد إليه ليحيط علما بمذهبه، ولكن سرقه الهوى، وصارت فيه نزعة منه، وجرت بينه وبينهم فتنة طويلة، وتأذى بسببها جماعة منهم، وما سكنت الفتنة بينهم إلى سنة خمس وستين، ثم اصطلحوا فيما بينهم بعد اختصام كثير.

وفيها زادت دجلة على إحدى وعشرين ذراعا، حتى دخل الماء مشهد أبي حنيفة ومشهد النذور.

وفيها ورد الخبر بأن الأفشين، دخل بلاد الروم، حتى انتهى إلى عمورية، فقتل خلقا، وغنم أموالا كثيرة.

وفيها كان رخص عظيم في الكوفة، حتى بيع السمك كل أربعين رطلا بحبة.

في هذه السنة حج بالناس أبو الغنائم العلوي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الفوراني: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران الفوراني، المروزي، أحد أئمة الشافعية، ومصنف الإبانة، التي فيها من النقول الغريبة، والأقوال، والأوجه، التي لا توجد إلا فيها، كان بصيرا بالأصول، والفروع، وأخذ الفقه عن أبي بكر القفال، وحضر إمام الحرمين عنده وهو صغير فلم يلتفت إليه، فصار في نفسه منه، فهو يخطئه كثيرا في النهاية.

قال القاضي ابن خلكان: فمتى قال في النهاية: وقال بعض المصنفين كذا، وغلط في ذلك، وشرع في الوقوع فيه، فمراده أبو القاسم الفوراني.

وكانت وفاته في رمضان من هذه السنة بمرو، عن ثلاث وسبعين سنة، وقد كتب تلميذه أبو سعد عبد الرحمن بن محمد المأمون المعري مدرس بالنظامية، بعد الشيخ أبي إسحاق، وقبل ابن الصباغ، وبعده أيضا، كتابا على الإبانة، فسماه تتمة الإبانة، انتهى فيه إلى كتاب الحدود، ومات قبل إتمامه، فتممه أسعد العجلي، وغيره، فلم يلحقوا شأوه، ولا حاموا حوله، وسموه تتمة التتمة رحمهم الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وأربعمائة

قال ابن الجوزي: فمن الحوادث فيها، أنه كان على ثلاث ساعات من يوم الثلاثاء، الحادي عشر من جمادى الأولى، وهو الثامن عشر من آذار، كانت زلزلة عظيمة بالرملة وأعمالها، فذهب أكثرها، وانهدم سورها، وعم ذلك بيت المقدس، وتنّيس، وانخسفت أيلة، وانجفل البحر حتى انكشفت أرضه، ومشى ناس فيه، ثم عاد وتغيرت، إحدى زوايا جامع مصر، وتبعت هذه الزلزلة في ساعتها زلزلتان أخريان.

وفيها توجه ملك الروم من قسطنطينية إلى الشام في ثلاثمائة ألف مقاتل، فنزل على منبج، وأحرق القرى ما بين منبج إلى أرض الروم، وقتل رجالهم، وسبى نساءهم وأولادهم، وفزع المسلمون بحلب، وغيرها فزعا عظيما، فأقام ستة عشر يوما، ثم رده الله خاسئا، وذلك لقلة ما معهم من الميرة، وهلاك أكثر جيشه بالجوع، ولله الحمد والمنة.

وفيها ضاقت يد أمير مكة، فأخذ الذهب من أستار الكعبة، والميزاب وباب الكعبة، فضرب كلّ ذلك دراهم ودنانير، وكذا فعل صاحب المدينة بالقناديل التي في المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة والسلام.

وفي هذه السنة كان غلاء شديد وقحط عظيم بديار مصر، بحيث إنهم أكلوا الجيف، والميتات، والكلاب، فكان يباع الكلب بخمسة دنانير، وماتت الفيلة، فأُكلت، وأفنيت الدواب، فلم يبق لصاحب مصر، سوى ثلاثة أفراس، بعد العدد الكثير منها.

ونزل الوزير يوما عن بغلته، فغفل الغلام عنها، لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر، فذبحوها،وأكلوها، فأخذوا، فصلبوا، فأصبحوا فإذا عظامهم بادية قد أكل الناس لحومهم، وظهر على رجل يقتل الصبيان

والنساء، ويدفن رؤوسهم، وأطرافهم، ويبيع لحومهم، فقُتل.

وكانت الأعراب يقدمون بالطعام، يبيعونه في ظاهر البلد، لا يتجاسرون يدخلون، لئلا يخطف وينهب منهم، وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميته نهارا، وإنما يدفنه ليلا خفية، لئلا ينبش فيؤكل. واحتاج صاحب مصر، حتى باع أشياء كثيرة من نفائس ما عنده، من ذلك أحد عشر ألف درع، وعشرون ألف سيف محلى، وثمانون ألف قطعة بلور كبار، وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج القديم، وبيعت ثياب النساء والرجال، وسَجْفُ المُهود بأرخص الأثمان، وكذلك الأملاك وغيرها، وقد كان بعض هذه النفائس الخليفية، مما نهب من بغداد في أيام البساسيري.

وفيها وردت الخدم والتحف والهدايا من الملك ألب أرسلان إلى الخليفة القائم بأمر الله.

وفيها ضرب اسم ولي العهد ابن الخليفة على الدنانير والدراهم، وسُمِّي الأميري ومنع التعامل بغيرها.

وفيها ورد كتاب صاحب مكة إلى الملك ألب أرسلان، وهو بخراسان، يخبره بإقامة الخطبة، للقائم بأمر الله، وللسلطان بمكة، وقطع الخطبة للمصريين، فأرسل إليه بثلاثين ألف دينار، وخلعة سنية، وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار.

وفيها تزوج عميد الدولة ابن جهير، بابنة نظام الملك بالريّ ثم عاد إلى بغداد.

وحج بالناس أبو الغنائم العلوي.

ومن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ **الحسن بن علي بن محمد بن باري أبو الجوائز الواسطي**، سكن بغداد دهرا طويلا، وكان أديبا، شاعرا، ظريفا، ولد سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة، ومات في هذه السنة، عن مائة وعشر سنين. ومن مستجاد شعره قوله:

واحَزَنــي مــن قولهــا ... قــد خــان عهــودي ولهــا
وحــق مــن صــيرني ... وقفــا عليهــا ولهــا
مــا خطــرت بخــاطري ... إلا كســتني ولهــا

■ **محمد بن أحمد بن سهل**: المعروف بابن بشران النحوي الواسطي، ولد سنة ثمانين وثلاثمائة، وكان عالما بالأدب، وانتهت إليه الرحلة في اللغة، وله شعر حسن، فمنه قوله:

يــا شــائدا للقصــور مهــلا ... أقصــر فقصــر الفتــى المــات
لم يجتمــع شمــل أهــل قصــر ... إلا وقصــاراهم الشــتات
وإنمــا العيــش مثــل ظــل ... منتقــل مــا لــه ثبــات

ومن قوله:

ودعتهــم ولي الدنيــا مودعــة ... ورحت ما لي سوى ذكراهم وطر
وقلـت يـا لذتـي بيـني لبينهـم ... كـان صفـو حيـاتي بعدهـم كـدر
لـولا تعلـل قلـبي بالرجـاء لهـم ... ألفيتـه إن حَـدَوا بـالعيس ينفطـر
يـاليت عيسهـم يـوم النـوى نُحـرت ... أو ليتهـا للضـواري بـالفلا جـزر
يا ساعة البين أنت الساعة اقتربت ... يا لوعة البين أنت النار تستعر

وقوله:

طلبــت صديقــا في البريــة كلهــا ... فأعيـا طلابـي أن أصيـب صديقــا
بلـى مــن تســمّى بــالصديق مجــازة ... ولم يكـن في معنـى الـوداد صدوقـا
فطلقــت ود العــالمين صريمــةً ... وأصبحـت مـن أسـر الحفـاظ طليقـا

ثم دخلت سنة ثلاث وستون وأربعمائة

وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس، في جحافل أمثال الجبال، من الروم، والكُرج، والفرنج، وعُدد عظيمة، وتجمُّل هائل، ومعه خمسة وثلاثون ألفا من البطارقة، مع كل بطريق ما بين ألفي فارس إلى خمس مئة فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفا، ومن الغزّ الذين يكونون وراء القسطنطينية خمسة عشر ألفا، ومعه مائة ألف نقاب، وحفار، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والعرادات والمجانيق، منها منجنيق يمده ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يجتث الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيرا، فقال له: ارفق بذلك الشيخ، فإنه صاحبنا. ثم إذا استوسقت ممالك العراق وخراسان لهم، مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين واستنقذوه فيما يزعمون،والقدر يقول: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر: ٧٢] فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه، وهم قريب من عشرين ألفا، بمكان يقال له الرهوة، في يوم الأربعاء، لخمس بقين من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري، بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال، حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما تواجه الفئتان، نزل السلطان عن فرسه، وسجد للّه عز وجل، ومرغ وجهه في التراب، ودعا اللّه تعالى،واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين، ومنحهم أكتاف المشركين، فقتلوا منهم خلقا لا يحصون كثرة، وأسر ملكهم أرمانوس، أسره غلام رومي فأمَّره السلطان وأعطاه شيئا كثيرا وقد كان هذا الغلام عرض على نظام الملك الوزير في جملة تقدمة فلم يقبله فقال له سيد: إنه... وإنه... يثني عليه فرده وقال كهيئة المستهزئ به: لعله يجيئنا بملك الروم أرمانوس أسيرا فوقع الأمر كما قال ولله الحمد والمنة.

فلما أوقف أرمانوس بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاث مقارع، وقال: لو كنت أنا الأسير بين يديك، ماذا كنت تفعل؟ قال: كل قبيح. قال: فما ظنك بي؟ فقال: تقتلني أو تشهرني في بلادك، وأما العفو وأخذ الفداء فبعيد. قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فافتدى نفسه منه بألف ألف دينار، وخمسمائة ألف دينار. وأن يُطلق كل أسير في بلاد الروم، وعلى هدنة خمسين سنة، يحمل فيها عن كل يوم ألف دينار فقام بين يدي الملك، وسقاه شربة من ماء، وقبل الأرض بين يديه، وإلى نحو جهة الخليفة إجلالا وإكراما، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة، وشيعه فرسخا، وأرسل معه جيشا يخدمونه ويحوطونه ويحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، فلما انتهى إلى بلاده، وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه، وبعث من الذهب، والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار، وتزهد، ولبس الصوف، ثم استضاف ملك الأرمن، فأخذه، وكحله، وأرسل إلى السلطان فأعلمه بذلك، يتقرب إليه به.

وفيها خطب صاحب حلب محمود بن صالح بن مرداس للقائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان، فبعث إليه الخليفة بالخلع، والهدايا، والتحف، والعهد مع الشريف طراد الزينبي.

وفيها حج بالناس نور الهدى أبو طالب الزينبي، وخطب بمكة للخليفة للقائم بأمر الله، وقطعت خطبة المصريين منها، وكان يخطب لهم فيها من نحو مائة سنة، فانقطع ذلك في هذه السنة ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحافظ أبو بكر

■ **الخطيب البغدادي** أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي:

أحد مشاهير الحفاظ، وصاحب تاريخ بغداد، وغيره من المصنفات العديدة المفيدة، نحو من ستين مصنفا، ويقال بل مائة مصنف. فالله أعلم.

ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وقيل سنة ثنتين وتسعين.

وأول سماعه سنة ثلاث وأربعمائة، ونشأ ببغداد، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وغيره من أصحاب الشيخ أبي حامد الإسفرايني. وسمع الحديث الكثير، ورحل إلى البصرة ونيسابور وأصبهان وهمذان والشام والحجاز.

وسمي الخطيب، لأنه كان يخطب بدرزيجان، وسمع بمكة على القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، وقرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد في خمسة أيام، ورجع إلى بغداد، فحظي عند الوزير أبي القاسم بن مسلمة.

ولما ادعى اليهود الخيابرة أن معهم كتابا نبويا فيه إسقاط الجزية عنهم، أوقف ابن المسلمة الخطيب على هذا الكتاب. فقال: هذا كذب. فقيل: وما الدليل على كذبه؟ فقال: لأن فيه شهادة معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن أسلم يوم خيبر، وقد كانت خيبر في سنة سبع من الهجرة، وإنما أسلم معاوية يوم الفتح، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد كان توفي، عام الخندق سنة خمس. فأعجب الناس ذلك. وقد سبق الخطيب إلى هذا النقد، سبقه محمد بن جرير، كما ذكرت ذلك في مصنف مفرد.

ولما وقعت فتنة البساسيري ببغداد سنة خمسين، خرج منها إلى الشام، فأقام بدمشق، بالمأذنة الشرقية من جامعها، وكان يقرأ على الناس الحديث النبوي، وكان جهوري الصوت، يسمع صوته من أرجاء الجامع كلها، فاتفق أنه قرأ يوماً على الناس يوما فضائل العباس، فثار عليه الروافض وأتباع الفاطميين، فأرادوا قتله، فتشفع بالشريف الزينبي، فأجاره، وكان مسكنه بدار العقيقي، ثم خرج من دمشق، فأقام بمدينة صور، فكتب شيئا كثيرا من مصنفات أبي عبد الله الصوري، بخطه، كان يستعيرها من زوجته.

فلم يزل مقيما بالشام إلى سنة ثنتين وستين، ثم عاد إلى بغداد، فحدث بأشياء من مسموعاته، وقد كان سأل الله أن يملك ألف دينار، وأن يحدث بالتاريخ بجامع المنصور، وأن يموت ببغداد، فيدفن إلى جانب بشر الحافي، فيقال: إنه حدّث بالتاريخ بجامع المنصور، وإنه ملك ذهباً يقارب ألف دينار، وحين احتضر كان عنده قريب من مائتي دينار، فأوصى بها لأهل الحديث، وسأل السلطان أن يمضي له ذلك، فإنه لا يترك وارثا فأجيب إلى ذلك.

وله مصنفات كثيرة مفيدة، منها كتاب التاريخ، وكتاب الكفاية، والجامع، وشرف أصحاب الحديث، والمتفق والمفترق، والسابق واللاحق، وتلخيص المتشابه في الرسم، وفضل الوصل، ورواية الآباء عن الأبناء، ورواية الصحابة عن التابعين، واقتضاء العلم العمل، والفقيه، والمتفقه، وغير ذلك. وقد سردها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم [١٦/١٣٠، ١٣١].

قال: ويقال: إن هذه المصنفات، أكثرها ابتدأها أبو عبد الله الصوري، فتممها الخطيب .

وقد كان الخطيب حسن القراءة، فصيح اللفظ، عارفا بالأدب، يقول الشعر، وقد كان أولا يتكلم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فانتقل عنه إلى مذهب الشافعي، ثم صار يتكلم في أصحاب أحمد، ويقدح فيهم ما أمكنه، وله دسائس عجيبة في ذمهم، ثم شرع ابن الجوزي ينتصر لأصحاب أحمد، بما يطول ذكره، وقد أورد ابن الجوزي من شعر الخطيب قصيدة من خطه جيدة المطلع، حسنة المنزع، أولها قوله:

لعمرك ما شجاني رسم دار ... وقفت به ولا ذكر المغاني
ولا أثر الخيام أراق دمعي ... لأجل تذكري عهد الغواني
ولا ملك الهوى يوما قيادي ... ولا عاصيته فثنى عناني
عرفت فعاله بذوي التصابي ... وما يلقون من ذل الهوان
فلم أطمعه فيَّ وكم قتيل ... له في الناس ما يُحصى رعانِ
طلبت أخا صحيح الود محضا ... سليم الغيب محفوظ اللسان
فلم أعرف من الإخوان إلا ... نفاقا في التباعد والتداني
وعالم دهرنا لا خير فيهم ... ترى صورا تروق بلا معاني
وو صف جيعهم هذا فما أن ... اقول سوى فلان أو فلان
ولما لم أجد حرا يواتي ... على ما ناب من صف الزمان
صبرت تكرما لقراع دهري ... ولم أجزع لما منه دهاني
ولم أك في الشدائد مستكينا ... أقول لها الا كفي كفاني
ولكني صليب العود عَوْدٌ ... ربيط الجأش مجتمع الجنان
أبي النفس لا أختار رزقا ... يجيء بغير سيفي أو سناني
فعز في لظى باغيه يُشوى ... ألذ من المذلة في الجنان

وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه [٥/٣٧] ترجمة حسنة كعادته وأورد له من شعره قوله:

لا تغبطن أخا الدنيا لزخرفها ... ولا للذة وقت عجلت فرحا
فالدهر أسرع شيء في تقلبه ... وفعله بيّن للخلق قد وضحا
كم شارب عسلا فيه منيته ... وكم مقلد سيفاً مَن به ذبحا

وقد كانت وفاته يوم الاثنين، ضحى السابع من ذي الحجة من هذه السنة، وله ثنتان وسبعون سنة، في حجرة كان يسكنها بدرب السلسلة، جوار المدرسة النظامية، واحتفل الناس بجنازته، وحمل نعشه فيمن حمل الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، ودفن إلى جانب قبر بشر الحافي، في قبر رجل كان قد أعده لنفسه، فسئل أن يتركه للخطيب فشحّ به نفسه، حتى قال له بعض الناس: بالله عليك لو قدمت أنت والخطيب إلى بشر، أيكما كان يجلسه إلى جانبه؟ فقال: الخطيب. فقيل له: فاسمح له به فوهبه له، فدفن فيه، رحمه الله، وأكرم مثواه وهو ممن يُنشد له قول الشاعر:

ما زلت تدأب في التاريخ مجتهدا ... حتى رأيتك في التاريخ مكتوبا

وحكى ابن خلكان عن السمعاني أنه توفي في شوال وأنه تصدق بجميع أمواله وو قف كتبه.

■ **حسان بن سعيد بن حسان بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي المنيعي**، كان في شبابه يجمع بين الزهد والتجارة، حتى ساد أهل زمانه، ثم ترك ذلك، وأقبل على العبادة، والزهد، والبر، والصلة، والصدقة، والإحسان إلى الخلق، وبناء المساجد، والرباطات، وكان السلطان يأتي إليه ويتبرك به، ولما وقع الغلاء كان يعمل في كل يوم شيئا كثيرا من الخبز، والأطعمة، ويتصدق به، وكان يكسو في كل سنة، قريبا من ألف فقير ثيابا، وجبابا، وكذلك كان يكسو الأرامل، وغيرهن من النساء، وكان يجهز البنات الأيتام، وبنات الفقراء، وأسقط أشياء كثيرة من المكوس والوظائف السلطانية عن بلاد نيسابور وقراها، وهو مع ذلك في غاية التبذل، والثياب الأطمار، وترك الشهوات، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في هذه السنة، في بلدة مرو الروذ، تغمده الله برحمته آمين.

■ **محمد بن الحسين بن حمزة: أبو علي الجعفري**، فقيه الشيعة في زمانه.

■ **محمد بن وشاح بن عبد الله أبو علي مولى أبي تمام محمد بن علي** بن الحسن الزينبي؛ سمع الحديث، وكان أديبا شاعرا، وكتب لنقيب النقباء الكامل وكان ينسب إلى الاعتزال والرفض، ومن شعره قوله:

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها ... علي ولا أني تحنيت من كبره
ولكنني ألزمت نفسي بحملها ... لأعلمها أن المقيم على سفر

الشيخ أبو عمر

■ ابن عبد البر النمرى الحافظ:

صاحب التصانيف، منها التمهيد، والاستذكار، والاستيعاب، وغيرها.

■ ابن زيدون:

الشاعر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون أبو الوليد، الشاعر الماهر، الأندلسي، القرطبي، اتصل بالأمير المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، فحظي عنده، وصار عند مشاورا في منزلة الوزير، ووزر له ولده أبو بكر بن أبي الوليد،وهو صاحب القصيدة الفراقية المشهورة التي يقول فيها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
بالأمس كنا ولا يُخشى تفرقنا ... واليوم نحن ولا يرجى تلاقينا

وهي قصيدة طويلة، وفيها صنعة قوية، مهيجة على البكاء لكل من قراها أو سمعها، لأنه ما من أحد من أبناء الدنيا إلاّ وقد فَقَد خلا، أو حبيبا، أو قريباً، أو نسيبا.

ومن شعره:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعا حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك إنْ حملت قلبي ما ... لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

توفي في رجب من هذه السنة، واستمر ولده أبو بكر وزيرا للمعتمد بن عباد، حتى أخذ ابن تاشفين قرطبة من يده، في سنة أربع وثمانين، فقتل يومئذ. قاله ابن خلكان في الوفيات [١/١٣٩].

■ **كريمة بنت أحمد بن محمد بن أبي حاتم المروزية**: كانت عالمة صالحة، سمعت صحيح البخاري على الكشميهني، وقرأ عليها الأئمة،كالخطيب، وأبي المظفر السمعاني، وغيرهما.

ثم دخلت سنة أربع وستين وأربعمائة

فيها قام الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مع الحنابلة في الإنكار على المفسدين، والذين يبيعون الخمور، وفي إبطال المؤاجرات وهن البغايا وكتبوا إلى السلطان في ذلك، فجاءت كتبه بالإنكار.

وفيها كانت زلزلة عظيمة ببغداد، ارتجت لها الأرض ست مرات.

وفيها كان غلاء شديد، وموتان ذريع في الحيوانات، بحيث إن بعض الرعاة بخراسان، قام وقت الصباح، ليسرح بغنمه، فإذا هن قد متن كلهن، وجاء سيل عظيم، وبرد كبار، أتلف شيئا كثيرا من الزروع، والثمار، بخراسان.

وفيها تزوج الأمير عُدّة الدين، ولد الخليفة بابنة السلطان الب أرسلان من سُفرى خاتون وذلك بنيسابور، وكان وكيل السلطان نظام الملك، ووكيل الزوج عميد الدولة ابن جهير، وحين عقد العقد، نثر على الناس جواهر نفيسة وكان يوما مشهودا زينت الأفيلة والخيول وضربت الدبادب والبوقات.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **زكريا بن محمد بن حيد: أبو منصور النيسابوري**، كان يزعم أنه من سلالة عثمان بن عفان، وروى الحديث عن أبي بكر بن المذهب، وكان ثقة. توفي في المحرم من هذه السنة، وقد قارب الثمانين.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، أبو الحسن الهاشمي**، خطيب جامع المنصور. كان ممن يلبس القلانس الطوال، حدث عن ابن رزقويه وغيره، وروى عنه الخطيب، وكان ثقة عدلا، شهد عند ابن الدامغاني وابن ماكولا، فقبلاه، وتوفي في هذه السنة عن ثمانين سنة، ودفن بقرب بشر الحافي رحمه الله تعالى

■ **محمد بن أحمد بن شاده بن جعفر أبو عبد الله الأصفهاني**، ولي القضاء بدجيل، وكان شافعيا، وروى الحديث عن أبي عمر بن مهدي، وكانت وفاته ببغداد، ونقل إلى دجيل من عمل واسط، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وستين وأربعمائة

في يوم الخميس، حادي عشر المحرم، حضر إلى الديوان أبو الوفا علي بن محمد بن عقيل العقيلي الحنبلي، وقد كتب على نفسه كتابا، يتضمن توبته من الاعتزال ومخالطة أهله، وأنه رجع عن اعتقاد كون الحلاج من أهل الحق والخير، وأنه قد رجع عن الجزء الذي عمله في ذلك، وان الحلاج قد قتل، بإجماع علماء أهل عصره، على زندقته، وأنهم كانوا مصيبين في قتله، وما رموه به، وهو مخطئ، وأشهد عليه جماعة من الكتاب، ورجع من الديوان، إلى دار الشريف أبي جعفر، فسلم عليه، وصالحه،

واعتذر إليه، وعظمه ولله الحمد والمنة.

وفاة السلطان ألب أرسلان وملك ولده ملكشاه

كان السلطان، قد سار في أول هذه السنة في مئتي ألف مقاتل، يريد أن يغزو بلاد ما وراء النهر، فاتفق في بعض المنازل، أنه غضب على رجل، يقال له يوسف الخوارزمي، فأوقف بين يديه، فشرع يعاتبه، في أشياء صدرت منه، ثم أمر أن يضرب له أربعة أوتاد، ويصلب بينها، فقال للسلطان: يا مخنث، أمثلي يقتل هكذا؟ فاحتد السلطان، وأمر بإرساله، وأخذ القوس، فرماه بسهم، فأخطأه وأقبل يوسف نحو السلطان، فنهض السلطان عن السرير، خوفا منه، فنزل فعثر، فوقع،فأدركه يوسف، فضربه بخنجر كان معه، في خاصرته، فقتله، وأدركه الجيش فقتلوه، وقد جرح السلطان جرحا منكرا، فتوفي في يوم السبت، عاشر ربيع الأول، من هذه السنة، ويقال: إن أهل بخارى، لما اجتاز بهم، ونهب عسكره أشياء كثيرة لهم، فدعوا عليه، فهلك.

ولما توفي، جلس ولده ملكشاه على سرير الملك، وقام الأمراء بين يديه، فقال له الوزير نظام الملك: تكلم أيها السلطان. فقال: الأكبر منكم أبي، والأوسط أخي، والأصغر ابني، وسأفعل معكم، ما لم أسبق إليه، فأمسكوا فأعاد القول، فأجابوه بالسمع والطاعة. وقام بأعباء أمره، الوزير نظام الملك، فزاد في أرزاق الجند سبعمائة ألف دينار، وساروا إلى مرو، فدفنوا بها السلطان، وسيأتي ذكر شيء من ترجمته في الوفيات.

ولما بلغ موته أهل بغداد، أقام الناس له العزاء، وغلقت الأسواق، وأظهر الخليفة الجزع عليه، وتسلّبت ابنته الخاتون زوجة الخليفة، وجلست على التراب، وجاءت الكتب من السلطان في رجب، إلى الخليفة، يتأسف فيها على والده، ويسأل أن تقام له الخطبة بالعراق، وغيرها. ففعل الخليفة ذلك، وخلع ملكشاه على الوزير نظام الملك، خلعا سنية، وأعطاه تحفا كثيرة، من جملتها عشرون ألف دينار، ولقبه أتابك الجيوش، ومعناه الأمير الكبير الوالد، فسار سيرة حسنة، ولما بلغ قاورتَ بَك موت أخيه ألب أرسلان، ركب في جيوش كثيرة، قاصدا قتال ابن أخيه ملكشاه، فالتقيا، فاقتتلا، فانهزم أصحاب قاورت، وأسر هو، فأنبه ابن أخيه، ثم اعتقله، ثم أرسل إليه من قتله.

وفيها جرت فتنة عظيمة بين أهل الكرخ، وباب البصرة، والقلاّئين، فاقتتلوا، فقتل منهم خلق كثير، واحترق جانب كبير من الكرخ، فانتقم المتولي لأهل الكرخ، من أهل باب البصرة، فأخذ منهم أموالا كثيرة، جناية لهم على ما صنعوا.

وفيها أقيمت الدعوة العباسية، ببيت المقدس.

وفيها ملك صاحب سمرقند، وهو محمد ألتكين مدينة ترمذ.

وفيها حج بالناس أبو الغنائم العلوي والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

السلطان

■ **ألب أرسلان:** الملقب بسلطان العالم، ابن داود بن جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق التركي، صاحب الممالك المتسعة، وقد ملك بعد عمه طغرلبك سبع سنين وستة أشهر وأياما، وكان عادلا، يسير في الناس سيرة حسنة، كريما، رحيما، شفوقا على الرعية، رفيقا على الفقراء، بارا بأهله، وأصحابه، ومماليكه، كثير الدعاء بدوام النعم به عليه، كثير الصدقات، يتصدّق في كل رمضان، بخمسة عشر ألف دينار، ولا يعرف في زمانه جناية، ولا مصادرة، بل كان يقنع من الرّعايا، بالخراج في قسطين، رفقا بهم.

كتب إليه بعض السعاة، في نظام الملك، فاستدعاه، فقال له: إن كان هذا صحيحا، فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن لم يكن صحيحاً فاغفر لهم زلّتهم بُهِمٍّ يشغلهم عن السعاية بالناس وكان شديد الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغه، أن غلاما من غلمانه، أخذ إزارا لبعض التجار، فصلبه، فارتدع سائر المماليك به، خوفا من سطوته.

وترك من الأولاد ملكشاه الذي قام بالأمر من بعده، وإياز، وتكش، وبوري برس، وأرسلان، أرغون وسارة، وعائشة، وبنتا أخرى.

كانت وفاته في هذه السنة، عن إحدى وأربعين سنة، ودفن عند والده بالري، رحمه الله تعالى.

أبو القاسم

■ **القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة،** وأمه من بني سليم، توفي أبوه، وهو طفل، فقرأ الأدب، والعربية، وصحب الشيخ أبا علي الدقاق، وأخذ الفقه عن أبي بكر بن محمد الطوسي، وأخذ الكلام عن أبي بكر بن فورك، وصنف الكثير، وله التفسير الكبير والرسالة، التي ترجم فيها جماعة من المشايخ والصالحين، وحج صحبة إمام الحرمين، وأبي بكر البيهقي الحافظ، وكان يعظ الناس.

توفي بنيابسبور، في هذه السنة، عن سبعين سنة، ودفن إلى جانب شيخه، أبي علي الدقاق، ولم يدخل أحد من أهله، بيته بيتَ كتبه إلا بعد سنين، احتراما له، وكانت له فرس يركبها، قد أهديت له، فلما توفي، لم تأكل علفا، حتى نفقت، بعده بيسير.ذكره ابن الجوزي [المنتظم: ١٦/١٤٩].

وقد أثنى عليه القاضي ابن خلكان في الوفيات [٣/٢٠٧]، ثناء كثيرا، وذكر شيئا من شعره، من ذلك قوله: :

سقى الله وقتا كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك
أقمنا زماناً والعيون قريرة ... وأصبحت يوما والجفون سوافك

وقوله أيضاً رحمه الله تعالى:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... وشهدت حين نكرِّر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثا ... وعلمت أن من الحديث دموعا

ومن ذلك قوله

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فإني من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شيء نلته من وصالها ... أماني لم تصدق كخطفة بارق

■ **ابن صُرَّبعر:** الشاعر، اسمه علي بن الحسن بن علي بن الفضل، أبو منصور الكاتب، المعروف بابن صربعر، وكان نظام الملك يقول له: أنت صُرُّدُر لا صربعر، وقد هجاه بعضهم فقال:

لئن نبز الناس قدما أباك ... وسمُّوه من شحه صُرَّبعرا
فإنك تنثر ما صره ... عقوقا له وتسميه شعرا

قال ابن الجوزي: وهذا ظلم فاحش، فإن شعره في غاية الحسن، ثم أورد له قطعا حسانا من شعره، فمن ذلك قوله:

إيه أحاديث نعمان وساكنه ... إن الحديث عن الأحباب أسمار

أفتش الريح عنكم كلما نفحت من نحو أرضكم نكباء معطار

قال: وقد حفظ القرآن، وسمع الحديث، عن ابن بشران، وغيره، وحدث كثيرا، وركب يوما دابة، فتردى هو والدّابة، في بئر فماتا ودفن بباب أبرز، وذلك في صفر، من هذه السنة.

قال ابن الجوزي: قرأت بخط ابن عقيل كان صُرَّبَعَر خازناً بالرصافة، وكان ينبز بالإلحاد، وقد أورد له ابن خلكان، شيئا من أشعاره، وأثنى عليه في فنه، والله أعلم بحاله.

■ **محمد بن علي بن محمد بن عبيد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، أبو الحسين**، ويعرف بابن الغريق، ولد سنة سبعين وثلاثمائة، وسمع الدارقطني، وهو آخر من حدث عنه في الدنيا، وابن شاهين، وتفرد عنه، وسمع خلقا آخرين، وكان ثقة، دينا، كثير الصلاة، والصيام، وكان يقال له راهب بني هاشم.

وكان غزير العلم، والعقل،كثير التلاوة، رقيق القلب، غزير اللدمعة، وقد رحل إليه الطلبة من الآفاق، ثم ثقل سمعه، فكان يقرأ على الناس، وذهبت إحدى عينيه، وخطب وله ست عشرة سنة، وشهد عند الحكام سنة ست وأربعمائة، وو لي الحكم سنة تسع وأربعمائة، وأقام خطيبا بجامع المنصور، وجامع الرصافة، ستا وسبعين سنة، وحكم ستا وخمسين سنة، وتوفي في سلخ ذي القعدة، من هذه السنة وقد جاوز تسعين سنة، وكان يوم جنازته يوما مشهودا، ورئيت له منامات صالحة.

ثم دخلت سنة ست وستين وأربعمائة

في صفر منها، جلس الخليفة جلوسا عاما، وعلى رأسه حفيده، الأمير عدة الدين، أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله، وعمره يومئذ ثماني عشرة سنة، وهو في غاية الحسن، وحضر الأمراء، والكبراء، فعقد الخليفة بيده، لواء السلطان ملكشاه، وكان يوماً مشهوداً، وكثر الزحام يومئذ، حتى هنأ الناس بعضهم بعضا بالسلامة.

صفة غرق بغداد

في جمادى الآخرة، جاء مطر عظيم، وسيل قوي كثير، وزادت دجلة، حتى غرقت جانبا كبيرا من بغداد، وحتى خلص ذلك إلى دار الخلافة، فخرج الجواري حاسرات، حتى صرن إلى الجانب الغربي، وهرب الخليفة من مجلسه، فلم يجد طريقا يسلكه، فحمله بعض الخدم إلى التاج، وكان ذلك يوما عظيما، وأمرا هائلا، وهلك للناس أموال كثيرة جدا. ومات خلق كثير تحت الردم، من أهل بغداد، والقرايا، وجاء على وجه السيل، من الأخشاب، والوحوش، والحيات، شيء كثيرا جدا، وسقطت دور كثيرة في الجانبين، وغرقت قبور كثيرة، من ذلك مقبرة الخيزران، ومقبرة الإمام أحمد بن حنبل. ودخل الماء من شبابيك المارستان العضدي، وأتلف السيل في الموصل شيئا كثيرا، وصدم سور سنجار، فهدمه: وأخذ بابه من موضعه، إلى مسيرة أربعة فراسخ.

وفي ذي الحجة منها جاءت ريح شديدة بأرض البصرة، فانجعف منها نحو من خمسة آلاف نخلة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد أحمد أبو الحسين السمناني: الحنفي الأشعري.**

قال ابن الجوزي: وهذا من الغريب، تزوج قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني ابنته، وولاه نيابة القضاء، وكان ثقة نبيلا، من ذوي الهيئات، جاوز الثمانين.

■ **عبد العزيز بن أحمد بن علي بن سليمان، أبو محمد الكتاني الحافظ الدمشقي**، سمع الكثير وكتب كثيرا وصنف فأجاد وأفاد وله في الفضائل أشياء كثيرة غريبة وبعض ما يرويه موضوع ولا ينبه عليه مع أنه كان ثقة ضابطا حافظا صدوقا مستقيم الطريقة والاعتقاد سلفي المذهب، وقد كتب عنه الحافظ أبو بكر الخطيب رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم جعفر أبو بكر العطار الأصبهاني الحافظ** مستملي على أبي نعيم سمع الكثير وكان يملي من حفظه، وكتب عنه الخطيب حديثا واحدا، وكان عظيماً في بلده ببلده، ثقة نبيلا جليلاً كانت وفاته في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **الماوردية**: ذكر ابن الجوزي، أنها كانت عجوزا صالحة، من أهل البصرة، تعظ النساء بها، وكانت تكتب، وتقرأ، ومكثت خمسين سنة من عمرها، لا تفطر نهارا، ولا تنام ليلا، وتقتات بخبز الباقلا، وتأكل من التين اليابس، لا الرطب، وشيئا يسيرا من العنب، والزبيب، وربما أكلت من اللحم اليسير، وحين توفيت، تبع أهل البلد جنازتها، ودفنت في مقابر الصالحين.

ثم دخلت سنة سبع وستين وأربعمائة

في صفر منها، مرض الخليفة القائم بأمر الله، مرضا شديدا، انتفخ منه حلقه، وامتنع من الفصد، فلم يزل الوزير فخر الدولة عليه، حتى افتصد، فصلح الحال، وكان الناس قد انزعجوا، ففرحوا بعافيته.

وجاء في هذا الشهر، سيل عظيم، قاسى الناس منه شدة عظيمة، ولم تكن أكثر أبنية بغداد، تكاملت من الغرق الأول، فخرج الناس إلى الصحراء، فجلسوا على رؤوس التلول تحت المطر.

ووقع وباء عظيم بالرحبة، فمات من أهلها قريب من عشرة آلاف، وكذلك وقع بواسط، والبصرة، وخوزستان، وأرض خراسان، وغيرها، والله أعلم.

صفة موت الخليفة القائم بأمر الله

افتصد في يوم الخميس، الثامن والعشرين من رجب، من ماشرا، كانت تعتاده، من عام الغرق، ثم نام بعد ذلك، فانفجر فصاده، فاستيقظ، وقد سقطت قوته، وحصل الإياس منه، فاستدعي بحفيده، وولي عهده من بعده، عدة الدين أبي القاسم عبد الله بن محمد بن القائم، وأحضر إليه القاضي والنقباء، وأشهدهم عليه ثانيا، بولاية العهد له من بعده، فشهدوا، ثم كانت وفاته ليلة الخميس، الثالث عشر من شعبان، عن أربع وسبعين سنة، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وكانت مدة خلافته، أربعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوما، ولم يبلغ أحد من العباسيين قبله هذه المدة، وقد جاوزت خلافة أبيه قبله أربعين سنة، فكان مجموع أيامهما خمسا

وثمانين سنة وأشهرا، وذلك مقارب لدولة بني أمية كلها، وقد كان القائم بأمر الله، جميلا، مليحا، حسن الوجه، أبيض، مشربا حُمرة، فصيحا، ورعا زاهدا، أديبا، كاتبا، بليغا، شاعرا، كما تقدم ذكر شيء من شعره، وهو بحديثه عانة سنة خمسين، وكان عادلا، كثير الإحسان إلى الناس، رحمه الله.

وغسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الحنبلي، عن وصية الخليفة بذلك، فعرُض على الشريف أبي جعفر ما هنالك من الأثاث، والأموال، فلم يقبل منه شيئا، وصلّي على الخليفة، في صبيحة يوم الخميس المذكور، ودفن عند أجداده، ثم نقل إلى الرصافة، فقبره يزار إلى الآن، وغلقت الأسواق لموته، وعلقت المسوح، وناحت عليه نساء الهاشميين، وغيرهم، وجلس الوزير ابن جهير، وابنه للعزاء على الأرض، وخرق الناس ثيابهم، وكان يوما عصيبا، واستمر الحال كذلك ثلاثة أيام، وقد كان من خيار بني العباس، دينا، واعتقادا، ودولة، وقد امتحن من بينهم بفتنة البساسيري، التي اقتضت إخراجه، من داره، ومفارقته أهله، وأولاده، ووطنه، فأقام بحديثه عانة سنة كاملة، ثم أعاد الله تعالى عليه نعمته، وخلافته كما قال الشاعر:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم وإذ هم قريش وإذا ما مثلهم بشر

وقد تقدم له في ذلك، سلف صالح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٤].

وقد ذكرنا ملخص ما ذكره المفسرون في سورة ص، وبسطنا الكلام في هذه القصة العباسية، والفتنة البساسيرية في سنة خمسين، وإحدى وخمسين وأربعمائة.

خلافة المقتدي بأمر الله:

وهو أبو القاسم عُدّة الدين عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين أبي القاسم محمد بن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله بن القادر العباسي، وأمه أرمنية، تسمّى أرجوان، وتدعى قرة العين، وقد أدركت خلافة ولدها هذا، وخلافة ولديه من بعده، المستظهر، والمسترشد. وقد كان أبوه توفي، وهو حمل، فحين ولد ذكرا، فرح به جده، والمسلمون به فرحا شديدا، إذ حفظ الله على المسلمين بقاء الخلافة في البيت القادري، لأن من عداهم يتبذلون في الأسواق مع العوام، وكانت القلوب تنفر، من تولية، مثل أولئك الخلافة على الناس، ونشأ هذا في حجر جده، القائم بأمر الله، يربيه بما يليق بأمثاله، ويدربه على أحسن السجايا، ولله الحمد والمنّة.

وقد كان عمر المقتدي، حين ولي الخلافة، عشرين سنة، وهو في غاية الجمال، خلقا، وخلقا، وكانت بيعته يوم الجمعة، الثالث عشر من شعبان، من هذه السنة، وجلس في دار الشجرة، بقميص أبيض، وعمامة بيضاء لطيفة، وطرحة قصب دُرّيّة، وجاء الوزراء، والأمراء، والأشراف، ووجوه الناس، فبايعوه، فكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الحنبلي، وأنشده قول الشاعر:

إذا سيد منا مضى قام سيد

ثم أُرتج عليه، فلم يدر ما بعده، فقال الخليفة:

قؤول لما قال الكرام فعول

وبايعه من شيوخ العلم، الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، والشيخ أبو نصر ابن الصباغ، الشافعيان، والشيخ أبو محمد التميمي الحنبلي، وبرز فصلى بالناس العصر، ثم بعد ساعة، أخرج تابوت جده بسكون، ووقار، من غير صراخ، ولا نوح، فصلى عليه، وحمل إلى المقبرة، وقد كان المقتدي بالله شهما، شجاعا وأيامه كلها مباركة، والرزق دار، والخلافة معظمة جدا، وتصاغرت الملوك له، وتضاءلوا بين يديه، وخطب له بالحرمين وبيت المقدس، والشامات كلها، واسترجع المسلمون الرها، وأنطاكية، من أيدي العدو، وعمرت بغداد، وغيرها من البلاد، واستوزر ابن جهير، ثم أبا شجاع، ثم أعاد ابن جهير، وقاضيه الدامغاني، ثم أبو بكر الشامي، وهؤلاء من خيار القضاة، والوزراء، ولله الحمد.

وفي شعبان منها، أخرج المفسدات من الخواطئ من بغداد، على حُمرات ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وخرب دورهن وأسكنهن الجانب الغربي، وخرب أبرجة الحمام، ومنع من اللعب بها، وألزم الناس بالمآزر في الحمامات، ومنع أصحاب الحمامات، أن يصرفوا فضلاتها إلى دجلة، وألزمهم بحفر آبار، لتلك المياه القذرة، صيانة لماء الشرب.

وفي شوال منها، وقعت نار في أماكن متعددة في بغداد، حتى في دار الخلافة، فأحرقت شيئا كثيرا من الدور والدكاكين.

ووقع بواسط، حريق في تسعة أماكن، واحترق بها أربعة وثمانون دارا، وستة خانات، وأشياء كثيرة غير ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها عمل الرصد للسلطان ملكشاه اجتمع عليه جماعة من أعيان المنجمين، وأنفق عليه أموالا كثيرة، وبقي الرصد دائرا، حتى مات السلطان، فبطل.

وفي ذي الحجة منها، أعيدت الخطب بمكة للمصريين، وقطعت خطبة العباسيين، وذلك لما قوي أمر صاحب مصر، بعدما كان ضعيفا، بسبب غلاء بلده، فلما أرخصت، تراجع الناس إليها، وطاب العيش بها، وقد كانت الخطبة للعباسيين بمكة، أربع سنين وخمسة أشهر، وستعود كما كانت، على ما سيأتي بيانه، في موضعه.

وفي هذا الشهر، انجفل أهل السواد، من شدة الوباء، وقلة ماء دجلة ونقصها.

وحج بالناس الشريف أبو طالب الحسيني بن محمد الزينبي، وأخذ البيعة للخليفة المقتدي.

ومن توفي فيها من الأعيان

الخليفة

■ **القائم بأمر الله عبد الله**، وقد ذكرنا شيئا من ترجمته عند وفاته رحمه الله تعالى.

■ **الداوودي: راوي صحيح البخاري، عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود، أبو الحسن، بن أبي طلحة الداودي**، ولد سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، سمع الكثير، وتفقه على الشيخ أبي حامد الإسفرايني، وأبي بكر القفال، وصحب أبا علي الدقاق، وأبا عبد الرحمن السلمي. وكتب الكثير، ودرس، وأفتى، وصنف، ووعظ الناس. وكانت له يد طولى في النظم والنثر، وكان مع ذلك كثير الذكر، لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى، دخل عليه يوما الوزير نظام الملك، فجلس بين يديه، فقال له الشيخ: إنا الله قد سلطك على عباده، فانظر كيف تجيبه، إذا سألك عنهم. وكانت وفاته ببوشنج، في هذه السنة وقد جاوز التسعين، ومن شعره قوله:

كان في الاجتماع بالناس نور فمضى النور وادلهم الظلام
فسد الناس والزمان جميعا فعلى الناس والزمان السلام

أبو الحسن

■ **علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب الباخرزي الشاعر المشهور**، اشتغل أولا على الشيخ أبي محمد الجويني، ثم عدل إلى الكتابة، والشعر، ففاق أقرانه، وله ديوان شعر مشهور، فمنه:

وإني لأشكو لسع أصداغك التي　　عقاربها في وجنتيك تحوم
وأبكي لدر الثغر منك ولي أب　　فكيف نديم الضحك وهو يتيم

ثم دخلت سنة ثمان وستين وأربعمائة

قال ابن الجوزي: جاء جراد في شعبان، بعدد الرمل، والحصى، فأكل الغلات، وآكدى الناس،وجاعوا، فطحن الخروب بدقيق الدخن، فأكلوه، ووقع الوباء، ثم منع الله الجراد من الفساد، فكان يمر، ولا يضر، فرخصت الأسعار.

قال: ووقع غلاء شديد بدمشق، واستمر ثلاث سنين.

وفيها ملك نصر بن محمود بن صالح بن مرداس مدينة منبج، وأجلى عنها الروم، ولله الحمد والمنة.

في ذي القعدة من هذه السنة ملك الأقسيس مدينة دمشق، وانهزم عنها المعلى بن حيدرة، نائب المستنصر العبيدي، إلى مدينة بانياس، وخطب فيها للمقتدي، وقطعت خطبة المصريين عنها، إلى الآن فاستدعي المستنصر نائبه، فحبسه عنده، إلى أن مات في السجن.

قلت: الإقسيس هذا، هو أتسز بن أوف الخوارزمي، ويلقب بالملك المعظم، وهو أول من استعاد بلاد الشام، من أيدي الفاطميين، وأزال الأذان منها بحي على خير العمل، بعد أن كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست سنين. كان على أبواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم، فأمر هذا السلطان، المؤذنين، والخطباء، أن يترضوا عن الصحابة أجمعين، ونشر العدل، وأظهر السنة. وهو أول من أسس القلعة بدمشق، ولم يكن فيها قبل ذلك معقل يلتجئ إليه المسلمون من العدو، فبناها في محلتها هذه، التي هي فيها اليوم، وكان موضعها بباب البلد، يقال له باب الحديد، وهو تجاه دار رضوان منها، وكان ابتداء ذلك في السنة الآتية، وإنما أكملها بعده الملك المظفر، تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، كما سيأتي بيانه.

وحج بالناس في هذه السنة مقطع الكوفة. وهو الأمير خُتلع بن كتكين التركي، ويعرف بالطويل، وكان قد شرد خفاجة في البلاد، وقهرهم، ولم يصحب معه سوى ستة عشر تركيا، فوصل سالما إلى مكة، ولما نزل ببعض دورها، كبسه بعض العبيد. فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وهزمهم هزيمة شنيعة، ثم إنه بعد ذلك إنما كان ينزل بالزاهر. قاله ابن الساعي في تاريخه، ثم أعيدت الخطبة في هذه السنة، للعباسيين، في ذي الحجة منها، وقطعت خطبة المصريين، ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن أبي موسى**، أبو تمام بن أبي القاسم بن القاضي أبي علي الهاشمي، نقيب الهاشميين، وهو ابن عم الشريف أبي جعفر بن أبي موسى الفقيه الحنبلي، روي الحديث، وسمع منه أبو بكر بن عبد الباقي، ودفن بباب حرب رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن القاسم بن حبيب بن عبدوس، أبو بكر الصفار**. من أهل نيسابور، سمع الحاكم، وأبا عبد الرحمن السلمي، وخلقا، وتفقه على الشيخ أبي محمد الجويني، وكان يخلفه في حلقته.

■ **محمد بن محمد بن عبد الله أبو الحسن البيضاوي الشافعي**، ختن أبي الطيب الطبري على ابنته، سمع الحديث، وكان ثقة خيرا، توفي في شعبان منها، وتقدم للصلاة عليه الشيخ أبو نصر بن الصباغ، وحضر جنازته أبو عبد الله الدامغاني مأموما، ودفن بداره، في قطيعة الكرخ.

■ **محمد بن نصر بن صالح أمير حلب**، وكان قد ملكها في سنة تسع وخمسين، وكان من أحسن الناس شكلا وفعلا رحمه الله تعالى.

■ **مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق أبو جعفر البياضي الشاعر** ومن شعره:

ليس لي صاحب معين سوى الليـ　　ـل إذا طال بالصدود عليا
أنا أشكو بعد الحبيب إليه　　وهو يشكو بعد الصباح إليا

وله أيضاً:

يا من لبست لهجره ثوب الضنى　　حتى خفيت به عن العواد
وأنست بالسهر الطويل فأنسيت　　أجفان عيني كيف كان رقادي
إن كان يوسف بالجمال مقطع الـ　　ـأيدي فأنت مفتت الأكباد

■ **الواحدي المفسر أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن مُتويه الواحدي**.

قال ابن خلكان: ولا أدري هذه النسبة إلى ماذا، وهو صاحب التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز.

قال: ومنه أخذ الغزالي أسماء كتبه.

قال: وله أسباب النزول، والتحبير في شرح الأسماء الحسنى، وقد شرح ديوان المتنبي، وليس في شروحه مع كثرتها مثله.

قال: وقد رزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم، وقد أخذ التفسير عن الثعالبي، وقد مرض الواحدي مدة، ثم كانت وفاته بنيسابور، في جمادى الآخرة من هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **ناصر بن محمد بن علي أبو منصور التركي المضافري**، وهو والد الحافظ محمد بن ناصر، قرأ القراءات، وسمع الكثير، وهو الذي تولي قراءة التاريخ على الخطيب بجامع المنصور، وكان ظريفا صبيحا، مات شابا دون الثلاثين سنة، في ذي القعدة منها، وقد رثاه بعضهم بقصيدة طويلة، أوردها كلها ابن الجوزي في المنتظم [١٧٧/١٦ - ١٧٩].

■ **يوسف بن محمد بن يوسف بن الحسن: أبو القاسم الهمذاني**، سمع، وجمع، وصنف، وانتشرت عنه الرواية، توفي في هذه السنة وقد قارب التسعين رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وستين وأربعمائة

فيها كان ابتداء عمارة قلعة دمشق، وذلك أن الملك المعظم اتسز بن أوف الخوارزمي، لما انتزع دمشق من أيدي العبيديين في السنة الماضية، شرع في بناء هذا الحصن المنيع بدمشق، في هذه السنة، وكان في مكان القلعة اليوم أحد أبواب البلد، باب يعرف بباب الحديد، وهو الباب المقابل لدار

رضوان منها اليوم، داخل البركة البرانية منها، وقد ارتفع بعض أبرجتها، فلم يتكامل، حتى انتزع ملك البلد منه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، فأكملها، وأحسن عمارتها، وابتنى بها دار رضوان للملك، واستمرت على ذلك البناء في أيام نور الدين محمود بن زنكي، فلما كان الملك صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، جدد فيها شيئا، وابتنى له نائبه ابن مقدم فيها دارا هائلة للمملكة، ثم إن الملك العادل أخا صلاح الدين، اقتسم هو وأولاده أبرجتها، فبنى كل ملك منهم برجا منها، جدده، وعلاه، وأطده، وأكده. ثم جدد الملك الظاهر بيبرس منها البرج الغربي القبلي، ثم ابتنى بعده في دولة الملك الأشرف خليل بن المنصور، نائبه الشجاعي، الطارمة الشمالية، والقبة الزرقاء، وما حولها.

وفي المحرم منها مرض الخليفة مرضا شديدا، فأرجف الناس به، فركب حتى رآه الناس جهرة، فسكنوا.

وفي جمادى الآخرة منها، زادت دجلة زيادة كثيرة جدا، إحدى وعشرين ذراعا ونصفا، فنقل الناس أموالهم، وخيف على دار الخلافة، فنقل تابوت القائم بأمر الله ليلا إلى التُّرَب بالرصافة.

وفي شوال منها، وقعت الفتنة بين الحنابلة والأشعرية. وذلك لأنّ ابن القشيري قدم بغداد، فجلس يتكلم في المدرسة النظامية، وأخذ يذم الحنابلة، وينسبهم إلى التجسيم، وساعده أبو سعد الصوفي، ومال معه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وكتب إلى نظام الملك يشكو إليه الحنابلة، ويسأله المعونة عليهم، وذهب جماعة إلى الشريف أبي جعفر بن أبي موسى، شيخ الحنابلة، وهو في مسجده، فدافع عنه آخرون، وقُتل رجل خياط من سوق الثلاثاء، وجرح آخرون، وثارت الفتنة، وكتب الشيخ أبو إسحاق، وأبو بكر الشاشي إلى نظام الملك، فجاء كتابه إلى فخر الدولة، ينكر ما وقع، ويكره أن ينسب إلى المدرسة التي بناها شيء من ذلك. وعزم الشيخ أبو إسحاق على الرحلة من بغداد، غضبا مما وقع من الشر، فأرسل إليه الخليفة يسكنه، ثم جمع بينه وبين الشريف أبي جعفر وأبي سعد الصوفي، وأبي نصر بن القشيري، عند الوزير، فأقبل الوزير على أبي جعفر، يعظمه في الفعال والمقال، وقام إليه الشيخ أبو إسحاق، فقال: أنا ذلك الذي كنت تعرفه وأنا شاب، وهذه كتبي في الأصول، أقول فيها خلافا للأشعرية، ثم قبل رأس أبي جعفر، فقال له أبو جعفر: صدقت، إلا أنت لما كنت فقيرا، لم تظهر لنا ما في نفسك، فلما جاء الأعوان، والسلطان، وخَواجا بُزُرْك - يعني نظام الملك -، أبديت ما كان مختفياً في نفسك. وقام الشيخ أبو سعد الصوفي، وقبل رأس الشريف أبي جعفر أيضا، وتلطف به، فالتفت إليه مغضبا، وقال: أيها الشيخ، أما الفقهاء إذا تكلموا في مسائل الأصول، فلهم فيها مدخل، وأما أنت، فصاحب لهو وسماع وتعبير، فمن زاحمك منا على باطلك؟ ثم قال: أيها الوزير، أي صلح بيننا؟ ونحن نوجب ما نعتقده، وهم يحرمون؟! وهذا جد الخليفة القائم والقادر، قد أظهرا اعتقادهما للناس على مذهب أهل السنة، والجماعة، والسلف، ونحن على ذلك، كما وافق عليه العراقيون، والخراسانيون، وقرئ على الناس في الدواوين كلها، فأرسل الوزير إلى الخليفة، يعلمه بما جرى، فجاء الجواب بشكر الجماعة، وخصوصا الشريف أبا جعفر، ثم استُدعي إلى دار الخلافة للسلام عليه، والتبرك بدعائه.

قال ابن الجوزي: وفي ذي القعدة منها، كثرت الأمراض في الناس، ببغداد، وواسط، والسواد، وورد الخبر بأن الشام كذلك.

وفي هذا الشهر، أزيلت المنكرات والبغايا ببغداد، وهرب الفساق منها.

وفيها ملك حلب نصر بن محمود بن مرداس، بعد وفاة أبيه.

وفيها تزوج الأمير علي بن أبي منصور بن فرامرز بن علاء الدولة بن كالويه، الست أرسلان خاتون، بنت داود عمة السلطان ملكشاه، وكانت زوجة القائم بأمر الله.

وفيها، حاصر الأقسيس صاحب دمشق مصر، وضيق على صاحبها المستنصر بالله، ثم كر راجعا إلى دمشق.

وحج بالناس فيها الأمير خُتْلُغ التركي مقطع الكوفة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أسبهدوست بن محمد بن الحسن أبو منصور الديلمي: الشاعر، لقي أبا عبد الله بن الحجاج، وعبد العزيز بن نباتة، وغيرهما من الشعراء، وكان شيعيا فتاب، وقال قصيدة في ذلك منها:

وإذا سئلت عن اعتقادي قلت ما ... كانت عليه مذاهب الأبرار
وأقول خير الناس بعد محمد ... صدِّيقه وأنيسه في الغار
ثم الثلاثة بعده خير الورى ... أكرم بهم من سادة أطهار
هذا اعتقادي والذي أرجو به ... فوزي وعتقي من عذاب النار

■ طاهر بن أحمد بن بابشاذ: أبو الحسن المصري النحوي، سقط من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر، فمات من ساعته، في رجب من هذه السنة.

قال القاضي ابن خلكان: لم يوجد مثله كان بمصر، إمام عصره في النحو، وله المصنفات المفيدة، من ذلك مقدمته، وشرحها، وشرح الجمل للزجاجي. قال: وكانت وظيفته بمصر، أنه لا تكتب الرسائل في ديوان الإنشاء إلا عرضت عليه، فيصلح منها ما فيه خلل، ثم تنفذ إلى الجهة التي عينت لها، وكان له على ذلك معلوم وراتب جيد.

قال: فاتفق أنه كان يأكل يوما مع بعض أصحابه طعاما فجاء قط، فرموا له شيئا، فأخذه، وذهب سريعا، ثم أقبل، فرموا له شيئا آخر فانطلق به سريعا، ثم جاء، فرموا له شيئا أيضا فعلموا أنه لا يأكل هذا كله، فتتبعوه، فإذا هو يذهب به إلى قط آخر أعمى، في سطح هناك، فتعجبوا من ذلك، فقال الشيخ: يا سبحان الله، هذا حيوان بهيم قد ساق الله إليه رزقه على يد غيره، أفلا يرزقني، وأنا أعبده. ثم ترك ما كان له من الراتب، وجمع حواشيه وأقبل على العبادة، والاشتغال، والملازمة، في غرفة في جامع عمرو بن العاص، إلى أن مات وقد جمع تعليقة في النحو قريبا من خمسة عشر مجلداً، فأصحابه كابن بري وغيره، ينقلون منها، وينتفعون بها، ويسمونها «تعليق الغرفة» رحمه الله تعالى.

■ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن المجمع بن حبيب بن محمد بن بحر بن معبد بن هزارمرد، أبو محمد الصريفيني، ويعرف بابن المعلم، أحد مشايخ الحديث المسندين المشهورين، تفرد فيه عن جماعة من المشايخ، لطول عمره، وهو آخر من حدث بالجعديات، عن ابن حبابةَ، عن أبي القاسم البغوي، عن علي بن الجعد، وهو سماعنا، ورحل إليه الناس بسببه، وسمع عليه جماعة من الحفاظ، منهم الحافظ أبو بكر الخطيب، وكان ثقة محمود الطريقة، صافي الطوية، توفي بصريفين في جمادى الأولى من هذه السنة عن خمس وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان أبو مروان القرطبي، ولي بني أمية، صاحب تاريخ المغرب في ستين

مجلدا، أثنى عليه الحافظ أبو علي الغساني، في فصاحته، وصدقه، وبلاغته. وقال سمعته يقول التهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة، والتعزية بعد ثلاث إغراء بالمصيبة.

قال ابن خلكان: توفي في ربيع الأول منها، ورآه بعضهم في المنام، فسأله عن حاله، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. وأما التاريخ، فندمت عليه، ولكن الله بلطفه أقالني، وعفا عني.

■ عبيد الله بن سعيد بن حاتم أبو نصر السجزي الوائلي: نسبة إلى قرية من قرى سجستان، يقال لها وايل، سمع الكثير، وجمع وصنف، وخرّج، وأقام بالحرم وله كتاب الإبانة في الأصول، وله يد في الفروع أيضا. ومن الناس من كان يفضله في الحفظ، على الصوري رحمه الله.

■ محمد بن علي بن الحسين: أبو عبد الله الأنماطي، المعروف بابن سِكّينة، ولد سنة تسعين وثلاثمائة، وكان كثير السماع، وكانت وفاته في هذه السنة عن تسع وسبعين سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة من الهجرة النبوية

قال ابن الجوزي: في ربيع الأول منها، وقعت صاعقة بمحلة التُوثة، من الجانب الغربي، على نخلتين في مسجد، فأحرقت أعاليهما،وصعد الناس فأطفؤوا النار، ونزلوا بالسعف وهو يشتعل نارا. قال: وورد كتاب من نظام الملك، إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، في جواب كتابه إليه في شأن الحنابلة. ثم سرده ابن الجوزي، ومضمونه: أنه لا يمكن تغيير المذاهب، ولا نقل أهلها عنها، والغالب على أهل تلك الناحية هو مذهب الإمام أحمد، ومحله معروف عند الأئمة والناس، وقدره معلوم في السنة. في كلام طويل.

قال: وفي شوال منها، وقعت فتنة بين الحنابلة وبين بعض فقهاء النظامية، وحمي لكل من الفريقين طائفة من العوام، وقتل بينهم نحو من عشرين قتيلا، وجرح آخرون، ثم سكنت الفتنة.

قال: وفي تاسع عشر شوال، ولد للخليفة المقتدي ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، وزُيِّن البلد وجلس الوزير للهناء، ثم في يوم الأحد، السادس والعشرين من شوال، ولد للخليفة ولد آخر، وهو أبو محمد هارون.

قال ابن الجوزي: وفيها، ولي تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الشام، وحاصر حلب.

وحج بالناس في هذه السنة مقطع الكوفة خُتْلغ ، وذكر ابن الجوزي أن الوزير ابن جهير، كان قد عمل منبرا هائلا، لتقام عليه الخطبة بمكة، فحين وصل إليها، إذ الخطبة قد أعيدت للمصريين، فكسر ذلك المنبر، وأحرق. والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن أحمد بن يعقوب، ابن حُمْدوه، أبو بكر الرُّزاز المقرئ، آخر من حدث عن أبي الحسين بن سمعون، وقد كان ثقة، متعبدا، حسن الطريقة، كتب عنه الخطيب، وقال: وكان صدوقا. توفي في هذه السنة، عن تسع وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله أبو الحسين بن النقور البزاز، أحد المسندين المعمرين، تفرد بنسخ كثيرة، عن ابن حَبّابة، عن البغوي، عن أشياخه، كنسخة هدبة، وكامل بن طلحة، وعمر بن زرارة، وأبي زرارة وأبي السكن البلدي، وكان مكثرا، متحريا،وكان يأخذ على إسماع حديث طالوت بن عباد دينارا، وقد أفتاه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي بجواز أخذ الأجرة على إسماع الحديث، لاشتغاله به عن الكسب. توفي عن تسع وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ أحمد بن عبد الملك بن علي بن أحمد، بن صالح المؤذن النيسابوري الحافظ، كتب الكثير، وجمع، وصنف وكتب عن ألف شيخ ألف حديث، وكان يعظ، ويؤذن، مات وقد جاوز الثمانين.

■ عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسن، أبو القاسم بن أبي محمد الخلاّل، آخر من حدث عن أبي حفص الكتّاني، وقد سمع الكثير، وروى عنه الخطيب، ووثقه، توفي عن خمس وثمانين سنة، ودفن بباب حرب رحمه الله.

■ عبد الرحمن بن منده بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن إبراهيم أبو القاسم بن أبي عبد الله الإمام بن الإمام، سمع أباه، وابن مردويه، وخلقا في أقاليم شتى، سافر إليها، وجمع شيئا كثيرا، وكان ذا وقار، وسمت حسن، واتباع للسنة، وفهم جيد، كثير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان سعد بن محمد الزنجاني يقول: حفظ الله الإسلام به، وبعبد الله الأنصاري الهروي. توفي ابن منده هذا بأصبهان، عن سبع وثمانين سنة، وحضر جنازته خلق كثير، لا يعلمهم إلا الله عز وجل رحمه الله تعالى.

■ عبد الملك بن عبد الغفار بن محمد بن المظفر بن علي أبو القاسم الهمذاني، أحد الحفاظ، الأولياء والفقهاء، وكان يلقب بنجير ، وقد سمع الكثير، وكان يكتب للطلبة،ويقرأ لهم، توفي بالري، في المحرم من هذه السنة، ودفن إلى جانب إبراهيم الخواص.

الشريف أبو جعفر الحنبلي

■ عبد الخالق بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن أبي موسى الحنبلي العباسي كان أحد الفقهاء، العلماء، العباد، الزهاد، المشهورين بالديانة، والفضل، والعبادة، والقيام في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولد سنة إحدى عشرة وأربعمائة، واشتغل على القاضي أبي يعلى بن الفراء، وزكاه شيخه عند ابن الدامغاني، فقبله، ثم ترك الشهادة بعد ذلك، وكان مشهورا بالصلاح والديانة، وحين احتضر الخليفة القائم بأمر الله، أوصى أن يغسله الشريف أبو جعفر هذا، وأوصى له بشيء كثير، ومال جزيل، فلم يقبل من ذلك شيئا.

وحين وقعت الفتنة بين الحنابلة والأشعرية بسبب ابن القشيري، اعتقل هو في دار الخلافة، مكرما معظما، يدخل عليه الفقهاء، وغيرهم، ويقبلون يده ورأسه، ولم يزل هناك حتى اشتكى، فأذن له في المسير إلى أهله، فتوفي عندهم، ليلة الخميس النصف من صفر في هذه السنة، ودفن إلى جانب الإمام أحمد، فاتخذت العامة قبره سوقا كل ليلة أربعاء، يترددون إليه، ويقرؤون الختمات عنده، حتى جاء الشتاء، وكان جملة ما قرئ عنده عشرة آلاف ختمة، من كثرة القراءة، رحمه الله تعالى.

■ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله: أبو الحسن البيضاوي، أحد الفقهاء الشافعيين، تولى القضاء بربع الكرخ، ودفن عند والده رحمهما الله

تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وأربعمائة

فيها ملك السلطان الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي دمشق، وقتل ملكها أقسيس، وذلك أن أقسيس بعث إليه يستنجده على المصريين، فلما وصل إليه لم يركب لتلقيه، فأمر بقتله، فقتل لساعته. ووجد في خزائنه حجر ياقوت أحمر، وزنه سبعة عشر مثقالا، وستين حبة لؤلؤ، كل حبة منها أزيد من مثقال، وعشرة آلاف دينار، ومائتي سرج ذهب، وغير ذلك. وقد كان أقسيس هذا هو أتسز بن أوف الخوارزمي، كان يلقب بالمعظم، وكان من خيار الملوك، وأجودهم سيرة، وأصحهم سريرة، أزال الرفض عن أهل الشام، وأبطل الأذان بحي على خير العمل، وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين، وعمر بدمشق القلعة التي هي معقل الإسلام بالشام المحروس، فرحمه الله، وبل بالرحمة ثراه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وفيها عزل الوزير ابن جهير، بإشارة نظام الملك، بسبب ممالأته على الشافعية، ثم كاتب المقتدي نظام الملك، في إعادته، فأعيد ولده، وأطلق هو.

وفيها قدم سعد الدولة كوهرائين أميرا إلى بغداد، وضُربت الطبول على بابه في أوقات الصلوات، وأساء الأدب على الخلافة، وضرب طوالات الخيول، على باب الفردوس، فكوتب السلطان في أمره، فجاء الكتاب من السلطان بالإنكار عليه.

وحج بالناس في هذه السنة مقطع الكوفة خُتلغ التركي أثابه الله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ سعد بن علي بن محمد بن علي بن الحسين أبو القاسم الزنجاني، رحل إلى الآفاق، وسمع الكثير، وكان إماما، حافظا، متعبدا، ورعاً ثم انقطع في آخر عمره بمكة، وكان الناس يتبركون به.

قال ابن الجوزي: ويقبلون يده، أكثر مما يقبلون الحجر الأسود.

■ سليم الحوري: نسبة إلى قرية من قرى دجيل، كان عابدا، زاهدا، يقال إنه مكث مدة يتقوت كل يوم بزبيبة، وقد سمع الحديث، وقرئ عليه، رحمه الله.

■ عبد الله بن سبعون: أبو أحمد الفقيه المالكي القيرواني، توفي ببغداد، ودفن بباب حرب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وأربعمائة

فيها ملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، قلاعا كثيرة، حصينة، من بلاد الهند، ثم عاد إلى بلاده، سالما غانما.

وفيها ولد الأمير أبو جعفر بن المقتدي بأمر الله، وزينت له بغداد.

وفيها ملك صاحب الموصل، الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي بعد وفاة أبيه.

وفيها ملك منصور بن مروان، بلاد ديار بكر بعد أبيه.

وفيها أمر السلطان بتغريق ابن علان اليهودي ضامن البصرة، وأخذ من ذخائره أربعمائة ألف دينار، فضمن خمارتكين البصرة بمائة ألف دينار، ومائة فرس في كل سنة.

وفيها فتح عبيد الله بن نظام الملك تكريت.

وحج بالناس خُتُلغ التركي، وقطعت خطبة المصريين بمكة، وخطب فيها للمقتدي، والسلطان ملكشاه السلجوقي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الملك بن الحسن بن أحمد بن حيرون: أبو نصر، سمع الكثير، وكان زاهدا عابدا، يسرد الصوم، ويختم في كل ليلة ختمة، رحمه الله.

■ محمد بن محمد بن أحمد ابن الحسين بن عبد العزيز بن مهران العكبري، سمع هلالاً الحفار، وابن رزقويه، والحمامي، وغيرهم وكان فاضلا جيد الشعر، فمن شعره قوله:

أطيل تفكري في أي ناس ... مضوا قدما وفيمن خلّفونا
هم الأحياء بعد الموت ذكرا ... ونحن من الخمول الميتونا

توفي في رمضان من هذه السنة، وله تسعون سنة رحمه الله تعالى.

■ هياج بن عبيد الحطيني الشامي، سمع الحديث، وكان أوحد زمانه، زهدا، وفقها، واجتهادا في العبادة، أقام بمكة مدة، يفتي أهلها، ويعتمر في كل يوم ثلاث مرات على قدميه، ولم يلبس نعلا منذ أقام بمكة، وكان يزور قبر النبي ﷺ، مع أهل مكة ماشيا، وكذلك كان يزور قبر ابن عباس بالطائف، وكان لا يدخر شيئا، ولا يلبس إلا قميصا واحدا، ضربه بعض أمراء مكة، في بعض فتن الروافض، فاشتكى أياما، ومات، وقد نيف على الثمانين رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة

فيها استولى تكش، أخو السلطان ملك شاه، على بعض بلاد خراسان.

وفيها أذن للوعاظ في الجلوس للوعظ، وكانوا قد منعوا من وقت فتنة ابن القشيري.

وفيها قبض على جماعة من الفتيان، كانوا قد جعلوا عليهم رئيسا يقال له عبد القادر الهاشمي، وقد كاتبوه من الأقطار، وكان الساعي له رجلا يقال له ابن رسول، وكانوا يجتمعون عند جامع براثا، فخيف من أمرهم أن يكونوا ممالئين للمصريين، فأمر بالقبض عليهم.

وحج بالناس خُتلغ التركي. والله أعلم

ومن توفي فيها من الأعيان

أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله بن الأخضر المحدث، سمع علي بن شاذان، وكان على مذهب الظاهرية، وكان كثير التلاوة، حسن السيرة، متقللا من الدنيا، قنوعا، رحمه الله.

■ الصليحي: المتغلب على اليمن، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الملقب بالصليحي، كان أبوه قاضيا باليمن، وكان سنيا، ونشأ هذا، فتعلم العلم، وبرع في أشياء كثيرة من العلوم، وكان شيعيا على مذهب القرامطة، ثم كان يدل بالحجيج، مدة خمس عشرة سنة، وكان قد اشتهر أمره بين الناس، أنه سيملك اليمن، فنجم ببلاد اليمن بعد قتله نجاحا صاحب تهامة، واستحوذ على بلاد اليمن بكمالها في أقصر مدة، واستوثق له الملك

بها، سنة خمس وخمسين وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر، فلما كان في هذا العام،خرج إلى الحج في ألفي فارس، فاعترضه سعيد بن نجاح بالموسم، في نفر يسير، فقاتلهم، فقتل هو وأخوه، واستحوذ سعيد بن نجاح على مملكته وحواصله، ومن شعر الصليحي هذا قوله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عوض النثار نثار

وكذا العلا لا يستباح نكاحها ... إلا بحيث تطلق الأعمار

■ **محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشِّبل، أبو** علي الشاعر البغدادي، أسند الحديث، وله الشعر الرائق فمنه قوله:

لا تظهرن لعاذل أو عاذر ... حاليك في السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين مرارة ... في القلب مثل شماتة الأعداء

وله أيضا:

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوارث ما يدع

كدودة القز ما تبنيه يخنقها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

■ **يوسف بن الحسن بن محمد بن الحسن، أبو القاسم التفكُري**، من أهل زنجان، ولد سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وتفقه على مذهب الشافعي ودرس الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان من أكبر تلاميذه، وكان عابدا، ورعا، خاشعا، كثير البكاء عند الذكر، مقبلا على العبادة، وكانت وفاته في هذه السنة وقد قارب الثمانين.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة

فيها ولي أبو كامل منصور بن نور الدولة دبيس ما كان يليه أبوه من الأعمال، وخلع عليه السلطان، والخليفة.

وفيها ملك شرف الدولة مسلم بن قريش حران، وصالح صاحب الرهاء.

وفيها فتح تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق مدينة أنطرطوس.

وفيها أرسل الخليفة ابن جهير إلى السلطان ملك شاه يخطب له ابنته عنده فأجابت أمها إلى ذلك، بشرط أن لا يكون له زوجة ولا سرية سواها، وأن يكون مبيتُه عندها، فوقع الشرط على ذلك.

وفيها توفي من الأعيان

داود بن السلطان ملكشاه: فوجد عليه أبوه وجدا عظيما، بحيث إنه كاد أو هَمَّ أن يقتل نفسه، فمنعه الأمراء من ذلك، وانتقل إلى غير ذلك البلد، وأمر النساء بالنوح عليه، ولما وصل الخبر لبغداد، جلس وزير الخليفة للعزاء.

القاضي أبو الوليد

■ **الباجي: سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي، الأندلسي، الباجي الفقيه، المالكي**، أحد الحفاظ المكثرين، في الفقه، والحديث، سمع الحديث، ورحل فيه إلى بلاد المشرق، سنة ست وعشرين وأربعمائة، فسمع هناك الكثير، واجتمع بأئمة ذلك الوقت، كالقاضي أبي الطيب الطبري، والشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وجاور بمكة ثلاث سنين، مع الشيخ أبي ذر الهروي، وأقام ببغداد ثلاث سنين أيضاً، وبالموصل سنة عند أبي جعفر السمناني قاضيها، فأخذ عنه الفقه والأصول، وسمع الخطيب البغدادي، وسمع منه الخطيب أيضا، وروي عنه هذين البيتين الحسنين:

إذا كنت أعلم علما يقينا ... بأن جميع حياتي كساعهْ

فلم لا أكون ضنينا بها ... وأجعلها في صلاح وطاعهْ

ثم عاد إلى بلده بعد ثلاث عشرة سنة، وتولى القضاء هناك، ويقال إنه تولى قضاء حلب أيضا، قاله ابن خلكان.

قال: وله تصانيف عديدة، منها المنتقى في شرح الموطأ، وإحكام الفصول في أحكام الأصول، والجرح والتعديل،وغير ذلك، وكان مولده سنة ثلاث وأربعمائة، وتوفي بالمَرِيَّة ليلة الخميس بين العشاءين، التاسع عشر من رجب من هذه السنة، رحمه الله.

أبو الأغر

■ **دبيس بن علي بن مزيد**: الملقب نور الدولة، توفي في هذه السنة عن ثمانين سنة: مكث منها أميرا نيفا وستين سنة، وقام بالأمر من بعده ولده أبو كامل، ولقب بهاء الدولة.

■ **عبد الله بن أحمد بن رضوان: أبو القاسم البغدادي**، كان من الرؤساء، ومرض بالشقيقة ثلاث سنين، فمكث في بيت مظلم لا يرى ضوءا، ولا يسمع صوتا.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وأربعمائة

فيها قدم مؤيد الملك، بن نظام الملك فنزل في مدرسة أبيه، وضربت الطبول على بابه في أوقات الصلوات الثلاث.

وفيها نفذ الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رسولا إلى السلطان ملكشاه، والوزير نظام الملك، فكان أبو إسحاق كلما مر على بلدة خرج اليه أهلها يتلقونه بأولادهم، ونسائهم، يتبركون به، ويتمسحون بركابه، وربما أخذوا من تراب حافر بغلته. ولما وصل إلى ساوة، خرج إليه أهلها، وما مر بسوق منها، إلا نثروا عليه من لطيف ما عندهم، حتى اجتاز بسوق الأساكفة، فلم يكن عندهم إلا مداسات الصغار، فنثروها عليه، فجعل الشيخ يتعجب من ذلك.

وفيها جددت الخطبة لبنت السلطان ملكشاه من جهة الخليفة، فطلبت أمها أربعمائة ألف دينار، ثم اتفق الحال على خمسين ألف دينار للرضاع وأن يكون الصداق مائة ألف دينار.

وفيها حارب السلطان أخاه تتش فأسره، ثم أطلقه، واستقرت يده على دمشق وأعمالها.

وحج بالناس في هذه السنة خُتلغ.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، أبو عمرو الحافظ** من بيت الحديث، رحل إلى الآفاق، وسمع الكثير، وتوفي بأصبهان في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **ابن ماكولا: الأمير أبو نصر علي بن الوزير أبي القاسم هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دلف بن أبي دلف التميمي الأمير** سعد الملك، أبو نصر ابن ماكولا، أحد أئمة الحديث، وسادات الأمراء، رحل، وطواف، وسمع الكثير، وصنف الإكمال في المشتبه من أسماء الرجال، وهو كتاب جليل، لم يسبق إليه، ولا يلحق فيه، إلا ما استدركه

عليه ابن نقطة، في كتاب سماه الاستدراك.

قتله مماليكه في كرمان، في هذه السنة، وكان مولده في سنة عشرين وأربعمائة، وعاش خمسا وخمسين سنة.

قال ابن خلكان: وقيل إنه قتل في سنة تسع وسبعين، وقيل في سنة خمس وثمانين. قال: وقد كان أبوه وزير القائم بأمر الله، وعمه عبد الله بن الحسين بن علي، ولي قضاء بغداد.

قال: ولا أدري لم سمي الأمير، إلا أن يكون منسوبا إلى جده الأمير أبي دلف، وأصله من جرباذقان، وولد في عكبرا، في شعبان، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

قال: وقد كان الخطيب البغدادي صنف كتاب المؤتنف، جمع فيه بين كتابي الدارقطني، وعبد الغني بن سعيد، في المؤتلف والمختلف، فجاء ابن ماكولا وزاد على كتاب الخطيب، وسماه الإكمال، وهو في غاية الإفادة، ورفع الالتباس، والضبط. ولم يوضع مثله، ولا يحتاج هذا الأمير بعده إلى ذكر فضيلة أخرى، ففيه دلالة على كثرة اطلاعه، وضبطه، وتحريره، وإتقانه، ومن الشعر المنسوب إليه قوله:

تقوض خيامك عن أرض تهان بها وجانب الذل إن الذل يجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة فالمندل الرطب في أوطانه حطب

ثم دخلت سنة ست وسبعين وأربعمائة

فيها عزل عميد الدولة بن جهير عن وزارة الخلافة، فسار بأهله وأولاده إلى السلطان، وقصدوا نظام الملك وزير السلطان، فعقد لولده فخر الدولة على بلاد ديار بكر، فسار إليها، بالخلع، والكوسات، والعساكر، وأمر أن ينتزعها من ابن مروان، وأن يخطب لنفسه، وأن يكتب اسمه على السكة، فما زال حتى انتزعها من أيديهم، وباد ملكهم على يديه، كما سيأتي بيانه، وسد وزارة الخلافة أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، ثم عزل في شعبان، واستوزر أبو شجاع محمد بن الحسين، ولقب ظهير الدين.

وفي جمادى الآخرة، ولي مؤيد الملك أبا سعد عبد الرحمن بن المأمون، المتولي تدريس النظامية، بعد وفاة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله.

وفيها عصى أهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش، فجاء، فحاصرها، ففتحها، وهدم سورها، وصلب قاضيها ابن جَلَبة، وابنيه، على السور.

وفي شوال منها، قتل أبو المحاسن بن أبي الرضا، وذلك لأنه وشى إلى السلطان، في نظام الملك، وقال له: سلمهم إليَّ، حتى أستخلص لك منهم ألف ألف دينار؛ فعمل نظام الملك سماطا هائلا، واستحضر غلمانه، وكانوا ألوفا من الأتراك، وشرع يقول للسلطان: هذا كله من أموالك، وما وقفته من المدارس والربط، فكلُّه شكره لك في الدنيا، وأجره لك في الآخرة، وأموالي وجميع ما أملكه بين يديك، وأنا أقنع، بمرقعة، وزاوية، فعند ذلك، أمر السلطان بقتل أبي المحاسن، وقد كان خطيًا عنده، وخصيصا به، وجيها لديه، وعزل أباه عن كتابة الطغراء، وولاها مؤيد الملك بن نظام الملك.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير خُتُلُغ التركي، مُقْطَعُ الكوفة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ أبو إسحاق الشيرازي:

■ **إبراهيم بن علي بن يوسف، الشيرازي الفيروزاباذي،** وهي قرية من قرى فارس، وقيل هي مدينة جُور، شيخ الشافعية، ومدرس النظامية ببغداد، ولد سنة ثلاث وقيل: خمس؛ وقيل: ست وتسعين وثلاثمائة، وتفقه بفارس، على أبي عبد الله البيضاوي، ثم قدم بغداد، سنة خمس عشرة وأربعمائة، فتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث من ابن شاذان، والبرقاني، وكان زاهدا، عابدا، ورعا كبير القدر، معظما، محترما، إماما في الفقه، والأصول، والحديث، وفنون كثيرة، وله المصنفات الكثيرة النافعة، كالمهذب في المذهب، والتنبيه، والنكت في الخلاف، واللمع في أصول الفقه، والتبصرة، والمعونة وطبقات الشافعية، وغير ذلك.

قلت: وقد ذكرت ترجمته، مستقصاة ومطولة، في أول شرح التنبيه، وتوفي ليلة الأحد، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، في دار أبي المظفر بن رئيس الرؤساء، وغسله أبو الوفا بن عقيل الحنبلي، وصلى عليه بباب الفردوس، من دار الخلافة، وشهد الصلاة عليه المقتدي بأمر الله، وتقدم للصلاة عليه، أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، وكان نائب الوزارة، ثم صلِّي عليه مرة ثانية بجامع القصر، ودفن بباب أبرز، في تربة مجاورة للناحية، رحمه الله تعالى.

وقد امتدحه الشعراء في حياته، وبعد وفاته، وكان هو نفسه له شعر رائق، فمما أنشده ابن خلكان من شعره قوله:

سألت الناس عن خل وفي فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حر فإن الحر في الدنيا قليل

قال ابن خلكان: ولما توفي، عمل الفقهاء عزاءه بالمدرسة النظامية. وعين مؤيد الملك أبا سعد المتولي مكانه، فلما بلغ الخبر إلى نظام الملك، كتب يقول: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله، وأمر أن يدرس الشيخ أبو نصر بن الصباغ في مكانه.

■ **طاهر بن الحسين بن أحمد بن عبد الله القواس،** قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وأفتى، ودرس، وكانت له حلقة بجامع المنصور، للمناظرة، والفتوى، وكان ثقة ورعا، زاهدا، ملازما لمسجده خمسين سنة، وكانت وفاته في هذه السنة عن ست وثمانين سنة، ودفن قريبا من الإمام أحمد رحمه الله وإيانا.

■ **محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل: أبو طاهر الأنباري الخطيب،** ويعرف بابن أبي الصقر، طاف البلاد، وسمع الكثير، وكان ثقة، صالحا، فاضلا، عابدا، وقد سمع منه الخطيب البغدادي، وروى عنه مصنفاته، توفي بالأنبار في جمادى الآخرة، عن نحو من مائة سنة، رحمه الله.

■ **محمد بن أحمد بن الحسين بن جَرْدَة:** أحد الرؤساء ببغداد، وهو من ذوي الثروة والمروءة، كان يُحرز ماله بثلاثمائة ألف دينار، وكان أصله من عكبرا، فسكن بغداد، وكانت له بها دار عظيمة، تشتمل على ثلاثين مسكنا مستقلا، وفيها حمام، وبستان، ولها بابان على كل باب مسجد، إذا أذن المؤذن في أحدهما، لا يسمع الآخر، من اتساعها، وقد كانت زوجة الخليفة القائم - حين وقعت فتنة البساسيري، في سنة خمسين وأربعمائة - نزلت عنده، في جواره، فبعث إلى الأمير قريش بن بدران أمير العرب بعشرة آلاف دينار، ليحمي له داره، وهو الذي بنى المسجد المعروف به ببغداد، وقد ختم فيه القرآن ألوف من الناس، وكان لا يفارق زي التجار. وكانت وفاته في عاشر ذي القعدة، من هذه السنة، ودفن في التربة المجاورة لتربة القزويني، رحمه الله وإيانا آمين.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وأربعمائة

فيها كانت الحرب بين فخر الدولة بن جهير، وزير الخليفة، وبين ابن مروان، صاحب ديار بكر، فاستولى ابن جهير، على ملك العرب، وسبى حريمهم، وأخذ البلاد، ومعه سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، فافتدى خلقا من العرب، فشكره الناس على ذلك، وامتدحه الشعراء.

وفيها بعث السلطان عميد الدولة ابن جهير، في جيش كثيف ومعه قسيم الدولة آق سنقر جد بني أتابك ملوك الشام والموصل، فسار إلى الموصل فملكوها.

وفي شعبان منها، ملك سليمان بن قتلمش أنطاكية، فأراد شرف الدولة مسلم بن قريش أن يستنقذها منه، فهزمه سليمان، وقتله، وكان مسلم هذا من خيار الملوك له سيرة، له في كل قرية وال وقاض، وصاحب خبر، وكان يملك من السندية إلى منبج. وولي بعده أخوه إبراهيم بن قريش، وكان مسجونا من سنين، فأطلق، وملك.

وفيها ولد السلطان سنجر بن ملكشاه، في العشرين من رجب بسنجار.

وفيها عصى تكش، أخو السلطان، فأخذه السلطان، فسلمه وسجنه.

وحج بالناس في هذه السنة، الأمير خمارتكين الحسناني، وذلك الشكوى الناس من شدة سير خُتلغ بهم، وأخذه المكوسات منهم، سار مرة من الكوفة إلى مكة في تسعة عشر يوما.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن دوست**: أبو سعد النيسابوري، شيخ الصوفية، له رباط بمدينة نيسابور، يدخل من بابه الجمل براكبه، وحج مرات على التجريد على البحرين، حين انقطعت طريق مكة، وكان يأخذ جماعة من الفقراء، ويتوصل من قبائل العرب، حتى يصل مكة، توفي في هذه السنة، وقد جاوز التسعين، رحمه الله وإيانا، وأوصى أن يخلفه ولده إسماعيل، فأجلس في مشيخة الرباط وله ثنتا عشرة سنة، وهو الذي وقف الأوقاف على الرباط.

■ **ابن الصباغ: صاحب الشامل**، عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر، الإمام أبو نصر بن الصباغ، ولد سنة أربعمائة، وتفقه ببغداد على أبي الطيب الطبري، حتى فاق الشافعية بالعراق وصنف المصنفات المفيدة، منها كتاب الشامل في المذهب، وهو أول من درس بالنظامية، وكانت وفاته في هذه السنة، ودفن بداره في الكرخ، ثم نقل إلى باب حرب، رحمه الله.

قال القاضي ابن خلكان: كان فقيه العراقيين. وكان يقاس بالشيخ أبي إسحاق، وكان ابن الصباغ أعلم منه بالمذهب، وإليه الرحلة، وقد صنف الشامل في الفقه، والعمدة في أصول الفقه، وتولى تدريس النظامية أولا، ثم عزل بعد عشرين يوما بالشيخ أبي إسحاق، فلما مات الشيخ أبو إسحاق، تولاها أبو سعد المتولي، ثم عزل بابن الصباغ، ثم عُزل ابن الصباغ بابن المتولِّي وكان ثقة، حجة، صالحا، ولد سنة أربعمائة، وأضر في آخر عمره، رحمه الله تعالى.

■ **مسعود بن ناصر بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل، أبو سعيد السجزي الحافظ**، رحل في طلب الحديث، وسمع الكثير، وجمع الكتب النفيسة، وكان حسن الخط، صحيح النقل حافظا ضابطا، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

في المحرم منها، زلزلت أرَّجان، فهلك خلق كثير من الروم ومواشيهم.

وفيها كثرت الأمراض بالحمى والطاعون، بالعراق، والحجاز، والشام، وأعقب ذلك موت الفجأة، ثم ماتت الوحوش في البرية، ثم تلاه موت البهائم، حتى عزت الألبان واللحمان، ومع هذا كله، وقعت فتنة عظيمة، بين الرافضة والسنة، فقتل خلق كثير.

وفي ربيع الأول، هاجت ريح سوداء، وسفت رملا، وتساقطت أشجار كثيرة من النخل وغيرها، ووقعت صواعق في البلاد، حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت، ثم انجلى ذلك، ولله الحمد.

وفيها ولد للخليفة ولده أبو عبد الله الحسين، وزينت بغداد، وضربت الطبول، والبوقات، وكثرت الصدقات.

وفيها استولى فخر الدولة بن جهير، على بلاد كثيرة، منها آمد، وميافارقين، وجزيرة ابن عمر، وانقرضت دولة بني مروان على يده في هذه السنة.

وفي ثاني عشر شعبان منها، قلِّد أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، قضاء القضاء ببغداد، بعد وفاة أبي عبد الله الدامغاني، وخلع عليه في الديوان.

وحج بالناس الأمير ختلغ التركي، وزار النبيﷺ ذاهبا وآيبا. قال: أظن أنها آخر حِجَجي ، فكان كذلك.

وفيها خرج توقيع الخليفة المقتدي بأمر الله، بتجديد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في كل محلة، والأمر بإلزام أهل الذمة بالغيار، وكسر الملاهي، وإراقة الخمور، وإخراج أهل الفساد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن أبي أيوب، أبو بكر الفوركي**، سبط الأستاذ أبي بكر بن فورك، استوطن بغداد، وكان متكلما، يعظ الناس في النظامية، فوقعت بسببه فتنة بين المذاهب.

قال ابن الجوزي: وكان مؤثرا للدنيا، لا يتحاشى من لبس الحرير وذكر أنه كان يأخذ مكس الفحم، وكانت وفاته في هذه السنة، وله نيِّف وستون سنة، ودفن إلى جانب قبر الأشعري، بمشرعة الروايا.

■ **الحسن بن علي: أبو عبد الله المردوسي**، كان رئيس أهل زمانه، وأكملهم مروءة، كان قد خدم في أيام بني بويه، وتأخر إلى هذا الحين، وكانت الملوك تعظمه، وتكاتبه، وكان كثير الصدقة، والصلات، والبر، وبلغ من العمر خمسا وتسعين سنة، وأعد لنفسه قبرا وكفنا قبل موته بخمس سنين.

■ **أبو سعد المتولي: عبد الرحمن بن المأمون بن علي أبو سعد المتولي**: مصنف التتمة، ومدرس النظامية بعد الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان فصيحا بليغا، ماهرا بعلوم كثيرة، كانت وفاته في شوال، من هذه السنة، عن ثنتين وخمسين سنة، رحمه الله وإيانا، وصلى عليه القاضي أبو بكر الشامي، ودُفن بباب أبرز.

■ **إمام الحرمين: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، أبو المعالي الجويني**، وجوين من قرى نيسابور،

الملقب بإمام الحرمين، لمجاورته بمكة أربع سنين، كان مولده في سنة تسع عشرة وأربعمائة، سمع الحديث، وتفقه على والده الشيخ أبي محمد الجويني، ودرّس بعده في حلقته، وتفقه على القاضي حسين، ودخل بغداد، وتفقه بها، وروى بها الحديث، وخرج إلى مكة، فجاور فيها أربع سنين،ثم عاد إلى نيسابور،فسلم إليه التدريس، والخطابة، والوعظ، وصنف نهاية المطلب في دراية المذهب، والبرهان في أصول الفقه، وغير ذلك من علوم شتى، واشتغل عليه الطلبة، ورحلوا إليه من الأقطار، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه، وقد استقصيت ترجمته في «الطبقات».

وكانت وفاته في الخامس والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة، عن سبع وخمسين سنة، ودفن بداره، ثم نقل إلى جانب والده رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان: كانت أمه جارية، اشتراها والده من كسب يده، من النسخ، وأمرها أن لا يرضعه غيرها، فاتفق أن امرأة دخلت عليها، فأرضعته مرة، فأخذه الشيخ أبو محمد، فنكسه، ووضع يده على بطنه، ووضع أصبعه في حلقه، ولم يزل به حتى استقاء كل ما في بطنه من لبن تلك المرأة.

قال: فربما حصل لإمام الحرمين في بعض مجالس المناظرة فتور، ووقفة، فيقول: هذا من آثار تلك الرضعة.

قال: ولما عاد من الحجاز إلى بلده نيسابور، سلم إليه المحراب، والمنبر والخطابة، والتدريس، ومجلس التذكير يوم الجمعة، وبقي ثلاثين سنة غير مزاحم، ولا مدافع، وصنف في كل فن، من ذلك النهاية الذي ما صنف في الإسلام مثلها.

قال الحافظ أبو جعفر: سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين: يا مفيد أهل المشرق والمغرب، أنت اليوم إمام الأئمة.

ومن تصانيفه: الشامل في أصول الدين، والبرهان في أصول الفقه، وتلخيص التقريب، والإرشاد، والعقيدة النظامية، وغياث الأمم، وغير ذلك، مما أتمّه ومما لم يتمه. وصلى عليه ولده أبو القاسم، وغلقت الأسواق، وكسر تلامذته أقلامهم ومحابرهم - وكانوا أربع مئة - ومكثوا كذلك سنة، وقد رثي بمراث كثيرة، فمن ذلك قول بعضهم:

قلوب العالمين على المقالي ... وأيام الورى شبه الليالي

أيثمر غصن أهل العلم يوماً ... وقد مات الإمام أبو المعالي

■ **محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد أبو علي**، شيخ المعتزلة، كان يدرس لهم، فأنكر أهل السنة عليهم، فلزم بيته خمسين سنة، إلى أن توفي في ذي الحجة من هذه السنة، ودفن في مقبرة الشونيزية، وهذا هو الذي تناظر هو والشيخ أبو يوسف القزويني المعتزلي، المفسر، في إباحة الولدان في الجنة، كما حكى ذلك ابن عقيل عنهما، وكان حاضرهما، فمال هذا إلى إباحة ذلك، لأن مأمون المفسدة هنالك، وقال أبو يوسف: إن هذا لا يكون، ومن أين لك أنهم يكون لهم أدبار؟ وهذا العضو إنما خلق في الدنيا، مخرجاً للأذى، وليس في الجنة شيء من ذلك، فلا يحتاجون إليه، ولا يكون لهذه المسألة صورة بالكلية.

وقد روى هذا الرجل حديثا واحدا، عن شيخه أبي الحسين البصري، بسنده المتقدم، من طريق شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن أبي مسعود البدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

وقد رواه القعنبي، عن شعبة، ولم يرو عنه سواه، فقيل: لأنه لما رحل إليه، دخل عليه، وهو يبول في البالوعة، فسأله أن يحدثه، فامتنع، فروى له هذا الحديث، كالواعظ له، والتزم أن لا يحدثه بغيره.

وقيل: لأن شعبة مر على القعنبي قبل أن يشتغل بعلم الحديث - وكان إذ ذاك يُعاني الشراب - فسأله أن يحدثه، فامتنع، فسل سكينا، وقال: إن لم تحدثني، وإلا قتلتك. فروى له هذا الحديث، فتاب، وأناب، ولزم مالكا، ثم فاته السماع من شعبة، فلم يتفق له غير هذا الحديث، فالله أعلم.

أبو عبد الله

■ **الدامغاني: محمد بن علي بن الحسين بن عبد الملك بن عبد الوهاب بن حمويه الدامغاني**، قاضي القضاة ببغداد، مولده في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة وتفقه ببلده ثم قدم بغداد في سنة ثمان عشرة وأربعمائة، فتفقه بها على أبي عبد الله الصيمري، وأبي الحسن القدوري، وسمع الحديث منهما، ومن ابن النقور، والخطيب، وغيرهم، وبرع في الفقه، وكان له عقل وافر، وتواضع زائد، وانتهت إليه رياسة الفقهاء، وكان فصيح العبارة،، وكان فقيرا في ابتداء طلبه، عليه أطمار رثة، ثم صارت إليه الرياسة، والقضاء، بعد ابن ماكولا، في سنة تسع وأربعين، وكان القائم بأمر الله يكرمه، والسلطان طغرلبك يعظمه، وباشر الحكم ثلاثين سنة، في غاية السيرة الحسنة والأمانة، والديانة والصيانة، مرض أياما يسيرة، ثم توفي في الرابع والعشرين من رجب، من هذه السنة، وقد ناهز الثمانين، ودفن بداره، بدرب القلّائين، ثم نقل إلى مشهد أبي حنيفة، رحمهما الله تعالى.

■ **محمد بن علي بن المطلب: أبو سعد الأديب**، كان قد قرأ النحو، والأدب، واللغة، والسير، وأخبار الناس، ثم أقلع عن ذلك كله، وأقبل على كثرة الصلاة، والصدقة، والصوم، إلى أن توفي في هذه السنة، عن ست وثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن طاهر العباسي: ويعرف بابن الرُّجحي**، تفقه على ابن الصباغ، وناب في الحكم، وكان محمود الطريقة، وشهد عند ابن الدامغاني، فقبله.

■ **منصور بن دبيس بن علي بن مزيد، أبو كامل الأمير بعد سيف الدولة**، صدقة توفي في رجب من هذه السنة، وقد كان له شعر، وأدب، وفيه فضل، فمن شعره قوله:

فإن أنا لم أحمل عظيماً ولم أقد ... لهاماً ولم أصبر على كل معظم

ولم أجر الجاني وأمنع حوزه ... غداة أنادي للفخار فأنتمي

فلا نهضت لي همة عربية ... إلى المجد تدلي لي ذرى كل محرم

■ **هبة الله بن عبد الله بن أحمد السيبي**:

قاضي الحريم بنهر معلى، ومؤدب الخليفة المقتدي بأمر الله، سمع الحديث، وتوفي في محرم هذه السنة، وقد جاوز الثمانين، وله شعر جيد فمنه قوله:

رجوت الثمانين من خالقي ... لما جاء فيها عن المصطفى

فَبَلَّغَنِيهَا فشكرا له ... وزاد ثلاثا بها أردفا

وإني لمنتظر وعده ... لينجزه لي فعل أهل الوفا

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمائة

فيها كانت الوقعة بين تتش، صاحب دمشق، وبين سليمان بن قتلمش، صاحب حلب، وأنطاكية، وتلك الناحية، فانهزم أصحاب

سليمان، وقتل هو نفسه بخنجر كانت معه، فسار السلطان ملكشاه من أصبهان إلى حلب، فملكها، وملك ما بين ذلك من البلاد التي مر بها، وهي حران، والرها، وقلعة جعبر، وكان جعبر شيخا كبيرا، أعمى، وله ولدان، وكان قطاع الطريق يلجؤون إليها، فيتحصنون بها، فراسل السلطان جعبر بن سابق في تسليمها، فامتنع عليه، فنصب عليها المجانيق والعرادات، ففتحها وأمر بقتل سابق، فقالت زوجته: لا تقتله حتى تقتلني معه، فألقاه من ورائها، فتكسر، ثم أمر بتوسيطه بعد ذلك، فألقت زوجته نفسها وراءه، فسلمت، فلامها بعض الناس في ذلك، فقالت: كرهت أن يصل إلي التركي، فيبقى ذلك عارا علي، فاستحسن منها ذلك، واستناب السلطان على حلب قسيم الدولة آق سنقر التركي، وهو جد نور الدين الشهيد، واستناب على الرحبة، وحران والرقة، وسروج، والخابور: محمد بن شرف الدولة مسلم، وزوجه بأخته زليخا خاتون، وعزل فخر الدولة بن جهير عن ديار بكر، وسلمها إلى العميد أبي علي البلخي، وخلع على سيف الدولة صدقة بن دبيس الأسدي، وأقره على عمل أبيه، ودخل بغداد في ذي القعدة من هذه السنة، وهي أول دخلة دخلها، فزار المشاهد، والقبور، ودخل على الخليفة، فقبل يده، ووضعها على عينيه، وخلع عليه الخليفة خلعا سنية، وفوض إليه أمور الناس، واستعرض الخليفة أمراءه، ونظام الملك واقف بين يدي الخليفة يعرفه بالأمراء، واحدا بعد واحد، باسمه، وكم جيشه، وإقطاعه،ثم أفاض عليه الخليفة خلعا سنية، خرج من بين يديه، فنزل بمدرسته النظامية،ولم يكن رآها قبل ذلك، فاستحسنها، إلا أنه استصغرها، واستحسن أهلها ومن بها من الجماعة، وحمد الله على ذلك، وسال الله أن يجعل ذلك خالصا لوجهه الكريم، ونزل بخزانة كتبها، وأملى جزءا من مسموعاته، فسمعه المحدثون منه.

وورد الشيخ أبو القاسم علي بن أبي يعلى الحسيني الدبوسي، إلى بغداد، في تجمل عظيم، فرتب مدرسا بالنظامية، بعد أبي سعد المتولي.

وفي ربيع الآخر، فرغت المنارة بجامع القصر، وأذن فيها.

وفيها كانت زلازل هائلة، بالعراق، والجزيرة، والشام،فهدمت شيئا كثيرا من العمران، وخرج أكثر الناس إلى الصحراء، ثم عادوا.

وحج بالناس الأمير خمارتكين الحساني، وقطعت خطبة المصريين من مكة، والمدينة، وقلعت الصفائح التي على باب الكعبة، التي عليها ذكر الخليفة المصري، وجدد غيرها عليها اسم المقتدي.

قال ابن الجوزي: وظهر رجل بين السندية، وواسط، يقطع الطريق، وهو مقطوع اليد اليسرى، يفتح القُفل، في أسرع مدة، ويغوص دجلة في غوصتين، ويقفز القفزة خمسة وعشرين ذراعا، ويتسلق الحيطان الملس، ولا يقدر عليه أحد، وخرج من العراق سالما.

قال وفيها توفي فقير يسأل الناس بجامع المنصور، فوجد في مرقعته ستمائة دينار مغربية.

قال: وفيها عمل سيف الدولة صدقةُ، سماطا للسلطان جلال الدولة، أبي الفتح ملكشاه، اشتمل على ألف رأس من الغنم، ومائة من الجمال، والخيل، ودخلَه عشرون ألفاً مَنّاً من السكر، وجعل عليه من أصناف الطيور والوحوش المنفوخة من السكر شيء كثير، فتناول السلطان منه شيئا يسيرا، ثم أشار فانتهب عن آخره، ثم انتقل من ذلك المكان، إلى سرادق عظيم، لم ير مثله، من الحرير، وفيه خمسمائة قطعة من الفضة، وألوان من تماثيل الند والمسك، والعنبر وغير ذلك، فمد فيه سماطا خاصا، فأكل السلطان حينئذ، وحمل إليه عشرين ألف دينار، وقدم له ذلك السرادق بكماله، وانصرف، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير

■ **جعبر بن سابق القشيري:** الملقب بسابق الدين، كان قد تملك قلعة جعبر مدة طويلة، فنسبت إليه، وإنما كان يقال لها قبل ذلك الدوسرية، نسبة إلى غلام النعمان بن المنذر، ثم إن هذا الأمير كبر، وعمي، وكان له ولدان يقطعان الطريق، فاجتاز به السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وهو ذاهب إلى حلب، ليأخذها فاستنزله منها وقتله، وأخذها منهم في هذه السنة.

الأمير

■ **خُطلغ:** أمير الحاج كان مقطعا الكوفة، وله وقعات مع العرب، أعربت عن شجاعته، وأرعبت قلوبهم، وشردتهم في البلاد شذر مذر، وقد كان حسن السيرة، محافظا على الصلوات، كثير التلاوة وله آثار حسنة بطريق مكة، في إصلاح المصانع، والأماكن التي يُحتاج إليها وله مدرسة على الحنفية، بمشهد يونس بالكوفة، وبنى مسجدا بالجانب الغربي من بغداد، على دجلة، بمشرعة الكرخ.

وكانت في جمادى الأولى منها، رحمه الله تعالى، ولما بلغ نظام الملك وفاته، قال: مات ألف رجل. والله أعلم.

■ **علي بن فضّال المجاشعي:** أبو الحسن النحوي المغربي، له المصنفات الدالة على علمه، وغزارة فهمه، وأسند الحديث. توفي في ربيع الأول منها، ودفن بباب أبرز رحمه الله.

■ **علي بن أحمد التستري:** كان مقدم أهل البصرة في المال والجِدة، وله مراكب تعمل في البحر، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفرد برواية سنن أبي داود. وكانت وفاته في رجب من هذه السنة.

■ **يحيى بن الحسين بن إسماعيل الحسيني:** كان فقيها على مذهب زيد بن علي وعنده معرفة بالأصول والحديث.

ثم دخلت سنة ثمانين وأربعمائة

في المحرم منها، نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة المكرمة على مائة وثلاثين جملا، مجللة بالديباج الرومي، عليها أواني الذهب والفضة، وعلى أربع وسبعين بغلة، مجللة بأنواع الديباج الملكي، وأجراسها، على ستة منها اثنا عشر صندوقا من الفضة، فيها أنواع الجواهر، والحلي، وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرسا، عليها مراكب الذهب، مرصعة بأنواع الجوهر، ومهد عظيم، مجلل بالديباج الملكي، عليه صفائح الذهب، مرصع بالجوهر، وبعث الخليفة لتلقيهم الوزير أبا شجاع، وبين يديه نحو من ثلاثمائة موكبية، غير المشاعل، لخدمة الست خاتون، امرأة السلطان تركان خاتون، حماة الخليفة، وسألها أن تحمل الوديعة الشريفة إلى دار الخلافة، فأجابت إلى ذلك، فحضر الوزير نظام الملك، وأعيان الأمراء، وبين أيديهم من الشموع والمشاعل ما لا يحصى وجاءت نساء الأمراء كل واحدة منهن في جماعتها وجواريها وبين أيديهن الشموع والمشاعل، ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان زوجة الخليفة بعد الجميع في محفة مجللة، وعليها من الذهب والجواهر ما لا تحصى قيمته، وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية تركية، بالمراكب

المزينة يبهرن الأبصار، فدخلت دار الخلافة على هذه الصفة، وقد زين الحريم الطاهر، وأشعلت فيه الشموع، وكانت ليلة مشهودة هائلة جدا.

فلما كان من الغد، أحضر الخليفة أمراء السلطان، ومد سماطا لم ير مثله، عم الحاضرين، والغائبين، وخلع على الخاتون زوجة السلطان، وكان يوما مشهودا، وكان السلطان متغيبا في الصيد، ثم قدم بعد أيام، وكان الدخول بها في أول السنة، فولدت من الخليفة في ذي القعدة، ولداً ذكرا، زينت له بغداد.

وفي هذه السنة ولد للسلطان ملكشاه ولد سماه محمودا، وهو الذي ملك بعده.

وفيها جعل السلطان ولده أبا شجاع أحمد ولي العهد من بعده، ولقبه: ملك الملوك، عضد الدولة، وتاج الملة، عدة أمير المؤمنين،وخطب له بذلك على منابر بغداد وغيرها، ونثر الذهب على الخطباء عند ذكر اسمه.

وفيها شرع في بناء التاجية في باب أبرز، وعملت مُسَنّاة، وغرست النخيل والفواكه هنالك، وعمل سور بأمر السلطان ملك شاه.

وحج بالناس في هذه السنة نجم الدولة خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن سعيد، أبو القاسم الساوي، رحل في الحديث إلى الآفاق، حتى جاوز ما وراء النهر، وكان له حظ وافر في الأدب، ومعرفة العربية، توفي بنيسابور في جمادى الأولى هذه السنة.

■ طاهر بن الحسين البندنيجي: أبو الوفاء الشاعر المبرز، له قصيدتان في مدح نظام الملك، إحداهما معجمة، والأخرى غير منقوطة، أولها:

لاموا ولو علموا ما اللوم ما لاموا   ورد لومهم هم وآلام

وكانت وفاته ببلده في رمضان، عن نيف وسبعين سنة رحمه الله تعالى.

■ محمد بن أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله: عرض له جدري، فمات من هذه السنة وله تسع سنين، فحزن عليه والده والناس، وجلسوا للعزاء، فأرسل إليهم يقول: إن لنا في رسول الله أسوة حسنة حين توفي ابنه إبراهيم، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة ١٥٦] ثم عزم على الناس، فانصرفوا راجعين إلى منازلهم.

■ محمد بن محمد بن زيد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الحسيني، الملقب بالمرتضي ذي الشرفين، ولد سنة خمس وأربعمائة ببغداد ونشأ بها، وسمع الحديث الكثير وقرأ بنفسه على الشيوخ، وصحب الحافظ أبا بكر الخطيب، فصارت له معرفة جيدة بالحديث، وسمع عليه الخطيب شيئا من مروياته، ثم انتقل إلى سمرقند، وأملى الحديث بأصبهان، وغيرها، وكان يرجع إلى عقل كامل، وفضل ومروءة، وكانت له أموال جزيلة، وأملاك متسعة، ونعمة وافرة، يقال إنه ملك أربعين قرية، وكان كثير الصدقة، والبر والصلة للعلماء، والفقراء، وبلغت زكاة ماله الصامت عشرة آلاف دينار، غير زكاة العشور، وكان له بستان ليس للملك مثله، فطلبه منه ملك ما وراء النهر، واسمه الخضر بن إبراهيم، عارية ليتنزه فيه، فأبى عليه، وقال: أعيره إياه، ليشرب فيه الخمر بعد ما كان مأوى أهل العلم والحديث والدين؟ فأعرض عنه وحقد عليه، ثم استدعاه إليه ليستشيره في بعض الأمور على العادة، فلما حصل عنده، قبض عليه، وسجنه في قلعته، واستحوذ على جميع أملاكه، وحواصله وأمواله فكان يقول: ما تحققت صحة نسبي، إلا بهذه المصادرة، فإني ربيت في النعيم، فكنت أقول: إن مثلي لا بد أن يبتلى. ثم منعوه الطعام والشراب حتى مات رحمه الله في القلعة فأخرجوه فدفنوه هناك فقبره يزار أكرم الله مثواه.

■ محمد بن هلال بن المحسِّن بن إبراهيم: أبو الحسن بن الصابي، الملقب بغرس النعمة، سمع أباه، وأبا علي بن شاذان،، وكانت له صدقة كثيرة، ومعروف، وقد ذيل على تاريخ أبيه، الذي ذيله على تاريخ ثابت بن سنان، الذي ذيله على تاريخ ابن جرير الطبري، وقد أنشأ دارا ببغداد، ووقف فيها أربعة آلاف مجلد، في فنون من العلوم، وترك حين مات سبعين ألف دينار، ودفن بمشهد علي ﷺ ورحمه.

■ هبة الله بن علي بن محمد بن أحمد بن المجلّي أبو نصر، جمع خطبا ووعظا، وسمع الحديث على خلق من المشايخ، وتوفي شابا قبل أوان الرواية رحمه الله.

■ أبو بكر بن عمر أمير الملثمين: كان في أرض فرغانة، اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من الملوك، وكان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كال يعتقد طاعته، وكان مع هذا يقيم الحدود، ويحفظ محارم الإسلام، ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة معتقده، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض حروبه، في حلقة، فقتلته في هذه السنة.

■ فاطمة بنت علي: المؤدبة الكاتبة، وتعرف ببنت الأقرع، سمعت الحديث من أبي عمر بن مهدي وغيره، وكانت تكتب الخط المنسوب على طريقة ابن البواب، ويكتب الناس عليها، وبخطها كانت الهدنة من الديوان إلى ملك الروم، وكتبت مرة إلى عميد الملك الكندري رقعة، فأعطاها ألف دينار، توفيت في المحرم، من هذه السنة ببغداد، ودفنت بباب أبرز.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة

فيها كانت فتن عظيمة، ببغداد بين الروافض والسنة ببغداد، وجرت خطوب كثيرة.

وفي ربيع الآخر: أخرجت الأتراك من حريم الخلافة، وهذا فيه قوة للخلافة.

وفيها ملك مسعود بن الملك المؤيد بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد غزنة، بعد أبيه.

وفيها فتح ملكشاه مدينة سمرقند.

وحج بالناس الأمير خمارتكين.

وممن حج فيها الوزير أبو شجاع واستتاب ولده أبو منصور وطراد بن محمد الزينبي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن السلطان ملكشاه: وكان ولي عهد أبيه. توفي وعمره إحدى عشرة سنة، فمكث الناس في العزاء سبعة أيام، لم يركب أحد فرسا، والنساء ينحن عليه في الأسواق، وسود أهل البلاد التي لأبيه أبوابهم.

■ عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن جعفر أبو إسماعيل الأنصاري الهروي، روى الحديث، وصنف، وكان كثير السهر بالليل، وكانت وفاته بهراة، في ذي الحجة، عن ست وثمانين سنة.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وأربعمائة

في المحرم: درس أبو بكر الشامي في المدرسة التاجية، بباب أبرز،التي أنشأها الصاحب تاج الملك أبو الغنائم على الشافعية.

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة، ورفعوا المصاحف، وجرت حروب طويلة، وقتل فيها خلق كثير؛ نقل ابن الجوزي في المنتظم [٢٨٣/١٦]، من خط ابن عقيل، أنه قتل في هذه السنة قريب من مائتي رجل، قال: وسب أهل الكرخ الصحابة، وأزواج النبي ﷺ، فلعنة الله على أهل الكرخ الذين فعلوا ذلك، وإنما حكيت هذا، ليعلم الواقف عليه ما في طوايا الروافض، من الخبث، والبغض لدين الإسلام وأهله، ومن العداوة الباطنة الكامنة في قلوبهم لله، ولرسوله، وشريعته.

وفيها ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر، وطائفة كبيرة من تلك الناحية، بعد حروب عظيمة، ووقعات هائلة.

وفيها استولى جيش المصريين،على عدة من بلاد من الشام.

وفيها عمرت منارة جامع حلب.

وفيها أرسلت الخاتون بنت السلطان، امرأة الخليفة،تشكو إلى أبيها إعراض الخليفة عنها، فبعث إليها أبوها الطواشي صواباً، والأمير برّان، ليرجعاها إليه. فأجاب الخليفة إلى ذلك، وبعث معها بالنقيب، وجماعة من أعيان الأمراء، وخرج ابن الخليفة أبو الفضل، والوزير، فشيعاها إلى النهروان، وذلك في ربيع الأول، فلما وصلت إلى عند أبيها، توفيت في شوال من هذه السنة بأصبهان، فعمل عزاؤها ببغداد سبعة أيام، وأرسل الخليفة إلى السلطان أميرين لتعزيته فيها.

وحج بالناس في هذه السنة خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الصمد بن أحمد بن علي**: المعروف بظاهر، النيسابوري الحافظ، رحل وسمع الكثير، وخرج، وعاجله الموت في هذه السنة بهمذان وهو شاب رحمه الله.

■ **علي بن أبي يعلى بن زيد**: أبو القاسم الدبوسي، مدرس النظامية بعد المتولي، وقد سمع شيئا من الحديث، وكان فقيها ماهرا، وجدليا باهرا.

■ **عاصم بن الحسن بن محمد بن علي بن عاصم بن مهران**، أبو الحسين العاصمي، وهو من أهل الكرخ، سكن باب الشعير، ولد سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وكان من أهل الفضل، والأدب، وسمع الحديث من الخطيب، وغيره، وكان ثقة حافظا، ومن شعره الجيد قوله:

لهفي على قوم بكاظمة　　ودعتهم والركب معترض
لم تترك العبرات مُذْ بَعُدُوا　　لي مقلة ترنو وتغتمض
رحلوا فدمعي واكف هطل　　جار وقلبي حشوه مرض
وتعوضوا لا ذقت فقدهم　　عني وما لي عنهم عوض
أقرضتهم قلبي على ثقة　　منهم فما ردوا الذي اقترضوا

■ **محمد بن أحمد بن حامد بن عبيد**، أبو جعفر البخاري، المتكلم، المعتزلي، أقام ببغداد،ويعرف بقاضي حلب، وكان حنفي المذهب في الفروع، معتزليا في الأصول، مات ببغداد في هذه السنة، ودفن بباب حرب.

■ **محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأصبهاني**، المعروف بسمكويه، أحد الحفاظ، الجوالين، الرحالين، سمع الكثير وجمع الكتب، وأقام بهراة، وكان رجلا صالحا، كثير العبادة، توفي رحمه الله بنيسابور، في ذي الحجة من هذه السنة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة

في المحرم منها، ورد الفقيه أبو عبد الله الطبري بمنشور نظام الملك بالتدريس بالنظامية ببغداد، فدرس بها، ثم في ربيع الأول ورد الفقيه أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي، بمنشور آخر بالتدريس بها، فاتفق الحال على أن يدرس هذا يوما، وهذا يوما.

وفي جمادى الأولى، دهم أهل البصرة رجل يقال له تِليا، كان ينظر في النجوم، فاستغوى خلقا من أهلها، وزعم أنه المهدي، وأحرق من البصرة شيئا كثيرا، من ذلك دار كتب كانت أول دار كتب وقفت في الإسلام، وأتلف شيئا كثيرا من الدواليب، والمصانع، وغير ذلك.

وفيها خلع على أبي القاسم علي بن طراد الزينبي بنقابة العباسيين بعد أبيه.

وفيها استفتي على معلمي الصبيان أن يمنعوا من المساجد صيانة لها، ولم يستثن منهم سوى رجل كان فقيها شافعيا، يدري كيف تصان المساجد، واستدل المفتي بقوله عليه الصلاة والسلام: «سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ إلا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ» [خ (٤٦٧)].

وحج بالناس فيها خمارتكين على العادة.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الوزير

■ **أبو نصر بن جهير بن محمد بن محمد بن جهير فخر الدولة** أحد مشاهير الوزراء، وزر للقائم، ثم لولده المقتدي، ثم عزل ملكشاه السلطان، وولاه ديار بكر وغيرها، مات بالموصل، في هذه السنة وهي بلده التي ولد بها.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وأربعمائة

في المحرم منها، كتب المنجم الذي أحرق البصرة إلى أهل واسط يدعوهم إلى طاعته، ويذكر في كتابه أنه المهدي صاحب الزمان، الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويهدي الخلق إلى الحق، فإن أطعتم، أمنتم من العذاب، وإن عدلتم عن الحق خسف بكم، فآمنوا بالله، وبالإمام المهدي.

وفيها ألزم أهل الذمة بلبس الغيار، ويشد الزنار، وكذلك نساؤهم، في الحمامات، وغيرها.

وفي جمادى الأولى، قدم الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، من أصبهان إلى بغداد على تدريس النظامية بها، ولقبه نظام الملك زين الدين شرف الأئمة.

قال ابن الجوزي: وكان كلامه معسولا، وذكاؤه شديدا.

وفي رمضان منها، عزل الوزير أبو شجاع عن وزارة الخلافة، فأنشد عند عزله:

تولاها وليس له عدو　　وفارقها وليس له صديق

ثم جاءه كتاب نظام الملك بأن يخرج من بغداد، فخرج منها إلى عدة أماكن، فلم تطب له فعزم على الحج، ثم طابت نفس النظام عليه، فبعث إليه يسأله أن يكون عديله في ذلك،وناب ابن الموصلايا في الوزارة، وقد كان أسلم قبل هذه المباشرة في أول هذه السنة.

وفي رمضان منها، دخل السلطان ملكشاه بغداد، ومعه الوزير نظام الملك، وقد خرج لتلقيه قاضي القضاة أبو بكر الشامي، وابن الموصلايا المسلماني، وجاءت ملوك الأطراف إليه للسلام عليه، منهم أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وأتابكه قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب.

وفي ذي القعدة، خرج السلطان ملكشاه، وابنه، وابن ابنته من الخليفة، في خلق كثير إلى الكوفة.

وفيها استوزر أبو منصور بن جهير، وهي النوبة الثانية لوزارته للمقتدي، وخلع عليه، وركب إليه نظام الملك، فهنأه في داره بباب العامة.

وفي ذي الحجة، عمل السلطان الميلاد في دجلة، وأشعلت نيران عظيمة، وأوقدت شموع كثيرة، وكانت ليلة مشهودة عجيبة جدا، وقد نظم فيها الشعراء الشعر، فلما أصبح النهارمن هذه الليلة، طيف بالخبيث الداعي المدّعي أنه المهدي، تليا المنجم على جمل ببغداد، وجعل يسب الناس، والناس يلعنونه، وعلي رأسه طرطور بودع، والدرة تأخذه من كل جانب، فطافوا به ببغداد، ثم صلب بعد ذلك.

وفيها أمر السلطان ملكشاه جلال الدولة بعمارة جامعه المنسوب إليه بظاهر السور.

وفي هذه السنة، ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب بلاد المغرب، كثيرا من بلاد الأندلس، وأسر صاحبها المعتمد بن عباد، وسجنه وأهله بأغمات، وقد كان المعتمد هذا موصوفا بالكرم، والأدب، والعلم والحلم، وحسن السيرة، والعشرة، والإحسان إلى الرعية، والرفق بهم، فحزن الناس عليه، وقال في مصابه الشعراء، فأكثروا.

وفيها ملكت الفرنج مدينة صقلية من بلاد المغرب، ومات ملكهم، فقام من بعده ولده فسار في الناس سيرة ملوك المسلمين، وأحسنَ إليهم كأنه منهم.

وفيها كانت زلازل كثيرة، بالشام، وغيرها، فهدمت بنيانا كثيرا، وكان من جملة ذلك تسعون برجا من سور أنطاكية، وهلك تحت الهدم خلق كثير.

وحج بالناس فيها خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الرحمن بن أحمد بن علك: أبو طاهر ولد باصبهان، وتفقه بسمرقند، وهو الذي كان سبب فتحها، على يد السلطان ملك شاه، وكان من رؤساء الشافعية، وقد سمع الحديث الكثير.

قال عبد الوهاب بن منده: لم نر فقيها في وقتنا أنصف منه ولا أعلم. وكان فصيح اللّهجة، كثير المروءة، غزير النعمة، وكانت وفاته ببغداد، ومشى الوزراء، والكبراء في جنازته، غير أن نظام الملك ركب، واعتذر بكبر السن، ودفن إلى جانب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان يوماً مشهوداً وجاء السلطان ملك شاه إلى التربة.

قال ابن عقيل: جلست بكرة العزاء إلى جانب نظام الملك، والملوك قيام بين يديه، اجترأت على ذلك بالعلم. حكاه ابن الجوزي.

■ محمد بن أحمد بن علي بن حامد أبو نصر المروزي، كان إماما في القراءات، وله فيها المصنفات، وسافر في ذلك كثيرا، واتفق له أنه غرق في البحر في بعض أسفاره، فبينما الموج يرفعه ويضعه، إذ نظر إلى الشمس قد زالت،فنوى الوضوء، وانغمس في الماء، ثم صعد، فإذا خشبة، فركبها، وصلى عليها، ورزقه اللّه السلامة، ببركة الصلاة وعاش بعد ذلك دهرا، وتوفي في هذه السنة، وله نيف وتسعون سنة رحمه اللّه.

■ محمد بن عبد اللّه بن الحسن: أبو بكر الناصح، الفقيه الحنفي، المناظر، المتكلم، المعتزلي، ولي القضاء بنيسابور، ثم عزل بخيانة وكلائه وأخذهم الرشا، وولي قضاء الري، وقد سمع الحديث، وكان من أكابر العلماء. توفي في رجب منها.

■ أرتق بن أكسب التركماني: جد الملوك الأرتقية، الذين هم اليوم ملوك ماردين، كان شهما، شجاعا، عالي الهمة،تغلب على بلاد كثيرة،وقد ترجمه ابن خلكان،وأرخ وفاته، في هذه السنة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وأربعمائة

فيها أمر السلطان ملكشاه ببناء سوق المدينة المعروفة بطغرلبك إلى جانب دار الملك، وجدد خاناتها وأسواقها، ودورها وأمر بتجديد الجامع الذي تم على يدي هارون الخادم في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ووقف على نصب قبلته بنفسه، ومنجمه إبراهيم حاضر ونقلت إليه أخشاب جامع سامراء، وشرع نظام الملك في بناء دار له هائلة. وكذلك تاج الملوك أبو الغنائم، شرع في بناء دار هائلة أيضا، واستوطنوا البلد فطابت لهم بغداد.

وفي جمادى الأولى، وقع حريق عظيم ببغداد، في أماكن شتى، فما أُطفئ حتى هلك للناس شيء كثير، فما عمروا بقدر ما حرق وما غرموا.

وفي ربيع الأول خرج السلطان إلى أصبهان، وفي صحبته ولد الخليفة أبو الفضل جعفر، ثم عاد إلى بغداد في رمضان، فبينما هو في الطريق، يوم عاشره، عدا صبي من الديلم على الوزير نظام الملك بعد أن أفطر، فضربه بسكين، فقضى عليه، وأخذ الصبي الديلمي فقتل، وقد كان من كبار الوزراء، وخيار الأمراء، وسنذكر شيئا من سيرته، عند ذكر ترجمته.

وقدم السلطان بغداد، في رمضان، بنية غير صالحة، فلقاه اللّه في نفسه ما تمناه لأعدائه، وذلك أنه لما استقر ركابه ببغداد، وجاء الناس للسلام عليه، والتهنئة بقدومه، وأرسل إليه الخليفة يهنئه، بعث إلى الخليفة يقول له: لا بد أن تترك لي بغداد، وتتحول إلى أي البلاد شئت. فأرسل إليه الخليفة يستنظره شهرا، فقال: ولا ساعة واحدة، فأرسل يتوسل إليه في إنظاره عشرة أيام، فأجاب إلى ذلك بعد تمنع شديد، فما استتم الأجل، حتى خرج السلطان يوم عيد الفطر إلى الصيد، فأصابته حمى شديدة، فافتصد فما قام منها، حتى مات قبل العشرة أيام، وللّه الحمد والمنة.

فاستحوذت زوجته زبيدة خاتون على الجيش، وضبطت الأموال والأحوال جيدا، وأرسلت إلى الخليفة، تسأل منه أن يكون ولدها محمود ملكا بعد أبيه، وأن يخطب له على المنابر، فأجابها إلى ذلك، وأرسل إليه بالخلع، وبعث يعزيها، ويهنئها، مع وزيره عميد الدولة بن جهير، وكان عمر الملك محمود هذا يومئذ خمس سنين، ثم أخذته والدته في الجيوش، وسارت به نحو أصبهان، ليتوطد له الملك، فدخلوها وتم لهم مرادهم وخطب له في جميع البلدان حتى في الحرمين واستوزر له تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو، وأرسلت أمه إلى الخليفة، تسأل له من الخليفة ان

يوليه الملك وأن يجعل ولايات العمال إليه، فقال الخليفة: هذا لا يسيغه الشرع ووافقه الغزالي على ذلك، وأفتى المشطب بن محمد الحنفي بجواز ذلك، فلم يعمل إلا بقول الغزالي، وانحاز أكثر جيش السلطان إلى ابنه الآخر بركياروق، فبايعوه، وخطبوا له بالري، وانفردت الخاتون، وولدها، ومعهم شرذمة قليلة من الجيش، والخاصكية، فأنفقت فيهم ثلاثين ألف ألف دينار، لقتال بركيارق بن ملكشاه، فالتقوا في ذي الحجة، فكانت الخاتون هي المنهزمة، ومعها ولدها. وقد ثبت في صحيح البخاري [٤٤٢٥، ٧٠٩٩] «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً».

وفي ذي القعدة، اعترضت بنو خفاجة للحجيج، فقاتلهم من في الحجيج من الجند مع الأمير خمارتكين، فهزموهم، ونهبت أموال الأعراب، ولله الحمد والمنة.

وفيها جاء برد شديد، عظيم، بالبصرة، وزن البردة الواحدة منه خمسة أرطال، إلى ثلاثة عشر رطلا، فأتلفت شيئا كثيرا من الأشجار، وجاء ريح عاصف، قاصف، فألقى عشرات الألوف من النخيل أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[الشورى ٣٠].

وفيها ملك تاج الدولة، تتش صاحب دمشق، مدينة حمص، وقلعة عرقة، وقلعة أفامية، ومعه قسيم الدولة آق سنقر، وكان السلطان قد جهز سرية إلى اليمن، صحبة سعد كوهرائين الدولة، وأمير آخر من التركمان، فدخلاها، وأساءا فيها السيرة، فتوفي سعد كوهرائين، يوم دخوله إليها، في مدينة عدن، ولله الحمد والمنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **جعفر بن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو الفضل التميمي،** المعروف بابن الحكاك المكي، رحل في طلب الحديث إلى الشام، والعراق، وأصبهان، وغير ذلك من البلاد، وسمع الكثير، وخرج الأجزاء، وكان حافظا متقنا، ضابطا أديبا، ثقة خيرا صدوقا، وكان يتراسل مع صاحب مكة، وكان من ذوي الهيئات، والمروءات، قارب الثمانين، رحمه الله.

■ **نظام الملك الوزير:** هو الحسن بن علي بن إسحاق، أبو علي، الوزير نظام الملك ، وزر للملك ألب أرسلان، وولده ملكشاه تسعاً وعشرين سنة، كان من خيار الوزراء. ولد بطوس سنة ثمان وأربعمائة، وكان أبوه ممن يخدم أصحاب محمود بن سبكتكين، وكان من الدهاقين، فأشغل ولده هذا، بقراءة القرآن وله إحدى عشرة سنة، وأشغله بعلم، القراءات، والتفقه على مذهب الشافعي، وسماع الحديث، واللغة، والنحو، وكان عالي الهمة، فحصل من ذلك طرفا صالحا، وترقى في المراتب، حتى وزر للسلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، ثم من بعده لولده ملكشاه، تسعا وعشرين سنة، لم ينكب في شيء منها.

وبنى المدارس النظامية ببغداد، ونيسابور، وغيرهما، وكان مجلسه عامرا، بالفقهاء، والعلماء، بحيث يقضي معهم عامة أوقاته، فقيل له: إن هؤلاء قد شغلوك عن كثير من المصالح. فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك.

وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري، وأبو المعالي الجويني، قام لهما، وأجلسهما معه في المسند، فإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي، قام، وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك، فقال: إنهما إذا دخلا علي فقالا: أنت، وأنت، فأزداد تيهاً، وأما الفارمذي يذكر لي عيوبي، وظلمي، فأنكسر، فأرجع عن كثير من الذي أنا فيه.

وكان محافظا على الصلوات في أوقاتها، لا يشغله بعد الأذان شغل عنها، وكان يواظب على صيام الاثنين والخميس، وله الأوقاف الدارّة، والصدقات البارّة.

وكان يعظم الصوفية تعظيما زائدا، فعوتب في ذلك، فقال: إني كنت أخدم بعض الأمراء، فجاءني يوما إنسان، فقال لي: اخدم من تنفعك خدمته، ولا تخدم من تأكله الكلاب غدا. فلم أفهم ما يقول، فاتفق أن ذلك الأمير سكر تلك الليلة، فخرج في أثناء الليل وهو ثمل، وكانت له كلاب تفترس الغرباء بالليل، فلم تعرفه، ومزّقته، فأصبح وقد أكلته الكلاب، قال: فأنا أطلب مثل ذلك الشيخ.

وقد سمع الحديث في أماكن شتى، ببغداد، وغيرها، وكان يقول: إني لأعلم بأني لست أهلا للرواية، ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ.

وقال أيضا: رأيت في المنام إبليس، فقلت له: ويحك، خلقك الله، وأمرك بالسجود له مشافهة، فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود، وأنا أسجد له في كل يوم مرات، فأنشأ يقول:

من لم يكن للوصال أهلا ... فكل إحسانه ذنوبُ

وقد أجلسه المقتدي مرة بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك، برضا أمير المؤمنين عنك. وقد ملك ألوفا من الترك.

وكان له بنون كثيرة، وزر منهم خمسة، وزر ابنه أحمد للسلطان محمد بن ملك شاه، ولأمير المؤمنين المسترشد بالله.

وخرج نظام الملك مع السلطان من أصبهان قاصدا بغداد في مستهل رمضان، من هذه السنة، فلما كان اليوم العاشر، اجتاز في بعض طريقه، بقرية بالقرب من نهاوند، وهو يسايره في محفة، فقال: قد قتل ههنا خلق من الصحابة زمن عمر رضي الله عنه، فطوبى لمن يكون عندهم. فاتفق أنه لما أفطر، جاءه صبي في هيئة مستغيث به، ومعه قصة، فلما انتهى إليه، ضربه بسكين في فؤاده، وهرب، فعثر بطنب الخيمة، فأخذ، فقتل، ومكث الوزير ساعة، وجاءه السلطان يعوده، فمات وهو عنده، وقد اتهم السلطان في أمره، أنه هو الذي مالأ عليه، فلم تطل مدته بعده، سوى خمسة وثلاثين يوما، وكان في ذلك عبرة لأولي الألباب.

ولما بلغ أهل بغداد موت النظام، حزنوا عليه، وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام، ورثاه الشعراء بقصائد، منهم مقاتل بن عطية فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيره منه إلى الصدف

وأثنى عليه ابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما رحمه الله.

■ **عبد الباقي بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا،** أبو القاسم الشاعر، من أهل الحريم الطاهري، ولد سنة عشر وأربعمائة وسمع الحديث وكان أديبا شاعرا، ماهرا، غير أنه رماه بعضهم برأي الأوائل، وأنه قال: في السماء نهر من ماء، ونهر من لبن، ونهر من خمر، ونهر من عسل، وما يسقط من ذلك قطرة إلى الأرض، إلا هذا الذي هو يخرب البيوت، ويهدم السقوف، وهذا الكلام كفر من قائله، لعنه الله نقله عنه ابن الجوزي في المنتظم [٣٠٧/١٦].

وحكى بعضهم أنه وجد في كفه مكتوبا حين مات هذين البيتين:

نزلت بجار لا يخيب ضيفه أرجي نجاتي من عذاب جهنم
وإني على خوفي من اللّه واثق بإنعامه واللّه أكرم منعم

■ **مالك بن أحمد بن علي بن إبراهيم، أبو عبد اللّه البانياسي الشامي،** وقد كان له اسم آخر سمته به أمه، علي أبو الحسن، فغلب عليه ما سماه به أبوه، وما كناه به، سمع الحديث على مشايخ كثيرة، وهو آخر من حدث عن أبي الحسن بن الصلت، هلك في حريق سوق الريحانيين، وله ثمان وثمانون سنة، كان ثقة عند المحدثين.

السلطان:

■ **ملكشاه السلطان الكبير جلال الدولة، أبو الفتح ملكشاه، بن أبي** شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تقاق التركي، ملك بغداد - كما ذكرنا -، وامتدت مملكته من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن، وراسله الملوك من سائر الأقاليم والأقطار، حتى ملك الروم، والخزر، واللان، وكانت دولته صارمة، والطرقات في أيامه آمنة، وكان مع عظمته يقف للمسكين، والضعيف، والمرأة، فيقضي حوائجهم.

وقد عمر العمارات الهائلة، وبنى القناطر، وأسقط المكوس، والضرائب، وحفر الأنهار الكبار الخراب، وبنى مدرسة أبي حنيفة، والسوق، وبنى الجامع، الذي يقال له جامع السلطان ببغداد، وبنى منارة القرون من صيوده بالكوفة، ومثلها فيما وراء النهر، وضبط ما صاده بنفسه في صيوده، فكان نحوا من عشرة آلاف صيد، فتصدق بعشرة آلاف درهم، وقال: إني خائف من اللّه تعالى أن أكون أزهقت نفس حيوان لغير مأكله.

وقد كانت له أفعال حسنة، وسيرة صالحة، من ذلك أن فلاحا أنهى إليه أن غلمانا له أخذوا له حمل بطيخ هو رأس ماله فقال: اليوم أرد عليك حملك ثم قال لقيمه أريد أن تأتوني اليوم ببطيخ، ففتشوا، فإذا في خيمة الحاجب بطيخ، فحملوه إليه، فاستدعي الحاجب فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جاء به الغلمان. فقال: أحضرهم. فذهب، فهرّبهم، فأرسل إليه، فأحضره، وسلمه إلى الفلاح، وقال: خذ بيده، فإنه مملوكي، ومملوك أبي، وإياك أن تفارقه، فردّ إليه حمله فخرج الفلاح بحمله، وبيده الحاجب، فاستفدى نفسه منه بثلاثمائة دينار.

ولما توجه لقتال أخيه تكش، اجتاز بطوس، فدخلها لزيارة قبر علي بن موسى الرضى، ومعه نظام الملك، فلما خرجا قال للنظام: بم دعوت اللّه؟ قال: دعوت اللّه أن يظفرك على أخيك. فقال: لكني قلت: اللّهم إن كان أخي أصلح للمسلمين فظفره بي، وإن كنت أنا أصلح لهم فظفرني به.

وقد سار ملكشاه هذا بعسكره من أصبهان إلى أنطاكية، فما عرف أن أحدا من جيشه ظلم أحدا من الرعية واستعدى إليه مرة تركماني أن رجلا افتض بكارة ابنته وهو يريد أن يمكنه من قتله فقال له: يا هذا إن ابنتك لو شاءت ما مكنته من نفسها، فإن كنت لا بد فاعلا، فاقتلها معه. فسكت الرجل، ثم قال الملك: أو خيرٌ من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: فإن بكارتها قد ذهبت، فزوجها من ذلك الرجل، وأمهرها من بيت المال كفايتها. ففعل.

وحكى له بعض الوعاظ أن كسرى اجتاز يوما في بعض أسفاره بقرية، وكان منفردا من جيشه، فوقف على باب دار، فاستسقى، فأخرجت إليه جارية إناء فيه ماء قصب السكر بالثلج، فشرب منه، فأعجبه، فقال: كيف تصنعين هذا؟ فقالت: إنه سهل علينا اعتصاره على أيدينا. فطلب منها شربة أخرى، فذهبت لتأتيه بها، فوقع في نفسه أن يأخذ هذا المكان منهم، ويعوضهم عنه فأبطأت عليه، ثم خرجت وليس معها شيء فقال: مالك؟ فقالت: كأن نية سلطاننا تغيرت علينا، فتعسر عليَّ اعتصاره وهي لا تعرف أنه السلطان فقال: اذهبي، فإنك الآن تقدرين. وغير نيته إلى غيرها، فذهبت، وجاءته بشربة أخرى سريعا، فشربها، وانصرف. فقال له السلطان ملك شاه: هذه تصلح لي، ولكن قص على الرعية حكاية كسرى الأخرى، حين اجتاز ببستان، فطلب من ناطوره عنقودا من حصرم فإنه قد أصابته صفراء وعطش فقال له الناطور: إن السلطان لم يأخذ حقه منه! فلا أقدر أن أعطيك منه شيئا. قال: فعجب الناس من ذكاء الملك، وحسن استحضاره، هذه في مقابلة تلك.

واستعداه رجلان من الفلاحين، على الأمير خمارتكين، أنه أخذ منهما مالا جزيلا، وكسر ثنيتهما، وقالا: سمعنا بعدلك في العالم،فإن أقدتنا منه كما أمرك اللّه، وإلا استعدينا عليك اللّه يوم القيامة. وأخذا بركابه، فنزل عن فرسه، وقال لهما: خذا بكمي، فاسحباني إلى دار نظام الملك فهابا ذلك، فعزم عليهما، ففعلا ما أمرهما به، فلما بلغ النظام مجيء السلطان إليه خرج مسرعا من خيمته، فقال له الملك: إني إنما قلدتك الأمر، لتنصف المظلوم ممن ظلمه، فكتب من فوره فعزل خمارتكين، وحل أقطاعه، وأن يرد إليهما أموالهما، وأن يقلعا ثنيتيه إن قامت عليه البينة، وأمر لهما الملك من عنده بمائة دينار.

وأسقط مرة بعض المكوس، فقال رجل من المستوفين: يا سلطان العالم، إن هذا يعدل ستمائة ألف دينار وأكثر. فقال: ويحك، إن المال مال اللّه، والعباد عبيده، والبلاد بلاده، وإنما يبقى هذا لي، ومن نازعني في هذا ضربت عنقه.

وغنته امرأة حسناء، فطرب، وتاقت نفسه إليها، فهم بها، فقالت: أيها الملك، إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار، وبين الحلال والحرام كلمة واحدة فاستدعى بالقاضي، فزوجه بها.

وقد ذكر ابن الجوزي، عن ابن عقيل، أن السلطان ملك شاه كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعضَ الباطنية، ثم تنصل من ذلك، وراجع الحق.

وذكر أن ابن عقيل كتب له شيئا في الدليل على إثبات الصانع، وقد ذكرنا أنه لما رجع آخر مرة إلى بغداد عزم على الخليفة أن يخرج منها، فاستنظره عشرة أيام، فمرض السلطان، ومات قبل انقضاء العشرة أيام.

وكانت وفاته في ليلة الجمعة النصف من شوال عن سبع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وكانت مدة ملكه من ذلك تسع عشرة سنة وأشهراً، ودفن بالشونيزية، ولم يُصلِّ عليه أحد لشدة كتمان الأمر، وكان مرضه بالحمى وقيل إنه سم، واللّه أعلم.

باني التاجية ببغداد:

■ **المرزبان بن خسرو،** تاج الملك، الوزير أبو الغنائم باني التاجية التي درس فيها أبو بكر الشاشي، وبنى تربة الشيخ أبي إسحاق، وقد كان السلطان ملكشاه أراد أن يستوزره بعد نظام الملك، فمات سريعا، فاستوزر لولده محمود، فلما قهره أخوه بركيارق، قتله غلمان النظام، وقطعوه إربا إربا في ذي الحجة من هذه السنة.

■ **هبة اللّه بن عبد الوارث بن علي بن أحمد بوري، أبو القاسم** الشيرازي، أحد الرحالين الجوالين في الآفاق، كان حافظا ثقة، دينا، ورعا، حسن الاعتقاد، والسيرة، له تاريخ حسن، ورحل إليه الطلبة من بغداد، وغيرها،رحمه اللّه.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وأربعمائة

فيها قدم إلى بغداد رجل يقال له أردشير بن منصور أبو الحسين العبادي، مرجعه من الحج، فنزل النظامية، فوعظ الناس، وحضر مجلسه الغزالي مدرس المكان، فازدحم الناس في وعظه، وكثروا في المجالس بعد ذلك، وترك كثير من الناس معايشهم، وكان يحضر مجلسه في بعض الأحيان قريب من ثلاثين ألفا، من الرجال، والنساء، وتاب كثير من الناس، ولزموا المساجد، وأريقت الخمور، وكسرت الملاهي، وكان الرجل في نفسه صالحا، له عبادات، وفيه زهد وافر، وله أحوال صالحة، وكان الناس يزدحمون على فضل وضوئه، وربما أخذوا من البركة التي يتوضأ منها للبركة.

ونقل ابن الجوزي، أنه اشتهى مرة على بعض أصحابه توتا شاميا، وثلجا، فطاف البلد بكماله، فلم يجده، فرجع فوجد الشيخ في خلوته، فسأل: هل جاء اليوم إلى الشيخ أحد؟ فقيل له: جاءت امرأة، فقالت: إني غزلت بيدي غزلا وبعته، وأنا أحب أن أشتري للشيخ طرفة. فامتنع من ذلك، فبكت، فرحمها، وقال: اذهبي فاشتري. فقالت: ماذا تشتهي؟ فقال: ما شئت. فذهبت، فأتته بتوت شامي، وثلج، فأكله.

وقال بعضهم: دخلت عليه وهو يشرب مرقا، فقلت في نفسي: ليته أعطاني فضله، لأشربه، لحفظ القرآن. فناولني فضله، فقال: اشربها على تلك النية. قال: فرزقني الله حفظ القرآن.

وكانت له عبادات، ومجاهدات، ثم اتفق أنه تكلم في بيع القُراضة بالصحيح، فمنع من الجلوس، وأخرج من البلد.

وفي هذه السنة خطب تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق لنفسه بالسلطنة، وطلب من الخليفة أن يخطب له بالعراق، فحصل التوقف عن ذلك، بسبب ابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فسار إلى الرحبة، وفي صحبته وطاعته آق سنقر، قسيم الدولة صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، ففتح الرحبة ثم سار إلى الموصل، فأخذها من يد صاحبها إبراهيم بن قريش بن بدران، وهزم جيوشه من بني عقيل، وقتل خلقا من الأمراء صبرا، وكذلك أخذ ديار بكر، واستوزر الكافي بن فخر الدولة بن جهير، وكذلك أخذ همذان وخلاط، وفتح أذربيجان، واستفحل أمره، ثم فارقه الأميران آق سنقر وبوزان، فسارا إلى الملك بركياروق، وبقي تتش وحده، فطمع فيه ابن أخيه بركياروق، فرجع تتش، فلحقه قسيم الدولة آق سنقر وبوزان بباب حلب، فكسرهما، وأسر بوزان وآق سنقر، فصلبهما، وبعث برأس بوزان، فطيف به حران، والرها، وملكها من بعده.

وفيها وقعت الفتنة بين الروافض، والسنة وانتشرت بينهم شرور كثيرة.

وفي ثاني شعبان ولد الخليفة المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس، أحمد المستظهر، ففرح الخليفة وولي عهده بالولد السعيد.

وفي ذي القعدة، دخل السلطان بركياروق بغداد وخرج إليه الوزير أبو منصور بن جهير، وهنأه عن الخليفة بالقدوم.

وفيها أخذ المستنصر العبيدي، مدينة صور من أرض الشام.

ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **جعفر بن المقتدي بأمر الله**: من الخاتون بنت السلطان ملكشاه، في جمادى الأولى، وجلس الوزير للعزاء والدولة ثلاثة أيام.

■ **سليمان بن إبراهيم بن محمد بن سليمان، أبو مسعود الأصبهاني**، سمع الكثير، وصنف، وخرج على الصحيحين، وكانت له معرفة جيدة بالحديث، سمع ابن مردويه، وأبا نعيم، والبرقاني، وكتب عن الخطيب، وغيره، وكانت وفاته في ذي القعدة، عن تسع وثمانين سنة.

■ **عبد الواحد بن أحمد بن الحصين: الدسكري**، أبو سعد الفقيه الشافعي، صحب الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، وروى الحديث، وكان يقول: ما عصى بدني هذا في لذة قط.

توفي في رجب من هذه السنة، ودفن بباب حرب رحمه الله.

■ **علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر: أبو الحسن الهكاري**، قدم بغداد، ونزل في رباط الزوزني، وكانت له أربطة قد ابتناها، سمع الحديث، وروى عنه غير واحد من الحفاظ، وكان يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، في الروضة، فقلت: يا رسول الله، أوصني. فقال: عليك باعتقاد أحمد بن حنبل، ومذهب الشافعي، وإياك ومجالسة أهل البدع. وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة.

■ **علي بن محمد بن محمد: أبو الحسن الخطيب الأنباري**، المعروف بابن الأخضر، سمع أبا محمد الفرضي، وهو آخر من حدث عنه، وكانت وفاته في شوال منها، عن خمس وتسعين سنة رحمه الله.

أبو نصر

■ **ابن ماكولا علي بن هبة الله بن جعفر بن عَلَكَان بن محمد بن دلف بن أبي دلف الأمير أبو نصر**: ولد سنة ثنتين وأربعمائة، وسمع الكثير، وكان من الحفاظ، وله كتاب الإكمال في المؤتلف والمختلف، جمع بين كتاب عبد الغني بن سعيد، وكتاب الدارقطني، وغيرهما، وزاد عليهما أشياء كثيرة، مهمة حسنة مفيدة نافعة، وكان نحويا مبرزا، فصيح العبارة، حسن الشعر.

قال ابن الجوزي: وسمعت شيخنا عبد الوهاب، يطعن في دينه، ويقول: العلم يحتاج إلى دين. وقتل في خوزستان، في هذه السنة، أو التي بعدها، وقد جاوز الثمانين. كذا ذكره ابن الجوزي.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وأربعمائة

فيها كانت وفاة الخليفة المقتدي، وخلافة ولده المستظهر بالله.

صفة موته (المقتدي)

لما قدم السلطان بركياروق بغداد، سأل من الخليفة، أن يكتب له بالسلطنة، كتابا فيه العهد إليه، فكتب ذلك، وهيئت الخلع، وعرضت على الخليفة، وكان الكتاب يوم الجمعة، الرابع عشر من المحرم، ثم قدم إليه الطعام، فتناول منه على العادة، وهو في غاية الصحة، ثم غسل يده، وجلس ينظر في العهد، بعد ما وقع عليه، وعنده قهرمانة تسمى شمس النهار، قالت: فنظر إليَّ، وقال: من هؤلاء الأشخاص، الذين قد دخلوا علينا، بغير إذن؟ قالت: فالتفت، فلم أر أحدا ورأيته قد تغيرت حالته، واسترخت يداه، ورجلاه، وانحلت قواه، وسقط إلى الأرض. قالت: فظننت أنه غشي عليه، فحللت أزرار ثيابه، فإذا هو لا يجيب داعيا، فأغلقت عليه الباب، وخرجت، فأعلمت ولي العهد بذلك، وجاء الأمراء ورؤوس الدولة

يعزونه بأبيه، ويهنئونه بالخلافة، فبايعوه. والله تعالى أعلم.

شيء من ترجمة المقتدي بأمر الله

■ (المقتدي بأمر الله)

هو أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله، أبو عبد الله بن الذخيرة، ابن أمير المؤمنين القائم بأمر الله، بن القادر بالله العباسي، أمه أم ولد اسمها أرجوان أرمنية، أدركت خلافة ولدها، وخلافة ولده المستظهر، وولد ولده المسترشد أيضا.

وكان المقتدي أبيض حلو الشمائل، عمرت في أيامه محال كثيرة ببغداد، ونفى عن بغداد المغنيات، وأرباب الملاهي والمعاصي، وكان غيورا على حريم الناس، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، حسن السيرة والسريرة تغمده الله برحمته.

وكانت وفاته في يوم الجمعة، رابع عشر المحرم من هذه السنة، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة وثمانية شهور وتسعة أيام، خلافته من ذلك تسع عشرة سنة وثمان شهور إلا يومين، وأخفي موته ثلاثة أيام، حتى توطدت البيعة لابنه المستظهر، ثم صلى عليه، ودفن في تربتهم، والله أعلم.

خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد

لما توفي أبوه يوم الجمعة أحضروه، وله من العمر ست عشرة سنة وشهران، فبويع له بالخلافة، فكان أول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير، ثم أخذت البيعة له من الملك ركن الدولة بركياروق بن السلطان ملكشاه. ثم من بقية الأمراء، والرؤساء، وصلى على الخليفة الأمراء والوزراء، ومن العلماء حضرَ الغزالي، والشاشي، وابن عقيل، وبايعوه يوم ذلك، وقد كان المستظهر بالله كريم الأخلاق، حافظا للقرآن العظيم، فصيحا بليغا شاعرا، مطبقاً ومن لطيف شعره قوله: :

أذاب حر الجوى في القلب ما خمدا	يوما مددت على رسم الوداع يدا
فكيف أسلك نهج الإصطبار وقد	ارى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به	من بعد ما قد وفى دهرا بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي	من بعد هذا فلا عاينته أبدا

وفوض المستظهر أمور الخلافة إلى وزيره أبي منصور عميد الدولة بن جهير، فدبرها أحسن تدبير، ومهد الأمور أتم تمهيد، وساس الرعايا، وكان من خيار الوزراء.

وفي ثالث عشر شعبان، عزل الخليفة أبا بكر الشاشي عن القضاء، وفوضه إلى أبي الحسن بن الدمغاني.

وفيها وقعت فتنة بين السنة والروافض، فأحرقت محال كثيرة، وقتل ناس كثيرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يحج أحد في هذه السنة لاختلاف السلاطين. وكانت الخطبة للسلطان بركياروق ركن الدولة، يوم الجمعة، الرابع عشر من المحرم، وهو اليوم الذي توفي فيه الخليفة المقتدي، بعدما علم على توقيعه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ آق سنقر الأتابك: الملقب قسيم الدولة السلجوقي، ويعرف بالحاجب، صاحب حلب، وديار بكر، والجزيرة. وهو جد الملك نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر، كان أولا من أخص أصحاب السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، ثم ترقت منزلته عنده، حتى أعطاه حلب وأعمالها، بإشارة الوزير نظام الملك، وكان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة، وكانت الرعية معه في أمن، ورخص، وعدل، ثم كان موته على يد السلطان تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وذلك أنه استعان به، وبصاحب حران، والرها، على قتال ابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، ففرا عنه وتركاه، فلما تمكن، قاتلهما بباب حلب، فقتلهما، وأخذ بلادهما، إلا حلب، فإنها استقرت لولد آق سنقر زنكي فيما بعد، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، كما سيأتي بيانه.

وذكر ابن خلكان، أنه كان مملوكا للسلطان ملكشاه، هو وبوزان صاحب الرها، فلما ملك تتش حلب، استنابه بها، فعصى عليه فقصده، وكان قد ملك دمشق أيضا، فقاتله، فقتله في هذه السنة في جمادى الأولى منها، فلما قتل، دفنه ولده عماد الدين زنكي، أدخله إليها من فوق السور بالمدرسة الزجاجية.

أمير الجيوش

■ بدر الجمالي: صاحب جيوش مصر، ومدبر الممالك الفاطمية، كان عاقلا، كريما، محبا للعلماء، ولهم عليه رسوم دارة، تمكن في أيام المستنصر تمكنا عظيما، ودارت أزمة الأمور على آرائه، وفتح بلادا كثيرة، وامتدت أيامه، حياته، وبعد صيته امتدحته الشعراء. ثم كانت وفاته في ذي القعدة منها، وقام بالأمر من بعده ولده الأفضل.

الخليفة المقتدي: وقد تقدم شيء من ترجمته.

الخليفة

■ المستنصر الفاطمي: أبو تميم معد بن أبي الحسن علي بن الحاكم، استمرت أيامه ستين سنة، ولم يتفق هذا لخليفة قبله ولا بعده، وكان قد عهد بالأمر إلى ولده نزار، فخلعه الأفضل بن بدر الجمالي، بعد موت أبيه. وبايع أبا القاسم أحمد بن المستنصر أخاه؛ ولقبه بالمستعلي، فهرب نزار إلى الإسكندرية، فجمع الناس عليه، فبايعوه، وتولى أمره قاضي الإسكندرية: جلال الدولة بن عمار، فقصده الأفضل، فقصده الأفضل فقاتله مراراً فهزمهم وأسر القاضي ونزاراً، فقتل القاضي، وحبس نزاراً حتى مات، واستقر المستعلي في الخلافة، وعمره إحدى وعشرون سنة.

■ محمد بن أبي هاشم: أمير مكة، كانت وفاته في هذه السنة عن نيف وتسعين سنة.

■ محمود بن السلطان ملكشاه: كانت أمه قد عقدت له الملك، وأنفقت بسببه الأموال، فقاتله بركياروق، فكسره، ولزم بلده أصبهان، فمات بها في هذه السنة، وحمل إلى بغداد، فدفن بها بالتربة النظامية، كان من أحسن الناس وجها، وأظرفهم شكلا، توفي في شوال منها، وقد توفيت أمه الخاتون تركان شاه في رمضان هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وأربعمائة

فيها ورد يوسف بن أبق التركماني، من جهة تاج الدولة أبي سعيد تُتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق إلى بغداد، لإقامة الدعوة له ببغداد، وكان تتش قد توجه لقتال ابن أخيه بناحية الري، فلما دخل رسوله إلى بغداد، هابوه، وخافوه، واستدعاه الخليفة، فقربه، وقبل الأرض بين يدي الخليفة، وتأهب أهل بغداد له، وخافوا أن ينهبهم، فبينما هو كذلك، إذ قدم

عليه أخوه، فأخبره أن تتش قتل في أول من قتل في الوقعة، وكانت وفاته في سابع عشر صفر من هذه السنة، فاستفحل أمر بركياروق، واستقل بالأمور. وكان دقاق بن تتش مع أبيه حين قتل، فسار إلى دمشق فتسلّمها من الأمير ساوتكين الذي استنابه أبوه، واستوزر أبا القاسم الخوارزمي، وملك عبد الله بن تتش مدينة حلب، ودبر أمر مملكته جناح الدولة الحسين بن أيتكين، ورضوان بن تتش صاحب مدينة حلب، وإليه تنسب بنو رضوان بها.

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول منها، خطب لولي العهد أبي منصور الفضل بن المستظهر، ولقب بذخيرة الدين.

وفي ربيع الآخر، خرج الوزير عميد الملك بن جهير، فاختط سورا على الحريم، وأذن للعوام في العمل، والتفرج، فأظهروا منكرات كثيرة، وسخافات عقول ضعيفة، وعملوا أشياء منكرة، وبعث إليه ابن عقيل رقعة، فيها كلام غليظ، وإنكار بغيض.

وفي رمضان خرج السلطان بركياروق، فعدا عليه فداوي، فلم يتمكن منه، فمسك، فعوقب، فأقر على آخرين، فلم يقرا، فقتل الثلاثة، وجاء الطواشي من جهة الخليفة، مهنئا له بالسلامة.

وفي ذي القعدة منها، خرج أبو حامد الغزالي من بغداد، متوجها إلى بيت المقدس، تاركا لتدريس النظامية، زاهدا في الدنيا، لابساً خشن الثياب، بعد ناعمها، وناب عنه أخوه في التدريس،وعاد في السنة الثالثة من خروجه ثم حج ثم رجع إلى بلده، وقد صنف كتاب الإحياء في هذه المدة، وكان يجتمع إليه الخلق الكثير، كل يوم في الرباط، فيسمعونه.

وفي يوم عرفة، خلع على القاضي أبي الفرج عبد الرحمن بن هبة الله بن البستي، ولقب بشرف القضاة، وردَّ إلى ولاية القضاء بالحريم، وغيره.

وفي هذه السنة اصطلح أهل الكرخ من السُّنة والرافضة، مع بقية المحال، وتزاوروا، وتواكلوا وتشاربوا، وكان هذا من العجائب.

وفيها قتل أحمد خان صاحب سمرقند، وسببه أنه شهد عليه بالزندقة، فخنق، وولي مكانه ابن عمه مسعود.

وفيها دخل الأتراك إفريقية، وغدروا بيحيى بن تميم بن المعز بن باديس، وقبضوا عليه، وملكوا بلاده، وقتلوا خلقا، بعد ما جرت بينه وبينهم حروب شديدة، وكان مقدمهم رجل يقال له شاه ملك، وكان من أولاد بعض أمراء المشرق، فقدم مصر، وخدم بها، ثم هرب إلى المغرب ففعل ما ذكرنا. ولم يحج أحد من أهل العراق في هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن الحسن بن أحمد بن خيرون: أبو الفضل، المعروف بابن الباقلاني، سمع الكثير، وكتب عنه الخطيب، وكانت له معرفة جيلة، وهو من الثقات، وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني، ثم صار أمينا له، ثم ولي إشراف خزانة الغلات. توفي في رجب عن ثنتين وثمانين سنة.

■ تتش أبو المظفر: تاج الدولة بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، صاحب دمشق، وغيرها من البلاد، وقد كان تروّج أمرُه على ابن أخيه بركياروق بن ملكشاه بن ألب ارسلان، ولكن قدر الله وما شاء فعل، وقد قال المتنبي:

وللّـه سـر في عـلاك وإنمـا ... كلام العدى ضرب من الهذيان

قال ابن خلكان: كان صاحب البلاد الشرقية، فاستنجده أتسز في محاربة أمير الجيوش من جهة صاحب مصر، فلما قدم دمشق لنجدته، وخرج إليه أتسز، أمر بمسكه، وقتله، واستحوذ هو على دمشق، وأعمالها، في سنة إحدى وسبعين، ثم تحارب هو وأخوه بركياروق ببلاد الري، فكسره ابن أخيه، وقتل هو في المعركة، وتملك ابنه رضوان حلب، وإليه تنسب بنو رضوان بها، وكان ملكه عليها إلى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، سمته أمه في عنقود عنب، فقام بالأمر من بعده، ولده تاج الملك بوري أربع سنين، ثم ابنه الآخر شمس الملك إسماعيل ثلاث سنين، ثم قتلته أمه أيضا، وهي زمرد خاتون بنت جاولي، وثم أجلست أخاه شهاب الدين محمود بن بوري، فمكث أربع سنين، ثم ملك أخوه محمد بن بوري طغركين سنة، ثم مَلَك محيي الدين أبق من سنة أربع وثلاثين إلى أن انتزع الملك منه نور الدين محمود بن زنكي كما سيأتي. وكان أتابك العساكر بدمشق، أيام أبق معين الدين، الذي تنسب إليه المعينية بالغور، والمدرسة المعينية بدمشق.

■ رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز، أبو محمد التميمي، أحد أئمة القراء، والفقهاء - على مذهب أحمد - والحديث، وكان له مجلس للوعظ، وحلقة للفتوى بجامع المنصور، ثم بجامع القصر، وكان حسن الشكل، محببا إلى العامة، له شِعْر حسن، وكان كثير العبادة، فصيح العبارة، حسن المناظرة.

وقد روى عن آبائه، حديثا مسلسلا، إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: هتف العلم العملَ، فإن أجابه وإلا رحل.

وقد كان ذا وجاهة عند الخليفة، بعثه في مهام الرسل إلى السلطان. وكانت وفاته يوم الثلاثاء، النصف من جمادى الأولى، من هذه السنة، عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بداره بباب المراتب، بإذن الخليفة، وصلى عليه ابنه أبو الفضل رحمه الله.

أبو يوسف

■ القزويني: عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار، شيخ المعتزلة، قرأ على عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، ورحل إلى مصر فأقام بها أربعين سنة، وحصل كتبا كثيرة، وصنف تفسيرا في سبعمائة مجلد.

قال ابن الجوزي: جمع فيه العجب، وتكلم فيه على قوله تعالى: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾[البقرة ١٠٢] في مجلد كامل.

وقال ابن عقيل: كان طويل اللسان بالعلم تارة وبالشعر أخرى وقد سمع الحديث من أبي عمر بن مهدي وغيره ومات ببغداد عن ست وتسعين سنة. وما تزوّج إلا في آخر عمره.

■ أبو شجاع الوزير: محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم، أبو شجاع، الملقب ظهير الدين، الروذراوري الأصل، الأهوازي المولد، كان من خيار الوزراء، كثير الصدقة، والإحسان إلى العلماء، والفقهاء، وسمع الحديث من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وغيره، وصنف كتبا، منها كتابه الذي ذيله على «تجارب الأمم». وزر للخليفة المقتدي بأمر الله، وكان يملك ستمائة ألف دينار، فأنفقها في سبيل الخيرات، والصدقات، ووقف الوقوف الحسنة، وبنى المشاهد، وأكثر الإنعام على الأرامل والأيتام. قال له رجل: إلى جانبنا أرملة، لها أربعة أيتام، وهم عراة، وجياع، فبعث إليهم مع رجل من خاصته، نفقة، وكسوة، وطعاما، ونزع عنه ثيابه في البرد الشديد، وقال: والله لا ألبسها حتى ترجع إلي بخبرهم، فذهب الرجل مسرعا، فقضى حاجتهم، وأوصلهم ذلك الإحسان، ثم عاد والوزير يركض من البرد، فلما أخبره عنهم بما سرَّه لبس ثيابه.

وجيء إليه مرة بقطائف سكر، فلما وضعت بين يديه، تنغص عليه بمن

لا يقدر عليها، فأرسلها كلها إلى المساجد، وكانت كثيرة جدا، فأطعمها الفقراء، والعميان.

وكان لا يجلس في الديوان إلا وعنده الفقهاء، فإذا وقع له أمر مشكل سألهم عنه، فحكم بما يفتونه، وكان كثير التواضع مع الناس، خاصتهم، وعامتهم، ثم عزل عن الوزارة، فسار إلى الحج، وجاور بالمدينة، ثم مرض، فلما ثقل في المرض، جاء إلى الحجرة النبوية، فقال: يا رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ولَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[النساء ٦٤] وها أنا قد جئتك، أستغفر الله من ذنوبي، وأرجو شفاعتك يوم القيامة، ثم مات من يومه ذلك، رحمه الله، ودفن في البقيع.

القاضي أبو بكر الشامي:

■ محمد بن المظفر بن بكران الحموي أبو بكر الشامي، ولد سنة أربعمائة، وتفقه ببلده، ثم حج في سنة سبع عشرة وأربعمائة، وقدم بغداد، فتفقه على الشيخ أبي الطيب الطبري، وسمع بها الحديث، وشهد عند ابن الدامغاني، فقبله، ولازم مسجده خمسا وخمسين سنة، يقرئ الناس، ويفقههم، ولما مات أبو عبد الله الدامغاني، أشار به أبو شجاع الوزير، فولاه الخليفة المقتدي القضاء، وكان من أنزه الناس، وأعفهم، لم يقبل من سلطان عطية، ولا من صاحب هدية، ولم يغير ملبسه، ولا مأكله، ولم يأخذ على القضاء أجرا، ولم يستنب أحدا، بل كان يباشر القضاء بنفسه، ولم يحاب مخلوقا، وقد كان يضرب بعض المنكرين حيث لا بينة، إذا قامت عنده قرائن للتُّهمة، حتى يقروا، ويذكر أن في كلام الشافعي ما يدل على هذا.

وقد صنف أبو بكر الشاشي كتابا في الرد عليه في ذلك، ونصره ابن عقيل فيما كان يتعاطاه من الحكم بالقرائن، واستشهد له بقوله تعالى: ﴿إنْ كان قميصُهُ قدَّ مِن قُبُلٍ﴾[يوسف ٢٦] الآية.

وشهد عنده رجل من كبار الفقهاء، والمناظرين، يقال له المشطب بن محمد بن أسامة الفرغاني، فلم يقبله، لما رأى عليه من الحرير، وخاتم الذهب، فقال له المدعي: إن السلطان ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير والذهب، فقال القاضي الشامي: والله لو شهدا عندي على باقة بقل، ما قبلت شهادتهما.

وشهد عنده مرة فقيه فاضل من أهل مذهبه، فلم يقبله،فقال: لأي شيء ترد شهادتي، وهي جائزة عند كل حاكم، إلا أنت؟ فقال له: لا أقبل لك شهادة، فإني رأيتك تغتسل في الحمام عريانا غير مستور العورة، فلا أقبلك.

توفي رحمه الله في يوم الثلاثاء، عاشر شعبان، من هذه السنة، عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بالقرب من ابن سريج.

أبو عبد الله

■ الحميدي: محمد بن أبي نصر، فتوح بن عبد الله بن حميد الحميدي، الأندلسي، من جزيرة يقال لها ميورقة، قريبة من الأندلس، قدم بغداد، فسمع بها الحديث، وكان حافظا مكثرا دَيِّنًا باهراً، عفيفا، نزها، وهو صاحب الجمع بين الصحيحين، وله غير ذلك من المصنفات، وقد كتب مصنفات ابن حزم والخطيب، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء، السابع عشر من ذي الحجة، وقد جاوز السبعين، وقبره قريب من قبر بشر الحافي ببغداد.

■ هبة الله بن الشيخ أبي الوفا بن عقيل: كان قد حفظ القرآن، وتفقه، وظهرت منه نجابة، ثم مرض، فأنفق عليه أبوه أموالا جزيلة، فلم يفد شيئا، فقال له ابنه ذات يوم: يا أبت، إنك قد أكثرت الأدوية، والأدعية، ولله في اختيار، فدعني، واختيار الله تعالى. قال أبوه: فعلمت أنه لم يوفق لهذا الكلام إلا وقد اختير للحظوة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وأربعمائة

قال ابن الجوزي في المنتظم [٣١/١٧]: في هذه السنة، حكم جهلة المنجمين بأنه سيكون فيها طوفان قريب من طوفان نوح، وشاع الكلام بذلك بين العوام، فاستدعى الخليفة المستظهر ابن عَيشون المنجم، فسأله عن هذا الكلام، فقال: إن طوفان نوح كان في زمن اجتمع في برج الحوت الطوالع السبعة، والآن فقد اجتمع فيه ستة، ولم يجتمع معها زحل، فلا بد من وقوع طوفان في بعض البلاد والأقرب أنها بغداد. فتقدم الخليفة إلى وزيره، بإصلاح المُسَنَّيات والمواضع التي يخشى انفجار الماء منها، وجعل الناس يتنظرون، فجاء الخبر، بأن الحاجَّ حصلوا بوادي المياقت بعد نخلة، فأتاهم سيل عظيم، فما نجا منهم، إلا من تعلق برؤوس الجبال، وأخذ الماء الرجال والرحال، فخلع الخليفة على ذلك المنجم، وأجرى له جارية.

وفيها ملك الأمير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا مدينة الموصل، وقتل محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وغرقه بعد حصار سبعة أشهر.

وفيها ملك تميم بن المعز المغربي مدينة قابس، وأخرج منها أخاه عمراً، فقال خطيب سوسة في ذلك أبياتا:

ضحك الزمان وكان يلفى عابسا	لما فتحت بحد سيفك قابسا
وأتيتها بكْرا وما أمهرتها	إلا قنا وصوارما وفوارسا
الله يعلم ما جنيت ثمارها	إلا وكان أبوك قبل الغارسا
من كان في زُرق الأسنة خاطبا	كانت له قلل البلاد عرائسا

وفي صفر منها، درس الشيخ أبو عبد الله الطبري بالنظامية، ولاه إياها فخر الملك بن نظام الملك وزير بركياروق.

وفيها أغارت خفاجة على بلاد سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس،وقصدوا مشهد الحسين بالحائر، وتظاهروا فيه بالمنكرات والفساد،فكبسهم فيه الأمير صدقة المذكور، فقتل منهم خلقا كثيرا حتى عند الضريح. ومن العجائب أن أحدهم ألقى نفسه وفرسه من فوق السور، فسلم، وسلمت فرسه.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير خمارتكين الحسناني.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله: أبو حكيم الخبري وخبر: إحدى بلاد فارس سمع الحديث، وتفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكانت له معرفة بالفرائض، والأدب، واللغة، وله مصنفات، وكان مرضي الطريقة، وكان يكتب المصاحف بالأجرة، فبينما هو ذات يوم يكتب وضع القلم من يده، واستند وقال: والله لئن كان هذا موتا إنه لطيب، ثم مات رحمه الله.

■ عبد المحسن بن محمد بن علي بن أحمد الشيحي: التاجر، ويعرف بابن شُهدانكه، بغدادي، سمع الحديث الكثير، ورحل، وأكثر عن الخطيب وهو بصور، وهو الذي حمله إلى العراق، فلهذا أهدى إليه الخطيب تاريخ

بغداد بخطه، وقد روى عنه في مصنفاته، وكان يسميه عبد الله، وكان ثقة.

■ **عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد أبو الفضل**، المعروف بالهمذاني، تفقه على الماوردي،وكانت له يد طولى في العلوم الشرعية، والحساب، وغير ذلك، وكان يحفظ غريب الحديث لأبي عبيد، والجمل لابن فارس، وكان عفيفا، زاهدا، طلبه المقتدي ليوليه قاضي القضاة، فأبى أشد الإباء، واعتذر بالعجز، وعلو السن.

وكان ظريفا لطيفا، كان يقول: كان أبي، إذا أراد أن يؤدبني أخذ العصا بيده ثم يقول: نويت أن أضرب ولدي تأديبا كما أمر الله؛ ثم يضربني. قال: وإلى أن ينوي ويتمم النية كنت أهرب. توفي في رجب من هذه السنة، ودفن عند قبر ابن سريج.

■ **محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور: أبو بكر الدقاق**، ويعرف بابن الخاضبة، كان معروفا بالإفادة، وجودة القراءة وحسن الخط، وصحة النقل، وجمع بين علم القراءات والحديث، وأكثر عن أبي بكر الخطيب وأصحاب المخلص.

قال: لما غرقت بغداد غرقت داري وكتبي، فلم يبق لي شيء، فاحتجت إلى النسخ، فكتبت صحيح مسلم في تلك السنة سبع مرات، فنمت، فرأيت ذات ليلة كأن القيامة قد قامت، وقائل يقول: أين ابن الخاضبة؟ فجئت فأدخلت الجنة، فلما دخلتها، استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى، وقلت: استرحت من النسخ؛ ثم استيقظت، والقلم في يدي والنسخ بين يدي.

أبو المظفر

■ **السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد، أبو المظفر السمعاني**، الحافظ، من أهل مرو، تفقه أولا على أبيه في مذهب أبي حنيفة، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، حين أخذ عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وابن الصباغ، وكانت له يد طولى في فنون كثيرة، وصنف التفسير، وكتاب الانتصار في الحديث، والبرهان والقواطع في أصول الفقه، والاصطلام، وغير ذلك، ووعظ في مدينة نيسابور، وكان يقول: ما حفظت شيئا فنسيته. وسئل عن أخبار الصفات، فقال: عليكم بدين العجائز، وصبيان الكتاتيب. وسئل عن الاستواء، فقال:

جِئْتُمَانِي لِتَعْلَمَا سِرَّ سُعْدَى ... تَجِدَانِي بِسِرِّ سُعْدَى شَحِيحَا

إِنَّ سُعْدَى لَمُنْيَةُ الْمُتَمَنِّي ... جَمَعَتْ عِفَّةً وَوَجْهاً صَبِيحَا

توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن في مقبرة مرو، رحمه الله تعالى، وإيانا آمين

ثم دخلت سنة تسعين وأربعمائة من الهجرة

فيها كان ابتداء ملك الخوارزمية، وذلك أن السلطان بركياروق ملك فيها بلاد خراسان، بعد مقتل عمه أرسلان أرغون بن ألب أرسلان، وسلمها إلى أخيه المعروف بالملك سنجر، وجعل أتابكه الأمير قماج، ووزيره علي بن الحسين الطغرائي. واستعمل على خراسان الأمير حبشي بن التُونتاق ، فولى مدينة خوارزم شابا يقال له محمد بن أنوشتكين، وكان أبوه من مماليك أمراء السلجوقة، ونشأ هو في أدب، وفضيلة، وحسن سيرة، ولما ولي مدينة خوارزم، لقب خوارزم شاه، فكان أول ملوكهم، فأحسن السيرة، وعامل الناس بالجميل، وحين مات قام من بعده ولده، أتسز، فجرى على سيرة أبيه، وأظهر العدل، فحظي عند السلطان سنجر، وأحبه الناس، وارتفعت منزلته.

وفيها خطب الملك رضوان بن تاج الدولة تتش، للخليفة الفاطمي المستعلي.

وفي رمضان منها قُتل بُرْسق أحد أكابر الأمراء، وكام أول من تولى شحنكية بغداد. وفي شوال قتل رجل باطني، عند باب النوبي، كان قد شهد عليه عدلان، أحدهما ابن عقيل، أنه دعاهما إلى مذهبه، فجعل يقول: أتقتلوني، وأنا أقول لا إله إلا الله! فقال ابن عقيل: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وحج بالناس في هذه السنة خمارتكين الحسناني.

وفي يوم عاشوراء، كبست دار بهاء الدولة، أبي نصر بن جلال الدولة أبي طاهر بن بويه، لأمور ثبتت عليه عند القاضي، فأريق دمه، ونقضت داره، وعمل مكانها مسجدان للحنفية والشافعية، وقد كان السلطان ملكشاه قد أقطعه المدائن، ودير عاقول، وغيرهما.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن زكريا بن دينار، أبو يعلى العبدي البصري**، ويعرف بابن الصواف، ولد سنة أربعمائة، وسمع الحديث، وكان زاهدا متصوفا، وفقيها مدرسا، ذا سمت ووقار، وسكينة ودين، وكان علامة في عشرة علوم، توفي في رمضان من هذه السنة عن تسعين سنة، رحمه الله.

■ **المعمر بن محمد بن المعمر بن أحمد بن محمد، أبو الغنائم الحسيني**، النقيب للطالبيين.

سمع الحديث، وكان حسن الصورة، كريم الأخلاق، كثير التعبد، لا يعرف أنه آذى مسلما، ولا شتم صاحبا. توفي عن نيف وستين سنة، وكان منها نقيبا ثنتين وثلاثين سنة، وكان من سادات قريش، وتولى بعده ولده أبو الفتوح حيدرة، ولقب بالرضي ذي الفخرين، ورثاه الشعراء بأبيات، ذكرها ابن الجوزي.

■ **يحيى بن أحمد بن محمد بن علي السِيبِيُّ**: سمع الحديث، ورحل إليه الطلبة وكان ثقة صالحا، صدوقا، ديِّنا، عمر مائة سنة، وثنتي عشرة سنة، وثلاثة أشهر، وهو في ذلك صحيح الحواس، يقرأ عليه القرآن، والحديث، رحمه الله وإيانا آمين.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

في جمادى الأولى منها، ملك الفرنج مدينة أنطاكية بعد حصار شديد بمواطأة من بعض المستحفظين على بعض الأبراج، وهرب صاحبها ياغيسيان في نفر يسير، وترك بها أهله وماله، ثم إنه ندم في أثناء الطريق ندما شديدا على ما فعل، بحيث إنه غشي عليه، وسقط عن فرسه، فذهب أصحابه وتركوه، فجاء راعي غنم فقطع رأسه؛ وذهب به إلى ملك الفرنج، ولما بلغ الخبر إلى الأمير كربوقا صاحب الموصل، جمع عساكر كثيرة، واجتمع عليه دقاق بن تتش صاحب دمشق، وجناح الدولة صاحب حمص، وغيرهما، وسار إلى الفرنج، فالتقوا معهم بأرض إنطاكية، فهزمهم

الفرنج، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وأخذوا منهم أموالا كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم صارت الفرنج إلى معرة النعمان، فأخذوها بعد حصار، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولما بلغ هذا الأمر الفظيع إلى الملك بركياروق، شق عليه ذلك، وكتب إلى الأمراء ببغداد، أن يتجهزوا هم والوزير ابن جهير لقتال الفرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة، لأنه بلغهم أن الفرنج في ألف ألف مقاتل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وحج بالناس فيها خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **طراد بن محمد بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن الإمام محمد بن علي بن عباس،** أبو الفوارس بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن أبي تمام، من ولد زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وهي أم ولد عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن عبد الله بن عباس.

سمع الحديث الكثير، والكتب الكبار، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، ورحل إليه من الآفاق، وأملى الحديث في بلدان شتى، وكان يحضر مجلسه العلماء والسادة، وحضر أبو عبد الله الدامغاني مجلسه، وباشر نقابة العباسيين مدة طويلة، وتوفي عن نيف وتسعين سنة، في هذه السنة ودفن في مقابر الشهداء، رحمه الله تعالى.

■ **المظفر أبو الفتح بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة،** كانت داره مجمعا لأهل العلم والدين والأدب، وبها توفي الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ولما توفي أبو الفتح، دفن عند الشيخ أبي إسحاق في تربته رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة

وفيها أخذت الفرنج خذلهم الله تعالى بيت المقدس لما كان ضحى يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، استحوذ الفرنج لعنهم الله على بيت المقدس شرفه الله وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من سبعين ألف قتيل من المسلمين، فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَار وكان وعداً مفعولاً.

قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة اثنتين وأربعين قنديلا من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة، زنته أربعون رطلا بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلا من ذهب، وذهب الناس على وجوههم هازعين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج، إلى الخليفة والسلطان، ومنهم القاضي بدمشق أبو سعد الهروي.

فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك، وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلاما قرئ في الديوان، وعلى المنابر، فجهش الناس بالبكاء، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل، وغير واحد من أعيان الفقهاء، فساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

مَزَجْنَا دِمَاء بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ عرضةٌ لِلْمَرَاجِمِ
وشَرُّ سِلاحِ المَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ ... إذا الحَرْبُ شَبَّتْ نَارهَا بِالصَّوَارِمِ
فَإيهاً بَنِي الإسْلامِ إنَّ وَرَاءَكُمْ ... وَقَائِعُ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالمَنَاسِمِ
وكَيْفَ تَنَامُ العينُ مِلءَ جُفُونِهَا ... على هفواتٍ أَيْقَظَتْ كل نَائِمِ
وإخْوَانُكُمْ بالشامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ ... ظُهُورَ المَذَاكِي أو بُطُونَ القَشَاعِمِ
تَسُومُهُمُ الرُّومُ الهَوانَ وأنْتُمُ ... تَجُرُّون ذَيْلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسَالِمِ
وبَيْنَ اخْتِلاسِ الطَّعنِ والضَّربِ وَقْفَةٌ ... تَظَلُّ لَهَا الوِلْدانُ شِيبَ القَوَادِمِ
وتِلْكَ حُرُوبٌ مَنْ يَغِبْ عن غِمَارِهَا ... لِيَسْلَمَ يَقْرَعْ بَعْدَهَا سِنَّ نَادِمِ
سَلَلْنَ بِأيْدِي المُشْرِكِينَ قَوَاضِباً ... سَتُغْمَدُ منهم في الطُّلَى والجَمَاجِمِ
يَكَادُ لَهُنَّ المُسْتَجِنُّ بِطَيْبَةٍ ... يُنَادِي بِأعلى الصَّوْتِ يا آلَ هاشمِ
أرَى أُمَّتِي لا يَشْرِعُون إلى العِدَا ... رِمَاحُهُمُ والدينُ وَاهِي الدَّعَائِمِ
ويَجْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفاً مِنَ الرَّدَى ... ولا يَحْسَبُون العَارَ ضَرْبَةَ لازِمِ
أتَرْضَى صَنَادِيدُ الأعَارِيبِ بالأذَى ... وتُغْضِي على ذُلٍّ كُمَاةُ الأعَاجِمِ
فَلَيْتَهُمُو إذْ لَمْ يَذُودُوا حَمِيَّةً ... عن الدينِ ضَنُّوا غيرةً بالمحارِمِ
وإنْ زَهِدُوا في الأجرِ إذ حَمِيَ الوَغَى ... فَهَلا أتَوْهُ رَغْبَةً في الغَنَائمِ

وفيها كان ابتداء أمر السلطان محمد بن ملكشاه، وهو أخو السلطان سنجر لأبيه وأمه، واستفحل أمره إلى أن صار من أمره أن خطب له ببغداد في ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها سار إلى الري فوجد زبيدة خاتون، أم أخيه بركياروق، فأمر بخنقها، وكان عمرها إذ ذاك ثنتين وأربعين سنة، في ذي الحجة من هذه السنة، وكانت له مع بركياروق خمس وقعات هائلة.

وفي هذه السنة غلت الأسعار جداً ببغداد، حتى مات كثير من الناس جوعا، وأصابهم وباء شديد، حتى عجزوا عن دفن الموتى، لكثرتهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **(إبراهيم بن محمود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين)**

السلطان إبراهيم بن السلطان محمود ابن مسعود بن السلطان محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وأطراف الهند، وغير ذلك.

كانت له حرمة وأبهة عظيمة جدا.

حكى الكيا الهراسي، حين بعثه السلطان بركياروق إليه في رسالة عما شاهده عنده من أمور السلطنة، في ملبسه، ومجلسه، وما عنده من الأموال والسعادة الدنيوية.

قال: رأيت شيئا عجيبا، وقد وعظه بحديث «لَمَنَادِيلُ سعدِ بن مُعاذ في الجَنَّة أحسن مِنْ هذا» فبكى.

قال: وكان لا يبني لنفسه منزلا حتى يبني قبله مسجداً، أو مدرسة، أو رباطا.

توفي رحمه الله تعالى في رجب من هذه السنة، وقد جاوز التسعين، وكانت مدة ملكه ثنتين وأربعين سنة.

■ **عبد الباقي بن يوسف بن علي بن صالح، أبو تراب المراغي،** ولد سنة إحدى وأربعمائة، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث عليه، وعلى غيره من المشايخ ببلدان شتى ثم أقام بنيسابور، وكان يحفظ شيئا كثيرا من مسائل الخلاف نحواً من أربعة آلاف مسألة بأدلتها

والمناظرة عليها وغير ذلك من الحكايات والملح والأدب، وكان صبورا، متقللا من الدنيا، على طريقة السلف.

جاءه منشور بقضاء همذان، فقال: أنا منتظر منشورا من الله عز وجل على يدي ملك الموت بالقدوم عليه، والله لجلوس ساعة في هذا المسجد على راحة القلب، أحب إلي من ملك العراقين، وتعليم مسألة لطالب، أحب إلي مما على الأرض من شيء، والله لا أفلح قلب يعلق بالدنيا وأهلها، وإنما العلم دليل، فمن لم يدله علمه على الزهد في الدنيا وأهلها، لم يحصل على طائل من العلم، ولو علم ما علم، فإنما ذلك ظاهر من العلم، والعلم النافع وراء ذلك، والله لو قطعت يدي ورجلي وقلعت عيني، أحب إلي من ولاية فيها انقطاع عن الله والدار الآخرة، وما هو سبب فوز المتقين وسعادة المؤمنين حكاه ابن الجوزي في المنتظم [٥١/١٧]. توفي رحمه الله في ذي القعدة من هذه السنة، عن ثلاث وتسعين سنة، رحمه الله آمين.

■ **أبو القاسم ابن إمام الحرمين:** قتله بعض الباطنية، بنيسابور رحمه الله، ورحم أباه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

في صفر منها دخل السلطان بركياروق إلى بغداد، ونزل بدار الملك، وأعيدت له الخطبة ببغداد، وقطعت خطبة أخيه محمد بن ملكشاه، وبعث إليه الخليفة هدية هائلة، وفرح به العوام والنساء، ولكنه في ضيق من أمر أخيه السلطان محمد، لإقبال الدولة عليه، واجتماعهم إليه، وقلة ما معه من الأموال، ومطالبة الجند له بأرزاقهم، فعزم على مصادرة الوزير ابن جهير، فالتجأ إلى الخليفة، فمنعه من ذلك، ثم اتفق الحال على المصالحة عنه بمائة وستين ألف دينار، ثم سار فالتقى هو وأخوه السلطان محمد بمكان قريب من همذان، فهزمه أخوه محمد، ونجا هو بنفسه في خمسين فارسا، وقتل في هذه الوقعة سعد الدولة كوهرائين الخادم، وكان قديم الهجرة في الدولة، وقد ولي شحنكية بغداد، وكان حليما حسن السيرة، لم يتعمد ظلم أحد، ولم ير خادم ما رأى، من الحشمة والحرمة، وكثرة الخدمة، وقد كان يكثر الصلاة بالليل، ولا يجلس إلا على وضوء، ولم يمرض مدة حياته، ولم يصدع قط، ولما جرى ما جرى في هذه الوقعة، ضعف أمر السلطان بركياروق، ثم تراجع إليه جيشه، وانضاف إليه الأمير داود حبشي في عشرين ألفا، فالتقى مع أخيه الآخر سنجر، فهزمه سنجر أيضا، وهرب في شرذمة قليلة، وأسر الأمير داود، فقتله الأمير برغش أحد أمراء سنجر، فضعف جانب بركياروق، وتفرقت عنه رجاله، وقطعت خطبته من بغداد، في رابع عشر رجب، وأعيدت خطبة السلطان محمد.

وفي رمضان منها، قبض على الوزير عميد الدولة بن جهير، وعلى أخويه زعيم الرؤساء أبي القاسم، وأبي البركات الملقب بالكافي، وأخذت منهم أموال كثيرة، وحبس بدار الخلافة، حتى مات في شوال من هذه السنة.

وفي ليلة السابع والعشرين منه، قتل الأمير بلكابك سرمز، رئيس شحنة أصبهان، ضربه باطني بسكين في خاصرته، وقد كان يتحرز منهم طول مباشرته، ويدرع تحت ثيابه، سوى هذه الليلة، ومات من أولاده في هذه الليلة جماعة، خرج من داره خمس جنائز من صبيحتها.

وفيها أقبل ملك الفرنج، في ثلاثمائة ألف مقاتل، فالتقى معه كمشتكين بن الدانشمند طايلو، أتابك الجيوش بدمشق، الذي يقال له أمين الدولة، واقف الأمينية بدمشق وببصرى، لا التي ببعلبك، فهزم الفرنج، وقتل منهم خلقا كثيرا، بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف، وأكثرهم جرحى يعني الثلاثة آلاف وذلك في ذي القعدة من هذه السنة، ولحقهم إلى ملطية، فملكها، وأسر ملكها، ولله الحمد.

وحج بالناس الأمير التونتاش التركي وكان شافعي المذهب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الرزاق الغزنوي الصوفي:** شيخ رباط عتاب، حج مرات على التجريد، مات في هذه السنة وله نحو مائة سنة، ولم يترك كفنا، وقد قالت له امرأته وهو في الإحتضار: إنك ستُفتضح اليوم. لا يوجد لك كفن فقال لها: لو تركت كفنا، لافتضحت.

وعكسُه أبو الحسن البسطامي، شيخ رباط بن المحلبان، كان لا يلبس إلا الصوف، شتاء وصيفا، ويظهر الزهد. وحين توفي وجد له أربعة آلاف دينار مدفونة فتعجب الناس من تفاوت حاليهما، واتفاق موتهما في هذه السنة فرحم الله الأول، وسامح الثاني.

الوزير

■ **عميد الدولة بن جهير:** محمد بن أبي نصر بن محمد بن جهير الوزير الكبير، أبو منصور الملقب عميد الدولة أحد رؤساء الوزراء، وسادات الكبراء. خدم ثلاثة من الخلفاء، وزر لاثنين منهم، وكان حليما، قليل العجلة، إلا أنه كان يتكلم فيه بسبب الكبر، وقد ولي الوزارة مرات، يعزل، ثم يعاد، ثم كان آخرها هذه المرّة، حبس بدار الخلافة، فلم يخرج من السجن إلا ميتا، في شوال هذه السنة.

■ **ابن جزلة الطبيب:** يحيى بن عيسى بن جزلة صاحب المنهاج في الطب، كان نصرانيا، وكان يتردد إلى الشيخ أبي علي بن الوليد، المعتزلي، يشتغل عليه في المنطق، وكان أبو علي يدعوه إلى الإسلام ويوضح له الدلالات، حتى أسلم، وحسن إسلامه، واستخلفه أبو عبد الله الدامغاني قاضي القضاة في كتب السجلات، ثم كان يُطبّب الناس بعد ذلك بلا اجر، وربما ركب لهم الأدوية من ماله تبرعا، وقد أوصى بكتبه أن تكون وقفا في مشهد الإمام أبي حنيفة، رحمه الله، وإيانا آمين.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وأربعمائة

فيها عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية، فقتل السلطان منهم خلقا كثيرا، وأبيحت ديارهم، وأموالهم، للعامة، كلٌ من يقدرون عليه، فله قتله وماله وكانوا قد استحوذوا على قلاع كثيرة، وأول قلعة ملكوها في سنة ثلاث وثمانين، وكان الذي ملكها الحسن بن الصبّاح، أحد دعاتهم،وكان قد دخل مصر، وتعلم من الزنادقة، الذين كانوا بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان،وكان لا يدعو إلا غبيا، لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز، حتى يحترق مزاجه، ويفسد دماغه، ثم يذكر له أشياء من أخبار أهل البيت، ويكذب له من أقاويل الرافضة الضلال، أنهم ظلموا، ومنعوا حقهم ثم يقول له: فإذا كانت الخوارج، تقاتل مع بني أمية لعلي، فأنت أحق أن تقاتل في نصرة إمامك علي بن أبي طالب، ولا يزال يسقيه من هذا وأمثاله، حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أمه وأبيه، ويظهر له أشياء كثيرة من المخرقة،

والنيرنجيات، والحيل، التي لا تروج إلا على الجهال، حتى التف عليه بشر كثير، وجم غفير، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه، يتهدّده ويتوعدة، وينهاه عن بعثه الفِداوي إلى العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول، قال لمن حضره مَن الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولا إلى مولاه. فاشرأبت وجوه الحاضرين منهم، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك. فأخرج سكينا، فضرب بها غلصمته، فسقط ميتا، وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة، إلى أسفل خندقها، فتقطع. فقال للرسول: هذا الجواب. فمنها امتنع السلطان من مراسلته. هكذا أورده ابن الجوزي [المنتظم: ١٧/٦٣، ٦٤] ، وسيأتي أن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، جرى له مع سنان صاحب الإيوان، مثل هذا، إن شاء الله تعالى.

وفي شهر رمضان، أمر الخليفة المستظهر بالله، بفتح جامع القصر، وأن يبيض، وأن يصلى فيه التراويح وأن يجهر بالبسملة، وأن يمنع النساء من الخروج ليلا للفرجة.

وفي أول هذه السنة، دخل السلطان بركياروق، إلى بغداد فخطب له بها، ثم لحقه أخواه محمد، وسنجر، فدخلاها، وهو مريض، فعبر في الجانب الغربي، فقطعت خطبته، وخطب لهما بها، وهرب بركياروق إلى واسط، ونهب جيشه، ما اجتازوا به من البلاد، والأراضي، فنهاه بعض العلماء عن ذلك، ووعظه، فلم يفد شيئا.

وفي هذه السنة، ملكت الفرنج قلاعا كثيرة، منها: قيسارية، وسروج، وسار ملك الفرنج كندفري وهو الذي أخذ بيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فجاءه سهم في عنقه، فمات من فوره،الا لعنه الله عليه وعلى أجناده.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن الصباغ، أبو منصور**، سمع الحديث، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري، ثم على عمه أبي نصر بن الصباغ، وكان فقيها، فاضلا، كثير الصلاة، يصوم الدهر، وقد ولي القضاء بربع الكرخ، والحسبة بالجانب الغربي رحمه الله تعالى.

■ **عبد الله بن الحسن بن أبي منصور أبو محمد الطبسي**، رحل وجمع وصنف، وكان أحد الحفاظ المكثرين، ثقة، صدوقا، عارفا بالحديث، ورعا حسن الخلق رحمه الله.

■ **عبد الرحمن بن أحمد ابن أحمد ابن محمد أبو الفرج الزاز السرخسي**، نزل مرو، وسمع الحديث، وأملى، ورحل إليه العلماء، وكان حافظا لمذهب الشافعي، متدينا ورعا، رحمه الله.

■ **عزيزي بن عبد الملك بن منصور أبو المعالي الجيلي، القاضي، الملقب شَيْذلة**، كان شافعيا في الفروع، أشعريا في الأصول، وكان حاكما بباب الأزج، وكان بينه وبين أهل باب الأزج من الحنابلة شنآن كبير، سمع رجلا ينادي على حمار له ضائع، فقال: يدخل باب الأزج، ويأخذ بيد من شاء.

وقال يوما للنقيب طراد الزينبي: لو حلف إنسان أنه لا يرى إنسانا، فرأى أهل باب الأزج، لم يحنث. فقال له الشريف: من عاشر قوما أربعين يوما فهو منهم. ولهذا لما مات، فرحوا بموته كثيرا.

■ **محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن الحسن بن محمد بن طوق، أبو الفضائل الربعي الموصلي**، تفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وسمع الحديث من القاضي أبي الطيب الطبري، وكان ثقة صالحا، كتب الكثير رحمه الله.

■ **محمد بن الحسن: أبو عبد الله الراذاني**، نزل أوانا، وكان مقرئا، فقيها صالحا، له أحوال وكرامات، ومكاشفات، أخذ عن القاضي أبي يعلى بن الفراء الحديث، وغيره.

قال ابن الجوزي: بلغني أن ابنا له صغيرا، طلب منه غزالا، وألح عليه، فقال له: يا بني، غدا يأتيك غزال. فلما كان الغد، أتى غزال، فجعل ينطح الباب بقرنيه، حتى يفتحه، فقال له أبوه: يا بني، أتاك الغزال رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن علي بن عبيد الله بن أحمد بن صالح بن سليمان بن ودعان، أبو نصر الموصلي القاضي**، قدم بغداد سنة ثلاث وتسعين، وحدث عن عمه بالأربعين الودعانية، وقد سرقها عمه أبو الفتح بن ودعان من زيد بن رفاعة الهاشمي، فركب لها أسانيد إلى من بعد زيد بن رفاعة، وهي موضوعة كلها، وإن كان في بعضها معان صحيحة، والله أعلم.

■ **محمد بن منصور: أبو سعد المستوفي شرف الملك الخوارزمي**، جليل القدر، وكان متعصبا لأصحاب أبي حنيفة، ووقف لهم مدرسة بمرو، ووقف فيها كتبا كثيرة، وبنى مدرسة ببغداد عند باب الطاق، وبنى القبة على قبر أبي حنيفة، وبنى أربطة في المفاوز، وعمل خيرا كثيرا، وكان من أطيب الناس، مأكلا، ومشربا، وأحسنهم ملبسا، وأكثرهم مالا، ثم ترك العمالة بعد هذا كله، وأقبل على العبادة، والاشتغال بنفسه، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن منصور القشيري: المعروف بعميد خراسان**، قدم بغداد، أيام طغرلبك، وحدث عن أبي حفص عمر بن أحمد بن مسرور، وكان كثير الرغبة في الخير، ووقف بمرو مدرسة على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وذريته.

قال ابن الجوزي: فهم يتولونها إلى الآن. وبنى بنيسابور مدرسة، وفيها تربته. وكانت وفاته في شوال من هذه السنة رحمه الله.

■ **نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر أبو الخطاب**، البزاز، القارئ، ولد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وسمع الكثير، وتفرد عن ابن رزقويه، وغيره، وطال عمره، ورحل إليه من الآفاق، وكان رحمه الله تعالى صحيح السماع.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وأربعمائة

في ثالث المحرم منها، قبض على أبي الحسن علي بن محمد، المعروف بالكياالهراسي، وعزل عن تدريس النظامية، وذلك أنه رماه بعضهم عند السلطان بأنه باطني، فشهد له جماعة من العلماء منهم ابن عقيل ببراءته من ذلك، وجاءت الرسالة من دار الخلافة، يوم الثلاثاء، بخلاصه.

وفيها، في يوم الثلاثاء، الحادي عشر من المحرم، جلس الخليفة المستظهر بالله، بدار الخلافة، وعلى كتفيه البردة، والقضيب بيده، وجاء الملكان الأخوان، محمد، وسنجر، ابنا السلطان ملشكاه، فقبلا الأرض، فخلع عليهما الخلع السلطانية، على محمد سيفا، وطوقا، وسواراً ولواءً، وأفراسا من مراكبه، وعلى سنجر دون ذلك، وولّى الخليفةُ السلطانَ محمداً الملك، واستنابه في جميع ما يتعلق بأمر الخلافة، دون ما أغلق عليه الخليفة بابه، ثم خرج السلطان محمد، في تاسع عشر الشهر، فأرجف الناس، بقدوم بركياروق، ثم اصطلحوا على أمور، فركب السلطان محمد، فالتقوا، وجرت

حروب كثيرة، وانهزم محمد، وجرى عليه مكروه شديد، كما سيأتي بيانه.

وفي رجب منها قبل القاضي أبو الحسن بن الدامغاني شهادة أبي الحسين وأبي خازم ابني القاضي أبي يعلى بن الفراء.

وفيها قدم عيسى بن عبد الله الغزنوي فوعظ الناس وكان شافعياً أشعرياً، فوقعت فتنة بين الحنابلة والأشعرية ببغداد.

وفيها وقع حريق عظيم ببغداد.

وحج بالناس حميد العمري صاحب سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، صاحب الحلة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (المستعلي)

أبو القاسم صاحب مصر: الملقب بالمستعلي، كانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو علي وله تسع سنين، ولقب بالآمر بأحكام الله.

■ محمد بن هبة الله: أبو نصر القاضي البندنيجي الضرير الشافعي، أخذ عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ثم جاور بمكة أربعين سنة، يفتي ويدرس ويروي الحديث وكان من نوادر الزمان، ومن شعره قوله:

عَذِيْرُكِ نَفْسِي مَا تَمَلِّي بَطَالَتِي ... وَقَدْ مَرَّ إِخْوَانِي وَأَهْلُ مَوَدَّتِي

أُعَاهِدُ رَبِّي ثُمَّ أَنْقُضُ عَهْدَهُ ... وَأَتْرُكُ عَزْمِي حِينَ تَعْرِضُ شَهْوَتِي

وزَادِي قَلِيلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِي ... الْلزَادِ أَبْكِي أَمْ لِطُولِ مَسَافَتِي؟

ثم دخلت سنة ست وتسعين وأربعمائة

فيها حاصر السلطان بركياروق أخاه محمداً بأصبهان، فضاقت على أهلها الأرزاق، واشتد الغلاء عندهم جداً، وأخذ السلطان محمد أهلها بالمصادرة والحصار حولهم من خارج البلد، فاجتمع عليهم الخوف والجوع، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم خرج السلطان محمد من أصبهان هاربا فأرسل أخوه في أثره مملوكه إياز، فلم يتمكن من القبض عليه، ونجا بنفسه سالما.

قال ابن الجوزي: وفي صفر منها زيد في ألقاب قاضي القضاة أبي الحسن الدامغاني تاج الإسلام.

وفي ربيع الأول قطعت الخطبة للسلاطين ببغداد واقتصر على ذكر الخليفة فيها والدعاء له، ثم التقى الأخوان بركياروق ومحمد فانهزم محمد أيضا ثم اصطلحا.

وفيها ملك الملك دقاق بن تتش بن ملكشاه صاحب دمشق مدينة الرحبة.

وفيها قتل أبو المظفر الخجندي الواعظ بالري وكان فقيهاً شافعيا مدرسا، قتله رافضي علوي في الفتنة، وكان عالما فاضلا، كان نظام الملك يزوره ويعظمه.

وحج بالناس خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار، أبو طاهر المقرئ، صاحب المصنفات في علوم القراءات، كان ثقة ثبتا مأموناً عالماً بهذا الشأن وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى.

■ أبو المعالي: أحد الصلحاء الزهاد، ذوي الكرامات والمكاشفات، وكان كثير العبادة متقللا من الدنيا، لا يلبس صيفاً ولا شتاء إلا قميصاً واحداً، فإذا اشتد البرد وضع على كتفه متزراً، وذكر أنه أصابته فاقة شديدة في شهر رمضان، فعزم على الذهاب إلى بعض الأصحاب ليستقرض منه شيئا، قال: فبينما أنا أريده إذا بطائر قد سقط على كتفي، وقال: يا أبا المعالي أنا الملك الفلاني، لا تمض إليه نحن نأتيك به، قال: فبكر إليّ الرجل. رواه ابن الجوزي في منتظمه [٨٢/١٧] من طريقين عنه.

كانت وفاته في هذه السنة، ودفن قريباً من قبر أحمد.

■ السيدة بنت القائم بأمر الله: أمير المؤمنين التي كانت تزوجها الملك طغرلبك، توفيت في هذه السنة ودفنت بالرصافة، وكانت كثيرة الصدقة والإيثار، وجلس لعزائها في بيت النوبة الوزير، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فيها قصد الفرنج لعنهم الله الشام فقاتلهم المسلمون فقتلوا من الفرنج اثني عشر ألفاً، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقد أسر في هذه الوقعة بردويل صاحب الرها.

وفي هذه السنة سقطت منارة واسط، وقد كانت من أحسن المنائر، كان أهل البلد يفتخرون بها وبقية الحجاج، فلما سقطت سمع لأهل البلد بكاء وعويل شديد لم يسمع بمثله، ومع هذا لم يهلك بسببها أحد وكان بناؤها في سنة أربع وثلاثمائة في زمن المقتدر.

وفي هذه السنة تأكد الصلح بين الأخوين السلطانين بركياروق ومحمد، واقتسما البلاد فقطعت الخطبة ببغداد لمحمد واستمرت للملك بركياروق، وبُعث إليه بالخلع وإلى الأمير إياز.

وفي هذه السنة أخذت مدينة عكا وغيرها من السواحل.

وفيها استولى الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور صاحب الحلة على مدينة واسط.

وفيها توفي الملك

■ دقاق بن تتش صاحب دمشق، فأقام مملوكه طغتكين ولدا له صغيراً مكانه، وأخذ البيعة له، وصار هو أتابكه فدبّرا الملك بدمشق مدة.

وفيها عزل السلطان سنجر وزيره أبا الفتح الطغرائي ونفاه إلى غزنة.

وفيها ولي أبو نصر نظام الحضرميّن ديوان الإنشاء.

وفيها قتل الطبيب الماهر الحاذق أبو نعيم، وكانت له إصابات عجيبة جداً.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير خمارتكين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أردشير بن منصور: أبو الحسن العبادي الواعظ، قدم بغداد فوعظ بها فأحبته العامة في سنة ست وثمانين وقد كانت له أحوال جيدة فيما يظهر والله أعلم.

■ إسماعيل بن محمد بن عثمان بن أحمد أبو الفرج القومساني. من أهل همذان، سمع من أبيه وجده وجماعة. وكان حافظاً حسن المعرفة بالرجال

والمتون وأنواع الفنون، ثقة مأموناً رحمه الله تعالى.

■ العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلايا، سعد الدولة، كاتب الإنشاء ببغداد، وكان نصرانياً فأسلم في سنة أربع وثمانين فمكث في الرياسة مدة طويلة، نحواً من خمس وستين سنة، وكان في الوزارة مرات، وكتب الإنشاء مدة فصيح العبارة، كثير الصدقة، توفي في هذه السنة عن عمر طويل رحمه الله تعالى.

■ محمد بن أحمد بن عمر: أبو عمر النهاوندي، قاضي البصرة مدة طويلة، وكان فقيهاً عالماً، سمع الحديث من أبي الحسن الماوردي وغيره كان من تلامذة الماوردي. مولده في سنة عشر، وقيل: سبع، وأربعمائة والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

فيها توفي السلطان بركياروق وعهد إلى ولده الصغير ملكشاه، وعمره أربع سنين وشهور وخطب له ببغداد، ونثر عند ذكره الدنانير والدراهم ولُقب جلال الدولة، وجُعل أتابكه الأمير إياز ثم جاء السلطان ابن ملكشاه إلى بغداد فخرج إليه أهل الدولة ليتلقوه وصالحوه، وكان الذي أخذ البيعة بالصلح الكياالهراسي، مدرس النظامية وخطب له بالجانب الغربي، ولابن أخيه بالجانب الشرقي ثم قتل الأمير إياز وحملت إليه الخلع والدولة والدست، وحضر الوزير سعد الدولة عند الكياالهراسي، في درس النظامية، ليرغب الناس في العلم.

وفي ثاني عشر رجب منها أزيل الغيار عن أهل الذمة الذين كانوا ألزموه في سنة أبع وثمانين وأربعمائة، ولا يعرف ما سبب ذلك.

وفيها كانت حروب كثيرة ما بين المصريين والفرنج، فقتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً، ثم أديل عليهم الفرنج فقتلوا منهم خلقاً أيضاً.

ومن توفي فيها من الأعيان

السلطان

■ بركياروق بن ملكشاه: ركن الدولة السلجوقي، جرت له خطوب كثيرة وحروب هائلة، وأحوال متباينة خطب له ببغداد ست مرات، وعزل عنها ست مرات، مات وله من العمر أربع وعشرون سنة وشهور، ثم قام من بعده ولده ملكشاه، فلم يتم له الأمر بسبب منازعة عمه محمد له.

■ عيسى بن عبد الله بن القاسم أبو المؤيد الغزنوي الأشعري: كان واعظاً كاتباً شاعراً، ورد بغداد فوعظ بها، فنفق على أهلها، وكان أشعري المذهب متعصباً له، فخرج من بغداد قاصداً بلده فتوفي بإسفرايين.

■ محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سلفة الأصبهاني، أبو أحمد، وكان شيخاً عفيفاً ثقة، سمع الكثير، وهو والد الحافظ أبي طاهر السلفي الحافظ رحمه الله تعالى.

الحافظ

■ أبو علي الجياني الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الأندلسي، مصنف تقييد المهمل على ألفاظ «الصحيحين»، وهو كتاب مفيد كثير النفع وكان حسن الخط عالماً باللغة والشعر والأدب، وكان يسمع في جامع قرطبة، توفي ليلة الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان من هذه السنة، عن إحدى وسبعين سنة رحمه الله.

■ محمد بن علي بن الحسن بن أبي الصقر: أبو الحسن الواسطي، سمع الحديث وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وقرأ الأدب وقال الشعر. من ذلك قوله:

مَنْ قَالَ لِي جَاهٌ وَلِي حِشْمَةٌ ... وَلِي قَبُولٌ عِنْدَ مَوْلَانَا
وَلَمْ يُعُدْ ذَاكَ بِنَفْعٍ عَلَى ... صَدِيقِهِ لا كَانَ مَنْ كَانَا

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في المحرم منها ادعى رجل النبوة بنواحي نهاوند، وسمى أربعة من أصحابه أبا بكر وعمر وعثمان وعلي فاتبعه على ضلالته خلق من الجهلة الرعاع، وباعوا أملاكهم ودفعوا أثمانها إليه، وكان كريماً يعطي من قصده ما عنده ثم إنه قتل بتلك الناحية لعنه الله.

ورام رجل من ولد ألب أرسلان بتلك الناحية الملك فلم يتم أمره، فقبض عليه في أقل من شهرين، وكانوا يقولون ادعى رجل النبوة وآخر الملك، فما كان بأسرع من زوالهما.

وفي رجب منها زادت دجلة زيادة عظيمة، فأتلفت شيئاً كثيراً من الغلات، وغرقت دور كثيرة ببغداد.

وفيها كسر طغتكين أتابك العساكر بدمشق الفرنج، وعاد مؤيداً منصوراً إلى دمشق، وزينت البلد سبعة أيام، سروراً بكسره الفرنج.

وفيها في رمضان منها حاصر الملك رضوان بن تتش صاحب حلب مدينة نصيبين.

وفيها ورد إلى بغداد ملك من ملوك الملثمين وصحبته رجل يقال له الفقيه، فوعظ في جامع القصر وهو ملثم ثم عاد إلى مصر وله حروب كثيرة مع الفرنج استشهد في بعضها.

وحج بالناس في هذه السنة من العراق رجل من قرائب الأمير سيف الدولة صدقة.

ومن توفي فيها من الأعيان

سهل بن أحمد بن علي الأرغياني أبو الفتح الحاكم: سمع الحديث من البيهقي وغيره، وعلق عن القاضي حسين طريقه وشكره في ذلك، وكان قد تفقه أولاً على الشيخ أبي علي السنجي، وعلق عن إمام الحرمين في الأصول بحضرته، واستجاده وولي قضاء بلده مدة ثم ترك ذلك كله وأقبل على العبادة وتلاوة القرآن.

وقال ابن خلكان: وبنى للصوفية رباطاً من ماله، ولزم التعبد إلى أن مات في مستهل المحرم من هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق: أبو منصور الخياط، أحد القراء والصلحاء، ختم ألوفاً من الختمات وختم عليه ألوف من الناس، وأسمع الحديث الكثير، وحين توفي اجتمع العالم في جنازته اجتماعاً لم يُعهد مثله، في جنازة بتلك الأزمان. وكان عمره يوم توفي سبعاً وتسعين سنة رحمه الله، وقد رثاه الشعراء، ورآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل بك ربك؟ فقال: غفر لي بتعليمي الصبيان الفاتحة.

■ محمد بن عبيد الله بن الحسن بن الحسين: أبو الفرج البصري قاضيها، سمع أبا الطيب الطبري والماوردي وغيرهما، ورحل في طلب الحديث، وكان عابداً خاشعاً عنه الذكر رحمه الله.

■ مهارش بن مجلي أمير العرب: بحديثة وعانة، وهو الذي أودع عنده الخليفة القائم بأمر الله، حين كانت فتنة البساسيري ببغداد، فأكرم الخليفة حين ورد عليه، ثم جازاه الخليفة الجزاء الأوفى وكان الأمير مهارش هذا كثير الصلاة والصدقة، وكانت وفاته في هذه السنة عن ثمانين سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمسمائة من الهجرة النبوية:

قال أبو داود في سننه [٤٣٤٩]: حدثنا حجاج بن إبراهيم حدثنا ابن وهب حدثني معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُعْجِزَ اللّٰهُ هذِهِ الأُمَّةَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ».

حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبو المغيرة حدثني صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ انه قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا يُعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهَا نِصْفَ يَوْمٍ». قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: «خمسمائة سنة» [٤٣٥٠].

وهذا من دلائل النبوة. وذكر هذه المدة لا ينفي زيادة عليها، كما هو الواقع، لأنه ﷺ ذكر شيئاً من أشراط الساعة لا بد من وقوعها كما أخبر سواء بسواء. وسيأتي ذكرها فيما بعد زماننا، وبالله المستعان.

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث أن السلطان محمد بن ملكشاه حاصر في هذه السنة قلاعاً كثيرة من حصون الباطنية، فافتتح منها أماكن كثيرة، وقتل خلقا منهم، من ذلك قلعة حصينة كان أبوه قد بناها بالقرب من أصبهان في رأس جبل منيع هناك، وكان سبب بنائه لها أنه كان مرة في بعض صيوده فهرب منه كلب فاتبعه إلى راس الجبل فوجده، وكان معه رجل من رسل الروم، فقال الرومي: لو كان هذا الجبل ببلادنا لاتخذنا عليه قلعة، فحدا هذا الكلام السلطان على أن ابتنى في رأسه قلعة أنفق عليها ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار، ثم استحوذ عليها بعد ذلك رجل من الباطنية يقال له أحمد بن عبد الملك بن عطاش، فتعب المسلمون بسببها، فحاصرها السلطان محمد سنة حتى افتتحها، وسلخ هذا الرجل وحشي جلده تبناً وقطع رأسه، فطيف به في الأقاليم، ثم نقض هذه القلعة حجراً حجراً، وألقت امرأته نفسها من أعلى القلعة فتلفت، وهلك ما كان معها من الجواهر النفيسة، وكان الناس يتشاءمون بهذه القلعة، يقولون: كان دليلها كلباً، والمشير بها كافراً، والمتحصن بها زنديقاً.

وفيها كانت حروب كثيرة بين بني خفاجة وبين عبادة، فقهرت عبادة خفاجة وأخذت منها.

وفيها استحوذ سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي على مدينة تكريت بعد قتال كثير.

وفيها أرسل السلطان محمد الأمير جاولي سقاوو إلى الموصل وأقطعه إياها، فذهب فانتزعها من الأمير جكرمش بعد ما قاتله وهزم أصحابه وأسره، ثم قتله بعد ذلك وقد كان جكرمش من خيار الأمراء سيرة وعدلا وإحساناً، ثم أقبل قلج أرسلان بن قتلمش فحاصر الموصل فانتزعها من جاولي، فصار جاولي إلى الرحبة، فأخذها ثم أقبل إلى قتال قلج فكسره وألقى قلج نفسه في النهر الذي للخابور فهلك.

وفيها نشأت حروب كثيرة بين الروم والفرنج فاقتتلوا قتالا عظيماً وقتل من الفريقين طائفة كبيرة، ثم كانت الهزيمة بعد كل حساب على الفرنج.

وفي يوم عاشوراء منها قتل فخر الملك أبو المظفر بن نظام الملك، وكان أكبر أولاده، وهو وزير السلطان سنجر بنيسابور، وكان صائماً، قتله باطني، وكان قد رأى في تلك الليلة الحسين بن علي رضي الله عنهما وهو يقول له: عجل إلينا وأفطر عندنا الليلة، فأصبح متعجباً، فنوى الصوم ذلك اليوم، وأشار إليه بعض أصحابه أن لا يخرج ذلك اليوم من المنزل، فما خرج إلا في آخر النهار فرأى شاباً يتظلم وفي يده رقعة فقال: ما شأنك؟ فناوله الرقعة فبينما هو يقرؤها إذ ضربه بخنجر بيده فقتله، فأخذ الباطني فرفع إلى السلطان فقرره فأقر على جماعة من أصحاب الوزير أنهم أمروه بذلك، وكان كاذباً، فقتل وقتلوا أيضاً.

وفي صفر عزل الخليفة الوزير أبا القاسم علي بن جهير وخرب داره التي كان قد بناها أبوه، من خراب بيوت الناس، فكان في ذلك عبرة وموعظة لذوي البصائر والنهى، واستنيب في الوزارة القاضي أبو الحسن الدامغاني.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير تركماني واسمه البرن، من جهة السلطان محمد بن ملكشاه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد أبو المظفر: الخوافي الفقيه الشافعي.

قال ابن خلكان: كان أنظر أهل زمانه، تفقه على إمام الحرمين، وصار أوجه تلامذته، وقد ولي القضاء بطوس ونواحيها، وكان مشهوراً بحسن المناظرة وإفحام الخصوم. قال والخوافي بفتح الخاء والواو نسبة إلى خواف. وهي ناحية من نواحي نيسابور وتوفي في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج، أبو محمد القارئ البغدادي، ولد سنة ست عشر وأربعمائة، وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الكثير من الأحاديث النبويات، من المشايخ والشيخات في بلدان متباينات، وقد خرج له الحافظ أبو بكر الخطيب أجزاء من مسموعاته، وكان صحيح الثبت، جيد الذهن، أديباً شاعراً، حسن النظم، نظم كتاب المبتدأ في القراءات، وكتاب التنبيه والخرقي وغير ذلك، وله كتاب مصارع العشاق وغير ذلك، ومن شعره قوله:

قُــلْ لِلَّذِيــنَ بِجَهْلِهِــمْ ... أَضْحَــوْا يَعِيبُــونَ المَحَــابِرْ
والحَـامِلِينَ لَهَـا مِـنَ الأَيْـدِي ... بِمُجْتَمَــعِ الأَسَــاوِرْ
لَــوْلا المَحَــابِرُ والمَقَــالِمُ ... والصَّحَــائِفُ والدَّفَــاتِرْ
والحَــافِظُونَ شَــرِيعَةَ الــ ... ـمَبْعُـوثِ مِـنْ خَـيْرِ العَشَـائِرْ
والنَّــاقِلُونَ حَدِيثَــهُ عَــنْ ... كَــابِرٍ ثَبْــتٍ وكَــابِرْ
لَرَأَيْـتَ مِـنْ شِـيَعِ الضَّـلا ... لِ عَسَــاكِراً تَتْلُـو عَسَـاكِرْ
كُــلٌّ يَقُــولُ بِجَهْلِــهِ ... واللّــهُ لِلْمَظْلُــومِ نَــاصِرْ
سَــمَّيْتُهُمْ أَهْــلَ الحَدِيــثِ ... أُولِي النُّهَــى وأُولِي البَصَــائِرْ
حَشْــوِيَةٌ أُفٍّ لَكُــمْ ... ولِمَــنْ بِنَقْصِهِــمُ يُجَــاهِرْ
هُــمْ حَشْــوُ جَنَّــاتِ النَّعِيــمِ ... عَلَــى الأَسِــرَّةِ والمَنَــابِرْ
رُفَقَــاءُ أَحْمَــدَ كُلُّهُــمْ ... عَــنْ حَوْضِــهِ رَيَّــانُ صَــادِرْ

وذكر له ابن خلكان أشعاراً رائقة منها قوله:

وَمُـدَّعٍ شَـرْخَ الشَّبَابِ وَقَـدْ عَمَّمَهُ الشَّيْبُ عَلَى وَفْرَتِهْ
يُخَضِّبُ بِالْوَشْمَةِ عُثْنُونَهُ يَكْفِيهِ أَنْ يَكْذِبَ فِي لِحْيَتِهْ

■ عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد الشيرازي الفارسي، سمع الحديث الكثير، وتفقه وولاه نظام الملك تدريس النظامية ببغداد، في سنة ثلاث وثمانين فدرس بها مدة، وكان يملي الأحاديث، وكان كثير التصحيف، روى مرة حديث «صَلَاة في إثْرِ صلاةٍ كتَابٌ في علّيّين» [د (٥٥٨، ١٢٨٨)، أحمد: ٢٦٣/٥، ٢٦٤، ٢٦٨]. فقال: كنار في غلس. ثم فسّر ذلك بأنه أكثر لإضاءتها.

■ محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الأسدي الشاعر، لقي أبا الحسن التهامي، وكان مغرماً بما يعارض شعره، وقد أقام باليمن وبالعراق ثم بالحجاز ثم بخراسان، ومن شعره:

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِي بِالأَيَادِي
قُلْتُ طَوَّلْتُ قَالَ لا بَلْ تَطَوَّلْتَ وَأَبْرَمْتُ قَالَ حَبْلَ السَّوَادِ

■ يوسف بن علي: أبو القاسم الزنجاني الفقيه، كان من أهل الديانة، حكى عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن القاضي أبي الطيب، قال: كنا يوماً بجامع المنصور في حلقة فجاء شاب خراساني فذكر حديث أبي هريرة في المصراة [م (١٥٢٤)] فقال الشاب: هذا الحديث غير مقبول، فما استتم كلامه حتى سقطت من سقف المسجد حية فنهض الناس هاربين وتبعت الحية ذلك الشاب من بينهم، فقيل له: تب تب. فقال: تبت، فذهبت تلك الحية فلا يدرى أين ذهبت.

رواها ابن الجوزي عن شيخه أبي المعمر الأنصاري عن أبي القاسم هذا [المنتظم: ١٠٦/١٧] والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسمائة من الهجرة

فيها جدد الخليفة الخلع على وزيره الجديد أبي المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب، وأكرمه وعظمه.

وفي ربيع الآخر منها دخل السلطان محمد إلى بغداد فتلقاه الوزير والأعيان، وأحسن إلى أهلها، ولم يتعرض أحد من جيشه إلى شيء. وتغضّب السلطان على صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة وتكريت بسبب أنه آوى رجلا من أعدائه يقال له أبو دلف سُرخاب الديلمي، صاحب ساوة، وبعث إليه ليرسله إليه فلم يفعل، فأرسل إليه جيشاً فهزموا جيش صدقة. وقد كان جيشه عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل، وقتل صدقة في المعركة، وأسر جماعة من رؤوس أصحابه وأخذوا من زوجته خمسمائة ألف دينار وجواهر نفيسة.

قال ابن الجوزي: وظهر في هذه السنة صبية عمياء تتكلم على أسرار الناس وبالغ الناس في الحيل ليعلموا حالها فلم يعلموا.

قال ابن عقيل: وأشكل أمرها على العلماء والخواص والعوام، حتى إنها كانت تسأل عن نقوش الخواتيم المقلوبة الصعبة، وعن أنواع الفصوص وصفات الأشخاص وما في داخل البنادق من الشمع والطين والحبّ المختلف والخرز، وبالغ أحدهم حتى ترك يده على ذكره فقيل لها: ما الذي في يده فقالت: يحمله إلى أهله وعياله.

وفيها قدم القاضي فخر الملك علي بن عمار صاحب طرابلس إلى بغداد يستنفر المسلمين على الفرنج، فأكرمه السلطان غياث الدين محمد إكراما زائداً، وخلع عليه وبعث معه الجيوش الكثيرة لقتال الفرنج.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ تميم بن المعز بن باديس: صاحب إفريقية، كان من خيار الملوك خلقاً وكرماً، وإحساناً، ملك ستاً وأربعين سنة، وعمر تسعاً وسبعين سنة، وترك من البنين أكثر من مائة، ومن البنات ستين بنتاً، وملك من بعده ولده يحيى، ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:

أَصَحُّ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى مِنَ الخَبَرِ الْمَرْوِيِّ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ

■ صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، الأمير سيف الدولة، صاحب الحلة وتكريت وواسط وغيرها، كان كريماً عفيفاً ذا ذمام، ملجأً لكل خائف يأمن في بلاده، وتحت جناحه، وكان يُحسن يقرأ الكتب ولا يحسن الكتابة، وقد اقتنى كتباً نفيسة جداً، وكان لا يتزوج على امرأة قط، ولا يتسرى على سرية حفظاً للذمام، ولئلا يكسر قلب أحد، وقد مدح بأوصاف جميلة كثيرة جداً. قتل في بعض الحروب، قتله غلام اسمه برغش، وكان له من العمر تسع وخمسون سنة ولي منها الإمارة إحدى وعشرين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسمائة

في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان تزوج الخليفة المستظهر بالله بالخاتون بنت ملكشاه أخت السلطان محمد، على صداق مائة ألف دينار، ونثر الذهب، وكتب العقد بأصبهان.

وفيها كانت حروب كثيرة بين الأتابك طغتكين صاحب دمشق وبين الفرنج.

وفيها ملك سعيد بن حميد العمري الحلة السيفية.

وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة فغرقت الغلات وزاد غلاء الأسعار بسبب ذلك غلاء شديداً.

وحج بالناس الأمير قيماز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن العلوي: أبو هاشم رئيس همدان، وكان ذا مال جزيل، صادره السلطان في بعض الأوقات بتسعمائة ألف دينار، فلم يبع فيها عقاراً ولا غيره.

■ الحسين بن علي: أبو الفوارس بن الخازن، الكاتب المشهور بالخط المنسوب. كانت وفاته في ذي الحجة منها.

قال ابن خلكان: كتب بيده خمسمائة ختمة، وكانت وفاته فجأة رحمه الله تعالى.

■ الروياني صاحب البحر: عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد، أبو المحاسن الروياني، من أهل طبرستان، أحد أئمة الشافعية، ولد سنة خمس عشرة وأربعمائة، ورحل إلى الآفاق حتى بلغ ما وراء النهر، وحصل علوماً جمة، وسمع الحديث الكثير، وصنف كتباً في المذهب، من ذلك البحر في الفروع، وهو كتاب حافل شامل للغرائب وغيرها، وفي المثل

حدث عن البحر ولا حرج، وكان يقول: لو احترقت كتب الشافعي أمليتها من حفظي، قتل ظلماً يوم جمعة، وهو يوم عاشوراء في الجامع بطبرستان.

قال ابن خلكان: وقد أخذ الفقه عن ناصر المروزي وعلق عنه، وكان للروياني الجاه العظيم، والحرمة الوافرة في تلك الديار وكان نظام الملك كثير التعظيم له، وقد صنف كتباً في الأصول والفروع، منها بحر المذهب، وكتاب مناصيص الإمام الشافعي، وكتاب الكافي، وحلية المؤمن، وله كتب في الخلاف أيضاً رحمه الله تعالى.

■ يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام، الشيباني التبريزي، أبو زكريا، أحد أئمة اللغة والنحو، قرأ على أبي العلاء وغيره، وتخرج به جماعة منهم أبو منصور بن الجواليقي.

قال ابن ناصر: وكان ثقة في النقل، وله المصنفات الكثيرة.

وقال ابن خيرون: لم يكن مرضي الطريقة توفي في جمادى الآخرة ودفن إلى جانب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي بباب أبرز والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمائة

فيها أخذت الفرنج لعنهم الله مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال، وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبلة بعدها بعشر ليال، فلا حول ولا قوة إلا بالله الكبير المتعال. وقد، هرب منهم فخر الملك بن عمار، فقصد صاحب دمشق طغتكين فاكرمه واقطعه بلاداً كثيرة.

وفيها وثب بعض الباطنية على الوزير أبي نصر بن نظام الملك فجرحه ثم أخذ الباطني فسقي الخمر فاعترف على جماعة من الباطنية فأخذوا فقتلوا.

وحج بالناس الأمير قايماز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن علي بن أحمد، أبو بكر العثلي: كان يعمل في تجصيص الحيطان، ولا ينقض صورة، ولا يأخذ من أحد شيئاً، وكانت له أملاك يبيع منها ويتقوت، وقد سمع الحديث من القاضي أبي يعلى، وتفقه عليه شيئاً من الفقه، وكان إذا حج يزور القبور بمكة، وإذا وصل إلى قبر الفضيل بن عياض يخط إلى جانبه خطاً بعصاه ويقول يا رب ههنا. فقُدِّر أنه حج في هذه السنة فوقف بعرفات محرما فتوفي بها في آخر ذلك اليوم، فغسل وكفن وطيف به حول البيت ثم دفن إلى جانب الفضيل بن عياض في ذلك المكان الذي كان يخطه بعصاه، ولما بلغ الناس وفاته ببغداد اجتمعوا للصلاة عليه صلاة الغائب رحمه الله تعالى.

■ عمر بن عبد الكريم بن سعدويه أبو الفتيان الدهستاني، رحل في طلب الحديث، ودار الدنيا، وخرج وانتخب، وكان له فهم بهذا الشأن، وكان ثقة، وقد صحح عليه أبو حامد الغزالي كتاب الصحيحين. وكانت وفاته بسرخس في هذه السنة.

■ (محمد أخو حمّادي) محمد ويعرف بأخي حمّادي: وكان أحد الصلحاء الكبار، كان به مرض مزمن، فرأى النبي ﷺ في المنام نعوفي، فلزم مسجداً له أربعين سنة، لا يخرج إلا إلى الجمعة، وانقطع عن مخالطة الناس، وكانت وفاته في هذه السنة، ودفن في زاوية بالقرب من مشهد أبي حنيفة رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وخمسمائة

في أوائل هذه السنة تجهز جماعة من الفقهاء البغاددة وغيرهم، وفيهم ابن الزاغوني، للخروج إلى الشام لأجل الجهاد، وقتال الفرنج، وذلك حين بلغهم أنهم فتحوا مدائن عدّة، من ذلك مدينة صيدا في ربيع الأول، وكذا غيرها من المدائن ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج.

وفيها قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مائة واثنين وستين جملاً، وسبعة وعشرين بغلا وزينت بغداد لقدومها، وكان دخولها على الخليفة في الليلة العاشرة من رمضان، وكانت ليلة مشهودة.

وفي شعبان درس أبو بكر الشاشي بالنظامية مع التاجية، وحضر عنده الوزير والأعيان من الدولة وغيرهم.

وحج بالناس الأمير قيماز، ولم يتمكن الخراسانيون من الحج من كثرة العطش وقلة الماء.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إدريس بن حمزة: أبو الحسن الشامي الرملي العثماني، أحد فحول المناظرين عن مذهب الشافعي، تفقه أولا على نصر بن إبراهيم، ثم ببغداد على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ودخل خراسان حتى وصل إلى ما وراء النهر، وأقام بسمرقند ودرس بمدرستها إلى أن توفي بها في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ علي بن محمد بن علي عماد الدين، أبو الحسن الطبري، ويعرف بالكياالهراسي، أحد الفقهاء الكبار، من رؤوس الشافعية، ولد سنة خمسين وأربعمائة، واشتغل على إمام الحرمين، وكان هو والغزالي أكبر التلامذة، وقد ولي كل منهما تدريس النظامية ببغداد، وقد كان أبو الحسن هذا فصيحاً جهوري الصوت جميلا، وكان يكرر الدرس على كل مرقاة من مراقي درج النظامية بنيسابور سبع مرات، وكانت المراقي سبعين مرقاة، وقد سمع الحديث الكثير، وناظر وأفتى ودرس، وكان من أكابر العلماء وسادات الفقهاء، وله كتاب يرد فيه على ما انفرد به الإمام أحمد بن حنبل في مجلد، وله غيره من المصنفات.

وقد اتهم في وقت بأنه يمالئ الباطنية، فنزع منه التدريس ثم شهد جماعة من العلماء ببراءته من ذلك منهم ابن عقيل، فأعيد إليه توفي في يوم الخميس مستهل محرم من هذه السنة عن أربع وخمسين سنة ودفن إلى جانب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي رحمهما الله.

وذكر ابن خلكان أنه كان يحفظ الحديث ويناظر به، وهو القائل: إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح.

وحكى السلفي عنه أنه استفتي في كتبة الحديث هل يدخلون في الوصية للفقهاء؟ فأجاب: بنعم لقوله ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً بَعَثَهُ اللَّهُ فَقِيهاً عَالِماً».

وأنه استفتي في يزيد بن معاوية فذكر عنه ثلباً وفسقاً، وسوغ شتمه، وأما الغزالي فإنه خالف في ذلك، ومنع من شتمه ولعنه، لأنه مسلم، ولم يثبت بأنه رضي بقتل الحسين، ولو ثبت لم يكن ذلك مسوغاً للعنه، لأنّ القاتل لا يلعن، لا سيما وباب التوبة مفتوح، وهو الذي يقبل التوبة عن

عباده. قال الغزالي: وأما الترحم عليه فجائز، بل مستحب، بل نحن نترحم عليه في جملة المؤمنين والمسلمين عموماً في الصلوات.

ذكره ابن خلكان مبسوطاً بلفظه في ترجمة الكيا الهراسي هنا [الوفيات: ٢٨٨/٣، ٢٨٩]، قال: والكيا معناه كبير القدر المقدم المعظم. والله أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسمائة

فيها بعث السلطان غياث الدين محمد جيشاً كثيفاً، صحبة الأمير مودود بن التونكين بكين صاحب الموصل ومنهم سكمان القطبي، صاحب تبريز، وأحمديل صاحب مراغة، والأمير إيلغازي صاحب ماردين، والمقدَّم على الجميع الأمير مودود صاحب الموصل، لقتال الفرنج بالشام، فانتزعوا من أيدي الفرنج حصوناً كثيرة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولله الحمد.

ولما دخلوا دمشق دخل الأمير مودود إلى جامعها ليصلي فيه فجاءه باطني في زي سائل يطلب منه شيئاً، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته، فلعنة الله على هذا الباطني، ووُجد رجل أعمى في سطح الجامع ببغداد ومعه سكين مسموم فقيل إنه كان يريد قتل الخليفة.

وفيها ولد للخليفة من بنت السلطان ولد ذكر فضربت الدبادب والبوقات، وجلس الوزير بباب الفردوس للهناء. وفيها توفي أخو الخليفة، فقطع الطبل أياماً، وجلس الوزير بباب الفردوس للعزاء، وهكذا الدنيا قرض؛ هذا يُعزَّى وهذا يُهنَّى.

وفي رمضان عزل الوزير أحمد بن النظام، وكانت مدة وزارته أربع سنين وإحدى عشر شهراً.

وفيها حاصرت الفرنج مدينة صور، وكانت بأيدي المصريين، عليها عز الملك الأعز من جهتهم، فقاتلهم قتالا شديداً، ومنعها منعاً جيداً، حتى فني ما عنده من النشاب والعدد، فأمده طغتكين صاحب دمشق، وأرسل إليه العدد، والآلات، فقوي جانبه، وترحلت عنه الفرنج، في شوال منها.

وحج بالناس أمير الجيوش نظر الخادم، وكانت سنة مخصبة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي: ولد سنة خمسين وأربعمائة، وتفقه على إمام الحرمين، وبرع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة، في فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم، في كل ما يتكلم فيه، وساد في شبيبته حتى إنه درس بالنظامية ببغداد، في سنة أربع وثمانين، وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء في ذلك الوقت، وكان ممن حضر عنده أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته، واطلاعه.

قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم، ثم إنه خرج عن الدنيا بالكلية، وأقبل على أعمال الآخرة، وكان يرتزق من النسخ، ورحل إلى الشام، فأقام بدمشق وبيت المقدس مدة، ثم إنه صنف في هذه المدة كتابه إحياء علوم الدين، وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف، وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة، غرائب، ومنكرات، ومنها ما هو موضوع، كما يوجد في غيره من كتب الفروع، التي يستدل بها على الحلال والحرام، فالكتاب الموضوع للرقائق، والترغيب، والترهيب، أسهل أمرا من غيره، وقد شنع عليه أبو الفرج ابن الجوزي [المنتظم: ١٢٥/١٧، ١٢٦] ، ثم ابن الصلاح، في ذلك تشنيعا كبيراً، وأراد المازري أن يحرق كتابه إحياء علوم الدين، وكذلك غيره من المغاربة، وقالوا: هذا كتاب إحياء علوم دينه، وأما ديننا فإحياء علومه كتاب الله وسنة رسوله. كما قد حكيت كلامه في ترجمته من طبقات الشافعية، وقد زيف ابن سُكَّر مواضع إحياء علوم الدين، وبين زيفها في مصنف مفيد، وقد كان الغزالي يقول: أنا مزجَّى البضاعة في الحديث. ويقال إنه مال في آخر عمره إلى سماع الحديث، والتحفظ للصحيحين.

وقد صنف ابن الجوزي كتابا على الإحياء، وسماه علوم «إعلام الأحياء بأغاليط الإحياء».

قال ابن الجوزي: ثم ألزمه بعض الوزراء بالخروج إلى نيسابور، فدرس بنظاميتها، ثم عاد إلى بلده طوس، وابتنى بها رباطا، واتخذ دارا حسنة، وغرس فيها بستانا أنيقا، وأقبل على تلاوة القرآن، وحفظ الأحاديث الصحاح.

وكانت وفاته يوم الاثنين، الرابع عشر من جمادى الآخرة، من هذه السنة، ودفن بطوس رحمه الله تعالى، وقد سأله بعض أصحابه، وهو في السياق، فقال: أوصني. فقال: عليك بالإخلاص. فلم يزل يكررها، حتى مات، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ست وخمسمائة

في جمادى الآخرة منها، جلس ابن الطبري، مدرسا بالنظامية، وعزل عنها الشاشي.

وفيها دخل الشيخ الصالح أحد العباد يوسف بن أيوب إلى بغداد، فوعظ الناس، وكان له القبول التام، وكان فقيها شافعيا، تفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ثم اشتغل بالعبادة، والزهادة، وكانت له أحوال صالحة، جاراه مرة رجل يقال له ابن السقاء في مسألة، فقال له: اسكت، فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك أن تموت على غير دين الإسلام. فاتفق بعد مدة، أنه خرج إلى بلاد الروم في حاجة، فتنصر هناك، فإنا لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا.

وقام إليه مرة، وهو يعظ الناس، ابنا أبي بكر الشاشي، فقالا له: إن كنت تتكلم على مذهب الأشعري، وإلا فاسكت. فقال: لا متعتما بشبابكما. فماتا ولم يبلغا سن الكهولة.

وحج بالناس في هذه السنة، أمير الجيوش نظر الخادم، ونالهم عطش شديد.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ صاعد بن منصور بن إسماعيل بن صاعد، أبو العلاء الخطيب النيسابوري، سمع الحديث الكثير، وولي الخطابة بعد أبيه، والتدريس، والتذكير، وكان أبو المعالي الجويني يثني عليه، وقد ولي قضاء خوارزم.

■ محمد بن موسى بن عبد الله: أبو عبد الله البلاساغوني التركي الحنفي، ويعرف باللامشي، أورد عنه الحافظ ابن عساكر حديثا، وذكر أنه ولي قضاء بيت المقدس، فشكوا منه، فعزل عنها، ثم ولي قضاء دمشق، وكان غاليا في مذهب أبي حنيفة، وهو الذي رتب الإقامة مثنى مثنى، قال: إلى أن أزال الله ذلك، بدولة الملك صلاح الدين.

قال: وكان قد عزم على نصب إمام حنفي بالجامع، فامتنع أهل دمشق من ذلك، وامتنعوا من الصلاة خلفه، وصلوا بأجمعهم في دار الخيل، وهي التي قِبْليّ الجامع، مكان المدرسة الأمينية، وما يجاورها، وحدُّها الطرقات الأربعة، وكان يقول: لو كانت لي الولاية، لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية، وكان مبغضا لأصحاب مالك أيضا.

قال: ولم تكن سيرته في القضاء محمودة. وكانت وفاته يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة منها.

قال: وقد شهدت جنازته، وأنا صغير في الجامع.

■ المعمر بن علي بن المعمر: أبو سعد بن أبي عِمامة الواعظ، كان فصيحا، بليغا، ماجنا ظريفا، ذكيا، له كلمات في الوعظ حسنة، ورسائل مسموعة مستحسنة، توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بباب حرب.

■ أبو علي المغربي: كان زاهدا، عابدا، ورعاً يتقوت بأدنى شيء، ثم عَنَّ له، أن يشتغل بعلم الكيمياء. فأخذ إلى دار الخلافة، فلم يظهر له خبر بعد ذلك.

■ نزهة: أم ولد الخليفة المستظهر بالله المقتفي لأمر الله، كانت سوداء محتشمة، كريمة النفس، توفيت يوم الجمعة، ثاني عشر شوال من هذه السنة.

■ أبو سعد السمعاني: مصنف الأنساب، وغيره، وهو تاج الإسلام عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن أبي المظفر المنصور بن عبد الجبار السمعاني، المروزي، الفقيه الشافعي، الحافظ المحدث، قوام الدين، أحد الأئمة المصنفين المتصفين.

رحل، وسمع الكثير، حتى كتب عن أربعة آلاف شيخ، وصنف التفسير، والتاريخ، والأنساب، والذيل على تاريخ الخطيب البغدادي، وذكر له ابن خلكان، مصنفات عديدة جدا، منها كتابه الذي جمع فيه ألف حديث، عن مائة شيخ، وتكلم عليها إسنادا ومتنا، وهو مفيد جدا، رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة، بين المسلمين والفرنج، في أرض طبرية، كان فيها ملك دمشق، الأتابك طغتكين، وفي خدمته صاحب سنجار، وصاحب ماردين، وصاحب الموصل، فهزموا الفرنج هزيمة فاضحة، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وغنموا منهم أموالا جزيلة، وملكوا تلك النواحي كلها، ولله الحمد والمنة.

ثم رجعوا إلى دمشق، فذكر ابن الساعي في تاريخه، مقتل الملك مودود صاحب الموصل، في هذه السنة، قال: صلى هو، والأتابك طغتكين، يوم الجمعة، بالجامع، ثم خرجا إلى الصحن، ويد كل واحد منهما، في يد الآخر، فظفر باطني على مودود، فقتله، رحمه الله، فيقال إن طغتكين، هو الذي مالأ عليه، فالله أعلم، وجاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين، وفيه: إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها.

وفيها ملك حلب ألب أرسلان بن رضوان بن تتش بعد أبيه، وقام بأمر السلطنة بين يديه لؤلؤ الخادم، فلم يبق معه سوى الرسم.

وفيها فتح المارستان، الذي أنشأه كمشتكين الخادم، ببغداد.

وحج بالناس زنكي بن برسق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي: سمع الكثير وتنقل في البلاد، ودرس بمدينة خوارزم، وكان فاضلا من أهل الحديث، مرضي الطريقة، وكانت وفاته ببلده بيهق في هذه السنة.

■ شجاع بن أبي شجاع: فارس بن الحسين بن فارس أبو غالب الذهلي الحافظ، سمع الحديث الكثير، وكان فاضلا في هذا الشأن، وشرع في تتميم تاريخ الخطيب، ثم غسله، وكان يكثر من الاستغفار، والتوبة، لأنه كتب شعر ابن الحجاج سبع مرات، توفي في هذا العام، عن سبع وسبعين سنة.

■ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن الحسن بن منصور بن معاوية بن محمد بن عثمان بن عنبسة بن عتبة بن عنبسة بن أبي سفيان صخر بن حرب، الأموي أبو المظفر بن أبي العباس الأبيوردي الشاعر، كان عالما باللغة، والأنساب، سمع الكثير، وصنف تاريخ أبيورد، وأنساب العرب، وله كتاب في المؤتلف والمختلف، وغير ذلك.

وكان ينسب إلى الكبر، والتيه الزائد، حتى كان يدعو في صلاته فيقول: اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها.

وكتب مرة إلى الخليفة الخادم المعاوي، فكشط الخليفة الميم، فبقت العاوي، ومن شعره قوله:

تَنَكَّر لي دَهْري ولَمْ يَدْرِ أنَّنِي ... أعِزُّ وأحْداثُ الزَّمانِ تَهُونُ
وَظَلَّ يُرِيني الخَطْبُ كَيْفَ اعتداؤه ... وبِتُّ أرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ

■ محمد بن طاهر بن علي بن أحمد: أبوه الفضل المقدسي الحافظ، ولد سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وأول سماعه سنة ستين، وسافر في طلب الحديث إلى بلاد كثيرة، وسمع كثيرا، وكانت له معرفة جيلة بهذه الصناعة، وصنف كتبا مفيدة، غير أنه صنف كتابا في إباحة السماع، وفي التصوف، وساق فيه أحاديث منكرة جدا، وأورد أحاديث صحيحة في غير كنهها، وقد أثنى على حفظه غير واحد من الأئمة.

وذكر ابن الجوزي في كتابه هذا الذي سماه صفة التصوف وقال: يضحك منه من رآه؛ قال: وكان داودي المذهب، فمن أثنى عليه أثنى لأجل حفظه للحديث، وإلا فما يجرّح به أولى.

قال: وذكره أبو سعد السمعاني، وانتصر له بغير حجة، بعد أن قال: سألت عنه شيخنا إسماعيل بن أحمد الطلحي، فأساء الثناء عليه. وكان سيئ الرأي فيه.

قال: وسمعنا أبا الفضل ابن ناصر يقول: محمد بن طاهر لا يحتج به، صنف في جواز النظر إلى المرد، وكان يذهب مذهب الإباحية، ثم أورد له من شعره قوله في هذه الأبيات:

دَعِ التَّصَوُّفَ وَالزُّهْدَ الذي اشْتَغَلَتْ ... بِهِ جَوارِحُ أقْوَامٍ مِنَ النَّاسِ
وَعُجْ عَلَى دَيْرِ دَارَيَّا فَإنَّ بِهِ الـ ... ـرُّهْبَانَ مَا بَيْنَ قِسِّيسٍ وَشَمَّاسِ
واشْرَبْ مُعَتَّقَةً مِنْ كَفِّ كَافِرَةٍ ... تَسْقِيكَ خَمْرَيْنِ مِنْ لَحْظٍ وَمِنْ كَاسِ
ثُمَّ استَمِعْ رَنَّةَ الأوْتَارِ مِنْ رَشَإٍ ... مُهَفْهَفٍ طَرْفُهُ أمْضَى مِنَ المَاسِ
غَنَّى بِشِعْرِ امْرِئٍ فِي النَّاسِ مُشْتَهَرٍ ... مُدَوَّنٍ عِنْدَهُمْ فِي صَدْرِ قِرْطَاسِ
لَوْلا نَسِيمٌ بِذِكْرَاكُمْ يُرَوِّحُنِي ... لَكُنْتُ مُحْتَرِقاً مِنْ حَرِّ أنْفَاسِي

ثم قال السمعاني: لعله قد تاب من هذا كله.

قال ابن الجوزي: وهذا غير مرضي، أن يذكر جرح الأئمة له، ثم يعتذر عن ذلك، باحتمال توبته.

وقد ذكر ابن الجوزي، أنه لما احتضر، جعل يردد هذا البيت.

وما كنتم تعرفون الجفا فممن ترى قد تعلمتم

ثم كانت وفاته بالجانب الغربي من بغداد، في ربيع الأول من هذه السنة.

أبو بكر

■ الشاشي: صاحب المستظهري محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي، أحد أئمة الشافعية في زمانه، ولد في المحرم، سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وسمع الحديث على أبي يعلى بن الفراء، وأبي بكر الخطيب، والشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وتفقه عليه، وعلى غيره، وقرأ الشامل على مصنفه ابن الصباغ، واختصره في كتابه، الذي جمعه للمستظهر بالله، وسماه حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء، ويعرف بالمستظهري، وقد درس بالنظامية ببغداد، ثم عزل عنها، وكان ينشد:

تَعَلَّمْ يَا فَتَى والعودُ غَضٌّ وطينُكَ لَيِّنٌ والطَّبْعُ قَابِلٌ

فَحَسْبُكَ يا فَتَى شَرَفاً وفَخْراً سُكُوتُ الحَاضِرِينَ وأنتَ قَائِلٌ

توفي سحر يوم السبت السادس عشر من شوال من هذه السنة، ودفن إلى جانب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، بباب أبرز.

■ المؤتمن بن أحمد بن علي بن الحسين بن عبيد الله، أبو نصر الساجي المقدسي، سمع الحديث الكثير، وخرج، وكان ثقة صحيح النقل، حسن الخط، مشكور السيرة، لطيف النفس، واشتغل في الفقه، على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي مدة، ورحل إلى أصبهان، وغيرها، وهو معدود من جملة الحفاظ، لا سيما للمتون، وقد تكلم فيه ابن طاهر.

قال ابن الجوزي: وهو أحق منه بذلك، وأين الثريا من الثرى؟

توفي المؤتمن يوم السبت، ثامن عشر صفر من هذه السنة، ودفن بباب حرب، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها وقع حريق عظيم ببغداد.

وفيها كانت زلزلة هائلة بأرض الجزيرة، هدمت منها ثلاثة عشر برجا، ومن الرها بيوتا كثيرة، وبعض سور حرّان، ودور كثيرة في بلاد شتى، فهلك أكثرها، وفي بالس نحواً من مئة دار، وقُلب بنصف قلعة حران، وسلم نصفها، وخسف بمدينة سميساط،وهلك تحت الردم خلق كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها قتل صاحب حلب تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان بن تتش، قتله غلمانه، وقام من بعده، أخوه سلطان شاه بن رضوان.

وفيها ملك السلطان سنجر بن ملكشاه بلاد غزنة، وخطب له بها بعد مقاتلة عظيمة، وأخذ منها أموالا كثيرة، من ذلك خمس تيجان، قيمة كل تاج منها ألف ألف دينار، وسبعة عشر سريراً من ذهب وفضة، وألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة، فأقام بها أربعين يوما، وقرر في ملكها بهرام شاه، من بيت بني سبكتكين، ولم يخطب بغزنة قبل السلطان سنجر من السلجوقية لأحد. وإنما كان لها ملوك سادة، أهل جهاد وسنة، لا يجسر أحد من الملوك عليهم، ولا يطيق أحد مقاومتهم، وهم بنو سبكتكين.

وفيها ولى السلطان محمد للأمير آق سنقر البرسقي الموصل وأعمالها، وأمره بمقاتلة الفرنج، فقاتلهم في أواخر هذه السنة، فأخذ منهم الرها، وحريمها، وسروج، وسميساط، ونهب ماردين، وأسر ابن ملكها إياز بن إيلغازي، فأرسل السلطان محمد إليه من يتهدده، ففر منه إلى طغتكين صاحب دمشق، فاتفقا على عصيان السلطان محمد، فجرت بينهما وبين نائب حمص قرجان بن قراجة حروب كثيرة، ثم اصطلحوا.

وفيها ملكت زوجة مرعش الإفرنجية، بعد وفاة زوجها لعنهما الله.

وحج بالناس فيها أمير الجيوش أبو الخير يمن الخادم، وشكر الناس حجهم معه.

ثم دخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها جهز السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، صاحب العراق، جيشا كثيفا مع الأمير برسق بن برسق بن إيلغازي، صاحب ماردين، وإلى طغتكين صاحب دمشق، ليقاتلهما على تمالئهما على عصيان السلطان، وقطع خطبته، وإذا فرغ منهما عمد لقتال الفرنج. فلما اقترب الجيش من بلاد الشام هربا منه، وتحيزا إلى الفرنج، وجاء الأمير برسق إلى كفرطاب، ففتحها عنوة، وأخذ ما كان فيها من النساء والذرية، وجاء صاحب أنطاكية روجيل، في خمسمائة فارس، وألفي راجل، فكبس المسلمين، فقتل منهم خلقا كثيرا، وأخذ أموالا جزيلة، وهرب برسق في طائفة قليلة، وتمزق الجيش الذي كان معه شذر مذر، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي ذي القعدة منها، قدم الملك غياث الدين محمد إلى بغداد، وجاء إليه طغتكين صاحب دمشق، معتذرا إليه، فخلع عليه، ورضي عنه، ورده إلى عمله.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ إسماعيل بن محمد بن أحمد بن علي مَلَّة أبو عثمان الأصبهاني، أحد الرحالين في طلب الحديث، وقد وعظ في جامع المنصور، ثلاثين مجلسا، واستملى عليه محمد بن ناصر، وتوفي بأصبهان.

■ مُنتجب بن عبد الله المستظهري: أبو الحسن الخادم، كان كثير العبادة، وقد أثنى عليه محمد بن ناصر، وقال: وقف على أصحاب الحديث.

■ هبة الله بن المبارك بن موسى، أبو البركات السقطي، سمع الكثير، ورحل فيه، وكان فاضلا، عارفا باللغة، ودفن بباب حرب.

■ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس: صاحب إفريقية، كان من خيار الملوك، عارفا حسن السيرة، محبا للفقراء، والعلماء، وله عليهم أرزاق، مات وله ثنتان وخمسون سنة، وترك ثلاثين ولدا، وقام بالأمر من بعده ولده علي رحمه الله تعالى آمين.

ثم دخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها وقع حريق عظيم ببغداد، احترقت فيه دور كثيرة، منها دار نور الهدى الزينبي، ورباط بهروز، ودار الكتب النظامية، وسلمت الكتب، لأن

الفقهاء نقلوها.

وفيها قتل صاحب مراغة، في مجلس السلطان محمد، قتله الباطنية.

وفي يوم عاشوراء، وقعت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة، بمشهد علي بن موسى الرضا، بمدينة طوس، فقتل فيها خلق كثير.

وفيها سار السلطان إلى فارس، بعد موت نائبها، خوفا عليها من صاحب كرمان.

وحج بالناس أمير الجيوش أبو الحسن نظرٌ الخادم، وكانت سنة مخصبة آمنة، ولله الحمد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ البغوي المفسر المحدِّث الفقيه، وقيل: في سنة ست عشرة، كما سيأتي والله أعلم.

■ عقيل بن الإمام أبي الوفا: علي بن عقيل الحنبلي، كان شابا قد برع، وحفظ القرآن، وكتب مليحاً، وفهم المعاني جيدا، ولما توفي، نصبرٌ عليه أبوه، وشكر، وأظهر التجلد، فقرأ قارئ في العزاء: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ الآية [يوسف ٧٨]، فبكى ابن عقيل بكاء شديدا.

■ علي بن أحمد بن محمد بن بيان الرزاز، آخر من حدث عن ابن مخلد بجزء الحسن بن عرفة، وتفرد بأشياء غيره أيضاً. توفي في هذه السنة عن سبع وتسعين سنة.

■ محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو بكر السمعاني، سمع الكثير، وحدث، ووعظ بالنظامية ببغداد، وأملى بمرو مائة وأربعين مجلسا، وكانت له معرفة تامة بالحديث، وكان أديبا، شاعرا، فاضلا، له قبول عظيم في القلوب، توفي بمرو، عن ثلاث وأربعين سنة.

■ محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد، أبو منصور الخازن، فقيه الإمامية، ومفتيهم بالكرخ، وقد سمع الحديث من التنوخي، وابن غيلان، توفي في رمضان منها.

■ محمد بن علي بن محمد: أبو بكر النسوي، الفقيه الشافعي، سمع الحديث، وكانت إليه تزكية الشهود بنسا، وكان فاضلا ديِّنا ورعا.

■ محفوظ بن أحمد بن الحسن، أبو الخطاب الكلوذاني، أحد أئمة الحنابلة ومصنفيهم، سمع الكثير، وتفقه بالقاضي أبي يعلى، وقرأ الفرائض على الوني، ودرس، وأفتى، وناظر، وصنف في الأصول والفروع، وله شعر حسن، وجمع قصيدة يذكر فيها اعتقاده ومذهبه، يقول فيها:

دَعْ عَنْكَ تَذْكَارَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ　　والشَّوْقَ نَحْوَ الآنِسَاتِ الخُرَّدِ
والنَّوحَ فِي تَذْكَارِ سُعْدَى إِنَّمَا　　تَذْكَارُ سُعْدَى شُغْلُ مَنْ لَمْ يَسْعَدِ
واسْمَعْ مَقَالِي إِنْ أَرَدْتَ تَخَلُّصاً　　يَوْمَ الحِسَابِ وخُذْ بِهَدْيِي تَهْتَدِ

وذكر تمامها، وهي طويلة.

كانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة، عن ثمان وسبعين سنة، وصلّي عليه بجامع القصر، وجامع المنصور، ودفن بالقرب من الإمام أحمد.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وخمسمائة

في رابع عشر صفر منها، انكسف القمر كسوفا كليا، وفي تلك الليلة، هجم الفرنج على ربض حماة، فقتلوا خلقا كثيرا، ورجعوا لعنهم الله إلى بلادهم.

وفيها كانت زلزلة عظيمة ببغداد، سقط منها دور كثيرة، بالجانب الغربي، وغلت الغلات في هذه السنة ببغداد جدا.

وفيها قتل لؤلؤ الخادم، الذي كان استحوذ على مملكة حلب، بعد موت أستاذه رضوان بن تتش، قتله جماعة من الأتراك، وكان قد خرج من حلب متوجها إلى جعبر، فتنادى جماعة من مماليكه، وغيرهم في أثناءالطريق: أرنب أرنب، فرموه بالسهام، موهمين أنهم يصيدون صيداً، فقتلوه.

وفيها كانت وفاة السلطان

■ غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، ملك بلاد العراق، وخراسان، وغير ذلك من البلاد الشاسعة، والأقاليم الواسعة. وكان من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة، عادلا رحيم القلب، سهل الأخلاق، محمود العشرة، رحمه الله ولما حضرته الوفاة، استدعى ولده محمودا، وضمه إليه، وبكى كل منهما، ثم أمره بالجلوس على سرير المملكة، وعمره إذ ذاك أربع عشرة سنة، فجلس وعليه التاج والسواران، وحكم، ولما توفي أبوه صرف الخزائن إلى العساكر، وكان فيها أحد عشر ألف ألف دينار، واستقر الملك له وخطب له ببغداد وغيرها من البلاد، وكان عمر أبيه السلطان محمد تسعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأياما، وقد كان يخطب له ببغداد عدة مرات ونازعه أخوه بركياروق ثم استقر الملك له، إلى هذه السنة رحمه الله وأكرم مثواه.

وفيها ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر، صاحب حلب ودمشق.

ومن توفي فيها من الأعيان

القاضي المرتضى: أبو محمد

■ عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري، والد القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، قاضي دمشق في أيام نور الدين، اشتغل ببغداد، وتفقه بها، وكان شافعي المذهب، بارعا دينا، حسن النظم، ثم عاد إلى بلده، فكان يعظ ويتكلم على القلوب وله قصيدة في علم التصوف، أوردها القاضي ابن خلكان بتمامها، لحسنها، وفصاحتها:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ وقَدْ عَسْعَسَ اللَّيْـ　　ـلُ ومَلَّ الحَادِي وحَارَ الدَّلِيلُ
فَتَأَمَّلْتُهَا وَفِكْرِي مِنَ البَيْـ　　ـنِ عَلِيلٌ ولَحْظُ عَيني كَلِيلُ
وفُؤَادِي ذَاكَ الفُؤَادُ المُعَنَّى　　وغَرَامِي ذَاكَ الغَرَامُ الدَّخِيلُ

ومن شعره:

يَا لَيْلُ مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً　　إلا وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَى لي
ولا ثَنَيْتُ العَزْمَ عَنْ بَابِكُمْ　　إلا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالي

ومن شعره دوبيت:

يَا قَلْبُ إِلامَ لا يفِيدُ النُّصْحُ　　دَعْ مَزْحَكَ كَمْ جَنَى عَلَيْكَ المَزْحُ
مَا جَارِحَةٌ مِنْكَ عَدَاهَا جُرْحُ　　مَا تَشْعُرُ بالخُمَارِ حَتَّى تَصْحُو

كانت وفاته في هذه السنة.

قال ابن خلكان: زعم العماد، في الخريدة [٣٢١/٢] أنه توفي بعد العشرين وخمسمائة، فالله أعلم.

■ محمد بن سعد بن نبهان، أبو علي الكاتب، سمع الحديث، وروى، وعمر مائة سنة، وتغير قبل موته، وله شعر حسن، من ذلك قوله في قصيدة له:

لِي أجلٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ نَعَمْ ورزق أتوَفَّاهُ
حتَّى إذَا اسْتَوْفَيْتُ مِنْهُ الذي قُدِّرَ لي لا أتَعَدَّاهُ
قَالَ كِرَامٌ كُنْتُ أغْشَاهُمُ في مَجْلِسٍ قد كُنْتُ أغْشَاهُ
صَارَ ابْنُ نُبْهَانَ إلى رَبِّهِ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وإيَّاهُ

أمير الحاج:

■ يمن بن عبد الله أبو الخير المستظهري، كان جوادا، كريما، ممدحا، ذا رأي، وفطنة ثاقبة، وقد سمع الحديث من أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة النعالي، بإفادة أبي نصر الأصبهاني، وكان يؤم به في الصلوات، ولما قدم رسولا إلى أصبهان، حدث بها. توفي في ربيع الآخر، من هذه السنة، ودفن هناك، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وخمسمائة

فيها خطب للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، بأمر الخليفة المستظهر بالله.

وفيها سأل دبيس بن صدقة بن منصور الأسدي من السلطان محمود أن يرده إلى الحلة وغيرها، مما كان أبوه يتولاه من الأعمال، فأجابه إلى ذلك، وولاه ما كان أبوه يتولاه من ذلك فعظم، وارتفع شأنه.

وفاة الخليفة المستظهر بالله

■ (المستظهر بن المقتدي)

وهو أبو العباس أحمد بن أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله: كان خيرا، فاضلا، ذكيا، بارعا، كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها الأعياد، وكان راغبا في البر والخيرات، مسارعا إلى ذلك، لا يرد سائلا، وكان جميل المعاشرة، لا يصغي إلى أقوال الوشاة في الناس، ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيدا، وأحكمها، وعرفها وعلمها، وكان لديه علم كثير وفضل كبير وله شعر حسن. قد ذكرناه أولا عند ذكر خلافته بعد والده وقد ولي غسله الإمام ابن عقيل، وابن السني، وصلى عليه ولده أبو منصور الفضل، وكبر أربعا، ودفن في حجرة كان يسكنها، والعجب، أنه لما مات السلطان ألب أرسلان، مات بعده الخليفة القائم بأمر الله ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي بأمر الله، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده الخليفة المستظهر بالله رحمهم الله.

وكانت وفاة المستظهر بالله، في سادس عشر ربيع الآخر من هذه السنة، وله من العمر إحدى وأربعون سنة، وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما.

خلافة المسترشد أمير المؤمنين:

أبو منصور الفضل بن المستظهر:

لما توفي أبوه كما ذكرنا بويع له بالخلافة، وخطب له على المنابر، وقد كان ولي العهد من مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الذي أخذ البيعة له قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني، ولما استقرت البيعة للمسترشد هرب أخوه أبو الحسن في سفينة، ومعه ثلاثة نفر، وقصد دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي بالحلة، فأكرمه، وأحسن إليه، فقلق أخوه الخليفة المسترشد بالله من ذلك، فراسل دبيسا في ذلك، مع نقيب النقباء الزينبي، فهرب أخو الخليفة من دبيس، فأرسل إليه جيشا، فالجؤوه إلى البرية، فلحقه عطش شديد، فلقيه بدويان، فسقياه ماء، وحملاه إلى بغداد، فأحضره أخوه إليه،فاعتنقا وتباكيا، وأنزله الخليفة دارا كان يسكنها قبل الخلافة، وأحسن إليه، وطيب نفسه، وكانت مدة غيبته عن بغداد إحدى عشر شهرا، واستقرت الخلافة بلا منازعة للمسترشد.

وفي هذه السنة كان غلاء شديد ببغداد، وانقطع الغيث، وعدمت الأقوات، وتفاقم أمر العيارين، ونهبوا الدور نهارا جهارا، ولم يستطع الشرط لذلك تغييراً ولا إنكاراً.

وحج بالناس في هذه السنة نظرٌ الخادم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الخليفة

■ المستظهر: كما تقدم ذكر ذلك آنفا في هذا العام.

وتوفيت بعده جدته، أم أبيه المقتدي بأمر الله.

■ أرجوان الأرمنية: وتدعى قرة العين، كان لها بر كثير، ومعروف وصدقات، وقد حجت ثلاث حجات، وأدركت خلافة ابنها المقتدي بأمر الله، وخلافة ابنه المستظهر، وخلافة ابنه المسترشد، ورأت للمسترشد ولدا وكانت وفاتها في هذه السنة رحمها الله تعالى.

■ بكر بن محمد بن علي بن الفضل أبو الفضل الأنصاري، روى الحديث، وكان يضرب به المثل في حفظ مذهب أبي حنيفة، وكان قد تفقه على عبد العزيز بن أحمد الحلواني، وكان يذكر الدروس من أي موضع سئل، من غير مطالعة، ولا مراجعة، وربما كان في ابتداء طلبه، يكرر المسألة اربعمائة مرة. وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

■ الحسين بن محمد بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الزينبي، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه على أبي عبد الله الدامغاني، فبرع، وافتى، ودرس بمشهد أبي حنيفة، ونظر في أوقافها، وانتهت إليه رياسة مذهب أبي حنيفة، ولقب نور الهدى، وسار في الرسلية إلى الملوك، وولي نقابة الطالبيين، والعباسيين، ثم استعفي بعد شهور، فولي أخوه طراد نقابة العباسيين. وكانت وفاته يوم الاثنين، الحادي عشر من صفر، وله من العمر ثنتان وتسعون سنة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم علي، وحضر جنازته الأعيان، والعلماء، ودفن عند قبر أبي حنيفة، داخل القبة رحمه الله.

يوسف بن أحمد أبو طاهر: ويعرف بابن الخرزي، صاحب المخزن في أيام المستظهر، فكان لا يوفي المسترشد حقه من التعظيم، وهو ولي العهد، فلما صارت إليه الخلافة، صادره بمائة ألف دينار، ثم استقر غلاما له، فأومأ إلى بيت، فوجد فيه أربعمائة ألف دينار، فأخذها الخليفة، ثم كانت وفاته بعد هذا بقليل، في هذا العام.

■ أبو الفضل بن الخازن: كان أديبا لطيفا، شاعرا فاضلا، فمن شعره قوله:

وَافَيْتُ مَنْزِلَهُ فَلَمْ أرَ صاحباً إلا تَلَقَّاني بِوَجْهٍ ضَاحِكٍ
والبِشْرُ فِي وَجْهِ الغُلامِ نَتِيجَةٌ لِمُقَدِّمَاتِ ضِيَاءِ وَجْهِ المَالِكِ

وَدَخَلْتُ جَنَّةً وزُرْتُ جَحِيمَةً ... فَشَكَرْتُ رِضْوَاناً ورَأْفَةَ مَالِكِ

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها كانت الحروب الشديدة، بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وبين عمه السلطان سنجر بن ملكشاه، فكان النصر فيها لسنجر، فخطب له ببغداد في سادس عشر جمادى الأولى، من هذه السنة، وقطعت خطبة السلطان محمود ثم وقع الصلح بينهما ورسم السلطان سنجر أن يخطب لابن أخيه محمود في سائر أعماله بعده.

وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب، ففتحوها عنوة، وملكوها، فسار إليهم صاحب ماردين، إيلغازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم عنها، ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا فيه، فقتل منهم هنالك مقتلة عظيمة، ولله الحمد والمنة، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدّمهم نيفا وتسعين رجلا، وقتل فيمن قتل سيرخال صاحب أنطاكية، وحمل رأسه إلى بغداد لعنه الله، فقال بعض الشعراء في ذلك، وقد بالغ مبالغة فاحشة:

قُلْ مَا تَشَاءُ فَقَوْلُكَ المَقْبُولُ ... وعَلَيْكَ بَعْدَ الخَالِقِ التَّعْوِيلُ
واسْتَبْشَرَ القُرآنُ حِينَ نَصَرْتَهُ ... وبَكَى لِفَقْدِ رِجَالِهِ الإِنْجِيلُ

وفيها قتل الأمير منكبرس الذي كان شحنة بغداد، وكان ظالما، غاشما، سيئ السيرة، قتله الملك محمود بن محمد بن ملكشاه صبرا بين يديه لأمور: منها أنه تزوج سرية أبيه قبل انقضاء عدتها، ونعم ما فعل وقد أراح الله المسلمين منه قبحه الله، فما كان أظلمه، وأغشمه.

وفيها تولى قضاء قضاة بغداد الأكمل أبو القاسم بن علي بن أبي طالب الحسين بن محمد الزينبي، وخلع عليه بعد موت أبي الحسن بن الدامغاني.

وفيها ظهر قبر الخليل إبراهيم، وقبر إسحاق ويعقوب عليهم السلام، وشاهد ذلك الناس، ولم تبل أجسادهم، وعندهم قناديل من ذهب وفضة، ذكر ذلك ابن الخازن في تاريخه، وأظنه نقله من المنتظم لابن الجوزي، والله أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ ابن عقيل علي بن عقيل بن محمد بن عقيل أبو الوفاء شيخ الحنابلة ببغداد، وصاحب الفنون، وغيرها من التصانيف المفيدة.

ولد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وقرأ القرآن علي بن شيطة، وسمع الحديث الكثير، وتفقه بالقاضي أبي يعلى بن الفراء، وقرأ الأدب على ابن برهان، والفرائض على عبد الملك الهمذاني، والوعظ على أبي طاهر بن العلاف، صاحب ابن سمعون، والأصول على أبي الوليد المعتزلي، وكان يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب، فربما لامه بعض أصحابه، فلا يلوي عليهم، فلهذا برز على أقرانه، وبذّ أهلَ زمانه في فنون كثيرة، مع صيانة، وديانة، وحسن صورة وكثرة اشتغال، وقد وعظ في بعض الأحيان، فوقعت فتنة، فترك ذلك، وقد متعه الله بجميع حواسه إلى حين موته.

وكانت وفاته في بكرة الجمعة، ثاني جمادى الأولى، من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين، وكانت جنازته حافلة جداً، ودفن قريباً من قبر الإمام أحمد، إلى جانب الخادم مخلص، رحمه الله.

■ علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسين بن عبد الملك بن عبد الوهاب بن حمويه أبو الحسن الدامغاني قاضي القضاة، ابن قاضي القضاة، ولد في رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة، واشتغل وبرع وتولى قضاء القضاة بعد أبيه، ثم عُزل بأبي بكر الشاشي، ثم أُعيد إلى الحكم.

قال ابن الجوزي: ولا يُعرف حاكم وليَ الحكم أصغر سنّاً منه - يعني ببغداد - من قضاة القضاة.

وقال: ولا يعرف حاكم ولي الحكم لأربعة من الخلفاء غيره إلا شريح، ثم ذكر من أمانته وديانته، وصيانته ما يدل على تحريه وتوقيه وقوته رحمه الله وقد ولي الحكم أربعاً وعشرين سنة كذلك.

وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة عن ثلاث وستين سنة وستة أشهر، وقبره عند مشهد أبي حنيفة رحمه الله.

■ المبارك بن علي بن الحسين أبو سعد المخرمي، سمع الحديث، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وناظر، وأفتى ودرس، وجمع كتباً كثيرة، لم يسبق إلى مثلها، وناب في القضاء، وكان حسن السيرة، جميل الطريقة، سديد الأقضية، وقد بنى مدرسة بباب الأزج، وهي المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي، ثم عزل عن القضاء، وصودر بأموال جزيلة، وذلك في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة، ودفن إلى جانب أبي بكر الخلال، عند قبر أحمد.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وخمسمائة

في النصف من ربيع الأول منها، كانت وقعة عظيمة، بين الأخوين، السلطانين محمود، ومسعود، ابني محمد بن ملكشاه، عند عقبة أسداباذ، فانهزم عسكر مسعود، وأسر وزيره الأستاذ أبو إسماعيل وجماعة من أمرائه، فأمر السلطان محمود بقتل الوزير أبي إسماعيل، فقتل وله نيف وستون سنة، وله تصانيف في صناعة الكيمياء. ثم أرسل إلى أخيه مسعود الأمان، واستقدمه عليه، فلما اجتمعا اعتنقا وبكيا واصطلحا.

وفيها نهب دبيس بن صدقة صاحب الحلة البلاد، وركب بنفسه إلى بغداد، ونصب خيمته بإزاء دار الخلافة، وأظهر ما في نفسه من الضغائن، وذكر كيف طيف برأس أبيه في البلاد، وتهدد المسترشد، فأرسل إليه الخليفة يسكن جاشه، ويعده أن سيصلح بينه وبين السلطان محمود، فلما قدم السلطان محمود بغداد، أرسل دبيس يستأمن، فأمنه، وأجراه على عادته، ثم إنه نهب جيش السلطان، فركب السلطان محمود بنفسه لقتاله، واستصحب معه ألف سفينة ليعبر بها، فهرب دبيس من بين يديه، والتجأ إلى إيلغازي، فأقام عنده سنة، ثم عاد إلى الحلة، وأرسل إلى الخليفة، والسلطان يعتذر إليهما مما كان منه، فلم يقبلا منه، وجهز السلطان إليه جيشا، فحاصروه، وضيقوا عليه، قريبا من سنة، وهو في منيع بلاده لا يقدر الجيش على الوصول إليه.

وفيها كانت الوقعة العظيمة، بين الكرج والمسلمين، بالقرب من تفليس، ومع الكرج كفار القفجاق فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وغنموا أموالا جزيلة وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ونهبت الكرج تلك النواحي، وفعلوا أشياء منكرة، وحاصروا تفليس مدة، ثم ملكوها عنوة، بعد ما أحرقوا القاضي، والخطيب، حين خرجوا إليهم يطلبون منهم الأمان، وقتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية، واستحوذوا على الأموال، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفيها أغار جوسلين الفرنجي صاحب الرها على خلق من العرب، والتركمان فقتلهم، وغنم أموالهم.

وفيها تمردت العيارون ببغداد، فأخذوا الدور جهارا، ليلا ونهارا، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذه السنة كان ابتداء ملك محمد بن تومرت ببلاد المغرب، كان ابتداء أمر هذا الرجل، أنه قدم في حداثة سنة من بلاد المغرب، إلى بغداد فسكن النظامية، واشتغل بالعلم، فحصل جانبا جيدا، من الفروع والأصول، على الغزالي وغيره، وكان يظهر التعبد، والزهد، والورع، وربما أنكر على الغزالي حسن ملابسه، ولا سيما حين لبس خلعة التدريس بالنظامية، أظهر الإنكار عليه جدا، وكذلك على غيره، ثم إنه حج، وعاد إلى بلاده، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقرئ الناس القرآن، ويشغلهم في الفقه، فطار ذكره في الناس، واجتمع به يحيى بن تميم بن المعز بن باديس صاحب بلاد إفريقية، فعظمه وأكرمه وسأله الدعاء، فاشتهر أيضاً بذلك، وبَعُدَ صيتُه، وليس معه إلا ركوة وعصا، ولا يسكن إلا المساجد، ثم جعل ينتقل من بلد إلى بلد، حتى دخل مراكش، ومعه تلميذه عبد المؤمن بن علي، وقد كان توسم فيه النجابة والشهامة، فرأى في مراكش من المنكرات أضعاف ما رأى في غيرها من ذلك، أن الرجال يتلثمون، والنساء يمشين حاسرات عن وجوههن، فأخذ في إنكار ذلك، حتى إنه اجتاز به في بعض الأيام أخت أمير المسلمين، علي بن يوسف بن تاشفين ملك مراكش وما حولها، ومعها نسوة، راكبات، حاسرات عن وجوههن، فشرع هو وأصحابه ينكرون عليهن، وجعلوا يضربون الدواب فسقطت أخت الملك عن دابتها، فأحضره الملك وأحضر الفقهاء، فظهر عليهم بالحجة، وأخذ يعظ الملك في خاصة نفسه، حتى أبكاه، ومع هذا نفاه الملك عن بلده، فشرع يشنع عليه، ويدعو الناس إلى قتاله، فاتبعه على ذلك خلق كثير، فجهز إليه ابن تاشفين جيشا كثيفا، فهزمهم ابن تومرت، فعظم شأنه وارتفع أمره وقويت شوكته، وتسمى بالمهدي، وسمى جيشه جيش الموحدين، وألف كتابا في التوحيد، وعقيدة تسمى المرشدة.

ثم كانت له وقعات مع جيوش صاحب مراكش، فقتل منهم في بعض الأيام نحوا من سبعين ألفا، وذلك بإشارة أبي عبد الله الونشريسي، وكان ذكر أنه نزل إليه ملك وعلمه القرآن والموطأ، وله بذلك ملائكة يشهدون به في بئر سماه، فلما اجتاز به، وكان قد أرصد فيه رجالا، فلما سألهم والناس يسمعون، شهدوا له بذلك، فأمر حينئذ بطم البئر عليهم، فماتوا عن آخرهم، ولهذا يقال من أعان ظالما سلط عليه.

ثم جهز ابن تومرت، الذي لقب نفسه بالمهدي، جيشا عليهم أبو عبد الله الونشريسي، وعبد المؤمن، لمحاصرة مراكش، فخرج إليهم أهلها، فاقتتلوا قتالا شديدا، وكان في جملة من قتل أبو عبد الله الونشريسي هذا، الذي زعم أن الملائكة تخاطبه، ثم افتقدوه في القتلى، فلم يجدوه، فقالوا: رفعته الملائكة وقد كان عبد المؤمن دفنه، والناس في المعركة، وقتل من أصحاب المهدي خلق كثير، وقد كان حين جهز الجيش مريضا مدنفا، فلما جاءه الخبر، ازداد مرضا إلى مرضه، وساءه قتل أبي عبد الله الونشريسي، وجعل الأمر من بعده لعبد المؤمن بن علي، ولقبه أمير المؤمنين. وقد كان شابا، حسنا، حازما، عاقلا، ثم مات ابن تومرت، وقد أتت عليه إحدى وخمسون سنة، ومدة ملكه عشر سنين.

وحين صار الأمر إلى عبد المؤمن بن علي أحسن إلى الرعايا، وظهرت له سيرة جيدة، فأحبه الناس، واتسعت ممالكه، وكثرت جيوشه، ورعيته، ونصب العداوة لابن تاشفين صاحب مراكش، ولم يزل الحرب بينهما إلى سنة خمس وثلاثين، فمات ابن تاشفين، فقام ولده تاشفين من بعده، فمات في سنة تسع وثلاثين، ليلة سبع وعشرين من رمضان، فولي أخوه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، فسار إليه عبد المؤمن، فملك تلك النواحي، وفتح مدينة مراكش، فقتل هنالك أمما لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل، وقتل ملكها إسحاق، وكان صغير السن في سنة ثنتين وأربعين، فكان إسحاق هذا آخر ملوك المرابطين، وكان مدة ملكهم سبعين سنة. والذين ملكوا منهم أربعة: علي ووالده يوسف، وولداه تاشفين وإسحاق ابنا علي المذكور، فاستوطن عبد المؤمن مدينة مراكش، واستقر ملكه بتلك النواحي، وظفر في سنة ثلاث وأربعين بدكالة، وهي قبيلة عظيمة، نحو مائتي ألف راجل، وعشرين ألف فارس مقاتل، وهم من الشجعان الأبطال، فقتل منهم خلقا كثيرا، وجما غفيرا، وسبى ذراريهم، وغنم أموالهم، حتى إنه ابتيعت الجارية الحسناء، بدراهم معدودة، وقد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلدا في أحكامه، وأيامه، وكيف تملك بلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء، التي توهم أنها أحوال برة، وهي مُحَالٌ لا تصدر، إلا عن فجرة، وما قتل من الناس، وأزهق من الأنفس.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن عبد الوهاب بن السِّيِّي: أبو البركات،** أسند الحديث، وكان يعلم أولاد الخليفة المستظهر، فلما صارت الخلافة إلى المسترشد، ولاه المخزن، وكان كثير الأموال، والصدقات، يتعاهد أهل العلم، وخلف مالا كثيرا حزر بمائة ألف دينار، أوصى منه من ذلك بثلاثين ألف دينار لمكة والمدينة، وكانت وفاته في هذه السنة عن ست وخمسين سنة وثلاثة أشهر، وصلى عليه الوزير أبو علي بن صدقة، ودفن بباب حرب.

■ **عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن، أبو نصر القشيري،** قرأ على أبيه، وإمام الحرمين، وروى الحديث عن جماعة، وكان ذا ذكاء، وفطنة، وله خاطر حاضر جريء، ولسان ماهر فصيح، وقد دخل بغداد، فوعظ بها فوقع، بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية، فحبس بسببها الشريف أبو جعفر بن أبي موسى، وأمر ابن القشيري بالخروج من بغداد لإطفاء الفتنة، فعاد إلى بلده، وكانت وفاته في هذه السنة.

■ **عبد العزيز بن علي بن عمر أبو حامد الدينوري،** كان كثير المال، والصدقات، ذا حشمة، ومروءة، ووجاهة عند الخليفة، وقد روى الحديث، ووعظ، وكان مليح الإيراد، حلو المنطق، وكانت وفاته بالري في هذه السنة والله اعلم.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وخمسمائة

فيها أقطع السلطان محمود الأمير إيلغازي مدينة ميافارقين، فبقيت في يد أولاده، إلى أن أخذها صلاح الدين يوسف بن أيوب، في سنة ثمانين وخمسمائة.

وفيها أقطع أيضاً آق سنقر البرسقي مدينة الموصل وأمره، لقتال الفرنج.

وفيها حاصر بلك بن بهرام وهو ابن أخي إيلغازي مدينة الرها، فأسر

ملكها جوسلين الأفرنجي، وجماعة من رؤوس أصحابه، وسجنهم بقلعة خرتبرت.

وفيها هبت ريح سوداء، فاستمرت ثلاثة أيام، فأهلكت خلقا كثيرا من الناس والدواب والأنعام.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالحجاز، فتضعضع بسببها الركن اليماني زاده الله شرفاً وتهدم بعضه وتهدم شيء من حرم رسول الله ﷺ.

وفيها ظهر رجل علوي بمكة، كان قد اشتغل بالنظامية في الفقه وغيره، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فاتبعه ناس كثير، فنفاه صاحبها ابن أبي هاشم إلى البحرين.

وفيها احترقت دار السلطان بأصبهان، فلم يبق فيها شيء من الأثاث والقماش، والجواهر، والذهب، والفضة، سوى الياقوت الأحمر فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقبل ذلك بأسبوع احترق جامع أصبهان، وكان جامعا عظيما، فيه من الأخشاب ما يساوي ألف ألف دينار، وفي جملة ما احترق فيه خمسمائة مصحف، من جملتها مصحف بخط أبي بن كعب رضي الله عنه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي شعبان منها، جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة،في أبهة الخلافة، البُردة على كتفيه، والقضيب بين يديه وجاء الأخوان الملكان محمود ومسعود، فوقفا بين يديه، وقبّلا الأرض فخلع على محمود سبع خلع، وطوقا، وسوارين، وتاجا، وأجلس على كرسي، ووعظه الخليفة، وتلا عليه قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] وأمره بالإحسان إلى الرعايا، وعقد له الخليفة لواءين بيده، وقلده الملك، وخرجا من بين يديه مطاعين معظمين، والجيش بين أيديهما إلى دارهما في أبهة عظيمة جدا.

وحج بالناس نظر الخادم.

ومن توفي فيها

■ ابن القطاع اللغوي أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب: السعدي الصقلي، ثم المصري، اللغوي، مصنف كتاب الأفعال، الذي برز فيه على ابن القوطية، وله مصنفات كثيرة، وقد قدم مصر في حدود سنة خمسمائة، لما أشرفت الفرنج على أخذ صقلية، فأكرمه المصريون، وبالغوا في إكرامه، وكان ينسب إلى التساهل في الرواية، وله شعر جيد قوي، أورد له القاضي ابن خلكان منه قطعة جيدة وقد جاوز الثمانين.

ومن توفي فيها من الأعيان:

أبو القاسم

■ شاهنشاه الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، مدبر دولة الفاطميين بمصر، وإلى أبيه تنسب قيسارية أمير الجيوش، والعامة تقول مرجيوش، وأبوه باني الجامع الذي بثغر الإسكندرية، بسوق العطارين، ومشهد الرأس بعسقلان أيضا، وكان أبوه نائب المستنصر على مدينة صور، وقيل على عكا، ثم استدعاه إليه،في فصل الشتاء، فركب البحر، فاستنابه على ديار مصر، فسدد الأمور بعد فسادها، ومات في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقام في الوزارة، بعده ولده الأفضل هذا، وكان كأبيه في الشهامة، والصرامة.

ولما مات المستنصر، أقام المستعلي، واستمرت الأمور على يديه، وكان عادلا حسن السيرة، موصوفا بجودة السريرة، فالله أعلم.

ضربه فداوي، وهو راكب، فقتله في رمضان، من هذه السنة، عن سبع وخمسين سنة، وكانت إمارته من ذلك، بعد أبيه، ثمان وعشرين سنة.

وكانت داره دار الوكالة اليوم بمصر، وقد وجد له أموال عظيمة جدا، تفوق العد والإحصاء، من القناطير المقنطرة من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، والنفائس، فانتقل ذلك كله إلى الخليفة الفاطمي، فجعل في خزائنه، وذهب جامعه إلى سواء الحساب، على الفتيل من ذلك، والنقير والقطمير، واعتاض عنه الخليفة بأبي عبد الله البطائحي، ولقبه المأمون.

قال ابن خلكان: ترك الأفضل من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار مكررة، ومن الدراهم مائتين وخمسين إردبا، وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهرة بإثنى عشر ألف دينار، ومائة مسمار ذهب، زنة كل مسمار مائة مثقال،في عشرة مجالس على كل مسمار منديل مشدود بذهب، كل منديل على لون من الألوان من ملابسه وخمسمائة صندوق كسوة للبس بدنه، قال: وخلف من الرقيق، والخيل، والبغال، والمراكب، والمسك، والطيب، والحلي ما لا يعلم قدره، إلا الله عز وجل، وخلف من البقر، والجواميس، والغنم، ما يستحي الإنسان من ذكره وبلغ ضمان ألبانها،في السنة وفاته ثلاثين ألف دينار، وترك صندوقين كبيرين مملوءين إبر ذهب برسم النساء.

■ عبد الرزاق بن عبد الله بن علي بن إسحاق الطوسي، ابن أخي نظام الملك، تفقه بإمام الحرمين، وأفتى، ودرس، وناظر،ووزر للملك سنجر.

وتوفي في هذة السنة:

■ خاتون السفريه حظية السلطان ملكشاه، وهي أم السلطانين محمد وسنجر، وكانت كثيرة الصدقة، والإحسان إلى الناس، لها في كل سنة سبيل يخرج مع الحجاج. وفيها دين وخير، ولم تزل تبحث حتى عرفت مكان أمها وأهلها، فبعثت الأموال الجزيلة، حتى استحضرتهم، ولما قدمت عليها أمها، كان لها عنها أربعين سنة لم ترها، فأحبت أن تستعلم فهمها، فجلست بين جواريها، فلما سمعت أمها كلامها عرفتها، فقامت إليها، فاعتنقا، وبكيا، ثم أسلمت أمها على يديها، جزاها الله خيرا. وقد تفردت بولادة ملكين في دولة الأتراك والعجم، ولا يعرف لها نظير إلا اليسير في ذلك، من ذلك: وهي ولادة بنت العباس، ولدت لعبد الملك الوليد وسليمان، وشاهفرند ولدت للوليد يزيد وإبراهيم، وقد وليا الخلافة أيضا، والخيزران ولدت للمهدي الهادي والرشيد.

■ الطغرائي ناظم لامية العجم،الحسين بن علي بن عبد الصمد، مؤيد الدين الأصبهاني، العميد فخر الكتاب، المنشئ الشاعر، المعروف بالطغرائي، وقد ولي الوزارة بأربل مدة، أورد له ابن خلكان قصيدته اللامية التي ألفها في سنة خمس وخمسمائة ببغداد، يشرح فيها أحواله وأموره وتعرف بلامية العجم، أولها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

مجدي اخيرا ومجدي أولا شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

وقد سردها ابن خلكان بكمالها، وأورد له غير ذلك من الشعر، أيضاً.

ثم دخلت سنة ست عشرة وخمسمائة

في المحرم منها، رجع السلطان طغرل إلى طاعة أخيه محمود، بعد ما كان قد خرج عنها، وأخذ بلاد أذربيجان.

وفيها أقطع السلطان محمود مدينة واسط وأعمالها لآق سنقر، مضافا إلى الموصل، فسير إليها عماد الدين زنكي بن آق سنقر، فأحسن السيرة بها، وأبان عن حزم وكفاية.

وفي صفر منها، قتل وزير السلطان محمود أبو طالب السميرمي، قتله باطني، وكان قد برز للمسير إلى همذان، وكانت قد خرجت زوجته في مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعن حافيات، حاسرات عن وجوههن، قد هُنَّ بعد العز، واستوزر السلطان بعده شمس الدين الملك عثمان بن نظام الملك.

وفيها اقْتَتَلَ آق سنقر ودبيس بن صدقة، فهزمه دبيس، وقتل خلقا من جيشه، فأستوثق السلطان منصور بن صدقة أخا دبيس وولده، ورفعهما إلى قلعة، فعند ذلك، آذى دبيس تلك الناحية، ونهب البلاد، وجز شعره، ولبس السواد، ونهبت أموال الخليفة أيضا، فنودي في بغداد للخروج لقتاله، وبرز الخليفة في الجيش، وعليه قباء أسود، وطرحة، وعلى كتفيه البردة، وبيده القضيب، وفي وسطه منطقة حرير صيني، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك، ونقيب النقباء علي بن طراد الزينبي، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل، وتلقاه آق سنقر البرسقي، ومعه الجيش، فقبلوا الأرض، ورتب البرسقي الجيش، ووقف القراء بين يدي الخليفة، وأقبل دبيس، وبين يديه الإماء يضربن بالدفوف، والمخانيث بالملاهي، والتقى الفريقان، وقد شهر الخليفة سيفه، وكبر واقترب من المعركة، فحمل عنبر بن أبي العسكر على ميمنة الخليفة، فكسرها، وقتل أميراً، ثم حمل ثانية، فكشفهم كالأولى، فحمل عليه عماد الدين زنكي بن آق سنقر، فأسر عنتر، وأسر معه بديل بن زائدة، ثم انهزم عسكر دبيس، وألقوا أنفسهم في الماء، فغرق كثير منهم، فأمر الخليفة بضرب أعناق الأسارى صبرا بين يديه، وحصل نساء دبيس وسراريه في السبي، وعاد الخليفة إلى بغداد، فدخلها في يوم عاشوراء، من السنة الآتية، وكان يوماً مشهوداً، وكانت غيبته عن بغداد ستة عشر يوما، وأما دبيس، فإنه نجا بنفسه، وقصد غزية، ثم إلى المنتفق، فصحبهم إلى البصرة، فدخلها، ونهبها، وقتل أميرها، ثم خاف من البرسقي، فخرج منها، وسار إلى البرية، والتحق بالفرنج، وحضر معهم حصار حلب، ثم فارقهم، والتحق بالملك طغرل أخي السلطان محمود.

وفيها ملك السلطان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ابن أرتق قلعة ماردين، بعد وفاة أبيه، وملك أخوه سليمان ميافارقين.

وفيها ظهر معدن نحاس، بديار بكر، قريبا من قلعة ذي القرنين.

وفيها دخل جماعة من الوعاظ إلى بغداد، فوعظوا بها، وحصل لهم قبول تام من العوام.

وحج بالناس نظر الخادم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ **عبد الله بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث، أبو محمد السمرقندي،** أخو أبي القاسم، وكان من حفاظ الحديث، وقد زعم أن عنده ما ليس عند أبي زرعه الرازي، صحب الخطيب مدة، وجمع، وألف وصنف، ورحل إلى الآفاق، وكانت وفاته يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، عن ثمانين سنة.

■ **علي بن أحمد أبو طالب السميرمي** نسبة إلى قرية بأصبهان، كان وزير السلطان محمود، وكان مجاهرا بالظلم، والفسق، وأحدث على الناس مكوسا، وجددها، بعد ما كانت قد أزيلت، من مدة متطاولة، وكان يقول: قد استحييت من كثرة ظلم من لا ناصر له، وكثرة ما أحدثت من السنن السيئة.

ولما عزم على الخروج إلى همذان، أحضر المنجمين، فضربوا له تحت رمل، لساعة خروجه، ليكون أسرع لعوده، فخرج في تلك الساعة، وبين يديه السيوف المسلولة والمماليك بالعدد الباهرة، ومع هذا جاء باطني، فضربه، فقتله، في الساعة الراهنة بعدما ضربه غير ما مرة في مقاتله ثم ذبحه كما تذبح الشاه، والمماليك يضربون بالسيوف والنبال في ظهره ولا يبالي بشيء من ذلك حتى قتله ثم مات بعده ورجع نساؤه بعد أن ذهبن بين يديه على مراكب الذهب، حاسرات عن وجوههن قد أبدلهن اللّه الذِّلّة بعد العزة، والخوف بعد الأمن، وكان ذلك يوم الثلاثاء، سلخ صفر، وما أشبه حالهن بقول أبي العتاهية في الخيزران وجواريها حين مات المهدي:

رحن في الوشي عليهن المسوح ... كل نطَّاحٍ من الناس له يوم نطوح

لتموتن ولو عمرت ما عمر نوح ... فعلى نفسك نح إن كنت لابد تنوح

■ **الحريري صاحب المقامات القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، فخر الدولة أبو محمد الحريري البصري** مؤلف المقامات، التي سارت بفصاحتها الركبان، وكاد يربو فيها على سحبان.

ولد سنة ست وأربعين وأربعمائة، وسمع الحديث، واشتغل باللغة، والنحو، وصنف في ذلك كله، وفاق أهل زمانه، وبرز على أقرانه، وأقام ببغداد، وعمل صناعة الإنشاء مع الكتاب في باب الخليفة،ولم يكن ممن تنكر بديهته،ولا تتعكر فكرته وقريحته.

قال ابن الجوزي: صنف، وقرأ الأدب واللغة، وفاق أهل زمانه، بالذكاء، والفطنة، والفصاحة، وحسن العبارة، وصنف المقامات المعروفة، التي من تأملها عرف ذكاء منشئها، وقدره وفصاحته، وعلمه.

توفي في هذه السنة بالبصرة. وقد قيل إن أبا زيد، والحارث بن همام المطهر، لا وجود لهما، وإنما جعل هذه المقامات من باب الأمثال. ومنهم من يقول أبو زيد المطهر بن سلاّر السروجي، كان له وجود وكان فاضلا، وله علم، ومعرفة باللغة، فاللّه أعلم.

وذكر القاضي ابن خلكان أن أبا زيد كان اسمه المطهر بن سلاّر، وكان بصريا فاضلاً في النحو واللغة، وكان يشتغل على الحريري بالبصرة، وأما الحارث بن همام فإنما عني به نفسه، لما جاء في الحديث: «كلكم حارث، وكلكم همام». كذا قال ابن خلكان.

وإنما اللفظ المحفوظ «أصدق الأسماء حارث وهمام» [جامع ابن وهب ص٧ ونحوه د (٤٩٥٠)] لأن كل أحد إما حارث، وهو الفاعل، أو همام من الهم، وهو العزم والخطرة، وذكر أن أول مقامة عملها، الثامنة والأربعون، وهي الحرامية، وكان سببها، أنه دخل عليهم في مسجد البصرة رجل ذو طمرين فصيح اللسان، فاستسموه فقال: أبو زيد السروجي. فعمل فيه هذه المقامة، فأشار عليه وزير الخليفة المسترشد، وهو جلال الدين، عميد الدولة،

أبو علي الحسن بن أبي العز علي بن صدقة.

قال ابن خلكان: كذا رأيته في نسخة بخط المصنف، على حاشيتها، وهذا أصح ممن قال: هو الوزير شرف الدين أبو نصر أنو شروان بن خالد بن محمد القاشاني، وهو وزير المسترشد أيضا، ويقال إن الحريري كان قد عملها أربعين مقامة، فلما قدم بغداد، ولم يصدق في ذلك، وامتحنه بعض الوزراء أن يعمل مقامة، فأخذ الدواة، والقرطاس، فجلس ناحية، فلم يتيسر له حتى عاد إلى بلده، فعمل عشرة أخرى، فأتمها بها، وقد قال فيه أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر، وكان من جملة المكذبين له فيها:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

أنطقه اللّه بالمشان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس

ومعنى قوله بالمشان، هو مكان بالبصرة، ويذكر أنه كان صدر ديوان المشان، ويقال إنه كان دميم الخلق، فاتفق أن رجلا رحل إليه، فلما رآه، ازدراه، ففهم الحريري ذلك، فأنشأ يقول:

ما أنت أول سار غره قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل ... مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

ويقال إن المعيدي اسم حصان جواد كان في العرب، دميم الخلق، واللّه أعلم.

■ البغوي الحسين بن مسعود بن محمد أبو محمد البغوي، صاحب التفسير، وشرح السنة، والتهذيب في الفقه، والجمع بين الصحيحين، والمصابيح في الصحاح والحسان، وغير ذلك، اشتغل على القاضي حسين، وبرع في هذه العلوم، وكان علامة زمانه فيها، وكان دينا، ورعا، زاهدا، عابدا، صالحا.

توفي في شوال من هذه السنة، وقيل في سنة عشر، فاللّه أعلم. ودفن مع شيخه القاضي حسين، بالطالقان، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وخمسمائة

في يوم عاشوراء منها، عاد الخليفة من الحلة بعد أن كسر جيش دبيس ومزق شمله وقطع وصله في أول هذا الشهر ثم عاد إلى بلده ببغداد، مؤيدا، منصورا، ورجع إلى أهله مسرورا.

وفيها عزم الخليفة على طهور أولاده وأولاد أخيه، وكانوا أثنى عشر، فزينت بغداد سبعة أيام بزينة لم ير مثلها. أظهر الناس من الحلي والمصاغ والثياب ما لم ير مثلها.

وفي شعبان منها، قدم أسعد المهيني مدرِّس النظامية ببغداد، ناظرا عليها، وصرف الباقرحي عنها، فوقع بينه وبين بعض الفقهاء بسبب أنه قطع منهم جماعة، واكتفى بمائتي طالباً منهم، فلم يهن ذلك على كثير منهم.

وفيها سار السلطان محمود إلى بلاد الكرج، وقد وقع بينهم وبين القفجاق خلف، فقاتلهم، فهزمهم، و لله الحمد ثم عاد إلى همذان.

وفيها ملك طغتكين صاحب دمشق مدينة حماة، بعد وفاة صاحبها محمود بن قراجا، وقد كان ظالما غاشما.

وفيها عزل نقيب العلويين، وهدمت دار علي بن أفلح، لأنهما كانا عينا لدبيس، وأضيف إلى علي بن طراد الزينبي نقابة العلويين مع نقابة العباسيين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط، الشاعر، الدمشقي، الكاتب الماهر، له ديوان شعر مشهور.

قال الحافظ ابن عساكر: ختم به ديوان الشعراء بدمشق، وكان شاعراً، ماهراً، محسناً مجيداً، مكثراً، حُفظة لأشعار المتقدمين وأخبارهم.

وأورد ابن خلكان جيدة من شعره الرائق قطعاً، من ذلك قصيدته، التي لو لم يكن لها سواها، لكفته، وهي التي يقول فيها:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه ... فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياكما ذاك النسيم فإنه ... متى هب كان الوجد أيسر خطبه

خليلي لو أحببتما لعلمتما ... محل الهوى من مغرم القلب صبه

يذكّر والذكرى تشوق وذو الهوى ... يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

غرام على يأس الهوى ورجائه ... وشوق على بعد المزار وقربه

وفي الركب مطوي الضلوع على جَوًى ... متى يدعه داعي الغرام يلبه

إذا خطرت من جانب الرمل نفحة ... تضمَّن منها داؤه دون صحبه

ومحتجب بين الأسنة معرض ... وفي القلب من إعراضه مثل حجبه

أغار إذا آنست في الحي أنه ... حذاراً وخوفاً أن تكون لحبه

وقد كانت وفاته في رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة عن سبع وستين سنة بدمشق.

ثم دخلت سنة ثمان عشر وخمسمائة

فيها ظهرت الباطنية بآمد، فقاتلهم أهلها، فقتلوا منهم سبعمائة و لله الحمد.

وفيها ردت الشحنكية ببغداد إلى سعد الدولة يرنقش الزكوي، وسلم إليه منصور بن صدقة أخو دبيس، ليسلمه إلى دار الخلافة، وورد الخبر بأن دبيسا قد التجأ إلى طغرل، وقد اتفقا على أخذ بغداد، فأخذ الناس في التأهب لقتالهما، وأمر آق سنقر بالعود إلى الموصل، فاستناب على البصرة عماد الدين زنكي بن آق سنقر.

وفي ربيع الأول، دخل الملك حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب حلب، وقد ملكها بعد ملكها بلك بن بهرام بن أرتق وكان قد حاصر قلعة منبج، فجاءه سهم في حلقه، فمات، فاستناب تمرتاش بحلب، ثم عاد إلى ماردين، فأخذت منه بعد ذلك، أخذها آق سنقر، مضافة إلى الموصل.

وفيها أرسل الخليفة القاضي أبا سعد الهروي، ليخطب له ابنة السلطان سنجر، وشرع الخليفة في بناء دار، على حافة دجلة، لأجل العروس.

وكمل بناء المُثمَّنة في هذه السنة.

وحج بالناس جمال الدولة إقبال المسترشدي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن علي بن برهان أبو الفتح، ويعرف بابن الحمامي، تفقه على أبي الوفاء بن عقيل، وبرع في مذهب الإمام أحمد، ثم نقم عليه أصحابه

أشياء، فحمله ذلك على الانتقال إلى مذهب الشافعي، فاشتغل على الغزالي والشاشي، وبرع، وساد، وشهد عند القاضي الزينبي، فقبله، ودرس في النظامية شهراً.

وتوفي في جمادى الأولى، ودفن بباب أبرز.

■ عبد الله بن محمد بن علي بن محمد، أبو جعفر الدامغاني، سمع الحديث، وشهد عند أبيه، وناب في ربع الكرخ عن أخيه، ثم ترك ذلك كله، وولي حجابة باب النوبي، ثم عزل، ثم أعيد. وكان دمث الأخلاق وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة.

■ أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفضل الميداني: صاحب كتاب الأمثال، وليس له مثله في بابه، وله شعر جيد.

قال ابن خلكان: توفي يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من شهر رمضان، من هذه السنة والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قصد دبيس والسلطان طغرل بغداد، ليأخذاها من يد الخليفة، فلما اقتربا منها، برز إليهما الخليفة، في جحفل عظيم، والناس مشاة بين يديه وعليه السواد والبرد وبيده القضيب إلى أول منزله، ثم ركب الناس بعد ذلك، فلما أمست الليلة، التي يقتتلون في صبيحتها، ومن عزمهم أن ينهبوا بغداد، أرسل الله مطرا عظيما، ومرض السلطان طغرل في تلك الليلة، فتفرقت تلك الجموع، ورجعوا على أعقابهم، خائبين، خائفين، والتجأ دبيس قبحه الله وطغرل إلى الملك سنجر، وسألاه الأمان من الخليفة، والسلطان محمود، فحبس دبيساً في قلعة، ووشى واش إلى الملك سنجر أن الخليفة، يرد أن يستأثر بالملك، وقد خرج من بغداد إلى اللان، لمحاربة الأعداء، فوقع في نفس سنجر من ذلك شيء، وأضمر سوءاً، مع أنه قد زوج ابنته من الخليفة.

وفيها قتل القاضي أبو سعد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان، قتلته الباطنية، وهو الذي أرسله الخليفة إلى سنجر ليخطب ابنته.

وحج بالناس نظر الخادم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ آق سنقر البرسقي صاحب حلب، قتلته الباطنية في مقصورة جامعها في يوم جمعة، وقد كان رحمه الله تركيا، جيد السيرة، صحيح السريرة، محافظا على الصلوات في أوقاتها، كثير البر والصدقات إلى الفقراء، كثير الإحسان إلى الرعايا، وقام في الملك بعده ولده السلطان عز الدين مسعود، وأقره السلطان محمود على عمله.

■ هلال بن عبد الرحمن بن شريح بن عمر بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سليمان بن بلال بن رباح، مؤذن رسول الله ﷺ رحل، وجال في البلاد، وكان شيخا جهوري الصوت، حسن القراءة، طيب النغمة، توفي في هذه السنة، بسمرقند رحمه الله تعالى.

القاضي أبو سعد

■ الهروي محمد بن نصر بن منصور أبو سعد الهروي، أحد مشاهير الفقهاء، والسادة الكبراء، قتلته الباطنية بهمذان حين ذهب في الرسلية عن الخليفة إلى السلطان سنجر في خطبة ابنته. والله أعلم.

ثم دخلت سنة عشرين وخمسمائة من الهجرة

فيها تراسل السلطان محمود، والخليفة، على السلطان سنجر، وأن يكونا عليه، فلما علم بذلك سنجر، كتب إلى ابن أخيه محمود، ينهاه، ويستميله إليه، ويحذره من الخليفة، وأنه لا تؤمن غائلته، وأنه متى ما فرغا منه تفرَّغ له ورتَّب عليه، فاصغى إلى قول عمه، ورجع عن عزمه وأقبل ليدخل بغداد عامه ذلك، فكتب إليه الخليفة ينهاه عن ذلك، لقلة الأقوات بها، فلم يقبل منه، وأقبل إليه، فلما أزف قدومه، خرج الخليفة من داره، وتجهز إلى الجانب الغربي، فشق عليه ذلك، وعلى الناس، ودخل عيد الأضحى، فخطب الخليفة الناس بنفسه، خطبة عظيمة، بليغة، فصيحة جدا، وكبر وراءه خطباء الجوامع، وكان يوما مشهودا.وقد سردها ابن الجوزي في المنتظم [٢٣٣/١٧ - ٢٣٥] ، بطولها، ورواها عن من حضرها من الخليفة، مع قاضي القضاة الزينبي، وجماعة من العدول ولما أراد الخليفة أن ينزل عن المنبر ابتدره أبو المظفّر محمد بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي، فأنشده:

عليك سلام الله يا خير من علا ... على منبر قد حفَّ أعلامه النصر
وأفضل من أمَّ الأنام وعمَّهم ... بسيرته الحُسنى وكان له الأمر
لقد شنَّفتْ أسماعنا منك خطبة ... وموعظةٌ فَصْلٌ يلين لها الصخر
ملاتَ بها كلُّ القلوب مَهابةً ... فقد رجَفَت من خوف تخويفها يضُرُ
سما لفظُها فضلاً على كلِّ قائل ... وجلَّ عُلاها أن يلمَّ بها حَصْرُ
اشدت بها سامي المنابر رفعةً ... تقاصرَ عن إدراكها الأنجُمُ الزُهرُ
وزدت بها عدنان مجداً مُؤثَّلاً ... فأضحى لها بين الأنام بك الفخر
فلله عصرٌ أنت فيه إمامُهُ ... و لله دين أنت فيه لنا الصدر
بقيت على الأيام والمُلْكِ كلَّما ... تقادم عصرٌ أنت فيه أتى عصر
وأصبحت بالعيد السعيد مهنَّأً ... يُشرِّفُنا فيه صلاتُك والنحر

ولما نزل الخليفة عن المنبر، ذبح البدنة بيده، ودخل السرادق، وتباكى الناس، ودعوا للخليفة بالتوفيق والنصر، ثم دخل السلطان محمود إلى بغداد، يوم الثلاثاء، الثامن عشر من ذي الحجة فنزلوا في بيوت الناس، وحصل للناس أذى كثير في حريمهم، ثم إن السلطان راسل الخليفة في الصلح، فأبى الخليفة، وركب في جيشه، وقاتل الأتراك ومعه شرذمة قليلة من المقاتلة، ولكن العامة كلهم معه، فقُتل من الأتراك خلق كثير، ثم جاء عماد الدين زنكي، في جيش كثيف من واسط، في السفن، إلى السلطان نجدة، فلما استشعر الخليفة ذلك، دعا إلى الصلح، فوقع الصلح بين السلطان والخليفة، وأخذ الملك يستبشر بذلك جدا، ويعتذر إلى الخليفة مما وقع، ثم خرج في أول السنة الآتية إلى همذان لمرض حصل له.

وفيها، كان أول مجلس تكلم فيه ابن الجوزي على المنبر، يعظ الناس، وعمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، وحضره الشيخ أبو القاسم علي بن يعلى البلخي وكان سُنّيًا، علمه كلمات، ثم أصعده المنبر، فقالها، وكان يوما مشهودا.

قال ابن الجوزي وحزر الجمع يومئذ بخمسين ألفا، والله أعلم.

وفيها اقتتل طغتكين صاحب دمشق، وأعداؤه من الفرنج، فقتل منهم خلقا كثيرا، وغنم منهم أموالا جزيلة ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن محمد أبو الفتح الطوسي الغزالي، أخو أبي حامد الغزالي، كان واعظا مفوها، ذا حظ من الكلام، والزهد، وحسن التأتي، وله نكت جيدة، ووعظ مرة في دار الملك محمود، فأطلق له ألف دينار، وخرج، فإذا على الباب فرس الوزير، بسرجها الذهب، وسلاسلها، وما عليها من الحلي، فركبها، فبلغ ذلك الوزير، فقال: دعوه، ولا يرد عليَّ الفرس. تتن، فألقى عليها رداءه، فتمزق قطعا.

قال ابن الجوزي: وقد كانت له نكت، إلا أن الغالب على كلامه التخليط، ورواية الأحاديث الموضوعة المصنوعة، والحكايات الفارغة، والمعاني الفاسدة. ثم أورد ابن الجوزي أشياء منكرة من كلامه، فالله أعلم، من ذلك أنه كان كلما أشكل عليه شيء رأى رسول الله ﷺ في اليقظة، فسأله عن ذلك، فدله على الصواب، قال: كان يتعصب، لإبليس ويَعذُر له، وتكلم فيه ابن الجوزي، بكلام طويل كثير.

قال: ونسب إلى محبة المردان، والقول بالمشاهدة، فالله أعلم بصحة ذلك.

قال ابن خلكان: كان واعظا، مليح الوعظ، حسن المنظر، صاحب كرامات، وإشارات، وكان من الفقهاء، غير أنه مال إلى الوعظ، فغلب عليه، ودرس بالنظامية نيابة عن أخيه، لما تزهد، واختصر إحياء علوم الدين في مجلد سماه لُباب الإحيا وله الذخيرة في علم البصيرة، وطاف البلاد، وخدم الصوفية بنفسه، وكان مائلا إلى الانقطاع والعزلة، والله أعلم بحاله.

■ أحمد بن علي بن محمد الوكيل، المعروف بابن برهان، أبو الفتح الفقيه الشافعي، تفقه على الغزالي، وعلى الكيا الهراسي، وأبي بكر الشاشي، وكان بارعا في الأصول، وله فيه كتاب الوجيز في أصول الفقه، وكانت له فنون جيدة يتقنها جيداً. وولي تدريس النظامية ببغداد، دون شهر. وكانت وفاته في هذه السنة كما ذكره ابن خلكان رحمه الله.

■ بهرام بن بهرام أبو شجاع البيع، سمع الحديث، وبنى مدرسة لأصحاب الإمام أحمد بكلواذى، ووقف قطعة من أملاكه على الفقهاء.

■ صاعد بن سيار بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء الإسحاقي الهروي الحافظ، أحد المتقنين، سمع الحديث، وتوفي بغورج، قرية على باب هراة. في هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة والسلطان محمود يتحاربان، والخليفة في السرادق في الجانب الغربي، فلما كان يوم الأربعاء، رابع المحرم، توصل جماعة من جند السلطان إلى دار الخلافة، فحصل فيها ألف مقاتل عليهم السلاح، فنهبوا الأموال، وخرج الجواري وهن حاسرات يستغثن، حتى دخلن دار الخاتون.

قال ابن الجوزي: وأنا رأيتهن كذلك، فلما وقع ذلك، ركب الخليفة في جيشه، وجيء بالسفن، فركب فيها الجيش وانقلبت بغداد بالصراخ، حتى كأن الدنيا قد زلزلت، وثارت العامة مع جيش الخليفة، فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقا من الأمراء، وأسروا آخرين، ونهبوا دار السلطان، ودار وزيره، ودار طبيبه أبي البركات، وأخذوا ما كان في داره من الودائع، ومرت خبطة عظيمة جدا، حتى إنهم نهبوا الصوفية، برباط بهروز.

وجرت أمور طويلة وخطوب جليلة، ونالت العامة من السلطان، وجعلوا يقولون له يا باطني،، تترك قتال الفرنج والروم وتقاتل الخليفة؟! ثم إن الخليفة انتقل إلى داره، في سابع المحرم، فلما كان في يوم عاشوراء، تماثل الحال، وطلب السلطان من الخليفة الأمان، والصلح، فلان الخليفة إلى ذلك، وتباشر الناس بالصلح، فأرسل إليه الخليفة نقيب النقباء، وقاضي القضاة، وشيخ الشيوخ، وبضعا وثلاثين شاهدا، فاحتبسهم السلطان عنده ستة أيام فساء ذلك الناس، وخافوا من فتنة أخرى أشد من الأولى، وكان يرنقش الزكوي شحنة بغداد يغري السلطان بأهل بغداد، لينهب أموالهم، فلم يقبل منه، ثم أذن لأولئك الجماعة، فأدخلوا عليه وقت المغرب، فصلى به القاضي، وقرؤوا عليه كتاب الخليفة، فقام قائماً، وأجاب الخليفة إلى جميع ما اقترح عليه، ووقع الصلح والتحليف، ودخل جيش السلطان إلى بغداد، وهم في غاية الجهد، من قلة الطعام عندهم في العسكر، وقالوا: لو لم يصالح لمتنا جوعا. وظهر من السلطان حلم كثير عن العوام.

وأمر الخليفة برد ما نهب من دور الجند، وأن من كتم شيئا أبيح دمه. وبعث الخليفة علي بن طراد الزينبي النقيب، إلى السلطان سنجر، ليبعد عن بابه دبيسا، وأرسل معه الخلع والألوية، فأكرم سنجر رسول الخليفة، وأذن بضرب الطبول على بابه في ثلاثة أوقات، وظهر منه طاعة كبيرة.

ثم مرض السلطان محمود ببغداد، فأمره الطبيب بالانتقال عنها إلى همذان، فسار في ربيع الآخر وفوّض شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي، فلما وصل السلطان إلى همذان، بعث على شحنكية بغداد مجاهد الدين بهروز، وجعل إليه الحلة، وبعث عماد الدين زنكي إلى الموصل وأعمالها.

وفيها درس الحسن بن سلمان بالنظامية ببغداد.

وفيها ورد أبو الفتوح الإسفرايني، فوعظ ببغداد، فأورد أحاديث كثيرة منكرة جدا، فاستتيب منها، وأمر بالانتقال منها إلى غيرها، فشد معه جماعة من الأكابر، وردوه إلى ما كان عليه، فوقع بسببه فتن كثيرة بين الناس، ورجمه بعض العامة في الأسواق، وذلك لأنه كان يطلق عبارات لا يحتاج إلى إيرادها، فنفرت منه قلوب العامة، وأبغضوه وجلس الشيخ عبد القادر الجيلي، فتكلم على الناس، فأعجبهم، وأحبوه، وتركوا ذاك.

وفيها قتل السلطان سنجر من الباطنية نحو من اثنى عشر ألفا.

وحج بالناس نَظَر الخادم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد، أبو الحسن بن أبي الفضل الهمذاني الفرضي، صاحب التاريخ من بيت الحديث والأئمة.

وذكر ابن الجوزي عن شيخه عبد الوهاب، أنه طعن فيه. توفي فجأة في شوال من هذه السنة، ودفن إلى جانب ابن سرُيج.

■ فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلويه سمعت الخطيب، وابن المسلمة، وغيرهما، وكانت واعظة، لها رباط تجتمع فيه الزاهدات، وقد سمع عليها ابن الجوزي، مسند الشافعي، وغيره.

أبو محمد عبد الله بن محمد:

■ ابن السيد البطليوسي، ثم البلنسي صاحب المصنفات في اللغة وغيرها، جمع المثلث في مجلدين، وزاد فيه على قطرب شيئاً كثيراً جداً، وله شرح سقط الزند لأبي العلاء، أحسن من شرح المصنف، وله شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، ومن شعره الذي أورده القاضي ابن خلكان:

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة

في أولها، قدم رسول سنجر إلى الخليفة، يسأل منه أن يخطب له على منابر بغداد، وكان يخطب له في كل جمعة بجامع المنصور.

وفيها مات ابن صدقة وزير الخليفة، واستنيب في الوزارة نقيب النقباء.

وفيها اجتمع السلطان محمود بعمه سنجر، واصطلحا بعد خشونة، وسلم سنجر دبيسا إلى السلطان محمود، على أن يسترضي عنه الخليفة، ويعزل زنكي عن الموصل وبلادها، ويسلم ذلك إلى دبيس، واشتهر في ربيع الأول ببغداد، أن دبيسا أقبل إلى بغداد في جيش كثيف، فكتب الخليفة إلى السلطان محمود: لئن لم تكف دبيسا عن قدوم بغداد، وإلا خرجنا إليه، ونقضنا ما بيننا وبينك، من العهود، والصلح.

وفيها ملك الأتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حلب، وما حولها من البلاد.

وفيها ملك تاج الملوك بوري بن طغتكين مدينة دمشق بعد وفاة أبيه، وقد كان أبوه من مماليك ألب أرسلان، وكان عاقلا، حازما، عادلا خيرا، كثير الجهاد للفرنج، رحمه الله.

وفيها عمل ببغداد مصلى للعيد، ظاهر باب الحلبة، وحوط عليه، وجعل فيه قبلة.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير نظر الخادم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن علي بن صدقة أبو علي وزير الخليفة المسترشد، توفي في رجب منها. ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي مما بالغ فيه قوله:

وجدت الورى كالماء طعما ورقة وأن أمير المؤمنين زلاله
وصورت معنى العقل شخصا مصورا وأن أمير المؤمنين مثاله
فلولا مكان الدين والشرع والتقى لقلت من الإعظام جل جلاله

■ الحسين بن علي بن أبي القاسم اللامشي، من أهل سمرقند، روى الحديث، وتفقه، وكان يضرب به المثل في المناظرة، وكان خيرا، دينا، على طريقة السلف، مطرحا للتكلف، أمارا بالمعروف، قدم من عند الخاقان، ملك ما وراء النهر، في رسالة إلى دار الخلافة، فقيل له: ألا تحج عامك هذا؟ فقال: لا أجعل الحج تبعا لرسالتهم. فعاد إلى بلده فمات في رمضان، من هذه السنة، عن إحدى وثمانين سنة، رحمه الله.

■ طغتكين الأتابك صاحب دمشق التركي، أحد غلمان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، كان من خيار الملوك، وأعدلهم، وأكثرهم جهادا للفرنج، وكانت وفاته في هذا العام وقام في الملك من بعده ولده تاج الملوك بوري.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

في المحرم منها، دخل السلطان محمود إلى بغداد، واجتهد في إرضاء الخليفة عن دبيس، وأن يسلم إليه بلاد الموصل، فامتنع الخليفة من ذلك، وأبى أشد الإباء، هذا وقد تأخر دبيس عن الدخول إلى بغداد، ثم دخلها، وركب بين الناس، فلعنوه، وشتموه في وجهه، وقدم عماد الدين زنكي بن آق سنقر، فبذل للسلطان في كل سنة مائة ألف دينار، وهدايا وتحفا، والتزم للخليفة للسلطان بمثلها، على أن لا يولي دبيسا شيئا، وعلى أن يستمر زنكي على عمله بالموصل، فأقره على ذلك، وخلع عليه، ورجع إلى عمله، فملك حلب، وحماه، وأسر صاحبها سونج بن تاج الملوك، فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار.

وفي يوم الاثنين، سلخ ربيع الآخر، خلع السلطان على نقيب النقباء استقلالا، ولا يعرف أحد من العباسيين باشر الوزارة غيره.

وفي رمضان منها، جاء دبيس في جيش إلى الحلة، فملكها، ودخلها في أصحابه، وكانوا ثلاثمائة فارس، ثم إنه شرع في جمع الأموال، وأخذ الغلات من القرى، حتى حصل نحوا من خمسمائة ألف دينار، واستخدم قريبا من عشرة آلاف مقاتل، وتفاقم الحال بأمره وسببه، وبعث إلى الخليفة يسترضيه، فلم يرض عليه، وعرض عليه أموالا كثيرة جدًّا، فلم يقبلها الخليفة، وكتب الخليفة إلى السلطان فبعث إليه السلطان جيشا، فانهزم إلى البرية جمع الله به شملاً، ثم أغار على البصرة، فأخذ منها حواصل السلطان والخليفة، ثم دخل البرية، فانقطع خبره.

وفي هذه السنة، قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة آلاف، وعلق رأس كبيرهم على باب القلعة، وأراح الله الشام منهم.

وفيها حاصرت الفرنج مدينة دمشق، فخرج إليهم أهلها، فقاتلوهم قتالا شديدا، وبعث أهل دمشق عبد الوهاب الواعظ، ومعه جماعة من التجار، يستغيثون بالخليفة، وهموا بكسر منبر الجامع، حتى وعدهم بأنه سيكتب إلى السلطان ليبعث لهم جيشا يقاتلون الفرنج، فسكنت الأمور، فلم يبعث لهم جيشا، حتى نصرهم الله من عنده، فإن المسلمين هزموهم، وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفسا، ولله الحمد والمنة. وقتل بيمند الفرنجي صاحب أنطاكية.

وفيها تخبط الناس في الحج، حتى ضاق الوقت، بسبب فتنة دبيس، قبحه الله حتى حج بهم أحد مماليك يرنقش الزكوي، وكان اسمه بغاجق.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أسعد بن أبي نصر: الميهني أبو الفتح، أحد أئمة الشافعية في زمانه، تفقه على أبي المظفر السمعاني، وساد أهل زمانه، وبرع، وتفرد من بين أقرانه، وولي تدريس النظامية ببغداد، وحصل له وجاهة، عند الخاص، والعام، وعلق عنه تعليقة الخلاف. ثم عزل عن النظامية، فسار إلى همذان، فمات بها، في هذه السنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق، تهدمت بسببها دور كثيرة ببغداد.

ووقع بأرض الموصل مطر عظيم، فسقط بعضه نارا تأجج فأحرقت دورا كثيرة وخلقا من ذلك المطر، وتهارب الناس.

وفيها وجد ببغداد عقارب طيارة لها شوكتان، فخاف الناس منها خوفا شديدا.

وفيها ملك السلطان سنجر، مدينة سمرقند، وكان بها محمد خان.

وفيها ملك عماد الدين زنكي بلادا كثيرة من الجزيرة، ومن بلاد الفرنج، وجرت له معهم حروب طويلة، وخطوب جليلة نصر عليهم في تلك المواقف كلها، ولله الحمد والمنة. وقتل خلقا من جيش الروم حين قدموا إلى الشام، ومدحه الشعراء على ذلك.

قتل خليفة مصر الفاطمي:

وفي ثاني ذي القعدة قتل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله بن المستعلي صاحب مصر، قتلته الباطنية، وله من العمر أربع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا، وكان هذا الرجل هو العاشر من الفاطميين، والعاشر من ولد عبيد الله المهدي ولما قتل الأمر، تغلب على الديار المصرية غلام من غلمانه أرمني، فاستحوذ على الأمور ثلاثة أيام، حتى حضر أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، فأقام الخليفة الحافظ أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم ابن المستنصر بالله، وله من العمر ثمان وخمسون سنة، ولما أقامه استحوذ على الأمور دونه، وحصره في مجلسه، لا يدع أحدا يدخل إليه، إلا من يريد هو، ونقل الأموال من القصر إلى داره، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن عثمان بن محمد: أبو إسحاق الكلبي، من أهل غزة، جاوز الثمانين، وله شعر جيد ومن شعره في الأتراك. قوله

في فتية من جيوش الترك ما تركت ... للرعد كراتهم صوتا ولا صيتا
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وله:

ليت الذي بالعشق دونك خصني ... يا ظالمي قسم المحبة بيننا
القى الهزبر فلا أخاف وثوبه ... ويروعني نظر الغزال إذا رنا

وله:

إنما هذه الحياة متاع ... والسفيه الغوي من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

وله أيضاً:

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب البواعث والدواعي مغلق
خلت البلاد فلا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشترى ... ويخان فيه من الكساد ويسرق

ومما أنشده ابن خلكان: في الوفيات [٥٩/١] من شعره الرائق قوله:

إشارة منك تكفينا وأحسن ما ... رد السلام غداة البين بالعنم
حتى إذا طاح عنها المرط من دهش ... وانحل بالضم سلك العقد فى الظلم
تبسمت فأضاء الليل فالتقطت ... حبات منتثر فى ضوء منتظم

وكانت وفاته في هذه السنة ببلاد بلخ ودفن فيها رحمه الله.

■ الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الدباس أبو عبد الله الشاعر، المعروف بالبارع، قرأ القراءات، وسمع الحديث، وكان عارفا بالنحو، واللغة، والأدب، وله شعر رائق، توفي في هذه السنة، وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

■ محمد بن سعدون بن مرجا: أبو عامر العبدري القرشي الحافظ، أصله من بيروقة من بلاد المغرب، ودخل بغداد، وسمع بها على طراد الزينبي، والحميدي، وغير واحد، وكانت له معرفة جيدة بالحديث، وكان يذهب في الفروع مذهب الظاهرية. توفي في بغداد في ربيع الآخر في بغداد.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها ضل دبيس عن الطريق، في البرية، فأسره بعض أمراء الأعراب بأرض الشام، وحمله إلى ملك دمشق بوري بن طغتكين، فباعه من زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل، بخمسين ألف دينار، فلما حصل في يده، لم يشك دُبيس أنه سيهلكه، لما بينهما من العداوة، فأكرمه زنكي، وأعطاه أموالا جزيلة، وقدمه، واحترمه، ثم جاءت رسل الخليفة في طلبه، فبعثه معهم، فلما وصل إلى الموصل، حبس في قلعتها.

وفيها وقع بين الأخوين محمود ومسعود، فتواجها للقتال، ثم اصطلحا.

وفيها كانت وفاة الملك محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان، فأقيم في الملك مكانه ابنه داود، وجعل له أتابك ووزير، وخطب له بأكثر البلاد.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن عبد القاهر أبو نصر الطوسي: سمع الحديث، وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان شيخا لطيفا، عليه نور العبادة والعلم.

قال ابن الجوزي أنشدني:

على كل حال فاجعل الحزم عدة ... تُقدمه بين النوائب والدهر
فإن نلت خيرا نلته بعزيمة ... وإن قصرت عنك الخطوب فعن عذر

قال وأنشدني أيضا:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا عدتي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمد
وقد مددت يدي والضر مشتمل ... إليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردنها يا رب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

■ الحسن بن سليمان بن عبد الله بن عبد الله بن الفَتَى، أبوعلي الفقيه، مدرس النظامية، وقد وعظ بجامع القصر، وكان يقول: أنا في الفقه منتهي، ولا في الوعظ مبتدى.

وقد توفي في هذه السنة، وغسله القاضي أبو العباس بن الرطبي، ودفن عند أبي إسحاق.

■ حماد بن مسلم: الرحبي الدباس، كان يذكر له أحوال، ومكاشفات، واطلاع على مغيبات، وغير ذلك من المقامات، ورأيت ابن الجوزي يتكلم فيه ويقول: كان عُرْيا من العلوم الشرعية، وإنما كان ينفق على الجهال.

وذكر عن ابن عقيل أنه كان ينفر الناس عنه.

وكان حماد الدباس يقول ابن عقيل عدوي.

قال ابن الجوزي: وكان الناس ينذرون له، فيقبل ذلك، ثم ترك ذلك،

وصار يأخذ من المنامات، وينفق على أصحابه. وكانت وفاته في رمضان، ودفن بالشونيزية.

■ **علي بن المستظهر بالله**: أخو الخليفة المسترشد، توفي في رجب من هذه السنة، وله من العمر إحدى وعشرون سنة، فترك ضرب الطبول، وجلس الناس للعزاء أياما.

■ **محمد بن أحمد بن أبي الفضل الماهياني**، أحد أئمة الشافعية، تفقه بإمام الحرمين، وغيره، ورحل في طلب العلم والحديث، إلى بلاد شتى، درس وأفتى، وناظر، وتوفي في هذه السنة وقد قارب التسعين، ودفن بقرية ماهيان، من بلاد مرو رحمه الله.

■ **محمود السلطان ابن السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق** كان من خيار الملوك، وكان فيه حلم، وأناة، وبر وصلابة، وجلسوا لعزائه به ثلاثة أيام، سامحه الله.

■ **هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن العباس بن الحسين**، أبو القاسم الشيباني، راوي المسند، عن أبي علي بن المذهب، عن أبي بكر بن مالك، عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه، وقد سمع قديما، لأنه ولد في سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة، وباكر به أبوه، فاسمعه، ومعه أخوه عبد الواحد، على جماعة من علية المشايخ، وقد روى عنه ابن الجوزي، وغير واحد، وكان ثقة، ثبتا، صحيح السماع، توفي بين الظهر والعصر، يوم الأربعاء رابع شوال من هذه السنة، وله ثلاث وتسعون سنة، رحمه الله، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة

فيها قدم مسعود بن محمد بن ملكشاه بغداد، وقدمها قراجا الساقي، ومعه سلجوق شاه بن محمد، وكل منهما يطلب الملك لنفسه، وقدم عماد الدين زنكي بن آق سنقر، لينضم إليهما، فتلقاه قراجا الساقي، فهزمه، فهرب منه إلى تكريت، فخدمه نائب قلعتها نجم الدين أيوب، والد الملك صلاح الدين الذي فتح القدس فيما بعد حتى عاد إلى بلاده، وكان هذا هو السبب، في مصير نجم الدين أيوب إليه وهو بحلب، فخدم عنده، ثم كان من الأمور ما سيأتي بيانه بما قدّره الله تعالى.

ثم إن الملكين مسعود وسلجوق شاه اجتمعا، فاصطلحا، وركبا إلى الملك سنجر، فاقتتلا معه، وكان جيشه مائة وستين ألفا، وكان جيشهما قريبا من ثلاثين ألفا، وكان جملة من قتل بينهم أربعين ألفا، وأسر جيش سنجر قراجا الساقي، فقتله صبرا بين يديه، ثم أجلس طغرل بن محمد على سرير الملك، وخطب له على المنابر، ورجع سنجر إلى بلاده، وكتب طغرل إلى دبيس وزنكي، ليذهبا إلى بغداد، ليأخذاها، فاقبلا في جيش كثيف، فبرز إليهما الخليفة، فهزمهما، وقتل خلقا من أصحابهما، وأزاح الله شرهما عنه، ولله الحمد.

وفيها قتل أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ الفاطمي، فنقل الحافظ الأموال التي كان أخذها إلى داره، واستوزر بعده أبا الفتح، يانس الحافظي، ولقبه أمير الجيوش، ثم احتال له فقتله، واستوزر الحافظ ولده حسنا، وخطب له بولاية العهد.

وفيها عزل المسترشد وزيره علي بن طراد الزينبي، واستوزر أنو شروان بن خالد بعد تمنع.

وفيها ملك دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن طغتكين، بعد وفاة أبيه، واستوزر يوسف بن فيروز، وكان خيرا، ملك بلادا كثيرة، وأطاعه أخوه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن محمد بن أحمد بن حمدان بن عمر بن عيسى بن إبراهيم بن سعيد بن عتبة بن فرقد السلمي**، ويعرف بابن كادش العكبري، أبو العز البغدادي.

سمع الحديث الكثير، وكان يفهمه، ويرويه، وهو آخر من روى عن الماوردي، وقد أثنى عليه غير واحد، منهم أبو محمد بن الخشاب، وكان محمد بن ناصر يتهمه، ويرميه بأنه اعترف بوضع حديث، فالله أعلم.

وقال عبد الوهاب الأنماطي: كان مخلطا، توفي في جمادى الأولى من هذه السنة.

■ **محمد بن محمد بن الحسين بن محمد أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى بن الفراء الحنبلي**، ولد في شعبان، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، سمع أباه وغيره، وتفقه وناظر وأفتى ودرس، وكان له بيت فيه مال، فعدي عليه من الليل، فقتل، وأخذ ماله، ثم أظهر الله عز وجل على قاتليه، فقتلوه رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة

في صفر منها، دخل السلطان مسعود إلى بغداد، فخطب له بها، وخلع عليه الخليفة، وولاه السلطنة، ونثر الدنانير والدراهم على الناس، وخلع على السلطان داود بن محمود.

وفيها جمع دبيس جمعا كثيرا بواسط، وانضم إليه جماعة فأرسل إليه السلطان جيشا، فكسروه، وفرقوا شمله، ثم إن الخليفة عزم على الخروج إلى الموصل، ليأخذها من يد زنكي، فخرج في جيش كثيف وخلق من الأمراء والأكابر والوزراء، فلما اقترب منها بعث إليه عماد الدين زنكي يعرض عليه من الأموال والتحف شيئا كثيرا، ليرجع عنه، فلم يقبل، ثم بلغه أن السلطان مسعود قد اصطلح مع دبيس، وخلع عليه، فكر راجعا سريعا إلى بغداد سالما معظما.

وفيها مات ابن الزاغوني أحد أئمة الحنابلة، فطلب حلقته ابن الجوزي، وكان شابا، فحصلت لغيره، ولكن أذن له الوزير أنوشروان في الوعظ، فتكلم في هذه السنة على الناس، في أماكن متعددة من بغداد، وكثرت مجالسه، وازدحم عليه الناس.

وفيها ملك شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق مدينة حماه، وكانت بيد زنكي.

وفي ذي الحجة، نهب التركمان مدينة طرابلس، وخرج إليهم القومص لعنه الله الفرنجي، فهزموه، وقتلوا خلقاً من أصحابه، وحاصروه فيها مدة طويلة، حتى طال عليهم الحصار، فانصرفوا.

وفيها وُلِّي مكة قاسم بن أبي فلية بعد أبيه. وفيها قتل شمس الملوك أخاه سونج.

وفيها اشترى الباطنية قلعة حصن القدموس بالشام، فسكنوها، وحاربوا من جاورهم من المسلمين والفرنج.

وفيها اقتتلت الفرنج فيما بينهم قتالا شديداً، فمحق الله بسبب ذلك

خلقاً كثيراً، وغزاهم فيها عماد الدين زنكي، فقتل منهم ألف قتيل، وغنم أموالا جزيلة، يقال لها غزوة أسوار.

وحج بالناس فيها نظر الخادم، وكذا في التي بعدها، وقبلها.

وتوفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن سلامة بن عبيد الله بن مخلد بن إبراهيم، أبو العباس بن الرطبي، تفقه على أبي إسحاق وابن الصباغ ببغداد، وبأصبهان على محمد بن ثابت الخجندي، ثم وُلّي الحكم ببغداد بالحريم، والحسبة ببغداد، وكان يؤدب أولاد الخليفة، وتوفي في رجب من هذه السنة، ودفن عند قبر الشيخ أبي إسحاق.

■ أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل: أبو الفتح الميهني مجد الدين، أحد أئمة الشافعية،وصاحب الطريقة في الخلاف المطروقة،وقد درس بالنظامية ببغداد في سنة سبع عشرة وخمسمائة،إلى سنة ثلاث عشرة،فعزل عنها،واشتهر أصحابه هنالك وبعُد صيته وقد تقدم في سنة سبع عشرة أنه وليها، وأنه توفي في سنة ثلاث وعشرين.

وقال ابن خلكان: توفي سنة سبع وعشرين.

■ الحسن بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي أبو نصر اليونارتي، من قراء أصبهان، سمع الحديث، ورحل وخرج وله تاريخ،وكان يكتب حسنا ويقرأ فصيحا، توفي بأصبهان في هذه السنة.

■ ابن الزاغوني الحنبلي: علي بن عبيد الله بن نصر بن السري الزاغوني، الإمام المشهور، قرأ القراءات وسمع الحديث، واشتغل بالفقه والنحو واللغة، وله المصنفات الكثيرة في الأصول والفروع، وله يد في الوعظ، واجتمع الناس في جنازته، وكانت حافلة جداً.

■ علي بن يعلى بن عوض، أبو القاسم العلوي الهروي، سمع مسند أحمد من ابن الحصين، والترمذي من أبي عامر الأزدي، وكان يعظ الناس بنيسابور، ثم قدم بغداد، فوعظ بها، فحصل له القبول التام من أهل بغداد، وجمع أموالا وكتبا.

قال ابن الجوزي: وهو أول من سلكني في الوعظ، وتكلمت بين يديه وأنا صغير، وتكلمت عند انصرافه.

■ محمد بن أحمد بن يحيى أبو عبد الله العثماني الديباجي، وكان ببغداد يعرف بالمقدسي، تفقه وكان أشعري الاعتقاد، ووعظ الناس ببغداد.

قال ابن الجوزي: سمعته ينشد في مجلسه قوله:

دع جفوني يحق لي أن أنوحا ... لم تدع لي الذنوب قلبا صحيحا
أخلقت بهجتي أكف المعاصي ... ونعاني المشيب نعيا فصيحا
كلما قلت قد برا جرح قلبي ... عاد قلبي من الذنوب جريحا
إنما الفوز والنعيم لعبد ... جاء في الحشر آمنا مستريحا

■ محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن أحمد بن خلف أبو خازم بن أبي يعلى بن الفراء، الفقيه ابن الفقيه، ولد سنة سبع وخمسين وأربعمائة، سمع الحديث، وكان من الفقهاء، الزاهدين، الأخيار، توفي في صفر منها.
أبو محمد

■ عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي، الصقلي، الشاعر المشهور، أورد له ابن خلكان أشعاراً رائقة، فمنها قوله:

قم هاتها بن كف ذات الوشاح ... فقد نعى الليل بشير الصباح
باكر إلى اللذات واركب لها ... سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ... ريق الغوادي من ثغور الأقاح

ومن جملة معانيه النادرة:

زادت على كحل الجفون تكحلا ... ويُسم نصل السهم وهو قتول

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها اصطلح الخليفة وزنكي.

وفيها فتح زنكي قلاعا كثيرة، وقتل خلقا من الفرنج.

وفيها فتح شمس الملوك شقيف تيرون، ونهب بلاد الفرنج.

وفيها قدم سلجوق شاه بغداد، فنزل بدار المملكة، وأكرمه الخليفة، وارسل إليه عشرة آلاف دينار، ثم قدم السلطان مسعود، وأكثر أصحابه ركاب على الجمال لقلة الخيل.

وفيها تولى إمرة بني عقيل أولاد سليمان بن مهارش العقيلي، إكراما لجدهم.

وفيها أعيد ابن طراد إلى الوزارة، وفيها خلع على إقبال المسترشدي خلع الملوك، ولقب ملك العرب سيف الدولة، ثم ركب في الخلع، وحضر الديوان.

وفيها قوي أمر الملك طغرل، وضعف أمر الملك مسعود.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن علي بن إبراهيم: أبو الوفا الفيروزأبادي، أحد مشايخ الصوفية، سكن رباط الزوزني، وكان كلامه يستحلى وكان يحفظ من سير الصوفية، وأشعارهم، شيئاً كثيراً.
أبو علي

■ الفارقي: الحسن بن إبراهيم بن برهون أبو علي الفارقي، ولد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وتفقه بها على أبي عبد الله محمد بن بيان الكازروني، صاحب المحاملي، ثم على الشيخ أبي إسحاق، وابن الصباغ، وسمع الحديث، وكان يكرر على المهذب والشامل، ثم ولي القضاء بواسط، وكان حسن السيرة، جيد السريرة، ممتعاً بعقله وحواسه، إلى أن توفي في محرم هذه السنة، عن ست وتسعين سنة.

■ عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسين، أبو محمد بن أبي بكر الشاشي، سمع الحديث، وتفقه على أبيه، وناظر، وأفتى، وكان فاضلا، واعظا، فصيحا، مفوهاً، شكر ابن الجوزي من وعظه، وحسن نظمه، ونثره، ولفظه.

توفي في المحرم وقد قارب الخمسين، رحمه الله، ودفن عند أبيه.

■ محمد بن أحمد بن علي أبو بكر القطان، ويعرف بابن الحلاج البغدادي، سمع الحديث، وقرأ القراءات، وكان خيرا، زاهدا، عابدا، يتبرك بدعائه، ويزار رحمه الله.

■ محمد بن علي بن عبد الواحد الشافعي: أبو رشيد، من أهل آمل طبرستان، ولد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وحج وأقام بمكة، وسمع الحديث وروى شيئاً يسيراً، وكان زاهداً، منقطعاً عن الناس مشتغلا بنفسه، ركب مرة مع تجار في البحر، فأوفوا على جزيرة. فقال: دعوني في هذه

أعبد الله فيها. فمانعوه، فأبى إلا المقام بها. فتركوه، وساروا، فردتهم الريح إليه، فراودوه فامتنع، فساروا، فردتهم الريح إليه، فقالوا إنه لا يمكن أن نسير إلا بك، وإذا أردت المقام بها فارجع إليها. فسار معهم، ثم رجع إليها، فأقام بها مدة، ثم ترحل عنها، ويقال: إنه كان بها ثعبان يبتلع الإنسان، وبها عين ماء، يشرب منها ويتوضأ ثم رجع إلى بلده آمل فمات بها في هذا العام، ، وقبره شهير بآمل يزار.

■ (أم المسترشد) أم الخليفة المسترشد: توفيت ليلة الاثنين بعد العتمة، تاسع عشر شوال من هذه السنة، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت وفاة المسترشد، وولاية الراشد، وكان سبب ذلك، أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة وقائع كثيرة، فاقتضى الحال أن الخليفة أراد قطع الخطبة له من بغداد، فاتفق موت أخيه طغرل بن محمد بن ملكشاه، فسار إلى البلاد، فملكها، وقوي جانبه، ثم شرع بجمع العساكر ليأخذ بغداد من يد الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعد لذلك، وقفز جماعة من رؤوس الأمراء إلى الخليفة خوفا على أنفسهم من سطوة الملك مسعود، وركب الخليفة من بغداد في جحافل كثيرة، فيهم القضاة ورؤوس الدولة، من جميع الأصناف، فمشوا بين يديه أول منزلة، حتى وصل إلى السرادق، وبعث بين يده مقدمة، وأرسل الملك مسعود مقدمته دبيس بن صدقة بن منصور، الذي كان صاحب الحلة، فجرت خطوب كثيرة، وحاصل الأمر أن الجيشين التقيا في عاشر رمضان يوم الاثنين، فاقتتلوا قتالا كثيراً، ولم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس، ثم حمل الخليفة على جيش مسعود فهزمهم، ثم تراجعوا، فحملوا على جيش الخليفة فهزموهم، وقتلوا منهم خلقا، وأسروا الخليفة، ونُهبت أمواله وحواصله، من جملة ذلك أربعة آلاف ألف دينار، وغير ذلك من الأثاث والخلع والآنية والقماش، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وطار الخبر في الأقاليم وحين بلغ الخبر إلى بغداد، انزعج الناس لذلك، وزلزلوا زلزالا شديداً، صورة ومعنى، وجاءت العامة إلى المنابر، فكسروها، وامتنعوا من حضور الجماعات، وخرج النساء في البلد حاسرات، ينحن على الخليفة، وما جرىٰ عليه من الأسر، وتأسى بأهل بغداد في ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنة كبيرة وانتشرت في الأقاليم، واستمر الحال على ذلك إلى مستهلّ شهر ذي القعدة، والشناعة في الأقاليم منتشرة، فكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه يحذره غب ذلك، ويبصّره بما وقع من الأمر العظيم، والخطب الجسيم ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مستقر عزّه، ودار خلافته، فامتثل الملك مسعود ذلك، وضرب للخليفة سرادق عظيم، ونصب له فية قبة عظيمة، وتحتها سرير هائل، وألبس الخليفة السواد على عادته، وأركبه بعض ما كان يركبه من مراكبه، وجاء الملك مسعود، فقبّل الأرض بين يديه وأمسك لجام الفرس، ومشى في خدمته، والجيش كلهم مشاة، حتى أجلس الخليفة على سريره، ووقف الملك مسعود بين يديه، وخلع الخليفة عليه، وجيء بدبيس مكتوفاً وعن يمينه أميران، وعن يساره أميران، وسيف مسلول، وشُقّة بيضاء، فطرح بين يدي الخليفة ماذا يرسم فيه تطبيبا لقلبه، فاقبل السلطان، يشفع في دبيس وهو ملقى يقول: العفو يا أمير المؤمنين، أنا أخطأت، والعفو عند المقدرة. فأمر الخليفة بإطلاقه وهو يقول: لا تثريب عليكم اليوم. فنهض قائما، والتمس أن يقبل يد الخليفة، فأذن له فقبلها، وأمرها على وجهه وصدره. وسأل العفو عنه، وعما كان منه، واستقر الأمر على ما ذكرنا، وطار هذا الخبر في الآفاق، وفرح الناس بذلك وطابت قلوبهم.

فلما كان مستهل ذي القعدة، جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه، يستحثه على الإحسان إلى الخليفة وأن يبادر إلى سرعة رده إلى وطنه، وأرسل مع الرسل جيشا، ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد، فصحب الجيش عشرة من الباطنية، فقيل: من حيث لا يشعرون وقيل: بل كانوا مجهزين. فالله أعلم إلاّ أنهم حالة وصولهم إلى هنالك حملوا على الخليفة، فقتلوه في خيمته، وقطعوه قطعا، ولم يلحق الناس منه إلا الرسوم، وقتلوا معه جماعة من أصحابه منهم عبيد الله بن سكينة، ثم أخذ أولئك الرهط، فأحرقوا قبحهم الله وسارت بذلك الرُّكبان في البلدان، فما من أهل بلدة إلا وهم أشدُّ حزناً على الخليفة المسترشد من الأخرى، لا سيّما أهل بغداد، وخرجت النساء في الطرقات ينحن عليه ويندبنه، وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزيّ ما كُنّ يقُلنه من النّياحة على الخليفة، رحمه الله، وكان مقتله على باب مراغة في يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة، فحمل إلى بغداد، ولما استقرّ خبر موته ببغداد عمل له العزاء ثلاثة أيام بعدما بويع لولده الراشد.

ذكر شيء من ترجمة المسترشد، رحمه الله

■ (المسترشد)

كان المسترشد شجاعا مقداما، بعيد الهمة، فصيحا، بليغا، عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محببا إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رُئي خطيبا، قتل وعمره ثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما، وكانت أمه أم ولد من الأتراك رحمه الله.

خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

كان أبوه قد أخذ له العهد، ثم أراد أن يخلعه، فلم يقدر على ذلك، لأنه لم يقدر. فلما قتل أبوه بباب مراغة، في يوم الخميس، السابع عشر من ذي القعدة، من سنة تسع وعشرين وخمسمائة، بايعه الناس، والأعيان، وخطب له على المنابر ببغداد، وكان إذ ذاك كبيرا له أولاد، وكان أبيض، جسيما، حسن اللون، فلما كان يوم عرفة من هذه السنة، جيء بالمسترشد، - قد نُقل من هناك إلى بغداد - فصلّى عليه ببيت النوبة، وكثر الزحام، وخرج الناس لصلاة العيد من الغد وهم في حزن شديد على المسترشد، وقد ظهر الرفض قليلا في أول أيام الراشد.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، أبو المظفر بن أبي بكر الشاشي، تفقه بأبيه، واخترمته المنية بعد أخيه، ولم يبلغ سن الرواية.

■ إسماعيل بن عبد الملك بن علي أبو القاسم الحاكمي، تفقه بإمام الحرمين، وكان رفيق الغزالي، في الاشتغال وأسن منه فلهذا كان الغزالي يحترمه، ويكرمه، وكان فقيها بارعا، وعابدا ورعا، وكانت وفاته في هذه السنة بطوس، ودفن إلى جانب الغزالي.

■ دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد، أبو الأغر

الأسدي، الأمير من بيت الإمرة، وسادة الأعراب، كان شجاعا بطلا، فعل الأفاعيل وتمزق في البلاد، من خوفه من الخليفة، ثم استُرضي عنه الخليفة المسترشد كما ذكرنا فلما قتل الخليفة، عاش بعده أربعة وثلاثين يوما، ثم اتهم عند السلطان مسعود بأنه قد كاتب زنكي ينهاه عن القدوم على السلطان، ويأمره أن ينجو بنفسه، فبعث إليه السلطان غلاما أرمنيا فوجده منكسا رأسه، يفكر في أمره، فما كلمه، حتى شهر سيفه، فضربه فأبان رأسه عن جثته، ويقال بل استدعاه، السلطان إليه فقتله صبرا بين يديه، فالله أعلم.

■ طغرل السلطان ابن السلطان محمد بن ملكشاه توفي بهمذان، يوم الأربعاء، ثالث المحرم من هذه السنة.

■ علي بن الحسن الدرزيجاني كان عابدا زاهدا، حكى ابن الجوزي عنه أنه كان يقول، بأن القدرة تتعلق بالمستحيل، ثم أنكر عليه ذلك، وعذره لعدم تعقله لما يقول، ولجهله.

■ الفضل أبو منصور أمير المؤمنين المسترشد، بالله كان من خيار الخلفاء العباسيين شهماً شجاعا يباشر الحروب بنفسه وقد اسلفنا ذلك فيما تقدم.

قتله الباطنية بباب مراغة يوم الخميس السابع عشر من ذي القعدة من هذه السنة ثم نقل إلى بغداد فدفن بها رحمه الله وبل بالرحمة ثراه وجعل الجنة منزله ومأواه.

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها وقع بين الخليفة الراشد وبين السلطان مسعود، بسبب أنه أرسل إلى الخليفة يطلب منه ما كان كتبه له والده المسترشد حين أسره، التزم له بأربعمائة ألف دينار، فامتنع من أداء ذلك وقال: ليس بيننا وبينكم إلا السيف. فوقع بينهما الخلف، فاستجاش السلطان بالعساكر، واستنهض الخليفة الأمراء، وأرسل إلى عماد الدين زنكي فجاء، والتف على الخليفة خلائق، وجاء في غبون ذلك السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فخطب له الخليفة ببغداد، وخلع عليه، وبايعه على الملك، فتأكدت الوحشة بين السلطان والخليفة جدا، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغداد، ومشى الجيش بين يديه كما كانوا يعاملون به أباه قبله، وذلك يوم الأربعاء سلخ شعبان، وخرج السلطان داود من جانب آخر، فلما بلغهم كثرة الجيوش مع السلطان مسعود، حسّن عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى الموصل، واتفق دخول السلطان مسعود إلى بغداد في غيبتهم، يوم الاثنين، رابع شوال، فاستحوذ على دار الخلافة، بما فيها جميعه، ثم استخلص من نساء الخليفة وحظاياه الحلي، والمصاغ، والثياب التي للزينة، وغير ذلك، وجمع القضاة، والفقهاء، وأبرز لهم خط الراشد، أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان، فقد خلع نفسه من الخلافة، فأفتى من أفتى من الفقهاء بخلعه، فخلع في يوم الاثنين، سادس عشر شهر ذي القعدة، بحكم الحاكم، وفتيا أكثر الفقهاء، وكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما، واستدعى السلطان بعمه المقتفي بن المستظهر، فبويع بالخلافة، عوضا عن ابن أخيه الراشد بالله.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

وأمه صفراء تسمى نسيمَ، ويقال لها ست السادة، وله من العمر يومئذ أربعون سنة، بويع بالخلافة بعد خلع الراشد بيومين، وخطب له على المنابر يوم الجمعة، العشرين من ذي القعدة، ولقب بالمقتفي، لأنه يقال إنه رأى رسول الله ﷺ وهو في المنام، وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك، فاقتف بي. فصار إليه بعد ستة أيام، فلقب بذلك.

فائدة حسنة ينبغي التنبيه عليها

ولي المقتفي والمسترشد، الخلافة، وكانا أخوين. وكذلك السفاح والمنصور، وكذلك الهادي والرشيد. ابنا المهدي. وكذلك الواثق والمتوكل، ابنا المعتصم، أخوان. وأما ثلاثة إخوة، فالأمين، والمأمون، والمعتصم، بنو الرشيد. والمنتصر، والمعتز، والمعتمد بنو المتوكل. والمكتفي، والمقتدر، والقاهر، بنو المعتضد، والراضي، والمقتفي، والمطيع، بنو المقتدر، وأما أربعة إخوة فلم يكن إلا في بني أمية وهم، الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، بنو عبد الملك بن مروان. ولما استقر المقتفي في الخلافة،استمر الراشد ذاهبا إلى الموصل، صحبة صاحبها عماد الدين زنكي، فدخلها في ذي الحجة من هذه السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن حَمُّويه بن محمد بن حمويه أبو عبد الله الجويني. روى الحديث، وكان صدوقا، مشهورا بالعلم والزهد، وله كرامات، دخل إلى بلد، فلما ودعهم أنشدهم:

لئن كان لي من بعد عود إليكم ... قضية لبانات الفؤاد لديكم
وإن تكن الأخرى وفي الغيب عِبرة ... وحال قضاء فالسلام عليكم

■ محمد بن عبد الله بن أحمد بن حبيب، أبو بكر العامري، المعروف بابن الخبازة، سمع الحديث، ورحل في طلبه، وكانت له معرفة بالفقه والحديث، وقد شرح كتاب « الشهاب » وكان يعظ الناس على طريقة التصوف، وكان ابن الجوزي فمن تأدب به، وقد أثنى عليه، وأنشد ومن شعره:

كيف احتيالي وهذا في الهوى حالي ... والشوق أملك بي من عذل عذالي
وكيف أسلو وفي حبي له شغل ... يحول بين مهماتي واشغالي

وقد ابتنى رباطا وكان عنده جماعة من المتعبدين والزهاد، ولما احتضر أوصاهم بتقوى الله عز وجل، والإخلاص لله والدين، فلما فرغ، شرع في النزع وعرق جبينه، فمد يده، ثم قال:

ها قد بسطت يدي إليك فردها ... بالفضل لا بشماته الأعداء

ثم قال: أرى المشايخ بين أيديهم الأطباق، وهم ينتظرونني. ثم مات، وذلك ليلة الأربعاء نصف رمضان، ودفن برباطه، ثم غرق رباطه وقبره، في سنة أربع وخمسين وخمسمائة. رحمه الله

■ محمد بن الفضل بن أحمد بن محمد بن أبي العباس أبو عبد الله الصاعدي الفراوي، كان أبوه من ثغر فراوة، وسكن نيسابور، فولد له بها

محمد هذا، وقد سمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ بالآفاق، وتفقه، وأفتى، وناظر، ووعظ، وكان ظريفا، حسن الوجه، جميل المعاشرة، كثير التبسم، وأملى أكثر من ألف مجلس، ورحل إليه الطلبة من الآفاق، حتى كان يقال: الفراوي ألف راوي. وقيل: إن ذلك كان مكتوبا في خاتمة. وقد أسمع صحيح مسلم قريبا من عشرين مرة.

توفي في شوال من هذه السنة، عن تسعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها كثر موت الفجأة بأصبهان، فمات ألوف من الناس، وأغلقت دور كثيرة.

وفيها تزوج الخليفة بالخاتون فاطمة بنت محمد بن ملكشاه، على صداق مائة ألف دينار، فحضر أخوها السلطان مسعود العقد، وجماعة من أعيان الدولة، والوزراء، والأمراء، ونثر على الناس أنواع النثار.

وفيها صام أهل بغداد رمضان، ثلاثين يوما، ولم يروا الهلال ليلة إحدى وثلاثين، مع كون السماء كانت مصحية.

قال ابن الجوزي: وهذا شيء لم يقع مثله.

وفيها هرب وزير صاحب مصر، وهو تاج الدولة بهرام النصراني، وقد كان تمكن في البلاد، وأساء السيرة، فتطلبه الخليفة الحافظ، حتى أخذه، فسجنه، ثم أطلقه، فترهب، وترك العمل، فاستوزر بعده رضوان بن الرّنجي، ولقبه الملك الأفضل، ولم يلقب وزير بذلك قبله، ثم وقع بينه وبين الخليفة، فلم يزل به الخليفة حتى قتله، واستقل بتدبير أموره وحده.

وفيها ملك عماد الدين زنكي عدة بلدان.

وفيها ظهر بالشام سحاب أسود، أظلمت له الدنيا، ثم ظهر بعده سحاب أحمر، كأنه نار أضاءت له الدنيا، ثم جاءت ريح عاصف، ألقت أشجارا كثيرة،ثم وقع مطر شديد،وسقط برد كبار.

وفيها قصد ملك الروم بلاد الشام، فأخذ بلادا كثيرة من أيدي الفرنج، وأطاعه أليون بن ملك الأرمن.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ احمد بن محمد بن ثابت بن الحسن أبو سعد الخجندي، تفقه على والده الإمام أبي بكر الخجندي الأصبهاني، وولي تدريس النظامية ببغداد مرارا ويعزل عنها، وقد سمع الحديث، ووعظ، وتوفي في غرة شعبان منها وقد قارب التسعين.

■ هبة الله بن احمد بن عمر الحريري، يعرف بابن الطّبر، سمع الكثير، وهو آخر من روى عن أبي الحسن ابن زوج الحرة، وقد حدث عنه أبو بكر الخطيب، وكان ثبتا، صحيح السماع، كثير الذكر والتلاوة، ممتعا بحواسه وقواه، إلى أن توفي في جمادى الأولى في هذه السنة، عن ست وتسعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها قتل الخليفة الراشد المخلوع، وذلك أنه اجتمع معه الملك داود، وجماعة من كبار الأمراء، فقصدوا قتال السلطان مسعود بأرض مراغة،فهزمهم، وبدد شملهم، وقتل منهم خلقا صبرا، بين يديه منهم صدقة بن دبيس وولي أخاه محمدا مكانه على الحلة،وهرب الخليفة الراشد المخلوع، فدخل أصبهان، فقتله رجل ممن كان يخدمه من الخراسانية، وكان قد برأ من وجع أصابه، فقتلوه في الخامس والعشرين من رمضان، ودفن بشهرستان ظاهر أصبهان. وقد كان حسن اللون، مليح الوجه شديد القوة مهيبا، امه أم ولد.

وفيها كسى الكعبة رجل من التجار، يقال له راست الفارسي،بثمانية عشر ألف دينار، وذلك لأنه لم تأتها كسوة في هذا العام لأجل اختلاف الملوك.

وفيها كانت زلزلة عظيمة ببلاد الشام والجزيرة،والعراق،فانهدم شيء كثير من البيوت، ومات تحت الهدم خلق كثير وجمٌّ غفير.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد حتى أكلوا الكلاب.

وفيها أخذ الملك عماد الدين زنكي مدينة حمص، في المحرم، وتزوج في رمضان بالست زمرد خاتون، أم صاحب دمشق، وهي التي تنسب إليها الخاتونية البرانية.

وفيها ملك صاحب الروم مدينة بزاعة، وهي على ستة فراسخ من حلب،فجاء أهلها الذين نجوا من القتل والسبي يستغيثون بالمسلمين ببغداد، فمنعت الخطبة ببغداد، وجرت فتن طويلة.

وفيها تزوج السلطان مسعود، سفرى بنت دبيس بن صدقة، وزينت بغداد لذلك سبعة أيام.

قال ابن الجوزي: فحصل بسبب ذلك فساد عريض، طويل، منتشر.ثم تزوج ابنة عمه، فزينت بغداد ثلاثة أيام أيضا.

وفيها ولد السلطان الناصر صلاح يوسف بن أيوب بن شاذي بقلعة تكريت.

وفيها حج بالناس الأمير نظر الخادم، وكذا في السنوات التي قبلها، أثابه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ احمد بن محمد ابو بكر بن أبي الفتح الدينوري الحنبلي، سمع الحديث، وتفقه على أبي الخطاب الكلوذاني، وأفتى، ودرس، وناظر، وكان أسعد الميهني يقول: ما اعترض أبو بكر الدينوري على دليل أحد إلا ثلمه. وقد تخرج به ابن الجوزي، وأنشد عنه قوله:

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا ... بغير عناء فالجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة ... تلقيتها، فالعلم كيف يكون

■ عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن، أبو المظفر القشيري، آخر من بقي منهم، سمع أباه، وأبا بكر البيهقي، وغيرهما، وسمع منه عبد الوهاب الأنماطي، وأجاز ابن الجوزي، وقارب التسعين.

■ محمد بن عبد الملك بن محمد بن عمر، أبو الحسن الكرجي، سمع الكثير في بلاد شتى، وكان فقيها شافعياً، تفقه بأبي إسحاق، وغيره من أئمة الشافعية، وكان أديباً شاعرا فصيحا، وله مصنفات كثيرة، منها الفصول في اعتقاد الأئمة الفحول، يذكر فيه مذاهب السلف في باب الاعتقاد، ويحكي فيه أشياء غريبة حسنة، وله تفسير، وكتاب في الفقه وكان لا يقنت في الفجر، ويقول: لم يصح ذلك في حديث، وقد كان إمامنا الشافعي يقول: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي هذا الحائط. وقد كان حسن الصورة، جميل المعاشرة، ومن شعره قوله:

تناءت داره عني ولكن ... خيال جاله في القلب ساكن
إذا امتلأ الفؤاد به فماذا ... يضر إذا خلت منه الأماكن

توفي رحمه الله، وقد جاوز التسعين.

الخليفة

■ الراشد منصور بن المسترشد ولي الخلافة بعد أبيه ثم خلع فذهب مع العماد زنكي إلى أرض الموصل ثم جمع جموعاً فاقتتل مع الملك مسعود في هذه السنة فهزمهم فذهب إلى أصبهان، فقتل بها بعد مرض أصابه. فقيل إنه سم، وقيل قتلته الباطنية،وقيل قتله الفراشون الذين كانوا يلون أمره،فالله أعلم.

وقد حكى ابن الجوزي،عن أبي بكر الصولي، أنه قال: الناس يقولون: كل سادس يقوم بأمر الناس،من أول الإسلام،لا بد أن يخلع.

قال ابن الجوزي: فتأملت ذلك، فرايته عجبا، قام رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم الحسن فخلع، ثم معاوية ويزيد، ومعاوية بن يزيد، ومروان، وعبد الملك، ثم عبد الله بن الزبير فخلع، وقتل ثم الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد، وهشام،ثم الوليد بن يزيد فخلع، وقتل ولم ينتظم لبني أمية بعده أمر حتى قام السفاح العباسي،ثم أخوه المنصور،ثم المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم الأمين فخلع، وقتل ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، ثم المستعين فخلع وقتل ثم المعتز، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفي. ثم المقتدر فخلع ثم أعيد، فقتل ثم القاهر،والراضي، والمتقي، والمستكفي والمطيع، ثم الطائع فخلع ثم القادر، والقائم، والمقتدي، والمستظهر، والمسترشد، ثم الراشد فخلع، وقتل.

■ أنو شروان بن خالد ابن محمد القاشاني الفيني، من قرية فين من قاشان، الوزير أبو نصر، وزر للسلطان محمود، وللخليفة المسترشد، وكان عاقلا، مهيبا، عظيم الخلقة، وهو الذي ألزم أبا محمد الحريري بتكميل المقامات، وكان سبب ذلك، أن أبا محمد الحريري كان جالسا ذات يوم في مسجد بني حرام من محال البصرة، فدخل عليهم شيخ ذو طمرين، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا رجل من سروج، يقال لي أبو زيد. فعمل الحريري المقامة الحرامية، واشتهرت في الناس، فلما طالعها الوزير أنو شروان أعجب بها، وكلف أبا محمد الحريري أن يزيد عليها غيرها، فعمل عليها تمام خمسين مقامة، فهي هذه المشهورة المتداولة بين الناس، وقد كان الوزير أنو شروان كريما محمًدا غير أنه كان يُنسب إلى التشيع وقد مدحه الحريري فقال:

الا ليت شعري والتمني تَعِلَّة ... وإن كان فيه راحة لأخي الكرب
أتدرون أني مذ تناءت دياركم ... وشط اقترابي من جنابكم الرحب
أكابد شوقا ما يزال أُواره ... يقلبني بالليل جنبا على جنب
وأذكر أيام التلاقي فأنثني ... لتذكارها بادي الأسى طائر اللب
ولي حنة في كل وقت إليكم ... ولا حنة الصادي إلى البارد العذب
فوالله لو أني كتمت هواكم ... لما كان مكتوماً بشرق ولا غرب
ومما شجا قلبي المعنى وشفه ... رضاكم بإهمال الإجابة عن كتبي
وقد كنت لا أخشى مع الذنب جفوة ... فقد صرت أخشاها وما لي من ذنب
ولما سرى الوفد العراقي نحوكم ... وأعوزني المسرى إليكم مع الركب
جعلت كتابي نائبي عن ضرورة ... ومن لم يجد ماء تيمم بالترب
ونفَّذتُ أيضاً بضعة من جوارحي ... تنبيكم عن سر حالي وتستبي

ولست أرى تذكارهم بعد خيركم ... بمكرمة، حسبي اهتزازكم حسبي

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة، بمدينة جنزة، فمات بسببها مائتا ألف وثلاثون ألفا، وصار مكانها ماء أسود، عشرة فراسخ، في مثلها، وزلزل أهل حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة.

وفيها وضع السلطان مسعود مكوسا كثيرة عن الناس، وكثرت الأدعية له.

وفيها كانت وقعة عظيمة، بين السلطان سنجر، وخوارزم شاه، فهزمه سنجر، وقتل ولده في المعركة، فحزن عليه والده حزنا شديدا.

وفيها قتل صاحب دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغتكين، قتله ثلاثة من خواصه ليلا، وهربوا من القلعة، فأدرك اثنان، فصلبا، وأفلت واحد وملك بعده أخوه كمال الدين محمد بن تاج الملوك، وكان ببعلبك قبل ذلك، فملك بعده بعلبك عماد الدين زنكي، واستناب عليها الأمير نجم الدين أيوب والد الملك صلاح الدين والملك العادل أبي بكر وذريتهما.

وفيها صُرف اليهود والنصارى عن المباشرات، ثم أعيدوا قبل شهر.

وحج بالناس فيها نظر الخادم.

وفيها توفي من الأعيان

■ زاهر بن طاهر بن محمد، أبو القاسم بن أبي عبد الرحمن بن أبي بكر الشحامي: المحدث، المكثر، الرحال الجوال، سمع الكثير، وأملى بجامع نيسابور ألف مجلس، ويقال: إنه كان به مرض يكثر بسببه الجمع بين الصلوات فتكلم فيه أبو سعد السمعاني، وقال: إنه كان يخل بالصلوات. وقد رد ابن الجوزي على السمعاني بعذر المرض، فالله أعلم.

وبلغ خمسا وثمانين سنة، وكانت وفاته بنيسابور، في ربيع الآخر، ودفن بمقبرة يحيى بن يحيى.

■ علي بن أفلح، أبو القاسم الكاتب، وقد خلع عليه المسترشد، ولقبه جمال الملك، وأعطاه أربعة دور، وكانت له دار إلى جانبهن، فهدمهن كلهن، واتخذ مكانهن دارا هائلة، طولها ستون ذراعا في عرض أربعين وأطلق له الخليفة أخشاباً وآجُرّاً وذهباً فبناها، وعزم عليها ابن أفلح مالاً جزيلاً، وكتب على أبوابها وطرازاتها أشعارا حسنة، من نظمه، ونظم غيره، فمن ذلك ما هو على باب الدار

إن عجب الراؤون من ظاهري ... فباطني لو علموا أعجب
شيَّدني من كفه مزنة ... يحمل منها العارض الصيب
ودبجت روضة أخلاقه ... في ديار نورها مذهب
صدر كما صدري من نوره ... شمسا على الأيام لا تغرب

وعلى الطراز مكتوب:

ومن المروءة للفتى ... ما عاش دار فاخره
فاقنع من الدنيا بها ... واعمل لدار الآخره
هاتيك وافية بما ... وعدت وهذي ساحره

وفي موضع آخر مكتوب:

وناد كأن جنان الخلود أعارته من حسنها رونقا
وأعطته من حادثات الزمان أن لا تلم به موثقا
فأضحى يتيه على كل ما بنى مغرباً كان أو مشرقا
تظل الوفود به عكفاً وتمسي الضيوف به طُرَّقا
بقيت له يا جمال الملوك وذا الفضل مهما أردت البقا
وساله فيك ريب الزمان ووقيت فيه الذي يتقى

فما صدقت هذه الأماني، بل عما قريب - بعد نيلها - اتهم الخليفة بانه يكاتب دبيسا، فأمر بتخريب هذه الدار فلم يبق فيها جدار، وصارت خربة، بعد ما كان قد حَسُن منها المقام والقرار، وهذه حكمة من يقلِّب الليل والنهار، وتجري بمشيئته الأقدار، وقد أورد له ابن الجوزي أشياء حسنة من نظمه، فمن ذلك قوله:

دع الهوى لأناس يعرفون به قد مارسوا الحب حتى لان أصعبه
بلوت نفسك فيما لست تخبره والشيء صعب على من لا يجربه
افن اصطباراً وإن لم تستطع جلدا فرب مدرك أمر عز مطلبه
أحنى الضلوع على قلب يحيرني في كل يوم ويعييني تقلبه
تناوح الريح من نَجْد يهيجه ولامع البرق من نغمان يطربه

ومن ذلك قوله:

هذه الخيف وهاتيك منى فترفق أيها الحادي بنا
واحبس الركب علينا ساعة تندب الربع ونبكي الدِّمنا
فلذا الموقف أعددنا البكا ولذا اليوم دموعي تقتنى
زمناً كانوا وكنّا جيرة يا أعاد الله ذاك الزمنا
بيننا يوم أثيلات النَّقا كان من غير تراض بيننا

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها حاصر زنكي دمشق، فحصنها الأتابك معين الدين أنر مملوك طغتكين، فاتفق موت ملكها جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، فأرسل معين الدين إلى أخيه مجير الدين أبق، وهو ببعلبك، فملكه دمشق، فذهب زنكي إلى بعلبك، فأخذها، واستناب عليها نجم الدين أيوب.

وفيها دخل الخليفة المقتفي لأمر الله على الخاتون فاطمة أخت السلطان مسعود، وأغلقت بغداد أياما وكان وقتاً مشهوداً.

وفيها تزوج السلطان بنت أمير المؤمنين، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها نودي للصلاة على رجل صالح، فاجتمع الناس بمدرسة الشيخ عبد القادر، فاتفق أن الرجل عطس فأفاق، وحضرت جنازة رجل آخر غيره، فصلى عليه ذلك الجمع الكثير.

وفيها نقصت المياه من سائر الدنيا.

وفيها ولد صاحب حماه تقي الدين عمر بن شهنشاه بن أيوب بن شاذي.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن جعفر بن الفرج أبو العباس الحربي، أحد العباد الزهاد، سمع الحديث، وكانت له أحوال صالحة، حتى كان يقال: إنه كان يرى في بعض السنين بعرفات، ولم يكن حجّ في تلك السنة.

■ عبد السلام بن الفضل أبو القاسم الجيلي، سمع الحديث، وتفقه على إلكيا الهراسي، وبرع في الأصول، والفروع، وغير ذلك، وولي قضاء البصرة، وكان من خيار القضاة. رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها وصلت البردة والقضيب إلى بغداد، وكانا قد أخذا مع المسترشد، سنة تسع وعشرين وخمسمائة فحفظهما السلطان سنجر عنده، حتى ردهما في هذه السنة.

وفيها كملت المدرسة الكمالية، ببغداد المنسوبة إلى كمال الدين، أبي الفتوح حمزة بن طلحة، صاحب المخزن، ودرس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخَلّ، وحضر عنده الأعيان والرؤساء، رحمه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد أبو القاسم الطلحي الأصبهاني، سمع الكثير، ورحل، وكتب، وأملى بأصبهان قريبا من ثلاثة آلاف مجلس، وكان إماما في الحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، حافظا متقنا، توفي ليلة عيد الأضحى، وقد قارب الثمانين، ولما أراد الغاسل تنحية الخرقة عن فرجه ردها بيده، وقيل: إنه وضع يده على فرجه.

■ محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت بن وهب بن مشجعة بن الحارث بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، سمع الحديث، وتفرد عن جماعة من المشايخ، وأملى الحديث في جامع القصر، وكان مشاركا في علوم كثيرة، وقد أسر في صغره، في أيدي الروم، فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر، فلم يفعل، وتعلم منهم خط الروم، وكان يقول: من خدم المحابر خدمته المنابر.

ومن شعره الذي أورده له ابن الجوزي عنه، وسمعه منه، قوله:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سن ومال، إن سئلت، ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمكفر وبحاسد ومكذب

ومن ذلك قوله:

لي مدة لابد أبلغها فإذا انقضت وتصرمت مت
لو عاندتني الأسد ضارية ما ضرني ما لم يجي الوقت

ومن ذلك قوله:

بغداد دار لأهل العلم طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق

قال ابن الجوزي: بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة،لم تتغير حواسه، ولا عقله.

وكانت وفاته في ثاني رجب من هذه السنة. وحضر جنازته الأعيان

والناس، ودفن قريبا من قبر بشر.

■ يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسن بن وهرة أبو يعقوب الهمداني، تفقه بالشيخ أبي إسحاق، وبرع في الفقه، والمناظرة، ثم اشتغل، بالتعبد، وصحب الصالحين، وأقام بالجبال، ثم عاد إلى بغداد، فوعظ بها، وحصل له قبول. توفي في ربيع الأول، ببعض قرى هراة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت حروب كثيرة، بين السلطان سنجر وبين السلطان خوارزم شاه، فاستحوذ خوارزم شاه على مرو بعد هزيمة سنجر، فقُتل بها، وأساء التدبير، بالنسبة إلى الفقهاء الحنفية الذين بها، وكان جيش خوارزم شاه ثلاثمائة ألف مقاتل.

وفيها كُمّل عمل شَقّ النهروان، وخلع بهروز الشحنة بغداد شحنة بغداد على الصُّناع جباب الحرير الرومي، وركب هو والسلطان مسعود، في سفينة في ذلك النهر، وفرح السلطان بذلك، وكان قد صرف السلطان على ذلك النهر سبعين ألف دينار.

وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن، وعاد فتزهد، وترك العمل، ولزم داره.

وفيها عقدت الجمعة، بمسجد العباسيين، بإذن الخليفة.

وحج بالناس نظر الخادم.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث، أبو القاسم بن أبي بكر السمرقندي، الدمشقي، ثم البغدادي، سمع الكثير، وتفرد بمشايخ، وكان سماعه صحيحا، وأملى بجامع المنصور مجالس كثيرة، نحو ثلاثمائة مجلس، وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

■ يحيى بن علي بن محمد بن علي، أبو محمد بن الطراح المدير، ولد سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وسمع الكثير، وأسمع، وكان شيخا حسنا، مهيبا، كثير العبادة، توفي في رمضان منها عن مئة وسبع سنين رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها ملك عماد الدين زنكي الحديثة، ونقل آل مهارش منها إلى الموصل، ورتب فيها نوابا من جهته.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها تجهز السلطان مسعود ليأخذ الموصل والشام من عماد زنكي،فصالحه على مائة ألف دينار، فدفع إليه منها عشرين ألف دينار، وأطلق له الباقي، وسبب ذلك أن ابنه سيف الدين غازي كان لا يزال في خدمة السلطان مسعود.

وفيها ملك عماد الدين زنكي بعض بلاد بكر.

وفيها حصر الملك سنجر خوارزم شاه، ثم أخذ منه مالا واطلقه.

وفيها وجد رجل يفسق بصبي، فالقي من رأس منارة.

وفي ليلة الثلاثاء، الرابع والعشرين من ذي القعدة، زلزلت الأرض.

وحج بالناس نظر الخادم أثابه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد، أبو البركات الأنماطي، الحافظ سمع الكثير وحدث وكان ثقة، دينا، ورعا، طليق الوجه، سهل الأخلاق، توفي في المحرم، عن ست وتسعين سنة.

■ علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي، الوزير، العباسي أبو القاسم، نقيب النقباء، على الطائفتين، في أيام المستظهر، ووزر للمسترشد، والمقتفي ثم عزل وأعيد ولم يلي الوزارة من العباسيين غيره، وقد سمع الكثير وأسمع، وتوفي في رمضان، عن ست وسبعين سنة رحمه الله تعالى.

■ الزمخشري محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم الزمخشري، صاحب الكشاف في التفسير، والمفصل في النحو، وغير ذلك من المصنفات المفيدة، وقد سمع الحديث، وطاف البلاد، في طلب العلم وجاور بمكة مدة، وكان يظهر مذهب الاعتزال، ويصرح بذلك في تفسيره، ويناظر عليه، وكانت وفاته بخوارزم، ليلة عرفة من هذه السنة، عن ست وسبعين سنة رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها أخذ العماد زنكي الرها، وغيرها من حصون الجزيرة، من أيدي الفرنج، وقتل منهم خلقا كثيرا، وغنم أموالا جزيلة، وأزاح عن المسلمين كربا شديدة كثيرة جزاه الله خيراً.

وحج بالناس أمير الجيوش نظر الخادم، وتنافس هو وأمير مكة، فنهب الحجيج وهم يطوفون.

وفيها توفي من الأعيان

■ إبراهيم بن محمد بن منصور بن عمر أبو البدر الكرخي، تفقه بالشيخ أبي إسحاق، وأبي سعد المتولي، حتى صار أوحد زمانه، فقها وصلاحا، ومات في هذه السنة.

■ سعيد بن محمد بن عمر أبو منصور الرزاز، سمع الحديث، وتفقه بالغزالي، والشاشي، والمتولي، والكياالهراسي، وأسعد الميهني وولي تدريس النظامية، وكان له سمت حسن، ووقار، وسكون، وكان يوم جنازته مشهودا، ودفن عند الشيخ أبي إسحاق.

■ عمر بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن حمزة بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القرشي العلوي، أبو البركات الكوفي، ثم البغدادي، سمع الكثير، وكتب كثيرا، وأقام بدمشق مدة، وكانت له معرفة جيدة بالفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، والأدب، وله تصانيف في النحو، وكان خشن العيش، صابرا محتسبا، توفي في شعبان من هذه السنة، عن سبع وتسعين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة

فيها حصر علي بن دبيس أخاه محمدا، ولم يزل يحاصره حتى اقتلع من يده الحلة، وملكها.

وفي رجب منها، دخل السلطان مسعود بغداد، خوفا من اجتماع عباس، صاحب الري، ومحمد شاه بن محمود، ثم خرج منها في رمضان.

وحج بالناس قايماز الأرجواني، مملوك أمير الجيوش، بسبب ما كان وقع بين نظر وأمير مكة في السنة الماضية.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان، أبو سعد الأصبهاني، ثم البغدادي، سمع الحديث، وكان على طريقة السلف، حلو الشمائل، مطَّرِحاً الكلفة، ربما خرج إلى السوق بقميص، وقلنسوة. وحج إحدى عشرة حجة، وكان يملي الحديث، ويكثر الصوم، وتوفي بنهاوند، في ربيع الأول، من هذه السنة، وقد قارب الثمانين.

■ علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد، أبو الحسن اليزدي، تفقه بأبي بكر الشاشي، وسمع الحديث، وأسمعه، وكان له ولأخيه قميص وعمامة، إذا خرج هذا جلس الآخر في البيت، وكذا الآخر.

■ موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، أبو منصور الجواليقي، شيخ اللغة في زمانه، باشر مشيخة اللغة بالنظامية، بعد شيخه أبي زكريا التبريزي مدة، وكان يؤم بالمقتفي، وربما قرأ عليه الخليفة شيئا من الكتب، وكان عاقلا، متواضعا في ملبسه، طويل الصمت، كثير التفكر، وكانت له حلقة بجامع القصر، أيام الجمع، وكانت فيه لكنة، وكان يجلس إلى جانبه المغربي، معبر المنامات وكان فاضلا، لكنه كان كثير النعاس في مجلسه، فقال فيهما بعض الأدباء:

بغداد عندي ذنبها لن يغفرا وعيوبها مكشوفة لن تسترا
كون الجواليقي فيها مليا لغة وكون المغربي معبرا
مأسور لكنته يقول فصاحة والنؤوم يقظته يعبر في الكرا

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

في مستهل ليلة ربيع الأول منها، احترق القصر الذي كان بناه المسترشد، وكان في غاية الحسن، وكان الخليفة المقتفي قد انتقل بجواريه وحظاياه إليه، ليقيم فيه ثلاثة أيام، فما هو إلا أن ناموا، احترق عليهم القصر، بسبب أن جارية أخذت في يدها شمعة، فعلق لهبها ببعض الأخشاب، فاحترق القصر، وسلم الله الخليفة وأهله، فأصبح فتصدق بأشياء كثيرة، وأطلق خلقا من المحبسين.

وفي رجب منها، وقع بين الخليفة وبين السلطان مسعود واقع، فبعث الخليفة إلى الجوامع والمساجد، فأغلقت ثلاثة أيام، حتى اصطلحا.

وفي يوم الجمعة المنتصف من ذي القعدة، جلس ابن العبادي الواعظ، فتكلم والسلطان مسعود حاضر، وكان قد وضع على الناس مكسا في البيع فاحشا، فقال في جملة وعظه: يا سلطان العالم، أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربت قريبا مما وضعت على المسلمين من هذا المكس، فهبني مغنيا، وقد طربت، فهب لي هذا المكس، شكرا لنعم الله عليك وأسقطه عن الناس، فأشار السلطان بيده، أن قد فعلت، فضج الناس بالدعاء له، وكتب بذلك سجلات، ونودي في البلد، بإسقاط ذلك المكس، ففرح الناس بذلك، ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة قل المطر جدا، وقلت مياه الأنهار، وانتشر جراد عظيم، وأصاب الناس داء في حلوقهم، فمات بذلك خلائق كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها قتل الملك عماد الدين زنكي، بن قسيم الدولة آق سنقر التركي، صاحب الموصل، وحلب، وغيرهما من البلاد الشامية، والجزيرة، وكان محاصرا قلعة جعبر. وفيها سالم بن مالك العقيلي، فبرطل بعض مماليك زنكي، حتى قتلوه، في الليلة الخامسة من ربيع الأول، من هذه السنة.

قال العماد الكاتب: وكان سكران فالله أعلم.

وقد كان زنكي من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة، وشكلا، وكان شجاعا، مقداما حازما، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة، وقام بالأمر من بعده بالموصل ولده سيف الدين غازي، وبحلب نور الدين محمود، فاستعاد الملك نور الدين هذا مدينة الرها، وكان أبوه قد فتحها. ثم عصوا، فقهرهم نور الدين.

وفي هذه السنة ملك عبد المؤمن صاحب المغرب، جزيرة الأندلس، بعد حروب طويلة.

وفيها ملكت الفرنج، مدينة طرابلس الغرب.

وفيها استعاد صاحب دمشق مدينة بعلبك وفيها الأمير نجم الدين أيوب من جهة زنكي فسلمه القلعة، وأعطاه إمرته عنده بدمشق.

وفيها قتل السلطان مسعود حاجبه عبد الرحمن بن طغايرك، وقتل عباسا صاحب الري، وألقى رأسه إلى أصحابه، فانزعج الناس، ونهبوا خيام عباس وقد كان عباس هذا من الشجعان المشهورين، قتلت الباطنية مخدومه جوهر، فلم يزل يقتل منهم، حتى بنى مأذنة من رؤوسهم بمدينة الري.

وفيها مات نقيب النقباء ببغداد، محمد بن طراد الزينبي، فتولى بعده علي بن طلحة الزينبي.

وفيها سقط جدار على ابنة الخليفة، وكانت قد بلغت مبالغ النساء، فماتت فحضر جنازتها الأعيان.

وحج بالناس نظر الخادم.

وحج في هذه السنة نظام الدين بن جهير الوزير

ومن توفي فيها من الأعيان

■ زنكي بن آق سنقر تقدم ذكر شيء من ترجمته، في الحوادث وقد أطنب الشيخ أبو شامة في الروضتين [١/١٠٩ - ١١٨] في ترجمته، وما قيل فيه من نظم ونثر، رحمه الله.

■ سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد، أبو الحسن المغربي الأندلسي الأنصاري، رحل من الأندلس إلى الصين وسمع الحديث وتفقه بالغزالي وحصل كتبا نفيسة، وروى عنه ابن الجوزي، وغيره، وقد أوصى عند وفاته ببغداد أن يصلي عليه الغزنوي، وأن يدفن إلى جانب قبر عبد الله بن الإمام أحمد، وحضر جنازته خلائق من الناس.

■ شافع بن عبد الرشيد بن القاسم، أبو عبد الله الجيلي الشافعي، تفقه على إلكيا الهراسي وعلى الغزالي، وكان يسكن الكرخ، وله حلقة بجامع المنصور، في الرواق.

قال ابن الجوزي، وكنت أحضر حلقته.

■ عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الله، أبو محمد سبط أبي منصور الزاهد، قرأ القراءات، وصنف فيها، وسمع الحديث الكثير، واقتنى الكتب الحسنة، وأم في مسجده نيفا وخمسين سنة، وعلم خلقا القرآن.

قال ابن الجوزي: ما سمعت أحدا أحسن قراءة منه، وحضر جنازته خلق كثير.

■ عباس شحنة الري توصل إلى أن ملكها، ثم قتله السلطان مسعود، كما ذكرنا وقد كان كثير الصدقات، والإحسان إلى الرعية، وقتل من الباطنية خلقا، وابتنى من رؤوسهم منارة بالري، وتأسف الناس عليه رحمه الله

■ محمد بن طراد بن محمد الزينبي، أبو الحسن نقيب الهاشميين وهو أخو علي بن طراد الوزير، سمع الكثير من أبيه، وعمه أبي نصر، وغيرهما، وقارب السبعين.

■ وجيه بن طاهر بن محمد أبو بكر الشحامي، أخو زاهر، وقد سمع الكثير من الحديث، وكانت له معرفة به، وكان شيخا حسن الوجه، سريع الدمعة، كثير الذكر، صحيح السماع، صدوق اللهجة، توفي ببغداد في هذه السنة رحمه الله تعالى ورضي عنه أمين

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها ملكت الفرنج، عدة حصون، من جزيرة الأندلس.

وفيها ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة حصون من أيدي الفرنج بالسواحل وغيرها.

وفيها خطب للمستنجد بالله بولاية العهد، من بعد أبيه المقتفي.

وفيها ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام، وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر صدرية المخزن المعمور.

وفيها اشتد الغلاء بإفريقيا، وهلك بسببه أكثر الناس، حتى خلت المنازل، وأقفلت المعاقل.

وفيها تزوج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين، حسام الدين تمرتاش بن أرتق، بعد أن حاصره، فصالحه على ذلك، فحملت إليه، إلى الموصل، بعد سنتين، وهو مريض، قد أشرف على الموت، فلم يدخل بها، حتى مات، فتولى بعده على الموصل أخوه قطب الدين مودود، فتزوجها.

قال ابن الجوزي: وفي صفر، رأى رجل في المنام، قائلا يقول: من زار قبر أحمد بن حنبل غفر له. قال: فلم يبق خاص، ولا عام، إلا زاره.

قال ابن الجوزي: وعقدت يومئذ مجلسا، فاجتمع فيه ألوف من الناس.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أسعد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، أبو منصور سمع الحديث الكثير، وكان خيرا، صالحا، ممتعا بحواسه، وقواه، إلى حين الوفاة، وقد جاوز المائة، بنحو من سبع سنين رحمه الله

أبو محمد

■ عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي الأندلسي، الرشاطي الحافظ، مصنف كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار، في أنساب الصحابة ورواة الآثار، وهو من أحسن المصنفات الكبار، قتل شهيدا، صبيحة يوم الجمعة، العشرين من جمادى، بالمرية.

■ نصر الله بن محمد بن عبد القوي، أبو الفتح اللاذقي، المصيصي، الشافعي، تفقه بالشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي، بصور، وسمع بها منه، ومن أبي بكر الخطيب، وسمع ببغداد، والأنبار، وكان من مشايخ الشام، فقيها في الأصول والفروع، وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز التسعين بأربع سنين رحمه الله

■ هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة أبو السعادات بن الشجري النحوي، ولد سنة خمسين وأربعمائة، وسمع الحديث، وانتهت إليه رياسة النحاة.

قال: ما سمعت بيتا في الذم، أبلغ من قول مسكويه

وما أنا إلا المسك قد ضاع عندكم يضيع وعند الأكثرين يضوع

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها استغاث مجير الدين بن أتابك دمشق، بالملك نور الدين محمود، صاحب حلب، على الفرنج، فركب سريعا، فالتقاهم بأرض بصرى، فهزمهم، ورجع، فنزل على الكسوة، وخرج ملك دمشق مجير الدين أبق، فخدمه، واحترمه، وشاهد الدماشقة حرمة نور الدين.

وفيها ملكت الفرنج المهدية، وهرب منها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن بُلكّين بن زيري بأهله، وخاف على أمواله، فتمزقت في البلاد، وتمزق هو أيضا في البلاد، وأكلتهم الأقطار، وكان آخر ملوك بني باديس، كان ابتداء ملكهم في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، فدخل الفرنج إليها، وخزائنها مشحونة بالحواصل، والأموال، والعدد، وغير ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها حاصرت الفرنج وهم في سبعين ألف مقاتل، ومعهم ملك الألمان، في خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل، دمشق، وعليها مجير الدين ابق، وأتابكه معين الدين، وهو مدبر المملكة، وذلك يوم السبت، سادس ربيع الأول، فخرج إليهم أهلها، في مائة ألف وثلاثين ألفا، فاقتتلوا معهم قتالا شديدا، قتل من المسلمين في أول يوم نحو من مائتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون، واستمرت الحرب مدة، وأخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله، يدعون الله عز وجل، والنساء والأطفال مكشفي الرؤوس، يدعون، ويتباكون، والرماد مفروش في البلد، فاستغاث أبق بنور الدين محمود صاحب حلب، وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعا في نحو من سبعين ألفا، بمن انضاف إليهم من الملوك، وغيرهم.

فلما سمعت الفرنج بقدوم الجيش، نحوهم أجلوا عن البلد، فلحقهم الجيش، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وجما غفيرا، وقتلوا فيمن قتلوا معهم قسيسا اسمه إلياس، وهو الذي أغراهم بدمشق، وذلك أنه افترى مناما عن المسيح، أنه وعده فتح دمشق، فقتل لعنه الله وقد كادوا يأخذون البلد، ولكن الله سلم، وحماها بحوله وقوته. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] ومدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها، لأنها المحلة التي أخبر رسول الله ﷺ عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وقد قتل الفرنج خلقا كثيرا من أهل دمشق، وممن قتلوا الفقيه الكبير، الملقب حجة الدين شيخ المالكية بها، أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي، بأرض النيرب، ودفن بمقابر باب الصغير، وكان مجير وقد صالح معين الدين الفرنج عن دمشق ببانياس، فرحلوا عنها، وتسلموا بانياس.

وفيها وقع بين السلطان مسعود وأمرائه، ففارقوه، وقصدوا بغداد، فاقتتلوا مع العامة، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، من الصغار، والكبار، ثم اجتمعوا قبالة التاج، وقبلوا الأرض، واعتذروا إلى الخليفة مما وقع، وساروا نحو النهروان، فتفرقوا في البلاد، ونهبوا أهلها، فغلت الأسعار بالعراق بسبب ذلك.

وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن الدامغاني، بعد وفاة الزينبي.

وفيها ملك سوري بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة، فذهب صاحبها بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم، من أولاد سبكتكين، إلى فرغانة، فاستغاث بملكها، وجاء بجيوش عظيمة، فاقتلع غزنة من يد سوري، وأخذه أسيرا، فصلبه، وقد كان كريما جوادا، كثير الصدقات.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن محمد بن نبهان بن محرز الغنوي الرقي، سمع الحديث، وتفقه بالشاشي، والغزالي، وكتب شيئا كثيرا من مصنفاته، وقرأها عليه، وصحبه كثيرا، وكان حسناً مهيبا، كثير الصمت، بهيّ السَّمت توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين.

■ شاهان شاه بن أيوب بن شادي، استشهد مع نور الدين، وهو والد الست عذراء، واقفة العذراوية، وتقي الدين عمر، واقف التقوية وغير ذلك.

■ علي بن الحسين بن محمد بن علي الزينبي، أبو القاسم الأكمل بن أبي طالب نور الهدى بن أبي الحسن نظام الحضرتين ابن نقيب النقباء أبي القاسم بن القاضي أبي تمام العباسي، قاضي القضاة ببغداد وغيرها، سمع الحديث، وكان فقيها، رئيسا، وقورا، حسن الهيئة والسمت، قليل الكلام، سافر مع الخليفة الراشد إلى الموصل، وجرت له فصول، ثم عاد إلى بغداد، فمات بها في هذه السنة، وقد جاوز الستين، وكانت جنازته حافلة رحمه الله رحمة واسعة.

أبو الحجاج

■ يوسف بن دوناس الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، قتل يوم السبت، سادس ربيع الأول، قريبا من الربوة، في أرض النيرب، هو والشيخ عبد الرحمن الحلحولي أحد الزهاد، قتلا معا رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها كانت وفاة القاضي

■ عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، قاضيها، أحد مشايخ العلماء المالكية، وصاحب المصنفات الكثيرة المفيدة، الشهيرة منها الشفا، وشرح مسلم، ومشارق الأنوار، وغير ذلك، وله شعر حسن، وكان إماما في علوم كثيرة، كالفقه، واللغة، والحديث، والأدب، وأيام الناس، ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة، وتوفي يوم الجمعة، في جمادى الآخرة، وقيل في رمضان، من هذه السنة، بمدينة سبتة. رحمه الله.

وفيها غزا الملك نور الدين محمود بن زنكي، صاحب حلب بلاد الفرنج، فقتل منهم خلقا، كثيراً وجمّاً غفيراً وكان فيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وفتح شيئا كثيرا من قلاعهم، ولله الحمد.

وكان قد استنجد بمعين الدين بن أتابك دمشق، فأرسل إليه، بفريق من جيشه، صحبة الأمير مجاهد الدين بن مُزّان بن مامين، نائب صرخد، فأبلوا بلاء حسنا، وقد قال الشعراء في هذه الغزوة أشعارا كثيرة، منهم ابن القيسراني، وغيره، وقد سردها أبو شامة في الروضتين [١٥٢/١].

وفي يوم الأربعاء، ثالث ربيع الآخر، استوزر للخلافة أبو المظفر يحيى بن هبيرة، ولقب عون الدين، وخلع عليه.

وفي رجب قصد ملكشاه بن محمود بغداد، ومعه خلق من الأمراء، ومعه علي بن دبيس، وجماعة من التركمان، وغيرهم، وطلبوا من الخليفة أن يخطب له، فامتنع من ذلك، وتكررت المكاتبات، وأرسل الخليفة إلى السلطان مسعود يستحثه في القدوم، فتمادى عليه، وضاق النطاق، واتسع الخرق على الراقع، وكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه مسعود يستحثه إن لم يسرع المشي إلى الخليفة، فما جاء إلا في أواخر السنة، فانقشعت تلك الشرور كلها، وتبدلت سرورا أجمعها.

وفي هذه السنة، زلزلت الأرض زلزالا شديدا، وتموجت الأرض عشر مرات، وتقطع جبل بحلوان، وانهدم الرباط البهروزي، وهلك خلق كثير بالبرسام، لا يتكلم المرضى حتى يموتوا.

وفيها مات سيف الدين

■ غازي بن زنكي، صاحب الموصل، وملك بعده أخوه قطب الدين مودود بن زنكي، وتزوج بامرأة أخيه، التي لم يدخل بها، الخاتون بنت تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، صاحب ماردين، فولدت له أولادا، كلهم ملكوا الموصل، وكانت هذه الخاتون، تضع خمارها بحضرة خمسة عشر ملكا.

وفيها سار الملك نور الدين محمود إلى سنجار، ففتحها، فجهز إليه أخوه قطب الدين مودود جيشا، ليرده عنها، ثم اصطلحا، فعوضه منها الرحبة، وحمص، واستمرت سنجار لقطب الدين، وعاد نور الدين إلى بلده. وغزا في هذه السنة الفرنج، فقتل منهم خلقا، وأسر البرنس صاحب أنطاكية، فمدحه الشعراء، منهم الفتح القيسراني، بقصيدة طنانة يقول في آخرها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها ... براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدك يبني كل شاهقة ... حتى بنى قبة أوتادها الشهب

وفيها فتح نور الدين حصن أفامية، وهو قريب من حماة.

وفيها مات صاحب مصر

■ الحافظ لدين الله عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر، فقام بالأمر من بعده ولده الظافر إسماعيل، وقد كان أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش قد استحوذ على الحافظ، وخطب بمصر للقائم آخر الزمان وأذن بحي على خير العمل، وللحافظ وضع طبل القولنج، الذي إذا ضربه من به القولنج يخرج منه القولنج والريح الذي به.

وخرج بالحجيج الأمير نظر الخادم، فمرض بالكوفة فرجع، واستخلف عليهم مولاه قيماز، وحين وصوله إلى بغداد توفي بعد أيام، فطمعت العرب في الحجيج، فوقفوا لهم في الطريق وهم راجعون، فضعف قايماز عن مقاومتهم، فأخذ لنفسه أمانا وهرب، وأسلم إليهم الحجيج، فقتلوا أكثرهم، وأخذوا أموال الناس، وقل من سلم فيمن نجا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها مات معين الدين أنز أتابك العساكر بدمشق، وكان أحد مماليك طغتكين، ثم كان بعد ذلك أتابك الملوك بدمشق وهو والد الست عصمة الدين خاتون زوجة الملك نور الدين، وهو واقف المدرسة المعينية، داخل باب الفرج، وقبره في قبة قِبليِّ الشامية البرانية، بمحلة العونية، عند دار البطيخ.

ولما مات معين الدين، قويت شوكة الوزير الرئيس، مؤيد الدولة على ابن الصوفي، وأخيه زين الدولة حيدرة، ووقعت بينهما وبين الملك مجير الدين أبق وحشة، اقتضت أن حشدا من العامة والغوغاء ما يقاومه، فاقتتلوا، فقتل خلق من الفريقين. ثم وقع الصلح بعد ذلك وامتدحه الشعراء.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن نظام الملك الحسن بن علي أبو نصر الوزير للمسترشد، والسلطان محمود، وقد سمع الحديث، وكان من خيار الوزراء رحمه الله.

■ أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني، قاضي تستر، روى الحديث، وكان له شعر حسن يبتكر معاني حسنة، فمن ذلك قوله:

ولما بلوت الناس أطلب منهم ... أخا ثقة عند اعتراض الشدائد

تطعمت في حالي رخاء وشدة ... وناديت في الأحياء هل من مساعد

فلم أر فيما ساءني غير شامت ... ولم أر فيما سرني غير حاسد

فطلقت ود العالمين جميعهم ... ورحت فلا ألوي على غير واحد

تمتعتما يا ناظري بنظرة ... وأوردتما قلبي أمرَّ الموارد

أعيني كفا عن فؤادي فإنه ... من البغي سعي اثنين في قتل واحد

■ عيسى بن هبة الله بن عيسى، أبو عبد الله النقاش، سمع الحديث، ومولده سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

قال ابن الجوزي: وكان ظريفا خفيف الروح، له نوادر حسنة، قد رأى الناس، وعاشر الأكياس، وكان يحضر مجلسي، ويكاتبني، وأكاتبه، كتبت إليه مرة، فعظمته في الكتابة، فكتب إلي:

قد زدتني في الخطاب، حتى ... حسبت نقصا من الزياده

فاجعل خطابي خطاب مثلي ... ولا تغير على عاده

وله:

إذا وجد الشيخ في نفسه ... نشاطا فذلك موت خفي

ألست ترى أن ضوء السراج ... له لهب قبل أن ينطفي

■ غازي بن آق سنقر الملك سيف الدين صاحب الموصل، وهو أخو نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم دمشق، فيما بعد، وقد كان سيف الدين هذا من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة، وأجودهم سريرة، وأصبحهم صورة، شجاعا كريما، يذبح كل يوم لجيشه مائة من الغنم، ولمماليكه ثلاثين راسا، وفي يوم العيد ألف رأس، سوى البقر، والدجاج، وهو أول من حمل على رأسه سنجق من ملوك الأطراف، وأمر الجند أن لا يركبوا إلا بسيف ودبوس، وبنى مدرسة بالموصل، ورباطا للصوفية، وامتدحه الحيص بيص، فأعطاه ألف دينار عينا، وخلعة.

ولما توفي بالحمى، في جمادى الآخرة من هذه السنة، دفن في مدرسته المذكورة، وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة ملكه بعد أبيه ثلاث سنين وخمسين يوما، رحمه الله

■ نظر الخادم أمير الحاج، مدة عشرين سنة وأكثر، سمع الحديث، وقرأ على ابن الزاغوني، وكان يحب العلم، والصدقة والبر، وكان الحاج معه في غاية الدعة والراحة، والأمن، وذلك لشجاعته، ووجاهته عند الخلفاء، والملوك والأمراء.

توفي ليلة الثلاثاء، الحادي عشر من ذي القعدة، ودفن بالرصافة.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

فيها فتح نور الدين محمود حصن أفامية، وهو من أحصن القلاع، وقيل فتحه في التي قبلها.

وفيها قصد دمشق، ليأخذها، فلم يتفق له ذلك، فخلع على ملكها مجير الدين أبق وعلى وزيره الرئيس ابن الصوفي، وتقررت الخطبة له بها بعد الخليفة، والسلطان، وكذلك السكة.

وفيها فتح نور الدين حصن عزاز، وأسر ملكها ابن جوسليق، ففرح المسلمون بذلك، ثم أسر بعده والده جوسليق الملك الفرنجي، فتزايدت الفرحة بذلك، وفتح بلادا كثيرة من بلاده.

وفي المحرم منها، حضر يوسف الدمشقي تدريس النظامية، وخلع عليه، وحضر عنده الأعيان ولما لم يكن ذلك بإذن الخليفة، بل بمرسوم السلطان، وابن نظام الملك، منع من ذلك، فلزم بيته، ولم يعد إلى المدرسة بالكلية، وتولاها الشيخ أبو النجيب، بإذن الخليفة، ومرسوم السلطان.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة وقع مطر باليمن، كله دم، حتى صبغ ثياب الناس.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم، بن أبي الحسن، أبو المفاخر النيسابوري، قدم بغداد، فوعظ بها، وجعل ينال من الأشاعرة، فأحبته الحنابلة، ثم اختبروه، فإذا هو معتزلي، ففتر سوقه، وجرت بسببه فتنة ببغداد، وقد سمع منه ابن الجوزي شيئا من شعره من ذلك:

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا ... وقضوا ومات من بعدهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوي سفه ... لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

■ عبد الملك بن عبد الوهاب الحنبلي القاضي بهاء الدين، كان يعرف مذهبي أبي حنيفة وأحمد، ويناظر عنهما، ودفن مع أبيه وجده، بقبور الشهداء.

■ عبد الملك بن أبي نصر بن عمر أبو المعالي الجيلي، كان فقيها، صالحا، دينا متعبدا، فقيرا، ليس له بيت يسكنه، وإنما يبيت في المساجد المهجورة، وقد خرج مع الحجيج، فأقام بمكة يعبد ربه، ويفيد العلم، فكان أهلها يثنون عليه خيرا.

الفقيه أبو بكر

■ ابن العربي المالكي، شارح الترمذي، كان فقيها عالما، وزاهدا عابدا، وسمع الحديث بعد اشتغاله في الفقه، وصحب الغزالي وأخذ عنه، وكان يتهمه برأي الفلاسفة، ويقول دخل في أجوافهم فلم يخرج منها، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

فيها أغار جيش السلطان على بلاد الإسماعيلية، فقتلوا خلقا، ورجعوا سالمين.

وفيها حاصر نور الدين دمشق شهراً، ثم ترحل عنها إلى داريا، وكان الصلح على يدي البرهان البلخي.

وفيها اقتتل الفرنج، وجيش نور الدين محمود، فانهزم المسلمون، وقتل منهم خلق، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولما وقع هذا الأمر، شق ذلك على نور الدين، وترك الترفه، وهجر اللذة حتى يأخذ بالثار، واغرى بهم جماعة من التركمان، فترصدوا لملكهم جوسلين الإفرنجي، فلم يزالوا به حتى أسروه في بعض متصيداته، فأرسل نور الدين فكبس التركمان، وأخذ منهم جوسلين أسيرا، وكان من أعتى الكفرة، وأعظم الفجرة، فاوقفه بين يديه في أذل حال، ثم سجنه. ثم سار نور الدين إلى بلاده، فأخذها كلها بما فيها.

وفي ذي الحجة، جلس ابن العبادي في جامع المنصور، وتكلم وعنده جماعة من الأعيان، فكادت الحنابلة يثيرون فتنة ذلك اليوم، لكونه غير حنبلي ولكن لطف الله وسلم.

وحج بالناس فيها قايماز الأرجواني.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ برهان الدين أبو الحسن علي البلخي شيخ الحنفية بدمشق، درس بالبلخية، ثم بالخاتونية البرانية، وكان عالما عاملا، ورعا زاهدا، ودفن بمقابر باب الصغير.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها توفي السلطان مسعود، وقام بالأمر من بعده أخوه ملكشاه بن محمود، ثم جاء السلطان محمد، وأخذ الملك،واستقر له، وقتل الأمير خاص بك، وأخذ أمواله، وألقاه للكلاب، فاختبطت بغداد واضطربت الأمور وتغيرت القواعد وبلغ الخليفة أن واسطاً قد تخبطت أيضا، فركب إليها في الجيش، في أبهة عظيمة، وأصلح شأنها، وكر على الكوفة والحلة، ثم عاد إلى بغداد مؤيداً منصوراً، فزينت له البلد و لله الحمد.

وفيها ملك عبد المؤمن صاحب المغرب بجاية، وهي بلاد بني حماد، فكان آخر ملوكهم، يحيى بن عبد العزيز بن حماد، ثم بعث جيشا إلى صنهاجة، فحاصرها، وأخذ أموالها.

وفيها كانت وقعة عظيمة، بين نور الدين محمود، وبين الفرنج، فكسرهم، وقتل منهم خلقا، ولله الحمد.

وفيها اقتتل السلطان سنجر، وملك الغور علاء الدين الحسين بن الحسين أول ملوكهم، فكسره سنجر وأسره، فلما أحضره بين يديه قال له: ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني؟ فأخرج قيدا من فضة، وقال: كنت أقيدك بهذا. فعفا عنه، وأطلقه إلى بلاده، فسار إلى غزنة، فانتزعها من يد صاحبها، بهرام شاه السبكتكيني، واستخلف عليها أخاه سيف الدين، فغدر به أهل البلد وسلموه إلى بهرام شاه، فصلبه، ومات بهرام شاه قريبا، فسار إليه علاء الدين، فهرب خسرو بن بهرام شاه عنها، فدخلها علاء الدين، فنهبها ثلاثة أيام، وقتل من أهلها بشرا كثيرا، وسخر أهلها، فحملوا ترابا في مخال إلى محلة هنالك، بعيدة عن البلد، فعمر من ذلك التراب قلعة معروفة إلى الآن. وبذلك انقضت دولة بني سبكتكين عن بلاد غزنة، وغيرها، وقد كان ابتداء أمرهم في سنة ست وستين وثلاثمائة، إلى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وكانوا من خيار الملوك، وأكثرهم جهادا في الكفرة، وأكثرهم أموالا، ونساء، وعددا، وعددا، وقد كسروا الأصنام، وأبادوا الكفار، وجمعوا من الأموال ما لم يجمع غيرهم من الملوك، مع أن بلادهم كانت من أطيب البلاد، وأكثرها ريفا، ومياها، ففني جميعه، وزال عنهم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ثم ملك الغور، والهند، وخراسان، واتسعت ممالكهم، وعظم سلطانهم وحكى ابن الجوزي [في المنتظم: ٨٣/١٨] أن في هذه السنة، باض ديك بيضة واحدة، ثم باض باز بيضتين، وباضت نعامة ليس لها ذكر، وهذا شيء عجيب!

ومن توفي فيها من الأعيان

■ المظفر بن أردشير أبو منصور العبادي، الواعظ، سمع الحديث، ودخل إلى بغداد، فأملى، ووعظ، وكان يكتب ما يعظ الناس به، فاجتمع له من ذلك مجلدات.

قال ابن الجوزي: لا تكاد تجد في المجلد خمس كلمات جيدة. وتكلم فيه، وأطال الحط عليه، واستحسن من كلامه قوله: وقد سقط مطر وهو يعظ الناس، ففرَّ الناس إلى ما تحت الجدران، فقال لا تفروا من رشاش ماء رحمة قطر من سحاب نعمة، ولكن فروا من شرار نار اقتدح من زناد الغضب. توفي وقد جاوز الخمسين بقليل.

■ مسعود السلطان بن محمد بن ملكشاه بن ألب رسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق التركي السلجوقي صاحب العراق وغيرها، وحصل له من التمكن والسعادة شيء كثير لم يحصل لغيره، وجرت له خطوب كثيرة وحروب طويلة، كما تقدم بعض ذلك، وقد أسر في بعض تلك الحروب الخليفة المسترشد، كما تقدم، وكانت وفاته يوم الأربعاء، سلخ جمادى الآخرة من هذه السنة.

■ يعقوب الخطاط الكاتب توفي بالنظامية، فجاء ديوان الحشرية ليأخذوا ميراثه، لبيت المال فمنعهم الفقهاء، فجرت فتنة عظيمة، آل الحال

إلى عزل مدرسها الشيخ أبي النجيب، وضربه في الديوان تعزيرا.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها وقعت الحرب بين السلطان سنجر وبين الأتراك، ببلاد بلخ فقتلوا من جيشه خلقا كثيرا، بحيث صارت القتلى مثل التلال العظيمة، وأسروا السلطان سنجر، وقتلوا من كان معه من الأمراء صبرا، ولما أحضروه، قاموا بين يديه، وقبلوا الأرض له، وقالوا نحن عبيدك، وكانوا عدة من الأمراء الكبار، فأقام شهرين، ثم أخذوه، وساروا به، فدخلوا مرو، وهي كرسي مملكة خراسان، فسأله بعضهم أن يجعلها له إقطاعا، فقال سنجر: هذا لا يمكن، هذه كرسي المملكة. فضحكوا منه، وأضرط به بعضهم فنزل عن سرير المملكة، ودخل خانقاه، وصار فقيرا، من جملة أهلها، وتاب عن الملك، واستحوذ أولئك الأتراك على البلاد، فنهبوها، وتركوها قاعا صفصفا، وأفسدوا في الأرض فسادا عريضا، وأقاموا سليمان شاه ملكا، فلم تطل أيامه، حتى عزلوه، وولوا ابن أخت سنجر الخاقان محمود بن محمد بن كوخان، وتفرقت الأمور، واستحوذ كل إنسان منهم على ناحية من تلك الممالك، وصارت الدولة دولا.

وفيها كانت حروب كثيرة، بين عبد المؤمن، وبين العرب ببلاد المغرب.

وفيها أخذت الفرنج مدينة عسقلان من السواحل.

وفيها خرج الخليفة إلى واسط في جحفل، فأصلح شأنها، وعاد إلى بغداد.

وحج بالناس فيها قايماز الأرجواني.

وفيها كانت وفاة الشاعرين، القرينين، المشبهين، في الزمان الأخير بالفرزدق وجرير وهما:

أبو الحسن

■ أحمد بن منير الجوني بحلب.

وأبو عبد الله

■ محمد بن نصر بن صغير القيسراني الحلبي بدمشق رحمهما الله.

و■ علي بن السلار الملقب بالعادل وزير الظافر صاحب مصر، وهو باني المدرسة بالإسكندرية للشافعية، للحافظ أبي طاهر السلفي، وقد كان العادل هذا ضد اسمه، كان ظلوما، غشوما، حطوما، وقد ترجمه ابن خلكان.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها ركب الخليفة المقتفي، في جيش كثيف، إلى تكريت، فحاصر قلعتها، ولقي هناك جمعا من الأتراك، والتركمان، فاظفره الله بهم، وهزمهم له، وأعلى كلمته عليهم ثم عاد إلى بغداد مؤيداً منصوراً.

وجاءت الأخبار بأن مصر قد قتل خليفتها الظافر، ولم يبق منهم إلا صبي صغير ابن خمس سنين، وقد ولوه عليهم، ولقبوه الفائز، فكتب الخليفة عهدا للملك نور الدين محمود بن زنكي، بالولاية على بلاد الشام، والديار المصرية، وأرسله إليها.

وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكون الساعة، وزلزلت الأرض، وتغير ماء دجلة إلى الحمرة، وظهر بأرض واسط بالأرض دم لا يعرف سببه، وجاءت الأخبار أن الملك سنجر في أسر الترك، وهو في غاية الذل والإهانة، وأنه يبكي على نفسه في كل وقت.

وفيها انتزع الملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق من يد ملكها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وذلك لسوء سيرته، وضعف دولته، ومحاصرة العامة له في القلعة غير مرة مع وزيره الرئيس مؤيد الدولة المسيب بن الصوفي، وتغلب الخادم عطاء على المملكة، مع ظلمه، وغشمه، وكان الناس يدعون الله ليلا ونهارا أن يبدلهم بالملك نور الدين، واتفق مع ذلك أن الفرنج أخذوا عسقلان، فحزن فتحرّق نور الدين على ذلك، ولا يمكنه الوصول إليهم، لأن دمشق بينه وبينهم، ويخشى أن يحاصروا دمشق، بعَسْفٍ فينبعث ملكها إلى الفرنج فينجدونه كما جرى غير مرة، لأنّ الفرنج لا يريدون أن يملك نور الدين دمشق، لأنه بها عليهم، ولا يطيقونه، فأرسل بين يديه الأمير أسد الدين شيركوه، في ألف فارس، في صفة طلب الصلح، فلم يلتفت إليه مجير الدين، ولا خرج إليه أحد من أعيان أهل البلد، فكتب إلى نور الدين بذلك، فركب الملك نور الدين في جيشه، فنزل عيون الفاسريا من أرض دمشق، ثم انتقل إلى قريب من الباب الشرقي، ففتحها قهرا، ودخل البلد بعد حصار عشرة أيام، وكان دخوله في يوم الأحد، عاشر صفر، من هذه السنة، وتحصن مجير الدين في القلعة، فأنزله منها، وعوضه مدينة حمص ودخل نور الدين القلعة، واستقرت يده على دمشق، ولله الحمد. فنادي في البلد بالأمان، والبشارة بالخير، ثم وضع عنهم المكوس، وقرئت عليهم التواقيع على المنابر، ففرح الناس بذلك، وأكثروا الدعاء له، وكتب ملوك الفرنج إليه، يهنئونه بدمشق، ويتقربون إليه، ويخضعون له.

ومن توفي فيها من الأعيان

الرئيس مؤيد الدولة

■ المسيّب بن الصوفي وزير دمشق لمجير الدين، وقد ثار على الملك غير مرة، ويستفحل أمره، ثم يقع الصلح بينهما كما تقدم.

■ عطاء الخادم أحد أمراء دمشق، وقد تغلب على الأمور أيام مجير الدين، وكان ينوب ببعلبك في بعض الأحيان، وقد كان ظالماً غاشماً وهو الذي ينسب إليه مسجد عطاء خارج باب شرقي والله أعلم.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة هجرية

فيها خرج الخليفة المقتفي لأمر الله في تجمل عظيم إلى دقوقا، فحاصرها، فخرج إليه أهلها فسألوه أن يرحل عنهم، فإن أهلها قد هلكوا بين الجيشين، فأجابهم، ورحل عنهم، وعاد إلى بغداد بعد شهرين ونصف، ثم خرج نحو الحلة، والكوفة، والجيش بين يديه، وقال له سليمان شاه: أنا ولي عهد سنجر، فإن قررت لي ذلك، وإلا فأنا كأحد الأمراء. فوعده خيرا، وكان يحمل الغاشية بين يدي الخليفة على كاهله، فمهد الأمور، وسلم علي مشهد علي، إشارة بأصبعيه، وكان قد عزم على دخول المشهد فنهاه الوزير ابن هبيرة عن ذلك كأنه خاف عليه من غائلة الروافض، والله أعلم.

وفيها افتتح نور الدين بعلبك، عودا على بدء، وذلك أن نجم الدين أيوب، كان نائبا بها على البلد، والقلعة، فسلمه إلى رجل، يقال له الضحاك البقاعي، فكاتب نجم الدين لنور الدين، ولم يزل نور الدين يتلطف، حتى

أخذ القلعة أيضا، واستدعى بنجم الدين أيوب إليه، إلى دمشق، فأقطعه إقطاعا حسنا، وأكرمه من أجل أخيه أسد الدين، فإنه كانت له ليد الطولى، في فتح دمشق، للملك العادل نور الدين وجعل الأمير شمس الدولة توران شاه بن نجم الدين، شحنة دمشق، ثم من بعده، جعل أخاه صلاح الدين يوسف هو الشحنة، وجعله من خواصه، لا يفارقه، حضرا، ولا سفرا، لأنه كان حسن الشكل، حسن اللعب بالكرة، وكان نور الدين، يحب لعب الكرة، لتمرين الخيل، وتعليمها، الكر، والفر، وفي شحنكية صلاح الدين يوسف يقول عرقلة الشاعر:

رويدكم يا لصوص الشآم ... فإني لكم ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي ... يوسف رب الحجا والجمال
فذاك مقطع أيدي النساء ... وهذا مقطع أيدي الرجال

وقد ملك توران شاه بلاد اليمن فيما بعد ذلك، وكان يلقب شمس الدولة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر الحافظ، أبو الفضل البغدادي، ولد ليلة النصف من شعبان، سنة سبع وستين وأربعمائة، وسمع الكثير، وتفرد بمشايخ، وكان حافظا، ضابطا، مكثرا من أهل السنة، كثير الذكر، سريع الدمعة.

وقد تخرج به جماعة، منهم الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي، سمع بقراءته مسند الإمام أحمد، وغيره من الكتب الكبار، وكان يثني عليه كثيرا، وقد رَدَّ على أبي سعد السمعاني، في قوله في محمد بن ناصر: يحب أن يقع في الناس.

قال ابن الجوزي: والكلام في الجرح والتعديل، ليس من هذا القبيل، وإنما ابن السمعاني، يحب أن يتعصب على أصحاب الإمام أحمد، نعوذ بالله، من سوء القصد والتعصب.

كانت وفاة محمد بن ناصر ليلة الثلاثاء، الثامن عشر من شعبان من هذه السنة، عن ثلاث وثمانين سنة، وصلى عليه مرات، ودفن بباب حرب رحمه الله

■ مجلي بن جميع بن نجى أبو المعالي المخزومي الأرسوفي، ثم المصري، قاضيها، الفقيه الشافعي، مصنف الذخائر، في المذهب وفيها غرائب كثيرة، وهي من الكتب المفيدة رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

في المحرم منها، دخل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي إلى بغداد وعلى رأسه الشمسية، فتلقاه الوزير ابن هبيرة، وأدخله على الخليفة فقبل الأرض، وحلفه على الطاعة، وصفاء النية، والمناصحة، والمودة، وخلع عليه خلع الملوك، وتقرر أن للخليفة العراق، ولسليمان شاه ما يفتحه من خراسان، ثم خطب له ببغداد بعد الملك سنجر، ثم خرج منها في ربيع الأول، فاقتتل هو والسلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، فهزمه محمد، وهزم عسكره، فذهب هارباً، فتلقاه نائب قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، فأسره، وحبسه بقلعة الموصل، وأكرمه مدة حبسه وخدمه، وهذا من أغرب الاتفاقات.

وفيها ملكت الفرنج المهدية من بلاد المغرب بعد حصار شديد.

وفيها فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل حارم، واقتلعها من أيدي الفرنج، وكانت من أحصن القلاع، وأمنع البقاع، وذلك بعد قتال عظيم، ووقعة هائلة، كانت من أكبر الفتوحات، وامتدحه الشعراء عند ذلك.

وفيها هرب الملك سنجر من الأسر، وعاد إلى ملكه بمرو، وكان له في أيديهم نحو من خمس سنين.

وفيها استعمل عبد المؤمن ملك الغرب أولاده على بلاده، استناب كل واحد في بلد كبير.

ذكر حصار بغداد

وسبب ذلك أن السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه أرسل إلى المقتفي، بأمر الله يطلب منه أن يخطب له ببغداد، فلم يجبه إلى ذلك، فسار من همذان إلى بغداد ليحاصرها، فانجفل الناس، وحصن الخليفة البلد، وجاء السلطان محمد، فحصر بغداد، ووقف تجاه التاج من دار الخلافة في جحفل عظيم، ورموا نحوه بالنشاب، وقاتلت العامة مع الخليفة قتالا شديدا، بالنفط، وغيره، واستمر القتال مدة، فبينما هم كذلك إذ جاءه الخبر أن أخاه، قد خلفه في همذان، فانشمر عن بغداد راحلا إلى همذان، في ربيع الأول، من سنة اثنتين وخمسين، وتفرقت عنه العساكر الذين كانوا معه في البلاد، وأصاب الناس بعد هذا القتال مرض شديد، وموت ذريع، واحترقت محال كثيرة من بغداد، واستمر ذلك فيها مدة شهرين.

وفيها أطلق أبو البدر بن الوزير بن هبيرة من قلعة تكريت، وكان له فيها معتقلا ثلاث سنين، فتلقاه الناس إلى أثناء الطريق، وامتدحه الشعراء، وكان من جملتهم الأبله الشاعر، أنشد الوزير قصيدة يقول في أولها:

بأي لسان للوشاة ألام ... وقد علموا أني سهرت وناموا؟

إلى أن قال:

ويستكثرون الوصل لي منك ليلة ... وقد مر عام بالصدود وعام

فطرب الخليفة عند ذلك. وخلع عليه ثيابه، وأطلق له خمسين دينارا.

وحج بالناس قايماز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ علي بن الحسين أبو الحسن الغزنوي الواعظ، كان له قبول كثير من العامة، وبنت له الخاتون زوجة المستظهر رباطا بباب الأزج، ووقفت عليه أوقافا كثيرة، وحصل له جاه عريض وزاره السلطان، وكان حسن الإيراد، مليح الوعظ، يحضر مجلسه خلق كثير، وجم غفير من أصناف الناس. وقد استملح ابن الجوزي أشياء من وعظه، قال: وسمعته يوما يقول: حزمة حزن خير من أعدال أعمال. ثم أنشد:

كم حسرة لي في الحشا ... من ولد إذا نشا
أملت فيه رشده ... فما نشا كما أشا

قال وسمعته يوماً ينشد:

يحسدني قومي على صنعتي ... لأنني في صنعتي فارس

سهرت في ليلي واستعمـوا … وهل يستوي الساهر والناعس؟

قال: وكان يقول: تولون اليهود والنصارى، فيسبون نبيكم في يوم عيدكم، ثم يصبحون، يجلسون إلى جانبكم؟ ثم يقول: الا هل بلغت؟

قال: وكان يتشيع، ثم سُعي في منعه من الوعظ، ثم أذن له، ولكن ظهر للناس أمر العبادي،وكان كثير من الناس يميلون إليه،وقد كان السلطان مسعود يعظمه، ويحضر مجلسه،فلما مات السلطان مسعود ذلّ الغزنوي بعده، وأهين إهانة بالغة، فمرض، ومات في المحرّم من هذه السنة.

قال ابن الجوزي: وبلغني أنه كان يعرق في نزعه، ثم يفيق وهو يقول: رضى وتسليم. ولما مات دفن في رباطه الذي كان فيه.

■ محمود بن إسماعيل بن قادوس أبو الفتح الدمياطي، كاتب الإنشا بالديار المصرية، وهو شيخ القاضي الفاضل، وكان يسميه ذا البلاغتين، وذكره العماد الكاتب في «الخريدة». وأثنى عليه ومن شعره فيمن يكرر التكبير في أول الصلاة:

وفاتر النِّيةِ عِنِّينها … مع كثرة الرعدة والهزّة
يكبِّر السبعين في مرة … كأنه يصلي على حمزة

■ (ابن الحوراني).

الشيخ أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحوراني، الفقيه، الزاهد، العابد، الناسك، الخاشع قدس الله روحه، قرأ القرآن، وكتاب التنبيه على مذهب الشافعي، وكان حسن المعرفة باللغة، كثير المطالعة، وله كلام يؤثر عنه، ورأيت له كتابا بخطه، فيه النظائم التي له، يقولها أصحابه وأتباعه، بلهجة غريبة، وقد كان من نشأته إلى أن توفي على طريقة صالحة، وقد زاره الملك نور الدين محمود في رباطه داخل درب الحجر، ووقف عليه شيئا، وكانت وفاته يوم الثلاثاء، الثالث ربيع الأول، من هذه السنة، ودفن بمقابر باب الصغير، وكان يوم جنازته يوما مشهودا. وقد ذكرته في طبقات الشافعية، رحمه الله.

■ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر بن أحمد بن سعيد، الفارسي الحافظ، تفقه بإمام الحرمين، وسمع الكثير على جده لأمه، أبي القاسم القشيري، ورحل إلى البلاد، وأسمع الكثير وصنف المفهم في غريب مسلم، وغيره، وولي خطابة نيسابور، وكان فاضلا، بارعاً، دينا، حافظا.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة

استهلت هذه السنة، ومحمد شاه بن محمود محاصر بغداد، والعامة والجند من جهة الخليفة المقتفي يقاتلون أشد القتال، والجمعة لا تقام لعذر القتال، والفتنة كبيرة، ثم يسر الله، بذهاب السلطان، كما تقدم ذكر ذلك في السنة التي قبلها، وقد بسط ذلك ابن الجوزي في هذه السنة، فطول.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام، هلك بسببها خلق كثير، لا يعلمهم إلا الله، وتهدم أكثر حلب، وحماه، وشيزر، وحمص، وكفرطاب، وحصن الأكراد، واللاذقية، والمعرة، وأفامية وأنطاكية، وطرابلس.

قال ابن الجوزي: وأما شيزر، فلم يسلم منها إلا امرأة وخادم لها، وهلك الباقون، وأما كفرطاب فلم يسلم من أهلها أحد، وأما أفامية فساخت قلعتها، وتل جران انقسم نصفين، فأبدى نواويس، وبيوتا كثيرة في وسطه. قال: وهلك من مدائن الفرنج شيء كثير وتهدم أسوار أكثر مدن الشام، حتى أن مكتبا في مدينة حماه انهدم على من فيه من الصغار، فهلكوا عن آخرهم، فلم يأت أحد يسأل عن أحد منهم. وقد ذكر هذا الفصل الشيخ أبو شامة، في كتاب الروضتين [٢٦١/١ - ٢٦٨] مستقصى، وذكر ما قاله الشعراء من القصائد في ذلك.

وفيها ملك السلطان محمود بن زنكي حصن شيزر، بعد حصار شديد، وأخذ مدينة بعلبك، وكان بها الضحاك البقاعي، وقد قيل، إن ذلك كان في سنة خمسين، كما تقدم، فالله أعلم.

وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه، ثم عوفي، ففرح المسلمون فرحا شديدا، واستولى أخوه قطب الدين مودود، صاحب الموصل على جزيرة ابن عمر.

وفيها عمل الخليفة بابا للكعبة مصفحا بالذهب، وأخذ بابها الأول، فجعله لنفسه تابوتا.

وفيها أغارت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فلم يبقوا منهم على أحد، لا زاهدٍ ولا عالم.

وفيها كان غلاء شديد بخراسان، حتى أكلوا الحشرات، وذبح إنسان منهم رجلا علويا، فطبخه، وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قتل.

وذكر أبو شامة أن فتح بانياس كان في هذه السنة، على يد نور الدين بنفسه، وقد كان معين الدولة سلمها إلى الفرنج، صلحاً عن دمشق، نعوضهم بها، وقيل ملكها، وغنم شيئا كثيرا.

وفيها قدم الشيخ أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي، فسُمع عليه البخاري،في دار الوزير ببغداد.

وحج بالناس قايماز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو الليث النسفي من أهل سمرقند، سمع الحديث وتفقه ووعظ، وكان حسن السمت، قدم بغداد، فوعظ الناس، ثم عاد إلى بلده، فقتله قطاع الطريق، رحمه الله تعالى.

■ أحمد بن بختيار بن علي بن محمد، أبو العباس، المندائي، الواسطي، قاضيها، سمع الحديث، وكانت له معرفة تامة بالأدب واللغة، وصنف كتبا في التاريخ، وغير ذلك، وكان ثقة، صدوقا، توفي ببغداد، وصلي عليه بالنظامية.

السلطان

■ سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، أبو الحارث، واسمه أحمد، ولقب بسنجر، مولده في رجب، سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وأقام في الملك نيفا وستين سنة، من ذلك استقلالاً إحدى وأربعين سنة، وقد أسره الغز، نحوا من خمس سنين، ثم هرب منهم، وعاد إلى ملكه بمرو، ثم كانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن في قبة بناها، سماها دار الآخرة، رحمه الله.

■ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت، أبو بكر الخجندي، الفقيه، الشافعي، ولي تدريس النظامية ببغداد، وكان يناظر حسنا، ويعظ الناس، وحوله السيوف مسللة.

قال ابن الجوزي: ولم يكن ماهرا في الوعظ، وكانت حاله أشبه بالوزراء من العلماء، وتقدم عند السلاطين، حتى كانوا يصدرون عن رأيه، توفي

بأصبهان فجأة في هذه السنة.

■ محمد بن المبارك بن محمد بن الخل أبو الحسن بن أبي البقاء، سمع الحديث، وتفقه على الشاشي، ودرس، وأفتى، وتوفي في محرم هذه السنة، وتوفي أخوه الشيخ أبو الحسين بن الخل الشاعر في ذي القعدة منها.

■ يحيى بن عيسى بن إدريس أبو البركات الأنباري الواعظ، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه، ووعظ الناس على طريقة الصالحين، وكان يبكي من أول صعوده إلى حين نزوله، وكان زاهدا، عابدا ورعا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ورزق أولادا صالحين، سماهم بأسماء الخلفاء الأربعة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحفظهم القرآن كلهم وختّم خلقا كثيرا، وكان هو وزوجته يصومان الدهر، ويقومان الليل، ولا يفطران إلا بعد العشاء، وكانت له كرامات، ومنامات صالحة، ولما مات قالت زوجته: اللّهم لا تحيني بعده، فماتت بعده بخمسة عشر يوما، وكانت من الصالحات، رحمهما اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها كثر فساد التركمان، من أصحاب ابن برجم الإيوائي، فجهز إليهم الخليفة منكورس المسترشدي في جيش كثيف، فالتقوا معهم، فهزموهم أقبح هزيمة، وجاؤوا بالأسارى والرؤوس إلى بغداد.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان محمود وبين الغز، فكسروه وقتلوا من أصحابه وغيره خلقاً كثيراً ونهبوا البلاد، وأقاموا بمرو، ثم طلبوه إليهم، فخاف على نفسه، فأرسل ولده بين يديه، فأكرموه، ثم قدم السلطان عليهم، فاجتمعوا عليه، وعظموه.

وفيها وقعت فتنة كبيرة بمرو بين فقيه الشافعية المؤيد بن الحسين، وبين نقيب العلويين بها أبي القاسم زيد بن الحسن، فقتل بينهم خلق كثير، وأحرقت المدارس، والمساجد والأسواق، وانهزم المؤيد الشافعي إلى بعض القلاع.

وفيها ولد الناصر لدين اللّه أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر اللّه.

وفيها خرج المقتفي نحو الأنبار متصيدا، وعبر الفرات، وزار الحسين، ومضى إلى واسط، وعاد إلى بغداد، ولم يكن معه الوزير.

وفيها كسر جيش مصر الفرنج، بأرض عسقلان، كسرة فظيعة صحبة الملك الصالح أبي الغارات، فارس الدين طلائع بن رزيك، وامتدحه الشعراء.

وفيها قدم الملك نور الدين من حلب إلى دمشق، وقد شفي من المرض، ففرح به المسلمون، وخرج إلى قتال الفرنج، فانهزم جيشه، وبقي هو في شرذمة قليلة من أصحابه، في لُجّة العدو، فرموهم بالسهام الكثيرة، ثم خافوا، أن يكون وقوفه في هذه الشرذمة القليلة، خديعة، لمجيء كمين إليهم، ففروا منهزمين، وللّه الحمد.

وحجّ بالناس فيها قايماز الأرجواني.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق، أبو الوقت السجزي الصوفي الهروي، راوي البخاري، ومسند الدارمي، والمنتخب من مسند عبد بن حميد، قدم بغداد، فسمع عليه الناس هذه الكتب، وكان من خيار المشايخ، وأحسنهم سمتا، وأصبرهم على قراءة الحديث.

قال ابن الجوزي: أخبرني أبو عبد اللّه محمد بن الحسين التكريتي الصوفي، قال: أسندته إلي فمات، وكان آخر ما تكلم به أن قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٧].

■ نصر بن منصور بن الحسين بن أحمد بن عبد الخالق العطار، أبو القاسم الحراني، كان كثير المال، يعمل من صدقاته المعروف الكثير من أنواع القربات الحسنة، ويكثر تلاوة القرآن، ويحافظ على الصلوات في الجماعة، ورئيت له منامات صالحة، وقارب الثمانين، رحمه اللّه

■ يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد أبو الفضل الشافعي، الحصكفي نسبة إلى حصن كيفا، كان إماما في علوم كثيرة، من الفقه، والآداب، ناظما ناثرا، غير أنه كان ينسب إلى الغلو في التشيع وقد أورد له ابن الجوزي قطعة من نظمه، فمن ذلك قوله في جملة قصيدة له.

تقاسموا يوم الوداع كبدي ... فليس لي منذ تولوا كبد
على الجفون رحلوا وفي الحشا ... تَقَيَّلوا وماء عيني وردوا
فأدمعي مسفوحة وكبدي ... مقروحة وغلّتي ما تبرد
وصبوتي دائمة ومقلتي ... دامية ونومها مشرد
تيمني منهم غزال أغيد ... يا حبذا ذاك الغزال الأغيد
حسامه مجرد وصرحه ... ممرد وخده مورد
وصدغه فوق احمرار خده ... مبلبل معقرب مجعد
كأنما نكهته وريقه ... مسك وخمر والثنايا برد
يُقعده عند القيام ردفه ... وفي الحشا منه المقيم المقعد
له قوام كقضيب بانة ... يهتز قصداً ليس فيه أود

وهي طويلة جداً، ثم خرج من هذا التغزل إلى مدح أهل البيت والأئمة الاثنى عشر رحمهم اللّه تعالى، ونَفَعنا بهم، حيث يقول:

وسائلي عن حب أهل البيت هل ... أُقر إعلاناً به أم أجحد؟
هيهات ممزوج بلحمي ودمي ... حبهم وهو الهدى والرشد
حيدرة والحسنان بعده ... ثم علي وابنه محمد
وجعفر الصادق وابن جعفر ... موسى ويتلوه علي السيد
أعني الرضى ثم ابنه محمد ... ثم علي وابنه المسدد
والحسن التالي ويتلو تلوه ... محمد بن الحسن المفتقد
فإنهم أئمتي وسادتي ... وإن لحاني معشر وفندوا
أئمة أكرم بهم أئمة ... أسماؤهم مسرودة تطّرد
هم حجج اللّه على عباده ... وهم إليه منهج ومقصد
قوم لهم فضل ومجد باذخ ... يعرفه المشرك والموحد
قوم لهم في كل أرض مشهد ... لا بل لهم في كل قلب مشهد
قوم منى والمشعران لهم ... والمروتان لهم والمسجد
قوم لهم مكة والأبطح والخـ ... ـيف وجمع والبقيع الغرقد

ثم ذكر مقتل الحسين بالطَّفّ إلى أن قال:

يا أهل بيت المصطفى يا عدتي ... ومن على حبهم أعتمد

أنتــم إلى اللّــه غــداً وســيلتي　　وكيـف أخشـى وبكـم أعتضـد
وليكــم في الخلــد حــي خــالد　　والضــد في نــار لظــى مخلــد
ولسـت أهواكــم ببغضـي غــيركم　　إنــي إذاً أشــقى بكــم لا أسـعد
فــلا يظــن رافضــي أنــني　　وافقتــه أو خــارجي مفســد
محمــــد والخلفـــاء بعــــده　　أفضـل خلــق اللّــه فيمــا أجــد
هــم أسـسوا قواعــد الديــن لنــا　　وهــم بنــوا أركانــه وشــيدوا
ومــن يخــن أحمــد في أصحابــه　　فخصمــه يــوم المعــاد أحمــد
هــذا اعتقــادي فــالزموه تفلحــوا　　هــذا طريقــي فاســلكوه تهتــدوا
والشــافعي مذهبــي مذهبــه　　لأنــــه في قولـــه مؤيـــد
أتبعـه في الأصـل والفـرع معـاً　　فليتبعــني الطــالب المسترشــد
إنــي بــإذن اللّــه نــاج ســابق　　إذا ونـــى الظــالم والمقتصـــد

وله أيضاً:

إذا قــل مــالي لم تجدنــي ضارعــاً　　كثير الأسى مغرى بعض الأنـامل
ولا بطـراً إن جــدد اللّــه نعمــة　　ولـو أن مـا أوتـي جميـع الأنـام لي

توفي رحمه اللّه في ربيع الأول من هذه السنة بميافارقين.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة

فيها مرض الخليفة المقتفي مرضا شديدا، ثم عوفي منه فزينت له بغداد أياما، وتصدق بصدقات كثيرة.

وفيها استعاد عبد المؤمن مدينة المهدية من أيدي الفرنج، وقد كانوا أخذوها من المسلمين،في سنة ثلاث وأربعين.

وفيها قاتل عبد المؤمن خلقاً كثيراً ببلاد الغرب، حتى صارت عظام القتلى هناك كالتل العظيم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي صفر منها، سقط برد بالعراق كبار، زنة البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي، فهلك بذلك شيء كثير من الغلات، وخرج الخليفة إلى واسط، فاجتاز بسوقها، ورأى جامعها، وسقط عن فرسه فشج جبينه، ثم عوفي.

وفي ربيع الآخر، زادت دجلة زيادة عظيمة، فغرقت بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد، حتى صار أكثر الدور بها تلولا، وغرقت تربة الإمام أحمد، وتخسّفت هنالك القبور، وطفت الموتى على وجه الماء. قاله ابن الجوزي.

وفي هذه السنة، كثر المرض والموت.

وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة، قاصدا بلاد الشام، فرده اللّه خائبا خاسئا، وذلك لضيق حالهم من الميرة، وأسر المسلمون ابن أخته، وللّه الحمد والمنة.

وحج بالناس في هذه السنة قايماز الأرجواني.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن معالي بن بركة الحربي، تفقه بأبي الخطاب الكلوذاني الحنبلي، وبرع، وناظر، ودرس، وأفتى، ثم صار بعد ذلك شافعيا، ثم عاد حنبليا، ووعظ ببغداد، وتوفي في هذه السنة، وذلك أنه دخلت به دابته في مكان ضيق، فدخل قربوس سرجه في صدره، فمات رحمه اللّه.

السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان: لما رجع من محاصرة بغداد إلى همذان أصابه مرض السل، فلم ينجح منه، بل توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وقبل وفاته بأيام، أمر أن يعرض عليه جميع ما يملكه، ويقدر عليه، وهو جالس في المنظرة، فركب الجيش بكماله، وأحضرت أمواله كلها، ومماليكه، حتى جواريه، وحظاياه، فجعل يبكي ويقول: هذه العساكر، لا يدفعون عني مثقال ذرة من أمر ربي، ولا يزيدون في عمري لحظة. ثم ندم، وتأسف، على ما كان منه إلى الخليفة المقتفي، وأهل بغداد، وحصارهم، وأذيتهم، ثم قال: وهذه الخزائن، والأموال، والجواهر، لو قبلهم ملك الموت مني فداء، لجدت بذلك جميعه له، وهذه الحظايا، والجواري الحسان، والمماليك، لو قبلهم فداء مني لكنت بذلك سمحا له. ثم قال ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] ثم فرق شيئا كثيرا من ذلك، من تلك الحواصل، والأموال، وتوفي عن ولد صغير، واجتمعت العساكر، والأمراء على عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان مسجونا بالموصل، فأفرج عنه، وانعقدت له السلطنة، وخطب له على منابر تلك البلاد، سوى بغداد، والعراق. واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي بأمر اللّه أبي عبد اللّه محمد بن المستظهر باللّه، وأمه نسيم، المدعوّة ست السادة، سمراء من خيار الجواري، مرض بالتراقي وقيل بدُمّل خرج في حلقه، فمات ليلة الأحد، ثاني ربيع الأول منها، عن ست وستين سنة، إلا ثمانية وعشرين يوما، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماوكان شهما،شجاعا،مقداما،يباشر الأمور بنفسه، ويشاهد الحروب، ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخبار،وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن السلطان، من أول أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن في الخلافة،وحكم على العسكر،والأمراء،وقد وافق أباه في أشياء: من ذلك مرضه بالتراقي،وموته في ربيع الأول،وتقدم موت السلطان محمد شاه قبله بثلاثة أشهر،وكذلك المستظهر، مات قبله محمد بثلاثة وبعد غرق بغداد بسنة مات القائم،وكذلك هذا.

قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي يعني خمسا وخمسين وخمسمائة.

خلافة المستنجد باللّه أبي المظفر يوسف بن المقتفي

لما توفي أبوه كما ذكرنا بويع بالخلافة،في صبيحة يوم الأحد، ثاني ربيع الأول، من هذه السنة، بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير، والقضاة، والعلماء، والأمراء، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وكان رجلا صالحا، وكان ولي عهد أبيه من مدة متطاولة، ثم عمل عزاء أبيه، ولما ذكر اسمه يوم الجمعة في الخطبة نثرت الدراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقر الوزير ابن هبيرة على منصبه، ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغاني، وولي مكانه أبا جعفر بن عبد الواحد الثقفي، وكان شيخا كبيرا، له سماع بالحديث، وباشر الحكم بالكوفة، ثم توفي في ذي الحجة منها فولي مكانه ابنه جعفر.

وفي شوال من هذه السنة اتفق الأتراك بباب همذان على خلع سليمان شاه، وخطبوا لأرسلان شاه بن طغرل.

وفيها توفي

■ الفائز بنصر الله الفاطمي صاحب مصر: وهو أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر، وكانت وفاته في صفر منها، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين وشهران، وكان مدبر دولته أبو الغارات. ثم قام بعده العاضد آخر خلفائهم، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام، فقام بتدبير مملكته الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير، أخذ له البيعة، وزوجه بابنته، وجهزها بجهاز عظيم، وقد عمرت بعد زوجها العاضد، ورأت زوال دولة الفاطميين، على يد الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي،في سنة أربع وستين، كما سيأتي مفصلا إن شاء الله تعالى.

وفيها كانت وفاة السلطان الكبير صاحب غزنة:

■ خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، من بيت ملك، ورياسة باذخة، يرثونها كابرا عن كابر، وكان من سادات الملوك، وأحسنهم سيرة، يحب العلم وأهله، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة، وقام من بعده ولده ملكشاه، فسار إليه علاء الدين الحسين بن الغور، فحاصر غزنة مدة، فلم يقدر عليها، فرجع خائبا.

وفيها مات

■ ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بأصبهان مسموما، يقال إن الوزير عون الدين بن هبيرة دس إليه من سقاه إياه، والله أعلم.

وفيها مات أمير الحاج

■ قايماز بن عبد الله الأرجواني: سقط عن فرسه وهو يلعب بالكرة بميدان الخليفة، فسال دماغه من أذنه، فمات من ساعته، رحمه الله، وقد كان من خيار الأمراء، فتأسف الناس عليه، وحضر جنازته خلق كثير، مات في شعبان من هذه السنة، فحج بالناس فيها الأمير أرغش، مُقْطَع الكوفة.

وحج في هذه السنة الأمير الكبير شيركوه بن شاذي، مقدم عساكر الملك نور الدين محمود بن زنكي، وتصدق بأموال كثيرة.

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، وكان من خيار القضاة، وأكثرهم صدقة، وله صدقات جارية بعده، وكان عالما بارعاً، وإليه ينسب الشباك الكمالي، الذي يجلس فيه الحكام بعد صلاة الجمعة، من المشهد الغربي بالجامع الأموي، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير مجاهد الدين:

■ بُزان بن مامين الكردي، أحد مقدمي جيش الشام قبل الملك نور الدين وبعده، وقد ناب في مدينة صرخد مدة، وكان شهما، شجاعا، كثير البر والصدقات والصلات، وهو واقف المدرسة المجاهدية، بالقرب من النورية، وله أيضا المدرسة المجاهدية، التي داخل باب الفراديس البراني، وبها قبره. وله السبع المجاهدي، داخل باب الزيادة من الجامع، بمقصورة الخضر، كانت وفاته بداره في صفر من هذه السنة، فحمل إلى الجامع، وصلي عليه، ثم أعيد إلى مدرسته، ودفن بها، داخل باب الفراديس، وتأسف الناس عليه رحمه الله ورضي الله عنه.

الشيخ

■ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكاري، شيخ الطائفة العدوية، أصله من البقاع، غربي دمشق، من قرية بيت فار، ثم رحل إلى بغداد، فاجتمع فيها بالشيخ عبد القادر والشيخ حماد الدباس، والشيخ عقيل المنبجي، وأبي الوفا الحلواني، وأبي النجيب السهروردي، وغيرهم، ثم انفرد عن الناس، وتخلى بجبل الهكّارية، وبنى له هناك زاوية، واعتقد فيه أهل تلك الناحية اعتقادا بليغا، حتى إن منهم من يغلو غلوا كثيرا منكرا. ثم كانت وفاته في هذه السنة بزاويته وله تسعون سنة.

■ عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة، أبو جعفر الثقفي، قاضي قضاة بغداد، وليها بعد عزل أبي الحسن بن الدامغاني،في أول هذه السنة، وكان قاضيا بالكوفة قبل ذلك، ثم كانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وقد ناهز الثمانين، وولي بعده ولده جعفر.

■ الفائز صاحب مصر وقيماز تقدما في الحوادث.

الخليفة

■ المقتفي أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد المستظهر، تقدمت ترجمته عند وفاته.

■ محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي، مولده بمدينة زبيد باليمن، سنة ثمانين، وقدم بغداد سنة تسع وخمسمائة، فوعظ، وكانت له معرفة بالنحو، والأدب، وكان صبورا على الفقر، لا يشكو حاله إلى أحد، وكانت له أحوال صالحة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قتل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان عنده تهور، وقلة مبالاة بالدين، يدمن شرب الخمر حتى في رمضان، فثار عليه مدبر مملكته كردبازو الخادم، فقتله، وبايع بعده السلطان أرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه.

وفيها قتل الملك الصالح فارس الدين، أبو الغارات، طلائع بن رزيك الأرمني، وزير العاضد صاحب مصر، ووالد زوجته، وكان قد حجر على العاضد لصغره، واستحوذ على الأمور فقتلته الحاشية، ووزر بعده ولده رزيك، ولقب بالعادل، وقد كان أبوه الصالح كريما أديبا، يحب أهل العلم، ويحسن إليهم، كان من خيار الملوك والوزراء، وقد امتدحه غير واحد من الشعراء.

قال ابن خلكان: كان أولا متوليا بمنية بني الخصيب، ثم آل به الحال إلى أن وزر للفائز، وذهبت له وزارة عباس في سنة تسع وأربعين، ثم لما هلك في هذه السنة قام في الوزارة بعده ولده العادل رزيك بن طلائع، فلم يزل فيها حتى انتزعها منه شاور، كما سيأتي. قال: والصالح هذا هو باني الجامع عند باب زويلة ظاهر القاهرة. قال: ومن العجائب أنه ولي الوزارة في تاسع عشر شهر، وقتل في تاسع عشر شهر. ونقل من دار الوزارة إلى القرافة في تاسع عشر شهر آخر وزالت دولتهم في تاسع عشر شهر آخر. قال: ومن شعره ما رواه عنه الواعظ زين الدين علي بن نجا الحنبلي، وهو

قوله:

مشيبك قد نَضّا صِبْغَ الشباب ... وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى ... وما ناب النوائب عنك ناب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز ... وقد أنفقت منه بلا حساب

وقوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه ... عبراً وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره ... فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره الجيد أيضاً قوله:

أبى اللّه إلا أن يدين لنا الدهر ... ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه ... ويبقى لنا من بعده الأجر والذُكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا ... سحاب لديه البرق والرعد والقطرُ

وله أيضاً وهو مما نظمه قبل موته بثلاث ليال:

نحن في غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً ... ليت شعري متى يكون الحمام؟

ثم قتله غلمان العاضد في النهار، غيلة، وله إحدى وستون سنة، وخلع على ولده العادل بالوزارة، ورثاه عمارة التميمي بقصائد حسان، ولما نقل إلى تربته بالقرافة، سار العاضد معه، حتى وصل إلى قبره في التابوت.

قال القاضي بن خلكان: فعمل الفقيه عمارة في ذلك قصيدة طويلة فأجاد فيها فمن ذلك في صفة التابوت قوله:

وكأنه تابوت موسى أودعتْ ... في جانبيه سكينة ووقار

وفيها أوقعت بنو خفاجة، بأهل الكوفة، وقعة عظيمة فقتلوا من أهل الكوفة خلقا، منهم الأمير قيصر، وجرحوا أمير الحاج أرغش جراحات، فنهض إليهم وزير الخلافة عون الدين بن هبيرة، في جيش فتبعهم، حتى أوغل خلفهم في البرية،في جيش كثيف، فبعثوا يطلبون العفو.

وفيها ولي مكة الشريف عيسى بن قاسم بن أبي هاشم، وقيل قاسم بن أبي فليتة بن قاسم بن أبي هاشم.

وفيها أمر الخليفة المستنجد بإزالة الدكاكين التي تضيق الطرقات، وأن لا يجلس أحد من الباعة في عَرْصة الطرقات، لئلا يضر ذلك بالمارة.

وفيها وقع رخص عظيم ببغداد جدا.

وفيها فتحت المدرسة التي بناها ابن الشمحل في المأمونية، ودرس فيها أبو حكيم إبراهيم بن دينار النهرواني الحنبلي، وقد توفي من آخر هذه السنة، ودرس بعده فيها أبو الفرج بن الجوزي، وقد كان عنده معيدا، ونزل له عن تدريس آخر بباب الأزج عند موته.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ حمزة بن علي بن طلحة: أبو الفتوح الحاجب، وكان خصيصا عند المسترشد والمقتفي أيضاً، وقد بنى مدرسة إلى جانب داره، وحج، فرجع متزهدا، فلزم بيته معظما نحوا من عشرين سنة، وكانت وفاته في هذه السنة وقد امتدحه بعضهم فقال:

يا عضد الإسلام يا من سمت ... إلى العلا همته الفاخرة
كانت لك الدنيا فلم ترضها ... ملكا فأخلدت إلى الآخرة

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

فيها دخلت الكرج بلاد المسلمين، فقتلوا خلقا من الرجال، وأسروا من الذراري أمماً، فاجتمع لحربهم ملوك تلك الناحية: إيلدكز صاحب أذربيجان، وابن سكمان صاحب خلاط، وابن آق سنقر صاحب مراغة، وساروا إلى بلادهم في السنة الآتية، فنهبوها، وأسروا ذراريهم، والتقوا معهم، فكسروهم كسرة فظيعة منكرة، مكثوا يقتلون فيهم ويأسرون ثلاثة أيام.

وفي رجب أعيد يوسف الدمشقي إلى تدريس النظامية، بعد عزل ابن نظام الملك، بسبب أن امرأة ادعت أنه تزوجها، فأنكر، ثم اعترف، فعزل عن التدريس.

وفيها كملت المدرسة التي بناها الوزير ابن هبيرة بباب البصرة، ورتب فيها مدرسا، وفقيها.

وحج بالناس أمير الكوفة أرغش.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ شجاع شيخ الحنفية: بمشهد أبي حنيفة، كان جيد الكلام في النظر، أخذ عنه الحنفية ودفن عند المشهد.

■ صدقة بن وزير الواسطي: دخل بغداد، ووعظ بها، وأظهر تقشفا، وكان يميل إلى التشيع وعلم الكلام، ومع هذا كله راج على العوام، وبعض الأمراء، وحصل له فتوح كثيرة، ابتنى منه رباطا، ودفن فيه، سامحه اللّه تعالى.

■ زمرد خاتون: بنت جاولي، أخت الملك دُقاق بن تتش لأمه، وهي بانية الخاتونية، ظاهر دمشق، عند قرية صنعاء، بمكان يقال له تل الثعالب، غربي دمشق، على جانب الشرق القبلي، بصنعاء الشام، وهي قرية معروفة قديما، وأوقفتها على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي الحنفي، المتقدم ذكره، وكانت زوجة الملك بوري بن طغتكين، فولدت له ابنيه شمس الملوك إسماعيل المذكور، وقد ملك بعد أبيه، وسار سيرته، ومالأ الفرنج على المسلمين، وهمّ بتسليم البلد والأموال إليهم، فقتلوه، وتملك أخوه، وذلك بعد مراجعتها، ومساعدتها، وقد كانت قرأت القرآن، وسمعت الحديث، وكانت حنفية المذهب، تحب العلماء، والصالحين، وقد تزوجها الأتابكي زنكي صاحب حلب، طمعا في أن يأخذ بسببها دمشق، فلم يظفر بذلك، بل ذهبت إليه إلى حلب، ثم عادت إلى دمشق بعد وفاته، وقد دخلت بغداد، وسارت من هناك إلى الحجاز، وجاورت بمكة سنة، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية، حتى ماتت بها، ودفنت بالبقيع في هذه السنة، وقد كانت كثيرة البر، والصدقات، والصلاة، والصوم.

قال السبط: ولم تمت حتى قل ما بيدها، وكانت تغربل القمح، والشعير، وتتقوت بأجرته. وهذا من تمام الخير، والسعادة، وحسن الخاتمة، رحمها اللّه تعالى، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها مات صاحب المغرب، عبد المؤمن بن علي تلميذ ابن تومرت، وخليفته من بعده، في الملك بمدينة سلا حضره ابنه يوسف، وحمل أباه إلى مراكش، في صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته، فعزاه الناس، وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازما شجاعا، جوادا، معظما للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، ولكن كان سفاكا للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله، يحكم فيه بما يشاء.

وفيها قتل الملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الغوري قتله الغز، وكان عادلا.

وفيها كبست الفرنج نور الدين، وجيشه، فانهزم المسلمون، لا يلوي أحد على أحد، ونهض الملك نور الدين، فركب فرسه، والشبحة في رجله، فنزل رجل كردي فقطعها، فسار نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج ذلك الكردي، فقتلوه، رحمه الله، فأحسن نور الدين إلى ذريته، وكان لا ينسى ذلك له.

وفيها أمر الخليفة بإجلاء بني أسد عن الحلة، وقتل من تخلف منهم؛ وذلك لإفسادهم، ومكاتبتهم السلطان محمد شاه، وتحريضهم له على حصار بغداد، فقتل من بني أسد أربعة آلاف، وخرج الباقون منها، وتسلم نواب الخليفة الحلة المزيدية.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير أرغش.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان الكبير أبو محمد

■ عبد المؤمن بن علي: القيسي الكومي تلميذ ابن التومرت، كان أبوه يعمل في الطين فاعلاً، فحين وقع نظر ابن التومرت عليه، أحبه، وتفرس فيه أنه سعيد، فاستصحبه، فعظم شأنه، والتفت عليه العساكر، التي جمعها ابن التومرت، من المصامدة، وغيرهم، وحاربوا صاحب مراكش علي بن يوسف بن تاشفين، ملك الملثمين، واستحوذ عبد المؤمن على وهران، وتلمسان، وفاس، وسلا وسبتة، ثم حاصر مراكش، أحد عشر شهرا، فافتتحها في سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة، وتمهدت له الممالك هنالك، وصفا له الوقت، وكان عاقلا، حازماً وقورا، شكلا، حسنا، محبا للخير، توفي في هذه السنة، ومكث في الملك ثلاثا وثلاثين سنة، وكان يسمي نفسه أمير المؤمنين، رحمه الله.

■ طلحة بن علي بن طراد، أبو أحمد الزينبي، نقيب النقباء، مات فجأة، رحمه الله وولي النقابة من بعده، ولده أبو الحسن علي، وكان أسرد، فعزل، وصودر في هذه السنة.

■ محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم، بن عبد الكريم أبو عبد الله المعروف بابن الأنباري، كاتب الإنشاء ببغداد، كان شيخا، حسنا ظريفا، وانفرد بصناعة الإنشاء، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره، وخدم الملوك، والخلفاء، وقارب التسعين، ومن شعره قوله:

يا من هجرت فما تبالي ... هل ترجع دولة الوصال
ما أطمع يا عذاب قلبي ... أن ينعم في هواك بالي
الطرف كما عهدت باك ... والجسم كما تريـن بال
ما ضرك أن تعلليني ... بالوصل بموعد المحال
أهواك وأنت حظ غيري ... يا قاتلتي فما احتيالي
أيام عنائي فيك سود ... ما أشبههن بالليالي
العذل فيك يعذلوني ... عن حبك ما لهم وما لي
يا ملزمي السلو عنها ... الصب أنا وأنت سالي
والقول بتركها صواب ... ما أحسنه لو استوى لي
طلقت تجلدي ثلاثاً ... والصبوة بعد في خيالي

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها قدم شاور بن مجير الدين، أبو شجاع السعدي، الملقب بأمير الجيوش، وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية، بعد آل رزيك، لما قتل الناصر رزيك بن طلائع، وقام في الوزارة بعده، واستفحل أمره فيها، فثار عليه أمير يقال له الضرغام بن سوار، وجمع له جموعا كثيرة، واستظهر عليه، وقتل ولديه: طيّاً، وسليمان، وأسر الثالث، وهو الكامل بن شاور، فسجنه، ولم يقتله، لبد كانت لأبيه عنده، واستوزر ضرغام بعده، ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية، هاربا من العاضد ومن ضرغام، ملتجئا إلى نور الدين محمود، فأمر له نور الدين بجوسق الميدان الأخضر، فأحسن ضيافته وكرامته، وأنزله بالجوسق المذكور، وطلب منه شاور عسكرا، ليكونوا معه، ليفتح بهم الديار المصرية، وليكون لنور الدين ثلث مغلها، فأرسل معه جيشا عليه أسد الدين شيركوه بن شادي، فلما دخلوا بلاد مصر، خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال، فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقا، وقتل ضرغام بن سوار، وطيف برأسه في البلاد، واستقر أمر شاور في الوزارة، وتمهد حاله، ثم اصطلح العاضد وشاور على أسد الدين، ورجع شاور عما كان عاهد عليه نور الدين، وأمر أسد الدين بالرجوع، فلم يقبل منه، وعاث في البلاد، وأخذ أموالا كثيرة، وافتتح بلدانا كثيرة، من الشرقية، وغيرها، فاستغاث شاور عليهم بملك الفرنج الذي بعسقلان، واسمه مري، فأقبل إليه في خلق كثير، فتحول أسد الدين إلى بلبيس، وقد حصنها، وشحنها بالعدد، والآلات، وغير ذلك، فحصروه فيها ثمانية أشهر، وامتنع أسد الدين وأصحابه أشد الامتناع، فبينما هم على ذلك، إذ جاءت الأخبار، بأن الملك نور الدين قد اغتنم غيبة الفرنج، فسار بالعساكر إلى بلادهم، فقتل منهم خلقا كثيرا، وفتح حارم، وقتل من الفرنج بها خلقا، وسار إلى بانياس، فضعف أمر الفرنج بديار مصر عند ذلك، وطلبوا من أسد الدين الصلح، فأجابهم إلى ذلك، وقبض من شاور ستين ألف دينار، وخرج أسد الدين وجيشه، فساروا إلى الشام في ذي الحجة.

وقعة حارم

كان فتح حارم في رمضان من هذه السنة، وذلك أن نور الدين استغاث بعساكر المسلمين، فجاؤوه من كل فج عميق، ليأخذ بثأره من الفرنج، فالتقى معهم بتلّ حارم، فكسرهم كسرة فظيعة، وأسر البرنس صاحب أنطاكية، والقومص صاحب طرابلس، والدوك مقدّم الروم، وابن جوسلين، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل عشرين ألفا.

وفي ذي الحجة منها، فتح نور الدين مدينة بانياس، وقيل إنه إنما فتحها في سنة ستين، فالله أعلم. وكان معه أخوه نصر الدين امير اميران، فأصابه سهم في إحدى عينيه، فأذهبها، فقال له الملك نور الدين: لو نظرت لما أعد الله لك من الأجر في الآخرة، لأحببت أن تذهب الأخرى. وقال لابن معين الدين أنر: إنه اليوم بردت جلدة والدك من نار جهنم؛ لأنه كان سلمها للفرنج، صلحاً عن دمشق.

وفي شهر ذي الحجة، احترق قصر جيرون حريقا عظيما، فحضر في تلك الليلة الأمراء، منهم أسد الدين شيركوه، بعد رجوعه من مصر، وسعى سعيا عظيما في إطفاء هذه النار، وصون حوزة الجامع منها جزاه الله خيراً وأثابه دار القرار.

ومن توفي فيها من الأعيان

جمال الدين: وزير صاحب الموصل.

■ محمد بن علي بن أبي منصور، أبو جعفر الأصبهاني، الملقب بالجواد، وزير قطب الدين مودد بن زنكي، كان كثير الصدقة والبر، وقد أثر آثارا حسنة، بمكة، والمدينة، من ذلك أنه ساق عينا إلى عرفات، وعمل هناك مصانع، وبنى مسجد عرفات، ودرجه، وأكمل أبواب الحرم، وبني مسجد الخيف وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وذهّبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورا، وبنى جسرا على دجلة، عند جزيرة ابن عمر، بالحجر المنحوت، والحديد، والرصاص. وبنى الربط الكثيرة، وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأسارى في كل سنة بعشرة آلاف دينار. ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء، والفقراء، حيث كانوا من بغداد، وغيرها من البلاد. وقد حبس في سنة ثمان وخمسين، فذكر ابن الساعي في تاريخه، عن شخص كان معه في السجن، أنه نزل إليه طائر ابيض، قبل موته، فلم يزل عنده وهو يذكر الله عز وجل، حتى توفي في شعبان من هذه السنة، ثم طار عنه، ودفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شيركوه بن شاذي مؤاخاة وعهد، أيهما مات قبل الآخر، أن يحمله إلى المدينة النبوية، فاستأجر له أيد الدين شيركوه رجالاً فنقلوه إلى المدينة، فما مروا به على بلدة إلا صلوا عليه، وترحموا عليه وأثنوا خيرا فصلوا عليه بالموصل، وتكريت، وبغداد والحلة، والكوفة، وفيد ومكة، وطيف به حول الكعبة، ثم حمل إلى المدينة النبوية، فدفن بها،في رباط بناه، شرقي مسجد النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي وابن الساعي: ليس بينه وبين حرم النبي ﷺ وقبره سوى خمسة عشر ذراعاً.

قال ابن الساعي: ولما صلّوا عليه بالحلة، صعد شاب نشزا فأنشد:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما … سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله … عليه وبالنادي فتثني أرامله

ومن توفي فيها بعد الخمسين:

■ ابن الخازن الكاتب: أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الخالق أبو الفضل المعروف بابن الخازن الكاتب البغدادي الشاعر. كان يكتب جيدا فائقا، اعتنى بكتابة الختمات، وأكثر ابنه أبو الفتح نصر الله من كتابة المقامات، وجمع لأبيه ديوان شعر، أورد منه ابن خلكان قطعة كبيرة.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

في صفر منها، وقعت بأصبهان فتنة عظيمة بين الفقهاء، بسبب المذاهب، دامت أياما، وقتل فيها خلق كثير.

وفيها كان حريق عظيم ببغداد، فاحترقت محال كثيرة جدا.

وذكر ابن الجوزي أن في هذه السنة ولدت امرأة ببغداد أربع بنات في بطن واحد.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير أرغش الكبير أثابه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ عمر بن بهليقا: الطحان الذي جدد جامع العقبية ببغداد، واستأذن الخليفة في إقامة الجمعة فيه، فأذن له في ذلك، وكان قد اشترى ما حوله من القبور، فأضاف ذلك إليه، ونبش الموتى منها، فقيض الله له من نبشه من قبره بعد دفنه، جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد.

■ محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد الحميد: أبو عبد الله الحراني، كان آخر من بقي من الشهود المقبولين عند أبي الحسن الدامغاني، وقد سمع الحديث، وكان لطيفا ظريفا، جمع كتابا سماه روضة الأدباء، فيه نتف حسنة.

قال ابن الجوزي: زرته يوما، فأطلت الجلوس عنده، فقلت: أقوم فقد ثقلت، فأنشدني:

لئن سميت إبراما وثقلا … زيارات رفعت بهن قدري

فما أبرمت إلا حبل ودي … ولا ثقّلت إلا ظهر شكري

■ مرجان الخادم: كان يقرأ القرآن، وتفقه لمذهب الشافعي، وكان يتعصب على الحنابلة، ويكرههم، ويعادي الوزير ابن هبيرة وابن الجوزي معاداة شديدة، ويقول لابن الجوزي: مقصودي قلع المذهب. ولما توفي ابن هبيرة في هذه السنة قوي أمره على ابن الجوزي، وخافه ابن الجوزي، فلما توفي في هذه السنة فرح ابن الجوزي فرحا شديدا، وكانت وفاته في ذي القعدة منها.

■ ابن التلميذ الطبيب، الماهر، الحاذق، اسمه هبة الله بن صاعد: كانت وفاته في هذه السنة عن خمس وتسعين سنة، وكان موسعا عليه في الدنيا، وله عند الناس وجاهة كبيرة، وقد توفي قبحه الله على دينه، ودفن بالبيعة العتيقة، لا رحمه الله إن كان مات نصرانيا، فإنه كان يزعم أنه أسلم، ثم مات على دينه.

الوزير

■ ابن هبيرة: يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير للخلافة المعظمة، مصنف كتاب الإفصاح، وقد قرأ القراءات، وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة بالنحو، واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنف كتبا جيدة مفيدة، من ذلك الإفصاح في مجلدات، شرح فيه الحديث، وتكلم على مذاهب العلماء، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد، وقد كان فقيرا لا مال له، ثم تعرض للخدمة، فتقدم إلى أن وزر للمقتفي، ثم لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان لا يلبس الحرير، وكان المقتفي يقول: ما وزر لبني العباس مثله. وكذلك ابنه المستنجد، وكان المستنجد معجبا به، قال مرجان الخادم: سمعت أمير المؤمنين الخليفة المستنجد ينشد لابن هبيرة وهو

بين يديه من شعره مادحاً:

صف نعمتان خصتاك وعمتا فذكرهما حتى القيامة يذكر
وجودك والدنيا إليك فقيرة وجودك والمعروف في الناس ينكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر ويحيى لكفا عنه يحيى وجعفر
ولم أر من ينوي لك السوء يا أبا الـ مظفر إلا كنت أنت المظفر

وقد كان يبالغ في إقامة الدولة العباسية، وحسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكل ممكن، حتى استقرت الخلافة في العراق كله؛ ليس للملوك معهم حكم بالكلية، ولله الحمد والمنّة. وكان يعقد في داره للعلماء مجلساً للمناظرة، يبحثون فيه، ويتناظرون عنده، يستفيد منهم، ويستفيدون منه، فاتفق يوما أنه كلم رجلا من الفقهاء، كلمة فيها بشاعة، قال له: يا حمار. ثم ندم، فقال: أريد أن تقول لي، كما قلت لك. فامتنع ذلك الرجل، فصالحه على مائتي دينار. مات فجأة، يقال إنه سمه طبيب، فسم ذلك الطبيب بعد ستة أشهر، وكان الطبيب يقول: سممته، فسممت. مات يوم الأحد، الثاني عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، عن إحدى وستين سنة، وغسله ابن الجوزي، وحضر جنازته خلق كثير، وجم غفير جدا، وغلقت الأسواق، وتباكى الناس عليه، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباب البصرة، رحمه الله. وقد رثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة.

وأبو القاسم.

■ عمر بن محمد بن أحمد بن عكرمة البزريُّ الجزريُّ، شيخ الشافعية بها، وكان يلقبُ زين الدين جمال الإسلام، دخل بغداد، فأخذ عن إلكيا الهرّاسيِّ، والغزّاليِّ، والشّاشيِّ صاحب «المستظهري»، وجمع كتاباً على «المهذَّب»، وذكر فيه إشكالات ما سواه، وأسماء رجاله ولغته، وهو في مجلد، على ما ذكره ابن خلكان، ورحلت إليه الطلبة من كلِّ ناحية، وكان أحفظ الناس في وقته لمذهب الشافعي. توفي في هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها فتح الملك نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وقتل عنده خلق كثير من الفرنج، وغنم أموالا جزيلة.

وفيها هرب عز الدين بن الوزير ابن هبيرة من السجن، ومعه مملوك تركي، فنودي عليه في البلد من رده فله مائة دينار، ومن وجد عنده هدمت داره، وصلب على بابها، وذبحت أولاده بين يديه، فدلهم رجل من الأعراب عليه، فأخذ من بستان، فضرب ضربا شديدا، منكراً وأعيد إلى السجن، وضيق عليه.

وفيها أظهر الروافض سب الصحابة، وتظاهروا بأشياء منكرة، ولم يكونوا يتمكنون منها،في هذه الأعصار المتقدمة، خوفا من ابن هبيرة، ووقع بين العوام كلام، فيما يتعلق بخلق القرآن.

وحج بالناس أرغش.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن العباس بن أبي الطيب بن رستم، أبو عبد الله الأصبهاني، كان من كبار عباد الله الصالحين والبكائين، قال: حضرت يوما مجلس ابن ماشاذه، وهو يتكلم على الناس، فرأيت رب العزة في تلك الليلة، وهو يقول لي: وقفت على مبتدع، وسمعت كلامه؟ لأحرمنك النظر في الدنيا. قال فأصبح لا يبصر، وعيناه مفتوحتان، كأنه بصير.

■ عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلبي السعدي القاضي، أبو المعالي المصري، المعروف بالجليس، لأنه كان يجالس صاحب مصر، وقد ذكره العماد في [الخريدة: ١/١٨٩، ١٩٠]، وقال: وله فضل مشهور، وشعر مأثور. فمن ذلك قوله:

ومن عجب أن السيوف لديهم تحيض دماء والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج نارا والأكف بحور

■ عبد القادر الجيلي، عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي، الشيخ ولد سنة سبعين وأربعمائة، ودخل بغداد، فسمع الحديث، وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وكان قد بني مدرسة، ففوضها إلى الشيخ عبد القادر، فكان يتكلم على الناس بها، ويعظهم، وينتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وكان له سمت حسن، وصمت، من غير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة، ومكاشفات، ولأتباعه، وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالا، وأفعالا، ومكاشفات، أكثرها مغالاة، وقد كان صالحا، ورعا، وقد صنف كتاب الغُنية، وفتوح الغيب، وفيهما أشياء حسنة، ولكن ذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ، الكبار قدس الله روحه ونور ضريحه، كانت وفاته ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر من هذه السنة وله تسعون سنة، ودفن بالمدرسة التي كانت له.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وخمسمائة

فيها أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة، إلى الديار المصرية، وساعدهم المصريون، فتصرفوا في بعض البلاد، فبلغ ذلك أسد الدين شيركوه، فاستأذن الملك نور الدين في العود إليها، وكان كثير الحنق على الوزير شاور، فأذن له، فسار إليها في ربيع الآخر، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد وقع في النفوس أنه سيملك الديار المصرية، وفي ذلك يقول عرقلة المسمى بحسان الشاعر.

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الصديق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدا حقا وضراب العراقيب

ولما بلغ الوزير شاور قدم أسد الدين والجيش معه، بعث إلى الفرنج، فجاؤوا من كل فج عميق، ولما بلغ أسد الدين ذلك من شأنهم، وإنما معه ألفا فارس،فاستشار من معه من الأمراء،فكلهم أشار عليه بالرجوع إلى الملك نور الدين، لكثرة الفرنج، إلا أميرا واحدا يقال له شرف الدين بزغش، فإنه قال: من خاف القتل، والأسر، فليقعد في بيته، عند زوجته، ومن أكل من أموال الناس، فلا يسلم بلادهم إلى العدو. وقال مثل ذلك ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي، فعزم الله لهم، فساروا نحو الفرنج، فاقتتلوا هم وإياهم قتالا عظيما، فكسروا الفرنج وهزموهم، وقتلوا منهم وقتلوا منهم خلقا كثيراً لا يعلمهم إلا الله عز

وجل، ولله الحمد والمنة على كل حال.

فتح الإسكندرية على يد أسد الدين شيركوه

ثم أشار أسد الدين شيركوه بعد أن كسر الفرنج والمصريين إلى الإسكندرية فملكها، وجبى أموالها، واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف، وعاد إلى الصعيد، فملكه، وجمع منه أموالا جزيلة جدا.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية ثلاثة أشهر، ليتزعوها من يد الملك صلاح الدين، وذلك في غيبة عمه في الصعيد، وامتنع بها صلاح الدين ومن معه أشد الامتناع، ولكن ضاقت عليهم الأقوات، وضاق عليهم الحال جدا، فسار إليهم أسد الدين شيركوه أيده الله، فصالحه شاور الوزير عن الإسكندرية، بخمسين ألف دينار، فأجابه إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في منتصف شوال وذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مائة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة، وعاد الفرنج إلى بلادهم، بعد أن كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد أعقبهم في بلادهم، وفتح من بلادهم حصونا كثيرة، وقتل منهم خلقا من الرجال، وأسر جما غفيرا من النساء والأطفال، وغنم شيئا كثيرا من الأمتعة، والأموال، ولله الحمد. وكان معه أخوه قطب الدين مودود، فأطلق له الرقة، فسار، فتسلمها.

وفي هذه السنة،في شعبان منها، كان قدوم العماد الكاتب من بغداد إلى دمشق، وهو أبو حامد محمد بن محمد الأصبهاني، صاحب الفتح القدسي، والبرق الشامي، والخريدة، وغير ذلك من المصنفات، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، فنسبت إليه، لسكناه بها، فيقال لها العمادية، ثم ولي تدريسها،في سنة سبع وستين، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وأول من جاء للسلام عليه، نجم الدين أيوب، كانت له به معرفة من تكريت، فامتدحه العماد، بقصيدة ذكرها الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بمصر، فبشره فيها، بولاية صلاح الدين الديار المصرية، حيث يقول:

ويستقر بمصر يوسف وبه ... تقر بعد التنائي عين يعقوب

ويلتقي يوسف فيها بإخوته ... والله يجمعهم من غير تثريب

ثم ولي العماد كتابة الإنشاء، للملك نور الدين محمود.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أرغش أمير الحاج سنين متعددة: كان مقدما على العساكر، خرج من بغداد لقتال شملة التركماني، فسقط عن فرسه، فمات.

■ أبو المعالي الكاتب: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، صاحب التذكرة الحمدونية، وقد ولي ديوان الزمام مدة، وكانت وفاته في ذي القعدة، ودفن بمقابر قريش.

■ الرشيد الصوفي كان يجلس بين يدي العبادي على الكرسي، كانت له شيبة، حسنة وسمت ووقار، وكان يُدمن حضور السماعات، فاتفق أنه مات، وهو يرقص،في بعض السماعات سامحه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

في صفر منها، وصل شرف الدين أبو جعفر بن البلدي، من واسط، إلى بغداد، فخرج الجيش لتلقيه، والنقباء، والقاضي، ومشى الناس بين يديه، إلى الديوان، فجلس في دست الوزارة، وقرئ عهده، وكان يوماً مشهوداً ولقب بالوزير، شرف الدين، جلال الإسلام، معز الدولة، سيد الوزراء، صدر الشرق، والغرب.

وفيها أفسدت خفاجة في البلاد، ونهبوا القرى، فجهز إليهم جيش من بغداد، فهربوا في البراري فانحسر الجيش عنهم، خوفا من العطش، فكروا على الجيش، فقتلوا منهم خلقا، وأسروا آخرين، وكان قد أسر الجيش منهم خلقا، فصلبوا على الأسوار.

وفي شوال منها وصلت امرأة الملك نور الدين محمود بن زنكي إلى بغداد، تريد الحج من هناك، وهي الست عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر، فتلقاها الجيش وفيهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات، وأكرمت غاية الإكرام.

وفيها مات قاضي قضاة بغداد جعفر بن عبد الواحد الثقفي، فشغر البلد عن حاكم ثلاثة وعشرين يوما، حتى ولي روح بن الحديثي قاضي القضاة في رابع رجب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ جعفر بن عبد الواحد: أبو البركات الثقفي، قاضي القضاة ببغداد بعد أبيه، ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكانت وفاته، في هذا العام، وسبب وفاته أنه طلب منه مال، وكلمه الوزير ابن البلدي كلاما خشنا، فخاف، فرمى الدم، ومات. رحمه الله.

■ أبو سعد السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور، أبو سعد السمعاني، رحل إلى بغداد، فسمع بها، وذيل على تاريخها، للخطيب البغدادي، وقد ناقشه ابن الجوزي في المنتظم [١٧٩/١٨]، وذكر عنه، أنه كان يتعصب على أهل مذهبه، ويطعن في جماعة منهم، وأنه يترجم بعبارة عامية، مثل قوله عن بعض الشيخات، إنها كانت عفيفة. وعن الشاعر المشهور بالحيص بيص، إنه كانت له أخت، يقال لها دخل خرج، وغير ذلك.

■ عبد القاهر بن محمد بن عبد الله بن عمّويه أبو النجيب السهروردي، كان يذكر أنه من سلالة أبي بكر الصديق، ﷺ، سمع الحديث، وتفقه، وأفتى، ودرس بالنظامية، وابتنى لنفسه مدرسة، ورباطا، وكان مع ذلك متصوفا، يعظ الناس، ودفن بمدرسته.

■ محمد بن عبد الحميد بن أبي الحسن أبو الفتح الرازي، المعروف بالعلاء العالم، وهو من أهل سمرقند، وكان من الفحول في المناظرة، وله طريقة في الخلاف والجدل، يقال لها التعليقة العالمية.

قال ابن الجوزي: وقد ورد بغداد، وحضر مجلسي.

وقال أبو سعد بن السمعاني: كان يدمن شرب الخمر. وقال: وكان يقول: ليس في الدنيا أطيب من كتاب أطالعه، وباطية من الخمر، أشرب منها.

قال ابن الجوزي: ثم بلغني عنه، أنه أقلع عن شرب الخمر، والمناظرة، وأقبل على النسك، والخير رحمه الله.

■ يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، مدرس النظامية ببغداد، تفقه على أسعد الميهني، وبرع في المناظرة، وكان يتعصب للأشعرية، وقد بعث رسولا في هذه السنة، إلى شملة التركماني، فمات في تلك البلاد رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها كان فتح مصر، على يد الأمير أسد الدين شيركوه، وفيها طغت الفرنج بالديار المصرية، وذلك لما جعل لهم شحنة بها، وتحكموا في أموالها، وسكنها أكثر شجعانها ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها من المسلمين، فعند ذلك ركب أمداد الفرنج من كل ناحية وساروا صحبة مرى ملك عسقلان، في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بلبيس، فقتلوا من أهلها خلقا، وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلا ومعقلا لهم، ثم ساروا، فنزلوا على القاهرة، من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس منها إلى القاهرة، فنهبوا البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوما، فعند ذلك، أرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج. والتزم له بثلث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين، مقيما بها عندهم، والتزم له بإقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى مصر، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين، أرسل إلى ملك الفرنج، يقول له: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكن العاضد، والمسلمين، لا يوافقوني على تسليم البلد. وصالحهم، ليرجعوا عن البلد بألف ألف دينار، وعجل لهم من ذلك بمئة ألف دينار، فانشمروا راجعين إلى بلادهم، خوفا من وصول الملك نور الدين، وطمعا في العودة إليها مرة ثانية، ﴿ومكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين﴾. [آل عمران: ٥٤].

ثم شرع الوزير شاور في مطالبة الناس بالذهب الذي صالح به الفرنج، وتحصيله، وضيق على الناس، مع ما نالهم من الحريق، والخوف، فجبر الله مصابهم، وأحسن مآبهم واستدعى الملك نور الدين الأمير أسد الدين من حمص إلى حلب، فساق في يوم واحد، من حمص بعد أن صلى الصبح، ثم دخل منزله، فأصاب فيه شيئا من الزاد، ثم ركب وقت طلوع الشمس، فدخل حلب على السلطان نور الدين من آخر ذلك اليوم، ويقال إن هذا لم يتفق لغيره، إلا للصحابة، فسر بذلك نور الدين، وتفاءل به فقدمه على العساكر، وأنعم عليه بمائتي ألف دينار، وأضاف إليه من الأمراء الأعيان جماعة، كل منهم يبتغي بمسيره ذلك رضى الرحمن، والجهاد في سبيله، وكان من جملة الأمراء ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، ولم يكن منشرحاً لخروجه هذا، بل كان كارها له، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان، وسار هو وإياه من حلب، إلى دمشق، فجهزه من دمشق إلى الديار المصرية، وجدوا الفرنج، قد انشمروا عن القاهرة، راجعين إلى بلادهم، بالصفقة الخاسرة، وكان وصوله إليها في سابع ربيع الآخر، فدخل الأمير أسد الدين، على العاضد، في ذلك اليوم، فخلع عليه خلعة سنية، فلبسها، وعاد إلى مخيمه بظاهر البلد، وفرح المسلمون بقدومه، وأجريت عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين، وكان فيمن جاء إليه المخيم، الخليفة العاضد متنكرا، فأسر إليه أمورا مهمة، منها قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك، وأعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولكن شرع يماطل، بما كان التزمه للملك نور الدين، وهو مع ذلك يتردد إلى أسد الدين، ويركب معه، وعزم على عمل ضيافة له، فنهاه أصحابه عن الحضور، خوفا عليه من غائلته، وشاوروه في قتل شاور، فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك، فلما كان في بعض الأيام، جاء شاور إلى منزل أسد الدين، فوجدوه قد ذهب لزيارة قبر الشافعي، وإذا ابن أخيه صلاح الدين هنالك، فأمر صلاح الدين يوسف بالقبض على الوزير شاور، ولم يمكنه قتله، إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين، وانهزم أصحابه، فأعلموا العاضد، لعله يبعث يتقذه، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب منه رأسه، فقتل شاور، وأرسلوا برأسه إلى العاضد، في سابع عشر ربيع الآخر، ففرح المسلمون بذلك وأمر أسد الدين بنهب دار شاور، فنهبت، ودخل أسد الدين على العاضد، فاستوزره، وخلع عليه خلعة عظيمة، ولقبه الملك المنصور، فسكن دار شاور، وعظم شأنه هنالك.

وقال ابن أبي طَيٍّ: ولما بلغ نور الدين خبر فتح مصر فرح بذلك، وقصدته الشعراء بالتهنئة، غير أنه لم ينشرح، لكون أسد الدين صار وزيرا للعاضد، وكذلك لما انتهت الوزارة، إلى ابن أخيه صلاح الدين، فشرع نور الدين في إعمال الحيلة في إزالة ذلك، فلم يتمكن، ولا قدر عليه، ولا سيما، حين بلغه، أن صلاح الدين، استحوذ على خزائن العاضد، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله، والله أعلم.

وأرسل أسد الدين إلى القصر يطلب كاتبا، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل، رجاء أن يقبل منه إذا قال وأفاض فيما كانوا يؤملون، وبعث أسد الدين العمال في الأعمال، وأقطع الإقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه في يوم السبت، الثاني والعشرين، من جمادى الآخرة، من هذه السنة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، فلما توفي أسد الدين رحمه الله أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه، فولاه العاضد الوزارة، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه الملك الناصر.

صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ فيما ذكره الشيخ شهاب الدين في الروضتين، [٤٣٩/١] عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب، وثوب دبيقي، بطراز ذهب، وجبة، بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجر بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود، وفي رأسها قصبة ذهب، فيها تندة بيضاء، بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج، وخيل، وأشياء أخر، ومنشور الوزارة، ملفوف في ثوب، أطلس أبيض، وكان ذلك في يوم الاثنين، الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، من هذه السنة، فكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، لم يتخلف عنه سوى عين الدولة الياروقي، وقال: لا أخدم يوسف بعد نور الدين. ثم سار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام الملك صلاح الدين بمصر، بصفة نائب للملك نور الدين، يخطب له على المنابر بالديار المصرية، ويكاتبه بالأمير الأسفهسلار صلاح الدين، ويتواضع له صلاح الدين في الكتب والعلامة، لكن قد التفت عليه القلوب، وخضعت له النفوس، واضطهد العاضد في أيامه، غاية الاضطهاد، وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد في تلك البلاد، وزاد

في إقطاعات الذين معه، فأحبوه، واحترموه، وخدموه، وكتب إليه نور الدين يعنفه على قبول الوزارة بدون مرسومة وأمره أن يقيم حساب الديار المصرية، فلم يلتفت صلاح الدين إلى ذلك، وجعل نور الدين يقول في غضون ذلك: ملك ابن أيوب. وأرسل صلاح الدين إلى الملك نور الدين يطلب منه أهله، وإخوته، وقرابته، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم السمع والطاعة له، فاستقر أمره بمصر، وتوطأت دولته بذلك، وكمل أمره، وتمكن سلطانه، وقويت أركانه.

وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين لشاور الوزير:

هنيئاً لمصر حور يوسف ملكها ... بأمر من الرحمن قد كان موقوتا

وما كان فيها قتل يوسف شاورا ... يماثل إلا قتل داود جالوتا

قال أبو شامة [الروضتين: ١/٤٥٥]: وقتل العاضد في هذه السنة أولاد شاور وهم شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم، وأخوهما الآخر الملقب بفارس المسلمين، وطيف برؤوسهم ببلاد مصر.

ذكر قتل الطواشي مؤتمن الخلافة، وأصحابه، على يد الملك صلاح الدين

وذلك أنه كتب من دار الخلافة بمصر إلى الفرنج، ليقدموا إلى الديار المصرية، ليخرجوا منها الجيوش الشامية، والعساكر النورية وكان الذي نفذ الكتاب إليهم الخادم، مؤتمن الخلافة، مقدم العساكر بالقصر، وكان حبشيا، وكان قد أرسله مع إنسان أمن إليه، فصادفه في بعض الطريق من أنكر حاله، فحمله إلى الملك صلاح الدين، فقرره، فأخرج الكتاب، ففهم صلاح الدين الحال، فكتمه، واستشعر، مؤتمن الخلافة الخادم، أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر، فلازم القصر مدة طويلة، خوفا على نفسه، ثم عَنَّ له في بعض الأيام أن خرج إلى الصيد، فأرسل الملك صلاح الدين إليه من قبض عليه، وقتله، وحمل رأسه إليه، ثم عزل جميع الخدام الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور، صغارها، وكبارها.

وقعة السودان

وذلك أنه لما قتل الطواشي، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، وعزل بقية الخدام، غضبوا لذلك، واجتمعوا قريبا من خمسين ألفا، فاقتتلوا، هم وجيش الملك الناصر صلاح الدين، بين القصرين، فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره.

ثم إن أخا الناصر، شمس الدولة تورانشاه وكان حاضرا للحرب، قد بعثه نور الدين إلى أخيه، ليشد أزره أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونودي إن أمير المؤمنين يأمركم ان تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم، ومن بلادكم فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم، المعروفة بالمنصورة، التي فيها دورهم، وأهلوهم وأولادهم، بباب زويلة فأحرقها، فولوا عند ذلك مدبرين، وركبهم السيف، فقتل منهم خلقا كثيرا، ثم طلبوا الأمان من الملك صلاح الدين فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمس الدولة تورانشاه، أخو الملك صلاح الدين الجزيرة، فقتل أكثرهم أيضا، ولم يبق منهم إلا القليل، ﴿فتلك بيوتهم خاوية، بما ظلموا﴾ [النمل: ٥٢].

وفيها افتتح الملك نور الدين بن محمود بن زنكي، قلعة جعبر، وانتزعها من يد صاحبها، شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي، وكانت في أيديهم من أيام السلطان ملكشاه.

وفيها احترق جامع حلب، فجدده نور الدين.

وفيها مات ياروق، الذي تنسب إليه المحلة، بظاهر حلب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجي: أبو الحسن الواعظ الحنبلي، ولد في سنة ثمانين وأربعمائة، وسمع الحديث، وتفقه، ووعظ، وكان لطيف الوعظ، وقد أثنى عليه ابن الجوزي في ذلك، وذكر أنه سئل مرة، عن أحاديث الصفات، فنهى عن التعرض لذلك، وأنشد:

أبى العاتب الغضبان يا نفس أن ... وأنت التي صيرت طاعته فرضا

فلا تهجري من لا تطيقين هجره ... وإن هَمَّ بالهجران خديك والأرضا

وذكر ابن الجوزي عنه، أنه قال: خفت مرة من الخليفة، فهتف بي هاتف في المنام وقال لي: اكتب:

ادفع بصبرك حادث الأيام ... وترج لطف الواحد العلام

لا تيأسنْ وإن تضايق كربها ... ورماك ريب صروفها بسهام

فله تعالى بين ذلك فرجة ... تخفى على الأبصار والأوهام

كم من نجا من بين أطراف القنا ... وفريسة سلمت من الضرغام

توفي في شعبان من هذه السنة عن أربع وثمانين سنة، ودفن إلى جانب رباط الزوزني ثم نقل إلى مقبرة الإمام أحمد.

■ شاور بن مجير أبو شجاع السعدي الملقب أمير الجيوش، وزير الديار المصرية أيام العاضد، وهو الذي انتزع الوزارة من أيدي رزيك، وهو أول من استكتب القاضي الفاضل، استدعى به من إسكندرية، من باب السدرة، فحظي عنه، وانحصر منه الكتاب بالقصر، ولما رأوا من فضله وفضيلته. وقد امتدحه الشعراء، منهم عمارة اليمني، حيث يقول:

ضجر الحديد من الحديد وشاور ... في نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

ولم يزل أمره قائما، إلى أن ثار عليه الأمير ضرغام بن سوار، فالتجأ إلى نور الدين، فأرسل معه الأمير أسد الدين شيركوه، فنصروه على عدوه، فنكث عهده، فلم يزل أسد الدين حنقا عليه، حتى كان قتله في هذه السنة وعلى يدي ابن أخيه صلاح الدين يوسف ضرب عنقه بين يديه الأمير جُرديك في السابع عشر من ربيع الآخر، واستوزر بعده أسد الدين، فلم تطل مدته بعده، إلا شهرين وخمسة أيام.

قال ابن خلكان: هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة السعدية، كذا قال وفيما قال نظر، لقصر هذا النسب، لبعد المدة، والله أعلم.

■ شيركوه بن شاذي: أسد الدين الكردي الروادي، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهو من قرية يقال لها دوين، من أعمال أذربيجان، خدم

هو، وأخوه نجم الدين أيوب وكان الأكبر الأمير مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة العراق، فاستناب نجم الدين أيوب على قلعة تكريت، فاتفق أن دخلها عماد الدين زنكي، هاربا من قراجا الساقي، فأحسنا إليه، وخدماه، ثم اتفق أن قتل رجلا من العامة، فأخرجهما بهروز من القلعة، فصارا إلى زنكي بحلب، فأحسن إليهما، ثم حظيا عند ولده نور الدين محمود، فاستناب أيوب على بعلبك، وأقره ولده نور الدين، وصار أسد الدين عند نور الدين أكبر أمرائه، وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة، وحمص، مع ما له عنده من الإقطاعات، وذلك لشهامته، وشجاعته، وصرامته، وجهاده في الفرنج،في أيام معدودات، ووقعات معتبرات، ولا سيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك ما فعله بديار مصر، بلّ الله بالرحمة ثراه، وجعل الجنة مأواه.

وكانت وفاته يوم السبت، فجأة، بخانوق حصل له، وذلك في الثاني والعشرين، من جمادى الآخرة، من هذه السنة، رحمه الله.

قال أبو شامة: وإليه تنسب الخانقاة الأسدية، داخل باب الجابية بدرب الهاشميين بالشرق القبلي. ثم آل الأمر من بعده إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف، ثم استوسق له الملك وأطاعته الممالك هنالك ولله الحمد.

■ محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان المعروف بابن البطي، سمع الحديث الكثير، وأسمع، ورحل إليه، وقارب التسعين رحمه الله.

محمد

■ الفارقي: أبو عبد الله الواعظ، يقال إنه كان يحفظ نهج البلاغة، ويعبر ألفاظه، وكان فصيحا، بليغا، يكتب كلامه، ويروي عنه كتاب، يعرف بالحكم الفارقية.

و■ معمر بن عبد الواحد بن رجاء أبو أحمد الأصبهاني، أحد الحفاظ، الوعاظ، روى عن أصحاب أبي نعيم، وكانت له معرفة جيدة بالحديث، توفي وهو ذاهب إلى الحج بالبادية، رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

في صفر منها، حاصرت الفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر، خمسين يوما، بحيث ضيقوا على أهلها، وقتلوا منهم خلقاً في أمم لا يحصون كثرة قد تجمعوا من البر، والبحر، رجاء أن يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس، فكتب صلاح الدين، إلى الملك نور الدين، يستنجده عليهم، ويطلب منه أن يرسل إليه بإمداد من الجيوش، فإنه إن خرج من مصر، خلفه أهلها بسوء، وإن غفل عن الفرنج، أخذوا دمياط، وجعلوها معقلا لهم، يتقوون بها على أخذ مصر. فأرسل إليه نور الدين ببعوث كثيرة، يتبع بعضها بعضا.

ثم إن نور الدين، اغتنم غيبة الفرنج، عن بلادهم، فصمد إليهم في جيوش كثيرة، فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل، وسبى شيئا كثيرا، وكان من جملة من أرسل إلى صلاح الدين أبوه الأمير نجم الدين أيوب في جيش من تلك الجيوش، ومعه بقية أولاده، فتلقاه الجيش من مصر، في رجب وخرج العاضد لتلقيه، إكراما لولده صلاح الدين، وأقطعه الإسكندرية، ودمياط، وكذلك لبقية أولاده، وقد أمد العاضد صلاح الدين،في هذه الكائنة، بألف ألف دينار، حتى انفصلت الفرنج عن دمياط، وأجلت الفرنج عن دمياط لأنه بلغهم أن نور الدين قد غزا بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم، وسبى كثيرا من نسائهم، وأطفالهم، وغنم مالا جزيلا، فجزاه الله عن الإسلام خيرا.

ثم سار نور الدين في جمادى الآخرة إلى الكرك، فحاصرها وكانت من أمنع البلاد فكاد أن يفتحها، ولكن بلغه أن مقدمين من الفرنج قد أقبلا نحو دمشق، فخاف أن يلتف عليهما الفرنج، فترك الحصار وأقبل إلى دمشق فحصنها، ولما أجلت الفرنج عن دمياط، فرح نور الدين والمسلمون فرحا شديدا، وأنشد الشعراء كل منهم في ذلك قصيدا، وقد كان الملك نور الدين شديد الاهتمام، قوي الاغتمام بذلك، حتى إنه قرأ عليه بعض طلبة الحديث، جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه أن يتبسم، ليصل التسلسل، فامتنع من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله، أن يراني متبسما، والمسلمون يحاصرهم الفرنج، بثغر دمياط.

وقد ذكر الشيخ أبو شامة [الروضتين: ٤٥٩/١] أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة، رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دمياط، رسول الله ﷺ وهو يقول له: سلم على نور الدين، وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط، فقلت يا رسول الله، بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجد يوم تل حارم، وقال في سجوده: اللّهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً ومن هو محمود الكلب حتى يُنصر؟ فلما صلى نور الدين عنده الصبح، بشره بذلك، وأخبره بالعلامة وكشفوا تلك العلامة فإذا هي هي.

قال العماد الكاتب: وفي هذه السنة، عمر الملك نور الدين جامع داريا، وعمر مشهد الشيخ أبي سليمان الداراني بها، وشتى بدمشق.

وفيها حاصر نور الدين الكرك أربعة أيام، وفارقه من هناك نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، متوجها إلى ابنه بمصر، وقد وصاه الملك نور الدين، أن يأمر ابنه صلاح الدين أن يخطب بمصر للخليفة المستنجد بالله العباسي، وذلك أن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك.

وفيها قدم الفرنج من السواحل، ليمنعوا الكرك، مع قريب بن الرقيق، وابن هنفرى، وكانا أشجع فرسان الفرنج، فقصدهما نور الدين ليقابلهما، فحادا عن طريقه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام، والجزيرة، وعمت أكثر الأرض، فتهدمت أسوار كثيرة بالشام، وسقطت دور كثيرة على أهلها، ولا سيما بدمشق وحمص، وحماة، وحلب، وبعلبك، سقطت أسوارها، وأكثر قلعتها، فجدد نور الدين عمارة أكثر ما وقع بهذه الزلزلة.

وفيها توفي:

الملك قطب الدين

■ مودود بن زنكي: أخو نور الدين محمود صاحب الموصل، وله من العمر أربعون سنة، ومدة ملكه منها إحدى وعشرون سنة،وكان من خيار الملوك،محبيا إلى الرعية، عطوفا عليهم، محسنا إليهم،حسن الشكل. وتملك من بعده ولده سيف الدين غازي بن الست خاتون،بنت تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق أصحاب ماردين،وكان مدبر مملكته والمتحكم فيها فخر الدين عبد المسيح، وكان ظالما، غاشما.

وفيها كانت حروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلس، وكذلك كانت حروب كثيرة، بين ملوك الشرق أيضا.

وحج بالناس في هذه السنة، وفيما قبلها، الأمير ارغش الكبير، ولم أر أحدا من أكابر الأعيان توفي فيها.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها كانت وفاة المستنجد، وخلافة ابنه المستضيء، وذلك أن الخليفة المستنجد كان قد مرض في أول هذه السنة، ثم عوفي، فيما يبدو للناس، فعملت ضيافة عظيمة بسبب ذلك، وفرح الناس بذلك، ثم أدخله الطبيب إلى الحمام وبه ضعف شديد، فمات في الحمام، رحمه الله ويقال: إن ذلك كان بإشارة بعض الدولة على الطبيب، استعجالا لموته، توفي يوم السبت، بعد الظهر ثامن ربيع الآخر، عن ثمان وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرا، وكان من خيار الخلفاء، وأعدلهم، وأرفقهم بالرعايا، وضع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكسا، وقد شفع إليه بعض أصحابه في رجل شرير، فبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وائتني بمثله، لأريح المسلمين من شره، وكان المستنجد أسمر، طويل اللحية، وهو الثاني والثلاثين من العباسيين، وذلك في الجمل لام باء، ولهذا قال فيه بعض الأدباء:

أصبحت «لب» بني العباس كلهم إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان أماراً بالمعروف، نهّاء عن المنكر رحمه الله، وقد رأى في المنام رسول الله ﷺ، غير مرة فكانت آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول له «قل اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت»، دعاء القنوت بتمامه [د (٤٦٤)، ت (٤٦٤)، س (١٧٤٤، ١٧٤٥)، ج (١١٧٨)] .

وصلي عليه يوم الأحد، قبل الظهر، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة، رحمه الله تعالى.

خلافة المستضيء

وهو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي، وأمه أرمنية، تدعى غضة، وكان مولده في شعبان، سنة ست وثلاثين وخمسمائة. بويع بالخلافة يوم مات أبوه، بكرة الأحد، تاسع ربيع الآخر، وبايعه الناس، ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن علي غير هذا، ووافقه في الكنية أيضا، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة، وكان يوما مشهودا، وولى قضاء قضاة بغداد لروح بن الحديثي، يوم الجمعة، رابع عشر ربيع الآخر، وخلع على الوزير خلعة عظيمة، وهو الأستاذ عضد الدين، وضربت على بابه نوبه في ثلاثة أوقات، الفجر، والمغرب، والعشاء، وأمر سبعة عشر أميرا من المماليك، وأذن للوعاظ فتكلموا بعد ما كانوا قد منعوا مدة طويلة، لما كان يحدث بسبب ذلك من الشرور الطويلة، ثم كثر احتجاجه، ومما نظمه العماد الكاتب حين جاءتهم البشارة بخلافة المستضيء وهم بأرض الموصل:

قد أضاء الزمان بالمستضي وارث البرد وابن عم النبي

جاء بالحق والشريعة والعد ل فيا مرحباً بهذا المجي

فهنيئاً لأهل بغداد فازوا بعد بؤس بكل عيش هني

ومُضيٌ إن كان في الزمن المظـ لم فالعود في الزمان المضي

وفيها سار الملك نور الدين، محمود بن زنكي إلى الرقة، فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها إلى زوج ابنة ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود، ثم سار إلى الموصل، فأقام بها أربعة وعشرين يوما، وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الأخرى، وأمر بعمارة جامعها، وتوسعته، ووقف على تأسيسه بنفسه، وجعل له خطيبا، ومدرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر النوقاني، تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع، قرية من قرى الموصل، وذلك كله بإشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وقد كانت له زاوية، يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر فيها عنده الملوك، والأمراء، والعلماء، والوزراء، ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه، وكان يستشيره في أموره، وممن يعتمده في مهماته، وهو الذي أشار عليه،في مدة مقامه في الموصل، بجميع ما فعله من الخيرات، فلهذا، حصل بقدومه لأهل الموصل كل مسرة، واندفعت عنهم كل مضرة، وأخرج من بين أظهرهم، الظالم، الغاشم، فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذه معه إلى دمشق، فأقطعه إقطاعا حسنا، وقد كان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الإسلام، وكان يقال إن له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة، خبيث السريرة في حق العلماء، والمسلمين خاصة، ولما دخل نور الدين الموصل، كان الذي استأمن له نور الدين الشيخ عمر الملاء، وحين دخل نور الدين الموصل، خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأحسن إليه وأكرمه، وألبسه خلعة جاءته من الخليفة، فدخل فيها إلى البلد،في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوي الشتاء، فأقام بها، كما ذكرنا أربعة وعشرين يوماً فلما كان في آخر ليلة من إقامته بها، رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: طابت لك بلدك، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الله؟ فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان معه على سنجار، ونصيبين، والخابور، فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا وأصحابا.

وفيها عزل الملك صلاح الدين يوسف قضاة مصر، لأنهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية، وأخرى للمالكية، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهناه دارا، كانت تعرف بمنازل العز، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة، وغيرها. وعمر الملك صلاح الدين أسوار البلد، وكذلك أسوار إسكندرية، وأحسن إلى الرعايا إحسانا كثيرا، وركب فأغار على بلاد الفرنج، بنواحي عسقلان، وغزة، وخرب قلعة كانت لهم على أيلة، وقتل خلقا كثيرا من مقاتلتهم، وتلقى أهله وهم قادمون من الشام، واجتمع شمله بهم بعد فرقة طويلة.

وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل، من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ طاهر بن محمد بن طاهر: أبو زرعة المقدسي الأصل، الرازي المولد، الهمذاني الدار، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير، ومما كان يرويه مسند الشافعي، وكانت وفاته بهمذان يوم الأربعاء، سابع ربيع الآخر، وقد قارب التسعين.

يوسف القاضي:

■ أبو الحجاج بن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وهو شيخ القاضي الفاضل في هذا الفن، اشتغل عليه فيه، وبرع، حتى قدر أنه صار مكانه، حين ضعف الشيخ عن القيام بأعباء الوظيفة، لكبره، فكان

القاضي الفاضل يقوم به وبأهله حتى مات، ثم كان بعد موته، كثير الإحسان إلى أهله، رحمهم الله.

يوسف الخليفة:

■ المستجد بالله بن المقتفي بن المستظهر، تقدم ذكر وفاته، وترجمته في الحوادث، وقد توفي بعده عمه أبو نصر بن المستظهر بأشهر، ولم يبق بعده أحد من ولد المستظهر، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي القعدة منها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فيها كانت وفاة العاضد صاحب مصر في أول جمعة منها، أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية بالقاهرة، وكان ذلك يوما مشهودا، ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام، أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك، مع ابن أبي عصرون وهو شهاب الدين أبي المعالي، بالشام فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديداً، وكانت الخطبة قد قطعت لبني العباس من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي، حين تغلب الفاطميون على مصر، أيام المعز الفاطمي، باني القاهرة، إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

قال ابن الجوزي: وقد ألفت في ذلك كتابا سميته النصر على مصر.

موت العاضد آخر الخلفاء العبيديين

والعاضد في اللغة القاطع «لا يعضد شجرها» [خ (١٨٣٢)، م (١٣٥٤)]: فبه قطعت دولتهم. واسمه عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أول ملوكهم، وكان مولد العاضد في سنة ست وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثا، لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة، واتفق أنه لما استقر أمر الملك صلاح الدين، رسم بالخطبة لبني العباس، عن مرسوم الملك نور الدين، له بذلك لمعاتبة الخليفة المستنجد إياه قبل وفاته، وكان المستنجد إذ ذاك مدنفا مريضا، فلما مات، تولى بعده ولده، فكانت الخطبة بمصر له، ثم إن العاضد مرض، فكانت وفاته في يوم عاشوراء، فحضر الملك صلاح الدين جنازته، وشهد عزاءه، وبكى عليه، وتأسف، وظهر منه حزن كثير عليه، وقد كان مطيعا له، فيما يأمره به، وكان العاضد كريما، جوادا، ممدَّحاً سامحه الله.

ولما مات، استحوذ الملك صلاح الدين على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد، إلى دار، أفردها لهم، وأجرى عليهم الأرزاق، والنفقات الهنية، والعيشة الرضية، عوضا عما فاتهم من الخلافة، وكان صلاح يتندم على إقامة الخطبة لبني العباس بمصر قبل وفاة العاضد، وهلا صبر بها إلى بعد وفاته، ولكن كان ذلك قدرا مقدوراً وفي الكتاب مسطوراً. ومما نظمه العماد الكاتب في ذلك.

توفي العاضد الدعي فما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ... باخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئماً ... بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلناً شعار بني الـ ... ـعباس حقاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتصراً ... ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال في ظلل ... داجية من غباية وعمى
وارتكس الجاهلون في ظلم ... لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضيء ممتهداً ... بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التي اضطهدت ... وانتصر الدين بعدما اهتضما
واهتز عطف الإسلام من جذَل ... وافتر ثغر الإسلام وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحاً ... فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الـ ... ـحمى وفيءُ الطغاة مقتسماً
قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكوت ساكنها ... ومات ذلا وأنفه رغما

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستضيء بأمر الله بالخطبة له بمصر:

ليهنك يا مولاي فتح تتابعت ... إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها ... من الشرك بأس في لها الحق يُقذف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو إن ذلت ليوسف مصرُه ... وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسف
يشابهه خلقاً وخُلقاً وعفة ... وكل عن الرحمن في الأرض يخلف
كشفتَ بها عن آل هاشم سبة ... وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

وقد ذكرها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين [٥٠١/١]، وهي أطول من هذه، وذكر أن أبا الفضائل الحسين بن محمد بن تركان حاجب ابن هبيرة أنشدها للخليفة المستنجد قبل موته، عند تأول منام رآه، بعض الناس للخليفة في هذا المعنى وأراد بيوسف الثاني المستنجد، وهكذا ذكر ابن الجوزي: أنها أنشدت في حياة المستنجد، ولم يخطب بها إلا لابنه المستضيء، فجرى المقال باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وقد أرسل الخليفة المستضيء بأمر الله إلى الملك نور الدين، خلعة سَنِيَّة سُنِّية وكذلك للملك صلاح الدين إلى الديار المصرية، ومعها أعلام سود، ولواء معقود، ففرقت على الجوامع بالشام وبمصر فلله الحمد على ما منح من العز والنصر.

قال ابن أبي طي في كتابه [الروضتين: ٥٠٦/١]: ولما تفرغ صلاح الدين من توطيد المملكة، وإقامة الخطبة العباسية والتعزية بانقضاء الدولة العبيدية الزاعمة أنها فاطمية استعرض حواصل القصرين، فوجد فيهما من الحواصل، والأمتعة، والآلات، والملابس، والمفارش، شيئا باهرا، وأمرا هائلا، من ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر، وقضيب زمرد، طوله أكثر من شبر، وسمكه نحو الإبهام، وحبل من ياقوت، وإبريق عظيم من الحجر المانع، وطبل للقولنج، إذا ضرب عليه أحد، يحصل له خروج ريح من دبره، وينصرف عنه ما يجده من القولنج، فاتفق أن بعض أمراء الأكراد،

اخذه في يده، ولم يدر ما شأنه، فضرب عليه، فحبق أي ضرط فألقاه من يده على الأرض، فكسره، فبطل أمره. وأما القضيب الزمرد، فإن صلاح الدين كسره ثلاث فلق، فقسمه بين نسائه، وقسم بين الأمراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوت، والذهب، والفضة، والأثاث، والأمتعة، وغير ذلك، ثم باع ما فضل عن ذلك، وجمع عليه أعيان التجار، فاستمر البيع فيما بقي هنالك، من الأثاث، والأمتعة، نحوا من عشر سنين، وأرسل إلى الخليفة ببغداد، من ذلك، هدايا سنية، نفيسة، وكذلك إلى الملك نور الدين، أرسل إليه من ذلك جانبا كثيرا، صالحا، ولم يدخر لنفسه شيئا، مما حصل له من الأموال، بل كان يعطي ذلك من حوله من الأمراء، والوزراء والملوك والأصحاب رحمه الله، فكان مما أرسله إلى نور الدين، ثلاث قطع بلخش، زنة الواحدة إحدى وثلاثون مثقالا، والأخرى ثمانية عشر مثقالا، والثالثة دونهما مع لآلىء كثيرة، وستون ألف دينار، وعطر لم يسمع بمثله، ومن ذلك حمارة، عَتّابية وفيل عظيم جدا، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة،في جملة هدايا وتحف هائلة.

قال ابن أبي طي: ووجد خزانة كتب ليس لها في مدائن الإسلام نظير، تشتمل على ألفي ألف مجلد.

قال: ومن عجائب ذلك، أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري. وكذا قال العماد الكاتب: وكانت الكتب قريبة من مائة وعشرين ألف مجلد.

وقال ابن الأثير: كان فيها من الكتب بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، فأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي، بين الأمراء، فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب،في قصر عظيم على الخليج، يقال له اللولؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الأمراء،في دور من كان ينتمي إلى الفاطميين، ولا يلقى أحد من الأتراك، أحدا من أولئك الذين كانوا بها، من الأكابر، إلا شلحوا ثيابه، ونهبوا داره، حتى تمزق كثير منهم في البلاد، وتفرقوا شذر مذر، وصاروا أيادي سبا.

وقد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسرا، فصاروا كأمس الذاهب، كأن لم يغنوا فيها.

وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حدادا اسمه سعيد، وكان يهوديا، فدخل بلاد المغرب، وتسمى بعبيد اللّه، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء، والأئمة، بعد الأربعمائة، كما قد بسطنا ذلك، فيما تقدم.

والمقصود أن هذا الدعي المدّعي الكذاب، راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووازره جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكا مطاعا، يظهر الرفض، وينطوي على الكفر المحض.

ثم كان من بعده ابنه القائم ثم ابنه المنصور ثم ابنه المعز وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة ثم ابنه العزيز ثم ابنه الحاكم ثم ابنه الظاهر ثم ابنه المستنصر ثم ابنه المستعلي ثم ابنه الآمر ثم ابن عمه الحافظ ثم ابنه الظافر ثم الفائز ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكا، ومدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك عدة خلفاء بني أمية أربعة عشر أيضا، ولكن كانت مدتهم نيفا وتسعين سنة، وقد نظمت أسماء هؤلاء، بأرجوزة تابعة لأرجوزة بني العباس، عند انقضاء دولتهم ببغداد، في سنة ست وخمسين وستمائة، كما سيأتي. وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالا، وكانوا من أعتى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع، والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصيرية، والدرزية، والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريفة، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك الشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعثليث وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد آياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقا، وأمما لا يحصيهم إلا اللّه، وسبوا ذراري المسلمين، من النساء والولدان، ما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها، وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن اللّه صانها اللّه بعنايته وسلّمها برعاتيه، وحين زالت أيامهم، وانتقض إبرامهم أعاد اللّه عز وجل هذه البلاد كلها على أهلها من السادة المسلمين، ورد اللّه الكفرة خائبين وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين، وقد قال حسّان الشاعر المدعو بعرقلة.

أصبح الملك بعد آل علي	مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغر	ب للقوم ومصر تزهو على بغداد
ما حووها إلا بعزم وحزم	وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن	كان بها كالخصيب والأستاذ

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه اللّه: يعني بالأستاذ كافور الإخشيدي، وقوله آل علي يعني الفاطميين، على زعمهم، ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا أدعياء ينسبون إلى عبيد، وكان اسمه سعيدا، وكان يهودياً حداداً بسلمية، ثم ذكر ما ذكرناه من كلام الأئمة فيهم، وطعنهم في نسبهم.

قال: وقد استقصيت الكلام في مختصر تاريخ دمشق، في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس، ثم ذكر في الروضتين [٥١٤/١]،في هذا الموضع، أشياء كثيرة في غُبُون ما مشقتُه من سيرتهم في السنين المتقدمة مما يسدُّ الأسماع وينفّر الطباع.

قال أبو شامة: وقد أفردت كتابا سميته 'كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر الكذب والمكر والكيد' وقد صنف العلماء في الرد عليهم، كتبا كثيرة، من أجل ما وضع في ذلك كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني، الذي سماه 'كشف الأسرار وهتك الأستار' وما أحسن ما قاله بعض الشعراء،في بني أيوب، يمدحهم على ما فعلوه بديار مصر:

أبستُم مُزيلي دولة الكفر من بني	عبيد بمصر إنَّ هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية	مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفرا يظهرون تشيعا	ليستتروا شيئاً وعَمُّهم الجهل

وفي هذه السنة أسقط الملك صلاح الدين عن أهل مصر المكوس، والضرائب، وقرئ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد، يوم الجمعة، بعد الصلاة، ثالث صفر.

وفيها وقعت نفرة بين نور الدين والملك الناصر صلاح الدين، وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة، بلاد الفرنج،في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، وقرر في أنفسهم منه نقمة ووعيدا، ثم عزم على محاصرة الكرك،

وكتب إلى صلاح الدين أن يلتقيه بالعساكر المصرية إلى بلاد الكرك، ليجتمعا هنالك، ويتفقا على المصالح التي يعود نفعها على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الأمر غائلة يزول بها ما حصل له، من التمكين، ولكنه مع ذلك ركب في جيشه من مصر، لأجل امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كر راجعا معتلا بقلة الظهر، والخوف على اختلال الأمور، إذا بعد عن مصر، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان الملك العادل نور الدين. فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه،وعزم على الدخول إلى مصر، وانتزاعها من صلاح الدين،وتوليتها غيره، ولما بلغ هذا الخبر صلاح الدين، ضاق بذلك ذرعه،وذكر ذلك بحضرة الأمراء والكبراء، فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر، وقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه. فشتمه الأمير نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ما أقول لك، والله ما ههنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا يعني شهاب الدين الحارمي ولو رأينا الملك نور الدين، لبادرنا إليه، ولقبلنا الأرض بين يديه، وكذلك بقية هؤلاء الأمراء، ولو كتب إلي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم امر من هنالك بالانصراف والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أما لك عقل؟ تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، فيقول عمر مثل هذا الكلام، فتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين، أهم من قصدك، وقتالك، وخراب ديارنا، وأعمارنا، ولو قد رأى الجيش كلهم نور الدين، لم يبق معك واحد منهم، ولذهبوا كلهم إليه، ولكن ابعث إليه، وترفق له، وتواضع عنده، وقل له: وأي حاجة إلى مجيء مولانا؟ ابعث إلي بنجاب حتى أجيء معه، إلى بين يديك. فبعث وإليه بذلك، فلما سمع نور الدين مثل هذا الكلام، لان قلبه له، وانصرفت همته عنه، واشتغل بغيره، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي، وذلك لامتداد مملكته، واتساعها، فإنه ملك من حد النوبة إلى همذان، لا يتخللها إلا بلاد الفرنج، لعنهم الله، وكلهم تحت قهره، وهدنته، فلذلك اتخذ في كل قلعة، وحصن، الحمام التي تحمل الرسائل إلى إلى الآفاق،في أسرع مدة، وأيسر علة، وما أحسن ما قال فيهن القاضي الفاضل: الحمام ملائكة الملوك. وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب، وأطرب، وأعجب، وأغرب رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد أبو محمد بن الخشاب، قرأ القرآن، وسمع الحديث، واشتغل بالنحو واللغة، حتى ساد أهل زمانه فيهما، وشرح الجمل لعبد القاهر الجرجاني، وكان رجلا صالحا، متطوعا، وهذا نادر في النحاة، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ودفن قريبا من الإمام أحمد، ورئي في المنام. فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وأدخلني الجنة، إلا أنه أعرض عني، وعن جماعة من العلماء، تركوا العمل، واشتغلوا بالقول.

قال القاضي ابن خلكان: كان مطرحا للكلفة،في مأكله، وملبسه، وكان لا يبالي بمن شرق أو غرب.

■ محمد بن محمد بن محمد: أبو المظفر البروي، قرأ الفقه على محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وناظر، ووعظ ببغداد، وكان يظهر مذهب الأشعري، ويتكلم في الحنابلة، مات في رمضان منها.

■ ناصر بن الجُوَيْني الصوفي: كان يمشي في طلب الحديث حافيا، توفي ببغداد رحمه الله.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وفيها توفي:

■ نصر الله بن عبد الله أبو الفتوح: الإسكندري، المعروف بابن قلاقس، الشاعر بعيذاب، توفي عن خمس وثلاثين سنة.

والشيخ أبو بكر

■ يحيى بن سعدون القرطبي، نزيل الموصل، المقرئ، النحوي رحمه الله.

قال: وفيها ولد العزيز، والظاهر، ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين عمر.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها أرسل الملك نور الدين، إلى الملك صلاح الدين وكان الرسول الموفق خالد بن القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسل بها إليه، من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقرر له على الديار المصرية خراجا منها في كل عام.

وفيها حاصر الملك صلاح الدين الكرك، والشوبك، فضيق على أهلها، وخرب أماكن كثيرة من معاملاتها، ولكن لم يظفر بها عامه ذلك.

وفيها اجتمعت الفرنج بالشام، لقصد مدينة زرع، فوصلوا إلى سمكين، فبرز إليهم نور الدين، فهربوا منه إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث سرية إلى طبرية، فعاثوا هنالك، وسبوا، وقتلوا، وغنموا، وعادوا سالمين، ورجع الفرنج خائبين لعنهم الله أجمعين، وقد امتدحه العماد الكاتب بقصيدة طنّانة في هذه الغزوة.

فتح بلاد النوبة

وفيها أرسل السلطان صلاح الدين، أخاه شمس الدولة تورانشاه، إلى بلاد النوبة، فافتتحها، واستحوذ على معقلها، وهو حصن يقال له إبريم، ولما رآها بلداً قليلة الجدوى لا يفي خراجها بكلفتها، استخلف على الحصن المذكور رجلا من الأكراد، يقال له إبراهيم، فجعله مقدما مقررا بحصن إبريم، وانضاف إليه جماعة من الأكراد البطالين، فكثرت أموالهم، وحسنت أحوالهم هنالك، وشنوا الغارات، وحصلوا على الغنائم والمسرّات، و لله الحمد الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سقط عن فرسه فمات، وسنأتي على ترجمته في الوفيات.

وفيها سار الملك نور الدين، إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان السلجوقي ملك الروم، وافتقد في طريقه بلاده وأصلح ما وجده فيها من الخلل. ثم سار، فافتتح مرعش وبهسنا وعمل في كل منهما بالحسنى.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر به نور الدين، وأنزله بحلب، بمدرسة باب العراق، ثم أتى به إلى دمشق، فدرس بزاوية الجامع الغربية، المعروفة بالشيخ نصر المقدسي، ونزل بمدرسة الجاروخية، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية، فأدركه الأجل قبل ذلك.

قال أبو شامة: هي العادلية الكبيرة، التي عمرها بعد ذلك الملك العادل أبو بكر بن أيوب.

وفيها رجع شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، حين سار بالهناء بالخطبة العباسية بالديار المصرية، ومعه توقيع من الخلافة بإقطاع درب هارون وصريفين لنور الدين، وقد كانتا قديما لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن يبني ببغداد مدرسة، على دجلة، ويجعل هذين المكانين وقفا عليها فعاقه القدر عن ذلك.

وفيها وقعت بناحية خوارزم حروب كثيرة بين سلطان شاه وبين أعدائه، تقصّاها ابن الأثير وابن الساعي.

وفيها هزم ملك الأرمن مليح بن ليون بعساكر الروم، وغنم منهم شيئا كثيرا، وبعث إلى نور الدين بأموال كثيرة، وثلاثين رأسا من رؤوس كبارهم، فأرسلها نور الدين إلى الخليفة المستضيء.

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبه قراقوش، مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه، إلى بلاد إفريقية، فملكوا طائفة كثيرة منها، من ذلك مدينة طرابلس الغرب، وعدة مدن معها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **إيلدكز التركي الأتابكي**: صاحب أذربيجان، وغيرها، كان مملوكا للكمال السُّميرمي، وزير السلطان محمود، حظي إيلدكز هذا عند السلطان ثم علا أمره، وتمكن، حتى ملك بلاد أذربيجان، وبلاد الجبل، وغيرها، وكان عادلا، منصفا شجاعا، محسنا إلى الرعية، توفي بهمذان.

الأمير نجم الدين أبو الشكر

■ **أيوب بن شاذي**: والد الملوك بني أيوب الكردي الروادي وهم خيار الأكراد الدويني نسبة إلى دوين شمالي بلاد أذربيجان مما يلي الكرخ، ومنهم من يقول أيوب بن شاذي بن مروان، زاد بعضهم بعد مروان بن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد في نسبهم، وأغرب بعضهم، فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي نسب إليه ادعاء هذا هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي ويعرف بابن سيف الإسلام، وقد ملك اليمن بعد أبيه، فتعاظم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء، وأطروه وهجوا بذلك، وقال هو في ذلك أيضاً:

وأنا الهادي الخليفة والذي ... أدوس رقاب الغلب بالضمر الجُرد

ولا بد من بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشر السماسر للبُرد

وأنصب أعلامي على شرفاتها ... وأحيي بها ما كان أسسه جدي

ويخطب لي فيها على كل منبر ... وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له يعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه.

والمقصود أن الأمير نجم الدين، كان أسن من أخيه أسد الدين شيركوه، ولد بأرض الموصل، كان الأمير نجم الدين شجاعا، خدم الملك محمد بن ملكشاه، فرأى فيه شهامة، وأمانة، فولاه قلعة تكريت، فحكم فيها، فعدل، وكان من أكرم الناس، ثم أقطعها الملك مسعود، لمجاهد الدين بهروز، شحنة العراق، فاستمر فيها، فاجتاز به في بعض الأحيان، الملك عماد الدين زنكي منهزما، من قراجا الساقي، فآواه، وخدمه خدمة بالغة تامة، وداوى جراحه، وأقام عنده مدة خمسة عشر يوما، ثم ارتحل إلى بلده الموصل، ثم اتفق أن نجم الدين أيوب عاقب، رجلا نصرانيا، فقتله، وقيل إنما قتله أخوه أسد الدين شيركوه.

وهذا بخلاف الذي ذكره القاضي ابن خلكان، فإنه قال: رجعت جارية من بعض الخدم، فذكرت له، أنه تعرض لها اسفهسلار، الذي بباب القلعة، فخرج إليه أسد الدين، شيركوه فطعنه بحربة، فقتله، فحبسه أخوه نجم الدين، أيوب وكتب إلى مجاهد الدين بهروز، يخبره بصورة الحال، فكتب إليه يقول: إن أباكما كانت له عليَّ خدمة، وكان قد استنابه في هذه القلعة، قبل ابنه نجم الدين أيوب، وإني أكره أن أسوءكما، ولكن انتقلا منها. فأخرجهما بهروز من قلعته. وفي ليلة خروجه منها، ولد له الملك الناصر صلاح الدين يوسف. قال: فتشاءمت به لفقدي بلدي، ووطني. فقال لي بعض الناس: قد نرى ما أنت فيه، من التشاؤم بهذا المولود، فما يؤمنك أن يكون هذا المولود ملكا عظيما له صيت كبير؟ فكان كما قال، فاتصلا بخدمة الملك عماد الدين زنكي، ثم كانا عند ابنه نور الدين محمود الملك العادل وتقدما عنده، وارتفعت منزلتهما، وعظما، فاستنابه نور الدين ببعلبك، ولما تسلم بعلبك، أقام مدة طويلة، وولد له فيها أكثر أولاده، ثم كان من أمره ما ذكرناه في دخوله الديار المصرية وصيرورة الأمير نجم الدين إلى ابنه بها في سنة أربع وستين ثم اتفق أنه في ذي الحجة سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام،في اليوم السابع والعشرين من ذي الحجة، من هذه السنة، وكان ابنه صلاح الدين محاصراً للكرك والشوبك غائبا عنه، فلما وصله الخبر تألم لعدم من حضوره، وأرسل يتحرق، ويتحزن، وأنشد يقول:

وتخطفه يد الردى في غيبتي ... هبني حضرت، فكنت ماذا أصنع؟

وقد كان نجم الدين أيوب كثير الصلاة، والصدقة، والصيام، كريم النفس، جوادا، ممدحاً.

قال ابن خلكان: وله خانقاه بالديار المصرية، ومسجد، وقناة، خارج باب النصر من القاهرة، وقفها في سنة ست وستين.

قلت: وله بدمشق خانقاه أيضا، تعرف بالنجمية، وقد استنابه ابنه على الديار المصرية، حين خرج إلى الكرك، وحكمه في الخزائن، وكان من أكرم الناس، وقد امتدحه الشعراء، كالعماد الكاتب وعرقلة وعمارة اليمني وغير واحد، ورثوه حين مات بمراث كثيره، وقد ذكر ذلك مستقصى الشيخ أبو شامة،في الروضتين [١/٥٤٠]، ودفن مع أخيه أسد الدين، بدار الإمارة، ثم نقلا إلى المدينة النبوية،في سنة ثمانين، فدفنا بتربة الوزير جمال الدين الموصلي، الذي كان مؤاخيا لأسد الدين شيركوه.

قال شهاب الدين أبو شامة: وفي هذه السنة توفي ملك النحاة.

■ **الحسن بن صافي يزدن التركي**: كان من أكابر أمراء بغداد، المتحكمين في الدولة، ولكنه كان رافضيا خبيثا، متعصبا للروافض، وكانوا في خفارته وجاهه، حتى أراح الله المسلمين منه،في هذه السنة،في ذي الحجة منها، ودفن بداره، ثم نقل إلى مقابر قريش، ولله الحمد والمنة.

وحين مات، فرح أهل السنة بموته، فرحا شديدا، وأظهروا الشكر لله، فلا تجد أحدا منهم، إلا يحمد الله، فغضب الشيعة من ذلك، ونشأت بينهم فتنة بسبب ذلك. وذكر ابن الساعي في تاريخه، أنه كان في صغره شابا،حسنا، مليحا، معشوقا، للأكابر من الناس. قال: ولشيخنا أبي اليمن الكندي فيه، وقد رمدت عينه:

بكل صباح لي وكل عشية ... وقوف على أبوابكم وسلام

وقد قيل لي يشكو سقاما بعينه ... فها نحن منها نشتكي ونضام

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابن الجوزي في المنتظم [٢٠٤/١٨]: إنه سقط عندهم ببغداد برد كبار، كالنارنج، ومنه ما وزنه سبعة أرطال، ثم أعقب ذلك سيل عظيم، وزيادة عظيمة بدجلة، لم يعهد مثلها أصلا، فخربت أشياء كثيرة من العمران والقرى، والمزارع، حتى القبور، وخرج الناس إلى الصحراء، وكثر الضجيج، والابتهال إلى الله، حتى فرج الله عز وجل، وتناقصت زيادة الماء، بحمد الله ومنه:

قال: وأما الموصل، فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلق كثير، وكذلك الفرات زادت زيادة عظيمة أيضاً، فهلك بسببها شيء كثير من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة،في الزروع، والثمار، ووقع الوباء في الغنم، وأصيب شيء كثير ممن أكل منها بالعراق، وغيرها.

قال ابن الساعي: وفي رمضان منها، توالت الأمطار بديار بكر، والموصل، أربعين يوما وليلة، لم يروا الشمس فيها سوى مرتين، لحظتين يسيرتين، فتهدمت بيوت كثيرة، ومساكن على أهلها، وزادت الدجلة بسبب ذلك، زيادة عظيمة، وغرق كثير من مساكن بغداد، والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله عز وجل.

قال ابن الجوزي: وفي رجب، وصل ابن الهروي من عند نور الدين، ومعه ثياب مصرية، وحمارة ملونة، جلدها مخطط، مثل الثوب العتابي.

قال: عزل ابن الشاشي من تدريس النظامية، ووليها أبو الخير القزويني.

قال: وفي جمادى الآخرة، اعتقل المجير الفقيه،ونسب إلى الزندقة، والانحلال، وترك الصلاة، والصوم، ثم تعصّب له أناس. وزكوه، فأخرج، وذكر أنه وعظ بالحربية ذات يوم، فاجتمع عنده قريب من ثلاثين ألفا.

قال ابن الساعي: وفيها سقط أبو العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء، مَن قبة شاهقة، إلى الأرض، فسلم، ولكن نبت يده اليمنى، وساعده اليسرى، وانسلخ شيء من أنفه، وكان معه خادم أسود، يقال له نجاح، فلما رأى سيده قد سقط، ألقى هو نفسه أيضا خلفه، وقال: لا حاجة لي فيه الحياة بعده، فسلم أيضا، فلما صارت الخلافة إلى أبي العباس الناصر وهو هذا الذي سقط لم ينسها لنجاح هذا، فحكمه في الدولة، وأحسن إليه، وقد كانا صغيرين لما سقطا.

وفيها سار الملك نور الدين نحو بلاد الروم، وفي خدمته الجيش، وملك الأرمن وصاحب ملطية، وخلق من الملوك والأمراء، وافتتح عدة من حصونهم ولله الحمد، وحاصر قلعة الروم، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية، ثم عاد إلى حلب، وقد وجد النجاح في كل ما طلب، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسرورا محبورا.

وفي هذه السنة كان فتح بلاد اليمن للملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان سبب ذلك، أن صلاح الدين بلغه أن بها رجلا يقال له عبد النبي بن مهدي، وقد تغلب عليها، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالإمام، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وقد كان أخوه علي بن مهدي، قد تغلب قبله عليها، وانتزعها من أيدي أهل زبيد، ومات سنة ستين، فملكها بعده أخوه هذا، وكل منهما كان سيء السيرة، والسريرة، فعزم صلاح الدين، لكثرة جيشه، وقوته، على إرسال سرية إليه، وكان أخوه الأكبر شمس الدولة شجاعاً، مهيبا، بطلا، وكان ممن يجالس عمارة اليمني الشاعر، وكان عمارة ينعت له بلاد اليمن، وحسنها، وكثرة خيرها، فحداه ذلك على أن خرج في تلك السرية،في رجب من هذه السنة، فورد مكة، فاعتمر بها، ثم سار منها إلى زبيد، فخرج إليه عبد النبي، فقاتله، فهزم تورانشاه جيشه، وأسره وأسر زوجته الحرة، وكانت ذات أموال جزيلة، فاستقرها على أشياء نفيسة، وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثم توجه إلى عدن، فقاتله ياسر ملكها، فهزمه، تورانشاه وأسره، وأخذ البلد بيسير من الحصار، ومنع الجيش من نهبها، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها. ثم سار في الناس سيرة حسنة، عادلة، فأحبوه، ثم تسلم بقية الحصون، والمعاقل، والمخاليف، واستوسق له ملك اليمن بحذافيره، وألقى إليه بأفلاذ كبده، ومطاميره، وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء، وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره بما فتح الله عليه، وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك؛ إلى نور الدين فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة، يبشره بفتح اليمن، والخطبة بها له.

وفيها خرج الموفق خالد بن القيسراني من الديار المصرية، وقد أقام بها الملك الناصر، حساب الديار المصرية، وما خرج من الحواصل، حسب ما رسم به الملك نور الدين كما تقدم، وقد كاد صلاح الدين، لما جاءته الرسالة بذلك، يظهر شق العصا ويواجه بالمخالفة والإباء لكنه عاد إلى طباعه الحسنة، وأظهر الطاعة المستحسنة، وأمر بكتابة الحساب، وتحرير الكتاب والجواب، فبادر إلى ذلك جماعة الدواوين، والحساب، والكتاب، وبعث مع ابن القيسراني بهدية سنية، وتحف هائلة هنية. فمن ذلك خمس ختمات شريفات، مغطات بخطوط مستويات، ومائة عقد من الجواهر النفيسات، خارجا عن قطع البلخش، واليواقيت، والفصوص، والثياب الفاخرات، والأواني، والأباريق، والصحاف الذهبيات، والفضيات، والخيول المسومات، والغلمان، والجواري الحسان، والحسنات، ومن الذهب عشرة صناديق، مقفلات، مختومات، مما لا يدرى كم عدة ما فيها، من مئين ألوف ومئات، من الذهب المصري المعد للنفقات. فلما فصلت العير من الديار المصرية، لم تصل إلى الشام، حتى كان وفاة الملك نور الدين رحمه الله، رب الأرضين والسماوات، فأرسل صلاح الدين من ردها عليه وأعادها إليه، ويقال إن منها ما عدي عليه، وعلم بذلك حين وضعت بين يديه.

مقتل

■ **عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي من قحطان**، أبو محمد الملقب بنجم الدين اليمني، الفقيه، الشاعر، الشافعي، وسبب قتله، أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية، الذين كانوا فيها حكاما، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج، يستدعونهم إليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وأمراء، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئة فحرض عمارة اليمني، شمس الدولة توران شاه، على المسير إلى اليمن، ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج توران شاه، ولم يخرج معه عمارة اليمني، بل أقام بالقاهرة، يفيض في هذا الحديث، ويداخل المتكلمين فيه، ويصافيهم، وكان من أكابر الدعاة إليه، والمحرضين عليه هذا، وقد أدخلوا معهم فيه بعض من ينسب إلى صلاح الدين، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم أحوج ما كانوا إليه، وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء إلى السلطان فأخبره بما تمالأ القوم عليه وبما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالا جزيلة، وأفاض عليه حللا جميلة، ثم استدعاهم السلطان

واحدا واحدا فقررهم، فأقروا له بذلك، فاعتقلهم، ثـم استفتى الفقهاء في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وتبديد شملهم فعند ذلك، أمر بصلب رؤوسهم، وأعيانهم، دون أتباعهم، وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد، وأفرد ذرية العاضد، وأهل بيته في دار، فلا يصل إليهم إصلاح، ولا إفساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق، والثياب، وكان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما أُحضر عمارة بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان، ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال: يا مولانا السلطان لا تسمع منه. فغضب القاضي الفاضل، وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنه إنما كان قد شفع فيك. فندم ندما عظيما. ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه، فتغيب عنه، فأنشد عند ذلك:

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص هو العجب

قال ابن أبي طي: وكان الذين صُلبوا:

■ المفضّل بن كامل القاضي، وهو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمناء، وكان أول من صلب فيما قاله العماد الكاتب، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب، وله شعر رائق، فمن ذلك قوله في غلام رفّاء.

يا رافيا خرق كل ثوب ... ويا رشاً حبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو ... ما مزق الهجر من فؤادي

و■ ابن عبد القوي داعي الدعاة، وكان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليُعلم عليها، فامتنع من ذلك، فمات، واندرست.

و■ العوريس وهو ناظر الديوان، وتولى مع ذلك القضاء.

و■ شُبرما وهو كاتب السر.

و■ عبد الصمد القشة، وهو أحد أمراء المصريين.

و■ نجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم.

و■ عمارة اليمني الشاعر: وقد كان شاعرا، مطبقا بليغا فصيحا، لا يلحق شأوه في هذا الشأن، وله ديوان شعر مشهور، وقد ذكرته في طبقات الشافعية، لأنه كان يشتغل بمذهب الشافعي، وله تصنيف في الفرائض، وكتاب الوزراء الفاطميين، وكتاب جمع فيه سيرة نفيسة، التي كان يعتقدها عوام مصر، وقد كان أديبا، فاضلا، فقيها، غير أنه كان ينسب إلى موالاة الفاطميين، وله فيهم، وفي وزرائهم، وأمرائهم، مدائح كثيرة جدا، وأقل ما كان ينسب إلى الرفض، وقد اتهم بالزندقة، والكفر المحض، وذكر العماد في الخريدة [قسم الشعراء: ٣/١٠٤]، أنه قال في قصيدته، التي يقول في أولها:

العِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْنِي عَنِ القَلَمِ

وهي طويلة جدا، فيها كفر وزندقة كثيرة. قال فيها:

قَدْ كَانَ أَوَّلُ هذا الدِّينِ مِنْ رَجُلٍ ... سَعَى إِلَى أَنْ دَعَوْهُ سَيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد: فأفتى أهل العلم من أهل مصر، بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة به، وبمثله. قال: ويجوز أن يكون هذا البيت، معمولا عليه، والله أعلم.

وقد أورد ابن الساعي، شيئاً من رقيق شعره فمن ذلك قوله، يمدح بعض الملوك:

ملك إذا أنا قابلتُ بِشْرَ جَبِينِهِ ... فَارَقْتُهُ والبِشْرُ فَوْقَ جَبِينِي

وإذا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وخَرَجْتُ مِنْ ... أَبْوَابِهِ لَثَمَ المُلُوكُ يَمِينِي

ومن ذلك قوله يتغزل:

لِي في هَوَى الرَّشَإِ العُذْرِيِّ أعْذَارُ ... لَمْ يَبْقَ لِي مُذْ أقرَّ الدَّمْعُ إِنْكَارُ

لِي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخُدودِ وفي ... ضَمِّ النُّهُودِ لُبَانَاتٌ وأَوْطَارُ

هذا اخْتِيَارِي فَوَافِقْ إِنْ رَضِيتَ بِهِ ... وإلا فَدَعْنِي لِمَا أَهْوَى وأَخْتَارُ

ومما أنشده الشيخ تاج الدين الكندي في عمارة اليمني حين صلب:

عمارةُ في الإسلام أبدَى خيانةً ... وبَايعَ فِيهَا بيعةً وصَلِيبَا

وأمْسَى شَرِيكَ الشِّرْكِ فِي بُغْضِ أحمد ... وأصْبَحَ في حُبِّ الصَّلِيبِ صَلِيبَا

وكان خبيثَ الملتقى إن عجمتَه ... تجدْ منه عوداً في النفاق صليباً

سَيَلْقَى غَداً ما كَانَ يَسْعَى لأجله ... ويُسْقَى صَدِيداً في لَظَى وصَلِيبَا

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: فالأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب. والثالث بمعنى القوي، والرابع ودك العظام.

ولما صلب الملك الناصر هؤلاء يوم السبت، الثاني من شهر رمضان، من هذه السنة، بين القصرين من القاهرة، كتب إلى الملك نور الدين، يعلمه بما وقع منهم، وما أوقع بهم، من الخزي، والنكال.

قال العماد: فوصل الكتاب بذلك الأمر يوم توفي الملك نور الدين، رحمه الله تعالى. وكذلك قتل صلاح الدين رجلا من أهل الإسكندرية، يقال له قديد القفاص كان قد افتتن به الناس، وجعلوا له جزءا من أكسابهم، حتى النساء من أموالهن، فأحيط به، فأراد الخلاص، ولات حين مناص، فقتل أسوة بمن سلف، ولقد كان بئس الخلف ومما وجد من شعر عمارة، يرثي العاضد، ودولته، وأيامه.

أَسَفِي عَلَى زَمَنِ الإِمَامِ العَاضِدِ ... أَسَفَ العَقِيمِ عَلَى فِرَاقِ الوَاحِدِ

جالَستُ مِن وُزَرائِهِ وصحبتُ مِنْ ... أُمرائِهِ أهلَ الثناءِ الماجدِ

لَهْفِي عَلَى حُجُرَاتِ قَصْرِكَ إذ خَلَتْ ... يَا ابْنَ النَّبِيِّ مِنِ ازْدِحَامِ الوَافِدِ

وَعَلَى انْفِرَادِكَ مِنْ عَسَاكِرِكَ الذي ... كَانُوا كَأَمْوَاجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ

قَلَّدتَ مُؤْتَمَنَ الخِلافَةِ أمْرَهُمْ ... فَكَبَا وقَصَّرَ عَنْ صَلاحِ الفَاسِدِ

فَعَسَى اللَّيَالِي أنْ تَرُدَّ عَلَيْكُمُ ... مَا عَوَّدَتْكُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِ

وله في قصيدة:

يَا عَاذِلِي في هَوَى أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ ... لَكَ المَلامَةُ إنْ قَصَّرْتَ في عَذْلِي

بِاللّهِ زُرْ سَاحَةَ القَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي ... عَلَيْهِمَا لا عَلَى صِفِّينَ والجَمَلِ

وقُلْ لأهْلِيهِمَا واللّهِ مَا الْتَحَمَتْ ... فِيكُمْ قُرُوحِي ولا جُرْحِي بِمُنْدَمِلِ

مَاذا تَرَى كَانَتِ الإفْرَنْجُ فَاعِلَةً ... في نَسْلِ آلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِي

وقد أورد له الشيخ أبو شامة، في الروضتين، أشعارا كثيرة، من مدائحه في الخلفاء الفاطميين، وكذا ابن خلكان.

■ ابن قرقول إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الحمزي أبو إسحاق بن قرقول الأندلسي: صاحب كتاب مطالع الأنوار، الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار، للقاضي عياض، وكان من علماء بلاده، وفضلائهم المشهورين، مات فجأة بعد صلاة الجمعة، سادس شوال من هذه السنة عن أربع وستين سنة، قاله ابن

خلكان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل في وفاة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر التركي السلجوقي في هذه السنة رحمه الله وذكر شيء من سيرته العادلة وأيامه الكاملة

■ (نور الدين بن زنكي).

هو الملك العادل، نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة، عماد الدين، أبي سعيد زنكي، الملقب بالشهيد، ابن الملك آق سنقر الأتابك، الملقب بقسيم الدولة، التركي، السلجوقي، مولاهم، ولد وقت طلوع الشمس، من يوم الأحد، السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب، والموصل، وغيرهما من البلدان، الكثيرة الكبيرة. وتعلم القرآن، والفروسية، والرمي، وكان شهما، شجاعا، ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة متينة، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين، وهو محاصر جعبر، كما ذكرنا، صار الملك بحلب إلى ابنه نور الدين هذا، وأعطى أخوه سيف الدين غازي الموصل، كما تقدم، ثم افتتح الملك نور الدين دمشق في سنة تسع وأربعين، فأحسن إلى أهلها، وبنى لهم المدارس، والمساجد، والربط، ووسع لهم الطرق على المارة، وبنى عليها الرصافات، ووسع الأسواق، ووضع المكوس بدار الغنم، والبطيخ، والعرصة، وغير ذلك.

وكان حنفي المذهب، يحب العلماء والفقراء، ويكرمهم، ويحترمهم، ويحسن إليهم، وكان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل، ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي، والفقهاء، والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق، الذي بالكشك، ليصل إليه كل أحد من المسلمين، وأهل الذمة، حتى يساويهم، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابا، وأغلق باب كيسان، وفتح باب الفرج، ولم يكن قبله هناك باب بالكلية، وأظهر ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الروافض، كان ظاهرا بها، وأقام الحدود، وفتح الحصون، وكسر الفرنج غير مرة واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة، من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها، من بلاد المسلمين، كما تقدم بسط ذلك، في السنين المتقدمة في أيامه، وأقطع الأمراء العرب إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجيج، وبنى بدمشق مارستاناً حسناً، لم يبن في الشام قبله مثله، ولا بعده أيضا، ووقف وقفا، على من يعلم الأيتام الخط والقرآن، وجعل لهم نفقة، وكسوة، وعلى من يكرم الأيتام وعلى المجاورين بالحرمين، وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل، والمحاويج وكان الجامع داثرا، فولى نظره القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي، الذي قدم به، فولاه قضاء قضاة دمشق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها، من حين احترق، في سنة إحدى وستين وأربعمائة، وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة، الأوقاف التي لا يعرف واقفوها، ولا يعرف شروطهم فيها، وجعلها قلما واحداً، وسماه مال المصالح، ورتب عليه لذوي الحاجات الفقراء، والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك.

وقد كان الملك نور الدين، حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، محافظا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محبا لفعل الخيرات، عفيف البطن، والفرج، مقتصدا في الإنفاق على نفسه، وعياله، في المطعم، والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه، أعلى نفقة منه، من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا، ولم تسمع منه كلمة فحش قط، في غضب، ولا رضى، صموتاً وقوراً.

قال ابن الأثير: لم يكن من ملوك الإسلام بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً، للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال، فكان يتناوله، ولا يزيد عليه شيئا ولو مات جوعا، وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك، فقال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد. وكان لا يلبس الحرير، وكان يأكل من كسب يده، بسيفه ورمحه.

وركب يوما مع بعض أصحابه، والشمس في ظهورهما، والظل بين أيديهما، لا يدركانه، ثم رجعا، فصار الظل وراءهما، فساق الملك نور الدين وجعل يلتفت، وظله يتبعه، ثم قال لصاحبه: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها. وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ ... مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكْ
أَنْتَ لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعاً ... فَإذا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكْ

وكان فقيها على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث، وأسمعه، وكان يكثر الصلاة بالليل، من وقت السحر إلى أن يركب:

جَمَعَ الشَّجاعة والخُشُوعَ لربِّهِ ... ما أحسَنَ المحرابَ في المِحْرابِ

وكذلك كانت زوجته، عصمت الدين خاتون، بنت الأتابك معين الدين أنر تكثر قيام الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عن ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر، لتوقظ النائم ذلك الوقت، لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرا جزيلا، وجراية كثيرة.

فألبَسَ اللهُ هَاتِيكَ العِظَامَ وإن ... بَلِينَ تَحْتَ الثَّرَى عَفْواً وغُفْرانَاً
سَقَى ثَرَى أوْدَعُوه رَحْمَةً مَلأتْ ... مَثْوَى قُبُورِهِمُ رَوْحَاً ورَيْحانَاً

وذكر ابن الأثير، أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة، إذ رأى رجلا يحدث آخر، ويومئ، إلى نور الدين فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه! فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقا، يريد أن يحاكمه عند القاضي، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك، ألقى الجوكان من يده، وأقبل مع خصمه، ماشيا إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وأرسل نور الدين إلى القاضي، أن لا تعاملني إلا معاملة الخصوم، فحين وصلا، وقف نور الدين مع خصمه، بين يدي القاضي حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال السلطان: إنما جئت معه، لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا

دعي إليه، فإنما نحن شحنكية بين يديه، وأنا أعلم، أنه لا حق للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم، أني قد ملكته ذلك الذي ادعى به، ووهبته له.

وأرسل القاضي تاج الدين رسولا من جهته يقال له سويد ليحضر الملك نور الدين إلى مجلس الحكم لسماع دعوى من رجل عليه فبلغ سويد الرساله إلى الحاجب فدخل عليه وهو يضحك ويقول: ليقم المولى إلى القاضي لسماع دعوى وكأنه يستهزئ بذلك، فقال له الملك: وما لك تستهزئ بذلك؟ ثم قال: ائتوني بفرسي فنهض وهو يقول: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذ دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ [النور: ٥١]. وذهب إلى الحاكم وكان يوماً مطراً كثير الوحل رحمه الله تعالى.

قال ابن الأثير: وهو أول من ابتنى دارا للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات، وقيل خمس. ويحضر القاضي، والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب، ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس، ويستفهمهم، ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم، وكان سبب ذلك، أن أسد الدين شيركوه بن شاذي كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك، والأموال، والمزارع، والقرى، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء، إلا أسد الدين هذا، فلما ابتنى نور الدين دار العدل، تقدم أسد الدين إلى نوابه أن لا يَدّعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كان عظيماً، فإن زوال ما له عنده أحب إليه أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة، ولم ير أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك، فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين عند ذلك شكرا لله، وقال: الحمد لله الذي أصحابنا، ينصفون من أنفسهم.

وأما شجاعته فكان يقال: إنه لم ير على ظهر فرس أحسن ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالكرة، وكان ربما ضربها، ثم يسوق وراءها، ويأخذها من الهواء بيده، ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جوكانه يعلو على رأسه، ولا يرى الجوكان في يده، لأن الكم ساتر لها، ولكنه استهانة بلعب الكرة.

وكان شجاعا، صبورا في الحرب، يضرب به المثل في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فلم يتفق لي ذلك.

وقال له يوما الفقيه قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان، لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قتلت، قتل جميع من معك، وأخذت البلاد، فقال له: اسكت يا قطب الدين، من هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي، غير الله الذي لا إله إلا هو؟ قال فبكى من كان حاضرا، رحمه الله.

وقد أسر بنفسه، في بعض الغزوات بعض ملوك الفرنج، فاستشار الأمراء فيه، هل يقتله، أو يأخذ ما يبذل له من المال في الفداء، فاختلفوا عليه، ثم حسن في رأيه إطلاقه، وأخذ الفداء فحين جهّز بَعْثَ الفداء مات ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه. وابتنى نور الدين من ذلك المال البيمارستان الذي بني بدمشق، وهو أحسن ما بني من البمارستانات بالبلاد ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء مستوصفاً فلا يمنع من شرابه ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله.

قلت: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا، فالله أعلم.

وقد بنى الخانات الكثيرة في الطرقات، والأبراج، ورتب الخفر في الأماكن المخوفة، وجعل فيها الحمام الهوادي، التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة، وبنى الربط، والخانقاهات، وكان يجمع الفقهاء عنده للبحث والمشايخ والصوفية للزيارة ويكرمهم ويعظمهم، وكان يحب الصالحين، وقد نال بعض الأمراء عنده من بعض العلماء وهو قطب الدين النيسابوري، فقال له نور الدين: ويحك، إن كان ما تقول حقا، فله من الحسنات الكثيرة، الماحية لذلك، ما ليس عندك، مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت، إن كنت صادقا، على أني والله لا أصدقك، وإن عدت ذكرته، أو أحداً غيره بسوء لأذبّنّك. قال فكف عنه، ولم يذكره بعد ذلك.

وقد ابتنى بدمشق دارا لسماع الحديث، وإسماعه.

قال ابن الأثير: وهو أول من بنى دار حديث، وقد كان مهيبا، وقورا، شديد الهيبة في قلوب أمرائه لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن، سوى الأمير نجم الدين أيوب، وأما أسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية، نائب حلب، وغيرهما من الأكابر، فكانوا يقفون بين يديه، ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء، والفقراء، قام له، ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجادته وشرع يحادثه في وقار وسكون، وإذا أعطى أحداً منهم شيئا مستكثراً، يقول: هؤلاء لهم في بيت المال حق أضعاف ما أُعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم، فلهم المنة علينا.

وقد سُمع عليه جزء حديث وفيه فخرج رسول الله ﷺ متقلدا السيفَ فجعل يتعجب من تغيير عادات الناس، وكيف يربط الأجناد السيوف في أوساطهم، ولا يفعلون هذا، ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها، ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف، وجميع الجيش كذلك، يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ، فرحمه الله.

وقصَّ عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر، أنه رأى في منامه، أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوس، والضرائب عن البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤياك.

وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول: إنما صرف ذلك، في قتال أعدائكم، من الكفرة، قبحهُم الله ولعنهم.

وكتب بذلك إلى سائر ممالكه، وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار لنور الدين وكان يقول في سجوده: اللّهم ارحم العشار، المكاس، وقيل: إن برهان الدين البلخي، أنكر على الملك نور الدين، في استعانته في الحروب، بأموال المكوس، وقال له مرة: كيف تنصرون وفي عساكركم، الخمور، والطبول، والزمور؟ ويقال: إن سبب وضعه المكوس عن الناس، أن الواعظ أبا عثمان المنتجب، ابن أبي محمد الواسطي وكان من الصالحين الكبار، أنشد نور الدين:

مثل وقوفك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً فاحذر بأن تبقى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى فرداً وجاءك منكر ونكير؟

ماذا تقول إذا وقفت بموقف فردا ... ذليلا والحساب عسير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مسحّب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق اللحود موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أمير
بقيت بعد العز رهن حفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عرياناً حزيناً باكياً ... قلقا وما لك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ... يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات، بكى بكاء شديدا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر بلاده.

وكتب إليه الشيخ عمر الملاء من الموصل وكان قد أمر الولاة، والأمراء بها، أن لا يفصلوا بها أمرا، حتى يعلموه، فما أمرهم به من شيء امتثلوه، وكان من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه، بفتيت، ورقاق، فيفطر عليه - كتب إليه: إن المفسدين قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل، وصلب، وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية، من يجيء فيشهد له؟ فكتب إليه الملك نور الدين على ظهر كتابه: إن اللّه خلق الخلق، وشرع لهم شريعة، وهو أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة، لشرعها ، فما لنا حاجة إلى الزيادة على ما شرعه اللّه تعالى، فمن زاد، فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على اللّه، وعلى ما شرعه والعقول المظلمة لا تهتدي، واللّه سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم. فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا، جمع الناس بالموصل، وقرأ عليهم الكتاب، وجعل يقول: انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وجاء إليه أخو الشيخ أبي البيان، يستعديه على رجل، أنه يسبه، ويرميه، بأنه مُراء متنامس وجعل يبالغ في الشكاية عليه، فقال له السلطان: أليس اللّه تعالى يقول: ﴿وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فسكت الشيخ، ولم يحر جوابا. وقال الفقيه أبو الفتح الأشتري - معيد النظامية ببغداد، وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين، قال: وكان نور الدين محافظا على الصلوات في أوقاتها في جماعة، بتمام شروطها، والقيام بها، بأركانها، والطمأنينة في ركوعها، وسجودها، وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء، والتضرع إلى اللّه عز وجل في أموره كلها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية، ممن يعتمد على قولهم، أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة، أيام الفرنج. فسمع الكفار يقولون ابن القسيم يعنون نور الدين له مع اللّه سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده، وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء، وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى اللّه، ويدعو، فإنه يستجيب له، ويعطيه سؤله، وما يردُّ يده خائبا فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه. رحمه اللّه.

وحكى الشيخ أبو شامة، أن نور الدين وقف بستان الميدان، سوى الغيضة التي تليه، نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم أحد عشر جزءاً، جزآن منها على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية، والتسعة أجزاء الباقية على تطييب المساجد التسعة، وهي مسجد الصالحين بجبل قاسيون، وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرماحين المعلق، والمسجد العباسي، والمسجد المعلق بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين، جوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد، جزء من إحدى عشر جزءاً من النصف.

ومناقبه، ومآثره كثيرة جدا. وقد ذكرنا نبذة من ذلك يستدل بها على ما عداها.

وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في أول الروضتين [٩/١] كثيرا من محاسنه، وذكر ما مدح به من القصائد، وقد أوردنا في غبون دولته طرفاً صالحاً من عدله وقصده الصالح وذكرنا أنه لما فتح أسد الدين الديار المصرية ثم مات، ثم تولى صلاح الدين، هم بعزله عنها، واستنابة غيره فيها غير مرة، ولكن يعوقه عن ذلك القدر ويصده، اقتراب أجله وفراغ عمله، فلما كان في هذه السنة أعني سنة تسع وستين وخمسمائة وهي آخر مدته، أضمر على الدخول إلى الديار المصرية، وصمم عليه، وأرسل إلى عساكر بلاد الموصل، وغيرها، ليكونوا ببلاد الشام، ويركب هو في جمهور جيشه إلى مصر، وقد خاف منه الملك صلاح الدين خوفا شديدا، فلما كان يوم عيد الفطر، من هذه السنة، وهو في الميدان الأخضر القبلي، وصلى به الخطيب فيه صلاة عيد الفطر، وكان ذلك نهار الأحد، ورمى القبق في الميدان الأخضر الشمالي، والقدر يقول له: هذا آخر أعيادك، ومد في ذلك اليوم سماطا حافلا، وأمر بانتهابه، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر للعيد والختان، ثم ركب في يوم الاثنين، في الموكب على العادة، ثم لعب بالكرة في يومه ذلك اليوم، فحصل له غيظ من بعض الأمراء ولم يكن ذلك من سجيته فبادر إلى القلعة، وهو كذلك في غاية الغضب، وحصل له انزعاج، ودخل في حيرة سوء المزاج، واشتغل بنفسه، وإزعاجه، وتنكرت عليه جميع حواسه، وطباعه، واحتبس أسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه، بما هم فيه من اللعب والانشراح، بالزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فهذا يجود بروحه، وهذا يروح بجوده، سرورا بذلك، فانعكست تلك الأفراح بالأتراح، ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصلت للملك خوانيق في حلقه، منعته من أداء النطق، وهذا شأن أوجاع الخنق، وكان قد أشير عليه بالفصد، فلم يفعل، وكان أمر اللّه قدرا مقدورا وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

فلما كان يوم الأربعاء، الحادي عشر من شوال من هذه السنة، قبض إلى رحمة اللّه تعالى، عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة، رحمه اللّه، وصلي عليه بجامع القلعة ودفن بها ثم حول إلى تربة بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية رحمه اللّه وبل بالرحمة ثراه وجعل الجنة مأواه.

وقد رثاه الشعراء بمراث كثيرة، قد أوردها أبو شامه في الروضتين [٥٨١/١]، وما أحسن ما قاله العماد:

عجبت من الموت كيف اهتدى ... إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستد ير ... في الأرض وسط الفلك

وقال حسان الشاعر الملقب بالعرقلة في مدرسة نور الدين حين دفن فيها رحمه اللّه تعالى:

ومدرسة سيدرس كل شيء ... وتبقى في حمى علم ونسك

تضوع ذكرها شرقا وغربا بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي وهذي في المدارس بيت مِلْكي

صفة نور الدين رحمه الله تعالى

كان طويل القامة، أسمر اللون، حلو العينين، واسع الجبين، حسن الصورة، تركي الشكل، ليس له لحية، إلا في حنكه، مهيبا متواضعا، عليه جلالة ونور الإسلام وتعظيم قواعد الشرع رحمه الله:

فصل

لما مات نور الدين، في شوال، من هذه السنة، بويع من بعده بالملك لولده الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيرا، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين بن مقدم، فاختلف الأمراء، وحادت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، وظهرت، حتى إن ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود، صاحب الموصل، لما تحقق موت عمه وكان محصورا منه نادى مناديه بالبلد، بالمسامحة باللعب، واللهو، والشُّرب، والطرب، ومع المنادي دُفٌّ، وقدح ومزمار الشيطان، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد كان ابن أخيه هذا، وغيره من الملوك، والأمراء، الذين له حكم عليهم، لا يستطيع أحد منهم أن يفعل شيئا من المناكر والفواحش، فلما مات، مرج أمرهم، وعاثوا في الأرض فسادا، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الفرنج على قصد دمشق، وانتزاعها من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك، فواقعهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة، عجلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما هادنوه. ولما بلغ ذلك السلطان الملك صلاح الدين، كتب إلى الأمراء، وخاصة ابن مقدم، يلومهم على ما صنعوا من المهادنة، ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل، وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية، ليحفظها من الفرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم، ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين صاحب مصر، فلم يفعل؛ لأنه خاف أن يكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي، سعد الدولة كمشتكين، الذي كان قد جعله عنده الملك نور الدين عينا عليه، وحافظا له، من تعاطي ما لا يليق من الفواحش، والخمر، واللعب، واللهو. فلما مات نور الدين، ونادى في الموصل تلك المناداة القبيحة، خاف منه الطواشي المذكور أن يمسكه، فهرب منه سرا، فلما تحقق غازي موت عمه، بعث في إثر هذا الخادم، ففاته، فاستحوذ على حواصله، ودخل الطواشي حلب، ثم سار إلى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذوا أستاذه الملك الصالح إسماعيل إلى حلب، فيربيه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الأتابك شمس الدولة بن مقدم، والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريحان.

فلما سار الملك الصالح من دمشق، خرج معه الكبراء، والأمراء من دمشق، إلى حلب وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة، من هذه السنة، وحين وصلوا حلب جلس الصبي على سرير ملكتها، واحتاطوا على بني الداية، شمس الدين علي بن الداية، أخو مجد الدين، الذي كان رضيع نور الدين، وإخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين علي بن الداية، يظن أن ابن نور الدين يسلم إليه فيربيه؛ لأنه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنه، وسجنوه وإخوته في الجب، فكتب الملك صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما فعلوا، من نقل الولد، من دمشق إلى حلب، ومن حبسهم بني الداية، وهم من خيار الأمراء، ورؤوس الكبراء، ولم لا يسلمون الولد إلى مجد الدين بن الداية، الذي هو أحظى عند نور الدين، وعند الناس منهم. فكتبوا إليه، يسيئون عليه الأدب، وكل ذلك يزيده حنقا عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت، في شغل شاغل، لما دهمه ببلاد مصر من الأمر الهائل، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى، في أول السنة الآتية.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ **الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار،** أبو العلاء الهمذاني الحافظ، سمع الكثير، ورحل إلى بلدان كثيرة، واجتمع بالمشايخ، وقدم بغداد، وحصل الكتب الكثيرة، واشتغل بعلم القراءات واللغة، حتى صار أوحد زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان على طريقة السلف مرضي الطريقة عابدا زاهدا، صحيح الاعتقاد، حسن السمت، له ببلده المكانة، والقبول التام، وكانت وفاته ليلة الخميس، الحادي عشر من جمادى الآخرة، من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين بأربعة أشهر وأيام.

قال ابن الجوزي: وقد بلغني، أنه رئي في المنام، أنه في مدينة جميع جدرانها كتب، وحوله كتب لا تُحَدُّ، وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذا؟ فقال: سألت الله أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني.

■ **الأهوازي:** خازن كتب مشهد أبي حنيفة ببغداد، توفي فجأة، في ربيع الأول، من هذه السنة وكذلك توفي أبوه وأخوه فجأة كان مات رحمهم الله تعالى.

■ **محمود بن زنكي بن آق سنقر:** السلطان الملك العادل نور الدين، صاحب بلاد الشام، وغيرها من البلدان الكثيرة وقد تقدم في ذكر الحوادث، رحمه الله.

قال ابن الجوزي: انتزع نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى من أيدي الكفار، نيفاً وخمسين مدينة، وقد كان يكاتبني، وأكاتبه، قال: ولما حضرته الوفاة، أخذ العهد على الأمراء، من بعده لولده - يعني الصالح إسماعيل - وجدد العهد مع صاحب طرابلس، أن لا يغير على الشام، في المدة التي كان مادّه عليها، وذلك، أنه كان قد أسره، في بعض غزواته، وأسر معه جماعة من أهل دولته، فافتدى نفسه منه، بثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة حصان، وخمسمائة زردية، ومثلها أتراس، وقنطوريات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وعاهده أن لا يغير على بلاد المسلمين، إلى سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه رهائن على ذلك، مائة من أولاد أكابر الفرنج، وبطارقتهم، فإن نكث أراق دمائهم، وكان قد عزم على فتح بيت المقدس، شرفه الله، فوافته المنية في شوال من هذه السنة، وكانت ولايته ثمان وعشرين سنة وأشهراً، وقد تقدم ذلك. وهذا مقتضى ما ذكره ابن

الجوزي ومعناه.

■ الخضر بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي، الفقيه، الشافعي، أول من درس بإربل، في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكان فاضلا، دينا، انتفع به الناس، وكان قد اشتغل على الكياالهراسي، وغيره، ببغداد، وقدم دمشق، فأرّخه ابن عساكر في هذه السنة، وترجمه القاضي ابن خلكان في الوفيات، وقال: قبره يزار، وقد زرته غير مرة، ورأيت الناس يتتابون قبره، ويتبركون به. وهذا الذي قاله ابن خلكان مما ينكره أهل العلم عليه وعلى أمثاله ممن يعظم القبور.

وفيها هلك ملك الفرنج، مري، لعنه اللّه، وأظنه ملك عسقلان، ونحوها من البلاد، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية، لولا فضل اللّه، ورحمته بعباده المؤمنين.

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قد عزم على الدخول إلى بلاد الشام، ليحفظه من أيدي الفرنج المخذول، ولكن دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج، قدموا إلى الساحل المصري، في أسطول لم يسمع بمثله، في كثرة مراكبه وما فيه من آلات من الحرب، والحصار، والمقاتلة، من جملة ذلك مئتا شيني، في كل منها مائة وخمسون مقاتلا، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر إسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات، والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها، فقاتلوهم دونها قتالا شديدا، واستمر القتال أياما وقتل من كل من الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق ما نصبوه من المنجنيقات، والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الفرنج، ثم كبسهم المسلمون، فقتلوا منهم جماعة، وغنموا ما أرادوا، فانهزم الفرنج في كل وجه، ولم يكن لهم ملجأ إلا البحر، أو القتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم، وأثقالهم وخيولهم، وما ضربوه من الخيام، وبالجملة قتلوا خلقا من الرجال، وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال وركب من بقي منهم في الأسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لم يفوزوا بالمأمول.

ومما عوق الملك الناصر عن الشام أيضا، أن رجلا يعرف بالكنز، سماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وإنما هي العُبيدية، كان قد انتزح إلى بلد يقال له أسوان، وجعل يجمع عليه الناس، فاجتمع عليه خلق كثير من الرعاع، الحاضرة، والعربان، والرعيان، وكان يزعم لهم، أنه سيعيد الدولة الفاطمية، ويدحض الأتابكة التركية، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير، ثم قصد قوص وأعمالها، وقتل طائفة من أمرائها، ورجالها، فجرد إليه الملك صلاح الدين طائفة من الجيش المصري وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر الكردي، فلما التقيا هزمه أبو بكر، وأسر أهله وقتله كما جرى لمقدَّم بني حنيفة، ولهذا جعل اللّه دولة بني أيوب عالية منيفة.

فصل

لما تمهدت البلاد المصرية، ولم يبق بها رأس من بقية الدولة العبيدية، برز السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف في الجيوش التركية، قاصدا البلاد الشامية، وذلك حين مات سلطانها نور الدين محمود بن زنكي، وأخيف سكانها، وتضعضعت أركانها، واختلف حكامها، وفسد نقضها وإبرامها، وقصده، رحمه اللّه، جمع شملها والإحسان إلى أهلها وأمن سهلها وجبلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، وإظهار القرآن، وإخفاء سائر الأديان، وتكسير الصلبان في رضى الرحمن، وإرغام الشيطان. فخرج من الديار المصرية إلى البركة في مستهل صفر وأقام بها حتى اجتمع عليه العسكر وقد استناب على مصر أخاه سيف الدين أبا بكر، ثم سار إلى بلبيس في الثالث عشر من ربيع الأول، ثم ساق حتى اجتاز بمدينة بصري فسار في خلعته صاحبها صديق بن جاولي فدخل مدينة دمشق، في يوم الاثنين، سلخ ربيع الأول، ولم يتطح فيها عنزان، ولا اختلف عليه سفيان، وذلك أن نائبها شمس الدين بن مقدم كان قد كتب إليه أولا، فأغلظ له في الكتاب، فلما رأى أمره متوجها، جعل يكاتبه، ويستحثه على القدوم إلى دمشق، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد، لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد إليه بلا مدافعة، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي، التي بنيت مدرسة للملك الظاهر، وجاء القاضي وأعيان البلد المعاشقة للسلام عليه، فرأوا منه غاية الإحسان، وكان في القلعة إذ ذاك الطواشي ريحان، فكاتبه، وأجزل نواله، حتى سلمها إليه، ثم نزل إليه، فأكرمه، واحترمه، ثم أظهر السلطان أنه أحق الناس بتربية ولد نور الدين، لما لنور الدين عليهم من الإحسان المتين، وذكر أنه خطب لنور الدين بالديار المصرية، وضُرب باسمه السكة ثم إن السلطان عامل الناس بالإحسان، وأمر بإبطال ما أحدث بعد نور الدين، من المكوس، والضرائب، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وللّه عاقبه الأمور.

فصل

فلما استقرت له دمشق بحذافيرها لم يلبث أن، نهض إلى حلب، مسرعاً لما فيها من التخبيط، والتخليط، فاستناب على دمشق أخاه طغتكين بن أيوب، الملقب بسيف الإسلام، فلما اجتاز بحمص، أخذ ربضها، ولم يشتغل بقلعتها لعلمه بحصونها، ثم سار إلى حماة فأخذ المدينة، سلمها إليه صاحبها، عز الدين جُرديك، وسأله أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار إليهم، فحذرهم بأس صلاح الدين، فلم يلتفتوا إليه ولم يعولوا عليه، بل أمروا بسجنه واعتقاله، فجمعوا بينه وبيني الداية في البئر الذي هم فيه، فابطأ الجواب على صلاح الدين فكتب إليهم كتابا بليغا، يلومهم فيه على ما هم فيه من الاختلاف، وعدم الائتلاف، فردوا عليه أسوأ جواب، واحدٌ من الحراب فارسل إليهم، يذكرهم أيامه، وأيام أبيه، وعمه، في خدمة نور الدين في المواقف المحمودة التي شهد لهم بها أهل الدين، ثم سار إلى حلب فنزل على جبل جوشن، فخاف من سطوته كل ذي جوشن ثم نودي في أهل حلب بالحضور في ميدان باب العراق، فاجتمعوا، فأشرف عليهم ابن الملك نور الدين، فتودد إليهم، وتباكى لديهم، وحرضهم على قتال صلاح الدين، وذلك عن إشارة الأمراء المقدمين، فأجابه أهل البلد، بوجوب طاعته على كل أحد، وشرط عليه الروافض منهم أن يعاد الأذان بحي على خير العمل، وأن يذكر في الأسواق، وأن يكون لهم في الجامع الجانب الشرقي، وأن يذكر أسماء الأئمة الأثنى عشر بين يدي الجنائز، وأن يكبروا على الجنازة خمسا، وأن تكون عقود أنكحتهم إلى الشريف أبي الطاهر بن أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، فأجيبوا إلى ذلك كله، فأذن في الجامع وسائر البلد بحي على خير العمل، وعجز أهل البلد عن مقاومة

الناصر، وأعملوا في مكيدته كل خاطر، فأرسلوا أولا إلى سنان، صاحب الحُشيشية، فأرسل نفرا من أصحابه إلى الناصر ليقتلوه، فلم يظفروا منه بشيء، بل قتلوا بعض الأمراء، ثم ظهر عليهم، فقتلوا عن آخرهم، فراسلوا عند ذلك القومص صاحب طرابلس الفرنجي، ووعدوه بأموال جزيلة، إن هو رحل عنهم السلطان الملك الناصر، وكان هذا القومص قد أسره نور الدين وهو معتقل عنده مدة عشر سنين، ثم افتدى نفسه بمائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، فكان لا ينساها لنور الدين، رحمه الله، فركب القومص - لعنه الله - من بلده طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقاتلة السلطان بل قصد حمص ليأخذها بغتة فركب إليه السلطان الناصر، وقد أرسل السلطان إلى بلده طرابلس، سرية، فقتلوا، وأسروا، وغنموا، فلما اقترب الناصر منه، نكص على عقبيه، راجعا إلى بلده، ورأى أنه قد أجابهم إلى ما أرادوا منه، فلما فصل الناصر صلاح الدين إلى حمص، لم يكن قد أخذ قلعتها في ذهابه، فتصدى لأخذها، فنصب عليها المنجنيقات التي ملّكته إياها قسرا، وقهرت ساكنيها قهرا، ثم كر راجعا إلى حلب، فأناله الله في هذه الكرة ما طلب.

فلما نزل بها، كتب إليهم القاضي الفاضل، على لسان السلطان، كتابا بليغا، فصيحا، فائقا، رائقا، على يدي الخطيب شمس الدين يقول فيه: «فإذا قضى التسليم، حق اللقاء، فاستدعى الإخلاص جهد الدعاء، فليَعُدْ وليُعِدْ حوادث ما كانت حديثا يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا، فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها، لعله يشرح منها صدرا، وليوضح الأحوال المستسرَّة، فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كان نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعي التصدير ولا بُدَّ أن تسترد بضاعتنا، بموقف العدل، الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا، فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام، نفتح الفتوح، بمباشرتنا أنفسنا، ونجاهد الكفار، متقدمين بعساكرنا، نحن ووالدنا، وعمنا، فأي مدينة فتحت، أو أي معقل ملك للعدو، أو عسكر كُسر، أو مصاف للإسلام، معه ضرب؟ ولم نكن فيه فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أنا نصطلي الجمرة، ونملك الكرة، ونقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندبر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها» ثم ذكر ما صنعوا بمصر، من كسر الكفر، وإزالة المنكر، وقمع الفرنج، وهدم البدع، وما بسط من العدل، ومُدُّ من الفضل، وما أقامه من الخُطب العباسية، ببلاد مصر، واليمن، والنوبة، وإفريقية، وغير ذلك، بكلام بسيط حسن.

فلما وصلهم الكتاب، أساؤوا الجواب، وقد كانوا كاتبوا صاحب الموصل، سيف الدين غازي بن مودود، أخي نور الدين محمود بن زنكي، فبعث إليهم أخاه مسعود عز الدين في عساكره، وأقبل عليهم في دساكره، فانضاف إليهم الحلبيون، وقصدوا حماة في غيبة السلطان الناصر، واشتغاله بقلعة حمص وعمارتها، فلما بلغه خبرهم، سار إليهم في قل من الجيش، فانتهى إليهم وهم في جحافل كثيرة، فواقفوه، وطمعوا فيه، لقلة من معه، وهموا بمناجزته، فجعل يداريهم، ويدعوهم إلى المصالحة، لعل الجيش يلحقونه، حتى قال لهم في جملة ما قال: أنا أقنع بدمشق وحدها، وأقيم بها الخطبة للملك الصالح إسماعيل، وأترك ما عداها من أرض الشام. فامتنع من المصالحة الخادم سعد الدولة كمشتكين، إلا أن يجعل لهم الرحبة، التي هي بيد ابن عمه ناصر الدين ابن أسد الدين، فقال ليس لي ذلك، ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح، وأقدموا على القتال، فجعل جيشه كردوسا واحدا، وذلك يوم الأحد، التاسع عشر من رمضان، عند قرون حماة فصبر صبرا عظيما، وجاء في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ومعه أخوه فروخ شاه، في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم، وخلص رعبه إليهم، فولوا هنالك هاربين، وتولوا منهزمين، فأسر من أسر من رؤوسهم، ونادى، أن لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، منهم وسار على الفور إلى حلب، فانعكس عليهم الحال، وآلوا إلى شر مآل، فبالأمس كان يطلب منهم المصالحة والمسالمة، وهم اليوم يطلبون منه أن يكف عنهم ويرجع، على أن المعرة، وكفر طاب، وبارين، له زيادة على ما بيده، من أراض حماة، وحمص، وبعلبك مع دمشق فقبل ذلك، وكف عنهم، وحلف على أن لا يغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوه مجد الدين، على أن يخرجوا من السجن ففعل ذلك، ثم رجع مؤيدا منصورا مسلما محبورا.

فلما كان بحماة، وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله، بالخلع السنية، والتشريفات العباسية، والأعلام السود، والتوقيع من الديوان بالسلطنة، ببلاد مصر، والشام، وأفيضت الخلع على أهله، وأقاربه، وأصحابه وأصهاره، وأعوانه، وأنصاره وكان يوما مشهودا. واستناب على حماة ابن خاله، وصهره، الأمير شهاب الدين محمود، ثم سار إلى حمص، فأطلقها ابن عمه ناصر الدين، كما كانت من قبله لأبيه شيركوه، أسد الدين، ثم إلى بعلبك ثم إلى البقاع ورجع إلى دمشق، في ذي القعدة.

وفي هذه السنة ظهر رجل من قرية مشغرا، من معاملة دمشق، وكان مغربيا، فادعى النبوة، وأظهر شيئا من المخاريق، والمخاييل، والشعبذة والأبواب النيرنجيّة، فافتتن به طوائف من اهل تلك الناحية من الطغام والهمج والعوام، فتطلبه السلطان، فهرب في الليل من مشغرا إلى معاملة حلب، فالتف عليه كل مقطوع الذنب، وأضل خلقا من الفلاحين لا المفلحين، وتزوج امرأة أحبها، وكانت من أهل تلك البطاح فعلمها أن ادعت النبوة، فأشبها قصة مسيلمة وسجاح. فلعنهما الله كلما غَبَّ الحمام وهدر، وكلما ضبَّ الغمام وقطر.

وفيها هرب وزير الخليفة، ونهبت داره.

وفيها درس الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي بمدرسة أنشئت للحنابلة، فحضر عنده قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني، والفقهاء، والكبراء، وكان يوما مشهودا، وخلعت عليه خلعة سَنيّة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **روح بن أحمد:** أبو طالب الحديثي، قاضي القضاة، ببغداد، في بعض الأحيان، وكان ابنه في أرض الحجاز، فلما بلغه موت أبيه مرض بعده، فمات بعد أيام، وكان ينبذ بالرفض.

■ **شملة التركماني:** كان قد تغلب على بلاد فارس واستحدث قلاعا، وتغلب على السلجوقية، وانتظم له الدست نحوا من عشرين سنة، ثم

حاربه بعض التركمان، فقتلوه.

■ قايماز بن عبد الله: قطب الدين المستنجدي، وزر للخليفة المستضيء، وكان مقدما على العساكر كلها، ثم خرج على الخليفة، وقصد أن ينهب دار الخلافة، فصعد الخليفة فوق سطح في داره، وأمر العامة بنهب دار قايماز، فنهبت، وكان ذلك بإفتاء الفقهاء، فهرب، فهلك وهلك من كان معه في المهامة، والقفار.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

فيها طلب الفرنج من السلطان صلاح الدين، - وكان قد أقام بدمشق في مرج الصفر - أن يهادنهم، فأجابهم إلى ذلك، لأن الشام كان مجدبا ويحتاج إلى ذلك، وأرسل جيشه صحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية، ليستغلوا المغل، ثم يقبلوا، وعزم هو على المقام بالشام، واعتمد على كاتبه العماد عوضا عن أفصح العباد بتلك البلاد وهو القاضي الفاضل قدوة العلماء والأفاضل ورحلة الطالبين وزين المحافل زين الإسلام ومن لسانه أحد من الحسام ولكن احتاج السلطان إلى إرساله إلى الديار المصرية ليكون عينا وعونا له بها ولسانا فصيحا يعبر عنها فاحتاج إلى أن يتعوض عنه، ولم يكن أحد أعز عليه ولا أحب إليه منه:

وما عن رضى كانت سليمى بديلة بليلى ولكن للضرورات أحكام

وكانت إقامة السلطان بالشام، وإرسال الجيش صحبة القاضي الفاضل، هو غاية الحزم والتدبير والإلهام، ليحفظ ما استجد من الممالك، خوفا عليه من سطوة مَن هنالك.

فلما أرسل الجيوش إلى مصر، وبقي هو في طائفة قليلة من عسكره، والله قد تكفل له ولهم بالنصر، كتب صاحب الموصل سيف الدين غازي بن أخي نور الدين إلى جماعة الحلبيين، يلومهم على ما وقع بينهم وبين الملك صلاح الدين من المصالحة، وقد كان إذ ذاك مشغولا بمحاصرة أخيه، عماد الدين زنكي بسنجار، وليست هذه بفعلة صالحة، وما كان سبب قتاله لأخيه إلا انتماؤه إلى طاعة الملك الناصر وذويه، فاصطلح مع أخيه حين عرف قوة الناصر وناصريه، ثم حرض الحلبيين على نقض العهود، إلى الملك اصلاح الدين فأرسلوا إليه بالعهود التي عاهدوه عليها، ودعوه إليها، فاستعان عليهم بالله، وأرسل إلى الجيوش المصرية ليقدموا إليه، فأقبل صاحب الموصل في عساكره ومشاربه، ودساكره، واجتمع بابن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وسار في عشرين ألف مقاتل، على الخيول الضُمَّر، الجرد، الأبابيل، وسار نحوهم الناصر، وهو كالهزبر الكاسر، وإنما معه ألف فارس من الحماة، و ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولكن الجيوش المصرية، قد خرجت من الديار المصرية، في جحافل كالجبال وعدة وعدد كالرمال، فاجتمع الفريقان، وتداعوا إلى للنزال، وذلك في يوم الخميس، العاشر من شوال، فاقتتلوا قتالا هائلا، حتى حمل السلطان بنفسه الكريمة، فكانت بإذن الله الهزيمة، فقتلوا خلقا من الحلبيين والمواصلة، وأخذوا مضارب الملك سيف الدين غازي، وحواصله، وأسروا جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان، بعدما أفاض الخلع على أبدانهم، ورؤوسهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الفرنج، في حال القتال، وهذا ليس من صنيع الصناديد الأبطال، وقد وجد السلطان في مخيم السلطان غازي شيئاً من الأقفاص التي فيها الطيور المطربة، وذلك في مجلس شرابه المسكر، وكيف ينتصر من كان هذا مسلكه ومذهبه، فأمر السلطان بردها عليه وتسييرها إليه، وقال للرسول: قل له بعد وصولك إليه، وسلامك عليه: اشتغالك بهذه الطيور، أحب إليك مما وقعت فيه من المحذور. وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأحبابه وأنصاره غيبا، كانوا أو حضورا، وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي، على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين، ورد ما كان في وطاقه من الجواري، والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الأقفاص وآلات اللّهو واللعب إلى حلب، وقال: قولوا له: هذا أحب إليكم، من الحرب ووجد عسكر المواصلة كالحانة، من كثرة الخمور، والبرابط والملاهي، وهذا سبيل من هو عن طريق الخير، ساه، لاهٍ.

فصل

لما رجع الحلبيون إلى حلب، وقد انقلبوا شر منقلب، وندموا على نقضهم الأيمان، ومخالفة طاعة الرحمن وشقهم العصا على السلطان، حصنوا البلد خوفا من وثوب الأسد، وأسرع صاحب الموصل، فوصلها، وما صدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ما غنم مما تركه من عطب ومن سلم أسرع المسير إلى حلب، الشهباء وهو في غاية السطوة القوة والعزة القعساء، فوجدهم قد حصنوها، والقلعة قد أحكموها فقال: من المصلحة، أن نبادر إلى فتح الحصون، التي حول البلد، ثم نعود إليهم، فلا يمتنع علينا منهم أحد. فشرع بفتح الحصون حصنا حصنا، ثم يعود إليهم ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بُزاعة، ومنبج، ثم سار إلى عزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخل طائفة منهم في جيشه، في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا بهم، فوجدوا فرصة ذات يوم، والسلطان ظاهر للناس، فحمل عليه واحد منهم، فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هو محترس منهم باللأمة، فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده، فجرحته جرحا هينا، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان، فوضعه على الأرض ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم، فبادروا إلى الفداوي، فقتلوه، وقطعوه، ثم هجم عليه آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل، ثم هجم آخر على بعض الأمراء، فقتل أيضا، وهرب الرابع، فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد، ففتحه وأقطعه ابن أخيه، تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب. لما فعلوا ولما أرسلوا من الفداوية إليه وإقدامهم عليه، فجاء فنزل تجاه البلد، على جبل جوشن، وضربت خيمته على رأس البادوقية، وذلك في خامس عشر ذي الحجة، وجبى الأموال، وأخذ الخراج من القرى، ومنع أن يدخل البلد شيء، أو يخرج منه شيء، واستمر حصاره إياها، حتى انسلخت السنة.

وفي ذي الحجة من هذه السنة، عاد شمس الدولة توارانشاه أخو السلطان من بلاد اليمن وذلك من كثرة اشتياقه إلى أخيه وذويه وإلى الشام وطيبه وظلاله لأنه ضجر من حر اليمن، وإن كان حصل على أموال جزيلة، ففرح به أخوه الملك الناصر، واشتد أزره بسببه، فلما اجتمعا، قال الناصر الناصح البر الوفي: أنا يوسف، وهذا أخي، وقد استناب شمس الدولة على بلاد اليمن، وإنما استناب على مخاليفها من لا يخالفه من ذي قراباته ومن له سالف المِنن، فلما استقر عند أخيه، استنابه على دمشق

وأعمالها، وقيل إن قدومه، كان قبل وقعة المواصلة، وكان من أكبر أسباب الظفر والنصر، لشجاعته، وفروسيته، وبسالته.

وفيها أنفذ تقي الدين عمر بن أخي الناصر، مملوكه بهاء الدين قراقوش، في جيشه، إلى بلاد المغرب، ففتح بلادا كثيرة هنالك، وغنم أموالا جزيلة، ثم عاد إلى مصر. وطابت له وترك تلك البلاد.

وفيها قدم إلى دمشق الواعظ الكبير أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي، الدمشقي الأصل، البغدادي المنشأ، ذكره العماد في الخريدة [شعراء العراق ٣٠٨/١/٣ - ٣٢٢]. وقال: وكان صاحبي، وجلس للوعظ، وحضر عنده السلطان صلاح الدين، وأورد له مقطعات أشعار، فمن ذلك ما كان يقول في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي ... يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر

خلقتني من تراب أنت خالقه ... حتى إذا صرت تمثالا من الصور

أجريت في قالبي روحاً منورة ... تمر فيه كجري الماء في الشجر

جمعت بين من صفا روح منورة ... وهيكل صغته من معدن كدر

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي ... وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري

إن احتجبت فسري فيك في وله ... وإن خطرت فقلبي منك في خطر

تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها ... وإن تغيبت عني عشت بالأثر

ومن توفي فيها من الأعيان

الحافظ الكبير أبو القاسم

■ ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، أبو القاسم، الدمشقي، أحد أكابر حفاظ الحديث، ومن عني به، سماعا، وجمعا، وتصنيفا، واطلاعا، وحفظا لأسانيده، ومتونه، وإتقانا لأساليبه، وفنونه، صنف «تاريخ الشام»، في ثمانين مجلدة، فهي باقية بعده، مخلدة، وقد برز على من تقدمه من المؤرخين، وأتعب من يجيء بعده من المتأخرين، فحاز فيه قصب السُّباق، وجاز حدّاً يأمن فيه اللحاق، ومن نظر فيه، وتأمله رأى، ما وصفه فيه، وأصله، وحكم بأنه فريد دهره، في التواريخ، وأنه الذروة العليا من الشماريخ، هذا مع ما له في علوم الحديث، من الكتب المفيدة، وما هو مشتمل عليه، من العبادة، والطرائق الحميدة، فله «أطراف الكتب الستة»، و «الشيوخ النُّبل»، و «تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري»، وغير ذلك من المصنفات الكبار، والصغار، والأجزاء، والأسفار، وقد أكثر في طلب الحديث من الترحال، والأسفار، وجاب المدن، والأقاليم، والأمصار، وجمع من الكتب، ما لم يجمعه أحد من الحفاظ، نسخا، واستنساخا، ومقابلة، وتصحيحاً للألفاظ، وكان من أكابر بيوتات الدماشقة، ورياسته فيهم عالية باسقة، من ذوي الأقدار، والهيئات، والأموال الجزيلة، والصلات، والهبات.

كانت وفاته في الحادي عشر من رجب، وله من العمر ثنتان وسبعون سنة، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن بمقابر باب الصغير، رحمه الله تعالى. وكان الذي صلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابوري.

قال ابن خلكان: وله أشعار كثيرة منها:

أيا نفس ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي وماذا الغزل؟

تولى شبابي كأن لم يكن ... وجاء المشيب كأن لم يزل

كأني بنفسي على غرة ... وخطب المنون بها قد نزل

فيا ليت شعري ممن أكون ... وما قدّر الله لي في الأزل

قال: وقد التزم فيها ما لا يلزم، وهو الزاي قبل اللام.

قال: وكان أخوه صائن الدين هبة الله بن الحسن، محدثا فقيها، اشتغل ببغداد على أبي أسعد الميهني، ثم قدم دمشق، فدرس بالغزالية، وتوفي بها في سنة ثلاث وستين رحمهما الله تعالى وإيّانا بمنّه.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان صلاح الدين محاصر حلب، وقد أشرف منها على نيل الطلب فسألوه، وتوسلوا إليه أن يصالحهم، فصالحهم، على أن تكون حلب وأعمالها للملك الصالح فقط، فكُتب بذلك الكتاب وأبرم الحساب، فلما كان المساء، بعث السلطان الملك الصالح إسماعيل، إلى الملك الناصر يسأل منه زيادة قلعة عزاز، على ما شرفه به من الإعزاز، وأرسل بأخت له صغيرة، وهي الخاتون بنت نور الدين، ليكون ذلك أدعى له قبول السؤال، وأنجع لحصول النوال، فحين رآها السلطان الناصر قام قائما كالقضيب الناضر، وقبل الأرض، وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف ما أرى أنه عليه فرض، ثم ترحل عن حلب، فقصد الإسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصياب، فقتل، وسبى، وضرب، وأخذ أبقارهم، وخرب ديارهم، وقصر أعمارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن مقدم، الذي كان نائب دمشق، جماعة من أسارى الفرنج، الذين عاثوا بالبقاع، في غيبة السلطان، فجدد له العزم على غزو الفرنج والانبعاث، فصالح الفداوية الإسماعيلية، أصحاب سنان، ثم كر راجعا إلى دمشق في حراسة الرحمن، فتلقاه أخوه شمس الدولة توران شاه، فتسالما وتعانقا وتناشدا الأشعار، ولما دخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر فوّضها إلى أخيه شمس الدولة توران شاه ولقّبه الملك المعظم، وعزم الناصر على دخول مصر، وكان القاضي كمال الدين محمد الشهرزوري قد توفي في السادس من المحرم، من هذه السنة، وقد كان من خيار القضاة، وأخص الناس بنور الدين الشهيد، فوض إليه نظر الجامع، ودار الضرب، وعمارة الأسوار، والنظر في المصالح العامة.

ولما حضرته الوفاة، أوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري، فأمضى ذلك السلطان الملك الناصر صلاح الدين؛ رعاية لحق الكمال الشهرزوري، مع أنه كان يجد عليه، لما كان بينه وبينه حين كان صلاح الدين شِحْنة بدمشق، وكان يعاكسه، ويخالفه، ومع هذا أمضى وصيته لابن أخيه، فجلس في مجلس القضاء، على عادة عمه وقاعدته ورسمه، وبقي في نفس السلطان من تولية شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون الحلبي، وكان قد هاجر إلى السلطان، إلى دمشق، فوعده أن يوليه قضاءها، وأسر بذلك إلى القاضي الفاضل، فأشار القاضي الفاضل على الضياء أن يستعفي من القضاء، فاستعفى، فأعفي، وترك له وكالة بيت المال، وولي السلطان ابن أبي عصرون، على أن يستنيب القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن زكي الدين، والأوحد، ففعل ذلك، ثم بعد سنوات استقل بالحكم محيي الدين أبو حامد بن أبي عصرون، عوضا عن

أبيه شرف الدين، بسبب ضعف بصره.

وفي صفر من هذه السنة، وقف الملك الناصر، قرية حزم، على الزاوية الغزالية، ومن يشتغل بها في العلوم الشرعية، أو ما يحتاج إليه الفقيه، وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري مدرسها.

وفي هذا الشهر، تزوج السلطان صلاح الدين بالست خاتون، عصمة الدين بنت معين الدين أُنُر وكانت زوجة الملك نور الدين محمود، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد، ومَن معه من العدول، وبات الناصر عندها تلك الليلة والتي بعدها، ثم سافر إلى مصر بعد يومين، من الدخول بها فركب يوم الجمعة، قبل الصلاة، فنزل مرج الصفر، ثم سار، فعشا قريبا من الصنمين، ثم أجَدَّ السير حتى كان دخوله إلى الديار المصرية يوم السبت، سادس عشر ربيع الأول، من هذه السنة في أُبَّهَةِ الملك. وقد تلقاه أخوه، ونائبه عليها، الملك العادل سيف الدين أبو بكر، إلى عند بحر القلزم، ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولا سيّما المآكل المتنوعة، وكان في صحبة السلطان العماد الكاتب، ولم يكن ورد الديار المصرية قبل ذلك، فشرع يذكر محاسنها، وما اختصت به من بين البلدان، ووصف الهرمين، وشبههما بأنواع من التشبيهات، وبالغ في ذلك، حسب ما ذكر في الروضتين [٦٨٥/١].

وفي شعبان منها، ركب السلطان الناصر بن أيوب إلى الإسكندرية، فأسمع ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان على الحافظ السِّلَفي، وتردد بهما إليه ثلاثة أيام، الخميس، والجمعة، والسبت، رابع رمضان، وعزم السلطان على الصيام بها، وقد كمل عمارة السور على البلد، وأمر بتجديد الأسطول، وإصلاح مراكبه وسفنه، وشحنه بالرجال والمقاتلة، وأمرهم بغزو جزائر البحر، وأقطعهم الإقطاعات الجزيلة على ذلك، وأرصد لصالح الأسطول من بيت المال ما يكفيه لجميع شؤونه، ثم عاد السلطان إلى القاهرة في أثناء رمضان، فأكمل صومه بها.

وفيها، أمر السلطان صلاح الدين يوسف ببناء مدرسة للشافعية، على قبر الإمام الشافعي، وجعل الشيخ نجم الدين الخبوشاني مدرسها، وناظرها.

وفيها أمر ببناء المارستان بالقاهرة، ووقف عليه أوقافاً كثيرة.

وفيها بنى الأمير مجاهد الدين قايماز، نائب قلعة الموصل، جامعا حسنا، ورباطا، ومدرسة، ومارستاناً، متجاورات، بظاهر مدينة الموصل، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله. وله عدة مدارس، وخانقاهات، وجوامع، غير ما ذكرنا، وكان دينا، خيرا فاضلا، حنفي المذهب، يذاكر في الأدب، والأشعار، والفقه، كثير الصيام، وقيام الليل قدّس الله روحه.

وفيها أُخرج المجذومون من أهل بغداد إلى ناحية منها، ليتميزوا عن أهل العافية، نسأل الله العافية بفضله وكرمه.

وذكر ابن الجوزي، في المنتظم [٢٣١/١٨]، عن امرأة أنها قالت: كنت أمشي في الطريق، وكان رجل يعارضني كلما مررت به فقلت له: إنه لا سبيل إلى هذا، الذي ترومه مني، إلا بكتاب وشهود، فتزوجني عند الحاكم، فمكثت معه مدة، ثم اعتراه انتفاخ ببطنه، فكنا نظن أنّ به استسقاء، فنداويه لذلك، فلما كان بعد مدة، ولد ولدا، كما تلد النساء، وإذا هو خنثى مشكل، وهذا من أغرب الأشياء.

ومن توفي فيها من الأعيان

علي بن عساكر بن المرحَّب بن العوام أبو الحسن.

■ البطائحي، المقرئ، اللغوي، سمع الحديث، وأسمعه، وكان حسن المعرفة بالنحو، واللغة، ووقف كتبه بمسجد ابن جردة ببغداد، وكانت وفاته في شعبان، وقد نيف على الثمانين رحمه الله تعالى.

■ محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل، قاضي القضاة بدمشق، كمال الدين الشهرزوري، الموصلي، وله بها مدرسة على الشافعية، وأخرى بنصيبين، وكان فاضلا، دينا أمينا، ثقة، ورعاً وولي القضاء بدمشق، لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضا فيما حكاه ابن الساعي.

قال: وكان يبعثه في الرسائل. كتب مرة على أعلى قصة إلى الخليفة المقتفي: محمد بن عبد الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك ﷺ .

قلت: وقد فوض إليه نور الدين، نظر الجامع، ودار الضرب، والأسوار، وعمر له المارستان، والمدارس، وغير ذلك من الأمور المهمات وكانت وفاته في المحرم، من هذه السنة، بدمشق.

■ الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي الضياء، خطيب الديار المصرية، وابن وزيرها، كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، بأمر الملك الناصر صلاح الدين، يوسف بن أيوب ثم حظي عنده، حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء، وكان رئيسا مطاعا كريما ممدحا، يقرأ عليه الشعراء والأدباء. ثم جعل الناصر مكانه في السفارة وأداء الرسائل ضياء الدين بن قاضي القضاة الشهرزوري بمرسوم سلطاني، وكانت وظيفة مقررة رحمه الله تعالى وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها أمر السلطان ببناء قلعة الجبل، وإحاطة السور على القاهرة ومصر يشملهما جميعاً، فعمرت قلعة للملك، لم يكن في الديار المصرية مثلها، ولا على شكلها، وولي عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش، مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

وفيها كانت وقعة الرملة على المسلمين.

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان الناصر صلاح الدين يوسف من الديار المصرية، قاصدا غزو الفرنج، فانتهى إلى بلاد الرملة، فسبى، وسلب وغنم وقتل وكسر وكسب، ثم تشاغل جيشه بالغنائم، وتفرقوا في القرى والمحال تفرُّق الهائم، وبقي السلطان في طائفة من الجيش منفردا، فهجمت عليه الفرنج، في جحفل من المقاتلة، فما سلم إلا بعد جهد جهيد، و لله الحمد. ثم تراجع الجيش بعد تفرُّقهم، واجتمعوا عليه بعد أيام، ووقعت الأراجيف في الناس، بسبب ذلك، وما صدَّق أهل مصر، برؤيته بعلما بلغهم من الإرجاف والإرهاب وصار الأمر كما قيل:

رضيت من الغنيمة بالإياب

ومع هذا، دقت البشائر في البلدان فرحا بسلامة السلطان، ولم تجر مثل هذه الوقعة، إلا بعد عشر سنين. وذلك يوم حطين، وقد ثبت السلطان في هذه الوقعة ثباتا عظيما، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر بن أخي السلطان ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الآخر، وكان شابا قد طرّ شاربه فحزن على المقتول، والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب، وناح

كما ناح داود، وأسر الفقيهان، الأخوان، ضياء الدين عيسى، وظهير الدين، فافتداهما السلطان بعد سنين بسبعين ألف دينار.

وفيها تخبطت الدولة بحلب، وقبض السلطان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين على الخادم كمشتكين، وألزمه بتسليم قلعة حارم، وكانت له، فأبى من ذلك، فعلقه منكوسا، ودخن تحت أنفه، حتى مات من ساعته.

وفيها جاء ملك كبير من ملوك الفرنج، يروم أخذ الشام، لغيبة السلطان، واشتغال نوابه بلذاتهم.

قال العماد الكاتب: ومن شرط هدنة الفرنج، أنه متى جاء ملك كبير من ملوكهم لا يمكنهم دفعه، أنهم يقاتلون معه، ويؤازرونه، وينصرونه، فإذا انصرف عنهم، عادت الهدنة كما كانت، فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماه وصاحبها شهاب الدين محمود خال السلطان مريض، ونائب دمشق ومن معه من الأمراء مشغولون بلذاتهم، فكادوا يأخذون البلد، ولكن هزمهم الله، بعد أربعة أيام، فانصرفوا إلى حارم، فلم يتمكنوا من أخذها، وكشفهم عنها الملك الصالح صاحب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسرى ما طلبوه.

وتوفي صاحب حماه شهاب الدين محمود بن تكش، خال السلطان الناصر، وتوفي قبله ولده تتش بثلاثة أيام رحمهما الله.

ولما سمع الملك الناصر بنزول الفرنج على حارم، خرج من مصر، قاصدا بلاد الشام لغزو الفرنج - لعنهم الله تعالى - فدخل دمشق، في الرابع والعشرين من شوال، وصحبته العماد الكاتب، وتأخر القاضي الفاضل بمصر، لأجل الحج.

وفيها جاء كتاب القاضي الفاضل الناصر، يهنئه بمولود، له، وهو أبو سليمان داود، وبه كمل له أثنى عشر ذكرا، وقد ولد له بعده عدة أولاد ذكور، فإنه توفي عن سبعة عشر ذكرا، وابنة صغيرة، اسمها مؤنسة، التي تزوجها ابن عمها، الملك الكامل محمد بن العادل، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة جرت فتنة عظيمة بين اليهود، والعامة، ببغداد، وكانت بسبب أن مؤذنا أذن عند كنيسة، اليهود فنال منه بعض اليهود، بكلام أغلظ له فيه، فشتمه المسلم، فاقتتلا، فجاء المؤذن يشتكي منه إلى الديوان، فتفاقم الحال، وكثرت العوام، وأكثروا الضجيج، فلما حان وقت الجمعة، منعت العامة الخطباء في بعض الجوامع، وخرجوا من فورهم، فنهبوا سوق العطارين، الذي فيه اليهود، وذهبوا إلى كنيسة اليهود، فنهبوها، ولم يتمكن الشرط من ردهم، فأمر الخليفة بصلب بعض العامة، فأخرج في الليل جماعة من الشطار، الذين كانوا في الحبوس، وقد وجب عليهم القتل، فصلبوا، فظن كثير من الناس أن هذا كان بسبب هذه الكائنة، فسكنت الفتنة، و لله الحمد.

وفيها خرج وزير الخليفة، عضد الدولة، ابن رئيس الرؤساء ابن المسلمة قاصدا الحج، وخرج الناس في خدمته ليودعوه، فتقدم إليه ثلاثة من الباطنية، في صورة فقراء، ومعهم قصص، فتقدم أحدهم ليناوله قصة، فاعتنقه وضربه بالسكين ضربات، وهجم الثاني وكذا الثالث، فهبروه، وجرحوا جماعة حوله، وقتل الثلاثة من فورهم وحرقوا، ورجع الوزير إلى منزله، محمولا، فمات من يومه، وهذا الوزير هو الذي قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأعدمهما فسلط الله عليه من قتله، وكما تدين تدان، جزاء وفاقا ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **صدقة بن الحسين أبو الفرج بن الحداد**، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه، وأفتى، وقال الشعر، وقال في الكلام، وناظر وله تاريخ، ذيل فيه على شيخه ابن الزاغوني، وفيه غرائب، وعجائب.

قال ابن الساعي: كان شيخا، عالما فاضلا، وكان فقيرا، يأكل من أجرة النسخ، وكان يأوي إلى مسجد ببغداد، عند البدرية، يؤم فيه، وكان يتعتب على الزمان وبنيه.

ورأيت ابن الجوزي في المنتظم [٢٤٣/١٨، ٢٤٤] يذمه، ويرميه بالعظائم، وأورد له من أشعاره ما فيه مشابهة لابن الراوندي، في الزندقة، فالله أعلم.

توفي في ربيع الآخر، من هذه السنة، عن خمس وسبعين سنة، ودفن بباب حرب، ورُويت له منامات غير صالحة، نسأل الله العافية، في الدنيا، والآخرة.

■ **محمد بن أحمد بن عبد الجبار بن المظفر**: الحنفي المعروف بالمشطّب كان من الفضلاء المشاهير. تفقه ودرس وأفتى وناظر، توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

■ **محمد بن أسعد بن محمد**: أبو منصور العطار، المعروف بحَفَدَة، سمع الكثير، وتفقه، وناظر، وأفتى، ودرس، وقدم بغداد، فمات بها في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **محمود بن تكش شهاب الدين الحارمي**: خال السلطان صلاح الدين، كان من خيار الأمراء، وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماة حين فتحها، وقد حاصره الفرنج بها في هذه السنة وهو مريض، فأخذوا حماة، وقتلوا بعض أهلها، ثم تناخى أهلها، فردوهم خائبين.

■ **فاطمة بنت نصر بن العطار**: كانت من سادات النساء، وهي من سلالة أخت صاحب المخزن، وكانت من العابدات، المتورعات، المخدّرات يقال إنها لم تخرج من منزلها سوى ثلاث مرات، وقد أثنى عليها الخليفة، وغيره، والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فيها ورد كتاب من القاضي الفاضل، من مصر إلى الناصر، وهو بالشام، يهنيه بسلامة أولاده، الملوك الاثني عشر، يقول في بعضه: وهم بحمد الله، بهجة الدنيا، وزينتها، وريحانة الحياة، وزهرتها، إن فؤادا وسع فراقهم، لواسع، وإن قلبا، قنع بأخبارهم، لقانع، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لهاجع، وإن ملكا ملك تصبُّره عنهم لحازم، وإن نعمة الله بهم لنعمة بها العيش ناعم، أما يشتاق جيدُ المولى، ان يتطوّق بدُرّرهم؟ أما تظمأ عينه أن تتروّى أن بنظرهم؟ أما يحِن قلبه إلى قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم من خرج من حَبّه وللمولى أبقاه الله أن يقول:

وما مثل هذا الشوق يحمل مضغة ... ولكن قلبي في الهوى يتقلب

وفيها أسقط السلطان صلاح الدين المكوس، والضرائب، عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ من حجاج الغرب شيء كثير، ومن عجز عن أدائه، حبس، فربما فاته، الوقوف بعرفة، وعوض أمير مكة بمال، أقطعه إياه بمصر، وأن يحمل إليه في كل سنة، ثمانية آلاف إردب غلة، إلى مكة، ليكون عونا له، ولأتباعه، ورفقا بما تيسَّر على المجاورين من ابتياعه، وقرر للمجاورين

أيضا، غلات، تحمل إليهم وصلات، فرحمة الله عليه في سائر الأوقات.

وفيها عصى الأمير شمس الدين بن مقدم ببعلبك، ولم يجئ إلى خدمة السلطان، وهو نازل على ظاهر حمص،،وذلك أنه بلغه أن أخا السلطان، توران شاه، طلب بعلبك منه، فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم، من الخروج منها، حتى جاء السلطان بنفسه، فحصره فيها، من غير قتال حتى جاءت الأمطار والبَرد، فعاد إلى دمشق في رجب، ووكّل بالبلد من يحصُره من غير قتال ثم عوض ابن المقدم عنها، بتعويض كثير، خير مما كان بيده، فخرج منها، وتسلمها، وسلمها توران شاه.

قال ابن الأثير: وكان في هذه السنة غلاء شديد، بسبب قلة المطر، عم العراق، والشام، وديار مصر، واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر، ورخصت الأسعار، ولكطن تعقّب ذلك، وباء شديد، وعم البلاد مرض آخر، وهو السِّرْسام فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات بسبب ذلك خلق كثير، وأمم لا يعلم عددهم إلا الذي خلَقهم.

وفي رمضان منها، وصلت خلع الخليفة، إلى الملك صلاح الدين، وهو بدمشق، وكانت سنية عظيمة جداً وزيد في ألقابه معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه توران شاه، ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفيها جهز الناصر ابن أخيه، فَرُّخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بين يديه لقتال الفرنج، الذين عزموا على قتال المسلمين وعاثوا في نواحي دمشق وقراها، فنهبوا ما حولها، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد، ولا يقاتلهم، حتى يقدم عليه، فلما التقوا، عاجلوه بالقتال، فكسرهم، وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة الهنفري، وكان من أكابر ملوكهم وشجعانهم، لا ينهنه اللقاء، فكبته الله في هذه الغزوة، ثم ركب الناصر، في إثر ابن أخيه، فما وصل إلى الكسوة، حتى تلقته الرؤوس على الرماح، والغنائم، والأسارى والجيش في سُمْره وبيضه من البنادق والصّفاح.

وفيها بنت الفرنج قلعة عند بيت الأحزان، للداوية، فجعلوها مرصدا لحرب المسلمين، وقطع طريقهم، ونقضت ملوكهم العهود، التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا على نواحي البلدان من كل جانب، ليشغلوا المسلمين عنهم، وتفرقت جيوشهم، فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر على حماة، ومعه شمس الدين بن مقدم، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب، بناحي البقاع، وغيرها، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل، نائبه بمصر، أن يبعث إليه ألفا وخمسمائة فارس، يستعين بهم، على قتال الفرنج، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن، الذي بنوه للداوية، فامتنعوا، إلا أن يبذل لهم ما غرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، ثم أوصلهم إلى مائة ألف دينار فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، فخربه، فأخذ بقوله في ذلك، وخربه في السنة الآتية، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر الخليفة المستضيء بكتابة لوح على قبر الإمام أحمد بن حنبل، فيه آية الكرسي، وبعدها: هذا قبر تاج السنة، وحيد الأمة، العالي الهمة، العالم، العابد، الفقيه، الزاهد، وذكر تاريخ وفاته، رحمه الله تعالى.

وفيها احتيط ببغداد، على شاعر ينشد للروافض يقال له ابن قرايا يقف في الأسواق ويذكر أشعارا يضمنها ذم الصحابة رضي الله عنهم وسبهم، وتهجين من يحبهم، فعقد له مجلس بأمر الخليفة، ثم استنطق، فإذا هو رافضي، جَلْد داهية فأفتى الفقهاء بقطع لسانه، ويديه، ففعل به ذلك، ثم اختطفته العامة، فما زالوا يرمونه بالآجر، حتى ألقى نفسه في دجلة، فاستخرجوه منها، فقتلوه، حتى مات، فأخذوا شريطا، وربطوه في رجله رجليه وطوّفوا به في البلد يجرجرونه في أكنافها، ثم ألقوه في بعض الأتونات مع الآجر، والكلس، وعجز الشرط على تخليصه منهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أسعد بن بلدرك أبو أحمد الجبريلي:**

سمع الحديث، وكان شيخا، ظريفاً حسن المذاكرة، جيد النادرة، سريع المبادرة. توفي في هذه السنة عن مائة سنة وأربع سنين رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن نسيم بن عبد الله، أبو عبد الله الخياط،** عتيق الرئيس أبي الفضل بن عيشون، سمع الحديث، وقارب الثمانين، سقط من درجة فمات.

قال: أنشدني مولى والدي، يعني ابن أعلى الحكيم أبا الفضل بن عيشون:

القارئ التشريح أجدرُ بالتُقى ... من راهب في دَيْره متقوّس

ومُراقب الأفلاك كانت نفسُه ... بعبادة الرحمن أحرى الأنفُس

والماسح الأرَضين وهي فسيحةٌ ... أولى بمسح في أكُفِّ اللُمَّس

أولى بخشية ربِّه من جاهل ... بمثلّث ومربّع ومُخمَّس

■ **الحيص بيص: سعد بن محمد** بن سعد الملقب شهاب الدين، أبو الفوارس الصيفي، الشاعر، له ديوان شعر مشهور، توفي يوم الثلاثاء، خامس شهر شعبان، من هذه السنة، وله ثمان وثمانون سنة، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب التبن، ولم يعقب، ولم يكن له في المراسلات بديل، كان يتقعر فيها، ويتفاصح جدا، فلا تواتيه إلا وهي معجرفة وكان يزعم أنه من بني تميم، فسئل أبوه عن ذلك، فقال: ما سمعته إلا منه. فقال بعض الشعراء يهجوه، فيما ادعاه من ذلك:

كم تبادي وكم تُطوِّل طُرْطُو ... رك وما فيك شعرة من تميم

فكلِ الضبَّ وابلع الحنظل اليا ... بس واشرب إن شئت بول الظليم

ليس ذا وجه من يضيف ولا يقـ ... ـري ولا يدفع الأذى عن حريم

ومن شعر الحيص بيص الجيد:

سلامة المرء ساعة عجب ... وكل شيء لحتفه سبب

يفر والحادثات تطلبه ... يفر منها ونحوها الهرب

فكيف يبقى على تقلُّبه ... مسلَّماً مَنْ حياتُه العطب

ومن شعره أيضاً:

لا تلبس الدهر على غرة ... فما لموت الحي من بد

ولا يخادعك طويل البقا ... فتحسب التطويل من الخُلْد

يقرب ما كان لنا آخر ... ما أقربَ المهد من اللحد

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب العقد وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي في عقده [العقد الفريد: ٣/١٧٥]:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب

وما الدهر والآمال إلا فجائع ... عليها وما اللذات إلا مصائب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة	على ذاهب منها فإنك ذاهب

قد ذكر أبو سعد السمعاني حيص بيص هذا في ذيله، وأثنى عليه، وسمع عليه ديوانه ورسائله، وأثنى على رسائله القاضي ابن خلكان، وقال: كان فيه تيه، وتعاظم، ولا يتكلم إلا معربا، وكان فقيها، شافعي المذهب، واشتغل بالخلاف، وعلم النظر، ثم تشاغل عن ذلك كله بالشعر، وكان من أخبر الناس بأشعار العرب، واختلاف لغاتهم.

قال: وإنما قيل له الحيص بيص، لأنه رأى الناس في حركة واختلاط، فقال: ما للناس في حيص بيص أي في شدة وهرج، فغلبت عليه هذه الكلمة، وكان يزعم أنه من ولد أكثم بن صيفي طبيب العرب،ولم يترك عقبا كانت له حوالة بالحلة،فذهب يتقاضاها، فتوفي ببغداد، في هذه السنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها كانت وقعة مرج عيون

استهلت هذه السنة، والسلطان صلاح الدين الناصر، نازل بجيشه، على تل القاضي ببانياس، ثم قصده الفرنج بجمعهم، فنهض إليهم نهوض الأسد فما هو إلا أن التقى الفريقان، واصطدم الجندان، فأنزل الله نصره، وأعز جنده، وهزم الأعداء وحده، ففرّت ألوية الصلبان ذاهبة، وخيل الله لرقابهم راكبة، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من ملوكهم جماعة، وأنابوا إلى السمع والطاعة، منهم مقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا، وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم، وأبطالهم، ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريبا من ثلاثمائة أسير، من أشرافهم، يتهادون في قيودهم، كأنهم سكارى وما هم بسكارى.

قال العماد الكاتب: فاستعرضهم السلطان في الليل، حتى أضاء الفجر، على الظلماء وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وكان جالسا ليلتئذ، في نحو العشرين، وهم في هذه العُدّة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، وليكونوا في كنف دولتها فافتدى ابن البارزاني صاحب الرملة نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من بلاده، فأجيب إلى ذلك، وافتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة، وتُحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجِّين، وهكذا يفعل الله بالكافرون.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان بالفرنج، بمرج عيون، ظهر أسطول المسلمين، على بطسة للفرنج في البحر، وأخرى معها، فغنموا منها ألف رأس من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحا وسرورا بظهور المسلمين على أعداء الله الملحدين.

وكان الملك المظفر تقي الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة، مشتغلا بما هو أعظم منها، وذلك أن ملك الروم قلج أرسلان، بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه السلطان تقي الدين عمر إلى ذلك. فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحاصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر، في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا معهم، فهزموهم بإذن الله تعالى، واستقرت يد صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان مما عوض به ابن مقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر، يفتخر بهذه الوقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفا، وقيل ثلاثين ألفا بثمانمائة فارس، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم، وأغار عليهم وهم غارُّون، فما لبثوا أمامه، بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل، واستحوذ على جميع ما تركوه في خيامهم، ويقال إنه كسرهم، يوم كسر السلطان الفرنج، بمرج عيون، والله أعلم.

تخريب حصن الأحزان وهو قريب من صفد

ثم ركب السلطان في جحافله إلى الحصن، الذي كانت الفرنج قد بنوه، في العام الماضي، وحفروا فيه بئرا عيناً معيناً، وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان، فحاصره، ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكّاً، وخربه إلى الأساس، وغنم جميع ما فيه من الحوامل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح، ومن المآكل شيء كثير، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضا، وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق، مؤيدا، منصورا، غير أنه مات من أمرائه عشرة، بسبب ما نالهم من الحر والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة عشر يوما، وعاد إلى الناس زيارة مشهد يعقوب على عادتهم، وقد امتدحه الشعراء فقال بعضهم:

بجدك أعطاف القنا تتعطف	وطرف الأعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمه الشرك ثاقب	وسيف إذا ما هزه الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه	لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يد وجه الأرض بل حال دونه	رجال كآساد الشرى وهي تزحف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف	وأبيض هندي ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصُفر ساعة	إلا غدت أكبادها السود ترجف
كنائس من أعاليه صليب وبيعة	وشاد به دين حنيف ومصحف
صليب وعباد الصليب ومنزل النزال	قد غادرته وهو صفصف
أتسكن أوطان النبيين عصبة	تمين لدى إيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح في الدين واجب	ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وقال آخر:

هلاك الفرنج أتى عاجلا	وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها	لما عمرت بيت أحزانها

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف هذا الحصن الذي خربه صلاح الدين. وقد عرّضوا حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع، وقطعت له عظام الحجارة، كل فص منها من سبعة أذرع، إلى ما فوقها، وما دونها وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقلّ في بنيانه، إلا بأربعة دنانير، فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الضخمة الصم، المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سُقيته بالكلس الذي إذا أحاطت بالحجر، مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جُرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه.

وفيها أقطع السلطان صلاح الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب مدينة بعلبك. وأغار فيها على صفد وأعمالها فقتل طائفة كبيرة من مقاتليها ورجالها وكان فرخشاه من الصناديد الأبطال

المشهورين المشكورين في النزال.

وفيها حج القاضي الفاضل من دمشق، وعاد إلى مصر، فقاسى في الطريق أهوالا، ولقي بَرْحاً، وتعبا، وكلالا، وكان في العام الماضي قد حج من مصر، وعاد إلى الشام، ولكن كان أمره فيه أسهل من هذا العام.

وفيها كانت زلزلة عظيمة، انهدم بسببها قلاع، وقرى، ومات خلق كثير فيها من الورى، وسقط من رؤوس الجبال صخور كبار، وصادمت بين الجبال، في البراري، والقفار، مع بُعْدِ ما بين الجبال من الأقطار.

وفيها أصاب الناس غلاء شديد، وفناء شديد، وجهد جهيد، فمات خلق كثير من الخلائق بهذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله وشيء من ترجمته

كان ابتداء مرضه في أواخر شوال من هذه السنة، فأرادت زوجته أن تكتم ذلك، فلم يمكنها، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد، ونهبت العامة دورا كثيرة، وأموالا جزيلة، فلما كان يوم الجمعة، الثاني والعشرين من شوال، خطب لولي العهد، أبي العباس أحمد بن المستضيء، وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوما مشهودا، نثر الذهب فيه على الخطباء، والمؤذنين، ومن حضر ذلك، عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه في العشر.

فلما كان يوم السبت سلخ شوال مات الخليفة المستضيء بأمر الله وكان مرضه بالحمى، ابتدأ فيها يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به، حتى استكمل في مرضه شهرا فمات رحمه الله سلخ شوال، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما، وغسل، وصلي عليه من الغد. ودفن بدار النصر التي بناها وذلك عن وصيته التي أوصاها، وترك من بعده ولدين، أحدهم ولي العهد، وهو عدة الدين والدنيا، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، والآخر أبو منصور هاشم، وقد وزر له جماعة من الرؤساء، وكان من خيار الخلفاء، أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليما، ووقورا، كريما، فرحمه الله تعالى وبل ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن علي: أبو إسحاق، الفقيه، السلمي الشافعي، المعروف بابن الفراء الأموي، ثم البغدادي، كان فقيهاً بارعاً فاضلا، مناظرا، فصيحا، بليغا، شاعرا، مُطبقاً توفي عن أربع وسبعين سنة، وصلى عليه أبو الحسن القزويني مدرس النظامية رحمه الله تعالى.

■ إسماعيل بن موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر أبو محمد بن الجواليقي، الملقب حجة الإسلام، أحد أئمة اللغة في زمانه، والمشار إليه من بين أقرانه، بحسن الدين، وقوة اليقين، وعلم اللغة، والنحو، وصدق اللّهجة، وخلوص النية، وحسن السيرة، في مرباه، ومنشاه، ومنتهاه، وقد سمع الحديث، ورواه وفهم الأثر، واتبع سبيله، ومغزاه، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

■ المبارك بن علي بن الحسين بن عبد الله بن محمد أبو محمد بن الطباخ البغدادي، نزيل مكة، ومجاورها، وحافظ الحديث بها، والمشار إليه بالعلم فيها. كان يوم جنازته يوما مشهودا رحمه الله تعالى.

خلافة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء

لما توفي أبوه في سلخ شوال من سنة خمس وسبعين وخمسمائة بايعه الأمراء والوزراء، والخاصة، والعامة، وكان قد خطب له على المنابر، في حياة أبيه، قبل موته بيسير، فقيل: إنه إنما عهد إليه قبل موته بيوم. وقيل: بأسبوع. ولكن قدر الله عز وجل، أنه لم يختلف عليه اثنان بعد وفاة أبيه ولقب بالخليفة الناصر، ولم يل الخلافة من بني العباس قبله أطول مدة منه، فإن خلافته امتدَّت إلى سنة وفاته، في سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وكان ذكيا، شجاعا مهيبا، وما سيأتي ذكر سيرته عند وفاته إن شاء الله تعالى.

وفي سابع ذي القعدة من هذه السنة عزل صاحب المخزن ظهير الدين أبو بكر بن العطار، وأهين غاية الإهانة هو وأصحابه، وقتل كثير منهم، وشهروا في البلد، وتمكن أمر الخليفة الناصر، وعظمت هيبته في البلاد وقلوب العباد وقام بأعباء الخلافة على ما ينبغي في جميع أموره وشؤونهم. ولما حضر عيد الأضحى، أقيم على ما جرت به العادة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وسار إلى بلاد الروم، فأصلح بين ملوكها، من بين أرتق، وكر على بلاد الأرمن، فأهان ملكها، وفتح بعض حصونها، وأخذ منها غنائم كثيرة جدا، من أواني الفضة والذهب، لأن ملكها كان قد غدر بقوم من التركمان، أوَوْا إلى بلاده، ثم صالحه على مال يحمله إليه، وأسارى يطلقهم من أسره، وآخرين يستنقذهم من أيدي الفرنج، ثم عاد السلطان مؤيدا، منصورا، فدخل حماة، في أواخر جمادى الآخرة، وامتدحه الشعراء على ذلك.

ومات صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وكان شابا، حسنا، مليح الشكل، تام القامة، مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين، ومات عن ثلاثين سنة، وكان عفيفا في نفسه، مهيبا، وقورا، لا يلتفت إذا ركب ولا وإذا جلس، وكان غيورا، لا يدع أحدا من الخدم الكبار يدخل على النساء، وكان لا يقدم على سفك الدماء، وكان ينسب إلى شيء من البخل، سامحه الله، توفي في ثالث صفر، وكان قد عزم على أن يجعل الملك، من بعده، لولده عز الدين سنجرشاه، فلم يوافقه الأمراء، خوفا من صلاح الدين، لصغر سنه، فاتفقوا كلهم على أخيه، فأجلس مكانه في المملكة الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قايماز نائبه، ومدبر مملكته.

وجاءت رسل الخليفة، يلتمسون من صلاح الدين أن يبقي سروج، والرها، والرقة، وحران، والخابور، ونصيبين في يده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد، هي حفظ ثغور المسلمين، وإنما كنت تركتها في يده، ليساعدنا على غزو الفرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه أن المصلحة في كونها بيده.

وفاة تورانشاه أخي السلطان

فيها توفي أخو السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة

■ تورانشاه بن أيوب، أخي الملك صلاح الدين، الذي افتتح بلاد اليمن، عن أمر أخيه، فمكث فيها حينا، واقتنى منها أموالا جزيلة، ثم

استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام، شوقا إليه، وقد كتب إليه في أثناء الطريق شعرا عمله له شاعره ابن المنجم، وكانوا قد وصلوا إلى تيماء:

وهل لأخي بل مالكي علم أنني ... إليه وإن طال التردد راجع
وإني بيوم واحد من لقائه ... لملكي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة ... وتجني المُنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذا بدا ... وتخشع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواقي إليك ببعضها ... تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها ... تضم على الدنيا ونحن الأصابع

وكان قدومه على أخيه سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر، فاستنابه على الإسكندرية، فلم توافقه، وكان يعتريه القولنج، فمات في هذه السنة، ودفن بقصر الإمارة فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب، فدفنته بتربتها، التي بالشامية البرانية، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، والرحبة، والمؤخر قبرها، رحمها الله تعالى وأجزل ثوابها والتربة الحسامية منسوبة إلى والدها حسام الدين عمر بن لاجين، وهي إلى جانب المدرسة من غربها، وقد كان الملك تورانشاه هذا، كريما شجاعا، باسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر، قال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر ... فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله ... فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فإنه ... يجيرك من جور الزمان وعدواه
ولا تتحمل للسحائب مِنّة ... إذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما ... فلليمن يمناه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه صلاح الدين بن أيوب، وهو مخيم بظاهر حمص، حزن عليه حزنا شديدا، وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة، وكانت محفوظة رحمه الله تعالى.

وفي رجب منها، قدمت رسل الخليفة الناصر وخلعه وهداياه إلى الملك الناصر صلاح الدين، فلبس السلطان خلعة الخليفة بدمشق، وزينت له البلد، وكان يوما مشهودا.

وفي رجب أيضا منها، سار السلطان من الشام إلى الديار المصرية، لينظر في أحوالها وأمورها، ويصوم بها رمضان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

قال العماد الكاتب: وكان عزيز المثل، غزير الفضل، فكتب القاضي الفاضل، عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمن، والبقيع، ومكة، يعلمهم بعزم السلطان الناصر على الحج في هذا العام واستصحب صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ ببغداد، الذي قدم في الرُسلية من جهة الخليفة، ليكون في خدمته إلى الديار المصرية، وفي صحبته إلى الحجاز الشريف، فدخل السلطان مصر، وتلقاه الجيش وكان يوما مشهودا وأما صدر الدين فانه لم يقم بها إلا قليلا، حتى توجه إلى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام في المسجد الحرام.

وفيها سار قراقوش التَّقَوِيُّ إلى المغرب، فحاصر قابس، وقلاعا كثيرة حولها، واستحوذ على أكثرها، واتفق له أنه أسر من بعض الحصون غلاما أمرد، فأراد قتله، فقال له أهل الحصن: لا تقتله، وخذ لك ديته، عشرة آلاف دينار. فأبى فوصّلوه إلى مائة ألف، فأبى إلا قتله، فقتله، فلما قتله، نزل صاحب الحصن، وهو شيخ كبير، ومعه مفاتيح ذلك الحصن، فقال له: خذ هذه، فإني شيخ كبير، وإنما كنت أحفظه من أجل هذا الصبي الذي قتلته، ولي أولاد أخ، أكره أن يملكوه بعدي فأقره فيه، وأخذ منه أموالا كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحافظ

■ **أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة** الحافظ الكبير المعمر، أبو طاهر السلفي الأصبهاني، وإنما قيل لجده إبراهيم سلفة، لأنه كان مشقوق إحدى الشفتين، فكان له ثلاث شفاه فسمته الأعاجم بذلك.

قال القاضي ابن خلكان: وكان السلفي يلقب بصدر الدين، وكان شافعي المذهب، ورد بغداد، واشتغل بها على إلكيا الهراسي، وأخذ اللغة عن الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، وسمع الحديث الكثير، ورحل في طلبه إلى الآفاق، ثم نزل ثغر الإسكندرية، في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وبنى له العادل أبو الحسن علي بن السلار وزير الخليفة الظافر مدرسة، وفوض أمرها إليه، فهي معروفة به إلى الآن.

قال ابن خلكان: وأما أماليه، وتعاليقه، كثيرة جدا، وكان مولده فيما ذكر المصريون، سنة ثنتين وسبعين وأربعمائة.

ونقل الحافظ عبد الغني القدسي عنه، أنه قال: أذكر مقتل نظام الملك في سنة خمس وثمانين وأربعمائة ببغداد، وأنا ابن عشر تقريبا.

ونقل عنه الحافظ أبو القاسم الصفراوي أنه قال: مولدي بالتخمين، لا باليقين، سنة ثمان وسبعين فيكون مبلغ عمره ثمانيا وتسعين سنة، لأنه توفي ليلة الجمعة، خامس ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمسمائة، بثغر الإسكندرية، والله أعلم، ودفن بوعلة، وفيها جماعة من الصالحين رحمه الله تعالى، وقد رجح ابن خلكان قول الصفراوي، قال: ولم يبلغنا من نحو ثلاثمائة سنة أن أحدا جاوز المائة، إلا القاضي أبا الطيب الطبري رحمه الله.

وقد ترجمه الحافظ بن عساكر في تاريخه [٢٠٨/٥] ترجمة حسنة، وإن كان قد مات قبله بخمس سنين، فذكر رحلته في طلب الحديث، ودورانه في الأقاليم، وأنه كان يتصوف أولا، ثم أقام بثغر الإسكندرية، وتزوج بامرأة ذات يسار، فحسنت حاله، ووقفت عليه مدرسة هناك، وذكر طرفا من أشعاره فمن ذلك رحمه الله تعالى قوله:

أنا من إلمام المنية بغتة ... وآمن الفتى جهل وقد خبر الدهرا
وليس يحابي الدهر في دورانه ... أرذل أهليه ولا السادة الزهرا
وكيف وقد مات النبي وصحبه ... وأزواجه طُراً وفاطمة الزهرا

ومن شعر الحافظ السلفي الذي أورده ابن عساكر قوله:

يا قاصداً علم الحديث يذمُّه ... إذا ضل عن طرق الهداية وهمه
إن العلوم كما علمت كثيرة ... وأجلُّها فقه الحديث وعلمه
من كان طالبه وفيه تيقظ ... فأتمُّ سهم في المعالي سهمه
لولا الحديث وأهله لم يستقم ... دين النبي وشذ عنا حكمه

وإذا استراب بقولنا متحذلق فأكُلُّ نهم في البسيطة فهمه

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

استهلت والملك الناصر صلاح الدين مقيم بالقاهرة، مواظب على سماع الحديث، وجاءه كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه، يخبره فيه بما مَنَّ اللّه به على الناس، من ولادة النساء من التوأم، جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء، والفناء، وبأن الشام مخصبه بإذن اللّه لما كان أصابهم من الجدب الغلاء.

وفي شوال، توجه الملك صلاح الدين إلى الإسكندرية، لينظر ما أمر به من تحصين سورها، وعمارة أبراجها، وقصورها، وسمع بها موطأ الإمام مالك، على الشيخ أبي طاهر بن عوف، عن الطرطوشي، وسمع معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان رسالة، يهنئه بهذا السماع، واللّه تعالى أعلم.

ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن الملك نور الدين الشهيد صاحب حلب وما جرى بعده من الأمور

كانت وفاته في الخامس والعشرين من رجب،من هذه السنة،بقلعة حلب، ودفن بها، وكان سبب وفاته، فيما قيل، أن الأمير علم الدين سليمان بن جَنْدر سقاه سما في عنقود عنب في الصيد وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب وقيل: في خُشْكَنانجة فاعتراه قولنج فما زال كذلك حتى مات رحمه اللّه وهو شاب حسن الصورة بهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، وكان من أعف الملوك ومن أشبه أباه فما ظلم، وصف له الأطباء في مرضه شرب الخمر فاستفتى بعض الفقهاء في شربها، تداوياً، فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي أو ينقص منه تركها شيئا؟قالوا: لا، قال: فواللّه لا أشربها فألقى اللّه وقد شربت ما حرمه علي ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه، وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر، عماد الدين زنكي، صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات، استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين،صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة، وكان يوما مشهودا، وذلك في العشرين من شعبان، فتسلم خزائنها، وحواصلها وما فيها من السلاح، وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج، فهرب إلى حماة، فوجد أهلها، قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود، في أخذ دمشق، لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه محبة أهل الشام، لهذا البيت الأتابكي نور الدين، فقال لهم: بيننا وبين صلاح الدين، أيمان، وعهود، وأنا لا أغدر به، فأقام بحلب شهورا، وتزوج بأم الملك الصالح، في شوال، ثم سار إلى الرقة، فنزلها، وجاءه رسل أخيه عماد الدين زنكي، يطلب منه، أن يقايضه من حلب، إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه، ثم فعل على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار، والخابور، والرقة، ونصيبين، وسروج، وغير ذلك من البلاد .

ولما سمع الملك صلاح الدين بهذه الأمور، ركب من الديار المصرية، في عساكره، فسار حتى أتى الفرات، فعبرها، وخامر إليه بعض أمراء صاحب الموصل، فتقهقهر عن لقائه، فاستحوذ صلاح الدين على بلاد الجزيرة بكمالها، وهم بمحاصرة الموصل، فلم يتفق له ذلك، ثم جاء إلى حلب، فتسلمها من عماد الدين زنكي لضعفه منه ممانعتها، ولقلة ما ترك فيها عز الدين من الأسلحة، وآلات القتال وذلك في السنة الآتية كما سنذكره.

وفي هذه السنة عزم البرنس صاحب الكرك، على قصد تيماء من أرض الحجاز، ليتوصل منها إلى المدينة النبوية، فجهز له صلاح الدين سرية من دمشق، تكون حاجزة بينه وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده و لله الحمد والمنّة.

وفيها ولى السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب نيابة اليمن، فملّكه عليها وأرسله إليها، وذلك لاختلاف نوابها، واضطراب أصحابها، بعد وفاة المعظم تورانشاه أخي السلطان الذي كان افتتحها، فلما وقعت الفتن بها، وكثر التخليط والتخبيط، سَمَت نفس أخيه طغتكين إليها، فأرسله أخوه إليها وولاّه عليها، فسار فوصلها، في سنة ثمان وسبعين، فسار فيها أحسن سيرة، واحتاط على أموال حطان بن منقذ صاحب زبيد، وكانت تقارب زهاء ألف ألف دينار أو أكثر، وأما نائب عدن، فخر الدين عثمان الزنجيلي، فإنه خرج من اليمن، قبل قدوم طغتكين، فسكن الشام، وله أوقاف مشهورة باليمن، ومكة، وإليه تنسب المدرسة الزنجلية، خارج باب توما، تجاه دار الطعم، وكان قد حصل من اليمن أموالا جزيلة جدا.

وفيها غدرت الفرنج، ونقضت عهودها، وقطعوا السبل على المسلمين، برا، وبحرا، وسرا، وجهرا، فأمكن اللّه من بطشة عظيمة، لهم فيها نحو من ألفين وخمسمائة، نفس من رجالهم المعدودين، ألقاها الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان من مصر، فأحيط بها، فغرق بعضهم، وحصل في الأسر نحو ألف وسبعمائة.

وفيها سار قراقوش إلى بلاد إفريقية، ففتح بلادا كثيرة، وقاتل عسكر ابن عبد المؤمن، صاحب المغرب، واستفحل أمره هناك، وقراقوش مملوك تقي الدين عمر بن أخي السلطان صلاح الدين، ثم عاد إلى مصر، فأمره صلاح الدين أن يتم السور المحيط بالقاهرة، ومصر، وذلك قبل خروجه منها في هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بها، حتى توفاه اللّه عز وجل، بعد أن أراه اللّه بلوغ مناه، قبل حلول الوفاة، فأقرّ عينه من أعداءه، وفتح على يده بيت المقدس وما حواه، ولما خيم بارزا، من مصر وأولاده حوله، جعل يشمهم، ويقبلهم، ويضمهم، فأنشد بعضهم في ذلك:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان الأمر كما قال، لم يعد إلى مصر بعد هذا العام، بل كان مقامه بالشام.

وفي هذه السنة ولد للسلطان ولدان أحدهما المعظم توران شاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ولادتهما سبعة أيام، فزينت البلاد، واستمر الفرح أربعة عشر يوما.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ كمال الدين أبو البركات:

■ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبي السعادات، عبد اللّه بن محمد بن عبيد

الله الأنباري، النحوي، الفقيه، العابد، الزاهد، الناسك الخاشع الورع، كان خشن العيش، ولا يقبل من أحد شيئا، ولا من الخليفة، وكان يحضر نوبة الصوفية، بدار الخلافة، ولا يقبل من جوائز الخليفة ولا فلساً، وكان مثابرا على الاشتغال، وله تصانيف مفيدة، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان: له كتاب أسرار العربية، مفيد جدا، وكتاب طبقات النحاة، مفيد جدا، وكتاب الميزان في النحو أيضا، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

في خامس المحرم، كان بروز السلطان من الديار المصرية، قاصدا بلاد الشام لمناجزة الأعداء والإحسان إلى الأولياء، وكان ذلك آخر عهده بمصر ولم يعد إليها بعد ذلك وقد أغار في طريقه على أطراف بلاد الفرنج، بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الملوك بوري بن أيوب على الميمنة، يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو فالتقوا على الأردن بعد سبعة أيام، وقد أغار نائب دمشق عز الدين فرخشاه على بلاد طبرية، وما حولها وافتتح حصونا جيدة، وأسر منهم ألفا، وغنم عشرين ألف رأس من الأنعام بيّض الله وجهه.

وكان دخول السلطان إلى دمشق، سابع عشر صفر، ثم خرج منها في العشر الأول من ربيع الأول، فاقتتل مع الفرنج، في نواحي طبرية، وبيسان، تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، وكانت الدائرة للمسلمين على الفرنج، ورجع مؤيدا منصورا.

ثم ركب السلطان في جحافله وعساكره قاصدا حلب، وبلاد الشرق ليأخذها وذلك أن المواصلة والحلبيين قد كاتبوا الفرنج على حرب المسلمين حتى يغزوا على بعض أطراف البلاد، ليشغلوا الناصر بنفسه عنهم، فكان مسيره على بلاد البقاع ثم إلى حماه ثم إلى حلب، فحاصرها ثلاثا، ثم رأى العدول عنها إلى غيرها أولى، فسار حتى قطع الفرات، واستحوذ على بلاد الجزيرة، والخابور وحران والرها، والرقة، ونصيبين، وغير ذلك وخضعت له الملوك، ثم عاد إلى حلب، فتسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار كما ذكرنا ذلك في السنة الماضية فاستوسقت له الممالك شرقا وغربا، وبعداً وقرباً وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم الله وأمكنه الله من نواصيهم فله الحمد على ما أولاه.

فصل

ولما عجز إبرنس الكرك، لعنه الله عن إيصال الأذى للمسلمين في البر، عمل مراكب في بحر القلزم، ليقطعوا الطريق على الحجاج، والتجار، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم، فأمر الملك العادل أبو بكر نائب مصر للأمير حسام الدين لؤلؤاً، صاحب الأسطول، أن يعمل مراكبه في بحر القلزم، ليحارب أصحاب إبرنس، ففعل ذلك، فظفروا بهم في كل موطن، فقتلوا منهم، وحرقوا، وغرقوا، وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة، ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر، بإذن الله تعالى الذي بيده النفع والضر، وأرسل الناصر إلى أخيه العادل ليشكر ذلك عن مساعيه، وأرسل إلى ديوان الخلافة، يعرفهم بذلك بما أنعم الله عليه من الفتوحات براً وبحراً وبما هو متقلّب فيه من أنعم الله وإحسانه سرّاً وجهراً والحمد لله رب العالمين.

فصل في وفاة الملك المنصور عز الدين

■ فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، ونائب دمشق لعمه الناصر صلاح الدين، وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك بعد أبيه، وإليه تنسب المدرسة الفرو خشاهية بالشرق الشمالي، بدمشق، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده، وهما وقف على الحنفية، والشافعية، وقد كان فروخ شاه، شجاعا، شهما، عاقلا، ذكيا، ممدحا، امتدحه الشعراء لفضله، وجوده، وكان من أكبر أصحاب الشيخ تاج الدين أبي اليمن الكندي، عرفه من مجلس القاضي الفاضل، له وللعماد الكاتب فيه مدائح بدائع، وله شعر رائق لطيف من ذلك قوله:

أنا في أسر السقام ... من هوى هذا الغلام

رشأ ترشق عينا ... ه فؤادي بسهام

كلما أرشفني فا ... ه على حر الأوام

ذقت منه الشهد في الثلج ... المصفّى مذاقات المدام

وكان ابنه الأمجد شاعرا جيدا، ولاه عم أبيه صلاح الدين بعلبك بعد أبيه، واستمر فيها مدة طويلة، ومن محاسن فرخشاه صحبته لتاج الدين الكندي وقد دخل يوما الحمام، فرأى رجلا كان يعرفه من أصحاب الأموال، وقد نزل به الحال، حتى إنه كان يستتر ببعض يديه، لئلا تبدو عورته، فرق له، وأمر غلامه أن ينقل بقجة، وبساطا إلى موضع الرجل، وأمره فأحضر ألف دينار، وبغلة، وتوقيعا له في كل شهر، بعشرين ديناراً، دخل الرجل الحمام فقيرا، وخرج وهو من أغنى الناس، فرحمة الله على الأجواد الجياد.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ أبو العباس:

■ الرفاعي أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد، المعروف بابن الرفاعي، شيخ الطائفة والأحمدية والرفاعية والبطائحية، لسكناه أم عبيدة، من قرى البطائح، وهي بين البصرة، وواسط، كان أصله من العرب، فسكن هذه البلاد، والتف عليه خلق كثير، ويقال: إنه حفظ التنبيه في الفقه وقد ذكرته في طبقات الشافعية.

قال ابن خلكان: ولأتباعه أحوال عجيبة، من أكل الحيات وهي حية، والدخول في النار في التنانير وهي تضطرم فيطفئونها، ويقال إنهم في بلادهم يركبون الأسود.

وذكر ابن خلكان: أنه قال: وليس للشيخ أحمد عقب، وإنما النسل لأخيه، وذريته يتوارثون المشيخة بتلك البلاد. قال: ومن شعر الشيخ أحمد على ما قيل:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم ... أنوح كما ناح الحمام المطوق

وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى ... وتحتي بحار بالأسى تتدفق

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ... تفك الأسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول ففي القتل راحة ... ولا هو ممنون عليه فيُطلق

ومن شعره قوله:

أغار عليها من أبيها وأمها ... ومن كل من يدنو إليها وينظر

وأحذر للمرآة أيضا بكفها ... إذا نظرت مثل الذي أنا أنظر

قال: ولم يزل على تلك الحال، إلى أن توفي، يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، من هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال: أبو القاسم القرطبي، الحافظ، المحدث، المؤرخ، صاحب التصانيف، له كتاب الصلة، جعله ذيلا على تاريخ أبي الوليد بن الفرضي، وله كتاب المستغيثين بالله، وله مجلد في تعين الأسماء المبهمة في الروايات، على طريق الخطيب، وله أسماء من روى الموطأ، على حروف المعجم، بلغوا ثلاثة وسبعين رجلا، وكانت وفاته في رمضان، عن أربع وثمانين سنة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

العلامة قطب الدين أبو المعالي:

■ مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، تفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، قدم دمشق، ودرس بالغزالية، والمجاهدية، وبحلب بمدرسة نور الدين، وأسد الدين، ثم بهمذان، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالغزالية، وانتهت إليه رياسة المذهب، ومات بها في سلخ رمضان، يوم العيد، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، عن ثلاث وتسعين سنة، وعنه أخذ الفخر ابن عساكر وغيره وهو الذي صلى على الحافظ ابن عساكر، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

في الرابع عشر من محرمها، تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد، صلحا بعد حصار طويل، من يد صاحبها ابن نيسان، بعدما حمل ما أمكنه من حواصله، وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد، وجد فيه شيئا كثيرا من الحواصل، وآلات الحرب، والسلاح حتى إنه وجد برجا، مملوءا بنصول النشاب، وبرجا آخر فيه مائة ألف شمعة، وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة كتب ألف ألف مجلد، وأربعين ألف مجلد، فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حمارة. ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان وكان قد وعده بها فقيل له: إن الحواصل لم تدخل في وعدك، فقال: لا أبخل بها عليه، وكان في خزائنها ثلاث آلاف ألف دينار وقد صار من أصحابنا وأنصارنا، فامتدحه الشعراء على هذا الصنيع الحسن الجميل وهو حقيق بالثناء والجزاء الجزيل. ومن أحسن ذلك قول بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

ثم سار السلطان في بقية المحرم إلى حلب فنازلها وحاصرها، وقاتله أهلها قتالا شديدا، فجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري بن أيوب جرحا بليغا، فمات منه بعد أيام، وكان أصغر أولاد أيوب، ولم يبلغ عشرين سنة، وقيل إنه جاوزها بسنتين، وكان ذكيا فهما، له ديوان شعر لطيف، فحزن عليه أخوه الملك صلاح الدين حزنا شديدا، ودفنه بحلب، ثم نقله إلى دمشق، ثم اتفق الحال بين السلطان، وبين صاحب حلب، عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي آق سنقر، على عوض أطلقه له الناصر، بأن يرد عليه سنجار، ويسلمه حلب، فخرج عماد الدين زنكي، وجاء، إلى خدمة الناصر، وعزاه في أخيه، ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان الخابور، والرقة، ونصيبين، وسروج، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة، لأجل الغزاة في الفرنج، ثم سار، وودعه السلطان، ومكث السلطان في المخيم، أياما، غير مكترث بحلب، ولا مستكثر لها ولا بها، ثم صعد إلى قلعتها، يوم الاثنين، السابع عشر من صفر، وعمل له الأمير طمان وليمة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً مشهوراً فسمعه بعضهم وهو داخل يتلو هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ولما دخل دار الملك تلا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآية. ولما دخل مقام إبراهيم صلى فيه ركعتين، وأطال السجود به، والدعاء، والتضرع إلى الله، ثم شرع في عمل وليمة عظيمة، وقد ضربت البشائر، وخلع على الأمراء، وأحسن إلى الرؤساء والفقراء، وألقت الحرب أوزارها وقضت القلوب أوطارها.

وألقت عصاها واستقر بها ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

وقد امتدحه الشعراء عند فتح حلب بمدائح حسان. ثم إن القلعة وقعت منه بموقع عظيم، ثم قال: ما سررت بفتح قلعة أعظم سرورا من فتح مدينة حلب، وأسقط عنها، وعن سائر بلاد الجزيرة، المكوس، والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام، ومصر.

وقد عاث الفرنج في غيبته في الأرض فسادا، فأرسل إلى عساكره، فاجتمعوا إليه، وكان قد بشر بفتح بيت المقدس، حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعي، رأى في تفسير أبي الحكم بن برّجان المغربي، عند قوله: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١] الآية، البشارة بفتح بيت المقدس، في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب ذلك في ورقة، وأعطاها للفقيه عيسى الهكاري، ليبشر بها السلطان، فلم يتجاسر على ذلك، خوفا من عدم المطابقة، فأعلم بذلك القاضي محيي الدين بن الزكي، فنظم معناها في قصيدة، يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر ... قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها السلطان، فقويت همته إلى ذلك، فلما افتتحها كما سيأتي أمر القاضي، فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ثم بلغه بعد ذلك أن ابن جهبل هو الذي اطلّع على ذلك أولا، فأمره فدرس على نفس الصخرة درسا عظيما، فأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

فصل

ثم رحل السلطان من حلب، في أواخر ربيع الآخر، بجيوشه وعساكره وقد جعل فيها ولده الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستناب له فيها نائبا، وسار مع السلطان، في خدمته فاجتاز بحماه ثم بحمص ثم على بعلبك ثم دخل دمشق، في ثالث جمادى الأولى، وكان ذلك يوما مشهودا، ثم برز منها خارجا إلى قتال الفرنج، في أول جمادى الآخرة في جحافله، قاصدا نحو القدس الشريف، فانتهى إلى بيسان، فنهبها، ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سرية هائلة، فيها جرديك، وطائفة من النورية، وجاء مملوك عمه أسد الدين، فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فالتقوا معهم، فقتلوا من الفرنج خلقا كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عاد في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا لقتاله،

فقصدهم، وتصدى لهم لعلهم يصافونه، فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقا كثيرا، من أطرافهم وجرح مثلهم، فرجعوا ناكصين على أعقابهم، خائفين منه غاية المخافة، لكثرة جيشه وهو خلفهم، يقتل، ويأسر، حتى غوّروا في بلادهم، فرجع عنهم مؤيداً منصوراً، وكتب القاضي الفاضل إلى الخليفة، يعلمه بما من الله عليه، وعلى المسلمين من نصرة الدين، وكان لا يفعل شيئا، ولا يريد أن يفعله إلا أطلع عليه الخليفة، أدبا، واحتراما، وطاعة، واحتشاما.

فصل

وفي رجب، سار السلطان إلى الكرك، فحاصرها، وفي صحبته تقي الدين عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيه العادل أبي بكر ليحضر إليه ليوليه حلب، وأعمالها، وفق ما كان طلبه منه، واستمر الحصار على الكرك، مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا كلهم، ليمنعوا منه الكرك فكر راجعا إلى دمشق ليلقاهم وذلك من أكبر همته وأعظم طلبه، وأرسل ابن أخيه تقي الدين عمر إلى مصر نائبا، وفي صحبته القاضي الفاضل، وبعث أخاه على مملكة حلب وأعمالها، واستقدم ولده الظاهر إليه، وكذلك نوابه ومن يعز عليه، وإنما أعطى السلطان أخاه العادل حلب ليكون قريبا منه، فإنه كان لا يقطع أمرا دون مشورته، واقترض الناصر من أخيه أبي بكر العادل مائة ألف دينار، وتألم الظاهر بن الناصر على مفارقة حلب، وكانت إقامته الاولى بها ستة أشهر، ولكن لا يقدر أن يظهر ما في نفسه لوالده لكن يظهر ذلك، على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

في هذه السنة أرسل الناصر إلى العساكر الحلبية، والجزرية، والمصرية، أن يقدموا عليه، لقتال الفرنج، فقدم عليه تقي الدين عمر من مصر، ومعه القاضي الفاضل، وجاء من حلب أبو بكر العادل، وقدمت ملوك الجزيرة، وسنجار، وغيرها، وتلك النواحي والأقطار واخذهم كلهم مع جيشه فسار إلى الكرك، فأحدقوا بها، في رابع عشر جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وذلك أنه رأى أن فتحها أنفع للمسلمين من غيرها، فإن أهلها يقطعون الطريق على الحجيج والتجار في البراري والبحار، فبينما هو كذلك، إذ بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا له كلهم، فارسهم، وراجلهم، ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها، وقصدهم فنزل على حسبان تجاههم، ثم صار إلى ماء عين، فانهزمت الفرنج، قاصدين الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالإغارة على السواحل، لخلوها من المقاتلة، فنهبت نابلس، وما حولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان إلى دمشق، فأذن للعساكر في الانصراف إلى بلدانهم الشتى، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر، الملك المظفر، أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك أخاه العادل أن يعود إلى الشهباء، وأقام السلطان بدمشق، ليؤدي فرض الصيام، ولتجمَّ الخيل، ويحد الحسام، وقدمت على السلطان خلع الخليفة، فلبسها، وألبس أخاه العادل، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعته على ناصر الدين بن قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، وخرتبرت وآمد، التي أطلقها له السلطان.

وفي هذه السنة مات ابن عمه صاحب ماردين وميافارقين وتلك الأعمال وهو قطب الدين إيلغازي بن البي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق فقام في الملك بعده ولده وله من العمر عشر سنين.

وفيها مات صاحب المغرب، يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقام في الملك بعده ولده يعقوب.

وفي أواخرها بلغ السلطان صلاح الدين أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه، في جنوده وعساكره فسار إلى بعلبك، ثم إلى حمص ثم إلى حماه، فأقام بها أياما ينتظر وصول العماد الكاتب إليه، وذلك لأنه حصل له ضعف، فأقام ببعلبك، ريثما استبلّ من مرضه وقد أرسل إليه القاضي الفاضل، من دمشق طبيبا، يقال له أسعد بن إلياس المطران، فعالجه معالجة من طب لمن حب.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان مخيم بظاهر حماة، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل واجتمعت إليه العساكر فخرج منها في صفر قاصدا الموصل فقطع الفرات، وجاء إلى حران، فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، ثم رضي عنه، وأعاده إلى مملكته، حتى يتبين خبث طويته، ثم سار منها إلى الموصل، فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إلى خدمته عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان، فطلب دستوراً، ليأخذ مملكته فأعطاه وسار السلطان، فنزل على الإسماعيليات، قريبا من الموصل، وجاءه صاحب إربل زين الدين، الذي خضعت له ملوك تلك الناحية، ثم أرسل صلاح الدين ضياء الدين بن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، فحاصرها مدة، ثم رحل عنها في أواخر ربيع الأول، ولم يفتحها، وسار إلى خلاط، واستحوذ على بلدان كثيرة، وأقاليم جمة، ببلاد الجزيرة، وديار بكر، وجرت أمور كثيرة قد استقصاها ابن الأثير في الكامل [٥١٥/١١]، وصاحب الروضتين [٦١/٢]، ثم وقع الصلح بينه وبين المواصلة، على أن يكونوا من جنده، إذا ندبهم لقتال الفرنج، وعلى أن يخطب له، وتضرب السكة باسمه، ففعل ذلك في تلك البلاد كلها، وانقطعت خطبة السلاجقة، والأزيقية، بتلك البلاد كلها. واتفق الحال وزال الإشكال.

ثم اتفق أنه مرض السلطان بعد ذلك مرضا شديدا، فكان يتجلد، ولا يظهر شيئا من الألم، حتى قوي عليه الأمر، وتزايد الحال، حتى وصل إلى حران، فخيم هنالك من شدة ألمه، وشاع ذلك في البلاد، وخاف الناس عليه، وأرجف الكفرة والملحدون وخاف أهل البر والمؤمنون، وقصده أخوه أبو بكر العادل من حلب، بالأطباء والأدوية، فوجده في غاية الضعف، وأشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ما أبالي، وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعليا يعني أخاه العادل، صاحب حلب وتقي الدين عمر، صاحب حماة، وهو إذ ذاك نائب مصر، وهو بها مقيم وابنيه العزيز عثمان، والأفضل عليا ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا، ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج، ولا يقاتل بعد ذلك مسلما، وليجعلن أكبر همه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه، من الأموال، والذخائر، وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، لأنه نقض العهد، الذي عاهد السلطان عليه فغدر بقافلة من تجار مصر، فأخذ أموالهم، وضرب رقابهم،

صبراً بين يديه وهو يقول: أين محمدكم ينصركم؟ وكان هذا النذر كله، بإشارة القاضي الفاضل، رحمه الله وهو أرشده إليه، وحثه عليه، حتى عقده مع الله عز وجل، فعند ذلك شفاه الله وعافاه من ذلك المرض الذي كان فيه كفارة لذنوبه ورفع لدرجته ونصرة للإسلام وأهله، وجاءت البشارات بذلك من كل ناحية، فدقت البشائر، وزينت البلاد.

وكتب الفاضل من دمشق، وهو مقيم بها، إلى المظفر تقي الدين عمر، أن العافية الناصرية، قد استقامت، واستفاضت أخبارها، وطلعت بعد الظلمة أنوارها، وظهرت بعد الاختفاء آثارها، وولت العلة، ولله الحمد والمنة، وطفئت نارها، وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وما كانت إلا فلتة، وقى الله شرها، وعظيمة كفى الله الإسلام أمرها، وتوبة امتحن الله بها نفوسنا، فرأى أقل ما عندها صبرها، وما كان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولا ليوقف الإجابة، وإن سدت طريقها الذنوب، ولا ليخلف وعد فرج، وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعي زاد فيه الدهر ميما فأصبح بعد بؤساه نعيما
وما صدق النذير به لأني رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية حديدة، والنشاط إلى الجهاد، والتوبة لرب العباد، والجنة مبسوطة البساط، وقد انقضى الحساب، وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال، التي من خوفها، كاد الجمل يلج في سمِّ الخياط.

ثم ركب السلطان من حران، بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماة وحمص ودخل إلى دمشق، وقد تكاملت عافيته، وقد كان يوم دخوله إليها يوما مشهودا وصباحاً محموداً ولله المنة.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الفقيه مهذب الدين:

■ عبد الله بن أسعد الموصلي: مدرس حمص، وكان بارعا في فنون، ولا سيما في الشعر والأدب، وقد أثنى عليه العماد، والشيخ شهاب الدين أبو شامة.

الأمير ناصر الدين

■ محمد بن أسد الدين شيركوه: صاحب حمص، والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، فنقلته زوجته ستُّ الشام إلى تربتها، بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الأوسط، بينها وبين أخيها المعظم توران شاه صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الأموال، والذخائر شيئا كثيرا، ينيف على ألف ألف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجاة فولى من بعده مملكة حمص ولده أسد الدين شيركوه بأمر صلاح الدين أيده الله تعالى.

■ محمود بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الرحمن الشيخ جمال الدين أبو الثناء المحمودي بن الصابوني، لأن جد أمّه الشيخ أبو عثمان الصابوني، كان أحد الأئمة المشاهير، وإنما يقال له المحمودي لصحبة جده السلطان محمود بن محمد بن ملكشاة، فقدم الشيخ جمال الدين هذا الشام في أيام نور الدين محمود بن زنكي فأكرمه واحترمه، ثم سار إلى مصر، فنزلها، وكان صلاح الدين يكرمه أيضاً، وأوقف عليه وعلى ذريته أرضا، فهي لهم إلى الآن.

الأمير الكبير سعد الدين

■ مسعود بن معين الدين، كان من الأمراء الكبار، أيام نور الدين، وصلاح الدين، وهو أخو الست خاتون، وحين تزوجها صلاح الدين، زوّجه أخته، الست ربيعة خاتون بنت أيوب، التي تنسب إليها المدرسة الصلاحية، بالسفح على الحنابلة، وقد تأخرت مدتها، فتوفيت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة، فكانت آخر من بقي من أولاد أيوب لصلبه، وكانت وفاته بدمشق، في جمادى الآخرة، من جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

■ الست خاتون عصمة الدين: بنت معين الدين، نائب دمشق، وأتابك عساكرها، قبل نور الدين، كما تقدم، وقد كانت زوجة نور الدين رحمه الله، ثم خلف عليها من بعده صلاح الدين، في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وكانت من أحسن النساء، وأعفهن، وأكثرهن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانياس، ودفنت بتربتها، في سفح قاسيون، قريبا من قباب السركسية، وإلى جنبها دار الحديث الأشرفية والأتابكية، ولها أوقاف كثيرة غير ذلك، وأما الخاتونية البرانية، التي على القنوات، بمحلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان التي هي فيه، بتل الثعالب، فهي من إنشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لأمه، وكانت زوجة زنكي والد نور الدين محمود، صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين، كما تقدم، رحمها الله تعالى.

الحافظ الكبير

■ أبو موسى المديني: محمد بن عمر أحمد الأصبهاني الحافظ، أبو موسى، المديني، أحد حفاظ الدنيا الرحالين الجوالين، له مصنفات عديدة، وشرح أحاديث كثيرة، رحمه الله تعالى.

أبو القاسم: وأبو زيد

■ عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن بن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح هو الداخل إلى الأندلس الخثعمي السهيلي.

حكى القاضي ابن خلكان عن ابن دحية، أنه أملى عليه نسبه كذلك، قال ابن خلكان: والسهيلي نسبة إلى قرية، بالقرب من مالقة، اسمها سهيل، لأنه لا يرى سهيل النجم في شيء من تلك البلاد، إلا من رأس جبل شاهق عندها، وهي من قرى المغرب، ولد السهيلي سنة ثمان وخمسمائة، وقرأ القراءات، واشتغل، وحصل حتى برع، وساد أهل زمانه، بقوة القريحة، وجودة الذهن، وحسن التصانيف، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته، وكان ضريرا مع ذلك، له كتاب الروض الأنف يذكر فيه نكتا حسنة على السيرة لم يسبق إلى أشياء كثيرة منها، وله كتاب الإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، وله كتاب نتائج الفكر، ومسألة في الفرائض بديعة، ومسألة في السر في كون الدجال أعور، وأشياء فريدة كثيرة بديعة مفيدة، وله أشعار حسنة، وكان عفيفا فقيرا، وقد حصل له مال كثير، في آخر عمره من صاحب مراكش، وكانت وفاته في هذه السنة يوم الخميس، السادس والعشرين من شعبان، وله قصيدة كان يدعو الله بها، ويرتجي الإجابة ببركتها وهي قوله:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن امنن فإن الخير عندك أجمع

مـا لي سـوى فقـري إليـك وسـيلة — فبالافتقـار إليـك فقـري أدفـع
مـا لي سـوى قرعي لبـابك حيلـة — فلئـن رددت فـأي بـاب أقـرع؟
ومن ذا الـذي أدعو وأهتـف باسمـه — إن كـان فضلـك عـن فقـيرك يمنـع؟
حاشـا لجـودك أن يُقنِّـطَ عاصيـاً — الفضـل اجـزل والمواهـب اوسـع

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة

في ثاني ربيع الأول منها، كان دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق بعد عافيته، وكان يوماً مشهوداً كما جرت بمثل ذلك عادات الملوك واجتمع بالقاضي الفاضل وزاره واستزاره وفاوضه، واستشاره، وكان لا يقطع أمرا دونه ولا يخفى، عنه مكنونه ولا ضميره ومضمونـه ثـم السلطان في ملـك دمشق، ولده الأفضل عليّاً، ونزل العادل أبو بكر عـن حلب لصهره زوج ابنته الملك الظاهر غازي بن الناصر، وأرسل السلطان أخاه العـادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملك العزيز، على ملـك مصر، ويكون الملك العادل أتابكه، وله أقطاع عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم على الدخول إلى إفريقية، فلم يزل الناصر يكاتبه ويتلطف به، ويترفق له، حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه، واحترمه وعظمه، وأقطعه حماة، وبلادا كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك، بسنين وزاده وزاد له على ذلك مدينة ميافارقين، وامتدحه العماد الكاتب بقصيدة سينية سينة مذكورة في الروضتين [٧١/٢].

وفيها هادن قومص طرابلس السلطان، وصالحه، وصافاه، حتى كان يقاتل ملوك الفرنج أشد القتال، وسبى منهم النساء والأطفال، وكاد أن يسلم، ولكن صده شيطانه ورماه بالخبال، وكانت مصالحة القومص من أقوى أسباب نصرة السلطان على الفرنج، ومن أشد ما دخل عليهم في دينهم ودنياهم.

قال العماد الكاتب: وكان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، بطوفان الريح، في سائر البلدان، وذكر أن ناسا من الجهلة، تأهبوا لذلك، بحفر مغارات في الجبال، ومدخلات، وأسراب في الأرض، خوفا من ذلك.

قال العماد: فلما كانت تلك الليلة، التي أشاروا إليها، وأجمعوا عليها، لم ير ليلة مثلها، في كودها وركونها، وهدوئها وهدونها ذلك غير واحد من الناس، في سائر أقطار الأرض، وقد نظم الشعراء في تكذيب المنجمين في هذه الواقعة، وغيرها، أشعارا كثيرة حسنة فمن ذلك قول عيسى بن مودود:

مـزق التقويـم والزيـج فقـد بـان الخفـاء
إنمـا التقويـم والزيـج هبـاء وهـواء
قلـت للسـبعة إيـرام ومنـع وعطـاء
ومتـى ينـزلن في الميـزان يسـتولي الهـواء
ويثـير الرمـل حتـى يمتلـي منـه الفضـاء
ويعـم الأرض خسـف وخـراب وبـلاء
ويصـير القـاع كالقـف وكـالطود العـراء
وحكمتـم فـأبى الحـاكـم إلا مـا يشـاء
مـا أتـى الشـرع ولا جـاءت بهـذا الأنبيـاء
فبقيتـم ضحكـة يضـحـك منهـا العلمـاء
حسـبكم خزيـاً وعـاراً مـا يقـول الشـعراء
ثـم مـا اطمعكـم في الحكـم إلا الأمـراء
ليـت إذ لم يحسـنوا في الـدين ظنـاً مـا أساءوا
فعلـى اصطـرلاب بطليمـوس والزيـج العفـاء
وعليـه الخـزي مـا جـادت على الأرض السماء

ومن توفي في هذه السنة من المشاهير

أبو محمد

■ عبد الله بن أبي الوحش: بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي، ثم المصري، أحد أئمة اللغة، والنحو، في زمانه، وعليه كانت تعرض الرسائل، بعد ابن بابشاذ، وكان كثير الاطلاع، عالما بهذا الشأن، مطرحا للتكلُّف في كلامه، لا يلتفت، ولا يعرج على الإعراب فيه إذا خاطب الناس، وله التصانيف المفيدة، توفي وقد جاوز الثمانين بثلاث سنين، رحمه الله تعالى، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

فيها كانت وقعة حطين، التي كانت أمارة، ومقدمة، وبشارة، لفتح بيت المقدس، على المؤمنين واستنقاذه من أيدي الكافرين.

قال ابن الأثير: في الكامل [٥٣٤/١١] كان أول يوم منها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أن ذلك كان أول سنة الروم أيضاً، وهو اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضا.

قال وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

وبرز السلطان من دمشق يوم السبت، مستهل محرم، وقيل: في أثنائه في جيشه، فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الأفضل هناك، في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش إلى بصرى، فخيم على قصر أبي سلامة، ينتظر قدوم الحجاج، وفيهم أخته ست الشام، وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن عمر بن لاجين، ليسلموا من معرة إبرنس الكرك،الذي غدر ونقض العهد وفجر فلما اجتاز الحجيج سالمين، سار السلطان، فنزل الكرك، وقطع ما حوله من الأشجار، ورعى الزرع، وأكلوا الثمار، وجاءت العساكر المصرية، وتوافت الجيوش الشرقية بالرماح الخطية والسيوف المشرقية، فنزلوا عند ابن السلطان على رأس الماء، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج، فقتلت، وغنمت، وسلمت، وكسرت وأسرت ورجعت، فبشر بمقدمات الفتح، والنصر، وجاء السلطان بجحافله، فالتفت عليه جميع العساكر البادي منهم والحاضر رتِّب الجيوش والأطلاب، فرتب الجيوش، وسار قاصدا بلاد الساحل، وكان جملة من معه من المقاتلة، أثنى عشر ألفا غير المطوّعة، فتسامعت الفرنج بقدومه، فاجتمعوا كلهم، وتصالحوا فيما بينهم، ودخل معهم قومص أطرابلس الغادر وإبرنس الكرك الفاجر، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم وأهل أوجهم وحضيضهم واستصحبوا معهم صليب الصلبوت، يحمله منهم عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، في

خلق لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل، يقال كانوا خمسين ألفا، وقيل ثلاثا وستين ألفا، وقد خوفهم صاحب طرابلس بأس المسلمين، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك، فقال له: لا أشك أنك تحب المسلمين، وتخوفنا كثرتهم، والنار لا تخاف من كثرة الحطب. فقال القومص لهم: ما أنا إلا منكم، وسترون غب ما أقول لك. فتقدموا نحو المسلمين، وأقبل السلطان، ففتح طبرية، وتقوى بما فيها من الأطعمة، والأمتعة، وغير ذلك، وتحصنت عنه القلعة، فلم يعبأ بها، وحاز البحيرة في حوزته، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة، حتى صاروا في عطش عظيم فبرز السلطان، إلى سطح الجبل الغربي، من طبرية، عند قرية يقال لها حطين، التي يقال إن فيها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، وجاء العدو المخذول، وكان فيهم صاحب عكا، وكفرنكا، وصاحب الناصرة، وصاحب صور، وغير ذلك من جميع ملوكهم، فتواجه الفريقان، وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان، واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء، على عبدة الصلبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناس على مصافهم، وأسفر الصباح عن يوم السبت، الذي كان يوما عسيرا، على أهل يوم الأحد، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر في شدة الحر، فطلعت الشمس على وجوه النصارى، وهم من شدة الحر سُكارى وما هم بسكارى، وكان تحت أقدام خيولهم هشيم حشيش. فأمر السلطان النفاطة، أن يرموه بالنفط، فرموه، فتأجج نارا، تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس، وحر العطش، وحر النار، وحر السلاح، وحر رشق النبال، وتبارز الشجعان في حومة الوغى، ثم أمر السلطان بالتكبير، والحملة الصادقة، فحملوا، وكان النصر من الله عز وجل، فمنحهم الله أكتاف الكفرة الفجرة، فقتل منهم ثلاثون ألفا، في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفا من شجعانهم، وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم، سوى قومص طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذين يزعمون أنه الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، واللآلئ، والجواهر النفيسة، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفا وثلاثين أسيرا من الفرنج، وقد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيرا، بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها، ولا وقعت العيون على شكلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فلله الحمد دائماً، أبداً، حمداً كثيراً طيباً.

ولما تمت هذه الوقعة العظيمة والنعمة العميقة الجسيمة، أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة، وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى تتهادى في قيودها، فضربت أعناق جماعة من مقدمي الداوية والإسبتارية بين يديه صبرا، ولم يترك منهم، من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بملوكهم، فأجلسوا عن يمينه، ويساره، على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه، وتحته أرناط إبرنس الكرك، قبّحه الله تعالى وبين يديه بقية الملوك وعن يساره، فجيء السلطان بشراب مثلوج، من الجلاب، فشرب، ثم ناول الملك، فشرب، ثم ناول ملكهم أرناط فشرب، صاحب الكرك، فغضب السلطان، وقال له: إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة، داخل تلك الخيمة، واستدعى أرناط صاحب الكرك، فلما أوقف بين يديه، قام إليه بالسيف، فقال له: نعم، أنا أنوب عن رسول الله ﷺ، في الانتصار لأمته. ثم دعاه إلى الإسلام فامتنع فقتله، وأرسل برأسه إلى الملوك، وهم في الخيمة، وقال: إن هذا تعرض لسب رسول الله ﷺ. فقتلته ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى من الداوية والإسبتارية صبرا، وأراح المسلمين من هذين الجنسين الخبيثين و لله الحمد، ولم يسلم ممن عرض عليه الإسلام إلا القليل، فيقال إنه بلغت القتلى ثلاثين ألفا، والأسارى كذلك كانوا ثلاثين ألفا، وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفا، وكان ممن سلم منهم مع قلتهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم، وممن مات كذلك، قومص طرابلس، فإنه انهزم جريحا، فمات بها، بعد مرجعه، ثم أرسل السلطان برؤوس أعيان الفرنج، ومن لم يقتل من رؤوسهم، وبصليب الصلبوت، صحبة القاضي ابن أبي عصرون، إلى دمشق، ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوسا، وكان يوما مشهودا و لله الحمد والمنّة.

ثم سار السلطان إلى قلعة طبرية، فأخذها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران، والبلقاء، وما حولها من الجولان، وتلك الأراضي كلها بالنصف، فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة، وتوفّرت عليهم ثم سار السلطان إلى حطين، فزار قبر شعيب، ثم ارتفع منه إلى إقليم الأردن، فتسلم تلك البلاد كلها، وهي قرى كثيرة، كبار وصغار، ثم سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الأربعاء، سلخ ربيع الآخر، فافتتحها صلحا، يوم الجمعة، وأخذ ما كان بها من حواصل الملوك، وأموالهم، وذخائرهم، ومتاجر، وغيرها، واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، فوجد فيها أربعة آلاف أسير، ففرج الله عنهم و لله الحمد. وأمر بإقامة الجمعة بها، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل، بعد أخذه الفرنج، من سبعين سنة.

ثم سار منها إلى صيدا، وبيروت، وتلك النواحي من السواحل، يأخذها بلدا بلدا، لخلوها من المقاتلة، والملوك، ثم رجع سائرا نحو غزة، وعسقلان، ونابلس، وبيسان، وأراضي الغور، فملك ذلك كله بحول الله وقوته، واستناب على نابلس ابن اخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو الذي افتتحها، وكان جملة ما افتتحه السلطان، في هذه المدة القريبة، خمسين بلدا، كل بلد له مقاتلة، وقلعة، ومنعة فلله الحمد.

وغنم الجيش والمسلمون، من هذه الأماكن، شيئا كثيرا، وسبوا شيئاً كبيراً لا يُحدُّ ولا يُوصف، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة.

ثم إن السلطان، أمر جيوشه أن ترتع في هذه الأماكن، مدة شهور، ليستريحوا، ويُجِمُّوا أنفسهم، وخيولهم، ليتأهبوا لفتح بيت المقدس، وطار في الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس، فقصده العلماء، والصالحون، تطوعا، وجاؤوا إليه من كل فج عميق، ووصل أخوه العادل، بعد وقعة حطين، وفتح عكا، ففتح بنفسه بلاداً كثيرة، فاجتمع من عباد الله، ومن الجيوش المتطوعة، خلق كثير وجم غفير، فعند ذلك، قصد السلطان، بمن معه كما سيأتي بيانه.

وقد امتدحه الشعراء، بسبب وقعة حطين، فقالوا، وأكثروا، وأطابوا وأطنبوا وكتب إليه القاضي الفاضل، ـ من دمشق وهو مقيم بها لمرض اعتراه ـ ليهن المولى، أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مسلم. وأنه قد أسبغ عليه النعمتين، الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين؛ ملك الدنيا وملك الآخرة كتب المملوك الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه، إن الله ثالث ثلاثة، يقال فيه إله واحد، جدد لله شكرا، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من أجفانه، سرورا بتوحيد الله تعالى الملك الحق

المبين، وأن يقال محمد رسول اللّه، الصادق الوعد الأمين، وجزى اللّه يوسف خيرا، عن إخراجه من سجنه، والمماليك يتنظرون أمر المولى، وكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق، قد عوّل على دخول حمام طبرية.

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ وذلك الفتح لا عمّان واليمن
وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن

ثم قال: «وللألسنة بعد في هذا الفتح، سبح طويل، وقول جليل».

ذكر فتح بيت المقدس في هذه السنة واستنقاذه من أيدي النصارى، بعد ثنتين وتسعين سنة

لما افتتح السلطان ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة وما يقرب من تلك السواحل المتقدم ذكرها، والإشارة إليها، أمر العساكر، فاجتمعت، ثم سار نحو بيت المقدس، فنزل غربي بيت المقدس، في الخامس عشر من رجب من هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ـ فوجد البلد قد حصنت غاية التحصين، وكانوا ستين ألف مقاتل، دون بيت المقدس، أو يزيدون، ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾وكان صاحب القدس يومئذ رجلا يقال له باليان بن بارزان، ومعه من سلم من وقعة حطين، يوم التقى الجمعان، من الداوية، والاسبتارية، أتباع الشيطان عليهم لعائن اللّه أجمعين، وعبدة الصلبان، فأقام السلطان بمنزله المذكور، خمسة أيام، وسلم إلى كل طائفة من الجيش ناحية من السور، وأبراجه، ثم تحول السلطان إلى ناحية الشمال لأنه رآها أوسع للمجال، والجلاد، والنزال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، وبذلوا أنفسهم، وأموالهم، في نصرة قمامةٍ والقيامة بذلاً طائلاً، واستشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين، فحنق عند ذلك كثير من الأمراء والصالحين، واجتهدوا في القتال، بكل خطّيٍ وحسام وقد نصب المجانيق، والعرادات على البلد، وغنت السيوف، وعُملت السّمهريات، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران، وفوق قبة الصخرة صليب كبير، فزاد ذلك أهل الإيمان حنقا، وشدة للتشمير، وكان ذلك يوما عسيرا، على الكافرين غير يسير، فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور، فنقبها، وعلقها، وحشاها بالنيران فأحرقها، فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته، فإذا هو واجب، فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع، والخطب المؤلم لهم الموجع، قصد أكابرهم السلطان، وتشفعوا إليه بكل إنسان أن يعطيهم الأمان، فامتنع من ذلك، وقال: لا أفتحها إلا، كما افتتحتموها عنوة، ولا أترك بها أحدا من النصارى، إلا قتلته، كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان الأمان، ليحضر عنده، فأمنه، فلما حضر، ترقق للسلطان، وذل ذلا عظيما، وتشفع إليه بكل ما أمكنه، فلم يجبه إلى الأمان لهم، فقالوا: إن لم تعطنا الأمان، رجعنا، فقتلنا كل أسير بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف وقتلنا ذرارينا، وأولادنا، ونساءنا، وخربنا الدور، والأماكن الحسنة، وأحرقنا المتاع، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال، وهدمنا قبة الصخرة، وحرقنا ما نقدر عليه، ولا نبقي ممكنا في إتلاف ما نقدر عليه، وبعد ذلك نخرج، فنقاتل قتال الموت، ولا خير في حياتنا بعد ذلك، فلا يقتل واحد منا، حتى يقتل أعدادا منكم، فماذا ترتجي بعد هذا من الخير؟

فلما سمع السلطان ذلك، أجاب إلى الصلح، وأناب، على أن يبذل كل رجل منهم، عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة، دينارين، ومن عجز عن ذلك، كان أسيرا للمسلمين. وأن تكون الغلات، والأسلحة، والدور للمسلمين، وأنهم يتحولون منها إلى مامنهم، وهي مدينة صور. فكتب الصلح على ذلك، وأن من لم يبذل ما شرط عليه، إلى أربعين يوما، فهو أسير، فكان جملة من أسر بهذا الشرط، ستة عشر ألف أسير، من رجال، ونساء، وولدان، ودخل السلطان، والمسلمون، البلد يوم الجمعة، قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهي ليلة الإسراء برسول اللّه ﷺ، من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى إلى السماوات العُلى.

قال أبو شامة: وهو أحد الأقوال في الإسراء، ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ، خلافا لمن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد، والصحيح أن الجمعة لم يتمكنوا من إقامتها يومئذ، لضيق الوقت، وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي بن الزكي، كما سيأتي قريبا.

ولكن نظفوا المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان، والرهبان، والخنازير، وخربت دور للداوية، وكانوا قد بنوها غربي المحراب الكبير، واتخذوا المحراب حشًّا لعنهم اللّه، فنظف من ذلك كله، وأعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية، والدولة المحمدية وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد، والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة، مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها، وعادت إلى حرمتها، وقد كان الفرنج، قلعوا منها قطعا، فباعوها من أهل البحور الجوانية، بزنتها من الذهب، فتعذر استعادة ما نقص منها وما ذهب.

ثم قبض من الفرنج، ما كانوا بذلوه، عن أنفسهم، من الأموال، وأطلق السلطان خلقا، منهم بنات الملوك، بمن معهن من النساء، والصبيان، والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم، وشفع في أناس كثير، فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم، من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئا، مما يقتنى، ويدخر، وكان رحمه اللّه، حليماً، كريما، مقداما، شجاعا، رحيما، أسأل اللّه تعالى أن يجدّد رحمته عليه وأن يقبل بوجهه الكريم إليه.

ذكر أول جمعة أقيمت ببيت المقدس بعد فتحه

لما نزه البيت المقدس، مما كان فيه، من الصلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وهرب الشيطان وقرئ القرآن، وطهر المكان، فكان إقامة أول جمعة فيه في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنصب المنبر إلى جانب المحراب المطهر، وبسطت البسط الرفيعة في تلك العراض الوسيعة، وعلقت القناديل وتلي التنزيل عوضاً عمّا كان يقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء الحق وبطلت تلك الأباطيل، وصفت السجادات، وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وأديت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكربات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وطابت الأنفاس، واطمأنت النفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس، وحضر العبّاد والزهّاد والأبدال والأقطاب والأوتاد، وعبد الواحد، وكثر الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع، وسالت لرقّة القلوب المدامع، وقال الناس: هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم وسيم، وهذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصبُّ البركات وتسيل العبرات

وتقال العثرات، فأذَّن المؤذِّنون للصلاة وقت الزَّوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال، ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عيَّن خطيباً، وقد تهيَّأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يدعى إليها أحدهم فلا يكون نجيباً، فبرز للخطباء المرسوم السلطانيُّ الصَّلاحيُّ، وهو في قبَّة الصَّخرة الغرَّاء، أن يكون القاضي محيي الدين بن الزَّكيِّ اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وصعد المنبر، وقد كساه الله البهاء، وأكرمه بكلمة التقوى وأعطاه السكينة والوقار والسناء، فخطب بالناس خطبة عظيمة سنيَّة فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدَّس، وما ورد فيه من الفضائل والتَّرغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وما منَّ الله به على الحاضرين من هذه النِّعمة التي تعدل الكثير من القربات، وقد أوردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «الروضتين» بطولها، فكان أوَّل ما قال حين تكلَّم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: (الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على عباده من ظله وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده، فلا يمانع، والظاهر على خليقته، فلا ينازع، والآمر بما يشاء، فلا يراجع، والحاكم بما يريد، فلا يدافع، أحمده على إظفاره، وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصرة لأنصاره، ومطهر بيت المقدس، من أدناس الشرك، وأوضاره حمد من استشعر الحمد، باطن سره، وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، رافع الشكِّ، وداحض الشرك، وراحض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام، إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السِّدرة ما يغشى، ما زاغ البصر، وما طغى ﷺ وعلى خليفته الصديق، السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ذي النورين، جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان)

ثم ذكر الموعظة، وهي مشتملة على تغبيط الحاضرين، على ما يسره الله على أيديهم، من فتح بيت المقدس، الذي من شأنه كذا وكذا، فذكر فضائله، ومآثره، وأنه أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وصلى فيه بالملائكة والمقربين والأنبياء والرسل الكرام ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام، على البراق، وهو أرض المحشر، والمنشر يوم التلاق، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، وقد أسس على التقوى من أول يوم.

قلت: ويقال: إن الذي أسسه، أولا يعقوب عليه السلام، بعد أن بنى الخليل عليه السلام المسجد الحرام، بأربعين سنة، كما جاء في الصحيحين [خ(٣٣٦٦، ٣٤٢٥)، م(٥٢٠)] ، ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام، كما ثبت به الحديث في المسند [١٧٦/٢] والسنن[س كبرى(٧٧٢)، ج (١٤٠٨)]، وصحيح ابن خزيمة [١٣٣٤]، وابن حبان [الإحسان(١٦٣٣)]، والحاكم [٣٠/١]، وغيرهم، وسأل سليمان عليه السلام الله، عند فراغه منه، خلالا ثلاثا، حكما يصادف حكمه وملكا لا ينبغي لأحد من بعده وأنه لا يأتي أحد إلى هذا المسجد، لا ينهزه إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه.

ثم ذكر الخطيب تمام الخطبتين، ودعا للخليفة العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة، جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ، بإذن السلطان، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً، فلله الحمد والمنة، واستمر القاضي محيي بن ابن الزكي، يخطب بالناس في أيام الجمع، أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيبا مستقرا، وأرسل إلى حلب، فاستحضر المنبر، الذي كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه بعد وفاته رحمه الله تعالى.

نكتة غريبة

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين [١١٣/٢]: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي، في تفسيره الأول، فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي يعني ابن برجان في أول سورة الروم، إخبار عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

قال السخاوي: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه فيما زعم من قوله ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٣] فبنى الأمر على التاريخ، كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يَغلِبُون في سنة كذا، على ما تقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه نجابة وافقت إصابة، إن صح أنه، قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولا من باب الكرامات، لأنها لا تنال بحساب. قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر، أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

قلت ابن برجان ذكر هذا في تفسيره، في حدود سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة، ويقال إن الملك نور الدين، أوقف على ذلك، فطمع أن يعيش إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، لأن مولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتهيأ لأسباب ذلك، حتى إنه أعد منبرا هائلا لبيت المقدس، إذا فتحه الله على يديه، والله أعلم.

وأما الصخرة المعظمة، فإن السلطان أزال ما حولها وعندها من المنكرات، والصور، والصلبان، وطهرها بعد ما كانت خفية، مستورة غير مرئية، وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، أن يعمل حولها شبابيك من حديد، ورتب لها إماما راتبا، ووقف عليه رزقا جيدا، وكذلك على إمام محراب الأقصى، وعمل للشافعية المدرسة، الصلاحية، ويقال لها الناصرية أيضا، وكان موضعها كنيسة على صند حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصوفية رباطا، كان داراً للبترك إلى جنب القمامة، وأجرى على الفقهاء، والفقراء الجامكيات، وأرصد الختم، والربعات، في أرجاء المسجد الأقصى، والصخرة، ليقرأ فيها المقيمون، والزائرون.

وتنافس بنو أيوب، فيما يفعلونه ببيت المقدس، وغيره من الخيرات، إلى

كل أحد، فجزاهم الله خيراً أجمعين وعزم السلطان على هدم قمامة، وأن يجعلها دكا، لتنحسم مادة النصارى من بيت المقدس، فقيل له إنهم لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو كانت قاعا صفصفا، وقد فتح هذه البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وترك هذه الكنيسة بأيديهم، ولك في ذلك أسوة. فأعرض عنها، وتركها على حالها، تأسيا بعمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، ولم يترك من النصارى فيها سوى أربعة يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة، وعفّى آثارها، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها.

وأما أسارى المسلمين، الذين كانوا بالقدس، فإن السلطان أطلقهم جميعهم، وأحسن إليهم، وأطلق لهم إعطاءات هيّنة، وكساهم حللا سنية، وانطلق كل منهم إلى وطنه وعاد إلى أهله ومسكنه، فلله الحمد على نعمه ومننه.

فصل

لما قرّر السلطان صلاح الدين بالقدس الشريف ما ذكرناه، انفصل عنها في الخامس والعشرين من شعبان، وأمر ولده العزيز بالرجوع إلى مصر، وسار السلطان بجيشه فقصد مدينة صور بالساحل، وكان فتحها قد تأخر، وقد استحوذ عليها، بعد وقعة حطين، رجل من تجار الفرنج، يقال له المركيس، فحصنها، وضبط أمرها، وحفر حولها خندقا من البحر إلى البحر، وجمهورها في البحر فجاء السلطان، فحاصرها مدة، ودعا بالأسطول من الديار المصرية في البحر، فأحاط بها برا وبحرا، فعدت الفرنج في بعض الليالي، على خمس شوان من أسطول المسلمين، فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، حزنا، وتأسفا، وقد دخل عليهم فصل البرد، وقلت الأزواد، وكثرت الجراحات، وكلّ الأمراء من المحاصرات، فسألوا السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق، حتى يستريحوا، ثم يعودوا إليها بعد هذا الحين، فأجابهم إلى ذلك، على تمنع منه، وذلك أن السور من صورَ كان قد هُدم أكثره ولم يبق إلا الفتح والنّجح، فتوجّه بهم نحو دمشق، واجتاز في طريقه على عكا، وتفرقت العساكر إلى بلادها.

وأما السلطان، فإنه لما وصل إلى عكا، نزل بقلعتها، وأسكن ولده الأفضل برج الداوية، وولي نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم على السلطان، بتخريب مدينة عكا، خوفا من عود الفرنج إليها، فكاد، ولم يفعل، وليته فعل، بل وكل بعمارتها، وتجديد محاسنها، بهاء الدين قراقوش التقوي، ووقف دار الإسبتار بصفين، على الفقهاء، والفقراء، وجعل دار الأسقف مارستانا، ووقف على ذلك كله أوقافا دارة، وولى نظر ذلك، لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في جميع ذلك بآرائه مصيب.

ولما فرغ السلطان من هذه الأشياء، وعاد إلى دمشق، مؤيدا، منصورا، أبهج العيون وسد القلوب وجاءته رسل الملوك بالتهاني، والتحف، والهدايا، من سائر الأقطار، والأمصار، وكتب الخليفة إلى السلطان، يعتب عليه في أشياء، منها أنه بعث إليه في بشارة الفتح، بوقعة حطين، شابا بغداديا، كان وضيعا عندهم، لا قدر له، ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب، ولقب نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر. فتلقى ذلك بالبشر، واللطف، ولم يُظهر له إلا السمع، والطاعة، وأرسل يعتذر مما وقع. وقال: الحرب كانت شغلته عن التروي، في كثير من ذلك، وأما لقبه بالناصر، فهو من أيام الخليفة المستضيء، ومع هذا، فمهما لقبني به أمير المؤمنين، فلا أعدل عنه، وتأدب مع الخليفة، غاية الأدب، مع غناه عنه رحمه الله تعالى.

وفيها كانت وقعة عظيمة، ببلاد الهند، بين الملك شهاب الدين الغوري، صاحب غزنة، وبين ملك الهند الكبير، فأقبلت الهنود، في عدد كثير، من الجنود، ومعهم أربعة عشر فيلا، فالتقوا، واقتتلوا، قتالا شديدا، فانهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم، فقيل للملك انج بنفسك، فما زاده ذلك إلا إقداما، فحمل على الفيلة، فجرح بعضها وجرح الفيل لا يندمل فرماه بعض الفيالة بحربة في ساعده، فخرجت من الجانب الآخر، فخر صريعا، فحملت عليه الهنود ليأخذوه، فجاحف عنه أصحابه، فاقتتلوا عنده قتالا شديدا، وجرت حرب عظيمة، لم يسمع بمثلها بموقف، فغلب المسلمون الهنود، وخلصوا صاحبهم، وحملوه على كواهلهم، في محفة عشرين فرسخا، وقد نزفه الدم، فلما تراجع إليه جيشه، أخذ في تأنيب الأمراء، وحلف ليأكلن كل أمير عليقة فرسه، وما أدخلهم غزنة إلا مشاة حفاة.

وفي هذه السنة ولدت امرأة من سواد بغداد، بنتا لها أسنان.

وفيها قتل الخليفة الناصر أستاذ داره، أبا الفضل بن الصاحب، وكان قد استحوذ على الأمور، ولم يبق للخليفة معه كلمة تطاع، ومع هذا، كان عفيفا عن الأموال، جيد السيرة، فأخذ الخليفة منه شيئا كثيرا من الحواصل، والأموال.

وفيها استوزر الخليفة أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين، ومشى أهل الدولة في ركابه، حتى قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني، وقد كان ابن يونس هذا شاهدا عنده فكان القاضي، يقول وهو يمشي في ركابه: لعن الله طول العمر، فمات القاضي في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى، وقد حكم في أيام عدة من الخلفاء وهو من بيته.

وممن توفي في هذه السنة أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة من الأعيان

الشيخ

■ عبد المغيث بن زهير الحربي: كان من صلحاء الحنابلة، وكان يزار، وله مصنف في فضل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالغرائب، والعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي في هذا الكتاب، فأجاد، وأصاب، ومن أحسن ما اتفق لعبد المغيث هذا، أن بعض الخلفاء وأظنه الناصر جاءه زائرا، مستخفيا، فعرفه الشيخ عبد المغيث، ولم يعلمه بأنه قد عرفه، فسأله الخليفة عن يزيد، أيلعن، أم لا؟ فقال: لا أسوغ لعنه، لأني لو فتحت هذا الباب، لَلَعَنَ الناس خليفتنا. فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكرة كثيرة، منها كذا وكذا. ثم شرع يعدد على الخليفة أفعاله القبيحة، وما يقع منه من المنكر، لينزجر عنها، فتركه الخليفة، وخرج من عنده، وقد أثر كلامه فيه، وانتفع به. ثم كانت وفاته في المحرم من هذه السنة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ

■ علي بن خطاب بن ظفر: العابد الناسك، أحد الزهاد، وذوي الكرامات، وكان مقامه بجزيرة ابن عمر.

قال ابن الأثير في الكامل [٥٦٣/١١]: ولم أر مثله، في حسن خلقه وسمته، وكراماته، وعبادته.

الأمير شمس الدين

■ محمد بن عبد الملك بن مقلدم: أحد نواب صلاح الدين، لما افتتح الناصر بيت المقدس، أحرم جماعة في زمن الحج منه إلى المسجد الحرام،

وكان ابن مقدم أمير الحاج في تلك السنة، فلما وقف بعرفة، ضرب الدبادب، ونشر الألوية، وأظهر عز السلطان صلاح الدين وعظمته، فغضب طاشتكين امير الحاج من جهة الخليفة، فزجره عن ذلك، فلم يسمع، فاقتتلا، فجرح ابن مقدم، ومات في اليوم الثاني بمنى، ودفن هنالك، وجرت خطوب كثيرة، وليم طاشتكين على ما فعل، وخاف معرة ذلك من جهة صلاح الدين والخليفة، وعزله الخليفة عن منصبه.

■ محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، أضر في آخر عمره، وقد جاوز الستين، سنة وكانت وفاته رحمه الله تعالى في شوال من هذه السنة.

وفي خامس توفي الفقيه أبو الفتح

■ نصر بن فتيان بن مطر: الحنبلي، المعروف بابن المنّي، وكان زاهدا، عابدا، مولده سنة إحدى وخمسمائة، وممن تفقه عليه من المشاهير، الشيخ موفق الدين بن قدامة، والحافظ عبد الغني، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصر عبد الرحمن بن النجم بن عبد الوهاب الحنبلي، وعبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي، وغيرهم.

وفيها توفي قاضي القضاة ببغداد أبو الحسن

■ ابن الدامغاني: وقد حكم في أيام المقتفي، ثم المستنجد، ثم عزل، وأعيد في أيام المستضيء، وحكم للناصر حتى توفي في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

في محرمها، حاصر السلطان صلاح الدين حصن كوكب، فرآه منيعا صعبا، ووقته مشغول بغيره فوكل به الأمير قايماز النجمي، في خمسمائة فارس، يضيقون عليه المسالك، وكذلك وكل بصفد وكانت للداوية خمسمائة فارس، مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي وبعث إلى الكرك والشوبك جيشا آخر يحاصرونه يضيقون على أهله، ليتفرغ من أموره، لقتال هذه الأماكن وحصارها.

ولما رجع السلطان من هذه الغزوة إلى دمشق، وجد الصفي بن الفايض، وكيل الخزانة، قد بنى للملك دارا بالقلعة، هائلة، مطلة على الشرف القبلي، فغضب عليه، وعزله، وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق، ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته، مما يثبط النفوس، ويقعدها عما خلقت له.

وجلس السلطان بدار العدل، فحضر عنده القضاة، وأهل الفضل، وزار القاضي الفاضل، في بستانه، على الشرف في جوسق بن الفراش، وحكى له ما جرى من الأمور، واستشاره فيما يفعل في المستقبل، من المهمات، والغزوات، ثم خرج من دمشق، فسلك على نبوس، وقصد البقاع، وخيّم على بعلبك وسار إلى حمص، وحماة، وجاءت الجيوش من الجزيرة، وهو على العاصي، فسار إلى السواحل الشامية، ففتح انطرطوس، وغيرها من الحصون، وجبلة، واللاذقية، وكانتا من أحصن المدن عمارة، ورخاما، ومحالا، وفتح صهيون، وبكاس، والشغر، وهما قلعتان على العاصي، حصيتان، فتحهما عنوة، وفتح حصن برزيه، وهي قلعة عظيمة، على جبل شاهق، منيع، تحتها أودية عميقة، يضرب بها المثل في سائر بلاد الفرنج والمسلمين، فحاصرها أشد حصار، وركب عليها المجانيق الكبار، وفرق الجيش ثلاث فرق، كل فريق يقاتل، فإذا كلوا، وتعبوا، خلفهم الفريق الآخر، حتى لا يزال القتال مستمرا، ليلا، ونهارا، صباحاً ومساءً فكان فتحها في نوبة السلطان، رحمه الله فأخذها عنوة، في أيام معدودات، ونهب جميع ما فيها، واستولى على حواصلها، وأموالها، وقتل حماتها، ورجالها، وسبى ذراريها وأطفالها، ثم عدل عنها، ففتح حصن دربساك، وحصن بغراس، كل ذلك يفتحه عنوة، فيغنم ويسلم ولله الحمد والمنة.

ثم سمت به همته العالية، إلى فتح أنطاكية، وذلك لأنه أخذ جميع ما حولها، من القرى، والمدن، واستظهر عليها بكثرة الجنود، فراسله صاحب أنطاكية، يطلب منه الهدنة، على أن يطلق من عنده من أسرى المسلمين، فأجابه إلى ذلك، لعلمه بتضجر من معه من المقاتلة والأعوان، فوقعت الهدنة على سبعة أشهر، ومقصود السلطان أن تستريح الجيوش من تعبها، وتجمَّ النفوسُ من نَصبها وأرسل السلطان من تسلم منه الأسارى، وقد ذلت دولة النصارى.

ثم سار، فسأله ولده الظاهر أن يجتاز بحلب، فأجابه إلى ما طلب، فنزل بقلعتها ثلاثة أيام، ثم استقدمه ابن أخيه تقي الدين إليه، إلى حماة، فنزل عنده ليلة واحدة، وأقطعه جبلة، واللاذقية، ثم سار، فنزل بقلعة بعلبك، ودخل حمامها، ثم عاد إلى دمشق في أوائل رمضان، وكان يوما مشهودا، وجاءته البشائر، بفتح الكرك على المسلمين الذين كانوا له محاصرين الفرنج، وأراح الله منهم تلك الناحية، وسهل حزنها على السالكين من التجار، والحجاج والغزاة، والمعتمرين: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فصل في صفة فتح صفد وحصن كوكب

لم يقم السلطان بدمشق، إلا أياما معدودة، حتى خرج بجيشه قاصدا بلاد صفد، فنازلها في العشر الأوسط من رمضان، وحاصرها بالمنجنيقات والشجعان، وكان البرد شديدا، يصبح الماء فيه جليدا، فما زال حتى فتحها صلحا في ثامن شوال و لله الحمد على كل حال.

ثم سار إلى صور، فألقت إليه بقيادها، وتبرأت من أنصارها، وأجنادها، وقوادها، وتحققت لما فتحت صفد أنها مقرونة معها في أصفادها.

ثم سار منها إلى حصن ـ كوكب وهي معقل الاسبتارية، كما أن صفد كانت معقل الداوية ـ وكانوا أبغض أجناس الفرنج إلى الملك الناصر صلاح الدين، لا يكاد يترك منهم أحدا إلا قتله إذا وقع في المأسورين. فحاصر قلعة كوكب، حتى قهرها، وقتل من بها، وأراح المارة من شر ساكنيها، وتمهدت تلك السواحل، واستقر بها منازل قاطنيها. هذا والسماء تصب، والرياح تهب، والسيول تعب، والأرجل في الأوحال تخب، والسلطان في كل ذلك، صابر مصابر محتسب، وكان القاضي الفاضل معه في هذه المواقف شاهداً ومرتقباً، وكتب القاضي الفاضل عن السلطان إلى أخيه سيف الإسلام، صاحب اليمن، يستدعيه إلى الشام، لنصرة الإسلام وقتل الكفرة اللئام، وأنه قد عزم على حصار أنطاكية، ويكون تقي الدين عمر محاصرا طرابلس إذا انسلخ هذا العام.

ثم عزم القاضي الفاضل على الدخول إلى مصر، فودعه السلطان فدخل القدس فصلى فيه الجمعة وعيد فيه عيد الأضحى ثم سار ومعه أخوه السلطان العادل إلى عسقلان ثم أقطع أخاه الكرك عوضا عن عسقلان، وأمره بالانصراف، ليكون عونا لابنه العزيز على حوادث الزمان، وعاد السلطان، فأقام بمدينة عكا، حتى انسلخت هذه السنة.

وفي هذه السنة خرجت طائفة من الرافضة بمصر، يريدون أن يعيدوا دولة الفاطميين، واغتنموا غيبة العادل عن مصر، واستخفوا أمر العزيز عثمان بن صلاح الدين، فبعثوا أثني عشر رجلا، ينادون في الليل، يا لَعليٍّ يا لعليٍّ، بناء على أن العامة تجيبهم، إلى ما عزموا عليه فلم يجبهم أحد، ولا التفت إليهم، أحد ولا تبعهم من الناس واحد فلما رأوا ذلك، انهزموا، فادركوا، وأخذوا، وقيدوا، وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان صلاح الدين، ساءه ذلك، واهتم له، وكان القاضي الفاضل عنده بعد لم يفارقه، فقال له: أيها الملك، ينبغي أن تفرح، ولا تحزن، حيث لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك، ولا التفتوا إليهم ولو أنك بعثت جواسيس من قبلك، يختبرون الناس، لسرك ما بلغك عنهم. فسري عنه ما كان يجد، ورجع إلى قوله، وأرسله إلى مصر، ليكون له عينا وعونا.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزري، مؤيد الدولة، أبو الحارث، وأبو المظفر

■ أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ أحد الشعراء المشهورين، الأمراء المشكورين، بلغ من العمر ستا وتسعين سنة، وكان عمره تاريخا مستقلا وحده، وكانت داره بدمشق، مكان العزيزية، وكانت معقلا للفضلاء، ومنزلا للعلماء، له أشعار رائقة، ومعان فائقة، ولديه علم غزير، وعنده جود، وفضل كثير، وكان من أولاد ملوك شيزر، ثم أقام بدار مصر مدة، في أيام الفاطميين، ثم عاد إلى الشام، فقدم على الملك صلاح الدين في سنة سبعين دمشق وأنشده.

حمدت على طول عمري المشيبا		وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنني حييت إلى أن لقيت		بعد العدو صديقا حبيبا

وله في سن قلعها وفقد نفعها:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته		يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا		لناظري افترقنا فرقة الأبد

وله ديوان شعر كبير، وكان صلاح الدين يفضله على سائر الدواوين.

وقد كان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان في شبيبته شهماً شجاعا،فاتكاً قتل الأسد مواجهة، وحده ثم عمر إلى أن توفي في هذه السنة.

قال ابن خلكان ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان، ودفن شرقي جبل قاسيون قال: وزرت قبره، وقرأت عنده، وأهديت له، رحمه الله تعالى.

ومما أنشده له قوله:

لا تستعر جلدا على هجرانهم		فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم		طوعا وإلا عدت عودة راغم

وقوله في قتل الأسد وكِبَره:

فاعجب لضعفِ يدي عن حملها قلماً		من بعدِ حطم القنا في لبَّةِ الأسدِ
وقلْ لمن يتمنى طولَ مدتهِ		هذي عواقب طولِ العمرِ والمددِ

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي شيخنا.:

أبو محمد

■ عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويدة التكريتي،كان عالماً بالحديث، وله فيه تصانيف حسنة رحمه الله تعالى.

قال الشيخ شهاب الدين: وفيها توفي

الحافظ أبو بكر

■ محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمداني، ببغداد، صاحب التصانيف، على صغر سنه، منها العجالة في النسب، والناسخ والمنسوخ، في الحديث وغيرهما. ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

فيها قدم من جهة الخليفة رسل إلى السلطان، يعلمونه بولاية العهد لأبي نصر محمد الملقب بالظاهر بن الخليفة الناصر فأمر السلطان خطيب دمشق، أبا القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي أن يذكره على المنبر، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفا عظيمة، وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج، على هيئتهم، في حال حربهم، وأرسل بصليب الصلبوت، فدفن تحت عتبة باب النوى من دار الخلافة، فكان بالأقدام يداس، بعدما كان يقبل ويباس وصار يُبصق عليه بعدما كان يُسجد له، والصحيح أن هذا الصليب، إنما هو الذي كان منصوبا على قبة الصخرة، وكان من نحاس مطلياً بالذهب، وقد انحط إلى أسفل الرتب

قصة عكا وما كان من أمرها

لما كان شهر رجب، اجتمع من كان بصور من الفرنج، وساروا إلى مدينة عكا، فأحاطوا بها، يحاصرونها فتحصن من فيها من المسلمين وأعدوا للحصار ما يحتاجون اليه وبلغ السلطان خبرهم فسار إليهم من دمشق مسرعاً، فوجدهم قد أحاطوا بها إحاطة الخاتم بالخنصر، فلم يزل يدافعهم عنها، ويمانعهم منها، حتى جعل طريقا إلى باب القلعة، يصل إليه كل من أراده، من جندي، وسوقي، وامرأة، وصبي،ثم أدخل إليها ما أراد، من الآلات والأمتعة والمقاتلة، ودخل هو بنفسه الكريمة، فعلا سورها، ونظر إلى الفرنج، وجيشهم، وكثرة عددهم، وعددهم، والميرة تفد إليهم من البحر، في كل وقت، وكل ما لم لهم في ازدياد، وفي كل حين تصل إليهم الأمداد، وعاد إلى مخيمه والجنود تفد إليه، وتقدم عليه من كل جهة ومكان، منهم رجّالة، وفرسان.

وقعة مرج عكا

فلما كان في العشر الأخير من شعبان، برزت الفرنج من مراكبها، إلى مواكبها، في نحو من ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل، فبرز إليهم السلطان، فيمن معه من الشجعان، فاقتتلوا بمرج عكا، قتالا عظيما، وهزم جماعة من المسلمين في أول النهار، ثم كانت الدائرة على الفرنج في آخره ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨] فقتل من المسلمين قريب المئتين. وأما الفرنج فكانت القتلى بينهم أزيد من سبعة آلاف قتيل، ولما تناهت هذه الوقعة، تحول السلطان عن مكانه الأول، إلى موضع بعيد، من رائحة القتلى، خوفا من الوخم والأذى، وليستريح الخيالة والخيل، ولم يعلم أن ذلك كان من أكبر مصالح العدو المخذول، فإنهم اغتنموا هذه الفرصة، فحفروا حول مخيمهم خندقا في البحر، محدقا بجيشهم، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقا،

وجعلوا له أبوابا، يخرجون منها إذا أرادوا، وتمكنوا في منزلهم ذلك، الذي اختاروا، وارتادوا، وتفارط الأمر على المسلمين، وقوي الخطب، وصار الداء عضالا، وازداد الحال وبالا، اختباراً من الله، وامتحاناً، وكان رأي السلطان أن يناجزوا بعد الكرة سريعاً، ولا يتركوا، حتى يطيب البحر، فتأتيهم الأمداد من كل صوب، هريعاً، فاعتذر الأمراء إليه بالملال الجيش، والضجر، وكل لأمر الفرنج قد احتقر، ولم يدر ما قد حتم في القدر، فأرسل السلطان إلى جميع الملوك، يستنفر، ويستنصر، وكتب إلى الخليفة بالبث، وبث الكتب بالتحضيض، والحث السريع، فجاءته الأمداد، جماعات، وآحادا، وأرسل إلى مصر، يطلب أخاه العادل، فقدم عليه ويستعجل الأسطول، فوصل إليه خمسون قطعة في البحر، مع الأمير حسام الدين لؤلؤ، وقدم العادل في عسكر المصريين، فلما وصل الأسطول، حادت مراكب الفرنج عنه، يمنة ويسرة، وخافوا منه، واتصلت بالبلد الميرة، والعدد، والعدد وانشرحت الصدور بذلك، وانسلخت هذه السنة، والحال على ما هو عليه، ولا ملجأ من الله إلا إليه والله أعلم بالصواب.

ومن توفي فيها من الأعيان

القاضي شرف الدين أبو سعد:

■ عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون، أحد أئمة الشافعية، له كتاب الانتصار، وقد ولي قضاء القضاة بدمشق، ثم أضر قبل موته بعشر سنين، فجعل ولده محيي الدين مكانه، تطيباً لقلبه،وقد بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، ودفن بالمدرسة العصرونية، التي أنشأها عند سويقة باب البريد، قبالة داره، بينهما عرض الطريق، وكان من الصالحين، والعلماء العاملين، رحمه الله. وقد ذكره ابن خلكان، فقال: كان أصله من حديثة الموصل، ورحل في طلب العلم، إلى بلدان شتى، وأخذ عن أسعد الميهني، وأبي علي الفارقي، وجماعة، وولي قضاء سنجار، وحران، وباشر في أيام نور الدين تدريس الغزالية، ثم انتقل إلى حلب، فبنى له نور الدين بحلب مدرسة، وبحمص أخرى، ثم قدم دمشق، في أيام صلاح الدين، فولي قضاءها، في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، إلى أن توفي في هذه السنة، وقد جمع جزءاً في قضاء الأعمى، وأنه جائز، وهو خلاف المذهب، وقد حكاه صاحب البيان، وجها لبعض الأصحاب٠ قال: ولم أره في غيره، ولكن حبك الشيء يعمي ويصم، وقد صنف كتباً كثيرة، منها صفوة المذهب في نهاية المطلب، في سبع مجلدات، والانتصار في أربع، والخلاف في أربع، والذريعة في معرفة الشريعة، والمرشد، وغير ذلك، وكتابا سماه مآخذ النظر، ومختصرا في الفرائض وغيرها، وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه، والعماد، فأثنى عليه، وكذلك القاضي الفاضل.

وأورد له العماد أشعاراً كثيرة، وابن خلكان، منها:

أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة ... تمر بي الموتى تهز نعوشها
وما أنا إلا مثلهم غير أن لي ... بقايا ليال في الزمان أعيشها

■ أحمد عبد الرحمن بن وهبان: أبو العباس المعروف بابن أفضل الزمان.

قال ابن الأثير: كان عالماً، متبحراً في علوم كثيرة، من الفقه، والأصول، والحساب، والفرائض، والنجوم، والهيئة، والمنطق،وغير ذلك، وقد جاور بمكة، وأقام بها إلى أن مات بها، وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا.

الفقية الأمير ضياء الدين

■ عيسى الهكاري: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى توفي في ركابه بمنزله الخروبة، قريباً من عكا، فنقل إلى القدس الشريف، فدفن به، وكان ممن تفقه على الشيخ أبي القاسم بن البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والنبلاء، والأمراء الكبراء رحمه الله تعالى.

■ المبارك بن المبارك الكرخي: مدرس النظامية، تفقه بابن الخل،وكانت له مكانه عند الخليفة والعامة،وكان يضرب بحسن خطه المثل. وقد ذكرته في الطبقات رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

استهلت والسلطان محاصر لحصن عكا، وأمداد الفرنج تفد إليهم من البحر في كل وقت حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال، ومنهم من تأتي بنية راحة الغرباء، في الغربة، قدم إليهم مركب، فيه ثلاثمائة امرأة، حسناء بهذه النية، حتى إن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم من أجل هذه النسوة، واشتهر الخبر بذلك. وشاع بين المسلمين، والفرنج، بأن ملك الألمان، قد أقبل بثلاثمائة ألف مقاتل، من ناحية القسطنطينية، يريد أخذ الشام، وقتل أهله، انتصارا لبيت المقدس فعند ذلك حمل السلطان والمسلمون هما عظيما، وخافوا غائلة ذلك، مع ما هم فيه من الشغل، والحصار الهائل، وقويت قلوب الفرنج بذلك، واشتدوا للحصار والقتال، ولكن الله لطف وأهلك عامة جنده في الطرقات بالبرد والجوع والضلال في المهالك، على ما سيأتي بيانه وتفصيله إن شاء الله تعالى.

وكان سبب قتال الفرنج، وخروجهم من بلادهم، ونفيرهم، ما ذكره ابن الأثير في كامله [٤٤/١٢]، أن جماعة من الرهبان، والقسيسين، الذين كانوا ببيت المقدس وغيره ركبوا من صور في أربعة مراكب وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى البحرية، وما هو قاطع البحر من الناحية الأخرى، يحرضون الفرنج، ويحثونهم على الانتصار لبيت المقدس، ويذكرون لهم ما جرى على أهل القدس، وأهل السواحل، من القتل، والسبي، وخراب الديار، وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا: هذا نبي العرب، يضربه، وقد جرحه، ومات. فينزعجون لذلك، ويحمون، ويبكون، ويحزنون، ويخرجون من بلادهم، لنصرة دينهم، ونبيهم، وموضع حجهم على الصعب والذلول، حتى النساء المخدرات، والأبناء الذين هم عند أهليهم، من أعز الثمرات وأخصُ الخدرات.

وفي نصف ربيع الأول، تسلم السلطان شقيف ارنون بالأمان، وكان صاحبه مأسورا، في الذل، والهوان، وكان من أدهى الفرنج، وأخبرهم بأيام الناس، وربما قرأ في كتب الحديث، وتفسير القرآن، وكان مع هذا غليظ الجلد، كافر القلب، قبّحه الله تعالى.

ولما انفصل فصل الشتاء، وأقبل الربيع، جاءت ملوك الإسلام من بلدانها، بخيولها، وشجعانها، ورجالها، وفرسانها، وأرسل الخليفة إلى الملك صلاح الدين أحمالا من النفط، والرماح الخطيّة، ونفاطة، ونقّابين، كل منهم متقن في صنعته غاية الإتقان، ومرسوما بعشرين ألف دينار، وانفتح البحر، وتواترت مراكب الفرنج والنصارى من كل جزيرة، لأجل نصرة أصحابهم، يمدونهم بالقوة، والميرة، وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة، من خشب، وحديد، عليها جلود مسقاة بالخل، لئلا يعمل فيها النفط، يسع البرج منها خمسمائة مقاتل، وهي أعلا من أبرجة البلد، وهي مركبة على

عجل، بحيث يديرونها كيف شاؤوا، وعلى ظهر كل برج منها منجنيق كبير، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها، وخافوا على البلد، ومن فيه من المسلمين أن يؤخذوا وحصل لهم ضيق منها، فأعمل السلطان فكره في إحراقها، وأحضر النفاطين، ووعدهم بالأموال الجزيلة، إن هم أحرقوها، فانتدب لذلك شاب نحاس، من دمشق، يعرف بعلي بن عريف النحاسين، والتزم بإحراقها وإهلاكها، فأخذ النفط الأبيض، وخلطه بأدوية يعرفها، وغلى ذلك في ثلاثة قدور من نحاس، حتى صار نارا تأجج، ورمى كل برج منها، بقدر من تلك القدور، بالمنجنيق من داخل عكا، فاحترقت الأبرجة الثلاثة، حتى صارت نارا بإذن الله، لها ألسنة في الجو متصاعدة، واحترق من كان فيها، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير، واحترق في كل برج منها سبعون كفورا، ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكان الفرنج، قد تعبوا في عملها، سبعة أشهر، فاحترقت في يوم واحد، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ثم أمر السلطان لذلك الشاب النحاس بعطية سنية، وأموال كثيرة، فامتنع أن يقبل شيئا من ذلك. وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده سبحانه، فلا أريد منكم جزاء ولا شكورا.

وأقبل الأسطول المصري، وفيه الميرة الكثيرة، لأهل البلد، فعبى الفرنج أسطولهم، ليقاتلوا أسطول المسلمين، نهض السلطان بجيشه، ليشغلهم عنهم، وقاتلهم أهل البلد أيضا، واقتتل الأسطولان في البحر، وكان يوما مشهوراً عظيماً، وحربا في البر والبحر، فظفرت الفرنج بشيئ واحد، من الأسطول الذي للمسلمين، وسلم الله الباقي، فوصل إلى البلد، بما فيه من الميرة، وكانت حاجتهم قد اشتدت إلى عشرها وحمدوا الله تعالى على يسرها بعد عسرها.

وأما ملك الألمان، المتقدم ذكره، فإنه أقبل في عدد، وعدد كثير وجمّ غفير، قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل، من نيته خراب البلد، وقتل أهلها من المسلمين، والانتصار لبيت المقدس، وأن يأخذ البلاد إقليما بعد إقليم، حتى مكة والمدينة، فما نال من ذلك شيئا، بعون الله، وقوته، بل أهلكهم الله عز وجل، في كل مكان وزمان فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان، حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه أن يسبح فيه، فلما صار فيه، حمله الماء إلى شجرة، فشجت رأسه، وأخمدت أنفاسه، وأراح الله منه العباد، والبلاد، فأقيم ولده الأصغر في الملك، بعده وقد تمزق شملهم، وقلت منهم العدة، ثم أقبلوا، لا يجتازون ببلد إلا قتلوا فيه، فما وصلوا إلى أصحابهم، الذين على عكا، إلا في ألف فارس، فلم يرفعوا بهم رأسا، ولا لهم قدرا، ولا قيمة بينهم، ولا عند أحد من أهل ملتهم، ولا غيرهم، وهكذا سُنة الله فيمن أراد مخالفة الإسلام وأهله في إهلاكه وتمزيق شمله، و لله الحمد والمنّة على إحسانه وفضله.

وزعم العماد [الروضتين: ١٦١/٢] في سياقه أن الألمان وصلوا في خمسة آلاف، مقاتل وأن ملوك الإفرنج كلهم، كرهوا قدومه عليهم، لما يخافون من سطوة ملكهم، وزوال دولتهم بدولته، ولم يفرح به إلا المركيس صاحب صور، الذي أنشأ هذه الفتنة، وأثار هذه المحنة، لعنه الله فإنه تقوى به وبجيشه وكيده، فإنه كان خبيرا بالحروب، والقتال وقد قدم بأشياء كثيرة، من آلات الحرب، لم تخطر لأحد ببال، نصب دبابات أمثال الجبال، تسير بعجل، ولها زلوم من حديد تنطح السور فتخرقه وتثلم جوانبه، فمنّ الله العظيم بإحراقها وإتلافها، وأراح الله المسلمين منها، ونهض صاحب الألمان بالعسكر الفرنجي، فصادم به جيش المسلمين، فجاءت جيوش المسلمين برمتها إليه، فقتلوا من الكفرة خلقا كثيرا، وجما غفيرا، وهجموا مرة على مخيم السلطان بغتة، فنهبوا شيئاً كثيراً من الأمتعة، فنهض إليهم الملك العادل أبو بكر وكان رأس الميمنة فركب في أصحابه، وأمهل الفرنج، حتى توغلوا بين الخيام، ثم حمل عليهم بالرماح والحسام، فهربوا بين يديه، فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة حتى كسوا وجه الأرض منهم حللا، أزهى من الرياض الباسمة، وأحب إلي النفوس من الخدود الناعمة، وأقل ما قيل إنه قتل منهم خمسة آلاف، وزعم العماد وغيره أنه قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف، والله أعلم.

هذا وطرف الميسرة لم يشعر بما جرى، ولا درى، بل هم نائمون وقت القيلولة في خيامهم.

وكان الذين ساقوا وراءهم وأسروهم أقل من ألف، وإنما قتل من المسلمين عشرة أو دونهم، وهذه نعمة عظيمة، ونصرة عميمة وقد أوهن هذا جيش الفرنج، وأضعفهم، وكادوا يطلبون الصلح، وينصرفون عن البلد، فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم من البحر مع ملك يقال له كندهري لعنه الله تعالى، ومعه أموال كثيرة، فأنفق فيهم، وغرم عليهم، وأمرهم أن يبرزوا معه لقتال السلطان صلاح الدين، ونصب على عكا منجنيقين، غرم على كل واحد منهما ألفا وخمسمائة دينار، فأحرقهما المسلمون من داخل البلد، وجاءت كتب صاحب الروم، من القسطنطينية، يعتذر لصلاح الدين، من جهة ملك الألمان، وأنه لم يتجاوز بلده باختياره وأنه تجاوزه لكثرة جنوده ولذلك بشّر السلطان بأن الله سيهلكهم في كل مكان، وكذلك وقع، و لله الحمد القديم الإحسان وأرسل إلى السلطان يخبره، بأنه يقيم للمسلمين عنده جمعة، وخطبا، فأرسل السلطان مع رسله، خطيبا، ومنبرا، وكان يوم دخولهم إليه يوما مشهودا، ومشهدا محمودا، فأقيمت الخطبة بالقسطنطينية، ودُعي للخليفة العباسي، واجتمع فيها من هناك من المسلمين، والتجار، والمسافرين، والحمد لله رب العالمين.

فصل

وكتب متولي عكا، من جهة السلطان صلاح الدين، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش، في العشر الأول من شعبان إلى السلطان: إنه لم يبق عندهم في المدينة، من الأقوات، إلا ما يبلغهم إلى ليلة النصف من شعبان، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، خوفا من إشاعة ذلك، فيبلغ العدو، فيقووا على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الأسطول، بالديار المصرية، أن يقدم بالميرة إلى عكا، فتأخر سيره، ثم وصلت ثلاث بطس، ليلة النصف، فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي صحبة الأمير الحاجب لؤلؤ، فلما أشرفت على البلد، نهض إليها أسطول الفرنج، ليحول بينها وبين البلد، ويتلف ما فيها، فاقتتلوا في البحر قتالا شديدا، والمسلمون في البر، يبتهلون إلى الله عز وجل في سلامتها، والفرنج تصرخ أيضا برا وبحرا، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلم مراكبهم، وطابت الريح للبطس، فسارت، فاحترقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، ففرح بها أهل البلد، والجيش فرحا شديدا و لله الحمد.

وكان السلطان قد جهز قبل هذه البطس الثلاث بطسة كبيرة، من بيروت، فيها أربعمائة غرارة، وفيها من الجبن، والشحم، والقديد،

والنشاب، والنفط شيء كثير، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من البحارة، أن يلبسوا زي الفرنج، حتى إنهم حلقوا لحاهم، وشدوا الزنانير، واستصحبوا في البطسة معهم شيئا من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم، إذا خرج من كبد القوس، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء، من ناحية البلد، فاعتذروا بأنهم مغلوبون عنها، والريح قوية ولا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا، وما زالوا كذلك، حتى ولجوا الميناء، فأفرغوا ما كان معهم من الميرة، والحرب خدعة، فعبرت الميناء، وعين الكفر عبرى فامتلأ الثغر بها خيرا، فكفتهم إلى أن قدمت عليهم تلك البطس الثلاث المصرية، وكانت البلد يكتنفها برجان، يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذت الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه محركات، إذا أرادوا أن يضعوه على شيء من الأسوار، والأبرجة، قلبوه فوصلوا، إلى ما أرادوا، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتالين، حتى أرسل اللّه عليها شواظا من نار، فأحرقها، وأغرقها، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطا كثيرا، وحطبا جزلا، وأخرى خلفها، فيها حطب محض، فلما أراد المسلمون المحافظة على الميناء، أرسلوا النفط على بطسة الحطب، فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين واحترقت الأخرى وكان في بطسة أخرى لهم مقاتلة تحت قبو، قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان، انعكس الأمر عليهم، بقدرة اللّه تعالى، وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم، فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الأخرى فغرقت، ووصل إلى بطسة المقاتلة فتلفت، وهلكت بمن فيها، فأشبهوا من سلف من أهل الكتاب من الكافرين، في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

فصل

وفي ثالث رمضان، اشتد حصار الفرنج للمدينة، حتى نزلوا إلى الخندق فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار، الأسوار، وسرى حريقه إلى السفور، وارتفعت له لهبة عظيمة، في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصّلوه عندهم، وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام، فكان فيه من الحديد مائة قنطار، بالدمشقي وللّه الحمد والمنة.

وكان مع السلطان في الثامن والعشرين من رمضان، الملك زين الدين، صاحب إربل فتوفي، في عكا، فتأسف الناس عليه، لشبابه، وغربته، وجودته، وعزى أخاه مظفر الدين فيه، وهو الذي قام في الملك من بعده، وسأل من صلاح الدين أن يضيف إليه شهرزور، ويترك حران،والرها، وسميساط، وغيرها، وتحمل مع ذلك خمسين ألف دينار نقدا، فأجيب إلى ذلك، وكتب له تقليدا، وعقد له لواء، وأضيف ما تركه إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين.

فصل

وكان القاضي الفاضل بمصر يدبر الممالك بها ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه منها من الأموال، وعَمَل الأسطول، والكتب السلطانية واردة إليه في كل حين، ويستشيره فيما يصلح به أنور المسلمين، وكذلك الكتب الفاضلة قادمة على السلطان في كل أوان، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل في الحصار إنما هو بسبب، كثرة الذنوب، وارتكاب المحرم بين الناس، ويقول في بعضها: فإن اللّه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية، وقد صعد إلى اللّه منها، ما لا يتوقع بعدها إلا ما يُستعاذ منه وفيه أنه قد بلغه أن بيت المقدس قد ظهر فيه المنكرات والفواحش والظلم في بلاده ما لا يمكن تلافيه إلا بكلفة كثيرة.

ومنها كتاب يقول فيه، إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا، لعجل اللّه لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا نفسه وعمله ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان، الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان الذي ينتظر أن يسير، فكل هذه مشاغل عن اللّه، ليس النصر بها، وإنما النصر من عند اللّه، ولا نأمن أن يكلنا اللّه إليها، والنصر به، واللطف منه والعادة الجملية، ونستغفر اللّه تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا، لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار اللّه لمولانا في القضاء السابق واللاحق.

ومن كتاب آخر، يتألم فيه لما عند السلطان من الضعف، في جسمه، بسبب ما حل على قلبه، مما هو فيه من الشدائد، أثابه اللّه تعالى يقول فيه: وما في نفس المملوك شائنة، إلا بقية هذا الضعف، الذي في جسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا، وأبصارنا.

بنا معشر الخدام ما بك من أذى وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي

وقد أورد الشيخ شهاب الدين، في الروضتين [١٦٧/٢] في هذا المكان كتبا عدة من الفاضل إلى السلطان، فيها فصاحة، وبلاغة، ومواعظ، وتحضيض على الجهاد، يعجز عن مثلها شجعان، وهي جديرة أن تكتب على بماء الذهب على قلائد العقيان فرحمه اللّه من إنسان، ما أفصحه، ومن وزير، ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه.

فصل

وكتب القاضي الفاضل كتابا بليغاً عن السلطان إلى ملك المغرب أمير المسلمين وسلطان جيش الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، يستنجده، فمنه إرسال مراكب في البحر، تكون عونا للمسلمين على المراكب الفرنجية فمنه عبارة طويلة، فصيحة، بليغة، مليحة، حكاها أبو شامة بطولها. وحسنها وبعث السلطان صلاح الدين، مع الكتاب، سنية من التحف، والألطاف، صحبة الأمير الكبير شمس الدين أبي الحزم عبد الرحمن بن منقذ، وسار في البحر في ثامن ذي القعدة، فدخل على سلطان المغرب يعقوب، في العشرين من ذي الحجة، فأقام عنده إلى عاشوراء من المحرم، من سنة ثمان وثمانين، ولم يفد ذلك الإرسال شيئا، لأنه تغضب، إذ لم يلقب بأمير المؤمنين، وكانت إشارة الفاضل إلى عدم الإرسال إليه والتعويل عليه، ولكن وقع ما وقع، بمشيئة اللّه تعالى.

فصل

وفيها حصل للناصر صلاح الدين، سوء مزاج، من كثرة ما يكابده من الأمور، التي هي أمرُ من الأجاج فطمع العدو المخذول لعنهم اللّه، في

حوزة الإسلام، فتجرد جماعة منهم للقتال، وثبت آخرون على الحصار، فأقبلوا في عدد كثير، وعدد، فرتب السلطان الجيوش، يمنة، ويسرة، وقلبا، وجناحين، فلما رأى العدو الجيش الكثيف، فروا، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وجما غفيرا و لله الحمد.

فصل

ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الفرنج عن البلد، خوفا من الهلاك، بسبب اغتلام البحر، سأل من بالبلد من المسلمين من السلطان أن يريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم، والقتال ليلا ونهارا، وأن يرسل إلى البلد بدلهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريبا من عشرين ألف مسلم ما بين أمير، ومأمور، فجهز جيشا آخر غيرهم، قالوا ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ما قصد السلطان إلا خيرا، وأن هؤلاء يدخلون البلد وهم جُدُد الهِمَم، ولهم عزم قوي، وهم في راحة بالنسبة إلى ما أولئك، ولكن أولئك الذين كانوا بالبلد، وخرجوا منه، كانت لهم خبرة بالبلد، وبالقتال، وكان لهم صبر، وجلد، وقد تمونوا فيها مؤنة تكفيهم سنة فانمحقت بسبب ذلك وقدم بطش من مصر فيه ميرة تكفي أهل البلد سنة كاملة فقدر اللّه العظيم وله الأمر من قبل ومن بعد أنها لما توسطت البحر، واقتربت من الميناء، هاجت عليها ريح عظيمة، فتلعّبت بتلك البطس على عظمها فاختبطت، واضطربت، وتصادمت، فتكسرت، وغرقت، وغرق ما كان فيها من الميرة والبحارة، فدخل بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد الأمر جدا، ومرض السلطان، وازداد مرضا إلى مرضه عافاه اللّه وكان ذلك عونا للعدو المخذول على أخذ البلد ولا قوة إلا باللّه، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الأمير سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب أيده اللّه.

وفي اليوم السابع من ذي الحجة سقطت ثلمة عظيمة من سور عكا فبادر الفرنج إليها، فسبقهم المسلمون إلى سدها بصدورهم، وقاتلوا دونها بنحورهم، وما زالوا يمانعون عنها، حتى بنوها أشد مما كانت، وأقوى، وأحسن.

ووقع في هذه السنة، وباء عظيم في المسلمين، والكافرين، فكان السلطان يقول في ذلك.

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

واتفق موت ابن ملك الألمان لعنه اللّه في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، وجماعة من كبراء الكندهرية، وسادات الفرنج لعنهم اللّه، فحزن الفرنج على ابن ملك الألمان، حزناً عظيماً وأوقدوا نارا عظيمة، في كل خيمة، وصار كل يوم، يهلك من الفرنج المائة، والمائتان، واستأمن إلى السلطان جماعة منهم، من شدة ما هم فيه من الجوع، والضيق، والحصر، وأسلم خلق كثير منهم فلله الحمد والمنة.

في هذا الشهر قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه، فأفضى كل منهما إلى صاحبه ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين. وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق والأمير المؤيد رحمهما اللّه تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ملك الألمان**: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ويقال في ثلاثمائة ألف مقاتل من أقصى بلاده فاجتاز بالقسطنطينية وما بعدها من البلدان يريد انتزاع بلاد الشام فهلكوا في الطرقات، فلم يصل إلى الفرنج إلا في خمسة آلاف، وقيل في ألفي مقاتل، وكان قد عزم على دمار الإسلام، واستنقاذ البلاد بكمالها، من أيدي المسلمين، انتصارا في زعمه لبيت المقدس الذي استنقذه الملك صلاح الدين من أيدي المشركين فلم يزل اللعين يتناقص جيشه ويتفانون في كل موطن وموضع وقدر اللّه هلاكه بالغرق، كما أهلك فرعون، لعنها اللّه تعالى، وذلك أنه نزل يسبح في بعض الأنهار فاحتمله الماء قعراً فألجاه إلى جذع شجرة هناك فشدخت رأسه ومات من ساعته، لعنه اللّه، ثم ملك بعده ولده الأصغر، فأقبل بمن بقي معه من الجيش إلى الفرنج، وهم في حصار عكا، في خمسة آلاف مقاتل، وقيل: في ألف مقاتل. وكان المسلمون قد حملوا من قدومهم همّاً عظيماً وخافوا خوفاً شديداً، فكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قوياً عزيزاً، ثم توفي ابنه في أواخر هذه السنة، فلله الحمد والمنة.

■ **محمد بن محمد بن عبد اللّه**: أبو حامد قاضي القضاة بالموصل، محيي الدين بن قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري الشافعي، أثنى عليه العماد الكاتب، وأنشد له من شعره قوله:

قامت بإثبات الصفات أدلة قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا بأدلة الأخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد ألقاه فرط الجهل في التضليل

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

فيها قدم ملك الإفرنسيس، وملك انكلترا، وغيرهما من ملوك البحر الفرنج، على أصحابهم الفرنج إلى عكا، وتمالؤوا على أخذ عكا في هذه السنة، كما سيأتي تفصيله.

وقد استهلت هذه السنة والحصار الشديد على عكا على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول العدو إلى البلد، والملك العادل مخيم إلى جانب البحر، ليتكامل دخولهم، ودخول ميرتهم.

وفي ليلة مستهل ربيع الأول منها خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الفرنج فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وسبوا، وغنموا شيئا كثيرا، سبوا اثنتي عشرة امرأة، وانكسر مركب عظيم للفرنج، فغرق ما فيه منهم، وأسر باقيهم.

وأغار صاحب حمص أسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه على سرح الفرنج بأراضي طرابلس فاستاق منهم شيئا كثيرا من الخيول، والأبقار، والأغنام، وظفر اليزك بخلق كثير من الفرنج فقتلوهم، ولم يقتل من المسلمين سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

وفي ثاني عشر ربيع الأول، وصل إلى الفرنج ملك الفرنسيين فليب في ست بطس ملعونة، مشحونة بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم، وقدم عليهم، لم يبق لأحد من ملوكهم معه كلام ولا حكم، لعظمته عندهم، وقدم معه باز عظيم أبيض، وهو الباز الأشهب، هائل، فطار من يده، فوقع على سور عكا فأمسكه أهلها، وبعثوا به إلى السلطان صلاح الدين، فبذل الفرنجي فيه ألف دينار، فلم يُجاب إلى ذلك، وقدم بعده كند فرير، وهو من أكابر ملوكهم أيضا، ووصلت سفن ملك الإنكليز، ولم يجئ ملكهم،

لاشتغاله بجزيرة قبرص، وأخذها من يد صاحبها.

وتواصلت ملوك الإسلام أيضا من بلدانها، في أول فصل الربيع، إلى خدمة السلطان الناصر.

قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص، يدخلون إلى خيام الفرنج، فيسرقون، حتى أنهم كانوا يسرقون الرجال، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر فوجدت عليه أمه وجدا شديدا، واشتكت إلى ملوكهم، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنّا لك أن تذهبي إليه، فتشكي أمرك إليه. قال العماد: فجاءت إلى السلطان، وأنا واقف معه فبكت بكاءً شديداً وجعلت تمرّغ وجهها على الأرض، فسألها عن أمرها فانهت إليه حالها فرق لها رقة شديدة، حتى دمعت عينه. ثم أمر بإحضار ولدها،فإذا هو قد بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام، فأخذته أمه، وأرضعته ساعة، وهي تبكي من شدة فرحها، وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى قومها، على فرس مكرمة، رحمه اللّه تعالى، وعفا عنه.

فصل في كيفية أخذ العدو المخذول مدينة عكا من يدي السلطان قسراً

لما كان شهر جمادى الأولى، اشتد حصار الفرنج، لعنهم اللّه، لمدينة عكا، وتمالؤوا عليها، من كل فج عميق، وقدم عليهم ملك الإنكليز، في جم غفير، وجمع كثير، في خمس وعشرين قطعة، مشحونة بالمقاتلة، وابتلي أهل الثغر منهم، ببلاء لا يشبه ما قبله، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة ما بينهم وبين السلطان، فحرك السلطان كوساته، فاقترب من البلد وتحول إلى قريب منه ليشغلهم عن البلد وقد أحاطوا به من كل جانب، ونصبوا عليه سبعة مجانيق وهي تضرب في البلد ليلا ونهارا، ولا سيما على برج عين البقر، حتى أثرت به أثرا بينا، وشرعوا في ردم الخندق، بما أمكنهم من دواب ميتة، ومن قتل منهم، ومن مات أيضا ردموا به، وكان أهل البلد يلقون ما القوه فيه إلى البحر. وظفر ملك الإنكليز ببطسة عظيمة للمسلمين، قد أقبلت من بيروت، مشحونة بالأمتعة، والأسلحة، فأخذها، وكان واقفا في البحر، في أربعين مركبا، لا يترك شيئا يصل إلى البلد بالكلية، وكان بالبطسة ستمائة من المقاتلين الصناديد الأبطال، فهلكوا عن آخرهم، رحمهم اللّه. فإنه لما أحيط بهم، من الجوانب كلها وتحققوا إما الغرق، أو القتل، خرقوا جوانبها كلها، فغرقت، ولم يقدر الفرنج على أخذ شيء منها، لا من الميرة، ولا من الأسلحة، وحزن المسلمون على هذا المصاب، حزنا عظيما، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

ولكن جبر اللّه سبحانه هذا البلاء، بأن أحرق المسلمون في هذا اليوم للفرنج دبابة كانت أربع طبقات، الأولى من الخشب، والثانية من رصاص، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، وهي مشرفة على السور، والمقاتلة فيها، وقد قلق أهل البلد منها، بحيث حدثتهم أنفسهم، من خوفهم من شرها، بأن يطلبوا الأمان من الفرنج، ويسلموا البلد، ففرج اللّه عن المسلمين، وأمكنهم من حريقها، اتفق لهم ذلك في هذا اليوم، الذي غرقت فيه البطسة المذكورة، فأرسل أهل البلد يشكون إلى السلطان شدة الحصار، وقوته عليهم منذ قام ملك الإنكليز لعنه اللّه ومع هذا قد مرض هو وجرح ملك الافرنسيين أيضا، ولا يزيدهم ذلك إلا شدة وغلظة، وعتوا وبغيا، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلدة صور خوفا منهم أن يخرجوا ملكها من يده.

وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين، يذكر له أن عنده جوارح، قد جاء بها من البحر، وهو على نية إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت، وهو يطلب لها دجاجا وطيرا لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه، يتلطف، فأرسل إليه شيئا كثيرا من ذلك كرما وسجيّة وحشمة، ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجا، فأرسل إليه أيضا، فلم يفد معه الإحسان، بل لما عوفي، عاد إلى شر مما كان، واشتد الحصار ليلا ونهارا، فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما أن تعملوا معنا شيئا غدا، وإلا طلبنا من الفرنج الصلح، والأمان، فشق ذلك على السلطان، وذلك لأنه كان قد بعث إليها أسلحة الشام، والديار المصرية، وسائر السواحل، وما كان غنمه من وقعة حطين، ومن القدس فهي مشحونة بذلك فعند ذلك عزم السلطان على الهجوم على العدو، فلما أصبح، ركب في جيشه، فرأى الفرنج قد ركبوا من وراء خندقهم، والرجالة منهم قد ضربوا سورا حول الفرسان، وهم قطعة من حديد صماء، لا ينفذ فيهم شيء فأحجم عنهم، لما يعلم من نكول جيشه عما يريده وتحدوه عليه شجاعته رحمه اللّه تعالى.

هذا، وقد اشتد الحصار على البلد جدًّا، ودخلت الرجالة منهم إلى الخندق، وعلقوا بدنة في السور، وحشوها، وأحرقوها، ودخلت الفرنج إلى البلد، فمانعهم المسلمون، وقاتلوهم أشد القتال، وقتلوا من رؤوسهم ستة أنفس، فاشتد حنق الفرنج على المسلمين جدا بسبب ذلك.

وجاء الليل، فحال بين الفريقين، فلما أصبح الصباح، خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيين، وطلب منهم الأمان على أنفسهم، ويتسلمون منه البلد، فلم يجبهم إلى ذلك، وقال: بعدما سقط السور جئت تطلب الأمان؟ فأغلظ له الأمير المشطوب في الكلام، ورجع إلى البلد في حالة اللّه بها عليم، فلما أخبر أهل البلد بما وقع، خافوا خوفا شديدا، وأرسلوا إلى السلطان، يعلمونه بما وقع، فأرسل إليهم أن يسرعوا الخروج من البلد في البحر، ولا يتأخروا عن هذه الليلة، ولا يبقى بها مسلم، فتشاغل كثير ممن كان بها في جمع الأمتعة، والأسلحة، وتأخروا عن الخروج تلك الليلة، فما أصبح الخبر إلا عند الفرنج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسم به السلطان، فهربا إلى قومهما، فأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحر احتفاظا عظيما، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركة، ولا خرج منها شيء بالكلية، وهذان المملوكان، كانا أسيرين، قد أسرهما السلطان، من أولاد الفرنج، وعزم السلطان على كبس العدو في هذه الليلة، فلم يوافقه الجيش على ذلك، وقالوا لا نخاطر بعسكر المسلمين، فلما أصبح بعث إلى ملوك الفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد، على أن يطلق عدتهم من الأسرى، الذين تحت يده من الفرنج، ويزيدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبوا إلا أن يطلق لهم كل أسير تحت يده، ويعيد لهم جميع البلاد الساحلية، التي أخذت منهم، وبيت المقدس، فأبى من ذلك، وترددت المراسلات في ذلك، والحصار يتزايد على أسوار البلد. وقد تهدمت منه ثلم كثيرة، وأعاد المسلمون كثيرا منها، وسدوا ثغر تلك الأماكن بنحورهم، رحمهم اللّه، وصبروا صبرا عظيما، وصابروا العدو، ثم كان آخر أمرهم الشهادة صبراً، وقد كتبوا إلى السلطان، في آخر امرهم، يقولون له: يا مولانا لا تخضع لهؤلاء الملاعين، الذين قد ابوا عليك الإجابة، إلى ما علوتهم فينا، فإنا قد بايعنا اللّه على الجهاد، حتى نقتل عن آخرنا، وباللّه المستعان.

فلما كان وقت الظهر، في اليوم السابع عشر، من جمادى الآخرة، من

هذه السنة، ما شعر الناس إلا وأعلام الكفار قد ارتفعت، وصلبانهم، ونارهم على أسوار البلد، وصاح الفرنج صيحة واحدة، فعظمت عند ذلك المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنا لله وإنا إليه راجعون، وغشي الناس بهتة عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في عسكر السلطان الصياح والعويل، ودخل المركيس لعنه الله، وقد عاد إليهم من صور بهدايا، بهدايا إلى الملوك، فدخل في هذا اليوم عكا، بأربعة أعلام للملوك، فنصبها في البلد، واحدا على المأذنة يوم الجمعة، وآخر على القلعة، وآخر على برج الداوية، وآخر على برج القتال، عوضا عن أعلام السلطان، وتحيز المسلمون الذين بها، إلى ناحية من البلد معتقلين، محتاط بهم، مضيق عليهم، وقد أسرت النساء، والأبناء، وغنمت منهم أموال، وقيدت الأبطال، وأهين الرجال، ولكن الحرب سجال، والحمد لله على كل حال.

فعند ذلك أمر السلطان أيده الله الجيش بالتأخر عن هذه المنزلة المضايقة إلى التي بعدها وتأخر هو جريدة، لينظر ماذا يصنعون، وما عليه يعولون، والفرنج بالاستيلاء على البلد مشغولون وبتحصيل الأموال جملة وتفصيلاً، مدهوشون، ثم سار السلطان إلى العسكر، وعنده من الهم ما لا يعلمه إلا الله، وجاءت الملوك الإسلامية، والأمراء، وكبراء الدولة، يعزونه فيما وقع، ويسلونه على ذلك، ثم راسل ملوك الفرنج في خلاص من بأيديهم من الأسارى فطلبوا منه عدتهم من أسراهم، ومائة ألف دينار، وصليب الصلبوت إن كان باقيا، فأرسل فأحضر المال والصليب، ولم يتهيأ له من الأسارى إلا ستمائة أسير، فطلب الفرنج منه أن يريهم الصليب من بعيد، فلما رفع لهم سجدوا له، وألقوا أنفسهم إلى الأرض، وبعثوا يطلبون منه ما أحضره من المال، والأسارى، والصليب فامتنع، إلا أن يرسلوا إليه مَنْ بأيديهم من الأسارى، أو يبعثوا له برهائن على ذلك، فقالوا: لا، ولكن أرسل لنا ذلك، وارض بأمانتنا، فعرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلم يرسل إليهم شيئا من ذلك، وأمر برد الأسارى إلى أهليهم بدمشق، وورد الصليب إلى دمشق مهانا، وأبرزت الفرنج خيامهم، إلى ظاهر البلد، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيد واحد، رحمهم الله، فأوقفوهم بعد العصر، وحملوا عليهم حملة رجل واحد فقتلوهم رحمهم الله، وأكرم مثواهم، ولم يستبقوا بأيديهم من المسلمين إلا أميرا، أو سريًّا، أو من يرونه في عملهم قويا، أو امرأة أوصبيًّا. وجرى الذي كان، وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وكان مدة إقامة صلاح الدين على عكا، صابرا، مصابرا، مرابطا، سبعة وثلاثين شهرا، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفا.

فصل فيما جري من الحوادث بعد أخذ الفرنج عكا:

ساروا برمتهم قاصدين عسقلان، والسلطان بجيشه يسايرهم، ويعارضهم منزلة منزلة، والمسلمون يتخطفونهم، ويسلبونهم في كل مكان، وكل أسير أتي به إلى السلطان، يأمر بقتله في مكانه، وجرت بين الجيشين، وقعات متعددات، ثم طلب ملك الإنكليز أن يجتمع بالملك العادل، اخي السلطان، يطلب منه الصلح والأمان، على أن يعاد لأهلها بلاد السواحل، فقال له العادل: إن دون ذلك قتل كل فارس منكم وراجل. فغضب اللعين، ونهض من عنده وهو متغضب، ثم اجتمعت الفرنج على حرب السلطان، عند غابة أرسوف، فكانت النصرة للمسلمين، فقتل من الفرنج عند غابة أرسوف، ألوف بعد ألوف، وقتل من المسلمين خلق كثير أيضا، وقد كان الجيش فر عن السلطان، في أول الوقعة، ولم يبق معه سوى سبعة عشر مقاتلا، وهو ثابت صابر، والكوس تدق لا تفتر، والأعلام منشورة، ثم تراجع الناس، فكانت النصرة للمسلمين، والكثرة على الكافرين والحمد لله رب العالمين.

ثم تقدم السلطان بعساكره، فنزل ظاهر عسقلان، فأشار ذوو الرأي على السلطان بتخريب عسقلان، خشية أن يتملكها الكفار، ويجعلونها وسيلة إلى أخذ بيت المقدس، صانه الله تعالى، أو يجري عندها من الحرب والقتال، نظير ما كان عند عكا، أو أشد، فبات السلطان ليلته مفكرا في ذلك، فلما أصبح، وقد أوقع الله في قلبه، أن خرابها هو المصلحة، فذكر ذلك لمن حضره، وقال لهم: والله، لموت جميع أولادي، أهون عليَّ من تخريب حجر واحد منها، ولكن إذا كان خرابها فيه مصلحة للمسلمين، فلا بأس به.

ثم طلب الولاة، وأمرهم بتخريب البلد، سريعا، قبل وصول العدو المخذول إليها، فشرع الناس في خرابه، وأهله ومن حضره يتباكون على حسنه، وطيب مقيله، وكثرة زروعه وثماره، وغزارة أنهاره ونضارة، وأزهاره، وكثرة رخامه وحسن بنائه. وألقيت النيران في سقوفه، وأتلف ما فيه من الغلات، التي لا يمكن تحويلها، ولا نقلها، ولم يزل الخراب، والحريق فيه، من جمادى الآخرة، إلى سلخ شعبان من هذه السنة.

ثم رحل عنها السلطان في ثاني رمضان، وقد تركها قاعا صفصفا ليس فيها معلَم لأحد، ثم اجتاز بالرملة، فهدم حصنها، وخرب كنيسة لد، وزار بيت المقدس، وعاد إلى المخيم سريعا، تقبّل الله منه وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان، يقول له: إن الأمر قد طال، وهلك الفرنج والمسلمون، وإنما مقصودنا ثلاثة أشياء لا سواها: رد الصليب، وبلاد الساحل، وبيت المقدس، لا ترجع عن هذه الثلاثة، وبنا عين تطرف، فأرسل إليه السلطان جواب ذلك أشد جواب، وأسوأ خطاب، فعزمت الفرنج على قصد بيت المقدس، فتقدم السلطان بجيشه إلى القدس، وسكن في دار القساقس، قريبا من قمامة، في ذي القعدة، وشرع في تحصين البلد، وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه، وأولاده، وعمل فيه الأمراء، والقضاة، والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الفرنج، ويقتلون، ويأسرون، ويغنمون منهم، ولله الحمد والمنة، وانقضت هذه السنة. والأمر على ذلك.

وفي هذه السنة فيما ذكره العماد الكاتب تولى القضاء محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق.

وفيها عدى أمير مكة، داود بن عيسى بن فليتة بن هاشم بن محمد بن أبي قاسم الحسني، فأخذ أموال الكعبة، حتى انتزع طوقا من فضة، كان على دائرة الحجر الأسود، كان قد لم شعثه، حين ضربه ذلك القرمطي بالدبوس، فلما بلغ السلطان خبره من الحجيج عزله، وولى أخاه مُكثراً، ونقض القلعة، التي كان بناها أخوه على جبل أبي قبيس، وأقام داود بنخلة حتى توفي بها سنة تسع وثمانين.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ المظفر: تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، كان عزيزا عند عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين، استنابه بمصر، وغيرها من البلاد، ثم

أقطعه حماة، ومدنا كثيرة حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه السلطان على عكا ثم استأذنه أن يذهب ليشرف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها، اشتغل بها، وامتدت عينه إلى أخذ غيرها، من أيدي الملوك المجاورين له، فقاتلهم، فاتفق موته، وهو في كذلك، والسلطان صلاح الدين متغضب عليه، بسبب اشتغاله بذلك عنه، وحملت جنازته، حتى دفن بحماة، وله مدرسة هناك هائلة كبيرة، وكذلك له بدمشق مدرسة مشهورة، وعليها أوقاف كثيرة مبرورة، وقد أقام بالملك بعده ولده المنصور ناصر الدين محمد، فأقره صلاح الدين على ذلك، بعد جهد جهيد، ووعد ووعيد، ولولا السلطان الملك العادل أخو صلاح الدين، تشفع فيه، لما أقره في مكان أبيه، ولكن الله سلم، وكانت وفاة تقي الدين الجمعة، تاسع عشر رمضان، من هذه السنة، وكان شجاعا باسلا وهُماماً فاتكا كريما كاملا رحمه الله.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر

■ ابن لاجين: أمه ست الشام بنت أيوب، واقفة الشاميتين بدمشق، توفي في ليلة الجمعة، تاسع عشر رمضان أيضا، ففجع السلطان بابن أخيه، وابن أخته، في ليلة واحدة، وقد كانا له من أكبر الأعوان، وأعز الإخوان ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها أمه، بمحلة العونية، وهي الشامية البرانية.

الأمير علم الدين

■ سليمان بن جندر الحلبي: كان من أكابر الأمراء في الدولة الصلاحية، وفي خدمة السلطان حيث كان، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان، واتفق مرضه بالقدس، فاستأذن في أن يمرض بدمشق، فأذن له، فسار حتى وصل إلى غباغب فمات بها، في أواخر ذي الحجة.

وفي رجب منها، توفي الأمير الكبير نائب دمشق حرسها الله تعالى:

■ الصفي بن القابض: وقد كان من أكبر أصحاب السلطان قبل الملك، ثم استنابه على دمشق، حتى توفي بها، في هذه السنة رحمه الله.

وفي ربيع الأول توفي:

الطبيب الماهر الحاذق

■ أسعد بن المطران: وقد شرف بالإسلام، وشكره على طبه الخاص والعام رحمه الله.

الشيخ نجم الدين

■ الخُبُوشاني: الذي بنى تربة الشافعي بمصر، بأمر السلطان صلاح الدين، ووقف عليها الأوقاف السنية، وولاه تدريسها، ونظرها، وقد كان السلطان يحترمه، ويكرمه، وقد ذكرته في طبقات الشافعية، وما صنفه في المذهب، من شرح الوسيط، وغيره.

ولما توفي الخبوشاني، طلب التدريس جماعة، فشفع الملك العادل عند أخيه، لشيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن حمويه، فولاه إياها، ثم عزله عنها، بعد موت السلطان، واستمرت عليها أيدي بني السلطان، واحدا بعد واحد، ثم خلعت بعد ذلك عادت إليها الفقهاء، والمدرسون والله تعالى أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

استهلت والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس الشريف، وقد قسم السور بين أولاده، وأمرائه، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بين القربوسين وبينه، والناس يقتدون به وبالعلماء، والفقراء يعملون بأنفسهم، والفرنج لعنهم الله حول البلد، من ناحية عسقلان، وما والاها، لا يتجاسرون أن يقربوا البلد، من الحرس واليزك الذين للسلطان حول القدس، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الإسلام مجمعون، وهم الحرس تارة يغلبون، وتارة يغلبون، وتارة ينهبون، وتارة ينهبون.

وفي ربيع الآخر، وصل إلى السلطان، الأمير سيف الدين المشطوب إلى السلطان وهو بالقدس من الأسر، وكان نائبا على عكا حين أخذت، فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار، فأعطاه السلطان شيئا كثيرا منها، واستنابه على مدينة نابلس فتوفي بها في شوال من هذه السنة.

وفي ربيع الآخر، قتل المركيس صاحب صور، لعنه الله، أرسل إليه ملك الإنكليز، اثنين من الفداوية، فقتلوه: أظهرا التنصر، ولزما الكنيسة، حتى ظفرا بالمركيس، فقتلاه، وقتلا أيضا، فاستتاب ملك الإنكليز عليها ابن أخته لأمه الكندهري، وهو ابن أخت ملك الإفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما صار إلى صور، بنى بزوجة المركيس، بعد موته بليلة واحدة، وهي حبلى أيضا، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين الإنكليز، وبينه، وقد كان السلطان صلاح الدين يبغضهما، ولكن المركيس، كان قد صانعه بعض شيء، فلم يهن عليه قتله.

وفي تاسع جمادى الأولى، استولى الفرنج، لعنهم الله، على قلعة الداروم، فخربوها، وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها، وأسروا طائفة من الذرية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أقبلوا بخيلهم ورجلهم جملة، نحو القدس الشريف، فبرز إليهم السلطان، في حزب الإيمان وهو مشتمل على الرجالة والفرسان والأبطال والشجعان، فلما تراءى الجمعان، نكص حزب الشيطان على عقبيه وانقلبوا راجعين، فرارا من قبل القتال، والنزال، وعاد السلطان إلى القدس الشريف. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ثم إن ملك الإنكليز، لعنه الله وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين ظفر ببعض قفول المسلمين، فكبسهم ليلا، فقتل منهم خلقا كثيرا، وأسر منهم خمسمائة أسير، وغنم منهم شيئا كثيرا من الأموال، والجمال، والخيل، والبغال، فكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جدا، وخاف من غائلة ذلك، واستخدم الإنكليز الجمالة على الجمال، والخربندية على البغال، والساسة على الخيل، وأقبل وقد قويت نفسه جدا، وصمم على محاصرة القدس، وأرسل إلى ملوك الفرنج، الذين بالساحل، فاستحضرهم، ومن معهم من المقاتلة، فتعبأ السلطان لهم، وتهيأ، وأكمل السور، وعمر الخنادق، ونصب الآلات والمنجانيق، وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه، وأحضر السلطان أمراءه ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة: وفيهم أبو الهيجاء السمين، والمشطوب، والأسدية بكمالهم، واستشارهم، فيما قد دهمه، من هذا الأمر الفظيع، الموجع المؤلم، فأفاضوا في ذلك، وأشاروا كل برأيه، وأشار العماد الكاتب، بأن يتحالفوا على الموت، عند الصخرة، كما كانت الصحابة يفعلون، فأجابوا إلى ذلك. هذا كله، والسلطان ساكت، واجم، مفكر، فسكت القوم كأنما على رؤوسهم الطير، ثم قال: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم، ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين، وأموالهم، وذراريهم معلقة في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه، عن العباد، والبلاد غيركم، فإن وليتم

أعتّكم والعياذ بالله، طوى البلاد، كطيِّ السِّجل للكتاب وأهلك العباد، وأخذ الأموال، والأطفال، والنساء، وعبد الصليب في المساجد، وعزل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين، لتدفعوا عنهم عدوهم، وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك، وعبيدك، وأنت الذي أعطيتنا، وكبرتنا، وعظمتنا وليس لنا إلا رقابنا، ونحن بين يديك والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت. فقال الجماعة مثل ما قال، ففرح السلطان بذلك، وطاب قلبه، ومد لهم سماطا حافلا، وانصرفوا من بين يديه على ذلك.

ثم بلغه بعد ذلك، أن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف، أن يجري علينا في هذا البلد، كما جرى على أهل عكا، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدا بلدا، والمصلحة، أن نلتقيهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم، أخذنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى، سلم العسكر، ومضى بحاله، ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام، بدون القدس مدة طويلة، وبعثوا إلى السلطان، يقولون له: إن كنت تريدنا، نقيم بالقدس، تحت حصار الفرنج، فكن أنت معنا، أو بعض أهلك، حتى يكون الجيش تحت أمرك، فإن الأكراد لا تطيع الترك، والترك لا تطيع الأكراد. فلما بلغه ذلك، شق عليه مشقة عظيمة، وبات ليلته أجمع، مهموما، كئيبا، يفكر فيما قالوا، ثم انجلى الأمر، واتفق الحال، على أن يكون الملك الأمجد، صاحب بعلبك، مقيما عندهم، نائبا عنه بالقدس، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضر إلى صلاة الجمعة، وأذن المؤذن للظهر، قام فصلى ركعتين بين الأذانين، وسجد، وابتهل إلى الله تعالى، ابتهالا عظيما، وتضرع إلى ربه، وتمسكن، وسأله فيما بينه وبينه، كشف هذه الضائقة العظيمة.

فلما كان يوم السبت، من الغد، جاءت الكتب من الحرس، الذين حول البلد، بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الإفرنسيس: إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة، وأنفقنا الأموال العديدة، في تخليص بيت المقدس، ورده إلينا، وقد بقي بيننا وبينهم مرحلة. فقال الإنكليز: إن هذا البلد، يشقّ علينا حصاره، لأن المياه حوله قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء، من المشقة البعيدة، يعطل الحصار، ويتلف الجيش. ثم اتفق الحال بينهم، على أن حكموا منهم عليهم ثلاثمائة منهم، فردوا أمرهم إلى اثني عشر منهم، فردا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فباتوا ليلتهم ينظرون، ثم أصبحوا، وقد حكموا عليهم بالرحيل، فلم يمكنهم مخالفتهم، فسحبوا راجعين، لعنهم الله أجمعين.

فساروا حتى نزلوا على الرملة، وقد طالت عليهم الغربة والرملة وذلك في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسار نحوهم خوفا أن يسيروا إلى مصر لكثرة ما معهم من الظهر، والأموال، وكان الإنكليز يلهج بذلك كثيرا، فخذلهم الله عن ذلك، وترددت الرسل من الإنكليز إلى السلطان، في طلب الأمان، ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين، وعلى أن يعيد لهم عسقلان، ويهب لهم كنيسة بيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن النصارى من زيارتها، وحجها بلا شيء، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، وفرض على الزوار مالا يؤخذ من كل منهم فامتنع الإنكليز إلا أن تعاد لهم عسقلان، ويعمر سورها كما كانت، فصمم السلطان على عدم الإجابة...

ثم ركب السلطان، حتى وافى يافا فحاصرها حصارا شديدا، فافتتحها، وغنم جيشه منها شيئاً كثيراً وامتنعت القلعة، فبالغ في أمرها حتى هانت ولانت ودانت وكادوا أن يبعثوا إليه بأقاليدها، ويأخذوا الأمان لكبيرها وصغيرها، فبينما هم كذلك، إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكليز، على وجه البحر، فقويت رؤوسهم، واستعصت نفوسهم، فهجم اللعين، فاستعاد البلد، وقتل من تأخر بها من المسلمين صبرا بين يديه، وتقهقر السلطان عن منزلة الحصار، إلى ما وراءها، خوفا على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الإنكليز يتعجب من شدة سطوة السلطان، وكيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين، ولكن ما ظننت، أنه مع شهامته، وصرامته، يتأخر من منزلته، بمجرد قدومي، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر، إلا جرائد، بلا سلاح، ثم ألح في طلب الصلح، على أن تكون عسقلان داخلة في صلحهم، فامتنع السلطان أشد الامتناع، ثم إن السلطان كبس في تلك الليالي الإنكليز وهو في سبعة عشر مقاتلا، وحوله قليل من الرجالة، فأكب بجيشه حوله، وحصره حصرا لم يبق له معه نجاة، لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا كلهم عن الحملة، فلا قوة إلا بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض، فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض من شرب الدواء.

هذا وملك الإنكليز قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله، وأهبة نزاله، واستعرض الميمنة إلى آخر الميسرة، يعني ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتقدم إليه أحد من الفرسان، ولا بهش في وجهه بطل من الشجعان فعند ذلك كر السلطان راجعا، وقد أحزنه أنه لم ير من الجيش مطيعا، ولا سامعاً فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولو أن له بهم قوة، لما ترك أحداً منهم يتناول من بيت المال فلسا.

ثم حصل للملك الإنكليز بعد ذلك مرض شديد، فبعث إلى السلطان، يطلب فاكهة، وثلجا، فأمده بذلك، من باب الفتوة والإحسان وإظهار القوة والامتنان، ثم عوفي لعنه الله، وتكررت الرسل منه، يطلب من السلطان المصالحة، لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده، وطاوع السلطان على ما يقول، وترك طلب عسقلان، ورضي بما رسم به السلطان، وكتب كتاب الصلح بينهما في ثامن عشر شعبان، وأكدت العهود، والمواثيق من كل ملك من ملوكهم، وأسقف وجاثليق وحلف الأمراء من المسلمين، وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد، كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحا شديدا، وأظهروا سرورا كثيرا، ووقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاث سنين وثمانية أشهر، وعلى أن يقرهم على ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة، وأرسل السلطان مائة نقاب صحبة أمير، لتخريب سور عسقلان، وإخراج من بها من الفرنج والألمان.

وعاد السلطان إلى القدس الشريف، فرتب أحواله، ووطدها، وسدد أموره، وأكدها، وزاد وقف المدرسة سوقا بدكاكينها، وأرضا ببساتينها، وزاد وقف الصوفية، وعزم على الحج عامه ذلك، فكتب إلى الحجاز، واليمن، ومصر، والشام، ليعلموا بذلك، ويتأهبوا له، فكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفا على البلاد ويذكر له أن النظر في أحوال المسلمين، وإصلاح أمرهم الذي قد تداعى إلى الفساد وسدّ ثغورهم ومصابرة أعدائهم في هذا الوقت أفضل لك مما عزمت عليه عامك هذا، والعدو المخذول مخيم بعدُ بالشام لم يقلع منه بركب إلى بلادهم خير لك عامك هذا، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون، ليتقووا، ويكثروا، ثم يمكروا، ويغدروا، فسمع السلطان منه، وشكر نصحه، وترك ما عزم عليه، وكتب به

إلى سائر الممالك، واستمر مقيما بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة، وقرآن، وكلما وفد أحد من رؤساء الفرنج للزيارة، فعل معه غاية الأكرام، تأليفا لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القمامة متنكرا، ويحضر سماط السلطان، فيمن حضر من جمهورهم، بحيث لا يرى والسلطان يعلم ذلك جملة لا تفصيلا، ولهذا كان يعاملهم بالإكرام، ويريهم صفحا جميلا، وبرا جزيلا وظلاً ظليلاً.

فلما كان في خامس شوال، ركب السلطان في العساكر، فبرز من القدس، قاصدا دمشق، واستناب على القدس عز الدين جورديك، وعلى قضائها بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي، فاجتاز على وادي الجيب، وبات على بركة الداوية، ثم أصبح في نابلس، فنظر في أحوالها، ثم ترحل عنها، فجعل يمر بالقلاع، والحصون، والبلدان فينظر في أحوالها، ويكشف المظالم عنها، وفي أثناء الطريق، جاء إلى خدمته بيمند صاحب انطاكية فأكرمه، وأحسن إليه، وأطلق له أموالا جزيلة، وخلعا، وكان العماد الكاتب في صحبته، فأخبر عن منازله، منزلة، منزلة، مرحلة مرحلة إلى أن قال: وعبر يوم الاثنين، عين الجر إلى مرج يبوس، وقد زال البوس، وهناك وفد عليه أعيان دمشق، وأماثلها، وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء على العرادة، جرى المتلقَّون في بالطرف والتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء، سادس عشر شوال بكرة، إلى جنة دمشق داخلين، بسلام آمنين، لولا أنا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها، وأطفالها، ورجالها، وكان يوم الزينة، وخرج كل من في المدينة، وحُشر الناس ضحىً وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، واجتمع بأولاده الكبار، والصغار، وقدم عليه رسل الملوك، من سائر الأمصار، وأقام بقية عامه في اقتناص الصيد، وحضور دار العدل للفصل، والعمل بالإحسان، والفضل.

ولما كان عيد الأضحى، امتدحه بعض الشعراء، بقصيدة يقول فيها:

وأبيها لولا تغزل عينيد ها لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلاً مثلما أوسع البرية برا
فتحلّ الأعياد صوما وفطرا وتلقى الهناء برا وبحرا
يا مسرّ الطاعات اللّه إن أضحى مليك على الهنات مصرا
نلت ما تبتغي من الدين والدنيا فتيها على الملوك وفخرا
قد جمعت الجديدين أصلا وفرعا وملكت الدارين دنيا وأخرى

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث، غزوة عظيمة، بين صاحب غزنة شهاب الدين ملكها السبكتكيني، وبين ملك الهند وأصحابه الذين كانوا قد كسروه في سنة ثلاث وثمانين، فاظفره اللّه بهم هذه السنة فكسرهم، وقتل خلقا منهم، وأسر خلقا، وكان من جملة من أسره ملكهم الأعظم، وثمانية عشر فيلا، من جملتها الذي كان جرحه، ثم أحضر الملك بين يديه، فأهانه، ولم يكرمه، واستحوذ على حصنه، وأخبر بما كان فيه من كل جليل، وحقير، ثم قتله بعد ذلك، وعاد إلى غزنة، مؤيدا، منصورا، مسرورا، محبورا.

وفي هذه السنة اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين وقد كان على إمرة الحجيج من مدة عشرين سنة، وكان في غاية حسن السيرة، واتهم بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يردّه أحد وقد كان مكذوبا عليه في ذلك، ومع هذا، أهين، وحبس، وصودر.

وممن توفي فيها من الأعيان

القاضي شمس الدين

■ محمد بن محمد بن موسى: المعروف بابن الفراش، كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان في الرسالات إلى ملوك الآفاق، وتوفي بملطية عائداً من بني قلج.

سيف الدين

■ علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فأسروه في جملة من أسروا، فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان وهو بالقدس، فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. وكانت وفاته يوم الأحد، الثالث والعشرين من شوال، بالقدس الشريف، ودفن في داره.

صاحب بلاد الروم عز الدين

■ قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، وكان قد قسم جميع بلاده بين أولاده، طمعا في طاعتهم له، فخالفوه، وتجبروا، وعتوا عليه، وخفضوا قدره، حتى ارتفعوا، ولم يزل كذلك، حتى توفي في عامه هذا.

وفي ربيع الآخر، توفي الأديب الشاعر أبو المرهف

■ نصر بن منصور النميري: سمع الحديث، واشتغل بالأدب، وكان قد أصابه جدري، وهو ابن أربعة عشرة سنة، فنقص بصره جدا، وكان لا يبصر الأشياء البعيدة، ويرى القريب منه، ولكنه لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق، لمداواة عينيه، فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن، ومصاحبة الصالحين والزُّهاد، فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن، وقد سئل مرة عن مذهبه واعتقاده فأنشأ يقول:

أحب عليا والبتول وولدها ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم فلست إلى قوم سواهم بمنتهي

توفي ببغداد، ودفن بمقابر الشهداء، بباب حرب، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

فيها كانت وفاة السلطان الناصر

■ صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه تعالى.

استهلت هذه السنة وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد، شرقي دمشق، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى خلاط، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان، بلاد العجم، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها، فلما قدم الحجيج من الحجاز في يوم الاثنين، حادي عشر صفر، خرج السلطان لتلقيهم، وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام، صاحب اليمن، فأكرمه والتزمه، وعاد إلى القلعة المنصورة فدخلها من باب

الحديد، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة، وطاب له الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وقصده الأطباء في اليوم الرابع، ثم اعتراه يبس، حصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، ثم قوي اليبس، فأحضر الأمراء من الأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي، نائباً على دمشق، وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد، وغيبوبة الذهن في بعض الأوقات، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل، وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي،ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء، السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده يقرأ القرآن، ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في غمرات الموت فقرأ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، فقال: وهو كذلك صحيح، فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل، فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩، والرعد: ٣٠] تبسم وتهلل وجهه، وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، لأنه ولد بتكريت في شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله، فقد كان ردءاً للإسلام، وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وقد غلقت الأسواق، واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا في تجهيزه، وحضر جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون، وأخذ الناس في العويل، والانتحاب والدعاء له والابتهال، ثم أبرز جسمه في نعشه في تابوت، بعد صلاة الظهر، وأم الناس عليه القاضي ابن الزكي، ثم دفن في داره، بالقلعة المنصورة، ثم شرع ابنه في بناء تربة له، ومدرسة للشافعية، بالقرب من مسجد القدم، لوصيته بذلك قديماً، فلم يكمل بناؤها، ولم يتمّ وذلك حين قدم ولده العزيز، وكان محاصراً لأخيه الأفضل، كما سيأتي بيانه، في سنة تسعين وخمسمائة، ثم اشترى له الأفضل داراً، شمالي الكلاسة في وزان ما زاده القاضي الفاضل في الكلاسة، فجعلها له تربة، هطلت سحائب الرحمة عليها، ووصلت ألطاف الرأفة إليها، وكان نقله إليها في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، وصلى عليه تحت النسر قاضي القضاة، محمد بن علي القرشي بن الزكي، عن إذن الأفضل له، ودخل في لحده ولده الأفضل، فدفنه بنفسه، وهو يومئذ سلطان الشام؛ وذلك لما له عليه من الحق والخدمة والإكرام. ويقال إنه دفن معه سيفه، الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، أحد الأجواد والأمجاد وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله لما أنعم عليه من كسر الأعداء ونصر الاولياء، وأعظم عليه بذلك المنّة.

ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموي ثلاثة أيام، يحضره الخاص والعام، والرعية والحكام، وقد عمل الشعراء فيه مراثي كثيرة، من أحسنها ما عمله العماد الكاتب، في آخر كتابه البرق السامي، وهي مئتان واثنان وثلاثون بيتاً، وقد سردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة، في الروضتين [٢/٢١٤، ٢١٥]، منها قوله:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته؟
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته؟
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته؟
أين الذي ما زال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته؟
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته؟
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً، ومنها أدركت ثاراته؟
أغلال أعناق ... أطواق أجياد الورى مناته

وللعماد الكاتب في الملك الناصر يرثيه:

من للعلى من للذرى من للهدى ... يحميه من للبأس من للنائل؟
طلب البقاء لملكه في آجل ... إذا لم يثق ببقاء ملك عاجل
بحر أعاد البر بحراً بره ... وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق في أيامه ... وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أبكارها ... أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقي لقبرك وابلا ... ورأيت جودك مخجلا للوابل
فسقاك رضوان الإله لأنني ... لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

ذكر تركته وشيء من ترجمته

قال العماد وغيره: لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرم واحد أي دينار واحد صُوري وستة وثلاثين درهماً، وقال غيره: سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة، وتوفي له في بعض حياته غيرهم، والذين تأخروا بعده ستة عشر ذكراً، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين، ليلة عيد الفطر، ثم العزيز عماد بن أبو الفتح عثمان، ولد بمصر أيضا في جمادى الأولى سنة سبع وستين، ثم الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل، ثم الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين، ثم المعز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين، ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً، ثم الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً، ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر، ثم أبو الفضل قطب الدين موسى، وهو شقيق الأفضل، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين أيضاً، ثم لقب بالمظفر أيضاً، ثم الأشرف معز الدين أبو عبدالله محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين، ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الذي قبله، ثم المعظم فخر الدين أبو منصور تورانشاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم الجوّال ركن الدين أبو سعيد أيوب، ولد سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق للمعز، ثم الغالب ونصرة الدين أبو الفتح

ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعظم، ثم المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه، ولد بحران بعد وفاة السلطان، ثم عماد الدين شادي لأم ولد، ونصير الدين مروان لأم ولد أيضاً، وأما البنت فهي مؤنسة خاتون، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، رحمهم الله تعالى.

وإنما لم يخلف أموالا ولا أملاكاً لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته، وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه، حتى إلى أعدائه، وقد كثير أسلفنا ما يدلُّ على كثير من ذلك، رحمه الله.

وقد كان متقللا في ملبسه، ومأكله ومشربه ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، ولا يعرف أنه تخطى إلى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصر الإسلام، وكسر أعدائه اللئام، وكان يعمل فكره في ذلك وحده، ومع من يثق به ليلا ونهاراً، سراً وجهاراً، وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد، في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وختامها وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة، يقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، فكان يتجشم القيام مع ضعفه، رحمه الله.

وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة، ويشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها، وكان قد جمع له القطب النيسابوري عقيدة فكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن والعظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه يسمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفين فكان يتبجّح بذلك ويقول: هذا موقف لم يسمع أحد في مثله حديثاً وكان ذلك بإشارة العماد الكاتب.

وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشرائع الدين، كان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له الشهاب السهروردي وكان يعرف الكيميا وشيئا من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولد السلطان الظاهر، وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، فكتب إليه أن يقتله لا محالة، فصلبه عن أمر والده وشهره، ويقال بل حبسه بين حائطين حتى مات كمداً، وذلك في سنة ست وثمانين وخمسمائة.

وكان السلطان صلاح الدين من أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً، مع ما كان يعتري جسمه من الأمراض والأسقام، ولا سيما وهو مرابط مصابر مثابر عند عكا، فإنه كان مع كثرة جموعهم وأمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشجاعة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل، ويقال ستمائة ألف وكان من جملة من قتل منهم مائة ألف مقاتل.

ولما انفصل الحال وتسلموا عكا وقتلوا أكثر من كان بها من المسلمين وساروا برمتهم إلى القدس جعل يسايرهم منزلة منزلة، ومرحلة مرحلة. وجيوشهم أضعاف أضعاف من معه، ومع هذا نصره الله وخذلهم، وسبقهم إلى البيت المقدس، فصانه وحماه منهم، وشيّد بنيانه، وأطّد أركانه، وصان حماه ولم يزل بجيشه مقيماً به، يرهبهم ويرعبهم ويغلبهم ويسلبهم، حتى تضرعوا إليه وخضعوا لديه، ودخلوا عليه في الصلح، وأن تضع الحرب أوزارها بينهم وبينه، فأجابهم إلى ما سألوا، على الوجه الذي أراده، لا على ما يريدونه، وكان ذلك من جملة الرحمة التي خصَّ الله بها المؤمنين، فإنه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه أبو بكر العادل، فعز به المسلمون، وذل به الكافرون.

وكان رحمه الله سخياً حيّياً ضحوك الوجه، كثير البشر لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات، فرحمه الله، وقد ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة [الروضتين: ٢/٢١١ وما بعدها] طرفاً صالحاً من سيرته وأيامه، وعدله في سريرته وعلانيته، وأحكامه.

فصل

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين قد قسم البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين عثمان أبي الفتح، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي وهو أكبر أولاده، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات، وحماة ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير عم صلاح الدين أخي أبيه نجم الدين أيوب رحمهم الله، واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخي السلطان صلاح الدين، وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر، ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف وتتفاقم في جميع هذه الأحوال، حتى آل الأمر إلى ما واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل أبي بكر صلاح الدين، وصارت المملكة في أولاده، الاماجد الأفاضل كما سنوضحه قريباً قريباً إن شاءالله تعالى.

وفي هذه السنة جدد الخليفة الناصر لدين الله خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها ألوفاً من الكتب الحسنة المثمنة.

وفي المحرم منها جرت ببغداد كائنة غريبة، وهي أن ابنة لرجل من التجار في الطحين تعشّقت لغلام أبيها فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره، فواعدته البنت ذات ليلة أن يأتيها، فجاء إليها مختفياً، فتركته في بعض الدار، ونزل في أثناء الليل فقتل أباها مولاه، وأمرته الجارية بقتل أمها فقتلها وهي حبلى، وأعطته الجارية حلياً بقيمة ألفي دينار، فأصبح أمره عند الشرطة، فمسك وقتل، قبحه الله وإياها، وقد كان سيده من خيار الناس، وأكثرهم صدقة وبراً، وكان شاباً وضيء الوجه رحمه الله.

وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخي الشيخ أبو علي النُوقاني، وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل بها دعوة حافلة.

ومن توفي فيها من الأعيان

السلطان صلاح الدين

■ يوسف بن أيوب بن شاذي، وقد تقدمت ذلك مبسوطاً.

الأمير

■ بكتمر صاحب خلاط: قتل في هذه السنة، وكان من خيار الملوك وأشجعهم، وأكرمهم وأحسنهم سيرة، رحمه الله.

الأتابك عز الدين

■ مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة، وكان من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة، كان يتشبّه بالملك العادل نور الدين الشهيد عمه رحمه الله، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل أثابه الله تعالى.

■ جعفر بن محمد بن قطيرا: أبو الحسن أحد الكتاب بالعراق، كان ينسب إلى التشيع، وهذا كثير في أهل تلك البلاد، لا أكثر الله في المسلمين أمثالهم ولا أشكالهم. جاءه رجل ذات يوم فقال له: رأيت البارحة أمير المؤمنين علياً في المنام، وهو يقول لي: اذهب إلى ابن قطيرا، فقل له يعطيك عشرة دنانير، فقال له ابن قطيرا: متى رأيته؟ قال: أول الليل، فقال ابن قطيرا: وأنا رأيته آخر الليل، فقال لي: إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا، فطلب منك شيئاً فلا تعطه، فأدبر الرجل موليا، فاستدعاه ووهبه شيئا، ومن شعره فيما أورده ابن الساعي وقد تقدم ذلك لغيره:

ولما سبرت الناس أطلب منهم ... أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
وفكرت في يومي سروري وشدتي ... وناديت في الأحياء هل من مساعد؟
فلم أر فيما ساءني غير شامت ... ولم أر فيما سرني غير حاسد

■ يحيى بن سعيد بن غازي: أبو العباس البصري صاحب المقامات، كان شاعراً أديبا فاضلا بليغاً، له اليد الطولى في اللغة والنظم، ومن شعره قوله:

غناءُ خودٍ ينسابُ لطفا ... بلا عناء في كل أذنِ
ما ردهُ قطُ بابُ سمع ... ولا أتى زائراً بإذنِ

السيدة

■ زبيدة بنت الإمام المقتفي لأمر الله: أخت المستنجد، وعمة المستضيء، كانت قد عمرت دهراً طويلا، ولها صدقات كثيرة دارّة وقد تزوجها في وقت السلطان مسعود، على صداق مائة ألف دينار، فتوفي قبل أن يدخل بها، وقد كانت كارهة لذلك، فحصل مقصودها وطلبتها.

الشيخة الصالحة

■ فاطمة خاتون: بنت محمد بن الحسن العميد، كانت صالحة عابدة زاهدة، عمرت مائة سنة وست سنين، كان قد تزوجها في وقت أمير الجيوش نظر وهي بكر،فبقيت عنده إلى أن توفي، ولم تتزوج بعده، بل اشتغلت بذكر الله عز وجل والعبادة، رحمها الله.

وفي هذه السنة أنفذ الخليفة الناصر لدين الله العباسي إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، يطلب منه أن يزيد على أبيات عدي بن زيد المشهورة ما يناسبها من الشعر، ولو بلغ ذلك عشر مجلدات، وهي هذه الأبيات:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أبو سا ... سان أم أين قبله سابور؟
وبنو الأصفر الملوك ملوك ... الروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة ... تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وكور
لم تهبه ريب المنون فزال الملك ... عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أشرف ... يوما وللهُدى تكفير
سره حاله وكثرة ما يملك ... والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة ... حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والإمة ... وارتهم هناك القبور
ثم اضحوا كأنهم ورق جف ... ت فألوت بها الصبا والدبور
غير أن الأيام يلعبن بالمرء ... وفيها لعمري العظات والتفكير

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق، بعث بهدايا سنية إلى باب الخليفة الناصر، من ذلك سلاح أبيه، وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات، وأشياء كثيرة ومنها صليب الصلبوت الذي استلبه أبوه من الفرنج يوم حطين، وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلا مرصعاً بالجواهر النفيسة، وأربع جوار من بنات ملوك الفرنج، وأنشأ له العماد الكاتب كتاباً حافلا يذكر فيه التعزية بأبيه، والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده، فأجيب إلى ذلك.

ولما كان شهر جمادى الأولى قدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق، ليأخذها من أخيه الأفضل فخيم على الكسوة يوم السبت سادس جمادى، وحاصر البلد، فمانعه أخوه ودافعه عنها، فقُطعت الأنهار، ونهبت الثمار، واشتد الحال، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم العادل عمهما، فأصلح بينهما، وورد الأمر للألفة، بعد اليمين على أن يكون للعزيز القدس وما جاور فلسطين من ناحيته أيضا، وعلى أن يكون جبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب، وأن يكون لعمهما العادل إقطاعه الأول ببلاد مصر، مضافا إلى ما بيده من الشام والجزيرة كحران والرها وجعبر وما جاور ذلك، فاتفقوا على ذلك، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل، ومرض ثم عوفي وهو مخيم بمرج الصفر، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح، ثم كر راجعاً إلى مصر، لطول شوقه إلى أهله وأولاده.

وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وخواصه، وقرب الأجانب، وأقبل على شرب المسكر، واللّهو واللعب، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك، فتلف وأتلفه، وضل وأضله، وزالت النعمة عنهما كما سيأتي.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة وبين كفار الهند، أقبلوا إليه في ألف ألف مقاتل، ومعهم سبعمائة فيل، منها فيل أبيض لم ير مثله، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً لم ير مثله، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له: ماجون، وقتل ملكهم، واستحوذ على حواصله وحواصل بلاده، وغنم فيلتهم، ودخل بلد الملك الكبرى، فحمل من خزائنه ذهبا وغيره على ألف وأربعمائة جمل، ثم عاد إلى بلاده سالما منصورا.

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش - ويقال له ابن الأصباعي - بلاد الري وغيرها، واصطلح مع السلطان طغرل السلجوقي، وكان قد تسلم بلاد الري وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وعظم شأنه، ثم التقي هو والسلطان طغرل في ربيع الأول من هذه السنة، فقتل السلطان طغرل، وأرسل رأسه إلى الخليفة، فنصب على باب النوبة عدة أيام، وأرسل الخليفة الخلع والتقاليد إلى السلطان خوارزم شاه، وملك همذان وغيرها من البلاد المتسعة.

وفيها نقم الخليفة على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وتغضّب عليه، ونفاه إلى واسط، فمكث بها خمسة أيام لم يأكل طعاما، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه، ويستقي لنفسه الماء، وكان شيخا كبيرا، قد بلغ ثمانين

سنة، وكان يتلو في كل يوم وليلة ختمة، قال: ولم أقرأ سورة يوسف لوجدي على ولدي يوسف، إلى أن فرج الله، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها توفي من الأعيان

■ **أحمد بن إسماعيل بن يوسف: أبو الخير القزويني، الشافعي المفسر،** قدم بغداد ووعظ بالنظامية، وكان يذهب إلى قول الأشعري في الأصول، وجلس في يوم عاشوراء فقيل له: العن يزيد بن معاوية، فقال: ذاك إمام مجتهد، فرماه الناس بالآجر فاختفى، ثم هرب إلى قزوين.

■ **الشاطبي ناظم الشاطبية: أبو محمد القاسم بن فيرُّه بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير،** مصنف الشاطبية في القراءات السبع، فلم يسبق إليها، ولا يلحق فيها، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدي إليها إلا كل ناقد بصير، هذا مع أنه ضرير.

ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وبلده شاطبة قرية شرقي الأندلس كان فقيرا، وقد أريد على أن يلي خطابة بلده فامتنع من ذلك لأجل مبالغة الخطباء على المنابر في وصف الملوك.

خرج الشاطبي إلى الحج، فقدم الإسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة، وسمع على السِّلفي، وولاه القاضي الفاضل مشيخة الإقراء بمدرسته، وزار القدس الشريف، وصام به شهر رمضان، ثم رجع إلى القاهرة، فكانت وفاته بها في جمادى الآخرة من هذه السنة، ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية، وكان ديناً خاشعاً ناسكا، كثير الوقار، لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات، وهي لغز في النعش، وهي لغيره:

أتعرف شيئاً في السماء يطير ... إذا سار هاج الناس حيث يسير
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكبا ... وكل أمير يعتليه أسير
يحث على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة في زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة بمرج الحديد، كانت وقعة عظيمة، نصر الله فيها الإسلام، وخذل فيها عبدة الصلبان، وذلك أن الفُنش ملك الفرنج ببلاد الأندلس، ومقر ملكه بمدينة طليطلة، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب، يستنخيه ويستدعيه ويستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له في مثالبه وفي قتاله في كلام طويل فيه تأنيب وتهديد، ووعيد شديد، فكتب السلطان يعقوب بن يوسف في رأس كتابه فوق خطه ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] ثم نهض من فوره في جنوده وعساكره، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس، فالتقوا في المكان المذكور، فكانت الدائرة أولا على المسلمين، فقتل منهم عشرون ألفا، ثم كانت أخيراً على الكافرين، فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة، وشر هزيمة وأشنعها، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا، من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة، ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس، ومن البغال مائة ألف بغل، ومن الحمر مثلها، ومن السلاح التام سبعون ألفا، ومن العدد شيء كثير، وملك عليهم من حصونهم شيئاً كثيراً، وحاصر مدينتهم طليطلة مدة، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعا إلى بلاده.

ولما حصل للفُنش ما حصل حلق لحيته ورأسه، ونكس صليبه، وركب حماراً، وحلف لا يركب فرساً، ولا يتلذذ بطعام، ولا ينام مع امرأة حتى تتصره النصرانية، ثم طاف على ملوك الفرنج، فجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فاستعد له السلطان يعقوب، فالتقيا فاقتتلا قتالا عظيما لم يسمع بمثله، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى، وغنموا منهم نظير ما تقدم أو أكثر، واستحوذ السلطان على كثير من معاقلهم وقلاعهم، ولله الحمد والمنة، حتى قيل: إنه بيع الأسير بدرهم، والحصان بخمسة دراهم والخيمة بدرهم، والسيف بنصف درهم، ثم قسم السلطان هذه الغنائم على الوجه الشرعي، فاستغنى المجاهدون إلى الأبد، ثم طلبت الفرنج من السلطان الأمان، فهادنهم على وضع الحرب خمس سنين، وإنما حمله على ذلك أن رجلا يقال له علي بن إسحاق الميورقي، الذي يقال له الملثم، ظهر ببلاد إفريقية، فأحدث أمورا فظيعة في غيبة السلطان، واشتغاله بقتال الفرنج مدة ثلاث سنين، فأحدث هذا المارق الميروقي بالبادية حوادث، وعاث في الأرض فسادا، وقتل خلقا كثيراً، وتملك بلاداً.

وفي هذه السنة والتي قبلها استحوذ جيش الخليفة على كثير من بلاد الري وأصبهان وهمذان وخوزستان وغيرها من البلاد، وقوي جانب الخلافة على الملوك والممالك.

وفيها خرج العزيز من مصر قاصداً دمشق، ليأخذها من يد أخيه الأفضل، وكان الأفضل قد تاب وأناب، وأقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب، وأقبل على الصيام والصلاة،وشرع بكتابة مصحف بيده، وحسنت طريقته، غير أن وزيره الضياء الجزري يفسد عليه دولته، ويكدر عليه صفوته، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه، سار سريعاً على عمه العادل، وهو بجعبر فاستنجده، فسار معه وسبقه إلى دمشق، وراح الأفضل أيضاً إلى أخيه الظاهر بحلب، فسارا جيعاً نحو دمشق، فلما سمع الوزير بذلك، وقد اقترب من دمشق، كر راجعا سريعاً إلى مصر، وركب وراءه العادل والأفضل ليأخذا منه مصر، وقد اتفقا على أن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل، ثم بدا للعادل في ذلك، فأرسل للعزيز يثبته، وأقبل على الأفضل يثبطه، وأقاما على بلبيس أياما حتى خرج إليهما القاضي الفاضل من جهة العزيز، فوقع الصلح على أن يرجع القدس ومعاملتها للأفضل، ويستقر العادل مقيما بمصر على إقطاعه القديمة، فأقام العادل بها طمعاً فيها، ورجع الأفضل إلى دمشق، بعدما خرج العزيز لتوديعه، وهي هدنة على قَذىً، وصلح على دخن.

وفيها توفي من الأعيان

■ **علي بن حسان بن مسافر: أبو الحسن، الكاتب البغدادي،** كان أديبا شاعرا، من شعره قوله:

نفى رقادي ومضى ... برق بسلع ومضا
لاح كما سلت يد الـ ... أسود عضبا أبيضا
كأنه الأشهب في النقـ ... ـع إذا ما ركضا

يبـــدو كمـــا تختلـــف الــــر	يــح علـــى جمــــر الغضـــا
فتحســـب الزنجـــي أبــــد	ى نظــــــراً وغمضـــــا
أو شـــعلة النــــار عـــلا	لهيهــــــا وانخفضــــــا
آه لــــــه مــــن بــــارق	ضــــاء علـــى ذات الأضــا
أذكرنـــي عهـــــداً مضـــى	علـــى الغويــــر وانقضـــى
فقـــال لي قلـــبي أتـــو	صـــي حاجـــة وأعرضـــا
يطلـــب مـــن أمرضـــه	فديـــت ذاك الممرضــــا
يـــا غـــرض القلـــب لقــد	غـــادرت قلـــبي غرضـــا
لأســــــهم كأنمـــــا	يرســـلها صــــرف القضـــا
نبــــت لا ارتـــــاب في	أن رقـــادي قـــد قضـــى
حتـــى قفـــا الليــــل وكـــاد	الليـــــل أن ينقرضـــــا
وأقبـــــل الصبـــــح لأط	راف الدُّجـــى ميضـــا
وســـلَّ في الشـــرق علـــى	الغـــرب ضيـــاء وانقضـــى

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة

في رجب منها أقبل العزيز من مصر صحبه عمه الملك العادل في العساكر،ودخلا دمشق قهرا، وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذي أساء تدبيره، وصلى العزيز عند تربة والده صلاح الدين، وخطب له بدمشق، ودخل إلى القلعة المنصورة في يومه، وجلس في دار العدل للحكم والفصل، وكل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده في الخدمة، وأمر القاضي محي الدين بن الزكي بتأسيس المدرسة العزيزية، إلى جانب تربة أبيه، وكانت داراً للأمير عز الدين شامة، ثم استناب على دمشق عمه الملك العادل، ورجع إلى مصر يوم الاثنين تاسع شعبان، والسكة والخطبة له، وصولح الأفضل عن دمشق على صرخد، وهرب وزيره ابن الأثير الجزري إلى جزيرته، وقد أتلف نفسه وملكه، بجريرته، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده، وأخيه قطب الدين.

وفي هذه السنة هبت ريح شديدة سوداء مدلهمة، بأرض العراق، ومعها رمل أحمر، حتى احتاج الناس إلى السرج بالنهار.

وفيها ولي قوام الدين أبوطالب يحيى بن سعيد بن زيادة كتاب الإنشاء ببغداد، وكان بليغا، وليس هو كالفاضل.

وفيها درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك بالنظامية، وكان فاضلا مناظرا.

وفيها قتل رئيس الشافعية بأصبهان صدر الدين

■ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت عبد اللطيف بن الخجندي، قتله فلك الدين سنقر الطويل، وكان ذلك سبب زوال ملك أصبهان عن الديوان.

وفيها مات الوزير وزير الخلافة: مؤيد الدين أبو الفضل:

■ محمد بن علي بن القصاب، وكان أبوه يبيع اللحم في بعض أسواق بغداد، فتقدم ابنه وساد أهل زمانه، توفي بهمذان، وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها، إلى ديوان الخلافة، وكان ناهضاً ذا همة، وله صرامة وشهامة وشعر جيد.

وفيها توفي:

الفخر

■ محمود بن علي: النوقاني الشافعي، عائدا من الحج.

والشاعر:

أبو الغنائم

■ محمد بن علي بن المعلم الهرثي، من قرى واسط، عن إحدى وتسعين سنة، وكان شاعراً فصيحاً، وكان ابن الجوزي في مجالسه يستشهد بشيء من لطائف أشعاره، وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الحسن المليح.

وفيها توفي:

الفقيه أبو الحسن

■ علي بن سعيد بن الحسن البغدادي المعروف بابن العريف، ويلقب بالبيع الفاسد، كان حنبليا، ثم اشتغل شافعيا على أبي القاسم بن فضلان، وهو الذي لقبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة بين الشافعية والحنفية، ويقال إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الإمامية فالله أعلم.

وفيها توفي:

الشيخ أبو شجاع:

■ محمد بن علي بن شعيب بن الدهان الفرضي الحاسب المؤرخ البغدادي، قدم دمشق، وامتدح الكندي أبا اليمن زيد بن الحسن فقال:

يـا زيـد زادك ربـي مـن مواهبـه	نعمـاً يقصـر عـن إدراكهـا الأمـلُ
لا بـدل اللّه حـالا قـد حبـاك بهـا	مـا دار بـين النحـاة الحـالُ والبـدلُ
النحـو أنـت أحـق العـالمين بـهِ	أليـس باسمك فيـه يضـربُ المثـلُ

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

فيها ورد كتاب من القاضي الفاضل إلى ابن الزكي يخبره فيه أن في ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة، أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فقوي لهُوبها، واشتد هبوبها، فتدافعت لها أعنة مطلقات، وارتفعت لها صعقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار بين السماء والأرض عجاج، حتى قيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم، ومزقت أديم السماء، ومحت ما فوقه من الرقوم، فكنا كما قال تعالى: ﴿يجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة: ١٩] وكما قلنا: يردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لا عاصم من الخطف للأبصار ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفر الناس نساء ورجالا وأطفالا، ونفروا من دورهم خفافا وثقالا، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأهل والمال سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون، وقاموا إلى صلاتهم وودوا لو كانوا من الذين هم عليها دائمون، إلا أن يأذن الله في الركود، وأسعف الماجدين بالهجود، فأصبح كل مسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قد رد له الكرة، وأحياه بعد أن كاد يأخذه على غرة، ووردت الأخبار بأنها قد كسرت

المراكب في البحار، والأشجار في القفار، وأتلفت خلقا كثيرا من السفار، ومنهم من فر فلم ينفعه الفرار.... إلى أن قال: «ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزّفاً، فالأمر أعظم، ولكن الله سلم، ونرجو أن الله قد أيقظنا بما به وعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده إلا من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعد ذلك برهانا، إلا أهل بلدنا فما قص الأولون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمد للّه الذي من فضله قد جعلنا نخبر عنها، ولا يخبر عنا، ونسأل اللّه أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور، إذا عنّا.

وفيها كتب القاضي الفاضل من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج، ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم، وحفظ حوزة الإسلام، فمن ذلك قوله في بعض الكتب: «هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد اللّه ما في يديه، فتلك نعم اللّه عليه، وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ما سودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

وكتب أيضاً: «أدام اللّه ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس وحياه للدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس، وعرف المملوك من الأمر الذي اقتضته المشاهدة، وجرت به العاقبة في سرور، ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تَـر أن المـرءَ تـدوى يمينـهُ فيقطعهـا عمْـدا ليسـلم سـائرِه

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه، ومن قلم من الأصبع ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً، ودفع عنه ضراً.

وتجشـم المكـروه ليـس بضـائر إذا كـان مـا جلبه سـببا إلى المحمـود

وآخر كل شقوة أول كل غزوة، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه اللّه، صرف اللّه إليه الوجوه كلها ﴿والذينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾. [العنكبوت: ٦٩]

وفي هذه السنة انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج، فأقبلوا بقضّهم وقضيضهم، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم، وفتح يافا عنوة ولله الحمد والمنة.

وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس، فقدر اللّه هلاكه سريعا، وأخذت الفرنج في هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة، من غير قتال ولا نزال، ولهذا قال بعض الشعراء في الأمير شامة:

سلم الحصن ما عليك ملامه ما يلام الذي يرومُ السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب سنة سنها ببيروت شامه

ومات فيها ملك الفرنج كندهري، سقط من شاهق فمات، فبقيت الفرنج كالغنم بلا راع، حتى ملكوا عليهم صاحب قبرص، وزوجوه بالملكة امرأة كندهري، وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل أبي بكر بن أيوب، ففي كلها يستظهر عليهم ويكسرهم، ويقتل خلقا من مقاتلتهم و لله الحمد. ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة فعاقدهم على ذلك في السنة الآتية.

وفيها توفي

ملك اليمن سيف الإسلام

■ طغتكين: أخو السلطان صلاح الدين، وكان قد جمع أموالا جزيلة جداً، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين ويدخره كذلك، وقام في الملك بعده ولده إسماعيل، وكان أهوج قليل التدبير، فحمله جهله على أن ادعى أنه قرشي أموي، وتلقب بالهادي، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك، ويتهدده بسبب ذلك، فلم يقبل منه ولا التفت إليه، بل تمادى وأساء التدبير إلى الأمراء والرعية، فقتل، وتولى بعده مملوك من مماليك أبيه.

وفيها توفي:

الأمير الكبير

■ أبو الهيجاء السمين الكردي: كان من أكابر أمراء صلاح الدين وهو الذي كان نائبا على عكا، وخرج منها قبل أخذ الفرنج، ثم دخلها بعد المشطوب، فأخذت منه واستنابه صلاح الدين على القدس، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها، فطلب إلى بغداد فأكرم إكراما زائدا، وأرسله الخليفة مقدماً على العساكر إلى همذان، فمات هناك.

وفيها توفي:

قاضي بغداد أبو طالب

■ علي بن علي بن هبة اللّه بن محمد ابن البخاري، سمع الحديث على أبي الوقت وغيره، وتفقه على أبي القاسم بن فضلان، وتولى نيابة الحكم ببغداد، ثم استقل بالمنصب، وأضيف إليه في وقت نيابة الوزارة، ثم عزل عن القضاء، ثم أعيد، ومات وهو حاكم، نسأل اللّه العافية، وكان فضالا بارعا، من بيت فقه وعدالة، وله شعر:

تنـح عـن القبيـح ولا تـردهُ ومـن أوليتـه حسـناً فـزدهُ

سـتُكفى مـن عـدوك كـل كيـدٍ إذا كـاد العـدو ولم تكـدهُ

وفيها توفي:

السيد الشريف نقيب الطالبيين ببغداد: أبو محمد

■ الحسن بن علي بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، العلوي الحسيني، المعروف بابن الأقساسي، الكوفي مولدا ومنشأ، كان شاعرا مطلقا، امتدح الخلفاء والوزراء، وهو من بيت مشهور بالأدب والرياسة والمروءة، قدم بغداد، فامتدح المقتفي، والمستنجد وابنه المستضيء وابنه الناصر، فولاه النقابة، كان شيخاً مهيبا، جاوز الثمانين، وقد أورد له ابن الساعي قصائد كثيرة منها:

اصـبر علـى كيـد الزمـا ن فمـا يـدوم علـى طريقـه

سـبق القضـاءُ فكـن بـه راض ولا تطلـبْ حقيقـه

كـم قـد تغلـب مـرةً وأراكَ مـن سـعةٍ وضيقـه

مـا زال في أولاده يجـري علـى هـذي الطريقـه

وفيها توفيت:

الست

■ عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، ودفنت بمدرستها داخل باب النصر.

والست

■ خاتون والدة الملك العادل، ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد

الدين شيركوه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

فيها جمعت الفرنج جموعها واقبلوا فحاصروا تبنين فاستدعى العادل بني أخيه لقتالهم، فجاءه العزيز من مصر، والأفضل من صرخد، فأقلعت الفرنج عن الحصن، وبلغهم موت ملك الألمان، فطلبوا من العادل الهدنة والأمان، فهادنهم، ورجعت الملوك إلى أماكنها، وقد عظم المعظم عيسى بن العادل في هذه المرة، واستنابه أبوه على دمشق، وسار إلى ملكه بالجزيرة، فأحسن فيهم السيرة.

وكان قد توفي في هذه السنة السلطان صاحب سنجار وغيرها من المدائن الكبار، وهو

■ عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي الأتابكي، كان من خيار الملوك، وأحسنهم شكلا وسيرة، وأجودهم طوية وسريرة غير أنه كان يبخل، وكان شديد المحبة للعلماء، ولا سيما الحنفية، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار، وشرط لهم طعاما يطبخ لكل واحد منهم في كل يوم، وهذا نظر حسن، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقيته، فعدى على أولاده ابن عمه صاحب الموصل، فأخذ الملك منهم، فاستغاث بنوه بالملك العادل، فرد فيهم الملك ودرأ عنهم الضيم، واستقرت المملكة لولده قطب الدين محمد، ثم سار العادل إلى ماردين فحاصرها في شهر رمضان، فاستولى على ربضها ومعاملتها، وأعجزته قلعتها، فصاف عليها وشتا، وما ظن أحد أنه تملكها، حتى هنّته الشعراء بذلك؛ لأن ذلك لم يكن مثبوتا ولا مقدَّراً.

وفيها ملكت الغور مدينة بلخ وكسروا الخطا وقهروهم، وهزموهم، وتوقّعوا بإرسال الخليفة إليهم أن يمنعوا خوارزم شاه من دخول العراق، فإنه كان يروم أن يخطب له ببغداد.

وفيها حاصر خوارزم شاه مدينة بخارى ففتحها بعد مدة، وقد كانت امتنعت عليه دهرا ونصرهم الخطا، فقهرهم جميعاً وأخذها عنوة، وعفا عن أهلها وصفح، وقد كانوا ألبسوا كلباً أعور قباء وسموه خوارزم شاه، ورموه في المنجنيق إلى الخوارزمية، وقالوا هذا ملككم، وكان خوارزم شاه أعور، فلما قدر عليهم عفا عنهم، جزاه الله خيرا.

وفيها توفي من الأعيان

■ القِوام بن زبادة: كاتب الإنشاء بباب الخلافة، وهو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن زبادة، قوام الدين انتهت إليه رياسة الترسُّل، والإنشاء، والبلاغة، والفصاحة في زمانه بالعراق، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب الشافعي، أخذه عن ابن فضلان، وله معرفة جيدة بالأصلين والحساب واللغة، وله شعر جيد، وقد ولي عدة مناصب كان مشكوراً في جميعها، ومن مستجاد شعره قوله:

لا تحقرنْ عدواً تزدريهِ فكم ... قد أتعس الدهر جد الجد باللعب

فهذه الشمس يعروها الكسوفُ لها ... على جلالتها بالراس والذنب

وقوله:

باضطراب الزمان ترتفعُ الأنـ ... ـذال فيه حتى يعم البلاءُ

وكذا الماءُ راكد فإذا ... حرك ثارت من قعرهِ الأقذاءُ

وله أيضاً:

قد سلوت الدنيا ولم يسلها ... من علقت في آماله والأراجي

فإذا ما صرفت وجهي عنها ... قذفوني في بحرها العجاج

يستضيئون بي وأهلكُ وحدي ... فكأني ذبالةٌ في سراج

توفي في هذه السنة من الحجة، وله اثنتان وسبعون سنة، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن عند موسى بن جعفر.

القاضي أبو الحسن

■ علي بن جابر بن زهير بن علي البطائحي، قدم بغداد فتفقه بها، وسمع الحديث، وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبي عبد الله بن النبيه الفرضي، ثم ولي قضاء العراق مدة، وكان فقيهاً أديباً، وقد سمع من شيخه أبي عبد الله بن النبيه، ينشد لنفسه معارضاً للحريري، في بيتيه اللذين زعم أنهما لا يُعزّزان بثالث لهما، وهما قوله:

سِمْ سمةً يُحمَدُ آثارها ... واشكر لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ

والمكر مهما استطعت لا تأته ... لتقتني السؤدد والمكرمهْ

فقال ابن النبيه:

ما الأمةُ الوكعاء بين الورى ... أحسن من حر أتى ملأمهْ

فمه إذا استجديت عن قول لا ... فالحر لا يملأ منها فمهْ

الأمير

■ عز الدين جرديك: كان من أكابر الأمراء في زمان نور الدين، وكان ممن شرك في قتل شاور، وحظي عند الملك صلاح الدين وقد استنابه على القدس حين افتتحها، وكان يستنبه للمهمات الكبار فيسدها بنفسه وشجاعته، ولما ولي الأفضل عزله عن بيت المقدس، فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل، فمات بها في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وفاة الملك العزيز صاحب مصر

وذلك أنه خرج إلى الصيد، ولما كان ليلة الأحد العشرين من المحرم، ساق خلف ذئب، فكبا به فرسه فسقط عنه فمات بعد أيام، ودفن بداره، ثم حول إلى عند تربة الشافعي، وله سبع أو ثمان وعشرون سنة.

ويقال: إنه كان قد عزم في هذه السنة على إخراج الحنابلة من بلده، ويكتب إلى بقية إخوته بإخراجهم من البلاد، وشاع ذلك عنه وذاع، وسمع ذلك منه وصرح به وكلي ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية، وقلة علمه بالقرآن والحديث، فلما وقع ما وقع عظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام. وقيل: إن بعض صالحيهم دعا عليه، فما هو إلا أن خرج إلى الصيد، فكان هلاكه سريعاً فالله أعلم.

وكتب الفاضل كتاب التعزية بالعزيز لعمه العادل، وهو محاصر ماردين ومعه العساكر، وولده محمد الكامل، وهو نائبه على بلاد الجزيرة المقاربة لبلاد الحيرة، وصورة الكتاب «أدام الله سلطان مولانا الملك العادل،وبارك في عمره،وأعلا أمره بأمره، وأعز نصر الإسلام بنصره، وفدت الأنفس

نفسه الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمه فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة هو والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالا، ولا عدداً، ولا أعدمه نفسا ولا ولداً ولا قصر له ذيلا ولا يداً، ولا أسخن له عينا ولا كبداً، ولا كدر له خاطراً ولا مورداً، ولما قدر الله ما قدر في الملك العزيز رحمه اله وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله وحضور أجله كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة فرحم الله ذلك الوجه ونضّره، ثم إلى سبيل الجنة يسّره.

وإذا محاسن الوجه بليت فعفى الثرى عن وجهه الحسن

فأعزز على الملوك وعلى الأولياء بل على قلب مولانا، لا سبله ثياب العزاء، لسرعة مصرعه وانقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلى قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفّه إلى التراب وسريره محفوف باللذّات والأتراب، وكانت مدة المرض بعد العود من الفيُّوم أسبوعين، وكانت في السّاعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرَّم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع بين مرض قلب وجسد ووجع وغليل كبد وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد، والأسى عليه في كل يوم جديدْ.

ولما توفي العزيز خلف من الولد عشرة ذكور، فعمد أمراؤه فملكوا عليهم ولده محمدا، ولقبوه بالمنصور، وجمهور الأمراء في الباطن مائلون إلى تمليك العادل، ولكنهم يستبعدون مكانه، فأرسلوا إلى الأفضل وهو بصرخد، فأحضروه على البريد سريعاً، فلما حصل عندهم منع رفدهم، ووجدوا الكلمة مختلفة عليه، ولم يتم له ما صار إليه، وخامر عليه أكابر الأمراء الناصرية، وخرجوا من مصر، فأقاموا ببيت المقدس، وأرسلوا يستحثون الجيوش العادلية، فأقر ابن أخيه على السلطنة، ونوه باسمه على السكة والخطبة في سائر بلاد مصر، لكن استفاد الأفضل في سفرته هذه أن أخذ جيشاً كثيفا من المصريين، وأقبل بهم ليسترد دمشق في غيبة عمه بمحاصرة ماردين، وذلك بإشارة أخيه صاحب حلب، وابن عمه ملك حمص أسد الدين، فلما انتهى إليها ونزل حواليها، قطع أنهارها وعقر أشجارها، وأكل ثمارها، ونزل بمخيمه على مسجد القدم، وقد لحقه الأسف والندم وجاء إليه أخوه الظاهر وابن عمه الأسد الكاسر وجيش حماه، فكثر جيشه وقوى بأسه، وقد دخل جيشه إلى البلد، ونادوا بشعاره، فلم يتابعهم من العامة أحد، وأقبل العادل من ماردين بعساكره، وقد التف عليه أمراء أخيه وطائفة بني أخيه، وأمده كل مصر بأكابره، وسبق الأفضل إلى دمشق بيومين فحصنها وحفظها من كل حاسد وذي عينين، وقد استناب على ماردين ولده محمداً الكامل رئيس السلاطين.

ولما دخل دمشق خامر إليه أكثر الأمراء من المصريين وغيرهم، وضعف أمر الأفضل، ويئس من برهم وخيرهم، فأقام محاصراً البلد بمن معه حتى انسلخ الحول، وهو كذلك ثم اتصل الحال في أول السنة الآتية على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وفيها شرع في بناء سور بغداد بالآجر والكلس، وفرق على الأمراء، وكملت عمارته بعد هذه السنة، فأمنت بغداد من الغرق والحصار، ولم يكن لها سور قبل ذلك.

وفي هذه السنة توفي

السلطان أبو محمد

■ يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكان قد بنى عندها مدينة مليحة سماها المهدية، وقد كان دينا، حسن السيرة، صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهريا حزمياً، ثم مال إلى مذهب الشافعي، واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله، وهو الذي كتب إليه صلاح الدين يستنجده على الفرنج، فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك، ولم يجبه إلى ما طلب منه، وقام بالملك بعده ولده محمد، فسار كسيرة والده، ورجع إليه كثير من البلدان اللاتي كانت قد عصت على أبيه، ثم من بعد ذلك تفرقت بهم الأهواء، وباد هذا البيت بعد الملك يعقوب رحمه الله.

وفيها ادعى رجل أعجمي بدمشق أنه عيسى ابن مريم، فأمر الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة بصلبه عند حمام العماد الكاتب، خارج باب الفرج، مقابل الطاحون التي بين البابين، وقد باد هذا الحمام قديماً، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض، وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي هذه السنة وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان، وكان سببها أن فخر الدين محمد بن عمر الرازي، أستاذ المتكلمين في زمانه وفد إلى الملك غياث الدين الغوري صاحب غزنة، فأكرمه واحترمه وبنى له مدرسة بهراة، وكان أكثر الغورية كرامية، فأبغضوا الفخر الرازي وأحبوا إبعاده عن الملك، فجمعوا له جماعة من الفقهاء الحنفية والكرامية، وخلقا من الشافعية، وحضر ابن القدوة وكان شيخا معظما في الناس، وهو على مذهب ابن كرام وابن الهيصم، فتناظر هو والرازي، وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم، فلما كان من الغد اجتمع الناس في المسجد الجامع، وقام واعظ فتكلم، فقال في خطبته:

أيها الناس، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ، وأما علم ارسطاطا ليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي وما تلبس به الرازي فإنا لا نعلمها ولا نقول بها، وإنما هو كتاب الله وسنة رسوله، ولأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذب عن دين الله وسنة رسوله، على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل، قال: فبكى الناس وضجوا، وبكت الكرامية واستغاثوا، وأعانهم على ذلك قوم آخرون من الخاصة، وأنهوا إلى الملك صورة ما وقع، فأمر بإخراج فخر الدين الرازي من البلد، وعاد إلى هراة، فلهذا أشرب قلب الرازي بغض الكرامية، وصار يلهج في كلامه في كل موطن وكلّما هبّت الصَّبا.

وفي هذه السنة رضي الخليفة عن أبي الفرج بن الجوزي شيخ الوعاظ في زمانه وبعدّه، وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط، فأقام بها خمس سنين فانتفع به أهلها، واشتغلوا عليه واستفادوا منه، فلما عاد إلى بغداد خلع عليه الخليفة، وأذن له في الوعظ على عادته، عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف الكرخي، فكثر الجمع جدا، وحضر الخليفة، وأخذ في العتاب وأنشد يومئذ فيما يخاطب به الخليفة:

لا تعطش الروض الذي نَبْتُه بصوب إنعامك قد روضا
لا تبر عوداً أنت قد رشته حاشى لباني المجد أن ينقضا
إن كان لي ذنب ولم آتِهِ فاستأنف العفو وهب لي الرضا
قد كنت أرجوك لنيل المنى فاليوم لا أطلب إلا الرضا

ومما أنشده يومئذ:

شقينا بالنوى زمنا فلما تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا عند ما جنت الليالي وما زالت بنا حتى رضينا
ومن لم يحي بعد الموت يوما فإنا بعد ما متنا حيينا

وفي هذه السنة استدعى الخليفة الناصر قاضي الموصل ضياء الدين بن الشهرزوري، فولاه قضاء قضاة بغداد.

وفي هذه السنة وقعت فتنة بدمشق، بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يوما شيئا من العقائد، فاجتمع القاضي محيي الدين بن الزكي وضياء الدين الخطيب الدولعي بالسلطان المعظم، والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلسا فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش،والنزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء، واستمر الحافظ على ما يقوله لم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه، وألزموه بإلزامات شنيعة لم يلتزمها، حتى قال له الأمير برغش: كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق؟ قال: نعم، فغضب الأمير عند ذلك وأمر بنفيه من البلد؛ فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره. وأرسل برغش الأسارى من القلعة، فكسروا منبر الحافظ، وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وكان عقد المجلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي الحجة، فارتحل الحافظ عبد الغني إلى بعلبك، ثم سار إلى مصر، فآواه المحدثون، فحنوا عليه وأكرموه.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الأمير مجاهد الدين

■ قايماز الرومي: نائب الموصل المستولي على مملكتها أيام ابن أستاذه نور الدين أرسلان، وكان عاقلا ذكيا، فقيها حنفيا، وقيل شافعيا، يحفظ شيئا كثيراً من التواريخ والحكايات، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس، وربط وخانات، وله صدقات كثيرة دارة.

قال ابن الأثير: وقد كان من محاسن الدنيا.

أبو الحسن

■ محمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباسي الهاشمي، قاضي القضاة ببغداد، بعد ابن النجاري، كان شافعياً، تفقه على أبي الحسن بن الخل وغيره، وقد ولي القضاء والخطابة بمكة، وأصله منها، ولكن ارتحل إلى بغداد، فنال منها ما نال من الدنيا، وآل به الأمر إلى ما آل، ثم إنه عزل عن القضاء، بسبب محضر رقم خطه عليه، وكان فيما قيل مزورا عليه، فالله أعلم، فجلس في منزله حتى مات.

الشيخ جمال الدين أبو القاسم:

■ يحيى بن علي بن الفضل بن بركة بن فضلان، شيخ الشافعية ببغداد، تفقه أولا على سعيد بن محمد الرزّاز مدرس النظامية، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدي تلميذ الغزالي، وعاد إلى بغداد، وقد أتقن علم المناظرة والأصلين، وساد أهل بغداد، وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبنيت له مدرسة، فدرس بها وبعد صيته، وكثرت تلامينه، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث، وكان شيخا حسنا، لطيفا ظريفا، ومن شعره:

وإذا أردت منازل الأشراف فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغى باغ عليك فخله والدهر فهو له مكافٍ كافِ

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والملك الأفضل بالجيش المصري محاصر لعمه العادل بدمشق، وقد قطع عنها الأنهار والميرة، فلا خبز ولا ماء إلا قليلا، وقد تطاول الحال، وقد خندقوا من أرض اللوان إلى يلدا خندقا لئلا يصل إليهم جيش دمشق، وجاء فصل الشتاء وكثرت الأمطار والأوحال، فلما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن العادل على أبيه بخلق من التركمان، وعساكر من بلاد الجزيرة والرها وحران، فعند ذلك انصرفت العساكر المصرية، وتفرقوا أيادي سبا، فرجع الظاهر إلى حلب، والأسد إلى حمص، والأفضل إلى مصر، وسلم العادل من كيد الأعادي، بعدما كان قد عزم على تسليم البلد واستسلم، ولكنّ الله سلّم.

وسارت الأمراء الناصرية خلف الأفضل ليمنعوه من الدخول إلى القاهرة، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم، فنهض إليهم سريعا سامعاً لمشورتهم مطيعاً، فتحصّن الأفضل بالقلعة من الجبل، وقد اعتراه الضعف والفشل، ونزل العادل على البركة واستبدّ بملك مصر آنفاً من الشركة، ونزل إليه ابن أخيه الأفضل خاضعاً ذليلا بعدما كان مهيباً جليلاً فأقطعه بلادا من الجزيرة، ونفاه عن الشام لسوء السيرة، ودخل العادل إلى دار السلطان بالقاهرة، وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الكردي، وأبقى الخطبة والسكة باسم ابن أخيه المنصور، والعادل مستقل بالأمور، واستوزر الصاحب صفي الدين بن شكر لصرامته وشهامته، وسيادته وديانته، وكتب العادل إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة،ليملكه على مصر ويسترعيه، فقدم عليه، فأكرمه واحترمه وعانقه والتزمه، وأحضر الملك الفقهاء واستفتاهم في صحة مملكة ابن أخيه المنصور بن العزيز، وأنه صغير ابن عشر سنين، فأفتوا بأن ولايته لا تصح، لأنه متولى عليه، فعند ذلك طلب الأمراء، ودعاهم إلى مبايعته فامتنعوا، فأرغبهم وأرهبهم، وقال فيما قال: قد سمعتم ما أفتى به العلماء، والأئمة والفقهاء وقد علمتم أن ثغور المسلمين لا يحفظها الأطفال الصغار، وإنما يحرسها الملوك الكبار، فأذعنوا عند ذلك وبايعوه، ثم من بعده لولده الكامل، فخطب الخطباء بذلك بعد الخليفة لهما، وضربت السكة باسميهما، واستقرت دمشق باسم المعظم عيسى بن العادل، ومصر باسم الكامل.

وفي شوال رجع إلى دمشق الأمير فلك الدين أبو منصور سليمان بن شروة بن خلدك، وهو أخو الملك العادل لأمه، وهو واقف المدرسة الفلكية داخل باب الفراديس، وبها قبره فأقام بها محترماً معظما إلى أن توفي في هذه السنة.

وفيها وفي التي بعدها كان بديار مصر غلاء شديد، فهلك بسببه الغني والفقير، في وعم الجليل والحقير، وهرب الناس منها نحو الشام، فلم يصل إليها إلا القليل، وتخطفهم الفرنج من الطرقات، وغروهم من أنفسهم، واغتالوهم بالقليل من الأقوات وأما بلاد العراق فإنه كان مرخصا.

قال ابن الساعي: وفي هذه السنة باض ديك ببغداد، فسألت جماعة عن ذلك فأخبروني به.

ومن توفي فيها من الأعيان

السلطان علاء الدين

■ **خوارزم شاه:** تكش بن ألب رسلان من ولد طاهر بن الحسين، وهو صاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والري وغيرها من الأقاليم المتسعة، وهو الذي قطع دولة السلاجقة، كان عادلاً، حسن السيرة، له معرفة جيدة بالموسيقى، حسن المعاشرة، فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول، وبنى للحنفية مدرسة عظيمة، ودفن بتربة بناها بخوارزم، وقام في الملك من بعده ولده علاء الدين محمد، وكان قبل ذلك يلقب بقطب الدين.

وفيها قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور.

■ **نظام الدين مسعود بن علي:** وكان حسن السيرة، شافعي المذهب، له مدرسة عظيمة بخوارزم، وجامع هائل، وبنى بمرو جامعاً عظيماً للشافعية، فحسدتهم الحنابلة، وشيخهم بها يقال له شيخ الإسلام، فيقال: إنهم أحرقوه، وهذا إنما يصدر من قلة الدين والعقل واحترام معابد الإسلام، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه على ما غرم الوزير على بنائه.

وفيها توفي الشيخ المسند المعمر رحلة الوقت:

■ **أبو الفرج بن عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن الخضر بن كليب،** الحراني الأصل، البغدادي المولد والدار والوفاة، عن ست وتسعين سنة، سمع الكثير وأسمع، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، وكان من أعيان التجار، وذوي الثروة رحمه اللّٰه.

الفقيه

■ **مجد الدين:** أبو محمد بن طاهر بن نصر اللّٰه بن جهبل، مدرس القدس الشريف، أول من درس بالصلاحية، وهو والد الفقهاء بني جهبل الدين، كانوا بالمدرسة الجاروخية، ثم صاروا إلى العمادية والدماغية في أيامنا هذه، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم.

الأمير صارم الدين

■ **قايماز بن عبد اللّٰه النجمي،** كان من أكابر الدولة الصلاحية، كان عند الملك صلاح الدين بمنزلة الأستاذ، وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد، فحصل له أموال جزيلة جداً، وكان كثير الصدقات والأوقاف، وقد تصدق في يوم بسبعة آلاف دينار عينا، وهو واقف المدرسة القيمازية، شرقي القلعة المنصورة، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير، وله بها حمام، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد، موسى بن العادل وبناها دار حديث، وأخرب الحمام وبناه مسكنا للشيخ المدرس بها، ولما توفي قيماز ودفن في قبره، نبشت دوره وحواصله، وكان متهما بمال جزيل، فتحصل ما جمع من ذلك مائة ألف دينار، وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك، وكان يدفن أمواله في الخراب من أراضي ضياعه وقراياه، فسامحه اللّٰه وبلّ بالرحمة ثراه.

الأمير الكبير

■ **لؤلؤ:** أحد الحجاب بالديار المصرية، كان من أكابر الأمراء في أيام الدولة الصلاحية، وهو الذي كان متسلم الأسطول في البحر، فيكون كالشجا في حلوق الفرنج والنحر في البحر، فكم من شجاع قد أسر، وكم من مركب قد كسر، وكم من لهم أسطول قد فرق شمله، ومن بطسة وقارب قد غرّق أهله، وقد كان مع كثرة جهاده دارّ الصدقات، كثير النفقات في كل يوم، وقع غلاء بمصر غلاء شديد فتصدق باثني عشر ألف رغيف، لأثني عشر ألف نفس فجزاه اللّٰه خيراً ورحمة في قبره، وبيّض وجهه يوم محشره ومنشره، آمين.

الشيخ الإمام الفقيه العلامة

■ **شهاب الدين الطوسي:** أحد مشايخ الشافعية بديار مصر، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، التي يقال لها منازل العز، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، توفي في هذه السنة، فازدحم الناس على جنازته، وتاسفوا عليه.

الشيخ

■ **ظهير الدين عبد السلام الفارسي:** شيخ الشافعية بحلب، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وتتلمذ للفخر الرازي، ورحل إلى مصر، وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعي فلم يقبل، فصار إلى حلب، فأقام بها إلى أن توفي في هذه السنة.

الشيخ العلامة

■ **بدر الدين بن عسكر:** رئيس الحنفية بدمشق، قال أبو شامة: ويعرف بابن العقادة.

الشاعر الماهر الهُمام العبدي، وهو أبو الحسن

■ **علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس بن ربيعة** وهو بغدادي، قدم دمشق في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان، وفرائد وعقائد وَعِقيان وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك ومَن قبلَه وله:

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص ... وآخر منهم ناقص الحظ كامل

وإني لمثر من خيار وعفّة ... وإن لم يكن عندي من المال طائل

وفيها توفي:

■ **القاضي الفاضل، الإمام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء: أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف: أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني** المولى الأجل القاضي الفاضل، كان أبوه قاضيا بعسقلان، فأرسل ولده في الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء، على الشيخ أبي الفتح قادوس وغيره، فساد أهل البلاد حتى بغداد، ولم يكن له في زمانه نظير ولا عديد، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مماثل ولا مناظر ولا نديد.

ولما استقر الملك صلاح الدين بالديار المصرية، جعله كاتبه وصاحبه، ووزيره، ومشيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وأكرم عليه من طريفه وتلاده وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلدان والحصون والمعاقل، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه.

وقد كان القاضي الفاضل مع كثرة أمواله ووجاهته ورياسته كثير الصدقات والصلات، والصيام والصلاة، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، رحيم القلب، حسن السيرة، طاهر القلب والسريرة، له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية، وأوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ولا الكتاب.

كان مولده في سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، وقد كانت وفاته يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر، واحتفل الناس بجنازته، وزار قبره في اليوم الثاني الملك العادل، وتأسف

عليه، ويقال: إنه استوزر الملك العادل صفي الدين بن شكر، فلما سمع الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة، لما بينهما من المنافسة، فمات، رحمه الله، ولم ينله أحد بضيم ولا أذى، ولا رأى في الدولة من هو أكبر منه، وقد رثاه الشعراء بأشعار حسنة، منها قول القاضي هبة الله بن سناء الملك:

عبد الرحيم على البرية رحمة … أمنت بصحبتها حلول عقابها
يا سائلا عنه وعن أسبابه … نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم أن فيصل خطبه … بخطبا يراعته وفصل خطابها
ولقدْ علتْ رتب الأجل عن الورى … بسموِّ منصبها وطيب نصابها
وأتتْه خاطبة إلي وزارة … ولطالما أعيت على خطابها
ما لقّبوه بها لأن يعلو بها … أسماؤه أغنته عن ألقابها
قال الزمان لغيره إذ رامها … تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من أربابها … وراجع وراءك لست من أصحابها
وبعزِّ سيدنا وسيِّد غيرنا … ذلّت من الأيام شمس صعابها
وأتت سعادته إلى أبوابه … لا كالذي يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها … لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يزول ونفسه … مشغولة بالذكر في محرابها
في الصوم والصلوات أتعب نفسه … وضمان راحته على أتعابها
وتعجل الإقلاع عن لذاته … ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها … منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها … عمالها بذالها وهابها

والعجب أن الفاضل مع براعته وفصاحته التي لا تُدانى ولا تُجارى لا يُعرف له قصيدة طويلة طنّانة وإنما له ما بين البيت والبيتين في أثناء رسائله وغيرها شيء كثير جداً، فمن ذلك قوله:

سبقتم بإسداء الجميل تكرما … وما مثلكم فيمن يحدثُ أو حكى
وكان ظني أن أسابقكم به … ولكن بكت قبلي فهيج لي بكت

ومن ذلك قوله:

ولي صاحب ما خفت من جور … من الدهر إلا كان لي من ورائه
إذا عضني صرف الزمان فإنني … براياته أسطو عليه ورائيه

وله في بدوِّ أمره:

أرى الكتاب كلهم جميعاً … بأرزاق تعمهم سنينا
ومالي بينهم رزقٌ كأني … خلقتُ من الكرام الكاتبينا

وله في النحلة والزلقطة:

ومغردين تجاوبا في مجلس … منعاهما لأذاهما الأقوام
هذا يجود بعكس ما يأتي به … هذا فيحمد ذا وذاك يسام

وله:

بتنا على حالٍ تسرُّ الهوى … لكنهُ لا يمكنُ الشرحُ
بوابنا الليلُ وقلنا لهُ … إن غبت عنا هجم الصبحُ

وسأله الملك العزيز عثمان بن الناصر عن جارية من حظاياه أرسلت إليه زراً من ذهب مغلف بعنبر أسود، فأنشأ الفاضل يقول:

أهدت لك العنبر في وسطه … زرٌّ من التبر رقيق اللحام
فالزر في العنبر معناهما … زُرْ هكذا مختفياً في الظلام

قال ابن خلكان: وقد اختلف في لقبه، فقيل: محيي الدين، وقيل: مجير الدين.

وحُكي عن عمارة اليمني أنه ذكره بذكر جميل، وأن العادل بل الصالح بن رزيك هو الذي استقدمه من الإسكندرية، واستخدمه وقد كان معدودا في حسناته، وقد بسط ابن خلكان ترجمته بنحو ما ذكرنا، وفي هذه زيادة كثيرة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل [ذيل الروضتين: ص١٩]: أن العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف، وعشرين ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشويه والده والداه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضاً فيأكلون من يقدرون عليه، ومن غلب من قويٍّ ضعيفاً ذبحه وأكله، وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فكانوا يذبحون ويؤكلون، كان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله، وقد استدعى رجل طبيبا حاذقا، وكان الرجل موسراً من أهل المال، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه في الطريق ويذكر الله ويسبحه، ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيل منه، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره، فإذا هي خربة، فارتاب الطبيب أيضاً، فخرج صاحبه فقال له: ومع هذا البطء جئت لنا بصيد، فلما سمعها الطبيب هرب، فخرجا خلفه سراعا، فما خلص إلا بعد جهد جهيد.

وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة، لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم لا قاني لها، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يمت منهما أحد، ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على ما كانوا عليه لم يفقد منهم أحد، فسبحان الحكيم العليم.

واتفق باليمن في هذه السنة كائنة غريبة جداً، وهي أن رجلا يقال له عبدالله بن حمزة العلوي، كان قد تغلب على كثير من بلاد اليمن، وجمع نحواً من أثني عشر ألف فارس، ومن الرجالة جمعا كثيراً، وخافه ملك اليمن المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام بن طغتكين بن أيوب، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدي هذا الرجل، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته، واختلاف أمرائه معه في المشورة، فأرسل الله صاعقة، فنزلت عليهم، فلم يبق منهم أحد، سوى طائفة من الخيالة والرجالة، فاختلف

جيشه فيما بينهم، فغشيهم المعز فقتل منهم ستة آلاف، واستقر في ملكه آمنا.

وفيها تكاتب الأخوان الأفضل من صرخد والظاهر من حلب، على أن يجتمعا على حصار دمشق، وينزعاها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل، ثم يسيرا إلى مصر، فيأخذاها من العادل وابنه الكامل، اللذين نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور بن العزيز، ونكثا المواثيق، فإذا استقر لهما ملك مصر كانت للأفضل، وتصير دمشق مضافة إلى الظاهر مع حلب، فلما بلغ العادل ما تمالآ عليه، أرسل جيشاً مددا لابنه المعظم عيسى إلى دمشق، فوصلوا إليها قبل وصول الظاهر وأخيه إليها، وكان وصولهما إليها في ذي القعدة من ناحية بعلبك، فنزلا بجيشهما على مسجد القدم، واشتد الحصار للبلد، وتسلق كثير من الجيش من ناحية خان ابن المقدم، ولم يبق إلا فتح البلد، لولا هجوم الليل، ثم إن الظاهر بدا له فيما كان عاهد أخاه عليه من كون دمشق تكون للأفضل، فرأى أن تكون له أولا، ثم إذا فتحت مصر تسلمها الأفضل، فأرسل إليه في ذلك فلم يقبل الأفضل، فاختلفا وتفرقت كلمتهما، وتنازعا الملك بدمشق، فتفرقت الأمراء عنهما، وكوتب العادل في الصلح، فأرسل يجيب إلى ما سألا، من إقطاعهما شيئاً من بلاد الجزيرة، وبعض معاملة المعرة. وتفرقت العساكر عن دمشق في محرم سنة ثمان وتسعين، وسار كل منهما إلى ما تسلم من البلاد التي أقطعها، وجرت خطوب يطول شرحها، وقد كان الظاهر وأخوه كتبا إلى صاحب الموصل نور الدين أرسلان الأتابكي، أن يحاصر مدن الجزيرة التي مع عمهما العادل، فركب في جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار واجتمع معهما صاحب ماردين الذي كان العادل قد حاصره وضيق عليه مدة طويلة، فقصدت العساكر حران، وبها الفائز بن العادل، فحاصروه مدة، ثم لما بلغهم وقوع الصلح بين العادل وابني أخيه الظاهر والأفضل عدلوا إلى المصالحة، وذلك بعد طلب الفائز ذلك منهم، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانت عليه ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة ملك غياث الدين وأخوه شهاب الدين الغوريان جميع ما كان يملك خوارزم شاه من البلدان والحواصل والأموال، وجرت لهم خطوب طويلة جدا.

وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة، وبلاد الروم والعراق، وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثيرة، وتخربت محال كثيرة، وخسف بقرية من أرض بصرى، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شيء كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأربع عشرة شرفة منه، وغالب الكلاسة والمارستان النوري، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون، وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها، وانفرق البحر إلى قبرص، وقد حذف بالمراكب إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق فسقط بسبب ذلك دور كثيرة، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون، حتى قال صاحب مرآة الزمان [٤٧٨/٢/٨]: إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان نقله في ذيل الروضتين عنه [ص٢٠].

وفي هذه السنة توفي من الأعيان والمشاهير

الشيخ أبو الفرج

■ **ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حُمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي** ـ نسبة إلى فرضة نهر بالبصرة ـ ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، **الشيخ الحافظ الواعظ جمال الدين أبو الفرج المشهور بابن الجوزي**، القرشي التيمي البغدادي الحنبلي.

أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من ألفي مجلدة، وتفرد بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته، وعذوبة كلامه وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة.

هذا وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها، من التفسير، والحديث والتاريخ، والحساب، والنظر في النجوم، والطب، والفقه، وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك ما يضيق هذا المقام عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها كتابه في التفسير المشهور بزاد المسير، وله تفسير أبسط منه ولكنه ليس بمشهور، وله جامع المسانيد، استوعب به غالب مسند الإمام أحمد، وصحيحي البخاري ومسلم، وجامع الترمذي، وله كتاب المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم في عشرين مجلداً، قد أوردنا في كتابنا هذا كثيرا منه من حوادثه وتراجمه، ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخاً، وما أحقه بقول الشاعر:

مازلت تدأب في التاريخ مجتهداً	حتى رأيتك في التاريخ مكتوبا

وله مقامات وخطب، وله الأحاديث الموضوعة، وله العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، وغير ذلك.

ولد سنة عشر وخمسمائة، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين، وكان أهله تجاراً في النحاس، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ، فلزم الشيخ وقرأ عليه، وسمع عليه الحديث، وتفقه بابن الزاغوني، وحفظ الوعظ، ووعظ وهو دون العشرين، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وكان صَيّناً دينا، مجموعا على نفسه لا يخالط أحداً، ولا يأكل مما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء، والملوك والأمراء، والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً، رحمه الله.

وبالجملة كان أستاذاً فرداً في الوعظ له مشاركات حسنة في بقية العلوم، وقد كان فيه بهاء وترفع في نفسه، ويسمو بنفسه أكثر من مقامه، وذلك ظاهر في كلامه في نثره ونظمه، فمن ذلك قوله:

ما زلتُ أدرك ما غلا بل ما علا	وأكابد النهج العسير الأطولا
تجري بي الآمال في حلباته	طَلْقَ السعيد جرى مدى ما أملا
يفضي بي التوفيق فيه إلى الذي أعيا	سواي توصلا وتغلغلا

لو كان هذا العلم شخصا ناطقاً ... وسألته هل زرت مثلي قال: لا

ومن شعره، وقيل: هو لغيره:

إذا قنعت بميسور من القوت ... أصبحت في الناس حراً غير ممقوت

يا قوت نفسي إذا ما در خِلْفُك لي ... فلست آسى على درٍّ وياقوتِ

وله من النظم والنثر شيء كثير لا ينضبط، وله كتاب مفرد سماه لقط الجمان في كان وكان.

ومن لطائف كلامه قوله في الحديث «أعْمَارُ أُمَّتي ما بين السِّتين إلى السَّبْعين» إنما طالت أعمار من قبلنا لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل لهم حثوا المطي.

وقال له رجل: أيهما أفضل؟ أجلس أسبح أو استغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور.

وسئل عمن أوصى وهو في السياق فقال: هذا طين سطوحه في كانون.

والتفت يوماً إلى ناحية الخليفة المستضيء وهو في الوعظ فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك اتق اللّه خير لك من قوله لكم إنكم أهل بيت مغفور لكم، وكان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظالم، فلم أغيره فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين، وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول قَرْقِرْ أو لا تُقرقر، واللّه لا سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس، قال: فبكى المستضيء، وتصدق بمال جزيل، وأطلق المحابيس، وكسى خلقا من الفقراء.

وولد ابن الجوزي في حدود سنة عشر وخمسمائة كما تقدم، وكانت وفاته ليلة الجمعة بين العشاءين، الثاني عشر من رمضان من هذه السنة، وله من العمر سبع وثمانون سنة، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يوماً مشهوداً، حتى قيل: إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام، وشدة الحر رحمه اللّه، وقد أوصي أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفو عمّن ... كثُرَ الذّنبُ لديه

جاءكَ المُذْنِبُ يرجو الـ ... صفحَ عن جُرم يديه

أنا ضيفٌ وجزاءُ الـ ... ضيف إحسانٌ إليه

وقد كان للشيخ جمال الدين بن الجوزي من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز – وهو أكبرهم – مات شابا في حياة والده، في سنة أربع وخمسين، ثم أبو القاسم علي، وقد كان عاقا لوالده إلبا عليه في زمن المحنة وغيرها، وقد تسلط على كتبه في غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن، ثم محيي الدين يوسف، وكان أنجب أولاده وأصغرهم، ولد سنة ثمانين، ووعظ بعد أبيه، واشتغل وحرر، وأتقن وساد أقرانه، ثم باشر حسبة بغداد، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد، ولا سيما بني أيوب بالشام، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية التي بالنشابين بدمشق، وما أوقف عليها، ثم حصل له من سائر الملوك أموالا جزيلة، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم في سنة أربعين ستمائة، واستمر مباشرها إلى أن قتل مع الخليفة عام هولاكو بن تولي بن جنكيزخان.

وكان لأبي الفرج عدة بنات، منهن رابعة أم سبطه أبي المظفر بن قزاوغلي صاحب مرآة الزمان، وهي كتاب من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة، وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات، فأثنى عليه، وشكر تصانيفه وعلومه.

■ **العماد الكاتب الأصبهاني: محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد اللّه بن علي بن محمود بن هبة اللّه بن أُلَه – بتشديد اللام وضمها – المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني**، صاحب المصنفات والرسائل والشعر، وهو قرين القاضي الفاضل، واشتهر في زمنه، ومن اشتهر في زمن الفاضل فهو فاضل.

ولد بأصبهان في سنة تسع عشر وخمسمائة، وقدم بغداد، فاشتغل بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع الحديث ثم رحل إلى الشام، فحظي عند الملك نور الدين محمود بن زنكي، وكتب بين يديه، وولاه المدرسة التي أنشأها داخل باب الفرج التي يقال لها العمادية، نسبة إلى العماد هذا لكثرة سكناه بها، وإقامته فيها، وتدريسه بها، لا أنه أنشأها، وإنما أنشأها نور الدين محمود، ولم يكن هو أول من درس بها، بل قد سبقه إلى تدريسها غير واحد، كما تقدم في ترجمة نور الدين، ثم صار العماد كاتباً في الدولة الصلاحية، وكان القاضي الفاضل يثني عليه ويشكره.

قالوا: وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة، وقريحته في غاية الجودة والحدة، وقد قال القاضي الفاضل لأصحابه يوماً: قولوا فتكلموا وشبهوه في هذه الصفة بصفات فلم يقبلها القاضي، وقال: هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار.

وله من المصنفات: خريدة القصر في شعراء العصر، والفتح القدسي، والبرق الشامي وغير ذلك من المصنفات المسجعة، والعبارات المصرَّعة، والقصائد المطولة، والمعاني والألفاظ المؤثلة.

ومن لطيف تغزّله قوله هذه الأبيات: –

كيف قلتم في مقلتيه فتور ... وأراها بلا فتور تجور

لو بصرتم بطرفه كيف يسبي ... قلتم ذاك كاسرٌ لا كسير

موتر قوس حاجبيه لإصما ... ء فؤادي كأنه موتور

لا تسلني عن العقار فعقلي ... طافح من عقارهنَّ عقير

كيف يصحو من سكره مستهام ... مزجت كأسه الحسان الحور

أورثته سقامها الحدق النجـ ... ـل وأهدت له النحول الخصور

ما تصيد الأسد الخوادر إلاّ ... ظبيات كناسهنَّ الخدور

كل غصنيّة الموشّح هيفا ... ء على البدر جيبها مزرور

وجنات تجني الشقائق منها ... وثنايا كأنها المنثور

وقد كانت وفاته في مستهلِّ رمضان من هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة، رحمه اللّه، ودفن بمقابر الصوفيَّة.

الأمير بهاء الدين

■ **قراقوش**: الفحل الخصي، أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية، كان شهما شجاعا فاتكا، تسلم القصر لما مات العاضد، وعمر سور القاهرة محيطا على مصر أيضاً، وانتهى إلى المقسم، وهو المكان الذي اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية، وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج، ثم دخلها ابن المشطوب، وقد ذكر أنه أسر، فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار، وعاد في حياة الملك صلاح الدين

ففرح به فرحاً شديداً، ولما توفي في هذه السنة احتاط العادل على تركته، وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل.

قال ابن خلكان: وقد نسب إليه أحكام عجيبة، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفا سماه كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش، فذكر أشياء كثيرة جدا، وأظنها موضوعة عليه، فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه، وما كان ليفعل ذلك وهو بهذه المثابة والله أعلم.

■ مكلبة بن عبد الله المستجدي: كان تركياً عابدا زاهدا، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة:

يا رجالَ الليل جدوا ... رب صوت لا يرد

ما يقومُ الليل إلا ... من له عزمٌ وجد

فبكى مكلبة وقال للمؤذن: يا مؤذن زدني، فقال المؤذن:

قد مضى الليلُ وولى ... وحبيبي قدْ تجلّى

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه، فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

■ (ابن نقطة).

أبو منصور بن أبي بكر بن شجاع: المزكلش ببغداد، ويعرف بابن نقطة، كان يدور في أسواق بغداد بالنهار ينشد كان وكان والمواليا، ويسحر الناس في ليالي رمضان، وكان مطبوعا ظريفا خليعا، وكان أخوه الشيخ عبد الغني الزاهد من أكابر الصالحين، له زاوية ببغداد يزار فيها، وكان له أتباع ومريدون، ولا يدخر شيئا يحصل له من الفتوح، تصدق في ليلة بألف دينار وأصحابه صيام لم يدخر منها شيئاً لعشائهم، وزوجته أم الخليفة بجارية من خواصها، وجهزتها بعشرة آلاف دينار إليه، فما حال الحول وعندهم من ذلك شيء بل جميع ذلك يؤثر به ويتصدق به حتى لم يبق عندهم سوى هاون، فوقف سائل ببابه فألح في الطلب فأخرج إليه الهاون فقال: خذ هذا وكل به ثلاثين يوماً، ولا تسأل الناس ولا تشنع على الله عز وجل. وكان من خيار الصالحين.

والمقصود أنه قال لأخيه أبي منصور هذا: ويحك أنت تدور في الأسواق، وتنشد الأشعار، وأخوك من قد عرفت؟ فأنشأ يقول في جواب ذلك بيتين مواليا من شعره على البديهة:

قد خاب من شبه الجزعه إلى الدرّ ... وشابه قبحه إلى مستحسنه حره

أنا مغني وأخي زاهد إلى مره ... في الدار بترين ذي حلوه وذي مره

وقد جرى عنده مرة ذكر قتل عثمان وعلي حاضر بالمدينة، فأنشأ يقول كان وكان، ومن قتل في جواره مثل ابن عفان فاعتذر، يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد، فأرادت الروافض قتله، فاتفق أنه في بعض الليالي يسحر الناس في رمضان، إذا مر بدار الخليفة، فعطس الخليفة في الطارقة فشمته أبو منصور هذا من الطريق في نظم ارتجله على البديهة هوالياً يقول في آخره: أي من عطس في المنظره يرحمك الله، فأرسل إليه مائة دينار، ورسم بحمايته من الروافض، إلى أن مات في هذه السنة رحمه الله.

وفيها توفي مسند الشام: أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر:

■ الخشوعي، شارك ابن عساكر في كثير من مشيخته، وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة، فألحق فيها الأحفاد بالأجداد.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

فيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي في بناء المسجد الجامع بالجبل، فأنفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الفامي، حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفد ما عنده، وما كان معه من المال، فأرسل الملك المظفر كوكبوري بن زين الدين صاحب إربل مالا جزيلا ليتمه به، فكمل، وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من برزة، فلم يمكن من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق، واعتذر بأن هذا يشوّش قبوراً كثيرة للمسلمين، فصنع له بئر وبغل يدور، ووقف عليه وقفٌ لذلك.

وفيها كانت حروب كثيرة، وخطوب طويلة بين الخوارزمية والغورية ببلاد المشرق، بسطها ابن الأثير [الكامل: ١٢/١٧٣]، واختصرها ابن كثير.

وفيها درس بالنظامية مجد الدين يحيى بن الربيع، وخلع عليه خلعة سنية سوداء، وطرحة كحلية، وحضر عنده العلماء والأعيان.

وفيها تولى قاضي القضاة ببغداد أبو الحسن علي بن سليمان الجيلي، وخلع عليه أيضا.

وفيها توفي من الأعيان

القاضي

■ ابن الزكي: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز أبو المعالي القرشي، محيي الدين قاضي قضاة دمشق، وكل منهما كان قاضيا أبوه وجده وأبو جده يحيى بن علي، وهو أول من ولي الحكم بدمشق منهم، وكان جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، وقد ترجمه ابن عساكر في التاريخ ولم يزد على القرشي.

قال الشيخ أبو شامة: ولو كان أمويا عثمانيا كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر، إذ كان فيه شرف لجده، وخاليه محمد وسلطان، فلو كان ذلك صحيحا لما خفي على ابن عساكر.

اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وناب عنه في الحكم، وهو أول من ترك النيابة، وهو أول من خطب بالقدس لما فتحه الملك صلاح الدين كما تقدم بيان ذلك في سنة ثلاث وثمانين، ثم ولاه قضاء دمشق، وأضاف إليه قضاء حلب أيضاً، وكان ناظر أوقاف الجامع، وعزل عنها قبل وفاته بشهور، ووليها شمس الدين بن البيني ضمانا.

وقد كان ابن الزكي ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام، ويمزق كتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة التقوية، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي، ويحفظها أولاده أيضا، وكان له درس في التفسير، يذكره بالكلاسة، تجاه تربة الملك الناصر صلاح الدين، وكان قد وقع بينه وبين الإسماعيلية فأرادوا قتله، فاتخذ له بابا من داره إلى الجامع، ليخرج منه إلى الصلاة، ثم إنه خولط في عقله، فكان يعتريه شبه الصرع، إلى أن توفي في سابع شعبان من هذه السنة، ودفن في تربة بسفح.

■ الخطيب الدولعي: ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي الدولعي، نسبة إلى قرية بالموصل، يقال لها الدولعية، ولد بها في سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعي، وسمع الحديث، فسمع الترمذي على أبي الفتح الكروخي، والنسائي على أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي، ثم قدم دمشق فولي بها الخطابة وتدريس

الغزالية، وكان زاهدا متورعاً، حسن الطريقة، مهيباً في الحق.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، وتولى بعده الخطابة ولد أخيه محمد بن أبي الفضل بن زيد سبعا وثلاثين سنة، وقيل: وقد كان ابن الزكي ولي ولده الزكي الطاهر ، فصلى صلاة واحدة، فتشفع جمال الدين بالأمير فلك الدين أخي العادل، فولاه إياها، فبقي فيها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

الشيخ

■ علي بن علي بن غُليس: اليمني العابد الزاهد، كان مقيما شرقي الكلاسة، وكانت له أحوال وكرامات، نقلها الشيخ علم الدين السخاوي عنه، ساقها أبو شامة عنه في الذيل [ص: ٣٠].

الصدر أبو الثناء

■ حماد بن هبة الله بن حماد الحراني، التاجر، ولد سنة إحدى عشرة عام ولد نور الدين بن زنكي، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرها من البلاد وحدَّث، وتوفي في ذي الحجة.

ومن شعره قوله:

تنقَّلُ المرءِ في الآفاقِ يُكسِبهُ ... محاسناً لم يكـنْ منهـا ببلدتـهِ
أما ترى البيدقَ الشطرنجَ أكسبهُ ... حسنُ التنقل حسناً فوق زينتهِ

الست الجليلة

■ بنفشا بنت عبد الله: عتيقة المستضيء، كانت من أكبر حظاياه، ثم صارت بعده من أكثر النساء صدقة وبراً، وإحسانا إلى العلماء والفقراء، لها بطريق الحجاز معروف، ووقفت مدرسة على الحنابلة وأوقافاً دارّة، ودفنت ببغداد عند تربة معروف الكرخي.

■ ابن المحتسب الشاعر أبو الشكر: محمود بن سليمان بن سعيد الموصلي، يعرف بابن المحتسب، تفقه ببغداد، ثم سافر إلى البلاد، وصحب ابن الشهرزوري وقدم معه، فلما ولي قضاء بغداد ولاه نظر أوقاف النظامية، وكان فاضلاً يقول الشعر الرائق، فمن ذلك:

أسلف لنا في سلافة العنب ... جميع ما يقتنى من الذهب
وانشب مع النفس في معاملة ... فيها بما عندنا من النُشب
جميع ما في الهيمان يحقره الـ ... ـعاقل في لثم ريقها الشَّنب
لا سيَّما إن أتتك كالذَّهب ... قد قلَّدوها عقداً من الحبب
تحرق كفُّ المدير إن وقف الـ ... ـدُّور بها ساعة من اللَّهب
إذا بدا همُّنا ليسترق السَّمع ... برفق للَّهو واللَّعب
تتبعه من سماء راووقها الـ ... ـرائق رجماً بالأنجم الشُّهب
ما قطُّ تبَّت يد لشاربها ... وحقَّ تبَّت يدا أبي لهب
أمرُّ بالكرم خلف حائطه ... تأخذني نشوة من الطَّرب
أسكر بالأمس إن عزمت على الـ ... ـشُّرب غداً إنَّ ذا من العجب
جنَّبها سكرها وصحبتها ... وتحريم شرع لسيِّد العرب
تركتها جانباً ولذت إلى ... ظلِّ إمام منج من النُّوب
الطاهر الطُّهر وابن خير فتى ... وطاهر الخلق طاهر النَّسب
ماذا يقول المدَّاح في رجل ... خليفة اللَّه وابن عمِّ نبي

ومن شعره الرائق له أيضاً:

أهاب وصف الخمر في إهابها ... يا حبَّذا ما كان من مهابها
حبا بها الساقي وقد أقعده ... سكر فزاد السُّكر إذا حبا بها
خطا بها ونيقة شرعيَّة ... على الذي يفلس من خطَّا بها
دعا بها في صدر كلِّ باخل ... وخلَّيا من كلِّ من دعا بها
فتا بها قلب الحسود واشكرا ... كلُّ فتى في الناس قد فتا بها
اعن بها يا أيُّها المغرى بها ... وأسلف النُّضار في أعنابها
ثوى بها كلُّ السرور عندنا ... وإثمها أكبر من ثوابها

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

قال سبط بن الجوزي في المرآه [مرآة الزمان: ٥١٣/٢/١]: في ليلة السبت سلخ المحرم، هاجت النجوم في السماء، وماجت شرقا وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، قال: ولم ير مثل هذا إلا في عام المبعث، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين.

وفي هذه السنة شرع في عمارة سور قلعة دمشق، وابتدئ ببرج الزاوية الغربية القبلية، المجاور لباب النصر. وفيها أرسل الخليفة الناصر الخلع، وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل وبنيه.

وفيها بعث العادل ولده موسى الأشرف لمحاصرة ماردين، وساعده جيش سنجار والموصل، ثم وقع الصلح على يدي الظاهر، على أن يحمل صاحب ماردين للعادل في كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وأن تكون السكة والخطبة للعادل، وأنه متى طلبه بجيشه يحضر إليه.

وفيها كمل بناء رباط المرزبانية، ووليه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهرودي، ومعه جماعة من الصوفية، ورتب لهم من المعلوم والجراية ما ينبغي لمثلهم من إقامتهم بالديار المصرية.

وفيها احتجر الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وإخوته، وسيرهم إلى الرها خوفا من آفاتهم بالديار المصرية.

وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها، وهي من بلاد آذربيجان، لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبحه الله فتحكمت الكفرة في رقاب المسلمين بسببه، وذلك كله غل في عنقه يوم القيامة.

الملك غياث الدين الغوري أخو شهاب الدين: فقام بالملك بعده ولده محمود، وتلقب بلقب أبيه، وكان غياث الدين عاقلا،حازما شجاعاً، لم تكسر له راية مع كثرة حروبه،وكان شافعي المذهب، ابتنى مدرسة هائلة للشافعية، وكانت سيرته حسنة في غاية الجودة وكذا سريرته، رحمه الله.

وفيها توفي من الأعيان

الأمير الكبير فلك الدين أبو منصور:

■ سليمان بن شروة بن خلدك، أخو الملك العادل لأمه، وكانت وفاته في التاسع والعشرين من المحرم، ودفن بداره التي جعلها مدرسة في داخل باب الفراديس في محلة الأفتريس، ووقف عليها الجمان بكمالها، تقبل الله منه.

القاضي ضياء الدين

■ ابن الشهرزوري: أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الموصلي، قاضي قضاة بغداد، وهو ابن أخي قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري، أيام نور الدين، ولما توفي سنة ست وسبعين في أيام الدولة الصلاحية أوصى لولد أخيه هذا بالقضاء فوليه، ثم عزل عنه بابن أبي عصرون، وعوض بالسفارة إلى الملوك، ثم تولى قضاء بلدة الموصل، ثم استدعي إلى بغداد فوليها ستين وأربعة أشهر، ثم استقال الخليفة فلم يقله الخليفة لحظوته عنده، فاستشفع في زوجته ست الملوك على أم الخليفة، وكان لها مكانة عندها، فأجيب إلى ذلك، فصار إلى قضاء حماة لمحبته إياها، وكان يعاب عليه ذلك، وكانت لديه فضائل، وله أشعار رائقة، كانت وفاته في حماة، في نصف رجب رحمه الله.

■ عبيد الله بن علي بن نصر بن حمزة: أبو بكر البغدادي، المعروف بين المرستانية، أحد الفضلاء المشهورين، سمع الحديث وجمعه، وكان طبيباً منجماً، يعرف علوم الأوائل، وأيام الناس، وصنف ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام ورتبه على ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر، وجمع سيرة ابن هبيرة، وقد كان يزعم أنه من سلالة الصديق، فتكلموا فيه بسبب ذلك، وأنشد بعضهم:

دع الأنساب لا تعرض لتيم ... فإن الهجن من ولد الصمم
لقد أصبحت من تيم دعياً ... كدعوى حيص بيص إلى تميم

■ ابن النجا الواعظ: علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين أبو الحسن الدمشقي، الواعظ الحنبلي، وسبط الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي قدم بغداد فتفقه بها، وسمع الحديث، ثم رجع إلى بلده دمشق، ثم عاد إليها رسولا من جهة نور الدين في سنة أربع وستين، وحدث بها، ثم كانت له حظوة عند الملك الناصر صلاح الدين، وهو الذي نمّ على عمارة اليمني وذويه فصلبوا، وكانت له مكانة بمصر، وقد تكلم يوم الجمعة التي خطب فيها بالقدس الشريف بعد الفراغ من الجمعة، وكان وقتاً مشهوداً، وكان يعيش عيشا أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والملابس، وكان عنده أكثر من عشرين سُرية من أحسن النساء، كل واحدة بألف دينار، فكان يطوف عليهن ويغشاهن، وبعد هذا كله مات فقيراً لم يخلف كفنا، وقد أنشد وهو على منبره للوزير طلائع بن رزيك:

مشيبكَ قد قضى صبغ الشباب ... وحل البازُ في وكر الغراب
تنامُ ومقلةُ الحدثان يقظى ... وماناب النوائب عنك ناب
فكيفَ بقاءُ عمرك وهو كنزٌ ... وقد أنفقت منه بلا حساب؟

الشيخ أبو البركات:

■ محمد بن أحمد بن سعيد التكريتي يعرف بالمؤيد، كان أديباً شاعراً، ومما نظمه في الوجيه النحوي حين كان حنبليا فانتقل حنفيا، ثم صار شافعيا، نظم ذلك في حلقة النحو بالنظامية:

الا مبلغ عني الوجيه رسالة ... وإن كان لا تجدي لديه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما اعوزتك المآكلُ
وما اخترت رأي الشافعي تديُناً ... ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنتَ لا شك صائرٌ ... إلى مالك فافطن إلى ما أنت قائلُ؟

الست الجليلة المصونة

■ زمرد خاتون: أم الخليفة الناصر لدين الله بن المستضيء، كانت صالحة عابدة، كثيرة البر والإحسان والصلات والأوقاف، عمرت المصانع بطريق الحجاز الشريف وأصلحت الطرقات وقد بنت لها تربة إلى جانب قبر معروف الكرخي، وكانت جنازتها مشهورة جداً، واستمر العزاء بسببها شهراً، عاشت في خلافة ولدها أربعا وعشرين سنة، نافذة الكلمة مطاعة الأوامر.

وفي هذه السنة كان مولد الشيخ شهاب الدين أبي شامة، قد ترجم نفسه عند ذكر مولده في هذه السنة في الذيل [ص: ٣٧]، ترجمة مطولة، فينقل إلى سنة وفاته رحمه الله، وذكر بدو أمره، واشتغاله، ومصنفاته، وشيئا كثيراً من أشعاره، وما رئي له من المنامات المبشرة.

وفي هذه السنة كان ابتداء ملك جنكيز خان، ملك التتار، عليه من الله ما يستحقه، وهو صاحب الياسق، وضعها ليتحاكموا إليها - يعني التتار ومن معهم من أمراء الترك ممن يبتغي حكم الجاهلية وهو والد تولي، وجد هولاكو بن تولي - الذي قتل الخليفة المستعصم وأهل بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سنة ستمائة من الهجرة النبوية

في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فيما كانوا زاعمين فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية، فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسرا، وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا، وأحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلا أو فقيراً أو مكبولا أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منها إلى كنيستها العظمى المسماة بـ (صوفيا)، فقصدهم الفرنج، فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل، ليتوسلوا إليهم، ويتلوا عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك، بل قتلوهم أجمعين، أكتعين أبصعين. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلى والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصلبان والحيطان، والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة، وهم دوقس البنادقة، وكان شيخا أعمى تقاد فرسه، ومركيس الافرنسيس، وكند أفلند، وكان أكثرهم عدداً وعدداً، فخرجت القرعة له ثلاث مرات، فولوه ملك القسطنطينية، وأخذ الملكان الآخران بعض البلاد، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة ﴿قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ [آل عمران: ٢٦] ولم يبق بأيدي الروم هنالك إلا ما وراء الخليج استحوذ عليها رجل منهم يقال له لشكري، ولم يزل مالكا لتلك الناحية حتى توفي، لعنة الله ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقووا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا، وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد ومصابرة عظيمة، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم السلطان شيئا من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة جرت حروب كثيرة بين الخوارزمية والغورية بالمشرق يطول ذكرها.

وفيها تحارب صاحب الموصل نور الدين وقطب الدين بن عماد زنكي صاحب سنجار، وساعد الأشرف بن العادل القطب، ثم اصطلحوا، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واقفة الأتابكية التي بالسفح، وبها تربتها.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام والجزيرة وقبرص، وغيرها من البلاد، قاله ابن الأثير في كامله [١٢/١٩٨].

وفيها تغلب رجل من التجار يقال له محمود بن محمد الحميري على بعض بلاد حضرموت ظفار وغيرها، واستمرت أيامه إلى سنة تسع عشرة وستمائة وما بعدها.

وفي جمادى الأولى منها عقد مجلس لقاضي القضاة ببغداد، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سليمان الحلبي بدار الوزير، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشا، فعزل في ذلك المجلس، وفسق، ونزعت الطرحة عن رأسه، وكانت مدة ولايته ستين وثلاثة أشهر.

وفيها كانت وفاة الملك

■ ركن الدين بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم ما بين ملطية وقونية، وكانت فيه شهامة وصرامة غير أنه كان ينسب إلى اعتقاد الفلاسفة، وكان كهفاً لمن ينسب إلى ذلك، وملجأ لهم، وظهر منه قبل موته تجهم عظيم، وذلك أنه حاصر أخاه شقيقه ـ وكان صاحب أنكورية، وتسمى أيضاً أنقرة ـ مدة سنين، حتى ضيق عليه الأقوات بها، فسلمها إليه قسراً، على أن يعطيه بعض البلاد، فلما تمكن منه ومن أولاده، أرسل إليهم من قتلهم،غدراً وخديعة ومكراً فلم ينظر بعد ذلك إلا خمسة أيام،فضربه الله تعالى بالقولنج سبعة أيام ومات ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض وما كانوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] وقام بالملك من بعده ولده قلج أرسلان، وكان صغيراً فبقي سنة واحدة، ثم نزع منه الملك، وصار إلى عمه كنخسرو.

وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسط و لله الحمد.

قال ابن الأثير: في رجب منها اجتمع جماعة من الصوفية برباط ببغداد في سماع فأنشدهم الحادي، وهو الجمال الحلي:

عُويذلـتي أقصـري	كفـى بمشـيبي عـذلْ
شـبابٌ كـان لم يكـن	وشـيبٌ كـان لم يـزلْ
وحـقّ ليـالِ الوصـا لـ	أواخرهـا والأولْ
وصفـرة لـون المحـب	عنـد اسـتماع الغـزلْ
لئـن عـاد عيشـي بكـم	حـلا لي العيـشُ لي واتصـل

قال فتحرك الصوفية على العادة، فتواجد من بينهم رجل يقال له أحمد بن إبراهيم الرازي، فخر مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو ميت، قال: وكان رجلا صالحا.

وقال ابن الساعي كان شيخا صالحا، صحب الصدر عبد الرحيم شيخ الشيوخ، فشهد الناس جنازته، ودفن بباب أبرز.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو محمد القاسم بهاء الدين: الحافظ ابن الحافظ أبي القاسم علي بن هبة الله

■ ابن عساكر، كان مولده في سنة سبع وعشرين وخمسمائة، أسمعه أبوه الكثير، وشارك أباه في أكثر مشايخه، وكتب تاريخ أبيه مرتين بخطه، وكتب الكثير، وأسمع وصنف كتبا عدة، وخلف أباه في إسماع الحديث بالجامع الأموي، ودار الحديث النورية.

وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر على أبيه، بمقابر باب الصغير شرقي قبور الصحابة، خارج الحظيرة رحمهما الله.

■ (عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي).

الحافظ: عبد الغني المقدسي بن عبد الواحد بن علي بن سرور الحافظ أبو محمد المقدسي، صاحب التصانيف المشهورة، من ذلك: الكمال في أسماء الرجال، والأحكام الكبرى والصغرى، وغير ذلك.

ولد بجماعيل في ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وهو أسن من ابن خالته الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، بأربعة أشهر، وكان قدومهما مع أهلهما من بيت المقدس إلى مسجد أبي صالح خارج باب شرقي أولا، ثم انتقلوا إلى السفح، فعرفت محلة الصالحية بهم، فقيل لها الصالحية، فسكنوا الدير.

وقرأ الحافظ عبد الغني القرآن، وسمع الحديث، وارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ستين وخمسمائة، فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده في المدرسة، وكان لا يترك أحداً ينزل عنده، ولكن توسم فيهما الخير والنجابة والصلاح، فأكرمهما وأسمعهما، ثم توفي بعد مقدمهما بخمسين ليلة رحمه الله.

وكان ميل عبد الغني إلى الحديث وأسماء الرجال، وميل الموفق إلى الفقه، واشتغلا على الشيخ أبي على الشيخ أبي الفتح بن المني، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، فدخل عبد الغني إلى مصر وإسكندرية، ثم عاد إلى دمشق، ثم ارتحل إلى الجزيرة وبغداد، ثم رحل إلى أصبهان، فسمع بها الكثير، ووقف على مصنف للحافظ أبي نعيم في أسماء الصحابة.

قلت: وهو عندي بخط أبي نعيم.

فأخذ في مناقشته في أماكن من الكتاب، في مائة وتسعين موضعاً، فغضب بنو الخجندي من ذلك، فبغضوه، وأخرجوه منها مختفياً في إزار، ولما دخل في طريقه إلى الموصل سمع كتاب العقيلي في الجرح والتعديل، فثار عليه الحنفية بسبب أبي حنيفة، فخرج منها أيضاً خائفاً يترقب.

فلما ورد دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة، برواق الحنابلة من جامع دمشق، فاجتمع الناس عليه وإليه، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة، فحصل له قبول من الناس جدا، فحسده الدماشقة، وجهزوا الناصح ابن الحنبلي، فتكلم تحت قبة النسر، وأمروه أن يجهر بصوته مهما أمكنه، حتى يشوش عليه، فحول عبد الغني ميعاده إلى بعد العصر، فذكر يوماً عقيدته على الكرسي، فثار عليه القاضي محيي الدين ابن الزكي، والخطيب وضياء الدين الدولعي، وعقدوا له مجلساً في القلعة، يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة خمسة وتسعين، وتكلموا معه في مسألة العلو ومسألة النزول، ومسألة الحرف والصوت، وطال الكلام، وظهر عليهم بالحجة، حتى قال له الصارم برغش والي القلعة: كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم. فغضب برغش من ذلك وأمره بالخروج من البلد، فارتحل بعد ثلاث إلى بعلبك، ثم إلى الديار المصرية، فآواه الطحانون، فكان يقرأ الحديث بها، فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً، وكتبوا إلى الوزير صفي الدين بن شكر، فأمر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وله تسع وخمسون سنة، ودفن بالقرافة، عند قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق رحمهما الله.

قال السبط [مرآة الزمان: ٥٢١/٢/٨]: كان عبد الغني ورعا زاهدا عابداً، يصلي كل يوم ثلاثمائة ركعة كورد الإمام أحمد، ويقوم الليل، ويصوم عامة السنة، وكان كريما جواداً لا يدخر شيئا، ويتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد، وكان يرقع ثوبه ويؤثر بثمن الجديد، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ.

قلت: وقد هذب شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي تغمده الله برحمته كتابه الكمال في أسماء الرجال ـ رجال الكتب الستة ـ بتهذيبه الذي استدرك عليه فيه أماكن كثيرة، نحواً من ألف موضع، وذلك أنه الإمام المزي الذي لا يمارى ولا يجارى، وكتابه التهذيب لم يسبق إلى مثله، ولا يلحق في مثل شكله، فرحم الله صاحبي التهذيب والكمال، فلقد كانا نادرين في زمانيهما في أسماء الرجال حفظا وإتقانا، وسماعا وإسماعا وسرداً للمتون وأسماء الرجال.

قال ابن الأثير في الكامل [١٩٩/١٢] وفيها توفي.

أبو الفتوح

■ أسعد بن محمود العجلي: صاحب تتمة التتمة، أسعد بن أبي الفضل بن محمود بن خلف العجلي الفقيه الشافعي الأصبهاني، الواعظ متجنب الدين، سمع الحديث، وتفقه وبرع، وصنف تتمة التتمة لأبي سعد الهروي.

كان زاهدا عابدا، وله شرح مشكلات الوسيط والوجيز.

قال ابن خلكان توفي في صفر سنة ستمائة.

■ البناني الشاعر: أبو عبد الله محمد بن المهنا، الشاعر المعروف بالبناني، مدح الخلفاء والوزراء والأمراء وغيرهم، كبر وعلت سنه، وكان رقيق الشعر لطيفة، فمن قوله:

ظلما ترى مغرماً في الحب تزجره ... وغرّة بالهوى أمسيت تنكره
يا عاذل الصب لو عاتبت قاتله ... لوجنة وعذار كنت تعذره
أفدي الذي سحر عينيه يعلمني ... إذا تصدى لقتلي كيف أسحره
يستمتع الليل في نوم وأسهره ... إلى الصباح وينساني وأذكره

وله أيضاً:

بكرتْ تُديرُ على العواذلْ ... وتجرُّ ذيلاً في الخمائلْ
وتهزُّ في ثنيي الغلا ... ئل رِدْفهـا هزَّ الذوابلْ
وتقول للغصن الرطيـ ... ـب إذا تمائل أو تمايلْ
بيضاء صبغة خدّها ... تَنْمي وصبغُ السود حائلْ
شَهْدُ الحياةِ وصالُها ... وصدورها سمُّ القواتلْ

أبو سعيد

■ الحسن بن خالد بن المبارك بن محضر النصراني الماردينى، الملقب بالوحيد، اشتغل في حداثته بعلم الأوائل وأتقنه، وبرز فيه وكانت له يد طولى في الشعر الرائق، فمن ذلك قوله قاتله الله:

أتاني كتاب أنشأته أنامل ... حوت أبحراً من فيضها يغرق البحر
فوا عجبا أنى النوت فوق طرسه ... وما عودت بالقبض أنمله العشر

وله أيضاً لعنه الله:

لقد أثرت صدغاه في لون خده ... ولاحا كفيء من وراء زجاج
ترى عسكراً للروم في الزنج قد بدتْ ... طلائعه تسعى ليوم هياج

أم الصبح بالليل البهيم موشح ... حكى ابنوساً في صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده ... فسيّجه من شعره بسياج

■ الطاوسي صاحب الطريقة العراقي بن محمد بن العراقي: ركن الدين أبو الفضل القزويني ثم الهمذاني، المعروف بالطاوسي، كان بارعا في علم الخلاف والجدل والمناظرة، أخذ هذا الشأن عن الشيخ رضي الدين النيسابوري الحنفي، وصنف في ذلك ثلاث تعاليق.

قال ابن خلكان: أحسنهن الوسطى، وكانت إليه الرحلة بهمذان، وقد بنى له بعض الأمراء الحجبة بها مدرسة تعرف بالحاجبية، وكانت وفاته في هذه السنة ويقال: إنه منسوب إلى طاوس بن كيسان التابعي فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

فيها عزل الخليفة الناصر ولده محمد الملقب بالظاهر عن ولاية العهد، بعدما خطب له بذلك سبع عشرة سنة، وولي العهد ولده الآخر عليا، فمات علي عن قريب، فعاد الأمر إلى الظاهر، فبويع له بالخلافة بعد أبيه الناصر، كما سيأتي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

وفيها وقع حريق عظيم بدار الخلافة في خزائن السلاح، فاحترق من ذلك شيء كثير، من السلاح والأمتعة والمساكن، ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وشاع خبر هذا الحريق في الناس، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضا عن ذلك، وفوقه من ذلك شيئا كثيراً.

وفيها عاثت الكرج ببلاد المسلمين فقتلوا خلقا، وأسروا آخرين.

وفيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسني، وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني، وكان قتادة قد قصد المدينة فحصر سالما فيها، فركب إليه سالم بعد ما صلى عند الحجرة النبوية، فاستنصر الله على قتادة، ثم برز إليه فكسره، وساق وراءه إلى مكة فحصره بها، ثم إن قتادة أرسل إلى أمراء سالم فأفسدهم عليه، فكر سالم راجعاً إلى المدينة سالماً.

وفيها ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بلاد الروم، واستلبها من ابن أخيه، واستقر هو بها، وعظم شأنه، وقويت شوكته، وكثرت عساكره، وأطاعه الأمراء وأصحاب الأطراف، وخطب له الأفضل بن صلاح الدين بسميساط، وسار إلى خدمته.

واتفق في هذه السنة أن رجلا ببغداد نزل إلى دجلة يسبح فيها، وأعطى ثيابه لغلامه، فغرق في الماء، فوجد في ورقة بعمامته هذه الأبيات:

يا أيها الناس كان لي أملُ ... قصر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتق الله ربه رجلٌ ... أمكنهُ في زمانه العمل
ما أنا وحدي نُقلتُ حيث ترى ... كلٌ إلى مثله سينتقلُ

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الحسن

■ علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت الحلي: المعروف بشميم، كان شيخا أديباً، فاضلاً لغويا شاعراً، جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبي تمام، وله خمريات يزعم أنها أفحل من التي لأبي نواس.

قال أبو شامة في الذيل [ص: ٥٢]: كان قليل الدين، ذا حماقة ورقاعة وخلاعة، وله حماسة ورسائل.

قال ابن الساعي: قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب، حصل منه طرفا صالحا، ومن اللغة وأشعار العرب، ثم أقام بالموصل حتى توفي بها، ومن شعره في حماسته:

لا تسرحَنّ الطرفَ في بقْر المها ... فمصَارعُ الآجالِ في الآجالِ
كم نظرةٍ أردَتْ وما أخذتْ يدُ ... المُصْمي بمن قتلت أداةَ قتالِ
سنحت وما سمحت بتسليم ... وإقلالِ التحيةِ فعلـةِ المغتالِ

ومن خمريّاته قوله:

أمزجْ بمسبوكِ اللُّجين ... دماً حكَتْه دموعُ عيني
لما نَعَى ناعي الفرا ... قِ بين من أهوى وبيني
خفقت لنا شمسان من ... لألائها في الخافقين
وبَدَتْ لنا في كأسها ... من لونها في حُلّتين

وله في التجنيس:

ليت من طول ... بالشام نواه وثوى به
جعل العود إلى الزو ... راء من بعض ثوابه
أترى يوطنني الدهر ... ثرى مسك ترابه
وأرى أي نور عيني ... موطنا لي وترى به

أبو نصر

■ محمد بن سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجي، كان سخياً بهياً، واعظا حنبلياً، فاضلا شاعرا فمن قوله.

نفسُ الفتى إن أصلحت أحوالها ... كان إلى نيلِ المنى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها ... كان على حملِ العلى أقوى لها
فإن تبدلت حال من لها لها ... في قبره عند البلى لها لها

أبو العباس

■ أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي الخزرجي، كان إماما في التفسير والفقه، والحساب والفرائض، والنحو واللغة، والعروض والطب، وله تصانيف حسان، وشعر رائق منه قوله:

وفي الوجنات ما في الروض لكن ... لرونق زهرها معنى عجيبٌ
وأعجبُ ما التعجبُ عنه أني ... لتيار يحمله قضيبُ

أبو الفداء

■ إسماعيل بن برنقش السنجاري: مولى صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وكان جنديا، حسن الصورة، مليح النظم كثير الأدب، ومن شعره ما كتب له إلى الأشرف موسى بن العادل يعزيه في أخ له اسمه يوسف:

دموع المعالي والمكارم ذرّف ... وربع العلى قاع لفقدك صفصف
غدا الجود والمعروف في اللحد ثاويا ... غداة ثوى في ذلك اللحد يوسف
فتىً خطفت يد المنية روحه ... وقد كان للأرواح بالبيض يخطف
سقته ليالي الدهر كأس حمامها ... وكان بسقي الموت في الحرب يعرف

فوا حسرتا لو ينفع الموت حسرة ... ووا أسفا لو كان يجدي التأسف
وكانت على الأرزاء نفسي قوية ... ولكنها عن حمل ذا الرزء تضعف

■ أبو الفضل ابن إلياس بن جامع بن علي الإربلي: تفقه بالنظامية وسمع الحديث، وصنف التاريخ وغيره، وتفرد بحسن كتابة الشروط، وله فضل ونظم، فمن شعره:

أممرض قلبي، ما لهجرك آخر ... ومسهر طرفي، هل خيالك زائر
ومستعذب التعذيب جوراً بصده ... أما لك في شرع المحبة زاجر؟
هنيئاً لك القلب الذي قد وقفته ... على ذكر أيامي وأنت مسافر
فلا فارق الحزن المبرح خاطري ... لبعدك حتى يجمع الشمل قادر
فإن مت فالتسليم مني عليكم ... يعاودكم ما كبر اللّه ذاكر

■ أبو السعادات الحلي: التاجر البغدادي الرافضي، كان في كل جمعة يلبس لأمة الحرب، ويقف خلف باب داره، وهو مجاف عليه، والناس في صلاة الجمعة، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا - يعني محمد بن الحسن العسكري - ليميل بسيفه في الناس نصرة للمهدي.

■ أبو غالب بن كمُّونة اليهودي: الكاتب، كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه، توفي لعنه اللّه بمطمورة واسط، ذكره ابن الساعي في تاريخه [٩/١٦٥].

ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة

فيها وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين محمد بن سام الغوري، صاحب غزنة، وبين بني كوكر أصحاب الجبل الجودي، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام، فقاتلهم وكسرهم، وغنم منهم شيئاً كثيراً لا يعد ولا يوصف، فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة في ليلة مستهل شعبان منها بعد العشاء، وكان رحمه اللّه من أجود الملوك سيرة، وأعقلهم وأثبتهم في الحرب، ولما قتل كان في صحبته فخر الدين الرازي وكان يجلس للوعظ بحضرة الملك ويعظه، وكان السلطان يبكي حين يقول في آخر مجلسه يا سلطان سلطانك لا يبقى، ولا تلبيس الرازي أيضا، وإن مردنا جميعاً إلى اللّه، وحين قتل السلطان اتهمه بعض الخاصكية بقتله، فخاف من ذلك، والتجأ إلى الوزير مؤيد الملك بن خواجا، فسيره إلى حيث يأمن، وتملك غزنة بعده أحد مماليكه تاج الدين الدز، وجرت بعد ذلك خطوب يطول ذكرها، قد استقصاها ابن الأثير وابن الساعي.

وفيها أغارت الكرج على بلاد المسلمين، فوصلوا إلى خلاط، فقتلوا وسبوا، وقاتلهم المقاتلة والعامة.

وفيها سار صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري وصحبته صاحب مراغة لقتال ملك أذربيجان، وهو أبو بكر بن البهلوان، وذلك لتكوله عن قتال الكرج، وإقباله على السكر ليلا ونهاراً، فلم يقدروا عليه، ثم إنه تزوج في هذه السنة بنت ملك الكرج، فانكف شرهم عنه.

قال ابن الأثير: وكان كما يقال أغمد سيفه وسل أيره.

وفيها استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي ناصر العلوي الحسني، وخلع عليه بالوزارة، وضربت الطبول بين يديه وعلى بابه في أوقات الصلوات.

وفيها أغار صاحب بلاد الأرمن وهو ابن لاون على بلاد حلب، فقتل

وسبى ونهب، فخرج إليه الملك الظاهر غازي بن الناصر، فهرب ابن لاون بين يديه، فهدم الظاهر قلعة كان قد بناها ودكها إلى الأرض.

وفي شعبان منها هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي، ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموي بسفارة الوزير صفي الدين بن شكر، وزير العادل، وكمل تبليطه في سنة أربع وستمائة.

وفيها توفي من الأعيان

شرف الدين أبو الحسن:

■ علي بن محمد بن علي جمال الإسلام الشهرزوري، بمدينة حمص، وقد كان أخرج إليها من دمشق، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف.

التقي

■ عيسى بن يوسف بن أحمد العراقي الغرافي الضرير، مدرس الأمينية أيضاً، كان يسكن المنارة الغربية، وكان عنده شاب يخدمه ويقود به، فعدم للشيخ دراهم فاتهم هذا الشاب بها، فلم يثبت له عنده شيئا، واتهم به الشيخ، ولم يكن يظن الناس أن عنده من المال شيء، فضاع المال واتهم عرضه، فأصبح يوم الجمعة السابع من ذي القعدة مشنوقا ببيته بالمئذنة الغربية، فامتنع الناس من الصلاة عليه لكونه قتل نفسه، فتقدم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فائتم به بعض الناس.

قال أبو شامة: وإنما حمله على ما فعله ذهاب ماله، والوقوع في عرضه، قال: وقد جرى لي أخت هذه القضية فعصمني اللّه سبحانه بفضله.

قال: وقد درس بعده في الأمينية الجمال المصري وكيل بيت المال.

■ أبو الغنائم الركيسلار البغدادي: كان يخدم مع عز الدين نجاح الشرابي، وحصل أموالا جزيلة، كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده، وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم، فمرض الموصى إليه بعد قليل، فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن ما في يده لورثة أبي الغنائم، فتمادى ورثته بإحضار الشهود وطولوا عليه، وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك، ولم يعطوا أولاد أبي الغنائم منها شيئا مما تركه أبوهم.

أبو الحسن

■ علي بن سعاد الفارقي: تفقه ببغداد، وأعاد بالنظامية وناب في تدريسها، واستقل بتدريس المدرسة التي أنشأتها أم الخليفة، وأريد على نيابة القضاء عن أبي طالب علي بن علي البخاري فامتنع، فألزم به فباشره قليلا، ثم دخل يوماً إلى مسجد فلبس على رأسه مئزر صوف، وأمر الوكلاء والجلاوذة أن ينصرفوا عنه، وأشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء، واستمر على الإعادة والتدريس رحمه اللّه.

وفي يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت.

■ الخاتون: أم السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل، فدفنت بالقبة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون.

الأمير مجير الدين

■ طاشتكين المستجدي: أمير الحاج، وزعيم بلاد خوزستان، كان شيخاً خيراً، حسن السيرة، كثير العبادة، غاليا في التشيع، توفي بتستر ثاني جمادى الآخرة، سنة ثنتين وستمائة وحمل تابوته إلى الكوفة، فدفن بمشهد علي لوصيته بذلك، هكذا ترجمه ابن الساعي في تاريخه [١٨٦/٩].

وذكر أبو شامة في الذيل [ص: ٥٣]: أنه مجير طاشتكين بن عبد اللّه المقتفوي أمير الحاج، حج بالناس ستا وعشرين سنة، كان يكون في الحجاز كأنه ملك، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة، ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان، ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية إقطاعه، وكان شجاعا جواداً، سمحا، قليل الكلام، يمضي عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة، وكان فيه حلم واحتمال، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه، فقال له الرجل المستغيث: أحمار أنت؟ فقال: لا. وفيه يقول ابن التعاويذي:

وأميرٌ على البلاد مولى ... لا يجيب الشاكي بغير السكوت
كلما زاد رفعة حطنا اللّـه ... بتغفيله إلى البهموتِ

وقد سرق فراشه حياصة له فأرادوا أن يستقروه عليها، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال: لا تعاقبوا أحدا، قد أخذها من لا يردها، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة، واتفق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقف، فقال فيه بعض المضحكين: هذا لا يوقن بالموت، عمره تسعون سنة واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة، فاستضحك القوم، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

فيها جرت أمور طويلة ببلاد المشرق، بين الغورية والخوارزمية، وملكهم خوارزم شاه محمد بن تكش ببلاد الطالقان.

وفيها ولي الخليفة الناصر القضاء ببغداد لعماد الدين أبي القاسم عبد اللّه بن الدامغاني.

وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني، بسبب فسقه وفجوره، وأحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك، لما فيها من كتب الفلاسفة، وعلوم الأوائل، وأصبح يستعطي من الناس، وهذا بخطيئة قيامه على الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، فإنه هو الذي كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب، حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزي، وختم على بقيتها، ونفي إلى واسط خمس سنين، والناس يقولون: في اللّه كفاية وفي القرآن، ﴿وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] والصوفية يقولون: الطريق تأخذ حقها، والأطباء يقولون: الطبيعة مكافئة.

وفيها نازلت الفرنج حمص فقاتلهم ملكها أسد الدين شيركوه، وأعانه بالمدد الملك الظاهر صاحب حلب، فكف اللّه شرهم. وللّه الحمد والمنة.

وفيها اجتمع شابان ببغداد على الخمر فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله وهرب، فأخذ فقتل، فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه أمر أن تجعل بين أكفانه:

قدمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال بالقلب السليمِ
وسوء الظن أن تعتد زاداً ... إذا كان القدوم على كريمِ

وفيها توفي من الأعيان

الفقيه العالم أبو منصور:

■ عبد الرحمن بن الحسين بن النعمان النيلي، الملقب بالقاضي شريح

لذكائه وفضله، وبراعته وعقله وكمال أخلاقه، ولي قضاء بلده، ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده في الكتابة فخدمه عشرين سنة، ثم وشى به الوزير ابن مهدي إلى الخليفة، فحبسه في دار طاشتكين إلى أن مات في هذه السنة، ثم إن الوزير الواشي عما قريب حبس بها أيضاً، وهذا من العجب الغريب.

■ (عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني).

عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر: كان ثقة،عابداً زاهداً ورعاً، لم يكن في أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني خير منه، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات، بل كان متقللا من الدنيا، مقبلا على أمر الآخرة، وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً.

أبو الحرم

■ مكي بن زيان بن شبة بن صالح الماكسيني، من أعمال سنجار، ثم الموصلي النحوي، قدم بغداد وأخذ عن ابن الخشاب وابن القصار، والكمال الأنباري، وقدم الشام فانتفع بـه خلق كثير، منهم الشيخ علم الدين السخاوي وغيره، وكان ضريراً، وكان يتعصب لأبي العلاء المعري، لما بينهما من القدر المشترك في الأدب والعمى، ومن شعره:

إذا احتاج النَّوالُ إلى شفيع ... فلا تقبلهُ تضحي قرير عين
إذا عيف النوال لِفَرد منٍّ ... فأولى أن يعاف لمنتين

ومن شعره أيضاً:

نفسي فداء لأغيد غنج ... قال لنا الحق يوم ودعنا
من ود شيئا من حبه طمعا ... في قُبلة للوداع وَدَّ عَنَّا

■ إقبال الخادم: جمال الدين أحد خدام صلاح الدين، واقف الإقباليتين الشافعية والحنفية، وكانتا دارين له فجعلهما مدرستين، ووقف عليهما وقفاً: الكبيرة للشافعية وعليها ثلثا الوقف والصغيرة للحنفية، وعليها ثلثا الوقف. وكانت وفاته بالقدس الشريف رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

فيها رجع الحاجُ إلى العراق، وهم يدعون الله ويشتكون إليه ما لقوا من صدر جهان البخاري الحنفي، الذي كان قدم بغداد في رسالة فاحتفل به الخليفة، وخرج إلى الحج في هذه السنة، فضيق على الناس في المياه والميرة، فمات نحوٌ من ستة آلاف من حجيج العراق، وكان فيما ذكر يأمر غلمانه فتسبق إلى المناهل فيحجزون على المياه ويأخذون الماء فيرشونه حول خيمته في قيظ الحجاز، ويسقونه للبقولات التي كانت تحمل معه في ترابها، ويمنعون منه الناس وابن السبيل، والأمين البيت الحرام، يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً، فلما رجع مع الناس لعنته العامة، ولم تحتفل به الخاصة، ولا أكرمه الخليفة ولا أرسل إليه أحداً، وخرج من بغداد والعامة من ورائه يرجمونه ويلعنونه، وسماه الناس هذه السنة صدر جهنم، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يزيدنا شفقة ورحمة لعباده، فإنه إنما يرحم من عباده الرحماء.

وفيها قبض الخليفة على وزيره ابن مهدي العلوي، وذلك أنه نسب إليه لأنه يروم الخلافة، وقيل غير ذلك من الأسباب، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها، وكان جباراً عنيداً، حتى قال بعضهم فيه:

خليلي قولا للخليفة أحمدٍ ... توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما ... صنيعك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقاً من سلالة حيدر ... فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق ... فأضيع ما كانت لديه الصنائع

وقيل: إنه كان عفيفاً عن الأموال، حسن السيرة جيد المباشرة، فاللّهُ أعلم بحالة.

وفي رمضان منها رتب الخليفة ببغداد عشرين داراً للضيافة، يفطر فيها الصائمون من الفقراء، يطبخ لهم في كل يوم طعام كثير، فجزاه الله خيراً ويحمل إليها أيضاً من الخبز النقي والحلواء شيء كثير، وهذا الصنيع يشبه ما كانت قريش تفعله من الرفادة في زمن الحج، وكان يتولى ذلك عمه أبو طالب، كما كان جدّه العباس يتولى السقاية، وقد كانت فيهم السفارة واللواء والندوة له، كما تقدم بيان ذلك في مواضعه، وقد صارت هذه المناصب كلها على أتم الأحوال في الخلفاء العباسيين.

وفيها أرسل الخليفة الشيخ شهاب الدين السهروَردي وفي صحبته سنقر السلحدار إلى الملك العادل بالخلعة السنية وفيها الطوق والسواران، وإلى جميع أولاده بالخلع أيضاً.

وفيها ملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين مدينة خلاط بعد قتل صاحبها شرف الدين بن بكتمر وكان شابا جميل الصورة جداً، قتله بعض مماليكهم، ثم قتل القاتل أيضاً، فخلا البلد عن ملك فأخذها الأوحد بن العادل كما ذكرنا.

وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر منَ الخِطا بعد حروب طويلة.

اتفق له في بعض الأيام أمر عجيب، وهو أن المسلمين انهزموا عن السلطان خوارزم شاه، في بعض المواقف وبقي معه عصابة قليلة من أصحابه، فقتل منهم كفار الخطا من قتلوا، وأسروا خلقا منهم، وكان السلطان خوارزم شاه في جملة من أسروا، أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدري أنه الملك، وأسر معه أميراً يقال له ابن مسعود، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الإسلامية إلى مقرها، فقدوا من بينهم السلطان فاختبطوا فيما بينهم، واختلفوا اختلافا كثيراً، وانزعجت خراسان بكمالها، ومن الناس من ظن أن السلطان قد قتل.

وأما ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير، فقال الأمير للسلطان: إني أرى من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك في هذه الحالة، وتظهر أنك غلام لي، فقبل منه ما قال وأشار به، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسه ثيابه، ويسقيه الماء، ويصنع له الطعام، ويضعه بين يديه، ولا يألو جهداً في خدمته، فقال الذي أسرهما: إني أرى هذا يخدمك فمن أنت؟ فقال: أنا ابن مسعود الأمير، وهذا غلامي، فقال: والله لو علم الأمراء أني قد أسرت أميراً لأطلقتك، فقال له: إني إنما أخشى على أهلي، فإنهم يظنون أني قد قتلت ويقيمون المأتم، فإن رأيت أن تفاديني على مال وترسل من يقبضه منهم فعلت خيراً، فقال: نعم، فعين رجلا من أصحابه فقال له الأمير ابن مسعود: إن أهلي لا يعرفون هذا ولكن إن رأيت أن أرسل معه غلامي هذا فعلت ليبشرهم بحياتي فإنهم يعرفونه، ثم يسعى في تحصيل المال، فقال: نعم، فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم.

فلما دنوا من مدينة خوارزم سبق الملك إليها، فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شديداً، ودقت البشائر في سائر بلاده، وعاد الملك إلى نصابه، واستقر

السرور بإيابه، وأصلح ما كان وهي من مملكته بسبب ما اشتهر من قتله، وحاصر هراة وأخذها عنوة.

وأما الذي كان قد أسره، فإنه قال يوماً للأمير ابن مسعود إن الناس ينوحون أن خوارزم شاه قد قتل، فقال: لا،هو الذي كان في أسرك، فقال له: فهلا أعلمتني به حتى كنت أرده موقراً معظماً؟ فقال: خفتك عليه، فقال سر بنا إليه، فسار إليه فأكرمهما إكراماً زائداً، وأحسن إليهما.

وفيها غدر صاحب سمرقند فإنه قتل كل من كان في أسره من الخوارزمية، حتى كان الرجل يقطع قطعتين ويعلق في السوق كما تعلق الأغنام، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه، ثم رجع عن قتلها وحبسها في قلعة وضيق عليها، فلما بلغ الخبر إلى الملك خوارزم شاه سار إليه في الجنود، فنازله وحاصر سمرقند فأخذها قهراً، وقتل من أهلها نحواً من مائتي ألف وأنزل الملك من القلعة وقتله صبراً بين يديه، ولم يترك له نسلا ولا عقبا، واستحوذ خوارزم شاه على تلك الممالك التي هنالك.

وفيها تحارب الخطا وملك التتار كشلى خان المتاخم لمملكة الصين، فكتب ملك الخطا لخوارزم شاه يستنجده على التتار ويقول: متى غلبونا خلصوا إلى بلادك، وكذا وقع، وكتب التتار أيضاً يستنصرونه على الخطا ويقولون: هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك، فكن معنا عليهم، فكتب خوارزم شاه إلى كل من الفريقين يطيب قلبه، وحضر الوقعة بينهم وهو متحيز عن الفريقين، وكانت الدائرة على الخطا، فهلكوا إلا القليل منهم، وغدر التتار ما كانوا عاهدوا عليه خوارزم شاه، فوقعت بينهم الوحشة الأكيدة، وتواعدوا للقتال، وخاف منهم خوارزم شاه، وخرب بلاداً كثيرة متاخمة لبلاد كشلي خان، خوفا عليها أن يملكها، ثم إن جنكيز خان خرج على كشلي خان، فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه، ثم إنه وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها كثرت غارات الفرنج من طرابلس على نواحي حمص، فضعف صاحبها أسد الدين شيركوه عن مقاومتهم، فبعث إليه الظاهر صاحب حلب عسكرا قواه بهم على الفرنج.

وخرج الملك العادل من الديار المصرية في العساكر الإسلامية، وأرسل إلى جيوش الجزيرة العُمرية فوافوه على عكا فحاصرها، لأن القبارصة أخذوا من أسطول المسلمين قطعا فيها جماعة من المسلمين، فطلب صاحب عكا الأمان والصلح على أن يرد الأسارى، فأجابه إلى ذلك، وسار العادل فنزل على بحيرة قدس قريباً من حمص، ثم سار إلى بلاد طرابلس، فأقام أثنى عشر يوماً يقتل ويأسر ويغنم، وخرَّب تلك البلدان الأطرابلسية حتى جنح الفرنج إلى المهادنة ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً مجبوراً.

وفيها ملك صاحب أذربيجان الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان مدينة مراغة لذلك لخلوها عن ملك قاهر، لأن ملكها مات وقام بالملك بعده ولد له صغير، فدبر أمره خادم له.

وفي غرة ذي القعدة شهد محيي الدين أبو محمد يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي عند قاضي القضاة أبي القاسم بن الدامغاني، فقبله وولاه حسبة جانبي بغداد، وخلع عليه خلعة سنية سوداء بطرحة كحلية، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ مكان أبيه أبي الفرج بباب بدر الشريف، وحضر عنده خلق كثير، وبعد أيام من يومئذ درس بمشهد أبي حَنيفة ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي، وحضر عنده الأعيان والأكابر.

وفي رمضان منها وصلت الرسل من الخليفة إلى العادل بالخلع، فلبس هو وولداه المعظم والأشرف، ووزيره صفي الدين بن شكر، وغير واحد من الأمراء الخِلَع السنية الخليفية، ودخلوا القلعة وقت صلاة الظهر من باب الحديد، وقرأ التقليد الوزير وهو قائم، وكان يوما مشهوداً وفيها رُكبت الساعات بمئذنة العروس بالجامع الأموي، وشرعوا في بناء الدُّرَج التي تجاه المدرسة القيمازية.

وفيها درس الشيخ شرف الدين عبدالله بن زين القضاة عبد الرحمن بالمدرسة الرواحية بدمشق.

وفيها انتقل الشيخ ابن الحُبير البغدادي من الحنبلية إلى مذهب الشافعية، ودرس بمدرسة أم الخليفة، وحضر عنده الأكابر من سائر المذاهب.

وفيها توفي من الأعيان

الأمير

■ إيتامش بن عبدالله: أحد أمراء الخليفة الناصر، كان من سادات الأمراء عقلا وعفة ونزاهة، وشرفاً سقاه بعض الكتاب من النصارى سما فمات رحمه الله، وكان اسم الذي سقاه ابن ساوى، فسلمه الخليفة إلى غلمان بنيامين، فشفع فيه ابن مهدي الوزير وقال: إن النصارى قد بذلوا فيه خمسين ألف دينار، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأسود أسودَ الغابِ همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فتسلمه غلمان إيتامش فقتلوه وحرقوه، وقبض الخليفة بعد ذلك على الوزير ابن مهدي كما تقدم.

■ حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة الرصافي الحنبلي، المكبر بجامع المهدي، راوي مسند أحمد عن ابن الحصين عن ابن المذهب عن ابن مالك عن عبد الله عن أبيه.

عمَّر تسعين سنة، وخرج من بغداد فأسمعه بإربل، واستقدمه ملوك دمشق إليها، فسمع الناس بها عليه المسند، وكان المعظم يكرمه، ويأكل عنده على السماط من الطيبات، فتصيبه التخمة كثيراً، لأنه كان فقيراً ضيق الأمعاء من قلة الأكل، خشن العيش ببغداد وكان الكندي إذا دخل على المعظم يسأل عن حنبل فيقول المعظم: هو متخوم،فيقول: أطعمه العدس، فيضحك المعظم، ثم أعطاه المعظم مالا جزيلا، ورده إلى بغداد فتوفي بها في هذه السنة،وكان مولده سنة عشر وخمسمائة، وكان معه ابن طبرزد، فتأخرت وفاته عنه إلى سنة سبع وستمائة.

■ عبدالرحمن بن عيسى بن أبي الحسن البُزوري، الواعظ البغدادي، سمع مَن ابن أبي الوقت وغيره، واشتغل على ابن الجوزي بالوعظ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وسمخت نفسه، واجتمع عليه طائفة من أهل باب البصرة، ثم تزوج في آخر عمره، وقد قارب السبعين فاغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره فمات في هذه السنة.

الأمير زين الدين

■ قراجا الصلاحي: صاحب صرخد، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة. وتربته بالسفح في قبة على جادة الطريق، عند تربة ابن تميرك وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد.

■ عبد العزيز الطبيب: توفي فجأة، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفي، وفيه يقول ابن عنين:

فُرادى ولا خلف الخطيب جماعة ... وموت ولا عبد العزيز طبيب

وفيها توفي.

■ العفيف بن الدرجي: إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

أبو محمد

■ جعفر بن محمد بن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الإربلي، كان فاضلا في علوم كثيرة في الفقه على مذهب الشافعي، والحساب والفرائض، والهندسة والأدب والنحو، وما يتعلق بعلوم القرآن العزيز، وغير ذلك، ومن شعره الحسن الجيد قوله:

لا يدفعُ المرءُ ما يأتي به القدرُ ... وفي الخطوب إذا فكرتُ معتبرُ
فليس ينجي من الأقدار إن نزلت ... رأي وحزمٌ ولا خوفٌ ولا حذرُ
فاستعمل الصبر في كل الأمور ... تجزع لشيء فعقبى صبرك الظفرُ
كم مسنا مرةً عسرٌ فصرّفهُ ... صرفُ الزمان ووالى بعده يُسرُ
لا ييأس المرءُ من روح الإله فما ... ييأس منه إلا عصبةٌ كفروا
إني لأعلم أن الدهر ذو دول ... وأن يوميه ذا أمنٌ وذا خطرُ

ثم دخلت سنة خمس وستمائة

في محرمها كمل بناء دار الضيافة ببغداد، التي أنشأها الناصر لدين اللّه، بالجانب الغربي منها للحجاج والمارة لهم الضيافة ما داموا نازلين بها، فإذا أراد أحدهم السفر منها زود وكسي وأعطي بعد ذلك كله ديناراً للسفر، جزاه اللّه خيراً.

وفيها عاد أبو الخطاب بن دحية الكلبي من رحلته العراقية فاجتاز بالشام، فاجتمع في مجلس الوزير صفي الدين بن شُكر هو والشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي شيخ اللغة والحديث، فأورد ابن دحية في كلامه حديث الشفاعة حتى انتهى إلى (قول) إبراهيم عليه السلام: «إنما كنت خليلا من وراء وراء» [م(٣٢٩)(١٩٥)] بفتح اللفظتين، فقال الكندي: من وراءُ وراءُ بضمهما، فقال ابن دحية للوزير ابن شكر: من ذا؟ فقال: هذا الشيخ أبو اليمن الكندي، فنال منه ابن دحية، وكان جريئا، فقال الكندي: هو من كلب فنبح.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكلتاالروايتين محكيتان، وحكى فيهما الجر أيضا.

وفيها عاد فخر الدين بن تيمية خطيب حران من الحج إلى بغداد، وجلس بباب بدر للوعظ، مكان محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج، فقال في كلامه ذلك:

وابن اللبون إذا ما لز في قرنٍ ... لم يستطعْ صولة البُزْلِ القناعيسِ

كأنه يعرض بالمحيي الجوزي، لكونه شابا ابن خمس وعشرين سنة واللّه أعلم.

وفي يوم الجمعة تاسع محرم دخل مملوك إفرنجي من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران، وفي يده سيف مسلول، والناس جلوس ينتظرون صلاة الفجر، فمال على الناس يضربهم بسيفه، فقتل اثنين أو ثلاثة، وضرب المنبر بسيفه فانكسر سيفه، فأخذ وأودع المارستان، وشنق في يومه ذلك على جسر اللبادين.

وفيها عاد الشيخ شهاب الدين السهروردي من دمشق بهدايا الملك العادل، فتلقاه الجيش ومعه أموال كثيرة أيضاً لنفسه، وكان قبل ذلك فقيراً زاهداً، فلما عاد منع من الوعظ، وأخذت منه الربط التي يباشرها، ووكل إلى ما بيده من الأموال، فشرع في تفريقها على الفقراء والمساكين، فاستغنى منه خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، فقال المحيي بن الجوزي في مجلس ما معناه: لا حاجة بالرجل يأخذ أموالا من غير حقها ويصرفها إلى من يستحقها، ولو ترك على ما كان تركها أولى به من تناولها، وإنما أراد أن ترتفع منزلته ببذلها، أو يعود إلى حاله كما كان ولو ترك على ما كان يباشره لما بذلها، فليحذر العبد الدنيا، فإنها خداعة غرارة، تسترق فحول العلماء والعباد فضلاً عن العوامّ والقواد، وقد وقع ابن الجوزي فيما بعد فيما وقع فيه السهروردي وأعظم.

وفيها قصدت الفرنج حمص، وعبروا على العاصي بجسر أعدُّوه في بلادهم، فلما عرف بهم العساكر ركبوا في آثارهم فهربوا، فقتلوا خلقا كثيرا منهم، وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة وللّه الحمد.

وفيها قتل صاحب الجزيرة، وكان من أسوأ الناس سيرة، وأخبثهم سريرة، وهو الملك

■ سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي، ابن عم نور الدين صاحب الموصل، وكان الذي تولي قتله ولده غازي، توصل إليه حتى دخل عليه وهو في الخلاء سكران، فضربه بسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه، وذلك كله ليأخذ الملك من بعده فحرمه اللّه إياه، فبويع بالملك لأخيه محمود، وأخذ غازي هذا العاق لوالده فقُتل من يومه، فسلبه اللّه الملك والحياة، ولكن أراح اللّه المسلمين من ظلم أبيه وغشمه وفسقه قال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وفيها توفي من الأعيان

أبو الفتح

■ محمد بن أحمد بن بختيار بن علي بن محمد بن إبراهيم بن جعفر الواسطي، المعروف بابن المندائي، آخر من روى المسند عن الإمام أحمد عن ابن الحصين وكان من بيت فقه وقضاء وديانة، وكان ثقة عدلا متورعا في النقل، ومما أنشده من حفظه:

ولو أن ليلى مطلعُ الشمس دونها ... وكنت من وراء الشمس حين
لحدثت نفسي بانتظار نوالها ... وقال المنى لي: إنها لقريبُ

قاضي قضاة بالديار المصرية: صدر الدين

■ عبد الملك بن درباس الماراني الكردي واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد في الرسلية عن العادل، ومعه هدايا كثيرة، وتناظر هو وشيخ النظامية مجد الدين يحيى بن الربيع في مسألة وجوب الزكاة في مال اليتيم والمجنون،وأخذ الحنفي يستدل على عدم وجوبها، فاعترض عليه الشافعي فأجاد كل منهما في الذي أورده، ثم خلع على الحنفي وأصحابه بسبب الرسالة، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن أمسينا.

وفي يوم السبت خامس جمادى الآخر وصل الجمال يونس بن بدران المصري رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد في الرسلية عن الملك العادل،

فتلقاه الجيش مع حاجب الحجاب، ودخل معه ابن أخي صاحب إربل مظفر الدين كوكبري، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل، والسؤال في الرضا عنه، فأجيب إلى ذلك.

وفيها ملك العادل الخابور ونصيبين، وحاصر مدينة سنجار مدة فلم يتمكن منها، ثم صالح صاحبها ورجع عنها.

وفيها توفي من الأعيان

القاضي

■ **الأسعد بن مماتي**: أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر، أسلم في الدولة الصلاحية وتولى نظر الدواوين بمصر مدة.

قال ابن خلكان: وله فضائل عديدة، ومصنفات كثيرة، ونظم سيرة صلاح الدين، وكليلة ودمنة، وله ديوان شعر، ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب فمات بها، وله ثنتان وستون سنة، فمن شعره في ثقيل رآه بدمشق:

حكى نهرين ما في الأر ... ض من يحكيهما أبدا

حكى في خلقه ثوري ... وفي أخلاقه بردى

أبو يعقوب

■ **يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمغاني**، أحد الأعيان من الحنفية ببغداد، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان، وكان معتزليا في الأصول، بارعا في الفروع، اشتغل على أبيه وعمه، وأتقن الخلاف وعلم المناظرة، وقارب التسعين رحمه الله.

أبو عبد الله

■ **محمد بن محمد بن الحسين**: المعروف بابن الخراساني، المحدث الناسخ، كتب كثيراً من الحديث وجمع خطباً له ولغيره، وخطه جيد مشهور رحمه الله.

أبو المواهب

■ **معتوق بن منيع بن مواهب الخطيب البغدادي**، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب، وجمع خطبا كان يخطب منها، وكان شيخا فاضلا أديباً، له ديوان شعر، فمنه قوله:

ولا ترج الصداقة من عدوٍّ ... يعادي نفسه سراً وجهراً

فلو أجدت مودته انتفاعاً ... لكان النفع منه إليه أحرى

■ **ابن خروف**: شارح كتاب سيبويه، علي بن محمد بن يوسف أبو الحسن بن خروف، الأندلسي النحوي، شرح سيبويه، وقدمه إلى صاحب المغرب، فأعطاه ألف دينار، وشرح جمل الزجاجي، وكان يتنقل في البلاد، ولا يسكن إلا في الخانات، ولم يتزوج قط، ولا تسرى، ولذلك علة تغلب على طباع الأراذل، وقد تغير عقله في آخر عمره، فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس، وكانت وفاته في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة.

أبو علي

■ **يحيى بن الربيع بن سليمان بن حراز الواسطي ثم البغدادي**، اشتغل بالنظامية على ابن فضلان وأعاد عنده، وسافر إلى محمد بن يحيى فأخذ عنه طريقته في الخلاف، ثم عاد إلى بغداد، ثم صار مدرساً بالنظامية، وناظراً على أوقافها، وقد سمع الحديث وكان لديه علوم كثيرة، ومعرفة حسنة بالمذهب، وله تفسير في أربع مجلدات كان يدرس منه، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعاني وقارب الثمانين رحمه الله.

■ **ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية**:

المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري الشافعي، المعروف بابن الأثير.

وهو أخو الوزير وزير الأفضل ضياء الدين نصر الله، وأخو الحافظ عز الدين أبي الحسن علي صاحب الكامل في التاريخ.

ولد أبو السعادات هذا في إحدى الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وقرأ القرآن الكريم وأتقن علومه وحرّز علوماً جمّة، وكان مقامه بالموصل، وقد جمع في سائر العلوم كتبا مفيدة، منها جامع الأصول الستة: الموطأ، والصحيحان، وسنن أبي داود، والنسائي والترمذي ولم يذكر ابن ماجه فيه، وله كتاب النهاية في غريب الحديث، وله شرح مسند الشافعي، والتفسير في أربعة مجلدات، وغير ذلك في فنون شتى.

وكان رحمه الله معظماً عند ملوك الموصل، فلما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه بن مسعد بن مودود بن زنكي، أرسل إليه مملوكه لؤلؤاً يعرض عليه أن يستوزره فأبى، فركب السلطان إليه بنفسه فامتنع أيضاً وقال له: قد كبرت سني، واشتهرت بنشر العلم، ولا يصلح هذا الأمر إلا بشيء من العسف والظلم، ولا يليق بي ذلك، فأعفاه.

قال أبو السعادات: كنت أقرأ علم العربية على سعيد بن الدهان، وكان يأمرني بصنعة الشعر، فكنت لا أقدر عليه، فلما توفي الشيخ رأيته في بعض الليالي، فأمرني بذلك، فقلت له: ضع لي مثالا أعمل عليه فقال:

جُبِ الفَلا مدمنا إن فاتك الظفرُ

فقلت أنا:

وخد خد الثرى والليلُ معتكر

فالعزُّ في صهوات الخيل مركبُه ... والمجدُ يتجه الإسراءُ والسهرُ

فقال: أحسنت ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتا.

كانت وفاته في سلخ ذي الحجة من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة رحمه الله، وقد ترجمه أخوه في الكامل [٢٨٨/١٢] فقال: كان عالماً في عدة علوم منها الفقه، وعلم الأصول، والنحو، والحديث، واللغة، وتصانيفه مشهورة في التفسير، والحديث والفقه، والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة، وكان كاتباً مفلقاً يضرب به المثل، ذا دين متين، ولزم طريقة مستقيمة رحمه الله ورضي عنه، فلقد كان من محاسن الزمان.

قال ابن الأثير: وفيها توفي:

المجد

■ **المطرزي النحوي الخوارزمي**: كان إماما في النحو، له فيه تصانيف حسنة.

قال أبو شامة: وفيها توفي:

الملك

■ **المغيث**: فتح الدين عمر بن الملك العادل، ودفن في تربة أخيه الملك بسفح قاسيون.

والملك المؤيد

■ **مسعود بن صلاح الدين**: بمدرسة رأس العين فحمل إلى حلب فدفن بها.

وفيها توفي:

■ الفخر الرازي: المتكلم صاحب التفسير والتصانيف، محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري، الإمام أبو المعالي. وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي، ويقال له ابن خطيب الري، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتي مصنف فمن ذلك: التفسير الحافل والمطالب العالية، والمباحث المشرقية، والأربعين، وشرح الإشارات وغيرها في علم الكلام ومذاهب الأوائل وأقوال الناس وله في أصول الفقه المحصول وغيره، وصنف ترجمة الشافعي في مجلد مفيد، وفيه غرائب لا يوافق عليها، وينسب إليه أشياء عجيبة، وقد استقصيت ترجمته في طبقات الشافعية.

وقد كان معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم، وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من الأمتعة، والمراكب، والأثاث والملابس، وكان له خمسون مملوكا من الترك.

وكان يحضر في مجلس وعظه الملوك والوزراء، والعلماء والأمراء، والفقراء والعامة، والغوغاء وكانت له عبادات وأوراد، وقد وقع بينه وبين الكرامية في أوقات شتى فكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغ في ذمهم، ويبالغون في الحط عليه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم.

وكان مع غزارة علمه في فن الكلام يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز، وقد ذكرت وصيته عند موته، وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف، وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ٦٨] في ترجمته: كان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سباً، وتكفيراً، وقيل: إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات، ففرحوا بموته، وكانوا يرمونه بالكبائر.

قال: وكانت وفاته في ذي الحجة، ولا كلام في فضله، ولا فيما كان يتعاطاه، وقد كان يصحب السلطان ويحب الدنيا ويتسع فيها اتساعاً زائداً، وليس ذلك من صفة العلماء، ولهذا وأمثاله كثرت الشناعات عليه وقامت عليه شناعات عظيمة بسبب كلمات كان يقولها، مثل قوله: قال محمد التازي، يعني العربي، يريد به النبي ﷺ، نسبة إلى البادية، وقال محمد الرازي: يعني نفسه.

ومنها أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة، ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة،وغير ذلك.

قال: وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار، غير ما كان يملكه من الدواب والثياب، والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان محمد بن تكش.

وقال ابن الأثير في الكامل [١٢/٢٨٨]: وفيها توفي فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن خطيب الري، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة، والفقه والأصولين، كان إمام الدنيا في عصره، بلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ومن شعره قوله:

إليكَ إله الخلقِ وجهي ووجهتي … وأنت الذي أدعوه في السرِّ والجهر
وأنتَ غياثي عند كل ملمةٍ … وأنتَ ملاذي في حياتي وفي قبري

ذكره ابن الساعي عن ياقوت الحموي عن ابن لفخر الدين عنه وبه قال أنشدنا:

تتمة أبواب السعادة للخلقِ … بذكر جلال الواحدِ الأحدِ الحق
مدبر كل الممكنات بأسرها … ومبدعها بالعدل والقصد والصدق
أجلُّ جلالَ الله عن شبه خلقهِ … وانصر هذا الدين في الغرب
إله عظيم الفضل والعدل والعلى … هو المرشد المغوي هو المسعدُ

ومما كان ينشده في بعض مصنفاته:

نهاية إقدام العقول عقال … وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا … وحاصل دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا … سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلا ولا تشفي عليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ٧٥، ٧٦] أن من هذه السنة تمالأت ملوك الجزيرة: صاحب الموصل، وصاحب سنجار وصاحب إربل ومعهم ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، وملك الروم أيضاً، على مخالفة العادل، ومنابذته ومقاتلته واصطلام الملك من يده، وأن تكون الخطبة في بلادهم بذلك للملك كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب الروم، وأرسلوا إلى الكرج ليقدموا لحصار خلاط، وأخذها من يد الملك الأوحد نجم الدين بن العادل، ووعدهم النصر والمعاونة عليه.

قلت: وهذا بغي وعدوان ينهى الله عنه.

فاقبلت الكرج بملكهم إيواني، فحاصروا خلاط فضاق بهم الأوحد ذرعا وقال: هذا يوم عصيب، فقدر الله تعالى أن في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتد حصارهم للبلد، وأقبل ملكهم إيواني وهو راكب على جواده وهو سكران، فسقط به جواده في بعض الحفر التي قد أعدت مكيدة حول البلد، فبادر إليه رجال، فأخذوه أسيرا حقيرا، فأسقط في أيدي الكرج، فلما أوقف بين يدي الأوحد أطلقه، ومنّ عليه وأحسن إليه، وفاداه على مائتي ألف دينار، وألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد، وأن يزوج ابنته من أخيه الملك الأشرف موسى، وأن يكون عوناً له على من يحاربه، فأجابه إلى ذلك كله، فأخذت منه الأيمان بذلك، وبعث الأوحد إلى أبيه يستأذنه في ذلك كله، والعادل نازل بظاهر حرّان في أشد حيرة مما قد دهمه من هذا الأمر الفظيع، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الخبر، والأمر الهائل من والتدبير من عزيز حكيم، لم يكن في باله ولا في حسابه، فكاد يذهل من شدة الفرح والسرور، ثم أجاز جميع ما شرطه ولده، وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك، فخضعوا وذلوا عنه ذلك، وأرسل كل منهم يعتذر مما نسب إليه ويحيل على غيره، فقبل منهم اعتذاراتهم، وصالحهم صلحاً أكيداً واستقبل الملك عقداً جديداً، ووفى ملك الكرج الأوحد بجميع ما شرطه عليه، وتزوج الأشرف بابنته.

ومن غريب ما ذكره الشيخ أبو شامة في هذه الكائنة،أن قسيس الملك

كان حَزّاءً ينظر في النجوم، فقال للملك قبل ذلك بيوم: اعلم أنك تدخل غداً إلى قلعة خلاط، ولكن بزي غير ذلك، فوافق دخوله إليها أسيراً أذان العصر.

ذكر وفاة صاحب الموصل نور الدين

أرسل الملك

■ نور الدين شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يخطب ابنة السلطان الملك العادل، وأرسل وكيله لقبول العقد على ثلاثين ألف دينار، فاتفق موت نور الدين ووكيله سائر في أثناء الطريق، فعقد العقد بعد وفاته رحمه الله، وقد أثنى عليه ابن الأثير في كامله كثيراً، وشكر منه ومن عدله وشهامته، وهو أعلم به من غيره، وذكر أن مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً.

وأما أبو المظفر السبط فإنه قال: كان جباراً ظالماً بخيلاً سفاكاً للدماء، فالله أعلم به.

وقام بالملك من بعده ولده القاهر عزالدين مسعود، وجعل لابنه عماد الدين زنكي وكان الأصغر بعض البلاد، وجعل تدبير مملكته إلى غلامه بدر الدين لؤلؤ، الذي صار الملك إليه فيما بعد كما سيأتي.

قال أبو شامة: وفي سابع شوال شرع في عمارة المصلى وبني له أربعة جدر مشرفة، وجعل له أبواب صونا لمكانه من الميتات، ونزول القوافل، وجعل في قبلته محراب من حجارة، ومنبر من حجارة،وعقدت فوق ذلك قبة، ثم في سنة ثلاث عشرة عمل في قبلته رواقان، وعمل له منبر من خشب، ورتب له خطيب وإمام راتبان، ومات العادل ولم يتم الرواق الثاني منه، وذلك كله على يد الوزير صفي الدين بن شكر.

قال وفي حادي عشر شوال من هذه السنة جددت أبواب الجامع الأموي من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر، وركبت في أماكنها.

وفي شوال أيضاً شرع في إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة، وعمل عندها مسجد، وجعل له إمام راتب وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصري، وكان يقال له بوق الجامع، لطيب صوته إذا قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المصدر، فيجتمع عليه الناس الكثيرون.

وفي ذي الحجة منها توجهت مراكب من عكا في البحر إلى ثغر دمياط وفيها ملك قبرص المسمي البال، لعنه الله، فدخل الثغر ليلا، فأغار على بعض البلاد، فقتل وسبى، وغنم وكر راجعا فركب مراكبه ولم يدركه الطلب، وقد تقدمت له مثلها قبل هذه، وهذا شيء لم يتفق لغيره لعنه الله.

وفي هذه السنة عاثت الفرنج بنواحي القدس الشريف، فبرز إليهم الملك المعظم، في عساكره وجلس الشيخ شمس الدين أبو المظفر بن قِزُغلي الحنفي وهو سبط بن الجوزي ابن ابنته رابعة، وهو صاحب مرآة الزمان وكان فاضلا في فنون كثيرة، حسن الشكل، طيب الصوت، وكان يتكلم في الوعظ جيداً، وتحبه العامة على صيت جده، وقد رحل من بغداد فنزل دمشق وأكرمه ملوكها، وولي التدريس الكبار بها، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين إلى السارية التي يجلس عندها الوعاظ في زماننا هذا، فكان يكثر الجمع عنده، حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد وإلى باب الساعات، الجلوس غير الوقوف، فحزر جمعه في بعض الأيام ثلاثين ألفا من الرجال والنساء، وكان الناس يبيتون ليلة السبت في الجامع ويدعون البساتين، يبيتون في قراءة ختمات وأذكار، ليحصل لهم أماكن من شدة الزحام، فإذا فرغ من وعظه خرجوا إلى أماكنهم، وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك أجمع، يقولون: قال الشيخ، وسمعنا من الشيخ، فيحثهم ذلك على العمل الصالح، والكف عن المساوئ.

وكان يحضر عنده الأكابر، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي، كان يجلس في القبة التي عند باب المشهد هو ووالي البلد المعتمد ووالي البر ابن تميرك وغيرهم.

والمقصود أنه لما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول بالجامع كما ذكرنا حث الناس على الجهاد، وأمر بإحضار ما كان تحصل عنده من شعور التائبين، وقد عمل منه شكالات يحملها الرجال، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة، وبكوا بكاء كثيراً، وقطعوا من شعورهم نحوها، فلما انقضى المجلس، ونزل عن المنبر، فتلقاه الوالي مبارز الدين المعتمد بن إبراهيم، وكان من خيار الناس، فمشى بين يديه إلى باب الناطفانيين يعضده حتى ركب فرسه، والناس من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فخرج من باب الفرج، وباب المصلى، ثم ركب من الغد في الناس إلى الكسوة، ومعه خلائق كثيرون خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من جهة زملكا، بالعدد الكثيرة التامة.

قال: فجئنا عقبة أفيق والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم، قال: ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها، ويمرغها على وجهه ويبكي، وعمل أبو المظفر ميعاداً بنابلس، وحث على الجهاد، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار هو ومن معه وصحبته المعظم نحو الفرنج فقتلوا خلقا وخربوا أماكن كثيرة، وغنموا وعادوا سالمين وشرع المعظم في تحصين جبل الطور، وبنى قلعة فيه ليكون إلبا على الفرنج، فغرم أموالا كثيرة في ذلك، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة، فهادنهم، وبطلت تلك العمارة، وضاع ما كان المعظم غرم عليها والله أعلم.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ أبو عمر: باني المدرسة بسفح قاسيون للفقراء رحمه الله.

■ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي، باني المدرسة التي بالسفح، يقرأ بها القرآن العزيز، وهو أخو الإمام العلامة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وكان الشيخ أبو عمر أسن منه، لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، بقرية الساويا، وقيل بجماعيل، والشيخ أبو عمر ربى الشيخ موفق الدين، وأحسن إليه وزوجه، كان يقوم بمصالحه،فلما قدموا من الأرض المقدسة نزلوا بمسجد أبي صالح، خارج باب شرقي، ثم انتقلوا منه إلى السفح، وليس به من العمارة شيء سوى دير الحوراني، قال فقيل لنا الصالحيون نسبة إلى مسجد أبي صالح لا أنا صالحون، وسميت هذه البقعة من ذلك الحين بالصالحية نسبة إلينا.

فقرأ الشيخ أبو عمر القرآن على رواية أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، ثم إن أخاه الموفق شرحه فيما بعد فكتب شرحه بيده، وكتب تفسير البغوي والحلية لأبي نعيم والابانة لابن بطة وكتب مصاحف كثيرة بيده للناس ولأهله بلا أجرة، وكان كثير العبادة، والزهادة والتهجد، ويصوم الدهر حسن الشكل، نحيل الجسم، عليه أنوار العبادة، وكان لا يزال متبسما، وكان يقرأ كل يوم سبعا بين الظهر والعصر، ويصلي الضحى

ثماني ركعات، يقرأ فيهن ألف مرة ﴿قل هو اللّه أحد﴾، وكان يزور مغارة الدم، في كل يوم اثنين وخميس، ويجمع في طريقه الشيح فيعطيه الأرامل والمساكين، ومهما تهيأ له من فتوح وغيره يؤثر بـه أهله والمساكين، وكان متقللا في الملبس، وربما مضت عليه مدة لا يلبس فيها سراويل ولا قميصاً، وكان يقطع من عمامته قطعا يتصدق بها أو في تكميل كفن ميت، وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس الشريف، والسواحل وغيرها، وجاء الملك العادل يوماً إلى خيمتهم، أي خصهم لزيارة الشيخ أبي عمر وهو قائم يصلي، فما قطع صلاته ولا أوجزها، واستمر أبو عمر في صلاته، ولم يلتفت إليه حتى قضى صلاته، رحمه اللّه، والشيخ أبو عمر هو الذي شرع في بناء المسجد الجامع أولا بمال رجل من الناس، فنفذ ما عنده وقد ارتفع البناء قامة، فبعث صاحب إربل الملك المظفر كوكبري مالا فكمل به، وولي خطابته الشيخ أبو عمر، فكان يخطب به، وعليه لباسه الضعيف، وعليه أنوار الخشية والتقوى والخوف من اللّه عز وجل، والمسك كيف خبأته ظهر عليك وبان، وكان المنبر الذي فيه يومئذ ثلاث مراق والرابعة للجلوس كما كان المنبر النبوي.

وقد حكى أبو المظفر أنه حضر يوماً عنده الجمعة، وكان الشيخ عبداللّه اليونيني حاضراً هناك، فلما انتهى في خطبته إلى الدعاء للسلطان قال: اللّهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فلما قال ذلك نهض الشيخ عبداللّه اليونيني، وأخذ نعليه وخرج من الجامع، وترك صلاة الجمعة، فلما فرغنا ذهبت إلى اليونيني فقلت له: ماذا نقمت عليه في قوله؟ فقال: يقول لهذا الظالم: العادل؟ لا صليت معه، قال: فبينما نحن في الحديث إذ أقبل الشيخ أبوعمر ومعه رغيف وخيارتان فكسر ذلك الرغيف وقال: الصلاة، ثم قال قال النبي ﷺ: «بعثت في زمن الملك العادل كسرى» [الشعب للبيهقي(٥١٩٥)] فتبسم الشيخ عبداللّه، ومد يده فأكل، فلما فرغوا قام الشيخ أبو عمر فذهب، فلما ذهب قال لي:

ياسيدنا ما ذا إلا رجل صالح

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: كان الشيخ أبو عبد اللّه من الصالحين الكبار، وقد رأيته، وكانت وفاته بعد أبي عمر بعشر سنين، فلم يسامح الشيخ أبا عمر في تساهله مع ورعه، ولعله كان مسافرا، والمسافر لا جمعة عليه، وعذر الشيخ أبي عمر أن هذا قد جرى مجرى الأعلام العادل الكامل الأشرف ونحوه، كما يقال سالم، وغانم، ومسعود، ومحمود،وقد يكون المسمّى بذلك على الضد، من هذه الأسماء فلا يكون سالما، ولا غانما، ولا مسعوداً، ولا محموداً، وكذلك اسم العادل ونحوه من أسماء الملوك وألقابهم، والتجار وغيرهم، كما يقال شمس الدين، وبدر الدين، وعز الدين، وتاج الدين، ونحو ذلك قد يكون معكوساً على الضد والانقلاب، ومثله الشافعي، والحنبلي، وغيرهم، وقد تكون أعماله ضد ما كان عليه إمامه الأول، من الزهد والعبادة ونحو ذلك وكذلك العادل يدخل إطلاقه على المشرك، فهذا أَولى.

قلت: هذا الحديث الذي احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له، وليس هو في شيء من الكتب المشهورة، وعجباً له ولأبي المظفر، ثم لأبي شامة في قبول مثل هذا، وأخذه منه مسلما؛ واللّه أعلم.

ثم شرع أبو المظفر في ذكر مناقب الشيخ أبي عمر، ومناقبه وكراماته، وما رآه هو وغيره من أحواله الصالحة، قال: وكان على مذهب السلف الصالح، سمتا وهديا، وكان حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة، والآثار المروية، يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وكان ينهي عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين، الذين هم على سنة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وربما أنشدني لنفسه في ذلك:

اوصيكم بالقول في القرآن	بقول أهل الحقّ والإتقان
ليس بمخلوق ولا بفان	لكن كلام الملك الديان
آياتُهُ مشرقةُ المعاني	متلوةٌ للّه باللسان
محفوظةٌ في الصدر والجنان	مكتوبةٌ في الصحف بالبنان
والقول في الصفات يا إخواني	كالذات والعلم مع البيان
إمرارها من غير ما كفران	من غير تشبيهٍ ولا عطلان

قال وأنشدني لنفسه:

ألم يكُ ملهاة عن اللّهو أنني	بدا لي شيبُ الرأس والضعف والألمْ
ألم بي الخطبُ الذي لو بكيتهُ	حياتي حتى يذهب الدمعُ لم ألمْ

قال: ومرض أياماً، فلم يترك شيئا مما كان يعمله من الأوراد، حتى كانت وفاته وقت السحر، في ليلة الثلاثاء، التاسع والعشرين من ربيع الأول، فغسل في الدير، وحمل إلى مقبرته في خلق كثير لا يعلمهم إلا اللّه عز وجل، ولم يبق أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته، وكان يوماً مشهوداً، وكان الحر شديدا، فأظلت الناس سحابة من الحر، كان يسمع منها كدوي النحل، وكان الناس يتهبون أكفانه، وقد رثاه الشعراء بمراث حسنة، ورئيت له منامات صالحة رحمه اللّه، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور: عمر، وبه كان يكنى، والشرف عبد اللّه، وهو الذي ولي الخطابة بعد أبيه وهو والد العز وأحمد.

ولما توفي الشرف عبد اللّه صارت الخطابة لأخيه شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وكان من أولاد أبيه الذكور، فهؤلاء أولاده الذكور، وترك من الأناث بنات كما قال اللّه تعالى: ﴿مُسْلِماتٍ مُؤْمِنَاتٍ قانتاتٍ تَآئِبَاتٍ عَابداتٍ سائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وأبْكَاراً﴾ [التحريم: ٥]

قال: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني رحمه اللّه وإيانا.

■ ابن طبرزد شيخ الحديث: عمر بن محمد بن معمر بن يحيى المعروف بأبي حفص بن طبرزد البغدادي الدارقزي، ولد سنة عشر وخمسمائة، سمع الكثير وأسمع، وكان خليعا ظريفاً ماجنا، وكان يؤدب الصبيان بدار القز، قدم مع حنبل بن عبد اللّه المكبر إلى دمشق، فسمع أهلها عليهما، وحصل لهما أموال، وعادا إلى بغداد، فمات حنبل سنة ثلاث، وتأخر هو إلى هذه السنة في تاسع شهر رجب فمات وله سبع وتسعون سنة، وترك مالا جيدا، ولم يكن له وارث إلا بيت المال، ودفن بباب حرب.

السلطان الملك العادل أرسلان شاه: نور الدين أبو الحارث

■ أرسلان شاه بن عزالدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، وهو ابن أخي نور الدين الشهيد، وقد ذكرنا بعض سيرته في الحوادث، كان شافعي المذهب، ولم يكن بينهم شافعي سواه، وبنى للشافعية مدرسة عظيمة بالموصل، وبها تربته.

وقال ابن خلكان كانت وفاته في صفر ليلة الأحد التاسع والعشرين من هذه السنة.

■ ابن سكينة عبد الوهاب بن علي: ضياء الدين أبو محمد المعروف

بابن سكينة الصوفي، كان يعد من الأبدال، سمع الحديث الكثير وأسمعه بلاد شتى، ولد في سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكان صاحبا لأبي الفرج بن الجوزي، ملازماً لمجلسه، وكان يوم جنازته يوما مشهودا لكثرة الخلق، ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة، رحمه الله.

■ مظفر بن شاسير: الواعظ الصوفي البغدادي، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان يعظ في الأعزية والمساجد والقرى، وكان ظريفا مطبوعا، قام إليه إنسان فقال له فيما بينه وبينه: أنا مريض جائع، فقال: أحمد ربك فقد عوفيت، واجتاز مرة على قصاب يبيع لحما ضعيفا وهو يقول: أين من حلف لا يغبن، فقال له: حتى تحنثه، قال: وعملت مرة مجلساً ببعقوبا، فجعل هذا يقول: عندي للشيخ نصفية، وهذا يقول: عندي للشيخ نصفية، وهذا يقول مثله، حتى عدوا نحوا من خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلة، فأرجع إلى البلد تاجرا، فلما أصبحت إذا صبرة من شعير في المسجد فقيل لي: هذه النصافي التي ذكر الجماعة، وإذا هي مكيلة يسمونها النصافي.

وعملت مرة مجلسا بباجسرا فجمعوا لي شيئاً لا أدري ما هو، فلما أصبحنا إذا شيء من صوف الجواميس وقرونها، فقام رجل ينادي كم في صوف الشيخ وقرونه، فقلت: لا حاجة لي بهذا، وأنتم في حل منه. ذكره أبو شامة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

استهلت والعادل مقيم على الطور لعمارة حصنه، وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطلة كسرة عظيمة، وربما فتح البلد عنوة، وقتل منهم خلقا كثيراً.

وفيها كانت زلزلة عظيمة شديدة بمصر والقاهرة، هدمت منها دوراً كثيرة، وكذلك بالكرك والشوبك هدمت من قلعتها أبراجا، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم ورئي دخان نازل من السماء، فيما بين المغرب والعشاء، عند قبر عاتكة غربي دمشق.

وفيها أظهرت الباطنية الإسلام، وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام، وبنوا الجوامع والمساجد وكتبوا إلى إخوانهم بالشام بِمِصياف وأمثالها بذلك، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك، وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج، فأكرموا وعظموا بسبب ذلك، ولكن لما كان بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسني فقتله، ظانا أنه قتادة، فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير.

وفيها اشتري الملك الأشرف جوسق الريس من النيرب من ابن عم الظافر حضر بن صلاح الدين، وبناه بناء حسنا وهو المسمى بزماننا بالدهشة.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ عماد الدين

■ محمد بن يونس: الفقيه الشافعي الموصلي، صاحب التصانيف والفنون الكثيرة، كان رئيس الشافعية بالموصل، وبعث رسولا إلى بغداد بعد موت نور الدين أرسلان، وكان عنده وسوسة كثيرة في الطهارة، ويقال: إنه كان يعامل في الأموال بمسألة العينة، كما قيل: تصفون البعوض من شرابكم، وتسترطون الجمال بأحمالها،ولو عكس الأمر لكان خيراً له فلقيه يوماً قضيب البان المولّه فقال له: يا شيخ، بلغني عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بإبريق من الماء، فلم لا تغسل اللقمة التي تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك؟ ففهم الشيخ ما أشار إليه، وترك المعاملة وكانت وفاته بالموصل في رجب عن ثلاث وسبعين سنة.

■ ابن حمدون تاج الدين: أبو سعد الحسن بن محمد بن حمدون، صاحب التذكرة الحمدونية، كان فاضلا بارعا، اعتنى بجمع الكتب المنسوبة وغيرها، وولاه الخليفة المارستان العضدي، توفي بالمدائن، وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها.

صاحب الروم

■ خسروشاه بن قليج أرسلان، مات فيها وقام بالملك بعده ولده كيكاوس، فلما توفي في سنة خمس عشرة ملك أخوه كيقباذ صارم الدين بزغش العادلي، نائب القلعة بدمشق، مات في صفر، ودفن بتربته غربي الجامع المظفري، وهذا الرجل هو الذي نفى الحافظ عبد الغني المقدسي إلى مصر، وبين يديه كان عقد المجلس، وكان في جملة من قام عليه ابن الزكي، والخطيب الدولعي، وقد توفوا أربعتهم وغيرهم، ممن قام عليه، واجتمعوا عند ربهم الحكم العدل سبحانه.

الأمير فخر الدين

■ سركس: ويقال له جهاركس: أحد أمراء الدولة الصلاحية، وإليه تنسب قباب سركس بالسفح، تجاه تربة خاتون وبها قبره.

قال القاضي ابن خلكان: هو الذي بني القيسارية بالقاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجدا معلقا وربعاً، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في البلدان، في حسنها وعظمها وإحكام بنائها.

قال: وجهاركس بمعني أربعة أنفس.

قلت: وقد كان نائبا للعادل على بانياس وتبنين وهونين، فلما توفي ترك ولدا صغيراً فأقره العادل على ما كان يليه أبوه، وجعل له مدبرا، وهو الأمير صارم الدين خطلبا التبنيني، ثم استقل بها بعد موت الصبي إلى سنة خمس عشرة.

الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح:

■ منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد بن الفضل الفراوي النيسابوري، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما، وعنه ابن الصلاح وغيره، توفي بنيسابور في شعبان في هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة.

■ قاسم الدين التركماني العقيبي: والد والي البلد، كانت وفاته في شوال منها والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

فيها اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والمعظم، والفائز، بدمياط من بلاد مصر، في مقاتلة الفرنج، فاغتنم غيبتهم سامة الجبلي، أحد أكابر الأمراء، وكانت بيده قلعة عجلون وكوكب، فسار مسرعا إلى دمشق ليستلم البلدين، فأرسل العادل في إثره ولده المعظم، صاحب دمشق فسبقه إلى القدس، وحمل عليه، فرسم عليه في كنيسة صهيون، وكان شيخاً كبيرا قد أصابه النقرس، فشرع يرده إلى الطاعة بالملاطفة فلم ينفع فيه، فاستولى على حواصله وأملاكه وأمواله، وأرسله إلى قلعة الكرك فاعتقله بها، وكان قيمة

ما أخذه منه قريباً من ألف ألف دينار، من ذلك داره وحمامه داخل باب السلامة، وداره هي التي جعلها البادرائي مدرسة للشافعية، وخرب حصن كوكب، ونقلت حواصله إلى حصن الطور، الذي استجده العادل وولده المعظم.

وفيها عزل الوزير صفي الدين ابن شكر، واحتيط على أمواله، ونفي إلى الشرق، وهو الذي كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفي الحافظ عبد الغني إلى المغرب، فتوفي الحافظ عبد الغني رحمه الله قبل أن يصل الكتاب، وكتب الله عز وجل بنفي الوزير إلى الشرق.

وفيها استولى صاحب قبرص على مدينة أنطاكية فحصل بسببه شر عظيم، وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين، لا سيما على التراكمين الذين حول أنطاكية، قتل منهم خلقا كثيراً، وغنم من أغنامهم شيئا كثيرا، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه في بعض الأودية فقتلوه، وطافوا برأسه في تلك البلاد، ثم أرسلوا رأسه إلى الملك العادل إلى مصر فطيف به هنالك، وهو الذي كان أغار على بلاد مصر من ثغر دمياط مرتين، فقتل وسبى وعجز عنه الملوك.

وفي ربيع الأول منها توفي الملك الأوحد.

■ نجم الدين أيوب بن العادل صاحب خلاط، يقال إنه كان قد سفك الدماء، وأساء السيرة، فقصف الله عمره، ووليها بعده أخوه الملك الأشرف موسى بن العادل، وكان محمود السيرة، جيد السريرة، فأحسن إلى أهلها، فأحبوه كثيرا.

وفيها توفي من الأعيان

فقيه الحرم الشريف بمكة:

■ محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني.

وأبو إسحاق

■ إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المقرئ المحدث، كتب كثيرا، وسمع الكثير، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

أبو الفتح

■ محمد بن سعد بن محمد الديباجي: من أهل مرو، له كتاب المحصل في شرح المفصل للزمخشري في النحو، كان ثقة عالما، سمع الحديث، توفي في هذه السنة عن ثنتين وتسعين سنة.

الشيخ الصالح الزاهد العابد: أبو الثناء

■ محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي، كان له عبادات، ومجاهدات وسياحات، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

فيها أمر العادل أيام الجمع بوضع سلاسل على أفواه الطرق إلى الجامع لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن الأذى بهم، ولئلا يضيقوا على المارين إلى الصلاة.

وفيها ولد الملك العزيز ابن الظاهر غازي صاحب حلب، وهو والد الملك الناصر صاحب دمشق، واقف الناصريتين داخل دمشق، إحداهما داخل باب الفراديس، والأخرى بالسفح ذات الحائط الهائل والعمارة المتينة، التي قيل إنه لا يوجد مثلها إلا قليلا، وهو الذي أسره هلاوون ملك التتار.

وفيها قدم بالفيل من مصر، فحمل هدية إلى صاحب الكرج، فتعجب أهل دمشق منه ومن بديع خلقه.

وفيها قدم الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين من حلب قاصدا الحج، فتلقاه الناس، وأكرمه ابن عمه المعظم، صاحب دمشق فلما لم يبق بينه وبين مكة إلا مراحل يسيرة تلقته حاشية الكامل صاحب مصر، وصدوه عن دخول مكة، وقالوا: إنما جئت لأخذ اليمن، فقال لهم: قيدوني وذروني أقضي المناسك، فقالوا: ليس معنا مرسوم، وإنما أمرنا بردك وصدك، فهمَّ طائفة من الناس بقتالهم، فخاف من وقوع فتنة، فتحلل من حجه، ورجع إلى الشام، وتأسف الناس على ما فعل به وتباكوا لما ودعهم، تقبل الله منه.

وفيها وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفية بخراسان إلى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي، يخبر به أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر في ثلاثة نفر من أصحابه، ودخل بلاد التتر، ليكشف أخبارهم بنفسه، فأنكروهم فقبضوا عليهم، فضربوا منهم اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاؤوا فيه، واستوثقوا من الملك وصاحبه الآخر أسرا، فلما كان في بعض الليالي هربا، ورجع السلطان إلى مملكته، قلت: وهذه المكاتبة غير ما تقدم من أسره في المعركة، مع ابن مسعود والله أعلم.

وفيها ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب، فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلا، ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبي.

وممن توفي فيها من الأعيان

شيخ الحنفية: مدرس مشهد أبي حنيفة ببغداد، الشيخ أبو الفضل

■ أحمد بن مسعود بن علي التركستاني، وكان إليه المظالم، ودفن بالمشهد المذكور.

والشيخ أبو محمد

■ إسماعيل بن علي بن الحسين فخر الدين الحنبلي، يعرف بابن الماشطة، ويقال له الفخر غلام ابن المنى، له تعليقة في الخلاف، وله حلقة بجامع الخليفة، وكان يلي النظر في قرايا الخليفة، ثم عزله فلزم بيته فقيرا لا شيء له إلى أن مات رحمه الله، وكان ولده محمد مدبرا شيطانا مريدا كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل فقطع لسانه وحبس إلى أن مات.

والوزير معز الدين أبو المعالي:

■ سعيد بن علي بن أحمد بن حديدة، من سلالة الصحابي قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري ولي الوزارة للناصر في سنة أربع وثمانين، ثم عزله عن سفارة ابن مهدي فهرب إلى مراغة، ثم عاد بعد موت ابن مهدي، فأقام ببغداد معظماً محترماً، وكان كثير الصدقات والإحسان إلى الناس إلى أن مات رحمه الله.

و■ سنجر بن عبد الله الناصري: الخليفي، كانت له أموال كثيرة، وأملاك وإقطاعات متسعة، وكان مع ذلك بخيلا ذليلا، ساقط النفس، اتفق أنه خرج أمير الحاج في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فاعترضه بعض الأعراب في نفر يسير، وكان مع سنجر خمسمائة فارس فدخله الذل من

الأعرابي فطلب منه الأعرابي خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه، فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها، وعزله وولى طاشتكين مكانه.

قاضي السلامية: ظهير الدين أبو إسحاق

■ إبراهيم بن نصر بن عسكر، الفقيه الشافعي الأديب، ذكره العماد في «الخريدة» ٢/ ٣٤٦، وابن خلكان في الوفيات [٣٧/١]، وأثنى عليه، وأنشد من شعره، في شيخ زاوية، وأصحابه يقال له مكي:

ألا قل لمكي قول النصوح ... فحقُّ النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس في دينهم ... بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ... ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوي الحشا جائعاً ... لما دار من طرب واستمع
وقالوا: سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت ... يُنفّرُها ريها والشبع
تراهم يهزوا لحاهم إذا ... ترنم حاديهم بالبدع
فيصرخ هذا وهذا يئن ... ويس لو تليتُ ما انصدع

وتاج الأمناء: أبو الفضل

■ أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، من بيت الحديث والرواية، وهو أكبر من إخوته زين الأمناء والفخر عبد الرحمن، سمع عميه الحافظ أبي القاسم والصائن، وكان صديقا للشيخ تاج الدين الكندي، وكانت وفاته يوم الأحد، ثاني رجب، ودفن قبلي محراب مسجد القدم رحمه الله.

وتاج العلى النسابة الحلبي الحسني، اجتمع بآمد بابن دحية، وكان ينسب إلى دحية الكلبي، فقال له: تاج العُلى إنّ دحية الكلبي لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكذب في مسائله الموصلية.

قال ابن الأثير: في الكامل [٣٠٢/١٢] وفي المحرم منها توفي.

المهذب الطبيب المشهور: وهو

■ علي بن أحمد بن هبل الموصلي، سمع الحديث، وكان أعلم أهل زمانه بالطب، وله فيه تصنيف حسن، وكان كثير الصدقة، حسن الأخلاق.

■ ابن خروف شارح سيبويه وجُمل الزجاجي هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي الأندلسي الإشبيلي: أحد المشاهير في هذه الصناعة وكتبه تدلّ على تقدُّمه وعلمه وفضله، وكان شيخه فيها ابن طاهر، المعروف بالخِدَبّ الأندلسي.

■ الجزولي صاحب المقدمة المسماة بالقانون: وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي بطن من البربر ثم اليزدكيني النحوي المغربي، مصنف المقدمة المشهورة البديعة، شرحها هو وتلامذته، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده في أماكن كثيرة منها، قدم مصر، وأخذ عن ابن بري، ثم عاد إلى بلاده، وولي خطابة مراكش، وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل قبلها فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

فيها أرسل الملك خوارزم شاه أميراً من أخصاء أمرائه عنده، وكان قبل ذلك سيرواناً فصار أميرا خاصاً، فبعثه في جيش، ففتح له كرمان ومكران وإلى حدود بلاد السند، وخطب له بتلك النواحي، وكان خوارزم شاه لا يصيف إلا بنواحي سمرقند، خوفا من التتار وأصحاب كشلي خان أن يثبوا على أطراف تلك البلاد التي تتاخمهم. قال أبو شامة: وفيها شرع في تبليط داخل الجامع الأموي، وبدؤوا من ناحية السبع الكبير، وكانت أرض الجامع قبل ذلك حفرا وجورا، فاستراح الناس بتبليطه.

وفيها وسع الخندق مما يلي القيمازية فأخربت دور كثيرة، وحمام قايماز، وفرن كان هناك وقفا على دار الحديث النورية وغير ذلك.

وفيها بنى المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية.

وفيها أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها وسلمها إلى مملوكه عز الدين أيبك المعظمي، فثبتت في يده إلى أن انتزعها منه نجم الدين أيوب سنة أربع وأربعين.

وفيها حج الملك المعظم ابن العادل، ركب من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة، ومعه ابن موسك، ومملوكه أيبك، عز الدين أستاذ داره وخلق، فساروا على طريق تبوك والعلاء، وبنى المعظم البركة المنسوبة إليه، ومصانع أخر، فلما قدم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم، وسلم إليه مفاتيحها، وخدمه خدمة تامة.

وأما صاحب مكة قتادة فلم يرفع به رأساً، ولهذا لما قضى نسكه، وكان قارنا وأنفق في المجاورين ما حمله إليهم من الصدقات وكرّ راجعاً واستصحب معه سالما صاحب المدينة، وتشكى إلى أبيه عند رأس الماء ما لقيه من صاحب مكة عنها، فأرسل العادل مع سالم جيشاً يطردون صاحب مكة، فلما انتهوا إليها هرب منهم في الأودية والجبال والبراري، وقد أثر المعظم في حجته هذه آثاراً حسنة بطريق الحجاز أثابه الله.

وفيها تعامل أهل دمشق بالقراطيس السود العادلية، ثم بطلت بعد ذلك وفنيت.

وفيها مات صاحب اليمن ابن سيف الإسلام وتولاها سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بإتفاق الأمراء عليه، فأرسل العادل إلى ولده الكامل أن يرسل إليها ولده أقسيس ابن الكامل فأرسله فتملكها، فظلم بها وفتك وغشم، وقتل من الأشراف نحواً من ثمانمائة، وأما من عداهم فكثير، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقا، وأقلهم حياء ودينا، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب، نسأل الله العافية.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن علي بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، أفتى وناظر، وعدل عند الحكام، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوبي، يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات، وألقي في دجلة، وفرح الناس بموته، وقد كان أبوه رجلا صالحا.

الركن

■ عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، كان أبوه صالحا، وكان هو متهما بالفلسفة ومخاطبة النجوم ووجد عنده كتب في ذلك، وقد ولي عدة ولايات،وفيه وفي أمثاله يقال: نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا.

ورأى عليه أبوه يوماً ثوبا بخاريا فقال: سمعنا بالبخاري ومسلم، وأما بخاري وكافر فهذا شيء عجب، وقد كان مصاحباً لأبي القاسم ابن الشيخ

أبي الفرج بن الجوزي، وكان الآخر مدبراً فاسقا، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان قبحهما الله.

أبو محمد

■ عبد العزيز بن محمود بن المبارك: البزاز المعروف بابن الأخضر البغدادي، المحدث المكثر، الحافظ المصنف المحرر، له كتب مفيدة متقنة، وكان من الصالحين، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً رحمه الله.

الحافظ أبو الحسن

■ علي بن الأنجب: أبي المكارم المفضل اللخمي المقدسي، ثم الإسكندراني المالكي، سمع السلفي وعبد الرحيم المنذري، وكان مدرسا للمالكية بالإسكندرية، ونائب الحكم بها، ومن شعره قوله:

أيا نفسُ بالمأثور عن خير مرسل ... وأصحابه والتابعين تمسكي

عساك إذا بالغت في نشر دينه ... بما طاب من نشر له أن تمسكي

وخافي غداً يوم الحساب جهنماً ... إذا لفحت نيرانها أن تمسكي

وكانت وفاته بالقاهرة في هذه السنة قاله ابن خلكان.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وستمائة

فيما شرع في بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق.

وفيها عزل القاضي الزكي بن محيي الدين ابن الزكي، وفوض الحكم إلى القاضي جمال الدين بن الحرستاني، وهو ابن ثنتين تسعين سنة، فحكم بالعدل، وقضى بالحق، ويقال: إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريبا من النورية عند باب القواسين.

وفيها أبطل العادل ضمان الخمر والقيان جزاه الله خيراً، فزال بزوال ذلك عن الناس ومنهم شر كثير.

وفيها حاصر الأمير قتادة أمير مكة المدينة النبوية، وقطع نخلا كثيراً، فقاتله أهلها، فكر خائبا خاسراً حسيراً، وكان صاحب المدينة بالشام، فطلب من العادل نجدة على أمير مكة، فأرسل معه جيشا، فأسرع في الأوبة، فمات في أثناء الطريق، فاجتمع الجيش على ابن أخيه جماز، فقصد مكة، فالتقاه أميرها بالصفراء، فاقتتلوا قتالا شديدا، فهرب المكيون، وغنم منهم جماز شيئاً كثيراً، وهرب قتادة إلى الينبع فساروا إليه، فحاصروه بها وضيقوا عليه.

وفيها أغارت الفرنج على بلاد الإسماعيلية فقتلوا ونهبوا وسبوا.

وفيها أخذ ملك الروم كيكاوس مدينة أنطاكية من أيدي الفرنج، ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن، ثم أخذها منه إبرنس طرابلس.

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال.

وفيها كانت وفاة الملك المعظم أبي الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله الذي كان قد جعله ولي عهده من بعده، وعزل عن ذلك أخاه الأكبر، ولما توفي حزن الخليفة عليه حزنا عظيما، وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إلى الناس، حتى قيل إنه لم يبق بيت ببغداد إلا حزنوا عليه، وكان يوم جنازته يوما مشهوداً، وناح أهل البلد عليه ليلا ونهارا، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف الكرخي، توفي يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة، وصلي عليه بعد صلاة العصر.

وفي هذا اليوم قدم بغداد برأس منكلي الذي كان قد عصى على الخليفة وعلى أستاذه إلى بغداد، فطيف به فيها، ولم يتم فرحه ذلك اليوم لموت ولده وولي عهده، والدنيا لا تسر بقدر ما تضر، وترك ولدين: أحدهما المؤيد أبو عبد الله الحسن، والموفق أبو الفضل يحيى.

ومن توفي فيها من الأعيان

الحافظ عبد القادر الرهاوي:

■ عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الحافظ الكبير المحدث المخرج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف كان مولى لبعض المواصلة، وقيل لبعض الحرّانيين، اشتغل بدار الحديث بالموصل، ثم انتقل إلى حران، وقد رحل إلى بلدان شتى، وسمع الكثير من المشايخ، شرقاً وغرباً وأقام بحران إلى أن توفي بها، في هذه السنة وكان مولده في سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كان دينا خيراً رحمه الله.

الوجيه الأعمى: أبو بكر المبارك بن سعيد

■ ابن الدهان، النحوي الواسطي، الملقب بالوجيه، ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية والنحو، فأتقن ذلك، وحفظ شيئا كثيرا من أشعار العرب، وسمع الحديث، وكان حنبليا ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم صار شافعياً، وولي تدريس النحو بالنظامية، وفيه يقول الشاعر:

ألا مبلغاً عني الوجيه رسالةً ... وإن كان لا تجدي لديه الرسائلُ

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل

وما اخترت رأي الشافعي تديُّناً ... ولكنما تهوى الذي هو حاصلُ

وعما قليل أنت لا شك صائرٌ ... إلى مالكٍ فافطن لما أنا قائلُ

وقد ذكرناه في في سنة تسع وتسعين وخمس مئة كان يحفظ شيئا كثيراً من الحكايات والأمثال والملح، ويعرف العربية، والتركية، والعجمية، والرومية، والحبشية، والزنجية، وكانت له يد طولى في نظم الشعر، فمن ذلك قوله:

ولو وقعت في لجة البحر قطرةٌ ... من المزن يوماً ثم شاء لمازها

ولو ملك الدنيا فأضحى ملوكها ... عبيداً له في الشرق والغرب ما زها

وله في التجنيس:

أطلتَ ملامي في اجتنابي لمعشر ... طغام لئام جودهم غيرُ مرتجى

ترى بابهم لا بارك اللّهُ فيهمُ ... على طالب المعروف إن جاء مُرتجى

حووا ما لهم والدينُ والعرضُ منهمُ ... مباحٌ، فما يخشون من هجوِ مَن هجا

إذا شرع الأجوادُ في الجود منهجاً ... لهم شرعوا في البخل سبعين منهجا

وله مدائح حسنة، وأشعار رائقة، ويبتكر معاني فائقة، وربما عارض شعر البحتري بما يقاربه ويدانيه.

قالوا: وكان الوجيه لا يغضب قط، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية، فأجابه فيها بالجواب، فقال له السائل: أخطأت أيها الشيخ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى، فقال له: أخطأت أيضاً فأعاد ثالثة بعبارة أخرى، فقال: كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو، فقال الوجيه: أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك،فقال: بلى ولكنك تخطئ في الجواب، فقال له: فقل أنت ما عندك لنستفيد منك، فأغلظ له السائل في القول، فتبسم ضاحكا وقال له الوجيه: إن كنت راهنت فقد غلبت وإنما مثلك في هذا كمثل البَقّة - يعني الناموسة

ـ سقطت على ظهر الفيل فلما أرادت أن تطير قالت لـه: استمسـك فـإني أحب أن أطير، فقال لها الفيل: ما أحسست بك حين سقطت، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت.

كانت وفاته رحمه اللّه في شعبان منها، ودفن بالوردية.

أبو الفتوح

■ **محمد بن علي بن المبارك**: التاجر المعروف بـابن الجلاجلي، كـان يسكن بدار الخلافة ببغداد، قـرأ القرآن على الروايات، وسمع الحديث الكثير، ورحل إلى البلدان المتباينة، بلـغ ثلاثاً وستين سنة، وكـانت وفاته بالقدس الشريف في رمضان، رحمه اللّه.

أبو محمد

■ **عبد العزيز بن المعالي بن غنيمة بن الحسن المعروف بابن منينا** وولـد سنة خمس عشرة وخمسمائة، وسمع الكثير وأسمعه، وكـانت وفاته في ذي الحجة منها، عن سبع وتسعين سنة.

الشيخ الفقيه كمال الدين

■ **مودود بن الشاغوري الشافعي**، كان يقرئ بالجامع الأموي الفقه وشرح التنبيه للطلبة، ويتأنى عليهم حتى يفهموا، احتساباً تجاه المقصورة، ودفن بمقابر باب الصغير شمالي قبور الشهداء، وعلى قبره شعر، ذكره أبو شامة واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

قال أبو شامة: فيها أحضرت الأوتاد الخشب الأربعة لأجل قبة نسر الجامع، طول كل واحد اثنان وثلاثون ذراعاً بالنجار.

وفيها شرع في تجديد خندق باب السر المقابل لدار الطعم العتيقة إلى جانب باناس.

قلت: هي التي يقال لها اليوم اصطبل السلطان، وقـد نقل السلطان بنفسه التراب، ومماليكه تحمل بين يديه على قربوس السروج القفاف من التراب، فيفرغونها في الميدان الأخضر، وكذلك أخوه الصالح إسماعيل ومماليكه يعمل هذا يوماً وهذا يوماً.

وفيها وقعت فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة، فاقتتلوا بالرحبة والصيارف، فركب الجيش إليهم ملبسين، وجاء السلطان المعظم بنفسه فمسك رؤوسهم وحبسهم.

وفيها رتب بالمصلى خطيب مستقل، وأول من باشره الصدر معيد الفلكية، ثم خطب به بعد بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان وإلى الآن.

وفيها توفي من الأعيان

صاحب حلب الملك الظاهر:

■ **غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب**، وكان من خيار الملوك وأسدّهم سيرة، ولكن كان فيه عسف ويعاقب على الذنب شديداً، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء.

أقام في الملك ثلاثين سنة، وحضر كثيراً مع الغزوات مع أبيه، وكان ذكيا، له رأي جيد، وعبارة سديدة، وفطنة حسنة، عمراربعاً وأربعين، سنة. لما حضرته الوفاة جعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد، وكان حينئذ ابن ثلاث سنين، وكان له أولاد كبار ولكن ابنه هذا الصغير الذي عهد إليه كـان مـن بنت عمه العادل وأخواله الأشرف والمعظم والكامل، وجده العادل لا ينازعونه، ولو عهد لغيره من أولاده لأخذوا الملك منه، وهكذا وقع سواء، بايع له جده العادل وخاله الأشرف صاحب حرّان والرُّها وخِلاط، وهم المعظم بنقض ذلك ويأخذ الملك منه فلم يتفق له ذلك، وقام بتدبير ملكه الطواشي شهاب الدين طغريل الرومي الأبيض، وكان دينا عاقلا عادلاً.

وفيها توفي من الأعيان.

الشيخ تاج الدين

■ **أبو اليُمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة**، الشيخ الإمام العلامة، وحيد عصره ونسيج وحـده تاج الدين أبو اليمن الكندي. ولد ببغداد ونشأ بها، واشتغل وحصل، ثم قدم دمشق فأقام بها، وفاق أهل زمانه شرقاً وغرباً في اللغة والنحو، وغير ذلك من فنون العلم، وعلو الإسناد، وحسن الطريقة والسيرة، وصحة العقيدة، وانتفع به علماء زمانه، وأثنوا عليه وخضعوا له، وكان حنبليا ثم صار حنفياً، ولـد في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، فقرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنين وسمع الكثير من الحديث العالي على الشيوخ الثقات، وعنى به، وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك، ثم دخل الشام في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، ثم سكن مصر، واجتمع بالقاضي الفاضل. ثم انتقل إلى دمشق، فسكن بدرب العجم منها، وحظى عند الملوك والوزراء والأمراء، وتردد إليه العلماء والملوك وأبناؤهم.

كان الأفضل بن صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه إلى منزله، وكذلك أخوه المحسن والمعظم ملك دمشق، كان ينزل إليه إلى درب العجم يقرأ عليه في المفصل للزمخشري، وكان المعظم يعطي لمن حفظ المفصل ثلاثين ديناراً جائزة، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع،كالشيخ علم الدين السخاوي، ويحيى بن معطي الوجيه البوني، والفخر التركي وغيرهم، وكان القاضي الفاضل في أيامة يثني عليه.

قال السخاوي: كان عنده من العلوم ما لا يوجد عند غيره، ومن العجب أن سيبويه قد شرحت عليه «كتابه» كان واسم الشيخ أبي اليُ اليُمن عمرو، واسمه زيد، فقلت في ذلك.

لم يكـن في عهـد عمـرو مثلـه ... وكـذا الكنـدي في آخـر عصـر
فهمـا زيـد وعمـرو إنمـا ... بـني النحـو علـى زيـد وعمـرو

قال أبو شامة: وهذا كما قال فيه ابن الدهان المذكور في سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة:

يـازيد زادك ربـي مـن مواهبـه ... نعمـا يقصـر عـن إدراكهـا الأمـل
النحـو أنـت أحـق العـالمين بـه ... أليـس باسمك فيـه يضـرب المثـل

وقد مدحه السخاوي بقصيدة حسنة، وأثنى عليه أبو المظفر سبط بن الجوزي، فقال: قرأت عليه وكان حسن العقيدة، ظريف الخلق، لا يسأم الإنسان من مجالسته، وله النوادر العجيبة، والخط المليح، والشعر الرائق، وله ديوان شعر كبير، وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شوال من هذه السنة، وله ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوماً، وصلي عليه بجامع دمشق، ثم حمل إلى الصالحية فدفن بها رحمه اللّه.

وكان قد وقف كتبه ـ وكانت نفيسة ـ وهي سبعمائة وإحدى وستون

مجلدا، على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثم على ولده من بعد ثم على العلماء في الحديث والفقه واللغة وغير ذلك، وجعلت في خزانة كبيرة، في مقصورة ابن سنان الحنفية، المجاورة لمشهد علي بن زين العابدين، ثم إن هذه الكتب تفرقت، وبيع كثير منها، ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث، وهي بمقصورة الحنفية، وكانت قديماً يقال لها مقصورة ابن سنان.

وقد ترك الشيخ شهاب الدين رحمه اللّه نعمة وافرة وأموالا جزيلة ومماليك متعددة من الترك، وقد كان رقيق الحاشية، حسن الأخلاق، يعامل الطلبة معاملة حسنة من القيام والتعظيم، فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ يقول:

تركتُ قيامي للصديق يزورنـي ... ولا ذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين ... نصفها تبين في ترك القيام لهم عذري

وقد أسلفنا شيئاً من قبله في قتل عمارة اليمني في الدولة الصلاحية، في سنة تسع وستين وخمس مئة، وهو في غاية القوة والفصاحة والجناس، وقد أورد ابن الساعي في ترجمته من «تاريخه» أشعاراً حسنة، فمن ذلك قوله يمدح الملك المظفر شاهنشاه.

وصال الغواني كان أروى وأروجا ... وعصر التداني كان أبهى وأبهجا
ليالي كان الحجر لحسن شافع ... تولى وكان اللهو أوضح منهجا
بدا الشيب فانجابت طماعية الصبا ... وقبح لي ما كان يستحسن الحجا
بلهنية ولت كأن لم أكن بها ... بها أجتلي وجه النعيم مسرجا
ولا اختلت في دبر الشباب مجرراً ... ذيولي إعجاباً به وتبرجا
أغازل غيداء المعاطف طفلة ... وأغيد معسول المراشف أدعجا
تقضت لياليها بطيب كأنه ... لتقصيره منهن يختطف الدجى
فإن أمس مكروب الفؤاد حزينه ... أعاقر من دنّ الصبابة منهجا
وحيداً على أني بفضلي متيم ... مروعاً بأعداء الفضائل مزعجا
فيا ربَّ ذي ودٌ سررت وسرني ... وأبهجته بالصالحات وأبهجا
ويا رب ناد قد شهدت وماجد ... شهدت وخصم رعته فتلجلجا
صدعت بفضلي نقصه فتركته ... وفي قلبه شجو وفي حلقه شجى
كأن بياني في مسامع حسدي ... وقد ضم أبكار المعاني وأدرجا
حسام تقي الدين في كل مارق ... يقد إلى الأرض الكمي المدججا

وقال يمدح أخاه معز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

هل أنت راحم عبرة وتدلُّه ... ومجير صب عند ما منه دُهي
هيهات يرحم قاتل مقتوله ... وسنانه في القلب غير منهنه
مَن بلَّ من داء الغرام فإنني ... مذ حلَّ بي مرض الهوى لم أنقه
إنـي بليت بحب أغيد ساحر ... بلحاظه رخص البنان بزهرة
أبغي شفاه تدلهي من دلّه ... ومتى يرق مدلل لمدلّه
كم آهة لي في هواه وأنة ... لو كان ينفعني عليه تأوهي
ومآرب في وصله لو أنها ... تقضى لكانت عند مبسمه الشهي
يا مفرداً بالحسن إنسك منته ... فيه كما أنا في الصبابة منتهي
قد لام فيك معاشر أفانتهي ... باللوم عن حب الحياة وأنت هي

أبكي لديه فإن أحس بلوعة ... وتشهق أومأ بطرف مقهقه
أنا من محاسنه وحالي عنده ... حيران بين تفكر وتفكُّه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد ... لي في هواه بمعنيين موجه
أو لست رب فضائل لو حاز أد ... ناها وما أزهى بها غيري زهي

والذي أنشده تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني، حين كان مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين، وأرادوا عودة دولة الفاطميين، فظهر على أمره فصلب مع من صلب في سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

عمارة في الإسلام أبدى خيانة ... وحالف فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد ... وأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ... ويُسقى صديداً في لظىً وصليبا

وله:

صحبنا الدهر أياماً حساناً ... نعوم بهن في اللذات عوما
وكانت بعدما ولت كأني ... لدى نقصانها حلماً ونوما
أناخ بي المشيب فلا براح ... وإن أوسعته عتباً ولوما
نزيل لا يزال على التنائي ... يسوق إلى الردى يوماً فيوما
وكنت أعد لي عاماً فعاماً ... فصرت أعد لي يوماً فيوما

■ (محمد بن عبد الغني المقدسي).

العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي: ولد سنة ست وستين وخمسمائة، وأسمعه والده الكثير، ورحل بنفسه إلى بغداد، وقرأ بها مسند أحمد، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وكان من أصحاب المعظم، وكان صالحا دينا، ورعا حافظا رحمه اللّه ورحم أباه.

أبو الفتوح

■ محمد بن علي بن المبارك: الجلاجلي البغدادي، سمع الكثير، وكان يتردد في الرسلية بين الخليفة والملك الأشرف بن العادل، وكان عاقلا دينا، ثقة صدوقا.

الشريف أبو جعفر:

■ يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي العلوي الحسني، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه، كان شيخاً أديباً، فاضلا، عالما بفنون كثيرة، لا سيما علم الانساب، وأيام العرب وأشعارها، يحفظ كثيرا منها، وكان من جلساء الخليفة الناصر، ومن لطيف شعره قوله:

ليهنك سمع لا يلائمه العذل ... وقلب قريح لا يمل ولا يسلو
كان عليٌّ الحب أضحى فريضة ... فليس لقلبي غيره أبداً شغل
وإني لأهوى الهجر ما كان أصله ... دلالا ولولا الهجر ما عذب الوصل
وأما إذا كان الصدود ملالة ... فأيسر ما هم الحبيب به القتل

أبو علي

■ مزيد بن علي بن مزيد المعروف بابن الخشكري، الشاعر المشهور، من أهل النعمانية، جمع لنفسه ديواناً، أورد له ابن الساعي قطعة من شعره،فمن ذلك قوله:

سـألتك بـوم النـوى نظـرة فلـم تسـمحي خَفَـراً لا سـلم
فـأعجب كيـف تقولـين لا ووجهـك قـد خـط فيـه نعـم
أمـا النـون يـا هـذه حـاجب أما العين عـين أمـا الميـم فـم

أبو الفضل

■ رشوان بن منصور بن رشوان الكردي، المعروف بالنقف، ولد بإربل، وخدم جنديا، وكان أديباً شاعراً، خدم مع الملك العادل، ومن شعره قوله:

سـلي عـني الصـوارم والرماحـا وخيـلا تسـبق الهـوج الرياحـا
وأسـداً جيشـها سمـر العـوالي إذا مـا الأسـد حـاولت الكفاحـا
فـإني ثـابت عقـلا ولبـاً إذا مـا صـائح في الحـرب صاحـا
وأورد مهجـتي لجـج المنايـا إذا مـاجت ولم أخـف الجراحـا
وكـم ليـل سـهرت وبـت فيـه أراعـي النجـم أرتقـب الصباحـا
وكـم في فلـفـد فرسـي ونضـوي بقائلـة الهجـير غـدا وراحـا
لعينـك في العجاجـة مـا ألاقـي وأثبـت في الكريهـة لا براحـا

■ محمد بن يحيى بن هبة الله أبو نصر النحاس الواسطي كتب إلى السبط من شعره:

وقائلـة لمـا عمـرت وصـار لي ثمانون عاماً عش كـذا وابق واسلم
ودم وانتشـق روح الحيـاة فإنـه لأطيب مـن بيت بصعـدة مظلـم
فقلـت لهـا عـذري لديـك ممهـد ببيـت زهـير فـاعلمي وتعلمـي
سئمت تكـاليف الحياة ومـن يعـش ثمـانين حـولا لا محالـة يسـأم

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

في ثالث المحرم منها كمل تبليط داخل الجامع الأموي، وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولي بدمشق، فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيادة فرحاً بذلك.

وفيها زادت دجلة ببغداد زيادة عظيمة، وارتفع الماء حتى ساوى القبور إلا مقدار أصبعين، ثم طفح الماء من فوقه، وأيقن الناس بالهلكة، واستمر ذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ثم منَّ الله فتناقص الماء، وذهبت الزيادة، وقد بقيت بغداد تلولا، وتهدمت أكثر البنايات فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها درس بالنظامية محمد بن يحيى بن فضلان، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفيها سار الصدر بن حمويه في الرسلية إلى بغداد من العادل إلى الخليفة.

وفيها قدم ولده الفخر بن الكامل إلى أخيه المعظم يخطب منه ابنته على ابنه أقسيس صاحب اليمن، فعقد العقد بدمشق على صداق هائل.

وفيها قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همذان قاصدا إلى بغداد في أربعمائة ألف مقاتل، وقيل في ستمائة ألف، فاستعد له الخليفة، واستخدم الجيوش، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة، وأن يخطب له ببغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي، فلما وصل شاهد عنده من العظمة وكثرة الملوك بين يديه وهو جالس في خركاه من ذهب على سرير ساذج، وعليه قباء بخارى ما يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه جلدة ما تساوي درهماً، فسلم عليه فلم يرد عليه من الكبر، ولم يأذن له في الجلوس فقام إلى جانب السرير وأخذ في خطبة هائلة، فذكر فيها فضل بني العباس وشرفهم وأورد حديثا في النهي عن أذاهم، والترجمان يعيد على الملك، فقال الملك: أما ما ذكرت من فضل الخليفة فإنه ليس كذلك، ولكني إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفات، وأما ما ذكرت من النهي عن أذاهم فإني لم أوذ منهم أحدا، ولكن الخليفة في سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون في السجون، فهو الذي آذى بني العباس، ثم تركه ولم يرد عليه جوابا بعد ذلك، وانصرف السهروردي راجعا، وأرسل الله تعالى على الملك وجنده ثلجاً عظيماً ثلاثة أيام، حتى طم الخراكي والخيام، ووصل إلى قريب رؤوس الأعلام، وتقطعت أيدي رجال وأرجلهم، وعمهم من البلاء ما لا يحد ولا يوصف، فردهم الله خائبين، والحمد لله رب العالمين.

وفيها انقضت الهدنة التي كانت بين العادل والفرنج، واتفق قدوم العادل من مصر فاجتمع هو وابنه المعظم ببيسان، فركبت الفرنج من عكا ومقدمهم وصحبتهم ملوك السواحل كلهم، وساقوا كلهم قاصدين مغافصة العادل، فلما أحس بهم فر منهم لكثرة جيوشهم وقلة من معه، فقال ابنه المعظم إلى أين يا أبة؟ فشتمه أبوه بالعجمية، وقال له: أقطعت الشام مماليك وتركت من ينفعني أبناء الناس، ثم توجه العادل إلى دمشق، وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الفرنج، وينقل إليها من الغلات من داريا إلى القلعة، ويرسل الماء على أراضي داريا وقصر حجاج والشاغور، ففزع الناس من ذلك، وابتهلوا إلى الله بالدعاء، وكثر الضجيج بالجامع، وأقبل السلطان فنزل مرج الصفر، وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا لقتال الفرنج فكان أول من قدم صاحب حمص أسد الدين شيركوه، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج، وجاء فسلم على ست الشام بدارها عند المارستان، ثم عاد إلى داره.

ولما قدم أسد الدين سري عن الناس، فلما أصبح توجه نحو السلطان بمرج الصفر.

وأما الفرنج فإنهم قدموا بيسان فنهبوا ما كان بها من الغلات والدواب وقتلوا وأسروا شيئاً كثيراً، ثم عاثوا في الأرض فسادا يقتلون وينهبون ويأسرون ما بين بيسان إلى بانياس، وخرجوا إلى أراضي الجولان إلى نوى وخسفين وغيرها، وسار الملك المعظم فنزل على عقبة اللبن بين القدس ونابلس خوفاً على القدس منهم، فإنه هو الأهم الأكبر، ثم حاصر الفرنج حصن الطور حصاراً هائلا، ومانع عنه الذين به من الأبطال ممانعة هائلة، ثم كر الفرنج راجعين إلى عكا، ومعهم الأسارى من المسلمين، وجاء الملك المعظم إلى الطور فخلع على الأمراء الذين به وطيب نفوسهم، ثم اتفق هو وأبوه على هدمه كما سيأتي.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ العماد: أخو الحافظ عبد الغني، أبو إسحاق

■ إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي أصغر من أخيه الحافظ عبد الغني بسنتين، وقدم مع الجماعة إلى

دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، ودخل بغداد مرتين، وسمع الحديث، وكان عابدا زاهداً ورعا كثير الصلاة كثير الصيام، يصوم يوما ويفطر يوماً، وكان فقيها مفتيا، وله كتاب «الفروق»، وصنف أحكاماً ولم يتمه، وكان يؤم بمحراب الحنابلة مع الشيخ الموفق، وإنما كانوا يصلون بغير محراب، ثم وضع المحراب في سنة سبع عشرة وستمائة، وكان أيضاً يؤم بالناس لقضاء الفوائت، وهو أول من فعل ذلك، صلى المغرب ذات ليلة وكان صائما، ثم رجع إلى بيته بدمشق، فأفطر ثم مات فجاة، فصلي عليه بالجامع الأموي، صلى عليه الشيخ الموفق عند مصلاهم، ثم صعدوا به إلى السفح، وكان يوم موته يوماً مشهوداً من كثرة الناس.

قال سبط بن الجوزي: كان الخلق من الكهف إلى مغارة الدم إلى الميطور لو بذر السمسم ما وقع إلا على رؤوس الناس،قال: فلما رجعت تلك الليلة فكرت فيه وفي جنازته وكثرة من شهدها وقلت: هذا كان رجلا صالحا، ولعله أن يكون نظر إلى ربه حين وضع في قبره، ومر بذهني أبيات الثوري التي أنشدها بعد موته في المنام:

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي ... هنيئاً رضاي عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواماً إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته ... وزرني فإني منك غير بعيد

ثم قلت: أرجو أن يكون العماد رأى ربه كما رآه سفيان الثوري، فنمت فرأيت الشيخ العماد في المنام وعليه حلة خضراء وعمامة خضراء وهو في مكان متسع كأنه روضة، وهو يرقى في درج متسعة، فقلت: يا عماد الدين، كيف بت؟ فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته التي كنت أعرفه فيها في الدنيا ثم قال:

رأيت إلهي حين أنزلت حفرتي ... وفارقت أصحابي وأهلي وجيرتي
وقال جزيت الخير عني فإنني ... رضيت فها عفوي لديك ورحمتي
دأبت زماناً تأمل الفوز والرضا ... فوقيت نيراني ولقيت جنتي

قال: فانتبهت وأنا مذعور وكتبت الأبيات والله أعلم.

القاضي جمال الدين بن الحرستاني:

■ عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل أبو القاسم الأنصاري بن الحرستاني، قاضي القضاة بدمشق ولد سنة عشرين وخمسمائة، وكان أبوه من أهل حرستا، فنزل داخل باب توما، وأم بمسجد الزينبي، ونشأ ولده هذا نشأة حسنة، سمع الحديث الكثير، وشارك الحافظ بن عساكر في كثير من شيوخه، وكان يجلس للإسماع بمقصورة الخضر، وعندها كان يصلي دائما، لا تفوته الجماعة بالجامع، وكان منزله بالحويرة، ودرس بالمجاهدية، وعمر دهراً طويلا على هذا القدم الصالح والله أعلم. وناب في الحكم عن ابن أبي عصرون، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع، ثم عزل العادل القاضي بن الزكي الطاهر بن محيي الدين على القرشي وألزم القاضي جمال الدين بن الحرستاني هذا بولاية القضاء وله ثنتان وتسعون سنة، وأعطاه تدريس العزيزية، وأخذ التقوية أيضاً من ابن الزكي، وولاها فخر الدين بن عساكر.

قال ابن عبد السلام: ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستاني، كان يحفظ الوسيط للغزالي.

وذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان ابنه عماد الدين يخطب بجامع دمشق، وولي مشيخة الأشرفية ينوب عنه، وكان القاضي جمال الدين يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية، وكان السلطان قد أرسل إليه طراحة ومسندة لأجل أنه شيخ كبير، وكان ابنه يجلس بين يديه، فإذا قام أبوه جلس في مكانه، ثم إنه عزل ابنه عن نيابته لشيء بلغه عنه، واستناب شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس تجاهه في شرقي الإيوان، واستناب معه شمس الدين بن سنيّ الدولة، وبُنيت له دكة في الزاوية القبلية بغرب المدرسة واستناب شرف الدين بن الموصلي الحنفي،فكان يجلس في محراب المدرسة،واستمر حاكما ستتين وسبعة أشهر، ثم مات يوم السبت رابع ذي الحجة وله من العمر خمس وتسعون سنة، وصلي عليه بجامع دمشق، ثم دفن بسفح قاسيون.

الأمير بدر الدين

■ محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري باني المدرسة التي بالقدس، كان من خيار الأمراء، وكان يتمنى الشهادة دائما فقتلته الفرنج بحصن الطور، ونقل إلى القدس الشريف ودفن بتربته بمالا وتربته تزار إلى الآن رحمه الله.

■ (الدماغ).

الشجاع محمود المعروف بالدماغ: كان من أصدقاء العادل يضحكه، فحصل أموالا جزيلة منهم، كانت داره داخل باب الفرج، فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها أوقافا دارة.

■ (دهن اللوز).

الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة: شيخة العالمات بدمشق، وتلقب بدهن اللوز.

وفيها توفيت

■ بنت بوريحان وهي آخر بناته وفاة، وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت صفية المشهورة.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

استهلت والعادل نازل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فأخربه ونقل ما فيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان خوفا من الفرنج.

وفي ربيع الأول نزلت الفرنج على دمياط، وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى، وكان حصناً منيعاً، وهو قفل بلاد مصر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها التقى المعظم والفرنج على القيمون، فكسرهم وقتل منهم خلقا وأسر من الداوية مائة، فادخلهم إلى القدس منكسة أعلامهم.

وفيها جرت خطوب كثيرة ببلد الموصل بسبب موت ملوكها أولاد قرا أرسلان واحداً بعد واحد، وتغلب مملوك أبيهم بدر الدين لؤلؤ على الأمور ويُذكر أنه هو الذي كان يقتلهم في الباطن يستحوذ هو على الأمور، فالله أعلم.

وفيها أقبل ملك الروم كيكارس بن كيخسرو يريد أخذ مملكة حلب، وساعده على ذلك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط، فصده عن ذلك الملك الأشرف موسى بن العادل وقهر ملك الروم وكسر جيشه، ورده خائبا.

وفيها تملك الأشرف مدينة سنجار مضافا إلى ما بيده من الممالك هنالك.

وفيها توفي السلطان الملك

■ العادل أبو بكر بن أيوب، فأخذت الفرنج لعنهم الله، ثغر دمياط، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط، فحاصروه مدة أربعة شهور، والملك الكامل محمد يقاتلهم ويمانعهم، فتملكوا برج السلسلة، وهو كالقفل على ديار مصر، وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر ومن هذا البرج إلى دمياط، وهو على شاطىء البحر وحافة النيل سلسلة منه إلى الجانب الآخر، وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل، فلا يمكن الدخول، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه لذلك تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزنا على المسلمين وبلادها، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل. فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية عالقين، فجاءه ولده المعظم مسرعاً، فجمع حواصله وأرسله في محفة ومعه خادم بصفة أن السلطان مريض، وكلما جاء أحد من الأمراء ليسلم عليه بلغهم الطواشي عنه، أي أنه ضعيف، عن الرد عليهم، فلما انتهى به إلى القلعة المنصورة دفن بها مدة ثم حول إلى تربته بالعادلية الكبيرة، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذي من خيار الملوك وأجودهم سيرة، دينا عاقلا، صبوراً وقوراً، أبطل المحرمات والخمور والمعازف من مملكته كلها، وقد كانت ممتدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همذان كلها أخذها بعد أخيه صلاح الدين، سوى حلب فإنه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازي، لأنه زوج ابنته صفية الست خاتون، وكان العادل حليماً، صفوحاً صبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه، ومع أخيه حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج، وكانت له في ذلك اليد البيضاء، وكان ماسك اليد، وقد انفق في عام الغلاء بمصر أموالا كثيرة على الفقراء، وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئا كثيراً جداً، ثم إنه كفن في العام الثاني من بعد عام الغلاء في الفناء ثلاثمائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء وكان كثير الصدقة في أيام مرضه، حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدق به وبمركوبه، وكان كثير الأكل ممتعا بصحة وعافية مع كثرة صيامه، كان يأكل في اليوم الواحد أكلات جيدة، ثم بعد هذا يأكل عند النوم رطلا بالدمشقي من الحلوى السكرية اليابسة، وكان يعتريه مرض في أنفه في زمن الورد، وكان لا يقدر على الإقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد، فكان يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك.

توفي عن خمس وسبعين سنة، وكان له من الأولاد جماعة: محمد الكامل صاحب مصر، وعيسى المعظم صاحب دمشق، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط وحران وغير ذلك، والأوحد أيوب مات قبله، والفائز إبراهيم، والمظفر غازي صاحب الرها، والعزيز عثمان والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ أرسلان صاحب جعبر، والصالح إسماعيل، والقاهر إسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل وكان أصغرهم، وتقي الدين عباس وكان آخرهم وفاة، بقي إلى سنة ستين وستمائة، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون، زوجة الظاهر غازي صاحب حلب، وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذي ملك دمشق، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق، والأخرى بالجبل، وهو الذي قتله هولاوو كما سيأتي.

صفة أخذ الفرنج دمياط

لما انتهى الخبر بموت العادل، ووصل إلى ابنه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج، أضعف ذلك أعضاء المسلمين وفشلوا، ثم بلغ الكامل خبر آخر أن الأمير أحمد بن علي ابن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر، قد أراد ان يبايع للفائز عوضا عن الكامل، فساق وحده جريدة من دمياط قاصداً إلى مصر لاستدراك هذا الخطب الجسيم، فلما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم، واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر من موت العادل، فركبوا وراءه، فدخلت الفرنج بأمان إلى الديار المصرية، واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله، فوقع خبط عظيم جدا، وذلك تقدير العزيز العليم، فلما دخل الكامل مصر لم يقع مما ظنه شيء، وإنما هي خديعة من الفرنج، وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام، ثم ركب من فوره في الجيش إلى الفرنج فإذا الأمر قد تزايد، وتمكنوا من البلدان، وقتلوا خلقا، وغنموا كثيرا، وعاثت الأعراب التي هنالك على أموال الناس ببلاد دمياط، فكانوا أضر عليهم من الفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم إلى القاهرة، بعد أن كان يمانعهم عن دخول الثغر، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم، ويقول: الوحاء الوحاء، العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع الديار المصرية، فأقبلت العساكر الإسلامية إليه من كل مكان، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف موسى صاحب الجزيرة بيض الله وجهه، ثم المعظم وكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره بعد هذه السنة.

وفيها ولي حسبة بغداد الصاحب محيي الدين يوسف بن أبي الفرج بن الجوزي، وهو مع ذلك يعمل ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه، وشُكرت في مباشرته للحسبة.

وفيها فوض إلى المعظم النظر في التربة البدرية، تجاه مدرسة الشبلية، عند الجسر الذي على ثوري، ويقال له جسر كحيل، وهي منسوبة إلى بدر الدين حسن بن الداية، كان هو وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي.

قلت: وقد جعلت في حدود الأربعين وستمائة جامعا، يخطب فيه يوم الجمعة.

وفيها أرسل السلطان علاء الدين محمد بن تكش إلى الملك العادل وهو مخيم بمرج الصفر رسولا، فرد إليه مع الرسول خطيب دمشق جمال الدين محمد بن عبد الملك الدولعي، واستنيب عنه في الخطابة الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الآبار، فأقام بالعزيزية يباشر عنه، حتى قدم وقد مات العادل رحمه الله.

وفيها توفي الملك

■ القاهر صاحب الموصل، فأقيم ابنه الصغير مكانه، ثم قتل، وتشتت شمل البيت الأتابكي، وتغلب على الأمور بدر الدين لؤلؤ غلام أبيهم نور الدين أرسلان.

وفيها كان عود الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر من آمد. إلى دمشق بعد موت العادل، فعمل فيه الشيخ علم الدين السخاوي مقامة بالغ في مدحه فيها، وقد ذكروا أنه كان متواضعاً يحب الفقراء والفقهاء، ويسلم على الناس إذا اجتاز بهم وهو راكب في أبهة وزاته ثم إنه نُكب في هذه السنة وذلك أن الكامل هو الذي كان سبب طرده وإبعاده كتب إلى أخيه المعظم فيه، فاحتاط على أمواله وحواصله، وعزل ابنه عن

النظر من الدواوين، وقد كان ينوب عن أبيه في مدة غيبته.

وفي رجب منها أعاد المعظم ضمان القيان والخمور والمغنيات، وغير ذلك من الفواحش والمنكرات، التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، ولا جزى المعظم خيرا على ما فعل، واعتذر المعظم في صنعه هذا المنكر لقلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج، وهذا من جهله وقلة دينه، وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولون بسببه الأدبار، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول، كما في الأثر إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني، وهذا ظاهر لا يخفى على فطن.

وممن توفي فيها من الأعيان.

السلطان الملك

■ العادل أبو بكر بن أيوب، كما تقدم.

■ (عبد الله بن عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى).

■ القاضي شرف الدين: أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي، من بني عمّ ابن الزكي، وكان أول من درس بالشامية البرّانية وبالرواحية أيضاً وناب في الحكم عن ابن عمه محيي الدين بن الزكي، وتوفي في شعبان من هذه السنة ودفن عند مسجد القدم.

أبو سليمان

■ داود بن أبي الغنائم أحمد بن يحيى الملهمي الضرير البغدادي، كان ينسب إلى علم الأوائل، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية، قال فيه ابن الساعي: الداودي مذهباً، المعري أدبا واعتقادا، ومن شعره:

إلى الرحمن أشكو ما الاقي … غداة غدوا على هوج النياق
سألتكم بمن زم المطايا … أمرٌ بكم أمرُّ من الفراق؟
وهل داءٌ أشد من التنائي … وهل عيشٌ ألذُّ من التلاقي؟

قاضي قضاة بغداد عماد الدين أبو القاسم:

■ عبد الله بن الحسين بن الدامغاني الحنفي، سمع الحديث، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وولي القضاء ببغداد مرتين، نحوا من سبع عشرة سنة، وكان مشكور السيرة، عارفا بالحساب، والفرائض وقسمة التركات.

■ أبو اليمن نجاح بن عبد الله الحبشي: الشرابي نجم الدين، مولى الخليفة الناصر، كان يسمى سلمان دار الخلافة، وكان لا يفارق الخليفة، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا، كان بين يدي نعشه مائة بقرة، وألف شاة، وأحمال من التمر والخبز والماورد، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد، ومثلها على المجاورين بالحرمين، وأعتق مماليكه، ووقف عنه خمسمائة مجلد.

أبو المظفر

■ محمد بن علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر الموصلي، تفقه بالنظامية، وسمع الحديث، ثم عاد إلى الموصل، فساد أهل زمانه بها، وتقدم في الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها وكان صالحا دينا.

أبو الطيب

■ رزق الله بن يحيى بن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سليمان بن رزق الله بن غانم بن غنام الماحوزي، المحدث الجوال الرحال، الثقة الحافظ، الأديب الشاعر.

أبو العباس

■ أحمد بن برنقش بن عبد الله العمادي، كان من أمراء سنجار، وكان أبوه من موالي الملك عماد الدين زنكي صاحبها، وكان أحمد هذا أديباً شاعرا، ذا مال جزيل، وأملاك كثيرة، وقد احتاط على أمواله قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، وأودعه سجنا، فنسي فيه ومات كمدا، ومن شعره:

تقولُ وقد ودعتها ودموعها … على نحرها من خشية البين تلتقي
مضى أكثر العمر الذي كان نافعاً … رويدك فاعمل صالحاً في الذي بقي

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

فيها أمر الشيخ محيي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي ففُعل ذلك في مستهل هذه السنة ولله الحمد والمنة.

ظهور جنكيزخان وجنوده وعبورهم نهر جيحون

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكيزخان من بلادهم، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين، ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار، وهم من أشجعهم، وأصبرهم على القتال، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنزخان بعث تجارا له، ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه، يتبضعون له ثيابا للكسوة، فكتب نائبها إلى السلطان خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكيز خان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحوا من عشرين ألفا، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان، وولى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند، فحصنها وبالغ في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكيز خان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكرا وخديعة، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، واستعمل أهل البلد في طم خندقها، وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها في الخندق يطمونه بها، ففتحوها قسرا في عشرة أيام، فقتل من كان بها، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده، فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى

ومدارسها ومساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وكان من أمرهم ما سنذكره في السنة الآتية.

وفي مستهل هذه السنة خرب سور بيت المقدس عمره الله بذكره، أمر بذلك المعظم خوفا من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم من المحرم، فهرب منه أهله خوفا من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلا أو نهاراً، وتركوا أموالهم وأثاثهم، وتمزقوا في البلاد كل ممزق، حتى قيل: إنه بيع القنطار من الزيت بعشرة دراهم، والرطل النحاس بنصف درهم، وضج الناس، وابتهلوا إلى الله عند الصخرة وفي الأقصى وهي أيضاً فعلة شنعاء من المعظم، مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك:

في رجب حلل الحميّا وأخرب القدس في المحرم

وفيها استحوذت الفرنج على مدينة دمياط، ودخلوها بالأمان، فغدروا بأهلها، وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وفجروا بالنساء، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة ﴿ولو شاء ربُّك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفيها غضب المعظم على القاضي زكي الدين بن محيي الدين بن الزكي، وسببه أن عمته ست الشام بنت أيوب مرضت في دارها التي جعلتها بعدها مدرسة، فأرسلت إلى القاضي لتوصي إليه، فذهب إليها بشهود معه، فكتب الوصية كما قالت، فقال المعظم: يذهب إلى عمتي بدون إذني، ويسمع هو والشهود كلامها؟ واتفق أن القاضي طلب من جابي العزيزية حسابها، وضربه بين يديه بالمقارع، وكان المعظم يبغض هذا القاضي من أيام أبيه العادل، فعند ذلك أرسل المعظم إلى القاضي ببقجة فيها قباء وكلوتة، القباء أبيض والكلوتة صفراء، وقيل: بل كانا حراوين مدرنين، وحلف الرسول عن السلطان ليلبسنهما ويحكم بين الخصوم فيهما، وكان من لطف الله أن جاءته الرسالة بهذا وهو في دهليز داره التي بباب البريد، وهو منتصب للحكم، فلم يستطع إلا أن يلبسهما وحكم فيهما، ثم دخل داره واستقبل مرض موته، وكانت وفاته في صفر من السنة الآتية بعدها، وكان الشرف بن عنين الزرعي الشاعر قد أظهر النسك والتعبد، ويقال: إنه اعتكف بالجامع أيضا، فأرسل إليه المعظم بخمر ونرد ليشتغل بهما، فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة أحدثتها تبقى على الآباد

تجري الملوك على طريقك بعدها خلع القضاة وتحفة الزهاد

وهذا من أقبح ما يكون أيضاً.

وقد كان نواب ابن الزكي أربعة: شمس الدين بن الشيرازي إمام مشهد علي، كان يحكم بالمشهد بالشباك، وربما برز إلى طرف الرواق تجاه البلاطة السوداء، وشمس الدين بن سني الدولة، كان يحكم في الشباك الذي في الكلاسة تجاه تربة صلاح الدين عند باب الغزالية، وجمال الدين المصري، وكيل بيت المال، كان يحكم في الشباك الكمالي بمشهد عثمان، وشرف الدين الموصلي الحنفي كان يحكم بالمدرسة الطرخانية بجيرون والله تعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

ست الشام: واقفة المدرستين البرانية والجوانية، الست الجليلة المصونة خاتون

■ ست الشام بنت أيوب بن شادي، أخت الملوك وعمة أولادهم، وأم الملوك، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكا، منهم شقيقها المعظم توران شاه ابن أيوب صاحب اليمن،وهو مدفون عندها في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي صاحب حمص، وكانت قد تزوجته بعد أبي ابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهي وابنها حسام الدين محمد بن عمر في القبر الثالث، وهو الذي يلي مكان الدرس، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين، وكان من أكابر العلماء عند خاله صلاح الدين، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة، وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة، وأدوية، وعقاقير، وغير ذلك، وتفرقه على الناس.

وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار، السادس عشر من ذي القعدة من هذه السنة في دارها التي جعلتها مدرسة، وهي عند المارستان، وهي الشامية الجوانية، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله.

أبو البقاء صاحب الإعراب واللباب: عبد الله بن الحسين بن عبد الله، الشيخ أبو البقاء

■ العكبري، الضرير النحوي الحنبلي، صاحب «إعراب القرآن العزيز»، وكتاب «اللباب» في النحو، وله حواش على المقامات، ومفصل الزمخشري وديوان المتنبي وغير ذلك، وله في الحساب وغيره.

وكان صالحا دينا، مات وقد قارب الثمانين رحمه الله.

وكان إماما في اللغة والحساب والنحو، فقيها مناظرا، عارفا بالأصلين والفقه.

وحكى القاضي ابن خلكان عنه أنه ذكر في شرح المقامات أن عنقاء مُغرباً كانت تأتي إلى جبل شاهق عند أصحاب الرس، فربما اختطفت بعض أولادهم فشكوها إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فهلكت.

قال: وكان وجهها كوجه الإنسان، وفيها شبه من كل طائر.

وذكر الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار أنها كانت في زمن موسى لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجه كوجه الإنسان، وفيها شبه كثير من سائر الحيوان، وأنها تأخرت إلى زمن خالد بن سنان العبسي الذي كان في الفترة فدعا عليها فهلكت والله أعلم.

وذكر ابن خلكان أن المعز الفاطمي جيء إليه بطائر غريب الشكل جداً من الصعيد، يقال له عنقاء مغرب.

قلت: وكل واحد من خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان كان في زمن الفترة، وكان صالحا ولم يكن نبيا لقول رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» [خ(٣٤٤٢)] وقد تقدم ذلك.

■ (علي بن القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي).

الحافظ عماد الدين أبو القاسم: علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم ابن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن

عساكر الدمشقي، سمع الكثير، ورحل فمات ببغداد في هذه السنة، ومن لطيف شعره قوله في المروحة:

ومروحة تروح كل هم ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب وفي أيلول يغني اللّه عنها

■ ابن الدوامي الشاعر: وقد أورد له ابن الساعي جملة صالحة من شعره.

و■ سعيد بن الرزاز وكان أحد المعدلين ببغداد، وسمع «البخاري» من أبي الوقت.

وأبو سعيد

■ محمد بن محمود بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن المروزي الأصل، الهمذاني المولد، البغدادي المنشأ والوفاة، كان حسن الشكل، كامل الأوصاف، له خط حسن، ويعرف فنونا كثيرة من العلوم، شافعي المذهب، يتكلم في مسائل الخلاف، حسن الأخلاق، ومن شعره قوله:

أرى قسم الأرزاق أعجب لذي دعة مُثر ومُكد به الكدُّ
وأحمقُ ذو مال وأحمق معدم وعقل بلا حظٌ وعقل لهُ جدُّ
يعم الغني والفقر ذا الجهل والحجا وللّه من قبل الأمور ومن بعدُ

أبو زكريا

■ يحيى بن القاسم بن الفرج بن درع بن الخضر الشافعي، شيخ تاج الدين التكريتي قاضيها، ثم درس بنظامية بغداد، وكان متقنا لعلوم كثيرة منها التفسير، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، وله المصنفات في ذلك كله، وجمع لنفسه تاريخاً حسناً، ومن شعره قوله:

لا بد للمرء من ضيق ومن سعة ومن سرور يوافيه ومن حزن
واللّه يطلب منه شكر نعمته ما دام فيها ويبغي الصبر في المحن
فكن مع اللّه في الحالين معتنقا فرضيك هذين في سر وفي علن
فما على شدة يبقي الزمان فكن جلداً ولا نعمة تبقي على الزمن

ومن ذلك قوله:

لو كان قاضي الهوى علي ولي ما جار في الحكم من علي ولي
يا يوسفي الجمال عبدك لم تبق له حيلة من الحيل
إن كان قد القميص من دبر ففيك قد الفؤادُ من قبل

صاحب الجواهر: الشيخ الإمام العلامة جمال الدين أبو محمد

■ عبد اللّه بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد اللّه بن محمد بن شاس، الجذامي السعدي المالكي الفقيه، مصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، وهو من أكثر الكتب فوائد في الفروع، رتبه على طريقة الوجيز للغزالي.

قال ابن خلكان: وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله، والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه، لحسنه وكثرة فوائده وكان مدرساً بمصر، ومات بدمياط رحمه اللّه، واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنة عم البلاء، وعظم العزاء بجنكيز خان، المسمى بتموجين لعنه اللّه تعالى، ومن معه من التتار قبحهم اللّه أجمعين، واستفحل أمرهم، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها، حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق، والجزيرة، والشام، ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية، والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار وصغار ما لا يحد ولا يوصف.

وبالجملة فلم يدخلوا بلدا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار فيُحرق وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه أحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم.

وقد بسط ابن الأثير في كامله [٣٥٨/٢-٣٩٨] خبرهم في هذه السنة بسطا حسنا مفصلا، وقدم على ذلك كلاماً هائلا في تعظيم هذا الخطب العجيب.

قال فنقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق اللّه آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا، ثم يجاوزونها إلى الري، وهمذان، وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان، وأرّان ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم، وهرب الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم، وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدا بل رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة، وأكثره أهلا وأعدلهم أخلاقا وسيرة، في نحو سنة، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئا، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى.

قال: وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، لأن السلطان خوارزم شاه كان قد قتل الملوك من سائر الممالك واستقلَّ بالأمور، فلما انهزم منهم في العام الماضي وضعف عنهم ساقوا وراءه، فهرب فلا يدرى أين ذهب، وهلك في بعض جزائر البحر، خلت البلاد ولم يبق لها من يحميها، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور.

ثم شرع في تفصيل ما ذكره مجملا، فذكر أولا ما قدمنا ذكره في العام الماضي من بعث جنكيزخان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباسا، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال فحنق عليه جنكيزخان، وأرسل يهدده، فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده، فوجد التتار مشغولين بقتال كشلي خان، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم، فرجعوا وقد انتصروا على عدوهم، وازدادوا حنقا وغيظا، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكيزخان ثلاثة أيام، فقتل من الفريقين خلق كثير،ثم تحاجزوا، ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصنها، ثم كر راجعا إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه، فأقبل جنكزخان فحصر بخارى كما ذكرنا، فافتتحها صلحا، وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهرا وقتل الجميع، وأخذ الأموال،وسبى النساء والأطفال، وخرب الدور والمحال، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل، فلم يغن عنهم شيئا.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة، وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا، وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة، فقتل الجميع في ساعة واحدة، وألقى إليه الخمسون ألف السلم، فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم، واستباح البلد، فقتل الجميع، وأخذ الأموال، وسبي الذرية، وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فبعث سرية إلى بلاد خراسان، وتسميها التتار المغرِّبة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء، فساروا وراء فأدركوه، وبينهم وبينه نهر جيحون وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفنا فعملوا لهم أحواضا يحملون عليها الأسلحة، ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور، ثم منها إلى غيرها وهم في أثره لا يمهلونه يجمع لهم، فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم، حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه في البحر ما كان من أمره، بل ذهب فلا يدرى أين ذهب ولا كيف سلك، ولا إلى أي مفر هرب، وملكت التتار حواصله، فوجدوا في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرين ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئا كثيرا، وكان له عشرة آلاف مملوك، كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله في أقل من سنة.

وقد كان خوارزم شاه فقيها حنفيا فاضلا، له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيدا، وملك بلادا متسعة، وممالك متعددة، إحدى وعشرين سنة وشهورا، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكبر حرمة، ولا أعظم ملكا منه، لأنه إنما كانت همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضي، وأحل بالخطا بأساً شديدا، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وكذلك عراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه.

ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين في أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة، ونهبوا ما فيها، وقتلوا أهاليها كلهم، وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري، فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جدا، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها.

ثم قصدوا الري، فدخلوها على حين غفلة من أهلها، فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها، ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفا، ثم تيمموا بلاد أذربيجان، فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم، لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل، فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج وقتلت التتار منهم خلقاً كثيراً، ثم قصدوا تفليس وهي أكبر مدن الكرج واجتمعت عند ذلك الكرج، فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها.

وههنا قال ابن الأثير [الكامل: ٣٧٥/١٢]: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، قد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه.

قال: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم فساروا إلى تبريز، فصالحهم أهلها بمال.

قال: ثم ساروا إلى مراغة فحصروها، ونصبوا عليها المجانيق، وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ففتحوا البلد بعد أيام، وقتلوا من أهله خلقا لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئا كثيرا، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفا عظيما جداً، حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل، لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع، ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحده.

ودخلت امرأة منهم في زي رجل بيتا فقتلت كل من في ذلك البيت

وحدها، ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله.

ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعا، وقال أهل تلك النواحي: هذا أمر عصيب. وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول: إني قد جهزت عسكرا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية، بسبب ما قد دهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الذي قد أشرفوا بأخذها على أخذ الديار المصرية قاطبة، وكان أخوه المعظم قد قدم عليه إلى حران يستنجده لأخيهما الكامل ليتحاجزوا الفرنج بدمياط، وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التي يبعثها الخليفة وهي عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليه منهم غير ثمانمائة فارس، ثم تفرقوا قبل أن يجتمعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولكن الله سلم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان، فصالحهم أهلها، وترك التتار عندهم شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم، فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً، وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان، ففتحوا أردبيل ثم تبريز، ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وجما غفيرا، وحرقوها، وكانوا يفجرون بالنساء، ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة.

ثم عادوا إلى بلاد الكرج، وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة، ثم فتحوا بلدانا كثيرة يقتلون أهلها، ويسبون نساءها، ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمي وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان والقفجاق فاقتتلوا معهم قتالا عظيما، فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القفجاق، وهي مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسي والقندز والسنجاب شيء كثير جدا، ولجأت سوداق إلى بلاد الروس، وكانوا نصارى، فاتفقوا معهم على قتال التتار، فالتقوا معهم، فكسرتهم التتار كسرة فظيعة منكرة جدا.

ثم ساروا نحو بلغار في حدود العشرين وستمائة، ففرغوا من ذلك كله، ورجعوا نحو ملكهم جنكيزخان لعنه الله وإياهم.

هذا ما فعلته هذه السرية المغرِّبة، وكان جنكيزخان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى ترمذ فأخذتها وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدنا كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها، وكانت حصينة، فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا، فكتبوا إلى جنكيزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهرا، ثم قتل كل من فيها وكل من في البلد بكماله من الخاصة والعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكيزخان، فقد عسكر بظاهرها نحو مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم، فاقتتلوا معه قتالا عظيما حتى انكسر المسلمون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام، واستنزلوا نائبها خديعة، ثم غدروا به وبأهل البلد، فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم، وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد علي بن موسى والرشيد فتركوه خرابا، ثم ساروا هَراة فقتلوا خلقاً واستنابوا عليها، ثم ساروا إلى غزنة، فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه، فكسرهم فعادوا إلى هراة، فإذا أهلها قد نقضوا فقتلوهم عن آخرهم، ثم عادوا إلى ملكهم جنكيزخان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكيزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها، حتى فتحوا البلد قهرا، فقتلوا من فيها قتلا ذريعاً، ونهبوها وسبوا أهلها، وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون عنها، فغرقت دورها، وهلك جميع أهلها.

ثم عادوا إلى جنكيزخان وهو مخيم على الطالقان، فجهز منهم طائفة إلى غزنة، فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقا من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكيزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله فقصده جنكيزخان فتواجها، وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب السلطان جلال الدين فذهبوا فركبوا في بحر الهند، فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة.

وفي هذه السنة أيضا ترك الأشرف موسى بن العادل لأخيه شهاب الدين غازي ملك خلاط وميافارقين وبلاد أرمينية، وحاني واعتاض عن ذلك بالرها وسروج، وذلك لاشتغاله عن حفظ تلك النواحي بمساعدة أخيه الكامل ونصرته على الفرنج لعنهم الله تعالى.

وفي المحرم منها هبت رياح ببغداد، وجاءت بروق وسمعت رعود شديدة، وسقطت صاعقة بالجانب الغربي على المنارة المجاورة لغزو معين فثلمتها، ثم أصلحت، وغارت الصاعقة في الأرض.

وفي هذه السنة نصب محراب الحنابلة في الرواق الثالث الغربي من جامع دمشق، بعد ممانعة من بعض الناس لهم، ولكن ساعدهم بعض الأمراء في نصبه لهم، وهو الأمير ركن الدين المعظمي، وصلى فيه الشيخ موفق الدين بن قدامة.

قلت: ثم رفع في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وعوضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيارة، كما عوض الحنفية عن محرابهم الذي كان في الجانب الغربي من الجامع بالمحراب المجدد لهم شرقي باب الزيارة، حين جدد الحائط الذي هو فيه في الأيام التنكزية، على يدي ناظر الجامع تقي الدين بن مراجل، أثابه الله تعالى، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها قتل صاحب سنجار أخاه، فملكها مستقلا بها الملك الأشرف بن العادل.

وفيها نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وكان قد آواه وحفظه من أذى أخيه الكامل له حين أراد أن يبايع للفائز، ثم إنه سعى في الأرض فساداً في بلاد الجزيرة، فسجنه الأشرف حتى مات كمدا وذلا وعُرياً.

وفيها أوقع الكامل بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديدا، فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم ولله الحمد.

وفيها عزل المعظم المعتمد مبارز الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاها للعزيز خليل، ولما خرج الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى كان أميرهم المعتمد، فحصل به خير كثير، وذلك أنه كف عبيد مكة عن نهب الحاجّ، بعد قتلهم أمير حاج العراقيين آقباش الناصري، وكان من أكبر الأمراء عند الخليفة الناصر وأخصهم عنده، وذلك لأنه قدم معه بخلع للأمير حسن بن أبي عزيز قتادة ابن إدريس بن مطاعن ابن عبد الكريم العلوي الحسني الزيدي بولايته لإمرة مكة بعد أبيه، وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، فنازع في ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة، وقال لا يتأمر عليها غيري، فوقعت فتنة، أفضى الحال إلى قتل آقباش غلطاً، وقد كان قتادة من أكابر الأشراف الحسنيين الزيديين وكان عادلا منصفا منعما، نقمة على

عبيد مكة والمفسدين بها، ثم عكس هذا السير فظلم وجدد المكوس، ونهب الحاج غير مرة، فسلط الله عليه ولده حسنا فقتله وقتل عمه وأخاه أيضاً، فلهذا لم يهمل الله حسناً أيضاً، بل سلبه الملك وشرده في البلاد، وقيل: بل قتل كما ذكرنا، وكان قتادة شيخاً طويلا مهيبا لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد، وكان الخليفة يود لو حضر عنده ليكرمه، وكان يأبى من ذلك ويمتنع عنه أشد الامتناع، ولم يفد إلى أحد قط، ولا ذل لخليفة ولا ملك، وكتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه:

ولي كفُ ضرغام أذل ببطشها ... واشري بها بين الورى وأبيعُ
وكلُ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظَهْرَها ... وفي بطنها للمجدبينَ ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم أبتغي ... خلاصاً لها إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسكُ في كل بقعة ... يضوع وأما عندكم فيضيع

وقد بلغ قتادة من السنين سبعين سنة، وقد ذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثماني عشرة فالله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ الفائز: غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في الملك بعد أبيه على الديار المصرية، على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب، لولا أن الكامل تدارك ذلك سريعا، ثم أرسله أخوه في هذه السنة إلى أخيهما الأشرف موسى، يستحثه في سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج، فمات بين سنجار والموصل، وقد ذكر أنه سم فرد إلى سنجار فدفن بها، رحمه الله تعالى.

شيخ الشيوخ صدر الدين: أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر

■ ابن حمويه الجويني من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، وقد كان صدر الدين هذا فقيهاً فاضلا، درس بتربة الشافعي بمصر، وبمشهد الحسين وولي مشيخه سعيد السعداء والنظر فيها، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك، أرسله الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالإسهال، ودفن بها عند قضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة.

■ (محمد بن عمر بن شاهنشاة بن أيوب).

صاحب حماة: الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فاضلا له تاريخ في عشر مجلدات سماه المضمار، وكان شجاعاً فارساً، فقام بالملك بعده ولده الناصر قليج أرسلان، ثم عزله عنها الكامل وحبسه مات رحمه الله تعالى وولى أخاه المظفر بن المنصور.

صاحب آمد: الملك الصالح ناصر الدين

■ محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق، وكان شجاعاً محباً للعلماء، وكان مصاحباً للأشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً، وملك بعده ولده الملك المسعود، وكان بخيلا فاسقاً، فأخذ الكامل آمد وحبسه بمصر ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار، فأخذته منه.

الشيخ عبد الله

■ اليونيني: الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه من قرية ببعلبك يقال لها يونين، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له همة عالية في الزهد والورع، بحيث إنه كان لا يقتني شيئاً ولا يملك مالا ولا ثياباً، بل يلبس عاريَّة ولا يتجاوز قميصاً في الصيف وفروة فوقه في الشتاء، وعلى رأسه قبعاً من جلود المعز، شعره إلى ظاهر، وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلا، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان، ويأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق، لأجل سخونة الماء، فيقصده الناس للزيارة هناك، ويجيء تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند المقادسة وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة، وكان يقال له أسد الشام.

حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي [مرآن الزمان: ٦١٣/٨] عن القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله وهو يتوضأ من نَوْرا عند الجسر الأبيض إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمراً فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه، واستعان به على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال: تعال يا فقيه، فتساعدنا على تحميل ذلك الحمل على الدابة وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة، فانتهى به إلى العُقيبة فأورده إلى الخمار بها فإذا خل فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فقال النصراني: أنا والله أعرف من أين أُتيت، ثم ربط الدابة في خان ورجع إلى الصالحية فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه.

وله أحوال وكرامات كثيرة جداً، وكان لا يقوم لأحد دخل عليه ويقول: إنما يقوم الناس لرب العالمين.

وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: يا مُجَيِّد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره وينهاه عما ينهاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه، وكان يقبل الفتوح، وكان لا يدخر منه شيئاً لغد، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهوء، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العباد، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء، وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمي، وكان من أصحاب الحسن البصري، ثم من بعده من الصالحين رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الشيخ عبد الله اليونيني صلاة الجمعة بجامع بعلبك، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو سَوِيٌ صحيح، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن، وكان يغسل الموتى: انظر كيف تكون غداً، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه، ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء ويدعو لهم، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله وفي يده سبحته، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط، ولم تسقط السبحة من يده، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك جاء إليه فعاينه كذلك فقال لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية، فقيل له: ليس هذا من السنة، فنحي وغُسِّل وكفن وصلي عليه ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى، رحمه الله ونور ضريحه.

وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله وأكرم مثواه، وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلامذه، وممن يلوذ به وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك.

أبو عبد الله

■ الحسين بن محمد بن أبي بكر: المجلي الموصلي، ويعرف بابن الجهني،

شاب فاضل ولي كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل، ومن شعره:

نفسي فداء الدين فكرت فيه وقد ... غدوت أغرق في بحر من العجب
يبدو بليل على صبح على قمر ... على قضيب على وهم على كثب

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

فيها استولت التتار علي كثير من البلدان كمراغة وهمذان وأردبيل وتبريز وكنجة، وقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها، وأستأسروا ذراريهـا، واقتربوا من بغداد، فانزعج الخليفة لذلك، وحصن بغداد، واستخدم الأجناد، وقنت الناس في الصلوات والأوراد.

وفيها قهروا الكرج واللان، ثم قاتلوا القفجاق فكسروهم، وكذلك الروس، وينهبون ما قدروا عليه، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم.

وفيها سار المعظم إلى أخيه الأشرف، فاستعطفه علي أخيه الكامل، وكان في نفسه موجدة عليه فأزالها، وسارا جميعاً نحو الديار المصرية، لمعاونة الكامل علي الفرنج الذين قد أخذوا ثغر دمياط، واستحكم أمرهم هنالك من سنة أربع عشرة، وعرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس، وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل ويتركوا دمياط، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا، فقدر الله تعالى أنهم ضاقت عليهم الأقوات، فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة، فجاء مقدموهم إليه وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف، وكانا قائمين بين يديه، وكان يوما مشهودا، وأمراً محموداً فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد بيض الله وجهه، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه، ومد سماطا عظيما، فاجتمع عليه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقام راجح الحلي الشاعر فأنشد:

هنيئاً فإن السعد راحَ مخلداً ... وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسوداً
ولما طغى البحر الخضم بأهله الط ... غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو مجدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً ... عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعبَّادَ عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا يخدمون محمداً

قال أبو شامة: وبلغني أنه أشار عند ذلك إلى المعظم عيسى، والأشرف موسى، والكامل محمد قال: وهذا من أحسن شيء اتفق. وكان ذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رجب من هذه السنة، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها من البلدان، ورجع المعظم إلى الشام، واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما المعظم.

وفيها ولى الملك المعظم قضاء دمشق لجمال الدين المصري، الذي كان وكيل بيت المال بها، وكان فاضلا بارعا، يجلس في كل يوم جمعة قبل الصلاة بالعادلية بعد فراغها لإثبات المحاضر، ويحضر عنده في المدرسة جميع الشهود من كل المراكز، حتى يتيسر على الناس إثبات كتبهم في الساعة الواحدة، جزاه الله خيراً.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ ياقوت الكاتب الموصلي: رحمه الله، أمين الدين المشهور بطريقة ابن البواب.

قال ابن الأثير: لم يكن في زمانه من يقاربه في خطّه، وكانت لديه فضائل جمة، والناس متفقون على الثناء عليه، وكان نعم الرجل، وقد قال فيه نجيب الدين الواسطي قصيدة يمدحه بها:

جامعٌ شارد العلوم ولولا ... ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو يراع تخافُ رَيْبَتَهُ الأسـ ... دُ، وتعنو لهُ الكتائبُ ذلا
وإذا افتر ثغرهُ عن سواد ... في بياض فالبيض والسُمر خجلى
أنت بدر والكاتب ابن هلال ... كأبيه لا فخر فيمن تولى
إن يكن أولى فإنك بالتفضـ ... يل أولى فقد سبقت وصلى

■ جلال الدين الحسن: من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الإسماعيلية، وكان قد أظهر في قومه شعائر الإسلام، وحفظ الحدود والمحرمات، والقيام بالزواجر الشرعية.

الشيخ الصالح شهاب الدين

■ محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي، الزاهد العابد الناسك، كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوي، وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفري، وقد سمع الحديث الكثير، ورحل وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة، وكانت له فنون كثيرة، وكان ظريفا مطبوعا رحمه الله.

والخطيب موفق الدين أبو عبد الله

■ عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسي، خطيب بيت الأبار، وقد ناب بدمشق عن الخطيب جمال الدين الدولعي، حين سار في الرسلية إلى خوارزم شاه، حتى عاد.

المحدث البارع تقي الدين أبو طاهر

■ إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطي، قرأ الحديث ورحل وكتبه، وكان حسن الخط، متقنا في علوم الحديث، حافظا له، وكان الشيخ تقي الدين بن الصلاح يثني عليه ويمدحه، وكانت له كتب بالبيت الغربي من الكلاسة، الذي كان للملك المحسن بن صلاح الدين، ثم أخذ من ابن الأنماطي، وسلم إلى الشيخ عبد الصمد الدكالي، واستمر بيد أصحابه بعد ذلك، وكانت وفاته بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية، وصلى عليه بالجامع الشيخ موفق الدين، وبباب النصر الشيخ فخر الدين بن عساكر، وبالمقبرة قاضي القضاة جمال الدين المصري، رحمه الله تعالى.

أبو الغيث

■ شعيب بن أبي طاهر بن كليب بن مقبل الضرير، الفقيه الشافعي، أقام ببغداد إلى أن توفي، وكانت لديه فضائل، وله رسائل، ومن شعره قوله:

إذا كنتمُ للناس أهل سياسةٍ ... فسوسوا كرام الناس بالجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا ... عليه، فإن الذل أصلح للنذل

أبو العز

■ مشرِّف بن علي بن أبي جعفر بن كامل الخالصي، المقرئ الضرير، الفقيه الشافعي، تفقه بالنظامية، وسمع الحديث ورواه، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبي:

تمثلتُـــمُ لي والديــــارُ بعيـــــدةٌ ... فخيـلَ لي أن الفـؤاد لكـم مغنـى
وناجـاكمُ قلـبي علـى البعـد بيننـا ... فأوحشـتم لفظـاً وآنسـتم معنـى

أبو سليمان

■ داود بن إبراهيم الجيلي، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية، ومما أنشده:

أيا جامعـا أمسـك عنـانك مقصـراً ... فـإن مطايـا الدهـر تكبـو وتقصـرُ
ستـقرعُ سـنا أو تعـضُ ندامـةً ... إذا خـــان الزمـــان وتبصـــرُ
ويلقـاك رشـدٌ بعـد غيـك واعـظٌ ... ولكنـه يلقـــاك والأمـــر مدبـــرُ

أبو المظفر

■ عبد الودود بن محمود بن المبارك بن علي بن المبارك بن الحسن الواسطي الأصل، البغدادي الدار والمولد، كمال الدين المعروف والده بالمجير، تفقه على أبيه، وقرأ عليه علم الكلام، ودرس بمدرسته عند باب الأزج، ووكله الخليفة الناصر، واشتهر بالديانة والأمانة، وباشر مناصب كباراً، وحج مراراً عديدة، وكان متواضعاً، حسن الأخلاق وكان يقول:

ومـا تركـت سـتٌ وسـتون حجـة ... لنا حجـةً أن نركـب اللّهـو مركبـا

وكان ينشد:

العلـمُ يـــأتي كـــل ذي خـــف ... ض ويـــأبي كــــل آبــــي
كالمـــاءِ يـــنزلُ في الوهــــا ... د وليـــس يصعـــد في الروابـــي

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

فيها نقل تابوت العادل من القلعة إلى تربته العادلية الكبيرة، فصلي عليه أولا تحت النسر بالجامع الأموي، ثم جاؤوا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها، ولم تكن المدرسة كملت بعد، وقد تكامل بناؤها في السنة الآتية أيضا. وذكر الدرس بها القاضي جمال الدين المصري، وحضر عنده السلطان المعظم فجلس في الصدر، وعن شماله القاضي، وعن يمينه جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية، وكان في المجلس الشيخ تقي الدين بن الصلاح إمام السلطان، والشيخ سيف الدين الآمدي إلى جانب المدرس، وإلى جانبه شمس الدين بن سَنِيِّ الدولة، ويليه النجم خليل قاضي العسكر، وتحت الحصيري شمس الدين بن الشيرازي، وتحته محيي الدين بن الزكي، وفيه خلق من الأعيان والأكابر، وفيهم فخر الدين بن عساكر.

وفيها أرسل الملك المعظم الصدر البكري محتسب دمشق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه علي أخويه الكامل والأشرف اللذين قد تمالآ عليه فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة، ولما عاد البكري أضاف إليه مشيخة الشيوخ.

وحج في هذه السنة الملك المسعود أقسيس بن الكامل صاحب اليمن، فبدت منه أفعال ناقصة بالحرم الشريف، من سكر ورشق حمام المسجد بالبندق من أعلى قبة زمزم، وكان إذا نام في دار الإمارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو نَومٌ سَكِرٌ قبحه اللّه، ولكن كان مع هذا كله مهيباً محترماً، والبلاد به آمنة مطمئنة، وقد كاد يرفع سنجق أبيه يوم عرفة على سنجق الخليفة، فيجري بسبب ذلك فتنة عظيمة، وما مكن من طلوعه وصعوده إلى الجبل إلا في آخر النهار بعد جهد جهيد.

وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار.

وفيها وقعت حروب كثيرة بين القفجاق والكرج، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القفجاق عليهم.

وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد أبو عبد اللّه محمد بن فضلان، ولبس الخلعة في دار نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن محمد القُمِّي بحضرة الأعيان والكبراء، وقرئ تقليده بحضرتهم، وساقه ابن الساعي بحروفه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ عبد القادر بن داود: أبو محمد الواسطي، الفقيه الشافعي، الملقب بالمحب، استقل بالنظامية دهراً، واشتغل بها، وكان فاضلا، دينا صالحاً، ومما أنشده من الشعر:

الفرقـــدان كلاهمـــا شـــهدا لـــه ... والبـــدرُ ليلـــة تمـــه بـــسهاده
دنـفٌ إذا اعتبـق الظـلام تضرمـت ... نـــارُ الجـــوى في صـــدره وفـــؤاده
فجـرت مدامـــع جفنـــه في خـــدّه ... مثـل المسيل يسـيلُ مـن أطـــواده
شـــوقاً إلى مضنيــــهِ لم أر هكـــذا ... مشـــتاق مضنـــى جســـمه بيعـــادو
ليـت الـــذي أضنـــاه ســـحر جفونـــه ... قبـل الممـات يكـــون مـــن عـــواده

أبو طالب

■ يحيى بن علي: اليعقوبي الفقيه الشافعي، أحد المعيدين ببغداد، كان شيخا مليح الشيبة، جميل الوجه، كان يلي بعض الأوقاف، ومما أنشده لبعض الفضلاء:

لحمـــل تهامـــةٍ وجبـــال أحـــدٍ ... ومـــاءُ البحـــر ينقـــل بـــالزبيلِ
ونقـلُ الصخـــر فـــوق الظهـــر يومـــاً ... لأهـــون مـــن مجالســـة الثقيـــلِ

ولبعضهم أيضاً، وهو مما أنشده المذكور:

وإذا مضـى للمـــرء مـــن أعوامـــه ... خمـــسون وهـــو إلى التقـــى لا يجنـــحُ
عكفـت عليـــه المخزيـــاتُ بقولهـــا ... حالفتنـــا، فـــأقمْ كـــذا لا تـــبرحُ
وإذا رأى الشـــيطان غـــرة وجهـــه ... حيـــاً، وقـــال فديـــت مـــن لا يفلـــحُ

اتفق أنه طولب بشيء من المال فلم يقدر عليه، فاستعمل شيئاً من الأفيون المصري، فمات من يومه ودفن بالوردية.

وفيها توفي

■ قطب الدين بن العادل: بالفيوم ونقل إلى القاهرة.

وفيها توفي إمام الحنابلة بمكة.

الشيخ

■ نصر بن أبي الفرج: المعروف بابن الحصري، جاور بمكة مدة لم يسافر، ثم ساقته المنية إلى اليمن، فمات بها في هذه السنة، وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ.

وفيها في ربيع الأول توفي بدمشق الشهاب

■ عبد الكريم بن نجم بن الحنبلي، أخو البهاء والناصح، وكان فقيها مناظراً، بصيراً بالمحاكمات، وهو الذي أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوي، رحمه اللّه تعالى بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

فيها عاد الأشرف موسى بن العادل من عند أخيه الكامل صاحب مصر إلى الشام، فتلقاه أخوه المعظم وقد فهم أنهما تمالآ عليه، فبات ليلة بدمشق، وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك، فسار إلى بلاده، فوجد أخاه الشهاب غازي الذي استنابه على خلاط وميافارقين وقد قويَ رأسه، وكاتبه المعظم صاحب إربل، وحسنوا له مخالفة الأشرف، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل، فجمع له العساكر لقتاله.

وفيها سار أقسيس الملك المسعود صاحب اليمن ابن الكامل من اليمن إلى مكة شرفها الله تعالى، فقاتله حسن بن قتادة ببطن مكة بين الصفا والمروة، فهزمه أقسيس وشرده، واستقل بملك مكة مع اليمن، وجرت أمور فظيعة، وتشرد حسن بن قتادة قاتل أبيه وعمه وأخيه في تلك الشعاب والأودية.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام موفق الدين:

■ ابن قدامة المقدسي مصنف المغني في الفقه عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الشيخ موفق الدين أبو محمد المقدسي إمام عالم بارع. لم يكن في عصره، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه، ولد بجماعيل، في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقدم مع أهله إلى دمشق في سنة إحدى وخمسين، وقرأ القرآن، وسمع الحديث الكثير، ورحل مرتين إلى العراق، إحداهما في سنة إحدى وستين مع ابن خالته الحافظ عبد الغني، والأخرى سنة سبع وستين، وحج في سنة ثلاث وسبعين، تفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد، وبرع وأفتى، وناظر وتبحر في فنون كثيرة، مع زهد وعبادة، وورع وتواضع، وحسن أخلاق، وجود وحياء، وحسن سمت، ونور وبهاء، وكثرة تلاوة، وصلاة وصيام وقيام، وطريقة حسنة، واتباع للسلف الصالح، وكانت له أحوال ومكاشفات، وقد قال الشافعي رحمه الله تعالى: إن لم يكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله وليّاً.

وكان يؤم الناس للصلاة في محراب الحنابلة هو والشيخ العماد، فلما توفي العماد استقل هو بالوظيفة، فإن غاب صلى عنه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني، وكان يتنفّل بين العشاءين بالقرب من محرابه، فإذا صلى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكلون معه من طعامه، وكان منزله الأصلي بقاسيون، فينصرف في بعض الليالي بعد العشاء إلى الجبل، فاتفق في بعض الليالي أن خطف رجل عمامته، وكان فيها كاغد فيه رمل، فقال له الشيخ: خذ الكاغد وألق العمامة، فظن الرجل أن في الكاغد مالاً، فأخذه وألقى العامة، فأخذه وألقى العمامة فأخذها الموقف ثم ذهب. وهذا يدل على ذكاء مفرط، واستحضار حسن في الساعة الراهنة، حتى خلص عمامته من يده بتلطف.

وله مصنفات عديدة مشهورة، منها المغني في شرح مختصر الخرقي في عشرة مجلدات، و«الكافي» في أربعة مجلدات، والمقنع للحفظ، والروضة في أصول الفقه، وغير ذلك من التصانيف المفيدة.

وكانت وفاته في يوم عيد الفطر في هذه السنة، وقد بلغ الثمانين، وكان يوم سبت، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن بتربته المشهورة، ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى، وكان له أولاد ذكور وإناث، فماتوا في حياته، ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدين، ثم ماتا وانقطع نسله، قال أبو المظفر السبط:

نقلت من خط الشيخ موفق الدين رحمه الله تعالى:

لا تجلسنَّ بباب من ... يأبى عليك دخول داره
وتقول حاجاتي إليـ ... ـه يعوقها إن لم أداره
واتركه واقصد ربها ... تُقْضَى وربُّ الدار كارهْ

ومما أنشده الشيخ موفق الدين لنفسه رحمه الله تعالى ورضي عنه قوله:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكناً ... سوى القبر، إني إن فعلت لأحمق
يخبرني شيبي بأني ميت ... وشيكا، فينعاني إليَّ ويصدق
يخرق عمري كل يوم وليلة ... فهل أستطيع رقع ما يتخرق
كأني بجسمي فوق نعشي ممدداً ... فمن ساكت أو معول يتحرق
إذا سئلوا عني أجابوا وعولوا ... وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت في صدع من الأرض ضيق ... وأودعت لحدا فوقه الصخر مطبق
ويحثو علي الترب أوثق صاحب ... ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيا رب كن لي مؤنساً يوم وحشتي ... فإني بما أنزلته لمصدق
وما ضرني أني إلى الله صائر ... ومن هو من أهلي أبر وأرفق

فخر الدين ابن عساكر

■ عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر: فخر الدين أبو منصور الدمشقي، شيخ الشافعية بها، وأمه اسمها أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القريشية، المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة، وبه قبره وقبرها، ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء، وهي أخت آمنة والدة القاضي محيي الدين محمد بن علي بن الزكي.

اشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم الشريف، على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، فتزوج بابنته، ودرس مكانه بالجاروخية، وبها كان يسكن في إحدى القاعتين اللتين أنشأهما، وبها توفي غربي الإيوان، ثم تولى تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف، ثم ولاه العادل تدريس التقوية، وكان عنده أعيان الفضلاء ثم تفرغ فلزم المجاورة في الجامع في البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة، يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى، وكانت الفتاوى تفد إليه من الأقطار، وكان كثير الذكر، حسن السمت، وكان يجلس تحت قبة النسر، في كل اثنين وخميس مكان عمه، لإسماع الحديث بعد العصر، فيقرأ عليه دلائل النبوة وغيره، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية، ومشهد ابن عروة أول ما فتح، وقد استدعاه الملك العادل بعد ما عزل قاضيه زكي الدين فأجلسه إلى جانبه وقت السماط، وسأل منه أن يلي القضاء بدمشق، فقال: حتى أستخير الله تعالى، ثم امتنع من ذلك، فشق على السلطان امتناعه، وهمَّ أن يؤذيه فقيل له: احمد الله الذي فيه مثل هذا.

ولما توفي العادل وأعاد ابنه المعظم الخمور أنكر عليه الشيخ فخر الدين، فبقي في نفسه منه، فانتزع منه تدريس الصلاحية التي بالقدس وتدريس التقوية، ولم يبق معه سوى الجاروخية، ودار الحديث النورية، ومشهد ابن عروة.

وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد العصر، عاشر رجب من هذه السنة، وله خمس وستون سنة، وصلى عليه بالجامع، وكان يوماً مشهوداً، وحملت جنازته إلى مقابر الصوفية فدفن في أولها، قريباً من قبر شيخه قطب الدين مسعود بن عروة.

شرف الدين

■ محمد بن عروة الموصلي: المنسوب إليه مشهد ابن عروة ويقول الناس مشهد عروة بالجامع الأموي، لأنه أول من فتحه، وقد كان مشحونا بالحواصل الجامعية، وبنى فيه البركة، ووقف فيه على الحديث درساً، ووقف خزائن كتب فيه، وكان مقيما بالقدس الشريف، ولكنه كان من خواص أصحاب الملك المعظم، فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفي بها، وقبره عند قباب أتابك طغتكين قبلي المصلى رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو الحسن

■ الروزبهاري: دفن بالمكان المنسوب إليه بين السورين عند باب الفراديس.

الشيخ

■ عبد الرحمن اليمني: كان مقيما بالمنارة الشرقية، كان صالحا زاهداً ورعا، ودفن بمقابر الصوفية.

الرئيس عز الدين

■ المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي بن القلانسي، أحد رؤساء دمشق وكبرائها، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ، ذيل به على ابن عساكر، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره، ولزم مجالسة الكندي وانتفع به.

الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة

■ محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه أبو منصور السمرقندي، وكان من أولاد الأمراء، وولي حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتي، وكان يكتب جيدا جدًّا، وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة، منها: الأدب، وعلوم الرياضة، وعمر دهرا، وله حظ من نظم الشعر الحسن، ومن شعره قوله:

سئمت تكاليف هذي الحياة ... وكد الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل في عقله ... قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس ... وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوي قيد المشيب ... وطال علي ما عناني عناء
وغودرت كالفرخ في عشه ... وخلفت حلمي وراء وراء
وما جر ذلك غير البقاء ... فكيف ترى فعل سوء البقاء

وله أيضاً، وهو من شعره الحسن رحمه الله:

إلهي يا كثير العفو غفرا ... لما أسلفت في زمن الشباب
فقد سودت في الآثام وجها ... ذليلا خاضعا لك في التراب
فبيضه بحسن العفو عني ... وسامحني وخفف من حسابي

ولما توفي صلي عليه بالنظامية، ودفن بالشونيزية، ورآه بعضهم في المنام فقال ما فعل بك ربك؟ فقال:

تحاشيت اللقاء لسوء فعلي ... وخوفا في المعاد من الندامه
فلما أن قدمت على إلهي ... وحاقق في الحساب على قلامه
وكان العدل أن أصلى جحيما ... تعطف بالمكارم والكرامه
وناداني لسان العفو منه ... ألا يا عبد تهنيك السلامه

أبو علي

■ الحسن بن أبي المحاسن: زهرة بن الحسن بن زهرة العلوي الحسيني الحلبي، نقيب الأشراف بها، كان لديه فضل وعلم بالأدب والعربية وعلم بأخبار الناس والتواريخ والسير والحديث، ضابطا حافظا للقرآن المجيد، وله شعر جيد فمنه قوله:

لقد رأيت المعشوق وهو من الهَجْـ ... ـر بحال تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء ... وأدالت يد الحوادث منه
عاد مستبذلاً ومستبدلا عزا ... بذل كأنه لم يصنه

أبو علي

■ يحيى بن محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي من أبناء التجار، سمع الحديث، وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة، وكان عنده علم وله شعر حسن، فمنه قوله:

خير إخوانك المشارك في المر ... وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت سرك في القوم ... وإن غبت كان أذنا وعينا
مثل سر العقيان إن مسه النا ... ر جلاه الجلاء فازداد زينا
وأخو السوء إن يغب عنك يشنأك ... وإن يحتضر يكن ذاك شينا
جيبه غير ناصح ومناه ... أن يصب الخليل إفكاً ومينا
فاخش منه ولا تلهف عليه ... إن غرما له كنقدك دينا

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها وصلت سرية من جهة جنكيزخان غير الأولتين إلى الري، وكانت قد عمرت قليلا، فقتلوا أهلها أيضاً، ثم ساروا إلى ساوه، ثم إلى قم وقاشان، ولم تكونا طرقتا إلا هذه المرة، ففعلوا بها مثل ما تقدم من القتل والسبي، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضاً وسبوا، ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان، فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا، فهربوا منهم إلى تبريز فلحقوهم، وكتبوا إلى ابن البهلوان: إن كنت مصالحا لنا فابعث لنا بالخوارزمية وإلا فأنت مثلهم، فقتل منهم خلقا وأرسل برؤوسهم إليهم، مع تحف وهدايا كثيرة،هذا كله وإنما كانت هذه السرية ثلاثة آلاف، والخوارزمية وأصحاب البهلوان أضعاف أضعافهم، ولكن الله تعالى ألقى عليهم الخذلان والفشل، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها ملك غياث الدين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما في يده من مملكة أصفهان وهمذان.

وفيها استعاد الملك الأشرف مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وكان قد جعلها إليه مع جميع بلاد أرمينية، وميافارقين وحاني، وجبل جور، وجعله ولي عهده من بعده، فلما عصى عليه وتشعب دماغه بما كتب إليه المعظم من تحسينه له مخالفته، فركب إليه وحاصره بخلاط فسلمت إليه، وامتنع أخوه في القلعة، فلما كان الليل نزل إلى أخيه معتذراً فقبل عذره، ولم يعاقبه، بل أقره على ميافارقين وحدها، وكان صاحب إربل والمعظم متفقين مع الشهاب غازي على الأشرف، فكتب الكامل إلى أخيه

المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنَّ بلاده، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلة جنده، لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل، والمعظم بدمشق أيضا.

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف، وأرسل صوفيا من السميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه ـ وكان قد أخذ أذربيجان في هذه السنة وقوي جأشه ـ يتفق معه على أخيه الأشرف، فوعده النصر والرفادة.

وفيها قدم الملك المسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية، ومعه شيء كثير من الهدايا والتحف، من ذلك مائتا خادم، وثلاثة أفيلة هائلة، وأحمال عود وند ومسك وعنبر، وخرج أبوه الكامل لتلقيه، ومن نية أقسيس أن ينتزع الشام من يد عمه المعظم.

وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر، وولي مشيختها الحافظ أبو الخطاب بن دحية الكلبي، وكان مكثاراً كثير الفنون، وعنده فوائد وغرائب وعجائب، رحمه الله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن علي القادسي، الضرير الحنبلي، والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزي، وكان القادسي هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، ويزهره لما يسمعه من الغرائب ويقول: والله إن ذا مليح، فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه، وصار يحضر ولا يتكلم، فقال الشيخ مرة: هذا القادسي لا يقرضنا شيئا ولا يقول والله إن ذا مليح؟ رحمهم الله تعالى.

وقد طلب القادسي مرة إلى دار المستضيء ليصلي بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع: ما مذهبك؟ فقال: حنبلي، فقال له: لا تصل بدار الخلافة وأنت حنبلي، فقال: أنا حنبلي ولا أصلي بكم، فقال الخليفة: اتركوه لا يصلي بنا إلا هو فصلى بهم.

أبو الكرم

■ المظفر بن المبارك بن أحمد بن محمد البغدادي الحنفي شيخ مشهد أبي حنيفة وغيره، ولي الحسبة بالجانب الغربي من بغداد، وكان فاضلا دينا شاعرا، ومن شعره:

فصن بجميل الصبر نفسك واغتنم ... شريف المزايا لا يفتك ثوابها

تعش سالما والقول فيك مهذب ... كريما وقد هانت عليك صعابها

وتستدرج الأيام والكل ذاهب ... يمرُّ ويفنى عذبها وعذابها

فما الدهر إلا مر يوم وليلة ... وما العمر إلا طيها وذهابها

وما الحزم إلا في إخاء عزيمة ... فنيل المعالي صفوها ولبابها

ودع عنك إلمام الأماني فإنه ... سيسفر يوما غيها وصوابها

■ محمد بن أبي الفرج بن معالي بن بركة: الشيخ فخر الدين أبو المعالي الموصلي، قدم بغداد، واشتغل بالنظامية وأعاد بها، وكانت له معرفة بالقراءات، وصنف كتابا في مخارج الحروف، وأسند الحديث، وله شعر لطيف.

أبو بكر

■ ابن حلبة الموازيني البغدادي: كان فردا في علم الهندسة، وصناعة الموازين، يخترع أشياء غريبة عجيبة، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب، وجعل في كل ثقب شعرة، وكانت له حظوة عند الدولة.

■ أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الدُّبيثي البيع الواسطي، شيخ أديب فاضل، له نظم ونثر، عارف بالأخبار والسير، وعنده كتب جيدة كثيرة، وله شرح قصيدة لأبي العلاء المعري في ثلاثة مجلدات، وقد أورد له ابن الساعي شعرا حسنا، فصيحا حلوا لذيذا في السمع، لطيفا في القلب.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحي العراق، فأفسدوا فيه، وحاصروا مدنه، ونهبوا قراه.

وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان، وكثيرا من بلاد الكرج، وكسر الكرج وهم في سبعين ألف مقاتل، فقتل منهم عشرين ألفا من المقاتلة، واستفحل أمره جدا، وعظم شأنه، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفا.

وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفا في المعركة، وقتل من تفليس تمام المائة ألف.

وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها، ففتحها قهراً، وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب سورها، وعزم على قصد الخليفة ببغداد، لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك، واستولت التتار على البلاد، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك، فامتنع المعظم من ذلك، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد أنزعج لذلك، وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد، وأنفق في الناس ألف ألف دينار، وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج، فبعثوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا، وبغداد ما تفوت، فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا.

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام، بسبب قلة الأمطار، وانتشار الجراد، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً، فمات بسببه خلق كثير في البلدان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة، توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسين بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي عبد العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، أبي العباس أحمد بن الموفق، أبي أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله، أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين.

ولد ببغداد عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وخمسمائة وتوفي في هذه السنة، وله من العمر تسع وستون سنة، وشهران، وعشرون يوماً.

وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة إلا شهرا، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله في الخلافة هذه المدة الطويلة، ولم تطل مدة أحد من الخلفاء مطلقا أكثر من المستنصر العبيدي.

أقام بمصر حاكما ستين سنة، وقد انتظم في نسبه أربعة عشر خليفة، وولي عهد على ما رأيت، وبقية الخلفاء العباسيين كلهم من أعمامه وبني عمه،وكان مرضه قد طال به، وجمهوره من عسار البول، مع أنه قد كان يجلب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى، وشق ذكره مرات بسبب ذلك، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئا، وكان الذي ولي غسله محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وصلى عليه، ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة، في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، وكان يوماً مشهودا.

قال ابن الساعي: أما سيرته فقد تقدمت في الحوادث.

وأما ابن الأثير في كامله [٤٤٠/١٢] فإنه قال: وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا، وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات، ووزر له عدة وزراء، وقد تقدم ذكرهم، ولم يطلق في أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة.

وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالما لهم، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دوراً للإفطار في رمضان، ودورا لضيافة الحجاج، ثم أبطل ذلك، وكان قد أسقط مكوساً ثم أعادها، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة.

قال ابن الأثير: وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم.

قلت: وقد ذكر عنه أشياء غريبة، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه: فعلتم في مكان كذا وكذا وكذا، وفعلتم في الموضع الفلاني كذا، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو ان جنياً يأتيه بذلك، والله أعلم.

خلافة الظاهر بن الناصر

لما توفي الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبي نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر، وخطب له على المنابر، ثم عزله عن ذلك بأخيه علي، فتوفي في حياة أبيه سنة ثنتي عشرة، فاحتاج إلى إعادة هذا لولاية العهد، فخطب له ثانيا، فحين توفي أبوه بويع له بالخلافة، وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة، فلم يل الخلافة من بني العباس أسن منه.

وكان عاقلا وقورا دينا، عادلا محسنا، رد مظالم كثيرة، وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه، وسار في الناس سيرة حسنة، حتى قيل: إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يحل عليه الحول، بل كانت مدته تسعة أشهر، أسقط الخراج الماضي عن الأراضي التي قد تعطلت، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهي بعقوبا سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم في الخراج، وكانت صنجة المخزن تزيد على صنجة البلد نصف دينار في كل مائة إذا قبضوا، وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد، فكتب إلى الديوان: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الذين إذا اكتالوا على الناس يَسْتَوْفُونَ. وإذا كَالُوهُمْ أو وزَنُوهُم يُخْسِرون. الا يَظُنُّ أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يَقُوم الناسُ لِرَبِ العالمين﴾ [المطففين: ١-٦] فكتب إليه بعض الكتاب يقول يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا عن العام الماضي خمسة وثلاثون ألفا، فارسل ينكر عليه ويقول: هذا يترك وإن كان تفاوته ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا، رحمه الله، وأمر للقاضي: أن كل من ثبت له حق بطريق شرعي يوصل إليه بلا مراجعة.

وأقام في النظر على الأموال الحشرية رجلا صالحا، واستخلف على القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي، في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة، فكان من خيار المسلمين، ومن القضاة العادلين، رحمهم الله أجمعين، ولما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بشرط أن يورث ذوي الأرحام، فقال: أعط كل ذي حق حقه، واتق الله ولا تتق سواه، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب في كل صباح بما كان عندهم في المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة، فلما ولي الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال: أي فائدة في كشف أحوال الناس وهتك أستارهم فقيل له: إن ترك ذلك يفسد الرعية، فقال: نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم، وأطلق من كان في السجون معتقلا على الأموال الديوانية، ورد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم، وأرسل إلى القاضي بعشرة آلاف دينار يوفي بها ديون من في سجونه من المدينين الذين لا يجدون وفاء، وفرق في العلماء بقية المائة ألف، وقد لامه بعض الناس في هذه التصرفات، فقال: إنما فتحت الدكان بعد العصر، فذروني أعمل صالحا وأفعل الخير، فكم مقدار ما بقيت أعيش.

ولم تزل هذه سيرته حتى توفي في العام الآتي كما سيأتي، ورخصت الأسعار في أيامه، وقد كانت قبل ذلك في غاية الشدّة والغلاء، حتى إنه فيما حكى ابن الأثير: أكلت الكلاب والسنانير والميتات ببلاد الجزيرة والموصل، فزال ذلك والحمد لله.

وكان هذا الخليفة الظاهر حسن الشكل، مليح الوجه، أبيض مشربا، حلو الشمائل، شديد القوى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (نور الدين بن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب)

أبو الحسن علي الملقب بالملك الأفضل: نور الدين ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، كان ولي عهد أبيه، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين، ثم أخذها منه عمه العادل، ثم كاد أن يملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز عثمان، فأخذها منه عمه العادل أبو بكر، ثم اقتصر على ملك صرخد، فأخذها منه أيضا عمه العادل، ثم آل به الحال أن ملك سميساط وبها توفي في هذه السنة.

وكان فاضلا شاعراً، جيد الكتابة، ونقل إلى مدينة حلب فدفن بها بظاهرها رحمه الله تعالى.

وقد ذكر ابن خلكان أنه كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو إليه عمه أبا بكر، وأخاه عثمان، وكان الناصر شيعيا مثله فقال:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

وهو الذي كان قد ولاه والده عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته والأمر بينهما والنص فيه جلي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

الأمير سيف الدين علي بن الأمير علم الدين بن سليمان

■ ابن جندر، كان من أكابر الأمراء بحلب، وله الصدقات الكثيرة، ووقف بها مدرستين: إحداهما على الشافعية، والأخرى على الحنفية، وبنى الخانات والقناطر، وغير ذلك من سبل الخيرات والغزوات، رحمه الله.

الشيخ

■ علي الكردي: المولّه المقيم بظاهر باب الجابية:

قال الشيخ أبو شامة: وقد اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وأنكر ذلك آخرون، وقالوا: ما رآه أحد يصلي ولا يصوم، ولا لبس مداسا، بل كان يدوس النجاسات، ويدخل المسجد على حاله. وقال آخرون: كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه، حكى السبط عن امرأة قالت: جاء خبر عن أمي باللاذقية أنها ماتت، وقال لي بعضهم: إنها لم تمت، قالت: فمررت به وهو قاعد عند المقابر، فوقفت عنده، فرفع رأسه وقال لي: ماتت ماتت إيش تعملين؟ فكان كما قال.

وحكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوماً وما كان معي شيء، فاجتزت به فدفع إلي نصف درهم وقال: يكفي هذا للخبز والعنبريس.

وقال: دخل يوماً على الخطيب جمال الدين الدولعي فقال له: يا شيخ علي، أكلت اليوم كسيرات يابسة، وشربت عليها الماء فكفتني، فقال له الشيخ علي الكردي: وما تطلب نفسك شيئاً آخر غير هذا؟ قال: لا، فقال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة، ولا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.

الفخر

■ ابن تيمية: محمد بن أبي القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحراني، عالمها ومفتيها وخطيبها وواعظها، اشتغل على مذهب الإمام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل، وجمع تفسيراً حافلا في مجلدات كثيرة، وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه، وهو عم الشيخ مجد الدين صاحب «المنتقى» في الأحكام، قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد:

أحبابنا قد نذرتْ مقلتي ما تلتقي بالنوم أو نلتقي
رفقاً بقلب مغْرم واعطفوا على سقام الجسد المحرقِ
كم تمطلوني بليالي اللقا قد ذهب العمر ولم نلتقِ

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبي الفرج بن الجوزي، ووعظ بها في مكان شيخه.

الوزير ابن شكر: صفي الدين أبو محمد

■ عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر، ولد بالديار المصرية بدميرة، بين مصر وإسكندرية، سنة أربعين وخمسمائة، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر، وقد وزر للملك العادل، وعمل أشياء في أيامه منها تبليط جامع دمشق، وأحاط سور المصلى عليه، وعمل الفوارة ومسجدها، وعمارة جامع المزة، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة، وبقي معزولا إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته، وقد كان مشكور السيرة، ومنهم من يقول: كان ظالماً. فالله أعلم.

أبو إسحاق

■ إبراهيم بن المظفر بن إبراهيم بن علي المعروف بابن البرني، الواعظ البغدادي، أخذ الفن عن شيخه أبي الفرج بن الجوزي، وسمع الحديث الكثير، ومن شعره قوله في الزهد:

ما هذه الدنيا بدار مسرة فتخوفي مكراً لها وخداعا
بينا الفتى فيها يسر بنفسه وبماله يستمتع استمتاعا
حتى سقته من المنية شربة وحمته منه بعد ذاك رضاعا
فغدا بما كسبت يداه رهينة لا يستطيع لما عراه دفاعا
لو كان ينطق قال من تحت الثرى فليحسن العمل الفتى ما اسطاعا

أبو الحسن

■ علي بن الحسن: الرازي ثم البغدادي الواعظ، عنده فضائل، وله شعر حسن، فمنه قوله في الزهد:

استعدي يا نفس للموت واسعي لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحي خلود ولا من الموت بد
إنما أنت مستعيرة ما سو ف تردين والعواري ترد
أنت تسهين والحوادث لا ت سهو وتلهين والمنايا تجد
لا ترجي البقاء في معدن المو ت ودار حتوفها لك ورد
أي ملك في الأرض أم أي حظ لامرئ حظه من الأرض لحد
كيف يهوى امرؤ لذاة أيا م عليه الأنفاس فيها تعد

■ البهاء السنجاري: أبو السعادات أسعد بن يحيى بن موسى، الفقيه الشافعي الشاعر.

قال ابن خلكان: كان فقيها، وتكلم في الخلاف، إلا أنه غلب عليه الشعر، فأجاد فيه، واشتهر بنظمه، وخدم به الملوك، وأخذ منهم الجوائز، وطاف البلاد، وله ديوان بالتربة الأشرفية بدمشق، ومن رقيق شعره ورائقه قوله:

وهواك ما خطر السلو بباله ولأنت أعلم في الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عذاله
أو ليس للكلف المعنّى شاهد من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ست ر غرامه وصرمت حبل وصاله

وهي قصيدة طويلة امتدح فيها القاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وله:

للّه أيامي على رامة وطيب أوقاتي على حاجر
تكاد للسرعة في مرها أولها يعثر بالآخر

وكانت وفاته في هذه السنة عن تسعين سنة رحمه الله بمنه وفضله.

■ عثمان بن عيسى بن درباس بن فير بن جهم بن عبدوس، الهذباني الماراني، ضياء الدين أخو القاضي صدر الدين عبد الملك، حاكم الديار المصرية في الدولة الصلاحية، وضياء الدين هذا هو شارح المهذب وصل فيه إلى كتاب الشهادات، في نحو من عشرين مجلدا، وشرح اللمع في أصول الفقه، والتنبيه للشيرازي، وكان بارعا عالما بالمذهب رحمه الله تعالى.

أبو محمد

■ عبد الله بن أحمد بن الزيتوني: البوازيجي ثم البغدادي، شيخ فاضل له رواية، ومما أنشده:

ضيق العذر في الضراعة أنا ... لو قنعنا بقسمنا لكفانا

ما لنا نعبدُ العبادَ إذا كان ... إلى الله فقرنا وغنانا

أبو الفضل

■ عبد الرحيم بن نصرالله بن علي بن منصور بن الكيال، الواسطي، من بيت الفقه والقضاء، وكان أحد المعدلين ببغداد، ومن شعره:

فتباً لدنيا لا يدوم نعيمها ... تسر يسيراً ثم تبدي المساويا

تريك جمالا في النقاب وزخرفا ... وتسفر عن شوهاء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله:

إن كنت بعد الظاعنين تسامحت ... بالغمض اجفاني فما أجفاني

أو كنت من بعد الأحبة ناظراً ... حسناً بإنساني فما أنساني

الدهر مغفورٌ له زلاته ... إن حاد أوطاني على أوطاني

أبو علي

■ الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمار بن فهر بن وقاح الياسري، نسبة إلى عمار بن ياسر، شيخ بغدادي فاضل، له مصنفات في التفسير والفرائض، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة، وكان مقبول الشهادة عند الحكام.

أبو بكر

■ محمد بن يوسف بن الطباخ: الواسطي البغدادي الصوفي، باشر بعض الولايات ببغداد، ومما أنشده:

ما وهبَ الله لا مرئ هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه

هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقدهُ للحياة أجمل به

■ ابن يونس شارح التنبيه: أبو الفضل أحمد بن الشيخ العلامة كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عابد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الإربلي الأصل، ثم الموصلي، من بيت العلم والرياسة، اشتغل على أبيه في فنونه وعلومه، فبرع وتقدم، وقد درس وشرح كتاب التنبيه، واختصر إحياء علوم الدين للغزالي مرتين صغيرا وكبيرا، وكان يدرس منه.

قال ابن خلكان: وقد ولي بإربل مدرسة الملك المظفر، بعد موت والدي في سنة عشر وستمائة، وكنت أحضر عنده وأنا صغير ولم أر أحدا يدرس مثله، ثم صار إلى بلده سنة سبع عشرة، ومات في يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة، عن سبع وأربعين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمي مع الكرج، فكسرهم كسرة عظيمة، وصمد إلى أكبر معاقلتهم تفليس ففتحها عنوة، وقتل من فيها من الكفرة، وسبى ذراريهم، ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها، واستقر ملكه عليها، وقد كان الكرج أخذوها من المسلمين في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وهي بأيديهم إلى الآن، حتى استنقذها منهم جلال الدين هذا، فكان فتحاً عظيماً ولله الحمد والمنة.

وفيها سار إلى خلاط ليأخذها من نائب الملك الأشرف، فلم يتمكن من أخذها، وقاتله أهلها قتالا عظيما، فرجع عنهم بسبب اشتغاله بعصيان نائبه بمدينة كرمان وخلافه له،فسار إليه وتركهم.

وفيها اصطلح الملك الأشرف مع أخيه المعظم وسار إليه إلى دمشق، وكان المعظم ممالئا عليه مع جلال الدين، وصاحب إربل، وصاحب ماردين، وصاحب الروم، وكان مع الأشرف أخوه الكامل، وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ثم استمال أخاه المعظم إلى ناحيته يقوي جانبه.

وفيها كان قتال كبير بين إبرنس أنطاكية وبين الأرمن، وجرت خطوب كثيرة بينهم.

وفيها أوقع الملك جلال الدين بالتركمان الإيوانية بأساً شديداً، وكانوا يقطعون الطرق على المسلمين.

وفيها قدم محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن الجوزي من بغداد في الرسلية إلى الملك المعظم بدمشق، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله، ومضمون الرسالة: نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه، فإنه خارجي من عزمه قتال الخليفة، وأخذ بغداد منهم، فأجابه إلى ذلك، وركب القاضي محيي الدين بن الجوزي إلى الملك الكامل بالديار المصرية، وكان ذلك أول قدومه إلى الشام ومصر، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك، منها كان بناء مدرسته الجوزية بالنشابين بدمشق.

وفيها ولي تدريس الشبلية بالسفح شمس الدين يوسف بن قزغلي سبط ابن الجوزي بمرسوم الملك المعظم، وحضر عنده أول يوم القضاة والأعيان.

وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله وخلافة ابنه المستنصر

كانت وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة، ضحى الثالث عشر من رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة، فدعا له الخطباء يومئذ على المنابر على عادتهم، فكانت خلافته تسعة أشهر، وأربعة عشر يوما، وعمره اثنتان وخمسون سنة.

وكان من أجود بني العباس سيرة وأحسنه وسريرة، وأكثرهم عطاء، وأحسنهم منظرا ورواء، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيرا على يديه، ولكن أحب الله تقريبه وإزلافه لديه، فاختار له ما عنده، وأجزل له إحسانا ورفده، وقد ذكرنا ما اعتمده في أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانية، ورد المظالم، وإسقاط المكوس، وتخفيف الخراج عن الناس، وأداء الديون عمن عجز عن أدائها، والإحسان إلى العلماء والفقراء، وتولية ذوي الديانة والأمانة، وقد كان كتب كتابا لولاة الرعية فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا، ولا إغضاؤنا احتمالا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح السمعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي، حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم

أمنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه، وإلا هلكتم والسلام.

ووجد في داره رقاع مختومة لم تفتح فيها سعايات إليه بسبب أناس كثيرة من الولاة وغيرهم لم يفتحها؛ ستراً للناس، ودرءاً عن أعراضهم رحمه الله.

وقد خلف من الأولاد عشرة ذكوراً وإناثا، منهم ابنه الأكبر الذي بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور، ولقب بالمستنصر بالله، وغسله الشيخ محمد الخياط الواعظ، ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة رحمه الله تعالى.

خلافة المستنصر بالله العباسي أمير المؤمنين أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد

بويع بالخلافة يوم مات أبوه، يوم جمعة ثالث عشر رجب من هذه السنة، سنة ثلاث وعشرين وستمائة، استدعوا به من التاج فبايعه الخاصة والعامة من أهل الحل والعقد، وكان يوما مشهودا، وكان عمره يومئذ خمساً وثلاثين سنة، وخمسة أشهر وأحد عشر يوما، وكان من أحسن الناس شكلا، وأبهاهم منظرا، وهو كما قال القائل:

كأن الثريا علقت في جبينه ... وفي خده الشعرى وفي وجهه

وفي نسبه الشريف خمسة عشر خليفة، منهم خمسة من آبائه ولوا نسقا، وتلقى هو الخلافة عنهم، وراثة كابرا عن كابر، وهذا شيء لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله.

وسار في الناس كسيرة أبيه الظاهر في الجود، وحسن السيرة، والإحسان إلى الرعية، وبنى المدرسة الكبيرة المستنصرية التي لم تبن مدرسة في الدنيا مثلها، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

واستمر أرباب الولايات الذين كانوا في عهد أبيه على ما كانوا عليه، ولما كان يوم الجمعة المقبلة خطب للإمام المستنصر بالله على المنابر، ونثر الذهب والفضة عند ذكر اسمه، وكان يوما مشهودا، وأنشد الشعراء المدائح والمراثي، وأطلقت لهم الخلع والجوائز، وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة.

ثم إن المستنصر بالله كان يواظب على حضور الجمعة، راكبا ظاهراً للناس، وإنما معه خادمان وركب دار، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا؟ فقيل له التأذين، فترجل عن فرسه وسعى ماشياً، ثم صار يدمن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريبا من الإمام ويستمع الخطبة، ثم أصلح له المطبق فكان يمشي فيه إلى الجمعة، وركب في الثاني والعشرين من شعبان ركوبا ظاهراً للناس عامة، ولما كانت أول ليلة من رمضان تصدق بصدقات كثيرة من الدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء والمحاويج، إعانة لهم على الصيام، وتقوية لهم على القيام.

وفي يوم السابع والعشرين من رمضان نقل تابوت أبيه الظاهر من دار الخلافة إلى التُرب من الرصافة، وكان يوماً مشهودا، وبعث الخليفة المستنصر يوم العيد صدقات كثيرة وإنعاما جزيلا إلى الفقهاء والصوفية وأئمة المساجد، على يدي محيي الدين بن الجوزي.

وذكر ابن الأثير أنه كانت زلزلة عظيمة في هذه السنة، هدمت شيئاً كثيراً من القرى والقلاع ببلادهم، وذكر أنه ذبح رجل شاة ببلدهم فوجد لحمها مراً حتى رأسها وأكارعها ومعاليقها وجميع أجزائها.

وممن توفي فيها من الأعيان

الخليفة

■ الظاهر كما تقدم.

الجمال المصري:

■ **يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصري**، قاضي القضاة بدمشق في هذا الحين، اشتغل وحصل، وبرع واختصر كتاب الأم للإمام الشافعي، وله كتاب مطول في الفرائض، وولي تدريس الأمينية بعد التقي صالح الضرير، الذي قتل نفسه، ولاه إياه الوزير صفي الدين بن شكر، وكان معتنياً بأمره، ثم ولي وكالة بيت المال بدمشق، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق، ثم ولاه المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكي بن الزكي، وولاه تدريس العادلية الكبيرة، حين كمل بناؤها، فكان أول من درس بها وحضره الأعيان كما ذكرنا، وكان يقول أولا درسا في التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره، ثم توفي عقب ذلك ويقول درس الفقه بعد التفسير، وكان يعتمد في أمر إثبات السجلات اعتماداً حسنا، وهو أنه كان يجلس في كل جمعة بكرة ويوم الثلاثاء، ويستحضر عنده في إيوان العادلية جميع شهود البلد، ومن كان له كتاب يثبته حضر، واستدعى شهوده فأدوا على الحاكم، وثبت ذلك سريعا، وكان يجلس كل يوم جمعة بعد العصر بمشهد عثمان، فيحكم حتى يصلي المغرب، وربما مكث حتى يصلي العشاء أيضا.

وكان كثير المذاكرة للعلم، كثير الاشتغال، حسن الطريقة، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئا لأحد.

قال أبو شامة: وإنما كان ينقم عليه أنه كان يشير على بعض الورثة بمصالحة بيت المال، وأنه استناب ولده التاج محمداً ولم يكن مرضي الطريقة، وأما هو فكان عفيفا في نفسه، نزهاً مهيباً.

قال أبو شامة: وكان يدعي أنه قرشي شيبي، فتكلم الناس فيه بسبب ذلك، وتولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليلي الخُوَيِّيُّ.

قلت: وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بداره التي في رأس درب الريحان من ناحية الجامع، ولتربته شباك شرقي المدرسة الصدرية اليوم، وقد قال فيه ابن عنين وكان هجاء.

ما أقصر المصري في فعله ... إذ جعل التربة في داره
أراح للأحياء من رجمه ... وأبعد الأموات من ناره

■ **المعتمد والي دمشق: المبارز إبراهيم المعروف بالمعتمد والي دمشق.**

من خيار الولاة وأعفهم، وأحسنهم سيرة، وأجودهم سريرة، أصله من الموصل، وقدم الشام فخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ثم استنابه البدر مودود أخو فروخشاه، وكان شحنة دمشق، فحمدت سيرته في ذلك، ثم صار هو شحنة دمشق أربعين سنة، فجرت في أيامه عجائب وغرائب.

وكان كثير الستر على ذوي الهيئات، ولاسيما من كان من أبناء الناس

وأهل البيوتات، واتفق في أيامه أن رجلا حائكا كان له ولد صغير في آذانه حلق، فعدا عليه رجل من جيرانهم فقتله غيلة، وأخذ ما عليه من الحلي، ودفنه في بعض المقابر، فاشتكوا عليه فلم يقر بشي، فتألمت والدته من ذلك وسألت زوجها أن يطلقها، فطلقها فذهبت إلى ذلك الرجل الذي قتل ولدها وسألته ان يتزوجها، وأظهرت له أنها قد أحبته فتزوجها، ومكثت عنده حينا، ثم سألته في بعض الأوقات عن ولدها الذي اشتكوا عليه بسببه فقال: نعم أنا قتلته، فقالت: أشتهي أن تريني قبره حتى أنظر إليه، فذهب بها إلى قبر خشخاشة ففتحه فنظرت إلى ولدها فاستعبرت، وقد أخذت معها سكينا أعدتها لهذا اليوم، فضربته حتى قتلته ودفنته مع ولدها في ذلك القبر، فجاء أهل المقبرة فحملوها إلى الوالي المعتمد هذا، فسألها، فذكرت له خبرها، فاستحسن ذلك منها، وأطلقها وأحسن إليها.

وحكى هو للسبط قال: بينما أنا يوما خارج من باب الفرج وإذا برجل يحمل طبلا وهو سكران، فأمرت به فضرب الحد، وأمرتهم فكسروا الطبل، وإذا ركوة كبيرة خمراً فشقوها وكان العادل قد منع أن يعصر خمر ويحمل إلى دمشق شيء منه بالكلية، فكان الناس يتحيلون بأنواع الحيل ولطائف المكر، قال السبط: فسألته من أين علمت أن في الطبل شيئا؟ قال: رأيته يمشي ترجف ساقاه، فعرفت أنه يحمل شيئا ثقيلا في الطبل.

وله من هذا الجنس غرائب، وقد عزله المعظم وكان في نفسه منه وسجنه في القلعة نحوا من خمس سنين، ونادى عليه في البلد، فلم يجيء أحد ذكر أنه أخذ منه حبة خردل.

ولما مات رحمه الله دفن بتربته المجاورة لمدرسة أبي عمر من شامها قبلي السوق، وله عند تربته مسجد يعرف به رحمه الله.

واقف الشبلية التي بطريق الصالحية.

■ شبل الدولة كافور الحسامي: نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين، ولد ست الشام، وهو الذي كان مستحثا على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام، وهو الذي بنى الشبلية للحنفية، والخانقاه على الصوفية إلى جانبها، وكانت منزله، ووقف القناة والمصنع والساباط، وفتح للناس طريقا من عند المقبرة غربي الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفي بالعقيبة رحمه الله تعالى، وكانت وفاته في رجب، ودفن إلى جانب مدرسته، وقد سمع الحديث على الكندي وغيره، رحمه الله تعالى.

واقف الرواحية بدمشق وحلب: أبو القاسم

■ هبة الله بن محمد بن عبد الواحد المعروف بابن رواحة، كان أحد التجار، وذوي الثروة والمقدار، ومن المعدلين بدمشق، وكان في غاية الطول والعرض، ولا لحية له، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس ووقفها على الشافعية، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها، وقد انقطع في آخر عمره في المدرسة التي بدمشق، وكان يسكن البيت الذي في إيوانها من الشرق، ورغب فيما بعد أن يدفن فيه إذا مات فلم يمكن من ذلك، بل دفن بمقابر الصوفية، وبعد وفاته شهد محيي الدين بن عربي الطائي الصوفي، وتقي الدين خزعل النحوي المصري المقدسي ثم الدمشقي إمام مشهد علي، شهدا على ابن رواحة بأنه عزل الشيخ تقي الدين عن هذه المدرسة، فجرت خطوب طويلة، ولم يتنظم ما راموه من الأمر، ومات خزعل في هذه السنة أيضاً فبطل ما سلكوه.

أبو محمد

■ محمود بن مودود بن محمود بن بلدجي الحنفي الموصلي، وله بها مدرسة تعرف به، وكان من أبناء الترك، وصار من مشايخ العلماء، وله دين متين، وشعر حسن جيد، فمنه قوله:

من ادّعى أن له حالة ... تُخرجُهُ عن منهج الشرع
فلا تكوننْ له صاحباً ... فإنهُ خرء بلا نفع

كانت وفاته بالموصل، في السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وله نحو من ثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ ياقوت ويقال له يعقوب بن عبد الله: نجيب الدين مولى الشيخ تاج الدين الكندي، وقد وقف عليه الشيخ التي بالخزانة، بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلداً، ثم على ولده من بعده، ثم على العلماء، فتمحقت هذه الكتب، وبيع أكثرها، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب، وشعر جيد، وكانت وفاته ببغداد في مستهل رجب، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع عشرين وستمائة

فيها كانت عامة أهل تفليس الكرج، فجاؤوا إليهم فدخلوها، فقتلوا العامة والخاصة، ونهبوا وسبوا، وخربوا وأحرقوا، وخرجوا على حمية، وبلغ ذلك جلال الدين، فسار سريعاً ليدركهم فلم يدركهم.

وفيها قتلت الإسماعيلية أميرا كبيرا من نواب جلال الدين بن خوارزم شاه، فسار إلى بلادهم، فقتل منهم خلقا كثيرا، وخرب مليتهم، وسبى ذراريهم، ونهب أموالهم، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين، لما قدم التتار إلى الناس، وكانوا أضر على الناس منهم.

وفيها تواقع جلال الدين وطائفة كبيرة من التتار فهزمهم، وأتبعهم قتلا وأسراً، وساق وراءهم أياماً فقتلهم، حتى وصل إلى الري، فبلغه أن طائفة قد جاؤوا لقصده فأقام يثبطهم، وكان من أمره وأمرهم ما سيأتي في سنة خمس وعشرين.

وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف بن العادل إلى أذربيجان، فملكوا منها مدنا كثيرة، وغنموا أموالا جزيلة، وخرجوا معهم بزوجة الملك جلال الدين بنت طغرل، وكانت تبغضه وتعاديه، فأنزلوها مدينة خلاط، وسيأتي ما كان من خبرهم في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج في البحر إلى المعظم، يطلب منه ما كان فتحه عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل، فأغلظ لهم المعظم في الجواب، وقال له: قل لصاحبك ما عندي إلا السيف. والله أعلم.

وفيها جهز الأشرف أخاه شهاب الدين غازي إلى الحج في محمل عظيم، يحمل ثقله ستمائة جمل، ومعه خمسون هجينا، على كل هجين مملوك، فسار من ناحية العراق، وجاءته هدايا من الخليفة إلى أثناء الطريق، وعاد على طريقه التي حج منها.

وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد نجم الدين أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، وخلع عليه كما هي عادة الحكام، وكان يوماً مشهودا.

وفيها كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة، وقل اللحم حتى حكى ابن الأثير: أنه لم يذبح بمدينة الموصل في بعض الأيام سوى خروف واحد في

زمن الربيع.

قال: وسقط فيها عاشر آذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق مرتين، فأهلك الأزهار وغيرها، وقال: وهذا شيء لم يعهد مثله، والعجب كل العجب من العراق مع كثرة حره كيف وقع فيه مثل هذا.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ جنكيز خان: السلطان الأعظم عند التتار، والد ملوكهم اليوم، ينتسبون إليه، ويقولون: ومن عظم القان إنما يريد هذا الملك، وهو الذي وضع لهم الياساق التي يتحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شيء اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكانت أمه تزعم أنها حملته من شعاع الشمس، فلهذا لا يعرف له أب، والظاهر أنه مجهول النسب، وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته، فذكر فيه سيرته، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي، والكرم والشجاعة، والتدبير الجيد للملك والرعايا، والحروب، فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصاً عند الملك أزبك خان، وكان إذ ذاك شابا حسنا، وكان اسمه أولا تمرجي، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيز خان، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه، فحسده عظماء الملك، ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه، وهمَّ بقتله، ولم يجد له طريقا في ذنب يتسلط عليه به، فهو في ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجآ إلى جنكيز خان، فأكرمهما وأحسن إليهما، فأخبراه بما يضمره الملك أزبك خان من قتله، والهمِّ به، فأخذ حذره، وتحيز بدولة، واتبعه طوائف من التتار، وصار كثير من أصحاب أزبك خان ينفرون إليه، ويفدون عليه فيكرمهم ويعطيهم، حتى قويت شوكته، وكثرت جيوشه، ثم حارب بعد ذلك أزبك خان فظفر به وقتله، واستحوذ على مملكته وملكه، وانضاف إليه عدده وعدده، وعظم أمره وبعد صيته، وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج كلها، حتى صار يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل، وأكثر القبائل قبيلته التي هو منها يقال لهم قيات، ثم أقرب إليه بعدهم قبيلتان كثيرتا العدد وهما أويرات وقنقورات، وكان يصطاد من السنة ثلاثة أشهر، والباقي للحرب والحكم.

قال الجويني: وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر، ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوانات شيء كثير لا يحد كثرة، ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك جلال الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغير ذلك من الأقاليم والممالك، فقهره جنكيزخان وكسره وغلبه وسلبه، واستحوذ على سائر بلاده بنفسه وبأولاده في أيسر مدة كما ذكرنا ذلك في الحوادث، وكان ابتداء ملك جنكيز خان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة كما ذكرنا، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع.

وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة، فجعلوه في تابوت من حديد، وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنالك، وأما كتابه الياساق فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير معظَّم عندهم وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعيي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة، فسمع قائلا يقول له: إنا قد ملكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض.

قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلماً.

ثم ذكر الجويني نتفا من الياساق من ذلك: أنه من زنى قتل، محصنا كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل، ومن وجد هاربا ولم يرده قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئا فليأكل منه أولا، ولو كان المطعمُ أميراً لأسير، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله، بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا.

وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياساق قدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٠] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥] صدق الله العظيم.

ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان، ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت.

وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفا كبيرا من أخبار جنكيز خان، ومكارم كان يفعلها لسجيته، وما أداه إليه عقله، وإن كان مشركا بالله، يعبد معه غيره، وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجارا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجته كشلي خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لا يعلم به، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك. فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرق وكبرت سنه، وقد ورد الحديث: «اتركوا الترك ما تركوكم» [د(٤٣٠٢)، س(٣١٧٦)] فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع.

فمما ذكره الجويني عنه أنه قدم له بعض الفلاحين بالصيد ثلاث

بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزندارية، فقال لزوجته خاتون أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً، فشحت المرأة بهما وقالت: أنظره إلى غد، فقال: إنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر، وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أحد إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك، فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح فطار عقله بهما وذهب بهما فباعهما لأحد التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتهما، فحملهما التاجر إلى الملك فردهما على زوجته، ثم أنشد الجويني عند ذلك:

ومن قال إن البحر والقطر أشبها نداهُ فقد أثنى على البحر والقطر

قالوا: واجتاز يوماً في سوق فرأى عند بقال عنابا، فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ قال: وبقي منه هذا وأشار إلى ما بقي معه من المال فغضب وقال: من يجد من يشتري منه مثلي تمموا له عشرة بوالس.

قالوا: وأهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب فاستحسنه جنكيز خان فوهن أمره عند بعض خواصه وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له، فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالما؟ أعطوه مائتي بالس.

قال وقيل له: إن في هذا المكان كنزا عظيما إن فتحته أخذت منه مالا كثيراً، فقال: الذي في أيدينا يكفينا، ودع هذا يفتحه الناس ويأكلونه فهم أحق به منا، ولم يتعرض له.

قال: واشتهر عن رجل في بلاده يقول: أنا أعرف موضع كنز، ولا أقول إلا للقان، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم فلم يفعل، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق يعني البريد سريعاً، فلما حضر إلى بين يديه سأله عن الكنز فقال: إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك، فلما رأى تغير كلامه غضب وقال له: قد حصل لك ما قلت، ورده إلى موضعه سالما ولم يعطه شيئا.

قال الجويني: وهذا غريب.

قال: وأهدى له إنسان رمانة، فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد:

فلذاك تزدحم الوفود ببابه مثل ازدحام الحب في الرمان

قال: وقدم عليه رجل كافر يقول: رأيت في النوم جنكيز خان يقول: قل لأبي: يقتل المسلمين، فقال له: هذا كذب، وأمر بقتله.

قال: وأمر بقتل ثلاثة قد قضت «الياسق» بقتلهم، فإذا امرأة تبكي وتلطم، فقال: ما هذه؟ أحضروها، فقالت: هذا ابني، وهذا أخي وهذا زوجي، فقال: اختاري واحداً منهم حتى أطلقه لك، فقالت: الزوج يجيء مثله، والابن كذلك، والأخ لا عوض له، فاستحسن ذلك منها، وأطلق الثلاثة لها.

قال: وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة، وقد اجتمع عنده منهم جماعة، فذكر له إنسان بخراسان فأحضره، فصرع جميع من عنده، فأكرمه وأعطاه، وأطلق له بنتا من بنات المغول حسناء، فمكثت عنده مدة لا يتعرض لها، فاتفق مجيئها زائرة بيت القان فجعل السلطان يمازحها ويقول: كيف رأيت المستعرب؟ فذكرت له أنه لم يقربها، فتعجب من ذلك، وأحضره فسأله عن ذلك، فقال: يا خوند أنا إنما حظيت عندك بالشطارة، ومتى قربتها نقصت منزلتي عندك، فقال: لا بأس عليك، وأحضر ابن عم له وكان مثله، فأراد أن يصارع الأول فقال السلطان: أنتما قرابة ولا يليق هذا بينكما وأمر له بمال جزيل.

قال: ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق، وضرب لهم في ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نشاباً وأخذ سهما أعطاه لواحد منهم فكسره، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها، فقال: هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم، وذلك مثلكم إذا انفردتم واختلفتم.

قال: وكان له عدة أولاد ذكور وإناث، منهم أربعة هم عظماء أولاده، أكبرهم تولي، وهم: تولي، وباتو، وبركة وتركجار، وكان كل منهم له وظيفة عنده.

ثم تكلم الجويني على ملك ذريته إلى زمان هولاكو خان، وهو يقول في اسمه باذشاه زاده هولاكو، وذكر ما وقع في زمانه من الأوابد، والأمور المزعجة كما بسطناه في الحوادث والله أعلم.

السلطان الملك المعظم:

■ **عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب**، ملك دمشق والشام، كانت وفاته يوم الجمعة، سلخ ذي القعدة من هذه السنة، وكان استقلاله بملك دمشق لما توفي أبوه سنة خمس عشرة.

وكان شجاعاً عاقلاً، عالما فاضلا، اشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة، على الحصيري مدرس النورية، وفي اللغة والنحو على تاج الدين الكندي، وكان محفوظه مفصل الزمخشري، وكان يصل من حفظه بثلاثين دينارا، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة يشمل صحاح الجوهري، والجمهرة لابن دريد، والتهذيب للأزهري وغير ذلك، وأمر أن يرتب له مسند الإمام أحمد، وكان يحب العلماء ويكرمهم، ويجتهد في متابعة الخير. ويقول: أنا على عقيدة الطحاوي، وأوصى عند وفاته أن لا يكفن إلا في البياض، وأن يلحد له، ويدفن في الصحراء ولا يبنى عليه.

وكان يقول: واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى، وأرجو أن يرحمني بها يعني أنه أبلى بها بلاء حسنا رحمه الله تعالى.

وقد جمع له بين الشجاعة والسماحة والبراعة، والعلم ومحبة أهله، وكان يجيء في كل جمعة إلى تربة والده فيجلس قليلا، ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين فيصلي فيها الجمعة.

وكان قليل التعاظم، يركب في بعض الأحيان وحده، ثم يلحقه بعض غلمانه سوقا.

وقال فيه بعض أصحابه، وهو محب الدين بن أبي السعود البغدادي.

لئن غودرت تلك المحاسنُ في الثرى بوال فما وجدي عليك ببال
ومذ غبت عني ما ظفرت بصاحب أخي ثقة إلا خطرت ببالي

وملك بعده دمشق ولده الناصر داود بن المعظم، وبايعه الأمراء.

أبو المعالي

■ **أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب**، الفقيه الشافعي السنجاري، شيخ أديب، فاضل خير، له نظم ونثر ظريف، وله نوادر حسنة، وجاوز التسعين، قد استوزره صاحب حماة في وقت، وله شعر رائق، أورد منه ابن الساعي قطعة جيدة، فمن ذلك قوله:

وهواك ما خطر السلو بباله ولأنت أعلم في الغرام بحاله
فمتى وشى واش إليك بأنه سائل هواك فذاك من عُذّاله

أو ليس للكلف المعنى شاهد ... من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ستر ... غرامه وصرمت حبل وصاله
يا للعجائب من أسير دابه ... يفدي الطليق بنفسه وبماله

وله أيضا:

لام العوازل في هواك فأكثروا ... هيهات ميعاد السلو المحشر
جهلوا مكانك في القلوب فطولوا ... لو أنهم وجدوا كوجدي أقصروا
صبرا على عذب الهوى وعذابه ... وأخو الهوى أبدا يلام ويعذر

أبو القاسم

■ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حمدان الطيبي المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بالثقتية، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب، صنف شرحا للتنبيه، ذكره ابن الساعي.

أبو النجم

■ محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتي: الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد على أبي القاسم بن فضلان ثم أعاد بالنظامية ودرس بغيرها، وكان يشتغل كل يوم عشرين درساً، ليس له دأب إلا الاشتغال، وتلاوة القرآن ليلا ونهاراً، وكان بارعاً كثير العلوم، قد أتقن المذهب والخلاف، وكان يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بواحدة، فتغيظ عليه قاضي القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغاني، فلم يسمع منه، ثم أخرج إلى تكريت فأقام بها، ثم استدعي إلى بغداد، فعاد إلى الاشتغال، وأعاده قاضي القضاة نصر بن عبد الرزاق إلى إعادته بالنظامية، وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة إلى أن توفي في هذه السنة رحمه الله تعالى، وهذا ذكره ابن الساعي.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها كانت الحروب كثيرة بين جلال الدين والتتار، كسروه غير مرة، ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة، وقتل منهم خلقاً وأمماً لا يحصون، وكان هؤلاء التتار قد انفردوا وعصوا على جنكيز خان فكتب جنكيز خان إلى جلال الدين يقول له: إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبعدناهم ولكن سترى منا ما لا قبل لك به.

وفيها قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدي المسلمين وعمروها وقويت شوكتهم وجاء الانبروز ملك الجزيرة القبرصية ثم سار فنزل عكا فخاف المسلمون من شره وبالله المستعان.

وركب الملك الكامل محمد بن العادل صاحب مصر إلى بيت المقدس الشريف فدخله، ثم سار إلى نابلس فخاف الناصر داود بن المعظم من عمه الكامل، فكتب إلى عمه الأشرف فقدم عليه جريدة، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه، فأجابه الكامل بأني إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه، وحاشى لله أن أحاصر أخي أو ابن أخي، وبعد أن جئت أنت إلى الشام فأنت تحفظها وأنا راجع إلى الديار المصرية، فخشي الأشرف وأهل دمشق إن رجع الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع، وأقاما جميعاً هنالك جزاهما الله خيراً، يحوطان جناب بيت المقدس عن الفرنج لعنهم الله.

واجتمع إلى الملك جماعة من ملوكهم، كأخيه الأشرف وأخيهما الشهاب غازي بن العادل وأخيهم الصالح إسماعيل بن العادل، وصاحب حمص أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه، وغيرهم، واتفقوا كلهم على نزع الناصر داود عن ملك الشام وتسليمها إلى الأشرف موسى لأجل حفظ الشام من الفرنج وسيأتي تنفيذ ذلك في السنة المستقبلة إن شاء الله تعالى.

وفيها عزل الصدر البكري عن حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ وولي فيهما اثنان غيره.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وفي أوائل رجب توفي الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن

■ علي بن المراكشي المقيم بالمدرسة المالكيه، ودفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، وكان أول من دفن بها رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائه

استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو المقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم اللّه بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، وتبقى بأيديهم بقية البلاد، فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك على المسلمين جداً وحصل بسبب ذلك وهن وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم قدم الملك الكامل فحاصر دمشق وضيق على أهلها فقطع الأنهار ونهبت الحواصل وغلت الأسعار، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم، على أن يقيم ملكاً بمدينة الكرك والشوبك ونابلس وقرايا من الغور والبلقاء ويكون الأمير عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم صاحب صرخد، ثم تقايض الأشرف وأخوه الكامل فأخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه حران والرها والرقة ورأس العين والسروج، ثم سار الكامل فحاصر حماة وكان صاحبها الملك المنصور بن تقي الدين عمر قد توفي وعهد بالأمر من بعده إلى أكبر ولده المظفر محمد، وهو زوج بنت الكامل، فاستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قليج أرسلان فحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد، ثم سار فتسلم البلاد التي قايض بها دمشق من أخيه الملك الأشرف كما ذكرنا، وكان الناس بدمشق قد اشتغلوا بعلم الأوائل في أيام الملك ناصر داود وكان يعاني ذلك وقديماً نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال فالله أعلم، فنادى الملك الأشرف بالبلدان أن لا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه، وكان سيف الدين الآمدي مدرساً بالعزيزيه فعزله عنها وبقي ملازماً منزله حتى مات في سنة إحدى وثلاثين كما سيأتي.

وفيها كان الناصر داود قد أضاف إلى قاضي القضاة شمس الدين بن الخوئي القاضي محيي الدين أبا الفضائل يحيى بن محمد بن علي بن الزكي،

فحكم أياماً بالشباك، شرقي باب الكلاسه، ثم صار الحكم بـداره، مشاركاً لابن الخوَيّي.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك المسعود

■ **أقسيس بن الكامل**: صاحب اليمن، وقد ملك مكة سنة تسعة عشر فأحسن بها المعدلة، ونفى الزيدية منها، وأمنت الطرقـات والحجاج ولكنه كان مسرفاً على نفسه، فيه عسف وظلم أيضاً، وكـانت وفاته بمكة ودفن بباب المعلى.

■ **محمد السبتي النجار**: كان يعده بعضهم من الأبدال.

قال أبو شامة: وهو الذي بنى المسجد غربي دار الوكالة عن يسار المار في الشارع من ماله، ودفن بالجبل. وكان جنازته مشهودة رحمه الله تعالى.

أبو الحسن

■ **علي بن سالم بـن يزبك بـن محمـد بـن مقلـد العبادي الشـاعر مـن الحديثة**، قدم بغداد مراراً وامتدح المستظهر وغيره وكان فاضلا شاعراً يكـثر التغزل.

أبو يوسف

■ **يعقوب بن صابر الحراني**: ثم البغدادي المنجنيقي، كـان فـاضلا في فنه، وشاعراً مطبقاً لطيف الشعر حسن المعـاني، قـد أورد لـه ابـن السـاعي قطعة صالحة، ومن أحسن ما أورد لـه قصيـدة فيهـا تعزيـة عظيمـة لجميـع الناس وهي:

هـل لمـن يرتجـي البقـاء خلـود ... وسـوى اللّـه كـل شـيء يبيـد
والـذي كـان مـن تـراب وإن ... عـاش طويـلا للـتراب يعـود
فمصـير الأنـام طـراً إلى مـا ... صـار فيـه آبـائهم والجـدود
أيـن حـواء أيـن آدم إذ فـا ... تهـم الخلـد والثـوى والخلـود؟
أيـن هـابيل أيـن قـابيل إذ هــ ... ـنا لهـنا معـاند وحسـود؟
أين نـوح ومـن نجـى معـه بالفلـ ... ـك والعـالمون طـراً فقيـد
أسـلمته الأيـام كـالطفل للمـو ... ت ولم يغـن عمـره الممـدود
أيـن عـاد، بـل أيـن جنـة عـاد ... أم تـرى أيـن صـالح وثمـود؟
أيـن إبراهيـم الـذي شـاد بيــ ... ـت اللّـه فهـو المعظـم المقصـود
حسـدوا يوسـف أخـاهم فكـادو ... ه ومـات الحسـود والمحسـود
وسـليمان في النبـوة والملـك ... قضـى مثـل مـا قضـى داود
فغـدوا بعـد مـا أطيـع لـنا الخلـ ... ـق وهـذا لـه ألـين الحديـد
وابـن عمـران بعـد آياتـه التسـ ... ـع وشـق الخِضَـمّ وهـو صعيـد
والمسيح ابن مريم وهـو روح اللـ ... ـه كـادت تقضـي عليـه اليهـود
وقضـى سـيد النبيـين والهـا ... دي إلى الحـق أحمـد المحمـود
وبنـوه وآلـه الطـاهرو ... ن الزهـر صلـى عليهـم المعبـود
ونجـوم السـماء متنـاثرات ... بعـد حـين وللهـواء ركـود
ولنـار الدنيـا الـتي توقـد الصخـ ... ـر خمـود وللميـاه جمـود
وكـنا للـثرى غـداة يـوم النـ ... ـاس منهـا تزلـزل وهمـود
هـذه الأمهـات نـار وتـرب ... وهـواء رطـب ومـاء بـرود
سـوف تفنـى كمـا فنينـا فـلا ... يبقـى مـن الخلـق والـد ووليـد
لا الشـقي الغـوي مـن نـوب الأيـا ... م ينجـو ولا السـعيد الرشـيد
ومتـى سـلمت المنايـا سـيوفاً ... فـالموالي حصيدهـا والعبيـد

وممن توفي فيها:

أبو الفتوح

■ **نصر بن علي البغدادي**: الفقيه الشافعي ويلقب بثعلب، اشتغل في المذهب والخلاف ومن شعره قوله:

جسمي معي غـير أن الروح عندكم ... فالجسم في غربة والروح في وطـن
فليعجـب النـاس مـني أن لي بدنـاً ... لا روح فيـه ولي روح بـلا بـدن

أبو الفضل

■ **جبرائيل بن منصور بن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بـن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن غـالب بـن الحسـن بـن عمـرو بـن الحسن بن النعمان بن المنذر المعروف بابن زطينـا البغـدادي** كـاتب الديـوان بها، أسلم ـ وكان نصرانيـاً ـ فحسـن إسـلامه، وكـان مـن أفصـح النـاس وأبلغهـم موعظـة، ومـن ذلـك قولـه: «خـير أوقـاتكم سـاعة صفـت للّـه، وخلصت من الفكرة لغيره والرجاء لسواه وما دمت في خدمة السلطان فلا تغتر بالزمان، اكفف كفك وأصرف طرفك وأكـثر صومـك وأقلـل نومـك يؤمنك، واشكر ربك يحمد أمرك.

وقال: زاد السفر مقدّم على رحيله، فأعد الزاد تبلغ بالمعاد المراد.

وقال: إلى متى تتمادى في الغفلة وكأنك قد أمنت عواقب المهلـة عمـر اللّهو مضى وعمر الشبيبة انقضى، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضى وقد انتهى بك الأمر إلى سنّ التخاذل وزمن التكاسل، وما حظيت بطائل.

وقال: روحك لا تخضع وعينك لا تدمع وقلبك لا يخشع ونفسـك لا تشبع، وتظلم نفسك وأنت لها تتوجـع، وتظهـر الزهـد في الدنيـا وفي المـال تطمع، وتطلب ما ليس لك بحق ومـا وجـب عليـك مـن الحـق لا تدفـع، وتروم فضل ربك وللماعون تمنع، وتعيب نفسك الأمارة وهـي عـن اللّهـو لا ترجع، وتوقظ الغافلين بإنذارك وتتناوم عـن سـهمك وتهجـع، وتخـص غيرك بخيرك ونفسك الفقيرة لا تنفـع، وتحـوم على الحـق وأنـت بالبـاطل مولع، وتتعثر في المضايق وطريف النجاة مهيع، وتتهجم علـى الذنـوب وفي المجرمين تشفع، وتركن إلى دار السلامة وأنت بالعطف مروّع، وتحرص على زيادة الإكتساب وحسابك في كفل غـيرك يوضـع وتظهـر القناعـة بـالقليل وبالكثير لا تشبع، وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية خراب بلقع، وتستوطن منزل الرحيل وكأنك إلى ربك لا ترجع، وتظن أنك بـلا رقيـب وأعمـالك إلى المراقب ترفع، وتقدم على الكبائر وعن الصغائر تتورع، وتؤمل الغفـران وأنت عن الذنوب لا تقلع وترى الأهوال محيطة بك وأنت في ميدان اللّهـو ترتع وتستقبح أفعال الجهال وباب الجهل تقرع، وقد آن لك أن تـأنف مـن التعسف وعن الدنايا ترفع، وقد سار المخفون وتخلفت فماذا تتوقع».

وقد أورد ابن الساعي له شعراً حسناً فمنه:

إن سـهرت عينـك في طاعـة ... فـذاك خـير لـك مـن النـوم
أمسـك قـد فـات بعلاتـه ... فاسـتدرك الفـائت في اليـوم

وله:

إن ربـاً هـداك بعـد ضـلال ... سـبل الرشـد مسـتحق العبـادة
فتعبـد لـه تجـد منـه عتقـاً ... واسـتدم فضلـه بطـول الزهـادة

وله:

إذا تعففـت عـن حـرام ... عوضـت بـالطيب الحـلال
فـاقنع تجـد في الحـرام حـلا ... فضـلا مـن اللّـه ذي الجـلال

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الأشرف بن العادل وبين جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمي، وكان سببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة خلاط في الماضي وخربها وشرد أهلها، وحاربه علاء الدين كيقباذ ملك الروم وأرسل إلى الأشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده، فقدم الأشرف في طائفة كبيرة من عسكر دمشق، وانضاف إليهم عسكر بلاد الجزيرة ومن تبقى من عسكر خلاط، فكانوا خمسة آلاف مقاتل صلبية، معهم العدة الكاملة، والخيول الهائلة، فالتقوا بجلال الدين بأذربيجان وهو في عشرين ألف مقاتل، فلم يقم لهم ساعة واحدة، ولا صبر فتقهقر وانهزم واتبعوه على الأثر، ولم يزالوا في طلبهم إلى مدينة خويّن وعاد الأشرف إلى مدينة خلاط فوجدها خاوية على عروشها، فمهدها وأطدها، ثم تصالح وجلال الدين وعاد إلى مستقر ملكه بدمشق حرسها اللّه تعالى وإياه.

وفيها تسلم الأشرف قلعة بعلبك من الملك الأمجد بهرام شاه بعد حصار طويل، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل، ثم سار إلى الأشرف بسبب أن جلال الدين الخوارزمي استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ونهب أموالا كثيرة فالتقى معه الأشرف واقتتلوا قتالا عظيماً فهزمه الأشرف هزيمة منكرة، وهلك من الخوارزمية خلق كثير، ودقت البشائر في البلاد فرحاً بنصرة الأشرف على الخوارزمية، فإنهم كانوا لا يفتحون بلداً إلا قتلوا من فيه ونهبوا أموالهم، فكسرهم اللّه تعالى. وقد كان الأشرف رأى النبي ﷺ في المنام قبل الوقعة وهو يقول له: يا موسى أنت منصور عليهم. ولما فرغ من كسرهم عاد إلى بلاد خلاط فرمم شعثها وأصلح ما كان فسد منها.

ولم يحج أحد من أهل الشام في هذه السنة ولا في التي قبلها، وكذا فيما قبلها أيضاً، فهذه ثلاث سنين لم يسر من الشام أحد إلى الحج.

وفيها أخذت الفرنج جزيرة ميورقة وقتلوا بها خلقا واسروا آخرين، فقدموا بهم إلى الساحل فاستقبلوا المسلمون فاخبروا بما جرى عليهم من الفرنج.

وممن توفي فيها من الأعيان

زين الأمناء الشيخ الصالح: أبو البركات

■ الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقي الشافعي، سمع الحديث على عميه الحافظ أبي القاسم والصائن وغير واحد، وعمر وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين بنحو من ثلاث سنين، وأقعد في آخر عمره فكان يحمل في محفة إلى الجامع وإلى دار الحديث النورية لإسماع الحديث وانتفع به الناس مدة طويلة، ولما توفي حضر الناس جنازته ودفن عند أخيه الشيخ فخر الدين بن عساكر بمقابر الصوفية رحمهما اللّه تعالى.

الشيخ

■ بيرم المارديني: كان صالحاً منقطعاً محباً للعزلة عن الناس، وكان مقيماً في الزاوية الغربية من الجامع، وهي التي يقال لها الغزالية، وتعرف بزاوية الدولعي وبزاوية القطب النيسابوري، وبزاوية الشيخ نصر المقدسي، قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، ودفن بسفح قاسيون رحمه اللّه تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل ببلاد الجزيرة مشغول فيها بإصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمي قد أفسده من بلاده، وقد قدمت التتار في هذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يميناً وشمالا، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عاداتهم خذلهم اللّه تعالى.

وفيها رتب إمام بمشهد أبي بكر من جامع دمشق وصليت فيه الصلوات الخمس.

وفيها درس الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري الشافعي في المدرسة الشامية الجوانية في جوار المارستان في جمادى الأولى منها.

وفيها درس الناصح بن الحنبلي بالصالحية بسفح الجبل التي أنشأتها الخاتون ربيعة بنت أيوب أخت ست الشام.

وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ علي الحريري بقلعة عزتا.

وفيها كان غلاء شديد بديار مصر وبلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياه السماوية والأرضية فكانت هذه السنة كما قال اللّه تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٥].

وذكر ابن الأثير كلاماً طويلا مضمونه خروج طائفة من التتار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر، وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الإسماعيلية كتبوا إليهم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه وأنه قد عادى جميع الملوك من حوله حتى الخليفة، وأنه قد كسره الأشرف بن العادل مرتين، وكان جلال الدين قد ظهرت منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله، وذلك أنه توفي له غلام خصي يقال له قلج، وكان يحبه، فوجد عليه وجداً عظيماً بحيث إنه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته فراسخ إلى تربته، وأمر أهل البلد أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه فتوانى بعضهم في ذلك فهم بقتلهم حتى تشفع فيهم بعض الأمراء ثم لم يسمح بدفن قلج فكان يحمل معه بمحفة، وكلما أحضر بين يديه الطعام يقول احملوا هذا إلى قلج فقال له بعضهم: أيها الملك إن قلج قد مات، فأمر بضرب عنقه فقتل، فكانوا بعد ذلك يقولون: قبله وهو يقبل الأرض، ويقول هو الآن أصلح مما كان عليه - يعني أنه مريض وليس بميت - فيجد الملك بذلك راحة من قلة عقله ودينه قبحه اللّه تعالى.

فلما جاءت التتار اشتغل بهم وأمر بدفن قلج وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفاً منهم، وجعل كلما سار من قطر لحقوه إليه وخربوا ما اجتازوا به من الأقاليم والبلدان حتى انتهوا إلى الجزيرة وجاوزوها إلى سنجار وماردين وآمد، يفسدون ما قدروا عليه قتلا ونهباً وأسراً، وتمزق

شمل جلال الدين وتفرق عنه جيشه، فصاروا شذر مذر، وبدلوا بالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالاجتماع تفرقاً، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو.

وانقطع خبر جلال الدين فلا يدرى أين سلك، ولا أين ذهب وتمكنت التتار من الناس في سائر البلاد لا يجدون ما يمنعهم ولا من يردعهم وألقى الله تعالى الوهن والضعف في قلوب الناس منهم، كانوا كثيراً يقتلون الناس فيقول المسلم لا بالله لا بالله فكانوا يلعبون الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله، وهذه طامة عظمى وداهية كبرى فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج الناس في هذه السنة من الشام وكان ممن حج فيها تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح، ثم لم يحج الناس بعد هذه السنة أيضاً لكثرة الحروب والخوف من التتار والفرنج، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها تكامل بناء المدرسة التي بسوق العجم ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابي، وحضر الدرس بها، وكان يوماً مشهوداً، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتين ببغداد، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيهاً لهم الجوامك الدارة في كل شهر، والطعام في كل يوم والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء في ذلك اليوم، وكان وقتاً حسناً تقبل الله تعالى منه.

وفيها سار كل يوم الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضي الفاضل في الرسلية عن الكامل محمد صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاكرم وأعيد معظماً.

وفيها دخل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين صاحب إربل إلى بغداد ولم يكن دخلها قط، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين في وقتين، وكان ذلك شرفاً له غبطه به سائر ملوك الآفاق وسألوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك، فلم يمكنوا لحفظ الثغور، ورجع إلى مملكته معظماً مكرماً.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ ابن معطي النحوي يحيى بن معطي بن عبد النور: النحوي صاحب الألفية وغيرها من المصنفات النحوية المفيدة ويلقب زين الدين، أخذ عن الكندي وغيره، ثم سافر إلى مصر فكانت وفاته بالقاهرة في مستهل ذي الحجة من هذه السنة، وشهد جنازته الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان قد رحل إلى مصر في هذه السنة، وحكى أن الملك الكامل شهد جنازته أيضاً، وأنه دفن قريباً من قبر المزني بالقرافة في طريق الشافعي عن يسرة المار رحمه الله.

■ الدخوار الطبيب، واقف الداخورية مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق المحروسة مدرسة لهم.

وكانت وفاته بصفر من هذه السنة، ودفن بسفح قاسيون، وعلى قبره قبة على أعمدة في أصل الجبل شرقي الركنية، وقد ابتلي بستة أمراض متعاكسة منها ريح اللقوة، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

قال ابن الأثير: وفيها توفي: القاضي أبو غانم

■ ابن العديم: الشيخ الصالح وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة، من العاملين بعلمهم، ولو قال قائل إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه، فإنه من جماعة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه.

قال: وفيها أيضاً في الثاني عشر من ربيع الأول توفي صديقنا: أبو القاسم

■ عبد المجيد بن العجمي الحلبي: وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب، وكان رجلا ذا مروءة غزيرة، وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة، يحب إطعام الطعام، وأحب الناس إليه من أكل من طعامه ويقبل يده، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط، ولا يقعد عن إيصال راحة أو قضاء حاجة، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

قلت وهذا آخر ما وجد من الكامل [٥٠٥/١٢] في التاريخ للحافظ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى.

أبو إسحاق

■ إبراهيم بن عبد الكريم بن أبي السعادات بن كرم الموصلي، أحد الفقهاء الحنفيين، شرح قطعة كبيرة من القدوري، وكتب الإنشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ ثم استقال من ذلك، وكان فاضلا شاعراً، من شعره:

دعوه كما شاء الغرام يكون ... فلست وإن خان العهود أخون

ولينوا له في قولكم ما استطعتم ... عسى قلبه القاسي علي يلين

وشوا صباباتي إليه وكرروا ... حديثي عليه فالحديث شجون

بنفسي الأولى بانوا عن العين خفية ... وحبهم في القلب ليس يبين

وسلوا على العشاق يوم تحملوا ... سيوفاً لها وطف الجفون جفون

■ المجد البهنسي: وزير الملك الأشرف ثم عزله وصادره، ولما توفي دفن بتربته التي أنشأها بسفح قاسيون وجعل كتبه فيها وقفاً، وأجرى عليها أوقافاً جيدة دارة رحمه الله تعالى.

جمال الدولة

■ خليل بن زويزان: رئيس قصر حجاج، كان كيساً ذا مروءة، له صدقات كثيرة، وله زيارة في مقابر الصوفية من ناحية القبلة، ودفن بتربته عند مسجد فلوس رحمه الله تعالى.

الملك

■ الأمجد: واقف المدرسة الأمجدية بالشرف. وفيها كانت وفاته.

■ بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك بعده، لم يزل بها حتى قدم الأشرف موسى بن العادل إلى دمشق فملكها في سنة ست وعشرين، فانتزع من يده بعلبك في سنة سبع وعشرين، وأسكنه عنده بدمشق بدار أبيه، فلما كان شهر شوال من هذه السنة عدا عليه مملوك من مماليكه تركي فقتله ليلا، وكان قد اتهمه في بحياصة له وحبسه، فتغلب عليه في بعض الليالي فقتله وقتل المملوك بعده، ودفن الأمجد في تربته التي إلى جانب تربة أبيه في الشرف الشمالي رحمه الله تعالى.

وقد كان شاعراً فاضلا له ديوان شعر، وقد أورد له ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الرائق الفائق، وترجمته في طبقات الشافعية ولم يذكره أبو شامة في الذيل وهذا عجيب منه ومما أورد له ابن الساعي قوله في شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة يقول:

من لي بأهيف قال حين عتبته	في قطع كل قضيب بان رائق
تحكي شمائله الرشاء إذا انثنى	ريان بين جداول وحدائق
سرقت غصون البان لين شمائلي	فقطعتها والقطع حد السارق

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى قوله:

يؤرقني حنين وادكار	وقد خلت المرابع والديار
تناءى الظاعنون ولي فؤاد	يسير مع الهوادج حيث ساروا
حنين مثلما شاء التنائي	وشوق كلما بعد المزار
وليلي بعد بينهم طويل	فأين مضت ليالي القصار؟
وقد حكم السهاد على جفوني	تساوى الليل عندي والنهار
سهادي بعد نأيهم كثير	ونومي بعد ما رحلوا غرار
فمن ذا يستعير لنا عيوناً	تنام وهل ترى عيناً تعار
فلا ليلي له صبح منير	ولا وجدي يقال له عثار
وكم من قائل والحي غاد	يحجب ظعنه النقع المثار
وقوفك في الديار وأنت حي	وقد رحل الخليط عليك عار

وله:

كم يذهب هذا العمر في الخسران	ما أغفلني فيه وما أنساني
ضيعت زماني كله في لعب	يا عمر هل بعدك عمر ثاني؟

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال:

كنت من ذنبي على وجل	زال عني ذلك الوجل
أمنت نفسي بوائقها	عشت لما مت يا رجل

رحمه الله وعفا عنه

■ **جلال الدين تكش**: وقيل محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وتكش جدهم هو الذي أزال دولة السلجوقية. كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر وتفرقوا عنه أيدي سبا، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميافارقين فأنكره لما عليه من الجواهر والذهب، وعلى فرسه فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية -وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً- فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين فاستدعى الفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر والحلي، وأخذ الفرس أيضاً، وكان الملك الأشرف يقول: هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أنّ السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها عزل القاضيان بدمشق: شمس الدين الخوييّ وشمس الدين بن سني الدولة، وولي قضاء القضاة عماد الدين بن الحرستاني، ثم عزل في سنة إحدى وثلاثين وأعيد شمس الدين بن سني الدولة كما سيأتي.

وفي سابع عشر شوالها عزل الخليفة المستنصر وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي، وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمي وأصحابهم وحبسوا واستوزر الخليفة مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر، أحمد بن محمد بن الناقد، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك.

وقد أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهزور فندب الخليفة صاحب إربل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأضاف إليه عساكر من عنده، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار، و لله الحمد، وأقاموا في مقابلتهم مدة شهور ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل، وتراجعت العساكر إلى بلادها.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن نقطة الحافظ محمد بن عبد الغني بن أبي بكر البغدادي، أبو بكر بن نقطة الحافظ** المحدث الفاضل، صاحب الكتاب النافع المسمى بـ «التقييد» في تراجم رواة الكتب والمشاهير من المحدثين وكان أبوه فقيهاً فقيراً منقطعاً في بعض مساجد بغداد، يؤثر أصحابه بما يحصل له، ونشأ ولده هذا فعُني بعلم الحديث وسماعه والرحلة فيه إلى الآفاق شرقاً وغرباً حتى برز فيه على الأقران، وفاق أهل زمانه، ولد سنة تسع وسبعين وخمسمائة وتوفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، رحمهم الله تعالى.

■ **(عبد الله بن عبد الغني المقدسي).**

الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي: كان فاضلا كريماً حيياً، سمع الكثير، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا، فتغيرت أحواله ومات ببستان ابن شكر عند الصالح إسماعيل بن العادل، وهو الذي كفنه ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

أبو علي

■ **الحسن بن أبي بكر المبارك بن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدي ثم البغدادي**، كان شيخاً صالحاً فقيهاً حنفياً فاضلا ذا فنون كثيرة ومن ذلك علم الفرائض والعروض، وله فيه أرجوزة حسنة، انتخب منها ابن الساعي من كل بحر بيتين، وسرد ذلك في تاريخه.

أبو الفتح

■ **مسعود بن إسماعيل بن علي بن موسى السلماسي**، فقيه أديب شاعر، له تصانيف، وقد شرح المقامات والجمل في النحو، وله خطب وأشعار حسنة رحمه الله تعالى.

أبو بكر

■ **محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله الأنصاري بن الشيرجي الدمشقي**، أحد المعدلين بها، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة سمع الحديث وكان يلي ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب، وفوضت إليه أمر أوقافها.

قال السبط: وكان ثقة أميناً كيساً متواضعاً.

قال: وقد وزر ولده شرف الدين للناصر داود مدة يسيرة، وكانت وفاة فخر الدين في يوم عيد الأضحى ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى وعفا عنه.

■ **حسام بن غزي بن يونس عماد الدين أبو المناقب المحلي المصري، ثم الدمشقي**، كان شيخاً صالحاً فاضلا فقيهاً شافعياً حسن المحاضرة وله أشعار حسنة.

قال أبو شامة: وله في معجم القوصي ترجمة حسنة، وذكر أنه توفي

عاشر ربيع الآخر ودفن في مدافن الصوفية.

قال السبط: وكان مقيماً بالمدرسة الأمينية، وكان لا يأكل لأحد شيئاً ولا للسلطان، بل إذا حضر طعاماً كان معه في كمه شيء يأكله، وكان لا يزال معه ألف دينار على وسطه.

وحكى عنه قال: خلع علي الملك العادل ليلة طيلساناً فلما خرجت مشى بين يدي نفّاط يحسبني القاضي، فلما وصلت باب البريد عند باب سيف خلعت الطيلسان وجعلته في كمي وتباطأت في المشي، فالتفت فلم ير وراءه أحداً فقال لي أين القاضي؟ فأشرت ناحية النورية وقلت ذهب إلى داره، فلما أسرع إلى ناحية النورية هرولت إلى المدرسة الأمينية واسترحت منه.

قال ابن الساعي: كان مولده سنة ستين وخمسمائة، وخلف أموالاً كثيرة ورثتها عصبته.

قال: وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس، مع دين وصلاح وورع، وأورد له ابن الساعي قطعاً من شعره فمن ذلك قوله:

قيل لي من هويت قد عبث الشـ ـعر في خدّيه. قلت ما ذاك عاره
جَمْر خدّيه أحرقت عنبر الخا ل فمن ذاك الدخان عذاره

وله:

شوقي إليكم دون أشواقكم لكنه لابد ما يشرحُ
لأنني عن قلبكم غائب وأنتم في القلب لن تبرحوا

أبو عبد الله

■ محمد بن علي بن محمد بن الجارود الماراني: الفقيه الشافعي، أحد الفضلاء، ولي القضاء بإربل وكان ظريفاً وخليعاً، وكان من محاسن الأيام، وله أشعار رائقة ومعان فائقة فمن شعره قوله:

مشيب أتى وشباب رحل فحلَّ العناء به حيث حل
وعُمر تقضّى بلا طاعة فويحك يا نفسُ ماذا الزلل
وذنبك جم ألا فارجعي وعودي فقد حان وقت الأجل
وديني الإله ولا تقصري ولا يخدعنك طول الأمل
فمالك عندي غير التقى مستعد ولا صاحب غير حسن العمل]

أبو الثناء

■ محمود بن زاكي بن علي بن يحيى الطائي الرقي نزيل إربل، وولي النظر بها للملك مظفر الدين، وكان شيخاً أديباً فاضلاً، ومن شعره قوله:

وأهيف ما الخطي إلا قوامه وما الغصن إلا ما يثنيه لينه
وما الدعص إلا ما تحمل خصره وما النبل إلا ما تريش جفونه
وما الخمر إلا ما يروق ثغره وما السحر إلا ما تكن عيونه
وما الحسن إلا كله فمن الذي إذا ما رآه لا يزيد جنونه

■ ابن معطي النحوي يحيى: ترجمة أبو شامة في السنة الماضية، وهو أضبط لأنه شهد جنازته بمصر.

أما ابن الساعي فإنه ذكره في هذه السنة، وقال: إنه كان حظياً عند الكامل محمد صاحب مصر، وإنه كان قد نظم أرجوزة في القراءات السبع، ونظم ألفاظ الجمهرة، وكان قد عزم على نظم صحاح الجوهري.

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

فيها باشر خطابة بغداد ونقابة العباسيين العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الله المنصوري. وخلع عليه خلعة سنية، وكان فاضلا قد صحب الفقراء والصوفية وتزهد برهة من الزمن، فلما دعي إلى هذا الأمر أجاب سريعاً وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها وخدمه الغلمان الأتراك، ولبس لباس المترفين وقد عاتبه بعض تلامذته بقصيدة طويلة وعنفه على ما صار إليه، وسردها ابن الساعي بطولها في تاريخه.

وفيها سار القاضي محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي في الرسلية من الخليفة إلى الكامل صاحب مصر، ومعه كتاب هائل فيه تقليده الملك، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصير الدين أحمد بن الناقد، سرده ابن الساعي أيضاً بكامله،، وقد كان الكامل مخيماً بظاهر آمد من أعمال الجزيرة، قد افتتحها بعد حصار طويل وهو مسرور بما نال من ملكها.

وفيها فتحت دار الضيافة ببغداد للحجيج حين قدموا من حجهم، وأجريت عليهم النفقات والكساوي والصلات ولله الحمد والمنة.

وفيها سارت العساكر المستنصرية صحبة الأمير شرف الدين أبي الفضائل إقبال الخاص المستنصري إلى مدينة إربل وأعمالها، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة في السابع عشر من شوال في هذه السنة، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك، وفرح أهلها، وكتب التقليد عليها لإقبال المذكور، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة، وامتدح الشعراء هذا الفتح من حيث هو، وكذلك مدحوا فاتحها إقبالا، ومن أحسن ما قال بعضهم في ذلك:

يا يوم سابع عشر شوال الذي رزق السعادة أولا وأخيرا
هنيت فيه بفتح إربل مثلما هنيت فيه وقد جلست وزيرا

يعني أن الوزير نصير الدين بن العلقمي، قد كان وزر في مثل هذا اليوم من العام الماضي.

وفي مستهل رمضان من هذه السنة شُرع في عمارة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وكانت قبل ذلك داراً للأمير قايماز وبها حمام فهدمت وبنيت الدار عوضها.

وقد ذكر السبط في هذه السنة أن في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ.

قال: وسمع الأشرف صحيح البخاري في هذه السنة على الزبيدي.

قلت: وكذا سمعوا عليه بالدار وبالصالحية.

قال: وفيها فتح الكامل آمد وحصن كيفا ووجد عند صاحبها خمسمائة حرة للفراش فعذبه الأشرف عذاباً أليماً.

قال: وفيها قصد صاحب ماردين وجيش بلاد الروم والجزيرة فقتلوا وسبوا وفعلوا ما لم يفعله التتار بالمسلمين.

ومن توفي فيها من الأعيان المشاهير

■ (علي بن أبي الفرج بن الجوزي).

أبو القاسم علي بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي: كان شيخاً لطيفاً ظريفاً سمع الكثير وعمل صناعة الوعظ مدة، ثم ترك ذلك، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الأخبار والنوادر والأشعار، ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكانت وفاته في هذه السنة وله تسع وسبعون سنة.

وقد ذكر السبط وفاة الوزير

■ صفي الدين بن عبد الله بن علي بن شكر في هذه السنة، وأثنى عليه وعلى محبته للعلم وأهله، وأن له مصنفاً سماه البصائر، وأنه تغضب عليه العادل ثم ترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته، ودفن في مدرسته المشهورة في مصر، وذكر أن أصله من قرية يقال لها دميرة بمصر.

الملك

■ ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكي آقسنقر صاحب الموصل، كان مولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته، ثم حجر عليه فكان لا يصل إلى أحد من الجواري ولا شيء من السراري، حتى لا يعقب، وضيق عليه في الطعام والشراب، فلما توفي جده لأمه مظفر الدين كوكبري صاحب إربل منعه حينئذ من الطعام والشراب ثلاثة عشر يوماً حتى مات كمداً وجوعاً وعطشاً رحمه الله، وكان من أحسن الناس صورة، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكي.

القاضي شرف الدين

■ إسماعيل بن إبراهيم: أحد مشايخ الحنفية، وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابن خالة القاضي شمس الدين بن الشيرازي الشافعي وكلاهما كان ينوب عن ابن الزكي وابن الحرستاني وكان يدرس بالطرخانيه. وبها مسكنه، فلما أرسل إليه المعظم أن يفتي بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان امتنع عن ذلك وقال أنا على مذهب محمد بن الحسن في ذلك، والرواية عن أبي حنيفة شاذة، ولا يصح حديث ابن مسعود في ذلك، ولا الأثر عن عمر أيضاً. فغضب عليه المعظم وعزله عن التدريس وولاه لتلميذه الزين بن العتال، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات رحمه الله تعالى.

قال أبو شامة: ومات في هذه السنة جماعة من السلاطين منهم

■ المغيث بن المغيث بن العادل، والعزيز عثمان بن العادل، ومظفر الدين صاحب إربل.

قلت: أما صاحب إربل فهو: الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد، له آثار حسنة وقد عمر الجامع المظفري بسفح قاسيون، وقد كان قد هم بسياقة الماء إليه من ماء برزة فمنعه المعظم من ذلك واعتل بأنه قد يمر على مقابر المسلمين بالسفوح، وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالا هائلا، وكان مع ذلك شهماً شجاعاً فاتكاً بطلا عاقلا عاملا عادلا رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية له مجلداً في المولد النبوي سماه التنوير في مولد السراج النير، فأجازه على ذلك بألف دينار، وقد طالت مدته في الملك في زمان الدولة الصلاحية، وقد كان محاصراً عكا وإلى هذه السنة محمود السيرة والسريرة.

قال السبط: حكى بعض من حضر سماط المظفر في بعض الموالد أنه مدّ في ذلك السماط خمسة آلاف رأس شوي. وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى.

قال: وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ويطلق لهم ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلى الفجر، ويرقص بنفسه معهم، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أي جهة على أي صفة. وكانت صدقاته في جميع القرب والطاعات على الحرمين وغيرهما، ويستفك من الفرنج في كل سنة خلقاً من الأسارى، حتى قيل إن جملة من استفكه من أيديهم ستون ألف أسير، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب ـ وكان زوجه إياها أخوها صلاح الدين لما كان معه على عكا ـ قالت: كان قميصه لا يساوي خمسة دراهم من خام فعاتبته بذلك فقال: لبسي ثوباً بخمسة وأتصدق بالباقي خير من ألبس ثوباً مثمناً وأدع الفقير المسكين، وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وفي ثمن الأسارى في كل سنة مئتي ألف دينار. وعلى دار الضيافة في كل سنة مائة ألف دينار. وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى الصدقات السر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بقلعة إربل، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد علي.

والملك

■ العزيز بن عثمان بن العادل فهو شقيق المعظم، كان صاحب بانياس وتملك الحصون التي هنالك، وهو الذي بنى الصُّبيبة. وكان عاقلا قليل الكلام مطيعاً لأخيه المعظم، ودفن عنده وكانت وفاته يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه الناعمة من لهيا سامحه الله وعفا عنه.

■ ابن عنين الشاعر أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن علي بن محمد بن غالب الأنصاري، المعروف بابن عنين الشاعر.

قال ابن الساعي: أصله من الكوفة وولد بدمشق ونشأ بها، وسافر عنها سنين، فجاب الأقطار شرقاً وغرباً ودخل الجزيرة وبلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند واليمن والحجاز وبغداد، ومدح أكثر أهل هذه البلاد، وحصل أموالا جزيلة.

وكان ظريفاً شاعراً مطيقاً مشهوراً، حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وقد رجع إلى بلدة دمشق فكان بها حتى مات هذه السنة في قول ابن الساعي.

وأما السبط وغيره. فأرخوا وفاته في ثلاث وثلاثين وقد قيل إنه مات في سنة إحدى وثلاثين والله أعلم.

والمشهور أن أصله من حوران مدينة زرع، وكانت إقامته بدمشق في الجزيرة قبلي الجامع، وكان هجاء له قدرة على ذلك وصنف كتاباً سماه مقراض الأعراض، مشتمل على نحو خمسمائة بيت، قل من سلم من الدماشقة من شره، ولا الملك صلاح الدين ولا أخوه العادل، وقد كان يزن بترك الصلاة المكتوبة فالله أعلم.

وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند فامتدح ملوكهم وحصل أموالا جزيلة، وصار إلى اليمن فيقال إنه وزر لبعض ملوكها، ثم عاد في أيام العادل إلى دمشق ولما ملك المعظم استوزره فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله، وكان قد كتب إلى الدماشقة من بلاد الهند:

فعلام أبعدتم أخا ثقة　　لم يجترم ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم　　إن كان ينفى كل من صدقا

ومما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى:

سـلطاننا أعـرج وكاتبـه ذو عمـش والوزيـر منحـدب
والدولعـي الخطيـب معتكـف وهـو علـى قشـر بيضـة يثـب
ولابـن باقـة وعـظ يغـرُّ بـه النـ ـاس وعبـد اللطيـف محتسـب
وصـاحب الأمـر خلقـه شـرس وعـارض الجيـش داؤه عجـب

وقال في السلطان الملك العادل سيف الدين رحمه الله تعالى وعفا عنه:

إن سـلطاننا الـذي نرتجيـه واسـع المـال ضيـق الإنفـاق
هـو سـيف كمـا يقـال ولكـن قـاطع للرسـوم والأرزاق

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس، فجاءت حمامة خلفها جارح فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمستجيرة به، فأنشأ ابن عنين يقول:

جـاءت سـليمان الزمـان حمامـة والموت يلمع من جناحي خـاطف
قـرم لـواه الجـوع حتـى ظلـه بإزائـه ويكـل قلـب واجـف
مـن أعلـم الورقـاء أن محلكـم حـرم وأنـك ملجـأ للخـائف

الشيخ شهاب الدين

■ **السهروردي**: صاحب عوارف المعارف، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمُّويه، واسمه عبد الله البكري البغدادي، الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروردي.

شيخ الصوفية ببغداد، كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مراراً، وحصلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين، وقد حج مرة وفي صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وكان فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وإعانة للمحتاجين، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، قال مرة في هذا البيت:

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه حديث نجد ولا صبٌّ فجاريـة

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده:

وجعل يكرِّره ويتواجد، فقام شاب عليه قَباء وكلُوتـه من الحاضرين، فقال: يا شيخ كم تشطح بالقوم، والله إن فيهم من لا يرضى أن يُجاريك ولا يصل فهمك إلى ما يقول، هلاّ أنشدت:

كا في الصحاب وقـد سارت حمولهم إلا محـبٌّ في الركـب محبـوب
كأنمـا يوسـف في كـل راحلـة والحـي وفي كـل بيـت يعقـوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت.

وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيراً وأنه توفي في هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة رحمه الله تعالى.

■ **ابن الأثير مصنف أسد الغابة والكامل**: هو الإمام العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير:

مصنف كتاب أسد الغابة في أسماء الصحابة وكتاب الكامل في التاريخ وهو من أحسنها حوادث، ابتداه من المبتدأ إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وقد كان يتردد إلى بغداد خصيصاً عند ملوك الموصل، ووزر لبعضهم كما تقدم بيانه، وأقام بها في آخر عمره موقراً معظماً إلى أن توفي في شعبان في هذه السنة، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله.

وأما أخوه مجد الدين أبو السعادات المبارك فهو مصنف كتاب جامع الأصول وغيره، وأخوهما الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله كان وزيرا للملك الأفضل علي بن الناصر فاتح بيت المقدس، صاحب دمشق كما تقدم، وجزيرة ابن عمر، قيل إنها منسوبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر من أهل برقعيد، وقيل بل هي منسوبة إلى ابنا عمر وهما أوس وكامل ابني عمر ابن أوس الثعلبي، فالله أعلم. حرَّر ذلك القاضي ابن خلكان رحمه الله.

■ **ابن المستوفي الإربلي**: مبارك بن أحمد بن مبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب العلامة شرف الدين أبو البركات اللخمي الإربلي، كان إماماً في علوم كثيرة كالحديث وأسماء الرجال والأدب والحساب، وله مصنفات كثيرة وفضائل غزيرة، وقد بسط ترجمته القاضي شمس الدين بن خلكان في الوفيات [١٤٧/٤]، فأجاد وأفاد رحمهم الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

وفيها عمَّر الأشرف مسجد جرّاح ظاهرَ باب الصَّغير.

وفيها قدم رسولُ الأنبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا؛ منها دبٌ أبيض، شعره مثل شعر الأسد، ذكروا أنه ينزل إلى البحر، فيخرجُ السمك فيأكله، ومنها طاووسٌ أبيض أيضاً.

وفيها كملت عمارةُ القيسارية التي هي قبليَّ النُّحّاسين، وحوِّل إليها سوقُ الصاغة، وشغر سوق اللؤلؤ الذي كان فيه الصاغة العتيقة عند الحدّادين.

وفيها جدِّدت الدَّكاكين التي بالزيادة.

قلت: وقد جدِّدت شرقيَّ هذه الصاغة الجديدة قيساريَّتان في زماننا، وسكنها الصُّوّاغ وتجّار الذهب والجوهر، وهما حسنتان، والجميع وقف الجامع المعمور.

وفيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم تُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقُرر للجميع من الخبز والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد.

ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوماً مشهوداً، وأمراً محموداً، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الفائقة والقصائد الرائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولا مبسوطاً شافياً كافياً، وقرر لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان، وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ودرس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك ودرس للمالكية

يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضاً، حتى يعين شيخ غيره، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها.

وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين. ثم عزل مدرس الشافعية في الرابع عشر ذي القعدة بقاضي القضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مقبل، مضافاً إلى ما بيده من القضاء، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان، وقد ولي القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها، ثم عزل ثم رضي عنه ثم درس آخر الوقت بالمستنصرية كما ذكرنا، فلما توفي وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

السيف

الآمدي أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الشيخ سيف الدين الآمدي، ثم الحموي ثم الدمشقي، صاحب المصنفات في الأصلين وغير ذلك، من ذلك أبكار الأفكار في الكلام، ودقائق الحقائق في الحكمة، وإحكام الأحكام في أصول الفقه.

وكان حنبلي المذهب فصار شافعياً أصولياً منطقياً جدلياً خلافياً، وكان حسن الأخلاق سليم الصدر كثير البكاء رقيق القلب، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم بصحتها، والذي يغلب على الظن أن ليس لغالبها صحة، وقد كانت ملوك بني أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيراً، وقد فوض إليه المعظم تدريس العزيزية، فلما ولي الأشرف دمشق عزله عنها ونادى بالمدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفي بدمشق في هذه السنة في صفر، ودفن بتربته بسفح قاسيون.

وذكر القاضي ابن خلكان أنه اشتغل ببغداد على الشيخ أبي الفتح نصر بن فتيان بن المني الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فأخذ عن ابن فضلان وغيره، وحفظ طريقة الخلاف الشريف وزوائده طريقة أسعد الميهني، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بعلوم المعقول، ثم إلى الديار المصرية فأعاد بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى، وتصدر بالجامع الظافري، واشتهر فضله وانتشرت فضائله، فحسده أقوام فسعوا فيه وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

فانتقل سيف الدين إلى حماة ثم تحول إلى دمشق فدرس بالعزيزية، ثم عزل عنها ولزم بيته إلى أن مات في هذه السنة، وله ثمانون عاماً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

واقف الركنية الحنفية الأمير الكبير ركن الدين منكورس الحنفي الفلكي: غلام فلك الدين أخي الملك العادل، لأنه وقف الفلكية كما تقدم، وكان هذا الرجل من خيار الأمراء، ينزل في كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده بطوّافة ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة، وكان قليل الكلام كثير الصدقات، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون ووقف عليها أوقافاً كثيرة وعمل عندها تربة وحين توفي في بقرية جرود حمل إليها رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم رضي الدين أبو داود

■ سليمان بن المظفر بن غنائم الجيلي الشافعي، أحد فقهاء الشافعية ببغداد والمفتين بها والمشغلين للطلبة فترة طويلة، له كتاب في المذهب نحو من خمسة عشر مجلداً يحكي به الوجوه الغريبة والأقوال المستغربة وكان لطيفاً ظريفاً، توفي رحمه الله يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ببغداد.

والحافظ أبو الحسن

■ ابن الأثير الشيخ عزُّ الدين أبو الحسن عليُّ ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم، والجزريُّ الموصليُّ، صاحب التصانيف الفائقة منها كتاب «الكامل في التاريخ» من أحسن الكتب في هذا الفنِّ وأبسطها في الحوادث، وأمّا وفياته فليست مبسوطة بسطَ حوادثه، وبالجملة فهو من عيون التواريخ وأمتعها، وله من المصنفات المشهورة.

الشيخ

■ طَيِّ المصري أقام مدة بالشام له زاوية بدمشق، عند الرحبة التي يباع فيها الصناديق عند دار بني القلانسي شرقي حمام سامة وكان لطيفاً كيساً زاهداً، يتردد إليه الأكابر ودفن بزاويته المذكورة رحمه الله تعالى.

الشيخ

■ عبد الله الأرمني: أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البراري والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات في سائر النواحي والجهات، وقد قرأ القرآن في بدايته وحفظ كتاب القدوري على مذهب أبي حنيفة، ثم اشتغل في المعاملات والرياضات، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون.

وقد حكي عنه أشياء حسنة ومنها أنه قال اجتزت مرة في السياحة ببلدة فطالبتني نفسي بدخولها فآليت أن لا أستطعم منها بطعام، ودخلتها فمررت برجل غسال فنظر إلي شزراً فخفت منه وخرجت من البلد هارباً فلحقني ومعه طعام فقال: كل فقد خرجت من البلد فقلت له: وأنت في هذا المقام وتغسل الثياب في الأسواق؟ فقال لا ترفع رأسك وتنظر إلى شيء من عملك، وكن عبداً لله ولو استعملك في الحش فارض به، ثم قال رحمه الله:

ولو قلت لي مت قلت سمعاً وطاعةً ... وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا

وقال اجتزت مرة في سياحتي براهب في صومعته فقال لي: يا مسلم ما أقرب الطرق عندكم إلى الله عز وجل؟ قلت: مخالفة النفس قال فرد رأسه إلى صومعته فلما كنت في مكة زمن الحج إذا برجل يسلم علي عند الكعبة فقلت من أنت؟ فقال: أنا الراهب، قلت بم وصلت إلى هاهنا؟ قال بالذي قلت لي.

وفي رواية أنه قال له: عرضت الإسلام على نفسي فأبت، فعلمت أنه حق فأسلمت وخالفتها، فأفلح وأنجح.

وقال بينا أنا ذات يوم بجبل لبنان إذا حرامية الفرنج فأخذوني فقيدوني وشدوا وثاقي فكنت عندهم في أضيق حال فلما كان النهار شربوا وناموا، فبينا أنا موثوق إذا حرامية المسلمين قد أقبلوا نحوهم فأنبهتهم فلجئوا إلى مغارة هنالك فسلموا من أولئك المسلمين فقالوا كيف فعلت هذا وقد كان خلاصك على أيديهم فقلت: إنكم أطعمتموني فكان من حق الصحبة أن

لا أغشكم، فعرضوا علي شيئاً من متاع الدنيا فأبيت وأطلقوني.

وحكى السبط قال: زرته مرة وهو ببيت المقدس وكنت قد أكلت سمكاً مالحاً فلما جلست عنده أخذني عطش شديد وإلى جانبه إبريق فيه ماء بارد فجعلت أستحيي منه، فمد يده إلى الإبريق وقد احمر وجهه وناولني وقال خذ، كم تكاسر، فشربت.

وذكر أنه لما ارتحل من بيت المقدس كان سورها قائماً جديداً على عمارة الملك صلاح الدين قبل أن يخربه المعظم، فوقف لأصحابه يودعهم ونظر إلى السور وقال: كأني بالمعاول وهي تعمل في هذا السور عما قريب، فقيل له: معاول المسلمين أو الفرنج؟ فقال بل معاول المسلمين، فكان كما قال.

وقد ذكرت له أحوال كثيرة حسنة.

ويقال إن أصله أرمني وإنه أسلم على يدي الشيخ عبد الله اليونيني وقيل: بل أصله رومي من قونية وإنه قدم على الشيخ عبد الله اليونيني وعليه برنس كبرانس الرهبان، فقال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين.

وقد كانت أمه داية امرأة الخليفة، وقد جرت له كائنة غريبة فسلمه الله بسبب ذلك وعرفه الخليفة فأطلقه.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وستمائة

فيها خرب الملك الأشرف موسى بن العادل خان الزنجاري الذي كان بالعُقيبه فيه خواطئ وخمور ومنكرات متعددة، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمي جامع التوبة، تقبل الله تعالى منه.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين

■ يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الحلبي، أحد رؤسائها من بيت العلم والسيادة، له علم بالتواريخ وأيام الناس وغير ذلك، وقد سمع الكثير وحدث.

والشيخ شهاب الدين

■ عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن محمد بن عصرون الحلبي أيضاً، كان فقيهاً زاهداً عابداً كانت له نحو من عشرين سرية، وكان شيخاً يكثر من الجماع، فاعترته أمراض مختلفة فأتلفته ومات بدمشق ودفن بقاسيون، وهو والد قطب الدين وتاج الدين.

والشيخ الإمام العالم صائن الدين أبو محمد

■ عبد العزيز الجيلي الشافعي أحد الفقهاء المفتين المشتغلين بالمدرسة النظامية ببغداد، وله شرح على التنبيه للشيخ أبي إسحاق، توفي في ربيع الأول رحمه الله تعالى.

والشيخ الإمام العالم الخطيب الأديب أبو محمد

■ حمد بن حميد بن محمود بن حميد بن أبي الحسن بن أبي الفرج بن مفتاح التميمي الدنيسري، الخطيب بها والمفتي لأهلها، الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد بالنظامية، ثم عاد إلى بلده المشار إليها، وقد صنف كتباً. وأنشد عنه ابن الساعي سماعاً منه:

روت لي أحاديث الغرام صبابتي ... بإسنادها عن بانة العلم الفرد

وحدثني مر النسيم عن الحمى ... عن الدوح عن وادي الغضا عن ربى نجد

بأن غرامي والأسى قد تلازما ... فلن يبرحا حتى أوسد في لحدي

وقد أرخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ١٦٣] وفاة الشيخ شهاب الدين

■ السهروردي صاحب عوارف المعارف في هذه السنة، وذكر أن مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وأنه جاوز التسعين.

وأما السبط فإنما أرخ وفاته في سنة ثلاثين كما تقدم.

قاضي القضاة بحلب أبو المحاسن

■ يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي الموصلي الشافعي، كان رجلا فاضلا أديباً مقرئاً ذا وجاهة عند الملوك، أقام بحلب وولي القضاء بها ونظر الأوقاف، وله تصانيف وشعر، توفي في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ ابن الفارض: ناظم التائية في السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد، هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال، وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها، وقد ذكر شيخنا أبو عبد الله الذهبي في ميزانه [٢١٤/٣] وحط عليه. مات في هذه السنة وقد قارب الستين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

فيها قطع الكامل وأخوه الأشرف الفرات وأصلحا ما كان أفسده جيش الروم من بلادهما، وخرب الكامل قلعة الرها وأحل بدنيسر بأساً شديداً، وجاء كتاب بدر الدين صاحب الموصل بأن التتار أقبلوا بمائة طلب كل طلب بخمسمائة فارس، فرجع الملكان إلى دمشق سريعاً وعاد جيش الروم إلى بلادهما بالجزيرة وأعادوا الحصار كما كان، ورجعت التتار عامهم ذلك إلى بلادهم والله تعالى أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ ابن عنين الشاعر وقد تقدمت ترجمته في سنة ثلاثين.

■ الحاجري الشاعر: صاحب الديوان المشهور وهو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الإربلي شاعر مطبق، ترجمه ابن خلكان وذكر أشياء من شعره كثيرة، وذكر أنه كان صاحبهم وأنه كتب إلى أخيه ضياء الدين عيسى يستوحش منه:

الله يعلم ما أبقى سوى رمق ... مني فراقك يا من قربه الأمل

فابعث كتابك واستودعه تعزية ... فربما مت شوقاً قبل ما يصل

وذكر له في الخال رحمه الله تعالى:

ومهفهف من شعره وجبينه ... أمسى الورى في ظلمة وضياء

لا تنكروا الخال الذي في خده ... كل الشقيق بنقطة سوداء

■ ابن دحية: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن ملال بن بدر أحمد بن دحية بن خليفة الكلبي المغربي السبتي كان قاضيها ثم سار إلى مصر، شيخ الديار المصرية في الحديث، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها.

قال السبط: وقد كان كابن عنين في ثلب المسلمين والوقيعة فيهم، ويتزيد في كلامه فترك الناس الرواية عنه وكذبوه، وقد كان الكامل مقبلا عليه، فلما انكشف له حاله أخذ منه دار الحديث وأهانه، وتوفي في ربيع

الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر.

وقد قال الشيخ شهاب الدين أبو الشامة: وللشيخ السخاوي فيه أبيات حسنة.

وقال القاضي ابن خلكان بعد سياق نسبه كما تقدم، وذكر أنه كتبه من خطه.

قال: وذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبي عبد الله بن البسام بن موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلهذا كان يخطه ذو النسبين بين دحية والحسين.

قال ابن خلكان: وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم إلى العراق واجتاز بإربل سنة أربع وستمائة فوجد ملكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتني بالمولد النبوي، فعمل له كتاب التنوير في مولد السراج المنير وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار.

قال: وقد سمعناه على الملك المعظم في ستة مجالس سنة خمس وعشرون وستمائة.

قلت: وقد وقفت على هذا الكتاب وكتبت منه أشياء حسنة مفيدة.

قال ابن خلكان وكان مولده في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل ست أو سبع وأربعين وخمسمائة، وتوفي في هذه السنة.

وكان أخوه أبو عمرو عثمان قد باشر بعده دار الحديث الكاملية بمصر، وتوفي بعده بسنة.

قلت: وقد تكلم الناس فيه بأنواع الكلام، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث في قصر صلاة المغرب وكنت أود أن أقف على إسناده لنعلم كيف رجاله، وقد أجمع العلماء كما ذكره ابن المنذر وغيره على أن المغرب لا يقصر، والله سبحانه وتعالى يتجاوز عنا وعنه بكرمه.

وقد وقفت على جزء جمعه المحدِّث المتقن المفيد أبو صادق محمد بن الحافظ أبي الحسين يحيى بن عليِّ بن عبد الله القرشيُّ العطارديُّ في ترجمة شيخه أبي الخطّاب بن دحية هذا، جمع فيه أقوال الناس في ثلبه والكلام في مرباه ومنشئه واشتغاله وطلبه، وذكر بعضهم أنه ولي القضاء بسبتة، فالله أعلم، وذكر طعن الناس في ادّعائه نسبه إلى دحية الكلبيِّ، وأنه انقطع نسله من بعد ثلاثمائة، وأنشد لابن عنين فيه - قائل البيتين الشهيرين وهما - قوله:

دحية لم يعقب فكم تفتري		إليه بالبهتان والإفك

ما صحَّ عند الناس شيءٌ سوى		أنَّك من كلب بلا شك

وإن من أقبح ما رأيته في هذا الجزء ما ذكره عن شيخه الحافظ المؤرِّخ ابن النّجار، عن الحافظ عليِّ بن المفضَّل أنه قال: اجتمعت أنا وابن دحية في مجلس السلطان، فسألني السلطان عن حديث فأجبته فيه، فقال لي: من وراه؟ فلم يحضرني إسناده فانفصلنا، فاجتمع بي ابن دحية وقال لي: يا فقيه، لما سألك السلطان عن إسناد ذاك الحديث، لم لم تذكر له أيَّ إسناد شئت؟ فإنه ومن حضر مجلسه لا يعلمون هل هو صحيح أم لا فعظمت في أعينهم.

فعلمت أنه يتهاون بأمور الدِّين، جريءٌ على الكذب.

ثم قال: وحدثني الفقيه تقيُّ الدين عبيد بن محمد بن عباس الإسعرديُّ، عن شيخنا الفقيه الإمام العالم أوحد الأنام مفتي المسلمين بهاء الدين أبي الحسن عليِّ بن هبة الله بن سلامة بن المسلّم اللَّخميِّ، يعني ابن الجمّيزيّ، أنه قال: كان السلطان الملك الكامل قد خرج إلى الشام، فخرج أبو الخطّاب عمر ابن دحية معه، وولد الشيخ معين الدين بن شيخ الشيوخ، فحضرت صلاة المغرب، فقدَّم السلطان ابن دحية فصلّى بهم المغرب، فلمّا أن فرغ من الصلاة، قال ابن شيخ الشيوخ: ما أعلم أحداً من الأئمة يجوِّز قصر صلاة المغرب في السَّفر.

فقال ابن دحية: كيف لا وقد أخبرنا فلانٌ عن فلان. وسرد إسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قصر المغرب في السفر. فلم يجب ابن شيخ الشيوخ ومكث على حاله.

قلت: هذا وضع فاحشٌ مخالفٌ لما أجمع عليه العلماء، كما ذكره ابن المنذر وغيره، ومثل هذا الإسناد لا يحفظ؛ لأنَّ سامعه لم يضبطه، وواضعه لا يقدر على إعادته ثانيا، والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدة، وفيها النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم، وقيل إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار.

وفيها استخدم الصالح أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا الخوارزمية الذين تبقوا من جيش جلال الدين وانفصلوا عن الرومي، فقوي جاش الصالح أيوب.

وفيها طلب الأشرف موسى بن العادل من أخيه الكامل الرقة لتكون قوة له وعلفاً لدوابه إذا جاز الفرات مع أخيه في البواكير، فقال الكامل أما يكفيه ان معه دمشق مملكة بني أمية؟ فأرسل الأشرف الأمير فلك الدين بن المسيري إلى الكامل في ذلك فأغلظ له الجواب وقال: إيش يعمل بالملك؟ يكفيه عشيرته للمغاني وتعلمه لصناعتهم. فغضب الأشرف عند ذلك وبدت الوحشة بينهما، وأرسل الأشرف إلى حماة وحلب وبلاد الشرق فحالف أولئك الملوك على أخيه الكامل، فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك على أخيه، وذلك لكثرة ميل الملوك إليه وشجاعته وشح أخيه الكامل، ولكنه أدركته منيته في أول السنة الداخلة رحمه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ العزيز بن الظاهر: صاحب حلب محمد بن السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين فاتح القدس الشريف، وهو وأبوه وابنه الناصر أصحاب ملك حلب من أيام الناصر، وكانت أم العزيز الخاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان حسن الصورة كريماً عفيفاً، توفي وله من العمر أربع وعشرون سنة، وكان مدبر دولته الطواشي شهاب الدين، وكان من أعدل الأمراء رحمه الله تعالى. وقام في الملك بعده ولده الناصر صلاح الدين يوسف، والله سبحانه وتعالى أعلم

صاحب الروم:

■ كيقباذ الملك علاء الدين صاحب بلاد الروم، كان من أعدل الملوك

وأحسنهم سيرة، وقد زوجه العادل ابنته وأولدها، وقد استولى على بلاد الجزيرة في وقت وأخذ أكثرها من يد الكامل محمد، وكسر الخوارزمية مع الأشرف موسى رحمهما الله.

■ الناصح الحنبلي: في ثالث المحرم توفي الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي، وهم يتسبون إلى سعد بن عبادة ﷺ، ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسمع الحديث، وكان يعظ في بعض الأحيان. وقد ذكرنا قبل أنه وعظ في حياة الشيخ الحافظ عبد الغني، وهو أول من درس بالصالحية التي بالجبل، وله بنيت، وله تصانيف. وقد اشتغل على ابن المَنّي ببغداد، وكان فاضلاً صالحاً، وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك رحمه الله.

■ الكمال بن مهاجر: التاجر كان كثير الصدقات والإحسان إلى الناس، مات فجأة في جمادى الأولى بدمشق فدفن بقاسيون، واستحوذ الأشرف على أمواله، فبلغت التركة قريباً من ثلاثمائة ألف دينار من ذلك سبحة فيها مائة حبة لؤلؤ، كل واحدة مثل بيضة الحمامة.

الشيخ الحافظ أبو عمرو

■ عثمان بن دحية: أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية، كان قد ولي دار الحديث الكاملية حين عزل أخوه عنها، حتى توفي في عامه هذا، وكان نادر في صناعة الحديث أيضاً رحمه الله تعالى.

القاضي

■ عبد الرحمن التكريتي: الحاكم بالكرك، ومدرس مدرسة الزبداني، فلما أخذت أوقافها سار إلى القدس ثم إلى دمشق، فكان ينوب بها عن القضاة، وكان فاضلا نزهاً عفيفاً ديناً رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخيه الكامل.

أما ■ الأشرف موسى بن العادل باني دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جرّاح، فإنه توفي في يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة، بالقلعة المنصورة، ودفن بها حتى نجزت تربته التي بنيت له شمالي الكلاسة، ثم حول إليها رحمه الله تعالى، في جمادى الأولى، وقد كان ابتداء مرضه في رجب من السنة الماضية، واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحي يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله عز وجل، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض واعتراه إسهال مفرط فخارت قوته فشرع في التهيُّؤ للقاء الله عز وجل، فأعتق مائتي غلام وجارية، ووقف دار فروخشاه التي يقال لها دار السعادة، وبستانه بالنيرب على ابنته، وتصدق بأموال جزيلة، وأحضر له كفناً كان قد أعده من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين. وقد كان رحمه الله تعالى شهماً شجاعاً كريماً جواداً محباً للعلم ولأهله لا سيما أهل الحديث، ومقادسة الصالحية، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح وبالمدينة للشافعية أخرى، وجعل فيها نعل النبي ﷺ الذي ما زال حريصاً على تحصيله من النظام ابن أبي الحديد التاجر وقد كان النظام ضنيناً به فعزم الأشرف أن يأخذ منه قطعة، خوفاً من أن يذهب بالكلية فقدر الله موت ابن أبي الحديد بدمشق فأوصى للملك الأشرف به، فجعله الأشرف بدار الحديث، ونقل إليها كتباً سنية نفيسة، وبنى جامع التوبة بالعُقيبة، وقد كان خاناً للزنجاري فيه من المنكرات شيء كثير، وبنى مسجد القصب وجامع جراح ومسجد دار السعادة، وقد كان مولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة، ونشأ بالقدس الشريف بكفالة الأمير فخر الدين عثمان الزنجاري، وكان أبوه يحبه، وكان أخوه المعظم ثم استنابه أبوه على مدن كثيرة منها الرها وحران، ثم اتسعت مملكته حتى ملك خلاط، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة، لا يعرف غير نسائه وجواريه، مع أنه كان يعاني الشراب، وهذا من أعجب الأمور.

حكى السبط عنه قال: كنت يوماً بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال: بالباب امرأة تستأذن، فدخلت فإذا صورة لم أر أحسن منها، وإذا هي ابنة الملك الذي كان بخلاط قبلي، فذكرت أن الحاجب علياً قد استحوذ على قرية لها وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكراء، وأنها إنما تتقوت من عمل النقوش للنساء فأمرت برد ضيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكنها، وقد كنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدي وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه، ومعها عجوز، فحين قضت شغلها قلت لها انهضي على اسم الله تعالى، فقالت العجوز: يا خوند إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة فقلت: معاذ الله لا يكون هذا. واستحضرت في ذهني ابنتي ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه فقامت وهي تقول بالأرمني: سترك الله مثل ما سترتني، وقلت لها: مهما كان لك من حاجة فأنهيها إلي أقضها لك، فدعت لي وانصرفت، فقالت لي نفسي: ففي الحلال مندوحة عن الحرام، فتزوجها، فقلت: لا والله لا كان هذا أبداً، أين الحياء والكرم والمروءة؟

قال ومات مملوك من مماليكي وترك ولداً ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شباباً، ولا أحلى شكلا منه، فأحببته وقربته، وكان من لا يفهم أمري يتهمني به، فاتفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله، فاشتكى عليه أولياء المقتول، فقلت أثبتوا أنه قتله، فأثبتوا ذلك فحاجفت عنهم مماليكي وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا، ووقفوا لي في الطريق وقالوا قد أثبتنا أنه قتله، فقلت خذوه فتسلموه فقتلوه، ولو طلبوا مني ملكي فداء له لدفعته إليهم، ولكن استحييت من الله تعالى أن أعارض شرعه بحظ نفسي رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ولما ملك دمشق في سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفي من البلد.

وكان البلد به في غاية الأمن والعدل، وكثرة الصدقات والخيرات، كانت القلعة لا تغلق في ليالي رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط، والصالحية وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم، وكان أكثر جلوسه بمسجد أبي الدرداء الذي جدده وزخرفه بالقلعة، وكان ميمون النقيبة ما كسرت له راية قط، وقد استدعى الزبيدي من بغداد حتى سمع هو والناس عليه صحيح البخاري وغيره، وكان له ميل كثير إلى الحديث وأهله.

ولما توفي رحمه الله رآه بعضهم وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم، وقد صدق رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» [خ(٦١٦٨-٦١٧٠)، م(٢٦٤٠، ٢٦٤١)]

وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح إسماعيل، فلما توفي أخوه ركب في أبهة الملك ومشى الناس بين يديه، وركب إلى جانبه صاحب حمص وعز الدين أيبك المعظمي حامل الغاشية على رأسه، ثم أنه صادر جماعة من الدماشقة الذين قيل عنهم إنهم مع الكامل، منهم العالم تعاسيف

وأولاده ابن مزهر وحبسهم ببصرى، وأطلق الحريري من قلعة عزتا، وشرط عليه أن لا يدخل دمشق، ثم قدم الكامل من مصر وانضاف إليهم الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس، فحاصروا دمشق حصاراً شديداً، وقد حصنها الصالح إسماعيل، وقطع المياه ورد الكامل ماء بردى إلى ثورا، وأحرقت العُقيبة وقصر حجاج، فافتقر خلق كثير واحترق آخرون، وجرت خطوب طويلة، ثم آل الحال في آخر جمادى الأولى إلى أن سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل، على أن له بعلبك وبصرى وسكن الأمر، وكان الصلح بينهما على يدي القاضي محي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي اتفق أنه كان بدمشق قد قدم في رسلية من جهة الخليفة إلى دمشق فجزاه الله تعالى خيراً.

ودخل الكامل دمشق وأطلق الفلك بن المسيري من سجن الحيات بالقلعة الذي كان أودعه فيه الأشرف، ونقل الأشرف إلى تربته، وأمر الكامل في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلي أحد منهم المغرب سوى الإمام الكبير، لما كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم بوقت واحد، ولنعم ما فعل رحمه الله.

وقد فعل هذا في زماننا في صلاة التراويح، اجتمع الناس على قارئ واحد وهو الإمام الكبير في محراب المقدم عند المنبر، ولم يبق به إمام حينئذ سوى الذين بالحلبية عند مشهد علي ولو ترك لكان حسناً والله أعلم.

ذكر وفاة الملك الكامل محمد بن العادل

تملك الكامل مدة شهرين ثم أخذه أمراض مختلفة، من ذلك سعال وإسهال ونزلة في حلقه، ونقرس في رجليه، فاتفق موته في بيت صغير من دار القصبة، وهو البيت الذي توفي فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين، ولم يكن عند الكامل أحد عند موته من شدة هيبته، بل دخلوا فوجدوه ميتاً رحمه الله تعالى.

وقد كان مولده في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكان أكبر أولاد العادل بعد موت مودود، وإليه أوصى العادل لعلمه بثباته وكمال عقله، ووفور معرفته وقد كان جيد الفهم يحب العلماء ويسألهم أسئلة مشكلة، وله كلام جيد على صحيح مسلم، وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد، عادلاً منصفاً له حرمة وافرة، وسطوة قوية، ملك مصر ثلاثين سنة كاملة، وكانت الطرقات في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحداً، شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة، فأحضر الجندي وألبسه ثياب الركبدارية، وألبس الركبداري ثياب الجندي، وأمر الجندي أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضي الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب رحمه الله تعالى.

وكانت له اليد البيضاء في رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم، وكان يوم أخذه له واسترجاعه إياه يوماً مشهوداً، كما ذكرناه مفصلا و لله الحمد والمنّة.

وكانت وفاته في ليلة الخميس الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، ودفن بالقلعة حتى كملت تربته التي بالحائط الشمالي من الجامع ذات الشباك الذي هناك قريباً من مقصورة ابن سنان، وهي الكندية التي عند الحلبية، نقل إليها ليلة الجمعة الحادي والعشرين من رمضان من هذه السنة رحمه الله تعالى.

ومن شعره يستحث أخاه الملك الأشرف من بلاد الجزيرة حين كان محاصراً بدمياط:

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي ... فارحل بغير تقيد وتوقف
واطو المنازل والديار ولا تنخ ... إلا على باب المليك الأشرف
قبل يديه لا عدمت وقل له ... عني بحسن تعطف وتلطف
إن تأت صنوك عن قريب تلقه ... ما بين حد مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... يوم القيامة في عراص الموقف

ذكر ما جرى بعده

كان قد عهد لولده العادل وكان صغيراً بالديار المصرية، وبالبلاد الشامية، ولولده الصالح أيوب ببلاد الجزيرة، فأمضى الأمراء ذلك، فأما دمشق فاختلف الأمراء بها في الملك الناصر داود بن المعظم، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، فكان ميل عماد الدين ابن الشيخ إلى الجواد، وآخرون إلى الناصر، وكان نازلا بدار أسامة، فانتظم أمر الجواد وجاءت الرسالة إلى الناصر أن اخرج من البلد فركب من دار أسامة والعامة من داره إلى القلعة لا يشكون في ولايته الملك، فسلك نحو القلعة فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج، فصرخت العامة: لا.. لا.. لا ، فسار حتى نزل القابون عند وطأة برزة. فعزم بعض الأمراء الأشرفية على مسكه فساق فبات بقصر أم حكيم، وساقوا وراءه فتقدم إلى عجلون فتحصن بها وأمن.

وأما الجواد فإنه ركب في أبهة الملك وأنفق الأموال والخلع على الأمراء.

قال السبط: فرق ستة آلاف ألف دينار وخمسة آلاف خلعة وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطئ واستقر ملكه بدمشق، واجتمع عليه الأمراء الشاميون والمصريون، ورحل الناصر داود من عجلون نحو غزة وبلاد الساحل فاستحوذ عليها، فركب الجواد في طلبه ومعه العساكر الشامية والمصرية، وقال للأشرفية كاتبوه وأطمعوه، فلما وصلت إليه كتبهم طمع في موافقتهم فرجع في سبعمائة راكب إلى نابلس فقصده الجواد وهو نازل على جينين، والناصر على سبسطية فهرب منه الناصر فاستحوذوا على حواصله وأثقاله. فاستغنوا بها وافتقر بسببها فقراً مدقعاً، ورجع الناصر إلى الكرك جريدة قد سلب أمواله وأثقاله، وعاد الجواد إلى دمشق مؤيداً منصوراً.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا، وتلك النواحي، وعزموا على القبض عليه، فهرب منهم ونهبوا أمواله وأثقاله، ولجأ إلى سنجار فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره ويأخذه في قفص إلى الخليفة، وكان أهل الناحية يكرهون مجاورته لتكبره وقوة سطوته، فلم يبق إلى أخذه إلا القليل، فكاتب الخوارزمية واستنجد بهم ووعدهم بأشياء كثيرة، فقدموا إليه الجرائد ليمنعوه من البدر لؤلؤ، فلما أحس بهم لؤلؤ هرب منهم فاستحوذوا على أمواله وأثقاله فوجدوا فيها أشياء كثيرة لا يحد ولا يوصف، ورجع إلى بلده الموصل جريدة خائباً، وسلم الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الخطيب

■ الدولعي محمد بن زيد بن ياسين الخطيب جمال الدين الدولعي، نسبة إلى قرية بأصل الموصل، وقد ذكرنا ذلك عند ترجمة عمه عبد الملك بن ياسين الخطيب بدمشق أيضاً، وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة، وقد منعه المعظم في وقت عن الإفتاء فعاتبه السبط، في ذلك، فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك، لكثرة أخطائه في فتاويه، وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد لا يفارق بيت الخطابة، ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة، وقف مدرسة بجيرون وسبعاً في الجامع. ولما توفي ودفن بمدرسته التي بجيرون ولي الخطابة بعده أخ له وكان جاهلا، ولم يستقر فيها وتولاها الكمال بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبي، وولي تدريس الغزالية الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام.

القاضي شمس الدين

■ ابن الشيرازي محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن قميل: الشيخ أبو نصر بن الشيرازي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وسمع الكثير على الحافظ ابن عساكر وغيره، واشتغل في الفقه وأفتى ودرس بالشامية البرانية، وناب في الحكم عدة سنين، وكان فقيهاً عالماً فاضلا كيِّساً حسن الأخلاق عارفاً بالأخبار وأيام العرب والأشعار، كريم الطباع حميد الآثار، وكانت وفاته ليلة الخميس الثالث من جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

القاضي

■ شمس الدين بن سني الدولة أبو البركات بن يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي قاضيها، كان عالماً عفيفاً فاضلا عادلا منصفاً نزهاً كان الملك الأشرف يقول: ما ولي دمشق مثله، وقد ولي الحكم ببيت المقدس وناب بدمشق عن القضاة، ثم استقل بالحكم، وكانت وفاته ليلة الأحد السادس ذي القعدة، وصلى عليه بالجامع ودفن بقاسيون وتأسف الناس عليه رحمه الله تعالى وتولى بعده الشيخ شمس الدين بن الخُوَيِّي:

القاضي زين الدين

■ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي، عرف بابن الأستاذ الحلبي قاضيها بعد بهاء الدين بن شداد، وكان رئيساً عالماً فاضلا، حسن الخلق والسمت، وكان أبوه من الصالحين الكبار رحمهم الله تعالى.

الشيخ الصالح المعمر: أبو بكر

■ محمد بن مسعود بن بهروز البغدادي، ظهر سماعه من أبي الوقت من سنة خمس عشرة وستمائة فانثال الناس عليه يسمعون منه، وتفرد بالرواية عنه في الدنيا بعد الزبيدي وغيره، توفي ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى.

■ الأمير الكبير المجاهد المرابط:

صارم الدين:

■ خطلبا بن عبد الله مملوك سركس ونائبه بعده مع ولده على تبنين وتلك الحصون، وكان كثير الصدقات والإحسان، ودفن مع أستاذه بقباب سركس، وهو الذي بناها بعد أستاذه، وكان خيِّراً قليل الكلام كثير الغزو مرابطاً مدة سنين رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

فيها قبض الملك الجواد على الصفي بن مرزوق وصادره بأربعمائة ألف دينار وحبسه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء. وكان ابن مرزوق محسناً إلى الجواد قبل ذلك إحساناً كثيراً، وسلط الجواد خادماً لزوجته يقال له الناصح فصادر الدماشقة وأخذ منهم نحواً من ستمائة ألف دينار، ومسك الأمير عماد الدين ابن الشيخ الذي كان سبب تمليكه دمشق، ثم خاف من أخيه فخر الدين ابن الشيخ الذي بديار مصر، وقلق من ملك دمشق، وقال إيش أعمل بالملك؟ باز وكلب أحب إلي من هذا. ثم خرج إلى الصيد وكاتب الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما تبع ذلك إلى دمشق، فملك الصالح أيوب دمشق ودخلها في مستهل جمادى الأولى من هذه السنة والجواد بين يديه بالغاشية، ثم حملها المظفر صاحب حماة وكان يوماً مشهوداً ثم نزل الجواد بدار السعادة وندم على ما كان منه، فأراد أن يستدرك الفائت فلم يتفق له وخرج من دمشق والناس يلعنونه بوجهه بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرد إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه، وسار وبقيت في ذمته.

ولما استقر الصالح أيوب في ملك مصر كما سيأتي حبس الناصح الخادم، فمات في أسوأ حالة، من القلة والقمل، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

وفيها ركب الصالح أيوب من دمشق في رمضان قاصداً الديار المصرية ليأخذها من ابن أخيه العادل لصغره، فنزل بنابلس واستولى عليها وأخرجها من يد الناصر داود، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ليقدم عليه ليكون في صحبته إلى الديار المصرية، وكان قد جاء إليه إلى دمشق وبايعه فجعل يسوف به ويعمل عليه ويحالف الأمراء بدمشق ليكون ملكهم، ولا يتجاسر أحد من الصالح أيوب لجبروته أن يخبره، وانقضت السنة وهو مقيم بنابلس يستدعي إليه وهو يماطله.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ جمال الدين الحصيري الحنفي: محمود بن أحمد العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية بدمشق، ومدرس النورية، أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها، لا سيما في أيام المعظم، كان يقرأ عليه الجامع الكبير، وله عليه شرح، وكان يحترمه ويعظمه ويكرمه، وكان رحمه الله غزير الدمعة كثير الصدقات، عاقلا نزهاً عفيفاً، توفي يوم الأحد ثامن صفر ودفن بمقابر الصوفية تغمده الله برحمته.

توفي وله تسعون سنة، وأول درسه في النورية في سنة إحدى عشرة وستمائة بعد الشرف داود الذي تولاها بعد البرهان مسعود، وأول مدرسيها رحمهم الله تعالى.

الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين علي

■ ابن حمويه، كان سبباً في ولاية الجواد دمشق ثم سار إلى مصر فلامه صاحبها العادل بن الكامل بن العادل فقال الآن أرجع إلى دمشق وآمر الجواد بالمسير إليك، على أن تكون له إسكندرية عوض دمشق، فإن امتنع عزلته عنها وكنت أنا نائبك فيها، فنهاه أخوه فخر الدين بن الشيخ عن

تعاطي ذلك فلم يقبل، ورجع إلى دمشق فتلقاه الجواد إلى المصلى وأنزله عنده بالقلعة بدار المسرة، وخادعه عن نفسه ثم دس إليه من قتله جهرة في صورة مستغيث به، واستحوذ على أمواله وحواصله، وكانت جنازته حافلة، ودفن بقاسيون.

الوزير جمال الدين

■ علي بن جرير: وزر للأشرف واستوزره الصالح أيوب أياماً، ثم مات عقب ذلك، كان أصله من الرقة، وكان له أملاك يسيرة يعيش منها، ثم آل أمره إلى أن وزر للأشرف بدمشق، وقد هجاه بعضهم، وكانت وفاته بالخوانيق في جمادى الآخرة، ودفن في مقابر الصوفية.

■ جعفر بن علي بن أبي بركات بن جعفر بن يحيى الهمداني، راوية السلفي، قدم إلى دمشق صحبة الناصر داود، وسمع عليه أهلها، وكانت وفاته بها ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى، وله تسعون سنة.

الحافظ الكبير زكي الدين: أبو عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد

■ البرزالي الإشبيلي، أحد من اعتنى بصناعة الحديث وبرز فيه، وأفاد الطلبة، وكان شيخ الحديث بمشهد ابن عروة، ثم سافر إلى حلب، فتوفي بحماة في رابع عشر رمضان من هذه السنة وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالي، مؤرخ دمشق الذي ذيل على الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى وقدرته.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل مخيم عند نابلس، يستدعي عمه الصالح إسماعيل ليسير إلى الديار المصرية، بسبب أخذها من صاحبها العادل بن الكامل، وقد أرسل الصالح إسماعيل ولده وابن يغمور إلى صحبة الصالح أيوب بنابلس، فهما ينفقان الأموال في الأمراء ويحلفانهم على الصالح أيوب بن الصالح إسماعيل، فلما تم الأمر وتمكن الصالح إسماعيل من مراده أرسل إلى الصالح أيوب يطلب منه ولده ليكون عوضه ببعلبك، ويسير هو إلى خدمته، فأرسله إليه وهو لا يشعر بشيء مما وقع، وكل ذلك عن ترتيب أبي الحسن غزال المتطبب وزير الصالح - وهو الأمين واقف الأمينية ببعلبك - فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر هجم الملك الصالح إسماعيل وفي صحبته أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى دمشق، فدخلاه بغتة من باب الفراديس، فنزل الصالح إسماعيل بداره من درب الشعارين، ونزل صاحب حمص بداره، وجاء نجم الدين بن سلام فهنأ الصالح إسماعيل ورقص بين يديه وهو يقول: إلى بيتك جئت. وأصبحوا فحاصروا القلعة وبها المغيث عمر بن الصالح نجم الدين أيوب، ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج، وهتكوا حرمتها ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث في برج هنالك.

وقال أبو شامة: واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت والدور حول القلعة. ولما وصل الخبر بما وقع إلى الصالح أيوب تفرق عنه أصحابه والأمراء خوفاً على أهاليهم من الصالح إسماعيل، وبقي الصالح أيوب وحده بمماليكه وجاريته أم ولده خليل، وطمع فيه الفلاحون والغوارنة، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك إليه من يأخذه من نابلس مهاناً على بغلة بلا مهماز ولا مقرعة، فاعتقله عنده سبعة أشهر، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب أخاه الصالح أيوب ويعطيه مائة ألف دينار، فما أجابه إلى ذلك، بل عكس ما طلب منه بإخراج الصالح من سجنه والإفراج عنه وإطلاقه مع الجيش يركب وينزل، فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود، وبرز العادل من الديار المصرية إلى بلبيس قاصداً قتال الناصر داود، فاضطرب الجيش عليه واختلفت الأمراء، وقيدوا العادل واعتقلوه في خركاه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم.

فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب وبلاد الجزيرة وبلاد ديار بكر ونصف مملكة مصر، ونصف ما في الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر. قال الصالح أيوب: فأجبت إلى ذلك مكرهاً، ولا يَقْدِر على ما اشترط عليَّ ملوك الأرض، وسرنا فأخذته معي خائفاً أن تكون هذه الكائنة من المصريين مكيدة، ولم يكن لي به حاجة، وذكر أنه كان يسكر ويخبط في الأمور ويخالف في الآراء السديدة، فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه عليهم ودخل الديار المصرية سالماً مؤيداً منصوراً مظفراً محبوراً مسروراً، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه. واستقر ملكه بمصر.

وأما الملك الجواد فإنه أساء السيرة في سنجار وصادر أهلها وعسفهم، فكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم - وقد خرج للصيد - فأخذ البلد بغير شيء وصار الجواد إلى عانة، ثم باعها من الخليفة بعد ذلك.

وفي ربيع الأول درس القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي بالشامية البرانية.

وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي خطابة جامع دمشق، وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم ببلد دمشق وغيرها، لأنه حالفه على الصالح أيوب.

قال أبو شامة: وفي حزيران أيام المشمش جاء مطر عظيم هدم كثيراً من الحيطان وغيرها، وكنت يومئذ بالمزة.

وممن توفي فيها من الأعيان

صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين

■ شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولاه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات، وهي في غاية الأمن والعدل، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الإهانة، وكانت ملوك بني الأيوب يتقونه لأنه يرى أنه أحق بالأمر منهم، لأن جده هو الذي فتح مصر، وأول من ملك منهم، وكانت وفاته رحمه الله بحمص، وعمل عزاؤه بجامع دمشق عفا الله عنه بمنه.

القاضي

■ الخُوَيِّي شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر الخُوَيِّي قاضي القضاة بدمشق يومئذ، وكان عالماً بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك، وكانت وفاته يوم السبت بعد ظهر السابع من شعبان، وله خمس وخمسون سنة بالمدرسة العادلية، وكان حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقيها.

له مصنفات منها عروض قال فيه أبو شامة:

أحمد بن الخليل أرشده الـ ـلـه لما أرشد الخليل بن احمد
ذاك مستخرج العروض وهـ ـذا مظهر السر منه والعود أحمد

وقد ولي القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي الجيلي مع تدريس العادلية، وكان قاضياً ببعلبك. فأحضره إلى دمشق الوزير أمين الدين الذي كان سامرياً فأسلم، وزر للصالح إسماعيل، واتفق هو وهذا القاضي على أكل أموال الناس بالباطل.

قال أبو شامة ظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال.

قلت: وقد ذكر غيره عنه أنه ربما حضر يوم الجمعة في المشهد الكمالي بالشباك وهو سكران، وأن قناني الخمر كانت تكون على بركة العادلية يوم السبت، وكان يعتمد في التركات اعتماداً سيئاً جداً وقد عامله الله تعالى بنقيض مقصوده، وأهلكه الله على يدي من كان سبب سعادته، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وولي الخطابة وتدريس الغزالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسي خطيب بيت الأبار، ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية، فتلقاه صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمهما الله تعالى.

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيز خان إلى ملوك الإسلام يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم. وعنوان الكتاب: من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب خاقان. وكان مالكتاب ع رجل سلم من أهل اصبهان لطيف الأخلاق، فاول ما ورد على شهاب الدين غازي بن العادل بميافارقين، وقد أخبره بعجائب في ارضهم غريبة، منها أن في البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، يأكلون السمك وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا. وذكر أن عندهم بزراً ينبت منه الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة، ولا يتناسل. ومن ذلك أن بمازندران عيناً يطلع فيها كل ثلاثين سنة خشبة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول نهار فإذا غابت الشمس غابت في العين فلا ترى إلى مثل ذلك الوقت، وأن بعض الملوك احتال ليمسكوها بسلاسل ربطت فيها فغارت وقطعت السلاسل، ثم كانت إذا طلعت ترى فيها تلك السلاسل، وهي إلى الآن كذلك.

قال أبو شامة: وفيها قلت المياه من السماء والأرض، وفسد كثير من الزرع والثمار والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

محيي الدين

■ ابن عربي: صاحب الفصوص وغيره. محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلداً، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق، وله مصنفات أخر كثيرة، وأقام بدمشق مدة طويلة قبل وفاته، وكان بنو الزكي لهم عليه اشتمال وبه احتفال ولجميع ما يقوله احتمال.

قال أبو شامة: وله تصانيف كثيرة وكانت عليه سهلة، وله شعر حسن وكلام طويل على طريق التصوف، وكانت له جنازة حسنة، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بن الزكي بقاسيون، وكانت جنازته في الثاني والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال السبط: كان يقول إنه يحفظ الاسم الأعظم، ويقول إنه يعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكان فاضلا في علم التصوف، وله تصانيف كثيرة.

القاضي نجم الدين أبو العباس:

■ احمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي الشافعي، المعروف بابن الحنبلي، كان شيخاً فاضلا ديناً بارعاً في علم الخلاف، ويحفظ الجمع بين الصحيحين للحميدي، وكان متواضعاً حسن الأخلاق، قد طاف البلدان يطلب العلم ثم استقر بدمشق ودرس بالعذراوية والصارمية والشامية البرّانية وأم الصالح، وناب في الحكم عن جماعة من القضاة إلى أن توفي بها، وهو نائب الرفيع الجيلي، وكانت وفاته يوم الجمعة سادس شوال ودفن بقاسيون.

■ ياقوت بن عبد الله أمين الدين الرومي: منسوب إلى ولاء أتابك، قدم بغداد مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ.

قال ابن الساعي، اجتمعت به وهو شاب أديب فاضل، يكتب خطاً حسناً في غاية الجودة، وينظم شعراً جيداً، ثم روى عنه شيئاً من شعره، قال وتوفي في جمادى الآخرة محبوساً.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

فيها قصد الملك الجواد أن يدخل مصر ليكون في خدمة الصالح أيوب فلما وصل إلى الرّمل توهم منه الصالح أيوب وأرسل إليه كمال الدين ابن الشيخ ليقبض عليه، فرجع الجواد فاستجار بالناصر داود، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف، وبعث معه جيشاً فالتقوا مع ابن الشيخ فكسروه وأسروه فوبخه الناصر داود ثم أطلقه، وأقام الجواد في خدمة الناصر حتى توهم منه فقيده وأرسله تحت الحوطة إلى بغداد، فأطلقه بطن من العرب عن قوة فلجأ إلى صاحب دمشق مدة، ثم انتقل إلى الفرنج، ثم عاد إلى دمشق فحبسه الصالح إسماعيل بعزتا إلى أن مات في سنة إحدى وأربعين كما سيأتي.

وفيها شرع الصالح أيوب في بناء المدارس بمصر، وبنى قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئاً كثيراً من بيت المال، وأخذ أملاك الناس وخرب نيفاً

وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة. ثم أخربها الترك في سنة إحدى وخمسين كما سيأتي بيانه.

وفيها ركب الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد صاحب حمص والحلبيون، فاقتتلوا مع الخوارزمية بأرض حران، فكسروهم ومزقوهم كل ممزق، وعادوا منصورين إلى بلادهم، فاصطلح شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين مع الخوارزمية وآواهم إلى بلده ليكونوا من حزبه.

قال أبو شامة: وفيها كان دخول الشيخ عز الدين إلى الديار المصرية فأكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة وقضاء القضاة بمصر، بعد وفاة القاضي شرف الدين المُوقّع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع في بيته رحمه الله تعالى وقدس روحه.

قال وفيها توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب والكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان، وكانا فاضلي بلدهما في فنهما.

قلت: أما: الشمس

■ ابن الخباز: فهو أبو عبد الله احمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي، الضرير النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز، اشتغل بعلم العربية وحفظ المفصل والإيضاح والتكملة والعروض والحساب، وكان يحفظ المجمل في اللغة وغير ذلك،، وكان شافعي المذهب كثير النوادر والملح، وله أشعار جيدة، وكانت وفاته عاشر رجب وله من العمر خمسون سنة رحمه الله تعالى.

وأما: الكمال بن يونس: فهو

■ موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلي، أبو الفتح الموصلي شيخ الشافعية بها، ومدرس بعدة مدارس فيها، وكانت له معرفة تامة بالأصول والفروع والمعقولات والمنطق والحكمة، ورحل إليه الطلبة من البلدان، وبلغ ثمانية وثمانين عاماً، وله شعر حسن. فمن ذلك ما امتدح به البدر لؤلؤ صاحب الموصل وهو قوله:

لئن شَرُفَتْ أرضٌ بمالكِ رقِّها　　فمملكة الدنيا بكم تتشرف

بقيت بقاء الدهر أمرك نافذ　　وسعيك مشكور وحكمك منصف

كان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وتوفي للنصف من شعبان هذه السنة، رحمه الله تعالى.

قال أبو شامة: وفيها توفي بدمشق:

■ عبد الواحد الصوفي: الذي كان قساً راهباً في كنيسة مريم سبعين سنة، أسلم قبل موته بأيام، ثم توفي شيخاً كبيراً بعد أن أقام بخانقاه السميساطية أياماً ودفن بمقابر الصوفية، وكانت جنازته حافلة، حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله تعالى.

أبو الفضل

■ أحمد بن اسفنديار بن الموفق بن أبي علي البوشنجي الواعظ، شيخ رباط الأرجوانية.

قال ابن الساعي: كان جميل الصورة حسن الأخلاق كثير التودد والتواضع، متكلماً مفوّهاً منطقياً حسن العبارة جيد الوعظ طيب الإنشاد عذب الإيراد، له نظم حسن، ثم ساق عنه قصيدة يمدح الخليفة المستنصر.

أبو بكر

محمد بن يحيى بن المظفر بن علم بن نعيم المعروف بابن الحبير السلامي، شيخ صالح عالم فاضل، كان حنبلياً ثم صار شافعياً، ودرس بعدة مدارس بغداد للشافعية، وكان أحد المعدلين بها، تولى مباشرات كثيرة، وكان فقيهاً أصولياً عالماً بالخلاف، وتقدم ببلده وعظم كثيراً، ثم استنابه ابن فضلان بدار الحريم، ثم صار من أمره أن درس بالنظامية وخلع عليه ببغلة، وحضر عنده الأعيان، وما زال بها حتى توفي عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

قاضي القضاة ببغداد أبو المعالي

■ عبد الرحمن بن مقبل بن علي الواسطي الشافعي، اشتغل ببغداد وحصل وأعاد في بعض المدارس، ثم استنابه قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر في أيام الخليفة الظاهر بن الناصر، ثم ولي قضاء القضاة مستقلا، ثم ولي تدريس المستنصرية بعد موت أول من درس بها محيي الدين محمد بن فضلان، ثم عزل عن ذلك كله وعُيِّن لمشيخة بعض الربط. ثم كانت وفاته في هذا العام، وكان فاضلا ديناً متواضعاً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

فيها توفي الخليفة المستنصر بالله وخلافة ولده المستعصم بالله، فكانت وفاة الخليفة أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة، وله من العمر إحدى وخمسون سنة، وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكتم موته حتى كان الدعاء له على المنابر ذلك اليوم، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة.

وكان جميل الصورة حسن السريرة، جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب في بركة في دار الخلافة، فكان يقف على حافتها ويقول: أترى أعيش حتى أملأها، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أنفقها كلها.

فكان يبني الربط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، ولا سيما في شهر رمضان،، وكان يتقصد الجواري اللائي قد بلغن الأربعين فيشترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن، وفي كل وقت يبرز صلاته ألوف متعددة من الذهب، تفرق في محال ببغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم، تقبل الله تعالى منه وجزاه خيراً.

وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث ومارستاناً وحماماً ودار طب، وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفاكهة ما يحتاجون إليه في أوقاته، وأوقف عليها أوقافاً عظيمة حتى قيل إن ثمن التبن من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها. ووقف فيها كتباً نفيسة ليس في الدنيا لها نظير، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد وسائر البلاد.

وقد احترقت في هذه السنة المشهد الذي بسامرا المنسوب إلى علي الهادي والحسن العسكري، وقد كان بناه أرسلان البساسيري في أيام تغلبه على تلك النواحي، في حدود سنة خمسين وأربعمائة، فأمر الخليفة المستنصر بإعادته إلى ما كان عليه، وقد تكلمت الروافض في الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل بارد لا حاصل له، وصنفوا فيه الأخبار وأنشدوا أشعاراً كثيرة لا معنى لها، وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذي لا حقيقة له، فلا عين ولا أثر، ولو لم يبن لكان أجود، وهو الحسن

بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وقبح من يغلو فيهم ويبغض بسببهم من هو أفضل منهم.

وكان المستنصر رحمه الله كريماً حليماً رئيساً متودداً إلى الناس، وكان جميل الصورة حسن الأخلاق بهي المنظر عليه نور بيت النبوة ﷺ وأرضاه.

وحكى أنه اجتاز راكباً في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس، من رمضان، فرأى شيخاً كبيراً ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى، فقال: أيها الشيخ لم لا أخذت الطعام من محلتك؟ أو أنت محتاج تأخذ من المحلتين؟ فقال لا والله يا سيدي - ولم يعرف أنه الخليفة - ولكني شيخ كبير، قد نزل بي الوقت وأنا أستحي من أهل محلتي أن أزاحمهم وقت طعامهم، فيشمت بي من كان يبغضني، فأنا ذاهب إلى غير محلتي فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب فادخل بالطعام إلى منزلي بحيث لا يراني أحد. فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحاً شديداً حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوماً، ثم مات فحُملت الألف دينار إلى الخليفة، لأنه لم يترك وارثاً. وقد أنفق منها ديناراً واحداً، فتعجب الخليفة من ذلك وقال: شيء قد خرجنا عنه لله لا يعود إلينا، تصدقوا بها على فقراء محلته، فرحمه الله تعالى.

وقد خلف من الأولاد ثلاثة، اثنان شقيقان وهما أمير المؤمنين المستعصم بالله الذي ولي الخلافة بعده أبو أحمد عبد الله، والأمير أبو القاسم عبد العزيز وأختهما من أم أخرى كريمة صان الله حجابها.

وقد رثاه الناس بأشعار كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة.

ولم يستوزر أحداً بل أقر أبا الحسن محمد بن محمد القمي على نيابة الوزارة، ثم كان بعده نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد الناقد الذي كان أستاذ دار الخلافة، والله تعالى أعلم بالصواب.

خلافة المستعصم بالله: أمير المؤمنين

وهو آخر خلفاء بني العباس ببغداد وهو الخليفة الشهيد الذي قتله التتار بأمر هلاوو بن تولي ملك التتار بن جنكيز خان لعنهم الله، في ست وخمسين وستمائة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وهو أمير المؤمنين المستعصم بالله الإمام أبو أحمد عبد الله بن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبي نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين الخليفة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله وبقية نسبه إلى العباس في ترجمة جده الناصر.

وهؤلاء الذين ذكرناهم كلهم ولي الخلافة يتلو بعضهم بعضاً، ولم يتفق هذا لأحد قبل المستعصم، أن في نسبه ثمانية ولوا الخلافة نسقاً لم يتخللهم أحد، وهو التاسع رحمه الله تعالى بمنه.

لما توفي أبوه بكرة الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمائة استدعى هو من التاج يومئذ بعد الصلاة فبويع بالخلافة ولقب المستعصم، وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وشهور، وقد أتقن في شبيبته تلاوة القرآن حفظاً وتجويداً، وأتقن العربية والخط الحسن وغير ذلك من الفضائل على الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية في زمانه، وقد أكرمه وأحسن إليه في خلافته، وكان المستعصم على ما ذكر كثير التلاوة حسن الأداء طيب الصوت، يظهر عليه خشوع وإنابة، وقد نظر في شيء من التفاسير وحل المشكلات، وكان مشهوراً بالخير مشكوراً مقتدياً بأبيه المستنصر جهده وطاقته.

وقد مشت الأمور في أيامه على السداد والاستقامة بحمد الله، وكان القائم بهذه البيعة المستعصمية شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصري، فبايعه أولا بنو عمه وأهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولي الحل والعقد والعامة وغيرهم، وكان يوماً مشهوداً ومجمعاً محموداً ورأياً سعيداً وأمراً حميداً، وجاءت البيعة من سائر الجهات والأقطار والبلدان والأمصار، وخطب له في سائر البلدان، والأقاليم والرساتيق، وعلى سائر المنابر شرقاً وغرباً، بعداً وقرباً، كما كان أبوه أجداره، رحمهم الله أجمعين.

وفيها وقع من الحوادث في هذه السنة أنه كان بالعراق وباء شديد في آخر أيام المستنصر وغلا السكر والأدوية فتصدق الخليفة المستنصر بالله رحمه الله بسكر كثير على المرضى، تقبل الله منه.

وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان أذن الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين لأبي الفرج عبد الرحمن بن محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي - وكان شاباً ظريفاً فاضلا - في الوعظ بباب البدرية، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بقصيدة طويلة جليلة فصيحة، سردها ابن الساعي بكاملها، ومن يشابه أباه فما ظلم، والشبل في المخبر مثل الأسد.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الحلبيين والخوارزمية، ومع الخوارزمية شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، فكسرهم الحلبيون كسرة عظيمة منكرة، وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً جداً، ونهبت نصيبين مرة أخرى، وهذه سابع عشر مرة نهبت في هذه السنين فإنا لله وإنا إليه راجعون. وعاد غازي إلى ميافارقين وتفرقت الخوارزمية يفسدون في الأرض صحبة مقدمهم بركات خان، لا بارك الله فيه، وقدم على شهاب الدين غازي منشور بمدينة خلاط فتسلمها وما فيها من الحواصل.

وفيها عزم الصالح أيوب صاحب مصر على دخول الشام فقيل له إن العساكر مختلفة فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدبر مملكتها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ المستنصر بالله: أمير المؤمنين كما تقدم.

والحرمة المصونة الجليلة

■ بركات خاتون بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكية واقفة المدرسة الأتابكية بالصالحية، وكانت زوجة السلطان الملك الأشرف رحمه الله. وفي ليلة وفاتها كانت وقفت مدرستها وتربتها بالجبل قاله أبو شامة. ودفنت بها رحمها الله تعالى وتقبل منها.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

فيها ترددت الرسل بين الصالح أيوب صاحب مصر وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على أن يردَّ إليه ولده المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل في قلعة دمشق وتستقر دمشق في يد الصالح إسماعيل، فوقع الصلح على ذلك، وخطب للصالح أيوب بدمشق، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني، وزير الصالح إسماعيل من غائلة هذا الأمر، فقال لمخدومه لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد، فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح ورد الغلام إلى القلعة، وقطعت الخطبة للصالح أيوب، ووقعت الوحشة بين الملكين، وأرسل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكانت الخوارزمية قد فتحوا في هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدي ملكها ابن علاء الدين، وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع، ويسلطها على الناس، فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذ.

وفيها احتيط على أعوان القاضي الرفيع الجيلي، وضرب بعضهم بالمقارع وصودروا ورسم على القاضي الرفيع بالمدرسة المقدمية داخل باب الفراديس ثم أخرج ليلا وذهب به فسجن بمغارة أفقه من نواحي البقاع، ثم انقطع خبره.

قال أبو شامة: وذكروا أنه توفي لا رحمه الله تعالى، ومنهم من قال أنه ألقي من شاهق، ومنهم من قال خنق، وذلك كله بذي الحجة من هذه السنة.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه قرئ منشور ولاية القضاء بدمشق لمحيي الدين يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، بالشباك الكمالي من الجامع، كذا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

وزعم السبط أن عزله إنما كان في السنة الآتية، وذكر أن سبب هلاكه أنه كتب إلى الملك الصالح يقول له: إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس. فأنكر الصالح ذلك، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم، فأرسل القاضي يقول فأنا أحقق الوزير وكان الصالح لا يخالف الوزير، فأشار حينئذ على الصالح بعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس، فعزله وكان من أمره ما كان. وفوض أمر مدارسه إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح فعين العادلية للكمال التفليسي، والعذراوية لمحيي الدين بن الزكي الذي ولي القضاء بعده، والأمينية لابن عبد الكافي، والشامية البرانية للتقي الحموي، وتغيب القاضي الرفيع وأسقط عالة شهوده.

قال السبط: أرسله الأمين مع جماعة على بغل بإكاف لبعض النصارى إلى مغارة أفقة في جبل لبنان من ناحية الساحل، فأقام بها أياماً ثم أرسل إليه عدلين من بعلبك ليشهدوا عليه ببيع أملاكه من أمين الدولة، فذكرا أنهما شاهداه وعليه تخفيفة وقندورة، وأنه استطعمهما شيئاً من الزاد وذكر أن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً، فأطعماه من زوادتهما وشهدا عليه وانصرفا، ثم جاءه داود النصراني فقال له قم فقد أمرنا بحملك إلى بعلبك، فأيقن بالهلاك حينئذ، فقال دعوني أصلي ركعتين، فقال له قم، فقام يصلي فأطال الصلاة فرفسه النصراني فألقاه من رأس الجبل إلى أسفل الوادي الذي هناك فما وصل حتى تقطع، وحكى أنه تعلق ذيله بسن الجبل فما زال داود يرميه بالحجارة حتى ألقاه إلى أسفل الوادي، وذلك عند الشقيف المطل على نهر إبراهيم.

قال السبط: وقد كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأمور الشريعة، يخرج إلى المجلس سكراناً ويحضر الجمعة كذلك، وكانت داره كالخانات فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال وأخذ الموفق الواسطي أحد أمنائه - وكان من أكبر البلايا - أخذ لنفسه من أموال الناس ستمائة ألف درهم، فعوقب عقوبة عظيمة حتى أخذت منه، وقد كسرت ساقه ومات تحت الضرب، فألقي في مقابر اليهود والنصارى، وأكلته الكلاب.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ شمس الدين أبو الفتوح:

■ عمر بن أسعد بن المنجا التنوخي المعري الحنبلي، قاضي حران قديماً، ثم قدم دمشق ودرس بالمسمارية وتولى خدماً في الدولة المعظمية، وكانت له رواية عن ابن صابر والقاضيين الشهرزوري وابن أبي عصرون، وكانت وفاته في سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى. وتوفي أخوه العز بعده في ذي الحجة ودفن بمدرسته التي بالجبل رحمه الله تعالى.

الشيخ الحافظ الصالح: تقي الدين أبو إسحاق

■ إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفيني، كان يدري الحديث وله به معرفة جيدة، أثنى عليه أبو شامة وصلي عليه بجامع دمشق ودفن بقاسيون رحمه الله.

واقف الكروسية:

■ محمد بن عقيل بن كروس، جمال الدين محتسب دمشق، كان كيساً متواضعاً، توفي بدمشق في شوال ودفن بداره التي جعلها مدرسة، وله دار الحديث رحمه الله تعالى وعفا عنه.

الملك الجواد

■ يونس بن ممدود بن العادل أبي بكر بن أيوب الملك الجواد، وكان أبوه أكبر أولاد العادل، تقلبت به الأحوال وملك دمشق بعد عمه الكامل محمد بن العادل، وكان في نفسه جيداً محباً للصالحين، ولكن كان في بابه من يظلم الناس وينسب ذلك إليه، فابغضته العامة وسبوه وألجؤوه إلى أن قايض بدمشق الملك الصالح أيوب بن الكامل إلى سنجار وحصن كيفا، ثم لم يحفظهما بل خرجتا عن يده، ثم آل به الحال إلى أن سجنه الصالح إسماعيل بحصن عزتا، حتى كانت وفاته في هذه السنة، ونقل في شوال إلى تربة المعظم بسفح قاسيون، وكان عنده ابن يغمور معتقلا فحوله الصالح إسماعيل إلى قلعة دمشق، فلما ملكها الصالح أيوب نقله إلى الديار المصرية وشنقه مع الأمين غزال وزير الصالح إسماعيل، على قلعة القاهرة، جزاء على صنعهما في حق الصالح أيوب رحمه الله تعالى.

أما ابن يغمور فإنه عمل عليه حتى حول عنه ملك دمشق إلى الصالح إسماعيل. وأما أمين الدولة فإنه منع الصالح من تسليم ولده عمر إلى أبيه فانتقم منهما بهذا، وهو معذور في ذلك.

■ مسعود بن أحمد بن مسعود بن مازه البخاري أحد فقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، ولديه فضل غزير قدم بغداد صحبة رسول التتار للحج، فحبس مدة سنين ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات ببغداد في هذه السنة، رحمه الله تعالى.

أبو الحسن

■ علي بن يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد البطريق بن نصر بن حمدون بن ثابت الأسدي الحلي، ثم الواسطي، ثم البغدادي، الكاتب الشاعر الشيعي، فقيه الشيعة، أقام بدمشق مدة وامتدح كثيراً من الأمراء والملوك، ومنهم الكامل صاحب مصر وغيره، ثم عاد إلى بغداد فكان يشغل الشيعة في مذهبهم، وكان فاضلا ذكياً جيد النظم والنثر، لكنه مخذول محجوب عن الحق. وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من أشعاره في «الكامل» وغيره.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن العلقمي المشؤوم على نفسه، وعلى أهل بغداد، الذي لم يعصم المستعصم في وزارته، فإنه لم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة، فإنه هو الذي أعان على المسلمين في قضية هولاوو وجنوده قبحه الله وإياهم.

وقد كان ابن العلقمي قبل هذه الوزارة أستاذ دار الخلافة، فلما مات نصر الدين محمد بن الناقد استوزر ابن العلقمي وجعل مكانه في الاستادارية الشيخ محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجوزي، وكان من خيار الناس رحمه الله، وهو واقف الجوزية التي بالنشابين بدمشق تقبل الله منه.

وفيها جعل الشيخ شمس الدين علي بن محمد بن الحسين بن النيار مؤدب الخليفة شيخ الشيوخ ببغداد، وخلع عليه، ووكل الخليفة بهاء الدين عبد الوهاب بن المطهر وكالة مطلقة، وخلع عليه.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص، مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالا شديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، هزمت الفرنج بصلبانها وراياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الخمور، فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وبعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً، ولله الحمد.

وقد قال بعض أمراء المسلمين: قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح وغنمت الخوارزمية من الفرنج ممن كان معهم شيئاً كثيراً وأرسل الصالح أيوب إلى دمشق ليحاصرها، فحصنها الصالح إسماعيل وخرب من حولها رباعاً كثيرة، وكسر جسر باب توما فسار النهر فتراجع الماء حتى صار بحيرة من باب توما وباب السلام، فغرق جميع ما كان بينهما من العمران، وافتقر كثير من الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن توفي فيها من الأعيان

الملك المغيث

■ عمر بن الصالح أيوب: كان الصالح إسماعيل قد أسره وسجنه في برج قلعة دمشق، حين أخذها في غيبة الصالح أيوب. فاجتهد أبوه بكل ممكن في خلاصه فلم يقدر، وعارضه فيه أمين الدولة غزال المسلماني، واقف المدرسة الأمينية التي ببعلبك، فلم يزل الشاب محبوساً في القلعة من سنة ثمان وثلاثين إلى ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر من هذه السنة، فأصبح ميتاً في محبسه غماً وحزناً، ويقال إنه قتل فالله أعلم.

وكان من خيار أبناء الملوك، وأحسنهم شكلا، وأكملهم عقلا. ودفن عند جده الكامل في تربته شمالي الجامع، فاشتد حنق أبيه الصالح أيوب على صاحب دمشق.

ومن توفي فيها.

شيخ شيوخ بدمشق: تاج الدين أبو محمد

■ عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه: أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له كتاب في ثمانية مجلدات ذكر فيه الأصول، وله السياسة المملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك، وسمع الحديث، وحفظ القرآن، وكان قد بلغ الثمانين، وقيل إنه لم يبلغها، وقد سافر إلى بلاد المغرب في السنة ثلاث وتسعين، واتصل بمراكش عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة، فقدم إلى ديار مصر وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه رحمه الله تعالى.

الوزير

■ نصير الدين أبو الأزهر: أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن الناقد البغدادي وزير المستنصر ثم ابنه المستعصم.

كان من أبناء التجار، ثم توصل إلى أن وزر لهذين الخليفتين، وكان فاضلا بارعاً حافظاً للقرآن كثير التلاوة، نشأ في حشمة باذخة، ثم كان في وجاهة هائلة، وقد أقعد في آخر أمره، وهو مع هذا في غاية الاحترام والإكرام، وله أشعار حسنة كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة، توفي في هذه السنة وقد جاوز الخمسين رحمه الله تعالى.

نقيب النقباء خطيب الخطباء: وكيل الخلفاء أبو طالب

■ الحسين بن أحمد بن علي بن أحمد بن معين بن هبة الله بن محمد بن علي ابن الخليفة المهتدي بالله العباسي، كان من سادات العباسيين وأئمة المسلمين، وخطباء المؤمنين، استمرت أحواله على السداد والصلاح، لم ينقطع عن الخطابة ولم يمرض قط حتى كانت ليلة السبت الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، قام في أثناء الليل لبعض حاجاته فسقط على أم رأسه، فسقط من فمه دم كثير وسكت فلم ينطق كلمة واحدة يومه ذلك إلى الليل، فمات وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

وهي سنة الخوارزمية، وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح إسماعيل أبا الجيش صاحب دمشق، وحرق قصر حجاج، وحكر السماق، وجامع جراح خارج باب الصغير، ومساجد كثيرة، ونصب المنجنيق عند الباب الصغير وعند باب الجابية، ونصب من داخل البلد منجنيقات أيضاً، وترامى

الفريقان وأرسل الصالح إسماعيل إلى الأمير معين الدين بن الشيخ بسجادة وعكاز وإبريق وأرسل يقول: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بمحاصرة الملوك، فأرسل إليه المعين بزمر وجنك وغلالة حرير أحمر وأصفر، وأرسل يقول له: أما السجادة فإنها تصلح لي، وأما فهذا أولى بك.

ثم أصبح ابن الشيخ فاشتد الحصار بدمشق، وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق قصر والده العادل، وامتد الحريق في زقاق الرمان إلى العُقيبة فاحترقت بأسرها، وقطعت الأنهار وغلت الأسعار، وأخيفت الطرق وجرى بدمشق أمور بشعة جداً، لم تتم عليها قط، وامتد الحصار شهوراً من هذه السنة إلى جمادى الأولى، فارسل أمين الدولة يطلب من ابن معين الدين ابن الشيخ شيئاً من ملابسه، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل، فلبس ذلك الأمين وخرج إلى معين الدين، فاجتمع به بعد العشاء طويلاً، ثم عاد ثم خرج مرة أخرى فاتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح أيوب فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجاً إلى بعلبك ودخل معين الدين في دار أسامة، فولى وعزل وقطع ووصل، وفوض قضاء القضاة إلى صدر الدين بن سني الدولة، وعزل القاضي محيي الدين بن الزكي، واستناب ابن سني الدولة التفليسي الذي ناب لابن الزكي والعزيز السنجاري، وأرسل معين الدين بن الشيخ أمين الدولة غزال بن المسلماني وزير الصالح إسماعيل تحت الحوطة إلى الديار المصرية.

وأما الخوارزمية فإنهم لم يكونوا حاضرين وقت الصلح، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها وساروا نحو بلاد الشرق، وكاتبوا الصالح إسماعيل فحالفوه على الصالح أيوب، ففرح بذلك ونقض الصلح الذي كان وقع منه، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق، وجاء إليهم الصالح إسماعيل من بعلبك فضاق الحال على الدماشقة فعدمت الأقوات وغلت الأسعار جداً، حتى إنه بلغ ثمن الغرارة ألف وستمائة، وقنطار الدقيق بسبعمائة، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم، ورطل اللحم بسبعة وبيعت الأملاك بالدقيق، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات، وتماوت الناس في الطرقات وعجزوا عن التغسيل والتكفين والإقبار، فكانوا يلقون موتاهم في الآبار، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الأيام توفي الشيخ

■تقي الدين بن الصلاح، شيخ دار الحديث وغيرها من المدارس، فما أخرج من باب الفرج إلا بعد جهد جهيد، ودفن بالصوفية رحمه الله

قال ابن السبط: ومع هذا كانت الخمور دائرة والفسق ظاهراً، والمكوس بحالها.

وذكر الشيخ شهاب الدين أن الأسعار غلت في هذه السنة جداً، وهلك الصعاليك بالطرقات، كانوا يسألون لقمة ثم صاروا يسألون لبابة ثم تنازلوا إلى فلس يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها، كالدجاج قال: وأنا شاهدت ذلك. وذكر تفاصيل الأسعار وغلاءها في الأطعمة وغيرها، ثم زال هذا كله في آخر السنة بعد عيد الأضحى ولله الحمد.

ولما بلغ الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤوا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل، كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فاستماله إليه وقوي جانب نائب دمشق معين الدين حسن بن الشيخ، ولكنه توفي في رمضان من هذه السنة كما سيأتي في الوفيات.

ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع في جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية، وحصارهم إياها، فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا من غائلة ذلك، وقالوا دمشق ما تفوت، والمصلحة قتاله عند بلده، فساروا إليه عند بحيرة حمص، وأرسل الناصر داود جيشه إلى الصالح إسماعيل مع الخوارزمية، وساق جيش دمشق فانضافوا إلى صاحب حمص، والتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص، وكان يوماً مشهوداً قتل فيه عامة الخوارزمية وقتل ملكهم بركات خان، وجيء برأسه على رمح، فتفرق شملهم وتمزقوا شذر مذر، وساق المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فتسلمها الصالح أيوب، وجاء إلى دمشق فنزل ببستان سامة خدمة للصالح أيوب، ثم حدثته نفسه بأخذها فاتفق مرضه، فمات رحمه الله في السنة الآتية، ونقل إلى حمص، فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنين، وقام من بعده فيها ابنه الأشرف مدة ستين، ثم أخذت منه على ما سيأتي وتسلم نواب الصالح أيوب بعلبك وبصرى، ولم يبق بيد الصالح إسماعيل بلد يأوي إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية، وسار هو فاستجار بالملك الناصر بن عبد العزيز بن الظاهر غازي صاحب حلب، فآواه وأكرمه وقال الأتابك لؤلؤ الحلبي لابن أستاذه الناصر، وكان شاباً صغيراً: انظر إلى عاقبة الظلم.

وأما الخوارزمية فإنهم ساروا إلى ناحية الكرك فأكرمهم الناصر داود صاحبها، وأحسن إليهم وصاهرهم وأنزلهم بالصلت فأخذوا معها نابلس، فأرسل إليهم الملك الصالح أيوب جيشاً مع فخر الدين بن الشيخ فكسرهم على الصلت وأجلاهم عن تلك البلاد، وحاصر الناصر بالكرك وأهانه غاية الإهانة، وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخل دمشق في أبهة عظيمة، وأحسن إلى أهلها، وتصدق على الفقراء والمساكين، وسار إلى بعلبك وإلى بصرى وإلى صرخد، فتسلمها من صاحبها عز الدين أيبك المعظمي، وعوضه عنها ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً مسروراً. وهذا كله في السنة الآتية ولله الحمد والمنة

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيوش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسروهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم خوفاً من غائلة مكرهم وعملا بقوله ﷺ «اتركوا الترك ما تركوكم» [د(٤٣٠٢)،س(٣١٧٦)].

وفي هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الأبنية الغريبة العجيبة ما يحار الناظر وقد قيل إن ذلك من بناء الجن، وأورد صفته ابن الساعي في تاريخه.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الشيخ تقي الدين

■ ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشيخ الإمام العلامة، مفتي الشام ومحدثها، الشهرزوري ثم الدمشقي، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه هنالك بالموصل وحلب وغيرها، وكان أبوه مدرساً بالأسدية بحلب، وواقفها أسد الدين شيركوه بن شاذي، وقدم الشام وهو في عداد الفضلاء الكبار. وأقام بالقدس الشريف مدة ودرس بالصلاحية، ثم تحول منه إلى دمشق، ودرس بالرواحية ثم ثم بالشامية الجوانية، بدار الحديث الأشرفية، وهو أول من وليها من شيوخ الحديث، وهو الذي صنف كتاب وقفها، وقد صنف كتباً كثيرة مفيدة في علوم الحديث، والفقه

وله تعاليق حسنة على الوسيط وغيره من الفوائد التي يرحل إليها.

وكان ديناً زاهداً ورعاً ناسكاً، على طريقة السلف الصالح، كما هي طريقة متأخري أكثر المحدثين، مع الفضيلة التامة في فنون كثيرة، ولم يزل على طريقة جيدة حتى كانت وفاته بمنزله في دار الحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وصلي عليه بجامع دمشق وشيعه الناس إلى داخل باب الفرج، ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية، وما صحبه إلى جبانة الصوفية إلا نحو العشرة رحمه الله تعالى وتغمده برضوانه.

وقد أثنى عليه القاضي شمس الدين بن خلكان وكان من شيوخه.

وقال السبط أنشدني الشيخ تقي الدين ابن الصلاح من لفظه رحمه الله:

احذر من الواوات أربعة	فهن من الحتوف
واو الوصية والوديعة	والوكالة والوقوف

وحكى ابن خلكان عنه أنه قال: ألهمت في المنام هؤلاء الكلمات: ادفع المسألة ما وجدت التجمل يمكنك فإن لكل يوم رزقاً جديداً، والإلحاح في الطلب يذهب البهاء، وما أقرب الصنيع من الملهوف، وربما كانت الغِيَر نوعاً من آداب الله، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تدرك فإنك ستنالها في أوقاتها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعاً، ويغشاك القنوط.

■ ابن النجار الحافظ صاحب التاريخ: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن بن النجار، أبو عبد الله البغدادي الحافظ الكبير، سمع الكثير ورحل شرقاً وغرباً، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وشرع في كتابة التاريخ وعمره خمس عشرة سنة، والقراءات وقرأ بنفسه على المشايخ كثيراً حتى حصل نحواً من ثلاثة آلاف شيخ، من ذلك نحو من أربعمائة امرأة، وتغرب ثمانياً وعشرين سنة، ثم جاء بغداد وقد جمع أشياء كثيرة، من ذلك القمر المنير في المسند الكبير يذكر لكل صحابي ما روى. وكنز الأيام في معرفة السنن والأحكام والمختلف والمؤتلف والسابق واللاحق والمتفق والمفترق وكتاب الألقاب، ونهج الإصابة في معرفة الصحابة والكافي في أسماء الرجال وغير ذلك مما لم يتم أكثره وله كتاب الذيل على تاريخ مدينة السلام، في ستة عشر مجلداً، وله أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس، وغرر الفوائد في خمسة مجلدات، وأشياء كثيرة جداً سردها ابن الساعي في ترجمته.

وذكر أنه لما عاد إلى بغداد عرض عليه الإقامة في المدارس فأبى وقال: معي ما أستغني به عن ذلك فاشترى جارية وأولدها وأقام برهة ينفق مدة على نفسه من كسبه، ثم احتاج إلى أن نزل محدثاً في جماعة المحدثين بالمدرسة المستنصرية حين وضعت، ثم مرض شهرين وأوصى إلى ابن الساعي في أمر تركته.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس من شعبان من هذه السنة، وله من العمر خمس وسبعون سنة وصلي عليه بالمدرسة النظامية، وشهد جنازته خلق كثير وكان ينادي حول جنازته هذا حافظ حديث رسول الله ﷺ، الذي ينفي الكذب عنه. ولم يترك وارثاً، وكانت تركته عشرين ديناراً وثياب بدنه، وأوصى أن يتصدق بها، ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم، وقد أثنى عليه الناس ورثوه بمرات كثيرة، سردها ابن الساعي في آخر ترجمته.

الحافظ

■ ضياء الدين المقدسي: صاحب «الأحكام» ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد بن عبد الرحمن المقدسي.

سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف وألف كتباً مفيدة حسنة كثيرة الفوائد، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية، وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل، وله فضائل الأعمال وغير ذلك من الكتب الحسنة الدالة على حفظه واطلاعه وتضلعه من علوم الحديث متناً وإسناداً.

وكان رحمه الله في غاية العبادة والزهادة والورع والخير، وقد وقف كتباً كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التي وقفها على أصحابها من أهل الحديث والفقهاء، وقد وقفت عليها أوقاف أخر كثيرة بعد ذلك.

الشيخ

■ علم الدين أبو الحسن السخاوي علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري، ثم الدمشقي شيخ القراء بدمشق، ختم عليه ألوف الناس، وكان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته، وله شرح المفصل وله تفاسير وتصانيف كثيرة، ومدائح في رسول الله ﷺ وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح، وبها كان مسكنه وبه توفي ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون.

وذكر القاضي ابن خلكان أن مولده سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وذكر من شعره قوله:

قالوا غداً نأتي ديار الحمى	وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعاً لهم	أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي	بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم	لا سيما عمن ترجاهم

■ ربيعة خاتون واقفة الصاحبة بقاسيون ربيعة خاتون بنت أيوب: أخت السلطان صلاح الدين، زوجها أخوها أولا بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون التي كانت زوجة الملك نور الدين واقفة الخاتونية الجوانية، والخانقاه، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل، فأقامت عنده بإربل أزيد من أربعين سنة حتى مات، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار العقيقي حتى كانت وفاتها في هذه السنة وقد جاوزت الثمانين، ودفنت بقاسيون، وكانت في خدمتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة، ولها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة، ووقفت أمة اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهي الآن شرقي الرباط الناصري، ثم لما ماتت الخاتون وقعت العالمة في المصادرات وحبست مدة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص، وسافرت معه إلى الرحبة وتل باشر، ثم توفيت في سنة ثلاث وخمسون، ووجد لها بدمشق ذخائر كثيرة وجواهر ثمينة، تقارب ستمائة ألف درهم، غير الأملاك والأوقاف رحمها الله تعالى.

■ معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ: وزير الصالح نجم الدين أيوب، أرسله إلى دمشق فحاصرها مع الخوارزمية أول الأمر حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل، وأقام بها نائباً من جهة الصالح أيوب، ثم مالأ الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه فحاصروه بدمشق، ثم كانت وفاته

في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، عن ست وخمسين سنة، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف. وصلي عليه بجامع دمشق، ودفن بقاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين.

وفيها كانت وفاة القليجية الحنفية. وهو الأمير:

■ سيف الدين بن قليج: ودفن بتربته التي بمدرسته المذكورة، التي كانت سكنه بدار فلوس تقبل الله تعالى منه.

وخطيب الجبل

■ شرف الدين عبد الله ابن الشيخ أبي عمر رحمه الله.

والسيف

■ أحمد بن عيسى ابن الإمام موفق الدين بن قدامة.

وفيها توفي إمام الكلاسة الشيخ تاج الدين أبو الحسن

■ محمد بن أبي جعفر مسند وقته، وشيخ الحديث في زمانه رواية وصلاحاً رحمه الله تعالى.

والمحدثان الكبيران الحافظان المفيدان شرف الدين

■ أحمد بن الجوهري

وتاج الدين

■ عبد الجليل الأبهري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى، ثم في جمادى الآخرة كسر فخر الدين بن الشيخ الخوارزمية على الصلت كسرة فرق بقية شملهم، ثم حاصر الناصر بالكرك ورجع عنه إلى دمشق، وقدم الصالح أيوب إلى دمشق في ذي القعدة فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن المذكورة، وانتزع صرخد من يد عز الدين أيبك، وعوضه عنها، وأخذ الصلت من الناصر داود بن المعظم وأخذ حصن الصُّبَيبة من السعيد بن العزيز بن العادل، وعظم شأنه جداً، وزار في رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بإعادة أسواره أن تعمر كما كانت في الدولة الناصرية، فاتح القدس، وأن يصرف الخراج وما يتحصل من غلات بيت المقدس في ذلك، وإن عاز شيئاً صرفه من عنده.

وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذي للنصارى تخبر بأنه أباح دم الأنبرور ملك الفرنج لتهاونه في قتال المسلمين، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه، فلما انتهوا إليه كان قد استعد لهم وأجلس مملوكاً له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه، فعند ذلك أخذهم الأبدور فصلبهم على باب قصره بعد ما ذبحهم وسلخهم وحشي جلودهم تبناً، فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله بينهم الخلاف بسبب ذلك، وله الحمد والمنة وبه التوفيق والصحة.

وفيها هبت ريح عاصفة شديدة بمكة في يوم الثلاثاء من عشر ربيع الآخر، فألقت ستارة الكعبة المشرفة، وكانت قد عتقت، فإنها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج في تلك السنين من ناحية الخليفة، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد، وكان هذا فألاً على زوال دولة بني العباس، ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى. فاستأذن نائب اليمن عمر بن رسول شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة في أن يكسو الكعبة، فقال لا يكون هذا إلا من مال الخليفة، ولم يكن عنده مال فاقترض ثلاثمائة دينار واشترى ثياب قطن وصبغها سواداً وركب عليها طرازاتها العتيقة وكسى بها الكعبة ومكثت الكعبة ليس عليها كسوة إحدى وعشرين ليلة.

وفيها فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة، وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير، وامتدحها الشعر بأبيات وقصائد حساناً.

وفي أواخر ذي الحجة ظهر الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين ولديه الأميرين أبا العباس أحمد، وأبا الفضائل عبد الرحمن، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرة، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة، وكان ذلك وداعاً لمسرات بغداد وأهلها في ذلك الزمان.

وفيها احتاط الناصر داود صاحب الكرك على الأمير عماد الدين داود بن موسك بن حسكو، وكان من خيار الأمراء الأجواد الأمجاد، واصطفى أمواله كلها وسجنه عنده في الكرك، فشفع فيه فخر الدين بن الشيخ لما كان محاصره في الكرك فأطلقه، فخرجت في حلقه خُراجة فبطها فمات ودفن عند قبر جعفر والشهداء بمؤتة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي ملك الخوارزمية قبلاً بركات خان لما كسرت أصحابه عند بحيرة حمص كما تقدم ذكره.

وفيها توفي

الملك

■ المنصور: ناصر الدين إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدمشق، بعد أن سلم بعلبك للصالح أيوب، ونقل إلى حمص، كان نزوله أولا ببستان سامة، فلما مرض حمل إلى الدهشة بستان الأشرف بالنيرب فمات فيها.

وفيها توفي: الصائن

■ محمد بن حسان بن رافع العامري الخطيب، وكان كثير السماع مسنداً وكانت وفاته بقصر حجاج رحمه الله تعالى.

وفيها توفي: الفقيه العلامة

■ محمد بن محمود بن عبد المنعم: المراتبي الحنبلي وكان فاضلا ذا فنون، أثنى عليه أبو شامة قال: صحبته قديماً ولم يترك بعده بدمشق مثله في الحنابلة، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن بسفح قاسيون رحمه الله.

والضياء

■ عبد الرحمن العمادي: المالكي الذي ولي وظائف الشيخ أبي عمرو بن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان وثلاثين وجلس في حلقته ودرس مكانه بزاوية المالكية.

والفقيه تاج الدين

■ إسماعيل بن جهبل بحلب، وكان فاضلا ديناً سليم الصدر رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها كان عود السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية، وزار بيت المقدس وفرق في أهله أموالا كثيرة، وأمر بإعادة سوره كما كان في أيام عمه الملك الناصر فاتح القدس. ونزل الجيوش لحصار الفرنج ففتحت طبريا في عاشر صفر وفتحت عسقلان في أواخر

جمادى الآخرة.

وفي رجب عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الآبار عن الخطابة بالجامع الأموي وتدريس الغزالية، وولي ذلك للقاضي عماد الدين بن عبد الكريم بن الحرستاني شيخ دار الحديث بعد ابن الصلاح.

وفيها أرسل الصالح أيوب يطلب جماعة من أعيان الدماشقة اتهموا بممالأة الصالح إسماعيل، منهم القاضي محيي الدين بن الزكي، وبنو صصري وابن العماد الكاتب، والحكيمي مملوك الصالح إسماعيل، والشهاب غازي والي بصرى، فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم شيء من العقوبات والإهانات، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ الحسين بن الحسين بن علي بن حمزة العلوي الحسيني، أبو عبد الله الأقساسي النقيب قطب الدين، أصله من الكوفة وأقام ببغداد، وولي النقابة، ثم اعتقل بالكوفة، وكان فاضلا أديباً شاعراً مطبقاً، أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة رحمه الله.

■ الشلوبين النحوي: هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، أبو علي الأندلسي الإشبيلي المعروف بالشلوبين، وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر.

قال ابن خلكان: ختم به أئمة النحو، وكان فيه تغفل، وذكر له شعراً ومصنفات، منها شرح الجزولية وكتاب التوطئة وأرخ وفاته بهذه السنة. وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى وعفا عنه.

■ (الحريري).

الشيخ علي المعروف بالحريري: علي بن أبي الحسين بن منصور البسْري أصله من قرية بسر شرقي زرع، وأقام بدمشق مدة يعمل صنعة الحرير، ثم ترك ذلك وأقبل يعمل الفقيري على يد الشيخ علي المغربل، تلميذ الشيخ رسلان التركماني الجعبري، فاتبعه طائفة من الناس يقال لهم الحريرية وابتنى له زاوية على الشرف القبلي، وبدرت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية وغيرهم.

فلما كانت الدولة الأشرفية حبس في قلعة عزتا مدة سنين ثم أطلقه الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق، فلزم بلده بسر مدة حتى كانت وفاته في هذه السنة.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ١٨٠]: وفي رمضان أيضاً توفي الشيخ علي المعروف بالحريري المقيم بقرية بسر في زاويته، وكان يتردد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بالحريرية أصحاب المنافي للشريعة، وباطنهم شر من ظاهرهم، إلا من رجع إلى الله منهم.

وكان عند الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، وترك الإنكار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات وكثرة النفقات، فأضل خلقاً كثيراً وأفسد جماً غفيراً، ولقد أفتى في قتله مراراً جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله تعالى منه. هذا لفظه بحروفه.

واقف العزية الأمير

■ عز الدين أيبك: أستاذ دار المعظم، كان من العقلاء الأجواد الأمجاد، استنابه المعظم على صرخد وظهرت منه نهضة وكفاية وسداد، ووقف العزيتين الجوانية والبرانية، ولما أخذ منه الصالح أيوب صرخد عوضه عنها وأقام بدمشق ثم وشى عليه بأنه يكاتب الصالح إسماعيل فاحتيط عليه وعلى أمواله وحواصله فمرض وسقط إلى الأرض، وقال هذا آخر عهدي. ولم يتكلم حتى مات ودفن بباب النصر بمصر رحمه الله تعالى، ثم نقل إلى تربته التي فوق الوراقة.

وإنما أرخ السبط وفاته في سنة سبع وأربعين فالله أعلم الشهاب

■ الغازي بن العادل: صاحب ميافارقين وخلاط وغيرهما من البلدان، كان من عقلاء بني أيوب وفضلائهم، وأهل الديانة منهم، ومما أنشد قوله:

ومن عجب الأيام أنك جالس ... على الأرض في الدنيا وأنت تسير
فسيرك يا هذا كسير سفينة ... بقوم جلوس والقلوع تطير

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق وجهز الجيوش والمجانيق إلى حمص، لأنه كان صاحبها الملك الأشرف موسى بن المنصور بن أسد الدين شيركوه قد قايض بها إلى تل باشر لصاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز، ولما علمت الحلبيون بخروج الدماشقة برزوا أيضاً في جحفل عظيم ليمنعوا حمص منهم، واتفق الشيخ نجم الدين عبد الله البادرائي مدرس النظامية ببغداد في رسالة فأصلح بين الفريقين، ورد كلا من الفئتين إلى مستقرها ولله الحمد.

وفيها قتل مملوك تركي شاب صبيّ سيِّدَه على دفعه عنه لما أراد به من الفاحشة، فصلب الغلام مسمراً، وكان شاباً حسناً جداً فتأسف الناس له لكونه صغيراً ومظلوماً وحسناً، ونظموا فيه قصائد، وممن نظم فيه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل، وقد أطال قصته جداً.

وفيها سقطت قنطرة رومية قديمة البناء بسوق الدقيق من دمشق، عند قصر أم الحكيم، فتهدم بسببها شيء كثير من الدور والدكاكين، وكان سقوطها نهاراً.

وفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع حريق بالمنارة الشرقية فأحرق جميع حشوها، وكانت سلالمها سقالات من خشب، وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها، وسلم الله الجامع وله الحمد. وقدم السلطان بعد أيام إلى دمشق فأمر بإعادتها كما كانت.

قلت: ثم احترقت وسقطت بالكلية بعد سنة أربعين وسبعمائة وأعيدت عمارتها أحسن مما كانت ولله الحمد. وبقيت حينئذ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق كما نطق به الحديث في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام عليها، كما سيأتي بيانه وتقريره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً في محفة إلى الديار المصرية وهو ثقيل مدنف، شغله ما هو فيه عن أمره بقتل أخيه العادل أبي بكر بن الكامل الذي كان صاحب الديار المصرية بعد أبيه، وقد كان سجنه سنة استحوذ على مصر، فلما كان في هذه السنة في شوالها أمر بخنقه فخنق ودفن بتربة شمس الدولة، فما عمر بعده إلا إلى النصف من شعبان في العام القابل في أسوأ حال وأشد مرض، فسبحان من له الخلق والأمر.

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة بالديار المصرية.

■ أفضل الدين الخونجي: الحكيم المنطقي البارع في ذلك، وكان مع ذلك جيد السيرة في أحكامه.

قال أبو شامة: أثنى عليه، أكثر من واحد.

■ علي بن يحيى جمال الدين أبو الحسن البغدادي المخرّمي: كان شاباً فاضلا أديباً شاعراً ماهراً، صنف كتاباً مختصراً وجيزاً جامعاً لفنون كثيرة في الرياضة والعقل وذم الهوى، وسماه نتائج الأفكار. قال فيه من الكلم المستفادة الحكمية: السلطان إمام متبوع، ودين مشروع فإن ظلم جارت الحكام لظلمه، وإن عدل لم يجر أحد في حكمه، من مكنه اللّه في أرضة وبلاده، وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محله ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة، ويخلص الديانة، ويجمل السريرة، ويحسن السيرة، ويجعل العدل دأبه المعهود، والأمن غرضه المقصود، فالظلم يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب النقم، ويهلك الأمم.

وقال أيضاً: معارضة الطبيب توجب التعذيب، رب حيلة أنفع من قبيلة، الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار، سمين الغضب مهزول، ووالي الغدر معزول، قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار، ارض من أخيك في ولايته بعشر ما كنت تعهده في مودته، التواضع من مصائد الشرف، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز. ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم.

وذكر في غضون كلامه أن خادماً لعبد اللّه بن عمر أذنب فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال: يا سيدي أما لك ذنب تخاف اللّه تعالى منه؟ قال: بلى، قال بالذي أمهلك لما أمهلتني، ثم أذنب العبد ثانية فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك فعفا عنه، ثم أذنب الثالثة فعاقبه وهو لا يتكلم فقال له ابن عمر: ما لم تقل مثلما قلت في الأوليتين؟ فقال: يا سيدي حياء من حلمك مع تكرار جرمي. فبكى ابن عمر وقال: أنا أحق بالحياء من ربي، أنت حر لوجه اللّه تعالى. ومن شعره يمدح الخليفة.

يا من إذا ضَنَّ السحاب بمائه ... هطلت يداه على البرية عسجدا

جورت كسرى يا مبخل حاتم ... فغدت بنو الآمال نحوك سجدا

وقد أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة حسنة رحمه اللّه تعالى.

الشيخ أبو عمرو

■ ابن الحاجب: المالكي عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدويني ثم المصري العلامة أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية كان أبوه حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي، واشتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريراً بليغاً، وتفقه وساد أهل عصره، ثم كان رأساً في علوم كثيرة، منها الأصول والفروع والعربية والنحو والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك.

وقد كان استوطن دمشق في سنة سبع عشرة وستمائة، ودرس بها للمالكية بالجامع حتى كان خروجه بصحبة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام في سنة ثمان وثلاثين، فصارا إلى الديار المصرية حتى كانت وفاة الشيخ أبي عمرو في هذه السنة بالإسكندرية، ودفن بالمقبرة التي بين المنارة والبلد.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وكان من أذكى الأئمة قريحة، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفاً كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله، ناشراً له محتملا للأذى صبوراً على البلوى، قدم دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة، فأقام بها مدرساً للمالكية وشيخاً للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية، وكان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم متقناً لمذهب مالك بن أنس رحمه اللّه تعالى.

وقد أثنى عليه ابن خلكان ثناء كثيراً، وذكر أنه جاء إليه في أداء شهادة حين كان نائباً في الحكم بمصر وسأله عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط، كـ «إذا» قال إن أكلتِ إن شربتِ فأنت طالق لم كان لا يقع الطلاق حتى شربت أولا؟ وذكر أنه أجاب عن ذلك في تؤدة وسكون.

قلت ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه جواهر ابن شاش، ومختصره في أصول الفقه، استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي، وقد منَّ اللّه تعالى علي بحفظه وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية، وللّه الحمد والمنّة.

وله شرح المفصل والأمالي في العربية والمقدمة المشهورة في النحو، اختصر فيها مفصل الزمخشري وشرحها، وقد شرحها غيره أيضاً وله التصريف وشرحه وله العروض على وزن الشاطبية رحمه اللّه ورضي عنه.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب، وقتل ابنه توران شاه وتولية المعز عز الدين أيبك التركماني على ما سيأتي.

وفي رابع المحرم يوم الاثنين توجه السلطان الملك الصالح من دمشق إلى الديار المصرية بمحفة. قاله السبط.

وكان قد نادى في دمشق: من له عندنا شيء فليأت، فاجتمع خلق كثير بالقلعة، فدفعت إليهم أموالهم.

وفي عاشر صفر دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الصالح أيوب فنزل بدرب الشعارين داخل باب الجابية.

وفي جمادى الآخرة أمر النائب بتخريب الدكاكين المحدثة وسط باب البريد، وأمر أن لا يبقى فيها دكان سوى ما في جانبيه إلى جانب الحائطين القبلي والشمالي، وما في الوسط يهدم.

قال أبو شامة: وقد كان العادل هدم ذلك ثم أعيد ثم هدمه ابن يغمور، والمرجو استمراره على هذه الصفة.

وفيها توجه الناصر داود من الكرك إلى حلب فأرسل الصالح أيوب إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن يغمور بخراب دار سامة المنسوبة إلى الناصر بدمشق، وبستانه الذي بالقابون، وهو بستان القصر، وأن تقلع أشجاره ويخرب القصر، وتسلم الصالح أيوب الكرك من الأمجد حسن بن الناصر، وأخرج من كان بها من بيت المعظم، واستحوذ على حواصلها وأموالها، فكان فيها من الذهب ألف ألف دينار وأقطع الصالح الأمجد هذا إقطاعاً جيداً.

وفيها طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئاً كثيراً من المحال والدور الشهيرة، وتعذرت الجمع في أكثر الجوامع بسبب ذلك سوى ثلاثة جوامع، ونقلت توابيت جماعة من الخلفاء إلى الترب من الرصافة خوفاً عليهم من أن تغرق محالهم، منهم المعتضد ابن الأمير أبي أحمد بن المتوكل، وذلك بعد دفنه بنيف وخمسين سنة وثلاثمائة سنة، وكذا نقل ولده المكتفي وكذا المتقي بن المقتدر باللّه رحمهم اللّه تعالى.

وفيها هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقاً كثيرة من المسلمين.

وكذا في ربيع الأول منها، فنصب السلطان المخيم تجاه العدو بجميع

الجيش، وشتق خلقاً ممن هرب من الفرنج، ولامهم على ترك المصابرة قليلا ليرهبوا عدوّ الله وعدوهم، وقوي المرض وتزايد بالسلطان جدًا فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي رحمه الله تعالى بالمنصورة، فأخفت جاريته أم ولده خليل المدعوّة شجر الدُر موته وأظهرت أنه مريض مُدْنِف لا يُوصل إليه، وبقيت تُعلم عنه بعلامته سواء، وأعلمت إلى أعيان الأمراء، فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا، فأقدموه إليهم سريعاً، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ، فلما قدم عليهم ملكوه إليهم وبايعوه أجمعين،، فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسروهم وقتل منهم ثلاثين ألفاً. وذلك في أول السنة الداخلة. ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه، ضربه بعض الأمراء وهو عز الدين أيبك التركماني، فضربه في يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى قصر من خشب في المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة وداسوه بأرجلهم ودفن كالجيفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان فيمن ضربه البندقداري على كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يغاث.

وممن قتل في هذه السنة

فخر الدين

يوسف ابن الشيخ

■ بن حمويه وكان فاضلا ديناً مهيباً وقوراً خليقاً بالملك، وكانت الأمراء تعظمه جداً، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح أيوب لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك حماية لجانب بني أيوب، قتلته الداوية من الفرنج شهيداً قبل قدوم المعظم توران شاه إلى مصر، في ذي القعدة ونهبت أمواله وحواصله وخيوله، وخربت داره، ولم يتركوا شيئاً من الأفعال الشنيعة البشعة إلا صنعوه به، مع أن الذين تعاطوا ذلك من الأمراء كانوا معظمين له غاية التعظيم. ومن شعره:

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما ... رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفاً وقيل مائة ألف، وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا، وكان فيمن أسر ملك الإفرنسيس وأخوه، وأرسلت غفارة ملك الأفرنسيس إلى دمشق، فلبسها نائبها في يوم الموكب، وكانت من سقرلاط أحمر تحتها فروسنجاب، فأنشد في ذلك جماعة من الشعراء فرحاً بما وقع، ودخل الفقراء كنيسة مريم فأقاموا بها سماعاً فرحاً بما نصر الله تعالى على النصارى، وكادوا أن يخربوها وكانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط، فلما كانت هذه الكسرة عليهم سخموا وجوه الصور، فأرسل نائب البلد فجناهم وأمر اليهود فصفعوهم، ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء ابن أستاذهم توران شاه، ودفنوه إلى جانب النيل من الناحية الأخرى رحمه الله تعالى ورحم أسلافه بمنّه وكرمه.

تمليك الملك المعز عز الدين أيبك التركماني مصر بعد بني أيوب وتداول دولة الأتراك

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية ابن أستاذهم المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين كما تقدم بيانه، ولما قُتل انفصل أمره نادوا فيما بينهم لا بأس لا بأس واستدعوا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركماني، فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، وركبوا إلى القاهرة، ثم بعد خمسة أيام أقاموا لهم صبياً من بني أيوب ابن عشر سنين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود إقسيس بن الكامل، وجعلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة باسمهما، وكاتبوا أمراء الشام بذلك، فما تم لهم الأمر بالشام، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا على الديار المصرية، وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظية الصالح أيوب، فتزوجت بالمعز، وكانت الخطبة والسكة باسمها، يدعى لها على المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالها، وكذا تضرب السكة باسمها أم خليل، والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها، مدة ثلاثة أشهر قبل المعز، ثم آل أمرها إلى ما سنذكره من الهوان والقتل.

ذكر الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر فاتح القدس صاحب حلب لدمشق حرسها الله تعالى

لما وقع بالديار المصرية من قتل الأمراء للمعظم توران شاه بن الصالح أيوب ركب الحلبيون معهم ابن أستاذهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف فاتح بيت المقدس، ومن كان عندهم من ملوك بني أيوب منهم الصالح إسماعيل بن العادل، وكان أحق الموجودين بالملك، من حيث السن والعقل والحرمة والرياسة، ومنهم الناصر داود بن المعظم بن العادل، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، الذي كان صاحب حمص وغيرهم، فجاؤوا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً ونهبت دار ابن يغمور وحبس في القلعة وتسلموا ما حولها كبعلبك وبصرى والصلت وعجلون وصرخد، وامتنعت عليهم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل، كان قد تغلب عليهما في هذه السنة حين قتل المعظم توران شاه، فطلبه المصريون ليملكوه عليهم فخاف مما حل بابن عمه، فلم يذهب إليهم.

ولما استقرت يد الحلبيين على دمشق وما حولها جلس الناصر في القلعة وطيب قلوب الناس، ثم ركبوا إلى غزة ليتسلموا الديار المصرية، فبرز إليهم الجيش المصري فاقتتلوا معهم أشد القتال، فكسر المصريون أولا بحيث إنه خطب للناصر بها ذلك اليوم، ثم كانت الدائرة على الشاميين فانهزموا وأسر من أعيانهم خلق كثير، وعدم من الجيش الصالح إسماعيل رحمه الله تعالى، وقد أنشد هنا الشيخ أبو شامة لبعضهم:

ضَيَّعَ إسماعيلُ أموالنا ... وخَرَّبَ المغنى بلا معنى
وراحَ من جِلَّقَ هذا جزا ... من أفقر النّاسَ وما استغنى

ذكر شيء من ترجمة الصالح أبي الخيش إسماعيل واقف تربة أم الصالح

وقد كان الصالح رحمه الله تعالى ملكاً عاقلا حازماً تقلبت به الأحوال أطواراً كثيرة، وقد كان الأشرف موسى أوصى له بدمشق من بعده، فملكها شهوراً ثم انتزعها منه أخوه الكامل، ثم ملكها من يد الصالح أيوب خديعة ومكراً، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين، ثم استعادها منه الصالح أيوب عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى، ثم أخذتا منه كما ذكرنا، ولم يبق له بلد يأوي إليه، فلجأ إلى المملكة الحلبية في جوار الناصر يوسف صاحب حلب، فلما كان في هذه السنة ما ذكرنا عدم بالديار المصرية في المعركة فلا يدرى ما فعل به والله تعالى أعلم. وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والإقراء بدمشق رحمه الله تعالى.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان والمشاهير

الملك

■ المعظم توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل، كان أولا صاحب حصن كيفا في حياة أبيه، وكان أبوه يستدعيه في أيامه فلا يجيبه، فلما توفي أبوه كما ذكرنا استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم، ثم قتلوه كما ذكرنا، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم، وقد قيل إنه كان متخلعاً لا يصلح للملك، وقد رئي أبوه في المنام بعد قتل ابنه وهو يقول:

قتلوه شرّ قتلة ... صار للعالم مثلة
لم يراعوا فيه إلا ... ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب ... لأقلّ الناس أكلة

فكان كما ذكرنا من اقتتال المصريين والشاميين وممن عدم فيما بين الصفين من أعيان الأمراء والمسلمين فمنهم:

■ الشمس لؤلؤ مدبر ممالك الحلبيين، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

وفيها كانت وفاة واقفة الحافظية:

■ الخاتون أرغون الحافظية سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ، صاحب قلعة جعبر، وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهراً ولها أموال جزيلة عظيمة، وهي التي كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب، فصادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال، وقد وقفت دارها، بدمشق على خدامها، واشترت بستان النجيب ياقوت الذي كان خادم الشيخ تاج الدين الكندي، وجعلت فيه تربة ومسجداً، ووقفت فيه عليها أوقافاً كثيرة جيدة رحمها الله.

■ واقف الأمينية التي ببعلبك:

أمين الدولة أبو الحسن غزال المتطبب وزير الصالح إسماعيل أبي الخيش الذي كان مشؤوماً على نفسه، وعلى سلطانه، وسبباً في زوال النعمة عنه وعن مخدومه، وهذا هو وزير السوء، وقد اتهمه السبط بأنه كان متستراً بالدين، وأنه لم يكن له في الحقيقة دين، فأراح الله تعالى منه عامة المسلمين، وكان قتله في هذه السنة لما عدم الصالح إسماعيل بديار مصر، عمد من عمد من الأمراء إليه وإلى ابن يغمور ناصر الدين فشنقوهما وصلبوهما على القلعة بمصر، وقد وجد لأمين الدولة غزال هذا من الأموال والتحف والجواهر والأثاث ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، وعشرة آلاف مجلد بخط منسوب وغير ذلك من الخطوط النفيسة الفائقة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق وقدمت عساكر المصريين فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة، فجهز لهم الملك الناصر جيشاً فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية، وقصروهم عليها.

وتزوجت في هذه السنة أم خليل شجرة الدر بالملك المعز عز الدين أيبك التركماني، مملوك زوجها الصالح أيوب.

وفيها نقل تابوت الصالح أيوب إلى تربته بمدرسته، ولبست الأتراك ثياب العزاء، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة.

وفيها خربت الترك دمياط ونقلوا الأهالي إلى مصر وأخلوا الجزيرة أيضاً خوفاً من عود الفرنج.

وفيها أكمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة في عشرين مجلداً مما ألفه عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المدائني، الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرساً، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة، لأنه كان شيعياً معتزلياً.

وفي رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهرقلي مدرس النظامية ببغداد فولي قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور، وخلع عليه.

وفي شعبان ولي تاج الدين عبد الكريم بن استاذ دار الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذي تركها تزهداً عنها، وخلع عليه بطرحة، ووضع على رأسه غاشية، وركب الحجاب في خدمته.

وفي هذه السنة صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر، وهذا اتفاق غريب.

وفيها وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلا باليمن خرج فادعى الخلافة، وانه انفذ إليه جيشاً فكسروه وقتلوا خلقاً من أصحابه وأخذ منهم صنعاء وهرب هو بنفسه في شرذمة قليلة ممن بقي من أصحابه.

وفيها أرسل الخليفة إليه بالخلع والتقليد.

وفيها كانت وفاة:

بهاء الدين

■ علي بن هبة الله بن سلامة الجُمّيزي خطيب القاهرة، رحل في صغره إلى العراق فسمع شهدة وغيرها، وكان فاضلا قد أتقن معرفة مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وكان ديناً حسن الأخلاق واسع الصدر كثير البر، قل أن يقدم عليه أحد إلا أطعمه شيئاً، وقد سمع الكثير على السلفي وغيره، وأسمع الناس شيئاً كثيراً من مروياته، وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وله تسعون سنة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أقضى القضاة أبو الفضل

■ عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم

اللمغاني الحنفي من بيت العلم والقضاء، درس بمشهد أبي حنيفة وناب عن قاضي القضاة ابن فضلان الشافعي، ثم عن قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الحنبلي، ثم عن قاضي القضاة عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، ثم بعد وفاته في سنة ثلاث وثلاثين استقل القاضي عبد الرحمن اللمغاني بولاية الحكم ببغداد، ولقب أقضى القضاة، ولم يخاطب بقاضي القضاة، ودرس للحنفية بالمستنصرية في سنة خمس وثلاثين، وكان مشكور السيرة في أحكامه ونقضه وإبرامه.

ولما توفي تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهرقلي رحمهما الله تعالى وتجاوز عنهما بمنّه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة هجرية

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة وسروج ورأس العين وما والى هذه البلاد، فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا فإنا لله وإنا إليه راجعون ووقعوا بتجار يسيرون بين حران ورأس العين، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول من الديار المصرية، وستمائة ألف دينار، وكان عدة من قتلوا في هذه السنة من أهل الجزيرة نحواً من عشرة آلاف قتيل، وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال السبط: وفيها حج الناس من بغداد، وكان لهم عشر سنين لم يحجوا من زمن المستنصر.

وفيها وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار، ويقال إن الفرنج لعنهم الله القوه فيه قصداً.

وفيها أعاد قاضي القضاة عمر بن علي النهرقلي أمر المدرسة التاجية التي كان قد استحوذ عليها طائفة من العوام، وجعلوها كالقيسارية يتبايعون فيها مدة طويلة، وهي مدرسة جيدة حسنة قريبة الشبه من النظامية، وقد كان بانيها يقال له تاج الملك، وزير ملك شاه السلجوقي، وأول من درس بها الشيخ أبو بكر الشاشي.

وفيها كانت وفاة: جمال الدين

■ ابن مطروح وقد كان فاضلا رئيساً كيساً شاعراً من خيار المتعممين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق فلبس لبس الجند.

قال السبط: وكان لا يليق في ذلك ومن شعره في الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم في سنة ست وثلاثين في الدولة الكاملية فقال هذا الشاعر، ابن مطروح رحمه الله:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهّره أوّلا ... وناصر طهّره آخرا

ولما عزله الصالح عن النيابة أقام خاملا وكان كثير البر بالفقراء والمساكين، وكانت وفاته بمصر.

وفيها توفي: شمس الدين

■ محمد بن سعد المقدسي: الكاتب الحسن الخط، كان كثير الأدب، وسمع الحديث كثيراً، وخدم السلطان الصالح إسماعيل والناصر داود، وكان ديناً فاضلا شاعراً له قصيدة ينصح فيها السلطان الصالح إسماعيل وما يلقاه الناس من وزيره وقاضيه وغيرهما، من حواشيه وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ عبد العزيز بن علي بن عبد الجبار المغربي، أبوه ولد ببغداد، وسمع بها الحديث، وعني بطلب العلم وصنّف كتاباً في مجلدات على حروف المعجم في الحديث، وحرر فيه حكاية مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله

■ محمد بن غانم بن كريم الأصبهاني، قدم بغداد، وكان شاباً فاضلا، فتتلمذ للشيخ شهاب الدين السهروردي، وكان حسن الطريقة، له يد في التفسير، وله تفسير على طريقة التصوف، وفيه لطافة.

ومن كلامه في الوعظ: العالم كالذرة في فضاء عظمته، والذرة كالعالم في كتاب حكمته، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته، والفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفي الوسائط شمس آخريته، أستار الليل مسدولة، وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل مطرودة معزولة، ما هذه الوقعة والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟

وقوفي بأكناف العقيق عقوق ... إذا لم أرد والدّمع فيه عقيق
وإذا لم أمت شوقاً إلى ساكن الحمى ... فما أنا فيما أدّعيه صدوق
أيا ربع ليلى ما المحبّون في الهوى ... سواء ولا كلُّ الشّراب رحيق
ولا كلّ من تلقاه يلقاك قلبه ... ولا كلّ من يحنو إليك مشوق
تكاثرت الدّعوى على الحبّ فاستوى ... أسير صبابات الهوى وطليق

أيها الأمنون، هل فيكم من يصعد إلى السماء؟ أيها المحبوسون في مطامير مسمياتهم، هل فيكم سليمان الفهم لفهم رموز الوحوش والأطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه أرني أنظر إليك، فقد طال الانتظار؟.

وقال بعد الاستسقاء: لما صعدت إلى الله عز وجل نفس المشتاق بكت آماق الأفاق، وجادت بالدر مرضعة السحاب، فامتص لبن الرحمة رضيع التراب وخرج من أخلاف الغمام نطاف الماء النمير، فاهتزت به الهامدة، وقرت عيون الغدير، وتزينت الرياض بالسندس الأخضر، فحبر الصبغ حبرها أحسن تحبير، وانفلق بأنملة الصبا أكمام الأنوار، وانشقت بنفحات أنفاسه جيوب الأزهار، ونطقت أجزاء الكائنات بلغات صفاتها، وعادات عبرها.

أيها النائمون تيقظوا، أيها المستعدون تعرضوا ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

أبو الفتح

■ نصر الله بن هبة الله من عبد الباقي بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن بصاقة الغفاري الكناني المصري ثم الدمشقي كان من أخصاء الملك المعظم، وولده الناصر داود، وقد سافر معه إلى بغداد في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان أديباً مليح المحاضرة رحمه الله تعالى ومن شعره قوله:

ولّما أبيتم سادتي عن زيارتي ... وعوّضتموني بالبعاد عن القرب
ولم تسمحوا بالوصل في حال يقظتي ... ولم يصطبر عنكم لرقّته قلبي
نصبت لصيد الطّيف جفني حبالةً ... فادركت خفض العيش بالنّوم والنّصب

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائي رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام، وأصلح بين الجيشين، وكانوا قد اشتدت الحرب بينهم ونشبت، وقد مالأ الجيش المصري الفرنج ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين، وجرت خطوب كثيرة، فأصلح بينهم وخلص جماعة من بيوت الملوك من الديار المصرية، منهم أولاد الصالح إسماعيل، وبنت الأشرف، وغيرهم من أولاد صاحب حمص وغيرهم، جزاه الله خيراً.

وفيها فيما ذكر ابن الساعي كان رجل ببغداد على رأسه زبادي قاشاني فزلق فتكسرت ووقف يبكي، فتألم الناس له لفقره وحاجته، وأنه لم يكن يملك غيرها. فأعطاه رجل من الحاضرين ديناراً، فلما أخذه نظر فيه طويلاً ثم قال: والله هذا الدينار أعرفه، وقد ذهب مني في جملة دنانير عام أول، فشتمه بعض الحاضرين فقال له ذلك الرجل: فما علامة ما قلت؟ قال زنة هذا كذا وكذا، وكان معه ثلاثة وعشرون ديناراً، فوزنوه فوجدوه كما ذكر، فأخرج له الرجل ثلاثة وعشرين ديناراً، وكان قد وجدها كما قال حين سقطت منه، فتعجب الناس لذلك.

قال: ويقرب من هذا أن رجلا بمكة نزع ثيابه ليغتسل من ماء زمزم وأخرج من عضده دملجاً زنته خمسون مثقالا فوضعه مع ثيابه، فلما فرغ من اغتساله لبس ثيابه ونسي الدملج ومضى، وصار إلى بغداد وبقي مدة ستين بعد ذلك وأيس منه، ولم يبق معه سوى شيء يسير فاشترى به زجاجاً من القوارير ليبيعها ويتكسب بها، فبينما هو يطوف بها إذ تعس فسقطت القوارير فتكسرت، فوقف يبكي واجتمع الناس عليه يتألمون له، فقال في جملة كلامه: والله يا جماعة لقد ذهب مني من مدة ستين دملج من ذهب عند بئر زمزم زنته خمسون ديناراً، ما تألمت لفقده كما باليت لتكسير هذه القوارير، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميع ما أملك، فقال له رجل من الجماعة: فأنا والله لقيت ذلك الدملج، وأخرجه من عضده فدفعه إليه فتعجب الناس والحاضرون والله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة

قال سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان [٨/٧٩٢، ٧٩٣]: فيها وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى بأن ناراً ظهرت في أرض عدن في بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر في الليل، ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار، فما شكوا أنها النار التي ذكر النبي ﷺ أنها تظهر في آخر الزمان، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.

وفيها قدم الفارس أقطاي من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم، ومعه جماعة من البحرية المفسدين في الأرض، وقد بغوا وطغوا وتجبروا، ولا يلتفتون إلى الملك المعز أيبك التركماني، ولا إلى زوجته شجر الدر، فشاور المعز زوجته شجر الدر في قتل أقطاي، فأذنت له، فعمل عليه حتى قتله في هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر، فاستراح المسلمون من شره.

وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين.

وفيها قدمت بنت ملك الروم في تجمل عظيم وإقامات هائلة إلى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر، وجرت أوقات حافلة بدمشق بسببها.

ومن توفي فيها من المشاهير

■ **الخسروشاهي المتكلم: عبد الحميد بن عيسى: الشيخ شمس الدين الخسروشاهي**، أحد مشاهير المتكلمين، وممن اشتغل على الفخر الرازي في الأصول وغيرها، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن المعظم وحظي عنده.

قال أبو شامة: وكان شيخاً مهيباً فاضلا متواضعاً حسن الظاهر رحمه الله تعالى.

قال السبط: وكان متواضعاً كيساً محضر خير، لم ينقل عنه أنه آذى أحداً فإن قدر على نفع وإلا سكت.

توفي بدمشق ودفن بقاسيون على باب تربة الملك المعظم رحمه الله تعالى.

الشيخ مجد الدين

■ **ابن تيمية صاحب الأحكام عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي**، جد الشيخ تقي الدين بن تيمية، ولد في حدود سنة تسعين وخمسمائة وتفقه في صغره على عمه الخطيب فخر الدين، وسمع الكثير ورحل إلى البلاد وبرع في الحديث والفقه وغيره، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة ومات يوم الفطر بحران.

الشيخ

■ **كمال الدين بن طلحة**: الذي ولّي الخطابة بدمشق بعد الدولعي، ثم عزل وصار إلى الجزيرة فولي قضاء نصيبين، ثم صار إلى حلب فتوفي بها في هذه السنة.

قال أبو شامة: وكان فاضلا عالماً طلب أن يلي الوزارة فامتنع من ذلك، وكان هذا من التأييد، رحمه الله تعالى.

■ **السديد بن علان**: آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعاً بدمشق.

الناصح

■ **فرج بن عبد الله الحبشي**: كان كثير السماع مسنداً خيراً صالحاً مواظباً على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق رحمه الله.

■ **النصرة بن صلاح الدين يوسف بن أيوب**

النصرة ابن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب: توفي بحلب في هذه السنة. وآخرون رحمهم الله أجمعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

قال السبط: فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين، وأهل مكة، ثم عاد معهم إلى الحلة.

قال أبو شامة: وفيها في ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشيخ الفقيه.

ضياء الدين

■ صقر بن يحيى بن سالم وكان فاضلا ديّناً، ومن شعره قوله رحمه اللّه تعالى:

من ادعى أن له حالة تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحباً فإنه ضر بلا نفع

وهو واقف القوصية.

أبو العرب

■ إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري القوصي: واقف داره بالقرب من الرحبة على أهل الحديث وبها قبره، وكان مدرساً بحلقة جمال الإسلام تجاه البرادة، فعرفت به، وكان ظريفاً مطبوعاً حسن المحاضرة، وقد جمع له معجماً حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة.

قال أبو شامة: وقد طالعته بخطه فرأيت فيه أغاليط وأوهاماً في أسماء الرجال وغيرها، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة بن ديلم فقال سعد بن عبادة بن الصامت وهذا غلط فاحش.

وقال في مسند خرقة التصوف فغلط وصحف حبياً أبا محمد حسيناً؟.

قال أبو شامة: رأيت ذلك بخطه، توفي يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة رحمه اللّه.

وقد توفي الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب، وكانت وفاته بها، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى،كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)]، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه الذيل [ص: ١٩٠] وشرحه، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة، وكيفية خروجها وأمرها، وهذا محرر في كتاب: دلائل النبوة من السيرة النبوية، في أوائل هذا الكتاب وللّه الحمد والمنّة.

وملخص ما أورده أبو شامة رحمه اللّه تعالى، أنه قال: وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكتبت الكتب في خامس رجب، والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق حرسها اللّه تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول اللّه ﷺ فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لاتقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى». فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب.

قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجاً، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، إنما كانت آية من آيات اللّه عز وجل».

قال أبو شامة: وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها.

«لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة - يعني النبوية - دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منائر، وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد مدت مسيل شظا وما عاد بسيل، واللّه لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيراناً، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ورجعت تسير في الشرق فخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر اللّه تعالى في كتابه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣]، وقد أكلت الأرض.

وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق المعبر للحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر،والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك، واللّه يجعل العاقبة إلى خير، فما أقدر أصف هذه النار».

قال أبو شامة: «وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخر سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرقي المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم: انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل احد، ثم وقفت وعادت إلى الساعة، ولا ندري ماذا تفعل؟ ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى، وهذه دلائل القيامة».

قال: «وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحال ثلاثة أيام يقع في اليوم والليلة اربع عشرة زلزلة، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول اللّه ﷺ، وهي برأي العين من المدينة، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر، كما قال اللّه تعالى،وهي بموضع يقال له أُحَيْلين، وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار، ويسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك، فإذا جمد صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر، وقد حصل بطريق هذه النار إقلاع عن المعاصي والتقرب إلى اللّه تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها».

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة «ومن كتاب الشيخ شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، واللّه لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة النبوية اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل الحرم الشريف، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل

دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس جيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت إلى الأمير كلّمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله تعالى، فأعتق كل مماليكه ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل ذلك قلت: اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ، وأشفقنا منها، وظهر ضوؤها إلى أن أبصرت من مكة ومن الفلاة جميعها ثم سال منها نهر من نار، وأخذ فيه وادي أُحيلين وسد الطريق ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادي وادي الشظا، وما عاد يجري في الوادي سيل قط لأنها حفرته نحو قامتين وثلث علوها، وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي إلينا منها قتير، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفئ بقدرة الله وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ولها دوي ما يدعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع، وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم خامس رجب، وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ما يطلعان إلا كاسفين، فنسأل الله العافية».

قال أبو شامة: وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك أيش هو؟ إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

قلت: وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار، فقال: وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة ثم انجلى، وكسفت الشمس، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور، والله على كل شيء قدير.

ثم قال: واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد، واستبعده أهل النجامة.

ثم قال أبو شامة: «ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أعلى أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير، وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله وأشرف الناس على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة، وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم: لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين، عاد الناس يسمعون صوتاً مثل صوت الرعد، ساعة بعد ساعة - وما في السماء غيم حتى نقول: إنه منه - يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر صوت الرعد حتى سمعه الناس وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية، بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع لها الناس روعة عظيمة، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض، فيصل إلى قبل غروب الشمس من يوم الجمعة،، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة وكشفوا رؤوسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله تعالى واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام،وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت والصبيان واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله، وغطت حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍّ وتالٍ للقرآن وراكع وساجد، وداعٍ إلى الله عز وجل، ومتنصلٍ من ذنوبه ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل ما لنا تحت يده، وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم وكالمدينة ارتفاعاً وعرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد، وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاناً إلى وادي أُحيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمامها، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم إنها عظمت الآن وسناءها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا طرف منها كبير يكفي. والشمس والقمر، كأنهما منكسفان إلى الآن وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر».

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كاشف الضرّ صفحاً عن جرائمنا	لقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها	حملا ونحن بها حقّاً أحقّاء
زلازل تخشع الصّمّ الصّلاب لها	وكيف يقوى على الزّلزال شمّاء
أقام سبعاً يرجُّ الأرض فانصدعت	عن منظر منه عين الشّمس عشواء
بحر من النّار تجري فوقه سفن	من الهضاب لها في الأرض إرساء
يُرى لها شرر كالقصر طائشةً	كأنّها ديمة تنصبُّ هطلاء
تنشقُّ منها قلوب الصّخر إن زفرت	رعباً وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف في الجوّ الدّخان إلى	أن عادت الشّمس منه وهي دهماءُ
قد أثّرت سفعةً في البدر لفحتها	فليلة التّمّ بعد النّور ليلاء
تحدّث النّيّرات السّبع ألسنها	بما يلاقي بها تحت الثّرى الماء

وقد أحاط لظاها بالبروج إلى أن كاد يلحقها بالأرض أهواء
فيا لها آيةً من معجزات رسول الله يعقلها القوم الألبّاء
فباسمك الأعظم المكنون إن عَظُمت منّا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضّل وامح واعف فاصفح فكلّ لفرط الجهل خطّاء
فقوم يونس لمّا آمنوا كشف العذاب عنهم وعمّ القوم نعماء
ونحن أمّة هذا المصطفى ولنا منه إلى عفوك المرجوّ دعّاء
هذا الرّسول الّذي لولاه ما سلكتْ محجّة في سبيل اللّه بيضاء
فارحم وصلّ على المختار ما خطبتْ على علا منبر الأوراق ورقاء

قلت: والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)] من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لاتقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى». وهذا لفظ البخاري.

وقد وقع هذا في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال: سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز.

قلت: وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى وكذلك كان جده، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمقدّمية، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية، وكان مشكور السيرة في الأحكام. وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتي عشرة سنة، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي، وصلوات اللّه وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله:

سبحان من أصبحتْ مشيئتهُ جاريةً في الورى بمقدار
أغرقَ بغدادَ بالمياهِ كما أحرقَ أرضَ الحجازِ بالنّارِ

قال أبو شامة: والصواب أن يقال:

في سنة أغرقَ العراق وقد أحرقَ أرض الحجازِ بالنّارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة: في يوم الجمعة ثامن عشر رجب ـ يعني من هذه السنة ـ كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج المنبر الشريف النبوي، وسمع صرير الحديد، وتحركت السلاسل، وظهرت نار على مسيرة أربعة فراسخ من المدينة، وكانت ترمي بشرر كأنه رؤوس الجبال، ودامت خمسة عشر يوماً.

قال القاصد: وجئت ولم تنقطع بعد، بل كانت على حالها، وسأله إلى أي الجهات ترمي؟ فقال: إلى جهة الشرق، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لوناً وخفة.

قال: وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه، وخرج من جميع المظالم، ولم يزالوا مستغفرين متضرعين حتى سكنت الزلزلة، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع، وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوماً وإلى الآن.

قال ابن الساعي: وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، يقول: إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الفوت، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع اللّه عز وجل قبل الموت، وهذه النار في أرض ذات حجر لا شجر فيها ولا نبت، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله، وهي تحرق الحجارة وتذيبها، حتى تعود كالطين المبلول، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير فاللّه يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين بمحمد وآله الطاهرين.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق مسجد المدينة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثَمَّ، ومعه نار فعلقت في الآلات ثم، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف، وأخذت قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها، وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية ووقع ما وقع منه في الحجرة، وبقي على حاله حتى شرع في عمارة سقفه وسقف المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وأصبح الناس فعزلوا موضعاً للصلاة، وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات وكأنها كانت منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

هذا كلام الشيخ شهاب الدين أبي شامة.

وقد قال أبو شامة في الذي وقع في هذه السنة وما بعدها شعراً وهو قوله:

بعد ستّ من المئين وخمسين لدى أربع جرى في العام
نار أرض الحجاز مع حرق المسجد معه تغريق دار السّلام
ثمّ أخذ التّتار بغداد في أوّل عام، من بعد ذاك وعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوان عليهم، يا ضيعة الإسلام
وانقضت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام
فحنانا على الحجاز ومصر وسلاماً على بلاد الشّام
ربّ سلّم وصن وعاف بقايا المدن، يا ذا الجلال والإكرام

وفي هذه السنة كملت المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس، وحضر فيها الدرس واقفها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فاتح بيت المقدس، ودرس فيها قاضي البلد صدر الدين ابن سَنِيّ الدولة، وحضر عنده الأمراء والدولة والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق.

وفيها أمر بعمارة الرباط الناصري بسفح قاسيون.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الشيخ عماد الدين

■ **عبد الله بن الحسن بن النحاس** ترك الخدم وأقبل على الزهادة والتلاوة والعبادة والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده بسفح قاسيون نحواً من ثلاثين سنة، وكان من خيار الناس. ولما توفي دفن عند مسجده بتربة مشهورة به، وحمام ينسب إليه في مساريق الصالحية، وقد أثنى عليه السبط، وأرخوا وفاته كما ذكرنا.

■ **يوسف ابن الأمير حسام الدين قِزُغلي بن عبد الله عتيق الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الحنبلي** رحمه الله تعالى الشيخ شمس الدين أبو المظفر الحنفي البغدادي ثم الدمشقي.

■ **سبط ابن الجوزي**، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ كثير الفضائل والمصنفات، وله «مرآة الزمان» في عشرين مجلداً من أحسن التواريخ، نظم فيه المنتظم لجده، وزاد عليه وذيل إلى زمانه، وهو من أحسن التواريخ وأبهجها قدم دمشق في حدود الستمائة وحظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي يقوم عند الوعاظ اليوم عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده، ثم يسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن، على طريقة جده.

وقد كان الشيخ تاج الدين الكندي، وغيره من المشايخ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد، التي عند باب المشهد، ويستحسنون ما يقول ودرس بالعزية البرانية التي بناها الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ دار المعظم، وهو واقف العزية الجوانية التي بالكشك أيضاً، وكانت قديماً تعرف بدور ابن منقذ ودرس السبط أيضاً بالشبلية التي بالجبل عند جسر كحيل، وفوض إليه البدرية التي قبالتها، فكانت سكنه، وبها توفي ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة وحضر جنازته سلطان البلد الملك الناصر بن العزيز فمن دونه وقد أثنى عليه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في علومه وفضائله ورياسته وحسن وعظه وطيب صوته ونضارة وجهه، وتواضعه، وزهده وتودده، لكنه قال: وقد كنت مريضاً ليلة وفاته فرأيت وفاته في المنام قبل اليقظة، ورأيته في حالة منكرة، ورآه غيري أيضاً كذلك، فنسأل الله العافية، ولم أقدر على حضور جنازته، وكانت جنازته حافلة حضرها خلق كثير السلطان فمن دونه، ودفن هناك.

وقد كان فاضلا عالماً ظريفاً منقطعاً منكراً على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات، وقد كان مقتصداً في لباسه مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، منصفاً لأهل العلم والفضل، مبايناً لأهل الجبريّة والجهل، وتأتي الملوك وأرباب المناصب إليه زائرين وقاصدين، وربّي في طول زمانه في حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطرباً، وصوته فيما يورده حسناً طيباً، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

قلت: وهو ممن يُنشد له عند موته قو الشاعر:

ما زلتَ تدأبُ في التاريخ مجتهداً ... حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً

وقد سئل يوم عاشوراء زمن الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر للناس شيئا من مقتل الحسين فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى ثم أنشأ يقول وهو يبكي شديداً:

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه ... والصّور في نشر الخلائق ينفخ
لا بد أن ترد القيامة فاطم ... وقميصها بدم الحسين ملطّخ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكي وصعد إلى الصالحية وهو كذلك رحمه الله.

واقف مرستان الصالحية الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن

■ **يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري الكردي**، أكبر أمراء القيمرية، كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك، ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسفح في القبة التي تجاه المارستان المذكور، وكان ذا مال كثير وثروة رحمه الله تعالى

■ **مجير الدين يعقوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب** دفن عند والده بتربة العادلية.

الأمير

■ **مظفر الدين إبراهيم ابن صاحب صرخد عز الدين أيبك** أستاذ دار المعظم واقف العِزِّيَتين البرانية والجوانية على الحنفية، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة رحمهما الله تعالى.

الشيخ شمس الدين

■ **عبد الرحمن بن نوح المقدسي الفقيه الشافعي** مدرس الرواحية بعد شيخه تقي الدين ابن الصلاح، ودفن بالصوفية، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله.

قال أبو شامة: وكثر في هذه السنة موت الفجأة: فمات خلق كثير بسبب ذلك.

وممن توفي فيها

■ **زكي الدين بن الفُويرة** أحد المعدلين بدمشق.

و■ **بدر الدين بن التبنيني** أحد رؤسائها.

وعز الدين

■ **عبد العزيز بن أبي طالب بن عبد الغفار التغلبي بن الحنوي**، وهو سبط القاضي جمال الدين بن الحرستاني، رحمهم الله تعالى وعفا عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها أصبح الملك المعز صاحب مصر عز الدين أيبك التركماني بداره ميتاً وقد ولّي الملك بعد أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب بشهور. كان فيها ملك توران شاه المعظم بن الصالح، ثم خلفته شجرة الدرّ أم خليل مدة ثلاثة أشهر ثم أقيم هو في الملك، ومعه الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس بن الكامل مدة، ثم استقل بالملك بلا منازعة، وكسر الناصر لما أراد أخذ الديار المصرية وقتل الفارس أقطاي في سنة اثنتين وخمسين، وخلع بعده الأشرف واستقل بالملك وحده، ثم تزوج بشجرة الدر أم خليل، وكان كريماً شجاعاً حكيماً ديناً، ثم كان موته في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، وهو واقف المدرسة المعزية بمصر ومجازها من أحسن الأشياء، وهي من داخل ليست بتلك الفائقة.

وقد قال بعضهم فيها: هذه مجاز لا حقيقة له ولما قتل رحمه الله اتهم

مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر بـه، وقـد كـان عـزم علـى تـزوج ابنـة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالـت تضربه بقباقيبها والجواري يعركن في معاريه حتى مـات وهـو كذلـك، ولـما سمعوا مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكـه الأكـبر سيـف الديـن قطـز، فقتلوهـا وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة، بعد الحجاب المنيع والمقـام الرفيـع، وقد علِّمت على المناشير والتواقيـع، وخطـب الخطبـاء باسمهـا، وضربـت السكة برسمها، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَـاءُ وَتُعِزُّ مَـنْ تَشَـاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيـرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] وأقامت الأتراك بعد أسـتاذهم عـز الديـن أيبـك التركمـاني، بإشـارة أكـبر مماليكه الأمير سيف الدين قطز، ولده نور الدين علياً ولقبوه الملك المنصور، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وجرت الأمور على ما يختاره برأيه ورسمه.

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة، فنهبت الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي، وكان ذلك من أقـوى الأسباب في ممالأته للتتار.

وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشـام، ومـن شـعارهم لبـس الفراجـي والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم، وهو خلاف السنة، تركوهـا لمتابعة شيخهم حيدر حين أسـره الملاحـدة فقصـوا لحيتـه وتركـوا شـواربه، فاقتدوا بـه في ذلـك [انظر: البخاري (٥٨٩٢، ٥٨٩٣)، م (٢٥٩، ٢٦٠)]، وهـو معذور مأجور وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وليس لهم في شيخهم قدوة وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريباً من العونية.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة من هـذه السـنة المباركـة عمـل عزاء واقف البادرائية بها الشيخ نجم الديـن عبـد اللّه بـن محمـد البـادرائي البغدادي مدرس النظامية، ورسـول الخلافـة إلى ملـوك الآفـاق في الأمـور المهمة، وإصلاح الأحوال المدلهمة، وقـد كـان فـاضلا بارعـاً رئيسـاً وقـورا متواضعاً، وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة مكان دار الأمير أسامة، وشـرط على المقيم بها العزوبة وأن لا يكون الفقيـه في غيرهـا مـن المـدارس، وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعيته على طلب العلم، ولكـن حصـل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير.

وقد كان شيخنا الإمام العلامة، شيخ الشافعية بالشـام وغيرهـا برهـان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابـن الشـيخ تـاج الديـن الفـزاري مـدرس هـذه المدرسة وابن مدرسها، يذكر أنه لما حضـر الواقـف في أول يـوم درس بهـا وحضر عنده السلطان الناصر، قرأ كتاب الوقف وفيـه: ولا يدخلهـا امـرأة. فقال السلطان ولا صبي؟ فقال الواقف: يا مولانا السلطان ربنا مـا يضـرب بعصاتين. فإذا ذكر هذه الحكاية تبسم عندها رحمه اللّه تعالى.

وكان هو أول من درس بها ثم ولده كمال الديـن مـن بعـده، وجعـل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد، ثم صار في ذريته إلى الآن وقـد نظـر فيـه بعض الأوقات القاضي شمس الدين بن الصائغ ثم انتزع منه حيث أثبـت لهم النظر، وقـد أوقـف البـادرائي علـى هـذه المدرسـة أوقافـاً حسـنة دارة، وجعل فيها خزانة كتب حسنة نافعة وقد عاد إلى بغداد في هذه السـنة فـولي بها قضاء القضاة كرهاً منه، فأقام فيه سبعة عشر يوماً ثم توفي إلى رحمة اللّـه تعالى في مستهل ذي الحجة من هذه السنة ودفن بالشونيزية رحمه اللّه تعالى.

وفي ذي الحجة من هذه السنة بعد موت البادرائي بأيام قلائل نزلت التتار على بغداد مقدمة لملكهم هولادو بن تولي بن جنكزقان عليهم لعـائن الرحمن، وكان افتتاحهم لها وجنايتهم عليهـا في أول السـنة الآتيـة علـى مـا سيأتي بيانه وتفصيله ـ وباللّه المستعان.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ البادرائي واقف البادرائية التي بدمشـق كمـا تقـدم بيانـه رحمـه اللّـه تعالى.

والشيخ تقي الدين

■ عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني بهـا في ثـامن ربيـع الأول ودفـن فيها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلا بالحديث سماعاً وكتابـة وإسماعـاً، إلى أن توفي وله نحو مائة سنة.

قلت: وأكثر كتبـه ومجاميعـه الـتي بخطـه موقوفـة بخزانـة الفاضليـة مـن الكلاسة، وقد رأى في المنام رسول اللّه ﷺ فقال له: يا رسول اللّه مـا أنـا رجل جيد؟ قال: بلى أنت رجل جيد، رحمه اللّه وأكرم مثواه.

الشيخ شرف الدين

■ محمد بن أبي الفضل المرسي، وكان شيخاً فاضلا متقناً محققاً للبحث كثير الحج، له مكانة عند الأكابر، وقد اقتنى كتباً كثيرة، وكـان أكـثر مقامـه بالحجاز، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلـدة وكـان مقتصـداً في أموره، وكانت وفاته رحمه اللّه بالزَّعْقَة بين العريـش والـداروم في منتصـف ربيـع الأول من هذه السنة رحمه اللّه تعالى.

الملك الناصر

■ داود بن المعظم عيسى بن العادل، ملك دمشق بعد أبيه، ثم انتزعت من يده وأخذها عمه الأشرف واقتصر على الكرك ونابلس، ثم تنقلـت بـه الأحوال وجرت له خطوب طوال حتى لم يبق معه شيء من المحال، وأودع وديعة تقارب مائة ألف دينار عند الخليفة المستنصر فـأنكره إياها ولم يردهـا عليه، وقد كان له فصاحة وشعر جيد، ولديه فضائل جمة، واشتغل في علـم الكلام على الشمس الخسروشاهي تلميذ الفخر الرازي، وكان يعرف علوم الأوائل جداً، وحكوا عنه أشياء تدل إن صحت علـى سـوء عقيدتـه فاللّـه أعلم.

وذكر أنه حضر أول درس ذكـر بالمستنصرية في سـنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لـو كنـتُ في يـوم السَّـقيفة شـاهداً كنـتُ المقـدَّمَ والإمـامَ الأعظمـا

فقال الناصر داود للشاعر: اسكت فقـد أخطـأت، قـد كـان جـد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمـام الأعظـم إلا أبـو بكر الصديق ﷺ، فقال الخليفة: صدق، فكان هذا من أحسن ما نقل عنـه رحمه اللّه تعالى.

وقد تقاصر أمره إلى أن رسم عليه الناصر بن العزيز بقرية البويضا التي لعمه مجير الدين يعقوب حتـى تـوفي بهـا في هـذه السـنة، فـاجتمع النـاس بجنازته، وحمل منها فصلّي عليه ودفن عند والده بسفح قاسيون.

الملك المعز

■ عز الدين أيبك التركماني، أول ملوك الأتراك، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وكان دينا صيناً عفيفاً كريماً، مكث في الملك نحواً من سبع سنين ثم قتلته زوجته شـجر الـدر أم خليـل، وقـام في الملك من بعده ولده نور الدين علي، ولقب بـالملك المنصور، وكـان مدبـر

مملكته مملوك أبيه سيف الدين قطز، ثم عزله واستقل بالملك بعده نحواً من سنة وتلقب بالمظفر، فقدّر الله كسرة التتار على يديه بعين جالوت وقد بسطنا هذا كله في الحوادث فيما تقدم وما سيأتي ولله الحمد.

■ شجر الدّرّ بنت عبد الله أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور، فمات صغيراً، وكانت تكون في خدمته لا تفارقه حضراً ولا سفراً من شدة محبته لها وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلّمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر، ثم تملك المعز كما ذكرنا، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره، فتمالأ عليها مماليكه المعزية فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى.

وكانت قوية النفس، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر النفسية واللآلئ المثمنة، كسرته في الهاون لا لها ولا لغيرها، وكان وزيرها في دولتها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سُليم المعروف بابن حِنّاء وهو أول مناصبه.

الشيخ الأسعد

■ هبة الله بن صاعد شرف الدين الفائزي لخدمته قديماً الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل، وكان نصرانياً فأسلم، وكان كثير البرّ والصدقات والبر والصلات، استوزره المعز وكان حظياً عنده جداً، لا يفعل شيئاً إلا بعد مراجعته ومشاورته، وكان قبله في الوزارة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وقبله القاضي بدر الدين السنجاري، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلماني،وقد كان الفائزي يكاتبه المعز بالمملوك، ثم لما قتل المعز أهين الأسعد حتى صار شقياً، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار،وقد هجاه بهاء الدين زهير بن علي، فقال:

لعن اللّهُ صاعداً ... وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا ... واحداً ثم واحدا

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن بالقرافة، وقد رثاه القاضي ناصر الدين ابن المنير، وله فيه مدائح وأشعار حسنة فصيحة رائقة.

■ ابن أبي الحديد العراقي الشاعر عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبي الحديد عز الدين المدائني، الكاتب الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً، ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة، ثم صار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بالديوان الخليفتي، وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة، وقد أورد له ابن الساعي أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة وكان أكثر فضيلة وأدباً من أخيه أبي المعالي موفق الدين أحمد بن هبة الله وإن كان الآخر فاضلا بارعاً أيضاً، وقد ماتا في هذه السنة رحمهما الله تعالى.

المشد الشاعر الأمير سيف الدين

■ علي بن عمر بن قزل مشد الديوان بدمشق، وكان شاعراً مطبقاً له ديوان مشهور، وقد رآه بعضهم بعد موته فسأله عن حاله فأنشده:

نقلت الى رمس القبور وضيقها ... وخوفي ذنوبي أنها بي تعثر
فصادفت رحماناً رؤوفاً وأنعماً ... حباني بها قِدْماً لما كنت أحذر
ومن كان حسن الظنّ في حال موته ... جميلا بعفو اللّه فالعفو أجدر

■ بشارة بن عبد الله الأرمني الأصل بدر الدين الكاتب مولى شبل الدولة المعظمي، سمع الكندي وغيره، وكان يكتب خطا جيداً وأسند إليه مولاه النظر في أوقافه وجعله في ذريته، فهم إلى الآن ينظرون في الشبليتين، وكانت وفاته في النصف من رمضان من هذه السنة.

القاضي

■ تاج الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين المصري ناب عن أبيه ودرس بالشامية، وله شعر فمنه قوله:

صيَّرت فمي لفيه باللثم لثام ... عمداً ورشفت من ثناياه مدام
فازورَّ وقال أنت في الفقه إمام ... ريقي خمر وعندك الخمر حرام

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها.

استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكو قان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغادة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبّحهم اللّه تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المناجيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا تردّ من قدر اللّه سبحانه وتعالى شيئا، كما ورد في الأثر: «لن يغني حذر عن قدر» [المستدرك: ٤٩٢/١] وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنُّشّاب من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرة الستائر على دار الخلافة ـ وكان قدوم هولاكو قان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف، مقاتل ـ إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره اللّه وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همذان متوجهاً إلى العراق أشارالوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث إليه بشيء يسير، فأرسل شيئا من الهدايا فاحتقرها هولاكو قان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالى به حتى أزف قدومه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر،

فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي.

وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب شديدة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير فاشتد حنقه على ذلك فكان هذا مما أهاجه على أن دبّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج في أهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو قان لعنه اللّه، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو قان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خواجا نصير الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين - لعنة اللّه عليهم - على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزيران ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال غُرِّق فاللّه أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده ـ وستأتي ترجمة الخليفة في الوفيات ـ ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقُنِيِّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى القانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم في الأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها أحد إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.

وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر ، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وجلّى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضية وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، واللّه غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم للّه العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد كما قص اللّه تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٤ـ٥] الآيات. وقد قتل من بني إسرائيل خلق من الصلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعدما كان معموراً بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء فصار خاوياً على عروشه واهي البناء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة فقيل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف.

وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين صباحاً، وكان قتل الخليفة المستعصم باللّه أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعُفّي قبره، وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل واللّه أعلم، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد اللّه، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، منهم الديودار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه وجواريه فيذهب به إلى مقبرة الخلاّل،تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه اللّه ولعنه أن يعطل

المساجد والجوامع والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم في الدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى أمد الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت البلد من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من كان تحت الأرض بالمطامير والقُنِيِّ والمغاير كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا ولحقوا بمن سلف من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو قان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه وفوض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله بعدُ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعياً جلداً رافضياً خبيثاً، فمات كمداً وغماً وحزناً وندماً، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، فولي بعده الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم.

وفي هذه السنة اقتتل المصريون مع صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل بن أبي بكر بن العادل الكبير، وكان في جيشه جماعة من أمراء البحرية، منهم ركن الدين بيبرس البندقداري، فكسرهم المصريون ونهبوا ما كان معهم من الأثقال والأموال، وأسروا جماعة من رؤوس الأمراء، فقتلوا صبراً، وعادوا إلى الكرك في أسوإ حال وأشنعه، وجعلوا يفسدون في الأرض ويعيثون في البلاد، فأرسل اليهم الناصر صاحب، دمشق جيشاً ليكفهم عن ذلك، فكسرهم البحرية واستنصروا فبرز إليهم الناصر بنفسه فلم يلتفتوا إليه وقطعوا أطناب خيمته التي هو فيها بإشارة ركن الدين بيبرس المذكور، وجرت حروب وخطوب يطول بسطها وبالله المستعان.

ومن توفي في هذه السنة من المشاهير والأعيان

خليفة الوقت

■ **المستعصم بالله**: أمير المؤمنين آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله، وهو أبو أحمد عبد الله ابن امير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بالله أبي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي.

مولده سنة تسع وستمائة، وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة فيكون عمره يوم قتل سبعاً وأربعين سنة رحمه الله تعالى.

وقد كان رحمه الله تعالى حسن الصورة جيد السيرة صحيح السريرة صحيح العقيدة مقتدياً بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد، وقد استجاز له الحافظ ابن النجار من جماعة من مشايخ خراسان، منهم المؤيد الطوسي، وأبو روح عبد المعز بن محمد الهروي وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار وغيرهم، وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار، وأجاز هو للإمام محيي الدين بن الجوزي، وللشيخ نجم الدين البادرائي، وحدثا عنه بهذه الإجازة.

وقد كان رحمه الله تعالى سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه غلَّ الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعظم، وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ [آل عمران: ٧٥]

قتله التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة، وله من العمر ست وأربعون سنة وأربعة أشهر. وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، فرحمه الله وأكرم مثواه، وبلَّ بالرحمة ثراه. وقد قتل بعده ولداه، وأسر ابنه الثالث مع بنات ثلاث من صلبه، وشغر منصب الخلافة بعده، ولم يبق في بني العباس من سد مسده، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس، ومن يرتجى منهم النوال ويخشى منهم الباس، وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح وكان عدة خلفاء بني العباس إلى المستعصم سبعة وثلاثين خليفة، فكان أولهم عبد الله السفاح، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة ثنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية كما تقدم بيانه، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام أعني سنة ست وخمسين وست مئة، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة، ثم عادت كما كانت وقد بسطنا ذلك في موضعه في أيام القائم بأمر الله ولله الحمد.

ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد

المغرب، ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممن بقي منهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة كما ذكرنا، وقارن بني العباس دولة المدعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب، وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر، وتداولتها الملوك دولاً بعد دول، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات، كما ذكر ذلك مبسوطاً في الحوادث والوفيات.

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد الستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية المقدسية كما ذكرنا، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً متخلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أنّ خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها الحديث الصحيح [المسند ٥/٢٢٠، ٢٢١، د(٤٦٤٦)، ت (٢٢٢٦)]، فكان فيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن بن علي ستة شهور حتى كملت بها الثلاثون كما قررنا ذلك في دلائل النبوة.

ثم كانت ملكاً فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية، المختتم بمعاوية.

ثم ملك مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك؛ ثم الوليد بن عبد الملك، ثم أخوه سليمان ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضاً، ثم مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، ثم انقرضوا من أولهم إلى خاتمهم.

وكان أول خلفاء بني العباس السفاح، واسمه عبد الله وكان وآخرهم عبد الله المستعصم واسمه عبد الله.

وكذلك أول خلفاء الفاطميين، فالأول اسمه عبد الله المهدي وآخرهم عبد الله العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قلّ من يتنبه له، والله سبحانه أعلم.

وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء فيها ذكر جميع الخلفاء:

الحمد للّه العظيم عرشه ... القاهر الفرد القويّ بطشه
مقلّب الأيّام والدّهور ... وجامع الأنام للنّشور
ثمّ الصّلاة بدوام الأبد ... على النّبيّ المصطفى محمّد
وآله وصحبه الكرام ... السّادة الأئمّة الأعلام
وبعد هذا هذه أرجوزه ... نظمتها لطيفةً وجيزه
نظمت فيها الرّاشدين الخلفا ... من قام بعد النّبيّ المصطفى
ومن تلاهم وهلمّ جرّا ... جعلتها تبصرةً وذكرى
ليعلم العاقل ذو التّصوير ... كيف جرت حوادث الأمور
وكلّ ذي مقدرة وملك ... معرضون للفنا والهلك
وفي اختلاف اللّيل والنّهار ... تبصرة لكلّ ذي اعتبار
والملك للجبّار في بلاده ... يورثه من شاء من عباده
وكلّ مخلوق فللفناء ... وكلّ ملك فإلى انتهاء
ولا يدوم غير ملك الباري ... سبحانه من ملك قهّار
منفرد بالعزّ والبقاء ... وما سواه فإلى انقضاء
أوّل من بويع بالخلافه ... بعد النّبيّ ابن أبي قحافه
أعني الإمام العادل الصّدّيقا ... ثمّ ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا ... واستأصلت سيوفه الكفّارا
وقام بالعدل قياماً يرضي ... بذاك جبّار السّما والأرض
ورضي النّاس بذي النّورين ... ثمّ عليّ والد السّبطين
ثم أتت كتائب مع الحسن ... كادوا بأن يجدّدوا بها الفتن
فأصلح اللّه على يديه ... كما عزا نبيّنا إليه
وأجمع النّاس على معاويه ... ونقل القصّة كلّ راويه
فمهّد الملك كما يريد ... وقام فيه بعده يزيد
ثمّ ابنه وكان برّاً راشدا ... أعني أبا ليلى وكان زاهدا
فترك الإمرة لا عن غلبه ... ولم يكن منه إليها طلبه
وابن الزّبير بالحجاز يدأب ... في طلب الملك وفيه ينصب
وبالشّام بايعوا مروانا ... بحكم من يقول كن فكانا
ولم يدم في الملك غير عام ... وعافصته أسهم الحمام
واستوسق الملك لعبد الملك ... ونار نجم سعده في الفلك
وكلُّ من نازعه في الملك ... خرّ صريعاً بسيوف الهلك
فقتل المصعب بالعراق ... وسيّر الحجّاج ذا الشّقاق
إلى الحجاز بسيوف النّقم ... وابن الزبير لائذ بالحرم
فجاء بعد قتله بصلبه ... ولم يخف في أمره من ربّه
وعندما صفت له الأمور ... تقلّبت لحينه الدّهور
ثم أتى من بعده الوليد ... ثمّ سليمان الفتى الرّشيد
ثم استفاض في الورى عدل عمر ... تابع أمر ربّه كما أمر
وكان يدعى بأشجّ القوم ... وذي الصّلاة والتّقى والصّوم
فجاء بالعدل والإحسان ... وكفّ أهل الظّلم والطّغيان
مقتدياً بسنّة الرّسول ... والرّاشدين من ذوي العقول
فجرع الإسلام كأس فقده ... ولم يروا مثلا له من بعده
ثمّ يزيد بعده هشام ... ثمّ الوليد فُتّ منه الهام
ثمّ يزيد وهو يدعى النّاقصا ... فجاءه حمامه معافصا
ولم تطل مدّة إبراهيما ... وكان كلّ أمره سقيما
وأسند الملك إلى مروانا ... فكان من أموره ما كانا
وانقرض الملك على يديه ... وحادث الدّهر سطا عليه
وقتله قد كان بالصّعيد ... ولم تفده كثرة العديد
وكان فيه حتف آل الحكم ... واستنزعت عنهم ضروب النّعم

ثم أتى ملك بني العبّاس   لا زال فينا ثابت الأساس
وجاءت البيعة من أرض العجم   وقلّدت بيعتهم كلُّ الأمم
وكلّ من نازعهم من أمم   خرّ صريعاً لليدين والفم
وقد ذكرت من تولّى منهم   حين تولّى القائم المستعصم
أوّلهم بعثت بالسفاح   وبعده المنصور ذو النجاح
ثم أتى من بعده المهدي   يتلوه موسى الهادي الصفي
وجاء هارون الرشيد بعده   ثم الأمين حين ذاق فقده
وقام بعد قتله المأمونُ   وبعده المعتصم المكين
واستخلف الواثق بعد المعتصم   ثم أخوه جعفر موفي الذمم
وأخلص النية في التوكُّل   للّه ذي العرش القديم الأول
فأدحض البدعة في زمانه   وقامت السنة في أوانه
ولم يبق فيها بدعة مضلّه   وألبس المعتزلي ذلّه
فرحمة اللّه عليه أبدا   ما غار نجم في السماء أو بدا
وبعده استولى وقام المعتمد   ومهد الملك وساس المقتصد
وعندما استشهد قام المنتصر   والمستعين بعده كما ذكر
وجاء بعد موته المعتز   والمهتدي المكرَّم الأعز
وبعده استولى وقام المعتمدْ   ومهَّد المُلكَ وساس المعتضِدْ
والمكتفي في الصُّحف العلا سُطِرْ   وبعده ساس الأمور المقتدر
واستوسق الملك بعز القاهر   وبعده الراضي أخو المفاخر
والمتقي من بعدُ والمستكفي   ثم المطيع ما به من خلف
والطائع الطائع ثم القادر   والقائم الزاهد وهو الشاكر
والمقتدي من بعده المستظهر   ثم أتى المسترشد الموقر
وبعده الراشد ثم المقتفي   وحين مات استنجدوا بيوسف
المستضي العادل في أفعاله   الصادق الصدوق في أقواله
والناصر الشهم الشديد الباس   ودام طول مكثه في الناس
ثم تلاه الظاهر الكريم   وعدله كل به عليم
ولم تطل أيامه في المملكه   غير شهور واعترته الهلكه
وعهده كان إلى المستنصر   العادل البر الكريم العنصر
دام يسوس الناس سبع عشره   وأشهراً بعزمات بره
ثم توفي عام أربعينا   وفي جمادى صادف المنونا
وبايع الخلائق المستعصما   صلى عليه ربنا وسلما
يبعث نُجُبَ الرسل في الآفاق   يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا   ونشروا من جوده المفاخرا
وسار في الآفاق حسن سيرته   وعدله الزائد في رعيته

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه اللّه تعالى: ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتا:

ثم ابتلاه اللّه بعدُ بالتتار   أتباع جنكز الخان الجبار
صحبة ابنِ ابنِ له هولاكو   فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله   وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا   وقتّلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم   ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرهم إنظاره وحلمه   وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافه   ولم يؤرخ مثلها من آفه
ثم أقام الملك أعني الظاهرا   خليفةً أعني به المستنصرا
ثم ولي من بعد ذاك الحاكم   مسيم بيبرس الإمام العالم
ثم ابنه الخليفة المستكفي   وبعض هذا للبيت يكفي
ثم ولي من بعده جماعه   ما عندهم علم ولا بضاعه
ثم خليفة الوقت المعتضد   ولا يكاد الدهر مثله يجد
في حسن خلق واعتقاد وحلى   وكيف لا وهو من الشمّ الأولى
سادوا البلاد والعباد فضلا   وملؤوا الأقطار حكماً وعدلا
أولاد عم المصطفى محمد   وأفضل الخلق بلا تردد
صلى عليه اللّه ذو الجلال   ما دامت الأيام والليالي

فصل

والفاطميون قليلو العده   لكنهم مد لهم في المده
فملكوا بضعاً وستين سنه   من بعد مائتين وكان كالسنه
والعدة أربع عشرة المهدي   والقائم المنصور المعدي
أعني به المعز باني القاهره   ثم العزيز الحاكم الكوافره
والظاهر المستنصر المستعلي   والآمر الحافظ عنه سوء الفعل
والظافر الفائز ثم العاضد   آخرهم وما لهذا جاحد
أهلك بعد البضع والستينا   من قبلها خمسمائة سنينا
وقد رقمتُ العمر فوق الاسم   ومُدّة الدولة تحت الاسم
وقد بسطنا ذاك فيما سلفنا   وأصلهم يهودُ ما هم شُرفا

فصل

وهكذا خلفا بني أميه   عدتهم كعدة الرفضيّه
ولكن المدة كانت ناقصه   عن مائة من السنين خالصه
وكلهم قد كان ناصبيا   إلا الإمام عمر التقيا
معاويه ثم ابنه يزيد   وابن ابنه معاوي السديد
مروان ثم ابن له عبد الملك   منابذ لابن الزبير حتى هلك
ثم استقل بعده بالملك   في سائر الأرض بغير شك
ثم الوليد النجل باني الجامع   وليس مثله شكله من جامع
ثم سليمان الجواد وعمر   ثم يزيد وهشام وغدر
أعني الوليد بن يزيد الفاسقا   ثم يزيد بن الوليد فاتقا
يلقب الناقص وهو كامل   ثُمّتَ إبراهيم وهو عاقل

ثم مروان الحمار الجعدي آخرهم فاظفر بنا من بعدي
والحمد للّه على التمام كذاك نحمده على الإنعام
ثم الصلاة مع تمام العدد على النبي المصطفى محمد
وآله وصحبه الأخيار في سائر الأوقات والأعصار
وهذه الأبيات نظم الكاتب ثمانية تتمة المناقب

■ (يوسف بن جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي).

وممن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة الصاحب محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبيد اللّه بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد اللّه بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي.

ولد في ذي القعدة سنة ثمانين وخمسمائة، ونشأ شاباً حسناً، وحين توفي أبوه وعظ في موضعه فأحسن وأجاد وأفاد، ثم تقدم فولي حسبة بغداد مع الوعظ الرائق والأشعار الحسنة الرائقة، ثم ولي تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكانت له تداريس أخر، ولي أستاذ دار الخلافة، وكان رسولا للملوك من بني أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء ثم لما ولي مؤيد الدين بن العلقمي الوزارة وشغر عنه الأستاذ دارية وليها محيي الدين هذا، وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانه للحسبة والوعظ فأجاد فيها، وشَعَر أيضاً حسناً، ثم كانت الحسبة تتنقل في بنيه الثلاثة جمال الدين عبد الرحمن، وأشرف الدين عبد اللّه، وتاج الدين عبد الكريم. وقد قتلوا معه في هذه السنة رحمهم اللّه.

ولمحيي الدين هذا مصنف في مذهب الإمام أحمد، وقد ذكر له ابن الساعي أشعاراً حسنة يهنئ بها الخليفة في المواسم والأعياد، تدل على فضيلة تامة وفصاحة بالغة، وقد وقف المدرسة الجوزية بدمشق وهي من أحسن المدارس وأوجهها، تقبل اللّه منه وأثابه برحمته.

■ الصرصري المادح يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام الشيخ الإمام العلامة البارع الفاضل في أنواع من العلوم، جمال الدين أبو زكريا الصرصري، الشاعر المادح الحنبلي الضرير البغدادي، معظم شعره في مدح رسول اللّه ﷺ وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وسمع الحديث وحفظ الفقه واللغه ويقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهري بتمامه في اللغة. وصحب الشيخ علي بن إدريس تلميذ الشيخ عبد القادر.

وكان ذكياً، يتوقد نوراً، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصيحة بليغة، وقد نظم الكافي الذي ألفه موفق الدين بن قدامة، ومختصر الخرقي.

وأما مدائحه في رسول اللّه ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلداً، وما اشتهر عنه أنه مدح أحداً من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء، ولما دخل التتار إلى بغداد دعي إلى دار بها فرمان من هولاكو فأبى أن يجيب إليه، وأعد في داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم، ثم قتلوه شهيداً رحمه اللّه تعالى وله من العمر ثمان وستون سنة.

وقد أورد له الشيخ قطب الدين اليونيني من ديوانه قطعة صالحة في ترجمته في الذيل [ذيل مرآة الزمان: ٢٥٨/١-٣٣٢]، استوعب حروف المعجم، كلها وذكر غير ذلك قصائد طوالا كثيرة حسنة.

■ البهاء زهير صاحب الديوان: وهو زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكي المصري، ولد بمكة ونشأ بقوص، وأقام بالقاهرة، الشاعر المطبق الكاتب الجواد في حسن الخط له ديوان مشهور، وقدم على السلطان الصالحنجم الدين أيوب، وكان غزير المروءة حسن التوسط في إيصال الخير إلى الناس، ودفع الشر عنهم، وقد أثنى عليه ابن خلكان وقال: أجاز لي رواية ديوانه، وهو مشهور وقد بسط ترجمته الشيخ قطب الدين اليونيني.

الحافظ زكي الدين

■ المنذري عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد اللّه بن سلامة بن سعد بن سعيد، الإمام العلامة الحافظ أبو محمد أبو زكي الدين المنذري الشافعي المصري، أصله من الشام وولد بمصر، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة، إليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة.

وقيل: إنه ولد بالشام سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وسمع الكثير ورحل وطلب وعني بهذا الشأن، حتى فاق أهل زمانه فيه، وصنف وخرج، واختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وهو أحسن اختصاراً من الأول، وله اليد الطولى في اللغة والفقه والتاريخ. وكان ثقة حجة متحرياً زاهداً، توفي يوم السبت رابع ذي القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية بمصر ودفن بالقرافة رحمه اللّه تعالى.

النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم

■ الإسعردي الشاعر المشهور الخليع، كان القاضي صدر الدين بن سني الدولة قد أجلسه مع الشهود تحت الساعات، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد فجعله من جلسائه وندمائه، وخلع عليه خلع الأجناد، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره، وجمع كتابا سماه «الزرجون في الخلاعة والمجون». وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر والخلاعة، ومن شعره الذي لا يحمد:

لذةُ العمرِ خمسةٌ فاقتنيها من خليع غدا أديباً فقيها
في نديم وقينة وحبيب ومدام وسبٌّ من لام فيها

الوزير

■ ابن العلقمي الرافضي قبحه اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي، وخدمه في أيام المستنصر، أستاذ دار الخلافة مدة طويلة، ثم صار وزير المستعصم ولم يكن وزير صدق، فإنه كان من الفضلاء الأدباء في الإنشاء والأدب، وكان رافضياً خبيثا رديء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالأ على الإسلام وأهله التتار أصحاب هولاكو حتى جاؤوا فجاسوا خلال الديار، وكان أمراً مفعولاً ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر اللّه، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذوناً وهو، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه وقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً، وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

ودفن في قبور الروافض، وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من

التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يا فرقةَ الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفاً على ما حلَّ بالمستعصم

دستُ الوزارةَ كانَ قبلَ زمانه ... لابن الفراتِ فصار لابنِ العلقمي

■ محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة: فتح الدين أبو عبد الله بن العدل محتسب دمشق، كان مشكوراً حسن الطريقة، وجده العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله بن حيدرة، وهو واقف المدرسة التي بالزبداني في سنة تسعين وخمسمائة تقبل الله تعالى منه وجزاه خيراً.

■ القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم: أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث المدرس بالإسكندرية، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير هناك، واختصر الصحيحين، وشرح صحيح مسلم بكتابه المسمى المفهم، وفيه أشياء حسنة مفيدة محررة رحمه الله.

الكمال

■ إسحاق بن أحمد بن عثمان: أحد مشايخ الشافعية، أخذ عنه الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وكان مدرساً بالرواحية، وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة.

العماد

■ داود بن عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل: أبو المعالي وأبو سليمان الزبيدي المقدسي ثم الدمشقي خطيب بيت الآبار، وقد خطب بدمشق ست سنين بعد انفصال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ودرس بالغزالية، ثم عاد إلى الآبار فمات بها.

■ علي بن محمد بن الحسين: صدر الدين أبو الحسن بن النيار شيخ الشيوخ ببغداد، وكان أولا مؤدباً للإمام المستعصم، فلما صارت الخلافة إليه برهة من الدهور رفعه وعظمه وصارت له وجاهة عنده، وولاّه مشيخة الشيوخ ببغداد وانضمت إليه أزمة الأمور، ثم إنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة على أيدي التتار.

الشيخ

■ علي العابد الخباز: كان له أصحاب وأتباع ببغداد، وله زاوية يزار فيها، قتلته التتار وألقي على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب لحمه، ويقال إنه أخبر بذلك عن نفسه في حال حياته رحمه الله تعالى.

■ محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبي الفتح أبو عبد الله المقدسي: خطيب مردى، سمع الكثير، وعاش تسعين سنة، وقدم في سنة ثلاث وخمسين فسمع الناس عليه الكثير بدمشق، ثم عاد فمات ببلده في هذه السنة رحمه الله.

■ البدر لؤلؤ صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم، كانت وفاته في شعبان من هذه السنة عن مائة سنة وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وأزال الدولة الأتابكية عن الموصل، ولما انفصل هولاكو عن بغداد بعد الوقعة العظيمة ـ سار إلى خدمته متاقيا له، ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده فمكث بعد مرجعه بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معدلته، وقد جمع له الشيخ عز الدين بن الأثير كتابه المسمى بالكامل في التاريخ فأجازه عليه وأحسن إليه، وكان يعطي لبعض الشعراء ألف دينار. وقام في الملك بعده ولده الصالح إسماعيل.

وقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنياً اشتراه رجل خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي صاحب الموصل، وكان مليح الصورة، فحظي عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه ثم إنه أخنى على أولاد أستاذه فقتلهم غيلة واحدة إلى أن لم يبق منه أحد منهم، فاستقل هو بالملك، وصفت له الأمور، وكان يبعث في كل سنة إلى مشهد علي قنديلا ذهباً زنته ألف دينار، وقد بلغ من العمر قريباً من تسعين سنة، وكان شاباً حسن الشباب من نضارة وجهه، وحسن شكله، وكانت العامة تلقبه قضيب الذهب، وكان ذا همة عالية وداهية شديد المكر بعيد الغور وبعثه إلى مشهد علي بذلك القنديل الذهب في كل سنة دليل على قلة عقله وتشيعه والله أعلم.

الملك

■ الناصر داود بن المعظم ترجمه الشيخ قطب الدين اليونيني في تذييله على المرآة [١٢٦/١] في هذه السنة، وبسط ترجمته جداً وما جرى له من مبتدأ أمره إلى آخر زمانه، وأورد من أشعاره وأقواله شيئاً كثيراً، وأفاد أشياء حسنة رحمه الله تعالى. وقد ذكرنا ترجمته في الحوادث، والله أعلم، وقد مَلَك بعدَ أبيه مدينةَ دِمشق وأعمالها مدةً، ثم تمالأ عليه عمّاه الكاملُ والأشرفُ وانتزعاها من يده، وعوَّضاه منها الكرك والصَّلْتَ وعَجْلون ونابلُسَ، ثم ذهب ذلك كلُّه من يده وصار إلى العراق، فاستودع الخليفة المستعصم في سنة سبع وأربعين وديعة قيمتها مائة ألف دينار فجحدها الخليفة، فتكرر وفوده إليه، وتوسله بالناس في ردها إليه، فلم يفد من ذلك شيئاً، وتقدم أنه قال لذلك الشاعر الذي مدح الخليفة بقوله:

لو كنت في يوم السقيفة حاضراً ... كنت المقدم والإمام الأروعا

فقال له الناصر داود: أخطأت فقد كان جد أمير المؤمنين العباس حاضراً يوم السقيفة ولم يكن مقدماً، وهو أفضل من أمير المؤمنين، وإنما كان المقدم أبو بكر الصديق، فقال الخليفة صدق وخلع عليه، ونفى الشاعر ـ وهو الوجيه القيرواني ـ إلى مصر، فدرس في مدرسة الوزير صفي الدين بن شكر وكانت وفاة الناصر داود بقرية البويضا مرسماً عليه وشهد جنازته صاحب دمشق.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس وهو واقع بينه وبين المصريين وقد ملكوا نور الدين علي بن المعز أيبك التركماني ولقبوه بالمنصور، وقد أرسل الملك الغاشم هولاكو قان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاكو قان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه، وأخذ ابنه وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسي، فانزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن

التتار قد قطعوا الفرات، سافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأقبل هولاكو قان فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف، فأرسل إليها ولده أشموط فافتتحها قسراً وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازي بن العادل فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف، وطيف برأس الكامل في البلاد، ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب الفراديس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجواني، فنظم أبو شامة في ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده، وشبهه بالحسين في قتله مظلوماً، ودفن رأسه عند رأسه.

وفيها عمل الخواجه نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة، ونقل إليه شيئا كثيرا من كتب الأوقات التي كانت ببغداد، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دارهم، ودار طب فيها للطبيب في اليوم درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم، ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم.

وفيها قدم القاضي الوزير كمال الدين عمر ابن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولا من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وحرّان وغيرها، وقد جاز أشموط بن هولاكو الفرات وقرب من حلب، فعند ذلك عقدوا مجلساً بين يدي المنصور بن المعز التركماني، وحضر قاضي مصر بدر الدين السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأفاضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة الجند، وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام، وكان حاصل كلامه أنه قال إذا لم يبق في بيت المال شيء ثم أنفقتم أموال حوائص الذهب وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

ولاية الملك المظفر قطز

وفيها قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه نور الدين علي الملقب بالمنصور، وذلك في غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه وغيرهم في الصيد، فلما مسكه سيره مع أمه وابنيه وإخوته إلى بلاد الأشكري، وتسلطن هو وسمى نفسه بالملك المظفر، وكان هذا من رحمة الله تعالى بالمسلمين، فإن الله جعل على يديه كسر التتار كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وبان عذره الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم، فإنه قال: لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل التتار، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة.

وفيها برز الملك الناصر صاحب دمشق إلى وطاة برزة في جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفضّ ذلك الجمع، ولم يسر لا هو ولاهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها توفي من الأعيان

واقف الصدرية الرئيس صدر الدين

■ أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركات بن مؤمل التوخي المعرّي ثم الدمشقي الحنبلي أحد المعدلين، ذوي الأموال، والمروءات والصدقات الدارة البارة، وقف مدرسة للحنابلة، وقبره بها إلى جانب تربة القاضي المصري في رأس درب الريحان من ناحية الجامع الأموي، وقد ولي نظر الجامع مدة، واستجد أشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلي الجامع، ونقل الصاغة إلى مكانها الآن، وقد كانت قبل ذلك في الصاغة العتيقة، وجدد الدكاكين التي بين أعمدة الزيادة، وثمر الجامع أموالا جزيلة، وكانت له صدقات كثيرة، وذكر عنه أنه كان يعرف صنعة الكيميا وأنه صح معه عمل الفضة، وعندي أن هذا لا يصح ولا يصح عنه والله أعلم.

الشيخ

■ يوسف القَميني كان يعرف بالأقميني لأنه كان يسكن قمين حمام نور الدين الشهيد، وكان يلبس ثياباً طوالا تحف على الأرض، ويبول في ثيابه، ورأسه مكشوفة، ويزعمون أن له أحوالا وكشوفاً كثيرة، وكان كثير من العوام وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته، وذلك لأنهم لا يعلمون شرائط الولاية ولا الصلاح، ولا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، كالرهبان وغيرهم، وكالدجال وابن صياد وغيرهم، فإن الجن تسترق السمع وتلقيه على أذن الأنسي، ولا سيما من يكون مجنوناً أو غير نقي الثياب من النجاسة، فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة، فمن وافق حاله كتاب الله وسنة رسوله فهو رجل صالح سواء كاشف أو لم يكاشف، ومن لم يوافق فليس برجل صالح سواء كاشف أم لا.

قال الشافعي: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

ولما مات هذا الرجل دفن بتربة بسفح قاسيون وهي مشهورة به شرقي تربة أبي عمر المقدسي الرواحية، وهي مزخرفة قد اعتنى بها بعض العوام ممن كان يعتقده، فزخرفها وعمل على قبره حجارة منقوشة بالكتابة، وهذا كله من البدع، وكانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة، وكان الشيخ إبراهيم بن سعيد جيعانة لا يتجاسر فيما يزعم أن يدخل البلد والأقميني حي، فيوم مات الأقميني دخلها، وكان بالشاغور وكانت العوام معه فدخلوا دمشق وهم يصيحون ويصرخون أذن لنا في دخول البلد، وهم أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم، فقيل لجيعانة: ما منعك من دخولها قبل اليوم؟ فقال: كنت كلما جئت إلى باب من أبواب البلد أجد هذا السبع رابضاً فيه فلا أستطيع الدخول، وقد كان سكن الشاغور، وهذا كذب واحتيال ومكر وشعبذة، وقد دفن جيعانة عنده في تربته بالسفح والله أعلم بأحوال العباد.

الشمس

■ علي بن النشبي المحدث: ناب في الحسبة عن الصدر البكري في أيامه، وقرأ الكثير بنفسه، وسمع وأسمع، وكتب بخطه كثيراً رحمه الله تعالى.

■ أبو عبد الله الفاسي شارح الشاطبية: اشتهر بالكنية، وقيل إن اسمه القاسم، وكانت وفاته بحلب، وكان عالماً فاضلا في العربية والقراءات وغير ذلك، وقد أجاد في شرحه للشاطبية وأفاد، واستحسنه الشيخ شهاب الدين

أبو شامة شارحها أيضاً.

■ النجم أخو البدر مفضل: وكان شيخ الفاضلية بالكلاسة، وكان له إجازة من السلفي خطيب العُقيبة بدر الدين يحيى ابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ودفن بباب الصغير على جده، وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى.

■ سعد الدين محمد ابن الشيخ محيي الدين بن عربي: ذكره أبو شامة وأثنى عليه في فضيلته وأدبه وشعره، هذا إن لم يكن من أتباع أبيه وقد ذكر أبو شامة وفاة الناصر داود في هذه السنة وقد قدمنا ترجمته في التي قبل.

■ سيف الدين بن صبرة: متولي شرطة دمشق، ذكر أبو شامة أنه حين مات جاءت حية فنهشت أفخاذه، وقيل: إنها التفت في أكفانه، وأعيى الناس دفعها.

قال: وقيل: إنه كان نصيرياً رافضيا خبيثاً مدمن خمر، نسأل الله الستر والعافية.

■ النجيب بن شُقيشقة الدمشقي أحد الشهود بها، له سماع حديث ووقف داره بدرب البانياسي دار حديث، وهي التي كان يسكنها شيخنا الحافظ المزي قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية.

قال أبو شامة وكان ابن شُقيشقة وهو النجيب أبو الفتح نصر الله بن أبي العز بن أبي طالب الشيباني، مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم، ولم يكن بأهل أن يؤخذ عنه، قال وقد أجلسه أحمد ابن يحيي بن هبة الله الملقب بالصدر ابن سني الدولة في حال ولايته القضاء بدمشق، فأنشد فيه بعض الشعراء:

جلس الشقيشقة الشقي ليشهدا … بأبيكما، ماذا عدا فيما بدا؟

هل زلزل الزلزال؟ أم قد أُخرج … الدجال أم عدم الرجال ذوو الهدى؟

عجباً لمحلول العقيدة جاهل … بالشرع قد أذنوا له أن يقعدا

قال أبو شامة: في سنة سبع وخمسين وستمائة توفي شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علم الأوائل، وكان يسكن مدارس المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشبان المشتغلين فيما بلغني، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام وهو يُعرف بابن الفخر بن البديع البندهي، وكان أبوه يزعم أنه من جملة تلامذة ابن خطيب الري الرازي صاحب المصنفات. حية وولد حية.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنة بيوم الخميس وليس للناس خليفة، وملك العراقين وخراسان وغيرها من بلاد المشرق للسلطان هولاكو قان ملك التتار، وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز، مملوك المعز أيبك التركماني، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر غازي بن الناصر فاتح القدس، وبلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وهو حزب مع الناصر صاحب دمشق على المصريين، ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم.

أخذ التتار حلب ودمشق

وبينما الناس على هذه الحال وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وامتنعت عليهم القلعة شهراً ثم استلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلا حازماً، لكنه لم يوافقه الجيش على المصلحة، ولكن سَرعوا، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا، وإن كانت علينا فإن شئتم قتلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه. ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها رجلا من العجم يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسروشاه، فخرب أسوارها كمدينة حلب.

صفة أخذهم دمشق وزوال ملكهم عنها سريعاً

أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغا نوين، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافعة، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب السلطان هولاكو أمانا لأهل البلد، فقرئ بالميدان الأخضر ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب، هذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفي أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة، فأحضرت التتار مجانيق تحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة، فنصب المجانيق على القلعة من غربيها،وخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيرا من أعاليها وشرفاتها وتداعت للسقوط فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها، وأعالي بروجها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة، وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له إيل سبان، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا البلد من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس، ويأمرون كل

من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ورشوا عنده خمراً، وكذلك على باب مسجدي درب الحجر الصغير والكبير، واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت بعدُ عامرة ولكن كان هذا سبب خرابها ولله الحمد.

وحكى الشيخ قطب الدين في ذيله على المرآة أنهم ضربوا بالناقوس في كنيسة مريم فالله أعلم.

قال وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها، فكفى الله شرّهم ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إيل سبان فأهينوا وطردوا، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذا كان في أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز وهو مقيم في وطأة برزة، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء، وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة، لما يريده الله عز وجل وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الملك الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر علي، فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة المنصورة وتفرقت العساكر شذر مذر وساق الأمير ركن الدين بيبرس في أصحابه إلى ناحية غزة، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه، واقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة وعظم شأنه لديه، وإنما كان حتفه على يديه.

وقعة عين جالوت

اتفق وقوع هذا كله في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت، و لله الحمد وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب مصر لما بلغه أن التتار قد فعلوا بالشام ما ذكرنا، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة، وقد عزموا على الدخول إلى مصر، وقد عزم الملك الناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر، وليته فعل، وكان في صحبته الملك المنصور صاحب حماة وخلق من الأمراء وأبناء الملوك، وقد وصل إلى قطية، وتهيّا الملك المظفر للقائه وأرسل إليه وإلى المنصور مستحقين، وأرسل إليه يقول: تقدم حتى نكون كتفاً واحداً على التتار فتخيل من ذلك وخاف أن يتصر عليه، فكرّ راجعاً إلى ناحية تيه بني إسرائيل، ودخل عامة من كان معه إلى مصر، وأكرم الملك المظفر قطز صاحب حماه ووعده ببلده ووفاه له، ولم يدخل الملك الناصر مصر ولو دخل كان أيسر عليه مما صار إليه، ولكنه خاف منهم لأجل العداوة فعدل إلى ناحية الكرك فتحصن بها وليته استمر فيها، ولكنه قلق فركب نحو البرية ـ وليته ذهب فيها ـ واستجار ببعض أمراء الأعراب، فقصدته التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال وخربوا الديار وقتلوا الكبار والصغار وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي فقتلوا منهم خلقاً وسبوا من نسلهم ونسائهم، وقد اقتص منهم العرب بعد ذلك، فأغاروا على خيل جشارهم في نصف شعبان فساقوها بأسرها، فساقت وراءهم التتار فلم يدركوا منهم الغبار ولا استردوا منهم فرساً ولا حماراً، وما زال التتار وراء الناصر حتى أخذوه وأسروه عند بركة زيزاء وأرسلوه مع ولده العزيز وهو صغير وأخيه إلى ملكهم هولاكو وهو نازل على حلب، فما زالوا في أسره حتى قتلهم في السنة الآتية كما سنذكره.

والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم - أيده الله تعالى - وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في العساكر المصرية وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغا نوين، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والقاضي مجير ابن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا قتالا عظيماً، فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغا نوين وجماعة من بنيه، وقد قيل إن الذي قتل كتبغا نوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسي، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع، وفي كل مازق وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالا شديداً، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، وكان أتابك العسكر، وقد أسر من جماعة كتبغا نوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه، واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، وقد جعله هولاكو نائباً على الشام كله، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان، صبيحة النصر الذي جاءت به البشارة بالنصرة على عين جالوت فتبعهم المسلمون من دمشق، يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، قهراً ولله الحمد والمنن على جبره الإسلام ومعاملته إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكُبت أعداءُ الله النصارى واليهود والمنافقون وظهر دين الله وهم كارهون، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة للنصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة النصارى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان، وقتلت العامة وسط الجامع شيخاً رافضياً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف الكنجي كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبّحه الله، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقد كان هولاكو أرسل تقليداً بولاية القضاء على جميع المدائن: الشام، والجزيرة، والموصل، وماردين، وميافارقين والأكراد وغير ذلك، للقاضي كمال الدين عمر بن بندار التفليسي. وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة من مدة

خمس عشرة سنة، فحين وصل التقليد في سادس عشرين ربيع الأول قرئ بالميدان الأخضر فاستقل بالحكم في دمشق وقد كان فاضلا، فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى خدمة هولاكو قان إلى حلب، فخدع ابن الزكي لابن سني الدولة وبذل أموالا جزيلة، وتولى القضاء بدمشق ورجعا، فمات ابن سني الدولة ببعلبك، وقدم ابن الزكي على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة فلبسها وجلس في خدمة إيل سنان تحت قبة النسر عند الباب الكبير، وبينهما الخاتون زوجة إيل سنان حاسرة عن وجهها، وقرئ التقليد هناك والحالة كذلك، وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤوس الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قبح الله ذلك القاضي والأمير والزوجة والسلطان.

وذكر أبو شامة أن ابن الزكي استحوذ على مدارس كثيرة في مدته هذه القصيرة، فإنه عزل قبل رأس الحول، فأخذ في هذه المدة العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية، وأخذ لولده عيسى تدريس الأمينية ومشيخة الشيوخ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصري، وأخذ الشامية البرانية لصاحب له، واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاه الرواحية والشامية البرانية.

قال أبو شامة: مع أن شرط واقفها أن لا يجمع بينهما وبين غيرها.

ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين، سعى في القضاء وبذل أموالا ليستمر في القضاء والمدارس، التي استولى عليها في مدة هذه الشهور فلم يستمر بل عزل بالقاضي نجم الدين أبي بكر بن صدر الدين بن سني الدولة، فقرئ توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة في الحادي والعشرين من ذي القعدة عند الشباك الكمالي من مشهد عثمان من جامع دمشق و لله الحمد.

ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق وراءهم ودخل دمشق في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديدا ودعوا له دعاء كثيراً، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها، وكذلك المنصور صاحب حماه، واسترد حلب من يد هولاكو، وعاد الحق إلى نصابه ومهد القواعد، وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ليطرد التتار عن حلب ويتسلمها ووعده بنيابتها، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استناب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل، وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير والأمير مجير الدين بن الحسين بن آقشتمر، وعزل القاضي ابن الزكي عن قضاء دمشق، وولى نجم الدين بن سني الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الإسلامية في خدمته، وعيون الأعيان تنظر إليه شزراً من شدة هيبته.

ذكر سلطنة الملك الظاهر وهو الأسد الضاري بيبرس البُنْدقداري

وذلك أن السلطان الملك المظفر قطز لما عاد قاصداً مصر، وصل إلى ما بين الغُرابي والصالحية، عدا عليه الأمراء فقتلوه هنالك، وقد كان رجلا صالحاً كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى المسكر ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك، وكانت مدة ملكه من حين عزل ابن أستاذه المنصور علي بن المعز التركماني إلى هذه المدة، وهي أواخر ذي القعدة نحواً من سنة، رحمه الله وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً.

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قد اتفق مع جماعة من الأمراء على قتله، فلما وصل إلى هذه المنزلة ضرب دهليزه وساق خلف أرنب، وساق معه أولئك الأمراء فشفع عنده ركن الدين بيبرس البندقداري في شيء فشفعه، فأخذ يده ليقبلها فأمكسها وحمل عليه أولئك الأمراء فضربوه بالسيوف، وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه رحمه الله، ثم كرّوا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة، فأخبروا من هناك بالخبر، فقال بعضهم: من قتله؟ فقال: ركن الدين بيبرس: أنا فقيل له أنت الملك، وقيل لما قتل حار الأمراء بينهم فيمن يولون الملك، وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك، وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعاً، فاتفقت كلمتهم على أن بايعوا بيبرس البندقداري، ولم يكن هو من أكابر المقدمين فيهم، ولكن أرادوا أن يجربوا فيه، ولقبوه الملك الظاهر، فجلس على سرير المملكة وحكمه، ودقت البشائر وضربت الطبول والبوقات وصفرت الشبابة، وزعقت الشاووشية بين يديه، وكان يوماً مشهوداً وتوكل على الله واستعان به، ثم دخل مصر والعساكر في خدمته، فدخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها، فحكم وعدل وقطع ووصل وولّى وعزل، وكان شهماً شجاعاً أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت الشديد والأمر العسير، وكان أولا لقب نفسه بالملك القاهر، فقال له الوزير: إن هذا اللقب لا يفلح من يلقب به. تلقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه، ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم فمات، فعدل عنه حينئذ إلى الملك الظاهر، ثم شرع في مسك من يرى في نفسه رئاسة من أكابر الأمراء حتى مهد الملك كما يريد، والله على كل شيء شهيد.

وقد كان هولاكو قان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، فحيل بينهم وبين ما يشتهون فرجعوا وهم خائبون خاسرون، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر السلطان الملك المؤيد الظاهر، فقدم دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ولا القدوم عليه ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، والسيوف البواتر قد سُلّت، والرماح الخطية قد اعتقلت. والقسي قد وتّرت، والنبال قد حصلت، والخيول قد ضمّرت والطبول قد حصّلت وعناية الله بالشام وأهله قد تنزلت، ورحمته بهم قد تداركت، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابها، وكروا راجعين القهقرى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتكمل المسرّات، في هذه الدنيا وبعد الممات.

وقد كان الملك المظفر قطز رحمه الله استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي أحد الأتراك، فلما بلغه مقتل المظفر دخل القلعة ودعا لنفسه وتسمى بالملك المجاهد، فلما جاءت البيعة للملك الظاهر خطب له يوم الجمعة السادس من ذي الحجة فدعا الخطيب أولا للمجاهد ثم للظاهر ثانياً وضربت السكة باسمهما معاً، ثم ارتفع المجاهد هذا من البين كما سيأتي.

وقد اتفق في هذا العام أمور عجيبة، وهي أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز ثم في أواخر ذي

القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شركه في دمشق الملك المجاهد علم الدين سنجر، وكذلك كان القضاء في أولها بالشام لابن سني الدولة، ثم صار للكمال عمر التفليسي ثم لابن الزكي ثم لنجم الدين بن سني الدولة وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستاني من سنين متطاولة، فعزل في شوال منها بالعماد الإسعردي، وكان صيتاً قارئاً مجيداً. ثم أعيد العماد الحرستاني في أول ذي القعدة منها. فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفيها توفي من الأعيان

قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة:

■ أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي يحيى بن صدقة بن الخياط، قاضي القضاة صدر الدين أبو العباس بن سني الدولة التغلبي الدمشقي الشافعي، وسني الدولة هي الحسين بن يحيى المذكور كان كاتباً لبعض ملوك دمشق في حدود الخمسمائة، وله أوقاف على ذريته.

و■ ابن الخياط الشاعر صاحب الديوان وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي هو عم سني الدولة. ولد القاضي صدر الدين سنة تسع وخمسين وخمسمائة وسمع الخشوعي وابن طبرزد، والكندي وغيرهم، وحدث ودرس في عدة مدارس وأفتى، وكان فاضلاً عارفاً بالمذهب مشكور السيرة، ولكن الشيخ شهاب الدين أبو شامة ينال منه فالله أعلم.

وقد ولي الحكم بدمشق استقلالا سنة ثلاث وأربعين واستمر إلى هذه السنة وسافر حين عزل بالكمال التفليسي هو والقاضي محيي الدين بن الزكي، وقد سافر هو وابن الزكي إلى هولاكو لما أخذ حلب فولى ابن الزكي القضاء، فاجتاز ابن سني الدولة ببعلبك فقدمها وهو متمرض فمات بها ودفن عند الشيخ عبد الله اليونيني، وقد كان الملك الناصر يثني عليه كما كان الملك الأشرف يثني على والده قاضي القضاء شمس الدين ابن سني الدولة. ولما استقر أمر السلطان الملك الظاهر بيبرس ولى القضاء ولده نجم الدين أبا بكر بن قاضي القضاة صدر الدين القضاء بدمشق وعزل ابن الزكي ثم عزله بعد سنة وثنى بابن خلكان على ما سيأتي بيانه وبالله المستعان. والقاضي صدر الدين ابن سني الدولة هذا هو الذي حدث في زمن المشمش بطالة الدروس لأنه كان له بستان بأرض السهم، فكان يشق عليه والنزول إلى المدارس فبطل الناس هذه الأيام واتبعوه في ذلك.

وفيها توفي:

صاحب ماردين الملك السعيد:

■ نجم الدين إيل غازي بن المنصور أرتق أرسلان بن إيل غازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيل غازي بن أرتق وكان شجاعا ملك يوما، في قلعته توران شاه ابن الملك صلاح الدين كان نائبا للملك الظاهر بن العزيز ابن الناصر بن الناصر صاحب دمشق على حلب، وقد حصن حلب من أيدي المغول مدة شهر، ثم تسلمها بعد محاصرة شديدة صلحا. كانت وفاته في هذه السنة ودفن بدهليز داره.

وفيها قتل:

الملك السعيد

■ حسن بن العزيز ابن العادل أبي بكر بن أيوب، وكان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة البيرة، فلما جاءت التتار كان معهم وردوا عليه بلاده، فلما كانت وقعة عين جالوت أتى به أسيرا إلى بين يدي المظفر قطز فضرب عنقه، لأنه كان قد لبس سرقوج التتار وناصحهم على المسلمين.

■ عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن بن طاهر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، شرف الدين بن العجمي الحلبي الشافعي، من بيت العلم والرئاسة بحلب، درس بالظاهرية ووقف مدرسة بها ودفن بها، كانت وفاته حين دخلت التتار حلب في صفر، فعذبوه وصبوا عليه ماء باردا في الشتاء فتشنج حتى مات رحمه الله تعالى.

الملك المظفر

■ قطز بن عبد الله: سيف الدين التركي، أخص مماليك الملك المعز عز الدين أيبك التركماني، أحد مماليك الصالح أيوب ثم إنه. لما قتل أستاذه المعز قام في تولية ابن أستاذه المنصور نور الدين علي، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة كما تقدم.

ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الإسلام كما ذكرنا بعين جالوت، وقد كان شجاعا بطلا كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرا.

ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب، فترجل وبقي واقفا في محل المعركة وموضع السلطنة من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء، وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام، رحمه الله.

وكان حين سار من مصر في خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم، ومعه المنصور صاحب حماه وجماعة من أبناء الملوك. فأرسل إلى صاحب حماه يقول له لا تتعنى في مد سماط في هذه الأيام، وليكن مع الجندي لحمة في سولقه يأكلها، والعجل العجل.

وكان اجتماعه بعدوه كما ذكرنا في العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان، وكان فيها نصر الله الإسلام نصراً عزيزاً ولما قدم دمشق في شوال أقام بها العدل ورتب الأمور، وأرسل بيبرس خلف التتار ليخرجهم، ويطردهم عن حلب، ووعده بنيابتها فلم يف له لما رآه من المصلحة، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك، فلما عاد إلى مصر تمالأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين الغرابي والصالحية ودفن بالقصر، وكان قبره يزار، فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس، وكان لا يعرف بعد ذلك، قتل يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة، رحمه الله.

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في الذيل على المرآة [٣٨١/١-٣٨٣، ٣٠/٢، ٣٢] عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر في أيام الناصر صاحب دمشق، قال: لما كنا مع الناصر بوطأة برزة جاءت البريدية بخبر أن قطز قد تولى السلطنة بمصر، فقرأت

ذلك على السلطان، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا، قال فلما خرجت عنه لقيني بعض الأجناد، فقال لي جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد تملك؟ فقلت: ما عندي من هذا علم وما يدريك أنت بهذا؟ فقال بلى والله سيلي المملكة ويكسر التتار، فقلت: من أين تعلم هذا؟ فقال: كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه وأذمه، فقال لي يوما: ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟ فقلت له أنت مجنون؟ فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه، فقلت له حينئذ ـ وكان صادقا ـ أريد منك إمرة خمسين فارساً، فقال نعم أبشر.

قال ابن الأثير: فلما قال لي هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال والله ليكسرن التتار، وكان كذلك.

ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها ورجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكي في جملة من دخلها، فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارساً، ووفى له بالوعد، وهو الأمير حسام الدين البركة خاني.

قال ابن الأثير: فلقيني بمصر بعد أن تأمر فذكرني بما كان أخبرني عن المظفر، فذكرته ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد.

وقد روى عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى و لله الحمد والمنة.

وفيها هلك كتبغا نوين نائب هولاكو على بلاد الشام لعنه الله، ومعنى نوين يعني أمير عشرة آلاف.

وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولادو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيز قان جد هولادو، وكان كتبغا هذا يعتمد في حروبه للمسلمين ببلاد خراسان والعراق أشياء لم يسبقه أحد إليها، كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يأووا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه قبل ذلك، فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفنى هؤلاء، فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء، ثم استأنف قتالهم بمن عنده حتى يفتحه، وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قل فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء: فيقول لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فإن كان كثيرا انصرفت عنكم، فيقولون: ابعث من يشرف عليه، فيرسل رجالا من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سُمّاً، فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح فينفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون لعنه الله لعنة تدخل معه في قبره.

وكان شيخا كبيرا قد أسن وكان يميل إلى دين النصارى ولكن لا يمكنه الخروج عن حكم جنكيز قان في الياساق.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها، وكان شيخا حسنا له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة، وتارة يعلقها في حلقة بإذنه، وكان مهيباً شديد السطوة.

قال: وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها. ثم خرج من الباب الغربي فدخل دكانا خرابا فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة، فلما فرغ من حاجته مسحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة.

قال ولما بلغه خروج المظفر إليه بالعساكر من مصر تلوم في أمره وحار ماذا يفعل، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه، وظن أنه منصور على جاري عادته، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم في المعركة فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً وقتل أميرهم كتبغا نوين في المعركة. وأسر ابنه، وكان شابا حسنا، فأحضر بين يدي المظفر قطز فقال له: أهرب أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنام طيبا. كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم، وهكذا كان كما قال ولم يفلحوا بعده أبدا، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان لعنه الله تعالى. وكان الذي قتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسي رحمه الله.

الشيخ محمد الفقيه

■ اليونيني: الحنبلي البعلبكي الحافظ، هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق، كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونيني من خط أخيه الأكبر أبي الحسين علي وأخبره أن والده قال له نحن من سلالة جعفر الصادق، قال وإنما قال له هذا عند الموت ليتخرج من قبول الصدقات.

أبو عبد الله بن أبي الحسن

■ اليونيني الحنبلي تقي الدين الفقيه الحنبلي الحافظ المفيد البارع العابد الناسك، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة، وسمع الخشوعي وحنبلا والكندي والحافظ عبد الغني المقدسي وكان يثني عليه، وتفقه على الشيخ الموفق، ولزم الشيخ عبد الله اليونيني فانتفع به، وكان الشيخ عبد الله يثني عليه ويقدمه ويقتدي به في الفتاوى الشرعية، وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحي، وبرع في علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو، وحفظ قطعة صالحة من مسند الإمام أحمد، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندي، وكتب مليحا حسنا، وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة، ويأخذون عنه الطرق الحسنة.

وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك.

توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخاري على الزبيدي، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفة وبسطها على الأرض ليطأ عليها، وحلف السلطان له إنها طاهرة ولا بد أن يطأ برجليه ففعل ذلك.

ولما قدم الكامل على أخيه الأشرف دمشق فأنزله القلعة وتحول الأشرف لدار السعادة وجعل يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه، فقال الكامل: أحب أن أراه، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة واستحضره فوصل إلى دار السعادة، فنزل الكامل إليه وتحادثا وتذاكرا شيئا من العلم، فجرت مسألة القتل بالمثقل، وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودي فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله [خ (٢٤١٣)، م (١٦٧٢)]، فقال الكامل: إنه لم يعترف. فقال الشيخ الفقيه: في صحيح مسلم «فاعترف»

فقال الكامل: أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه، فقال: بلى فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصاره لمسلم، فأخذ الكامل مجلداً والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر والملك الصالح مجلداً وأخذ الشيخ الفقيه مجلدا فأول ما فتحه وجد الحديث كما قال الشيخ الفقيه، فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعا إلى بعلبك، وقال للكامل: إنه لا يؤثر ببعلبك شيئا، فأرسل له الكامل ذهباً كثيرا.

قال ولده قطب الدين: كان والدي يقبل بر الملوك ويقول أنا لي في بيت المال أكثر من هذا، ولا يقبل من الأمراء ولا من الوزراء شيئا إلا أن يكون هدية مأكول ونحوه، ويرسل إليهم من ذلك فيقبلونه على سبيل التبرك والاستشفاء.

وذكر أنه كثر ماله وأثرى، وصار له سعة من المال كثيرة، وذكر له أن الأشرف كتب له كتابا بقرية يونين وأعطاه لمحيي الدين بن الجوزي ليأخذ عليه خط الخليفة، فلما شعر والدي بذلك أخذ الكتاب ومزقه وقال: أنا في غنية عن ذلك.

قال: وكان والدي لا يقبل شيئا من الصدقة ويزعم أنه من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

من جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال وقد كان قبل ذلك فقيرا لا شيء له، وكان للشيخ عبد الله زوجة ولها ابنة جميلة، وكان الشيخ يقول لها: زوجيها من الشيخ محمد، فتقول: إنه فقير وأنا أحب أن تكون ابنتي سعيدة، فيقول الشيخ عبد الله كأني أنظر إليهما إياه وإياها في دار فيها بركة وله رزق كثير والملوك يترددون إلى زيارته، فزوجتها منه فكان الأمر كذلك، وكانت أولى زوجاته رحمه الله تعالى.

وكانت الملوك كلها يحترمونه ويعظمونه ويجيئون إلى مدينته، بنو العادل وغيرهم، وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح، وابن عبد السلام، وابن الحاجب، والحصيري، وشمس الدين بن سني الدولة، وابن الجوزي، وغيرهم يعظمونه ويرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته.

وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتي عشرة سنة فالله أعلم.

وذكر الشيخ الفقيه قال: كنت عزمت مرة على الرحلة إلى حران، وكان قد بلغني أن رجلا بها يعلم علم الفرائض جيداً،فلما كانت الليلة التي أريد أن أسافر في صبيحتها جاءتني رسالة الشيخ عبد الله اليونيني يعزم علي إلى القدس الشريف، وكأني كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة يس: ٢١] فخرجت معه إلى القدس فوجدت ذلك الرجل الحراني بالقدس الشريف، فأخذت عنه علم الفرائض حتى خيل لي أني صرت أبرع فيه منه.

وقال الشيخ أبو شامة: كان الشيخ الفقيه رجلا ضخما، وحصل له قبول من الأمراء وغيرهم، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى خارج كما كان شيخه الشيخ عبد الله اليونيني.

قال: وقد صنف شيئا في المعراج فرددت عليه في كتاب سميته الواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وذكر ولده قطب الدين أنه مات في التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر:** أبو عبد الله البيطار الأكال، وأصله من جبل بني هلال، وولد بقصر حجاج، وكان مقيماً بالشاغور وكان فيه صلاح ودين وإيثار للفقراء والمحاويج والمحابيس، وكانت له حال غريبة لا يأكل لأحد إلا بأجرة، وكان أهل البلد يترامون عليه ليأكل لهم الأشياء المفتخرة الطيبة فيمتنع إلا بأجرة جيدة، وكلما امتنع من ذلك حلي عند الناس وأحبوه ومالوا إليه يأتونه بأشياء كثيرة من الحلاوات والشواء وغير ذلك فيرد عليهم عوض ذلك أجرة جيدة مع ذلك،وهذا غريب جداً، رحمة الله تعالى ورضي عنه بمنه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

استهلت بيوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول، وليس للمسلمين خليفة وصاحب مكة أبو نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسني، وعمه إدريس بن علي شريكه، وصاحب المدينة الأمير عز الدين جماز بن شيحة الحسيني.

وصاحب مصر والشام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وشريكه في دمشق وبعلبك والصبيبة وبانياس الأمير علم الدين سنجر الملقب بالملك المجاهد، وشريكه في حلب الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزي.

والكرك والشوبك للملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل سيف الدين أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل الكبير سيف الدين أبي بكر بن أيوب.

وحصن صهيون وبارزيا في يد الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس.

وصاحب حماه الملك المنصور بن تقي الدين محمود، وصاحب حمص الأشرف بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين الناصر.

وصاحب الموصل الملك الصالح إسماعيل بن البدر لؤلؤ، وأخوه الملك المجاهد صاحب جزيرة ابن عمر.

وصاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين إيل غازي بن أرتق.

وصاحب بلاد الروم ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو السلجوقي، وشريكه في الملك أخوه كيكاوس. والبلاد بينهما نصفين.

وسائر بلاد المشرق من خراسان والعراق بأيدي التتار أصحاب هولاكو.

وبلاد اليمن تملكها غير واحد من الملوك، وكذلك بلاد المغرب في كل قطر منها ملك.

وفي هذه السنة أغارت التتار على حلب وانجفل الناس وحصل لهم رعب شديد، والتقى التتر مع نائب حلب الأمير صاحبها حسام الدين الجوكندار العزيزي، والمنصور صاحب حماه، والأشرف صاحب حمص، وكانت الوقعة شمالي حمص قريباً من قبر خالد بن الوليد، والتتار في ستة آلاف والمسلمون في ألف وأربعمائة فهزمهم الله عز وجل، وقتل المسلمون أكثرهم فرجع التتار إلى حلب فحصروها أربعة أشهر وضيقوا عليها الأقوات، وقتلوا من الغرباء خلقا كثيراً صبرا فإنا لله وإنا إليه راجعون، والجيوش الذين كسروهم على حمص مقيمون لم يرجعوا إلى حلب بل ساقوا إلى مصر، فتلقاهم الملك الظاهر في أبهة السلطنة وأحسن إليهم، وبقيت حلب محاصرة لا ناصر لها في هذه المدة ولكن مسلم الله سبحانه وتعالى.

وفي يوم الاثنين سابع صفر ركب الظاهر في أبهة الملك ومشى الأمراء

والأجناد بين يديه، وكان ذلك أول ركوبه واستمر بعد ذلك يتابع الركوب واللعب بالكرة.

وفي الحادي عشر من صفر خرج الأمراء بلمشق على ملكها علم الدين سنجر الحلبي فقاتلوه فهزموه، فدخل القلعة فحاصروه فيها فهرب منها إلى قلعة بعلبك، وتسلم قلعة دمشق الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، وكان مملوكا لجمال الدين بن يغمور ثم للصالح أيوب بن الكامل وإليه ينسب الملك الظاهر، فارسله الظاهر ليتسلم دمشق من الحلبي علم الدين سنجر، فأخذها وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر، ثم حاصروا الحلبي ببعلبك حتى أخذوه فأرسلوه إلى الظاهر على بغل إلى مصر، فدخل عليه ليلا فعاتبه ثم أطلق له أشياء وأكرمه.

وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول استوزر الظاهر بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن الحنا.

وفي ربيع الآخر قبض الظاهر على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه وفيه أرسل إلى الشوبك فتسلمها من أيدي نواب المغيث صاحب الكرك.

وفيها جهز الظاهر جيشاً إلى حلب ليطردوا التتار عنها، فلما وصل الجيش إلى غزة كتب الفرنج إلى التتار ينذرونهم، فرحلوا عنها مسرعين واستولى على حلب جماعة من أهلها، فصادروا ونهبوا وبلغوا أغراضهم، وقدم إليهم الجيش الظاهري فأزالوا ذلك كله، وصادروا بعض أهلها بألف ألف وستمائة ألف، ثم قدم الأمير شمس الدين آقوش البري من جهة الظاهر فاستلم البلد واستحوذ عليها فقطع ووصل وحكم ولكن ما عدل.

وفي يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى باشر القضاء بمصر العلامة الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن القاضي رشيد الدين أبي الثناء محمود بن بدر العلامي، وذلك بعد شروط ذكرها للظاهر شديدة، فدخل تحتها الملك الظاهر وعزل عن القضاء بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن علي السنجاري ورسم عليه أياماً، ثم أفرج عنه.

ذكر البيعة بالخلافة للمستنصر بالله أبي القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد العباسي وهو عمّ المستعصم

وكان معتقلا ببغداد فأطلق، وكان مع جماعة الأعراب بأرض بالعراق، ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم مصر صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا في ثامن رجب، فخرج السلطان ومعه الوزير والقاضي تاج الدين والشهود والمؤذنون فتلقوه وكان يوماً مشهوداً، وخرج أهل التوراة بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر في أبهة عظيمة و لله الحمد والمنة.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب جلس السلطان والخليفة بالإيوان بقلعة الجبل، والوزير والقاضي والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة المذكور على الحاكم تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، وهذا الخليفة هو أخو المستنصر باني المستنصرية، وعم المستعصم.

بويع بالخلافة بمصر بايعه الملك الظاهر والقاضي والوزير والأمراء، وركب في دست الخلافة بديار مصر والأمراء بين يديه والناس حوله، وشق القاهرة وكان يوماً مشهوداً وذلك في الثالث عشر من رجب من هذه السنة، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس بينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا، وكان أول من بايعه القاضي تاج الدين عندما ثبت عنده نسبه، ثم السلطان الملك الظاهر ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم الأمراء والدولة و لله الحمد والمنة.

وخطب له على المنابر وضرب اسمه على السكة وكان منصب الخلافة قد شغر منذ ثلاث سنين ونصفا، لأن المستعصم قتل في أول سنة ست وخمسين وستمائة، وبويع هذا في يوم الاثنين في ثالث عشر رجب من هذه السنة - أعني سنة تسع وخمسين وستمائة.

وكان أسمر وسيما شديد القوى عالي الهمة له شجاعة وإقدام، وقد لقبوه بالمستنصر كما كان أخاه باني المدرسة ببغداد تلقّب وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل منهما بالآخر،ولي الخلافة أخوان كهذين السفاح وأخوه المنصور، ولدا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، والهادي والرشيد ابنا المهدي ابن المنصور،والواثق والمتوكل ابنا المعتصم بن الرشيد، والمسترشد والمقتفي ولدا المستظهر.

وأما ثلاثة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، والمنتصر والمعتز والمعتمد أولاد المتوكل.

وأما أربعة فأولاد عبد الملك بن مروان الوليد وسليمان ويزيد وهشام. وقد ولي هذا الخلافة بعد ابن أخيه المستعصم ابن المستنصر ولم يكن هذا قبله إلا في خلافة المكتفي ابن المستظهر فإنه وليها بعد ابن أخيه الراشد بن المسترشد بن المستظهر، والله أعلم وكانت مدة خلافته إلى أن فقد كما سيأتي خمسة أشهر وعشرين يوماً، وكان أقصر مدة من جميع خلفاء بني العباس.

وأما بنو أمية فكانت مدة خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية أربعين يوما، وإبراهيم بن الوليد سبعين يوماً، وأخيه يزيد بن الوليد خمسة أشهر وكانت مدة خلافة الحسن بن علي بعد أبيه سبعة أشهر وأحد عشر يوما.

وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام، وكان في خلفاء بني العباس من لم يستكمل سنة منهم المنتصر بن المتوكل ستة أشهر، والمهتدي بن الواثق أحد عشر شهراً وأياماً، وقد أنزل الخليفة المستنصر هذا بقلعة الجبل في برج هو وحشمه فلما كان يوم سابع عشر رجب ركب في أبهة السواد وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب بالناس خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ثم استفتح فقراً صدراً من سورة الأنعام ثم صلى على النبي ﷺ ثم ترضى عن الصحابة ودعا للسلطان الظاهر، ثم نزل فصلى بالناس فاستحسنوا ذلك منه، وكان وقتا حسنا ويوما مشهودا.

تولية الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر السلطنة

لما كان يوم الاثنين الرابع من شعبان، ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة فجلسوا فيها، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء، وطوقا في عنقه، وقيدا في رجليه وهما من ذهب، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان وهو رئيس الكتاب منبرا فقرأ على الناس تقليد السلطان، وهو من إنشائه وبخط نفسه، ثم ركب السلطان بهذه الأبهة والقيد في رجليه والطوق

في عنقه، والوزير بين يديه، وعلى رأسه التقليد والأمراء والدولة في خدمته مشاة سوى الوزير، فشق القاهرة وقد زينت له، وكان يوما مشهودا، يقصر اللسان عن وصفه وقد ذكر الشيخ قطب الدين هذا التقليد بتمامه، وهو مطول والله أعلم.

ثم إن الخليفة لما طلب من السلطان ذلك أن يجهزه إلى بغداد، فرتب السلطان له جنداً هائلة وأقام له من كل ما ينبغي للخلفاء والملوك من الحشم والخدم والطبلخاناه وغير ذلك.

ثم سار السلطان صحبته قاصدين دمشق المحروسة في أبهة عظيمة وكان سبب خروج السلطان من مصر إلى الشام، أن البرلي كما تقدم كان قد استحوذ على حلب، فأرسل إليه الظاهر الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قد تغلب على دمشق فطرده عن حلب وتسلمها، وأقام بها نائباً عن السلطان، ثم لم يزل البرلي حتى استعادها منه وأخرجه منها هاربا واستولى عليها كما كان. فاستناب السلطان في الديار المصرية عز الدين أيدمر الحلي وجعل تدبير المملكة إلى الوزير بهاء الدين بن الحنا، اصطحب ولده فخر الدين ابن الحنا وزير الصحبة وجعل تدبير العساكر والجيوش إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار. ثم كان دخول السلطان صحبة الخليفة إلى دمشق ثم ساروا فدخلوا دمشق يوم الاثنين سابع ذي القعدة، وكان يوما مشهوداً، وصليا الجمعة بجامع دمشق، وكان دخول الخليفة من باب البريد، ودخل السلطان من باب الزيادة. وكان يوما مشهوداً أيضاً، ثم جهز السلطان الخليفة إلى بغداد ومعه أولاد صاحب الموصل، وأنفق عليه وعليهم وعلى من استقل معه من الجيش الذين يردون عنه ما لم يقدر الله من الذهب العين ألف ألف دينار، وأطلق له وزاده فجزاه الله خيرا، وقدم إليه صاحب حمص الملك الأشرف فخلع عليه وأطلق له وزاده تل باشر، وقدم صاحب حماه المنصور فخلع عليه وأطلق له وكتب له تقليدا ببلاده، ثم جهز جيشاً صحبة الأمير علاء الدين البندقداري إلى حلب لمحاربة البُرلي المتغلب عليها المفسد فيها، وقد أقام البُرليُّ بحلب خليفةً آخرَ لقَّبه بالحاكم، فلمَّا اجتاز به المستَنْصر سار معه إلى العراق، واتَّفقا على المصلحة وإنفاذ الحاكم للمُستنصر؛ لكونه أكبر منه، و لله الحمدُ. لكن خرج عليهما في آخر السنةِ طائفةٌ من التَّتار، ففرَّقوا شملَهما، وقتلوا خلقاً ممَّن كان معهما، وعُدم المُستنصرُ، وهرَب الحاكمُ مع الأعراب. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد كان المستنصر هذا فتح بُلْداناً كثيرةً في مسيره إلى العراق، ولما قاتله بَهادرُ عليٌّ شِحنةُ بغداد كسَره المُستنصر، وقتل أكثرَ أصحابه، ولكن خرَج كَمينٌ من التَّتار، فهرب العُرْبانُ والأكرادُ الذين كانوا مع المستَنْصر، وثبت هو في طائفة ممَّن كان معه من الترك، فقُتل كثيرٌ منهم أو أكثرُهم، وفُقد هو من البين، ونجا الحاكمُ في طائفةٍ، وكان هذا في أول المحرم من سنة ستين وستِّمائةٍ. رحمه اللهُ وأكرم مثواه. وهذا هو الذي أشبه الحسين بن عليٍّ في توغُّله في أرض العراق مع كثرة جنودهما، وكان الأولى لهذا أن يَستقرَّ في بلاد الإسلام حتى تَتمهَّد الأمورُ وتَصفُو الأحوالُ، ولكن قدَّر اللهُ وما شاء فعَل.

وجهَّز السلطانُ الملكُ الظاهر جيشاً آخرَ من دمشق إلى بلاد الفرنج، فأغاروا وقتلوا، وسَبوا ورجعوا سالمين، وطلبت الفِرنجُ من السلطان الصلح، فصالحهم مدةً لاشتغاله بحلب وأعمالها، وكان قد عزل في شوال عن قضاء مصرَ وحدَها تاج الدين عبدَ الوهَّاب ابن بنت الأعَزِّ، وولَّى عليها بُرهان الدين الخَضِرَ بنَ الحسنِ السِّنْجاري، وعزل قاضي دمشق نجم الدين أبا بكر بنَ صدر الدين أحمد ابنِ شمس الدين يحيى بن هبة الله بن سني الدولة، وولَّى قاضي القُضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، وقد ناب في الحكم بالقاهرة مدةً طويلةً عن بدر الدين السِّنْجاري، فأضاف إليه مع القَضاء نظرَ الأوْقاف والجامع والمارستان وتَدْريس سبع مدارس؛ العادلية والناصرية والعذراوية والفَلَكية والرُّكنية والإقبالية والبَهنسيَّة، وقُرئ تَقْليده يومَ عرفةَ يومَ الجمعة بعدَ الصلاة بالشُّبَّاك الكَماليِّ من جامع دمشق، وسافر القاضي المَعزولُ مرسَّماً عليه، وقد تكلَّم فيه الشيخُ أبو شامة، وذكر أنه خان في وديعة ذهبٍ جعلها فُلوساً، فالله أعلم. وكانت مدةُ ولايته سنةً وأشهراً، وفي يوم العيدِ يوم السبت سافرَ السلطانُ بالعساكر المنصورة راجعاً إلى الديار المصرية، وقد كان رسولُ الإسماعيلية قدم على السلطان بدمشق يَتَهدَّدُه ويَتَوعَّدُه ويَطْلبون منه إقطاعات كثيرةً، فلم يَزَل يُوقعُ بينهم حتى استأصَل شأفَتَهم واستَولى على بلادهم، نصرَه اللهُ تعالى، ومكَّن به البلاد، ونصَر به عباده المؤمنين، آمين.

وفيها في السادس والعشرين من ربيع الأول عُمل عزاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسُف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي فاتح بيت المقدس، وكان عُمل هذا العزاء بقلعةِ الجبل من الديار المصرية بأمر السلطان الملك الظاهر رُكْن الدين بَيْبَرْس، وذلك لما بلَغهم أن هُولاكو ملك التتار قتله، وقد كان في قبضته، كما تقدم ذكرُه، فلما بلغه كَسْرُه أصحابه بعين جالوت طلَبه إلى بين يديه، وقال له: أنت أرسلت الجيوش إلى الديار المصرية حتى اقتتلوا مع المغول، فكسروهم. ثم أمر بقتله، ويقالُ: إنه اعتذر إليه، وذكر أن المصريين كانوا أعداءه، وبينه وبينهم شَنَآنٌ وقتالٌ، فأقاله ولكنه انْحطت رُتبته عنده، وقد كان مُكَرَّماً في خدمته، وقد وعده أنه إذا ملك الديار المصرية استنابه في الشام، فلما كانت وقعة حمص في هذه السنة، وقُتل فيها أصحاب هولاكو مع مقدَّمهم بَيْدَرَة غضِب وقال له: أصحابُك من العزيزية أمراء أبيك والناصريةُ من أصحابك قتَلوا أصحابنا. ثم أمرَ بقتله، وقد ذُكر أنه رماه بالنُّشَّاب وهو واقفٌ بين يديه، وهو يسأل العفو، فلم يَفْعل حتى قتله وقتل أخاه شقيقه الملك الظاهر عليًّا، وأطلق ولَدَيْهما العزيزَ محمد ابن الناصر وزبالة بن الظاهر، وكانا صغيرين من أحسن أشكال بني آدم، فأما العزيزُ فإنه مات هنالك في أسْرِ التَّتار، وأما زبالةُ فإنه صار إلى الديار المصرية، فكان أحسنَ مَن بها، وكانت أمُّه أمَّ ولدٍ يقال لها: وجهُ القمر. فتزوَّجها بعضُ الأمراء بعد استاذها المذكور.

ويقالُ: إن هولاكو لما أراد قتلَ الناصر أمرَ بأربع من الشجر مُتَباعداتٍ، فجُمعت رءوسها بحبال، ثم رُبط الناصرُ في الأربع بأربعته، ثم أُطلقت الحبالُ، فرجَعَت كلٌّ وأَخذَتْ إلى مركزها بعضو من أعضاء الناصر، رحمه الله تعالى. وقد قيل: إن ذلك كان في الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين، وكان مولدُه في سنة سبعٍ وعشرين بحلب، ولما تُوفِّي أبُوه في سنة أربعٍ وثلاثين بُويع بالسَّلْطنة بحلب، وعمرُه سبعُ سنين، وقام بتدبير مملكته جماعةٌ من مماليك أبيه العزيز، وكان الأمرُ كلُّه عن رأي جدَّته أمِّ أبيه صبفة خاتون بنتِ الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فلما تُوُفِّيَت في سنة أربعين وستِّمائةٍ استَقَلَّ الناصرُ بالمُلك، وكان جيدَ السِّيرة في الرَّعايا مُحبَّباً إليهم، كثير النفقات، ولا سيَّما لَمَّا ملك دمشق مع حلب وأعمالها وبَعْلبكَّ وحَرَّان وطائفة كثيرة من بلادِ الجزيرة، فيقالُ: إن سماطة كان كلَّ يوم يَشْتَملُ على أربعمائةِ رأسِ غنم سوى الدجاج والإوَزِّ وأنواع الطير مطبوخاً بأنواع الأطعمة والقَلْويات، وكان مجموع ما يَغرَمُ على السِّماط في كلِّ يومٍ عشرين

ألفاً، وعامَّتُه يَخْرُجُ من بين يديه كما هو كأنه لم يؤكل منه شيءٌ، فيُباعُ على باب القلعة بأرخص الأثمان حتى إن كثيراً من أهل البيوتـات لا يَطْبُخـون في بيوتهم شيئاً من الطُّرف والأطعمةِ بل يشـترون ذلـك برخـص، وكـانت الأرزاقُ كثيرةً دارَّةً في زمانه وأيامه، وقد كان خَليعاً ظَريفاً حسـنَ الشكلِ، أديباً يقولُ الشعر المتوسط، القويَّ بالنسبة إليه وقـد أورد لـه الشـيخ قُطْبُ الدين في «الذَّيل» قطعةً صالحةً من شـعره، وهـي رائقـةٌ لائقـةٌ، قُتـل ببـلاد المشرق، ودُفن هنالك وقـد كـان أعَـدَّ لـه تربـةً برباطـه الـذي بنـاه بسـفح قاسيون، فلم يُقَدَّر دفنه بها، والناصريةُ البَرَّانيةُ بالسـفح مـن أغـرب الأبنيـة وأحسنها بنياناً من الموكد المُحكَم قبليَّ جامع الأفرم، وقد بنـى بعدهـا بمـدةٍ طويلةٍ وكذلك الناصريةُ الجَوَّانيةُ التي بناها داخلَ بـاب الفراديـس هـي مـن أحسن المدارس، وبنى الخان الكبير تجاه الزنجاريِّ وحُوِّلت إليه دار الطعم، وقد كانت قبلَ ذلك غربيَّ القلعة في إصطَبْلِ السلطان اليومَ. رحمه اللّهُ.

وهذا كل ما بلغنا من وقائع هذه السنة ملخصاً.

ثم دخلت سنة ستين وستمائة

في أوائل هذه السنة في ثالث المحرم قتل الخليفـة المسـتنصر باللّـه الـذي بويع له في رجب في السنة الماضية بمصر، وكان قتله بأرض العراق بعـد مـا هزم من كان معه من الجنود فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

واستقل الملك الظاهر بجميع الشام ومصر وصفت له الأمـور، ولم يبـق له منازع سوى البُرلي فإنه ذهب إلى البـيرة فاسـتحوذ عليهـا وعصي عليـه هنالك.

وفي اليوم الثالث من المحرم من هذه السنة خلع السـلطان الملـك الظـاهر ببلاد مصر على جميع الأمراء والحاشية وعلى الوزيـر وعلـى القـاضي تـاج الدين ابن بنت الأعز وعزل عنها برهان الدين السنجاري.

وفي أواخر المحرم أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخـازندار علـى بنـت الأمير لؤلؤ صاحب الموصل، واحتفل الظاهر بهذا العرس احتفالا بالغاً.

قال ابن خلكان: وفي هذه السنة اصطاد بعض أمراء الظاهر بجرود حمار وحش فطبخوه فلم ينضج ولا أثر فيه كثرة الوقود، ثم افتقدوا أمره فإذا هو موسوم على أذنه بهرام جور، قال: وقد أحضروه إلي فقرأتـه كذلـك، وهـو يقتضي أن لهذا الحمار قريباً من ثمانمائة سـنة، فـإن بهـرام جـور كـان قبـل المبعث بمدة متطاولة، وحمر الوحش تعيش دهراً طويلاً.

قلت: يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد، إذ يبعد بقـاء مثـل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة، ويكون الكـاتب قـد أخطـأ فـأراد كتابـة بهرام شاة فكتب بهرام جور فحصل اللبس من هذا واللّه أعلم..

ذكر بيعة الحاكم بأمر اللّه العباسي

في السابع والعشرين من ربيع الآخر دخل الخليفة أبو العبـاس الحـاكم بأمر اللّه أحمد ابن الأمير أبي علي القبّي ابن الأمير علـي ابـن الأمـير أبـي بكر ابن الإمام المسترشد باللّه بن المستظهر باللّه أبي العباس أحمد من بـلاد الشرق وصحبته جماعة مـن رؤوس تلـك البـلاد، وقـد كـان شـهد الوقعـة صحبة المستنصر، وهرب هو في جماعة من المعركـة فسـلم، فلمـا كـان يـوم دخوله تلقاه السلطان الظاهر وأظهر السـرور لـه والاحتفـال بـه، وأنزلـه في البرج الكبير من قلعة الجبل، وأجريت عليه الأرزاق الدارة والإحسان.

وفي ربيع الآخر عزل الملك الظاهر الأمير جمال الديـن آقـوش النجيبي عن استاذداريته واستبدل به غيره وبعد ذلك أرسله نائبـاً علـى الشـام كمـا سيأتي.

وفي يوم الثلاثاء تاسع رجـب حضـر السـلطان الملـك الظـاهر إلى دار العدل في محاكمة في بئر إلى بين يدي القاضي تاج الدين عبـد الوهـاب ابـن بنت الأعز فقام الناس إلا القاضي فإنه أشار عليه أن لا يقوم وتداعيا وكان الحق مع السلطان وله بينة عادلة، فانتزعت البئر من يد الغريم وكان الغريم احد الأمراء..

وفي شوال استناب السلطان الملك الظـاهر علـى حلـب الأمـير عـلاء الدين أيدكين الشهابي وحينئذ انحاز عسكر سيس علـى الفوعـة مـن أرض حلب فركب إليهم الشهابي فكسرهم وأسر منهم جماعـة فبعثهـم إلى مصـر فوسّطوا.

وفيها استناب السلطان على دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيـبي، وكان من أكابر الأمراء وعزل عنها علاء الدين طيبرس الوزيـري وحمـل إلى القاهرة..

وفي ذي القعدة خرج مرسوم السلطان الملك الظـاهر إلى القـاضي تـاج الدين ابن بنت الأعز أن يستنيب من كل مذهب من المذاهب الثلاثـة نائبـاً فاستناب من الحنفية صدر الديـن سـليمان الحنفي، ومـن الحنابلـة شمـس الدين محمد ابن الشيخ العماد، ومـن المالكيـة شـرف الديـن عمـر السـبكي المالكي..

وفي ذي الحجـة قدمـت وفـود كثـيرة مـن التـتار علـى الملـك الظـاهر مستأمنين فأكرمهم وأحسن إليهم وأقطعهم إقطاعات حسنة، وكذلـك فعـل بأولاد صاحب الموصل ورتب لإخوانهم رواتب كافية..

وفي هذه السنة أرسل هولاكو طائفة من جنده نحواً من عشـرة آلاف فحاصروا الموصل ونصبوا عليهـا أربعـة وعشـرين منجنيقـا، وضـاقت بهـا الأقوات..

وفيها أرسل الملك الصالح إسماعيل بن لؤلؤ إلى البُرلي يستنجده فقـدم عليه فهزمت التتار ثم ثبتوا والتقوا معه، وإنمـا كـان معـه تسـع مئـة مقـاتل فهزمـوه وجرحـوه وعـاد إلى البيرة وفارقـه أكـثر أصحابـه فدخلـوا الديـار المصرية، ثم دخل هـو إلى بـين يـدي السـلطان الملـك الظـاهر فـأنعم عليـه وأحسن إليه وأقطعه تسعين فارساً، وأما التتار فإنهم عـادوا إلى الموصـل ولم يزالوا حتى استنزلوا صاحبها الملك الصالح إليهم ونـادوا في البلـد بالأمـان حتى اطمأن الناس ثم مالوا عليهم فقتلوهم تسعة أيام وقتلوا الملك الصالح إسماعيل وولده علاء الدين وخربوا أسوار البلد وتركوها بلاقـع ثـم كـروا راجعين قبحهم اللّه أجمعين.

وفيها وقع الخلف بين هولاكو وبين السـلطان بركة ابن عمـه، وأرسـل إليه بركة يطلب منه نصيبا مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرار، على ما جرت به عادة ملوكهم، فقتل رسله فاشـتد غضـب بركـة، وكـاتب الظاهر ليتفقا على هولاكو.

وفيها وقع غلاء شديد بالشام فبيع القمـح الغـرارة بأربعمائـة وخمسـين والشعير بمائتين وخمسين، واللحم الرطل بستة وبسبعة.

وحصل في النصف من شعبان خوف شديد من التتار فتجهز كثير مـن الناس إلى مصر، وبيعت الغلات حتى حواصل القلعة والأمراء، ورسـم ولاة الأمور على من له قدرة أن يسافر من دمشق إلى بلاد مصر، ووقعـت رجفة عظيمة في الشام وفي بلاد الروم، ويقال إنه حصل لبلاد التـتر خـوف

شديد أيضاً، فسبحان الفعال لما يريد وبيده الأمر.

وكان الأمر لأهل دمشق بالتحول منها إلى الديار المصرية نائبها الأمير علم الدين طيبرس الوزيري، فأرسل السلطان إليه في ذي القعدة فأمسكه وعزله واستناب عليها جمال الدين آقوش النجيبي، واستوزر بدمشق عز الدين بن وداعة.

وفي هذه السنة نزل القاضي شمس الدين ابن خلكان عن تدريس الركنية للشيخ شهاب الدين أبي شامة وحضر عنده حين درس وأخذ في أول مختصر المزني أثابه الله تعالى.

وفيها توفي من الأعيان

الخليفة

■ المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله العباسي الذي بايعه الظاهر بمصر في رجب من هذه السنة كما ذكرنا، وكان قتله في ثالث المحرم من هذه السنة، وكان شهما شجاعا، بطلا فاتكا، وقد أنفق الظاهر عليه حتى أقام له جيشاً بألف ألف دينار وأزيد، وسار في خدمته ومعه خلق من أكابر الأمراء وأولاد صاحب الموصل، وكان الملك الصالح إسماعيل من الوفد الذين قدموا على الظاهر فأرسله صحبة الخليفة، فلما كانت الوقعة فقد المستنصر ورجع الصالح إلى بلاده فجاءته التتار فحاصروه كما ذكرنا، وقتلوه وخربوا بلاده وقتلوا أهلها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

العز الضرير النحوي اللغوي واسمه

■ الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا من أهل نصيبين ونشأ بإربل فاشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل، وكان يشتغل عليه أهل الذمة وغيرهم، ونسب إلى الانحلال وقلة الدين، وترك الصلوات، وكان ذكيا، وليس بذكي، عالم اللسان جاهل القلب، ذكي القول خبيث الفعل، وله شعر جيد رائق أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته، وهذا الضرير شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله.

ابن عبد السلام:

■ عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب، الشيخ عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي شيخ المذهب ومفيد أهله، وله مصنفات حسان، منها التفسير، واختصار النهاية، والقواعد الكبرى والصغرى، وكتاب الصلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك.

ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع كثيرا واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع في المذهب، وعلوم كثيرة، وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق، وولي خطابتها ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق.

وكان لطيفا ظريفا يستشهد بالأشعار، وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فأخرجهما من بلده فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه واحترمه، وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية، فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز.

وتوفي في عاشر جمادى الأولى وقد نيف على الثمانين، ودفن من الغد بسفح المقطم، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلق كثير رحمه الله تعالى.

كمال الدين

■ ابن العديم الحنفي: عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل الحلبي الحنفي كمال الدين أبو القاسم بن العديم، الأمير الوزير الرئيس الكبير.

ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة، سمع الحديث وحدث وتفقه وأفتى ودرس وصنف، وكان إماما في فنون كثيرة، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة، وكان يكتب حسناً طريقة مشهورة، وصنف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً في أربعين مجلداً، وكان جيد المعرفة بالحديث، حسن الظن بالفقراء والصالحين كثير الإحسان إليهم، وقد أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة.

توفي بمصر ودفن بسفح المقطم بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام بعشرة أيام، وقد أورد له قطب الدين أشعاراً حسنة.

■ يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن سليمان بن محمد القاقاني الزينبي بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، محيي الدين أبو المعز، ويقال: أبو المحاسن الهاشمي العباسي الموصلي المعروف بابن زبلاق الشاعر، قتلته التتار لما أخذوا الموصل في هذه السنة عن سبع وخمسين سنة، ومن شعره قوله:

بعثت لنا من سحر مقلتك الوَسْنى ... سهادا يذود الجفن أن يألف الجفنا
وأبصر جسمي حسن خصرك ناحلاً ... فحاكاه لكن زاد في دقة المعنى
وأبرزت وجها أخجل الصبح طالعاً ... وملت بقد علم الهيف الغصنا
حكيت أخاك البدر ليلة تمه ... سنا وسناء إذ تشابهتما سنا

وقال أيضا وقد دعي إلى موضع، فبعث يعتذر بهذين البيتين:

أنا في منزلي وقد وهب الله ... نديما وقينة وعقارا
فابسطوا العذر في التأخر عنكم ... شغل الخلي أهله بأن يعارا

قال أبو شامة: وفيها في ثاني عشر جمادى الآخرة توفي:

■ البدر المراغي الخلافي: المعروف بالطويل، وكان قليل الدين تاركا للصلاة مغتبطا بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين، راضيا بما لا يفيد رحمنا الله تعالى وجميع المسلمين.

وفيها توفي:

■ محمد بن داود بن ياقوت الصارمي: المحدث. كتب كثيرا الطبقات وغيرها، وكان دينا خيراً يعير كتبه ويداوم على الاشتغال بسماع الحديث رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة

استهلت وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى الشام نائبه جمال الدين آقوش النجيبي، وقاضيه شمس الدين ابن خلكان والوزير بها عز الدين بن وداعة، وليس للناس خليفة، وإنما تضرب السكة باسم المستنصر الذي قتل في السنة الماضية.

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

أبي العباس أحمد ابن الأمير أبي علي القُبّي ابن الأمير علي ابن الأمير أبي بكر ابن الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل ابن الإمام المستظهر بالله أبي العباس أحمد العباسي الهاشمي.

لما كان يوم الخميس ثاني المحرم، جلس السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وأمراؤه وأهل الحل والعقد في الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكبا حتى نزل عند الإيوان، وقد بسط له إلى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه، ثم قرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه الملك الظاهر فبايعه وبايعه الناس بعده، وكان يوما مشهودا.

فلما كان يوم الجمعة ثانية خطب الخليفة بالناس فقال في خطبته: «الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنا ظهيرا، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة، وعلى العباس عمه كاشف غمه أبي السادة الخلفاء الراشدين وأئمة المهديين وعلى بقية الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أيها الناس اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال، وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمهات،وهتكوا حرم الخلافة والحريم. وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل،فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا عباد الله عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[سورة التغابن: ١٦] فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، وأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا،ولا يروعنكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأجر للمؤمنين،جمع الله على الهدى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفر الله العظيم لي ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

ثم خطب الثانية ونزل فصلى.

وكتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له وضربت السكة باسمه.

قال أبو شامة: فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة.

وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بني العباس، ولم يل الخلافة من بني العباس من ليس والده وجده خليفة بعد السفاح والمنصور سوى هذا، فأما من ليس والده خليفة فكثير منهم المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، والمعتضد بن طلحة بن المتوكل، والقادر بن إسحاق بن المقتدر، والمقتدي بن الذخيرة بن القائم بأمر الله.

ذكر أخذ الظاهر الكرك وإعدام صاحبها

وفيها ركب الظاهر من مصر في العساكر المنصورة قاصداً ناحية بلاد الكرك، واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل، فلما قدم عليه بعد جهد أرسله إلى مصر معتقلا فكان آخر العهد به، وذلك أنه كاتب هولاوو وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجاءته كتب التتار بالثبات ونيابة البلاد،وأنهم قادمون عليه عشرون ألفا لفتح الديار المصرية، وأخرج السلطان فتاوى الفقهاء بقتله وعرض ذلك على ابن خلكان، وكان قد استدعاه من دمشق، وعلى جماعة من الأمراء، ثم سار فتسلم الكرك يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ودخلها يومئذ في أبهة الملك، ثم عاد إلى مصر مؤيدا منصورا.

وفيها قدمت رسل بركه قان إلى الظاهر يقول له: قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية وآتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد وأيّاً ما كان أعطيتك جميع ما كان بيده من البلاد، فاستصوب الظاهر هذا الرأي وشكره وخلع على رسله وأكرمهم.

وفيها زلزلت الموصل زلزلة عظيمة وتهدمت أكثر دورها.

وفي رمضان جهز الظاهر صناعا وأخشابا وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ بعد حريقه فطيف بتلك الأخشاب والآلات بمصر فرحة بها وتعظيما لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية.

وفي شوال سار الظاهر إلى الاسكندرية، فنظر في أحوالها وأمورها، وعزل قاضيها وخطيبها ناصر الدين أحمد بن المنير وولى غيره.

وفيها التقى بركه قان وهولاوو ومع كل واحد جيوش كثيرة فاقتتلوا فهزم الله هولاوو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقي وهرب هو في شرذمة يسيرة ولله الحمد.ولما نظر بركة إلى كثرة القتلى قال: يعز علي أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكيز خان؟! ثم أغار بركة على بلاد القسطنطينية فصانعه صاحبها وأرسل الظاهر هدايا عظيمة إلى بركة وتحفاً كثيرة هائلة.

وفيها توفي من الأعيان

■ محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس أبو بكر اليعمري الأندلسي الحافظ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسمع الكثير، وحصل كتباً عظيمة، وصنف أشياء حسنة، وختم به الحفاظ في تلك البلاد، توفي بمدينة تونس في الرابع والعشرين رجب من هذه السنة.

■ عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف عز الدين أبو محمد الرسعني المحدث المفسر، سمع الكثير، وحدث وكان من الفضلاء والأدباء، له مكانة عند البدر لؤلؤ صاحب الموصل، وكذلك عند صاحب سنجار، وبها توفي في ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر وقد جاوز السبعين، ومن شعره:

أن الحبيبَ دنا أوانُ مغيبهِ نعبَ الغرابُ فدلنا بنعيبهِ
جُد لي بعيشٍ ثم سلْ عن طيبهِ يا سائلي عن طيبِ عيشي بعدهمْ

■ محمد بن أحمد بن عنتر السلمي الدمشقي: محتسبها، ومن عدولها

وأعيانها. وله بها أملاك وأوقاف، توفي بالقاهرة ودفن بالمقطم.

■ (القاسم بن أحمد بن الموفق اللورقي).

علم الدين محمد أبو محمد القاسم بن أحمد بن الموفق بن جعفر المرسي اللورقي اللغوي النحوي المقري، وشرح الشاطبية شرحاً مختصراً، وشرح المفصل في عدة مجلدات، وشرح الجزولية وقد اجتمع بمصنفها وسأله عن بعض مسائلها، وكان ذا فنون عديدة حسن الشكل مليح الوجه له هيئة حسنة وبزة وجمال، وقد سمع الكندي وغيره.

الشيخ أبو بكر

■ الدينوري: وهو باني الزاوية بالصالحية، وكانت له فيها جماعة مريدون يذكرون الله بأصوات حسنة طيبة رحمه الله.

مولد الشيخ تقي الدين

■ ابن تيمية شيخ الإسلام: قال الشيخ شمس الدين الذهبي: وفي هذه السنة ولد شيخنا تقي الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن أبي القاسم بن تيمية الحراني بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة.

الأمير الكبير مجير الدين: أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترين الأزكشي الكردي الأموي، كان من أعيان الأمراء وشجعانهم، وله يوم عين جالوت اليد البيضاء في كسر التتار، ولما دخل الملك المظفر إلى دمشق بعد الوقعة جعله مع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائبا على دمشق مستشارا ومشاركاً في الرأي والمراسيم والتدبير، وكان يجلس معه في دار العدل وله الإقطاع الكامل والرزق الواسع، إلى أن توفي في هذه السنة.

قال أبو شامة: ووالده الأمير حسام الدين توفي في حبس الملك الأشرف ببلاد الشرق هو والأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب رحمهما الله تعالى.

قلت: وولده الأمير عز الدين تولى هذه المدينة أعني دمشق مدة، وكان مشكور السيرة وإليه ينسب درب سقون بالصاغة العتيقة،فيقال: درب ابن أبي الهيجاء لأنه كان يسكنه وكان يعمل الولاية فيه فعرف به، وبعد موته بقليل كان فيه نزولنا حين قدمنا من حوران وأنا صغير فختمت فيه القرآن العظيم، ولله الحمد والمنة ونسأله أن يتوفانا على الكتاب والسنة.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان الإسلام الذابُّ عن حوزته الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري - أيده الله وشدَّ عضُده -، ونائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبي وقاضيه شمس الدين بن خلكان.

وفيها في أولها كملت المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ الدمياطي.

وفيها عمر الظاهر بالقدس الشريف خانا ووقف عليه أوقافا للنازلين به من إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحونا وفرنا.

وفيها قدمت رسل الملك بركه خان إلى الملك الظاهر ومعهم الأشرف ابن شهاب الدين غازي بن العادل، ومعهم من الكتب والمشافهات ما فيه سرور للإسلام وأهله مما حل بهولاكو وأهله.

وفي جمادى الآخرة منها درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي بدار الحديث الأشرفية، بعد وفاة القاضي عماد الدين بن الحرستاني، وحضر عنده القاضي شمس الدين بن خلكان وجماعة من الفضلاء والأعيان، وذكر خطبة كتابه المبعث. وأورد الحديث بسنده ومتنه وذكر فوائد كثيرة مستحسنة، ويقال: إنه لم يراجع شيئا حتى أورد درسه ومثله لا يستكثر ذلك عليه والله أعلم.

وفيها قدم نصير الدين الطوسي إلى بغداد من جهة السلطان هولاكو، فنظر في الأوقاف وأحوال البلد، وأخذ كتبا كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى الرَّصَد الذي بناه بمراغة، ثم انحدر إلى واسط والبصرة.

وفيها كانت وفاة:

الملك

■ الأشرف: موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير، كانوا ملوك حمص كابرا عن كابر إلى هذا الحين، وقد كان من الكرماء الموصوفين، وكبراء المتماشقة المترفين، معتنيا بالمآكل والمشرب والملابس والمراكب وقضاء الشهوات والمآرب وكثرة التنعم بالمغاني والحبائب، ثم ذهب ذلك كان لم يكن أو كأضغاث أحلام، أو كظل زائل، وبقيت تبعاته وعقوباته وحسابه وعاره.

ولما توفي وجدت له حواصل من الجواهر النفيسة والأموال الكثيرة، وصار ملكه إلى الدولة الظاهرية.

وتوفي معه في هذه السنة الأمير

■ حسام الدين الجوكندار نائب حلب.

وفيها كانت كسرة التتار على حمص وقتل مقدمهم بيدرة بقضاء الله وقدره الحسن الجميل.

وفيها كانت وفاة:

■ الرشيد العطار: المحدث بمصر. والذي حضر مسخرة الملك الأشرف موسى بن العادل.

والتاجر المشهور الحاج

■ نصر بن نزوس وكان ملازما للصلوات بالجامع، وكان من ذوي اليسار والخير.

الخطيب عماد الدين

■ ابن الحرستاني: عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن الحرستاني، كان خطيبا بدمشق وناب في الحكم عن أبيه في الدولة الأشرفية، بعد ابن الصلاح إلى أن توفي في دار الخطابة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة، وصلي عليه بالجامع ودفن عند أبيه بسفح قاسيون، وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى، وقد جاوز الثمانين بخمس سنين، وتولى بعده الخطابة والغزالية ولده مجير الدين، وباشر مشيخة بعده دار الحديث الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

محيي الدين

■ محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الحافظ المحدث الأنصاري الشاطبي أبوبكر المغربي، عالم فاضل دين أقام بحلب مدة، ثم اجتاز بدمشق قاصداً مصر. وقد تولى دار الحديث الكاملية بعد زكي

الدين عبد العظيم المنذري، وقد كان له سماع جيد ببغداد وغيرها من البلاد، وقد جاوز التسعين.

الشيخ الصالح

■ **محمد بن منصور بن يحيى الشيخ أبي القاسم القباري الإسكندراني**: كان مقيما بغيط له يقتات منه ويعمل فيه ويبذره، ويتورع جدا ويطعم الناس من ثماره. وكانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة بالإسكندرية وله خمس وسبعون سنة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويردع الولاة عن الظلم فيسمعون منه ويطيعونه لزهده، وإذا جاء الناس إلى زيارته إنما يكلمهم من طاقة المنزل وهم راضون منه بذلك.

ومن غريب ما حكي عنه أنه باع دابة له من رجل، فلما كان بعد أيام جاءه الرجل الذي اشتراها فقال: يا سيدي إن الدابة التي اشتريتها منك لا تأكل عندي شيئا، فنظر إليه الشيخ فقال له: ماذا تعاني من الصنائع؟ فقال رقاص عند الوالي، فقال له إن دابتنا لا تأكل الحرام، ودخل منزله فأعطاه دارهمه ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز، فاشترى الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة لأجل البركة، وأخذ دابته، ولما توفي ترك من الأثاث ما يساوي خمسين درهماً فبيع بمبلغ عشرين ألفا. قال أبو شامة: وفي الثامن والعشرين من ربيع الآخر توفي:

محيي الدين

■ **عبد الله بن صفي الدين**: إبراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية رحمه الله تعالى.

قلت: داره هذه هي التي جعلت مدرسة للشافعية وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي التي يقال لها النجيبية تقبل الله منه وبها إقامتنا جعلها الله داراً تعقبها دار القرار في الفوز العظيم.

وقد كان أبوه صفي الدين وزير الملك الأشرف، وملك من الذهب ستمائة ألف دينار خارجاً عن الأملاك والأثاث والبضائع، وكانت وفاة أبيه بمصر سنة تسع وخمسين، ودفن بتربته عند جبل المقطم.

قال أبو شامة: وجاء الخبر من مصر بوفاة

■ **الفخر عثمان المصري المعروف بعين عين**.

وفي ثامن عشر ذي الحجة توفي الشمس.

■ **الويّار الموصلي**، وكان قد حصل شيئا من علم الأدب وخطب بجامع المزة مدة. فأنشدني لنفسه في الشيب وخضابه قوله:

وكنتُ وإياها مذ اختطَّ عارضي ... كروحين في جسم وما نقضت عهدا

فلما أتاني الشيبُ يقطعُ بيننا ... توهمتهُ سيفاً فألبستهُ غمدا

وفيها استحضر الملك هولاكو ملك التتار الزين الحافظي وهو سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي، وقال له قد ثبت عندي خيانتك، وقد كان هذا المغتر لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها مالأ على المسلمين وآذاهم ودل على عوراتهم، حتى سلطهم الله عليه بأنواع العقوبات والمثلات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وفي الجملة من أعان ظالما سلط عليه، فإن الله ينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الظالمين جميعاً، نسأل الله العافية من انتقامه وغضبه وعقابه وشر عباده.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

فيها جهز السلطان الملك الظاهر عسكرا جما كثيفا إلى ناحية الفرات لطرد التتار النازلين بالبيرة، فلما سمعوا بالعساكر الظاهرية قد أقبلت ولوا مدبرين، فطابت تلك الناحية وأمنت تلك المعاملة، وقد كانت قبل ذلك لا تسكن من كثرة الفساد بها والخوف، فعمرت وأمنت و لله الحمد.

وفيها خرج الملك الظاهر في عساكر أُخر عظيمة فقصد بلاد الساحل لحصار الفرنج ففتح قيسارية في ثلاث ساعات من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى وهو يوم نزوله عليها، وتسلم قلعتها في يوم الخميس الآخر خامس عشره فهدمها وانتقل إلى غيرها، و لله الحمد والمنّة، ثم جاء الخبر بأنه فتح مدينة أرسوف وقتل من بها من الفرنج وجاءت البريدية بذلك، فدقت البشائر في بلاد المسلمين وفرحوا بذلك فرحا شديدا.

وفيها ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألفا، وأسروا عشرة آلاف، واسترجعوا منهم ثنتين وثلاثين بلدة منها شريش وإشبيلية وقرطبة ومرسية، وكانت النصرة في يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة اثنتين وستين.

وفي رمضان من هذه السنة شرع في تبليط باب البريد من باب الجامع إلى القناة التي عند الدرج وعمل في الصف القبلي منها بركة وشاذروان. وكان في مكانها قناة من القنوات ينتفع الناس بها عند انقطاع نهر بانياس فغيرت وعمل الشاذروان.

قلت: ثم غيرت وعمل مكانه دكاكين.

وفيها استدعى الظاهر نائبه على دمشق الأمير جمال الدين آقوش، فسار إليه سامعاً مطيعاً، وناب عنه الأمير علم الدين الحصني حتى عاد مكرما معززاً.

وفيها ولى السلطان الملك الظاهر من بقية المذاهب قضاة في مصر مستقلين بالحكم يولون من جهتهم في البلدان أيضا كما يولي الشافعي، فكان للشافعية التاج عبد الوهاب ابن بنت الأعز، والحنفية شمس الدين سليمان، وقضاه المالكية شمس الدين السبكي، والحنابلة شمس الدين محمد المقدسي، وكان ذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة بدار العدل، وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب، فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي على السلطان بأن يولي من كل مذهب قاضي قضاة مستقلا يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك، وكان يحب رأيه ومشورته، وبعث بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ وأرسل منبراً فنصب هنالك.

وفيها وقع حريق عظيم ببلاد مصر واتهم النصارى فعاقبهم الملك الظاهر عقوبة عظيمة.

وفيها جاءت الأخبار بأن سلطان التتار هولاكو هلك إلى لعنة الله وغضبه في سابع ربيع الآخر بمرض الصرع بمدينة مراغة ودفن بقلعة تلا وبنيت عليه قبة واجتمعت التتار على ولده أبغا، فقصده الملك بركة قان فكسره وفرق جموعه، ففرح الملك الظاهر بذلك فرحاً شديداً، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر في الإقطاعات.

وفيها في ثاني عشر شوال سلطن الملك الظاهر ولده الملك السعيد محمد بركة قان، وأخذ له البيعة من الأمراء وأركبه ومشى الأمراء بين يديه،

وحمل والده الغاشية بنفسه والأمير بدر الدين بيسري الشمسي حامل الجتر، والقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز والوزير بهاء الدين بن حنا راكبان بين يديه، وأعيان الأمراء ركبان وبقيتهم مشاة حتى شقوا القاهرة وهم كذلك وكان يوما مشهودا.

وفي ذي القعدة ختن الظاهر ولده الملك السعيد المذكور، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء وكان يوماً مشهوداً.

وممن توفي فيها:

الزين

■ خالد بن يوسف بن سعد النابلسي: الشيخ زين الدين الحافظ شيخ دار الحديث النورية بدمشق، وكان عالما بصناعة الحديث حافظاً لأسماء الرجال، وقد اشتغل عليه في ذلك الشيخ محي الدين النواوي وغيره، وتولى بعده مشيخة دار الحديث النورية الشيخ تاج الدين الفزاري وكان الشيخ زين الدين حسن الأخلاق فكه النفس كثير المزاح على طريقة المحدثين، رحل إلى بغداد واشتغل بها، وسمع الحديث وكان فيه خير وصلاح وعبادة، وكانت جنازته حافلة ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

الشيخ أبو القاسم

■ الحواري: هو أبو القاسم يوسف بن أبي القاسم بن عبد السلام الأموي الشيخ المشهور صاحب الزاوية بحواري، توفي ببلده، وكان خيرا صالحا له أتباع وأصحاب يحبونه، وله مريدون كثير من قرايا حوران في الجبيل والبثنيه وهم حنابلة لا يرون الضرب بالدف بل بالكف، وهم أمثل من غيرهم.

القاضي

■ بدر الدين الكردي السنجاري: الذي باشر القضاء بالديار المصرية مرارا توفي بالقاهرة.

قال أبو شامة: وكانت وسيرته معروفة في أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود والمتحاكمين إليه، إلا أنه كان جواداً كريماً ثم صودر هو وأهله.

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم العباسي وسلطان المسلمين الملك الظاهر وقضاة مصر أربعة،

وفيها استجد بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر عام أول وسيأتي تفصيله.

ونائب الشام آقوش النجيبي، وفيها وردت الولايات لقضاء القضاة من المذاهب فصار كل مذهب فيه قاضي قضاة، فكان في منصب الشافعية ابن خلكان، والحنفية شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء، والحنابلة شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر محمد بن احمد بن قدامة، والمالكية عبد السلام بن الزواوي، وقد امتنع من الولاية فألزم بها حتى قبل ثم عزل نفسه، ثم ألزم بها فقبل بشرط أن لا يباشر أوقافا ولا يأخذ جامكية على أحكامه، وقال: نحن في كفاية فاعفي من ذلك أيضا رحمهم الله.

وقد كان هذا الصنيع الذي لم يسبق إلى مثله قد فعل في العام الأول بمصر كما تقدم، واستقرت الأحوال على هذا المنوال و لله الحمد.

وفيها كمل عمارة الحوض الذي شرقي قناة باب البريد وعمل له شاذروان وفيه وأنابيب يجري منها الماء من القناة التي هي غربيُّة إلى جانب الدرج الشمالية.

وفيها قدم السلطان الملك الظاهر بعساكره ونازل مدينة صفد واستدعى بالمجانيق من دمشق وأحاط بها ولم يزل حتى أفتتحها، ونزل أهلها على حكمه، فتسلم البلد في يوم الجمعة ثامن عشر شوال، وقتل المقاتلة وسبى الذرية، وقد كان الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب افتتحها في شوال أيضاً في أربع وثمانين وخمسمائة، ثم استعادها الفرنج فانتزعها الظاهر منهم قهراً في هذه السنة ولله الحمد، وكان السلطان الظاهر في نفسه منهم شيء كثير، فلما توجه إلى فتحها طلبوا الأمان، فأجلس على سرير مملكته الأمير سيف الدين كرمون التتري، وجاءت رسلهم فحلفوه وانصرفوا ولا يشعرون أن الذي أعطاهم العهود بالأمان إنما هو الأمير الذي أجلسه على السرير والحرب خدعة، فلما خرجت الاستبارية والداوية من القلعة، وقد فعلوا بالمسلمين الأفاعيل القبيحة، فأمكن الله منهم فأمر السلطان بضرب رقابهم عن آخرهم، وجاءت البشائر إلى البلاد بذلك، فدقت البشائر وزينت البلاد، ثم بث السرايا يمينا وشمالا في بلاد الفرنج فاستولى المسلمون على حصون كثيرة تقارب عشرين حصنا، وأسروا قريباً من ألف أسير ما بين امرأة وصبي، وغنموا شيئا كثيرا ودقت البشائر في البلدان وفرح المسلمون بنصر الله وتأييده.

وفيها قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر العباسي واسمه علي، فأكرم وأنزل بالدار الأسدية تجاه العزيزية، وقد كان أسيرا في أيدي التتار، فلما كسرهم بركة قان تخلص من أيديهم وسار إلى دمشق، ولما فتح السلطان صفد أخبره بعض من كان فيها من أسرى المسلمين أن سبب أسرهم أن أهل قرية قاراً كانوا يأخذونهم فيحملونهم إلى الفرنج فيبيعونهم منهم، فعند ذلك ركب السلطان قاصدا قاراً فأوقع بهم بأساً شديدا وقتل منهم خلقا كثيراً، وأسر من أبنائهم ونسائهم أخذاً بثأر المسلمين جزاه الله خيراً، ثم أرسل السلطان جيشاً هائلا إلى بلاد سيس، فجاسوا خلال الديار وفتحوا سيس عنوة وأسروا ابن ملكها وقتلوا أخاه ونهبوها، وقتلوا أهلها وأخذوا بثأر الإسلام وأهله منهم، وذلك أنهم كانوا أضر شيء على المسلمين زمن التتار، لما أخذوا مدينة حلب وغيرها أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقا كثيرا، ثم كانوا بعد ذلك يغيرون على بلاد المسلمين في زمن هولاكو فكبته الله وأهانه على يدي أنصار الإسلام، هو وأميره كتبغا، وكان أخذ سيس يوم الثلاثاء العشرين من ذي القعدة من هذه السنة، وجاءت الأخبار بذلك إلى البلاد وضربت البشائر.

وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة دخل السلطان الملك الظاهر دمشق المحروسة وبين يديه ابن صاحب سيس وجماعة من ملوك الأرمن أسارى أذلاء صغرة، والعساكر صحبته وكان يوماً مشهوداً. ثم سار إلى مصر مؤيداً منصوراً، مجبوراً، و لله الحمد وطلب صاحب سيس أن يفادي ولده، فقال السلطان لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له سنقر الأشقر، فذهب صاحب سيس إلى ملك التتر فتذلل له وتمسكن وخضع له، حتى أطلقه له، فلما وصل سنقر الأشقر إلى السلطان أطلق ابن صاحب سيس.

وفيها عمر الظاهر الجسر المشهور بين قراوا ودامية، تولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن نهار وبدر الدين محمد بن رحال والي نابلس والأغوار، ولما تم بناؤه اضطرب بعض أركانه فقلق السلطان من ذلك وأمر بتأكيده فلم يستطيعوا من قوة جري الماء حينئذ، فاتفق بإذن الله أن انسالت على النهر أكمة من تلك الناحية، فسكن الماء بمقدار ما أصلحوا ما يريدون، ثم

عاد الماء كما كان وذلك بتيسير الله وعونه وعنايته العظيمة.

وفيها توفي من الأعيان

■ **أيدغدي بن عبد الله**: الأمير جمال الدين العزيزي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملك الظاهر، لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه، وهو الذي أشار عليه بولاية القضاة من كل مذهب قاض على سبيل الاستقلال وكان رحمه الله متواضعاً لا يلبس محرما، كريماً وقوراً رئيساً معظماً في الدولة، أصابته جراحة في حصار صفد فلم يزل مريضا منها حتى مات ليلة عرفة، ودفن بالرباط الناصري بسفح قاسيون من صلاحية دمشق رحمه الله.

■ **هولاكو قان بن تولي قان خان بن جنكيز خان**: ملك التتار ابن ملك التتار، ابن ملك التتار وهو والد ملوكهم، والعامة يقولون هولاوون مثل قلاوون.

وقد كان هولاكو ملكا جباراً فاجراً عنيداً كفاراً لعنه الله، قتل من المسلمين شرقا وغربا ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء، كان لعنه الله، لا يتقيد بدين من الأديان، وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق، وكان لعنه الله، هو يترامى على محبة المعقولات، ولا يتصور منها شيئا، وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة لهم عنده وجاهة ومكانة، وإنما كانت همته في تدبير مملكته وتملك البلاد شيئا فشيئا. حتى أباده الله في هذه السنة، وقيل في سنة ثلاث وستين، ودفن في مدينة تلا، لا رحمه الله، وقام في الملك من بعده ولده أبغا في المملكة وكان أبغا أحد إخوة عشرة ذكور والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة

في يوم الأحد ثاني المحرم توجه الملك الظاهر من دمشق إلى الديار المصرية وصحبته العساكر المنصورة، وقد استولت الدولة الإسلامية على بلاد سيس بكمالها، وعلى كثير من معاقل الفرنج في هذه السنة، وقد أرسل العساكر بين يديه إلى غزة، وعدل هو إلى ناحية الكرك لينظر في أحوالها، فلما كان عند بركة زيزي تصيد هنالك فسقط عن فرسه فانكسرت فخذه، فأقام هناك أياما يتداوى حتى أمكنه أن يركب في المحفة، وسار إلى مصر فبرأت رجله في أثناء الطريق فأمكنه الركوب وحده على الفرس ودخل القاهرة في أبهة عظيمة، وتجمل هائل، وقد زينت البلد، واحتفل الناس له احتفالا عظيما، وفرحوا بقدومه وعافيته فرحا كثيراً.

ثم في رجب منها رجع من القاهرة إلى صفد، وحفر خندقاً حول قلعتها وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه وأغار على ناحية عكا، فقتل وأسر وغنم وسلم وضربت لذلك البشائر بدمشق.

وفي ثاني عشر ربيع الأول صلى الظاهر بالجامع الأزهر الجمعة، ولم يكن تقام به الجمعة من زمن العبيديين إلى هذا الحين، مع أنه أول مسجد بني بالقاهرة، بناه جوهر القائد وأقام فيه الجمعة، فلما بنى الحاكم جامعه حول الجمعة منه إليه، وترك الأزهر لا جمعة فيه فصار في حكم بقية المساجد وشعث حاله وتغيرت أحواله، فأمر السلطان بعمارته وبياضه وإقامة الجمعة وأمر بعمارة جامع الحسينية وكمل في سنة سبع وستين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر الظاهر أن لا يبيت أحد من المجاورين بجامع دمشق فيه وأمر بإخراج الخزائن منه، والمقاصير التي كانت فيه، فكانت قريبا من ثلاثمائة خزانة ومقصورة، ووجدوا فيها قوارير البول والفرش والسجاجيد الكثيرة، فاستراح الناس والجامع من ذلك واتسع على المصلين.

وفيها أمر السلطان بعمارة أسوار صفد وقلعتها، وأن يكتب عليها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]

وفيها التقى أبغا ومنكوتمر الذي قام مقام بركة قان فكسره أبغا وغنم منه شيئا كثيراً.

وحكى ابن خلكان فيما نقل من خط الشيخ قطب الدين اليونيني قال: بلغنا أن رجلا بدير أبي سلامة من ناحية بصرى، كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة، فقال: والله لا أستاك إلا في المخرج - يعني دبره - فأخذ سواكا فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث بعده تسعة أشهر وهو يشكو من ألم البطن والمخرج فوضع ولدا على صفة الجرذان له أربع قوائم، ورأسه كرأس السمكة، وله أربعة أنياب بارزة، وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع، وله دبر كدبر الأرنب. ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيا قبل أن يموت، ومنهم من رآه بعد موته.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان

■ **بركة خان بن تولي بن جنكيز خان بن خاقان**: وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصح الملك الظاهر، ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئا كثيراً، وقد قام في الملك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابو بن تولي بن جنكيز قان، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد.

قاضي القضاة بالديار المصرية: تاج الدين

■ **عبد الوهاب بن خلف بن بدر ابن بنت الأعز الشافعي**، كان دينا عفيفا نزهاً لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يقبل شفاعة أحد، وجمع له قضاء الديار المصرية بكمالها، والخطابة، والحسبة ومشيخة الشيوخ، ونظر الأحباس، وتدريس قبة الشافعي والصالحية وإمامة الجامع، وكان بيده خمس عشرة وظيفة، وباشر الوزارة في بعض الأوقات.

وكان السلطان يعظمه، والوزير ابن حنا يخاف منه كثيرا، وكان يحب أن ينكبه عند السلطان ويضعه فلا يستطيع ذلك، وكان يشتهي أن يأتي داره ولو عائدا، فمرض في بعض الأحيان فجاء القاضي عائدا، فقام إلى تلقيه لوسط الدار، فقال له القاضي: إنما جئنا لعيادتك فإذا أنت سويّ صحيح، سلام عليكم، فرجع ولم يجلس عنده وكان مولده في سنة أربع وستمائة، وتولى بعده القضاء تقي الدين بن رزين.

واقف القيمرية الأمير الكبير ناصر الدين: أبو المعالي

■ الحسين بن العزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي، كان من أعظم الأمراء مكانة عند الملوك، وهو الذي سلم الشام إلى الملك الناصر صاحب حلب، حين قتل توران شاه بن الصالح أيوب بمصر، وهو واقف المدرسة القيمرية عند مئذنة فيروز، وعمل على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها، ولا عمل على شكلها، يقال إنه غرم عليها أربعين ألف درهم.

الشيخ شهاب الدين

■ أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسي الشيخ الإمام العلامة الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ المعروف بأبي شامة شيخ دار الحديث الأشرفية، ومدرس الركنية، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة، له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة، وله شرح الشاطبية، وله الرد إلى الأمر الأول، وله في البعث وفي الإسراء، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية، وله الذيل على ذلك، وله غير ذلك من الفوائد الحسان والفرائد التي هي كالعقيان.

ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وذكر لنفسه ترجمة في هذه السنة في الذيل، وذكر مرباه ومنشأه، وطلبه العلم، وسماعه الحديث، وتفقهه على الفخر بن عساكر وابن عبد السلام، والسيف الآمدي، والشيخ موفق الدين بن قدامة، وما رئي له من المنامات الحسنة.

وكان ذا فنون كثيرة، أخبرني علم الدين البرزالي الحافظ عن الشيخ تاج الدين الفزاري، أنه كان يقول: بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد، وقد كان ينظم أشعارا في أوقات، فمنها ما هو مستحلى، ومنها ما لا يستحلى، فالله يغفر لنا وله.

وبالجملة فلم يكن في وقته مثله في نفسه وديانته، وعفته وأمانته.

وكانت وفاته بسبب جماعة ألبوا عليه، وأرسلوا إليه من اغتاله وهو بمنزل له بطواحين الأشنان، وقد كان اتهم بأمر، الظاهر براءته منه، وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم: إنه كان مظلوما، ولم يزل يكتب في التاريخ حتى وصل إلى رجب من هذه السنة، فذكر أنه أصيب بمحنة في منزله بطواحين الأشنان، وكان الذين قتلوه جاؤوه قبل فضربوه ليموت فلم يمت، فقيل له: ألا تشتكي عليهم، فلم يفعل وأنشأ يقول:

قلتُ لمنْ قالَ ألا تشتكي ... ما قد جرى فهوَ عظيمٌ جليل

يقيضُ اللهُ تعالى لنا ... من يأخذ الحقَّ ويشفي الغليلْ

إذا توكلنا عليهِ كفى ... فحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلْ

وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية وهو في المنزل المذكور فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان رحمه الله. ودفن من يومه بمقابر دار الفراديس، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الأشرفية الشيخ محيي الدين النووي.

وفي هذه السنة كان مولد الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي، وقد ذيل على تاريخ الشيخ أبي شامة لأن مولده في سنة وفاته، فحذا حذوه وسلك نحوه، ورتب ترتيبه وهذب تهذيبه وهذا مما يقال فيه وفي أمثاله في تراجمهم

ما زلتَ تكتبُ في التاريخ مجتهداً ... حتى رأيتكُ في التاريخ مكتوبا

ويناسب أن ينشد هنا قول الشاعر:

إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ ... قؤولٌ لما قال الكرامُ فعولُ

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

استهلت هذه السنة والحاكم العباسي خليفة، وسلطان البلاد الملك الظاهر.

وفي أول جمادى الآخرة خرج السلطان من الديار المصرية بالعساكر المنصورة، فنزل على مدينة يافا بغتة فأخذها عنوة، وسلم إليه أهلها قلعتها صلحاً، فأجلاهم منها إلى عكا وخرب القلعة والمدينة أيضاً، وقد كان الفرنج اعتنوا بعمارتها وتحصينها فجعلها بلقعاً لئلا يكون لهم إليها عودة.

وسار منها في رجب قاصداً حصن الشقيف، وفي أثناء الطريق أخذ من بعض بريدية الفرنج كتابا من أهل عكا إلى أهل الشقيف يعلمونهم قدوم السلطان عليهم، ويأمرونهم بتحصين البلد، والمبادرة إلى إصلاح أماكن يخشى على البلد منها. ففهم السلطان كيف يأخذ البلد وعرف من أين تؤكل الكتف، واستدعى من فوره رجلا من الفرنج فأمره أن يكتب بدله كتابا على ألسنتهم إلى أهل الشقيف، يحذر الملك من الوزير، والوزير من الملك، ويرمي الخلف بين الدولة. فوصل إليهم فأوقع الله الخلف بينهم بحوله وقوته، وجاء السلطان فحاصرهم، ورماهم بالمنجنيق فسلموه الحصن في التاسع والعشرين من رجب وأجلاهم إلى صور، وبعث بالأثقال إلى دمشق،ثم ركب جريدة فيمن نشط من الجيش فشن الغارة على طرابلس وأعمالها، فنهب وقتل وأرعب وكر راجعاً، مؤيدا منصورا، فنزل على حصن الأكراد تحته في المرج، فحمل إليه أهله من الفرنج الإقامات فأبى أن يقبلها وقال أنتم قتلتم جندياً من جيشي وأريد ديته مائة ألف دينار، ثم سار فنزل على حمص، ثم منها إلى حماة، ثم إلى أفامية ثم سار منزلة أخرى، ثم سار ليلا وتقدم العسكر فلبسوا العدة وساق حتى أحاط بمدينة أنطاكية.

فتح أنطاكية على يد السلطان الملك الظاهر رحمه الله تعالى

وهي مدينة عظيمة كثيرة الخير، يقال إن دور سورها اثنا عشر ميلا، وعدد بروجها مائة وستة وثلاثون برجا، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألف شرفة.

كان نزوله عليها في مستهل شهر رمضان، فخرج إليه أهلها يطلبون منه الأمان، وشرطوا شروطا له عليهم فأبى أن يجيبهم، وردهم خائبين وصمم على حصارها، ففتحها يوم السبت رابع شهر رمضان بحول الله وقوته وتأييده ونصره، وغنم منها شيئا كثيرا، وأطلق للأمراء أموالا جزيلة، ووجد من أسارى المسلمين من الحلبيين فيها خلقا كثيرا، كل هذا في مقدار أربعة أيام. وقد كان الأفريس صاحبها وصاحب طرابلس، من أشد الناس أذية للمسلمين، حين ملك التتار حلب وفر الناس منها، فانتقم الله سبحانه منه بمن أقامه للإسلام ناصرا وللصليب دامغا كاسرا، ولله الحمد والمنة.

وجاءت البشارة بذلك مع البريدية، فجاوبتها البشائر من القلعة المنصورة، وأرسل أهل ويغراس حين سمعوا بقصد السلطان إليهم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يتسلمها، فأرسل إليهم أستاذ داره الأمير آقسنقر الفارقاني في ثالث عشر رمضان فتسلمها، وتسلموا حصونا كبيرة وقلاعا كثيرة، وعاد السلطان مؤيدا منصورا، فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة في أبهة عظيمة وهيبة هائلة، وقد زينت له البلد ودقت له البشائر فرحا بنصرة الإسلام على الكفرة الطغام، لكنه كان قد

عزم على أخذ أراضي كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي ملاكها بزعم أنه قد كانت التتار استحوذوا عليها ثم استنقذها منهم، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية بذلك تفريعاً على أن الكفار إذا أخذوا شيئا من أموال المسلمين ملكوها، فإذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها، وهذه المسألة مشهورة وللناس فيها قولان:

(أصحهما) قول الجمهور أنه يجب ردها إلى أصحابها لحديث العضباء ناقة رسول الله ﷺ، حين استرجعها رسول الله ﷺ، وقد كان أخذها المشركون [أحمد ٢/٢٨٥] استدلوا بهذا وأمثاله على أبي حنيفة.

وقال بعض العلماء: إذا أخذ الكفار أموال المسلمين وأسلموا وهي في أيديهم استقرت على أملاكهم، واستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام «وهل ترك لنا عقيل من رباع» [خ (١٥٨٨، ٤٢٨٢)، م (١٣٥١)] وقد كان استحوذ على أملاك المسلمين الذين هاجروا وأسلم عقيل وهي في يده، فلم تنتزع من يده، وأما إذا انتزعت من أيديهم قبل، فإنها ترد إلى أربابها لحديث العضباء.

والمقصود أن الظاهر عقد مجلساً اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا في ذلك وصمم السلطان على ذلك اعتمادا على ما بيده من الفتاوى، وخاف الناس من غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن الحنّا، وكان قد درس بالشافعي بعد ابن بنت الأعز، فقال يا خوند أهل البلد يصالحونك عن ذلك كله بألف ألف درهم، تقسط كل سنة مائتي ألف درهم، فأبى إلا أن تكون معجلة بعد أيام، وخرج متوجها إلى الديار المصرية، وقد أجاب إلى تقسيطها، وجاءت البشارة بذلك فقرئت على المنبر ففرح الناس بذلك، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف درهم، وأن تعاد إليهم الغلات التي كانوا قد احتاطوا عليها في زمن القسم والثمار، وكانت هذه الفعلة مما شعثت خواطر الناس على السلطان.

ولما استقر أمر أبغا على التتار أمر باستمرار وزيره نصير الدين الطوسي، واستناب على بلاد الروم البرواناه وارتفع قدره عنده جدا واستقل بتدبير تلك البلاد وعظم شأنه فيها.

وفيها كتب صاحب اليمن إلى الظاهر بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن، وأرسل إليه هدايا وتحفاً كثيرة، فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعا وسنجقا وتقليدا.

وفيها رافع ضياء الدين بن الفقاعي للصاحب بهاء الدين بن الحنا عند الظاهر واستظهر عليه ابن الحنا، فسلمه الظاهر إليه، فلم يزل يضربه بالمقارع ويستخلص أمواله إلى أن مات، فيقال: إنه ضربه قبل أن يموت سبعة عشر ألف مقرعة وسبعمائة فالله أعلم.

وفيها عمل البرواناه على قتل الملك علاء الدين صاحب قونية وأقام ولده غياث الدين مكانه وهو ابن عشر سنين وتمكن البرواناه في البلاد والعباد وأطاعه جيش الروم.

وفيها قتل الصاحب علاء الدين صاحب الديوان ببغداد ابن الخشكري النعماني الشاعر، وذلك أنه اشتهر عنه أشياء عظيمة، منها أنه يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد، واتفق أن الصاحب انحدر إلى واسط فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكري عنده وأنشده قصيدة قد قالها فيه، فبينما هو ينشدها بين يديه إذ أذن المؤذن فاستنصته الصاحب، فقال ابن الخشكري: يا مولانا اسمع شيئا جديدا، وأعرض عن شيء له سنون، فثبت عند الصاحب ما كان يقال عنده عنه، ثم باسطه وأظهر أنه لا ينكر عليه شيئا مما قال حتى استعلم ما عنده، فإذا هو زنديق، فلما ركب قال لإنسان معه: استفرده في أثناء الطريق واقتله، فسايره ذلك الرجل حتى إذا انقطع عن الناس قال لجماعة معه: أنزلوه عن فرسه كالملاعب له، فأنزلوه وهو يشتمهم ويلعنهم، ثم قال: أنزعوا عنه ثيابه فسلبوها وهو يخاصمهم، ويقول إنكم أجلاف، وإن هذا لعب بارد، ثم قال: اضربوا عنقه، فتقدم إليه أحدهم فضربه بسيفه فأبان رأسه.

وفيها توفي

الشيخ عفيف الدين

■ يوسف بن البقال: شيخ رباط المرزبانية، كان صالحا ورعا زاهدا حكى عن نفسه قال: كنت بمصر فبلغني ما وقع من القتل الذريع ببغداد في فتنة التتار، فأنكرت في قلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلا وفي يده كتاب فأخذته فقرأته فإذا فيه هذه الأبيات فيها الإنكار عليّ:

دع الاعتراضَ فما الأمرُ لكْ ... ولا الحكمُ في حركاتِ الفلكْ
ولا تسألِ اللهَ عن فعلهِ ... فمنْ خاضَ لجةَ بحرٍ هلكْ
إليهِ تصيرُ أمورُ العبادِ ... دعْ الاعتراضَ فما أجهلكْ

ومن توفي فيها من الأعيان.

الحافظ أبو إبراهيم

■ إسحاق بن عبد الله بن عمر المعروف بابن قاضي اليمن، عن ثمان وستين سنة، ودفن بالشرف الأعلى، وكان قد تفرد بروايات جيدة وانتفع الناس به.

وفيها ولد

الشيخ شرف الدين

■ عبد الله بن تيمية أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية.

و■ الخطيب القزويني.

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

في صفر منها جدد السلطان الظاهر البيعة لولده من بعده الملك السعيد محمد بركة قان، وأحضر الأمراء كلهم والقضاة والأعيان وأركبه ومشى بين يديه، وكتب له ابن لقمان تقليدا هائلا بالملك من بعد أبيه، وأن يحكم عنه أيضا في حال حياته.

ثم ركب السلطان في عساكره في جمادى الآخرة قاصدا الشام، فلما دخل دمشق جاءته رسل من أبغا ملك التتار معهم مكاتبات ومشافهات، فمن جملة المشافهات: أنت مملوك أبعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا. فلم يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئا بل أجاب عنه أتم جواب، وقال لرسله: أعلموه أني من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة، وسائر أقطار الأرض.

وفي جمادى الآخرة رسم السلطان الملك الظاهر بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطئ بالبلاد كلها، فنهبت الخواطئ وسلبن جميع ما كان

معهن وحُبس حتى يتزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بذلك، وأسقط المكوس التي كانت مرتبة على ذلك، وعوض من كان محالا على ذلك بغيرها ولله الحمد والمنة.

ثم عاد السلطان بعساكره إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق عند خربة اللصوص تعرضت له امرأة فذكرت له أن ولدها دخل مدينة صور، وأن صاحبها الفرنجي غدر به وقتله وأخذ ماله، فركب السلطان وشنّ الغارة على صور فأخذ منها شيئاً كثيراً، وقتل خلقا، فأرسل إليه ملكها ما سبب هذا؟ فذكر له غدره ومكره بالتجار ثم قال السلطان لمقدم الجيوش: أوهم الناس أني مريض وأني بالمحفة وأحضر الأطباء واستوصف لي منهم ما يصلح لمريض به كذا وكذا، وإذا وصفوا لك فاحضر الأشربة إلى المحفة وأنتم سائرون.

ثم ركب السلطان على البريد وساق مسرعا حتى دخل الديار المصرية. فكشف أحوال ولده وكيف الأمر بالديار المصرية بعده، ثم عاد مسرعا إلى الجيش فجلس في المحفة وأظهروا عافيته وتباشروا بذلك. وهذه جراة عظيمة، وإقدام هائل.

وفيها حج السلطان الملك الظاهر وفي صحبته الأمير بدر الدين الخزندار، وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وفخر الدين بن لقمان وتاج الدين ابن الأثير ونحو من ثلاثمائة مملوك، وأجناد من الحلقة المنصورة، فسار على طريق الكرك ونظر في أحوالها ثم منها إلى المدينة النبوية، فأحسن إلى أهلها ونظر في أحوالها، ثم منها إلى مكة فتصدق على المجاورين ثم وقف بعرفة وطاف طواف الإفاضة وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة فتناول أيدي الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهم كأحدهم، ثم رجع فرمى الجمرات ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبوية فزار القبر الشريف، مرة ثانية على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعلى آله وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين إلى يوم الدين.

ثم سار إلى الكرك فدخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة، وأرسل البشير إلى دمشق بقدومه سالما، فخرج الأمير جمال الدين آقوش النجيبي نائبها ليتلقى البشير في ثاني المحرم، فإذا هو السلطان نفسه يسير في الميدان الأخضر، وقد سبق الجميع، فتعجب الناس من سرعة سيره وصبره وجلده، ثم سار من فوره حتى دخل حلب في سادس المحرم ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة ثم رجع إلى دمشق ثم سار إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر من السنة المقبلة رحمه الله.

وفي أواخر ذي الحجة هبت ريح شديدة أغرقت مائتي مركب في النيل، وهلك فيها خلق كثير، ووقع هناك مطر شديد جدا، وأصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها اوقع الله تعالى الخلف بين التتار من أصحاب أبغا وأصحاب ابن منكوتمر ابن عمه وتفرقوا واشتغلوا ببعضهم بعضاً، ولله الحمد.

وفيها خرج أهل حران منها وقدموا الشام، وكان فيهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية صحبة أبيه وعمره ست سنين، وأخوه زين الدين عبد الرحمن وشرف الدين عبد الله، وهما أصغر منه.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير عز الدين

■ أيدمر بن عبد الله: الحلي الصالحي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثم عند الملك الظاهر، كان يستنيبه إذا غاب، فلما كانت هذه السنة أخذه معه وكانت وفاته بقلعة دمشق، ودفن بتربته بالقرب من اليغمورية، وخلف أموالا جزيلة، وأوصى إلى السلطان في أولاده، وحضر السلطان عزاءه بجامع دمشق.

شرف الدين أبو الطاهر: محمد ابن الحافظ أبي الخطاب عمر

■ ابن دحية المصري، ولد سنة عشر وستمائة وسمع أباه وجماعة، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة، وحدث وكان فاضلا.

القاضي تاج الدين أبو عبد الله:

■ محمد بن وثاب بن رافع البجيلي الحنفي، درس وأفتى عن ابن عطاء بدمشق، ومات بعد خروجه من الحمام على مساطب الحمام فجأة ودفن بقاسيون.

الطبيب الماهر شرف الدين أبو الحسن:

■ علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي شيخ الأطباء بدمشق، ومدرس الدخوارية عن وصية واقفها بذلك وله التقدمة في هذه الصناعة على أقرانه من أهل زمانه، ومن شعره قوله:

يساقُ بنو الدنيا إلى الحتفِ عنوةً ... ولا يشعرُ الباقي بحالةِ من يمضي
كأنهمُ الأنعامُ في جهلِ بعضها ... بما تمّ من سفكِ الدماء على بعض

الشيخ نصير الدين:

■ المبارك بن يحيى بن أبي الحسن أبو البركات بن الطباخ الشافعي، العلامة في الفقه والحديث، درس وأفتى وصنف وانتفع به، وعمر ثمانين سنة، وكانت وفاته في حادي عشرة جمادى الأخرة من هذه السنة، رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو الحسن:

■ علي بن عبد الله بن إبراهيم الكوفي المغربي النحوي الملقب بسيبويه في وقته، وكان فاضلا بارعا في صناعة النحو، توفي بمارستان القاهرة في هذه السنة عن سبع وستين سنة رحمه الله ومن شعره:

عذبتَ قلبي بهجرٍ منكَ متصلٍ ... يا منْ هواهُ ضميرٌ غيرُ منفصلِ
فما زادني غيرَ تأكيدِ صدكَ لي ... فما عدولكَ منْ عطفٍ إلى بدلِ

وفيها ولد شيخنا العلامة كمال الدين محمد بن علي الأنصاري بن الزملكاني شيخ الشافعية.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

في ثاني المحرم منها دخل السلطان من الحجاز على الهجن فلم يرع الناس إلا وهو في الميدان الأخضر يسير، ففرح الناس بذلك، وأراح الناس من تلقيه بالهدايا والتحف وهذه كانت عادته، وقد عجب الناس من سرعة مسيره وعلو همته، ثم سار إلى حلب، ثم سار إلى مصر فدخلها في ثالث الشهر مع الركب المصري، وكانت زوجته أم الملك السعيد في الحجاز هذه السنة، ثم خرج في ثالث عشر صفر هو وولده والأمراء إلى الإسكندرية فتصيد هنالك، وأطلق للأمراء الأموال الكثيرة والخلع، ورجع مؤيدا منصورا.

وفي المحرم منها قتل صاحب مراكش أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن

محمد بن يوسف الملقب بالواثق، قتله بنو مرين في حرب كانت بينه وبينهم بالقرب من مراكش.

وفي ثالث عشر ربيع الآخر منها وصل السلطان إلى دمشق في طائفة من جيشه، وقد لقوا في الطريق مشقة كثيرة من البرد والوحل، فخيم على الزنبقية وبلغه أن ابن أخت زيتون خرج من عكا يقصد جيش المسلمين، فركب إليه سريعا فوجده قريبا من عكا فدخلها خوفا منه.

وفي رجب تسلم نواب السلطان مصياف من الإسماعيلية، وهرب منها أميرهم الصارم مبارك بن الرضي، فتحيل عليه صاحب حماة حتى أسر وأرسله إلى السلطان فحبسه في بعض الأبرجة في القاهرة.

وفيها أرسل السلطان الدرابزينات إلى الحجرة النبوية، وأمر أن تقام حول القبر صيانة له، وعمل لها أبواباً تفتح وتغلق من الديار المصرية، فركب ذلك عليها.

وفيها استفاضت الأخبار بقصد الفرنج بلاد الشام، فجهز السلطان العساكر لقتالهم، وهو مع ذلك مهتم بالإسكندرية خوفا عليها، وقد حصنها وعمل جسورة إليها إن دهمها العدو، وأمر بقتل الكلاب منها.

وفيها انقرضت دولة بني عبد المؤمن من بلاد المغرب، وكان آخرهم إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف صاحب مراكش، قتله بنو مرّين في هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الصاحب زين الدين

■ يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد بن مالك المصري المعروف بابن الزبيري كان فاضلا رئيساً، وزر للملك المظفر قطز ثم للظاهر بيبرس في أول دولته، ثم عزله وولى بهاء الدين بن الحنا، فلزم منزله حتى أدركته منيته في الرابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وله نظم جيد.

الشيخ موفق الدين:

■ أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الطبيب، المعروف بابن أبي أصيبعة، له تاريخ الأطباء في عشر مجلدات لطاف، وهو وقف بمشهد ابن عروة بالأموي، توفي بصرخد وقد جاوز السبعين.

الشيخ زين الدين

■ أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكير، أبو العباس المقدسي النابلسي، تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقد سمع ورحل إلى بلدان شتى، وكان فاضلا يكتب سريعاً.

حكى الشيخ علم الدين أنه كتب مختصر الخرقي في ليلة واحدة، وخطه حسن قوي حلو، وقد كتب تاريخ ابن عساكر مرتين، واختصره لنفسه أيضاً، وأضر في آخر عمره أربع سنين، وله شعر أورد منه قطب الدين في تذيله.

توفي بسفح قاسيون وبه دفن في بكرة الثلاثاء عاشر رجب، وقد جاوز التسعين رحمه الله تعالى.

القاضي محيي الدين بن الزكي: أبو الفضل يحيى ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي الأموي.

■ ابن الزكي، تولى قضاء دمشق غير مرة، وكذلك آباؤه من قبله، كل قد وليها، وقد سمع الحديث من حنبل وابن طبرزد والكندي وابن الحرستاني وجماعة، وحدث ودرس في مدارس كثيرة، وقد ولي قضاء الشام في الدولة الهلاوونية فلم يحمد على ما ذكره أبو شامة.

توفي بمصر في الرابع عشر من رجب، ودفن بالمقطم وقد جاوز السبعين، وله شعر جيد قوي.

وحكى الشيخ قطب الدين في ذيله بعد ما نسبه كما ذكرنا عن والده القاضي بهاء الدين أنه كان يذهب إلى تفضيل علي على عثمان موافقة لشيخه محيي الدين بن عربي، ولمنام رآه بجامع دمشق معرضاً فيه يعني بسبب ما كان من بني أمية إليه في أيام صفين، فأصبح فنظم في ذلك قصيدة يذكر فيها ميله إلى علي، وإن كان هو أموي:

أدين بما دان الوصي ولا أرى　　سواه وإن كانت أمية محتدي
ولو شهدت صفين خيلي لأعذرت　　وساء بني حرب هنالك مشهدي
لكنت أسن البيض عنهم مواضيا　　وأروي أرماحي ولما تقصّد
وأجلبها خيلاً ورَجْلاً عليهم　　وأمنعهم نيل الخلافة باليد

ومن شعره:

قالوا ما في جلق نزهة　　تسليك عمن أنت به مغرى
يا عاذلي دونك في لحظه　　سهما وقد عارضه سطرا

■ (محمد بن علي بن محمد بن سليم بن الحنا المصري).

الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن الحنا المصري، كان وزير الصحبة، وقد كان فاضلا، بنى رباطا بالقرافة الكبرى، ودرس بمدرسة والده بمصر، وبالشافعي بعد ابن بنت الأعز.

توفي في سعبان ودفن بسفح المقطم، وفوض السلطان وزارة الصحبة لولده تاج الدين.

الشيخ

■ أبو نصر بن أبي الحسن: الخزاز الصوفي البغدادي الشاعر، له ديوان حسن، وكان جميل المعاشرة حسن المذاكرة، دخل عليه بعض أصحابه فلم يقم له فأنشده قوله:

نهضَ القلبُ حين أقبلتَ　　إجلالا لما فيه من صحيح الودادِ
ونهوضُ القلوب بالودّ أولى　　من نهوض الأجساد للأجسادِ

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة

في مستهل صفر منها ركب السلطان من الديار المصرية في طائفة من العسكر إلى عسقلان فهدم ما بقي من سورها مما كان أهمل في الدولة الصلاحية، ووجد فيها هدم كوزين فيهما ألفا دينار ففرقهما على الأمراء، وجاءته البشارة وهو هنالك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا ففرح بذلك، ثم عاد إلى القاهرة.

وفي ربيع الأول بلغ السلطان أن أهل عكا ضربوا رقاب من في أيديهم من أسرى المسلمين صبرا بظاهر عكا، فأمر بمن كان في يده من أسرى أهل

عكا فضربت رقابهم في صبيحة واحدة، وكانوا قريباً من مائة أسير.

وفيها كمل جامع المنشية وأقيمت فيه الجمعة في الثاني والعشرين من ربيع الآخر.

وفيها جرت حروب يطول ذكرها بين أهل تونس والفرنج، ثم تصالحوا بعد ذلك على الهدنة، ووضع الحرب،بعد ما قتل من الفريقين خلق لا يحصون.

وفي يوم الخميس ثامن رجب دخل الظاهر دمشق وفي صحبته ولده الملك السعيد وابن الحنا الوزير وجمهور الجيش ثم خرجوا متفرقين وتواعدوا أن يلتقوا بالساحل ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية ومرقب وعرقا وما هنالك من البلاد، فلما اجتمعوا فتحوا صافيتا والمجدل، ثم ساروا فنزلوا على حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب، وله ثلاثة أسوار، فنصبوا عليها المنجنيقات ففتحها قهراً يوم نصف شعبان، فدخل الجيش، وكان الذي يحاصره ولد السلطان الملك السعيد، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح، فأجلى أهلها أيضاً وجعل كنيسة البلد جامعاً، وأقام فيه الجمعة، وولى فيها نائباً وقاضياً وأمر بعمارة البلد، وبعث صاحب انطرطوس، بمفاتيح بلده يطلب منه الصلح على أن يكون نصف مغل بلاده للسلطان، وأن يكون له بها نائباً فأجابه إلى ذلك، وكذلك فعل صاحب المرقب فصالحه أيضا على المناصفة ووضع الحرب عشر سنين.

وبلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفاً من السلطان، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة فبعث جيشا كثيفا في شبعة عشر شينياً ليأخذوا جزيرة قبرص في غيبة صاحبها عنها، فسارت المراكب مسرعة فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف فصدم بعضها بعضا فانكسر منها أربعة عشر مركبا بإذن الله فغرق خلق وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريبا من ألف وثمانمائة إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم سار السلطان فنصب المناجيق على حصن عكا فسأله أهلها الأمان على أن يجليهم فأجابهم إلى ذلك،ودخل البلد يوم عيد الفطر فتسلمه، وكان الحصن شديد الضرر على المسلمين،وهو واد بين جبلين.

ثم سار السلطان نحو طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول: ما مراد السلطان في هذه الأرض؟ فقال جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم، ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي. فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه الإسماعيلية يستعطفونه على والدهم، وكان مسجونا بالقاهرة، فقال: سلموا إليّ العليقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة، وتسلموا أباكم. فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة واستناب بحصن العليقة.

وفي يوم الأحد الثاني عشر من شوال جاء سيل عظيم إلى دمشق فأتلف شيئا كثيرا، وغرق بسببه ناس كثير، لا سيما الحجاج من الروم الذين كانوا نزولا بين النهرين، أخذهم السيل وجمالهم وأحمالهم، فهلكوا وغلقت أبواب البلد، ودخل الماء إلى البلد من مرامي السور، ومن باب الفراديس فغرق قان ابن المقدم، وأتلف شيئاً كثيراً، وكان ذلك في زمن الصيف في أيام المشمش، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال فعزل القاضي ابن خلكان، وكان له في القضاء عشر سنين، وولى القاضي عز الدين بن الصائغ، وخلع عليه، وكان تقليده قد كتب بظاهر طرابلس بسفارة الوزير ابن الحنا، فسار ابن خلكان في ذي القعدة إلى مصر.

وفي حادي عشر شوال دخل خضر الكردي شيخ السلطان الملك الظاهر وأصحابه إلى كنيسة اليهود فصلوا فيها وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود، ومدوا فيها سماطا وعملوا سماعا، وبقوا على ذلك أياماً، ثم أعيدت إلى اليهود، ثم خرج السلطان إلى السواحل فافتتح بعضها وأشرف على عكا وتأملها ثم سار إلى الديار المصرية، وكان مقدار غرمه في هذه المدة وفي الغزوات قريبا من ثمانمائة ألف دينار، وأخلفها اللّه عليه، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة.

وفي اليوم السابع عشر من وصوله أمسك على جماعة من الأمراء منهم الحلبي وغيره بلغه أنهم أرادوا مسكه على الشقيف.

وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل، وأسقط ضمان ذلك، وكان ذلك بالقاهرة وحدها كل يوم ألف دينار، ثم سارت البرد بذلك إلى الآفاق.

وفيها قبض السلطان على العزيز بن المغيث صاحب الكرك، وعلى جماعة من أصحابه كانوا عزموا على سلطته.

ومن توفي فيها من الاعيان

■ (عباس بن العادل بن أيوب شاذي).

الملك تقي الدين عباس ابن الملك العادل: أبي بكر بن أيوب بن شادي، وهو آخر من بقي من أولاد العادل، وقد سمع الحديث من الكندي وابن الحرستاني، وكان محترماً عند الملوك لا يرفع عليه أحد في المجالس والمواكب، وكان لين الأخلاق حسن العشرة، لا تمل مجالسته.

توفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان، ودفن بتربته بسفح قاسيون.

قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص:

■ عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي، ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وسمع الحديث وتفقه وأفتى ودرّس بالصلاحية، وولي حسبة القاهرة ثم ولي القضاء سنة ست وستين، لما ولوا من كل مذهب قاضيا، وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه بشرط أن لا يأخذ على القضاء جامكية، وكان مشهوراً بالعلم والدين، روى عنه القاضي بدر الدين بن جماعة وغيره. توفي لخمس بقين من ذي القعدة.

الطواشي شجاع الدين

■ مرشد المظفري الحموي: كان شجاعا بطلا من الأبطال الشجعان، وكان له رأي سديد، كان أستاذه لا يخالفه، وكذلك الملك الظاهر، توفي بحماة ودفن بتربته بالقرب من مدرسته بحماة.

■ ابن سبعين: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين، قطب الدين أبو محمد المقدسي الرقوطي، نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية.

ولد سنة أربع عشرة وستمائة، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد، وصنف فيه، وكان يعرف السيميا، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء، ويزعم أنه حال من أحوال القوم، وله من المصنفات: كتاب البدّ وكتاب الهو، وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها أبو نُمي، وجاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجي فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي كما أتى النبي ﷺ، بناء على ما يعتقده من

العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا، فما حصل له إلا الخزي في الدنيا والآخرة، إن كان مات على ذلك.

وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار، وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت، فاللّه يحكم فيه وفي أمثاله.

وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال، توفي في الثامن والعشرين من شوال بمكة.

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة من الهجرة

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد العباسي، وسلطان الإسلام الملك الظاهر.

وفي يوم الأحد الرابع عشر من المحرم ركب السلطان إلى البحر لالتقاء الشواني التي عملت عوضا عما غرق بجزيرة قبرص، وهي أربعون شينيا، فركب في شيني منها ومعه الأمير بدر الدين الخزندار، فمالت به فسقط الخزندار في البحر فغاص في الماء فألقى إنسان نفسه وراءه. فأخذ بشعره وانقذه من الغرق، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه.

وفي أواخر المحرم ركب السلطان في نفر يسير من الخاصكية، والأمراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك، واستصحب نائبها معه إلى دمشق، فدخلها في ثاني عشر صفر، ومعه الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك، فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين آقوش النجيبي في رابع عشر صفر، ثم خرج إلى حماة وعاد بعد عشرة أيام.

وفي ربيع الأول وصلت الجُفَاة من حلب وحماة وحمص إلى دمشق بسبب الخوف من التتار، وجفل خلق كثير من أهل دمشق.

وفي ربيع الآخر وصلت العساكر المصرية إلى حضرة السلطان إلى دمشق فسار بهم منها في سابع الشهر، فاجتاز بحماة واستصحب ملكها المنصور،ثم سار إلى حلب، فخيم بالميدان الأخضر بها، وكان سبب ذلك أن عساكر الروم جمعوا نحوا من عشرة آلاف فارس وبعثوا طائفة منهم فأغاروا على عين تاب، ووصلوا إلى قسطون ووقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم فلما سمع التتار بوصول السلطان ومعه العساكر المنصورة ارتدوا على أعقابهم راجعين، وكان بلغه أن الفرنج أغاروا على بلاد قاقون ونهبوا طائفة من التركمان، فقبض على الأمراء الذين هناك حيث لم يهتموا بحفظ البلاد وعادوا إلى الديار المصرية.

وفي ثالث شعبان أمسك السلطان قاضي الحنابلة بمصر شمس الدين محمد بن العماد المقدسي، وأخذ ما عنده من الودائع فأخذ زكاتها وورد بعضها إلى أربابها، واعتقله إلى شعبان من سنة ثنتين وسبعين.

وكان الذي وشى به رجل من أهل حران يقال له شبيب، ثم تبين للسلطان نزاهة القاضي وبراءته فأعاده إلى منصبه في سنة ثنتين وسبعين، وجاء السلطان في شعبان إلى أراضي عكا فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة فأجابه إلى ذلك فهادنه عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات،وعاد إلى دمشق فقرئ بدار السعادة كتاب الصلح، واستمر الحال على ذلك ثم عاد السلطان إلى بلاد الإسماعيلية فأخذ عامتها.

قال قطب الدين: وفي جمادى الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل، وأرضعت من بقرة. قال وهذا شيء لم يعهد مثله.

وفيها توفي

الشيخ كمال الدين:

■ سلار بن حسن بن عمر بن سعيد الإربلي الشافعي، أحد مشايخ المذهب، وقد اشتغل عليه الشيخ محيي الدين النووي، وقد اختصر البحر للروياني في مجلدات عديدة هي عندي بخط يده وكانت الفتيا تدور عليه بدمشق، توفي في عشر السبعين، ودفن بباب الصغير، وكان مفيدا بالباذرائية من أيام الواقف، لم يطلب زيادة على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة.

وجيه الدين

■ محمد بن علي بن أبي طالب ابن سويد التكريتي التاجر الكبير بين التجار ابن سويد ذو الأموال الكثيرة، وكان معظماً عند الدولة، ولا سيما عند الملك الظاهر، كان يجله ويكرمه لأنه كان قد أسدى إليه جميلا في حال إمرته قبل أن يلي السلطنة، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، وكانت كتب الخليفة ترد إليه في كل وقت، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك، حتى ملوك الفرنج في السواحل. وفي أيام التتار في أيام هلاوون، وكان كثير الصدقات والبر.

نجم الدين

■ يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن اللبودي: واقف اللبودية التي عند حمام الفلك المسيري على الأطباء، ولديه فضيلة بمعرفة الطب، وقد ولي نظر الدواوين بدمشق، ودفن بتربته عند اللبودية.

الشيخ

■ علي البكاء: صاحب الزاوية بالقرب من بلد الخليل عليه السلام، كان مشهوراً بالصلاح والعبادة، والإطعام لمن اجتاز به من المارة والزوار، وكان الملك المنصور قلاوون يثني عليه ويذكر أنه اجتمع به وهو أمير وأنه كاشفه في أشياء وقعت جميعها، ومن جملتها أنه سيملك. نقل ذلك قطب الدين اليونيني.

وذكر أن سبب بكائه الكثير أنه صحب رجلا كانت له أحوال وكرامات، وأنه خرج معه من بغداد فانتهوا في ساعة واحدة إلى بلدة بينها وبين بغداد مسيرة سنة، وأن ذلك الرجل قال له إنني سأموت في الوقت الفلاني، فاشهدني في ذلك الوقت في البلد الفلاني قال: فلما كان في ذلك الوقت حضرت عنده وهو في السياق، وقد استدار إلى جهة الشرق فحولته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق فحولته أيضاً ففتح عينيه وقال: لا تتعب فإني لا أموت إلا على هذه الجهة، وجعل يتكلم بكلام الرهبان حتى مات فحملناه فجئنا به إلى دير هناك فوجدناهم في حزن عظيم، فقلنا لهم: ما شأنكم؟ فقالوا كان عندنا شيخ كبير ابن مائة سنة، فلما كان اليوم مات على الإسلام، فقلنا لهم: خذوا هذا بدله وسلمونا صاحبنا، قال: فوليناه فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين، وولوا هم ذلك الرجل فدفنوه في مقبرة النصارى، نسأل اللّه حسن الخاتمة مات الشيخ علي في رجب من هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمائة

في خامس المحرم دخل الظاهر دمشق من بلاد السواحل التي فتحها وقد مهدها، وركب في أواخر الشهر إلى القاهرة فأقام بها سنة ثم عاد فدخل دمشق في رابع صفر.

وفي المحرم منها وصل صاحب النوبة إلى عيذاب فنهب تجارها وقتل خلقا من أهلها، منهم الوالي والقاضي، فسار إليه الأمير علاء الدين أيدغدي الخزندار فقتل خلقا من بلاده ونهب وحرق وهدم ودوخ البلاد، وأخذ بالثأر ولله الحمد والمنة.

وفي ربيع الأول توفي الأمير سيف الدين محمد بن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون، ودفن في تربة والده في عشر السبعين، وكان له في ملك صهيون وبرزيه إحدى عشرة سنة، وتسلمها بعده ولده سابق الدين، وأرسل إلى الملك الظاهر يستأذنه في الحضور فأذن له، فلما حضر أقطعه خبزا وبعث إلى البلدين نوابا من جهته.

وفي خامس جمادى الأولى وصل السلطان بعسكره إلى الفرات لأنه بلغه أن طائفة من التتار هنالك فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده، وقتل من أولئك مقتلة كبيرة وخلقا كثيرا، وكان أول من اقتحم الفرات يومئذ الأميران سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيسري وتبعهما السلطان، ثم فعل بالتتار ما فعل، ثم ساق إلى ناحية البيرة وقد كانت محاصرة بطائفة من التتار أخرى، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم، ودخل السلطان إلى البيرة في أبهة عظيمة وفرق في أهلها أموالا كثيرة، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى. وخرج منها في سابعه إلى الديار المصرية، وخرج ولده الملك السعيد لتلقيه ودخلا إلى القاهرة، وكان يوماً مشهوداً.

ومما قاله القاضي شهاب الدين محمود الكاتب، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود، في خوض السلطان الفرات بالجيش:

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته ... يا ركنه عند الأعادي ثار
لما تراقصت الرؤوس تحركت ... من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى به ... موج الصبا من فعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقاً ولم يك طودها ... إذ ذاك إلا جيشك الجرار

وقال بعض من شهد ذلك:

ولما ترامينا الفرات بخيلنا ... سكرناه منا بالقنا والصوارم
فأوقفت التيار عن جريانه ... إلى حين عدنا بالغنى والغنائم

وقال آخر ولا بأس به:

الملك الظاهر سلطاننا ... نفديه بالأموال والأهلِ
اقتحم الماء ليطفي به ... حرارة القلب من الغلِ

وفي يوم الثلاثاء ثالث رجب خلع على جميع الأمراء من حاشيته ومقدمي الحلقة وأرباب الدولة وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوايص، وكان مبلغ ما أنفق بذلك نحو ثلاثمائة ألف دينار.

وفي شعبان أرسل السلطان إلى منكوتمر هدايا عظيمة.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال استدعى السلطان شيخه الشيخ خضراً الكردي إلى بين يديه إلى القلعة وحوقق على أشياء كثيرة رُمي بها وعلى منكرات كثيرة ارتكبها، فأمر السلطان عند ذلك باعتقاله وحبسه، ثم أمر باغتياله وكان آخر العهد به.

وفي ذي القعدة سلمت الإسماعيلية ما كان بقي بأيديهم من الحصون وهي الكهف والقدموس والمينقة، وعوضوا عن ذلك بإقطاعات، ولم يبق بالشام شيء لهم من القلاع، واستناب السلطان فيها.

وفيها أمر السلطان بعمارة جسورة في السواحل، وغرم عليها مالا كثيراً، وحصل للناس بذلك رفق كبير.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ تاج الدين أبو الفضل

■ يحيى بن محمد بن أحمد بن حمزة علي بن هبة الله بن الحبوبي التغلبي الدمشقي، كان من أعيان أهل دمشق، ولي نظر الأيتام والحسبة، ثم وكالة بيت المال، وسمع الكثير وخرج له ابن بلبان مشيخة قرأها عليه الشيخ شرف الدين الفزاري بالجامع، فسمعها جماعة من الأعيان والفضلاء رحمه الله.

الخطيب فخر الدين أبو محمد

■ عبد القاهر بن عبد الغني بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الخطيب بها، وبيته معروف بالعلم والخطابة والرياسة، ودفن بمقبرة الصوفية وقد قارب الستين رحمه الله. وقد سمع الحديث من جده فخر الدين صاحب ديوان الخطب المشهورة، توفي بقانقاه القصر ظاهر دمشق.

الشيخ

■ خضر بن أبي بكر المهراني العدوي: شيخ الملك الظاهر بيبرس، كان حظياً عنده مكرما لديه، له عنده المكانة الرفيعة.

كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له في الحسينية، في كل أسبوع مرة أو مرتين، وبنى له عندها جامعاً يخطب فيه للجمعة، وكان يعطيه مالا كثيرا، ويطلق له ما أراد، ووقف على زاويته شيئا كثيرا جدا، وكان معظما عند الخاص والعام بسبب حب السلطان وتعظيمه له، وكان يمازحه إذا جلس عنده.

وكان فيه خير ودين وصلاح، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة، وقد دخل مرة كنيسة القمامة بالمقدس فذبح قسيسها بيده، ووهب ما فيها لأصحابه، وكذلك فعل بالكنيسة التي بالإسكندرية وهي من أعظم كنائسهم، نهبها وحولها مسجدا ومدرسة أنفق عليها أموالا كثيرة من بيت المال، وسماها المدرسة الخضراء، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق، دخلها ونهب ما فيها من الآلات والأمتعة، ومد فيها سماطا، واتخذها مسجدا مدة ثم سعوا إليه في ردها إليهم وإبقائها عليهم.

ثم اتفق في هذه السنة أنه وقعت منه أشياء أنكرت عليه وحوقق عليها عند السلطان الملك الظاهر فظهر له منه ما أوجب سجنه، ثم أمر بإعدامه وهلاكه وكانت وفاته في هذه السنة، ودفن بزاويته سامحه الله، وقد كان السلطان يحبه محبة عظيمة، حتى أنه سمى بعض أولاده خضرا موافقة لاسمه، وإليه تنسب القبة التي على الجبل غربي الربوة التي يقال لها قبة الشيخ خضر.

مصنف التعجيز: العلامة تاج الدين

■ عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن يونس بن محمد بن سعد بن مالك أبو القاسم الموصلي، من بيت الفقه والرياسة والتدريس، ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسمع واشتغل وحصل وصنف واختصر الوجيز من كتابه التعجيز، واختصر المحصول، وله طريق في الخلاف أخذها عن ركن الدين الطاوسي، وكان جده عماد الدين بن يونس شيخ المذهب في

وقته كما تقدم.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وستمائة

في صفر منها قدم الملك الظاهر إلى دمشق وقد بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد فتصيد بتلك الناحية، فأرسل إلى العساكر المصرية أن يتأهبوا للحضور، واستعد السلطان لذلك.

وفي جمادى الآخرة أحضر ملك الكرج لبين يديه بدمشق، وكان قد جاء متنكرا لزيارة بيت المقدس فظهر عليه فحمل إلى بين يديه فسجنه بالقلعة.

وفيها كمل بناء جامع دير الطين ظاهر القاهرة. وصلى فيه الجمعة.

وفيها سار السلطان إلى القاهرة فدخلها في سابع رجب.

وفي أواخر رمضان دخل الملك السعيد بن الظاهر إلى دمشق في طائفة من الجيش، فأقام بها شهرا ثم عاد.

وفي يوم عيد الفطر ختن السلطان ولده خضراً الذي سماه باسم شيخه، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء، وكان وقتا هائلا.

وفيها فوض ملك التتار إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد النظر في أمر تستر وأعمالها، فسار إليها ليتصفح أحوالها فوجد بها شابا من أولاد التجار يقال له «لي» قد قرأ القرآن وشيئا من الفقه والإشارات لابن سينا، ونظر في النجوم، ثم ادعى أنه عيسى ابن مريم، وصدقه على ذلك جماعة من جهلة تلك الناحية، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر وعشاء الآخرة، فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكيا، إنما يفعل ذلك عن قصد، فأمر به فقتل بين يديه جزاه الله خيراً، وأمر العوام فنهبوا أمتعته وأمتعة العوام ممن كان اتبعه.

ومن توفي فيها من الأعيان

مؤيد الدين أبو المعالي الصدر الرئيس:

■ أسعد بن غالب المظفر الوزير مؤيد الدين أسعد بن حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي بن القلانسي، جاوز التسعين وكان رئيساً كبيرا واسع النعمة، لا يغفل أن يباشر شيئا من الوظائف وقد ألزموه بعد ابن سويد بمباشرة مصالح السلطان فباشرها بلا جامكية.

وكانت وفاته ببستانه، ودفن بسفح قاسيون يوم الثلاثاء، ثالث عشر المحرم. والد الصدر عز الدين حمزة رئيس البلدين دمشق والقاهرة، وجدهم مؤيد الدين أسعد بن حمزة الكبير كان وزيراً للملك الأفضل علي بن الناصر فاتح القدس، كان رئيساً فاضلا له كتاب الوصية في الأخلاق المرضية وغير ذلك، وكانت له يد جيدة في النظم، فمن ذلك قوله:

يا ربِّ جد لي إذا ما ضمني جدثي		برحمةٍ منكَ تنجيني من النارِ
أحسن جواري إذا أمسيتُ جارك في		لحدي فإنكَ قد أوصيتَ بالجارِ

وأما والد حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي فهو العميد، وكان يكتب جيدا وصنف تاريخا فما بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته في خمس وخمسين وخمسمائة.

الأمير الكبير فارس الدين

■ أقطاي المستعرب أتابك العساكر المصرية، كان أولا مملوكا لابن يمن، ثم صار مملوكا للصالح أيوب فأمّره، ثم عظم شأنه في دولة المظفر وصار أتابك العساكر، فلما قتل امتدت أطماع أكابر الأمراء إلى المملكة فبايع أقطاي الملك الظاهر فتبعه الجيش على ذلك، وكان الظاهر يعرفها له ولا ينساها، ثم قبل وفاته بقليل انهضم عند الظاهر، ومات في هذه السنة بالقاهرة.

الشيخ

■ عبد الله بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسي، له زاوية بنابلس، وله أشعار رائقة، وكلام قوي في علم التصوف، وقد طول اليونيني ترجمته وأورد من أشعاره شيئا كثيرا.

قاضي القضاة كمال الدين: أبو الفتح

■ عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي، ولد بتفليس سنة إحدى وستمائة، وكان فاضلا أصولياً مناظراً، ولي نيابة الحكم مدة ثم استقل بالقضاء في دولة هلاوون وكان عفيفا نزهاً لم يرد منصبا ولا تدريسا مع كثرة عياله وقلة ماله، ولما انقضت أيامهم تغضب عليه بعض الناس ثم ألزم بالمسير إلى القاهرة، فأقام بها يفيد الناس إلى أن توفي في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بالقرافة الصغرى.

■ إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله التوخي، وتنوخ من قضاعة، كان صدراً كبيرا، وكتب الإنشاء للناصر داود بن المعظم، وتولى نظر المارستان النوري وغيره، وكان مشكور السيرة، وقد أثنى عليه غير واحد، وقد جاوز الثمانين، ومن شعره قوله:

خاب رجاء امرئ له أمل		بغير رب السماء قد وصله
أيبتغي غيره أخو ثقة		وهو ببطن الأحشاء قد كفله

وله أيضا:

خرس اللسان وكلٌّ عن		أوصافكم ماذا يقول وأنتم ما أنتم
الأمر أعظم من مقالة قائل		قد تاه عقل أن يعبر عنكم
العجز والتقصير وصفي دائما		والبرّ والإحسان يعرف منكم

■ ابن مالك صاحب الألفية: الشيخ جمال الدين ابن مالك محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الجياني النحوي، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، منها الكافية الشافية وشرحها، والتسهيل وشرحه، والألفية التي شرحها ولده بدر الدين شرحا مفيداً.

ولد بجيّان سنة ستمائة وأقام بحلب مدة، ثم بدمشق وكان كثير الاجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد، وروى عنه القاضي بدر الدين بن جماعة، وأجاز لشيخنا علم الدين البرزالي.

توفي ابن مالك بدمشق ليلة الأربعاء ثاني عشر رمضان، ودفن بتربة القاضي عز الدين بن الصائغ بقاسيون.

■ النصير الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن أبو عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال: الخواجا نصير الدين.

اشتغل في شبيبته وحصل علم الأوائل جيدا، وصنف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو قان بقتل الخليفة فالله أعلم.

وعندي أن هذا لا يصدر من عاقل ولا فاضل.

وقد ذكره بعض البغادلة فأثنى عليه، وقال: كان عاقلا فاضلا كريم الأخلاق ودفن في مشهد موسى بن جعفر في سرداب كان قد أعد للخليفة

الناصر لدين الله، وهو الذي كان قد بني الرصد بمراغة، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء. وبنى له فيه قبة عظيمة، وجعل فيه كتبا كثيرة جدا.

توفي في بغداد في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وله خمس وسبعون سنة، وله شعر جيد قوي وأصل اشتغاله على المعين سالم بن بدران بن علي المصري المعتزلي المتشيع، فنزع فيه عروق كثيرة منه، حتى أفسد اعتقاده.

الشيخ

■ مسلم البرقي البدوي: صاحب الرباط بالقرافة الصغرى، كان صالحا متعبداً يقصد للزيارة والتبرك بدعائه، وله اليوم أصحاب معروفون على طريقه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً من المصريين منهم قجقار الحموي، وقد كانوا كاتبوا التتر يدعونهم إلى بلاد المسلمين، وأنهم معهم على السلطان، فأخذوا فأقروا بذلك، وجاءت كتبهم مع البريدية وكان آخر العهد بهم.

وفيها أقبل السلطان بالعساكر فدخل بلاد سيس من ناحية الدربندات فملكها وملك إياس والمصيصة وأذنه. وكان دخوله إلى سيس يوم الاثنين الحادي والعشرين من رمضان، فقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وغنموا شيئا كثيرا من الأبقار والأغنام والأثقال والدواب والأنعام، فبيع ذلك بأرخص ثمن، ثم عاد فدخل دمشق مؤيداً منصورا في شهر ذي الحجة فأقام بها حتى دخلت السنة.

وفيها ثار على أهل الموصل رمل حتى عم الأفق وخرجوا من دورهم يبتهلون إلى الله حتى كشف ذلك عنهم، والله تعالى أعلم.

ومن توفي من الأعيان

■ ابن عطاء الحنفي: قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهيب الأذرعي الحنفي.

ولد سنة خمس وتسعين وخمسمائة، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وناب في الحكم عن الشافعي مدة، ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما وليت القضاة من المذاهب الأربعة.

ولما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بها بمقتضى مذهبه، فغضب من ذلك فقال: هذه أملاك بيد أصحابها، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ثم نهض من المجلس فذهب، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديدا، ثم سكن غضبه فكان يثني عليه بعد ذلك ويمدحه، ويقول: لا تثبتوا كتاباً إلاّ عنده.

كان ابن عطاء من العلماء الأخيار كثير التواضع قليل الرغبة في الدنيا، روى عنه ابن جماعة وأجاز للبرزالي.

توفي يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى، ودفن بالقرب من المعظمية بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

■ بيمند بن بيمند بن بيمند: إبْرِنس طرابلس الفرنجي، كان جده نائبا لبنت صنجل الذي تملك طرابلس من ابن عمار في حدود الخمسمائة، وكانت يتيمة تسكن بعض جزائر البحر، فتغلب هذا على البلد لبعدها عنه، ثم استقل بها ولده ثم حفيده هذا، وكان شكلا مليحاً.

قال قطب الدين اليونيني: رأيته ببعلبك في سنة ثمان وخمسين وستمائة حين جاء مسلما على كتبغا نوين، ورام أن يطلب منه بعلبك، فشق ذلك على المسلمين، ولما توفي دفن في كنيسة طرابلس، ولما فتحها المسلمون في سنة ثمان وثمانين وستمائة نبش الناس قبره وأخرجوه منه وألقوا عظامه على المزابل للكلاب.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

لما كان يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألف مقاتل، خمسة عشر ألفا من المغول، وخمسة عشر ألفا من الروم، والمقدم على الجميع البرواناه بأمر أبغا ملك التتار ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا، فخرج أهل البيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئا كثيرا، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة إلى تاسع عشر الشهر المذكور، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا.

ولما بلغ السلطان نزول التتار على البيرة أنفق في الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعاً وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق.

ثم ركب في رجب إلى القاهرة فدخلها في ثامن عشر فوجد بها خمسة وعشرين رسولا من جهة ملوك الأرض ينتظرونه فتلقوه وحدثوه وقبلوا الأرض بين يديه ودخل القلعة في أبهة عظيمة.

ولما عاد البرواناه إلى بلاد الروم حلف الأمراء الكبار منهم شرف الدين مسعود وضياء الدين محمود ابنا الخطير، وأمين الدين ميكائيل، وحسام الدين بيجار، وولده بهاء الدين، على أن يكونوا من جهة السلطان الملك الظاهر وينابذوا أبغا، فحلفوا له على ذلك، وكتب إلى الظاهر بذلك، وأن يرسل إليه جيشاً ويحمل له ما كان يحمله إلى التتار، ويكون غياث الدين كيخسرو على ما هو عليه، يجلس على تخت مملكة الروم.

وفي هذه السنة استسقى أهل بغداد ثلاثة أيام فلم يسقوا.

وفيها في رمضان منها وجد رجل وامرأة في نهار رمضان على فاحشة الزنى، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما فرجما، ولم يرجم ببغداد قبلهما قط أحد منذ بنيت وهذا غريب جداً.

وفيها استسقى أهل دمشق أيضاً مرتين في أواخر رجب وأوائل شعبان - وكان ذلك في آخر كانون الثاني - فلم يسقوا أيضاً.

وفيها أرسل السلطان جيشا إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقا وأسروا شيئا كثيرا من السودان بحيث بيع الرقيق الرأس منها بثلاثة دراهم، وهرب ملكهم داود إلى صاحب النوبة فأرسله إلى الملك الظاهر محتاطا عليه، وقرر الملك الظاهر على أهل دنقلة جزية تحمل إليه في كل سنة، كل ذلك كان في شعبان من هذه السنة.

وفيها عقد الملك السعيد بن الظاهر على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، في الإيوان بحضرة السلطان والدولة على صداق خمسة آلاف دينار، تعجل منها ألف دينار، وكان الذي كتبه وقرأه محيي الدين بن

عبد الظاهر، فأعطي مائة دينار، وخلع عليه، ثم ركب السلطان مسرعا فوصل إلى حصن الكرك فجمع القيمرية الذين به فإذا هم ستمائة نفر، فأمر بشنقهم فشفع فيهم عنده فأطلقهم وأجلاهم منه إلى مصر، وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيموا ملكا عليهم، وسلم الحصن إلى الطواشي شمس الدين رضوان السهيلي.

ثم عاد في بقية الشهر إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة ثامن عشر الشهر.

وفيها كانت زلزلة بأخلاط واتصلت ببلاد بكر.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام الأديب العلامة: تاج الدين أبو الثناء

■ محمود بن عابد بن الحسين بن محمد بن علي التميمي الصرخدي الحنفي، كان مشهورا بالفقه والأدب، والعفة والصلاح، ونزاهة النفس ومكارم الأخلاق.

ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث وروى، ودفن بمقابر الصوفية في ربيع الآخر منها، وله ست وتسعون سنة رحمة الله تعالى.

الشيخ الإمام عماد الدين

■ عبد العزيز بن محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن خليل بن مقلد الأنصاري الدمشقي، المعروف بابن الصائغ، كان مدرساً بالعذراوية وشاهداً بالخزانة بالقلعة يعرف الحساب جيداً، وله سماع ورواية، ودفن بقاسيون.

■ ابن الساعي المؤرخ: تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعي البغدادي، ولد سنة ثلاث وتسعين وسمع الحديث واعتنى بالتاريخ، وجمع وصنف، ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن وقد أوصى إليه ابن النجار حين توفي، وله تاريخ كبير عندي أكثره، ومصنفات أخر مفيدة، وآخر ما صنف كتاباً في الزهاد، كتب في حاشيته زكي الدين عبد الله بن حبيب الكاتب:

ما زال تاج الدين طول المدى	من عمره يعنق في السير
في طلب العلم وتدوينه	وفعله نفع بلا ضير
علا علي بتصانيفه	وهذه خاتمة الخير

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

في ثالث عشر المحرم منها دخل السلطان إلى دمشق وسبق العساكر إلى بلاد حلب، فلما توافت إليه أرسل بين يديه الأمير بدر الدين الأتابكي بألف فارس إلى البلستين، فصادف بها جماعة - من عسكر الروم فركبوا إليه وحملوا إليه الإقامات، وطلب جماعة منهم أن يدخلوا بلاد الإسلام فأذن لهم، فدخل طائفة منهم بيجار وابن الخطير، فرسم لهم أن يدخلوا القاهرة فتلقاهم الملك السعيد، ثم عاد السلطان من حلب إلى القاهرة فدخلها في ثاني عشر ربيع الآخر.

وفي خامس جمادى الأولى عمل السلطان عرس ولده الملك السعيد علي بنت قلاوون، واحتفل السلطان به احتفالا عظيما، وركب الجيش في الميدان خمسة أيام يلعبون ويتطاردون، ويحمل بعضهم على بعض، ثم خلع على الأمراء وأرباب المناصب، وكان مبلغ ما خلع ألف وثلاثمائة خلعة بمصر، وجاءت مراسيمه إلى الشام بالخلع على أهلها، ومد السلطان سماطا عظيما حضره الخاص والعام، والشارد والوارد، وجلس فيه رسل التتار ورسل الفرنج وعليهم كلهم الخلع الهائلة، وكان وقتا مشهوداً، وحمل صاحب حماه هدايا عظيمة وركب إلى مصر للتهنئة.

وفي حادي عشر شوال طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، وكان يوماً مشهوداً.

وقعة البلستين وفتح قيسارية

ركب السلطان من مصر في العساكر فدخل دمشق في سابع عشر شوال، فأقام بها ثلاثة أيام، ثم سار حتى دخل حلب في مستهل ذي القعدة، فأقام بها يوما ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات لحفظ المعابر. وسار السلطان فقطع الدربند في نصف يوم، ووقع سنقر الأشقر في أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغول فهزمهم يوم الخميس تاسع ذي القعدة وصعد العسكر على الجبال فأشرفوا على وطأة البلستين فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم وكانوا أحد عشر ألف مقاتل، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفا من مخامرتهم.

فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار فصدمت سناجق السلطان، ودخلت طائفة منهم بينهم فشقوها، وساقت إلى الميمنة، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم فأمر جماعة من الأمراء بإردافها، ثم حمل العسكر جميعه حملة واحدة على التتار فترجلوا إلى الأرض عن آخرهم، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا، وصبر المسلمون صبرا عظيما، فأنزل الله نصره على المسلمين، فأحاطت بالتتار العساكر من كل جانب، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة.

وكان في جملة من قتل من سادات المسلمين الأمير الكبير ضياء الدين بن الخطير، وسيف الدين قيماز، وسيف الدين قفجق الجاشنكير، وعز الدين أيبك الشقيفي.

وأسر جماعة من أمراء المغول، ومن أمراء الروم، وهرب البرواناه فنجا بنفسه، ودخل قيسارية في بكرة الأحد ثاني عشر ذي القعدة، وأعلم أمراء الروم ملكهم بكسرة التتار على البلستين، وأشار عليهم بالهزيمة فانهزموا منها وأخلوها، فدخلها الملك الظاهر وصلى بها الجمعة سابع ذي القعدة، وخطب له بها، ثم كر راجعا مؤيدا منصوراً وسارت بذلك البشائر إلى البلدان ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله.

ولما بلغ خبر هذه الوقعة أبغا جاء حتى وقف بنفسه وجيشه، وشاهد مكان المعركة ومن فيها من قتلى المغول، فغاظه ذلك وأعظمه وحنق على البرواناه إذ لم يعلمه بجلية الحال، وكان يظن أن أمر الملك الظاهر دون هذا كله، واشتد غضبه على أهل قيسارية وأهل تلك الناحية، فقتل منهم قريباً من مائتي ألف، وقيل قتل منهم خمسمائة ألف من قيسارية وأرزن الروم، وكان في جملة من قتل القاضي جلال الدين حبيب، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن توفي فيها من الأعيان:

■ (عيسى بن عُبيد بن عبد الخالق).

الشيخ أبو الفضل عيسى ابن الشيخ عبيد بن عبد الخالق الدمشقي: ودفن بالقرب من الشيخ رسلان.

قال الشيخ علم الدين: وكان يذكر أن مولده كان سنة أربع وستين

وخمسمائة.

■ الطواشي يمن الحبشي: شيخ الخدام بالحرم النبوي الشريف، كان دينا عاقلا عدلا صادق اللّهجة، مات في عشر السبعين رحمه الله.

الشيخ المحدث شمس الدين أبو العباس:

■ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الموصلي، ثم الدمشقي الصوفي، سمع الكثير وكتب الكتب الكبار بخط رفيع جيد واضح، جاوز السبعين ودفن بباب الفراديس.

الشاعر شهاب الدين أبو المكارم:

■ محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم بن عبد الله الشيباني التلعفري، صاحب ديوان الشعر، جاوز الثمانين، توفي بحماة، وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه في هذا الفن ومن شعره قوله:

لساني طري منك يا غايةَ المنى ومن ولهي أني خطيبٌ وشاعرُ
فهذا لمعنى حسنِ وجهك ناظمٌ وهذا لمعنى في تجنيك ناثر

القاضي شمس الدين:

■ علي بن محمود بن علي بن عاصم الشهرزوري الدمشقي، مدرس القيمرية بشرط واقفها له ولذريته من بعده التدريس من تأهل منهم، فدرس بها إلى أن توفي في هذه السنة، ودرس بعده ولده صلاح الدين، ثم ابن ابنه بعد ابن جماعة، وطالت مدة حفيده.

وقد ولي شمس الدين على نيابة ابن خلكان في الولاية الأولى، وكان فقيها جيدا نقالا للمذهب، رحمه الله وقد سافر مع ابن العليم لبغداد فسمع بها ودفن بمقابر الصوفية بالقرب من ابن الصلاح.

الشيخ الصالح العالم الزاهد: أبو إسحاق

■ إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الحموي له معرفة بالفقه والحديث، ولد سنة ست وتسعين بحماة، وتوفي بالقدس الشريف ودفن بماملا، وسمع من الفخر ابن عساكر، وروى عنه ولده قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة.

الشيخ الصالح

■ جندل بن محمد المنيني: كانت له عبادة وزهادة وأعمال صالحة، وكان الناس يترددون إلى زيارته بمنين وزاره الملك الظاهر مرات كثيرة وكذلك الأمراء.

كان يتكلم بكلام كثير لا يفهمه أحد من الحاضرين، بألفاظ غريبة.

وحكى عنه الشيخ تاج الدين أنه سمعه يقول: ما تقرب أحد إلى الله بمثل الذل له والتضرع إليه، وسمعه يقول: الموله منفي من طريق الله يعتقد أنه واصل ولو علم أنه منفي رجع عما هو فيه، لأن طريق القوم من أهل السلوك لا يثبت عليها إلا ذوو العقول الثابتة.

وكان يقول: السماع وظيفة أهل البطالة.

قال الشيخ تاج الدين: وكان الشيخ جندل من أهل الطريق وعلماء التحقيق.

قال: وأخبرني في سنة إحدى وستين وستمائة أنه قد بلغ من العمر خمساً وتسعين سنة.

قلت: فعلى هذا فيكون قد جاوز المائة، لأنه توفي في رمضان من هذه السنة، ودفن في زاويته المشهورة بقرية منين، وتردد الناس إلى قبره يصلون عليه من دمشق وأعمالها أياما كثيرة رحمه الله.

■ محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحافظ بدر الدين أبو عبد الله بن الفويرة السلمي الحنفي، اشتغل على الصدر سليمان وابن عطاء وفي النحو على ابن مالك، وحصل وبرع ونظم ونثر، ودرس في الشبلية والقصاعين، وطلب لنيابة القضاء فامتنع، وكتب الكتابة المنسوبة.

رآه بعض أصحابه في المنام بعد وفاته. فقال: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

ما كان لي من شافع عنده غير اعتقادي أنه واحد

وكانت وفاته في جمادى الأولى ودفن بظاهر دمشق رحمه الله.

■ محمد بن عبد الوهاب بن منصور شمس الدين أبو عبد الله الحراني الحنبلي تلميذ الشيخ مجد الدين بن تيمية، وهو أول من حكم بالديار المصرية من الحنابلة نيابة عن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، ثم ولي شمس الدين ابن الشيخ العماد القضاء مستقلا فاستتاب به، ثم ترك ذلك ورجع إلى الشام يشتغل ويفتي إلى أن توفي وقد نيف على الستين رحمه الله.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك الظاهر ركن الدين.

■ بيبرس، صاحب البلاد المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك، وأقام ولده ناصر الدين أبا المعالي محمد بركة قان الملقب السعيد من بعده.

ووفاة الشيخ محيي الدين

■ النووي إمام الشافعية فيها في اليوم السابع من المحرم منها.

ودخل السلطان الملك الظاهر من بلاد الروم وقد كسر التتار على البلستين، ورجع مؤيدا منصورا فدخل دمشق وكان يوم دخوله يوما مشهودا، فنزل بالقصر الأبلق، الذي بناه غربي دمشق بين الميدانين الأخضرين، وتواترت الأخبار إليه بأن أبغا جاء إلى المعركة ونظر إليها وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل البرواناه وذكروا أنه قد عزم على قصد الشام، فأمر السلطان بجمع الأمراء وضرب مشورة فاتفق مع الأمراء على ملاقاته حيث كان، وتقدم بضرب الدهليز على القصر، ثم جاء الخبر بأن أبغا قد رجع إلى بلاده فأمر برد الدهليز وأقام بالقصر الأبلق يجتمع عنده الأعيان والأمراء والدولة في أسر حال، وأنعم بال، وأما أبغا فإنه أمر بقتل البرواناه - وكان نائبه على بلاد الروم - وكان اسمه معين الدين سليمان بن علي بن محمد بن حسن، وإنما قتله لأنه اتهمه بممالأته للملك الظاهر، وزعم أنه هو الذي حسّن له دخول بلاد الروم، وكان البرواناه شجاعا حازما كريماً جوادا، وله ميل إلى الملك الظاهر، وكان قد جاوز الخمسين لما قتل.

وفاة

■ القاهر ثم لما كان يوم السبت خامس عشر المحرم توفي الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن السلطان المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، عن أربع وستين سنة.

وكان رجلا جيدا سليم الصدر كريم الأخلاق، لين الكلمة كثير التواضع، يعاني ملابس العرب ومراكبهم، وكان معظما في الدولة شجاعا مقداما، وقد روى عن ابن اللّتي وأجاز للبرزالي قال البرزالي ويقال: إنه سُمَّ، وذكر غيره أن السلطان الملك الظاهر سمه في كأس ثم ناوله إياه فشربه وقام السلطان إلى المرتفق ثم عاد وأخذ الساقي الكأس من يد القاهر فملأه وناوله السلطان الظاهر والساقي لا يشعر بشيء مما جرى، وأنسى

اللّه السلطان ذلك الكأس، أو ظن أنه غيره لأمر يريده اللّه ويقضيه، وكان قد بقي في الكأس بقية كثيرة من ذلك السم، فشرب الظاهر ما في الكأس ولم يشعر حتى شربه فاشتكى بطنه من ساعته، ووجد الوهج والحر والكرب الشديد من فوره، وأما القاهر فإنه حمل إلى منزله وهو مغلوب فمات من ليلته.

وتمرض الظاهر من ذلك أياماً حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد الظهر، في السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق، وكان ذلك يوماً عظيما على الأمراء، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة، فصلوا عليه سرا وجعلوه في تابوت ورفعوه إلى القلعة من السور وجعلوه في بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته التي بناها ولده له بعد موته، وهي دار العقيقي تجاه العادلية الكبيرة، ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى إذا كان العشر الأخير من ربيع الأول، وجاءت البيعة لولده السعيد من مصر فحزن الناس عليه حزنا شديدا، وترحموا عليه ترحما كثيراً، وجددت البيعة أيضاً بدمشق وجاء تقليد النيابة بالشام مجدداً إلى عز الدين أيدمر نائبها.

وقد كان الملك الظاهر شهما شجاعاً عالي الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنيا بأمر السلطنة، مشفقاً على الإسلام، متحليا بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعار الملك.

واستمرت أيامه من يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين إلى هذا الحين.

ففتح في هذه المدة فتوحات كثيرة قيسارية، وأرسون، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، وطبرية، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكار والقُرين وصافيتا وغير ذلك من الحصون المنيعة التي كانت بأيدي الفرنج، ولم يدع مع الإسماعيلية شيئا من الحصون، وناصف الفرنج على المرقب، وبانياس وبلاد أنطرطوس، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون، وولي في نصيبه مما ناصفهم عليه النواب والعمال وفتح قيسارية من بلاد الروم.

وأوقع بالروم والمغول على البلستين بأساً لم يسمع بمثله من دهور متطاولة، واستعاد من صاحب سيس بلادا كثيرة، وجاس خلال ديارهم وحصونهم، واسترد من أيدي المتغلبين من المسلمين بعلبك، وبصرى، وصرخد، وحمص، وعجلون، والصلت، وتدمر، والرحبة، وتل باشر، وغيرها، والكرك، والشوبك، وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان، وانتزع بلادا من التتار كثيرة، منها شيرزور والبيرة.

واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة، وعمر شيئا كثيراً من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار، وبنى دار الذهب بقلعة الجبل، وبنى قبة على اثني عشر عموداً ملونة مذهبة، وصور فيها صور خاصكيته وأشكالهم.

وحفر أنهاراً كثيرة وخلجانات ببلاد مصر، منها نهر السرداس.

وبنى جوامع كثيرة ومساجد عديدة، وجدد بناء مسجد رسول اللّه ﷺ حين احترق، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة، وعمل فيه منبراً وسقفه بالذهب، وجدد المارستان بالمدينة، وجدد قبر الخليل عليه السلام، وزاد في زاويته وما يصرف إلى المقيمين، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلي أريحا، وجدد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورمم سقف الصخرة وغيرها، وبنى بالقدس قانا هائلا بماملا، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، وعمل فيه طاحوناً وفرناً وبستاناً، وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم في نفقة وإصلاح أمتعتهم رحمه اللّه.

وبنى على قبر أبي عبيدة بالقرب من عمتنا مشهدا، ووقف عليه أشياء للواردين إليه، وعمر جسر دامية، وجدد قبر جعفر الطيار بناحية الكرك، ووقف على الزائرين له شيئا كثيرا، وجدد قلعة صفد وجامعها، وجدد جامع الرملة وغيرها في كثير من البلاد التي كانت الفرنج قد أخذتها وخربت جوامعها ومساجدها، وبنى بحلب داراً هائلة، وبدمشق القصر الأبلق والمدرسة الظاهرية وغيرها.

وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة على النصح والمعاملة الجيدة الجارية بين الناس، فرحمه اللّه.

وله من الآثار الحسنة والأماكن ما لم يبن في زمن الخلفاء وملوك بني أيوب، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل اللّه واستخدم من الجيوش شيئا كثيراً، ورد إليه نحو من ثلاثة آلاف من المغول فأقطعهم وأمّر كثيرا منهم، وكان مقتصدا في ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه.

وهو الذي أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها، وبقي الناس بلا خليفة نحوا من ثلاث سنين.

وهو الذي أقام من كل مذهب قاضياً مستقلا قاضي قضاة.

وكان رحمه اللّه متيقظا شهما شجاعا لا يفتر عن الأعداء ليلا ولا نهاراً، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله، ولم شعثه واجتماع شمله.

وبالجملة أقامه اللّه تعالى في هذا الوقت المتأخر عونا ونصراً للإسلام وأهله، وشجّاً في حلوق المارقين من الفرنج والتتار، والمشركين.

وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته. وقد ذكرنا في سيرته ما أرشد إلى حسن طويته وسريرته، وقد جمع له كاتبه ابن عبد الظاهر سيرة مطولة، وكذلك ابن شداد أيضا.

وقد ترك من الأولاد عشرة ثلاثة ذكور وسبع إناث ومات وعمره ما بين الخمسين إلى الستين، وله أوقاف وصلات وصدقات، تقبل اللّه منه الحسنات، وتجاوز له عن السيئات واللّه سبحانه أعلم.

وقام في الملك بعده ولده السعيد بمبايعة أبيه له في حال حياته، وكان عمر السعيد يومئذ دون العشرين سنة، وهو من أحسن الأشكال وأتم الرجال.

وفي صفر وصلت الهدايا من الفنش مع رسله إلى الديار المصرية فوجدوا السلطان قد مات، وقد أقيم ولده الملك السعيد مقامه والدولة لم تتغير، والمعرفة بعده ما تنكرت، ولكن البلاد قد فقدت أسدها بل أسدّها وأشدها، بل الذي بلغ أشُدَّها، وإذا انفتحت ثغرة من سور الإسلام سدها، وكلما انحلت عقدة من عرى العزائم شدها، وكلما رامت فرقة مارقة من طوائف الطغاة أن تلج إلى حومة الإسلام صدها وردها، فسامحه اللّه، وبلّ بالرحمة ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه.

وكانت العساكر الشامية قد سارت إلى الديار المصرية ومعهم محفة يظهرون أن السلطان فيها مريض، حتى وصلوا إلى القاهرة فجددوا البيعة للسعيد بعد ما أظهروا موت الملك السديد الذي هو إن شاء اللّه شهيد.

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر خطب في جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد، وصلى على والده الملك الظاهر واستهلت عيناه بالدموع.

وفي منتصف ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب على عادة

والده وبين يديه الجيش بكماله المصري والشامي، حتى وصل إلى الجبل الأحمر وفرح الناس به فرحاً شديداً، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة، وعليه أبهة الملك ورياسة السلطنة.

وفي يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت مدرسة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني بالقاهرة بحارة الوزيرية على مذهب أبي حنيفة. وعمل فيها مشيخة حديث وقارئ.

وبعده بيوم عقد عقدُ ابن الخليفة المستمسك بالله بن الحاكم بأمر اللّه، على ابنة الخليفة المستنصر بن الظاهر، وحضر والده السلطان ووجوه الناس.

وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى شرع في بناء الدار التي تعرف بدار العقيقي، تجاه العادلية، لتجعل مدرسة وتربة للملك الظاهر، ولم تكن قبل ذلك إلا داراً للعقيقي، وهي المجاورة لحمام العقيقي، وأسس أساس التربة في خامس جمادى الآخرة وأسست المدرسة أيضاً.

وفي رمضان طلعت سحابة عظيمة بمدينة صفد لمع منها برق شديد، وسطع منها لسان نار، وسمع منها صوت شديد هائل، ووقع منها على منارة صفد صاعقة شقتها من أعلاها إلى أسفلها شقا يدخل الكف فيه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ البرواناه في العشر الأول من المحرم.

والملك

■ الظاهر في العشر الأخير منه، وقد تقدم شيء من ترجمتهما.

الأمير الكبير بدر الدين.

■ بيلبك بن عبد اللّه: الخزندار نائب الديار المصرية للملك الظاهر، كان جوادا ممدحاً له إلمام ومعرفة بأيام الناس، والتواريخ، وقد وقف درساً بالجامع الأزهر على الشافعية، ويقال إنه سم فمات، فلما مات انتقض بعده حبل الملك السعيد، واضطربت أموره.

■ (محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي).

قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي: محمد ابن الشيخ العماد أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور المقدسي، أول من ولي قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية، سمع الحديث حضوراً على ابن طبرزد وغيره، ورحل إلى بغداد واشتغل بالفقه، وتفنن في علوم كثيرة، وولي مشيخة سعيد السعداء.

وكان شيخا مهيبا حسن الشيبة كثير التواضع والبر والصدقة، وقد اشترط في قبول الولاية أن لا يكون له عليها جامكية ليقوم في الناس بالحق في حكمه، وقد عزله الظاهر عن القضاء سنة سبعين واعتقله بسبب الودائع التي كانت عنده، ثم أطلقه بعد سنتين فلزم منزله واستقر بتدريس الصالحية إلى أن توفي في أواخر المحرم، ودفن عند عمه الحافظ عبد الغني بسفح جبل المقطم، وقد أجاز للبرزالي.

قال الحافظ البرزالي: وفي يوم السبت ثاني عشر ربيع الأول ورد الخبر بموت ستة أمراء من الديار المصرية: سنقر البغدادي، وبسطا البلدي التتري، وبدر الدين الوزيري، وسنقر الرومي، وآق سنقر الفارقاني رحمهم اللّه.

الشيخ خضر الكردي شيخ الملك الظاهر.

■ خضر بن أبي بكر بن موسى الكردي المهراني العدوي، ويقال: إن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر، كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات، ولكنه لما خالط الناس افتتن ببعض بنات الأمراء، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير: إنه سيلي الملك، فلهذا كان الملك الظاهر يعتقده ويبالغ في إكرامه بعد أن ولي المملكة، ويعظمه تعظيما زائدا، وينزل عنده إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستصحبه معه في كثير من أسفاره، ويكرمه ويحترمه ويستشيره فيشير عليه برأيه ومكاشفات صحيحة مطابقة، إما رحمانية أو شيطانية، أو حال أو استقادة، لكنه افتتن لما خالط الناس ببعض بنات الأمراء، وكن لا يحتجبن منه، فوقع في الفتنة. وهذا في الغالب واقع في مخالطة الناس فلا يسلم المخالط لهم من الفتنة، ولا سيما مخالطة النساء مع ترك الاحتجاب، فلا يسلم العبد البتة منهن.

فلما وقع فيما وقع فيه حوقق عند السلطان وبيسري وقلاوون والفارس أقطاي الأتابك، فاعترف فهمّ بقتله فقال له: إنما بيني وبينك أيام قلائل، فأمر بسجنه فسجن سنين عديدة من سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين، وقد هدم بالقدس كنيسة عظيمة وذبح قسيسها وعملها زاوية وقد قدمنا ترجمته قبل ذلك فيما تقدم.

ثم لم يزل مسجونا حتى مات في يوم الخميس سادس المحرم من هذه السنة، فأخرج من القلعة وسلم إلى قرابته فدفن في تربة أنشأها في زاويته. مات وهو في عشر الستين، وقد كان يكاشف السلطان في أشياء، وإليه تنسب قبة الشيخ خضر التي على الجبل غربي الربوة، وله زاوية بالقدس الشريف.

الشيخ محيي الدين

■ النووي يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمي العالم، محيي الدين أبو زكريا النووي ثم الدمشقي الشافعي العلامة شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه.

ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ونوى قرية من قرى حوران، وقدم دمشق سنة تسع وأربعين، وقد حفظ القرآن فشرع في قراءة التنبيه، فيقال: إنه قرأه في أربعة أشهر ونصف، وقرأ ربع العبادات من المهذب في بقية السنة، ثم لزم المشايخ تصحيحا وشرحا، فكان يقرأ في كل يوم اثني عشر درسا على المشايخ، ثم اعتنى بالتصنيف فجمع شيئا كثيرا، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله:

فمما كمل شرح مسلم والروضة والمنهاج والرياض والأذكار والتبيان، وتحرير التنبيه وتصحيحه، وتهذيب الأسماء واللغات، وطبقات الفقهاء، وغير ذلك.

ومما لم يتممه ولو كمل لم يكن له نظير في بابه: شرح المهذب الذي سماه المجموع، وصل فيه إلى كتاب الربا، فأبدع فيه وأجاد وأفاد، وأحسن الانتقاد، وحرر الفقه فيه في المذهب وغيره، وحرر فيه الحديث على ما ينبغي، والغريب واللغة وأشياء مهمة لا توجد إلا فيه، وقد جعله نخبة على ما عنّ له ولا أعرف في كتب الفقه أحسن منه، على أنه محتاج إلى أشياء كثيرة تزاد فيه وتضاف إليه.

وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماع عن الناس على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره، وكان يصوم الدهر ولا يجمع بين إدامين، وكان غالب قوته مما يحمله إليه أبوه من نوى، وقد باشر تدريس الإقبالية نيابة عن ابن خلكان، وكذلك ناب في الفلكية والركنية، وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، وكان لا يضيع شيئا من أوقاته، وحج في مدة إقامته بدمشق، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم.

توفي في ليلة أربع وعشرين من رجب من هذه السنة بنوى، ودفن هناك رحمه الله وعفا عنا وعنه.

■ علي بن علي بن أسفنديار نجم الدين الواعظ بجامع دمشق أيام السبوت في الأشهر الثلاثة، وكان شيخ القانقاه المجاهدية وبها توفي في هذه السنة، وكان فاضلا بارعا، وكان جده يكتب الإنشاء للخليفة الناصر، وأصلهم من بوشنج ومن شعر نجم الدين هذا قوله:

إذا زارَ بالجثمانِ غيري فإنني ... أزورُ مع الساعاتِ ربعكَ بالقلبِ

وما كل ناء عن ديار بنازح ... ولا كلُّ دانٍ في الحقيقةِ ذو قربِ

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الأربعاء وكان الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد شاما ومصرا وحلبا الملك السعيد.

وفي أوائل المحرم اشتهر بدمشق ولاية ابن خلكان قضاء دمشق عودا على بدء في أواخر ذي الحجة، بعد عزل سبع سنين، فامتنع القاضي عز الدين بن الصائغ من الحكم في سادس المحرم وخرج الناس لتلقي ابن خلكان فمنهم من وصل إلى الرملة وكان دخوله في يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم، فخرج نائب السلطنة عز الدين أيدمر بجميع الأمراء والمواكب لتلقيه، وفرح الناس بذلك، ومدحه الشعراء، وأنشد الفقيه شمس الدين محمد بن جعوان:

لما تولى قضاء الشام حاكمه ... قاضي القضاة أبو العباس ذو الكرم

من بعد سبع شداد قال خادمه ... ذا العام فيه يغاث الناس بالنعم

وقال سعد الله بن مروان الفارقي:

أذقت الشام سبع سنين جدبا ... غداة هجرته هجرا جميلا

فلما زرته من أرض مصر ... مددت عليه من كفيك نيلا

وقال آخر:

رأيت أهل الشام طرا ... ما فيهم قط غير راضي

نالهم الخير بعد شر ... فالوقت بسط بلا انقباض

وعوضوا فرحة بحزن ... قد أنصف الدهر في التقاضي

وسرهم بعد طول غم ... بدور قاض وعزل قاضي

وكلهم شاكر وشاك ... بحال مستقبل وماض

قال اليونيني: وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر ذكر الدرس بالظاهرية وحضر نائب السلطنة أيدمر الظاهري وكان درسا حافلا حضره القضاة، وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود بن إسماعيل الفارقي، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، ولم يكن بناء المدرسة كمل.

وفي جمادى الأولى باشر قضاء الحنفية صدر الدين سليمان المذكور عوضا عن مجد الدين بن العديم، بحكم وفاته، ثم توفي صدر الدين سليمان المذكور في رمضان وتولى بعده القضاء حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازي الحنفي، الذي كان قاضياً بملطية قبل ذلك. وفي العشر الأول من ذي القعدة فتحت المدرسة النجيبية، وحضر تدريسها ابن خلكان بنفسه، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى، وفتحت القانقاه النجيبية، وقد كانتا وأوقافهما تحت الحوطة إلى الآن.

وفي يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة دخل السلطان السعيد إلى دمشق وقد زينت له وعملت له قباب ظاهرة وخرج أهل البلد لتلقيه وفرحوا به فرحاً عظيما لمحبتهم والده، وصلى عيد النحر بالميدان، وعمل العيد بالقلعة المنصورة، واستوزر بدمشق الصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني، وبالديار المصرية بعد موت بهاء الدين بن الحنا الصاحب برهان الدين بن الخضر بن الحسن السنجاري.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة جهز السلطان العساكر إلى بلاد سيس صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وأقام السلطان بدمشق في طائفة يسيرة من الأمراء والخاصكية والخواص، وجعل يكثر التردد إلى الزنبقية.

وفي يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذي الحجة جلس السلطان بدار العدل داخل باب النصر، وأسقط ما كان حدده والده على بساتين أهل دمشق، فتضاعفت له منهم الأدعية وأحبوه لذلك حبا شديداً، فإنه كان قد أجحف بكثير من أصحاب الأملاك، وود كثير منهم لو تخلص من ملكه جملة بسبب ما عليه.

وفيها طلب من أهل دمشق خمسين ألف دينار ضربت أجرة على املاكهم مدة شهرين، وجبيت منهم على القهر والعسف.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ آقوش بن عبد الله الأمير الكبير جمال الدين النجيبي أبو سعيد الصالحي: أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وجعله من أكابر الأمراء، وولاه أستاذ داريته، وكان يثق إليه ويعتمد عليه، وكان مولده في سنة تسع أو عشر وستمائة، وولاه الملك الظاهر أيضاً أستاذ داريته، ثم استنابه بالشام تسع سنين، فاتخذ فيها المدرسة النجيبية ووقف عليها أوقافاً دارة واسعة، لكن لم يقرر للمستحقين قدراً يناسب ما وقفه عليهم، ثم عزله السلطان واستدعاه إلى مصر فأقام بها مدة بطالا، ثم مرض بالفالج أربع سنين، وقد عاده في بعضها الملك الظاهر ولم يزل به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بالقاهرة بداره بدرب ملوخيا، ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وقد كان بنى لنفسه تربة بالنجيبية، وفتح لها شباكين إلى الطريق، فلم يقدر دفنه بها.

وكان كثير الصدقة محبا للعلماء محسنا إليهم، حسن الاعتقاد. شافعي المذهب، متغاليا في السنة ومحبة الصحابة وبغض الروافض، ومن جملة أوقافه الحسان البستان والأراضي التي أوقفها على الجسورة التي قبلي جامع كريم الدين اليوم، وعلى ذلك أوقاف كثيرة، وجعل النظر في أوقافه لابن خلكان.

■ أيدكين بن عبد الله الأمير الكبير علاء الدين الشهابي، واقف القانقاه الشهابية، داخل باب الفرج. كان من كبار الأمراء بدمشق، وقد ولاه الظاهر النيابة بحلب مدة، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم، وله حسن ظن بالفقراء والإحسان إليهم، ودفن بتربة الشيخ عثمان الرومي بسفح قاسيون، في خامس عشر ربيع الأول، وهو في عشر الخمسين، وقانقاه داخل باب الفرج، وكان لها شباك إلى الطريق. والشهابي نسبة إلى الطواشي شهاب الدين رشيد الكبير الصالحي.

قاضي القضاة صدر الدين

■ سليمان بن أبي العز بن وهيب أبو الربيع الحنفي شيخ الحنفية في زمانه، وعالمهم شرقا وغربا، أقام بدمشق مدة يفتي ويدرس، ثم انتقل إلى الديار المصرية يدرس بالصالحية، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالظاهرية، وولي القضاء بعد مجد الدين بن العديم ثلاثة أشهر، ثم كانت وفاته ليلة الجمعة سادس شعبان، ودفن من الغد بعد الصلاة بداره بسفح قاسيون، وله ثلاث وثمانون سنة، ومن لطيف شعره في مملوك تزوج جارية للملك المعظم:

يا صاحبي قفا لي وانظرا عجبا … أتى به الدهر فينا من عجائبه
البدر أصبح فوق الشمس منزلة … وما العلو عليها من مراتبه
أضحى يماثلها حسنا صار لها … كفوا وسار إليها في مواكبه
فأشكل الفرق لولا وشي نمنمة … بصدغه واخضرار فوق شاربه

■ طه بن إبراهيم بن أبي بكر كمال الدين الهذباني الإربلي الشافعي، كان أديبا فاضلا شاعراً، له قدرة في تصنيف دوبيت، وقد أقام بالقاهرة حتى توفي في جمادى الأولى من هذه السنة، وقد اجتمع مرة بالملك الصالح أيوب، فجعل يتكلم في علم النجوم فأنشده على البديهة هذين البيتين:

دع النجومَ لطرقي يعيشُ بها … وبالعزيمة فانهض أيها الملك
إن النبي وأصحابَ النبي نهوا … عن النجوم وقد أبصرتُ ما ملكوا

وكتب إلى صاحب له اسمه شمس الدين يستزيره بعد رمد أصابه فبرأ منه:

يقولُ لي الكحال عينكَ قد هُدّتْ … فلا تشغلنْ قلباً وطبْ بها نفسا
ولي مدةٌ يا شمسُ لم أركمْ بها … وآية برءِ العين أن تبصرَ الشمسا

■ عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن عثمان جمال الدين ابن الشيخ نجم الدين الباذرائي البغدادي ثم الدمشقي، درس بمدرسة أبيه من بعده حتى حين وفاته يوم الأربعاء سادس رجب، ودفن بسفح قاسيون، وكان رئيسا حسن الأخلاق جاوز خمسين سنة.

قاضي القضاة مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن أحمد

■ ابن العديم، الحلبي، ثم الدمشقي ثم الحنفي، ولي قضاء الحنفية بعد ابن عطاء بدمشق، وكان رئيسا ابن رئيس، له إحسان وكرم أخلاق، وقد ولي الخطابة بجامع القاهرة الكبير، وهو أول حنفي وليه، توفي بجوسقه بدمشق في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بالتربة التي أنشأها عند زاوية الحريري على الشرف القبلي غربي الزيتون.

الوزير

■ ابن الحنا علي بن محمد بن سُليم بن عبد الله الصاحب بهاء الدين أبو الحسن بن الحنا الوزير المصري، وزير الملك الظاهر وولده السعيد إلى أن توفي في سلخ ذي القعدة، وهو جَدُّ جَدٍّ، وكان ذا رأي وعزم وتدبير ذا تمكن في الدولة الظاهرية، لا تمضي الأمور إلا عن رأيه وأمره، وله مكارم على الأمراء وغيرهم، وقد امتدحه الشعراء، وكان ابنه تاج الدين وزير الصحبة، وقد صودر في الدولة السعيدية.

الشيخ

■ محمد بن الظهير اللغوي محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر مجد الدين أبو عبد الله الإربلي الحنفي المعروف بابن الظهير، ولد بإربل سنة ثنتين وستمائة، ثم أقام بدمشق ودرس بالقايمازية وأقام بها حتى توفي بها ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر.

ودفن بمقابر الصوفية، وكان بارعا في النحو واللغة، وكانت له يد طولى في النظم وله ديوان مشهور، وشعر رائق، فمن شعره قوله:

كل حي إلى الممات مآبه … ومدى عمره سريع ذهابه
ثم من قبره سيحشر فرداً … واقفاً وحده يوفّى حسابُهْ
معه سائق له وشهيدٌ … وعلى الحرص وَيْحَه إكبابُهْ
يخرب الدار وهي دار بقاء … ثم يبنى عمَّا قريب خرابه
عجبا وهو في التراب غريق … كيف يلهيه طيبه وعلابه
كل يوم يزيد نقصا وإن عمـ … ـر حلت أوصاله أوصابه
والورى في مراحل الدهر ركب … دائم السير لا يرجى إيابه
فتزود إن التقى خير زاد … ونصيب اللبيب منه لبابه
وأخو العقل من يقضي بصدق … شيبُه في صلاحه وشبابه
وأخو الجهل يستلذ هوى النفس … فيغدو شهدا لديه مصابه

وهي طويلة جداً قريبة من مائة وخمسين بيتا، وقد أورد الشيخ قطب الدين شيئاً كثيراً من شعره الحسن الفائق الرائق.

■ ابن إسرائيل الحريري: محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين نجم الدين أبو المعالي الشيباني الدمشقي.

ولد في ضحى يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة، وصحب الشيخ علي بن أبي الحسن بن منصور البسري الحريري، في سنة ثمان عشرة، وكان قد لبس الخرقة قبله من الشيخ شهاب الدين السهروردي، وزعم أنه أجلسه في ثلاث خلوات، وكان ابن إسرائيل يزعم أن أهله قدموا الشام مع خالد بن الوليد فاستوطنوا دمشق.

وكان أديباً فاضلا في صناعة الشعر، بارعاً في النظم، ولكن في كلامه ونظمه ما يشير به إلى نوع الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربي وابن الفارض وشيخه الحريري، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره.

توفي بدمشق ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الآخر هذه السنة، عن أربع وسبعين سنة، ودفن بتربة الشيخ رسلان معه داخل القبة، وكان الشيخ رسلان شيخ الشيخ علي المغربل الذي تخرج على يديه الشيخ علي الحريري شيخ ابن إسرائيل، فمن شعره قوله:

لقد عادني من لاعج الشوق عائدُ … فهل عهد ذات الخال بالسفح عائدُ
وهل نارها بالأجرع الفرد تعتلي … لمنفرد شاب الدجى وهو شاهد؟
نديميَّ من سُعدى أديرا حديثها … فذكرى هواها والمدامة واحد
منعمة الأطراف رقت محاسنا … كما جلَّ في حبِّي لها ما أكابد
فللبدر ما لاثت عليه خمارها … وللشمس ما جالت عليه القلائد

وله:

أيها المعتاض بالنوم السهر ذاهلا يسبح في بحر الفكر سلم الأمر إلى مالكه واصطبر فالصبر عقباه الظفر

لا تكونن آيسا من فرج … إنما الأيام تأتي بالغِيَر
كدر يحدث في وقت الصفا … وصفا يحدث في وقت الكدر

وإذا مـا سـاء دهـر مـرة ... سـر أهليـه ومهمـا سـاء سـر
فـارض عـن ربـك في أقـداره ... إنمـا أنـت أسـير للقـدر

وله قصيدة في مدح النبي ﷺ طويلة حسنة سمعها الشيخ كمال الدين بن الزملكاني وأصحابه على الشيخ أحمد الأعقف عنه، وأورد له الشيخ قطب الدين اليونيني أشعاراً كثيرة. فمنها قصيدته الدالية المطولة التي أولها:

وفى لي ممن أهواه جهرا لموعدي ... وأرغم عذالي عليه وحُسَّدي
وزار على شحط المزار مطولا ... على مغرم بالوصل لم يتعود
فيا حسن ما أبدَى لعيني جماله ... ويا برد ما أهدى إلى قلبي الصَّدي
ويا صدق أحلامي ببشرى وصاله ... ويا نيل آمالي ويا نجح مقصدي
تجلى وجودي إذ تجلى لباطني ... بجد سعيد أو بسعد مجدد
لقد حق لي عشق الوجود وأهله ... وقد علقت كفاي جمعا بموجدي

ثم تغزل فأطال إلى أن قال:

فلما تجلى لي على كل شاهد ... وسامرني بالرمز في كل مشهد
تجنبت تقييد الجمال ترفعا ... وطالعت أسرار الجمال المبدد
وصار سماعي مطلقا منه بدؤه ... وحاشى لمثلي من سماع مقيد
ففي كل مشهود لقلبي شاهد ... وفي كل مسموع له لحن معبد
أراه بأوصاف الجمال جميعها ... بغير اعتقاد للحلول المبعد
ففي كل هيفاء المعاطف غادة ... وفي كل مصقول السوالف أغيد
وفي كل بدر لاح في ليل شعره ... على كل غصن مائس العطف أملد
وعند اعتناقي كل قد مهفهف ... ورشفي رضابا كالرحيق المبرد
وفي الدر والياقوت والطيب والحُلى ... على كل ساجي الطرف لدن المقلَّد
وفي حلل الأثواب راقت لناظري ... بزبرجها من مذهب ومورد
وفي الراح والريحان والسمع والغِنا ... وفي سجع ترجيع الحمام المغرد
وفي الدوح والأنهار والزهر والندى ... وفي كل بستان وقصر مشيد
وفي الروضة الفيحاء تحت سمائها ... يضاحك نور الشمس نوارها الندي
وفي صفو رقراق الغدير إذا حكى ... وقد جعلته الريح صفحة مبرد
وفي اللهو والأفراح والغفلة التي ... تمكن أهل الفرق من كل مقصد
وعند انتشاء الشرب في كل مجلس ... بهيج بأنواع الثمار المنضد
وعند اجتماع الناس في كل جمعة ... وعيد وإظهار الرياش المجدد
وفي لمعان المشرفيات بالوغى ... وفي ميل أعطاف القنا المتأود
وفي الأعوجيات العتاق إذا انبرتْ ... تسابق وفد الريح في كل مطرد
وفي الشمس تُجلي وهي في برج نورها ... لدى الأفق الشرقي مرآة عسجد
وفي البدر بدر الأفق ليلة تمه ... جلته سماء مثل صرح ممرد
وفي أنجم زانت دجاها كأنها ... نثار لآل في بساط زبرجد
وفي الغيث روى الأرض بعد همودها ... فمال نداه متهم بعد منجد
وفي البرق يغدو موهنا في سحابه ... كباسم ثغر أو حسام مجرد
وفي حسن تنميق الخطاب وسرعة ... الجواب وفي الخط الأنيق المجود
وفي رقة الأشعار راقت لسامع ... بدائعها من مقصر ومقصد
وفي عود عيد الوصل من بعد جفوة ... وفي أمن أحشاء الطريد المشرد
وفي رحمة المعشوق شكوى محبه ... وفي رقة الألفاظ عند التودد
وفي أريحيات الكريم إلى الندى ... وفي عاطفات العفو من كل سيد
وحالة بسط العارفين وأنسهم ... وتحريكهم عند السماع المقيد
وفي لطف آيات الكتاب التي بها ... تنسم روح الوعد بعد التوعد
كذلك أوصاف الجلال مظاهر ... أشاهده فيها بغير تردد
ففي صولة القاضي الجليل وسَمْتِه ... وفي سطوة الملك الشديد التمرد
وفي حدة الغضبان حالة طيشه ... وفي نخوة القرم المهيب المسود
وفي صولة الصهباء جاز مديرها ... وفي بؤس أخلاق النديم المعربد
وفي الحر والبرد اللذين تقسما ... الزمان وفي إيلام كل محسد
وفي سر تسليط النفوس بشرها ... علي وتحسين التعدي لمعتدي
وفي عسر العادات يستعرف بالقضا ... وتكحل عين الشمس منه بإثمد
وعند اصطدام الخيل في كل موقف ... يعثر فيه بالوشيج المنضد
وفي شدة الليث الصؤول وبأسه ... وشدة عيش بالسقام منكد
وفي جفوة المحبوب بعد وصاله ... وفي غدره من بعد عهد مؤكد
وفي روعة البين المسيء وموقف ... الوداع لحران الجوانح مكمد
وفي فرقة الألاف بعد اجتماعهم ... وفي كل تشتيت وشمل مبدد
وفي كل دار أقفرت بعد أنسها ... وفي طلل بال ودارس معهد
وفي هول أمواج البحار ووحشة ... القفار وسيل بالمزاريب مزبد
وعند قيامي بالفرائض كلها ... وحالة تسليم لسر التعبد
وعند خشوعي في الصلاة لعزة ... المناجى وفي الإطراق عند التهجُّد
وحالة إهلال الحجيج بحجهم ... وأعمالهم للعيش في كل فدفد
وفي عسر تخليص الحلال وفترة ... الملال لقلب الناسك المتعبد
وفي ذكريات العذاب وظلمة ... الحجاب وقبض الناسك المتزهد
ويبدو بأوصاف الكمال فلا أرى ... برؤيته شيئاً قبيحاً ولا ردي
فكل مسيء لي إلي كمحسن ... وكل مضل لي إلي كمرشد
فلا فرق عندي بين أنس ووحشة ... ونور وإظلام ومدن ومبعد
وسيان إفطاري وصومي وفترتي ... وجهدي ونومي وادعاء تهجدي
أرى تارة في حانة الخمر خالعا ... عذاري وطوراً في حنية معبد
تجلى لسري بالحقيقة مشرب ... فوقتي ممزوج بكشف مسرمد
تعمرت الأوطان بي وتحققت ... مظاهرها عندي بعيني ومشهدي
وقلبي مع الأشياء أجمع قلب ... وسرِّي مقسوم على كل مورد
فهيكل أوثان ودير لراهب ... وبيت لنيران وقبلة مسجد
ومسرح لغزلان وحانة قهوة ... وروضة أزهار ومطلع أسعد
وأسرار عرفان ومفتاح حكمة ... وأنفاس وجدان وفيض تبلد
وجيش لضرغام وخدر لكاعب ... وظلمة حيران ونور لمهتدي
تقابلت الأضداد عندي جميعها ... كمحنة مجهود ومنحة مجتدي
وأحكمت تقرير المراتب صورة ... ومعنى ومن عين التفرد موردي

فما موطن إلا ولي فيه موقف على قدم قامت بحق التفرد
فلا غرو إن فت الأنام بها وقد علقت بحبل من حبال محمد
عليه صلاة الله تشفع دائما بروح تحيات السلام المردد

■ ابن العود الرافضي: أبو القاسم بن الحسين بن العود نجيب الدين الأسدي الحلي، شيخ الشيعة وإمامهم وعالمهم في أنفسهم، كانت له فضيلة ومشاركة في علوم كثيرة، وكان حسن المحاضرة والمعاشرة، لطيف النادرة، وكان كثير التعبد بالليل، وله شعر جيد.

ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وتوفي في رمضان من هذه السنة عن ست وتسعين سنة، والله أعلم بأحوال عباده وسرائرهم ونياتهم

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الأحد والخليفة والسلطان هما المذكوران في التي قبلها، وقد اتفق في هذه السنة أمور عجيبة، وذلك أنه وقع الخلف بين الممالك كلها، اختلفت التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلفت الفرنج في السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضاً، وكذلك الفرنج الذين في داخل البحور وجزائرها، فاختلفوا واقتتلوا، واقتتلت قبائل الأعراب بعضها في بعض قتالا شديداً، وكذلك وقع الخلف بين العشير من الحوارنة وقامت الحرب بينهم على ساق.

وكذلك وقع الخلف بين الأمراء الظاهرية بسبب أن السلطان الملك السعيد بن الظاهر لما بعث الجيش إلى سيس أقام بعده بدمشق وأخذ في اللهو واللعب والانبساط مع الخاصكية، وتمكنوا من الأمور، وبعد عنه الأمراء الكبار، فعصت طائفة منهم ونابذوه وفارقوه وأقاموا بطريق العساكر الذين توجهوا إلى سيس وغيرهم، فرجعت العساكر إليهم فلما اجتمعوا شعثوا قلوبهم على الملك السعيد، ووحشوا خواطر الجيش عليه، وقالوا الملك لا ينبغي له أن يلعب ولا أن يلهو، وإنما همة الملوك في العدل ومصالح المسلمين والذب عن حوزتهم، كما كان أبوه وصدقوا فيما قالوا، فإن لعب الملوك والأمراء، وغيرهم دليل على زوال النعم وخراب الملك، وفساد الرعية.

ثم راسله الجيش في إبعاد الخاصكية عنه ودنو ذوي الأحلام والنهي إليه كما كان أبوه، يفعل فلم يقبل، وذلك أنه كان لا يمكنه ذلك لقوة شوكة الخاصكية وكثرتهم، فركب الجيش وساروا قاصدين مرج الصفر، ولم يمكنهم العبور على دمشق بل أخذوا من شرقها، فلما اجتمعوا كلهم بمرج الصفر أرسل السلطان أمه إليهم فتلقوها وقبلوا الأرض بين يديها، فأخذت تتألفهم وتصلح الأمور، فأجابوها واشترطوا شروطاً على ولدها السلطان، فلما رجعت إليه لم يلتزم بها ولم تمكنه الخاصكية من ذلك، فسارت العساكر إلى الديار المصرية، فساق السلطان خلفهم ليتلافى الأمور قبل تفاقمها وانفراطها، فلم يلحقهم وسبقوه إلى القاهرة، وقد كان أرسل أولاده وأهله وثقله إلى الكرك فحصنهم فيها، وركب في طائفة من الجيش الذين بقوا معه والخاصكية قاصداً الديار المصرية، فلما اقترب منها صدوه عنها وقاتلوه فقتل من الفريقين نفر يسير، فأخذه بعض الأمراء فشق به الصفوف وأدخله قلعة الجبل ليسكن الأمر، فما زادهم ذلك إلا نفورا، فحاصروا حينئذ القلعة وقطعوا عنها الماء، وجرت خطوب طويلة وأحوال صعبة.

ثم اتفق الحال بعد ذلك مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي ـ وهو المشار إليه حينئذ ـ أن يترك الملك السعيد الملك ويتعوض بالكرك والشوبك ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر وتكون المملكة إلى أخيه الصغير بدر الدين سلامش، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه.

ذكر خلع الملك السعيد وتولية أخيه الملك العادل سلامش

لما اتفق الحال على ما ذكرنا نزل السلطان الملك السعيد من القلعة إلى دار العدل في سابع عشر الشهر، وهو ربيع الآخر، وحضر القضاة والدولة من أولي الحل والعقد، فخلع السعيد نفسه من السلطنة وأشهدهم على نفسه بذلك، وبايعوا أخاه بدر الدين سلامش ولقب بالملك العادل، وعمره يومئذ سبع سنين، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، وخطب له الخطباء ورسمت السكة باسمهما،وجعل للسعيد الكرك ولأخيه خضر الشوبك، وكتبت بذلك مكاتيب، ووضع القضاة والمفتون خطوطهم بذلك، وجاءت البريدية إلى الشام بالتحليف لهم على ما حلف عليه المصريون، ومُسِكَ الأمير أيدمر نائب الشام الظاهري، واعتقل بالقلعة عند نائبها، وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدواداري، وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله، وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في أبهة عظيمة، وتحكم مكين، فنزل بدار السعادة وعظمه الناس وعاملوه معاملة الملوك، وعزل السلطان قضاة مصر الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي، وولوا القضاء صدر الدين عمر ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عوضاً عن الشافعي، وهو تقي الدين بن رزين وكأنهم إنما عزلوه لأنه توقف في خلع الملك السعيد والله أعلم.

ذكر بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي

لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من رجب اجتمع الأمراء بقلعة الجبل من مصر وخلعوا الملك العادل سلامش بن الظاهر، وأخرجوه من البين وإنما كانوا قد بايعوه صورة ليسكن الشر عند خلع الملك السعيد، ثم اتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقبوه بالملك المنصور، وجاءت البيعة إلى دمشق فوافق الأمراء وحلفوا، وذكر أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر لم يحلف مع الناس ولم يرض بما وقع، وكأنه داخله حسد من المنصور، لأنه كان يرى أنه أعظم منه عند الظاهر وخطب للمنصور على المنابر في الديار المصرية والشامية، وضربت السكة باسمه، وجرت الأمور في البلاد بمقتضى رأيه فعزل وولى ونفذت مراسيمه في سائر البلاد بذلك، فعزل عن الوزارة برهان الدين السنجاري وولى مكانه فخر الدين بن لقمان كاتب السر، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية.

وفي يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة من هذه السنة توفي الملك السعيد ابن الملك الظاهر بالكرك وسيأتي ذكر ترجمته إن شاء الله تعالى.

وفيها حُمل الأمير أيدمر الذي كان نائب الشام في محفة لمرض لحقه إلى الديار المصرية، فدخلها في أواخر ذي القعدة، واعتقل بقلعة مصر.

ذكر سلطنة سنقر الأشقر بدمشق

لما كان يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة ركب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من دار السعادة بعد صلاة العصر وبين يديه جماعة من الأمراء والجند مشاة، وقصد باب القلعة الذي يلي المدينة، فهجم منه ودخل القلعة واستدعى الأمراء فبايعوه على السلطنة، ولقب بالملك الكامل، وأقام بالقلعة ونادت المنادية بدمشق بذلك، فلما أصبح يوم السبت استدعى بالقضاة والعلماء والأعيان ورؤساء البلد إلى مسجد أبي الدرداء بالقلعة، وحلفهم وحلف له بقية الأمراء والعسكر، وأرسل العساكر إلى غزة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات، وأرسل الملك المنصور إلى الشوبك فتسلمها نوابه ولم يمانعهم نجم الدين خضر.

وفيها جددت خمسة أضلاع في قبة النسر من الناحية الغربية.

وفيها عزل فتح الدين بن القيسراني من الوزارة بدمشق ووليها تقي الدين بن توبة التكريتي.

وممن توفي فيها من الأعيان

عز الدين بن غانم الواعظ:

■ عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر بن حسين عز الدين أبو محمد الأنصاري المقدسي، الواعظ المطبق المفلق الشاعر الفصيح، الذي نسج على منوال ابن الجوزي وأمثاله، وقد أورد له قطب الدين أشياء حسنة كثيرة مليحة، وكان له قبول عند الناس، تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة، وكان في الحضرة الشيخ تاج الدين بن الفزاري والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وابن العجيل من اليمن وغيرهم من العلماء والعُبَّاد، فأجاد وأفاد وخطب فأبلغ وأحسن. نقل هذا المجلس الشيخ شرف الدين الفزاري، وأنه كان في سنة خمس وسبعين.

الملك

■ السعيد بن الملك الظاهر: بركة قان ناصر الدين محمد بن بركة قان أبو المعالي ابن السلطان الملك الظاهر. ركن الدين بيبرس البندقداري، بايع له أبوه الأمراء في حياته، فلما توفي أبوه بويع له بالملك وله تسع عشرة سنة، ومشيت له الأمور في أول الأمر على السعادة، ثم إنه غلبت عليه الخاصكية فجعل يلعب معهم في الميدان الأخضر فيما قيل أول هُوِيٍّ، فربما جاءت النوبة عليه فينزل لهم، فأنكرت الأمراء الكبار ذلك وأنفوا أن يكون ملكهم يلعب مع الغلمان، ويجعل نفسه كأحدهم، فراسلوه في ذلك ليرجع عما هو عليه فلم يقبل، فخلعوه كما ذكرنا، وولوا السلطان الملك المنصور قلاوون في أواخر رجب كما تقدم. ثم كانت وفاته في هذه السنة بالكرك في يوم الجمعة الحادي عشر من ذي القعدة، يقال: إنه سم فالله أعلم.

وقد دفن أولا عند قبر جعفر وأصحابه الذين قتلوا بمؤتة، ثم نقل إلى دمشق فدفن في تربة أبيه سنة ثمانين وستمائة، وتملك الكرك بعده أخوه نجم الدين خضر وتلقب بالملك المسعود، فانتزعها المنصور من يده كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة

كان أولها يوم الخميس ثالث أيار، والخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي وملك مصر الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، وبعض بلاد الشام أيضاً، وأما دمشق وأعمالها فقد ملكها سنقر الأشقر، وصاحب الكرك الملك المسعود بن الظاهر، وصاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمود، والعراق وبلاد الجزيرة وخراسان والموصل وإربل وأذربيجان وبلاد بكر وخلاط وما والاها وغير ذلك من البلاد بأيدي التتار، وكذلك بلاد الروم في أيديهم أيضاً، ولكن فيها غياث الدين بن ركن الدين، ولا حكم له سوى الاسم، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، وصاحب الحرم الشريف نجم الدين بن أبي نُمَيّ الحسني، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحه الحسيني.

ففي مستهل السنة المذكورة ركب السلطان الملك الكامل سنقر الأشقر من القلعة إلى الميدان وبين يديه الأمراء ومقدمو الحلقة الغاشية، وعليهم الخلع والقضاة والأعيان ركاب معه، فسير في الميدان ساعة ثم رجع إلى القلعة، وجاء إلى خدمته الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب، فقبل الأرض بين يديه، وجلس إلى جانبه وهو على السماط، وقام له الملك الكامل، وكذلك جاء إلى خدمته ملك الأعراب بالحجاز، وأمر الكامل سنقر أن تضاف البلاد الحلبية إلى ولاية القاضي شمس الدين بن خلكان، وولاه تدريس الأمينية وانتزعها من ابن سني الدولة.

ولما بلغ الملك المنصور بالديار المصرية ما كان من أمر سنقر الأشقر بالشام أرسل إليه جيشاً كثيفاً فهزموا عسكر سنقر الأشقر الذي كان قد أرسله إلى غزة، وساقوهم بين أيديهم حتى وصل جيش المصريين إلى قريب دمشق، فأمر الملك الكامل أن يضرب دهليزه بالجسورة، وذلك في يوم الأربعاء ثاني عشر صفر، ونهض بنفسه وبمن معه فنزل هنالك واستخدم خلقا كثيراً وأنفق أموالا جزيلة، وانضاف إليه عرب الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وشهاب الدين أحمد بن حجي، وجاءته نجدة حلب ونجدة حماة ورجال كثيرة من جبال بعلبك.

فلما كان يوم الأحد السادس عشر من صفر أقبل الجيش المصري صحبة الأمير علم الدين سنجر الحلبي، فلما تراءى الجمعان وتقابل الفريقان تقاتلوا إلى الرابعة في النهار، فقتل نفر كثير وثبت الملك الكامل سنقر الأشقر ثباتاً جيداً، ولكن خامر عليه الجيش فمنهم من صار إلى المصري ومنهم من انهزم في كل وجه، وتفرق عنه أصحابه فلم يسعه إلا الانهزام على طريق المرج في طائفة يسيرة، وفي صحبة عيسى بن مهنا، فسار بهم إلى برية الرحبة فأنزلهم في بيوت من شعر، وأقام بهم وبدوابهم مدة مقامهم عنده، ثم بعث الأمراء الذين انهزموا عنه فأخذوا لهم أماناً من الأمير سنجر، وقد نزل في ظاهر دمشق وهي مغلوقة، فراسل نائب القلعة ولم يزل به حتى فتح باب الفرج من آخر النهار، وفتحت القلعة من داخل البلد فتسلمها للمنصور وأفرج عن الأمير ركن الدين بيبرس العجمي المعروف بالجالق، والأمير لاجين حسام الدين المنصوري وغيرهم من الأمراء الذين كان قد اعتقلهم الأمير سنقر الأشقر، وأرسل سنجر البريدية إلى الملك المنصور يعلمونه بصورة الحال، وأرسل سنجر بثلاثة آلاف في طلب سنقر الأشقر.

وفي هذا اليوم جاء ابن خلكان ليسلم على الأمير سنجر الحلبي فاعتقله في علو الخانقاه النجيبية، وعزله في يوم الخميس العشرين من صفر، ورسم للقاضي نجم الدين بن سني الدولة بالقضاء فباشره، ثم جاءت البريدية معهم كتاب من الملك المنصور بالعتب على طوائف الناس، والعفو عنهم كلهم، فتضاعفت له الأدعية، وجاء تقليد النيابة بالشام للأمير حسام

الدين لاجين السلحدار المنصوري، فدخل معه علم الدين سنجر الحلبي فرتبه بدار السعادة، وأمر سنجر القاضي ابن خلكان أن يتحول من المدرسة العادلية الكبيرة ليسكنها نجم الدين بن سني الدولة، وألح عليه في ذلك، فاستدعى جمالا لينقل أهله وثقله عليها إلى الصالحية فجاء البريد بكتاب من السلطان فيه تقرير ابن خلكان على القضاء والعفو عنه وشكره والثناء عليه، وذكر خدمته المتقدمة، ومعه خلعة سنية له، فلبسها وصلى بها الجمعة وسلم على الأمراء فأكرموه وعظموه، وفرح الناس به وبما وقع من الصفح عنه.

وأما سنقر الأشقر فإنه لما خرجت العساكر في طلبه فارق الأمير عيسى بن مهنا وسار إلى السواحل فاستحوذ منها على حصون كثيرة، منها صهيون، وقد كان بها أولاده وحواصله، وحصن بلاطنُس وبرزية وعكار وجبلة واللاذقية، والشغر وبكاس وشيزر واستناب فيها الأمير عز الدين ازدمر الحاج فأرسل السلطان المنصور لحصار شيزر طائفة من الجيش، فبينما هم كذلك إذ أقبلت التتار من كل فجٍّ لما سمعوا بتفريق كلمة المسلمين، فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد إلى الشام، ومن الشام إلى مصر، فوصلت التتار إلى حلب فقتلوا خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كبيراً، وظنوا أن جيش سنقر الأشقر يكون معهم على المنصور، فوجدوا الأمر بخلاف ذلك، وذلك أن المنصور كتب إلى سنقر الأشقر: إن التتار قد أقبلوا إلى المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا.

فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة وبرز من حصنه فخيم بجيشه ليكون على أهبة متى طلب أجاب، ونزلت نوابه من حصونهم وبقوا مستعدين لقتال التتار، وخرج الملك المنصور من مصر في أواخر جمادى الآخرة ومعه العساكر.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة قرئ على منبر جامع دمشق كتاب من السلطان أنه قد عهد بالملك إلى ولده علي، ولقب بالملك الصالح، فلما فرغ من قراءة الكتاب جاءت البريدية فأخبروا برجوع التتار من حلب إلى بلادهم، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين، ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد، وعاد المنصور إلى مصر وكان قد وصل إلى غزة، أراد بذلك تخفيف الوطأة عن الشام فوصل إلى مصر في نصف شعبان.

وفي جمادى الآخرة أعيد برهان الدين السنجاري إلى وزارة مصر ورجع فخر الدين بن لقمان إلى كتابة الإنشاء.

وفي أواخر رمضان أعيد إلى القضاء ابن رزين وعزل ابن بنت الأعز، وأعيد القاضي نفيس الدين بن شكر المالكي، ومعين الدين الحنفي، وتولى قضاء الحنابلة عز الدين المقدسي.

وفي ذي الحجة جاء تقليد ابن خلكان بإضافة المعاملة الحلبية إليه يستنيب فيها من شاء من نوابه.

وفي مستهل ذي الحجة خرج الملك المنصور من بلاد مصر بالعساكر قاصداً الشام، واستناب على مصر ولده الملك الصالح علي بن المنصور إلى حين رجوعه.

قال الشيخ قطب الدين [ذيل مرآة الزمان: ٥٣/٤]: وفي يوم عرفة وقع بمصر برد كبار أتلف شيئاً كثيراً من المُغلّات، ووقعت صاعقة بالإسكندرية وأخرى في يومها تحت الجبل الأحمر على صخرة فأحرقتها، فأخذ ذلك الحديد فسبك فخرج منه أواقي بالرطل المصري.

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة من الهجرة

استهلت والخليفة الحاكم وسلطان البلاد الملك المنصور قلاوون.

وفي عاشر المحرم انعقدت الهدنة بين أهل عكا والمرقب والسلطان، وكان نازلا على الروحاء وقد قبض على جماعة من الأمراء ممن كان معه، وجاء السلطان فنزل بعساكره تجاه مدينة عكا، فخافت الفرنج منه خوفا شديدا وراسلوه في طلب تجديد الهدنة، فإنه كان قد انتهى أمد ما كان قبلها، فأقام بهذه المنزلة إلى أول سنة ثمانين، فكانت فيها الهدنة. وجاء الأمير عيسى بن مهنا من بلاد العراق إلى خدمة المنصور، وهو بهذه المنزلة فتلقاه السلطان بجيشه وأكرمه واحترمه وعامله بالصفح والعفو والإحسان.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير الكبير جمال الدين

■ آقوش الشمسي أحد أمراء الإسلام، وهو الذي باشر قتل كتبغا نوين أحد مقدمي التتار، وهو المطاع فيهم يوم عين جالوت، وهو الذي مسك عز الدين أيلمر الظاهري في حلب من السنة الماضية، وكانت وفاته بها.

الشيخ الصالح

■ داود بن حاتم بن عمر الحبال، كان حنبلي المذهب له كرامات وأحوال صالحة ومكاشفات صادقة، وأصل آبائه من حران، وكانت إقامته ببعلبك، وتوفي فيها رحمه الله عن ست وتسعين سنة وقد أثنى عليه الشيخ قطب الدين ابن الشيخ الفقيه اليونيني.

الأمير الكبير نور الدين

■ علي بن عمر أبو الحسن الطوري، كان من أكابر الأمراء، وله السعي المشكور في قتال الفرنج وله عندهم ذكر عظيم وموقع كبير مات مات وقد نيف على تسعين سنة وكانت وفاته بسبب أنه وقع يوم مصاف سنقر الأشقر تحت سنابك الخيل، فمكث بعد ذلك متمرضاً إلى أن مات بعد شهرين ودفن بسفح قاسيون.

■ الجزار الشاعر يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي جمال الدين أبو الحسين المصري، الشاعر الماجن، المعروف بالجزار.

مدح الملوك والوزراء والكبراء، وكان ماجنا ظريفا حلو المحاضرة، ولد في حدود ستمائة بعدها بسنة أو ستين، وتوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال من هذه السنة. ومن شعره:

ادركوني فبي من البرد هم	ليس ينسى وفي حشاي التهاب
ألبستني الأطماع وهماً فها	جسمي عار ولي قرىً وثياب
كلما ازرقّ لون جسمي من	البرد تخيلت أنه سنجاب

وقال وقد تزوج أبوه بعجوزة:

تزوج الشيخ أبي شيخة	ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشها رمة	وشعرها من حولها قطن
وقائل قال لي كم سنها	فقلت ما ليس في فمها سن
لو سفرت غرتها في الدجى	ما جسرت تبصرها الجن

وهرب آخرون إلى قلعة صهيون إلى خدمة سنقر الأشقر، ودخل المنصور إلى دمشق في التاسع عشر من المحرم فنزل القلعة وقد زينت له البلد.

وفي التاسع والعشرين من المحرم أعاد القضاء إلى عز الدين بن الصائغ وعزل ابن خلكان.

وفي أول صفر باشر قضاء الحنابلة نجم الدين ابن الشيخ شمس بن أبي عمر، وقد كان المنصب شاغراً منذ عزل والده نفسه عن القضاء، وتولى قضاء حلب في هذا الشهر تاج الدين يحيى بن محمد بن إسماعيل الكردي.

وجلس الملك المنصور بدار العدل في هذا الشهر فحكم وأنصف المظلوم من الظالم، وقدم عليه صاحب حماة فتلقاه المنصور بنفسه في موكبه، ونزل بداره بباب الفراديس.

وفي ربيع الأول وقع الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين سنقر الأشقر الملك الكامل على أن يسلم للسلطان شيزر ويعوضه عنها بأنطاكية وكفر طاب وشغر وبكاس وغير ذلك، وعلى أن يقيم على ما بيده ستمائة فارس، وتحالفا على ذلك، ودقت البشائر لذلك، وكذلك صالح صاحب الكرك الملك خضر بن الظاهر على تقرير ما بيده ونودي بذلك في البلاد.

وفي العشر الأول من هذا الشهر ضمن الخمر والزنى بدمشق، وجعل عليه ديوان ومُشِدٌّ، فقام في إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد، فأبطل بعد عشرين يوماً، وأريقت الخمور وأقيمت الحدود ولله الحمد والمنة.

وفي تاسع عشر ربيع الآخر وصلت الخاتون ابنه بركة قان زوجة الملك الظاهر ومعها ولدها الملك السعيد قد نقلته من قرية المساجد بالقرب من الكرك لتدفنه عند أبيه بالتربة الظاهرية، فرفع بحبال من السور ودفن عند والده الظاهر، ونزلت أمه بدار صاحب حمص، وهيئت لها الإقامات، وعمل عزاء ولدها يوم الحادي والعشرين من ربيع الآخر بالتربة المذكورة، وحضر السلطان المنصور وأرباب الدولة والقراء والوعاظ.

وفي أواخر ربيع الآخر عزل التقي بن توبة التكريتي من الوزارة بدمشق وباشرها بعده تاج الدين السنهوري.

وكتب السلطان المنصور إلى مصر وغيرها من البلاد يستدعي الجيوش لأجل اقتراب مجيء التتار، فدخل أحمد بن حجِّي ومعه بشر كثير من الأعراب، وجاء صاحب الكرك الملك المسعود نجدة للسلطان يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة، وقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم، وكثرت الأراجيف بدمشق، وكثرت العساكر بها وانجفل الناس من بلاد حلب وتلك النواحي، وتركوا الغلات والأموال خوفا من أن يدهمهم العدو من التتار، ووصلت التتر صحبة منكوتمر بن هولاكو إلى عين تاب، وسارت العساكر المنصورة إلى نواحي حلب يتبع بعضها بعضا، ونازلت التتار بالرحبة في أواخر جمادى الآخر جماعة من الأعراب، وكان فيهم ملك التتار أبغا مختفيا ينظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه، ثم خرج الملك المنصور من دمشق وكان خروجه منها في أواخر جمادى وقنت الخطباء والأئمة بالجوامع والمساجد في الصلوات وجاء مرسوم من السلطان باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة. ومن لا يسلم يصلب، فأسلموا كرها، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بإسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل، وجعلت الحبال في أعناقهم، فأجابوا والحالة هذه.

ولما انتهى السلطان الملك المنصور إلى حمص كتب إلى الملك الكامل سنقر الأشقر يطلبه إليه نجدة فجاء إلى خدمته فأكرمه السلطان واحترمه ورتب له الإقامات، وتكاملت الجيوش كلها في صحبة الملك المنصور عازمين على لقاء العدو لا محالة مخلصين في ذلك، واجتمع الناس بعد خروج الملك في جامع دمشق ووضعوا المصحف العثماني بين أيديهم، وجعلوا يبتهلون إلى اللّه تعالى في نصرة الإسلام وأهله على الأعداء، وخرجوا كذلك والمصحف على رؤوسهم إلى المصلى يدعون ويبتهلون ويبكون، وأقبلت التتار قليلا قليلا فلما وصلوا حماة أحرقوا بستان الملك وقصره وما هنالك من المساكن، والسلطان المنصور مخيم بحمص في عساكر من الأتراك والتركمان وغيرهم في جحفل كثير جداً، وأقبلت التتار في مائة ألف مقاتل أو يزيدون، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وقعة حمص

لما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس وعسكر التتر في مائة ألف فارس، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلا، والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن، فاقتتلوا قتالا عظيما لم ير مثله من أعصار متطاولة، فاستظهر التتار أول النهار، وكسروا الميسرة واضطربت الميمنة أيضاً وباللّه المستعان وانكسر جناح القلب الأيسر وثبت السلطان ثباتا عظيما جداً في جماعة قليلة، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين، والتتار في آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص ووصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب، فقتلوا خلقا من العامة وغيرهم، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان تذامروا فيما بينهم مثل سنقر الأشقر وبيسري وطيبرس الوزيري وبدر الدين أمير سلاح وأيتمش السعدي وحسام الدين لاجين وحسام الدين طرنطاي والدواداري وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان وحملوا حملات متعددة صادقة، ولم يزالوا يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر اللّه بحوله وقوته التتر، وجرح منكوتمر، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فاضطربت الجيوش لصدمته، وتمت الهزيمة وللّه الحمد، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة جداً، ورجعت الطائفة من التتار الذين اتبعوا المنهزمين من المسلمين فوجدوا أصحابهم قد كسروا، والعساكر في آثارهم يقتلون ويأسرون، والسلطان ثابت في مكانه تحت السناجق، والكوسات تضرب خلفه وما معه إلا نحو ألف فارس، فطمعوا فيه فقاتلوه فثبت لهم ثباتا عظيما فانهزموا من بين يديه فلحقهم فقتل أكثرهم، وكان ذلك تمام النصر.

وكان انهزام التتار قبل الغروب، وافترقوا فرقتين أخذت فرقة منهم إلى ناحية سلمية والبرِّية، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات، فأرسل السلطان في آثارهم من يتبعهم وجاءت البطاقة بالبشارة بما وقع من النصر إلى دمشق يوم الجمعة خامس عشر رجب، فدقت البشائر وزينت البلد، وأوقدت الشموع وفرح الناس.

فلما أصبح الناس يوم السبت أقبلت طائفة من المنهزمين منهم بيليك الناصري والحالق وغيرهم، فأخبروا الناس بما شاهدوه من الهزيمة في أول الأمر، ولم يكونوا شاهدوا ما بعد ذلك، فبقي الناس في قلق عظيم، وخوف شديد، وتهيأ ناس كثير للهرب، فبينما الناس في ذلك إذ أقبلت البريدية فأخبروا الناس بصورة ما وقع في أول الأمر وآخره، فتراجع الناس وفرحوا فرحا شديداً وللّه الحمد والمنة.

ثم دخل السلطان إلى دمشق يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شَعَف رؤوس القتلى منهم، وكان يوما مشهوداً، ومع السلطان طائفة من أصحاب سنقر الأشقر منهم علم الدين الدوداري، فنزل السلطان بالقلعة مؤيداً منصوراً، وقد كثرت له المحبة والأدعية وكان سنقر الأشقر ودع السلطان من حمص ورجع إلى صهيون، وأما التتر فإنهم انهزمو في أسوإ حال وأتعسه يتخطّفون من كل جانب، ويقتّلون من كل فج، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا آخرين، والجيوش في آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح اللّه منهم الناس.

وقد استشهد في هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء، منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر الجمدار، وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر، فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه اللّه، ودفن بالقرب من مشهد خالد.

وخرج السلطان من دمشق قاصدا الديار المصرية يوم الأحد ثاني شعبان والناس يدعون له، وخرج معه علم الدين الدوداري، ثم عاد من غزة وقد ولاه الشدّ في الشام والنظر في المصالح، ودخل السلطان إلى مصر في ثاني عشر شعبان.

وفي سلخ شعبان ولي قضاء مصر والقاهرة للقاضي وجيه الدين البهنسي الشافعي.

وفي يوم الأحد سابع رمضان فتحت المدرسة الجوهرية بدمشق في حياة منشئها، وواقفها الشيخ نجم الدين محمد بن عباس بن أبي المكارم التميمي الجوهري، ودرس بها قاضي الحنفية حسام الدين الرازي.

وفي بكرة يوم السبت التاسع والعشرين من شعبان وقعت مئذنة مدرسة أبي عمر بقاسيون على المسجد العتيق فمات شخص واحد، وسلم اللّه تعالى بقية الجماعة.

وفي عاشر رمضان وقع بدمشق ثلج عظيم وبرد كثير مع هواء شديد، بحيث إنه ارتفع عن الأرض نحواً من ذراع، وفسدت الخضراوات، وتعطلت على الناس معايش كثيرة.

وفي شوال وصل صاحب سنجار إلى دمشق مقفراً من التتار داخلا في طاعة السلطان بأهله وماله، فتلقاه نائب البلد وأكرمه وسيره إلى مصر معززاً مكرماً.

وفي شوال عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرها وقد كتب لهم جماعة من المفتين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم، وأثبت الإكراه بين يدي القاضي جمال الدين بن أبي يعقوب المالكي، فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا، سود اللّه وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. وقيل: إنهم غرموا مالا جزيلا جملة مستكثرة على ذلك، قبحهم اللّه.

وفي ذي القعدة قبض السلطان على أيتمش السعدي وسجنه بقلعة الجبل، وقبض نائبه بدمشق على سيف الدين بلبان الهاروني وسجنه بقلعتها.

وفي بكرة الخميس التاسع والعشرين من ذي القعدة، وهو العاشر من آذار، استسقى الناس بالمصلى بدمشق فسقوا بعد عشرة أيام.

وفي هذه السنة أخرج الملك المنصور جميع آل الملك الظاهر من النساء والولدان والخدام من الديار المصرية إلى الكرك ليكونوا في كنف الملك المسعود خضر بن الظاهر.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أبغا ملك التتار بن هولاكو قان بن تولي بن جنكيزقان، كان عالي الهمة بعيد الغور له رأي وتدبير، وبلغ من العمر خمسين سنة، ومدة ملكه ثماني عشرة سنة، ولم يكن بعد والده في التدبير والحزم مثله، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك فلم يخالفه.

ورايت في بعض تاريخ البغاددة أن قدوم منكوتمر إلى الشام إنما كان عن مكاتبة سنقر الأشقر إليه فاللّه أعلم. وقد جاء أبغا هذا بنفسه فنزل قريبا من الفرات ليري ماذا يكون من الأمر، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غما وحزناً.

توفي بين العيدين من هذه السنة، وقام بالملك بعده ولده السلطان أحمد.

وفيها توفي: **قاضي القضاة نجم الدين أبو بكر ابن قاضي القضاة صدر الدين أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هبة اللّه بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي الشافعي**

■ ابن سني الدولة، ولد سنة ست عشرة وستمائة، وسمع الحديث وبرع في المذهب، وناب عن أبيه فشكرت سيرته، واستقل بالقضاء في الدولة المظفرية فحمد أيضاً، وكان الشيخ شهاب الدين ينال منه ومن أبيه.

وقال البرزالي: كان شديداً في الأحكام متحرياً، وقد ألزم بالمقام بمصر فدرس بجامع مصر، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالأمينية والركنية،وباشر قضاء حلب،وعاد إلى دمشق، وولاه سنجر قضاء دمشق، ثم عزل بابن خلكان كما تقدم، ثم كانت وفاته يوم الثلاثاء ثامن المحرم، ودفن من الغد يوم تاسوعاء بتربة جده بقاسيون.

وفي عاشر المحرم توفي. **قاضي القضاة صدر الدين عمر ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن أبي القاسم العَلاّمي.**

ابن بنت الأعز المصري، كان فاضلا بارعاً عارفاً بالمذهب، متحريا في الأحكام كأبيه، ودفن بالقرافة.

الشيخ

■ **إبراهيم بن سعيد الشاغوري المولّه المعروف بالجيعانة**، كان مشهوراً بدمشق ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس، ومع هذا كان كثير من العوام وغيرهم يعتقدونه.

توفي يوم الأحد سابع جمادى الأولى ودفن بتربة المولهين بسفح قاسيون عند الشيخ يوسف القميني، وقد توفي الشيخ يوسف قبله بمدة، وكان الشيخ يوسف يسكن قمين حمام نور الدين الشهيد بالبزوريين، وكان يجلس على النجاسات والقذر، وكان يلبس ثياباً بداوية تجحف على النجاسات في الأزقة، وكان له قبول من الناس ومحبة وطاعة، وكان العوام يغالون في محبته واعتقاده، وكان لا يصلي ولا يتقي نجاسة، ومن جاءه زائراً جلس عنده بالقمين على النجاسة، وكان العوام يذكرون له مكاشفات وكرامات، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام وأهل الهذيان كما يعتقدون ذلك في غيره من المجانين والمولهين.

ولما مات الشيخ يوسف القميني خرج خلق في جنازته خلق كثير من العوام وغيرهم، وكانت جنازته حافلة بهم، وحمل على أعناق الرجال إلى سفح قاسيون، وبين يديه غوغاء وغوش كثير وتهليل وأمور لا تجوز من فعل العوام، حتى جاؤوا به إلى تربة المولهين بقاسيون فدفنوه بها، وقد

اعتنى بعض العوام بقبره فعمل عليه حجارة منقوشة وعمل على قبره سقفاً مقرنصاً بالدهان وأنواعه، وعمل عليه مقصورة وأبوابا، وغالى فيه مغالاة زائدة، ومكث هو وجماعة مجاورون عند قبره مدة في قراءة وتهليل، ويطبخ لهم الطبيخ فيأكلون ويشربون هناك.

والمقصود أن الشيخ إبراهيم الجيعانة لما مات الشيخ يوسف القميني جاء من الشاغور إلى باب الصغير في جماعة من أتباعه، وهم في صراخ وضجة وغوش كثير، وهم يقولون: أذن لنا في دخول البلد أذن لنا في دخول البلد، يكررون ذلك، فقيل له في ذلك فقال: لي عشرون سنة ما دخلت سور دمشق، لأني كنت كلما أتيت باباً من أبوابها أجد هذا السبع رابضاً بالباب فلا أستطيع الدخول خوفا منه، فلما مات أذن لنا في الدخول، وهذا كله ترويج على الطغام والعوام من الهمج الرعاع، الذين هم أتباع كل ناعق.

وقيل إن الشيخ يوسف كان يرسل إلى الجيعانة مما يأتيه من الفتوح والله سبحانه أعلم بأحوال العباد، وإليه المنقلب والمآب، وعليه الحساب.

وقد ذكرنا أنه استشهد في وقعة حمص جماعة من الأمراء منهم الأمير عز الدين أزدمر السلحدار عن نحو من ستين سنة، وكان من خيار الأمراء وله همة عالية ينبغي أن ينال بها مكانا عاليا في الجنة.

قاضي القضاة تقي الدين أبو عبد الله

■ محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي، ولد سنة ثلاث وستمائة، وقد سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقي الدين بن الصلاح، وأم بدار الحديث مدة، ودرس بالشامية، وولي وكالة بيت المال بدمشق، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس، وولي الحكم بها، وكان مشكوراً، توفي ليلة الأحد ثالث رجب منها، ودفن بالمقطم.

وفي يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة توفي:

الملك

■ الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن الناصر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي ابن صاحب حمص، ودفن بتربتهم بقاسيون.

وفي ذي القعدة توفي:

الشيخ

■ جمال الدين الإسكندري الحاسب بدمشق، وكان له مكتب تحت منارة فيروز، وقد انتفع به خلق كثير، وكان شيخ الحساب في وقته رحمه الله.

■ (محمد بن الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق).

الشيخ علم الدين أبو الحسن محمد ابن الإمام أبي علي الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق الربعي المالكي المصري، ودفن بالقرافة، وكانت له جنازة حافلة، وقد كان فقيها مفتيا، سمع الحديث وبلغ خمسا وثمانين سنة.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي الحجة توفي الصدر الكبير شمس الدين أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم بن مكي بن خلف

■ ابن علّان، القيسي الدمشقي، مولده سنة أربع وتسعين، وكان من الرؤساء الكبار، وأهل البيوتات، وقد ولي نظر الدواوين بدمشق وغير ذلك، ثم ترك ذلك كله وأقبل على العبادة وكتابة الحديث، وكان يكتب سريعا يكتب في اليوم الواحد ثلاث كراريس وقد أسمع مسند الإمام أحمد ثلاث مرات، وحدث بصحيح مسلم وجامع الترمذي وغير ذلك، وسمع منه البرزالي والمزي وابن تيمية، ودفن من يومه بسفح قاسيون عن ست وثمانين سنة رحمهم الله جميعا.

الشيخ صفي الدين

■ أبو القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد التميمي الحنفي، شيخ الحنفية ببصرى، ومدرس الأمينية بها مدة سنين كثيرة، كان بارعاً فاضلا عالما عابداً منقطعاً عن الناس، وهو والد قاضي القضاة صدر الدين علي، وقد عمر دهرا طويلا، فإنه ولد في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وتوفي ليلة نصف شعبان من هذه السنة عن تسع وتسعين سنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله تعالى والسلطان الملك المنصور قلاوون.

وفيها أرسل ملك التتار أحمد إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم، وجاء في الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازي أحد تلامذة النصير الطوسي، فأجاب المنصور إلى ذلك وكُتبت المكاتبات إلى ملك التتر بذلك.

وفي مستهل صفر قبض السلطان على الأمير الكبير بدر الدين بيسري السعدي، وعلى الأمير علاء الدين السعدي الشمسي أيضاً.

وفيها درس القاضي بدر الدين بن جماعة بالقيمرية، والشيخ شمس الدين بن الصفي الحريري بالفرُخشاهية، وعلاء الدين بن الزملكاني بالأمينية.

وفي يوم الاثنين الحادي عشر من رمضان وقع حريق باللبادين عظيم، وحضر نائب السلطنة إذا ذاك الأمير حسام الدين لاجين السلحدار وجماعة كثيرة من الأمراء، وكانت ليلة هائلة جداً وقى الله شرها، واستدرك بعد ذلك أمرها القاضي محيي الدين بن النحاس ناظر الجامع، فأصلح الأمر وسد وأعاد البناء أحسن مما كان ولله الحمد والمنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ (برهانُ بن إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوي بن الرضي).

الشيخ الصالح بقية السلف برهان الدين أبو إسحاق ابن الشيخ صفي الدين أبي الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوي بن الرضى الحنفي إمام العزية بالكشك. وسمع من جماعة منهم الكندي بن الحرستاني ولكن لم يظهر سماعه منهما إلا بعد وفاته، وقد أجاز له أبو جعفر الصيدلاني، وعفيفة الفارقانية، وابن المنادي.

وكان رجلا صالحاً محباً لإسماع الحديث، كثير البر بالطلبة له، وقد قرأ عليه الحافظ جمال الدين المزي معجم الطبراني الكبير، وسمعه منه بقراءة الحافظ البرزالي وجماعة كثيرون.

وكان مولده في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وتوفي يوم الأحد سابع صفر، وهو اليوم الذي قدم فيه الحجاج إلى دمشق من الحجاز، وكان هو معهم فمات بعد استقراره بدمشق.

القاضي أمين الدين

■ الأشتري أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحة الحلبي المعروف بالأشتري الشافعي، المحدث، سمع الكثير وحصل ووقف أجزاء بدار الحديث الأشرفية توفي بالخانقاه الأندلسية

يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول عن ست وستين سنة وكان الشيخ محيي الدين النووي يثني عليه ويرسل إليه الصبيان ليقرؤوا عليه في بيته لأمانته عنده، وصيانته وديانته.

الشيخ برهان الدين أبو الثناء

■ محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن المراغي الشافعي، مدرس الفلكية، كان فاضلا بارعاً، عرض عليه القضاء فلم يقبل، وتوفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عن ست وسبعين سنة، وسمع الحديث وأسمعه، ودرس بعده بالفلكية القاضي بهاء الدين بن الزكي.

القاضي الإمام العلامة شيخ القراء زين الدين أبو محمد

■ عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، قاضي قضاة المالكية بدمشق، وهو أول من باشر القضاء بها، وعزل نفسه عنها تورعا، وزهادة، واستمر بلا ولاية ثمان سنين، ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء ثامن رجب منها عن ثلاث وثمانين سنة، وقد سمع الحديث واشتغل على السخاوي وابن الحاجب.

■ (محمد بن علي بن محمود بن علي الشهرزوري).

الشيخ صلاح الدين محمد ابن القاضي شمس الدين علي بن محمود بن علي الشهرزوري، مدرس القيمرية وابن مدرسها، توفي أواخر رجب، وتوفي أخوه شرف الدين بعده بشهر، ودرس بالقيمرية بعد الصلاح المذكور القاضي بدر الدين بن جماعة.

■ ابن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإربلي الشافعي أحد الأئمة الفضلاء، والسادة العلماء، والصدور الرؤساء، وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب، فاستقلُّوا بالأحكام بعدما كانوا نوابا له، وقد كان المنصب بينه وبين ابن الصائغ دولا يعزل هذا تارة ويولَّى هذا، ويعزل هذا ويولَّى هذا.

وقد درس ابن خلكان في عدة مدارس لم تجتمع لغيره، ولم يبق معه في آخر وقت سوى الأمينية، وبيد ابنه كمال الدين موسى النجيبية.

توفي ابن خلكان بالمدرسة النجيبية المذكورة بإيوانها يوم السبت آخر النهار، في السادس والعشرين من رجب، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة.

وقد كان ينظم نظما حسنا رائقا،وقد كانت محاضرته في غاية الحسن، وله التاريخ المفيد الذي رسمه بوفيات الأعيان من أبدع المصنفات، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وستمائة

فيها قدم الملك المنصور إلى دمشق في يوم الجمعة سابع رجب في أبهة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها ولي الخطابة بدمشق الشيخ عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي عوضاً عن محيي الدين بن الحرستاني الذي توفي فيها كما سيأتي، وخطب يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة.

وفي هذا اليوم قبل الصلاة احتيط على القاضي عز الدين بن الصائغ بالقلعة وأثبت ابن الحصري نائب الحنفي محضرا يتضمن أن عنده وديعة بمقدار ثمانية آلاف دينار، من جهة ابن الإسكاف، وكان الذي أثار ذلك شخص قدم من حلب يقال له تاج الدين بن السنجاري، وولي القضاء بعده بهاء الدين يوسف بن محيي الدين بن الزكي، وحكم يوم الأحد ثالث وعشرين رجب ومنع الناس من زيارة ابن الصائغ، وسعى في إثباتٌ محضر آخر أن عنده وديعة بقيمة خمسة وعشرين ألف دينار للصالح إسماعيل بن أسد الدين، وقام في ذلك ابن الشاكري والجمال بن الحموي وآخرون، وتكلموا في قضية ثالثة، ثم عقد له مجلس ناله فيه شدة شديدة، وتعصبوا عليه ثم أعيد إلى اعتقاله، وقام في صفه نائب السلطنة حسام الدين لاجين، وجماعة من الأمراء، فكلموا فيه السلطان فأطلقه وخرج إلى منزله، وجاء الناس إلى تهنئته يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان، وانتقل من العادلية إلى داره بدرب النقاشة، وكان عامة جلوسه في المسجد تجاه داره.

وفي رجب باشر حسبة دمشق جمال الدين بن صَصْرَى.

وفي شعبان درس الخطيب جمال الدين بن عبد الكافي بالغزالية عوضا عن الخطيب ابن الحرستاني، وأخذ منه الدولعية لكمال الدين بن النجار، الذي كان وكيل بيت المال، ثم أخذ شمس الدين الاربلي تدريس الغزالية من ابن عبد الكافي المذكور.

وفي آخر شعبان باشر نيابة الحكم عن ابن الزكي شرف الدين أحمد بن نعمة المقدسي أحد أئمة الفضلاء، وسادات العلماء المصنفين، ولما توفي أخوه شمس الدين محمد في شوال ولي مكانه تدريس الشامية البرانية، وأخذت منه العادلية الصغيرة، فدرس فيها القاضي نجم الدين أحمد بن صصرى التغلبي في ذي القعدة، وأخذت من شرف الدين أيضاً الرواحية فدرس فيها نجم الدين البياني نائب الحكم رحمهم الله أجمعين.

وممن توفي فيها من الأعيان

الصدر الكبير عماد الدين أبو الفضل محمد ابن القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله

■ ابن الشيرازي، صاحب الطريقة المنسوبة في الكتابة، سمع الحديث وكان من رؤساء دمشق وأعيانها توفي في صفر منها.

■ (عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة).

شيخ الجبل الشيخ العلامة شيخ الإسلام: شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي، أول من ولي قضاء الحنابلة بدمشق ثم تركه وتولاه ابنه نجم الدين، وتدريس الأشرفية بالجبل، وقد سمع الحديث الكثير، وكان من علماء الناس وأكثرهم ديانة وأمانة في عصره، مع هَدْي صالح وسمت حسن، وخشوع ووقار.

توفي ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة عن خمس وثمانين سنة، ودفن بمقبرة والده رحمهم الله.

■ ابن جَعْوان: العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عباس بن جَعْوان الأنصاري الدمشقي المحدث الفقيه الشافعي البارع في النحو واللغة.

سمعت شيخنا تقي الدين بن تيمية وشيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول كل منهما للآخر: إن هذا الرجل قرأ مسند الإمام أحمد وهما يسمعان فلم نضبط عليه لحنة متفقا عليها، وناهيك بهذين ثناء على هذا وهما هما.

الخطيب محيي الدين محمد بن الخطيب قاضي القضاة عماد الدين عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين

■ ابن الحرستاني الشافعي خطيب دمشق ومدرس الغزالية، كان فاضلا

بارعا أفتى ودرس وولي الخطابة والغزالية بعد أبيه، وحضر جنازته نائب السلطنة وخلق كثير، توفي في جمادى الآخرة عن ثمان وستين سنة، ودفن بقاسيون.

وفي خامس رجب توفي:

الأمير الكبير ملك عرب آل مِرَى:

■ أحمد بن حجّي بمدينة بصرى، وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب.

■ (عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني).

الشيخ الإمام العالم شهاب الدين: عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني، والد شيخنا العلامة العلم تقي الدين بن تيمية، مفتي الفرق، الفارق بين الفِرَق،كان له فضيلة حسنة، ولديه فوائد كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان مسكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده في السنة الآتية كما سيأتي، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

في يوم الاثنين ثاني المحرم منها درس الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين، وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين بن المرحِّل، وزين الدين بن المنجَّا الحنبلي، وكان درسا هائلاً حافلا، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون. وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وستين.

ثم جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيِّئ له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجمع الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة.

وفيها قدم السلطان إلى دمشق من مصر يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة، فجاء صاحب حماة الملك المنصور إلى خدمته فتلقاه السلطان في موكبه وأكرمه.

فلما كان ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان وقع مطر عظيم بدمشق، ورعد وبرق، وجاء سيل عظيم جداً حتى كسر اقفال باب الفراديس، وارتفع الماء ارتفاعا كثيراً، بحيث أغرق خلقاً كثيراً، واخذ جمال الجيش المصري وأثقالهم، فخرج السلطان إلى الديار المصرية بعد ثلاثة أيام، وتولى شدَّ الدواوين الأمير شمس الدين سنقر عوضا عن الدوداري علم الدين سنجر.

وفيها اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه، وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا، ونادوا بذلك في جيشهم، وتأطدت أحوالهم، ومشت أمورهم على ذلك، وبادت دولة السلطان أحمد وقامت دولة أرغون بن أبغا.

وممن توفي فيها من الاعيان

الشيخ

■ طالب الرفاعي بقصر حجاج: وله زاوية مشهورة به، وكان يزور بعض المريدين فمات.

■ (محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق).

القاضي الإمام عز الدين أبو المفاخر: محمد بن شرف الدين عبد القادر بن عفيف الدين عبد الخالق بن خليل الأنصاري الدمشقي. ولي القضاء بدمشق مرتين، عزل بابن خلكان، ثم عزل ابن خلكان ثم عُزل بابن خلكان به ثانية، ثم عزل وسجن وولي بعده بهاء الدين بن الزكي، وبقي معزولا إلى أن توفي ببستانه في تاسع ربيع الأول، وصلي عليه بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون.

وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكان مشكور السيرة، له عقل وتدبير واعتقاد كثير في الصالحين، وقد سمع الحديث وخرَّج له ابن بلبان مشيخة قرأها ابن جعوان عليه، ودرس بعده بالعذراوية الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن المرحل، وكيل بيت المال، ودرس ابنه محيي الدين احمد بالعمادية وزاوية الكلاسة من جامع دمشق، ثم توفي ابنه أحمد هذا بعده في يوم الأربعاء ثامن رجب، فدرس بالعمادية والدماغية الشيخ زين الدين بن الفارقي شيخ دار الحديث نيابة عن أولاد القاضي عز الدين بن الصائغ بدر الدين وعلاء الدين.

وفيها توفي:

الملك

■ السعيد فتح الدين: عبد الملك ابن الملك الصالح أبي الحسن إسماعيل ابن الملك العادل، وهو والد الملك الكامل ناصر الدين محمد، في ليلة الاثنين ثالث رمضان، ودفن من الغد بتربة أم الصالح، وكان من خيار الأمراء محترما كبيراً رئيساً، روى الموطأ عن يحيى بن بكير عن مكرم بن أبي الصقر، وسمع ابن التّي وغيره.

القاضي نجم الدين

■ عمر بن نصر بن منصور: البيساني الشافعي، توفي في شوال منها، وكان فاضلا، ولي قضاء زرع ثم قضاء حلب، ثم ناب في دمشق ودرس بالرواحية وباشرها بعده شمس الدين عبد الرحمن بن نوح المقدسي، يوم عاشر شوال.

وفي هذا اليوم توفي بحماة ملكها:

الملك

■ المنصور ناصر الدين: محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه، بن أيوب، ولد سنة ثنتين وثلاثين وستمائة، وتملك حماة سنة ثنتين وأربعين، وله عشر سنين، فمكث في الملك أزيد من أربعين سنة، وكان له بر وصدقات، وقد أعتق في بعض موته خلقا من الأرقّاء، وقام في الملك بعده ولده الملك المظفر بتقليد الملك المنصور له بذلك.

القاضي جمال الدين أبو يعقوب:

■ يوسف بن عبد الله بن عمر الزَّواوي، قاضي قضاة المالكية، ومدرسهم بعد القاضي زين الدين الزواوي الذي عزل نفسه، وقد كان ينوب عنه فاستقل بعده بالحكم، توفي في الخامس من ذي القعدة وهو في طريق الحجاز، وكان عالما فاضلا قليل التكليف والتكلف، وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين ودرس بعده للمالكية الشيخ جمال الدين

الشريشي، وبعده أبو إسحاق اللُّوري، وبعده بدر الدين أبو بكـر التونسـي، ثم لما وصل القاضي جمال الدين بن سليمان حاكماً درس بـالمدارس واللّـه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة

في أواخر المحرم قدم الملك المنصور إلى دمشق ومعه الجيوش وجاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المظفر بن المنصور فتلقاه بجميع الجيوش، وخلع عليه خلعة الملوك، ثـم سافر السلطان بالعساكر المصرية والشامية فنزل المرقب ففتحه اللّه عليهم في يوم الجمعة ثامن عشر صفر، وجاءت البشـارة بذلك إلى دمشق فدقت البشائر وزينت البلد وفـرح المسلمون بذلـك، لأن هذا الحصن كان مضرة على المسلمين، ولم يتفق فتحه لأحد من ملوك الإسلام لا للملك صلاح الدين، ولا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، وفتح حوله بُلُنياس ومَرَقِيَّة وهي بلدة صغيرة إلى جانب البحر عند حصن منيع جداً لا يصل إليه سهم ولا حجر منجنيق، فأرسل إلى صاحب طرابلس فهدمه تقرباً إلى السلطان الملك المنصور، واستنقذ المنصور خلقاً كثيراً من أسارى المسلمين، الذين كانوا عند الفرنج، وللّه الحمـد. ثـم عاد المنصور إلى دمشق، ثم سافر بالعساكر المصرية إلى القاهرة.

وفي أواخر جمادى الآخرة ولد للمنصور ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وفيها عزل محيي الدين بن النحاس عن نظر الجامع ووليه عز الدين بن محيي الدين بن الزكي، وباشر ابن النحاس الوزارة عوضاً عن التقي توبة التكريتي، وطلب التقي توبة إلى الديار المصرية وأحيط على أمواله وأملاكه.

وعُزل سيف الدين طوغان عن ولاية المدينة، وباشرها عـز الدين بـن أبي الهيجاء.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ عز الدين

■ محمد بن علي بن إبراهيم بن شـداد، تـوفي في صفر، وكـان فـاضلا مشهوراً، له كتاب «سيرة الملك الظاهر»، وكان معتنيا بالتاريخ.

■ البندقدار: أستاذ الملك الظـاهر بيبرس، وهـو الأمير الكبير عـلاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي، كان من خيار الأمراء سامحه اللّه.

توفي في ربيع الآخر منها، وقد كان الصالح نجم الدين صادر البندقـدار هذا، وأخذ منه مملوكه بيبرس فأضافه إليه لشـهامته ونهضتـه، فتقـدم عنـده على أستاذه وغيره.

الشيخ الصالح العابد الزاهد: شرف الدين أبو عبد اللّه

■ محمد بن الحسن بن إسماعيل الإخميمي، كانت له جنازة هائلة، ودفن بقاسيون رحمه اللّه.

■ ابن عامر المقرىء: الذي ينسب إليه الميعاد الكبير، الشيخ الصـالح المقرىء شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بـن عـامر بـن أبي بكـر الغسـولي الحنبلي، سمع الحديث من الشيخ موفـق الديـن بـن قدامة وغيره، وكـان يعمل الميعاد ليلة الأحد، فإذا فرغوا من ذلك دعا بهم ثم وعظهم توفي يوم الأربعاء حادي عشر جمادى الآخرة ودفن بالقرب من تربة الشيخ عبد اللّـه الأرمني.

القاضي عماد الدين:

■ داود بن يحيى بن كامل القرشي البصروي الحنفـي، مـدرس العزية بالكشك، وناب في الحكم عن مجد الدين بن العديم، وسمع الحديث وتوفي ليلة النصف من شعبان، وهو والـد الشيخ نجـم الديـن القحفـازي، شـيخ الحنفية، وخطيب جامع تنكز.

الشيخ

■ حسن الرومي: شيخ سعيد السعداء بالقاهرة وقد وليها بعده شمس الدين الأيكي.

الرشيد

■ سعيد بن علي بن سعيد. الشيخ رشيد الدين الحنفي مدرس الشبلية، وله تصانيف مفيدة كثيرة، ونظم حسن فمن ذلك قوله:

قـل لمـن يحـذر أن تدركـه ... نكبـات الدهـر لا يغـني الحـذر
اذهـب الحـزن اعتقـادي أنـه ... كـل شـيء بقضـاء وقـدر

ومن شعره قوله:

إلهي لـك الحمد الـذي أنـت أهلـه ... علـى نعـم منهـا الهدايـة للحمـد
صحيحا خلقـت الجسـم مني مسـلّماً ... ولطفك بي ما زال مذ كنـت في المهد
وكنت يتيمـا قـد أحـاط بـي الـردى ... فآويت واستنقذت من كـل مـا يُردي
وهبـت لي العقـل الـذي بضيائـه ... إلى كـل خيـر يهتـدي طـالب الرُّشـدِ
ووفّقـت للإسـلام قلـبي ومنطقـي ... فيـا نعمـة قـد حـل موقعهـا عنـدي
ولو رمت جهدي أن أجـازي فضيلـةً ... فضلتَ بهـا لم يجـز أطرافهـا جـِدِّي
السـت الـذي أرجـو جنابك عندمـا ... يخلفـني الأهلـون وحـدي في لحـدي
فجد لي بلطف منـك يهـدي سـريرتي ... وقلـبي ويدنيـني إليـك مـن البُعـدِ

توفي يوم السـبت ثـالث رمضـان، وصلـي عليـه بعـد العصـر بالجـامع المظفري، ودفن بالسفح.

أبو القاسم

■ علي بن بلبان بن عبد اللّه: الناصري المحدث المفيد الماهر، تـوفي يـوم الخميس مستهل رمضان.

الأمير مجير الدين:

■ محمـد بـن يعقـوب بـن علـي المعـروف بـابن تميم الحموي الشاعر، صاحب الديوان في الشعر، فمن شعره قوله:

عـاينت وردَ الـروض يلطـمُ خـدهُ ... ويقـولُ قـولا في البنفسـج يحنـقُ
لا تقربـوهُ وإنْ تضـوعَ نشـرهُ ... مـا بينكـم فهـو العـدوُ الأزرقُ

■ (محمد بن عثمان بن علي الرومي).

الشيخ العارف شرف الدين: أبو عبد اللّه محمد ابن الشـيخ عثمـان بـن علي الرومي، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، ومن عندهم خرج الشيخ جمال الديـن محمـد السـاوجي وحلـق ودخـل في ذي الجوالقيـة وصـار شـيخهم ومقدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم أبو العباس أحمد، والسلطان الملك المنصـور قلاوون، ونائبه بالشام الأمير حسـام الديـن لاجـين السـلحدار المنصـوري،

والأمير بدر الدين الصوابي محاصر مدينة الكرك في أواخر السنة الماضية، وقدم عليه من مصر عسكر صحبة الأمير حسام الدين طُرُنطاي، فاجتمعوا على حصار الكرك حتى أنزلوا منها صاحبها الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر، في مستهل صفر، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق، فدقت البشائر ثلاثة أيام، وعاد طُرُنطاي بالملك خضر وأهل بيته إلى الديار المصرية كما فعل الملك الظاهر أبوه بالملك المغيث عمر بن العادل،كما تقدم ذلك.

واستناب في الكرك نائبا عن أمر المنصور، ورتب أمورها وأجلوا منها خلقا من الكركيين، واستخدموا بقلعة دمشق.

ولما اقترب دخول آل الظاهر إلى القاهرة تلقاهم المنصور فأكرم لقياهم وأحسن إلى الأخوين نجم الدين خضر، وبدر الدين سلامش، وجعلهما يركبان مع ابنيه علي والأشرف خليل، وجعل عليهما عيونا يرصدون ما يفعلان، وأنزلا الدور بالقلعة وأجرى عليهم من الرواتب والنفقات ما يكفيهم وزيادة كثيرة.

وكتب الأمير بدر الدين بكتوت العلائي وهو مجرد بحمص إلى نائب دمشق لاجين، أنه قد انعقدت زوبعة في يوم الخميس سابع صفر بأرض حمص ثم ارتفعت في السماء كهيئة العمود والحية العظيمة، وجعلت تختطف الحجارة الكبار، ثم تصعد بها في الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئا كثيرا من الجمال بأحمالها، والأثاث والخيام والدواب، ففقد الناس من ذلك شيئا كثيراً، من الرجال والأمتعة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذا اليوم وقع مطر عظيم في دمشق وجاء سيل كثير ولا سيما بالصالحية.

وفيها أعيد علم الدين الدواداري إلى شدّ الدواوين بدمشق، والصاحب تقي الدين بن توبة إلى الوزارة بدمشق.

وفيها تولى قضاء المالكية بمصر زين الدين بن أبي مخلوف النميري عوضاً عن القاضي تقي الدين بن شاس الذي توفي بها.

وفيها درس بالغزالية بدر الدين بن جماعة انتزعها من يد شمس الدين إمام الكلاسة، الذي كان ينوب عن شمس الدين الأيكي، والأيكي شيخ سعيد السعداء، باشرها شهراً ثم جاء مرسوم بإعادتها إلى الأيكي، وأنه قد استناب عنه جمال الدين الباجربقي، فباشرها الباجربقي في ثالث رجب.

وممن توفي فيها من الأعيان

أحمد بن شيبان بن تغلب الشيباني أحد مشايخ الحديث المسندين المعمرين بدمشق، توفي في صفر عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بقاسيون.

الشيخ الإمام العالم البارع: الشيخ جمال الدين أبو بكر

■ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سَحْمَان البكري الشريشي المالكي، ولد بشريش سنة إحدى وستمائة، ورحل إلى العراق فسمع بها الحديث من المشايخ القطيعي وابن زوربة وابن اللّتي وغيرهم، واشتغل وحصل وساد أهل زمانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم أقام بالقدس شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق فولي مشيخة الحديث بتربة أم الصالح، ومشيخة الرباط الناصري بالسفح، ومشيخة المالكية، وعرض عليه القضاء فلم يقبل.

توفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصري بقاسيون، ودفن بسفح قاسيون تجاه الناصرية وكانت جنازته حافلة جداً.

■ (ابن الزكي).

قاضي القضاة: يوسف ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن الوليد بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان، القرشي الدمشقي المعروف بابن الزكي الشافعي، كان فاضلا مبرزاً، وهو آخر من ولي القضاء من بني الزكي إلى يومنا هذا.

ولد في سنة أربعين وسمع الحديث، توفي ليلة الاثنين حادي عشر ذي الحجة، ودفن بقاسيون، وتولّى بعده ابن الخويِّي شهاب الدين.

الشيخ مجد الدين:

■ يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الله المصري ثم الدمشقي الشافعي الكاتب المعروف بابن المهتار، كان فاضلا في الحديث والأدب، يكتب كتابة حسنة جداً، وتولّى مشيخة دار الحديث النورية، وقد سمع الكثير وانتفع الناس به وبكتابته، توفي عاشر ذي الحجة ودفن بباب الفراديس.

الشاعر الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله

■ محمد بن عبد المنعم بن محمد المعروف بابن الخيمي، كانت له مشاركة في علوم كثيرة، ويد طولى في النظم الرائق الفائق، جاوز الثمانين وقد تنازع هو ونجم الدين بن إسرائيل في قصيدة بائية، فتحاكما إلى ابن الفارض فأمرهما بنظم أبيات على وزنها فنظم كل منهما فأحسن، ولكن لابن الخيمي يد طولى عليه، وكذلك فعل ابن خلكان، وامتدحه على وزنها بأبيات حسان، وقد أطال ترجمته الجزري في كتابه.

وفيها كانت وفاة:

الحاج

■ شرف الدين بن مِرّى، والد الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله.

■ يعقوب بن عبد الحق: أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بظاهر مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة، واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها.

■ البيضاوي صاحب التصانيف: هو القاضي الإمام العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحي، مات بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة.

ومن مصنفاته المنهاج في أصول الفقه، وهو مشهور، وقد شرحه غير واحد، وله شرح التنبيه في أربع مجلدات، وله الغاية القصوى في دراية الفتوى، وشرح المنتخب والكافية في المنطق، وله الطوالع وشرح المحصول أيضاً، وله غير ذلك من التصانيف المفيدة، وقد أوصى إلى القطب الشيرازي أن يدفن بجانبه بتبريز والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة

في أول المحرم ركبت العساكر صحبة نائب الشام حسام الدين لاجين إلى محاصرة صهيون وحصن برزيه، فمانعهم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر، فلم يزالوا به حتى استنزلوه وسلمهم البلاد، وسار إلى خدمة السلطان الملك المنصور، فتلقاه بالإكرام والاحترام، وأعطاه تقدمة ألف فارس، ولم يزل معظماً في الدولة المنصورية إلى آخرها، وانقضت تلك الأحوال.

وفي النصف من المحرم حكم القاضي جلال الدين الحنفي نيابة عن أبيه حسام الدين الرازي.

وفي الثالث عشر من ربيع الأول قدم القاضي شهاب الدين محمد ابن القاضي شمس الدين بن الخليل الخويِّي من القاهرة على قضاء قضاة دمشق، وقرئ تقليده يوم الجمعة مستهل ربيع الآخر، واستمر بنيابة شرف الدين المقدسي.

وفي يوم الأحد ثالث شوال درس بالرواحية الشيخ صفي الدين الهندي، وحضر عنده القضاة والشيخ تاج الدين الفزاري، وعلم الدين الدواداري، وتولى قضاء قضاة القاهرة تقي الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز، عوضا عن برهان الدين الخضر السنجاري، وقد كان وليها شهراً بعد ابن الخويِّي فاجتمع حينئذ إلى ابن بنت الأعز بين القضاء كله بالديار المصرية، وذلك في أوائل صفر منها.

وفيها استدعي سيف الدين السامري من دمشق إلى الديار المصرية ليشترى منه ربع حَرْزمة الذي اشتراه من بنت الملك الأشرف موسى، فذكر لهم أنه وقفه، وكان المتكلم في ذلك علم الدين الشجاعي، وكان ظالماً، وكان قد استنابه الملك المنصور بديار مصر، وجعل يتقرب إليه بتحصيل الأموال، ففتق لهم ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسي أن السامري اشترى هذا من بنت الأشرف، وهي غير رشيدة، وأثبت سفهها عليّ زين الدين بن مخلوف الجائر الجاهل، وأبطل البيع من أصله، واسترجع على السامري بمغل مدة عشرين سنة مائتي ألف درهم، وأخذوا منه حصة من الزنبقية قيمتها سبعون ألفاً وعشرة آلاف مكملة وتركوه فقيراً على برد الديار، ثم أثبتوا رشدها واشتروا منها تلك الحصص بما أرادوه، ثم أرادوا أن يستدعوا بالدماشقة واحداً بعد واحد، ويصادرونهم، وذلك أنه بلغهم أن من ظلم بالشام لا يفلح وأن من ظلم بمصر أفلح وطالت مدته، وكانوا يطلبونهم إلى مصر أرض الفراعنة والظلم، فيفعلون معهم ما أرادوا.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (القسطلاني).

الشيخ الإمام العلامة: قطب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن احمد الميموني القيسي التَّوْزَرِيّ المصري، ثم المكي الشافعي المعروف بالقسطلاني، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة.

ولد سنة أربع عشرة وستمائة، ورحل إلى بغداد فسمع الكثير وحصل علوماً، وكان يفتي على مذهب الشافعي، وأقام بمكة مدة طويلة ثم صار إلى مصر فولي مشيخة دار الحديث، وكان حسن الأخلاق محبباً إلى الناس.

توفي في آخر المحرم ودفن بالقرافة الكبرى، وله شعر حسن أورد منه ابن الجزري قطعة صالحة.

عماد الدين:

■ محمد بن العباس الدنيسري الطبيب الماهر، والحاذق الشاعر، خدم الأكابر والوزراء وعمر ثمانين سنة وتوفي في صفر من هذه السنة بلمشق.

قاضي القضاة: برهان الدين

■ الخضر بن الحسن بن علي السنجاري تولى الحكم بديار مصر غير مرة، وولي الوزارة أيضاً، وكان رئيساً وقوراً مهيباً، وقد باشر القضاء بعده تقي الدين ابن بنت الأعز.

شرف الدين سليمان بن بَنْيمان: الشاعر المشهور، له ديوان. مات في صفر منها.

الشيخ الصالح عز الدين:

■ عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصيقل الحراني، ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وسمع الكثير، ثم استوطن مصر حتى توفي بها رابع عشر رجب، وقد جاوز التسعين.

وقد سمع منه الحافظ علم الدين البرزالي لما رحل إلى مصر في سنة أربع وثمانين، وحكي عنه أنه شهد جنازة في بغداد فتبعهم نباش، فلما كان الليل جاء إلى ذلك القبر ففتح عن الميت، وكان الميت شابا قد أصابته سكتة، فلما فتح القبر نهض ذلك الشاب الميت جالسا فسقط النباش ميتا في القبر، وخرج الشاب من قبره إلى أهله.

وحكى له قال: كنت مرة بقليوب وبين يدي صبرة قمح، فجاء زنبور فأخذ واحدة ثم ذهب بها، ثم جاء فأخذ أخرى ثم ذهب بها، ثم جاء فأخذ أخرى أربع مرات، قال: فاتبعته فإذا هو يضع الحبة في فم عصفور أعمى بين تلك الأشجار التي هناك.

قال: وحكى لي الشيخ عبد الكافي أنه شهد مرة جنازة فإذا عبد أسود معنا، فلما صلى الناس عليها لم يصل، فلما حضرنا الدفن نظر إليّ وقال: أنا عمله، ثم ألقى نفسه في قبر ذلك الميت، قال: فنظرت فلم أر شيئا.

الحافظ أبو اليمن: أمين الدين

■ عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقي ترك الرياسة والأملاك، وجاور بمكة ثلاثين سنة، مقبلا على العبادة والزهادة، وقد حصل له قبول من الناس شاميهم ومصريهم وغيرهم، توفي بالمدينة النبوية في ثاني رجب منها.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة

فيها قدم الشجاعي من مصر إلى الشام بنية المصادرة لأرباب الأموال من أهل الشام.

وفي أواخر ربيع الآخر قدم الشيخ ناصر الدين عبد الرحمن المقدسي من القاهرة، على وكالة بيت المال ونظر الأوقاف، ونظر الخاص، ومعه تقاليد وخلع فتردد الناس إلى بابه وتكلم في الأمور وآذى الناس، وكانت ولايته بسفارة الأمير علم الدين الشجاعي المتكلم في الديار المصرية، توسل إليه بالشيخ شمس الدين الأيكي وبابن الوجيه الكاتب، وكانا عنده لهما صورة.

وقد طلب جماعة من أعيان الدماشقة في أول هذه السنة إلى الديار المصرية فطولبوا بأموال كثيرة، فدافع بعضهم بعضاً، وهذا مما يخفف عقوبته من ظلمهم، وإلا فلو صبروا لعوجل الظالم بالعقوبة، ولزال عنهم ما يكرهون سريعا.

ولما قدم ابن المقدسي إلى دمشق كان يحكم بتربة أم الصالح، والناس يترددون إليه ويخافون شره، وقد استجد باشورة بباب الفراديس ومساطب باب الساعات للشهود، وجدد باب الجابية الشمالي ورفعه، وكان متواطئاً، وأصلح الجسر الذي تحته، وكذلك أصلح جسر باب الفراديس تحت السويقة التي جددها عليه من الجانبين.

وهذا من أحسن ما عمله ابن المقدسي، وقد كان مع ذلك كثير الأذية للناس ظلوما غشوما، ويفتح على الناس أبواباً من الظلم لا حاجة إليها.

وفي عاشر جمادى الأولى قدم من الديار المصرية أيضاً قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، والصاحب تقي الدين توبة التكريتي، وقاضي القضاة جمال الدين محمد بن سليمان الزواوي المالكي على قضاء المالكية بعد شغوره عن حاكم بدمشق ثلاث سنين ونصف، فأقام شعار المنصب ودرس ونشر المذهب وكان له سؤدد ورياسة.

وفي ليلة الجمعة رابع شعبان توفي الملك الصالح علاء الدين ابن الملك المنصور قلاوون بالدوسنطارية فوجد عليه أبوه وجداً شديداً، وقد كان عهد إليه بالأمر من بعده وخطب له على المنابر من مدة سنين، فدفنه في تربته وجعل ولاية العهد من بعده إلى ابنه الأشرف خليل وكتب بذلك إلى الآفاق، ولما جاءت البريدية في شوال بولاية الأشرف خليل، من بعد أبيه، وخطب له معه على المنابر من بعد ذكر أبيه يوم الجمعة، ودقت البشائر وزين البلد سبعة أيام، ولبس الجيش الخلع وركبوا، وأظهر الناس سروراً لشهامته، مع ما في قلوبهم على أبيه لأجل ظلم الشجاعي.

وفي رمضان باشر حسبة دمشق شمس الدين بن السلعوس، عوضا عن شرف الدين بن الشيرجي.

وفيه توجه الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى خطابة القدس بعد موت خطيبه قطب الدين، فباشر بعده تدريس القيمرية علاء الدين أحمد ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز أخو قاضي مصر، ثم بعد ثلاث سنين أخذ ابن جماعة قضاء الديار المصرية عوضاً عن ابن بنت الأعز.

وفي شهر رمضان كبس نصراني وعنده مسلمة وهما يشربان الخمر في نهار رمضان، فأمر نائب السلطنة حسام الدين لاجين بتحريق النصراني فبذل في نفسه أموالا جزيلة فلم يقبل منه، وأحرق بسوق الخيل، وعمل الشهاب محمود في ذلك أبياتا في قصيدة مليحة، وأما المرأة فجلدت الحد.

وممن توفي فيها من الأعيان

الخطيب الإمام قطب الدين أبو الزكاء

■ **عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر بن عبد الله بن محمد بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، القرشي، الزهري**، خطيب بيت المقدس أربعين سنة، وكان من الصلحاء الكبار محبوبا عند الناس، حسن الهيئة مهيبا عزيز النفس، يفتي الناس ويذكر التفسير من حفظه في المحراب بعد صلاة الصبح، وقد سمع الكثير وكان من الأخيار، ولد سنة ثلاث وستمائة، وتوفي ليلة الثلاثاء سابع رمضان عن أربع وثمانين سنة.

الشيخ الصالح العابد

■ **إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري: تقي الدين أبو** إسحاق، أصله من قلعة جعبر، ثم أقام بالقاهرة، وكان يعظ الناس وكان الناس ينتفعون بكلامه كثيرا: توفي بالقاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم، ودفن في تربته بالحسينية، وله نظم حسن، وكان من الصلحاء المشهورين رحمه الله تعالى.

الشيخ الصالح

■ **ياسين بن عبد الله المقريء الحجام**: شيخ الشيوخ محيي الدين النواوي، وقد حج عشرين حجة، وكانت له أحوال وكرامات.

■ **الخونده غازية خاتون بنت الملك المنصور قلاوون**: زوجة الملك السعيد.

الحكيم الرئيس علاء الدين

■ **ابن أبي الحزم بن نفيس**: شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد وكان يكتب من حفظه، وكان اشتغاله على ابن الدخواري، وتوفي بمصر في ذي القعدة.

■ **محمد بن جمال الدين بن مالك النحوي.**

الشيخ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ جمال الدين بن مالك النحوي، شارح الألفية التي عملها أبوه، وهو من أحسن الشروح وأكثرها فوائد، وكان لطيفا ظريفاً فاضلا، توفي في يوم الأحد الثامن من المحرم، ودفن من الغد بباب الصغير. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

فيها كان فتح مدينة طرابلس: وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية في صحبته إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من صفر، ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة، منهم القاضي نجم الدين الحنبلي، قاضي الحنابلة، وخلق من المقادسة وغيرهم، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديداً، وضيقوا على أهلها تضيقا عظيما، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا.

فلما كان يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخرة فتحت طرابلس في الساعة الرابعة من النهار عنوة، وشمل القتل والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهل الميناء ونُهبت الأموال وسبيت النساء والأطفال، وأخذت الذخائر والحواصل، وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ كان الملك صنجيل الفرنج حاصرها سبع سنين حتى ظفر بها كما ذكرنا، وقد كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية، فقد فتحها سفيان بن مجيب لمعاوية، فأسكنها معاوية اليهود، ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصنها وأسكنها المسلمين، وصارت آمنة عامرة مطمئنة، وبها ثمار الشام ومصر، فإن بها الجوز والموز والثلج والقصب، والمياه جارية فيها تصعد إلى أماكن عالية، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة، ثم صارت بلداً واحداً، ثم حولت من موضعها كما سيأتي الآن. ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر وزينت البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة.

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها، وأن يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، ففعل ذلك، فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس، التي جعلها الله تعالى دار أمان وإيمان.

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً، فدخلها يوم النصف من جمادى الآخرة، ولكنه فوض الأمور والكلام في الأموال إلى علم الدين الشجاعي، فصادر جماعة وجمع أموالا كثيرة، وحصل بسبب ذلك أذى الخلق، وبئس هذا الصنيع فإن ذلك تعجيل لدمار الظالم وهلاكه، فلم يغن عن المنصور ما جمع له الشجاعي من الأموال شيئا، فإنه لم يعش بعد ذلك إلا اليسير حتى أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة، كما سيأتي.

ثم سافر السلطان في ثاني شعبان بجيشه إلى الديار المصرية، فدخلها في أواخر شعبان.

وفيها فتحت قلاع كثيرة بناحية حلب: كركر، وتلك النواحي، وكسرت طائفة من التتر هناك وقتل ملكهم خربندا نائب التتر على ملطية.

وفيها تولى الحسبة بدمشق جمال الدين يوسف بن التقي توبة التكريتي ثم أخذها بعد شهور تاج الدين الشيرازي.

وفيها وضع منبر عند محراب الصحابة بسبب عمارة كانت في المقصورة، فصلى برهان الدين الإسكندري نائب الخطيب بالناس هناك مدة شهر، الجماعات والجمعات، ابتدؤوا ذلك من يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخة

■ فاطمة بنت الشيخ إبراهيم بنت الرعيني: زوجة النجم بن إسرائيل، كانت من بيت الفقر، لها سلطنة وإقدام وترجمة وكلام في طريقة الحريرية وغيرهم، وحضر جنازتها خلق كثير، ودفنت عند الشيخ رسلان.

العَلَم ابن الصاحب: الشيخ الماجن هو الشيخ الفاضل علم الدين

■ أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر، كان من بيت علم ورياسة، وقد درس في بعض المدارس، وكانت له وجاهة ورياسة، ثم ترك ذلك كله وأقبل على الحرفشة وصحبة الحرافيش والتشبه بهم في اللباس والطريقة، وأكل الحشيش واستعمل ما كان من إلفهم في الخلاعة والمجون والزوائد الرائقة الفائقة التي لا يلحق في كثير منها، وقد كان له أولاد فضلاء ينهونه عن ذلك فلم يلتفت إليهم، ولم يزل ذلك دأبه حتى توفي ليلة الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول.

ولما ولي القضاة الأربعة كان ابن خالته تاج الدين ابن بنت الأعز مستقلا في القضاء قبل ذلك، فقال له ابن الصاحب المذكور: ما مت حتى رأيتك صاحب ربع، فقال له: تسكت وإلا خليتهم يسقونك السم، فقال له: في قلة دينك تفعل، وفي قلة عقولهم يسمعون منك، وقال يمدح الحشيشة الخسيسة:

في خمار الحشيش معنى مرامي ... يا أهيل العقول والأفهام
حرموها عن غير عقل ونقل ... وحرام تحريم غير الحرام

وله أيضاً:

يا نفس ميلي إلى التصابي ... فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملي من سكر يوم ... إن أعوز الخمر فالحشيش

وله أيضاً:

جمعت بين الحشيش والخمر ... فرحت لا أهتدي من السكر
يا من يريني لباب مدرستي ... يربح والله غاية الأجر

وقال يهجو الصاحب بهاء الدين بن الحنا:

اقعدْ بها وتهنا ... لا بدَّ أن تتعنى
تكتبُ على ابن محمد ... من أين لك يا بن حنا

فاستدعاه فضربه ثم أمر به إلى المارستان فمكث فيه سنة ثم أطلق.

شمس الدين الأصبهاني: شارح المحصول:

■ محمد بن محمود بن محمد بن عباد السلماني العلامة، قدم دمشق بعد الخمسين وستمائة، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله، وسمع الحديث وشرح المحصول للرازي، وصنف القواعد في أربعة فنون أصول الفقه، وأصول الدين، والمنطق، والخلاف. وله معرفة جيدة في المنطق والنحو والأدب، وقد رحل إلى مصر فدرس بمشهد الحسين والشافعي وغيرهما، ورحل إليه الطلبة، توفي في العشرين من رجب في القاهرة عن ثنتين وسبعين سنة.

■ (محمد بن سليمان بن علي التلمساني).

الشمس محمد بن العفيف: سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني، الشاعر المطبق، كانت وفاته في حياة أبيه فتألم له ووجد عليه وجدا شديداً، ورثاه بأشعار كثيرة، توفي يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب، وصلي عليه بالجامع، ودفن بالصوفية فمن رائق شعره قوله:

وإن ثناياه نجوم لبدره ... وهن لعقد الحسن فيه فرائد
وكم يتجافى خصره وهو ناحل ... وكم يتحلى ثغره وهو بارد

وله يذم الحشيشة:

ما للحشيشة فضل عند آكلها ... لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء في وجهه خضراء في فمه ... حمراء في عينه سوداء في كبده

ومن شعره أيضاً:

بدا وجهه من فوق ذابل خده ... وقد لاح من سود الذوائب في جنح
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجى ... وقد طلعت شمس النهار على رمح

وله في جملة أبيات:

ما أنت عندي والقضيـ ... ـب اللدن في حد سوى
هذاك حركه الهواء ... وأنت حركت الهوى

الملك

■ المنصور شهاب الدين: محمود ابن الملك الصالح إسماعيل بن العادل، توفي يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب، وصلي عليه بالجامع، ودفن من يومه بتربة جده، وكان ناظرها، وقد سمع الحديث الكثير، وكان يحب أهله، وكان فيه لطف وتواضع.

الشيخ فخر الدين أبو محمد:

■ عبد الرحمن بن يوسف البعلبكي الحنبلي، شيخ دار الحديث النورية ومشهد ابن عروة، وشيخ الصدرية، كان يفتي ويفيد الناس مع ديانة وصلاح وزهادة وعبادة، ولد سنة إحدى عشرة وستمائة، وتوفي في رجب منها.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك المنصور قلاوون، وكان الخليفة الحاكم العباسي، ونائب مصر حسام الدين طُرُنطاي، ونائب الشام حسام الدين لاجين، وقضاة الشام شهاب الدين بن الخُوَيِّي الشافعي، وحسام الدين الحنفي، ونجم الدين بن شيخ الجبل الحنبلي، وجمال الدين الزواوي المالكي، وجاء البريد بطلب شمس الدين سنقر الأعسر إلى الديار المصرية، فأكرمه السلطان وقواه وشد يده وأمره باستخلاص الأموال، وزاده شدَّ الجيوش، والكلام على الحصون إلى البيرة وكختا وغير ذلك، فقويت نفسه وزاد تجبره ولكن كان يرجع إلى مروءة وستر وينفع من ينتمي إليه، وذلك مودة

في الدنيا في أيام قلائل.

وفي جمادى الآخرة جاء البريد بالكشف على ناصر الدين المقدسي وكيل بيت المال، وناظر الخاص والأوقاف، فظهرت عليه مخاز من أكل الأوقاف وغيرها، فرسم عليه بالعذراوية وطولب بتلك الأموال وضيق عليه، وعمل فيه سيف الدين أبو العباس السامري قصيدة يتشفى فيها لما كان أسدى إليه من الظلم والإيذاء، مع أنه راح إليه وتغمم له وتمازحا هنالك، ثم جاء البريد بطلبه إلى الديار المصرية فخاف النواب من ذهابه إليها وفضوله وشره فأصبح يوم الجمعة ثالث شعبان وهو مشنوق بالمدرسة العذراوية، فطلبت القضاة والشهود فشاهدوه كذلك، ثم جهز وصلي عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر الصوفية عند أبيه، وكان مدرساً بالرواحية وتربة أم الصالح، مع الوكالتين والنظر.

وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا فركب الأعسر إلى أراضي بعلبك لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها بدمشق، وهي تصلح لذلك، فكثرت الجنايات والجبايات والسُّخر، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً، وأخذوا أخشاب الناس، وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الملك المنصور قلاوون

بينما الناس في هذا الهم والمصادرات وأمثال ذلك إذ وردت بريدية فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت سادس ذي القعدة من هذه السنة، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلا وجلس بعده ولده الملك الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في أبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل، وعلى الأمراء والمقدمين الخلع، وعلى القضاة والأعيان، ولما جاءت الأخبار بذلك حلف له الأمراء بالشام، وقبض على حسام الدين طرنطاي نائب أبيه وأخذ منه أموالا جزيلة أنفق منها على العساكر.

وفيها ولي خطابة دمشق زين الدين عمر بن مكي بن المرحل عوضاً عن جمال الدين بن عبد الكافي وكان ذلك بمساعدة الأعسر.

وتولى نظر الجامع الرئيس وجيه الدين بن المنجي الحنبلي، عوضا عن ناصر الدين بن المقدسي، وثمر وقفه وعمره وزاد مائة وخمسين ألفا.

وفيها احترقت دار صاحب حماة، وذلك أنه وقع فيها نار في غيبته فلم يتجاسر أحد يدخلها، فعملت النار فيها يومين فاحترقت واحترق كل ما فيها.

وفي شوال درّس بتربة أم الصالح بعد ابن المقدسي القاضي إمام الدين القونوي.

وفيها باشر الشرف حسن بن أحمد ابن الشيخ أبي عمر قضاء الحنابلة عوضا عن ابن عمه نجم الدين ابن شيخ الجبل، عن مرسوم الملك المنصور قبل موته.

وحج بالناس في هذه السنة من الشام الأمير بدر الدين بكتوت الزوباسي، وحج قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويّي، وشمس الدين بن السلعوس ومقدم الركب الأمير عتبة، فتوهم منه أبو نمي، وكان بينهما عداوة، فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من دخولها فأحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الأماكن، وجرت خطوب فظيعة، ثم أرسلوا القاضي ابن الخويّي ليصلح بين الفريقين، ولما استقر عند أبي نمي رحل الركوب وبقي هو في الحرم وحده وأرسل معه أبو نمي من ألحقه بهم سالما معظماً وجاء الخبر بموت المنصور إلى الناس وهم بعرفات وهذا شيء عجيب.

وجاء كتاب يستحث الوزير ابن السلعوس في المسير إلى الديار المصرية، وبين الأسطر بخط الملك الأشرف: يا شقير يا وجه الخير احضر لتستلم الوزارة فساق إلى القاهرة فوصلها يوم الثلاثاء عاشر المحرم، فتسلم الوزارة. كما قال السلطان.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان الملك المنصور

■ **قلاوون بن عبد الله التركي الصالحي الألفي**، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، بألف دينار، وكان من أكابر الأمراء عنده وبعده، ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بابنته غازية خاتون، عظم شأنه جداً عند الظاهر، وما زال يترفع في الدولة حتى صار أتابك سلامش بن الظاهر، ثم رفعه من البين واستقل بالملك في سنة ثمان وسبعين وكسر التتار على حمص في سنة ثمانين فأحبه الناس وفتح المرقبَّة في سنة أربع وثمانين، وفتح طرابلس سنة ثمان وثمانين، وعزم على فتح عكا وبرز إليها فعاجلته المنية في السادس والعشرين من ذي القعدة، ودفن بتربته بمدرسته الهائلة التي أنشأها بين القصرين، التي ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها. وفيها دار حديث ومارستان: وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة.

مات عن قريب من ستين سنة، وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة، وكان حسن الصورة مهيبا، عليه أبهة السلطنة ومهابة الملك، تام القامة حسن اللحية عالي الهمة شجاعا وقورا سامحه الله.

الأمير

■ **حسام الدين طُرُنطاي**: نائب السلطنة المنصورية بمصر، أخذه الأشرف فسجنه بقلعة الجبل، ثم قتله وبقي ثمانية أيام لا يدرى به، ثم لف في حصير والقي على مزبلة، وحنّ عليه بعض الناس، فكفن كآحاد الفقراء بعد النعيم الكثير، والدنيا المتسعة، والكلمة النافذة، وقد أخذ السلطان من حواصله ستمائة ألف دينار وسبعين قنطاراً بالمصري فضة، ومن الجواهر شيئا كثيرا، سوى الخيل والبغال والجمال والأمتعة والبسط الجياد، والأسلحة المثمنة، وغير ذلك من الحواصل والأملاك بمصر والشام، وترك ولدين أحدهما أعمى، وقد دخل هذا الأعمى على الأشرف فوضع المنديل على وجهه وقال شيء لله وذكر له أن لهم أياماً لا يجدون شيئا يأكلونه، فرق له وأطلق لهم الأملاك يأكلون من ريعها، فسبحان الله المتصرف في خلقه بما يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء.

الشيخ الإمام العلامة: رشيد الدين

■ **عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقي الشافعي**، مدرس الظاهرية، توفي بها وقد جاوز التسعين، وجد مخنوقا في الحرم، ودفن بالصوفية، وقد سمع الحديث وكان منفردا في فنون من العلوم كثيرة، منها علم النحو والأدب وحل المترجم والكتابة والإنشاء وعلم الفلك والنجوم وضرب الرمل والحساب وغير ذلك، وله نظم حسن.

الخطيب جمال الدين أبو محمد:

■ **عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي الربعي**، توفي بدار الخطابة

وحضر الناس الصلاة عليه يوم السبت سلخ جمادى الأولى، وحمل إلى السفح فدفن إلى جانب الشيخ يوسف الفقاعي.

فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل ابن عز القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد

■ ابن أبي اليمن، الشيخ الزاهد المتقلل من متاع الدنيا، توفي في العشرين من رمضان، وصلي عليه في الجامع، ودفن بتربة بني الزكي بقاسيون محبة في محيي الدين بن عربي، فإنه كان يكتب من كلامه كل يوم ورقتين، ومن الحديث ورقتين وكان مع هذا يحسن الظن به، وكان يصلي مع الأئمة كلهم بالجامع، وقد أخبر عنه بعض العلماء أنه رأى بخطه:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه عينه

وقد صحح على «عينه» وإنما الصحيح المروي عمن أنشد هذا الشعر أولاً:

تدل على أنه واحد

وله شعر فمنه:

والنهر قد جُنّ في الغصون هوى ... فراح في قلبه يمثلها

فغار منه النسيم عاشقها ... فجاء عن وصله يميلها

وله أيضاً:

لما تحقق بالإمكان فوقكم ... وقد بدا حكمه في عالم الصور

فتميز الجمع عنه وهو متحد ... فلاح فوقكم في عالم الصور

وله:

لي سادة لا أرى سواهم ... هم عين معناي عين جوفي

لقد أحاطوا بكل جزء ... مني وعزوا عن درك طرفي

هم نظروا في عموم فقري ... وطول ذلي وفرط ضعفي

فعاملوني ببحت جود ... وصرف بر ومحض لطف

فلا تلم إن جررت ذيلي ... فخرا بهم أو ثنيت عطفي

وله:

مواهب ذي الجلال لدي تترى ... فقد أخرستني ونطقن شكرا

فنعمى إثر نعمى إثر نعمى ... وبشرى بعد بشرى بعد بشرى

لها بدء وليس لها انتهاء ... يعم مزيدها دنيا وأخرى

الحاج

■ طيبرس بن عبد الله: علاء الدين الوزيري: صهر الملك الظاهر، كان من أكابر الأمراء ذوي الحل والعقد، وكان ديناً كثير الصدقات، له قان بدمشق أوقفه، وله في فكاك الأسرى وغير ذلك، وأوصى عند موته بثلاثمائة ألف تصرف على الجند بالشام ومصر، فحصل لكل جندي خمسون درهما، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن بتربته بسفح المقطم.

■ (أحمد بن شمس الدين بن أبي عمر المقدسي).

قاضي القضاة: نجم الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر المقدسي، توفي ثاني عشر جمادى الآخرة منها وحضر جنازته خلق كثير ونائب السلطنه ودفن بقاسيون وله أربعون سنة سواءً، وكان فاضلا بارعاً خطيباً مدرسا بأكثر المدارس، وهو شيخ الحنابلة وابن شيخهم، وتولى بعده القضاء الشيخ شرف الدين حسن بن عبد الله بن أبي عمر، والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة

فيها فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة، ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد والمنة.

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس العباسي.

وسلطان البلاد الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون.

ونائبه بمصر وأعمالها بدر الدين بيدرا.

ووزيره ابن السلعوس الصاحب شمس الدين.

ونائبه بالشام حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري.

وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها.

وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول.

وصاحب مكة نجم الدين أبو نمي محمد بن إدريس بن علي بن قتادة الحسيني.

وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحة الحسيني.

وصاحب الروم غياث الدين كيخسرو، وهو ابن ركن الدين قليج ارسلان السلجوقي، وصاحب حماة تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمد.

وسلطان بلاد العراق وخراسان، وتلك النواحي أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكيزقان.

وكان أول هذه السنة يوم الخميس وفيه تصدق عن الملك المنصور بأموال كثيرة جداً من الذهب والفضة، وأنزل السلطان إلى تربته في ليلة الجمعة فدفن بها تحت القبة، ونزل في قبره بدر الدين بيدرا، وعلم الدين الشجاعي، وفرقت صدقات كثيرة حينئذ، ولما قدم الصاحب شمس الدين بن السلعوس من الحجاز خلع عليه للوزارة، وكتب تقليده بها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشا بيده، وركب الوزير في أبهة الوزارة إلى داره، وحكم.

ولما كان يوم الجمعة قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وسيف الدين جرمك الناصري، وأفرج عن الأمير زين الدين كتبغا وكان قد قبض عليه مع طرنطاي، ورد عليه أقطاعه، وأعيد التقي توبة إلى وزارة دمشق مرة أخرى.

وفيها أثبت ابن الخوُيِّي محضراً يتضمن أن يكون تدريس الناصرية للقاضي الشافعي وانتزعها من زين الدين الفارقي.

ذكر فتح عكا وبقية السواحل

وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا، وقد كان أهل عكا في هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأبرزت المجانيق إلى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء، وتولى سياقتها الأمير علم الدين الدواداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب

الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصدا عكا، فتوافت الجيوش هنالك، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ شرف الدين الفزاري، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان.

وفي أثناء محاصرة عكا وقع تخبيط من نائب الشام حسام الدين لاجين، فتوهم أن السلطان يريد مسكه، وكان قد أخبره بذلك الأمير الذي يقال له أبو خرص، فركب هاربا فرده علم الدين الدواداري بالمسابه وجاء به إلى السلطان فطيب قلبه وخلع عليه ثم أمسكه بعد ثلاثة أيام وبعثه إلى قلعة صفد واحتاط على حواصله، ورسم على أستاذ داره بدر الدين بكداش، وجرى ما لا يليق وقوعه هنالك، إذ الوقت وقت عسر وضيق وحصار وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلاثمائة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها، بحيث لا ينتفع بها بعد ذلك، فيسر الله فتحها نهار جمعة، كما أخذتها الفرنج من المسلمين في يوم الجمعة، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف، فاستوسق الساحل للمسلمين، وتنظف من الكافرين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وجاءت البطاقة إلى دمشق بذلك ففرح المسلمون، ودقت البشائر في سائر الحصون، وزينت البلاد ليتنزه فيها الناظرون والمتفرجون، وأرسل السلطان إلى صور أميراً فهدم أسوارها وعفا آثارها. وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب اخذها من أيدي الفرنج، ثم إن الفرنج جاؤوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة، ثم جاء صلاح الدين ليمانعهم عنها مدة سبعة وثلاثين شهراً، ثم في آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، كما تقدم ذلك.

ثم إن السلطان الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سار من عكا قاصداً دمشق في أبهة الملك وحرمة وافرة، وفي صحبته وزيره ابن السلعوس والجيوش المنصورة.

وفي هذا اليوم استناب بالشام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وسكن بدار السعادة، وزيد في إقطاعه حرستا ولم تقطع لغيره، وإنما كانت لمصالح حواصل القلعة، وجعل له في كل يوم ثلاثمائة على دار الطعام، وفوض إليه أن يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة، وأرسله السلطان إلى صيدا لأنه كان قد بقي بها برج عاص، ففتحه ودقت البشائر بسببه، ثم عاد سريعاً إلى السلطان فودعه، وسار السلطان نحو الديار المصرية في أواخر رجب، وبعثه إلى بيروت ليفتحها فسار إليها ففتحها في أقرب وقت، وسلمت عثليث وانطرطوس وجبيل. ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد.

ودخل السلطان إلى القاهرة في تاسع شعبان في أبهة عظيمة جدا، وكان يوماً مشهودا. وأفرج عن بدر الدين بيسري بعد سجن سبع سنين.

ورجع علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق إلى دمشق في سابع عشرين الشهر المذكور، وقد نظف السواحل من الفرنج بالكلية، ولم يبق لهم بها حجر.

وفي رابع رمضان أفرج عن حسام الدين لاجين من قلعة صفد ومعه جماعة أمراء، ورد عليهم إقطاعاتهم، وأحسن إليهم وأكرمهم.

وفي أوائل رمضان طلب القاضي بدر الدين بن جماعة من القدس الشريف وهو حاكم به، وخطيب فيه، على البريد إلى الديار المصرية فدخلها في رابع عشرة وأفطر ليلتئذ عند الوزير ابن السلعوس وأكرمه جداً واحترمه، وكانت ليلة الجمعة، فصرح الوزير بعزل تقي الدين ابن بنت الأعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة، وجاء القضاة إلى تهنئته وأصبح الشهود في خدمته، ومع القضاء خطابة الجامع الأزهر، وتدريس الصالحية، وركب في الخلعة والطرحة ورسم لبقية القضاة أن يستمروا بلبس الطرحات، وذهب فخطب بالجامع الأزهر، وانتقل إلى المدرسة الصالحية ودرس بها في الجمعة الأخرى، وكان درساً حافلا،ولما كان يوم الجمعة رسم السلطان للحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذ وأن يذكر في خطبته أنه قد ولى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور، فلبس خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التي كان خطب بها في الدولة الظاهرية وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسي، في سنة ستين وستمائة، فيكون بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة، وذلك بجامع قلعة الجبل،ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان، وكان يستنيب في الجامع الأزهر.

وأما ابن بنت الأعز فناله من الوزير إخراق ومصادرة وإهانة بالغة، ولم يترك له من مناصبه شيئا، وكان بيده سبعة عشر منصبا، منها القضاء والخطابة ونظر الأحباس ومشيخة الشيوخ، ونظر الخزانة وتداريس كبار، وصادره بنحو من أربعين ألفاً، غير مراكبه وأشياء كثيرة، ولم يظهر منه استكانة له ولا خضوع، ثم عاد فرضي عنه وولاه تدريس الشافعي.

وعملت ختمة عند قبر الملك المنصور في ليلة الاثنين رابع ذي القعدة وحضرها القضاة والأمراء، ونزل السلطان ومعه الخليفة إليهم وقت السحر، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة، حرض الناس على غزو بلاد العراق واستنقاذها من أيدي التتر، وقد كان الخليفة قبل ذلك محتجبا فرآه الناس جهرة، وركب في الأسواق بعد ذلك.

وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثي، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود، وحصل لبعض الناس أذى بسبب ذلك.

وفيها نادى نائب الشام الشجاعي أن لا تلبس امرأة عمامة كبيرة، وخرب الأبنية التي على نهر بانياس والجداول كلها والمسالح والسقايات التي على الأنهار كلها، وأخرب جسر الزلابية وما عليه من الدكاكين، ونادى أن لا يمشي أحد بعد العشاء الآخرة، ثم أطلق لهم هذه فقط، وأخرب الحمام الذي كان بناه الملك السعيد ظاهر باب النصر، ولم يكن بدمشق أحسن منه، ووسع الميدان الأخضر من ناحية الشمال مقدار سدسه، ولم يترك بينه وبين النهر إلا مقدارا يسيراً، وعمل هو بنفسه والأمراء في حيطانه.

وفيها حُبس جمال الدين آقوش الأفرم المنصوري وأمير آخر معه في القلعة.

وفيها حُمل الأمير علم الدين الدواداري إلى الديار المصرية مقيداً. وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا.

الحمد للّه زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طَلبتْ ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً ... شاب الوليد بها هولا ولم تشب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم ... للّه أي رضى في ذلك الغضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قُرب
فقر عيناً لهذا الفتح وابتهجت ... بيشره الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض سيرا قد سمعت به ... فالبر في طرب والبحر في حرب

وهي طويلة جداً، وله ولغيره في فتح عكا أشعار كثيرة.

ولما رجع البريد أخبر بأن السلطان لما عاد إلى مصر خلع على وزيره ابن السلعوس جميع ملابسه التي كانت عليه، ومركوبه الذي كان تحته، فركبه ورسم له بثمانية وسبعين ألفا من خزانة دمشق، ليشتري له بها قرية قرحتا من بيت المال.

وفي هذه السنة انتهت عمارة قلعة حلب بعد الخراب الذي أصابها من هولاكو وأصحابه عام ثمانية وخمسين.

وفيها شوال منها شرع في عمارة قلعة دمشق وبناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، حسب ما رسم به السلطان الأشرف خليل بن قلاوون لنائبه علم الدين سنجر الشجاعي.

وفيها في رمضان أعيد إلى نيابة القلعة الأمير أرجواش وأعطي، إقطاعات سنية. وفيها أرسل الشيخ الرجيحي من ذرية الشيخ يونس مضيقا عليه محصورا إلى القاهرة.

وفيها درس عز الدين الفاروثي بالمدرسة النجيبية عوضا عن كمال الدين بن خلكان.

وفي ذلك اليوم درس نجم الدين بن مكي بالرواحية عوضا عن ناصر الدين بن المقدسي.

وفيه درس كمال الدين الطبيب بالمدرسة الدخوارية الطبية.

وفي هذا الشهر درس الشيخ جلال الدين الخبازي بالخاتونية البرانية، وجمال الدين بن الباجُربقي بالقِلجية، وبرهان الدين الإسكندري بالقوصية التي بالجامع، والشيخ نجم الدين الدمشقي بالشريفية عند حارة الغرباء.

وفيها أعيدت الناصرية إلى الفارقي.

وفيه درس بالأمينية القاضي نجم الدين بن صصرى بعد ابن الزملكاني، وأخذت منه العادلية الصغيرة لكمال الدين بن الزملكاني.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أرغون بن أبغا ملك التتار: كان شهما شجاعا سفاكا للدماء، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو، فعظم في أعين المغول.

فلما كان في هذه السنة مات من شراب شربه فيه سم، فاتهمت المغول اليهود به - وكان وزيره سعد الدولة بن الصيفي يهودياً - فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا،ونهبوا منهم أموالا عظيمة جدا في جميع مدائن العراق، ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده، فمالت طائفة إلى كيختو فأجلسوه على سرير المملكة، فبقي مدة، قيل سنة وقيل أقل من ذلك، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا.

وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيرا، وكانت مدة ملك أرغون ثمان سنين، وقد وصفه بعض مؤرخي العراق بالعدل والسياسة الجيدة.

المسند المعمر الرحالة فخر الدين بن البخاري

وهو أبو الحسن

■ علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المعروف بابن البخاري، ولد في سلخ سنة خمس أو مستهل سنة ست وتسعين وخمسمائة، وسمع الكثير ورحل مع أهله، وكان رجلا صالحا عابداً، زاهداً ورعا ناسكا، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره، وخرجت له مشيخات وسمع منه الخلق الكثير والجم الغفير، وكان منصوبا لذلك حتى كبر وأسنّ وضعف عن الحركة، وله شعر حسن، منه قوله:

تكررت السنون علي حتى ... بليت وصرت من سقط المتاع
وقل النفع عندي غير أني ... أعلل بالرواية والسماع
فإن يك خالصاً فله جزاء ... وإن يك مالقاً فإلى ضياع

وله أيضا:

إليك اعتذاري من صلاتي قاعداً ... وعجزي عن سعي إلى الجمعات
وتركي صلاة الفرض في كل مسجد ... تجمع فيه الناس للصلوات
فيا رب لا تمقت صلاتي ونجني ... من النار واصفح لي عن الهفوات

توفي ضحى نهار الأربعاء ثاني ربيع الآخر من هذه السنة، عن خمس وتسعين سنة، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن عند والده الشيخ شمس الدين أحمد بن عبد الواحد بسفح قاسيون رحمه اللّه تعالى.

الشيخ تاج الدين الفزاري:

■ عبد الرحمن بن إبراهيم سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزاري، الإمام العلامة العالم، العلم شيخ الشافعية في زمانه، حاز قصب السبق دون أقرانه، وهو والد شيخنا العلامة برهان الدين.

كان مولد الشيخ تاج الدين في سنة ثلاثين وستمائة، وتوفي ضحى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة، بالمدرسة البادرائية وصلي عليه بعد الظهر بالأموي، تقدم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي، ثم صلّي عليه عند جامع جراح الشيخ زين الدين الفارقي، ودفن عن والده بباب الصغير، وكان يوما شديد الزحام وقد كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة، والأخلاق اللطيفة، وفصاحة المنطق، وحسن التصنيف، وعلو الهمة، وفقه النفس، وكتابه الإقليد الذي جمعه على أبواب التنبيه وصل فيه إلى باب الغصب، دليل على فقه نفسه وعلو قدره، وقوة همته ونفوذ نظره، واتصافه بالاجتهاد الصحيح في غالب ما سطره، وقد انتفع به الناس، وهو شيخ أكابر مشايخنا هو والشيخ محيي الدين النووي، وله اختصار الموضوعات لابن الجوزي، وهو عندي بخطه، وقد سمع الحديث

الكثير وحضر عند ابن الزبيدي صحيح البخاري، وسمع من ابن اللّتي وابن الصلاح واشتغل عليه، وعلى ابن عبد السلام وانتفع بهما، وخرج له الحافظ علم الدين البرزالي أحد تلاميذه مشيخة في عشرة أجزاء عن مائة شيخ فسمعها عليه الأعيان وكان له شعر جيد فمنه قوله:

للّه أيام جمع الشمل ما برحت ... بها الحوادث حتى أصبحت سَمَرا

ومبتدا الحزن من تاريخ مسألتي ... عنكم، فلم ألق لا عيناً ولا أثرا

يا راحلين قدرتم فالنجاة لكم ... ونحن للعجز لا نستعجز القدرا

وقد ولي الدرس بعده بالبادرائية والحلقة والفتيا بالجامع ولده شيخنا برهان الدين،فمشى على طريقة والده وهديه وسمته رحمه الله.

وفي ثالث شعبان توفي الطبيب الماهر عز الدين

■ إبراهيم بن محمد بن طرخان: السويدي الأنصاري، ودفن بالسفح عن تسعين سنة، وروى شيئا من الحديث، وفاق أهل زمانه في صناعة الطب، وصنف كتبا في ذلك، وكان يرمى بقلة الدين وترك الصلوات والانحلال في العقيدة، وإنكار أمور كثيرة مما يتعلق باليوم الآخر، واللّه يحكم فيه وفي أمثاله بأمره العدل الذي لا يجور ولا يظلم.

وفي شعره ما يدل على قلة عقله ودينه وعدم إيمانه، واعتراضه على تحريم الخمر، وأنه قد طال رمضان عليه في تركها وغير ذلك.

■ (علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني).

الشيخ الإمام العلامة علاء الدين أبو الحسن علي ابن الإمام العلامة كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري الزملكاني، مدرس الأمينية وهو والد شيخنا الإمام العلامة كمال الدين بن أبي المعالي محمد بن علي الزملكاني وقد درس بعد أبيه المذكور بالأمينية، وكانت وفاة والده هذا ليلة الثلاثاء، التاسع والعشرين من ربيع الآخر، بالأمينية، ودفن بمقابر الصوفية عند والده.

الأمير الكبير بدر الدين

■ يَمْلُكُ بن عبد اللّه الناصري، ناظر الرباط بالصالحية، عن وصية أستاذه، وهو الذي ولى الشيخ شرف الدين الفزاري مشيخة الرباط بعد ابن الشريشي جمال الدين، وقد دفن بالتربة الكبيرة داخل الرباط المذكور.

الشيخ الإمام أبو حفص

■ عمر بن يحيى بن عمر الكرجي: صهر الشيخ تقي الدين بن الصلاح، وأحد تلاميذه، ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ومات يوم الأربعاء ثاني ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن إلى جانب ابن الصلاح.

الملك العادل بدر الدين

■ سلامش بن الظاهر: الذي كان قد بويع بالملك بعد أخيه الملك السعيد، وجعل الملك المنصور قلاوون أتابكه، ثم استقل قلاوون بالملك، وأرسلهم إلى الكرك ثم أعادهم إلى القاهرة ثم سفرهم الأشرف خليل في أول دولته إلى بلاد الأشكري من ناحية اصطنبول، فمات سلامش هناك وبقي أخوه نجم الدين خضر وأهلوهم بتلك الناحية.

وقد كان سلامش من أحسن الشباب شكلا وأبهاهم منظراً، وقد افتتن به خلق كثير، من الناس، وشبب به الشعراء وكان عاقلا رئيساً مهيباً وقوراً.

■ العفيف التلمساني: أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد اللّه بن علي بن ياسين العابدي الكرفي ثم التلمساني الشاعر المتقن المتفنن في علوم منها: النحو والأدب والفقه والأصول، وله في ذلك مصنفات، وله شرح مواقف النفري وشرح أسماء اللّه الحسنى، وله ديوان مشهور، ولولده محمد ديوان آخر.

وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، وشهرته تغني عن الإطناب في ترجمته.

توفي يوم الأربعاء خامس رجب ودفن بالصوفية، ويذكر عنه أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متابعة فاللّه أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمائة

فيها فتحت قلعة الروم وسلطان البلاد من دنقلة إلى مصر إلى أقصى بلاد الشام بكماله وسواحله بلاد حلب وغير ذلك الملك الأشرف خليل.

ووزيره شمس الدين بن السلعوس، وقضاته بالشام ومصر هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب مصر بدر الدين بندار ونائب الشام علم الدين سنجر الشجاعي.

وسلطان التتر بيدو بن أرغون بن أبغا، والعمارة في الطارمة وفي الدور السلطانية بالقلعة. وفي رابع عشرين المحرّم وقع حريق عظيم بقلعة الجبل ببعض الخزائن أتلف شيئا كثيراً من الذخائر والنفائس والكتب.

وفي التاسع والعشرين من ربيع الأول خطب الخليفة الحاكم وحث في خطبته على الجهاد والنفير، وصلّى بهم الجمعة وجهر بالبسملة.

وفي ليلة السبت ثالث عشر صفر جيء بهذا الجُرْز الأحمر الذي بباب البرادة من عكا، فوضع في مكانه.

وفي ربيع الأول كمل بناء الطارمة وما عندها من الآدُر والقبة الزرقاء، وجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع.

وفي يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى ذكر الدرس بالظاهرية الشيخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي، عوضاً عن علاء الدين ابن بنت الأعز.

وفي هذا اليوم درس بالدولعية كمال الدين بن الزكي.

وفي يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة درس بالنجيبية الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الطوسي، بمقتضى نزول الفاروثي له عنها، واللّه أعلم بالصواب.

فتح قلعة الروم

وفي ربيع الآخر توجه السلطان الأشرف بالعساكر نحو الشام فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالا جزيلة، ثم سار بهم نحو بلاد حلب، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهرا، في يوم السبت حادي عشر رجب، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق، وزينت البلد سبعة أيام وبارك اللّه لخميس المسلمين في سبقهم، وكان يوم السبت ألباً على أهل يوم الأحد، وكان الفتح بعد حصار عظيم جدا، مدة ثلاثة وثلاثين يوما، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقا، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير وغنم المسلمون منها شيئا كثيراً، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعي بقلعة الروم يعمّرون ما وهى من قلعتها بسبب رمي المنجنيقات عليها وقت الحصار، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر

شعبان، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه، وكان يوماً مشهوداً بسط له، كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية، وإنما كان ذلك بإشارة ابن السلعوس، فهو أول من بسط له، وقد كسر أبوه التتر على حمص ولم يبسط له، وكذلك الملك الظاهر كسر التتر والروم على البلستين، وفي غير موطن ولم يبسط له، وهذه بدعة شنعاء قد أحدثها هذا الوزير للملوك، وفيها إسراف وضياع مال وأشر وبطر ورياء وتكليف للناس، وأخذ أموال ووضعها في غير مواضعها، والله سبحانه سائله عنها، وقد ذهب وتركها يتوارثها الملوك والناس عنه،وقد حصل للناس بسبب ذلك ظلم عظيم، فليتق العبد ربه ولا يحدث في الإسلام بسبب هواه ومراد نفسه ما يكون سبب مقت الله له،وإعراضه عنه، فإن الدنيا لا تدوم لأحد، ولا يدوم أحد فيها والله سبحانه أعلم.

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيرا، وكذلك رؤوس أصحابه، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجُرد بسبب ممالأتهم للفرنج قديما على المسلمين، وكان مقدم العساكر بيدرا وفي صحبته سنقر الأشقر، وأقر سنقر المنصوري الذي كان نائب حلب فعزله عنها السلطان وولى مكانه سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، وجماعة آخرون من الأمراء الكبار، فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمار أهله حملوا في الليل إلى بيدرا حملا كثيراً ففتر في قضيتهم، ثم انصرف بالجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان، فتلقاهم السلطان وترجل السلطان للأمير بيدرا وهو نائبه على مصر، ثم ابن السلعوس نبه السلطان على فعل بيدرا فلامه وعنفه، فمرض من ذلك مرضا شديداً أشفى به على الموت حتى قيل إنه مات، ثم عوفي فعمل ختمة عظيمة بجامع دمشق حضرها القضاة والأعيان، وأشعل الجامع نظير ليلة النصف من شعبان، وكان ذلك ليلة العشر الأول من رمضان، وأطلق السلطان أهل الحبوس وترك بقية الضمان عن أرباب الجهات السلطانية، وتصدق عنه بشيء كثير، ونزل هو عن ضمانات كثيرة كان قد حاف فيها على أربابها، وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها:

لك الراية الصفراء يقدمها النصر   فمن كيقباذ إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت في الأفق هدت بنورها   هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى
وإن نشرت مثل الأصائل في وغىً   جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدى سار تحتها   كتائب خضر دوحها البيض والسُّمر
كأن مثار النقع ليل وخفقها   بروق وأنت البدر والفلك الجسر
وفتح أتى في إثر فتح كأنما   سماء بدت تترى كواكبها الزهر
فكم قطعت طوعاً وكرهاً معاقلاً   مضى الدهر عنها وهي عانسة بكر
بذلت لها عزماً فلولا مهابة   كساها الحيا جاءتك تسعى ولا مهر
قصدت حمى من قلعة الروم لم يُبح   لغيرك إذ غرتهم المغل فاغتروا
ووالوهم سراً ليخفوا أذاهم   وفي آخر الأمر استوى السر والجهر
صرفت إليهم همة لو صرفتها   إلى البحر لاستولى على مده الجزر
وما قلعة الروم التي حزت فتحها   وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
طليعة ما يأتي من الفتح بعدها   كما لاح قبل الشمس في الأفق الفجر
فصبحتها بالجيش كالروض بهجة   صوارمه أنهاره والقنا الزهر
وأبعدت بل كالبحر والبيض موجه   وجرد المذاكي السفن والخرد الدُّر
وأغربت بل كالليل عوج سيوفه   أهلته والنبل أنجمه الزهر
وأخطأت لا بل كالنهار شموسه   محياك والأصال راياتك الصفر
ليوث من الأتراك آجامها القنا   لها كل يوم في ذوي ظفر ظفر
فلا الريح تجري بينهم لاشتباكها   عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
عيون إذا الحرب العوان تعرضت   لخطابها بالنفس لم يغلها مهر
ترى الموت معقودا بهدب نبالهم   إذا ما رماها القوس والنظر الشزر
ففي كل سرح غصن بان مُهفهف   وفي كل قوس مده ساعد بدر
إذا صدموا شم الجبال تزلزلت   وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم   لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر
أداروا بها سوراً فأضحت كخنصر   لدى خاتم أو تحت منطقة خصر
وأرخوا إليها من بحار أكفهم   سحاب ردى لم يخل من قطره قطر
كأن المجانيق التي قمن حولها   رواعد سخط وبلها النار والصخر
أقامت صلاة الحرب ليلا صخورها   فأكثرها شفع وأكبرها وتر
ودارت بها تلك النقوب فأشرفت   وليس عليها في الذي فعلت حجر
فأضحت بها كالصب يخفي غرامه   حذار أعاديه وفي قلبه جمر
وشبت بها النيران حتى تمزقت   وباحت بما أخفته وانهتك الستر
فلاذوا بذيل العفو منك فلم يخب   رجاهم ولو لم يشب قصدهم مكر
وما كره المغل اشتغالك عنهم   بها عند ما فروا ولكنهم سروا
فأحرزتها بالسيف قصراً وهكذا   فتوحك فيما قد مضى كله قسر
وأضحت بحمد الله ثغراً ممنعاً   تبيد الليالي والعدى وهو مفتر
فيا أشرف الأملاك فزت بغزوة   تحصل منها الفتح والذكر والأجر
ليهنك عند المصطفى أن دينه   توالى له في يمن دولتك النصر
وبشراك أرضيت المسيح وأحمداً   وإن غضب النقفور من ذاك والكفر
فسر حيث ما تختار فالأرض كلها   بحكمك والأمصار أجمعها مصر
ودم وابق للدنيا ليحيى بك الهدى   ويزهى على ماضي العصور بك العصر

حذفت منها أشياء كثيرة.

وفيها تولى خطابة دمشق الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي، بعد وفاة زين الدين بن المرحل، وخطب واستسقى بالناس فلم يسقوا، ثم خطب مرة ثانية بعد ذلك بأيام عند مسجد القدم، فلم يسقوا ثم ابتهل الناس من غير دعائه واستقائه فسقوا.

ثم عزل الفاروثي بعد أيام بالخطيب موفق الدين أبي المعالي محمد بن محمد بن محمد بن عبد المنعم بن حسن المهراني الحموي، كان خطيب حماة ثم انتقل إلى دمشق في هذه السنة، فقام وخطب وتألم الفاروثي لذلك ودخل على السلطان واعتقد أن الوزير عزله من غير علمه،فإذا هو قد شعر بذلك واعتذر بأنه إنما عزله لضعفه، فذكر له أنه يصلي ليلة النصف مائة ركعة بمائة ﴿قل هو الله أحد﴾، فلم يقبلوا ذلك منه واستمروا بالحموي. وهذه دناءة وقلة عقل وعدم إخلاص من الفاروثي، وأصاب السلطان في عزله.

وفي هذا اليوم قبض السلطان على الأمير سنقر الأشقر وغيره فهرب

هو والأمير حسام الدين لاجين السلحدار، فنادت عليه المنادية بدمشق من أحضره فله ألف دينار، ومن أخفاه شنق، وركب السلطان ومماليكه في طلبه، وصلى الخطيب بالناس في الميدان الأخضر، وعلى الناس كآبة بسبب تفرق الكلمة، واضطراب الجيش، واختبط الناس، فلما كان سادس شوال امسكت العرب سنقر الأشقر فردوه على السلطان فارسله مقيدا إلى مصر.

وفي هذا اليوم ولى السلطان نيابة دمشق عز الدين أيبك الحموي، عوضا عن الشجاعي، وقدم الشجاعي من الروم في هذا اليوم الثاني من عزله فتلقاه الفاروثي فقال: قد عزلنا من الخطابة، فقال ونحن من النيابة، فقال الفاروثي: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩].

فلما بلغ ابن السعلوس تغضب عليه وكان قد عين له القيمرية فترك ذلك.

وسافر السلطان عاشر شوال إلى مصر فدخلها في أبهة الملك، وفي يوم دخوله أقطع قرا سنقر مائة فارس بمصر عوضا عن نيابة حلب.

وفي هذه السنة اشترى الأمير سيف الدين طغاي الأشرفي قيسارية القطن المعروفة بإنشاء الملك المعظم بن العادل من بيت المال، بمرسوم من السلطان، وكان حظيا عنده، ونقل سوق الحريريين تلك المدة إليها، وكان السلطان قد أفرج عن علم الدين الدواداري بعد رجوعه من قلعة الروم واستحضره إلى دمشق وخلع عليه واستصحبه معه إلى القاهرة، وأقطعه مائة فارس، وولاه مشد الدواوين مكرها.

وفي ذي القعدة استحضر السلطان سنقر الأشقر وطقصوا فعاقبهما فاعترفا بأنهما أرادا قتله، فسألهما عن لاجين فقالا: لم يكن معنا ولا علم له بهذا، فخنقهما وأطلقه بعد ما جعل الوتر في حلقه، وكان قد بقي له مدة لا بد أن يبلغها، وقد ملك بعد ذلك كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ذي الحجة عقد الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين عقده على بنت قاضي القضاة شهاب الدين ابن الخويي بالباذرائية،وكان حافلا.

وفيها دخل الأمير سنقر الأعسر على بنت الوزير شمس الدين بن السلعوس على صداق ألف دينار، وعجل لها خمسمائة.

وفيها قفز جماعة من التتر نحواً من ثلاثمائة إلى الديار المصرية فأكرموا.

وممن توفي فيها من الأعيان

الخطيب زين الدين أبو حفص

■ **عمر بن مكي بن عبد الصمد الشافعي المعروف بابن المرحل**، وهو والد الشيخ صدر الدين بن الوكيل، سمع الحديث وبرع في الفقه وفي علوم شتى، منها علم الهيئة وله فيه مصنف، تولى خطابة دمشق ودرس وأفتى، توفي ليلة السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول، وصلي عليه من الغد بباب الخطابة.

الشيخ

■ **عز الدين الفاروثي**: ولي الخطابة قليلا ثم عزل ثم مات ودفن بباب الصغير عفا الله عنا وعنه.

الصاحب فتح الدين أبو عبد الله

■ **محمد بن محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر**: كاتب الأسرار في الدولة المنصورية بعد ابن لقمان وكان ماهراً في هذه الصناعة، وحظي عند المنصور وكذا عند ابنه الأشرف، وقد طلب منه ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه، فقال: هذا لا يمكن فإن أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة، فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته.

توفي يوم السبت نصف رمضان، وأخرجت في تركته قصيدة قد رثا بها تاج الدين بن الأثير وكان قد شوش فاعتقد أنه يموت فعوفي فبقيت بعده، وتولى ابن الأثير عنده ورثاه تاج الدين كما رثاه وتوفي ابن الأثير بعده بشهر وأربعة أيام.

■ **يونس بن علي بن رضوان بن برقش**: الأمير عماد الدين، كان أحد الأمراء الطبلقانة في الدولة الناصرية، ثم حمل وبطل الجندية بالكلية في الدولة المظفرية وهلم جرا إلى هذه السنة، وكان الظاهر يكرمه، توفي في شوال ودفن عند والده بتربة الخزيميين رحمهم الله.

جلال الدين الخبازي:

■ **عمر بن محمد بن عمر أبو محمد الخجندي** أحد مشايخ الحنفية الكبار، أصله من بلاد ما وراء النهر من بلد يقال لها خجندة، واشتغل ودرس بخوارزم، وأعاد ببغداد، ثم قدم دمشق فدرس بالعزية والخاتونية البرانية، وكان فاضلا بارعا مصنفاً في فنون كثيرة، توفي لخمس بقين من ذي الحجة منها، وله ثنتان وستون سنة، ودفن بالصوفية.

الملك المظفر:

■ **قرا أرسلان الأرتقي**، صاحب ماردين، توفي وله ثمانون سنة وقام بعده ولده شمس الدين داود ولقب بالملك السعيد والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وستمائة

في تاريخ ظهير الدين الكازروني ظهرت نار بأرض المدينة النبوية في هذه السنة نظير ما كان في سنة أربع وخمسين على صفتها،إلا أن هذه النار كان يعلو لهيبها كثيراً، وكانت تحرق الصخر ولا تحرق السعف، واستمرت ثلاثة أيام.

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم العباسي.

وسلطان البلاد الملك الأشرف بن المنصور ونائبه بمصر بدر الدين بيدرا، وبالشام عز الدين أيبك الحموي.

وقضاة مصر والشام هم الذين كانوا في التي قبلها، والوزير شمس الدين بن السلعوس.

وفي جمادى الآخرة قدم الأشرف دمشق فنزل في القصر الأبلق والميدان الأخضر، وجهز الجيوش وتهيأ لغزو بلاد سيس، وقدم في غبون ذلك رسل صاحب بلاد سيس يطلبون الصلح، فشفع الأمراء فيهم فسلموا بهسنا وتل حمدون ومرعش، وهي أكبر بلادهم وأحسنها وأحصنها، وهي في فم الدربند.

ثم ركب السلطان في ثاني رجب نحو سلمية بأكثر الجيش صورة أنه يريد أن يصيب الأمير حسام الدين لاجين، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى، فلما انقضت الضيافة أمسك له حسام الدين لاجين، وكان عنده، فجاء به فسجنه في قلعة دمشق وأمسك مهنا بن عيسى، وولى مكانه محمد بن علي بن حذيفة، ثم أرسل السلطان جمهور الجيش بين يديه إلى الديار المصرية صحبة نائبه بيدرا، ووزيره ابن السلعوس، وتأخر هو في خاصكيته ثم لحقهم.

وفي المحرم منها حكم القاضي حسام الدين الرازي الحنفي بالتشريك

بين العلويين والجعفريين في الدباغة التي كانوا يتنازعونها من مدة مائتي سنة، وكان ذلك يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم، بدار العدل، ولم يوافقه ابن الخويي ولا غيره، وحكم للأعناكيين بصحة نسبهم إلى جعفر الطيار.

وفيها رسم الأشرف بتخريب قلعة الشوبك فهدمت، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وأنفعها، وإنما خربها عن رأي عتبة العقبي، ولم ينصح للسلطان فيها ولا للمسلمين، لأنها كانت شجى في حلوق الأعراب الذين هناك.

وفيها أرسل السلطان الأمير علم الدين الدواداري إلى صاحب القسطنطينية وإلى أولاد بركة ومع الرسول تحفاً كثيرة جداً، فلم يتفق خروجه حتى قتل السلطان فعاد إلى دمشق.

وفي عاشر جمادى الأولى درس القاضي إمام الدين القزويني بالظاهرية البرانية. وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي الثاني والعشرين من ذي الحجة يوم الاثنين طهر الملك الأشرف أخاه الملك الناصر محمد وابن أخيه الملك المعظم مظفر الدين موسى بن الصالح علي بن المنصور، وعُمل مهمٌّ عظيم ولعب الأشرف بالقبق وتمت لهم فرحة هائلة، وكانت كالوداع لسلطته من الدنيا.

وفي أول المحرم درس الشيخ شمس الدين بن غانم بالعصرونية.

وفي مستهل صفر درس الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بالرواحية عوضاً عن نجم الدين بن مكي بحكم انتقاله إلى حلب وإعراضه عن المدرسة المذكورة، ودخل الركب الشامي في خامس صفر.

وكان ممن حج في هذه السنة الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وكان أميرهم الباسطي ونالهم في معان ريح شديدة جداً مات بسببها جماعة، وحملت الريح جمالا عن أماكنها، وطارت العمائم عن الرؤوس، واشتغل كل أحد بنفسه.

وفي صفر منها وقع بدمشق برد عظيم أفسد شيئا كثيراً من المغلات بحيث بيع القمح كل عشر أواق بدرهم، ومات شيء كثير من الدواب.

وفيه زلزلت ناحية الكرك وسقط من قلعتها أماكن كثيرة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ **الأرموي:** الشيخ الصالح القدوة العارف أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الصالح أبي محمد عبد الله بن يوسف بن يونس بن إبراهيم بن سلمان بن البنكو الأرموي، المقيم بزاويته بسفح قاسيون، كان فيه عبادة وانقطاع وله أوراد وأذكار، وكان محببا إلى الناس، توفي بالمحرم ودفن عند والده بالسفح.

■ **ابن الأعمى صاحب المقامة:** كمال الدين علي بن الشيخ ظهير الدين محمد بن المبارك بن سالم بن أبي الغنائم الدمشقي المعروف بابن الأعمى، ولد سنة عشر وستمائة، وسمع الحديث وكان فاضلا بارعا، له قصائد يمتدح بها رسول الله ﷺ سماها الشفعية، عدد كل قصيدة اثنان وعشرون بيتا.

قال البرزالي: سمعته وله المقامة البحرية المشهورة، توفي في المحرم ودفن بالصوفية.

الملك

■ **الزاهر مجير الدين:** أبو سليمان داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن الملك المعظم، توفي ببستانه عن ثمانين سنة، وصلي عليه بالجامع المظفري، ودفن بتربته بالسفح، وكان ديناً كثير الصلاة في الجامع، وله إجازة من المؤيد الطوسي وزينب الشعرية وأبي روح وغيرهم. توفي في جمادى الآخرة.

الشيخ تقي الدين الواسطي: أبو إسحاق

■ **إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي ثم الدمشقي الحنبلي** تقي الدين، شيخ الحديث بالظاهرية بدمشق، توفي يوم الجمعة آخر النهار رابع عشرين جمادى الآخرة عن تسعين سنة، وكان رجلا صالحا عابدا، تفرد بعلو الرواية، ولم يخلف بعده مثله، وقد تفقه ببغداد ثم رحل إلى الشام ودرس بالصاحبة مدة عشرين سنة، وبمدرسة أبي عمر، وولي في آخر عمره مشيخة الحديث بالظاهرية بعد سفر الفاروثي.

وكان داعية إلى مذهب السلف والصدر الأول، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان من خيار عباد الله تعالى رحمه الله، وقد درس بعده بالصاحبة الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القوي المرداوي، وبدار الحديث الظاهرية شرف الدين عمر بن خواجا إمام الجامع المعروف بالناصح.

ابن صاحب حماة الملك

■ **الأفضل:** نور الدين علي ابن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، توفي بدمشق وصلي عليه بجامعها، وخرج به من باب الفراديس محمولا إلى مدينة أبيه وتربتهم بها، وهو والد الأميرين الكبيرين بدر الدين حسن وعماد الدين إسماعيل الذي تملك حماة بعد جدّه.

■ **ابن عبد الظاهر:** محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السعدي، كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وآخر من برز في هذا الفن على أهل زمانه، وسبق سائر أقرانه، وهو والد الصاحب فتح الدين النديم، وقد تقدم ذكر وفاته قبل والده.

وقد كانت له مصنفات منها سيرة الملك الظاهر، وكان ذا مروءة، وله النظم الفائق والنثر الرائق.

توفي يوم الثلاثاء رابع رجب وقد جاوز السبعين، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة.

الأمير علم الدين

■ **سنجر الحلبي:** الذي كان نائب قطز على دمشق فلما جاءته بيعة الظاهر دعا لنفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ثم حوصر وهرب إلى بعلبك فحوصر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف، واحترمه وأكرمه، بلغ الثمانين سنة، وتوفي في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة

في أولها كان مقتل الأشرف، وذلك أنه خرج إلى الصيد في ثالث المحرم، فلما كان بأرض يروجة بالقرب من الإسكندرية ثاني عشر المحرم، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش، فأول من ضربه نائبه بيدرا، وتم عليه لاجين المنصوري، ثم اختفى إلى رمضان، ثم ظهر يوم العيد، وكان ممن اشترك في قتل الأشرف بدر

الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر المنصوري.

فلما قتل الأشرف اتفق الأمراء على تمليك بيدرا، وسموه الملك القاهر أو الأوحد، فلم يتم له ذلك، فقتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا، ثم اتفق زين الدين كتبغا، وعلم الدين سنجر الشجاعي على أن يملكوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين وشهوراً، فأجلسوه على سرير المملكة يوم الرابع عشر من المحرم، وكان الوزير ابن السلعوس بالإسكندرية، وكان قد خرج في صحبة السلطان وتقدم هو إلى الإسكندرية فلم يشعر إلا وقد أحاط به البلاء، وجاءه العذاب من كل ناحية، وذلك أنه كان يعامل الأمراء الكبار معاملة الصغار، فأخذوه وتولى عقوبته من بينهم الشجاعي فضرب ضربا عظيما، وقرر على الأموال ولم يزالوا يعاقبونه حتى كانت وفاته في عاشر صفر بعد أن احتيط على حواصله كلها.

وأحضر جسد الأشرف فدفن بتربته، وتألم الناس لفقده وأعظموا قتله، وقد كان شهما شجاعا عالي الهمة حسن المنظر، كان قد عزم على غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار، واستعد لذلك ونادى به في بلاده، وقد فتح في مدة ملكه - وكانت ثلاث سنين - عكا وسائر السواحل، ولم يترك للفرنج فيها معلما ولا حجراً، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها.

فلما جاءت بيعة الملك الناصر إلى دمشق خطب له بها على المنابر، واستقر الحال على ذلك، وجعل الأمير كتبغا أتابكه، والشجاعي مشاوراً كبيراً، ثم قتل بعد أيام بقلعة الجبل، وحمل رأسه إلى كتبغا فأمر أن يطاف به في البلد، ففرح الناس بذلك وأعطوا الذين حملوا رأسه مالا، ولم يبق لكتبغا منازع، ومع هذا كان يشاور كبار الأمراء تطييبا لقلوبهم.

وفي صفر بعد موت ابن السلعوس عزل بدر الدين بن جماعة عن القضاء وأعيد تقي الدين ابن بنت الأعز واستمر ابن جماعة مدرسا بمصر في كفاية ورياسة.

وتولى الوزارة بمصر الصاحب تاج الدين بن الحنا.

وفي ظهر يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر رتب إمام بمحراب الصحابة، وهو كمال الدين عبد الرحمن ابن القاضي محيي الدين بن الزكي، وصلى بعدئذ بعد الخطيب، ورتب بالمكتب الذي بباب الناطفانيين إمام أيضاً، وهو ضياء الدين بن برهان الدين الإسكندري، وباشر نظر الجامع الشريف زين الدين حسين بن محمد بن عدنان، وعاد سوق الحريريين إلى سوقه،وأخلوا قيسارية القطن الذي كان نواب طُقجي ألزموهم بسكناها، وولى خطابة دمشق الشيخ العلامة شرف الدين أحمد بن جمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسي، بعد عزل موفق الدين الحموي دعوه إلى حماة فخطب المقدسي يوم الجمعة نصف رجب، وقرئ تقليده وكانت ولايته بإشارة تاج الدين ابن الحنا الوزير بمصر، وكان فصيحا بليغا عالما بارعا.

وفي أواخر رجب حلف الأمراء للأمير زين الدين كتبغا مع الملك الناصر محمد بن قلاوون، وسارت البيعة بذلك في سائر المدن المعاقل.

واقعة عساف النصراني

كان هذا الرجل من أهل السويداء قد شهد عليه جماعة أنه سب النبي ﷺ وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي، فاجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة فكلماه في أمره فأجابهما إلى ذلك، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس، فرأى الناس عسافا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه، فقال ذلك الرجل البدوي: هو خير منكم - يعني النصراني - فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت عسافا ووقعت خبطة قوية فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه، ورسم عليهما في العذراوية وقدم النصراني فأسلم وعقد مجلس بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة، فحقن دمه، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما، ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز، فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ﷺ قتله ابن أخيه هنالك، وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة كتابه الصارم المسلول على ساب الرسول.

وفي شعبان منها ركب الملك الناصر في أبهة الملك وشق القاهرة، وكان يوما مشهوداً، وكان هذا أول ركوبه، ودقت البشائر بالشام وجاء المرسوم من جهته، فقرئ على المنبر بالجامع فيه الأمر بنشر العدل وطي الظلم، وإبطال ضمان الأوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها.

وفي اليوم الثاني والعشرين من شعبان درس بالمسرورية القاضي جمال الدين القزويني، أخو إمام الدين، وحضر أخوه وقاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان درسا حافلا.

قال البرزالي: وفي شعبان اشتهر أن في الغيطة بجسرين تنينا عظيما ابتلع رأسا من المعز كبيراً صحيحاً.

وفي أواخر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاجين، وكان مختفيا منذ قتل الأشرف فاعتذر له عند السلطان فقبله وخلع عليه وأكرمه، ولم يكن قتله باختياره.

وفي شوال منها اشتهر أن مهنا بن عيسى خرج عن طاعة السلطان الناصر، والحاز إلى التتر.

وفي يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة درس بالغزالية الخطيب شرف الدين المقدسي عوضا عن قاضي القضاة شهاب الدين بن الخويي، لمّا توفي وترك الشامية البرانية، وقدم على قضاء الشام القاضي بدر الدين أحمد بن جماعة يوم الخميس الرابع عشر من ذي الحجة، ونزل العادلية وخرج نائب السلطنة والجيش بكماله لتلقيه، وامتدحه الشعراء، واستناب تاج الدين الجعبري نائب الخطابة وباشر تدريس الشامية البرانية، عوضا عن شرف الدين المقدسي، الشيخ زين الدين الفارقي، وانتزعت من يده الناصرية فدرس بها ابن جماعة.

وبالعادلية في العشرين من ذي الحجة، وفي هذا الشهر أخرجوا الكلاب من دمشق إلى الفلاة بأمر واليها جمال الدين آقباي، وشدد على الناس والبوابين بذلك.

وممن توفي فيها من الاعيان

الملك الأشرف

■ خليل بن قلاوون المنصور.

و■ بيدرا.

و■ الشجاعي.

و■ شمس الدين بن السلعوس.

الشيخ الإمام العلامة: تاج الدين

■ موسى بن محمد بن مسعود المراغي، المعروف بأبي الجواب الشافعي،

درس بالإقبالية وغيرها وكان من فضلاء الشافعية، له يد في الفقه والأصول والنحو وفهم جيد، توفي فجأة يوم السبت، ودفن بمقابر باب الصغير، وقد جاوز السبعين.

الخاتون

■ مؤنسة بنت السلطان العادل أبي بكر بن أيوب: وتعرف بدار القطبية، وبدار إقبال، ولدت سنة ثلاث وستمائة، وروت بالإجازة عن عفيفة الفارفانية، وعن عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج الثقفية، توفيت في ربيع الآخر بالقاهرة، ودفنت بباب زويلة.

الصاحب الوزير فخر الدين: أبو إسحاق

■ إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيباني المصري رأس الموقعين، وأستاذ الوزراء المشهورين، ولد سنة ثنتي عشرة وستمائة، وروى الحديث، وتوفي في آخر جمادى الآخرة في القاهرة.

الملك الحافظ غياث الدين محمد: الملك

■ السعيد معين الدين ابن الملك الأمجد بهرام شاه بن المعز عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فاضلا بارعاً، سمع الحديث وروى البخاري، وكان يحب العلماء والفقراء، توفي يوم الجمعة سادس شعبان، ودفن عند جده لأمه ابن المقدم، ظاهر باب الفراديس.

قاضي القضاة شهاب الدين

■ ابن الخويي: أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى بن محمد الشافعي، أصلهم من خوي.

اشتغل وحصل علوما كثيرة، وصنف كتبا كثيرة منها كتاب فيه عشرون فناً، وله نظم علوم الحديث وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وقد سمع الحديث الكثير، وكان محبا له ولأهله، وقد درس وهو صغير بالدماغية، ثم ولي قضاء القدس، ثم المحلة، ثم بهسنا، ثم ولي قضاء حلب، ثم عاد إلى المحلة، ثم ولي قضاء القاهرة، ثم قدم على قضاء الشام مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما.

وكان من حسنات الزمان وأكابر العلماء الأعلام، عفيفاً نزهاً بارعا محباً للحديث وعلمه وعلمائه، وقد خرج له شيخنا الحافظ المزي أربعين حديثا متباينة الإسناد، وخرج له تقي الدين بن عتبة الإسعردي مشيخة على حروف المعجم، اشتملت على مائتين وستة وثلاثين شيخا.

قال البرزالي: وله نحو ثلاثمائة شيخ لم يذكروا في المعجم.

توفي يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان، عن سبع وستين سنة، وصلي عليه ودفن من يومه بتربة والده بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى.

الأمير

■ علاء الدين الأعمى: ناظر القدس وباني كثيرا من معالمه اليوم، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين بن عبد الله الصالحي النجمي، كان من أكابر الأمراء، فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولي نظره فعمّره وثمّره وكان مهيبا لا تخالف مراسيمه، وهو الذي بنى المطهرة قريبا من مسجد النبي ﷺ فانتفع الناس بها في الوضوء وغيره، ووجد بها الناس تيسيرا، وابتنى بالقدس ربطا كثيرة، وآثاراً حسنة، وكان يباشر الأمور بنفسه، وله حرمة وافرة، توفي في شوال منها.

الوزير شمس الدين

■ محمد بن عثمان بن أبي الرجال التوخي، المعروف بابن السلعوس، وزير الملك الأشرف، مات تحت الضرب الذي جاوز ألف مقرعة، في عاشر صفر من هذه السنة، ودفن بالقرافة، وقيل إنه نقل إلى الشام بعد ذلك.

وكان ابتداء أمره تاجرا، ثم ولي الحسبة بدمشق بسفارة تقي الدين توبة، ثم كان يعامل الملك الأشرف قبل السلطنة فظهر منه على عدل وصدق، فلما ملك بعد أبيه المنصور استدعاه من الحج فولاه الوزارة، وكان يتعاظم على أكابر الأمراء، ويسميهم بأسمائهم، ولا يقوم لهم، فلما قتل أستاذه الأشرف تسلموه بالضرب والإهانة وأخذ الأموال، حتى أعدموه حياته، وصبروه وأسكنوه الثرى، بعد أن كان عند نفسه قد بلغ الثريا، ولكن حقا على الله أنه ما رفع شيئا إلا وضعه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله. وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأشهرا، ومدبر الممالك وأتابك العساكر الأمير زين الدين كتبغا، ونائب الشام الأمير عز الدين أيبك الحموي، والوزير بدمشق تقي الدين توبة التكريتي، وشادُّ الدواوين شمس الدين الأعسر، وقاضي الشافعية ابن جماعة، والحنفية حسام الدين الرازي، والمالكية جمال الدين الزواوي، والحنابلة شرف الدين حسن، والمحتسب شهاب الدين الحنفي، ونقيب الأشراف زين الدين بن عدنان، ووكيل بيت المال وناظر الجامع تاج الدين الشيرازي، وخطيب البلد شرف الدين المقدسي.

فلما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه، وجاؤوا إلى سوق السلاح فأخذوا ما فيه، ثم احتيط عليهم، فمنهم من صلب ومنهم من شنق، وقطع أيدي آخرين منهم وألستهم، وجرت خبطة عظيمة جدا، وكانوا قريبا من ثلاثمائة أو يزيدون.

ذكر سلطنة الملك العادل كتبغا

وأصبح الأمير كتبغا في اليوم الحادي عشر من المحرم فجلس على سرير المملكة، وخلع الملك الناصر محمد بن المنصور، وألزمه بيت أهله، وأن لا يخرج منه، وبايعه الأمراء على ذلك، وهنؤوه ومد سماطا حافلا، وسارت البريدية بذلك إلى الأقاليم، فبويع له وخطب له مستقلا وضربت السكة باسمه، وتم الأمر وزينت البلاد، ودقت البشائر، ولقب بالملك العادل، وكان عمره إذ ذاك نحواً من خمسين سنة، فإنه من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين جالوت، وكان من العُويراتية، وهم طائفة من التتر، واستناب في مصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري، وكان بين يديه مدبر المماليك.

وقد ذكر ابن الجزري في تاريخه عن بعض الأمراء أنه شهد هولاكو كان قد سأل منجمه أن يستخرج له من هؤلاء المقدمين في عسكره الذي يملك الديار المصرية، فضرب وحسب وقال له: أجده رجلا يملكها اسمه كتبغا فظنه كتبغا نوين، وهو صهر هولاكو، فقدمه على العساكر فلم يكن هو، فقتل في عين جالوت كما ذكرنا، وأن الذي ملك مصر هذا الرجل وهو من خيار الأمراء وأجودهم سيرة ومعدلة، وقصدا في نصرة الإسلام.

وفي يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول ركب كتبغا في أبهة الملك، وشق القاهرة ودعا له الناس وعزل الصاحب تاج الدين بن الحنا عن الوزارة وولى فخر الدين بن الخليلي، واستسقى الناس بدمشق عند مسجد القدم، وخطب بهم تاج الدين صالح الجعبري نيابة عن مستخلفه شرف الدين المقدسي، وكان مريضاً فعزل نفسه عن القضاء، وخطب الناس بعد ذلك، وذلك يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى، فلم يسقوا ثم استسقوا مرة أخرى يوم السبت سابع جمادى الآخرة بالمكان المذكور، وخطب بهم الشيخ شرف الدين المقدسي الخطيب وكان الجمع أكثر من أول، فلم يسقوا.

وفي رجب حكم جمال الدين بن الشريشي نيابة عن القاضي بدر الدين بن جماعة.

وفيه درس بالمعظمية القاضي شمس الدين بن العز، انتزعها من علاء الدين بن الدقاق.

وفيه ولي القدس والخليل الملك الأوحد بن الملك الناصر داود بن المعظم.

وفي رمضان رسم للحنابلة أن يصلوا قبل الإمام الكبير وذلك أنهم كانوا يصلون بعده فلما أحدث محراب الصحابة إمام كانوا يصلون جميعا في وقت واحد، فحصل تشويش بسبب ذلك، فاستقرت القاعدة على أن يصلوا قبل الإمام الكبير، في وقت صلاة مشهد علي بالصحن عند محرابهم في الرواق الثالث الغربي.

قلت: وقد تغيرت هذه القاعدة بعد العشرين وسبعمائة كما سيأتي.

وفي أواخر رمضان قدم القاضي نجم الدين بن صصرّي من الديار المصرية على قضاء العساكر بالشام.

وفي ظهر يوم الخميس خامس شوال صلى القاضي بدر الدين بن جماعة بمحراب الجامع إماما وخطيبا عوضا عن الخطيب المدرس شرف الدين المقدسي، ثم خطب من الغد وشكرت خطبته وقراءته، وذلك مضاف إلى ما بيده من القضاء وغيره.

وفي أواخر شوال قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صَصْرَى عوضا عن الخطيب المقدسي وتوقيع بتدريس الأمينية لإمام الدين القزويني عوضا عن نجم الدين بن صصرى، ورسم لأخيه جلال الدين بتدريس الظاهرية البرانية عوضا عنه.

وفي شوال كملت عمارة الحمام الذي أنشأه عز الدين الحموي بمسجد القصب، وهو من أحسن الحمامات، وباشر مشيخة دار الحديث النورية الشيخ علاء الدين بن العطار عوضا عن شرف الدين المقدسي.

وحج فيها الملك المجاهد أنس بن الملك العادل كتبغا، وتصدقوا بصدقات كثيرة في الحرمين وغيرهما.

ونودي بدمشق في يوم عرفة أن لا يركب أحد من أهل الذمة خيلا ولا بغالا، ومن رأى من المسلمين أحداً من أهل الذمة قد خالف ذلك فله سلبه.

وفي أواخر هذه السنة والتي تليها حصل بديار مصر غلاء شديد هلك بسببه خلق كثير، هلك في شهر ذي الحجة نحو من عشرين ألفا.

وفيها ملك التتار، قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان فأسلم وأظهر الإسلام على يد الأمير نوروز رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وخرب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده.

وفيها توفي من الاعيان

الشيخ

■ **أبو الرجال المنيني:** الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو الرجال بن مري من بحتر المنيني، كانت له أحوال ومكاشفات، وكان أهل دمشق والبلاد يزورونه في قرية منين، وربما قدم هو بنفسه إلى دمشق فيكرم ويضاف وكانت له زاوية ببلده، وكان بريئا من هذه السماعات الشيطانية، وكان تلميذ الشيخ جندل، وكان شيخه الشيخ جندل من كبار الصالحين سالكا طريق السلف أيضاً.

وقد بلغ الشيخ أبو الرجال ثمانين سنة، وتوفي بمنين في منزله في عاشر المحرم، وخرج الناس من دمشق إلى جنازته فمنهم من أدركها ومن الناس من لم يدرك فصلى على القبر ودفن بزاويته رحمه الله تعالى.

وفيها في أواخر ربيع الأول جاء الخبر بأن عساف بن أحمد بن حجّي الذي كان قد أجاز ذلك النصراني الذي سب الرسول علية السلام قتل ففرح الناس بذلك.

الشيخ الصالح العابد الزاهد الورع: بقية السلف جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد

■ **ابن الحرستاني** ابن قاضي القضاة، وخطيب الخطباء، عماد الدين عبد الكريم بن جمال الدين عبد الصمد.

سمع الحديث وناب عن أبيه في الإمامة وتدريس الغزالية، ثم ترك المناصب والدنيا، وأقبل على العبادة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن صالح، يقبلون يده ويسألونه الدعاء، وقد جاوز الثمانين، ودفن بالسفح عند أهله في أواخر ربيع الآخر.

الشيخ

■ **محب الدين الطبري المكي الشافعي:** سمع الكثير وصنف في فنون كثيرة، من ذلك كتاب الأحكام في مجلدات كثيرة مفيدة، وله كتاب على ترتيب جامع المسانيد أسمعه لصاحب اليمن.

وكان مولده يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وست مئة، ودفن بمكة، وله شعر جيد فمنه قصيدته في المنازل التي بين مكة والمدينة تزيد على ثلاثمائة بيت، كتبها عنه الحافظ شرف الدين الدمياطي في معجمه.

الملك

■ **المظفر صاحب اليمن يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول:** أقام في مملكة اليمن بعد أبيه سبعا وأربعين سنة، وعمر ثمانين سنة، وكان أبوه قد ولي أزيد من مدة عشرين سنة بعد الملك أقسيس بن الكامل محمد.

وكان عمر بن رسول مقدم عساكر أقسيس، فلما مات أقسيس وثب على الملك فتم له الأمر وتسمى بالملك المنصور، واستمر أزيد من عشرين سنة، ثم ابنه المظفر سبعا وأربعين سنة، ثم قام من بعده في الملك ولده الملك الأشرف ممهد الدين فلم يمكث سنة حتى مات، ثم قام أخوه المؤيد هزبر الدين داود بن المظفر فاستمر في الملك مدة، وكانت وفاة الملك المظفر المذكور في رجب من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين، وكان يحب الحديث وسماعه، وقد جمع لنفسه أربعين حديثا.

■ شرف الدين المقدسي: الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي، شرف الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسي الشافعي.

ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وسمع الكثير وكتب حسنا وصنف فأجاد وأفاد، وولي القضاء نيابة بدمشق والتدريس والخطابة بدمشق، وكان مدرس الغزالية ودار الحديث النورية مع الخطابة.

ودرس في وقت بالشامية البرانية وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول: أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء.

وكان يتقن فنونا كثيرة من العلوم، وله شعر حسن، وصنف كتابا في أصول الفقه جمع فيه شيئا كثيرا، وهو عندي بخطه الحسن، توفي يوم الأحد سابع عشر رمضان وقد جاوز السبعين، ودفن بمقابر باب كيسان عند والده رحمه اللّه ورحم أباه، وقد خطب بعده يوم العيد الشيخ شرف الدين الفزاري خطيب جامع جراح ثم جاء المرسوم لابن جماعة بالخطابة.

ومن شعر الخطيب شرف الدين بن نعمة المقدسي:

احجج إلى الزهر لتسعى به وارم جمار الهم مستنفرا
من لم يطف بالزهر في وقته من قبل أن يحلق قد قصرا

واقف الجوهرية الصدر نجم الدين أبو بكر

■ محمد بن عياش بن أبي المكارم التميمي الجوهري، واقف الجوهرية على الحنفية بدمشق توفي ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال، ودفن بمدرسته وقد جاوز الثمانين، وكانت له خدم على الملوك، فمن دونهم.

الشيخ الإمام العالم المفتي الخطيب الطبيب، مجد الدين أبو محمد

■ عبد الوهاب بن أحمد بن أبي الفتح بن سحنون التنوخي الحنفي: خطيب النيرب ومدرس الدماغية للحنفية، وكان طبيباً ماهراً حاذقا، توفي بالنيرب وصلي عليه بجامع الصالحية، وكان فاضلا وله شعر حسن، وروى شيئاً من الحديث، توفي ليلة السبت خامس ذي القعدة عن خمس وسبعين سنة.

■ الفاروثي الشيخ الإمام العابد الزاهد الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور بن علي بن غنيمة الفاروثي الواسطي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الحديث ورحل فيه، وكانت له فيه يد جيدة، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة.

وكان دينا ورعا زاهداً، قدم إلى دمشق في دولة الظاهر فأعطي تدريس الجاروخية وإمام مسجد ابن هشام، ورتب له فيه شيء على المصالح، وكان فيه إيثار وله أحوال صالحة، ومكاشفات كثيرة.

تقدم يوما في محراب مسجد ابن هشام ليصلي بالناس فقال ـ قبل أن يكبر للإحرام والتفت عن يمينه ـ فقال: اخرج فاغتسل،فلم يخرج أحد، ثم كرر ذلك ثانية وثالثة، فلم يخرج أحد،فقال: يا عثمان اخرج فاغتسل فخرج رجل من الصف فاغتسل ثم عاد وجاء إلى الشيخ يعتذر إليه، وكان الرجل صالحا في نفسه، ذكر أنه أصابه فيض من غير أن يرى شخصا، فاعتقد أنه لا يلزمه غسل، فلما قال الشيخ ما قال: اعتقد أنه يخاطب غيره، فلما عينه باسمه علم أنه المراد.

ثم قدم الفاروثي مرة أخرى في أواخر أيام المنصور قلاوون فخطب بجامع دمشق مدة شهور، ثم عزل بموفق الدين بن الحموي، وتقدم ذكر ذلك.

وكان قد درس بالنجيبية وبدار الحديث الظاهرية، فترك ذلك كله وسافر إلى وطنه، فمات بكرة يوم الأربعاء مستهل ذي الحجة، وكان يوم موته يوما مشهوداً بواسط، وصلي عليه بدمشق وغيرها رحمه اللّه، وكان قد لبس خرقة التصوف من السهروردي، وقرأ القراءات العشرة وخلف ألفي مجلد ومائتي مجلدٍ، وحدث بالكثير.

وسمع منه البرزالي كثيراً صحيح البخاري وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه، ومسند الشافعي، ومسند عبد بن حميد، ومعجم الطبراني الصغير، ومسند الدارمي وفضائل القرآن لأبي عبيد، وثمانين جزءاً وغير ذلك.

الجمال المحقق

■ أحمد بن عبد اللّه بن الحسين الدمشقي، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعي، وبرع فيه وأفتى وأعاد، وكان فاضلا في الطب، وقد ولي مشيخة الدخوارية لتقدمه في صناعة الطب على غيره، وعاد المرضى بالمارستان النوري على قاعدة الأطباء، وكان مدرسا للشافعية بالفرُخشاهية، ومعيدا بعدة مدارس، وكان جيد الذهن مشاركا في فنون كثيرة سامحه اللّه.

■ الست خاتون بنت الملك الأشرف: موسى بن العادل زوجة ابن عمها المنصور بن الصالح إسماعيل بن العادل، وهي التي أثبت سفهها زمن المنصور قلاوون حتى اشترى منها حَرَزْما وأخذت الزنبقية من زين الدين السامري.

الصدر جمال الدين

■ يوسف بن علي بن مهاجر التكريتي: أخو الصاحب تقي الدين توبة، ولي حسبة دمشق في وقت، ودفن بتربة أخيه بالسفح، وكانت جنازته حافلة، وكان له عقل وافر، وثروة ومروءة، وخلف ثلاث بنين: شمس الدين محمد، وعلاء الدين علي، وبدر الدين حسن.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد العباسي.

وسلطان البلاد الملك العادل زين الدين كتبغا، ونائبه بمصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري، ووزيره فخر الدين بن الخليلي.

وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب الشام عز الدين الحموي، ووزيره تقي الدين توبة.

وشاد الدواوين الأعسر، وخطيب البلد وقاضيها ابن جماعة.

وفي المحرم ولي نظر الأيتام نجم الدين بن هلال، عوضاً عن شرف الدين بن الشيرجي.

وفي مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء بديار مصر شديداً جداً، وقد تفانى الناس إلا القليل، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها الفئام من الناس، والأسعار في غاية الغلاء، والأقوات في غاية القلة والغلاء، والموت عمَّال، فمات بها في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفا.

ووقع غلاء بالشام، فبلغت الغرارة إلى مائتين، وقدمت طائفة من التتر العُيراتية لما بلغهم سلطنة كتبغا إلى الشام لأنه منهم،فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة،ثم سافروا إلى الديار المصرية مع الأمير قراسنقر المنصوري.

وجاء الخبر باشتداد الغلاء والفناء بمصر، حتى قيل إنه بيع الفروج بالإسكندرية بستة وثلاثين درهما، وبالقاهرة بتسعة عشر، والبيض كل ثلاثة بدرهم، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه.

وفي يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى ولي قضاء القضاة بمصر الشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن دقيق العيد، عوضاً عن تقي الدين ابن بنت الأعز، ثم وقع الرخص بالديار المصرية وزال الضر والجوع في جمادى الآخرة ولله الحمد.

وفي يوم الأربعاء ثاني شهر رجب درس القاضي إمام الدين بالقيمرية، عوضا عن صدر الدين بن رزين الذي توفي.

قال البرزالي: وفيها وقعت صاعقة على قبة زمزم، فقتلت الشيخ علي بن محمد بن عبد السلام، مؤذن المسجد الحرام، كان يؤذن على سطح القبة المذكورة، وكان قد روى شيئا من الحديث.

وفيها قدمت امرأة الملك الظاهر أم سلامش من بلاد الأشكري إلى دمشق في أواخر رمضان، فبعث إليها نائب البلد بالهدايا والتحف، ورتبت لها الرواتب والإقامات، وكان قد نفاهم خليل بن المنصور لما ولي السلطنة.

قال ابن الجزري: وفي رجب درس كمال الدين بن القلانسي بالظاهرية البرّانية عوضاً عن جلال الدين القزويني.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر شعبان درس الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية الحراني بالمدرسة الحنبلية، عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجى توفي إلى رحمة الله، ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد بن المنجا لشمس الدين بن الفخر البعلبكي.

وفي آخر شوال ناب القاضي جمال الدين الزرعي الذي كان حاكما بزرع، وهو سليمان بن عمر بن سالم الأزرعي عن ابن جماعة بدمشق، فشكرت سيرته.

وفيها خرج السلطان كتبغا من مصر قاصدا الشام في أواخر شوال، ولما جاء البريد بذلك ضربت البشائر بالقلعة، ونزلوا بالقلعة السلطان ونائبه لاجين، ووزيره ابن الخليلي.

وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة ولي قضاء الحنابلة الشيخ تقي الدين سليمان بن حمزة المقدسي عوضاً عن شرف الدين مات رحمه الله تعالى وخلع عليه وعلى بقية الحكام وأرباب الولايات الكبار وأكابر الأمراء.

وولي نجم الدين بن أبي الطيب وكالة بيت المال، عوضاً عن ابن الشيرازي، وخلع عليه مع الجماعة، ورسم على الأعسر وجماعة من أصحابه، وخلق من الكتبة والولاة، وصودروا بمال كثير، واحتيط على أموالهم وحواصلهم، وعلى ابن السلعوس وابن عدنان وخلق.

وجرت خبطة عظيمة، وقدم ابنا الشيخ علي الحريري حسن وشيث من بسر لزيارة السلطان فحصل لهما منه رفد وإسعاف وعادا إلى بلدهما، وضيفت القلندرية السلطان بسفح جبل المزة، فأعطاهم نحواً من عشرة آلاف، وقدم صاحب حماة إلى خدمة السلطان، ولعب معه الكرة بالميدان، واشتكت الأشراف من نقيبهم زين الدين بن عدنان، فرفع الصاحب يده عنهم، وجعل أمرهم إلى القاضي الشافعي.

فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة صلى السلطان الملك العادل كتبغا بمقصورة الخطابة، وعن يمينه صاحب حماة، وتحته بدر الدين أمير سلاح، وعن يساره أولاد الحريري حسن وأخواه، وتحتهم نائب المملكة حسام الدين لاجين، وإلى جانبه نائب الشام عز الدين الحموي، وتحته بدر الدين بيسري، وتحته قراسنقر، وإلى جانبه الحاج بهادر، وخلفهم أمراء كبار، وخلع على الخطيب بدر الدين بن جماعة خلعة سنية.

ولما قضيت الصلاة سلم على السلطان، وزار السلطان المصحف العثماني، ثم أصبح يوم السبت فلعب الكرة بالميدان على العادة.

وفي يوم الاثنين ثاني ذي الحجة عزل الأمير عز الدين الحموي عن نيابة الشام، وعاتبه السلطان عتابا كثيرا على أشياء صدرت منه، ثم عفا عنه، وأمره بالمسير معه إلى مصر، واستناب بالشام الأمير سيف الدين غرلو العادلي، وخلع على المولى وعلى المعزول أيضاً، وحضر السلطان دار العدل، وحضر عنده الوزير والقضاة والأمراء، وكان عادلا كما سمي وفيه تولى الوزارة شهاب الدين الحنفي عوضاً عن التقي ابن البيِّع التكريتي، وولّى تقي الدين بن شهاب الدين الحسبة عوضاً عن أبيه وخلع عليهما.

ثم سافر السلطان في ثاني عشر ذي الحجة واجتاز على جوسيّة، ثم أقام بالبرية أياما، ثم عاد فنزل حمص، وجاء إليه نواب البلاد، وجلس الأمير غرلو نائب دمشق بدار العدل فحكم وعدل، وكان محمود السيرة، سديد الحكم، رحمه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ زين الدين

■ ابن مُنجّا: الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين، الصدر الكامل، زين الدين أبو البركات بن المنجّا بن الصدر عز الدين أبي عمرو عثمان بن أسعد بن المنجّا بن بركات بن المؤمّل التوخي، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وتفقه، فبرع في فنون من العلم كثيرة، من الأصول والفروع، والعربية، والتفسير وغير ذلك، وانتهت إليه رياسة المذهب، وصنف في الأصول، وشرح المقنع، وله تعاليق في التفسير.

وكان قد جمع له بين حسن السمت، والديانة والعلم، والوجاهة، وصحة الذهن والعقيدة، والمناظرة، وكثرة الصدقة، ولم يزل يواظب الجامع للاشتغال متبرعاً، حتى توفي في يوم الخميس رابع شعبان، وتوفيت معه زوجته أم محمد ست البهاء، بنت صدر الدين الخجندي، وصلى عليهما بعد الجمعة بجامع دمشق، وحملا جميعا إلى سفح قاسيون، شمالي الجامع المظفري تحت الروضة، فدفنا في تربة واحدة، رحمهما الله تعالى، وهو والد قاضي القضاة علاء الدين، وكان شيخ المسمارية، ثم وليها بعده ولداه شرف الدين وعلاء الدين، وكان شيخ الحنبلية فلدرس بها بعده الشيخ تقي الدين بن تيمية كما ذكرنا ذلك في الحوادث.

■ المسعودي صاحب الحمام بالمزة: أحد كبار الأمراء، الأمير الكبير بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله المسعودي، أحد الأمراء المشهورين بخدمة الملوك، توفي ببستانه بالمزة يوم السبت سابع عشرين من شعبان، ودفن صبح يوم الأحد بتربته بالمزة، وحضر نائب السلطنة جنازته، وعمل عزاؤه تحت النسر بجامع دمشق رحمه الله تعالى.

الشيخ الخالدي: الشيخ الصالح

■ إسرائيل بن علي بن حسين الخالدي، له زاوية خارج باب السلامة، كان يقصد فيها للزيارة، وكان مشتملا على عبادة وزهادة، وكان لا يقوم لأحد من الناس، ولو كان من كان، وعنده سكون وخشوع، ومعرفة بالطريق، وكان لا يخرج من منزله إلا للجمعة، حتى كانت وفاته في النصف من رمضان، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

الشرف حسن المقدسي: هو قاضي القضاة شرف الدين أبو الفضل الحسين ابن الشيخ الإمام الخطيب شرف الدين أبي بكر عبد الله ابن

الشيخ أبي عمر المقدسي، سمع الحديث وتفقه، وبرع في الفروع واللغة، وفيه أدب وحسن محاضرة، مليح الشكل، تولى القضاء بعد نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين في أواخر سنة تسع وثمانين، ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح، توفي ليلة الخميس الثاني والعشرين من شوال، وقد قارب الستين، ودفن من الغد بمقبرة جده بالسفح، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازته، وعمل من الغد عزاؤه بالجامع المظفري، وباشر القضاء بعد تقي الدين سليمان بن حمزة، وكذا مشيخة دار الحديث الأشرفية بالسفح، وقد وليها شهاب الدين العابر الحنبلي النابلسي مدة شهور، ثم صرف عنها، واستقرت بيد قاضي القضاة التقي سليمان المقدسي.

الشيخ الصالح الإمام العالم البارع الناسك:

■ **أبو محمد بن أبي حمزة المغربي المالكي،** توفي بالديار المصرية في ذي القعدة، وكان قوالا بالحق، أماراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر.

الصاحب

■ **محيي الدين بن النحاس:** أبو عبد الله محمد بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدي الحلبي الحنفي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة بحلب، واشتغل وبرع، وسمع الحديث، وأقام بدمشق مدة، ودرس بها بمدارس كبار، منها الظاهرية والزنجارية، وولي القضاء بحلب، والوزارة بدمشق، ونظر الخزانة، ونظر الدواوين والأوقاف، ولم يزل مكرماً معظماً، معروفاً بالفضيلة، والإنصاف في المناظرة، محباً للحديث وأهله على طريقة السلف، وكان يحب الشيخ عبد القادر وطائفته، توفي ببستانه بالمزة، عشية الاثنين سلخ ذي الحجة، وقد جاوز الثمانين، ودفن يوم الثلاثاء مستهل المحرّم سنة ست وتسعين بمقبرة له بالمزة، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة.

■ (**عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن بنت القاضي الأعزّ**).

قاضي القضاة: تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب ابن بنت القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن بدر العلائي الشافعي، توفي في جمادى الأولى، ودفن بالقرافة بتربتهم رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم العباسي، وسلطان البلاد الملك العادل زين الدين كتبغا وهو في نواحي حمص يتصيد، ومعه نائب الديار المصرية حسام الدين لاجين السلحداري المنصوري، وأكابر الأمراء، ونائب الشام بدمشق الأمير سيف الدين غرلو العادلي، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها غير الحنبلي فإنه تقي الدين سليمان بن حمزة والوزير شهاب الدين الحنفي وابنه المحتسب وخطيب البلد قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي.

فلما كان يوم الأربعاء ثاني المحرم دخل السلطان كتبغا إلى دمشق، من نواحي حمص وصلى الجمعة بالمقصورة، وزار قبر هود وصلى عنده، وأخذ من الناس قصصهم بيده، وجلس بدار العدل في يوم السبت، ووقع على القصص هو ووزيره فخر الدين الخليلي.

وفي هذا الشهر حضر شهاب الدين بن محيي الدين بن النحاس في مدرستي أبيه الريحانية والظاهرية، وحضر الناس عنده، ثم حضر السلطان دار العدل يوم الثلاثاء، وجاء يوم الجمعة فصلى الجمعة بالمقصورة، ثم صعد في هذا اليوم إلى مغارة الدم لزيارتها، ودعا هنالك، وتصدق بجملة من المال، وحضر الوزير فخر الدين بن الخليلي ليلة الأحد ثالث عشر المحرم إلى الجامع بعد العشاء، فجلس عند شباك الكاملية، وقرأ القرّاء بين يديه، ورسم بأن يكمل داخل الجامع بالفرش ففعلوا ذلك، واستمر ذلك نحواً من شهرين، ثم عاد إلى ما كان عليه.

وفي صبيحة هذا اليوم درس القاضي شمس الدين بن الحريري بالقيمازية، عوضاً عن ابن النحاس باتفاق منهم، وحضر عنده جماعة، ثم صلى السلطان الجمعة بالمقصورة، ومعه وزيره ابن الخليلي، وهو ضعيف من مرض أصابه.

وفي سابع عشر المحرم أمر للملك الكامل ابن الملك السعيد بن الصالح إسماعيل بن العادل بطبلقانة، ولبس الشربوش، ودخل القلعة، وضُربت له الكوسات على بابه، ثم خرج السلطان العادل كتبغا بالعساكر المنصورة من دمشق بكرة الثلاثاء، ثاني عشرين المحرم، وخرج بعده الوزير، فاجتاز بدار الحديث، وزار الأثر النبوي، وخرج إليه الشيخ زين الدين الفارقي، وشافهه بتدريس الناصرية، وترك زين الدين تدريس الشامية البرانية، فوليها القاضي كمال الدين بن الشريشي، وذكر أن الوزير أعطى الشيخ زين الدين شيئا من حطام الدنيا فقبله، وكذلك أعطى خادم الأثر وهو المعين خطاب، وخرج الأعيان والقضاة مع الوزير لتوديعه.

ووقع في هذا اليوم مطر جيد، استشفى الناس به، وغسل آثار العساكر من الأوساخ وغيرها، وعاد التقي توبة من توديع الوزير، وقد فوض إليه نظر الخزانة، وعزل عنها شهاب الدين بن النحاس، ودرس الشيخ زين الدين بالناصرية الجوانية، عوضاً عن القاضي بدر الدين بن جماعة في يوم الأربعاء آخر يوم من المحرم.

وفي هذا اليوم تحدث الناس فيما بينهم بوقوع تخبيط بين العساكر، وخلف وتشويش، فغلق باب القلعة الذي يلي المدينة، ودخل الصاحب شهاب الدين إليها من باب الخوخة، وتهيأ النائب والأمراء، وركب طائفة من الجيش على باب النصر وقوفا هنالك، فلما كان وقت العصر وصل السلطان الملك العادل كتبغا إلى القلعة، في خمسة أنفس أو ستة من مماليكه، فدخل القلعة، فجاء إليه الأمراء، وأحضر ابن جماعة، وحسام الدين الحنفي، وتجدّد تحليف الأمراء ثانية فحلفوا، وخلع عليهم وأمر بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين وحواصله، وأقام العادل بالقلعة هذه الأيام، وكان الخلف الذي وقع بينهم بوادي فحمة يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم، وذلك أن الأمير حسام الدين لاجين كان قد واطأ جماعة من الأمراء في الباطن على العادل، وتوثق منهم، وأشار على العادل حين خرجوا من دمشق أن يستصحب معه الخزانة، وذلك لئلا يبقى بدمشق شيء من المال يتقوى به العادل إن فاتهم ورجع إلى دمشق، ويكون قوة له هو في الطريق على ما عزم عليه من الغدر، فلما كانوا بالمكان المذكور قتل لاجين الأمير سيف الدين بتخاص، وبكتوت الأزرق العادليين، وأخذ الخزانة من بين يديه والعسكر، وقصدوا الديار المصرية، فلما سمع العادل بذلك خرج من الدهليز، وساق جريدة إلى دمشق فدخلها كما ذكرنا، وتراجع إليه بعض مماليكه كزين الدين غلبك وغيره، ولزم شهاب الدين الحنفي القلعة لتدبير المملكة، ودرس كمال الدين ابن الشريشي بالشامية البرانية بكرة يوم الخميس مستهل صفر، وتقلبت أمور كثيرة في هذه الأيام، ولزم السلطان القلعة لا يخرج منها، وأطلق كثيراً من المكوس، وكتب بذلك تواقيع، وقرئت على الناس، وغلا السعر جداً

فبلغت الغرارة مائتين، واشتد الحال، وتفاقم الأمر، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

سلطنة الملك منصور لاجين السلحدار

وذلك أنه لما استاق الخزانة وذهب بالجيوش إلى الديار المصرية دخلها في أبهة عظيمة، وقد اتفق معه جمهور الأمراء الكبار، وبايعوه وملكوه عليهم، وجلس على سرير الملك يوم الجمعة عاشر صفر، ودقت بمصر البشائر، وزينت البلد، وخطب له على المنابر، وبالقدس والخليل، ولقب بالملك المنصور، وكذلك دقت له البشائر بالكرك ونابلس وصفد، وذهبت إليه طائفة من أمراء دمشق، وقدمت الجريدة من جهة الرحبة صحبة الأمير سيف الدين كجكن، فلم يدخلوا البلد، بل نزلوا بميدان الحصى، وأظهروا مخالفة العادل وطاعة المنصور لاجين صاحب مصر، وركب إليه الأمراء طائفة بعد طائفة، وفوجا بعد فوج، فضعف أمر العادل جداً، فلما رأى انحلال أمره قال للأمراء: هو خشداشي وأنا وهو شيء واحد، وأنا له سامع مطيع، وأنا أجلس في أي مكان من القلعة أراد، حتى تكاتبوه وتنظروا ما يقول.

وجاءت البريدية بالمكاتبات، بأمر الاحتياط على القلعة وعلى العادل، وبقي الناس في هرج، وأقوال مختلفة، وأبواب القلعة مغلقة، وأبواب البلد سوى باب النصر إلا الخوخة، والعامة حول القلعة قد ازدحموا حتى سقطت طائفة منهم في الخندق فمات بعضهم، وأمسى الناس عشية السبت وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين، ودقت البشائر بذلك بعد العصر، ودعا له المؤذنون في سحر ليلة الأحد بجامع دمشق، وتلوا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأصبح الناس يوم الأحد فاجتمع القضاة والأمراء، وفيهم غرلو العادلي بدار السعادة، فحلفوا للمنصور لاجين، ونودي بذلك في البلد، وأن يفتح الناس دكاكينهم، واختفى الصاحب شهاب الدين وأخوه زين الدين المحتسب، فعمل الوالي ابن النشابي حسبة البلد، ثم ظهر زين الدين فباشرها على عادته. وكذلك ظهر أخوه شهاب الدين، وسافر الأمير سيف الدين غرلو والأمير جاغان إلى الديار المصرية، يعلمان السلطان بوقوع التحليف على ما رسم به، وجاء كتاب السلطان أنه جلس على السرير يوم الجمعة عاشر صفر، وشق القاهرة في سادس عشرة في أبهة المملكة، وعليه الخلعة الخليفية، والأمراء بين يديه مشاة، وأنه قد استناب بمصر الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، وخطب للمنصور لاجين بدمشق أول يوم ربيع الأول، وحضر المقصورة القضاة وشمس الدين الأعسر وكجكن، وأسندمر، وجماعة من أمراء دمشق، توجه القاضي إمام الدين القزويني، وحسام الدين الحنفي، وجمال الدين المالكي إلى الديار المصرية مطلوبين، وقدم الأمير حسام الدين أستاذ دار السلطان، وسيف الدين جاغان من جهة السلطان فحلفوا الأمراء ثانية، ودخلوا على العادل إلى القلعة ومعهم القاضي بدر الدين بن جماعة وكجكن فحلفوه أيماناً مؤكدة، بعدما طال بينهم الكلام بالتركي، وذكر في حَلِفِه أنه راض بما يُعيِّنه من البلدان أي بلد كان، فوقع التعيين بعد اليمين على قلعة صرخد، وجاءت المراسيم بالوزارة لتقي الدين توبة، وعزل شهاب الدين الحنفي، وبالحسبة لأمين الدين يوسف الأرمني الرومي صاحب شمس الدين الأيكي، عوضاً عن زين الدين الحنفي، أخي شهاب الدين الذي كان وزيراً ودخل الأمير سيف الدين قبجق المنصوري على نيابة الشام إلى دمشق بكرة السبت، السادس عشر من ربيع الأول، ونزل دار السعادة، عوضاً عن سيف الدين غرلو العادلي، وقد خرج الجيش بكماله لتلقيه، وحضر يوم الجمعة إلى المقصورة، فصلى بها، وقرأ بعد الجمعة كتاب السلطان بإبطال الضمانات من الأوقاف والأملاك بغير رضى أصحابها، قرأه القاضي محيي الدين بن فضل اللّه صاحب ديوان الإنشاء، ونودي في البلد من له مظلمة فليأت يوم الثلاثاء إلى دار العدل، وخلع على الأمراء والمقدمين وأرباب المناصب من القضاة والكتبة، وغيرهم وخلع على ابن جماعة خلعتين واحدة للقضاء، والأخرى للخطابة.

ولما كان في شهر جمادى الآخرة وصل البريد فاخبر بولاية إمام الدين القزويني قضاء القضاة بالشام، عوضا عن بدر الدين بن جماعة، وإبقاء ابن جماعة على الخطابة، وأضيف إليه تدريس القيمرية التي كانت بيد إمام الدين، وجاء كتاب السلطان بذلك، وفيه احترام وإكرام له، فدرس بالقيمرية يوم الخميس ثاني رجب، ودخل إمام الدين إلى دمشق عقيب صلاة الظهر، يوم الأربعاء الثامن من رجب، فجلس بالعادلية، وحكم بين الناس، وامتدحه الشعراء بقصائد، منها قصيدة لبعضهم يقول في أولها:

تبدلت الأيامُ من بعدِ عسرها يُسرا فأضحتْ ثغورُ الشام تفترُّ بالبشرى

وكان حال دخوله عليه خلعة السلطان، ومعه القاضي جمال الدين الزواوي، قاضي قضاة المالكية، وعليه خلعة أيضاً، وقد شكر سيرة إمام الدين في السفر، وذكر من حسن أخلاقه ورياضته ما هو حسن جميل، ودرس بالعادلية بكرة الأربعاء منتصف رجب، وأشهد عليه بعد الدرس بتوليه أخيه جلال الدين نيابة الحكم، وجلس في الإيوان الصغير وحكمَ وعليه الخلعة، وجاء الناس يهنئونه، وقرئ تقليده يوم الجمعة بالشباك الكمالي بعد الصلاة، بحضرة نائب السلطنة وبقية القضاة، قرأه شرف الدين الفزاري.

وفي شعبان وصل الخبر بأن شمس الدين الأعسر تولى بالديار المصرية شدَّ الدواوين والوزارة، وباشر المنصبين جميعاً، وباشر نظر الدواوين بدمشق فخر الدين بن الشيرجي، عوضاً عن نجم الدين بن صصرى، ثم عزل بعد قليل بشهر أو أقل بأمين الدين بن هلال، وأعيدت الشامية البرانية إلى الشيخ زين الدين الفارقي مع الناصرية، بسبب غيبة كمال الدين بن الشريشي بالقاهرة ودرّس فيها في شهر رمضان يوم اثنين بعد العصر.

وفي الرابع عشر من ذي القعدة مُسِكَ الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب الديار المصرية للاجين هو وجماعة من الأمراء معه، واحتيط على حواصلهم وأموالهم بمصر والشام، وولى السلطان نيابة مصر للأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي، وهؤلاء الأمراء الذين مسكهم هم الذين كانوا قد أعانوه وبايعوه على العادل كتبغا، وقدم الشيخ كمال الدين الشريشي من الديار المصرية ومعه توقيع بتدريس الناصرية، عوضاً عن الشامية البرانية، ودرس فيها يوم السبت يوم عرفة وأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير مصر وشادُّ الدواوين، يوم السبت الثالث والعشرين من ذي الحجة، واحتيط على أمواله وحواصله بمصر والشام أيضاً، ونودي بمصر في ذي الحجة ان لا يركب أحد من أهل الذمة فرسا ولا بغلا، ومن وجد منهم راكبا ذلك أخذ منه.

وفيها ملك اليمن السلطان الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك

المظفر المتقدم ذكره في التي قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان

قاضي قضاة الحنابلة بمصر: عز الدين

■ عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي، سمع الحديث، وبرع في المذهب، وحكم بمصر، وكان مشكورا في سيرته وحكمه، توفي في صفر، ودفن بالمقطم، وتولى بعده شرف الدين عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر الحراني بديار مصر.

الشيخ الإمام الحافظ القدوة: عفيف الدين أبو محمد

■ عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصري الحنبلي، توفي بالمدينة النبوية، في أواخر صفر، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وجاور بالمدينة النبوية خمسين سنة، وحج فيها أربعين حجة متوالية، وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب رحمه الله.

الشيخ

■ شيث بن الشيخ علي الحريري: توفي بقرية بسر من حوران، يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر، وتوجه أخوه حسن والفقراء من دمشق إلى هناك، لتعزية أخيهم حسن الأكبر فيه.

الشيخ الصالح المقرئ: جمال الدين

■ عبد الواحد بن كثير بن ضرغام المصري، ثم الدمشقي، نقيب السبع الكبير، والغزالية، كان قد قرأ على السخاوي، وسمع الحديث، توفي في أواخر رجب، وصلي عليه بالجامع الأموي ودفن بالقرب من قبة الشيخ رسلان.

واقف السامرية: الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس

■ أحمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري، واقف السامرية التي إلى جانب الكروسية بدمشق، وكان داره التي يسكن بها، ودفن بها، ووقفها دار حديث وقانقاه، وكان قد انتقل إلى دمشق، وأقام بها بهذه الدار مدة، وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام، بناها من حجارة منحوتة كلها.

وكان السامري كثير الأموال، حسن الأخلاق، معظما عند الدولة، جميل المعاشرة، له أشعار رائقة، ومبتكرات فائقة، توفي يوم الاثنين ثامن عشر شعبان.

وقد كان ببغداد له حظوة عند الوزير ابن العلقمي، وامتدح المستعصم، وخلع عليه خلعة سوداء سنية، ثم قدم دمشق في أيام الناصر صاحب حلب فحظي عنده أيضاً، فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة، فتح عليهم بسببها بابا، فصادرهم الملك بعشرين ألف دينار، فعظموه جدا، وتوسلوا به إلى أغراضهم، وله قصيدة في مدح النبي ﷺ، وقد كتب عنه الحافظ الدمياطي شيئاً من شعره.

واقف النفيسية التي بالرصيف: الرئيس نفيس الدين أبو الفداء

■ إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن سلامة بن علي بن صدقة الحراني، كان أحد عدول القسمة بدمشق، وولي نظر الأيتام في وقت، وكان ذا ثروة من المال، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمع الحديث، ووقف داره دار حديث، توفي يوم السبت بعد الظهر، الرابع من ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون، بكرة يوم الأحد بعد ما صلي عليه بالأموي.

■ (الشاروت الدمشقي).

الشيخ أبو الحسن المعروف بالشاروت الدمشقي: يلقب بنجم الدين، ترجمه الحريري فأطنب، وذكر له كرامات وأشياء من علم الحروف وغيرها، والله أعلم بحاله.

وفيها قتل قازان الأمير نوروز الذي كان إسلامه على يديه، كان نوروز هذا هو الذي استسلمه ودعاه للإسلام فأسلم، وأسلم معه أكثر التتر، فإن التتر شوشوا خاطر قازان عليه، واستمالوه منه وعنه، فلم يزل به حتى قتله، وقتل جميع من ينسب إليه، وكان نوروز هذا من خيار أمراء التتر عند قازان، وكان ذا عبادة وصدق في إسلامه، وأذكاره وتطوعاته، وقصده الحسن رحمه الله وعفا عنه، ولقد أسلم على يديه منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، واتخذوا السبح والهياكل، وحضروا الجمع والجماعات، وقرؤوا القرآن، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي وسلطان البلاد الملك المنصور حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري، ونائبة بمصر منكوتمر، وبدمشق سيف الدين قبجق، وقاضي الشافعية إمام الدين القزويني وقاضي الحنفية حسام الدين الرازي، ثم ولي ابنه جلال الدين مكانه بدمشق في عاشر صفر، وركب بالخلعة والطرحة وهنأه الناس، وكُتِبَ في الإسجالات قاضي القضاة. وقاضي المالكية جمال الدين الزواوي، وقاضي الحنابلة تقي الدين سليمان بن حمزة بن الشيخ أبي عمر وخطيب البلد بدر الدين بن جماعة وطلب قاضي القضاة الحنفية بمصر عن عوضا عن شمس الدين السروجي، واستقر ولده جلال بدمشق قاضي قضاة الحنفية، ودرس بمدرستي أبيه الخاتونية والمقدمية، وترك مدرسة القصاعين والشبلية.

وجاء الخبر على يدي البريد بعافية السلطان، من الوقعة التي كان وقعها فدقت البشائر، وزينت البلد، فإنه سقط عن فرسه وهو يلعب بالكرة، فكان كما قال الشاعر:

حويتَ بطشاً وإحساناً ومعرفةً وليس يَحملُ هذا كلهُ الفرسُ

وجاء على يديه تقليد وخلعة لنائب السلطنة، فقرأ التقليد وباس العتبة.

وفي ربيع الأول درس بالجوزية عز الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين سليمان، وحضر عنده إمام الدين الشافعي، وأخوه جلال الدين وجماعة من الفضلاء، وبعد التدريس جلس وحكم عن أبيه، بإذنه له في ذلك.

وفي ربيع الأول غضب قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد وترك الحكم بمصر أياما، ثم استرضي وعاد، وشرطوا عليه أن لا يستتيب ولده المحب.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالمدرسة المعظمية، وخطب فيها مدرسها القاضي شمس الدين بن المعز الحنفي، واشتهر في هذا الحين القبض على بدر الدين بيسري، واحتيط على أمواله بديار مصر.

وأرسل السلطان بجريدة صحبة علم الدين الدواداري إلى تل حمدون، ففتحه بحمد الله ومنه، وجاء الخبر بذلك إلى دمشق في الثاني عشر من رمضان. وضُرِبت به الخليلية وأذن بها الظهر، وكان أخذها يوم الأربعاء سابع رمضان، ثم فتحت مرعش بعدها فدقت البشائر، ثم انتقل الجيش إلى قلعة حمص، فأصيب جماعة من الجيش، منهم الأمير علم الدين سنجر طقصبا، أصابه زيّارٌ في فخذه، وأصاب الأمير علم الدين الدواداري حجر

في رجله.

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر شوال عمل الشيخ تقي الدين بن تيمية ميعادا في الجهاد، وحرض فيه وبالغ في أجور المجاهدين، وكان وقتاً مشهوداً وميعاداً حافلا جليلا.

وفي هذا الشهر عاد الملك المسعود نجم الدين بن خضر بن الظاهر من بلاد الأشكري إلى ديار مصر، بعد أن مكث هناك من زمن الأشرف بن المنصور، وتلقاه السلطان بالموكب، وأكرمه وعظمه، وحج الأمير خضر بن الظاهر في هذه السنة مع المصريين، وكان فيهم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي.

وفي شهر شوال جلس المدرسون بالمدرسة التي أنشأها نائب السلطنة بمصر وهي المنكوتمرية، داخل باب القنطرة.

وفيها دقت البشائر لأجل أخذ قلعتي حيمص ونُجيمة من بلاد سيس..

وفيها وصلت الجريدة من بلاد مصر قاصدين بلاد سيس مددا لأصحابهم، وهم نحو من ثلاثة آلاف مقاتل و لله الحمد.

وفي منتصف ذي الحجة أمسك الأمير عز الدين أيبك الحموي الذي كان نائب الشام، هو وجماعة من أهله وأصحابه من الأمراء.

وفيها قلت المياه بدمشق جداً حتى بقي ثورا في بعض الأماكن لا يصل إلى ركبة الإنسان، وأما بردى فإنه لم يبق فيه مسكة ماء ولا يصل إلى جسر حسرين، وغلا سعر الثلج بالبلد. وأما نيل مصر فإنه كان في غاية الزيادة والكثرة.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (حسن بن علي الحريري).

الشيخ حسن ابن الشيخ علي الحريري: توفي في ربيع الآخر بقرية بسر، وكان من كبار الطائفة، وللناس إليه ميل لحسن أخلاقه، وجودة معاشرته، ولد سنة إحدى وعشرين وستمائة.

الصدر الكبير شهاب الدين: أبو العباس

■ أحمد بن عثمان بن أبي الرجاء بن أبي الزهر التوخي، المعروف بابن السلعوس، أخو الوزير شمس الدين، قرأ الحديث، وسمع الكثير، وكان من خيار عباد الله، كثير الصدقة والبر، توفي بداره في جمادى الأولى، وصلي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير، وعمل عزاؤه بمسجد ابن هشام، وقد ولي في وقت نظر الجامع، وشكرت سيرته، وحصل له وجاهة عظيمة عريضة أيام وزارة أخيه، ثم عاد إلى ما كان عليه قبل ذلك حتى توفي رحمه الله تعالى، وشهد جنازته خلق كثير من الناس.

الشيخ شمس الدين الأيكي:

■ محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي، المعروف بالأيكي، أحد الفضلاء الحلالين للمشكلات، المفسِّرين المعضلات، لا سيما في علم الأصلين والمنطق، وعلم الأوائل، باشر في وقت مشيخة الشيوخ بمصر، وأقام مدرس الغزالية قبل ذلك.

توفي بقرية المزة يوم جمعة، ودفن يوم السبت، بعدما صلّي عليه بجامع المِزّة ومشى الناس في جنازته، منهم قاضي القضاة إمام الدين القزويني، وذلك في الرابع من رمضان، ودفن بمقابر الصوفية، إلى جانب الشيخ شملة، وعمل عزاؤه بالخانقاه السميساطية، وحضر جنازته خلق كثير، وكان معظما في نفوس كثير من العلماء وغيرهم.

الصدر

■ ابن عقبة: إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله بن عطاء البصراوي الحنفي، درس وأعاد، وولي في وقت قضاء حلب، ثم سافر قبل وفاته إلى مصر، فجاء بتوقيع فيه قضاء قضاة حلب، فلما اجتاز بدمشق توفي بها، في رمضان من هذه السنة، وله سبع وثمانون سنة، «يشيب المرء ويشب معه خصلتان الحرص، وطول الأمل».

الشهاب العابر

■ أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي الحنبلي شهاب الدين عابر الرؤيا، سمع الكثير، وروى الحديث. وكان عجباً في تفسير المنامات، وله فيه اليد الطولى، وله تصنيف فيه ليس كالذي يؤثر عنه من الغرائب والعجائب، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة، توفي في ذي القعدة، ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة

[فيها كان الحكام هم المذكورين في التي قبلها]

استهلت والخليفة الحاكم العباسي، وسلطان البلاد المنصور لاجين، ونائبه بمصر مملوكه سيف الدين منكوتمر، وقاضي الشافعية الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والحنفي حسام الدين الرازي، والمالكي والحنبلي كما تقدم، ونائب الشام سيف الدين قبجق المنصوري، وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها، والوزير تقي الدين توبة، والخطيب بدر الدين بن جماعة.

ولما كان في أثناء المحرم رجعت طائفة من الجيش من بلاد سيس بسبب المرض الذي أصاب بعضهم، فجاء كتاب السلطان بالعتب الأكيد والوعيد الشديد لهم، وأن الجيش يخرج جميعه صحبة نائب السلطنة قبجق إلى هناك، ونصب مشانق لمن تأخر بعذر أو بغيره، فخرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين قبجق وصحبته الجيوش، وخرج أهل البلد للفرجة على الأطلاب على ما جرت به العادة، فبرز نائب السلطنة في أبهة عظيمة، وتجمُّل هائل فدعت له العامة وكانوا يحبونه، واستمر الجيش سائرين قاصدين بلاد سيس، فلما وصلوا إلى حمص بلغ الأمير سيف الدين قبجق وجماعة من الأمراء أن السلطان متقلِّب الخاطر بسبب سعي منكوتمر فيهم، وعلموا أن السلطان لا يخالفه لمحبته له، فاتفق جماعة منهم على الدخول إلى بلاد التتر والنجاة بأنفسهم، فساقوا من حمص فيمن أطاعهم، وهم قبجق وبزلي وبكتمر السلحدار البكّي، واستمروا ذاهبين، فرجع كثير من الجيش إلى دمشق، وتخبطت الأمور، وتأسفت العوام على قبجق لحسن سيرته فيهم، وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر مقتل المنصور لاجين وعود الملك إلى الناصر محمد بن قلاوون

لما كان يوم السبت التاسع عشر ربيع الآخر وصل جماعة من البريدية، وأخبروا بمقتل السلطان الملك المنصور لاجين، ونائبه سيف الدين منكوتمر، وأن ذلك كان ليلة الجمعة حادي عشرة، على يد الأمير سيف الدين كرجي الأشرفي، ومن وافقه من الأمراء، وذلك بحضور القاضي حسام

الدين الحنفي، وهو جالس في خدمته يتحدثان، وقيل: كانا يلعبان بالشطرنج، فلم يشعرا إلا وقد دخلوا عليهما، فبادروا إلى السلطان بسرعة، جهرة ليلة الجمعة فقتلوه، وقتل نائبه صبراً صبيحة يوم الجمعة، وألقي على مزبلة، واتفق الأمراء على إعادة ابن أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأرسلوا وراءه، وكان بالكرك ونادوا له بالقاهرة، وخطب له على المنابر قبل قدومه، وجاءت الكتب إلى نائب الشام قبجق، فوجدوه قد قفز خوفا من غائلة لاجين، فسارت إليه البريدية وراءه فلم يدركوه إلا وقد لحق بالمغول عند رأس العين، من أعمال ماردين، وتفارط الحال ولا قوة إلا بالله.

وكان الذي شمر العزم وراءهم وساق ليردهم الأمير سيف الدين بلبان، وقام بأعباء البلد نائب القلعة علم الدين أرجواش، والأمير سيف الدين جاغان، واحتاطوا على كا من كان له اختصاص بتلك الدولة، فكان منهم جمال الدين يوسف الرومي محتسب البلد، وناظر المارستان، ثم أطلق بعد مدة وأعيد إلى وظائفه، واحتيط أيضا على سيف الدين جاغان، وحسام الدين لاجين والي البر، وأدخلا القلعة، وقتل بمصر الأميران سيف الدين طغجي، وكان قد ناب عن الناصر أربعة أيام، وكرجي الذي تولى قتل لاجين فقتلا وألقيا على المزابل، وجعل الناس من العامة وغيرهم يتأملون صورة طغجي، وكان جميل الصورة جداً، ثم بعد الدلال والمال والملك وارتهم هناك قبور، فدفن السلطان لاجين وعند رجليه نائبه ومملوكه منكوتمر، ودفن الباقون في مضاجعهم هنالك.

وجاءت البشارة بدخول الملك السلطان الناصر إلى مصر يوم السبت رابع جمادى الأولى، وكان يوماً مشهوداً، وضربت البشائر، ودخل القضاة وأكابر الدولة إلى القلعة، وبويع بحضرة علم الدين أرجواش، وخطب له على المنابر بدمشق وغيرها، بحضرة أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وجاء الخبر بأنه قد ركب وشق القاهرة، وعليه خلعة الخليفة، والجيش معه مشاة، بين يديه، وكان يوماً مشهوداً وضربت البشائر أيضاً، وجاءت مراسيمه فقرئت على السدة، وفيها الرفق بالرعايا، والإحسان إليهم، فدعوا له، وقدم الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائباً على دمشق، فدخلها يوم الأربعاء قبل العصر، ثاني عشرين جمادى الأولى، فنزل بدار السعادة على العادة، وفرح الناس بقدومه، وأشعلوا له الشموع، وكذلك يوم الجمعة أشعلوا له لما جاء إلى صلاة الجمعة بالمقصورة، وبعد أيام أفرج عن جاغان ولاجين والي البر من القلعة، وعادا إلى ما كانا عليه، واستقر الأمير حسام الدين الاستادار أتابكا للعساكر المصرية، والأمير سيف الدين سلار نائبا بمصر، وأخرج الأعسر في رمضان من الحبس، وولي الوزارة بمصر، وأخرج قراسنقر المنصوري من الحبس، وأعطي نيابة الصبيبة، ثم لما مات صاحب حماة الملك المظفر نقل قراسنقر إليها.

وكان قد وقع في أواخر دولة لاجين بعد خروج قبجق من البلد محنة للشيخ تقي الدين بن تيمية، قام عليه جماعة من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي، فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها عليه أهل حماة المسماة بالحموية، فانتصر له الأمير سيف الدين جاغان، وأرسل يطلب الذين قاموا عليه، فاختفى كثير منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكت الباقون.

فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسر في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]، ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين القزويني صبيحة يوم السبت، واجتمع عنده جماعة من الفضلاء، وبحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن منها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقي الدين وقد تمهدت الأمور، وسكنت الأحوال وكان القاضي إمام الدين معتقده حسنٌ، ومقصده صالحٌ.

وفيها وقف علم الدين سنجر الدوادار رواقه داخل باب الفرج مدرسة ودار حديث، وولي مشيخته الشيخ علاء الدين بن العطار، وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل لهم ضيافة، وأفرج عن قراسنقر.

وفي يوم السبت حادي عشر شوال فتح مشهد عثمان، الذي جدده ناصر الدين بن عبد السلام ناظر الجامع، وأضاف إليه مقصورة الخدّام من شماليه، وجعل له إماماً راتباً، وحاكى به مشهد علي بن الحسين زين العابدين.

وفي العشر الأولى من ذي الحجة عاد القاضي حسام الدين الرازي إلى قضاء الشام، وعزل عن قضاء مصر، وعزل ولده عن قضاء الشام.

وفيها في ذي القعدة كثرت الأراجيف بقصد التتر بلاد الشام والله المستعان.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (أحمد بن محمود بن أحمد بن عبد السلام الحصيري).

الشيخ نظام الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السلام الحصيري الحنفي: مدرس النورية، توفي ثامن المحرم، ودفن في تاسعة يوم الجمعة في مقابر الصوفية، كان مفتياً فاضلا، ناب في الحكم في وقت، ودرس بالنورية بعد أبيه، ثم درس بعده بها الشيخ شمس الدين بن الصدر سليمان في يوم الأربعاء رابع عشر المحرم.

■ ابن النقيب المفسر الشيخ العالم الزاهد جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين البلخي، ثم المقدسي الحنفي: ولد في النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة بالقدس، واشتغل بالقاهرة، وأقام مدة بالجامع الأزهر، ودرس في بعض المدارس هناك، ثم انتقل إلى القدس، فاستوطنه إلى أن مات في المحرم منها، وكان شيخاً فاضلا في التفسير، وله فيه مصنف حافل كبير، جمع فيه خمسين مصنفاً من التفاسير، وكان الناس يقصدون زيارته بالقدس الشريف ويتبركون به.

الشيخ

■ أبو يعقوب المغربي المقيم بالقدس: كان الناس يجتمعون به وهو منقطع بالمسجد الأقصى، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يقول فيه: هو على طريقة ابن عربي، وابن سبعين، توفي في المحرم من هذه السنة.

التقي

■ توبة الوزير: الصاحب الكبير الصدر الوزير تقي الدين توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع بن توبة الربعي التكريتي، ولد سنة عشرين وستمائة، يوم عرفة بعرفة، وتنقل في الخدم إلى أن صار وزيراً بدمشق مرات عديدة، حتى توفي ليلة الخميس ثاني جمادى الآخرة، وصلي عليه غدوة بالجامع وسوق الخيل، ودفن بتربته تجاه دار الحديث الأشرفية بالسفح، وحضر جنازته القضاة والأعيان، رحمه وباشر بعده نظر الدواوين فخر الدين بن الشيرجي، وأخذ أمين الدين بن الهلال نظر الخزانة.

الأمير الكبير شمس الدين

■ بيسري: كان من أكابر الأمراء المتقدمين في خدمة الملوك، من زمن

قلاوون وهلم جرا، توفي في السجن، بقلعة مصر، وعمل له عـزاء بالجامع الأموي، وحضره نائب السلطنة الأفرم، والقضاة والأعيان.

السلطان الملك

■ المظفر تقي الدين محمود بن ناصر الدين محمد بـن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: صاحب حماة، وابن ملوكها كابرا عن كابر، توفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من ذي القعدة، ودفن في ليلة الجمعة.

الملك الأوحد

■ نجم الدين يوسف بن الملك الناصر داود بن المعظم نـاظر القـدس الشريف: توفي به ليلة الثلاثـاء رابع ذي الحجة، ودفن برباطه عنـد بـاب حطة، عن سبعين سنة، وحضر جنازته خلق كثير، وكـان مـن خيـار أبنـاء الملوك ديناً وفضيلة، وإحساناً إلى الضعفاء رحمه الله.

القاضي شهاب الدين يوسف بن الصاحب محيي الدين

■ ابن النحاس: أحد رؤساء الحنفية، ومدرس الريحانية والظاهرية، وقد ولي نظر الخزانة ونظر الجامع في وقت وكان صدارٌ كبيراً كافياً توفي ببسـتانه بالمزة، ثالث عشر ذي الحجة، ودرس بعده بالريحانية القاضي جـلال الديـن بن حسام الدين.

الصدر الكبير الرئيس الصاحب أمين الدين أبو الغنائم:

■ سالم بن الحسن بن محمد بن سالم بن هبة الله بن محفوظ بن صصري التغلبي، كان أحسن حالا من أخيه القاضي نجم الدين، وقد سمع الحديـث وأسمعه، كان صدراً معظماً، ولي نظر الدواويـن، ونظـر الخزانـة، ثـم تـرك المناصب وحج وجاور بمكة، ثم قدم دمشق فأقام بها دون السنة، ومات.

توفي يوم الجمعة، ثامن وعشرين ذي الحجة، وصلي عليه بعـد الجمعـة بالجامع، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، وعمل عزاؤه بالصاحية.

■ ياقوت بن عبد الله: أبو الدر المستعصمي الكاتب، لقبه جمال الدين، وأصله رومي، كان فاضلا، مليح الخط مشهورا بذلك، كتب ختما حسـاناً، وكتب الناس عليه ببغداد، وتوفي بها في هذه السنة، وله شعر رائق، فمنه ما أورده البرزالي في تاريخه عنه:

تُجَدِّدُ الشمسُ شَوْقِي كُلَّمَا طَلَعَتْ ... إلى مُحَيَّاكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي

وأَسْهَرُ اللَّيلَ فِي أُنسٍ بِلا وَنَسٍ ... إِذ طِيبُ ذِكْرَاكَ فِي ظُلماتِهِ سَمَرِي

وكـلُّ يـوم مضـى لي لا اراك بـه ... فَلَسْتُ مُحْتَسِباً ماضيهِ مِنْ عُمُرِي

لَيْلِي نَهَارِي إذَا ما دُرْت في خَلَدي ... لأنَّ ذِكْرَكَ نُورُ القَلْبِ والبَصَرِ

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة

وفيها كانت وقعة قازان، وذلك أن هذه السنة استهلت والخليفة الحاكم العباسي، وسلطان البلاد الشامية والمصرية ومـا يتبعهـا مـن الممـالك الملـك الناصر محمد بن قلاوون، ونائب مصر سلار، ونائب الشام آقوش الأفـرم، وسائر الحكام هم المذكورون في التي قبلهـا، وقـد تواتـرت الأخبار بقصـد التتار إلى بلاد الشام، وقد خـاف النـاس مـن ذلـك خوفـاً شـديداً، وجفـل الناس من بلاد حلب وحماة، وبلغ كـراء الجمـل مـن حماة إلى دمشـق نحـو المائتي درهم.

فلما كان يوم الثلاثاء ثاني المحرم ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام.

فلما كان يوم الجمعة ثامن ربيع الأول دخـل السـلطان إلى دمشـق، في مطر شديد ووحل كثير، ومع هذا خرج الناس لتلقيه، وكان قد أقـام بغـزة قريباً من شهرين، وذلك لما بلغه قدوم التتر إلى الشـام، تهيـأ لذلـك، وجـاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة، وزينت له البلد، وكـثرت لـه الأدعيـة، وكـان وقتا شديداً، وحالا صعباً، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهـم، وجلس الأعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا أموال الأيتام وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش.

وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول، ولم يتخلف أحد من الجيوش، وخرج معهم خلق كثير من المطوِّعة، وأخـذ النـاس في الدعـاء، والقنـوت في الصلـوات بالجـامع وغـيره، وتضرعـوا واستغاثوا، وابتهلوا إلى الله بالأدعية.

وقعة قازان

لما وصل السلطان إلى وادي الخزنـدار عنـد وادي سـلمية، التقـى التـتر هناك يوم الأربعاء، السابع والعشرين من ربيع الأول، فالتقوا معهم فكسروا المسلمين، وولى السلطان هارباً فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتـل جماعـة مـن الأمراء وغيرهم، ومن العوام خلـق كثير، وفقـد في المعركـة قـاضي قضـاة الحنفية، حسام الرازي وقد صبروا وأبلوا بلاء حسناً، ولكن كـان أمـر اللّه قدراً مقدوراً، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين، غير أنه رجعـت العسـاكر علـى أعقابهـا إلىالديار المصريـة، واجتاز كثير منهم على دمشق، وأهل دمشق في خوف شديد على أنفسـهم وأهليهم وأموالهم، ثم إنهم اسـتكانوا واستسـلموا للقضـاء والقـدر، ومـاذا يجدي الحذر إذا نزل القدر.

ورجع السـلطان في طائفـة مـن الجيـش علـى ناحيـة بعلبـك والبقـاع، وأبواب دمشق مغلقة، والقلعة محصنة، والغلاء شديد، والحال ضيق، وفـرج الله قريب، وقد هرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى مصـر، كالقـاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية جمال الدين الزواوي، وتاج الديـن بـن الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، وجمال الدين بـن النحـاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغراً ليـس فيـه حاكم ولا زاجر ولا وادعٌ سوى نائب القلعة علـم الديـن أوجـواش وهـو مشغول عن البلد بالقلعة.

وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبـس بـاب الصغـير باب السجن، وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلـد، وكـانوا قريبـاً مـن مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاؤوا إلى باب الجابية فكسـروا أقفـال الباب الجواني وأخذوا من الباشـورة مـا شـاؤوا ثـم كسـروا أقفـال البـاب البراني، وخرجوا منه إلى بر البلد، فتفرقوا حيث شاؤوا، لا يقدر أحد على ردهـم، ولا صدُّهـم وعـاثت الحرافشـة في ظـاهر البلـد، فكسـروا أبـواب البساتين، وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بـأرخص الأثمان.

هذا وسلطان التتر قد قصد دمشق بعد الوقعة، فـاجتمع أعيـان البلـد، والشيخ تقي الدين بن تيمية في مشهد علي، واتفقوا على المسـير إلى قـازان لتلقيه، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا يوم الاثنين، ثـالث ربيـع الآخر، فاجتمعوا به عند النبك، وكلمه الشيخ تقي الدين بـن تيميـة كلامـاً قوياً شديداً، فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد.

ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا بالباذرانية، وغلقت أبواب

البلد سوى باب توما، وخطب الخطيب يوم الجمعة بالجامع ولم يذكر سلطانا في خطبته وبعد الصلاة قدم الأمير إسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن، وحضر الفرمان بالأمان، وطيف به في البلد، وقرئ يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة، ونثر شيء من الذهب والفضة، وفي اليوم الثاني من المناداة بالأمان طلبت الخيول والسلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وجلس ديوان الاستخلاص إذ ذاك بالمدرسة القيمرية فإنا لله وإن إليه راجعون.

وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصوري، فنزل بالميدان، واقترب جيش التتر، وكثر العيث في ظاهر البلد، وقتل جماعة، وغلت الأسعار بالبلد جداً، وضاق الحال جدًا وأرسل قبجق إلى نائب القلعة أن يسلمها إلى التتر، فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وفيها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين بن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك، فاشتد عزمه على ذلك وقال له: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل، الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام، التي لا تزال دار إيمان وسنة، حتى ينزل بها عيسى ابن مريم.

وفي يوم دخول قبجق إلى دمشق دخل السلطان ونائبه سلار إلى مصر كما جاءت البطائق بذلك إلى القلعة، ودقت بها البشائر، فقوي جأش الناس بعض قوة، ولكن الأمر كما يقال:

كَيفَ السَّبيلُ إلى سُعَادَ ودُونَها قُلَلُ الجِبَالِ ودُونَهُنَّ حُتُوفُ
الرِّجْلُ حَافِيَةٌ ومَا لِي مَرْكَبٌ والكَفُّ صِفْرٌ والطَّرِيقُ مَخُوفُ

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق، بحضور المغول بالمقصورة، ودعي له على السدة بعد الصلاة، وقرئ عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام، وذهب إليه الأعيان فهنؤوه بذلك، فأظهر الكرامة، وأنه في تعب عظيم مع التتر، ثم شرع في طلب الخيول التي عند الناس والأموال لأجل النفقة على التتار ونزل شيخ المشايخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني بالمدرسة العادلية الكبيرة، وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، فوجدوا فيها شيئاً كثيراً من الغلات وقلعوا الأبواب والشبابيك وخربوا الأماكن الكثيرة كالرباط الناصري وغيره من الأماكن الحسنة والمارستان بالصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها، واحترق جامع التوبة بالعُقيبة، وكان هذا من جهة الكرج، والأرمن من النصارى الذين هم مع التتر قبّحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً، ولجأ أكثر الناس إلى رباط الحنابلة، فاحتاطت به التتر، فحماه منهم شيخ الشيوخ المذكور، وأعطى في الساكن مال له صورة، ثم قحموا عليه فسبوا منه خلقاً كثيرا من بنات المشايخ وأولادهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى، قتلوا خلقاً من الرجال وأسروا من النساء كثيراً، ونال قاضي القضاة تقي الدين منهم أذى كثير، ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمائة، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية، وخزانة ابن البزوري، فكانت تباع وهي مكتوب عليها بالوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية، وكذلك بداريا وغيرها وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسراً، وقتلوا منهم خلقاً، وسبوا نساءهم وأولادهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس، العشرين من ربيع الآخر إلى ملك التتر، وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه بقازان، حجبه عنه الوزير سعد الدين، والرشيد مشير الدولة المسلماني ابن يهودي، والتزما له بقضاء الشغل، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن، ولا بد لهم من شيء.

واشتهر بالبلد أن التتر يريدون دخول دمشق، فانزعج الناس لذلك، وخافوا خوفاً شديداً، وأرادوا الخروج منها، والهرب على وجوههم، وأين الفرار ولات حين مناص، وقد أخذ من البلد فوق العشرة آلاف فَتٌّ أموال كثيرة على البلد، موزعة على أهل الأسواق، كل سوق بحسبه من المال، فلا حول ولا قوة قوة إلا بالله.

وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع، ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغلقت أبوابه، ونزل التتر في مشاهده يحرسون أخشاب المجانيق، وينهبون ما حوله من الأسواق، وأحرق أرجواش ما حول القلعة من الأبنية كدار الحديث الأشرفية وغير ذلك، إلى حد العادلية الكبيرة، وأحرق دار السعادة، لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من أعاليها، ولزم الناس منازلهم، لئلا يسخّروا في طم الخندق، وكانت الطرقات لا يرى بها أحد إلا القليل، والجامع لا يصلي فيه أحد إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورته يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً، ويظن أنه لا يعود إلى أهله، وأهل البلد قد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة في أكابر أهل البلد ليلا ونهاراً، حتى أخذ منهم شيء كثير من الأموال والأوقاف، كالجامع وغيره، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع، وتوفير أوقافه، وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح إلى الحجاز، وقرئ ذلك المرسوم يوم الجمعة بعد الصلاة بالجامع، في تاسع عشر جمادى الأولى، وفي هذا اليوم توجه السلطان قازان إلى بلاده وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، ومن عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها، وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها و لله الحمد.

وخرج الأمير سيف الدين قبجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان، وسار وراءه، فضربت البشائر بالقلعة فرحاً برحيلهم، ولم تفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق لتوديع قطلوشاه القلعية إلى الجامع، فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سريعاً سالمين، واستصحبوا معهم جماعة ممن كان يلوذ بالتتر قهراً إلى القلعة، منهم الشريف القمي، وهو شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم المرتضى العلوي، وجاءت الرسل من قبجق إلى دمشق فنادوا بها طيبوا قلوبكم وافتحوا دكاكينكم، وتهيؤوا غداً لتلقي سلطان الشام سيف الدين قبجق، فخرج الناس إلى أماكنهم، فأشرفوا عليها، فرأوا ما بها من الفساد والدمار، وانفك رؤساء البلد من التراسيم بعدما وزنوا شيئاً كثيراً.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: ذكر لي الشيخ وجيه الدين بن المنجا، أنه حمل إلى خزانة قازان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل، وما أخذ غيره من الأمراء والوزراء، وأن

شيخ المشايخ حصل له نحو من ستمائة ألف درهم، والأصيل بن النصير الطوسي مئتا ألف، والصفي السنجاري ثمانون ألفا، وعاد الأمير سيف الدين قبجق إلى دمشق يوم الخميس بعد الظهر، خامس عشرين جمادى الأولى، ومعه الأيكي وجماعة، وبين يديه السيوف مسللة، وعلى رأسه عصابة، فنزل بالقصر، ونودي بالبلد: أنّ نائبكم قبجق قد جاء، فافتحوا دكاكينكم، واعملوا معايشكم، ولا يغرر أحد بنفسه، هذا والأسعار في غاية الغلاء والقلة، قد بلغت الغرارة إلى أربعمائة، واللحم الرطل بنحو العشرة، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف، والعشرة الدقيق بنحو الأربعين، والجبن الأوقية بدرهم، والبيض كل خمسة بدرهم، ثم فرج الله تعالى عنهم في أواخر الشهر.

ولما كان يوم في أواخر الشهر نادى قبجق بالبلد أن يخرج الناس إلى قراهم، وأمر جماعة وانضاف إليه خلق من الأجناد، وكثرت الأراجيف على بابه، وعظم شأنه، ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة، وركب قبجق بالعصائب في البلد والشاويشية بين يديه، وجهز نحواً من ألف فارس نحو خربة اللصوص، ومَشّى مَشْيَ الملوك في الولايات، وتأمير الأمراء والمراسيم العالية النافذة، وصار كما قال الشاعر:

يَـا لَـكِ مِـنْ قُنْـبُرَةٍ بِمَعْمَـرِ
خَلا لَكِ الجَـوُّ فَبِيضِـي واصفـرِي
ونَقِّـرِي مَـا شِـئْتِ أنْ تُنَقِّـرِي

ثم إنه ضمن الخمارات ومواضع الزنى من الحانات وغيرها، وجعلت دار ابن جرادة خارج من باب توما خمارة وحانة أيضاً، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم، وهي التي دمرته ومحقت آثاره، وأخذ أموالا أخر من أوقاف المدارس وغيرها، ورجع بولاي من جهة الأغوار وقد عاث في الأرض فسادا، ونهب البلاد وسبى وخرب، ومعه طائفة كثيرة من التتر، وقد خربوا قرى كثيرة، وقتلوا من أهلها، وسبوا خلقاً من أطفالها، وجبيلبولاي من دمشق أيضاً جباية أخرى، وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتر ونهبوهم، وقتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة معه من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة، فدخلوا عليه يوم الاثنين ثاني عشرين جمادى الآخرة، فكلموه وبالغوا معه، فلم يجب إلى ذلك، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه.

وفي ثاني عشرين رجب طلب قبجق القضاة والأعيان فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية ـ يعني قازان ـ فحلفوا له.

وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مخيم بولاي، فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم، وأقام عنده ثلاثة أيام ثم عاد، ثم راح إليه جماعة من أعيان دمشق، ثم عادوا من عنده فشلحوا عند باب شرقي، وأخذت ثيابهم وعمائمهم ورجعوا في شر حالة، ثم بعث في طلبهم، فاختفى أكثرهم وتغيبوا عنه.

ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتر، وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم، وساروا من على عقبة دُمّر فعاثوا في تلك النواحي فسادا، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد، وقد أزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد، ونادى قبجق في الناس قد أمنت الطرقات ولم يبق بالشام من التتر أحد.

وصلى قبجق يوم الجمعة عاشر رجب بالمقصورة، ومعه جماعة عليهم لأمة الحرب من السيوف والقسي والتراكيش فيها النشاب، وأمنت البلاد ونواحيها، وخرج الناس للفرجة في غياض السفرجل على عادتهم، فعاثت عليهم طائفة من التتر، فلما رأوهم إلى البلد هاربين مسرعين، ونهب بعض الناس بعضاً، ومنهم من ألقى نفسه في النهر، وإنما كانت هذه الطائفة مجتازين ليس لهم قرار، وتقلق قبجق من البلد، ثم إنه خرج منها في جماعة من رؤسائها وأعيانها منهم عز الدين بن القلانسي، ليلتقوا الجيش المصري، وذلك أن جيش مصر خرج إلى الشام في تاسع رجب، وجاءت البريدية بذلك و لله الحمد والمنّة، وبقي البلد ليس به أحد، ونادى أرجواش في البلد: أن احفظوا الأسوار،وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة فوق الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر الناصر محمد بن قلاوون، ففرح الناس بذلك، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء.

وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور، وشقوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك.

ونودي يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية، وفتح باب الفرج مضافاً إلى باب النصر، يوم الأحد تاسع عشر رجب، ففرح الناس بذلك وانفرجوا، لأنهم لم يكونوا يدخلون إلا من باب النصر.

وقدم الجيش الشامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم إلى دمشق يوم السبت عاشر شعبان، وثاني يوم دخل بقية العساكر وفيهم الأميران شمس الدين قراسنقر المنصوري، وسيف الدين قطلبك في تجمل.

وفي هذا اليوم فتح باب الفراديس، وفيه درس القاضي جلال الدين القزويني بالأمينية، عوضاً عن أخيه قاضي القضاة إمام الدين توفي بمصر كما سيأتي بيانه.

وفي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء تكامل دخول العساكر المصرية صحبة نائب مصر سيف الدين سلار، وفي خدمته الملك العادل كتبغا، وسيف الدين الطباخي في تجمل باهر، ونزلوا بالمرج، وكان السلطان قد خرج عازماً على المجيء فوصل إلى الصالحية ثم عاد إلى مصر.

وفي يوم الخميس النصف من شعبان أعيد القاضي بدر الدين بن جماعة إلى قضاء القضاة بدمشق مع الخطابة بعد إمام الدين، ولبس الخلعة ولبس معه في هذا اليوم الدين العجمي خلعة الحسبة.

وفي يوم سابع عشرة لبس خلعة نظر الدواوين تاج الشيرازي، عوضاً عن فخر الدين بن الشيرجي، ولبس أقجبا خلعة شدّ الدواوين في باب الوزير شمس الدين سنقر الأعسر، وباشر الأمير عز الدين أيبك الدوادار النجيبي ولاية البر، بعدما جعل من أمراء الطبلخاناه، ودرس الشيخ كمال

الدين بن الزملكاني بأم الصالح، عوضاً عن جلال الدين القزويني يوم الأحد الحادي والعشرين من شعبان.

وفي هذا اليوم ولي من قضاء الحنفية شمس الدين بن الصفي الحريري، عوضاً عن حسام الدين الرازي، فقد يوم المعركة وجاءه بعد ذلك تدريس الخاتونية عوضاً عن حسام الدين الرازي في ثاني رمضان، ورفعت الستائر عن القلعة في ثالث رمضان.

وفي مستهل رمضان جلس الأمير سيف الدين سلار بدار العدل في الميدان الأخضر وعند القضاة والأمراء يوم السبت.

وفي يوم السبت الآخر خلع على عز الدين بن القلانسي خلعة سنية، وجعل ولده عماد الدين عبد العزيز شاهداً في الخزانة.

وفي هذا اليوم رجع سلار بالعساكر إلى مصر، وانصرفت العساكر الشامية إلى مواضعها وبلدانها.

وفي يوم الاثنين عاشر رمضان درس صدر الدين علي بن الصفي بن أبي القاسم البصراوي الحنفي بالمدرسة المقدمية.

وفي شوال منها عرفت جماعة ممن كان يلوذ بالتتر ويؤذي المسلمين، وشنق منهم طائفة، وسمر آخرون، وكحل بعضهم، وقطعت ألسن، وجرت أمور كثيرة.

وفي منتصف شوال درس بالدولعية قاضي القضاة جمال الدين الزرعي نائب الحكم، عوضاً عن جمال الدين بن الباجربقي.

وفي يوم الجمعة العشرين منه ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان.

وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المطّوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد دينهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم ونهبوهم، وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيرا منهم.

فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم، وبين لكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالا كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وأموالهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند، ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله تعالى ورسوله.

وعاد نائب السلطنة يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة، وتلقاه الناس بالشموع إلى طريق بعلبك وسط النهار.

وفي يوم الأربعاء سادس عشر نودي في البلد أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلم الناس الرمي فعملت الأماجات في أماكن كثيرة من البلد، وعلقت الأسلحة بالأسواق، ورسم قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة بعمل الأماجات في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي، ويستعدوا لقتال العدو إن حضر، وبالله المستعان.

وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة استعرض نائب السلطنة أهل الأسواق بين يديه، وجعل على كل سوق مقدما وحوله أهل سوقه.

وفي الخميس رابع عشرينه عرضت الأشراف مع نقيبهم نظام الملك الحسيني بالعدد والتجمل الحسن، وكان يوما مشهودا.

ومما كان من الحوادث في هذه السنة أنه جدد إمام راتب عند رأس قبر زكريا، وهو الفقيه شرف الدين أبو بكر الحموي، وحضر عنده ظهر يوم عاشوراء القاضي إمام الدين الشافعي، وحسام الدين الحنفي وجماعة، ولم تطل مدته إلا شهورا، ثم عاد الحموي إلى بلده، وبطلت هذه الوظيفة إلى الآن ولله الحمد.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ (الحسن بن أحمد بن الحسن بن أبو شروان الرازي).

القاضي حسام الدين أبو الفضائل الحسن ابن القاضي تاج الدين أبي المفاخر أحمد بن الحسن بن أنو شروان الرازي الحنفي ولي قضاء ملطية مدة عشرين سنة، ثم قدم دمشق فوليها مدة، ثم انتقل إلى مصر فوليها مدة، وولده جلال الدين بالشام ثم صار إلى الشام فعاد إلى الحكم بها، ثم لما خرج الجيش إلى لقاء قازان بوادي الخزندار عند وادي سلمية خرج معهم، ففقد من الصف ولم يدر ما خبره، وقد قارب السبعين.

وكان فاضلا بارعا رئيسا، له نظم حسن، ومولده بأقسرا من بلاد الروم.

في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، فقد يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول منها، وقد قتل عنده يومئذ عدة من سادات الأمراء، ثم ولي بعده القضاء شمس الدين الحريري.

■ (عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد القزويني).

القاضي الإمام العالم إمام الدين أبو المعالي عمر بن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن الشيخ إمام الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن محمد القزويني الشافعي، قدم دمشق هو وأخوه جلال الدين فقررا في تداريس، ثم انتزع إمام الدين قضاء القضاة بدمشق من بدر الدين بن جماعة كما تقدم في سنة سبع وتسعين، وناب عنه أخوه.

وكان جميل الأخلاق، كثير الإحسان رئيسا، قليل الأذى، ولما أزف قدوم التتار سافر إلى مصر، فلما وصل إليها لم يقم بها سوى أسبوع، وتوفي ودفن بالقرب من قبة الشافعي، عن ست وأربعين سنة، وصار المنصب إلى بدر الدين بن جماعة، مضافا إلى ما بيده من الخطابة وغيرها، ودرس أخوه بعده بالأمينية.

المسند المعمر الرحلة شرف الدين أبو الفضل

■ **أحمد بن هبة الله بن أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله** بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الحديث وروى، توفي خامس عشر جمادى الأولى، عن خمس وثمانين سنة.

الخطيب الإمام العالم موفق الدين أبو المعالي

■ **محمد بن محمد بن المفضل البهراني**، القضاعي الحموي، خطيب حماة، ثم خطب بدمشق عوضا عن الفاروثي كما ذكرنا، ودرس بالغزالية، ثم عزل بابن جماعة، وعاد إلى بلده، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها.

الصدر شمس الدين

■ **محمد بن سلمان بن حمايل بن علي المقدسي المعروف بابن غانم**، وكان من أعيان الناس وأكثرهم مروءة، ودرس بالعصرونية، توفي وقد جاوز الثمانين، كان من الكتاب المشاهير المشكورين، وهو والد الصدر علاء الدين بن غانم.

الشيخ جمال الدين أبو محمد

■ **عبد الرحيم بن عمر بن عثمان الباجربقي الشافعي**، أقام مدة بالموصل يشتغل ويفتي، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها، وكان قد أقام

بها مدة كذلك. ودرس بالفتحية والدولعية، وناب في الخطابة، ودرس بالغزالية، نيابة عن الشمس الأيكي، وكان قليل الكلام، مجموعا عن الناس، وهو والد الشمس محمد المنسوب إلى الزندقة والانحلال، وله أتباع ينسبون إلى ما ينسب إليه، ويعكفون على ما كان يعكف عليه، وقد حدث جمال الدين المذكور بجامع الأصول عن بعض أصحاب مصنفات ابن الأثير، وله نظم ونثر حسن، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية:

استهلت والخليفة والسلطان ونواب البلاد والحكام بها هم المذكورون في التي قبلها، غير الشافعي والحنفي.

ولما كان ثالث المحرم جلس المستخرج لاستخلاص أجرة أربعة أشهر من جميع أملاك الناس وأوقافهم بدمشق، فهرب أكثر الناس من البلد، وجرت خطبة قوية، وشق ذلك على الناس مشقة عظيمة جداً.

وفي مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك، وازدادوا ضعفا على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، فبلغت الحارة إلى مصر خمسمائة، وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والغلات بأرخص الأثمان.

وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما يصرف في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله تعالى كان خيرا، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك، ونودي في البلدان لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة، فتوقف الناس عن المسير، وسكن جأشهم، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر المنصورة، ودقت البشائر لخروجه، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق كبيت ابن صصرى، وبيت ابن فضل الله، وابن منجا، وابن سويد، وابن الزملكاني، وابن جماعة.

وفي أول ربيع الآخر قوي الإرجاف بأمر التتر، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة، ونودي في البلدان أن تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك، فاستعرضوا في أثناء الشهر، فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والأسلحة على قدر طاقتهم، وقنت الخطيب ابن جماعة في الصلوات كلها، واتبعه أئمة المساجد، وأشاع المرجفون أن التتر قد وصلوا إلى حلب، وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة، ونودي في البلد بتطييب قلوب الناس، وإقبالهم على معايشهم، وأن السلطان والعساكر واصلة، وأبطل ديوان المستخرج وأقيموا، ولكن كانوا قد استخرجوا أكثر مما أمروا به، وبقيت بواقي على الناس الذين قد اختفوا فعفي عما بقي، ولم يرد ما سلف، لا جرم أن عواقب هذه الأفعال خسر ونكر أن أصحابها لا يفلحون.

ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائدا إلى مصر، بعد أن خرج منها قاصدا الشام، فكثر الخوف، واشتد الحال، وكثرت الأمطار جدا، وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين المرء وما يريده، من الانتشار في الأرض والذهاب فيها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالا، يتحملون بأهليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف، مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

واستهل جمادى الأولى والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخُر السلطان واقتراب العدو.

وشدّة الأمر والحال وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام وعساكره بالمرج فثبتهم، وقوى جأشهم وطيب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وبات عند العسكر ليلة الأحد ثم عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل، فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه، ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم، وقوى جأشهم، وضمن لهم النصر في هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام.

فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحاً شديداً، بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ثم قويت الأراجيف بوصول التتر، وتحقق أهلُ الشام عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس متولي دمشق في الناس من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة، وزلزلوا زلزالا شديداً، وغلقت الأسواق وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل، وأن نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول لم يقو على التقاء جيش التتر فكيف به الآن وقد عزم على الهرب؟ ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمة العدو، ودخل كثير من الناس القلعة وامتنع الناس من النوم والقرار وخرج كثير من الناس إلى البراري والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار، ونودي في الناس من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش، فقد اقترب وصول التتر، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل، وسافر القاضي ابن جماعة وشمس الدين بن الحريري، ونجم الدين ابن صصري ووجيه الدين ابن منجا، وقد سبقتهم بيوتهم إلى مصر، وجاءت الأخبار بوصول التتر إلى سرمين وخرج الشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ إبراهيم الرقي، وابن قوام وشرف الدين بن تيمية، وابن خبارة إلى نائب السلطنة الأفرم، فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو، فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك، وخرج طلب سلار من دمشق إلى ناحية الجيش بالمرج، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة.

ورجع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد، والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج، وقد غلت الأسعار بدمشق جداً، حتى إنه بيع

خاروفان بخمسمائة درهم، واشتد الحال جدا، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعا عامه ذلك، لضعف جيشه وقلة عددهم، فطابت النفوس لذلك وسكن الناس، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين والحمد لله رب العالمين.

ولما جاءت الأخبار بعدم وصول التتار إلى الشام في جمادى الآخرة تراجعت أنفس الناس إليهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق، وكان مخيما في المرج من مدة أربعة أشهر متتابعة، وهو من أعظم الرباط، وتراجع الناس إلى أوطانهم. وكان الشيخ زين الدين الفارقي قد درس بالناصرية لغيبة مدرسها كمال الدين بن الشريشي بالكرك هارباً ثم عاد إليها في رمضان، وفي أواخر الشهر درس ابن الزكي بالدولعية عوضا عن جمال الدين الزرعي لغيبته.

وفي يوم الاثنين قرئت شروط الذمة عليهم وألزموا بها، واتفقت الكلمة على عزلهم عن الجهات، وأخذهم بالصغار، ونودي بذلك في البلد، وألزم النصارى بالعمائم الزرق، واليهود بالصفر، والسامرة بالحمر، فحصل بسبب ذلك خير كثير، وتميزوا عن المسلمين.

وفي عاشر رمضان جاء المرسوم بين مشاركة أرجواش والأمير سيف الدين أقجبا في نيابة القلعة، وأن يركب كل واحد منهما يوما، ويكون الآخر بالقلعة يوما، فامتنع أرجواش من ذلك.

وفي شوال درس بالإقبالية الشيخ شهاب الدين بن المجد، عوضا عن علاء الدين القونوي، بحكم إقامته بالقاهرة.

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين من ذي القعدة عزل شمس الدين بن الحريري عن قضاء الحنفية، بالقاضي جلال الدين بن حسام الدين على قاعدته وقاعدة أبيه، وذلك باتفاق من الوزير الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، ونائب السلطان الأفرم، وفيها وصلت رسل ملك التتار إلى دمشق، في أواخر الشهر فأنزلوا بالقلعة ثم ساروا إلى مصر.

ومن توفي من الأعيان

الشيخ الصالح

■ حسن الكردي: المقيم بالشاغور في بستان له يأكل من غلته، ويطعم من ورد عليه، وكان يزار، فلما احتضر اغتسل، وأخذ من شعره، واستقبل القبلة وركع ركعات، ثم توفي رحمه الله تعالى يوم الاثنين الرابع من جمادى الأولى، وقد جاوز المائة سنة.

الطواشي صفي الدين

■ جوهر التفليسي: المحدث، اعتنى بسماع الحديث، وتحصيل الأجزاء، وكان حسن الخلق صالحاً، لين الجانب، رجلا جيدا مباركا صالحا، ووقف أجزاءه التي ملكها على المحدثين.

الأمير عز الدين

■ محمد بن أبي الهيجاء بن محمد الهذباني الإربلي: متولي دمشق، كان لديه فضائل كثيرة في التواريخ والشعر، وربما جمع شيئا في ذلك، وكان يسكن بدرب سقور فعرف به، فيقال درب ابن أبي الهيجاء، وهو أول منزل نزلناه حين قدمنا دمشق في سنة ست وسبعمائة، ختم الله لنا بخير في عافية آمين.

توفي ابن أبي الهيجاء في طريق مصر وله ثمانون سنة، وكان مشكور السيرة، حسن المحاضرة.

الأمير جمال الدين

■ آقوش الشريفي: والي الولاة بالبلاد القبلية، توفي في شوال، وكانت له هيبة وسطوة وحرمة.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعمائة

استهلت والخليفة الحاكم العباسي. وسلطان البلاد والناصر محمد بن قلاوون، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين سلار، وبالشام الأمير جمال الدين أقوش، والأفرم نائب دمشق، وفي أولها عزل الأمير قطلبك عن نيابة البلاد الساحلية، وتولاها الأمير سيف الدين أسندمر، وعزل عن وزارة مصر شمس الدين الأعسر، وتولى سيف الدين أقجبا المنصوري نيابة غزة، وجعل عوضه بالقلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجري، وهو من البُرجية.

وفي صفر رجعت رسل ملك التتر من مصر إلى دمشق، فتلقاهم نائب السلطنة والجيش والعامة.

وفي نصف صفر ولي تدريس النورية الشيخ صدر الدين علي البصراوي الحنفي، عوضاً عن الشيخ ولي الدين السمرقندي، وإنما كان وليها ستة أيام، ودرس بها أربعة دروس بعد بني الصدر سليمان، توفي وكان من كبار الصالحين، يصلي كل يوم مائة ركعة.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول جلس قاضي القضاة وخطيب الخطباء بدر الدين بن جماعة بالخانقاه السُّميساطية شيخ الشيوخ بها عن طلب الصوفية له في ذلك، ورغبتهم فيه، وذلك بعد وفاة الشيخ يوسف بن حمويه الحموي، وفرحت الصوفية به، وجلسوا حوله، ولم تجتمع هذه المناصب قبله لغيره، ولا بلغنا أنها اجتمعت إلى أحد بعده إلى زماننا هذا: القضاء، والخطابة، ومشيخة الشيوخ.

قلت: قد اجتمعت بعد موت المؤلف لجماعة منهم برهان الدين بن جماعة وبعده شرف الدين وعلاء الدين بن أبي البقاء وشهاب الدين الباعوني، وقبله الغزي شهاب الدين، وشمس الدين الأخنائي وشهاب الدين بن حجي وغيرهم.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول قتل الفتح أحمد بن البققي بالديار المصرية، حكم فيه القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي بما ثبت عنده من تنقُّصه للشريعة المطهَّرة، واستهزائه بالآيات المحكمات، ومعارضة المشتبهات بعضها ببعض، ويذكر عنه أنه كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وغير ذلك، لمن كان يجتمع به من الفسقة من الترك وغيرهم من الجهلة.

هذا وقد كان له فضيلة، وله اشتغال وهيئة جميلة في الظاهر، وبزته ولبسته جيدة، ولما أوقف عند شباك دار الحديث الكاملية بين القصرين استغاث بالقاضي تقي الدين بن دقيق العيد وقال: ما تعرف مني؟ فقال: إنما أعرف منك الفضيلة، ولكن حكمك إلى القاضي زين الدين فأمر القاضي للوالي أن يضرب عنقه، فضرب عنقه، وطيف برأسه في البلد، ونودي عليه هذا جزاء من طعن في الله ورسوله.

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي وسط شهر ربيع الأول ورد كتاب من بلاد حماة من جهة قاضيها يخبر فيه أنه وقع في هذه الأيام ببارين من عمل حماة برد كبار على صور حيوانات مختلفة شتى، منها سباع وحيات، وعقارب وطيور، ومعز، وبَلَشون ورجال في أوساطهم حوائص، وأن ذلك ثبت بمحضر عند قاضي الناحية، ثم نقل ثبوته إلى قاضي حماة.

وفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الآخر شنق الشيخ علي الحوراني بـواب الظاهرية على بابها، وذلك أنه اعترف بقتل الشيخ زين الدين السمرقندي.

وفي النصف منه حضر القاضي بدر الدين بن جماعة تدريس الناصرية الجوانية، عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، وذلك أنه ثبت محضر أنها لقاضي الشافعية بدمشق، فانتزعها من يد ابن الشريشي.

وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى قدم الصدر عـلاء الدين بن شرف الدين بن القلانسي علـى أهلـه مـن بـلاد التتر بعد أسر سنتين وأياماً، وقد حبس مدة ثم لطف الله به وتلطف، حتى تخلص منهـم ورجع إلى أهله ففرحوا به.

وفي سادس جمادى الآخرة قدم البريد من القاهرة وأخبر بوفاة أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وأن ولده ولي الخلافة مـن بعـده، وهو أبو الربيع سليمان، ولقب بالمستكفي بالله، وأنه حضر جنازتـه النـاس كلهم مشاة، ودفن بالقرب من الست نفيسة، وله أربعون سـنة في الخلافـة، وقدم مع البريد تقليد بالقضاء لشمس الدين بـن الحريـري الحنفي، وبنظـر الدواوين لشرف الدين بن مزهر، واستمرت الخاتونية بيـد القـاضي جـلال الدين بن حسام الدين بإذن نائب السلطنة.

وفي يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة خطب للخليفـة المستكفي باللـه، وترحم على والده بجـامع دمشـق، وأعيـدت الناصريـة إلى ابـن الشريشي، وعزل عنها ابن جماعة ودرس بهـا يـوم الأربعـاء الرابـع عشـر مـن جمـادى الآخرة.

وفي شوال قـدم إلى الشـام جـراد عظيـم أكـل الـزرع والثمـار، وجـرد الأشجار، حتى صارت مثل العصي، ولم يعهد مثل هذا.

وفي هذا الشهر عقد مجلس لليهود الخيابرة، وألزموا بأداة الجزية أسـوة أمثالهم من اليهود، فأحضروا كتاباً معهم يزعمون أنه من رسـول اللـه عليـه الصلاة والسلام بوضع الجزية عنهم، فلمـا وقـف عليـه الفقهـاء تبينـوا أنـه مكذوب مفتعل، لما فيه من الألفاظ الركيكة، والتواريـخ المخبّطـة، واللحـن الفاحش، وحاققهم عليـه شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، وبيـن لهـم خطـأهم وكذبهم، وأنه مزور مكذوب، فأنابوا إلى أداء الجزية، وخافوا من أن يستعاد عليهم بالسنين الماضية.

قلت: وقد وقفت أنا على هذا الكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر، وقد توفي سعد قبل ذلك بنحو من ثلاث سنين وشهادة معاويـة بن أبي سفيان، ولم يكـن أسـلم إذ ذاك وإنمـا أسـلم بعـد ذلـك بنحـو مـن سنتين، وفيه: وكتب علي بن أبي طالب. وهـذا لحـن لا يصـدر عـن أمـير المؤمنين علي، لأن علم النحو إنما أسند إليه من طريق أبي الأسـود الـدؤلي عنه، وقد جمعت فيه جزءاً مفرداً، وذكـرت مـا جـرى فيـه أيـام القـاضي الماوردي، وكبار أصحابنا في ذلك العصر، وقد ذكره في الحـاوي وصـاحب الشامل في كتابه وغير واحد، وبينوا خطأه ولله الحمد والمنة.

وفي هذا الشهر ثار جماعة من الحسـدة على الشيخ تقي الديـن بـن تيمية، وشكوا منه أنه يقيم الحدود، ويعزر ويحلق رؤوس الصبيـان، وتكلـم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبين خطأهم، ثم سكنت الأمور.

وفي ذي القعدة ضربت البشائر بقلعة دمشق أياماً بسبب فتح أماكن من بلاد سيس عنوة، ففتحها المسلمون ولله الحمد.

وفيه قدم عز الدين بن ميسّر على نظر الدواوين عوضاً عن ابن مزهر.

وفي يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة حضر عبد السيد بـن المهـذب ديـان اليهود إلى دار العدل، ومعه أولاده فأسلموا كلهم، فأكرمهم نائب السـلطنة، وأمر أن يركب بخلعة، وخلفه الدبادب تضرب والبوقـات إلى داره، وعمـل ليلتئذ في داره ختمة عظيمة، حضرها القضاة والعلماء، وأسـلم علـى يديـه جماعة كثيرة من اليهود، وخرجوا يوم العيـد كلهـم يكـبرون مـع المسـلمين، وأكرمهم الناس إكراماً زائداً.

وقدمت رسل ملك التـتر في سـابع عشـر ذي الحجـة فـنزلوا بالقلعـة، وسافروا إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام، وبعد مسيرهم بيومين مـات أرجـواش، وبعد موته بيومين قدم الجيش من بلاد سيس وقد فتحوا جانبا منها، فخرج نائب السلطنة والجيش لتلقيهم، وخرج الناس للفرجة على العادة، وفرحـوا بقدومهم ونصرهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

أمير المؤمنين الخليفة

■ **الحاكم بأمر الله: أبو العباس أحمد بن المسترشد بالله الهاشمي العباسي البغدادي المصري**، بويع بالخلافة في الدولـة الظاهريـة في أول سـنة إحـدى وستين وستمائة، فاستكمل أربعين سنة في الخلافة، وتوفي ليلة الجمعة، ثامن عشر جمادى الأولى، وصلي عليه وقت صلاة العصر بسـوق الخيـل بمصـر، وحضر جنازته الأعيان والدولة كلهم مشاة، ودُفن قريبـاً مـن السـت نفيسـة وكـان قـد عهـد بالخلافـة إلى ولـده المذكـور أبي الربيـع سـليمان ولقّـب بالمستكفي بالله أمير المؤمنين.

خلافة المستكفي بالله

أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسي

لما عهد إليه أبوه كتب تقليده بذلك، وقـرئ بحضـرة السـلطان والدولـة يوم الأحد العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وخطب له علـى المنـابر بالديار المصرية والشامية، وسارت بذلك البريدية إلى جميع البلاد الإسلامية.

وتوفي فيها:

الأمير عز الدين:

■ **أيـك بن عبـد اللـه النجيبي الـدوادار**: والي دمشـق، وأحـد أمـراء الطبلخاناه بها، وكان مشكور السيرة، ولم تطل مدته ودفـن بقاسـيون، تـوفي يوم الثلاثاء، سادس عشر ربيع الأول.

الشيخ الإمام العالم شرف الدين أبو الحسن: **علي بن الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ الفقيه تقي الدين أبي عبد الله محمد بـن الشـيخ أبي الحسـن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد**

■ **اليونيني البعلبكي**، وكان أكـبر مـن أخيـه الشـيخ قطـب الديـن بـن الشيخ الفقيه.

وولد شرف الدين سنة إحدى وعشرين وستمائة، فأسمعه أبـوه الكثـير، وتفقه واشتغل، وكان عابداً عاملاً، كثير الخشوع، دخـل عليـه إنسـان وهـو بخزانة الكتب، فجعل يضربه بعصا في رأسـه، ثـم بسـكين، فبقـي متمرضـاً أياماً، ثم توفي إلى رحمة الله تعالى يوم الخميس حادي عشر رمضان ببعلبك، ودفن بباب سطحا، وتأسف الناس عليه لعلمه وعمله، وحفظه الأحاديث، وتودده إلى الناس، وتواضعه، وحسـن صمتـه ومروءتـه، تغمـده اللـه تعـالى برحمته.

الصدر ضياء الدين

■ أحمد بن الحسين ابن شيخ السلامية، والد القاضي قطب الدين موسى الذي تولى فيما بعد نظر الجيش بالشام وبمصر أيضاً، توفي يوم الثلاثاء عشرين ذي القعدة ودفن بقاسيون، وعمل عزاؤه بالرواحية.

الأمير الكبير المجاهد المرابط علم الدين

■ أرجواش بن عبد الله المنصوري، نائب القلعة بالشام، كان ذا هيبة وهمة، وشهامة وقصد صالح، قدر الله على يديه حفظ معقل المسلمين، لما ملكت التتار الشام أيام قازان، وعصت عليهم القلعة، ومنعها الله منهم على يدي هذا الرجل، فإنه التزم أن لا يسلمها إليهم ما دام بها عين تطرف واقتدت بها بقية القلاع الشامية، وكانت وفاته بالقلعة ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة وأخرج منها ضحوة يوم السبت فصلي عليه، وحضر نائب السلطنة فمن دونه جنازته، ثم حمل إلى سفح قاسيون، ودفن في تربته رحمه الله تعالى.

■ الأبرقوهي المسند المعمر المصري: هو الشيخ الجليل المسند الرحلة، بقية السلف شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد بن علي بن إسماعيل بن أبي طالب، الأبرقوهي الهمذاني ثم المصري، ولد بأبرقوه من بلاد شيراز في رجب أو شعبان، سنة خمس عشرة وستمائة، وسمع الكثير من الحديث على المشايخ الكثيرين، وخرجت له مشيخات، وكان شيخاً حسناً، لطيفاً متيقِّظاً، توفي بمكة بعد خروج الحجيج بأربعة أيام رحمه الله تعالى.

وفيها توفي:

■ (محمد بن حسن بن علي قتادة الحسني).

صاحب مكة الشريف أبو نُمَيّ محمد ابن الأمير أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني: صاحب مكة منذ أربعين سنة، وكان حليماً وقوراً، ذا رأي وسياسة، وعقل ومروءة.

وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي البصروي، الشافعي عفا الله عنه، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعمائة من الهجرة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي يوم الأربعاء ثاني صفر منها فتحت جزيرة أرواد بالقرب من أنطرطوس، وكانت من أضر الأماكن على أهل السواحل، فجاءتها مراكب من الديار المصرية في البحر، وأردفها جيوش طرابلس، ففتحت ولله الحمد إلى نصف النهار، وقتلوا من أهلها قريبا من ألفين، وأسروا قريباً من خمسمائة، ودقت البشائر بدمشق ثلاثة أيام سروراً وفرحاً وكان فتحها من تمام فتح السواحل، وأراح الله المسلمين من شر أهلها.

وفي يوم الخميس السابع عشر من شهر صفر وصل البريد إلى دمشق فأخبر بوفاة قاضي القضاة ابن دقيق العيد، ومعه كتاب من السلطان إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، فيه تعظيم له واحترام وإكرام، يستدعيه إلى قربه ليباشر وظيفة القضاء بمصر على عادته، فتهيأ لذلك، ولما عزم خرج معه نائب السلطنة الأفرم وأهل الحل والعقد، وأعيان الناس ليودعوه، وستأتي ترجمة ابن دقيق العيد في الوفيات.

ولما وصل ابن جماعة إلى مصر أكرمه السلطان إكراماً زائداً، وخلع عليه خلعة صوف، وبغلة تساوي ثلاثة آلاف درهم، وباشر الحكم بمصر يوم السبت رابع ربيع الأول، ووصلت رسل التتار في أواخر ربيع الأول قاصدين بلاد مصر.

وباشر الشيخ شرف الدين الفزاري مشيخة دار الحديث الظاهرية يوم الخميس ثامن ربيع الآخر، عوضاً عن شرف الدين الناسخ، وهو أبو حفص عمر بن محمد بن عمر بن حسن بن خواجا إمام الدين الفارسي، توفي بها عن سبعين سنة، وكان فيه بر ومعروف، وله أخلاق حسنة، رحمه الله تعالى.

وذكر الشيخ شرف الدين المذكور درساً مفيداً، وحضر عنده جماعة من الأعيان.

وفي يوم الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى خلع على قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى بقضاء الشام، عوضاً عن ابن جماعة، وعلى الفارقي بالخطابة، وعلى الأمير ركن الدين بيبرس التَّلاوي بشد الدواوين وهنأهم الناس، وحضر نائب السلطنة والأعيان المقصورة لسماع الخطبة، وقرئ تقليد ابن صصرى بعد الصلاة، ثم جلس في الشباك الكمالي وقرئ تقليده مرة ثانية.

وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور، فيه أن الشيخ تقي الدين بن تيمية، والقاضي شمس الدين بن الحريري، وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبوهم ويريدون تولية قبجق على الشام، وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين آقوش الأفرم، وكذلك كمال الدين بن العطار، فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل، ففحص عن واضعه، فإذا هو فقير كان مجاور بالبيت الذي كان مجاوراً محراب الصحابة، يقال له اليعفوري، وآخر معه يقال له: أحمد الفناري، وكانا معروفين بالشر والفضول، ووجد معهما مسودة هذا الكتاب، فتحقق نائب السلطنة ذلك، فعزرا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك في مستهل جمادى الآخرة وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج ابن المناديلي.

وفي أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري إلى نيابة القلعة عوضاً عن أرجواش.

عجيبة من عجائب البحر

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: قرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة، أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة، ظهرت دابة من البحر عجيبة الخلقة، من بحر النيل إلى أرض المنوفية، بين بلاد منية مسوّد واصطباري والراهب، وهذه صفتها: لونها لون الجاموس بلا شعر، وآذانها كآذان الجمل، وعيناها وفرجها مثل الناقة، يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمكة، ورقبتها مثل غلظ التَّلِّيس، المحشو تبناً، وفمها وشفتاها مثل الكربال، ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل، طول كل واحد دون الشبر في عرض إصبعين وفي فمها ثمانية وأربعون ضرساً، وسناً مثل بيادق الشطرنج، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجعد، ودور حافرها مثل السكرجة، بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل، وعرض ظهرها مقدار ذارعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدماً، وفي بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر وزفرته مثل السمك، وطعمه كلحم الجمل، وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف، وحمل جلدها على خمسة أجمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد

جمل، وأحضروه إلى بين يدي السلطان بالقلعة، وحشوه تبناً، وأقاموه بين يديه والله أعلم.

وفي شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتر على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جداً، وقنت الخطيب في الصلوات، وقرئ البخاري وشرع الناس في الجفل إلى الديار المصرية، والكرك والحصون المنيعة، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن أوانها، فاشتد لذلك الخوف.

وفي شهر رجب باشر نجم الدين بن أبي الطيب نظر الخزانة، عوضاً عن الصدر أمين الدين بن هلال، توفي إلى رحمة الله تعالى وباشر نظر الجامع جمال الدين بن الصدر سليمان عوضاً عن شرف الدين بن الشيرجي.

وفي يوم السبت ثالث شعبان باشر مشيخة الشيوخ بعد ابن جماعة القاضي ناصر الدين بن عبد السلام، وكان جمال الدين الزرعي يسُدُّ الوظيفة إلى هذا التاريخ.

وفي يوم السبت عاشر شعبان ضربت البشائر بالقلعة والطبلخاناه على أبواب الأمراء، بخروج السلطان بالعساكر من مصر لمناجزة التتر المخذولين.

وفي هذا اليوم بعينه كانت وقعة عُرض وذلك أنه التقى جماعة من أمراء الإسلام فيهم أسندمر وبهادرآص وكجكن وغرلو العادلي، وكل واحد منهم سيف من سيوف الملة والدين في ألف وخمسمائة فارس، مع التتر، وكان التتر في سبعة آلاف، فاقتتلوا وصبر المسلمون صبراً جيداً، فنصرهم الله وخذل التتر، فقتلوا منهم خلقاً وأسروا آخرين، وولوا عند ذلك مدبرين، وغنم المسلمون منهم غنائم، وعادوا سالمين، لم يفقد منهم إلا القليل ممن أكرمه الله تعالى بالشهادة، ووقعت البطاقة بذلك، ثم قدمت الأسارى يوم الخميس نصف شعبان، وكان يوم خميس النصارى.

أوائل وقعة شقحب

وفي ثامن عشر قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين، فيهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين المعروف بالأستادار المنصوري، والأمير سيف الدين كراي المنصوري، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير سلاح وأيبك الخزندار فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي، وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا أن تدهمهم التتر فجاؤوا فنزلوا المرج في يوم الأحد خامس عشرين شعبان.

ووصل التتر إلى حمص وبعلبك، وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتر لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان الأخضر وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس، وجلس القضاة بالجامع، وحلفوا جماعة من الفقهاء، والعامة على القتال.

وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في القُطيفة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون على التتر، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين، ما وهم متلبسون به من المعاصي والظلم، هم متلبسون بما هو أعظم منه أضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتر، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد.

ولما كان يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال، فإن المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال، وقال فريق: إنما ساروا إلى تلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان، فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة، فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتر إلى قارة، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيفة، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً، ولم يبق حول البلد من القرى والحواضر أحد، وامتلأت القلعة والبلد، وازدحمت المنازل والطرقات، واضطرب الناس.

وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا أنت منعتنا من الجفل، وها أنت هارب من البلد؟ فلم يرد عليهم، وبقي البلد ليس فيه حاكم، وعاثت اللصوص والحرافيش فيه وفي بساتين الناس، يخربون وينهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه، وكذلك الباقلاء والقمح والشعير وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة، وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن، ينظرون يمنا وشمالا، وإلى ناحية الكسوة، فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التتر، ويتعجبون من خبر الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعَددهم وعُددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال، وألح الناس في الدعاء والابتهال، وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريباً، ولكن أكثرهم لا يعلمون، كما جاء في حديث أبي رزين: «عجب ربُّك من قنوط عباده، وقرب غيره، ينظرُ إليكم أزلين قَنطِين، فيظل يضحكُ يعلمُ أنَّ فرجَكُمْ قريبٌ» [ج (١٨١)، مسند أحمد: ١١/٤، ١٢].

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بخير، هو أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من

التتر، فوجد الأمر كما يجب، لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتر عرجوا عن دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا إن غَلَبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به، ونودي بالبلد في تطييب الخواطر، وأن السلطان قد وصل، فاطمأن الناس، وسكنت قلوبهم، وثبت الشهر ليلة الجمعة القاضي تقي الدين الحنبلي، فإن السماء كانت مغيمة، فعلقت القناديل، وصليت التراويح، واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته، وأصبح الناس يوم الجمعة في هم شديد وخوف أكيد لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس، فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين غرلو العادلي فاجتمع بنائب القلعة، ثم عاد سريعاً إلى العسكر، ولم يدر أحد ما أخبر به، ووقع الناس في الأراجيف والخوض.

وقعة شقحب

أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من شدة الخوف وضيق الأمر، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون أن الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى اللّه عز وجل، بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الأسطحة، وكشفوا رؤوسهم وضج البلد ضجة عظيمة، ووقع في ذلك الوقت مطر عظيم غزير، ثم سكن الناس.

فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة، والتحرز على الأسوار، فدعا الناس في المآذن والبلد، وانقضى النهار، وكان يوما مزعجا هائلا.

وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر، وخرج ناس إلى ناحية الكسوة، فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ورؤوس التتر، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلا قليلا حتى اتضحت جملة، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون، فلما كان بعد الظهر قرئ كتاب السلطان إلى متولي القلعة، يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلا ونهارا وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم، وتباشروا بهذا الفتح العظيم، والنصر المبارك، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور، ونودي بعد الظهر بإخراج الجُفّال من القلعة، لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج.

وفي يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق، فبشروا الناس بالنصر.

وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به ودعوا له، وهنؤوه بما يسر اللّه على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان، يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر، وجعل يحلف له باللّه الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة فيقول له الأمراء: قل إن شاء اللّه، فيقول إن شاء اللّه تحقيقاً لا تعليقاً، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأطلاب والأمراء، فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ مُلاقُو العَدُوِّ غَدَاً، والفِطْرُ أَقْوَى لَكُم» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري [م (١١٢٠)، د (٢٤٠٦)]، وكان الخليفة أبو الربيع سليمان في صحبة السلطان، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيماً، وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب، وبايع اللّه تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة، وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي، أستاذ دار السلطان، وثمانية من الأمراء المقدمين معه، وصلاح الدين ابن الملك الكامل ابن السعيد بن الصالح إسماعيل، وخلق من كبار الأمراء ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون عليهم وللّه الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا اللّه عز وجل، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال، فتضرب أعناقهم، ثم اقتحم منهم جماعة للهزيمة فنجا منهم قليل، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، ثم بعد ذلك غرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام، وكشف اللّه بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة، وللّه الحمد والمنة.

ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان، وبين يديه الخليفة، وزينت البلد وفرح كل واحد من أهل الجمعة والسبت والأحد، فنزل السلطان في القصر الأبلق والميدان، ثم إنه تحول إلى القلعة يوم الخميس، وصلى بها الجمعة، وخلع على نواب البلاد، وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم، واستقرت الخواطر، وذهب اليأس، وطابت قلوب الناس، وعزل السلطان ابن النحاس عن ولاية المدينة، وجعل مكانه الأمير علاء الدين أيدغدي أمير علم، وعزل صارم الدين إبراهيم والي الخاص عن ولاية البر، وجعل مكانه الأمير حسام الدين لاجين الصغير، ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية يوم الثلاثاء ثالث شوال، بعد أن صام رمضان وعيَّد بدمشق.

وطلب الصوفية من نائب دمشق الأفرم أن يولي عليهم مشيخة الشيوخ للشيخ صفي الدين الهندي، فأذن له في المباشرة يوم الجمعة سادس شوال، عوضاً عن ناصر الدين بن عبد السلام.

ودخل السلطان القاهرة يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال، وكان يوماً مشهوداً، وزينت القاهرة.

وفيها جاءت زلزلة عظيمة يوم الخميس، بكرة الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وكان جمهورها بالديار المصرية، تلاطمت بسببها البحار، فكسرت المراكب، وتهدمت الدور، ومات خلق كثير لا يعلمهم إلا اللّه، وتشققت الحيطان ولم ير مثلها في هذه الأعصار، وكان منها بالشام طائفة لكن كان ذلك أخف من سائر البلاد غيرها.

وفي ذي الحجة باشر الشيخ أبو الوليد ابن الحاج الأشبيلي المالكي إمام محراب المالكية بجامع دمشق، بعد وفاة الشيخ شمس الدين محمد الصنهاجي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ ابن دقيق العيد: الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، القشيري المصري، ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان، سنة خمس وعشرين وستمائة، بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز.

سمع الحديث الكثير، ورحل وخرج وصنف فيه إسناداً ومتناً مصنفات عديدة، مفيدة فريدة، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه، وفاق أقرانه، ورحل إليه الطلبة، ودرس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المصرية في سنة خمس وتسعين وستمائة، ومشيخة دار الحديث الكاملية.

وقد اجتمع به الشيخ تقي الدين بن تيمية، فقال له تقي الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه: ما أظن بقي يخلق مثلك.

وكان وقوراً، قليل الكلام، غزير الفوائد، كثير العلوم في ديانة ونزاهة، وله شعر رائق.

توفي يوم الجمعة حادي عشر شهر صفر، وصلي عليه يوم الجمعة المذكور بسوق الخيل، وحضر جنازته نائب السلطان والأمراء، ودفن بالقرافة الصغرى رحمه الله تعالى.

الشيخ برهان الدين السكندري:

■ إبراهيم بن فلاح بن محمد بن حاتم، سمع الحديث وتفقه ودرس بالقوصية وأعاد وأفتى وناب في الخطابة مدة، وفي الحكم عن ابن جماعة وكان ديناً فاضلا، ولد سنة ست وثلاثين وستمائة وتوفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين شوال عن خمس وستين سنة.

وبعد شهر سويّ كانت وفاة. الصدر

■ جمال الدين بن العطار: كاتب الدرج منذ أربعين سنة. أبو العباس أحمد بن أبي الفتح محمود بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سلمان بن فتيان الشيباني، كان من خيار الناس وأحسنهم تقية، ودفن بتربة لهم تحت الكهف، بسفح قاسيون، وتأسف الناس عليه لإحسانه إليهم رحمه الله تعالى.

الملك

■ العادل زين الدين كتبغا: توفي بحماة نائبا عليها بعد صرخد يوم الجمعة يوم عيد الأضحى، ونقل إلى تربته بسفح قاسيون، غربي الرباط الناصري، يقال لها العادلية، وهي تربة مليحة، ذات شبابيك وبوابة ومئذنة، وله عليها أوقاف دارة على وظائف من قراءة وأذان وإمامة وغير ذلك، وكان من كبار الأمراء المنصورية.

وقد ملك البلاد بعد مقتل الأشرف خليل بن المنصور، ثم انتزع الملك منه لاجين، وجلس في قلعة دمشق، ثم تحول إلى صرخد، وكان بها حتى قتل لاجين وأخذ الملك الناصر بن قلاوون، فاستنابه بحماة حتى كانت وفاته كما ذكرنا، وكان من خيار الملوك وأعدلهم، وأكثرهم براً، وكان من خيار الأمراء والنواب رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي صفر تولى الشيخ كمال الدين بن الشريشي نظارة الجامع الأموي، وخلع عليه، وفباشره مباشرة مشكورة، وساوى بين الناس، وعزل نفسه في رجب منها.

وفي شهر صفر تولى الشيخ شمس الدين الذهبي خطابة كفر بطنا وأقام بها.

ولما توفي الشيخ زين الدين الفارقي في هذه السنة كان نائب السلطنة في نواحي البلقاء يكشف بعض الأمور، فلما قدم تكلموا معه في وظائف الفارقي، فعين الخطابة لشرف الدين الفزاري، وعين الشامية البرانية ودار الحديث للشيخ كمال الدين بن الشريشي، وذلك بإشارة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وأخذ منه الناصرية للشيخ كمال الدين بن الزملكاني، ورسم بكتابة التواقيع بذلك، وباشر الشيخ شرف الدين الإمامة والخطابة، وفرح الناس به لحسن قراءته وطيب صوته، وجودة سيرته.

فلما كان بكرة يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول وصل البريد من مصر صحبة الشيخ صدر الدين بن الوكيل، وقد سبقه مرسوم السلطان له بجميع جهات الفارقي، مضافاً إلى ما بيده من التدريسين، فاجتمع بنائب السلطنة بالقصر، وخرج من عنده إلى الجامع، ففتح له باب دار الخطابة فنزلها، وجاءه الناس يهتونه، وحضر عنده القراء والمؤذنون، وصلى بالناس العصر، وباشر الإمامة يومين، فأظهر الناس التألم من صلاته وخطابته، وسعوا فيه إلى نائب السلطنة فمنعه من الخطابة، وأقره على التداريس ودار الحديث، وجاء توقيع سلطاني للشيخ شرف الدين الفزاري بالخطابة، فخطب يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وخلع عليه بطرحة، وفرح الناس به، وأخذ الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، تدريس الشامية البرانية من يد ابن الوكيل، وباشرها في مستهل جمادى الأولى، واستقرت دار الحديث بيد ابن الوكيل مع مدرستيه الأوليين، وأظنهما العذراوية والشامية الجوانية.

ووصل البريد في ثاني عشر جمادى الأولى بإعادة السنجري إلى نيابة القلعة، وتولية نائبها الأمير سيف الدين الجوكندار نيابة حمص، عوضاً عن عز الدين الحموي، توفي.

وفي يوم السبت ثاني عشر رمضان قدمت ثلاثة آلاف فارس من مصر، وأضيف إليها ألفان من دمشق، وساروا وأخذوا معهم نائب حمص الجوكندار ووصلوا إلى حماة، فصحبهم نائبها الأمير سيف الدين قبجق، وجاء إليهم أسندمر نائب طرابلس، وانضاف إليهم قراسنقر نائب حلب، وانفصلوا كلهم عنها فانفرقوا فرقتين فرقة سارت صحبة قبجق إلى ناحية ملطية، وقلعة الروم والفرقة الأخرى صحبة قراسنقر حتى دخلوا الدربندات، وحاصروا تل حمدون فتسلموه عنوة في ثالث عشر ذي القعدة بعد حصار طويل، فدقت البشائر بدمشق لذلك ووقع مع صاحب سيس على أن يكون للمسلمين من نهر جيهان إلى حلب وبلاد ما وراء النهر إلى ناحيتهم لهم، وأن يعجلوا حمل سنتين، ووقعت الهدنة على ذلك، بعد ما قتل خلق من أمراء الأرمن ورؤسائهم، وعادت العساكر إلى دمشق مؤيدين منصورين، ثم توجهت العساكر المصرية صحبة مقدمهم أمير سلاح إلى مصر.

وفي أواخر السنة كان موت قازان وتولية أخيه خربندا، وهو ملك التتار قازان، واسمه محمود بن أرغون بن أبغا، وذلك في رابعه أو حادي عشره بالقرب أو ثالث عشره، بالقرب من همذان، ونقل إلى تربته بتبريز بمكان يسمى الشام، ويقال إنه مات مسموماً، وقام في الملك بعده أخوه خربندا محمد بن أرغون، ولقبوه الملك غياث الدين، وخطب له على منابر العراق وخراسان وتلك النواحي والبلاد.

وحج في هذه السنة الأمير سيف الدين سلار نائب مصر، وفي صحبته أربعون أميراً، وجميع أولاد الأمراء، وحج معهم وزير مصر الأمير عز الدين البغدادي، وتولى مكانه بالبركة الأمير ناصر الدين محمد الشيخي، وخرج سلار في أبهة عظيمة جداً، وأمير ركب المصريين الحاج أناق الحسامي، وترك الشيخ صفي الدين مشيخة الشيوخ فوليها القاضي عبد الكريم ابن قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، وحضر الخانقاه يوم الجمعة حادي عشرين من ذي القعدة، وحضر عنده ابن صصرى، وعز الدين بن القلانسي، والصاحب ابن ميسَّر، والمحتسب وجماعة.

وفي ذي القعدة وصل من التتر مقدم كبير قد هرب منهم إلى بلاد الإسلام، وهو الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا، وفي صحبته نحو من عشرة، فحضروا الجمعة في الجامع، وتوجهوا إلى مصر، فأكرم وأعطى إمرة ألف، وكان مقامه ببلاد آمد، وكان يناصح السلطان ويكاتبه ويطلعه على عورات التتر، فلهذا عظم شأنه في الدولة الناصرية.

ومن توفي فيها من الأعيان

ملك التتر

■ قازان بن أرغون بن أبغا، تقدم.

الشيخ القدوة العابد الزاهد الورع أبو إسحاق

■ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي الحنبلي، كان أصله من بلاد الشرق، ومولده بالرقة، في سنة سبع وأربعين وستمائة، واشتغل وحصل، وسمع شيئا من الحديث، وقدم دمشق فسكن بالمئذنة الشرقية في أسفلها بأهله إلى جانب الطهارة بالجامع، وكان معظماً عند الخاص والعام، فصيح العبارة، كثير العبادة، خشن العيش، حسن المجالسة، لطيف المفاكهة،كثير التلاوة، قوي التوجه من أفراد العالم، عارفاً بالتفسير والحديث، والفقه والأصلين، وله مصنفات، وخطب، وله شعر حسن،توفي بمنزله ليلة الجمعة خامس عشر المحرم، وصلي عليه عقيب الجمعة، ونقل إلى تربة الشيخ أبي عمر بالسفح، وكانت جنازته حافلة رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي هذا الشهر توفي: الأمير زين الدين

■ قراجا، أستدار الأفرم، ودفن بتربته بميدان الحصا عند النهر.

والشيخ شمس الدين

■ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام: عرف بابن الحبلي، كان من خيار الناس، يتردد إلى عكا أيام كانت الفرنج، في فكاك أسارى المسلمين، جزاه الله خيراً، وعتقه من النار، وأدخله الجنة برحمته.

■ (عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن علي بن أحمد بن عقيل السلمي).

الخطيب ضياء الدين: أبو محمد عبد الرحمن بن الخطيب جمال الدين أبي الفرج عبد الوهاب بن علي بن أحمد بن عقيل السلمي، خطيب بعلبك نحواً من ستين سنة بعد والده، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الكثير، وتفرد عن القزويني، وكان رجلا جيداً، حسن القراءة، من كبار العدول، توفي ليلة الاثنين ثالث صفر، ودفن بباب سطحا.

الشيخ زين الدين

■ الفارقي: عبد الله بن مروان بن عبد الله، بن فهر بن الحسن، أبو محمد الفارقي، شيخ الشافعية ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، واشتغل ودرس في عدة مدارس، وأفتى مدة طويلة، وكانت له همة، وشهامة وصرامة، وكان يباشر الأوقاف جيداً، وهو الذي عمر دار الحديث بعد خرابها زمن قازان، وقد باشرها سبعا وعشرين سنة، من بعد النووي إلى حين وفاته، وكانت معه الشامية البرانية، وخطابة الجامع الأموي تسعة أشهر، باشر به الخطابة قبل وفاته، وقد انتقل إلى دار الخطابة، وتوفي بها يوم الجمعة بعد العصر، وصلى عليه ضحوة يوم السبت، ابن صصرى عند باب الخطابة، وبسوق الخيل قاضي الحنفية شمس الدين بن الحريري، وعند جامع الصالحية قاضي الحنابلة تقي الدين سليمان، ودفن بتربة أهله شمالي تربة الشيخ أبي عمر رحمه الله، وباشر بعده الخطابة شرف الدين الفزاري ومشيخة دار الحديث ابن الوكيل، والشامية البرانية ابن الزملكاني وقد تقدم ذلك.

الأمير الكبير

■ عز الدين أيبك الحموي: ناب بدمشق مدة ثم عزل عنها إلى صرخد، ثم نقل قبل موته بشهر إلى نيابة حمص، وتوفي بها يوم العشرين من ربيع الآخر، ونقل إلى تربته بالسفح غربي زاوية ابن قوام، وإليه ينسب الحمام بمسجد القصب، الذي يقال له حمام الحموي، عمره في أيام نيابته.

الوزير فتح الدين: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن نصر بن صَغير القرشي المخزومي

■ ابن القيسراني، كان شيخاً جليلا، أديباً شاعراً مُجيداً،من بيت رياسة ووزارة، ولي وزارة دمشق مدة، ثم أقام بمصر موقعا مدة، وكان له اعتناء بعلوم الحديث وسماعه وإسماعه، وله مصنف في أسماء الصحابة الذين خرج لهم في الصحيحين، وأورد شيئاً من أحاديثهم في مجلدين موقوفين بالمدرسة الناصرية بدمشق، وكان له مذاكرة جيدة محررة باللفظ والمعنى، وقد خرج عنه الحافظ الدمياطي، وهو آخر من توفي من شيوخه، توفي بالقاهرة في يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الآخر، وأصلهم من قيسارية الشام، وكان جده موفق الدين أبو البقاء خالد وزيراً لنور الدين الشهيد، وكان من الكتاب المجيدين المتقنين، له كتابة جيدة محررة جداً، توفي في أيام صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأبوه محمد بن نصر بن صغير ولد بعكا قبل أخذ الفرنج لها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فلما أخذت بعد التسعين وأربعمائة انتقل أهلهم إلى حلب فكانوا بها، وكان شاعراً مطبقاً له ديوان مشهور، وكان له معرفة جيدة بالنجوم وعلم الهيئة وغير ذلك.

وفيها توفي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص

■ عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن زرع القرشي من بني حصلة، وهم يتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نسب، وقف على بعضها شيخنا المزي، فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي من قرية يقال لها الشركوين غربي بصرى، بينها وبين أذرعات، ولد بها في حدود سنة أربعين وستمائة، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى فقرأ البداية في مذهب أبي حنيفة، وحفظ جمل الزجاجي، وعني بالنحو والعربية واللغة، وحفظ أشعار العرب، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق، في المديح والمراثي، وقليل من الهجاء، وقرر في مدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلد حيث يزار، وهو المبرك المشهور عند الناس، والله أعلم بصحة ذلك.

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى، وتمذهب للشافعي، وأخذ عن النواوي، والشيخ تاج الدين الفزاري، وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني، فأقام بها نحواً من اثني عشرة سنة،

ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التي منها الوالدة، فأقام بها مدة طويلة، في خير وكفاية، وتلاوة كثيرة، وكان يخطب جيداً، وله قبول عند الناس، ولكلامه وَقْع لديانته وفصاحته وحلاوته، وكان يؤثر الإقامة في البلاد لما يرى فيها من الرفق وجود الحلال له ولعياله.

وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها، أكبرهم إسماعيل، ثم يونس وإدريس، ثم من الوالدة عبد الوهاب، وعبد العزيز، ومحمد، وأخوات عدة، ثم أنا أصغرهم، وسميت باسم الأخ إسماعيل لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصل المنتخب في أصول الفقه، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني، ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية فمكث أياماً ومات، فوَجَد الوالد عليه وجداً كثيراً، ورثاه بأبيات كثيرة، فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل، وآخرهم وأصغرهم إسماعيل، فرحم الله من سلف، وختم بخير لمن بقي.

وكانت وفاة الوالد في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة، بقرية مجيدل القرية، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة، وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق، صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر، والله أعلم.

وقد قال شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في معجمه، فيما أخبرني عنه شمس الدين محمد بن سعد المقدسي مخرجه له، ومن خط المحدث شمس الدين بن سعد هذا نقلت، وكذلك وقفت على خط الحافظ البرزالي مثله في السفينة الثانية من السفن الكبار: قال عمر بن كثير القرشي خطيب القرية، وهي قرية من أعمال بصرى، رجل فاضل، له نظم جيد، ويحفظ كثيراً من اللغز، وله همة وقوة، كتبت عنه من شعره بحضور شيخنا تاج الدين الفزاري، وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة بمجيدل القرية من عمل بصرى، أنشدنا الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي، خطيب القرية بها لنفسه في منتصف شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة: الطويل

نَأى النَّوْمُ عَنْ جَفْنِي فَبِتُّ مُسَهَّداً	أَخَا كَلَفٍ حِلْفَ الصَّبَابَةِ مُوجَدا
سَمِيرَ الثُّرَيَّا والنُّجُومِ مُدَلَّهاً	فَمِنْ وَلَهِي خِلْتُ الكَوَاكِبَ رُكَّدا
طَرِيحاً عَلَى فَرْشِ الصَّبَابَةِ والأَسَى	فَمَا ضَرَّكُمْ لَوْ كُنْتُمُ لِيَ عُوَّدا
تُقَلِّبُنِي أَيْدِي الغَرَامِ بِلَوْعَةٍ	أَرَى النَّارَ مِنْ تِلْقَائِهَا لِيَ أَبْرَدَا
ومَزَّقَ صَبْرِي بَعْدَ جِيرَانِ حَاجِرٍ	سَعِيرُ غَرَامٍ بَاتَ فِي القَلْبِ مُوقَدَا
فَأَمْطَرْتُهُ دَمْعِي لَعَلَّ زَفِيرَهُ	يَقِلُّ فَزَادَتْهُ الدُّمُوعُ تَوَقُّدَا
فَبِتُّ بِلَيْلٍ نَابِغِيٍّ ولا أَرَى	عَلَى النَّأْيِ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ مُسْعِدا
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَبَاعَدَ فَجْرُهُ	عَلَيَّ إلى أَنْ خِلْتُهُ قَدْ تَخَلَّدَا
غَرَاماً ووَجْداً لا يُحَدُّ أَقَلُّهُ	بِأَهْيَفَ مَعْسُولِ المَرَاشِفِ أَغْيَدَا
لَهُ طَلْعَةٌ كَالبَدْرِ زَانَ جَمَالَهَا	بِطُرَّةِ شَعْرٍ حَالِكِ اللَّوْنِ أَسْوَدَا
يَهُزُّ مِنَ القَدِّ الرَّشِيقِ مُثَقَّفاً	وَيَشْهَرُ مِنْ جَفْنَيْهِ سَيْفاً مُهَنَّدَا
وفِي وَرْدِ خَدَّيْهِ وآسِ عِذَارِهِ	وضَوْءِ ثَنَايَاهُ فَنِيتُ تَجَلُّدَا
غَدَا كُلُّ حُسْنٍ دُونَهُ مُتَقَاصِراً	وأَضْحَى لَهُ رَبُّ الجَمَالِ مُوَحَّدَا
إذا مَا رَنَا واهْتَزَّ عِنْدَ لِقَائِهِ	سَبَاكَ، فَلَمْ تَمْلِكْ لِسَاناً ولاَ يَدَا
وتَسْجُدُ إجْلالاً لَهُ وكَرَامَةً	وتُقْسِمُ قَدْ أَمْسَيْتُ فِي الحُسْنِ أَوْحَدَا
ورُبَّ أَخِي كُفْرٍ تَأَمَّلَ حُسْنَهُ	فَأَسْلَمَ مِنْ إجْلالِهِ وتَشَهَّدَا
وأَنْكَرَ عِيسَى والصَّلِيبَ ومَرْيَماً	وأَصْبَحَ يَهْوَى بَعْدَ بُغْضٍ مُحَمَّدَا
أيَا كَعْبَةَ الحُسْنِ الَّتِي طَافَ حَوْلَهَا	فُؤَادِي، أَمَا لِلصَّدِّ عِنْدَكَ مِنْ فِدَا؟
قَنِعْتُ بِطَيْفٍ مِنْ خَيَالِكَ طَارِقٍ	وقَدْ كُنْتُ لا أَرْضَى بِوَصْلِكَ سَرْمَدَا
فَقَدْ شَفَّنِي شَوْقٌ تَجَاوَزَ حَدَّهُ	وحَسْبُكَ مِنْ شَوْقٍ تَجَاوَزَ واعْتَدَا
سَأَلْتُكَ إلا مَا مَرَرْتَ بِحَيِّنَا	بِفَضْلِكَ يَا رَبَّ المَلاحَةِ والنَّدَا
لَعَلَّ جُفُونِي أَنْ تَغِيضَ دُمُوعُهَا	ويَسْكُنَ قَلْبٌ مُذْ هَجَرْتَ فَمَا هَدَا
غَلِطْتَ بِهِجْرَانِي ولَوْ كُنْتَ صَابِياً	لَمَا صَدَّكَ الوَاشُونَ عَنِّي ولا العِدَا

وعدتها ثلاثة وعشرون بيتا والله يغفر له ما صَنَع من الشعر.

ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة

استهلت والخليفة والسلطان والحكام والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها.

وفي يوم الأحد ثالث ربيع الأول حضرتُ الدروس والوظائف التي أنشأها الأمير بيبرس الجاشنكير المنصوري بجامع الحاكم بعد أن جدده من خرابه بالزلزلة التي طرقت ديار مصر، في آخر سنة ثنتين وسبعمائة، وجعل القضاة الأربعة هم المدرسين للمذاهب، وشيخ الحديث سعد الدين الحارثي، وشيخ النحو أثير الدين أبو حيان، وشيخ القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي، وشيخ إفادة العلوم الشيخ علاء الدين القونوي.

وفي جمادى الآخرة باشر الأمير ركن الدين بيبرس الحجوبية مع الأمير سيف الدين بكتمر، وصارا حاجبين كبيرين في دمشق.

وفي رجب منها أُحضر إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دِلْقاً كبيراً متسعاً جداً، يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب،وقطعوه حتى لم يدعوا منه شيئاً، وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانوا طوالا جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما لا يجوز أكله من المحرمات ومما يغير العقل من الحشيشة وغيرها، وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي، فاستتابه أيضا عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوبا أن لا يتكلم في تعبير المنامات، ولا في غيرها بما لا علم له به.

وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه في ابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم

يتوجه لهم عليه ما يشين وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي، وإلى اللّه إياب الخلق وعليه حسابهم.

وفي رجب جلس قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى بالمدرسة العادلية الكبيرة، وعملت التخوت بعدما جددت عمارة المدرسة، ولم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة قازان بسبب خرابها، وجاء المرسوم للشيخ برهان الدين الفزاري بوكالة بيت المال فلم يقبل، وللشيخ كمال الدين بن الزملكاني بنظر الخزانة فقبل وخلع عليه بطرحة، وحضر بها يوم الجمعة، وهاتان الوظيفتان كانتا مع نجم الدين بن أبي الطيب توفي إلى رحمة اللّه.

وفي شعبان سعى جماعة في تبطيل الوقيد ليلة النصف، وأخذوا خطوط العلماء في ذلك، وتكلموا مع نائب السلطنة فلم يتفق ذلك، بل أشعلوا وصليت صلاة ليلة النصف أيضاً.

وفي خامس رمضان وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر بوكالة بيت المال، ولبس الخلعة يوم الجمعة سابع رمضان، وحضر عند ابن صصرى بالشباك الكمالي.

وفي سابع شوال عزل وزير مصر ناصر الدين بن الشيخي، وقطع إقطاعه، ورسم عليه وعوقب إلى أن مات في ذي القعدة، وتولى الوزارة سعد الدين محمد بن محمد بن عطايا وخلع عليه.

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة حكم قاضي القضاة جمال الدين الزواوي بقتل الشمس محمد بن جمال الدين عبد الرحيم الباجربقي، وإراقة دمه وإن تاب وإن أسلم، بعد إثبات محضر عليه يتضمن كفر الباجُرْبَقي المذكور، وكان ممن شهد عليه فيه الشيخ مجد الدين التونسي النحوي الشافعي، فهرب الباجربقي إلى بلاد الشرق، فمكث بها مدة سنين، ثم جاء بعد موت الحاكم المذكور كما سيأتي.

وفي ذي القعدة كان نائب السلطنة في الصيد فقصدهم في الليل طائفة من الأعراب، فقاتلهم الأمراء، فقتلوا من العرب نحو النصف، وتوغل في العرب أمير يقال له سيف الدين بهادر سمز احتقاراً بالعرب، فضربه واحد منهم برمح فقتله، فكرت الأمراء عليهم فقتلوا منهم خلقاً أيضاً، وأخذوا واحداً منهم زعموا أنه هو الذي قتله، فصلب تحت القلعة، ودفن الأمير المذكور بقبر الست وفي ذي القعدة تكلم الشيخ شمس الدين بن النقيب وجماعة من الفقهاء في الفتاوى الصادرة من الشيخ علاء الدين بن العطار، شيخ دار الحديث النورية والقوصية، وأنها مخالفة لمذهب الشافعي، وفيها تخبيط كثير، فتوهم من ذلك، وراح إلى الحنفي فحقن دمه وأبقاه على وظائفه، فبلغ ذلك نائب السلطنة فأنكر على المنكرين عليه، ورسم عليهم ثم اصطلحوا، ورسم نائب السلطنة أن لا تثار الفتن بين الفقهاء.

وفي مستهل ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين بن تيمية وجماعة من أصحابه، إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان، فاستتابوا خلقاً منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيداً منصوراً.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ تاج الدين بن شمس الدين بن الرفاعي: شيخ الأحمدية بأم عبيدة من مدة عديدة، وعنه تكتب إجازات الفقراء، ودفن هناك عند سلفه بالبطائح.

الصدر نجم الدين

■ عمر بن أبي القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن الحسن بن أبي الكاتب بن محمد بن أبي الطيب، وكيل بيت المال، وناظر الخزانة، وقد ولي في وقت نظر المارستان النوري وغير ذلك، وكان مشكور السيرة، رجلا جيداً، وقد سمع الحديث وروى أيضاً، وتوفي ليلة الثلاثاء، الخامس عشر من جمادى الآخرة، ودفن بتربتهم بباب الصغير.

ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون فيما مضى، وجاء الخبر في أولها أن جماعة من التتر كمنوا لجيش حلب، وقتلوا منهم خلقاً من الأعيان وغيرهم، وكثر النوح ببلاد حلب بسبب ذلك.

وفي مستهل المحرم حكم جلال الدين القزويني أخو قاضي القضاة إمام الدين نيابة عن ابن صصرى.

وفي ثانيه خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية، وقد كان تقدم بين يديه طائفة منهم بعد خروج ابن تيمية في ثاني المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة، فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم فنصرهم اللّه عليهم، وأبادوا خلقا كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من منيع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق، في صحبة الشيخ تقي الدين بن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علما وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً.

وفي مستهل جمادى الأولى قدم القاضي أمين الدين أبو بكر بن القاضي وجيه الدين عبد العظيم بن الرقاقي المصري من القاهرة على نظر الدواوين بدمشق، عوضاً عن عز الدين بن ميسّر.

ذِكر ما جرى للشيخ تقي الدين بن تيمية مع الأحمدية، وكيف عقدت له المجالس الثلاثة

وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر الشيخ تقي الدين بن تيمية، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف الشيخ تقي الدين إنكاره عليهم، وأن يسلم لهم حالهم، فقال الشيخ: هذا ما يمكن، ولا بد لكل احد أن يدخل تحت الكتاب والسنة، قولا وفعلا، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه وعلى كل أحد. فارادوا أن يفعلوا شيئا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ تلك أحوال شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولا إلى الحمام، وليغسل جسده غسلا جيداً، ويدلكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل، فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة المحمدية إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك! فابتدر شيخ المنيبع الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج على الكتاب والسنة ضربت عنقه، وصنف الشيخ جزءاً في طريقة

الأحمدية، وبين فيه فساد أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب والسنة، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنة.

وفي العشر الأوسط من هذا الشهر خلع على علاء الدين بن معبد وعز الدين خطاب، وسيف الدين بكتمر مملوك بكتاش الحسامي بالإمرة ولبسوا التشاريف، وركبوا بها وسلموا إليهم جبل الجرد والكسروان والبقاع.

وفي يوم الخميس ثالث رجب خرج الناس للاستسقاء إلى سطح المزة، ونصبوا هناك منبراً، وخرج نائب السلطنة وجميع الناس من القضاة والعلماء والفقراء، وكان مشهداً هائلا، وخطبة عظيمة فصيحة، فاستسقوا فلم يسقوا يومهم ذلك.

أول المجالس الثلاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية

وفي يوم الاثنين ثامن رجب حضر القضاة والعلماء، وفيهم الشيخ تقي الدين بن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر، وقرئت عقيدة الشيخ تقي الدين الواسطية، وحصل بحث في أماكن منها، وأخرت مواضع إلى المجلس الثاني، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة، ثاني عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفي الدين الهندي، وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً، ولكنْ ساقيته لاطمت بحراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين بن الزملكاني هو الذي يحاققه من غير مسامحة، فتناظرا في ذلك، وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، وجودة ذهنه، وحسن بحثه، حيث قاوم ابن تيمية في البحث، وتكلم معه، ثم انفصل الحال على قبول العقيدة، وعاد الشيخ إلى منزله معظماً مكرماً، وبلغني أن العامة حملوا له الشمع من باب النصر إلى القصاعين على جاري عادتهم في أمثال هذه الأشياء.

وكان الحامل على هذه الاجتماعات كتاب ورد من السلطان في ذلك، كان الباعث على إرساله قاضي المالكية ابن مخلوف، والشيخ نصر المنبجي شيخ الجاشنكير وغيرهما من أعدائه، وذلك أن الشيخ تقي الدين بن تيمية كان يتكلم في المنبجي، وينسبه إلى اعتقاد ابن عربي، وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه، لتقدمه عند الدولة، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له ومحبتهم له، وكثرة أتباعه، وقيامه في الحق، وعلمه وعمله.

ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة، في الصيد وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم.

ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلا في الرد على الجهمية من كتاب «خلق أفعال العباد» للبخاري تحت قبة النسر، بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين، وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صصرى، وكان عدو الشيخ فسجن المزي، فبلغ ذلك الشيخ تقي الدين فتألم لذلك، وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هنالك، فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي، فحلف ابن صصرى لا بد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه، فأمر النائب بإعادته تطييباً لقلب القاضي، فحبسه عنده في القوصية أياماً ثم أطلقه.

ولما قدم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقي الدين ما جرى في حقه وحق أصحابه في غيبته، فتألم النائب لذلك، ونادى في البلد أن لا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد تكلم في ذلك حل ماله ودمه ونهبت داره وحانوته، فسكنت الأمور، ولقد رأيت فصلا من كلام الشيخ تقي الدين في كيفية ما وقع في هذه المجالس الثلاثة من المناظرات.

ثم عقد المجلس الثالث في يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرِّضا بالعقيدة المذكورة، وفي هذا اليوم عزل ابن صَصْرَى نفسه عن الحكم، بسبب كلام سمعه من بعض الحاضرين في المجلس المذكور، وهو الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، ثم جاء كتاب السلطان في السادس والعشرين من شعبان فيه إعادة ابن صصرى إلى القضاء، وذلك بإشارة المنبجي، وفي الكتاب: إنا كنا وسمنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين بن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف، وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه.

ثم جاء كتاب آخر في خامس رمضان يوم الاثنين، وفيه الكشف عما وقع للشيخ تقي الدين بن تيمية في أيام جاغان والقاضي إمام الدين القزويني، وأن يحمل هو والقاضي ابن صصرى إلى مصر، فتوجها على البريد نحو مصر، وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه، وبكوا وخافوا عليه من أعدائه، وأشار عليه نائب السلطنة الأفرم بترك الذهاب إلى مصر، وقال له أنا أكاتب السلطان في ذلك وأصلح القضايا، فامتنع الشيخ تقي الدين من ذلك، وذكر له أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة ومصالح كثيرة، فلما توجه إلى مصر ازدحم الناس لوداعه، ورؤيته، حتى انتشروا من باب داره إلى قرب الجسورة، فيما بين دمشق والكسوة، وهم ما بين باك وحزين، ومتفرج ومتنزه ومزاحم متغال فيه.

فلما كان يوم السبت دخل الشيخ تقي الدين غزة، فعمل بجامعها مجلساً عظيما، ثم رحلا معاً إلى القاهرة والقلوب معه وبه متعلقة، فدخلا مصر يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان، وقيل إنهما دخلاها يوم الخميس.

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة عقد للشيخ تقي الدين مجلس بالقلعة، اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة، وأراد أن يتكلم على عادته فلم يمكّن من البحث والكلام، وانتدب له الشمس ابن عدلان خصماً احتساباً، وادعى عليه عند ابن مخلوف المالكي أنه يقول إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت، فسأله القاضي جوابه، فأخذ الشيخ في حمد الله، والثناء عليه، فقيل له أجب ما جئنا بك لتخطب، فقال: ومن الحاكم فيَّ؟ فقيل له القاضي المالكي. فقال له الشيخ كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي فغضب غضباً شديداً وانزعج، وأُقيم مرسَّما عليه، وحبس في برج أياما، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخواه شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن.

وأما ابن صَصْرَى فإنه جدد له توقيع بالقضاء بإشارة المنبجي شيخ الجاشنكير حاكم مصر، وعاد إلى دمشق يوم الجمعة سادس ذي القعدة والقلوب له ماقتة، والنفوس منه نافرة، وقرئ تقليده بالجامع، وبعده قرئ كتاب فيه الحط على الشيخ تقي الدين ومخالفته في العقيدة، وأن ينادي بذلك في البلاد الشامية، وألزم أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر، قام عليه جاشنكير وشيخه نصر المنبجي، وساعدهم جماعة من الفقهاء كثيرة والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، نعوذ بالله من الفتن، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة كثيرة، وذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجى البضاعة، وهو شرف الدين الحراني، فلذلك نال أصحابهم ما نالهم، وصارت حالُهم حالَهم.

وفي شهر رمضان جاء كتاب من مقدم الخدام بالحرم النبوي، يستأذن السلطان في بيع طائفة من قناديل الحرم النبوي ليُنفق ذلك في بناء مئذنة عند باب السلام الذي عند المطهرة، فرسم له بذلك، وكان في جملة القناديل قنديلان من ذهب زنتهما ألف دينار، فباع ذلك وشرع في بنائها، وولى سراج الدين عمر قضاءها مع الخطابة، فشق ذلك على الروافض.

وفي يوم الخميس ثاني عشر ذي القعدة وصل البريد من مصر بتولية القضاء لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن داود الأذرعي الحنفي قضاء الحنفية، عوضاً عن ابن الحريري معزولا، وتولية الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين الفزاري الخطابة عوضاً عن عمه الشيخ شرف الدين توفي إلى رحمة الله، وخلع عليهما بذلك، وباشرا في يوم الجمعة ثالث عشر الشهر، وخطب الشيخ برهان الدين خطبة حسنة، حضرها الناس والأعيان، ثم بعد خمسة أيام عزل نفسه عن الخطابة، وآثر بقاءه على تدريس البادرائية حتى بلغه أنها طُلبت لتأخذ منه، فبقي منصب الخطابة شاغراً، ونائب الخطيب يصلي بالناس ويخطب ودخل عيد الأضحى وليس للناس خطيب، وقد كاتب نائب السلطنة في ذلك فجاء المرسوم بإلزامه بذلك، وفيه: لعلمنا بأهليته وكفايته واستمراره على ما بيده من تدريس البادرائية، فباشرها معها مرة ثانية، ثم إن كمال الدين بن الشيرازي، سعى في البادرائية فأخذها، وباشرها في صفر من السنة الآتية بتوقيع سلطاني، فعزل الفزاري نفسه عن الخطابة ولزم بيته، فراسله نائب السلطان في ذلك، فصمم على العزل وأنه لا يعود إليها أبداً، وذكر أنه عجز عنها، فلما تحقق ذلك نائب السلطنة أعاد إليه مدرسته، وكتب له بها توقيعا في العشر الأول من ذي الحجة، وخلع على شمس الدين بن الخطيري بنظر الخزانة، عوضا عن ابن الزملكاني.

وحج بالناس الأمير شرف الدين حسين بن جندر.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ عيسى بن الشيخ سيف الدين الرُجيحي بن سابق بن الشيخ يونس

■ القُنَيِّي، ودفن بزاويتهم التي بالشرف الشمالي بدمشق غربي الوراقة والعزية، يوم الثلاثاء سابع المحرم.

الملك

■ الأوحد ابن الملك تقي الدين شاذي بن الملك الزاهر مجير الدين داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي، توفي بجبل الجُرد، في آخر نهار الأربعاء ثاني صفر، وله من العمر سبع وخمسون سنة، فنقل إلى تربتهم بالسفح، وكان من خيار الدولة، معظما عند الملوك والأمراء، وكان يحفظ القرآن، وله معرفة بعلوم، ولديه فضائل.

الصدر علاء الدين:

■ علي بن معالي الأنصاري الحراني الحاسب، يعرف بابن الوزير، وكان فاضلا، بارعا في صناعة الحساب، انتفع به جماعة، توفي في أواخر صفر من هذه السنة فجأة، ودفن بقاسيون، وقد أخذت الحساب عن الحاضري عن علاء الدين الطيوري عنه.

الخطيب شرف الدين أبو العباس

■ أحمد بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري، الشيخ الإمام العلامة أخو العلامة شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن، ولد سنة ثلاثين، وسمع الحديث الكثير، وانتفع على المشايخ في ذلك العصر كابن الصلاح والسخاوي وغيرهما، وتفقه وأفتى، وناظر وبرع، وساد أقرانه، وكان أستاذاً في العربية واللغة، والقراءات، وإيراد الأحاديث النبوية، والتردد إلى المشايخ للقراءة عليهم، وكان فصيح العبارة، حلو المحاضرة، لا تمل مجالسته، وقد درس بالطيبة وبالرباط الناصري مدة، ثم تحول عنه إلى خطابة جامع جراح، ثم انتقل إلى خطابة جامع دمشق بعد الفارقي في سنة ثلاث، ولم يزل به حتى توفي يوم الأربعاء، عشية التاسع من شوال، عن خمس وسبعين سنة، وصلِّيَ عليه صبيحة يوم الخميس على باب الخطابة، ودفن عند أبيه وأخيه بباب الصغير رحمهم الله، وولي الخطابة بعده ابن أخيه.

شيخنا العلامة برهان الدين الحافظ الكبير

■ الدمياطي: وهو الشيخ الإمام العالم الحافظ شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الدمياطي.

حامل لواء هذا الفن - أعني صناعة الحديث وعلم اللغة - في زمانه مع كبر السن والقدر، وعلو الإسناد، وكثرة الرواية، وجودة الدراية، وحسن التصنيف، وانتشار التآليف، وتردد الطلبة إليه من سائر الآفاق، مولده في آخر سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد كان أول سماعه في سنة ثنتين وثلاثين بالإسكندرية، سمع الكثير على المشايخ، ورحل وطاف، وحصل وجمع فأوعى، ولكن ما منع ولا بخل، بل بذل وصنف، ونشر العلم، وولي المناصب بالديار المصرية، وانتفع الناس به كثيراً، وجمع معجماً لمشايخه الذين لقيهم بالحجاز والشام والجزيرة والعراق، وديار مصر يزيدون على ألف وثلاثمائة شيخ، وهو مجلدان وله الأربعون المتباينة الإسناد وغيرها، وله كتاب في الصلاة الوسطى مفيد جداً، ومصنف في صيام ستة أيام من شوال أجاد فيه وأفاد، وجمع ما لم يسبق إليه، وله كتاب الذكر والتسبيح عقيب الصلوات، وكتاب التسلي في الاغتباط بثواب من تقدم من الأفراط، وغير ذلك من الفوائد الحسان، ولم يزل في إسماع الحديث إلى أن أدركته وفاته، وهو صائم في مجلس الأمراء، غشي عليه فحمل إلى منزله، فمات من ساعته يوم الأحد خامس عاشر ذي القعدة بالقاهرة، ودفن من الغد بمقابر باب النصر، وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والشيخ تقي الدين بن تيمية مسجون بالجب من قلعة الجبل.

وفي يوم الأربعاء جاء البريد بتولية الخطابة للشيخ شمس الدين إمام الكلاسة، وذلك في ربيع الأول، وهنئ بذلك فأظهر التكره لذلك والضعف عنه ولم تحصل له مباشرة لغيبة نائب السلطنة في الصيد، فلما حضر أذن له فباشر يوم الجمعة العشرين من الشهر، فأول صلاة صلاها الصبح يوم الجمعة، ثم خلع عليه وخطب يومئذ.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول باشر نيابة الحكم عن القاضي الشافعي نجم الدين أحمد بن عبد المحسن بن حسن المعروف بالدمشقي، عوضاً عن تاج الدين صالح بن ثامر بن حامد بن علي الجعبري، وكان معمرا قديم الهجرة كثير الفضائل، دينا ورعاً، جيد المباشرة، وكان قد ولي الحكم في سنة سبع وخمسين وستمائة، فلما تولى ابن صَصْرَى كره نيابته.

وفي يوم الأحد العشرين من ربيع الآخر قدم البريد من القاهرة ومعه تجديد توقيع للقاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، فظن الناس أنه بولاية القضاء لابن الحريري فذهبوا ليهنئوه مع البريدي إلى الظاهرية، واجتمع الناس لقراءة التقليد على العادة، فشرع الشيخ علم الدين البرزالي في قراءته، فلما وصل إلى الاسم تبين أنه ليس له وأنه للأذرعي، فبطل القارئ وقام الناس مع البريدي إلى الأذرعي، وحصلت كسرة وخمدة على الحريري والحاضرين، ووصل مع البريدي أيضاً كتاب فيه طلب الشيخ كمال الدين بن الزملكاني إلى القاهرة، فتوهم من ذلك، وخاف أصحابه عليه بسبب انتسابه إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية، فتلطف به نائب السلطنة، وداري عنه حتى أعفي من الحضور إلى مصر والحمد لله.

وفي يوم الخميس تاسع جمادى الأولى دخل الشيخ بُرَاق إلى دمشق، وفي صحبته مائة فقير، كلهم محلوقون قد وفّروا شواربهم عكس ما وردت به السنة، وعلى رؤوسهم قرون لبابيد، وعليهم أجراس وكعاب، وجواكين خشب، فنزلوا بالمنيبع وحضروا الجمعة برواق الحنابلة، ثم توجهوا نحو القدس فزاروا، ثم استأذنوا في الدخول إلى الديار المصرية فلم يؤذن لهم، فعادوا إلى دمشق فصاموا بها رمضان، ثم انشمروا راجعين إلى بلاد الشرق، إذ لم يجدوا بدمشق قبولا، ولا منزلاً ولا مقيلاً. وقد كان شيخهم براق المذكور روميا، من بعض قرى دوقات من أبناء الأربعين، وقد كانت له منزلة عند قازان ومكانة، وذلك أنه سلط عليه نمراً فزجره فهرب منه وتركه، فحظي عنده وأعطاه في يوم واحد ثلاثين ألفا ففرقها كلها فأحبه، ومن طريقة أصحابه أنهم لا يقطعون لهم صلاة، ومن ترك صلاة ضربوه أربعين جلدة، وكان يزعم أن طريقه الذي سلكه إنما سلكه ليُخرِّب على نفسه، ويرى أنه زيّ المسخرة، وأن هذا هو الأليق بالدنيا، والمقصود إنما هو الباطن والقلب وعمارة ذلك، ونحن إنما نحكم بالظاهر، والله أعلم بالسرائر.

وفي يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة حضر تدريس النجيبية القاضي بهاء الدين يوسف بن كمال الدين أحمد بن عبد العزيز العجمي الحلبي، عوضاً عن الشيخ ضياء الدين الطوسي توفي، وحضر عنده قاضي ابن صَصْرَى وجماعة من الفضلاء.

وفي هذه السنة صليت صلاة الرغائب والنصف بجامع دمشق بعد أن كانت قد أبطلها ابن تيمية منذ أربع سنين، ولما كانت ليلة النصف حضر الحاجب ركن الدين بيبرس العلائي، ومنع الناس من الوصول إلى الجامع ليلتئذ، وغلقت أبوابه فبات كثير من الناس في الطرقات، وحصل للناس أذى كثير، وإنما أراد صيانة الجامع من اللغو والرفث والتخليط.

وفي سابع عشر رمضان حكم القاضي تقي الدين الحنبلي بحقن دم محمد بن الباجربقي، وأثبت عنده محضراً بعداوة ما بينه وبين الشهود الستة الذين شهدوا عليه عند المالكي، حين حكم بإراقة دمه، وممن شهد بهذه العداوة ناصر الدين بن عبد السلام، وزين الدين بن الشريف عدنان، وقطب الدين ابن شيخ السلامية وغيرهم.

وفيها باشر كمال الدين بن الزملكاني نظر ديوان ملك الأمراء، عوضاً عن شهاب الدين الحنفي، وذلك في آخر رمضان وخلع عليه بطيلسان وخلعة، وحضر بها دار العدل.

وفي ليلة عيد الفطر أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر القضاة الثلاثة، وجماعة من الفقهاء، فالقضاة المالكي والشافعي والحنفي، والفقهاء الباجي والجزري والنمراوي، وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين بن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطا في ذلك، منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة، وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور وصمم، وتكررت الرسل إليه ست مرات، فصمم على عدم الحضور، ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئا، فطال عليهم المجلس، فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين.

وفي يوم الأربعاء ثاني شوال أذن نائب السلطنة الأفرم للقاضي جلال الدين القزويني أن يصلي بالناس، ويخطب بجامع دمشق، عوضاً عن الشيخ شمس الدين إمام الكلاسة توفي، فصلى الظهر يومئذ، وخطب الجمعة، واستمر في الإمامة والخطابة حتى وصل توقيعه بذلك من القاهرة في مستهل ذي القعدة وحضر نائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان وشكرت خطبته.

وفي مستهل ذي القعدة كمل بناء الجامع الذي أنشأه وبناه وعمره الأمير جمال الدين نائب السلطنة الأفرم بالسفح شمالي الرباط الناصري بالصالحية، ورتب فيه خطيباً يخطب به يوم الجمعة، وهو القاضي شمس الدين محمد بن العز الحنفي، وحضر نائب السلطنة والقضاة، وشكرت خطبة الخطيب به، ومد الصاحب شهاب الدين الحنفي سماطا بعد الصلاة بالجامع المذكور، وهو الذي كان الساعي في عمارته، والمستحث عليها، فجاء في غاية الإتقان والحسن، تقبل الله منهم.

وفي ثالث ذي القعدة استناب ابن صَصْرَى القاضي صدر الدين سليمان بن هلال بن شبل الجعفري خطيب داريا في الحكم، عوضا عن جلال الدين القزويني، بسبب اشتغاله بالخطابة عن الحكم.

وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذي القعدة قدم قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ صفي الدين أبي القاسم محمد الحنفي البصراوي إلى دمشق من القاهرة متوليا قضاء الحنفية، عوضاً عن الأذرعي، مع ما بيده من تدريس النورية والمقدمية، وخرج الناس لتلقيه وهنؤوه، وحكم بالنورية، وقرئ تقليده بالمقصورة الكندية في الزاوية الشرقية، من جامع بني أمية.

وفي ذي الحجة ولّي الأمير عز الدين بن صبرة على الصُّفْقة القبلية والي الولاة، عوضاً عن الأمير جمال الدين آقوش الرستمي، بحكم ولايته شد الدواوين بدمشق، وجاء كتاب من السلطان بولاية وكالته للرئيس عز الدين بن حمزة بن القلانسي، عوضاً عن ابن عمه شرف الدين، فكره ذلك.

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة أخبر نائب السلطنة بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له الجب، فأرسل في طلبه فجيء به، فقرئ على الناس، وجعل يشكر الشيخ ويثني عليه، وعلى علمه، وديانته، وشجاعته وزهده، وقال ما رأيت مثله، وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن من التوجه إلى الله، وأنه لم يقبل من أحد شيئا لا من النفقات السلطانية، ولا من الكسوة، ولا من الإدرارات ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك.

وفي هذا الشهر يوم الخميس السابع والعشرين منه طلب أخوا الشيخ تقي الدين - شرف الدين وزين الدين - من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار، وحضر نائب السلطنة ابن مخلوف المالكي، وجرى بينهم كلام كثير، فظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش ومسألة الكلام، وفي مسألة النزول.

وفي يوم الجمعة أحضر شرف الدين أخو الشيخ تقي الدين وحده في مجلس نائب السلطنة سلار وحضر ابن عَدْلان وتكلم معه الشيخ شرف

الدين وناظره وبحث معه وظهر عليه أيضا . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين ذي الحجة وصل على البريد من مصر نجم الدين محمد ابن الشيخ فخر الدين ابن أخي قاضي القضاة البصراوي، وزوج ابنته على الحسبة بدمشق، عوضاً عن جمال الدين يوسف العجمي، وخلع عليه بطيلسان، ولبس الخلعة ودار بها في البلد، في مستهل سنة سبع وسبعمائة.

وفي هذه السنة عمر في حرم مكة نحو مائة ألف.

وحج بالناس من الشام الأمير ركن الدين بيبرس المجنون.

ومن توفي فيها من الأعيان

القاضي تاج الدين:

■ صالح بن ثامر بن حامد بن علي الجعبري الشافعي، نائب الحكم بدمشق، ومعيد الناصرية.

كان ثقة ديناً، عدلا مرضياً زاهدا، حكم من سنة سبع وخمسين وستمائة، له فضائل وعلوم، وكان حسن الشكل والهيئة، توفي في ربيع الأول، عن ست وسبعين سنة، ودفن بالسفح وناب في الحكم بعده نجم الدين الدمشقي.

الشيخ ضياء الدين الطوسي:

أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن علي الشافعي، مدرس النجيبية، شارح الحاوي ومختصر ابن الحاجب.

كان شيخاً فاضلا بارعاً، وأعاد في الناصرية أيضاً، توفي يوم الأربعاء بعد مرجعه من الحمام تاسع عشرين من جمادى الأولى، وصلي عليه يوم الخميس ظاهر باب النصر، وحضر نائب السلطنة وجماعة من الأمراء والأعيان، ودفن بالصوفية، ودرس بعده بالمدرسة بهاء الدين العجمي.

الشيخ جمال الدين

■ إبراهيم بن محمد بن سعد الطيبي: المعروف بابن السَّاملي، والسوامل: الطاسات، كان معظما ببلاد الشرق جداً، كان تاجراً كبيراً، توفي هذا الشهر المذكور.

الشيخ الجليل سيف الدين

■ الرجيحي بن سابق بن هلال بن يونس، شيخ اليونسية بمقامهم، صلي عليه سادس رجب بالجامع، ثم أعيد إلى داره التي سكنها داخل باب توما، وتعرف بدار أمين الدولة فدفن بها، وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان، والقضاة والأمراء، وكانت له حرمة كبيرة عند الدولة وعند طائفته، وكان ضخم الهامة جداً، محلوق الشعر، وخلف أموالا وأولاداً.

الأمير الكبير

■ فارس الدين الردادي: توفي في العشر الأخير من رمضان، وكان قد رأى النبي ﷺ قبل وفاته بأيام وهو يقول له: أنت مغفور لك، ونحو هذا، وهو من أمراء حسام الدين لاجين .

الشيخ القدوة العابد

■ أبو عبد الله بن مطرف توفي بمكة في شهر رمضان مكث مجاورا ستين سنة وكان يطوف كل يوم وليلة خمسين أسبوعاً، وتوفي عن تسعين سنة، رحمه الله.

■ (محمد بن أحمد بن عثمان الخلاطي).

الشيخ الإمام العابد الزاهد خطيب دمشق شمس الدين: محمد بن الشيخ أحمد بن عثمان الخلاطي،إمام الكلاسة، كان شيخا حسنا، بهي المنظر، كثير العبادة عليه سكون ووقار، باشر إمامة الكلاسة قريبا من أربعين سنة، ثم خُطب إلى أن يكون خطيباً بدمشق بالجامع، من غير سؤال منه ولا طلب، فباشرها ستة أشهر ونصفاً أحسن مباشرة، وكان حسن الصوت، طيب النغمة، عارفاً بصناعة الموسيقى، مع ديانة وعبادة، وقد سمع الحديث توفي فجأة بدار الخطابة يوم الأربعاء ثامن شوال عن ثنتين وستين سنة، وصلّي عليه بالجامع وقد امتلأ بالناس، ثم صلي عليه بسوق الخيل، وحضر نائب السلطنة والأمراء والعامة، وقد غلقت الأسواق، ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والشيخ تقي الدين بن تيمية معتقل بالجُبّ من قلعة الجبل بمصر.

وفي أوائل المحرم منها أظهر السلطان الملك الناصر الغضب على الأمير ابن سلار، والجاشنكير وامتنع من العلامة، وأغلق القلعة، وتحصن فيها، ولزم الأميران بيوتهما، واجتمع عليهما جماعة من الأمراء، وحوصرت القلعة، وجرت خبطة عظيمة، وغلقت الأسواق ثم راسلوا السلطان، فتأطّدت الأمور، وسكنت الشرور على دخن، وتنافر قلوب، وقوي الأميران أكثر مما كانا قبل ذلك، وركب السلطان، ووقع الصلح على دخن.

وفي المحرم وقعت الحرب بين التتر وبين أهل كيلان، وذلك أن ملك التتر طلب منهم أن يجعلوا ببلادهم طريقاً لعسكره، فامتنعوا من ذلك، فأرسل إليهم ملك التتر خربندا جيشا كثيفا ستين ألفا من المقاتلة،أربعين ألفا مع قطلوشاه، وعشرين ألفا مع جوبان، فأمهلهم أهل كيلان حتى توسطوا بلادهم، ثم أرسلوا عليهم خليجا من البحر، ورموهم بالنفط، فغرق كثير منهم، واحترق آخرون، وقتلوا بأيديهم طائفة كثيرة، فلم يفلت منهم إلا القليل، وكان فيمن قتل أمير التتر الكبير قطلوشاه، فاشتد غضب خربندا على أهل كيلان،ولكنه فرح بقتل قطلوشاه، فإنه كان يريد قتل خربندا ثم كف أمره عنهم،ثم قتل بعده بولاي، ثم إن ملك التتر أرسل الشيخ برّاقاً الذي قدم الشام فيما تقدم إلى أهل كيلان، يبلغهم عنه رسالة،فقتلوه وأراحوا الناس منه،وبلادهم من أحصن البلاد وأطيبها لا تستطاع، وهم أهل سنة، وأكثرهم حنابلة،لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم.

وفي يوم الجمعة رابع عشر صفر اجتمع قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بالشيخ تقي الدين بن تيمية في دار الأوحدي من قلعة الجبل، وطال بينهما الكلام، ثم تفرقا قبل الصلاة، والشيخ تقي الدين بن تيمية مصمم على عدم الخروج من السجن.

فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول جاء الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب إلى السجن بنفسه، وأقسم على الشيخ تقي الدين ليخرجن إليه، فلما خرج أقسم عليه ليأتين معه إلى دار سلار، فاجتمع به بعض الفقهاء بدار سلار، وجرت بينهم بحوث كثيرة، ثم فرقت بينهم الصلاة، ثم اجتمعوا إلى المغرب، وبات الشيخ تقي الدين عند سلار، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان جميع النهار، ولم يحضر أحد من القضاة، بل اجتمع من الفقهاء خلق كثير من كل يوم، منهم الفقيه نجم الدين بن رفعة، وعلاء الدين الباجي، وفخر الدين ابن بنت أبي سعد، وعز الدين النمراوي، وشمس الدين بن عَدْلان، وجماعة من الفقهاء، وطلبوا

القضاة فاعتذروا بأعذار، بعضهم بالمرض وبعضهم بغيره، لمعرفتهم بما ابن تيمية منطو عليه من العلوم والأدلة، وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه، فقبل عذرهم نائب السلطنة، ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم وانفصل المجلس على خير، وبات الشيخ عند نائب السلطنة، وكان الأمير حسام الدين مهنا يريد أن يستصحب الشيخ تقي الدين معه إلى دمشق، فأشار سلار بإقامة الشيخ مدّة بمصر عنده، ليرى الناس فضله وعلمه، وينتفعوا به ويشتغلوا عليه، وكتب الشيخ كتابا إلى الشام يتضمن ما وقع له من الأمور.

قال البرزالي: وفي شوال منها شكا الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين وكلامه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي، فعقد له مجلس، وادعى عليه ابن عطاء بأشياء، فلم يثبت عليه منها شيء، لكنه قال إنه لا يستغاث إلا بالله، ولا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم استغاثة بمعنى العبادة، ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله فبعض الحاضرين قال: ليس عليه في هذا شيء، ورأى القاضي بدر الدين بن جماعة أن هذا فيه قلة أدب، فحضرت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فقال القاضي قد قلت له ما يقال لمثله. ثم إن الدولة خيروه بين أشياء إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروطه أو الحبس، فاختار الحبس فدخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق ملتزما ما شُرط، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبرا لخواطرهم، فركب خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال، ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر، فردوه وحضر عند قاضي القضاة ابن جماعة، وعنده جماعة من الفقهاء، فقال له بعضهم: إن الدولة ما ترضى إلا بالحبس، فقال القاضي وفيه مصلحة له واستناب شمس الدين التونسي المالكي، وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي فتحير، فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال: أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فقال نور الدين الزواوي: يكون في موضع يصلح لمثله، فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القضاة وأجلس في المكان الذي أجلس فيه القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز حين سُجن، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه، وكان ذلك كله بإشارة نصر المنبجي ووجاهته في الدولة، فإنه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد، وغيره من الدولة والسلطان مقهور معه.

واستمر الشيخ في الحبس يستفتى، ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس، ويكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة.

ثم عُقد للشيخ مجلس بالصالحية بعد ذلك كله، ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير، وأكب الناس على الاجتماع به ليلا ونهاراً.

وفي سادس رجب باشر الشيخ كمال الدين بن الزملكاني نظر ديوان المارستان عوضا عن يوسف العجمي توفي، وكان محتسباً بدمشق مدة فأخذها منه نجم الدين بن البصراوي قبل هذا بستة أشهر، وكان العجمي مو صوفاً بالأمانة والكفاءة.

وفي ليلة النصف من شعبان أبطلت صلاة ليلة النصف، لكونها بدعة، وصين الجامع من الغوغاء والرعاع، وحصل بذلك خير كثير ولله الحمد والمنة.

وفي رمضان قدم الصدر نجم الدين البصراوي ومعه توقيع بنظر الخزانة، عوضاً عن شمس الدين الخطيري، مضافا إلى ما بيده من الحسبة.

ووقع في أواخر رمضان مطر قوي شديد وكان الناس لهم مدة لم يمطروا، فاستبشروا بذلك ورخصت الأسعار، ولم يمكن الناس الخروج إلى المصلى من كثرة المطر، فصلوا في الجامع، وحضر نائب السلطنة فصلى بالمقصورة، وخرج المحمل، وأمير الحج عامئذ الأمير سيف الدين بلبان البدري التتري.

وفيها حج القاضي شرف الدين البارزي من حماة.

وفي ذي الحجة وقع حريق عظيم بالقرب من الظاهرية. مبدؤه من الفرن تجاهها الذي يقال له فرن الصوفية، ثم لطف الله، وكف شرها وشررها.

قلت: وفي هذه السنة كان قدومنا من بصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد، وكان أول ما سكنا بدرب سقون الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطيوريين، ونسأل الله حسن العاقبة والخاتمة آمين.

ومن توفي فيها من الأعيان

الأمير الكبير

■ ركن الدين بيبرس: العجمي الصالحي، المعروف بالجالق، كان رأس الجمدارية في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وأمرّه الملك الظاهر، كان من أكابر الدولة، كثير الأموال، توفي بالرملة، لأنه كان في قسم إقطاعه في نصف جمادى الأولى، ونقل إلى القدس فدفن به.

الشيخ

■ صالح الأحمدي الرفاعي: شيخ المنيبع، كان التتر يكرمونه لما قدموا دمشق، ولما جاء قطلوشاه نائب التتر نزل عنده وهو الذي قال للشيخ تقي الدين بن تيمية بالقصر: نحن ما يَنْفُقُ حالنا إلا عند التتر، وأما عند الشرع فلا.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، والشيخ تقي الدين قد أخرج من الحبس، والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلما واستفتاء وغير ذلك.

وفي مستهل ربيع الأول أفرج عن الأمير نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر، فأخرج من البرج، وأسكن دار الأفرم بالقاهرة، ثم كانت وفاته في خامس رجب من هذه السنة.

وفي أواخر جمادى الأولى تولى نظر ديوان ملك الأمراء الشريف زين الدين بن عدنان، عوضاً عن ابن الزملكاني، ثم أضيف إليه نظر الجامع أيضاً، عوضاً عن ابن الخطيري، وتولى نجم الدين الدمشقي نظر الأيتام، عوضاً عن نجم الدين بن هلال.

وفي رمضان عزل الصاحب أمين الدين بن الرّقاقي عن نظر الدواوين بدمشق وسافر إلى مصر.

وفيه عزل كمال الدين بن الشريشي نفسه عن وكالة بيت المال، وصمم على الاستمرار على العزل، وعرض عليه العود فلم يقبل، وحملت إليه الخلعة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها، واستمر معزولا إلى يوم عاشوراء من السنة الآتية، فجدد له تقليد وخلع عليه في الدولة الجديدة.

وفيها خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية قاصداً الحج، وذلك في السادس والعشرين من رمضان، وخرج معه جماعة من الأمراء لتوديعه فردهم، ولما اجتاز إلى الكرك عدل إليها، فنصب له الجسر، فلما توسطه كُسِر به، فسلم من كان أمامه وقفز به الفرس فسلم، وسقط من كان وراءه، وكانوا خمسين فمات منهم أربعة وتهشم أكثرهم في الوادي الذي تحت الجسر، وبقي نائب الكرك الأمير جمال الدين آقوش خجلا، يتوهم أن يكون هذا يظنه السلطان عن قصد، وكان قد عمل للسلطان ضيافة غرم عليها أربعة عشر ألفا فلم تقع الموقع لاشتغال السلطان بهمه وما جرى له ولأصحابه، ثم خلع على النائب وأذن له في الانصراف إلى مصر فسافر، واشتغل السلطان بتدبير المملكة في الكرك وحدها، وكان يحضر دار العدل ويباشر الأمور بنفسه، وقدمت عليه زوجته من مصر، فذكرت له ما كانوا فيه من ضيق الحال وقلة النفقات.

ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير

لما استقر الملك الناصر بالكرك وعزم على الإقامة بها كتب كتاباً إلى الديار المصرية، يتضمن عزل نفسه عن المملكة، فأثبت ذلك على القضاة بمصر، ثم نفذ على قضاة الشام، وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة، في الثالث والعشرين من شوال، يوم السبت بعد العصر، بدار الأمير سيف الدين سلار، اجتمع بها أعيان الدولة من الأمراء وغيرهم، وبايعوه وخاطبوه بالملك المظفر، وركب إلى القلعة، ومشوا بين يديه، وجلس على سرير المملكة بالقلعة، ودقت البشائر، وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان.

وفي مستهل ذي القعدة وصل الأمير عز الدين البغدادي إلى دمشق، فاجتمع بنائب السلطنة، والقضاة والأمراء والأعيان بالقصر الأبلق فقرأ عليهم كتاب الناصر إلى أهل مصر، وأنه قد نزل عن الملك وأعرض عنه، فأثبته القضاة، وامتنع الحنبلي من إثباته وقال: ليس أحد يترك الملك مختاراً، ولولا أنه مضطهد ما تركه، فعزل وأقيم غيره، ثم استحلفهم للسلطان الملك المظفر، وكتبت العلامة على القلعة، وألقابه عليها وعلى محال المملكة، ودقت البشائر، وزين البلد، ولما قرئ كتاب السلطان الملك الناصر على الأمراء بالقصر، وفيه: إني قد صحبت الناس عشر سنين، ثم اخترت المقام بالكرك، تباكى جماعة من الأمراء ثم بايعوا كالمكرهين، وتولى مكان بيبرس الأمير سيف الدين بُرُلغي، ومكان بُرُلغي سيف الدين بتخاص، ومكان بتخاص الأمير جمال الدين آقوش الذي كان نائب الكرك. وخطب للمظفر يوم الجمعة على المنابر بدمشق وغيرها، وحضر نائب السلطنة الأفرم والقضاة وجاءت الخلع وتقليد نائب السلطنة في تاسع عشر ذي القعدة، وقرأ تقليد النائب كاتب السر القاضي محيي الدين بن فضل الله بالقصر، بحضرة الأمراء، وعليهم الخلع كلهم، وركب المظفر، بالخلعة السوداء الخليفتية، والعمامة المدورة والدولة بين يديه عليهم الخلع، يوم السبت سابع ذي القعدة، والصاحب ضياء الدين النشائي حامل تقليد السلطان من جهة الخليفة في كيس أطلس أسود وأوله: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠]، ويقال إنه خلع في القاهرة قريب ألف خلعة ومائتي خلعة، وكان يوماً مشهوداً، وفرح بنفسه أياماً يسيرة، وكان شيخه المنبجي، ثم أزال الله عنهما نعمته سريعاً.

وفيها خطب ابن جماعة بالقلعة، وباشر الشيخ علاء الدين القونوي تدريس الشريفية.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الصالح

■ **عثمان الحلبوني**: أصله من صعيد مصر، فأقام مدة بقرية حلبون وغيرها من تلك الناحية، ومكث مدة لا يأكل الخبز، واجتمع عليه جماعة من المريدين، وتوفي بقرية برزة في أواخر المحرم، ودفن بها، وحضر جنازته نائب الشام والقضاة وجماعة من الأعيان.

الشيخ الصالح أبو الحسن

■ **علي بن محمد بن كثير الحراني الحنبلي**: إمام مسجد عطية، ويعرف بابن المقرئ وروى الحديث، وكان فقيها بمدارس الحنابلة، ولد بحران سنة أربع وثلاثين وستمائة، وتوفي بدمشق في العشر الأخير من رمضان، ودفن بسفح قاسيون.

وتوفي قبله الشيخ

■ **أمير الدين بن سعد الحراني** بغزة، وعمل عزاؤه بدمشق، رحمهما الله.

■ **السيد الشريف زين الدين أبو علي**

■ **الحسين بن محمد بن عدنان الحسيني**، نقيب الأشراف: كان فاضلا، بارعاً، فصيحاً متكلماً، يعرف طريقة الاعتزال ويباحث الإمامية، ويناظر على ذلك بحضرة القضاة وغيرهم، وقد باشر قبل وفاته بقليل نظر الجامع، ونظر ديوان الأفرم، توفي يوم الخامس من ذي القعدة، عن خمس وخمسين سنة، ودفن بتربتهم بباب الصغير.

الشيخ الجليل ظهير الدين: أبو عبد الله

■ **محمد بن عبد الله بن أبي الفضل بن منعة البغدادي**، شيخ الحرم الشريف بمكة بعد عمه عفيف الدين منصور بن منعة، وقد سمع الحديث، وأقام ببغداد مدة طويلة، ثم سار إلى مكة بعد موت عمه، فتولى مشيخة الحرم إلى أن توفي بها.

ثم دخلت سنة تسع وسبعمائة

استهلت وخليفة الوقت المستكفي أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين سلار، وبالشام آقوش الأفرم، وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي ليلة سلخ صفر توجه الشيخ تقي الدين بن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية صحبة أمير مقدم، فأدخله دار السلطان، وأنزله في برج منها، فسيح متسع الأكناف، فكان الناس يدخلون عليه، ويشتغلون في سائر العلوم، ثم كان بعد ذلك يحضر الجمعات، ويعمل المواعيد على عادته في الجوامع، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق، فحصل للناس عليه تألم، وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه نصر المنبجي، فتضاعف له الدعاء، وذلك أنهم لم يمكنوا أحداً من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدور، وذلك أنه تمكن منه عدوه نصر المنبجي. وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول: زالت

أيامه، وانتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه، فأرادوا أن يسيروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي، لعل أحداً من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة، فيستريحوا منه فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه، وقرباً منه، وانتفاعاً به، واشتغالاً عليه، وحنوًا وكرامة له، وجاء كتاب من أخيه يقول فيه: إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها، ويكيدون الإسلام وأهله، فكانت تلك كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة، وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند عباده العارفين سود الوجوه، يتقطعون حسرات وندما على ما فعلوا، وانقلب أهل الثغر أجمعون إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له، وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين، وذلك شجًى في حلوق الأعداء، واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض فيها وفرخ، وأضل بها فريقي السبعينية والعربية، فمزق الله بقدومه عليهم شملهم، وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم، وتوّب رئيساً من رؤسائهم، واستقرت عند عامة المؤمنين وخواصهم - من أمير وقاض وفقيه، ومُفتٍ وشيخ وجماعة المجتهدين، إلا من شذ من الأغمار الجهال، مع الذلة والصغار - محبةُ الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه، والرجوع إلى أمره ونهيه، فعَلَتْ كلمته بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سراً وجهراً، وباطناً وظاهراً، في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار بذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه، وذكر كلاماً كثيراً.

والمقصود أن الشيخ تقي الدين أقام بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر، مقيما ببرج متسع مليح نظيف، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة، فكان يدخل عليه من شاء، ويتردد إليه الأعيان والأكابر والأعيان والفقهاء، يقرؤون عليه، ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيش وأشرح صدر.

وفي آخر ربيع الأول عزل الشيخ كمال الدين بن الزملكاني عن نظر المارستان، بسبب انتمائه إلى ابن تيمية بإشارة المنبجي، وباشره شمس الدين عبد القادر بن الخطيري.

وفي يوم الثلاثاء ثالث ربيع الآخر ولي قضاء الحنابلة بمصر الشيخ الإمام الحافظ سعد الدين أبو محمود مسعود بن أحمد بن مسعود بن زين الدين الحارثي، شيخ الحديث بمصر، بعد وفاة القاضي شرف الدين أبي محمد عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبي بكر الحراني.

وفي جمادى الأولى برزت المراسيم السلطانية المظفرية إلى نوّاب البلاد الساحلية بإبطال الخمور، وتخريب الحانات ونفي أهلها، ففعل ذلك، وفرح المسلمون بذلك فرحا شديداً.

وفي مستهل جمادى الآخرة وصل بريدي بتولية قضاء الحنابلة بدمشق للشيخ شهاب الدين أحمد بن شرف الدين حسن ابن الحافظ جمال الدين أبي موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي، عوضا عن قاضي القضاة التقي سليمان بن حمزة، بسبب تكلمه في نزول الملك الناصر عن الملك، وأنه إنما نزل عنه مضطهدا في ذلك، ليس بمختار، وقد صدق فيما قال.

وفي العشرين من جمادى الآخرة وصل البريد بولاية شد الدواوين للأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، عوضا عن الرستمي فلم يقبل، وبنظر الخزانة للأمير عز الدين أحمد بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود المعروف بابن القلانسي، فباشرها وعزل عنها البصراوي محتسب البلد.

وفي هذا الشهر باشر قاضي القضاة ابن جماعة مشيخة سعيد السعداء بالقاهرة بطلب الصوفية له، ورضوا منه بالحضور عندهم في الجمعة مرة واحدة، وعزل عنها الشيخ كريم الدين الآملي، لأنه عزل منها الشهود، فثاروا عليه، وكتبوا في حقه محاضر بأشياء قادحة في الدين، فرسم بصرفه عنهم، وعومل بنظير ما كان يعامل به الناس، ومن جملة ذلك قيامه على شيخ الإسلام ابن تيمية، وافتراؤه عليه الكذب، مع جهله وقلة ورعه، فعجل الله له هذا الجزاء على يدي أصحابه وأصدقائه جزاء وفاقا.

وفي شهر رجب كثر الخوف بدمشق، وانتقل الناس من ظاهرها إلى داخلها، وسبب ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ركب من الكرك قاصداً دمشق يطلب عوده إلى الملك، وقد مالأه جماعة من الأمراء، وكاتبوه في الباطن وناصحوه، وقفز إليه جماعة من أمراء المصريين، وتحدث الناس بسفر نائب دمشق الأفرم إلى القاهرة، ليكون مع الجم الغفير، فاضطرب الناس، ولم تفتح أبواب البلد إلى ارتفاع النهار، وتخبطت الأمور، فاجتمع القضاة وكثير من الأمراء بالقصر، وجددوا البيعة للملك المظفر.

وفي آخر نهار السبت غلقت أبواب البلد بعد العصر، وازدحم الناس بباب النصر، وحصل لهم تعب عظيم، وازدحم البلد بأهل القرى، وكثر الناس بالبلد، وجاء البريد بوصول الملك الناصر إلى الخمان، فانزعج نائب الشام لذلك، وأظهر أنه يريد قتاله ومنعه من دخول البلد، وقفز إليه الأميران ركن الدين بيبرس المجنون، وبيبرس العلائي، وركب إليه الأمير سيف الدين بكتمر الحجاب، يشير عليه بالرجوع، ويخبره بأنه لا طاقة له بقتال المصريين، ولحقه الأمير سيف الدين بهادر أص يشير عليه بمثل ذلك، ثم عاد إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رجب، وأخبر أن السلطان الملك الناصر قد عاد إلى الكرك، فسكن الناس، ورجع نائب السلطنة إلى القصر، وتراجع بعض الناس إلى مساكنهم، واستقروا بها.

صفة عود الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، وزوال دولة المظفر الجاشنكير بيبرس وخذلانه وخذلان شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي

لما كان ثالث عشر شعبان جاء الخبر بقدوم الملك الناصر إلى دمشق، فساق إليه الأميران سيف الدين قطلوبك، والحاج بهادر إلى الكرك، وحضّاه على ذلك واضطرب نائب دمشق وركب في جماعة من أتباعه على الهجن، في سادس عشر شعبان، ومعه ابن صبح إلى شقيف أرنون، وهيئت بدمشق أبهة السلطنة، والإقامات اللائقة به، والعصائب والكوسات، وركب من الكرك في أبهة عظيمة، وأرسل الأمان إلى الأفرم، ودعا له المؤذنون في المئذنة ليلة الاثنين، سابع عشر شعبان، فضج الناس له بالدعاء والسرور بذكره، ونودي في الناس بالأمان، وأن يفتحوا دكاكينهم ويأمنوا في أوطانهم، وشرع الناس في الزينة، ودقت البشائر، ونام الناس في الأسطحة ليلة الثلاثاء، ليتفرجوا على السلطان حين يدخل البلد، وخرج القضاة، والأمراء والأعيان لتلقيه وكان دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في أبهة عظيمة، وبُسط له من عند المصلى إلى القلعة.

قال كاتبه ابن كثير: وكنت في مَن شاهد دخوله وعليه أبهة الملك، والبسط تحت أقدام فرسه، كلما جاوز شقة طويت من ورائه، والجتر على رأسه، والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله، وبين يديه، والناس يدعون له، ويضجون بذلك ضجيجاً عالياً، وكان يوماً مشهوداً.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: وكان على السلطان يومئذ عمامة بيضاء، وكلوتة حمراء، وكان الذي حمل الغاشية على رأسه يومئذ الحاج بهادر، وعليه خلعة معظمة مذهبة بفَرْوٍ قاقُم، ولما وصل إلى القلعة نصب له الجسر، ونزل إليه نائبها الأمير سيف الدين السنجري، فقبل الأرض بين يديه، فأشار إليه أنني الآن لا أنزل ههنا، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق، والأمراء بين يديه، فنزل بالقصر وخطب له يوم الجمعة.

وفي بكرة يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر وصل الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب دمشق مطيعاً للسلطان، فقبل الأرض بين يديه، فترجل له السلطان وأكرمه، وأذن له في مباشرة النيابة على عادته، وفرح الناس بطاعة الأفرم له، ثم وصل إليه الأمير سيف الدين قبجق نائب حماة، والأمير سيف الدين أسندمر نائب طرابلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من الشهر، وخرج الأمراء لتلقيهما، وتلقاهما السلطان كما تلقى الأفرم.

وفي هذا اليوم رسم السلطان بتقليد قضاء الحنابلة، وعوده إلى تقي الدين سليمان وهنأه الناس وجاء إلى السلطان إلى القصر فسلّم عليه، ومضى إلى الجوزية فحكم بها ثلاثة أشهر، وأقيمت الجمعة الثانية بالميدان، وحضر السلطان والقضاة إلى جانبه، وأكابر الأمراء والدولة وكثير من العامة.

وفي هذا اليوم وصل إلى السلطان الأمير قراسنقر المنصوري نائب حلب، وخرج السلطان لتلقِّيه أيضاً، ووصل جيش حلب يوم الأربعاء ثالث رمضان، وخرج دهليز السلطان يوم الخميس رابع رمضان، ومعه القضاة والقراء وقت العصر، وأقيمت الجمعة خامس رمضان بالميدان أيضاً، ثم خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء تاسع رمضان، وفي صحبته ابن صَصْرَى، وصدر الدين الحنفي قاضي العساكر، والخطيب جلال الدين، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني، والموقعون، وديوان الجيش، وجيش الشام بكماله، قد اجتمعوا عليه من سائر مدنه وأقاليمه بنوّابه وأمرائه، فلما انتهى السلطان إلى غزة دخلها في أبهة عظيمة، وتلقاه الأمير سيف الدين بهادر آص وجماعة من أمراء المصريين، فأخبروه أن الملك المظفر قد خلع نفسه من الملك، ثم تواتر قدوم الأمراء من مصر إلى السلطان وأخبروه بذلك، فطابت قلوب الشاميين واستبشروا بذلك، ودقت البشائر، وتأخر مجيء البريد بصورة ما جرى.

واتفق في يوم هذا العيد أنه خرج نائب الخطيب الشيخ تقي الدين الجزري المعروف بالمقصاتي في السناجق إلى المصلى على العادة، واستناب في البلد الشيخ مجد الدين التونسي، فلما وصلوا إلى المصلى وجدوا خطيب المصلى قد شرع في الصلاة، فنصبت السناجق في صحن المصلى، وصلى بينهما تقي الدين المقصاتي ثم خطب، وكذلك فعل ابن حسان داخل المصلى فعقد فيه صلاتان وخطبتان يومئذ، ولم يتفق مثل هذا فيما فعله.

وكان دخول السلطان الملك الناصر إلى قلعة الجبل آخر يوم عيد الفطر من هذه السنة، ورسم لسلار أن يسافر إلى الشوبك، واستناب بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، الذي كان نائب صفد، وبالشام الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، وذلك في العشرين من شوال، واستوزر الصاحب فخر الدين الخليلي بعدها بيومين، وباشر القاضي فخر الدين كاتب المماليك نظر الجيوش بمصر، بعد بهاء الدين عبد الله بن أحمد بن علي المظفر بن الحلي، توفي ليلة الجمعة عاشر شوال، وكان من صدور المصريين والأعيان الكبار، وقد روى شيئا من الحديث، وصرف الأمير جمال الدين آقوش الأفرم إلى نيابة صرخد، وقدم إلى دمشق الأمير زين الدين كتبغا رأس نوبة الجمدارية مشد الدواوين، وأستاذ دار الأستادارية، عوضا عن سيف الدين آقجبا، وتغيرت الدولة، وانقلبت قلبة عظيمة.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر، لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية معززا مكرما مبجلا، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين، فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر، وخرج مع الشيخ خلق من أهل الإسكندرية يودعونه، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة فأكرمه، وتلقاه ومشى إليه في مجلس حافل، فيه قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم، ثم نزل الشيخ إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، والناس يترددون إليه، والأمراء والجند وجماعة كثيرة من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع منه، فقال أنا قد حالَلْتُ كلَّ من آذاني.

قلت: وقد أخبرني القاضي جمال الدين بن القلانسي بتفاصيل هذا المجلس، وما وقع فيه من إكرام الشيخ تقي الدين حصل له من الشكر والمدح، من السلطان والحاضرين من الأمراء، وكذلك أخبرني بذلك قاضي القضاة صدر الدين الحنفي، ولكن إخبار ابن القلانسي أكثر تفصيلا، وذلك أنه كان إذ ذاك قاضي العساكر، وكلاهما كان حاضرا هذا المجلس، ذكر لي أن السلطان لما قدم عليه الشيخ تقي الدين بن تيمية نهض قائما للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان، واعتنقا هناك هنيهة، ثم أخذ بيده فذهب به إلى صفة فيها شباك إلى بستان، فجلسا ساعة يتحدثان، ثم جاء ويد الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صَصْرَى، ثم صدر الدين علي الحنفي، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته، وتكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان السلطاني بسبعمائة ألف في كل سنة، زيادة على الجالية، فسكت الناس، وكان فيهم قضاة مصر والشام، وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني.

قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلم أحد من العلماء ولا من القضاة، فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، ورد على الوزير ما قاله رداً عنيفاً، وجعل يرفع صوته، والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتودد وتوقير، وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله، ولا بقريب منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق على ذلك. وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك، فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك، فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائبا لك، فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك، وجرت فصول يطول ذكرها، وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين، وبعلمه ودينه وقيامه بالحق وشجاعته، وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين

السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، واخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حَلُم عنهم السلطان وصفح.

قال: فكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا.

ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة، وعاد إلى بث العلم ونشره، وأقبلت الخلق عليه، ورحلوا إليه يشتغلون عليه ويستفتونه، ويجيبهم بالكتابة وبالقول، وجاء الفقهاء يعتذرون عما وقع منهم في حقه فقال: لقد جعلت الكل في حل، وبعث الشيخ كتابا إلى أهله، يذكر ما هو فيه من نعم الله وخيره الكثير، ويطلب منهم جملة من كتب العلم التي له، ويستعينوا على ذلك بجمال الدين المزي، فإنه يدري كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التي أشار إليها، وقال في هذا الكتاب: والحق كل ما له في علو وازدياد وانتصار، والباطل في انخفاض وسفول واضمحلال، وقد أذل الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم ما يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل، والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله، وامتنعنا من قبول ذلك منهم، حتى يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا، والمذكور مفعولا، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم، وذكر كلاما طويلا يتضمن ما جرى له مع السلطان في قمع اليهود والنصارى وذلهم، وتركهم على ما هم عليه من الذلة والصغار، والله سبحانه أعلم.

وفي شوال أمسك السلطان جماعة من الأمراء قريبا من عشرين أميرا.

وفي سادس عشر شوال، وقع بين أهل حوران من قيس ويمن فقتل منهم مقتلة عظيمة جداً، قتل من الفريقين نحو من ألف نفس بالقرب من السوداء، وهم يسمونها يوم السويداء، ووقعة السويداء، وكانت الكسرة على يمن، فهربوا من قيس حتى دخل كثير منهم إلى دمشق في أسوأ حال وأضعفه، وهربت قيس خوفا من الدولة، وبقيت القرى خالية والزروع سائبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الأربعاء سادس ذي القعدة قدم الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائبا على حلب، فنزل القصر ومعه جماعة من أمراء المصريين، ثم سافر إلى حلب بمن معه من الأمراء والأجناد.

واجتاز الأمير سيف الدين بهادر بدمشق ذاهبا إلى نيابة طرابلس والفتوحات الساحلية، عوضا عن الأمير سيف الدين أسندمر، ووصل جماعة ممن كان قد سافر مع السلطان إلى مصر في ذي القعدة، منهم قاضي قضاة الحنفية صدر الدين، ومحيي الدين بن فضل الله وغيرهما.

قلت: وجلست يوماً إلى القاضي صدر الدين الحنفي بعد مجيئه من مصر فقال لي أتحب ابن تيمية؟ قلت: نعم، فقال لي وهو يضحك: والله لقد أحببت شيئا مليحا. وحكى قريبا مما ذكر ابن القلانسي، لكن سياق ابن القلانسي أتم.

ذكر مقتل الجاشنكير

كان قد فر الخبيث في جماعة من أصحابه، فلما خرج الأمير سيف الدين قراسنقر المنصوري من مصر متوجها إلى نيابة الشام عوضا عن الأفرم، فلما كان في غزة في سابع ذي القعدة ضرب حلقة لأجل الصيد، فوقع في وسطها الجاشنكير في ثلاثمائة من أصحابه، فأحيط بهم، وتفرق عنه أصحابه، فامسكوه ورجع معه قراسنقر وسيف الدين بهادر آص على الهجن، فلما كان بالخطارة تلقاهم أسندمر فتسلمه منهم، ورجعا إلى عسكرهم، ودخل به أسندمر على السلطان فعاتبه ولامه، وكان آخر العهد به، قتل ودفن بالقرافة ولم ينفعه شيخه المنبجي ولا أمواله، بل قتل شر قتلة، ودخل قراسنقر دمشق يوم الاثنين، الخامس والعشرين من ذي القعدة فنزل بالقصر، وكان في صحبته ابن صَصْرَى وابن الزملكاني وابن القلانسي، وعلاء الدين بن غانم، وخلق من الأمراء المصريين والشاميين، وكان الخطيب جلال الدين القزويني قد وصل قبلهم يوم الخميس، الثاني والعشرين من الشهر، وخطب يوم الجمعة على عادته.

فلما كان يوم الجمعة الأخرى وهو التاسع والعشرون من الشهر، خطب بجامع دمشق القاضي بدر الدين محمد بن عثمان بن يوسف بن حداد الحنبلي، عن أمر نائب السلطنة، وقرئ تقليده على المنبر بعد الصلاة، بحضرة القضاة والأكابر والأعيان، وخلع عليه عقيب ذلك خلعة سنية، واستمر يباشر الإمامة والخطابة اثنين وأربعين يوما، ثم أعيد الخطيب جلال الدين بمرسوم سلطاني، وباشر يوم الخميس ثاني عشر المحرم من السنة الآتية.

وفي ذي الحجة درس كمال الدين بن الشيرازي بالمدرسة الشامية البرانية، انتزعها من يد الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، وذلك أن أسندمر ساعده على ذلك.

وفيها أظهر ملك التتر خربندا الرفض في بلاده، وأمر الخطباء أولا أن لا يذكروا في خطبتهم إلا علي بن أبي طالب ﷺ وولديه وأهل بيته، ولما وصل خطيب بلاد الأزج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاء شديداً، وبكى الناس معه، ونزل ولم يتمكن من إتمام الخطبة، فأقيم من أتمها عنه، وصلى بالناس، وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السنة أهل البدعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يحج فيها أحد من أهل الشام بسبب تخبيط الدولة، وكثرة الاختلاف.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ (أحمد بن يحيى بن عز الدين بن عبد السلام).

الخطيب ناصر الدين أبو الهدى: أحمد ابن الخطيب بدر الدين يحيى ابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، خطيب العقيبة بداره بها، وقد باشر ناظر الجامع الأموي وغير ذلك، توفي يوم الأربعاء النصف من المحرم وصلي عليه بجامع العقيبة، ودفن عند والده بباب الصغير، وقد روى الحديث، وباشر الخطابة بعده ولده بدر الدين، وحضر عنده نائب السلطنة والقضاة والأعيان.

قاضي الحنابلة بمصر: شرف الدين أبو محمد

■ عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبي بكر الحراني: ولد بحران، سنة خمس وأربعين وستمائة، وسمع الحديث، وقدم مصر فباشر نظر الخزانة وتدريس الصالحية، ثم أضيف إليه القضاء، وكان مشكور السيرة، كثير المكارم، توفي ليلة الجمعة رابع عشر ربيع الأول، دفن بالقرافة، وولي بعده سعد الدين الحارثي كما تقدم.

الشيخ نجم الدين:

■ أيوب بن سليمان بن مظفر المصري المعروف بمؤذن النجيبي، كان رئيس المؤذنين بجامع دمشق، ونقيب الخطباء، وكان حسن الشكل، رفيع الصوت، استمر في ذلك نحوا من خمسين سنة، إلى أن توفي في مستهل جمادى الأولى.

وفي هذا الشهر توفي:

الأمير شمس الدين

■ سنقر الأعسر المنصوري: تولى الوزارة بمصر مع شد الدواوين معا، وباشر شد الدواوين بالشام مرات، وله دار وبستان بدمشق مشهوران به، وكان فيه نهضة، وله همة عالية، وأموال كثيرة، توفي بمصر.

الأمير جمال الدين

■ آقوش بن عبد الله الرستمي: شاد الدواوين بدمشق، وكان قبل ذلك والي الولاة بالصفقة القبلية بعد الشريفي، وكانت له سطوة، توفي يوم الأحد ثاني وعشرين جمادى الأولى، ودفن ضحوة بالقبة التي بناها تجاه قبة الشيخ رسلان، وكان فيه كفاية وخبرة، وإنما وليَ الشدَّ بدمشق مدة يسيرة وباشر بعده شد الدواوين أقبجا.

وفي شعبان أو في رجب توفي

التاج

■ ابن سعيد الدولة: وكان مُسلمانيا، وكان مشير الدولة، وكانت له مكانة عند الجاشنكير بسبب صحبته لنصر المنبجي شيخ الجاشنكير، وقد عرضت عليه الوزارة فلم يقبل، ولما توفي تولى وظيفته ابن أخته كريم الدين الكبير.

الشيخ شهاب الدين:

■ أحمد بن محمد بن أبي المكارم بن نصر الأصبهاني: رئيس المؤذنين بالجامع الأموي، ولد سنة ثنتين وستمائة، وسمع الحديث، وباشر وظيفة الأذان من سنة خمس وأربعين، إلى أن توفي ليلة الثلاثاء، خامس ذي القعدة، ودفن بباب الصغير، وكان رجلا جيداً، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة

استهلت وخليفة الوقت المستكفي بالله أبو الربيع سليمان العباسي، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، والشيخ تقي الدين بن تيمية مقيم بمصر معظما مكرما، والنائب بمصر الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، وقضاته هم المذكورون في التي قبلها، سوى الحنبلي فإنه سعد الحارثي، والوزير بمصر فخر الدين بن الخليلي، وناظر الجيوش فخر الدين كاتب المماليك، ونائب الشام قراسنقر المنصوري، وقضاة دمشق هم هم، ونائب حلب قبجق، ونائب طرابلس الحاج بهادر، والأفرم بصرخد.

وفي محرم منها باشر الشيخ أمين الدين سالم بن أبي الدر وكيل بيت المال إمام مسجد ابن هشام تدريس الشامية الجوانية، والشيخ صدر الدين سليمان بن موسى الكردي تدريس العذراوية، كلاهما انتزعها من ابن الوكيل بسبب إقامته بمصر، وكان قد وفد إلى المظفر، فأكرمه ورتب له رواتب لانتمائه إلى نصر المنبجي، ثم عاد بتوقيع سلطاني بمدرستيه، فأقام بهما شهراً أو سبعة وعشرين يوماً، ثم استعادهما منه، ورجعتا إلى المدرسين الأولين: الأمين سالم، والصدر الكردي،ورجع الخطيب جلال الدين إلى الخطابة في سابع عشر المحرم، وعزل عنها البدر بن الحداد، وباشر الصاحب شمس الدين نظر الجامع، والأسرى، والأوقاف قاطبة يوم الاثنين، وخلع عليه، ثم أضيف إليه شرف الدين بن صَصْرَى في نظر الجامع، وكان ناظره مستقلا به قبلهما.

وفي يوم عاشوراء قدم أسندمر إلى دمشق متوليا نيابة حماة، وسافر إليها بعد سبعة أيام.

وفي المحرم باشر بدر الدين بن الحداد نظر المارستان، عوضاً عن شمس الدين بن الحظيري، ووقعت منازعة بين صدر الدين بن الوكيل وبين الصدر سليمان الكردي، بسبب العذراوية، وكتبوا في ابن الوكيل محضراً يتضمن أشياء من القبائح والفضائح والكفريات على ابن الوكيل، فبادر ابن الوكيل إلى القاضي تقي الدين بن سليمان الحنبلي، فحكم بإسلامه، وحقن دمه، وحكم بإسقاط التعزير عنه، والحكم بعدالته واستحقاقه للمناصب، وأشهد عليه بذلك في شهر المحرم المذكور ، وكانت هذه هفوة من الحنبلي، ولكن خرجت عنه المدرستان العذراوية لسليمان الكردي، والشامية الجوانية للأمين سالم، ولم يبق معه سوى دار الحديث الأشرفية.

وفي ليلة الاثنين السابع من صفر وصل النجم محمد بن عثمان البصراوي من مصر متوليا الوزارة بالشام، ومعه توقيع، بالحسبة لأخيه فخر الدين سليمان، فباشرا المنصبين المذكورين بالخلع، ونزلا بدرب سقون الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء، ثم انتقل الوزير إلى دار الأعسر عند باب البريد، واستمر نظر الخزانة لعز الدين أحمد بن القلانسي أخي الشيخ جلال الدين.

وفي مستهل ربيع الأول باشر القاضي جمال الدين الزرعي قضاء القضاة بمصر، عوضا عن بدر الدين بن جماعة، وكان قد أخذ منه قبل ذلك مشيخة الشيوخ في ذي الحجة، وأعيدت إلى الكريم الآملي، وأخذت منه الخطابة أيضاً، وجاء البريد إلى الشام بطلب القاضي شمس الدين بن الحريري لقضاء الديار المصرية، فسار في العشرين من ربيع الأول، وخرج معه جماعة لتوديعه، فلما قدم على السلطان أكرمه وعظمه، وولاه قضاء الحنفية، وتدريس الناصرية والصالحية، وجامع الحاكم، وعزل عن ذلك القاضي شمس الدين السروجي، فمكث أياما ثم مات.

وفي نصف هذا الشهر مُسِك من دمشق سبعة أمراء، ومن القاهرة أربعة عشر أميراً.

وفي ربيع الآخر اهتم السلطان بطلب الأمير سيف الدين سلار، فحضر هو بنفسه إليه فعاتبه، ثم استخلص منه أمواله وحواصله في مدة شهر، ثم قتل بعد ذلك فوجد معه من الأموال والحيوان والأملاك والأسلحة والمماليك والبغال والحمير أيضا والرباع شيئا كثيرا، وأما الجواهر والذهب والفضة فشيء لا يحد ولا يوصف في كثرته، وحاصل الأمر أنه قد استأثر لنفسه طائفة كبيرة من بيت المال، وأموال المسلمين تجري إليه، ويقال إنه كان مع هذا كثير العطاء كريما، محببا إلى الدولة والرعية والله أعلم.

وقد باشر نيابة السلطنة بمصر من سنة ثمان وتسعين إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشرين هذا الشهر، ودفن بتربته ليلة الخميس بالقرافة، سامحه

الله.

وفي ربيع الآخر درس القاضي شمس الدين بن المعز الحنفي بالظاهرية، عوضاً عن شمس الدين الحريري، وحضر عنده خاله الصدر علي قاضي قضاة الحنفية، وبقية القضاة والأعيان.

وفي هذا الشهر كان الأمير سيف الدين أسندمر قد قدم دمشق لبعض أشغاله، وكان له حنو على الشيخ صدر الدين بن الوكيل، فاستنجز له مرسوماً بنظر دار الحديث وتدريس العذراوية، فلم يباشر ذلك حتى سافر أسندمر، فاتفق أنه وقعت له بعد يومين كائنة بدار ابن درباس بالصالحية، من الحنابلة وغيرهم وذكر أنه وجد عنده شيء من المنكرات، واجتمع عليه جماعة من أهل الصالحية مع الحنابلة وغيرهم، وبلغ ذلك نائب السلطنة فكاتب فيه، فورد الجواب بعزله عن المناصب الدينية، فخرجت عنه دار الحديث الأشرفية وبقي بلمشق وليس بيده وظيفة لذلك، فلما كان في آخر رمضان سافر إلى حلب، فقرر له نائبها أسندمر شيئاً على الجامع، ثم ولاه تدريسا هناك وأحسن إليه، وكان الأمير أسندمر قد انتقل إلى نيابة حلب في جمادى الآخرة، عوضاً عن سيف الدين قبجق توفي، وباشر مملكة حماة بعده الأمير عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي بن محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وانتقل جمال الدين آقوش الأفرم من صرخد إلى نيابة طرابلس، عوضاً عن الحاج بهادر.

وفي يوم الخميس سادس عشر شعبان باشر الشيخ كمال الدين بن الزملكاني مشيخة دار الحديث الأشرفية، عوضاً عن ابن الوكيل، وأخذ في التفسير والحديث والفقه، فذكر من ذلك دروسا حسنة، ثم لم يستمر بها سوى خمسة عشر يوماً، حتى انتزعها منه كمال الدين ابن الشريشي، فباشرها يوم الأحد ثالث شهر رمضان.

وفي شعبان رسم قراسنقر نائب الشام بتوسعة المقصورة، فأخرت سدة المؤذنين الركنين المؤخرين تحت قبة النسر، ومنعت الجنائز من دخول الجامع أياماً، ثم أذن في دخولهم.

وفي خامس رمضان قدم فخر الدين إياس الذي كان نائبا بقلعة الروم إلى دمشق شاد الدواوين، عوضاً عن زين الدين كتبغا المنصوري وولي بعده وزارة مصر الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب عوضاً عن فخر الدين ابن الخليلي.

وخرج الركب الشامي في شوال وأميرهم الأمير زين الدين كتبغا المنصوري الذي كان شاد الدواوين.

وفي شوال باشر الشيخ علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي مشيخة الشيوخ بالديار المصرية، عوضاً عن الشيخ كريم الدين عبد الكريم بن الحسين الآملي توفي، وكان له تجريد وله همة، وخلع على القونوي خلعة سنية، وحضر سعيد السعداء بها.

وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة خلع على الصاحب عز الدين بن القلانسي خلعة الوزاره بالشام، عوضاً عن النجم البصراوي، بحكم إقطاعه إمرة عشرة وإعراضه عن الوزارة.

وفي يوم الأربعاء سادس عشر ذي القعدة عاد الشيخ كمال الدين بن الزملكاني إلى تدريس الشامية البرانية، وفي هذا اليوم لبس تقي الدين ابن الصاحب شمس الدين بن السلعوس خلعة النظر على الجامع الأموي، ومسك الأمير سيف الدين أسندمر نائب حلب في ثاني ذي الحجة، وحُمل إلى مصر، وكذلك مسك نائب البيرة سيف الدين ضوغان بعده بليال.

ومن توفي فيها من الأعيان

قاضي القضاة الإمام العلامة شمس الدين أبو العباس:

■ **أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي**، شارح الهداية، كان بارعاً في علوم شتى، وولي الحكم بمصر مدة، وعزل قبل موته بأيام، توفي يوم الخميس، ثاني عشرين ربيع الآخر ودفن بالقرب من الشافعي، وله اعتراضات على الشيخ تقي الدين بن تيمية في علم الكلام، أضحك فيها على نفسه، وقد رد عليه الشيخ تقي الدين في مجلدات، وأبطل حججه.

وفيها توفي

■ **سلار** مقتولا كما تقدم.

■ **(ابن الرقاقي)**.

والصاحب أمين الدين أبو بكر ابن الوجيه عبد العظيم بن يوسف: المعروف بابن الرقاقي.

والحاج

■ **بهادر** نائب طرابلس مات بها.

والأمير سيف الدين

■ **قبجق**: نائب حلب مات بها ، ودفن بتربته بحماة، في ثاني جمادى الآخرة، وكان شهما شجاعاً، وقد ولي نيابة دمشق في أيام لاجين، ثم قفز إلى التتر خوفا من لاجين، ثم جاء مع التتر، وكان على يديه فرج المسلمين كما ذكرنا عام قازان، ثم تنقلت به الأحوال إلى أن مات بحلب، ثم وليها بعده أسندمر، ومات أيضا في آخر السنة.

وفيها توفي:

الشيخ كريم الدين أبو القاسم

■ **عبد الكريم بن الحسين الآملي**: شيخ الشيوخ بمصر، كان له وُصلة بالأمراء، وقد عزل مرة عن المشيخة بابن جماعة، توفي ليلة السبت سابع شوال، بخانقاه سعيد السعداء، وتولاها بعده الشيخ علاء الدين القونوي كما تقدم.

الفقيه عز الدين

■ **عبد العزيز بن عبد الجليل: النمراوي الشافعي**، كان فاضلا بارعاً، وقد صحب سلار نائب مصر، وارتفع في الدنيا بسببه.

■ **ابن الرفعة**: هو الإمام العلامة نجم الدين أحمد بن محمد شارح التنبيه، وله غير ذلك، وكان فقيها فاضلا، وإماما في علوم كثيرة، رحمهم الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، غير الوزير بمصر فإنه عزل، وولي سيف الدين بكتمر ووزير دمشق النجم البصراوي عزل أيضاً بعز الدين القلانسي، وقد انتقل الأفرم إلى نيابة طرابلس بإشارة ابن تيمية على السلطان بذلك، ونائب حماة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل على قاعدة أسلافه فيها، وقد مات نائب حلب أسندمر، وهي شاغرة عن نائب، وارغون الدوادار الناصري قد وصل إلى دمشق لتسفير قراسنقر منها إلى نيابة حلب، وإحضار سيف الدين كراي إلى نيابة دمشق، وغالب العساكر بحلب، والأعراب محدقة بأطراف البلاد، فخرج قراسنقر المنصوري من دمشق في ثالث المحرم، بجميع حواصله وحاشيته وأتباعه. وخرج الجيش

لتوديعه، وسار معه أرغون لتقريره بحلب، وجاء المرسوم إلى نائب القلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجري أن يتكلم في أمور دمشق إلى أن يأتيها نائب، فحضر عنده الوزير والموقعون، وباشر النيابة، وقويت شوكته، وقويت شوكة الوزير إلى أن ولي ولايات عديدة منها لابن أخيه عماد الدين نظر الأسرى، واستمر في يده، وقدم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كراي المنصوري إلى دمشق نائبا عليها، في يوم الخميس الحادي عشرين من المحرم خرج الناس لتلقيه، وأوقدوا الشموع، وأعيدت المقصورة إلى مكانها يوم الأحد رابع عشرين المحرم، وانفرج الناس، ولبس النجم البصراوي خلعة الإمرة يوم الخميس، ثالث عشر صفر على قاعدة الوزراء بالطرحة، وركب مع المقدمين الكبار، وهو أمير عشرة بإقطاع يضاهي إقطاع كبار الطبلخاناه.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الأول جلس القضاة الأربعة بالجامع لإنفاذ أمر الشهود، بسبب تزوير وقع من بعضهم، فاطلع عليه نائب السلطنة فغضب وأمر بذلك، فلم يكن منه كبير شيء ولم يتغير حال.

وفي هذا اليوم ولي الشريف نقيب الأشراف أمين الدين جعفر بن محمد بن عدنان نظر الدواوين، عوضاً عن شهاب الدين بن الواسطي، وأعيد تقي الدين بن الزكي إلى مشيخة الشيوخ.

وفي هذا الشهر ولي ابن جماعة تدريس الناصرية بالقاهرة، وضياء الدين النشائي تدريس الشافعي، والميعاد العام بجامع طولون، ونظر الأحباس أيضا.

وولي الوزارة بمصر أمين الملك أبو سعيد عوضاً عن سيف الدين بكتمر الحاجب في ربيع الآخر.

وفي هذا الشهر احتيط على الوزير عز الدين بن القلانسي بدمشق، ورسم عليه مدة شهرين، وكان نائب السلطنة كثير الحنق عليه، ثم أفرج عنه، وأعيد بدر الدين بن جماعة إلى الحكم بديار مصر، في حادي عشرين ربيع الآخر، مع تدريس دار الحديث الكاملية، وجامع طولون والصالحية والناصرية، وحصل له إقبال كثير من السلطان، واستقر جمال الدين الزرعي على قضاء العسكر، وتدريس جامع الحاكم، ورسم له أن يجلس مع القضاة، بين الحنفي والحنبلي بدار العدل عند السلطان.

وفي مستهل جمادى الأولى أشهد القاضي نجم الدين الدمشقي نائب ابن صَصْرَى على نفسه، بالحكم ببطلان البيع في الملك الذي اشتراه عز الدين بن القلانسي من تركة المنصوري في الرمثا والتوجة والفضالية، لكونه بدون ثمن المثل، ونفذه بقية الحكام، وأحضر ابن القلانسي إلى دار السعادة، وادعى عليه بريع ذلك، ورسم عليه بها، ثم حكم قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي بصحة هذا البيع، وبنقض ما حكم به الدمشقي، ثم نفذ بقية الحكام ما حكم به الحنبلي.

وفي هذا الشهر قرر على أهل دمشق ألف وخمسمائة فارس لكل فارس خمسمائة درهم، وضربت على الأملاك والأوقاف، فتألم الناس من ذلك تألماً عظيماً، وسعوا إلى الخطيب جلال الدين فسعى إلى القضاة، واجتمع الناس بكرة يوم الاثنين ثالث عشر الشهر، واحتفلوا في الاجتماع، وأخرجوا معهم المصحف العثماني والأثر النبوي والسناجق الخليفية، ووقفوا في الموكب، فلما رآهم كراي تغيظ عليهم، وشتم القاضي والخطيب، وضرب مجد الدين التونسي ورسم عليهم، ثم أطلقهم بضمان وكفالة، فتألم الناس من ذلك كثيراً، فلم يمهله اللّه إلا عشرة أيام، فجاءه الأمر فجأة فعزل وحبس، ففرح الناس بذلك فرحا شديداً، ويقال إن الشيخ تقي الدين لما بلغه ذلك الخبر عن أهل الشام، فأخبر السلطان بذلك، فبعث من فوره فمسكه شر مسكة، وصفة مسكه أن قدم الأمير سيف الدين أرغون الدوادار فنزل القصر.

فلما كان يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى خلع على الأمير سيف الدين كراي خلعة سنية، فلبسها وقبل العتبة، وحضر الموكب ومد السماط، فقيد بحضرة الأمراء، وحمل على البريد إلى الكرك صحبة غرلو العادلي، وبيبرس المجنون، وخرج عز الدين بن القلانسي من الترسيم من دار السعادة، فصلى في الجامع الظهر ثم عاد إلى داره، وقد أوقدت له الشموع، ودعا له الناس، ثم رجع إلى دار الحديث الأشرفية، فجلس فيها نحوا من عشرين يوماً، حتى قدم الأمير جمال الدين نائب الكرك.

وفي هذا الشهر مسك نائب صفد الأمير سيف الدين قطلوبك وقيد وحمل إلى الكرك أيضا ومسك نائب مصر سيف الدين بكتمر أمير جاندار، وعوض عنه بالكرك بيبرس الدوادار المنصوري، ومسك نائب غزة، وعوض عنه بالجاولي، فاجتمع في حبس الكرك أسندمر نائب حلب، وبكتمر نائب مصر، وكراي نائب دمشق، وقطلوبك نائب صفد، وقطلقتمر نائب غزة وبتخاص، وقدم جمال الدين آقوش المنصوري الذي يقال له: نائب الكرك على نيابة دمشق إليها، في يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الآخر، وتلقاه الناس وأشعلت له الشموع، وفي صحبته الحظيري ليقرِّره في النيابة، وقد باشر نيابة الكرك من سنة تسعين وستمائة إلى سنة تسع وسبعمائة، وله بها آثار حسنة، وخرج عز الدين بن القلانسي لتلقي النائب، وقرئ يوم الجمعة كتاب السلطان على السدة، بحضرة النائب والقضاة والأعيان وفيه الأمر بالإحسان إلى الرعية، وإطلاق البواقي التي كانت قد فرضت عليهم أيام كراي، فكثرت الأدعية للسلطان وفرح الناس.

وفي يوم الاثنين التاسع عشر خلع على الأمير سيف الدين بهادر آص بنيابة صفد، فقبل العتبة، وسار إليها يوم الثلاثاء، وفيه لبس الصدر بدر الدين بن أبي الفوارس خلعة نظر الدواوين بدمشق، مشاركا للشريف بن عدنان، وبعد ذلك بيومين قدم تقليد عز الدين بن القلانسي بوكالة السلطان على ما كان عليه، وأنه أعفي عن الوزارة لكراهته ذلك.

وفي رجب باشر تقي الدين بن السلعوس نظر الأوقاف، عوضاً عن شمس الدين غبريال.

وفي شعبان ركب نائب السلطنة بنفسه إلى أبواب السجون، فأطلق المحبوسين بنفسه، فتضاعفت له الأدعية في الأسواق وغيرها، وفي هذا اليوم قدم الصاحب عز الدين بن القلانسي من مصر، فاجتمع بالنائب، وخلع عليه، ومعه كتاب يتضمن احترامه وإكرامه، واستمراره على وكالة السلطان، ونظر الخاص، والإنكار لما ثبت عليه بدمشق، وأن السلطان لم يعلم بذلك ولا وكل فيه، وكان المساعد له على ذلك كريم الدين ناظر الخاص السلطاني، وأمير سيف الدين أرغون الدوادار.

وفي شعبان منع ابن صَصْرَى الشهود والعقاد من جهته، وامتنع غيرهم أيضاً، وردهم المالكي.

وفي رمضان جاء البريد بتوليه زين الدين كتبغا المنصوري حجوبية الحجاب، والأمير بدر الدين بكتوت القرماني شد الدواوين، عوضاً عن طوغان، وخلع عليهما معاً.

وفيها ركب بهادر السنجري نائب قلعة دمشق على البريد إلى مصر، وتولاها سيف الدين بلبان البدري، ثم عاد السنجري في آخر الشهر على نيابة البيرة، فسار إليها، وجاء الخبر في آخر رمضان أنه قد احتيط على

جماعة من قضاة المسلمين ببغداد، فقتل منهم ابن العقاب وابن البدر، وتخلص عبيدة وجاء سالماً.

وخرج المحمل في شوال، وأمير الحاج الأمير علاء الدين طيبغا أخو بهادر آص.

وفي آخر ذي القعدة جاء الخبر بأن الأمير قراسنقر رجع من طريق الحجاز بعد أن وصل إلى بركة زيزاء، وأنه لحق بمهنا بن عيسى فاستجار به خائفاً على نفسه، ومعه جماعة من خواصه، ثم سار من هناك إلى التتر بعد ذلك كله، وصحبه الأفرم والزردكاش.

وفي العشرين من ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين أرغون في خمسة آلاف إلى دمشق، ثم توجهوا إلى ناحية حمص، وتلك النواحي.

وفي سابع ذي الحجة وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر مستمرا على وكالة بيت المال، ومعه توقيع بقضاء العسكر الشامي، وخلع عليه في يوم عرفة.

وفي هذا اليوم وصل ثلاثة آلاف عليهم سيف الدين قلّي من الديار المصرية فتوجهوا وراء أصحابهم إلى البلاد الشمالية.

وفي آخر الشهر وصل شهاب الدين الكاشغري الشريف من القاهرة ومعه توقيع بمشيخة الشيوخ، فنزل في الخانقاه، وباشرها بحضرة القضاة والأعيان، وانفصل ابن الزكي عنها.

وفيها باشر الصدر علاء الدين بن تاج الدين بن الأثير كتابه السر بمصر، وعزل عنها شرف الدين بن فضل الله إلى كتابة السر بدمشق، عوضاً عن أخيه محيي الدين، واستمر محيي الدين على كتابة الدست بمعلومه أيضاً والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (محمد بن إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصاري).

الشيخ الرئيس بدر الدين: محمد ابن رئيس الأطباء أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصاري، من سلالة سعد بن معاذ السويدي، من سويداء حوران، سمع الحديث، وبرع في الطب، توفي في ربيع الأول ببستانه بقرب الشبلية، ودفن في تربة له في قبة فيها، عن سبعين سنة.

■ (شعبان بن أبي بكر محمد بن عمر الإربلي)

الشيخ شعبان بن أبي بكر محمد بن عمر الإربلي: شيخ الحلبية بجامع بني أمية، كان صالحا مباركاً، فيه خير كثير، كان كثير العبادة، وإيجاد الراحة للفقراء، وكانت جنازته حافلة جداً، صلي عليه بالجامع، بعد ظهر يوم السبت، تاسع عشرين رجب، ودفن بالصوفية، وله سبع وثمانون سنة، وروى شيئاً من الحديث، وخرجت له مشيخة حضرها الأكابر رحمه الله.

وقبله بيوم توفي الشيخ

■ العريان،

ونائب إسكندرية

■بكتوت أمير شكار.

الشيخ ناصر الدين

■ يحيى بن إبراهيم ابن محمد بن عبد العزيز العثماني، خادم المصحف العثماني نحواً من ثلاثين سنة، وصلي عليه بعد الجمعة، رابع رمضان، ودفن بالصوفية، وكان لنائب السلطنة الأفرم فيه اعتقاد ووصله منه افتقاد، وبلغ خمسا وستين سنة.

■ (محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأرموي).

الشيخ الصالح الجليل القدوة: أبو عبد الله محمد ابن الشيخ القدوة إبراهيم ابن الشيخ عبد الله الأرموي، توفي في العشرين من رمضان، بسفح قاسيون، وحضر الأمراء والقضاة والصدور جنازته، وصلي عليه بالجامع المظفري، ثم دفن عند والده، وغلق يومئذ سوق الصالحية، وكانت له وجاهة عند الناس، وشفاعة مقبولة، وكان عنده فضيلة، وفيه تودد وجمع أجزاء في أخبار جيدة، وسمع الحديث، وقارب السبعين رحمه الله.

■ ابن الوحيد الكاتب: هو الصدر شرف الدين أبو عبد الله محمد بن شريف بن يوسف الزرعي، المعروف بابن الوحيد، كان موقعا بالقاهرة، وله معرفة بالإنشاء، وبلغ الغاية في الكتابة في زمانه، وانتفع الناس به، وكان فاضلا، مقداماً شجاعاً توفي بالمارستان المنصوري بمصر، يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان.

■ (محمد بن حسن بن النسائي)

الأمير ناصر الدين: محمد بن عماد الدين حسن بن النسائي، أحد أمراء الطبلخاناه، وهو حاكم البندق ولي ذلك بعد سيف الدين بلبان، توفي في العشر الأواخر من رمضان.

■ التميمي الداري: توفي يوم عيد الفطر، ودفن بالقرافة الصغرى، وقد ولي الوزارة بمصر، وكان خبيرا كافيا، مات معزولا، وقد سمع الحديث، وسمع عليه بعض الطلبة.

وفي ذي القعدة جاء الخبر إلى دمشق بوفاة الأمير الكبير أسندمر وبتخاص في السجن، بقلعة الكرك.

■ القاضي الإمام العلامة الحافظ: سعد الدين

■ مسعود الحارثي الحنبلي، الحاكم بمصر، سمع الحديث، وجمع وخرج وصنف،وكانت له يد طولى في هذه الصناعة في الأسانيد والمتون، وشرح قطعة من سنن أبي داود، فأجاد وأفاد، وأحسن الانتقاد، رحمه الله تعالى، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثني عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي خامس المحرم توجه الأمير عز الدين أيدمر الزردكاش وأميران معه إلى الأفرم، وساروا بأجمعهم حتى لحقوا بقراسنقر وهو عند مهنا، وكاتبوا السلطان، ثم ساروا نحو التتار فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وجاء البريد في صفر بالاحتياط على حواصل الأفرم، وقراسنقر، والزردكاش وجميع ما يتعلق بهم، وقطع خبز مهنا، وجعل مكانه في الإمرة أخاه محمداً، وعادت العساكر صحبة أرغون من البلاد الشمالية، وقد حصل للناس من قراسنقر وأصحابه هم وغم وحزن، وقدم سودي من مصر على نيابة حلب، فاجتاز بدمشق، فخرج النائب والجيش لتلقيه، وحضر السماط، وقرئ مرسوم السلطان بطلب جمال الدين نائب دمشق إلى مصر، فركب من ساعته على البريد إلى مصر، وتكلم في نيابة الغيبة قرالاجين.

وطلب في هذا اليوم قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية ناظر الجيش إلى مصر، فركب في آخر النهار، وسار إليها فتولى بها نظر الجيش، عوضاً عن فخر الدين الكاتب، كاتب المماليك بحكم عزله، ومصادرته وأخذ أمواله الكثيرة منه، في عاشر ربيع الأول.

وفي الحادي عشر منه باشر الحكم للحنابلة بمصر القاضي تقي الدين

أحمد بن المعز عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي، وهو ابن بنت الشيخ شمس الدين بن العماد، أول قضاة الحنابلة، وقدم الأمير سيف الدين تمر على نيابة طرابلس، عوضاً عن الأفرم، بحكم هربه إلى التتر.

وفي ربيع الآخر مسك بيبرس العلائي نائب حمص، وبيبرس المجنون، وطوغان وجماعة آخرون من الأمراء ستة في نهار واحد، وسيروا إلى الكرك معتقلين بها.

وفيه مسك نائب مصر الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، وولي بعده أرغون الدوادار، ومسك نائب الشام جمال الدين نائب الكرك، وشمس الدين سنقر الكمالي، حاجب الحجاب بمصر، وخمسة أمراء آخرون، وحبسوا كلهم بقلعة الكرك، في برج هناك.

وفيه وقع حريق داخل باب السلامة، احترق فيه دور كثيرة، منها دار ابن أبي الفوارس، ودار الشريف القباني.

نيابة تنكز على الشام

في يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكي الناصري نائباً على دمشق، بعد مسك نائب الكرك ومعه جماعة من مماليك السلطان، منهم الحاج أرقطاي على خُبْز بيبرس العلائي، وخرج الناس لتلقيه، وفرحوا به كثيرا، ونزل بدار السعادة، ووقع عند قدومه مطر عظيم، وكان ذلك اليوم يوم الرابع والعشرين من آب، وحضر يوم الجمعة الخطبة بالمقصورة، وأشعلت له الشموع في طريقه، وجاء توقيع لابن صَصْرَى بإعادة قضاء العسكر إليه، وأن ينظر الأوقاف، فلا يشاركه أحد في الاستنابة في البلاد الشامية، على عادة من تقدمه من قضاة الشافعية.

وجاء مرسوم لشمس الدين أبي طالب بن حميد بنظر الجيش، عوضاً عن ابن شيخ السلامية بحكم إقامته بمصر، ثم بعد أيام وصل الصدر معين الدين هبة الله بن حشيش ناظر الجيش، وجعل ابن حميد في وظيفة ابن البدر، وسافر ابن البدر على نظر جيش طرابلس، وتولى أرغون نيابة مصر، وعاد فخر الدين كاتب المماليك إلى وظيفته، مع استمرار قطب الدين ابن شيخ السلامية أيضا مباشراً معه.

وفي هذا الشهر قام الشيخ محمد بن قوام ومعه جماعة من الصالحين على ابن زهرة المغربي الذي كان يتكلم بالكلاسة وكتبوا عليه محاضر، تتضمن استهانته بالمصحف، وأنه يتكلم في أهل العلم، فأحضر إلى دار العدل، فاستسلم وحقن دمه، وعزر تعزيرا بليغا عنيفا، وطيف به في البلد باطنه وظاهره، وهو مكشوف الرأس ووجهه مقلوب، وظهره مضروب، ينادى عليه هذا جزاء من يتكلم في العلم بغير معرفة، ثم حبس، وأطلق فهرب إلى القاهرة، ثم عاد على البريد في شعبان، ورجع إلى ما كان عليه.

وفيه قدم بهادر آص من نيابة صفد إلى دمشق، وهنأه الناس.

وفيه قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولى أحد بمال ولا برشوة، فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية، وإلى ولاية غير الأهل، فقرأه ابن الزملكاني على السدة، وبلغه عنه ابن صُبَيح المؤذن، وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله.

وفي رجب وشعبان حصل للناس خوف بدمشق، بسبب أن التتر قد تحركوا للمجيء إلى الشام، فانزعج الناس من ذلك وخافوا، وتحول كثير منهم إلى البلد، وازدحموا في الأبواب وذلك في شهر رمضان، وكثرت الأراجيف بأنهم قد وصلوا إلى الرحبة، وكذلك جرى واشتهر بأن ذلك بإشارة قراسنقر وذويه فالله أعلم.

وفي رمضان جاء كتاب السلطان أن من قتل لا يجني أحد عليه، بل يُتَّبع القاتل حتى يقتص منه بمقتضى حكم الشرع الشريف، فقرأه ابن الزملكاني على السدة، بحضرة نائب السلطنة تنكز وسببه ابن تيمية هو أمر بذلك وبالكتاب الأول قبله.

وفي أول رمضان وصل التتر إلى الرحبة، فحاصروها عشرين يوماً، وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين موسى الأزكشي خمسة أيام قتالا عظيماً، ومنعهم منها، فأشار رشيد الدولة بأن ينزلوا إلى خدمة السلطان خربندا، ويهدوا له هدية، ويطلبوا منه العفو، فنزل القاضي نجم الدين إسحاق وجماعة، وأهدوا له خمسة رؤوس خيل، وعشرة أباليج سكر، فقبل ذلك ورجع إلى بلاده، وكانت بلاد حلب وحماة وحمص قد أجلوا منها وخرب أكثرها، ثم رجعوا إليها لما تحققوا رجوع التتر عن الرحبة، وطابت الأخبار، وسكنت النفوس، ودقت البشائر، وتركت الأئمة القنوت، وخطب الخطيب يوم العيد، وذكر الناس بهذه النعمة، وكان سبب رجوع التتر قلة العلف، وغلاء الأسعار، وموت كثير منهم، وأشار على سلطانهم بالرجوع الرشيد وجوبان.

وفي ثامن شوال دقت البشائر بدمشق، بسبب خروج السلطان من مصر لأجل ملاقاة التتر، وخرج الركب في نصف شوال، وأميرهم حسام الدين لاجين الصغير، الذي كان والي البر، وقدمت العساكر المنصورة المصرية أرسالا، وكان قدوم السلطان ودخوله دمشق يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال، واحتفل الناس لدخوله، فنزل بالقلعة، وقد زين البلد، وضربت البشائر، ثم انتقل بعد ليلتذ إلى القصر، وصلى الجمعة بالجامع بالمقصورة، وخلع على الخطيب، وجلس في دار العدل يوم الاثنين، وقدم وزيره أمين الملك يوم الثلاثاء عشرين الشهر.

وقدم صحبة السلطان الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية إلى دمشق، يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وكانت غيبته عنها سبع سنين كوامل، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه، وخرج خلق كثير لتلقيه، وسروا بقدومه وعافيته ورؤيته، واستبشروا به حتى خرج خلق من النساء أيضاً لرؤيته، وقد كان السلطان صحبه معه من مصر، فخرج معه بنية الغزاة، فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتر قد رجعوا إلى بلادهم فارق الجيش من غزة، وزار القدس وأقام به أياما، ثم سافر على عجلون وبلاد السواد وزُرع، ووصل دمشق في أول يوم من ذي القعدة، فدخلها فوجد السلطان قد توجه إلى الحجاز الشريف في أربعين أميرا من خواصه وجماعته يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً، لاشتغال الناس في سائر العلوم، ونشر العلم، وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والسلف.

فلما سار السلطان إلى الحج فرق العساكر والجيوش بالشام، وترك أرغون بدمشق.

وفي يوم الجمعة لبس الشيخ كمال الدين بن الزملكاني خلعة وكالة

بيت المال، عوضاً عن ابن الشريشي، وحضر بها الشباك، وتكلم الوزير أمين الملك في البلد، وطلب من الناس أموالا كثيرة، وصادر وضرب بالمقارع، وأهان جماعة من الرؤساء، منهم الصدر محيي الدين بن فضل الله، وفيه عين الشيخ شهاب الدين بن جهبل لتدريس الصلاحية بالقدس، عوضاً عن نجم الدين داود الكردي توفي، وقد كان مدرسا بها من نحو ثلاثين سنة، فسافر ابن جهبل إلى القدس، بعد عيد الأضحى.

وفيها مات ملك دَسْت القفجاق المسمى طقطاي خان، وكان له في الملك ثلاث وعشرون سنة، وكان عمره يوم مات ثلاثين سنة، وكان شهما شجاعاً، على دين التتر في عبادة الأصنام والكواكب، يعظم المجسمة والحكماء والأطباء ويكرم المسلمين أكثر من جميع الطوائف، وكان جيشه هائلا لا يجسر أحد على قتاله لكثرة جيشه، وقوتهم وعددهم وعددهم، ويقال إنه جرد مرة تجريدة من كل عشرة من جيشه واحداً، فبلغت التجريدة مائتي ألف وخمسين ألفاً.

توفي في رمضان منها، وقام في الملك من بعده ابن اخيه أزبك خان، وكان مسلما، فاظهر دين الإسلام ببلاده، وقتل خلقاً من أمراء الكفر، وعلت الشريعة المحمدية على سائر الشرائع هناك، ولله الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ **المنصور صاحب ماردين**: وهو نجم الدين أبو الفتح غازي بن الملك المظفر، قرا أرسلان بن الملك السعيد نجم الدين غازي ابن الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن غازي بن ألبي بن تمرتاش بن غازي بن أرتق الأرتقي صاحب ماردين من عدة سنين، كان شيخا حسنا مهيباً، كامل الخلقة، بدينا سمينا، إذا ركب يكون خلفه محفة، خوفا من أن يمسه لغوب فيركب فيها.

توفي في تاسع ربيع الآخر، ودفن بمدرسته تحت القلعة وقد بلغ من العمر فوق السبعين، ومكث في الملك قريبا من عشرين سنة، وقام من بعده في الملك ولده العادل علي، فمكث سبعة عشر يوماً، ثم ملك أخوه الصالح بن المنصور.

وفيها مات:

الأمير سيف الدين

■ **قطلوبك الشيخي**: كان من أمراء دمشق الكبار.

الشيخ الصالح: نور الدين أبو الحسن

■ **علي بن محمد بن هارون بن محمد بن هارون بن علي بن حميد الثعلبي الدمشقي**، قارئ الحديث بالقاهرة، ومسندها، روى عن ابن الزبيد، وابن اللّتّي، وجعفر الهمذاني، وابن الشيرازي وخلق، وقد خرج له الإمام العلامة تقي الدين السبكي مشيخة، وكان رجلا صالحا، توفي بكرة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر، وكانت جنازته هائلة حافلة.

الأمير الكبير الملك

■ **المظفر**: شهاب الدين غازي بن الملك الناصر داود بن المعظم، سمع الحديث، وكان رجلا متواضعاً، توفي بمصر ثاني عشر رجب، ودفن بالقاهرة.

قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله

■ **محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن داود بن حازم الأذرعي الحنفي**: كان بارعاً فاضلا درس وأفتى، وولي قضاء الحنفية بدمشق سنة ثم عزل واستمر على تدريس الشبلية مدة، ثم سافر إلى مصر، فأقام بسعيد السعداء خمسة أيام، وتوفي يوم الأربعاء ثاني عشرين رجب فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم هم، والسلطان في الحجاز لم يقدم بعد، وقد قدم الأمير سيف الدين قجليس يوم السبت، مستهل المحرم من الحجاز، وأخبر بسلامة السلطان، وأنه فارقه من المدينة النبوية، وأنه قد قارب البلاد، فدقت البشائر فرحا بسلامة، ثم جاء البريد فأخبر بدخوله إلى الكرك ثاني المحرم يوم الأحد.

فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم دخل دمشق وقد خرج الناس لتلقيه على العادة، وقد رأيته مرجعه من هذه الحجة على شفته ورقة قد ألصقها عليها، فنزل بالقصر وصلى الجمعة رابع عشر المحرم بمقصورة الخطابة، وكذلك الجمعة التي تليها، ولعب في الميدان بالكرة يوم السبت النصف من المحرم، وولي نظر الدواوين للصاحب شمس الدين غبريال يوم الأحد سادس عشر المحرم وشد الدواوين لفخر الدين إياس الأعسر عوضا عن القرماني، وسافر القرماني إلى نيابة الرحبة وخلع عليهما وعلى وزيره، وخلع على ابن صَصْرَى وعلى الفخر كاتب المماليك، وكان مع السلطان في الحج، وولي شرف الدين بن صَصْرَى حجابة الديوان وباشر فخر الدين ابن شيخ السلامية نظر الجامع وباشر بهاء الدين بن عليمة نظر الأوقاف، والمنكورسي شد الأوقاف فتوجه السلطان راجعا إلى الديار المصرية بكرة الخميس السابع والعشرين من المحرم، وتقدمت الجيوش بين يديه ومعه.

وفي أواخر صفر اجتاز على البريد في الرسلية إلى مهنا الشيخ صدر الدين ابن الوكيل وموسى بن مهنا والأمير علاء الدين الطنبغا فاجتمعوا به في تدمر ثم عاد الطنبغا وابن الوكيل إلى القاهرة ثم عاد صدر الدين إلى مهنا ورجع من عنده في رجب إلى القاهرة.

وفي أواخر جمادى الآخرة مسك أمين الملك وجماعة من الكتاب معه وصودروا بأموال كثيرة وأقيم عوضه بدر الدين بن التركماني الذي كان والي البحرية.

وفي رجب كملت أربعة مجانيق واحد لقلعة دمشق وثلاثة تحمل إلى الكرك، ورمي باثنين عند باب الميدان وحضر نائب السلطنة تنكز والعامة.

وفي شعبان تكامل حفر النهر الذي عمله سودي نائب حلب بها، كان طوله من نهر الساجور إلى نهر قويق أربعين ألف ذراع في عرض ذراعين وعمق ذراعين، وغرم عليه ثلاثمائة ألف درهم، وعمل بالعدل ولم يظلم فيه أحداً.

وفي يوم السبت ثامن شوال خرج الركب من دمشق وأميره سيف الدين بلبان التتري.

وحج صاحب حماة في هذه السنة وخلق من الروم والغرباء وغيرهم.

وفي يوم السبت السادس والعشرين من ذي الحجة وصل القاضي قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية من مصر على نظر الجيوش الشامية كما كان قبل ذلك.

وراح معين الدين بن الحشيش إلى مصر في رمضان صحبة الصاحب شمس الدين بن غبريال وبعد وصول ناظر الجيوش بيومين وصلت المناشير بمقتضى إزاكة الإقطاعات الشامية على ما رآه السلطان بعد نظره في ذلك

بنفسه أربعة أشهر.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام المحدث: فخر الدين أبو عمرو

■ عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزري بمكة، يوم الأحد حادي عشر ربيع الآخر، وقد سمع الكثير، وأجازه خلق يزيدون على ألف شيخ، وقرأ الكتب الكبار وغيرها، وقرأ صحيح البخاري أكثر من ثلاثين مرة رحمه الله.

■ (محمد بن أحمد بن عمر بن إلياس الرهاوي).

عز الدين محمد بن العدل: شهاب الدين أحمد بن عمر بن إلياس الرهاوي، كان يباشر استيفاء الأوقاف وغير ذلك، وكان من أخصاء أمين الملك، فلما مسك بمصر أرسل إلى هذا وهو معتقل بالعذراوية ليحضر على البريد، فمرض فمات بالمدرسة العذراوية، ليلة الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة.

وكان قد سمع من ابن طبرزد والكندي، ودفن من الغد بباب الصغير، وترك من بعده ولدين ذكرين جمال الدين محمد، وعز الدين.

الشيخ الكبير المقرئ: تقي الدين

■ المقصاتي، هو أبو بكر بن عمر بن المشبّع الجزري، المعروف بالمقصاتي، نائب الخطابة وكان يقرئ الناس القراءات من نحو خمسين سنة بالعراق والشام، وكان شيخا عارفاً بالقراءات السبع وغيرها من الشواذ، وله إلمام بالنحو، وفيه ورع واجتهاد، توفي ليلة السبت حادي عشرين جمادى الآخرة، ودفن من الغد بسفح قاسيون، تجاه الرباط الناصري، وقد جاوز الثمانين رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم هم في التي قبلها، إلا الوزير أمين الملك فمكانه بدر الدين بن التركماني.

وفي رابع المحرم عاد الصاحب شمس الدين غبريال من مصر على نظر الدواوين، وتلقاه أصحابه.

وفي عاشر المحرم يوم الجمعة قرئ كتاب السلطان على السدة، بحضرة نائب السلطنة والقضاة والأمراء، يتضمن بإطلاق البواقي من سنة ثمان وتسعين وستمائة إلى آخر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، فتضاعفت الأدعية للسلطان، وكان القارئ جمال الدين بن القلانسي، ومبلغه بدر الدين بن صبيح المؤذن، ثم قرئ في الجمعة الأخرى مرسوم آخر فيه الإفراج عن المسجونين، وأن لا يؤخذ من كل واحد سوى نصف درهم، ومرسوم آخر فيه إطلاق السخر والقصب وغيره عن الفلاحين، قرأه ابن الزملكاني وبلغه عنه أمين الدين محمد بن مؤذن النجيبي.

وفي المحرم استحضر السلطان إلى بين يديه الفقيه نور الدين علي البكري وهم بقتله، فشفع فيه الأمراء، فنفاه ومنعه من الكلام في الفتوى والعلم، وكان قد هرب لما طلب من جهة الشيخ تقي الدين بن تيمية فهرب واختفى، وشفع فيه أيضاً، ثم لما ظفر به السلطان الآن وأراد قتله، شفع فيه الأمراء، فنفاه ومنعه من الكلام والفتوى، وذلك لاجترائه وتسرعه على التكفير والقتل، والجهل الحامل له على هذا وغيره.

وفي يوم الجمعة مستهل صفر قرأ ابن الزملكاني كتابا سلطانيا على السدة، بحضرة نائب السلطان والقاضي، وفيه الأمر بإطلاق ضمان القواسين وضمان النبيذ وغير ذلك، فدعا الناس للسلطان.

وفي أواخر ربيع الأول اجتمع القضاة بالجامع للنظر في أمر الشهود، ونهوهم عن الجلوس في المساجد، وأن لا يكون أحد منهم في مركزين، وأن لا يتولوا ثبات الكتب، ولا يأخذوا أجرا على أداء الشهادة، وأن لا يغتابوا أحداً، وأن يتناصفوا في المعيشة، ثم جلسوا مرة ثانية لذلك، وتواعدوا ثالثة فلم يتفق اجتماعهم، ولم يقطع أحد من مركزه.

وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين منه عقد المجلس في دار ابن صَصْرَى لبدر الدين بن بصخان، وأنكر عليه شيء من القراءات، فالتزم بترك الإقراء بالكلية، ثم استأذن بعد أيام في الإقراء فأذن له، فجلس بين الظهر والعصر بالجامع، وصارت له حلقة على العادة.

وفي منتصف رجب توفي نائب حلب الأمير سيف الدين سودي، ودفن بتربته، وتولى مكانه علاء الدين ألطنبغا الصالحي الحاجب بمصر، قبل هذه النيابة.

وفي تاسع شعبان خلع على الشريف شرف الدين عدنان بنقابة الأشراف، بعد والده أمين الدين جعفر بن محمد بن عدنان الحسيني، بحكم وفاة أبيه في الشهر الماضي، وقد كان رئيساً كبيراً.

وفي خامس شوال دفن الملك شمس الدين دوباج بن ملكشاه بن رستم صاحب كيلان بتربته المشهورة بسفح قاسيون، وكان قد قصد الحج في هذا العام، فلما كان بغباغب أدركته منيته يوم السبت سادس عشرين رمضان، فحمل إلى دمشق، وصلي عليه، ودفن في هذه التربة، اشتريت له وتممت، وجاءت حسنة، وهي مشهورة عند المكارية شرقي الجامع المظفري، وكان له في مملكة كيلان خمس وعشرون سنة، وعمر أربعا وخمسين سنة، وأوصى أن يحج عنه جماعة ففعل ذلك، وخرج الركب في ثالث شوال، وأميره سيف الدين سنقر الإبراهيمي، وقاضيه محيي الدين قاضي الزبداني.

وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة قدم القاضي بدر الدين بن الحداد من القاهرة متوليا حسبة دمشق فخلع عليه، عوضاً عن فخر الدين سليمان البصراوي، عزل فسافر سريعا إلى البرية، ليشتري خيلا للسلطان يقدمها رشوة على المنصب المذكور، فاتفق موته في البرية في سابع عشر من الشهر المذكور، وحمل إلى بصرى فدفن بها عند أجداده، في ثامن ذي القعدة. وكان شابا حسناً، كريم الأخلاق، حسن الشكل.

وفي أواخره مسك نائب صفت بلبان طُرْنا المنصوري، وسجن وتولى مكانه سيف الدين بلبان البدري.

وفي سادس ذي الحجة باشر ولاية البر الأمير علاء الدين علي بن محمود بن معبد البعلبكي، عوضاً عن شرف الدين عيسى بن البرطاسي.

وفي يوم عيد الأضحى وصل الأمير علاء الدين بن صبح من مصر، وقد أفرج عنه، فسلم عليه الأمراء وفرحوا به وهنؤوه بالسلامة.

وفي هذا الشهر أعيد أمين الملك إلى نظر النظار بمصر، وخلع عليه وعلى الصاحب بهاء الدين النشائي بنظر الخزانة، عوضاً عن سعد الدين حسن بن الأقفاصي.

وفيه وردت البريدية بأمر السلطان للجيوش الشامية بالمسير إلى حلب، وأن يكون مقدم العساكر كلها تنكز نائب الشام، وقدم من مصر ستة آلاف مقاتل، عليهم الأمير سيف الدين بكتمر الأبو بكري، وفيهم قجليس وبدر الدين الوزيري، وكشلي وابن طيبرس وساطي وابن سلار وغيرهم،

فتقدموا إلى البلاد الحلبية بين يدي نائب الشام تنكز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ سودي نائب حلب في رجب: ودفن بتربته، وهو الذي كان سببا في إجراء النهر إليها، غرم عليه ثلاثمائة ألف درهم، وكان مشكور السيرة، حميد الطريقة، رحمه الله.

وفي شعبان توفي:

الصاحب شرف الدين:

■ يعقوب بن مزهر، وكان باراً بأهله وقرابته، رحمه الله.

والشيخ رشيد الدين أبو الفداء

■ إسماعيل بن محمد القرشي الحنفي، المعروف بابن المعلم، كان من أعيان الفقهاء والمفتين، ولديه علوم شتى، وفوائد وفرائد، وعنده زهد، وانقطاع عن الناس، وقد درس بالبلخية مدة، ثم تركها لولده وسار إلى مصر فأقام بها، وقد عرض عليه قضاء دمشق فلم يقبل، وقد جاوز التسعين من العمر، توفي سحر يوم الأربعاء، خامس رجب، ودفن بالقرافة، رحمه الله تعالى.

وفي شوال توفي:

الشيخ

■ سليمان التركماني: الموله الذي كان يجلس على مصطبة بالعلبيين، وكان قبل ذلك مقيما بطهّارة باب البريد، وكان لا يتحاشى من النجاسات ولا يتقيها، ولا يصلي الصلوات ولا يأتيها، وكان بعض الناس من الهمج له فيه عقيدة وهذه قاعدة الهمج الرعاع الذين هم أتباع كل ناعق من المولهين والمجانين، ويزعمون أنه يكاشف، وأنه رجل صالح، ودفن بباب الصغير في يوم كثير الثلج.

وفي يوم عرفة توفيت:

الشيخة الصالحة العابدة الناسكة:

أم زينب

■ فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية بظاهر القاهرة، وشهدها خلق كثير، وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقوم على الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمردان، وتنكر أحوالهم وأحوال أهل البدع وغيرهم، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية، فاستفادت منه ذلك وغيره، وقد سمعت الشيخ تقي الدين يثني عليها، ويصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيراً من المغني أو أكثره، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها، وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها، وهي التي ختمت نساء كثيراً القرآن، منهن أم زوجتي عائشة بنت صديق، زوجة الشيخ جمال الدين المزي، وهي التي أقرأت ابنتها زوجتي أمة الرحيم زينب رحمهن الله وأكرمهن برحمته وجنته آمين.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام في البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

فتح ملطية

في يوم الاثنين مستهل المحرم خرج الأمير سيف الدين تنكز بالجيوش قاصداً ملطية، وخرجت الأطلاب على راياتها، وأبرزوا ما عندهم من العدد وآلات الحرب، وكان يوما مشهوداً، وخرج مع الجيش ابن صَصْرَى، لأنه قاضي العساكر، وقاضي القضاة الشافعية، فساروا حتى دخلوا حلب، في الحادي عشر من الشهر، ومنها وصلوا في السادس عشر إلى بلاد الروم إلى ملطية، فشرعوا في محاصرتها يوم الحادي والعشرين من المحرم، وقد حصنت ومنعت، وغلقت أبوابها، فلما رأوا كثرة الجيش نزل متوليها وقاضيها وطلبوا الأمان، فأمنوا المسلمين ودخلوها، فقتلوا من الأرمن خلقا ومن النصارى، وأسروا ذرية كثيرة، وتعدى ذلك إلى بعض المسلمين، وغنموا شيئاً كثيرا وأخذت أموال كثير من المسلمين ورجعوا عنها بعد ثلاثة أيام، يوم الأربعاء رابع عشرين المحرم إلى عين تاب إلى مرج دابق، وزينت دمشق، ودقت البشائر.

وفي أول صفر رحل نائب ملطية متوجهاً إلى السلطان.

وفي نصف الشهر وصل قاضيها الشريف شمس الدين ومعه خلق كثير من المسلمين من أهلها.

وفي بكرة نهار الجمعة سادس عشر ربيع الأول وصل إلى دمشق نائبها الأمير تنكز الناصري، أعزّه اللّه تعالى، وفي خدمته الجيوش الشامية والمصرية، وخرج الناس للفرجة عليه على العادة، وأقام المصريون قليلا ثم ترحلوا إلى القاهرة، وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان، أطلقها له ملك التتر، فاستتاب بها رجلا كرديا، فتعدى وأساء وظلم، وكاتب أهلها السلطان الملك الناصر، وأحبوا أن يكونوا من رعيته، فلما ساروا إليها وأخذوها وفعلوا ما فعلوا فيها جاءها بعد ذلك الجوبان فعمرها، ورد إليها خلقا كثيرا من الأرمن وغيرهم.

وفي التاسع عشر من هذا الشهر وصل إلينا الخبر بمسك بكتمر الحاجب، وأيدغدي شقير وغيرهما، وكان ذلك يوم الخميس مستهل هذا الشهر، وذلك لأنهم اتفقوا على السلطان، فبلغه الخبر فمسكهم، واحتيط على أموالهم وحواصلهم، وظهر لبكتمر أموال كثيرة وأمتعة، وأخشاب وحواصل كثيرة، وقد قدم قجليس من القاهرة فاجتاز بدمشق إلى ناحية طرابلس، ثم قدم سريعا ومعه الأمير سيف الدين تمر نائب طرابلس تحت الحوطة، ومسك بدمشق الأمير سيف الدين بهادر آص المنصوري، فحمل الأول إلى القاهرة، وجعل مكانه في نيابة طرابلس كستاي، وحمل الثاني إلى الكرك وحزن الناس عليه ودعوا له.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من ربيع الآخر قدم عز الدين بن ميسر دمشق محتسبا وناظر الأوقاف، وانصرف ابن الحداد عن الحسبة، وبهاء الدين بن عليمة عن نظر الأوقاف.

وفي ليلة الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى وقع حريق قبالة مسجد الشنباشي داخل باب الصغير، احترق فيه دكاكين ودور وأموال وأمتعة.

وفي يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة درس قاضي ملطية الشريف شمس الدين بالمدرسة الخاتونية البرانية عوضا عن قاضي القضاة الحنفي البصروي، وحضر عنده الأعيان، وهو رجل له فضيلة، وخلق حسن، كان قاضيا بملطية وخطيبا بها نحوا من عشرين سنة.

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة أعيد ابن الحداد إلى الحسبة،

واستمر ابن ميسر ناظر الأوقاف.

وفي يوم الأربعاء تاسع جمادى الآخرة درس ابن صَصْرَى بالأتابكية، عوضاً عن الشيخ صفي الدين الهندي.

وفي يوم الأربعاء الآخر حضر ابن الزملكاني درس الظاهرية الجوانية، عوضاً عن الهندي أيضا، بحكم وفاته كما ستأتي ترجمته.

وفي أواخر رجب أخرج الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك من سجن القاهرة، وأعيد إلى الإمرة بها.

وفي شعبان توجه خمسة آلاف من بلاد حلب فأغاروا على بلاد آمد، وفتحوا بلدانا كثيرة، وقتلوا وسبوا، وعادوا سالمين، وخمسوا ما سبوا، فبلغ سهم الخمس اربعة آلاف رأس وكسور.

وفي أواخر رمضان وصل قراسنقر المنصوري إلى بغداد، ومعه زوجته الخاتون بنت أبغا ملك التتر، وجاء إلى خدمة خربندا، واستأذنه في الغارة على أطراف بلاد المسلمين فلم يأذن له، ووثب عليه رجل فداوي من جهة صاحب مصر، فلم يقدر عليه وقتل الفداوي.

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين رمضان درس بالعادلية الصغيرة الفقيه الإمام فخر الدين محمد بن علي المصري، المعروف بابن كاتب قطلوبك، بمقتضى نزول مدرسها كمال الدين بن الزملكاني له عنها، وحضر عنده القضاة والأعيان والخطيب وابن الزملكاني أيضا.

وفي هذا الشهر كملت عمارة القيسارية، المعروفة بالدهشة عند الوراقين واللبادين، وسكنها التجار، فتميزت بذلك أوقاف الجامع، وذلك بمباشرة الصاحب شمس الدين.

وفي ثامن شوال قتل أحمد الرويس شهد عليه بالعظائم من ترك الواجبات، واستحلال المحرمات، واستهانته وتنقُّصه بالكتاب والسنة، فحكم المالكي بإراقة دمه وإن أسلم، فاعتقل ثم قتل لعنه اللّٰه.

وفي هذا اليوم كان خروج الركب الشامي، وأميره سيف الدين طقتمر الموساوي، وقاضيه قاضي ملطية.

وحج فيه قاضي حماة وحلب وماردين، ومحيي الدين كاتب ملك الأمراء تنكز، وصهره فخر الدين المصري، وتقي الدين الفاضلي.

وفي ثامن ذي الحجة ولد للسلطان ولد ذكر فزينت البلاد له.

ومن توفي فيها من الأعيان

شرف الدين أبو عبد اللّٰه: محمد بن العدل عماد الدين محمد بن أبي الفضل محمد بن أبي الفتح نصر اللّٰه بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي

■ ابن القلانسي، ولد سنة ست وأربعين وستمائة، وباشر نظر الخاص، وقد شهد قبل ذلك في القيمة ثم تركها، وقد ترك أولاداً وأموالا جمة، توفي ليلة السبت، ثاني عشر صفر، ودفن بقاسيون.

الشيخ صفي الدين الهندي: أبو عبد اللّٰه

■ محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، الشافعي المتكلم، ولد بالهند سنة أربع وأربعين وستمائة، واشتغل على جده لأمه، وكان فاضلا، وخرج من دهلي في رجب، سنة سبع وستين، فحج وجاور بمكة أشهراً، ثم دخل اليمن، فأعطاه ملكها المظفر أربعمائة دينار، ثم دخل مصر، فأقام بها أربع سنين، ثم سافر إلى الروم على طريق أنطاكية، فأقام إحدى عشرة سنة بقونية خمسا وبسيواس خمسا، وبقيسارية سنة، واجتمع بالقاضي سراج الدين فأكرمه، ثم قدم إلى دمشق في سنة خمس وثمانين فأقام بها، واستوطنها، ودرس بالرواحية والدولعية والظاهرية والأتابكية، وصنف في الأصول والكلام، وتصدى للاشتغال والإفتاء، ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية، وكان فيه بر وصلة.

توفي ليلة الثلاثاء تاسع عشرين صفر، ودفن بمقابر الصوفية، ولم يكن معه وقت موته سوى الظاهرية وبها مات، فدرس بعده فيها ابن الزملكاني، وأخذ ابن صَصْرَى الأتابكية.

القاضي المسند المعمر الرحلة: تقي الدين

■ سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي الحاكم بدمشق، ولد في نصف رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وقرأ بنفسه، وتفقه وبرع، وولي الحكم وحدث، وكان من خيار الناس، وأحسنهم خلقاً، وأكثرهم مروءة.

توفي فجأة بعد مرجعه من البلد وحكمه بالجوزية، فلما صار إلى منزله بالدير تغيرت حاله، ومات عقيب صلاة المغرب، ليلة الاثنين حادي عشرين ذي القعدة، ودفن من الغد بتربة جده، وحضر جنازته خلق كثير، وجم غفير رحمه اللّٰه.

■ (علي بن علي الحريري).

الشيخ علي ابن الشيخ علي الحريري: كان مقدما في طائفته، مات أبوه وعمره ستان، توفي في قرية بسر في جمادى الأولى.

الحكيم الفاضل البارع: بهاء الدين

■ عبد السيد بن المهذب إسحاق بن يحيى الطبيب الكحال، المتشرف بالإسلام، ثم قرأ القرآن جميعه، لأنه أسلم على بصيرة، وأسلم على يديه خلق كثير من قومه وغيرهم، وكان مباركا على نفسه وعليهم، وكان قبل ذلك ديان اليهود، فهداه اللّٰه تعالى.

وتوفي يوم الأحد سادس جمادى الآخرة، ودفن من يومه بسفح قاسيون، أسلم على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية، لما بين له بطلان دينهم وما هم عليه، وما بدلوه من كتابهم وحرفوه من الكلم عن مواضعه رحمه اللّٰه.

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، غير الحنبلي بدمشق فإنه توفي في السنة الماضية.

وفي المحرم تكملت تفرقة المثالات السلطانية بمصر بمقتضى إراكة الأخباز، وعرض الجيش على السلطان، وأبطل السلطان المكس بسائر البلاد القبلية والشامية.

وفيه وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية ببعلبك بسبب العقائد، وترافعوا إلى دمشق، فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز، فأصلح بينهم، وانفصل الحال على خير من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين، وذلك يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم.

وفي يوم الأحد سادس عشر صفر قرئ تقليد قاضي القضاة شمس الدين أبي عبد اللّٰه محمد بن مسلم ابن مالك بن مزروع الحنبلي، بقضاء الحنابلة والنظر في أوقافهم، عوضاً عن التقي سليمان بحكم وفاته رحمه اللّٰه، وتاريخ التقليد من سادس ذي الحجة، وقرئ بالجامع الأموي، بحضور القضاة والصاحب والأعيان، ثم مشوا معه وعليه الخلعة إلى دار السعادة،

فسلم على النائب، وراح إلى الصالحية، ثم نزل من الغد إلى الجوزية، فحكم بها على عادة من تقدمه، واستناب بعد أيام الشيخ شرف الدين ابن الحافظ.

وفي يوم الاثنين سابع صفر المذكور وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشي من مصر على البريد، ومعه توقيع بعود الوكالة إليه، فخلع عليه، وسلم على النائب والخلعة عليه.

وفي هذا الشهر مسك الوزير عز الدين بن القلانسي، واعتقل بالعذراوية، وصولح بخمسين ألفا، ثم أطلق له ما كان أخذ منه، وانفصل من ديوان نظر الخاص.

وفي ربيع الآخر وصل من مصر الأمير فضل بن عيسى ومعه تقليد بإمرة العرب عوضاً عن أخيه مهنا بن عيسى وأجري له ولابن أخيه موسى بن مهنا إقطاعات جيدة، وذلك بسبب دخول مهنا إلى بلاد التتر، واجتماعهم بملكهم خربندا.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين جمادى الأولى باشر ابن صَصْرَى مشيخة الشيوخ بالسميساطية بسؤال الصوفية وطلبهم له من نائب السلطنة، فحضرها وحضره عنده الأعيان في هذا اليوم، عوضاً عن الشريف شهاب الدين أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن علي بن الحسن بن الحسين بن يحيى بن موسى بن جعفر الصادق، وهو الكاشغري، توفي عن ثلاث وستين سنة ودفن بالصوفية.

وفي جمادى الآخرة باشر بهاء الدين إبراهيم بن جمال الدين يحيى المعروف بابن عليمة الحنفي وهو ناظر ديوان النائب بالشام نظر الدواوين، عوضا عن شمس الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن المظفر بن صدقة بن الحظيري الحاسب الكاتب توفي، وقد كان مباشرا عدة من الجهات الكبار، مثل نظر الخزانة، ونظر الجامع، ونظر المارستان وغير ذلك، واستمر نظر المارستان من يومئذ بأيدي نظار ديوان نائب السلطنة من كان، وصارت عادة مستمرة.

وفي رجب نقل نائب حمص الأمير شهاب الدين قرطاي إلى نيابة طرابلس، عوضاً عن الأمير سيف الدين التركستاني بحكم وفاته، وولي الأمير سيف الدين إرقطاي إلى نيابة حمص، وسار إليها من دمشق في يوم الأحد سابع رجب وتولى نيابة الكرك سيف الدين طقطاي الناصري، عوضاً عن سيف الدين بيبغا.

وفي يوم الأربعاء عاشر رجب درس بالنجيبية القاضي شمس الدين الدمشقي، عوضاً عن بهاء الدين يوسف بن كمال الدين أحمد بن الظاهر العجمي الحلبي، سبط الصاحب كمال الدين بن العديم، توفي ودفن عند خاله ووالده بتربة العديم.

وفي أواخر شعبان وصل القاضي شمس الدين بن عز الدين يحيى الحراني أخو قاضي قضاة الحنابلة بمصر شرف الدين عبد الغني، إلى دمشق متوليا نظر الأوقاف بها، عوضاً عن الصاحب عز الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن ميسّر، توفي في مستهل رجب بدمشق، وقد باشر نظر الدواوين بها وبمصر، والحسبة وبالإسكندرية وغير ذلك، ولم يكن بقي معه في آخر وقت سوى نظر الأوقاف بدمشق، مات وقد قارب الثمانين، ودفن بقاسيون.

وفي تاسع شوال خرج الركب الشامي وأميرهم سيف الدين أرغون السلحدار الناصري، الساكن عند دار الطراز بدمشق.

وحج من مصر سيف الدين أرغون الدوادار، وقاضي القضاة ابن جماعة، وقد زار القدس الشريف في هذه السنة بعد وفاة ولده الخطيب جمال الدين عبد الله، وكان قد رأس وعظم شأنه.

وفي ذي القعدة سار الأمير سيف الدين تنكز إلى زيارة القدس، فغاب عشرين يوماً.

وفيه وصل الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب إلى دمشق من مصر، وقد كان معتقلا في السجن فأطلق وأكرم وولي نيابة صفد، فسار إليها بعد ما قضى أشغاله بدمشق، ونقل القاضي حسام الدين القزويني من قضاء صفد إلى قضاء طرابلس، وأعيدت ولاية قضاء صفد إلى قاضي دمشق، فولى فيها ابن صَصْرَى شرف الدين النهاوندي، وكان متوليا طرابلس قبل ذلك، ووصل مع بكتمر الحاجب الطواشي ظهير الدين مختار المعروف بالزرعي، متوليا الخزانة بالقلعة، عوضا عن الطواشي ظهير الدين مختار البُلْبيسي توفي.

وفي هذا الشهر أعني ذا القعدة وصلت الأخبار بموت ملك التتر خربندا محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكوقان ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرَّانة وديار بكر، توفي في السابع والعشرين من رمضان، ودفن بتربته بالمدينة التي أنشأها، التي يقال لها السلطانية وقد جاوز الثلاثين من العمر.

وكان موصوفا بالكرم، ومحبا للهو واللعب والعمائر، وأظهر الرفض في بلاده، أقام سنة على السنة، ثم تحول إلى الرفض، فأقام شعائره، في بلاده، وحظي عنده الشيخ جمال الدين بن مطهر الحلي، تلميذ نصير الدين الطوسي، وأقطعه عدة بلاد، ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات في هذه السنة، وقد جرت في أيامه فتن كبار، ومصائب عظام،فأراح الله منه العباد والبلاد.

وقام في الملك بعده ولده بو سعيد، وله إحدى عشرة سنة، ومدبر الجيوش والممالك له الأمير جوبان، واستمر في الوزارة على شاه التبريزي، وأخذ أهل دولته بالمصادرة، وقتل الأعيان ممن اتهمهم بقتل أبيه مسموما، ولعب كثير من الناس به في أول دولته، ثم عدل إلى العدل وإقامة السنة، فأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين أولا، ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ففرح الناس بذلك، وسكنت بذلك الفتن والشرور، والقتال الذي كان بين أهل تلك البلاد بهراة وأصبهان وبغداد وإربل وساوه وغير ذلك، وكان صاحب مكة الأمير حُميضة بن أبي نُمَيٍّ الحسني، قد قصد ملك التتر خربندا، لينصره على أهل مكة، فساعده الروافض هناك، وجهزوا معه جيشا كثيفا من خراسان لأجل ذلك، فلما مات خربندا بطل ذلك بالكلية، وعاد حُميضة خائبا خاسئا، وفي صحبته أمير من كبار الروافض من التتر يقال له الدلقندي، وقد جمع لحميضة أموالا كثيرة، ليقيم بها الرفض بذلك في بلاد الحجاز، فوقع بهما الأمير محمد بن عيسى أخو مهنا، وقد كان مهنا في بلاد التتر أيضاً ومعه جماعة من العرب، فقهرهما ومن كان معهما، ونهب ما كان معهما من الأموال، وتفرق الرجال، وبلغت أخبار ذلك إلى الدولة الإسلامية، فرضي عنه السلطان الملك الناصر وأهل دولته، وغسل ذلك ذنبه عنده، فاستدعى به السلطان إلى حضرته، فحضر سامعا مطيعا، فأكرمه نائب الشام، فلما وصل إلى السلطان أكرمه أيضاً، ثم إنه استفتى الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكذلك أرسل إليه السلطان يسأله عن الأموال التي أخذت من الدلقندي، فأفتاهم بأنها تصرف في المصالح التي يعود نفعها على المسلمين لأنها كانت معدة لعناد الحق، ونصرة أهل البدعة على السنة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ خربندا ملك التتار كما تقدم

و■ عز الدين بن ميسّر.

و■ الشهاب الكاشغري شيخ الشيوخ.

و■ شمس الدين بن الحظيري.

و■ البهاء العجمي مدرس النجيبية:

وفيها قتل خطيب المزة قتله رجل جبلي، ضربه بفأس اللجام في رأسه في السوق، فبقي أياما ومات، وأخذ القاتل فشنق في السوق الذي قتل فيه، وذلك يوم الأحد ثالث عشر ربيع الآخر، ودفن هناك، وقد جاوز الستين.

الشرف

■ صالح بن محمد بن عربشاه بن أبي بكر الهمذاني، مات في جمادى الآخرة، ودفن بمقابر النيرب، وكان مشهوراً بطيب القراءة، وحسن السيرة، وقد سمع الحديث، وروى جزء صاحب التذكرة الكندية.

الشيخ الإمام، المقرئ المحدث، النحوي الأديب، علاء الدين

■ علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد بن هبة الله الكندي الإسكندراني، ثم الدمشقي، سمع الحديث على أزيد من مائتي شيخ، وقرأ القراءات السبع، وحصل علوماً جيدة، ونظم الشعر الحسن الرائق الفائق، وجمع كتابا في نحو من خمسين مجلداً، فيه علوم جمة أكثرها أدبيات سماها التذكرة الكندية، وقفها بالسميساطية، وكتب حسنا، وحسب جيداً، وخدم في عدة خدم، وولي مشيخة دار الحديث النفيسية في مدة عشر سنين، وقرأ صحيح البخاري مرات عديدة، وأسمع الحديث، وكان يلوذ بشيخ الإسلام ابن تيمية، وتوفي ببستانه عند قبة المسجِّف، ليلة الأربعاء سابع عشر رجب، ودفن بالمزة عن ست وسبعين سنة.

■ الطواشي ظهير الدين مختار: البلبيسي الخزندار بالقلعة، وأحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، كان ذكيا، خيرا فاضلا، يحفظ القرآن ويؤديه بصوت طيب، ووقف مكتبا للأيتام على باب قلعة دمشق، ورتب لهم الكسوة والجامكية، وكان يمتحنهم بنفسه، ويفرح بهم، وعمل له تربة خارج باب الجابية، ووقف عليها المقرئين وبنى عندها مسجدا حسنا ووقفه بإمام، وهي من أوائل ما عمل من الترب، بذلك الخط، ودفن بها في يوم الخميس عاشر شعبان رحمه الله.

وقدكان حسن الشكل والأخلاق، عليه سكينة، ووقار وهيبة، وله وجاهة في الدولة سامحه الله، وولي بعده الخزانة سُميه ظهير الدين مختار الزرعي.

الأمير بدر الدين:

■ محمد بن الوزيري، كان من الأمراء المقدمين، ولديه فضيلة ومعرفة وخبرة، وقد ناب عن السلطان بدار العدل مرة بمصر، وكان حاجب الميسرة، وتكلم في الأوقاف، وفيما يتعلق بالقضاة والمدرسين، ثم نقل إلى دمشق فمات بها، في سادس عشر شعبان، ودفن بميدان الحصى، فوق خان النجيبي، وخلف تركة عظيمة.

الشيخة الصالحة

■ ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا راوية صحيح البخاري وغيره، جاوزت التسعين سنة، وكانت من الصالحات، توفيت ليلة الخميس ثامن عشر شعبان، ودفنت بتربتهم، فوق جامع المظفري بقاسيون.

■ (علي بن تقي الدين بن دقيق العيد).

القاضي محب الدين: أبو الحسن علي ابن قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، استنابه أبوه في أيامه، وزوجه بابنة الحاكم بأمر الله، ودرس بالكهّارية ودرس بعد أبيه، وكانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشر رمضان، وقد قارب الستين، ودفن عند أبيه بالقرافة.

الشيخة الصالحة المعتمرة

■ ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية، والدة الشيخ تقي الدين بن تيمية، عمرت فوق السبعين سنة، وكانت من الصالحات ولدت تسعة بنين ولم ترزق بنتا قط، توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير، وجم غفير رحمها الله.

الشيخ نجم الدين

■ موسى بن علي بن محمد: الحلبي ثم الدمشقي، الكاتب الفاضل، المعروف بابن البصيص، شيخ صناعة الكتابة في زمانه، لا سيما في المزوّج والمثلث، وقد أقام يكتب الناس خمسين سنة، وأنا ممن كُتب عليه أثابه الله الجنة، وكان شيخا حسنا، بهي المنظر، يشعر جيداً، توفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة، ودفن بمقابر الباب الصغير، وله خمس وستون سنة.

الشيخ

■ تقي الدين الموصلي: أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أبي الكرم شيخ القراءة عند محراب الصحابة، وشيخ ميعاد ابن عامر مدة طويلة، وقد انتفع الناس به نحواً من خمسين سنة في التلقين والقراءات، وختّم خلقا كثيراً، وكان يقصد لذلك ويجمع تصديقات يقولها الصبيان ليالي ختمهم وقد سمع الحديث وكان خيراً ديناً، توفي ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

■ (محمد بن سلامة بن سالم المالقي).

الشيخ الصالح الزاهد المقرئ: أبو عبد الله محمد ابن الخطيب سلامة بن سالم بن الحسن بن ينبوب المالقي، أحد الصلحاء المشهورين بجامع دمشق، سمع الحديث، وأقرأ الناس نحوا من خمسين سنة، وكان يفصّح الأولاد في الحروف الصعبة، وكان مبتلى في فمه، يحمل طاسة تحت فمه من كثرة ما يسيل منه من الريال وغيره، وقد جاوز الثمانين بأربع سنين، توفي بالمدرسة الصارمية، يوم الأحد ثاني عشرين ذي القعدة، ودفن بباب الصغير بالقرب من القلندرية، وحضر جنازته خلق كثيراً جداً نحو من عشرة آلاف رحمه الله تعالى.

■ (ابن المرحِّل).

الشيخ صدر الدين بن الوكيل: هو العلامة أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام مفتي المسلمين زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد، المعروف بابن المرحل، وبابن الوكيل، شيخ الشافعية في زمانه، وأشهرهم في وقته بالفضيلة، وكثرة الاشتغال والمطالعة والتحصيل، والافتنان بالعلوم العديدة، وقد أجاد معرفة المذهب والأصلين، ولم يكن بالنحو بذاك القوي، يقع منه اللحن الكثير، مع أنه قرأ فيه المفصل للزمخشري، وكانت له محفوظات كثيرة.

ولد في شوال سنة خمس وستين وستمائة، وسمع الحديث على المشايخ، من ذلك مسند الإمام أحمد علي ابن علان، والكتب الستة، وقرئ عليه قطعه كبيرة من صحيح مسلم بدار الحديث، عن الأمير الإربلي والعامري والمزي.

وكان يتكلم على الحديث بكلام مجموع من علوم كثيرة، من الطب

والفلسفة وعلم الكلام، وليس ذلك بعلم، وعلوم الأوائل، وكان يكثر من ذلك.

وكان يقول الشعر جيداً، وله ديوان مجموع، مشتمل على أشياء لطيفة، وكان له أصحاب يحسدونه ويحبونه، وآخرون يحسدونه ويبغضونه، وكانوا يتكلمون فيه بأشياء، ويرمونه بالعظائم، وقد كان مسرفا على نفسه، قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش.

وكان ينتصب العداوة للشيخ تقي الدين بن تيمية ويناظره في كثير من المحافل والمجالس، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وهواه، وينافح عن طائفته.

وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه، وعلى علومه وفضائله، ويشهد له بالإسلام إذا قيل له عن أفعاله وأعماله القبيحة، وكان يقول: كان مخلطا على نفسه، متبعا مراد الشيطان منه، يميل إلى الشهوة والمحاضرة، ولم يكن كما يقول فيه بعض أصحابه ممن يحسده ويتكلم فيه هذا أو ما هو في معناه.

وقد درس بعدة مدارس بمصر والشام، ودرس بدمشق بالشاميتين، والعذراوية، ودار الحديث الأشرفية، وولي في وقت الخطابة أياماً يسيرة كما تقدم، ثم قام الخلق عليه وأخرجوها من يده، ولم يرق منبرها.

ثم خالط نائب السلطنة الأفرم فجرت له أمور لا يمكن ذكرها ولا يحسن، ثم آل به الحال على أن عزم على الانتقال من دمشق إلى حلب، لاستحواذه على قلب نائبها، فأقام بها ودرس، ثم تردد في الرسلية بين السلطان ومهنا صحبة أرغون والطنبغا، ثم استقر به المنزل بمصر، ودرس فيها بمشهد الحسين إلى أن توفي بها، بكرة نهار الأربعاء رابع عشرين ذي الحجة، بداره قريباً من جامع الحاكم، ودفن من يومه قريباً من الشيخ محمد بن أبي جمرة، بتربة القاضي ناظر الجيش بالقرافة، ولما بلغت وفاته دمشق صلي عليه بجامعها صلاة الغائب بعد الجمعة، ثالث المحرم من السنة الآتية، ورثاه جماعة منهم ابن غانم علاء الدين، والقحفازي، والصفدي، لأنهم كانوا من عشرائه.

وفي يوم عرفة توفي:

الشيخ عماد الدين

■ **إسماعيل الفوعي:** وكيل قجليس، وهو الذي بنى له الباشورة على باب الصغير بالبرانية الغربية، وكانت فيه نهضة وكفاية، وكان من بيت الرفض، اتفق أنه استحضره نائب السلطنة، فضربه بين يديه، وقام النائب إليه بنفسه، فجعل يضربه بالمهاميز في وجهه، فرفع من بين يديه وهو تالف، فمات في يوم عرفة، ودفن من يومه بسفح قاسيون، وله دار ظاهر باب الفراديس.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي صفر منها شرع في عمارة الجامع الذي أنشأه ملك الأمراء تنكز نائب الشام ظاهر باب النصر، تجاه حكر السماق، على نهر بانياس بدمشق، وتردد القضاة والعلماء في تحرير قبلته، فاستقر الحال في أمرها على ما قاله الشيخ تقي الدين بن تيمية في يوم الأحد الخامس والعشرين منه، وشرعوا في بنائه بأمر السلطان، ومساعدته لنائبه في ذلك.

وفي صفر هذا جاء سيل عظيم بمدينة بعلبك أهلك خلقاً كثيراً من الناس، وخرب دورا وعمائر كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر.

وملخص ذلك أنه قبل ذلك جاءهم رعد وبرق عظيم معهما مطر وبرد، فسالت الأودية، ثم جاءهم بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال بشرق مقدار أربعين ذراعاً، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجاً صحيحاً، ومعه من جانبيه، بعض بدنيتين، فحمله كما هو، حتى مر وحفر في الأرض نحو خمسمائة ذراع سعة ثلاثين ذراعاً، وحمل السيل ذلك إلى غربي البلد، لا يمر على شيء إلا أتلفه، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فأتلف ما يزيد على ثلثها، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوى على حائطه الغربي فأخربه، وأتلف جميع ما فيه من الحواصل، والكتب والمصاحف، وأتلف شيئا كثيراً من رباع الجامع، وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وغرق في الجامع الشيخ علي بن محمد ابن الشيخ علي الحريري، هو وجماعة معه من الفقراء، ويقال كان من جملة من هلك بالغرق في هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربعة وأربعون نفسا سوى الغرباء، وجملة الدور التي خربها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمائة دار وحانوت، وجملة البساتين التي جرف أشجارها عشرون بستاناً، ومن الطواحين ثمانية، وسوى الجامع والأمينية، وأما الأماكن التي دخلها وأتلف ما فيها ولم تخرب فكثير جداً.

وفي هذه السنة زاد النيل زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها من مدد، وغرق بلاداً كثيراً، وهلك فيها ناس كثيراً أيضاً، وغرق منية الشيرج فهلك للناس فيها شيء كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي مستهل ربيع الآخر جلس السلطان أبو سعيد بن خربندا على تخت المملكة بالمدينة السلطانية.

وفي ربيع الآخر منها أغار جيش حلب على مدينة آمد فنهبوا وسبوا وعادوا سالمين.

وفي يوم السبت تاسع عشرين منه قدم قاضي المالكية إلى الشام من مصر، وهو الإمام العلامة فخر الدين أبو العباس أحمد بن سلامة بن أحمد بن أحمد بن سلامة الإسكندري المالكي، على قضاء دمشق، عوضاً عن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي، لضعفه واشتداد مرضه، فالتقاه القضاة والأعيان، وقرئ تقليده بالجامع ثاني يوم وصوله، وهو مؤرخ بثاني عشر الشهر، وقدم نائبه الفقيه نور الدين السخاوي درس بالجامع في مستهل جمادى الأولى، وحضر عنده الفقهاء والأعيان والقضاة، وشكرت فضائله وعلومه، ونزاهته وصرامته وديانته.

وبعد ذلك بتسعة أيام توفي الزواوي المعزول، وقد باشر القضاء بدمشق ثلاثين سنة.

وفيها أفرج عن الأمير سيف الدين بهادر آص من سجن الكرك، وحمل إلى القاهرة وأكرمه السلطان، وكان سجنه بها مطاوعة لإشارة نائب الشام، بسبب ما كان وقع بينهما بملطية، وخرج المحمل في يوم الخميس تاسع شوال، وأمير الحج سيف الدين كجكن المنصوري، وممن حج قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى، وابن أخيه شرف الدين، وكمال الدين بن الشيرازي، والقاضي جلال الدين الحنفي، والشيخ شرف الدين بن تيمية وخلق.

وفي سادس هذا الشهر درس بالجاروخية القاضي جمال الدين محمد ابن

الشيخ كمال الدين الشريشي بعد وفاة الشيخ شرف الدين بن أبي سلام، وحضر عنده الأعيان.

وفي التاسع عشر منه درس ابن الزملكاني بالعذراوية، عوضاً عن ابن سلام.

وفيها درس الشيخ شرف الدين بن تيمية بالحنبلية عن إذن أخيه له في ذلك، بعد وفاة أخيهما لأمهما بدر الدين قاسم بن محمد بن خالد، ثم سافر الشيخ شرف الدين إلى الحج، وحضر الشيخ تقي الدين بن تيمية الدرس بنفسه، وحضر عنده خلق كثير من الأعيان وغيرهم حتى عاد أخوه، وبعد عوده أيضاً، وجاءت الأخبار بأنه قد أبطلت الخمور والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها، ووضعت مكوس كثيرة عن الناس هنالك، وبنيت بقرى النصيرية في كل قرية مسجد ولله الحمد والمنة.

وفي بكرة نهار الثلاثاء الثامن والعشرين من شوال وصل الشيخ الإمام العلامة شيخ الكتاب شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي على البريد من مصر إلى دمشق متولياً كتابة السر بها، عوضاً عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله توفي إلى رحمة الله تعالى.

وفي ذي القعدة يوم الأحد درس بالصمصامية التي جددت للمالكية وقد وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال درساً ودرس بها فقهاً، وعين تدريسها لنائب الحكم الفقيه نور الدين علي بن عبد النصير المالكي، وحضر عنده القضاة والأعيان، وممن حضر عنده الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان يعرفه من إسكندرية.

وفيه درس بالدخوارية الشيخ جمال الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أحمد الكحال، ورتب في رياسة الطب عوضاً عن أمين الدين سليمان الطبيب، بمرسوم نائب السلطنة تنكز، واختاره لذلك.

واتفق أنه في هذا الشهر تجمع جماعة من التجار بماردين وانضاف إليهم خلق من الجفال من الغلا قاصدين بلاد الشام، حتى إذا كانوا بمرحلتين من رأس العين لحقهم ستون فارساً من التتار فمالوا عليهم بالنشاب وقتلوهم عن آخرهم، ولم يبق منهم سوى صبيانهم نحو سبعين صبياً، فقالوا من يقتل هؤلاء؟ فقال واحد منهم: أنا بشرط أن تنفلوني بمال من الغنيمة، فقتلهم كلهم عن آخرهم، وكان جملة من قتل من التجار ستمائة، ومن الجفال ثلاثمائة من المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وردموا بموتاهم خمس صهاريج هناك حتى امتلأت بهم رحمهم الله، ولم يسلم من الجميع سوى رجل واحد تركماني، هرب وجاء إلى رأس العين فأخبر الناس بما رأى وشاهد من هذا الأمر الفظيع المؤلم الوجيع، فاجتهد متسلم ديار بكر سوتاي في طلب أولئك التتر حتى أهلكهم عن آخرهم، ولم يبق منهم رجلٌ واحد، لا جمع الله بهم شملا ولا بهم مرحباً ولا أهلا، آمين يا رب العالمين.

صفة خروج المهدي الضال بأرض جبلة

وفي هذه السنة خرجت النصيرية عن الطاعة وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدعي أنه علي بن أبي طالب فاطر السماوات والأرض، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتارة يدعي أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وصرح بكفر المسلمين، وأن النصيرية على حق، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلال، وعين لكل إنسان منهم تقدمة ألف، وبلاد كثيرة ونيابة القلعة، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقاً كثيرة من أهلها، وخرجوا منها يقولون لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان، وسبُّوا الشيخين، فصاح أهل البلد وا إسلاماه، وا سلطاناه وا أميراه، فلم يكن لهم يومئذ ناصر ولا منجد، وجعلوا يبكون، ويتضرعون إلى الله عز وجل، فجمع هذا الضال تلك الأموال، فقسمها على أصحابه وأتباعه، قبحهم الله أجمعين، وقال لهم لم يبق للمسلمين ذكر ولا دولة، ولو لم يبق معي سوى عشرة أنفس لملكنا البلاد كلها. ونادى في تلك البلاد أن المقاسمة بالعشر لا غير ليرغب الفلاحين فيه وأمر أصحابه بخراب المساجد، واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي، الذي يحيي ويميت، حتى تحقن دمك، ويكتب لك فرمان، وتجهزوا، وعملوا أمراً عظيماً جداً، فجردت إليهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً وقتل المهدي الذي أضلهم، وهو يكون يوم القيامة مقدمهم وهاديهم إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ ـ ٤].

وفيها حج الأمير حسام الدين مهنا، وولده سليمان في ستة آلاف، وأخوه محمد بن عيسى في أربعة آلاف، ولم يجتمع مهنّا بأحد من المصريين ولا الشاميين، وقد كان في المصريين قجليس وغيره، والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الصالح: أبو الحسن

■ علي بن محمد بن عبد الله الجُبْني كان فاضلا، وكتب حسنا، ونسخ التنبيه، والعمدة، وغير ذلك، وكان الناس ينتفعون به، ويقابلون معه، ويصححون عليه، ويجلسون إليه عند صندوق كان له في الجامع، توفي ليلة الاثنين، سادس المحرم، ودفن بالصوفية، وقد صححت عليه في العمدة وغيرها.

الشيخ شهاب الدين الرومي:

■ أحمد بن محمد بن إبراهيم المراغي، درس بالمعينية، وأم بمحراب الحنفية بمقصورتهم الغربية، إذ كان محرابهم هناك، وتولى مشيخة الخاتونية، وكان يؤم بنائب السلطنة الأفرم، وكان يقرأ حسنا بصوت مليح، وكانت له مكانة عنده، وربما راح إليه الأفرم ماشياً حتى يدخل عليه زاويته التي أنشاها بالشرف الشمالي على الميدان الكبير، ولما توفي بالمحرم ودفن بالصوفية قام ولداه عماد الدين وشرف الدين بوظائفه.

الشيخ الصالح العدل: فخر الدين

■ عثمان بن أبي الوفا بن نعمة الله الأعزازي، كان ذا ثروة من المال، كثير المروءة والتلاوة، أدى الأمانة في ستين ألف دينار وجواهر، حيث لا يعلم بها إلا الله عز وجل، بعد ما مات صاحبها مجرداً في الغزاة، وهو عز الدين الجراحي نائب غزة، أودعه إياها فأداها إلى أهلها أثابه الله، ولهذا لما مات يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر حضر جنازته خلق لا يعلمهم إلا الله تعالى، حتى قيل إنهم لم يجتمعوا في مثلها قبل ذلك، ودفن بباب الصغير رحمه الله.

قاضي القضاة: جمال الدين أبو عبد الله

■ محمد بن سليمان بن سومر الزواوي قاضي المالكية بدمشق، من سنة سبع وثمانين وستمائة.

قدم مصر من المغرب، واشتغل بها، وأخذ عن مشايخها منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم قدم دمشق قاضياً في سنة سبع وثمانين وستمائة، وكان مولده تقريباً في سنة تسع وعشرين وستمائة وأقام شعار مذهب مالك، وعمر الصمصامية في أيامه، وجدده عمارة النورية، وحدث بصحيح مسلم، وموطأ مالك عن يحيى بن يحيى عن مالك، وكتاب الشفا للقاضي عياض، وعزل قبل وفاته بعشرين يوماً عن القضاء، وهذا من خيره حيث لم يمت قاضياً.

توفي بالمدرسة الصمصامية، يوم الخميس، التاسع من جمادى الآخرة، وصلي عليه بعد الجمعة، ودفن بمقابر باب الصغير تجاه، مسجد النارنج، وحضر الناس جنازته، وأثنوا عليه خيراً، وقد جاوز الثمانين رحمه اللّه كمالك، ولم يبلغ إلى سبعة عشر من عمره على مقتضى مذهبه أيضاً.

القاضي الصدر الرئيس رئيس الكتاب شرف الدين أبو محمد

■ عبد الوهاب بن جمال الدين فضل اللّه بن مُجَلّي القرشي، العدوي العمري، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة، وسمع الحديث، وخدم وارتفعت منزلته، حتى كتب الإنشاء بمصر، ثم نقل إلى كتابة سر دمشق، إلى أن توفي في ثاني رمضان، ودفن بقاسيون، وقد قارب التسعين، وهو ممتع بحواسه وقواه، وكانت له عقيدة حسنة في العلماء، ولا سيما في ابن تيمية، وفي الصلحاء رحمه اللّه، وقد رثاه الشهاب محمود كاتب السر بعده بدمشق، وعلاء الدين بن غانم، وجمال الدين بن نباتة.

■ (الحسين بن علي بن إسحاق بن سلام الدمشقي).

الفقيه الإمام العالم المناظر شرف الدين أبو عبد اللّه الحسين ابن الإمام كمال الدين علي بن إسحاق بن سلام الدمشقي الشافعي، ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة، واشتغل وبرع، وحصل ودرس بالجاروخية والعذراوية، وأعاد بالظاهرية، وأفتى بدار العدل، وكان واسع الصدر، كثير الهمة، كريم النفس، مشكوراً في فهمه، وخطه وحفظه، وفصاحته ومناظرته، توفي في رابع عشرين من رمضان، وترك أولاداً، وديناً كثيراً، فوفته عنه زوجته بنت زويزان، تقبل اللّه منها، وأحسن إليها.

الصاحب أنيس الملوك: بدْر الدين

■ عبد الرحمن بن إبراهيم الإربلي، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة، واشتغل بالأدب، فحصل على جانب جيد منه، وارتزق عند الملوك؛ به، فمن رقيق شعره ما أورده الشيخ علم الدين في ترجمته قوله:

وَمُدامَةٍ حمراءَ تُشْبِهُ خَدَّ مَنْ أهْوَى وَدَمْعِي
يَسْعَى بِهَا قَمَرٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَظَرِي وَسَمْعِي

وقوله في مغنية:

وَغَرِيرَةٍ هَيْفَاءَ نَاعِمَةِ السَّنَا طَوعِ العِنَاقِ مَرِيضَةِ الأَجْفَانِ
غَنَّتْ وَمَاسَ قَوَامُهَا فَكَأَنَّهَا الـ وَرْقَاءُ تَسْجَعُ فَوْقَ غُصْنِ البَانِ

■ (محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن سالم بن صَصْرى).

الصدر الرئيس شرف الدين محمد بن جمال الدين إبراهيم بن شرف الدين عبد الرحمن بن أمين الدين سالم ابن الحافظ بهاء الدين الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن صَصْرَى باشر عدة جهات، وخرج مع خاله قاضي القضاة ابن صَصْرَى إلى الحج ، فلما كانوا ببرْدى اعتراه مرض، ولم يزل به حتى مات، توفي بمكة وهو محرم ملبٍّ، فشهد الناس جنازته، وغبطوه بهذه الموتة.

توفي يوم الجمعة آخر النهار سابع ذي الحجة، ودفن ضحى يوم السبت، بمقبرة الحجون، رحمه اللّه تعالى وأكرم مثواه.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة

الخليفة والسلطان هما هما، وكذلك النواب والقضاة، سوى المالكي بدمشق فإنه العلامة فخر الدين بن سلامة، بعد القاضي جمال الدين الزواوي رحمه اللّه.

فيها وصلت الأخبار في المحرم من بلاد الجزيرة وبلاد الشرق وسنجار والموصل وماردين وتلك النواحي بغلاء عظيم، وفناء شديد وقلة الأمطار،وجور التتار، وعدم الأقوات، وغلاء الأسعار، وقلة النفقات، وزوال النعم، وحلول النقم، بحيث إنهم أكلوا ما وجدوه من الجمادات، والحيوانات، والميتات، وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبيع الولد بخمسين درهما وأقل من ذلك، حتى إن كثيرا من الناس كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين تأثما، فكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليشتري منها ولدها لتنتفع بثمنه، ويحصل لها من يطعمه فيعيش، وتأمن عليه من الهلاك، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، وجرت في تلك البلاد أحوال صعبة يطول ذكرها، وتنبو الأسماع عن وصفها، وقد ترحلت منهم فرقة قريب الأربعمائة إلى ناحية مراغة فسقط عليهم ثلج أهلكهم عن آخرهم، وصحبت طائفة منهم فرقة من التتار، فلما انتهوا إلى عقبة صعدها التتار ثم منعوهم أن يصعدوها لئلا يتكلفوا بهم فماتوا عن آخرهم، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العزيز الحكيم.

وفي بكرة الاثنين السابع من صفر قدم القاضي كريم الدين عبد الكريم بن العلم هبة اللّه وكيل الخاص السلطاني بالبلاد جميعها، قدم إلى دمشق فنزل، بدار السعادة، وأقام بها أربعة أيام وأمر ببناء جامع القبيبات، الذي يقال له جامع كريم الدين، وراح لزيارة بيت المقدس، وتصدق بصدقات كثيرة وافرة، وشرع ببناء جامع بعد سفره.

وفي ثاني صفر جاءت ريح شديدة ببلاد طرابلس على بيوت مقدَّم تركمان، فأهلكت لهم شيئاً كثيراً من الأمتعة، وقتلت أميراً منهم يقال له طرالي، وزوجته، وابنيه، وابني ابنه، وجاريته وأحد عشر نفساً، وقتلت جمالا كثيرة وغيرها، وكسرت الأمتعة والأثاث، وكانت ترفع البعير في الهواء مقدار عشرة أرماح ثم تلقيه مقطعاً، ثم سقط بعد ذلك مطر شديد وبرد عظيم، بحيث أتلف زروعاً كثيرة في قرى عديدة، نحو من أربع وعشرين قرية، حتى إنها لا ترد بدارها.

وفي صفر أخرج الأمير سيف الدين طغاي الخاصكي إلى نيابة صفد فأقيم بها شهرين مسك، والصاحب أمين الملك إلى نظر الدواوين بطرابلس على معلوم وافر.

قال الشيخ علم الدين وفي يوم الخميس متصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية، وأشار عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فقبل الشيخ نصيحته، وأجاب إلى ما أشار به، رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتين، ثم ورد البريد في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، وعقد في ذلك مجلس، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان، ونودي به في البلد، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتين الكبار، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء، في مسألة الطلاق، فعلم

الشيخ نصيحته، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر.

وفي عاشره جاء البريد إلى صفد بمسك سيف الدين طغاي، وتولية بدر الدين القرماني نيابة حمص.

وفي هذا الشهر كان مقتل رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير بن عالي الهمذاني، كان أصله يهودياً عطاراً، فتقدم بالطب، وشملته السعادة، حتى صار عند خربندا الجزء الذي لا يتجزأ، وعلت رتبته وكلمته، وتولى مناصب الوزراء، وحصل له من الأموال والأملاك والسعادة ما لا يحد ولا يوصف، وكان قد أظهر الإسلام، وكانت لديه فضائل جمة، وقد فسر القرآن، وصنف كتباً كثيرة، وكان له أولاد وثروة عظيمة، وبلغ الثمانين من العمر، وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، فإنه صانع عن المسلمين، وأتقن القضية في رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية، سنة ثنتي عشرة كما تقدم، وكان يناصح الإسلام، ولكن قد نال منه خلق كثير من الناس، واتهموه على الدين، وتكلموا في تفسيره هذا، ولا شك أنه كان مخبطا مخلطا، وليس لديه علم نافع، ولا عمل صالح، ولما تولى أبو سعيد المملكة عزله، وبقي مدة خاملا، ثم استدعاه جوبان وقال له: أنت سقيت السلطان خربندا سماً؟ فقال لهم: أنا كنت في غاية الحقارة والذلة، فصرت في أيامه وأيام أبيه في غاية العظمة والعزة، فكيف أعمد إلى سقيه والحالة هذه؟ فأحضرت الأطباء فذكروا صورة مرض خربندا وصفته، وأن الرشيد أشار بإسهاله لما عنده في باطنه من الحواصل، فانطلق باطنه نحواً من سبعين مجلساً، فمات فاعترف بذلك على وجه أنه أخطأ في الطلب، فقال: فأنت إذاً قتلته، فقتله وولده إبراهيم، واحتيط على حواصله وأمواله، فبلغت شيئاً كثيراً، وقطعت أعضاؤه، وحمل كل جزء منها إلى بلدة، ونودي على رأسه بتبريز هذا رأس اليهودي، الذي بدل كلام الله، لعنه الله، ثم أحرقت جثته، وكان القائم عليه علي شاه.

وفي هذا الشهر - أعني جمادى الأولى - تولى قضاء المالكية بمصر تقي الدين الإخنائي، عوضاً عن زين الدين بن مخلوف، توفي عن أربع وثمانين سنة، وله في الحكم ثلاث وثلاثون سنة.

وفي يوم الخميس عاشر رجب لبس صلاح الدين يوسف بن الملك الأوحد خلعة الإمرة بمرسوم السلطان.

وفي آخر رجب جاء سيل عظيم بظاهر حمص، خرب شيئا يسيراً، وجاء إلى البلد ليدخلها فمنعه الخندق.

وفي شعبان تكامل بناء الجامع الذي عمره تنكز ظاهر باب النصر، وأقيمت الجمعة فيه عاشر شعبان، وخطب فيه الشيخ نجم الدين علي بن داود بن يحيى الحنفي المعروف بالقحفازي، من مشاهير الفضلاء، ذوي الفنون المتعددة، وحضر نائب السلطنة، والقضاة والأعيان، والقراء والمنشدون، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الجمعة التي يليها خطب بجامع القبيبات الذي أنشأه كريم الدين وكيل السلطان، وحضر فيه القضاة والأعيان، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الواحد بن يوسف بن الوزير الحراني، الأسدي الحنبلي، وهو من الصالحين الكبار، ذوي الزهادة والعبادة، والنسك والتوجه، وطيب الصوت، وحسن السمت.

وفي حادي عشر رمضان خرج الشيخ شمس الدين بن النقيب إلى حمص حاكما بها مطلوباً، مسؤولاً مرغوبا فيه، وخرج الناس لتوديعه.

وفي هذا الشهر حصل سيل عظيم بسلمية ومثله بالشوبك، وخرج المحمل في تاسع شوال، وأمير الركب الأمير علاء الدين بن معبد والي البر، وقاضيه زين الدين ابن قاضي الخليل الحاكم بحلب.

وممن حج في هذه السنة من الأعيان: الشيخ برهان الدين الفزاري، وكمال الدين بن الشريشي، وولده، وبدر الدين بن العطار.

وفي الحادي عشر من ذي الحجة انتقل الأمير فخر الدين إياس الأعسري من شد الدواوين بدمشق إلى طرابلس أميراً.

وفي يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة أقيمت الجمعة في الجامع الذي أنشأه الصاحب شمس الدين غبريال، ناظر الدواوين بدمشق، خارج باب شرقي، إلى جانب ضرار بن الأزور رضي الله عنه بالقرب من محلة القعاطلة، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن التلعمري، المعروف بالنيرباني، وهو من كبار الصالحين، ذوي العبادة والزهادة، وهو من أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية، وحضره الصاحب المذكور، وجماعة من القضاة والأعيان.

وفي يوم الاثنين العشرين من ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدث الحافظ مشيخة الحديث بتربة أم الصالح، عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، توفي بطريق الحجاز في شوال، وقد كان له في مشيختها ثلاث وثلاثون سنة، وحضر عند الذهبي جماعة من القضاة.

وفي يوم الثلاثاء صبيحة هذا الدرس أحضر الفقيه زين الدين بن عبيدان الحنبلي من بعلبك، وحوقق على منام رآه، زعم أنه رآه بين النائم واليقظان، وفيه تخليط وتخبيط، وكلام كثير لا يصدر عن مستقيم المزاج، كان كتبه بخطه، وبعثه إلى بعض أصحابه، فاستسلمه القاضي الشافعي وحقن دمه وعزره، ونودي عليه في البلد، ومنع من الفتوى وعقود الأنكحة، ثم أطلق.

وفي يوم الأربعاء بكرة باشر بدر الدين محمد بن بصخان مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح، عوضاً عن الشيخ مجد الدين التونسي توفي، وحضر عنده الأعيان والفضلاء، وقد حضرته يومئذ، وقبل ذلك باشر مشيخة الإقراء بالأشرفية، عوضاً عن الشيخ محمد بن خروف الموصلي.

وفي يوم الخميس ثالث عشرين ذي الحجة باشر الشيخ الإمام العلامة الحافظ الحجة شيخنا ومفيدنا أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي مشيخة دار الحديث الأشرفية، عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي، ولم يحضر عنده كبير أحد، لما في نفوس بعض الناس من ولايته لذلك، مع أنه لم يتولها أحد قبله أحق بها منه، ولا أحفظ منه، وما عليه منهم؟ إذا لم يحضروا عنده فإنه لا يوحشه إلا حضورهم عنده، وبعدهم عنه أنس، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام بن علي البالسي).

الشيخ الصالح العابد الناسك: الورع الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح عمر بن السيد القدوة الناسك الكبير العارف أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي، ولد سنة خمسين وستمائة ببالس، وسمع من أصحاب ابن طبرزد.

وكان شيخا جليلا، بشوش الوجه، حسن السمت، مقصدا لكل أحد كثير الوقار عليه سيما العبادة والخير، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين بن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ

الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه قل للقان: أنت تزعم انك مسلم، ومعك مؤذنون، وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدا قوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، قال وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق، ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال: وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له الا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم، وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس.

قال ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: «اللّهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله، فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره».

قال: وقازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه.

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله.

قال: فلما خرجنا من عنده، قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم.

قال: فانطلقنا عصبة، وتأخر هو في خاصة نفسه، ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان، فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه.

قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر، فشلحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره، وقد تقدم ذلك.

توفي الشيخ أحمد بن قوام ليلة الاثنين الثاني والعشرين من صفر، بالزاوية المعروفة بهم غربي الصالحية والناصرية والعادلية، وصلي عليه بها، ودفن فيها، وحضر جنازته ودفنه خلق كثير، وجم غفير، وكان في جملة الجمع الشيخ تقي الدين بن تيمية، لأنه كان يحبه كثيراً، ولم يكن للشيخ محمد مرتب على الدولة، ولا لزاويته مرتب ولا وقف، وقد عرض عليه ذلك غير مرة فلم يقبل، وكان يزار، وكان لديه علم، وفضائل جمة، وكان فهمه صحيحاً، وكانت له معرفة تامة، وكان حسن العقيدة، وطويته صحيحة، وكان محبا للحديث وآثار السلف، كثير التلاوة والجمعية على الله عز وجل، وقد صنف جزءاً فيه أخبار جيدة، رحمه الله، وبلّ ثراه بوابل الرحمة آمين.

■ (عبد الله بن أحمد بن تمام بن حسان التلي).

الشيخ الصالح الأديب البارع الشاعر المجيد تقي الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ أحمد بن تمام بن حسان التلي، ثم الصالحي الحنبلي، أخو الشيخ محمد بن تمام، ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث، وصحب الفضلاء، وكان حسن الشكل والخلق، طيب النفس، مليح المجاورة والمجالسة، كثير المفاكهة. أقام مدة بالحجاز، واجتمع بابن سبعين وبالتقي الحوراني، وأخذ النحو عن ابن مالك، وابنه بدر الدين وصحبه مدة، وقد صحبه الشهاب محمود مدة خمسين سنة، وكان يثني عليه بالزهد والفراغ من الدنيا، توفي ليلة السبت الثالث من ربيع الآخر، ودفن بالسفح، وقد أورد الشيخ علم الدين البرزالي في ترجمته قطعة من شعره فمن ذلك قوله:

أسكانَ المعاهدِ من فؤادي ... لكُم في خافقٍ منه سكون

أُكرِّر فيكمُ أبداً حديثي ... فيحلُو والحديثُ له شُجُونُ

وأنظمُه عقوداً من دُمُوعي ... فَتَنْثُرُهُ المحاجرُ والجفونُ

وأبْتَكِرُ المَعَانِيَ فِي هوَاكُمْ ... وفيكم كلُّ قافيةٍ تَهُونُ

وأسألُ عَنْكُمُ الباكين سِرًا ... وسرُّ هَوَاكُمُ سرٌّ مَصونُ

وأغْتَبِقُ النسيمَ لأنَّ فيه ... شمائلَ من معاطِفِكُم تَبِينُ

فكم لي في مَحبَّتِكم غرامٌ ... وكم لي في الغرامِ بِكُم فُنُونُ؟

قاضي القضاة زين الدين

■ علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويري المالكي، الحاكم بالديار المصرية، ولد سنة أربع وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل وحصل، وولي الحكم بعد ابن شاس سنة خمس وثمانين، وطالت أيامه إلى هذا العام، وكان غزير المروءة والاحتمال، والإحسان إلى الفقهاء والشهود، ومن يقصده.

توفي ليلة الأربعاء، حادي عشر جمادى الآخرة، ودفن بسفح المقطم بمصر، وتولى بعده الحكم بمصر تقي الدين الأخنائي المالكي.

الشيخ

■ إبراهيم بن أبي العلاء: المقرئ الصيت المشهور، المعروف بابن شعلان، وكان رجلا جيدا في شهود المسمارية، ويقصد للختمات لطيب صوته، توفي يوم الجمعة وهو كهل، ثالث عشر جمادى الآخرة، ودفن بسفح قاسيون.

■ (محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن خلف الإشبيلي).

الشيخ الإمام العالم الزاهد أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر أحمد بن خلف بن إبراهيم بن أبي عيسى ابن الحاج التجيبي القرطبي، ثم الإشبيلي، ولد بإشبيلية سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وقد كان أهله بيت العلم، والخطابة، والقضاء بمدينة قرطبة، فلما أخذها الفرنج انتقلوا إلى إشبيلية وتمحقت أموالهم وكتبهم، وصادر ابن الأحمر جده القاضي بعشرين ألف دينار، ومات أبوه وجده في سنة إحدى وأربعين وستمائة، ونشأ يتيما، ثم حج، وأقبل إلى الشام، فأقام بدمشق من سنة أربع وثمانين، وسمع من ابن البخاري وغيره، وكتب بيده نحوا من مائة مجلد إعانة لولديه أبي عمرو وأبي عبد الله على الاشتغال.

ثم كانت وفاته بالمدرسة الصلاحية يوم الجمعة وقت الأذان، ثامن عشر رجب، وصلي عليه بعد العصر، ودفن عند الفندلاوي، بباب الصغير بدمشق، وحضر جنازته خلق كثير.

■ (أحمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن سحمان الشريشي).

الشيخ كمال الدين بن الشريشي: أحمد ابن الإمام العلامة جمال الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سحمان البكري الوائلي الشريشي، كان أبوه مالكيا كما تقدم، واشتغل هو في مذهب الشافعي فبرع، وحصل علوما كثيراً، وكان خبيراً بالكتابة مع ذلك، وسمع الحديث، وكتب الطباق وقرأه بنفسه، وأفتى ودرس وناظر وباشر بعدة مدارس

ومناصب كبار، أول ما باشر مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالح، بعد والده، من سنة خمس وثمانين وستمائة إلى أن توفي، وناب في الحكم عن ابن جماعة، ثم ترك ذلك وولي وكالة بيت المال، وقضاء العسكر، ونظر الجامع مرات، ودرس بالشامية البرانية، ودرس بالناصرية عشرين سنة، ثم انتزعها من يده ابن جماعة وزين الدين الفارقي، فاستعادها منهما وباشر مشيخة الرباط الناصري بقاسيون مدة، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ثمان سنين، وكان مشكور السيرة فيما تولاه من الجهات كلها، وقد عزم في هذه السنة على الحج، فخرج بأهله، فأدركته منيته بالحسا في سلخ شوال من هذه السنة، ودفن هناك رحمه الله، وتولى بعده الوكالة جمال الدين بن القلانسي، ودرس بالناصرية كمال الدين بن الشيرازي، وبدار الحديث الأشرفية الحافظ جمال الدين المزي، وبأم الصالح الشيخ شمس الدين الذهبي، وبالرباط الناصري ولده جمال الدين.

الشهاب المقرئ

■ أحمد بن أبي بكر بن أحمد البغدادي، نقيب الأشراف المتعممين، كان عنده فضائل جمة، مما يناسب الوقائع، وما يحضر فيه من التهاني والتعازي، ويعرف الموسيقى والشعبذة، وضرب الرمل، ويحضر المجالس المشتملة على اللهو والمسكر، واللعب والبسط، ثم انقطع عن ذلك كله لكبر سنه، وهو مما يقال فيه وفي أمثاله:

نعبتُ عنْ توبتهِ سائلا وجدتها توبةَ إفلاسِ

وكان مولده بدمشق، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وتوفي ليلة السبت، خامس ذي القعدة، ودفن بمقابر باب الصغير، في قبر أعده لنفسه، عن خمس وثمانين سنة، سامحه الله.

■ (أحمد بن سلامة بن أحمد بن سلامة الإسكندري).

قاضي القضاة فخر الدين أبو العباس أحمد بن تاج الدين أبي الخير سلامة بن زين الدين أبي العباس أحمد بن سلامة الإسكندري المالكي، ولد سنة إحدى وسبعين وستمائة، وبرع في علوم كثيرة، وولي نيابة الحكم في الإسكندرية، فحمدت سيرته وديانته وصرامته، ثم قدم على قضاء الشام للمالكية في السنة الماضية فباشرها أحسن مباشرة سنة ونصفا، إلى أن توفي بالصمصامية بكرة الأربعاء، مستهل ذي الحجة، ودفن إلى جانب الفِنْدلاوي بباب الصغير، وحضر جنازته خلق كثير، وشكره الناس، وأثنوا عليه، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي ليلة مستهل محرم هبت ريح شديدة بدمشق، سقط بسببها شيء كثير من الجدران، واقتلعت أشجاراً كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم خلع على جمال الدين بن القلانسي بوكالة بيت المال، عوضاً عن ابن الشريشي.

وفي يوم الأربعاء الخامس من صفر درس بالناصرية الجوانية ابن صَصْرَى عوضاً عن ابن الشريشي أيضاً، وحضر عنده الناس على العادة.

وفي عاشره باشر شد الدواوين جمال الدين بن آقوش الرحبي، عوضاً عن فخر الدين أياس، وكان آقوش متولي دمشق من سنة سبع وسبعمائة، وولي مكانه بالبلاد الأمير علم الدين طرقشي، الساكن العُقَيبة.

وفي هذا اليوم نودي بالبلد أن يصوم الناس، لأجل الخروج إلى الاستسقاء، وشرع في قراءة البخاري، وتهيأ الناس لذلك، ودعوا عقيب الصلوات، وبعد الخطب، وابتهلوا إلى الله في الاستسقاء، فلما كان يوم السبت منتصف صفر، وكان سابع نيسان، خرج أهل البلد برمتهم إلى عند مسجد القدم، وخرج نائب السلطنة والأمراء مشاة يبكون ويتضرعون، واجتمع الناس هنالك، وكان مشهدا عظيماً، وخطب بالناس القاضي صدر الدين سليمان الجعفري، وأمن الناس على دعائه، ورجعوا فلما أصبح الناس من اليوم الثاني جاءهم الغيث بإذن الله، ورحمته ورأفته، لا بحولهم ولا بقوتهم، ففرح الناس فرحاً شديداً، وعم البلاد كلها ولله الحمد والمنة وحده لا شريك له.

وفي أواخر الشهر شرعوا بإصلاح رخام الجامع وترميمه، وجلي أبوابه وتحسين ما فيه.

وفي رابع عشر ربيع الآخر درس بالناصرية الجوانية ابن الشيرازي بتوقيع سلطاني، وأخذها من ابن صَصْرَى وباشرها إلى أن مات.

وفي يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى باشر ابن شيخ السلامية فخر الدين أخو ناظر الجيش الحسبة بدمشق، عوضاً عن ابن الحداد، وباشر ابن الحداد نظر الجامع بدلا عن ابن شيخ السلامية، وخلع على كل منهما.

وفي بكرة الثلاثاء خامس جمادى الآخرة قدم من مصر إلى دمشق قاضي القضاة شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة معين الدين أبي بكر بن الشيخ زكي الدين ظافر الهمداني المالكي، على قضاء المالكية بالشام، عوضاً عن ابن سلامة توفي، فكان بينهما ستة أشهر، ولكن تقليد هذا مؤرخ بآخر ربيع الأول، ولبس الخلعة، وقرئ تقليده بالجامع.

وفي هذا الشهر درس بالخاتونية البرانية القاضي بدر الدين بن الفويرة الحنفي، وعمره خمس وعشرون سنة، عوضاً عن القاضي شمس الدين محمد قاضي ملطية توفي.

وفي يوم السبت، خامس رمضان وصل إلى دمشق سيل عظيم، أتلف للناس شيئا كثيراً، وارتفع حتى دخل من باب الفرج، ووصل إلى العقيبة، وانزعج الناس له، وانتقلوا من أماكنهم، ولم تطل مدته، لأن أصله كان مطراً وقع بأرض آبل السوق والحسينية.

وفي هذا اليوم باشر طرقشي شد الدواوين، بعد موت جمال الدين الرحبي، وباشر ولاية المدينة صارم الدين الجوكندار، وخلع عليهما.

ولما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان اجتمع القضاة وأعيان الفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة وقرئ عليهم كتاب من السلطان، يتضمن منع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الفتيا في مسألة الطلاق، وانفصل المجلس على تأكيد المنع، من ذلك.

وفي يوم الجمعة تاسع شوال خطب القاضي صدر الدين الداراني، عوضا عن بدر الدين بن ناصر الدين بن عبد السلام، بجامع جراح، وكان فيه خطيبا قبله، فتولاه بدر الدين حسن العقرباني، واستمر ولده في خطابة داريا التي كانت بيد أبيه من بعده.

وفي يوم السبت عاشره خرج الركب وأميرهم عز الدين أيبك المنصوري أمير علم.

وحج فيها صدر الدين قاضي القضاة الحنفي، وبرهان الدين بن عبد الحق، وشرف الدين بن تيمية، ونجم الدين الدمشقي وهو قاضي الركب، ورضي الدين المنطيقي، وشمس الدين ابن الوزير خطيب جامع القبيبات، وأبو عبد الله بن رشيق المالكي وغيرهم.

وفيها حج سلطان الإسلام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومعه جمع كثير من الأمراء، ووكيله كريم الدين، وفخر الدين كاتب المماليك، وكاتب السر ابن الأثير، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وصاحب حماة الملك عماد الدين، والصاحب شمس الدين غبريال، في خدمة السلطان، وكان في خدمته خلق كثير من الأعيان.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين التتر، بسبب أن سلطانهم بو سعيد كان قد ضاق ذرعا بجوبان، وعجز عن مسكه، فانتدب له جماعة من الأمراء عن أمره، منهم أبو يحيى خال أبيه، ودقماق، وقرمشي وغيرهم من أكابر الدولة، وأرادوا كبس جوبان فهرب، وجاء إلى السلطان فأنهى إليه ما كان منهم، وفي صحبته الوزير على شاه، ولم يزل بالسلطان حتى رضي عن جوبان، وأمده بجيش كثيف، وركب السلطان معه أيضاً، والتقوا مع أولئك فكسروهم وأسروهم، وتحكم فيهم جوبان، فقتل منهم إلى آخر هذه السنة نحواً من أربعين أميراً.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ المقرئ شهاب الدين أبو عبد الله

■ **الحسين بن سليمان بن فزارة بن بدر الكفري الحنفي:** ولد تقريبا في سنة سبع وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث، وقرأ بنفسه كتاب الترمذي، وقرأ القراءات، وتفرد بها مدة يشتغل الناس عليه، وجمع عليه السبع أكثر من عشرين طالباً، وكان يعرف النحو والأدب، وفنونا كثيرة، وكانت مجالسته حسنة، وله فوائد كثيرة، ودرس بالطرخانية أكثر من أربعين سنة، وناب في الحكم عن الأذرعي مدة ولايته، وكان خيرا مباركاً، أضر في آخر عمره، وانقطع في بيته، مواظبا على التلاوة والذكر، وإقراء القرآن إلى أن توفي يوم الاثنين، ثالث عشر جمادى الأولى، وصلى عليه بعد الظهر يومئذ بجامع دمشق، ودفن بقاسيون، رحمه الله.

وفي هذا الشهر جاء الخبر بموت: الشيخ الإمام تاج الدين

■ **عبد الرحمن بن محمد بن أبي حامد التبريزي، الشافعي، المعروف بالأفضلي،** بعد رجوعه من الحج، ببغداد في العشر الأول من صفر، وكان صالحا، فقيها، مباركا، وكان ينكر على رشيد الدولة، ويحط عليه، ولما قتل قال: كان قتله أنفع من قتل مائة ألف نصراني، وكان رشيد الدولة يريد أن يترضاه فلم يقبل، وكان لا يقبل من أحد شيئا، ولما توفي دفن بتربة الشونيزي، وكان قد قارب الستين، رحمه الله.

محيي الدين

■ **محمد بن مفضل بن فضل الله المصري** كاتب ملك الأمراء، ومستوفي الأوقاف، كان مشكور السيرة، محبا للعلماء والصلحاء، فيه كرم وخدمة كثيرة للناس، توفي رابع عشرين جمادى الأولى، ودفن بتربة ابن هلال، بسفح قاسيون، وله ست وأربعون سنة، وباشر بعده في وظيفته أمين الدين بن النحاس.

الأمير الكبير

■ **غرلو بن عبد الله العادلي** كان من أكابر الدولة، ومن الأمراء المقدمين الألوف، وقد ناب بدمشق عن أستاذه الملك العادل كتبغا نحواً من ثلاثة أشهر، في سنة خمس وتسعين وستمائة، وأول سنة ست وتسعين، واستمر أميرا كبيرا إلى أن توفي سلخ جمادى الأولى، يوم الخميس، ودفن بتربته، بشمالي جامع المظفري بقاسيون، وكان شهما شجاعاً، ناصحاً للإسلام وأهله، مات في عشر الستين.

الأمير جمال الدين

■ **آقوش: الرحبي المنصوري،** والي دمشق مدة طويلة، كان أصله من قرى إربل، وكان نصرانيا، فسبي وبيع من نائب الرحبة، ثم انتقل إلى الملك المنصور فأعتقه وأمره، وتولى الولاية بدمشق نحوا من إحدى عشرة سنة، ثم انتقل إلى شد الدواوين مدة أربعة أشهر قبل وفاته وكانت وفاته ليلة الخميس حادي عشرين جمادى الآخرة ودفن بمقابر الصوفية ، وكان محبوبا إلى العامة مدة ولايته.

الخطيب صلاح الدين

■ **يوسف بن محمد بن عبد اللطيف بن المغيزل الحموي:** له تصانيف وفوائد، وكان خطيب جامع السوق الأسفل بحماة، وسمع من أصحاب ابن طبرزد، توفي في جمادى الآخرة.

العلامة فخر الدين أبو عمرو

■ **عثمان بن علي بن يحيى بن هبة الله بن إبراهيم بن المسلم بن علي الأنصاري الشافعي،** المعروف بابن بنت أبي سعد المصري: سمع الحديث، وكان من ثقات العلماء، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي مكانه في ميعاد جامع طولون الشيخ علاء الدين القونوي شيخ الشيوخ، وفي ميعاد الجامع الأزهر شمس الدين بن علان، كانت وفاته ليلة الأحد، الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن بمصر، وله من العمر تسعون سنة.

الشيخ الصالح العابد: أبو الفتح

■ **نصر بن سليمان بن عمر المنجي** له زاوية بالحسينية يزار فيها، ولا يخرج منها إلا إلى الجمعة، سمع الحديث، توفي يوم الثلاثاء بعد العصر، السادس والعشرين من جمادى الآخرة ودفن من الغد بزاويته المذكورة رحمه الله.

الشيخ الصالح المعمر الرحلة

■ **عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد بن إسماعيل بن عطاف بن مبارك بن علي بن أبي الجيش المقدسي، الصالحي المطعم:** راوي صحيح البخاري وغيره، وقد سمع الكثير من مشايخ عدة، وترجمه الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه، توفي ليلة الثلاثاء، رابع عشر ذي الحجة، وصلي عليه بعد الظهر من اليوم المذكور بالجامع المظفري، ودفن بالساحة بالقرب من تربة المولهين، وله أربع وتسعون سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وكان السلطان في هذه السنة في الحج، وعاد إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر المحرم، ودقت البشائر، ورجع الصاحب شمس الدين على طريق الشام، وصحبته الأمير ناصر الدين الخازندار، وعاد صاحب حماة مع السلطان إلى القاهرة، وأنعم عليه السلطان، ولقبه بالملك المؤيد، ورسم أن يخطب له على منابر حماة وأعمالها، وأن يخطب بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي، على ما كان عليه عمه المنصور.

وفيها عمر ابن المرجاني شهاب الدين مسجد الخيف، وأنفق عليه نحواً من عشرين ألفاً.

وفي المحرم استقال أمين الملك من نظر طرابلس وأقام بالقدس.

وفي آخر صفر باشر نيابة الحكم المالكي القاضي شمس الدين محمد بن

أحمد القفصي، وكان قد قدم مع قاضي القضاة شرف الدين من مصر.

وفي يوم الاثنين، الخامس والعشرين من ربيع الأول، ضربت عنق شخص يقال له عبد الله الرومي، وكان غلاما لبعض التجار، وكان قد لزم الجامع، ثم ادعى النبوة، فاستتيب فلم يرجع، فضربت عنقه، وكان أشقر، أزرق العينين، جاهلا، وكان قد خالطه شيطان، حسن له ذلك، واضطرب عقله في نفس الأمر، وهو في نفسه شيطان إنسي.

وفي يوم الاثنين ثاني ربيع الآخر عُقِدَ عَقْدُ السلطان على المرأة التي قدمت من بلاد القبجاق، وهي من بنات الملوك، وخلع على القاضي بدر الدين بن جماعة، وكاتب السر، وكريم الدين، وجماعة الأمراء، ووصلت العساكر في هذا الشهر إلى بلاد سيس، وغرق في نهر جاهان من عساكر طرابلس نحو من ألف فارس، وجاءت مراسيم السلطان في هذا الشهر إلى الشام في الاحتياط على أخباز آل مهنا، وإخراجهم من بلاد الإسلام، وذلك لغضب السلطان عليهم، لعدم قدوم والدهم مهنا على السلطان.

وفي يوم الأربعاء رابع عشرين جمادى الأولى درس بالركنية الشيخ محيي الدين الأسمر الحنفي، وأخذت منه الجوهرية لشمس الدين الرّقي الأعرج، وتدريس جامع القلعة لعماد الدين بن محيي الدين الطرسوسي، الذي ولي قضاء الحنفية بعد هذا، وأخذ من الرقي إمامة مسجد نور الدين بحارة اليهود، لعماد الدين بن الكيال، وإمامة الربوة للشيخ محمد الصِّيني.

وفي جمادى الآخرة اجتمعت الجيوش الإسلامية بأرض حلب، نحواً من عشرين ألفاً، عليهم كلهم نائب حلب ألطنبغا، وفيهم نائب طرابلس شهاب الدين قرطاي، فدخلوا بلاد الأرمن من باب إسكندرونة، ففتحوا الثغر، ثم تل حمدون، ثم خاضوا جاهان، فغرق منهم جماعة، ثم سلم الله من وصلوا إلى سيس فحاصروها وضيقوا على أهلها،وأحرقوا دار الملك التي في البلد، وقطعوا أشجار البساتين، وساقوا الأبقار والجواميس والأغنام، وكذلك فعلوا بطرسوس، وخربوا الضياع والأماكن، وأحرقوا الزروع، ثم رجعوا فخاضوا النهر المذكور، فلم يغرق منهم أحد، وأخرجوا بعد رجوعهم مهنا وأولاده من بلادهم، وساقوا خلفه إلى عانة وحديثة، ثم بلغ الجيوش موت صاحب سيس، وقيام ولده من بعده، فشنوا الغارات على بلاده وتابعوها، وغنموا وأسروا وسلموا إلا في المرة الرابعة، فإنه قتل منهم جماعة.

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة ببلاد المغرب، بين المسلمين والفرنج، فنصر الله المسلمين على أعدائهم، فقتلوا منهم خمسين ألفاً وأكثر، وأسروا خمسة آلاف، وكان في جملة القتلى خمسة وعشرين ملكا من ملوك الإفرنج، وغنموا شيئا كثيراً من الأموال، يقال كان من جملة ما غنموا سبعون قنطارا من الذهب والفضة، وإنما كان جيش الإسلام يومئذ ألفين وخمسمائة فارس غير الرماة، ولم يقتل منهم سوى أحد عشر قتيلا، وهذا من غريب ما وقع، وعجيب ما سمع.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب عقد مجلس بدار السعادة، للشيخ تقي الدين بن تيمية، بحضرة نائب السلطنة، واجتمع فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ، وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق، ثم حبس في القلعة، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الاثنين يوم عاشوراء، من سنة إحدى وعشرين، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وبعد ذلك بأربعة أيام أضيف شد الأوقاف إلى الأمير علاء الدين بن معبد إلى ما بيده من ولاية البر، وعزل بدر الدين المنكورسي عن الشد.

وفي أواخر شعبان مسك الأمير علم الدين الجاولي نائب غزة وحمل إلى الإسكندرية، لأنه اتهم أنه يريد الدخول إلى بلاد اليمن، واحتيط على حواصله وأمواله، وكان له بر وإحسان ومعروف وأوقاف، وقد بنى بغزة جامعا حسنا مليحاً.

وفي هذا الشهر أراق ملك التتر بو سعيد الخمور، وأبطل الحانات، وأظهر العدل والإحسان إلى الرعايا، وذلك أنه أصابهم برد عظيم، وجاءهم سيل هائل، فلجؤوا إلى الله عز وجل، وابتهلوا إليه، فسلموا فتابوا وأنابوا وعملوا الخير عقيب ذلك.

وفي العشر الأول من شوال جرى الماء بالنهر الكريمي، الذي اشتراه كريم الدين بخمسة وأربعين ألفاً، وأجراه في جدول إلى جامعه بالقبيبات، فعاش به الناس، وحصل به أنس إلى أهل تلك الناحية، ونصبت عليه الأشجار والبساتين، وعمل حوض كبير، تجاه الجامع من الغرب، يشرب منه الناس والدواب، وهو حوض كبير، وعمل مطهرة، وحصل بذلك نفع كثير، ورفق زائد أثابه الله.

وخرج الركب في حادي عشر شوال، وأميره الملك صلاح الدين بن الأوحد، وفيه زين الدين كتبغا الحاجب، والشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، والقاضي شمس الدين بن العز، وقاضي حماة شرف الدين البارزي، وقطب الدين بن شيخ السلامية، وبدر الدين بن العطار، وعلاء الدين بن غانم، ونور الدين السخاوي، وهو قاضي الركب، ومن المصريين قاضي الحنفية ابن الحريري، وقاضي الحنابلة، ومجد الدين حرمي، والشرف عيسى المالكي، وهو قاضي الركب.

وفيه كملت عمارة الحمام الذي عمره الجيبغا غربي دار الطعم، ودخله الناس.

وفي أواخر ذي الحجة وصل إلى دمشق من عند ملك التتر الخواجة مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، وفي صحبته هدايا وتحف لصاحب مصر، من ملك التتر، واشتهر أنه إنما جاء ليصلح بين المسلمين والتتر، فتلقاه الجند والدولة، ونزل بدار السعادة يوماً واحداً، ثم سار إلى مصر.

وفيها وقف الناس بعرفات موقفا عظيما لم يعهد مثله، أتوه من جميع أقطار الأرض، وكان مع العراقيين محامل كثيرة، منها محمل قوم ما عليه من الذهب واللآلئ بألف ألف دينار مصرية، وهذا أمر عجيب.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ إبراهيم الدهستاني: وكان قد أسن وعمر، وكان يذكر أن عمره حين أخذت التتر بغداد أربعين سنة، وكان يحضر الجمعة هو وأصحابه تحت قبة النسر، إلى أن توفي ليلة الجمعة السابع والعشرين من ربيع الآخر بزاويته، التي عند سوق الخيل بدمشق ودفن بها، وله من العمر مائة وأربع ستين، كما قال، فالله أعلم.

الشيخ

■ محمد بن محمود بن علي: الشحام المقرئ شيخ ميعاد بن عامر، كان شيخاً حسناً بهياً مواظباً على تلاوة القرآن، إلى أن توفي في ليلة توفي الدهستاني المذكور أو قبله بليلة رحمهما الله تعالى.

الشيخ

■ شمس الدين بن الصائغ اللغوي: هو أبو عبد اللّه محمد بن حسن سباع بن أبي بكر الجذامي، المصري الأصل، ثم انتقل إلى دمشق، ولد تقريباً سنة خمس وأربعين وستمائة بمصر، وسمع الحديث، وكان أديباً فاضلا بارعاً في النظم والنثر، وعلم العروض والبديع، والنحو واللغة، وقد اختصر صحاح الجوهري، وشرح مقصورة ابن دريد، وله قصيدة تائية، تشتمل على ألفي بيت فأكثر، ذكر فيها العلوم والصنائع، وكان حسن الأخلاق، لطيف المحاورة والمحاضرة، وكان يسكن بين درب الحبالين والفراش عند بستان القط، توفي بداره يوم الاثنين ثالث شعبان ودفن بباب الصغير.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وفي أول يوم منها فتح حمام الزيت الذي في رأس درب الحجر، جدد عمارته رجل سامري بعد ما كان قد درس ودثر من زمان الخوارزمية من نحو ثمانين سنة، وهو حمام جيد متسع.

وفي سادس المحرم وصلت هدية من ملك التتار بو سعيد إلى السلطان صناديق وتحف ودقيق.

وفي يوم عاشوراء خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من السجن بالقلعة، بمرسوم السلطان وتوجه إلى داره، وكانت مدة إقامته خمسة أشهر، وثمانية عشر يوماً رحمه اللّه.

وفي رابع ربيع الآخر وصل إلى دمشق القاضي كريم الدين وكيل السلطان، فنزل بدار السعادة، وقدم قاضي القضاة تقي الدين بن عوض الحنبلي الحاكم بمصر، وهو ناظر الخزانة أيضاً، فنزل بالعادلية الكبيرة التي للشافعية، فأقام بها أياماً، ثم توجه إلى مصر: جاء في بعض أشغال السلطان وزار القدس.

وفي هذا الشهر كان السلطان قد حفر بركة قريبا من الميدان، وكان في جوارها كنيسة، فأمر الوالي بهدمها، فلما هدمت تسلط الحرافيش وغيرهم على الكنائس بمصر يهدمون ما قدروا عليه، فانزعج السلطان لذلك، وسأل القضاة ماذا يجب على من تعاطى ذلك منهم؟ فقالوا: يعزر، فأخرج جماعة من السجون ممن وجب عليه قتله فقطع وصلب، وخزم وعاقب، موهماً أنه إنما عاقب من تعاطى تخريب ذلك، فسكن الناس، وأمنت النصارى، وظهروا بعد ما كانوا قد اختفوا أياماً.

وفيه ثارت الحرامية ببغداد، ونهبوا سوق الثلاثاء وقت الظهر، فثار الناس وراءهم وقتلوا منهم قريبا من مائة، وأسروا آخرين.

قال الشيخ علم الدين البرزالي ومن خطه نقلت: وفي يوم الأربعاء السادس من جمادى الأولى خرج القضاة والأعيان والمفتون إلى القابون ووقفوا على قبلة الجامع الذي أمر ببنائه القاضي كريم الدين وكيل السلطان بالمكان المذكور، وحرروا قبلته، واتفقوا على أن تكون مثل قبلة جامع دمشق.

وفيه وقعت مراجعة بين الأمير جوبان أحد المقدمين الكبار بدمشق، وبين نائب السلطنة تنكز، فمسك جوبان ورفع إلى القلعة ليلتين، ثم حول إلى القاهرة فعوتب في ذلك، ثم أعطي خبزاً يليق به.

وذكر علم الدين أن في هذا اليوم وقع حريق عظيم في القاهرة، في الدور الحسنة، والأماكن المليحة المرتفعة، وبعض المساجد، وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك، وقنتوا في الصلوات، ثم كشفوا عن القضية، فإذا هو من فِعْل النصارى، بسبب ما كان أحرق من كنائسهم وهدم، فقتل السلطان بعضهم، وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقة على رؤوسهم وثيابهم كلها، وأن يحملوا الأجراس في الحمامات، وأن لا يستخدموا في شيء من الجهات، فسكن الأمر وبطل الحريق.

وفي جمادى الآخرة خرب ملك التتار بو سعيد البازارات، وزوج الخواطئ، وأراق الخمور، وعاقب في ذلك أشد العقوبة، وفرح المسلمون بذلك، ودعوا له رحمه اللّه وسامحه.

وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقيمت الجمعة بمسجد القصب، وخطب به الشيخ علي المناخلي.

وفي يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الآخرة فتح الحمام الذي أنشأه تنكز تجاه جامعه، وأكري في كل يوم بأربعين درهما لحسنه وكثرة ضوئه ورخامه.

وفي يوم السبت تاسع عشر رجب خرجت كنيسة القرائيين التي تجاه حارة اليهود، بعد إثبات كونها محدثة، وجاءت المراسيم السلطانية بذلك.

وفي أواخر رجب نفذت الهدايا من السلطان إلى بو سعيد ملك التتار، صحبة الخواجا مجد الدين السلامي، وفيها خمسون جملا، وخيول وحمار عتابي.

وفي منتصف رمضان أقيمت الجمعة بالجامع الكريمي بالقابون، وشهدها يومئذ القضاة والصاحب، وجماعة من الأعيان.

قال الشيخ علم الدين: وقدم دمشق الإمام قوام الدين أمير كاتب ابن الأمير العميد عمر الإتقاني الفارابي، مدرس مشهد الإمام أبي حنيفة ببغداد، في أول رمضان، وقد حج في هذه السنة، وتوجه إلى مصر، وأقام بها أشهراً، ثم مر بدمشق متوجها إلى بغداد، فنزل بالخاتونية الحنفية، وهو ذو فنون وبحث، وأدب وفقه.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين عاشر شوال، وأميره شمس الدين حمزة التركماني، وقاضيه نجم الدين الدمشقي.

وفيها حج تنكز نائب الشام، وفي صحبته جماعة من أهله، وقدم من مصر الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، لينوب عنه في غيبته إلى أن يرجع، فنزل بالنجيبية البرانية.

وممن حج فيها الخطيب جلال الدين القزويني، وعز الدين حمزة بن القلانسي، وابن العز شمس الدين الحنفي، وجلال الدين بن حسام الدين الحنفي، وبهاء الدين بن عليمة، وعلم الدين البرزالي.

ودرس ابن جماعة بزاوية الشافعي يوم الأربعاء، ثامن عشر شوال، عوضاً عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري، لسوء تصرفه، وخلع على ابن جماعة، وحضر عنده من الأعيان والعامة، ما يُشابه جمعة الجمعة، وأشعلت له شموع كثيرة فرحا بزوال المعزول.

قال البرزالي ومن خطه نقلت: وفي يوم الأحد سادس عشر شوال ذكر الدرس الإمام العلامة تقي الدين السبكي، المحدث بالمدرسة الكهارية، عوضاً عن ابن الأنصاري أيضا، وحضر عنده جماعة منهم القونوي، وروى في الدرس حديث المتبايعين بالخيار [خ (٢١٠٧)]، عن قاضي القضاة ابن جماعة.

وفي شوال عزل علاء الدين بن معبد عن ولاية البر وشد الأوقاف، وتولى ولاية الولاة بالبلاد القبلية بحوران، عوضاً عن بكتمر، لسفره إلى الحجاز، وباشر أخوه بدر الدين شد الأوقاف، والأمير علم الدين الطرقشي

ولاية البر مع شد الدواوين وتوجه ابن الأنصاري إلى حلب متوليا وكالة بيت المال عوضا عن تاج الدين أخي شرف الدين يعقوب ناظر حلب، بحكم ولاية التاج المذكور نظر الكرك.

وفي يوم عيد الفطر ركب الأمير تمرتاش بن جوبان نائب بو سعيد على بلاد الروم في قيسارية، في جيش كثيف من التتار والتركمان والقرمان، ودخل بلاد سيس، فقتل وسبى، وحرق وخرب، وكان قد أرسل لنائب حلب الطنبغا ليجهز له جيوشا يكون عونا له على ذلك، فلم يمكنه ذلك بغير مرسوم السلطان.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الصالح المقرئ بقية السلف عفيف الدين أبو محمد

■ عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الأحد بن علي القرشي، المخزومي الدلاصي، شيخ الحرم بمكة، أقام فيه أزيد من ستين سنة، يقرئ الناس القرآن احتساباً، وكانت وفاته ليلة الجمعة، الرابع عشر من محرم، بمكة، وله أزيد من تسعين سنة، رحمه الله.

الشيخ الفاضل شمس الدين أبو عبد الله

■ محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني، أبوه الصالحي المعروف بالسكاكيني، ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة بالصالحية، وقرأ بالروايات، واشتغل في مقدمة النحو، ونظم قويّاً، وسمع الحديث، وخرج له ابن الفخر البعلبكي جزءاً عن شيوخه، ثم دخل في التشيع، فقرأ على أبي صالح الحلي شيخ الشيعة، وصحب ابن عدنان وقرأ عليه أولاده، وطلبه أمير المدينة النبوية الأمير منصور بن جماز فأقام عنده نحواً من سبع سنين، ثم عاد إلى دمشق، وقد ضعف وثقل سمعه، وله سؤال في الجبر، أجابه به الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكلٌّ فيه عنه غيره، وظهر له بعد موته كتاب فيه انتصار لليهود وأهل الأديان الفاسدة، فغسله تقي الدين السبكي لما قدم دمشق قاضياً، وكان بخطه، ولما مات لم يشهد جنازته القاضي شمس الدين بن مسلم.

توفي يوم الجمعة، سادس عشرين صفر، ودفن بسفح قاسيون، وقتل ابنه فيما بعد على قذفه أمهات المؤمنين عائشة وغيرها رضي الله عنهن وقبح قاذفهن.

وفي يوم الجمعة مستهل رمضان صلي بدمشق على غائبين، وهم: الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الأصبهاني، توفي بمكة، أحد العبّاد والزهاد الذين يقصدون للزيارة وعلى الشيخ محمد الزيلعي توفي بمكة أيضاً وهو من الصالحين أيضاً وعلى جماعة توفوا بالمدينة النبوية منهم: أبو عبد الله بن أبي القاسم بن فرحون مدرس المالكية بها، والشيخ يحيى الكردي، والشيخ حسن المغربي السقا.

الشيخ الإمام العالم

■ علاء الدين بن علي بن سعيد بن سالم الأنصاري، إمام مشهد علي من جامع دمشق، كان بشوش الوجه، متواضعا حسن الصوت بالقراءة، ملازماً لإقراء الكتاب العزيز بالجامع، وكان يؤم نائب السلطنة وهو والد العلامة، بهاء الدين محمد بن علي مدرس الأمينية، ومحتسب دمشق، توفي ليلة الاثنين، رابع رمضان، ودفن من الغد بسفح قاسيون.

الأمير حاجب الحجاب زين الدين

■ كتبغا المنصوري، حاجب دمشق، كان من خيار الأمراء، وأكثرهم براً للفقراء والمساكين، يحب الختم، والمواعيد، والموالد، وسماع الحديث، ويلزم أهله، ويحسن إليهم كثيراً، وكان ملازماً لشيخنا أبي العباس بن تيمية كثيراً.

وكان يحج ويتصدق، توفي يوم الجمعة آخر النهار ثامن عشر شوال، ودفن من الغد بتربته قبلي القبيبات، وشهده خلق كثير، وأثنوا عليه رحمه الله.

والشيخ

■ بهاء الدين بن المقدسي.

والشيخ

■ سعد الدين أبو زكريا يحيى المقدسي، والد الشيخ شمس الدين محمد بن سعد المحدث المشهور، رحمه الله.

وفيها توفي

■ سيف الدين الناسخ المنادي على الكتب،

والشيخ

■ أحمد الحرام المقرئ على الجنائز، وكان يكرر على التنبيه، ويسأل عن أشياء منها ما هو حسن، ومنها ما ليس بحسن.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة

استهلت وأرباب الولايات هم المذكورون في التي قبلها، سوى والي البر بدمشق فإنه علم الدين طرقشي، وقد صرف ابن معبد إلى ولاية حوران، لشهامته وصرامته، وديانته وأمانته.

وفي المحرم حصلت زلزلة شديدة بدمشق، وقى الله شرها، وقدم نائب السلطنة تنكز من الحجاز ليلة الثلاثاء، حادي عشر المحرم، وكانت مدة غيبته ثلاثة أشهر، وقدم ليلا لئلا يتكلف أحد لقدومه، وسافر نائب الغيبة عنه قبل وصوله بيومين، لئلا يكلفه بهدية ولا غيرها، وقدم مغلطاي عبد الواحد الجمدار أحد الأمراء بمصر بخلعة سنية من السلطان لتنكز، فلبسها وقبّل العتبة الشريفة على العادة.

وفي يوم الأربعاء سادس صفر درس الشيخ نجم الدين القحفازي بالظاهرية للحنفية، وهو خطيب جامع تنكز، وحضر عنده القضاة والأعيان، ودرس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] وذلك بعد وفاة القاضي شمس الدين بن العز الحنفي، توفي مرجعه من الحجاز، وباشر بعده نيابة القضاء عماد الدين الطرسوسي وهو زوج ابنته وكان ينوب عنه في حال غيبته، فاستمر بعده، ثم ولي الحكم بعد مستنيبه فيها.

وفيه قدم الخوارزمي حاجباً، عوضاً عن كتبغا.

وفي ربيع الأول قدم إلى دمشق الشيخ قوام الدين مسعود بن الشيخ برهان الدين محمد بن الشيخ شرف الدين محمد الكرماني الحنفي، فنزل بالقصاعين، وتردد إليه الطلبة، ودخل إلى نائب السلطنة، واجتمع به وهو شاب، مولده سنة إحدى وسبعمائة، وقد اجتمعت به، وكان عنده مشاركة في الفروع والأصول، ودعواه أوسع من محصوله، وكانت لأبيه وجده مصنفات، ثم صار بعد مدة إلى مصر، ومات بها كما سيأتي.

وفي ربيع الآخر تكامل فتح آياس ومعاملتها، وانتزاعها من أيدي الأرمن، وأخذ البرج الأطلس، وبينه وبينها في البحر رمية ونصف، فأخذه

المسلمون بإذن الله وخربوه، وكانت حجارته مطلية بالحديد والرصاص، وعرض سوره ثلاثة عشر ذراعا بالنجاري، وغنم المسلمون غنائم كثيرة جداً، وحاصروا كواره، فقوي عليهم الحر والذباب، فرسم السلطان بعودهم، فحرقوا ما كان معهم من المجانيق، وأخذوا حديدها وأقبلوا سالمين غانمين، وكان معهم خلق من المتطوعين.

وفي يوم الخميس، الثالث والعشرين من جمادى الأولى، كمل بسط داخل الجامع، فاتسع على الناس، ولكن حصل حرج بحمل الأمتعة على خلاف العادة، فإن الناس كانوا يمرون وسط الرواقات، ويخرجون من باب البرادة، ومن شاء استمر يمشي إلى الباب الآخر بنعليه، ولم يكن ممنوعا سوى المقصورة، لا يمكن أحداً الدخول إليها بالمداسات، بخلاف باقي الرواقات، فأمر نائب السلطنة بتكميل بسطه، بإشارة ناظره ابن مراجل.

وفي جمادى الآخرة رجعت العساكر من بلاد سيس، ومقدمهم أقوش نائب الكرك.

وفي أواخر رجب باشر القاضي محيي الدين إسماعيل بن جهبل نيابة الحكم عن ابن صَصْرَى عوضاً عن الداراني الجعفري، واستغنى الداراني بخطبة جامع العقيبة عنها.

وفي ثالث عشر رجب ركب نائب السلطنة إلى خدمة السلطان، فأكرمه وخلع عليه، وعاد في أول شعبان ففرح به الناس.

وفي رجب كملت عمارة الحمام، الذي بناه الأمير علاء الدين بن صبح، جوار داره شمالي الشامية البرانية.

وفي يوم الاثنين تاسع شعبان عقد الأمير سيف الدين أبو بكر بن أرغون نائب السلطنة عقده على ابنة السلطان الملك الناصر، وختن في هذا اليوم جماعة من أولاد الأمراء بين يديه، ومد سماطاً عظيماً، ونثرت الفضة على رؤوس المطهرين، وكان يوما مشهوداً.

ورسم السلطان في هذا الشهر بوضع المكس عن المأكولات بمكة، وعوض صاحبها عن ذلك بإقطاع في بلاد الصعيد.

وفي أواخر رمضان كملت عمارة الحمام الذي بناه بهاء الدين بن عليمة، بزقاق الماجية من قاسيون بالقرب من سكنه، وانتفع به أهل تلك الناحية ومن جاورهم.

وخرج الركب الشامي يوم الخميس ثامن شوال، وأميره سيف الدين بلطي نائب الرحبة، وكان سكنه داخل باب الجابية بدرب ابن صبرة وقاضيه شمس الدين بن النقيب قاضي حمص.

ومن توفي فيها من الأعيان

القاضي شمس الدين

■ **ابن العز الحنفي:** أبو عبد الله محمد بن الشيخ شرف الدين أبي البركات محمد بن الشيخ عز الدين أبي العز بن صالح بن أبي العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن وهيب الأذرعي الحنفي:

أحد مشايخ الحنفية، وأئمتهم، وفضلائهم في فنون من العلوم متعددة، حكم نيابة نحواً من عشرين سنة، وكان سديد الأحكام، محمود السيرة، جيدة الطريقة، كريم الأخلاق، كثير البر والصلة والإحسان إلى أصحابه وغيرهم، وخطب بجامع الأفرم مدة، وهو أول من خطب به، ودرس بالمعظمية، واليغمورية، والقليجية، والظاهرية، وكان ناظر أوقافها، وأذن للناس بالإفتاء، وكان كبيرا، معظماً مهيباً، توفي بعد مرجعه من الحج بأيام قلائل، يوم الخميس سلخ المحرم، وصلي عليه يومئذ بعد الظهر بجامع الأفرم، ودفن عند المعظمية عند أقاربه، وكانت جنازته حافلة، وشهد له الناس بالخير، وغبطوه بهذه الموتة رحمه الله، ودرس بعده بالظاهرية نجم الدين القحفازي، وفي المعظمية والقليجية والخطابة بجامع الأفرم ابنه علاء الدين، وباشر بعده نيابة الحكم القاضي عماد الدين الطرسوسي، مدرس القلعة.

الشيخ الإمام العالم بقية السلف رضي الدين أبو إسحاق

■ **إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري، المكي الشافعي،** إمام المقام أكثر من خمسين سنة، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين إليها، ولم يكن له رحلة، وكان يفتي الناس من مدة طويلة، ويذكر أنه اختصر شرح السنة للبغوي رحمهما الله تعالى.

توفي يوم السبت بعد الظهر، ثامن ربيع الأول بمكة، ودفن من الغد، وكان من أئمة المشايخ.

شيخنا الزاهد الورع ركن الدين: بقية السلف ركن الدين أبو يحيى

■ **زكريا بن يوسف بن سليمان بن حامد البجلي الشافعي،** نائب الخطابة، ومدرس الطيبة والأسدية، وله حلقة للاشتغال بالجامع، يحضر بها عنده الطلبة، كان يشتغل في الفرائض وغيرها، مواظبا على ذلك.

توفي يوم الخميس، الثالث والعشرين من جمادى الأولى، عن سبعين سنة، ودفن قريبا من شيخه العلامة تاج الدين الفزاري رحمهما الله.

■ **(عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد بن معالي التكريتي).**

نصير الدين أبو محمد عبد الله بن وجيه الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد بن معالي بن محمد بن أبي بكر الربعي التغلبي التكريتي، أحد صدور دمشق، قدم أبوه قبله إليها وعظم في أيام الظاهر وقبله، وكان مولده في حدود سنة خمسين وستمائة، ولهم الأموال الكثيرة، والنعمة الباذخة.

توفي يوم الخميس عشرين رجب، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، رحمه الله.

وفي يوم الأحد حادي عشر شوال توفي: **شمس الدين**

■ **محمد بن المغربي: التاجر السفار،** باني خان الصنمين، الذي على جادة الطريق للسبيل، رحمه الله وتقبل منه، وهو في أحسن الأماكن وأنفعها.

الشيخ الجليل الزاهد نجم الدين أبو عبد الله

■ **الحسين بن محمد بن إسماعيل المقدسي،** المعروف بابن عبود المصري، كانت له وجاهة وإقدام على الدولة، توفي بكرة الجمعة ثالث عشرين شوال، ودفن بزاويته، وقام بعده فيها ابن أخيه. شمس الدين محمد بن الحسن.

■ **(أحمد بن أبي شامة).**

الشيخ الفقيه محيي الدين أبو الهدى أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي شامة، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، فأسمعه أبوه على المشايخ، وقرأ القرآن، واشتغل بالفقه، وكان ينسخ، ويكثر التلاوة. ويحضر المدارس والسبع الكبير، توفي في سابع عشرين شوال، ودفن عند والده بمقابر باب الفراديس.

■ **(ابن القلانسي).**

الشيخ الصالح العابد جلال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود بن محمد العقيلي، المعروف بابن القلانسي، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع على ابن عبد الدائم جزء ابن عرفة، ورواه غير مرة، وسمع على غيره أيضاً، واشتغل بصناعة الكتابة والإنشاء، ثم انقطع وترك ذلك كله، وأقبل على العبادة والزهادة، وبنى له الأمراء بمصر زاوية، وترددوا إليه، وكان فيه بشاشة وفصاحة، وكان ثقيل السمع، ثم انتقل إلى القدس، وقدم دمشق مرة فاجتمع به الناس وأكرموه، وحدث بها، ثم عاد إلى القدس.

وتوفي بها ليلة الأحد، ثالث ذي القعدة، ودفن بمقابر ماملي رحمه اللّه، وهو خال المحتسب عز الدين القلانسي، وهذا خال الصاحب تقي الدين بن مراجل.

الشيخ الإمام قطب الدين

■ محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي المصري، اختصر الروضة، وصنف كتاب تصحيح التعجيز، ودرس بالفاضلية، وناب في الحكم بمصر، وكان من أعيان الفقهاء، توفي يوم الجمعة، رابع عشر ذي الحجة، عن سبعين سنة، وحضر بعده تدريس الفاضلية ضياء الدين المنادي، نائب الحكم بالقاهرة، وحضر عنده ابن جماعة، والأعيان واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة

استهلت بيوم الأحد في كانون الأصم، والحكام هم المذكورون في التي قبلها، غير أن والي البر بدمشق هو الأمير علاء الدين علي بن الحسن المرواني، باشرها في صفر من السنة الماضية.

وفي صفر من هذه السنة باشر ولاية دمشق الأمير شهاب الدين بن برق، عوضاً عن صارم الدين الجوكندار.

وفي صفر عوفي القاضي كريم الدين وكيل السلطان من مرض كان قد أصابه، فزينت القاهرة، وأشعلت الشموع، وجمع الفقراء، بالمارستان المنصوري ليأخذوا من صدقته، فمات بعضهم من الزحام.

وفي سلخ ربيع الأول، ودرس الإمام العلامة المحدث ليأخذوا تقي الدين السبكي الشافعي بالمنصورية بالقاهرة، عوضا عن القاضي جمال الدين الزرعي، بمقتضى انتقاله إلى دمشق، وحضر عنده علاء الدين شيخ الشيوخ القونوي الشافعي، ودرس بعده بجامع الحاكم شمس الدين محمد بن أحمد بن عدلان بالعزية وكانت ولاية القاضي جمال الدين الزرعي لقضاء الشام عوضاً عن النجم ابن صَصْرَى، في يوم الجمعة رابع عشرين ربيع الأول، وخلع عليه بمصر وكان قدومه إلى دمشق آخر نهار الأربعاء رابع جمادى الأولى فنزل العادلية، وقد قدم على القضاة، ومشيخة الشيوخ، وقضاء العساكر، وتدريس العادلية والغزالية والأتابكية.

وفي ربيع الآخر مسك القاضي كريم الدين عبد الكريم بن هبة اللّه بن السديد وكيل السلطان، وكان قد بلغ من المنزلة والمكانة عند السلطان ما لم يصل إليه غيره من الوزراء الكبار، واحتيط على أمواله وحواصله، ورسم عليه عند نائب السلطنة، ثم رسم له أن يكون بتربته التي بالقرافة، ثم نفي إلى الشوبك وأنعم عليه بشيء من المال، ثم أذن له بالإقامة بالقدس الشريف برباطه، ومسك ابن أخيه كريم الدين الصغير ناظر الدواوين، وأخذت أمواله، وحبس في برج، وفرح العامة بذلك، ودعوا للسلطان بسبب مسكهما، ثم أخرج إلى صفت، وطلب من القدس أمين الملك عبد اللّه، فولي الوزارة بمصر، وخلع عليه عوداً على بدء، وفرح العامة بذلك، وأشعلوا له الشموع، وطلب الصاحب شمس الدين غبريال من دمشق، فركب ومعه أموال كثيرة، ثم خول أموال كريم الدين الكبير، وعاد إلى دمشق مكرما، وقدم القاضي معين الدين بن الحشيش على نظر الجيوش الشامية، عوضاً عن القطب بن شيخ السلامية عزل عنها، ورسم عليه في العذراوية نحواً، من عشرين يوماً، ثم أذن له في الانصراف إلى منزله مصروفا عنها.

وفي جمادى الأولى عزل طرقشي عن شد الدواوين، وتولاها الأمير بكتمر والي الولاة.

وفي ثاني جمادى الآخرة باشر ابن جهبل نيابة الحكم عن الزرعي، وكان قد باشر قبلها بأيام نظر الأيتام، عوضا عن ابن هلال.

وفي شعبان أعيد الطرقشي إلى الشد، وسافر بكتمر إلى نيابة الإسكندرية، فكان بها إلى أن توفي.

وفي رمضان قدم جماعة من حجاج الشرق، وفيهم بنت الملك أبغا بن هولاكو، وأخت أرغون، وعمة قازان، وخربندا، فأكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق، وأجريت عليها الإقامات والنفقات إلى أوان الحج.

وخرج الركب يوم الاثنين ثامن شوال، وأميره قطليجا الأبو بكري، الذي بالقصاعين، وقاضي الركب شمس الدين قاضي القضاة ابن مسلم الحنبلي، وحج معهم جمال الدين المزي، وعماد الدين بن الشيرجي، وأمين الدين الوافي، وفخر الدين البعلبكي، وجماعة، وفوض الكلام في ذلك إلى شرف الدين بن سعد الدين بن نجيح، كذا أخبرني به شهاب الدين الظاهري، ومن المصريين قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وولده عز الدين، وفخر الدين كاتب المماليك، وشمس الدين الحارثي، وشهاب الدين الأذرعي، وعلاء الدين الفارسي.

وفي شوال باشر تقي الدين السبكي مشيخة دار الحديث الظاهرية بالقاهرة، بعد وفاة زكي الدين المنادي، ويقال له عبد العظيم ابن الحافظ شرف الدين الدمياطي، ثم انتزعت من السبكي لفتح الدين ابن سيد الناس اليعمري، باشرها في ذي القعدة.

وفي يوم الخميس مستهل ذي الحجة خلع على قطب الدين بن شيخ السلامية، وأعيد إلى نظر الجيش مصاحبا لمعين الدين بن الحشيش، ثم بعد مدة مديدة استقل قطب الدين بالنظر وحده، وعزل ابن حشيش.

وممن توفي فيها من الأعيان

الإمام المؤرخ كمال الدين ابن الفوطي أبو الفضل

■ عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي المعالي الشيباني البغدادي، المعروف بابن الفوطي، وهو جده لأمه، ولد سنة اثنتين وأربعين وستمائة ببغداد، وأسر في واقعة التتر، ثم تخلص من الأسر، فكان مشارفا على الكتب بالمستنصرية، وقد صنف تاريخا في خمسة وخمسين مجلداً، وآخر في نحو عشرين، وله مصنفات كثيرة، وشعر حسن، وقد سمع الحديث الحسن من محيي الدين بن الجوزي، توفي ثالث المحرم، ودفن بالشونيزية.

قاضي القضاة نجم الدين

■ ابن صَصْرَى: أبو العباس أحمد ابن العدل عماد الدين بن محمد ابن العدل أمين الدين سالم ابن الحافظ المحدث بهاء الدين أبي المواهب الحسن بن

هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن صَصْرَى التغلبي الربعي الشافعي، قاضي القضاة بالشام.

ولد في ذي القعدة سنة خمس وخمسين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل وحصل، وكتب عن القاضي شمس الدين بن خلكان وفيات الأعيان، وسمعها عليه، وتفقه بالشيخ تاج الدين الفزاري، وعلى أخيه شرف الدين في النحو.

وكان له يد في الإنشاء، وحسن العبارة، ودرس بالعادلية الصغيرة سنة ثنتين وثمانين، وبالأمينية سنة تسعين، وبالغزالية سنة أربع وتسعين، وتولى قضاء العساكر في دولة العادل كتبغا، ثم تولى قضاء الشام سنة ثنتين وسبعمائة، بعد ابن جماعة حين طلب لقضاء مصر، بعد ابن دقيق العيد، ثم أضيف إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العادلية والغزالية والأتابكية، وكلها مناصب دنيوية انسلخ منها وانسلخت منه، ومضى عنها وتركها لغيره، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنه لم يكن تولاها وهي متاع قليل من حبيب مفارق.

وقد كان رئيسا محتشماً، وقوراً، كريماً، جميل الأخلاق، معظما عند السلطان والدولة.

توفي فجأة ببستانه بالسهم ليلة الخميس سادس عشر ربيع الأول، وصلي عليه بالجامع المظفري، وحضر جنازته نائب السلطنة، والقضاة والأمراء والأعيان، وكانت جنازته حافلة، ودفن بتربتهم عند الركنية.

علاء الدين

■ علي بن محمد بن عثمان بن أحمد بن أبي المُنَيّ بن محمد بن نخلة الدمشقي الشافعي، ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة، وقرأ المحرر، ولازم الشيخ زين الدين الفارقي، ودرس بالدولعية والركنية، وكان ناظر بيت المال، وابتنى داراً حسنة إلى جانب الركنية، ومات وتركها في ربيع الأول، ودرس بعده بالدولعية القاضي جمال الدين بن جملة، وبالركنية القاضي ركن الدين الخراساني.

وفي ربيع الأول قتل: الشيخ ضياء الدين

■ عبد الله الدربندي النحوي، كان قد اضطرب عقله، فسافر من دمشق إلى القاهرة، فأشار شيخ الشيوخ القونوي أن يُودَع بالمارستان فلم يوافق، ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتل نصرانيا، فحمل إلى السلطان وظنوه جاسوسا، فأمر بشنقة فشنق، وكنت ممن اشتغل عليه في النحو.

الشيخ الصالح المقرئ الفاضل: شهاب الدين

■ أحمد بن الطيب بن عبد الله الحلبي العزيزي الفوارسي، المعروف بابن الحلبية، سمع من خطيب مردا بن عبد الدائم، واشتغل وحصل، وأقرأ الناس، وكانت وفاته في ربيع الأول، عن ثمان وسبعين سنة، ودفن بالسفح.

شهاب الدين

■ أحمد بن محمد بن قُطينة الزُّرعي، التاجر المشهور بكثرة الأموال، والبضائع والمتاجر، قيل بلغت زكاة ماله في سنة قازان خمسة وعشرين ألف دينار، وتوفي في ربيع الآخر من هذه السنة، ودفن بتربته التي بباب بستانه المسمى بالمرفع عند ثورا، في طريق القابون، وهي تربة هائلة، وكانت له أملاك.

القاضي الإمام جمال الدين

■ أبو بكر بن عباس بن عبد الله الخابوري، قاضي بعلبك، وأكبر أصحاب الشيخ تاج الدين الفزاري، قدم من بعلبك ليلتقي بالقاضي الزرعي، فمات بالمدرسة البادرائية، ليلة السبت سابع جمادى الأولى، ودفن بقاسيون، وله من العمر سبعون سنة أضغاث حلم.

الشيخ المعمر المسن جمال الدين

■ عمر بن إلياس بن الرشيد البعلبكي التاجر، ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وتوفي في ثاني عشر جمادى الأولى، عن مائة وعشرين سنة، ودفن بباب سطحا رحمه الله.

الشيخ الإمام المحدث اللغوي المفيد: صفي الدين أبو الثناء

■ محمود بن أبي بكر بن محمد بن حامد بن أبي بكر بن محمد بن يحيى بن الحسين الأرموي، الصوفي، ولد سنة سبع وأربعين وستمائة، وسمع الكثير، ورحل وطلب، وكتب الكثير، وذيل على النهاية لابن الأثير، وكان قد قرأ التنبيه، واشتغل في اللغة، فحصل منها طرفا جيداً، ثم اضطرب عقله في سنة سبع وتسعين، وغلبت عليه السوداء، وكان يفيق منها في بعض الأحيان فيذاكر صحيحا، ثم يعترضه المرض المذكور، ولم يزل كذلك حتى توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، في المارستان النوري، ودفن بباب الصغير.

الخاتون المصونة

■ خاتون بنت الملك الصالح إسماعيل بن العادل بن أبي بكر بن أيوب بن شادي، بدارها، وتعرف بدار كافور، كانت رئيسة محترمة، ولم تتزوج قط، وليس في طبقتها من بني أيوب غيرها في هذا الحين، توفيت يوم الخميس، الحادي والعشرين من شعبان، ودفنت بتربة أم الصالح رحمهما الله.

■ (القاسم بن المظفر بن محمود بن أحمد بن عساكر الدمشقي).

شيخنا الجليل المسند المعمر الرحلة بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الشيخ بدر الدين أبي غالب المظفر بن نجم الدين بن أبي الثناء محمود ابن تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقي، الطبيب المعمر، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة، سمع حضوراً وسماعا على الكثير من المشايخ، وقد خرج له الحافظ علم الدين البرزالي مشيخة، سمعناها عليه في سنة وفاته، وكذلك خرج له الحافظ صلاح الدين العلائي عوالي من حديثه، وكتب له المحدث المفيد ناصر الدين بن طغريل مشيخة في سبع مجلدات، تشتمل على خمسمائة وسبعين شيخا، سماعا وإجازة، وقُرئت عليه فسمعها الحفاظ وغيرهم.

قال البرزالي: وقد قرأت عليه ثلاثة وعشرين مجلداً بحذف المكررات، ومن الأجزاء خمسمائة وخمسين جزءاً بالمكررات.

قال: وكان قد اشتغل بالطب، وكان يعالج الناس بغير أجرة، وكان يحفظ كثيرا من الأحاديث، والحكايات والأشعار، وله نظم وخدم في عدة جهات الكتابة، ثم ترك ذلك ولزم بيته وإسماع الحديث، وتفرد في آخر عمره بأشياء كثيرة، وكان سهلا في التسميع، ووقف آخر عمره داره دار حديث، وخص الحافظ البرزالي والمزي بشيء من بره، وكانت وفاته يوم الاثنين وقت الظهر، خامس عشرين شعبان، ودفن بقاسيون رحمه الله.

■ (محمود بن عثمان بن أبي القاسم البصراوي).

الوزير ثم الأمير نجم الدين محمد بن الشيخ فخر الدين عثمان بن أبي القاسم البصراوي الحنفي، درس ببصرى بعد عمه القاضي صدر الدين الحنفي ثم ولي الحسبة بدمشق، ونظر الخزانة، ثم ولي الوزارة، ثم سأل الإقالة منها، فعوض بإمرية عشرة عنها بإقطاع هائل، وعومل في ذلك

معاملة الوزراء في حرمته ولبسته، حتى كانت وفاته ببصرى، يوم الخميس، ثامن عشرين شعبان، ودفن هناك، وكان كريماً، ممدحاً، وهاباً نهاباً كثير الصدقة والإحسان إلى الناس، ترك أموالا وأولاداً، ثم تفانوا كلهم بعده، وتفرقت أمواله، ونكحت نساؤه، وسكنت منازله.

الأمير صارم الدين

■ إبراهيم بن قراسنقر الجوكندار: مشد الخاص، ثم ولي دمشق ولاية، ثم عزل عنها قبل موته بستة أشهر، توفي تاسع رمضان، ودفن بتربته المشرّفة الميْضة، شرقي مسجد التاريخ، كان قد أعدها لنفسه.

الشيخ أحمد الأعقف الحريري: شهاب الدين

■ أحمد بن حامد بن سعيد التوخي الحريري، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة، واشتغل في صباه على الشيخ تاج الدين الفزاري في التنبيه، ثم صحب الحريرية وخدمهم، ولزم مصاحبة الشيخ نجم الدين بن إسرائيل، وسمع الحديث، وحج غير مرة، وكان مليح الشكل، كثير التودد إلى الناس، حسن الأخلاق، توفي يوم الأحد، الثالث والعشرين من رمضان بزاويته بالمزة، ودفن بمقبرته بالمزة، وكانت جنازته حافلة.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان صلّي بدمشق على غائب، وهو الشيخ

■ هارون المقدسي، توفي ببعلبك، في العشر الأخير من رمضان، وكان صالحا مشهورا عند الفقراء.

وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة توفي الشيخ المقرئ أبو عبد الله

■ محمد بن إبراهيم بن يوسف بن غُصْن الأنصاري القصري ثم السبتي بالقدس، ودفن بماملي، وكانت له جنازة حافلة، حضرها كريم الدين والناس مشاة.

ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وكان شيخا مهيبا، أحمر اللحية من الحناء، اجتمعت به، وبحثت معه في هذه السنة حين زرت القدس الشريف، وهي أول زيارة زرته، وكان مالكي المذهب، قد قرأ الموطأ في ثمانية أشهر، وأخذ النحو عن الأستاذ ابن أبي الربيع شارح الجمل للزجاجي من طريق شريح.

■ (محمد بن محمد بن محمد بن هبة الله بن محمد بن يحيى الشيرازي).

شيخنا الأصيل شمس الدين أبو نصر محمد بن عماد الدين أبي الفضل محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن محمد بن يحيى بن بندار بن مَميل الشيرازي، مولده في شوال، سنة تسع وعشرين وستمائة، وسمع الكثير وأسمع وأفاد في علّته شيخنا المزي، تغمده الله برحمته، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه أثابه الله، وكان شيخا حسناً، خيراً مباركاً متواضعاً، يذهّب الربعات والمصاحف، له في ذلك يد طولى، ولم يتدنس بشيء من الولايات، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات، إلى أن توفي في يوم عرفة ببستانه من المزة، وصلي عليه بجامعها، ودفن بتربتها رحمه الله.

الشيخ الصالح العابد الناسك

■ أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي، قيم الجوزية، كان رجلا صالحا متعبداً، قليل التكلف وكان فاضلا، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيدي العامري، توفي فجأة ليلة الأحد، تاسع عشر ذي الحجة، بالمدرسة الجوزية، وصلي عليه بعد الظهر بالجامع، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيراً رحمه الله، وهو والد العلامة شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية.

■ (علي بن محمود بن إسماعيل بن معبد البعلبكي).

الأمير علاء الدين علي بن شرف الدين محمود بن إسماعيل بن معبد البعلبكي، أحد أمراء الطبلخاناه، كان والده تاجراً ببعلبك، فنشأ ولده هذا واتصل بالدولة، وعلت منزلته، حتى أعطي طبلخانه، وباشر ولاية البريد بدمشق، مع شد الأوقاف، ثم صرف إلى ولاية الولاة بحوران، فاعتراه مرض، وكان سبط البدن عبله، فسأل ان يقال فأجيب، فأقام ببستانه بالمزة إلى أن توفي، في خامس عشرين ذي الحجة، وصلي عليه هناك، ودفن بمقبرة المزة، وكان من خيار الأمراء وأحسنهم، مع ديانة وخير، سامحه الله.

وفي هذا اليوم توفي الفقيه العابد الناسك شرف الدين أبو عبد الله

■ محمد بن محمد بن سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله بن عبد القاهر بن عبد الأحد بن عمر الحراني، المعروف بابن النجيح، توفي في وادي بني سالم، فحمل إلى المدينة فغسل، وصلي عليه في الروضة، ودفن بالبقيع شرقي قبر عقيل، فغبطه الناس بهذه الموتة وهذا القبر، رحمه الله، وكان ممن غبطه الشيخ شمس الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فمات بعده، ودفن عنده، وذلك بعده بثلاث سنين رحمهما الله، وجاء يوم حضر جنازة الشيخ شرف الدين محمد المذكور شرف الدين بن أبي العز الحنفي قبل ذلك بجمعة، مرجعه من الحج، بعد انفصاله عن مكة بمرحلتين، فغبط الميت المذكور بتلك الموتة، فرزق مثلها بالمدينة.

وقد كان شرف الدين بن نجيح هذا قد صحب شيخنا العلامة تقي الدين بن تيمية، وكان معه في مواطن كبار صعبة، لا يستطيع الإقدام عليها إلا الأبطال الخلّص الخواص، وسجن معه، وكان من خدامه، وخواص أصحابه، ينال فيه الأذى، وأوذي بسببه مرات، وكلٌ ما له في ازدياد ومحبة فيه، وصبر على أذى أعدائه.

وقد كان هذا الرجل في نفسه وعند الناس جيداً، مشكور السيرة، جيد العقل والفهم، عظيم الديانة والزهد، ولهذا كانت عاقبته هذه الموتة عقيب الحج، وصلي عليه بروضة مسجد رسول الله ﷺ، ودفن بالبقيع - بقيع الغرقد - بالمدينة النبوية، فختم له بصالح عمله، وقد كان كثير من السلف يتمنى أن يموت عقيب عمل صالح يعمله، وكانت له جنازة حافلة، رحمه الله تعالى، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها: الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسي، وسلطان البلاد الملك الناصر، ونائبه بمصر سيف الدين أرغون، ووزيره أمين الملك، وقضاته بمصر هم المذكورون في التي قبلها، ونائبة بالشام الأمير سيف الدين تنكز، وقضاة الشام الشافعي جمال الدين الزُرعي، والحنفي الصدر علي البصراوي، والمالكي شرف الدين الهمداني، والحنبلي شمس الدين بن مسلم، وخطيب الجامع الأموي جلال الدين القزويني، ووكيل بيت المال جمال الدين بن القلانسي، ومحتسب البلد فخر الدين بن شيخ السلامية، وناظر الدواوين شمس الدين غبريال، ومشد الدواوين علم الدين طرقشي، وناظر الجيش قطب الدين بن شيخ السلامية، ومعين الدين بن الحشيش، وكاتب السر شهاب الدين محمود، ونقيب الأشراف شرف الدين بن عدنان، وناظر الجامع بدر الدين بن الحداد، وناظر الخزانة عز الدين بن القلانسي، ووالي

البر علاء الدين بن المرواني، ووالي دمشق شهاب الدين بن برق.

وفي خامس عشر ربيع الأول باشر عز الدين بن القلانسي الحسبة، عوضاً عن فخر الدين ابن شيخ السلامية وباشر ابن القلانسي الحسبة مع نظر الخزانة.

وفي هذا الشهر حمل كريم الدين وكيل السلطان من القدس إلى الديار المصرية فاعتقل، ثم أخذت منه أموال وذخائر كثيرة، ثم نفي إلى الصعيد، وأجري عليه نفقات سلطانية له، ولمن معه من عياله، وطلب كريم الدين الصغير وصودر بأموال جمة، وحبس ثم أطلق .

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الآخر قرئ كتاب السلطان بالمقصورة من الجامع الأموي، بحضرة نائب السلطنة والقضاة، يتضمن إطلاق مكس الغلة بالشام المحروس جميعه، فكثرت الأدعية للسلطان من الخواص والعوّام و لله الحمد والمنّة.

وقدم البريد إلى نائب الشام يوم الجمعة، خامس عشرين ربيع الآخر، بعزل قاضي الشافعية الزُرعي، فبلغه ذلك فامتنع بنفسه من الحكم، وأقام بالعادلية بعد العزل خمسة عشر يوما، ثم انتقل منها إلى الأتابكية، واستمرت بيده مشيخة الشيوخ، وتدريس الأتابكية، واستدعى نائب السلطان شيخنا الإمام الزاهد برهان الدين الفزاري، فعرض عليه القضاء فامتنع، فألح عليه بكل ممكن قالبي وخروج من عنده، فأرسل في أثره الأعيان الناس إلى المدرسة، فدخلوا عليه بكل حيلة، فامتنع من قبول الولاية، وصمم أشد التصميم، جزاه الله خيراً عن مروءته.

فلما كان يوم الجمعة قدم البريد من الديار المصرية بطلب الخطيب جلال الدين القزويني إلى الديار المصرية لتولية قضاء الشام.

وفي هذا اليوم خلع على الصدر تقي الدين سليمان بن مراجل بنظر الجامع، عوضاً عن بدر الدين بن الحداد توفي، وأخذ من ابن مراجل نظر المارستان الصغير لبدر الدين بن العطار.

وخسف القمر ليلة الخميس، للنصف من جمادى الآخرة بعد العشاء، فصلى الخطيب صلاة الكسوف بأربع سور: ق، واقتربت، والواقعة، والقيامة، ثم صلى العشاء، ثم خطب بعدها للكسوف، ثم أصبح فصلى بالناس الصبح، ثم ركب على البريد إلى مصر، فرزق من السلطان، قبولاً وولاه بعد أيام القضاء، ثم كر راجعا إلى الشام، فدخل دمشق في خامس رجب على القضاء، مع الخطابة وتدريس العادلية والغزالية، فباشر ذلك كله، وأخذت منه الأمينية، فدرس فيها جمال الدين بن القلانسي، مع وكالة بيت المال، وأضيف إليه قضاء العساكر، وخوطب بقاضي القضاة جلال الدين القزويني.

وفيها قدم ملك التكرور إلى القاهرة بسبب الحج، في خامس عشرين رجب، فنزل بالقرافة، ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفا، ومعهم ذهب كثير، بحيث إنه نزل سعر الذهب درهمين في كل مثقال، ويقال له الملك الأشرف موسى بن أبي بكر.

وهو شاب جميل الصورة، له مملكة متسعة، مسيرة ثلاث سنين، ويذكر أن تحت يده أربعة وعشرين ملكا، كل ملك تحت يده خلق وعساكر، ولما دخل إلى قلعة الجبل ليسلم على السلطان، أمر بتقبيل الأرض فامتنع من ذلك فأكرمه السلطان ولم يمكن من الجلوس أيضاً، حتى خرج من بين يدي السلطان، فأحضر له حصان أشهب بُزُنَاري اطلس أحمر، وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله، وأرسل هو إلى السلطان أيضاً بهدايا كثيرة، من جملتها أربعون ألف دينار، وإلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار، وتحف كثيرة.

وفي شعبان ورمضان زاد النيل بمصر زيادة عظيمة، لم ير مثلها من نحو مائة سنة أو أزيد منها، ومكث على الأراضي نحو ثلاثة أشهر ونصف، وغرق أقصابا كثيرة، ولكن كان نفعه أعظم من ضره.

وفي يوم الخميس ثامن عشر شعبان استناب قاضي القضاة جلال الدين القزويني نائبين في الحكم، وهما يوسف بن إبراهيم بن جملة المحجي الصالحي، وقد ولي القضاء فيما بعد ذلك كما سيأتي، ومحمد بن علي بن إبراهيم المصري، وحكما يومئذ بالعادلية، ومن الغد جاء البريد، ومعه تقليد قضاء حلب للشيخ كمال الدين بن الزملكاني، فاستدعاه نائب السلطنة، وفاوضه في ذلك فامتنع، فراجعه النائب، ثم راجع السلطان، فجاء البريد في ثاني عشر رمضان بإمضاء الولاية، فشرع للتأهب لبلاد حلب، وتمادى في ذلك كان خروجه إليها في بكرة يوم الخميس، رابع عشر شوال.

ودخل حلب يوم الثلاثاء سادس عشرين شوال، فأكرم إكراماً زائداً، ودرس بها، وألقى علوماً أكبر من تلك البلاد، وحصل لهم الشرف بفنونه وفوائده، وحصل لأهل الشام الأسف على دروسه الأنيقة الفائقة، وما أحسن ما قال الشاعر، وهو شمس الدين محمد الخياط في قصيدة له مطولة أولها قوله:

أَسِـفَتْ لِفَقْـدِكَ جِلَّـقُ الفَيْحَـاءُ وَتَبَاشَـرَتْ بِقُدُومِـكَ الشَّـهْبَاءُ

وفي ثامن عشر رمضان عزل أمين الملك عن وزارة مصر، وأضيفت الوزارة إلى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي، أستاذ دار السلطان.

وفي أواخر رمضان طلب الصاحب شمس الدين غبريال إلى القاهرة، وتولى بها نظر الدواوين، عوضاً عن كريم الدين الصغير، وقدم كريم الدين المذكور إلى دمشق، مباشراً بها نظر الدواون فقدمها في شوال فنزل بدار العدل من القصاعين.

وولى سيف الدين قديدار ولاية مصر، وهو شهم سفاك للدماء، فأراق الخمور، وأحرق الحشيشة، وأمسك الشطار، واستقامت به أحوال القاهرة ومصر، وكان هذا الرجل ملازما لابن تيمية مدة مقامه بمصر.

وفي رمضان قدم إلى دمشق الشيخ نجم الدين عبد الرحيم بن الشحام الموصلي من بلاد السلطان أزبك، وعنده فنون من علم الطب وغيره، ومعه كتاب بالوصية به، فأعطي تدريس الظاهرية البرانية، نزل له عنها جمال الدين بن القلانسي، فباشرها في مستهل ذي الحجة، ثم درس بالجاروخية.

وخرج الركب في تاسع شوال، وأميره كوكنجبار المحمدي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري، وممن خرج إلى الحج برهان الدين الفزاري، وشهاب الدين قرطاي الناصري نائب طرابلس، وصاروجا وشهري وغيرهم.

وفي نصف شوال زاد السلطان في عدة الفقهاء بمدرسته الناصرية، كان فيها من كل مذهب ثلاثون ثلاثون، فزادهم إلى أربعة وخمسين من كل مذهب، وزادهم في الجوامك أيضاً.

وفي الثالث والعشرين منه وجد كريم الدين الكبير وكيل السلطان قد شنق نفسه داخل خزانة له، قد أغلقها عليه من داخل: وربط حلقه في حبل، وكان تحت رجليه قفص، فدفع القفص برجليه، فمات في مدينة أسوان، وستأتي ترجمته.

وفي سابع عشر ذي القعدة زينت دمشق بسبب عافية السلطان من مرض كان قد أشفي منه على الموت.

وفي ذي القعدة درس جمال الدين بن القلانسي بالظاهرية الجوانية، عوضاً عن ابن الزملكاني، سافر على قضاء حلب، وحضر عنده القاضي القزويني.

وجاء كتاب صادق من بغداد إلى المولى شمس الدين بن سنان، يذكر فيه أن الأمير جوبان أعطى الأمير محمد حسيناه قدحاً فيه خمر ليشربه، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، فألح عليه وأقسم فأبى أشد الإباء، فقال له: إن لم تشربها كلفت أن تحمل ثلاثين توماناً، فقال: نعم أحمل ولا أشربها، فكتب عليه حجة بذلك، وخرج من عنده إلى أمير آخر يقال له يلبي، فاستقرض منه ذلك المال ثلاثين توماناً، فأبى أن يقرضه إلا بربح عشرة توامين، فاتفقا على ذلك، فبعث يلبي إلى جوبان يقول له: المال الذي طلبته من حسيناه عندي، فإن رسمت حملته إلى الخزانة الشريفة، وإن رسمت تفرقه على الجيش، فأرسل جوبان إلى محمد حسيناه، فأحضره عنده فقال له: تزن أربعين توماناً ولا تشرب قدحا من خمر؟ قال: نعم، فأعجبه ذلك منه، ومزق الحجة المكتتبة عليه، وحظي عنده، وحكمه في أموره كلها، وولاه ولايات كباراً، وحصل لجوبان إقلاع وإنابة ورجوع عن كثير مما كان يتعاطاه، رحم الله حسينا.

وفي هذه السنة كانت فتنة بأصبهان، قتل بسببها ألوف من أهلها، واستمرت الحرب بينهم شهوراً.

وفيها كان غلاء مفرط بدمشق، بلغت الغرارة مائتين وعشرين، وقلت الأقوات، ولولا أن الله أقام للناس من يحمل لهم الغلة من مصر لاشتد الغلاء، وزاد أضعاف ذلك، وكان مات أكثر الناس، واستمر ذلك مدة شهور من هذه السنة، وإلى أثناء سنة خمس وعشرين، حتى قدمت الغلات، ورخصت الأسعار، ولله الحمد والمنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

توفي في مستهل المحرم: بدر الدين

■ **محمد بن ممدود بن أحمد الحنفي**: قاضي قلعة الروم بالحجاز الشريف، وقد كان عبداً صالحاً، حج مرات عديدة، وربما أحرم من قلعة الروم وأحرم من بيت المقدس، وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب، وعلى شرف الدين بن العز، وعلى شرف الدين بن نجيح، توفوا في أقل من نصف شهر كلهم بطريق الحجاز، بعد فراغهم من الحج، وذلك أنهم غبطوا ابن نجيح صاحب الشيخ تقي الدين بن تيمية بتلك الموتة كما تقدم، فرزقوها، فماتوا عقيب عملهم الصالح بعد الحج.

الجهة الكبيرة

■ **خَونَد بنت نوكاي**: زوجة السلطان الملك الناصر، وقد كانت زوجة أخيه الملك الأشرف، ثم هجرها الناصر وأخرجها من القلعة، وكانت جنازتها حافلة، ودفنت بتربتها التي أنشأتها.

الشيخ

■ **محمد بن جعفر بن فرعوش**: ويقال له اللباد، ويعرف بالمولّه، كان يقرئ الناس بالجامع نحواً من أربعين سنة، وقد قرأت عليه شيئاً من القرآن، وكان يعلم الصغار والحروف المُشِقَّة كالراء ونحوها، وكان متقللا من الدنيا، لا يقتني شيئاً، وليس له بيت ولا خزانه، إنما كان يأكل في السوق، وينام في الجامع، توفي في مستهل صفر، وقد جاوز السبعين، ودفن بباب الفراديس رحمه الله.

وفي هذا اليوم توفي بمصر: الشيخ

■ **أيوب السعودي**: وقد قارب المائة، أدرك الشيخ أبا السعود، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بتربة شيخه بالقرافة، وكتب عنه قاضي القضاة تقي الدين السبكي في حياته، وذكر الشيخ أبو بكر الرحبي أنه لم ير مثل جنازته بالقاهرة منذ سكنها رحمه الله.

الشيخ الإمام الزاهد نور الدين: أبو الحسن

■ **علي بن يعقوب بن جبريل البكري، المصري الشافعي**، له تصانيف، وقرأ مسند الشافعي على وزيرة بنت المنجا، ثم إنه أقام بمصر، وقد كان من جملة من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية، فأراد بعض الدولة قتله، فهرب واختفى عنده كما تقدم، لما كان ابن تيمية مقيما بمصر، وما مثاله إلا مثال ساقية ضعيفة كَدِرَة لاطمت بحراً عظيماً صافياً، أو رملة أرادت زوال جبل، وقد أضحك العقلاء عليه، وقد أراد السلطان قتله، فشفع فيه بعض الأمراء، ثم أنكر مرة شيئاً على الدولة، فنفي من القاهرة إلى بلدة يقال لها دهروط، فكان بها حتى توفي، يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته مشهورة غير مشهودة وكان شيخه ينكر عليه إنكاره على ابن تيمية، ويقول له أنت لا تحسن أن تتكلم.

الشمس

■ **محمد الباجُرْبقي**: الذي تنسب إليه الفرقة الضالة الباجربقية، والمشهور عنهم إنكار الصانع جل جلاله، وتقدست أسماؤه، وقد كان والده جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الموصلي رجلا صالحاً، من علماء الشافعية، ودرس في أماكن بدمشق، ونشأ ولده هذا بين الفقهاء، واشتغل بعض شيء، ثم أقبل على السلوك ولازمه جماعة يعتقدون فيه ويزورونه ممن هو على طريقته، وآخرون لا يفهمونه، ثم حكم القاضي المالكي بإراقة دمه، فهرب إلى الشرق، ثم إنه أثبت عداوة بينه وبين الشهود، فحكم الحنبلي بحقن دمه فاقام بالقابون مدة سنين، حتى كانت وفاته ليلة الأربعاء، سادس عشر ربيع الآخر، ودفن بالقرب من مغارة الدم بسفح قاسيون، في قبة أعلى ذيل الجبل تحت المغارة، وله من العمر ستون سنة.

■ (يحيى بن إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني).

شيخنا القاضي المعمر الفقيه: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني الشافعي، اشتغل على النواوي، ولازم المقدسي، وولي الحكم بزرع وغيرها، ثم قام بدمشق يشتغل في الجامع، ودرس في الصارمية، وأعاد في مدارس عدة، إلى أن توفي في سلخ ربيع الآخر، ودفن بقاسيون، وقد قارب الثمانين رحمه الله، وسمع كثيرا وخرج له الذهبي شيئاً، وسمعنا عليه الدارقطني وغيره.

الفقيه الكبير الصدر الإمام العالم الخطيب بالجامع: بدر الدين أبو عبد الله

■ **محمد بن عثمان بن يوسف بن محمد بن الحداد، الآمدي الحنبلي**، سمع الحديث، واشتغل، وحفظ المحرر في مذهب الإمام أحمد، وبرع على ابن حمدان، وشرحه عليه في مدة سنين، وقد كان ابن حمدان يثني عليه كثيراً، وعلى ذهنه وذكائه، ثم اشتغل بالكتابة، ولزم خدمة الأمير قراسنقر بحلب، فولاه نظر الأوقاف، وخطابة حلب بجامعها الأعظم، ثم لما صار إلى دمشق ولاه خطابة الأموي، فاستمر خطيباً فيها اثنين وأربعين يوما، ثم أعيد إليها جلال الدين القزويني، ثم ولي نظر المارستان، والحسبة، ونظر الجامع الأموي، وعين لقضاء الحنابلة في وقت، ثم توفي ليلة الأربعاء سابع جمادى الآخرة، ودفن بباب الصغير رحمه الله.

الكاتب المفيد قطب الدين

■ أحمد بن مفضل بن فضل الله المصري، أخو محيي الدين كاتب تنكز، والد الصاحب علم الدين، كان خبيرا بالكتابة، وقد ولي استيفاء الأوقاف بعد أخيه، وكان أسن من أخيه، وهو الذي علمه صناعة الكتابة وغيرها، توفي ليلة الاثنين، ثاني رجب، وعمل عزاؤه بالشميساطية، وكان مباشر أوقافها.

الأمير الكبير ملك العرب:

■ محمد بن عيسى بن مهنا أخو مهنا توفي بسلمية، يوم السبت سابع رجب، وقد جاوز الستين، كان مليح الشكل، حسن السيرة، عاملا عارفا، رحمه الله تعالى.

وفي هذا الشهر وصل الخبر إلى دمشق بموت: الوزير الكبير

■ تاج الدين علي شاه بن أبي بكر التبريزي: وزير بو سعيد، بعد قتل سعد الدين الساوي، وكان شيخا جليلا، فيه دين وخير، وحمل إلى تبريز، فدفن بها في الشهر الماضي، رحمه الله.

الأمير سيف الدين

■ بكتمر: والي الولاة، صاحب الأوقاف في بلدان شتى: من ذلك مدرسته بالصلت، وله درس بمدرسة أبي عمر وغير ذلك، توفي بالإسكندرية، وهو نائبها، خامس رمضان رحمه الله.

■ (محمد بن زين الدين بن المنجا بن عثمان التنوخي).

شرف الدين أبو عبد الله: محمد بن الشيخ الإمام العلامة زين الدين بن المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي الحنبلي، أخو قاضي القضاة علاء الدين، سمع الحديث، ودرس وأفتى، وصحب الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان فيه دين، ومودة وكرم، وقضاء حقوق كثيرة، توفي رحمه الله ليلة الاثنين رابع شوال، وكان مولده في سنة خمس وسبعين وستمائة، ودفن بتربتهم بالصالحية.

الشيخ

■ حسن الكردي المولّه: كان يخالط النجاسات والقاذورات، ويمشي حافيا، وربما تكلم بشيء من الهذيانات التي تشبه علم المغيبات، ولبعض الناس فيه اعتقادات كما هو المعروف من أهل العمى والضلالات، مات في شوال.

كريم الدين الذي كان وكيل السلطان:

■ عبد الكريم بن العلم هبة الله المسلماني، حصل له من الأموال والتقدم والمكانة والحظوة عند السلطان ما لم يحصل لغيره في دولة الأتراك، وقد وقف الجامعين بدمشق أحدهما جامع القبيبات والحوض الكبير الذي تجاه باب الجامع، واشترى له نهر ماء بخمسين ألفا، فانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، ووجدوا رفقا. والثاني الجامع الذي بالقابون.

وله صدقات كثيرة، تقبل الله منه وعفا عنه، وقد مسك في آخر أمره فصودر ثم نفي إلى الشوبك، ثم إلى القدس، ثم الصعيد، فخنق نفسه كما قيل بعمامته، بمدينة أسوان، وذلك في الثالث والعشرين من شوال، وقد كان حسن الشكل، تام القامة، ووجد له بعد موته ذخائر كثيرة سامحه الله.

الشيخ الإمام العالم علاء الدين:

■ علي بن إبراهيم بن داود بن سليمان بن العطار، شيخ دار الحديث النورية، ومدرس القوصية بالجامع.

ولد يوم عيد الفطر، سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل على الشيخ محيي الدين النواوي ولازمه، حتى كان يقال له مختصر النواوي، وله مصنفات وفوائد، ومجاميع وتخاريج، وباشر مشيخة النورية، من سنة أربع وتسعين إلى هذه السنة، مدة ثلاثين سنة.

توفي يوم الاثنين منها، مستهل ذي الحجة، فولي بعده النورية علم الدين البرزالي، وتولى القوصية شهاب الدين بن حرز الله، وصلّي عليه بالجامع، ودفن بقاسيون، رحمه الله، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وأولها يوم الأربعاء.

وفي خامس صفر منها قدم إلى دمشق الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، بعد مرجعه من الحج، وزيارة القدس الشريف.

وهو رجل فاضل، له مصنفات منها شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح التجريد وغير ذلك، ثم إنه شرح الحاجبية أيضاً وجمع له تفسيرا بعد صيرورته إلى مصر، ولما قدم إلى دمشق أكرم، واشتغل عليه الطلبة، وكان حظياً عند القاضي جلال الدين القزويني.

ثم إنه ترك الكل وصار يتردد إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية، وسمع عليه من مصنفاته ورده على أهل الكلام، ولازمه مدة، فلما مات الشيخ تقي الدين تحول إلى مصر، وجمع التفسير.

وفي ربيع الأول جرد السلطان تجريدة نحو خمسة آلاف إلى اليمن، صحبة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب وسيف الدين طينال الحاجب أيضا نجدة لصاحب اليمن لخروج عمه عليه، وصحبتهم خلق كثير من الحجاج، منهم الشيخ فخر الدين النويري.

وفيها منع شهاب الدين بن مري البعلبكي من الكلام على الناس بمصر، على طريقة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وعزره القاضي المالكي، بسبب مسألة الاستغاثة، وحضر المذكور بين يدي السلطان، وأثنى عليه جماعة من الأمراء، ثم سُفّر إلى الشام بأهله، فنزل ببلاد الخليل، ثم انتزح قدم دمشق إلى بلاد الشرق، وأقام بسنجار وماردين ومعاملتهما، يتكلم ويعظ الناس، إلى أن مات رحمه الله كما سنذكره.

وفي ربيع الآخر عاد نائب الشام من مصر، وقد أكرمه السلطان والأمراء.

وفي جمادى الأولى وقع بمصر مطر لم يسمع بمثله، بحيث زاد النيل بسببه اربعة أصابع، وتغير أياما.

وفيه زادت دجلة ببغداد، حتى غرقت ما حول بغداد، وانحصر الناس بها ستة أيام لم تفتح أبوابها، وبقيت مثل السفينة في وسط البحر، وغرق خلق كثير من الفلاحين وغيرهم، وتلف للناس ما لا يعلم قيمته إلا الله عز وجل، وودع أهل البلد بعضهم بعضاً، ولجؤوا إلى الله تعالى، وحملوا المصاحف على رؤوسهم وحمل الناسُ في سدّ السُّكور بأنفسهم حتى القضاة والأعيان، وكان وقتاً عجيباً، ثم لطف الله بهم، فغيض الماء، وتناقص، وتراجع الناس إلى ما كانوا عليه من أمورهم الجائزة وغير الجائزة، وذكر بعضهم أنه غرق بالجانب الغربي نحو من ستة آلاف وستمائة بيت، وإلى عشر سنين لا يرجع ما غرق.

وفي أوائل جمادى الآخرة فتح السلطان خانقاه سرياقوس التي أنشأها، وساق إليها خليجا، وبنى عندها محلة، وحضر بها، ومعه القضاة والأعيان والأمراء وغيرهم، ووليها مجد الدين الأقصرائي، وعمل السلطان بها وليمة

كبيرة، وهي في الحقيقة وكيرة وسمع على قاضي القضاة ابن جماعة عشرين حديثا، بقراءة ولده عز الدين، بحضرة الدولة منهم أرغون النائب، وشيخ الشيوخ القونوي وغيرهم، وخلع على القارئ عز الدين، وأثنوا عليه ثناء زائداً، وأجلس مكرماً، وخلع أيضاً على والده ابن جماعة، وعلى المالكي وشيخ الشيوخ، وعلى مجد الدين الأقصرائي شيخ الخانقاه المذكورة وغيرهم.

وفي يوم الأربعاء رابع عشر رجب درس بقبة المنصورية في الحديث الشيخ زين الدين بن الكتاني الدمشقي، بإشارة نائب الكرك وأرغون، وحضر عنده الناس، وكان فقيها جيداً، وأما الحديث فليس من فنه ولا من شغله.

وفي أواخر رجب قدم الشيخ زين الدين محمد بن عبد الله بن المرحل من مصر، على تدريسي الشامية البرانية، وكانت بيد ابن الزملكاني فانتقل إلى قضاء حلب، فدرس بها في خامس شعبان، وحضر القاضي الشافعي وجماعة.

وفي سلخ رجب قدم القاضي عز الدين بن بدر الدين بن جماعة من مصر ومعه ولده، وفي صحبته الشيخ جمال الدين الدمياطي، وجماعة من الطلبة، بسبب سماع الحديث، فقرأ بنفسه، وقرأ الناس له، واعتنوا بأمره، وسمعنا معهم وبقراءته شيئا كثيرا، نفعهم الله بما قرؤوا وبما سمعوا، ونفع بهم.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شوال درس الشيخ شمس الدين بن الأصبهاني بالرواحية، بعد ذهاب ابن الزملكاني إلى حلب، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكان فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وجرى يومئذ بحث في العام إذا خُصَّ، وفي الاستثناء بعد النفي، ووقع انتشار وطال الكلام في ذلك المجلس، وتكلم الشيخ تقي الدين كلاما أبهتَ الحاضرين.

وتأخر ثبوت عيد الفطر إلى قريب الظهر يوم العيد، فلما ثبت دقت البشائر وصلى الخطيب العيد من الغد بالجامع، ولم يخرج الناس إلى المصلى، وتغضب النائب على المؤذنين وسجن بعضهم، وخرج الركب في عاشره، وأميره صلاح الدين بن أيبك الطويل، وفي الركب صلاح الدين بن أوحد، والمنكورسي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري.

وفي سابع عشرة درّس بالرباط الناصري بقاسيون حسام الدين القَرْمي، الذي كان قاضي طرابلس، قايضه بها جلال الدين بن الشريشي إلى تدريس المسرورية، وكان قد جاء توقيعه بالعذراوية والظاهرية، فوقف في طريقه قاضي القضاة جمال الدين، ونائباه ابن جملة والفخر المصري، وعقد له ولكمال الدين بن الشيرازي مجلسا، ومعه توقيع بالشامية البرانية، فعطل الأمر عليهما، لأنهما لم يظهرا استحقاقهما في ذلك المجلس، فصارت المدرستان العذراوية والشامية لابن المرحل كما ذكرنا، وعُوِّض القَرْمي بالمسرورية، فقايض منها لابن الشريشي إلى الرباط الناصري، فدرس به في هذا اليوم، وحضر عنده القاضي جلال الدين، ودرس بعده ابن الشريشي بالمسرورية، وحضر عنده الناس أيضا.

وفيه عادت التجريدة اليمنية، وقد فقد منهم خلق كثير من الغلمان وغيرهم، فحبس مقدمهم الكبير ركن الدين بيبرس، لسوء سيرته فيهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ إبراهيم الصياح: وهو

■ إبراهيم بن منير البعلبكي، كان مشهوراً بالصلاح، مقيماً بالمئذنة الشرقية، توفي ليلة الأربعاء مستهل المحرم، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، وحمله الناس على رؤوس والأصابع، وكان ملازما لمجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية.

■ إبراهيم المولّه: الذي يقال له القميني، لإقامته بالقمامين خارج باب شرقي، وربما كاشف بعض شيء، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة، وقد استتابه الشيخ تقي الدين بن تيمية، وضربه على ترك الصلوات ومخالطة القاذورات، وجمع الرجال والنساء حوله في الأماكن النجسة، توفي كهلا في هذا الشهر.

الشيخ عفيف الدين

■ أحمد بن محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي ثم الدمشقي، إمام مسجد الرأس، آخر من حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي، سمعنا عليه شيئا منها، توفي في صفر.

الشيخ الصالح العابد الزاهد الناسك

■ عبد الله بن موسى بن أحمد الجزري، الذي كان مقيما بمشهد أبي بكر من جامع دمشق، كان من الصالحين الكبار، مباركاً خيراً، عليه سكينة ووقار، وكانت له مطالعة كثيرة، وله فهم جيد، وعقل صحيح، وكان من الملازمين لمجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان ينقل من كلامه أشياء كثيرة ويفهمها، يعجز عنها كبار الفقهاء.

توفي يوم الاثنين سادس عشرين صفر، وصلي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة محمودة.

■ الشيخ الصالح الكبير المعمر: الرُّحلة الصالح تقي الدين بن الصائغ، المقرئ المصري، الشافعي، آخر من بقي من مشايخ القراء، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي، توفي في صفر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة، قارب التسعين، ولم يبق له منها سوى سنة واحدة، وقد قرأ عليه غير واحد. وهو ممن طال عمره وحسن عمله.

الشيخ الإمام صدر الدين أبو زكريا

■ يحيى بن علي بن تمام بن موسى الأنصاري السبكي الشافعي، سمع الحديث، وبرع في الأصول والفقه، ودرس بالسيفية وباشرها بعده ابن أخيه تقي الدين السبكي، الذي تولى قضاء الشام فيما بعد.

■ الشهاب محمود هو الصدر الكبير، الشيخ الإمام، العالم العلامة، شيخ صناعة الإنشاء الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صنعة الإنشاء، وله خصائص ليست للفاضل، من كثرة النظم، والقصائد المطولة الحسنة البليغة، فهو شهاب الدين أبو الثنا

■ محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة بحلب، وسمع الحديث، وعني باللغة والأدب والشعر، وكان كثير الفضائل، بارعا في علم الإنشاء نظما ونثراً، وله في ذلك كتب ومصنفات حسنة فائقة، وقد مكث في ديوان الإنشاء نحوا من خمسين سنة، ثم ولي كتابة السر بدمشق نحوا من ثمان سنين، إلى أن توفي ليلة السبت ثاني عشرين شعبان، في منزله قرب باب الناطفانيين، وهي دار القاضي الفاضل، وصلي عليه بالجامع، ودفن بتربة له، أنشأها بالقرب من اليغمورية، وقد جاوز الثمانين سنة رحمه الله تعالى.

شيخنا المسند المعمر الرحلة: عفيف الدين

■ إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي، ثم الدمشقي الحنفي، شيخ دار الحديث الظاهرية، ولد في حدود الأربعين

وستمائة، وسمع الحديث على جماعة كثيرين، منهم يوسف بن خليل، ومجد الدين بن تيمية.

وكان شيخا حسنا، بهي المنظر سهل الاستماع، يحب الرواية، ولديه فضيلة، توفي ليلة الاثنين، ثاني عشرين رمضان، ودفن بقاسيون، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش والجامع.

وقبله بيوم توفي الصدر معين الدين

■ يوسف بن زغيب الرحبي، أحد كبار التجار الأمناء.

وفي رمضان توفي: البدر العوام: وهو

■ محمد بن علي البابا الحلبي، وكان فردا في العوم، وطيب الأخلاق، انتفع به جماعة من التجار في بحر اليمن، كان معهم فغرق بهم المركب، فلجؤوا إلى صخرة في البحر، فكانو عليها فخلصهم اللّه عز وجل على يديه واحدا واحدا إلى الساحل وكانوا ثلاثة عشر، ثم إنه غطس فاستخرج لهم أموالا من قرار البحر، بعد أن أفلسوا وكادوا أن يهلكوا، وكان فيه ديانة وصيانة، وقد قرأ القرآن، وحج عشر مرات، وعاش ثمانياً وثمانين سنة رحمه اللّه، وكان يسمع الشيخ تقي الدين بن تيمية كثيراً.

وفيه توفي: الشهاب

■ أحمد بن عثمان الأمشاطي: الأديب في الأزجال والموشحات والمواليا والدوبيت والبلاليق، وكان أستاذ أهل هذه الصناعة، مات في عشر الستين.

القاضي الإمام العالم الزاهد: صدر الدين

■ سليمان بن هلال بن شبل بن فلاح بن خصيب الجعفري الشافعي، المعروف بخطيب داريا، ولد سنة ثنتين وأربعين وستمائة، بقرية بسرا من عمل السواد، وقدم مع والده فقرأ بالصالحية القرآن على الشيخ نصر بن عبيد، وسمع الحديث، وتفقه على الشيخ محيي الدين النووي، والشيخ تاج الدين الفزاري، وتولى خطابة داريا، وأعاد بالناصرية، وتولى نيابة القضاء لابن صَصْرَى مدة، وكان متزهداً، لا يتنعم بحمام ولا كتان ولا غيره، ولم يغير ما اعتاده في البر، وكان متواضعاً، وهو الذي استسقى بالناس في سنة تسع عشرة فسقوا كما ذكرنا، وكان يذكر له نسباً إلى جعفر الطيار، بينهما ثلاثة عشر أباً ثم ولي خطابة العقيبة، فترك نيابة الحكم وقال: هذه تكفي، إلى أن توفي ليلة الخميس ثامن ذي القعدة، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته مشهودة رحمه اللّه، وتولى بعده الخطابة ولده شهاب الدين أحمد.

■ ابن صبيح المؤذن: الرئيس بالعروس بجامع دمشق مع البرهان وهو بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن صبيح بن عبد اللّه التفليسي مولاهم المقرئ المؤذن، كان من أحسن الناس صوتا في زمانه، وأطيبهم نغمة، ولد سنة اثنتين وخمسين وستمائة تقريباً، وسمع الحديث في سنة سبع وخمسين، وممن سمع عليه ابن عبد الدائم وغيرهم، من المشايخ، وحدث، وكان رجلا حسنا، أبوه مولى لامرأة اسمها شامة بنت كامل الدين التفليسي، امرأة فخر الدين الكرخي، وباشر مشارفة الجامع، وقراءة المصحف، وأذن عند نائب السلطنة مدة، وتوفي في ذي الحجة بالطواويس، وصلي عليه بجامع العقيبة، ودفن بمقابر باب الفراديس.

■ خطاب باني خان خطاب: الذي بين الكسوة وغباغب، الأمير الكبير عز الدين خطاب ابن محمود بن مرتعش العراقي، كان شيخا كبيراً، له ثروة من المال كبيرة، وأملاك وأموال، وله حمام بحكر السماق، وقد عمر الخان المشهور به بعد موته إلى ناحية الكتف المصري، مما يلي غباغب، وهو بمرج الصفر، وقد حصل الكثير من المسافرين به رفق، توفي ليلة سابع عشر ربيع الآخر، ودفن بتربته بسفح قاسيون، رحمه اللّه تعالى.

■ (خطاب بن أحمد بن أخت ابن الخطاب الرومي السيواسي).

وفي ذي القعدة منها توفي رجل آخر اسمه: ركن الدين خطاب بن الصاحب كمال الدين: أحمد ابن أخت ابن الخطاب الرومي السيواسي، له خانقاه ببلده سيواس، عليها أوقاف كثيرة، وبر وصدقة توفي وهو ذاهب إلى الحجاز الشريف بالكرك ودفن بالقرب من جعفر وأصحابه بمؤتة رحمه اللّه.

■ (ابن العطار الشيباني).

وفي العشر الأخير من ذي القعدة توفي: بدر الدين أبو عبد اللّه: محمد بن كمال الدين أحمد بن أبي الفتح بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سلمان بن فتيان الشيباني المعروف بابن العطار، ولد سنة سبعين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وكتب الخط المنسوب، واشتغل بالتنبيه، ونظم الشعر، وولي كتابة الدرج، ثم نظر الجيش، ونظر الأشراف، وكانت له حظوة في أيام الأفرم، ثم حصل له خمول قليل، وكان مترفا منعماً، له ثروة ورياسة، وتواضع، وحسن سيرة، ودفن بسفح قاسيون بتربتهم رحمه اللّه.

القاضي محيي الدين: أبو محمد

■ الحسن بن محمد بن عمار بن متوج الحارثي، قاضي الزبداني مدة طويلة، ثم ولي قضاء الكرك، وبها مات في العشرين من ذي الحجة، وكان مولده سنة خمس وأربعين وستمائة، وقد سمع الحديث واشتغل، وكان حسن الأخلاق، متواضعاً، وهو والد الشيخ جمال الدين بن قاضي الزبداني، مدرس الظاهرية رحمه اللّه.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، سوى كاتب سر دمشق شهاب الدين محمود، فإنه توفي وولي المنصب من بعده ولده الصدر شمس الدين.

وفيها تحول التجار في قماش النساء المخيط من الدهشة التي للجامع إلى دهشة سوق علي.

وفي يوم الأحد ثامن المحرم باشر مشيخة الحديث الظاهرية الشيخ شهاب الدين بن جهبل، بعد وفاة العفيف إسحاق، وترك تدريس الصلاحية بالقدس الشريف، واختار دمشق، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي أولها فتح الحمام الذي بناه الأمير سيف الدين جوبان، بجوار داره، بالقرب من دار الجالق، وله بابان أحدهما إلى ناحية مسجد الوزير، وحصل به نفع.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من صفر قدم الصاحب غبريال من مصر على البريد، متوليا نظر الدواوين بدمشق على عادته، وانفصل عنها الكريم الصغير، وفرح الناس به.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرين ربيع الأول بكرة النهار ضربت عنق ناصر بن الشرف أبي الفضل بن إسماعيل بن الهيتي بسوق الخيل على كفره، واستهانته واستهتاره بآيات اللّه، وصحبته الزنادقة كالنجم بن خلكان، والشمس محمد الباجربقي، وابن المعمار البغدادي، وكل منهم فيه انحلال وزندقة مشهور بها بين الناس.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: وربما زاد هذا المذكور المضروب العنق عليهم بالكفر، والتلاعب بدين الإسلام، والاستهانة بالنبوة والقرآن.

قال: وحضر قتله العلماء، والأكابر وأعيان الدولة.

قال: وكان هذا الرجل في أول أمره قد حفظ التنبيه في أول عمره وكان

يقرأ في الختم بصوت حسن، وعنده نباهة وفهم، وكان منزلاً في المدارس والترب، ثم إنه انسلخ من ذلك جميعه، وكان قتله عزاً للإسلام، وذلا للزنادقة وأهل البدع.

قلت: وقد شهدت قتله، وكان شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية حاضراً يومئذ، وقد أتاه، وقرعه على ما كان يصدر منه قبل قتله، ثم ضربت عنقه وأنا مشاهد ذلك.

وفي شهر ربيع الأول رسم في إخراج الكلاب من مدينة دمشق، فجعلوا في الخندق ظاهر باب الصغير من ناحية باب شرقي، الذكور على حدة، والإناث على حدة، وألزم أصحاب الدكاكين بذلك، وشددوا في أمرهم أياماً.

وفي ربيع الآخر ولي الشيخ علاء الدين المقدسي معيد البادرائية مشيخة الصلاحية بالقدس الشريف، وسافر إليها.

وفي جمادى الآخرة عزل قرطاي عن نيابة طرابلس، ووليها طينال واقر قرطاي على خبز القرماني بدمشق، بحكم سجن القرماني بقلعة دمشق.

قال البرزالي: وفي يوم الاثنين بعد العصر سادس عشر شعبان اعتقل الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين بن تيمية بقلعة دمشق، حضر إليه من جهة نائب السلطنة تنكز مشد الأوقاف، وابن الخطير أحد الحجاب بدمشق، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك، وأحضرا معهما مركوبا ليركبه، فأظهر السرور والفرح بذلك، وقال: أنا كنت منتظرا لذلك، وقال هذا فيه خير كثير، ومصلحة كبيرة، وركبوا جميعاً من داره إلى باب القلعة، وأخليت له قاعة، وأجري إليها الماء، ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم له ما يقوم بكفايته.

قال البرزالي: وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله، ومنعه من الفتيا.

وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في المنع من السفر، وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين.

قال: وفي يوم الأربعاء، منتصف شعبان، أمر قاضي القضاة الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، فإنه حبس بالقلعة، وسكنت القضية.

قال: وفي أول رمضان وصلت الأخبار إلى دمشق أنه أجريت عين ماء إلى مكة شرفها الله، وانتفع الناس بها انتفاعاً عظيماً، وهذه العين تعرف قديماً بعين باذان، أجراها جوبان من بلاد بعيدة حتى دخلت إلى نفس مكة، ووصلت إلى عند الصفا، وباب إبراهيم، واستقى الناس منها فقيرهم وغنيهم، وضعيفهم وشريفهم، كلهم فيها سواء، وارتفق أهل مكة بذلك رفقاً كثيراً، ولله الحمد والمنة.

وكانوا قد شرعوا في حفرها وتجديدها، في أول هذه السنة إلى العشر الأخر من جمادى الأولى.

واتفق أن في هذه السنة كانت الآبار التي بمكة قد يبست وقل ماؤها، وقل ماء زمزم أيضاً، فلولا أن الله تعالى لطف بالناس، بإجراء هذه القناة لنزح عن مكة أهلها، أو هلك كثير ممن يقيم بها، وأما الحجيج في أيام الموسم فحصل لهم بها رفق عظيم زائد عن الوصف، كما شاهدنا ذلك في سنة إحدى وثلاثين عام حججنا، وجاء كتاب السلطان إلى نائبه بمكة بإخراج الزيديين من المسجد الحرام، وأن لا يكون لهم فيه إمام ولا مجتمع، ففعل ذلك.

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان درس بالشامية الجوانية الشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل، وحضر عنده القاضي القزويني الشافعي وجماعة، عوضاً عن الشيخ أمين الدين سالم بن أبي الدر إمام مسجد ابن هشام توفي، ثم بعد أيام جاء توقيع بولاية القاضي الشافعي فباشرها في عشرين رمضان.

وفي عاشر شوال خرج الركب الشامي وأميره سيف الدين جوبان، وحج عامئذ القاضي شمس الدين بن مسلم قاضي قضاة الحنابلة، وبدر الدين بن قاضي القضاة جلال الدين القزويني، ومعه تحف وهدايا، وأمور تتعلق بالأمير سيف الدين أرغون نائب مصر، فإنه حج في هذه السنة، ومعه أولاده وزوجته بنت السلطان، وحج فخر الدين بن شيخ السلامية، وصدر الدين المالكي، وفخر الدين البعلبكي وغيرهم.

وفي يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة درس بالحنبلية برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي، بدلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وحضر عنده القاضي الشافعي، وجماعة من الفقهاء، وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين، وكان ابن الخطير الحاجب قد دخل على الشيخ تقي الدين قبل هذا بيوم، فاجتمع به، وسأله عن أشياء بأمر نائب السلطنة، ثم يوم الخميس دخل إليه القاضي جلال الدين بن جملة، وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج، وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية فصح إلى أن قال: وإنما المحز جعله زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع، مقطوعاً بها، فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحال والسفر إلى مجرد زيادة القبور، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة على هذا الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل بقول الرسول: «زوروا القبور، فإنها تُذَكِّرُكم الآخرة» [م (٩٧٦) بلفظ «تذكركم الموت»]، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. [الشعراء ٢٢٧].

وفي يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة فتحت المدرسة الحمصية تجاه الشامية الجوانية، ودرس بها محيي الدين الطرابلسي وكان قاضي حصن عكار ويلقب بأبي رباح وحضر عنده القاضي الشافعي.

وفي ذي القعدة سافر القاضي جمال الدين الزرعي من الأتابكية إلى مصر، ونزل عن تدريسها لمحيي الدين بن جهبل.

وفي ثاني عشر ذي الحجة درس بالنجيبية ابن قاضي الزبداني، عوضاً عن الدمشقي نائب الحكم مات بالمدرسة المذكورة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن المطهر الشيعي جمال الدين**: أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحِلِّيُّ العراقي الشيعي، شيخ الروافض بتلك النواحي، وله التصانيف الكثيرة، يقال: إنها تزيد على مائة وعشرين مجلداً، وعدتها خمسة وخمسون

مصنفا، في الفقه، والنحو، والأصول، والفلسفة، والرفض، وغير ذلك من كبار وصغار، وأشهرها بين الطلبة شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وليس بذاك الفائق، ورأيت له مجلدين في أصول الفقه على طريقة المحصول والإحكام، فلا بأس بها، فإنها مشتملة على نقل كثير وتوجيه جيد، وله كتاب منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة، خبط فيه في المعقول والمنقول، ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة، وقد انتدب للرد عليه في ذلك الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس بن تيمية في مجلدات، أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة، وهو كتاب حافل.

وولد ابن المطهر الذي لم تطهر خلائقه، ولم يتطهر من دنس الرفض، ليلة الجمعة سابع عشرين رمضان، سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتوفي ليلة الجمعة عشرين محرم من هذه السنة، وكان اشتغاله ببغداد وغيرها من البلاد، واشتغل على نصير الطوسي، وعلى غيره، ولما ترفض الملك خربندا حظي عنده ابن المطهر، وساد جداً، وأقطعه بلادا كثيرة.

الشمس الكاتب:

■ محمد بن أسد الحراني، المعروف بالنجار، كان يجلس ليكتب الناس عليه بالمدرسة القليجية، توفي في ربيع الآخر، ودفن بباب الصغير.

العز

■ حسن بن أحمد بن زفر: الإربلي ثم الدمشقي، كان يعرف طرفا صالحا من النحو، والحديث والتاريخ، وكان مقيما بدويرة حمد، صوفياً بها، وكان حسن المجالسة، أثنى عليه البرزالي في نقله، وحسن معرفته، مات بالمارستان الصغير، في جمادى الآخرة، ودفن بباب الصغير، عن ثلاث وستين سنة.

الشيخ الإمام أمين الدين

■ سالم بن أبي الدُّر: عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقي الشافعي، مدرس الشامية الجوانية، أخذها من ابن الوكيل قهراً، وهو إمام مسجد ابن هشام، ومحدث الكرسي به، كان مولده في سنة خمس وأربعين وستمائة، اشتغل وحصل، وأثنى عليه النووي وغيره، وأعاد وأفتى ودرس، وكان خبيراً بالمحاكمات، وكان فيه مروءة وعصبية لمن يقصده، توفي في شعبان، ودفن بباب الصغير.

الشيخ

■ حماد: وهو الشيخ الصالح العابد الزاهد حماد الحلبي القطان، كان كثير التلاوة والصلوات، مواظبا على الإقامة بجامع التوبة بالعقيبة، بالزاوية الغربية الشمالية، يقرئ القرآن، ويكثر الصيام، ويتردد الناس إلى زيارته، مات وقد جاوز السبعين سنة على هذا القدم، توفي ليلة الاثنين عشرين شعبان، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

الشيخ

■ قطب الدين اليونيني: وهو الشيخ الإمام، العالم بقية السلف، قطب الدين أبو الفتح موسى بن الشيخ الفقيه الحافظ الكبير شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد البعلبكي اليونيني الحنبلي، ولد سنة أربعين وستمائة، بدار الفاضل بدمشق، وسمع الكثير، وأحضره والده المشايخ، واستجاز له، وبحث واختصر مرآة الزمان للسبط، وذيل عليها ذيلا حسنا مرتباً أفاد فيه وأجاد بعبارة حسنة سهلة، بإنصاف وستر، وأتى فيه بأشياء حسنة، وأشياء فائقة رائقة.

وكان كثير التلاوة، حسن الهيئة، متقللا في ملبسه، ومأكله، توفي ليلة الخميس، ثالث عشر شوال، ودفن بباب سطحا، عند أخيه الشيخ شرف الدين رحمهما الله.

قاضي القضاة ابن مسلّم: شمس الدين أبو عبد الله

■ محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحي الحنبلي، ولد سنة ثنتين وستين وستمائة، ومات أبوه وكان من الصالحين سنة ثمان وستين، فنشأ يتيما فقيرا لا مال له، ثم اشتغل وحصل، وسمع الكثير، وانتصب للإفادة والاشتغال، فطار ذكره، فلما مات التقي سليمان سنة خمس عشرة، ولي قضاء الحنابلة، فباشره أتم مباشرة، وخرجت له تخاريج كثيرة.

فلما كانت هذه السنة خرج للحج، فتمرض في الطريق، فورد المدينة النبوية على ساكنها رسول الله ﷺ أفضل الصلاة والسلام، يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذي القعدة، فزار قبر رسول الله ﷺ، وصلى في مسجده، وكان بالأشواق إلى ذلك، وكان قد تمنى ذلك لما مات ابن نجيح، فمات في عشية ذلك اليوم ليلة الثلاثاء، وصلي عليه في مسجد رسول الله ﷺ بالروضة، ودفن بالبقيع، إلى جانب قبر شرف الدين بن نجيح، الذي كان قد غبطه بموته هناك سنة حج هو، وهو قبل هذه الحجة شرقي قبر عقيل رحمهم الله، وولي بعده القضاء عز الدين بن التقي سليمان.

القاضي نجم الدين:

■ أحمد بن عبد المحسن بن حسن بن معالي الدمشقي الشافعي، ولد سنة تسع وأربعين، واشتغل على تاج الدين الفزاري، وحّل وبرع، وولي الإعادة، ثم الحكم بالقدس الشريف، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالنجيبية، وناب في الحكم عن ابن صَصْرَى مدة، توفي بالنجيبية المذكورة، يوم الأحد ثامن عشرين ذي القعدة، وصلي عليه العصر بالجامع، ودفن بباب الصغير.

■ ابن قاضي شهبة: الشيخ الإمام العالم شيخ الطلبة ومفيدهم كمال الدين أبو محمد عبد الوهاب بن القاضي شرف الدين محمد بن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي الشهبي الشافعي، ولد بحوران، في سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وقدم دمشق، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، ولازمه وانتفع به، وأعاد بحلقته وتخرج به وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين وأخذ عنه النحو واللغة.

وكان بارعا في الفقه والنحو له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، وكان يعتكف جميع شهر رمضان، ولم يتزوج قط.

وكان حسن الهيئة والشيبة، حسن العيش والملبس، متقللا من الدنيا، له معلوم يقوم بكفايته من إعادات وفقاهات وتصدير بالجامع، ولم يدرس قط ولا أفتى، مع أنه كان ممن يصلح أن يأذن في الإفتاء، ولكنه كان يتورع عن ذلك، وقد سمع الكثير: سمع المسند للإمام أحمد وغير ذلك.

توفي بالمدرسة المجاهدية - وبها كانت إقامته - ليلة الثلاثاء حادي عشرين ذي الحجة، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى.

وفيها كانت وفاة: الشرف

■ يعقوب بن فارس الجعبري: التاجر بفرجة ابن عمود، وكان يحفظ القرآن، ويؤم بمسجد القصب، ويصحب الشيخ تقي الدين بن تيمية، والقاضي نجم الدين الدمشقي، وقد حصل أموالا، وأملاكاً وثروة، وهو والد صاحبنا الشيخ الفقيه المشتغل المحصل الزكي بدر الدين محمد، خال الولد عمر إن شاء الله.

وفيها توفي: الحاج

■ أبو بكر بن تيمراز الصيرفي: كانت له أموال كثيرة ودائرة، ومكارم وبر وصدقات، ولكنه انكسر في آخر عمره وعمر، وكاد أن ينكشف، فجبره الله بالوفاة رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة

استهلت بيوم الجمعة، والحكام والخليفة والسلطان والنواب والقضاة والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها، سوى الحنبلي كما تقدم.

وفي العشر من المحرم دخل مصر أرغون نائب مصر، فمسك في حادي عشره فحبس، ثم أطلق أياماً ثم أُطلق، وبعثه السلطان إلى نائب حلب، فاجتاز بدمشق بكرة الجمعة ثاني عشرين المحرم، فأنزله نائب السلطنة بداره المجاورة لجامعه، فبات بها ليلة ثم سافر إلى حلب، وقد كان قبله بيوم قد سافر من دمشق أُلجاي الدوادار إلى مصر، وفي صحبته نائب حلب علاء الدين ألطنبغا، معزولا عنها إلى حجوبة الحجاب بمصر.

وفي يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول قرئ تقليد قاضي قضاة الحنابلة عز الدين محمد بن التقي سليمان بن حمزة المقدسي، عوضاً عن ابن مسلم بمقصورة الخطابة، بحضرة القضاة والأعيان، وحكم وقرئ قبل ذلك بالصالحية.

وفي أواخر هذا الشهر وصل البريد بتولية ابن النقيب الحاكم بحمص قضاء القضاة بطرابلس، ونقل الذي بها إلى حمص نائبا عن قاضي دمشق، وهو ناصر بن محمود الزرعي.

وفي سادس عشرين ربيع الآخر عاد تنكز من مصر إلى الشام، وقد حصل له تكريم من السلطان.

وفي ربيع الأول حصلت زلزلة بالشام وقى الله شرها.

وفي يوم الخميس مستهل جمادى الأولى باشر نيابة الحنبلي القاضي برهان الدين الزرعي، وحضر عنده جماعة من القضاة.

وفي يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة، جاء البريد بطلب القاضي القزويني الشافعي الخطيب إلى مصر، فدخلها في مستهل رجب، فخلع عليه بقضاء قضاة مصر، مع تدريس الناصرية والصالحية، ودار الحديث الكاملية، عوضاً عن بدر الدين بن جماعة، لأجل كبر سنه، وضعف نفسه، وضرر عينيه، فجبروا خاطره، فرتب له ألف درهم، وعشرة أرادب قمح في الشهر، مع تدريس زاوية الشافعي، وأرسل ولده بدر الدين بن القزويني إلى دمشق خطيبا بالأموي، وعلى تدريس الشامية الجوانية، على قاعدة والده جلال الدين القزويني في ذلك، فخلع عليه في أواخر رجب، ثامن عشرينه، وحضر عنده الأعيان.

وفي رجب كان عرس الأمير سيف الدين قوصون الساقي الناصري، على بنت السلطان وقد كان وقتا مشهوداً، خلع على الأمراء والأكابر.

وفي صبيحة هذه الليلة عُقِدَ عَقْدُ الأمير شهاب الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، على بنت تنكز نائب الشام، وكان السلطان وكيل أبيها تنكز، والعاقد ابن الحريري، وخلع عليه، وأدخلت عليه في ذي الحجة من هذه السنة في كلفة كثيرة.

وفي رجب جرت فتنة كبيرة بالإسكندرية وذلك في سابع رجب، وذلك أن رجلا من المسلمين قد تخاصم هو ورجل من الفرنج، على باب البحر، فضرب أحدهما الآخر بنعل، فرفع الأمر إلى الوالي، فأمر بغلق باب البلد بعد العصر، فقال له الناس: إن لنا أموالا وعبيداً ظاهر البلد، وقد أغلقت الباب قبل وقته، ففتحه فخرج الناس في زحمة عظيمة، فقتل منهم نحو عشرة، ونهبت عمائم، وثياب وغير ذلك، وكان ذلك ليلة الجمعة.

فلما أصبح الناس ذهبوا إلى دار الوالي، فأحرقوها وثلاث دور لبعض الظلمة، وجرت أحوال صعبة، ونهبت أماكن، وكسرت العامة باب سجن الوالي، فخرج منه من فيه، فبلغ نائب السلطنة، فاعتقد النائب أنه السجن الذي فيه الأمراء، فأمر بوضع السيف في البلد وتخريبه، ثم إن الخبر بلغ السلطان، فأرسل الوزير طيغا الجمالي سريعا فوصل بعد يومين فضرب وصادر، وضرب القاضي ونائبه وعزلهم، وأهان خلقاً من الأكابر، وصادرهم بأموال كثيرة جداً، وعزل المتولي ثم أعيد، ثم تولى القضاء بها علم الدين الإخنائي الشافعي، الذي تولى دمشق فيما بعد، وعزل قاضي الإسكندرية المالكي ونائباه، ووضعت السلاسل في أعناقهم وأهينوا، وضرب ابن التنيسي غير مرة.

وفي يوم السبت عشرين شعبان وصل إلى دمشق قاضي قضاة حلب كمال الدين بن الزملكاني على البريد، فأقام بدمشق أربعة أيام، ثم سار إلى مصر، ليتولى قضاء قضاة الشام بحضرة السلطان، فاتفق موته قبل وصوله إلى القاهرة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سورة سبأ: ٥٤].

وفي يوم الجمعة سادس عشرين شعبان باشر صدر الدين المالكي مشيخة الشيوخ، مضافا إلى قضاء قضاة المالكية، وحضر الناس عنده، وقرئ تقليده بذلك، بعد انفصال الزرعي عنها إلى مصر.

وفي نصف رمضان وصل قاضي الحنفية بدمشق، لقضاء القضاة عماد الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد الطرسوسي، الذي كان نائبا لقاضي القضاة صدر الدين علي البصروي، فخلفه بعده في المنصب، وقرئ تقليده بالجامع، وخلع عليه، وباشر الحكم، واستناب القاضي عماد الدين بن العز، ودرس بالنورية مع القضاء، وشكرت سيرته.

وفي رمضان قدم جماعة من الأسارى مع تجار الفرنج، فأنزلوا بالمدرسة العادلية الكبيرة، واستفكوا من ديوان الأسرى بنحو من ستين ألفا، وكثرت الأدعية لمن كان السبب في ذلك.

وفي ثامن شوال خرج الركب الشامي إلى الحجاز، وأميره سيف الدين بالبان المحمدي، وقاضيه بدر الدين محمد بن محمد بن قاضي حران.

وفي شوال وصل تقليد قضاء الشافعية بدمشق لبدر الدين ابن قاضي القضاة ابن عز الدين بن الصائغ والخلعة معه، فامتنع من قبول ذلك أشد الامتناع، وصمم، وألح عليه الدولة فلم يقبل، وكثر بكاؤه، وتغير مزاجه واغتاظ، فلما أصر على ذلك راجع تنكز السلطان في ذلك.

فلما كان شهر ذي القعدة اشتهر تولية علاء الدين بن إسماعيل القونوي قضاء الشام، فسار إليها من مصر، وزار القدس، ودخل دمشق بكرة يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة، فاجتمع بنائب السلطنة بدار السعادة، ولبس الخلعة من هنالك وركب معه الحجاب والدولة إلى العادلية، فقرئ تقليده بها، وحكم بها على العادة، وفرح الناس به، وبحسن سمته وطيب لفظه، وملاحة شمائله وتودده، وولي بعده مشيخة الشيوخ بمصر مجد الدين الأقصرائي الصوفي شيخ سرياقوس

وفي يوم السبت ثالث عشرين ذي القعدة لبس القاضي محيي الدين بن فضل الله الخلعة بكتابة السر، عوضاً عن شمس الدين بن الشهاب محمود، واستمر ولده شرف الدين في كتابة الدست.

وفي هذه السنة تولى قضاء حلب، عوضاً عن ابن الزملكاني القاضي

فخر الدين بن البارزي.

وفي العشر الأول من ذي الحجة كمل ترخيم الجامع الأموي، أعني حائطه الشمالي، وجاء تنكز حتى نظر إليه فأعجبه ذلك، وشكر ناظره تقي الدين بن مراجل.

وفي يوم عيد الأضحى جاء سيل عظيم إلى مدينة بلبيس فهرب أهلها منها، وتعطلت الصلاة والأضاحي فيها، ولم ير مثله من سنين متطاولة، وخرب شيئا كثيرا من حواصلها وبساتينها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان

الأمير أبو يحيى

■ **زكريا بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي اللحياني المغربي**، أمير بلاد المغرب، ولد بتونس قبل سنة خمسين وستمائة، وقرأ الفقه والعربية، وكان ملوك تونس تعظمه وتكرمه، لأنه من بيت الملك، والإمرة والوزارة. ثم بايعه أهل تونس على الملك، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

وكان شجاعا مقداماً، وهو أول من أبطل ذكر ابن التومرت من الخطبة، مع أن جده أبا حفص الهنتاتي كان من أخص أصحاب ابن التومرت، توفي في المحرم من هذه السنة بمدينة الإسكندرية رحمه الله.

■ (ابن الحموي ضياء الدين أبو الفداء).

الشيخ الصالح العابد الناسك ضياء الدين أبو الفدا إسماعيل بن عز الدين عمر بن رضي الدين أبي الفضل المسلم بن الحسن بن نصر الدمشقي، المعروف بابن الحموي، كان هو وأبوه وجده من الكتاب المشهورين المشكورين، وكان هو كثير التلاوة، والصلاة والصيام، والبر والصدقة، والإحسان إلى الفقراء والأغنياء.

ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وخرج له البرزالي مشيخة سمعناها عليه، وكان من صدور أهل دمشق، توفي يوم الجمعة، رابع عشر صفر، وصلي عليه ضحوة يوم السبت، ودفن بباب الصغير، وحج وجاور، وأقام بالقدس مدة، مات وله ثنتان وتسعون سنة رحمه الله، وقد ذكر أن والده حين ولد له، فتح المصحف يتفاءل، فإذا قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فسماه إسماعيل، ثم ولد له آخر فسماه إسحاق، وهذا من الاتفاق الحسن، رحمهم الله تعالى.

الشيخ علي الجارقي:

■ **علي بن أحمد بن هوس الهلالي**، أصل جده من قرية آبل السوق، وأقام والده بالقدس، وحج هو مرة، وجاور بمكة سنة ثم حج، وكان رجلا صالحا مشهوراً، ويعرف بالجارقي، لأنه كان يجرف الأزقة، ويصلح الرصفان لله تعالى، وكان يكثر التهليل والذكر جهرة، وكان عليه هيبة ووقار، ويتكلم كلاما فيه تخويف وتحذير من النار، وعواقب الردى، وكان ملازماً لمجالس ابن تيمية.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء، ثالث عشرين ربيع الأول، ودفن بتربة الشيخ موفق الدين بالسفح، وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى.

الملك

■ **الكامل ناصر الدين: أبو المعالي محمد بن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك ابن السلطان الملك الصالح إسماعيل أبي الجيش ابن الملك العادل** أبي بكر بن أيوب، أحد أكابر الأمراء، وأبناء الملوك، كان من محاسن البلد ذكاء، وفطنة، وحسن عشرة، ولطافة كلام، بحيث يسرد كثيرا من الكلام بمنزلة الأمثال من قوة ذهنه، وحذاقة فهمه، وكان رئيسا من أجود الناس.

توفي عشية الأربعاء، عشرين جمادى الأولى، وصلي عليه ظهر الخميس، بصحن الجامع تحت النسر، ثم أرادوا دفنه عند جده لأمه الملك الكامل، فلم يتيسر ذلك، فدفن بتربة أم الصالح سامحه الله.

وكان له سماع كثير سمعنا عليه منه، وكان يحفظ تاريخا جيداً، وقام ولده الأمير صلاح الدين مكانه في إمرة الطبلخاناه، وجعل أخوه في عشرته، ولبسا الخلع السلطانية بذلك.

الشيخ الإمام نجم الدين:

■ **أحمد بن محمد بن أبي الحزم القرشي المخزومي القَمُولي**، كان من أعيان الشافعية، وشرح الوسيط، وشرح الحاجبية في مجلدين، ودرس وحكم بمصر، وكان محتسبا بها أيضاً، وكان مشكور السيرة فيها، وقد ولي بعده الحكم نجم الدين بن عقيل، والحسبة ناصر الدين بن فار السقوف، توفي في رجب، وقد جاوز الثمانين، ودفن بالقرافة رحمه الله.

الشيخ الصالح أبو القاسم

■ **عبد الرحمن بن موسى بن خلف الحزامي**، أحد مشاهير الصالحين بمصر، توفي بالروضة، في منتصف رجب، وحمل إلى شاطئ النيل، وصلي عليه، وحمل على الرؤوس والأصابع، ودفن عند ابن أبي جمرة، وقد قارب الثمانين، وكان ممن يقصد للزيارة رحمه الله.

القاضي عز الدين

■ **عبد العزيز بن أحمد بن عثمان بن عيسى بن عمر بن الخضر الهكاري الشافعي**، قاضي المحلة، كان من خيار القضاة، وله تصنيف على حديث المجامع في رمضان، يقال إنه استنبط فيه ألف حكم، توفي في رمضان، وقد كان حصل كتبا كثيرة جيدة، منها التهذيب لشيخنا المزي.

الشيخ كمال الدين

■ **ابن الزملكاني شيخنا الإمام العلامة كمال الدين أبو المعالي ابن الشيخ علاء الدين علي بن عبد الواحد ابن خطيب زملكا عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصاري الشافعي** ابن الزملكاني شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رياسة المذهب تدريسا، وإفتاء ومناظرة، ويقال في نسبه السماكي، نسبة إلى أبي دجانة سماك بن خرشة والله أعلم.

ولد ليلة الاثنين، ثامن شوال، سنة ست وستين وستمائة، وسمع الكثير، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وفي الأصول على القاضي بهاء الدين بن الزكي، وفي النحو على بدر الدين بن مالك وغيرهم، وبرع وحصل، وساد أقرانه من أهل مذهبه وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد في تحصيل العلم الذي أسهره، ومنعه الرقاد، وعبارته التي هي أشهى من كل شيء معتاد، وخطه الذي هو أنضر من أزاهير الوهاد.

وقد درس بعدة مدارس بدمشق، وباشر عدة جهات كبار، كنظر الخزانة، ونظر المارستان النوري، وديوان الملك السعيد، ووكالة بيت المال.

وله تعاليق مفيدة، واختيارات حميدة سديدة، ومناظرات سعيدة، ومما علقه قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي، ومجلد كبير في الرد على الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق وغير ذلك.

وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درس أحسن منها ولا أجلى من عبارته، وحسن تقريره، وجودة احترازاته، وصحة ذهنه، وقوة قريحته، وحسن نظمه، وقد درس بالشامية البرانية، والعذراوية،

والظاهرية الجوانية، والرواحية، والمسرورية، فكان يعطي كل واحدة منهن حقها، بحيث كان يكاد ينسخ بكل واحد من تلك الدروس ما قبله، من حسنه وفصاحته، ولا يهوله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء، بل كلما كان الجمع أكثر والفضلاء أكبر كان الدرس أنضر وأنظر وأبهر، وأحلى وأجلى وأنصح وأفصح.

ثم لما انتقل إلى قضاء حلب وما معه من المدارس العديدة عاملَها معاملة مثلها، وأوسع في الفضيلة جميع أهلها، وسمعوا من العلوم ما لم يسمعوا هم ولا آباؤهم.

ثم طلب إلى الديار المصرية ليولي البلاد الشامية، دار السنة النبوية، فعاجلته المنية قبل وصوله إليها، فمرض وهو سائر على البريد تسعة أيام، ثم عَقَبَ المرضَ بُحرانُ الحِمَام، فقبضه هاذم اللذات، وحال بينه وبين سائر الشهوات والإرادات، و «الأعمال بالنيات، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [خ (١)، م (١٩٠٧)].

وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متوليا أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية، فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده، فتوفي في سحر يوم الأربعاء، سادس عشر شهر رمضان، بمدينة بلبيس، وحمل إلى القاهرة، ودفن بالقرافة، ليلة الخميس، جوار قبة الشافعي، تغمده الله برحمته.

الحاجُّ عليٌّ المؤذن المشهور بالجامع الأموي الحاج

■ علي بن نوح بن أبي الفضل الكتاني، كان أبوه من خيار المؤذنين، فيه صلاح ودين، وله قبول عند الناس، وكان حسن الصوت جهيره، وفيه تودد وخدم وكرم، وحج غير مرة، وسمع من ابن أبي عمر وغيره، توفي ليلة الاثنين، ثالث ذي القعدة، وصلي عليه غدوة، ودفن بباب الصغير.

وفي ذي القعدة توفي: الشيخ فضل بن الشيخ الرجيحي التونسي: وأجلس أخوه يوسف مكانه بالزاوية.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

في ذي القعدة منها كانت وفاة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه كما ستأتي ترجمة وفاته في الوفيات إن شاء الله تعالى.

استهلت هذه السنة وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، سوى نائب مصر، وقاضي حلب.

وفي يوم الأربعاء ثاني المحرم درس بحلقة صاحب حمص الشيخ الحافظ صلاح الدين العلائي، نزل له عنها شيخنا الحافظ المزي، وحضر عنده الفقهاء والأعيان، وذكر درسا حسنا مفيداً.

وفي يوم الجمعة رابع المحرم حضر قاضي القضاة علاء الدين القونوي مشيخة الشيوخ بالسميساطية، عوضاً عن القاضي المالكي شرف الدين، وحضر عنده الفقهاء والصوفية على العادة.

وفي يوم الأحد ثامن عشر صفر درّس بالمسرورية تقي الدين عبدالرحمن بن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، عوضاً عن جمال الدين بن الشريشي، بحكم انتقاله إلى قضاء حمص، وحضر الناس عنده، وترحموا على والده.

وفي يوم الأحد خامس عشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير الكبير صاحب بلاد الروم تمرتاش بن جوبان، قاصدا إلى مصر، فخرج نائب السلطنة والجيش لتلقيه، وهو شاب حسن الصورة، تام الشكل، مليح الوجه، ولما انتهى إلى السلطان بمصر أكرمه، وأعطاه تقدمة ألف، وفرق أصحابه على الأمراء، وأكرموا إكراما زائداً.

وكان سبب قدومه إلى مصر أن صاحب العراق الملك بو سعيد كان قد قتل أخاه خواجا دمشق في شوال من السنة الماضية، فهم والده جوبان بمحاربة السلطان بو سعيد، فلم يتمكن من ذلك، وكان جوبان إذ ذاك مدبر الممالك، فخاف تمرتاش هذا عند ذلك من السلطان، ففر هاربا بدمه إلى السلطان الناصر بمصر.

وفي ربيع الأول توجه نائب الشام سيف الدين تنكز إلى الديار المصرية لزيارة السلطان فأكرمه واحترمه، واشترى في هذه السفرة دار الفلوس التي بالقرب من البزوريين والجوزية، وهي شرقيهما وقد كان سوق البزورية اليوم يسمى سوق القمح، فاشترى هذه الدار وعمرها داراً هائلة ليس بدمشق دار أحسن منها، وسماها دار الذهب، وهدم حمام سويد تلقاءها وجعله دار قرآن وحديث وجاءتَ في غاية الحسن أيضاً، ووقف عليها أماكن، ورتب فيها المشايخ والطلبة كما سيأتي تفصيله في موضعه، واجتاز في رجوعه من مصر بالقدس الشريف وزاره، وأمر ببناء حمام به، وبناء دار حديث أيضاً، به، وخانقاه كما سيأتي بيانه.

وفي أواخر ربيع الأول وصلت القناة إلى القدس الشريف التي أمر بعمارتها وتجديدها سيف الدين تنكز قطلبك، فقام بعمارتها مع ولاة تلك النواحي، وفرح المسلمون بها، ودخلت حتى إلى وسط المسجد الأقصى وعمل به بركة هائلة وهي مرخمة ما بين الصخرة والأقصى وكان ابتداء عملها من شوال من السنة الماضية.

وفي هذه المدة عمر سقوف رواقات المسجد الحرام بمكة وأبوابه، وعمرت بمكة طهّارة مما يلي باب بني شيبة.

قال البرزالي: وفي هذا الشهر كملت عمارة الحمام الذي بسوق باب توما، وله بابان.

وفي ربيع الآخر نقض الترخيم الذي بحائط جامع دمشق القبلي من جهة الغرب مما يلي باب الزيادة، فوجدوا الحائط متجافيا، فخيف من أمره، وحضر تنكز بنفسه ومعه القضاة وأرباب الخبرة، فاتفق رأيهم على نقضه وإصلاحه، وذلك يوم الجمعة بعد الصلاة، سابع عشرين ربيع الآخر، فكتب نائب السلطنة إلى السلطان يعلمه بذلك، ويستأذنه في عمارته، فجاء المرسوم بالإذن في ذلك، فشرع في نقضه يوم الجمعة، خامس عشرين جمادى الأولى، وشرعوا في عمارته يوم الأحد، تاسع عشر جمادى الآخرة، وعمل محراب فيما بين الزيادة ومقصورة الخطابة، يضاهي محراب الصحابة، ثم جدوا ولازموا في عمارته، وتبرع كثير من الناس بالعمل فيه من سائر الناس، فكان يعمل فيه كل يوم أزيد من مائة رجل، حتى كملت عمارة الجدار، وأعيدت طاقاته وسقوفه في العشرين من رجب، وذلك بهمة تقي الدين بن مراجل وهذا من العجب فإنه نقض الجدار وما يسامته من السقف، وأعيد في مدة لا يتخيل إلى أحد أن عمله يفرغ فيما يقارب هذه المدة جزماً، وساعدهم على سرعة الإعادة حجارة وجدوها في أساس الصومعة الغربية التي عند الغزالية، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة، كما في الغربية والشرقية القبلتين منه، فأبيدت الشماليتين قديما، ولم يبق منهما من مدة ألوف من السنين سوى أُسٍّ هذه المئذنة الغربية الشمالية، فكانت من أكبر العون على إعادة هذا الجدار سريعا، ومن العجب أن ناظر الجامع ابن مراجل لم ينقص أحداً من أرباب المرتبات على الجامع شيئاً مع هذه العمارة.

وفي ليلة السبت خامس جمادى الأولى وقع حريق عظيم بالقرّائين واتصل بالرماحين، واحترقت القيسارية والمسجد الذي هناك، وهلك للناس شيء كثير من الفراء والجوخ والأقمشة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة عاشره بعد الصلاة صلي على القاضي شمس الدين بن الحريري قاضي قضاة الحنفية بمصر، وصلي عليه صلاة الغائب بدمشق، وفي هذا اليوم قدم البريد بطلب برهان الدين بن عبد الحق الحنفي إلى مصر، ليلي القضاء بها، بعد ابن الحريري، فخرج مسافراً إليها، ودخل مصر في خامس عشرين جمادى الأولى، واجتمع بالسلطان، فولاه القضاء وأكرمه، وخلع عليه وأعطاه بغلة بزناري، وحكم بالمدرسة الصالحية بحضرة القضاة والحجاب، ورسم له بجميع جهات ابن الحريري.

وفي يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين بن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة.

قال البرزالي: وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها وتفرقوها بينهم.

وكان سبب ذلك أنه أجاب لما كان رد عليه التقي بن الأخنائي المالكي في مسألة الزيارة، فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله، وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرسم السلطان عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك وكان ما كان، كما ذكرنا.

وفي أواخره رسم لعلاء الدين بن القلانسي في الدست، مكان أخيه جمال الدين توقيراً لخاطره عن المباشرة، وأن يكون معلومه على قضاء العساكر والوكالة، وخلع عليهما بذلك.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرين رجب رسم للأئمة الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي بالصلاة في الحائط القبلي من الجامع الأموي، فعيِّن المحراب الجديد الذي بين الزيادة والمقصورة للإمام الحنفي، وعيِّن محراب الصحابة للمالكي وعين محراب مقصورة الخضر الذي كان يصلي فيه المالكي للحنبلي، وعوض إمام محراب الصحابة بالكلاسة، وكان قبل ذلك في حال العمارة قد بلغ محراب الحنفية من المقصورة المعروفة بهم، ومحراب الحنابلة من خلفهم في الرواق الثالث الغربي، وكانا بين الأعمدة، فقلعت تلك المحاريب، وعوضوا بالمحاريب المستقرة بالحائط القبلي، واستقر الأمر كذلك.

وفي العشرين من شعبان مسك الأمير تمرتاش بن جوبان الذي أتى هاربا إلى السلطان الناصر بمصر وجماعة من أصحابه، وحبسوا بقلعة مصر، فلما كان ثاني شوال أظهر موته، ويقال إنه قتله السلطان، وأرسل رأسه إلى بو سعيد صاحب العراق ابن خربندا ملك التتار.

وفي يوم الاثنين ثاني شوال خرج الركب الشامي وأميره فخر الدين بن محمد ابن الأمير شمس الدين لؤلؤ الحلبي أحد أمراء دمشق، وقاضيه قاضي قضاة الحنابلة عز الدين بن التقي سليمان.

وممن حج الأمير حسام الدين البشمقدار، والأمير قبجق، والأمير حسام الدين بن النجيبي، وتقي الدين بن السلعوس، وبدر الدين بن الصائغ، وابنا جهبل، والفخر المصري، والشيخ علم الدين البرزالي، وشهاب الدين الظاهري.

وقبل ذلك بيوم حكم القاضي المنفلوطي الذي كان حاكما ببعلبك بدمشق نيابة عن شيخه قاضي القضاة علاء الدين القونوي، وكان مشكور السيرة، تألم أهل بعلبك لفقده، فحكم بدمشق، عوضاً عن القونوي بسبب عزمه على الحج، ثم لما رجع الفخر من الحج عاد إلى الحكم، واستمر المنفلوطي يحكم أيضاً، فصاروا ثلاثة نواب ابن جُمْلة، والفخر المصري، والمنفلوطي.

وسافر ابن الحشيش في ثاني عشرين شوال إلى القاهرة، لينوب عن القاضي فخر الدين كاتب المماليك بالديار المصرية إلى حين رجوعه من الحجاز، فلما وصل ولي حجابة ديوان الجيش، واستمر هناك، واستقل قطب الدين ابن شيخ السلامية بنظر الجيش بدمشق على عادته.

وفي شوال خلع على أمين الملك بالديار المصرية وولي نظر الدواوين فباشره شهرا ويومين وعزل عنه.

ذكر وفاة شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية

■ (ابن تيمية، شيخ الإسلام).

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام، العالم العلم العلامة، الفقيه الحافظ، الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الإمام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد اللّه بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، بقلعة دمشق، بالقاعة التي كان محبوسا فيها، وحضر جمع كثير إلى الغاية إلى القلعة فأذن لهم في الدخول، وجلس جماعة عنده قبل الغسل، وقرؤوا القرآن، وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن، واقتصر على من يغسله، فلما فرغ من غسله أخرج، قد اجتمع الخلق بالقلعة، والطريق إلى الجامع، وامتلأ الجامع أيضاً وصحنه، والكلاسة وباب البريد، وباب الساعات إلى اللبادين والفوارة، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها، يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلي عليه أولا بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام، ثم صلي عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وحُمل من باب البريد وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن صلي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد، واشتد الزحام،، وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه، والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم، لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرءوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها، وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية، وعظم الأمر بسوق الخيل، وتضاعف الخلق، وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك، وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، فلما قضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية، فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد اللّه رحمهما اللّه.

وكان دفنه وقت العصر أو قبلها بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم، وأغلق الناس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا القليل من الناس أو من عجز لأجل الزحام عن الحضور ومع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل، وأما الرجال فحزروا بستين ألفا وأكثر إلى مئتي ألف، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، وقيل: إنّ الطاقية التي كانت على رأسه دُفع فيها خمس مئة درهم، وقيل: إنّ الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل دُفع فيه مائة وخمسون درهماً، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرع، وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية والبلد، وتردد الناس إلى قبره أياما كثيرة، ليلا ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون، ورُئيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة.

وكان مولده يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحران، سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، فسمع الحديث من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليُسر، وابن عبد، والشيخ شمس الدين الحنبلي، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين بن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان، وابن أبي بكر الهروي، والكمال عبد الرحيم، والفخر علي، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي، وخلق كثير سمع منهم الحديث، وقرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطباق والأثبات، ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقل أن سمع شيئا إلا حفظه.

ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيا كثير المحفوظ، فصار إماما في التفسير وما يتعلق به، عارفا بالفقه، فيقال: إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالما باختلاف العلماء، عالما في الأصول والفروع، والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقنا له.

وأما الحديث فكان حامل رايته، حافظا له متنا وإسنادا، مميزا بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة، وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة وبيضت وكتبت عنه، وقرئت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يكملها، وجملة كملها ولكن لم تبيض إلى الآن.

وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من فضلاء عصره، مثل القاضي الخويي، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، والقاضي الحنفي قاضي مصر ابن الحريري، وابن الزملكاني وغيرهم.

ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والفهم، والتبيين، وكتب على مصنف له هذه الأبيات الثلاثة:

ماذا يقولُ الواصفونَ لهُ ... وصفاتهُ جلَّتْ عن الحصرِ
هو حجةٌ للّه قاهرةٌ ... هو بيننا أعجُوبَةُ الدهرِ
هو آيةٌ في الخَلْقِ ظاهرةٌ ... أنوارُها أربَتْ على الفجْرِ

وهذا الثناء عليه، وكان عمره يومئذ نحو الثلاثين سنة، وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو خمسين سنة، وله فضائل كثيرة، وأسماء مصنفاته، وسيرته، وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة، وحبسه مرات، وأحواله لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع، وهذا الكتاب.

ولما مات كنت غائبا عن دمشق بطريق الحجاز الشريف، ثم بلغنا خبر موته بعد وفاته بأكثر من خمسين يوما لما وصلنا إلى تبوك، وحصل التأسف لفقده رحمه اللّه تعالى، هذا لفظه في هذا الموضع من تاريخه.

ثم ذكر الشيخ علم الدين في «تاريخه» بعد إيراد هذه الترجمة جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها، وجنازة الإمام أحمد ببغداد وشهرتها، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: سمعت أبا عبد الرحمن السيوفي يقول: حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني، فلما بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال: سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول: سمعت عبد اللّه بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز.

قال: ولا شك أن جنازة الإمام أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له، وأن الدولة كانت تحبه، والشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه اللّه توفي ببلده دمشق، وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعا لو جمعهم سلطان قاهر، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته، وانتهوا إليها، هذا مع أنه مات بالقلعة محبوسا من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان، فضلا عن أهل الإسلام، وهذه كانت جنازته.

قال: وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها، وتكلم به الحراس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة، من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيرا من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة وكان نائب السلطنة تنكز قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة، فحارت الدولة ماذا يصنعون، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزاه فيه، وجلس عنده، وفتح باب القلعة وباب القاعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من البلد والصالحية، وجلسوا حوله وهم يبكون ويثنون، وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه اللّه، وكشفت عن وجه الشيخ، ونظرت إليه وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعَذَبة مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه، وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهيا إلى آخر «اقتربت» فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد اللّه بن المحب، وعبد اللّه الزرعي الضرير وكان الشيخ رحمه اللّه يحب قراءتهما ـ فابتدآ من أول سورة الرحمن حتى ختموا القرآن، وأنا حاضر أسمع وأرى.

ثم شرعوا في غسل الشيخ، وخرجت إلى مسجد هناك، ولم يمكث عنده إلا من ساعد في غسله، منهم شيخنا الحافظ المزي، وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة،

وضج الناس بالبكاء، والثناء والدعاء، والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع، فسلكوا طريق العمادية على العادلية الكبيرة، ثم عطفوا إلى باب البريد وذلك لأن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح، ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموي، والخلائق فيه بين يدي الجنازة، وخلفها، وعن يمينها وشمالها، ما لا يحصي عدتهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ، وصاح صائح، وهكذا تكون جنائز أئمة السنة فتباكى الناس، وضجوا عند سماع هذا الصارخ، ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصا، لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة جو الجامع، وبري الأزقة والأسواق، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلّى عليه إماماً، وهو الشيخ علاء الدين بن الخراط، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع، والبلد كما ذكرنا، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس من تعجل بعد أن صلى في الجامع إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل، في مخافتة كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين، ويدعين ويقلن: هذا العالم.

وبالجملة كان يوما مشهودا لم يعهد مثله بدمشق، اللّهم إلا أن يكون في زمن بني أمية، حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة، ثم دفن عند أخيه قريبا من أذان العصر على التحديد، ولا يمكن أحد حصر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره، ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات، وما علمت أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: وهم ابن جملة، والصدر، والقفجازي، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته، فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس، وتردد شيخنا الإمام العلامة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة، وكذلك جماعة من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكبا على حماره، وعليه الجلالة والوقار رحمه الله.

وعملت له ختمات كثيرة، ورُئِيَت له منامات باهرة صالحة عجيبة، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جداً، وقد أفردت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم، وسنحصر من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه، وفضائله، وشجاعته، وكرمه ونصحه، وزهادته، وعبادته، وعلومه المتنوعة الكثيرة المحررة، ومصنفاته الكبار والصغار، التي احتوت على غالب العلوم، ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها.

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء، وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه، كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضاً مغفور له، كما في صحيح البخاري [٧٣٥٢]: «إذا اجتهد الحاكم فأصابَ فلَهُ أجْرَان، وإذا اجتهد فأخطأ فَلَهُ أَجْرٌ» فهو مأجور.

وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر.

وفي السادس والعشرين من ذي القعدة نقل نائب السلطنة سيف الدين تنكز حواصله وأمواله من دار الذهب داخل باب الفراديس إلى الدار التي أنشأها، وكانت تعرف بدار فلوس، فسميت دار الذهب، وعزل خزنداره ناصر الدين محمد بن عيسى، وولي مكانه مملوكه أباجي.

وفي ثاني عشرين القعدة جاء إلى مدينة عجلون سيل عظيم، من أول النهار إلى وقت العصر، فهدم من جامعها وأسواقها ورباعها ودورها شيئاً كثيراً، وغرق سبعة نفر، وهلك للناس شيء كثير من الأموال والغلات، والأمتعة والمواشي ما يقارب قيمته ألف ألف درهم والله أعلم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الأحد ثامن عشر ذي الحجة ألزم القاضي الشافعي الشيخ علاء الدين القونوي جماعة الشهود بسائر المراكز أن يرسلوا في عمائمهم العذبات، ليتميزوا بذلك عن عوام الناس، ففعلوا ذلك أياماً، ثم تضرروا من ذلك، فأرخص لهم في تركها، ومنهم من استمر بها.

وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أفرج عن الشيخ الإمام، العالم العلامة أبي عبد الله شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، وكان معتقلا بالقلعة أيضاً، من بعد اعتقال الشيخ تقي الدين بأيام، من شعبان سنة ست وعشرين إلى هذا الحين، وجاء الخبر بأن السلطان أفرج عن الجاولي، والأمير فرج بن قراسنقر، ولاجين المنصوري، وأحضروا بعد العيد بين يديه، وخلع عليهم.

وفيه وصل الخبر بموت الأمير الكبير جوبان، نائب السلطان بو سعيد على تلك البلاد، ووفاة شمس الدين قراسنقر المنصوري أيضاً كلاهما في ذي القعدة من هذه السنة.

وجوبان هذا هو الذي ساق القناة الواصلة إلى المسجد الحرام، وقد غرم عليها أموالا جزيلة كثيرة، وله تربة بالمدينة النبوية، ومدرسة مشهورة، وله آثار حسنة، وكان جيد الإسلام، له همة عالية، وقد دبر الممالك في أيام بو سعيد مدة طويلة على السداد، ثم أراد بو سعيد مسكه فتخلص من ذلك كما ذكرنا فيما سلف، ثم إن بو سعيد قتل ابنه خواجا دمشق في السنة الماضية، ففر ابنه الآخر تمرتاش هارباً إلى سلطان مصر، فآواه شهراً، ثم ترددت الرسل بين الملكين في قتله، فقتله صاحب مصر فيما قيل، وأرسل برأسه إليه، ثم توفي أبوه بعده بقليل، والله أعلم بالسرائر.

وأما قراسنقر المنصوري فهو من جملة كبار أمراء مصر والشام، وكان من جملة من قتل الأشرف خليل بن المنصور كما تقدم، ثم ولي نيابة مصر مدة، ثم صار إلى نيابة دمشق، ثم إلى نيابة حلب، ثم فر إلى التتر هو والأفرم والزردكاش فآواهم ملك التتار خربندا، وأكرمهم وأقطعهم بلادا كثيرة، وتزوج قراسنقر بنت هولاكو، ثم كانت وفاته بمراغة بلده، التي كان حاكما بها في هذه السنة، وله نحو تسعين سنة، والله أعلم.

ومن توفي فيها من الأعيان

شيخ الإسلام العلامة

■ تقي الدين بن تيمية كما تقدم ذكر ذلك في الحوادث، وسنفرد له ترجمة على حدة إن شاء الله تعالى.

الشريف العالم الزاهد المحدث: أبو إسحاق

■ **إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن العلوي الحسيني، الغرّافي الإسكندري الشافعي**، سمع الكثير، وحفظ الوجيز في الفقه، والإيضاح في النحو، وكان زاهدا، متقللا من الدنيا، وبلغ تسعين سنة وعقله وعلمه

وذهنه ثابت متيقظ، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وتوفي يوم الجمعة خامس المحرم، ودفن بالإسكندرية بين الماوين رحمه الله.

الشمس

■ محمد بن عيسى التَّكْرُوري: كانت فيه شهامة وصرامة، وكان يكون بين يدي الشيخ تقي الدين بن تيمية كالمنفذ لما يؤمر به وينهى عنه، ويرسله إلى الأمراء وغيرهم في الأمور المهمة، وله معرفة وفهم بتبليغ رسالته على أتم الوجوه، توفي في الخامس من صفر بالقبيبات، ودفن عند الجامع الكريمي، رحمه الله تعالى.

الشيخ الصالح

■ أبو بكر بن شرف بن محسن بن معن بن عمار الصالحي، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وسمع الكثير صحبة الشيخ تقي الدين بن تيمية والمزي.

وكان ممن يحب الشيخ تقي الدين، وكان معهما كالخادم لهما، وكان فقيراً ذا عيال، يتناول من الزكاة والصدقات ما يقوم بأوده، وأقام في آخر عمره بحمص.

وكان فصيحا مفوها، له تعاليق وتصانيف في الأصول وغيرها، وكان له عبادة، وفيه خير وصلاح، وكان يتكلم على الناس بعد صلاة الجمعة إلى العصر من حفظه، وقد اجتمعت به مرة صحبة شيخنا المزي حين قدم من حمص، فكان قوي العبارة، فصيحها، متوسطا في العلم، له ميل إلى التصوف، والكلام في الأحوال والأعمال، والقلوب وغير ذلك، وكان يكثر ذكر الشيخ تقي الدين بن تيمية، توفي بحمص.

في الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، وقد كان الشيخ يحض الناس على الإحسان إليه، وكان يعطيه ويرفده.

■ ابن الدواليبي البغدادي: الشيخ الصالح، العالم العابد، الرحلة المسند المعمر، عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن بن أبي الحسن بن عبد الغفار البغدادي الأزجي الحنبلي، المعروف بابن الدواليبي، شيخ دار الحديث المستنصرية، ولد في ربيع الأول، سنة ثمان وثلاثين وستمائة وسمع الكثير وله إجازات عالية، واشتغل بحفظ الخرقي، وكان فاضلا في النحو وغيره، وله شعر حسن.

وكان رجلا صالحا، جاوز التسعين، وصار رحلة العراق، وتوفي يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى، ودفن بمقبرة الإمام أحمد في مقابر الشهداء رضي الله عنهم رحمه الله، وقد أجازني فيمن أجاز من مشايخ بغداد، ولله الحمد.

قاضي القضاة شمس الدين

■ ابن الحريري: أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن عبد الوهاب، الأنصاري الحنفي، ولد سنة ثلاث وخمسين، وسمع الحديث، واشتغل، وقرأ الهداية.

وكان فقيها جيداً، ودرس بأماكن كثيرة بدمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية، فاستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض، لا يقبل من أحد هدية، ولا تأخذه في الحكم لومة لائم.

وكان يقول: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟

وقال لبعض أصحابه: أتحب الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم، قال: والله لقد أحببت شيئا مليحا.

توفي رحمه الله يوم السبت، رابع جمادى الآخرة، ودفن بالقرافة، وكان قد عين لمنصبه القاضي برهان الدين بن عبد الحق، فنفذت وصيته بذلك، وأرسل إليه إلى دمشق فأحضر، فباشر الحكم بعده وجميع جهاته.

■ (أحمد بن محمد بن جبارة بن عبد الولي المرداوي).

الشيخ الإمام العالم المقرئ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام تقي الدين محمد بن جبارة بن عبد الولي بن جبارة المقدسي المرداوي الحنبلي، شارح الشاطبية، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الكثير، وعني بفن القراءات فبرز فيه، وانتفع الناس به، وقد أقام بمصر مدة، واشتغل بها على القرافي في أصول الفقه، وتوفي بالقدس، رابع رجب رحمه الله، وكان يعد من الصلحاء الأخيار، سمع عن خطيب مردا وغيره.

■ ابن العاقولي البغدادي: الشيخ الإمام العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن حماد بن ثابت الواسطي العاقولي، ثم البغدادي الشافعي، مدرس المستنصرية مدة طويلة، نحواً من أربعين سنة، وباشر نظر الأوقاف، وعين لقضاء القضاة في وقت.

ولد ليلة الأحد، عاشر رجب، سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث، وبرع واشتغل، وأفتى من سنة سبع وخمسين إلى أن مات، وذلك مدة إحدى وسبعين سنة، وهذا شيء غريب جداً.

وكان قوي النفس، له وجاهة في الدولة، فكم كشف كربة عن الناس بسعيه وقصده.

توفي ليلة الأربعاء، رابع عشرين من شوال، وقد جاوز التسعين سنة، ودفن بداره، وكان قد وقفها على شيخ وعشرة صبيان يسمعون القرآن ويحفظونه، ووقف عليها أملاكه كلها، تقبل الله منه ورحمه، ودرس بعده بالمستنصرية قاضي القضاة قطب الدين.

الشيخ الصالح العالم العابد التاجر البارّ شمس الدين

■ محمد بن داود بن محمد بن مُنتاب، السلامي البغدادي، أحد ذوي اليسار، وله برٌّ تام بأهل العلم، ولا سيما أصحاب الشيخ تقي الدين، وقد وقف كتبا كثيرة، وحج مرات، وتوفي ليلة الأحد، رابع عشرين ذي القعدة، بعد وفاة الشيخ تقي الدين بأربعة أيام، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة، ودفن بباب الصغير، رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي هذه الليلة توفيت الوالدة

■ مريم بنت فرج بن مفرج بن علي من قرية كان الوالد خطيباً بها، وهي مجيدل القرية، سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وصلي عليها بعد الجمعة، ودفنت بالصوفية، شرقي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة

استهلت والخليفة والسلطان والحكام هم المباشرون في التي قبلها، غير أن قطب الدين بن شيخ السلامية اشتغل بنظر الجيش.

وفي المحرم طلب القاضي محيي الدين بن فضل الله كاتب سر دمشق، وولده الصدر شهاب الدين، وشرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى مصر على البريد، فباشر القاضي الصدر الكبير محيي الدين المذكور كتابة السر بها، عوضاً عن علاء الدين بن الأثير لمرض اعتراه، وأقام عنده ولده شهاب الدين، وأقبل شرف الدين بن الشهاب محمود إلى دمشق على كتابة السر، عوضاً عن ابن فضل الله.

وفيه ذهب ناصر الدين مشد الأوقاف ناظراً على القدس والخليل، فعمر هنالك عمارات كثيرة لملك الأمراء تنكز، وفتح في الأقصى شباكين عن يمين المحراب وشماله، وجاء الأمير نجم الدين داود بن محمد بن أبي

بكر بن محمد بن يوسف بن الزيبق من شد الدواوين بحمص إلى شدها بدمشق، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من صفر كمل ترخيم الحائط القبلي من جامع دمشق، وبسط الجامع جميعه، وصلى الناس الجمعة به من الغد، وفتح باب الزيادة، وكان له أياما مغلقا، وذلك في مباشرة الصدر تقي الدين بن مراجل.

وفي ربيع الآخر قدم من مصر أولاد الأمير شمس الدين قراسنقر إلى دمشق، فسكنوا في دار أبيهم داخل باب الفراديس، في دهليز المقدمية، وأعيدت عليهم أملاكهم المخلفة عن أبيهم، وكانت تحت الحوطة، فلما مات في تلك البلاد أفرج عنها أو أكثرها.

وفي يوم الجمعة آخر شهر ربيع الآخر أنزل الأمير جوبان وولده من قلعة المدينة النبوية، وهما ميتان مصبران في توابيتهما، فصلي عليهما بالمسجد النبوي، ثم دفنا بالبقيع عن مرسوم السلطان، وكان مراد جوبان أن يدفن في مدرسته فلم يمكن من ذلك.

وفي هذا اليوم صلي بالمدينة النبوية على الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وعلى القاضي نجم الدين البالسي المصري صلاة الغائب.

وفي يوم الاثنين منتصف جمادى الآخرة درس القاضي شهاب الدين أحمد بن جهبل بالمدرسة البادرائية، عوضاً عن شيخنا برهان الدين الفزاري توفي إلى رحمة الله تعالى، وأخذ مشيخة دار الحديث منه حين ولّي الباذرائية الحافظ شمس الدين الذهبي، وحضرها في يوم الأربعاء سابع عشره، ونزل عن خطابة كفر بطنا للشيخ جمال الدين المسلاّتي المالكي، فخطب بها يوم الجمعة تاسع عشره.

وفي أواخر هذا الشهر قدم نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون إلى دمشق قاصداً باب السلطان، فتلقاه نائب دمشق، وأنزله بداره التي عند جامعه، ثم سار نحو مصر، فغاب نحواً من أربعين يوماً، ثم عاد راجعاً إلى نيابة حلب.

وفي عاشر رجب طلب الصاحب تقي الدين بن عمر ابن الوزير شمس الدين بن السلعوس إلى مصر، فولي نظر الدواوين بها حتى مات عن قريب.

وخرج الركب يوم السبت تاسع شوال، وأميره سيف الدين بلطي، وقاضيه شهاب الدين القيمري، وفي الحجاج زوجة ملك الأمراء تنكز، وفي خدمتها الطواشي طواشي شبل الدولة كافور، وصدر الدين المالكي، وصلاح الدين ابن أخي الصاحب تقي الدين توبة، وأخوه شرف الدين، والشيخ علي المغربي، والشيخ عبد الله الضرير وجماعة.

وفي بكرة الأربعاء ثالث شوال جلس القاضي ضياء الدين علي بن سليم بن ربيعة للحكم بالعادلية الكبيرة، نيابة عن قاضي القضاة القونوي، وعوضاً عن الفخر المصري بحكم نزوله عن ذلك، وإعراضه عنه تاسع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي يوم الجمعة سادس ذي القعدة بعد أذان الجمعة صعد إلى منبر جامع الحاكم بمصر شخص من مماليك الجاولي يقال له أرضي فادعى أنه المهدي، وسجع سجعات يسيرة على رأي الكهان، فأنزل في شرٍّ خيبةٍ، وذلك قبل حضور الخطيب بالجامع المذكور.

وفي ذي القعدة وما قبله وما بعده من أواخر هذه السنة وأوائل الأخرى وسعت الطرقات والأسواق داخل دمشق وخارجها، مثل سوق السلاح، والرصيف، والسوق الكبير، وباب البريد ومسجد القصب إلى الزنجبيلية، وخارج باب الجابية إلى مسجد الذبان، وغير ذلك من الأماكن التي كانت تضيق عن سلوك الناس، وذلك بأمر تنكز، وأمر بإصلاح القنوات، واستراح الناس من ترشيش الماء عليهم بالنجاسات.

ثم في العشر الأخير من ذي الحجة رسم بقتل الكلاب، فقتل منهم شيء كثير جداً، ثم جمعوا خارج باب الصغير مما يلي باب كيسان في الخندق، وفرق بين الذكور والإناث منهم ليموتوا سريعا، ولا يتوالدوا، وكانت الجيف والميتات تنقل إليهم، فاستراح الناس من النجاسة من الماء والكلاب، وتوسعت لهم الطرقات.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة حضر مشيخة الشيوخ بالسميساطية قاضي القضاة شرف الدين المالكي، بعد وفاة قاضي القضاة القونوي الشافعي، وقرئ تقليده بالمشيخة بها، وحضره الأعيان وأعيد إلى ما كان عليه.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام العالم الزاهد مفتي المسلمين: نجم الدين أبو عبد الله

■ **محمد بن عقيل بن أبي الحسن بن عقيل البالسي الشافعي** شارح التنبيه، ولد سنة ستين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل بالفقه وغيره من فنون العلم، فبرع فيها، ولازم ابن دقيق العيد، وناب عنه في الحكم، ودرس بالمعزية والطيبرسية وجامع مصر، وكان مشهورا بالفضيلة والديانة، وملازمة الاشتغال، توفي ليلة الخميس رابع عشر المحرم، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة، رحمه الله.

الأمير سيف الدين

■ **قطلوبك الشنكير الرومي**: كان من أكابر الأمراء، وولي الحجوبية في وقت، وهو الذي عمر القناة بالقدس، توفي يوم الاثنين، سابع ربيع الأول، ودفن بتربته شمال باب الفراديس، وهي حسنة مشهورة، وحضر جنازته بسوق الخيل النائب والأمراء.

■ **(أحمد بن أبي الخير منصور الشماخي)**.

محدث اليمن: شرف الدين أحمد بن فقيه زبيد أبي الخير بن منصور الشماخي المذحجي، روى عن المكيين وغيرهم، وبلغت شيوخه خمسمائة أو أزيد، وكان رحلة تلك البلاد ومفيدها الخير، وكان فاضلا في صناعة الحديث، والفقه وغير ذلك، توفي في ربيع الأول من هذه السنة.

نجم الدين أبو الحسن

■ **علي بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد أبو محمد بن المسلم بن الحسن بن هلال بن الحسن بن عبد الله بن محمد الأزدي** أحد رؤساء دمشق المشهورين، له بيت كبير، ونسب عريق، ورياسة باذخة، وكرم زائد، باشر نظر الأيتام مدة، وسمع الكثير وحدث، وكانت له فضائل وفوائد، وله الثروة الكثيرة.

ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، ومات يوم الاثنين، ضحوة خامس ربيع الآخر، وصلي عليه بعد الظهر بالأموي، ودفن بسفح قاسيون، بتربة أعدها لنفسه، وقبر أرصده عنده، وكتب على قبره ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]، وسمعنا عليه الموطأ وغيره.

الأمير

■ **بكتمر الحاجب**: صاحب الحمام المشهور خارج باب النصر، في طريق مقابر الصوفية من ناحية الميدان، كانت وفاته بالقاهرة، في عشرين

ربيع الآخر، ودفن بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره هناك.

الشيخ شرف الدين

■ عيسى بن محمد بن قراجا بن سليمان: السهروردي الصوفي، الواعظ، له شعر، ومعرفة بالألحان والأنغام، ومن شعره قوله:

بشراكَ يا سعدُ هذا الحي قد بانا فحُلُّها تستطيل الأيك والبانا
منازلٌ ما وردنا طيبَ موردها حتى شربنا كؤوس الموتِ ألوانا
متنا غراماً وشوقاً في المسير لها فَمذْ وافى نسيم اللُّقا والقربِ أحيانا

توفي في ربيع الآخر.

شيخنا العالم العلامة

■ برهان الدين الفزاري: هو الشيخ الإمام، العالم العلامة، شيخ المذهب، وعلمه، ومفيد أهله، شيخ الإسلام مفتي الفرق، بقية السلف برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام المقرئ المفتي برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري البدري الشافعي، ولد في ربيع الأول سنة ستين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل على أبيه، وأعاد في حلقته وبرع وساد أقرانه، وسائر أهل زمانه من أهل مذهبه في دراية المذهب، ونقله وتحريره، ثم كان في منصب أبيه في التدريس بالباذرائية، وأشغل الطلبة بالجامع الأموي، فانتفع به المسلمون، وقد عرضت عليه المناصب الكبار فأباها، فمن ذلك أنه باشر الخطابة بعد عمه العلامة شرف الدين مدة، ثم تركها وعاد إلى الباذرائية، وعرض عليه قضاء قضاة الشام بعد ابن صَصْرَى، وألح عليه نائب الشام بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل، وصمم وامتنع أشد الامتناع.

وكان مقبلا على شأنه، عارفا بزمانه، مستغرقا أوقاته في الاشتغال والعبادة ليلا ونهاراً، كثير المطالعة وإسماع الحديث.

وقد سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره، وكان يدرس بالمدرسة المذكورة، وله تعليق كبير على التنبيه، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وله مصنفات في غير ذلك كبار.

وبالجملة فلم أر شافعيا من مشايخنا مثله، وكان رحمه الله حسن الشكل، عليه البهاء والجلالة والوقار، حسن الأخلاق، فيه حدة ثم يعود قريبا، وكرمه زائد، وإحسانه إلى الطلبة كثير، وكان لا يقتني شيئا، بل يصرف مرتبه وجامكية مدرسته في مصالحه، وقد درس بالباذرائية من سنة تسعين وستمائة إلى عامه هذا.

توفي بكرة يوم الجمعة، سابع جمادى الأولى، بالمدرسة المذكورة، وصلي عليه عقب الجمعة بالجامع، وحملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل، وكانت حافلة، ودفن عند أبيه وعمه وذويه، بباب الصغير رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع: مجد الدين

■ إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الحراني الحنبلي: ولد سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقرأ القراءات وسمع الحديث في دمشق حين انتقلوا مع أهله إليها سنة إحدى وسبعين، واشتغل على الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، ولازمه وانتفع به، وبرع في الفقه، وصحة النقل، وكثرة الصمت عما لا يعنيه، ولم يزل مواظبا على جهاته ووظائفه لا ينقطع عنها إلا من عذر شرعي، إلى أن توفي ليلة، الأحد تاسع جمادى الأولى ودفن بباب الصغير، رحمه الله تعالى.

وفي هذا الحين توفي:

الصاحب شرف الدين

■ يعقوب بن عبد الكريم: الذي كان ناظر الدواوين بحلب، ثم انتقل إلى نظرها بطرابلس، توفي بحماة.

وكان محبا للعلماء وأهل الخير، وفيه كرم وإحسان، وهو والد القاضي ناصر الدين كاتب السر بدمشق، وقاضي العساكر الحلبية، والشيخ بالسميساطية، ومدرس الأسدية بحلب، والناصرية والشامية والجوانية بدمشق.

القاضي معين الدين:

■ هبة الله بن علم الدين مسعود بن أبي المعالي عبد الله بن أبي الفضل بن الحشيش، الكاتب وناظر الجيش بمصر في بعض الأحيان، ثم بدمشق مدة طويلة مستقلا، ومشاركا لقطب الدين ابن شيخ السلامية، وكان خبيرا بذلك يحفظه على ذهنه، وكانت له يد جيدة في العربية، والأدب والحساب، وله نظم جيد، وفيه تودد وتواضع.

توفي بمصر، في نصف جمادى الآخرة، ودفن بتربة الفخر كاتب المماليك.

قاضي القضاة وشيخ الشيوخ علاء الدين أبو الحسن

■ علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي الشافعي، ولد بمدينة قونية، في سنة ثمان وستين وستمائة تقريبا، واشتغل هناك، وقدم دمشق سنة ثلاث وتسعين، وهو معدود من الفضلاء، فازداد بها اشتغالا، وسمع الحديث، وتصدر للاشتغال بجامعها، ودرس بالإقبالية، ثم سافر إلى مصر فدرس بها في عدة مدارس كبار.

وولي مشيخة الشيوخ بها وبدمشق، ولم يزل يشتغل بها، وينفع الطلبة إلى أن قدم دمشق قاضيا عليها، في سنة سبع وعشرين.

وله تصانيف في الفقه وغيره، وكان يحرز علوما كثيرة منها النحو والتصريف والأصلان والفقه وله معرفة جيدة بكشاف الزمخشري، وفهم الحديث، وفيه إنصاف كثير، وأوصاف حسنة، وتعظيم لأهل العلم، وخرجت له مشيخة سمعناها عليه، وكان يتواضع لشيخنا المزي كثيرا، توفي ببستانه بالسهم يوم سبت، بعد العصر رابع عشر ذي القعدة، وصلي عليه من الغد، ودفن بسفح قاسيون سامحه الله تعالى.

الأمير حسام الدين

■ لاجين المنصوري الحسامي: ويعرف بلاجين الصغير، ولي البر بدمشق مدة، ثم نيابة غزة، ثم نيابة البيرة، وبها مات في ذي القعدة، ودفن هناك، وكان ابتنى تربة لزوجته، ظاهر باب شرقي، فلم يتفق دفنه بها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

■ (حمزة بن أسعد بن المظفر بن أسعد ابن القلانسي).

الصاحب عز الدين أبو يعلى: حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين أبي غالب المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن العميد أبي يعلى بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار.

ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الحديث من جماعة، ورواه وسمعنا عليه، وله رياسة باذخة، وأصالة كثيرة، وأملاك هائلة كافية لما يحتاج إليه من أمور الدنيا، ولم يزل معه صناعة الوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان، ثم بالوزارة في سنة عشر كما تقدم، ثم عزل، وقد صودر في بعض الأحيان، وكانت له مكارم على الخواص والكبار، وله إحسان إلى

الفقراء، والمحتاجين، ولم يزل معظما وجيها عند الدولة من النواب والملوك والأمراء وغيرهم إلى أن توفي ببستانه، ليلة السبت سادس ذي الحجة، وصلي عليه من الغد، ودفن بتربته بسفح قاسيون، وله في الصالحية رباط حسن بمئذنة، وفيه دار حديث، وبر وصدقة، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمائة

استهلت بالأربعاء والحكام بالبلاد هم المذكورون بالتي قبلها، سوء الشافعي فإنه توفي، وولي مكانه في رابع المحرم منها علم الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي الأخنائي الشافعي، وقدم دمشق في الرابع والعشرين منه، صحبة نائب السلطنة تنكز، وقد زار القدس، وحضر معه تدريس التنكزية التي أنشأها بها، ولما قدم دمشق نزل بالعادلية الكبيرة على العادة، ودرس بها وبالغزالية، واستمر بنيابة المنفلوطي، ثم استناب زين الدين بن المرحل.

وفي صفر باشر شرف الدين محمود بن الخطير شد الأوقاف، وانفصل عنها نجم الدين بن الزيبق إلى ولاية نابلس.

وفي يوم السبت الحادي والعشرين من صفر حكم الشيخ زين الدين محمد بن علم الدين عبد الله بن الشيخ زين الدين عمر بن المرحل نيابة عن قاضي القضاة علم الدين الأخنائي بالعادلية.

وفي ربيع الآخر شرع بترخيم الجانب الشرقي من الأموي، ليُشبه الجانب الغربي، وشاور ابن مراجل النائب والقاضي على جمع الفصوص من سائر الجامع في الحائط القبلي، فرسما له بذلك.

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول أقيمت الجمعة في إيوان الشافعية، بالمدرسة الصالحية بمصر، وكان الذي أنشأ ذلك الأمير جمال الدين نائب الكرك، بعد أن استفتى العلماء في ذلك.

وفي ربيع الآخر تولى القضاء بحلب شمس الدين بن النقيب، عوضاً عن فخر الدين بن البارزي توفي، وولي شمس الدين بن المجد البعلبكي قضاء طرابلس، عوضاً عن ابن النقيب.

وفي آخر جمادى الأولى باشر نيابة الحكم عن الأخنائي محيي الدين بن جهبل، عوضاً عن المنفلوطي توفي.

وفي هذا الشهر وقف الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الناصري مدرسة على الحنفية، وفيها صوفية أيضاً، ودرس بها القاضي علاء الدين بن التركماني، وسكنها الفقهاء.

وفي جمادى الآخرة زينت البلاد المصرية والشامية، ودقت البشائر بسبب عافية السلطان من وقعة انصدعت منها يده، وخلع على الأمراء والأطباء بمصر، وأطلقت الحبوس.

وفي جمادى الآخرة قدم على السلطان رسلاً من الفرنج يطلبون منه بعض البلاد الساحلية فقال لهم: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، ثم سيرهم إلى بلادهم خاسئين.

وفي يوم الأحد سادس رجب حضر الدرس الذي أنشأه القاضي فخر الدين كاتب المماليك على الحنفية بمحرابهم بجامع دمشق، ودرس به الشيخ شهاب الدين ابن قاضي الحصن، أخو قاضي القضاة برهان الدين بن عبد الحق بالديار المصرية، وحضر عنده القضاة والأعيان، وانصرفوا من عنده إلى عند ابن أخيه صلاح الدين بالجوهرية ودرس بها، عوضاً عن عمه شمس الدين بن الزكي نزل له عنها.

وفي آخر رجب خطب بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين أُلماس الحاجب ظاهر القاهرة بالشارع، وخطب بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين قوصون بين جامع طولون والصالحية، يوم الجمعة حادي عشر رمضان، وحضر السلطان وأعيان الأمراء وتولى الخطبة يومئذ قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي، وخلع عليه خلعة سنية وبغلة واستقر في خطابته فخر الدين بن شكر.

وخرج الركب الشامي يوم السبت، حادي عشر شوال، وأميره سيف الدين الموساوي، صهر بلبان البيري، وقاضيه شهاب الدين بن المجد عبد الله مدرس الإقبالية، ثم تولى قضاء القضاة كما سيأتي.

وممن حج في هذه السنة رضي الدين المنطيقي الحنفي والشيخ نور الأردبيلي شيخ الجاروخية، وصفي الدين بن الحريري، وشمس الدين خطيب يبرود، والشيخ محمد النيرباني وغيرهم، فلما قضوا مناسكهم رجعوا إلى مكة لطواف الوداع، فبينما هم في وقت سماع الخطبة إذ سمعوا جلبة الخيل من بني حسن وعبيدهم، يحطمون الناس في المسجد الحرام، فثار إلى قتالهم الأتراك، فاقتتلوا فقتل أمير من الطبلخاناه بمصر، يقال له سيف الدين الدمُر أمير جندار وابنه خليل، ومملوك له، وأمير عشرة يقال له بن التاجي، وجماعة من الرجال والنساء، ونهبت أموال كثيرة ووقعت خبطة عظيمة في المسجد وتهارب الناس إلى منازلهم بأبيار الزاهر وما كادوا يصلون إليها وما أكملت الجمعة إلا بعد جهد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، واجتمعت الأمراء كلهم على الرجعة إلى مكة، للأخذ بالثأر منهم، ثم كروا راجعين، وتبعهم العبيد حتى وصلوا إلى مخيم الحجيج، وكادوا ينهبون الناس عامة جهرة، وصار أهل البيت في آخر الزمان يصدون الناس عن المسجد الحرام، وبنو الأتراك هم الذين ينصرون الإسلام وأهله، ويكفون الأذية عنهم بأنفسهم وأموالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وممن توفي فيها من الأعيان

علاء الدين بن الأثير: كاتب السر بمصر.

■ علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي الأصل، ثم المصري، كانت له حرمة ووجاهة، وأموال وثروة، ومكانة عند السلطان، حتى ضربه الفالج في آخر عمره، فانعزل عن الوظيفة، وباشرها ابن فضل الله في حياته توفي في منتصف المحرّم.

الوزير العالم أبو القاسم

■ محمد بن محمد بن سهل بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي، من بيت الرياسة والحشمة ببلاد المغرب، قدم علينا إلى دمشق، في جمادى الأولى، سنة أربع وعشرين، وهو بعزم الحج، فسمعت بقراءته صحيح مسلم في تسعة مجالس، على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني، قراءة صحيحة.

ثم كانت وفاته في القاهرة، في ثاني عشرين المحرم، وكانت له فضائل كثيرة في الفقه، والنحو، والتاريخ، والأصول.

وكان عالي الهمة، شريف النفس، محترما ببلاده جداً، بحيث إنه يولي الملوك ويعزلهم، ولم يل هو مباشرة شيء، ولا أهل بيته، وإنما كان يلقب بالوزير مجازاً.

■ (محمد بن شرف الدين بن حسين بن غيلان البعلبكي).

شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح العابد شرف الدين أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي، إمام مسجد السلالين بدار البطيخ العتيقة.

سمع الحديث وأسمعه، وكان يقرئ القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت القرآن، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

وكان من الصالحين الكبار، والعباد الأخيار، توفي يوم السبت، سادس صفر، وصلي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة.

وفي هذا الشهر ـ أعني صفر ـ كانت وفاة والي القاهرة قُدَيدار، وله آثار غريبة ومشهورة.

■ بهادر آص الأمير الكبير: رأس ميمنة الشام، سيف الدين بهادر آص المنصوري، أكبر أمراء دمشق، وممن طال عمره في الحشمة والثروة، وهو ممن اجتمعت فيه الآية الكريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ الآية [آل عمران: ١٤].

وقد كان محببا إلى العامة، وله بر وصدقة وإحسان.

توفي ليلة الثلاثاء تاسع عشر صفر بداره داخل باب توما المشهورة وحضر نائب السلطنة والأمراء جنازته ، ودفن بتربته خارج باب الجابية، وهي مشهورة أيضا.

الحجّار

■ ابن الشحنة: الشيخ الكبير، المسند المعمر الرحلة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن بن علي بن بيان الدَّيْرَمقْرنيُّ ثم الصالحي الحجار، المعروف بابن الشحنة.

سمع البخاري على الزبيدي، سنة ثلاثين وستمائة بقاسيون، وإنما ظهر سماعه سنة ست وسبعمائة، ففرح بذلك المحدثون، وأكثروا السماع عليه، فقرئ البخاري عليه نحوا من ستين مرة وغيره، وسمعنا عليه بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات، نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع، وسماعه من الزبيدي وابن اللَّتّي، وله إجازة من بغداد، فيها مائة وثمانية وثلاثون شيخا من العوالي المسندين، وقد مكث مدة مقدم الحجارين نحواً من خمس وعشرين سنة، ثم كان يخبط في آخر عمره، واستقرت عليه جامكيته لما اشتغل بإسماع الحديث، وقد سمع عليه السلطان الملك الناصر، وخلع عليه، وألبسه الخلعة بيده، وسمع عليه من أهل الديار المصرية والشامية أمم لا يحصون كثرة، وانتفع الناس بذلك.

وكان شيخا حسنا، بهي المنظر، سليم الصدر، ممتعا بحواسه وقواه، فإنه عاش مائة سنة محققا، وزاد عليها، لأنه سمع البخاري من الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة، وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمائة في تاسع صفر بجامع دمشق، وسمعنا عليه يومئذ ولله الحمد.

ويقال: إنه أدرك موت المعظم عيسى بن العادل لما توفي، والناس يسمعهم يقولون مات المعظم، وقد كانت وفاة المعظم في سنة أربع وعشرين وستمائة.

وتوفي الحجار يوم الاثنين، خامس عشرين صفر من هذه السنة، وصلي عليه بالجامع المظفري يوم الثلاثاء، ودفن بتربة له، عند زاوية الرومي بجوار، جامع الأفرم، وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

الشيخ نجم الدين

■ عبد الرحيم بن عبد الرحمن: أبو نصر الموصلي، المعروف بابن الشحام، اشتغل ببلده، ثم سافر، وأقام بمدينة سراي من مملكة أزبك، ثم قدم دمشق في سنة أربع وعشرين، فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروخية، وأضيف إلى مشيخة رباط القصر، ثم نزل عن ذلك لزوج ابنته نور الدين الأردبيلي، توفي في ربيع الأول، وكان يعرف طرفا من الفقه والطب.

الشيخ

■ إبراهيم الهدمة: أصله كردي من بلاد الشرق، فقدم الشام، وأقام بين القدس والخليل، في أرض كانت مواتا، فأحياها وغرسها، وزرع فيها أنواعا، وكان يقصد للزيارة، ويحكي الناس عنه كرامات صالحة، وقد بلغ مائة سنة، وتزوج في آخر عمره، ورزق أولادا صالحين، توفي في جمادى الآخرة رحمه الله.

الست صاحبة التربة بباب الخواصين الخوندة المعظمة المحجبة المحترمة

■ ستيتة بنت الأمير سيف الدين كوكاي المنصوري، زوجة نائب الشام تنكز، توفيت بدار الذهب، وصلي عليها بالجامع، ثالث رجب، ودفنت بالتربة التي أمرت بإنشائها بباب الخواصين، وفيها مسجد، وإلى جانبها رباط للنساء، ومكتب للأيتام، وفيها صدقات وبر وصلات، وقراء عليها، كل ذلك أمرت به، وكانت قد حجت في العام الماضي، رحمها الله.

قاضي قضاة طرابلس: شمس الدين

■ محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي المعروف بابن المجد الشافعي، اشتغل ببلده، وبرع في فنون كثيرة، وأقام بدمشق مدة يدرس بالقوصية بالجامع، ويؤم في مدرسة أم الصالح، ثم انتقل إلى قضاء طرابلس، فأقام بها أربعة أشهر، ثم توفي في سادس رمضان، وتولاها بعده ولده تقي الدين، وهو أحد الفضلاء المشهورين، ولم تطل مدته بعده، حتى عزل عنها، وأخرج منها.

الشيخ الصالح

■ عبد الله بن أبي القاسم بن يوسف بن أبي القاسم الحوراني، شيخ طائفتهم، وإليه مرجع زاويتهم بحُوّار، كان عنده تفقه، وزهادة ويزار، وله أصحاب يخدمونه، وبلغ السبعين سنة، وخرج لتوديع بعض أهله إلى ناحية الكرك من ناحية الحجاز، فأدركه الموت هناك، فمات في أول ذي القعدة.

الشيخ

■ حسن بن علي بن أحمد الأنصاري الضرير، كان بفرد عين أولا، ثم عمي جملة، وكان يقرأ القرآن، ويكثر التلاوة، ثم انقطع إلى المنارة الشرقية، وكان يحضر السماعات، ويستمع ويتواجد، ولكثير من الناس فيه اعتقاد على ذلك، ولمجاورته في الجامع، وكثرة تلاوته وصلاته والله يسامحه.

توفي يوم السبت في العشر الأول من ذي الحجة، بالمئذنة، وصلي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير.

محيي الدين أبو الثناء

■ محمود بن الصدر شرف الدين بن القلانسي، توفي في ذي الحجة ببستانه، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، وهو جد الصدر جلال الدين بن القلانسي، وأخيه علاء، وهم ثلاثتهم رؤساء.

■ (يوسف بن موسى بن شيخ السلامية).

الشاب الرئيس صلاح الدين يوسف ابن القاضي قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية، ناظر الجيش أبوه، نشأ هذا الشاب في نعمة وحشمة، وترفه وعشرة واجتماع بالأصحاب.

توفي يوم السبت، تاسع عشرين ذي الحجة، فاستراح من حشمته وعشرته، إن لم تكن وبالا عليه، ودفن بتربتهم تجاه الناصرية بالسفح، وتأسف عليه أبواه، ومعارفه وأصحابه سامحه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة

استهلت والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وقد ذكرنا ما كان من عبيد مكة إلى الحجاج، وأنه قتل من المصريين أميران، فلما بلغ الخبر السلطان عظم عليه ذلك، وامتنع من الأكل على السماط فيما يقال أياما، ثم جرد ستمائة فارس وقيل ألفا، والأول أصح، وأرسل إلى الشام أن يجرد مقدما آخر، فجرد الأمير سيف الدين الجيبغا العادلي، وخرج من دمشق يوم دخلها الركب في سادس عشرين المحرم، وأمر أن يسير إلى أيلة ليجتمع مع المصريين، وأن يسيروا جميعا إلى الحجاز.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر وصل نهر الساجور إلى مدينة حلب، وخرج نائب حلب أرغون ومعه الأمراء مشاة إليه في تهليل وتكبير وتحميد، يتلقون هذا النهر، ولم يمكّن أحداً من المعالي ولا غيرهم أن يتكلم بغير ذكر الله تعالى، وفرح الناس بوصوله إليهم فرحا شديداً، وكانوا قد سعوا في تخليصه من أماكن بعيدة، احتاجوا فيها إلى نقب بعض الجبال، وفيها صخور ضخام صم، وعقدوا له قناطر على الأودية، وما وصل إلا بعد جهد جهيد، وأمر شديد، فلله الحمد وحده لا شريك له، وحين رجع نائب حلب أرغون مرض مرضاً شديداً ومات رحمه الله.

وفي سابع عشر صفر وسع تنكز الطرقات بالشام ظاهر باب الجابية، وخرب كل ما يضيق الطرقات.

وفي ثاني ربيع الأول لبس علاء الدين بن القلانسي خلعة سنية لمباشرة نظر الدواوين، ديوان ملك الأمراء وديوان نظر المارستان عوضا عن أمين الدين بن العسال ورجع ابن العسّال إلى حجابة الديوان الكبير.

وفي يوم الخميس ثاني ربيع الأول لبس عماد الدين بن الشيرازي خلعه نظر الأموي، عوضاً عن ابن مراجل عزل عنه لا إلى بدل عنه وباشر جمال الدين بن القويرة نظر الأسرى عوضاً عن ابن الشيرازي.

وفي يوم الخميس آخر ربيع الأول لبس القاضي شرف الدين بن عبد الله بن شرف الدين حسن ابن الحافظ أبي موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي خلعة قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين بن التقي سليمان توفي رحمه الله وركب من دار السعادة إلى الجامع، فقرئ تقليده تحت النسر، بحضرة القضاة والأعيان، ثم ذهب إلى الجوزية فحكم بها، ثم إلى الصالحية وهو لابس الخلعة، واستناب يومئذ ابن أخيه التقي عبد الله بن شهاب الدين أحمد.

وفي سلخ ربيع الآخر اجتاز الأمير علاء الدين الطنبغا بدمشق وهو ذاهب إلى بلاد حلب نائبا عليها، عوضاً عن أرغون توفي إلى رحمة الله، وقد تلقاه الناس والجيش.

وفي مستهل جمادى الأولى حضر الأمير الشريف رميثة بن أبي نمي إلى مكة، فقرئ تقليده بإمرة مكة من جهة السلطان، صحبة التجريدة، وخلع عليه، وبايعه الأمراء المجردون من مصر والشام داخل الكعبة، وقد كان وصول التجاريد إلى مكة في سابع ربيع الأول، فأقاموا بباب المعلى، وحصل لهم خير كثير من الصلاة والطواف، وكانت الأسعار رخيصة معهم.

وفي يوم السبت سادس جمادى الآخرة خلع على القاضي عز الدين بن بدر الدين بن جماعة بوكالة السلطان، ونظر جامع طولون، ونظر الناصرية، وهنأه الناس، عوضاً عن التاج أبي إسحاق عبد الوهاب، توفي ودفن بالقرافة.

وفي هذا الشهر تولى عماد الدين ابن قاضي القضاة الأخنائي تدريس الصارمية وهو صغير، بعد وفاة النجم هاشم بن عبد الله البعلبكي الشافعي، وحضرها في رجب، وحضر عنده الناس خدمة لأبيه.

وفي حادي عشرين جمادى الآخرة رجعت التجريدة من الحجاز صحبة الأمير سيف الدين أَلْجِيْبُغَا، وكانت غيبتهم خمسة أشهر وأياما وأقاموا بمكة شهرا واحدا ويوماً واحداً وحصل للعرب منهم رعب عظيم شديد وخوف أكيد، وعزلوا عن مكة عطية، وولوا أخاه رميثة، وصلوا وطافوا واعتمروا، ومنهم من أقام هناك ليحج.

وفي ثاني رجب خلع علي بن أبي الطيب بنظر ديوان بيت المال، عوضاً عن ابن الصاين توفي.

وفي أوائل شعبان حصل بدمشق هواء شديد مزعج، كسر كثيرا من الأشجار والأغصان، وألقى بعض الحيطان والجدران، وسكن بعد ساعة بإذن الله.

فلما كان يوم تاسعه سقط برد كبار مقدار بيض الحمام، وكسر بعض جامات الحمام.

وفي شهر شعبان هذا خطب بالمدرسة المعزية على شاطئ النيل، أنشاها الأمير سيف الدين طُقُزدمر، أمير مجلس الناصري، وكان الخطيب بها عز الدين عبد الرحيم بن الفرات الحنفي.

وفي نصف رمضان قدم الشيخ تاج الدين عمر بن علي بن سالم اللخمي بن الفاكهاني المالكي، فنزل عند القاضي الشافعي، وسمع عليه شيئا من مصنفاته، وخرج إلى الحج عامئذ مع الشاميين، وزار القدس قبل وصوله إلى دمشق.

وفي هذا الشهر وطئ سوق الخيل وركبت فيه حصباء كثيرة وعمل فيه نحو من أربعمائة نفس في أربعة أيام حتى ساووه وأصلحوه وقد كان قبل ذلك يكون فيه مياه كثيرة، وملقات، وفيه أصلح سوق الدقيق ظاهر باب الجابية إلى الثابتية وسقف عليه السقوف.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين ثامن شوال وأميره عز الدين أيبك، أمير علم، وقاضيه شهاب الدين الظاهري.

وممن حج فيه شهاب الدين بن جهبل، وأبو النسر، وابن جملة، والفخر المصري، والصدر المالكي، وشرف الدين الكفري الحنفي، والبهاء ابن إمام المشهد وجلال الدين الأعيالي ناظر الأيتام، وشمس الدين الكردي، وفخر الدين البعلبكي، ومجد الدين بن أبي المجد، وشمس الدين بن قيم الجوزية، وشمس الدين بن خطيب يبرود، وشرف الدين قاسم العجلوني، وتاج الدين ابن الفاكهاني، والشيخ عمر السلامي، وكاتبه إسماعيل بن كثير، وآخرون من سائر المذاهب، حتى كان الشيخ بدر الدين يقول: اجتمع في ركبنا هذا أربعمائة فقيه، وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث، وقد كان معنا من المفتين ثلاثة عشر نفساً.

وكان في المصريين جماعات من الفقهاء منهم قاضي المالكية تقي الدين الأخنائي، وفخر الدين النويري، وشمس الدين بن الحارثي، ومجد الدين الأقصرائي، وشيخ الشيوخ الشيخ محمد المرشدي.

وفي ركب العراق الشيخ أحمد السروجي وكان من المشاهير.

وفي الشامين الشيخ علي الواسطي صحبة ابن التركماني، وأمير المصريين مغلطاي الجمالي الذي كان وزيراً في وقت، وكان إذ ذاك مريضاً، ومررنا بعين تبوك وقد أصلحت في هذه السنة، وصينت من دوس الجمال والجمالين، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب، وكانت الوقفة

يوم الجمعة، ومطرنا في الطواف، وكانت سنة مرخصة آمنة.

وفي نصف ذي الحجة رجع تنكز من ناحية قلعة جعبر، وكان في خدمته أكثر الجيش الشامي من الأمراء المقدمين الكبار والصغار، وأظهر أبهة عظيمة في تلك النواحي.

وفي سادس عشر ذي الحجة وصل توقيع القاضي علاء الدين بن القلانسي بجميع جهات أخيه جمال الدين، بحكم وفاته مضافة إلى جهاته، فاجتمع له من المناصب الكبار ما لم يجتمع لغيره من الرؤساء في هذه الأعصار، فمن ذلك: وكالة بيت المال، وقضاء العسكر، وكتابة الدست، ووكالة ملك الأمراء، ونظر المارستان، ونظر الحرمين، ونظر ديوان السعيد، وتدريس الأمينية، والظاهرية والعصرونية، وغير ذلك من الوظائف.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (عز الدين بن سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي).

قاضي القضاة عز الدين بن قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي، ولد سنة خمس وستين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل على والده واستنابه في أيام ولايته، فلما ولي ابن مسلم لزم بيته، يحضر درس الجوزية، ودار الحديث الأشرفية بالجبل، ويأوي إلى بيته، فلما توفي ابن مسلم ولي قضاء الحنابلة بعده نحواً من أربع ستين، وكان فيه تواضع وبر، وقضاء لحوائج المسلمين.

توفي يوم الأربعاء تاسع صفر، وكان يوما مطيرا، ومع هذا شهد الناس جنازته، ودفن بتربتهم رحمهم الله، وتولى المنصب بعده نائبه شرف الدين بن الحافظ، وقد قارب الثمانين.

وفي نصف صفر توفي: الأمير سيف الدين

■ قجليس: سيف النقمة، وقد كان سمع على الحجار ووزيرة بالقدس الشريف.

وفي منتصف صفر توفي الأمير الكبير سيف الدين

■ أرغون بن عبد الله الدوادار الناصري، وقد عمل على نيابة مصر مدة طويلة، ثم غضب عليه السلطان فأرسله إلى نيابة حلب، فمكث بها مدة، ثم توفي بها في سابع عشر ربيع الأول، ودفن بتربة اشتراها بحلب.

وقد كان عنده فهم عظيم وفقه، وفيه ديانة واتباع للشريعة، وقد سمع البخاري بالحجاز، وكتبه جميعه بخطه، وأذن له بعض العلماء في الإفتاء، وكان يميل إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية وهو بمصر.

توفي ولم يكمل الخمسين سنة، وكان يكره اللهو رحمه الله، ولما خرج يلتقي نهر الساجور خرج في ذل ومسكنة، وخرج معه الأمراء كذلك مشاة في تكبير وتهليل وتحميد، ومنع المغاني من اللهو واللعب في ذلك رحمه الله.

القاضي ضياء الدين أبو الحسن

■ علي بن سليم بن ربيع بن سليمان الأذرعي الشافعي، تنقل في ولاية الأقضية بمدارس كثيرة، مدة ستين سنة، وحكم بطرابلس ونابلس وعجلون وحمص وزرع وغيرها، وحكم بدمشق نيابة عن القونوي نحواً من شهر.

وكان عنده فضيلة، وله نظم كثير، نظم التنبيه في نحو ست عشرة ألف بيت، وتصحيحه في ألف وثلاثمائة بيت، وله مدائح وموائيا وأزجال وغير ذلك.

ثم كانت وفاته بالرملة يوم الجمعة، ثالث عشرين ربيع الأول، عن خمس وثمانين سنة رحمه الله، وله عدة أولاد، منهم عبد الرزاق أحد الفضلاء وهو ممن جمع بين علمي الشريعة والطبيعة.

أبو دبوس

■ عثمان بن سعيد المغربي: تملك في وقت بلاد قابس ثم تغلب عليه جماعة فانتزعوها منه، فقصد مصر فأقام بها واقطع إقطاعاً، وكان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلداً سيفاً، وكان حسن الهيئة، يواظب على الخدمة إلى أن توفي جمادى الأولى.

■ (أحمد بن محمد بن عبد الصمد السنباطي).

الإمام العالم ضياء الدين أبو العباس أحمد بن قطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي الشافعي، مدرس الحسامية، ونائب الحكم بمصر، وأعاد في أماكن كثيرة، وتفقه على والده، توفي في جمادى الآخرة، وتولى الحسامية بعد ناصر الدين التبريزي.

■ (ابن الدماميني).

الصدر الكبير تاج الدين الكارمي: المعروف بابن الدماميني، كان من أكابر تجار الكارمية بمصر، توفي في جمادى الآخرة، يقال: إنه خلف مائة ألف دينار، غير البضائع والأثاث والأملاك.

الإمام العلامة فخر الدين

■ عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان الماردين التركماني الحنفي، شرح فخر الدين هذا الجامع الكبير وألقاه دروساً في مائة كراس، توفي في رجب، وله إحدى وسبعون سنة، كان شيخا عالماً فاضلا، موقراً، فصيحاً، حسن المفاكهة، وله نظم حسن وولي بعده المنصورية ولده تاج الدين.

■ (عمر بن محمد بن عثمان بن السلعوس).

تقي الدين عمر ابن الوزير شمس الدين: محمد بن عثمان بن السلعوس، كان صغيراً لما مات أبوه تحت العقوبة، ثم نشأ في الخدم، ثم طلبه السلطان في آخر وقت فولاه نظر الدواوين بمصر، فباشره يوما واحدا، وحضر بين يدي السلطان يوم الخميس، ثم خرج من عنده وقد اضطرب حاله، فما وصل إلى منزله إلا في محفة، ومات بكرة يوم السبت، سادس عشرين ذي القعدة، وصلي عليه بجامع عمرو بن العاص، ودفن عند والده بالقرافة، وكانت جنازته حافلة.

■ (ابن القلانسي، جمال الدين أحمد).

جمال الدين أبو العباس: أحمد بن شرف الدين بن جمال الدين محمد بن أبي الفتح نصر الله بن المظفر بن أسد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، قاضي العساكر، ووكيل بيت المال، ومدرس الأمينية وغيرها، حفظ التنبيه، ثم المحرر للرافعي، وكان يستحضره، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وتقدم لطلب العلم والرئاسة، وباشر جهات كباراً، ودرس في أماكن، وتفرد في وقته بالرياسة في البيت والمناصب الدينية والدنيوية.

وكان فيه تواضع، وحسن سمت، وتودد، وإحسان، وبر بأهل العلم والفقراء والصالحين، وهو ممن أذن له في الإفتاء، وكتب إنشاء ذلك وأنا حاضر على البديهة فأفاد وأجاد، وأحسن التعبير، وعظم في عيني.

توفي يوم الاثنين، ثامن عشرين ذي القعدة ودفن بتربتهم بالسفح وقد سمع الحديث على جماعة من المشايخ وخرج له فخر الدين البعلبكي مشيخة سمعناها عليه، رحمه الله.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم هم.

وفي أولها فتحت القيسارية التي كانت مسبك الفولاذ جُوّا باب الصغير حولها تنكز قيسارية ببركة.

وفي يوم الأربعاء ذكر الدرس بالأمينية والظاهرية علاء الدين بن القلانسي، عوضاً عن أخيه جمال الدين، وذكر ابن أخيه أمين الدين محمد بن جمال الدين الدرس في العصرونية، تركها له عمه، وحضر عندهما جماعة من الأعيان.

وفي تاسع المحرم جاء إلى حمص سيل عظيم، غرق بسببه خلق كثير وجم غفير، وهلك للناس أشياء كثيرة، وممن مات فيه نحو مائتي امرأة بحمام النائب، كن مجتمعات على عروس أو عروسين فهلكن جميعا.

وفي صفر أمر تنكز ببياض الجدران المقابلة لسوق الخيل إلى باب الفراديس، وأمر بتجديد خان الظاهر، فغرم عليه نحوا من سبعين ألفاً.

وفي هذا الشهر وصل تابوت لاجين الصغير من البيرة، فدفن بتربته خارج باب شرقي.

وفي تاسع ربيع الآخر حضر الدرس بالقيمازية عماد الدين الطرسوسي الحنفي، عوضاً عن الشيخ رضى الدين المنطيقي، توفي، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي أول ربيع الآخر خلع على الملك الأفضل علي بن الملك المؤيد صاحب حماة، وولاه السلطان الملك الناصر مكان أبيه بحكم وفاته، وركب بمصر بالعصائب والشبابة والفاشية أمامه.

وفي نصف هذا الشهر سافر الشيخ شمس الدين الأصفهاني شارح المختصر ومدرس الرواحية إلى الديار المصرية على خيل البريد، وفارق دمشق وأهلها، واستوطن القاهرة.

وفي يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى خطب بالجامع الذي أنشاه الأمير سيف الدين آل ملك، واستقر فيه خطيبا نور الدين علي بن شبيب الحنبلي.

وفيه أرسل السلطان جماعة من الأمراء إلى الصعيد، فأحاطوا على نحو من خمسمائة رجل ممن كان يقطع الطريق فأتلف بعضهم.

وفي جمادى الآخرة تولى شد الدواوين بدمشق نور الدين بن الخشاب، عوضاً عن الطرقشي.

وفي يوم الأربعاء حادي عشر رجب خلع على قاضي القضاة علاء الدين ابن الشيخ زين الدين بن المنجا بقضاء الحنابلة، عوضاً عن شرف الدين بن الحافظ، وقرئ تقليده بالجامع، وحضر القضاة والأعيان.

وفي اليوم الثاني استناب برهان الدين الزرعي.

وفي رجب باشر شمس الدين موسى بن التاج أبي إسحاق نظر الجيوش بمصر، عوضاً عن فخر الدين كاتب المماليك توفي، وباشر النشو مكانه في نظر الخاص، وخلع عليه بطرحة، فلما كان في شعبان عزل هو وأخوه العلم ناظر الدواوين، وصودرا وضُرِبا ضرباً عظيما، وتولى نظر الجيش المكين بن قروينة، ونظر الدواوين أخوه شمس الدين بن قروينة.

وفي شعبان كان عرس أنوك، ويقال: كان اسمه محمد ابن السلطان الملك الناصر، على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، وكان جهازها بألف ألف دينار، وذبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والأوز والخيل والبقر وغير ذلك نحو من عشرين ألفا، وعملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار، قاله الشيخ أبو بكر الرحبي، وكان هذا العرس ليلة الجمعة، حادي عشر شعبان.

وفي شعبان هذا حول القاضي محيي الدين بن فضل الله من كتابة السر بمصر إلى كتابة السر بدمشق، ونقل شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى كتابة السر بمصر، وأقيمت الجمعة بالشامية البرانية في خامس عشرين شعبان، وحضرها القضاة والأمراء، وخطب بها الشيخ زين الدين عبد النور المغربي، وذلك بإشارة الأمير حسام الدين البشمقدار الحاجب بالشام، ثم خطب عنه كمال الدين بن الزكي.

وفيه أمر نائب السلطنة بتبييض البيوت من سوق الخيل إلى ميدان الحصا، ففعل ذلك.

وفيه زادت الفرات زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها، واستمرت نحواً من اثني عشر يوماً، فأتلفت بالرحبة أموالا كثيرة، وكسرت الجسر الذي عند دير بشر، وغلت الأسعار هناك، فشرعوا في إصلاح الجسر، ثم انكسر مرة ثانية لطيفة.

وفي يوم السبت تاسع شوال خرج الركب الشامي، وأميره سيف الدين أوران، وقاضيه جمال الدين بن الشريشي، وهو قاضي حمص الآن.

وحج السلطان في هذه السنة، وفي صحبته قاضي القضاة القزويني، وعز الدين بن جماعة، وموفق الدين الحنبلي، وسبعون أميراً.

وفي ليلة الخميس حادي عشرين شوال رسم على الصاحب شمس الدين غبريال بالمدرسة النجيبية الجوانية، وصودر وأخذت منه أموال كثيرة، وافرج عنه في المحرم من السنة الآتية.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ

■ **عبد الرحمن بن أبي محمد بن محمد ابن سلطان القرامزي**، أحد المشاهير بالعبادة والزهادة، وملازمة الجامع الأموي، وكثرة التلاوة والذكر، وله اصحاب يجلسون إليه، وله مع هذا ثروة وأملاك.

توفي في مستهل المحرم، عن خمس أو ست وثمانين سنة، ودفن بباب الصغير، وكان قد سمع الحديث، واشتغل بالعلم، ثم ترك ذلك واشتغل بالعبادة إلى أن مات.

الملك

■ **المؤيد صاحب حماة: عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب**، كانت له فضائل كثيرة في علوم متعددة من الفقه، والهيئة، والطب، وغير ذلك، وله مصنفات عديدة، منها تاريخ حافل حسن مختصر في مجلدين وله العروض والأطوال والكلام على البلدان في مجلد كبير وله نظم الحاوي وغير ذلك.

وكان يحب العلماء ويشاكلهم، ويشاركهم في فنون كثيرة، وكان من فضلاء بني أيوب، ولي ملك حماة من سنة إحدى وعشرين إلى هذا الحين، وكان الملك الناصر يكرمه ويعظمه، وولي بعده في الملك ولده الأفضل علي.

توفي في سحر يوم الخميس، ثامن عشرين المحرم، ودفن ضحوة عند والديه بظاهر حماة.

القاضي الإمام العالم المحدث تاج الدين أبو القاسم

■ عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافي بن عوض بن سنان بن عبد الله السعدي الفقيه الشافعي، سمع الكثير، وخرج لنفسه معجما في ثلاث مجلدات، وقرأ بنفسه الكثير، وكتب الخط الجيد، وكان متقنا عارفا بهذا الشأن.

يقال: إنه كتب بخطه نحواً من خمسمائة مجلد، وقد كان شافعيا مفتيا، ومع هذا ناب في وقت عن القاضي الحنبلي، وولي مشيخة الحديث بالمدرسة الصاحبية، وتوفي بمصر في مستهل ربيع الأول، عن ثنتين وثمانين سنة، رحمه الله.

الشيخ

■ رضي الدين بن إبراهيم بن سليمان: المنطيقي الحنفي، أصله من آب كرم، من بلاد قونية، وأقام بحماة ثم بدمشق، ودرس بالقيمازية.

وكان فاضلا في المنطق والجدل، واشتغل عليه جماعة في ذلك، وبلغ من العمر ستا وثمانين سنة، وحج سبع مرات.

توفي ليلة الجمعة، سادس عشرين ربيع الأول، وصلي عليه بعد الصلاة، ودفن بالصوفية.

وفي ربيع الأول توفي: الأمير علاء الدين

■ طيغا: ودفن بتربته بالصالحية

وكذلك الأمير سيف الدين

■ دولات، ودفن بتربته بالصالحية أيضاً.

قاضي القضاة شرف الدين أبو محمد

■ عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي، ولد سنة ست وأربعين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل وحصّل، وكانت له معرفة جيدة في اللغة والحديث وباشر نيابة ابن مسلم مدة، ثم ولي القضاء في السنة الماضية، ثم كانت وفاته فجأة في مستهل جمادى الأولى، ليلة الخميس، ودفن من الغد بتربة الشيخ أبي عمر.

الشيخ

■ ياقوت الحبشي: الشاذلي الإسكندراني، بلغ الثمانين، وكان له أتباع، وأصحاب، منهم شمس الدين بن اللبان الفقيه الشافعي، وكان يعظمه ويطريه، وينسب إليه مبالغات الله أعلم بصحتها وكذبها، توفي في جمادى، وكانت جنازته حافلة جداً.

النقيب ناصح الدين

■ محمد بن عبد الرحيم بن قاسم بن إسماعيل الدمشقي، نقيب المتعممين، تتلمذ أولا للشهاب المقرئ، ثم كان بعده في المحافل للعزاء والهناء، وكان يعرف هذا الفن جيداً، وكان كثير الطلب من الناس، ويطلبه الناس لذلك، ومع هذا مات وعليه ديون كثيرة، توفي في أواخر رجب.

القاضي

■ فخر الدين كاتب المماليك: وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر، أصله قبطي، فأسلم وحسن إسلامه، وكانت له أوقاف كثيرة، وبر وإحسان إلى أهل العلم، وكان صدراً معظماً، حصل له من السلطان حظ وافر، وقد جاوز السبعين، وإليه تنسب الفخرية بالقدس الشريف.

توفي في نصف رجب، واحتيط على أمواله وأملاكه بعد وفاته رحمه الله.

الأمير سيف الدين

■ أُلجاي الدوادار الملكي الناصري: كان فقيها حنفيا فاضلا، كتب بخطه ربعة، وحصل كتباً كثيرة معتبرة، وكان كثير الإحسان إلى أهل العلم، توفي في سلخ رجب، رحمه الله.

الطبيب الماهر الحاذق الفاضل أمين الدين

■ سليمان بن داود بن سليمان، كان رئيس الأطباء بدمشق، ومدرسهم مدة، ثم عزل بجمال الدين بن الشهاب الكحال مدة قبل موته، لأمر تغضّب عليه فيه نائب السلطنة، توفي يوم السبت، سادس عشرين شوال، ودفن بالقبيبات.

الشيخ الإمام العالم المقرئ شيخ القراء برهان الدين أبو إسحاق

■ إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري، ثم الخليلي الشافعي، صاحب المصنفات الكثيرة في القراءات وغيرها، ولد سنة أربعين وستمائة بقلعة جعبر، واشتغل ببغداد، ثم قدم دمشق، وأقام ببلد الخليل نحواً من أربعين سنة يقرئ الناس، وشرح الشاطبية، وسمع الحديث، وكانت له إجازة من يوسف بن خليل الحافظ، وصنف في العربية والعروض والقراءات نظماً ونثراً.

وكان من المشايخ المشهورين بالفضائل والرياسة، والخير والديانة، والعفة والصيانة.

توفي يوم الأحد، خامس شهر رمضان، ودفن ببلد الخليل تحت الزيتونة، وله ثنتان وتسعون سنة، رحمه الله.

■ (الأخنائي، علم الدين أبو عبد الله بن محمد).

قاضي القضاة علم الدين أبو عبد الله بن محمد بن القاضي شمس الدين أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي السعدي، المصري الشافعي، الحاكم بدمشق وأعمالها كان عفيفا، نزها ذكيا، سادّ العبارة، محبا للفضائل، معظما لأهلها، كثيرا لإسماع الحديث في العادلية الكبيرة.

توفي يوم الجمعة ثالث عشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون عند زوجته، تجاه تربة العادل كتبغا من ناحية الجبل.

قطب الدين

■ موسى بن أحمد بن الحسين ابن شيخ السلامية ناظر الجيوش الشامية، كانت له ثروة وأموال كثيرة، وله فضل وإفضال، وكرم وإحسان إلى أهل الخير، وكان مقصداً في المهمات.

توفي يوم الثلاثاء ثاني ذي الحجة، وقد جاوز السبعين، ودفن بتربته تجاه الناصرية بقاسيون، وهو والد الشيخ الإمام العلامة عز الدين حمزة مدرس الحنبلية.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الأربعاء، والحكام هم المذكورون في التي قبلها، وليس للشافعية قاض، وقاضي الحنفية عماد الدين الطرسوسي، وقاضي المالكية شرف الدين الهمداني، وقاضي الحنابلة علاء الدين بن المنجا، وكاتب السر محيي الدين بن فضل الله، وناظر الجامع عماد الدين بن الشيرازي.

وفي ثامن المحرم قدم البشير بسلامة السلطان من الحجاز، وباقتراب وصوله إلى البلاد، فدقت البشائر، وزينت البلد، وأخبر البشير بوفاة الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وولده شهاب الدين أحمد، وهما راجعان في الطريق، بعد أن حجا قريبا من مصر: الولد أولا، ثم من بعده أبوه بثلاثة أيام بعيون القصب، ثم نقلا إلى تربتهما بالقرافة، ووجد لبكتمر من الأموال والجواهر واللآلئ، والقماش والأمتعة والحواصل شيء كثير، لا يكاد ينحصر ولا ينضبط، وأفرج عن الصاحب شمس الدين غبريسان في المحرم،

وطلب في صفر إلى مصر، فتوجه على خيل البريد، واحتيط على أهله بعد مسيره، وأخذت منهم أموال كثيرة لبيت المال.

وفي أواخر صفر قدم الصاحب أمين الملك على نظر الدواوين بدمشق، عوضاً عن غبريال.

وبعده بأربعة أيام قدم القاضي فخر الدين بن الحلّي على نظر الجيش، بعد وفاة قطب الدين ابن شيخ السلامية.

وفي نصف ربيع الأول لبس ابن جملة خلعة القضاء للشافعية بدمشق بدار السعادة، ثم جاء إلى الجامع وهي عليه، وذهب إلى العادلية، وقرئ تقليده بها، بحضرة الأعيان، ودرس في العادلية والغزالية يوم الأربعاء، ثاني عشر الشهر المذكور.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه حضر ابن أخيه جمال الدين محمود إعادة القيمرية نزل له عنها، ثم استنابه بعد ذلك في المجلس، وخرج إلى العادلية فحكم بها، ثم لم يستمر بعد ذلك، ثم عزل عن النيابة بيومه، واستناب بعده جمال الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن يوسف الحسباني، وله همة، وعنده نزاهة، وخبرة بالأحكام.

وفي ربيع الأول ولي الأمير شهاب الدين قرطاي نيابة طرابلس، وعزل عنها طينال إلى نيابة غزة، وتولى نائب غزة نيابة حمص، وحصل للذي جاء بتقاليدهم مائة ألف درهم منهم.

وفي ربيع الآخر أعيد القاضي محيي الدين بن فضل الله وولده إلى كتابة سر مصر، ورجع شرف الدين بن الشهاب محمود إلى كتابة سر الشام كما كان.

وفي منتصف هذا الشهر ولي نقابة الأشراف عماد الدين موسى الحسيني، عوضاً عن أخيه شرف الدين عدنان، توفي في الشهر الماضي، ودفن بتربتهم عند مسجد الذبان، وفيه درس الفخر المصري بالدولعية، عوضاً عن ابن جملة بحكم ولايته القضاء.

وفي خامس عشرين رجب درس بالباذرائية القاضي علاء الدين علي بن شريف، ويعرف بابن الوحيد، عوضاً عن ابن جهبل، توفي في الشهر الماضي، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكنت إذ ذاك بالقدس أنا والشيخ شمس الدين بن عبد الهادي وآخرون.

وفيه رسم السلطان الملك الناصر بالمنع من رمي البندق، وأن لا تباع قسيُّه ولا تعمل، وذلك لإفساد رماة البندق أولاد الناس، وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين، ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية.

قال البرزالي: وفي نصف شعبان أمر السلطان بتسليم المنجمين إلى والي القاهرة، فضربوا وحبسوا ثم نُفوا لإفسادهم حال النساء، فمات منهم أربعة تحت العقوبة، ثلاثة من المسلمين ونصراني، وكتب إليّ بذلك الشيخ أبو بكر الرحبي.

وفي أول رمضان وصل البريد بتولية الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ ولاية البر بدمشق، بعد وفاة شهاب الدين بن المرواني، ووصل كتاب من مكة إلى دمشق في رمضان، يذكر فيه أنه وقعت صواعق ببلاد الحجاز، فقتلت جماعة متفرقين في أماكن شتى، وأمطار كثيرة جداً.

وجاء البريد في رابع رمضان بتولية القاضي محيي الدين بن جهبل قضاء طرابلس فذهب إليها، ودرس ابن المجد عبد الله بالرواحية، عوضاً عن الأصبهاني بحكم إقامته بمصر.

وفي آخر رمضان أفرج عن الصاحب علم الدين، وأخيه شمس الدين موسى بن التاج أبي إسحاق بعد سجنهما سنة ونصفاً.

وخرج الركب الشامي يوم الخميس عاشر شوال، وأميره بدر الدين بن معبد، وقاضيه علاء الدين بن منصور مدرس الحنفية بالقدس بمدرسة تنكز، وفي الحجاج صدر الدين المالكي، وشهاب الدين الظهيري، ومحيي الدين بن الأعقف وآخرون.

وفي يوم الأحد ثالث عشره درس بالأتابكية ابن جملة، عوضاً عن ابن جهبل، تولى قضاء طرابلس.

وفي الأحد عشرينه حكم القاضي شمس الدين محمد بن كامل التدمري، الذي كان في خطابة الخليل بدمشق، نيابة عن ابن جملة، وفرح الناس بدينه وفضيلته.

وفي ذي القعدة مسك تنكز داوداره ناصر الدين محمداً، وكان عنده بمكانة عظيمة جداً، وضربه بين يديه ضربا مبرحا، واستخلص منه أموالا كثيرة، ثم حبسه بالقلعة، ثم نفاه إلى القدس، وضرب جماعة من أصحابه منهم علاء الدين بن مقلد حاجب العرب، وقطع لسانه مرتين، ومات، وتغيرت الدولة، وجاءت دولة أخرى مقدمها عنده حمزة، الذي كان سميره وعشيره في هذه المرّة المتأخرة، وانزاحت النعمة عن الدوادار ناصر الدين وذويه ومن يليه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي القعدة رُكب على الكعبة باب جديد، أرسله السلطان مرصعا من السنط الأحمر كأنه آبنوس، مركب عليه صفائح من فضة، زنتها خمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وكسر، وقلع الباب العتيق، وهو من خشب الساسم، وعليه صفائح تسلمها بنو شيبة، وكان زنتها ستين رطلا، فباعوها كل درهم بدرهمين، لأجل التبرك، وهذا خطأ وهو ربا - وكان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا في ذلك - وترك خشب الباب العتيق داخل الكعبة، وعليه اسم صاحب اليمن في الفردتين، واحدة عليها: اللّهم يا ولي يا علي اغفر ليوسف بن عمر بن علي.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ العالم تقي الدين

■ محمود بن علي بن محمود بن مقبل الدقوقي أبو الثناء البغدادي، محدث بغداد منذ خمسين سنة، يقرأ لهم الحديث.

وقد ولي مشيخة الحديث المستنصرية، وكان ضابطا محصلا بارعاً، وكان يعظ ويتكلم في الأعزية والأهنية، وكان فردا في زمانه وبلاده رحمه اللّه.

توفي في المحرم، وله قريب السبعين سنة، وشهد جنازته خلق كثير، ودفن بتربة الإمام أحمد، ولم يخلف درهما واحداً، وله قصيدتان، رثا بهما الشيخ تقي الدين بن تيمية، كتب بهما إلى الشيخ الحافظ البرزالي رحمه اللّه تعالى.

الشيخ الإمام العالم عز القضاة فخر الدين أبو محمد

■ عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير المالكي الإسكندري، أحد الفضلاء المشهورين، له تفسير في ستة مجلدات، وقصائد في رسول اللّه ﷺ حسنة، وله في كان وكان، وقد سمع الكثير وروى، توفي في جمادى الأولى عن ثنتين وثمانين سنة ودفن بالإسكندرية رحمه اللّه.

■ ابن جماعة قاضي القضاة: العالم شيخ الإسلام بدر الدين أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ الإمام الزاهد أبي إسحاق إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني، الحموي الأصل، ولد ليلة

السبت رابع ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة بحماة.

وسمع الحديث، واشتغل بالعلم، فحصل فنوناً متعددة، وتقدم وساد أقرانه، وباشر تدريس القيمرية، ثم ولي الحكم والخطابة بالقدس الشريف، ثم نقل منه إلى قضاء مصر في الأيام الأشرفية، ثم باشر تداريس كبار بها في ذلك الوقت، ثم ولي قضاء الشام، وجمع له معه الخطابة، ومشيخة الشيوخ، وتدريس العادلية، وغيرها مدة طويلة، كل هذا مع الرياسة والديانة والصيانة والورع، وكف الأذى.

وله التصانيف الفائقة النافعة، وجمع له خطبا كان يخطب بها بطيب صوت فيها وفي قراءته في المحراب وغيره.

ثم نقل إلى قضاء الديار المصرية، بعد وفاة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، فلم يزل حاكما بها إلى أن أضر وكبر، وضعفت أحواله، فاستقال فأقيل، وتولى مكانه القزويني، وبقيت معه بعض الجهات، ورتبت له الرواتب الكثيرة الدارة، إلى أن توفي ليلة الاثنين بعد عشاء الآخرة، حادي عشرين جمادى الأولى، وقد أكمل أربعا وتسعين سنة وشهراً وأياماً، وصلي عليه من الغد قبل الظهر، بالجامع الناصري بمصر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة هائلة، رحمه الله.

■ **(أحمد بن يحيى بن إسماعيل بن طاهر بن جهبل).**

الشيخ الإمام الفاضل الزاهد مفتي المسلمين شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محيي الدين يحيى بن تاج الدين إسماعيل بن طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي الأصل، ثم الدمشقي الشافعي، كان من أعيان الفقهاء.

ولد سنة سبعين وستمائة، واشتغل بالعلم، ولزم المشايخ، ولازم الشيخ الصدر بن الوكيل، ودرس بالصلاحية بالقدس، ثم تركها وتحول إلى دمشق، فباشر مشيخة دار الحديث الظاهرية مدة، ثم ولي مشيخة البادرائية، فترك الظاهرية، وأقام في تدريس البادرائية إلى أن مات، ولم يأخذ معلوما من واحدة منهما، توفي يوم الخميس بعد العصر، تاسع جمادى الآخرة، وصلي عليه بعد الصلاة، ودفن بالصوفية، وكانت جنازته حافلة.

تاج الدين

■ **عبد الرحمن بن أيوب:** مغسل الموتى في سنة ستين وستمائة، يقال إنه غسل ستين ألف ميت، وتوفي في رجب، وقد جاوز الثمانين.

الشيخ فخر الدين أبو محمد

■ **عبد الله بن محمد بن عبد العظيم بن السقطي الشافعي،** كان مباشرا شهادة الخزانة، وناب في الحكم عند باب النصر بمصر وجمع منسكاً كبيراً، ويقال: إنه شرح التنبيه أيضاً، وكانت وفاته في رمضان ودفن بالقرافة.

الإمام الفاضل مجموع الفضائل شهاب الدين أبو العباس

■ **أحمد بن عبد الوهاب البكري،** نسبة إلى أبي بكر الصديق ﷺ، كان لطيف المعاني، ناسخا مطبقا، يكتب في اليوم ثلاث كراريس، وكتب البخاري ثمان مرات، ويقابله ويجلده، ويبيع النسخة من ذلك بألف ونحوه، وقد جمع تاريخا في ثلاثين مجلداً، وكان ينسخه ويبيعه أيضاً بأزيد من ألف، وذكر أن له كتابا سماه منتهى الأرب في علم الأدب في ثلاثين مجلداً أيضاً، وبالجملة كان نادرا في وقته، توفي يوم الجمعة عشرين رمضان رحمه الله.

الشيخ الصالح العابد الزاهد الناسك الكثير الحج

■ **علي بن الحسن بن أحمد الواسطي** المشهور بالخير والصلاح، وكثرة العبادة والتلاوة والحج، ويقال إنه حج أزيد من أربعين حجة، وكانت عليه مهابة، ولديه فضيلة، توفي وهو محرم يوم الثلاثاء، ثامن عشرين ذي القعدة، وقد قارب الثمانين، رحمه الله.

الأمير عز الدين

■ **إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن القواس،** كان مباشراً الشد في بعض الجهات السلطانية، وله دار حسنة بالعقيبة، الصغيرة، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل مدرسة، وأوقف عليها أوقافا، وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الشافعي، توفي يوم الأربعاء عشرين ذي الحجة.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الأحد، وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وفي يوم الجمعة ثاني ربيع الأول أقيمت الجمعة بالخاتونية البرانية، وخطب بها شمس الدين النجار، المؤذن المؤقت بالأموي، وترك خطابة جامع القابون.

وفي مستهل هذا الشهر سافر الأمير شمس الدين محمد التدمري إلى القدس حاكما به، وعزل عن نيابة الحكم بدمشق.

وفي ثالثه قدم من مصر زين الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بخطابة القدس، فخلع عليه من دمشق، ثم سافر إليها.

وفي آخر ربيع الأول باشر الأمير ناصر الدين بن بكتاش الحسامي شد الأوقاف، عوضاً عن شرف الدين محمود بن الخطيري، سافر بأهله إلى مصر أميراً، عند أخيه بدر الدين مسعود، وعزل القاضي علاء الدين بن القلانسي، وسائر الدواوين والمباشرون الذين في باب ملك الأمراء تنكز، وصودروا بمائتي ألف درهم، واستدعي من غزة ناظرها جمال الدين يوسف صهر السني المستوفي، فباشر نظر ديوان النائب، ونظر المارستان النوري أيضاً على العادة.

وفي شهر ربيع الأول، أمر تنكز بإصلاح باب توما، فشرع فيه، فرفع بابه عشرة أذرع، وجددت حجارته وحديده في أسرع وقت.

وفي هذا الوقت حصل بدمشق سيل، خرب بعض الجدران، ثم تناقص.

وفي أوائل ربيع الآخر قدم من مصر جمال الدين آقوش نائب الكرك مجتازاً إلى طرابلس نائباً بها، عوضا عن قرطاي، توفي.

وفي جمادى الأولى طلب القاضي شهاب الدين بن المجد عبد الله إلى دار السعادة، فولي وكالة بيت المال، عوضاً عن ابن القلانسي، ووصل تقليده من مصر بذلك، وهنأه الناس، وفيه طلب الأمير نجم الدين بن الزيبق، من ولاية نابلس، فولي شد الدواوين بدمشق، وقد شغر منصبه شهوراً بعد ابن الخشاب.

وفي رمضان خطب الشيخ بدر الدين أبو اليسر بن الصائغ بالقدس، عوضاً عن زين الدين بن جماعة، لإعراضه عنها، واختياره العود إلى بلده.

قضية القاضي ابن جملة

لما كان في العشر الأخير من رمضان وقع بين القاضي ابن جملة وبين الشيخ الظهير شيخ ملك الأمراء - وكان هو السفير في تولية ابن جملة القضاء - فوقع بينهما منافسة ومحاققة، في أمور كانت بينه وبين الدوادار المتقدم ذكره ناصر الدين، فحلف كل واحد منهما على خلاف ما حلف به الآخر عليه، وتفاصلا من دار السعادة في المسجد، فلما رجع القاضي إلى

منزله بالعادلية أرسل إليه الشيخ الظهير، ليحكم فيه بما فيه المصلحة، وذلك عن مرسوم النائب، وكأنه كان خديعة في الباطن، وإظهار نصرة القاضي عليه في الظاهر، فبدر به القاضي بادي الرأي، فعزره بين يديه، ثم خرج من عنده فتسلمه أعوان ابن جملة، فطافوا به البلد على حمار، يوم الأربعاء سابع عشرين رمضان، وضربوه ضربا عنيفاً، ونادوا عليه: هذا جزاء من يكذب، ويفتات على الشرع، فتألم الناس له لكونه في الصيام.

وفي العشر الأخير من رمضان، ويوم سبعة وعشرين، وهو شيخ كبير صائم، فيقال: إنه ضرب يومئذ ألفين ومائة وإحدى وسبعين درة والله أعلم، فما أمسى حتى استفتي على القاضي المذكور، وداروا على المشايخ بسبب ذلك عن مرسوم النائب.

فلما كان يوم تاسع عشرين رمضان عقد نائب السلطنة بين يديه بدار السعادة مجلسا، حافلا بالقضاة وأعيان المفتين من سائر المذاهب، وأحضر ابن جملة قاضي الشافعية، والمجلس قد احتفل بأهله، ولم يأذنوا لابن جملة في الجلوس، بل قام قائما ثم أجلس بعد ساعة في طرف الحلقة، إلى جانب المحفة التي فيها الشيخ الظهير، وادعى عليه عند بقية القضاة أنه حكم فيه لنفسه، واعتدى عليه في العقوبة، وأفاض الحاضرون في ذلك، وانتشر الكلام، وفهموا من نفس النائب الحط على ابن جملة، والميل عنه بعد أن كان إليه، فما انفصل المجلس حتى حكم القاضي شرف الدين المالكي بفسقه، وعزله وسجنه، فانفض المجلس على ذلك، ورسم على ابن جملة بالعذراوية، ثم نقل إلى القلعة جزاء وفاقا والحمد لله وحده.

وكان له في القضاء سنة ونصف إلا أياما، وكان يباشر الأحكام جيدا، وكذا الأوقاف المتعلقة به، وفيه نزاهة، وتمييز الأوقاف بين الفقهاء والفقراء، وفيه صرامة وشهامة وإقدام، لكنه أخطأ في هذه الواقعة، وتعدى فيها فآل أمره إلى هذا.

وخرج الركب يوم الاثنين عاشر شوال، وأميره الجيبغا، وقاضيه مجد الدين بن حيان المصري.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه درس بالإقبالية الحنفية نجم الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي، عوضاً عن شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الأصبهاني بن العجمي الحبطي، ويعرف بابن الحنبلي، وكان فاضلا دينا متقشفا، كثير الوسوسة في الماء جدا، وأما المدرس مكانه، وهو القاضي نجم الدين بن الحنفي فإنه ابن خمس عشرة سنة، وهو في النباهة والفهم، وحسن الاشتغال والشكل والوقار، بحيث غبط الحاضرون كلهم أباه على ذلك، ولهذا آل أمره أن تولى قضاء القضاة في حياة أبيه، نزل له عنه، وحمدت فيه سيرته وأحكامه.

وفي هذا الشهر أثبت محضر في حق الصاحب شمس الدين غبريال المتوفى في هذه السنة، أنه كان يشتري أملاكا من بيت المال، ويوقفها ويتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه، وشهد بذلك كمال الدين بن الشيرازي، وابن أخيه عماد الدين، وعلاء الدين بن القلانسي، وابن خاله عماد الدين بن عز الدين بن القلانسي، وعز الدين بن المنجا، وتقي الدين بن مراجل، وكمال الدين بن الفويرة، وأثبت على القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي، ونفذه بقية القضاة، وامتنع المحتسب عز الدين بن القلانسي من الشهادة، فرسم عليه بالعذراوية قريبا من شهر، ثم أفرج عنه، وعزل عن الحسبة، واستمر على نظر الخزانة.

وفي يوم الأحد ثامن عشرين ذي القعدة حملت خلعة القضاء إلى الشيخ شهاب الدين ابن المجد وكيل بيت المال يومئذ، فلبسها وركب إلى دار السعادة، وقرئ تقليده بحضرة نائب السلطنة والقضاة، ثم رجع إلى مدرسته الإقبالية فقرئ بها أيضا، وحكم بين خصمين، وكتب على أوراق السائلين، ودرس بالعادلية والغزالية والأتابكيتين، مع تدريس الإقبالية، عوضا عن ابن جملة.

وفي يوم الجمعة رابع الحجة حضر الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى، وفي صحبته صاحب حماة الأفضل، فتلقاهما تنكز وأكرمهما، وصليا الجمعة عند النائب، ثم توجها إلى مصر، فتلقاهما أعيان الأمراء، وأكرم السلطان مهنا بن عيسى، وأطلق له أموالا جزيلة كثيرة، من الذهب والفضة والقماش، وأقطعه عدة قرى، ورسم له بالعود إلى أهله، ففرح الناس بذلك.

قالوا وكان جميع ما أنعم به عليه السلطان قيمة مائة ألف دينار، وخلع عليه وعلى أصحابه مائة وسبعين خلعة.

وفي يوم الأحد سادس ذي الحجة حضر درس الرواحية الفخر المصري، عوضا عن قاضي القضاة ابن المجد، وحضر عنده القضاة الأربعة وأعيان الفضلاء.

وفي يوم عرفة خلع على نجم الدين بن أبي الطيب بوكالة بيت المال، عوضاً عن قاضي القضاة ابن المجد، وعلى عماد الدين بن الشيرازي بالحسبة، عوضاً عن عز الدين بن القلانسي، وخرج الثلاثة من دار السعادة بالطرحات.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الأجل التاجر الصدوق: بدر الدين

■ لؤلؤ بن عبد الله عتيق النقيب شجاع الدين إدريس، وكان رجلا حسنا، يتجر في الجوخ، مات فجأة عصر يوم الخميس، خامس محرم، وخلف أولادا وثروة، ودفن بباب الصغير، وله بر وصدقة ومعروف، وسبّع بمسجد ابن هشام.

■ (محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي العيش).

الصدر أمين الدين: محمد بن فخر الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن أبي العيش الأنصاري الدمشقي، باني المسجد المشهور به بالربوة، على حافة بردى، والطهارة الحجارة إلى جانبه، والسوق الذي هناك، وله بجامع النيرب ميعاد، ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة، وسمع البخاري، وحدث به، وكان من أكابر التجار ذوي اليسار، توفي بكرة الجمعة سادس المحرم، ودفن بتربته بقاسيون رحمه الله.

■ (عمر بن عبد الرحيم بن يحيى بن إبراهيم بن علي الزهري).

الخطيب الإمام العالم: عماد الدين أبو حفص عمر بن الخطيب، ظهير الدين عبد الرحيم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر بن عبد الله بن الحسن القرشي الزهري النابلسي، خطيب القدس، وقاضي نابلس مدة طويلة، ثم جمع له بين خطابة القدس وقضائها، وله اشتغال، وفيه فضيلة، وشرح صحيح مسلم في مجلدات، وكان سريع الحفظ، سريع الكتابة، توفي ليلة الثلاثاء، عاشر المحرم، ودفن بماملا رحمه الله.

الصدر شمس الدين:

■ محمد بن إسماعيل بن حماد التاجر بقيسارية الشرب، كتب المنسوب، وانتفع به الناس، وولي سمسرة التجار لأمانته وديانته، وكانت له معرفة ومطالعة في الكتب، توفي في تاسع صفر، عن نحو ستين سنة، ودفن

بقاسيون، رحمه الله.

■ (سليمان بن عمر بن سالم بن عم الأذرعي).

جمال الدين قاضي القضاة الزرعي: هو أبو الربيع سليمان ابن الخطيب مجد الدين عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الأذرعي الشافعي، ولد سنة خمس وأربعين وستمائة بأذرعات، واشتغل بدمشق فحصل، وناب في الحكم بزرع مدة فعرف بالزرعي لذلك، وإنما هو من أذرعات، وأصله من بلاد المغرب، ثم ناب بدمشق، ثم انتقل إلى مصر، فناب في الحكم بها، ثم استقل بولاية القضاء بها نحواً من سنة، ثم ولي قضاء الشام مدة مع مشيخة الشيوخ نحواً من سنة أيضاً، ثم عزل، وبقي على مشيخة الشيوخ نحوا من سنة مع تدريس الأتابكية، ثم تحول إلى مصر، فولي بها التدريس وقضاء العسكر، ثم توفي بها يوم الأحد، سادس صفر، وقد قارب التسعين رحمه الله، وقد خرج له البرزالي مشيخة، سمعناها عليه وهو بدمشق، عن اثنين وعشرين شيخا.

الشيخ الإمام العالم الزاهد: زين الدين أبو محمد

■ عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي الحنبلي، أحد فضلاء الحنابلة، ومن صنف في الحديث والفقه، والتصوف وأعمال القلوب وغير ذلك، كان فاضلا، له أعمال كثيرة، وقد وقعت له كائنة في أيام الظاهر، أنه أصيب في عقله، أو زوال فكره، أو قد عمل على الرياضة فاحترق باطنه من الجوع، فرأى خيالات لا حقيقة لها، فاعتقد أنها أمر خارجي، وإنما هو خيال فكري فاسد.

وكانت وفاته في نصف صفر ببعلبك، ودفن بباب سطحا، ولم يكمل الستين، وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب، وعلى القاضي الزرعي معا.

الأمير شهاب الدين

■ قرطاي: نائب طرابلس، له أوقاف وصدقات، وبر وصلات، توفي بطرابلس يوم الجمعة، ثامن عشر صفر، ودفن هناك، رحمه الله.

الشيخ

■ عبد الله بن يوسف بن أبي بكر الإسعردي الموقِّت: كان فاضلا في صناعة الميقات، وعلم الاصطرلاب وما جرى مجراه، بارعا في ذلك، غير أنه لا ينتفع به، لسوء أخلاقه وشراستها، ثم إنه ضعف بصره، فسقط من قيسارية بجسْني فمات عشية السبت، عاشر ربيع الأول، ودفن بباب الصغير.

الأمير سيف الدين

■ بلبان طُرْنا بن عبد الله الناصري، كان من المقدمين بدمشق، وجرت له فصول يطول ذكرها، ثم توفي بداره، عند مئذنة فيروز، ليلة الأربعاء، حادي عشرين ربيع الأول، ودفن بتربة اتخذها إلى جانب داره، ووقف عليها مقرئين، ورتب عندها مسجداً بإمام ومؤذن.

شمس الدين

■ محمد بن يحيى بن محمد بن قاضي حران: ناظر الأوقاف بدمشق، مات الليلة التي مات فيها الذي قبله، ودفن بقاسيون، وتولى مكانه عماد الدين الشيرازي.

الشيخ الإمام ذو الفنون: تاج الدين أبو حفص

■ عمر بن علي بن سالم بن عبد الله اللخمي الإسكندراني، المعروف بابن الفاكهاني ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل بالفقه على مذهب مالك، وبرع وتقدم في معرفة النحو وغيره، وله مصنفات في أشياء متفرقة، قدم دمشق في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، في أيام الأخنائي، فأنزله بالعادلية، وسمعنا عليه ومعه، وحج من دمشق عامئذ، وسمع عليه في الطريق، ورجع إلى بلاده، توفي ليلة الجمعة، سابع جمادى الأولى، وصلي عليه بدمشق حين بلغهم خبر موته.

الشيخ الصالح العابد الناسك: أمين الدين

■ أيمن بن محمد وكان يذكر أن اسمه محمد بن محمد بن محمد إلى سبعة عشر نفسا كلهم اسمه محمد، وقد جاور بالمدينة مدة سنين، إلى أن توفي الخميس، ثامن ربيع الأول بالمدينة، ودفن بالبقيع وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب.

الشيخ نجم الدين القَبَّابي الحموي:

■ عبد الرحمن بن الحسن بن يحيى اللخمي القباب، قرية من قرى أشمون الرمان، أقام بحماة في زاوية، يزار ويلتمس دعاؤه، وكان عابداً، زاهدا ورعاً، آمراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، حسن الطريقة، إلى أن توفي بها آخر نهار الاثنين، رابع عشر رجب، عن ست وستين سنة، وكانت جنازته حافلة هائلة جداً، ودفن شمالي حماة، وكان عنده فضيلة، واشتغل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وله كلام حسن يؤثر عنه، رحمه الله.

الشيخ فتح الدين

■ ابن سيد الناس: الحافظ العلامة البارع، فتح الدين أبو الفتح محمد ابن الإمام أبي عمرو محمد ابن الإمام الحافظ الخطيب أبي بكر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس، الربعي اليعمري، الأندلسي الأشبيلي، ثم المصري، ولد في العشر الأول من ذي الحجة، سنة إحدى وسبعين وستمائة بالقاهرة، وسمع الكثير، وأجاز له الرواية عنهم جماعات من المشايخ، ودخل دمشق سنة تسعين، فسمع من أصحاب الكندي وغيرهم.

واشتغل بالعلم، فبرع وساد أقرانه في علوم شتى، من الحديث والفقه والنحو والعربية، وعلم السير والتواريخ وغير ذلك من الفنون، وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين، وشرح قطعة حسنة من أول جامع الترمذي، رأيت منها مجلداً بخطه الحسن، وقد حرر وحبر، وأفاد وأجاد، ولم يسلم من بعض الانتقاد، وله الشعر الرائق الفائق، والنثر الموافق، والبلاغة التامة، وحسن الترصيف والتصنيف والتعبير، وجودة البديهة، وحسن الطوية، وله العقيدة السلفية الموضوعة على الآي والأخبار والآثار والاقتفاء بالآثار النبوية، ويذكر عنه سوء أدب في أشياء أخر سامحه الله فيها، وله مدائح في رسول الله ﷺ حسان.

وكان شيخ الحديث بالظاهرية بمصر، وخطب بجامع الخندق، ولم يكن في مصر في مجموعه مثله، في حفظ الأسانيد والمتون، والعلل والفقه، والملح والأشعار والحكايات.

توفي فجأة يوم السبت، حادي عشر شعبان، وصلي عليه من الغد، وكانت جنازته حافلة، ودفن عند ابن أبي حمزة، رحمه الله.

القاضي مجد الدين

■ حرمي بن قاسم بن يوسف العامري، الفاقوسي الشافعي، وكيل بيت المال، ومدرس الشافعي وغيره، كانت له همة ونهضة، وعلت سنه، وهو مع ذلك يحفظ ويشغل، ويلقي الدروس من حفظه، إلى أن توفي ثاني ذي الحجة، وولي تدريس الشافعي بعده شمس الدين بن القماح والمدرسة القطبية بهاء الدين بن عقيل، وولي الوكالة نجم الدين الإسعردي المحتسب، وهو كان وكيل بيت الظاهر.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون في التي قبلها، وناظر الجامع عز الدين بن المنجا، والمحتسب عماد الدين بن الشيرازي وغيرهم.

وفي مستهل المحرم يوم الخميس حضر الدرس بأم الصالح الشيخ الصالح شمس الدين بن خطيب يبرود، عوضاً عن قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي سادس المحرم رجع مهنا بن عيسى من عند السلطان، فتلقاه النائب والجيش، وعاد إلى أهله في عز وعافية، وفيه أمر السلطان بعمارة جامع القلعة وتوسيعه، وعمارة جامع مصر العتيق.

وقدم إلى دمشق القاضي جمال الدين عبد الله بن كمال الدين محمد بن عماد الدين إسماعيل بن تاج الدين بن الأثير كاتب سرها، عوضاً عن شرف الدين ابن الشهاب محمود.

ووقع في هذا الشهر والذي بعده موت كثير في الناس بالخانوق.

وفي ربيع الأول مسك الأمير نجم الدين بن الزيبق مشد الدواوين، وصودر وبيعت خيوله وحواصله، وتولاها بعده سيف الدين تمر مملوك بكتمر الحاجب، وهو مشد الزكاة.

وفيه كملت عمارة حمام الأمير شمس الدين حمزة، الذي كان قد تمكن عند تنكز بعد ناصر الدين الدوادار، ثم وقعت الشناعة عليه بسبب ظلمه في عمارة هذا الحمام، فقابله النائب على ذلك، وانتصف للناس منه، وضربه بين يديه، ورماه بالبندق بيده في وجهه، وسائر جسده، ثم أودعه القلعة، ثم نقله إلى بحيرة طبرية فغرقه فيها.

وعزل الأمير جمال الدين نائب الكرك عن نيابة طرابلس حسب سؤاله في ذلك، وراح إليها طَيْنال، وقدم نائب الكرك إلى دمشق، وقد رسم له بالإقامة في صرخد، فلما تلقاه نائب السلطنة والجيش نزل بدار السعادة، وأخذ سيفه بها ونقل إلى القلعة، ثم نقل إلى صفد ثم إلى الإسكندرية، ثم كان آخر العهد به.

وفي جمادى الأولى احتيط على دار الأمير بكتمر الحاجب الحسامي بالقاهرة، ونبشت وأخذ منها شيء كثير جداً، وكان جد أولاد نائب الكرك المذكور.

وفي يوم السبت تاسع جمادى الآخرة، باشر الأمير حسام الدين أبو بكر ابن الأمير عز الدين أيبك النجيبي مشد الأوقاف، عوضاً عن ابن بكتاش، اعتقل، وخلع على المتولي، وهنأه الناس.

وفي منتصف هذا الشهر علق الستر الجديد على خزانة المصحف العثماني، وهو من خز طوله ثمانية أذرع، وعرضه أربعة أذرع ونصف، غرم عليه أربعة آلاف وخمسمائة، وعمل في مدة سنة ونصف.

وخرج الركب الشامي يوم الخميس تاسع شوال، وأميره علاء الدين المرسي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري.

وفيه رجع جيش حلب إليها، وكانوا عشرة آلاف، سوى من تبعهم من التركمان، وكانوا في بلاد أذنة وطرسوس وإياس، وقد خربوا وقتلوا وسبوا وأسروا خلقا كثيرا، ولم يعدم منهم سوى رجل واحد غرق بنهر جاهان، ولكن كان قتل الكفار من كان عندهم من المسلمين نحواً من ألفي رجل، يوم عيد الفطر، من التجار وغيرهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيه وقع حريق عظيم بحماة، فاحترق منه أسواق كثيرة، وأملاك وأوقاف، وهلكت أموال لا تحصر، وكذلك احترق أكثر مدينة أنطاكية، فتألم المسلمون لذلك.

وفي ذي الحجة خرب المسجد الذي كان في وسط الطريق بين باب النصر وبين باب الجابية، عن حكم القضاة بأمر نائب السلطنة، وبني غربيه مسجد حسن أحسن وأنفع من الأول.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الصالح المعمر رئيس المؤذنين بجامع دمشق: برهان الدين

■ إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمد الواني، ولد سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وسمع الحديث، وروى، وكان حسن الصوت والشكل، محبباً إلى العوام.

توفي يوم الخميس، سادس صفر، ودفن بباب الصغير، وقام من بعده في الرياسة ولده أمين الدين محمد الواني المحدث المفيد، وتوفي بعده ببضع وأربعين يوماً، رحمهما الله.

■ (محمود بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب السلمي).

الكاتب المطبق المجود المحرر: بهاء الدين محمود ابن خطيب بعلبك محيي الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب السلمي، ولد سنة ثمان وثمانين وستمائة، واعتنى بهذه الصناعة فبرع فيها، وتقدم على أهل زمانه قاطبة في النسخ وبقية الأقلام، وكان حسن الشكل، طيب الأخلاق، طيب الصوت، حسن التودد، توفي في سلخ ربيع الأول، ودفن بتربة الشيخ أبي عمر رحمه الله.

■ علاء الدين السنجاري: واقف دار القرآن عند باب الناطفانيين شمالي الأموي بدمشق، علي بن إسماعيل بن محمود، كان أحد التجار الصدق الأخيار، ذوي اليسار، المسارعين إلى الخيرات، توفي بالقاهرة، ليلة الخميس، ثالث عشر جمادى الآخرة، ودفن عند قبر القاضي شمس الدين بن الحريري.

■ (عبد الرحيم بن عبد الرحمن الرحبي).

العدل نجم الدين التاجر: عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الرحمن الرحبي، باني التربة المشهورة بالمزة، وقد جعل لها مسجداً، ووقف عليها أوقافا دارة، وصدقات هناك، وكان من أخيار أبناء جنسه، عدل مرضي عند جميع الحكام، وترك أولاداً جمة، وداراً هائلة، وبساتين بالمزة، وكانت وفاته يوم الأربعاء، سابع عشرين جمادى الآخرة، ودفن بتربته المذكورة بالمزة، رحمه الله.

الشيخ الإمام الحافظ قطب الدين: أبو محمد

■ عبد الكريم بن عبد النور بن منير بن عبد الكريم بن علي بن عبد الحق، بن عبد الصمد بن عبد النور، الحلبي الأصل ثم المصري، أحد مشاهير المحدثين بها، والقائمين بحفظ الحديث وروايته وتدوينه، وشرحه والكلام عليه.

ولد سنة أربع وستين وستمائة بحلب، وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث، وقرأ الشاطبية والألفية، وبرع في فن الحديث.

وكان حنفي المذهب، وكتب كثيرا، وصنف شرحاً لأكثر البخاري، وجمع تاريخاً لمصر ولم يكملهما، وتكلم على السيرة التي جمعها الحافظ عبد الغني، وخرج لنفسه أربعين حديثا متباينة الإسناد.

وكان حسن الأخلاق، مطرحاً للكلفة طاهر اللسان، كثير المطالعة والاشتغال، إلى أن توفي يوم الأحد سلخ رجب، ودفن من الغد مستهل

شعبان، عند خاله نصر المنبجي، وخلف تسعة أولاد، رحمه الله.

القاضي الإمام زين الدين أبو محمد:

■ عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف السبكي، قاضي المحلة، ووالد العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، سمع من ابن الأنماطي وابن خطيب المزة، وحدث وتوفي تاسع شعبان، وتبعته زوجته ناصرية بنت القاضي جمال الدين إبراهيم بن الحسين السبكي، ودفنت بالقرافة، وقد سمعت من ابن الصابوني شيئا من سنن النسائي وكذلك ابنتها محمدية وقد توفيت قبلها.

تاج الدين

■ علي بن إبراهيم بن عبد الكريم المصري، ويعرف بكاتب قطلبك، وهو والد العلامة فخر الدين شيخ الشافعية، ومدرسهم في عدة مدارس، ووالده هذا لم يزل في الخلعة والكتابة إلى أن توفي عنده بالعادلية الصغيرة، ليلة الثلاثاء، ثالث عشرين شعبان، وصلي عليه من الغد بالجامع، ودفن بباب الصغير.

■ (عبيد بن أبي الرجال بن حسين بن سلطان المنيني).

الشيخ الصالح عبد الكافي: ويعرف بعبيد بن أبي الرجال بن حسين بن سلطان بن خليفة المنيني، ويعرف بابن أبي الأزرق، مولده في سنة أربع وأربعين وستمائة، بقريته من بلاد بعلبك، ثم أقام بقرية منين، وكان مشهورا بالصلاح وقرئ عليه شيء من الحديث، وجاوز التسعين.

الشيخ

■ محمد بن عبد الحق بن شعبان بن علي الأنصاري، المعروف بالشيّاح، له زاوية بسفح قاسيون بالوادي الشمالي، مشهورة به، وكان قد بلغ التسعين، وسمع الحديث وأسمعه، وكانت له معرفة بالأمور، وعنده بعض مكاشفة، وهو رجل حسن، توفي أواخر شوال من هذه السنة.

الأمير سلطان العرب: حسام الدين

■ مهنا بن عيسى بن مهنا، أمير العرب بالشام، وهم يزعمون أنهم من سلالة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، من ذرية الولد الذي جاءه من العباسة أخت الرشيد فالله أعلم.

وقد كان كبير القدر، محترماً عند الملوك كلهم، بالشام، ومصر والعراق، وكان دينا خيراً متحريا للحق، وخلف أولادا وورثة، وأموالا كثيرة، وقد بلغ سنا عالية.

وكان يحب الشيخ تقي الدين بن تيمية حبا زائدا، هو وذريته وعربه، وله عندهم منزلة، وحرمة وإكرام، يسمعون قوله، ويمتثلونه، وهو الذي نهاهم أن يغير بعضهم على بعض، وعرفهم أن ذلك حرام، وله في ذلك مصنف جليل.

وكانت وفاة مهنا هذا ببلاد سلمية في ثامن عشر ذي القعدة، ودفن هناك رحمه الله.

الشيخ الصالح الزاهد:

■ فضل بن عيسى بن قنديل العجلوني الحنبلي: المقيم بالمسمارية، أصله من بلاد حَبْران، وكان متقللا من الدنيا، يلبس ثيابا طوالا، وعمامة هائلة، وهي بأرخص الأثمان، وكان يعرف تعبير الرؤيا، ويقصد لذلك، وكان لا يقبل من أحد شيئا، وقد عرضت عليه وظائف بجوامك كثيرة وأموال كثيرة فلم يقبلها، بل رضي بالرغيد الهني من العيش الخشن، إلى أن توفي في ذي الحجة، وله نحو تسعين سنة، ودفن بالقرب من قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهما الله، وكانت جنازته حافلة جدا.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الاثنين، والحكام هم المذكورون في التي قبلها.

وفي أول يوم منها ركب تنكز إلى قلعة جعبر، ومعه الجيش والمجانيق، فغابوا شهراً وخمسة أيام، ثم عادوا سالمين.

وفي ثامن صفر فتحت الخانقاه التي أنشأها سيف الدين قوصون الناصري، خارج باب القرافة، وتولى مشيختها الشيخ شمس الدين الأصبهاني المتكلم.

وفي عاشر صفر خرج ابن جملة من السجن بالقلعة.

وجاءت الأخبار بموت ملك التتار بو سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكزخان، في يوم الخميس، ثاني عشر ربيع الآخر، بدار السلطنة بقراباغ، وهي منزلهم في الشتاء، ثم نقل إلى تربته بمدينته التي أنشأها قريبا من السلطانية التي أنشأها أبوه، وقد كان من خيار ملوك التتر، وأحسنهم طريقة، وأثبتهم على السنة وأقومهم بها، وقد عز أهل السنة بزمانه، وذلت الرافضة، بخلاف دولة أبيه، ثم من بعده لم يقم للتتار قائمة، بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر إلى زماننا هذا، وكان القائم من بعده بالأمر أربكاوون من ذرية أبغا، ولم يستمر له الأمر إلا قليلا.

وفي يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى درس بالناصرية الجوانية الشيخ نور الدين الأردبيلي، عوضا عن كمال الدين بن الشيرازي توفي، وحضر عنده القضاة، وفيه درس بالظاهرية البرانية الشيخ الإمام المقرئ سيف الدين أبو بكر الحريري، عوضا عن بدر الدين الأردبيلي، تركها لما حصلت له الناصرية الجوانية.

وبعده بيوم درس بالنجيبية كاتبه إسماعيل بن كثير، عوضاً عن الشيخ جمال الدين بن قاضي الزبداني، تركها حين تعين له تدريس الظاهرية الجوانية، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكان درساً حافلا، أثنى عليه الحاضرون، وتعجبوا من جمعه وترتيبه، وكان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وانساق الكلام إلى مسألة ربا الفضل.

وفي يوم الأحد رابع عشره ذكر الدرس بالظاهرية المذكورة ابن قاضي الزبداني، عوضا عن علاء الدين بن القلانسي توفي، وحضره عنده القضاة والأعيان، وكان يوما مطيرا.

وفي أول جمادى الآخرة وقع غلاء شديد بديار مصر، واشتد ذلك إلى شهر شعبان، وتوجه خلق كثير في رجب إلى مكة نحو من ألفين وخمسمائة منهم عز الدين بن جماعة وفخر الدين النويري وحسين السلامي، وأبو الفتح السلامي، وخلق.

وفي رجب كملت عمارة جسر باب الفرج، وعمل عليه باسورة ورسم باستمرار فتحه إلى بعد عشاء الآخرة كبقية سائر الأبواب، وكان قبل ذلك يغلق من المغرب.

وفي سلخ رجب أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه نجم الدين بن خليخان تجاه باب كيسان من القبلة، وخطب به الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية.

وفي ثاني شعبان باشر كتابة السر بدمشق القاضي علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل، عوضاً عن جمال الدين بن الأثير، عزل وراح إلى مصر.

وفي يوم الأربعاء رابع رمضان ذكر الدرس بالأمينية الشيخ الإمام

العلاّمة بهاء الدين إمام المشهد، عوضاً عن علاء الدين بن القلانسي.

وفي العشرين منه خلع على الصدر نجم الدين بن أبي الطيب بنظر الخزانة، مضافا إلى ما بيده من وكالة بيت المال، بعد وفاة ابن القلانسي بشهور.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين ثامن شوال، وأميره قطلودمر الخليلي، وممن حج فيه قاضي طرابلس، محيي الدين بن جهبل، والفخر المصري، وابن قاضي الزبداني، وابن العز الحنفي، وابن غانم والسخاوي، وابن قيم الجوزية، وناصر الدين بن الربوة الحنفي.

وجاءت الأخبار بوقعة جرت بين التتار في نصف رمضان قتل فيها خلق كثير منهم، وانتصر علي باشا وسلطانه الذي كان قد أقامه، وهو موسى كاوون على أربا كاوون وأصحابه، فقتل هو ووزيره ابن رشيد الدولة، وجرت خطوب كثيرة طويلة، وضربت البشائر بدمشق.

وفي ذي القعدة خلع على ناظر الجامع الشيخ عز الدين بن المنجا، بسبب إكماله البطائن، في الرواق الشمالي والغربي والشرقي، ولم يكن قبل ذلك بطائن.

وفي يوم الأربعاء سابع ذي الحجة ذكر الدرس بالشبلية القاضي نجم الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وهو ابن سبع عشرة سنة، وحضر عنده القضاة والأعيان، وشكروا من فضيلته ونباهته، وفرحوا لأبيه به.

وفيها عزل ابن النقيب عن قضاء حلب، ووليها فخر الدين ابن خطيب جبرين، وولي الحسبة بالقاهرة ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد ابن خطيب بيت الأبار، خلع عليه السلطان.

وفي ذي القعدة رسم السلطان باعتقال الخليفة المستكفي بالله وأهله، وأن يمنعوا من الاجتماع، فآل أمرهم كما كان أيام الظاهر والمنصور.

ومن توفي فيها من الأعيان

السلطان بو سعيد بن خربندا: وكان آخر من اجتمع شمل التتار عليه، ثم تفرقوا من بعده.

الشيخ المعمر الرحلة البندنيجي شمس الدين

علي بن محمد بن ممدود بن عيسى البندنيجي الصوفي، قدم علينا من بغداد شيخا كبيرا راويا لأشياء كثيرة، منها صحيح مسلم، والترمذي وغير ذلك، وعنده فوائد، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان والده محدثا، فأسمعه أشياء كثيرة على مشايخ عدة، وكان موته بدمشق في سابع المحرم.

قاضي قضاة بغداد: قطب الدين أبو الفضائل

■ محمد بن عمر بن الفضل التبريزي الشافعي، المعروف بالأخوين، سمع شيئا من الحديث، واشتغل بالفقه والأصول، والمنطق والعربية، والمعاني والبيان.

وكان بارعا في فنون كثيرة، ودرس بالمستنصرية بعد العاقولي، وفي مدارس كبار، وكان حسن الخلق، سريع الخير على الفقراء والضعفاء، متواضعاً، يكتب حسنا أيضا.

توفي في أواخر المحرم، ودفن بتربة له عند داره ببغداد رحمه الله.

الأمير صارم الدين:

■ إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن أبي الزهر، المعروف بالغزال، كانت له مطالعة، وعنده شيء من التاريخ، ويحاضر جيداً، ولما توفي يوم الجمعة وقت الصلاة السادس والعشرين من المحرم دفن بتربة له عند حمام العديم.

الأمير علاء الدين

■ مغلطاي الخازن: نائب القلعة وصاحب التربة تجاه الجامع المظفري من الغرب، كان رجلا جيداً، له أوقاف، وبر وصدقات، توفي يوم الجمعة، بكرة عاشر صفر، ودفن بتربته المذكورة.

القاضي كمال الدين:

■ أحمد بن محمد بن محمد بن القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة اللّه بن الشيرازي الدمشقي، ولد سنة سبعين، وسمع الحديث، وتفقه على الشيخ تاج الدين الفزاري، والشيخ زين الدين الفارقي، وحفظ مختصر المزني، ودرس في وقت بالبادرائية، وفي وقت آخر بالشامية البرانية، ثم ولي تدريس الناصرية الجوانية مدة سنين إلى حين وفاته.

وكان صدرا كبيرا، ذكر لقضاء قضاة دمشق غير مرة، وكان حسن المباشرة والشكل، توفي في ثالث صفر، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، رحمه الله.

الأمير

■ ناصر الدين: محمد بن الملك المسعود جلال الدين بن عبد الله بن الملك الصالح إسماعيل بن العادل، كان شيخا مسنا، قد اعتنى بصحيح البخاري يختصره، وله فهم جيد، ولديه فضيلة، وكان يسكن المزة، وبها توفي ليلة السبت، خامس عشرين صفر، وله أربع وسبعون سنة، ودفن بتربتهم بالمزة رحمه الله.

■ (ابن القلانسي، علي بن محمد).

علاء الدين : علي بن شرف الدين محمد بن محمد بن القلانسي ، قاضي العسكر ووكيل بيت المال، وموقع الدست، ومدرس الأمينية والظاهرية، وغير ذلك من المناصب، ثم سلبها كلها سوى التدريس، وبقي معزولا إلى حين أن توفي بكرة السبت، خامس عشرين صفر، ودفن بتربتهم.

■ (ابن القلانسي، أحمد بن محمد بن أحمد العقيلي).

عز الدين أحمد بن الشيخ زين الدين: محمد بن أحمد بن محمود العقيلي، ويعرف بابن القلانسي، محتسب دمشق، وناظر الخزانة، كان محمود المباشرة، ثم عزل عن الحسبة، واستمر بالخزانة إلى أن توفي يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى، ودفن بقاسيون.

الشيخ

■ علي بن أبي المجد بن شرف بن أحمد بن أحمد الحمصي: ثم الدمشقي مؤذن الربوة خمساً وأربعين سنة وله ديوان شعر وتعاليق، وأشياء كثيرة مما ينكر أمرها، وكان محلولا في دينه، توفي في جمادى الأولى أيضا.

الأمير

■ شهاب الدين بن برق: متولي دمشق، شهد جنازته خلق كثير، توفي ثاني شعبان، ودفن بالصالحية، وأثنى عليه الناس.

الأمير

■ فخر الدين بن الشمس لؤلؤ: متولي البر، كان مشكوراً أيضاً، توفي رابع رمضان، وكان شيخا كبيرا، توفي ببستانه ببيت لهيا، ودفن بتربته هناك، وترك ذرية كثيرة، رحمه الله.

■ (إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن القيسراني).

عماد الدين إسماعيل بن شرف الدين محمد ابن الوزير فتح الدين

عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن نصر بن صغير بن القيسراني، أحد كتاب الدست، وكان من خيار الناس، محبًّا للفقراء، والصالحين، وفيه مروءة كثيرة، وكتب بمصر، ثم صار إلى حلب كاتب سرها، ثم انتقل إلى دمشق، فأقام بها إلى أن توفي ليلة الأحد، ثالث عشر ذي القعدة، وصلي عليه من الغد بجامع دمشق، ودفن بالصوفية، عن خمس وستين سنة، وقد سمع شيئا من الحديث على الأبرقوهي وغيره.

وفي ذي القعدة توفي

■ شهاب الدين بن القدِّيسة، المحدث بطريق الحجاز الشريف.

وفي ذي الحجة توفي الشمس

■ محمد المؤذن المعروف بالنجار، ويعرف بالبقي، وكان يتكلم وينشد في المحافل، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الجمعة، والخليفة المستكفي بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر، ومنعه من الاجتماع بالناس.

ونائب الشام تنكز بن عبد الله الناصري.

والقضاة والمباشرون هم المذكورون في التي قبلها، سوى كاتب السر فإنه علم الدين بن القطب، ووالي البر الأمير بدر الدين بن قطلوبك بن ششنكير، ووالي المدينة حسام الدين طرنطاي الجوكنداري.

وفي أول يوم منها يوم الجمعة وصلت الأخبار بأن على باشا كسر جيشه، وقيل: إنه قتل.

ووصلت كتب الحجاج في الثاني والعشرين من المحرم، تصف مشقة كثيرة حصلت للحجاج، من موت الجمال، وإلقاء الأحمال، ومشي كثير من النساء والرجال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله على كل حال.

وفي آخر المحرم قدم إلى دمشق القاضي حسام الدين حسن بن محمد الغوري قاضي بغداد، والوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروان الكردي، وشرف الدين عثمان بن حسن البلدي فأقاموا ثلاثة أيام، ثم توجهوا إلى مصر، فحصل لهم قبول تام من السلطان، فاستقضى الأول على الحنفية كما سيأتي، واستوزر الثاني، وأمَّر الثالث.

وفي يوم عاشوراء أحضر شمس الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أحمد بن اللبان الفقيه الشافعي إلى مجلس الحكم الجلالي، وحضر معه شهاب الدين بن فضل الله ومجد الدين الأقصرائي شيخ الشيوخ، وشمس الدين الأصبهاني، فادعى عليه بأشياء منكرة من الحلول والاتحاد، والغلو في القرمطة، وغير ذلك، فأقر ببعضها، فحكم عليه بحقن دمه، ثم توسط في أمره، وأبقيت عليه جهاته، ومنع من الكلام على الناس، وقام في صفه جماعة من الأمراء والأعيان، وفي صفر احترق بقصر حجاج حريق عظيم، أتلف دورا ودكاكين عديدة.

وفي ربيع الأول ولد للسلطان ولد، فدقت البشائر بدمشق، وزينت البلد أياما.

وفي منتصف ربيع الآخر أسر الأمير صارم الدين إبراهيم الحاجب الساكن تجاه جامع كريم الدين طبلخاناه، وهو من كبار أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، له مقاصد حسنة صالحة، وهو في نفسه رجل جيد.

وفيه أفرج عن الخليفة المستكفي بالله، وأطلق من البرج، في حادي عشرين ربيع الآخر، ولزم بيته.

وفي يوم الجمعة عشرين جمادى الآخرة أقيمت الجمعة في جامعين بمصر، أحدهما أنشأه الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الخطيري، ومات بعد ذلك باثني عشر يوما رحمه الله، والآخر أنشأته امرأة يقال لها الست حدق داية السلطان الناصر، عند قنطرة السباع.

وفي شعبان سافر القاضي شهاب الدين أحمد بن شرف بن منصور النائب في الحكم بدمشق إلى قضاء طرابلس، وناب بعده الشيخ شهاب الدين أحمد بن النقيب البعلبكي.

وفيه خلع على عز الدين بن جماعة بوكالة بيت المال بمصر، وعلى ضياء الدين ابن خطيب بيت الأبار بالحسبة بالقاهرة، مع ما بيده من نظر الأوقاف وغيره.

وفيه أمِّر الأمير ناظر القدس بطبلخاناه ثم عاد إلى القدس.

وفي عاشر رمضان قدمت من مصر مقلمتان ألفان إلى دمشق، سائرتان إلى بلاد سيس، وفيهم علاء الدين، فاجتمع به أهل العلم، وهو من أفاضل الحنفية، وله مصنفات في الحديث وغيره.

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين عاشر شوال، وأميره بهادر قبجق، وقاضيه محيي الدين الطرابلسي مدرس الحمصية، وفي الركب تقي الدين شيخ الشيوخ، وعماد الدين بن الشيرازي، ونجم الدين الطرسوسي، وجمال الدين المرداوي، وصاحبه شمس الدين بن مفلح، والصدر المالكي، والشرف بن القيسراني، والشيخ خالد المقيم عند دار الطعم، وجمال الدين بن الشهاب محمود.

وفي ذي القعدة وصلت الأخبار بأن الجيش تسلموا من بلاد سيس سبع قلاع، وحصل لهم خير كثير، ولله الحمد، وفرح المسلمون بذلك.

وفيه كانت وقعة هائلة بين التتار، انتصر فيها الشيخ حسن وذووه، وفي التاسع عشر من ذي الحجة نفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليفة وأهله وذويه، وكانوا قريبا من مائة نفس إلى بلاد قوص، ورتب لهم هناك ما يقوم بمصالحهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الشيخ علاء الدين بن غانم: أبو الحسن

■ علي بن محمد بن سليمان بن حمائل بن علي المقدسي، أحد الكتّاب المشهورين بالفضائل، وحسن الترسل، وكثرة الأدب، والأشعار، والمروءة التامة.

مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة، وسمع الحديث الكثير، وحفظ القرآن والتنبيه، وباشر الجهات، وقصده الناس في الأمور المهمات، وكان كثير الإحسان إلى الخاص والعام.

توفي مرجعه من الحج في منزلة تبوك، يوم الخميس ثالث عشر المحرم، ودفن هناك رحمه الله، ثم تبعه أخوه

■ (أحمد بن محمد بن سليمان بن حمائل بن علي المقدسي)

شهاب الدين أحمد في شهر رمضان، وكان أصغر منه سنا بسنة، وكان فاضلا أيضا، بارعا كثير الدِّيانة.

الشرف

■ محمود الحريري: المؤذن بالجامع الأموي، بنى حماما بالنيرب، ومات في آخر المحرم.

■ (محمد بن إبراهيم بن معضاد بن شداد الجعبري).

الشيخ الصالح العابد: ناصر الدين محمد ابن الشيخ إبراهيم بن معضاد

بن شداد بن ماجد بن مالك الجعبري ثم المصري، ولد سنة خمسين وستمائة بقلعة جعبر، وسمع صحيح مسلم وغيره، وكان يتكلم على الناس ويعظهم، ويستحضر أشياء كثيرة من التفسير وغيره، وكان فيه صلاح وعبادة، توفي في الرابع والعشرين من المحرم، ودفن بزاويتهم عند والده خارج باب النصر.

الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق الحنفي:

■ أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن يوسف ابن قاضي الحصن، ويعرف بابن عبد الحق الحنفي، شيخ المذهب، ومدرس الحنفية وغيرها، وكان بارعا، فاضلا دينا، توفي في ربيع الأول.

الشيخ عماد الدين:

■ إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي الإمام العالم العابد، شيخ الحنابلة بها، ومفتيهم من مدة طويلة، توفي في ربيع الأول.

الشيخ الإمام العابد الناسك: محب الدين

■ عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور المقدسي الحنبلي، سمع الكثير، وقرأ بنفسه، وكتب الطباق، وانتفع الناس به.

وكانت له مجالس وعظ من الكتاب والسنة في الجامع الأموي وغيره، وله صوت طيب بالقراءة جداً، وعليه روح، وسكينة ووقار، وكانت مواعيده مفيدة ينتفع بها الناس، وكان شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية يحبه، ويحب قراءته.

توفي يوم الاثنين، سابع ربيع الأول، وكانت جنازته حافلة، ودفن بقاسيون، وشهد الناس له بالخير، رحمه الله تعالى، وبلغ خمسا وخمسين سنة.

المحدث البارع المحصل المفيد المخرج المجيد: ناصر الدين

■ محمد بن طغريل بن عبد الله الصيرفي، أبوه الخوارزمي الأصل، سمع الكثير، وقرأ بنفسه، وكان سريع القراءة، وقرأ الكتب الكبار والصغار، وجمع وخرج شيئا كثيراً، وكان بارعا في هذا الشأن، رحل فأدركته منيته بحماة، يوم السبت ثاني عشر ربيع الأول، ودفن من الغد بمقابر طيبة رحمه الله.

■ (عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم المقدسي).

شيخنا الإمام العالم العابد: شمس الدين أبو محمد عبد الله بن العفيف محمد بن الشيخ تقي الدين يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة بها، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة وسمع الكثير.

وكان كثير العبادة، وحسن الصوت، عليه البهاء والوقار، حسن الشكل والسمت، قرأت عليه عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة مرجعنا من القدس، كثيرا من الأجزاء والفوائد، وهو والد صاحبنا الشيخ جمال الدين يوسف أحد مفتي الحنابلة، وغيرهم، والمشهورين بالخير والصلاح.

توفي يوم الخميس، ثاني عشرين من ربيع الآخر. ودفن هناك، رحمه الله.

الشيخ

■ محمد بن عبد الله بن المجد: إبراهيم المرشدي، المقيم بمنية مرشد، يقصده الناس للزيارة ويضيف الناس على حسب مراتبهم، وينفق نفقات كثيرة جداً، ولم يكن يأخذ من أحد شيئا فيما يبدو للناس، والله أعلم بحاله.

وأصله من قرية دهروط، وأقام بالقاهرة مدة، واشتغل بها، ويقال إنه، قرأ التنبيه في الفقه، ثم انقطع بمنية مرشد، واشتهر أمره في الناس، وحج مرات، وكان إذا دخل القاهرة يزدحم عليه الناس.

ثم كانت وفاته يوم الخميس، ثامن رمضان، ودفن بزاويته، وصلي عليه بالقاهرة ودمشق وغيرهما.

الأمير أسد الدين:

■ عبد القادر بن المغيث عبد العزيز بن الملك المعظم عيسى بن العادل، ولد سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وسمع الكثير وأسمع، وكان يأتي كل سنة من مصر إلى دمشق، ويكرم أهل الحديث، ولم يبق من بعده من بني أيوب أعلى سنا منه، توفي بالرملة في سلخ رمضان، رحمه الله.

الشيخ الصالح الفاضل:

■ حسين بن إبراهيم بن حسين الجاكي الحكري، إمام مسجد هناك، ومذكر الناس في كل جمعة، ولديه فضائل، وفي كلامه نفع كثير، إلى أن توفي في العشرين من شوال، ولم ير الناس مثل جنازته بديار مصر، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة

استهلت بيوم الأربعاء، والخليفة المستكفي منفي ببلاد قوص، ومعه أهله وذووه، ومن يلوذ به.

وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور.

ولا نائب بديار مصر ولا وزير، ونائبه بدمشق تنكز.

وقضاة البلاد ونوابها ومباشروها هم المذكورون في التي قبلها.

وفي ثالث ربيع الأول رسم السلطان بتسفير علي ومحمد ابني داود بن سليمان بن داود بن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى الفيوم يقيمون به.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر عزل القاضي علم الدين بن القطب عن كتابة السر، وضرب وصودر، ونكب بسببه القاضي فخر الدين المصري، وعزل عن مدرسته الدولعية، وأخذها، ابن جملة، والعادلية، الصغيرة باشرها ابن النقيب، ورسم عليه بالعذراوية مائة يوم، وأخذ شيء من ماله.

وفي ليلة الأحد ثالث عشرين ربيع الأول بعد المغرب هبت ريح شديدة بمصر، وأعقبها رعد وبرق وبرد بقدر الجوز، وهذا شيء لم يشاهدوا مثله من أعصار متطاولة بتلك البلاد.

وفي عاشر جمادى الأولى استهل الغيث بمكة من أول الليل، فلما انتصف الليل جاء سيل عظيم هائل، لم ير مثله من دهر طويل، فخرب دورا كثيرة، نحواً من ثلاثين أو أكثر، وغرق جماعة، وكسر أبواب المسجد، ودخل الكعبة، وارتفع فيها نحواً من ذراع أو أكثر، وجرى أمر عظيم حكاه الشيخ عفيف الدين المَطَري.

وفي سابع عشرين من جمادى الأولى عزل القاضي جلال الدين القزويني عن قضاء مصر، واتفق وصول خبر موت قاضي الشام ابن المجد بعد أن عزل بيسير، فولاه السلطان قضاء الشام، فسار إليها راجعا عوداً على بدء، ثم عزل السلطان برهان الدين بن عبد الحق قاضي الحنفية، وعزل قاضي الحنابلة تقي الدين، ورسم على ولده صدر الدين بأداء ديون الناس إليهم، وكانت قريبا من ثلاثمائة ألف.

فلما كان يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة بعد سفر جلال الدين بخمسة أيام طلب السلطان أعيان الفقهاء إلى بين يديه، فسألهم عن من

يصلح للقضاء بمصر، فوقع الاختيار على القاضي عز الدين بن جماعة، فولاه في الساعة الراهنة، وولى قضاء الحنفية لحسام الدين حسن بن محمد الغوري البغدادي قاضي بغداد، وخرجا من بين يديه إلى المدرسة الصالحية، وعليهما الخلع، ونزل عز الدين بن جماعة عن دار الحديث الكاملية لصاحبه الشيخ عماد الدين الدمياطي فدرس فيها، وأورد حديث: «إنما الأعمال بالنيات»، [خ (١)، م (١٩٠٧)] بسنده وتكلم عليه، وعزل نواب الحكم، واستمر بالمناوي الذي أشار بتوليته.

ولما كان يوم خامس عشرين منه ولى قضاء الحنابلة الإمام العالم موفق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك المقدسي، عوضا عن المعزول، ولم يبق من القضاة سوى الأخنائي المالكي.

وفي رمضان فتحت الصبابية التي أنشأها شمس الدين بن تقي الدين بن الصباب التاجر دار قرآن ودار حديث، وقد كانت خربة شنيعة قبل ذلك.

وفي رمضان باشر علاء الدين علي بن القاضي محيي الدين بن فضل الله كتابة السر بمصر، بعد وفاة أبيه كما ستأتي ترجمته، وخلع عليه وعلى أخيه بدر الدين، ورسم لهما أن يحضرا مجلس السلطان، وذهب أخوه شهاب الدين إلى الحج.

وفي هذا الشهر سقط بالجانب الغربي من مصر برد كالبيض وكالرمان، فأتلف شيئا كثيراً، ذكر ذلك البرزالي، ونقله من كتاب الشهاب الدمياطي.

وفي ثالث عشرين رمضان درس بالقبة المنصورية بمشيخة الحديث شهاب الدين العسجدي، عوضا عن زين الدين الكناني توفي، فأورد حديثا من مسند الشافعي بروايته عن الحاولي بسنده، ثم صرف عنها في ذي الحجة بالشيخ أثير الدين أبي حيان، فساق حديثا عن شيخه ابن الزبير، ودعا للسلطان، وحضر عنده القضاة والأعيان، وكان مجلساً حافلا.

وفي ذي القعدة حضر تدريس الشامية، البرانية قاضي القضاة شمس الدين بن النقيب، عوضاً عن القاضي جمال الدين بن جملة توفي، وحضر عنده خلق كثير من الفقهاء والأعيان وكان مجلسا حافلا.

وفي ثاني ذي الحجة درس بالعادلية الصغيرة تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة جلال الدين القزويني عوضا عن الشيخ شمس الدين بن النقيب بحكم ولايته الشامية البرانية، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي هذا الشهر درس القاضي صدر الدين ابن القاضي جلال الدين بالأتابكية، وأخوه الخطيب بدر الدين بالغزالية والعادلية نيابة عن أبيه.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ (محمد بن عيسى بن التركماني).

الأمير الكبير بدر الدين محمد بن فخر الدين عيسى بن التركماني: باني جامع المقياس بمصر في أيام وزارته بها، ثم عزل عنها أميرا إلى الشام، ثم رجع إلى مصر، فتوفي بها في خامس ربيع الآخر، ودفن بالحسينية، وكان مشكورا، رحمه الله.

قاضي القضاة شهاب الدين:

■ محمد بن المجد بن عبد الله بن الحسين بن علي الزُرزاري، الإربلي الأصل، ثم الدمشقي الشافعي، قاضي قضاة الشافعية بدمشق، ولد سنة اثنتين وستين وستمائة، واشتغل وبرع، وحصل، وأفتى سنة ثلاث وتسعين، ودرس بالإقبالية، ثم الرواحية، وتربة أم الصالح، وولي وكالة بيت المال، ثم صار قاضي قضاة الشام إلى أن توفي، بمستهل جمادى الأولى بالمدرسة العادلية، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

الشيخ الإمام العالم: زين الدين

■ محمد بن عبد الله ابن الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد بن المرحل مدرس الشامية البرانية، والعذراوية ولد بدمشق، وكان قبل ذلك بمشهد الحسين.

وكان فاضلا بارعا فقيها أصوليا مناظرا، حسن الشكل، طيب الأخلاق، حسن التدريس، دينا صينا، وناب في وقت بدمشق عن علم الدين الأخنائي في الحكم فحمدت سيرته.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء، تاسع عشر رجب، ودفن من الغد عند مسجد النبان، في تربة لهم هناك، وحضر جنازته خلق كثير والقاضي جلال الدين، وكان قد قدم من الديار المصرية له يومان، وقدم بعده القاضي ابن عبد الحق بخمسة أيام، هو وأهله وأولاده أيضا.

وباشر بعده تدريس الشامية البرانية قاضي القضاة جمال الدين بن جملة، ثم كانت وفاته بعده بشهور، وذلك يوم الخميس، رابع عشر ذي القعدة، وهذه ترجمته في تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي:

توفي الشيخ الإمام العالم قاضي القضاة: جمال الدين أبو المحاسن

■ يوسف بن إبراهيم بن جملة بن مسلم بن تمّام بن حسين بن يوسف الصالحي الشافعي: الحجي والده بالمدرسة المسرورية، وصلي عليه عقيب الظهر يوم الخميس، رابع عشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون.

ومولده في أوائل سنة ثنتين وثمانين وستمائة، وسمع من ابن البخاري وغيره، وحدث، وكان رجلا فاضلا في فنون.

اشتغل وحصل، وأفتى وأعاد ودرس، وله فضائل جمة، ومباحث وفوائد، وهمة عالية، وحرمة وافرة، وفيه تودد وإحسان، وقضاء للحقوق، وولي القضاء بدمشق نيابة واستقلالا، ودرس بمدارس كبار، ومات وهو مدرس الشامية البرانية، وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان رحمه الله.

■ (ابن البارزي).

الشيخ الإمام شيخ الإسلام قاضي القضاة شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم القاضي شمس الدين أبي الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله الجهني الحموي، المعروف بابن البارزي، قاضي القضاة بحماة، صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة في الفنون العديدة.

ولد في خامس رمضان، سنة خمس وأربعين وستمائة، وسمع الكثير، وحصل فنونا كثيرة، وصنف كتبا كثيرة جمة.

وكان حسن الأخلاق، كريم المحاضرة، حسن الاعتقاد في الصالحين، وكان معظما عند الناس، وقد أذن لجماعة من الطلبة في الإفتاء، وعمي في آخر عمره وهو يحكم مع ذلك مدة، ثم نزل عن المنصب لحفيده نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم، وهو مع ذلك لا يقطع نظره عن المنصب.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء عشرين ذي القعدة، بعد أن صلى العشاء، والوتر، فلم تفته فريضة ولا نافلة، وصلي عليه من الغد ودفن بعقبة بعرين، وله من العمر ثلاث وتسعون سنة رحمه الله.

الشيخ الإمام العالم: شهاب الدين

■ أحمد بن البرهان شيخ الحنفية بحلب، شارح الجامع الكبير، وكان رجلا صالحا منقطعا عن الناس، وانتفع الناس به، وكانت وفاته ليلة

الجمعة، ثامن عشرين من رجب، وكانت له معرفة بالقرآن والقراءات والعربية، ومشاركات في علوم أخر رحمه الله، والله أعلم.

القاضي محيي الدين بن فضل الله كاتب السر: هو أبو المعالي

■ يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف العدوي العمري، ولد في حادي عشر شوال، سنة خمس وأربعين وستمائة بالكرك، وسمع الحديث وأسمعه.

وكان صدرا كبيرا، معظما في الدولة، في حياة أخيه شرف الدين وبعده، وكتب السر بالشام وبالديار المصرية.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء، تاسع رمضان، بديار مصر، ودفن من الغد بالقرافة، وتولى المنصب بعده ولده القاضي علاء الدين، وهو أصغر أولاده الثلاثة المعينين لهذا المنصب.

الشيخ الإمام العلامة: زين الدين ابن الكتاني، شيخ الشافعية، بديار مصر، وهو أبو حفص.

■ عمر بن أبي الحرم بن عبد الرحمن بن يونس الدمشقي الأصل.

ولد بالقاهرة، في حدود سنة ثلاث وخمسين وستمائة، واشتغل بدمشق، ثم رحل إلى مصر، واستوطنها وتولى بها بعض الأقضية بالحكر، ثم ناب عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، فحمدت سيرته، ودرس في مدارس كبار، وولي مشيخة دار الحديث بالقبة المنصورية.

وكان بارعا فاضلا، عنده فوائد جمة كثيرة جدا، غير أنه كان سيء الأخلاق، منقبضا عن الناس، لم يتزوج قط، وكان حسن الشكل، بهي المنظر، يأكل الطيبات ويلبس اللين من الثياب، وله فوائد وفرائد، وزوائد على الروضة وغيرها، وكان فيه استهتار ببعض العلماء فالله يسامحه.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء، المنتصف من رمضان، ودفن بالقرافة، رحمه الله.

الشيخ الإمام العلامة: ركن الدين

■ ابن القُوَيْع، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل القرشي الهاشمي الجعفري، التونسي المالكي، المعروف بابن القُوَيْع، كان من أعيان الفضلاء، وسادة الأذكياء، ممن جمع الفنون الكثيرة، والعلوم الغزيرة الدينية الشرعية والطبية، وكان مدرسا بالمنكوتمرية، وله وظيفة في المارستان المنصوري، وبها توفي في بكرة السابع عشر من ذي الحجة، عن أربع وسبعين سنة ترك مالا وأثاثا كثيراً ورثه بيت المال.

والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: وهذا آخر ما أرخ شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه، الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي وقد كانت وفاة البرزالي في العام القابل وهو محرم بمنزلة خليص، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء، العشرين من جمادى الآخرة، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، أحسن الله خاتمتها آمين، وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا ولله الحمد والمنة، وما أحسن ما قال الحريري:

وإن تجد عيباً فسدَّ الخللا ... فجلَّ مَنْ لا عيب فيه وعلا

كتبه إسماعيل بن كثير بن ضوء القرشي الشافعي عفا الله تعالى عنه آمين.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة

استهلت وسلطان الإسلام والمسلمين بالديار المصرية وما والاها والديار الشامية وما والاها والحرمين الشريفين الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، ولا نائب له ولا وزير أيضا بمصر، وقضاة مصر.

أما الشافعي فقاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة.

وأما الحنفي فقاضي القضاة حسام الدين الغوري، حسن بن محمد.

وأما المالكي فتقي الدين الأخنائي.

وأما الحنبلي فموفق الدين بن نجا المقدسي.

ونائب الشام الأمير سيف الدين تنكز.

وقضاته جلال الدين القزويني الشافعي المعزول عن الديار المصرية، والحنفي عماد الدين الطرسوسي، والمالكي شرف الدين الهمداني، والحنبلي علاء الدين بن المنجا التنوخي.

ومما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية، وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام محمد بن أحمد الذهبي، وقرر فيها ثلاثون محدثا، لكل منهم جراية وجامكية، كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز، وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤون القرآن، لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين.

ورتّب لها إمام، وقارئ حديث، ونواب، ولقارئ الحديث عشرون درهما وثمان أواق خبز، وجاءت في غاية الحسن في شكالاتها وبنائها، وهي تجاه دار الذهب التي أنشأها الواقف الأمير تنكز، ووقف عليها عدة أماكن: منها سوق القشاشين بباب الفرج، طوله عشرون ذراعا شرقا وغربا، سماه في كتاب الوقف، وبندر زبدين، وحمام بحمص وهو الحمام القديم، ووقف عليها حصصا في قرايا أخر، ولكنه تغلب على ما عدا القشاشين وبندر زبدين، وحمام حمص

وفيها قدم القاضي تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي من الديار المصرية، حاكما على دمشق وأعمالها، وفرح الناس به، ودخل الناس يسلمون عليه، لعلمه وديانته وأمانته، ونزل بالعادلية الكبيرة على عادة من تقدمه، ودرس بالغزالية والأتابكية، واستناب ابن عمه القاضي بهاء الدين أبو البقاء، ثم استناب ابن عمه أبا الفتح، وكانت ولايته الشام بعد وفاة قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحيم القزويني الشافعي، على ما سيأتي بيانه في الوفيات من هذه السنة.

ومن توفي فيها من الأعيان

في المحرم سنة تسع وثلاثين وسبعمائة:

■ (عثمان بن علي بن عثمان الحلبي).

العلامة قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن الزين علي بن عثمان الحلبي، ابن خطيب جبرين الشافعي، ولي قضاء حلب، وكان إماما صنف شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، وشرح البديع لابن الساعاتي، وله فوائد غزيرة، ومصنفات جليلة تولى حلب بعد عزل الشيخ ابن النقيب، ثم طلبه السلطان فمات هو وولده الكمال، وله بضع وسبعون سنة.

ومن توفي فيها:

قاضي القضاة جلال الدين

■ محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي، قدم هو وأخوه أيام التتر من بلادهم إلى دمشق، وهما فاضلان، بعد التسعين وستمائة، فدرس إمام الدين في تربة أم الصالح، وأعاد جلال الدين بالبادرائية عند الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين شيخ الشافعية، ثم تنقّلت بهما الأحوال إلى أن ولي إمام الدين قضاء الشافعية بدمشق، انتزع له من يد القاضي بدر الدين بن جماعة، ثم هرب سنة قازان إلى الديار المصرية مع الناس فمات هنالك، وأعيد ابن جماعة إلى القضاء، وخلت خطابة البلد سنة ثلاث وسبعمائة، فوليها جلال الدين المذكور، ثم ولي القضاء بدمشق سنة خمس وعشرين مع الخطابة، ثم انتقل إلى الديار المصرية سنة سبع وعشرين، بعد أن عجز قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بسبب الضرر في عينيه.

فلما كان في سنة ثمان وثلاثين تغضّب عليه السلطان الملك الناصر، بسبب أمور يطول شرحها، ونفاه إلى الشام، واتفق موت قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله كما تقدم، فولاه السلطان قضاء الشام عوداً على بدء، فاستناب ولده بدر الدين على نيابة القضاء الذي هو خطيب دمشق، ثم كانت وفاته في أوائل هذه السنة، ودفن بالصوفية، وكانت له يد طولى في المعاني والبيان، ويفتي كثيرا، وله مصنفات في المعاني، مصنف مشهور (اسمه التلخيص في علوم البلاغة) اختصر فيه المفتاح للسكاكي، وكان مجموع الفضائل، مات وكان عمره قريباً من السبعين أو جاوزها.

ومن توفي فيها رابع الحجة يوم الأحد:

الشيخ الإمام الحافظ علم الدين أبو محمد

■ القاسم بن محمد بن البرزالي، مؤرخ الشام، الشافعي.

ولد سنة وفاة الشيخ ابن أبي شامة، سنة خمس وستين وستمائة، وقد كتب تاريخاً، ذيل به على الشيخ شهاب الدين، من حين وفاته ومولد البرزالي، إلى أن توفي في هذه السنة، وهو محرم، فغسل وكفن ولم يستر رأسه، وحمله الناس على نعشه وهم يُلبُّون حوله، وكان يوماً مشهوداً.

وسمع الكثير أزيد من ألف شيخ، وخرج له المحدث شمس الدين بن سعد مشيخة لم يكملها، وقرأ شيئا كثيراً، وأسمع شيئا كثيرا، وكان له خط حسن، وخلق حسن، وهو مشكور عند القضاة، ومشايخه أهل العلم.

سمعت العلامة ابن تيمية يقول: نقل البرزالي نقر في حجر.

وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه، وكان له أولاد ماتوا قبله، وكتبت ابنته فاطمة البخاري في ثلاثة عشر مجلدا فقابله لها، وكان يقرأ فيه على الحافظ المزي تحت القبة، حتى صارت نسختها أصلا معتمدا يكتب منها الناس.

وكان شيخ حديث بالنورية وفيها وقف كتبه بدار الحديث النفيسية وبدار الحديث القوصية، وكان قارئ الحديث بدار الحديث الأشرفية على المزي ومن قبله ابن الشريشي، وكان يُعيد في الجامع وغيره، على كراسي الحديث.

وكان متواضعا، محببا إلى الناس، متوددا إليهم، توفي عن أربع وسبعين سنة رحمه الله.

المؤرخ شمس الدين

■ محمد بن إبراهيم الجزري، جمع تاريخا حافلا، كتب فيه أشياء يستفيد منها الحافظ كالمزي والذهبي والبرزالي يكتبون عنه ويعتمدون على نقله، وكان شيخا قد جاوز الثمانين، وثقل سمعه، وضعف خطه، وهو والد الشيخ ناصر الدين محمد وأخوه مجد الدين.

ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر، وولاته وقضاته المذكورون في التي قبلها، إلا الشافعي بالشام، فتوفي القزويني وتولى العلامة السبكي.

ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم، وجمعوا من بينهم مالا جزيلا، فدفعوه إلى راهبين قدما عليها من بلاد الروم، يحسنان صنعة النفط، اسم أحدهما ميلاني والآخر عازر، فعملا كعكاً من نفط، وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك، فوضعا في شقوق دكاكين التجار، في سوق الرجال عند الدهشة في عدة دكاكين من آخر النهار، بحيث لا يشعر أحد بهما، وهما في زي المسلمين، فلما كان في أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين، حتى تعلقت في درابزينات المئذنة الشرقية المتاخمة للسوق المذكور، وأحرقت الدرابزينات، وجاء نائب السلطنة تنكز والأمراء أمراء الألوف، وصعدوا المنارة وهي تشتعل ناراً، واحترسوا عن الجامع، فلم ينله شيء من الحريق ولله الحمد والمنة، وأما المئذنة فإنها تفجرت أحجارها، واحترقت السقالات التي بدل السلالم، فهدمت وأعيد بناؤها بحجارة جدد وهي المنارة الشرقية، التي جاء في الحديث أنه ينزل عليها عيسى ابن مريم، كما سيأتي الكلام عليه في نزول عيسى عليه السلام، والبلد محاصر بالدجال.

والمقصود أن النصارى بعد ليال عمدوا إلى ناحية الجامع من الغرب إلى القيسارية التي يعمل فيها سلاح المسلمين من الأقواس فألقوا فيها النفط فاحترقت القيسارية بكمالها، وبما فيها من الأقواس والعدد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس، واحترق جانب من المدرسة الأمينية، إلى جانب المدرسة المذكورة، وما كان مقصودهم إلا وصول النار إلى معبد المسلمين، فحال الله بينهم وبين ما يرومون، وجاء نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين الحريق والمسجد جزاهم الله خيرا.

ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم أمر بمسك رؤوس النصارى، فأمسك منهم نحوا من ستين رجلا، فأخذوا بالمصادرات، والضرب والعقوبات، وأنواع المثلات، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد، وجعلوا يتماوتون واحدا بعد واحد، ثم أحرقوا بالنار، حتى صاروا رماداً لعنهم الله، والله أعلم.

سبب مسك تنكز

لما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة جاء الأمير طشتمر من صفد مسرعا وركب جيش دمشق ملبساً، ودخل نائب السلطنة من قصره مسرعا إلى دار السعادة، وجاء الجيش فوقفوا على باب النصر، وكان أراد أن يلبس ويقاتل فعذلوه في ذلك، وقالوا: المصلحة الخروج إلى السلطان سامعا مطيعا، فخرج بلا سلاح، فلما برز إلى ظاهر البلد التف عليه الفخري وغيره، وأخذوه وذهبوا به إلى ناحية الكسوة، فلما كان عند قبة يلبغا نزلوا، وقيدوه وخطاياه من قصره، ثم ركب البريد وهو مقيد، وساروا به إلى السلطان، فلما وصل أمر بمسيره إلى الإسكندرية، وسألوا عن ودائعه فأقر ببعض، ثم عوقب حتى أقر بالباقي، ثم قتلوه، ودفنوه بالإسكندرية،

ثم نقلوه إلى تربته بدمشق رحمه الله، وقد جاوز الستين، وكان عادلا مهيباً، عفيف الفرج واليد، والناس في أيامه في غاية الرخص والأمن والصيانة، فرحمه الله، وبل بالرحمة ثراه.

وله أوقاف كثيرة من ذلك مرستان بصفد، وجامع بنابلس وعجلون، وجامع بدمشق، ودار حديث بالقدس ودمشق، ومدرسة وخانقاه بالقدس، ورباط وسوق موقوف على المسجد الأقصى، وفتح شباكا في المسجد.

ومن توفي فيها من الأعيان

امير المؤمنين

■ المستكفي بالله: أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن علي بن امير المؤمنين المسترشد بالله الهاشمي العباسي، البغدادي الأصل المصري المولد، مولده سنة ثلاث وثمانين وستمائة أو في التي قبلها، وقرأ واشتغل قليلا، وعهد إليه أبوه بالأمر، وخطب له عند وفاة والده، سنة إحدى وسبعمائة، وفوض جميع ما يتعلق به من الحل والعقد إلى السلطان الملك الناصر، وصار إلى غزو التتر، فشهد مصاف شقحب، ودخل دمشق في شعبان، سنة ثنتين وسبعمائة، وهو راكب مع السلطان، وجميع كبراء الجيش مشاة.

ولما أعرض السلطان عن الأمر وانعزل بالكرك التمس الأمراء من المستكفي أن يسلطن من ينهض بالملك، فقلد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وعقد له اللواء، وألبسه خلعة السلطنة، ثم عاد الناصر إلى مصر، وعزّر الخليفة في فعله، ثم غضب عليه وسيره إلى قوص، فتوفي في هذه السنة في قوص، في مستهل شعبان.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة

استهلت يوم الأربعاء، وسلطان المسلمين الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، وقضاته بمصر هم المذكورون في التي قبلها، وليس في دمشق نائب سلطنة، وإنما الذي يسد الأمور الأمير سيف الدين طشتمر، الملقب بالحِمِّص الأخضر، الذي جاء بالقبض على الأمير سيف الدين تنكز، ثم جاء المرسوم بالرجوع إلى صفد، فركب من آخر النهار وتوجه إلى بلده، وحواصل الأمير سيف الدين تنكز تحت الحوطة كما هي.

وفي صبيحة يوم السبت رابع المحرم من السنة المذكورة قدم من الديار المصرية خمسة أمراء، الأمير سيف الدين بشتك الناصري ومعه برصبغا الحاجب، وطاشار الدويدار، وبَيْغَرا وبُكا، فنزل بشتك بالقصر الأبلق والميادين، وليس معه من مماليكه إلا القليل، وإنما جاء لتجديد البيعة إلى السلطان، لما توهموا من ممالأة بعض الأمراء لنائب الشام المنفصل، وللحوطة على حواصل الأمير سيف الدين تنكز المنفصل عن نيابة الشام، وتجهيزها للديار المصرية.

وفي صبيحة يوم الاثنين سادسه دخل الأمير علاء الدين ألطنبغا إلى دمشق نائباً، وتلقاه الناس وبشتك، والأمراء المصريون، ونزلوا إلى عتبته، فقبلوا العتبة الشريفة، ورجعوا معه إلى دار السعادة، وقرئ تقليده.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثالث عشره مسك من الأمراء المقدمين أميران كبيران ألجي بغا العادلي، وطيبغا حاجي، ورفعا إلى القلعة المنصورة، واحتيط على حواصلهما.

وفي يوم الثلاثاء تحملوا بيت ملك الأمراء سيف الدين تنكز وأهله وأولاده إلى الديار المصرية.

وفي يوم صبيحة الأربعاء خامس عشرة ركب نائب السلطنة الأمير علاء الدين ألطنبغا، ومعه الأمير سيف الدين بشتك الناصري، والحاج أرقطاي، وسيف الدين قطلوبغا الفخري، وجماعة من الأمراء المقدمين، واجتمعوا بسوق الخيل، واستدعوا بمملوكي الأمير سيف الدين تنكز وهما جنغاي وطغاي، فأمر بتوسيطهما فوسطا وعلقا على الخشب ونودي عليهما: هذا جزاء من تجامر على السلطان الناصر.

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من هذا الشهر كانت وفاة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام بقلعة إسكندرية، قيل مخنوقاً، وقيل مسموماً وهو الأصح، وقيل غير ذلك وتأسف الناس عليه كثيراً، وطال حزنهم عليه، وفي كل وقت يتذكرون ما كان منه من الهيبة، والصيانة، والغيرة على حريم المسلمين ومحارم الإسلام، ومن إقامته على ذوي الجاهات وغيرهم، ويشتد تأسفهم عليه رحمه الله.

وقد أخبر القاضي أمين الدين بن القلانسي رحمه الله شيخنا الحافظ العلامة عماد الدين بن كثير رحمه الله أن الأمير سيف الدين تنكز مسك يوم الثلاثاء، ودخل مصر يوم الثلاثاء، ودخل الإسكندرية يوم الثلاثاء، وتوفي يوم الثلاثاء، وصلي عليه بالإسكندرية ودفن بمقبرتها في الثالث والعشرين من المحرم، بالقرب من قبر القباري، وكانت له جنازة جيدة.

وفي يوم الخميس سابع شهر صفر قدم الأمير سيف الدين طشتمر الذي مسك تنكز إلى دمشق، فنزل بوطاة برزة بجيشه ومن معه، ثم توجه إلى حلب المحروسة نائبا بها، عوضاً عن الطنبغا المنفصل عنها.

وفي صبيحة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول نودي في البلدة بجنازة الشيخ الصالح العابد الناسك القدوة الشيخ محمد بن تمام توفي بالصالحية فذهب الناس إلى جنازته إلى الجامع المظفري، واجتمع الناس لصلاة الظهر، فضاق الجامع المذكور عن أن يسعهم، وصلى الناس في الطرقات وأرجاء الصالحية، وكان الجمع كثيرا جدًّا، لم يشهد الناس جنازة بعد جنازة الشيخ تقي الدين بن تيمية مثلها، لكثرة من حضرها من الناس رجالا ونساء، وفيهم القضاة والأعيان، والأمراء وجمهور الناس يقاربون عشرين ألفا، وانتظر الناس نائب السلطنة، فاشتغل بكتاب ورد عليه من الديار المصرية، فصلّي على الشيخ بعد صلاة الظهر بالجامع المظفري، ودفن عند أخيه، في تربة بين تربة الموفق وبين تربة الشيخ أبي عمر رحمهم الله وإيانا.

وفي أول شهر جمادى الأولى توفيت الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق، زوجة شيخنا الحافظ جمال الدين المزي، عشية يوم الثلاثاء، مستهل هذا الشهر، وصلي عليها بالجامع صبيحة يوم الأربعاء، ودفنت بمقابر الصوفية غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله.

كانت عديمة النظير في نساء زمانها، لكثرة عبادتها وتلاوتها وإقرائها القرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح، يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختمت نساء كثيرا، وقرأ عليها من النساء خلق، وانتفعن بها وبصلاحها ودينها وزهدها في الدنيا، وتقللها منها، مع طول العمر بلغت ثمانين سنة أنفقتها في طاعة الله صلاة وتلاوة، وكان الشيخ محسنا إليها مطيعا، لا يكاد يخالفها لحبه لها طبعا وشرعا، فرحمها الله وقدس روحها، ونور مضجعها بالرحمة آمين.

وفي يوم الأربعاء الحادي والعشرين منه درس بمدرسة الشيخ أبي عمر

بسفح قاسيون الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، في التدريس البكتمري، عوضا عن القاضي برهان الدين الزرعي، وحضر عنده المقادسة وكبار الحنابلة، ولم يتمكن أهل المدينة من الحضور، لكثرة المطر والوحل يومئذ.

وتكامل عمارة المنارة الشرقية في الجامع الأموي في العشر الأخير من رمضان، واستحسن الناس بناءها وإتقانها، وذكر بعضهم أنه لم يبن في الإسلام منارة مثلها ولله الحمد، ووقع لكثير من الناس في غالب ظنونهم أنها المنارة البيضاء الشرقية، التي ذكرت في حديث النواس بن سمعان في نزول عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء في شرقي دمشق، فلعل لفظ الحديث انقلب على بعض الرواة، وإنما كان على المنارة الشرقية بدمشق، وهذه المنارة مشهورة بالشرقية لمقابلتها أختها الغربية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس دار العدل بدار السعادة، وحضرته يومئذ، واجتمع القضاة والأعيان على العادة، وأحضر يومئذ عثمان الدوكالي قبحه الله تعالى، وادعى عليه بعظائم من القول لم يؤثر مثلها عن الحلاج ولا عن ابن أبي العَزَاقر الشَّلْمَغَانيُّ، وقامت عليه البينة بدعوى الإلهية لعنه الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ومخالطته أرباب الريب من الباجربقية وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على القاضي الحنبلي، وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضا، فادعى أن له دوافع وقوادح في بعض الشهود، فرد إلى السجن مقيداً مغلولا مقبوحاً، أمكن الله منه بقوته وتأييده.

ثم لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة أحضر عثمان الدوكالي المذكور إلى دار السعادة، وأقيم إلى بين يدي الأمراء والقضاة، وسئل عن القوادح في الشهود، فعجز فلم يقدر، وعجز عن ذلك فتوجه عليه الحكم، فسئل القاضي المالكي الحكم عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب، فأخذ المذكور فضربت رقبته، بدمشق بسوق الخيل، ونودي عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة، حضر يومئذ خلق من الأعيان والمشايخ، وحضر شيخنا جمال الدين المزي الحافظ، وشيخنا الحافظ شمس الدين الذهبي، وتكلما وحرضا في القضية جداً. وشهدا بزندقة المذكور بالاستفاضة، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية، وخرج القضاة الثلاثة المالكي والحنفي والحنبلي، وهم نفذوا حكمه في المجلس، فحضروا قتل المذكور، وكنت مباشرا لجميع ذلك من أوله إلى آخره.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذي القعدة أفرج عن الأميرين المعتقلين بالقلعة، وهما طنبغا طيبغا حاجي وأُلجيغا، وكذلك أفرج عن خزاندارية تنكز الذين تأخروا بالقلعة، وفرح الناس بذلك.

ذكر وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون

■ (محمد بن قلاوون).

في صبيحة يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة قدم إلى دمشق الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري، فخرج نائب السلطنة وعامة الأمراء لتلقيه، وكان قدومه على خيل البريد، فأخبر بوفاة السلطان الملك الناصر، كانت وفاته يوم الأربعاء آخره، وأنه صلي عليه ليلة الجمعة بعد العشاء، ودفن مع أبيه الملك المنصور على ولده آنوك، وكان قبل موته أخذ العهد لابنه سيف الدين أبي بكر، ولقبه بالملك المنصور، فلما دفن السلطان ليلة الجمعة حضره من الأمراء قليل، وكان قد ولي عليه الأمير علم الدين الجاولي، ورجل آخر منسوب إلى الصلاح يقال له الشيخ عمر بن محمد بن إبراهيم الجعبري، وشخص آخر من الجبابرية، ودفن كما ذكرنا، ولم يحضر ولده ولي عهده دفنه، ولم يخرج من القلعة ليلتئذ عن مشورة الأمراء، لئلا يتخبط الناس، وصلى عليه القاضي عز الدين بن جماعة إماما، والجاولي، وإيدغمش، أمير آخور والقاضي بهاء الدين أبو حامد ابن قاضي دمشق السبكي، وجلس الملك المنصور سيف الدنيا والدين أبو المعالي أبو بكر على سرير المملكة.

وفي صبيحة يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، بايعه الجيش المصري، وقدم الفخري لأخذ البيعة من الشاميين، ونزل بالقصر الأبلق، وبايع الناس للملك المنصور بن الناصر بن المنصور، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة بدمشق، صبيحة يوم الخميس الثامن والعشرين منه، وفرح الناس بالملك الجديد، وترحموا على الملك، ودعوا له، وتأسفوا عليه، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة

استهلت بيوم الأحد، وسلطان الإسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية وما والاها الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن الملك السلطان الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي.

ونائب الشام الأمير علاء الدين الطنبغا، وقضاة الشام ومصر هم المذكورون في التي قبلها، وكذا المباشرون سوى الولاة.

شهر الله المحرم: ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله: وفي هذا اليوم بويع بالخلافة أمير المؤمنين أبو القاسم أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان العباسي، ولبس السواد وجلس مع الملك المنصور على سرير المملكة، وألبسه خلعة سوداء أيضا فجلسا وعليهما السواد، وخطب الخليفة يومئذ خطبة بليغة فصيحة، مشتملة على أشياء من المواعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلع يومئذ على جماعة من الأمراء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً.

وكان أبو القاسم هذا قد عهد إليه أبوه بالخلافة، ولكن لم يمكنه الناصر من ذلك، وولى أبا إسحاق إبراهيم ابن أخي أبي الربيع، ولقبه الواثق بالله، وخطب له بالقاهرة جمعة واحدة، فعزله المنصور، وقرر أبا القاسم هذا، وأمضى العهد ولقبه المستنصر بالله كما ذكرنا.

وفي يوم الأحد ثامن المحرم مسك الأمير سيف الدين بشتك الناصري آخر النهار، وكان قد كتب تقليده بنيابة الشام، وخلع عليه بذلك وبرز ثقله، ثم دخل على الملك المنصور ليودعه، فرحب به، وأجلسه، وأحضر طعاماً وأكلا، وتأسف السلطان على فراقه، وقال: تذهب وتتركني وحدي، ثم قام لتوديعه، وذهب بشتك من بين يديه ثماني خطوات أو نحوها، ثم تقدم إليه ثلاثة نفر، فقطع أحدهم سيفه من وسطه بسكين، ووضع الآخر يده على فمه وكتفه الآخر، وقيدوه، وذلك كله بحضرة السلطان، ثم غيب ولم يدر أحد إلى أين صار، ثم قالوا لمماليكه: اذهبوا أنتم فاتتوا بمركوب الأمير غداً، فهو بائت عند السلطان، وأصبح السلطان وجلس على سرير المملكة، وأمر

بمسك جماعة من الأمراء، وتسعة من الكبار، واحتاطوا على حواصله وأمواله وأملاكه، فيقال: إنه وجد عنده من الذهب ألف ألف دينار، وسبعمائة ألف دينار.

وفاة شيخنا الحافظ أبي الحجاج

■ المزي: تمرض أياماً يسيرة مرضا لا يشغله عن شهود الجماعة، وحضور الدروس، وإسماع الحديث.

فلما كان يوم الجمعة حادي عشر صفر أسمع الحديث إلى قريب وقت الصلاة، ثم دخل منزله ليتوضأ ويذهب للصلاة، فاعترضه في باطنه مغص عظيم، ظن أنه قولنج، وما كان إلا طاعون، فلم يقدر على حضور الصلاة، فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع، فذهبت إليه فدخلت عليه فإذا هو يرتعد رعدة شديدة، من قوة الألم الذي هو فيه، فسألته عن حاله، فجعل يكرر الحمد لله، ثم أخبرني بما حصل له من المغص الشديد، وصلى الظهر بنفسه، ودخل إلى الطهارة، وتوضأ على حافة البركة، وهو في قوة الوجع، ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم السبت.

فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتي أنه لما أذن الظهر تغير ذهنه قليلا، فقالت: يا أبة أذن الظهر، فذكر الله وقال: أريد أن أصلي، فتيمم وصلى، ثم اضطجع فجعل يقرأ آية الكرسي، حتى جعل لا يفيض بها لسانه، ثم قبضت روحه بين الصلاتين، رحمه الله يوم السبت ثاني عشر صفر، فلم يمكن تجهيزه تلك الليلة.

فلما كان من الغد يوم الأحد ثالث عشر صفر صبيحة ذلك اليوم، غسل وكفن، وصلي عليه بالجامع الأموي، وحضر القضاة والأعيان وخلائق لا يحصون كثرة، وخرج بجنازته من باب النصر، وخرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين ألطنبغا ومعه ديوان السلطان، والصاحب وكاتب السر، وغيرهم من الأمراء، فصلوا عليه خارج باب النصر، أمهم عليه القاضي تقي الدين السبكي الشافعي، وهو الذي صلى عليه في الجامع الأموي، ثم ذهب به إلى مقابر الصوفية، فدفن هناك إلى جانب زوجته المرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله، عائشة بنت إبراهيم بن صديق، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله أجمعين وقد ترجمته في أول شرح البخاري.

كائنة غريبة جداً

قدم يوم الأربعاء الثلاثين من صفر أمير من الديار المصرية ومعه الأمر بالبيعة للملك الأشرف علاء الدين كجك بن الملك الناصر، وذلك بعد عَزْل أخيه المنصور، لما صدر عنه من الأفعال التي ذكر أنه تعاطاها من شرب المسكر، وغشيان المنكرات، وتعاطي ما لا يليق به، ومعاشرة الخاصكية من المردان وغيرهم، فتمالأ على خلعه كبار الأمراء، لما رأوا الأمر تفاقم إلى الفساد العريض، فأحضروا الخليفة الحاكم بأمر الله بن أبي الربيع سليمان، فأثبت بين يديه ما نسب إلى الملك المنصور المذكور من الأمور فحينئذ خلعه الأمراء الكبار وغيرهم، واستبدلوا مكانه أخاه هذا المذكور، وسيروه إذ ذاك إلى قوص مضيقا عليه، ومعه إخوة له ثلاثة، وقيل أكثر، وأجلسوا الملك الأشرف هذا على السرير، وناب له الأمير سيف الدين قوصون الناصري، واستمرت الأمور على السداد، وجاءت البيعة إلى الشام فبايعه الأمراء يوم الأربعاء المذكور، وضربت البشائر عشية الخميس، مستهل ربيع الأول، وخطب له بدمشق يوم الجمعة بحضرة نائب السلطنة والقضاة والأعيان والأمراء.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الأول حضر بدار الحديث الأشرفية قاضي القضاة تقي الدين السبكي، عوضا عن شيخنا الحافظ جمال الدين المزي، ومشيخة دار الحديث النورية، عوضا عن ابنه رحمه الله.

وفي شهر جمادى الأولى اشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم في نصرة ابن السلطان الأمير أحمد الذي بالكرك، وأنه يستخدم لذلك ويجمع الجموع فالله أعلم.

وفي العشر الثاني منه وصلت الجيوش صحبة الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري إلى الكرك، في طلب ابن السلطان الأمير أحمد.

وفي هذا الشهر كثر الكلام في أمر الأمير أحمد بن الناصر الذي بالكرك، بسبب محاصرة الجيش الذي صحبة الفخري له، واشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم بجنب أولاد السلطان الذين أخرجوا من الديار المصرية إلى الصعيد، وفي القيام بالمدافعة عن الأمير أحمد، ليصرف عنه الجيش، وترك حصاره، وعزم بالذهاب إلى الكرك لنصرة أحمد ابن أستاذه، وتهيأ له نائب الشام بدمشق، ونادى في الجيش للقائه ومدافعته عما يريد، من إقامة الفتنة وشق العصا، واهتم الجند لذلك، وتأهبوا واستعدوا، ولحقهم في ذلك كلفة كثيرة، وانزعج الناس بسبب ذلك، وتخوفوا أن تكون فتنة، وحسبوا إن وقع قتال بينهم أن تقوم العشيرات في الجبال وحوران، وتتعطل مصالح الزراعات وغير ذلك.

ثم قدم من حلب حاجب السلطان في الرسلية، إلى نائب دمشق الأمير علاء الدين ألطنبغا ومعه مشافهة، فاستمع لها، فبعث معه صاحب الميسرة أيان الساقي، فذهبا إلى حلب، ثم رجعا في أواخر جمادى الآخرة، وتوجها إلى الديار المصرية، واشتهر أن الأمر على ما هو عليه، حتى توافق على ما ذكر من رجوع أولاد الملك الناصر إلى مصر، ما عدا المنصور، وأن يخلي عن محاصرة الكرك.

وفي العشر الأخير من جمادى الأولى توفي مظفر الدين موسى بن مهنا ملك العرب، ودفن بتدمر.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة عند طلوع الشمس توفي الخطيب بدر الدين محمد ابن القاضي جلال الدين القزويني بدار الخطابة، بعد رجوعه من الديار المصرية كما قدمنا، فخطب جمعة واحدة، وصلى بالناس إلى ليلة الجمعة الأخرى، ثم مرض فخطب عنه أخوه تاج الدين عبد الرحيم على العادة ثلاث جمع، وهو مريض إلى أن توفي يومئذ، وتأسف الناس عليه، لحسن شكله، وصباحة وجهه وحسن ملتقاه وتواضعه، واجتمع الناس للصلاة عليه للظهر، فتأخر تجهيزه إلى العصر فصلى عليه بالجامع قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وخرج به الناس إلى الصوفية، وكانت جنازته حافلة جداً، فدفن عند أبيه، بالتربة التي أنشأها الخطيب بدر الدين هناك رحمه الله.

وفي يوم الجمعة خامس الشهر بعد الصلاة خرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين ألطنبغا هو وجميع الجيش، قاصدين للبلاد الحلبية، للقبض على نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر، لأجل ما أظهر من القيام مع ابن السلطان الأمير أحمد الذي في الكرك، وخرج الناس في يوم شديد المطر كثير الوحل، وكان يوما مشهوداً عصيبا، أحسن الله العاقبة.

وأمر القاضي تقي الدين السبكي الخطيب المؤذنين بزيادة أذكار على الذي كان سنه فيهم الخطيب بدر الدين من التسبيح والتحميد والتهليل

الكثير ثلاثا وثلاثين، فزادهم السبكي قبل ذلك: أستغفر اللّه العظيم ثلاثاً اللّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، كما أثبت ما في صحيح مسلم [(٥٩١) (١٣٥)] بعد صلاتي الصبح والمغرب بعد التسبيح والتحميد والتكبير: «اللّهم أجرنا من النار» [د (٥٠٩٧)، س كبرى (٩٩٣٩)] سبعا، «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق [ج (٣٥١٨)، س كبرى (١٠٤٢٣)] ثلاثا، وكانوا قبل تلك السنوات قد زادوا بعد التأذين الآية ليلة الجمعة والتسليم على رسول اللّه ﷺ، يبتدئ الرئيس منفرداً، ثم يعيد عليه الجماعة بطريقة حسنة، وصار ذلك سببا لاجتماع الناس في صحن الجامع لاستماع ذلك، وكلما كان المبتدئ حسن الصوت كانت الجماعة أكثر اجتماعا، ولكن طال بسبب ذلك الفصل، وتأخرت الصلاة عن أول وقتها، انتهى.

كائنة غريبة جداً

وفي ليلة الأحد عشية السبت نزل الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري بظاهر دمشق، بين الجسورة وميدان الحصى، بالأطلاب الذين جاؤوا معه من البلاد المصرية، لمحاصرة الكرك، للقبض على ابن السلطان الأمير أحمد بن الناصر، فمكثوا على الثنية محاصرين مضيقين عليه، إلى أن توجه نائب الشام إلى حلب، ومضت هذه الأيام المذكورة، فما درى الناس إلا وقد جاء الفخري وجموعه، وقد بايعوا الأمير أحمد، وسموه الناصر بن الناصر، وخلعوا بيعة أخيه الملك الأشرف علاء الدين كجك، واعتلُّوا بصغره، وذكروا أن أتابكه الأمير سيف الدين قوصون الناصري قد عدى على ابني السلطان، فقتلهما خنقا ببلاد الصعيد: جهز إليهما من تولى ذلك، وهما الملك المنصور أبو بكر ورمضان، فتنكر الأمير بسبب ذلك، وقالوا: هذا يريد أن يجتاح هذا البيت، ليتمكن هو من أخذ المملكة، فحموا لذلك وبايعوا ابن أستاذهم، وجدُّوا في الذهاب خلف الجيش، ليكونوا عونا للأمير سيف الدين طشتمر نائب حلب ومن معه، وقد كتبوا إلى الأمراء يستميلونهم إلى هذا، ولما نزلوا بظاهر دمشق خرج إليهم من بدمشق من الأكابر والقضاة والمباشرين، مثل والي البر، ووالي المدينة، والمهمندار وغيرهم.

فلما كان الصباح خرج أهالي دمشق عن بكرة أبيهم، على عادتهم في قدوم السلاطين، ودخول الحجاج، بل أكثر من ذلك من بعض الوجوه، وخرج القضاة والصاحب، والأعيان والولاة وغيرهم، ودخل الأمير سيف الدين قطلوبغا في دست نيابة السلطنة التي فوضها إليه الملك الناصر الجديد وعن يمينه الشافعي، وعن شماله الحنفي على العادة، والجيش كله محدق به في الحديد، والنقارات، والبوقات، والشبابة السلطانية، والسناجق الخليفية، والسلطانية تخفق، والناس في الدعاء والثناء للفخري، وهم في غاية الاستبشار والفرح، وربما نال بعض جهلة الناس من النائب الآخر الذي ذهب إلى حلب، ودخلت الأطلاب بعده على ترتيبهم، وكان يوما مشهوداً، فنزل شرقي دمشق، قريبا من خان لاجين وبعث في هذا اليوم فرسم على القضاة والصاحب، وأخذ من أموال الأيتام وغيرها خمسمائة ألف، وعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال، وكتب بذلك سجلات، واستخدم جنداً، وانضاف إليه من الأمراء الذين كانوا قد تخلفوا بدمشق جماعة، منهم تمر الساقي مقدم، وابن قراسنقر، وابن الكامل، وابن المعظم، وابن البلدي وغيرهم، وبايع هؤلاء كلهم مع مباشري دمشق للملك الناصر بن الناصر، وأقام الفخري على خان لاجين، وخرج المتعيشون بالصنائع إلى عندهم، وضربت البشائر بالقلعة صبيحة يوم الثلاثاء، سادس عشر الشهر، ونودي بالبلد أن سلطانكم الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، ونائبكم سيف الدين قطلوبغا الفخري، وفرح كثير من الناس بذلك، وانضاف إليه نائب صفد، ويايعه نائب بعلبك، واستخدموا له رجالا وجنداً، ورجع إليه الأمير سيف الدين سنجر الجمقدار رأس الميمنة بدمشق، وكان قد تأخر في السفر عن نائب دمشق علاء الدين ألطنبغا، بسبب مرض عرض له، فلما قدم الفخري رجع إليه وبايع الناصر بن الناصر، ثم كاتب نائب حماة تقزدمر الذي ناب بمصر للملك المنصور، فأجابه إلى ذلك، وقدم على العسكر يوم السبت السابع والعشرين من الشهر المذكور، في تجمل عظيم، وخزائن كثيرة، وثقل هائل.

وفي صبيحة يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر المذكور كسفت الشمس قبل الظهر.

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، قدم نائب غزة الأمير آق سنقر في جيش وهو قريب من ألفين، فدخلوا دمشق وقت الفجر، وغدوا إلى معسكر الفخري، فانضافوا إليهم، ففرحوا بهم كثيراً، وصار في قريب من خمسة آلاف مقاتل أو يزيدون.

استهل شهر رجب الفرد والجماعة من أكابر التجار مطلوبون، بسبب أموال طلبها منهم الفخري، يقوي بها جيشه الذي معه، ومبلغ ذلك الذي أراده منهم ألف ألف درهم، ومعه مرسوم الناصر بن الناصر ببيع أملاك الأمير سيف الدين قوصون، أتابك الملك الأشرف علاء الدين كجك، ابن الناصر التي بالشام، بسبب إبائه عن مبايعة الأمير أحمد بن الناصر، فأشار على الفخري من أشار بأن يباع للتجار من أملاك الخاص، ويجعل مال قوصون من الخاص، فرسم بذلك، وأن يباع للتجار قرية دومة قومت بألف ألف وخمسمائة ألف، ثم لطف اللّه وأفرج عنهم بعد ليلتين أو ثلاث، وتعوضوا عن ذلك بحواصل قوصون، واستمر الفخري بمن معه ومن أضيف إليه من الأمراء والأجناد مقيمين بثنية العقاب، واستخدم من رجال البقاع جماعة كثيرة أكثر من ألف رام، وأمرهم يحفظ أفواه الطرق وأزف قدوم الأمير علاء الدين ألطنبغا بمن معه من عساكر دمشق، وجمهور الحلبيين وطائفة الطرابلسيين، وتأهب هؤلاء لهم.

فلما كان الحادي من الشهر اشتهر أن ألطنبغا وصل إلى القسطل، وبعث طلائعه فالتقت بطلائع الفخري، ولم يكن بينهم قتال وللّه الحمد والمنة.

وأرسل الفخري إلى القضاة ونوابهم وجماعة من الفقهاء، فخرجوا ورجع الشافعي من أثناء الطريق، فلما وصلوا أمرهم بالسعي بينه وبين ألطنبغا في الصلح، وأن يوافق الفخري في أمره، وأن يبايع الناصر بن الناصر، فأبى فردهم إليه غير مرة، وكل ذلك يمتنع عليهم.

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرة عند العصر جاء بريد إلى متولي البلد عند العصر من جهة الفخري، يأمره بغلق أبواب البلد، فغلقت الأبواب، وذلك لأن العساكر توجهوا وتواقفوا للقتال، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وذلك أن ألطنبغا لما علم أن جماعة قطلوبغا على ثنية العقاب دار الدورة من ناحية المعيصرة، وجاء بالجيوش من هناك، فاستدار له الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري بجماعته إلى ناحيته، ووقف له في طريقه، وحال بينه وبين الوصول إلى البلد، وانزعج الناس انزعاجا عظيما، وغلقت القياسر والأسواق، وخاف الناس بعضهم من بعض أن يكون نهب،

فركب متولي البلد الأمير ناصر الدين بن بكتاش ومعه أولاده ونوابه والرجالة، فسار في البلد، وسكن الناس ودعوا له، فلما كان قريب المغرب فتح لهم باب الجابية، ليدخل من هو من أهل البلد، ودخل من هو من أهل البلد فجرت في الباب على ما قيل زحمة عظيمة، وتسخط الجند على الناس في هذه الليلة واتفق أنها ليلة الميلاد، وبات المسلمون مهمومين بسبب العسكر واختلافهم، فأصبحت أبواب البلد مغلقة في يوم الثلاثاء سوى باب الجابية، والأمر على ما هو عليه.

فلما كان عشية هذا اليوم تقارب الجيشان، واجتمع ألطنبغا وأمراؤه، واتفق أمراء دمشق وجمهورهم الذين هم معه على أن لا يقاتلوا مسلما، ولا يسلوا في وجه الفخري وأصحابه سيفا، وكان قضاة الشام قد ذهبوا إليه مراراً للصلح، فيأبى عليهم إلا الاستمرار على ما هو عليه، وقويت نفسه عليه، انتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

عجيبة من عجائب الدهر

فبات الناس متقابلين في هذه الليلة وليس بين الجيشين إلا مقدار ميلين أو ثلاثة وكانت ليلة مطيرة فما أصبح الصبح إلا وقد ذهب من جماعة ألطنبغا إلى الفخري خلق كثير من أجناد الحلقة ومن الأمراء والأعيان وطلعت الشمس وارتفعت قليلا ففنذ ألطنبغا القضاة وبعض الأمراء إلى الفخري يتهدده ويتوعده ويقوي نفسه عليه فما ساروا عنه قليلا حتى ساقت العساكر من الميمنة والميسرة ومن القلب ومن كل جانب مقفرين إلى الفخري وذلك لما هم فيه من ضيق العيش وقله ما بأيديهم من الأطعمة وعلف الدواب وكثرة ما معهم من الكلف فراوا أن هذا حال يطول عليهم ومقتوا أمرهم غاية المقت وتطايبت قلوبهم وقلوب أولئك مع أهل البلد على كراهته لقوة نفسه فيما لا يجدي عليه ولا عليهم شيئا فبايعوا على المخامرة عليه فلم يبق معه سوى حاشيته في أقل من ساعة واحدة.

فلما رأى الحال على هذه الصفة كر راجعاً هاربا من حيث جاء وصحبته الأمير سيف الدين أرقطاي نائب طرابلس وأميران آخران والتقت العساكر والأمراء وجاءت البشارة إلى دمشق قبل الظهر ففرح الناس فرحا شديدا جدا الرجال والنساء والولدان حتى من لا نوبة له ودقت البشائر بالقلعة المنصورة فارسلوا في طلب من هرب وجلس الفخري هنالك بقية اليوم يحلف الأمراء على أمره الذي جاء له فحلفوا له ودخل دمشق عشية يوم الخميس في أبهة عظيمة وحرمة وافرة فنزل القصر الأبلق ونزل الأمير تقزدمر بالميدان الكبير ونزل قماري بدار السعادة وأخرجوا الموساوي الذي كان معتقلا بالقلعة وجعلوه مشدا على حوطات حواصل ألطنبغا وكان قد تغضب الفخري على جماعة من الأمراء منهم الأمير حسام الدين البشمقدار أمير حاجب بسبب أنه صاحب لعلاء الدين ألطنبغا فلما وقع ما وقع هرب فيمن هرب ولكن لم يات الفخري بل دخل البلد فتوسط في الأمر: لم يذهب مع ذاك ولا جاء مع هذا ثم إنه استدرك ما فاته فرجع من الباد إلى الفخري وقيل بل رسم عليه حين جاء وهو مهموم جدا ثم إنه أعطي منديل الأمان وكان معهم كاتب السر القاضي شهاب الدين بن فضل الله ثم أفرج عنهم ومنهم الأمير سيف الدين حفظية وكان شديد الحنق عليه فأطلقه من يومه وأعاده إلى الحجوبية وأظهر مكارم أخلاق عظيمة ورياسة كبيرة.

وكان للقاضي علاء الدين بن المنجا قاضي قضاة الحنابلة في هذه الكائنة سعي مشكور ومراجعة كبيرة للأمير علاء الدين ألطنبغا حتى خيف عليه منه وخاطر بنفسه معه فأنجح الله مقصده وسلمه منه وكبت عدوه ولله الحمد والمنة.

وفي يوم السبت السادس والعشرين منه قلد قضاء العساكر المنصورة الشيخ نور الدين بن الصائغ عوضا عن القاضي الحنفي الذي كان مع النائب المنفصل وذلك أنهم نقموا عليه إفتاءه ألطنبغا بقتال الفخري وفرح بولايته أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وذلك لأنه من أخص من صحبه قديما وأخذ عنه فوائد كثيرة وعلوما.

وفي يوم الأربعاء سلخ رجب آخر النهار قدم الأمير قماري من عند الملك الناصر بن الناصر من الكرك وأخبره بما جرى من أمرهم وأمر ألطنبغا ففرح بذلك وأخبر قماري بقدوم السلطان ففرح الناس بذلك واستعدوا له بآلات المملكة وكثرت مطالبته أرباب الأموال والذمة بالجزية.

وفي مستهل رجب من هذه السنة ركب الفخري في دست النيابة بالموكب المنصور وهو أول ركوبه فيه وإلى جانبه قماري وعلى قماري خلعة هائلة وكثر دعاء الناس للفخري يومئذ وكان يوما مشهودا.

وفي هذا اليوم خرج جماعة من المقدمين الألوف إلى الكرك بأخبار ابن السلطان بما جرى: منهم تقزدمر وأقبغا عبد الواحد وهو الساقي ومنكلي بغا وغيرهم.

وفي يوم السبت ثالثه استدعى الفخري القاضي الشافعي وألح عليه في إحضار الكتب المعتقلة في سلة الحكم التي كانت أخذت من عند الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله من القلعة المنصورة في أيام جلال الدين القزويني فأحضرها القاضي بعد جهد ومدافعة وخاف على نفسه منه فقبضها منه الفخري بالقصر وأذن له بالإنصراف من عنده وهو متغضب عليه وربما هم بعزله لممانعته إياها وربما قال قائل هذه فيها كلام يتعلق بمسألة الزيارة فقال الفخري: كان الشيخ أعلم بالله وبرسوله منكم واستبشر الفخري بإحضارها إليه واستدعى بأخي الشيخ زين الدين عبد الرحمن وبالشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن قيم الجوزية وكان له سعي مشكور فيها فهنأهما بإحضاره الكتب وبيّت الكتب تلك الليلة في خزانته للتبرك وصلى به الشيخ زين الدين أخو الشيخ صلاة المغرب بالقصر وأكرمه الفخري إكراما زائدا لمحبته الشيخ رحمه الله.

وفي يوم الأحد رابعه دقت البشائر بالقلعة وفي باب الميدان لقدوم بشير بالقبض على قوصون بالديار المصرية واجتمع الناس لذلك واستبشر كثير منهم بذلك وأقبل جماعة من الأمراء إلى الكرك لطاعة الناصر بن الناصر واجتمعوا مع الأمراء الشاميين عند الكرك وطلبوا منه أن ينزل إليهم فأبى وتوهم أن هذه الأمور كلها مكيدة ليقبضوه ويسلموه إلى قوصون وطلب منهم أن ينظر في أمره وردهم إلى دمشق.

وفي هذه الأيام وما قبلها وما بعدها أخذ الفخري من جماعة التجار بالأسواق وغيرها زكاة أموالهم سنة فتحصل من ذلك زيادة على مائة ألف وسبعة آلاف وصودر أهل الذمة بقريب من ذلك زيادة على الجزية التي أخذت منهم عن ثلاث سنين سلفا وتعجيلا ثم نودي في البلد يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر مناداة صادرة من الفخري برفع الظلامات والطلبات وإسقاط ما تبقى من الزكاة والمصادرة غير أنهم احتاطوا على جماعة من المشاة المكثرين ليشتروا منهم بعض أملاك الخاص والبرهان بن بشارة الحنفي تحت المصادرة والعقوبة على طلب المال الذي وجده في طمبرة وجدها فيما ذكر عنه والله أعلم.

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين منه بعد الصلاة دخل الأمراء الستة الذين توجهوا نحو الكرك لطلب السلطان أن يقدم إلى دمشق فأبى عليهم في هذا الشهر ووعدهم وقتا آخر فرجعوا وخرج الفخري لتلقيهم فاجتمعوا قبلي جامع القبيبات الكريمي ودخلوا كلهم إلى دمشق في جمع كثير من الأتراك الأمراء والجند وعليهم خمدة لعدم قدوم السلطان أيده الله.

وفي يوم الأحد قدم البريد خلف قماري وغيره من الأمراء يطلبهم إلى الكرك واشتهر أن السلطان رأى النبي ﷺ في المنام وهو يأمره بالنزول من الكرك وقبول المملكة فانشرح الناس لذلك.

وتوفي الشيخ

■ عمر بن أبي بكر بن المهيني البسطي يوم الأربعاء التاسع والعشرين وكان رجلا صالحا كثير التلاوة والصلاة والصدقة وحضور مجالس الذكر والحديث له همة وصولة على الفقراء المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم.

سمع الحديث من الشيخ فخر الدين بن البخاري وغيره وقرأت عليه عن ابن البخاري مختصر المشيخة ولازم مجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وانتفع به ودفن بمقابر باب الصغير.

وفي شهر رمضان المعظم أوله يوم الجمعة كان قد نودي في الجيش: أن الرحيل لملتقى السلطان في سابع الشهر ثم تأخر ذلك إلى بعد العشر ثم جاء كتاب من السلطان بتأخر ذلك إلى بعد العيد.

وقدم في عاشر الشهر علاء الدين بن تقي الدين الحنفي ومعه ولاية من السلطان الناصر بن الناصر بنظر البيمارستان النوري ومشيخة الربوة ورُتّب على الجهات السلطانية وكان قد قدم قبله القاضي شهاب الدين بن البارزي بقضاء حمص من السلطان أيده الله تعالى ففرح الناس بذلك حيث تكلم السلطان في المملكة وباشر وأمر وولى ووقع ولله الحمد.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر دخل الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحِمّص الأخضر من البلاد الحلبية إلى دمشق المحروسة وتلقاه الفخري والأمراء والجيش بكماله ودخل في أبهة حسنة ودعا له الناس وفرحوا بقدومه بعد شتاته في البلاد وهربه من بين يدي ألطنبغا حين قصده إلى حلب كما تقدم ذكره.

وفي يوم الخميس رابع عشره خرجت الجيوش من دمشق قاصدين إلى غزة لنظرة السلطان حين يخرج من الكرك السعيد فخرج يومئذ مقدمان: تغزدمر وإقبغا عبد الواحد فبرزا إلى الكسوة.

فلما كان يوم السبت خرج الفخري ومعه طشتمر وجمهور الأمراء ولم يقم بعده بدمشق إلا من احتيج لمقامهم لمهمات المملكة وخرج معه القضاة الأربعة وقاضي العساكر والموقعين والصاحب وكاتب الجيش وخلق كثير.

■ (العصيدة، أحمد).

وتوفي الشيخ الصالح العابد الناسك أحمد الملقب بالعصيدة ليلة الأحد الرابع والعشرين من رمضان وصلي عليه بجامع تنكز ودفن بالصوفية قريباً من قبر الشيخ جمال الدين المزي، تغمدهما الله برحمته.

وكان فيه صلاح كثير ومواظبة على الصلاة في جماعة وأمر بمعروف ونهى عن منكر مشهوراً عند الناس بالخير وكان يكثر من خدمة المرضى بالمارستان وغيره وفيه إيثار وقناعة وتزهد كثير وله أحوال مشهورة رحمه الله وإيانا.

واشتهر في أواخر الشهر المذكور أن السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد خرج من الكرك المحروس صحبة جماعة من العرب والأتراك قاصداً إلى الديار المصرية ثم تحرر خروجه منها في يوم الاثنين ثامن عشر الشهر المذكور فدخل الديار المصرية بعد أيام هذا والجيش صامدون إليه.

فلما تحقق دخوله مصر حثوا في السير إلى الديار المصرية وبعث يستحثهم أيضاً واشتهر أنه لم يجلس على سرير الملك حتى يقدم الأمراء الشاميون صحبة نائبه الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري ولهذا لم تدق البشائر بالقلاع الشامية ولا غيرها فيما بلغنا.

وجاءت الكتب والأخبار من الديار المصرية بأن يوم الاثنين عاشر شوال كان إجلاس السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد على سرير المملكة صعد هو والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفي فوق المنبر وهما لابسان السواد والقضاة تحتهما على درج المنبر بحسب منازلهم فخطب الخليفة وخلع الأشرف كجك وولى هذا الناصر وكان يوما مشهودا واشتهى ولايته لطشتمر نيابة مصر والفخري دمشق وأيدغمش حلب فالله أعلم.

ودقت البشائر بدمشق ليلة الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور واستمرت إلى يوم الاثنين مستهل ذي القعدة وزينت البلد يوم الأحد ثالث عشرين منه واحتفل الناس بالزينة.

وفي يوم الخميس المذكور دخل الأمير سيف الدين ألْمَلِك أحد رؤوس المشورة بمصر إلى دمشق في طلب نيابة حماة حرسها الله تعالى.

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ورد البريد من الديار المصرية فأخبر أن طشتمر الحمص الأخضر مسك فتعجب الناس من هذه الكائنة كثيرا فخرج من بدمشق من أعيان الأمراء إلى الحاج ألْمَلِك وقد خيم بوطأة برزة وخرج إلى الحج أمير فأخبروه بذلك وأمروه عن مرسوم السلطان أن ينوب بدمشق حتى يأتي المرسوم بما يعتمدونه فأجاب إلى ذلك وركب في الموكب يوم السبت السادس والعشرين منه.

وأما الفخري فإنه لما تنسم هذا الخبر وتحققه وهو بالزعقة فرفى طائفة من مماليكه قريب من ستين أو أكثر فاخترق وساق سوقا حثيثا وجاءه الطلب من ورائه من الديار المصرية في نحو من ألف فارس صحبة الأميرين: ألطنبغا المارداني ويلبغا اليحياوي ففاتهما وسبق واعترض له نائب غزة في جنده فلم يقدر عليه فسلطوا عليه العشيرات ينهبونه فلم يقدروا عليه إلا في شيء يسير وقتل منهم خلقا وقصد نحو صاحبه فيما يزعم الأمير علاء الدين إيدغمش نائب حلب راجيا منه أن ينصره وأن يوافقه على ما قام بنفسه فلما وصل إليه أكرمه وأنزله وبات عنده فلما أصبح قبض عليه وقيده ورده على البريد إلى الديار المصرية ومعه التراسيم من الأمراء وغيرهم.

ولما كان يوم الاثنين سلخ ذي القعدة خرج السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن المنصور من الديار المصرية في طائفة من الجيش قاصداً إلى الكرك المحروس ومعه أموال جزيلة وحواصل وأشياء كثيرة فدخلها يوم الثلاثاء من ذي الحجة وصحبته طشتمر في محفة ممرضا والفخري مقيداً فاعتقلا بالكرك المحروس وطلب السلطان آلات من أخشاب ونحوها وحدادين وصناعاً ونحوهما لإصلاح مهمات بالكرك وطلب أشياء كثيرة من دمشق فحملت إليه.

ولما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة ورد الخبر بأن الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي النائب بصفد ركب في مماليكه وخدمه ومن أطاعه وخرج منها فاراً بنفسه من القبض عليه وذكر أن نائب غزة قصده ليقبض عليه بمرسوم السلطان ورد عليه من الكرك فهرب الأحمدي بسبب ذلك ولما وصل الخبر إلى دمشق وليس بها نائب انزعج الأمراء

لذلك واجتمعوا بدار السعادة، وضربوا في ذلك مشورة ثم جردوا إلى ناحية بعلبك أميرا ليصدوه عن الذهاب إلى البرية.

فلما أصبح الصباح من يوم الاثنين جاء الخبر بأنه في نواحي الكسوة ولا مانع من خلاصه فركبوا كلهم ونادى المنادي: من تأخر من الجند عن هذا النفير شنق فاستوثقوا في الخروج وقصدوا ناحية الكسوة وبعثوا الرسل إليه فذكر اعتذاراً في خروجه وتخلص منهم وذهب يومه ذلك ورجعوا وقد كانوا ملبسين في يوم حار وليس معهم من الأزواد ما يكفيهم سوى يومهم ذلك.

فلما كانت ليلة الثلاثاء ركب الأمراء في طلبه من ناحية ثنية العقاب فرجعوا في اليوم الثاني وهو في صحبتهم ونزل في القصور التي بناها تنكز رحمه الله في طريق داريا فأقام بها وأجروا عليه مرتباً كاملا من الشعير والغنم وما يحتاج إليه مثله ومعه مماليكه وخدمه.

فلما كان يوم الثلاثاء سادس المحرم ورد كتاب من جهة السلطان فقرئ على الأمراء بدار السعادة يتضمن إكرامه واحترامه والصفح عنه لتقدم خدمه على السلطان الملك الناصر وابنه الملك المنصور.

ولما كان يوم الأربعاء سابع المحرم ورد البريد من الكرك الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب نائب الغيبة والحاجب إلْمُش بالقبض على الأحمدي فركب الجيش ملبسين يوم الخميس وأوكبوا بسوق الخيل وراسلوه - وقد ركب في مماليكه بالعدد وأظهر الامتناع فكان جوابه أن لا أسمع ولا أطيع إلا لمن هو ملك الديار المصرية فأما من هو مقيم بالكرك ويصدر عنه ما يقال عنه من الأفاعيل التي قد سارت بها الركبان فلا فلما بلغ الأمراء هذا توقفوا في أمره وسكتوا ورجعوا إلى منازلهم ورجع هو إلى قصره.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان المسلمين الملك الناصر أحمد بن ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون وهو مقيم بالكرك قد حاز الحواصل السلطانية من قلعة الجبل إلى قلعة الكرك.

ونائبه الديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلاري الذي كان نائبا بغزة.

وقضاة الديار المصرية هم المذكورون في السنة الماضية سوى القاضي الحنفي.

وأما دمشق فليس لها نائب إلى حينئذ غير أن الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب كان استنابه الفخري بدمشق نائب غيبته فهو الذي يسد الأمور مع الحاجب إلْلِمش وتمر المهمندار، والأمير سيف الدين الملقب بحلاوة، والي البر، والأمير ناصر الدين بن بكتاش متولي البلد هؤلاء الذين يسدون الأشغال والأمور السلطانية.

والقضاة هم الذين ذكرناهم في السنة الخالية وخطيب البلد تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضي جلال الدين القزويني وكاتب السر القاضي شهاب الدين بن فضل الله.

واستهلت هذه السنة والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي نازل بقصر تنكز بطريق داريا وكتب السلطان واردة في كل وقت بالاحتياط عليه والقبض وأن يمسك ويرسل إلى الكرك هذا والأمراء يتوانون في أمره ويسوفون المراسيم وقتاً بعد وقت وحينا بعد حين ويحملهم على ذلك أن الأحمدي لا ذنب له ومتى مسكه تطرق إلى غيره مع أن السلطان يبلغهم عنه أحوال لا ترضيهم من اللعب والاجتماع مع الأراذل والأطراف ببلد الكرك مع قتله الفخري وطشتمر قتلا فظيعا وسلبه أهلهما وسلبه لما على الحريم من الثياب والحلي وإخراجهم في أسوأ حال من الكرك وتقريبه النصارى وحضورهم عنده فحمل الأمراء هذه الصفات على أن بعثوا أحدهم يكشف أمره فلم يصل إليه ورجع هاربا خائفا.

فلما رجع وأخبر الأمراء انزعجوا وتشوشوا كثيراً واجتمعوا بسوق الخليل مراراً وضربوا مشورة بينهم فاتفقوا على أن يخلعوه فكتبوا إلى المصريين بذلك وأعلموا نائب حلب أيدغمش ونواب البلاد وبقوا متوهمين من هذا الحال كثيراً ومترددين ومنهم من يصانع في الظاهر وليس معهم في الباطن وقالوا لا سمع له ولا طاعة حتى يرجع إلى الديار المصرية ويجلس على سرير المملكة وجاء كتابه إليهم يعيبهم ويعنفهم في ذلك فلم يفد.

وركب الأحمدي في الموكب وركبوا عن يمينه وشماله وراحوا إليه إلى القصر فسلموا عليه وخدموه وتفاقم الأمر وعظم الخطب وحملوا هموما عظيمة خوفا من أن يذهب إلى الديار المصرية فيلف عليه المصريون فيتلف الشاميين فحمل الناس همهم فالله هو المسؤول أن يحسن العاقبة.

فلما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من المحرم ورد مقدم البريدية ومعه كتب المصريين بأنه لما بلغهم خبر الشاميين كان عندهم من أمر السلطان أضعاف ما حصل عند الشاميين فبادروا إلى ما كانوا عزمسوا عليه ولكن ترددوا خوفا من الشاميين أن يخالفوهم فيه ويتقدموا في صحبة السلطان لقتالهم.

فلما اطمأنوا من جهة الشاميين صمموا على عزمهم فخلعوا الناصر أحمد وملكوا عليهم أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن المنصور جعله الله مباركا على المسلمين وأجلسوه على السرير يوم الثلاثاء العشرين من المحرم المذكور وجاء كتابه مسلما على أمراء الشام ومقدميه وجاءت كتب الأمراء على الأمراء بالسلام والأخبار بذلك ففرح المسلمون وأمراء الشام والخاصة والعامة بذلك فرحا شديداً ودقت البشائر بالقلعة المنصورة يومئذ ورسم بتزيين البلد فزين الناس صبيحة الثلاثاء السابع والعشرين منه.

ولما كان يوم الجمعة سلخ المحرم خطب بدمشق للملك الصالح عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور.

وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وحضر عنده الشيخ عز الدين بن المنجا الذي نزل له عنها وجماعة من الفضلاء.

وفي يوم الاثنين سادس عشر صفر دخل الأمير سيف الدين تقزدمر من الديار المصرية إلى دمشق ذاهبا إلى نيابة حلب المحروسة فنزل بالقابون.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر صفر توفي الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد

■ عبد الله بن أبي الوليد المقرئ المالكي إمام المالكية هو وأخوه أبو عمرو بالجامع الأموي بمحراب الصحابة توفي ببستان بقبّة المسجَّف وصلي عليه بالمصلى ودفن عند أبيه رحمهما الله بمقابر باب الصغير وحضر جنازته الأعيان والفقهاء والقضاة وكان رجلا صالحا مجمعا على ديانته وجلالته رحمه الله.

وفي يوم الخميس العشرين من صفر دخل الأمير أيدغمش نائب السلطنة بدمشق ودخل إليها من ناحية القابون قادما من حلب وتلقاه الجيش بكماله وعليه خلعة النيابة واحتفل الناس له وأشعلوا الشموع

وخرج أهل الذمة من اليهود والنصارى يدعون له ومعهم الشموع وكان يوما مشهوداً وصلى يوم الجمعة بالمقصورة من الجامع الأموي ومعه الأمراء والقضاة وقرئ تقليده هناك على السدة وعليه خلعته ومعه الأمير سيف الدين ملكتم السرجواني وعليه خلعة أيضاً.

وفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر دخل الأمير علم الدين الجاولي دمشق المحروسة ذاهبا إلى نيابة حماة المحروسة وتلقاه نائب السلطنة والأمراء إلى مسجد القدم وراح فنزل بالقابون وخرج القضاة والأعيان إليه وسمع عليه من مسند الشافعي فإنه يرويه وله فيه عمل ورتبه ترتيبا حسنا ورأيته وشرحه أيضاً وله أوقاف على الشافعية وغيرهم.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين منه عقد مجلس بعد الصلاة بالشباك الكمالي من مشهد عثمان بسبب القاضي فخر الدين المصري وصدر الدين عبد الكريم ابن القاضي جلال الدين القزويني بسبب العادلية الصغيرة فاتفق الحال على أن نزل صدر الدين عن تدريسها ونزل القاضي فخر الدين عن مائة وخمسين على الجامع.

وفي يوم الأحد سلخ الشهر المذكور حضر القاضي فخر الدين المصري ودرس بالعادلية الصغيرة وحضر الناس عنده على العادة وأخذ في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥].

وفي آخر شهر ربيع الأول جاء المرسوم من الديار المصرية بأن يخرج تجريدة من دمشق بصحبة الأمير حسام الدين البشمقدار لحصار الكرك الذي تحصن فيه ابن السلطان أحمد واستحوذ على ما عنده من الأموال التي أخذها من الخزائن من ديار مصر وبرز المنجنيق من القلعة إلى قبلي جامع القبيبات فنصب هناك وخرج الناس للتفرج عليه ورمى به ومن نيتهم أن يستصحبوه معهم للحصار.

وفي يوم الأربعاء ثاني ربيع الآخر قدم الأمير علاء الدين ألطنبغا المارداني من الديار المصرية على خيل البريد ذاهباً إلى حماة نائباً عليها ورُسم بعَوْد الجاولي إلى الديار المصرية على قاعدته وعادته.

وفي يوم الخميس عاشره دخل إلى دمشق الأميران الكبيران ركن الدين بيبرس الأحمدي من طرابلس وعلم الدين الجاولي من حماة سَحَراً وحضرا الموكب ووقفا مكتفين لنائب السلطنة: الأحمدي عن يمينه والجاولي عن يساره ونزلا ظاهر البلد.

ثم بعد أيام يسيرة توجه الأحمدي إلى الديار المصرية على عادته وقاعدته رأس مشورة وتوجه الجاولي إلى غزة المحروسة نائبا عليها وكان الأمير بدر الدين مسعود بن الخطير على إمرة الطبلخاناه بدمشق.

وفي يوم الخميس رابع عشره خرجت التجريدة من دمشق سحراً إلى مدينة الكرك والأمير شهاب الدين بن صبح والي الولاة بحوران مشد المجانيق وخرج الأمير سيف الدين بهادر الشمس الملقب بحلاوة والي البر بدمشق إلى ولاية الولاة بحوران.

وفي يوم الجمعة ثامن عشره وقع بين النائب والقاضي الشافعي بسبب كتاب ورد من الديار المصرية فيه الوصاة بالقاضي السبكي المذكور ومعه التوقيع بالخطابة له مضافا إلى القضاء وخلعة من الديار المصرية فتغيّظ عليه النائب لأجل أولاد الجلال لأنهم عندهم عائلة كثيرة وهم فقراء وقد نهاه عن السعي في ذلك فتقدم إليه يومئذ أن لا يصلي عنده في الشباك الكمالي فنهض من هناك وصلى في الغزالية.

وفي يوم الأحد العشرين منه دخل دمشق الأمير سيف الدين أرنبغا زوج ابنة السلطان الملك الناصري مجتازاً ذاهبا إلى طرابلس نائبا بها في تجمل وأبهة ونجائب وجنائب كثيرة وعدة وسرك كامل.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين منه دخل الأمير بدر الدين بن الخطير معزولا عن نيابة غزة المحروسة فأصبح يوم الخميس فركب في الموكب وسير مع نائب السلطنة ونزل في داره وراح الناس للسلام عليه.

وفي جمادى الأولى صبيحة يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر زينت البلد لعافية السلطان الملك الصالح لمرض أصابه ثم شفي منه.

وفي يوم الجمعة السادس عشره قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي إليها حاكماً بها فذهب الناس للسلام عليه ولتوديعه وذلك بعدما أرجف الناس به كثيراً واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخري وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه وداروا بها على المفتين فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت لما فيها من التشويش على الحكام وفي أول مرسوم نائب السلطان أن يتأمل المفتون هذا السؤال ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف وكانوا له في نية عجيبة ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية فسار إليها صحبة البريد ليلة الأحد وخرج الكبراء والأعيان لتوديعه وفي خدمته.

استهل جمادى الآخرة والتجريدة عمالة إلى الكرك والجيش المجردون من الحلقة قريب من ألف أو يزيدون.

ولما كان يوم الثلاثاء رابعه بعد الظهر مات الأمير علاء الدين أيدغمش نائب السلطنة بالشام المحروس فجأة في دار وحده بدار السعادة فدخلوا عليه وكشفوا أمره وأحصروا وخشوا أن يكون اعتراه سكتة ويقال إنه شفي فالله أعلم فانتظروا به إلى الغد احتياطاً فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة عليه فصلي عليه خارج باب النصر حيث يصلى على الجنائز وذهبوا به إلى نحو القبلة ورام بعض أهله أن يدفن في تربة غبريال إلى جانب جامع القبيبات فلم يمكن ذلك فدفن قبلي الجامع على حافة الطريق ولم يتهيأ دفنه إلا إلى بعد الظهر من يومئذ وعملوا عنده ختمة ليلة الجمعة رحمه الله وسامحه.

واشتهر في أوائل هذا الشهر أن الحصار عمال على الكرك وأن أهل الكرك خرجت طائفة منهم فقتل منهم خلق كثير وقتل من الجيش واحد في الحصار فنزل القاضي وجماعة ومعهم شيء من الجوهر وتراضوا على أن يسلموا البلد فلما أصبح أهل الحصن تحصنوا ونصبوا المجانيق واستعدوا فلما كان بعد أيام رموا منجنيق الجيش فكسروا السهم الذي له وعجزوا عن نقله فحرقوه برأي أمراء المقدمين وجرت أمور فظيعة فالله يحسن العاقبة.

ثم وقعت في أواخر هذا الشهر بين الجيش وأهل الكرك وقعة أخرى وذلك أن جماعة من رجال الكرك خرجوا إلى الجيش ورموهم بالنشاب فخرج الجيش لهم من الخيام ورجعوا مشاة ملبسين بالسلاح فقتلوا من أهل الكرك جماعة من النصارى وغيرهم وجرح من العسكر خلق وقتل واحد أو اثنان وأسر الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادر آص وقتل أمير العرب وأسر آخرون فاعتقلوا بالكرك وجرت أمور منكرة ثم بعدها تعرض العسكر راجعين إلى بلادهم لم ينالوا مرادهم منها وذلك أنهم دهمهم البرد الشديد وقلة الزاد وحاصروا أولئك شديداً بلا فائدة فإن البلد بريد متطاولة ومجانيق ويشق على الجيش الإقامة هناك في زمان كوانين والمنجنيق الذي حملوه معهم كسر فرجعوا ليتأهبوا لذلك.

ولما كان في يوم الأربعاء الخامس والعشرين منه قدم من الديار المصرية

على البريد القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتباً على السر عوضاً عن أخيه القاضي شهاب الدين ومعه كتاب بالاحتياط على حواصل أخيه شهاب الدين وعلى حواصل القاضي عماد الدين بن الشيرازي المحتسب فاحتيط على أموالهما وأخرج من في ديارهما من الحرم وضربت الأخشاب على الأبواب ورسم على المحتسب بالعذراوية فسأل أن يحول إلى دار الحديث الأشرفية فحول إليها.

وأما القاضي شهاب الدين فكان قد خرج ليلتقي الأمير سيف الدين تقزدمر الحموي الذي جاء تقليده بنيابة الشام بدمشق وكان بحلب وجاء هذا الأمر وهو في أثناء الطريق فرسم برجعته ليصادر هو والمحتسب ولم يدر الناس ما ذنبهما.

وفي يوم الأحد ثامن شهر رجب آخر النهار رجع قاضي القضاة تقي الدين السبكي إلى دمشق على القضاء ومعه تقليد بالخطابة أيضاً وذهب الناس إليه للسلام عليه ودخل نائب السلطنة الأمير سيف الدين تقزدمر الحموي بعد العصر الخامس عشرينه من حلب فتلقاه الأمراء إلى طريق القابون ودعا له الناس دعاء كثيراً وأحبوه لبغضهم النائب الذي كان قبله وهو علاء الدين أيدغمش سامحه اللّه تعالى فنزل بدار السعادة وحضر الموكب صبيحة يوم الاثنين واجتمع طائفة من العامة وسألوه أن لا يغير عليهم خطيبهم تاج الدين عبد الرحيم بن جلال الدين فلم يلتفت إليهم بل عمل تقليد القاضي تقي الدين السبكي الخطابة ولبس الخلعة وأكثر العوام لما سمعوا بذلك الكلام والغوغاء وصاروا يجتمعون حلقا حلقا بعد الصلوات ويكثرون الفرحة في ذلك لما منع ابن الجلال ولكن بقي هذا لم يباشر السبكي في المحراب واشتهر عن العوام كلام كثير وتوعدوا السبكي بالسفاهة عليه إن خطب وضاق بذلك ذرعا ونهوا عن ذلك فلم ينتهوا وقيل لهم ولكثير منهم: الواجب عليكم السمع والطاعة لأولي الأمر ولو أمر عليكم عبد حبشي فلم يرعووا.

فلما كان يوم الجمعة العشرين منه اشتهر بين العامة بأن القاضي نزل عن الخطابة لابن الجلال ففرح العوام بذلك وحشدوا في الجامع وجاء نائب السلطنة إلى المقصورة والأمراء معه وخطب ابن الجلال على العادة وفرح الناس بذلك وأكثروا من الكلام والهرج ولما سلم عليهم الخطيب حين صعد ردوا عليه رداً بليغاً وتكلفوا في ذلك وأظهروا بغضة القاضي السبكي وتجاهروا بذلك وأسمعوه كلاماً كثيرا ولما قضيت الصلاة قرئ تقليد النيابة على السدة وخرج الناس فرحين بخطيبهم لكونه استمر عليهم واجتمعوا عليه يسلمون ويدعون له.

وفي يوم الأربعاء ثالث شعبان درس القاضي برهان الدين بن عبد الحق بالمدرسة العذراوية بمرسوم سلطاني بتوليته وعزل القحفازي وعقد لهما مجلس يوم الثلاثاء بدار العدل فرجح جانب القاضي برهان الدين لحاجته وكونه لا وظيفة له.

وفي يوم الجمعة خامسه توفي الشيخ الصالح شهاب الدين

■ أحمد بن الجزري أحد المسندين المكثرين الصالحين مات عن خمس وتسعين سنة رحمه اللّه وصلي عليه يوم الجمعة بالجامع المظفري ودفن بالرواحية.

وفي يوم الأربعاء السابع عشر منه توفي الشيخ الإمام العالم العابد الناسك الصالح الشيخ شمس الدين

■ محمد بن الوزير خطيب الجامع الكريمي بالقبيبات وصلي عليه بعد الظهر يومئذ بالجامع المذكور ودفن قبلي الجامع المذكور إلى جانب الطريق من الشرق رحمه اللّه.

واشتهر في أوائل رمضان أن مولوداً ولد له رأسان وأربع أيد وأحضر إلى بين يدي نائب السلطنة وذهب الناس للنظر إليه في محلة ظاهر باب الفراديس يقال لها حكر الوزير وكنت فيمن ذهب إليه في جماعة من الفقهاء يوم الخميس ثالث الشهر المذكور بعد العصر فأحضره أبوه - واسم أبيه سعادة - وهو رجل من أهل الجبل فنظرت إليه فإذا هما ولدان مستقلان فكل قد اشتبكت أفخاذهما بعضهما ببعض وركب كل واحد منهما ودخل في الآخر والتحمت فصارت جثة واحدة وهما ميتان فقالوا أحدهما ذكر والآخر أنثى وهما ميتان حال رؤيتي إليهما وقالوا إنه تأخر موت أحدهما عن الآخر بيومين أو نحوهما وكتب بذلك محضر جماعة من الشهود.

وفي هذا اليوم احتيط على أربعة من الأمراء وهم أبناء الكامل صلاح الدين محمد أمير طبلخاناه وغياث الدين محمد أمير عشرة وعلاء الدين علي وابن أيبك الطويل طبلخاناه أيضا وصلاح الدين خليل بن بلبان طرنا طبلخاناه أيضا وذلك بسبب أنهم اتهموا على ممالأة الملك أحمد بن الناصر الذي في الكرك ومكاتبته واللّه أعلم بحالهم فقيدوا وحملوا إلى القلعة المنصورة من باب السر مقابل باب دار السعادة الثلاثة الطبلخاناه والغياث من بابها الكبير وفرق بينهم في الأماكن.

وخرج المحمل يوم الخميس خامس عشره ولبس الخطيب ابن الجلال خلعة استقرار الخطابة في هذا اليوم وركب بها مع القضاة على عادة الخطباء.

وفي هذا الشهر نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر وطول أكتافه ثمانية عشر ذراعا وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعا وخرج الناس للفرجة عليه ورمي به في يوم السبت الرابع والعشرين منه حجر زنته ستون رطلا فبلغ إلى مقابلة القصر من الميدان الكبير وذكر معلم المجانيق أنه ليس في حصون الإسلام مثله وأنه عملة الحاج محمد الصالحي ليكون بالكرك فقدر اللّه أنه خرج ليحاصر به الكرك فاللّه يحسن العاقبة.

وفي أواخره أيضا مسك أربعة أمراء وهم أقبغا عبد الواحد الذي كان مباشراً الأستادارية للملك الناصر الكبير فصودر في أيام ابنه المنصور وأخرج إلى الشام فناب بحمص فسار سيرة غير مرضية وذمه الناس وعزل عنها وأعطي تقدمة ألف بدمشق وجعل رأس الميمنة فلما كان في هذه الأيام اتهم بممالأة السلطان أحمد بن الناصر الذي بالكرك فمسك وحمل إلى القلعة ومعه الأمير سيف الدين بلو والأمير سيف الدين حطية الذي كان مباشراً الحجوبية في أيام ألطنبغا والأمير سيف الدين سلامش وكلهم بطبلخاناه فرفعوا إلى القلعة المنصورة فاللّه يحسن العاقبة.

وفي هذا الشهر خرج قضاء حمص عن نيابة دمشق بمرسوم سلطاني مجدد للقاضي شهاب الدين البارزي وذلك بعد مناقشة كثيرة وقعت بينه وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي وانتصر له بعض الدولة واستخرج له المرسوم المذكور.

وفيه أيضاً أفرد قضاء القدس الشريف أيضا باسم القاضي شمس الدين بن سالم الذي كان مباشرها مدة طويلة قبل ذلك نيابة ثم عزل عنها وبقي مقيما ببلدة غزة ثم أعيد إليها مستقلا بها في هذا الوقت.

وفي هذا الشهر رجع القاضي شهاب الدين بن فضل اللّه من الديار المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذي كان له أولا كل شهر ألف درهم وأقام بعمارته التي أنشأها بسفح قاسيون شرقي الصالحية بقرب حمام النحاس.

وفي صبيحة مستهل ذي القعدة خرج المنجنيق قاصدا إلى الكرك على

الجمال والعجل وصحبته الأمير صارم الدين إبراهيم المسبقي أمير حاجب كان في الدولة السكرية وهو المقدم عليه بحوطه ويحفظه ويتولى تسييره بطلبه وأصحابه وتجهز الجيش للذهاب إلى الكرك وتأهبوا أتم الجهاز، وبرزت أثقالهم إلى ظاهر البلد وضربت الخيام فالله يحسن العاقبة.

وفي يوم الاثنين رابعه توفي الطواشي شبل الدولة كافور السكري ودفن صبيحة يوم الثلاثاء خامسه في تربته التي أنشأها قديما ظاهر باب الجابية تجاه تربة الطواشي ظهير الدين الخازن بالقلعة كان قبيل مسجد الذبان رحمه الله وكان قديما للصاحب تقي الدين توبة التكريتي ثم اشتراه تنكز بعد مدة طويلة من ابني أخيه صلاح الدين وشرف الدين بمبلغ جيد وعوضهما إقطاعا بزيادة على ما كان بأيديهما وذلك رغبة في أمواله التي حصلها من أبواب السلطنة وقد تغضّب عليه أستاذه تنكز رحمه الله في وقت وصودر وجرت عليه فصول ثم سلم بعد ذلك ولما مات ترك أموالا جزيلة وأوقافا جيدة رحمه الله وخرجت التجريدة يوم الأربعاء سادسه والمقدم عليها الأمير بدر الدين بن الخطير ومعه مقدم آخر وهو الأمير علاء الدين بن قراسنقر.

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر توفي الشاب الحسن شهاب الدين أحمد بن فرج المؤذن بمأذنة العروس وكان شهيراً بحسن الصوت ذا حظوة عظيمة عند أهل البلد وكان رحمه الله كما في النفس وزيادة في حسن الصوت الرخيم البليغ المطرب وليس في القراء ولا في المؤذنين قريب منه ولا من يدانيه في وقته وكان في آخر وقته على طريقة حسنة وعمل صالح وانقطاع عن الناس وإقبال على شان نفسه فرحمه الله وأكرم مثواه وصلي عليه بعد الظهر يومئذ ودفن عند أخيه بمقبرة الصوفية.

وفي يوم الخميس خامس ذي الحجة توفي الشيخ

■ بدر الدين بن بصخان شيخ القراء السبعة في البلد الشهير بذلك وصلي عليه بالجامع بعد الظهر يومئذ ودفن ببان الفراديس رحمه الله.

وفي يوم الأحد تاسعه وهو يوم عرفة حضر الإقراء بتربة أم الصالح عوضا عن الشيخ بدر الدين بن بصخان القاضي شهاب الدين أحمد ابن النقيب البعلبكي وحضر عنده جماعة من الفضلاء وبعض القضاة وكان حضوره بغتة وكان متمرضا فألقى شيئا من القراءات والإعراب عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفي أواخر هذا الشهر غلا السعر جدا وقل الخبز وازدحم الناس على الأفران زحمة عظيمة وبيع خبز الشعير المخلوط بالزيوان والنقارة وبلغت الغرارة بمائة وستة وثمانين درهما وتقلص السعر جداً حتى بيع الخبز كل رطل بدرهم وفوق ذلك بيسير ودونه بحسب طيبه ورداءته فإنا لله وإنا إليه راجعون وكثر السؤال وجاع العيال وضعف كثير من الأشياء والأحوال ولكن لطف الله عظيم فإن الناس مترقبون مغلا هائلا لم يسمع بمثله من مدة سنين عديدة وقد اقترب أوانه وشرع كثير من البلاد في حصاد الشعير وبعض القمح مع كثرة الفول وبوادر التوت فلولا ذلك لكان غير ذلك ولكن لطف الله بعباده وهو الحاكم المتصرف الفعال لما يريد لا إله إلا هو.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر عماد الدنيا والدين إسماعيل ابن الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلاري وقضاته بها هم المتقدم ذكرهم في العام الماضي ونائبه بدمشق الأمير سيف الدين تقزدمر الحموي وقضاته هم المتقدم ذكرهم وكذلك الصاحب والخطيب وناظر الجامع والخزانة ومشد الأوقاف وولاية المدينة.

استهلت والجيوش المصرية والشامية محيطة بحصن الكرك محاصرون ويبالغون في أمره والمنجنيق منصوب وأنواع آلات الحصار كثيرة وقد رسم بتجريدة من مصر والشام أيضاً تخرج إليها.

وفي يوم الخميس عاشر صفر دخلت التجريدة من الكرك إلى دمشق واستمرت التجريدة الجديدة على الكرك ألفان من مصر وألفان من الشام والمنجنيق منقوض موضوع عند الجيش خارج الكرك والأمور متوقفة وبرد الحصار بعد رجوع الأحمدي إلى مصر.

وفي يوم السبت ثاني ربيع الأول توفي السيد الشريف عماد الدين الخشاب بالكوشك في درب السيرجي جوار المدرسة العزية وصلي عليه ضحى بالجامع الأموي ودفن بمقابر باب الصغير وكان رجلا شهما كثير العبادة والمحبة للسنة وأهلها ممن واظب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وانتفع به وكان من جملة أنصاره وأعوانه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الذي بعثه إلى صيدنايا مع بعض القسيسين فلوث يده بالعذرة وضرب اللحمة التي يعظمونها هنالك وأهانها غاية الإهانة لقوة إيمانه وشجاعته رحمه الله وإيانا.

وفي يوم الخميس سابعه اجتمع الصاحب ومشد الدواوين ووكيل بيت المال ومشد الأوقاف ومباشرو الجامع ومعهم العمالين بالنول والمعاول يحفرون إلى جانب السارية عند باب مشهد علي تحت تلك الصخرة التي كانت هناك وذلك عن قول رجل جاهل زعم أن هناك مالا مدفوناً فشاوروا نائب السلطنة فأمرهم بالحفر واجتمع الناس والعامة فأمرهم فأخرجوا وأغلقت أبواب الجامع كلها ليتمكنوا من الحفر ثم حفروا ثانياً وثالثاً فلم يجدوا شيئاً إلا التراب المحض واشتهر هذا الحفير في البلد وقصده الناس للنظر إليه والتعجب من أمره وانفصل الحال على أن حبس هذا الزاعم لهذا المحال وطم الحفير كما كان.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول قدم قاضي حلب ناصر الدين بن الخشاب على البريد مجتازاً إلى دمشق فنزل بالعادلية الكبيرة وأخبر أنه صلي على المحدث البارع الفاضل الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أيبك السروجي المصري يوم الجمعة ثامن هذا الشهر بحلب رحمه الله ومولده سنة خمس عشرة وسبعمائة وكان قد أتقن طرفا جيداً في علم الحديث وحفظ أسماء الرجال وجمع وخرج.

وفي مستهل ربيع الآخر وقع حريق عظيم بسفح قاسيون احترق به سوق الصالحية الذي بالقرب من جامع المظفري وكانت جملة الدكاكين التي احترقت قريبا من مائة وعشرين دكاناً ولم ير حريق من زمان أكبر منه ولا أعظم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة سادسه رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة في سائر مآذن البلد كما يذكر في مأذن الجامع ففعل ذلك.

وفي يوم الثلاثاء عاشره طلب من القاضي تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشافعية أن يقرض ديوان السلطان شيئاً من أموال الغياب التي تحت يده فامتنع من ذلك امتناعاً كثيرا فجاء شاد الدواوين وبعض حاشية نائب السلطنة ففتحوا مخزن الأيتام وأخذوا منه خمسين ألف درهم قهراً ودفعوها إلى بعض العرب عما كان تأخر له في الديوان السلطاني ووقع أمر كبير لم

يعهد مثله.

■ (محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي).

وفي يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى توفي صاحبنا الشيخ الإمام العالم العلامة الناقد البارع في فنون العلوم شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي تغمده الله برحمته وأسكنه بحبوحة جنته مرض قريباً من ثلاثة أشهر بقرحة وحمى سل ثم تفاقم أمره وأفرط به إسهال وتزايد ضعفه إلى أن توفي يومئذ قبل أذان العصر فأخبرني والده أن آخر كلامه أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فصلي عليه صبيحة يوم الخميس بالجامع المظفري وحضر جنازته قضاة البلد وأعيان الناس من العلماء والأمراء والتجار والعامة وكانت جنازته حافلة مليحة عليها ضوء ونور ودفن بالروضة إلى جانب قبر السيف ابن المجد رحمهما الله تعالى.

وكان مولده في رجب سنة خمس وسبعمائة فلم يبلغ الأربعين وحصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصلين والتاريخ والقراءات وله مجاميع وتعاليق مفيدة كثيرة وكان حافظا جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث عارفا بالجرح والتعديل بصيراً بعلل الحديث حسن الفهم له جيد المذاكرة صحيح الذهن مستقيما على طريقة السلف واتباع الكتاب والسنة مثابرا على فعل الخيرات.

وفي يوم الثلاثاء سلخه درس بمحراب الحنابلة صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شرف الدين ابن القاضي شرف الدين الحنبلي في حلقة الثلاثاء عوضا عن القاضي تقي الدين بن الحافظ رحمه الله وحضر عنده القضاة والفضلاء وكان درسا حسنا أخذ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وخرج إلى مسألة تفضيل بعض الأولاد.

وفي يوم الخميس ثاني شهر جمادى الأولى خرجت التجريدة إلى الكرك مقدمان من الأمراء وهما الأمير شهاب الدين بن صبح والأمير سيف الدين قلاوون في أبهة عظيمة وتجمل وجيوش ونقارات وإزعاج كثيرة.

■ (حسن بن عمر السكاكيني).

وفي صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين منه قتل بسوق الخيل حسن ابن الشيخ محمد السكاكيني على ما ظهر منه من الرفض الدال على الكفر المحض شهد عليه عند القاضي شرف الدين المالكي بشهادات كثيرة تدل على كفره وأنه رافضي جلد فمن ذلك تكفير الشيخين رضي الله عنهما وقذفه أمي المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد وإنما كان مرسلا إلى علي وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة قبحه الله وقد فعل وكان والده الشيخ محمد السكاكيني يعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً وكانت له أسئلة على مذهب أهل الجبر ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وذكر غير واحد من أصحاب الشيخ أن السكاكيني ما مات حتى رجع عن مذهبه وصار إلى قول أهل السنة فالله أعلم وأخبرت أن ولده حسنا هذا القبيح كان قد أراد قتل أبيه لما أظهر السنة.

وفي ليلة الاثنين خامس شهر رجب وصل بدن الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كان إلى تربته التي إلى جانب جامعه الذي أنشأه ظاهر باب النصر بدمشق نقل من الإسكندرية بعد ثلاث سنين ونصف أو أكثر بشفاعة ابنته زوجة الناصر عند ولده السلطان الملك الصالح فأذن في ذلك وأرادوا أن يدفن بمدرسته بالقدس الشريف فلم يمكن فجيء به إلى تربته بدمشق وعملت له الختم وحضر القضاة والأعيان رحمه الله.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر شعبان المبارك توفي صاحبنا الأمير صلاح الدين

■ يوسف التكريتي ابن أخي الصاحب تقي الدين بن توبة الوزير بمنزله بالقصاعين.

وكان شابا من أبناء الأربعين ذا ذكاء وفطنة وكلام وبصيرة جيدة.

وكان كثير المحبة إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله ولأصحابه خصوصا ولكل من يراه من أهل العلم عموما وكان فيه إيثار وإحسان ومحبة الفقراء والصالحين ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله.

وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه قبل الظهر جاءت زلزلة بدمشق لم يشعر بها كثير من الناس لخفتها ولله الحمد والمنة ثم تواترت الأخبار بأنها شعثت في بلاد حلب شيئا كثيراً من العمران حتى سقط بعض الأبراج بقلعة حلب وكثير من دورها ومساجدها ومشاهدها وجدرانها وأما في القلاع حولها فكثير جداً وذكروا أن مدينة منبج لم يبق منها إلا القليل وأن عامة الساكنين بها هلكوا تحت الردم رحمهم الله.

وفي أواخر شهر شوال خرجت التجاريد إلى الكرك وهما أميران مقدمان الأمير علاء الدين قراسنقر والأمير الحاج بيدمر.

واشتهر في هذه الأيام أن أمر الكرك قد ضعف وتفاقم عليهم الأمر وضاقت الأرزاق عندهم جداً ونزل منها جماعات من رؤسائها وخاصكية الأمير أحمد بن الناصر مخامرين عليه فسيروا من الصبح إلى قلاوون وصحبتهم مقدمون من الحلقة إلى الديار المصرية وأخبروا أن الحواصل عند أحمد قد قلت جداً فالله المسؤول أن يحسن العاقبة.

وفي ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة توفي القاضي الإمام العلامة

■ برهان الدين بن عبد الحق شيخ الحنفية وقاضي القضاة بالديار المصرية مدة طويلة بعد ابن الحريري ثم عزل وأقام بدمشق ودرس في أيام تقزدمر بالعذراوية لولده القاضي أمين الدين فذكر بها الدرس يوم الأحد قبل وفاة والده بثلاثة أيام وكان موت برهان الدين رحمه الله ببستانه من أراضي الأرزة بطريق الصالحية ودفن من الغد بسفح قاسيون بمقبرة الشيخ أبي عمر رحمه الله وصلي عليه بالجامع المظفري وحضر جنازته القضاة والأعيان والأكابر رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والديار الشامية وما يتعلق بذلك الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون.

وقضاته بالديار المصرية والشامية هم المذكورون في السنة المتقدمة.

ونائبه بمصر الحاج سيف الدين أَلْمَلِك ووزيره المتقدم ذكره وناظر الخاص القاضي مكين الدين بن قروينة وناظر الجيوش القاضي علم الدين بن القطب والمحتسب المتقدم وشاد الدواوين علم الدين الناصري وشاد الأوقاف الأمير حسام الدين بن النجيبي ووكيل بيت المال القاضي علاء الدين بن شمرنوخ وناظر الخزانة القاضي تقي الدين بن أبي الطيب وبقية

المباشرين والنظار هم المتقدم ذكرهم.

وكاتب الدست القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر والقاضي أمين الدين بن القلانسي والقاضي شهاب الدين بن القيسراني والقاضي شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود والقاضي علاء الدين بن شمرنوخ.

شهر المحرم أوله السبت استهل والحصار واقع بقلعة الكرك وأما البلد فأخذ واستنيب فيه الأمير سيف الدين قبلاي قدم إليها من الديار المصرية والتجاريد من الديار المصرية ومن دمشق محيطون بالقلعة والناصر أحمد بن الناصر ممتنع من التسليم ومن الإجابة إلى الإنابة ومن الدخول في طاعة أخيه وقد تفاقمت الأمور وطالت الحروب وقتل خلق كثير بسبب ذلك من الجيوش ومن أهل الكرك وقد توجهت القضية إلى خير إن شاء الله.

وقبل ذلك بأيام يسيرة هرب من قلعة الكرك الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادرآص الذي كان أسر في أوائل حصار الكرك وجماعة من مماليك الناصر أحمد كان اتهمهم بقتل الشهيب أحمد الذي كان يعتني به ويحبه واستبشر الجيوش بنزول أبي بكر من عنده وسلامته من يده وجهزه إلى الديار المصرية على البريد معظما هذا والمجانيق الثلاثة مسلطة على القلعة من البلد تضرب عليها ليلا ونهارا وتدمر في بنائها من داخل فإن سورها لا يؤثر فيه شيء بالكلية.

ثم ذكر أن الحصار فتر ولكن مع الاحتياط على أن لا يدخل إلى القلعة ميرة ولا شيء مما يستعينون به على المقام فيها فالله المسؤول أن يحسن العاقبة.

وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر قدم البريد مسرعا من الكرك فأخبر بفتح القلعة وأن بابها أحرق وأن جماعة الأمير أحمد بن الناصر استغاثوا بالأمان ففتحت وخرج أحمد مقيداً وسير على البريد إلى الديار المصرية وذلك يوم الاثنين بعد الظهر الثالث والعشرين من هذا الشهر ولله عاقبة الأمور.

وفي صبيحة يوم الجمعة رابع ربيع الأول دقت البشائر بالقلعة وزينت البلد عن مرسوم السلطان الملك الصالح سرورا بفتح البلد واجتماع الكلمة عليه واستمرت الزينة إلى يوم الاثنين سابعه فرسم برفعها بعد الظهر فتشوش كثير من العوام وأرجف بعض الناس بأن أحمد قد ظهر أمره وبايعه الأمراء الذين هم عنده وليس لذلك حقيقة ودخلت الأطلاب من الكرك صبيحة يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول بالطبلخاناه والجيوش واشتهر إعدام أحمد بن الناصر.

■ (أبو حيّان النحويّ).

وفي يوم الجمعة حادي عشر ربيع الأول صلي بالجامع الأموي على الشيخ أمين الدين أبي حيان النحوي شيخ البلاد المصرية من مدة طويلة وكانت وفاته بمصر عن تسعين سنة وخمسة أشهر.

ثم اشتهر في ربيع الآخر قتل السلطان أحمد وحز رأسه وقطع يديه ودفن جثته بالكرك وحمل رأسه إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل وحضر بين يديه في الرابع والعشرين من هذا الشهر ففرح الناس بذلك ودخل الشيخ أحمد الزرعي على السلطان الملك الصالح فطلب منه أشياء كثيرة من تبطيل المظالم ومكوسات وإطلاق طبلخاناه للأمير ناصر الدين بن بكتاش وإطلاق أمراء محبوسين بقلعة دمشق وغير ذلك فأجابه إلى جميع ذلك وكان جملة المراسيم التي أجيب فيها بضعة وثلاثين مرسوماً.

فلما كان آخر شهر ربيع الآخر قدمت المراسيم التي سألها الشيخ أحمد من الملك الصالح فأمضيت كلها أو كثير منها وأفرج عن صلاح الدين ابن الملك الكامل والأمير سيف الدين بلو في يوم الخميس سلخ هذا الشهر ثم روجع في كثير منها فتوقف حالها.

وفي هذا الشهر عملت منارة خارج باب الفرج وفتحت مدرسة كانت داراً قديمة فجعلت مدرسة للحنفية ومسجداً وعملت طهارة عامة ومصلى للناس وكل ذلك منسوب إلى الأمير سيف الدين تقطمر الخليلي أمير حاجب كان وهو الذي جدد الدار المعروفة به اليوم بالقصاعين.

■ (محمد بن سليمان الجعبري).

وفي ليلة الاثنين عاشر جمادى الآخرة توفي صاحبنا المحدث تقي الدين محمد بن صدر الدين سليمان الجعبري زوج بنت الشيخ جمال الدين المزي والد شرف الدين عبد الله وجمال الدين إبراهيم وغيرهم وكان فقيها بالمدارس وشاهداً تحت الساعات وغيرها وعنده فضيلة جيدة في قراءة الحديث وشيء من العربية وله نظم مستحسن انقطع يومين وبعض الثالث وتوفي في الليلة المذكورة في وسط الليل وكنت عنده وقت العشاء الآخرة ليلتئذ وحدثني وضاحكني وكان خفيف الروح رحمه الله ثم توفي في بقية ليله رحمه الله وكان أشهدني عليه بالتوبة من جميع ما يسخط الله عز وجل وأنه عازم على ترك الشهود أيضاً رحمه الله صلي عليه ظهر يوم الاثنين ودفن بمقابر باب الصغير عند أبويه رحمهم الله.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رجب خطب القاضي عماد الدين إسماعيل بن العز الحنفي بجامع تنكز خارج باب النصر عن نزول الشيخ نجم الدين علي بن داود القحفازي له عن ذلك وأيضا نائب السلطنة الأمير سيف الدين تقزدمر وحضوره عنده في الجامع المذكور يومئذ.

■ (أحمد بن حسام الدين الرومي).

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين رجب توفي القاضي الإمام العالم جلال الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بمسجد دمشق وحضره القضاة والأعيان ودفن بالمدرسة التي أنشأها إلى جانب الزردكاش قريبا من الخاتونية الجوانية وكان قد ولّي قضاء قضاة الحنفية في أيام ولاية أبيه الديار المصرية وكان مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة وأفتى في سنة سبعين وست مئة وقدموا الشام مع أبيه فأقاموا بها ثم لما ولّي الملك المنصور لاجين ولّى أباه قضاء الديار المصرية وولده هذا قضاء الشام ثم إنه عزل بعد ذلك واستمر على ثلاث مدارس من خيار مدارس الحنفية ثم حصل له صمم في آخر عمره وكان ممتعا بحواسه سواه وقواه وكان يذكر في العلم وغير ذلك.

وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان توفي الشيخ نجم الدين

■ علي بن داود القحفازي خطيب جامع تنكز ومدرس الظاهرية وقد نزل عنها قبل وفاته بقليل للقاضي عماد الدين إسماعيل بن العز الحنفي وصلي عليه بالجامع المذكور بعد صلاة الظهر يومئذ وعند باب النصر وعند جامع جراح ودفن بمقبرة ابن الشيرجي عند والده وحضره القضاة والأعيان وكان أستاذا في النحو وله علوم أخر لكن كان نهاية في النحو والتصريف.

وفي هذا اليوم توفي الشيخ الصالح العابد الناسك الشيخ

■ عبد الله الضرير الزرعي وصلي عليه بعد الظهر بالجامع الأموي وبباب النصر وعند مقابر الصوفية ودفن بها قريبا من الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وكان كثير التلاوة حسنها وصحيحها كثير العبادة يقرئ الناس من دهر طويل ويقوم بهم العشر الأخير من رمضان في محراب

الحنابلة بالجامع الأموي رحمه الله.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر رمضان المعظم توفي الشيخ الإمام العالم العامل العابد الزاهد الورع

■ أبو عمرو بن أبي الوليد المالكي إمام محراب الصحابة الذي للمالكية وصلي عليه بعد الصلاة وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير وتأسف الناس عليه وعلى صلاحه وفتاويه النافعة الكثيرة ودفن إلى جانب قبر أبيه وأخيه إلى جانب قبر أبي الحجاج الفندلاوي المالكي قريبا من مسجد التاريخ رحمه الله وولي مكانه في المحراب ولده وهو طفل صغير فاستنيب له إلى حين صلاحيته جبره الله ورحم أباه.

وفي صبيحة ليلة الثلاثاء سادس رمضان وقع ثلج عظيم لم ير مثله بدمشق من مدة طويلة وكان الناس محتاجين إلى مطر فلله الحمد والمنة وتكاثف الثلج على الأسطحة وتراكم حتى أعيى الناس أمره ونقلوه عن الأسطحة إلى الأزقة يحمل ثم نودي بالأمر بإزالته من الطرقات فإنه سدها وتعطلت معايش كثير من الناس فعوض الله الضعفاء بعملهم في الثلج ولحق الناس كلفة كبيرة وغرامة كثيرة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من رمضان صلي بالجامع الأموي على غائب وهو الأمير علاء الدين الجاولي وقد تقدم شيء من ترجمته رحمه الله.

وفي أول شوال يوم عيد الفطر وقع فيه ثلج عظيم بحيث لم يمكن الخطيب من الوصول إلى المصلى ولا خرج نائب السلطنة بل اجتمع الأمراء والقضاة بدار السعادة وحضر الخطيب فصلى بهم العيد بهم وكثير من الناس صلوا العيد في البيوت.

وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة درس قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي بالشامية البرانية عن الشيخ شمس الدين بن النقيب رحمه الله وحضر عنده القضاة والأعيان والأمراء وخلق من الفضلاء وأخذ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] وما بعدها.

وفي ذي الحجة استفتي في قتل كلاب البلد فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك فرسم بإخراجهم يوم الجمعة من البلد الخامس والعشرين منه لكن إلى الخندق ظاهر باب الصغير وكان الأولى قتلهم بالكلية وإحراقهم لئلا يتأذى الناس بنتن بريحهم على ما أفتى به الإمام مالك بن أنس من جواز قتل الكلاب ببلدة معينة للمصلحة إذا رأى الإمام ذلك [التمهيد: ٢٢٥/١٤ وما بعده الاستذكار: ١٩٦/٢٧] ولا يعارض ذلك النهي عن قتل أمة الكلاب [م (١٥٧٢، ١٥٧٣)] ولهذا كان عثمان بن عفان يأمر في خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام [أحمد: ٧٢/١].

ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين بالديار المصرية والشامية والحرمين والبلاد الحلبية وأعمال ذلك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور.

وقضاته بالديار المصرية والشامية هم المذكورون في السنة الماضية ونوّابه في البلاد هم المذكورون أيضا.

وفي يوم الجمعة سادس شهر المحرّم كملت عمارة الجامع الذي بالمزة الفوقانية الذي جدده وأنشأه الأمير بهاء الدين بن المرجاني الذي بنى والده مسجد الخيف بمنى وهو جامع حسن متسع فيه روح وانشراح تقبل الله من بانيه وعقدت فيه الجمعة بجمع كثير وجم غفير من أهل المزة ومن حضر من أهل البلد وكنت أنا الخطيب ـ يعني الشيخ عماد الدين المصنف تغمده الله برحمته ـ ولله الحمد والمنة ووقع كلام وبحث في مسألة اشتراط المحلل في المسابقة.

وكان سببه أن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صنف فيه مصنفا من قبل ذلك ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك ثم صار يفتي به جماعة من الترك ولا يعزوه إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاعتقد من اعتقد أنه قوله وهو مخالف للأئمة الأربعة فحصل عليه إنكار في ذلك وطلبه القاضي الشافعي وحصل كلام في ذلك وانفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية الموافقة للجمهور.

وفاة الملك الصالح إسماعيل

في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر من هذه السنة أظهر موت السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور آخر النهار وكان قد عهد بالأمر إلى أخيه لأبويه الملك الكامل سيف الدين أبي الفتوح شعبان، فجلس على سرير المملكة يوم الخميس رابعه وكان يوماً مشهوداً ثم قدم الخبر إلى دمشق عشية الخميس ليلة الجمعة الثاني عشر منه وكان البريد قد انقطع عن الشام نحو عشرين يوما للشغل بمرض السلطان فقدم الأمير سيف الدين بيعزا للبيعة للملك الكامل فركب عليه الجيش لتلقيه.

فلما كان صبيحة الجمعة أخذت البيعة من النائب والمقدمين وبقية الأمراء والجند للسلطان الملك الكامل بدار السعادة ودقت البشائر وزين البلد وخطب الخطباء يومئذ للملك الكامل جعله الله وجها مباركا على المسلمين.

وفي صبيحة يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الآخر درس القاضي جمال الدين حسين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي بالمدرسة الشامية البرانية نزل له أبوه عنها واستخرج له مرسوما سلطانيا بذلك فحضر عنده القضاة والأعيان وجماعة من الأمراء والفقهاء وجلس بين أبيه والقاضي الحنفي وأخذ في الدرس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وتكلم الشريف مجد الدين المتكلم في الدرس بكلام فيه نكارة وبشاعة فشنع عليه الحاضرون فاستتيب بعد انقضاء الدرس وحكم بإسلامه.

وقد طلب إلى الديار المصرية نائب دمشق الأمير سيف الدين تقزدمر وهو متمرض انقطع عن الجمعة بسبب المرض مرات والبريد يذهب إلى حلب، لمجيء نائبها الأمير سيف الدين يلبغا لنيابة دمشق وذكر أن الحاج أرقطاي تعين لنيابة حلب.

وفي يوم الجمعة رابع شهر جمادى الأولى خرجت أثقال الأمير سيف الدين تقزدمر النائب وخيوله وهجنه ومواليه وحواصله وطبلخاناته وأولاده في تجمل عظيم وأبهة هائلة جداً وخرجت المحافل والكحارات والمحفات لنسائه وبناته وأهله في هيئة عجيبة هذا كله وهو بدار السعادة.

فلما كان من وقت السحر في يوم السبت خامسه خرج الأمير سيف الدين تقزدمر بنفسه إلى الكسوة في محفة لمرضه مصحوباً بالسلامة فلما

طلعت الشمس من يومئذ قدم من حلب أستاذ دار الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي فتسلم دار السعادة وفرح الناس بهم وذهب الناس للتهنئة والتودد إليهم.

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى خرج الجيش بكماله لتلقي نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا فدخل في تجمل عظيم ثم جاء فنزل عند باب السر وقبل العتبة على العادة ثم مشى إلى دار السعادة.

وفي عشية يوم الاثنين رابع عشره قطع نائب السلطنة ممن وجب قطعه من أهل الحبس ثلاثة عشر رجلا وأضاف إلى قطع اليد قطع الرجل من كل منهم لما بلغه أنه تكررت جناياتهم وصلب ثلاثة بالمسامير ممن وجب قتله ففرح الناس بذلك لقمعه المفسدين وأهل الشرور والعبث والفساد.

واشتهر في العشر الأوسط من جمادى الآخرة وفاة الأمير سيف الدين

■ تقزدمر بعد وصوله إلى الديار المصرية بأيام وكان ذلك ليلة الخميس مستهل هذا الشهر وذكر أنه رسم على ولده وأستاذ داره ودواداره وطلب منهم مال جزيل فالله أعلم.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره توفي القاضي علاء الدين

■ ابن العز الحنفي نائب الحكم ببستانه بالصالحية ودفن بها وذلك بعد عود المدرسة الظاهرية إليه وأخذه إياها من عمه القاضي عماد الدين إسماعيل كما قدمنا ولم يدرس فيها إلا يوما واحداً وهو متمرض ثم عاد إلى الصالحية فتمادى به مرضه إلى أن مات رحمه الله.

وخرج الركب إلى الحجاز الشريف يوم السبت حادي عشر شوال وخرج ناس وتجار كثير جداً وكان قد وقع قليل مطر فلما برزوا إلى الكسرة ونحوها ودونها ولم يخرج خلق كثير من البلد ووقع مطر عظيم جداً ففرح الناس به من جهة أن المطر كان قليلا جدا في شهر رمضان وهو كانون الأصم فلما وقع هذا استبشروا به وخافوا على الحجاج ضرره ثم تدارك المطر وتتابع ولله الحمد والمنة لكن ترحل الحجاج في أوحال كثيرة وزلق كثير والله المسلم والمعين والحامي.

ولما استقل الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بالصنمين فعوقهم أياما بها ثم تحاملوا إلى زُرَع فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد ورجع كثير منهم وأكثرهم وذكروا أشياء عظيمة حصلت لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال ومنهم من كان تقدم إلى أرض بصرى فحصل لهم رفق بذلك والله المستعان.

وقيل إن نساء كثيرة من المخدرات مشين حفاة فيما بين زُرَع والصنمين وبعد ذلك وكان أمير الحاج سيف الدين ملك آص وقاضيه شهاب الدين بن الشجرة الحاكم بمدينة بعلبك يومئذ والله المستعان انتهى.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون وليس له بمصر نائب.

وقضاة مصر هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب دمشق الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها إلا أن قاضي القضاة عماد الدين بن إسماعيل الحنفي نزل عن القضاء لولده قاضي القضاة نجم الدين واستقل بالولاية وتدريس النورية وبقي والده على تدريس الريحانية.

■ (محمد بن محمد بن قوام).

وفي يوم الجمعة السادس عشر من المحرم من هذه السنة توفي الشيخ تقي الدين الشيخ الصالح محمد ابن الشيخ محمد بن قوام بزاويتهم بالسفح وصلي عليه الجمعة بجامع الأفرم ثم دفن بالزاوية وحضره القضاة والأعيان وخلق كثير وكان بينه وبين أخيه ستة أشهر وعشرون يوماً وهذا أشد من ذلك.

وفتحت في أول السنة القيسارية التي أنشأها الأمير سيف الدين يلبغا نائب السلطنة ظاهر باب الفرج وضمنت ضماناً باهراً بنحو من سبعة آلاف كل شهر وداخلها قيسارية تجارة في وسطها بركة ومسجد وظاهرها دكاكين وأعاليها بيوت للسكن.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول عقد مجلس بمشهد عثمان للنور الخراساني وكان يقرأ القرآن في جامع تنكز ويعلم الناس أشياء من فرائض الوضوء والصلاة ادعي عليه فيه أنه تكلم في بعض الأئمة الأربعة وأنه تكلم في شيء من العقائد ويطلق عبارات زائدة على ما ورد به الحديث وشهد عليه بعض الشهود بأشياء متعددة فاقتضى الحال أن عزر في هذا اليوم وطيف به في البلد ثم رد إلى السجن معتقلاً.

فلما كان يوم الخميس الثاني وعشرين منه شفع فيه الأمير أحمد بن مهنا ملك العرب عند نائب السلطنة فاستحضره بين يديه وأطلقه إلى أهله وعياله.

ولما كان تاريخ يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى صلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي الناصري بجامع تنكز ظاهر دمشق برا باب النصر وصلى عنده القاضي الشافعي والمالكي وكبار الأمراء ولما أقيمت الصلاة صلى وقعد بعض مماليكه عن الصلاة ومعه السلاح حراسة له ثم لما انصرف من الصلاة اجتمع بالأمراء المذكورين وتشاوروا طويلا ثم نهض النائب إلى دار السعادة فلما كان آخر النهار برز بخدمه ومماليكه وحشمه ووطاقه وسلاحه وحواصله ونزل قبلي مسجد القدم وخرج الجند والأمراء في آخر النهار وانزعج الناس واتفق طلوع القمر خاسفا ثم خرج الجيش ملبسا تحت الثياب وعليهم التراكيش بالنشاب والخيول والجنابات ولا يدري الناس ما الخبر وكان سبب ذلك أن نائب السلطنة بلغه أن نائب صفد قد ركب إليه ليقبض عليه فانزعج لذلك وقال: لا أموت إلا على ظهر أفراسي لا على فراشي وخرج الجند والأمراء خوفا من أن يفوتهم بالفرار فنزلوا يمنة ويسرة فلم يذهب من تلك المنزلة بل استمر بها يعمل النيابة ويجتمع بالأمراء جماعة وفرادى ويستميلهم إلى ما هو فيه من الرأي وهو خلع الملك الكامل شعبان لأنه يكثر من مسك الأمراء بغير سبب ويفعل أفعالا لا تليق بمثله وذكروا أموراً كثيرة وأن يولوا أخاه أمير حاجي بن الناصر لحسن شكالته وجميل فعله ولم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ذلك ووافقوه عليه وسلموا له ما يدعيه وتابعوا على ما أشار إليه وبايعوه ثم شرع في البعث إلى نواب البلاد يستميلهم إلى ما تمالأ عليه الدمشقيون وكثير من المصريين وشرع أيضا في التصرف في الأمور العامة الكلية وأخرج بعض من كان الملك الكامل اعتقله بالقلعة المنصورة ورد إليه إقطاعه بعد ما بعث الملك الكامل إلى من أقطعه منشوره وعزل وولى وأخذ وأعطى وطلب التجار يوم الأربعاء ثامن عشره ليباع عليهم غلال الحواصل السلطانية فيدفعوا أثمانها في الحال ثم يذهبوا فيتسلموها من البلاد البرانية، وحضر عنده القضاة على العادة والأمراء والسادة وهذا كله وهو مخيم بالمكان المذكور لا يحصره بلد ولا

يحويه سور.

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة خرجت تجريدة نحو عشرة طليعة لتلقي من يقدم من الديار المصرية إمّا مقاتلاً أو مخامراً عليهم وهي ألفان بمقدّمين هذا كله والأخبار تقدُم من الديار المصرية باختلاف الأمراء على السلطان وأن الأمراء مبايعون للشاميين وتقدم التجاريد من الديار المصرية من الأمراء وغيرهم ببقاء الأمر على ما كان عليه فلم يصدقهم النائب وربما عاقب بعضهم ثم رفعهم إلى القلعة وأهل دمشق ما بين مصدق باختلاف المصريين وما بين قائل السلطان الكامل قائم الصورة مستمر على ما كان عليه والتجاريد المصرية واصلة قريباً ولا بد من وقوع خبطة عظيمة وتشوشت أذهان الناس وأحوالهم بسبب ذلك والله المسؤول أن يحسن العاقبة.

وحاصل القضية أن العامة ما بين تصديق وتكذيب ونائب السلطنة وخواصه من كبار الأمراء على ثقة من أنفسهم وأن الأمراء على خلف شديد في الديار المصرية بين السلطان الكامل شعبان وبين أخيه أمير حاجي والجمهور مع أخيه أمير حاجي.

ثم جاءت الأخبار إلى النائب بأن التجاريد المصرية خرجت تقصد الشام ومن فيه من الجند لتوطد الأمر ثم إنه تراجعت رؤوس الأمراء في الليل إلى مصر واجتمعوا إلى إخوانهم ممن هو ممالئ لهم على السلطان فاجتمعوا ودعوا إلى سلطنة أمير حاجي وضربت الطبلخاناه وصارت باقي النفوس متجاهرة على نية تأييده ونابذوا السلطان الكامل وعدوا عليه مساويه وقتل بعض الأمراء وفر الكامل وأنصاره فاحتيط عليه وخرج أرغون العلائي زوج ابنته واستظهر أيضا أمير حاجي فأجلسوه على السرير ولقبوه بالملك المظفر.

وجاءت الأخبار إلى النائب بذلك فضربت البشائر عنده وبعث إلى نائب القلعة فامتنع من ضربها وكان قد طلب إلى الوطاق فامتنع من الحضور وأغلق باب القلعة فانزعج الناس واختبط البلد وتقلص وجود الخبر وحصنت القلعة ودعوا للكامل بكرة وعشية على العادة وأرجف العامة بالجيش على عادتهم في كثرة فصولهم فحصل لبعضهم أذية.

فلما كان يوم الاثنين ثامن الشهر قدم نائب حماة إلى دمشق مطيعا لنائب السلطنة في تجمل وأبهة كما جرت به عادة أمثاله.

وفي هذا اليوم وقعت بطاقة بقدوم الأمير سيف الدين بيغرا حاجب الحجاب بالديار المصرية لأجل البيعة للسلطان الملك المظفر فدقت البشائر بالوطاق وأمر بتزيين البلد فزين الناس وليسوا منشرحين وأكثرهم يظن أن هذا مكر وخديعة وأن التجاريد المصرية واصلة قريبا وامتنع نائب القلعة من دق البشائر وبالغ في تحصين القلعة وغلق بابها فلا يفتح إلا الخوخة البرانية والجوانية وهذا الصنيع هو الذي يشوش خواطر العامة يقولون: لو كان ثَمّ شيء له صحة كان نائب القلعة يطلع على هذا قبل الوطاق.

فلما كان يوم الثلاثاء بعد الزوال قدم الأمير سيف الدين بيغرا إلى الوطاق وقد تلقوه وعظموه ومعه تقليد النيابة من المظفر إلى الأمير سيف الدين يلبغا نائب السلطنة وكتاب إلى الأمراء بالسلام ففرحوا بذلك وبايعوه وانتظمت الكلمة ولله الحمد.

وركب بيغرا إلى القلعة فترجل وسل سيفه ودخل إلى نائب القلعة فبايعه سريعا ودقت البشائر في القلعة بعد المغرب حين بلغه الخبر وطابت أنفس الناس ثم أصبحت القلعة في الزينة وزادت الزينة في البلد وفرح الناس.

فلما كان يوم الخميس حادي عشر الشهر دخل نائب السلطنة من الوطاق إلى البلد والأطلاب بين يديه في تجمل وطبلخاناه على عادة العرض وقد خرج أهل البلد إلى الفرجة وخرج أهل الذمة بالتوراة وأشعلت الشموع وكان يوماً مشهوداً.

وقد صلى في شهر رمضان من هذه السنة بالشامية البرانية صبي عمره ست سنين وقد رأيته وامتحنته فإذا هو يجيد الحفظ والأداء وهذا من أغرب ما يكون.

وفي العشر الأول من هذا الشهر فرغ من بناء الحمامين اللذين بناهما نائب السلطنة بالقرب من الثابتية في خان السلطان العتيق وما حولها من الرباع والقرب وغير ذلك.

وفي يوم الأحد حادي عشره اجتمع نائب السلطنة والقضاة الأربعة ووكيل بيت المال والدولة عند تل المشنقين من أجل أن نائب السلطنة قد عزم على بناء هذه البقعة جامعا بقدر جامع تنكز فاشتوروا هنالك ثم انفصل الحال على أن يعمل والله ولي التوفيق.

■ (ابن تيمية، زين الدين).

وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة صلي على الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن تيمية أخو الشيخ تقي الدين رحمهما الله تعالى بعد صلاة الظهر بالجامع وتبعه القضاة والأعيان وخلق كثير إلى المقبرة التي بالصوفية فدفن قِبْلي قبر أخيه، بينهما قبر ابن عمتهما عز الدين بن تيمية.

وفي يوم السبت ثاني عشره توفي الشيخ

■ علي القطناني بقطنا وكان قد اشتهر أمره في هذه السنين واتبعه جماعة من الفلاحين والشباب المتمين إلى طريقة أحمد بن الرفاعي وعظم أمره وسار ذكره وقصده الأكابر إلى بلده للزيارة مرات وكان يقيم السماعات على عادة أمثاله وله أصحاب يظهرون إشارة باطلة وأحوالا مفتعلة وهذا مما كان ينقم عليه بسببه فإنه إن لم يكن يعلم بحالهم فجاهل وإن كان يقرهم على ذلك فهو مثلهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي أواخر هذا الشهر - أعني ذي الحجة من العيد وما بعده - اهتم ملك الأمراء في بناء الجامع الذي بناه تحت القلعة مكان تل المشنقين وهدم ما كان هناك من أبنية وعملت العجل وأخذت أحجار كثيرة من أرجاء البلد وأكثر ما أخذت الأحجار من الرحبة التي للمحضرين من تحت المئذنة التي في رأس عقبة الكتّان وتيسر منها أحجار كثيرة والأحجار أيضا من جبل قاسيون وحمل على الجمال وغيرها.

وكان سلخ هذه السنة - أعني سنة سبع وأربعين وسبعمائة - قد بلغت غرارة القمح إلى مائتين فما دونها وربما بيعت بأكثر من ذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك المظفر أمير حاجي ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين أرقطاي.

وقضاة مصر هم الذين كانوا في الماضية بأعيانهم.

ونائبه بالشام المحروسة سيف الدين يلبغا الناصري.

وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها بأعيانهم غير أن القاضي عماد الدين الحنفي نزل لولده قاضي القضاة نجم الدين فباشر في حياة أبيه.

وحاجب الحجاب فخر الدين إياس.

واستهلت هذه السنة ونائب السلطنة في همة عالية في عمارة الجامع الذي قد شرع في بنائه غربي سوق الخيل بالمكان الذي كان يعرف بتل المشنقين.

وفي ثالث المحرم توفي قاضي القضاة شرف الدين محمد بن أبي بكر الهمداني المالكي وصلي عليه بالجامع ودفن بتربته بميدان الحصا وتأسف الناس عليه لرياسته وديانة أخلاقه وإحسانه إلى كثير من الناس رحمه الله.

وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من المحرم وصل تقليد قضاء المالكية للقاضي جمال الدين المسلاتي الذي كان نائبا للقاضي شرف الدين قبله وخلع عليه من آخر النهار.

وفي شهر ربيع الأول أخذوا لبناء الجامع الجدد بسوق الخيل أعمدة كثيرة من البلد وظاهر البلد يعلقون ما فوقه من البناء ثم يأخذونه ويقيمون بدله دعامة وأخذوا من درب الصيقل وأخذوا العمود الذي كان بسوق العلبيين الذي في تلك الدخلة على رأسه مثل الكرة فيها حديد.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر أنه كان فيه طلسم لعسر بول الحيوان إذا داروا حوله بالدابة ينحل أراقيها.

فلما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة قلعوه من موضعه بعد ما كان له في هذا الموضع نحواً من اربعة آلاف سنة والله أعلم وقد رأيته في هذا اليوم وهو ممدود في سوق العلبيين على الأخشاب ليجروه إلى الجامع المذكور من السوق الكبير ويخرجوا به من باب الجابية الكبير فلا إله إلا الله.

وفي أواخر شهر ربيع الآخر ارتفع بناء الجامع الذي أنشأه النائب وجفت العين التي كانت تحت جداره حين أسسوه ولله الحمد.

وفي سلخ ربيع الآخر وردت الأخبار من الديار المصرية بمسك جماعة من أعيان الأمراء كالحجازي وآقسنقر الناصري ومن لف لفهما فتحرك الجند بالشام ووقعت خبطة.

ثم استهل شهر جمادى الأولى والجند في حركة شديدة ونائب السلطنة يستدعي الأمراء إلى دار السعادة بسبب ما وقع بالديار المصرية وتعاهد هؤلاء على أن لا يؤذي أحداً أبداً وأن يكونوا يداً واحدة.

وفي هذا اليوم تحول ملك الأمراء من دار السعادة إلى القصر الأبلق واحترز لنفسه وكذلك حاشيته.

وفي يوم الأربعاء الرابع عشر منه قدم أمير من الديار المصرية على البريد ومعه كتاب من السلطان فيه التصريح بعزل ملك الأمراء يلبغا نائب الشام فقرئ عليه بحضرة الأمراء بالقصر الأبلق فتغمم لذلك وساءه وفيه طلبه إلى الديار المصرية على البريد ليولى نيابة الديار المصرية والظاهر أن ذلك خديعة له أظهر الامتناع وأنه لا يذهب إلى الديار المصرية أبدا وقال: إن كان السلطان قد استكثر علي ولاية دمشق فيولني أي البلاد شاء فأنا راض بها ورد الجواب بذلك.

ولما أصبح من الغد وهو يوم الخميس خامس عشره ركب فخيم قريبا من الجسورة في الموضع الذي خيم فيه عام أول.

وفي هذا الشهر أيضا كما تقدم فبات ليلة الجمعة وأمر الأمراء بنصب الخيام هنالك على عادتهم عام أول.

فلما كان يوم الجمعة سادس عشره بعد الصلاة ما شعر الناس إلا والأمراء قد اجتمعوا تحت القلعة وأحضروا من القلعة سنجقين سلطانيين أصفرين وضربوا الطبول حربياً فاجتمعوا كلهم تحت السنجق السلطاني ولم يتأخر منهم سوى النائب وذويه كابنيه وإخوته وحاشيته والأمير سيف الدين قلاوون أحد مقدمي الألوف وخبزه أكبر أخباز الأمراء بعد النيابة فبعث إليه الأمراء أن هلم إلى السمع والطاعة للسلطان فامتنع من ذلك وتكررت الرسل بينهم وبينه فلم يقبل فساروا إليه في الطبلخاناه والبوقات ملبسين لأمة الحرب فلما انتهوا إليه وجدوه قد ركب خيوله ملبساً واستعد للهرب فلما واجههم هرب هو ومن معه وفروا فرار رجل واحد وساق الجند وراءه فلم يكتنفوا له غبارا وأقبل العامة وتركمان القبيبات فانتهبوا ما بقي في معسكره من الشعير والأغنام والخيام حتى جعلوا يقطعون الخيام والأطناب قطعاً قطعاً فعدم له ولأصحابه من الأمتعة ما يساوي ألف ألف درهم وانتدب لطلبه والمسير وراءه الحاجب الكبير الذي قدم من الديار المصرية قريبا والأمير شهاب الدين بن صبح أحد مقدمي الألوف فسار على طريق الأشرفية ثم عدل إلى ناحية القريتين.

ولما كان يوم الأحد قدم الأمير فخر الدين إياس نائب صفد منها فتلقاه الأمراء والمقدمون ثم جاء فنزل القصر وركب من آخر النهار في الجحافل ولم يترك بدمشق أحدا من الجند بدمشق إلا ركب معه وساق وراء يلبغا ومن معه، وأتبعهم الأزواد والأثقال وساق يلبغا فابتدأ نحو البرية فجعلت الأعراب يعترضونه من كل جانب وما زالوا يكفونه حتى سار نحو حماة فخرج نائبها وقد ضعف أمره جداً وكَلّ هو ومن معه من كثرة السوق ومصاولة الأعداء من كل جانب فألقى بيده وأخذ سيفه وسيوف من معه واعتقلوا بحماة وبعث بالسيوف إلى الديار المصرية.

وجاء الخبر إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء رابع عشر هذا الشهر فضربت البشائر بالقلعة وعلى باب الميادين على العادة وأحدقت العساكر بحماة من كل جانب ينتظرون ما رسم به السلطان من شأنه وقام إياس بجيش دمشق على حمص وكذلك جيش طرابلس ثم دخلت العساكر راجعة إلى دمشق يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر وقدم يلبغا وهو مقيد على كديش هو وأبوه وحوله الأمراء الموكلون به ومن معه من الجنود فدخلوا به بعد عشاء الآخرة فاجتازوا به في سوق السبقة، بعدما غلقت الأسواق وطفئت السرج وغلقت الطاقات ثم مروا على الشيخ رسلان والباب الشرقي على باب الصغير ثم من عند مسجد الذبان على المصلى واستمروا ذاهبين نحو الديار المصرية وتواترت البريدية من السلطان بما رسم به في أمره وأصحابه الذين خرجوا معه من الاحتياط على حواصلهم وأموالهم وأملاكهم وغير ذلك.

وقدم البريد من الديار المصرية يوم الأربعاء رابع جمادى الآخرة فأخبر بقتل يلبغا فيما بين قاقون غزة وأخذت رؤوسهما إلى السلطان وكذلك قتل بغزة الأمراء الثلاثة الذين خرجوا من مصر وحاكم الوزير ابن سرد بن البغدادي والدوادار طغيتمر وبيدمر البدري أحد المقدمين كان قد نقم عليه السلطان عمالأة يلبغا فأخرجهم من مصر مسلوبين جميع أموالهم وسيرهم إلى الشام فلما كانوا بغزة لحقهم البريد بقتلهم حيث وجدهم وكذلك رسم بقتل يلبغا حيث التقاه من الطريق فلما انفصل البريد من غزة التقى يلبغا في طريق وادي فحمة فخنقه ثم احتز رأسه وذهب به إلى السلطان وقدم أميران من الديار المصرية بالحوطة على حواصل يلبغا وطواشي من بيت المملكة فتسلم مصاغا وجواهر نفيسة جداً ورسم ببيع أملاكه وما كان وقفه على الجامع الذي كان قد شرع بعمارته بسوق الخيل وكان قد اشتهر أنه وقف عليه القيسارية التي كان أنشأها ظاهر باب الفرج والحمامين المتجاورين ظاهر باب الجابية غربي خان السلطان العتيق وحُصَصاً في قرايا

أخرى كان قد استشهد على نفسه بذلك قبل ذلك فالله أعلم ثم طلب بقية أصحابه من حماة فحملوا إلى الديار المصرية وعدم خبرهم فلا يدرى على أي صفة هلكوا.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة دخل الأمير سيف الدين أرغون شاه دمشق المحروسة نائبا عليها وكان قدومه من حلب انفصل عنها وتوجه إليها الأمير فخر الدين إياس الحاجب فدخلها أرغون شاه في أبهة النيابة وعليه خلعة وعمامة بطرفين وهو قريب الشكل من تنكز رحمه الله فنزل دار السعادة وحكم بها وفيه صرامة وشهامة.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين منه صلي على الأمير

■ علاء الدين بن قراسنقر بالجامع الأموي وظاهر باب النصر وحضر القضاة والأعيان والأمراء ودفن بتربته بميدان الحصا بالقرب من جامع الكريمي.

وعملت ليلة النصف على العادة من إشعال القناديل ولم يشتغل الناس لما هم فيه من الغلاء وتأخر المطر وقلة الغلة وغلاء السعر كل رطل إلا أوقية بدرهم وهو متغير وسائر الأشياء غالية والزيت كل رطل بأربعة ونصف ومثله الشيرج والصابون والأرز والعنبريس كل رطل بثلاثة وسائر الأطعمات على هذا النحو وليس شيء قريب الحال سوى اللحم بدرهمين وربع ونحو ذلك وغالب أهل حوران يردون من الأماكن البعيدة ويجلبون القمح للمؤنة والبذار من دمشق ويبع عندهم القمح المغربل كل مد بأربعة دراهم وهم في جهد شديد والله هو المأمول المسؤول وإذا سافر أحد يشق عليه تحصيل الماء لنفسه ولفرسه ودابته لأن المياه التي في الدرب كلها نفذت وأما القدس فأشد حالا وأبلغ في ذلك.

ولما كان العشر الأخير من شعبان من هذه السنة مَنَّ الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على عباده بإرسال الغيث المتدارك الذي أحيى العباد والبلاد وتراجع الناس إلى أوطانهم لوجود الماء في الأودية والغدران وامتلأت بركة زرع بعد أن لم يكن فيها قطرة وجاءت بذلك البشائر إلى نائب السلطنة وذكر أن الماء عم البلاد كلها وأن الثلج على جبل بني هلال كثير وأما الجبال التي حول دمشق فعليها ثلوج كثيرة جداً واطمأنت القلوب وحصل فرح شديد ولله الحمد والمنة وذلك في آخر يوم بقي من تشرين الثاني.

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من رمضان توفي الشيخ

■ عز الدين محمد الحنبلي بالصالحية وهو خطيب الجامع المظفري وكان من الصالحين المشهورين رحمه الله وكان كثيراً ما يلقن الأموات بعد دفنهم فلقنه الله حجته وثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

مقتل المظفر وتولية الناصر حسن بن الناصر

وفي العشر الأخير من رمضان جاء البريد من نائب غزة إلى نائب دمشق بقتل السلطان الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد وقع بينه وبين الأمراء فتحيزوا عنه إلى قبة النسر فخرج إليهم في طائفة قليلة فقتل في الحال وسحب إلى مقبرة هناك ويقال: إنه قطع قطعا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما كان يوم الجمعة آخر النهار ورد من الديار المصرية أمير للبيعة لأخيه السلطان الناصر حسن ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون فدقت البشائر في القلعة المنصورة وزين البلد في الساعة الراهنة من أمكن من الناس وما أصبح صباح يوم السبت حتى زين البلد بكماله ولله الحمد على انتظام الكلمة واجتماع الألفة.

وفي يوم الثلاثاء العشرين من شوال قدم الأمير فخر الدين إياس نائب حلب محتاطا عليه فاجتمع بالنائب في دار السعادة ثم أدخل القلعة مضيقا عليه ويقال: إنه قد فوض أمره إلى نائب دمشق فمهما فعل فيه فقد أمضي له فأقام بالقلعة المنصورة نحوا من جمعة ثم أركب على البريد ليسار به إلى الديار المصرية فلم يدر ما فعل به.

وفي ليلة الاثنين ثالث شهر ذي القعدة توفي الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين شمس الدين أبو عبد الله

■ محمد بن عثمان الذهبي بتربة أم الصالح وصلي عليه يوم الاثنين صلاة الظهر في جامع دمشق ودفن بباب الصغير وقدم ختم به شيوخ الحديث وحفاظه رحمه الله.

وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة حضرت تربة أم الصالح رحم الله واقفها عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبي وحضر جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة وكان درسا مشهودا ولله الحمد والمنة أوردت فيه حديث أحمد عن الشافعي عن مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّما نَسَمَةُ المؤمن طَائِر يَعْلَقُ في شجر الجنة حتى يُرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يَبعثه» [أحمد: ٣/٤٥٥].

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره أمر نائب السلطنة بجماعة انتهبوا شيئا من الباعة فقطعوا أيدي أحد عشر منهم وسمر عشرة تسميرا تعزيراً وتأديبا انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية الملك الناصر ناصر الدين حسن ابن الناصر بن المنصور ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين بيبغا ووزيره منجك وقضاته عز الدين بن جماعة الشافعي وتقي الدين الأخنائي المالكي وعلاء الدين بن التركماني الحنفي وموفق الدين المقدسي الحنبلي وكاتب سره القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله العمري ونائب الشام المحروس بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري وحاجب الحجاب الأمير طيردمر الإسماعيلي.

والقضاة بدمشق قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي وقاضي القضاة نجم الدين الحنفي وقاضي القضاة جلال الدين المسلاتي المالكي وقاضي القضاة علاء الدين بن منجا الحنبلي.

وكاتب سره القاضي ناصر الدين الحلبي الشافعي وهو قاضي العساكر بحلب ومدرس الأسدية بها أيضا مع إقامته بدمشق المحروسة.

وتواترت الأخبار بوقوع الوباء في أطراف البلاد فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير ثم ذكر أنه انتقل إلى بلاد الفرنج حتى قيل إن أهل قبرص مات أكثرهم أو يقارب ذلك.

وكذا وقع بغزة أمر عظيم وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفا وقرئ البخاري في رُبعة يوم الجمعة بعد الصلاة سابع ربيع الأول في هذه السنة وحضر القضاة وجماعة من الناس وقرأت بعد ذلك المقرئون

ودعا الناس برفع الوباء عن البلاد.

وذلك أن الناس لما بلغهم من حلول هذا المرض في السواحل وغيرها من أرجاء البلاد يتوهمون ويخافون وقوعه بمدينة دمشق حماها الله وسلمها مع أنه قد مات جماعة من أهلها بهذا الداء.

وفي صبيحة يوم الأحد تاسعه اجتمع الناس بمحراب الصحابة وقرؤوا متوزعين سورة نوح ثلاثة آلاف مرة وثلاثمائة وثلاثة وستين مرة عن رؤيا رجل أنه رأى رسول الله ﷺ أرشده إلى قراءة ذلك كذلك.

وفي هذا الشهر أيضاً كثر الموت في الناس بأمراض الطواعين وزاد الأموات كل يوم على المائة فإنا لله وإنا إليه راجعون وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم ولكنه بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل.

وقد توفي في هذه الأيام من هذا الشهر خلق كثير وجم غفير ولا سيما من النساء فإن الموت فيهن أكثر من الرجال بكثير كثير وشرع الخطيب في القنوت في سائر الصلوات والدعاء برفع الوباء من المغرب ليلة الجمعة سادس شهر ربيع الآخر من هذه السنة وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع وإنابة وكثرت الأموات في هذا الشهر جدا وزادوا على المائتين في كل يوم فإنا لله وإنا إليه راجعون وتضاعف عدد الموتى منهم وتعطلت مصالح الناس وتأخرت الموتى عن إخراجهم وزاد ضمان الموتى جدا فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك فإنه يؤخذ على الميت شيء كثير جدا فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين ونودي بإبطال ذلك في يوم الاثنين سادس عشر ربيع الآخر ووقع نعوش كثيرة في أرجاء البلد واتسع الناس بذلك ولكن كثرت الموتى فالله المستعان.

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين منه نودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان.

فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق إلى الصحراء واليهود والنصارى والسامرة والشيوخ والعجائز والصبيان والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جدا وكان يوما مشهودا.

وفي يوم الخميس عاشر جمادى الأولى صلى الخطيب بعد صلاة الظهر على ستة عشر ميتا جملة واحدة فتهول الناس من ذلك وانذعروا وكان الموت يومئذ كثيرا ربما يقارب الثلاثمائة بالبلد وحواضره، فإنا لله وإنا إليه راجعون وصلي بعد الصلاة على خمسة عشر ميتا بجامع دمشق وصلي بجامع الخيل على إحدى عشرة نفسا رحمهم الله.

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه رسم نائب السلطنة بقتل الكلاب من البلد وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد وربما ضرت الناس وقطعت عليهم الطرقات في أثناء الليل أما تنجيسها الأماكن فكثير قد عم الابتلاء به وشق الاحتراز منه وقد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في قتلهم واختلاف الأئمة في نسخ ذلك وقد كان عمر رضي الله عنه يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب ونص مالك في رواية ابن وهب على جواز قتل كلاب بلدة بعينها إذا أذن الإمام في ذلك للمصلحة.

■ (عبد الرحمن بن المزّي).

وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين منه توفي زين الدين عبد الرحمن ابن شيخنا الحافظ المزي بدار الحديث النورية وهو شيخها ودفن بمقابر الصوفية عند والده رحمهما الله تعالى.

وفي منتصف شهر جمادى الآخرة قوي الموت وتزايد وبالله المستعان ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته وبالله المستعان وكان يصلى في أكثر الأيام في الجامع على أزيد من مائة ميت فإنا لله وإنا إليه راجعون وبعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع وأما حول البلد وأرجائها فلا يعلم عدد من يموت بها إلا الله عز وجل رحمهم الله آمين.

وفي يوم الاثنين السابع والعشرين منه توفي الصدر شمس الدين

■ ابن الصباب التاجر السفار باني المدرسة الصبابية التي هي دار قرآن بالقرب من الظاهرية وهي قبلي العادلية الكبيرة وكانت هذه البقعة برهة من الزمان خربة شنيعة فعمرها هذا الرجل وجعلها دار قرآن ودار حديث للحنابلة ووقف هو وغيره عليها أوقافا جيدة رحمه الله تعالى.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر رجب صلي بعد الجمعة بالجامع الأموي على غائب: وهو القاضي علاء الدين

■ ابن قاضي شهبة ثم صلي على إحدى وأربعين نفسا جملة واحدة فلم يتسع داخل الجامع لصفهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السر وخرج الخطيب والنقيب فصلى عليهم كلهم هناك وكان وقتا مشهودا وعبرة عظيمة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

■ (أفريدون).

وفي هذا اليوم توفي التاجر المسمى بأفريدون الذي بنى المدرسة التي بظاهر باب الجابية تجاه تربة بهادرآص حائطها من حجارة ملونة وجعلها داراً للقرآن العظيم ووقف عليها أوقافا جيدة وكان مشهورا مشكورا رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي يوم السبت ثالث رجب صلي على الشيخ

■ علي المغربي أحد أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون ودفن بالسفح رحمه الله وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية ولم يكن له مال بل كان يأتي بشيء من الفتوح يستنفقه قليلا قليلا وكان يعاني التصوف وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الأربعاء سابع رجب صلي على القاضي

■ زين الدين بن النجيح نائب القاضي الحنبلي بالجامع المظفري ودفن بسفح قاسيون وكان مشكورا في القضاء لديه فضائل كثيرة وديانة وعبادة وكان من أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية وكان قد وقع بينه وبين القاضي الشافعي مشاجرات بسبب أمور ثم اصطلحا فيما بعد ذلك.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره بعد آذان الظهر حصل بدمشق وما حولها ريح شديدة أثارت غبارا شديدا اصفر الجو منه ثم اسود حتى أظلمت الدنيا وبقي الناس في ذلك نحوا من ربع ساعة يجأرون إلى الله عز وجل ويستغفرون ويبكون مع ما هم فيه من شدة الموت الذريع ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ما هم فيه من الطاعون فلم يزدد الأمر إلا شدة وبالله المستعان وبلغ المصلى عليهم في الجامع الأموي إلى نحو المائة وخمسين وأكثر من ذلك خارجاً عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة.

وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير يقال إنه بلغ ألفا في كثير من

الأيام فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وصلي بعد الظهر من هذا اليوم بالجامع المظفري على الشيخ

■ إبراهيم بن المحب الذي كان يحدث في الجامع الأموي وجامع تنكز وكان مجلسه كثير الجمع لصلاحه وحسن ما كان يؤديه من المواعيد النافعة ودفن بسفح قاسيون وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

وعملت المواعيد بالجامع الأموي ليلة سبع وعشرين من رجب يقولون ليلة المعراج ولم يجتمع الناس فيه على العادة لكثرة من مات منهم ولشغل كثير من الناس بمرضاهم وموتاهم.

واتفق في هذه الليلة أنه تأخر جماعة من الناس في الخيم ظاهر البلد فجاؤوا ليدخلوا من باب النصر على عادتهم في ذلك فكأنه اجتمع خلق منهم بين البابين فهلك كثير منهم كنحو ما يهلك الناس في هذا الحين على الجنائز فانزعج نائب السلطنة فخرج فوجدهم فأمر بجمعهم فلما أصبح الناس أمر بتسميرهم ثم عفا عنهم وضرب متولي البلد ضربا شديداً وسمر نائبه في الليل وسمر البواب بباب النصر وأمر أن لا يمشي أحد بعد عشاء الآخرة ثم سمح لهم في ذلك.

واستهل شهر شعبان والفناء في الناس كثير جداً وربما أنتنت البلد فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وتوفي الشيخ

■ شمس الدين بن الصلاح مدرس القيمرية الكبيرة بالمطرزيين يوم الخميس ثالث عشر شعبان.

وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان صلي بعد الصلاة على جماعة كثيرة منهم القاضي عماد الدين

■ ابن الشيرازي محتسب البلد وكان من أكابر رؤساء دمشق، وولي نظر الجامع مدة وفي بعض الأوقات نظر الأوقاف وجمع له في وقت بينهما ودفن بسفح قاسيون.

وفي العشر الأخير من شهر شوال توفي الأمير سيف الدين

■ قرابغا دويدار النائب بداره غربي حكر السماق وقد أنشأ له إلى جانبها تربة ومسجداً وهو الذي أنشأ السويقة المجددة عند داره وعمل لها بابين شرقياً وغربياً وضمنت بقيمة كثيرة بسبب جاهه ثم بارت وهجرت لقلة الحاجة إليها وحضر الأمراء والقضاة والأكابر جنازته ودفن بتربته هناك وترك أموالا جزيلة وحواصل كثيرة جداً أخذه مخدومه نائب السلطنة.

■ (عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحمن القزويني).

وفي يوم الثلاثاء سابع شهر ذي القعدة توفي خطيب الجامع الخطيب تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني بدار الخطابة مرض يومين وأصابه ما أصاب الناس من الطاعون وكذلك عامة أهل بيته من جواريه وأولاده.

وتبعه أخوه بعد يومين صدر الدين عبد الكريم.

وصلي على الخطيب

■ تاج الدين بعد الظهر يومئذ عند باب الخطابة ودفن بتربتهم بالصوفية عند أبيه وأخويه بدر الدين محمد وجمال الدين عبد الله رحمهم الله.

وفي يوم الخميس تاسعه اجتمع القضاة وكثير من الفقهاء المفتين عند نائب السلطنة بسبب الخطابة فطلب إلى المجلس الشيخ جمال الدين بن محمود بن جملة فولاه إياها نائب السلطنة وانتزعت من يده وظائف كان يباشرها ففرقت على الناس فولي القاضي بهاء الدين أبو البقاء تدريس الظاهرية البرانية وتوزع الناس بقية جهاته ولم يبق بيده سوى الخطابة وصلى بالناس يومئذ الظهر ثم خلع عليه في بكرة نهار الجمعة وصلى بالناس يومئذ وخطبهم على قاعدة الخطباء.

وفي يوم عرفة وكان يوم السبت توفي القاضي شهاب الدين

■ ابن فضل الله كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية والبلاد الشامية ثم عزل عن ذلك ومات وليس يباشر شيئا من ذلك من رياسة وسعادة وأموال جزيلة وأملاك ومرتبات كثيرة وعمر داراً هائلة بسفح قاسيون بالقرب من الركنية شرقيها ليس بالسفح مثلها وقد انتهت إليه رياسة الإنشاء وكان يشبه بالقاضي الفاضل في زمانه وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة.

وكان حسن المذاكرة سريع الاستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق يحب العلماء والفقراء ولم يجاوز الخمسين توفي بدارهم داخل باب الفراديس وصلي عليه بالجامع الأموي ودفن بالسفح مع أبيه وأخيه بالقرب من اليغمورية سامحه الله وغفر له.

وفي هذا اليوم توفي الشيخ أبو عبد الله

■ ابن رشيق المغربي كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية كان أبصر بخط الشيخ منه إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا وكان سريع الكتابة لا بأس به دينا عابداً كثير التلاوة حسن الصلاة له عيال وعليه ديون رحمه الله وغفر له آمين.

ثم دخلت سنة خمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك من البلاد الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون.

ونائب الديار المصرية ومدبّر ممالكه والأتابك سيف الدين بيبغا وقضاة الديار المصرية هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب الشام الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري.

وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها وكذلك أرباب الوظائف سوى الخطيب وسوى المحتسب.

وفي هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جدا ونزل ديوان المواريث إلى العشرين وما حولها بعد أن بلغ الخمسمائة في أثناء سنة تسع وأربعين ثم تقدم ولكن لم يرتفع بالكلية.

فإن في يوم الأربعاء رابع شهر الله المحرم توفي الفقيه شهاب الدين

■ أحمد بن الثقة هو وابنه وأخوه في ساعة واحدة بهذا المرض وصلي عليهم جميعا ودفنوا في قبر واحد رحمهم الله تعالى.

وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم توفي صاحبنا الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الناسك الخاشع ناصر الدين

■ محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن الصائغ الشافعي مدرس العمادية كان رحمه الله لديه فضائل كثيرة على طريقة السلف الصالح وفيه عبادة كثيرة وتلاوة وقيام ليل وسكون حسن وخلق حسن جاوز الأربعين بنحو من ثلاث سنين رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي يوم الأربعاء ثالث صفر باشر تقي الدين بن رافع المحدث مشيخة دار الحديث النورية وحضر عنده جماعة من الفضلاء والقضاة والأعيان انتهى والله تعالى أعلم.

مسك نائب السلطنة أرغون شاه

وفي ليلة الخميس الثالث والعشرين من ربيع الأول مسك نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه وكان قد انتقل إلى القصر الأبلق بأهله فما شعر بوسط الليل إلا ونائب طرابلس الأمير سيف الدين الجي بغا المظفري الناصري ركب إليه في طائفة من الأمراء الألوف وغيرهم فأحاطوا به ودخل عليه من دخل وهو مع جواريه نائم فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه ورسموا عليه وأصبح الناس أكثرهم لا يشعر بشيء مما وقع فتحدث الناس بذلك واجتمعت الأتراك إلى الأمير سيف الدين الجي بغا المذكور ونزل بظاهر البلد واحتيط على حواصل أرغون شاه فبات عزيزاً وأصبح ذليلا وأمسى علينا نائب السلطنة فأصبح وقد أحاط به الفقر والمسكنة فسبحان من بيده الأمر مالك الملك يُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَيَنْزِعُ المُلْكَ ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل مَنْ تَشَاءُ وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وهُمْ نَائِمُونَ. أوَ أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيَهم بَأْسُنَا ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلا القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٧- ٩٩] ثم لما كان ليلة الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول أصبح مذبوحاً فاثبت محضر بأنه ذبح نفسه فالله تعالى أعلم.

كائنة عجيبة غريبة جداً

ثم لما كان يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة وقع اختلاف بين جيش دمشق وبين الأمير سيف الدين الجي بغا نائب طرابلس الذي جاء فأمسك نائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري ليلة الخميس وقتله ليلة الجمعة كما تقدم وأقام بالميدان الأخضر يستخلص أمواله وحواصله ويجمعها عنده فأنكر عليه الأمراء الكبار وأمروه أن يحمل الأموال إلى قلعة السلطان فلم يقبل منهم فاتهموه في أمره وشكوا في الكتاب الذي على يده من الأمر بمسكه وقتله وركبوا ملبسين تحت القلعة وأبواب الميادين وركب هو في أصحابه وهم في دون المائة وقائل يقول هم ما بين السبعين إلى الثمانين والتسعين. جعلوا يحملون على الجيش حمل المستقبلين إنما يدافعهم مدافعة المتبرمين وليس معهم مرسوم بقتلهم ولا قتالهم فلهذا ولّى أكثرهم منهزمين فخرج جماعة من الجيش حتى بعض الأمراء المقدمين وهو الأمير الكبير سيف الدين الجي بغا العادلي فقطعت يده اليمنى وقد قارب التسعين وقتل آخرون من أجناد الحلقة والمستخدمين ثم انفصل الحال على أن أخذ الجي بغا المظفري من خيول أرغون شاه المرتبطة في اسطبله ما أراد ثم انصرف من ناحية المزة صاعداً على عقبتها ومعه الأموال التي جمعها من حواصل أرغون شاه واستمر ذاهباً ولم يتبعه أحد من الجيش وصحبته الأمير فخر الدين إياس الذي كان حاجباً وناب في حلب في العام الماضي فذهبا بمن معهما إلى طرابلس وكتب أمراء الشام إلى السلطان يعلمونه بصورة ما وقع فجاء البريد بأنه ليس عند السلطان علم بما وقع بالكلية وأن الكتاب الذي جاء على يديه مفتعل وجاء الأمر لأربعة آلاف من الجيش الشامي أن يسيروا وراءه ليمسكوه ثم أضيف نائب صفد مقدماً على الجميع فخرجوا في العشر الأول من ربيع الآخر.

وفي يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر خرجت العساكر في طلب سيف الدين الجي بغا الذي فعل الأفاعيل وخرج من دمشق بالمالي بعدما قتل نائب سلطنتها وجماعة من أهلها، وجرح خلقاً من أجنادها، وقطعت يد الأمير سيف الدين الجيبغا العادلي في المعركة وهو أحد أمراء الألوف المقدمين.

ولما كانت ليلة الخميس سابعه نودي بالبلد على من يقر بها من الأجناد أن لا يتأخر أحد عن الخروج بالغد فأصبحوا في سرعة عظيمة واستنيب في البلد نيابة عن النائب الراتب الأمير بدر الدين بن الخطير فحكم بدار السعادة على عادة النواب.

وفي ليلة السبت بين العشاءين سادس عشره دخل الجيش الذين خرجوا في طلب الجي بغا المظفري وهو معهم أسير ذليل حقير وكذلك الفخر أياس الحاجب مأسور معهم فأودعا في القلعة مهانين من جسر باب النصر الذي تجاه دار السعادة وذلك بحضور الأمير بدر الدين الخطير في دار السعادة وهو نائب الغيبة ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة.

فلما كان يوم الاثنين الثامن عشر منه خرجا من القلعة إلى سوق الخيل فوسطا بحضرة الجيش وعلقت جثتيهما على الخشب ليراهما الناس فمكثا أياما ثم أنزلا فدفنا بمقابر المسلمين.

وفي أوائل شهر جمادى الآخرة جاء الخبر بموت نائب حلب سيف الدين

■ قُطليشا ففرح كثير من الناس بموته وذلك لسوء أعماله في مدينة حماة في زمن الطاعون وذكر أنه كان يحتاط على التركة وإن كان فيها ولد ذكر أو غيره ويأخذ من أموال الناس جهرة حتى حصل له منها شيء كثير ثم نقل إلى حلب بعد نائبها الأمير سيف الدين أرقطاي الذي كان عين لنيابة دمشق بعد موت أرغون شاه وخرج الناس لتلقيه فما هو إلا أن برز منزلة واحدة من حلب فمات بتلك المنزلة فلما صار قطليشا إلى حلب لم يقم بها إلا يسيراً حتى مات ولم ينتفع بتلك الأموال التي جمعها لا في دنياه ولا في أخراه.

ولما كان يوم الخميس الحادي عشر من جمادى الآخرة دخل الأمير سيف الدين أيتمش الناصري من الديار المصرية إلى دمشق نائبا عليها وبين يديه الجيش على العادة فقبل العتبة ولبس الحياصة والسيف وأعطي تقليده ومنشوره هنالك ثم وقف في الموكب على عادة النواب ورجع إلى دار السعادة وحكم وفرح الناس به وهو حسن الشكل تام الخلقة وكان الشام بلا نائب مستقل قريبا من شهرين ونصف وفي يوم دخوله حبس أربعة أمراء من الطبلخاناه وهم القاسمي وأولاد الأبوبكري الثلاثة اعتقلهم في القلعة لممالأتهم الجي بغا المظفري على أرغون شاه نائب الشام.

وفي يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة حكم القاضي نجم الدين ابن القاضي عماد الدين الطرسوسي الحنفي وذلك بتوقيع سلطاني وخلعة من الديار المصرية.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي وبين الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب في بستان قاضي القضاة وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق.

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين منه نقلت جثة الأمير سيف الدين أرغون شاه من مقابر الصوفية إلى تربته التي أنشأها تحت الطارمة وشرع في تكميل التربة والمسجد الذي قبلها وذلك أنه عاجلته المنية على يد الجي بغا المظفري قبل إتمامهما وحين قتلوه ذبحاً ودفنوه ليلا في مقابر الصوفية قريبا من قبر الشيخ تقي الدين بن الصلاح ثم حول إلى تربته في الليلة المذكورة.

وفي يوم السبت تاسع عشر رجب أذن المؤذنون للفجر قبل الوقت بقريب من ساعة فصلى الناس في الجامع الأموي على عادتهم في ترتيب الأئمة ثم رأوا الوقت باقيا فأعاد الخطيب الفجر بعد صلاة الأئمة كلهم وأقيمت الصلاة ثانيا وهذا شيء لم يتفق مثله.

وفي يوم الخميس ثامن شهر شعبان توفي قاضي القضاة علاء الدين

■ ابن منجا الحنبلي بالمسمارية وصلي عليه الظهر بالجامع الأموي ثم بظاهر باب النصر ودفن بسفح قاسيون رحمه الله.

وفي يوم الاثنين رمضان بكرة النهار استدعي الشيخ جمال الدين المرداوي من الصالحية إلى دار السعادة وكان تقليد القضاء لمذهبه قد وصل إليه قبل ذلك بأيام فأحضرت الخلعة بين يدي النائب والقضاة الباقين وأريد على لبسها وقبول الولاية فامتنع من ذلك فألحوا عليه فصمم وبالغ في الامتناع جداً وخرج وهو مغضب فراح إلى الصالحية فبالغ الناس في تعظيمه وبقي القضاة يوم ذلك في دار السعادة ثم بعثوا إليه بعد الظهر فحضر من الصالحية فلم يزالوا به حتى قبل ولبس الخلعة وخرج إلى الجامع فقرئ تقليده بعد العصر واجتمع معه القضاة وهنأه الناس وفرحوا به لديانته وصيانته وفضيلته وأمانته.

وبعد هذا اليوم بأيام حكم الفقيه شمس الدين محمد بن مفلح الحنبلي نيابة عن قاضي القضاة جمال الدين المرداوي المقدسي وابن مفلح زوج ابنته.

وفي العشر الأخير من ذي القعدة حضر الفقيه الإمام المحدث المفيد أمين الدين الإيجي المالكي مشيخة دار الحديث بالمدرسة الناصرية الجوانية نزل له عنها الصدر أمين بن القلانسي وكيل بيت المال وحضر عنده الأكابر والأعيان.

وفي أواخر هذه السنة تكامل بناء التربة التي تحت الطارمة المنسوبة إلى الأمير سيف الدين أرغون شاه الذي كان نائب السلطنة بدمشق وكذلك القبلي منها وصلى فيها الناس وكان قبل ذلك مسجدا صغيرا فعمره وكبره وجاء كأنه جامع تقبل الله منه انتهى.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وسبعمائة

استهلت وسلطان الشام ومصر الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ونائبه بمصر الأمير سيف الدين بيبغا وأخوه سيف الدين منجك الوزير والمشاورون جماعة من المقدمين بديار مصر وقضاة مصر وكاتب السر هم الذين كانوا في أول السنة الماضية ونائب الشام الأمير سيف الدين أيتمش الناصري والقضاة هم القضاة سوى الحنبلي فإنه الشيخ جمال الدين يوسف المرداوي وكاتب السر وشيخ الشيوخ تاج الدين وكاتب الدست هم المتقدمون وأضيف إليهم شرف الدين عبد الوهاب ابن القاضي علاء الدين بن شمرنوخ والمحتسب القاضي عماد الدين بن الفرفور وشاد الأوقاف الشريف وناظر الجامع فخر الدين بن العفيف وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة رحمه الله.

وفي يوم السبت عاشر المحرم نودي بالبلد من جهة نائب السلطان عن كتاب جاءه من الديار المصرية أن لا تلبس النساء الأكمام الطوال العراض ولا البرد الحرير ولا شيئا من اللباسات والثياب الثمينة. ولا الأقمشة القصار وبلغنا أنهم بالديار المصرية شددوا في ذلك جدا حتى قيل إنهم غرقوا بعض النساء بسبب ذلك فالله أعلم.

وجددت وأكملت في أول هذه السنة دار قرآن قبلي تربة امرأة تنكز بمحلة باب الخواصين حولها وكانت صورة مدرسة الطواشي صفي الدين عنبر مولى ابن حمزة وهو أحد الكبار الأجواد تقبل الله منه.

وفي يوم الأحد خامس شهر جمادى الأولى فتحت المدرسة الطيبانية التي كانت دارا للأمير سيف الدين طيبان بالقرب من الشامية الجوانية بينها وبين أم الصالح اشتريت من ثلثه الذي وصى به وفتحت مدرسة وحول لها شباك إلى الطريق في صُفّتها القبلية منها وحضر الدرس بها هذا اليوم الشيخ عماد الدين بن شرف الدين ابن عم الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بوصية الواقف له بذلك وحضر عنده قاضي القضاة السبكي والمالكي وجماعة من الأعيان وأخذ في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٥].

واتفق في ليلة الأحد السادس والعشرين من جمادى الأولى أنه لم يحضر أحد من المؤذنين على السدة في جامع دمشق وقت إقامة الصلاة للمغرب سوى مؤذن واحد فانتظر من يقيم معه الصلاة فلم يجئ أحد غيره بمقدار درجة أو أزيد منها فأقام هو الصلاة وحده فلما أحرم الإمام بالصلاة تلاحق المؤذنون في أثناء الصلاة حتى بلغوا دون العشرة وهذا أمر غريب من عدة ثلاثين مؤذن أو أكثر لم يحضر سوى مؤذن واحد وقد أخبر خلق من المشايخ أنهم لم يروا نظير هذه الكائنة.

وفي يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة اجتمع القضاة بمشهد عثمان وكان الفاضل الحنبلي قد حكم في دار المعتمد الملاصقة لمدرسة الشيخ أبي عمر بنقضها وكانت وقفا لتضاف إلى دار القرآن ووقف عليها أوقاف للفقراء فمنعه الشافعي من ذلك من أجل أنه يؤول أمرها أن تكون دار حديث ثم فتحوا بابا آخر وقالوا: هذه الدار لم يستهدم جميعها وما صادف الحكم محلا لأن مذهب الإمام أحمد أن الوقف يباع إذا استهدم بالكلية ولم يبق ما ينتفع به فحكم القاضي الحنفي بإثباتها وقفا كما كانت ونفذه الشافعي والمالكي وانفصل الحال على ذلك وجرت أمور طويلة وأشياء عجيبة.

وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة أصبح بواب المدرسة المستجدة التي يقال لها الطيبانية إلى جانب أم الصالح مقتولا مذبوحا وقد أخذت من عنده أموال من المدرسة المذكورة ولم يطلع على فاعل ذلك وكان البواب رجلا صالحا مشكوراً رحمه الله.

ترجمة الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية

وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين

■ محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيمها وصلي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله.

ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة وسمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين.

ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهاراً وكثرة الصلاة والابتهال.

وكان حسن القراءة والخُلق كثير التودد لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه اللّه.

وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير وكتب بخطه الحسن شيئا كثيراً واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف.

وبالجملة كان قليل النظير بل عديم النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة سامحه اللّه ورحمه.

وقد كان متصديا للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين بن تيمية وجرت له بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره.

وقد كانت جنازته حافلة رحمه اللّه شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه وكمل له من العمر ستون سنة رحمه اللّه.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر شعبان ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد اللّه ابن الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية عوضا عن أبيه رحمه اللّه فأفاد وأجاد وسرد طرفا صالحا في فضل العلم وأهله.

ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها ولم يقع من نحو مائتي سنة وأكثر أنه بطل الوقيد بجامع دمشق في ليلة النصف من شعبان فلم يزد في وقيده قنديل واحد، على عادة لياليه في سائر السنة وللّه الحمد والمنة وفرح أهل العلم بذلك وأهل الديانة وشكروا اللّه تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنيعة التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد ولا سيّما بالجامع الأموي وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلد اللّه ملكه وشيد أركانه.

وكان الساعي لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبي بيض اللّه وجهه وقد كان مقيما في هذا الحين بالديار المصرية وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقي الدين بن تيمية والشيخ كمال الدين بن الزملكاني وغيرهما في إبطال هذه البدعة فأنفذ اللّه ذلك وللّه الحمد والمنة.

وقد كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة خمسين وأربعمائة وإلى زماننا هذا وكم سعى فيها من فقيه وقاض ومفت وعالم وعابد وأمير وزاهد ونائب سلطنة وغيرهم ولم ييسر اللّه ذلك إلا في عامنا هذا والمسؤول من اللّه تعالى إطالة عمر هذا السلطان ليعلم الجهلة الذين استقر في أذهانهم من أنه إذا أبطل هذا الوقيد في عام يموت سلطان الوقت وكان هذا لا حقيقة له ولا دليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال.

وفي مستهل شهر رمضان اتفق أمر غريب لم يتفق مثله من مدة متطاولة فيما يتعلق بالفقهاء والمدارس وهو أنه كان قد توفي ابن الناصح الحنبلي بالصالحية وكان بيده نصف تدريس الضاحية التي للحنابلة بالصالحية والنصف الآخر للشيخ شرف الدين ابن القاضي شرف الدين الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق فاستنجز مرسوماً بالنصف الآخر وكانت بيده ولاية متقدمة من القاضي علاء الدين بن المنجا الحنبلي فعارضه في ذلك قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الحنبلي وولى فيها نائبه شمس الدين بن مفلح ودرس بها قاضي القضاة في صدر هذا اليوم فدخل القضاة الثلاثة الباقون ومعهم الشيخ شرف الدين المذكور إلى نائب السلطنة وأنهوا إليه صورة الحال فرسم له بالتدريس فركب القضاة المذكورون وبعض الحجاب في خدمته إلى المدرسة المذكورة واجتمع الفضلاء والأعيان ودرس الشيخ شرف الدين المذكور وبث فضائل كثيرة وفرح الناس.

وفي شوال كان في جملة من توجه إلى الحج في هذا العام نائب الديار المصرية ومدبر ممالكها الأمير سيف الدين بيبغا الناصري ومعه جماعة من الأمراء فلما استقل الناس ذاهبين نهض جماعة من الأمراء على أخيه الأمير سيف الدين منجك وهو وزير المملكة وأستاذ دار الأستادارية وهو باب الحوائج في دولتهم وإليه يرحل ذوو الحاجات بالذهب والهدايا فأمسكوه وجاءت البَريدية إلى الشام في أواخر هذا الشهر بذلك وبعد أيام يسيرة وصل الأمير سيف الدين شيخون وهو من أكابر الدولة المصرية تحت الترسيم فأدخل إلى قلعة دمشق ثم أخذ منها بعد ليلة فذهب به إلى الإسكندرية فاللّه أعلم وجاء البريد بالاحتياط على ديوانه وديوان منجك بالشام وأيس من سلامتهما وكذلك وردت الأخبار بمسك بيبغا في أثناء الطريق وأرسل سيفه إلى السلطان وقدم أمير من الديار المصرية فحلف الأمراء بالطاعة إلى السلطان وأكد ذلك وسار إلى حلب فحلّف من بها من الأمراء ثم عاد إلى دمشق ثم عاد راجعاً إلى الديار المصرية وحصل له من الأموال شيء كثير من النواب والأمراء.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة مسك الأميران الكبيران الشاميان المقدمان شهاب الدين أحمد بن صبح وملك آص من دار السعادة بحضرة نائب السلطنة والأمراء ورفعا إلى القلعة المنصورة سير بهما ماشيين من دار السعادة إلى باب القلعة من ناحية دار الحديث وقيدا وسجنا بها.

وجاء الخبر بأن السلطان استوزر بالديار المصرية القاضي علم الدين بن زنبور وخلع عليه خلعة سنية لم يسمع بمثلها من أعصار متقادمة وباشر وخلع على الأمراء والمقدمين وكذلك خلع على الأمير سيف الدين طشبغا وأعيد إلى مباشرة الدويدارية بالديار المصرية وجعل مقدما.

وفي أوائل شهر ذي الحجة اشتهر أن نائب صفد شهاب الدين أحمد بن مشد الشربخاناه طلب إلى الديار المصرية فامتنع من إجابة الداعي ونقض العهد وحصن قلعتها وحصل فيها عدداً ومددا وادخر أشياء كثيرة بسبب الإقامة بها والامتناع فيها فجاءت البريدية إلى نائب دمشق بأن يركب هو وجميع جيش دمشق إليه فتجهز الجيش لذلك وتأهبوا ثم خرجت الأطلاب على راياتها فلما برز منها بعضٌ بدا لنائب السلطنة فردهم وكان له خبرة عظيمة ثم استقر الحال على تجريد أربعة مقدمين بأربعة آلاف إليه.

وفي يوم الخميس ثاني عشره وقعت كائنة غريبة بمِنى وذلك أنه اختلف الأمراء المصريون والشاميون مع صاحب اليمن الملك المجاهد فاقتتلوا قتالا شديدا قريباً من وادي محسر ثم انجلت الوقعة عن أسر صاحب اليمن الملك المجاهد فحمل مقيدا إلى مصر وكذلك جاءت بها كتب الحجاج وهم أخبروا بذلك.

واشتهر في أواخر ذي الحجة أن نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون شاه الكاملي قد خرج عنها بمماليكه وأصحابه فرام الجيش الحلبي رده فلم يستطيعوا ذلك وجرح منهم جراحات كثيرة وقتل جماعة فإنا للّه وإنا إليه راجعون واستمر ذاهبا وكان في أمله فيما ذكر أن يتلقى سيف الدين بيبغا في أثناء طريق الحجاز فيتقدم معه إلى دمشق وإن كان نائب دمشق قد اشتغل في حصار صفد أن يهجم عليها بغتة فيأخذها فلما سار بمن معه

وأخذته القطاع من كل جانب ونهبت حواصله وبقي تجريدة في نفر يسير من مماليكه فاجتاز بحماة ليهربه نائبها فأبى عليه فلما اجتاز بحمص وطن نفسه على المسير إلى السلطان بنفسه فقدم به نائب حمص وتلقاه بعض الحجاب وبعض مقدمين الألوف ودخل يوم الجمعة بعد الصلاة سابع عشرين الشهر وهو في أبهة فنزل بدار السعادة في بعض قاعات الدويدارية.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد الشامية والديار المصرية والحرمين الشريفين وما يلحق بذلك من الأقاليم والبلدان الملك الناصر حسن ابن السلطان الملك محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين بيبغا الملقب بحارس الطير وهو عوضا عن الأمير سيف الدين بيبغا أروس الذي راح إلى بلاد الحجاز ومعه جماعة من الأمراء بقصد الحج الشريف فعزله السلطان في غيبته وامسك على شيخون واعتقله وأخذ منجك الوزير وهو أستاذ دار ومقدم ألف واصطفى أمواله واعتاض عنه وولى مكانه في الوزارة القاضي علم الدين بن زينور واسترجع إلى وظيفة الدويدارية الأمير سيف الدين طشبغا الناصري وكان أميراً بالشام مقيما منذ عزل إلى أن أعيد في أواخر السنة كما تقدم وأما كاتب السر بمصر وقضاتها فهم المذكورون في التي قبلها.

واستهلت هذه السنة ونائب صفد قد حصن القلعة وأعد فيها عدتها وما ينبغي لها من الأطعمات والذخائر والعدد والرجال وقد نابذ المملكة وحارب وقد قصدته العساكر من كل جانب من الديار المصرية ودمشق وطرابلس وغيرها والأخبار قد ضمنت عن بيبغا ومن معه ببلاد الحجاز ما يكون من أمره ونائب دمشق في احتراز وخوف من أن يأتي إلى بلاد الشام فيدهمها بمن معه والقلوب وجلة من ذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها ورد الخبر أن صاحب اليمن حج في هذه السنة فوقع بينه وبين صاحب مكة عجلان بسبب أنه أراد أن يولي عليها أخاه ثقبة فاشتكى عجلان ذلك إلى أمراء المصريين وكبيرهم إذ ذاك الأمير سيف الدين طاز وأمير حجتهم وأمير حجيجهم الأمير سيف الدين بُزلار ومعهم طائفة كثيرة وقد أمسكوا أخاهم بيبغا وقيدوه فقوي رأسه عليهم واستخف بهم فصبروا حتى قضي الحج وفرغ الناس من المناسك.

فلما كان يوم النفر الأول يوم الخميس تواقفوا هم وهو فقتل من الفريقين خلق كثير والأكثر من اليمنيين وكانت الوقعة قريبة من وادي محسر وبقي الحجيج خائفين أن تكون الدائرة على الأتراك فتنهب الأعراب أموالهم وربما قتلوهم ففرج الله ونصر الأتراك على أهل اليمن، ولجأ الملك المجاهد إلى جبل فلم يعصمه من الأتراك بل أسروه ذليلا حقيرا وأخذوه مقيدا أسيرا وعاث عوام الناس إلى اليمنيين فنهبوا شيئا كثيرا ولم يتركوا لهم جليلا ولا حقيرا ولا قليلا ولا كثيرا واحتاط الأمراء على حواصل الملك وأمواله وأمتعته وأثقاله وساروا بخيله وجماله وأدنَوْا إلى صنديد من رحله ورجاله واستحضروا معهم طفيلا الذي كان حاصر المدينة النبوية في العام الماضي وقيدوه أيضاً وجعلوا الغل في عنقه واستاقوه كما يستاق الأسير في وثاقه مصحوبا بهمه وحتفه وانشمروا عن تلك البلاد إلى ديارهم راجعين وقد فعلوا فعلة تذكر بعدهم إلى حين.

ودخل الركب الشامي إلى دمشق يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم على العادة المستمرة والقاعدة المستقرة.

وفي هذا اليوم قدمت البريدية من تلقاء مدينة صفد مخبرة بأن الأمير شهاب الدين أحمد بن مشد الشُّرْبخاناه الذي كان قد تمرد بها وطغى وبغى حتى استحوذ عليها وقطع سبُلَها وقتل الفرسان والرجالة وملأها أطعمة وأسلحة ومماليكه ورجاله فعندما تحقق مسك بيبغا أروس خضعت تلك النفوس وخمدت ناره وسكن شراره وأخذ بناره ووضح قراره وأناب إلى التوبة والإقلاع ورغب إلى السلامة والإخلاص وخشع ولات حين مناص وأرسل سيفه إلى السلطان ثم توجه بنفسه على البريد إلى حضرة الملك الناصر والله المسؤول أن يُحنِّنه عليه وأن يقبل بقلبه إليه.

وفي يوم الأحد خامس شهر صفر قدم من الديار المصرية الأمير سيف الدين ارغون الكاملي معاداً إلى نيابة حلب وفي صحبته الأمير سيف الدين طشبغا الدوادار بالديار المصرية وهو زوج ابنة نائب الشام فتلقاه نائب الشام وأعيان الأمراء ونزل طشبغا الدوادار عند زوجته بدار منجّا في محلة مسجد القصب التي كانت تعرف بدار حنين بن حيدر وقد جددت في السنة الماضية وتوجها في الليلة الثانية من قدومهما إلى حلب.

وفي يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الأول اجتمع القضاة الثلاثة وطلبوا الحنبلي ليتكلموا معه فيما يتعلق بدار المعتمد التي بجوار مدرسة الشيخ أبي عمر التي حكم بنقض وقفها وهدم بابها وإضافتها إلى دار القرآن المذكورة وجاء مرسوم السلطان بوقف ذلك وكان القاضي الشافعي قد أراد منعه من ذلك فلما جاء مرسوم السلطان اجتمعوا لذلك فلم يحضر القاضي الحنبلي وقال: حتى يجيء نائب السلطنة.

ولما كان يوم الخميس خامس عشر ربيع الأول حضر القاضي حسين ولد قاضي القضاة تقي الدين السبكي عن أبيه مشيخة دار الحديث الأشرفية وقرئ عليه شيء كان قد خرجه له بعض المحدثين وشاع في البلد أنه نزل له عنها وتكلموا في ذلك زماناً كلاماً كثيراً وانتشر القول في ذلك وذكر بعضهم أنه نزل له عن الغزالية والعادلية واستخلفه في ذلك فالله أعلم.

وفي سحر ليلة الخميس خامس شهر جمادى الأولى وقع حريق عظيم في الحوانِيتِ في السوق الكبير واحترقت دكاكين الفواخرة والمناخلين وفرجة الغرابيل وإلى درب القلى ثم إلى قريب درب العميد وصارت تلك الناحية دكا بلقعا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء ناب السلطنة بعد الأذان إلى هناك ورسم بطفي النار وجاء المتولّي والقاضي الشافعي والحجاب وشرع الناس في طفي النار ولو تركوها لأحرقت شيئاً كثيراً ولم يفقد فيما بلغنا أحد من الناس ولكن هلك للناس شيء كثير من المتاع والأثاث والأملاك وغير ذلك واحترق للجامع من الرباع في هذا الحريق ما يساوي مائة ألف درهم انتهى والله أعلم.

كائنة غريبة جداً

وفي يوم الأحد خامس عشر جمادى الأولى استسلم القاضي الحنبلي جماعة من اليهود كان قد صدر منهم نوع استهزاء بالإسلام وأهله فإنهم حملوا رجلا منهم صفة ميت على نعش ويهللون كتهليل المسلمين أمام الميت ويقرؤون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤] فسمع بهم من بحارتهم من المسلمين فأخذوهم إلى ولّي الأمر نائب السلطنة فدفعهم إلى الحنبلي فاقتضى الحال استسلامهم فأسلم يومئذ منهم ثلاثة وتبع أحدهم ثلاثة أطفال وأسلم في

اليوم الثاني ثمانية آخرون فأخذهم المسلمون وطافوا بهم في الأسواق يهللون ويكبرون وأعطاهم أهل الأسواق شيئاً كثيراً وراحوا بهم إلى الجامع فصلوا ثم أخذوهم إلى دار السعادة فاستطلقوا لهم شيئا ورجعوا وهم في ضجيج وتهليل وتقديس وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة.

مملكة السلطان الملك الصالح: صلاح الدين صالح بن الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي

في العشر الأوسط من شهر رجب الفرد وردت البريدية من الديار المصرية بعزل السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون لاختلاف الأمراء عليه واجتماعهم على أخيه الملك الصالح صالح وأمه بنت ملك الأمراء تنكز الذي كان نائب الشام مدة طويلة وهو ابن اربع عشرة سنة وجاءت الأمراء للحلف فدقت البشائر وزين البلد على العادة.

وقيل إن الملك الناصر حسن خنق ورجعت الأمراء الذين كانوا بإسكندرية مثل شيخون ومنجك وغيرهما وأرسلوا إلى بيبغا فجيء به من الكرك وكان مسجونا بها من مرجعه من الحج فلما عاد إلى الديار المصرية شفع في صاحب اليمن الملك المجاهد الذي كان مسجونا في الكرك فأخرج وعاد إلى الديار المصرية.

وأما الأمراء الذين كانوا من ناحية السلطان حين مسك مغلطاي أمير آخور ومنكلي بغا الفخري وغيرهما فاحتيط عليهم وأرسلوا إلى الإسكندرية وخطب للملك الصالح بجامع دمشق يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب وحضر نائب السلطنة والأمراء والقضاة للدعاء له بالمقصورة على العادة.

وفي أثناء العشر الأخير من رجب عزل نائب السلطنة سيف الدين أيتمش عن دمشق مطلوبا إلى الديار المصرية فسار إليهم يوم الخميس.

وفي يوم الاثنين حادي عشر شعبان قدم الأمير سيف الدين ارغون الكاملي الذي كان نائبا على الديار الحلبية من هناك فدخل دمشق في هذا اليوم في أبهة عظيمة وخرج الأمراء والمقدمون وأرباب الوظائف لتلقيه إلى أثناء الطريق منهم من وصل إلى حلب وحماة وحمص وجرى في هذا اليوم عجائب لم تر من دهور واستبشر الناس به لصرامته وشهامته وحدته وما كان من لين الذي قبله ورخاوته فنزل دار السعادة على العادة.

وفي يوم السبت وقف في موكب هائل قيل: إنه لم ير مثله من مدة طويلة ولما سير إلى ناحية باب الفرج اشتكى إليه ثلاث نسوة على أمير كبير يقال له الطرخاني فأمر بإنزاله عن فرسه فأنزل وأوقف معهن في الحكومة.

واستمر بطلان الوقيد في الجامع الأموي في هذا العام أيضا كالذي قبله حسب مرسوم السلطان الناصر حسن رحمه الله ففرح أهل الخير بذلك فرحا شديدا وهذا شيء لم يعهد مثله من نحو ثلاثمائة سنة ولله الحمد والمنة.

ونودي في البلد في هذا اليوم والذي بعده عن النائب: من وجد جنديا سكرانا فلينزله عن فرسه وليأخذ ثيابه ومن أحضره من الجند إلى دار السعادة فله خبزه ففرح الناس بذلك واحتجر عن الخمارين والعصارين ورخصت الأعناب وجادت الأخباز واللحم بعد أن كان بلغ كل رطل أربعة ونصفاً فصار بدرهمين ونصف وأقل وأصلحت المعايش من هيبة النائب وصار له صيت حسن وذكر جميل في الناس بالعدل وجودة القصد وصحة الفهم وقوة العدل والإدراك.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شعبان وصل الأمير أحمد بن شاد الشربخاناه الذي كان قد عصى في صفد وكان من أمره ما كان فاعتقل بالإسكندرية ثم أخرج في هذه الدولة وأعطي نيابة حماة فدخل دمشق في هذا اليوم سائراً إلى حماة فركب مع النائب مع الموكب وسير عن يمينه ونزل في خدمته إلى دار السعادة وترجّل بين يديه.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين منه دخل الأمير سيف الدين بيبغا الذي كان نائبا بالديار المصرية ثم مسك بالحجاز وأودع الكرك ثم أخرج في هذه الدولة وأعطى نيابة حلب فتلقاه نائب السلطنة وأنزل دار السعادة حين أضيف ونزل وطاقه بوطأة برزة وضربت له خيمة بالميدان الأخضر.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون.

والخليفة الذي يدعى له المعتضد بأمر الله.

ونائب الديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي وقضاة مصرهم المذكورون في التي قبلها والوزير القاضي ابن زنبور وأولو الأمر الذين يدبرون المملكة فلا تصدر الأمور إلا عن آرائهم لصغر السلطان المذكور - جماعة من أعيانهم ثلاثة سيف الدين شيخون وطاز وصرغتمش عيمش ونائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون الكاملي.

وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب البلاد الحلبية الأمير سيف الدين بيبغا أروس ونائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد بن مشد الشربخانه.

ووصل بعض الحجاج إلى دمشق في تاسع الشهر - وهذا نادر - وأخبروا بموت المؤذن

■ شمس الدين بن سعيد بعد منزلة العلا في المدابغ.

وفي ليلة الاثنين سادس عشر صفر في هذه السنة وقع حريق عظيم عند باب جيرون شرقيه فأحرق به دكان القفاعي الكبيرة المزخرفة وما حولها واتسع اتساعا فظيعاً واتصل الحريق بالباب الأصفر من النحاس فبادر ديوان الجامع إليه فكشطوا ما عليه من النحاس ونقلوه من يومه إلى خزانة الحاصل بمقصورته الحلبية بمشهد علي ثم غدَوْا عليه يكسرون خشبه بالفؤوس الحداد والسواعد الشداد وإذا هو من خشب الصنوبر الذي في غاية ما يكون من القوة والثبات وتأسف الناس عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه وله في الوجود ما ينيف عن أربعة آلاف سنة انتهى والله أعلم.

ترجمة باب جيرون المشهور بدمشق

الذي كان هلاكه وذهابه وكسره في هذه السنة وهو باب شرقي جامع دمشق لم ير باب أوسع ولا أعلى منه فيما يعرف من الأبنية في الدنيا وله غَلَقان من نحاس أصفر بمسامير من نحاس أصفر أيضا بارزة من عجائب الدنيا ومحاسن دمشق ومعالمها وقد تم بناؤها وقد ذكرته العرب في أشعارها والناس وهو منسوب إلى ملك يقال له جيرون بن سعد بن عاد بن عوص

بن إرم بن سام بن نوح وهو الذي بناه وكان بناؤه له قبل الخليل عليه السلام بل قبل ثمود وهود أيضا على ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه [١١/١] وغيره وكان فوقه حصن عظيم وقصر منيف.

ويقال بل هو منسوب إلى اسم المارد الذي بناه لسليمان عليه السلام وكان اسم ذلك المارد جيرون والأول أظهر وأشهر.

فعلى الأول يكون لهذا الباب من المدد المتطاولة ما يقارب خمسة آلاف سنة ثم كان انجعاف هذا الباب لا من تلقاء نفسه بل بالأيدي العادية عليه بسبب ما ناله من شوظ حريق اتصل إليه من حريق وقع إلى جانبه في صبيحة ليلة الاثنين السادس عشر من صفر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فتبادر ديوان الجامع ففرقوا شمله وقضعوا شمله وعرّوا جلده النحاس عن بدنه الذي هو من خشب الصنوبر الذي كأن الصانع قد فرغ منه يومئذ وقد شاهدت الفؤوس تعمل فيه ولا تكاد تحيل فيه إلا بمشقة فسبحان الذي خلق الذين بنوه أولا ثم قدر أهل هذا الزمان على أن هدموه آخراً بعد هذه المدد المتطاولة والأمم المتداولة ولكن ﴿لكل أجل كتاب﴾ [الرعد: ٣٨] ولا إله إلا رب العباد.

بيان تقدم مدة هذا الباب وزيادتها على مدة أربعة آلاف سنة بل يقارب الخمسة

ذكر الحافظ ابن عساكر في أول تاريخه [١٧/١] باب بناء دمشق بسنده عن القاضي يحيى بن حمزة البتلهي الحاكم بها في الزمن المتقدم وقد كان هذا القاضي من تلاميذ أبي عمرو الأوزاعي قال: لما فتح عبد الله بن عليّ دمشق بعد حصارها - يعني وانتزعها من أيدي بني أمية وسلبهم ملكهم - هدموا سور دمشق فوجدوا حجراً مكتوباً عليه باليونانية فجاؤوا براهب فقرأه لهم فإذا هو مكتوب عليه: ويك أرم الجبابر من رامك بسوء قصمه الله إذا وهى منك جيرون الغربي من باب البريد وتلك من خمسة أعين نَقْضُ سورك على يديه بعد أربعة آلاف سنة تعيشين رغداً فإذا وهى منك جيرون الشرقي أُديل لك ممن يعرض لك قال: فوجدنا الخمسة أعين عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، عين بن عين بن عين بن عين بن عين.

فهذا يقتضي أنه كان بسورها سنينا إلى حين إخرابه على يد عبد الله بن علي أربعة آلاف سنة وقد كان إخرابه له في سنة ثنتين وثلاثين ومائة كما ذكرنا في التاريخ الكبير فعلى هذا يكون لهذا الباب إلى يوم خرب من هذه السنة أعني سنة ثلاث وخمسين وسبع مئة أربعة آلاف وستمائة وإحدى وعشرين سنة والله أعلم.

وقد ذكر ابن عساكر عن بعضهم أن نوحاً عليه السلام هو الذي أسس دمشق بعد حران وذلك بعد مضي الطوفان.

وقيل: بناها دمسقس غلام ذي القرنين عن إشارته وقيل: العازر الملقب بدمشيق وهو غلام الخليل وقيل غير ذلك من الأقوال وأظهرها أنها من بناء اليونان لأن محاريب معابدها كانت موجهة إلى القطب الشمالي ثم كان بعدهم النصارى فصلوا فيها إلى الشرق ثم كان فيها بعدهم أجمعين أمة المسلمين فصلوا إلى الكعبة المشرفة.

وذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧/١] وغيره أن أبوابها كانت سبعة كل منها يتخذ عنده عيد لهيكل من الهياكل السبعة فباب القمر باب السلامة وكانوا يسمونه باب الفراديس المسدود ولعطارد باب الفراديس الكبير وللزهرة باب توماء وللشمس الباب الشرقي وللمريخ باب الجابية وللمشترى باب الجابية الصغير ولزحل باب كيسان.

وفي أوائل شهر رجب الفرد اشتهر أن نائب حلب بيبغا آروس اتفق مع نائب طرابلس بكلمش ونائب حلب أمير أحمد بن مشد الشربخانه على الخروج عن طاعة السلطان حتى يمسك شيخون وطاز وهما عضدا الدولة بالديار المصرية وبعثوا إلى نائب دمشق وهو الأمير سيف الدين أرغون الكاملي فأبى عليهم ذلك وكاتب إلى الديار المصرية بما وقع من الأمر وانزعج الناس لذلك وخافوا من غائلة هذا الأمر والله المستعان.

ولما كان يوم الاثنين ثامن الشهر جمع نائب السلطنة الأمراء عنده بالقصر الأبلق واستحلفهم بيعة أخرى لنائب السلطان الملك الصالح فحلفوا واتفقوا على السمع والطاعة والاستمرار على ذلك.

وفي ليلة الأربعاء سابع عشر رجب جاءت الجبلية الذين جمعوهم من البقاع لأجل حفظ ثنية العقاب من قدوم العساكر الحلبية ومن معهم من أهل طرابلس وحماة وكان هؤلاء الجبلية قريبا من أربعة آلاف فحصل بسببهم ضرر كثير على أهل برزة وما جاورهم من الثمار وغيرها.

وفي يوم السبت العشرين منه ركب نائب السلطنة سيف الدين أرغون ومعه الجيوش الدمشقية قاصدين ناحية الكسوة لئلا يقاتلون المسلمين ولم يبق في البلد من الجند أحد وأصبح الناس وليس لهم نائب ولا عسكر وخلت الديار منهم ونائب الغيبة الأمير سيف الدين أُلجيبغا العادلي وانتقل الناس من البساتين ومن طرف العُقيبة وغيرها إلى المدينة وأكثر الأمراء نقلت حواصلهم وأهاليهم إلى القلعة المنصورة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما اقترب دخول الأمير بيبغا بمن معه انزعج الناس وانتقل أهل القرى الذين في طريقه وسرى ذلك إلى أطراف الصالحية والبساتين وحواضر البلد وغلقت أبواب البلد إلى ما يلي القلعة كباب النصر وباب الفرج وكذا باب الفراديس وخلت أكثر المحال من أهاليهم ونقلوا حوائجهم وحواصلهم وأنعامهم إلى البلد على الدواب والحمالين وبلغهم أن أطراف الجيش انتهبوا ما في القرايا في طريقهم من الشعير والتبن وبعض الأنعام للأكل وربما وقع فساد غير هذا من بعض الجهلة فخاف الناس كثيراً وتشوشت خواطرهم انتهى.

دخول بيبغا آروس إلى دمشق

ولما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب دخل الأمير سيف الدين بيبغا آروس نائب حلب إلى دمشق المحروسة بمن معه من العساكر الحلبية وغيرهم وفي صحبته نائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد ونائب صفد الأمير علاء الدين طيبغا يلقب برناق وكان قد توجه قبله قبل بيوم ومعه نواب قلاع كثيرة من بلاد حلب وغيرها في عدد كثير من الأتراك والتركمان فوقف في سوق الخيل مكان نواب السلطان تحت القلعة واستعرض الجيوش الذين وفدوا معه هنالك فدخلوا في تجمل كثير ملبسين وكان عدة من كان معه من أمراء الطبلخاناه قريبا من ستين أميراً أو يزيدون أو ينقصون على ما استفاض عن غير واحد ممن شاهد ذلك ثم سار قريباً من الزوال إلى المخيم الذي ضرب له قبل مسجد القدم عند قبة بيبغا عند الجدول الذي هنالك وكان يوما مشهوداً هائلا لما عاين الناس من كثرة الجيوش والعدد وعَنْز كثير من

الناس صاحب دمشق في ذهابه بمن معه لئلا يقاتل هؤلاء فنسأل اللّه أن يجمع قلوبهم على ما فيه صلاح المسلمين.

وقد أرسل إلى نائب القلعة وهو الأمير سيف الدين أياجي يطلب منه حواصل أرغون التي عنده فامتنع عليه أيضا وقد حصن القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة والعدد وهيأ بعض المجانيق ليبعد بها فوق الأبرجة وأمر أهل البلد أن لا يفتحوا الدكاكين ويغلقوا الأسواق وجعل يغلق أبواب البلد إلا بابا أو بابين منها واشتد حنق العسكر عليه وهموا بأشياء كثيرة من الشر ثم يرعوون عن الناس واللّه المسلم غير أن أقيال العسكر وأطرافه قد عاثوا فيما جاوروه من القرايا والبساتين والكروم والزروع فيأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم وأكثر من ذلك فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

ونهبت قرايا كثيرة وفجروا بنساء وبنات وعظم الخطب وأما التجار ومن يذكر بكثرة مال فأكثرهم مختف لا يظهر لما يخشى من المصادرة واللّه المسؤول أن يحسن عاقبتهم.

واستهل شهر شعبان وأهل البلد في خوف شديد وأهل القرايا والحواضر في نقلة أثاثهم وأبقارهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم وأكثر أبواب البلد مغلقة سوى بابي الفراديس والجابية وفي كل يوم نسمع بأمور كثيرة من النهب للقرايا والحواضر حتى انتقل كثير من أهل الصالحية أو أكثرهم وكذلك من أهل العقيبة وسائر حواضر البلد فنزلوا عند معارفهم وأصحابهم ومنهم من نزل على قارعة الطريق بنسائهم وأولادهم فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

وقال كثير من المشايخ الذين أدركوا زمن قازان: إن هذا الوقت كان أصعب من ذلك لما ترك الناس من ورائهم من الغلات والثمار التي هي عمدة قوتهم في سنتهم وأما أهل البلد ففي قلق شديد أيضاً لما يبلغهم في كل وقت من الأراجيف أنهم على عزم نهب البلد، فجعل كثير من الناس يُودعون عزيز ما يملكون عند من يأمنون، واشتد الحال جداً، وخاف كثير من الناس أو أكثرهم من العار؛ لما يبلغهم عنهم من الفجور بالنساء. وجعلوا يدعون عقيب الصلوات عليهم يصرحون بأسمائهم ويعقّبون بأسماء امرائهم واتباعهم ونائب القلعة الأمير سيف الدين اياجي في كل وقت يسكن جأش الناس ويقوي عزمهم ويبشرهم بخروج العساكر المنصورة من الديار المصرية صحبة السلطان إلى بلاد غزة حيث الجيش الدمشقي ليجيئوا كلهم في خدمته وبين يديه وتدق البشائر فيفرح الناس ثم تسكن الأخبار وتبطل الروايات فتقلق ويخرجون في كل يوم وساعة في تجمل عظيم ووعد وهيئات حسنة.

ثم جاء السلطان أيده اللّه تعالى وقد ترجل الأمراء بين يديه من حين بسط له عند مسجد الذبان إلى داخل القلعة المنصورة وهو لابس قباء أحمر له قيمته على فرس أصيلة مؤدبة معلمة المشي على القوس لا تحيد عنه وهو حسن الصورة مقبول الطلعة عليه بهاء المملكة والرياسة والخز فوق رأسه يحمله بعض الأمراء الأكابر وكلما عاينه من عاينه من الناس يبتهلون بالدعاء بأصوات عالية والنساء بالزغرطة وفرح الناس فرحا شديدا وكان يوماً مشهودا وأمرا حميداً جعله اللّه مباركا على المسلمين فنزل بالقلعة المنصورة وقد قدم معه الخليفة المعتضد أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي باللّه أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر اللّه أبي العباس احمد وكان راكباً إلى جانبه من ناحية اليسار ونزل بالمدرسة الدماغية في أواخر هذا اليوم سائر الأمراء مع نائب الشام ومقدمهم طاز وشيخون في طلب بيبغا ومن معه من البغاة المفسدين.

وفي يوم الجمعة ثانيه حضر السلطان أيده اللّه إلى الجامع الأموي وصلى فيه الجمعة بالمشهد الذي يصلي فيه نواب السلطان أيده اللّه فكثر الدعاء والمحبة له ذاهباً وآيبا تقبل اللّه منه وكذلك فعل الجمعة الأخرى وهي تاسع الشهر.

وفي يوم السبت عاشره اجتمعنا – يقول الشيخ عماد الدين بن كثير المصنف رحمه اللّه -: بالخليفة المعتضد باللّه أبي الفتح أبي بكر بن المستكفي باللّه أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر اللّه أبي العباس أحمد وسلمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية داخل باب الفرج وقرات عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضياء الحموي بسماعه من ابن البخاري وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب عن أبي بكر بن مالك عن عبد اللّه بن أحمد عن أبيه فذكرهما.

والمقصود أنه شاب حسن الشكل مليح الكلام متواضع جيد الفهم حلو العبارة رحم اللّه سلفه.

وفي رابع عشره قدم البريد من بلاد حلب بسيوف الأمراء الممسوكين من أصحاب بيبغا.

وفي يوم الخميس خامس عشره نزل السلطان الملك الصالح من الطارمة إلى القصر الأبلق في أبهة المملكة ولم يحضر يوم الجمعة إلى الصلاة بل اقتصر على الصلاة بالقصر المذكور.

وفي يوم الجمعة باكر النهار دخل الأميران سيف الدين شيخون وطاز بمن معهما من العساكر من بلاد حلب وقد فات تدارك بيبغا وأصحابه لدخولهم بلاد ابن دلغار التركماني بمن بقي معهم وهم القليل وقد أسر جماعة من الأمراء الذين كانوا معه وهم في القيود والسلاسل صحبة الأميرين المذكورين فدخلا على السلطان وهو بالقصر الأبلق فسلما عليه وقبلا الأرض وهنأه بالعيد ونزل طاز بدار أيتمش بالشرف الشمالي ونزل شيخون بدار أياس الحاجب بالقرب من الظاهرية البرانية ونزل بقية الجيش في أرجاء البلد.

وأما الأمير سيف الدين أرغون فأقام بحلب نائبا بها عن سؤاله إلى ما ذكر وخوطب في تقليده بألقاب هائلة ولبس خلعة سنية وعظم تعظيما زائدا ليكون هناك ألباً على بيبغا وأصحابه لشدة ما بينهما من العداوة ثم صلى السلطان بمن معه من المصريين ومن انضاف إليهم من الشاميين صلاة عيد الفطر بالميدان الأخضر وخطب بهم القاضي تاج الدين المناوي المصري قاضي العسكر المصري بمرسوم السلطان وذويه وخلع عليه انتهى واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

قتل الأمراء السبعة من أصحاب بيبغا

وفي يوم الاثنين ثالث شوال قبل العصر ركب السلطان من القصر إلى الطارمة وعلى رأسه القبة والجتر يحملهما الأمير بدر الدين بن الخطير فجلس في الطارمة ووقف الجيش بين يديه تحت القلعة وأحضروا الأمراء الذين قدموا بهم من بلاد حلب فجعلوا يوقفون الأمير منهم ثم يشاورون عليه فمنهم من يشفع فيه ومنهم من يؤمر بتوسيطه فوسط سبعة: خمس طبلخاناه ومقدما ألف منهم نائب صفد برناق وشفع في الباقين فردوا إلى السجن وكانوا خمسة آخرين.

وفي يوم الأربعاء خامسه مسك جماعة من أمراء دمشق سبعة وتحولت دول كثيرة وتأمر جماعة من الأجناد وغيرهم انتهى.

خروج السلطان من دمشق متوجهاً إلى بلاد مصر

وفي يوم الجمعة سابع شوال ركب السلطان في جيشه من القصر الأبلق قاصداً لصلاة الجمعة بالجامع الأموي فلما انتهى إلى باب النصر ترجل الجيش بكماله بين يديه مشاة وذلك في يوم شات كثير الوحل فصلى بالمقصورة إلى جانب المصحف العثماني وليس معه في الصف الأول أحد بل بقية الأمراء خلفه صفوف فسمع خطبة الخطيب.

ولما فرغ من الصلاة قرئ كتاب بإطلاق أعشار الأوقاف وخرج السلطان بمن معه من باب النصر فركب الجيش واستقل ذاهبا نحو الكسوة بمن معه من العساكر المنصورة مصحوبين بالسلامة والعافية المستمرة.

وخرج السلطان وليس بدمشق نائب سلطنة وإنما الأمير بدر الدين بن الخطير هو الذي يتكلم في الأمور نائب غيبة حتى يقدم إليها نائبها ويتعين لها.

وجاءت الأخبار بوصول السلطان إلى الديار المصرية سالما ودخلها في أبهة عظيمة في أواخر ذي القعدة وكان يوما مشهوداً وخلع على الأمراء كلهم ولبس خلعة نيابة الشام الأمير علاء الدين على المارداني ومسك الأمير علم الدين بن زنبور وتولية الوزارة الصاحب موفق الدين.

وفي صبيحة يوم السبت خامس ذي الحجة دخل الأمير علاء الدين على الجمدار من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة في أبهة هائلة وموكب حافل مستوليا نيابة بها وبين يديه الأمراء على العادة فوقف عند تربة بهادر آص حتى استعرض عليه الجيش فلحقهم فدخل دار السعادة فنزلها على عادة النواب قبله جعله الله وجها مباركا على المسلمين.

وفي يوم السبت ثالث عشره قدم دوا دار السلطان الأمير عز الدين طقطاي من الديار المصرية فنزل القصر الأبلق ومن عزمه الذهاب إلى البلاد الحلبية ليجهز الجيوش نحو بيبغا وأصحابه انتهى والله تعالى أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية والمملكة الحلبية وما والاها والحرمين الشريفين الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي.

ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي.

والمشار إليهمْ في تدبير المملكة الأمراء سيف الدين شيخون وسيف الدين طاز وسيف الدين صرغتمش الناصري.

وقضاة القضاة وكاتب السر هناك هم المذكورون في السنة الماضية.

ونائب حلب الأمير سيف الدين أرغون الكاملي لأجل مقاتلة أولئك الأمراء الثلاثة بيبغا وأمير أحمد وبكلمش الذين فعلوا ما ذكرنا في رجب من السنة الماضية ثم لجؤوا إلى بلاد الأبلستين في خفارة بن دلغار التركماني ثم إنه احتال عليهم من خوفه من صاحب مصر وأسلمهم إلى قبضة نائب حلب المذكور ففرح المسلمون بذلك فرحا شديداً ولله الحمد والمنة.

ونائب طرابلس الأمير سيف الدين أيتمش الذي كان نائب دمشق كما ذكرنا تقلبت به الأحوال حتى استنيب في طرابلس حين كان السلطان بدمشق كما تقدم.

واستهلت هذه السنة وقد تواترت الأخبار بأن الأمراء الثلاثة بيبغا وبكلمش وأمير أحمد قد حصلوا في قبضة نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون وهم مسجونون بقلعتها بها ينتظر ما يرسم به فيهم وقد فرح المسلمون بذلك فرحا شديدا.

وفي يوم السبت سابع عشر المحرم وصل إلى دمشق الأمير عز الدين طقطاي الدويدار عائداً من البلاد الحلبية وفي صحبته رأس بيبغا الباغي أمكن الله منه بعد وصول صاحبيه بكلمش الذي كان نائبا بطرابلس وأمير أحمد الذي كان نائب حماة فقطعت رؤوسهما بحلب بين يدي نائبها سيف الدين أرغون الكاملي وسيرت إلى مصر ولما وصل بيبغا بعدهما فعل به كفعلهما جهرة بعد العصر بسوق الخيل بين يدي نائب السلطنة والجيش برمته والعامة على الأجاجير يتفرجون ويفرحون بمصرعه وسر المسلمون كلهم ولله الحمد والمنة.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول أقيمت جمعة جديدة بمحلة الشاغور بمسجد هناك يقال له مسجد المزاز وخطب فيه جمال الدين عبد الله ابن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ثم وقع في ذلك كلام فانفصى الحال أن أهل المحلة ذهبوا إلى سوق الخيل يوم موكب وحملوا سناجق خليفتيَّة من جامعهم ومصاحف واشتملوا إلى نائب السلطنة وسألوا منه أن تستمر الخطبة عندهم فأجابهم إلى ذلك في الساعة الراهنة ثم وقع نزاع في جواز ذلك ثم حكم القاضي الحنبلي لهم بالاستمرار وجرت خطوب طويلة بعد ذلك.

وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر توفي الأمير الكبير سيف الدين الجي بغا العادلي ودفن بتربته التي كان أنشأها قديما ظاهر باب الجابية وهي مشهورة تعرف به وكان له في الإمرة قريبا من ستين سنة وقد كان أصابه في نوبة ارغون شاه وقضيته ضربة أصابت يده اليمنى واستمر مع ذلك على إمرته وتقدمته محترما معظما إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه.

ذكر أمر غريب جداً

لما ذهبت لتهنئة الأمير ناصر الدين بن الأقوس بنيابة بعلبك وجدت هنالك شابا فذكر لي من حضر أن هذا هو الذي كان أنثى ثم ظهر له ذكر وقد كان أمره اشتهر ببلاد طرابلس وشاع بين الناس بدمشق وغير ذلك وتحدث الناس به فلما رأيته وعليه قبعة تركية استدعيته إلي وسألته بحضرة من حضر فقلت له: كيف كان أمرك؟ فاستحيى وعلاه خجل يشبه النساء فقال: كنت امرأة مدة خمس عشرة سنة وزوجوني بثلاثة أزواج لا يقدرون علي وكلهم يطلق ثم اعترضني حال غريب فغارت ثدياي وصغرت وجعل النوم يعتريني ليلا ونهاراً ثم جعل يخرج من محل الفرج شيء قليلاً قليلا ويتزايد حتى برز شبه ذكر وانثيان فسألته أهو كبير أم صغير؟ فاستحيى ثم ذكر أنه صغير بقدر الأصبع فسألته هل احتلم؟ فقال: احتلم مرتين منذ حصل له ذلك وكان له قريبا من ستة أشهر إلى حين أخبرني وذكر أنه يحسن صنعة النساء كلها من الغزل والتطريز والزركاش وغير ذلك فقلت له: ما كان اسمك وأنت على صفة النساء؟ فقال: نفيسة فقلت: واليوم؟ فقال: عبد الله وذكر أنه لما حصل له هذا الحال كتمه عن أهله حتى عن أبيه ثم عزموا على تزويجه برابع فقال لأمه: إن الأمر ما صفته كيت وكيت فلما اطلع أهله على ذلك أعلموا به نائب السلطنة هناك وكتب بذلك

عصرا واشتهر أمره فقدم دمشق ووقف بين يدي نائب السلطنة بدمشق فسأله فأخبره كما أخبرني فأخذه الحاجب سيف الدين كجكن بن الأقوش عنده وألبسه ثياب الأجناد وهو شاب حسن على وجهه وسمته ومشيته وحديثه أنوثة النساء فسبحان الفعال لما يشاء فهذا أمر لم يقع مثله في العالم إلا قليلا جدا وعندي أن ذكره كان غائراً في جُورة ظنوها فرجاً ثم لما بلغ ظهر قليلا قليلا حتى تكامل ظهوره فتبينوا أنه كان ذكراً وذكر لي أن ذكره برز مختونا فسمي ختان القمر فهذا يوجد كثيراً والله أعلم.

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رجب قدم الأمير عز الدين طقطاي الدويدار من الديار الحلبية وخبر عما اتفق عليه العساكر الحلبية من ذهابهم مع نائبهم ونواب تلك الحصون وعساكر خلف ابن دلغار التركماني الذي كان أعان بيلبغا وذويه على خروجه على السلطان وقدم معه إلى دمشق وكان من أمره ما تقدم بسطه في السنة الماضية وأنهم نهبوا أمواله وحواصله وأسروا خلقا من بنيه وذويه وحريمه وأن الجيش أخذ شيئا كثيراً من الأغنام والأبقار والرقيق والدواب والأمتعة وغير ذلك وأنه لجأ إلى ابن أرتنا فاحتاط عليه واعتقله عنده وراسل السلطان بأمره ففرح الناس براحة الجيش الحلبي وسلامته بعدما قاسوا شديداً وتعباً كثيرا.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره كان قدوم الأمراء الذين كانوا مسجونين بالإسكندرية من لدن عود السلطان إلى الديار المصرية ممن كان اتهم بموالاة بيبغا أو خدمته كالأمير سيف الدين ملك آص وعلاء الدين علي البشمقدار وساطلمش الجلالي ومن معهم.

وفي أول شهر رمضان اتفق أن جماعة من المفتين أفتوا بأحد قولي العلماء وهما وجهان لأصحابنا الشافعية وهو جواز استعادة ما استهدم من الكنائس فتغضب عليهم قاضي القضاة تقي الدين السبكي فقرعهم في ذلك ومنعهم من الإفتاء وصنف في ذلك مصنفا يتضمن المنع من ذلك سماه «الدسائس في الكنائس».

وفي خامس عشري شهر رمضان قدم بالأمير أبو دلغار التركماني الذي كان مؤازراً بيبغا في العام الماضي على تلك الأفاعيل القبيحة وهو مضيق عليه فأحضر بين يدي النائب ثم أودع القلعة المنصورة في هذا اليوم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وما يتبع ذلك والحرمين الشريفين وما والاهما من بلاد الحجاز وغيرها الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي وهو ابن بنت تنكز نائب الشام وكان في الدولة الناصرية.

ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاي الناصري ووزيره القاضي موفق الدين.

وقضاة مصر هم المذكورون في العام الماضي ومنهم قاضي القضاة عز الدين بن جماعة الشافعي وقد جاور في هذه السنة في الحجاز الشريف والقاضي تاج الدين المناوي يسد المنصب عنه.

وكاتب السر القاضي علاء الدين بن فضل الله العدوي ومدبرو المملكة الأمراء الثلاثة سيف الدين شيخون وطاز وصرغتمش الناصريون والأمير الكبير الدوادار عز الدين طقطاي الناصري.

ودخلت هذه السنة والأمير سيف الدين شيخون في طلب الأحدب من مدة شهر أو قريب.

ونائب دمشق الأمير علاء الدين أمير على المارداني وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها.

وناظر الدواوين الصاحب شمس الدين موسى بن التاج إسحاق وكاتب السر القاضي ناصر الدين بن الشرف يعقوب وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة ومحتسبه الشيخ علاء الدين الأنصاري قريب الشيخ بهاء الدين ابن إمام المشهد وهو مدرس الأمينية مكانه أيضاً.

وفي شهر ربيع الآخر قدم الأمير علاء الدين مغلطاي الذي كان مسجونا بالإسكندرية ثم أفرج عنه وقد كان قبل ذلك هو الدولة وأمر بالمسير إلى الشام ليكون عند أيتمش نائب طرابلس.

وأما منجك الذي كان وزيره بالديار المصرية وكان معتقلا بالإسكندرية مع مغلطاي فإنه صار إلى صغد مقيما بها بطالا كما أن مغلطاي أمر بالمقام بطرابلس بطالا أيضاً إلى حين يحكم الله عز وجل انتهى والله أعلم.

نادرة من الغرائب

في يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الأولى اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق بعد صلاة الظهر وهو يسب أول من ظلم آل محمد ويكرر ذلك لا يفتر ولم يصل مع الناس ولا صلى على الجنازة الحاضرة بل الناس في الصلاة وهو يكرر ذلك ويرفع صوته به فلما فرغنا من الصلاة نبهت عليه الناس فأخذوه وإذا قاضي القضاة الشافعي في تلك الجنازة حاضر مع الناس فجئت إليه واستنطقته من الذي ظلم آل محمد؟ فقال: أبو بكر الصديق ثم قال جهرة والناس يسمعون: لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد فأعاد ذلك مرتين فأمر به الحاكم إلى السجن ثم استحضره المالكي وجلده بالسياط وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الذي لا يصدر إلا عن شقي واسم هذا اللعين علي بن أبي الفضل بن محمد بن حسين بن كثير قبحه الله وأخزاه.

ثم لما كان يوم الخميس تاسع عشره عقد له مجلس بدار السعادة وحضر القضاة الأربعة وطلب إلى هنالك فقدر الله أن حكم نائب المالكي بقتله فأُخذ سريعا فضرب عنقه تحت القلعة وحرقه العامة وطافوا برأسه البلد ونادوا عليه هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله ﷺ .

وقد ناظرت هذا الجاهل بدار القاضي المالكي وإذا عنده شيء مما يقوله الرافضة الغلاة وقد تلقى عن أصحاب ابن مطهر أشياء من الكفر والزندقة قبحه الله وإياهم.

وورد الكتاب بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق بالمقصورة بحضرة نائب السلطنة وأمراء الأعراب وكبار الأمراء وأهل الحل والعقد والعامة كتاب السلطان بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخر: منها أن لا يستخدموا في شيء من الدواوين السلطانية والأمراء ولا في شيء من الأشياء وأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع ولا يركبوا الخيل ولا البغال ولكن الحمير بالأكف عرضا وأن لا يدخلوا إلا بالعلامات من جرس أو بخاتم نحاس أصفر أو رصاص ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات وليكن لهن حمامات تختص بهن وأن يكون إزار النصرانية من كتان أزرق واليهودية من كتان أصفر وأن يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض وأن يحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعية.

واحترقت باشورة بباب الجابية في ليلة الأحد العشرين من جمادى

الآخرة وعدم المسلمون تلك الأطعمات والحواصل النافعة من الباب الجواني إلى الباب البراني.

وفي مستهل شهر رمضان عمل الشيخ الإمام العالم البارع شمس الدين بن النقاش المصري الشافعي ورد دمشق بالجامع الأموي تجاه محراب الصحابة ميعاداً للوعظ واجتمع عنده خلق من الأعيان والفضلاء والعامة وشكروا كلامه وطلاقة عبارته من غير تلعثم ولا تخليط ولا توقف وطال ذلك إلى قريب العصر.

وفي صبيحة يوم الأحد ثالثه صلي بجامع دمشق بالصحن تحت النسر على القاضي جمال الدين حسين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي ونائبه وحضر نائب السلطنة الأمير علاء الدين علي وقضاة البلد والأعيان والدولة وكثير من العامة وكانت جنازته محشودة وحضر والده قاضي القضاة وهو يهادى بين رجلين فظهر عليه الحزن والكآبة فصلى عليه إماما وتأسف الناس عليه لسماحة أخلاقه وانجماعه على نفسه لا يتعدى شره إلى غيره، وكان يحكم جيداً نظيف العرض في ذلك وكان قد درس في عدة مدارس منها الشامية البرانية والعذراوية وأفتى وتصدر وكانت لديه فضيلة جيدة بالنحو والفقه والفرائض وغير ذلك ودفن بسفح قاسيون في تربة معروفة لهم رحمهم الله.

عودة الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون

وذلك يوم الاثنين ثاني شهر شوال اتفق جمهور الأمراء مع الأمير شيخون وصرغتمش في غيبة طاز في الصيد على خلع الملك الصالح صالح بن الناصر وأمه بنت تنكز وإعادة أخيه الملك الناصر حسن وكان ذلك يومئذ وألزم الصالح بيته مضيقا عليه وسلم إلى أمه خوندة بنت الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كان فطلبوا طاز وأمسك أخوه جنتمر وأخو السلطان الصالح لأمه عمر بن أحمد بن بكتمر الساقي ووقعت خبطة عظيمة بالديار المصرية ومع هذا فلم يقبل البريد إلى الشام وخبر البيعة إلا يوم الخميس الثاني عشر من هذا الشهر قدم بهما الأمير عز الدين أيدمر الشمسي وبايع النائب بعد ما خلع عليه خلعة سنية والأمراء بدار السعادة على العادة ودقت البشائر وزين البلد وخطب له الخطيب يوم الجمعة على المنبر بحضرة نائب السلطنة والقضاة والدولة.

وفي صبيحة يوم الخميس تاسع عشر شوال دخل دمشق الأمير سيف الدين منجك على نيابة طرابلس ونزل القصر الأبلق مع الأمير عز الدين أيدمر فاقام أياما عديدة ثم سار إلى بلده بعد أيام.

وفي صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين منه دخل الأمير سيف الدين طاز من الديار المصرية في جماعة من أصحابه مجتازا إلى نيابة حلب المحروسة فتلقاه نائب السلطنة إلى قريب من جامع كريم الدين بالقبيبات وشيعه إلى قريب من باب الفراديس فسار ونزل بوطاة برزة فبات هنالك ثم أصبح غاديا وقد كان نظير الأمير شيخون ولكن قوي عليه فسيره إلى بلاد حلب وهو محبب إلى العامة لما له من السعي المشكور في أمور كبار كما تقدم.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام والمسلمين السلطان الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي.

وليس بالديار المصرية نائب ولا وزير وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب دمشق الأمير على المارداني والقضاة والحاجب والخطيب وكاتب السر هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز ونائب طرابلس منجك ونائب حماة استدمر العمري ونائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبح ونائب حمص الأمير ناصر الدين بن الأقوش ونائب بعلبك الحاج كامل.

وفي يوم الاثنين تاسع صفر مسك الأمير أرغون الكاملي الذي ناب بدمشق مدة ثم بعدها بحلب ثم طلب إلى الديار المصرية حين وليها طاز فقبض عليه وأرسل إلى الإسكندرية معتقلا.

وفي يوم السبت من شهر صفر قدم تقليد قضاء الشافعية بدمشق وأعمالها لقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي على قاعدة والده وذلك في حياة أبيه وذهبت الناس للسلام عليه.

وفي صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر توجه قاضي القضاة تقي الدين السبكي بعد استقلال ولده تاج الدين عبد الوهاب في قضاء القضاة ومشيخة دار الحديث الأشرفية مسافراً نحو الديار المصرية في محفة ومعه جماعة من أهله وذويه منهم سبطه القاضي بدر الدين بن أبي الفتح وآخرون وقد كان الناس ودعوه قبل ذلك وعنده ضعف ومن الناس من يخاف عليه وعثاء السفر مع الكبر والضعف.

ولما كان يوم الجمعة سابع شهر جمادى الآخرة صلي بعد الظهر على قاضي القضاة تقي الدين

■ علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي المصري الشافعي توفي بمصر ليلة الاثنين ثالثه ودفن من صبيحة ذلك اليوم وقد أكمل ثلاثا وتسعين سنة ودخل في الرابعة أشهرا وولي الحكم بدمشق نحواً من سبع عشرة سنة ثم نزل عن ذلك لولده قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ثم رحل في محفة إلى الديار المصرية كما ذكرنا ولما وصل مصر أقام دون الشهر ثم توفي كما ذكرنا وجاءت التعزية ومرسوم باستقرار ولده في مدرسته اليعقوبية والقيمرية وبتشريف تطيبا لقلبه وذهب الناس إلى تعزيته على العادة وقد سمع قاضي القضاة السبكي الحديث في شبيبته بديار مصر ورحل إلى الشام وقرأ بنفسه وكتب وخرج وله تصانيف كثيرة منتشرة كثيرة الفائدة وما زال في مدة القضاء يصنف ويكتب إلى حين وفاته وكان كثير التلاوة وذكر لي أنه كان يقوم من الليل رحمه الله.

وفي شهر جمادى الأولى من هذه السنة اشتهر أخذ الفرنج المخذولين لمدينة طرابلس المغرب وقرأت من كتاب لقاضي قضاة المالكية أن أخذهم إياها كان ليلة الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة ثم بعد خمسة عشر يوما استعادها المسلمون وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا أولا من المسلمين ولله الحمد والمنة.

وأرسل الدولة إلى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقي في أيديهم من المسلمين.

وفي يوم الأربعاء حادي عشر رجب الفرد من هذه السنة حكم

القاضي المالكي وهو قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي بقتل نصراني من قرية الرأس من معاملة بعلبك اسمه داود بن سالم ثبت عليه بمجلس الحكم في بعلبك أنه اعترف بما شهد عليه أحمد بن نور الدين على بن غازي من قرية اللبوة من الكلام السيئ الذي نال به من رسول الله ﷺ وسبه وقذفه بكلام لا يليق ذكره فقتل لعنه الله يومئذ بعد أذان العصر بسوق الخيل وحرقه الناس وشفى الله صدور قوم مؤمنين ولله الحمد والمنة.

وفي صبيحة يوم الأحد رابع عشر شعبان درس القاضي بهاء الدين أبو البقاء السبكي بالمدرسة القيمرية نزل له عنها ابن عمه قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي وحضر عنده القضاة والأعيان على العادة وأخذ في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] .

■ (عبد الله بن شمس الدين بن قيم الجوزية).

وصلي في هذا اليوم بعد الظهر على الشيخ الشاب الفاضل المحصل جمال الدين عبد الله ابن العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلي ودفن عند أبيه بمقابر باب الصغير وكانت جنازته حافلة وكانت لديه علوم جيدة وذهنه حاضر خارق أفتى ودرس وأعاد وناظر وحج مرات عديدة رحمه الله وبل بالرحمة ثراه.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال وقع حريق هائل في سوق القطانين بالنهار وذهب إليه نائب السلطنة والحجبة والقضاة حتى اجتهد الفعول والمتبرعون في إخماده وطفيه حتى سكن شره وذهب بسببه دكاكين ودور كثيرة جداً فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد رأيته من الغد والنار كما هي عمالة والدخان صاعد وقد ذهب الناس يطفونه بالماء الكثير الغمر والنار لا تخمد لكن هدمت الجدران وخربت المساكن وانتقل السكان انتهى والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي ولا نائب ولا وزير بمصر وإنما يرجع تدبير المملكة إلى الأمير سيف الدين شيخون ثم الأمير سيف الدين صرغتمش، ثم الأمير عز الدين طُقطاي الدوايدار.

وقضاة مصر هم المذكورون في التي قبلها سوى الشافعي فإنه ابن المتوفى قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي.

ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز وطرابلس الأمير سيف الدين منجك وبصفد الأمير شهاب الدين بن صبح وبحماة استدمر العمري وبحمص علاء الدين بن المعظم وببعلبك الأمير ناصر الدين بن الأقوش.

وفي العشر الأول من ربيع الأول تكامل إصلاح بلاط الجامع الأموي وغسل فصوص المقصورة والقبة وبسط بسطا حسنا وبيضت أطباق القناديل وأضاء حاله جداً وكان المستحث على ذلك الأمير علاء الدين أيدغمش أحد أمراء الطبلخاناه بمرسوم نائب السلطنة له في ذلك.

وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة صلي على الأمير سيف الدين براق أمير آخور بجامع تنكز ودفن بمقابر الصوفية وكان مشكور السيرة كثير الصلاة والصدقة محباً للخير وأهله من أكبر أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى وقد رسم لولديه ناصر الدين محمد وسيف الدين أبي بكر كل منهما بعشرة أرماح ولناصر الدين بمكان أبيه في الوظيفة باصطبل السلطان.

وفي يوم الخميس رابع شهر جمادى الأولى خلع على الأميرين الأخوين ناصر الدين محمد وسيف الدين أبي بكر ولدي الأمير سيف الدين براق رحمه الله تعالى بأميرين عشرتين.

ووقع في هذا الشهر نزاع بين الحنابلة في مسألة المناقلة وكان سببها أن القاضي المالكي وهو قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي أذن للشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي يحكم بالمناقلة في قرار دار الأمير سيف الدين طيلمر الإسماعيلي حاجب الحجاب إلى أرض أخرى يجعلها وقفا على ما كانت قرار داره عليه ففعل ذلك بطريقه ونفذه القضاة الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي فغضب القاضي الحنبلي وهو قاضي القضاة جمال الدين المرداوي المقدسي من ذلك،وعقد بسبب ذلك مجالس وتطاول الكلام فيه وادعى كثير منهم أن مذهب الإمام أحمد في المناقلة إنما هو في حال الضرورة وحيث لا يمكن الانتفاع بالموقوف فأما المناقلة لمجرد المصلحة والمنفعة الراجحة فلا وامتنعوا من قبول ما قرره الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك ونقله عن الإمام أحمد من وجوه كثيرة من طريق ابنه صالح وحرب وأبي داود وغيرهم أنها تجوز للمصلحة الراجحة وصنف في ذلك مسألة مفردة وقفت عليها - يعني الشيخ عماد الدين بن كثير - فرأيتها في غاية الحسن والإفادة بحيث لا يتخالج من اطلع عليها ممن يذوق طعم الفقه أنها مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

فقد احتج أحمد في ذلك في رواية ابنه صالح بما رواه عن يزيد بن هارون عن المسعودي عن القاسم بن محمد أن ابن عمر كتب إلى ابن مسعود أن يحول المسجد الجامع بالكوفة إلى موضع سوق التمارين ويجعل السوق في مكان المسجد الجامع العتيق ففعل ذلك.

فهذا فيه أوضح دلالة على ما استدل به فيها من النقل بمجرد المصلحة فإنه لا ضرورة إلى جعل المسجد العتيق سوقا على أن الإسناد فيه انقطاع بين القاسم وبين عمر وبين القاسم وابن مسعود ولكن قد جزم به صاحب المذهب واحتج به وهو ظاهر واضح في ذلك فعقد المجلس في يوم الاثنين الثامن والعشرين من الشهر.

وفي ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى وقع حريق عظيم ظاهر باب الفرج احترق بسببه قياسير كثيرة لطاز ويلبغا وقيسرية الطواشي لبنت تنكز وأخر كثيرة ودور ودكاكين وذهب للناس شيء كثير من الأمتعة والنحاس والبضائع وغير ذلك مما يقاوم ألف ألف وأكثر خارجا عن الأموال فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ذكر كثير من الناس أنه كان في هذه القياسير شر كثير من الفسق والربا والزغل وغير ذلك.

وفي السابع والعشرين من جمادى الأولى ورد الخبر بأن الفرنج لعنهم الله استحوذوا على مدينة صيدا؛ قدموا في سبعة مراكب وقتلوا طائفة من أهلها ونهبوا شيئاً كثيراً وأسروا أيضاً وهجموا على الناس وقت الفجر يوم الجمعة وقد قتل منهم المسلمون خلقا كثيرا وكسروا مركبا من مراكبهم وجاء الفرنج في عشية السبت قبل العصر وقدم الوالي وهو جريح مثقل وأمر نائب السلطنة عند ذلك بتجهيز الجيش إلى تلك الناحية فساروا تلك الليلة ولله الحمد وتقدمهم حاجب الحجاب وتحدر إليهم نائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبح فسبق الجيش الدمشقي ووجد الفرنج قد برزوا بما غنموا من الأمتعة والأسارى إلى جزيرة تلقاء صيدا في البحر وقد أسر

المسلمون منهم في المعركة شيخاً وشابا من أبناء أشرافهم وهو الذي عاقهم عن الذهاب فراسلهم الجيش في انفكاك الأسارى من أيديهم فغادوهم عن كل رأس بخمسمائة فأخذوا من ديوان الأسارى مبلغ ثلاثين ألفا ولم يبق معهم ولله الحمد أحد.

واستمر الصبي من الفرنج مع المسلمين وأسلم ودفع إليهم الشيخ الجريح وعطش الفرنج عطشاً شديدا وأرادوا أن يرووا من نهر هناك فبادرهم الجيش إليه فمنعوهم أن ينالوا منه قطرة واحدة فرحلوا ليلة الثلاثاء منشمرين بما معهم من الغنائم وبعثت رؤوس جماعة من الفرنج ممن قتل في المعركة فنصبت على القلعة بدمشق وجاء الخبر في هذا الوقت بأن آياس قد أحاط بها الفرنج وقد أخذوا الرُّبض وهم محاصرون القلعة وفيها نائب البلد وذكروا أنهم قتلوا خلقا كثيراً من أهلها فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وذهب صاحب حلب في جيش كثيف نحوهم والله المسؤول أن يظفرهم بهم بحوله وقوته وشاع بين العامة أيضاً أن الإسكندرية محاصرة ولم يتحقق ذلك إلى الآن وبالله المستعان.

وفي يوم السبت رابع جمادى الآخرة قدم رؤوس من قتلى الفرنج على صيدا وهي بضع وثلاثون رأسا فنصبت على شرفات القلعة ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد.

وفي ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وقع حريق عظيم داخل باب الصغير من مطبخ السكر الذي عند السويقة الملاصقة لمسجد الشناشي فاحترق المطبخ وما حوله إلى حمام أبي نصر واتصل بالسويقة المذكورة وما هنالك من الأماكن فكان قريبا أو أكثر من الحريق ظاهر باب الفرج فإنا لله وإنا إليه راجعون وحضر نائب السلطنة وذلك أنه كان وقت صلاة العشاء ولكن كان الريح قويا وذلك بتقدير العزيز العليم.

وتوفي الشيخ عز الدين

■ محمد بن إسماعيل بن عمر الحموي أحد مشايخ الرواة في ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة وصلي عليه من الغد بالجامع الأموي بعد الظهر ودفن بمقابر باب الصغير وكان مولده في ثاني عشر ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة فجمع الكثير وتفرد بالرواية عن جماعة في آخر عمره وانقطع بموته سماع السنن الكبير للبيهقي رحمه الله.

ووقع حريق عظيم ليلة الجمعة خامس عشر رجب بمحلة الصالحية من سفح قاسيون فاحترق السوق القبلي من جامع الحنابلة بكماله شرقا وغربا وجنوبا وشمالا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الجمعة خامس شهر رمضان خطب بالجامع الذي أنشأه سيف الدين يلبغا الناصري غربي سوق الخيل وفتح في هذا اليوم وجاء في غاية الحسن والبهاء وخطب الشيخ ناصر الدين بن الربوة الحنفي وكان قد نازعه فيه الشيخ شمس الدين الشافعي الموصلي وأظهر ولاية من واقفه يلبغا المذكور ومراسيم شريفة سلطانية ولكن قد قوي عليه ابن الربوة بسبب أنه نائب عن الشيخ قوام الدين الإتقاني الحنفي وهو مقيم بمصر ومعه ولاية من السلطان متأخرة عن ولاية الموصلي فرسم لابن الربوة فلبس يومئذ الخلعة السوداء من دار السعادة وجاؤو بين يديه بالسناجق السود الخليفتية والمؤذنون يكبرون على العادة وخطب يومئذ خطبة حسنة أكثرها في فضائل القرآن وقرأ في المحراب بأول سورة «طه» وحضر كثير من الأمراء والعامة والخاصة وبعض القضاة وكان يوما مشهودا وكنت ممن حضر قريبا منه.

والعجب أني وقفت في شهر ذي القعدة على كتاب ارسله بعض الناس إلى صاحب له من بلاد طرابلس وفيه: والمخدوم يعرِّف الشيخ عماد الدين بما جرى في بلاد السواحل من الحريق من بلاد طرابلس إلى آخر معاملة بيروت إلى جميع كسروان أحرق الجبال كلها ومات الوحوش كلها مثل النمور والدب والثعلب والخنزير من الحريق ما بقي للوحوش موضع يهربون فيه وبقي الحريق عليه ثلاثة أيام وهرب الناس إلى جانب البحر من خوف النار واحترق زيتون كثير فلما نزل المطر أطفأه بإذن الله تعالى يعني الذي وقع في تشرين وذلك في ذي القعدة من هذه السنة.

قال: ومن العجب أن ورقة من شجرة سقطت في بيت من مدخنته فأحرقت جميع ما فيه من الأثاث والثياب وغير ذلك ومن حليه حريراً كثيراً وغالب هذه البلاد للدرزية والرافضة نقلته من خط كاتبه محمد بن يلبان إلى صاحبه وهما عندي ثقتان فيالله العجب!

وفي هذا الشهر - يعني ذي القعدة - وقع بين الشيخ عماد الدين إسماعيل بن العز الحنفي وبين أصحابه من الحنفية مناقشة بسبب اعتدائه على بعض الناس في محاكمة فاقتضى ذلك إحضاره إلى مجلس الحكم ثلاثة أيام كمثل المتمرد عندهم فلما لم يحضر فيها حكم عليه القاضي شهاب الدين الكفري نائب الحنفي بإسقاط عدالته ثم ظهر خبره بأنه قصد بلاد مصر فارسل النائب في إثره من يرده فعنفه ثم أطلقه إلى منزله وشفع فيه قاضي القضاة الحنفي فاستحسن ذلك ولله الحمد والمنة.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة والخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان العباسي.

وسلطان الإسلام بالديار المصرية وما يتبعها وبالبلاد الشامية وما والاها والحرمين الشريفين وغير ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي وليس له بمصر نائب ولا وزير وإنما ترجع الأمور إصداراً وإيراداً إلى الأميرين الكبيرين سيف الدين شيخون وصرغتمش الناصريين.

وقضاة مصر هم المذكورون في التي قبلها.

ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين أمير علي المارداني وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها انتهى.

كائنة غريبة جداً

لما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة نهدت جماعة من مجاوري الجامع بدمشق من مشهد علي وغيره واتبعهم جماعة من الفقراء والمغاربة وجاؤو إلى أماكن متهمة بالخمر وبيع الحشيش فكسروا أشياء كثيرة من أواني الخمر وأراقوا ما فيها وأتلفوا شيئا كثيراً من الحشيش وغيره ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرهم فثار عليهم من البارذارية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا وجرت بينهم ضربات بالأيدي وغيرها وربما سل بعض الفساق السيوف عليهم كما ذكر.

وقد رسم ملك الأمراء لوالي المدينة ووالي البر أن يكونوا عضداً لهم وعوناً على الخمارين والحشاشة فنصروهم عليهم غير أنه كثر معهم الضجيج ونصبوا راية واجتمع عليهم خلق كثير.

ولما كان في أواخر النهار تقدم جماعة من النقباء والخزاندارية ومعهم جنازير فأخذوا جماعة من مجاوري الجامع وغيرهم وضربوا بالمقارع وطيف

بهم في البلد ونادوا عليهم: هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه تحت علم السلطان فتعجب الناس من ذلك وأنكروه حتى أنه أنكر اثنان من العامة على المنادية فضرب بعض الجند أحدهم بدبوس فقتله وضرب الآخر فيقال إنه مات أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي شعبان من هذه السنة حكي عن جارية من عتيقات الأمير سيف الدين تمر المهمندار أنها حملت قريبا من سبعين يوما ثم شرعت تطرح ما في بطنها فوضعت قريباً من أربعين يوما في أيام متتالية ومتفرقة أربعة عشر بنتا وصبياً بعدهن قلّ من يعرف شكل الذكر من الأنثى.

وجاء الخبر بأن الأمير سيف الدين شيخون مدبر الممالك بالديار المصرية والشامية ظفر عليه مملوك من مماليك السلطان فضربه بالسيف ضربات فجرحه في أماكن في جسده منها ما هو في وجهه ومنها ما هو في يده فحمل إلى منزله صريعاً طريحا جريحا وغضب لذلك طوائف من الأمراء حتى قيل إنهم ركبوا ودعوا إلى المبارزة فلم يجئ إليهم وعظم الخطب بذلك جدا واتهموا به الأمير سيف الدين صرغتمش وغيره وأن هذا إنما فعل عن ممالأة منهم فالله أعلم.

وفاة أرغون الكاملي باني البيمارستان بحلب

■ (أرغون الكاملي).

كانت وفاته بالقدس الشريف في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة ودفن بتربة أنشأها غربي المسجد بشماله وقد ناب بدمشق مدة بعد حلب ثم جرت الكائنة التي أصلها بيبغا قبحه الله في أيامه ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالإسكندرية مدة ثم أفرج عنه فأقام بالقدس الشريف إلى أن كانت وفاته كما ذكرنا في التاريخ المذكور؛ حرَّره الشريف بن زيرك والله أعلم.

وفاة الأمير شيخون

■ (شيخون).

ورد الخبر من الديار المصرية بوفاة الأمير سيف الدين شيخون ليلة الجمعة السادس والعشرين من ذي القعدة ودفن من الغد بتربته وقد ابتنى مدرسة هائلة وجعل فيها المذاهب الأربعة، ودارا للحديث، وخانقاه للصوفية، وأوقف عليها شيئا كثيراً، وقرر فيها معاليم وافرة دارة، وترك أموالا جزيلة، وحواصل كثيرة، ودواوين في سائر البلاد المصرية والشامية، وخلف بنات وزوجة، وورث البقية أولاد السلطان المذكور بالولاء، ومسك بعد وفاته أمراء كثيرون بمصر، كانوا من حزبه، من أشهرهم عز الدين طقطاي، الدوادار، وابن قوصون، وأمه أخت السلطان، خلف عليها شيخون بعد قوصون، انتهى، والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالبلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي، وقد قوي جانبه وحاشيته، بموت الأمير شيخون كما ذكرنا، في سادس عشرين ذي القعدة من السنة الماضية، وصار إليه من ميراثه من زهرة الحياة الدنيا شيء كثير، من القناطير المقنطرة، من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، وكذلك من المماليك، والأسلحة، والعدة والبرك، والمتاجر ما يشق حصره، ويتعذر إحصاؤه ههنا.

وليس في الديار المصرية فيما بلغنا إلى الآن نائب ولا وزير، والقضاة بها هم المذكورون في التي قبلها.

وأما دمشق فنائبها وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها، سوى الحنفي، فإنه قاضي القضاة شرف الدين الكفري، عوضا عن نجم الدين الطرسوسي، توفي في شعبان من السنة الماضية.

ونائب حلب سيف الدين طاز، وطرابلس منجك، وحماة استدمر العمري، وصفد شهاب الدين بن صبح، وبحمص صلاح الدين خليل بن خاص ترك، وبعلبك ناصر الدين الأقوش.

وفي صبيحة يوم الاثنين رابع عشر المحرم خرجت أربعة آلاف مع أربعة مقدمين إلى ناحية حلب، نصرة لجيش حلب، على مسك طاز إن امتنع من السلطنة كما أمر.

ولما كان يوم الحادي والعشرين من المحرم نادى المنادي من جهة نائب السلطنة، أن يركب من بقي من الجند في الحديد، ويوافوه إلى سوق الخيل، فركب معهم قاصداً ناحية ثنية العقاب ليمنع الأمير طاز من دخول البلد، لما تحقق مجيئه في جيشه، قاصداً إلى الديار المصرية، فانزعج الناس لذلك، وأخليت دار السعادة من الحواصل والحريم إلى القلعة، وتحصن كثير من الأمراء بدورهم داخل البلد، وأغلق باب النصر، فاستوحش الناس، من ذلك بعض الشيء، ثم غلقت أبواب البلد كلها، إلا باب الفراديس والفرج وباب الجابية أيضاً لأجل دخول الحجاج.

ودخل المحمل صبيحة يوم الجمعة، الثالث والعشرين من المحرم، ولم يشعر به كثير من الناس، لشغلهم بما هم فيه من أمر طاز، وأمر العشير بحوران، وجاء الخبر بمسك الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب الكبير بأرض حوران، وسجنه بقلعة صرخد، وجاء سيفه صحبة الأمير جمال الدين الحاجب، فذهب به إلى الوطاق عند الثنية، وقد وصل طاز بجنوده إلى باب القطيفة، وتلاقى شاليشه بشاليش نائب الشام، ولم يكن منهم قتال، ولله الحمد.

ثم تراسل هو والنائب في الصلح، على أن يسلم طاز نفسه، ويركب في عشرة سروج إلى السلطان، وينسلخ عما هو فيه، ويكاتب فيه النائب، وتلطفوا بأمره عند السلطان، ويكل ما يقدر عليه، فأجاب إلى ذلك، وأرسل يطلب من يشهده على وصيته، فأرسل إليه نائب السلطنة القاضي شهاب الدين قاضي العسكر، فذهب إليه، فأوصى لولده وأم ولده ولوالده نفسه، وجعل الناظر على وصيته الأمير علاء الدين أمير على المارداني نائب السلطنة، وللأمير صرغتمش.

ورجع النائب من الثنية عشية يوم السبت بين العشاءين، الرابع والعشرين منه وتضاعفت الأدعية له، وفرح الناس بذلك فرحا شديداً، ودعوا إلى الأمير طاز، بسبب إجابته إلى السمع والطاعة، وعدم مقاتلته مع كثرة من كان معه من الجيوش، وقوة من كان يحرضه على ذلك من أخويه وذويه، قد اجتمعت بنائب السلطنة الأمير علاء الدين أمير على الماردانى، فأخبرني بملخص ما وقع منذ خرج إلى أن رجع، ومضمون كلامه، أن الله لطف بالمسلمين لطفا عظيما، إذ لم يقع بينهم قتال، فإنه قال: لما وصل طاز إلى القطيفة، وقد نزلنا نحن بالقرب من خان لاجين، أرسلت إليه مملوكا من مماليكي أقول له: إن المرسوم الشريف قد ورد بذهابك إلى الديار المصرية،

في عشرة سروج فقط، فإذا جئت هكذا فأهلا وسهلا، وإن لم تفعل فأنت أصل الفتنة، وركبت ليلة الجمعة طول الليل في الجيش وهو ملبس، فرجع مملوكي ومعه مملوكه سريعا، يقول: إنه يسأل أن يدخل بطلبه، كما خرج بطلبه من مصر، فقلت: لا سبيل إلى ذلك إلا في عشرة سروج كما رسم السلطان، فرجع وجاءني الأمير الذي جاء من مصر بطلبه فقال: إنه يطلب منك أن يدخل في مماليكه، فإذا جاوز دمشق إلى الكسوة نزل جيشه هناك، وركب هو في عشرة سروج كما رسم فقلت: لا سبيل إلى أن يدخل دمشق، ويتجاوز بطلبه أصلا، وإن كان عنده خيل ورجال وعدة فعندي أضعاف ذلك، فقال لي الأمير: يا خوند لا تكون تنشئ فتنة، فقلت: لا يقع إلا ما تسمع، فرجع، فما هو إلا أن ساق مقدار رمية سهم، وجاء بعض الجواسيس الذين لنا عندهم فقال: يا خوند ها قد وصل جيش حماة وطرابلس، ومن معهم من جيش دمشق الذين كانوا قد خرجوا بسببه، وقد اتفقوا هم وهو، قال: فحينئذ ركبت في الجيش، وأرسلت طليعتين أمامي، وقلت تراؤوا للجيوش الذين جاؤوا حتى يروكم، فيعلموا أنا قد أحطنا بهم من كل جانب، فحينئذ جاء البرد من جهته بطلب الأمان، ويجهرون بالإجابة إلى أن يركب في عشرة سروج، ويترك طلبه بالقطيفة، وذلك يوم الجمعة، فلما كان الليل ركبت أنا والجيش في السلاح طول الليل، وخشيت أن تكون مكيدة وخديعة، فجاءتنا الجواسيس، فأخبرونا أنهم قد أوقدوا نشابهم ورماحهم وكثيراً من سلاحهم، فتحققنا عند ذلك طاعته وإجابته، لكل ما رسم به، فلما أصبح يوم السبت وصى وركب في عشرة سروج، وسار نحو الديار المصرية، ولله الحمد والمنة.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر، دخل حاجب الحجاب الذي كان سجن في قلعة صرخد مع البريدي الذي قدم بسببه من الديار المصرية، وتلقاه جماعة من الأمراء والكبراء، وتصدق بصدقات كثيرة في داره، وفرحوا به فرحا شديداً، وهو والناس يقولون إنه ذاهب إلى الديار المصرية معظما مكرما، على تقدمة ألف، ووظائف هناك.

فلما كان يوم الخميس السابع والعشرين منه لم يفجأ الناس إلا وقد دخل القلعة المنصورة، معتقلا بها، مضيقا عليه، فتعجب الناس من هذه الترحة من تلك الفرحة، فما شاء الله كان.

وفي يوم الأربعاء رابع ربيع الأول عقد مجلس بسبب الحاجب بالمشهد من الجامع.

وفي يوم الخميس أحضر الحاجب من القلعة إلى دار الحديث، واجتمع القضاة هناك، بسبب دعاوى يطلبون منه حق بعضهم.

ثم لما كان يوم الاثنين تاسعه قدم من الديار المصرية مقدم البريدية، بطلب الحاجب المذكور، فأخرج من القلعة المنصورة، وجاء إلى نائب السلطنة فقبل قدمه، ثم خرج إلى منزله، وركب من يومه قاصداً إلى الديار المصرية مكرما، وخرج بين يديه خلق من العوام والحرافيش، يدعون له، وهذا أغرب ما أرخ، فهذا الرجل نالته شدة عظيمة، بسبب سجنه بصرخد، ثم أفرج عنه ثم حبس في قلعة دمشق ثم أفرج عنه، وذلك كله في نحو شهر.

ثم جاءت الأخبار في يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى، بعزل نائب السلطنة عن دمشق، فلم يركب في الموكب يوم الاثنين، ولا حضر في دار العدل، ثم تحققت الأخبار بذلك، وبذهابه إلى نيابة حلب، ومجيء نائب حلب إلى دمشق، فتأسف كثير من الناس عليه لديانته، وجوده، وحسن معاملته لأهل العلم، ولكن حاشيته لا ينفذون أوامره، فتولد بسبب ذلك فساد عريض، وحموا كثيرا من البلاد، فوقعت الحروب بين أهلها بسبب ذلك، وهاجت العشيرات، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين خرج الأمير علي المارداني من دمشق في طلبه مستجملاً، في أبهة النيابة، قاصدا إلى حلب المحروسة، وقد ضرب وطاقه بوطاة برزة، فخرج الناس للتفرج على طلبه.

وفي هذا اليوم بعد خروج النائب بقليل دخل الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب من الديار المصرية، عائداً إلى وظيفة الحجوبية في أبهة عظيمة، وتلقاه الناس بالشموع، ودعوا له، ثم ركب من يومه إلى خدمة ملك الأمراء إلى وطاة برزة، فقبل يده، وخلع عليه الأمراء، واصطلحا، انتهى والله أعلم.

دخول نائب السلطنة منجك إلى دمشق المحروسة

كان ذلك في صبيحة يوم الخميس، الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، من ناحية حلب، وبين يديه الأمراء والجيش على العادة، وأوقدت الشموع، وخرج الناس، ومنهم من بات تلك الليلة على الأسطحة، وكان يوما هائلا.

وفي أواخر شهر رجب برز نائب السلطنة إلى الربوة، وأحضر القضاة وولاة الأمور، ورسم بإحضار المفتين وكنت فيمن طلب يومئذ إلى الربوة فركبت إليها وكان نائب السلطنة عزم يومئذ على تخريب المنازل المبنية بالربوة، وغلق الحمام من أجل هذه، فيما ذكر أنها بنيت ليقضى فيها، وهذا الحمام أوساخه صائرة إلى النهر الذي يشرب منه الناس، فاتفق الحال في آخر الأمر على إبقاء المساكن، ورد المرتفقات المسلطة على ثورا وبانياس، ويترك ما هو مسلط على بردى، فانكف الناس عن الذهاب إلى الربوة بالكلية، ورسم يومئذ بتضييق أكمام النساء، وأن تنزل الأجراس والركب عن الحمير التي للمكارية.

وفي أوائل شهر شعبان ركب نائب السلطنة يوم الجمعة بعد العصر، ليقف على الحائط الرومي الذي بالرحبية، فخاف أهل الأسواق، وغلقوا دكاكينهم عن آخرهم، واعتقدوا أن نائب السلطنة أمر بذلك، فغضب من ذلك، وتنصل منه، ثم إنه أمر بهدم الحائط المذكور، وأن ينقل إلى العمارة التي استجدها خارج باب النصر في دار الصناعة التي إلى جانب دار العدل، أمر ببنائها خاناً، ونقلت تلك الأحجار إليها، انتهى والله أعلم.

عزل القضاة الثلاثة بدمشق

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم من الديار المصرية بريدي، ومعه تذكرة ورقة فيها السلام على القضاة المستجدين، وأخبر بعزل القاضي الشافعي، والحنفي، والمالكي، وأنه ولّي قضاة الشافعية القاضي بهاء الدين أبو البقاء السبكي، وقضاء الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج الحنفي، وذهب الناس إلى السلام عليهم، والتهنئة لهم، واحتفلوا بذلك وأخبروا أن القاضي المالكي سيقدم من الديار المصرية.

ولما كان يوم السبت السابع والعشرين من شعبان، وصل البريد من الديار المصرية، ومعه تقليدان وخلعتان للقاضي الشافعي، والقاضي الحنفي، فلبسا الخلعتين، وجاءا من دار السعادة إلى الجامع الأموي، وجلسا في محراب المقصورة، وقرأ تقليد قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء الشافعي، الشيخ نور الدين بن الصارم المحدث على السدة تجاه المحراب، وقرأ تقليد

قاضي القضاة جمال الدين بن السراج الحنفي الشيخ عماد الدين ابن السراج المحدث أيضا على السدة، ثم حكما هنالك، ثم جاءا معاً إلى الغزالية فدرس بها قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء، وجلس الحنفي إلى جانبه عن يمينه، وحضرت عنده، فأخذ في صيام يوم الشك، ثم جاءا معاً إلى المدرسة النورية، فدرس بها قاضي القضاة جمال الدين المذكور، وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين، وذكروا أنه أخذ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية [النساء: ١٣٥]، ثم انصرف بهاء الدين إلى المدرسة العادلية الكبيرة فدرس بها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ الآية [النساء: ٥٨،٥٩].

وفي صبيحة يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان دخل القاضي المالكي من الديار المصرية، فلبس الخلعة يومئذ، ودخل المقصورة من الجامع الأموي، وقرئ تقليده هنالك، بحضرة القضاة والأعيان، قرأه الشيخ نور الدين بن الصارم المحدث، وهو قاضي القضاة شرف الدين أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن الشيخ شمس الدين محمد بن عسكر العراقي البغدادي، قدم الشام مراراً، ثم استوطن الديار المصرية، بعد ما حكم ببغداد نيابة عن قطب الدين الأخوي، ودرس بالمستنصرية بعد أبيه، وحكم بدمياط أيضا، ثم نقل إلى قضاء المالكية بدمشق، وهو شيخ حسن، كثير التودد، ومسدد العبارة، حسن البشر عند اللقاء، مشكور في مباشرته عفة ونزاهة وكرم، الله يوفقه ويسدده.

مسك الأمير طرغتمش أتابك الأمراء بالديار المصرية

ورد الخبر إلينا بمسكه يوم السبت، الخامس والعشرين من رمضان هذا، وأنه قبض عليه بحضرة السلطان، يوم الاثنين العشرين منه، ثم اختلفت الرواية عن قتله، غير أنه احتيط على حواصله وأمواله، وصودر أصحابه وأتباعه، فكان فيمن ضرب وعصر تحت المصادرة القاضي ضياء الدين ابن خطيب بيت الآبار، واشتهر أنه مات تحت العقوبة، وقد كان مقصداً للواردين إلى الديار المصرية، لا سيما أهل بلدة دمشق، وقد باشر عدة وظائف، وكان في آخر عمره قد فوض إليه نظر جميع الأوقاف ببلاد السلطان، وتكلم في أمر الجامع الأموي وغيره، فحصل بسبب ذلك قطع أرزاق جماعات من الكتبة وغيرهم، ومالأ الأمير صرغتمش في أمور كثيرة خاصة وعامة، فهلك بسببه، وقد قارب الثمانين، انتهى.

إعادة القضاة

وقد كان صرغتمش عزل القضاة الثلاثة بدمشق، وهم الشافعي، والحنفي، والمالكي، كما تقدم، وعزل قبلهم ابن جماعة، وولى ابن عقيل، فلما مسك صرغتمش رسم السلطان بإعادة القضاة على ما كانوا عليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى دمشق امتنع القضاة الثلاثة من الحكم، غير أنهم حضروا ليلة العيد لرؤية الهلال بالجامع الأموي، وركبوا مع النائب صبيحة العيد إلى المصلى، على عادة القضاة، وهم على وجل، وقد انتقلوا من مدارس الحكم، فرجع قاضي القضاة أبو البقاء الشافعي إلى بستانه بالزعيفرية، ورجع قاضي القضاة جمال الدين ابن السراج إلى داره بالتعديل، وارتحل قاضي القضاة شرف الدين المالكي إلى الصالحية داخل الصمصامية، وتألم كثير من الناس بسببه، لأنه قد قدم غريبا من الديار المصرية، وهو فقير وتديّن، وقد باشر الحكم جيداً، ثم تبين بآخرة أنه لم يعزل، وأنه مستمر كما سنذكره، ففرح أصحابه وأحبابه، وكثير من الناس بذلك.

فلما كان يوم الأحد رابع شوال، قدم البريد وصحبته تقليد الشافعي قاضي القضاة تاج الدين بن السبكي، وتقليد الحنفي قاضي القضاة شرف الدين الكفري، واستمر قاضي القضاة شرف الدين المالكي العراقي على قضاء المالكية، لأن السلطان تذكر أنه كان شافهه بولاية القضاء بالشام، وسيره بين يديه إلى دمشق، فحمدت سيرته كما حسنت سريرته إن شاء الله، وفرح الناس له بذلك.

■ (محمد بن يحيى بن محمد بن سعد الحنبلي).

وفي ذي القعدة توفي المحدث شمس الدين محمد بن سعد الدين يحيى بن محمد بن سعد الحنبلي يوم الاثنين ثالثه، ودفن من الغد بالسفح، وقد قارب الستين، وكتب كثيرا وخرج، وكانت له معرفة جيدة بأسماء الأجزاء ورواتها من الشيوخ المتأخرين، وقد كتب للحافظ البرزالي قطعة كبيرة من مشايخه، وخرج له عن كل حديثا أو أكثر، وأثبت له ما سمعه عن كل منهم، ولم يتم حتى توفي البرزالي رحمه الله.

وتوفي بهاء الدين

■ ابن المرجاني باني جامع الفوقاني، وكان مسجدا في الأصل، فبناه جامعا، وجعل فيه خطبة، وكنت أول من خطب فيه، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وسمع شيئا من الحديث، وبلغنا مقتل الأمير سيف الدين بن فضل بن عيسى بن مهنا أحد أمراء الأعراب الأجواد الأنجاد، وقد ولّي إمرة آل مهنا غير مرة كما وليها أبوه من قبله، عدا عليه بعض بني عمه فقتله عن غير قصد بقتله، كما ذكر، لكن لما حمل عليه السيف أراد أن يدفع عن نفسه ويتّقيه، فضربه بسيف في رأسه ففلقه، فلم يعش بعده إلا أياما قلائل ومات رحمه الله انتهى.

عزل منجك عن دمشق

ولما كان يوم الأحد ثامن ذي الحجة قدم أمير من الديار المصرية ومعه تقليد نائب دمشق، وهو الأمير سيف الدين منجك بنيابة صفد المحروسة، فاصبح من الغد وهو يوم عرفة وقد انتقل من دار السعادة إلى سطح المزة قاصداً إلى صفد المحروسة، فعمل العيد بسطح المزة، ثم ترحل نحو صفد، وطمع كثير من المفسدين والخمارين وغيرهم، وفرحوا بزواله عنهم.

وفي يوم العيد قرئ كتاب السلطان بدار السعادة على الأمراء، وفيه التصريح باستنابة أميره علي الماردني عليهم، وعوده إليهم، والأمر بطاعته، وتعظيمه واحترامه، والشكر له، والثناء عليه، وقدم الأمير شهاب الدين بن صبح من نيابة صفد، ونزل بداره بظاهر البلد، بالقرب من الشامية البرانية.

ووصل البريد يوم السبت الحادي والعشرين من ذي الحجة بنفي صاحب الحجاب طيدمر الإسماعيلي إلى مدينة حماة، بطالا في سرجين والله أعلم.

ثم دخلت سنة ستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وملك الديار المصرية والشامية وما يتبع ذلك من الممالك الإسلامية الملك الناصر حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي.

وقضاته بمصر هم المذكورون في السنة التي قبلها.

ونائبه بدمشق الأمير علاء الدين علي المارداني.

وقضاة الشام هم المذكورون في التي قبلها غير المالكي، فإنه عزل جمال الدين المسلاتي، بشرف الدين العراقي، وحاجب الحجاب الأمير شهاب الدين بن صبح، وخطيب البلد وكاتب سرّها المذكوران.

وفي صبيحة يوم الأربعاء ثالث المحرم دخل الأمير علاء الدين أمير على نائب السلطنة إلى دمشق من نيابة حلب، ففرح الناس به، وتلقوه إلى أثناء الطريق، وحملت له العامة الشموع في طرقات البلد، ولبس الأمير شهاب الدين بن صبح خلعة الحجابة الكبيرة بدمشق، عوضاً عن نيابة صفد.

ووردت كتب الحجاج يوم السبت الثالث عشر منه، مؤرخة سابع عشرين ذي الحجة من العلا، وذكروا أن صاحب المدينة النبوية عدا عليه فداويان عند لبسه خلعة السلطان، وقت دخول المحمل إلى المدينة الشريفة فقتلاه، فعدت عبيده على الحجيج الذين هم داخل المدينة، فنهبوا من أموالهم، وقتلوا بعضهم وخرجوا، وكانوا قد أغلقوا أبواب المدينة دون الجيش، فأحرق بعضها، ودخل الجيش السلطاني، فاستنقذوا الناس من أيدي الظالمين.

ودخل المحمل السلطاني إلى دمشق يوم السبت العشرين من هذا الشهر على عادته، وبين يدي المحمل الفداويان اللذان قتلا صاحب المدينة، وقد ذكرت عنه أمور شنيعة بشعة، من غلوه في الرفض المفرط، ومن قوله إنه لو تمكن لأخرج الشيخين من الحجرة، وغير ذلك من عبارات مؤدية لعدم إيمانه إن صح عنه، والله أعلم.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء سادس صفر مسك الأمير شهاب الدين بن صبح حاجب الحجاب، وولداه الأميران، وحبسوا في القلعة المنصورة، ثم سافر به الأمير ناصر الدين بن جاربك بعد أيام إلى الديار المصرية، وفي رجل ابن صبح قيد، وذكر أنه فك من رجله في أثناء الطريق.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر صفر قدم نائب طرابلس الأمير سيف الدين عبد الغني فأدخل القلعة، ثم سافر به الأمير علاء الدين بن أبي بكر إلى الديار المصرية، محتفظا به، مضيقاً عليه، وجاء الخبر بأن منجك سافر من صفد على البريد، مطلوبا إلى السلطان، فلما كان بينه وبين غزة بريد واحد دخل بمن معه من خدمه التيه، فارا من السلطان، وحين وصل الخبر إلى نائب غزة اجتهد في طلبه، فأعجزه، وتفارط الأمر، انتهى، والله أعلم.

مسك الأمير علي المارداني نائب الشام

وأصل ذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رجب، ركب الجيش إلى تحت القلعة ملبسين، وضربت البشائر في القلعة في ناحية الطارمة، وجاء الأمراء بالطبلخاناه من كل جانب، والقائم بأعباء الأمر الأمير سيف الدين بيدمر الحاجب، ونائب السلطنة داخل دار السعادة، والرسل مرددة بينه وبين الجيش، ثم خرج فحمل على سروج يسيرة، محتاطا عليه إلى ناحية الديار المصرية، واستوحش من أهل الشام عند باب النصر، فتباكى الناس رحمة له، وأسفة عليه، لديانته، وقلة أذيته، وأذية الرعية، وإحسانه إلى العلماء والفقراء والقضاة.

ثم في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين منه احتيط على الأمراء الثلاثة، وهم الأمير سيف الدين طيبغا حاجي أحد مقدمي الألوف، والأمير سيف الدين قطليجا الدوادار أحد المقدمين أيضا، والأمير علاء الدين أيدغمش المارداني أحد أمراء الطبلخاناه، وكان هؤلاء ممن حضر نائب السلطنة المذكور، وهم جلساؤه وسماره، والذين بسفارته أعطوا الأخبار والطبلخاناه والتقادم، فرفعوا إلى القلعة المنصورة، معتقلين بها، مع من بها من الأمراء، ثم ورد الخبر بأن الأمير علياً رد من الطريق، بعد مجاوزته غزة، وأرسل إليه بتقليد نيابة صفد المحروسة، فتماثل الحال، وفرح بذلك أصحابه وأحبابه.

وقدم متسلم دمشق الذي خلع عليه بنيابتها بالديار المصرية، في يوم الخميس سادس عشر شهر رجب، بعد أن استعفى من ذلك مراراً، وباس الأرض مراراً فلم يعفه السلطان، وهو الأمير سيف الدين أسندمر، أخو يلبغا اليحياوي، الذي كان نائب الشام، وبنته اليوم زوجة السلطان، قدم متسلمه إلى دمشق يوم الخميس، سلخ الشهر، فنزل في دار السعادة، وراح القضاة والأعيان للسلام عليه، والتودد إليه، وحملت إليه الضيافات والتقادم، انتهى والله أعلم.

كائنة وقعت بقرية حوران فأوقع الله بهم بأساً شديداً في هذا الشهر الشريف

وذلك أنهم أشهر أهل قرية بحوران، وهي خاص لنائب الشام، وهم حلبية يمن، ويقال لهم بنو لبسه، وبني ناشي، وهي حصينة منيعة، يضوي إليها كل مفسد، وقاطع، ومارق، ولجأ إليهم أحد شياطين روس العشير، وهو عمر المعروف بالدنيط، فأعدوا عددا كثيرة، ونهبوا ليغنموا العشير، وفي هذا الحين بدرهم والي الولاة المعروف بشنكل منكل، فجاء إليهم ليردهم ويهديهم، وطلب منهم عمر الدنيط، فأبوا عليه، وراموا مقاتلته، وهم جمع كثير وجم غفير، فتأخر عنهم، وكتب إلى نائب السلطنة ليمده بجيش، عونا له عليهم وعلى أمثالهم، فجهز له جماعة من أمراء الطبلخاناه، والعشراوات ومائة من جند الحلقة الرماة.

فلما بغتهم في بلدهم تجمعوا لقتال العسكر ورموه بالحجارة والمقاليع، وحجزوا بينهم وبين البلد، فعند ذلك رمتهم الأتراك بالنبال من كل جانب، فقتلوا منهم فوق المائة، ففروا على أعقابهم، وأسر منهم والي الولاة نحواً من ستين رجلا، وأمر بقطع رؤوس القتلى، وتعليقها في أعناق هؤلاء الأسرى، ونهبت بيوت الفلاحين كلهم، وسلمت إلى مماليك نائب السلطنة، لم يفقد منها ما يساوي ثلاثمائة درهم، وكر راجعا إلى بصرى، وشيوخ العشيرات معه، فأخبرني الأمير صلاح الدين بن خاص ترك، وكان من جملة أمراء الطبلخاناه الذين قاتلوهم بمبسوط ما يخصه، وأنه كان إذا أعيا بعض تلك الأسرى من الجرحى أمر المشاعلي بذبحه، وتعليق رأسه على بقية الأسرى، وفعل هذا بهم غير مرة، حتى إنه قطع رأس شاب منهم، وعلق رأسه على أبيه، شيخ كبير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حتى قدم بهم بصرى، فشكل طائفة من أولئك المأسورين، فشكل آخرين، ووسط الآخرين، وحبس بعضهم في القلعة، وعلق الرؤوس على أخشاب نصبها حول قلعة بصرى، فحصل بذلك تنكيل شديد، لم يقع مثله في هذا الأوان بأهل حوران، وهذا كله سلط عليهم بما كسبت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نولي بعضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] فإنا لله وإنا إليه راجعون، انتهى.

دخول نائب السلطنة الأمير سيف الدين أسندمر اليحياوي

في صبيحة يوم الاثنين حادي عشر شعبان من هذه السنة كان دخول الأمير سيف الدين أسندمر اليحياوي نائبا على دمشق، من جهة الديار المصرية، وتلقاه الناس، واحتفلوا له احتفالا زائدا، وشاهدته حين ترجل لتقبيل العتبة، ويعضده الأمير سيف الدين بيدمر، الذي كان حاجب الحجاب، وعين لنيابة حلب المحروسة، فاستقبل القبلة، وسجد على العتبة، وقد بسط له عندها مفارش وصملة هائلة، ثم إنه ركب فتعضده بيدمر أيضا، وسار نحو الموكب، فأوكب ثم عاد إلى دار السعادة على عادة من تقدمه من النواب، وجاء تقليد الأمير سيف الدين بيدمر من آخر النهار، لنيابة حلب المحروسة.

وفي آخر نهار الثلاثاء بعد العصر ورد البريد البشيري وعلى يده مرسوم شريف بنفي القاضي بهاء الدين أبي البقاء وأولاده وأهله إلى طرابلس، بلا وظيفة، فشق ذلك عليه وعلى أهليه ومن يليه، وتغمم له كثير من الناس، وسافر ليلة الجمعة، وقد أذن له في الاستنابة في جهاته، فاستناب ولده الكبير ولي الدين.

واشتهر في شوال أن الأمير سيف الدين منجك الذي كان نائب السلطنة بالشام، وهرب ولم يطلع له خبر، فلما كان في هذا الوقت ذكر أنه مسك ببلد بحران، من معاملة ماردين في زي فقير، وأنه احتفظ عليه، وأرسل السلطان قراره، وعجب كثير من الناس من ذلك، ثم لم يظهر لذلك حقيقة، وكان الذين رأوه ظنوا أنه هو، فإذا هو فقير من جملة الفقراء، يشبهه من بعض الوجوه.

واشتهر في ذي القعدة أن الأمير عز الدين فياض بن مهنا ملك العرب، خرج عن طاعة السلطان، وتوجه نحو العراق، فوردت المراسيم السلطانية لمن بأرض الرحبة من العساكر الدمشقية، وهم أربعة مقدمين في أربعة آلاف، وكذلك جيش حلب وغيره بتطلبه، وإحضاره إلى بين يدي السلطان، فسعوا في ذلك بكل ما يقدرون عليه، فعجزوا عن لحاقه، والدخول وراءه إلى البراري، وتفارط الحال، وخلص إلى أرض العراق، فضاق النطاق، وتعذر اللحاق.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وسبعمائة

استهلت وسلطان المسلمين الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون.

وقضاة مصر والشام هم المذكورون في التي قبلها، ونائب الشام الأمير سيف الدين أسندمر أخو يلبغا اليحياوي، وكاتب السر القاضي أمين الدين بن القلانسي.

وفي مستهل المحرم جاء الخبر بموت الشيخ

■ صلاح الدين العلائي بالقدس الشريف، ليلة الاثنين ثالث المحرم، وصلي عليه من الغد بالمسجد الأقصى، بعد صلاة الظهر، ودفن بمقبرة باب الرحمة، وله من العمر ست وستون سنه، وكان مدة مقامه بالقدس مدرسا بالمدرسة الصلاحية وشيخا بدار الحديث السكرية ثلاثين سنة.

وقد صنف وألف، وجمع وخرج، وكانت له يد طولى بمعرفة العالي والنازل، وتخريج الأجزاء والفوائد وله مشاركة قوية في الفقه، واللغة والعربية، والأدب وفي كتابته ضعف، لكن مع صحة وضبط لما يشكل، وله عدة مصنفات وبلغني أنه وقفها على الخانقاه السميساطية بدمشق، وقد ولّى بعده التدريس بالصلاحية الخطيب برهان الدين بن جماعة، والنظر بها، وكان معه تفويض منه متقدم التاريخ.

وفي يوم الخميس السادس من محرم احتيط على متولّي البر ابن بهادر السنجري، ورسم عليه بالعذراوية، بسبب أنه اتهم بأخذ مطلب من نعمان البلقاء هو وكجكن الحاجب، وقاضي حسان، والظاهر أن هذه مرافعة من خصم عدو لهم، وأنه لم يكن من هذا شيء، والله أعلم.

ثم ظهر على رجل يزور المراسيم الشريفة، وأخذ بسببه مدرس الصارمية، لأنه كان عنده في المدرسة المذكورة، وضرب بين يدي ملك الأمراء، وكذلك على الشيخ زين الدين زيد المغربي الشافعي، وذكر عنه أنه يطلب مرسوماً لمدرسة الأكزية، وضرب أيضاً ورسم عليه في حبس السد، وكذلك حبس الأمير شهاب الدين، الذي كان متولّي البلد، لأنه كان قد كتب له مرسوما شريفاً بالولاية، فلما فهم ذلك كاتب السر أطلع عليه نائب السلطنة، فانفتح عليه الباب، وحبسوا كلهم بالسد.

وجاءت كتب الحجاج ليلة السبت، الخامس عشر من المحرم، وأخبرت بالخصب والرخص والأمن، ولله الحمد والمنة.

ودخل المحمل بعد المغرب ليلة السبت الثاني والعشرين منه، ثم دخل الحجيج بعده في الطين والدحض، وقد لقوا من ذلك من بلاد حوران عناء وشدة، ووقعت جمالات كثيرة، وسبيت نساء كثيرة، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، وحصل للناس تعب شديد.

ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين قطعت يد الذي زور المراسيم، واسمه السراج عمر القفطي المصري، وهو شاب كاتب، منطيق على ما ذكر، وحمل في قفص على جمل وهو مقطوع اليد، ولم يحسم بعد والدم ينصب منها، وأركب معه الشيخ زين الدين زيد على جمل، وهو منكوس وجهه إلى ناحية دبر الجمل، وهو عريان مكشوف الرأس، وكذلك البدر الحمصي على جمل آخر، وأركب الوالي شهاب الدين على جمل آخر، وعليه تخفيفة صغيرة، وخف وقباء، وطيف بهم في محال البلد، ونودي عليهم: هذا جزاء من يزور على السلطان، ثم أودعوا حبس الباب الصغير، وكان قبل هذا التعزير في حبس السد، ومنه أخذوا وأشهروا، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، انتهى.

مسك منجك وصفة الظهور عليه وكان مختفياً بدمشق حوال سنة

لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم جاء ناصح إلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين أسندمر، فأخبره بأن منجك في دار الشرف الأعلى، فأرسل من فوره إلى ذلك المنزل الذي هو فيه بعض الحجبة، ومن عنده من خواصه، فأحضر إلى بين يديه محتفظا عليه جداً، بحيث إن بعضهم ردفه من ورائه واحتضنه، فلما واجهه نائب السلطنة أكرمه، وتلقاه، وأجلسه معه على مقعدته، وتلطف به، وسقاه وأضافه، وقد قيل إنه كان صائما فأفطر عنده، وأعطاه من ملابسه، وقيده وأرسله إلى السلطان من ليلته ليلة الجمعة مع جماعة من الجند، وبعض الأمراء، منهم حسام الدين

أمير حاجب، وقد كان أرسل نائب السلطنة ولده بسيف منجك من أوائل النهار، وتعجب الناس من هذه القضية جداً، وما كان يظن كثير من الناس إلا أنه قد عدم باغتيال أو أنه في بعض البلاد النائية، ولم يشعر الناس إلا أنه في وسط دمشق، وأنه يمشي بينهم متنكراً، وقد ذكر أنه كان يحضر الجمعات بجامع دمشق، ويمشي بين الناس متنكراً في لبسه وهيئته، ومع هذا لن يغني حذر من قدر، ولكل أجل كتاب، وأرسل ولد ملك الأمراء بالسيف، وبملابسه التي كان يتنكر بها، وبعث هو مع جماعة من الأمراء الحجبة وغيرهم، وجيش كثيف إلى الديار المصرية، مقيدا محتفظا عليه، ورجع ابن ملك الأمراء بالتحف والهدايا، والخلع والإنعام لوالده، ولحاجب الحجاب، ولبس ذلك الأمراء يوم الجمعة، واحتفل الناس بالشموع وغيرها.

ثم تواترت الأخبار بدخول منجك إلى السلطان، وعفوه عنه، وخلعته الكاملة عليه، وإطلاقه له الحسام والخيول المسومة، والألبسة المفتخرة، والأموال، والأمان، وتقديم الأمراء والأكابر له من سائر صنوف التحف، وقدوم الأمير علي من صفد قاصدا إلى حماة لنيابتها، فنزل القصر الأبلق ليلة الخميس، رابع صفر، وتوجه ليلة الأحد سابعه.

وفي يوم الخميس الثامن عشر من صفر قدم القاضي بهاء الدين أبو البقاء من طرابلس، بمرسوم شريف، أن يعود إلى دمشق على وظائفه المبقاة عليه، وقد كان ولده وليّ الدين ينوب عنه فيها، فتلقاه كثير من الناس إلى أثناء الطريق، وبرز إليه قاضي القضاة تاج الدين إلى حرستا، وراح الناس إلى تهنئته إلى داره، وفرحوا برجوعه إلى وطنه.

ووقع مطر عظيم في أول هذا الشهر، وهو أثناء شهر شباط، وسقط ثلج عظيم، فرويت البساتين التي كانت لها عن الماء عدة شهور، ولا يحصل لأحد من الناس سقي إلا بكلفة عظيمة ومشقة، ومبلغ كثير، حتى كاد الناس يقتتلون عليه بالأيدي والدبابيس، وغير ذلك من البذل الكثير، وذلك في شهور كانون الأول والثاني، وأول شباط، وذلك لقلة مياه الأنهار وضعفها، وكذلك بلاد حوران أكثرهم يسروون من أماكن بعيدة في هذه الشهور، ثم منَّ اللّه تعالى فجرت الأودية، وكثرت الأمطار والثلوج، وغزرت الأنهار، وللّه الحمد والمنة، وتوالت الأمطار، فكأنه حصل السيل في هذه السنة، من كانون إلى شباط، فكأن شباط هو كانون، وكانون، لم يسل فيه ميزاب واحد.

ووصل في هذا الشهر الأمير سيف الدين منجك إلى القدس الشريف، ليبتني للسلطان مدرسة وخانقاه غربي المسجد الشريف، وأحضر الطرخان الذي كتب له بماء الذهب إلى دمشق، وشاهده الناس ووقعت على نسخته، وفيها تعظيم زائد، ومدح وثناء له، وشكر على متقدم خدمه لهذه الدولة، والعفو عما مضى من زلاته، وذكر سيرته بعبارة حسنة.

وفي أوائل شهر ربيع الآخر رسم على المعلم سنجر مملوك ابن هلال، صاحب الأموال الجزيلة، بمرسوم شريف قدم مع البريد، وطلب منه ستمائة ألف درهم، واحتيط على العمارة التي أنشأها عند باب النطافيين ليجعلها مدرسة، ورسم بأن يعمر مكانها مكتب للأيتام، وأن يوقف عليهم كفايتهم جارية عليهم، وكذلك رسم بأن يجعل في كل مدرسة من مدارس المملكة الكبار، وهذا مقصد جيد، وسلم المعلم سنجر إلى شاد الدواوين، يستخلص منه المبلغ المذكور سريعا، فعاجل بحمل مائتي ألف، وسيرت مع أمير عشرة إلى الديار المصرية.

الاحتياط على الكتبة والدواوين

وفي يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر ورد من الديار المصرية أمير معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان، بسبب ما أكلوا من الأموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية، وغير ذلك، فرسم عليهم بدار العدل البرانية، وألزموا بأموال جزيلة كثيرة، بحيث احتاجوا إلى بيع أثاثهم وأقمشتهم، وفرشهم وأمتعتهم وغيرها، حتى ذكر أن منهم من لم يكن له شيء يعطيه، فأحضر بناته إلى الدكة ليبيعهن، فتباكى الناس، وانتحبوا رحمة ورقة لأبيهن، ثم أطلق بعضهم وهم الضعفاء منهم والفقراء، الذين لا شيء معهم، وبقيت الغرامة على الكبراء منهم، كالصاحب والمستوفين، ثم شددت عليهم المطالبة، وضربوا ضربا مبرحا، وألزموا الصاحب بمال كثير، بحيث إنه احتاج إلى أن سأل من الأمراء والأكابر والتجار بنفسه وبأوراقه، فأسعفوه بمبلغ كثير يقارب ما ألزم به، بعد أن عري ليضرب، ولكن ترك، واشتهر أنه قد عين عوضه من الديار المصرية، انتهى.

موت فياض بن مهنا

ورد الخبر بذلك يوم السبت الثامن عشر منه، فاستبشر بذلك كثير من الناس، وأرسل إلى السلطان مبشرين بذلك، لأنه كان قد خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، فمات موتة جاهلية، بأرض العراق؛ أرض الشقاق والنفاق، وقد ذكرت عن هذا المذكور أشياء صدرت عنه من ظلم الناس، والإفطار في شهر رمضان بلا عذر، وأمره أصحابه وذويه بذلك في هذا الشهر الماضي، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، جاوز السبعين، انتهى، واللّه اعلم.

كائنة عجيبة جدا هي المعلم سنجر مملوك بن هلال

في اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر أطلق المعلم الهلالي، بعد أن استوفوا منه تكميل ستمائة ألف درهم، فبات في منزله عند باب النطافيين سرورا بالخلاص، ولما أصبح ذهب إلى الحمام، وقد ورد البريد من جهة السلطان من الديار المصرية بالاحتياط على أمواله وحواصله، فأقبلت الحجبة، ونقباء النقبة، والأعوان من كل مكان، فقصدوا داره، فاحتاطوا بها، وعليها بما فيها، ورسم عليه وعلى ولديه، وأخرجت نساؤه من المنزل في حالة صعبة، وفتشوا النساء، وانتزعوا عنهن الحلي، والجواهر والنفائس، واجتمعت العامة والغوغاء، وحضر بعض القضاة ومعه الشهود، بضبط الأموال والحجج والرهون، وأحضروا المعلم ليستعلموا منه جلية ذلك، فوجدوا من حاصل الفضة أول يوم ثلاثمائة ألف وسبعين ألفا، ثم صناديق أخرى لم تفتح، وحواصل لم يصلوا إليها لضيق الوقت، ثم أصبحوا يوم الأحد في مثل ذلك، وقد بات الحرس على الأبواب والأسطحة، لئلا يعدى عليها في الليل، وبات هو وأولاده بالقلعة المنصورة، محتفظا عليهم، وقد رق له كثير من الناس، لما أصابه من المصيبة العظيمة، بعد التي قبلها سريعا.

وفي اواخر هذا الشهر توفي الأمير ناصر الدين

■ محمد بن الدوادار السكري، كان ذا مكانة عند أستاذه، ومنزلة عالية، ونال من السعادة في وظيفته أقصاها، ثم قلب اللّه قلب أستاذه عليه، فضربه وصادره، وعزله وسجنه، ونزل قدره عند الناس، وآل به الحال إلى

أن كان يقف على أتباعه بفرسه، ويشتري منهم ويحاكمهم، ويحمل حاجته معه في سرجه، وصار مُثْلَةً بين الناس، بعد أن كان في غاية ما يكون فيه الدوادارية من العز والجاه، والمال والرفعة في الدنيا، وحق على الله تعالى أن لا يرفع شيئاً من أمر الدنيا إلا وضعه.

وفي صبيحة يوم الأحد سابع عشره أفرج عن المعلم الهلالي، وعن ولديه، وكانوا معتقلين بالقلعة المنصورة، وسلمت إليهم دورهم وحواصلهم، ولكن أخذ ما كان حاصلا في داره، وهو ثلاثمائة ألف وعشرون ألفا، وختم على حججه، ليعقد لذلك مجلس، ليرجع راس ماله منها، عملا بقوله تعالى: ﴿وإِنْ تُبْتُم فَلَكُم رُؤُوسُ أَمْوالِكُم لا تَظلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٩] ونودي عليه في البلد، إنما فعلنا به ذلك لأنه لا يؤدي الزكاة، ويعامل بالربا، وحاجب السلطان، ومتولّي البلد، وبقية المتعممين والمشاعلية تنادي عليه في أسواق البلد وأرجائها.

وفي يوم الثامن والعشرين منه ورد المرسوم السلطاني الشريف بإطلاق الدواوين إلى ديارهم وأهاليهم، ففرح الناس بسبب ذلك، لخلاصهم مما كانوا فيه من العقوبة والمصادرة البليغة، ولكن لم يستمر بهم في مباشراتهم.

وفي أواخر الشهر تكلم الشيخ شهاب الدين المقدسي الواعظ، قدم من الديار المصرية، تجاه محراب الصحابة، واجتمع الناس إليه، وحضر من قضاة القضاة الشافعي، والمالكي، فتكلم على تفسير آيات من القرآن، وأشار إلى أشياء من إشارات الصوفية، بعبارات طلقة معربة، حلوة صادعة للقلوب، فأفاد وأجاد، وودع الناس بعوده إلى بلده، ولما دعا استنهض الناس للقيام، فقاموا في حال الدعاء، وقد اجتمعت به بالمجلس، فرأيته حسن الهيئة، والكلام والتأدب، فالله يصلحه وإيانا آمين.

وفي مستهل جمادى الآخرة ركب الأمير سيف الدين بيدمر نائب حلب، لقصد غزو بلاد سيس في جيش، لقاه الله النصر والتأييد.

وفي مستهل هذا الشهر أصبح أهل القلعة وقد نزل جماعة من أمراء الأعراب من أعالي محبسهم، في عمائم وحبال إلى الخندق، وخاضوه، وخرجوا من عند جسر الزلابية، فانطلق اثنان، وأمسك الثالث الذي تبقى في السجن، وكأنه كان يمسك لهم الحبال حتى تدلوا فيها، فاشتد نكير نائب السلطنة على نائب القلعة، وضرب ابنيه النقيب وأخاه وسجنهما، وكاتب في هذه الكائنة إلى السلطان، فورد المرسوم بعزل نائب القلعة وإخراجه منها، وطلبه لمحاسبة ما قبض من الأموال السلطانية في مدة ست سنين من مباشرته، وعزل ابنه عن النقابة، وابنه الآخر عن استادّارية السلطان، فنزلوا من عزهم إلى عزلهم.

وفي يوم الاثنين سابع عشره جاء الأمير تاج الدين جبريل من عند الأمير سيف الدين بيدمر نائب حلب، وقد فتح بلدين من بلاد سيس، وهما طرسوس وأذنة، وأرسل مفاتيحهما صحبة جبريل المذكور، إلى السلطان أيده الله، ثم افتتح حصوناً أخر كثيرة، في أسرع مدة، وأيسر كلفة، وخطب هناك القاضي ناصر الدين كاتب السر خطبة بليغة حسنة.

وبلغني في كتاب أن أبواب كنيسة أذنة حملت إلى الديار المصرية في المراكب.

قلت: وهذه هي أبواب الناصرية التي بالسفح، أخذها سيس عام قازان، وذلك في سنة تسع وتسعين وستمائة، فاستنقذت ولله الحمد في آخر هذه السنة.

وفي أواخر هذا الشهر بلغنا أن الشيخ قطب الدين هرماس الذي كان شيخ السلطان طرد عن جناب مخدومه، وضرب وصودر، وخربت داره إلى الأساس، ونفي إلى مصياف، فاجتاز بدمشق، ونزل بالمدرسة الحلبية ظاهر باب الفرج، وزرته فيمن سلم عليه، فإذا هو شيخ حسن، عنده ما يقال ويتلفظ معربا جيداً، ولديه فضيلة، وعنده تواضع وتصوف، فالله يحسن عاقبته، ثم تحول إلى العذراوية.

وفي صبيحة يوم السبت سابع شهر رجب توجه الشيخ شرف الدين احمد بن الحسن ابن قاضي الجبل الحنبلي إلى الديار المصرية، مطلوبا على البريد إلى السلطان، لتدريس الطائفة الحنبلية بالمدرسة التي أنشأها السلطان بالقاهرة المعزية، وخرج لتوديعه القضاة، والأعيان إلى أثناء الطريق، كتب الله سلامته، انتهى والله تعالى أعلم.

مسك نائب السلطنة أسندمر اليحياوي

وفي صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من رجب قبض على نائب السلطنة الأمير سيف الدين أسندمر، أخي يلبغا اليحياوي، عن كتاب ورد من السلطان صحبة الدوادار الصغير، وكان يومئذ راكبا بناحية ميدان ابن أتابك، فلما رجع إلى عند مقابر اليهود والنصارى احتاط عليه الحاجب الكبير ومن معه من الجيش، وألزموه بالذهاب إلى ناحية طرابلس، فذهب من على طريق الشيخ رسلان، ولم يمكن من المسير إلى دار السعادة، ورسم عليه من الجند من أوصله إلى طرابلس، مقيما بها بطالا، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، يفعل ما يشاء، وبقي البلد بلا نائب، يحكم فيه الحاجب الكبير، عن مرسوم السلطان، وعين للنيابة الأمير سيف الدين بيدمر النائب بحلب.

وفي شعبان وصل تقليد الأمير سيف الدين بيدمر بنيابة دمشق، ورسم له أن يركب في طائفة من جيش حلب، ويقصد الأمير حيّار بن مهنا، ليحضره إلى خدمة السلطان، وكذلك رسم لنائبي حماة وحمص أن يكونا عونا للأمير سيف الدين بيدمر في ذلك.

فلما كان يوم الجمعة رابعه التقوا مع حيار عند سلمية، فكانت بينهم مناوشات، فأخبرني الأمير تاج الدين إسرائيل الدودار وكان مشاهد الوقعة أن الأعراب أحاطوا بهم من كل جانب، وذلك لكثرة العرب، وكانوا نحو الثمانمائة، وكانت الترك من حماة وحمص وحلب مائة وخمسين، فرموا الأعراب بالنشاب، فقتلوا منهم طائفة كثيرة، ولم يقتل من الترك سوى رجل واحد، رماه بعض الترك ظانا أنه من العرب بناشج فقتله، ثم حجز بينهم الليل، وخرجت الترك من الدائرة، ونهبت أموال من الترك ومن العرب، وجرت فتنة، وجردت أمراء عدة من دمشق لتدارك الحال وأقام نائب السلطنة هناك ينتظر ورودهم، وقدم الأمير عمر الملقب بمصمع بن موسى بن مهنا من الديار المصرية أميراً على الأعراب، وفي صحبته الأمير بدر الدين رملة بن جماز أميران على الأعراب، فنزل مصمع بالقصر الأبلق، ونزل الأمير رملة بالنورية على عادته، ثم توجها إلى ناحية حيار بمن معهما من عرب الطاعة، ممن أضيف إليهم من تجريدة دمشق، ومن يكون معهم من جيش حماة وحمص لتحصيل الأمير حيار، وإحضاره إلى الخدمة الشريفة، فالله تعالى يحسن العاقبة.

دخول نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى دمشق

وذلك صبيحة يوم السبت التاسع عشر من شعبان، أقبل بجيشه من

ناحية حلب وقد بات بوطأة برزة ليلة السبت، وتلقاه الناس إلى حماة ودونها وجرت له وقعة مع العرب كما ذكرنا.

فلما كان هذا اليوم دخل في أبهة عظيمة، وتجمل حافل، فقبل العتبة على العادة، ومشى إلى دار السعادة، ثم أقبلت جنائبه في لبوس هائلة باهرة، وعدد كثير، وعدد ثمينة، وفرح المسلمون به، لشهامته، وصرامته وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، والله تعالى يؤيده ويسدده.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر رمضان خطبت الحنابلة بجامع القبيبات، وعزل عنه القاضي شهاب الدين قاضي العسكر الحنفي، بمرسوم نائب السلطان، لأنه كان يعرف أنه كان مختصاً بالحنابلة، منذ عين إلى هذا الحين.

وفي يوم الجمعة السادس عشر منه قتل عثمان بن محمد، المعروف بابن دبادب الدقاق، بالحديد على ما شهد عليه به جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، أنه كان يكثر من شتم الرسول ﷺ فرفع إلى الحاكم المالكي، وادّعى عليه فأظهر التجانن، ثم استقر أمره على أن قتل قبحه الله، وأبعده ولا رحمه.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين منه قتل محمد، المدعو زبالة، الذي انحاز لابن معبد على ما صدر منه من سب النبي ﷺ، ودعواه أشياء كفرية، وذكر عنه أنه كان يكثر الصلاة والصيام، ومع هذا يصدر منه أحوال بشعة في حق أبي بكر وعمر، وعائشة أم المؤمنين، وفي حق النبي ﷺ، فضربت عنقه أيضاً في هذا اليوم، في سوق الخيل، ولله الحمد والمنة.

وفي ثالث عشر شوال خرج المحمل السلطاني، وأميره الأمير ناصر الدين بن قرانسقر، وقاضي الحجيج الشيخ شمس الدين محمد بن سند المحدث، أحد المفتين.

وفي أواخر شهر شوال أخذ رجل يقال له حسن، كان خياطا بمحلة الشاغور، ومن شأنه أن ينتصر لفرعون لعنه الله، ويزعم أنه مات على الإسلام، ويحتج بأنه في سورة يونس حين أدركه الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ولا يفهم معنى قوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ولا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥] ولا معنى قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات، والأحاديث الكثيرة، الدالة على أن فرعون أكفر الكافرين، كما هو مجمع عليه بين اليهود، والنصارى، والمسلمين.

وفي صبيحة يوم الجمعة سادس ذي القعدة قدم البريد بطلب نائب السلطنة إلى الديار المصرية، في تكريم وتعظيم، على عادة تنكز، فتوجه النائب إلى الديار المصرية، وقد استصحب معه تحفا سنية، وهدايا معظمة تصلح للإيوان الشريف، في صبيحة السبت رابع عشره، خرج ومعه القضاة والأعيان من الحجبة والأمراء لتوديعه.

وفي أوائل ذي الحجة ورد كتاب من نائب السلطنة بخطه إلى قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، يستدعيه إلى القدس الشريف، وزيارة قبر الخليل، ويذكر فيه ما عامله به السلطان من الإحسان والإكرام، والاحترام، والإطلاق، والإنعام من الخيل، والتحف، والمال، والغلات، فتوجه نحوه قاضي القضاة يوم الجمعة بعد الصلاة، رابعه على ستة من خيل البريد، ومعه تحف، وما يناسب من الهدايا، وعاد عشية يوم الجمعة، ثامن عشره، إلى بستانه.

ووقع في هذا الشهر والذي قبله سيول كثيرة جداً في أماكن متعددة عندهم من ذلك ما شاهدنا آثاره في مدينة بعلبك، أتلف شيئا كثيراً من الأشجار، واخترق أماكن كثيرة متعددة عندهم، وبقي آثار سيحه على أراض كثيرة، ومن ذلك سيل وقع بأرض خيران أتلف شيئاً كثيراً جداً، وغرق فيه قاضي تلك الناحية، ومعه بعض الأخيار، كانوا وقوفا على أكمة، فدهمهم أمر عظيم، ولم يستطيعوا دفعه ولا منعه، فهلكوا.

ومن ذلك سيل وقع بناحية جبة عسال، فهلك به شيء كثير من الأشجار، والأغنام، والأعناب، وغيرها.

ومن ذلك سيل بأرض حلب هلك به خلق كثير من التركمان وغيرهم، رجالا وأطفالا وغنما وإبلا، قرأته من كتاب من شاهد ذلك عيانا، وذكر أنه سقط عليهم برد وزنت الواحدة منه فبلغت زنتها سبعمائة درهم، وفيه ما هو أكبر من ذلك وأصغر، انتهى.

الأمر بإلزام القلندرية بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم

وذلك محرم بالإجماع حسب ما حكاه ابن حزم، وإنما ذكره بعض الفقهاء بالكراهة: ورد كتاب من السلطان أيده الله إلى دمشق، في يوم الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة، بإلزامهم بزي المسلمين، وترك زي الأعاجم والمجوس، فلا يمكن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان، حتى يترك هذا الزي المبتدع، واللباس المستشنع، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعا، ويقلع من قراره قلعا، وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء، والمقصود أنهم نودي عليهم بذلك في جميع أرجاء البلد ونواحيه، في صبيحة يوم الأربعاء، ولله الحمد والمنة.

وبلغنا في هذا الشهر وفاة الشيخ الصالح

■ **أحمد بن موسى الزرعي** بمدينة خيران يوم الثلاثاء، خامس ذي الحجة، وكان من المبتلين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام في مصالح الناس عند السلطان والدولة، وله وجاهة عند الخاص والعام، رحمه الله.

والأمير سيف الدين

■ **كُجكن بن الأقوش**، الذي كان حاجبا بدمشق وأميراً، ثم عزل عن ذلك كله، ونفاه السلطان إلى طرابلس، فمات هناك.

وقدم نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر عائداً من الديار المصرية، وقد لقي من السلطان إكراما وإحسانا زائداً، فاجتاز في طريقه بالقدس الشريف، فأقام به يوم عرفة والنحر، ثم سلك على طريق غابة أرصوف يصطاد بها، فأصابه وعك منعه عن ذلك، فأسرع السير، فدخل دمشق من صبيحة يوم الاثنين، الحادي والعشرين منه، في أبهة هائلة ورياسة طائلة، وتزايد، وخرج العامة للتفرج عليه، والنظر إليه في مجيئه هذا، فدخل وعليه قباء معظم ومطرز، وبين يديه ما جرت به العادة من الجوفية والشاليشية وغيرهم، ومن نيته الإحسان إلى الرعية، والنظر في أحوال الأوقاف، وإصلاحها على طريقة سيف الدين تنكز رحمه الله انتهى، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك، ويلتحق به الملك الناصر حسن ابن

الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولا نائب له بالديار المصرية.

وقضاته بها هم المذكورون في العام الماضي، ووزيره القاضي ابن الخصيب.

ونائب الشام بدمشق الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي، والقضاة والخطيب وبقية الأشراف وناظر الجيش والمحتسب هم المذكورون في العام الماضي، والوزير ابن قروينة، وكاتب السر القاضي أمين الدين بن القلانسي، ووكيل بيت المال القاضي صلاح الدين الصفدي، وهو أحد موقعي الدست الأربعة، وشاد الأوقاف الأمير ناصر الدين بن فضل اللّه، وحاجب الحجاب اليوسفي، وقد توجه إلى الديار المصرية ليكون بها أمير جندار، ومتولّي البلد ناصر الدين، ونقيب النقباء ابن الشجاعي.

وفي صبيحة يوم الاثنين سادس المحرم قدم الأمير علي نائب حماة منها، فدخل دمشق، مجتازاً إلى الديار المصرية، فنزل في القصر الأبلق، ثم تحول إلى دار دواداره يلبغا، الذي جدد فيها مساكن كثيرة بالقصاعين، وتردد الناس إليه للسلام عليه، فأقام بها إلى صبيحة يوم الخميس تاسعه، فسار إلى الديار المصرية.

وفي يوم الأحد تاسع عشر المحرم أحضر حسن بن الخياط من محلة الشاغور إلى مجلس الحكم المالكي من السجن، وناظر في إيمان فرعون، وادعي عليه بدعاوى لانتصاره لفرعون لعنه اللّه، وصدق ذلك باعترافه أولا، ثم بمناظرته في ذلك ثانيا وثالثا، وهو شيخ كبير جاهل عامي، رابض لا يقيم دليلا ولا يحسنه، وإنما قام في مخيلته شبهة يحتج عليها بقوله إخبارا عن فرعون حين أدركه الغرق، وأحيط به، ورأى بأس اللّه، وعاين عذابه الأليم، فقال حين الغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] قال اللّه تعالى: ﴿الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ فاليومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢].

فاعتقد هذا العامي الرابض أن هذا الإيمان الذي صدر من فرعون والحالة هذه ينفعه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمنَّا باللّهِ وَحْدَهُ وكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا به مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُم إيمانُهم لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرون﴾ [غافر: ٨٤،٨٥]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِم كَلِمتُ رَبِّكَ لا يؤمنون. ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العَذَابَ الأليمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقد دعا موسى على فرعون فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

ثم حضر في يوم آخر وهو مصمم على ضلاله، فضرب بالسياط، فاظهر التوبة، ثم أعيد إلى السجن في زنجير، ثم أحضر يوما ثالثا وهو يستهل بالتوبة فيما يظهر، فنودي عليه في البلد ثم أطلق.

وفي ليلة الثلاثاء الرابع عشر طلع القمر خاسفا كله، ولكن كان تحت السحاب، فلما ظهر وقت العشاء وقد أخذ في الجلاء صلى الخطيب صلاة الكسوف قبل العشاء، وقرأ في الأولى بسورة العنكبوت، وفي الأخرى بسورة يس، ثم صعد المنبر فخطب، ثم نزل بعد العشاء، وقدمت كتب الحجاج يخبرون بالرخص والأمن، واستمرت زيادة الماء من أول ذي الحجة وقبلها إلى هذه الأيام من آخر هذا الشهر والأمر على حاله، وهذا شيء لم يعهد كما أخبر به عامة الشيوخ، وسببه أنه جاء ماء من بعض الجبال انهال في طريق النهر.

ودخل المحمل السلطاني يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من المحرم، قبل الظهر، ومسك أمير الحاج جركتمر المارداني الذي كان مقيما بمكة شرفها اللّه تعالى، وحماها من الأوغاد، فلما عادت التجريدة مع الحجاج إلى دمشق صحبة القراسنقر الذي تسلّم الحجيج من مكة من أميرهم في الطلقة ناصر الدين بن قراسنقر المنصوري فمسك من ساعة وصوله إلى دمشق، فقيد وسير إلى الديار المصرية على البريد، وبلغنا أن الأمير سند أمير مكة غرر بجند السلطان الذين ساروا صحبة ابن قراسنقر المنصوري، وكبسهم وقتل من حواشيهم، وأخذ خيولهم، وأنهم ساروا جرائد بغير شيء مسلوبين إلى الديار المصرية، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفي أول صفر اشتهر فيه وتواتر خبر الفناء الذي بالديار المصرية، بسبب كثرة المستقعات من فيض النيل عندهم، على خلاف المعتاد، فبلغنا أنه يموت من أهلها كل يوم فوق الألفين، فأما المرض فكثير جداً، وغلت الأسعار لقلة من يتعاطى الأشغال، وغلا السكر، والمياه والفاكهة جداً، وتبرز السلطان إلى ظاهر البلد، وحصل له تشويش أيضا، ثم عوفي بحمد اللّه.

وفي ثالث ربيع الآخر قدم من الديار المصرية ابن الحجان رسول صاحب العراق، لخطبة بنت السلطان، فأجابهم إلى ذلك، بشرط أن يصدقها مملكة بغداد، وأعطاهم مستحقا سلطانياً، وأطلق لهم من التحف والخلع والأموال شيئا كثيراً، ورسم الرسول بمشترى قرية من بيت المال لتوقف على الخانقاه التي يريد أن يتخذها بدمشق قريبا من الطواويس، وقد خرج لتلقيه نائب الغيبة، وهو صاحب الحاجب، والدولة والأعيان.

وقرأت في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر كتابا ورد من حلب بخط الفقيه العدل شمس الدين العراقي من أهلها، ذكر فيه أنه كان في حضرة نائب السلطنة في دار العدل يوم الاثنين، السابع عشر من ربيع الأول، وأنه أحضر رجل قد ولد له ولد عاش ساعة ومات، وأحضره معه، وشاهده الحاضرون، وشاهده كاتب الكتاب، فإذا هو شكل سوي، له على كل كتف رأس بوجه مستدير، والوجهان إلى ناحية واحدة فسبحان الخلاق العليم.

وبلغنا أنه في هذا الشهر سقطت المنارة التي بنيت للمدرسة السلطانية بمصر، وكانت مستجدة على صفة غريبة، وذلك أنهما منارتان على أصل واحد، فوق قبو الباب الذي للمدرسة المذكورة، فلما سقطت أهلكت خلقا كثيراً من الصناع بالمدرسة، والمارة، والصبيان الذين في مكتب المدرسة، ولم ينج من الصبيان فيما ذكر شيء سوى ستة، وكان جملة من هلك بسببها نحو ثلاثمائة نفس، وقيل أكثر، وقيل أقل، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وخرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى الغيضة لإصلاحها وإزالة ما فيها من الأشجار المؤذية والدغل يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر، وكان سلخه، وخرج معه جميع الجيش من الأمراء وأصحابه، وأجناد الحلقة برمتهم، لم يتأخر منهم أحد، وكلهم يعملون فيها بأنفسهم وغلمانهم، وأحضر إليهم خلق من فلاحي المرج والغوطة وغير ذلك، ورجع يوم السبت خامس الشهر الداخل، وقد نظفوها من الدغل والقش.

واتفقت كائنة غريبة لبعض السؤال، وهو أنه اجتمع جماعة منهم قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة امرأة ملك الأمراء تنكز عند باب

الخواصين، فتضاربوا فيما بينهم، فعمدوا إلى رجل منهم فخنقوه خنقاً شديداً، وأخذوا منه جرابا فيه نحو من أربعة آلاف درهم، وشيء من الذهب، وذهبوا على حمية، وأفاق هو من الغشي فلم يجدهم، واشتكى أمره إلى متولي البلد فلم يظفر بهم إلى الآن، وقد أخبرني الذي أخذوا منه أنهم أخذوا منه ثلاثة آلاف درهم معاملة، وألف درهم بندقية، ودينارين وزنهما ثلاثة دنانير، كذا قال لي إن كان صادقاً.

وفي صبيحة يوم السبت خامس جمادى الأولى طلب قاضي القضاة شرف الدين الحنفي للشيخ علي بن البنا، وقد كان يتكلم في الجامع الأموي على العوام وهو جالس على الأرض شيء من الوعظيات وما أشبهها من صدره، فكأنه تعرض في غضون كلامه لأبي حنيفة رحمه الله فأحضر فاستتيب من ذلك، ومنعه قاضي القضاة شرف الدين الكفري من الكلام على الناس، وسجنه، وبلغني أنه حكم بإسلامه، وأطلقه من يومه، وهذا المذكور ابن البنا عنده زهادة وتقشُّف، وهو مصري، يسمع الحديث ويقرؤه، ويتكلم بشيء من الوعظيات والرقائق، وضرب أمثال، وقد مال إليه كثير من العوام واستحلوه، وكلامه قريب إلى مفهومهم، وربما أضحك في كلامه، وحاضرته، وهو مطبوع قريب إلى الفهم، ولكنه أشار فيما ذكر عنه في شطحته إلى بعض الأشياء التي لا تنبغي أن تذكر، والله الموفق.

ثم إنه جلس للناس في يوم الثلاثاء ثامنه، فتكلم على عادته، فتطلبه القاضي المذكور، فيقال إن المذكور تعنت، انتهى، والله أعلم.

سلطنة الملك المنصور صلاح الدين محمد

ابن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي، وزوال دولة عمه الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون

لما كثر طمعه، وتزايد شرهه، وساءت سيرته إلى رعيته، وضيق عليهم في معايشهم وأكسابهم، وبنى البنايات الجبارة التي لا يحتاج إلى كثير منها، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله، واشترى منه قرايا كثيرة ومدنا أيضا، ورساتيق، وشق ذلك على الناس جدا، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه، ولا الهجوم عليه، ولا النصيحة له بما هو مصلحة له وللمسلمين، انتقم الله منه، فسلط عليه جنده، وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه، لما قطع من أرزاقهم، ومعاليمهم، وجوامكهم، وأخبازهم، وأضاف ذلك جميعه إلى خاصته، فقلت الأمراء والأجناد، والمقدمون، والكتاب، والموقعون، ومس الناس الضرر، وتعدى على جوامكهم وأولادهم، ومن يلوذ بهم، فعند ذلك قدر الله هلاكه على يد أحد خواصه وهو الأمير الكبير سيف الدين يلبغا الخاصكي.

وذلك أنه أراد السلطان مسكه فاعتد لذلك، وركب السلطان لمسكه، فركب هو في جيش، وتلاقيا في ظاهر القاهرة، حيث كانوا نزولا في الوطاقات، فهزم السلطان بعد كل حساب، وقد قتل من الفريقين طائفة ولجأ السلطان إلى قلعة الجبل، ﴿كلا لا وزر﴾ [القيامة: ١١]، ولن ينجي حذر من قدر، فبات الجيش بكماله محدقا بالقلعة، فهم بالهرب في الليل، على هجن كان قد اعتدها ليهرب إلى الكرك، فلما برز مسك واعتقل، ودخل به إلى دار يلبغا الخاصكي المذكور، وكان آخر العهد به، وذلك في يوم الأربعاء، تاسع جمادى الأولى من هذه السنة.

وصارت الدولة والمشورة متناهية إلى الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي، فاتفقت الآراء، واجتمعت الكلمة، وانعقدت البيعة للملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي، وخطب الخطباء، وضربت السكة، وسارت البريدية للبيعة باسمه الشريف، هذا وهو ابن ثنتي عشرة، وقيل أربع عشرة، ومن الناس من قال ست عشرة، ورسم بعَوْد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام والده الناصر محمد بن قلاوون، وأن يبطل جميع ما كان أخذه الملك الناصر حسن، وأن تعاد المرتبات والجوامك التي كان قطعها، وأمر بإحضار طاز وطاشتمر القاسمي من سجن إسكندرية إلى بين يديه، ليكونا أتابكا.

وجاء الخبر إلى دمشق صحبة الأمير سيف الدين بزلار شاد الشبربخاناه، أحد أمراء الطبلخاناه بمصر، صبيحة يوم الأربعاء سادس عشر الشهر، فضربت البشائر بالقلعة، وطبلخاناه الأمراء على أبوابهم وزين البلد بكماله، وأخذت البيعة له صبيحة يومئذ بدار السعادة، وخلع عن نائب السلطنة تشريف هائل، وفرح أكثر الأمراء والجند والعامة، ولله الأمر، وله الحكم. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، ووجد على حجر بالحميرية، فقرئت للمأمون، فإذا مكتوب:

ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفلكِ
إلا لنقلِ النعيمِ من مَلِكٍ ... قد زال سلطانُه إلى ملكِ
وملكُ ذي العرشِ دائمٌ أبداً ... ليس بفانٍ ولا بمشتركِ

وروي عن سليمان بن عبد الملك بن مروان أنه خرج يوماً لصلاة الجمعة، وكان سوي الخلق حسنه، وقد لبس حلة خضراء، وهو شاب ممتلئ شبابا، وينظر في أعطافه ولباسه، فأعجبه ذلك من نفسه، فلما بلغ إلى صرحة الدار، تلقته جنية في صورة جارية من حظاياه، فأنشدته:

أنتَ نِعْمَ المتاعُ لو كنتَ تبقى ... غير أن لا حياةَ للإنسانِ
ليس فيما علمتُ فيكَ عيبٌ ... يذكرُ غيرَ أنكَ فانِ

فصعد المنبر الذي في جامع دمشق، وخطب الناس، وكان جهوري الصوت، يسمع أهل الجامع وهو قائم على المنبر، فضعف صوته قليلا قليلا، حتى لم يسمعه أهل المقصورة، فلما فرغ من الصلاة حمل إلى منزله، فاستحضر تلك الجارية التي تبدت تلك الجنية على صورتها، وقال: كيف أنشدتيني تينك البيتين؟ فقالت: ما أنشدتك شيئا، فقال: الله أكبر نُعيت والله إليَّ نفسي، فأوصى أن يكون الخليفة من بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وقدم نائب طرابلس المعزول عليلاً، والأمير سيف الدين أسندمر الذي كان نائب دمشق، وكانا مقيمين بطرابلس جميعاً، في صبيحة يوم السبت السادس والعشرين منه، فدخلا دار السعادة فلم يحتفل بهما نائب السلطنة.

وتكامل في هذا الشهر تجديد الرواق غربي باب الناطفانيين، إصلاحاً للدرابزيناته، وتبييضا لجدرانه ومحراب فيه، وجعل له شبابيك في الدرابزينات، ووقف فيه قراءة قرآن بعد المغرب، وذكروا أن شخصا رأى مناماً، فقصه على نائب السلطنة، فأمر بإصلاحه.

وفيه نهض بناء المدرسة، التي إلى جانب هذا المكان من الشباك، وقد كان أسسها أولا نجم الدين غلام بن هلال، فلما صودر أخذت منه وجعلت مضافة إلى السلطان، فبنوا فوق الأساسات، وجعلوا لها خمسة

شبابيك من شرقها، وبابا قبليا، ومحرابا، وبركة وعراقية، وجعلوا حائطها بالحجارة البيض والسود، وكملوا عاليها بالآجر، وجاءت في غاية الحسن، وقد كان السلطان الناصر حسن قد رسم بأن تجعل مكتبا للأيتام فلم يتم أمرها حتى قتل كما ذكرنا.

واشتهر في هذا الشهر أن بقرة كانت تجيء من ناحية باب الجابية تقصد جراء لكلبة قد ماتت أمهم، وهي في ناحية كنيسة مريم في خرابة، فتجيء إليهم فتنسطح على شقها فترضع أولئك الجراء منها، تكرر هذا منها مراراً، وأخبرني المحدث المفيد التقي نور الدين أحمد بن المقصوص بمشاهدته ذلك.

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة نادى مناد من جهة نائب السلطنة حرسه الله تعالى في البلد أن النساء يمشين في تستر، ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن، ولا يظهرن زينة ولا يداً، فامتثلن ذلك ولله الحمد والمنة.

وقدم أمير العرب حيار بن مهنا في أبهة هائلة وتلقاه نائب السلطنة إلى أثناء الطريق، وهو قاصد إلى الأبواب الشريفة.

وفي أواخر رجب قدم الأمير سيف الدين تمر المهمندار من نيابة غزة حاجب الحجاب بدمشق، وعلى مقدمة رأس الميمنة، وأطلق نائب السلطنة مكوسات كثيرة، مثل مكس الحداية والخزل المرددن الحلب والطبابي، وأبطل ما كان يؤخذ من المحتسبين زيادة على نصف درهم، وما يؤخذ من أجرة عدة الموتى كل ميت بثلاثة ونصف، وجعل العدة التي في القيسارية للحاجة مسبلة لا تتحجر على أحد في تغسيل ميت، وهذا حسن جداً، وكذلك منع التحجر في بيع الثلج المختص به، وبيع مثل بقية الناس من غير طرخان فرخص على الناس في هذه السنة جداً، حتى قيل إنه بيع القنطار بعشرة، وما حولها.

وفي شهر شعبان قدم الأمير حيار بن مهنا من الديار المصرية، فنزل القصر الأبلق، وتلقاه نائب السلطنة، وأكرم كل منهما الآخر، ثم ترحل بعد أيام قلائل، وقدم الأمراء الذين كانوا بحبس الإسكندرية، في صبيحة يوم الجمعة سابعه، وفيهم الأمير شهاب الدين بن صبح وسيف الدين طيدمر الحاجب، وطنبرق ومقدم ألف، وعمر شاه، وهذا ونائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر أعزه الله يبطل المكوسات شيئاً بعد شيء مما فيه مضرة بالمسلمين، وبلغني عنه أن من عزمه أن يبطل جميع ذلك إن أمكنه الله من ذلك، آمين انتهى.

تنبيه على واقعة غريبة واتفاق عجيب

نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر فيما بلغنا في نفسه عتب على أتابك الديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي مدبر الدولة بها، وقد توسم وتوهم منه أنه يسعى في صرفه عن الشام، وفي نفس نائبنا قوة وصرامة شديدة، فتنسم منه ببعض الإباء عن طاعة يلبغا، مع استمراره على طاعة السلطان، وأنه إن أتفق عزل من قبل يلبغا أنه لا يسمع ولا يطيع، فعمل لذاك أعمالا.

واتفق في غضون هذا الحال موت نائب القلعة المنصورة بدمشق، وهو الأمير سيف الدين برتاق الناصري فأرسل نائب السلطنة من أصحابه وحاشيته من يتسلم القلعة برمتها، ودخل هو بنفسه إليها، وطلب الأمير زين الدين زبالة الذي كان فقيها ثم نائبها وهو من أخبر الناس بها وبخطاتها وحواصلها، فدار معه فيها وأراه حصونها وبروجها ومفاتحها وأغلاقها ودورها وقصورها وعددها وبركتها، وما هو معد فيها ولها، وتعجب الناس من هذا الاتفاق في هذا الحال، حيث لم يتفق ذلك لأحد من النواب قبله قط، وفتح الباب الذي هو تجاه دار السعادة وجعل نائب السلطنة يدخل منه إلى القلعة، ويخرج بخلمه وحشمه وأبهته يكشف أمرها وينظر في مصالحها أيده الله.

ولما كان يوم السبت خامس عشر شعبان ركب في الموكب على العادة واستدعى الأمير سيف الدين أسندمر الذي كان نائب الشام، وهو في منزله كالمعتقل فيه لا يركب ولا يراه أحد، فأحضره إليه، وركب معه وكذلك الأمراء الذين قدموا من الديار المصرية: طُنبرق، وهو أحد أمراء الألوف وطيدمر الحاجب، كان، وأما ابن صبح وعمر شاه فإنهما كانا قد سافرا يوم الجمعة عشية النهار.

والمقصود أنه سيرهم وجميع الأمراء بسوق الخيل ونزل بهم كلهم إلى دار السعادة فتعاهدوا وتعاقدوا واتفقوا على أن يكونوا كلهم كتفاً واحداً، وعصبة واحدة على مخالفة من أرادهم بسوء وأنهم يد على من سواهم ممن أراد عزل أحد منهم، أو قتله وأن من قاتلهم على ذلك قاتلوه وأن السلطان هو ابن أستاذهم الملك المنصور بن حاجي بن الناصر بن المنصور قلاوون، فطاوعوا كلهم لنائب السلطنة على ما أراد من ذلك، وحلفوا له وخرجوا من عنده على هذا الحلف، وقام نائب السلطنة على عادته في عظمة هائلة، وأبهة كثيرة والمسؤول من الله حسن العاقبة.

وفي صبيحة يوم الأحد سادس عشر شعبان أبطل ملك الأمراء المكس الذي يؤخذ من الملح وأبطل مكس الأفراح، وأبطل أن لا تغني امرأة لرجال ولا رجل لنساء وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرة شرع نائب السلطنة سيف الدين بيدمر في نصب مجانيق على أعالي بروج القلعة، فنصبت أربعة مجانيق من جهاتها الأربع، وبلغني أنه نصب آخر في أرضها عند البحرة، ثم نصب آخر وآخر حتى شاهد الناس ستة مجانيق على ظهور الأبرجة، وأخرج منها القلعية وأسكنها خلقا من الأكراد والتركمان وغيرهم من الرجال الأنجاد، ونقل إليها من الغلات والأطعمة والأمتعة وآلات الحرب شيئاً كثيراً، واستعد للحصار إن حوصر فيها بما يحتاج إليه من جميع ما يرصد من القلاع، بما يفوت الحصر.

ولما شاهد أهل البساتين المجانيق قد نصبت في القلعة انزعجوا وانتقل أكثرهم من البساتين إلى البلد، ومنهم من أودع عند أهل البلد نفائس أموالهم وأمتعتهم، والعاقبة إلى خير إن شاء الله تعالى.

وجاءتني فتيا صورتها: ما يقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله، ومنع ورثته منه، وتصرف في المملكة وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين..

فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير: إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة

والمشايخ أولا، ثم بعد ذلك يكتب بقية المفتين بطريقه والله الموفق للصواب.

هذا وقد اجتمع على الأمير نائب السلطنة جميع أمراء الشام، حتى قيل إن فيهم من نواب السلطنة سبعة عشر أميراً، وكلهم يحضر معه المواكب الهائلة، وينزلون معه إلى دار السعادة، ويمد لهم الأسمطة ويأكل معهم.

وجاء الخبر بأن الأمير منجك الطرخاني المقيم ببيت المقدس قد أظهر الموافقة لنائب السلطنة، فأرسل له جبريل ثم عاد فأخبر بالموافقة، وأنه قد استحوذ على غزة ونائبه، وقد جمع وحشد واستخدم طوائف، ومسك على الجادة فلا يدع أحداً يمر إلا أن يفتش ما معه، لاحتمال إيصال كتب من هاهنا إلى هاهنا ومع هذا كله فالمعدلة ثابتة جداً، والأمن حاصل هناك، فلا يخاف أحد وكذلك بدمشق وضواحيها، لا يهاج أحد ولا يتعدى أحد على أحد، ولا ينهب أحد لأحد شيئا ولله الحمد.

غير أن بعض أهل البساتين قد انزعجوا توهموا وركبوا إلى المدينة وتحولوا، وأودع بعضهم نفائس ما عندهم، وأقاموا بها على وجل، وذلك لما رأوا المجانيق الستة منصوبة على رؤوس قلال الأبراج التي للقلعة ثم أحضر نائب السلطنة القضاة الأربعة والأمراء كلهم وكتبوا مكتوبا سطره بينهم كاتب السر أنهم راضون بالسلطان كارهون ليلبغا وأنهم لا يريدونه ولا يوافقون على تصرفه في المملكة وشهد عليهم القضاة بذلك، وأرسلوا المكتوب مع مملوك للأمير طيبغا الطويل، نظير يلبغا بالديار المصرية، وأرسل منجك إلى نائب السلطنة يستحثه في الحضور إليه في الجيش ليناجزوا المصريين، فعين نائب الشام من الجيش طائفة يبرزون بين يديه، وخرجت التجريدة ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان صحبة أسندمر الذي كان نائب الشام مدداً للأمير منجك في ألفين، ويذكر الناس أن نائب السلطنة بمن بقي من الجيش يذهبون على إثرهم، ثم خرجت أخرى بعدها ثلاثة آلاف، ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان كما سيأتي.

وتوفي الشيخ الحافظ علاء الدين

■ مغلطاي المصري بها في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان من هذه السنة، ودفن من الغد بالزيدانية، وقد كتب الكثير وصنف وجمع، وكانت عنده كتب كثيرة جلاً رحمه الله.

وفي مستهل رمضان أحضر جماعة من التجار إلى دار العدل ظاهر باب النصر ليباع شيء عليهم من القند والفولاذ والزجاج مما هو في حواصل يلبغا، فامتنعوا من ذلك خوفا من استعادة ثمنه منهم على تقدير، فضرب بعضهم منهم شهاب الدين بن الصواف بين يدي الحاجب، وشاد الدواوين، ثم أفرج عنهم في اليوم الثاني ففرج الله بذلك.

وخرجت التجريدة ليلة الثلاثاء بعد العشاء صحبة ثلاثة مقدمين منهم عراق ثم ابن صبح ثم ابن طرغية.

ودخل نائب طرابلس الأمير سيف الدين تومان إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء، عاشر رمضان فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين بيدمر إلى الأقصر، ودخلا معا في أبهة عظيمة فنزل تومان في القصر الأبلق، وبرز من معه من الجيوش إلى عند قبة يلبغا، هذا والقلعة منصوب عليها المجانيق، وقد ملئت حرساً شديداً، ونائب السلطنة في غاية التحفظ.

ولما أصبح يوم الخميس صمم تومان تمر على ملك الأمراء في الرحيل إلى غزة ليتوافى هو وبقية من تقدمه من الجيش الشامي، ومنجك ومن معه هنالك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فأجابه إلى ذلك وأمر بتقدم السبق بين يديه، في هذا اليوم فخرج السبق وأغلقت القلعة بابها المسلوك الذي عند دار الحديث، فاستوحش الناس، من ذلك والله يحسن العاقبة.

خروج ملك الأمراء بيدمر من دمشق إلى غزة

صلى الجمعة بالمقصورة الثاني عشر من رمضان هو ونائب السلطنة، بأطرابلس، ثم اجتمعا بالخطبة في مقصورة الخطابة، ثم راح لدار السعادة ثم خرج طلبه في تجمل هائل على ما ذكر بعد العصر، وخرج معهم فاستعرضهم ثم عاد إلى دار السعادة فبات إلى أن صلى الصبح، ثم ركب خلف الجيش هو ونائب طرابلس، وخرج عامة من بقي من الجيش من الأمراء وبقية الحلقة في أثناء الليل، ومن جملة الذاهبين في صحبته الولد عبد الرحمن أحد رجال الحلقة وسلمهم الله، وكذلك خرج القضاة، وكذا كاتب السر ووكيل بيت المال وغيرهم من كتاب الدست.

وأصبح الناس يوم السبت وليس أحد من الجند بدمشق، سوى نائب الغيبة الأمير سيف الدين بن حمزة التركماني، وقريبه والي البر ومتولي البلد الأمير بدر الدين صدقة بن أوحد، ومحتسب البلد ونواب القضاة والقلعة، على حالها والمجانيق منصوبة كما هي.

ولما كان صبح يوم الأحد رجع القضاة بكرة ثم رجع ملك الأمراء في أثناء النهار هو وتومان تمر، وهم كلهم في لبس وأسلحة تامة، وكل منهما خائف من الآخر أن يمسكه، فدخل هذا دار السعادة وراح الآخر إلى القصر الأبلق، ولما كان بعد العصر قدم منجك وأسندمر كان نائب السلطنة بدمشق، وهما مغلولان قد كسرهما من كان قدم على منجك من العساكر التي جهزها بيدمر إلى منجك قوة له على المصريين، وكان ذلك على يدي الأمير سيف الدين تمر حاجب الحجاب ويعرف بالمهمندار، قال لمنجك كلنا في خدمة من بمصر ونحن لا نطيعك على نصرة بيدمر، فتقاولا ثم تقاتلا فهزم منجك وذهب تمر ومنجك ومن كان معهما كابن صبح وطيدمر إلى المصريين.

ولما أصبح الصباح من يوم الاثنين خامس عشر لم يوجد لتومان تمر وطنبرق ولا أحد من أمراء دمشق عين ولا أثر، قد ذهبوا كلهم إلى طاعة صاحب مصر، ولم يبق بدمشق من أمرائها سوى ابن قراسنقر من الأمراء المقدمين، وسوى بيدمر،ومنجك وأسندمر، والقلعة قد هيئت والمجانيق منصوبة على حالها، والناس في خوف شديد من دخول بيدمر إلى القلعة، فيحصل بعد ذلك عند قدوم الجيش المصري حصار وتعب ومشقة على الناس، والله يحسن العاقبة.

ولما كان في أثناء نهار الاثنين خامس عشره دقت البشائر في القلعة وأظهر أن يلبغا الخاصكي قد نفاه السلطان إلى الشام، ثم ضربت وقت المغرب ثم بعد العشاء في صبيحة يوم الثلاثاء أيضا، وفي كل ذلك يركب الأمراء الثلاثة منجك وبيدمر وأسندمر ملبسين، ويخرجون إلى خارج البلد، ثم يعودون، والناس فيما يقال ما بين مصدق ومكذب، ولكن قد شرع إلى تستير القلعة وتهيئ الحصار فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم تبين أن هذه البشائر لا حقيقة لها، فاهتم في عمل ستائر القلعة وحمل الزلط والأحجار إليها، والأغنام والحواصل إليها.

وقد وردت الأخبار بأن الركاب الشريف السلطاني وصحبته يلبغا في جميع جيش مصر قد عدا غزة فعند ذلك خرج الصاحب وكاتب السر والقاضي الشافعي وناظر الجيش ونقباؤه ومتولي البلد وتوجهوا تلقاء حماة لتلقي الأمير علي الذي قد جاءه تقليد دمشق، وبقي البلد شاغرا عن

حاكم فيها سوى المحتسب وبعض القضاة، والناس كغنم لا راعي لهم، ومع هذا الأحوال صالحة والأمور ساكنة، لا يعدو أحد على أحد فيما بلغنا، هذا وبيدمر ومنجك وأسندمر في تحصين القلعة وتحصيل العدد والأقوات فيها، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّم الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] الستائر تعمل فوق الأبرجة، وصلى الأمير بيدمر صلاة الجمعة تاسع عشر الشهر في الشباك الكمالي، في مشهد عثمان، وصلى عنده منجك إلى جانبه داخل موضع القضاة، وليس هناك أحد من الحجبة ولا النقباء، وليس في البلد أحد من المباشرين بالكلية، ولا من الجند إلا القليل، وكلهم قد سافروا إلى ناحية السلطان، والمباشرون إلى ناحية حماة لتلقي الأمير علي نائب الشام المحروس، ثم عاد إلى القلعة ولم يحضر الصلاة أسندمر، لأنه قيل كان منقطعا إذ قد صلى في القلعة.

وفي يوم السبت العشرين من الشهر وصل البريد من جهة السلطان من أبناء الرسول إلى نائب دمشق يستعلم طاعته أو مخالفته، وتعتّب عليه فيما اعتمده من استحوذ على القلعة ويخطب فيها، وادخار الآلات والأطعمات فيها، وعدم المجانيق والستائر عليها، وكيف تصرف في الأموال السلطانية تصرف الملاّك والملوك، فتنصل ملك الأمراء من ذلك، وذكر أنه إنما أرصد في القلعة جنادتها وأنه لم يدخلها، وأن أبوابها مفتوحة، وهي قلعة السلطان، وإنما له غريم بينه وبينه الشرع والقضاة الأربعة - يعني بذلك يلبغا - وكتب بالجواب وأرسله صحبة البريدي وهو كيكلدي مملوك يقطبة الدوادار، وأرسل في صحبته الأمير صارم الدين أحد أمراء العشرات من يوم ذلك.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من رمضان تصبح أبواب البلد مغلقة إلى قريب الظهر، وليس ثم مفتوح سوى بابي النصر والفرج، والناس في حصر شديد وانزعاج، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولكن قد اقترب وصول السلطان والعساكر المنصورة.

وفي صبيحة الأربعاء أصبح الحال كما كان وأزيد، ونزل الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي بقبة يلبغا، وامتد طلبه من سيف داريا إلى القبة المذكورة في أبهة عظيمة، وهيئة حسنة، وتأخر الركاب الشريف بتأخره عن الصنمين بعد، ودخل بيدمر في هذا اليوم إلى القلعة وتحصن بها.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين منه استمرت الأبواب كلها مغلقة سوى بابي النصر والفرج، وضاق النطاق وانحصر الناس جدا وقطع المصريون نهر بانياس والفرع الداخل إليها وإلى دار السعادة من القنوات، واحتاجوا لذلك أن يقطعوا القنوات ليسدوا الفرع المذكور، فانزعج أهل البلد لذلك ملؤوا ما في بيوتهم من برك المدارس وغير ذلك، وبيعت القربة بدرهم، والحق بنصف، ثم أرسلت القنوات وقت العصر من يومئذ ولله الحمد والمنة، فانشرح الناس لذلك.

وأصبح الصباح يوم الجمعة والأبواب مغلقة ولم يفتح بابا النصر والفرج إلى بعد طلوع الشمس بزمان، فأرسل يلبغا من جهته أربعة أمراء وهم الأمير زين الدين زبالة الذي كان نائب القلعة، والملك صلاح الدين بن الكامل، والشيخ علي الذي كان نائب الرحبة من جهة بيدمر، وأمير آخر، فدخلوا البلد وكسروا أقفال أبواب البلد، وفتحوا الأبواب، فلما رأى بيدمر ذلك أرسل مفاتيح البلد إليهم انتهى.

وصول السلطان الملك المنصور إلى المصطبة غربي عقبة سجورا

كان ذلك يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان في جحافل عظيمة كالجبال، فنزل عند المصطبة المنسوبة إلى عم أبيه الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون وجاءت الأمراء ونواب البلاد لتقبيل يده والأرض بين يديه، كنائب حلب، ونائب حماة، وهو الأمير علاء الدين المارداني، وقد عين لنيابة دمشق، وكتب بتقليده بذلك، وأرسل إليه وهو بحماة.

فلما كان يوم السبت السابع والعشرين منه خلع على الأمير علاء الدين علي المارداني بنيابة دمشق، وأعيد إليها عوداً على بدء ثم هذه الكرة الثالثة، وقبل يد السلطان وركب عن يمينه، وخرج أهل البلد لتهنئته، هذا والقلعة محصنة بيد بيلمر وقد دخلها ليلة الجمعة واحتمى بها هو ومنجك وأسندمر ومن معه من الأعوان بها ولسان حال القدر يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ولما كان يوم الأحد طلب قضاة القضاة وأرسلوا إلى بيلمر وذويه بالقلعة ليصالحوه على شيء يشترطونه، وكان ما سنذكره انتهى والله تعالى أعلم.

سبب خروج بيدمر من القلعة وصفة ذلك

لما كان يوم الأحد الثامن والعشرين منه أرسل قضاة القضاة ومعهم الشيخ شرف الدين بن قاضي الجبل الحنبلي، والشيخ سراج الدين الهندي الحنفي قاضي العسكر المصري للحنفية، إلى بيدمر ومن معه ليتكلموا معهم في الصلح لينزلوا على ما يشترطون قبل أن يشرعوا في الحصار والمجانيق التي قد استدعي بها من صفد وبعلبك، وأحضر من رجال النقاعين نحو من ستة آلاف رام فلما اجتمع به القضاة ومن معهم وأخبروه عن السلطان وأعيان الأمراء بأنهم قد كتبوا له أمانا إن أناب إلى المصالحة، فطلب أن يكون بأهله ببيت المقدس، وطلب أن يعطى منجك بلاداً بناحية بلاد سيس ليسترزق هنالك، وطلب أسندمر أن يكون بشمقدار للأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي.

فرجع القضاة إلى السلطان ومعهم الأمير زين الدين جبريل الحاجب كان، فأخبروا السلطان والأمراء بذلك، فأجيبوا إليه، وخلع السلطان والأمراء على جبريل خلعا، فرجع في خدمة القضاة ومعهم الأمير أسنبغا بن الأبو بكري، فدخلوا القلعة وباتوا هنالك كلهم، وانتقل الأمير بيلمر بأهله وأثاثه إلى داره بالمطرزين.

فلما أصبح يوم الاثنين التاسع والعشرين منه خرج الأمراء الثلاثة من القلعة ومعهم جبريل، فدخل القضاة وسلموا القلعة بما فيها من الحواصل إلى الأمير سيف الدين أسنبغا بن الأبو بكري انتهى.

دخول السلطان محمد ابن الملك أمير حاج ابن الملك محمد ابن الملك قلاوون إلى دمشق في جيشه وأمرائه

لما كان صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة

رجع القضاة إلى الوطاق الشريف، وفي صحبتهم الأمراء الذين كانوا بالقلعة، وقد أعطوا الأمان من جهة السلطان ومن معهم وذويهم، فدخل القضاة وحجب الأمراء المذكورون، فخلع على القضاة الأربعة وانصرفوا راجعين مجبورين.

وأما الأمراء المذكورون فإنهم أركبوا على خيل ضعيفة، وخلف كل واحد منهم وُشاقي آخذ بوسطه قيل: وفي يد كل واحد من الوشاقية خنجر كبير مسلول لئلا يستنقذه منه أحد فيقتله بها، فدخل جهرة بين الناس ليروهم ذلتهم التي قد لبستهم، وقد أحدق الناس بالطريق من كل جانب، فقام كثير من الناس الله أعلم بعدتهم، إلا أنهم قد يقاربون المائة ألف أو يزيدون عليها، فرأى الناس منظراً فظيعاً فدخل بهم الوشاقية إلى الميدان الأخضر الذي فيه القصر، فأجلسوا هنالك وهم ستة نفر: الثلاثة النواب وجبريل وابن أسندمر، وسادس، وظن كل منهم أن يفعل بهم فاقرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأرسلت الجيوش داخلة إلى دمشق أطلابا أطلاباً في تجمل عظيم، وليس الحرب يبهر النصر وخيول وأسلحة ورماح، ثم دخل السلطان في آخر ذلك كله بعد العصر بزمن، وعليه من أنواع الملابس قباء زبخاري، والقبة والطير يحملهما على رأسه الأمير سيف الدين تومان تمر الذي كان نائب طرابلس، والأمراء مشاة بين يديه والبسط تحت قدمي فرسه والبشائر تضرب خلفه فدخل القلعة المنصورة المنصورية لا البدرية. ورأى ما قد أرصد بها من المجانيق والأسلحة، فاشتد حنقه على بيدمر وأصحابه كثيراً، ونزل الطارمة، وجلس على سرير المملكة ووقف الأمراء والنواب، بين يديه، ورجع الحق إلى نصابه، وقد كان بين دخوله ودخول عمه الصالح صالح إلى دمشق في قضية بيبغا آروس تسع سنين وكان دخولهما إليها في رمضان الصالح في أول يوم من رمضان، وهذا في التاسع والعشرين، منه وقد قيل إنه سلخه والله أعلم وشرع الناس في الزينة.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء سلخ الشهر نقل الأمراء المغضوب عليهم الذين ضل سعيهم فيما كانوا أبرموه من ضمير سوء للمسلمين إلى القلعة فأنزلوا في أبراجها مهانين، مفرقا بينهم، بعدما كانوا بها آمنين حاكمين، أصبحوا معتقلين مهانين خائفين فخاروا بعدما كانوا رؤساء، وأصبحوا بعد عزهم أذلاء، ونقبت أصحاب هؤلاء ونودي عليهم في البلد، ووعد من دل على أحد منهم بمال جزيل، وولاية إمرة بحسب ذلك ورسم في هذا اليوم على الرئيس أمين الدين بن القلانسي كاتب السر، وطلب منه ألف ألف درهم، وسلم إلى الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة، وقد أعيد إليها وأعطى تقدمة ابن قراسنقر وأمره أن يعاقبه إلى أن يزن هذا المبلغ وصلى السلطان وأمراؤه بالميدان الأخضر صلاة العيد، ضرب له خام عظيم وصلى به خطيباً القاضي تاج الدين المناوي الشافعي، قاضي العسكر المنصورة للشافعية، ودخل الأمراء مع السلطان للقلعة من باب المدرسة، ومد لهم سماطا هائلا أكلوا منه ثم رجعوا إلى دورهم وقصورهم، وحمل الجتر في هذا اليوم على رأس السلطان الأمير علي نائب دمشق وخلع عليه خلعة هائلة.

وفي هذا اليوم مسك الأمير تومان تمر الذي كان نائب طرابلس، ثم قدم على بيدمر، فكان معه، ثم قفل إلى المصريين واعتذر إليهم، فعذروه فيما يبدو للناس، ودخل وهو حامل الجتر على رأس السلطان يوم الدخول، ثم ولوه نيابة حمص، فصغروه وحقروه، ثم لما استمر ذاهبا إليها فكان عند القابون أرسلوا إليه فأمسكوه وردوه وطلب منه المائة ألف التي كان قبضها من بيدمر، ثم ردوه إلى نيابة حمص.

وفي يوم الخميس اشتهر الخبر بأن طائفة من الجيش بمصر من طواشية وخاصكية ملكوا عليهم حسين بن الناصر ثم اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا، وأن الأمر قد انفصل ورد حسين للمحل الذي كان معتقلا فيه، وأطفأ الله شر هذه الطائفة ولله الحمد.

وفي آخر هذا اليوم لبس القاضي ناصر الدين بن يعقوب خلعة كتابة السر الشريفة والمدرستين ومشيخة الشيوخ عوضاً عن الرئيس علاء الدين بن القلانسي عزل وصودر وراح الناس لتهنئته بالعود إلى وظيفته كما كان.

وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث شوال مسك جماعة من الأمراء الشاميين منهم الحاجبان صلاح الدين وحسام الدين والمهمندار ابن أخي الحاجب الكبير، تمر، وناصر الدين ابن الملك صلاح الدين بن الكامل، وابن حمزة والطرخاني واثنان أخوان وهما طيبغا زفر وبلجك، كلهم طبلخاناه، وأخرجوا خيروتمر حاجب الحجاب، وكذلك الحجوبية أيضا وأعطوا إقطاعه لابن القشتمري الذي كان نائب حلب وأعطوا الحجوبية لقماري أحد أمراء مصر.

وفي يوم الثلاثاء سابع شوال مسك ستة عشر أميراً من أمراء العرب بالقلعة المنصورة منهم عمر بن موسى بن مهنا الملقب بالمصمع، الذي كان أمير العرب في وقت، ومعيقل بن فضل بن مهنا وآخرون.

وذكروا أن سبب ذلك أن طائفة من آل فضل عرضوا للأمير سيف الدين الأحمدي الذي استنابوه على حلب، وأخذوا منه شيئا من بعض الأمتعة، وكادت الحرب تقع بينهم.

وفي ليلة الخميس بعد المغرب حمل تسعة عشر أميرا من الأتراك والعرب على البريد مقيدين في الأغلال أيضا إلى الديار المصرية، منهم بيدمر ومنجك وأسندمر وجبريل وصلاح الدين الحاجب وحسام الدين أيضا وبلجك وغيرهم، ومعهم نحو من مائتي فارس ملبسين بالسلاح متوكلين بحفظهم، وساروا بهم نحو الديار المصرية، وأمروا جماعة من البطالين منهم أولاد الأقوش، وأطلق الرئيس أمين الدين بن القلانسي من المصادرة والترسيم بالقلعة، بعد ما وزن بعض ما طلب منه وصار إلى منزله، وهناه الناس.

خروج السلطان من دمشق قاصداً مصر

ولما كان يوم الجمعة عاشر شهر شوال خرج طلب يلبغا الخاصكي صبيحته في تجمل عظيم لم ير الناس في هذه المدد مثله، من نجائب وجنائب ومماليك وعظمة هائلة، وكانت عامة الأطلاب قد تقدمت قبله بيوم، وحضر السلطان إلى الجامع الأموي قبل أذان الظهر، فصلى في مشهد عثمان هو ومن معه من أمراء المصريين، ونائب الشام، وخرج من فوره من باب النصر ذاهبا نحو الكسوة والناس في الطرقات والأسطحة على العادة، وكانت الزينة قد بقي أكثرها في الصاغة والخواصين وباب البريد إلى هذا اليوم، فاستمرت نحو العشرة أيام.

وفي يوم السبت حادي عشر شوال خلع على الشيخ علاء الدين الأنصاري بإعادة الحسبة إليه وعزل عماد الدين بن الشيرجي، وخرج المحمل يوم الخميس سادس عشر شوال على العادة، والأمير مصطفى البيزي.

وتوفي يوم الخميس ويوم الجمعة أربعة أمراء بدمشق، وهم قشتمرزفر وطيبغا الفيل ونوروز أحد مقدمي الألوف، وتمر المهمندار، وقد كان مقدم

ألف وحاجب الحجاب وعمل نيابة غزة في وقت، ثم تعصب عليه المصريون فعزلوه عن الإمرة، وكان مريضا فاستمر مريضا إلى أن توفي يوم الجمعة، ودفن يوم السبت بتربته التي أنشاها بالصوفية، لكنه لم يدفن فيها بل على بابها كأنه تورّع أو ندم على بنائها فوق قبور المسلمين رحمه الله.

وتوفي الأمير

■ ناصر الدين بن الأقوش يوم الاثنين العشرين من شوال ودفن بالقبيبات، وقد ناب ببعلبك وبحمص، ثم قطع خبره هو وأخوه كجكن ونفوا عن البلد إلى بلدان شتى، ثم رضي عنهم الأمير يلبغا وأعاد عليهم أخبازا بطبلخاناه، فما لبث ناصر الدين إلا يسيراً حتى توفي إلى رحمة الله تعالى، وقد أثر آثاراً حسنة كثيرة منها عند عقبة الرمانة خان مليح نافع، وله ببعلبك جامع وحمام وخان وغير ذلك، وله من العمر ست وخمسون سنة.

وفي يوم الأحد السادس والعشرين منه درس القاضي نور الدين محمد ابن قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء الشافعي بالمدرسة الأتابكية، نزل له عنها والده بتوقيع سلطاني، وحضر عنده القضاة والأعيان، وأخذ في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي هذا اليوم درس القاضي نجم الدين أحمد بن عثمان النابلسي الشافعي المعروف بابن الجابي بالمدرسة العصرونية استنزل له عنها القاضي أمين الدين بن القلانسي في مصادراته.

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من شوال درس القاضي ولي الدين عبد الله بن القاضي بهاء الدين أبي البقاء بالمدرستين الرواحية ثم القيمرية، نزل له عنهما والده المذكور بتوقيع سلطاني، وحضر عنده فيهما القضاة والأعيان.

وفي صبيحة يوم الخميس سلخ شوال شهرُ الشيخ أسد ابن الشيخ الكردي على جمل وطيف به في حواضر البلد ونودي عليه: هذا جزاء من يخامر على السلطان ويفسد نواب السلطان، ثم أنزل عن الجمل وحمل على حمار وطيف به في البلد ونودي عليه بذلك، ثم ألزم السجن وطلب منه مال جزيل وقد كان المذكور من أعوان بيدمر المتقدم ذكره وأنصاره، وكان هو المتسلم للقلعة في أيامه.

وفي صبيحة يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة خلع على قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح بقضاء العسكر الذي كان متوفرا عن علاء الدين بن شمرنوخ، وهنأه الناس بذلك وركب البغلة بالزناري مضافا إلى ما بيده من نيابة الحكم والتدريس.

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أعيد تدريس الركنية بالصالحية إلى قاضي القضاة شرف الدين الكفري الحنفي، استرجعها بمرسوم شريف سلطاني، من يد القاضي عماد الدين بن العز، وخلع على الكفري، وذهب الناس إليه للتهنئة بالمدرسة المذكورة.

وفي شهر ذي الحجة اشتهر وقوع فتن بين الفلاحين بناحية عجلون، وأنهم اقتتلوا فقتل من الفريقين اليمني والقيسي طائفة، وأن عين حبنا التي هي شرقي عجلون دمرت وخربت، وقطع أشجارها ودمرت بالكلية.

وفي صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة لم تفتح أبواب دمشق إلى ما بعد طلوع الشمس فأنكر الناس ذلك، وكان سببه الاحتياط على أمير يقال له كسغا، كان يريد الهرب إلى بلاد الشرق، فاحتيط عليه حتى أمسكوه.

وفي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من ذي الحجة قدم الأمير سيف الدين طاز من القدس فنزل بالقصر الأبلق، وقد عمي من الكحل حين كان مسجونا بالإسكندرية، فأطلق كما ذكرنا ونزل ببيت المقدس مدة، ثم جاءه تقليد بأنه يكون طرخانا ينزل حيث شاء من بلاد السلطان، غير أنه لا يدخل ديار مصر، فجاء فنزل بالقصر الأبلق، وجاء الناس إليه على طبقاتهم ـ نائب السلطنة فمن دونه ـ يسلمون عليه وهو لا يبصر شيئا، وهو على عزم أن يشتري أو يستكري له داراً بدمشق يسكنها. انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما والاهما من الممالك الإسلامية السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر أمير حاج بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، وهو شاب دون العشرين، ومدبر الممالك بين يديه الأمير يلبغا، ونائب الديار المصرية قشتمر، وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها، والوزير سيف الدين قروينة، وهو مريض مدنف ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين المارداني، وقضاته هم المذكورون في التي قبلها، وكذلك الخطيب، ووكيل بيت المال، والمحتسب علاء الدين الأنصاري، عاد إليها في السنة المنفصلة، وحاجب الحجاب قماري، والذي يليه السليماني، وآخر من مصر أيضاً، وكاتب السر القاضي ناصر الدين محمد بن يعقوب الحلبي، وناظر الجامع القاضي تقي الدين بن مراجل.

وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين الشافعي أنه جدد في أول هذه السنة قاضي حنفي بمدينة صفد المحروسة مع الشافعي، فصار في كل من حماة وطرابلس وصفد قاضيان شافعي وحنفي.

وفي ثاني المحرم قدم نائب السلطنة بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوما، وقد أوطأ بلاد قرير بالرعب وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس، وكان قد اشتهر أنه قصد العشيرات المواسين ببلاد عجلون، فسألته عن ذلك حين سلمت عليه فأخبرني أنه لم يتعد ناحية قرير، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا، وأن التجريدة عندهم هناك. قال: وقد كبس الأعراب من حرم الترك فهزمهم الترك وقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم ظهر للعرب كمين، فلجأ الترك إلى وادٍ حَرِجٍ فحصروهم هنالك، ثم ولت الأعراب فراراً، ولم يقتل من الترك أحد، وإنما جرح منهم أمير واحد فقط، وقتل من الأعراب فوق الخمسين نفساً.

وقدم الحجاج يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم، ودخل المحمل السلطاني ليلة الاثنين بعد العشاء، ولم يحتفل لدخوله كما جرت به العادة، وذلك لشدة ما نال الركب في الرجعة من زيزاء إلى هنا من البرد الشديد، بحيث إنه قد قيل إنه مات منهم بسبب ذلك نحو المائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن أخبروا برخص كثير وأمن، وبموت ثُقْبَةَ أخي عجلان صاحب مكة، وقد استبشر بموته أهل تلك البلاد، لبغيه على أخيه عجلان العادل فيهم. انتهى والله أعلم.

منام غريب جداً

ورأيت ـ يعني المصنف ـ في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله فقلت له: يا سيدي الشيخ لم لا أدخلت في شرحك المهذب شيئا من مصنفات ابن

حزم؟ فقال ما معناه: إنه لا يحبه، فقلت له: أنت معذور فيه فإنه جمع بين طرفي النقيضين في أصوله وفروعه، أما هو في الفروع فظاهري جامد يابس، وفي الأصول تولٌ مائع قرمطة القرامطة، وهُرْسُ الهراسة، ورفعت بها صوتي حتى سمعت وأنا نائم، ثم أشرت له إلى أرض خضراء تشبه النخيل بل هي أردأ شكلا منه، لا ينتفع بها في استغلال ولا رعي، فقلت له: هذه أرض ابن حزم التي زرعها قال: انظر هل ترى فيها شجرا مثمرا، أو شيئا ينتفع به، فقلت إنما تصلح للجلوس عليها في وضوء القمر. فهذا حاصل ما رأيته، ووقع في خلدي أن ابن حزم كان حاضرنا، عند ما أشرت للشيخ محيي الدين إلى الأرض المنسوبة لابن حزم، وهو ساكت لا يتكلم.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر خلع على القاضي عماد الدين بن الشيرجي بعود الحسبة إليه، بسبب ضعف علاء الدين الأنصاري عن القيام بها لشغله بالمرض المدنف، وهنأ الناس على العادة.

وفي يوم السبت السادس والعشرين من صفر توفي الشيخ علاء الدين الأنصاري المذكور بالمدرسة الأمينية، وصلي عليه الظهر بالجامع الأموي، ودفن بمقابر باب الصغير خلف محراب جامع جراح، في تربة هنالك، وقد جاوز الأربعين سنة، ودرس في الأمينية، وفي الحسبة مرتين، وترك أولاداً صغاراً، وأموالا جزيلة سامحه الله ورحمه، وولي المدرسة بعده قاضي القضاة تاج الدين بن السبكي بمرسوم كريم شريف.

وفي العشر الأخير من صفر بلغنا وفاة قاضي قضاة المالكية الأخنائي بمصر وتولية أخيه برهان الدين ابن قاضي القضاة علم الدين الأخنائي الشافعي أبوه قاضيا مكان أخيه، وقد كان على الحسبة بمصر مشكور السيرة فيها، وأضيف إليه نظر الخزانة كما كان أخوه.

وفي صبيحة يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول كان ابتداء حضور قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن قاضي القضاة تقي الدين أبي الحسن بن عبد الكافي السبكي الشافعي تدريس الأمينية عوضاً عن الشيخ علاء الدين المحتسب، بحكم وفاته رحمه الله كما ذكرنا، وحضر عنده خلق من العلماء والأشراف والفقهاء والعامة، وكان درسا حافلا، أخذ في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية [النساء: ٥٤] وما بعدها، فاستنبط أشياء حسنة، وذكر ضربا من العلوم بعبارة طلقة جارية معسولة أخذ ذلك من غير تلعثم ولا تلجلج ولا تَنَحْنُحٍ ولا تكلف، فأجاد وأفاد، وشكره الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم حتى قال بعض الأكابر: إنه لم يسمع درسا مثله.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين منه توفي الصدر

■ برهان الدين بن لؤلؤ الحوضي، في داره بالقصاعين ولم يمرض إلا يوماً واحداً، وصلي عليه من الغد بجامع دمشق، بعد صلاة الظهر، وخرجوا به من باب النصر، فخرج نائب السلطنة الأمير علي، فصلى عليه إماما خارج باب النصر، ثم ذهبوا به فدفنوه بمقابرهم بباب الصغير فدفن عند أبيه رحمهما الله، وكان رحمه الله فيه مروءة وقيام مع الناس، وله وجاهة عند الدولة، وقبول عند نواب السلطنة وغيرهم، ويحب العلماء وأهل الخير، ويواظب على سماع مواعيد الحديث والخير، وكان له مال وثروة ومعروف، قارب الثمانين رحمه الله.

وجاء البريد من الديار المصرية فأخبر بموت الشيخ شمس الدين

■ محمد بن النقاش المصري بها، وكان واعظا ماهراً، وفقيهاً بارعاً، ونحويا شاعراً، له يد طولى في فنون متعددة، وقدرة على نسج الكلام، ودخول على الدولة وتحصيل الأموال، وهو من أبناء الأربعين رحمه الله.

وأخبر البريد بولاية قاضي القضاة شرف الدين المالكي البغدادي، الذي كان قاضيا بالشام للمالكية، ثم عزل بنظر الخزانة بمصر، فإنه رتب له معلوم وافر يكفيه ويفضل عنه، ففرح بذلك من يحبه.

■ (ابن القلانسي أمين الدين محمد).

وفي يوم الأحد السابع عشر من ربيع الآخر توفي الرئيس أمين الدين محمد بن الصدر جمال الدين أحمد ابن الرئيس شرف الدين محمد بن القلانسي، أحد من بقي من رؤساء البلد وكبرائها، وقد كان باشر مباشرات كبار كأبيه وعمه علاء الدين، ولكن فاق هذا على أسلافه، فإنه باشر وكالة بيت المال مدة، وولي قضاء العساكر أيضا، ثم ولي كتابة السر، مع مشيخة الشيوخ وتدريس الناصرية والشامية الجوانية، وكان قد درس في العصرونية من قبل سنة ست وثلاثين، ثم لما قدم السلطان في السنة الماضية عزل عن مناصبه الكبار، وصودر بمبلغ كثير، يقارب مائتي ألف، فباع كثيراً من أملاكه وما بقي بيده من وظائفه شيء، وبقي خاملا مدة إلى يومه هذا، فتوفي بغتة، وكان قد تشوش قليلا، لم يشعر به أحد، وصلي عليه العصر بجامع دمشق، وخرجوا به من باب الناطفانيين إلى تربتهم التي بسفح قاسيون رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثامن عشره، خلع على القاضي جمال الدين ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري الحنفي، وجعل مع أبيه شريكا في القضاء ولقب في التوقيع الوارد صحبة البريد من جهة السلطان «قاضي القضاة» فلبس الخلعة بدار السعادة وجاء ومعه قاضي القضاة تاج الدين السبكي إلى النورية فقعد في المسجد، ووضعت الربعة فقرئت، وقرئ القرآن ولم يكن درساً، وجاءت الناس للتهنئة بما حصل من الولاية له مع أبيه.

■ (فتح الدين بن زين الدين الفارقي).

وفي صبيحة يوم الثلاثاء توفي الشيخ الصالح العابد الناسك الخاشع فتح الدين ابن الشيخ زين الدين الفارقي، إمام دار الحديث الأشرفية، وخازن الأثر بها، ومؤذن في الجامع، وقد أتت عليه تسعون سنة في خير وصيانة وتلاوة وصلاة كثيرة وانجماع عن الناس، صلي عليه صبيحة يومئذ، وخرج به من باب النصر إلى نحو الصالحية رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى ورد البريد وهو قرابغا دوادار نائب الشام الصغير ومعه تقليد بقضاء قضاة الحنفية للشيخ جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، بمقتضى نزول أبيه له عن ذلك، ولبس الخلعة بدار السعادة، وأجلس تحت المالكي، ثم جاؤوا إلى المقصورة من الجامع، وقرئ تقليده هنالك، قرأه شمس الدين بن السبكي نائب الحسبة، واستناب اثنين من أصحابهم، وهما شمس الدين بن منصور، وبدر الدين بن الجواشني، ثم جاء معه إلى النورية فدرس بها ولم يحضره والده بشيء من ذلك، انتهى والله أعلم.

موت الخليفة المعتضد بالله

كان ذلك في العشر الأوسط من جمادى الأولى بالقاهرة، وصلي عليه يوم الخميس، أخبرني بذلك قاضي القضاة تاج الدين الشافعي عن كتاب أخيه الشيخ بهاء الدين رحمهما الله.

خلافة المتوكل على الله

ثم بويع بعده ولده المتوكل على الله علي أبو عبد الله محمد بن

المعتضد أبي بكر أبي الفتح بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد رحم الله أسلافه.

وفي جمادى الأولى توجه الرسول من الديار المصرية ومعه سناجق خليفية وسلطانيه وتقاليد وخلع وتحف لصاحبي الموصل وسنجار من جهة صاحب مصر ليخطب له فيهما، وولي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي السبكي الحاكم بدمشق لقاضيهما من جهته تقليدين، حسب ما أخبرني بذلك، وارسلا مع ما أرسل به السلطان إلى البلدين، وهذا أمر غريب لم يقع مثله فيما تقدم فيما أعلم والله أعلم.

وفي جمادى الآخرة خرج نائب السلطنة إلى مرج الغسولة ومعه حجبته، ونقباء النقباء، وكاتب السر وذووه، ومن عزمهم الإقامة مدة، فقدم من الديار المصرية أمير على البريد، فأسرعوا الأوبة، فدخلوا في صبيحة الأحد الحادي والعشرين منه، وأصبح نائب السلطنة فحضر الموكب على العادة، وخلع على الأمير سيف الدين يلبغا الصالحي، وجاء النص من الديار المصرية بخلعة دوادار، عوضاً عن سيف الدين كجكن.

وخلع في هذا اليوم على الصدر شمس الدين بن مزى بتوقيع الدست، وجهات أخر، قدم بها من الديار المصرية، فانتشر الخبر في هذا اليوم بإجلاس قاضي القضاة جمال الدين بن الكفري الحنفي، فوق قاضي القضاة المالكية، لكن لم يحضر في هذا اليوم، وذلك بعد ما قد أمر بإجلاس المالكي فوقه.

وفي ثاني رجب توفي القاضي الإمام العالم شمس الدين

■ ابن مفلح المقدسي الحنبلي، نائب مشيخة قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المقدسي الحنبلي، وزوج ابته، وله منها سبعة أولاد ذكور وإناث.

وكان بارعاً فاضلا، متفننا في علوم كثيرة، ولا سيما علم الفروع، كان غاية في نقل مذهب الإمام أحمد، وجمع مصنفات كثيرة منها كتاب المقنع نحواً من ثلاثين مجلداً كما أخبرني بذلك عنه قاضي القضاة جمال الدين، وعلق على محفوظة أحكام الشيخ مجد الدين بن تيمية مجلدين، وله غير ذلك من الفوائد والتعليقات، رحمه الله.

توفي عن نحو خمسين سنة، وصلي عليه بعد الظهر من يوم الخميس ثاني الشهر بالجامع المظفري، ودفن بمقبرة الشيخ الموفق، وكانت له جنازة، حافلة حضرها القضاة كلهم، وخلق من الأعيان، رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي صبيحة يوم السبت رابع رجب ضرب نائب السلطنة جماعة من أهل قبر عاتكة، أساؤوا الأدب على النائب ومماليكه وذويه، بسبب جامع للخطبة جدد بناحيتهم، فأراد بعض الفقراء أن يأخذ ذلك الجامع، ويجعله زاوية للرقاصين، فحكم القاضي الحنبلي بجعله جامعاً، قد نصب فيه منبر، وقد قدم شيخ من الفقراء، على يديه مرسوم شريف بتسليمه إليه، فأنفت أنفس أهل تلك الناحية من عوده زاوية بعد ما كان جامعا، وأعظموا ذلك، فتكلم بعضهم بكلام سيىء، فاستحضر نائب السلطنة طائفة منهم، وضربهم بالمقارع بين يديه، ونودي عليهم في البلد، فأراد بعض العامة إنكاراً لذلك، وحدد ميعاد حديث يقرأ بعد المغرب، تحت قبة النسر، على الكرسي الذي يقرأ عليه المصحف، رتبه أحد أولاد القاضي عماد الدين بن الشيرازي، وحدث فيه الشيخ عماد الدين بن السراج، واجتمع عنده خلق كثير، وجم غفير، وقرأ في السيرة النبوية من خطي، وذلك في العشر الأول من هذا الشهر.

أعجوبة من العجائب

وحضر شاب عجمي من بلاد تبريز وخراسان، يزعم أنه يحفظ البخاري، ومسلما، وجامع المسانيد، والكشاف للزمخشري، وغير ذلك من محافيظ، في فنون أخر.

فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب، قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه، عند باب الكلاسة - عليَّ من أول صحيح البخاري إلى أثناء كتاب العلم منه، من حفظه، وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فادى جيداً، غير أنه يصحف بعضَ الكلمات لعجم فيه، وربما لحن أيضا في بعض الأحيان، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة، وجماعة من المحدثين، فأعجب ذلك جماعة كثيرين.

وقال آخرون منهم إن سرد بقية الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً، فاجتمعنا في اليوم الثاني، وهو مستهل شعبان، في المكان المذكور، وحضر قاضي القضاة الشافعي، وجماعة من الفضلاء، واجتمع العامة محدقين، فقرأ على العادة، غير أنه لم يطول كأول يوم، وسقط عليه بعض الأحاديث، وصحف ولحن في بعض الألفاظ، ثم جاء القاضيان الحنفي والمالكي، فقرأ بحضرتهما أيضا بعض الشيء، هذا والعامة محتفون به، متعجبون من أمره، ومنهم من يتقرب بتقبيل يديه، وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذكرك في بلادنا مشهور، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة، وقد كارمه القضاة والأعيان بشيء من الدراهم يقارب الألف.

عزل الأمير علي عن نيابة دمشق المحروسة

في يوم الأحد حادي عشر شعبان ورد البريد من الديار المصرية، وعلى يديه مرسوم شريف بعزل الأمير علي عن نيابة دمشق، فأحضر الأمراء إلى دار السعادة، وقرئ المرسوم الشريف عليهم بحضوره، وخلع عليه خلعة وردت مع البريد، ورسم له بقرية دومة وأخرى في بلاد طرابلس على سبيل الراتب، وأن يكون في أي البلاد شاء من دمشق، أو القدس أو الحجاز، فانتقل من يومه من دار السعادة وبباقي أصحابه ومماليكه، واستقر نزوله في دار الخليلي بالقصاعين، التي جددها وزاد فيها دويداره يلبغا، وهي دار هائلة، وراح الناس للتأسف عليه، والحزن له انتهى.

طلب قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي الشافعي إلى الديار المصرية معزولاً عن قضاء دمشق

ورد البريد بطلبه من آخر نهار الأحد، بعد العصر، الحادي عشر من شعبان، سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فأرسل إليه حاجب الحجاب قماري، وهو نائب الغيبة، أن يسافر من يومه، فاستنظرهم إلى الغد فأمهل، وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين بن السبكي بقضاء دمشق، عوضا عن أخيه تاج الدين، وأرسل يستنيب ابن أختهما قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح السكي بحكم أن يقدم إلى دمشق وأخذ قاضي القضاة تاج الدين في التأهب والسير، وجاء الناس إليه ليودعوه ويستوحشون له، وركب من بستانه بعد العصر، يوم الاثنين، ثاني عشر شعبان، متوجها على البريد إلى

الديار المصرية، وبين يديه قضاة القضاة، والأعيان، حتى قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي، حتى ردهم قريبا من الجسورة ومنهم من جاوزها، والله المسؤول في حسن الخاتمة في الدنيا والآخرة، انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أعجوبة أخرى غريبة

لما كان يوم الثلاثاء العشرين من شعبان، دعيت إلى بستان الشيخ العلامة جمال الدين بن الشريشي، شيخ الشافعية، وحضر جماعة من الأعيان، منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي، وكيل بيت المال، والشيخ الإمام العلامة شمس الدين الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من ذرية الشيخ أبي إسحاق الفيروزابادي، من أئمة اللغويين، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء، والشيخ الإمام العلامة نور الدين علي بن الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء، وأحضروا نيفا وأربعين مجلداً من كتاب «المنتهى» في اللغة للتميمي البرمكي، وقف الناصرية، وحضر ولد الشيخ جمال الدين بن الشريشي، وهو العلامة بدر الدين محمد، واجتمعنا كلنا عليه، وأخذ كل منا بيده مجلداً من تلك المجلدات، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فيثر كلا منها، ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، ولا يشذ عنه منها إلا القليل الشاذ، وهذا من أعجب العجائب وأبلغ الإغراب.

دخول نائب السلطنة سيف الدين قشتمر

وذلك في أوائل رمضان يوم السبت ضحى، والحجبة بين يديه، والجيش بكماله، فتقدم إلى سوق الخيل، فأوكب فيه، ثم جاء ونزل عند باب النصر، وقبل العتبة ثم مشى إلى دار السعادة والناس بين يديه، وكان أول شيء حكم فيه أن أمر بصلب الذي كان قتل بالأمس والي الصالحية، وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة، ثم هرب فتبعه الناس، فقتل منهم آخر، وجرح آخرين، ثم تكاثروا عليه فمسك، ولما صلب طافوا به على جمل إلى الصالحية فمات هناك بعد أيام، وقاسى أمراً شديداً من العقوبات، وقد ظهر بعد ذلك على أنه قتل خلقاً كثيرا من الناس، قبحه الله.

قدوم قاضي القضاة بهاء الدين أحمد بن قاضي القضاة تقي الدين عوضاً عن أخيه قاضي القضاة تاج الدين بن عبد الوهاب

قدم يوم الثلاثاء قبل العصر فبدأ بملك الأمراء فسلم عليه بدار السعادة، ثم ذهب إلى أمير على نائب السلطنة المعزول، وهو بداره بالقصّاعين، فسلّم عليه، ثم مشى إلى دار الحديث فصلى هناك، ثم مشى إلى المدرسة الركنية فنزل بها عند ابن أخته قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح، قاضي العساكر، وذهب الناس للسلام عليه، وهو يكره من يلقبه بقاضي القضاة وعليه تواضع وتقشف، ويظهر عليه تأسف على مفارقة بلده ووطنه وولده وأهله، والله المسؤول المأمول أن يحسن العاقبة.

وخرج المحمل السلطاني يوم الخميس ثاني عشر شوال، وأمير الحاج الملك صلاح الدين ابن الملك الكامل بن السعيد بن العادل الكبير، وقاضيه الشيخ بهاء الدين بن سبع، مدرس الأمينية ببعلبك.

وفي هذا الشهر وقع الحكم بعَوْد ما يخص المجاهدين من وقف المدرسة التقوية إليهم، وأذن القضاء الأربعة إليهم بحضرة ملك الأمراء في ذلك.

وفي ليلة الأحد سادس شهر ذي القعدة توفي القاضي ناصر الدين

■ محمد بن يعقوب كاتب السر، وشيخ الشيوخ ومدرس الناصرية الجوانية والشامية الجوانية بدمشق، ومدرس الأسدية بحلب وقد باشر كتابة السر بحلب أيضاً، وقضاء العساكر، وأفتى بزمان ولاية الشيخ كمال الدين الزملكاني قضاء حلب، أذن له هنالك في حدود سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

ومولده سنة سبع وسبعمائة، وقد قرأ التنبيه، ومختصر ابن الحاجب في الأصول، وفي العربية.

وكان عنده نباهة وممارسة للعلم، وفيه جودة طباع وإحسان بحسب ما يقدر عليه، وليس يتوسم منه سوء، وفيه ديانة وعفة، حلف لي في وقت بالأيمان المغلظة أنه لم يمكن قط منه فاحشة اللواط ولا خطر له ذلك، ولم يزن ولم يشرب مسكرا ولا أكل حشيشة، فرحمه الله، وأكرم مثواه.

صلي عليه بعد الظهر يومئذ، وخرجوا بالجنازة من باب النصر، فخرج نائب السلطنة من دار السعادة، فحضر الصلاة عليه هنالك، ودفن بمقبرة لهم بالصوفية، وتأسفوا عليه، وترحموا، وتزاحم جماعة من الفقهاء في طلب مدارسه انتهى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الإسلام بالديار المصرية والشامية والحجازية وما يتبعهما من الأقاليم والرساتيق الملك المنصور صلاح الدين محمد ابن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ومدبر الممالك بين يديه، وأتابك العساكر سيف الدين يلبغا.

وقضاة مصر هم المذكورون في التي قبلها، غير أن ابن جماعة قاضي الشافعية وموفق الدين قاضي الحنابلة في الحجاز الشريف.

ونائب دمشق الأمير سيف الدين قشتمر المنصوري، وقاضي قضاة الشافعية الشيخ بهاء الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وأخوه قاضي القضاة تاج الدين مقيم بمصر، وقاضي قضاة الحنفية الشيخ جمال الدين ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، آثره والده بالمنصب، وأقام على تدريس الركنية يتعبد ويتلو ويتجمع على العبادة، وقاضي قضاة المالكية جمال الدين المسلاتي، وقاضي قضاة الحنابلة الشيخ جمال الدين المرداوي محمود ووكيل بيت المال الشيخ صلاح الدين الصفدي وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة، ومحتسب البلد الشيخ عماد الدين بن الشيرجي، وكاتب السر جمال الدين عبد الله بن الأثير، قدم من الديار المصرية، عوضاً عن ناصر الدين بن يعقوب، وكان قدومه يوم سلخ السنة الماضية، وناظر الدواوين بدر الدين حسن بن النابلسي، وناظر الخزانة القاضي تقي الدين بن أبي الطيب، وناظر الجيش علم الدين داود، وناظر الجامع تقي الدين بن مراجل. ودخل المحمل السلطاني يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم بعد العصر، خوفا من المطر، وكان وقع مطر شديد قبل أيام، فتلف منه غلات كثيرة بحوران وغيرها، ومشاطيخ زبيب وغير ذلك،

فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين منه بعد عشاء الآخرة وقبل دقة القلعة دخل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجوانية، ومن ناحية الباب المذكور سلسلة، ومن ناحية باب النصر أخرى جددتا لئلا يمر راكب على باب القلعة المنصورة، فساق هذا الفارس المذكور على السلسلة الواحدة فقطعها، ثم مر على الأخرى فقطعها، وخرج من باب النصر، ولم يعرف لأنه ملثم.

وفي حادي عشر صفر وقبله بيوم قدم البريد من الديار المصرية بطلب الأمير زين الدين زبالة أحد أمراء الألوف إلى الديار المصرية مكرما، وقد كان عزل عن نيابة القلعة بسبب ما تقدم، وجاء البريد أيضاً ومعه التواقيع التي كانت بأيدي ناس كثير، زيادات على الجامع، ردت إليهم، وأقروا على ما بأيديهم من ذلك، وكان ناظر الجامع الصاحب تقي الدين بن مراجل قد سعى في رفع ما زيد بعد التذكرة التي كانت في أيام صرغتمش، فلم يف ذلك، وتوجه الشيخ بهاء الدين بن السبكي قاضي قضاة الشام الشافعي من دمشق إلى الديار المصرية، يوم الأحد سادس عشر صفر من هذه السنة، وخرج القضاة والأعيان لتوديعه، وقد كان أخبرنا عند توديعه بأن أخاه قاضي القضاة تاج الدين قد لبس خلعة القضاء بالديار المصرية، وهو متوجه إلى الشام عند وصوله إلى ديار مصر، وهذا مسرور جداً بذهابه إلى مصر وذكر لنا أن أخاه كاره للشام.

وأنشدني القاضي صلاح الدين الصفدي ليلة الجمعة رابع عشره لنفسه، فيما عكس على المتنبي في بيته من قصيدته وهو قوله:

إذا اعْتَادَ الفَتَى خَوْضَ المَنَايَا ... فَأَيْسَرُ مَا يَمُرُّ بِهِ الوُحُولُ

وقال:

دُخُولُ بِمِشْقَ يُكْسِبُنَا نُحُولا ... كَأَنَّ لَهَا دُخُولا فِي البَرَايَا

إِذَا اعْتَادَ الغَرِيبُ الخَوْضَ فِيهَا ... فَأَيْسَرُ مَا يَمُرُّ بِهِ المَنَايَا

وهذا شعر قوي، وعكس جلي، لفظاً ومعنى.

وفي ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر عملت خيمة حافلة بالبيمارستان الدقاقي جوار الجامع، بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنياً باللبن، حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق، وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة، وفتق في قبلته إيوانا حسنا زاد في أعماقه أضعاف ما كان، وبيضه جميعه بالجص الحسن المليح، وجددت فيه خزائن ومصالح، وفرش ولحف جدد، وأشياء حسنة، فأثابه اللّه، وأحسن جزاءه آمين، وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام.

ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارات، وأخبره بما كانت عليه حاله قبل هذه العمارة، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر المذكور.

وفي أول ربيع الآخر قدم قاضي القضاة تاج الدين السبكي من الديار المصرية على قضاء الشام عوداً على بدء يوم الثلاثاء رابع عشره فبدأ بالسلام على نائب السلطنة بدار السعادة ثم ذهب إلى دار الأمير علي بالقصاعين فسلم عليه، ثم جاء إلى العادلية قبل الزوال، ثم جاءه الناس من الخاص والعام يسلمون عليه ويهنئونه بالعود، وهو يتودد ويترحب بهم.

ثم لما كان صبح يوم الخميس سادس عشره لبس الخلعة بدار السعادة ثم جاء في أبهة هائلة لابسها إلى العادلية فقرئ تقليده بها بحضرة القضاة والأعيان وهنأه الناس والشعراء والمداح.

وأخبر قاضي القضاة تاج الدين بموت

■ حسين ابن الملك الناصر، ولم يكن بقي من بنيه لصلبه سواه، ففرح بذلك كثير من الأمراء، وكبار الدولة، لما كان فيه من حدة وارتكاب أمور منكرة.

■ (سليمان بن سليمان بن عماد الدين بن الشيرجي).

وأخبر بموت القاضي فخر الدين سليمان ابن القاضي فخر الدين سليمان ابن القاضي عماد الدين بن الشيرجي، وقد كان اتفق له من الأمر أنه قلد حسبة دمشق عوضا عن أبيه، نزل له عنها باختياره لكبره وضعفه، وخلع عليه بالديار المصرية، ولم يبق إلا أن يركب على البريد فتمرض يوما وثانيا وتوفي إلى رحمة اللّه تعالى، فتألم والده بسبب ذلك تألما عظيما، وعزاه الناس فيه، ووجدته صابراً محتسباً باكيا مسترجعا متوجعاً انتهى.

بشارة عظيمة بوضع الشطر من مكس الغنم

مع ولاية سعد الدين ماجد بن التاج إسحاق من الديار المصرية على نظر الدواوين بالشام المحروس، وربما خوطب بالوزارة عوضاً عن البدر حسن بن النابلسي، الذي كان ناظر الدواوين قبله، ففرح الناس بولاية هذا وقدومه ـ وبعزل الأول وانصرافه عن البلد فرحا شديدا، ومعه مرسوم شريف بوضع نصف مكس الغنم، وكان عَبْرَتُه أربعة دراهم ونصفاً، فصار إلى درهمين وربع درهم، وقد نودي بذلك في البلد يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا، وللّه الحمد والمنة، وتضاعفت أدعيتهم لمن كان السبب في ذلك، وذلك أنه يكثر الجلب برخص اللحم على الناس، ويأخذ الديوان نظير ما كان يؤخذ قبل ذلك، وقدر اللّه تعالى قدوم وفود وقفول بتجائر متعددة، وأخذ منها الديوان السلطاني في الزكاة والوكالة، وقدم مراكب كثيرة فأخذ منها في العشر أضعاف ما أطلق من المكس، وللّه الحمد والمنة. ثم قرئ على الناس في يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة قبل العصر.

وفي يوم الاثنين العشرين منه ضرب الفقيه شمس الدين الصفدي بدار السعادة بسبب خانقاه الطواويس، فإنه جاء في جماعة منهم يتظلمون من كاتب السر الذي هو شيخ الشيوخ، وقد تكلم معهم فيما يتعلق بشرط الواقف مما فيه مشقة عليهم، فتكلم الصفدي المذكور بكلام فيه غلظ، فبطح ليضرب فشفع فيه، ثم تكلم فشفع فيه، ثم بطح الثالثة فضرب، ثم أمر به إلى السجن، ثم أخرج بعد ليلتين أو ثلاث.

وفي صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين منه درس قاضي القضاة الشافعي بمدارسه، وحضر درس الناصرية الجوانية بمقتضى شرط الواقف الذي أثبته أخوه بعد موت القاضي ناصر الدين كاتب السر، وحضر عنده جماعة من الأعيان وبعض القضاة، وأخذ في سورة الفتح قرئ عليه من تفسير والده في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [سورة الفتح: ١].

وفي مستهل جمادى الأولى يوم الجمعة بعد صلاة الفجر مع الإمام الكبير صلي على القاضي قطب الدين

■ محمد بن عبد المحسن الحاكم بحمص، جاء إلى دمشق لتلقي أخي زوجته قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي، فتمرض مدة ثم كانت وفاته بدمشق، فصلي عليه بالجامع كما ذكرنا، وخارج باب الفرج، ثم صعدوا به إلى سفح جبل قاسيون، وقد جاوز الثمانين بسنتين، وقد حدث وروى شيئا يسيراً رحمه اللّه.

وفي يوم الأحد ثالثه قدم قاضيا الحنفية والحنابلة بحلب والخطيب بها والشيخ شهاب الدين الأذرعي، والشيخ زين الدين الباريني وآخرون معهم، فنزلوا بالمدرسة الإقبالية وهم وقاضي قضاتهم الشافعي، وهو كمال الدين المصري مطلوبون إلى الديار المصرية، فتحرر ما ذكروه عن قاضيهم وما نقموه عليه من السيرة السيئة فيما يذكرون في المواقف الشريفة بمصر، وتوجهوا إلى الديار المصرية يوم السبت عاشره.

وفي يوم الخميس قدم الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة من الديار المصرية على البريد في تجمل عظيم هائل، وتلقاه الناس بالشموع في أثناء الطريق، ونزل بدار الذهب، وراح الناس للسلام عليه وتهنئته بالعود إلى نيابة القلعة، على عادته، وهذه ثالث مرة وليها لأنه مشكور السيرة فيها، وله فيها سعي محمود في أوقات متعددة.

وفي يوم حادي عشره صلى نائب السلطنة والقاضيان الشافعي والحنفي وكاتب السر وجماعة من الأمراء والأعيان بالمقصورة وقرئ كتاب السلطان على السدة بوضع مكس الغنم إلى كل رأس بدرهمين، فتضاعفت الأدعية لولي الأمر، ولمن كان السبب في ذلك.

غريبة من الغرائب وعجيبة من العجائب

وقد كثرت المياه في هذا الشهر وزادت الأنهار زيادة كثيرة جدا، بحيث إنه فاض الماء في سوق الخيل من نهر بردى حتى عم جميع العرصة المعروفة بموقف الموكب، بحيث إنه أجريت فيه المراكب بالكرا، وركبت فيه المارة من جانب إلى جانب، واستمر ذلك جمعا متعددة، وامتنع نائب السلطنة والجيش من الوقوف هناك، وربما وقف نائب السلطنة بعض الأيام تحت الطارمة تجاه باب الإسطبل السلطاني، وهذا أمر لم يعهد مثله ولا رأيته قط في مدة عمري، وقد سقطت بسبب ذلك بنايات ودور كثيرة، وتعطلت طواحين كثيرة غمرها الماء.

وفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى توفي الصدر شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ عز الدين

■ ابن منجّا التنوخي بعد العشاء الآخرة، وصلي عليه بجامع دمشق، بعد صلاة الظهر، ودفن بالسفح.

وفي صبيحة هذا اليوم توفي الشيخ ناصر الدين

■ محمد بن أحمد القونوي الحنفي، خطيب جامع يلبغا، وصلي عليه عقيب صلاة الظهر أيضا، ودفن بالصوفية، وقد باشر عوضه الخطابة والإمامة قاضي القضاة جمال الدين الكفري الحنفي.

وفي عصر هذا اليوم توفي القاضي

■ علاء الدين ابن القاضي شرف الدين ابن القاضي شمس الدين بن الشهاب محمود الحلبي، أحد موقعي الدست بدمشق، وصلي عليه يوم الأربعاء، ودفن بالسفح.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين منه خطب قاضي القضاة جمال الدين الكفري الحنفي بجامع يلبغا، عوضا عن الشيخ ناصر الدين بن القونوي رحمه الله تعالى، وحضر عنده نائب السلطنة الأمير سيف الدين قشتمر، وصلى معه قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالشباك الغربي القبلي منه، وحضر خلق من الأمراء والأعيان، وكان يوما مشهودا، وخطب ابن نباتة بأداء حسن وفصاحة بليغة، هذا مع علم أن كل مركب صعب.

وفي يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة توجه الشيخ شرف الدين القاضي الحنبلي إلى الديار المصرية، بطلب الأمير سيف الدين يلبغا، في كتاب كتبه إليه يستدعيه ويستحثه في القدوم عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثاني شهر رجب سقط اثنان سكارى من سطح بحارة اليهود، أحدهما مسلم والآخر يهودي، فمات المسلم من ساعته وانقلعت عين اليهودي وانكسرت يده لعنه الله، وحمل إلى نائب السلطنة فلم يحر جوابا.

ورجع الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل بعد ما قارب غزة لما بلغه من الوباء بالديار المصرية فعاد إلى القدس الشريف، ثم رجع إلى وطنه فأصاب السنة، وقد وردت كتب كثيرة تخبر بشدة الوباء والطاعون بمصر، وأنه يضبط من أهلها في النهار نحو الألف، وأنه مات جماعة ممن يعرفون كولدي قاضي القضاة تاج الدين المناوي، وكاتب الحكم ابن الفرات، وأهل بيته أجمعين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء الخبر في أواخر شهر رجب بموت جماعة بمصر منهم

■ أبو حاتم ابن الشيخ بهاء الدين السبكي المصري بمصر، وهو شاب لم يستكمل العشرين. وقد درس بعدة جهات بمصر وخطب، ففقده والده وتأسف الناس عليه وعزوا فيه عمه قاضي القضاة تاج الدين السبكي قاضي الشافعية بدمشق.

وجاء الخبر بموت قاضي القضاة شهاب الدين

■ أحمد الرياحي المالكي، كان بحلب وليها مرتين ثم عزل فقصد مصر واستوطنها مدة ليتمكن من السعي في العودة فأدركته منيته في هذه السنة من الفناء وولدان له معه أيضا.

وفي يوم السبت سادس شعبان توجه نائب السلطنة في صحبة جمهور الأمراء إلى ناحية تدمر لأجل الأعراب من أصحاب حيار بن مهنا، ومن التف عليه منهم، وقد دمر بعضهم بلد تدمر وحرقوا كثيراً من أشجارها، ورعوها وانتهبوا شيئا كثيرا، وخرجوا من الطاعة وذلك بسبب قطع إقطاعاتهم وتملك أملاكهم، والحيلولة عليهم فركب نائب السلطنة بمن معه كما ذكرنا، لطردهم عن تلك الناحية وفي صحبتهم الأمير حمزة بن الخياط أحد أمراء الطبلخاناه، وقد كان حاجبا لحيار قبل ذلك، فرجع عنه وألب عليه عند الأمير الكبير يلبغا الخاصكي، ووعده إن هو أمّره وكبّره أن يظفر بحيار وأن يأتيه برأسه، ففعل معه ذلك، فقدم إلى دمشق ومعه مرسوم بركوب الجيش معه إلى حيار وأصحابه، فساروا كما ذكرنا، فوصلوا إلى تدمر، وهربت الأعراب من بين يدي نائب الشام يمينا وشمالا، ولم يواجهوه هيبة له، ولكنهم يتحرفون على حمزة بن الخياط، ثم بلغنا أنهم بيتوا الجيش، فقتلوا منه طائفة وجرحوا آخرين وأسروا آخرين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

سلطنة الملك الأشرف ناصر الدين: شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون في يوم الثلاثاء، خامس عشر شعبان

لما كان عشية السبت تاسع عشر شعبان من هذه السنة - أعني سنة أربع وستين وسبعمائة - قدم أمير من الديار المصرية فنزل بالقصر الأبلق، وأخبر بزوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد

بن قلاوون، ومسك واعتقل، وبويع للملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن المنصور قلاوون، وله من العمر قريب العشر، فدقت البشائر بالقلعة المنصورة، وأصبح الناس يوم الأحد في الزينة.

وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين والصاحب سعد الدين ماجد ناظر الدواوين، أنه لما كان يوم الثلاثاء، الخامس عشر من شعبان عزل الملك المنصور وأودع منزله وأجلس الملك الأشرف ناصر الدين شعبان على سرير الملك وبويع لذلك، وقد وقع رعد في هذا اليوم، ومطر كثير، وجرت المزاريب، فصار غدارنا في الطرقات، وذلك في خامس حزيران، فتعجب الناس من ذلك، هذا وقد وقع وباء في مصر في أول شعبان، فتزايد وجمهوره في اليهود، وقد وصلوا إلى الخمسين في كل يوم، وبالله المستعان.

وفي يوم الاثنين سابعه اشتهر الخبر عن الجيش بأن الأعراب اعترضوا التجريدة القاصدين إلى الرحبة وواقفوهم وقتلوا منهم ونهبوا وجرحوا وقد سار البريد خلف النائب والأمراء ليقدموا إلى البلد لأجل البيعة للسلطان الجديد جعله الله مباركا على المسلمين، ثم قدم جماعة من الأمراء المنهزمين من الأعراب في أسوإ حال وذلة، ثم جاء البريد من الديار المصرية بردهم إلى العسكر الذي مع نائب السلطنة على تدمر، متوعدين بأنواع العقوبات، وقطع الإقطاعات.

وفي شهر رمضان تفاقم الحال بسبب الطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون، وجمهوره في اليهود لعله قد فقد منهم من مستهل شعبان إلى مستهل رمضان نحو الألف نسمة خبيثة، كما أخبر بذلك القاضي صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال، ثم كثر ذلك فيهم في شهر رمضان جداً، وغَدَتِ العدة من المسلمين والذمة ثمانين.

وفي يوم السبت حادي عشره صلينا بعد الظهر على الشيخ المعمر الصدر بدر الدين

■ محمد بن الزقاق، المعروف بابن الجوخي.

وعلى الشيخ صلاح الدين

■ محمد بن شاكر الكُتُبِيّ، تفرد في صناعته وجمع تاريخاً مفيدا نحواً من عشر مجلدات، وكان يحفظ ويذاكر ويفيد رحمه الله وسامحه انتهى.

وفاة الخطيب جمال الدين محمود بن جملة المَحَجِّيّ الشافعي ومباشرة قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بعده

■ (محمود بن جملة المَحَجِّيّ).

كانت وفاته يوم الاثنين بعد الظهر قريباً من العصر، فصلى بالناس بالمحراب صلاة العصر قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي عوضا عنه، وصلى بالناس الصبح أيضا، وقرأ بآخر المائدة من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] ثم لما طلعت الشمس، وزال وقت الكراهة، صلي على الخطيب جمال الدين عند باب الخطابة، وكان الجمع في الجامع كثيرا، وخرج بجنازته من باب البريد، وخرج معه طائفة من العوام وغيرهم، وقد حضر جنازته بالصالحية على ما ذكر جم غفير وخلق كثير، ونال قاضي القضاة الشافعي من بعض الجهلة إساءة أدب، فأخذ منهم جماعة وأدبوا، وحضر هو بنفسه صلاة الظهر يومئذ، وكذا باشر الظهر

والعصر في بقية الأيام، يأتي للجامع في محفل من الفقهاء والأعيان وغيرهم، ذهابا وإيابا، وخطب عنه يوم الجمعة الشيخ جمال الدين ابن قاضي الزبداني، وكذلك يوم العيد بالمصلى وخطبة الجمعة يومئذ وامتنع قاضي القضاة، تاج الدين من المباشرة، حتى يأتي التشريف.

وفي يوم الاثنين بعد العصر صلي على الشيخ شهاب الدين

■ أحمد بن عبد الله البعلبكي، المعروف بابن النقيب، ودفن بالصوفية وقد قارب السبعين وجاورها.

وكان بارعا في القراءات والنحو والتصريف والعربية، وله يد في الفقه وغير ذلك، وولي مكانه مشيخة الإقراء بأم الصالح شمس الدين محمد بن اللبان، وبالتربة الأشرفية الشيخ أمين الدين عبد الوهاب بن السلار.

وقدم نائب السلطنة من ناحية الرحبة وتدمر وفي صحبته الجيش الذين كانوا معه بسبب محاربة آل مهنا وذويهم من الأعراب في يوم الأربعاء سادس شوال.

وفي ليلة الأحد عاشره توفي الشيخ صلاح الدين

■ خليل بن أيبك، وكيل بيت المال، وموقع الدست، وصلي عليه صبيحة الأحد بالجامع، ودفن بالصوفية، وقد كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب، وله الأشعار الفائقة، والفنون المتنوعة وجمع وصنف وألف، وكتب ما يقارب مئين من المجلدات.

وفي يوم السبت عاشره جمع القضاة والأعيان بدار السعادة وكتبوا خطوطهم بالرضى بخطابة قاضي القضاة تاج الدين السبكي بالجامع الأموي، وكاتب نائب السلطنة في ذلك.

وفي يوم الأحد حادي عشره استقر عزل نائب السلطنة سيف الدين قشتمر على نيابة دمشق وأمر بالمسير إلى نيابة صفد فأنزل أهله بدار طيغا حاجي من الشرف الأعلى، وبرز هو إلى سطح المزة ذاهبا إلى ناحية صفد.

وخرج المحمل صحبة الحجيج وهم جم غفير وخلق كثير يوم الخميس رابع عشر شوال.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شوال توفي القاضي أمين الدين أبو حيان ابن أخي قاضي القضاة جمال الدين

■ المسلاتي المالكي وزوج ابنته ونائبه في الحكم مطلقا وفي القضاء والتدريس في غيبته فعاجلته المنية.

ومن غريب ما وقع في أواخر هذا الشهر أنه اشتهر بين النساء وكثير من العوام أن رجلا رأى مناما فيه أنه رأى النبي ﷺ عند شجرة توتة عند مسجد ضرار خارج باب شرقي فتبادر النساء إلى تخليق تلك التوتة، وأخذوا أوراقها للاستشفاء من الوباء ولكن لم يظهر صدق ذلك المنام، ولا يصح عمن يرويه.

وفي يوم الجمعة سابع شهر ذي القعدة خطب بجامع دمشق قاضي القضاة تاج الدين السبكي خطبة بليغة فصيحة أداها أداء حسنا، وقد كان يخش من طائفة من العوام أن يشوشوا فلم يتكلم أحد منهم، بل ضجوا عند الموعظة وغيرها، وأعجبهم الخطيب وخطبته، وأداؤه وتبليغه ومهابته واستمر يخطب هو بنفسه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره توفي الصاحب تقي الدين

■ سليمان بن مراجل ناظر الجامع الأموي وغيره، وقد باشر نظر الجامع في أيام تنكز، وعمر الجانب الغربي من الحائط القبلي، وكمل رخامه كله، وفتق محرابا للحنفية في الحائط القبلي، ومحرابا للحنابلة فيه أيضا في غربيه وأثر أشياء كثيرة فيه، وكانت له همة، وينسب إلى أمانة، وصرامة،

ومباشرة مشكورة مشهورة، ودفن بتربة أنشأها تجاه داره بالقبيبات رحمه اللّه وقد جاوز الثمانين.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر توفي الشيخ بهاء الدين

■ عبد الوهاب الإخميمي المصري، إمام مسجد درب الحجر، وصلي عليه بعد العصر بالجامع الأموي، ودفن بقصر ابن الحلاج عند الطيوريين، بزاوية لبعض الفقراء الحزنة هناك، وقد كان له يد في أصول الفقه، وصنف في الكلام كتابا مشتملا على أشياء مقبولة وغير مقبولة، انتهى.

دخول نائب السلطنة منكلي بغا

في يوم الخميس السابع والعشرين من ذي القعدة دخل نائب السلطنة منكلي بغا من حلب إلى دمشق نائباً عليها في تجمل هائل، ولكنه مستمرض في بدنه، بسبب ما كان ناله من التعب في مصابرة الأعراب، فنزل دار السعادة على العادة.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي الحجة خلع على قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي للخطابة بجامع دمشق، واستمر على ما كان عليه يخطب بنفسه كل جمعة.

وفي يوم الثلاثاء ثانيه قدم القاضي فتح الدين بن الشهيد، ولبس الخلعة، وراح الناس لتهنئته.

وفي يوم الخميس حضر القاضي فتح الدين بن الشهيد كاتب السر مشيخة السميساطية، وحضر عنده القضاة والأعيان بعد الظهر، وخلع عليه لذلك أيضاً، وحضر فيها من الغد على العادة، وخلع في هذا اليوم على وكيل بيت المال، الشيخ جمال الدين بن الرهاوي، وعلى الشيخ شهاب الدين الزهري بفتيا دار العدل، انتهى.

ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين وما يتبع ذلك الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن سيدي حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، وهو في عمر عشر سنين، ومدبر الممالك بين يديه الأمير الكبير نظام الملك سيف الدين يلبغا الخاصكي.

وقضاة مصر هم المذكورون في السنة التي قبلها، ووزيرها فخر الدين بن قروينة.

ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلي بغا الشمسي، وهو مشكور السيرة، وقضاتها هم المذكورون في السنة التي قبلها، وناظر الدواوين بها الصاحب سعد الدين ماجد، وناظر الجيش علم الدين داود، وكاتب السر القاضي فتح الدين بن الشهيد، ووكيل بيت المال القاضي جمال الدين بن الرهاوي.

استهلت هذه السنة وداء الفناء موجود في الناس، إلا أنه خف وقل، وللّه الحمد.

وفي يوم السبت توجه قاضي القضاة ـ وكان بهاء الدين أبو البقاء السبكي إلى الديار المصرية، مطلوبا من جهة الأمير يلبغا، وفي الكتاب إجابته له إلى ما سأل، وتوجه بعده قاضي القضاة تاج الدين الحاكم بدمشق وخطيبها، يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم، على خيل البريد، وتوجه بعدهما الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي، مطلوبا إلى الديار المصرية، وكذلك توجه الشيخ وَلِّي الدين المنفلوطي مطلوبا.

وتوفي في العشر الأوسط من المحرم صاحبنا الشيخ شمس الدين

■ ابن العطار الشافعي، كان لديه فضيلة واشتغال، وله فهم، وعلق بخطه فوائد جيلة، وكان إماما بالسجن من مشهد علي بن الحسين بجامع دمشق، ومصدراً بالجامع، وفقيها بالمدارس، وله مشيخة الحديث الوادعية، وجاوز الخمسين بسنوات، ولم يتزوج قط.

وقدم الركب الشامي إلى دمشق، في يوم الخميس الرابع والعشرين من المحرم، وهم شاكرون مثنون في كل خير بهذه السنة أمنا ورخصا وللّه الحمد.

وفي يوم الأحد حادي عشر صفر درس بالمدرسة الفتحية صاحبنا الشيخ عماد الدين إسماعيل ابن خليفة الحُسباني الشافعي، وحضر عنده جماعة من الأعيان والفضلاء، وأخذ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي يوم الخميس خامس عشره نودي في البلد على أهل الذمة بإلزامهم بالصغار، وتصغير العمائم وأن لا يستخدموا في شيء من الأعمال، وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال ويركبون الحمير بالأكف بالعرض، وأن يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات الأجراس، وأن يكون أحد النعلين أسود، مخالفا للون الأخرى، ففرح بذلك المسلمون، ودعوا للآمر بذلك.

وفي يوم الأحد ثالث ربيع الأول قدم قاضي القضاة تاج الدين من الديار المصرية، مستمراً على القضاء والخطابة، فتلقاه الناس، وهنؤوه بالعود والسلامة.

وفي يوم الخميس سابعه لبس القاضي الصاحب البهنسي الخلعة لنظر الدواوين بدمشق، وهنأه الناس، وباشر بصرامة، واستعمل في غالب الجهات من أبناء المسلمين.

وفي يوم الاثنين حادي عشره ركب قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح على خيل البريد إلى الديار المصرية، لتوليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق، عن رضا من خاله قاضي القضاة تاج الدين، ونزوله عن ذلك.

وفي ليلة الخميس خامس ربيع الآخر احترقت الباشورة، التي ظاهر باب الفرج على الجسر، ونال حجارة الباب شيء من حريقها فاتسعت، وقد حضر طَفْأها نائب السلطنة، والحاجب الكبير، ونائب القلعة، والولاة وغيرهم.

وفي صبيحة هذا اليوم زاد النهر زيادة عظيمة، بسبب كثرة الأمطار، وذلك في أوائل كانون الثاني، وركب الماء سوق الخيل بكماله ووصل إلى ظاهر باب الفراديس، وتلك النواحي، وكسر جسر الخشب الذي عند جامع يلبغا، وجاء فصدم به جسر الزلابية فكسره أيضاً.

وفي يوم الخميس ثاني عشره صرف حاجب الحجاب قماري عن المباشرة بدار السعادة، وأخذت القضاة من يده، وانصرف إلى داره في قُلٍّ من الناس، واستبشر بذلك كثير من الناس، لكثرة ما كان يفتات على الأحكام الشرعية.

وفي أواخره اشتهر موت القاضي تاج الدين

■ المناوي بديار مصر، وولاية قاضي القضاة بهاء الدين بن أبي البقاء السبكي مكانه، بقضاء العساكر بها، ووكالة السلطان أيضاً، ورتب له مع ذلك كفايته.

وتولى في هذه الأيام الشيخ سراج الدين البلقيني إفتاء دار العدل، مع الشيخ بهاء الدين أحمد ابن قاضي القضاة السبكي بالشام، وقد ولي هو أيضا القضاء بالشام كما تقدم، ثم عاد إلى مصر موقرا مكرما، وعاد أخوه تاج الدين إلى الشام، وكذلك ولُوا مع البلقيني إفتاء دار العدل لحنفي يقال له الشيخ شمس الدين بن الصائغ، وهو مفتي حنفي أيضا.

■ (محمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن قوام).

وفي يوم الاثنين سابع ربيع الأول توفي الشيخ نور الدين محمد ابن الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد بن الشيخ أبي بكر بن قوام، بزاويتهم بسفح جبل قاسيون، وغدا الناس إلى جنازته، وقد كان من العلماء الفضلاء. الفقهاء بمذهب الشافعي، درس بالناصرية البرانية مدة سنين بعد أبيه، وبالرباط الدويداري داخل باب الفرج، وكان يحضر المدارس، ونزل عندنا بالمدرسة النجيبية، وكان يحب السنة، ويفهمها جيداً رحمه الله.

وفي مستهل جمادى الأولى ولي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، مشيخة دار الحديث، بالمدرسة التي فتحت بدرب القلي، وكانت داراً لواقفها جمال الدين عبد الله بن محمد بن عيسى التدمري، الذي كان أستاذاً للأمير طاز، وجعل فيها درس للحنابلة، وجعل المدرس لهم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن قيم الجوزية، وحضر الدرس، وحضر عنده بعض الحنابلة بالدرس، ثم جرت أمور يطول بسطها. واستحضر نائب السلطنة شهود الحنابلة بالدرس واستفرد كلا منهم، وسأله كيف شهد في أصل الكتاب - المحضر - الذي أثبتوه لهم، فاضطربوا في الشهادات، فضبط ذلك عليهم، وفيه مخالفة كثيرة لما شهدوا به في أصل المحضر، وشنع عليهم كثير من الناس، ثم ظهرت ديون كثيرة لبيت طاز على جمال الدين التدمري الواقف، وطلب من القاضي المالكي أن يحكم بإبطال ما حكم به الحنبلي، فتوقف في ذلك.

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه، قرئ كتاب السلطان، بصرف الوكلاء من أبواب القضاة الأربعة، فصرفوا.

■ (شمس الدين التتري).

وفي شهر جمادى الآخرة توفي الشيخ شمس الدين شيخ الحنابلة بالصالحية ويعرف بالتتري، يوم الخميس ثامنه، صلي عليه بالجامع المظفري بعد العصر ودفن بالسفح وقد قارب الثمانين.

وفي الرابع عشر منه عقد بدار السعادة مجلس حافل اجتمع فيه القضاة الأربعة وجماعة من المفتين، وطلبت فحضرت معهم بسبب المدرسة التدمرية، وقرابة الواقف، ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث، فوقف الحنبلي في أمرهم، عن ذلك أشد الدفاع.

وفي العشر الأول من رجب وجد جراد كثير منتشر، ثم تزايد وتراكم، وتضاعف، وتفاقم الأمر بسببه، وسد الأرض كثرة وعاث يمينا وشمالا، وأفسد شيئا كثيراً من الكروم والمقاثي والزروعات النفيسة، وأتلف للناس شيئاً كثيراً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يوم الاثنين ثالث شعبان توجه القضاة، ووكيل بيت المال إلى باب كيسان، فوقفوا عليه، وعلى هيئته، ومن نية نائب السلطنة فتحه ليخرج الناس به.

وعدم للناس غلات كثيرة، وأشياء من أنواع الزروع، بسبب كثرة الجراد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذا الشهر كثُر الوباء والفناء في الناس، وبلغت العدّة إلى السبعين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فتح باب كيسان بعد غلقه نحواً من مائتي سنة

وفي يوم الأربعاء السادس والعشرين من شعبان اجتمع نائب السلطنة والقضاة عند باب كيسان، وشرع الصناع في فتحه، عن مرسوم السلطان، الوارد من الديار المصرية، وأمر نائب السلطنة، وإذن القضاة في ذلك، واستهل رمضان وهم في العمل فيه.

وفي العشر الأخير من شعبان توفي الشريف

■ شمس الدين محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني المحدث المحصل، المشتغل المؤلف لأشياء مهمة، وفي الحديث قرأ وسمع، وجمع، وكتب أسماء رجال بمسند الإمام أحمد، واختصر كتابا في أسماء الرجال مفيدا، وولي مشيخة الحديث التي وقفها في داره بهاء الدين القاسم بن عساكر، داخل باب توما.

وختمت البخاريات في آخر شهر رمضان ووقع بين الشيخ عماد الدين بن السراج قارئ البخاري عند محراب الصحابة، وبين الشيخ بدر الدين ابن الشيخ جمال الدين الشريشي، وتهاترا على رؤوس الأشهاد، بسبب لفظة «يَبْتَز» فحكى ابن السراج عن الحافظ المزي أن الصواب: «يَبْتَز» من قول العرب: مَن عَزَّ بَزَّ، وصدق في ذلك، فكأن منازعه خطأ المزي، فانتصر الآخر للحافظ المزي، فنال منه بالقول، ثم قام والده الشيخ جمال الدين المشار إليه فكشف رأسه على طريقة الصوفية، فكأن ابن السراج لم يلتفت إليه، وتدافعوا إلى القاضي الشافعي، فانتصر للحافظ المزي، وجرت أمور، ثم اصطلحوا غير مرة، وعزم أولئك على كتب محضر على ابن السراج، ثم انطفأت تلك الشرور.

وكثر الموت في أثناء شهر رمضان، وقاربت العدة مائة، وربما جاوزت المائة، وربما كانت أقل منها وهو الغالب، ومات جماعة من الأصحاب والمعارف، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكثر الجراد في البساتين، وعظم الخطب بسببه، وأتلف شيئا كثيراً من الغلات والثمار، والخضراوات، وغلت الأسعار، وقلت الثمار، وارتفعت قيم الأشياء، فبيع الدبس بما فوق المائتين القنطار، والرز بأزيد من ذلك.

وتكامل فتح باب كيسان، وسموه الباب القبلي، ووضع الجسر منه إلى الطريق السالكة، وعرضه أزيد من عشرة أذرع بالنجاري، لأجل عمل الباشورة جنبتيه، ودخلت المارة عليه من المشاة والركبان، وجاء في غاية الحسن، وسلك الناس في حارات اليهود، وانكشف دخلهم، وأمن الناس من دخنهم وغشهم، ومكرهم وخبثهم، وانفرج الناس بهذا الباب المبارك.

واستهل شوال والجراد قد أتلف شيئا كثيرا من البلاد، ورعى الخضراوات والأشجار، وأوسع أهل الشام في الفساد، وغلت الأسعار، واستمر الفناء، وكثر الضجيج والبكاء، وفقدنا كثيراً من الأصحاب والأصدقاء، وقد تناقص الفناء في هذه المدة، وقل الوقع وتناقص للخمسين.

وفي شهر ذي القعدة تقاصر الفناء ولله الحمد، ونزل العدد إلى العشرين فما حولها، وفي رابعه دخل بالفيل والزرافة إلى مدينة دمشق من القاهرة، فأنزلا في الميدان الأخضر، قريبا من القصر الأبلق، وذهب الناس للنظر إليهما على العادة.

وفي يوم الجمعة تاسعه صلي على الشيخ جمال الدين

■ عبد الصمد بن خليل البغدادي، المعروف بابن الخضري، محدث بغداد وواعظها، كان من أهل السنة، الجماعة، رحمه الله انتهى.

تجديد خطبة ثانية داخل سور دمشق منذ ولم يتفق ذلك فيما أعلم فتوح الشام إلى الآن

اتفق ذلك في يوم الجمعة الثالث، ثم تبين أنه الرابع والعشرون من ذي القعدة من هذه السنة، بالجامع الذي جدد بناءه نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، بدرب البلاغة قبلي مسجد درب الحجر، داخل باب كيسان، الجدد فتحه في هذا الحين كما تقدم، وهو معروف عند العامة بمسجد الشاذوري، وإنما هو في تاريخ ابن عساكر [٢٩٧/٢] مسجد الشهرزوري، وكان المسجد رث الهيئة، قد تقادم عهده مدة دهر، وهجر فلا يدخله أحد من الناس إلا قليل، فوسعه من قبليّه، وسقفه جديداً، وجعل له صرحة شمالية مبلطة، ورواقات على هيئة الجوامع، والداخل بأبوابه على العادة، وداخل ذلك رواق كبير له جناحان شرقي وغربي، بأعمدة وقناطر، وقد كان قديماً كنيسة فأخذت منهم قبل الخمسمائة، وعملت مسجداً، فلم يزل كذلك إلى هذا الحين، فلما كمل كما ذكرنا وسيق إليه الماء من القنوات، ووضع فيه منبر مستعمل كذلك، فيومئذ ركب نائب السلطنة، ودخل البلد من باب كيسان، وانعطف على حارة اليهود، حتى انتهى إلى الجامع المذكور، وقد استكف الناس عنده من قضاة وأعيان، وخاصة وعامة، وقد عين لخطابته الشيخ صدر الدين بن منصور الحنفي، مدرس التاجية، وإمام الحنفية بالجامع الأموي، فلما أذن الأذان الأول تعذر عليه الخروج من بيت الخطابة، وقيل لمرض عرض له، وقيل لغير ذلك من حصر أو نحوه، فخطب الناس يومئذ قاضي القضاة جمال الدين الحنفي الكفري، خدمة لنائب السلطنة.

واستهل شهر ذي الحجة وقد رفع الله الوباء عن دمشق، وله الحمد والمنة، وأهل البلد يموتون على العادة، ولا يمرض أحد بتلك العلة، ولكن المرض المعتاد، انتهى.

ثم دخلت سنة ست وستين وسبعمائة

استهلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف ناصر الدين شعبان، والدولة بمصر والشام هم هم.

ودخل المحمل السلطاني صبيحة يوم الاثنين، الرابع والعشرين منه، وذكروا أنهم نالهم في الرجعة شدة شديدة، من الغلاء، وموت الجمال، وهرب الجمالين، وقدم مع الركب الشامي ممن خرج من الديار المصرية قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح، وقد سبقه التقليد بقضاء القضاة مع خاله تاج الدين، يحكم فيما يحكم فيه مستقلا معه، ومنفردا بعده.

وفي شهر الله المحرم رسم نائب السلطنة بتخريب قريتين من وادي التيم وهما مشغرا تلفيتا، وسبب ذلك أنهما عاصيتان، وأهلهما مفسدان في الأرض، والبلدان والأرض حصينتان، لا يصل إليهما الطلب إلا بكلفة كثيرة، لا يرتقي إليهما إلا فارس فارس، فخربتا وعمر بدلهما في أسفل الوادي، بحيث يصل إليهما حكم الحاكم، والطلب بسهولة، فأخبرني الملك صلاح الدين بن الكامل أن بلدة تلفيتا عمل فيها ألف فارس، ونقل بعضها إلى أسفل الوادي خمسمائة حمار عدة أيام.

■ (يوسف بن أحمد بن الحسين الكفري).

وفي يوم الجمعة سادس صفر بعد الصلاة صلي على قاضي القضاة جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة شرف الدين أحمد ابن أقضى القضاة الحسين الكفري الحنفي، وكانت وفاته ليلة الجمعة المذكورة، بعد مرض قريب من شهر، وقد جاوز الأربعين بثلاث من السنين. ولي قضاء قضاة الحنفية، وخطب بجامع يلبغا، واحضر مشيخة النفيسية، ودرس بأماكن من مدارس الحنفية، وهو أول من خطب بالجامع المستجد، داخل باب كيسان، بحضرة نائب السلطنة.

■ (عمر بن عبد المحيي بن إدريس الحنبلي).

وفي صفر كانت وفاة الشيخ جمال الدين عمر ابن القاضي عبد المحيي بن إدريس الحنبلي، محتسب بغداد، وقاضي الحنابلة بها، فتعصبت عليه الروافض، حتى ضرب بين يدي الوزارة ضربا مبرحا، كان سبب موته سريعا رحمه الله، وكان من القائمين بالحق، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، من أكبر المنكرين على الروافض وغيرهم من أهل البدع رحمه الله، وبل بالرحمة ثراه.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر حضر مشيخة النفيسية الشيخ شمس الدين بن سند، وحضر عنده قاضي القضاة تاج الدين، وجماعة من الأعيان، وأورد حديث عبادة بن الصامت «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [خ (٧٥٦)، م (٣٩٤)] أسنده عن قاضي القضاة المشار إليه.

وجاء البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تاج الدين إلى هناك، فسير أهله قبله على الجمال، وخرجوا يوم الجمعة، حادي عشر ربيع الأول جماعة من أهل بيتهم، لزيارة أهاليهم هناك، فأقام هو بعدهم إلى أن قدم نائب السلطنة من الرحبة، وركب على البريد.

وفي يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة رجع قاضي القضاة تاج الدين السبكي من الديار المصرية، على البريد، وتلقاه الناس إلى أثناء الطريق، واحتفلوا للسلام عليه، وتهنئته بالسلامة، انتهى، والله أعلم.

قتل الرافضي الخبيث

وفي يوم الخميس ثامن عشره أول النهار وجد رجل بالجامع الأموي اسمه.

■ محمود بن إبراهيم الشيرازي، وهو يسب الشيخين، ويصرح بلعنتهما، فرفع إلى القاضي المالكي قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي، فاستتابه عن ذلك، وأحضر الضراب، فأول ضربة قال لا إله إلا الله علي ولي الله، ولما ضرب الثانية لعن أبا بكر وعمر، فالتهمه العامة، فأوسعوه ضربا مبرحا، بحيث كاد يهلك، فجعل القاضي يستكفهم عنه، فلم يستطع ذلك، فجعل الرافضي يسب ويلعن الصحابة، وقال: كانوا على الضلالة، فعند ذلك حمل إلى نائب السلطنة، وشهد عليه قوله بأنهم كانوا على الضلالة. فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه، فأخذ إلى ظاهر البلد، فضربت عنقه، وأحرقته العامة، قبحه الله، وكان ممن يقرأ بمدرسة أبي عمر، ثم ظهر عليه الرفض، فسجنه الحنبلي أربعين يوما، فلم ينفع ذلك، وما زال يصرح في كل موطن يأمر فيه بالسب، حتى كان يومه هذا أظهر مذهبه في الجامع، وكان سبب قتله قبحه الله كما قبح من كان قبله، وقتل كقتله في سنة خمس وخمسين.

استتابة ولي الدين بن أبي البقاء السبكي

وفي آخر هذا اليوم ـ أعني يوم الخميس ثامن عشره ـ حكم أقضى

القضاة ولي الدين ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء بالمدرسة العادلية الكبيرة، نيابة عن قاضي القضاة تاج الدين، مع استنابة أقضى القضاة شمس الدين العزي، وأقضى القضاة بدر الدين بن وهيبة، وأما قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح فهو نائب أيضاً، ولكنه بتوقيع شريف أنه يحكم مستقلا، مع قاضي القضاة تاج الدين.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين منه، استحضر نائب السلطنة الأمير ناصر الدين بن العاوي متولي البلد ونقم عليه أشياء، وأمر بضربه فضرب بين يديه على أكتافه ضربا ليس بمبرح، ثم عزله، واستدعي بالأمير علم الدين سليمان، أحد الأمراء العشراوات، ابن الأمير صفي الدين بن أبي القاسم البصراوي، أحد أمراء الطبلخاناه، كان قد ولي شد الدواوين، ونظر القدس والخليل وغير ذلك من الولايات الكبار، وهو ابن الشيخ فخر الدين عثمان ابن الشيخ صفي الدين أبي القاسم التميمي الحنفي، وبأيديهم تدريس الأمينية التي ببصرى، والحكيمية أزيد من مائة سنة، فولاه البلد على تكره منه، فألزمه بها، وخلع عليه، وقد كان وليها قبل ذلك، فأحسن السيرة، وشكر سعيه، لديانته، وأمانته وعفته، وفرح الناس ولله الحمد.

ولاية قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء السبكي قضاء مصر بعد عزل عز الدين بن جماعة نفسه

ورد الخبر مع البريد من الديار المصرية بأن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة عزل نفسه عن القضاء، يوم الاثنين، السادس عشر من هذا الشهر، وصمم على ذلك، فبعث الأمير الكبير يلبغا إليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل، فركب إليه بنفسه، ومعه القضاة والأعيان، فتلطفوا به، فلم يقبل، وصمم على الانعزال، فقال له الأمير الكبير: فعين لنا من يصلح بعدك. قال ولا أقول لكم شيئا، غير أنه لا يتولى رجل واحد، ثم ولوا من شئتم، فأخبرني قاضي القضاة تاج الدين السبكي أنه قال لا تولوا ابن عقيل، فعين الأمير الكبير قاضي القضاة بهاء الدين أبا البقاء، فقيل إنه أظهر الامتناع، ثم قبل، ولبس الخلعة.

وباشر يوم الاثنين، الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، قاضي القضاة الشيخ بهاء الدين ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي قضاء العساكر الذي كان بيد أبي البقاء.

وفي يوم الاثنين سابع رجب توفي الشيخ

■ علي المراوحي البغدادي، خادم الشيخ أسد المراوحي البغدادي، وكان فيه مروءة كبيرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدخل على النواب، ويرسل إلى الولاة فتقبل رسالته، وله قبول عند الناس، وفيه بر وصدقة، وإحسان إلى المحاويج، وبيده مال جيد يتجر له فيه، تعلل مدة طويلة، ثم كانت وفاته في هذا اليوم، فصلي عليه الظهر بالجامع، ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر، الذي كان نائب الشام، فنزل بداره، عند مئذنة فيروز، وذهب الناس للسلام عليه، بعد ما سلم على نائب السلطنة بدار السعادة، وقد رسم له بطبلخاتين، وتقدمة ألف، وولاية الولاة من غزة إلى أقصى بلاد الشام، وأكرمه ملك الأمراء إكراما زائداً، وفرحت العامة بذلك فرحا شديداً بعوده إلى الولاية.

وختمت البخاريات بالجامع الأموي، وغيره في عدة أماكن، من ذلك ستة مواعيد تقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير في اليوم، أولها بمسجد ابن هشام بكرة، قبل طلوع الشمس، ثم تحت النسر، ثم بالمدرسة النورية، وبعد الظهر بجامع تنكز، ثم بالمدرسة العزية، ثم بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السلعوس، إلى أذان العصر، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي، بمحلة القصاعين، إلى قريب الغروب، ويقرأ صحيح مسلم بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة، بعد قبة النسر، وقبل النورية، والله المسؤول وهو المعين الميسر المسهل.

وقد قرئ في هذه السنة في عدة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم، ولم يعهد مثل هذا في السنين الماضية، فلله الحمد والمنة.

وفي يوم الثلاثاء عاشر شوال توفي الشيخ نور الدين

■ علي بن الصارم بن إبراهيم بن أبي الهيجاء الكركي الشوبكي، ثم الدمشقي الشافعي، كان معنا في المَقْرأ والكتاب، وختمت أنا وهو في سنة إحدى عشرة، ونشأ في صيانة وعفاف، وقرأ على الشيخ بدر الدين بن سيحان للسبع، ولم يكمل عليه ختمة، واشتغل في المنهاج للنواوي، فقرأ كثيراً منه أو أكثره، وكان ينقل منه ويستحضر، وكان خفيف الروح، تحبه الناس لذلك، ويرغبون في عشرته لذلك، رحمه الله، وكان يستحضر المتشابه في القرآن استحضاراً حسناً، متقنا، كثير التلاوة له، حسن الصلاة، يقوم الليل، وقرأ عليَّ صحيح البخاري بمشهد ابن هشام عدة سنين، ومهر فيه، وكان صوته جهوريا، فصيح العبارة، ثم ولي مشيخة الحلبية بالجامع، وقرأ في عدة كراس بالحائط الشمالي، وكان مقبولا عند الخاصة والعامة، وكان يداوم على قيام العشر الأخير في محراب الصحابة، مع عدة قراء، يتناوبون فيه ويحيون الليل.

ولما كان في هذه السنة أحيا ليلة العيد وحده بالمحراب المذكور، ثم مرض خمسة أيام، ثم مات بعد الظهر، يوم الثلاثاء عاشر شوال، بدرب العميد، وصلي عليه العصر بالجامع الأموي، ودفن بمقابر الباب الصغير عند والده، في تربة لهم، وكانت جنازته حافلة، وتأسف الناس عليه، رحمه الله، وبل بالرحمة ثراه، وقد قارب خمسا وستين سنة، وترك بنتا سباعية اسمها عائشة، وقد أقرأها شيئا من القرآن إلى تبارك، وحفظها الأربعين النواوية، جبرها ربها، ورحم أباها آمين.

وخرج المحمل الشامي والحجيج يوم الخميس ثاني عشره، وأميرهم الأمير علاء الدين علي بن علم الدين الهلالي، أحد أمراء الطبلخاناه.

وتوفي الشيخ

■ عبد الله الملطي يوم السبت، رابع عشره، وكان مشهوراً بالمجاورة بالكلاسة في الجامع الأموي، له أشياء كثيرة من الطراريح، والآلات الفقيرية، ويلبس على طريقة الحريرية، وشكله مزعج، ومن الناس من كان يعتقد فيه الصلاح، وكنت ممن يكرهه طبعا وشرعا أيضاً.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة قدم البريد من ناحية المشرق، ومعهم قماقم ماء من عين هناك، من خاصيته أنه يتبعه طير يسمّى السمرمر، أصفر الريش، قريب من شكل الخطاف، من شأنه إذا قدم الجراد إلى البلد الذي هو فيه أنه يفنيه، ويأكله أكلا سريعا، فلا يلبث الجراد إلا قليلا حتى يرحل، أو يؤكل على ما ذكر، ولم أشاهد ذلك.

وفي المنتصف من ذي الحجة كمل بناء القيسارية، التي كانت معملا، بالقرب من دار الحجارة، قبلي سوق الدهشة الذي للرجال، وفتحت وأكريت دهشة لقماش النساء، وذلك كله بمرسوم ملك الأمراء ناظر الجامع المعمور، رحمه الله، وأخبرني الصدر عز الدين السيرجي المشارف بالجامع

انه غرم عليها من مال الجامع قريب ثلاثين ألف درهم، انتهى.

طرح مكس القطن المغزول البلدي والمجلوب

وفي أواخر هذا الشهر جاء المرسوم الشريف بطرح مكس القطن المغزول البلدي والجلب أيضاً، ونودي بذلك في البلد، فكثرت الدعوات لمن أمر بذلك، وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، ولله الحمد والمنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين وسبعمائة

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك من الأقاليم الملك الأشرف بن الحسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعمره عشر سنين فما فوقها.

وأتابك العساكر ومدبر ممالكه الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي.

وقاضي قضاة الشافعية بمصر بهاء الدين أبو البقاء السبكي، وبقية القضاة هم المذكورون في السنة الماضية.

ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلي بغا، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها، سوى الحنفي فإنه الشيخ جمال الدين بن السراج شيخ الحنفية.

والخطابة بيد قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، وكاتب السر وشيخ الشيوخ القاضي فتح الدين بن الشهيد، ووكيل بيت المال الشيخ جمال الدين بن الرهاوي.

ودخل المحمل السلطاني يوم الجمعة بعد العصر، قريب الغروب، ولم يشعر بذلك أكثر أهل البلد. وذلك لغيبة النائب في الرحبة مما يلي ناحية الفرات، ليكون كالرد للتجريدة، التي تعينت لتخريب الكنيسات، التي هي إقطاع خيار بن مهنا من زمن السلطان أويس ملك العراق، انتهى.

استيلاء الفرنج لعنهم الله على الإسكندرية

وفي العشر الأخير من شهر الله المحرم احتيط على الفرنج بمدينة دمشق، وأودعوا في الحبوس في القلعة المنصورة.

واشتهر أن سبب ذلك أن مدينة الإسكندرية محاصرة بعدة شوان، وذكر أن صاحب قبرص معهم، وأن الجيش المصري صمدوا إلى حراسة مدينة الإسكندرية حرسها الله تعالى وصانها وحماها، وسيأتي تفصيل أمرها في الشهر الآتي، فإنه وضح لنا فيه، ومكث القوم بعد الإسكندرية بأيام فيما بلغنا، بعد ذلك حاصرها أمير من التتار يقال له ماميه، واستعان بطائفة من الفرنج، ففتحوها قسراً، وقتلوا من أهلها خلقاً، وغنموا شيئاً كثيراً، واستقرت عليها يد ماميه ملكا عليها.

■ (إبراهيم بن شمس الدين بن قيم الجوزية).

وفي يوم الجمعة سلخ هذا الشهر توفي الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ببستانه بالمزة، ونقل إلى عند والده بمقابر باب الصغير، فصلي عليه بعد صلاة العصر بجامع جراح، وحضر جنازته القضاة والأعيان، وخلق من التجار والعامة، وكانت جنازته حافلة، وقد بلغ من العمر ثمانيا وأربعين سنة.

وكان بارعا فاضلا في النحو، والفقه، وفنون أخر، على طريقة والده رحمهما الله تعالى.

وكان مدرسا بالصدرية والتدمرية، وله تصدير بالجامع، وخطابة بجامع ابن خليخان، وترك مالا جزيلا يقارب المائة ألف درهم، انتهى.

ثم دخل شهر صفر وأوله الجمعة، أخبرني بعض علماء السير أنه اجتمع في هذا اليوم - يوم الجمعة مستهل هذا الشهر - الكواكب السبعة، سوى المريخ في برج العقرب، ولم يتفق مثل هذا من سنين متطاولة، فأما المريخ فإنه كان قد سبق إلى برج القوس فيه.

ووردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الإسكندرية، من الفرنج لعنهم الله، وذلك أنهم وصلوا إليها في يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من شهر الله المحرم، فلم يجدوا بها نائبا ولا جيشا، ولا حافظا للبحر ولا ناصرا، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار، بعدما حرقوا أبوابا كبيرة منها، وعاثوا في أهلها فسادا، يقتلون الرجال، ويأخذون الأموال، ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال، وأقاموا بها يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء.

فلما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصري، فأقلعت الفرنج لعنهم الله عنها، وقد أسروا خلقا كثيرا، يقاربون الأربعة آلاف، وأخذوا من الأموال ذهبا وحريرا، وبهارا، وغير ذلك ما لا يحد ولا يوصف.

وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ، وقد تفارط الحال، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله، والاستغاثة به وبالمسلمين ما قطع الأكباد، وذرفت له العيون، وأصم الأسماع، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جدا، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر، فتباكى [الناس] كثيرا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى، وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعا.

وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر، للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ، بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنسا كثيرا، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة، كريم المجالسة، فذكرت له ان هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدون إلينا الجزية، ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد - الفرد - فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير فقال: كيف أصنع، وقد ورد المرسوم بذلك، ولا يمكنني أن أخالفه؟.

وذكرت له أشياء كثيرة، مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب، ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك، وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: «ائتوني بالسكين أشقه نصفين»، كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين [خ (٣٤٢٧)، م (١٧٢٠)] ، فجعل يعجبه هذا جدا، وذكر أن هذا كان في قلبه، وأني كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول، وإكرام زائد، رحمه الله.

ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول، فبشرني أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب، لغزو الفرنج، ولله الحمد والمنة.

ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه، وهم قريب من أربعمائة، فحلفهم كم أموالهم، وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد أمروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراء إلى النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك.

وفي أول شهر ربيع الأول كان سفر قاضي القضاة تاج الدين السبكي الشافعي إلى القاهرة.

وفي يوم الأربعاء خامس ربيع الأول اجتمعت بنائب السلطنة بدار السعادة، وسألته عن جواب المطالعة، فذكر لي أنه جاء المرسوم الشريف السلطاني بعمل الشواني والمراكب، لغزو قبرص، وقتال الفرنج ولله الحمد والمنة، وأمر نائب السلطنة بتجهيز القطاعين والنشارين من دمشق، إلى الغابة التي بالقرب من بيروت، وأن يشرع في عمل الشواني في آخر يوم من هذا الشهر، وهو يوم الجمعة، وفتحت دار القرآن التي وقفها الشريف التفتازاني إلى جانب حمام الكاس، شمالي المدرسة البادرائية، وعمل فيها وظيفة حديث، وحضر عند واقفها يومية قاضي القضاة تاج الدين السبكي، انتهى، والله أعلم.

عقد مجلس بسبب قاضي القضاة تاج الدين السبكي

ولما كان يوم الاثنين والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة، بسبب ما رمي به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وكنت ممن طلب إليه، فحضرته فيمن حضر، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، وآخرون من غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، وكان قد سافر هو إلى الديار المصرية، إلى الأبواب الشريفة، واستنجز كتابا إلى نائب السلطنة، لجمع هذا المجلس، ليسأل عنه الناس، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له، والآخر عليه، وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي، وجماعة آخرين، وفيه عظائم وأشياء منكرة جدا، ينبو السمع عن استماعه، وفي الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه، وفيه خطي بأني ما رأيت عليه إلا خيرا.

ولما اجتمعوا أمر نائب السلطنة بأن يمتاز هؤلاء عن هؤلاء في المجالس، فصارت كل طائفة وحدها، وتحاوروا فيما بينهم، وناضل عنه نائبه القاضي شمس الدين الغزي، والنائب الآخر بدر الدين بن وهبة وغيرهما، وصرح قاضي القضاة جمال الدين الحنبلي بأنه قد ثبت عنده ما كتب به خطه فيه، وأجابه بعض الحاضرين منهم بدائم النفوذ، فبادر القاضي الغزي فقال للحنبلي: أنت قد ثبتت عداوتك لقاضي القضاة تاج الدين، فكثر القول، وارتفعت الأصوات، وكثر الجدال والمقال، وتكلم قاضي القضاة جمال الدين المالكي أيضا بنحو ما قال الحنبلي، فأجيب بمثل ذلك أيضا، وطال المجلس، فانفصلوا على مثل ذلك، ولما بلغت الباب أمر نائب السلطنة برجوعي إليه، فإذا بقية الناس من الطرفين، والقضاة الثلاثة جلوس، فأشار نائب السلطنة بالصلح بينهم وبين قاضي القضاة تاج الدين - يعني وأن يرجع القاضيان عما قالا - فأشار الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل، وأشرت أنا أيضا بذلك، فلان المالكي وامتنع الحنبلي، فقمنا والأمر باق على ما تقدم.

ثم اجتمعنا يوم الجمعة بعد العصر، عند نائب السلطنة عن طلبه، فتراضوا كيف يكون جواب الكتابات مع مطالعة نائب السلطنة، ففعل ذلك، وسار البريد بذلك إلى الديار المصرية.

ثم اجتمعنا أيضا يوم الجمعة بعد الصلاة، التاسع عشر من ربيع الآخر بدار السعادة، وحضر القضاة الثلاثة، وجماعة آخرون، واجتهد نائب السلطنة على الصلح بين القضاة وقاضي الشافعية وهو بمصر، فحصل خلف وكلام طويل، ثم كان الأمر أن سكنت أنفس جماعة منهم إلى ذلك، على ما سنذكره في الشهر الآتي.

وفي مستهل ربيع الآخر كانت وفاة المعلم

■ داود، الذي كان مباشرا لنظارة الجيش، وأضيف إليه نظر الدواوين إلى آخر وقت، فاجتمع له هاتان الوظيفتان، ولم يجتمعا لأحد قبله كما في علمي، وكان من أخبر الناس بنظر الجيش، وأعلمهم بأسماء رجاله، ومواضع الإقطاعات، وقد كان والده نائبا لنظار الجيوش، وكان يهوديا قرائيا، فأسلم ولده هذا قبل وفاة نفسه بسنوات عشر أو نحوها، وقد كان ظاهره جيدا، والله أعلم بسره وسريرته، وقد تمرض قبل وفاته بشهر أو نحوه، حتى كانت وفاته في هذا اليوم، فصلي عليه بالجامع الأموي، تجاه النسر، بعد العصر، ثم حمل إلى تربة له، أعدها في بستانه بَجْوبر وله من العمر قريب الخمسين.

وفي أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطاني بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية، التي كان تقدم أخذها منهن، وإن كان الجميع ظلماً، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ في الظلم، والله أعلم.

وفي يوم الاثنين الخامس عشر منه، أمر نائب السلطنة أعزه الله بكبس بساتين أهل الذمة، فوجد فيها من الخمر المعتصر في الخوابي والحباب، فأريقت عن آخرها، ولله الحمد والمنة، بحيث جرت في الأزقة والطرقات، وفاض نهر ثورا من ذلك، وأمر بمصادرة أهل الذمة الذين وجد عندهم ذلك بمال جزيل، وهم تحت الجباية.

وبعد أيام نودي في البلد بأن نساء أهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات، بل تدخل حمامات تختص بهن، ومن دخل من أهل الذمة الرجال مع الرجال المسلمين، يكون في رقاب الكفار علامات يعرفون بها، من أجراس وخواتيم ونحو ذلك، وأمر نساء أهل الذمة بأن تلبس المرأة خفيها مخالفين في اللون، بأن يكون أحدهما أبيض، والآخر أصفر، أو نحو ذلك.

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر - أعني ربيع الآخر - طلب القضاة الثلاثة، وجماعة من المفتين: فمن ناحية الشافعي نائباه، وهما القاضي شمس الدين الغزي، والقاضي بدر الدين بن وهبة، والشيخ جمال الدين بن قاضي الزبداني، والمصنف الشيخ عماد الدين بن كثير، والشيخ بدر الدين حسن الزرعي، والشيخ تقي الدين الفارقي، ومن الجانب الآخر قاضيا القضاة جمال الدين المالكي، والحنبلي، والشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل الحنبلي، والشيخ جمال الدين بن الشريشي، والشيخ عز الدين بن حمزة ابن شيخ السلامية الحنبلي، وعماد الدين الأخنائي، فاجتمعت مع نائب السلطنة، بالقاعة التي في صدر إيوان دار السعادة، وجلس نائب السلطنة في صدر المكان، وجلسنا حوله، فكان أول ما قال: كنا نحن الترك

وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا، نجيء بالعلماء فيصلحون بيننا، فصرنا نحن إذا اختلفت العلماء واختصموا فمن يصلح بينهم؟.

وشرع في تأنيب من شنع على الشافعي، بما تقدم ذكره من تلك الأقوال والأفاعيل، التي كتبت في تلك الأوراق وغيرها، وأن هذا يشفي الأعداء بنا، وأشار بالصلح بين القضاة بعضهم من بعض، فصمم بعضهم وامتنع، وجرت مناقشات من بعض الحاضرين فيما بينهم، ثم حصل بحث في مسائل، ثم قال نائب السلطنة أخيرا: أما سمعتم قول اللّه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] فلانت القلوب عند ذلك وأمر كاتب السر أن يكتب مضمون ذلك في مطالعة إلى الديار المصرية، ثم خرجنا على ذلك انتهى واللّه أعلم.

عود قاضي القضاة السبكي إلى دمشق

في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى قدم من ناحية الكسوة، وقد تلقاه جماعة من الأعيان إلى الصنمين وما فوقها فلما وصل إلى الكسوة كثر الناس جدا، وقاربها قاضي قضاة الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج، فلما أشرف من عقبة سجورا تلقاه خلائق لا يحصون كثرة، وأشعلت الشموع حتى مع النساء والناس في سرور عظيم، فلما كان قريبا من الجسورة تلقته السناجق الخليفتية مع الجوامع والمؤذنون يكبرون، والناس في سرور عظيم، ولما قارب باب النصر وقع مطر عظيم، والناس معه لا تسعهم الطرقات، يدعون له، ويفرحون بقدومه، فدخل دار السعادة، وسلم على نائب السلطنة، ثم دخل الجامع بعد العصر، ومعه شموع كثيرة والرؤساء أكثر من العامة.

ولما كان يوم الجمعة ثاني شهر جمادى الآخرة ركب قاضي القضاة السبكي إلى دار السعادة، وقد استدعى نائب السلطنة بالقاضيين المالكي والحنبلي، فأصلح بينهم، وخرج من عنده ثلاثتهم يتماشون إلى الجامع، فدخلوا دار الخطابة، فاجتمعوا هناك، وضيفهما الشافعي، ثم حضروا خطبته الحافلة، البليغة الفصيحة، ثم خرجوا ثلاثتهم من جوًا إلى دار المالكي، فاجتمعوا هنالك، وضيفهم المالكي هنالك ما تيسر. واللّه الموفق للصواب.

وفي أوائل هذا الشهر وردت المراسيم الشريفة السلطانية من الديار المصرية بأن يجعل للأمير من إقطاعه النصف خاصاً له، وفي النصف الآخر يكون لأجناده فحصل بهذا رفق عظيم بالجند، وعدل كثير، وللّه الحمد، وأن يتجهز الأجناد، ويحرضوا على السبق، والرمي بالنشاب، وأن يكونوا مستعدين، متى استنفروا نفروا، فاستعدوا لذلك، وتأهبوا لقتال الفرنج، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠]. وثبت في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال على المنبر «ألا إن القوة الرمي» [م (١٩١٧)] وفي الحديث الآخر «ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا». [د (٢٥١٣)، ت (١٧٠٣)، ج (٢٨١١)]

وفي يوم الاثنين بعد الظهر عقد مجلس بدار السعادة، للكشف على قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الحنبلي، بمقتضى مرسوم شريف، ورد من الديار المصرية، بذلك، وذلك بسبب ما يعتمده كثير من شهود مجلسه، من بيع أوقاف لم يستوف فيها شرائط المذهب، وإثبات إعسارات أيضا كذلك، وغير ذلك، انتهى.

الوقعة بين الأمراء بالديار المصرية

وفي العشر الأخير من جمادى الآخرة ورد الخبر بأن الأمير الكبير يلبغا الخاصكي خرج عليه جماعة من الأمراء مع الأمير سيف الدين طيبغا الطويل، فبرز إليهم إلى قبة النصر، فالتقوا معه هنالك، فقتل جماعة، وجرح آخرين، وانفصل الحال على مسك طيبغا الطويل وهو جريح ومسك أرغون الإسعردي الدوادار، وخلق من أمراء الألوف والطبلخاناه، وجرت خبطة عظيمة، استمر فيها الأمير الكبير يلبغا على عزه وتأييده، ونصره وللّه الحمد والمنة.

وفي ثاني رجب يوم السبت توجه الأمير سيف الدين بيدمر الذي كان نائب دمشق إلى الديار المصرية، بطلب الأمير يلبغا، ليؤكد أمره في دخول البحر، لقتال الفرنج، وفتح قبرص إن شاء اللّه انتهى، واللّه تعالى أعلم.

مما يتعلق بأمر بغداد

أخبرني الشيخ عبد الرحمن البغدادي أحد رؤساء بغداد، وأصحاب التجارات، والشيخ شهاب الدين العطار السمسار في الشرب بغدادي أيضا أن بغداد استعادها أويس ملك العراق وخراسان من يد الطواشي مرجان، واستحضره، فأكرمه، وأطلق له، فاتفقا أن أصل الفتنة من الأمير أحمد، أخو الوزير، فأحضره السلطان إلى بين يديه، وضربه بسكين في كرشه فشقه، وأمر بعض الأمراء فقتله، فانتصر أهل السنة لذلك نصرة عظيمة، وأخذ خشبته أهل باب الأزج، فأحرقوه، وسكنت الأمور وتشفوا بمقتل الشيخ جمال الدين الأنباري، الذي قتله الوزير الرافضي، فأهلكه اللّه بعده سريعا، انتهى.

وفاة قاضي القضاة عز الدين

■ عبد العزيز بن حاتم الشافعي.

وفي العشر الأول من شهر شعبان قدم كتاب من الديار المصرية، بوفاة قاضي القضاة عز الدين بن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة بمكة شرفها اللّه، في العاشر من جمادى الآخرة، ودفن في الحادي عشر في باب المعلى وذكروا أنه توفي وهو يقرأ القرآن، وأخبرني صاحب الشيخ محيي الدين الرحبي حفظه اللّه تعالى أنه كان يقول كثيرا: أشتهي أن أموت وأنا معزول، وأن تكون وفاتي بأحد الحرمين، فأعطاه اللّه ما تمناه: عزل نفسه في السنة الماضية، وهاجر إلى مكة، ثم قدم المدينة لزيارة رسول اللّه ﷺ، ثم عاد إلى مكة، وكانت وفاته بها في الوقت المذكور، فرحمه اللّه وبل بالرحمة ثراه.

وقد كان مولده في سنة أربع وتسعين، فتوفي عن ثلاث وسبعين سنة، وقد نال العز في الدنيا، ورفعة هائلة، ومناصب، وتداريس كبار، ثم عزل نفسه، وتفرغ للعبادة، والمجاورة بالحرمين الشريفين، فيقال له ما قلته في بعض المراثي.

فكأنك قد أعلمت بالموت حتى ... قد تزودت من خيار الزاد

وحضر عندي في يوم الثلاثاء تاسع شوال البترك بشارة الملقب بميخائيل النصراني المَلَكي، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه، على أن جعلوه بتركا بدمشق، عوضا عن البترك بأنطاكية، فذكرت له أن هذا أمر مبتدع في دينهم، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة، بالإسكندرية، وبالقدس،

وبأنطاكية، وبرومية. فنقل بترك رومية إلى إسطنبول وهي القسطنطينية، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك، فهذا الذي ابتدعوه في هذا الوقت أعظم من ذلك، لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن أنطاكية وإنما أذن له في المقام بالشام الشريف، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم، إلى صاحب قبرص، يذكر له ما حل بهم من الخزي، والنكال والجناية، بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية، وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول، وقرأها على من لفظه، لعنه اللّه ولعن المكتوب إليهم أيضا، وقد تكلمت معه في دينهم، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاث، وهم الملكية، واليعقوبية، ومنهم الإفرنج والقبط، والنسطورية، فإذا هو يفهم بعض الشيء، ولكن حاصله أنه حمار، من أكفر الكفار لعنه اللّه.

وفي هذا الشهر بلغنا استعادة السلطان أويس ابن الشيخ حسن ملك العراق وخراسان لبغداد، من يد الطواشي مرجان، الذي كان نائبه عليهما، وامتنع من طاعة أويس، فجاء إليه في جحافل كثيرة، فهرب مرجان، ودخل أويس إلى بغداد دخولا هائلا، وكان يوما مشهودا.

وفي يوم السبت السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر من الديار المصرية على البريد أمير مائة مقدم ألف، وعلى نيابة يلبغا في جميع دواوينه بدمشق وغيرها، وعلى إمارة البحر، وعمل المراكب، فلما قدم أمر بجمع جميع النشارين والنجارين، والحدادين، وتجهيزهم لبيروت لقطع الأخشاب، فسيروا يوم الأربعاء ثاني رمضان، وهو عازم على اللحاق بهم إلى هنالك، وباللّه المستعان.

ثم أتبعوا بآخرين من نجارين وحدادين وعتالين وغير ذلك، وجعلوا كل من وجدوه من ركاب الحمير ينزلونه، ويركبوا إلى ناحية البقاع، وسخروا لهم من الصناع وغيرهم، وجرت خبطة عظيمة، وتباكى عوائلهم وأطفالهم، ولم يسلفوا شيئا من أجورهم، وكان من اللائق أن يسلفوه حتى يتركوه إلى أولادهم.

وخطب برهان الدين المقدسي الحنفي بجامع يلبغا، عوضاً عن تقي الدين ابن قاضي القضاة شرف الدين الكفري، بمرسوم شريف، ومرسوم نائب صفد أسندمر أخي يلبغا، وشق ذلك عليه وعلى جده وجماعتهم، وذلك يوم الجمعة، الرابع من رمضان، هذا وحضر عنده خلق كثير.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين منه، قرئ تقليد قاضي القضاة شرف الدين ابن قاضي الجبل لقضاء الحنابلة، عوضا عن قاضي القضاة جمال الدين المرداوي، عزل هو والمالكي معه أيضا، بسبب أمور تقدم نسبتها لهما، وقرئ التقليد بمحراب الحنابلة، وحضر عنده الشافعي والحنفي، وكان المالكي معتكفا بالقاعة من المنارة الغربية، فلم يخرج إليهم، لأنه معزول أيضا بسَرِيِّ الدين قاضي حماة، وقد وقعت شرور وتخبيط بالصالحية وغيرها.

وفي صبيحة يوم الأربعاء الثلاثين من شهر رمضان خلع على قاضي القضاة سري الدين إسماعيل المالكي، قدم من حماة على قضاء المالكية، عوضا عن قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي، عزل عن المنصب، وقرئ تقليده بمقصورة المالكية من الجامع، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفي صبيحة يوم الأربعاء سابع شوال قدم الأمير حيار بن مهنا إلى دمشق سامعا مطيعا، بعد أن جرت بينه وبين الجيوش حروب متطاولة، كل ذلك ليطأ البساط، فأبى خوفا من المسك والحبس أو القتل، فبعد ذلك كله قدم هذا اليوم قاصدا الديار المصرية، ليصطلح مع الأمير الكبير يلبغا، فتلقاه الحجبة والمهمندارية والخلق، وخرج الناس للفرجة، فنزل القصر الأبلق، وقدم معه نائب حماة عمر شاه، فنزل معه، وخرج معه ثاني يوم إلى الديار المصرية.

وأقرأني القاضي ولي الدين عبد اللّه وكيل بيت المال كتاب والده قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، أن الأمير الكبير جدد درسا بجامع ابن طولون، فيه سبعة مدرسين للحنفية، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر أربعين درهما، وإردب قمح، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية انتقلوا إلى مذهب أبي حنيفة، ليتزلوا في هذا الدرس.

درس التفسير بالجامع الأموي

وفي صبيحة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال، سنة سبع وستين وسبعمائة، حضر الشيخ العلامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير، الذي أنشاه ملك الأمراء، نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلي بغا رحمه اللّه تعالى من أوقاف الجامع، الذي جددها في حال نظره عليه أثابه اللّه، وجعل من الطلبة من سائر المذاهب خمسة عشر طالبا، لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون، ولكاتب الغيبة عشرون، وللمدرس ثمانون، وتصدق حين دعوته لحضور الدرس، فحضر، واجتمع القضاة والأعيان، وأخذت في أول تفسير الفاتحة، وكان يوما مشهودا، وللّه الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة انتهى.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وسبع مئَة

استهلّت وقاضي قضاة الحنابلة الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن ابن قاضي الجبل المقدسي، وناظر الدواوين سعد الدين بن التاج إسحاق، وكاتب السر فتح الدين بن الشهيد، وهو شيخ الشيوخ أيضا، وناظر الجيوش الشامية برهان الدين بن الحلبي، ووكيل بيت المال القاضي ولي الدين ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء انتهى.

سفر نائب السلطنة إلى الديار المصرية

لما كانت ليلة الحادي والعشرين قدم طشتمر دوادار يلبغا على البريد، فنزل بدار السعادة، ثم ركب هو ونائب السلطنة بعد العشاء الأخيرة في المشاعل، والحجبة بين أيديهما، والخلائق يدعون لنائبهم، واستمروا كذلك ذاهبين إلى الديار المصرية، فأكرمه يلبغا، وأنعم عليه، وسأله أن يكون ببلاد حلب، فأجابه إلى ذلك، وعاد فنزل بدار سنجر الإسماعيلي، وارتحل منها إلى حلب، وقد اجتمعت به هنالك، وتأسف الناس عليه، وناب في الغيبة الأمير سيف الدين زبالة، إلى أن قدم النائب المعز السيفي أقتمر عبد الغني على ما سيأتي.

وتوفي القاضي

■ شمس الدين بن منصور الحنفي، الذي كان نائب الحكم رحمه اللّه، يوم السبت السادس والعشرين من المحرم، ودفن بالباب الصغير، وقد قارب الثمانين.

وفي هذا اليوم أو الذي بعده توفي القاضي شهاب الدين

■ أحمد ابن الوزوازة ناظر الأوقاف بالصالحية.

وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث صفر نودي في البلد أن لا يتخلف أحد من أجناد الحلقة عن النفير إلى بيروت، فاجتمع الناس لذلك، فبادر الناس

والجيش ملبسين إلى سطح المزة، وخرج ملك الأمراء أمير علي، نائب الشام من داره داخل باب الجابية في جماعته، ملبسين في هيئة حسنة، وتجمل هائل، وولده الأمير ناصر الدين محمد، وطلبه معه، وقد جاء نائب الغيبة والحجبة إلى بين يديه إلى وطاقه، وشاوروه في الأمر، فقال: ليس لي هاهنا أمر، ولكن إذا حضر الحرب والقتال فلي هناك أمر.

وخرج خلق من الناس متبرعين، وخطب قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالناس يوم الجمعة على العادة، وحرض الناس على الجهاد، وقد ألبس جماعة من غلمانه اللأمة والخوذ، وهو على عزم المسير مع الناس إلى بيروت، ولله الحمد والمنة.

ولما كان من آخر النهار رجع الناس إلى منازلهم، وقد ورد الخبر بأن المراكب التي رؤيت في البحر إنما هي مراكب تجار لا مراكب قتال، فطابت قلوب الناس، ولكن ظهر منهم استعداد عظيم، ولله الحمد.

وفي ليلة الأحد خامس صفر قدم بالأمير سيف الدين شرشي، الذي كان إلى آخر وقت نائب حلب، محتاطا عليه بعد العشاء الآخرة، إلى دار السعادة بدمشق، فسير معزولا عن حلب إلى طرابلس بطالا، وبعث في سرجين صحبة الأمير علاء الدين بن صبح.

وبلغنا وفاة الشيخ

■ جمال الدين بن نباتة حامل لواء شعراء زمانه بديار مصر بمرستان الملك المنصور قلاوون، وذلك يوم الثلاثاء سابع صفر من هذه السنة رحمه الله تعالى.

وفي ليلة الأربعاء ثامنه هرب أهل حبس السد من سجنهم وخرج أكثرهم فأرسل الولاة صبيحة يومئذ في أثرهم فمسك كثير ممن هرب فضربوهم أشد الضرب، وردوهم إلى شر المنقلب.

وفي يوم الأربعاء خامس عشره نودي بالبلدان أن لا يعامل الفرنج البنادقة والجنوية والكتيلان.

واجتمعت في آخر هذا اليوم بالأمير زين الدين زبالة، نائب الغيبة، النازل بدار الذهب، فأخبرني أن البريدي أخبره أن صاحب قبرص رأى في النجوم أن قبرص مأخوذة، فجهز مركبين من الأسرى الذين عنده من المسلمين إلى يلبغا؛ ونادى في بلاده أن من كتم مسلما صغيرا أو كبيرا قتل، وكان من عزمه أن لا يبقي أحدا من الأسارى إلا أرسله.

وفي آخر نهار الأربعاء خامس عشره قدم من الديار المصرية قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي المالكي، الذي كان قاضي المالكية، فعزل في أواخر رمضان من العام الماضي، فحج، ثم قصد الديار المصرية، فدخلها لعله يستغيث، فلم يصادفه قبول، فادعى عليه بعض الحجاب، وحصل له بعض ما يسوؤه، ثم خرج إلى الشام، فجاء فنزل في التربة الكاملية شمالي الجامع، ثم انتقل إلى منزل ابنته متمرضاً، والطلابات والدعاوى والمصالحات عنه كثيرة جدا، فأحسن الله عاقبته.

وفي يوم الأحد بعد العصر دخل الأمير سيف الدين طيبغا الطويل من القدس الشريف إلى دمشق، فنزل بالقصر الأبلق، ورحل بعد يومين أو ثلاثة إلى نيابة حماة حرسها الله، بتقليد من الديار المصرية.

وجاءت الأخبار بتولية الأمير سيف الدين منكلي بغا نيابة حلب، عوضا عن نيابة دمشق، وأنه حصل له من التشريف والتكريم والتشاريف بديار مصر شيء كثير، ومال جزيل، وخيول، وأقمشة، وتحف يشق حصرها، وأنه قد استقر بدمشق الأمير سيف الدين أقتمر عبد الغني، الذي كان حاجب الحجاب بمصر، وعوض عنه في الحجوبية الأمير علاء الدين طيبغا، أستاذ دار يلبغا، وخلع على الثلاثة في يوم واحد.

وفي يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول اشتهر في البلد قضية الفرنج أيضا بمدينة الإسكندرية، وقدم بريدي من الديار المصرية بذلك، واحتيط على من كان بدمشق من الفرنج، وسجنوا بالقلعة، وأخذت حواصلهم، وأخبرني قاضي القضاة تاج الدين الشافعي يومئذ أن أصل ذلك أن سبعة مراكب من التجار من البنادقة من الفرنج قدموا إلى الإسكندرية، فباعوا بها واشتروا، وبلغ الخبر إلى الأمير الكبير يلبغا أن مركبا من هذه السبعة إلى صاحب قبرص، فأرسل إلى الفرنج يقول لهم: أن يسلموا هذا المركب، فامتنعوا من ذلك، وبادروا إلى مراكبهم، فأرسل في آثارهم ستة شواني مشحونة بالمقاتلة، فالتقوا هم والفرنج في البحر، فقتل من الفريقين خلق، ولكن من الفرنج أكثر، وهربوا فارين بما معهم من البضائع.

فجاء الأمير علي الذي كان نائب دمشق أيضا في جيش مبارك، ومعه ولده ومماليكه، في تجمل هائل، فرجع الأمير علي، واستمر نائب السلطنة، حتى وقف على بيروت، ونظر في أمرها، وعاد سريعا، وقد بلغني أن الفرنج جاؤوا طرابلس غزاة، وأخذوا مركبا للمسلمين من المينا وحرقوه، والناس ينظرون، ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم، وأن الفرنج كروا راجعين، وقد أسروا ثلاثة من المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، انتهى، والله أعلم.

مقتل يلبغا الأمير الكبير

■ (يلبغا).

جاء الخبر بقتله إلينا بدمشق، في ليلة الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر، مع أسيرين جاءا على البريد من الديار المصرية، فأخبرا بمقتله في يوم الأربعاء، ثاني عشر هذا الشهر: تمالأ عليه مماليكه حتى قتلوه يومئذ، وتغيرت الدولة، ومسك من أمراء الألوف والطبلخاناه جماعة كثيرة واختبطت الأمور جدا، وجرت أحوال صعبة، وقام بأعباء القضية الأمير سيف الدين طغيتمر النظامي، وقوي جانب السلطان ورشد، وفرح أكثر الأمراء بمصر بما وقع، وقدم نائب السلطنة إلى دمشق من بيروت، فأمر بدق البشائر، وتزيين البلد، ففعل ذلك، وأطلقت الفرنج الذين كانوا بالقلعة المنصورة، فلم يهن ذلك على الناس.

وهذا آخر ما وجد من التاريخ، والحمد لله وحده، وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام المترجمين

المحتويات

٥- كتاب سيرة رسول الله ﷺ ٣١٩

٦- كتاب زوجات النبي ﷺ وخواصّه ٨٣١

٧- كتابُ شمائل النبي ﷺ ٨٦٢